الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد التاسع والثلاثون

الاجزاء من ٧٧٠ الى ٧٩٢

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
770	سورة الطلاق	الآية 8 الى الآية 12	2
771	سورة التحريم	فصول مهمة	570
772	=	الآية 1 الى الآية 9	704
773	=	الآية 10 الى الآية 12	998
774	سورة الملك	فصول مهمة	1462
775	=	الآية 19 الى الآية 30	2132
776	سورة القلم	فصول مهمة	2633
777	=	الآية 8 الى الآية 47	3033
778	=	الآية 48 الى الآية 52	3351
779	سورة الحاقة	فصول مهمة	3981
780	=	الآية 38 الى الآية 52	4335
781	سورة المعارج	فصول مهمة	4793
782	=	الآية 36 الى الآية 44	5118
783	سورة نوح	فصول مهمة	5562
784	=	الآية 26 الى الآية 28	5861
785	سورة الجن	فصول مهمة	6172
786	=	الآية 19 الى الآية 28	6555
787	سورة المزمل	فصول مهمة	7178
788	=	الآية 1 الى الآية 19	7343
789	=	الآية 20	7676
790	سورة المدثر "صلى الله عليه وسلم"	فصول مهمة	8124
791	=	الآية 1 الى الآية 56	8473
792	سورة القيامة	فصول مهمة	9137

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 8 ﴾ من (سورة الطلاق)

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ آخر السورة

(4/770)

قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الأمر قد بلغ النهاية في الأحكام والمواعظ والترغيب لمن أطاع ، فلم يبق إلا التهديد لمن عصى بما شوهد من المثلات وبالغ العقوبات ، فإن من الناس البليد الذي لا يتعظ بما يرى

، وكان التقدير : فكأي من ناس كانوا في غاية الضيق فأطاعوا أوامرنا فجعلناهم في غاية السعة بل جعلناهم ملوكاً ، عطف عليه تزهيداً في الرفاهية بأنها تطغى في الأغلب ، وتهديداً لأهل المعاصي قوله مفيداً لكثرة القرى الخارجة عن الحد : ﴿ وكأين من قرية ﴾ أي مدينة كبيرة جامعة ، عبر عن أهلها بها مبالغة ﴿ عتت ﴾ أي استكبرت وجاوزت الحد في عصيانها وطغيانها فأعرضت عناداً ﴿ عن أمر ربها ﴾ أي الذي أحسن إليها ولا محسن إليها غيره بكثرة الرزق وطيب العيش واللطف في التربية والرحمة بعد الإيجاد والملك ﴿ ورسله ﴾ فلم يقبل منهم ما جاؤوها به عن الله ، فإن طاعتهم من طاعة الله . ولما كانت محاسبة مثل هؤلاء للإهلاك لأن الحساب هو ذكر الأعمال والمجازاة عليها بما يحق لكل منها ، قال ملتفتاً إلى مقام التكلم في مظهر العظمة : ﴿ فحاسبناها ﴾ أي فتسبب عن عدم شكرهم للإحسان أن أحصينا أعمالها .

(5/770)

ولما كان ذلك على وجه المناقشة على النقير والقطمير بالمجازاة على كل فعل بما يليق به قال : ﴿ حساباً شديداً ﴾ بمعناه المطابقي من ذكر الأعمال كلها والمجازاة عليها ، وهذا هو المناقشة وهي أن العامل إذا أثر أثراً بعمله هو كالنقش في الجامد أثر المجازي له فيه أثراً

بحسب عمله على سبيل الاستقصاء ، وأما الحساب اليسير فهو عرض الأعمال فقط من غير جزاء على قبيحها فهو دلالة تضمن ، وإنما شدد على هذه القرية لأن إعراضها كان كذلك بما نبه عليه تسميته عتواً ﴿ وعذبناها ﴾ أي في الدنيا جزاء على ما أحصيناه من ذنوبها ﴿ عذاباً نكراً ﴾ أي شديد النكارة لأن العقل يحير في أمره لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبره به ، وأزال ذكر الكثرة شبهة أن يكون الإهلاك وقع اتفاقاً في وقت من الأوقات ﴿ فذاقت ﴾ بسبب ذلك بعد ما كان لها من الكثرة والقوة ﴿ وبال ﴾ أي وخامة وعقوبة وشدة وثقل وفساد ﴿ أمرها ﴾ أي في العتو وجميع ما كانت تأتمر فيه ، مثله بالمرعى الوخيم الذي يمرض ويهلك .

ولما كان كل مقهور إنما يسلي نفسه بانتظار الفرج ورجاء العاقبة ، أيأس من ذلك مذكراً للفعل إشارة إلى الشدة بقوله : ﴿ وكان عاقبة ﴾ أي آخر ومنتهى وعقيب ﴿ أمرها ﴾ أي في جميع عملها الذي كانت فيه ﴿ خسراً ﴾ أي نفس الخسر في الدارين ، فكلما امتد الأمر وجدوه أمامهم فإن من زرع الشوك كما قال القشيري لا يجني الورد ، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حظ نفسه ، ومن احترق بمخالفة أمر الله تعالى فليصبر على مقاساة عقوبة الله تعالى ، ثم فسر الخسر أو استأنف الجواب لمن يقول : هل لها غير هذا في هذه الدار ، بقوله : ﴿ أعد الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لهم ﴾ بعد الموت وبعد البعث ﴿ عذاباً شديداً ﴾ .

ولما تمت الأحكام ودلائلها ، وأحكمت الآيات وفواصلها ، والتهديدات وغوائلها ، كانت فذلكتها وثمرة سياقها وموعظتها ما تسبب عن ذلك من قوله تعالى تنبيهاً على ما يحيي الحياة الطيبة وينجي في الدارين : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ولما كان في تخليص المواعظ من الأحكام واستثمارها من فواصل هذا الكلام أمر عظيم هو من الرقة بمكان لا يبصره إلا ذوو الأفهام قال تعالى : ﴿ يا أولي الألباب ﴾ أي العقول الصافية النافذة من الظواهر إلى البواطن ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي خلصوا من دائرة الشرك وأوجدوا الإيمان حقيقة ، ثم علل هذا الأمر بما أزال العذر فقال تنبيهاً على ما من علينا به من المراسلة فإن مراسلات الأكابر فخر فكيف بمراسلات الملوك فكيف بمراسلة ملك الملوك حثاً بذلك على شكره : ﴿ قد أنزل الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ إليكم ﴾ خاصة ﴿ ذكراً ﴾ أي كاملاً مذكوراً فيه غاية الشرف لكل من يقبله بل تشرفت الأرض كلها بنزوله ورفع عنها العذاب وعمها النور والصواب لأن فيه تبيان كل شيء ، فمن استضاء بنوره اهتدى ، ومن لجأ إلى برد أفنائه وصل من داء الجهل إلى

شفائه .

ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صورة سورة القرآن ، فالقرآن باطنه وهو ظاهره لأنه خلقه لا قول له ولا فعل إلا به ، فكان كأنه هو ، أبدل منه قوله : ﴿ رسولاً ﴾ على أن الأمر فيه غني عن تأويل ، فإن الذكر بكسر الذال في اللغة كما في القاموس من الرجال القوي الشجاع الأبي ، ثم بين كونه ذكراً بقوله : ﴿ يتلوا ﴾ أي يتابع أن يقص ﴿ عليكم آيات الله ﴾ أي دلائل الملك الأعظم ذي الجلال والإكرام الظاهر جداً حال كونها ﴿ مبينات ﴾ أي لا لبس فيها بوجه .

(7/770)

ولما تبين أن الذكر والرسول صارا شيئاً واحداً ، وعلم ما في هذه المراسلة من الشرف ، أتبع ذلك بيان شرف آخر ببيان ثمرة إنزاله فقال : ﴿ ليخرج الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالشهادتين ﴿ وعملوا ﴾ تصيدقاً لما قالوه بألسنتهم وتحقيقاً لأنه من قلوبهم ﴿ الصالحات ﴾ من الأعمال ﴿ من الظلمات ﴾ أي النفسانية والأخلاق الرذيلة المؤدية إلى ظلمة الجوارح بعملها الظلم وانتشارها في السبل الشيطانية ﴿ إلى النور ﴾ الروحاني العقيلي الخالص الذي لا دنس فيه بسلوك صراط الله الذي هو واحد لا شتات فيه وبين لا

لبس فيه ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ [الأنعام : 153] كما بادروا إلى إخراج أنفسهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن فساد الأعمال الصالحة إلى سداد الأعمال الصالحة ، وذلك بأن يصيرهم متخلقين بالقرآن ليكونوا مظهراً له في حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم فيكونوا ذكراً .

ولما كان التقدير : فمن آمن بالله وعمل صالحاً شاهد بركات ذلك في نفسه عاجلاً ، عطف عليه بياناً لسعادة الآجلة قوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي يجدد في كل وقت على الدوام الإيمان بالملك الأعلى بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه ﴿ ويعمل ﴾ على التجديد المستمر ﴿ صالحاً ﴾ لله وفي الله فله دوام النعماء ، وهو معنى إدخاله الجنة ، ولما كان قد تقدم قريباً في آية التقوى أنه يكفر عنه سيئاته ، قال شارحاً لقوله : ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ [الطلاق : 5] : ﴿ يدخله ﴾ أي عاجلاً مجازاً بما يتيح له من لذات العرفان ويفتح له من الأنس آجلاً حقيقة ﴿ جنات ﴾ أي بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الأشجار وحسن الدار ، وبين دوام ريها بقوله : ﴿ تجري ﴾ وبين انكشاف كثير من أرضها بقوله : ﴿ من تحتها ﴾ أي تحت غرفها ﴿ الأنهار ﴾ أو هو كناية عن أن أرضها في غاية الري بحيث إن ساكنها يجري في أي موضع أراد نهراً ، وإلى زيادة عظمتها أشارت قراءة نافع وابن عامر بنون العظمة .

ولما أفرد الشرط والجزاء إجراء على لفظ " من " إشارة إلى أنه لا يشترط في الإيمان ولا في جزائه مشاركة أحد ، وأنه لا توقف للقبول على شيء غير الوصف المذكور ، جمع الحال بشارة بأن الداخلين كثير ، وأن الداخل إلى دار الكرامة لا يحصل له هوان بعد ذلك أصلاً فقال : ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد معنى الخلود ليفهم الدوام بلا انقضاء فقال : ﴿ أبداً ﴾ ولما أعلم أن الخلود لكل الداخلين إلى الجنة رجع إلى الأسلوب الأول تنصيصاً على كل فرد إبلاغاً في عظمة هذا الجزاء بقوله نتيجة لذلك ، منبهاً على أن هذه النتيجة من حقها أن يتوقع قولها من كل من سمع هذه البشرى : ﴿ قد أحسن الله ﴾ أي الملك الأعلى ذو الجلال والإكرام ﴿ له ﴾ أي خاصة ﴿ رزقاً ﴾ أي عظيماً عجيباً ، قال القشيري : الرزق الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه ، كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها عن غير نقصان ولا يتعذب بتعطشه ولا يكون زيادة فيكون على خطر من مغاليط لا يخرج منها إلا بتأييد من الله سماوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 39.36 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾

الكلام في كأين قد مر ، وقوله : ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ وصف القرية بالعتو والمراد أهلها ، كقوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] قال ابن عباس : ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي أعرضت عنه ، وقال مقاتل : خالفت أمر ربها ، وخالفت رسله ، فحاسبناها حساباً شديداً ، فحاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها العذاب ، وهو قوله : ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً ، فسر المحاسبة بالتعذيب .

وقال الكلبي : هذا على التقديم والتأخير ، يعني فعذبناها في الدنيا وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ، والمراد حساب الآخرة وعذابها ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي شدة أمرها وعقوبة كفرها .

وقال ابن عباس : عاقبة كفرها ﴿ وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي عاقبة عتوها خساراً في الآخرة ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يخوف كفار مكة أن يكذبوا محمداً فينزل بهم ما نزل بالأمم قبلهم ، وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ياأولى الألباب ﴾ خطاب لأهل الإيمان ، أي فاتقوا الله عن أن تكفروا به وبرسوله ، وقوله : ﴿ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً

* رَسُولاً ﴾ هو على وجهين أحدهما : أنزل الله إليكم ذكراً ، هو الرسول ، وإنما سماه ذكراً لأنه يذكر ما يرجع إلى دينهم وعقباهم وثانيهما : أنزل الله إليكم ذكراً ، وأرسل رسولاً .

(10/770)

وقال في "الكشاف" : ﴿ رَّسُولاً ﴾ هو جبريل عليه السلام ، أبدل من ﴿ ذِكْراً ﴾ لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، والذكر قد يراد به الشرف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقد يراد به القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ [النحل : 44] وقرىء (رسول) على هو رسول ، و ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءايات الله مبينات ﴾ بالخفض والنصب ، والآيات هي الحجج فبالخفض ، لأنها تبين الأمر والنبي والحلال والحرام ، ومن نصب يريد أنه تعالى أوضح آياته وبينها أنها من عنده .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الشبهة إلى نور الحجة ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم .

وفي الآية مباحث :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ يتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أم لا ؟ فنقول : قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ يؤكد قول من قال : المراد من قرية أهلها ، لما أنه يدل على أن خطاب الله تعالى لا يكون إلا لذوي العقول فمن لا عقل له فلا خطاب عليه ، وقيل قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ مشتمل على الترهيب والترغيب .

الثاني : الإيمان هو التقوى في الحقيقة وأولوا الألباب الذين آمنوا كانوا من المتقدمين بالضرورة فكيف يقال لهم : ﴿ فاتقوا الله ﴾ ؟ نقول : للتقوى درجات ومراتب فالدرجة الأولى هي التقوى من الشرك والبواقي هي التقوى من المعاصي التي هي غير الشرك فأهل الإيمان إذا أمروا بالتقوى كان ذلك الأمر بالنسبة إلى الكبائر والصغائر لا بالنسبة إلى الشرك .

(11/770)

الثالث : كل من آمن بالله فقد خرج من الظلمات إلى النور وإذا كان كذلك فحق هذا الكلام وهو قوله تعالى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ ﴾ أن يقال : ليخرج الذين كفروا ؟ نقول : يمكن أن يكون المراد : ليخرج الذين يؤمنون على ما جاز أن يراد من الماضي المستقبل كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ الله يا عيسى ﴾ [آل عمران : 55] أي وإذ يقول الله ، ويمكن أن يكون

ليخرج الذين آمنوا من ظلمات تحدث لهم بعد إيمانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ .

قوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب ، وقرىء ﴿ يُدْخِلْهُ ﴾ بالياء والنون ، و ﴿ قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ قال الزجاج : رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، وقيل : ﴿ رِزْقاً ﴾ أي طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة ونظيره ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا فِى الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار ﴾ [البقرة : 201] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 34 . 36 ﴾

(12/770)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾

لما ذكر الأحكام ذكر وحذّر مخالفة الأمر ، وذكر عُتُوّ قوم وحلول العذاب بهم .

وقد مضى القول في "كأين" في "آل عمران" والحمد الله .

﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي عصت ؛ يعني القرية والمراد أهلها .

﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي جازيناها بالعذاب في الدنيا ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ﴾ في الآخرة.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ فعذبناها عذاباً نُكْرا في الدنيا بالجوع والقَحْط والسيف والخَسْف والمَسْخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حساباً شَديداً.

والنُّكْر: المنكر.

وقرىء مُخَفَّفاً ومُثَقَّلاً؛ وقد مضى في سورة "الكهف".

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي عاقبة كفرها ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي هلاكاً في الدنيا بما ذكرنا، والآخرة بجهنم.

وجيء بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار ﴾ [الأعراف: 44] ونحو ذلك؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقىً في الحقيقة؛ وما هو كائن فكأن قَد.

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ بيّن ذلك الخُسر وأنه عذاب جهنم في الآخرة.

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي العقول.

﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ بدل من "أُولِي الأَلْبَاب" أو نعت لهم؛ أي يا أُولي الألباب الذين آمنتم بالله اتقوا الله الذي أنزل عليكم القرآن؛ أي خافوه واعملوا بطاعته وانتهوا عن معاصيه.

وقد تقدم.

﴿ رَّسُولاً ﴾ قال الزجاج: إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل؛ أي أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً.

وقيل: إن المعنى قد أنزل الله إليكم صاحب ذكر رسولاً؛ ف "رسولاً" نعت للذكر على تقدير حذف المضاف.

وقيل: إن رسولاً معمول للذكر لأنه مصدر؛ والتقدير: قد أنزل الله إليكم رسولاً.

ويكون ذكره الرسول قوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ [الفتح: 29].

(13/770)

ويجوز أن يكون "رَسُولاً" بدلا من ذكر، على أن يكون "رَسُولاً" بمعنى رسالة، أو على أن يكون على بابه ويكون محمولا على المعنى، كأنه قال: قد أظهر الله لكم ذكراً رسولاً، فيكون من باب بدل الشيء من الشيء وهو هو.

ويجوز أن ينتصب "رَسُولاً" على الإغراء كأنه قال: اتبعوا رسولاً.

وقيل: الذكر هنا الشرف، نحو قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء: 10]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: 44]، ثم بيّن هذا الشرف فقال: "رَسُولاً".

والأكثر على أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الكلبيّ : هو جبريل ، فيكونان جميعاً منزلين .

﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله ﴾ نعت لرسول .

و"آيَاتِ الله" القرآن .

﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قراءة العامة بفتح الياء ؛ أي بيّنها الله .

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسرها ، أي يبيّن لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام .

والأولى قراءة ابن عباس واختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، لقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ .

﴿ لِّيُخْرِجَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي من سبق له ذلك في علم الله .

﴿ مِنَ الظلمات ﴾ أي من الكفر .

﴿ إِلَى النور ﴾ الهدى والإيمان .

قال ابن عباس : نزلت في مؤمني أهل الكتاب .

وأضاف الإخراج إلى الرسول لأن الإيمان يحصل منه بطاعته .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ .

قرأ نافع وابن عامر بالنون ، والباقون بالياء .

﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ أي وسّع الله له في الجنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(14/770)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾

أي كثير من أهل قرية .

وقرأ ابن كثير وكائن بالمد والهمزة ، وتفصيل الكلام فيها قد مر ﴿ عَتَتْ ﴾ تجبرت وتكبرت معرضة ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ فلم تمتثل ذلك ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كل نقير من الذنوب وقطمير ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي منكراً عظيماً ، والمراد حساب الآخرة وعذابها ، والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحققهما كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ [الكهف : 99] ﴾ .

وقرأ غير واحد ﴿ نُّكْراً ﴾ بضمتين .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ عقوبة عتوها ﴿ وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ هائلاً لا خسر

وراءه.

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها بقوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله ياأولى الألباب ﴾ كأنه قيل: أعد الله تعالى لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك يا أولى الألباب داعياً لتقوى الله تعالى وحذر عقابه، وقال الكلبي: الكلام على التقديم والتأخير، والمراد ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر المصائب والبلايا ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ في الآخرة.

(15/770)

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ﴾ الخ عليه تكرير للوعيد أيضاً، وجوز أن يراد بالحساب الشديد استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحائف الحفظة، وبالعذاب النكر ما أصابهم عاجلاً، وتجعل جملة ﴿ عَتَتْ ﴾ الخ صفة لقرية، والماضي في ﴿ فحاسبناها وعذبناها ﴾ على الحقيقة، وخبر ﴿ كأين ﴾ جملة ﴿ أَعَدَّ الله ﴾ الخ، أو تجعل جملة ﴿ عَتَتْ ﴾ [الطلاق: 8] الخ هي الخبر، وجملة ﴿ أَعَدَّ الله ﴾ الخ استئناف لبيان أن عذابهم غير منحصر فيما ذكر بل لهم بعده عذاب شديد، وقوله تعالى: ﴿ الذين ءامَنُواْ ﴾ منصوب باضمار أعني بياناً للمنادى السابق أو نعت له أو عطف بيان، وفي إبداله منه

ضعف لعدم صحة حلوله محله ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم عبر به عنه لمواظبته عليه الصلاة والسلام على تلاوة القرآن الذي هو ذكر ، أو تبليغه والتذكير به ، وقوله تعالى :

﴿ رَسُولاً ﴾ بدلاً منه ؛ وعبر عن إرساله بالإنزال ترشيحاً للمجاز ، أو لأن الإرسال مسبب عنه فيكون ﴿ أَنزَلَ ﴾ [الطلاق : 10] مجازاً مرسلاً ، وقال أبو حيان : الظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فإما أن يجعل نفس الذكر مجازاً .

أو يكون بدلاً على حذف مضاف أي ذكر رسول ، وقيل : هو نعت على حذف ذلك أي ذا رسول ، وقيل : المضاف محذوف من الأول أي ذا ذكر ﴿ رَسُولاً ﴾ فيكون ﴿ رَسُولاً ﴾ نعتاً لذلك المحذوف أو بدلاً ، وقيل : ﴿ رَسُولاً ﴾ منصوب بمقدر مثل أرسل رسولاً دل عليه أنزل ، ونحا إلى هذا السدي ، واختاره ابن عطية ، وقال الزجاج .

وأبو علي : يجوز أن يكون معمولاً للمصدر الذي هو ذكر كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 ، 15] ، وقول الشاعر

: بضرب بالسيوف رؤوس قوم . . .

أزلنا هامهن عن المقيل

أي ﴿ أَنزَلَ اللهُ ﴾ تعالى ذكره ﴿ رَسُولاً ﴾ على معنى أنزل الله عز وجل ما يدل على كرامته عنده وزلفاه ، ويراد به على ما قيل : القرآن وفيه تعسف ، ومثله جعل ﴿ رَسُولاً ﴾ بدلاً منه على أنه بمعنى الرسالة ، وقال الكلبي : الرسول ههنا جبريل عليه السلام ، وجعل بدلاً أيضاً من ﴿ ذِكْراً ﴾ [الطلاق : 10] وإطلاق الذكر عليه لكثرة ذكره فهو من الوصف بالمصدر مبالغة كرجل عدل أو لنزوله بالذكر وهو القرآن ، فبينهما ملابسة نحو الحلول ، أو لأنه عليه السلام مذكور في السماوات وفي الأمم ، فالمصدر بمعنى المفعول كما في درهم ضرب الأمير ، وقد يفسر الذكر حينئذ بالشرف كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] فيكون كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله عز وجل كقوله تعالى : ﴿ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] وفي "الكشف" إذا أريد بالذكر القرآن وبالرسول جبريل عليه السلام يكون البدل بدل اشتمال ، وإذا أريد بالذكر الشرف وغيره يكون من بدل الكل فتدبر .

(17/770)

وقرىء رسول على إضمار هو ، وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءايات الله مبينات ﴾ نعت لرسولاً وهو الظاهر ، وقيل : حال من اسم ﴿ الله ﴾ تعالى ، ونسبة التلاوة إليه سبحانه مجازية كبني الأمير المدينة ، و ﴿ الله إِلاَّ ﴾ القرآن ، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر على أحد الأوجه ، و ﴿ مبينات ﴾ حال منها أي حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ، وقرىء ﴿ مبينات ﴾ أي بينها الله تعالى كقوله سبحانه : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ [آل عمران : 118] واللام في قوله تعالى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ متعلق بأنزل أو بيتلو وفاعل يخرج على الثاني ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام أو ضمريه عز وجل ، والمراد بالموصول المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية ؛ أو من علم سبحانه وقدر أنه سيؤمن أي ليحصل لهم الرسول أو الله عز وجل ما هم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح ، أو ليخرج من علم وقدر أنه يؤمن من أنواع الضلالات إلى الهدى ، فالمضي إما بالنظر لنزول هذه الآية أو باعتبار علمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلي .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ حسبما بين في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات .

﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وقرأ نافع .

وابن عامر ندخله بنون العظمة وقوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ حال من مفعول ﴿ يُدْخِلْهُ ﴾ والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها ، وقوله

تعالى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ حال أخرى منه أو من الضمير في ﴿ خالدين ﴾ بطريق التداخل ، وإفراد ضمير ﴿ لَهُ ﴾ باعتبار اللفظ أيضاً ، وفيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزقه الله تعالى المؤمنين من الثواب وإلا لم يكن في الأخبار بما ذكر ههنا كثير فائدة كما لا يخفى .

(18/770)

واستدل أكثر النحويين بهذه الآية على جواز مراعاة اللفظ أولاً .

ثم مراعات المعنى .

ثم مراعات اللفظ ، وزعم بعضهم أن ما فيها ليس كما ذكر لأن الضمير في ﴿ خالدين ﴾ ليس عائداً على من كالضمائر قبل ، وإنما هو عائد على مفعول يدخل و ﴿ خالدين ﴾ حال منه ، والعامل فيها يدخل لا فعل الشرط وهو كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(19/770)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) ﴾

لما شُرعت للمسلمين أحكام كثيرة من الطلاق ولَواحِقه ، وكانت كلها تكاليف قد تحجُم بعضُ الأنفس عن إيفاء حق الامتثال لها تكاسلاً أو تقصيراً رغّب في الامتثال لها بقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً يُسْراً * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً * أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فاتقوا الله ياأولى الألباب الذين ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً [الطلاق : 2] وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ [الطلاق : 4] ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ [الطلاق : 5] وقوله : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ [الطلاق : 7] .

وحذر الله الناس في خلال ذلك من مخالفتها بقوله : ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [الطلاق : 1] ، وقوله : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [الطلاق : 2] أعقبها بتحذير عظيم من الوقوع في مخالفة أحكام الله ورسله لقلة العناية بمراقبتهم ، لأن الصغير يُثير الجليل ، فذكَّر المسلمين (وليسوا ممن يعتوا على أمر ربهم) بما حلّ بأقوام من عقاب عظيم على قلة اكتراثهم بأمر الله ورسله لئلا

يسلكوا سبيل التهاون بإقامة الشريعة ، فيلقي بهم ذلك في مَهواة الضلال .

وهذا الكلام مقدمة لما يأتي من قوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ الآيات .

فالجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة عطف غرض على غرض .

و ﴿ كأين ﴾ اسم لعدد كثير مُبهم يفسره ما يميزه بعده من اسم مجرور بمن و ﴿ كأين ﴾ بمعنى (كَم) الخبرية .

(20/770)

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وكأين من نبيء قتل معه ربيون كثير ﴾ في [آل عمران : 146] .

والمقصود من إفادة التكثير هنا تحقيق أن العذاب الذي نال أهل تلك القرى شيء ملازم لِجزائهم على عتوّهم عن أمر ربهم ورسله فلا يتوهم متوهم أن ذلك مصادفة في بعض القرى وأنها غير مطردة في جميعهم .

وكأين ﴾ في موضع رفع على الابتداء ، وهو مبني .

وجملة ﴿ عتت عن أمر ربها ﴾ في موضع الخبر ل ﴿ كأين ﴾ .

والمعنى : الإِخبار بكثرة ذلك باعتبار ما فُرع عليه من قوله : ﴿ فحاسبناها ﴾ فالمفرع

هو المقصود من الخبر .

والمراد بالقرية : أهلها على حد قوله : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ [يوسف : 82] بقرينة قوله عَقب ذلك ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ إذ جيء بضمير جمع العقلاء .

وإنما أوثر لفظ القرية هنا دون الأُمة ونحوها لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريضاً بالمشركين من أهل مَكة ومشابهةً لهم بالنذارة ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] .

وفيه تذكير للمسلمين بوعد الله بنصرهم ومحق عدوّهم .

والعتوّ ويقال العُتِيّ : تجاوز الحدّ في الاستكبار والعناد .

وضمن معنى الإِعراض فعدي بحرف ﴿ عن ﴾ .

والمحاسبة مستعملة في الجزاء على الفعل بما يناسب شدته من شديد العقاب ، تشبيهاً لتقدير الجزاء بإجراء الحساب بين المتعاملين ، وهو الحساب في الدنيا ، ولذلك جاء ﴿ فحاسبناها ﴾ و ﴿ عذبناها ﴾ بصيغة الماضي .

والمعنى : فجازيناها على عتوّها جزاءً يكافىء طغيانها .

والعذاب النُكُر : هو عذاب الاستئصال بالغرق ، والخسف ، والرجم ، ونحو ذلك .

وعطفُ العذاب على الحساب مؤذن بأنه غيره ، فالحساب فيما لقوه قبل الاستئصال من المخوفات وأشراط الإِنذار مثل القحط والوباء والعذاب هو ما توعدوا به .

ولك أن تجعل الحساب على حقيقته ويراد به حساب الآخرة .

وشدته قوة المناقشة فيه والانتهارُ على كل سيئة يحاسبون عليها .

(21/770)

والعذاب : عذاب جهنم ، ويكون الفعل الماضي مستعملاً في معنى المستقبل تشبيهاً للمستقبل بالماضي في تحقق وقوعه مثل قوله : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] ، وقوله : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 44] .

والنُكر بضمتين ، وبضم فَسكون : ما ينكره الرأي من فظاعة كيفيته إنكاراً شديداً .

وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوبُ ﴿ نكُراً ﴾ بضمتين .

وقرأه الباقون بسكون الكاف .

وتقدم في سورة الكهف .

والفاء في قوله : ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ لتفريع ﴿ فحاسبناها ﴾ ﴿ وعذبناها ﴾ .

والذَّوق : هنا الإِحساس مطلقاً ، وهو مجاز مرسل .

والوبيل : صفة مشبهة .

يقال : وُبِل (بالضم) : المرعى ، إذا كان كَلأُه وخيماً ضاراً لما يرعاه .

والأمر : الحال والشأن ، وإضافة الوَبال إلى الأمر من إضافة المسبب إلى السبب ، أي ذاقوا الوبال الذي تسبب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذي كانوا عليه .

وعاقبة الأمر : آخره وأثره .

وهو يشمل العاقبة في الدنيا والآخرة كما دل عليه قوله : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ .

وشبهت عاقبتهم السّوأى بخسارة التاجر في بيعه في أنهم لما عتوا حسبوا أنهم أرضَوْا أنفسهم بإعْراضهم عن الرسل وانتصروا عليهم فلما لبثوا أن صاروا بمذلة وكما يخسر التاجر في تجره .

وجيء بفعل ﴿ كان ﴾ بصيغة المضي لأن الحديث عن عاقبتها في الدنيا تغليباً .

وفي كل ذلك تفظيع لما لحقهم مبالغة في التحذير مما وقعوا فيه .

وجملة ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أو بدلَ بعض من كل .

والمراد عذاب الآخرة لأن الإعداد التهيئة وإنما يهيَّأ الشيء الذي لم يحصل .

وإن جعلتَ الحساب والعذاب المذكورين آنفاً حساب الآخرة وعذابها كما تقدم آنفاً فجملة ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ استئنافاً لبيان أن ذلك متزايد غير مخفف منه

كقوله : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ [النبأ : 30] .

.

(22/770)

(هذا التفريع المقصود على التكاليف السابقة وخاصة على قوله : ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه شَدِيداً فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين ﴾ [الطلاق : 1] وهو نتيجة ما مهّد له به من قوله : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ .

وفي نداء المؤمنين بوصف ﴿ أولي الألباب ﴾ إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله لأنها كمال نفساني ، ولأن فوائدها حقيقية دائمة ، ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة ، قال تعالى:

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يونس : 62 ، 63] ، وقوله : ﴿ أولي ﴾ معناه ذوي ، وتقدم بيانه عند قوله : ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ [الطلاق : 4] آنفاً و ﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من ﴿ أولي الألباب ﴾ .

وهذا الاتباع يومىء إلى أن قبولهم الإِيمان عنوان على رجاحة عقولهم .

والإتيان بصلة الموصول إشعار بأن الإِيمان سبب للتقوى وجامع لمعظمها ولكن للتقوى

درجات هي التي أمروا بأن يحيطوا بها .

لله في هذه الجملة معنى العلة للأمر بالتقوى لأن إنزال الكتاب نفع عظيم لهم مستحق شكرهم عليه .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ قد ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءايات الله مبينات لِّيُخْرِجَ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ للاهتمام به وبعث النفوس على تصفح هذا الكتاب ومتابعة إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم

والذكر : القرآن .

وقد سمي بالذكر في آيات كثيرة لأنه يتضمن تذكير الناس بما هم في غفلة عنه من دلائل التوحيد وما يتفرع عنها من حسن السلوك ، ثم تذكيرهم بما تضمنه من التكاليف وبيناه عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في سورة [الحجر : 6] .

وإنزال القرآن تبليغه إلى الرسول بواسطة الملك واستعير له الإِنزال لأن الذكر مشبه بالشيء المرفوع في السماوات ، كما تقدم في سورة الحجر وفي آيات كثيرة .

وجعل إنزال الذكر إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا به وعملوا بما فيه فخصصوا هنا من بين جميع الأمم لأن القرآن أنزل إلى الناس كلهم .

وقوله : ﴿ رسولاً ﴾ بدل من ﴿ ذكراً ﴾ بدل اشتمال لأن بين القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملازمةً وملابسةً فإن الرسالة تحققت له عند نزول القرآن عليه ، فقد أُعمل فعل ﴿ أنزل ﴾ في ﴿ رسولاً ﴾ تبعاً لإعماله في المبدل منه باعتبار هذه المقارنة واشتمال مفهوم أحد الاسمين على مفهوم الآخر .

وهذا كما أبدل ﴿ رسول من الله ﴾ [البينة : 2] من قوله : ﴿ حتى تأتيهم البينة في سورة البينة (1) .

والرسول : هو محمد .

وأما تفسير الذكر بجبريل ، وهو مروي عن الكلبي لتصحيح إبدال رسولاً ﴾ منه ففيه تكلفات لا داعي إليها فإنه لا محيص عن اعتبار بدل الاشتمال ، ولا يستقيم وصف جبريل بأنه يتلو على الناس الآيات فإن معنى التلاوة بعيد من ذلك ، وكذلك تفسير الذكر بجبريل .

ويجوز أن يكون ﴿ رسولاً ﴾ مفعولاً لفعل محذوف يدل عليه ﴿ أنزل الله ﴾ وتقديره : وأرسل إليكم رسولاً ، ويكون حذفه إيجازاً إلاّ أن الوجه السابق أبلغ وأوجز .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿ مبينات ﴾ بفتح الياء .

وقرأه الباقون بكسرها ومَآل القراءتين واحد .

وجعلت علة إنزال الذكر إخراجَ المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور وإن كانت علة إنزاله إخراج جميع الناس من ظلمات الكفر وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحات ، نظراً لخصوص الفريق الذي انتفع بهذا الذكر اهتماماً بشأنهم .

وليس ذلك بدالّ على أن العلة مقصورة على هذا الفريق ولكنه مجرد تخصيص بالذكر .

وقد تقدم نظير هذه الجملة في مواضع كثيرة منها أول سورة الأعراف .

﴿ النور وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار خالدين فِيهَآ أَبداً قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ ﴾ .

(24/770)

عطف على الأمر بالتقوى والتنويه بالمتقين والعناية بهم هذا الوعد على امتثالهم بالنعيم الخالد بصيغة الشرط للدلالة على أن ذلك نعيم مقيّد حصوله لراغبيه بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات .

و﴿ صالحاً ﴾ نعت لموصوف محذوف دل عليه ﴿ يعمل ﴾ أي عملاً صالحاً ، وهو نكرة في سياق الشرط تفيد العموم كإفادته إياه في سياق النفي .

فالمعنى : ويعمل جميع الصالحات ، أي المأمور بها أمراً جازماً بقرينة استقراء أدلة

الشريعة .

وتقدم نظير هذه الآية في مواضع كثيرة من القرآن .

وجملة ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ ندخله ﴾ ولذلك فذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإِضمار لتكون الجملة مستقلة بنفسها .

والرزق : كل ما ينتفع به وتنكيره هنا للتعظيم ، أي رزقاً عظيماً .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿ ندخله ﴾ بنون العظمة .

وقرأه الباقون بالتحتية على أنه عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ وعلى قراءة نافع وابن عامر يكون فيه سكون الالتفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(25/770)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال الّتي لا تنصرف

كأيّن

كأين هي بمعنى : كم . قال اللّه تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ [الطلاق : 8] أي وكم من قرية .

وفيها لغتان : كأين بالهمزة وتشديد الياء ، وكائن على تقدير قائل وبائع ، وقد قرئ بهما جميعا في القرآن ، والأكثر والأفصح تخفيفها ، قال الشاعر "1" :

وكائن أرينا الموت من ذي تحيّة إذا ما ازدرانا أو أصرّ لما أثم

وقال آخر "2" :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التّكلّم

كيف

كيف بمعنى : على أي حال ، تقول : كيف أنت ، تريد بأي حال أنت ؟ .

وتقع بمعنى : التعجب ، في مثل قوله : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ [البقرة : 28] .

سوى وسوى

سوى وسوى : بمعنى غير ، وهما جميعا في معنى بدل . وهي مقصورة . وقد

---

(1) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص 132 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لزهير بن أبي سلمى في شرح المعلقات السبع للزوزني ص 12 ، وللأعور الشني في البيان والتبيين 1/ 170 ، ولأبي الأعور السلمي في سر الفصاحة ص

59 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 205 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 307 ، وشرح المفصل 4/ 135 ، وسر الفصاحة ص 29 .

(26/770)

جاءت ممدودة مفتوحة الأول ، وهي في معنى غير .

قال ذو الرّمّة "1" :

وما تجافى الغيث عنه فما به سواء الحمام الحضّن الخضر حاضر

يريد غير الحمام .

وسواء - مفتوحة الأول ممدود - بمعنى : وسط . قال : فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) [الصافات : 55] ، أي في وسطه .

وقد جاءت أيضا بمعنى : وسط ، مكسورة الأوّل مقصورة ، قال اللّه تعالى : مَكاناً سُوىً [طه : 58] ، أي وسطا .

أيان

أيّان : بمعنى متى ، ومتى بمعنى : أيّ حين .

ونرى أصلها : أيّ أوان ، فحذفت الهمزة والواو ، وجعل الحرفان واحدا ، قال اللّه تعالى :

أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ [النحل : 21] ، أي متى يبعثون ؟ وأَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ [القيامة : 6] .

الآن

الآن : هو الوقت الذي أنت فيه ، وهو حدّ الزّمانين : حدّ الماضي من آخره ، وحدّ الزمان المستقبل من أوله .

قال الفراء : "هو حرف بني على الألف واللام ، ولم يخلعا منه ، وترك على مذهب الصّفة ، لأنه في المعنى واللفظ ، كما رأيتهم فعلوا بالذي ، فتركوه على مذهب الأداة ، والألف واللام له لازمة غير مفارقة .

وأرى أصله : أوان ، حذفت منه الألف ، وغيّرت واوه إلى الألف ، كما قالوا في الرّاح : الرّياح . وأنشد "2" :

---

(1) يروى البيت بلفظ :

وماء تجافى الغيث عنه فما به سواء الصدى والحضّن الورق حاضر

والبيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 1029 ، ورواية عجز البيت فيه كما ذكرها المؤلف ، وتاج العروس (ورق) . [. . . . .]

(2) البيت من الطويل ، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص 376 ، ولسان العرب (ريح) ، (فلل) ، وديوان الأدب 3/ 368 ، وتاج العروس (سلف) ، وبلا نسبة في لسان العرب (أين) ، وتهذيب اللغة 15/ 547 ، والمخصص 11/ 74 ، وتاج العروس (روح) .

كأنّ مكاكيّ الجواء غديّة نشاوى تساقوا بالرّياح المفلفل

قال : فهي مرّة على تقدير (فعل) ومرّة على تقدير (فعال) كما قالوا : زمن ، وزمان .

وإن شئت جعلتها من قولك : آن لك أن تفعل كذا وكذا ، أدخلت عليها الألف واللام ثم تركتها على مذهب (فعل) منصوبة ، كما قالوا :

"نهى رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم عن قيل وقال ، وكثرة السّؤال" "1"

فكانتا كالاسمين وهما منصوبتان ، ولو خفضتا على النّقل لهما من حدّ الأفعال إلى الأسماء في النّية - كان صوابا .

وسمعت العرب تقول : من شبّ إلى دبّ ، ومن شبّ إلى دبّ ، مخفوض منون ، يذهبون به مذهب الأسماء . والمعنى : مذ كان صغيرا فشبّ إلى أن دبّ كبيرا .

قال اللّه تعالى : آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) [يونس : 91] آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ [يونس : 51] ، أي أفي هذا الوقت وفي هذا الأوان تتوب وقد عصيت قبل ؟

أنّى

أنّي : يكون بمعنيين . يكون بمعنى : كيف ، نحو قول اللّه تعالى أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ [البقرة : 259] أي كيف يحييها ؟ وقوله : فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ [البقرة : 223] أي كيف شئتم .

وتكون بمعنى : من أين ، نحو قوله : قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [التوبة : 30] وقوله : أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ [الأنعام : 101] .

والمعنيان متقاربان ، يجوز أن يتأول في كل واحد منهما الآخر .

وقال الكميت "2" :

---

(1) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة ، أخرجه البخاري في الرقاق باب 22 ، والزكاة باب 53 ، والاعتصام باب 3 ، والأدب باب 6 ، ومسلم في الأقضية حديث 10 ، 11 ، 13 ، 14 ، والدارمي في الرقاق باب 38 ، ومالك في الكلام حديث 20 ، وأحمد في المسند 2/ 327 ، 360 ، 367 ، 4/ 246 ، 249 ، 250 ، 251 ، 255 ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء 3/ 1297 ، والربيع بن حبيب في مسنده 2/ 42 .

(2) البيت من المنسرح ، وهو للكميت بن زيد في شرح شواهد الشافية ص 310 ، وشرح المفصل 4/ 109 ، 111 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 142 ، والهاشميات ص 56 ، وتفسير الطبري 2/ 336 ،

أنّى ومن أين آبك الطّرب من حيث لا صبوة ولا ريب

فجاء بالمعنيين جميعا .

ويكأن

ويكأنّ . قد اختلف فيها : فقال الكسائي : معناها : ألم تر ، قال اللّه تعالى :

وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ [القصص : 82] وقال : وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ

[القصص : 82] ، يريد : ألم تر .

وروى عبد الرّزاق ، عن معمر ، عن قتادة أنه قال : ويكأنّ : أولا يعلم أن اللّه يبسط الرزق

لمن يشاء . وهذا شاهد لقول الكسائي .

وذكر الخليل أنها مفصولة : وي ، ثم تبتدئ فتقول : كأنّ اللّه .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : هي : كأن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ، كأنه لا يفلح

الكافرون . وقال : وي صلة في الكلام .

وهذا شاهد لقول الخليل .

ومما يدل على أنها كأنّ : أنها قد تخفف أيضا كما تخفّف كأن قال الشاعر "1" .

ويكأنّ من يكن له نشب يح بب ومن يفتقر يعش عيش ضرّ

وقال (بعضهم) : ويكأن : أي رحمة لك ، بلغة حمير .

كأنّ

كأنّ : تشبيه ، وهي : (أنّ) أدخلت عليها كاف التشبيه الخافضة ، ألا ترى أنك

وتفسير البحر المحيط 2/ 443 ، ومجمع البيان 1/ 320 ، وبلا نسبة في شرح شافية ابن الحاجب 3/ 27 ، والشطر الأول بلا نسبة في مقاييس اللغة 1/ 153 ، ولسان العرب (أنى) ، وشرح الحماسة للمرزوقي 1/ 53 .

(1) البيت من الخفيف ، وهو لزيد بن عمرو بن نفيل في خزانة الأدب 6/ 404 ، 408 ، 410 ، والدرر 5/ 305 ، وذيل سمط اللآلي ص 103 ، والكتاب 2/ 155 ، وعيون الأخبار 1/ 242 ، وتفسير البحر المحيط 7/ 135 ، والخزانة 3/ 97 ، ولنبيه بن الحجاج في الأغاني 17/ 205 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 11 ، ولسان العرب (وا) ، (ويا) ، وبلا نسبة في الجنى الداني ص 353 ، والخصائص 3/ 41 ، 169 ، وشرح الأشموني 2/ 486 ، وشرح المفصل 4/ 76 ، ومجالس ثعلب 1/ 389 ، والمحتسب 2/ 155 ، وهمع الهوامع 2/ 106 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 137 ، ومجمع البيان 1/ 196 ، والخصائص 3/ 41 ، 169 ، والصحاح 6/ 2557 ، وتفسير الكشاف 3/ 151 .

تقول : شربت شرابا كعسل ، وشربت شرابا كأنه عسل ، فيكونان سواء ؟ ! .

وقد يخفف كأنّ ويحذف الاسم فيكون كالكاف ، قال الشاعر يصف فرسا "1" :

جموم الشّدّ شائلة الذّنابى وهاديها كأن جذع سحوق

أراد : كجذع . وقال آخر "2" :

كأن ظبية تعطو إلى ناضر السّلم

لات

لات . قال سيبوية : (لات) مشبّهة (بليس) في بعض المواضع ، ولم تمكّن تمكّنها ، ولم يستعملوها إلا مضمرا فيها ، لأنها ليست كليس في المخاطبة والإخبار ، عن غائب ، ألا ترى أنك تقول : ليست وليسوا ، وعبد اللّه ليس ذاهبا ، فتبني عليها ، و(لات) لا يكون فيها ذاك ، قال اللّه تعالى : وَلاتَ حِينَ مَناصٍ [ص : 3] ، أي ليس حين مهرب .

---

(1) البيت من الوافر ، وهو للمفضل النكري في لسان العرب (فيح) ، (سحق) ، (هدي) ، وللمفضل اليشكري في تاج العروس (هدي) . وللنمر بن تولب بيت قريب منه ، وهو :

جموم الشد شائلة الذنابى تخال بياض غرتها سراجا

والبيت من الوافر ، وهو في ديوان النمر بن تولب ص 340 ، ولسان العرب (شول) ، (جمم) ، وجمهرة اللغة ص 306 ، ومقاييس اللغة 1/ 420 ، والمخصص 16/ 148 ، وأساس البلاغة (جمم) ، والحيوان 2/ 306 ، والمعاني الكبير ص 148 ، وتاج العروس (ذنب) ، (شول) ، (جمم) ، والبيت بلا نسبة في لسان العرب (ذنب) .

(2) يروى البيت بتمامه :

ويوما توافينا بوجه مقسّم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

والبيت من الطويل ، وهو لعلباء بن أرقم في الأصمعيات ص 157 ، والدرر 2/ 200 ، وشرح التصريح 1/ 234 ، والمقاصد النحوية 4/ 384 ، ولأرقم بن علباء في شرح أبيات سيبويه 1/ 525 ، ولزيد بن أرقم في الإنصاف 1/ 202 ، ولكعب بن أرقم في لسان العرب (قسم) ، ولباغت بن صريم اليشكري في تخليص الشواهد 2/ 301 ، ولأحدهما أو لأرقم بن علباء في شرح شواهد المغني 1/ 111 ، ولأحدهما أو لراشد بن شهاب اليشكري أو لابن صريم اليشكري في خزانة الأدب 10/ 411 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 1/ 377 ، وجواهر الأدب ص 197 ، والجنى الداني ص 222 ، 52 ، ورصف المباني ص 117 ، 211 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 683 ، وسمط اللآلي ص 829 ، وشرح الأشموني 1/ 147 ، وشرح عمدة الحافظ ص 341 ، وشرح قطر الندى ص 157 ، والكتاب 3/ 165 ، والمحتسب 1/ 308 ، ومغني اللبيب 1/

33 ، والمقرب 1/ 111 ، 2/ 204 ، والمنصف 3/ 128 ، وهمع الهوامع 1/ 413 .

(30/770)

قال : وبعضهم يقول : وَلاتَ حِينَ مَناصٍ . فيرفع ، لأنها عنده بمنزلة : (ليس) وهي قليلة ، والنصب بها لوجه . وقد خفض بها ، قال أبو زبيد الطّائي "1" :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن ليس حين بقاء

وقال آخر "2" :

فلمّا علمت أنّني قد قتلته ندمت عليه لات ساعة مندم

وإنما تكون (لات) مع الأحيان وتعمل فيها . فإذا جاوزتها فليس لها عمل .

وقال بعض البغداديين : (التاء) تزاد في أول (حين) ، وفي أوّل (أوان) ، وفي أول (الآن) ، وإنّما هي (لا) ثم تبتدئ فتقول : تحين وتلان . والدليل على هذا أنهم يقولون : تحين من غير أن يتقدمها (لا) . واحتج بقول الشاعر "3" :

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم

)

---

1) البيت من الخفيف ، وهو لأبي زبيد الطائي في ديوانه ص 30 ، والإنصاف ص 109 ، وتخليص الشواهد ص 295 ، وتذكرة النحاة ص 734 ، وخزانة الأدب 4/ 183 ، 185 ، 190 ، والدرر 2/ 119 ، وشرح شواهد المغني ص 640 ، 960 ، والمقاصد النحوية 2/ 156 ، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص 249 ، وخزانة الأدب 4/ 169 ، 6/ 539 ، 545 ، والخصائص 2/ 370 ، ورصف المباني ص 169 ، 262 ، وسر صناعة الإعراب ص 509 ، وشرح الأشموني 1/ 126 ، وشرح المفصل 9/ 32 ، ولسان العرب (أون) ، (لا) ، (لات) ، ومغني اللبيب ص 255 ، وهمع الهوامع 1/ 126 .

(2) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في تذكرة النحاة ص 734 ، ورصف المباني ص 263 ، وخزانة الأدب 4/ 168 ، 169 ، 174 ، 187 .

(3) يروى البيت بلفظ :

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان أين المطعم

والبيت من الكامل ، وهو لأبي وجزة السعدي في الأزهية ص 264 ، والإنصاف 1/

108 ، وخزانة الأدب 4/ 175 ، 176 ، 178 ، 180 ، والدرر 2/ 115 ، 116 ، ولسان العرب (ليت) ، (عطف) ، (أين) ، (حين) ، (ما) ، وبلا نسبة في الجنى الداني ص 487 ، وخزانة الأدب 9/ 383 ، والدرر 2/ 12 ، ورصف المباني ص 163 ، 173 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 163 ، وشرح الأشموني 3/ 882 ، ومجالس ثعلب 1/ 270 ، والممتع في التصريف 1/ 273 ، وهمع الهوامع 1/ 126 ، ولعجز البيت روايات مختلفة ، منها :

والمسبغون يدا إذا ما أنعموا و : نعم الذرا في النائبات لنا هم و : المطعمون زمان ما من مطعم

ويقول الآخر "1" :

وصلينا كما زعمت تلانا

وجرّ العرب بها يفسد عليه هذا المذهب ، لأنهم إذا جرّوا ما بعدها جعلوها كالمضاف للزّيادة ، وإنما هي (لا) زيدت عليها (الهاء) كما قالوا : ثمّ وثّمة .

وقال ابن الأعرابي "2" في قوله الشاعر :

العاطفون تحين ما من عاطف إنما هو (العاطفونه) بالهاء ، ثم تبتدئ فتقول : حين ما من عاطف فإذا وصلته صارت الهاء تاء . وكذلك قوله : "وصلينا كما زعمته" ثم تبتدئ فتقول : لاتا ، فإذا وصلته صارت الهاء تاء ، وذهبت همزة الآن .

قال : وسمعت الكلابيّ "3" ينهى رجلا عن عمل ، فقال : حسبك تلان أراد : حسبكه

الآن ، فلما وصل صارت الهاء تاء .

وسنبيّن : كيف الوقوف عليها وعلى أمثالها من التاءات الزوائد ، في كتاب "القراءات" إن شاء اللّه تعالى .

مهما

مهما : هي بمنزلة "ما" في الجزاء . قال اللّه تعالى : وَقَالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [الأعراف : 132] ، أي ما تأتنا به من آية .

---

(1) صدر البيت :

نوّلي قبل نأي داري جمانا والبيت من الخفيف ، وهو لجميل بثينة في ديوانه ص 196 ، ولسان العرب (تلن) ، وبلا نسبة في الإنصاف ص 110 ، وتذكرة النحاة ص 735 ، والجنى الداني ص 487 ، ورصف المباني ص 173 ، وسر صناعة الإعراب ص 166 ، ولسان العرب (أين) ، (حين) ، والممتع في التصريف 1/ 273 .

(2) ابن الأعرابي : هو محمد بن زياد الكوفي البغدادي ، المعروف بابن الأعرابي ، أبو عبد اللّه اللغوي ، المتوفى سنة 231 ه . تقدمت ترجمته الوافية ، مع ذكر مؤلفاته .

(3) الكلابي : لعله أبو زياد ، يزيد بن عبد اللّه بن الحر الأعرابي المعروف بالكلابي ، قدم بغداد فأقام بها أربعين سنة . وتوفي في خلافة المهدي العباسي في حدود سنة 200 ه .

من تصانيفه : "خلق الإنسان" ، "كتاب الإبل" ، "كتاب الفرق" ، "كتاب النوادر" . (كشف الظنون 6/ 535) .

(32/770)

وقال الخليل في مهمما : هي (ما) أدخلت معها (ما) لغوا كما أدخلت مع (متى) لغوا ، تقول : متى تأتني آتك ، ومتى ما تأتني آتك . وكما أدخلت مع (ما) أيّ لغوا ، كقوله : أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى [الإسراء : 110] أي أيّا تدعوا .

(33/770)

قال : ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا فيقولوا : (ما ، ما) فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى .

هذا قول الخليل .

وقال سيبويه : وقد يجوز أن تكون (مه) ضم إليها (ما) .

ما ومن

ما ومن ، أصلهما واحد ، فجعلت من للناس ، وما لغير الناس . تقول : من مرّ بك من القوم ؟ وما مرّ بك من الإبل ؟ .

وقال أبو عبيدة في قوله تعالى وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) [الليل : 3] : أي ومن خلق الذّكر والأنثى . وكذلك قوله تعالى : وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6) وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8) [الشمس : 6 ، 8] هي عنده في هذه المواضع بمعنى "من" .

وقال أبو عمرو : هي بمعنى (الذي) . قال : وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد : سبحان ما سبّحت له .

وقال الفرّاء : هو : وخلقه الذّكر والأنثى ، وذكر أنها في قراءة عبد اللّه والذكر والأنثى .

كاد

كاد : بمعنى همّ ولم يفعل . ولا يقال : يكاد أن يفعل ، إنما يقال : كاد يفعل ، قال اللّه تعالى : فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ [البقرة : 71] .

وقد جاءت في الشعر ، قال الشاعر "1" :

---

(1) الرجز لرؤبة في ملحق ديوانه ص 172 ، والدرر 2/ 142 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 99 ، وشرح المفصل 7/ 121 ، والكتاب 3/ 160 ، ولسان العرب (كود) ، والمقاصد النحوية 2/ 215 ، وتاج العروس (كود) ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص 419 ، وأسرار العربية ص 5 ، وتخليص الشواهد ص 329 ، ولسان العرب

(مصح) ، والمقتضب 3/ 7 ، وهمع الهوامع 1/ 130 ، وديوان الأدب 2/ 198 .

[. . . . .]

(34/770)

قد كاد من طول البلى أن يمصحا

وأنشد الأصمعي "1" :

كادت النّفس أن تفيظ عليه إذ ثوى حشو ريطة وبرود

ولم يأت منها إلّا فعل يفعل ، وتثنيتهما وجمعهما . ولم يبن منها شيء غير ذلك .

قال بعضهم : قد جاءت (كاد) بمعنى (فعل) وأنشد قوله الأعشى "2" :

وكاد يسمو إلى الجرفين فارتفعا

أي : سما فارتفع .

قال : ومثله قول ذي الرّمة "3" :

ولو أنّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه ميّ سافرا كاد يبرق

أي لو تعرضت له لبرق ، أي : دهش وتحير .

بل

بل : تأتي لتدارك كلام غلطت فيه ، تقول : رأيت زيدا بل عمرا .

ويكون لترك شيء من الكلام وأخذ في غيره . وهي في القرآن بهذا المعنى كثير :

قال الله تعالى : ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) [ص : 1] ثم قال : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) [ص : 2] فترك الكلام الأول وأخذ ببل في كلام ثان . ثم قال حكاية عن المشركين :

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ثم قال : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي فترك الكلام وأخذ ببل في كلام آخر فقال : بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ [ص : 8] في أشباه لهذا كثيرة في القرآن .

---

(1) البيت من الخفيف ، وهو بلا نسبة في أدب الكاتب ص 406 ، وأوضح المسالك 1/ 315 ، وخزانة الأدب 9/ 348 ، وشرح الأشموني 1/ 129 ، وشرح شواهد المغني 2/ 948 ، وشرح شذور الذهب ص 354 ، وشرح ابن عقيل ص 167 ، ولسان العرب (نفس) ، (فيظ) ، ومغني اللبيب 2/ 662 .

(2) صدر البيت :

وما مجاور هيت إن عرضت له والبيت من البسيط ، وهو في ديوان الأعشى ص 153 .

وصدر البيت في الصاحبي في فقه اللغة ص 176 :

حتى تناول كلبا في ديارهم

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 461 ، ولسان العرب (برق) ،

والمخصص 16/ 124 ، وتاج العروس (برق) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 322 ، ومجمل اللغة 1/ 253 .

(35/770)

قال الشاعر "1" :

بل هل أريك حمول الحيّ غادية كالنّخل زيّنها ينع وإفضاح

وقال آخر "2" :

بل من يرى البرق يشري بتّ أرقبه

بل منهل ناء من الغياض

وكذلك (الواو) إذا أتت مبتدأة غير ناسقة للكلام على كلام - كانت بمعنى ربّ .

وإذا وليت اسما - وهي بهذا المعنى - : خفض بها ، وشبّهت بربّ وبالواو .

وتأتي مبتدأة ، قال أبو النّجم "3" :

وهي كذلك في الشعر ، كقوله "4" :

ومهمه مغبرّة أرجاؤه

وقال آخر "5" :

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

يا هل رأيت حمول الحيّ عادية والبيت من البسيط ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 164 ، وديوان الهذليين ص 45 ، ولسان العرب (فضح) ، (حمل) ، وتاج العروس (فضح) ، والأزهية ص 222 ، والكتاب 4/ 223 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 157 .

(2) كلمة "يشري" زائدة ، ويروى البيت بتمامه :

بل من يرى البرق بتّ أرقبه يزجى حبيّا إذا خبا ثقبا

والبيت من المنسرح ، وهو للبيد بن ربيعة في ديوانه ص 29 ، والأزهية ص 22 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 331 ، والكتاب 4/ 223 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 156 .

(3) الرجز لأبي النجم في لسان العرب (قضض) ، وتاج العروس (قضض) .

(4) يروى الرجز بتمامه :

وبلد مغبرّة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

والرجز لرؤبة في ديوانه ص 3 ، والأشباه والنظائر 2/ 296 ، وخزانة الأدب 6/ 458 ، وشرح التصريح 2/ 339 ، وشرح شواهد المغني 2/ 971 ، ولسان العرب (عمى) ، ومعاهد التنصيص 1/ 178 ، ومغني اللبيب 2/ 695 ، والمقاصد النحوية 4/

557 ، وتاج العروس (كبد) ، (عمى) ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 216 ، والإنصاف 1/ 377 ، وأوضح المسالك 4/ 342 ، وجواهر الأدب ص 164 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 636 ، 637 ، وشرح شذور الذهب ص 414 ، وشرح المفصل 2/ 118 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 202 .

(5) يروى البيت بتمامه :

(36/770)

ودوّية قفر تمشّى نعامها

وقال آخر "1" :

وهاجرة نصبت لها جبيني

يدلّون بهذه الواو الخافضة : على ترك الكلام الأول ، وائتناف كلام آخر .

هل

هل : تكون للاستفهام ، ويدخلها من معنى التقوير والتّوبيخ ما يدخل الألف التي يستفهم بها ، كقوله تعالى : هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ [الروم : 28] ، وهذا استفهام فيه تقرير وتوبيخ .

وكذلك قوله تعالى : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [يونس : 34] .

والمفسّرون يجعلونها في بعض المواضع بمعنى : "قد" ، كقوله تعالى : هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ [الإنسان : 1] ، أي قد أتى وقوله : هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1) [الغاشية : 1] و : وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (9) [طه : 9] ، : وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21) [ص : 21] ، و : هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ؟ [الذاريات : 24] .

هذا كله عندهم بمعنى : (قد) .

ويجعلونها أيضا بمعنى : (ما) في قوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ [الأنعام : 158] و : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ [البقرة : 210] ، و : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ [الزخرف : 66] ، و : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ؟ [الأعراف : 53] ، و : فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ؟ [النحل : 35] .

هذا كله عندهم بمعنى : (ما) .

ودويّة قفر تمشّى نعاجها كمشي النصارى في خفاف الأرندج

والبيت من الطويل ، وهو للشماخ في ديوانه ص 83 ، والدرر 4/ 130 ، وسر صناعة الإعراب ص 649 ، والكتاب 3/ 104 ، ولسان العرب (ردج) ، (دوا) ، (مشى) ، والمعاني الكبير 1/ 346 ، وهمع الهوامع 2/ 28 .

(1) يروى البيت بتمامه :

فقلت لبعضهن وشد رحلي لها جرة نصبت لها جبيني

والبيت من الوافر ، وهو للمثقب العبدي في المفضليات ص 289 .

(37/770)

وهو والأوّل عند أهل اللغة تقرير .

لولا ولوما

لولا تكون في بعض الأحوال بمعنى : هلّا وذلك إذا رأيتها بغير جواب ، تقول : لولا فعلت كذا تريد هلّا ، فعلت كذا ، قال اللّه تعالى : فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ [هود : 116] ، فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ [التوبة : 122] فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا [الأنعام : 43] ، فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) [الواقعة : 86] ، أي فهلا . وقال فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ [يونس : 98] .

وقال الشاعر "1" :

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكميّ المقنّعا

أي : فهّلا تعدّون الكميّ .

وكذلك (لوما) ، قال : لَوْما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ ، [الحجر : 7] أي هلّا تأتينا .

فإذا رأيت للولا جوابا فليست بهذا المعنى ، كقوله : فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) [الصافات : 143 ، 144] ، فهذه (لولا) التي تكون لأمر لا يقع لوقوع غيره .

وبعض المفسرين يجعل لولا في قوله : فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بمعنى (لم) أي : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها عند نزول العذاب إلّا قوم يونس .

وكذلك قوله : (فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ) [يونس : 98] أي فلم يكن .

)

1) البيت من الطويل ، وهو لجرير في ديوانه ص 907 ، وتخليص الشواهد ص 431 ، وجواهر الأدب ص 394 ، وخزانة الأدب 3/ 55 ، 57 ، 60 ، والخصائص 2/ 45 ، والدرر 2/ 240 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 72 ، وشرح شواهد المغني 2/ 669 ، وشرح المفصل 2/ 38 ، 8/ 144 ، والمقاصد النحوية 4/ 475 ، ولسان العرب (أمالا) ، وتاج العروس (لو) ، والصاحبي في فقه اللغة ص 135 ، والبيت للفرزدق في الأزهية ص 168 ، ولسان العرب (ضطر) ، ولجرير أو للأشهب بن رميلة في شرح المفصل 8/ 145 ، وبلا نسبة في الأزهية ص 170 ، والأشباه والنظائر 1/ 240 ، والجنى الداني ص 606 ، وخزانة الأدب 11/ 245 ، ورصف المباني ص 293 ،

وشرح الأشموني 3/ 610 ، وشرح ابن عقيل ص 600 ، وشرح عمدة الحافظ ص 321 ، وشرح المفصل 2/ 102 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 164 ، 182 ، ومغني اللبيب 1/ 274 ، وهمع الهوامع 1/ 148 .

(38/770)

لما

لمّا : تكون بمعنى (لم) في قوله : بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ [ص : 8] أي : بل لم يذوقوا عذاب .

وتكون بمعنى (إلّا) ، قال تعالى : وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا [الزخرف : 35] أي : إلّا متاع الحياة الدنيا ، إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4) [الطارق : 4] أي : إلّا عليها ، وهي لغة هذيل مع "إن" الخفيفة التي تكون بمعنى "ما" .

ومن قرأ وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ بالتخفيف إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ جعل (ما) صلة ، وأراد : وإن كلّ ذلك لمتاع الحياة ، وإن كلّ نفس لما عليها حافظ .

فإذا رأيت للمّا جوابا فهي لأمر يقع بوقوع غيره ، بمعنى "حين" ، كقوله تعالى : فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ [الزخرف : 55] أي : حين آسفونا ، وَلَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ [هود : 101] أي : حين جاء أمر ربك .

أو

أو : تأتي للشك ، تقول . رأيت عبد اللّه أو محمدا .

(39/770)

وتكون للتخيير بين شيئين ، كقوله : فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ [المائدة : 89] وقوله : فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ [البقرة : 196] أنت في جميع هذا مخيّر أيّة فعلت أجزأ عنك .

وربما كانت بمعنى واو النّسق .

كقوله : فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) [المرسلات : 5 ، 6] يريد : عذرا ونذرا . وقوله : لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى [طه : 44] وقوله : لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [طه : 113] ، أي لعلهم يتقون ويحدث لهم القرآن ذكرا .

هذا كلّه عند المفسرين بمعنى واو النّسق .

وأما قوله : وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) [الصافات : 147] ، فإن بعضهم يذهب إلى أنها بمعنى بل يزيدون ، على مذهب التّدارك لكلام غلطت فيه وكذلك قوله : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ [النحل : 77] وقوله : فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ

أَدْنى (9) [النجم : 9] .

وليس هذا كما تأوّلوا ، وإنما هي بمعنى (الواو) في جميع هذه المواضع : وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر وهو أقرب ، و : فكان قاب قوسين وأدنى .

وقال ابن أحمر "1" :

قرى عنكما شهرين أو نصف ثالث إلى ذاكما قد غيّبتني غيابيا

وهذا البيت بوضح لك معنى الواو : وأراد : قرى شهرين ونصفا ، ولا يجوز أن يكون أراد قرى شهرين بل نصف شهر ثالث .

وقال آخر "2" :

أثعلبة الفوارس أو رياحا عدلت بهم طهيّة والخشابا

أراد : وعدلت هذين بهذين .

أم

أم : تكون بمعنى أو ، كقوله تعالى : أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً [الملك : 16 ، 17] ، وكقوله :

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا

(68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى [الإسراء : 68 ، 69] .

هكذا قال المفسرون ، وهي كذلك عند أهل اللغة في المعنى ، وإن كانوا قد يفرقون بينهما في الأماكن .

وتكون أم بمعنى ألف الاستفهام ، كقوله تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [النساء : 54] ، أراد : أيحسدون الناس ؟ .

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

ألا فالبثا شهرين أو نصف ثالث والبيت من الطويل ، وهو لابن أحمر في ديوانه ص 171 ، والأزهية ص 115 ، وخزانة الأدب 5/ 9 ، وبلا نسبة في الإنصاف 2/ 483 ، والخصائص 2/ 460 ، والمحتسب 2/ 227 .

(2) البيت من الوافر ، وهو لجرير في ديوانه ص 814 ، والأزهية ص 114 ، وأمالي المرتضى 2/ 57 ، وجمهرة اللغة ص 290 ، وخزانة الأدب 11/ 69 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 288 ، وشرح التصريح 1/ 300 ، والكتاب 1/ 102 ، 3/ 183 ، ولسان العرب (خشب) ، (طها) ، والمقاصد النحوية 2/ 533 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 2/ 166 ، والرد على النحاة ص 105 ، وشرح الأشموني 1/ 190 .

وقوله : ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63) [ص : 62 ، 63] ، أي زاغت عنهم الأبصار وألف اتخذناهم موصولة .

وكقوله : أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) [الطور : 39] ، أراد : ألله البنات أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) [الطور : 40] . أراد : أتسألهم أجرا أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) [الطور : 41] ، أراد : أعندهم الغيب .

وهذا في القرآن كثير ، يدلّك عليك قوله : الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ [السجدة : 1 ، 3] ، ولم يتقدم في الكلام : أيقولون كذا وكذا فترد عليه : أم تقولون ؟ وإنما أراد أيقولون : افتراه ، ثم قال : بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .

لا

لا : تكون بمعنى لم ، قال اللّه تعالى : فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) [القيامة : 31] ، أي لم يصدّق ولم يصلّ ، وقال الشاعر "1" :

وأيّ خميس لا أفأنا نهابه وأسيافنا يقطرن من كبشه دما ؟ !

أي لم نفىء نهابه . وقال آخر "2" :

إن تغفر اللّهم تغفر جمّا وأيّ عبد لك لا ألّما

أي لم يلمّ بالذّنوب .

أولى

أولى : تهدّد ووعيد ، قال اللّه تعالى : أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لطرفة في مجاز القرآن 2/ 278 ، والكامل 2/ 93 ، وبلا نسبة في الأزهية ص 158 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 165 ، وتفسير البحر المحيط 8/ 39 ، وأمالي ابن الشجري 2/ 228 . [. . . . .]

)

2) الرجز لأبي خراش الهذلي في الأزهية ص 158 ، وخزانة الأدب 7/ 190 ، وشرح أشعار الهذليين 3/ 1346 ، وشرح شواهد المغني ص 625 ، ولسان العرب (جمم) ، والمقاصد النحوية 4/ 216 ، وتاج العروس (جمم) ، ولأمية بن أبي الصلت في الأغاني 4/ 131 ، 135 ، وخزانة الأدب 4/ 4 ، ولسان العرب (لمم) ، وتهذيب اللغة 15/ 347 ، 420 ، وكتاب العين 8/ 350 ، وتاج العروس (لمم) ، ولأمية أو لأبي خراش في خزانة الأدب 2/ 295 ، ولسان العرب (لمم) ، وبلا نسبة في الإنصاف ص 76 ، وجمهرة اللغة ص 92 ، والجنى الداني ص 298 ، ولسان العرب (لا) ، ومغني اللبيب 1/ 244 ، وكتاب العين 8/ 321 ، وديوان الأدب 3/ 166 ، وتاج العروس (لا) .

[القيامة : 34 ، 35] ، وقال : فَأَوْلى لَهُمْ [محمد : 20] . ثم ابتدأ فقال : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ [محمد : 21] .

وقال الشاعر لمنهزم "1" :

ألفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه

لا جرم

لا جرم : قال الفراء : هي بمنزلة لا بدّ ولا محالة ، ثم كثرت في الكلام حتى صارت بمنزلة حقّا . وأصلها من جرمت : أي كسبت .

وقال في قول الشاعر "2" :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي كسبتهم الغضب أبدا .

قال : وليس قول من قال : حقّ لفزارة الغضب ، بشيء .

ويقال : فلان جارم أهله ، أي كاسبهم ، وجريمتهم .

ولا أحسب الذّنب سمّي جرما إلّا من هذا : لأنه كسب واقتراف .

إن الخفيفة

إن الخفيفة : تكون بمعنى (ما) ، كقوله تعالى : إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ [الملك : 20] ، وإِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً [يس : 29] ، وإِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4) [الطارق : 4] .

وقال المفسرون : وتكون بمعنى لقد ، كقوله ، إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا [الإسراء :

)

1) البيت من السريع ، وهو لعمرو بن ملقط في تخليص الشواهد ص 474 ، وخزانة الأدب 9/ 21 ، وشرح التصريح 1/ 275 ، وشرح شواهد المغني 1/ 331 ، والمقاصد النحوية 2/ 458 ، ونوادر أبي زيد ص 62 ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 2/ 98 ، ورصف المباني ص 19 ، وسر صناعة الإعراب 2/ 718 ، وشرح المفصل 3/ 88 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 177 ، ومغني اللبيب 2/ 371 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 116 ، والمعاني الكبير 2/ 899 .

(2) البيت من الكامل ، وهو لأبي أسماء بن الضريبة في لسان العرب (جرم) ، وله أو لعطية بن عفيف في خزانة الأدب 10/ 283 ، 286 ، 288 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 136 ، ولرجل من فزارة في الكتاب 3/ 138 ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص 62 ،

والاشتقاق ص 190 ، وجمهرة اللغة ص 465 ، وجواهر الأدب ص 355 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 150 ، والمقتضب 2/ 352 .

(42/770)

108] وتَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) [الشعراء : 97] وتَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ [الصافات : 56] وفَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) [يونس :

29] .

وقالوا أيضا : وتكون بمعنى إذ ، كقوله : وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (129) [آل عمران : 129] ، أي إذ كنتم . وقوله : فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [التوبة : 13] .

وقوله : وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [البقرة : 278] .

وهي عند أهل اللغة (إن) بعينها ، لا يجعلونها في هذه المواضع بمعنى (إذ) ويذهبون إلى أنه أراد : من كان مؤمنا لم يهن ولم يدع إلى السّلم ، ومن كان مؤمنا لم يخش إلا اللّه ، ومن كان مؤمنا ترك الرّبا .

ها

ها : بمنزلة خذ وتناول ، تقول : ها يا رجل . وتأمر بها ، ولا تنهى .

(43/770)

و منها قول اللّه تعالى : هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ [الحاقة : 19] ، ويقال للاثنين : هاؤما اقرءا .

وفيها لغات ، والأصل : هاكم اقرؤوا ، فحذفوا الكاف ، وأبدلوا الهمزة ، وألقوا حركة الكاف عليها .

هات

هات : بمعنى أعطني ، مكسورة التاء ، مثل رام وغاز وعاط فلانا : قال اللّه تعالى :

قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

[البقرة : 111] ، أي ائتوا به .

قال الفراء : ولم أسمع هاتيا في الاثنين ، إنما يقال للواحد والجميع ، وللمرأة :

هاتي ، وللنّساء : هاتين . وتقول : ما أهاتيك ، بمنزلة ما أعاطيك . وليس من كلام العرب هاتيت . ولا ينهى بها .

تعال

تعال : تفاعل من علوت ، قال اللّه تعالى : فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ [آل عمران : 61] .

ويقال للاثنين من الرجال والنساء : تعاليا ، وللنساء : تعالين .

قال الفراء أصلها عال إلينا ، وهو من العلوّ .

ثم إن العرب لكثرة استعمالهم إيّاها صارت عندهم بمنزلة هلمّ ، حتى استجازوا أن يقولوا للرجل وهو فوق شرف : تعال ، أي اهبط ، وإنما أصلها : الصعود .

ولا يجوز أن ينهى بها ، ولكن إذا قال : تعال ، قلت : قد تعاليت وإلى شيء أتعالى ؟

هلم

هلم : بمعنى تعالى ، وأهل الحجاز لا يثنّونها ولا يجمعونها . وأهل نجد يجعلونها من هلممت ، فيثنّون ويجمعون ويؤنّثون . وتوصل باللام فيقال : هلمّ لك ، وهلمّ لكما .

قال الخليل : أصلها (لمّ) زيدت الهاء في أوّلها .

وخالفه الفراء فقال : أصلها (هل) ضمّ إليها (أمّ) والرّفعة التي في اللام من همزة (أمّ) لمّا تركت انتقلت إلى ما قبلها .

وكذلك (اللهم) نرى أصلها : (يا اللّه أمّنا بخير) فكثرت في الكلام فاختلطت ، وتركت الهمزة .

كلا

كلا : ردع وزجر ، قال اللّه تعالى : أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا [المعارج : 38 ، 39] .

(44/770)

قال : بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) [المدثر : 52 ، 53] .

وقال : ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) [القيامة : 19 ، 20] يريد : انته عن أن تعجل به .

وقال : يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) [الهمزة : 3 ، 4] ، أي لا يخلده ماله . فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) [الانفطار : 8 ، 9] ، أي ليس كما غررت به .

وقال : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6) كَلَّا

[المطففين : 1 ، 7] . يريد : انتهوا .

رويدا

رويدا : بمعنى مهلا ، رويدك : بمعنى أمهل ، قال اللّه تعالى : فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17) [الطارق : 17] أي : أمهلهم قليلا .

وإذا لم يتقدمها : أمهلهم ، كانت بمعنى مهلا .

ولا يتكلّم بها إلّا مصغّرة ومأمورا بها .

وجاءت في الشعر بغير تصغير في غير معنى الأمر ، قال الشاعر "1" :

كأنها مثل من يمشي على رود

أي على مهل .

ألا

ألا : تنبيه : وهي زيادة في الكلام ، قال تعالى : أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ [هود : 8] . وقال : أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ [هود : 5] .

وتقول : ألا إنّ القوم خارجون : تريد بها : افهم اعلم أنّ الأمر كذا وكذا .

الويل

الويل : كلمة جامعة للشر كله . قال الأصمعي : ويل تقبيح ، قال اللّه تعالى : وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ [الأنبياء : 18] . تقول العرب : له الويل ، والأليل والأليل : الأنين .

وقد توضع في موضع التّحسّر والتّفجع ، كقوله : يا وَيْلَنا [الأنبياء : 14] . ويا وَيْلَتى

أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ [المائدة: 31] . وكذلك: ويح وويس، تصغير.

---

(1) يروى البيت بتمامه بلفظ:

تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها كأنها ثمل يمشي على رود

والبيت من البسيط، وهو للجموح الظفري في شرح أشعار الهذليين ص 872، ولسان العرب (رود)، والتنبيه والإيضاح 2/ 23، ومجمل اللغة 2/ 434، وتاج العروس (رود)، وأساس البلاغة (رود)، وبلا نسبة في لسان العرب (رأد)، ومقاييس اللغة 2/ 458، والمخصص 14/ 89، وتهذيب اللغة 14/ 162، وتاج العروس (رأد).

(45/770)

لعمرك

لعمرك، ولعمر اللّه: هو العمر. ويقال: أطال اللّه عمرك، وعمرك، وهو قسم بالبقاء.

إي

إي: بمعنى بلى، قال اللّه تعالى: وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ [يونس: 53]. ولا تأتي إلا قبل اليمين، صلة لها.

لدن

لدن : بمعنى عند ، قال تعالى : قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً [الكهف : 76] أي بلغت من عندي .

وقال : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا [الأنبياء : 17] أي من عندنا .

وقد تحذف منها النون ، كما تحذف من (لم يكن) قال الشاعر "1" :

من لد لحييه إلى منحوره

أي من عند لحييه .

وفيها لغة أخرى أيضا : لدى ، قال اللّه تعالى : وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ [يوسف : 25] أي عند الباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 278. 297 ﴾

---

(1) يروى الرجز بتمامه :

يستوعب البوعين من جريره من لد لحييه إلى منخوره

والرجز لغيلان بن حريث في لسان العرب (نحر) ، (لدن) ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 380 ، وشرح شواهد الشافية ص 161 ، والكتاب 4/ 234 ، والتنبيه والإيضاح 2/ 211 ، وتاج العروس (نحر) ، (نخر) ، (لدن) ، وبلا نسبة في شرح شافية ابن الحاجب 2/ 233 ، وشرح المفصل 2/ 127 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 169 ، وديوان الأدب 1/ 308 ، 2/ 69 ، والمخصص 14/ 59 .

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم أن فائدة الذكر النقل من خلق إلى خلق ، وكان من المعلوم أن تحويل جبل من مكانه أيسر من تحويل شخص عن خلقه وشأنه ، وتقدم أن أجر المجاهدة في ذلك الجنات الموصوفة ، وكان ذلك يحتاج إلى قدرة تامة ، دل على قدرته سبحانه عليه بقوله : ﴿ الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة إحداها ، ثم أخبر عنه بما يدل على ذلك لأن الصنعة تدل على الصانع وعلى ما له من الصفات فقال : ﴿ الذي خلق ﴾ أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال البديع القريب ﴿ سبع سماوات ﴾ أي وإنهم يشاهدون عظمة ذلك ويشهدون أنه لا يقدر عليه إلا تام العلم كامل القدرة ، ثم زاد على ذلك ما أنتم أعرف به فقال : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي سبعاً كما دل عليه حديث سعيد بن زيد وعبد الله بن عمر ـ رضى الله

عنهما ـ في الصحيحين " من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه من سبع أرضين " ولفظ ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين ، وقد تقدم في سورة السجدة ما ينفع في ذلك ، وظاهره يدل على أنها كما هي مثلها في العدد فهي مثلها في الكرية وإحاطة كل واحدة منها بالتي تحتها ، وأن التي نحن عليها هي السابعة العليا كالسماء السابعة التي سقفها الكرسي لأن ذلك أدل على ما السياق له من تمام العلم وشمول القدرة في الاستدلال عليه بقوله : ﴿ يتنزل ﴾ أي بالتدريج ﴿ الأمر ﴾ أي الذي يجود به الرحمن من التدبير من أمر الدين والتكوين من العرش والكرسي ﴿ بينهن ﴾ بالوحي من السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى وأنتم ترونهن بلا فروج فأنفذ بينهن حتى نفذ فيهن ، وذلك – والله أعلم – هو ما يريد من عظيم تدبيره بإنزال الكتب وإرسال الرسل وإثبات شريعة ومحو أخرى وتوجيه الأسباب إلى المسببات من المطر والنبات والليل والنهار والفصول وخلق الحيوانات والمعادن وسائر النباتات ، وترديد الملائكة بسائر المصنوعات ، هذا ما دل عليه ظواهر الكتاب

(47/770)

والسنة ، وأولها بعضهم بأنها سبعة أقاليم ، وهو مردود بعد القاعدة في أن التأويل بغير دليل لعب بما يأتي من صريح الحديث النبوي والكلام الضابط فيما يؤول وما لا يؤول أن النقليات أربعة أقسام : قطعي السند والدلالة ، ظنيهما ، ظني السند قطعي الدلالة ، عكسه : قطعي السند ظني الدلالة ، فالأول يجب اعتقاد ظاهره ، ومن خالفه كفر ، والبقية يجب اعتقاد ظواهرها ما لم تعارض ، فإن عورضت بقطعي وجب العدول عن الظاهر إجماعاً ، فمن اعتقده كفر ، ثم للناس بعد ذلك مذهبان : أما السلف فيفوضون المراد إلى الله تعالى ، وأما الخلف فإن كان لذلك محمل واحد عينوه ، وإن كان ثَم محامل سردوها ولم يعينوا شيئاً منها مع اعترافهم بأنهم ليسوا على قطع من أن المراد شيء مما ذكروه ، وإنما هو شيء يليق بالمقام والعلم عند الله وبأن طريق السلف أقرب وأسلم وبأنه ما حملهم على التأويل إلا انتشار المبتدعين وإشهارهم بدعتهم بين الناس ، قال الإمام علاء الدين القونوي رحمه الله تعالى في باب السير من شرحه الحاوي : قال الإمام – يعني إمام الحرمين : ولو بقي الناس على ما كانوا عليه من صفوة الإسلام لما أوجبنا التشاغل بعلم الكلام بل ربما نهينا عنه ، وأما الآن وقد ثارت البدع فلا سبيل إلى تركها تلتطم أمواجها فلا بد من إعداد ما يدعى به إلى المسلك الحق وتحل به الشبه ، فصار الاشتغال بأدلة المعقول وحل الشبه من فروض الكفايات ، ومن استراب في أصل من أصول الاعتقاد فعليه السعي في إزاحته إلى أن يستقيم عقده – انتهى .

ثم إنك تجد العلماء يختلفون في بعض الأدلة فبعضهم يجريها على الظاهر وبعضهم يؤول ، وذلك للاختلاف في المعارض هل هو قطعي الدلالة أم لا ، وهذا الموضع منه ، لإن ظواهر الكتاب والسنة تدل على أن الأرضين مثل السماوات في العدد في أن بينهما خلاء ، وفي أن في كل واحدة مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، بل بعض الأخبار يكاد يقطع به في ذلك ، ولكنه لم يخرج عن أن يكون ظنياً فأكثر العلماء ومحققوهم على أن المعارض – وهو ما قاله أهل علم الهيئة من الأدلة على كونها واحدة – ليس بقطعي ، فأولوا كونها سبعة بالأقاليم السبعة ، وقد رأيت في التعدد حقيقة حديثاً صريحاً لكن لا أدري حاله ، ذكره ابن برجان في اسمه تعالى الملك من شرحه للأسماء الحسنى قال : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أتدرون ما تحت هذه الأرض ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ماء ، أتدرون ما تحت ذلك ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال هواء ، أتدرون ما تحت ذلك : قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : أرض ، أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم – حتى عد سبع أرضين " ثم رأيته في الترمذي عن أبي رزين العقيلي ولفظه : " هل تدرون ما الذي تحتكم ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله

أعلم ، قال : إن تحتها أرضاً أخرى بينهما خمسمائة سنة – حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة " ثم رأيت في الفردوس عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما بين السماء إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي والعرش مثل ذلك ، وما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، والأرضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك " .

(49/770)

ولما ذكر سبحانه الصنعة تنبيهاً على التفكر فيها والاعتبار بها ، ذكر أن ثمرتها العلم بصفاته بعد العجز عن إحاطة العلم عقب ذاته تعالى فقال : ﴿ لتعلموا ﴾ أي بهذا العالم الذي أوجده بتسوية كل واحد من القبيلين سبعاً كل واحدة بينها وبين الأخرى مسافة بعيدة مع الكثافة الزائدة وأنتم تعلمون أنه لا يفصل الجسم ولا سيما الكثيف عن آخر مثله إلا فاصل قاهر بقوة باهرة وقدرة ظاهرة وعلم شامل لما يحتاج إليه ذلك ، فكيف إذا كان على هذا المنهاج البديع والوجه المنيع على مر الدهور والأحقاب وتعاقب الشهور والأعوام على حساب معلوم ونظام منظوم ، لا يدركه إلا أعلى الناس حساباً وأعظمهم صواباً ، مع المنافع

التي تفضل عن سكانها ، والمرافق التي تنزه الخالق بآثارها وأعيانها ، وتوقظ الغافل وتنبه الجاهل وتدمغ المعاند ببرهانها ، فإنه لا يسع أحداً المنازعة في خلقه لها ، ومن خلقها قدر على تدبيرها على الوجه المذكور ، ومن كان كذلك كان منزهاً عن الشريك قطعاً ، ومن كان كذلك قدر على كل شيء فلذا قال : ﴿ أن الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة كلها ﴿ على كل شيء ﴾ أي من غير هذا العالم ممكن أن يدخل تحت المشيئة فإنه بمعنى مفعول من عالم آخر مثل هذا العالم ، وأبدع منه وأبدع من ذلك الإبداع إلى ما لا نهاية له بالاستدلال بهذا العالم ، فإن من قدر على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها إلى ما لا نهاية له لأنه لا فرق في ذلك بين قليل ولا كثير جليل أو حقير ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ [الملك : 3] وإياك أن تلتفت إلى من قال : إنه ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، فإنه مذهب فلسفي خبيث ، والآية نص على إبطاله وإن نسبه بعض الملحدين إلى الغزالي فإني لا أشك أنه مدسوس عليه فإنه مذهب فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي " تهديم الأركان على من قال ليس في الإمكان أبدع مما كان " وكتابي " دلالة البرهان على أن في

الإمكان أبدع مما كان " وكتابي " إطباق الأغلال في أعناق الضلال " ومع كونه مذهب الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه فصوصه وغير ذلك من كتبه واستند فيه في بعضها إلى الغزالي إتقاناً لمكره – أعاذنا الله من شره ، والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الإحياء وغيره ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة .

ولما كانت إحاطة العلم دالة على تمام القدرة وإليهما يرجع جميع الأسماء والصفات قال : ﴿ قد أحاط ﴾ لتمام قدرته ﴿ بكل شيء ﴾ مطلقاً ، ولما أسند الإحاطة إليه سبحانه تعظيماً لها ، بين جهتها بتمييز محول عن الفاعل فقال : ﴿ علماً ﴾ فله الخبرة التامة بما يأمر به من الأحكام في العلم بمصالحه ومفاسده فعاملوه معاملة من يعلم إحاطة علمه فيعلم أنه رقيب عليه فإذا طلقتم فافعلوا ما أمركم به لتسلموا في الدين وتسعدوا في الآخرة والأولى ، ودبروا في جميع أموركم مثل ما دبر به أمركم في تربيتكم ومسكنكم أرضه وسقفه فإنه جعل فيه جميع ما تحتاجونه وبسطه نواله على من يرضيه ومن يسخطه ونشر حلمه وفضله وأخر بأسه وعدله فقد عائق أخرها أولها وبين مجملها ومفصلها والله يعلم بذات الصدور .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 39 . 42 ﴾

(51/770)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

قال الكلبي : خلق سبع سموات بعضها فوق بعض مثل القبة ، ومن الأرض مثلهن في كونها طباقاً متلاصقة كما هو المشهور أن الأرض ثلاث طبقات طبقة أرضية محضة وطبقة طينية ، وهي غير محضة ، وطبقة منكشفة بعضها في البحر وبعضها في البر وهي المعمورة ، ولا بعد في قوله : ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ من كونها سبعة أقاليم على حسب سبع سموات ، وسبع كواكب فيها وهي السيارة فإن لكل واحد من هذه الكواكب خواص تظهر آثار تلك الخواص في كل إقليم من أقاليم الأرض فتصير سبعة بهذا الاعتبار ، فهذه هي الوجوه التي لا يأباها العقل ، وما عداها من الوجوه المنقولة عن أهل التفسير فذلك من جملة ما يأباها العقل مثل ما يقال : السموات السبع أولها : موج مكفوف وثانيها : صخر وثالثها : حديد ورابعها : نحاس وخامسها : فضة وسادسها : ذهب وسابعها : ياقوت ، وقول من قال : بين كل واحدة منها مسيرة خمسمائة سنة وغلظ كل واحدة منها كذلك ، فذلك غير معتبر عند أهل التحقيق ، اللهم إلا أن يكون نقل متواتر (ا) ، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك والله أعلم بأنه ما هو وكيف هو .

فقوله : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقرىء ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ وبالرفع على الإبتداء وخبره ﴿ مِّنَ الأرض ﴾ .

(52/770)

وقوله تعالى : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ قال عطاء يريد الوحي بينهن إلى خلقه في كل أرض وفي كل سماء ، وقال مقاتل : يعني الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى ، وقال مجاهد : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك ذاك مثلاً وقال قتادة : في كل سماء من سماواته وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه ، وقرىء ﴿ يُنَزِّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ قوله تعالى : ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قرىء ﴿ لِيَعْلَمُواْ ﴾ بالياء والتاء أي لكي تعلموا إذا تفكرتم في خلق السموات والأرض ، وما جرى من التدبير فيها أن من بلغت قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره كانت قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عما أراده وقوله : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من قبل ما تقدم ذكره ﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ يعني بكل شيء من الكليات والجزئيات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، عالم بجميع الأشياء وقادر على الإنشاء بعد الإفناء ، فتبارك الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا

بالله العلي العظيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 36 ﴾

(53/770)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾

﴿ كأين ﴾ : هي كاف الجر دخلت على أي ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرا ابن كثير وعبيد عن أبي عمرو : " وكائن "ممدود مهموز ، كما قال الشاعر :

(54/770)

وكائن بالأباطح من صديق . . . وقرأ بعض القراء : ﴿ وكأين ﴾ بتسهيل الهمزة ، وفي هذين الوجهين قلب لأن الياء قبل الألفات ، وقوله تعالى : ﴿ فحاسبناها ﴾ قال بعض المتأولين : الآية في الآخرة ، أي ثم هو الحساب والتعذيب والذوق وخسار العاقبة . وقال

آخرون : ذلك في الدنيا ، ومعنى : ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ أي لم نغتفر لها زلة بل أخذت بالدقائق من الذنوب ، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكران : " نكُراً " بضم الكاف ، وقرأ الباقون : " نكْراً " بسكون الكاف وهي قراءة عيسى ، وقوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خسران عاقبتهم ، فيتأبد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا ، ثم ندب تعالى ﴿ أولي الألباب ﴾ إلى التقوى تحذيراً ، وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ صفة ل ﴿ أولي الألباب ﴾ ، وقرأ نافع وابن عامر : " صالحاً ندخله " بالنون ، وكذلك روى المفضل عن عاصم ، وقرأ الباقون : " يدخله " بالياء ، وقوله تعالى : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ﴾ اختلف الناس في تقدير ذلك ، فقال قوم من المتأولين : المراد بالاسمين القرآن ، ف " رسول " يعني رسالة ، وذلك موجود في كلام العرب ، وقال آخرون : ﴿ رسولاً ﴾ نعت أو كالنعت لذكر ، فالمعنى ذكر ذا رسول ، وقيل الرسول : ترجمة عن الذكر كأنه بدل منه ، وقال آخرون : المراد بهما جميعاً محمد وأصحابه ، المعنى : ذا ذكر رسولاً ، وقال بعض حذاق المتأولين الذكر : اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم : واحتج بهذا القاضي ابن الباقلاني في تأويل قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ [الأنبياء : 2] ، وقال بعض النحاة معنى الآية ﴿ ذكراً ﴾ بعث ﴿ رسولاً ﴾ فهو منصوب بإضمار فعل ، وقال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون ﴿ رسولاً ﴾ معمولاً للمصدر الذي هو الذكر .

قال القاضي أبو محمد : وأبين الأقوال عندي معنى أن يكون الذكر للقرآن والرسول محمد ، والمعنى بعث رسولاً ، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ونحا هذا المنحى السدي ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر : " مبيَّنات " بفتح الياء ، وقرأها بكسر الياء ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي والحسن والأعمش وعيسى ، وسائر الآية بين ، والرزق المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودروره .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع ، لأن الله تعالى قال : ﴿ سبعاً طباقاً ﴾ [الملك : 3 ، نوح : 15] وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهن في حديث الإسراء ، وقال لسعد : " حكمت بحكم الملك من فوق سبع أرقعة " ، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع ، وأما ﴿ الأرض ﴾ فالجمهور على أنها سبع أرضين ، وهو ظاهر هذه الآية ، وأن المماثلة إنما هي في العدد ، ويستدل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من غصب شبراً من أرض طوقه من سبع أرضين " ، إلى غير هذا مما وردت به روايات ، وروي عن قوم من العلماء أنهم قالوا : الأرض واحدة ، وهي مماثلة لكل سماء بانفرادها في ارتفاع

جرمها ، وقرأ أن فيها عالماً يعبد كما في كل سماء عالم يعبد ، وقرأ الجمهور : " مثلَهن " بالنصب ، وقرأ عاصم : " مثلُهن " برفع اللام ، و﴿ الأمر ﴾ هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى من يعقل ومن لا يعقل ، فإن الرياح والسحاب وغير ذلك مأمور كلها ، وباقي السورة وعظ ، وحض على توحيد الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ على كل شيء قدير ﴾ عموم معناه الخصوص في المقدورات ، وقوله ﴿ بكل شيء ﴾ عموم على إطلاقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(56/770)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

دلّ على كمال قدرته وأنه يقدر على البعث والمحاسبة .

ولا خلاف في السموات أنها سبع بعضها فوق بعض ؛ دلّ على ذلك حديثُ الإسراء وغيره .

ثم قال : ﴿ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ يعني سبعاً .

واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق

بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفي كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاك : ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ أي سبعاً من الأرضين ، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات .

والأوّل أصحّ ؛ لأن الأخبار دالّة عليه في الترمذي والنسائيّ وغيرهما .

وقد مضى ذلك مبيّناً في "البقرة" .

وقد خرّج أبو نعيم قال : حدّثنا محمد بن عليّ بن حُبيش قال : حدثنا إسماعيل بن إسحاق السراج ، (ح) وحدّثنا أبو محمد بن حبان قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال : حدّثنا سُويد بن سعيد قال حدّثنا حفص بن ميسرة عن موسى بن عقبة عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه أن كعباً حلف له بالذي فلق البحر لموسى :

أن صُهَيْباً حدّثه " أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : "اللَّهُمّ رَبَّ السموات السبع وما أَظْلَلْنَ ورَبَّ الأَرَضِين السبع وما أَقْلَلْنَ ورَبَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ ورب الرياح وما أَذْرَيْنَ إنا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها" " قال أبو نعيم : هذا حديث ثابت من حديث موسى بن عقبة تفرّد به عن عطاء .

روى عنه ابن أبي الزناد وغيرُه .

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من أخذ شِبرا من الأرض ظلما فإنه يُطَوَّقه يوم القيامة من سبع أرضِين " ومثله حديث عائشة ، وأبين منهما حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يأخذ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حقّه إلا طوّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة " قال الماوردِيّ : وعلى أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض العليا ، ولا تلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميّز .

وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان : أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها .

وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة .

والقول الثاني أنهم لا يشاهدون السماء ، وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدّونه .

وهذا قول من جعل الأرض كالكُرَة .

وفي الآية قول ثالث حكاه الكَلْبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ؛ ليس بعضها فوق بعض ، تفرّق بينها البحار وتُظِلّ جميعَهم السماءُ .

فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض ، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى أحتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام عند إمكان الوصول إليهم ؛ لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عمّ حكمه ، واحتمل ألا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ، ولكان صلى الله عليه وسلم بها مأموراً .

والله أعلم ما استأثر بعلمه ، وصواب ما اشتبه على خلقه .

ثم قال : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع .

وقال الحسن : بين كل سماءين أرضٌ وأمر .

والأمر هنا الوحي ؛ في قول مقاتل وغيره .

وعليه فيكون قوله : ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها .

(58/770)

وقيل : الأمر القضاء والقدر .

وهو قول الأكثرين .

فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السُّفْلَى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها .

وقيل : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ بحياة بعض وموت بعض وغِنَى قومٍ وفقر قوم .

وقيل : هو ما يُدبّر فيهنّ من عجيب تدبيره ؛ فينزل المطر ويُخرج النبات ويأتي بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها ؛ فينقلهم من حال إلى حال .

قال ابن كَيْسان : وهذا على مجال اللغة واتساعها ؛ كما يقال للموت : أمْرُ الله ؛ وللريح والسحاب ونحوها .

﴿ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكن ؛ وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومُكْنَته .

﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته .

ونصب "عِلْماً" على المصدر المؤكد ؛ لأن "أَحَاطَ" بمعنى علم .

وقيل : بمعنى وأن الله أحاط إحاطةً عِلْماً .

ختمت السورة بحمد الله وعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(59/770)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي كثيرٌ من أهلِ قريةٍ ﴿ عَتَتْ ﴾ أي أعرضتْ ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ بالعُتوّ والتمردِ والعنادِ ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ بالاستقصاءِ والتنفيرِ والمناقشةِ في كلِّ نقيرٍ وقِطْميرٍ ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي مُنكراً عظيماً . وقُرِىءَ نكراً ، والمرادُ حسابُ الآخرةِ وعذابُها ، والتعبيرُ عنهما بلفظِ الماضِي للدلالةِ على تحققِهما كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عاقبةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ هائلاً لا خُسَر وراءَهُ .

﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾

(60/770)

تكريرٌ للوعيدِ وبيانٌ لكونِه مترقباً كأنَّه قيلَ أعدَّ اللهُ لهم هَذا العذابَ ﴿ فاتقوا اللهَ يا أولى الألباب ﴾ ويجوزُ أن يرادَ بالحسابِ استقصاءُ ذنوبِهم وإثباتُها في صحائفِ الحفظةِ وبالعذابِ ما أصابَهُم عاجلاً ، وقد جُوِّزَ أن يكونَ عتتْ وما عُطفَ عليهِ صفةً للقريةِ وأعدَّ لهم جواباً لقولِه تعالَى كأيِّن ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ منصوبٌ بإضمارِ أعنِي بياناً للمُنادَى أو عطفُ بيانٍ لهُ أو نعتٌ ، وفي إبدالِه منهُ ضعفٌ لتعذرِ حلولِه محلَّه . ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ هو جبريلَ عليهِ السلامُ سمّيَ بِه لكثرةِ ذكرِه أو لنزولِه بالذِكرِ الذي هُو القرآنُ كما ينبىءُ عنْهُ إبدالُ قولِه تعالَى ﴿ رَسُولاً ﴾ منْهُ أو لأنَّه مذكورٌ في السمواتِ وفي الأممِ ، أو أُريدَ بالذكرِ الشرفُ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ كأنَّه في نفسِه شرفٌ إما لأنه شرفٌ للمنزلِ عليهِ وإما لأنَّه هو مجدٌ وشرفٌ عند اللهِ تعالَى كقولِه تعالَى : ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ أو هُو النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وعليهِ الأكثرُ عبرَ عنهُ بالذكرِ لمواظبتِه على تلاوةِ القرآنِ أو تبليغِه والتذكيرِ بِه وعبرَ عن إرسالِه بالإنزالِ بطريقِ الترشيحِ أو لأنه مسببٌ عن إنزالِ الوَحيِ إليهِ ، وأُبدلَ منهُ رسولاً للبيانِ أو هو القرآنُ ورسولاً منصوبٌ بمقدرٍ مثلُ أرسلَ أوْ بذكرَا على إعمالِ المصدرِ المنونِ أو بدلٌ منْهُ على أنَّه بمعنى الرسالةِ وقولُه تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءايات الله مبينات ﴾ نعتٌ لرسولاً وآياتُ اللهِ القرآنُ ومبيناتٍ حالٌ منها أي حالَ كونِهَا مبيناتٍ لكُم ما تحتاجونَ إليهِ من الأحكامِ وقُرِىءَ

مبيَّناتٍ أي بينَها اللهُ تعالَى لقولِه تعالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأيات ﴾ واللامُ في قولِه تعالَى : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ متعلقةٌ بيتلُو أو

(61/770)

بأنزلَ وفاعلُ يخرجَ على الأولِ ضميرُ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أو ضميرُ الجلالةِ ، والموصولِ عبارةٌ عنِ المؤمنينَ بعد إنزالِهِ أي ليحصلَ لهم الرسولُ أو اللهُ عزَّ وعلاَ ما هُم عليهِ الآنَ من الإيمانِ والعملِ الصالحِ أو ليخرجَ من عِلمَ أو قدَّرَ أنَّه سيؤمنُ ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من الضلالةِ إلى الهُدَى ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ حسبما يُبيَّنُ في تضاعيفِ ما أُنزلَ من الآياتِ المبيناتِ ﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وقُرِىءَ نُدْخِلْهُ بالنون وقولُه تعالَى : ﴿ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ حالٌ من مفعولِ يُدخلْهُ والجمعُ باعتبارِ مَعْنَى مَنْ كما أنَّ الإفرادَ في الضمائرِ الثلاثةِ باعتبارِ لفظِها . وقولُه تعالَى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ حالٌ أُخرى منْهُ أو من الضميرِ في خالدينَ بطريقِ التداخلِ وإفرادُ ضميرِ لهُ قد مرَّ وجهُه وفيهِ مَعْنَى التعجبِ والتعظيمِ لما رزقَهُ اللهُ المؤمنينَ من الثوابِ .

﴿ اللهُ الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾

(62/770)

مبتدأٌ وخبرٌ ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ أي خلقَ من الأرضِ مثلَهُنَّ في العددِ . وقُرِىءَ مثلُهن بالرفعِ على أنه مبتدأٌ ومِنَ الأرضِ خبرُهُ واختلفَ في كيفيةِ طبقاتِ الأرضِ فالجمهورُ على أنها سبعُ أرضينَ طباقاً بعضُها فوقَ بعضٍ بين كلِّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ كما بينَ السماءِ والأرضِ وفي كلِّ أرضٍ سكانٌ من خلقِ الله تعالَى وقالَ الضحاكُ مطبقةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ من غيرِ فتوقٍ بخلافِ السمواتِ قال القرطبيُّ والأولُ أصحُّ لأنَّ الأخبارَ دالةٌ عليهِ كما رَوَى البخاريُّ وغيرُه مِنْ " أنَّ كعباً حلفَ بالذي فلقَ البحرَ لموسى أنَّ صُهيباً حدَّثهُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يرَ قريةً يريدُ دخولَها إلا قالَ حينَ يراهَا اللَّهم ربَّ السمواتِ السبعِ وما أظللنَ وربَّ الأرضينَ السبعِ وما أقللنَ وربَّ الشياطينِ وما أضللنَ وربَّ الرياحِ وما أذرينَ نسألُكَ خيرَ هذه القريةِ وخيرَ أهلِهَا ونعوذُ بكَ من شرِّها وشرِّ مَنْ فيهَا " وعن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُما أنَّ نافعَ بنَ الأزرقِ سألَهُ هلْ تحتَ الأرضينَ خلقٌ قالَ نعمْ قالَ فما الخلقُ قال إما ملائكةٌ أو جنٌّ . قال الماورديُّ وعلى هَذا تختصُّ دعوةُ الإسلامِ بأهلِ الأرضِ العُليا دونَ مَنْ عداهُم وإنْ كانَ فيهنَّ مَنْ يعقلُ مِنْ خلقٍ وفي مشاهدتِهم السماءَ واستمدادِهِم الضوءَ منهَا قولانِ أحدُهما أنهم يشاهدونَ السماءَ من كلِّ جانبٍ من أرضِهم ويستمدونَ الضياءَ منهَا والثاني أنهم لا يشاهدونَ السماءِ وأنَّ الله تعالَى خلقَ لهم ضياءً يشاهدُونَهُ . وحَكَى الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُما أنها سبعُ أرضينَ متفرقةٌ

بالبحارِ وتُظِلُّ الجميعَ السماءُ ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يَجْرِي أمرُه وقضاؤُه بينهنَّ وينفذُ ملكُهُ فيهنَّ ، وعن قَتَادَةَ : في كلِّ سماءٍ وفي كلِّ أرضٍ خلقٌ من خلقِه وأمرٌ من أمرِه وقضاءٌ من قضائِه ،

(63/770)

وقيلَ هو مَا يُدبرُ فيهنَّ من عجائبِ تدبيرِه . وقُرِئَ ينزلُ الأمرُ ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلقٌ بخلقَ أو بيتنزل أو بمضمرٍ يعمُّهمَا أيْ فعلَ ذلكَ لتعلَمُوا أنَّ منْ قدرَ على ما ذُكرَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ لاستحالةِ صدورِ الأفاعيلِ المذكورةِ ممن ليسَ كذلكَ ويجوزُ أن يكونَ العاملُ في اللامِ بيانَ ما ذُكرَ من الخلقِ وتنزّلِ الأمرِ أيْ أَوْحى ذلكَ وبيَّنهُ لتعلمُوا بما ذكرَ من الأمورِ التي تشاهدونَها والتي تتلقَّونها من الوحي من عجائبِ المصنوعاتِ أنه لا يخرجُ عن قدرتِهِ وعلمِهِ شيءٌ ما أصلاً وقُرِئَ ليعلمُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(64/770)

وقال الآلوسى :

﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾

مبتدأ وخبر ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهن على أن ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ مفعول لفعل محذوف .

والجملة عطف على الجملة قبلها ، وقيل : ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ عطف على سبع سماوات ، وإليه ذهب الزمخشري ، وفيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف والمعطوف وهو مختص بالضرورة عند أبي علي الفارسي ، وقرأ المفضل عن عاصم .

وعصمة عن أبي بكر ﴿ مِثْلُهُنَّ ﴾ بالرفع على الابتداء ﴿ وَمِنَ الأرض ﴾ الخبر .

والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف فقال الجمهور : هي ههنا في كونها سبعاً وكونها طباقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى ، وعن ابن عباس أنهم إما ملائكة .

أو جن ، وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في "شعب الايمان" .

وفي الأسماء والصفات من طريق أبي الضحى عنه أنه قال في الآية : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى ، قال الذهبي : إسناده صحيح ولكنه شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً .

وذكر أبو حيان في البحر نحوه عن الحبر وقال : هذا حديث لا شك في وضعه وهو من رواية الواقدي الكذاب .

وأقول لا مانع عقلاً ولا شرعاً من صحته ، والمراد أن في كل أرض خلقاً يرجعون إلى أصل واحد رجوع بني آدم في أرضنا إلى آدم عليه السلام ، وفيه أفراد ممتازون على سائرهم كنوح وإبراهيم وغيرهما فينا .

وأخرج ابن أبي حاتم .

(65/770)

والحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعاً " أن بين كل أرض والتي تليها خمسمائة عام والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك والثانية مسجن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريتها والخامسة فيها حياتها والسادسة فيها عقاربها والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه

ويد خلفه يطلقه الله تعالى لمن يشاء " وهو حديث منكر كما قال الذهبي لا يعول عليه أصلاً فلا تغتر بتصحيح الحاكم ، ومثله في ذلك أخبار كثيرة في هذا الباب لولا خوف الملل لذكرناها لك لكن كون ما بين كل أرضين خمسمائة سنة كما بين كل سماءين جاء في أخبار معتبرة كما روى الإمام أحمد .

والترمذي عن أبي هريرة قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه قال : هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ، قال : هل تدرون ما بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها خمسمائة عام ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : سماء وإن بعد ما بينهما خمسمائة سنة ؛ ثم قال كذلك حتى عد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : وإن فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ، ثم قال : هل تدرون ما تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد صلى الله عليه وسلم سبع أرضين ما بين كل أرضين خمسمائة سنة "

والاخبار في تقدير المسافة بما ذكر بين كل سماءين أكثر من الأخبار في تقديرها بين كل أرضين وأصح ، ومنها ما هو مذكور في صحيح البخاري .

وغيره من الصحاح ، وفيها أيضاً أن ثخن كل سماء خمسمائة عام فقول الرازي في ذلك إنه غير معتبر عند أهل التحقيق كلام لا يخفى بشاعته على من سلك من السنة أقوم طريق ، نعم ما حكاه من أن السماء الأولى موج مكفوف .

والثانية صخر .

والثالثة حديد ، والرابعة نحاس .

والخامسة فضة .

والسادسة ذهب .

والسابعة ياقوت ليس بمعتبر أصلاً ولم يرد بما تضمنه من التفصيل خبر صحيح لكن في قوله : إنه مما يأباه العقل إن أراد به نفي الإمكان عقلاً منع ظاهر ، وقال الضحاك : هي في كونها سبعاً بعضها فوق بعض لا في كونها كذلك مع وجود مسافة بين أرض وأرض ، واختاره بعضهم زاعماً أن المراد بها تيك السبع طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركز .

والطبقة الطينية .

والطبقة المعدنية التي يتكون فيها المعادن .

والطبقة الممتزجة بغيرها المنكشفة التي هي مسكن الإنسان ونحوه من الحيوان وفيها ينبت النبات .

وطبقة الأدخنة .

والطبقة الزمهريرية .

وطبقة النسيم الرقيق جداً ، ولا يخفى أنه أشبه شيء بالهذيان ، ومثله ما يزعمه بعض الناظرين في كتب العلوم المسماة بالحكمة الجديدة من أن الأرض انفصلت بسبب بعض الحوادث من بعض الأجرام العلوية صغيرة ثم تكونت فوقها طبقة وهكذا حتى صار المجموع سبعاً ، وزعم أنهم شاهدوا بين كل طبقة وطبقة آثاراً من مخلوقات مختلفة ، وقال أبو طالح : هي في كونها سبعاً لا غير فهي سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض يفرق بينها البحار ، ويظل جميعها السماء ، وروى ذلك عن ابن عباس فالنسبة بين أرض وأرض على هذا نحو نسبة أمريقيا إلى آسيا .

أو أوروبا .

أو أفريقيا لكن قيل : إن تلك البحار الفارقة لا يمكن قطعها .

وقيل : من الأقاليم السبعة وهي مختلفة الحرارة والبرودة والليل والنهار إلى أمور أخرى ، واختاره بعضهم ولا أظنه شيئاً لأن المتبادر اعتبار انفصال أرض عن أرض انفصالاً حقيقياً في المثلية ، وقيل : المثلية في الخلق لا في العدد ولا في غيره فهي أرض واحدة مخلوقة كالسماوات السبع ، وأيد بأن الأرض لم تذكر في القرآن إلا موحدة ، ورد بأنه قد صح من رواية البخاري .

وغيره " اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن " الحديث ، وكذا صح " من غصب قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين " وأصح الأقوال كما قال القرطبي قول الجمهور السابق ، وعليه اختلف في مشاهدة أهل ما عدا هذه الأرض السماء واستمدادهم الضوء منها فقيل : إنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها .

وقيل : إنهم لا يشاهدون السماء وأن الله عز وجل خلق لهم ضياءاً يشاهدونه ، وروى الإمامية عن بعض الأئمة نحواً مما قاله الجمهور ، أخرج العياشي بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا رضي الله تعالى عنه قال : بسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : " هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال : والأرض السابعة فوق السماء السادسة

والسماء السابعة فوقها قبة وعرض الرحمن فوق السماء السابعة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ سموات وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ " الخ .

(68/770)

وأنا أقول بنحو ما قاله الجمهور راجياً العصمة ممن على محور إرادته تدور أفلاك الأمور : هي سبع أرضين بين كل أرض وأرض منها مسافة عظيمة ، وفي كل أرض خلق لا يعلم حقيقتهم إلا الله عز وجل ولهم ضياء يستضيئون به ، ويجوز أن يكون عندهم ليل ونهار ولا يتعين أن يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر ، وقد غلب على ظن أكثر أهل الحكمة الجديدة أن القمر عالم كعالم أرضنا هذه وفيه جبال وبحار يزعمون أنهم يحسون بها بواسطة أرصادهم وهم مهتمون بالسعي في تحقيق الأمر فيه فليكن ما نقول به من الأرضين على هذا النحو ، وقد قالوا : أيضاً إن هذه الشمس في عالم هي مركز دائرته وبلقيس مملكته بمعنى أن جميع ما فيه من كواكبهم السيارة تدور عليها فيه على وجه مخصوص ونمط مضبوط ، وقد تقرب إليها فيه وتبعد عنها إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى كواكب ذوات الأذناب ، وهي عندهم كثيرة جداً تتحرك على شكل بيضي وإن الشمس بعالمها من توابع كوكب آخر تدور عليه دوران توابعها من السيارات عليها هو فيما نسمع أحد كواكب

النجم ، ولهم ظن في أن ذلك أيضاً من توابع كوكب آخر وهكذا ، وملك الله تعالى العظيم عظيم لا تكاد تحيط به منطقة الفكر ويضيق عنه نطاق الحصر ، وسماء كل عالم كالقمر عندهم ما انتهى إليه هواؤه حتى صار ذلك الجرم في نحو خلاء فيه لا يعارضه ولا يضعف حركته شيء .

والجسم متى تحرك في خلاء لا يسكن لعدم المعارض فليكن كل أرض من هذه الأرضين محمولة بين القدرة بين كل سماءين على نحو ما سمعت عن الرضا على آبائه وعليه السلام ، وهناك ما يستضيء به أهلها سابحاً في فلك بحر قدرة الله عز وجل ونسبة كل أرض إلى سمائها نسبة الحلقة إلى الفلاة وكذا نسبة السماء إلى السماء التي فوقها ، ويمكن أن تكون الأرضون وكذا السماوات أكثر من سبع .

(69/770)

والاقتصار على العدد المذكور الذي هو عدد تام لا يستدعي نفي الزائد فقد صرحوا بأن العدد لا مفهوم له والسماء الدنيا منتهى دائرة يتحرك فيها أعلى كوكب من السيارات وبينها وبين هذه الأرض بعد بعيد .

(70/770)

وقوله صلى الله عليه وسلم : " خمسمائة عام " من باب التقريب للإفهام ، ويقرب الأمر إذا اعتبر ذلك بالنسبة إلى الراكب المجد كما وقع في كثير من أخبار فيها تقدير مسافة ، وقوله عليه الصلاة والسلام في السماء الدنيا : " موج مكفوف " يمكن أن يكون من التشبيه البليغ في اللطافة ونحوها أو هو على حقيقته والتنوين فيه للنوعية حتى يقوم الدليل العقلي الصحيح على امتناعها ، وتزيين هذه السماء بالكواكب لظهورها فيها على ما يشاهد فلا يضر في ذلك كونها كلاً أو بعضاً فوقها أو تحتها ، ولم يقم دليل على أن شيئاً من الكواكب مغروز في شيء من السماوات كالفص في الخاتم والمسمار في اللوح ، بل في بعض الأخبار ما يدل على خلافه ، نعم أكثر الأخبار في أمر السماوات والأرض والكواكب لا يعول عليها كما أشار إليه النسفي في بحر الكلام ، وكذا ما قاله قدماء أهل الهيئة ومحدثوهم ، وفي كل مما ذهب الفريقان إليه ما يوافق أصولنا وما يخالفه وما شريعتنا ساكتة عنه لم تتعرض له بنفي أو إثبات ، وحيث كان من أصولنا أنه متى عارض الدليل العقلي الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي للدليل العقلي لأنه أصله ولو أبطل به لزم بطلانه نفسه فالأمر سهل لأن باب التأويل أوسع من فلك الثوابت ولا أرى بأساً في ارتكاب تأويل بعض الظواهر المستبعدة بما لا يستبعد وإن لم يصل الاستبعاد إلى حد الامتناع إذا تضمن ذلك مصلحة دينية ولم يستلزم مصادمة معلوم من الدين بالضرورة ، وقد يلتزم الإبقاء على الظاهر وتفويض

الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لا يتعاصاها شيء رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر الذين يعدون الخروج عنها لا سيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة ضلالاً محضاً وكفراً صرفاً ؛ ورحم الله تعالى امرءاً جب الغيبة عن نفسه .

وقد أخرج عبد بن حميد .

وابن الضريس .

(71/770)

وابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس في هذه الآية قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها ، وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل لا ينبغي أن يتوقف في وجود سبع أرضين على الوجه الذي قدمناه ، ويحمل السبع على الأقاليم أو على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما مما تقدم ، وليس في ذلك ما يصادم ضرورياً من الدين أو يخالق قطعياً من أدلة المسلمين ، ولعل القول بذلك التعدد هو المتبادر من الآية ، وتقتضيه الأخبار ، ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره أو المتردد فيه لكن لا أرى ذلك إلا عن جهل بما هو الأليق بالقدرة والأحرى بالعظمة ، والله تعالى الموفق للصواب .

﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يجري أمر الله تعالى وقضاؤه وقدره عز وجل بينهن وينفذ ملكه فيهن ، وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن قتادة قال : في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه تعالى وأمر من أمره وقضاء من قضائه عز وجل ، وقيل : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ بحياة وموت وغنى وفقر ، وقيل : هو ما يدبره سبحانه فيهن من عجيب تدبيره جل شأنه ، وقال مقاتل .

وغيره : ﴿ الأمر ﴾ هنا الوحي ، و ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى بين هذه الأرض التي هي أدناها وبين السماء السابعة ، والأكثرون على أنه القضاء والقدر كما سبق ، وأن ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ؛ وقرأ عيسى .

وأبو عمرو في رواية ينزل مضارع نزل مشدداً ﴿ الأمر ﴾ بالنصب أي ينزل الله الأمر ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلق بخلق أو بيتنزل أو بمضمر يعمهما أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء ، وقيل : التقدير أخبرتكم أو أعلمتكم بذلك لتعلموا ، وقرىء ليعلموا بياء الغيبة .

﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَا ﴾ لاستحالة صدور هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾

لما ذكر سبحانه ما تقدّم من الأحكام ، حذّر من مخالفتها ، وذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره ، فحلّ بهم عذابه ، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ يعني : عصت ، والمراد : أهلها ، والمعنى : وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله ، أو أعرضوا عن أمر الله ورسله على تضمين ﴿ عتت ﴾ معنى أعرضت ، وقد قدّمنا الكلام في ﴿ كأين ﴾ في سورة آل عمران وغيرها ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي : شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا .

قال مقاتل : حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازها بالعذاب ، وهو معنى قوله : ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي : عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكراً في الآخرة ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط ، والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً .

والنكر : المنكر ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي : عاقبة كفرها ﴿ وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي : هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ في الآخرة ، وهو عذاب النار ، والتكرير للتأكيد ﴿

فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ أي : يا أولي العقول الراجحة ، وقوله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ في محل نصب بتقدير أعني بياناً للمنادى بقوله : ﴿ يأُوْلِي الألباب ﴾ أو عطف بيان له أو نعت ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً ﴾ قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل ، أي : أنزل إليكم قرآناً ، وأرسل إليكم رسولاً ، وقال أبو عليّ الفارسي : إن رسولاً منصوب بالمصدر ، وهو ذكراً ؛ لأن المصدر المنوّن يعمل .

والمعنى : أنزل إليكم ذكر الرسول .

(73/770)

وقيل : إن ﴿ رسولاً ﴾ بدل من ﴿ ذكراً ﴾ ؛ وكأنه جعل الرسول نفس الذكر مبالغة ، وقيل : إنه بدل منه على حذف مضاف من الأوّل تقديره : أنزل ذا ذكر رسولاً ، أو صاحب ذكر رسولاً .

وقيل : إن رسولاً نعت على حذف مضاف أي : ذكراً ذا رسول ، فذا رسول نعت للذكر .

وقيل : إن رسولاً بمعنى رسالة ، فيكون رسولاً بدلاً صريحاً من غير تأويل ، أو بياناً .

وقيل : إن ﴿ رسولاً ﴾ منتصب على الإغراء ، كأنه قال : الزموا رسولاً ، وقيل : إن الذكر ها هنا بمعنى الشرف كقوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كتابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء :

10] وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

ثم بيّن هذا الشرف فقال : ﴿ رَسُولاً ﴾ وقد ذهب الأكثر إلى أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الكلبي : هو جبريل ، والمراد بالذكر القرآن ، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة ، كما لا يخفى .

ثم نعت سبحانه الرسول صلى الله عليه وسلم المذكور بقوله : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيات الله مبينات ﴾ أي : حال كونها مبينات ، قرأ الجمهور : ﴿ مبينات ﴾ على صيغة اسم المفعول ، أي : بيّنها الله وأوضحها ، وقرأ ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي على صيغة اسم الفاعل أي : الآيات تبيّن للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام .

(74/770)

ورجّح القراءة الأولى أبو حاتم ، وأبو عبيد لقوله : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ [آل عمران : 118] ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ اللام متعلقة ب ﴿ يتلو ﴾ أي : ليخرج الرسول الذي يتلو الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، ويجوز أن تتعلق اللام بأنزل ، فيكون المخرج هو الله

سبحانه ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ أي : يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿ ندخله جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يدخله ﴾ بالتحتية ، وقرأ نافع ، وابن عامر بالنون ، وجمع الضمير في ﴿ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ باعتبار معنى من ، ووحّده في ﴿ يدخله ﴾ باعتبار لفظها ، وجملة : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في خالدين على التداخل ، أو من مفعول يدخله على الترادف ؛ ومعنى ﴿ قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ أي : وسع له رزقه في الجنة .

﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾ الاسم الشريف مبتدأ ، وخبره الموصول مع صلته ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ أي : وخلق من الأرض مثلهنّ يعني : سبعاً .

واختلف في كيفية طبقات الأرض .

قال القرطبي في تفسيره : واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما ، وهو قول الجمهور : أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة ، كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاك : إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات .

والأوّل أصح ؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي ، والنسائي ، وغيرهما ، وقد مضى ذلك مبيناً في البقرة قال : وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين " إلى آخر كلامه ، وسيأتي في آخر البحث ما يقوّي قول الجمهور .

قرأ الجمهور : ﴿ مثلهنّ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ أو على تقدير فعل ، أي : وخلق من الأرض مثلهنّ .

وقرأ عاصم في رواية عنه بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ الجملة مستأنفة ، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها ، والأمر : الوحي .

قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين .

وقال الحسن : بين كل سماء وبين الأرض .

وقال قتادة : في كل أرض من أرضه ، وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه ، وقيل : بينهنّ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها ، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، وقيل : هو ما يدبر فيهنّ من عجيب تدبيره ، فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتي بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها ، فينقلهم من حال إلى حال .

قال ابن كيسان : وهذا هو مجال اللغة واتساعها ، كما يقال للموت : أمر الله وللريح والسحاب ، ونحوها .

(76/770)

قرأ الجمهور : ﴿ يتنزل الأمر ﴾ من التنزل ، ورفع الأمر على الفاعلية ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه : (ينزل) من الإنزال ، ونصب الأمر على المفعولية ، والفاعل الله سبحانه ، واللام في ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلق ب ﴿ خلق ﴾ ، أو ب ﴿ يتنزل ﴾ ، أو بمقدّر ، أي : فعل ذلك ؛ لتعلموا كمال قدرته ، وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى ﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان ، وانتصاب علماً على المصدرية ؛ لأن أحاط بمعنى علم ، أو هو صفة لمصدر محذوف أي : أحاط إحاطة علماً ، ويجوز أن يكون تمييزاً .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ يقول : لم ترحم ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ يقول : عظيماً منكراً .

وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً .

رَسُولاً ﴾ قال : محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل : ﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات *وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر ؟ وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : سبع أرضين في كلّ أرض نبيّ كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى ، قال البيهقي : هذا إسناده صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك .

(77/770)

والثانية مسجن الريح ، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً يهلك عاداً ، فقال : يا ربّ أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ؟ فقال له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهي التي قال الله في كتابه : ﴿ مَا

تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ [الذاريات : 42] والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، فقالوا : يا رسول الله للنار كبريت ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده ؛ إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت " إلى آخر الحديث .

قال الذهبي متعقباً للحاكم : هو حديث منكر .

وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التي فيها العرش ، وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 248.246 ﴾

(78/770)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾

اسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو الله .

وهذا من حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال كما سماه السكاكي ، فإنه بعد أن جرى ذكر شؤون من عظيم شؤون الله تعالى ابتداء من قوله : ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ [الطلاق :

1] إلى هنا ، فقد تكرر اسم الجلالة وضميره والإسناد إليه زهاء ثلاثين مرة فاقتضى المقام عقب ذلك أن يُزاد تعريف الناس بهذا العظيم ، ولمَّا صار البساط مِليئاً بذكر اسمه صح حذفه عند الإخبار عنه إيجازاً وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ في سورة مريم (65) ، وكذلك عند قوله : صم بكم عمي ﴾ [البقرة : 18] ، وقوله : ﴿ مقام إبراهيم ﴾ في سورة البقرة (125 .

(فالجملة على هذا الوجه مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

والموصول صفة لاسم الجلالة وقد ذُكرت هذه الصلة لما فيها من الدلالة على عظيم قدرته تعالى ، وعلى أن الناس وهم من جملة ما في الأرض عبيده ، فعليهم أن يتقوه ، ولا يتعدوا حدوده ، ويحاسبوا أنفسهم على مدى طاعتهم إياه فإنه لا تخفى عليه خافية ، وأنه قدير على إيصال الخير إليهم إن أطاعوه وعقابهم إن عصوه .

وفيه تنويه بالقرآن لأنه من جملة الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض .

والسبع السماوات تقدم القول فيها غير مرة ، وهي سبع منفصل بعضها عن الآخر لقوله تعالى في سورة نوح (15) : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ﴾

وقوله : ومن الأرض مثلهن ﴾ عطف على ﴿ سبع سموات ﴾ وهو يحتمل وجهين :

أحدهما أن يكون المعطوف قوله : ﴿ من الأرض ﴾ على أن يكون المعطوف لفظ الأرض ويكون حرف ﴿ مِن ﴾ مزيداً للتوكيد بناء على قول الكوفيين والأخفش أنه لا يشترط لزيادة ﴿ من ﴾ أن تقع في سياق النفي والنهي والاستفهام والشرط وهو الأحق بالقبول وإن لم يكن كثيراً في الكلام ، وعدمُ الكثرة لا ينافي الفصاحة ، والتقدير : وخلق الأرض ، ويكون قوله : ﴿ مثلهن ﴾ حالاً من ﴿ الأرض ﴾ .

ومماثلة الأرض للسماوات في دلالة خلقها على عظيم قدرة الله تعالى ، أي أن خلْق الأرض ليس أضعف دلالة على القدرة من خلق السماوات لأن لكل منهما خصائص دالة على عظيم القدرة .

وهذا أظهر ما تُوَوّلُ به الآية .

وفي إفراد لفظ ﴿ الأرض ﴾ دون أن يُؤتى به جمعاً كما أُتي بلفظ السماوات إيذان بالاختلاف بين حاليهما .

والوجه الثاني : أن يكون المعطوف ﴿ مثلهن ﴾ ويكون قوله : ﴿ ومن الأرض ﴾ بياناً للمثل فمصدق ﴿ مثلهن ﴾ هو ﴿ الأرض ﴾ .

وتكون ﴿ مِن ﴾ بيانية وفيه تقديم البيان على المبيّن ، وهو وارد غير نادر .

فيجوز أن تكون مماثلة في الكُروية ، أي مثل واحدة من السماوات ، أي مثل كوكب من

الكواكب السبعة في كونها تسير حول الشمس مثل الكواكب فيكون ما في الآية من الإِعجاز العلمي الذي قدمنا ذكره في المقدمة العاشرة .

وجمهور المفسرين جعلوا المماثلة في عدد السبع وقالوا : إن الأرض سبع طبقات فمنهم من قال هي سبع طبقات مُنبسطة تفرق بينها البحار .

وهذا مروي عن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه ، ومنهم من قال هي سبع طباق بعضُها فوق بعض وهو قول الجمهور .

وهذا يقرب من قول علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) ، من إثبات طبقات أرضية لكنها لا تصل إلى سبع طبقات .

وفي "الكشاف" "قيل ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه" أ هـ .

وقد علمت أنها لا دلالة فيها على ذلك .

(80/770)

وقال المازري في كتابه "المُعلم" على "صحيح مسلم" عند قول النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الشفعة : "من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه من سبع أرضين يوم القيامة" .

كان شيخنا أبو محمد عبد الحميد كتب إليّ بعدَ فراقي له : هل وقع في الشرع عما يدل على

كون الأرض سبعاً ، فكتبت إليه قولُ الله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ وذكرت له هذا الحديث فأعاد كتابه إليّ يذكر فيه أن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد .

وأن الخبر من أخبار الآحاد ، والقرآن إذا احتمل والخبر إذا لم يتواتر لم يصح القطع بذلك ، والمسألة ليست من العمليات فيتمسك فيها بالظواهر وأخبارِ الآحاد ، فأعدت إليه المجاوبة أحتج لبعد الاحتمال عن القرآن وبسطتُ القول في ذلك وترددتُ في آخر كتابي في احتمالِ ما قال .

فقطع المجاوبة أهـ .

وأنت قد تبينت أن إفراد الأرض مشعر بأنها أرض واحدة وأن المماثلة في قوله : ﴿ مثلهن ﴾ راجعة إلى المماثلة في الخلق العظيم ، وأما الحديث فإنه في شأن من شؤون الآخرة وهي مخالفة للمتعارف ، فيجوز أن يطوق الغاصب بالمقدار الذي غصبه مضاعفاً سبع مرات في الغِلظ والثقل ، على أن عدد السبع يجوز أن يراد به المبالغة في المضاعفة .

ولو كان المراد طبقات معلومة لقال : طوقه من السبع الأرضين بصيغة التعريف .

وكلام عبد الحميد أدخل في التحقيق من كلام المازري .

وعلى مجاراة تفسير الجمهور لقوله : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ من المماثلة في عدد السبع ، فيجوز أن يقال : إن السبع سبع قطع واسعة من سطح الأرض يفصل بينها البحار نسميها

القارات ولكن لا نعني بهذه التسمية المعنى الاصطلاحي في كتب الجغرافيا القديمة أو الحديثة بل هي قارات طبيعية كان يتعذر وصول سكان بعضها إلى بعضها الآخَر في الأزمان التي لم يكن فيها تنقّل بحري وفيما بعدها مما كان ركوب البحر فيها مهولاً .

(81/770)

! وهي أن آسيا مع أوروبا قارة ، وإفريقيا قارة ، وأستراليا قارة ، وأميركا الشمالية قارة ، وأميركا الجنوبية قارة ، وجرولندة في الشمال ، والقارة القطبية الجنوبية .

ولا التفات إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار ، وتكون ﴿ من ﴾ تبعيضية لأن هذه القارات الاصطلاحية أجزاء من الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(82/770)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ .

أفرد الضمير في هذه الآية في قوله يؤمن وقوله يعمل وقوله يدخله وقوله ، وجمع في قوله خالدين .

والجواب أن الإفراد باعتبار لفظ من والجمع باعتبار معناها وهو كثير في القرآن العظيم .

وفي هذه الآية الكريمة رد على من زعم أن مراعاة المعنى لا تجوز بعدها مراعاة اللفظ لأنه في هذه الآية راعى المعنى في قوله خالدين ثم راعى اللفظ بعد ذلك في قوله قد أحسن الله له رزقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 297 ﴾

(83/770)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ فقيل له : راجعها

فإنها صوّامة قوّامة وإنها من أزواجك في الجنة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قال : في حفصة بنت عمر طلقها النبي صلى الله عليه وسلم واحدة فنزلت ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ إلى قوله : ﴿ يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قال : فراجعها .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : " طلق عبد بن يزيد أبو ركانة أم ركانة ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ما يغني عني إلا ما تغني هذه الشعرة – لشعرة أخذتها من رأسها – فأخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم حمية عند ذلك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ركانة وإخوته ثم قال لجلسائه : أترون كذا من كذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد يزيد : طلقها ففعل ، فقال لأبي ركانة : ارتجعها فقال : يا رسول الله إني طلقتها . قال : قد علمت ذلك فارتجعها " ، فنزلت ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : الذهبي إسناده واهٍ ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : بلغنا في قوله : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ إنها نزلت في عبد الله بن عمرو بن العاص وطفيل بن الحارث وعمرو بن سعيد بن العاص .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الزبير " عن ابن عمر أنه طلق امرأته ، وهي حائض ، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق عمر ، فذكر ذلك له فقال : مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم يطلقها إن بدا له " ، فأنزل الله عند ذلك " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن " قال أبو الزبير : هكذا سمعت ابن عمر يقرأها .

وأخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه " عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن " " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ " فطلقوهن في قبل عدتهن " .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ " فطلقوهن لقبل عدتهن " .

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه

والبيهقي عن مجاهد أنه كان يقرأ " فطلقوهن لقبل عدتهن " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : طاهراً من غير جماع .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : في الطهر في غير جماع .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : الطهر في غير جماع .

(85/770)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله فليطلقها طاهراً في غير جماع .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : طاهراً من غير جماع .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقل أحدكم لامرأته قد طلقتك ، قد راجعتك ، ليس هذا بطلاق

المسلمين ، طلقوا المرأة في قبل طهرها " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : طهرهن ، وفي لفظ قال : طاهراً في غير جماع .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، فأما الرجل يخالط امرأته ، حتى إذا أقلع عنها طلقها عند ذلك فلا يدري أحاملاً هي أم غير حامل ، فإن ذلك لا يصلح .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبراني وابن مردويه عن مجاهد رضي الله عنه قال : سأل ابن عباس يوماً رجل فقال : يا أبا عباس إني طلقت امرأتي ثلاثاً ، فقال ابن عباس : عصيت ربك وحرمت عليك امرأتك ولم تتق الله ليجعل لك مخرجاً ، يطلق أحدكم ، ثم يقول : يا أبا عباس ، قال الله : " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن " وهكذا كان ابن عباس يقرأ هذا الحرف .

(86/770)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : لا يطلقها وهي حائض ، ولا في طهر قد جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت

وطهرت طلقها تطليقة ، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض ، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها ، وإذا أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين ، كما قال الله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة ، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين ، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه واحدة وهي أملك بنفسها ، ثم تتزوّج من شاءت هو أو غيره .

وأخرج عبد بن حميد والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال : طلاق العدة أن يطلق الرجل امرأته وهي طاهر ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها ، أو يراجعها إن شاء .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي وابن مردويه عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن رجل طلق امرأته مائة قال : عصيت ربك ، من يتق الله يجعل له مخرجاً ثم تلا " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن " .

قوله تعالى : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وأحصوا العدة ﴾ قال : الطلاق طاهراً في غير جماع .

أخرج عبد بن حميد عن الشعبي رضي الله عنه أن شريحاً طلق امرأته واحدة ، ثم سكت

عنها حتى انقضت العدة ، ثم أتاها فاستأذن ، ففزعت فدخل ، فقال : " إني أردت أن يطاع الله ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ ولا يخرجن " .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين رضي الله عنه أن شريحاً ، طلق امرأته وأشهد ، وقال للشاهدين : اكتما عليَّ فكتما عليه حتى انقضت العدة ثم أخبرها ، فنقلت متاعها ، فقال شريح : إني كرهت أن تأثم .

(87/770)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنه قال : المطلقة والمتوفى عنها زوجها يخرجان بالنهار ولا يبيتان ليلة تامة عن بيوتهما .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر رضي الله عنه قال : حدثتني فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها ثلاثاً فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها ، فاعتدّت عند عمها عمرو ابن أم مكتوم .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أن فاطمة بنت قيس أخبرته أنها كانت تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها آخر ثلاث تطليقات ، فزعمت أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجها من بيتها ، فأمرها أن تنتقل إلى ابن أم

مكتوم ؛ الأعمى ، فأبى مروان أن يصدق فاطمة في خروج المطلقة من بيتها ، وقال عروة : إن عائشة رضي الله عنها أنكرت ذلك على فاطمة بنت قيس .

وأخرج ابن مردويه عن أبي إسحق قال : كنت جالساً مع الأسود بن يزيد في المسجد الأعظم ، ومعنا الشعبي فحدث بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها سكنى ولا نفقة ، فأخذ الأسود كفاً من حصى فحصبه ثم قال : ويلك تحدث بمثل هذا ؟ قال عمر : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت له السكنى والنفقة ، قال الله : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ .

(88/770)

وأخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة " أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع عليّ إلى اليمن فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت مع طلاقها ، وأمر لها الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة بنفقة فاستقلتها فقالا لها : والله ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت له أمرها ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " لا نفقة لك فاستأذنيه في الانتقال " فأذن لها ، فأرسل إليها

مروان يسألها عن ذلك فحدثته فقال مروان : لم أسمع بهذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة : بيني وبينكم كتاب الله ، قال الله عز وجل : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ حتى بلغ ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قالت : هذا لمن كانت له مراجعة ، فأي أمر يحدث بعد الثلاث ، فكيف يقولون : لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً ، فعلام تحبسونها ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة ، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض ، وإن كانت لا تحيض ، فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها ، وإن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين كما قال الله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة فإن راجعها فهي عنده على طلقتين أو إن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت عدتها منه بواحدة ، وهي أملك لنفسها ، ثم تتزوّج من شاءت هو أو غيره " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الطلاق على أربعة منازل : منزلان حلال ، ومنزلان حرام ، فأما الحرام فأن يطلقها حين يجامعها ولا يدري اشتمل الرحم على شيء أو لا ، وأن يطلقها وهي حائض ، وأما الحلال فأن يطلقها لأقرائها طاهراً عن غير جماع وأن يطلقها مستبيناً حملها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها الفاحشة المبينة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : الزنا .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والشعبي مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : إلا أن يزنين .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء الخراساني رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : كان ذلك قبل أن تنزل الحدود ، وكانت المرأة إذا أتت بفاحشة أخرجت .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : إلا أن تصيب حداً فتخرج ، فيقام عليها .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين

بفاحشة مبينة ﴾ قال : الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد رضي الله عنه ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : لو كان الزنا كما تقولون أخرجت فرجمت ، كان ابن عباس يقول : " إلا أن يفحشن " قال : وهو النشوز .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : الفاحشة المبينة السوء في الخلق .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال : يفحش لو زنت رجمت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ بفاحشة مبينة ﴾ قال : هو النشوز ، وفي حرف ابن مسعود " إلا أن يفحشن "

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ بفاحشة مبينة ﴾ قال : هو النشوز .

(90/770)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قال : إن بدا له أن يُراجعها راجعها في بيتها هو أبعد من قذر الأخلاق وأطوع لله أن تلزم بيتها .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يستحبون أن يطلقها واحدة ثم يدعها حتى يحل أجلها ، وكانوا يقولون : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ لعله أن يرغب فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها في قوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قالت : هي الرجعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يستحبون أن يطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها ، لأنه لا يدري لعله ينكحها ، قال : وكانوا يتأولون هذه الآية ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ لعله يرغب فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ لعله يرغب في رجعتها .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك والشعبي رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء قال : النكاح بالشهود والطلاق بالشهود والمراجعة بالشهود .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين رضي الله عنه أن رجلاً سأل عمران ابن حصين عن رجل طلق ولم يشهد ، وراجع ولم يشهد ، قال : بئسما صنع ، طلع في بدعة ، وارتجع في غير سنة ، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته ، وليستغفر الله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن منصور وعبد بن حميد عن إبراهيم النخعي قال : العدل في المسلمين من لم تظهر منه ريبة .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ قال : إذا أشهدتم على شيء فأقيموه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة فقال : " لا تشهد إلا على مثل الشمس أو دع " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تشهد على شهادة حتى تكون عندك أضوأ من الشمس " .

(91/770)

وأخرج ابن مردويه عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من كانت عنده شهادة لا يعلمها فتعجلها قبل أن يسألها " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال : مخرجه أن يعلم أنه قبل أمر الله ، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه ، وفي قوله : ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : يقول : من

حيث لا يدري .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان عن مسروق مثله .

وأخرج عبد بن حميد وأبو نعيم في الحلية عن قتادة ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال : من شبهات الدنيا والكرب عند الموت وإفزاع يوم القيامة ، فالزموا تقوى الله فإن منها الرزق من الله في الدنيا والثواب في الآخرة ، قال الله : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ [إبراهيم : 7] وقال : ههنا ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : من حيث لا يؤمل ولا يرجو .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة .

وأخرج أبو يعلى وأبو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعله له مخرجاً ﴾ قال : " من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة " " .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر

" عن عبادة بن الصامت قال : طلق بعض آبائي امرأته ألفاً فانطلق بنوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله : إن أبانا طلق أمنا ألفاً فهل له من مخرج ؟ فقال : " إن

أباكم لم يتق الله فيجعل له من أمره مخرجاً ، بانت منه بثلاث على غير السنة والباقي أثم في عنقه " " .

(92/770)

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال : " نزلت هذه الآية ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ، فقال : " اتق الله واصبر " فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له يقال له أبو نعيم كان العدو أصابوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله غيره وأخبره خبرها فنزلت ﴿ ومن يتق الله ﴾ الآية " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال : " نزلت هذه الآية ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ في رجل من أشجع أصابه جهد وبلاء وكان العدو أسروا ابنه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " اتق الله واصبر " فرجع ابن له كان أسيراً قد فكه الله ، فأتاهم وقد أصاب أعنزاً ، فجاء فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هي لك " .

وأخرج الخطيب في تاريخه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله : " ﴿ ومن يتق الله يجعل له ﴾ الآية ، قال : نزلت هذه الآية في ابن لعوف بن مالك الأشجعي ، وكان المشركون أسروه وأوثقوه وأجاعوه ، فكتب إلى أبيه أن ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلمه ما أنا فيه من الضيق والشدة ، فلما أخبر رسول صلى الله عليه وسلم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب إليه وأخبره ومره بالتقوى والتوكل على الله ، وأن يقول عند صباحه ومسائه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129] فلما ورد عليه الكتاب قرأه فأطلق الله وثاقه ، فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم وغنمهم فاستاقها فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : إني اغتلتهم بعد ما أطلق الله وثاقي فحلال هي أم حرام ؟ قال : بل هي حلال إذا شئنا خمسنا " ، فأنزل الله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب من يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء ﴾ من الشدة والرخاء ﴿ قدراً ﴾ يعني أجلاً .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من قرأ هذه الآية عند سلطان يخاف غشمه ، أو عند موج يخاف الغرق ، أوعند سبع لم يضره شيء من ذلك .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : " جاء عوف بن مالك الأشجعي فقال يا رسول الله : إن ابني أسره العدوّ وجزعت أمه فما تأمرني ؟ قال : " آمرك وإياها أن تستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله " فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ الآية " .

(94/770)

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحق مولى أبي قيس بن مخرمة قال : " جاء مالك الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أسر ابن عوف ، فقال له : " ارسل إليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله " وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم ، فركبها فأقبل ، فإذا بسرح للقوم الذين كانوا أسروه ، فصاح بها فأتبع آخرها أولها فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فأتى أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فنزلت ﴿ ومن يتق الله يجعل له

مخرجاً ﴾ الآية" .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أبي عيينة والبيهقي في الدلائل عنه عن ابن مسعود قال : " أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه عوف بن مالك فقال : يا رسول الله إن بني فلان أغاروا عليّ فذهبوا بابني ، وبكى فقال : اسأل الله ، فرجع إلى امرأته ، فقالت له : ما رد عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرها ، فلم يلبث الرجل أن رد الله إبله وابنه أوفر ما كان ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وأمرهم بمسئلة الله والرغبة له ، وقرأ عليهم ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال : يكفيه غم الدنيا وهمها .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : " جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فجعل يرددها حتى نعست ، ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" يا أيها الناس اتخذوا تقوى الله تجارة يأتكم الرزق بلا بضاعة ولا تجارة ، ثم قرأ ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجة عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر "

وأخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال : قال رسول الله : " من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والخطيب عن عمران بن بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها " .

وأخرج البخاري في تاريخه عن إسماعيل البجي رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لئن انتهيتم عندما تؤمرون لتأكلن غير زارعين " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن بالمنذر عن الربيع بن خيثم رضي الله عنه ﴿

ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال : من كل شيء ضاق على الناس .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال : نجاة .

وأخرج أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله قال له : " أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته ، وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحداً شيئاً ، ولا تقبض أمانة ، ولا تقض بين اثنين " .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإِسلام ، وعليك بذكر الله ، وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض " .

(96/770)

وأخرج ابن سعد وأحمد عن ضرغام بن عليبة بن حرملة العنبري عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : " أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله : أوصني قال : اتق الله ، وإذا كنت في مجلس فقمت منه فسمعتهم يقولون ما يعجبك فائته ، فإذا سمعتهم يقولون ما تكره فاتركه " .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : وجدت في كتاب من كتب الله المنزلة أن الله عز وجل يقول : إني مع عبدي المؤمن حين يطيعني أعطيه قبل أن يسألني ، واستجيب له قبل أن يدعوني ، وما ترددت في شيء ترددي عن قبض عبدي المؤمن إنه يكره ذلك ويسوءه وأنا أكره أن أسوءه ، وليس له منه بد ، وما عندي خير له ، إن عبدي إذا أطاعني واتبع أمري فلو أجلبت عليه السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع بمن فيهن جعلت له من بين ذلك المخرج ، وإنه إذا عصاني ولم يتبع أمري قطعت يديه من أسباب السماء وخسفت به الأرض من تحت قدميه ، وتركته في الأهواء لا ينتصر من شيء ، إن سلطان الأرض موضوع خامد عندي كما يضع أحدكم سلاحه عنه ، لا يقطع سيف إلا بيد ، ولا يضرب سوط إلا بيد ، لا يصل من ذلك إلى شيء إلا بإذني .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفاري وهو على خراسان أن أمير المؤمنين كتب إليّ أن يصطفى له الصفراء والبيضاء ، فلا يقسم بين الناس ذهب ولا فضة ، فكتب إليه : بلغني كتابك وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقاً على عبده ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام عليك ، ثم قال : أيها الناس اغدوا على مالكم ، فقسمه بينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عروة أن عائشة رضي الله عنها كتبت إلى معاوية : أوصيك بتقوى الله ، فإنك إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً .

وأخرج ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في شعب الإِيمان والعسكري في الأمثال عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما تكون الصنيعة إلى ذي دين أو حسب ، وجهاد الضعفاء الحج ، وجهاد المرأة حسن التبعل لزوجها ، والتودد نصف الإِيمان ، وما عال امرؤ على اقتصاد ، واستنزلوا الرزق بالصدقة ، وأبى الله أن يجعل أرزاق عباده المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قي قوله : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ قال : ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي ، وليس كل من توكل على الله كفاه ما أهمه ، ودفع عنه ما يكره ، وقضى حاجته ، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجراً ، وفي قوله : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ قال : يعني أجلاً ومنتهى ينتهي إليه .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإِيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً " .

وأخرج ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من رضي وقنع وتوكل كفي الطلب " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله " .

وأخرج أبو داود والترمذي والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل " .

(98/770)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جاع أو احتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان حقاً على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال " .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب رضي الله عنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل عليّ عبدي لو كادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج .

وأخرج عبد الله ابنه في زوائد الزهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوحى الله إلى عيسى اجعلني من نفسك لهمك ، واجعلني ذخراً لمعادك ، وتوكل عليّ أكفك ، ولا تول غيري فأخذ ذلك .

وأخرج أحمد في الزهد عن عمار بن ياسر قال : كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالعبادة شغلاً .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ

أخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبيّ بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء مدة لم تذكر في القرآن : الصغار والكبار اللائي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل ، فأنزل الله التي في سورة النساء القصرى ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه من وجه آخر عن أبيّ كعب قال : لما نزلت عدة المتوفى المطلقة قلت يا رسول الله : بقي نساء الصغيرة والكبيرة والحامل فنزلت ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر من طريق الثوري عن إسماعيل قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : 228] سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله أرأيت التي لم تحض ، والتي قد يئست من المحيض فاختلفوا فيهما ، فأنزل الله ﴿ إن ارتبتم ﴾ يعني ، إن شككتم ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾ بمنزلتهن ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ قال : هن اللاتي قعدن عن المحيض ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ فهن الأبكار الجواري اللاتي لم يبلغن المحيض ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ فإذا نفضت الرحم ما فيها فقد انقضت عدتها ، قال : وذكر لنا أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وضعت بعد وفاة زوجها بخمس عشرة ليلة ، فأمرها نبي الله صلى الله عليه وسلم أن تزوّج ، قال : وكان عمر يقول : لو وضعت ما في بطنها وهو موضوع على سريره من قبل أن يقبر لحلت .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ قال : العجوز الكبيرة التي قد يئست من المحيض فعدتها ثلاثة أشهر ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير عن مجاهد ﴿ إن ارتبتم ﴾ قال : إن لم تعلموا أتحيض أم لا ، فالتي قعدت عن المحيض ، والتي لم تحض بعد ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي ﴿ إن ارتبتم ﴾ قال : في المحيض أتحيض أم لا ؟

وأخرج عبد حميد عن حماد بن زيد قال : فسر أيوب هذه الآية ﴿ إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ قال : تعتد تسعة أشهر ، فإن لم تر حملاً فتلك الريبة ، قال : اعتدت الآن بثلاثة أشهر .

(100/770)

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : تعتد المرأة بالحيض ، وإن كان كل سنة مرة ، فإن كانت لا تحيض اعتدت بالأشهر ، وإن حاضت قبل أن توفي اشهر اعتدت بالحيض من ذي قبل .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي قال : تعتد بالحيض ، وإن لم تحض إلا في كل سنة مرة .

وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة أنه سئل عن المرأة تحيض فكثر دمها حتى لا تدري كيف حيضتها قال : تعتد ثلاثة أشهر ، وهي الريبة التي قال الله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ قضى بذلك

ابن عباس وزيد بن ثابت .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار عن جابر بن زيد في المرأة الشابة تطلق فيرتفع حيضها ، فما تدري ما رفعها ، قال : تعتد بالحيض ، وقال طاووس : تعتد بثلاثة أشهر .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب قال : قضى عمر في المرأة التي يطلقها زوجها تطليقة ، ثم تحيض حيضة وحيضتين ، ثم ترتفع حيضتها لا تدري ما الذي رفعها أنها تربص بنفسها ما بينها وبين تسعة أشهر ، فإن استبان حمل فهي حامل ، وإن مر تسعة أشهر ولا حمل بها اعتدت ثلاثة أشهر بعد ذلك ثم قد حلت .

وأخرج عبد الله في زوائد المسند وابن مردويه " عن أبيّ بن كعب قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أهي المطلقة ثلاثاً والمتوفي عنها زوجها ؟ قال : هي المطلقة ثلاثاً والمتوفي عنها زوجها " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والدارقطني من وجه آخر " عن أبيّ بن كعب قال : لما نزلت هذه الآية قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : هذه الآية مشتركة أم مبهمة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أية آية ؟ قلت : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ المطلقة والمتوفي عنها زوجها ؟ قال : نعم " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول : تعتد آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته ، إن الآية التي نزلت في سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة البقرة ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ بكذا وكذا شهراً فكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من شاء حالفته أن سورة النساء الصغرى أنزلت بعد الأربعة أشهر وعشراً ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : من شاء لاعنته ، إن الآية التي في سورة النساء القصرى ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ نسخت ما في البقرة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : نسخت سورة النساء القصرى كل عدة ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أجل كل حامل مطلقة أو متوفى عنها زوجها أن تضع حملها .

وأخرجه الحاكم في التاريخ والديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه

قال : اتجعلون عليها التغليظ ، ولا تجعلون الرخصة ؟ أنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ إذا وضعت فقد انقضت العدة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت سورة النساء القصرى بعد التي في البقرة بسبع سنين .

وأخرج عبد الرزاق " عن أبيّ بن كعب قال : قلت يا رسول الله إني أسمع الله يذكر ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ فالحامل المتوفى عنها زوجها أن تضع حملها ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : نعم " .

(102/770)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : كنت أنا وابن عباس وأبو هريرة فجاء رجل فقال : افتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة أحلت ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : تعتد آخر الأجلين . قلت أنا ﴿ وأولات الأحمال أن يضعن حملهن ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذلك في الطلاق قال أبو سلمة : أرأيت لو أن امرأة أخر حملها سنة فما عدتها ؟ قال ابن عباس : آخر الأجلين .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أنا مع أخي أبي سلمة . فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها هل مضت في ذلك سنة ؟ فقالت : قتل زوجها سبيعة الأسلمية وهي حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبي السنابل بن بعكك " أن سبيعة بنت الحارث وضعت بعد وفاة زوجها بثلاثة وعشرين يوماً فتشوّفت للنكاح ، فأنكر ذلك عليها أو عيب ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تفعل فقد خلا أجلها " " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " مكثت امرأة ثلاثاً وعشرين ليلة ثم وضعت ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فقال : " استفحلي لأمرك " يقول : تزوجي " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه " عن سبيعة الأسلمية أنها توفي زوجها ، فوضعت بعد وفاته بخمس وعشرين ليلة ، فتهيأت فقال لها أبو السنابل بن بعكك : قد أسرعت ، اعتدي آخر الأجلين أربعة أشهر وعشراً ، قالت : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته فقال : " إن وجدت زوجاً صالحاً فتزوجي " " .

(103/770)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن المسور بن مخرمة أن زوج سبيعة الأسلمية توفي وهي حامل ، فلم تمكث إلا ليالي يسيرة حتى نفست ، فلما تعلت من نفاسها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها فنكحت .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن " أن امرأة توفي عنها زوجها فولدت بعد أيام فاختضبت وتزينت فمر بها أبو السنابل بن بعكك فقال : كذبت إنما هو آخر الأجلين ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك فقال : "كذب أبو السنابل تزوجي " " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه تمارى هو وابن عباس في المتوفى عنها زوجها وهي حبلى فقال ابن عباس : آخر الأجلين ، وقال أبو سلمة : إذا ولدت فقد حلت ، فجاء أبو هريرة فقال : أنا مع ابن أخي ، لأبي سلمة ، ثم أرسلوا إلى عائشة فسألوها فقالت : ولدت سبيعة بعد موت زوجها بليال ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها فنكحت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عبيد الله بن عبد الله قال : " أرسل مروان عبد الله بن عتبة إلى سبيعة بنت الحارث ليسألها عما أفتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنها كانت عند سعد بن خولة ، فتوفي عنها في حجة الوداع وكان بدرياً ، فوضعت حملها قبل أن تمضي أربعة أشهر وعشر من وفاته ، فتلقاها أبو السنابل بن بعكك حين تعلت من نفاسها وقد اكتحلت وتزينت فقال : لعلك تريدين النكاح ، إنها أربعة أشهر

وعشراً من وفاة زوجك . قالت : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، وذكرت له ، ما قال أبو السنابل ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اربعي بنفسك فقد حل أجلك إذا وضعت حملك " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة عن عليّ في الحامل إذا وضعت بعد وفاة زوجها قال : تعتد أربعة أشهر وعشراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه كان يقول في الحامل المتوفى عنها زوجها : تنتظر آخر الأجلين .

(104/770)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب أن عمر استشار عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت ، قال زيد : قد حلت ، وقال عليّ : أربعة أشهر وعشراً . قال زيد : أرأيت إن كانت آيساً ؟ قال عليّ : فآخر الأجلين . قال عمر : لو وضعت ذا بطنها وزوجها على نعشه لم يدخل حفرته لكانت قد حلت .

وأخرج ابن المنذر عن مغيرة قال : قلت للشعبي : ما أصدق أن عليّ بن أبي طالب ، كان يقول : عدة المتوفي عنها زوجها آخر الأجلين ، قال : بلى ، فصدق به كأشد ما صدقت

بشيء ، كان عليّ يقول : إنما قوله : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ في المطلقة .

وأخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهي حامل ، فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت ، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلت .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال : إذا ألقت المرأة شيئاً يعلم أنه من حمل فقد انقضت به العدة وأعتقت أم الولد .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ومحمد قالا : إذا سقطت المرأة فقد انقضت عدتها .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي قال : إذا نكس في الخلق الرابع ، وكان مخلقاً اعتقت به الأمة وانقضت به العدة .

وأخرج أبي شيبة عن ابن عباس أنه سئل عن رجل اشترى جارية وهي حامل أيطؤها ؟ قال : لا وقرأ ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ

أخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ﴾ قال : إن لم تجد لها إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ من حيث سكنتم من وجدكم ﴾ قال : من

سعتكم.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ من حيث سكنتم من وجدكم ﴾ قال: من سعتكم ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ قال: في المسكن.

(105/770)

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ من وجدكم ﴾ مرفوعة الواو.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ قال: فهذه المرأة يطلقها زوجها وهي حامل، فأمر الله أن يسكنها أو ينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعته فحتى تفطم، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها، ولا نفقة لها.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ الآية قال: هي أحق بولدها أن تأخذه بما كنت مسترضعاً به غيرها.

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ قال: إذا قام الرضاع مسترضعاً به غيرها.

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ قال:

إذا قام الرضاع على شيء خيرت الأم .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم والضحاك وقتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ لينفق ذو سعته من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله ﴾ الآية قال عليّ : المطلقة إذا أرضعت له .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ قال : قتر ﴿ فلينفق مما آتاه الله ﴾ قال : أعطاه ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ قال : أعطاها .

وأخرج ابن جرير عن أبي سنان قال : " سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة ، فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : أنظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تأول هذه الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، وضعفه ، عن طاووس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن أخذ من الله أدباً حسناً إذا وسع عليه وسع على نسفه ، وإذا أمسك عليه أمسك " .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان له مائة وقية بعشر أواق ، وجاءه رجل كان له مائة دينار بعشر دنانير ، وجاءه رجل له عشرة دنانير بدينار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنتم في الأجر سواء ، كل واحد منكم جاء بعشر ماله " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ " .

وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة نفر كان لأحدهم عشرة دنانير فتصدق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية ، وكان لآخر مائة أوقية فتصدق منها بعشرة أواق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم في الأجر سواء ، كل تصدق بعشر ماله ، قال الله : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ " " .

وأخرج عبد الرزاق عن معمر قال : سألت الزهري عن الرجل لا يجد ما ينفق على امرأته يفرق بينهما ؟ قال : يستأني له ولا يفرق بينهما ، وتلا ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ قال معمر : وبلغني أن عمر بن عبد العزيز قال مثل قول الزهري .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا

نُكْرًا (8)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ يقول : لم ترحم ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ يقول : عظيماً منكراً .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ عذاباً نكراً ﴾ مثقلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ قال : جزاء أمرها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ قال : عقوبة أمرها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ آيات مبينات ﴾ بنصب الياء ، والله تعالى أعلم .

(107/770)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق أبي رزين قال : سألت ابن عباس هل تحت الأرض خلق ؟ قال : نعم ألم تر إلى قوله : ﴿ خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل

الأمر بينهن ﴾ ؟ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال له رجل ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾ إلى آخر السورة فقال ابن عباس : للرجل ما يؤمنك إن أخبرك بها فتكفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾ قال : وفي كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ قال : من السماء السابعة إلى الأرض السابعة .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ قال : السماء مكفوفة والأرض مكفوفة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال : بين كل سماء وأرض ، خلق وأمر .

(108/770)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾ قال : بلغني أن عرض كل أرض مسيرة خمسمائة سنة ، وأن بين أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، وأخبرت أن الريح بين الأرض الثانية والثالثة والأرض السابعة فوق الثرى ، واسمها تخوم ، وأن أرواح الكفار فيها ولها فيها اليوم حنين ، فإذا كان يوم القيامة ألقتهم إلى برهوت ، فاجتمع أنفس المسلمين بالجابية ، والثرى فوق الصخرة التي قال الله في صخرة ، والصخرة خضراء مكللة ، والصخرة على الثور ، والثور له قرنان وله ثلاث قوائم يبتلع ماء الأرض كلها يوم القيامة ، والثور على الحوت ، وذنب الحوت عند رأسه مستدير تحت الأرض السفلى وطرفاه منعقدان تحت العرش ، ويقال : الأرض السفلى على عمد من قرني الثور ، ويقال : بل على ظهره واسمه بهموت يأثرون أنهما نزل أهل الجنة فيشبعون من زائد كبد الحوت ورأس الثور ، وأخبرت بأن عبد الله بن سلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم : علام الحوت ؟ قال : على ماء أسود وما أخذ منه الحوت إلا كما أخذ حوت من حيتانكم من بحر من هذه البحار ، وحدثت أن إبليس تغلغل إلى الحوت فعظم له نفسه وقال : ليس خلق بأعظم منك غنى ولا أقوى ، فوجد الحوت في نفسه ، فتحرك فمنه تكون الزلزلة إذا تحرك ، فبعث الله حوتاً صغيراً فأسكنه في أذنه ، فإذا ذهب يتحرك تحرك الذي في أذنه فسكن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الضريس من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم بتكذيبكم بها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى ، قال البيهقي : إسناده صحيح ، ولكنه شاذ لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً .

(109/770)

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي فقال : منكر عن ابن عمر ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد الملك ، والثانية مسجن الريح ، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً يهلك عاداً ، فقال : يا رب أرسل عليهم من الريح بقدر منخر الثور ، فقال له الجبار : إذن تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهي التي قال الله في كتابه : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ [الذاريات : 42] والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم ، قالوا : يا رسول الله أللنار كبريت ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها

الجبال الرواسي لماعت ، والخامسة فيها حيات جهنم إن أفواهها كالأودية تلسع الكافر اللسعة فلا تبقي منه لحماً على وضم ، والسادسة فيها عقارب جهنم إن أدنى عقربة منها كالبغال الموكفة تضرب الكافر ضربة ينسيه ضربها حر جهنم ، والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يدٌ أمامه ويدٌ خلفه ، فإذا أراد الله أن يطلقه لما شاء أطلقه " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كثف الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وكثف الثانية مثل ذلك ، وما بين كل أرضين مثل ذلك " .

وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهميه عن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التي فيها العرش ، وسيد الأرضين التي نحن عليها .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب قال : الأرضون السبع على صخرة ، والصخرة في كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت في الماء ، والماء على الريح ، والريح على الهواء ، ريح عقيم لا تلقح ، وإن قرونها معلقة بالعرش .

(110/770)

وأخرج أبو الشيخ عن أبي مالك قال : الصخرة التي تحت الأرض منتهى الخلق على أرجائها أربعة أملاك ورؤوسهم تحت العرش .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي مالك قال : إن الأرضين على حوت ، والسلسلة في أذن الحوت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 188.212 ﴾

(111/770)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ ،

فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به هو وأمته ، بدليل قوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ ، فذكر بلفظ الجماعة ، فكأنه قال : يا أيها النبي ومن آمن بك ، ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ يعني : أنت وأمتك .

إذا أردتم أن تطلقوا النساء .

وقال الكلبي : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، حين غضب على حفصة بنت عمر ، فقال : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

وقال : طاهرات ، من غير جماع .

وروى أبو إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ طاهرات من غير جماع .

روى سفيان ، عن عمرو بن دينار : أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ (فطلقوهن لقبل عدتهن) وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لو أن الناس أصابوا حد الطلاق ، لما ندم رجل على امرأته يطلقها ، وهي طاهرة لم يجامعها .

فإن بدا أن يمسكها أمسكها ، وإن بدا له أن يخلي سبيلها خلى .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلال ، ووجهان حرام .

فأما الحلال ، بأن يطلقها من غير جماع ، أو يطلقها حاملاً .

وأما الحرام ، بأن يطلقها حائضاً ، أو يطلقها حين جامعها .

وقال الحسن : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال : إذا طهرن من الحيض من غير جماع .

وقال الزهري ، وقتادة : يطلقها لقبيل عدتها .

وروى ابن طاوس ، عن أبيه قال : حد الطلاق أن يطلقها قبل عدتها .

قلت : وما قبل عدتها ؟ قال : طاهرة من غير جماع .

ثم قال : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ يعني : واحفظوا العدة .

فأمر الرجل بحفظ العدة ، لأن في النساء غفلة ، فربما لا تحفظ عدتها .

ثم قال : ﴿ واتقوا اللهَ ربَّكُمْ ﴾ يعني : واخشوا الله ربكم ، فأطيعوه فيما أمركم ولا تطلقوا النساء في غير طهورهن .

فلو طلقها في الحيض ، فقد أساء .

والطلاق واقع عليها في قول عامة الفقهاء .

(112/770)

ثم قال : ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ يعني : اتقوا الله في إخراجهن من بيوتهن لأن سكناها على الزوج ما لم تنقض عدتها ثم قال : ﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ يعني : ليس لهن أن يخرجن من البيوت .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ يعني : إلا أن تزني فتخرج لأجل إقامة الحد عليها ، وهو قول ابن مسعود .

وقال الشعبي ، وقتادة : خروجها في العدة فاحشة .

وإخراج الزوج لها في العدة معصية ؛ وهكذا روي ، عن ابن عمرو ، وإبراهيم النخعي .

وقال ابن عباس : الفاحشة أن تبذو على زوجها فتخرج .

ثم قال : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ يعني : الطلاق بالسنة ، وإحصاء العدة من أحكام الله تعالى .

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ يعني : يترك حكم الله فيما أمر من أمر الطلاق .

﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ يعني : أضر بنفسه .

ثم قال : ﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ يعني : لا تطلقها ثلاثاً ، فلعله يحدث من الحب أو الولد خير ، فيريد أن يراجعها فلا يمكنه مراجعتها .

وإن طلقها واحدة ، يمكنه أن يراجعها .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يعني : إذا بلغن وقت انقضاء عدتهن ، وهو مضي ثلاث حيض ولم تغتسل من الحيضة الثالثة ، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني : راجعوهن بإحسان ، يعني : أن تمسكوهن بغير إضرار .

﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني : اتركوهن بإحسان .

ويقال : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يعني : انقضت عدتهن ، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني : بنكاح جديد إذا طلقها واحدة أو اثنتين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ يعني : أشهدوا على الطلاق والمراجعة فهو على الاستحباب .

ويقال : على النكاح المستقبل ، فإن أراد به الإشهاد على الطلاق والمراجعة ، فهو على

الاستحباب .

ولو ترك الإشهاد بالمراجعة ، جاز الطلاق والمراجعة .

(113/770)

فإن أراد به الإشهاد على النكاح ، فهو واجب ، لأنه لا نكاح إلاَّ بشهود .

ثم قال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادةِ للَّهِ ﴾ يعني : يا معشر الشهود ، أدوا الشهادة عند الحاكم بالعدل على وجهها لحق الله تعالى ولسبب أمر الله تعالى .

ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ يعني : هذا الذي يؤمر به .

﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ أي : لا يكتم الشهادة .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ يعني : يخشى الله ويطلق امرأته للسنة ، ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ يعني : المراجعة .

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ يعني : في شأن المراجعة .

ويقال : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ يعني : ينجو من ظلمات يوم القيامة ويرزقه الجنة .

ووجه آخر : أن من اتقى الله عند الشدة وصبر ، يجعل له مخرجاً من الشدة ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ يعني : يوسع عليه من الرزق .

وقال مسروق : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قال : مخرجه أن يعلم أن الله هو يرزقه ، وهو يمنحه ويعطيه ، لأنه هو الرازق وهو المعطي وهو المانع .

كما قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض لاَ إله إلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : 3] الآية .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ يعني : من يثق بالله في الرزق ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ يعني : الله كافيه .

وروى سالم بن أبي الجعد : أن رجلاً من أشجع أسره العدو ، فجاء أبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فشكا إليه ، فقال : اصبر .

فأصاب ابنه غنيمة ، فجاء بهما جبريل عليه السلام ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ الآية .

(114/770)

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت الأم ، فما تأمرني ؟ فقال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فرجع إلى منزله ، فقالت له : بماذا أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بكذا .

فقالت : نعم ما أمرك به .

فجعلا يقولان ذلك ، فخرج ابنه بغنيمة كثيرة ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ يعني : من يثق بالله في الشدة ، يجعل له مخرجاً من الشدة .

ويقال : المخرج على وجهين : أحدهما أن يخرجه من تلك الشدة ، والثاني أن يكرمه فيها بالرضا والصبر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بالغ أَمْرِهِ ﴾ يعني : قاضياً أمره .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ بالغ أَمْرِهِ ﴾ بغير تنوين ، بكسر الراء على الإضافة ، والباقون بالتنوين ﴿ أَمْرَهُ ﴾ بالنصب ، نصبه بالفعل بمعنى يمضي أمره في الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً .

ثم قال : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ يعني : جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً ، لا يتقدم ولا يتأخر .

قوله تعالى : ﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزل قوله : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثلاثة قرواء وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ الله فى أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بالله واليوم الآخر وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلك إِنْ أرادوا إصلاحا وَلَهُنَّ مِثْلُ الذى عَلَيْهِنَّ بالمعروف وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : 228] قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ، لو كانت المرأة آيسة لا تحيض ، كيف تعتد ؟ فنزل : ﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ والآية .

أن تبلغ ستين سنة ، ويقال خمسين .

﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ ، إن شككتم في عدتهن ، ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ ، فقام رجل آخر ، فقال : لو كانت صغيرة ، كيف عدتها ؟ وقام آخر وقال : لو كانت حاملاً ، كيف عدتها ؟ فنزل : ﴿ واللائى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يعني : المرأة التي لم تحض ، فعدتها ثلاثة أشهر مثل عدة الآيسة .

﴿ وأولات الاحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ يعني : عدتهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وقال عمر : لو وضعت ما في بطنها وزوجها على سريره ، قبل أن يدفن في حفرته ، لانقضت عدتها وحلت للأزواج .

وروى الزهري ، عن عبد الله ، عن أبيه : أن سبيعة بنت الحارث قد وضعت بعد وفاة

زوجها بعشرين يوماً ، فمر بها السنابل بن بعكك ، فقال لها : أتريدين أن تتزوج؟ فقالت : نعم .

قال : لا حتى يأتي عليك أربعة أشهر وعشر .

فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها قد حللت للزواج يعني : انقضت عدتك .

ثم قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ يعني : يصبر على طاعة الله تعالى ، ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ يعني : ييسر عليه أمره ، ويوفقه ليعمل على طاعة الله تعالى ، ويعصمه عن معاصيه .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ ﴾ يعني : هذا الذي ذكره حكم الله وفريضته .

﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني : أنزله في القرآن على نبيكم .

(116/770)

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ ويعمل بأحكامه وفريضته ، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ في الدنيا ، ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ يعني : ثواباً في الجنة .

قرأ نافع ، وابن عامر ﴿ نُّكَفِّرْ عَنْهُ ﴾ بالنون ، والباقون بالياء ، ومعناهما : يرجع إلى شيء واحد .

ثم رجع إلى ذكر المطلقات .

فقال عز وجل : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ يعني : أنزلوهن من حيث تسكنون فيه .

﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ يعني : من سعتكم .

والوجد : القدرة والغنى .

ويقال : افتقر فلان بعد وجده .

ثم قال : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ يعني : لا تظلموهن .

﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ في النفقة والسكنى .

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ ﴾ يعني : إن كن المطلقات ذوات حمل ، ﴿ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وقد أجمعوا أن المطلقة إذا كانت حاملاً فلها النفقة ، وأما إذا لم تكن حاملاً ، فإن كان الطلاق رجعياً ، فلها النفقة والسكنى بالإجماع .

وإن كان الطلاق بائناً ، فلها السكنى والنفقة في قول أهل العراق .

وقال بعضهم : لها السكنى ولا نفقة .

ثم قال : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن ﴾ يعني : المطلقات إذا أرضعن أولادكم ، فأعطوهن أجورهن ، لأن النفقة على الأب .

وأجر الرضاع من النفقة ، فهو على الأب إذا كانت المرأة مطلقة .

ثم قال : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ هموا به واعزموا عليه ، ويقال هو أن لا تضار المرأة

بالزوج ولا الزوج بالمرأة في الرضاع.

ويقال: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ ﴾ يعني: اتفقوا فيما بينكم يعني: الزوج والمرأة يتفقان على أمر واحد: ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني: بإحسان.

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ يعني: تضايقتم، وهو أن يأبى أن يؤتي المرأة لأجل رضاعها، وأبت المرأة أن ترضعه.

ويقال: يعني: أراد الرجل أقل مما طلبت المرأة من النفقة، ولم يتفقا على شيء واحد.

(117/770)

﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخرى ﴾ يعني: يدفع الزوج الصبي إلى امرأة أُخرى إن أرضعت بأقل مما ترضع الأم به.

ثم قال عز وجل: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مّن سَعَتِهِ ﴾ يعني: ينفق على المرأة ذو الغنى على قدر غناه، وعلى قدر عيشه وسعته ويسره.

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ يعني: ضيق عليه رزقه، ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ الله ﴾ يعني: على قدر ما أعطاه الله من المال.

﴿ لاَ يُكَلّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ﴾ يعني: لا يأمر الله نفساً في النفقة إلا ما أعطاها من

المال ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ يعني : العسر ينتظر اليسر .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ يعني : فكم من أهل قرية قرأ ابن كثير ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ بغير الألف ، والباقون بغير مد مع تشديد الياء ، وهما لغتان ومعناهما واحد ، يعني : وكم من قرية .

﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ يعني : أبت وعصت عن أمر ربها يعني : عن طاعة ربها .

قال مقاتل : ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ يعني : خالفت وعصت وقال الكلبي : العتو المعصية .

وقال أهل اللغة : العتو مجاوزة الحد في المعصية .

ثم قال : ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ يعني : عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ يعني : جازاها الله بعملها .

ويقال : ﴿ حاسبناها ﴾ في الآخرة ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ .

﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ يعني : عذاباً منكراً ، على معنى التقديم يعني : عذبناها في الدنيا عذاباً شديداً ، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً .

ويقال : وحاسبناها يعني : في الدنيا يعني : جازيناها وخذلناها وحرمناها .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ يعني : جزاء ذنبها .

﴿ وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ يعني : أهل القرية ، يعني : أن آخر أمرهم صار إلى الخسران والندامة .

(118/770)

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يعني : ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ، ولكن مع ما أصابهم في الدنيا ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ في الآخرة ، لأنهم لم يرجعوا عن كفرهم .

ثم أمر المؤمنين بأن يعتبروا بهم ، ويثبتوا على إيمانهم ، فقال : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الالباب ﴾ يعني : اخشوا الله وأطيعوه يا ذوي العقول من الناس .

﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله يعني : الذين صدقوا بالله ورسوله .

﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ يعني : كتاباً .

ويقال : شرفاً وعزاً وهو القرآن .

ثم قال : ﴿ رَسُولاً ﴾ يعني : أرسل إليكم رسولاً ، ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : يقرأ عليكم ويعرض عليكم .

ويقال : ﴿ قَدْ أَنزَلَ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً ﴾ يعني : كتاباً مع رسوله ، ليتلو عليكم يعني : يقرأ

عليكم ﴿ الله مبينات لِّيُخْرِجَ ﴾ يعني : واضحات .

ويقال : بيّن فيه الحلال والحرام .

﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : الذين صدقوا بتوحيد الله وطاعته ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الطاعات ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني : من الجهالة إلى البيان .

ويقال : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ ﴾ اللفظ لفظ المستقبل ، والمراد به الماضي يعني : أخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ، يعني : من الكفر إلى الإيمان ؛ ويقال : هو المستقبل يعني : يخرجهم من الشبهات والجهالات إلى الدلالات والبراهين ؛ ويقال : ليدعو النبي صلى الله عليه وسلم ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان من قدرة الله الإيمان في سابق علمه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ يعني : يصدق بالله .

ويقال : يثبت على الإيمان ، ﴿ وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ يعني : فرائض الله وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهر ﴾ .

قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ ندخله ﴾ بالنون ، والباقون بالياء يعني : يدخله الله تعالى في الآخرة .

﴿ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ يعني : مقيمين في الجنة دائمين فيها .

﴿ أَبداً قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ يعني : أعد الله له ثواباً في الجنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ يعني : خلق سبع أرضين مثل عدد السماوات .

﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ يعني : ينزل الوحي من السموات .

ويقال : في كل سماء ، وفي كل أرض أمره نافذ .

وقال القتبي : الأمر ، على وجوه الأمر أي القضاء ، كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُدبِّرُ الأمر مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذلكم الله رَبُّكُمْ فاعبدوه أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : 3] ويعني : يقضي القضاء ، وكقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِى الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [الأعراف : 54] أي : القضاء .

والأمر : الدين ، كقوله : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ [الأنبياء : 93]

وكقوله : ﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كارهون ﴾ [التوبة : 48] أي : دين الله .

(120/770)

والأمر : القول كقوله : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ الساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِم بنيانا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : 21] أي قولهم الأمر : العذاب ، كقوله : ﴿ ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هاذا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود : 76] والأمر : القيامة ، كقوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1] والأمر : الوحي ، كقوله : ﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سماوات وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَا ﴾ [الطلاق : 12] يعني : الوحي .

والأمر : الذنب ، كقوله : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ [الطلاق : 9] أي : جزاء ذنبها .

وأصل هذا كله واحد ، لأن الأشياء كلها بأمر الله تعالى ، فسميت الأشياء أموراً .

ثم قال : ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : يمكنكم أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير .

﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ يعني : أحاط علمه بكل شيء .

وروى معمر ، عن قتادة في قوله : ﴿ سَبْعَ سموات وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : في كل سماء ، وفي كل أرض من أرضه ، وخلق من خلقه وأمر من أموره ، وقضاء من قضائه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 437.443 ﴾

(121/770)

وقال الثعلبى :

سورة الطلاق

هذه السورة تسمى سورة النساء القصرى افتتحها اللّه سبحانه وتعالى بخطاب منه (للنبي) صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ .

﴿ يا أيها النبي ﴾ ثم جمع الخطاب فقال عزّ من قائل ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ ومجازها : يا أيها النبي قل لأُمّتك إذا طلقتم ﴿ النسآء ﴾ أي أردتم تطليقهن كقوله ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ ﴾ [النحل : 98] .

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، يقول : طلّقوهن لطهرهنّ الذي يحصينّه من عدّتهن ، ولا تطلقوهن لحيضهنّ الذي لا يعتدّدن به من قروئهنّ ، وهذا للمدخول بها ؛ لأنّ من لم يُدخل بها لا عدّة عليها .

فإذا طلّقها في طُهر لم يجامعها فيه نفذ طلاقه وأصاب السُنّة ، وإن طلّقها حائضاً وقع الطلاق وأخطأ السُنّة .

وقال سعيد بن المسيّب في آخرين : لا يقع لأنّه خلاف ما أُمروا ، وإليه ذهب الشيعة ، فإن طلقها في طهرها ثلاثاً فكرّهه قوم وقالوا ليس بطلاق السنّة ؛ لأنّه لم يدع للإمساك موضعاً ، وكان الشافعي والجمهور يبيحونه ولا يكرّهونه لأنّ عبد الرحمن بن عوف طلّق امرأته ثلاثاً ، وإنّ العجلاني لمّا لاعن قال : كذبت عليها إن أمسكتها ، هي طالق ثلاثاً ، فلم يردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم واختلف المفسّرون فيمن نزلت هذه الآية ، قال : فأخبرنا ابن منجويه ، حدّثنا عبيد اللّه بن محمد بن شعبة ، حدّثنا أَبو القاسم عمر بن عقبة بن الزبير الأنصاري ، حدّثنا أَبو عبد اللّه محمّد ابن أيوّب بن معيد بن هناد الكوفي ، حدّثنا اسباط بن محمّد ، حدّثنا سعيد بن عروة عن قتادة عن أنس قال : طلّق رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فأنزل اللّه تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ وقيل له : راجعها فإنّها صوّامة قوّامة ، وهي من إحدى أزواجك ونسائك في الجنّة .

وقال السدي : نزلت في عبد اللّه بن عمر ، وذلك أنّه طلّق امرأته حائضاً وأمره النّبي صلى الله عليه وسلم أن يراجعها ويمسكها حتّى تطهر ، ثم تحيض حيضة أُخرى فإذا طهرت طلّقها إن شاء قبل أن يجامعها أو يمسكها ، فإنّها العدّة التي أمر اللّه بها .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد ، حدّثنا محمد بن يعقوب ، حدّثنا الحسن بن علي بن عفّان ، حدّثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن عبيد اللّه بن عمر عن نافع " عن ابن عمر قال : طلّقتُ امرأتي على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول اللّه ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مُرْهُ فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض حيضة أُخرى ، فإذا طهرت فليطلقها إن شاء قبل أن يجامعها أو يمسكها ، فإنّها العدّة التي أمر اللّه تعالى أن يطلَّق لها النساء " .

قال فقلت لنافع ما صنعت التطليقة قال : واحدة اعتدّت بها .

وقال المقاتلان : نزلت في عبد اللّه بن عَمْرو بن العاص وعَمْرو بن سعيد بن العاص وطفيل بن الحرث وعتبه بن غزوان .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد ، حدّثنا أحمد بن عبد اللّه المزني ، حدّثنا الحضرمي ، حدّثنا

عثمان ، حدّثنا عبد السلم بن حرب عن يزيد الدالاني عن أبي العلاء الأودي عن حميد بن عبد الرحمن قال : بلغ أبا موسى أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم وجد عليهم فأتاه فذكر ذلك له فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " يقول أحدكم : قد زوجت ، قد طلّقت ، وليس كذلك عدّة المسلمين ، طلّقوا المرأة في قبل عدّتها " .

وكان ابن عبّاس وابن عمر يقرءان : فطلّقوهنَّ قبل عدّتهن ، وفي هذه الآية دليل واضح أنّ السنّة والبدعة اعتبارهما في وقت الطّلاق لا في عدد الطلاق ؛ لأنّ اللّه تعالى ذكر وقت الطّلاق فقال : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ولم يذكر عدد الطّلاق ، فكذلك في حديث ابن عمر الذّي رويناه دليل أنّ الاعتبار بالوقت لا بالعدد لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم علّمه الوقت لا العدد .

(123/770)

فصل في ذكر بعض الأخبار الواردة في الطلاق

أخبرنا الحسن بن فنجويه بقراءتي عليه ، حدّثنا عبيد اللّه بن محمد بن شنبة ، حدّثنا أَبو حامد أحمد بن جعفر المستملي ، حدّثنا أَبو محمد يحيى بن إسحاق بن سافرى ببغداد ، حدّثنا أحمد بن حباب ، حدّثنا عيسى بن يونس ، حدّثنا عبيد اللّه بن الوليد الوصافي عن

محارب بن دَثار عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " إنّ من أبغض الحلال إلى اللّه تعالى الطّلاق " .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا ابن حبيش المقري ، حدّثنا علي بن عبد الحميد العصاري بحلب ، حدّثنا أَبو إبراهيم الترجماني ، حدّثنا عَمرو بن جُميع عن جويبر عن الضّحاك عن النزال بن سمرة عن علي رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " تزوّجوا ولا تطّلّقوا ، فإنّ الطّلاق يهتزّ منه العرش " .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا عبيد اللّه بن محمد بن شنبة ، حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة أخبرنا أُبي ، حدّثنا أَبو أُمامة عن حمّاد بن زيد عن أبي أيوّب عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم " أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنّة " .

أخبرنا الحصين بن محمد بن الحسين أخبرنا موسى بن محمد بن علي ، حدّثنا عبد اللّه بن ناجية ، حدّثنا وهب بن منبه ، حدّثنا محمد بن عبد الملك الواسطي ، حدّثنا عَمُرو بن قيس الملائي عن عبد اللّه بن عيسى عن عمارة بن راشد عن عبادة بن نسي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم

" لا تطّلّقوا النساء إلاّ من ريبة فإنّ اللّه تعالى لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات " .

أخبرنا ابن فنجويه أخبرنا أَبو حذيفة أحمد بن محمد بن علي ، حدّثنا عبد الصمد بن سعيد قاضي حمص ، حدّثنا عبد السلم بن العباس بن الوليد الحضرمي ، أخبرنا علي بن خالد بن خليّ ، حدّثنا أبي ، حدّثنا سويد بن حميد عن أنس قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " ما حلف بالطّلاق ولا استحلف به إلاّ منافق " .

﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ أي عدد أقرائها فاحفظوها .

﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ حتى تنقضي عدّتهنّ .

﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ وهي الزنا فيخرجن لإقامة الحد عليهنّ ، هذا قول أكثر أهل المفسرين .

قال قتادة : معناه : له أن يطلّقها على نشوزها ، فلها أن تتحول من بيت زوجها ، والفاحشة : النشوز .

وقال ابن عمر والسدي : أي خروجها قبل انقضاء عدّتها فاحشة .

أنبأني عبد اللّه بن حامد أخبرنا محمد بن الحسن ، حدّثنا الفضل بن المسيّب ، حدّثنا سعيد ، حدّثنا سُفير عن محمد بن عَمْرو بن علقمة عن محمد بن إبراهيم التيمي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال : إلاّ أن تبدو على أهلها ، فإذا بدت عليهم فقد حلَّ إخراجها .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ أي مراجعة في الواحدة والثنتين ما دامت في العدّة .

(125/770)

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قرأه عليه ، حدّثنا محمد بن جعفر المطيري ، حدّثنا الحسن بن عرفة ، حدّثنا هيثم عن مغيرة وحصين عبد الرحمن وأشعث وإسماعيل بن أبي خالد وداود بن أبي هند وشبان ومجالد كلّهم عن الشعبي قال : دخلت على فاطمة بنت قيس بالمدينة فسألتها عن قضاء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقالت : طلّقني زوجي البتّة ، فخاصمته إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في السكنى والنفقة فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة ، وأمرني أن أعتدّ في بيت ابن أُمّ مكتوم .

قال هيثم : قال مجالد في حديثه : إنّما النفقة والسكنى على من كانت له المراجعة .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد ، أخبرنا محمد بن الحسين ، حدّثنا أحمد بن يوسف ، حدّثنا عبد الرزّاق ، أخبرنا معمّر قال : أخبرنا عقيل بن محمد الفقيه أنّ أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمد بن جهير ، حدّثنا ابن عبد الأعلى ، حدّثنا ابن ثور عن معمّر عن الزهري عن عبيد اللّه أنّ فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عَمرو بن حفص بن المغيرة

المخزومي وأنّه خرج مع علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن حين أمّره رسول اللّه صلى الله عليه وسلم على بعض اليمن فأُرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها ، وأمر عباس بن أبي ربيعة والحرث بن هشام أن ينفقا عليها ، فقالا لها : واللّه مالك من نفقة إلاّ أن تكوني حاملا .

(126/770)

فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له قولهما ، فلم يجعل لها نفقة إلاّ أن تكون حاملا ، واستأذنته في الانتقال ، فأذن لها فقالت : أين أنتقل يا رسول اللّه ؟ قال : " عند ابن أُمّ مكتوم " وكان أعمى ، تضع ثيابها عنده ولا يراها ، فلم تزل هنالك حتى مضت عدّتها ، فأنكحها النبي صلى الله عليه وسلم أُسامة ابن زيد ، فأرسل إليها مروان بن الحكم قبيصة بن ذؤيب يسألها عن هذا الحديث ، فقال مروان : لم نسمع هذا الحديث إلاّ من امرأة ، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة حين بلغها قول ابن مروان : بيني وبينكم القرآن ، قال اللّه تعالى : ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّ اللّه يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ قالت : هذا لمن كانت له مراجعة ، فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي أشرفن على انقضاء عدّتهنّ وقربن منه .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ برجعة تراجعونهنّ . ﴿ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي اتركوهنّ حتى تنقضي عدّتهن فيكنّ منكم ويكنّ أملك لأنفسهنّ .

﴿ تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ فنزل الضرار هو المعروف .

﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ على الرجعة والفراق .

﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قال عكرمة والشعبي والضحاك : من يطلق السنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة .

" ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ لا يرجو ولا يتوقع .

(127/770)

قال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنّ المشركين أسروا ابناً له يسمّى : سالماً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه إنّ العدوّ أسر ابني وشكا إليه أيضاً الفاقة ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " ما أمسى عند آل محمد إلاّ مُدٌ فاتّق اللّه واصبر وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلاّ باللّه " ففعل الرجل ذلك ، فبينا هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب إبلا وجاء بها إلى أبيه وكان فقيراً " وقال الكلبي في رواية يوسف بن مالك : قدم ابنه ومعه خمسون بعيراً .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد أخبرنا محمد بن عامر البلخي ، حدّثنا القاسم بن عبّاد ، حدّثنا صالح بن محمد الترمذي ، حدّثنا أَبو علي غالب عن سلام بن سليم عن عبد الحميد عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : " جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه إنّ ابني أسره العدو وجزعت الأُم ، فما تأمرني ؟ قال : " [اتّق اللّه واصبر] وآمرك وإيّاها أن تستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلاّ باللّه " .

فانصرف إليها وقالت : ما قال لك النبي صلى الله عليه وسلم قال : أمرني وإياك أن نستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، قالت : نِعْمَ ما أمرك به ، فجعلا يقولان فغفل عنه العدو فساق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة "

، فنزلت ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ ما ساقَ من الغنيمة .

وقال مقاتل : أصاب غنماً ومتاعاً ثمّ رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر وسأله الحلّ له وأن يأكل ما أتاه به ابنه ، فقال النبي (عليه السلام) : "نعم" وأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

(128/770)

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري ، حدّثنا عبد اللّه بن محمد بن شيبة ، حدّثنا بن وهب ، أخبرنا عبد اللّه بن إسحاق ، حدّثنا عَمرو بن الأشعث ، حدّثنا سعد بن راشد الحنفي ، حدّثنا عبد اللّه بن سعيد بن أبي هند عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : " قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ قال : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة " .

وقال ابن مسعود ومسروق : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ هو أن يعلم أنّه من قِبَل اللّه ، وأنّ اللّه تعالى رازقه وهو معطيه ومانعه . الربيع بن خيثم : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من كلّ شيء ضاق على الناس .

أَبو العالية : مخرجاً من كلّ شدّة .

الحسن : مخرجاً عمّا نهاه عنه .

الحسين بن الفضل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في أداء الفرائض ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من العقوبة ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب .

وقال الصادق : " ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ يعني يبارك له فيما آتاه " .

وقال سهل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في اتّباع السُّنّة ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من عقوبة أهل البدع ، ويرزقه الجنّة من حيث لا يحتسب .

عَمرو بن عثمان الصدفي : ومن يقف عند حدوده ، ويحتسب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضّيق إلى السعة ، ومن النّار إلى الجنّة .

أَبو سعيد الخرّاز : ومن يتبرأ من حوله وقوّته بالرجوع إليه يجعل له مخرجاً ممّا كلّفهُ بالمعونه له .

علي بن صالح : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ يقنّعه برزقه ، وقيل : ومن يتّق اللّه في الرزق وغيره بقطع العلائق يجعل له مخرجاً بالكفاية ويرزقه من حيث لا يحتسب .

(129/770)

أخبرنا أَبو عبد اللّه بن فنجويه ، أخبرنا أَبو مكي بن مالك المطيعي ، حدّثنا عبد اللّه بن أحمد بن حنبل ، حدّثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدّثنا معتمر عن كهمس عن أبي السليل عن أبي ذر قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم

" إنّي لأعلم آيةً لو أخذ بها النّاس لكفتهم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ فما يزال يقولها ويعيدها " .

ويحكى أنّ رجلا أتى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فقال : ولّني مما ولاّك اللّه قال أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . فقال : إنّا لا نولّي من لا يقرأ القرآن ، فانصرف الرجل واجتهد في تعلّم القرآن رجاء أن يعود إلى عمر فيوليه عملا ، فلمّا تعلم القرآن تخلّف عن عمر ، فرآه ذات يوم

فقال : يا هذا هجرتنا ، فقال : يا أمير المؤمنين لست ممّن يهجر ، ولكنّي تعلّمت القرآن فأغناني اللّه تعالى عن عمر وعن باب عمر . فقال : أيُّ آية أغنتك ، فقال : قول اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن محمد بن عدّوس ، أخبرنا عثمان بن سعيد الرّازي ، حدّثنا مهدي بن جعفر الرّملي ، حدّثنا الوليد بن مسلم عن الحكم بن مصعب عن محمد بن علي عن عبد اللّه بن عباس عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " من أكثر الاستغفار جعل اللّه له من كل همّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقهُ من حيثُ لا يحتسب " .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ﴾ فيثق به ويسكن قلبه إليه في الموجود والمفقود .

﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ قرأ العامة بالغ بالتنوين ﴿ أَمْرِهِ ﴾ النّصب : أي منفّذٌ أمرَه ممضى في حلقة قضائه ، وقرأ طلحة بن مضر : بالغ أمره على الإضافة ، ومثلهُ روى حفص والمفضل عن عاصم .

(130/770)

وقرأ داود بن أبي هند : بالغ بالتنوين أمره : رفعاً .

قال الفراء : أي أمرهُ بالغ .

قال عبد الرحمن بن نافع : لما نزلت ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حسبنا اللّه إذا توكلنا عليه ؛ فنحن ننسى ما كان لنا ولا نحفظهُ ، فأنزل اللّه تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ يعني منكم وعليكم .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ حداً وأجلا ينتهي إليه .

قال مسروق : في هذه الآية ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ توكل عليه أو لم يتوكل ، غير أنّ المتوكل عليه يكفِّر عنه سيئاته ويُعظم له أجرا .

قال الربيع : إنّ اللّه تعالى قضى على نفسه أنّ من توكل كفاهُ ، ومن آمن به هداهُ ، ومن أقرضهُ جازاهُ ، ومن وثق به نجّاه ، ومن دعاهُ أجاب له ، وتصديق ذلك في كتاب اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : 11] ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] ﴿ إِن تُقْرِضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ [التغابن : 17] ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : 101] ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . . ﴾ [البقرة : 186] .

﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ فلا يرجون أن يحضن ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ قال

قوم : إن شككتم أنّ الدم الذي يظهر منها لبكرها من الحيض أو من الاستحاضة .

﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ هذا قول الزهري وابن زيد وقال آخرون : إن ارتبتم في حملهنّ ؛ فلم تدروا ما الحمل في عدتهن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

(131/770)

أخبرنا أَبو سعيد محمد بن عبد اللّه بن حمدون ، حدّثنا أَبو حاتم مكي بن عيدان ، حدّثنا أَبو الأزهر أحمد بن الأزهر ، حدّثنا أسباط محمد عن مطرف عن أبي عثمان عَمرو بن سالم قال : لمّا نزلت عدّة النساء في سورة البقرة في المُطلقة المتوفى عنها زوجها ، قال أُبي بن كعب : يا رسول اللّه إنّ أُناساً من أهل المدينة يقولون قد بقي من النساء ما لم يُذكر فيهن شيء .

قال : وما هو ؟

قال : الصّغار والكبار وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآيات ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ . . . ﴾ إلى آخرها .

وقال مقاتل : لما نزلت ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء ﴾ [البقرة : 228] الآية ، قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري : يا رسول اللّه فما عدّة من لا تحيض وعدة

التي لم تحض وعدّة الحُبلى ؟ فأنزل اللّه تعالى ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ يعني القواعد اللاتي قعدن عن المحيض .

﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ شككتم في حالها وفي حكمها .

وقال أَبو علي الزهري : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ إن تعنّتم ، قال : وهو من الأضداد ، يكون شكاً ويقيناً كالظن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يعني بهنّ الصّغار .

﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهنّ .

(132/770)

قال : أخبرنا محمد بن عبد اللّه بن حمدون ، أخبرنا محمد بن محمد بن الحسن ، حدّثنا محمد بن يحيى ، حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر بن الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة قال : " أُرسل مروان عبد اللّه بن عتبة إلى سبيعة بنت الحرث يسألها عمّا أنبأها به رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنّها كانت عند سعد بن خولة فتوفي عنها في حجة الوداع ، وكان ثلاثاً ، فوضعت حملها قبل أن يمضي لها أربعة أشهر وعشر من وفاة زوجها وخطبها ، قالت : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتُ ما قال أَبو السنابل ،

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " قد حللتِ حين وضعتِ حملكِ " وأمرها أن تتزوج ، فإن أريقت حيضة المرأة وهي شابة ، فإنّها يُتأنّى بها أحامل أم لا ؟ وإن استبان حملها فأجلها أن تضع حملها ، وإن لم يستبن حملها فاختلف الفقهاء فيه :

فقال بعضهم : يُستأنى بها ، فأقصى ذلك سنة ، وهذا مذهب مالك وأحمد وإسحاق وأبي عبيد ، كانوا يرون عدّة المرأة أرتفاع حيضها وهي شابة سنة ، ورووا ذلك عن عمر وغيره .

فأمّا أهل العراق فإنّهم يرون عدتها ثلاث حيضات بعد ما كانت قد حاضت مرّة في عمرها وإن مكثت عشرين سنة إلى أن تبلغ من الكبر مبلغاً تيأس من الحيض ، فتكون عدّتها بعد الأياس ثلاثة أشهر ، وهذا الأصح من مذهب الشافعي وعليه العلماء ، ورووا ذلك عن ابن مسعود وأصحابه .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرا ﴾ .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ يعني مطلّقات نسائكم .

﴿ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي من المواضع التي سكنتم .

وقال الكسائي : ﴿ مِّن ﴾ صلة مجازة أسكنوهن حيثُ سكنتم ، مطلقات نسائكم .

﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ سعتكم وطاقتكم ، قراءة العامّة بضم الواو ، وقرأ الأعرج بفتحه ، وروى نوح عن يعقوب بكسر الواو ، وكلّها لغات . حتى تنقضي عدتهن .

﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ ولا تؤذوهنَ ﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ مساكنهنَ فيخرجنَ .

﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ليخرجن من عدّتهن .

واختلف الفقهاء في هذه المسألة : فذهب مالك والشافعي والأوزاعي وابن أبي ليلى وأَبو عبيدة ومحمد بن جرير إلى أنّ المبتوتة المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ، ولها سُكنى ، واحتجوا بأنّ اللّه تعالى عمَّ بالسكنى المطلقات كلّهنّ ، وخصَّ بالنفقة أولات الأحمال خاصّة قال ﴿ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

وقال أحمد وأَبو ثور : لا سُكنى لها ولا نفقة ، واحتجوا بحديث فاطمة بنت قيس أخت الضّحاك بن قيس حين أرسل زوجها المخزومي طلاقها ؛ فلم يجعل لها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم نفقة وقال لها : إنّما النفقة إذا كانت له عليك الرجعة ، وأمرها أن تعتدّ في بيت ابن أُم مكتوم ، وقد ذكرناه ، وهذا قول أُبي بن كعب وزيد بن ثابت .

وأما [سُفيان] وأهل العراق فقالوا : لها السُكنى والنفقة حاملا كانت أو حايلا ، وهذا قول [عائشة] رضي اللّه عنها .

ويروى أنّ عائشة قالت لفاطمة بنت قيس : اتقي اللّه يا فاطمة فقد فتنتِ الناس ؛ إنّما

أخرجك رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لأنّكِ كنتِ امرأة لسِنَة فخشي لسانكِ على [أحمائك] .

فأما نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال علي وابن عُمر وشُرِيح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى [وسُفر] وأصحابه : يُنفق عليها من جميع المال حتى تضع .

وقال ابن عباس وعبد اللّه بن الزبير وجابر بن عبد اللّه ومالك والشافعي وأَبو حنيفة : لا ينفق عليها إلاّ من نصيبها .

(134/770)

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أولادكم منهنّ ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على إرضاعهنّ ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يقول : وليقبل بعضكم من بعض إذا أمرهُ بالمعروف ، وقال الفرّاء : ﴿ وَأْتَمِرُواْ ﴾ همّوا . الكسائي : شاوروا .

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ في الرّضاع ؛ فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها ، وأبت الأُم أن ترضعهُ فليس لهُ إكراهها على أرضاعهِ ، ولكنهُ يستأجر للصبيّ مرضعاً غير أُمه البائنة منهُ ، فذلك قولهُ ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخرى ﴾ .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ على قدر غناهُ ﴿ وَمَن قُدِرَ ﴾ ضُيّقَ ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ

آتَاهُ الله ﴾ من المال .

﴿ لاَيُكَلِّفُ الله نَفْساً ﴾ في النفقة ﴿ إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ أعطاها من المال .

﴿ سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ عصت وطغت وتمردت ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أي وأمر رسلهِ ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ بالمناقشة والاستقصاء ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ﴾ منكراً فظيعاً ، وهو عذاب النّار ، لفظهما ماض ومعناهما الاستقبال .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير مجازها : فعذّبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر المصائب والنوائب والبلايا والرزايا ، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً . ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ .

﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ يعني القرآن .

﴿ رَّسُولاً ﴾ بدل من الذكر . وقيل : مع الرّسول . وقيل : وأرسل رسولا . وقيل : الذِّكر هو الرّسول . وقيل : أراد شرفاً ثم بيّن ما هو فقال : رسولا .

(135/770)

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ في العدد .

﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ بالوحي من السماء السابعة إلى السفلى .

وقال أهل المعاني : هو مايدبر فيهنّ من عجيب تدبيره ؛ فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنّهار والشتاء والصّيف ويخلق الحيوان على اختلاف هيأتها وانواعها ، وينقلهم من حال إلى حال .

قال ابن كيسان : وهذا على مجال اللغة واتساعها ، كما يقول للموت أمْر اللّهِ ، وللرياح والسحاب ونحوها .

وقال قتادة : في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقهِ ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائهِ .

﴿ لتعلموا أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ فلا يخفى عليه شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 331.342 ﴾

وقال الزمخشري :

سورة الطلاق

مدنية ، وهي إحدى عشرة ، أو اثنتا عشرة ، أو ثلاث عشرة آية [نزلت بعد الإنسان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطلاق (65) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1)

(137/770)

خص النبي صلى اللّه عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب «1» ، لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهارا لتقدّمه واعتبارا لترؤسه ، وأنه مدرة قومه «2» ولسانهم ، والذي يصدرون عن رأيه ولا

يستبدّون بأمر دونه ، فكان هو وحده في حكم كلهم ، وسادّا مسدّ جميعهم . ومعنى إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ إذا أردتم تطليقهنّ وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه : كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه» «3» ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلى فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن «4» ، كقولك : أتيته لليلة بقيت من المحرم ، أى :

مستقبلا لها . وفي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : في قبل عدّتهنّ ، وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها ، فقد طلقت مستقبلة لعدتها . والمراد : أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه «5» ، ثم يخلين حتى تنقضي عدّتهنّ ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده

---

(1) . قال محمود : «خص النبي صلى اللّه عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب . . . الخ» قال أحمد : وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى حكاية عن فرعون : قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى فأفرد موسى عليه السلام بالنداء ، لأنه كان أجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب . وقد تقدم فيه وجه آخر .

(2) . قوله «وأنه مدرة قومه» في الصحاح العرب تسمى القرية مدرة اه ، فالمعنى أنه بمنزلة القرية لقومه . (ع)

(3) . متفق عليه . وقد تقدم في أوائل البقرة .

(4) . قال محمود : «و معنى فطلقوهن مستقبلات لعدتهن . . . الخ» قال أحمد : حمل القراءتين المستفيضة والشاذة على أن وقت الطلاق هو الوقت الذي تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وادعى أن ذلك معنى المستقبل فيها ، ونظر اللام فيها باللام في قولك مؤرخا الليلة . الليلة بقيت من المحرم ، وإنما يعنى أن العدة بالحيض : كل ذلك تحامل لمذهب أبى حنيفة في أن الأقراء الحيض ، ولا يتم له ذلك ، فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة ، وأكدوا الدلالة بالشاذة على أن الأقراء الأطهار . ووجه الاستدلال لها على ذلك : أن اللّه تعالى جعلى العدة – وإن كانت في الأصل مصدرا – ظرفا الطلاق المأمور به . وكثيرا ما تستعمل العرب المصادر ظرفا ، مثل خفوق النجم ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفا للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر وفاقا ، فالطهر عدة إذا . ونظير اللام هنا على التحقيق : اللام في قوله يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي وإنما تمنى أن لو عمل عملا في حياته ، وقراءته عليه السلام : في قبل عدتهن ، تحقق ذلك . فان قيل . الشيء جزء منه وداخل فيه وفي صفة مسح الرأس فأقبل بهما وأدبر ، أى مسح قبل الرأس وهو مقدمها ، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر .

(5) . قال محمود : «و المراد أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه . . . الخ» قال أحمد : الأمر كما نقله ، وضابط السنة عند مالك : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة . والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعا ، أما على تأويل الزمخشري وتفسيره

المقيد بالاستقبال ، فلأن الطلاق المأمور به أى المأذون فيه في الآية :

مقيد بوقت تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وهذا يأبى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها . وأما على تأويلنا فلأنه مقيد بزمان يكون أولا للعدة وقبلا لها ، وهذا يأبى من وقوعه مرادفا في الطهر الثاني والثالث ، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت ، فلا جرم قال إن طلقها في الحيض أجبر على الرجعة ، فإن أبى ارتجع عليه الحاكم ، وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أردف الطلاق لم يجبره ،

(138/770)

من الندم ، ويدل عليه ما روى عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدّة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا في ثلاثة أطهار . وقال مالك بن أنس رضى اللّه عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقا في الأطهار فلا ، لما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق

امرأته وهي حائض :

ما هكذا أمرك اللّه ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لكل قرء تطليقة «1»

وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها ، ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدّة التي أمر اللّه أن تطلق لها النساء «2» . وعند الشافعي رضى اللّه عنه : لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فما لك تراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعي يراعى الوقت وحده .

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ قلت : نعم ، وهو آثم ، لما روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنّ رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه ، فقال ، أتلعبون بكتاب اللّه وأنا بين أظهركم»

.

وفي حديث ابن عمر أنه قال : يا رسول اللّه ، أرأيت لو طلقتها ثلاثا ، فقال له :

إذن عصيت وبانت منك امرأتك «4» . وعن عمر رضى اللّه عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته

---

(1) . أخرجه الدارقطني من رواية عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر به ، وأتم منه .

(2) . متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(3) . لم أره هكذا . وإنما رواه النسائي من رواية مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا . فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب اللّه وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال : يا رسول اللّه ، ألا نقتله ؟» . [. . . . .]

(4) . هو في آخر الحديث الثاني عند الدارقطني ولفظه «فقلت : يا رسول اللّه ، أفرأيت لو طلقتها أثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها ؟ قال : لا . كانت تبين منك ، وكانت معصية» واللفظ الذي في الكتاب موقوف . في الصحيح على ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(139/770)

ثلاثا إلا أوجعه ضربا . وأجاز ذلك عليه « 1 » . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين :

أنّ من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلث لم يقع ، وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف . فإن قلت : كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها ؟ قلت : الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبى حنيفة وأبى يوسف

يفرق عليهن الثلاث في الأشهر ، وخالفهما محمد وزفر في الحامل فقالا : لا تطلق للسنة إلا واحدة . وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يراعى الوقت . فإن قلت : هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة ؟ قلت : اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا . والظاهر الكراهة . فإن قلت : قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل ، فكيف صحّ تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن ؟ قلت : لا عموم ثم ولا خصوص ، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس ، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك ، فلما قيل فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهن من المعتدات بالحيض وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن «2» لا تُخْرِجُوهُنَّ حتى تنقضي عدتهنّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ من مساكنهنّ التي يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى . فإن قلت : ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن «3» ؟ قلت : معنى الإخراج «4» : أن لا يخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن ، أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهنّ في الخروج إذا طلبن ذلك ، إيذانا بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ قرئ بفتح الياء وكسرها . قيل : هي الزنا ، يعنى إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن وقيل : إلا أن يطلقن على

النشوز ، والنشوز يسقط حقهنّ في السكنى . وقيل : إلا أن يبذون «5»

---

(1) . أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية شقيق بن عبد اللّه عن أنس قال : كان عمر رضى اللّه عنه إذا أتى برجل طلق امرأته ثلاثا في مجلس أوجعه ضربا . وفرق بينهما» .

(2) . قال محمود : «معناه أكملوا العدة أقراء ثلاثة مستوفاة» قال أحمد : وقوله وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ توطئة لقوله لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجا في العموم ، ومفرد بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

(3) . قوله «بين إخراجهم أو خروجهن» لعله : وخروجهن . (ع)

(4) . قوله «قلت : معنى الإخراج» الأولى : معنى الجمع بينهما ، وإلا فالأولى فيما يأتى ، ومعنى الخروج : أن لا يخرجن بأنفسهن . (ع)

(5) . قوله «و قيل إلا أن يبذون» في الصحاح : البذاءة - بالمد : الفحش ، تقول : بذوت على القوم وأبذيت ، وقد بذو الرجل . (ع)

فيحل إخراجهنّ لبذائهنّ ، وتؤكده قراءة أبيّ : إلا أن يفحشن عليكم . وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه . الأمر الذي يحدثه اللّه : أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها . ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها . والمعنى : فطلقوهنّ لعدتهن وأحصوا العدة ، لعلكم ترغبون وتندمون فتراجعون فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ وهو آخر العدة وشارفنه ، فأنتم بالخيار : إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلا للعدة عليها وتعذيبا لها وَأَشْهِدُوا يعنى عند الرجعة والفرقة جميعا . وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة كقوله وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وعند الشافعي : هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة . وقيل : فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقي ثبوت الزوجية ليرث مِنْكُمْ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة : من أحراركم لِلَّهِ لوجهه خالصا ، وذلك أن تقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم ، كقوله تعالى كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أى ذلِكُمْ الحث على إقامة الشهادة لوجه اللّه ولأجل القيام بالقسط يُوعَظُ بِهِ

. . . . . .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على

السنة ، وطريقه الأحسن والأبعد من الندم ، ويكون المعنى : ومن يتق اللّه فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد يَجْعَلْ اللّه لَهُ مَخْرَجاً مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص وَيَرْزُقْهُ من وجه لا يخطره بباله ولا يحتسبه إن أو في المهر وأدى الحقوق والنفقات وقل ماله . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا ، هل له من مخرج ؟

فتلاها «1» . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : لم تتق اللّه فلم يجعل لك مخرجا ، بانت منك بثلاث والزيادة إثم في عنقك . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله ذِلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ يعنى : ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قرأها فقال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد

---

(1) . أخرجه الدارقطني والطبراني وابن مردويه من طريق عبيد اللّه بن الوليد وغيره عن إبراهيم بن عبد اللّه ابن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده . قال «طلق بعض آبائي امرأته ألفا فانطلق بنوه ، فقالوا : يا رسول اللّه إن أبانا طلق أمنا ألفا . فهل له مخرج . فقال : إن أباكم لم يتق اللّه فيجعل له مخرجا - الحديث» وفي إسناده جماعة من الضعفاء . رواه إسحاق في مسنده عن ابن إدريس عن عبيد اللّه بن الوليد عن داود بن إبراهيم عن عبادة بن الصامت كذا قال .

يوم القيامة «1» . وقال عليه السلام : إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

. . .

فما زال يقرؤها ويعيدها «2» . وروى أنّ عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما . فأتى رسول اللّه فقال : أسر ابني وشكا إليه الفاقة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق اللّه واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوّة إلا باللّه ، ففعل فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها ، فنزلت هذه الآية «3» بالِغُ أَمْرِهِ أى يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب . وقرئ : بالغ أمره بالإضافة ، وبالغ أمره :

بالرفع ، أى : نافذ أمره وقرأ المفضل : بالغا أمره ، على أنّ قوله قَدْ جَعَلَ اللَّهُ خبر إن ، وبالغا حال قَدْراً تقديرا وتوقيتا . وهذا بيان لوجوب التوكل على اللّه «4» ، وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أنّ كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته : لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل .

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي من رواية سعيد بن راشد عن عبد اللّه بن سعيد بن أبى

هند عن زيد بن أسلم عن عطاء عن ابن عباس به مرفوعا . ورواه أبو نعيم موقوفا على قتادة في ترجمته في الحلية .

(2) . أخرجه أحمد في الزهد وابن ماجة وابن حبان والحاكم من طريق ابن السلبل حزيب بن مغير عن أبى ذر مرفوعا

(3) . أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فذكره نحوه . ولم يسم الابن ، لكن قال : أنه أحضر أربعة آلاف شاة ورواه البيهقي في الدلائل من طريق أبى عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود عن أبيه نحوه . وفيه فلم يلبث الرجل أن رد اللّه عليه ابنه وإبله أو فر ما كانت . فأتى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فأخبره فقام على المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه وأمرهم بمسألة اللّه والرغبة إليه . وقرأ عليهم وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ – الآية وروى الحاكم من طريق سالم بن الجعد عن جابر قال «نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيرا خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فسأله . فقال : اتق اللّه واصبر ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابها . فذكره مختصرا . وفيه عبيد بن كثير تركه الأزدى وعباد عن يعقوب . وهو رافضي .

(4) . قال محمود : «قوله بالِغُ أَمْرِهِ بيان لوجوب التوكل على اللّه ، وتفويض الأمر إليه . . . الخ» قال أحمد :

ليس بعشك فادرجي أيراه القدري ، وأين التسليم للقدر وليس هذا دينه ولا معتقده من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام :

فمنها ما يريد اللّه تعالى وجوده وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها ، ومنها ما يريد عدمه وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده ، ومنها ما لا يريد عدمه ولا وجوده فان وجد فبغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك فيتحصل من هذا الهذيان الذي لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق لأنها لا تقع إلا بها ، فان واقت إرادة اللّه تعالى فليس وقوعها تابعا لها لأنها وقعت بدونها ، وإن خالفت إرادة اللّه تعالى لم يكن لمخالفتها للارادة الربانية تأثير في منع وقوعها ، فمن يتوغل في أدغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذي يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة اللّه عز وجل ، فمهما أراده وقع ، ومهما لم يرده لم يقع ، شاء العبد أو أبى ، فما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، والعبد مجرى لحدوث الكائنات الواقعة بقدرة اللّه تعالى وإرادته لا غير ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، فما القدري من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحلة الانصاف وزاد التقوى ودليل التوفيق ، واللّه حسبنا ونعم الوكيل .

(142/770)

[سورة الطلاق (65) : الآيات 4 إلى 5]

وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5)

روى أنّ ناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الأقراء ، فما عدة اللائي لا يحضن ، فنزلت : فمعنى إِنِ ارْتَبْتُمْ : إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهنّ ، وقيل : إن ارتبتم في ذم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين ، أهو دم حيض أو استحاضة ؟

فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها ، فغير المرتاب بها أولى بذلك وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ هن الصغائر . والمعنى : فعدتهن ثلاثة أشهر ، فحذف لدلالة المذكور عليه . اللفظ مطلق في أولات الأحمال ، فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن . وكان ابن مسعود وأبىّ وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون . وعن على وابن عباس : عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين «1» . وعن عبد اللّه : من شاء لاعنته أنّ سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة «2» ، يعنى : أنّ هذا اللفظ مطلق في الحوامل . وروت أم سلمة أنّ سبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال ، فذكرت ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لها : قد حللت فانكحي «3» يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ييسر له من أمره ويحلل له من

عقده بسبب التقوى ذِلِكَ أَمْرُ اللَّهِ يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات. والمعنى: ومن يتق اللّه في العمل بما أنزل اللّه من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك: استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم.

[سورة الطلاق (65): الآيات 6 إلى 7]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

---

(1). رواه البخاري في صحيحه قال: «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة عنده. فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس آخر الأجلين وفيه قصة سبيعة. وفيه مخالفة أبي هريرة له في ذلك رواه ابن أبي شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن الشعبي قال قال عبد اللّه «أجل كل حامل حتى تضع» وكان على يقول «آخر الأجلين» وله طريق أخرى عنده موصولة من طريق عبيد بن الحسن عن عبد الرحمن بن معقل قال «شهدت عليا رضى اللّه عنه... فذكره نحوه.

(2). أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طريق مسروق لم يذكر

البخاري أوله . وزاد عبد الرزاق أنه قال ذلك لما بلغه أن عليا قال «هي في آخر الأجلين» .

(3) . متفق عليه وله طرق وألفاظ . وفي رواية البخاري «فوضعت بعد موته بأربعين ليلة» . [. . . . .]

(143/770)

أَسْكِنُوهُنَّ وما بعده : بيان لما شرط من التقوى في قوله وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل : أسكنوهن . فإن قلت : من في مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ما هي ؟ قلت : هي من التبعيضية مبعضها محذوف «1» معناه : أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم ، أى بعض مكان سكناكم ، كقوله تعالى يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ أى بعض أبصارهم . قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحد ، فأسكنها في بعض جوانبه . فإن قلت : فقوله مِنْ وُجْدِكُمْ ؟ «2» قلت : هو عطف بيان لقوله مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه . والوجد : الوسع والطاقة . وقرئ بالحركات الثلاث . والكنى والنفقة :

واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعي : ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها .

وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبت

طلاقها «3» ، فقال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا سكنى لك ولا نفقه «4» .

وعن عمر رضى اللّه عنه :

لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها : سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «لها السكنى والنفقة» «5» وَلا تُضارُّوهُنَّ ولا تستعملوا معهن الضرار لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ في المسكن ببعض الأسباب : من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ، ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج . وقيل : هو أن يراجعها إذا بقي من عدتها يومان ليضيق

---

(1) . قوله «مبعضها محذوف معناه» قد يقال : مبعضها هو مدخولها ، وهو حَيْثُ سَكَنْتُمْ بمعنى مكان سكناهم فلا حذف ، إلا أن يراد بمبعضها البعض المدلول عليه بها . (ع)

(2) . قوله «فان قلت فقوله من وجدكم» لعل عقبه سقطا تقديره . ما موقعه ؟ (ع)

(3) . قوله «أن زوجها أبت طلاقها» لعله «بت» كما في النسفي . (ع)

(4) . أخرجه مسلم من طرق عنها . وفي رواية «فلم يجعل لها سكنى ولا نفقة» وفي رواية «لا نفقة لك ولا سكنى» وفي رواية «طلقني زوجي ثلاثا» .

(5) . أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق أبى إسحاق قال «كنت مع الأسود ومعنا الشعبي في المسجد إذ حدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس . فأخذ الأسود كفا

من حصا فحصبه به وقال : يا ويلك تحدث بمثل هذا ؟

قال عمر : لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أو نسيت .

(144/770)

عليها أمرها . وقيل : هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه . فإن قلت : فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط في قوله وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ «1» قلت :

فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل ، فنفى ذلك الوهم . فإن قلت : فما تقول في الحامل المتوفى عنها ؟ قلت : مختلف فيها ، فأكثرهم على أنه لا نفقة لها ، لوقوع الإجماع على أنّ من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته ، فكذلك الحامل . وعن على وعبد اللّه وجماعة : أنهم أوجبوا نفقتها فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ يعنى هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولدا من غيرهنّ أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجية فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ حكمهنّ في ذلك حكم الأظآر «2» ، ولا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبنّ . ويجوز عند الشافعي . الائتمار بمعنى التآمر ،

كالاشتوار بمعنى التشاور . يقال : ائتمر القوم وتآمروا ، إذا أمر بعضهم بعضا . والمعنى : وليأمر بعضكم بعضا ، والخطاب للآباء والأمهات بِمَعْرُوفٍ بجميل وهو المسامحة ، وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم ، لأنه ولدهما معا ، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق «3» عليه وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك «4» ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، وقوله لَهُ أى للأب ، أى : سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه لِيُنْفِقْ كل واحد من

---

(1) . قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ إلى قوله : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ . . . الآية .

قال أحمد : لا يخفى على المتأمل لهذه الأى أن المبتوتة غير الحامل لا نفقة لها ، لأن الآي سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ولم يوجب سواها ، ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن ، وليس بعد هذا البيان بيان ، والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة حاملا أو غير حامل لا يخفى منافرته لنظم الآية ، والزمخشري نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر : أن الحمل ربما طال أمده فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله ، فخصت بالذكر تنبيها على قطع هذا الوهم ، وغرض الزمخشري بذلك أن يحمل التخصيص على هذه

الفائدة ، كيلا يكون له مفهوم في إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع في وجوب النفقة .

(2) . قوله «في ذلك حكم الأظآر» الظئر : المرضع لولد غيرها ، والجمع : ظؤار ، بالضم . وظئور وأظآر ، كما في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «وفي وجوب الإشفاق» كذا عبارة النسفي . (ع)

(4) . قال محمود : «وفي قوله وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى معاتبة للأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة . . . الخ» قال أحمد : وخص الأم بالمعاتبة لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمول ولا مضنون به في العرف ، وخصوصا في الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فانه المال المضنون به عادة ، فالأم إذا أجدى باللوم وأحق بالعتب ، والله أعلم .

(145/770)

الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد : ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، كما قال وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ وقرئ لينفق بالنصب ، أى شرعنا ذلك لينفق .

وقرأ ابن أبى عبلة : قدر سَيَجْعَلُ اللَّهُ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 8 إلى 11]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11)

عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد حِساباً شَدِيداً بالاستقصاء والمناقشة عَذاباً نُكْراً وقرئ : نكرا منكرا عظيما ، والمراد : حساب الآخرة وعذابها ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله تعالى وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ ونحو ذلك ، لأنّ المنتظر من وعد اللّه ووعيده ملقى في الحقيقة ، وما هو كائن فكان قد . وقوله أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا » كأنه قال : أعد اللّه لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك يا أُولِي الْأَلْبابِ من المؤمنين لطفا في تقوى اللّه وحذر عقابه . ويجوز أن يراد إحصاء السيئات ،

واستقصاؤها عليهم في الدنيا ، وإثباتها في صحائف الحفظة ، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل ، وأن يكون عَتَتْ وما عطف عليه : صفة للقرية . وأعد اللّه لهم : جوابا لكأين رَسُولًا هو جبريل صلوات اللّه عليه : أبدل من ذكرا ، لأنه وصف بتلاوة آيات اللّه ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر «1» فصح إبداله منه . أو أريد بالذكر : الشرف ، من قوله وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ فأبدل

(1) . قوله تعالى رَسُولًا ذكر الزمخشري فيه ستة أوجه : إبدال الرسول عن الذكر لأن إنزاله في معنى إنزال الذكر . . . الخ قال أحمد : وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولا ، إما بالفعل المحذوف أو بالمصدر . وعلى الأربعة المتقدمة بدلا . واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(146/770)

منه ، كأنه في نفسه شرف : إما لأنه شرف للمنزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند اللّه ، كقوله تعالى عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أو جعل لكثرة ذكره للّه وعبادته كأنه ذكر . أو أريد : ذا ذكر ، أى ملكا مذكورا في السماوات وفي الأمم كلها . أو دل قوله أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً على : أرسل فكأنه قيل : أرسل رسولا ، أو أعمل ذكرا في رسولا إعمال المصدر في المفاعيل ، أى : أنزل اللّه أن ذكر رسولا أو ذكره رسولا . وقرئ : رسول ، على : هو

رسول . أنزله لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا بعد إنزاله ، أى : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح : لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ . أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون . قرئ : يدخله ، بالياء والنون قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً فيه معنى التعجب والتعظيم ، لما رزق المؤمن من الثواب .

[سورة الطلاق (65) : آية 12]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ مبتدأ وخبر . وقرئ : مثلهنّ بالنصب ، عطفا على سبع سماوات ، وبالرفع على الابتداء ، وخبره : من الأرض . قيل : ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . وقيل : بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السماوات يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ أى يجرى أمر اللّه وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن . وعن قتادة : في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه . وقيل : هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره . وقرئ : ينزل الأمر . وعن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ؟ قال : نعم . قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جنّ لِتَعْلَمُوا قرئ بالتاء والياء .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 551.

561 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(147/770)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طَلّقْتُمُ النّساءَ ﴾ الآية .

هذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم [فهو شامل لأمته فروى قتادة عن أنس قال : " طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة رضي الله عنها فأتت أهلها فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساءَ فطلّقوهُنَّ لعدَّتهنَّ ﴾ وقيل له راجعها فإنها قوّأمة صوّامة ، وهي من أزواجك في الجنة " .] ﴿ لعدتهن ﴾ يعني في طهر من غير جماع ، وهو طلاق السنة .

وفي اعتبار العدد في طلاق السنة قولان :

أحدهما : أنه معتبر وأن من السنة أن يطلق في كل قرء واحدة ، فإن طلقها ثلاثاً معاً في قرء كان طلاق بدعة ، وهذا قول أبي حنيفة ومالك رحمهما الله .

الثاني : أنه غير معتبر ، وأن السنة في زمان الطلاق لا في عدده ، فإن طلقها ثلاثاً في قرء كان غير بدعة ، قاله الشافعي رحمه الله ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ : فطلّقوهن لقُبُلِ عدّتهن . وإن طلقها حائضاً أو طهر جماع كان بدعة ، وهو واقع ، وزعم طائفة أنه غير واقع لخلاف المأذون فيه فأما طلاق الحامل وغير المدخول بها والصغيرة واليائسة والمختلعة فلا سنة فيه ولا بدعة .

ثم قال تعالى : ﴿ وأَحْصُوا العِدَّةَ ﴾ يعني في المدخول بها ، لأن غير المدخول بها لا عدة عليها وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة ، ويكون بعدها كأحد الخطاب ، ولا تحل له في الثلاث إلا بعد زوج .

﴿ واتَّقوا اللَّهَ ربّكم ﴾ يعني في نساءكم المطلقات .

﴿ لا تُخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ يعني في زمان عدّتهن ، لوجود السكنى لهن .

﴿ إلاَّ أنْ يأتِينَ بفاحشَةٍ مُبَيّنَةٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الفاحشة يعني الزنا ، والإخراج هو إخراجها لإقامة الحد ، قاله ابن عمر والحسن ومجاهد .

والثاني : أنه البذاء على أحمائها ، وهذا قول عبد الله بن عباس والشافعي .

الثالث : كل معصية لله ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الرابع : أن الفاحشة خروجهن ، ويكون تقدير الآية : إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن ، قاله السدي .

﴿ وتلك حُدودُ اللَّهِ ﴾ يعني وهذه حدود اللَّه ، وفيها ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني طاعة اللَّه ، قاله ابن عباس .

الثاني : سنَّة اللَّه وأمره ، قاله ابن جبير .

الثالث : شروط اللَّه ، قاله السدّي .

﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللَّهِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : من لم يرض بها ، قاله ابن عباس .

الثاني : من خالفها ، قاله ابن جبير .

﴿ فقدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فقد ظلم نفسه في عدم الرضا ، باكتساب المأثم .

الثاني : في وقوع الطلاق في غير الطهر للشهور لتطويل هذه العدة والإضرار بالزوجة .

﴿ لا تدري لعلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْد ذلك أَمْراً ﴾ يعني رجعة ، في قول جميع المفسرين إن طلق دون الثلاث .

﴿ فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يعني قاربْن انقضاء عدتهن .

﴿ فأَمْسِكُوهُنَّ بمعروفٍ ﴾ يعني بالإمساك الرجعة .

وفي قوله ﴿ بمعروف ﴾ وجهان :

أحدهما : بطاعة اللَّه في الشهادة ، قاله مقاتل .

الثاني : أن لا يقصد الإضرار بها في المراجعة تطويلاً لعدتها . ﴿ أو فارِقوهنَّ بمعروفٍ ﴾

وهذا بأن لا يراجعها في العدة حتى تنقضي في منزلها .

﴿ وأشْهِدوا ذوَيْ عَدْلٍ منكم ﴾ يعني على الرجعة في العدة ، فإن راجع من غير شهادة

ففي صحة الرجعة قولان للفقهاء .

﴿ ومن يتّقِ اللَّهَ يَجْعَل له مَخْرَجاً ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : أي ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن المخرج علمه بأنه من قبل اللَّه ، فإن اللَّه هو الذي يعطي ويمنع ، قاله مسروق .

الثالث : أن المخرج هو أن يقنعه اللَّه بما رزقه ، قاله عليّ بن صالح .

الرابع : مخرجاً من الباطل إلى الحق ، ومن الضيق إلى السعة ، قاله ابن جريج .

الخامس : ومن يتق اللَّه بالطلاق يكن له مخرج في الرجعة في العدة ، وأن يكون كأحد الخطاب

بعد العدة ، قاله الضحاك .

والسادس : ومن يتق اللَّه بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، قاله الكلبي .

السابع : أن عوف بن مالك الأشجعي أُسِر ابنُه عوف ، فأتى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فشكا إليه ذلك مع ضر أصابه ، فأمره أن يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا باللَّه ، فأفلت ابنه من الأسر وركب ناقة للقوم ومر في طريقه بسرح لهم فاستاقه ، ثم قدم عوف فوقف على أبيه يناديه وقد ملأ الأقبال إبلاً ، فلما رآه أتى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فأخبره وسأله عن الإبل فقال : اصنع بها ما أحببت وما كنت صانعاً بمالك ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يتق اللَّه يجعل له مخرجاً ﴾ الآية ، فروى الحسن عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من انقطع إلى اللَّه كفاه اللَّه كل مؤونة ورزقه اللَّه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله اللَّه إليها " .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ قال مسروق : إن اللَّه قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه ، إلا أنَّ مَنْ توكّل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً .

﴿ قد جَعَل اللَّه لكل شيء قدْراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : - يعني وقتاً وأجلاً ، قاله مسروق .

الثاني : منتهى وغاية ، قاله قطرب والأخفش .

الثالث : مقداراً واحداً ، فإن كان من أفعال العباد كان مقدراً بأوامر اللّه ، وإن كان من أفعال اللَّه ففيه وجهان :

أحدهما : بمشيئته .

الثاني : أنه مقدر بمصلحة عباده .

﴿ واللائي يَئِسْنَ مِن المحيْض مِن نسائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أَشْهُرٍ ﴾ في الريبة ها هنا قولان :

أحدهما : إن ارتبتم فيهن بالدم الذي يظهر منهن لكبرهن فلم تعرفوا أحيض هو أم استحاضة ، فعدتهن ثلاثة أشهر ، قاله مجاهد والزهري .

الثاني : إن ارتبتم بحكم عِددهن فلم تعلموا بماذا يعتددن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

(150/770)

روى عمر بن سالم عن أبيّ بن كعب قال : قلت : يا رسول اللَّه إنّ ناساً من أهل المدينة لما نزلت الآيات التي في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكرن في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل ، فأنزل اللَّه : ﴿ اللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ .

﴿ واللائي لم يَحِضْنَ ﴾ يعني كذلك عدتهن ثلاثة أشهر ، فجعل لكل قرء شهراً ، لأنها تجمع في الأغلب حيضاً وطهراً .

﴿ وأُولاتُ الأحْمالِ أَجلُهنَّ أَن يَضَعْنَ حَملَهُنَّ ﴾ فكانت عدة الحامل وضع حملها في الطلاق والوفاة .

﴿ ومَن يتّقِ اللَّهَ يَجْعَل له مِنْ أَمْرِه يُسْراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من يتقه في طلاق السنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة ، قاله الضحاك .

الثاني : من يتق اللَّه في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة ، وهذا معنى قول مقاتل .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِن وُجْدِكم ﴾ يعني سكن الزوجة مستحق على زوجها مدة نكاحها وفي عدة طلاقها بائناً كان أو رجعياً .

وفي قوله : ﴿ من وجدكم ﴾ أربعة أوجه :

أحدهما : من قوتكم ، قاله الأعمش .

الثاني : من سعيكم ، قاله الأخفش .

الثالث : من طاقتكم ، قاله قطرب .

الرابع : مما تجدون ، قاله الفراء ، ومعانيها متقاربة . ﴿ ولا تُضارُّوهُنّ لِتُضَيِّقُوا عليهنّ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : في المساكن ، قاله مجاهد .

الثاني : لتضيقوا عليهن في النفقة ، قاله مقاتل . مقاتل ، فعلى قول مجاهد أنه التضييق في المسكن فهو عام في حال الزوجية وفي كل عدة ، لأن السكنى للمعتدة واجبة في كل عدة في طلاق يملك فيه الرجعة أو لا يملك .

وفي وجوبه في عدة الوفاة قولان ؛

وعلى قول مقاتل أنه التضييق في النفقة فهو خاص في الزوجة وفي المعتدة من طلاق رجعي .

وفي استحقاقها للمطلقة البائن قولان :

(151/770)

أحدهما : لا نفقة للبائن في العدة ، وهو مذهب مالك والشافعي رحمهما اللَّه . الثاني : لها النفقة ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه اللَّه .

﴿ وإن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فأنفِقوا عليهنّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وهذا في نفقة المطلقة الحامل لأنها واجبة لها مدة حملها في قول الجميع سواء كان طلاقاً بائناً أم رجعياً ، وإنما اختلفوا في وجوب النفقة لها هل استحقته بنفسها إن كانت بائناً أو بحملها على قولين .

﴿ فإن أَرْضَعْنَ لكم فآتوهُن أُجورَهُنّ ﴾ وهذا في المطلقة إذا أرضعت فلها على المطلق

أجرة رضيعها لأن نفقته ورضاعه واجب على أبيه دونها ، ولا أجرة لها إن كانت على نكاحه .

﴿ وائْتَمِروا بَيْنكم بمعْروف ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قاله السدي .

الثاني : تراضوا يعني أبوي الولد يتراضيان بينهما إذا وقعت الفرقة بينهما بمعروف في أجرتها على الأب ورضاعها للولد .

﴿ وإن تعاسرتم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تضايقتم وتشاكستم ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : اختلفتم .

﴿ فسترضعُ له أخرى ﴾ واختلافهما نوعان :

أحدهما : في الرضاع .

الثاني : في الأجر .

فإن اختلفا في الرضاع فإن دعت إلى إرضاعه فامتنع الأب مكِّنت منه جبراً ، وإن دعاها الأب إلى إرضاعه فامتنعت ، فإن كان يقبل ثدي غيرها لم تجبر على إرضاعه ويسترضع له غيرها ، وإن كان لا يقبل ثدي غيرها أجبرت على إراضاعه بأجر مثلها . وإن اختلفا في الأجر فإن دعت إلى أجر مثلها وامتنع الأب إلا تبرعاً فالأم أَوْلى بأجر المثل إذا لم يجد الأب

متبرعاً .

وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم شططاً فالأب أولى به ، فإذا أعسر الأب بأجرتها أخذت جبراً برضاع ولدها .

﴿ . . . لا يُكلِّفُ اللَّه نفساً إلا ما آتاها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يكلف اللَّه الأب نفقة المرضع إلا بحسب المكنة ، قاله ابن جبير .

الثاني : لا يكلفه اللَّه أن يتصدق ويزكي وليس عنده مال مصدق ولا مزكى ، قاله ابن زيد .

(152/770)

الثالث : أنه لا يكلفه فريضة إلا بحسب ما أعطاه اللَّه من قدرته ، وهذا معنى قول مقاتل .

﴿ سيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني بعد ضيق سعة .

الثاني : بعد عجز قدرة .

﴿ قد أنزلَ اللَّهُ إليكم ذِكْراً * رَسولاً ﴾ الذكر القرآن ، وفي الرسول قولان :

أحدهما : جبريل ، فيكونان جميعاً ، منزلين ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون تقدير الكلام : قد أنزل اللَّه إليكم ذكراً

وبعث إليكم رسولاً .

﴿ يتلوا عليكم آيات اللَّه ﴾ يعني القرآن ، قال الفراء : نزلت في مؤمني أهل الكتاب .

﴿ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الذين آمَنوا وَعمِلوا الصالِحَاتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من ظلمة الجهل إلى نور العلم .

الثاني : من ظلمة المنسوخ إلى ضياء الناسخ .

الثالث : من ظلمة الباطل إلى ضياء الحق .

﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ﴾ لا اختلاف بينهم في السموات السبع أنها سماء فوق سماء .

ثم قال ﴿ ومِنَ الأَرْضِ مِثْلَهنّ ﴾ يعني سبعاً ، واختلف فيهن على قولين :

أحدهما : وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، وجعل في كل أرض من خلقه من شاء ، غير أنهم تقلّهم أرض وتظلهم أخرى ، وليس تظل السماء إلا أهل الأرض العليا التي عليها عالمنا هذا ، فعلى هذا تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا ولا تلزم من غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز .

وفي مشاهدتهم السماء واستمداد الضوء منها قولان :

أحدهما : أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها

وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة .

والقول الثاني : أنهم لا يشاهدون السماء وإن اللَّه خلق لهم ضياء يستمدونه ، وهذا قول من جعل الأرض كالكرة .

(153/770)

القول الثاني : حكاه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض ، تفرق بينهن البحار وتظل جميعن السماء ، فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل هذه الأرض وصول للأخرى اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض ، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام عند إمكان الوصول إليهم لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه ، واحتمل ألا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمت لكان النص بها وارداً ولكان الرسول بها مأموراً ، واللَّه أعلم بصحة ما استأثر بعلمه وصواب ما اشبته على خلقه .

ثم قال تعالى ﴿ يتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الوحي ، قاله مقاتل ، فعلى هذا يكون قوله ﴿ بينهن ﴾ أشارة إلى ما بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هى أعلاها .

الوجه الثاني : أن المراد بالأمر قضاء اللَّه وقدره ، وهو قول الأكثرين ، فعلى هذا يكون المراد بقوله " بينهن " الإشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها .

ثم قال ﴿ لِيْعَلموا أنَّ اللَّهَ على كل شيءٍ قديرٌ ﴾ لأن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكنْ ، وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومكنته .

﴿ وأنَّ اللَّه قد أحاط بكل شيءٍ عِلْماً ﴾ أوجب التسليم بما تفرد به من العلم كما أوجب التسليم بما تفرد به من القدرة ، ونحن نستغفر اللَّه من خوض فيما اشتبه وفيما التبس وهو حسب من استعانه ولجأ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 28 .

﴿ 37

(154/770)

وقال ابن الجوزى :

سورة الطلاق

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾

قال الزجاج : هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

والمؤمنون داخلون معه فيه .

ومعناه : إذا أردتم طلاق النساء ، كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ [المائدة : 6]

وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها نزلت حين طلَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفْصَةَ ، وقيل له : راجعها ، فإنها صَوَّامةٌ قَوَّامةٌ ، وهي من إحدى زوجاتك في الجنة ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها نزلت في عبد الله بن عمر ، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي : لزمان عِدَّتهن ، وهو الطهر .

وهذا للمدخول بها ، لأن غير المدخول بها لا عدَّة عليها .

والطلاق : على ضربين : سُنِّيٌّ ، وبِدْعيٌّ .

فالسُّنِّيُّ : أن يطلِّقها في طهر لم يجامعها فيه ، وذلك هو الطلاقِ لِلْعِدَّة ، لأنها تعتدُّ بذلك الطهر من عدَّة ، وتقع في العدة عقيب الطلاق ، فلا يطول عليها زمان العدة .

والطلاق البدعي : أن يقع في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، فهو واقع ، وصاحبه آثم ، وإن جمع الطلاق الثلاث في طهرٍ واحد ، فالمنصور من مذهبنا أنه بدعة .

قوله تعالى : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي : زمان العدة .

وفي إحصائها فوائد .

منها : مراعاة زمان الرجعة ، وأوان النفقة ، والسكنى ، وتوزيع الطلاق على الإقرار إذا أراد أن يطلِّق ثلاثاً ، ولِيَعْلَمَ أنها قد بانت ، فيتزوّج بأختها ، وأربع سواها .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ربّكم ﴾ أي : فلا تعصوه فيما أمركم به .

﴿ ولا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ فيه دليل على وجوب السكنى .

ونسب البيوت إليهن ، لسكناهن قبل الطلاق فيهن ، ولا يجوز لها أن تخرج في عدتها إلا لضرورة ظاهرة .

فإن خرجت أِثمتْ ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة ﴾ وفيها أربعة أقوال :

أحدها : المعنى : إلا أن يخرجن قبل انقضاء المدة ، فخروجهن هو الفاحشة المبّينة ، وهذا قول عبد الله بن عمر ، والسدي ، وابن السائب .

والثاني : أن الفاحشة : الزنا ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وعكرمة ، والضحاك .

فعلى هذا يكون المعنى : إلا أن يزنين فَيُخْرَجْنَ لإقامة الحدّ عليهنَّ .

والثالث : الفاحشة : أن تبذؤَ على أهلها ، فيحلُّ لهم إخراجها ، رواه محمد بن إبراهيم عن ابن عباس .

والرابع : أنها إصابة حدٍّ ، فتخرج لإقامة الحدّ عليها ، قاله سعيد ابن المسيب .

قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني : ما ذكر من الأحكام ﴿ ومن يتعدَّ حدود الله ﴾ التي بيَّنها .

وأمر بها ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي : أثم فيما بينه وبين الله تعالى ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي : يُوقع في قلب الزوج المحبَّة لرجعتها بعد الطَّلْقة والطلقتين .

وهذا يدل على أن المستحب في الطلاق تفريقه ، وأن لا يجمع الثلاث .

قوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي : قاربن انقضاء العدة ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ وهذا مبيَّن في [البقرة : 231] ﴿ وأشهدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم ﴾ قال المفسرون : أشهدوا على الطلاق ، أو المراجعة .

واختلف العلماء : هل الإشهاد على المراجعة واجب ، أم مستحب ؟ وفيه عن أحمد روايتان ، وعن الشافعي قولان ثم قال للشهداء : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي : اشهدوا بالحق ، وأدُّوها على الصحة ، طلباً لمرضاة الله ، وقياماً بوصيَّته .

وما بعده قد سبق بيانه [البقرة : 232] إلى قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ فذكر أكثر المفسرين أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، أسر العدوُّ ابناً له ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : اتق الله ، واصبر ، وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ففعل الرجل ذلك ، فغفل العدوُّ عن ابنه ، فساق غنمهم ، وجاء بها إلى أبيه ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلت هذه الآية .

وفي معناها للمفسرين خمسة أقوال .

أحدها : ومن يتق الله يُنجِه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : بأن مَخْرَجَه : علمُه بأن ما أصابه من عطَاءٍ أو مَنْع ، من قِبَل الله ، وهو معنى قول ابن مسعود .

والثالث : ومن يتق الله ، فيطلق للسُّنَّةِ ، ويراجع للسُّنَّةِ ، يَجْعَلْ له مخرجاً ، قاله السدي .

والرابع : ومن يتَّق الله بالصبر عند المصيبة ، يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، قاله ابن السائب .

والخامس : يجعل له مخرجاً من الحرام إلى الحلال ، قاله الزجاج .

والصحيح أن هذا عام ، فإن الله تعالى يجعل للتقي مخرجاً من كل ما يضيق عليه .

ومن لا يتقي ، يقع في كل شدة .

قال الربيع بن خُثَيْم : يجعل له مخرجاً من كل ما يضيق على الناس ﴿ ويرزقْه من حيث لا يحتسب ﴾ أي : من حيث لا يأمل ، ولا يرجو .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون : إذا اتقى الله في طلاقه ، وجرى في ذلك على السُّنَّة ، رزقه الله أهلاً بدل أهله ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي : مَنْ وَثِقَ به فيما نابه ، كفاه الله ما أهمّه ﴿ إن الله بالغُ أمرَه ﴾ وروى حفص ، والمفضل عن عاصم "بالغُ أمرِه" مضاف .

والمعنى : يقضي ما يريد ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أي : أجلاً ومنتهىً ينتهي إليه ، قدَّر الله ذلك كلَّه ، فلا يقدَّم ولا يؤخر .

قال مقاتل : قد جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء قدراً ، فقدَّر متى يكون هذا الغني فقيراً ، وهذا الفقير غنياً .

(157/770)

قوله تعالى : ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنها لما نزلت عِدَّة المطلَّقة ، والمتوفَّى عنها زوجُها في [البقرة 227 : 232]

قال أُبَيُّ بن كعب : يا رسول الله إن نساء من أهل المدينة يقلن : قد بقي من النساء ما لم يذكر

فيه شيء .

قال : "وما هو ؟" قال : الصغار والكبار ، وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية ، قاله عمرو بن سالم .

والثاني : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن . . .

﴾ [الآية البقرة : 228] قال خلاَّد بن النعمان الأنصاري : يا رسول الله ، فما عِدَّة التي لا تحيض ، وعدَّة التي لم تحض ، وعدة الحُبلى ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

ومعنى الآية : ﴿ إن ارتبتم ﴾ ، أي : شككتم فلم تَدْرُوا ما عِدتهن ﴿ فَعِدَّتُهنَّ ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾ كذلك .

فصل

قال القاضي أبو يعلى : والمراد بالارتياب هاهنا : ارتياب المخاطبين في مقدار عدة الآيسة والصغيرة كما هو ؟ وليس المراد به ارتياب المعتدات في اليأس من المحيض ، أو اليأس من الحمل للسبب الذي ذكر في نزول الآية .

ولأنه لو أريد بذلك النساء لتوجَّه الخطاب إليهن ، فقيل : إن ارتبتنَّ ، أو ارتبْنَ ، لأن الحيض إنما يعلم من جهتهنَّ .

وقد اختلف في المرأة إذا تأخر حيضها لا لعارض كم تجلس ؟ فمذهب أصحابنا أنها تجلس غالب مدة الحمل ، وهو تسعة أشهر ، ثم ثلاثة .

والعدة : هي الثلاثة التي بعد التسعة .

فإن حاضت قبل السنة بيوم ، استأنفت ثلاث حيض ، وإن تَمَّتْ السَّنَةُ من غير حيض ، حَلَّت ، وبه قال مالك .

وقال أبو حنيفة ، والشافعي في الجديد : تمكث أبداً حتى يعلم براءة رحمها قطعاً ، وهي أن تصير في حدّ لا يحيض مثلها ، فتعتدُّ بعد ذلك ثلاثة أشهر .

قوله تعالى : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ يعني : عدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ، لأنه كلام لا يستقلُّ بنفسه ، فلا بدَّ له من ضمير ، وضميره تقدَّم ذكره مظهراً ، وهو العدَّة بالشهور .

(158/770)

وهذا على قول أصحابنا محمول على من لم يأت عليها زمان الحيض : أنها تعتد ثلاثة أشهر .

فأما من أتى عليها زمان الحيض ، ولم تحض ، فإنها تعتدُّ سنة .

قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ عامٌّ في المطلقات ، والمتوفَّى عنهن أزواجهن ، وهذا قول عمر ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبي مسعود البدري ، وأبي هريرة ، وفقهاء الأمصار .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : تعتدُّ آخر الأجلين .

ويدل على قولنا عموم الآية .

وقول ابن مسعود : من شاء لاعنته ، ما نزلت "وأولات الأحمال" إلا بعد آية المتوفَّى عنها زوجها ، وقولِ أم سلمة : إن سُبَيعة وضعت بعد وفاة زوجها بأيام ، فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتزوج .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي : فيما أُمِرَ به ﴿ يَجْعَلْ له من أمره يسراً ﴾ يُسَهِّلْ عليه أمر الدنيا والآخرة ، وهذا قول الأكثرين .

وقال الضحاك : ومن يتق الله في طلاق السُّنَّة ، يجعل الله له من أمره يسراً في الرَّجعة ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله ﴾ بطاعته ﴿ يُكفِّرْ عنه سيآتِهِ ﴾ أي : يمح عنه خطاياه ﴿ ويُعظِم له أجراً ﴾ في الآخرة .

﴿ أسكنوهنَّ من حيثُ سكنتم ﴾ و"من" صلة قوله : ﴿ من وُجدكم ﴾ قرأ الجمهور بضم الواو .

وقرأ أبو هريرة ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو رزين ، وقتادة ، ورَوْح عن يعقوب بكسر الواو .

وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة : بفتح الواو .

قال ابن قتيبة : أي : بِقَدْر وُسْعِكم .

والوُجد : المقدرة ، والغنى ، يقال : افتقر فلان بعد وُجْدٍ .

قال الفراء : يقول : على ما يجد ، فإن كان مُوَسَّعاً عليه ، وسَّعَ عليها في المسكن والنَّفَقة ، وإن كان مقتَّراً عليه ، فعلى قَدْرِ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُضَارُّوهنَّ ﴾ بالتضييق عليهنّ في المسكن ، والنفقة ، وأنتم تجدون سَعَة .

(159/770)

قال القاضي أبو يعلى : المراد بهذا : المطلقة الرجعية دون المبتوتة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق : 1] وقوله : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهنَّ بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ [الطلاق : 2] فدل ذلك على أنه أراد الرجعية .

وقد اختلف الفقهاء في المبتوتة : هل لها سكنى ، ونفقة في مدة العدة ، أم لا ؟ فالمشهور عند أصحابنا : أنه لا سكنى لها ولا نفقة ، وهو قول ابن أبي ليلى .

وقال أبو حنيفة لها السكنى ، والنفقة .

وقال مالك والشافعي : لها السكنى ، دون النفقة .

وقد رواه الكوسج عن أحمد .

ويدل على الأول حديث فاطمة بنت قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : إنما النفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعة ، فإذا لم يكن له عليها ، فلا نفقة ولا سكنى .

ومن حيث المعنى : إن النفقة إنما تجب لأجل التمكين من الاستمتاع ، بدليل أن الناشز لا نفقة لها .

واختلفوا في الحامل ، والمتوفَّى عنها زوجها ، فقال ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو العالية ، والشعبي ، وشريح ، وإبراهيم : نفقتها من جميع المال ، وبه قال مالك ، وابن أبي ليلى ، والثوري .

وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، والحسن ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء : نفقتها في مال نفسها ، وبه قال أبو حنيفة ، وأصحابه .

وعن أحمد كالقولين .

قوله تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ يعني : أجرة الرضاع .

وفي هذا دلالة على أن الأم إذا رضيت أن ترضعه بأجرة مثله ، لم يكن للأب أن يسترضع غيرها ﴿ وَأْتَمِروا بينكم بمعروف ﴾ أي : لا تشتطُّ المرأة على الزوج فيما تطلبه من أجرة الرضاع ، ولا يقصِّر الزَّوج عن المقدار المستحق ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ في الأجرة ، ولم يتراضَ

الوالدان على شيء ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ لفظه لفظ الخبر، ومعناه: الأمر، أي: فليسترضع الوالد غير والدة الصبي.

(160/770)

﴿ لينفق ذو سَعَةٍ من سَعَتِهِ ﴾ أمر أهل التَّوسِعَة أن يوسّعوا على نسائهم المرضعات أولادهن على قدر سَعَتِهم.

وقرأ ابن السميفع "لينفق" بفتح القاف ﴿ ومن قُدِرَ عليه رِزْقُه ﴾ أي: ضُيِّق عليه من المطلّقين.

وقرأ أبي بن كعب، وحميد "قُدّر" بضم القاف، وتشديد الدال.

وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة "قَدّر" بفتح القاف وتشديد الدال "رزقَه" بنصب القاف ﴿ فلينفِقْ مما آتاه الله ﴾ على قدر ما أعطاه ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ أي: على قدر ما أعطاها من المال ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ أي: بعد ضيق وشدة، غنىً وسَعَةً، وكان الغالب عليهم حينئذ الفقر، فأعلمهم أنه سيفتح عليهم بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وكأين ﴾ أي: وكم ﴿ من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ أي: عن أمر رسله.

والمعنى : عتا أهلها .

قال ابن زيد : عتت ، أي : كفرت ، وتركت أمر ربها ، فلم تقبله .

وفي باقي الآية قولان .

أحدهما : أن فيها تقديماً ، وتأخيراً .

والمعنى : عذَّبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع ، والسيف ، والبلايا ، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة ، قاله ابن عباس ، والفراء في آخرين .

والثاني : أنها على نظمها ، والمعنى : حاسبناها بعملها في الدنيا ، فجازيناها بالعذاب على مقدار عملها ؛ فذلك قوله تعالى : "وعذَّبناها" فجعل المجازاة بالعذاب محاسبة .

والحساب الشديد : الذي لا عفو فيه ، والنكر : المنكر ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي : جزاء ذنبها ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ في الدنيا ، والآخرة ، وقال ابن قتيبة : الخسر : الهلكة .

قوله تعالى : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ أي : قرآنا ﴿ رسولاً ﴾ أي : وبعثه رسولاً ، قاله مقاتل .

وإلى نحوه ذهب السدي .

وقال ابن السائب : الرسول ها هنا : جبرائيل ، فعلى هذا : يكون الذِّكر والرسول جميعاً منزَّلين .

وقال ثعلب : الرسول : هو الذِّكر .

وقال غيره : معنى الذكر هاهنا : الشرف .

(161/770)

وما بعده قد تقدَّم [البقرة : 257 ، والأحزاب : 43 ، والتغابن : 9] إلى قوله تعالى : ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ يعني : الجنة التي لا ينقطع نعيمها .

قوله : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي : وخلق الأرض بعددهن .

وجاء في الحديث : كثافة كل سماءٍ مسيرة خمسمائة عام ، وما بينها وبين الأخرى كذلك ، وكثافة كل أرض خمسمائة عام ، وما بينها وبين الأرض الأخرى كذلك .

وقد روى أبو الضحى عن ابن عباس قال : في كل أرض آدم مثل آدمكم ، ونوح مثل نوحكم ، وإبراهيم مثل إبراهيمكم ، وعيسى كعيسى ، فهذا الحديث تارة يرفع إلى ابن عباس ، وتارة يوقف على أبي الضحى ، وليس له معنى إلا ما حكى أبو سليمان الدمشقي ، قال سمعت أن معناه : إن في كل أرض خلقاً من خلق الله لهم سادة ، يقوم كبيرهم ومتقدِّمهم في الخلق مقام آدم فينا ، وتقوم ذُرِّيَّتُه في السِّنِّ والقِدَم كمقام نوح .

وعلى هذا المثال سائرهم .

وقال كعب : ساكن الأرض الثانية : البحر العقيم ، وفي الثالثة : حجارة جهنم ، والرابعة : كبريت جهنم ، والخامسة : حيات جهنم ، والسادسة : عقارب جهنم ، والسابعة : فيها إبليس .

قوله تعالى : ﴿ يتنزَّل الأمر بينهن ﴾ ، في الأمر قولان .

أحدهما : قضاء الله وقدره ، قاله الأكثرون .

قال قتادة : في كل أرضٍ من أرضهِ وسماءٍ من سمائه خَلْقٌ من خَلْقِهِ ، وأمْرٌ من أمْرِه ، وقَضَاءٌ من قَضَائِهِ .

والثاني : أنه الوحي ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 287 . 301 ﴾

(162/770)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾

نادى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم خاطب أمته لأنه المقدم عليهم فإذا خوطب خطاب الجمع كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب وقيل معناه يا أيها النبي قل لأمتك فأضمر القول إذا طلقتم النساء أي إذا أردتم تطليقهن ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها وتحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة وكان ابن عباس وابن عمر يقرآن فطلقوهن في قبل عدتهن وهذا في المدخول بها لأن غير المدخول بها لا عدة عليها نزلت هذه الآية في عبد الله بن عمر كان قد طلق امرأته في حال الحيض (ق) عن ابن عمر " أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتغيظ منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال : مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء " زاد في رواية " كان عبد الله طلقها تطليقة فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله كما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " وفي رواية لمسلم " إنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً " ولمسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عروة يسأل عمر وأبو الزبير يسمع كيف ترى في رجل طلق امرأته حائضاً فقال " طلق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) ليراجعها فردها وقال إذا طهرت فليطلق

أو ليمسك قال ابن عمر وقرأ النبي (صلى الله عليه وسلم) يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن " . (1)

---

(1) قوله في قبل عدتهن . قال في شرح مسلم هي قراءة ابن عباس وابن عمر وهي شاذة لا تثبت قرآنا بالإجماع ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا ا ه .

(163/770)

(فصل)

اعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) وإن شاء طلق قبل أن يمس ، والطلاق السني أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه وهذا في حق امرأة تلزمها العدة بالأقراء فأما إذا طلق غير المدخول بها في حال الحيض أو طلق الصغيرة التي لم تحض أو الآيسة بعد ما جامعها أو طلق الحامل بعد ما جامعها أو طلق التي لم تر الدم لا يكون بدعياً ولا سنة ، ولا بدعة في طلاق هؤلاء لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً "

والخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه لا يكون بدعياً لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته قبل أن يعرف حالها ولولا جوازه في جميع

الأحوال لأمره أن يتعرف الحال ؛ ولو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه قصداً عصى الله تعالى ووقع الطلاق لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر ابن عمر بالمراجعة فلولا وقوع الطلاق لم يأمره بالمراجعة ، وإذا راجعها في حال الحيض يجوز أن يطلقها في حال الطهر الذي يعقب تلك الحيضة قبل المسيس كما رواه يونس بن جبير وأنس بن سيرين عن ابن عمر ولم يقولا ثم تحيض ثم تطهر وما رواه نافع عن ابن عمر ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فأمر استحباب استحب تأخير الطلاق إلى الطهر الثاني حتى لا تكون مراجعته إياها للطلاق كما أنه يكره النكاح للطلاق ، ولا بدعة في الجمع بين الطلقات الثلاث عند بعض أهل العلم فلو طلق امرأته في حال الطهر ثلاثاً لا يكون بدعياً وهو قول الشافعي وأحمد وذهب بعضهم إلى أنه بدعة وهو قول مالك وأصحاب الرأي .

(164/770)

قوله تعالى : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي عدة أقرائها فاحفظوها ؛ قيل أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً ، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أي واخشوا الله ولا تعصوه فيما أمركم به ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ يعني إذا كان المسكن الذي طلقها فيه الزوج له بملك أو إكراء

وإن كان عارية فارتجعت كان على الزوج أن يكري لها منزلاً غيره ولا يجوز للزوج أن يخرج المرأة من المسكن الذي طلقها فيه ﴿ ولا يخرجن ﴾ يعني ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها لحق الله تعالى فإن خرجت لغير ضرورة أثمت فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً ، يدل على ذلك أن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نساؤهم نستوحش في بيوتنا فأذن لهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يتحدثن عند إحداهن فإذا كان وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها وأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لخالة جابر وقد كان طلقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها فإذا لزمتها العدة في السفر تعتد في أهلها ذاهبة وراجعة والبدوية تتبوأ حيث يتبوأ أهلها في العدة لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم .

(165/770)

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ قال ابن عباس : الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها وقيل أراد بالفاحشة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها يروى ذلك عن ابن مسعود وقيل معناه إلا أن يطلقها على

نشوزها فلها أن تتحول من بيت زوجها والفاحشة النشوز وقيل خروجها قبل انقضاء عدتها فاحشة ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني ما ذكر من سنة الطلاق وما بعده من الأحكام ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي فيطلق لغير السنة أو تجاوز هذه الأحكام ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي ضر نفسه ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي يوقع في قلب الزوج مراجعتها بعد الطلقة والطلقتين وهذا يدل على أن المستحب أن يفرق الطلقات ولا يوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا ندم أمكنه المراجعة .

قوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي إذا قربن من انقضاء عدتهن ﴿ فأمسكوهن ﴾ أي راجعوهن ﴿ بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهم فيبن منكم ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ أي على الرجعة وعلى الفراق أمر بالإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق .

عن عمران بن حصين أنه سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يقع عليها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد .

(166/770)

أخرجه أبو داود وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كما في قوله وأشهدوا إذا تبايعتم وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة وفائدة هذا الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها وأن لا يموت أحد الزوجين فيدعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث ؛ وقيل أمر بالإشهاد للاحتياط مخافة أن تنكر الزوجة المراجعة فتنقضي العدة فتنكح زوجاً غيره ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾ يعني أيها الشهود ﴿ لله ﴾ أي طلباً لمرضاة الله وقياماً بوصيته والمعنى اشهدوا بالحق وأدوها على الصحة ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قيل معناه ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة .

وقال أكثر المفسرين : نزلت في عوف بن مالك أسر ابن له يسمى مالكاً فأتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله أسر العدو ابني وشكا إليه أيضاً فاقة فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) " اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله " ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب منهم إبلاً وجاء بها إلى أبيه .

وعن ابن عباس قال : غفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة فنزلت ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ أي في ابنه .

﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ يعني ما ساق من الغنم وقيل أصاب غنماً ومتاعاً ثم رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبره الخبر وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به ابنه ؟ فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) نعم ونزلت الآية وقال ابن مسعود ومن يتق الله يجعل له مخرجاً من كل شيء ويرزقه من حيث لا يحتسب هو أن يعلم أنه من قبل الله وأن الله رازقه وقال الربيع بن خثيم يجعل له محرجاً من كل شيء ضاق على الناس وقيل محرجاً من كل شدة وقيل مخرجاً عما نهاه الله عه ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ يعني من يتق الله فيما نابه كفاه ما أهمه وروي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً " ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي منفذ أمره وممض في خلقه ما قضاه ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أي جعل لكل شيء من شدة أو رخاء أجلاً ينتهي إليه وقال مسروق في هذه الآية إن الله بالغ أمره توكل عليه أم لم يتوكل عليه غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً .

(168/770)

قوله : ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ قيل لما نزلت ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري يا رسول الله فما عدة من تحيض والتي لم تحض وعدة الحبلى فأنزل الله : ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ يني القواعد اللاتي قعدن عن الحيض فلا يرجى أن يحضن وهن العجائز الآيسات من الحيض ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي شككتم في حكمهن ولم تدروا ما عدتهن ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾ يعني الصغائر اللاتي لم يحضن بعد فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر أما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء وتبلغ سن الآيسات فتعتد بثلاثة أشهر وهذا قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي وحكي عن عمر أنها تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك وقال الحسن تتربص سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر وهذا كله في عدة الطلاق وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء كانت ممن تحيض أو لا تحيض وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء طلقها زوجها أو مات عنها وهو قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (ق) "عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت

من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال لها ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح وأنت والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حتى أمسيت وأتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي " لفظ البخاري ولمسلم

(169/770)

نحوه وزاد قال ابن شهاب ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنها لا يقربها زوجها حتى تطهر ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك ذكر من الأحكام ﴿ أمر الله أنزله إليكم ﴾ أي لتعلموا به ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾

قوله تعالى : ﴿ أسكنوهن ﴾ يعني مطلقات نسائكم ﴿ من حيث سكنتم من وجدكم ﴾ أي من سعتكم وطاقتكم فإن كان موسراً يوسع عليها في المسكن والنفقة وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة ﴿ ولا تضاروهن ﴾ أي لا تؤذوهن ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ يعني في مساكنهن فيخرجن ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ أي

فيخرجن من عدتهن .

(فصل : في حكم الآية)

اعلم أن المعتدة الرجعية تستحق على الزوج النفقة والسكنى ما دامت في العدة ونعني بالسكنى مؤنة السكنى فإن كانت الدار التي طلقها الزوج فيها ملك الزوج يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة وإن كانت عارية فرجع المعير فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها وأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلاق الثلاث أو باللعان فلها السكنى حاملاً كانت أو غير حامل عند أكثر أهل العلم وروي عن ابن عباس أنه قال لا سكنى لها إلا أن تكون حاملاً وهو قول الحسن والشعبي .

(170/770)

واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً ، يروى ذلك ، عن ابن عباس وهو قول الحسن والشعبي وبه قال الشافعي وأحمد ومنهم من أوجبها بكل حال يروى ذلك عن ابن مسعود وهو قول إبراهيم النخعي ، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي وظاهر القرآن يدل على أنها لا تستحق النفقة إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى : ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ وأما الدليل على ذلك من السنة فما روي

عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال والله ما لك علينا من شيء فجاءت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك له فقال لها " ليس لك عليه نفقة وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال تلك امرأة يغشاها أصحابي فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللت فآذنيني " قالت فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له انكحي أسامة بن زيد فكرهته ثم قال انكحي أسامة بن زيد فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به " أخرجه مسلم واحتج بهذا الحديث من لم يجعل لها سكنى وقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم ولا حجة له فيه لما روي عن عائشة ا أنها قالت كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها وقال سعيد بن المسيب إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان في لسانها ذرابة : وأما المعتدة عن وطء الشهبة والمفسوخ نكاحها بعيب أو خيار عتق فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملاً وأما المعتدة عن وفاة الزوج فلا نفقة لها عند أكثر أهل العلم وروي عن علي أن لها النفقة إن كانت حاملاً من التركة حتى تضع وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثوري .

واختلفوا في سكناها وللشافعي فيه قولان :

أحدهما : أنه لا سكنى لها بل تعتد حيث تشاء وهو قول علي وابن عباس وعائشة وبه قال عطاء والحسن وهو قول أبي حنيفة .

والثاني : أن لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وبه قال مالك والثوري وأحمد وإسحاق .

واحتج من أوجب لها السكنى بما روي عن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري " أنها جاءت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسألته أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت فسألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة قالت فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نعم قالت فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو أمر بي فنوديت فقال كيف قلت فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً قالت فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به "

أخرجه أبو داود والترمذي ، فمن قال بهذا القول قال إذنه لفريعة أولاً بالرجوع صار منسوخاً بقوله آخراً " امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " ومن لم يوجب السكنى قال أمرها بالمكث في بيتها آخراً استحباباً لا وجوباً .

(172/770)

قوله : ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ يعني أولادكم ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ يعني على إرضاعهن ، وفيه دليل على أن اللبن وإن كان قد خلق لمكان الولد فهو ملك للأم وإلا لم يكن لها أن تأخذ عليه أجراً وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف وقيل يتراضى الأب والأم على أجر مسمى والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار ، وقيل المعروف هاهنا لا أن يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا المرأة في حق الولد ورضاعه ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي في حق الولد وأجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله : ﴿ فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ﴾ أي على قدر غناه ﴿ ومن قدر ﴾ أي ضيق ﴿ عليه رزقه

﴿ فكان بمقدار القوت ﴾ فلينفق مما آتاه الله ﴾ أي على قدر ما آتاه الله من المال ﴿ لا يكلف الله نفساً ﴾ أي في النفقة ﴿ إلا ما آتاها ﴾ يعني من المال والمعنى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني في النفقة ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة .

(173/770)

﴿ وكأين من قرية عتت ﴾ أي عصت وطغت والمراد أهل القرية ﴿ عن أمر ربها ورسله ﴾ أي وأمر رسله ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ أي بالمناقشة والاستقصاء وقيل حاسبها بعملها في الكفر فجزاها النار وهو قوله ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي منكراً فظيعاً وقيل في الآية تقديم وتأخير مجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر أنواع البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي شدة أمرها وجزاء كفرها ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أي خسراناً في الدنيا والآخرة ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ يخوف كفار مكة أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا ذوي العقول ثم نعتهم فقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ يعني القرآن ﴿ رسولاً ﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً ﴿ يتلوا عليكم

آيات الله مبينات ﴾ قرىء مبينات بالخفض أي تبين الحلال من الحرام والأمر والنهي وقرىء بالنصب ومعناه أنها واضحات ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتا الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها وقيل يرزقون طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ﴾ يعني بعضها فوق بعض ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي في العدد ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ أي الوحي إلى خلقه من السماء العليا إلى الأرض السفلى وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره ينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار وبالصيف والشتاء ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاته وينقله من حال إلى حال فيحكم بحياة بعض وموت بعض وسلامة هذا وهلاك هذا ، وقيل في كل سماء من سمواته وأرض من أرضيه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن

الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية وأنه قادر على الإنشاء بعد الإفناء وكل الكائنات جارية تحت قدرته داخلة في علمه والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 106. 114 ﴾

(175/770)

وقال النسفى :

﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾

خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم يا فلان افعلوا كذا إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه وأنه قدوة قومه ، فكان هو وحده في حكم كلهم وساداً مسد جميعهم .

وقيل : التقدير يا أيها النبي والمؤمنون .

ومعنى ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ إذا أردتم تطليقهن وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله عليه السلام " من قتل قتيلاً فله سلبه " ومنه : كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلي .

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، وفي قراءة رسول الله صلى الله

عليه وسلم ﴿ فِى قبل عدتهن ﴾ وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها ، والمراد أن تطلق المدخول بهن من المعتدات بالحيض في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن وهذا أحسن الطلاق ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن ، وخوطب الأزواج لغفلة النساء .

﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ حتى تنقضي عدتهن ﴿ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة وهي بيوت الأزواج ، وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى ، وفيه دليل على أن السكنى واجبة ، وأن الحنث بدخول دار يسكنها فلان بغير ملك ثابت فيما إذا حلف لا يدخل داره .

ومعنى الإخراج أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قيل : هي الزنا أي إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن .

وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى ﴾ أيها المخاطب ﴿ لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها ، والمعنى فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ولا تخرجوهن من بيوتهن لعلكم تندمون فتراجعون .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ قاربن آخر العدة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها ﴿ وَأَشْهِدُواْ ﴾ يعني عند الرجعة والفرقة جميعاً ، وهذا الإشهاد مندوب إليه لئلا يقع بينهما التجاحد ﴿ ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ من المسلمين ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادةَ لِلَّهِ ﴾ لوجهه خالصاً وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر ﴿ ذلكم ﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليوم الآخر ﴾ أي إنما ينتفع به هؤلاء ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، والمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد ﴿ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ مما في شأن الأزواج من

الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه ويعطه الخلاص .

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه ، ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ .

(177/770)

أي ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال : " مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله " فما زال يقرؤها ويعيدها ، ورُوي أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أسر ابني وشكا إليه الفاقة فقال : " ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " فقالت : نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان ذلك ، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ

على الله ﴿ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافيه في الدارين ﴿ إِنَّ اللهَ بالغ أَمْرِهِ ﴾ حفص أي منفذ أمره ، غيره ﴿ بالغُ أمرَه ﴾ أي يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ تقديراً وتوقيتاً ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل .

﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ رُوي أن ناساً قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الإقراء فما عدة اللائي لم يحضن ؟ فنزلت ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ أي فهذا حكمهن .

(178/770)

وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ هن الصغائر وتقديره واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ عدتهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ والنص يتناول المطلقات والمتوفي عنهم أزواجهن .

وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم : عدة الحامل المتوفي عنها زوجها أبعد الأجلين ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ ييسر له من أمره ويحلل من عقده بسبب التقوى ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ ثم بين التقوى في قوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ وكذا وكذا ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ هي "من" التبعيضية مبعضها محذوف أي أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم أي بعض مكان سكناكم ﴿ مّن وُجْدِكُمْ ﴾ هو عطف بيان لقوله ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ وتفسير له كأنه قيل : أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه والوجد : الوسع والطاقة .

وقرىء بالحركات الثلاث والمشهور الضم .

(179/770)

والنفقة والسكنى واجبتان لكل مطلقة ، وعند مالك والشافعي لا نفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها أبت طلاقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا

سكنى لك ولا نفقة " وعن عمر رضي الله عنه : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا بقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " لها السكنى والنفقة " ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ ولا تستعملوا معهن الضرار ﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج.

﴿ وَإِن كُنَّ ﴾ أي المطلقات ﴿ أُولَاتِ حَمْلٍ ﴾ ذوات أحمال ﴿ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وفائدة اشتراط الحمل أن مدة الحمل ربما تطول فيظن ظان النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل فنفي ذلك الوهم ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ يعني هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من ظئرهن أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ فحكمهن في ذلك حكم الأظآر ، ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبن خلافاً للشافعي رحمه الله ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم ﴾ أي تشاوروا على التراضي في الأجرة ، أو ليأمر بعضكم بعضاً ، والخطاب للآباء والأمهات ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بما يليق بالسنة ويحسن في المروءة فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ تضايقتم فلم ترض الأم بما ترضع به الأجنبية ولم يزد الأب على ذلك ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ فستوجد ولا تعوز مرضعة غير

الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة .

وقوله ﴿ لَهُ ﴾ أي للأب أي سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه .

(180/770)

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ اللهُ ﴾ أي لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، ومعنى ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ ضيق أي رزقه الله على قدر قوته ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَآ ءاتَاهَا ﴾ أعطاها من الرزق ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ بعد ضيق في المعيشة سعة وهذا وعد لذي العسر باليسر .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ من أهل قرية ﴿ عَتَتْ ﴾ أي عصت ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ ﴿ نُّكْراً ﴾ مدني وأبو بكر منكراً عظيماً ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ أي خساراً وهلاكاً ، والمراد حساب الآخرة وعذابها وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر .

وجيء به على لفظ الماضي لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن

فكأن قد ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقباً كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين ءامَنُواْ ﴾ فليكن لكم ذلك يا أولي الألباب من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه ، ويجوز أن يراد إحصاء السيئات واستقصاؤها عليهم في الدنيا وإثباتها في صحائف الحفظة وما أصيبوا به من العذاب في العاجل ، وأن يكون ﴿ عَتَتْ ﴾ وما عطف عليه صفة للقرية و ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ جواباً ل ﴿ كأين ﴾ ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ أي القرآن .

(181/770)

وانتصب ﴿ رَسُولاً ﴾ بفعل مضمر تقديره أرسل رسولاً أو بدل من ﴿ ذِكْراً ﴾ كأنه في نفسه ذكراً وعلى تقدير حذف المضاف أي قد أنزل الله إليكم ذا ذكر رسولاً ، أو أريد بالذكر الشرف كقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] أي ذا شرف ومجد عند الله وبالرسول جبريل أو محمد عليهما السلام ﴿ يَتْلُواْ ﴾ أي الرسول أو الله عز وجل ﴿ عَلَيْكُمْ ءايات الله مبينات لِّيُخْرِجَ ﴾ الله .

﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح ، أو ليخرج الذين علم أنهم يؤمنون ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من ظلمات

الكفر أو الجهل إلى نور الإيمان أو العلم ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا يُدْخِلْهُ ﴾ وبالنون : مدني وشامي ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَدًا ﴾ وحد وجمع حملاً على لفظ "من" ومعناه ﴿ قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب ﴿ الله الذى خَلَقَ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ سَبْعَ سماوات ﴾ أجمع المفسرون على أن السماوات سبع ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ قيل : ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية ، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السماوات .

وقيل : الأرض واحدة إلا أن الأقاليم سبعة ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يجري أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اللام يتعلق ب ﴿ خَلَقَ ﴾ ﴿ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَا ﴾ هو تمييز أو مصدر من غير لفظ الأول أي قد علم كل شيء علماً وهو علام الغيوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 264. 268 ﴾

(182/770)

وقال ابن جزى :

سورة الطلاق

﴿ يا أَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾

إن قيل : لم نودي النبي صلى الله عليه وسلم وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة ؟

فالجواب : أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، قيل : إن طلقتم خطاباً له ولهم ، وخُصَّ هو عليه الصلاة والسلام بالنداء تعظيماً له ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا ، أي : افعل أنت وقومك ، ولأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ لأمته ، فكأنه قال : يا أيها النبي إذا طلقت أنت وأمتك . وقيل : تقديره يا أيها النبي قل لأمتك إذ قطلتم . وهذا ضعيف لأنه يقتضي أن هذا الحكم مختص بأمته دونه ، وقيل : إنه خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بطلقتم تعظيماً له ، كما تقول للرجل المعظم : أنتم فعلتم ، وهذا أيضاً ضعيف ، لأنه يقتضي اختصاصه عليه الصلاة السلام بالحكم دون أمته ، ومعنى إذا طلقتم هنا : إذا أردتم الطلاق .

(183/770)

واختلف في الطلاق هل هو مباح أو مكروه ؟ فأما إذا كان على غير وجه السنة فهو ممنوع . ولكن يلزم ، وأما اليمين بالطلاق فممنوع ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ تقديره : طلقوهن مستقبلات لعدتهن ، ولذلك قرأ عثمان وابن عباس وأبيّ بن كعب : فطلقوهن في قبل عدتهن ، وقرأ ابن عمر : لقبل عدتهن ، ورويت القرءاتان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك كله : لا يطلقها وهي حائض ، فهو منهي عنه بإجماع ، لأنه إذا فعل ذلك لم يقع طلاقه في الحال التي أمر الله بها وهو استقبال العدة ، واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض هل هو معلل بتطويل العدة ، أو هو تعبد ؟ والصحيح أنه معلل بذلك ، وينبني على هذا الخلاف فروع منها : هل يجوز إذا رضيت به المراة أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها وهي حامل أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا ؟ فالتعليل بتطويل العدّة يقتضي جواز هذه الفروع ، والتعبد يقتضي المنع ، ومن طلق في الحيض لزمه الطلاق ، ثم يؤمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك ، وبدون إجبار عند الشافعي حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك ، حسبما ورد في حديث ابن عمر ، " حين طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له : مرة فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ؛ ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك " واشترط مالك أن يطلقها في طهر لم يمسها فيه ، ليعتد بذلك الطهر ، فإنه إن طلقها في طهر بعد أن جامعها فيهن فلا تدري هل تعتد بالوضع أو بالأقراء ، فليس طلاقاً لعدتها

كما أمر الله ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ أمر بذلك لما ينبني عليها من الأحكام ، في الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك .

(184/770)

﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المراة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه ، ونهاها هي أن تخرج باختيارها ، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف ، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة ، فإن كان المسكن ملكاً للزوج ، أو مكترى عنده ، لزمه إسكانها فيه ، وإن كان المسكن لها فعليه كراؤه مدة العدة ، وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية ؛ ففي لزوم خورج العدة له قولان في المذهب والصحيح لزومه ؛ لأن الامتناع قد انقطع بالطلاق ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي ؟ على خمسة أقوال : الأول أنها الزنا فتخرج لإقامة الحدّ ، قاله الليث بن سعد والشعبي . الثاني أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكنى ، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب ، قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب ، إلا أن يفحشن عليكم . الثالث أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك ،

فمتى فعلت شيئاً من ذلك سقط حقها في السكنى ، قاله ابن عباس أيضاً وإليه مال الطبري الرابع : أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقطت حقها في السكنى قاله ابن الفرس ، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة ، الخامس : أنه النشوز قبل الطلاق ، فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى ، قاله قتادة .

﴿ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ المراد به الرجعة عند الجمهور ، أي أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به ، لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم ، وقيل : إن سبب الرجعة المذكورة في الآية تطليق النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة بن عمر فأمره الله بمراجعتها .

(185/770)

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يريد آخر العدة ، والإمساك بمعروف هو : تحسين العشرة وتوفية النفقة ، والفراق بالمعروف هو : أداء الصداق والإمتاع حين الطلاق والوفاء بالشروط ونحو ذلك ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ هذا خطاب للأزواج ، والمأمور به هو الإشهاد على الرجعة عند الجمهور ، وقد اختلف فيه هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين في المذهب . وقال ابن عباس : هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة ، وهذا أظهر لأن الإشهاد به يرفع الإشكال والنزاع ،

ولا فرق في هذا بين الرجعة والطلاق ، وقد ذكرنا العدالة في البقرة وقوله : ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ ﴾ يدل على إنه إنما يشهد في الطلاق والنكاح الرجال دون النساء ، وهو مذهب مالك . خلافاً لمن أجاز شهادة النساء في ذلك . وقوله : ﴿ مِّنكُمْ ﴾ يريد من المسلمين ، وقيل : من الأحرار فيؤخذ من ذلك ردّ شهادة العبيد ، وهو مذهب مالك ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادةِ للَّهِ ﴾ هذا خطاب للشهود ، وإقامة الشهادة يحتمل أن يريد بها القيام ، فإذا استشهد وجب عليه أن يشهد وهو فرض كفاية ، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس ويحتمل أن يريد إقامتها بالحق دون ميل ولا غرض ، وبهذا فسره الزمخشري وهو أظهر لقوله : لله وهو كقوله : ﴿ كُونُواْ قوامين بالقسط ﴾ شهداء لله [النساء : 135] ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأحكام .

(186/770)

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قيل إنها في الطلاق ، ومعناها : من يتق الله فيطلق طلقة واحدة ، حسبما تقتضيه السنة يجعل له مخرجاً بجواز الرجعة متى ندم على الطلاق ، وفي هذا المعنى روي عن ابن عباس أنه قال لمن طلق ثلاثاً : إنك لم تتق الله فبانَتْ منك امرأتُك ، ولا أرى لك مخرجاً أي لا رجعة لك . وقيل : إنها على العموم أي من يتق الله في

أقواله وأفعاله يجعل له مخرجاً ، من كرب الدنيا والآخرة ، وقد روي هذا أيضاً عن ابن عباس ، وهذا أرجح لخمسة أوجه : أحدها حمل اللفظ على عمومه فيدخل في ذلك الطلاق وغيره ، الثاني أنه روي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أسر ولده وضيق عليه رزقه ، فشكى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالتقوى ، فلم يلبث إلا يسيراً وانطلق ولده ووسع الله رزقه ، والثالث أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة والرابع روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً " الآية : فما زال يقرؤها ويعيدها الخامس قوله : ويرزقه من حيث لا يحتسب ، فإن هذا لا يناسب الطلاق وإنما يناسب التقوى على العموم .

قال بعض العلماء : الرزق على نوعين ؛ رزق مضمون لكل حي طول عمره ، وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة وإليه الإشارة بقوله : وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ورزق موعود للمتقين خاصة ، وهو المذكور في هذه الآية : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافية بحيث لا يحتاج معه إلى غيره ، وقد تكلمنا على التوكل في آل عمران .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أين يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء ، هذا حض على التوكل وتأكيد له ، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يعوّل على سواه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ أي مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً .

﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ روي أنه لما نزل قوله : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قرواء ﴾ [البقرة : 228] قالوا : يا رسول الله فما عدة من لا قُرْءَ لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت هذه الآية معلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، فقوله : ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ : يعني انقطعت حيضتها لكبر سنها ، وقوله : ﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يعني الصغيرة التي لم تبلغ المحيض وهو معطوف على اللائي يئسن أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره واللائي لم يحضن كذلك ، وقوله : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ هو من الريب بمعنى الشك وفي معناه قولان : أحدهما : إن ارتبتم في حكم عدتها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر . والآخر إن ارتبتم في حيضها هل انقطع أو لم ينقطع ، فهي على التأويل الأول في التي انقطعت حيضتها لكبر سنها حسبما ذكرنا وهو الصحيح ، وهي على التأويل الثاني في المرتابة وهي التي غابت عنها الحيضة وهي في سن من تحيض ، وقد اختلف العلماء في عدتها على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها ثلاثة أشهر خاصة حسبما تقتضيه الآية على هذا التأويل ، والآخر : أنها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر

تستبرئ بها أمد الحمل وهذا مذهب مالك : وقد وته في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والثالث : أنها تعتد بالأقراء ولو بقيت ثلاثين سنة حتى تبلغ سن من لا تحيض وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة .

(188/770)

﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ هذه الآية عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء عامة في المطلقات والمتوفى عنهن ، فمتى كانت إحداهن حاملاً فعدتها وضع حملها . وقال علي بن أبي طالب وابن عباس إنما هذه الآية في المطلقات الحوامل فهي اللاتي عدتهن وضع حملهن . وأما المتوفى عنها إذا كانت حاملاً فعدتها عندهما أبعد الأجلين ؛ إما الوضع أو انقضاء الأربعة الأشهر وعشراً ، فحجة الجمهور حديث سبيعة الأسلمية " أنها كانت زوجاً لسعد بن خولة فتوفى عنها في حجة الوداع وهي حبلى ، فلما وضعت خطبها أبو السنابل بن بعكك ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : انكحي ما شئت " ، وقد ذكر أن ابن عباس رجع إلى هذا الحديث لما بلغه ولو بلغ علياً رضي الله عنه لرجع إليه ، وقال عبد الله بن مسعود : إن هذه الآية التي نزلت في سورة النساء القصوى يعني سورة الطلاق نزلت بعد الآية التي في البقرة : ﴿ والذين

يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة: 234] فهي مخصصة لها حسبما قاله جمهور العلماء .

(189/770)

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أمر الله بإسكان المطلقة طول العدة ، فأما المطلقة غير المبتوتة فيجب لها على زوجها السكنى والنفقة باتفاق ، وأما المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تجب لها السكنى دون النفقة ، وهو مذهب مالك والشافعي ، والثاني : يجب لها السكنى والنفقة وهو مذهب أبي حنيفة ، والثالث : أنها ليس لها سكنى ولا نفقة ، فحجة مالك حديث فاطمة بنت قيس ، وهو أن زوجها طلقها البتة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس لك عليه نفقة ، فيوخذ من هذا أن لها السكنى دون النفقة ، وحجة من أوجب لها السكنى قول عمر بن الخطاب : لا ندع آية من كتاب ربنا لقول امرأة . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : لها السكنى والنفقة ، وحجة من لا يجعل لها لا سكنى ولا نفقة أن في بعض الروايات عنها أنها قالت : لم يجعل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى . وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ معناه : أسكنوهن مكاناً من بعض مساكنكم ، فمن للتبعيض ، ويفسر ذلك قول قتادة :

لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ الوجد هو الطاقة والسعة في المال فالمعنى : أسكنوهن مسكناً مما تقدرون عليه ، وإعرابه عطف بيان لقوله : حيث سكنتم ، ويجوز في الوجد ضم الواو وفتحها وكسرها وهو بمعنى واحد ، والضم أكثر وأشهر .

(190/770)

﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ اتفق العلماء على وجوب النفقة في العدة للمطلقة الحامل عملاً بهذه الآية ؛ سواء كان الطلاق رجعياً أو بائناً ، واتفقوا على أن للمطلقة غير الحامل النفقة في العدة إذا كان الطلاق رجعياً ، فإن كان بائناً فاختلفوا في نفقتها حسبما ذكرناه ، وأما المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً فلا نفقة لها عند مالك والجمهور ، لأنهم رأوا هذه الآية إنما هي في المطلقات ، وقال قوم : لها النفقة في التركة ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ المعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم فآتوهن أجرة الرضاع ، وهي النفقة وسائر المؤن حسبما ذكر في كتب الفقه ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ هذا خطاب للرجال والنساء ، والمعنى أن يأمر كل واحد صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان ، وقيل : معنى ائتمروا تشاوروا ومنه : ﴿ إِنَّ الملأ

يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ [القصص : 20] ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخرى ﴾ المعنى إن تشططت الأم على الأب في أجرة الرضاع ، وطلبت منه كثيراً ، فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق له ، إلا أن لا يقبل الطفل غير ثدي أمه ، فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ، ولا يكلف الزوج ما لا يطيق ، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً . وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية ، ومن عجز عن نفقة امرأته فمذهب مالك والشافعي أنها تطلق عليه خلافاً لأبي حنيفة ، وإن عجز عن الكسوة دون النفقة ففي التطليق عليه قولان في المذهب .

(191/770)

﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي حاسبنا أهلها قيل : يعني الحساب في الآخرة ، وكذلك العذاب المذكور بعده ، وقيل : يعني في الدنيا وهذا أرجح لأنه ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك في قوله : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [الطلاق : 10] ، أو لأن قوله : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَ ﴾ ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا ﴾ بلفظ الماضي فهو حقيقة فيما وقع ، مجاز فيما لم يقع ،

فمعنى حاسبناها ؛ أي آخذناهم بذنوبهم ولم يغتفر لهم شيء من صغائرها ، والعذاب هو عقابهم في الدنيا ، والنكر هو الشديد الذي لم يعهد مثله .

﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً ﴾ الذكر هنا هو القرآن ، والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وإعراب رسولاً مفعول بفعل مضمر تقديره : أرسل رسولاً . وهذا الذي اختاره ابن عطية وهو أظهر الأقوال . وقيل : إن الذكر والرسول معاً يراد بهما القرآن ، والرسول على هذا بمعنى الرسالة ، وقيل : إنهما يراد بهما القرآن على حذف مضاف تقديره ذكراً ذا رسول ، وقيل : رسولاً مفعول بالمصدر الذي هو الذكر . وقال الزمخشري : الرسول هو جبريل بدل من الذكر ، لأنه نزل به أو سمى ذكراً لكثرة ذكره لله ، وهذا كله بعيد .

﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ لا خلاف أن السموات سبع ، وأما الأرض فاختلف فيها فقيل : إنها سبع أرضين لظاهر هذه الآية ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " من عصب شبراً من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين " وقيل : إنما هي واحدة فقوله : ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ على القول الأول يعني به المماثلة في العدد ، وعلى القول الثاني : يعني به المماثلة في عظم الجرم وكثرة العمار وغير ذلك ، والأول أرجح ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ يحتمل أن يريد بالأمر الوحي أو أحكام الله وتقديره لخلقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 125 .

وقال البيضاوى :

سورة الطلاق

﴿ مدنية وآيها اثنتا عشرة أو إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾

خص النداء وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمته فنداؤه كندائهم ، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم . والمعنى إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف له منزلة الشارع فيه . ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي في وقتها وهو الطهر ، فإن اللام في الأزمان وما يشبهها للتأقيت ، ومن عدة العدة بالحيض علق اللام بمحذوف مثل مستقبلات ، وظاهره يدل على أن العدة بالأطهار وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغي أن يكون في الطهر ، وأنه يحرم في الحيض من حيث إن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده ولا يدل على عدم وقوعه ، إذ النهي لا يستلزم الفساد ،

كيف و" قد صح أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما طلق امرأته حائضاً أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالرجعة وهو سبب نزوله " . ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء . ﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن . ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ من مساكنهن وقت الفراق حتى تنقضي عدتهن . ﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ باستبدادهن أما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما ، وفي الجمع بين النهيين دلالة على استحقاقهما السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ مستثنى من الأول ، والمعنى إلا أن تبذو على الزوج فإنه كالنشوز في إسقاط حقها ، أو إلا أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ، أو من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على أن خروجها فاحشة . ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ الله ﴾ الإشارة إلى الأحكام المذكورة . ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بأن عرضها للعقاب . ﴿ لا تَدْرِى ﴾ أي النفس أو أنت أيها النبي أو المطلق . ﴿ لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ وهو الرغبة في المطلقة برجعة أو استئناف .

(194/770)

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ شارفن آخر عدتهن . ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن . ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب ، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرار مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدتها . ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوِى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ على الرجعة أو الفرقة تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع ، وهو ندب كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وعن الشافعي وجوبه في الرجعة . ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة ﴾ أيها الشهود عند الحاجة . ﴿ لِلَّهِ ﴾ خالِصاً لوجهه . ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ يريد الحث على الإشهاد والإقامة ، أو على جميع ما في الآية . ﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ فإنه المنتفع به والمقصود بذكره . ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ .

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على الإتقاء عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً من الطلاق في الحيض ، والإضرار بالمعتدة وإخراجها من المسكن ، وتعدي حدود الله وكتمان الشهادة وتوقع جعل على إقامتها بأن يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من المضايق والغموم ، ويرزقه فرجاً وخلفاً من وجه لم يخطر بباله .

أو بالوعد لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون . أو كلام جيء به للاستطراد عند ذكر المؤمنين . وعنه صلى الله عليه وسلم " إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم" . ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها " وروي "أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي أسره العدو ، فشكا أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له " اتق الله وأكثر قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها " وفي رواية " رجع ومعه غنيمات ومتاع " ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافية . ﴿ إِنَّ الله بالغ أَمْرِهِ ﴾ يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد ، وقرأ حفص بالإضافة ، وقرىء ﴿ بالغ أَمْرِهِ ﴾ أي نافذ و"بالغا" على أنه حال والخبر : ﴿ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ تقديراً أو مقدراً ، أو أجلاً لا يتأتى تغييره ، وهو بيان لوجوب التوكل وتقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها ، وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها .

(196/770)

﴿ واللاتى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ لكبرهن . ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ شككتم في عدتهن أي جهلتهم . ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ روي أنه لما نزل ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ

بِأَنْفُسِهِنَّ ثلاثة قُرُوء ﴾ قيل فما عدة اللَّاتي لم يحضن فنزلت . ﴿ واللاتي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي واللاتي لم يحضن بعد كذلك . ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ منتهى عدتهن . ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وهو حكم يعم المطلقات والمتوفى عنهم أزواجهن ، والمحافظة على عمومه أولى من محافظة عموم قوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا ﴾ لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجا بالعرض ، والحكم معلل ها هنا بخلافه ثمة ، ولأنه صح أن سبيعة بنت الحرث وضعت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " قد حللت فتزوجي " ولأنه متأخر النزول فتقديمه في العمل تخصيص وتقديم الآخر بناء للعام على الخاص والأول راجح للوفاق عليه . ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها . ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه للخير .

﴿ ذَلِكَ أَمْرُ الله ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام . ﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ الله ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها . ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ بالمضاعفة .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي مكان من مكان سكناكم. ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ من وسعكم أي مما تطيقونه، أو عطف بيان لقوله من ﴿ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾. ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ ﴾ في السكنى. ﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج. ﴿ وَإِن كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات والأحاديث تؤيده. ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ بعد انقطاع علقة النكاح. ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الإِرْضَاع. ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وليأمر بعضكم بعضاً بجميل في الإرضاع والأجر. ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ تضايقتم. ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخرى ﴾ امرأة أخرى، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة. ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ الله ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ﴾ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطييب لقلب المعسر ولذلك وعد له باليسر فقال: ﴿ سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ أي عاجلاً وآجلاً.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أهل قرية. ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أعرضت عنه إعراض العاتي المعاند. ﴿ فحاسبناها حِسَاباً شَدِيداً ﴾ بالاستقصاء والمناقشة. ﴿ وعذبناها عَذَاباً نُّكْراً ﴾ منكراً والمراد حساب الآخرة، وعذابها والتعبير بلفظ الماضي للتحقيق.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ عقوبة كفرها ومعاصيها . ﴿ وَكَانَ عاقبة أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ لا ربح فيه أصلاً .

(198/770)

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها في قوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالحساب استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحف الحفظة ، وبالعذاب ما أصيبوا به عاجلاً . ﴿ الذين ءامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ .

﴿ رَسُولاً ﴾ يعني بالذكر جبريل عليه السلام لكثرة ذكره ، أو لنزوله بالذكر وهو القرآن ، أو لأنه مذكور في السموات أو ذا ذكر أي شرف ، أو محمداً عليه الصلاة والسلام لمواظبته على تلاوة القرآن ، أو تبليغه وعبر عن إرساله بالإنزال ترشيحاً ، أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه ، وأبدل منه ﴿ رَسُولاً ﴾ للبيان أو أراد به القرآن ، و ﴿ رَسُولاً ﴾ . منصوب بمقدر مثل أرسل أو ذكراً مصدر ورسولاً مفعوله أو بدله على أنه بمعنى الرسالة .

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيات الله مبينات ﴾ حال من اسم ﴿ الله ﴾ أو صفة ﴿ رَسُولاً ﴾ ، والمراد ب ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ في قوله : ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

الذين آمنوا بعد إنزاله أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه يؤمن ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من الضلالة إلى الهدى. ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا يُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ وقرأ نافع وابن عامر "ندخله" بالنون. ﴿ قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ﴾ فيه تعجيب وتعظيم لما رزقوا من الثواب.

(199/770)

﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض، وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر: ﴿ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن. ﴿ لِّتَعْلَمُواْ أَنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَا ﴾ علة ل ﴿ خلقَ ﴾ أول ﴿ يَتَنَزَّلُ ﴾، أو مضمر يعمهما فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه.

عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم". (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 348. 353 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال أبو حيان :

(سورة الطلاق)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾

﴿ يا أيها النبي ﴾ : نداء للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وخطاب على سبيل التكريم والتنبيه ، ﴿ إذا طلقتم ﴾ : خطاب له عليه الصلاة والسلام مخاطبة الجمع على سبيل التعظيم ، أو لأمته على سبيل تلوين الخطاب ، أقبل عليه السلام أولاً ، ثم رجع إليهم بالخطاب ، أو على إضمار القول ، أي قل لأمتك إذا طلقتم ، أو له ولأمته ، وكأنه ثم محذوف تقديره : يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم ، فالخطاب له ولهم ، أي أنت وأمتك ، أقوال .

وقال الزمخشري : خص النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وعمّ بالخطاب ، لأن النبي إمام إمته وقدوتهم .

كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه مدره قومه ولسانهم ، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه ،

فكان هو وحده في حكم كلهم ، وساداً مسد جميعهم .

انتهى ، وهو كلام حسن .

ومعنى ﴿ إذا طلقتم ﴾ : أي إذا أردتم تطليقهن ، والنساء يعني : المدخول بهن ، وطلقوهن : أي أوقعوا الطلاق ، ﴿ لعدتهن ﴾ : هو على حذف مضاف ، أي لاستقبال عدّتهن ، واللام للتوقيت ، نحو : كتبته لليلة بقيت من شهر كذا ، وتقدير الزمخشري هنا حالاً محذوفة يدل عليها المعنى يتعلق بها المجرور ، أي مستقبلات لعدتهن ، ليس بجيد ، لأنه قدر عاملاً خاصاً ، ولا يحذف العامل في الظرف والجار والمجرور إذا كان خاصاً ، بل إذا كان كوناً مطلقاً .

لو قلت : زيد عندك أو في الدار ، تريد : ضاحكا عندك أو ضاحكا في الدار ، لم يجز .

فتعليق اللام بقوله : ﴿ فطلقوهن ﴾ ، ويجعل على حذف مضاف هو الصحيح .

(201/770)

وما روي عن جماعة من الصحابة والتابعين ، رضي الله تعالى عنهم ، من أنهم قرأوا : فطلقوهن في قبل عدتهن ؛ وعن بعضهم : في قبل عدّتهن ؛ وعن عبد الله : لقبل طهرهن ، هو على سبيل التفسير ، لا على أنه قرآن ، لخلافه سواد المصحف الذي أجمع عليه

المسلمون شرقاً وغرباً ، وهل تعتبر العدة بالنسبة إلى الأطهار أو الحيض ؟ تقدم ذلك في البقرة في قوله : ﴿ ثلاثة قروء ﴾ والمراد : أن يطلقهن في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، فإن شاء ردها ، وإن شاء أعرض عنها لتكون مهيأة للزوج ؛ وهذا الطلاق أدخل في السنة .

وقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكره الثلاث مجموعة أو مفرقة .

وأبو حنيفة كره ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقاً في الأطهار فلا .

وقال الشافعي : لا بأس بإرسال الطلاق الثلاث ، ولا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ، راعى في السنة الوقت فقط ، وأبو حنيفة التفريق والوقت .

وقوله : ﴿ فطلقوهن ﴾ مطلق ، لا تعرض فيه لعدد ولا لوصف من تفريق أو جمع ؛ والجمهور : على أنه لو طلق لغير السنة وقع .

وعن ابن المسيب وجماعة من التابعين : أنه لو طلق في حيض أو ثلاث ، لم يقع .

والظاهر أن الخطاب في ﴿ وأحصوا العدّة ﴾ للأزواج : أي اضبطوا بالحفظ ، وفي الإحصاء فوائد مراعاة الرجعة وزمان النفقة والسكنى وتوزيع الطلاق على الأقراء .

وإذا أراد أن يطلق ثلاثاً ، والعلم بأنها قد بانت ، فيتزوج بأختها وبأربع سواها .

ونهى تعالى عن إخراجهنّ من مساكنهنّ حتى تنقضي العدّة ، ونهاهنّ أيضاً عن خروجهنّ ، وأضاف البيوت إليهنّ لما كان سكناهنّ فيها ، ونهيهنّ عن الخروج لا يبيحه إذن الأزواج ،

إذ لا أثر لإذنهم .

والإسكان على الزوج ، فإن كان ملكه أو بكراء فذاك ، أو ملكها فلها عليه أجرته ، وسواء في ذلك الرجعية والمبتوبة ، وسنة ذلك أن لا تبيت عن بيتها ولا تخرج عنه نهاراً إلا لضرورة ، وذلك لحفظ النسب والاحتفاظ بالنساء .

(202/770)

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ : وهي الزنا ، عند قتادة ومجاهد والحسن والشعبي وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث ، ورواه مجاهد عن ابن عباس ، فيخرجن للحد .

وعن ابن عباس : البذاء على الاحماء ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى ، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب .

وعنده أيضاً : جميع المعاصي ، من سرقة ، أو قذف ، أو زنا ، أو غير ذلك ، واختاره الطبري ، فيسقط حقها في السكنى .

وعند ابن عمر والسدي وابن السائب : هي خروجها من بيتها خروج انتقال ، فيسقط حقها في السكنى .

وعند قتادة أيضاً : نشوزها عن الزوج ، فتطلق بسبب ذلك ، فلا يكون عليه سكنى ؛ وإذا سقط حقها من السكنى أتمت العدّة .

﴿ لا تدري ﴾ أيها السامع ، ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ ، قال المفسرون : الأمر هنا الرغبة في ارتجاعها ، والميل إليها بعد انحرافه عنها ؛ أو ظهور حمل فيراجعها من أجله . ونصب لا تدري على جملة الترجى ، فلا تدري معلقة عن العمل ، وقد تقدم لنا الكلام على قوله : ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ وذكرنا أنه ينبغي أن يزاد في المعلقات لعل ، فالجملة المترجاة في موضع نصب بلا تدري .

﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ : أي أشرفن على انقضاء العدّة ، ﴿ فأمسكوهنّ ﴾ : أي راجعوهنّ ، ﴿ بمعروف ﴾ : أي بغير ضرار ، ﴿ أو فارقوهنّ بمعروف ﴾ : أي سرحوهنّ بإحسان ، والمعنى : اتركوهنّ حتى تنقضي عدّتهنّ ، فيملكن أنفسهنّ .

وقرأ الجمهور : ﴿ أجلهن ﴾ على الإفراد ؛ والضحاك وابن سيرين : آجالهنّ على الجمع .

والإمساك بمعروف : هو حسن العشرة فيما للزوجة على الزوج ، والمفارقة بمعروف : هو أداء المهر والتمتيع والحقوق الواجبة والوفاء بالشرط .

﴿ وأشهدوا ﴾ : الظاهر وجوب الإشهاد على ما يقع من الإمساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهي الطلاق .

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة ، كقوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وعند الشافعية واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة .

(203/770)

وقيل : ﴿ وأشهدوا ﴾ : يريد على الرجعة فقط ، والإشهاد شرط في صحتها ، فلها منفعة من نفسها حتى يشهد .

وقال ابن عباس : الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع عن النوازل أشكالاً كثيرة ، ويفسد تاريخ الإشهاد من الإشهاد .

قيل : وفائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الثاني ثبوت الزوجية ليرث . انتهى .

ومعنى منكم ، قال الحسن : من المسلمين .

وقال قتادة : من الأحرار .

﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ : هذا أمر للشهود ، أي لوجه الله خالصاً ، لا لمراعاة مشهود له ، ولا مشهود عليه لا يلحظ سوى إقامة الحق .

﴿ ذلكم ﴾ : إشارة إلى إقامة الشهادة ، إذ نوازل الأشياء تدور عليها ، وما يتميز المبطل

من الحق .

﴿ ومن يتق الله ﴾ ، قال علي بن أبي طالب وجماعة : هي في معنى الطلاق ، أي ومن لا يتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك ، يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرجعة ، ﴿ ويرزقه ﴾ ما يطعم أهله . انتهى .

ومفهوم الشرط أنه إن لم يتق الله ، فبت الطلاق وندم ، لم يكن له مخرج ، وزال عنه رزق زوجته .

وقال ابن عباس : للمطلق ثلاثاً : إنك لم تتق الله ، بانت منك امرأتك ، ولا أرى لك مخرجاً .

وقال : ﴿ يجعل له مخرجاً ﴾ : يخلصه من كذب الدنيا والآخرة .

والظاهر أن قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ متعلق بأمر ما سبق من أحكام الطلاق .

وروي أنها في غير هذا المعنى ، وهو أن أسر ابن يسمى سالماً لخوف بن مالك الأشجعي ، فشكا ذلك للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأمره بالتقوى فقبل ، ثم لم يلبث أن تفلت ولده واستاق مائة من الإبل ، كذا في الكشاف .

وفي الوجيز : قطيعاً من الغنم كانت للذين أسروه ، وجاء أباه فسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أيطيب له ؟ فقال : "نعم" ، فنزلت الآية .

وقال الضحاك : من حيث لا يحتسب امرأة أخرى .

وقيل : ومن يتق الحرام يجعل له مخرجاً إلى الحلال .

وقيل : مخرجاً من الشدة إلى الرخاء .

(204/770)

وقيل : من النار إلى الجنة .

وقيل : من العقوبة ، ويرزقه من حيث لا يحتسب من الثواب .

وقال الكلبي : ومن يتق الله عند المصيبة يجعل له مخرجاً إلى الجنة .

﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ : أي يفوض أمره إليه ، ﴿ فهو حسبه ﴾ : أي كافيه .

﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ ، قال مسروق : أي لا بد من نفوذ أمر الله ، توكلت أم لم تتوكل .

وقرأ الجمهور : بالغ بالتنوين ، أمره بالنصب ؛ وحفص والمفضل وأبان وجبلة وابن أبي عبلة وجماعة عن أبي عمرو ويعقوب وابن مصرف وزيد بن علي : بالإضافة ؛ وابن أبي عبلة أيضاً وداود بن أبي هند وعصمة عن أبي عمرو : بالغ أمره ، رفع : أي نافذ أمره .

والمفضل أيضاً : بالغاً بالنصب ، أمره بالرفع ، فخرجه الزمخشري على أن بالغاً حال ، وخبر إن هو قوله تعالى : ﴿ قد جعل الله ﴾ ، ويجوز أن تخرج هذه القراءة على قول من ينصب بأن الجزأين ، كقوله :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن . . .

خطاك خفافاً أن حراسنا أسدا

ومن رفع أمره ، فمفعول بالغ محذوف تقديره : بالغ أمره ما شاء .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ : أي تقديراً وميقاتاً لا يتعداه ، وهذه الجمل تحض على التوكل .

وقرأ جناح بن حبيش : قدراً بفتح الدال ، والجمهور بإسكانها .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ

وروي أن قوماً ، منهم أبيّ بن كعب وخلاد بن النعمان ، لما سمعوا قوله : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ قالوا : يا رسول الله ، فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت هذه الآية ، فقال قائل : فما عدة الحامل ؟ فنزلت ﴿ أولات الأحمال ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ يئسن ﴾ فعلاً ماضياً .

وقرىء : بياءين مضارعاً ، ومعنى ﴿ إن ارتبتم ﴾ في أنها يئست أم لا ، لأجل مكان ظهور الحمل ، وإن كان انقطع دمها .

وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، أهو دم حيض أو استحاضة ؟ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها ، فغير المرتاب بها أولى بذلك .

وقدر بعضهم مبلغ اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين .

وقيل : غالب سن يأس عشيرة المرأة .

وقيل : أقصى عادة امرأة في العالم .

وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة أطبق بها الدم ، لا ندري أهو دم حيض أو دم علة .

وقيل : ﴿ إن ارتبتم ﴾ : شككتم في حالهن وحكمهن فلم تدروا ما حكمهن ، فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر .

واختار الطبري أن معنى ﴿ إن ارتبتم ﴾ : شككتم فلم تدروا ما الحكم ، فقيل : ﴿ إن ارتبتم ﴾ : أي إن تيقنتم إياسهن ، وهو من الأضداد .

وقال الزجاج : المعنى إن ارتبتم في حيضها ، وقد انقطع عنها الدم ، وكانت مما يحيض مثلها .

وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إن ارتبتم ﴾ هو للمخاطبين ، أي إن لم تعلموا عدة الآيسة ، ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ ، فالعدة هذه ، فتلخص في قوله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ قولان : أحدهما ، أنه على ظاهر مفهوم اللغة فيه ، وهو حصول الشك ؛ والآخر ، أن معناه التيقن للإياس ؛

والقول الأول معناه : إن ارتبتم في دمها ، أهو دم حيض أو دم علة ؟ أو إن ارتبتم في علوق بحمل أم لا ؛ أو إن ارتبتم : أي جهلتم عدتهن ، أقوال .

والظاهر أن قوله : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ يشمل من لم يحض لصغر ، ومن لا يكون لها حيض البتة ، وهو موجود في النساء ، وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض .

ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض فقيل : هذه تعتد سنة .

﴿ واللائي لم يحضن ﴾ معطوف على ﴿ واللائي يئسن ﴾ ، فإعرابه مبتدأ كإعراب ﴿ واللائي يئسن ﴾ ، وقدروا خبره جملة من جنس خبر الأول ، أي عدتهن ثلاثة أشهر ، والأولى أن يقدر مثل أولئك أو كذلك ، فيكون المقدر مفرداً جملة .

﴿ وأولات الأحمال ﴾ عام في المطلقة وفي المتوفي عنها زوجها ، وهو قول عمر وابن مسعود وأبي مسعود البدري وأبي هريرة وفقهاء الأمصار .

(206/770)

وقال علي وابن عباس : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ في المطلقات ، وأما المتوفي عنها فعدتها أقصى الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر صبرت إلى آخرها ، والحجة عليها حديث سبيعة .

وقال ابن مسعود : من شاء لاعنته ، ما نزلت ﴿ وأولات الأحمال ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها .

وقرأ الجمهور : ﴿ حملهن ﴾ مفرداً ؛ والضحاك : أحمالهن جمعاً .

﴿ ذلك أمر الله ﴾ : يريد ما علم من حكم المعتدات .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويعظم ﴾ بالياء مضارع أعظم ؛ والأعمش : نعظم بالنون ، خروجاً من الغيبة للتكلم ؛ وابن مقسم : بالياء والتشديد مضارع عظم مشدداً .

ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ، وكن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوى من حيث المعنى ، مبرزاً في صورة شرط وجزاء في قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ ، إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار والنفقة على المعتدات وغير ذلك مما يلزمه ، يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر .

ومن في ﴿ من حيث سكنتم ﴾ للتبعيض : أي بعض مكان سكناكم .

وقال قتادة : إن لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه ، قاله الزمخشري .

وقال الحوفي : من لابتداء الغاية ، وكذا قال أبو البقاء .

و﴿ من وجدكم ﴾ .

قال الزمخشري : فإن قلت : فقوله : ﴿ من وجدكم ﴾ .

قلت : هو عطف بيان ، كقوله : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ وتفسير له ، كأنه قيل :

أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه ، والوجد : الوسع والطاقة . انتهى .

ولا نعرف عطف بيان يعاد فيه العامل ، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ، ولذلك أعربه

أبو البقاء بدلاً من قوله : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ .

(207/770)

وقرأ الجمهور : ﴿ من وجدكم ﴾ بضم الواو ؛ والحسن والأعرج وابن أبي عبلة وأبو حيوة

: بفتحها ؛ والفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب : بكسرها ، وذكرها المهدوي

عن الأعرج ، وهي لغات ثلاثة بمعنى : الوسع .

والوجد بالفتح ، يستعمل في الحزن والغضب والحب ، ويقال : وجدت في المال ، ووجدت

على الرجل وجداً وموجدة ، ووجدت الضالة وجداناً والوجد بالضم : الغنى والقدرة ،

يقال : افتقر الرجل بعد وجد .

وأمر تعالى بإسكان المطلقات ، ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت .

وأما المبتوتة ، فقال ابن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء والشعبي والحسن ومالك والأوزاعي وابن أبي ليلى والشافعي وأبو عبيد : لها السكنى ، ولا نفقة لها .

وقال الثوري وأبو حنيفة : لها السكنى والنفقة .

وقال الحسن وحماد وأحمد وإسحاق وأبو ثور : لا سكنى لها ولا نفقة .

﴿ ولا تضاروهن ﴾ : ولا تستعملوا معهن الضرار ، ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج .

وقيل : هذه المضارة مراجعتها إذا بقي من عدتها قليل ، ثم يطلقها فيطول حبسها في عدته الثانية .

وقيل : إلجاؤها إلى أن تفتدي منه .

﴿ وإن كن أولات حمل ﴾ : لا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها ، بتت أو لم تبت .

فإن كانت متوفى عنها ، فأكثر العلماء على أنها لا نفقة لها ؛ وعن علي وابن مسعود : تجب نفقتها في التركة .

﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ : أي ولدن وأرضعن المولود وجب لها النفقة ، وهي الأجر والكسوة وسائر المؤن على ما قرر في كتب الفقه ، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد بينهن ما لم يبن ، ويجوز عند الشافعي .

وفي تعميم المطلقات بالسكنى ، وتخصيص أولات الأحمال بالنفقة دليل على أن غيرها من المطلقات لا يشاركها في النفقة ، وتشاركهن في السكنى .

(208/770)

﴿ وائتمروا ﴾ : افتعلوا من الأمر ، يقال : ائتمر القوم وتأمروا ، إذا أمر بعضهم بعضاً ؛ والخطاب للآباء والأمهات ، أي وليأمر بعضكم بعضاً ﴿ بمعروف ﴾ : أي في الأجرة والإرضاع ، والمعروف : الجميل بأن تسامح الأم ، ولا يماكس الأب لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه .

وقال الكسائي : ﴿ وائتمروا ﴾ : تشاوروا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ وقول امرىء القيس :

ويعدو على المرء ما يأتمر . . .

وقيل : المعروف : الكسوة والدثار .

﴿ وإن تعاسرتم ﴾ : أي تضايقتم وتشاكستم ، فلم ترض إلا بما ترضى به الأجنبية ، وأبي الزوج الزيادة ، أو إن أبى الزوج الإرضاع إلا مجاناً ، وأبت هي إلا بعوض ، ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ : أي يستأجر غيرها ، وليس له إكراهها .

فإن لم يقبل إلا ثدي أمه ، أجبرت على الإرضاع بأجرة مثلها ، ولا يختص هذا الحكم من وجوب أجرة الرضاع بالمطلقة ، بل المنكوحة في معناها .

وقيل : فسترضع خبر في معنى الأمر ، أي فلترضع له أخرى .

وفي قوله : ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ يسير معاتبة للأم إذا تعاسرت ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم .

والضمير في له عائد على الأب ، كما تعدى في قوله : ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ : أي للأزواج .

﴿ لينفق ﴾ الموسر والمقدور عليه ما بلغه وسعه ، أي على المطلقات والمرضعات ، ولا يكلف ما لا يطيقه .

والظاهر أن المأمور بالإنفاق الأزواج ، وهذا أصل في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم .

وقال محمد بن المواز : إنها على الأبوين على قدر الميراث .

وفي الحديث : " يقول لك ابنك انفق عليّ إلى من تكلني " ، ذكره في صحيح البخاري .

وقرأ الجمهور : ﴿ لينفق ﴾ بلام الأمر ، وحكى أبو معاذ : لينفق بلام كي ونصب القاف ، ويتعلق بمحذوف تقديره : شرعنا ذلك لينفق .

وقرأ الجمهور : ﴿ قدر ﴾ مخففاً ؛ وابن أبي عبلة : مشدد الدال ، سيجعل الله وعد لمن قدر عليه رزقه ، يفتح له أبواب الرزق .

ولا يختص هذا الوعد بفقراء ذلك الوقت ، ولا بفقراء الأزواج مطلقاً ، بل من أنفق ما قدر عليه ولم يقصر ، ولو عجز عن نفقة امرأته .

فقال أبو هريرة والحسن وابن المسيب ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق : يفرق بينهما .

وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة : لا يفرق بينهما .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8)

تقدم الكلام على كأين في آل عمران ، وعلى نكراً في الكهف .

﴿ عتت ﴾ : أعرضت ، ﴿ عن أمر ربها ﴾ ، على سبيل العناد والتكبر .

والظاهر في ﴿ فحاسبناها ﴾ الجمل الأربعة ، إن ذلك في الدنيا لقوله بعدها : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ ، وظاهره أن المعد عذاب الآخرة ، والحساب الشديد هو الاستقصاء والمناقشة ، فلم تغتفر لهم زلة ، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب .

وقيل : الجمل الأربعة من الحساب والعذاب والذوق والخسر في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله : ﴿ ونادى أصحاب الجنة ﴾ ويكون قوله : ﴿ أعد الله لهم ﴾

تكريراً للوعيد وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب .

وقال الكلبي : الحساب في الآخرة ، والعذاب النكير في الدنيا بالجوع والقحط والسيف .

ولما ذكر ما حل بهذه القرية العاتية ، أمر المؤمنين بتقوى الله تحذيراً من عقابه ، ونبه على ما يحض على التقوى ، وهو إنزال الذكر .

والظاهر أن الذكر هو القرآن ، وأن الرسول هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

فإما أن يجعل نفس الذكر مجازاً لكثرة يقدر منه الذكر ، فكأنه هو الذكر ، أو يكون بدلاً على حذف مضاف ، أي ذكر رسول .

وقيل : ﴿ رسولاً ﴾ نعت على حذف مضاف ، أي ذكراً ، ذا رسول .

(210/770)

وقيل : المضاف محذوف من الأول ، أي ذا ذكر رسولاً ، فيكون رسولاً نعتاً لذلك المحذوف أو بدلاً .

وقيل : رسول بمعنى رسالة ، فيكون بدلاً من ذكر ، أو يبعده قوله بعده ﴿ يتلو عليكم ﴾ ، والرسالة لا تسند التلاوة إليها إلا مجازاً .

وقيل : الذكر أساس أسماء النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الذكر : الشرف لقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ فيكون رسولاً بدلاً منه وبياناً له .

وقال الكلبي : الرسول هنا جبريل عليه السلام ، وتبعه الزمخشري فقال : رسولاً هو جبريل صلوات الله وسلامه عليه ، أبدل من ذكراً لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، فصح إبداله منه . انتهى .

ولا يصح لتباين المدلولين بالحقيقة ، ولكونه لا يكون بدل بعض ولا بدل اشتمال ، وهذه الأعاريب على أن يكون ذكراً ورسولاً لشيء واحد .

وقيل : رسولاً منصوب بفعل محذوف ، أي بعث رسولاً ، أو أرسل رسولاً ، وحذف لدلالة أنزل عليه ، ونحا إلى هذا السدي ، واختاره ابن عطية .

وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : يجوز أن يكون رسولاً معمولاً للمصدر الذي هو الذكر . انتهى .

فيكون المصدر مقدراً بأن ، والقول تقديره : إن ذكر رسولاً وعمل منوناً كما عمل ، أو ﴿ إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ كما قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رءوس قوم . . .

أزلنا هامهن عن المقيل

وقرىء : رسول بالرفع على إضمار هو ليخرج ، يصح أن يتعلق بيتلو وبأنزل .

﴿ الذين آمنوا ﴾ : أي الذين قضى وقدر وأراد إيمانهم ، أو أطلق عليهم آمنوا باعتبار ما آل أمرهم إليه .

وقال الزمخشري : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح ، لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ . انتهى .

والضمير في ﴿ ليخرج ﴾ عائد على الله تعالى ، أو على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو على الذكر .

(211/770)

﴿ ومن يؤمن ﴾ : راعى اللفظ أولاً في من الشرطية ، فأفرد الضمير في ﴿ يؤمن ﴾ ، ﴿ ويعمل ﴾ ، و﴿ يدخله ﴾ ، ثم راعى المعنى في ﴿ خالدين ﴾ ، ثم راعى اللفظ في ﴿ قد أحسن الله له ﴾ فأفرد .

واستدل النحويون بهذه الآية على مراعاة اللفظ أولاً ، ثم مراعاة المعنى ، ثم مراعاة اللفظ .

وأورد بعضهم أن هذا ليس كما ذكروا ، لأن الضمير في ﴿ خالدين ﴾ ليس عائداً على من ، بخلاف الضمير في ﴿ يؤمن ﴾ ، ﴿ ويعمل ﴾ ، و﴿ يدخله ﴾ ، وإنما هو عائد على مفعول ﴿ يدخله ﴾ ، و﴿ خالدين ﴾ حال منه ، والعامل فيها ﴿ يدخله ﴾ لا

فعل الشرط .

﴿ الله الذي خلق سبع سماواتٍ ﴾ : لا خلاف أن السموات سبع بنص القرآن والحديث ، كما جاء في حديث الإسراء ، ولقوله (صلى الله عليه وسلم) لسعد : " حكمت بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة " ، وغيره من نصوص الشريعة .

وقرأ الجمهور : ﴿ مثلهن ﴾ بالنصب ؛ والمفضل عن عاصم ، وعصمة عن أبي بكر : مثلُهن بالرفع فالنصب ، قال الزمخشري : عطفاً على ﴿ سبع سماواتٍ ﴾ .

انتهى ، وفيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف ، وهو الواو ، والمعطوف ؛ وهو مختص بالضرورة عند أبي عليّ الفارسي ، وأضمر بعضهم العامل بعد الواو لدلالة ما قبله عليه ، أي وخلق من الأرض مثلهن ، فمثلهن مفعول للفعل المضمر لا معطوف ، وصار ذلك من عطف الجمل والرفع على الابتداء ، ﴿ ومن الأرض ﴾ الخبر ، والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف .

فقال الجمهور : المثلية في العدد : أي مثلهن في كونها سبع أرضين .

وفي الحديث : " طوقه من سبع أرضين ورب الأرضين السبع وما أقللن " ، فقيل : سبع طباق من غير فتوق .

وقيل : بين كل طبقة وطبقة مسافة .

قيل : وفيها سكان من خلق الله .

قيل : ملائكة وجن .

وعن ابن عباس ، من رواية الواقدي الكذاب ، قال : في كل أرض آدم كآدم ، ونوح كنوح ، ونبي كنبيكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، وعيسى كعيسى ، وهذا حديث لا شك في وضعه .

(212/770)

وقال أبو صالح : إنها سبع أرضين منبسطة ، ليس بعضها فوق بعض ، تفرق بينها البحار ، وتظل جميعها السماء .

﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ : من السموات السبع إلى الأرضين السبع .

وقال مقاتل وغيره : الأمر هنا الوحي ، فبينهن إشارة إلى بين هذه الأرض التي هي أدناها وبين السماء السابعة .

وقال الأكثرون : الأمر : القضاء ، فبينهن إشارة إلى بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها .

وقيل : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ بحياة وموت وغنى وفقر .

وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبير .

وقرأ الجمهور : ﴿ يتنزل ﴾ مضارع تنزل .

وقرأ عيسى وأبو عمر ، وفي رواية : ينزل مضارع نزل مشدّداً ، الأمر بالنصب ؛ والجمهور : ﴿ لتعلموا ﴾ بتاء الخطاب .

وقرىء : بياء الغيبة ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(213/770)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾

التفسير : لما نبه في آخر السورة المتقدمة على معاداة بعض الأزواج والمعاداة كثيراً ما تفضي إلى الفراق بالطلاق أرشد في هذه السورة إلى الطلاق السني الذي لا يحرم إيقاعه وإلى أحكام أخر معتبرة في فراق الزوجين . وقبل الخوض في تقرير أقسام الطلاق نقول : إنه يورد ههنا سؤال وهو أنه كيف نادى نبيه صلى الله عليه وسلم وحده ثم قال ﴿ إذا طلقتم ﴾ على الجمع ؟ والجواب أنه كما يقال لرئيس القوم يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدمه وأن من سواه من قومه تبع له في الخطاب . وقيل : الجمع للتعظيم والمراد بالخطاب النبيّ أيضاً . وقيل : أراد يا أيها النبي والمؤمنون فحذف للدلالة . وقيل : يا أيها النبي قل للمؤمنين .

ومعنى ﴿ إذا طلقتم ﴾ إذا أردتم تطليقهن كقوله ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] واللام في قوله ﴿ لعدتهنّ ﴾ بمعنى الوقت أي للوقت الذي يمكنهنّ الشروع في العدّة وهو الطهر الذي لم يجامعها فيه . وقال جار الله : فطلقوهن مستقبلات لعدّتهن كقولك " أتيته لليلة بقيت من شهر كذا " أي مستقبلاً لها . قال الفقهاء : السنيّ طلاق المدخول بها التي ليست بحامل ولا صغيرة ولا آيسة في غير حالة البدعة ، والبدعيّ طلاق المدخول بها في حيض أو نفاس أو طهر جامعها فيه ولم يظهر حملها . فلتحريم الطلاق سببان : أحدهما وقوعه في حال الحيض إذا كانت المرأة ممسوسة وكانت ممن تعتدّ بالإقراء لقوله تعالى ﴿ فطلقوهن لعدّتهن ﴾ وطلق ابن عمر امرأته وهي حائض فسأل عمر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : مرة ليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم يطلقها إن شاء . فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلق لها النساء . والمعنى فيه أن بقية الحيضة لا تحسب من العدة فتطول عليها مدة التربص .

(214/770)

وثانيهما إذا جامع امرأته في طهرها وهي ممن تحبل ولم يظهر حملها حرم عليه أن يطلقها في ذلك الطهر لقوله صلى الله عليه وسلم في قصة ابن عمر " ثم إن شاء طلقها قبل أن يسمها "

ولأنه ربما يندم على الطلاق لظهور الحمل . هذا تقرير السنة والبدعة من جهة الوقت . أما السنة والبدعة من جهة العدد فقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة أو مفرقة على الأطهار . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يكره ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما متفرقاً في الأطهار فلا لما روي في قصة ابن عمر : إنما السنة أن يستقبل الطهر استقبالاً ، ويطلق لكل قرء تطليقة . وقال الشافعي : لا بأس بإرسال الثلاث وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة . وقد يستدل بما روي في حديث اللعان أن اللاعن قال : هي طالق ثلاثاً . ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت الشيعة : إذا طلقها ثلاثاً يقع واحدة . ومنهم من قال : لا يقع شيء وهو قول سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين . والأصح عند أكثر المجتهدين أن الطلاق البدعي واقع وإن كان صاحبه آثماً وعاصياً وهذا مبنيّ على أن النهي لا يوجب فساد المنهي عنه . " وفي قصة ابن عمر أنه قال : يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك " قالت العلماء : المحرم هو الطلاق بغير عوض فأما إذا خلع الحائض أو طلقها على مال فلا لإطلاق قوله تعالى ﴿ فلا جناح عليهما فيما أفتدت به ﴾ [البقرة : 229] ولأن المنع كان رعاية لجانبها وبدل المال دليل على شدة الحاجة إلى الخلاص بالمفارقة . قال جار الله : اللام في قوله ﴿ النساء ﴾ للجنس وقد علم بقوله ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أنه مطلق على البعض وهنّ ذوات الأقراء المدخول بهن فلا عموم ولا خصوص . قلت : ما

ضره لو جعله عاماً لأنه إذا روعي الشرط المذكور في هذا البعض لزم أن يكون طلاق كل النساء من الصغيرة والآيسة والحامل وغير المدخول بها والمدخول بها

(215/770)

بحيث يمكنهن أن يشرعن الطلاق في العدة . قوله ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي اضبطوها واحفظوا عدد أيامها ثلاثة أقراء كوامل لا أزيد ولا أنقص ﴿ لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ﴾ يعني من مساكن الفراق وهي بيوت الأزواج أضيفت إليهن لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى إلى انقضاء العدة ، وكما أن البعولة لا ينبغي أن يخرجوهنّ غضباً عليهنّ أو لحاجة لهم إلى المساكن كذلك لا ينبغي لهنّ أن يخرجن بأنفسهنّ . وقوله ﴿ إلا أن يأتين ﴾ استثناء من الجمة الأولى أي إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهنّ ، أو إلا أن يطلقهن على النشوز فإن النشوز يسقط حقهنّ في السكنى ، أو إلا أن يبذون فيحل إخراجهنّ لبذائهن ويؤيده قراءة أبيّ ﴿ إلا أن يفحشن عليكم ﴾ وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة في نفسه .

والمعنى إن خرجت فقد أتت بفاحشة مبينة وعلى هذا يكون الاستثناء من الجملة الثانية . قوله ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي أحصوا العدة وألزموهن مساكنكم

فلعلكم تندمون بقلب الله البغضة محبة والمقت مقة والطلاق رجعة . والخطاب في ﴿ لا تدري ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم على نسق أول السورة أو لكل مكلف ﴿ فإذا بلغن أجلهنّ ﴾ أي شافن انقضاء عدتهن فأنتم بالخيار إن شئتم فالإمساك بالرجعة لا على وجه الضرار بل بالشرع والعرف ، وإن شئتم فالفراق بالمعروف كما مر في " البقرة " ﴿ وأشهدوا ﴾ على الرجعة أو الفرقة و ﴿ ذوى عدل منكم ﴾ أي من جنسكم من المسلمين قاله الحسن . وعن قتادة : من أحراركم . وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة . وفائدة الإشهاد أن لا يقع التجاحد وأن لا يتهم في إمساكها أو يموت أحدهما فيدعي الآخر ثبوت الزوجية لأجل الميراث .

(216/770)

ثم حث الشهود على أن لا يشهدوا إلا لوجه الله من غير شائبة غرض أخروي أو عرض دنيوي ﴿ ذلكم ﴾ الحث على أداء الشهادة لله ﴿ يوعظ به من ﴾ هو من أهل الإيمان بالله والمعاد لأن غيره لا ينتفع به ، ويجوز أن تكون الإشارة بذلكم إلى ما مر من الإمساك أو الفراق بالمعروف لا على وجه الضرار فيكون موافقاً لما مر في " البقرة " إلا أنه وحد كاف

الخطاب هنالك لأنه أكد الكلام بزيادة منكم ، وههنا جمع فلم يحتج إلى لفظ منكم والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . ثم حض على التقوى في كل باب ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق وكأنه قال ﴿ ومن يتق الله ﴾ فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد ﴿ يجعل له مخرجاً ﴾ ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة ومن جملة ذلك تأيم الأزواج ﴿ ويرزقه ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه بدل ما أدى وبذل من المهر والحقوق . عن النبي صلى الله عليه وسلم " إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم " ﴿ ومن يتق الله ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها . " وروي أن عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أسر ابني وشكا إليه الفاقة . فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . ففعل " ، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدوّ فاستاقها فنزلت هذه الآية . قلت : قد جربت الآية في محن ومهالك فوجدت مفرجة منفسة .

(217/770)

ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حث على التقوى في هذه السورة ثلاث مرات : بقوله ﴿ ومن يتق الله ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث ، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء : الأول أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها . الثاني اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً . الثالث أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء . ثم حث في التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى : الأولى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء الغنيّ عن كل شيء الجواد بكل شيء إذا فوض عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة . الثاني ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب . الثالثة ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أي وقتاً ومقداراً . وهاتان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه لأنه إذا علم كونه قادراً على كل شيء وعلم أنه قد بيّن وعيّن لكل شيء حداً ومقدراً لم يبقَ إلا التسليم والتفويض . قال جار الله : قال المفسرون : إن ناساً قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الأقراء فما عدة اللواتي لم يحضن فنزلت ﴿ واللائي يئسن ﴾ فمعنى إن ارتبتم إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهن . قلت : في حصة هذه الرواية نظر فإن السورة ليس فيها بيان عدة ذوات الأقراء وإحالتها على ما في " البقرة " ، والمطلقات يتربصن لا يجوز لأن هذه مكية وتلك مدنية . نعم لو ثبت أن هذه متأخرة النزول كان له وجه كما روي عن عبد الله بن مسعود : من شاء باهلته إن سورة النساء القصرى نزلت بعد التي في البقرة . والجمهور

أن المراد أن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضت ﴿ فعدّتهن ثلاثة أشهر ﴾ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب أولى . وسن اليأس مقدر بخمس وخمسين وبستين . والمشهور عند أكثر أصحاب الشافعي النظر إلى نساء عشيرتها من الأبوين ، فإذا بلغت السن التي ينقطع فيها حيضهن فقد بلغت سن اليأس . ﴿

(218/770)

واللائي لم يحضن ﴾ هن الصغائر والتقدير فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر حذف لدلالة ما قبله عليه . قوله ﴿ وأولات الأحمال ﴾ أي النساء الحوامل ﴿ أجلهن ﴾ بعد الطلاق أو بعد وفاة الزوج أي انقضاء عدتهن ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ هذا قول أكثر الأئمة والصحابة وإما تنقضي العدة بوضع الحمل بتمامه . فلو كانت حاملاً بتوأمين لم تنقض العدة حتى ينفصل الثاني بتمامه ، وإنما يكون الولدان توأمين إذا ولدا على التعاقب وبينهما دون ستة أشهر وإلا فالثاني حمل آخر . وعن علي وابن عباس أن عدة الحامل المتوفي عنها زوجها أبعد الأجلين من بقية الحمل ومن أربعة أشهر وعشر ، ووضع الحمل لا يتفاوت بكونه حياً أو ميتاً أو سقطاً أو مضغة لا صورة فيها ، وصدقت المرأة بيمينها لأنهنّ مؤتمنات على أرحامهنّ .

(219/770)

وحين كرر شرط التقوى كان لسائل أن يسأل : كيف يعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ أي بعض مكان سكناكم الذي تطيقونه . والوجد . الوسع والطاقة . قال قتادة : فإن لم يكن إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه . قال أبو حنيفة : السكنى والنفقة واجبتان لكل مطلقة . وعند الشافعي ومالك : ليس للمبتوتة إلا السكنى . وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى لما في حديث فاطمة بنت قيس أن زوجها بت طلاقها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا سكنى لك ولا نفقة . وضعف بقول عمر : لا ندع كتاب ربنا ولا سنة نبينا لقول امرأة نسيت أو شبه لها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لها السكنى والنفقة ﴿ ولا تضاروهن ﴾ بإنزال مسكن لا يوافقهن أو بغير ذلك من أنواع المضار حتى تضطروهن إلى الخروج وقيل : هو أن يراجعها كلما قرب انقضاء عدتها ليضيق أمرها وقد يلجئها إلى أن تفتدي منه . قوله ﴿ وإن كن أولات حمل ﴾ تخصيص للحامل بالنفقة لأجل الحمل وإن كانت بائنة . هذا عند الشافعي ، وأما عند أبي حنيفة ففائدته أن مدة الحمل ربما تطول فيظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل فنفى ذلك الوهم ، وأما الحامل المتوفى عنها فالأكثرون على أنه لا نفقة لها لوقوع الإجماع على من أجبر الرجل على إنفاقه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن

ينفق عليه من ماله بعد موته فكذلك الحامل . وعن علي وعبد الله وجماعة ومنهم الشافعي أنهم أوجبوا نفقتها .

(220/770)

ثم بين أمر الطفل قائلاً ﴿ فإن أرضعن ﴾ أي هؤلاء المطلقات ﴿ لكم ﴾ أي لأجلكم ولداً منهن أو من غيرهن بعد انفصام عرى الزوجية . وهذه الإجارة لا تجوز عند أبي حنيفة وأصحابه إذا كان الولد منهن ما لم تحصل البينونة . وجوز الشافعي مطلقاً كلما صار . ثم خاطب الآباء والأمهات جميعاً بقوله ﴿ وأتمروا ﴾ قال أهل اللغة : الائتمار بمعنى التآمر كالاشتوار بمعنى التشاور أي ليأمر بعضكم بعضاً بالجميل وهو المسامحة وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما معاً ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي أظهرتم من أنفسكم العسر والشدة في أم مؤنة الإرضاع ﴿ فسترضع ﴾ أي الطفل ﴿ له ﴾ أي للأب مرضعة ﴿ أخرى ﴾ وفيه طرف من معاتبة الأم على التعاسر كما تقول لمن تطلب منه حاجة وهو يتأنى في قضائها : سيقضيها قاضٍ . يريد لا تبقى غير مقضية وأنت ملوم . ثم بين أن ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات هو بمقدار الوسع والطاقة كما في " البقرة " على

الموسر قدره وعلى المقتر قدره إلى أن يفتح الله أبواب الرزق عليهم . ثم هدد من خالف الأحكام المذكورة بأحوال الأمم السابقة .

(221/770)

والحساب الشديد أي بالاستقصاء والمناقشة ، والعذاب النكر أي المنكر الفظيع . يحتمل أن يراد بهما حساب الدنيا وعذابها وهو إحصاء صغائرهم وكبائرهم في ديوان الحفظة وما أصاب كل قوم من الصيحة ونحوها عاجلاً ، وأن يراد عذاب الآخرة وحسابها . ولفظ الماضي لتحقق الوقوع مثل ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 72] ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 38] وعلى هذا يكون قوله ﴿ أعد الله ﴾ تكريراً للوعيد وبياناً لكونه مترقباً كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب فاحذروا مثله ﴿ يا أولى الألباب ﴾ وجوز جار الله أن يكون ﴿ عتت ﴾ وما عطف عليه صفة للقرية و ﴿ أعد الله ﴾ عاملاً في ﴿ كأين ﴾ . قوله ﴿ رسولاً ﴾ قال جار الله : هو جبرائيل أبدل من ﴿ ذكراً ﴾ لأنه وصف بتلاوة آيات الله وكان إنزاله في معنى إنزال الذكر فصح إبداله منه ، أو أريد بالذكر الشرف كقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] فأبدل منه كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله ، أو جعل لكثرة ذكره الله وعبادته كأنه ذكر

، أو أريد ذا ذكر ملكاً مذكوراً في السموات وفي الأمم كلها ، أو دل قوله ﴿ قد أنزل الله ﴾ على أرسل فكأنه قيل : أرسل رسولاً أو أعمل ﴿ ذكراً ﴾ في ﴿ رسولاً ﴾ إعمال المصدر في المفاعيل أي أنزل الله أن ذكر رسولاً أو ذكره رسولاً . قلت : لم يبعد على هذه الوجوه أن يكون المراد بالرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر غاية الإنزال أو التلاوة بقوله ﴿ ليخرج ﴾ والمعنى ليخرج الله أو الرسول ﴿ الذين ﴾ عرف منهم أنهم سيؤمنون من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أو ليوفقهم بعد الإيمان والعمل الصالح لمزيد البيان والعيان الذي ينجيلي به ظلم الشكوك والحسبان . قوله ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم . ثم ختم السورة بالتوحيد الذي هو أجل المطالب وتفسيره ظاهر مما سلف مراراً إلا أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض متعددة وأنها سبع كالسموات فذهب بعضهم

(222/770)

إلى أن قوله ﴿ مثلهن ﴾ أي في الخلق لا في العدد . وقيل : هن الأقاليم السبعة ، والدعوة شاملة لجميعها . وقيل : إنها سبع أرضين متصل بعضها ببعض وقد حال بينهم بحار لا يمكن قطعها والدعوة لا تصل إليهم . وقيل : إنها سبع طبقات بعضها فوق بعض لا فرجة

بينها وهذا يشبه قول الحكماء : منها طبقة هي أرض صرفة تجاوز المركز ، ومنها طبقة طينية تخالط سطح الماء من جانب التقعير ، ومنها طبقة معدنية يتولد منها المعادن ، ومنها طبقة تركبت بغيرها وقد انكشف بعضها ، ومنها طبقة الأدخنة والأبخرة على اختلاف أحوالها أي طبقة الزمهرير ، وقد تعدّ هذه الطبقة من الهواء . وقيل : إنها سبع أرضين بين كل واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام كما جاء في ذكر السماء وفي كل أرض منها خلق حتى قالوا : في كل منها آدم وحواء ونوح وإبراهيم وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويستمدون الضياء منها أو جعل لهم نوراً يستضيئون به . وذكر النقاش في تفسيره فصلاً في خلائق السموات والأرضين وأشكالهم وأسمائهم أضربنا عن إيرادها لعد الوثوق بمثل تلك الروايات . ومعنى ﴿ تنزل الأمر بينهن ﴾ أن حكم الله وأمره يجري فيما بين السموات والأرضين أو فيما يتركب منهما ولا يعلم تلك الأجرام ولا تلك الأحكام ولا كيفية تنفيذها فيهن إلا علام الغيوب تعالى وتقدس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ6 صـ312.317 ﴾

(223/770)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الطلاق

مدنية وهي إحدى عشرة آية ، وقيل : اثنتا عشرة آية ، وقيل : ثلاث عشرة آية ومائتان وتسع وأربعون كلمة ، وألف وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم برحمته والنوال ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بتمام النعمة ذوي الهمم العوال

وقرأ : ﴿ يا أيها النبي ﴾ نافع بالهمزة وسهل الهمزة من إذا وأبدلها أيضاً واواً . خصه صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدمته واعتباراً لرآسته ، وإنه لسان قومه والذي يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده في حكم كلهم وساداً مسد جميعهم .

وقيل : إنه على إضمار قول ، أي يا أيها النبي قل لأمتك ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ أي : أردتم طلاق هذا النوع واحدة منهن فأكثر . وقيل : إنه خطاب له ولأمته ، والتقدير : يا أيها النبي وأمته فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه كقوله : إذا حذفته رجلها ، أي : ويدها ، وكقوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ (النحل :)

وقيل : إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خوطب بلفظ الجمع تعظيماً له كقوله:

*فإن شئت أحرمت النساء سواكم ** وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً*

قال الرازي : وجه تعلق أول هذه السورة بآخر التي قبلها ، هو أنه تعالى أشار في آخر التي قبلها إلى كمال علمه بقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ وفي أول هذه السورة إشارة إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام المخصوصة بطلاقهن ، فكأنه بين ذلك الكلي بهذه الجزئيات .

(224/770)

وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها ، وعن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ وقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك في الجنة ، ذكره الماوردي ، والقشيري . وزاد القشيري ونزل خروجها إلى أهلها قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ .

وقال الكلبي : سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفصة لما أسر إليها حديثاً فأظهرته لعائشة ، فطلقها تطليقة فنزلت . وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر "طلق امرأته حائضاً تطليقة واحدة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن

يراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر فإن شاء أمسكها وإن شاء طلقها قبل أن يجامع فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء" . وهو قوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي : في الوقت الذي يشرعن فيه في العدة ، وقد قيل : إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمر بن سعيد بن العاص ، وعتبة بن غزوان فنزلت الآية فيهم . وروى الدراقطني عن ابن عباس أنه قال : "الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ، ووجهان حرامان .

فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً عن غير جماع ، وأن يطلقها حاملاً مستبيناً حملها .

وأما الحرام فأن يطلقها حائضاً ، أو أن يطلقها حين يجامعها لا يدري اشتمل الرحم على ولد أم لا" .

(225/770)

تنبيه : الطلاق ينقسم إلى سني وبدعي ولا ولا ، فطلاق موطوأة ولو في دبر تعتد بإقراء سني إن ابتدأتها الإقراء عقب الطلاق ، ولم يطأها في طهر طلقها فيه أو علق طلاقها بمضي بعضه ، ولا وطئها في نحو حيض قبله ، ولا في حيض طلق مع آخره أو علق بآخره وذلك لاستعقابه الشروع في العدة وعدم الندم فيمن ذكرت ، وإلا فبدعي وإن سألته طلاقاً بلا

عوض وطلاق غير الموطوأة المذكورة بأن لم توطأ أو كانت صغيرة أو آيسة أو حاملاً منه وخلع زوجته في زمن حيض بعوض لا سني ولا بدعي ، والبدعي حرام للنهي عنه .

وقسم جماعة الطلاق إلى واجب كطلاق المولى ، أي : واجب مخير إن لم يكن عذر ، ومعين إن كان عذر شرعي كالإحرام ، ومندوب كطلاق غير مستقيمة الحال كسيئة الخلق ، ومكروه كمستقيمة الحال ، وحرام كطلاق البدعة . وأشار الإمام إلى المباح بطلاق من لا يهواها ، ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع بها ، وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق" وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش" وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا معاذ ما خلق الله تعالى شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ، ولا خلق الله تعالى شيئاً أبغض إليه من الطلاق" وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق" واختلفوا في الاستثناء في الطلاق والعتق ، فقالت طائفة بجوازه ، وهو مروي عن طاووس ، وبه قال حماد الكوفي ، والشافعي ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأي . وقال مالك والأوزاعي : لا يجوز الاستثناء في الطلاق والعتق . وقال قتادة : لا يجوز الاستثناء في الطلاق خاصة . قال ابن المنذر : وبالقول الأول أقول .

ولما كان نظر الشارع إلى العدة شديداً صرح بصيغة الأمر فقال تعالى : ﴿ وأحصوا ﴾ أي : اضبطوا ضبطاً كأنه في إتقانه محسوس ﴿ العدة ﴾ ليعرف زمان الرجعة والنفقة والسكنى ، وحل النكاح لأخت المطلقة مثلاً ونحو ذلك من الفوائد الجليلة ﴿ واتقوا ﴾ أي : في ذلك ﴿ الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له الخلق والأمر ﴿ ربكم ﴾ أي : لإحسانه في تربيتكم في حملكم علي الحنيفية السمحة ورفع جميع الآصار عنكم ﴿ لا تخرجوهن ﴾ أي : أيها الرجال في حال العدة ﴿ من بيتوهن ﴾ أي : المسكن التي وقع الفراق فيها ، وهي مساكنهن التي يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى .

وقرأ ورش وأبو عمر وحفص بضم الباء الموحدة ، والباقون بكسرها ﴿ ولا يخرجن ﴾ أي : من بيتوهن حتى تنقضي عدتهن ولو وافق الزوج على ذلك ، وعلى الحاكم المنع منه لأن في العدة حقاً لله تعالى ، وقد وجبت في ذلك المسكن . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ مستثنى من الأول ، والمعنى إلا أن تبدو على الزوج فإنه كالنشوز في إسقاط حقها .

وقال ابن عباس : الفاحشة المبينة أن تبدو على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها

وقال ابن مسعود : أراد بالفاحشة المبينة أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ، ثم ترد إلى منزلها . وقال قتادة : الفاحشة النشوز ، وذلك أن يطلقها على النشوز فتحوّل عن بيته .

ويجوز أن يكون مستثنى من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على أن خروجها فاحشة هذا كله عند عدم العذر ، أما لعذر كشراء غير من لها نفقة على المفارق نحو طعام كقطن وكتان نهاراً ، وغزلها ونحوه كحديثها وتأنيسها عند جارتها ليلاً وترجع وتبيت ببيتها ، فإنه جائز للحاجة إلى ذلك ، وكخوف على نفس أو مال من نحو هدم وغرق وفسقة مجاورين لها وشدة تأذيها بجيران وشدة تأذيهم بها للحاجة إلى ذلك ، بخلاف الأذى اليسير إذ لا يخلو منه أحد ومن الجيران الإحماء وهم أقارب الزوج ، نعم إن اشتد أذاها بهم أو عكسه وكانت الدار ضيقة نقلهم الزوج عنها وخرج بالجيران ما لو طلبت بيت أبويها وتأذت بهما أو هما بها فلا نقل ، لأن الوحشة لا تطول بينهما ، ولو انتقلت لبلد أو مسكن بإذن زوجها فوجبت العدة ، ولو قبل وصولها إليه اعتدت فيه لأنها مأمورة بالمقام فيه ، فإن انتقلت لذلك بلا إذن فتعتد في الأول وإن وجبت العدة بعد وصولها للثاني لعصيانها بذلك . نعم إن أذن لها بعد انتقالها أن تقيم في الثاني فكما لو انتقلت بالإذن .

ولو أذن لها في الانتقال فوجبت العدة قبل خروجها اعتدت في الأول . ولو سافرت بإذن

زوجها فوجبت في الطريق فعودها أولى من مضيها ، فإن مضت وجب عودها بعد انقضاء حاجتها إن سافرت لها ، أو بعد انقضاء مدة الأذن إن قدر لها مدة ، أو مدة إقامة المسافر إن لم تقدر لها مدة في سفر غير حاجتها .

(228/770)

ولو خرجت فطلقها وقال : ما أذنت في الخروج ، أو قال ـ وقد قالت : أذنت في نقلتي : أذنت لا لنقله ، صدق بيمينه ، ولو كان المسكن ملكاً له ويليق بها تعين ؛ لأن تعتد فيه كما مر ويصح بيعه في عدة أشهر كالمكتري ، أو كان مستعاراً ، أو مكري وانقضت مدة الكراء انتقلت منه إن امتنع المالك ، وإن كان ملكاً لها تخيرت بين الاستمرار فيه بإعارة أو إجارة والانتقال منه كما لو كان المسكن خسيساً ، ويخير هو إن كان نفيساً وسكنى المعتدة عن فرقة واجب على الزوج حيث تجب نفقتها عليه لو لم تفارق ، سواء أكانت الفرقة بطلاق أو فسخ أو وفاة لقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ (الطلاق :)

وقيس به الفسخ بأنواعه بجامع فرقة النكاح في الحياة ، ولخبر فريعة بنت مالك في الوفاة : "أن زوجها قتل فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن ترجع إلى أهلها ، وقالت : إن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ، فأذن لها في الرجوع ، قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة أو

في المسجد ، دعاني فقال : امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً" صححه الترمذي وغيره .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر بفتح الياء التحتية ، والباقون بكسرها ﴿ وتلك ﴾ أي : الأحكام العالية جداً لما فيها من الجلالة وبانتسابها إلى الملك الأعلى من هذا الذي ذكر في هذه السورة وغيرها ﴿ حدود الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ ومن يتعد ﴾ أي : يقع منه في وقت من الأوقات أنه تعمد أن يعدو ﴿ حدود الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفء له أو بعضها كأن طلق بدعياً ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي : عرضها للعقاب .

(229/770)

وقرأ قالون وابن كثير وعاصم بإظهار الدال عند الظاء ، والباقون بالإدغام ﴿ لا تدري ﴾ أي : نفس ، أو أنت أيها النبي ، أو المطلق ﴿ لعل الله ﴾ أي : الذي بيده القلوب ومقاليد جميع الأمور ﴿ يحدث ﴾ أي : يوجد شيئاً حادثاً لم يكن إيجاداً ثابتاً لا تقدر الخلق على التسبب في زواله ﴿ بعد ذلك ﴾ أي : الحادث من الإساءة والبغض ﴿ أمراً ﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها .

وقال أكثر المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة ، ومعنى الكلام التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث ، وهذا أحسن الطلاق وأحله في السنة وأبعده عن الندم . .

ويدل عليه ما روي عن ابراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار . وقال مالك بن أنس : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفرقة . وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقاً في الأطهار فلا لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : "ما هكذا أمر الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة" وروي أنه قال لعمر : "مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها تحيض ، ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء" وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . ومالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت ، والشافعي يراعي الوقت وحده .

قال الزمخشري : فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ قلت : نعم وهو آثم لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم" وفي حديث ابن عمر أنه قال : يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثاً فقال له : قال : "إذاً عصيت وبانت منك امرأتك" .

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لايؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلاث لم يقع ، وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل ، فكيف صح تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن ؟ .

أجيب : بأنه لا عموم ثم ولا خصوص ، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس ، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن وفي بعضهن فجاز أن يراد بالنساء هذا وذلك ، فلما قيل : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ علم أنه أطلق على بعضهن وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض .

ولما حدّ سبحانه مايفعل في العدة أتبعه مايفعل عند انقضائها بقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن ﴾

أي : المطلقات ﴿ أجلهن ﴾ أي : شارفن انقضاء العدة مشارفة عظيمة ﴿ فأمسكوهن ﴾ أي : بالمراجعة وهذا يدل على أن الأولى من الطلاق ما دون البائن لا سيما الثلاث ﴿ بمعروف ﴾ أي : حسن عشرة لا لقصد المضارة بطلاق آخر لأجل إيجاد عدة أخرى ، أو غير ذلك . ﴿ أو فارقوهن ﴾ بعدم المراجعة لتتم العدة فتملك نفسها ﴿ بمعروف ﴾ أي : بإيفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر حسنه الشرع ، فلا يقصد أذاها بتفريقها عن ولدها مثلاً ، أو عنه إن كانت عاشقة له لقصد الأذى فقط من غير مصلحة ، وكذلك ما أشبه ذلك من أنواع الضرر بالفعل والقول فقد تضمنت الآية بإفصاحها الحث على فعل الخيرات وبإفهامها اجتناب المنكرات .

(231/770)

تنبيه : قال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ (البقرة :)

إن : الزوج له حق في بدن الزوجة ولها حق في بدنه وذمته فكل من له دين في ذمة غيره سواء أكان مالاً ، أو منفعة من ثمن أو مثمن أو أجرة ، أو بدل متلف ، أو ضمان مغصوب ، أو نحو ذلك فعليه أن يؤدي ذلك الحق الواجب بإحسان ، وعلى صاحب الحق أن يتبع بإحسان

كما قال تعالى في آية القصاص : ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ (البقرة :)

وكذا الحق الثابت في بدنه مثل حق الاستمتاع والإجارة على عينه ونحو ذلك ، فالطالب يطلب بمعروف والمؤدي يؤدي بإحسان .

ولما كان الإشهاد أقطع للنزاع قال تعالى حاثاً على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة : ﴿ وأشهدوا ﴾ أي : على الرجعة والمفارقة ، وقيل : المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعاً ﴿ ذوي عدل منكم ﴾ قطعاً للنزاع ، وهذا الإشهاد مندوب إليه عند الجمهور كقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ (البقرة :)

وأوجب الإشهاد في الرجعة الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه ، والشافعي كذلك لظاهر الأمر . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي في القول الأخر : إن الرجعة لاتفتقر إلى القبول فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق .

وإذا جامع أو قبل أو باشر يريد بذلك الرجعة فليس بمراجع ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا قبل أو باشر أو لمس بشهوة فهو رجعة ، وكذا النظر إلى الفرج رجعة ، وقال الشافعي وأبو ثور : إذا تكلم بالرجعة فهي رجعة ، وقيل : وطؤه مراجعة على كل حال نواها أو لم ينوها ، وهو مذهب أحمد وإليه ذهب الليث وبعض المالكية . قال القرطبي : وكان مالك

يقول : إذا وطىء ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد ، ولا يعود إلى وطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ، وله الرجعة في بقية العدة الأولى ، وليست له الرجعة في هذا الاستبراء .

(232/770)

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ قال الحسن : من المسلمين ، وعن قتادة : من أحراركم ، وذلك يوجد اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث لأن ذوى للمذكر . وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا ﴾ أي : أيها المأمورون حيث كنتم شهوداً ﴿ الشهادة ﴾ التي تحملتموها بأدائها على أكمل أحوالها ﴿ لله ﴾ أي : مخلصين لوجه الملك الأعلى لا لأجل المشهود له والمشهود عليه ، ولا شيء سوى وجه الله تعالى .

وفيه حث على أداء الشهادة لما فيه من العسر على الشاهد بترك مهماته وعسر لقاء الحاكم الذي يؤدي عنده ، وربما بعد مكانه وكان للعدل في الأداء عوائق أيضاً ﴿ ذلكم ﴾ أي : الذي ذكرت لكم أيتها الأمة من هذه الأمور البديعة النظام العالية المرام ، وأولاها بذلك هذا الإشهاد وإقامة الشهادة ﴿ يوعظ ﴾ أي : يلين ويرقق ﴿ به من كان ﴾ أي : كوناً راسخاً من جميع الناس ﴿ يؤمن بالله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ واليوم الآخر ﴾ فإنه المحط الأعظم للترقيق ، وأما من لم يكن متصفاً بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لأنه لم

ينتفع به .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي : يخف الملك الأعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية بما يرضية ، وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهي عنه من الطلاق وغيره ، ظاهراً وباطناً لأن التقوى إذا انفردت في القرآن عن مقارن عمت الأمر والنهي ، وإن اقترنت بغيرها نحو إحسان أو رضوان خصت المناهي ﴿ يجعل ﴾ أي : بسبب التقوى ﴿ له مخرجاً ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على اتقائه عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً من الطلاق في الحيض والإضرار بالمعتدة وإخراجها من المسكن ، وتعدى حدود الله تعالى . روي أن النبي صلى الله عليه وسلم "سئل عمن طلق ثلاثاً أو ألفاً هل له من مخرج فتلاها" وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والثعلبي والضحاك : هذا في الطلاق خاصة ، أي : من طلق كما أمره الله تعالى يكن له مخرج في الرجعة في العدة ، وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة .

(233/770)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً : يجعل له مخرجاً ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، وقيل : المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه ، قاله علي بن صالح . وقال الكلبي :

ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، وقال الحسن : مخرجاً مما نهى الله عنه ، وقال أبو العالية : مخرجاً من كل شدة ، وقال الربيع بن خيثم : مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس ، وقال الحسين بن الفضل : ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة .

﴿ ويرزقه ﴾ أي : الثواب ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ أي : يبارك له فيما أتاه ، وقال سهل بن عبد الله : ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة البدع ، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب ، وقال أبو سعيد الخدري : ومن تبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله تعالى يجعل له مخرجاً مما كلفه الله بالمعونة له ، وتأول ابن مسعود ومسروق الآية على العموم ، وهذا هو الذي يقوى عندي .

وقال أبو ذر : "قال النبي صلى الله عليه وسلم إني لأعلم آيه لو أخذ الناس بها لكفتهم ، وتلا : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة" .

(234/770)

وقال أكثر المفسرين : نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكي إليه الفاقة ، وقال : إن العدو أسر ابني وجزعت الأم فما تأمرني ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "اتقي الله واصبر ، وآمرك وإياها أن تكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقالت : نعم ما أمرنا به فجعلا يقولان فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها إلى المدينة وهي أربعة آلاف شاة فنزلت الآية ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام له" وروي أنه جاء وقد أصاب إبلاً من العدو ، وكان فقيراً . فقال الكلبي : إنه أصاب خمسين بعيراً ، وفي رواية فأفلت ابنه من الأسر وركب ناقة لقوم فمر بسرح لهم فاستاقه ، وقال مقاتل : أصاب غنماً ومتاعاً ، فقال أبوه للنبي صلى الله عليه وسلم أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني قال : نعم ونزل ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وروى الحسن عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها" .

وقال الزجاج : أي : إذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : "من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب" .

(235/770)

﴿ ومن يتوكل ﴾ أي : يسند أموره كلها معتمداً فيها ﴿ على الله ﴾ أي : الملك الذي بيده كل شيء ولا كفء له ﴿ فهو ﴾ أي : الله في غيبه فضلاً عن الشهادة بسبب توكله ﴿ حسبه ﴾ أي : كافيه ما أهمه ، وحذف المتعلق للتعميم ، وحرف الاستعلاء للإشارة إلى أنه كان حمل أموره كلها عليه سبحانه ، لأنه القوي العزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار إلى غير ذلك من المعاني الكبار ، فلا يبدو له عالم الشهادة شيء يشينه . وقيل : من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية ولم يرد الدنيا ، لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل ، وفي الحديث : "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" ويؤخذ من هذا أن التوكل يكون مع مباشرة الأسباب لأنه صلى الله عليه وسلم قال : تغدو وتروح وهي من المقامات العظيمة . قال البقاعي نقلاً عن المولوي : وإلا كان اتكالاً ، وليس بمقام بل خسة

همة وعدم مروءة؛ لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتب المسببات على الأسباب. ا. ه.

(236/770)

ولما كان ذلك أمراً إلا يكاد يحيط به الوهم بقوله تعالى مهوّلاً له بالتأكيد والإظهار في موضع الإضمار: ﴿إن الله﴾ أي: المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص ﴿بالغ أمره﴾ أي: جميع ما يريده فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا، قال مسروق: يعني قاضٍ أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً. وقرأ حفص: بالغ، بغير تنوين وأمره بالجر مضاف إليه على التخفيف، والباقون بالتنوين، وأمره بنصب الراء وضم الهاء. قال ابن عادل: وهو الأصل خلافاً لأبي حيان ﴿قد جعل الله﴾ أي: الملك الذي لا كفء له ولا معقب لحكمه جعلاً مطلقاً من غير تقييد بجهة ولا حيثية ﴿لكل شيء﴾ كرخاء وشدة ﴿قدراً﴾ أي: تقديراً لا يتعداه في مقداره وزمانه وجميع عوارضه وأحواله، وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه. فمن توكل استفاد الأجر، وخفف عنه الألم، وقذف في قلبه السكينة، ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك، وزاد ألمه وطال غمه بشدة وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجية. فمن رضي

فله الرضا ، ومن سخط فله السخط جف القلم فلا يزاد في المقادير شيء ، ولا ينقص منها شيء .

ويحكى أن رجلاً أتى عمر فقال : أولني مما أولاك الله ، فقال : أتقرأ القرآن ، قال : لا ، قال : إنا لا نولي من لا يقرأ القرآن ، فانصرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود إلى عمر فيوليه فلما تعلم القرآن تخلف عن عمر فرآه ذات يوم فقال : يا هذا أهجرتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لست ممن يهجر ، ولكني تعلمت القرآن فأغناني الله عن عمر وعن باب عمر ، قال : فأي آية أغنتك قال : قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ فمن توكل على غيره سبحانه ضاع ، لأنه لا يعلم المصالح وإن علم لا يعلم كيف يستعملها ، وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كله ولا يعلمه حق علمه غيره .

(237/770)

تنبيه : الآية تفهم أن من لم يتق الله يقتر عليه ، وهو موافق لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" . وتفهم أن من لم يتوكل لم يكف شيئاً من الأشياء .

وقال عبد الله بن رافع : لما نزل قوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ قال

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنحن إذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه ، فنزل ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ فيكم وعليكم . وقال الربيع بن خيثم : إن الله قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ (التغابن :) ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ﴾ (التغابن :)

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ (آل عمران :)

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (البقرة :) .

ولما بين تعالى أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض ، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم . قال أبو عثمان عمر بن سليمان : نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبي بن كعب : يا رسول الله إن ناساً يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء الصغار والكبار وذوات الحمل فنزل: ﴿ واللائي يئسن ﴾ أي : من المطلقات ﴿ من المحيض ﴾ أي : الحيض الآية . وقال مقاتل : لما ذكر قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ (البقرة :)

قال خلاد بن النعمان : يا رسول الله فما عدة التي لم تحض وعدة التي انقطع حيضها وعدة الحبلى فنزلت ، وقيل : إن معاذ بن جبل سأل عن عدة الكبيرة التي يئست فنزلت ، وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة لا تدري دم حيض هو أو دم علة . واختلف في سن اليأس فالذي عليه الأكثر أنه اثنان وستون سنة ، وقيل : خمس وخمسون ، وقيل : ستون ، وقيل : سبعون .

ولما كان هذا الحكم خاصاً بأزواج المسلمين لحرمة فرشهم وحفظ أنسابهم قال تعالى : ﴿ من نسائكم ﴾ أي : أيها المسلمون سواء كن مسلمات أو من أهل الكتاب ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي : شككتم في عدتهن ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ كل شهر يقوم مقام حيضة لأن أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ أي : لصغرهن أو لأنهن لا حيض لهن أصلاً ، وإن كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً هذا كله في غير المتوفى عنهن أزواجهن ، أما هن فعدتهن ما في آية ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ (البقرة :)

وقرأ : ﴿ واللائي ﴾ في الموضعين ابن عامر والكوفيون بالهمز وياء بعده ، وقرأ قالون وقنبل بالهمز ولا ياء بعده ، وللبزي وأبي عمرو أيضاً إبدال الهمزة ياء ساكنة مع المد لا غير .

ولما فرغ من ذكر الحوائل أتبعه ذكر الحوامل بقوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ أي : من جميع الزوجات المسلمات والكافرات المطلقات والمتوفى عنهن ﴿ أجلهن ﴾ أي : لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل حيض أم لا ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ وهذا على عمومه مخصص لآية ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ لأن المحافظة على عمومه أولى من المحافظة على عموم ذاك في قوله تعالى : ﴿ أزواجاً ﴾ لأن عموم هذه بالذات لأن الموصول من صيغ العموم وعموم أزواجاً بالعرض لأنه بدل لا يصلح لجميع الأزواج في حال واحد ، والحكم معلل هنا بوصف الحملية بخلاف ذاك ، ولأن هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص ، وتقديم تلك في العمل بعمومها رفع لما في الخاص من الحكم فهو نسخ ، والأول هو الراجح للوفاق ، ولأن سبيعة بنت الحارث وضعت حملها بعد وفاة زوجها بليالٍ فأذن لها النبي صلى الله عليه وسلم أن تتزوج .

تنبيه : إذا وضعت المرأة ما في بطنها من علقة أو مضغة حلت عند مالك ، وقال الشافعي وأحمد وأبو حنيفة : لا تحل إلا بوضع ما يتبين فيه شيء من خلق الإنسان ، فإن كانت حاملاً بتوأمين لم تنقض عدتها حتى تضع الثاني منهما ، ولابد أن يكون الحمل منسوباً لذي

العدة ، أما إذا كان من زنا فلا حرمة له والعدة بالحيض .

ولما كانت أمور النساء في المعاشرة والمفارقة في غاية المشقة كرر بالحث على التقوى إشارة إلى ذلك ، وترغيباً في لزوم ما حده سبحانه فقال عاطفاً على ما تقديره فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله تعالى عليه أموره : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي : يوجد الخوف من الملك الأعظم إيجاداً مستمراً ليجعل بينهم وبين سخطه وقاية من طاعته ، اجتلاباً للمأمور واجتناباً للمنهي .

(240/770)

﴿ يجعل له ﴾ أي : يوجد إيجاداً مستمراً باستمرار التقوى ، إن الله لا يمل حتى تملوا ﴿ من أمره ﴾ أي : كله في النكاح وغيره ﴿ يسراً ﴾ أي : سهولة وفرجاً وخيراً في الدارين بالدفع والنفع ، وذلك أعظم من مطلق الخروج المتقدم في الآية الأولى ، وقال مقاتل : ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه لطاعته .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر المذكور من جميع هذه الأحكام العالية المراتب ﴿ أمر الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الكمال كله ﴿ أنزله إليكم ﴾ وبينه لكم ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي : الذي لا أمر لأحدٍ معه في أحكامه فيراعي حقوقها ﴿ يكفر ﴾ أي : يغط تغطية عظيمة

﴿ عنه سيئاته ﴾ ليتخلى عن المبعدات ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ بأن يبدل سيئاته حسنات ، ويوفيه أجرها في الدارين مضاعفة فيتحلى بالقربات ، وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم .

﴿ أسكنوهن ﴾ وقال الرازي : أسكنوهن وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله ﴾ كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل : أسكنوهن .

وقوله تعالى : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن من للتبعيض ، قال الزمخشري : مبعضها محذوف ، معناه : أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم ، أي : بعض مكان سكناكم كقوله تعالى : ﴿ يغضوا من أبصارهم ﴾ (النور :)

(241/770)

أي : بعض أبصارهم . قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه . قال الرازي : وقال الكسائي : من صلة ، والمعنى : اسكنوهن حيث سكنتم . والثاني : أنها لابتداء الغاية ، قاله الحوفي وأبو البقاء . قال أبو البقاء : والمعنى : تسببوا إلى إسكانهن من الوجه الذي تسكنون أنفسكم ، ودل عليه قوله تعالى : ﴿ من وجدكم ﴾ أي : من

وسعكم ، أي : ما تطيقونه وفي إعرابه وجهان : أحدهما : أنه عطف بيان لقوله تعالى : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ وإليه ذهب الزمخشري وتبعه البيضاوي . قال ابن عادل : أظهرهما أنه بدل من قوله ﴿ من حيث ﴾ بتكرار العامل ، وإليه ذهب أبو البقاء كأنه قيل : أسكنوهن من وسعكم .

﴿ ولا تضاروهن ﴾ أي : حال السكنى في المساكن ولا في غيره ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ حتى تلجؤهن إلى الخروج ﴿ وإن كن ﴾ أي : المطلقات ﴿ أولات حمل ﴾ أي : من الأزواج من طلاق بائن أو رجعي ﴿ فأنفقوا عليهن ﴾ وإن مضت الأشهر ﴿ حتى يضعن حملهن ﴾ فيخرجن من العدة ، وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات البوائن والأحاديث تؤيده .

(242/770)

قال القرطبي : اختلف العلماء في المطلقة ثلاثاً على ثلاثة أقوال : فذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ، ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس قالت : "دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي أخو زوجي ، فقلت : إن

زوجي طلقني وإن هذا يزعم أن ليس لي سكنى ولا نفقة ، قال : بل لك السكنى والنفقة ، فقال : إن زوجها طلقها ثلاثاً فقال صلى الله عليه وسلم إنما السكنى والنفقة لمن له عليها رجعة" فلما قدمت الكوفة طلبني الأسود بن يزيد ليسألني عن ذلك فإن أصحاب عبد الله يقولون : إن لها السكنى والنفقة . وعن الشعبي قال : لقيني الأسود بن يزيد فقال : يا شعبي اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس ، فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة ، فقلت : لا أرجع عن شيء . حدثتني فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأنه لو كان لها سكنى لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم .

وأجيب عن ذلك : بما روت عائشة أنها قالت : كانت فاطمة في مكان وحش فخيف على ناحيتها ، وقال سعيد بن المسيب : إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على إحمائها ، وقال قتادة وابن أبي ليلى : لا سكن إلا للرجعية لقوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ (الطلاق :)

وقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن ﴾ راجع لما قبله وهي المطلقة الرجعية ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أي : بعد انقضاء علقة النكاح ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ أي : على ذلك الإرضاع وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية ، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم تبن ، ويجوز عند الشافعي مطلقاً وقوله تعالى

: ﴿ وائتمروا ﴾ خطاب للأزواج والزوجات ، أي : ليأمر بعضكم بعضاً في الإرضاع والأجر فيه وغير ذلك ، وليقبل بعضكم أمر بعض .

(243/770)

وقال الكسائي : ائتمروا تشاوروا ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ (القصص :)

وأنشد قول امرىء القيس:

*ويعدو على المرء ما يأتمر

وزادهم رغبة في ذلك بقوله تعالى : ﴿ بينكم ﴾ أي : إن هذا الخير لا يعدوكم ، وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ بمعروف ﴾ ونكره سبحانه تخفيفاً على الأمة بالرضى بالمستطاع ، وهو يكون مع الأخلاق بالاتصاف ، ومع النفس بالخلاف ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي : طلب كل منكم ما يعسر على الآخر ، كأن طلبت المرأة الأجرة وطلب الزوج إرضاعها مجاناً ﴿ فسترضع له ﴾ أي : الأب ﴿ أخرى ﴾ أي : مرضعة غير الأم ويغني الله تعالى عنها ، وليس له أن يكرهها على ذلك ، نعم إذا لم يقبل ثدي غيرها أو لم يوجد غيرها أجبرت على ذلك بالأجرة ، وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك .

واختلفوا فيمن يجب عليه رضاع الولد ، فقال مالك : رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية إلا لشرفها وموضعها فعلى الأب رضاعه حينئذٍ في ماله ، وقال أبو حنيفة : لا يجب على الأم بحال ، وقيل : يجب عليها بكل حال . ولو طلبت الأم أجرة المثل وهناك أجنبية ترضع بدون أجرة المثل ، أو متبرعة تخير الأب بينهما ولا يضيق على الأب بدفع الأجرة لأنه صلى الله عليه وسلم ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين بين ، والباقون بالفتح .

﴿ لينفق ذو سعة ﴾ أي : مال واسع ولم يكلفه تعالى جميع وسعه بل قال تعالى : ﴿ من سعته ﴾ أي : لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر وسعه إذا كان موسعاً عليه ﴿ ومن قدر ﴾ أي : ضيق ﴿ عليه رزقه ﴾ فعلى قدر ذلك فيقدر النفقة بحسب حال المنفق ، والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة . قال تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ (البقرة :)

وقال صلى الله عليه وسلم لهند : "خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف" لكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعي محدودة فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتي فيها ، وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من يسار وإعسار ، ولا اعتبار بحالها فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس ، فيلزم الزوج الموسر مدان ، والمتوسط مد ونصف ، والمعسر مد لظاهر قوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فجعل الاعتبار بالزوج في اليسر والعسر ، ولأن الاعتبار بحالها يؤدي إلى الخصومة لأن الزوج يدعي أنها تطلب فوق كفايتها وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها فقدرت قطعاً للخصومة .

وقوله تعالى : ﴿ فلينفق ﴾ أي : وجوباً على المرضع وغيرها من كل ما أوجبه الله تعالى عليه . ﴿ مما آتاه الله ﴾ أي : الملك الذي لا ينفد ما عنده ، ولو من رأس المال ومتاع البيت ﴿ لا يكلف الله ﴾ أي : الذي له الملك كله ﴿ نفساً ﴾ أيّ نفس كانت .

﴿ إلا ما آتاها ﴾ أي : أعطاها من المال ﴿ سيجعل الله ﴾ أي : الملك الذي له الكمال كله فلا خلف لوعده .

﴿ بعد عسر ﴾ أي : بعد كل عسر ﴿ يسراً ﴾ وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين بعد نزول الآية ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ، ثم فارس والروم حتى صاروا أغنى الناس وصدق الآية دائم غير أنه في الصحابة رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين لأن إيمانهم أتم . قال القشيري : وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال الذين

انحطوا عن درجة الرضا ، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط ، ويعيشون في إفناء الرجال ، ويتعللون بحسن المواعيد ا . هـ .

ولما ذكر الأحكام والمواعظ والترغيب لمن أطاع حذر من خالف بقوله تعالى:

(245/770)

﴿ وكأين ﴾ هي كاف الجر دخلت على أيّ بمعنى : كم ﴿ من قرية ﴾ أي : وكثير من القرى . وقرأ ابن كثير بالألف بعد الكاف وبعد الألف همزة مكسورة وقفاً ووصلاً ، وقرأ الباقون في الوصل بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعد الهاء ياء تحتية مكسورة مشددة ، وعبر عن أهل القرية بها مبالغة فقال : ﴿ عتت ﴾ أي : استكبرت وجاوزت الحد في عصيانها وطغيانها فأعرضت عناداً ﴿ عن أمر ربها ﴾ أي : الذي أحسن إليها ولا يحسن إليها غيره ﴿ ورسله ﴾ فلم تقبل منهم ما جاؤوا به عن الله تعالى ، فإن طاعتهم من طاعته ﴿ فحاسبناها ﴾ أي : في الآخرة وإن لم تجيء لتحقق وقوعها ﴿ حساباً شديداً ﴾ أي : بالمناقشة والاستقصاء ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي : منكراً فظيعاً ، وهو عذاب النار ، وقيل : العذاب في الدنيا فيكون على حقيقته ، أي : جازيناها بالعذاب في الدنيا ، وعذبناها عذاباً نكراً في الآخرة ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : فعذبناها عذاباً

نكراً في الدنيا بالجوع والقحط ، والسيف ، والخسف والمسخ ، وسائر المصائب ، وحاسبناها حساباً شديداً في الآخرة . وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبه بضم الكاف ، والباقون بسكونها .

﴿ فذاقت ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنها ذاقت ﴿ وبال ﴾ أي : عقوبة ﴿ أمرها ﴾ أي : كفرها .

﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أي : في الدنيا بالأسر وضرب الجزية ، وغير ذلك ، وفي الآخرة بعذاب النار ، فإن من زرع الشوك كما قال القشيري لا يجني الورد ، ومن أضاع حق الله تعالى لا يطاع في حظ نفسه ، ومن احترف بمخالفة أمر الله تعالى فليصبر على عقوبته .

ثم استأنف الجواب عمن يقول هل لها غير هذا في غير هذه الدار بقوله تعالى:

(246/770)

﴿ أعد الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ لهم ﴾ بعد الموت وبعد البعث ﴿ عذاباً شديداً ﴾ وفي ذلك تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ يا أولي الألباب ﴾ أي : يا أصحاب العقول الصافية النافذة من الظواهر إلى البواطن ، وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ منصوب

بإضمار أعني بياناً للمنادى في قوله تعالى : ﴿ يا أولي الألباب ﴾ أو يكون عطف بيان للمنادى أو نعتاً له ، أي : خلصوا من دائرة الشرك وأوجدوا الإيمان حقيقة ﴿ قد أنزل الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ إليكم ذكراً ﴾ هو القرآن ، وفي نصب .

﴿ رسولاً ﴾ أوجه:

أحدها : قال الزجاج والفارسي : إنه منصوب بالمصدر المنون قبله ، لأنه ينحل لحرف مصدري وفعل ، كأنه قيل : أن ذكر رسولاً ، ويكون ذكره الرسول قوله : محمد رسول الله ، والمصدر المنون عامل كقوله تعالى ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ (البلد : ـ)

الثاني : جعل نفس الذكر مبالغة فأبدل منه ، ويكون محمولاً على المعنى كأنه قال : قد أظهر لكم ذكراً رسولاً ، فيكون من باب بدل الشيء من الشيء ، وهو هو .

الثالث : أنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره : أنزل ذا ذكر رسولاً .

الرابع : أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني أي : ذكراً ذكر رسول .

(247/770)

الخامس : أنه منصوب بفعل مقدر ، أي : وأرسل رسولاً ﴿ يتلو عليكم آيات الله ﴾ هي دلائل الملك الأعظم الظاهرة جداً حال كونها ﴿ مبينات ﴾ أي : لا لبس فيها بوجه .

واختلف الناس في رسولاً هل هو النبي صلى الله عليه وسلم أو جبريل ؟ الأكثر على الأول واقتصر عليه الجلال المحلي ، واقتصر الزمخشري على الثاني ، وهو قول الكلبي . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء بعد الموحدة ، والباقون بالفتح ﴿ ليخرج الذين أمنوا ﴾ أي : أقروا بالشهادتين ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لما قالوه بألسنتهم وتحقيقاً لأنه من قلوبهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح ، أو ليخرج من علم أو قدر أنه مؤمن ﴿ من الظلمات ﴾ أي : الضلالة ﴿ إلى النور ﴾ أي : الهدى .

﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي : يجدد في كل وقت على الدوام الإيمان بالملك الأعلى بأن لا يزال في ترق في معارج معارفه ﴿ ويعمل ﴾ على التجديد المستمر ﴿ صالحاً ﴾ لله وفي الله فله دوام النعماء ، وهو معنى إدخاله الجنة كما قال تعالى : ﴿ يدخله ﴾ أي : عاجلاً مجازاً بما يفتح الله له من لذات المعارف ويفتح له من الأنس ، وآجلاً حقيقة ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين هي في غاية ما يكون من جمع جميع الأشجار وحسن الدار وبين دوام ريها بقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تحت غرفها ﴿ الأنهار ﴾ فهي في غاية الري بحيث أن ساكنها يجري في أي موضع أراد نهراً .

وقرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون ، والباقون بالياء التحتيه . ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد معنى الخلود بقوله تعالى : ﴿ أبداً ﴾ ليفهم الدوام بلا انقضاء . وقوله تعالى : ﴿ قد أحسن

الله ﴾ أي : الملك الأعلى ذو الجلال والإكرام ﴿ له ﴾ أي : خاصة ﴿ رزقاً ﴾ أي : عظيماً عجيباً فيه تعجب وتعظم لما رزقوا من الثواب .

(248/770)

وقال القشيري : الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه ، كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها من غير نقصان ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها .

ثم بين كمال قدرته بقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة إحداها : ﴿ الذي خلق ﴾ أي : أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال الغريب البديع ﴿ سبع سموات ﴾ أي : وأنتم تشهدون عظمة ذلك ، وتشهدون أنه لا يقدر عليه إلا تام القدرة والعلم الكامل ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي : سبعاً أما كون السموات سبعاً بعضها فوق بعض فلا خلاف فيه لحديث الإسراء وغيره .

(249/770)

وأما الأرضون فقال الجمهور : إنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله . وقال الضحاك : إنها سبع أرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات . قال القرطبي : والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه كما روى البخاري وغيره روى أبو مروان عن أبيه أن كعباً حلف له بالله الذي فلق البحر لموسى أن صهيباً حدثه "أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر من فيها" وروى مسلم عن سعيد بن زيد قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من ظلم قيد شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين" قال البقاعي : رأيت في التعدد حقيقة حديثاً صريحاً لكن لا أدري حاله ، ذكره ابن برجان في اسمه تعالى الملك من شرحه الأسماء الحسنى ، قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون ما تحت هذه الأرض ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هواء أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أرض ، أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم حتى عد سبع أرضين" ثم رأيته في الترمذي عن أبي رزين العقيلي ولفظه : "هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنها الأرض ، ثم قال : أتدرون ما تحت ذلك ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن تحتها أرضاً أخرى خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة" ثم رأيت في الفردوس عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام وعرض كل سماء وثخانة كل سماء خمسمائة عام وما بين السماء السابعة وبين الكرسي والعرش مثل ذلك وما بين السماء إلى الأرض مسيرة

(250/770)

خمسمائة عام ،

والأرضون وعرضهن وثخانتهن مثل ذلك" ا . هـ .

قال الماوردي : وعلى أنها سبع أرضين تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا ، ولا تلزم من في غيرها من الأرضين ، وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان : أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ، ويستمدون الضياء منها ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة . الثاني : أنهم لا يشاهدون السماء ، وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض كروية . وحكى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس

رضي الله عنهما أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظل جميعهم السماء ، فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى اختصت دعوة الإسلام بهذه الأرض ، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام لإمكان الوصول إليهم ، لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه ، واحتمل أن لا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ولكان النبي صلى الله عليه وسلم بها مأموراً .

(251/770)

وقال بعض العلماء : السماء في اللغة عبارة عما علاك ، فالأولى بالنسبة إلى السماء الثانية أرض ، وكذلك السماء الثانية بالنسبة إلى الثالثة أرض ، وكذا البقية بالنسبة إلى ما تحته سماء ، وبالنسبة إلى ما فوقه أرض . فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الأرض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين ﴿ يتنزل ﴾ أي : بالتدريج ﴿ الأمر ﴾ قال مقاتل وغيره : أي : الوحي ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ بينهن ﴾ إشارة إلى ما بين هذه الأرض العليا التي هي أولاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، والأكثرون على أن الأمر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى ﴿ بينهن ﴾ إشارة إلى ما بين

الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، فيجري أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن .

وعن قتادة : في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه . وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرض من خلق ؟ قال : نعم قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جن . وقال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، وقال الحسن : بين كل سماءين أرض وأمر ، وقيل : يتنزل الأمر بينهن بحياة بعض ، وموت بعض ، وغنى قوم ، وفقر قوم . وقيل : ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ، ويأتي الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيآتها ، فينقلهم من حال إلى حال .

(252/770)

قال ابن كيسان : وهذا على اتساع اللغة كما يقال للموت : أمر الله ، وللريح والسحاب ونحوها . وقوله تعالى : ﴿ لتعلموا ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : أعلمكم بذلك الخلق والإنزال لتعلموا ﴿ أن الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الإحاطة كلها ﴿ على كل شيء ﴾ أي :

من غير هذا العالم يمكن أن يدخل تحت المشيئة ﴿ قدير ﴾ بالغ القدرة فيأتي بعالم آخر مثل هذا العالم وأبدع منه وأبدع من ذلك إلى ما لا نهاية له بالاستدلال بهذا العالم ، فإن من قدر على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها إلى ما لا نهاية له ، لأنه لا فرق في ذلك بين قليل وكثير ، وجليل وحقير ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ (الملك :)

قال البقاعي : وإياك أن تصغي إلى من قال : إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان فإنه مذهب فلسفي خبيث ، والآية نص في إبطاله ، وإن نسبه بعض الملحدين إلى الغزالي ، فإني لا أشك أنه مدسوس عليه ، وإن مذهبه فلسفي خبيث بشهادة الغزالي كما بينت ذلك في كتابي "دلائل البرهان" على أن في الإمكان أبدع مما كان قال : ومع كونه مذهب الفلاسفة أخذه أكفر المارقين ابن عربي وأودعه في فصوصه ، وغير ذلك من كتبه ، وأسند في بعضها للغزالي والغزالي بريء منه بشهادة ما وجد من عقائده في الإحياء وغيره انتهى . والبقاعي ممن يقول بكفر ابن عربي ، وابن المقري يقول بكفره وكفر طائفته ، وقد تقدم الكلام على كلامهم ﴿ وأن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال .

﴿ قد أحاط ﴾ لتمام قدرته ﴿ بكل شيء ﴾ مطلقاً ﴿ علماً ﴾ فله الخبرة التامة بما يأمر به من الأحكام في العالم بمصالحة ومفاسده ، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته فعاملوه معاملة من يعلم أنه رقيب عليه تسلموا في الدنيا وتسعدوا في الآخرة .

(253/770)

تنبيه : علماً منصوب على المصدر المؤكد ، لأن أحاط بمعنى علم ، وقيل : بمعنى والله أحاط إحاطة علماً . وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير حـ 7 صـ 466.487﴾

(254/770)

وقال القاسمي :

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

أي : في وقتها ، وهو الطُّهر . فاللام للتأقيت .

قال الناصر : جعلت العدة ، وإن كان في الأصل مصدراً ظرفاً للطلاق المأمور به . وكثيراً

ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فللطهر عدة إذاً .

قال ابن جرير : أي : إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذي يحصينه من عدتهن طاهراً من غير جماع . ولا تطلقوهن بحيضهن الذي لا يعتددن به من قُرئهن .

ثم روي عن قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى : طلاق سنّة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السّنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعي هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنّة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ، وسيأتي في التنبيهات زيادة على هذا .

﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أي : اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي : اتقوه في تعدي حدوده في المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكراهة لمساكنتهن ؛ لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضي عدتهن .

﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ توطئة لقوله : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ حتى كأنه نهي عن الإخراج مرتين : مندرجاً في العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

(255/770)

﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أي : فإنهن يخرجن . والفاحشة الزنا ، أو أن تبذو المطلقة على أهلها ، أو هي كل أمر قبيح تُعدّي فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقة والبذاء على الأحماء ونحوها ، والأخير مختار ابن جرير ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي : بتعريضها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضرّ بها بما اكتسبت من قوة النفار ، وشدة البغضة التي قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأولى تخفيف الشنآن ، وتلافي الهجران ، وهو الأظهر ؛ ولذا قال سبحانه :

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود : وقد قالوا : إن الأمر الذي يحدثه الله تعالى ، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه ، فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ،

ولا يمكن تداركه ، أو عن مطلق الضرر الشامل الدنيوي والأخروي . ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى :

﴿ لَا تَدْرِي ﴾ خطاب للمتعدي بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي ، لا للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما توهم فالمعنى : ومن يتعد حدود الله فقد أضرّ بنفسه ، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي ، أمراً يقتضي خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ويتسنى تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

تنبيهات :

الأول : قال في " الإكليل " : فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ < بأن تطلق في طهر لم يجامع فيه > أخرجه البخاري ومسلم ، وفي لفظ مسلم أنه قرأ : < فطلقوهن في قبل عدتهن > فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ما ذكر ، وأن الطلاق في الحيض أو طهر جومعت فيه بدعي حرام . واستدل قوم بالآية على

عدم وقوعه في الحيض .

الثاني : في " الإكليل " : في قوله تعالى :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ وجوب السكنى لها ما دامت في العدة ، وتحريم إخراجها أو خروجها ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ كسوء الخلق ، والبذاءة على أحمائها . فتنتقل .

الثالث : في " الإكليل " : استدل بقوله تعالى :

﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ من لم يوجب السكنى بغير الرجعة . أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن وعكرمة قال : المطلقة ثلاثاً ، والمتوفى عنها لا سكنى لها ولا نفقة ، لقوله : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ فما يحدث بعد الثلاث .

الرابع : كما قال بعض الحكماء : إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق في الإمكان إصلاح ، وصمم الزوج عليه ؛ لأن وجود شخصين متنافري الطباع متباغضين ، لا ينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ في نفسه بالنفور ، وفي قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما في أذى صاحبه شرٌّ وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بمفارقة طاعة الله بالنكاح الذي هو واجب أو مستحب ، وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفاسد الطلاق ، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طلقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها ، فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها ، فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها ، وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فنكحت من شاءت .

وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن في إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضي بالفسخ والافتداء ، فإذا طلقها مرة بعد مرة بقي له طلقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبه يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

ومباحث الطلاق وفروعه تجدر مراجعتها من " إغاثة اللهفان " و " زاد المعاد " لابن القيم ،

و " فتاوي ابن تيمية " شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه وجاهدا في الصدع به ، فإنه علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس : استدل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق في دفعة واحدة غير مشروع . قال الإمام ابن القيم في " إغاثة اللهفان " : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

(258/770)

أحدها : أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أي : لاستقبال عدتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعها في العدة ، ولهذا < أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، لما طلق امرأته > ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر أنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ؛ لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها ، وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون : المراد

بالطلاق للعدة الطلاق لاستقبالها ، كما في القراءة الأخرى التي تفسر القراءة المشهورة : ﴿ فطلقوهن في قبل عدتهن ﴾ قالوا : فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فأن لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى . فإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف في الأطهار من لا يجوّز الجمع في الطهر الواحد .

وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادّها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ ، فما أجد لك مخرجا ، عصيتَ ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ في قبل عدتهن . وهذا حديث صحيح ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم ، وهذا فهم من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يفقّهه في الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهوم كما تقرر .

الوجه الثاني : من الاستدلال بالآية قوله تعالى :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ وهذا هو إنما في الطلاق الرجعيّ ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة التي لا يطعن في صحتها ، الصريحة التي لا شبهة في دلالتها ، فدل على أن هذا حكم كل طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله ؛ ولهذا قال الجمهور : إنه لا يشرع له ، ولا يملك إبانتها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ؛ لأن الرجعة حقه ، وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له ، فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث : أنه قال :

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال :

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ وقد فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر هنا هو الرجعة . قالوا : وأي أمر يحدث بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ في قبل عدتهن كما تقدم ، وهذا حق ؛ فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق في طهر أو أطهار ، قبل رجعة أو عقد – كما تقدم – لأنه يكون مطلقاً في غير قبل العدة – فلأن تدل على تحريم الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة ، لئلا يتسارع العبد في وقوعه ومفارقة حبيبه ، وقد وقَّت للعدة أجلاً لاستدراك ألفاظه بالرجعة ، فلم يبح له أن يطلق المرأة في حال حيضها ، لأنه وقت نفرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهد في إمساكها لقضاء وطره ، فإذا طلقها في هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا ، مع ما في الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولد منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها في هذه الحالة إلا لحاجة إليه ؛ فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا في هذه الحال ، أو في حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها في هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن

يطلق في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلق فيه ، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، إن بدا له أن يطلقها فيطلقها . وفي ذلك عدة حكم :

منها : أن الطهر المتصل بالحيضة ، هو وهي حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها في ذلك الطهر ، فكأنه طلقها في الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشيء الواحد .

(261/770)

الثانية : أنه لو أذن له في طلاقها في ذلك الطهر ، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق ، وهذا ضد مقصود الرجعة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمنفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجعة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة ، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى في شرعه ودينه .

الثالثة : إنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، زال ما في نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق ، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هذا الوجه الذي هو أبعد شيء عن الندم

، فكيف يليق بشرعه أن يشرع إباناتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع في حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟ فهذه الوجوه ونحوها مما بيّن بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هي بعينها تعيّن عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهي الواحدة .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ ﴾ أي : المطلقات اللواتي في عدة ﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ يعني آخر العدة . أي : إذا قرب انقضاؤه وشارفنه ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي : فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق التي أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي : اتركوهن حتى تنقضي عددهن فيبنَّ منكم بمعروف ، وهو إيفاؤهن ما لهن من حق ، كالصداق والمتعة ، على ما أوجب عليه لهن .

﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي : أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضي دينهما وأمانتهما .

(262/770)

قال ابن عباس : فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين ، وإن لم يراجعها ، فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة ، وهي أملك بنفسها ، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ، ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر في الآية الوجوب فيهما ، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر في الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً ، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره ، فبقي كسابقه ولاحقه ، وإن كان القرآن لا يفيد المشاركة في الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر كله مما لا يعدّ طلاقاً في الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لا بد أن ينوي فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتهيأ له ، وجدير بعصمة ينوي حلها ، وكانت معقودة أوثق عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم ؛ فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزمخشري : قيل : فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث .

﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أي : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ، ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ، ودفع الظلم ، كقوله تعالى : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء : 135] . انتهى .

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما في الآية .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [3]

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ قال الزمخشري : يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم . ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلّق للسنة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجا مما في شأن الأزواج من الغموم ، والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص ، ويرزقه من وجه لا يخطره بباله ولا يحسبه ، إن أوفى المهر وأدّى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله ، ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ يعني : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن الفرس : قال أكثر المفسرين : معنى الآية في الطلاق أي : من لا يتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم في الرجعة . قال : وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت ، نقله في " الإكليل " .

(264/770)

وقال ابن القيم في "الإغاثة" : اعلم أنه من اتقى الله في طلاقه ، فطلّق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه من الحيل كلها ؛ ولهذا قال تعالى بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ ، فلو اتقى الله عامةُ المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذي شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها ، فإن بدا له أن يمسكها في العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل ؛ ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجا .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني طلّقت امرأتي ألفاً . فقال : أما

ثلاث ، فتحرم عليك امرأتك ، وبقيّتهن وزر ، اتخذت آيات الله هزؤاً .

قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! وإن الله تعالى قال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك ، ذكره أبو داود . والبحث طويل الذيل لا يستغنى عن مراجعته .

(265/770)

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي : من يتوكل على ما شرعه ، ويفوّض أمره إلى ما جعله المخرج ، لأنه لا دواء أنجع منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ قرئ بالإضافة ، أي : يبلغ ما أراد من أمره ، فمن تيقن فوض أمره إليه ، وعول عليه . وقرئ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغ أَمْرِهِ ﴾ أي : تام وكامل أمره وحكمه وشرعه ، لما فيه من الحكم والرحمة ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ أي : حدّاً وتقديراً ، حسبما تقتضيه الحكمة . ومنه تقديره ما قدر في أمر الطلاق ، مما بينه في شأنه وتوقيته ، معرفة المخرج منه .

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾

أي : أشكل عليكم حكمهن ، أو شككتم في الدم الذي يظهر منهن لكبرهن ، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة ؟ ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي : من الجواري لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول ، فعدتهن ثلاثة أشهر . فحذف لدلالة المذكور عليه ﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ في انقضاء عددهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أي : ما في بطنهن . والآية عامة في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن علي وابن عباس رضي الله عنهما أن الآية خاصة في المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدتها آخر الأجلين .

قال ابن جرير : والصواب أنه عام في جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عَمَّ القول بذلك ، ولم يخصص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر في أحكام المطلقات . يجاب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عدد جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفي الصحيحين عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، < فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم > وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ أي : فلم يخالف إذنه في طلاق امرأته ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ وهو تسهيل الرجعة ما دامت في عدتها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته إليها بسبب التقوى .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : لتأتمروا له وتعملوا به ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ أي : بالمضاعفة .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾

أي : من سعتكم التي تجدون, وطاقتكم ومقدرتكم ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ أي : لا تستعملوا معهن الضرار ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ أي : في المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو بشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء .

تنبيه :

قال في "الإكليل" : الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن ، وللبوائن ، لتقدم سكنى الرجعيات ، ولقوله بعده : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ فإنه خاص بالبوائن . وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج ، وتحريم المضارة بها ، وإلجائها إلى الخروج .

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال ابن جرير : أي : وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل وكن بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن في عدتهن منكم حتى يضعن حملهن .

فعن ابن عباس في الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبتّ طلاقها وهي حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تفطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بها حبل ، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ، ولا نفقه . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها ، كما قال الله عز وجل :

﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ [البقرة : 233] . فإن لم تكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون عنى بقوله : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك ، وممن قال ذلك عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

فعن إبراهيم قال : كان عمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتعة .

وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم < مرها أن تعتد في غير بيت زوجها > . قال : ما كنا لنجيز في ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوته إلا أن تكون حاملاً ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله :

﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن ، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء . وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن ، إلا أن تكون حاملاً ، وبالذي قلنا صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(268/770)

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثتني فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس : أن أبا عمرو المخزومي طلقها ثلاثاً ، فأمر لها بنفقة فاستقلتها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن . فانطلق خالد بن الوليد في نفر ، من بني مخزوم إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو عند ميمونة ، فقال : يا رسول الله ! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثا ، فهل لها من نفقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ليس لها نفقة > فأرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن انتقلي إلى بيت أم شريك ، وأرسل إليها أن لا تسبقيني بنفسك . ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون ، فانتقلي إلى ابن مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك . فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد . انتهى .

وقال الناصر في < الانتصاف > : لا يخفى على المتأمل لهذه الآي أن المبتوتة غير الحامل ، لا نفقة لها ، لأن الآي سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ، ولم يوجب سواها . ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن ، وليس بعد هذا البيان بيان . والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة ، حاملاً أو غير حامل ، لا يخفى منافرته لنظم الآية .

والزمخشري نصر مذهب أبي حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر أن الحمل ربما طال أمده ، فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله فخصت بالذكر تنبيهاً على قطع هذا الوهم . وغرض الزمخشري بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة كيلا يكون له مفهوم في إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوي بين الجميع في وجوب النفقة . انتهى .

وفي "الإكليل" : في الآية وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضي عدتها . ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها . واستدل بعموم الآية من أوجبها للحامل المتوفى عنها . انتهى .

(269/770)

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ يعني : نساءكم البوائن منكم ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي : على رضاعهن ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي : ليقبل بعضكم من بعض ما أمر به من معروف ، يعني : المجاملة والمسامحة في الإرضاع والأجر . والخطاب للآباء والأمهات .

تنبيه :

في "الإكليل" : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلكيا : وفيه دلالة على أن الأجرة إما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .

وفي قوله :

﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ طلب أن لا يماكس الأب ، ولا تعاسر الأم ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليهن . قال [ـه] الزمخشري .

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي : ضيق بعضكم على الآخر بالمشاحّة في الأجرة ، أو طلب

الزيادة ونحوه ، ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ قال ابن جرير : أي : فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه .

وقال الزمخشريّ : أي : فستوجد ، ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمولّ ولا مضنون به في العرف ، وخصوصاً في الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . انتهى .

(270/770)

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضاً ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاسرته لا تجدي ، إذ لا بد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان في حكم المعاتب المذكور في الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاسرة فعل الأب والأم ، فكيف يخص الأم بالذكر في الجزاء . وحاصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

تنبيه :

في "الإكليل" : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها ، وقبل الصبي ثديها ، وإلا أجبرت عليه .

قال ابن العربيّ : والآية أصل في وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أي : من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي : ضيق عليه ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ أي : على قدر ماله وطاقته ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ يعني : وسعها وطاقتها ، فلا يكلف الفقير نفقة الغنيّ ، ولا أحداً إلا فرضه الذي وجب عليه ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ أي : سيؤتي المقلّ بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلية للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبير لمطلقاتهم ، وتطيب لقلوب الجميع ، وتبشّر عام .

تنبيه :

في "الإكليل" : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر ، لا حال المنفق عليه ، واستدل بقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ من قال : لا فسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة . وفي الآية استحباب مراعاة

الْإِنْسَانْ نفسه في النفقة والصدقة . ففي الحديث : < ن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر >

(271/770)

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب سأل عن أبي عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تأول هذه الآية ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾

ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي : أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ، ﴿ وَرُسُلِهِ ﴾ أي : وعن أمر رسله كذلك ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً ﴾ أي : على ما قدمت ، فلم نغادر لها منه شيئاً ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ﴾ أي : منكراً .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي : عاقبة ما اكتسبت وجزاءه ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً

﴿ قال ابن جرير : أي : غبناً ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يعني عذاب النار المعدّ في القيامة ﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ أي : خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه . واجتناب معاصيه ﴿ يَا أُوْلِيْ الأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : صدقوا الله ورسله . نعت للمنادى ، أو عطف بيان له ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾

﴿ رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ [11]

(272/770)

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجعله نفس الذكر مبالغة ، لذلك أبدل منه ﴿ يتلوا عليكم ايات الله مبينات ﴾ أي : لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله ﴿ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي : من الضلال إلى الهدى ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ

أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ أي : طيبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

أي : المعبود المستحق للعبادة ، من هذا خلقه ، لا ما يشرك معه . وهاهنا لطائف :

الأولى : قال الزمخشريّ : قيل ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسماوات ، فهو أمر نجهله ولا نفهمه إلا إذا أريد به أن للأرض سبع طبقات ، قال : والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، وهو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد في القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً – أي : أرضين – ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السماوات سبع ، مراراً عديدة وفي كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وهي الآية الوحيدة التي فهموا منها أن الأرضين سبع . وهي كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .

قال : ولنا في تفسيرها وجهان :

أما أن تكون ﴿ مَنِ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ ﴾ زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة

.

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذي خلق سبع سماوات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أي : أنها إحدى السيارات ، وهو أمر ما كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن . والأرض مثل السيارات الأخرى في المادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل ، فالسيارات أو السماوات هي متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] . أي : شيئاً واحداً ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي : فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السماوات تماماً .

وأما على الوجه الثاني : وهو أن ﴿ مَنِ ﴾ غير زائدة ، فتقدير الآية هكذا : الله الذي خلق سبع سماوات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لي سبعة أصدقاء ، ولي من فلان صديق مثلهم . أي : مثلهم في الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن في مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس في القرآن

الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى .

الثانية : ذكر ابن الأثير في "المثل السائر "في النوع السادس ، في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها في الحسن فيه ، ما مثاله :

وفي صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل :

﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ انتهى .

الثالثة : قرئ ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ بالنصب ، عطفاً على ﴿ سَبْعَ ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره ﴿ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾

﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي : يجري أمر الله وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن . وقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ علة لـ ﴿ خَلَقَ ﴾ ولـ ﴿ يَتَنَزَّلُ ﴾ أو لمضمر يعمهما ، كفعل ما فعل لتعلموا . . . إلخ ، فإن كلاً منها

يدل على كمال قدرته وعلمه .

قال ابن جرير : أي : فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته ، فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم فلا يخفى عليه منها خاف . وهو محصيها عليكم ليجازيكم به ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 150. 167 ﴾

(275/770)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الطلاق

الدرس الأول: 1 قضاء المطلقة عدتها في بيتها

(يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن , وأحصوا العدة , واتقوا الله ربكم , لا تخرجوهن من بيوتهن , ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله , ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) . .

هذه هي أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) (يا أيها النبي) . . ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه (صلى الله عليه وسلم

) : إذا طلقتم النساء . . . الخ فيوحي هذا النسق من التعبير بما وراءه , وهو إثارة الإهتمام , وتصوير الجدية . فهو أمر ذو بال , ينادي الله نبيه بشخصه ليلقي إليه فيه بأمره , كما يبلغه لمن وراءه . وهي إيحاءات نفسية واضحة الدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد .

(إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . .

وقد ورد في تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخاري ولفظه: حدثنا يحيى بن بكير , حدثنا الليث , حدثني عقيل , عن ابن شهاب , أخبرني سالم , أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض , فذكر عمر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتغيظ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال: " ليراجعها , ثم يمسكها حتى تطهر , ثم تحيض فتطهر , فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها , فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل " . .

ورواه مسلم ولفظه: " فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء " . .

ومن ثم يتعين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق ; وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته في حالة طهر من حيض , ولم يقع بينهما في هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق , وهو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل . والحكمة في ذلك التوقيت هي أولا إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي تتجه فيها النفس للطلاق ; وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملا . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل , واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر . وهذه أول محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة , ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء . وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا في هذه الفترة . فهو يقع حيثما طلق . ولكنه يكون مكروها من الله , مغضوبا عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفي في ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتي الأجل . فيقضي الله ما يريد في هذه المسألة .

(وأحصوا العدة) . .

كي لا يكون في عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة , ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص في مدتها لا يتحقق به الغرض الأول , وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظا للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذي يوحي بأهمية الأمر ,

ومراقبة السماء له , ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

(واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن , ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) .

(277/770)

هذا أول تنبيه – بعد وهلة النداء الأول – وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر بعدم إخراجهن من بيوتهن – وهي بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن في الإقامة بها فترة العدة – لا يخرجن منها ولا يخرجن , إلا في حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد :وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هي النشوز على الزوج – ولو أنه مطلق – وعمل ما يؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة , واستثارة عواطف المودة , وذكريا تا لحياة المشتركة , حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ; فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الإثنين ! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا وهي في بيته ! أو تؤذي أهله , أو تنشز عليه , فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة , واستجاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها !

(تلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) . .

وهذا هو التحذير الثاني . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأي مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ ! إنه الهلاك والبوار . . (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) . . ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهي وهو من نفس واحدة , فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . ثم . . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) .

وهي لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة , وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن . . إنه يلوح هناك أمل , ويوصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة , دائم التغيير , ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى , والرعاية له أوفق , وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

(278/770)

الدرس الثاني: 2 – 3 ماذا بعد انتهاء العدة وفتح باب الأمل

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة , وما فيها من أوضاع وملابسات , وقد

تغلق عليها منافذ المستقبل , فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة , وتشعر أنها سرمد , وأنها باقية , وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها . . وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان .

وليست هذه هي الحقيقة . فقدر الله دائما يعمل , ودائما يغير , ودائما يبدل , ودائما ينشئ ما لا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع . فرج بعد ضيق . وعسر بعد يسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو في شأن , يبديه للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر , ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجددا ودائما . ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل , ندية بالرجاء , لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ما ليس في الحسبان . . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) . .

(فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف , وأشهدوا ذوي عدل منكم , وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا) . .

وهذه هي المرحلة الثانية وهذا هو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة . وللزوج ما

دامت المطلقة لم تخرج من العدة – على آجالها المختلفة التي سبق بيانها – أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها – وهذا هو إمساكها – أو أن يدع العدة تمضي فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة . وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيهما . منهي عن المضارة بالرجعة , كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها

(279/770)

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)

الثانية ثم الثالثة ليطيل مدة بقائها بلا زواج ! أو أن يراجعها ليبقيها كالمعلقة , ويكايدها لتفتدي منه نفسها – وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة , وهو ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهي الضمان الأول لأحكامه في المعاشرة والفراق . كذلك هو منهي عن المضارة في الفراق بالسب والشتم والغلظة في القول والغضب , فهذه

الصلة تقوم بالمعروف وتنتهي بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ; فقد تعود إلى العشرة , فلا تنطوي على ذكرى رديئة , لكلمة نابية , أو غمزة شائكة , أو شائبة تعكر صفائها عندما تعود . ثم هو الأدب الإسلامي المحض الذي يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب .

وفي حالتي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعا للريبة . فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة , فتثور شكوك وتقال أقاويل . والإسلام يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لا بد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين .

وعقب بيان الحكم تجيء اللمسات والتوجيهات تترى:

(وأقيموا الشهادة لله) . .

(280/770)

فالقضية قضية الله , والشهادة فيها لله , هو يأمر بها , وهو يراقب استقامتها , وهو يجزي عليها . والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !

(ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) .

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم: إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم , وهذا هو مقياس دعواهم في الإيمان !

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) . .

مخرجا من الضيق في الدنيا والآخرة , ورزقا من حيث لا يقدر ولا ينتظر . وهو تقرير عام , وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير , فالتلاعب فيه مجاله واسع , لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه , إن الله بالغ أمره) . .

فمجال الكيد في هذه العلاقة واسع , ومسالكه كثيرة , وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة , والتوكل على الله , وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع , وما شاء كان ; فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر , وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ ما يشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب , بالنسبة لإرادة الله وقدره . . ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيحاؤه في هذا المجال وأثره .

(قد جعل الله لكل شيء قدرا) . .

فكل شيء مقدر بمقداره , وبزمانه , وبمكانه , وبملابساته , وبنتائجه وأسبابه . وليس شيء مصادفة , وليس شيء جزافا . في هذا الكون كله , وفي نفس الإنسان وحياته . . وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب

(281/770)

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)

كبير من التصور الإيماني . [وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) في سورة الفرقان . وعند قوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . في سورة القمر] . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفترته , والعدة ووقتها , والشهادة وإقامتها . ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة , والناموس الكلي العام . ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله .

الدرس الثالث: 4 – 5 عدة أنواع من المطلقات وتوجيه إليهن بتقوى الله

(واللائي يئسن من المحيض من نسائكم – إن ارتبتم – فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم , ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) .

(282/770)

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتي انقطع حيضهن , واللاتي لم يحضن بعد لصغر أو لعلة . ذلك أن المدة التي بينت من قبل في سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض – وهي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهي في المسألة – فأما التي انقطع حيضها والتي لم تحض أصلا فكان حكمها موضع لبس: كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفي اللبس والشك , وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء , لاشتراكهن في عدم الحيض الذي تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هي الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة , فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع , فلا حكمة في انتظارها بعد ذلك , وهي غير قابلة

للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شيء قدرا . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .

هذا هو الحكم ثم تجيء اللمسات والتعقيبات:

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) . .

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره . وينالها بيسر في حركته وعمله . ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا في يسر رخي ندي , حتى يلقى الله . . ألا إنه لإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة !

(ذلك أمر الله أنزله إليكم) . .

وهذه لمسة أخرى في جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر . . فقد أنزله الله . أنزله للمؤمنين به , فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان , ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التي يدق عليها دقا متواصلا في هذا المجال:

(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) . .

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير . . فهو الفيض المغري والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله , ويغمر القلب بالشعور بالله

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

وفضله العميم . فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟

الدرس الرابع: 6 – 7 ما يترتب على الطلاق من نفقة وسكن ورضاع

(أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم , ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن , وأتمروا بينكم بمعروف , وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته , ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله , لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها , سيجعل الله بعد عسر يسرا) . .

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت , والإنفاق في فترة العدة – على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لا أقل مما هم عليه في سكناهم , وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة – مع وجوب النفقة لكل معتدة – لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته , أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع , وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلا مقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما , فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير , وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة . وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد , ويتشاورا في أمره ورائدهما مصلحته , وهو أمانة بينهما , فلا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير البريء فيهما ! وهذه هي المياسرة التي يدعوهما الله إليها . فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة

وأجرها , فالطفل مكفول الحقوق: (فسترضع له أخرى) . . دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل في الرضاعة , بسبب تعاسرهما بعد فشلهما !

ثم يفصل الأمر في قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجور هو , ولا تتعنت هي . فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء في السكن أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة . ومن ضيق عليه في الرزق , فليس عليه من حرج , فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا في حدود ما آتاه . فهو المعطي , ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر , وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة: (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) . .

(285/770)

ثم لمسة الإرضاء , وإفساح الرجاء , للاثنين على السواء:

(سيجعل الله بعد عسر يسرا) . .

فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق , واليسر بعد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله , وأن يتجها إليه بالأمر كله , وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانح المانع . القابض الباسط . وبيده الضيق والفرج , والعسر واليسر , والشدة والرخاء .

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته , وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ; ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غبارا يملأ النفوس ويغشى القلوب , ولم يترك بعده عقابيل غير

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً (8)

مستريحة بعلاج , ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوساوس والهواجس التي تثور في القلوب , فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار , أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى , والضيق بعد الفرج , والرزق من حيث لا يحتسب , وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار في الشعور والضمير . . فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل , ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ; ومن ينابيع المودة والمعروف التي فجرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل , وهذه اللمسات المؤثرة العميقة , وهذا التوكيد الوثيق المتكرر . . هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايدة صاحبه حتى تنفقئ مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون ! ! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة: ولا تضاروهن يشمل النهي عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية , وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر , المحيط بكل شيء علما . وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة . وبخاصة في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى , لأنها عامل مهم في تيسير الموقف , وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق . .

وإن الزوجين ليفارقان – في ظل تلك الأحكام والتوجيهات – وفي قلوبهما بذور للود لم تمت , ونداوة قد تحيي هذه البذور فتنبت . . ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة , ويشيع فيها أرجه وشذاه .

الدرس الخامس: 8 - 11 عاقبة المتمردين على أحكام الله وثواب المطيعين لله

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله , فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس , تذكرهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع:

(287/770)

وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله , فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها , وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا , قد أنزل الله إليكم ذكرا: رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . قد أحسن الله له رزقا .

.

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد . كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور , ووعده بالأجر في الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا) . وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ,

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10)

ثم تصوير العاقبة وسوء المصير: (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا) . . ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة في الآية التالية: (أعد الله لهم عذابا شديدا) . . كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهي طريقة من طرق الأسلوب القرآني في تعميق الأثر في الحس وإطالة مكثه في الأعصاب .

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمر ربها ورسله . . ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه , فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحي هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهي المسؤولة عن هذا الأمر . وهي المسؤولة

فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه – أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام , أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة – هي عتو عن أمر الله , لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه , إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة , والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع , ولينفذ كله , وليهيمن على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه – ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية – فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبدا .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . . ذاقته في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عتت عن منهج الله في الأرض . ونحن نشهد وأسلافنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فسادا وانحلالا , وفقرا وقحطا , وظلما وجورا , وحياة مفزعة لا أمن فيها ولا سلام , ولا طمأنينة فيها ولا استقرار . وفي كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذي ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه في الحياة حيث يقول الله: (أعد الله لهم عذابا شديدا) . . والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعي – كما أسلفنا الحديث في سورة الصف – جاء لينشىء جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم

فالجماعة كلها مسؤولة عنه , مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذي حق على القرى التي عتت عن أمر ربها ورسله .

(289/770)

وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر : (قد أنزل الله إليكم ذكرا) . . ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيجعل شخصه الكريم هو الذكر , أو بدلا منه في العبارة: (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) . .

وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل منوعة . .

إن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته , لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته .

والوجه الثاني لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استحالت ذكرا , فهي صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهكذا وصفته عائشة – رضي الله عنها – وهي تقول: "كان خلقه القرآن" . . وهكذا كان القرآن في

خاطره في مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

(290/770)

وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح , وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا .

وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق , فلا يقاس إليه رزق الأرض: (قد أحسن الله له رزقا) . . وهو الرازق في الدنيا والآخرة , ولكن رزقا خير من رزق , واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم .

وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى , ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض , إلى جانب رزق الجنة . بعدما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضا . .

الدرس السادس: 12 الله الخالق للسماوات والأرض العالم بما فيها

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع الكوني الهائل , فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها

بقدر الله وقدرة الله , وعلم الله , في المجال الكوني العريض:

(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن , يتنزل الأمر بينهن , لتعلموا أن الله على كل شيء قدير , وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) . .

والسماوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضي السبع . فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها . . وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا , لأن علمنا لا يحيط بالكون , حتى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا . . وهيهات . . !

فننتفع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة في مجالها النفسي , وفي إنشاء التصور الإيماني الكوني الصحيح .

والإشارة إلى هذا الكون الهائل: (سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) . . يهول الحس ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق , وسعة ملكه , تصغر أمامه هذه الأرض كلها , فضلا على بعض ما فيها , فضلا على حادث من أحداثها . فضلا على دريهمات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزل أمر الله – ومنه هذا الأمر الذي هم بصدده في هذا السياق . فهو أمر هائل إذن , حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطيقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين , ويتسامع به الملأ الأعلى وخلق الله الأخرون في السماوات والأرضين . فهي مخالفة بلقاء شنعاء , لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن , جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات , ويبين له هذا الأمر , ليخرجه من الظلمات إلى النور . .

وهذا الأمر يتنزل بين السماوات والأرض , لينشئ في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير ; فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علما ; فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض , ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين:

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علما هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ; وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علما .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر , فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمانلحساسية هذه الضمائر , في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم

بذات الصدور .

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع , بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع .

فسبحان خالق القلوب , العليم بما فيها من المنحنيات والدروب ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3598 . 3607 ﴾

(292/770)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ العدة واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ .

قيل في سبب نزولها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة رضي الله عنها فنزلت ، وقيل غير ذلك ، وعلى كل ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم .

ومما يشهد لهذه القاعدة مال وأخذنا بعين الاعتبار النسق الكريم بين السورتين ، حيث كان آخر ما قبلها موضوع الأولاد والزوجات من فتنة وعداء .

والإشارة إلى علاج ما بين الزوجين من إنفاق وتسامح على ما أشرنا إليه سابقاً هناك ، فإن صلح ما بينهم بذاك فبها ونعمت ، وإن تعذر ما بينهما وكانت الفرقة متحتمة فجاءت هذه

السورة على إثرها تبين طريقة الفرقة السليمة في الطلاق وتشريعه وما يتبعه من عدد وإنفاق ونحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي ﴾ بالنداء للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله ، ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ بخطاب لعموم الأمة . قالوا : كان النداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، والخطاب للأمة تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتكليفاً للأمة . وقيل : خوطبت الأمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كخطاب الجماعة في شخصية رئيسها .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : ولهذه الآية استدل من يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون داخلاً في عموم خطاب الأمة اه .

والواقع أن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم على ثلاث أقسام :

(293/770)

الأول : قد يتوجه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم ولا يكون داخلاً فيه قطعاً ، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى في بر الوالدين : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ

الرحمة وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 23 – 24] .

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قطعاص ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين ، ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم .

الثاني : أن يكون خاصاً به لا يدخل معه غيره قطعاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ [الأحزاب : 50] .

والثالث : هو الشامل له صلى الله عليه وسلم ولغيره بدليل هذه الآية ، وأول السورة التي بعدها في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم : 1] ، فهذا كله خطاب موجه له صلى الله عليه وسلم .

وجاء بعدها مباشرة ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ ﴾ [التحريم : 2] – بخطاب الجميع – ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم : 2] فدل أن الآية داخلة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ ، وهذا باتفاق .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، هذه المسألة بأقوى دليل فيها عند قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [الروم : 30] إلى قوله : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم : 31] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ الآية . يشعر بأن كل المطلقات من النساء يطلقن لعدتهن وتحصى عدتهن .

(294/770)

والإحصاء العدد مأخوذ من الحصا ، وهو الحصا الصغير كانت العرب تستعمله في العدد لأميتهم ، ثم ذكر بعض عدد لبعض المطلقات ولم يذكر جميعهن مع أنه من المطلقات من لا عدة لهن وهن غير المدخول بهن . ومن المطلقات من لم يذكر عدتهن هنا .

قال الزمخشري : إنه لا عموم ولا تخصيص ، لأن لفظ النساء اسم جنس يطلق على الكل وعلى البعض ، وقد أطلق هنا على البعض وهو المبين حكمهن بذكر عدتهن ، وهنا اللاتي يئسن والصغيرات وذوات الحمل ، وحاصل عدد النساء تتلخص في الآتي ، وهي أن الفرقة إما بحياة أو بموت ، والمفارقة إما حامل أو غير حامل ، فالحامل عدتها بوضع حملها اتفاقاً ، ولا عبرة بالخلاف في ذلك لصحة النصوص ، وغير الحامل بأربعة أشهر وعشر مدخول بها وغير مدخول . والمفارقة بالحياة إما مدخول بها أو غير مدخول بها ، فغير المدخول بها لا عدة عليها إجماعاً ، والمدخول بها إما من ذوات الإقراء فعدتها ثلاثة قروء على خلاف في المراد بالقرء .

وأما من ليست من ذوات الإقراء . كاليائسة والصغيرة ، فعدتها بالأشهر ثلاثة أشهر .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في الجزء الأول عند قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قرواء ﴾ [البقرة : 228] ، وفصّل أنواع المطلقات المدخول بهن وغير المدخول بهن وأنواع العدد بالإقراء أو الأشهر أو الحمل وبين الجمع بين العمومات الواردة في ذلك كله مما يغني عن الإعادة هنا .

تنبيه

كل ما تقدم في شأن العدة ، إنما هو في خصوص الحرائر ، وبقي مبحث الإماء .

أما الإماء : فالحوامل منهن كالحرائر سواء بسواء ، وغير الحوامل فالجمهور على أنها على النصف من الحرة إلا أن الحيضة لما لم تكن تتجزأ فجعلت عدتها فيها حيضتين . وهذا باتفاق الأئمة الأربعة .

(295/770)

أما ذات الأشهر ، فالجمهور على أنها تعتد شهراً ونصفاً ، وخالف مالك فجعل لها ثلاثة أشهر ، فيكون مالك رحمة لالله وافق الجمهور في ذوات الحيض ، وخالف الجمهور في ذوات الأشهر ، وقد أخطأ ابن رشد مع مالك في نقاشه معه هذه المسألة ، فقال في بداية المجتهد :

وقد اضطرب قول مالك في هذه المسألة ، فلا بالنص أخذ ولا بالقياس عمل ، يعني أنه لم يأخذ بالنص في ذوات الحيض فيجعل لهن ثلاثة قروء ، كما أخذ به في ذوات الأشهر ، حيث جعل لهن ثلاثة أشهر بالنص ولا بالقياس عمل ، أي فلم ينصف الأشهر قياساً على الحيض ، فكان مذهبه ملفقاً بين القياس في ذوات الحيض ، والنص في ذوات الأشهر ، فخالف في ذلك الأئمة الثلاثة .

واضطرب قوله في نظر ابن رشد ، لأنه لم يطرد القياس فيهما ، ولا أعمل النص فيهما ، ولكن الحق في المسائل الخلافية لا يمكن أن يعرف إلا بعد معرفة وجهة النظر عن المخالف ، فقد يكون محقاً ، وقد يكون فعلاً الحق مع غيره .

وفي هذه المسألة بالذات أشار العدوي في حاشيته : بأن وجهة نظر مالك هي الرجوع إلى أصل الغرض من العدة وهو براءة الرحم . والشهر والنصف لا يكفي للمرأة نفسها أن تخبر عن نفسها عما إذا كانت حاملاً أم لا ، فأكمل لها المدة المنصوص عليها .

أما الحيضتان : ففيهما بيان لبراءة الرحم اه . ملخصاً .

وهذا الذي قاله العدوي له أصل من الشرع ، لأن ذات الإقراء وجدناها في بعض الصور تعتد بحيضة ، كما جاء النص في عدة المختلعة ، وإن كان فيها خلاف . ووجدنا الأمة تثبت براءة رحمها في غير هذا بحيضتين قطعاً ، وهي فيما إذا كانت سرية لمالكها فأراد بيعها فإنه يستبرئها بحيضة ، والذي يشتريها يستبرئها بحيضة قبل أن يسمها . ثم هو يفترشها

ويأمن من أن يسقي ماءه زرع غيره ، فعلمنا أن في الحيضتين براءة للرحمن ، فاكتفى بهما مالك ووافق الجمهور

(296/770)

وأما الشهر والنصف فإنهما لا يمكن أن تتبين المرأة فيهما حملاً ، لأنها مدة الأربعين الأولى وهي مرحلة النطفة . فظهر بهذا أن الحق مع مالك ، وان ابن رشد هو الذي اضطربت مقالته على مالك ، وقد سقنا هذا التنبيه لبيان واجب طالب العلم أما المسائل الخلافية من ضرورة البحث عن السبب ووجهة نظر المخالف وعدم المبادرة للإنكار ، لأن يكون هو أحق بأن ينكر عليه ولا يسارع لرد قول قد يكون قوله هو أولى بأن يرد عليه . وبالله التوفيق .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ، اتفق المفسرون أن المراد لاستقبال عدتهن وفيه مبحث الطلاق السني والبدعي . واعلم أن الحامل وغير المدخول بها لا بدعة في طلاقهما عند الجمهور ، وألحقت بهما الصغير والطلاق البدعي هو جمع الثلاث في مرة أو الطلاق في الحيضة أو في طهر مسها فيه . وعند الإمام أبي حنيفة رحمه الله : يفرق الطلقات على الصغير كل طلقة في شهر ولا يجمعها ، وقد طال البحث في حكم الطلاق البدعي ، هل يقع

ويحتسب على المطلق أم لا .

والأصل فيه حديث عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض ، فبلغ ذلك عمر فأخبر النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له صلى الله عليه وسلم " مره فليراجعها "

والذي عليه الجمهور أنه يعتد بتلك الطلقة ، وإن خالف فيها السنة ، وعليه أن يراجعها وليعمل كما أمر به النَّبي صلى الله عليه وسلم فليمسكها حتى تطهر ، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها في طهر لم يمسها فيه . أي لتستقبل عدتها ما لم تكن الطلقة الثالثة أو بالثلاث على ما عليه الجمهور .

وقد سئل أحمد رحمه الله عن الاعتداد بهذه الطلقة في الحيضة فقال لك إن قوله صلى الله عليه وسلم : فليراجعها . يدل على الاعتداد بها لأنه لا رجعة إلا من طلاق .

وقد أطال ابن دقيق العيد الكلام عليها في أحكام الإحكام غيره مما لا داعي إلى سرده ، وحاصله ما قدمنا ، ولم يقل بعدم الاعتداد بها إلا سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين .

(297/770)

وقال أبو حيان إن قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ على إطلاقه يشعر بالاعتداد بالطلاق سنياً كان أو بدعياً .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

ظاهره أن الإمساك بمعروف إذا بلغن أجلهن ، مع أنهنَّ إذا بلغنَ إلى ذلك الحد خرجن من العدة وانتهى وجه المراجعة . ولكن المراد هنا إذا قاربن أجلهن ولم يتجاوزنه أو يصلن إليه بالفعل ، والقاعدة أن ما قارب الشيء يعطي حكمه كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

ومثل الآية الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " مع أنه عند الإتيان أو أثناءه لا يحق له أن يقول ذلك ، وإنما يقوله إذا قارب دخوله ، فكذلك هنا .

أما المطلقة ثلاثاً فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثاً وافياً عند قوله تعالى : ﴿ الطلاق مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة : 229] مما لا مزيد عليه .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

بعد الأمر بإحصاء العدة ، وكون العدد مختلفة الأنواع من إقراء إلى أشهر إلى وضع الحمل ، والمعتدات متفاوتات الإقراء وأمد الحمل ، فقد تكون في أوله أو وسطه أو آخره ، وكل ذلك لا بد من إحصائه لما يترتب عليه من حرمة وحيلة ، فتخرج من عدة هذا وتحل لذاك .

كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تعزموا عُقْدَةَ النكاح حتى يَبْلُغَ الكتاب أَجَلَهُ ﴾ [البقرة : 235]

وهذا كله لا يتأتى إلا بالإحصاء .

والإحصاء لا يكون إلا لمقدر معلوم ، وعليه فقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ مؤكد لهذا كله ، وكذلك فيه نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء أياً كان هو قدراً لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص ، ولفظ شيء أعم العمومات .

(298/770)

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة ، فمن الآيات العامة قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] .

وقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] .

وقد جمع العام والخاص قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

ومن التقدير الخاص في مخصوص قوله : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 38 – 40] .

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة ، وإرادة قاهرة ، وسلطة غالبة ، قدرة من أمره إذا أراد

شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وقد قالعلماء الهيئة : أن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مآت أجزاء الثانية ، ولو اختلف جزء من الثانية لاختل نظام العالم ولما صلحت على وجه الأرض حياة ، ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى : ﴿ واللهُ يُقَدِّرُ الليل والنهار عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ [المزمل : 20] .

وهو سبحانه وتعالى يحصيه ، وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده ، قال تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : 18 – 19] أي قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ﴾ [الشورى : 49 – 50] الآية . إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 50] .

(299/770)

وهذا أيضاً من آيات قدرته يرد بها سبحانه على من جحد وجود الله وكفر بالبعث كما في مستهلها قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَآ أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 17 – 18] .

ثم بين تعالى أنه خلقه من نطفة ماء مهين ، ولكن قدر الله تعالى قدرتها وصورتها حتى صارت خلقاً سوياً ، وجعل له وهو في بطن أمه عينين ولساناً وشفتين أي وأنفاً وأذنين ويدين ورجلين وكل جهاز فيه حير الحكماء في صنعه ونظامه .

ثم قدر تعالى أرزاقه على الأرض قبل وجوده يوم خلق الأرض ، وجعله آية على قدرته وعاتب الإنسان على كفره : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : 9 - 10] .

وبعد وجود الكون وخلق الإنسن في الإيجاد بإنزال المطر ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس : 24 - 28] .

ثم إن صب هذا الماء كان بقدر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون : 18] .

وقوله : ﴿ ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : 27] أي بقدر ما يصلحهم ولو زاده لفسد حالهم ، كما في قوله قبلها ﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : 27] وبقدر مصلحتهم ينزل لهم

أرزاقهم.

كما نبه على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق: 6 – 7].

(300/770)

هذه لمحة عن حكمة تقدير العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي قدر الأشياء قبل وجودها كما في قوله: ﴿ والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى: 3].

وكما في حديث القلم وكتابة كل شيء قبل وجوده بزمانه ومكانه ومقداره وبيان عجز قدرة الخالق وعجز المخلوق كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: 61].

وكقوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر: 11] أي لا يتعداه ولا يتخطاه، وقد تحداهم الله في ذلك بقوله: ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (*) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة: 83 – 87] كلا إنهم مدينون ولن يستطيعوا إرجاعها.

وهنا يقال للدهريين والشيوعيين الذين لا يعترفونه بوجود فاعل مختار وعزيز قهار، إن هذا الكون بتقديراته ونظمه لآية شاهدة وبينة عادلة على وجود الله سبحانه وتعالى: ﴿

فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 83] .

كما يقال للمؤمنين أيضاً إن ما قدره الله نافذ ، وما قدر للعبد آتيه ، وما لم يقدر له لن يصل إليه ، طويت الصحف وجفت الأقلام ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : 23] .

ويقال مرة أخرى : اعملوا كل ميسر لما خلق له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ .

(301/770)

فيه إطلاق لوضع الحمل على اي صفة كان هو ، وأجمع العلماء على أن يصدق بوضعه حياً أو ميتاً ، ولكن اشترط فيه أ يكون قد ظهرت فيه خلقة الإنسان لا مضغة ولا علقة ، كام أن فيه إطلاق الأجل سواء للمطلقة أو المتوفى عنها من أنه ينقضي أجل الحوامل بوضع الحمل ، وتقدم بيان ذلك مفصلاً للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وهنا مبحث أقل الحمل وأكثره ، وتقدم تفصيله للشيخ أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى ﴾ [بالرعد : 8] . الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

بين تعالى مدة الرضاع في قوله تعالى : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 323] .

وجعل أبو حنيفة رحمه الله ثلاثة أشهر زيادة على الحولين لتمرين الطفل على الفطام ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [البقرة : 233] .

فإذا أمكن فطام الطفل قبلها بدون مضرة عليه فلا مانع ، وعلى الوالد إيتاء الأجرة على مدة الرضاع إلى الفطام سواء كانت المدة الشرعية كما هنا أو الفعلية قبلها . وليس ملزماً بما زاد على الحولين في نص الآية .

والائتمار بمعروف يشعر بأن للعرف دخلاً في ذلك كما هو تنبيه صريح أن لا يضار أحد الوالدين بولده وأن تكون المفاهمة بين الزوجين بعد الفرقة في جميع الأمور سواء في خصوص الرضاع أو غيره مبناها على المعروف والتسامح والإحسان وفاء لحق العشرة السابقة ، ولا تنسوا الفضل بينكم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ الآية .

(302/770)

ذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء أن كأين بمعنى كم فهي إخبار بعدد كثير ، وذك إعرابها ، والمعنى كثير من قرية عتت عن أمر ربها أي تكبرت وطغت وتقدم تفصيله للمعنى بالأمثلة والشواهد عند قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [الحج : 45] في سورة الحج .

ومما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [الكهف : 59] بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن هلاك الدنيا بفساد الدين ، وأن أمن القرى وطمأنينة العالم بالحفاظ على الدين .

ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عامة الناس للحفاظ على دينهم وسلامة دنياهم ، فحمل الشارع مهمته للأمة كلها كل بحسبه باليد أو باللسان أو القلب ، وهذا الأخير أضعف الإيمان ، ومع ضعفه ففيه الإبقاء على دوام الإحسان بوجود المنكر إلى أن يقدر هو أو غيره على تغييره .

قد بين الله تعالى هذا المفهوم ببيان حال الذين مكنهم في الأرض بنصره في قوله تعالى : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ [الحج : 41] .

ثم ذكر تعالى الأمم التي كذبت وعتت من قوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب مدين .

ثم قال : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ

وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .

جاء في بيان السماوات أنها سبع طباق ، كما في قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ [الملك : 3] .

(303/770)

وبين الحديث في الإسراء أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وجاء لفظ السماء مفرداً وجمعاً ، فالمفرد كما في قوله ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] .

وقوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ فِرَاشاً والسماء بِنَآءً ﴾ [البقرة : 22] .

أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفرداً ، ولم يأت تفصيلها كتفصيل السماء سبعاً طباقاً ، فاختلف في المثلية فجاء عن ابن عباس أنها مثلية تامة تدداً وطبقاً وخلقاً . وقيل : عدداً وأقاليم يفصلها البحار ، وقيل عدداً طبقاً متراكمة كطبقات البصلة مثلاً ، ولقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة أن من أوجه البيان إذا لم يوجد ف الكتاب ووجد في السنة فإنه يبين بها لأنها وحي ، وقد جاء في السنة أن الأرض سبع أرضين كما في حديث : " من اغتصب أرضاً أو من أخذ شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين " متفق

عليه .

وفي حديث موسى لما قال " يا رب علمني شيئاً أدعوك به فقال : قل لا إله إلا الله . فقال : يا رب كل الناس يقولون ذلك . قال : يا موسى ، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت به لا إله إلا الله " . رواه النسائي .

فهذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع ، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة فثبت عندنا العدد ولم يثبت غيره ، فنثبته ونكل غيره لعلم الله تعالى .

ومما يؤيد ثبوت العدد على سبيل الإجمال أن مثلية الأرض للسماء لم تذكر إلا عند ذكر السماء مجملة مع ذكر العدد ولم يذكر عند تفصيلها بطباق مما يشعر أن المراد من المثلية العدد ، وقيل إن هذا لا يتنافى مع أفراد اللفظ لأن جمعة شاذ .

كما قال ابن مالك :

وأرضون شذو السنون

(304/770)

وقد أشار تعالى إلى أن هناك من حالات الأرض والسماء ما لم يعلمه الخلق في قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] ، وهم لا

يزالون عاجزين عن كيفية خلق أنفسهم إلا تفصيلات جزيئية ، والمهم من السياق والغرض الأساسي ، تنبيه الخلق على عظم قدرة الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ [الطلاق : 12] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(305/770)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَحْتَمِلُ تَخْصِيصُ النَّبِيِّ بِالْخِطَابِ وُجُوهًا : أَحَدُهَا : اكْتِفَاءٌ بِعِلْمِ الْمُخَاطَبِينَ بِأَنَّ مَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِطَابٌ لَهُمْ ، إذْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ إلَّا مَا خُصَّ بِهِ دُونَهُمْ ، فَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ ثُمَّ عَدَلَ بِالْخِطَابِ إلَى الْجَمَاعَةِ ؛ إذْ كَانَ خِطَابُهُ خِطَابًا لِلْجَمَاعَةِ .

وَالثَّانِي : أَنَّ تَقْدِيرَهُ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأُمَّتِك إذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ .

وَالثَّالِثُ : عَلَى الْعَادَةِ فِي خِطَابِ الرَّئِيسِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْأَتْبَاعُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ .

(306/770)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رُوِيَ ﴿ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي الْحَيْضِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا وَلْيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ مِنْ حَيْضَتِهَا ثُمَّ تَحِيضَ حَيْضَةً أُخْرَى فَإِذَا طَهُرَتْ فَلْيُفَارِقْهَا قَبْلَ أَنْ يُجَامِعَهَا أَوْ يُمْسِكُهَا ، فَإِنَّهَا الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ ﴾ رَوَاهُ نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ : ﴿ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ قَالَ : طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ ﴾ وَرَوَى وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَوْلَى أَبِي طَلْحَةَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ ﴿ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فِي الْحَيْضِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُطَلِّقْهَا وَهِيَ حَامِلٌ أَوْ غَيْرُ حَامِلٍ وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ

جِمَاعٍ

أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا ﴾ .

(307/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَادَ اللَّهِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ وَأَنَّ وَقْتَ الطَّلَاقِ الْمَأْمُورِ بِهِ أَنْ يُطَلِّقَهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا ، وَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ السُّنَّةَ فِي الْإِيقَاعِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ التَّطْلِيقَتَيْنِ بِحَيْضَةٍ بِقَوْلِهِ : "يُرَاجِعُهَا ثُمَّ يَدَعُهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ حَيْضَةً أُخْرَى ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ يُطَلِّقُهَا إنْ شَاءَ " فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّطْلِيقَتَيْنِ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ لَيْسَ مِنْ السُّنَّةِ ، وَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَبَاحَ طَلَاقَهَا فِي الطُّهْرِ بَعْدَ الْجِمَاعِ إلَّا شَيْئًا رَوَاهُ وَكِيعٌ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ عَنْ بَيَانٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : " إذَا طَلَّقَهَا وَهِيَ طَاهِرٌ فَقَدْ طَلَّقَهَا لِلسُّنَّةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَامَعَهَا " ، وَهَذَا الْقَوْلُ خِلَافُ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخِلَافُ إجْمَاعِ الْأُمَّةِ ؛ إلَّا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الْحَامِلَ ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ يَحْيَى بْنُ آدَمَ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ عَنْ بَيَانٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : " إذَا طَلَّقَهَا حَامِلًا فَقَدْ طَلَّقَهَا لِلسُّنَّةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَامَعَهَا " ، فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَصْلَ الْحَدِيثِ وَأَغْفَلَ بَعْضُ الرُّوَاةِ ذِكْرَ الْحَامِلِ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ مُنْتَظِمٌ لِلْوَاحِدَةِ وَلِلثَّلَاثِ مُفَرَّقَةً فِي الْأَطْهَارِ ؛ لِأَنَّ إدْخَالَ " اللَّامِ " يَقْتَضِي ذَلِكَ ،

(308/770)

كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ فِعْلُهَا مُكَرَّرًا عِنْدَ الدُّلُوكِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا إبَاحَةُ الثَّلَاثِ مُفَرَّقَةً فِي الْأَطْهَارِ ، وَإِبْطَالُ قَوْلِ مَنْ قَالَ : " إيقَاعُ الثَّلَاثِ فِي الْأَطْهَارِ الْمُتَفَرِّقَةِ لَيْسَ مِنْ السُّنَّةِ " وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ وَاللَّيْثِ وَالثَّانِي : تَفْرِيقُهَا فِي الْأَطْهَارِ وَحَظْرِ جَمْعِهَا فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يَقْتَضِي ذَلِكَ لَا فِعْلَ الْجَمِيعِ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لَمْ يَقْتَضِ فِعْلَ صَلَاتَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَإِنَّمَا اقْتَضَى فِعْلَ الصَّلَاةِ مُكَرَّرَةً فِي الْأَوْقَاتِ وَقَوْلُ أَصْحَابِنَا : إنَّ طَلَاقَ السُّنَّةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِي الْوَقْتِ ، وَهُوَ أَنْ يُطَلِّقَهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا .

(309/770)

وَالْآخَرُ : مِنْ جِهَةِ الْعَدَدِ ، وَهُوَ أَنْ لَا يَزِيدَ فِي الطُّهْرِ الْوَاحِدِ عَلَى تَطْلِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَالْوَقْتُ مَشْرُوطٌ لِمَنْ يُطَلِّقُ فِي الْعِدَّةِ ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا بِأَنْ كَانَ طَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ فَطَلَاقُهَا مُبَاحٌ فِي الْحَيْضِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ فَأَبَاحَ طَلَاقَهَا فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ طُهْرٍ أَوْ حَيْضٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَ قَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّ جَمْعَ الثَّلَاثِ فِي طُهْرٍ وَاحِدٍ مِنْ السُّنَّةِ وَمِنْ مَنْعِ إيقَاعِ الثَّلَاثِ فِي الْأَطْهَارِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا جَازَ طَلَاقُ الْحَامِلِ بَعْدَ الْجِمَاعِ كَذَلِكَ الْحَائِلُ يَجُوزُ طَلَاقُهَا فِي الطُّهْرِ بَعْدَ الْجِمَاعِ ، قِيلَ لَهُ : لَا حَظَّ لِلنَّظَرِ مَعَ الْأَثَرِ وَاتِّفَاقِ السَّلَفِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا وَاضِحٌ وَهُوَ أَنَّهُ إذَا طَهُرَتْ مِنْ حَيْضَتِهَا ثُمَّ جَامَعَهَا لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا قَدْ حَمَلَتْ مِنْ الْوَطْءِ وَعَسَى أَنْ لَا يُرِيدَ طَلَاقَهَا إنْ كَانَتْ حَامِلًا فَيَلْحَقُهُ النَّدَمُ ، وَإِذَا لَمْ يُجَامِعْهَا بَعْدَ الطُّهْرِ فَإِنَّ وُجُودَ الْحَيْضِ عَلَمٌ لِبَرَاءَةِ الرَّحِمِ فَيُطَلِّقُهَا وَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ طَلَاقِهَا .

(310/770)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ الْعِدَّةُ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ ﴾ إلَى

قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ عَدَدٌ لِلْمُطَلَّقَاتِ عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ الْمَذْكُورَةِ لَهُنَّ ؛ فَيَكُونُ إحْصَاؤُهَا لِمَعَانٍ ، أَحَدُهَا : لِمَا يُرِيدُ مِنْ رَجْعَةٍ وَإِمْسَاكٍ أَوْ تَسْرِيحٍ وَفِرَاقٍ .

وَالثَّانِي : مُرَاعَاةُ حَالِهَا فِي بَقَائِهَا عَلَى الْحَالِ الَّتِي طَلُقَتْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ حَالٍ يُوجِبُ انْتِقَالَ عِدَّتِهَا إلَيْهَا .

(311/770)

وَالثَّالِثُ : لِكَيْ إذَا بَانَتْ يُشْهِدُ عَلَى فِرَاقِهَا وَيَتَزَوَّجُ مِنْ النِّسَاءِ غَيْرَهَا مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ يَجُوزُ لَهُ جَمْعُهَا إلَيْهَا وَلِئَلَّا يُخْرِجَهَا مِنْ بَيْتِهَا قَبْلَ انْقِضَائِهَا وَذَكَرَ بَعْضُ مَنْ صَنَّفَ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ وَأَصْحَابَهُ يَقُولُونَ : " إنَّ طَلَاقَ السُّنَّةِ وَاحِدَةٌ ، وَأَنَّ مِنْ طَلَاقِ السُّنَّةِ أَيْضًا إذَا أَرَادَ أَنْ يُطَلِّقَهَا ثَلَاثًا طَلَّقَهَا عِنْدَ كُلِّ طُهْرٍ تَطْلِيقَةً ؛ فَذَكَرُوا أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ السُّنَّةُ وَالثَّانِي أَيْضًا سُنَّةٌ ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ شَيْءٌ وَخِلَافُهُ سُنَّةً وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا حَلَالًا ، وَلَوْ قَالَ : إنَّ الثَّانِيَ رُخْصَةٌ كَانَ أَشْبَهَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا كَلَامُ مَنْ لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِمَعْرِفَةِ أُصُولِ الْعِبَادَاتِ وَمَا يَجُوزُ وُرُودُهُ مِنْهَا مِمَّا لَا يَجُوزُ ، وَلَا يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ جَوَازَ وُرُودِ الْعِبَادَةِ بِمِثْلِهِ ؛ إذْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ السُّنَّةُ فِي الطَّلَاقِ أَنْ يُخَيَّرَ بَيْنَ إيقَاعِ الْوَاحِدَةِ فِي طُهْرٍ

وَالِاقْتِصَادِ عَلَيْهَا وَبَيْنَ أَنْ يُطَلِّقَ بَعْدَهَا فِي الطُّهْرِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ أَحْسَنَ مِنْ

(312/770)

الْآخَرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ وَخَيَّرَ اللَّهُ الْحَانِثَ فِي يَمِينِهِ بَيْنَ أَحَدِ أَشْيَاءَ ثَلَاثَةٍ وَأَيُّهَا فَعَلَ كَانَ فَرْضَهُ وَقَوْلُهُ : " وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ حَلَالًا حَرَامًا " يُوجِبُ نَفْيَ التَّخْيِيرِ فِي شَيْءٍ مِنْ السُّنَنِ وَالْفُرُوضِ كَمَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ وَاحِدٌ حَرَامًا حَلَالًا ؛ وَعُوَارُ هَذَا الْقَوْلِ وَفَسَادُهُ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إلَى الْإِطْنَابِ فِي الرَّدِّ عَلَى قَائِلِهِ وَرُوِيَ نَحْوُ قَوْلِنَا بِعَيْنِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَجَمَاعَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ فِيهِ نَهْيٌ لِلزَّوْجِ عَنْ إخْرَاجِهَا وَنَهْيٌ لَهَا عَنْ الْخُرُوجِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ السُّكْنَى لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ ؛ لِأَنَّ بُيُوتَهُنَّ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْ إخْرَاجِهَا مِنْهَا هِيَ الْبُيُوتُ الَّتِي كَانَتْ تَسْكُنُهَا قَبْلَ الطَّلَاقِ ، فَأَمَرَ بِتَبْقِيَتِهَا فِي بَيْتِهَا وَنَسَبَهَا إلَيْهَا بِالسُّكْنَى كَمَا قَالَ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ، وَإِنَّمَا الْبُيُوتُ كَانَتْ

لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ قَالَ أَصْحَابُنَا : " لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُسَافِرَ بِهَا حَتَّى يُشْهِدَ عَلَى رَجْعَتِهَا " وَمَنَعُوهَا مِنْ السَّفَرِ فِي الْعِدَّةِ .

(313/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَا خِلَافَ نَعْلَمُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّ عَلَى الزَّوْجِ إسْكَانَهَا وَنَفَقَتَهَا فِي الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَهُ إخْرَاجُهَا مِنْ بَيْتِهَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " خُرُوجُهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ فَاحِشَةٌ " ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " إلَّا أَنْ تَبْذُوَ عَلَى أَهْلِهِ فَإِذَا فَعَلَتْ ذَلِكَ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يُخْرِجُوهَا " وَقَالَ الضَّحَّاكُ : " الْفَاحِشَةُ الْمُبَيِّنَةُ عِصْيَانُ الزَّوْجِ " وَقَالَ الْحَسَنُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : " أَنْ تَزْنِيَ فَتُخْرَجَ لِلْحَدِّ " وَقَالَ قَتَادَةُ : " إلَّا أَنْ تَنْشُزَ فَإِذَا فَعَلَتْ حَلَّ إخْرَاجُهَا " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا يَحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهَا مُرَادًا فَيَكُونَ خُرُوجُهَا فَاحِشَةً وَإِذَا زَنَتْ أُخْرِجَتْ لِلْحَدِّ وَإِذَا بَذَتْ عَلَى أَهْلِهِ أُخْرِجَتْ أَيْضًا ؛ وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ بِالِانْتِقَالِ حِينَ بَذَتْ عَلَى أَحْمَائِهَا ، فَأَمَّا عِصْيَانُ الزَّوْجِ وَالنُّشُوزُ فَإِنْ كَانَ فِي الْبَذَاءِ وَسُوءِ الْخُلُقِ اللَّذَيْنِ يَتَعَذَّرُ الْمَقَامُ مَعَهَا فِيهِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا ، وَإِنْ كَانَتْ إنَّمَا عَصَتْ زَوْجَهَا فِي شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ

بِعُذْرٍ فِي إِخْرَاجِهَا وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ التَّأْوِيلِ الْمُرَادِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ انْتِقَالِهَا لِلْعُذْرِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ لَهَا الْخُرُوجَ لِلْأَعْذَارِ الَّتِي وَصَفْنَا .

(314/770)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إذَا طَلَّقَ لِغَيْرِ السُّنَّةِ وَقَعَ طَلَاقُهُ وَكَانَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ بِتَعَدِّيهِ حُدُودَ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ عَقِيبَ طَلَاقِ الْعِدَّةِ فَأَبَانَ أَنَّ مَنْ طَلَّقَ لِغَيْرِ الْعِدَّةِ فَطَلَاقُهُ وَاقِعٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقَعْ طَلَاقُهُ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ وُقُوعَ طَلَاقِهِ مَعَ ظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ ، قَوْله تَعَالَى عَقِيبَهُ : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ يَعْنِي أَنْ يَحْدُثَ لَهُ نَدَمٌ فَلَا يَنْفَعُهُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ طَلَّقَ ثَلَاثًا وَهُوَ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ فِي أَنَّ إيقَاعَ الثَّلَاثِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ السُّنَّةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ حِينَ طَلَّقَ ثَلَاثًا وَتَرَكَ اعْتِبَارَ مَا عَسَى أَنْ يَلْحَقَهُ مِنْ النَّدَمِ بِإِبَانَتِهَا ؛ وَحَكَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ابْنِ عُمَرَ بِطَلَاقِهِ إيَّاهَا فِي الْحَيْضِ وَأَمَرَهُ بِمُرَاجَعَتِهَا ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ الْأَوَّلَ كَانَ خَطَأً فَأَمَرَهُ بِالرَّجْعَةِ لِيَقْطَعَ أَسْبَابَ الْخَطَإِ وَيَبْتَدِئَهُ عَلَى السُّنَّةِ وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الطَّلَاقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ لَا يَقَعُ .

(315/770)

وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَ هَذَا الْقَوْلِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ جِهَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَسُؤَالُ يُونُسَ بْنِ جُبَيْرٍ لِابْنِ عُمَرَ عَنْ الطَّلَاقِ فِي الْحَيْضِ وَذِكْرُهُ لِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيَّاهُ بِالْمُرَاجَعَةِ قَالَ : قُلْت : فَيُعْتَدُّ بِهَا ؟ قَالَ : فَمَهْ ؟ أَرَأَيْت إنْ عَجَزَ وَاسْتَحْمَقَ ؟ " فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ بِمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَيْمَنَ مَوْلَى عُرْوَةَ يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ

(316/770)

فَقَالَ : كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا ؟ قَالَ ﴿ طَلَّقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَرَدَّهَا عَلَيَّ وَلَمْ يَرَهَا شَيْئًا وَقَالَ : إذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ لِيُمْسِكْ قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَقَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ ﴾ فَقَالَ الْمُحْتَجُّ : فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَدَّهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يَرَهَا شَيْئًا ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَمْ يَقَعْ فَيُقَالُ لَهُ : لَيْسَ

فِيمَا ذَكَرْت دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَحْكُمْ بِالطَّلَاقِ ، بَلْ دَلَالَتُهُ ظَاهِرَةٌ عَلَى وُقُوعِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : " وَرَدَّهَا عَلَيَّ " وَهُوَ يَعْنِي الرَّجْعَةَ .

وَقَوْلُهُ : " وَلَمْ يَرَهَا شَيْئًا " يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يُبِنْهَا مِنْهُ وَقَدْ رُوِيَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ عَنْهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ سِيرِينَ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَمَنْصُورٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْهُ ، كُلُّهُمْ يَقُولُ فِيهِ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا حَتَّى تَطْهُرَ .

(317/770)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يَعْنِي بِهِ مُقَارَبَةَ بُلُوغِ الْأَجَلِ لَا حَقِيقَتَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا رَجْعَةَ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَجَلِ الَّذِي هُوَ انْقِضَاءُ الْعِدَّةِ وَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ تَعَالَى طَلَاقَ الْمَدْخُولِ بِهَا ابْتِدَاءً إلَّا مَقْرُونًا بِذِكْرِ الرَّجْعَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ، يَعْنِي أَنْ يَبْدُوَ لَهُ فَيُرَاجِعَهَا ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

بَابُ الْإِشْهَادُ عَلَى الرَّجْعَةِ أَوْ الْفُرْقَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فَأَمَرَ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ

وَالْفُرْقَةِ أَيَّتَهُمَا اخْتَارَ الزَّوْجُ؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَطَاوُسٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَأَبُو قِلَابَةَ أَنَّهُ إذَا رَجَعَ وَلَمْ يُشْهِدْ فَالرَّجْعَةُ صَحِيحَةٌ وَيُشْهِدُ بَعْدَ ذَلِكَ .

(318/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا جُعِلَ لَهُ الْإِمْسَاكُ أَوْ الْفِرَاقُ ثُمَّ عَقَبَهُ بِذِكْرِ الْإِشْهَادِ كَانَ مَعْلُومًا وُقُوعُ الرَّجْعَةِ إذَا رَجَعَ وَجَوَازُ الْإِشْهَادِ بَعْدَهَا إذْ لَمْ يَجْعَلْ الْإِشْهَادَ شَرْطًا فِي الرَّجْعَةِ وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْفُقَهَاءُ فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِرَاقِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ إنَّمَا هُوَ تَرْكُهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا وَأَنَّ الْفُرْقَةَ تَصِحُّ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ الْإِشْهَادُ عَلَيْهَا وَيُشْهِدُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْإِشْهَادَ عَقِيبَ الْفُرْقَةِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ شَرْطًا فِي صِحَّتِهَا ، كَذَلِكَ الرَّجْعَةُ وَأَيْضًا لَمَّا كَانَتْ الْفُرْقَةُ حَقًّا لَهُ وَجَازَتْ بِغَيْرِ إشْهَادٍ إذْ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إلَى رِضَا غَيْرِهِ وَكَانَتْ الرَّجْعَةُ أَيْضًا حَقًّا لَهُ ، وَجَبَ أَنْ تَجُوزَ بِغَيْرِ إشْهَادٍ وَأَيْضًا لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الْإِمْسَاكِ أَوْ الْفُرْقَةِ احْتِيَاطًا لَهُمَا وَنَفْيًا لِلتُّهْمَةِ عَنْهُمَا إذَا عُلِمَ الطَّلَاقُ وَلَمْ يُعْلَمْ الرَّجْعَةُ أَوْ لَمْ يُعْلَمْ الطَّلَاقُ وَالْفِرَاقُ ، فَلَا يُؤْمَنُ التجاحد بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْنَى الِاحْتِيَاطِ فِيهِمَا مَقْصُورًا عَلَى الْإِشْهَادِ فِي حَالِ الرَّجْعَةِ أَوْ الْفُرْقَةِ بَلْ يَكُونُ الِاحْتِيَاطُ بَاقِيًا ، وَإِنْ أَشْهَدَ بَعْدَهُمَا وَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُمَا إذَا أَشْهَدَ بَعْدَ الرَّجْعَةِ بِسَاعَةٍ أَوْ

سَاعَتَيْنِ ؛ وَلَا نَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلَافًا فِي صِحَّةِ وُقُوعِ الرَّجْعَةِ بِغَيْرِ شُهُودٍ إلَّا شَيْئًا يُرْوَى عَنْ عَطَاءٍ ، فَإِنَّ سُفْيَانَ رَوَى عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ

(319/770)

عَطَاءٍ قَالَ : " الطَّلَاقُ وَالنِّكَاحُ وَالرَّجْعَةُ بِالْبَيِّنَةِ " ، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالْإِشْهَادِ عَلَى ذَلِكَ احْتِيَاطًا مِنْ التجاحد لَا عَلَى أَنَّ الرَّجْعَةَ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ شُهُودٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ ذَكَرَ الطَّلَاقَ مَعَهَا وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي وُقُوعِ الطَّلَاقِ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ ؟ وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ عَنْ مَطَرٍ الْوَرَّاقِ عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَكَمِ قَالَا : " إذَا غَشِيَهَا فِي الْعِدَّةِ فَغَشَيَانُهُ رَجْعَةٌ " .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِإِقَامَةِ الشَّهَادَاتِ عِنْدَ الْحُكَّامِ عَلَى الْحُقُوقِ كُلِّهَا ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ هُنَا اسْمٌ لِلْحَبْسِ وَإِنْ كَانَ مَذْكُورًا بَعْدَ الْأَمْرِ بِإِشْهَادِ ذَوَيْ عَدْلٍ عَلَى الرَّجْعَةِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَهَا بَعْدَهُ لَا يَمْنَعُ اسْتِعْمَالَ اللَّفْظِ عَلَى عُمُومِهِ ، فَانْتَظَمَ ذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ ، وَالْآخَرُ : أَنَّ إقَامَةَ الشَّهَادَةِ حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَفَادَ بِذَلِكَ تَأْكِيدَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ .

(320/770)

بَابُ عِدَّةِ الْآيِسَةِ وَالصَّغِيرَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ إثْبَاتَ الْإِيَاسِ لِمَنْ ذُكِرَتْ فِي الْآيَةِ مِنْ النِّسَاءِ بِلَا ارْتِيَابٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الِارْتِيَابَ فِي الْإِيَاسِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَثْبَتَ حُكْمَ مَنْ ثَبَتَ إِيَاسُهَا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الِارْتِيَابَ فِي غَيْرِ الْإِيَاسِ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الرِّيبَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ ، فَرَوَى مُطَرِّفٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَالِمٍ قَالَ " قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ : ﴿ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَدَدًا مِنْ عَدَدِ النِّسَاءِ لَمْ تُذْكَرْ فِي الْكِتَابِ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ﴾ فَأَخْبَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ كَانَ ارْتِيَابَهُمْ فِي عَدَدِ مَنْ ذُكِرَ مِنْ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ ، وَأَنَّ ذِكْرَ الِارْتِيَابِ فِي الْآيَةِ إنَّمَا هُوَ عَلَى وَجْهِ ذِكْرِ السَّبَبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ فَكَانَ بِمَعْنَى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ فِي

الَّتِي يَرْتَفِعُ حَيْضُهَا ، فَرَوَى ابْنُ الْمُسَيِّبِ عَنْ عُمَرَ قَالَ : أَيُّمَا امْرَأَةٍ طُلِّقَتْ فَحَاضَتْ حَيْضَةً أَوْ حَيْضَتَيْنِ ثُمَّ رُفِعَتْ حَيْضَتُهَا فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُ بِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ اسْتَبَانَ بِهَا حَمْلٌ فَذَاكَ وَإِلَّا اعْتَدَّتْ بَعْدَ التِّسْعَةِ الْأَشْهُرِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ثُمَّ حَلَّتْ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الَّتِي ارْتَفَعَ حَيْضُهَا سَنَةً

قَالَ : تِلْكَ الرِّيبَةُ وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي الَّتِي تَحِيضُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً قَالَ هَذِهِ رِيبَةٌ عِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ عَمْرٍو وَعَنْ طَاوُسٍ مِثْلَهُ وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ عِدَّتَهَا ثَلَاثُ حِيَضٍ وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ أَنَّهُ قَالَ : وَكَانَ عِنْدَ جَدِّهِ حِبَّانَ امْرَأَتَانِ هَاشِمِيَّةٌ وَأَنْصَارِيَّةٌ فَطَلَّقَ الْأَنْصَارِيَّةَ وَهِيَ تُرْضِعُ فَمَرَّتْ بِهِ سَنَةٌ ثُمَّ هَلَكَ وَلَمْ تَحِضْ ، فَقَالَتْ : أَنَا أَرِثُهُ وَلَمْ أَحِضْ ، فَاخْتَصَمَا إلَى عُثْمَانَ فَقَضَى لَهَا بِالْمِيرَاثِ فَلَامَتْ الْهَاشِمِيَّةُ عُثْمَانَ ، فَقَالَ هَذَا عَمَلُ ابْنِ عَمِّكِ هُوَ أَشَارَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ ، يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ .

(322/770)

وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ : وَبَقِيَتْ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ لَا تَحِيضُ ، وَذَكَرَ الْقِصَّةَ فَشَاوَرَ عُثْمَانُ عَلِيًّا وَزَيْدًا فَقَالَا : تَرِثُهُ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْقَوَاعِدِ اللَّائِي قَدْ يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ وَلَا مِنْ الْأَبْكَارِ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَهِيَ عِنْدَهُ عَلَى حَيْضَتِهَا مَا كَانَتْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قَوْلِهِمَا : إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ لَيْسَ عَلَى ارْتِيَابِ الْمَرْأَةِ وَلَكِنَّهُ عَلَى ارْتِيَابِ الشَّاكِّينَ فِي حُكْمِ عَدَدِهِنَّ ، وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ آيِسَةً حَتَّى تَكُونَ مِنْ الْقَوَاعِدِ اللَّاتِي لَا يُرْجَى حَيْضُهُنَّ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَاخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا فِي الَّتِي يَرْتَفِعُ حَيْضُهَا لَا لِإِيَاسٍ مِنْهُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ : " إنَّ عِدَّتَهَا الْحَيْضُ حَتَّى تَدْخُلَ فِي السِّنِّ الَّتِي لَا تَحِيضُ أَهْلُهَا مِنْ النِّسَاءِ فَتَسْتَأْنِفَ عِدَّةَ الْآيِسَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ " وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ وَالشَّافِعِيِّ وَقَالَ مَالِكٌ : " تَنْتَظِرُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ لَمْ

(323/770)

تَحِضْ فِيهِنَّ اعْتَدَّتْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ حَاضَتْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَكْمِلَ الثَّلَاثَةَ أَشْهُرٍ اسْتَقْبَلَتْ الْحَيْضَ ، فَإِنْ مَضَتْ بِهَا تِسْعَةُ أَشْهُرٍ قَبْلَ أَنْ تَحِيضَ اعْتَدَّتْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ " وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : " إذَا حَاضَتْ الْمُطَلَّقَةُ ثُمَّ ارْتَابَتْ فَإِنَّمَا تَعْتَدُّ بِالتِّسْعَةِ الْأَشْهُرِ مِنْ يَوْمِ رُفِعَتْ

حَيْضَتُهَا لَا مِنْ يَوْمِ طَلَّقَتْ " ، قَالَ مَالِكٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ " مَعْنَاهُ إِنْ لَمْ تَدْرُوا مَا تَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهَا " وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ شَابَّةٌ فَارْتَفَعَتْ حَيْضَتُهَا فَلَمْ تَرَ شَيْئًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ : " فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ سَنَةً " .

(324/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَوْجَبَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عِدَّةَ الْآيِسَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَاقْتَضَى ظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْعِدَّةُ لِمَنْ قَدْ ثَبَتَ إِيَاسُهَا مِنْ الْحَيْضِ مِنْ غَيْرِ ارْتِيَابٍ ، كَمَا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ لِمَنْ ثَبَتَ أَنَّهَا لَمْ تَحِضْ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ لِمَنْ قَدْ ثَبَتَ حَمْلُهَا ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ ﴾ لِمَنْ قَدْ ثَبَتَ إِيَاسُهَا وَتُيُقِّنَ ذَلِكَ مِنْهَا دُونَ مَنْ يَشُكُّ فِي إِيَاسِهَا ثُمَّ لَا يَخْلُو قَوْلُهُ : ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ مِنْ أَحَدِ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ : إمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الِارْتِيَابَ فِي أَنَّهَا آيِسَةٌ وَلَيْسَتْ بِآيِسَةٍ ، أَوْ الِارْتِيَابَ فِي أَنَّهَا حَامِلٌ أَوْ غَيْرُ حَامِلٍ ، أَوْ ارْتِيَابَ الْمُخَاطَبِينَ فِي عِدَّةِ الْآيِسَةِ وَالصَّغِيرَةِ ؛ وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الِارْتِيَابَ فِي أَنَّهَا آيِسَةٌ أَوْ غَيْرُ آيِسَةٍ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَثْبَتَ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عِدَّتَهَا أَنَّهَا آيِسَةٌ ، وَالْمَشْكُوكُ فِيهَا لَا تَكُونُ آيِسَةً لِاسْتِحَالَةِ مُجَامَعَةِ الْيَأْسِ لِلرَّجَاءِ ؛ إذْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَجُوزُ اجْتِمَاعُهُمَا حَتَّى تَكُونَ آيِسَةً مِنْ الْمَحِيضِ مَرْجُوًّا ذَلِكَ مِنْهَا ، فَبَطَلَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى الِارْتِيَابَ فِي

الْيَأْسِ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ الْمُسِنَّةَ الَّتِي قَدْ تُيُقِّنَ إِيَاسُهَا مِنْ الْحَيْضِ مُرَادَةٌ بِالْآيَةِ ، وَالِارْتِيَابُ الْمَذْكُورُ رَاجِعٌ إلَى جَمِيعِ الْمُخَاطَبِينَ وَهُوَ فِي الَّتِي قَدْ تُيُقِّنَ إِيَاسُهَا ارْتِيَابُ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْعِدَّةِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَشْكُوكِ فِي إِيَاسِهَا مِثْلُهُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ فِي الْجَمِيعِ .

وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَتْ عَادَتُهَا وَهِيَ شَابَّةٌ أَنَّهَا تَحِيضُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً فَهَذِهِ غَيْرُ مُرْتَابٍ فِي إِيَاسِهَا بَلْ قَدْ تُيُقِّنَ أَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْحَيْضِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عِدَّتُهَا سَنَةً مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهَا غَيْرُ آيِسَةٍ ، وَأَنَّهَا مِنْ ذَوَاتِ الْحَيْضِ وَتَرَاخِي مَا بَيْنَ الْحَيْضَتَيْنِ مِنْ الْمُدَّةِ لَا يُخْرِجُهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنْ ذَوَاتِ الْحَيْضِ فَالْمُوجِبُ عَلَيْهَا عِدَّةَ الشُّهُورِ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عِدَّةَ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ الْحَيْضَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَنْ طَالَتْ مُدَّةُ حَيْضَتِهَا أَوْ قَصُرَتْ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَيْضًا الْمُرَادُ الِارْتِيَابَ فِي الْإِيَاسِ مِنْ الْحَمْلِ ؛ لِأَنَّ الْيَأْسَ مِنْ الْحَيْضِ هُوَ الْإِيَاسُ مِنْ الْحَبَلِ ، وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ رَدَّ الِارْتِيَابَ إلَى الْحَيْضِ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ ، وَهُوَ ارْتِيَابُ

الْمُخَاطَبِينَ ، وَعَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ حِينَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ شَكَّ فِي عِدَّةِ الْآيِسَةِ وَالصَّغِيرَةِ .

(326/770)

وَأَيْضًا لَوْ كَانَ الْمُرَادُ الِارْتِيَابَ فِي الْإِيَاسِ لَكَانَ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إلَيْهِنَّ أَوْلَى مِنْ تَوْجِيهِهِ إلَى الرِّجَالِ ؛ لِأَنَّ الْحَيْضَ إنَّمَا يُتَوَصَّلُ إلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ جِهَتِهَا وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُصَدَّقَةً فِيهِ فَكَانَ يَقُولُ : إنْ ارْتَبْتُنَّ أَوْ ارْتَبْنَ فَلَمَّا خَاطَبَ الرِّجَالَ بِذَلِكَ دُونَهُنَّ عُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ ارْتِيَابَ الْمُخَاطَبِينَ

فِي الْعِدَّةِ .

وَقَوْله تَعَالَى ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يَعْنِي : وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ عِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ لَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ ضَمِيرٍ ، وَضَمِيرُهُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مُظْهَرًا وَهُوَ الْعِدَّةُ بِالشُّهُورِ .

بَابُ عِدَّةِ الْحَامِلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَخْتَلِفْ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ بَعْدَهُمْ أَنَّ عِدَّةَ الْمُطَلَّقَةِ الْحَامِلِ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا ، وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي عِدَّةِ الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فَقَالَ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ : تَعْتَدُّ

الْحَامِلُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا آخِرَ الْأَجَلَيْنِ وَقَالَ عَمْرٌو وَابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَأَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ وَأَبُو هُرَيْرَةَ : عِدَّتُهَا الْحَمْلُ فَإِذَا وَضَعَتْ حَلَّتْ لِلْأَزْوَاجِ وَهُوَ قَوْلُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رَوَى إِبْرَاهِيمُ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : مَنْ شَاءَ لَاعَنْتُهُ مَا نَزَلَتْ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ إِلَّا بَعْدَ آيَةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا " .

(327/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ تَضَمَّنَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إِثْبَاتُ تَارِيخِ نُزُولِ الْآيَةِ وَأَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ ذِكْرِ الشُّهُورِ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَالثَّانِي : أَنَّ الْآيَةَ مُكْتَفِيَةٌ بِنَفْسِهَا فِي إِفَادَةِ الْحُكْمِ عَلَى عُمُومِهَا غَيْرُ مُضَمَّنَةٍ بِمَا قَبْلَهَا مِنْ ذِكْرِ الْمُطَلَّقَةِ ، فَوَجَبَ اعْتِبَارُ الْحَمْلِ فِي الْجَمِيعِ مِنْ الْمُطَلَّقَاتِ وَالْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَأَنْ لَا يُجْعَلَ الْحُكْمُ مَقْصُورًا عَلَى الْمُطَلَّقَاتِ ؛ لِأَنَّهُ تَخْصِيصُ عُمُومٍ بِلَا دَلَالَةٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا دَاخِلَةٌ فِي الْآيَةِ مُرَادَةٌ بِهَا اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ مُضِيَّ شُهُورِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا لَا يُوجِبُ انْقِضَاءَ عِدَّتِهَا دُونَ وَضْعِ الْحَمْلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا مُرَادَةٌ بِهَا ، فَوَجَبَ اعْتِبَارُ الْحَمْلِ فِيهَا دُونَ غَيْرِهِ ، وَلَوْ جَازَ اعْتِبَارُ الشُّهُورِ ؛ لِأَنَّهَا مَذْكُورَةٌ فِي آيَةٍ أُخْرَى لَجَازَ اعْتِبَارُ الْحَيْضِ مَعَ الْحَمْلِ فِي الْمُطَلَّقَةِ ؛ لِأَنَّهَا مَذْكُورَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ وَفِي سُقُوطِ اعْتِبَارِ الْحَيْضِ مَعَ الْحَمْلِ دَلِيلٌ عَلَى سُقُوطِ اعْتِبَارِ الشُّهُورِ مَعَ الْحَمْلِ .

(328/770)

وَقَدْ رَوَى مَنْصُورٌ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ الْأَسْوَدِ عَنْ أَبِي السَّنَابِلِ بْنِ بَعْكَكٍ : ﴿ أَنَّ سبيعة بِنْتَ الْحَارِثِ وَضَعَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ ، فَتَشَوَّقَتْ لِلنِّكَاحِ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنْ تَفْعَلْ فَقَدْ خَلَا أَجَلُهَا ﴾ .

وَرَوَى يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : اخْتَلَفَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ فِي ذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُرَيْبًا إلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ : ﴿ إنَّ سبيعة وَضَعَتْ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا بِأَيَّامٍ ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ ﴾ وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ﴿ عَنْ سبيعة أَنَّهَا وَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا بِشَهْرَيْنِ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَزَوَّجِي ﴾ وَجَعَلَ أَصْحَابُنَا عِدَّةَ امْرَأَةِ الصَّغِيرِ مِنْ الْوَفَاةِ الْحَمْلَ إذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ امْرَأَةِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَلَا بَيْنَ مَنْ

يَلْحَقُهُ بِالنَّسَبِ أَوْ لَا يَلْحَقُهُ .

بَابُ السُّكْنَى لِلْمُطَلَّقَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

(329/770)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اتَّفَقَ الْجَمِيعُ مِنْ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ عَلَى وُجُوبِ السُّكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : " لَا سُكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ إنَّمَا هِيَ لِلرَّجْعِيَّةِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الرَّجْعِيَّةَ وَالْمَبْتُوتَةَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ بَقِيَ مِنْ طَلَاقِهَا وَاحِدَةٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يُطَلِّقَهَا لِلْعِدَّةِ إذَا أَرَادَ طَلَاقَهَا بِالْآيَةِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يُطَلِّقُهَا طَاهِرًا مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا ﴾ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ التَّطْلِيقَةِ الْأُولَى وَبَيْنَ الثَّالِثَةِ فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قَدْ تَضَمَّنَ الْبَائِنَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ وَجَبَ ذَلِكَ لِلْجَمِيعِ مِنْ الْبَائِنِ وَالرَّجْعِيِّ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الرَّجْعِيَّ

قِيلَ لَهُ : هَذَا أَحَدُ مَا انْتَظَمَتْهُ الْآيَةُ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ الْخِطَابِ فِي الرَّجْعِيِّ دُونَ الْبَائِنِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ وَهُوَ عُمُومٌ فِي الْبَائِنِ وَالرَّجْعِيِّ .

(330/770)

ثُمَّ قَوْلُهُ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إنَّمَا هُوَ حُكْمٌ خَاصٌّ فِي الرَّجْعِيِّ ، وَلَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَكُونَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ عَامًّا فِي الْجَمِيعِ . وَاحْتَجَّ ابْنُ أَبِي لَيْلَى بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ، وَسَنَتَكَلَّمُ فِيهِ عِنْدَ ذِكْرِ نَفَقَةِ الْمَبْتُوتَةِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَاخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي نَفَقَةِ الْمَبْتُوتَةِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ حَامِلًا كَانَتْ أَوْ غَيْرَ حَامِلٍ " وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : " لَا سُكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ وَلَا نَفَقَةَ " ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّ لَهَا السُّكْنَى وَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ : " لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ حَامِلٍ " وَكَانَ يُرَى أَنَّهَا تَنْتَقِلُ إنْ شَاءَتْ ، وَقَالَ مَالِكٌ : " لِلْمَبْتُوتَةِ السُّكْنَى وَلَا نَفَقَةَ لَهَا إلَّا أَنْ

تَكُونَ حَامِلًا " ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّ عَلَيْهِ نَفَقَةَ الْحَامِلِ الْمَبْتُوتَةِ إنْ كَانَ مُوسِرًا وَإِنْ كَانَ مُعْسِرًا فَلَا نَفَقَةَ لَهَا عَلَيْهِ .

(331/770)

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ : " لِلْمَبْتُوتَةِ السُّكْنَى وَلَا نَفَقَةَ لَهَا إلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا " قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ ؛ وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الدَّلَالَةَ عَلَى وُجُوبِ نَفَقَةِ الْمَبْتُوتَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ السُّكْنَى لَمَّا كَانَتْ حَقًّا فِي مَالٍ وَقَدْ أَوْجَبَهَا اللَّهُ لَهَا بِنَصِّ الْكِتَابِ ؛ إذْ كَانَتْ الْآيَةُ قَدْ تَنَاوَلَتْ الْمَبْتُوتَةَ وَالرَّجْعِيَّةَ فَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ وُجُوبَ النَّفَقَةِ ؛ إذْ كَانَتْ السُّكْنَى حَقًّا فِي مَالٍ وَهِيَ بَعْضُ النَّفَقَةِ .

وَالثَّانِي : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ وَالْمُضَارَّةُ تَقَعُ فِي النَّفَقَةِ كَهِيَ فِي السُّكْنَى وَالثَّالِثُ : قَوْلُهُ : ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ وَالتَّضْيِيقُ قَدْ يَكُونُ فِي النَّفَقَةِ أَيْضًا ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهَا وَلَا يُضَيِّقَ عَلَيْهَا فِيهَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الْمَبْتُوتَةَ وَالرَّجْعِيَّةَ ؛ ثُمَّ لَا تَخْلُو هَذِهِ النَّفَقَةُ مِنْ أَنْ

يَكُونَ وُجُوبُهَا لِأَجْلِ الْحَمْلِ أَوْ ؛ لِأَنَّهَا مَحْبُوسَةٌ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهَا ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ النَّفَقَةَ وَاجِبَةٌ لِلرَّجْعِيَّةِ بِالْآيَةِ لَا لِلْحَمْلِ بَلْ ؛ لِأَنَّهَا مَحْبُوسَةٌ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ وَجَبَ أَنْ تَسْتَحِقَّ الْمَبْتُوتَةُ النَّفَقَةَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ ؛ إذْ قَدْ عُلِمَ ضَمِيرُ الْآيَةِ فِي عِلِّيَّةِ اسْتِحْقَاقِ النَّفَقَةِ لِلرَّجْعِيَّةِ ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ لِعِلَّةِ أَنَّهَا مَحْبُوسَةٌ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ ؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ الَّذِي تَقُومُ الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ الْمَنْطُوقِ بِهِ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ نَفَقَةَ الْحَامِلِ لَا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ مُسْتَحَقَّةً لِلْحَمْلِ أَوْ لِأَنَّهَا مَحْبُوسَةٌ عَلَيْهِ فِي بَيْتِهِ ، فَلَوْ كَانَتْ مُسْتَحَقَّةً لِلْحَمْلِ لَوَجَبَ أَنَّ الْحَمْلَ لَوْ كَانَ لَهُ مَالٌ أَنْ يُنْفَقَ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ كَمَا أَنَّ نَفَقَةَ الصَّغِيرِ فِي مَالِ نَفْسِهِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ الْحَمْلَ إذَا كَانَ لَهُ مَالٌ كَانَتْ نَفَقَةُ أُمِّهِ عَلَى الزَّوْجِ لَا فِي مَالِ الْحَمْلِ دَلَّ عَلَى أَنَّ وُجُوبَ النَّفَقَةِ مُتَعَلِّقٌ بِكَوْنِهَا مَحْبُوسَةً فِي بَيْتِهِ .

وَأَيْضًا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ نَفَقَةُ الْحَامِلِ فِي مَالِ الْحَمْلِ إذَا كَانَ لَهُ مَالٌ ، كَمَا أَنَّ نَفَقَتَهُ بَعْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ مَالِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ نَفَقَتَهَا فِي الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ لَمْ تَجِبْ فِي مَالِ الْحَمْلِ وَجَبَ مِثْلُهُ فِي الْبَائِنِ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةُ الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا فِي نَصِيبِ الْحَمْلِ مِنْ الْمِيرَاثِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا فَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْحَامِلِ بِالذِّكْرِ فِي إيجَابِ النَّفَقَةِ ؟ قِيلَ لَهُ : قَدْ دَخَلَتْ فِيهِ الْمُطَلَّقَةُ الرَّجْعِيَّةُ وَلَمْ يَمْنَعْ نَفْيَ النَّفَقَةِ لِغَيْرِ الْحَامِلِ ، فَكَذَلِكَ فِي الْمَبْتُوتَةِ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحَمْلَ ؛ لِأَنَّ مُدَّتَهُ قَدْ تَطُولُ وَتَقْصُرُ ، فَأَرَادَ إعْلَامَنَا وُجُوبَ النَّفَقَةِ مَعَ طُولِ

(334/770)

مُدَّةِ الْحَمْلِ الَّتِي هِيَ فِي الْعِدَّةِ أَطْوَلُ مِنْ مُدَّةِ الْحَيْضِ وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ أَنَّ النَّاشِزَةَ إذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا لَا تَسْتَحِقُّ النَّفَقَةَ مَعَ بَقَاءِ الزَّوْجِيَّةِ ، لِعَدَمِ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا فِي بَيْتِ الزَّوْجِ ، وَمَتَى عَادَتْ إلَى بَيْتِهِ اسْتَحَقَّتْ النَّفَقَةَ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي تَسْتَحِقُّ بِهِ النَّفَقَةَ هُوَ تَسْلِيمُ نَفْسِهَا فِي بَيْتِ الزَّوْجِ ، فَلَمَّا اتَّفَقْنَا وَمَنْ أَوْجَبَ السُّكْنَى عَلَى وُجُوبِ السُّكْنَى وَصَارَتْ بِهَا مُسَلِّمَةً لِنَفْسِهَا فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَجَبَ أَنْ تَسْتَحِقَّ النَّفَقَةَ وَأَيْضًا لَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ الْمُطَلَّقَةَ الرَّجْعِيَّةَ تَسْتَحِقُّ النَّفَقَةَ فِي الْعِدَّةِ وَجَبَ أَنْ تَسْتَحِقَّهَا الْمَبْتُوتَةُ ،

وَالْمَعْنَى فِيهَا أَنَّهَا مُعْتَدَّةٌ مِنْ طَلَاقٍ ، وَإِنْ شِئْت قُلْت : إنَّهَا مَحْبُوسَةٌ عَلَيْهِ بِحُكْمِ عَقْدٍ صَحِيحٍ ، وَإِنْ شِئْت قُلْت : إنَّهَا مُسْتَحِقَّةٌ لِلسُّكْنَى ، فَأَيُّ هَذِهِ الْمَعَانِي اعْتَلَلْت بِهِ صَحَّ الْقِيَاسُ عَلَيْهَا .

(335/770)

وَمِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ مَا رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ الشَّعْبِيِّ : ﴿ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا طَلَاقًا بَائِنًا ، فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَا نَفَقَةَ لَك وَلَا سُكْنَى ، قَالَ : فَأَخْبَرْت بِذَلِكَ النَّخَعِيَّ فَقَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ فَقَالَ : لَسْنَا بِتَارِكِي آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَعَلَّهَا أَوْهَمَتْ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ ﴾ وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ سَلَمَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا حِينَ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا ثَلَاثًا سُكْنَى وَلَا نَفَقَةً ، فَذَكَرْت ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ : قَدْ رُفِعَ ذَلِكَ إلَى عُمَرَ فَقَالَ : لَا نَدَعُ كِتَابَ رَبِّنَا وَلَا

(336/770)

سُنَّةَ نَبِيِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ : لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ ﴾ فَقَدْ نَصَّ هَذَانِ الْخَبَرَانِ عَلَى إِيجَابِ النَّفَقَةِ وَالسُّكْنَى ، وَفِي الْأَوَّلِ سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ " وَلَوْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ : " لَا نَدَعُ كِتَابَ رَبِّنَا وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا " يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَصًّا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِيجَابِهِمَا وَاحْتَجَّ الْمُبْطِلُونَ لِلسُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ وَمَنْ نَفَى النَّفَقَةَ دُونَ السُّكْنَى بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ هَذَا ، وَهَذَا حَدِيثٌ قَدْ ظَهَرَ مِنْ السَّلَفِ النَّكِيرُ عَلَى رَاوِيهِ ، وَمِنْ شَرْطِ قَبُولِ أَخْبَارِ الْآحَادِ تَعَرِّيهَا مِنْ نَكِيرِ السَّلَفِ أَنْكَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ .

وَرَوَى الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنَّ مَرْوَانَ ذَكَرَ لِعَائِشَةَ حَدِيثَ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَتْ : لَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تَذْكُرَ حَدِيثَ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ وَقَالَتْ فِي بَعْضِهِ : مَا لِفَاطِمَةَ خَيْرٌ فِي أَنْ تَذْكُرَ هَذَا الْحَدِيثَ يَعْنِي قَوْلَهَا : " لَا سُكْنَى لَك وَلَا نَفَقَةَ " وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ : تِلْكَ امْرَأَةٌ فَتَنَتْ النَّاسَ ، اسْتَطَالَتْ عَلَى أَحْمَائِهَا بِلِسَانِهَا ، فَأُمِرَتْ بِالِانْتِقَالِ .

وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : أَنْكَرَ النَّاسُ عَلَيْهَا مَا كَانَتْ تُحَدِّثُ بِهِ .

وَرَوَى الْأَعْرَجُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَهَا : " اعْتَدِّي فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ " ؛ قَالَ : وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ أُسَامَةَ يَقُولُ : كَانَ أُسَامَةُ إذَا ذَكَرَتْ فَاطِمَةُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا رَمَاهَا بِمَا كَانَ فِي يَدِهِ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يُنْكِرُ عَلَيْهَا هَذَا النَّكِيرَ إلَّا وَقَدْ عَلِمَ بُطْلَانَ مَا رَوَتْهُ وَرَوَى عَمَّارُ بْنُ رزيق عَنْ أَبِي إسْحَاقَ قَالَ : كُنْت عِنْدَ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ الشَّعْبِيُّ : حَدَّثَتْنِي فَاطِمَةُ

(338/770)

بِنْتُ قَيْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لَهَا : " لَا سُكْنَى لَك وَلَا نَفَقَةَ " قَالَ : فَرَمَاهُ الْأَسْوَدُ بِحَصًى ثُمَّ قَالَ : وَيْلُك أَتُحَدِّثُ بِمِثْلِ هَذَا ؟ قَدْ رُفِعَ ذَلِكَ إلَى عُمَرَ فَقَالَ : لَسْنَا بِتَارِكِي كِتَابِ رَبِّنَا وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا تَدْرِي لَعَلَّهَا كَذَبَتْ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ : " أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ أَفْتَتْ بِنْتَ أَخِيهَا وَقَدْ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا بِالِانْتِقَالِ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ مَرْوَانُ ، فَأَرْسَلَ إلَى فَاطِمَةَ يَسْأَلُهَا عَلَى ذَلِكَ ، فَذَكَرَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْتَاهَا بِذَلِكَ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ مَرْوَانُ وَقَالَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ قَالَتْ فَاطِمَةُ : إنَّمَا هَذَا فِي الرَّجْعِيِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ

أَمْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فَقَالَ مَرْوَانُ : لَمْ أَسْمَعْ بِهَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلَك وَسَآخُذُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْت النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَقَدْ ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّلَفِ النَّكِيرُ عَلَى فَاطِمَةَ فِي رِوَايَتِهَا لِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُنْكِرُونَ رِوَايَاتِ الْأَفْرَادِ بِالنَّظَرِ وَالْمُقَايَسَةِ ، فَلَوْلَا أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا خِلَافَهُ مِنْ السُّنَّةِ وَمِنْ ظَاهِرِ الْكِتَابِ لَمَا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهَا وَقَدْ اسْتَفَاضَ خَبَرُ فَاطِمَةَ فِي الصَّحَابَةِ

(339/770)

فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلَّا شَيْئًا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَوَاهُ الْحَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا وَالْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا : " لَا نَفَقَةَ لَهُمَا وَتَعْتَدَّانِ حَيْثُ شَاءَتَا " .

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا فِي رَدِّ خَبَرِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ مِنْ جِهَةِ ظُهُورِ النَّكِيرِ مِنْ السَّلَفِ عَلَيْهَا وَفِي رِوَايَتِهَا وَمُعَارَضَةُ حَدِيثِ عُمَرَ إيَّاهُ يُلْزِمُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ نُفَاةِ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ وَمِمَّنْ نَفَى النَّفَقَةَ وَأَثْبَتَ السُّكْنَى ، وَهُوَ لِمَنْ نَفَى النَّفَقَةَ دُونَ السُّكْنَى أَلْزَمُ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوا حَدِيثَهَا فِي نَفْيِ السُّكْنَى لِعِلَّةٍ أَوْجَبَتْ ذَلِكَ ، فَتِلْكَ الْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا هِيَ الْمُوجِبَةُ لِتَرْكِ حَدِيثِهَا فِي نَفْيِ النَّفَقَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا لَمْ يُقْبَلْ حَدِيثُهَا فِي نَفْيِ السُّكْنَى لِمُخَالَفَتِهِ لِظَاهِرِ الْكِتَابِ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ قِيلَ لَهُ : قَدْ احْتَجَّتْ هِيَ فِي أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمُطَلَّقَةِ الرَّجْعِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ جَازَ عَلَيْهَا الْوَهْمُ وَالْغَلَطُ فِي رِوَايَتِهَا حَدِيثًا مُخَالِفًا لِلْكِتَابِ فَكَذَلِكَ سَبِيلُهَا فِي النَّفَقَةِ .

(340/770)

وَلِلْحَدِيثِ عِنْدَنَا وَجْهٌ صَحِيحٌ يَسْتَقِيمُ عَلَى مَذْهَبِنَا فِيمَا رَوَتْهُ مِنْ نَفْيِ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّهَا اسْتَطَالَتْ بِلِسَانِهَا عَلَى أَحْمَائِهَا فَأَمَرُوهَا بِالِانْتِقَالِ وَكَانَتْ سَبَبَ النَّقْلَةِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَأْوِيلِهِ : " أَنْ تَسْتَطِيلَ عَلَى أَهْلِهِ فَيُخْرِجُوهَا " فَلَمَّا كَانَ سَبَبُ النَّقْلَةِ مِنْ جِهَتِهَا كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ النَّاشِزَةِ ، فَسَقَطَتْ نَفَقَتُهَا وَسُكْنَاهَا جَمِيعًا ، فَكَانَتْ الْعِلَّةُ الْمُوجِبَةُ لِإِسْقَاطِ النَّفَقَةِ هِيَ الْمُوجِبَةُ لِإِسْقَاطِ السُّكْنَى ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ أَصْلِنَا الَّذِي قَدَّمْنَا فِي أَنَّ اسْتِحْقَاقَ النَّفَقَةِ مُتَعَلِّقٌ بِاسْتِحْقَاقِ السُّكْنَى .

فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَتْ النَّفَقَةُ كَالسُّكْنَى ؛ لِأَنَّ السُّكْنَى حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ تَرَاضِيهِمَا عَلَى

إسْقَاطِهَا ، وَالنَّفَقَةُ حَقٌّ لَهَا لَوْ رَضِيَتْ بِإِسْقَاطِهَا لَسَقَطَتْ قِيلَ لَهُ : لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي وَجَبَ قِيَاسُهَا عَلَيْهَا ؛

وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّكْنَى فِيهَا مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ كَوْنُهَا فِي بَيْتِ الزَّوْجِ .

(341/770)

وَالْآخَرُ : حَقٌّ لَهَا وَهُوَ مَا يَلْزَمُ فِي الْمَالِ مِنْ أُجْرَةِ الْبَيْتِ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ، وَلَوْ رَضِيَتْ بِأَنْ تُعْطَى هِيَ الْأُجْرَةُ وَتُسْقِطَهَا عَنْ الزَّوْجِ جَازَ ، فَمِنْ حَيْثُ هِيَ حَقٌّ فِي الْمَالِ قَدْ اسْتَوَيَا وَاخْتَلَفُوا فِي نَفَقَةِ الْحَامِلِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَشُرَيْحٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ : " نَفَقَتُهَا مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرٌ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحَسَنُ وَابْنُ الْمُسَيِّبِ وَعَطَاءٌ " لَا نَفَقَةَ لَهَا فِي مَالِ الزَّوْجِ بَلْ هِيَ عَلَى نَفْسِهَا " وَاخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ أَيْضًا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ : " لَا سُكْنَى لَهَا وَلَا نَفَقَةَ فِي مَالِ الْمَيِّتِ حَامِلًا كَانَتْ أَوْ غَيْرَ حَامِلٍ " وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : " نَفَقَتُهَا فِي مَالِ الزَّوْجِ بِمَنْزِلَةِ الدَّيْنِ عَلَى الْمَيِّتِ إذَا كَانَتْ حَامِلًا " وَقَالَ مَالِكٌ : " نَفَقَتُهَا عَلَى نَفْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَامِلًا وَلَهَا السُّكْنَى إنْ كَانَتْ الدَّارُ لِلزَّوْجِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَالْمَرْأَةُ أَحَقُّ

بِسُكْنَاهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي بَيْتٍ بِكِرَاءٍ فَأَخْرَجُوهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا سُكْنَى فِي مَالِ الزَّوْجِ " ، هَذِهِ رِوَايَةُ ابْنِ وَهْبٍ .

(342/770)

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : " لَا نَفَقَةَ لَهَا فِي مَالِ الزَّوْجِ الْمَيِّتِ وَلَهَا السُّكْنَى إنْ كَانَ الدَّارُ لِلْمَيِّتِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَهِيَ أَحَقُّ بِالسُّكْنَى مِنْ الْغُرَمَاءِ وَتُبَاعُ لِلْغُرَمَاءِ وَيُشْتَرَطُ السُّكْنَى عَلَى الْمُشْتَرِي " وَقَالَ الْأَشْجَعِيُّ عَنْ الثَّوْرِيِّ : " إذَا كَانَتْ حَامِلًا أُنْفِقَ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ حَتَّى تَضَعَ ، فَإِذَا وَضَعَتْ أُنْفِقَ عَلَى الصَّبِيِّ مِنْ نَصِيبِهِ " .

وَرَوَى الْمُعَافَى عَنْهُ أَنَّ نَفَقَتَهَا مِنْ حِصَّتِهَا وَقَالَ

الْأَوْزَاعِيُّ فِي الْمَرْأَةِ يَمُوتُ زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ : " فَلَا نَفَقَةَ لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ أُمَّ وَلَدٍ فَلَهَا النَّفَقَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ حَتَّى تَضَعَ " وَقَالَ اللَّيْثُ فِي أُمِّ الْوَلَدِ إذَا كَانَتْ حَامِلًا مِنْهُ : " فَإِنَّهُ يُنْفِقُ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ ، فَإِنْ وَلَدَتْ كَانَ ذَلِكَ فِي حَظِّ وَلَدِهَا ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ كَانَ ذَلِكَ دَيْنًا يُتْبَعُ بِهِ " وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا النَّفَقَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ " وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : " لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ " .

وَالْآخَرُ : " لَا سُكْنَى لَهَا وَلَا نَفَقَةَ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنْ لَا نَفَقَةَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا غَيْرِ الْحَامِلِ وَلَا سُكْنَى ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْحَامِلُ مِثْلَهَا لِاتِّفَاقِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ النَّفَقَةَ غَيْرُ مُسْتَحَقَّةٍ لِلْحَمْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يُوجِبْهَا فِي نَصِيبِ الْحَمْلِ مِنْ الْمِيرَاثِ وَإِنَّمَا قَالُوا فِيهِ قَوْلَيْنِ ، قَائِلٌ يَجْعَلُ نَفَقَتَهَا مِنْ نَصِيبِهَا ، وَقَائِلٌ يَجْعَلُ النَّفَقَةَ مِنْ جَمِيعِ مَالِ الْمَيِّتِ ، وَلَمْ يُوجِبْهَا أَحَدٌ فِي حِصَّةِ الْحَمْلِ ؟ فَلَمَّا لَمْ تَجِبْ النَّفَقَةُ لِأَجْلِ الْحَمْلِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَكُونَ مُسْتَحَقَّةً لِأَجْلِ كَوْنِهَا فِي الْعِدَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ وَجَبَتْ لِلْعِدَّةِ لَوَجَبَتْ لِغَيْرِ الْحَامِلِ ، فَلَمْ يَبْقَ وَجْهٌ تَسْتَحِقُّ بِهِ النَّفَقَةَ وَأَيْضًا لَمَّا لَمْ تَسْتَحِقَّ السُّكْنَى فِي مَالِ الزَّوْجِ بِدَلَائِلَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَسْتَحِقَّ النَّفَقَةَ وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّفَقَةَ إذَا وَجَبَتْ فَإِنَّمَا تَجِبُ حَالًّا فَحَالًّا ، فَلَمَّا مَاتَ الزَّوْجُ انْتَقَلَ مِيرَاثُهُ إلَى الْوَرَثَةِ ، وَلَيْسَ لِلزَّوْجِ مَالٌ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ الْوَارِثِ ، فَلَا يَجُوزُ إيجَابُهَا عَلَيْهِمْ . فَإِنْ قِيلَ : تَصِيرُ بِمَنْزِلَةِ الدَّيْنِ ، قِيلَ لَهُ : الدَّيْنُ الَّذِي يَثْبُتُ فِي مِيرَاثِ

الْمُتَوَفَّى إنَّمَا يَثْبُتُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا عَلَى الْمَيِّتِ فِي حَيَاتِهِ ، أَوْ يَتَعَلَّقُ وُجُوبُهُ بِسَبَبٍ كَانَ مِنْ الْمَيِّتِ قَبْلَ مَوْتِهِ مِثْلَ الْجِنَايَاتِ وَحَفْرِ الْبِئْرِ إذَا وَقَعَ فِيهَا إنْسَانٌ بَعْدَ مَوْتِهِ ؛ وَالنَّفَقَةُ خَارِجَةٌ عَنْ الْوَجْهَيْنِ ، فَلَا يَجُوزُ إيجَابُهَا فِي مَالِهِ لِعَدَمِ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ تَعَلُّقُ وُجُوبِ النَّفَقَةِ وَعَدَمُ مَالِهِ بِزَوَالِهِ إلَى الْوَرَثَةِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ النِّكَاحَ قَدْ بَطَلَ بِالْمَوْتِ وَأَنَّ مِلْكَ الْمَيِّتِ قَدْ زَالَ إلَى الْوَرَثَةِ ؟ فَلَمْ يَبْقَ لِإِيجَابِ النَّفَقَةِ وَجْهٌ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ غَيْرَ الْحَامِلِ لَا نَفَقَةَ لَهَا بِهَذِهِ الْعِلَّةِ ؟ فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ وَهُوَ عُمُومٌ فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَالْمُطَلَّقَةِ ، كَمَا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ عُمُومًا فِي الصِّنْفَيْنِ ؛ قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ خِطَابٌ لِلْأَزْوَاجِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ خِطَابٌ لَهُمْ ، وَقَدْ زَالَ عَنْهُمْ الْخِطَابُ بِالْمَوْتِ ، وَلَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خِطَابًا لِغَيْرِ الْأَزْوَاجِ ، فَلَمْ تَقْتَضِ الْآيَةُ إيجَابَ نَفَقَةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا بِحَالٍ .

(345/770)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الدَّلَالَةَ عَلَى أَحْكَامٍ : مِنْهَا أَنَّهُ إذَا رَضِيَتْ بِأَنْ تُرْضِعَهُ بِأَجْرِ مِثْلِهَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَبِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ غَيْرَهَا ، لِأَمْرِ اللَّهِ إيَّاهُ بِإِعْطَاءِ الْأَجْرِ إذَا أَرْضَعَتْ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَّ أَوْلَى بِحَضَانَةِ الْوَلَدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُجْرَةَ إنَّمَا تُسْتَحَقُّ بِالْفَرَاغِ مِنْ الْعَمَلِ وَلَا تُسْتَحَقُّ بِالْعَقْدِ ؛ لِأَنَّهُ أَوْجَبَهَا بَعْدَ الرَّضَاعِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ لَبَنَ الْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ عَيْنًا فَقَدْ أُجْرِيَ مَجْرَى الْمَنَافِعِ الَّتِي تُسْتَحَقُّ بِعُقُودِ الْإِجَارَاتِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُجِزْ أَصْحَابُنَا بَيْعَ لَبَنِ الْمَرْأَةِ كَمَا لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْبَيْعِ عَلَى الْمَنَافِعِ ، وَفَارَقَ لَبَنُ الْمَرْأَةِ بِذَلِكَ لَبَنَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِئْجَارُ شَاةٍ لِرَضَاعِ صَبِيٍّ ؛ لِأَنَّ الْأَعْيَانَ لَا تُسْتَحَقُّ بِعُقُودِ الْإِجَارَاتِ كَاسْتِئْجَارِ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ ؟ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : لَا تَشْتَطَّ الْمَرْأَةُ عَلَى الزَّوْجِ فِيمَا تَطْلُبُهُ مِنْ الْأُجْرَةِ وَلَا يُقَصِّرْ الزَّوْجُ لَهَا عَنْ الْمِقْدَارِ الْمُسْتَحَقِّ .

(346/770)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ ، قِيلَ : إنَّهُ إذَا طَلَبَتْ الْمَرْأَةُ أَكْثَرَ مِنْ أَجْرِ مِثْلِهَا وَرَضِيَتْ غَيْرُهَا بِأَنْ تَأْخُذَهُ بِأَجْرِ مِثْلِهَا فَلِلزَّوْجِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ الْأَجْنَبِيَّةَ وَيَكُونُ

ذَلِكَ فِي بَيْتِ الْأُمِّ ؛ لِأَنَّهَا أَحَقُّ بِإِمْسَاكِهِ وَالْكَوْنِ عِنْدَهُ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّفَقَةَ تُفْرَضُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ إمْكَانِهِ وَسَعَتِهِ ، وَأَنَّ نَفَقَةَ الْمُعْسِرِ أَقَلُّ مِنْ نَفَقَةِ الْمُوسِرِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ ، قِيلَ مَعْنَاهُ : مَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، يَعْنِي - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَا يُكَلَّفُ نَفَقَةَ الْمُوسِرِ فِي هَذِهِ الْحَالِ بَلْ عَلَى قَدْرِ إمْكَانِهِ يُنْفِقُ .

(347/770)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ، فِيهِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا مَا لَا يُطِيقُ ؛ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ ؛ إذْ كَانَ تَكْلِيفُ مَا لَا يُطَاقُ قَبِيحًا وَسَفَهًا فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُ فِي الْكِتَابِ تَأْكِيدًا لِحُكْمِهِ فِي الْعَقْلِ ، وَقَدْ تَضَمَّنَ مَعْنًى آخَرَ مِنْ جِهَةِ الْحُكْمِ وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ إذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّفَقَةِ لَمْ يُكَلِّفْهُ اللَّهُ الْإِنْفَاقَ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، وَإِذَا لَمْ يُكَلَّفْ الْإِنْفَاقَ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَجُزْ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ لِعَجْزِهِ عَنْ نَفَقَتِهَا ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْعَاجِزِ عَنْ نَفَقَةِ امْرَأَتِهِ وَبَيْنَهَا .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ آتَاهُ الطَّلَاقَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُطَلِّقَ قِيلَ لَهُ : قَدْ بَيَّنَ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُ النَّفَقَةَ فِي هَذِهِ الْحَالِ

فَلَا يَجُوزُ إجْبَارُهُ عَلَى الطَّلَاقِ مِنْ أَجْلِهَا ؛ لِأَنَّ فِيهِ إيجَابَ التَّفْرِيقِ بِشَيْءٍ لَمْ يَجِبْ وَأَيْضًا فَإِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ الْإِنْفَاقِ إلَّا مَا آتَاهُ ، وَالطَّلَاقُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْفَاقِ ، فَلَمْ يَدْخُلْ فِي اللَّفْظِ وَأَيْضًا إنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهُ مَا لَا يُطِيقُ وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يُكَلِّفُهُ كُلَّ مَا يُطِيقُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مِنْ خِطَابِ الْآيَةِ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ عَجْزِهِ عَنْ النَّفَقَةِ ؛ لِأَنَّ الْعُسْرَ يُرْجَى لَهُ الْيُسْرُ .

آخِرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(348/770)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الطَّلَاقِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾

فِيهَا سِتَّ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَّقَ حَفْصَةَ ، فَلَمَّا أَتَتْ أَهْلَهَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ .

وَقِيلَ لَهُ : رَاجِعْهَا فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ ، وَهِيَ مِنْ أَزْوَاجِك فِي الْجَنَّةِ .

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَوْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ عَمْرٍو ، وَطُفَيْلِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَعَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ .

وَهَذَا كُلُّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَمْثَلُ .

وَالْأَصَحُّ فِيهِ أَنَّهَا بَيَانٌ لِشَرْعٍ مُبْتَدَإٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ طَلَّقْتُمْ ﴾ خَبَرٌ عَنْهُ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ .

(349/770)

الثَّانِي : أَنَّهُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ أُمَّتُهُ ، وَغَايَرَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ مِنْ حَاضِرٍ وَغَائِبٍ [وَذَلِكَ] لُغَةٌ فَصِيحَةٌ .

كَمَا قَالَ : ﴿ حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ : تَقْدِيرُهُ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَهُمْ

إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .

وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُمْ : إِنَّ الْخِطَابَ لَهُ وَحْدَهُ لَفْظًا ، وَالْمَعْنَى لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ الْخِطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَاطَفَهُ بِقَوْلِهِ : يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ .

وَإِذَا كَانَ الْخِطَابُ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا لَهُ قَالَ : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ نِدَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْظِيمًا ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ﴾ ؛ فَذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَعْنَى تَقْدِمَتِهِمْ وَتَكْرِمَتِهِمْ ، ثُمَّ افْتَتَحَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ﴾ الْآيَةُ .

قَالَ الْقَاضِي : الصَّحِيحُ أَنَّ مَعْنَاهَا : يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْت أَنْتَ وَالْمُخْبَرُونَ الَّذِينَ أَخْبَرْتُهُمْ بِذَلِكَ النِّسَاءَ فَلْيَكُنْ طَلَاقُهُنَّ كَذَا ؛ وَسَاغَ هَذَا لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ يَقْضِي مُنَبَّأً .

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ صَحِيحٌ فِيهَا .

(350/770)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُنَّ اللَّاتِي دَخَلَ بِهِنَّ مِنْ الْأَزْوَاجِ ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهِنَّ خَرَجْنَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ

مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

قِيلَ : الْمَعْنَى فِي عِدَّتِهِنَّ ، وَاللَّامُ تَأْتِي بِمَعْنَى فِي ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ أَيْ فِي حَيَاتِي .

وَهَذَا فَاسِدٌ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي رِسَالَةِ الْمُلْجِئَةِ .

وَإِنَّمَا الْمَعْنَى فِيهِ : فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ الَّتِي تُعْتَبَرُ .

وَاللَّامُ عَلَى أَصْلِهَا ، كَمَا تَقُولُ : افْعَلْ كَذَا لِكَذَا ، وَيَكُونُ مَقْصُودُ الطَّلَاقِ وَالِاعْتِدَادِ مَآلَهُ الَّذِي يَنْتَهِي إلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يَعْنِي حَيَاةَ الْقِيَامَةِ الَّتِي هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ الدَّائِمَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ مَا هَذِهِ الْعِدَّةُ ؟ فَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : هُوَ زَمَانُ الطُّهْرِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هُوَ زَمَانُ الْحَيْضِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهَا الطُّهْرُ قَرَأَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ تَفْسِيرًا لَا قُرْآنًا ، رَوَاهُ ابْنُ عُمَرَ ، وَابْنُ مَسْعُودٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ ﴿ : أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَغَيَّظَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَحِيضَ ، ثُمَّ تَطْهُرَ ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ ؛ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا ؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ ﴾ .

وَهَذَا بَالِغٌ قَاطِعٌ ، لِأَجْلِ هَذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ أَنَّ الطَّلَاقَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : سُنَّةٌ وَبِدْعَةٌ ، وَاخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : طَلَاقُ السُّنَّةِ مَا جَمَعَ سَبْعَةَ شُرُوطٍ ؛ وَهِيَ أَنْ يُطَلِّقَهَا وَاحِدَةً ، وَهِيَ مِمَّنْ تَحِيضُ ، طَاهِرًا لَمْ يَمَسَّهَا فِي ذَلِكَ الطُّهْرِ ، وَلَا تَقَدَّمَهُ طَلَاقٌ فِي حَيْضٍ ، وَلَا تَبِعَهُ طَلَاقٌ فِي طُهْرٍ يَتْلُوهُ ، وَخَلَا عَنْ الْعِوَضِ ؛ وَهَذِهِ الشُّرُوطُ السَّبْعَةُ مُسْتَقْرَآتٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ الْمُتَقَدِّمِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَمَسَائِلِ الْفِقْهِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : طَلَاقُ السُّنَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي كُلِّ طُهْرٍ طَلْقَةً ، وَلَوْ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا فِي طُهْرٍ لَمْ يَكُنْ بِدْعَةً .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : طَلَاقُ السُّنَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي كُلِّ قُرْءٍ طَلْقَةً .

يُقَالُ ذَلِكَ لِفِقْهٍ يَتَحَصَّلُ ؛ وَهُوَ : أَنَّ السُّنَّةَ عِنْدَنَا فِي الطَّلَاقِ تُعْتَبَرُ بِالزَّمَانِ وَالْعَدَدِ .

وَفَارَقَ مَالِكٌ أَبَا حَنِيفَةَ بِأَنَّ مَالِكًا قَالَ : يُطَلِّقُهَا وَاحِدَةً فِي طُهْرٍ لَمْ يَمَسَّهَا فِيهِ ، وَلَا يَتْبَعُهُ طَلَاقٌ فِي الْعِدَّةِ ، وَلَا يَكُونُ الطُّهْرُ تَالِيًا لِحَيْضٍ وَقَعَ فِي الطَّلَاقِ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَحِيضَ ، ثُمَّ تَطْهُرَ ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ ؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ ﴾ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي طُهْرٍ جَامَعَهَا فِيهِ .

وَتَعَلَّقَ الشَّافِعِيُّ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ طَلَاقٍ ، كَانَ وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ .

وَإِنَّمَا رَاعَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الزَّمَانَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَمْ يَعْتَبِرْ الْعَدَدَ ، وَهَذِهِ غَفْلَةٌ عَنْ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فَإِنَّهُ قَالَ فِيهِ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، وَهَذَا يَدْفَعُ الثَّلَاثَ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : أَرَأَيْت لَوْ طَلَّقْتَهَا ثَلَاثًا ؟ قَالَ لَهُ : حَرُمَتْ عَلَيْك ، وَبَانَتْ مِنْك بِمَعْصِيَةٍ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : ظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ الثَّلَاثَ وَالْوَاحِدَةَ سَوَاءٌ .

وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ : وَلَوْلَا قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا

﴾ .

وَهَذَا يُبْطِلُ دُخُولَ الثَّلَاثِ تَحْتَ الْآيَةِ .

(353/770)

وَكَذَلِكَ قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ ، وَهُوَ نَمَطٌ بَدِيعٌ لَهُمْ .

وَأَمَّا مَالِكٌ فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ إطْلَاقُ الْآيَةِ كَمَا قَالُوا ، وَلَكِنَّ الْحَدِيثَ فَسَّرَهَا كَمَا قُلْنَا وَبَيَانُهُ التَّامُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَكُتُبِ الْمَسَائِلِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّعْبِيِّ : إنَّهُ يَجُوزُ طَلَاقٌ فِي طُهْرٍ جَامَعَ فِيهِ فَيَرُدُّهُ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ بِنَصِّهِ وَمَعْنَاهُ ، أَمَّا نَصُّهُ فَقَدْ قَدَّمْنَاهُ .

وَأَمَّا مَعْنَاهُ فَلِأَنَّهُ إذَا مُنِعَ مِنْ طَلَاقِ الْحَائِضِ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِهِ فَالطُّهْرُ الْمُجَامَعُ فِيهِ أَوْلَى بِالْمَنْعِ ؛ لِأَنَّهُ يَسْقُطُ الِاعْتِدَادُ بِهِ وَبِالْحَيْضِ التَّالِي لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ : مَعْنَاهُ احْفَظُوهَا ؛ تَقْدِيرُهُ احْفَظُوا الْوَقْتَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الطَّلَاقُ ، حَتَّى إذَا انْفَصَلَ الْمَشْرُوطُ مِنْهُ وَهُوَ الثَّلَاثَةُ قُرُوءٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ حَلَّتْ لِلْأَزْوَاجِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِدَّةَ هِيَ بِالْأَطْهَارِ وَلَيْسَتْ بِالْحَيْضِ .

وَيُؤَكِّدُهُ وَيُفَسِّرُهُ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ .

وَقُبُلُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ لُغَةً وَحَقِيقَةً ، بِخِلَافِ اسْتِقْبَالِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ غَيْرَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ مَنْ الْمُخَاطَبُ بِأَمْرِ الْإِحْصَاءِ ؛ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ الْأَزْوَاجُ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ الزَّوْجَاتُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ .

(354/770)

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا اللَّفْظِ الْأَزْوَاجُ ؛ لِأَنَّ الضَّمَائِرَ كُلَّهَا مِنْ ﴿ طَلَّقْتُمْ ﴾ ﴿ وَأَحْصُوا ﴾ وَ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إلَى الْأَزْوَاجِ ، وَلَكِنَّ الزَّوْجَاتِ دَاخِلَةٌ فِيهِ بِالْإِلْحَاقِ بِالزَّوْجِ ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ يُحْصِي لِيُرَاجِعَ ، وَيُنْفِقَ أَوْ يَقْطَعَ ، وَلِيُسْكِنَ أَوْ يُخْرِجَ ، وَلِيُلْحِقَ نَسَبَهُ أَوْ يَقْطَعَ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ ، وَتَنْفَرِدُ الْمَرْأَةُ دُونَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ يَفْتَقِرُ إلَى الْإِحْصَاءِ لِلْعِدَّةِ لِلْفَتْوَى عَلَيْهَا وَفَصْلِ الْخُصُومَةِ عِنْدَ الْمُنَازَعَةِ فِيهَا ؛ وَهَذِهِ فَوَائِدُ الْإِحْصَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ فِيمَا لَا يَتِمُّ الْإِحْصَاءُ إلَّا بِهِ وَهُوَ مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ الْعِدَّةِ ، وَمَحَلِّهَا ، وَأَنْوَاعِهَا :

فَأَمَّا أَسْبَابُهَا فَأَرْبَعَةٌ : وَهِيَ الطَّلَاقُ ، وَالْفَسْخُ ، وَالْوَفَاةُ ، وَانْتِقَالُ الْمِلْكِ .

[وَالْمِلْكُ] وَالْوَفَاةُ مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ ، وَالْفَسْخُ مَحْمُولٌ عَلَى الطَّلَاقِ ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ ، أَوْ هُوَ هُوَ .

وَالِاسْتِبْرَاءُ مَذْكُورٌ فِي

السُّنَّةِ ، وَلَيْسَ بِعِدَّةٍ ؛ لِأَنَّهُ حَيْضَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَسُمِّيَتْ مُدَّةُ الِاسْتِبْرَاءِ عِدَّةً لِأَنَّهَا مُدَّةٌ ذَاتُ عَدَدٍ تُعْتَبَرُ بِحِلٍّ وَتَحْرِيمٍ .

وَأَمَّا مَحِلُّهَا فَهِيَ الْحُرَّةُ وَالْأَمَةُ .

وَأَمَّا أَنْوَاعُهَا فَهِيَ أَرْبَعَةٌ : ثَلَاثَةُ أَقْرَاءٍ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ .

وَوَضْعُ الْحَمْلِ ، كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

(355/770)

وَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ ، فَهَذِهِ جُمْلَتُهَا ، وَفِيهَا تَفَاصِيلُ عَظِيمَةٌ بِاخْتِلَافِ الْأَسْبَابِ وَتَعَارُضِهَا ، وَاخْتِلَافُ أَحْوَالِ النِّسَاءِ ، وَالتَّدَخُّلُ الطَّارِئُ عَلَيْهَا ، وَالْعَوَارِضُ اللَّاحِقَةُ لَهَا ، بَيَانُهَا فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

وَمَحْصُولُهَا اللَّائِقُ بِهَذَا الْفَنِّ الَّذِي تَصَدَّيْنَا لَهُ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : الْقِسْمُ الْأَوَّلُ : الْمُعْتَادَةُ .

الْقِسْمُ الثَّانِي مُتَأَخِّرٌ حَيْضُهَا لِعُذْرٍ .

الْقِسْمُ الثَّالِثُ : الصَّغِيرَةُ .

الْقِسْمُ الرَّابِعُ الْآيِسَةُ .

فَأَمَّا الْمُعْتَادَةُ فَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ ؛ وَتَحِلُّ إذَا طَعَنَتْ فِي الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ ؛ لِأَنَّ الْأَطْهَارَ هِيَ الْأَقْرَاءُ ، وَقَدْ كَمُلَتْ ثَلَاثَةً .

وَأَمَّا مَنْ تَأَخَّرَ حَيْضُهَا لِمَرَضٍ ؛ فَقَالَ مَالِكٌ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَأَصْبَغُ : تَعْتَدُّ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ ثَلَاثَةً .

وَقَالَ أَشْهَبُ : هِيَ كَالْمُرْضِعِ بَعْدَ الْفِطَامِ بِالْحَيْضِ أَوْ بِالسَّنَةِ ، وَقَدْ طَلَّقَ حِبَّانُ بْنُ مُنْقِذٍ امْرَأَتَهُ وَهِيَ تُرْضِعُ فَمَكَثَتْ سَنَةً لَا تَحِيضُ لِأَجْلِ الرَّضَاعِ ، ثُمَّ مَرِضَ حِبَّانُ ، فَخَافَ أَنْ تَرِثَهُ إنْ مَاتَ فَخَاصَمَهَا إلَى عُثْمَانَ ، وَعِنْدَهُ عَلِيٌّ وَزَيْدٌ ، فَقَالَا : نَرَى أَنْ تَرِثَهُ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْقَوَاعِدِ ، وَلَا مِنْ الصِّغَارِ ؛ فَمَاتَ حِبَّانُ ، فَوَرِثَتْهُ ، وَاعْتَدَّتْ عِدَّةَ الْوَفَاةِ .

وَلَوْ تَأَخَّرَ الْحَيْضُ لِغَيْرِ مَرَضٍ وَلَا رَضَاعٍ فَإِنَّهَا تَنْتَظِرُ سَنَةً لَا حَيْضَ فِيهَا : تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ ثَلَاثَةً ؛ فَتَحِلُّ مَا لَمْ تَرْتَبْ بِحَمْلٍ ، فَإِنْ ارْتَابَتْ

بِحَمْلٍ أَقَامَتْ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ أَوْ خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ عَنْ عُلَمَائِنَا .

وَمَشْهُورُهَا خَمْسَةُ أَعْوَامٍ ؛ فَإِنْ تَجَاوَزَتْهَا حَلَّتْ .

وَقَالَ أَشْهَبُ : لَا تَحِلُّ أَبَدًا حَتَّى تَنْقَطِعَ عَنْهَا الرِّيبَةُ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَازَ أَنْ يَبْقَى الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا خَمْسَةَ أَعْوَامٍ جَازَ أَنْ يَبْقَى عَشْرَةً وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ مِثْلُهُ .

وَأَمَّا الَّتِي جُهِلَ حَيْضُهَا بِالِاسْتِحَاضَةِ فَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : تَعْتَدُّ سَنَةً ؛ وَهُوَ مَشْهُورُ قَوْلِ عُلَمَائِنَا .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : تَعْتَدُّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ بَعْدَ تِسْعَةٍ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ : عِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْقَرَوِيِّينَ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدِي .

وَأَمَّا الْمُرْتَابَةُ فَقَاسَهَا قَوْمٌ عَلَيْهَا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تَبْقَى أَبَدًا حَتَّى تَزُولَ الرِّيبَةُ .

وَأَمَّا الصَّغِيرَةُ فَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ كَيْفَمَا كَانَتْ حُرَّةً ، أَوْ أَمَةً ؛ مُسْلِمَةً ، أَوْ كِتَابِيَّةً فِي الْمَشْهُورِ عِنْدَنَا .

وَقَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ : إِنْ كَانَتْ أَمَةً فَعِدَّتُهَا شَهْرٌ وَنِصْفٌ .

وَقَالَ آخَرُونَ : شَهْرَانِ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحَيْضَةَ الْوَاحِدَةَ تَدُلُّ عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ ، وَالثَّانِيَةَ تَعَبُّدٌ ؛ فَلِذَلِكَ جُعِلَتْ قُرْأَيْنِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ الْحُرَّةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَانْظُرْهُ هُنَالِكَ مُجَرَّدًا .

(357/770)

وَأَمَّا الْأَشْهُرُ فَإِنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ لِأَجْلِ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ الَّتِي يَخْلُقُ اللَّهُ فِيهَا الْوَلَدَ ، وَهَذَا تَسْتَوِي فِيهِ الْحُرَّةُ وَالْأَمَةُ .

وَيُعَارِضُهُ أَنَّ عِدَّةَ الْوَفَاةِ عِنْدَهُمْ شَهْرَانِ ، وَخَمْسُ لَيَالٍ ، وَأَجَلُ الْإِيلَاءِ شَهْرَانِ ، وَأَجَلُ الْعُنَّةِ نِصْفُ عَامٍ .

وَالْأَحْكَامُ مُتَعَارِضَةٌ .

وَأَمَّا الْآيِسَةُ فَهِيَ مِثْلُهَا ، وَإِذَا أَشْكَلَ حَالُ الْيَائِسَةِ كَالصَّغِيرَةِ لِقُرْبِ السِّنِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْجِهَتَيْنِ فَإِنَّ عِدَّتَهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَلَا يُعْتَبَرُ بِالدَّمِ إلَّا أَنْ تَرْتَابَ مَعَ الْأَشْهُرِ فَتَذْهَبَ بِنَفْسِهَا إلَى زَوَالِ الرِّيبَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ قَوْلُهُ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ جَعَلَ اللَّهُ لِلْمُطَلَّقَةِ الْمُعْتَدَّةِ السُّكْنَى فَرْضًا وَاجِبًا وَحَقًّا لَازِمًا هُوَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يُمْسِكَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تُسْقِطَهُ عَنْ الزَّوْجِ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَسِيرَةٌ عَلَى أَكْثَرِ

الْمَذَاهِبِ .

قَالَ مَالِكٌ : لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ السُّكْنَى ، كَانَ الطَّلَاقُ وَاحِدًا أَوْ ثَلَاثًا .

وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى : لَا سُكْنَى إلَّا لِلرَّجْعِيَّةِ .

[وَقَالَ الضَّحَّاكُ : لَهَا أَنْ تَتْرُكَ السُّكْنَى ، فَجَعَلَهُ حَقًّا لَهَا ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّ السُّكْنَى لِلْمُطَلَّقَةِ الرَّجْعِيَّةِ] لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ .

(358/770)

وَإِنَّمَا عَرَفْنَا وُجُوبَهُ لِغَيْرِهَا مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَذَكَرْنَا التَّحْقِيقَ فِيهِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الضَّحَّاكِ فَيَرُدُّهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ وَهَذَا نَصُّ الْمَسْأَلَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ إضَافَةُ إسْكَانٍ ، وَلَيْسَتْ إضَافَةَ تَمْلِيكٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ حَقًّا عَلَى الْأَزْوَاجِ ، وَيَقْتَضِي قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى الزَّوْجَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ذَكَرَ اللَّهُ الْإِخْرَاجَ وَالْخُرُوجَ عَامًّا مُطْلَقًا ، وَلَكِنْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِخَالَتِهِ فِي الْخُرُوجِ فِي جِذَاذِ نَخْلِهَا ﴾ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مَعًا ، ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ وَكَانَ زَوْجُهَا طَلَّقَهَا آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ : لَا نَفَقَةَ لَك وَلَا سُكْنَى ﴾ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : لَا خَيْرَ لَهَا فِي ذِكْرِ هَذَا الْحَدِيثِ .

وَفِي مُسْلِمٍ : ﴿ قَالَتْ فَاطِمَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخَافُ أَنْ يُقْتَحَمَ عَلَيَّ قَالَ : اُخْرُجِي ﴾ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ : كَانَ فِي مَكَانٍ وَحِشٍ ، فَخِيفَ عَلَيْهَا .

(359/770)

وَقَالَ مَرْوَانُ : حَيْثُ عِيبَ عَلَيْهِ نَقْلُ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ حِينَ طَلَّقَهَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ بْنُ الْعَاصِ .

وَذَكَرَ حَدِيثَ فَاطِمَةَ إنْ كَانَ بِك الشَّرُّ فَحَسْبُك مَا بَيْنَ هَذَيْنِ مِنْ الشَّرِّ .

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ : لَا نَدَعُ كِتَابَ اللَّهِ وَلَا سُنَّةَ نَبِيِّنَا لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا تَدْرِي أَحَفِظَتْ أَمْ نَسِيَتْ .

فَأَنْكَرَ عُمَرُ وَعَائِشَةُ حَدِيثَ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ؛ لَكِنَّ عُمَرَ رَدَّهُ بِعُمُومِ الْقُرْآنِ ، وَرَدَّتْهُ عَائِشَةُ بِعِلَّةِ تَوَحُّشِ مَكَانِهَا ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ لَمْ يُخَصِّصْ عُمُومَ الْقُرْآنِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ قَالَتْ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ؛ فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلَاثِ .

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْآيَةَ فِي تَحْرِيمِ الْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ إنَّمَا هُوَ فِي الرَّجْعِيَّةِ ، وَصَدَقَتْ .

وَهَكَذَا هُوَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ فِي الْمَبْتُوتَةِ ثَبَتَ مِنْ الْآيَةِ الْأُخْرَى ؛ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ حَسْبَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَجَاءَ مِنْ هَذَا أَنَّ لُزُومَ الْبَيْتِ لِلْمُعْتَدَّةِ شَرْعٌ لَازِمٌ ، وَأَنَّ الْخُرُوجَ لِلْحَدَثِ وَالْبَذَاءِ وَالْحَاجَةِ إلَى الْمَعَاشِ وَخَوْفِ الْعَوْرَةِ مِنْ السَّكَنِ جَائِزٌ بِالسُّنَّةِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(360/770)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ فِي صِفَةِ الْخُرُوجِ : أَمَّا الْخُرُوجُ لِخَوْفِ الْبَذَاءِ وَالتَّوَحُّشِ وَالْحَاجَةِ إلَى الْمَعَاشِ ؛ فَيَكُونُ

انْتِقَالًا مَحْضًا .

وَأَمَّا الْخُرُوجُ لِلتَّصَرُّفِ لِلْحَاجَاتِ فَيَكُونُ بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ ؛ إِذْ لَا سَبِيلَ لَهَا إِلَى الْبَيْتِ عَنْ مَنْزِلِهَا ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ بِالْإِسْفَارِ وَتَرْجِعُ قَبْلَ الْإِغْطَاشِ وَتُمَكَّنُ فَحْمَةُ اللَّيْلِ ؛ قَالَ مَالِكٌ : وَلَا تَفْعَلُ ذَلِكَ دَائِمًا .

وَإِنَّمَا أَذِنَ لَهَا فِيهِ إِنْ احْتَاجَتْ إِلَيْهِ ، إِنَّمَا يَكُونُ خُرُوجُهَا ، فِي الْعِدَّةِ كَخُرُوجِهَا فِي النِّكَاحِ ؛ لِأَنَّ الْعِدَّةَ فَرْعُ النِّكَاحِ ، لَكِنَّ النِّكَاحَ يَقِفُ الْخُرُوجُ فِيهِ عَلَى إِذْنِ الزَّوْجِ ، وَيَقِفُ فِي الْعِدَّةِ عَلَى إِذْنِ اللَّهِ ؛ وَإِذْنُ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ بِقَدْرِ الْعُذْرِ الْمُوجِبِ لَهُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ وَكَانَ هَذَا فِي الْمُطَلَّقَةِ الرَّجْعِيَّةِ كَمَا بَيَّنَّا كَانَتْ السُّكْنَى حَقًّا عَلَيْهِنَّ لِلَّهِ ، وَكَانَتْ النَّفَقَةُ حَقًّا عَلَى الْأَزْوَاجِ ، فَسَقَطَتْ بِتَرْكِهِنَّ وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ النَّفَقَةَ مِنْ أَحْكَامِ الرَّجْعَةِ ، وَالسُّكْنَى مِنْ حُقُوقِ الْعِدَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ الزِّنَا .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْبَذَاءُ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ كُلُّ مَعْصِيَةٍ .

وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ الْخُرُوجُ مِنْ الْبَيْتِ ؛ وَاخْتَارَهُ ابْنُ عُمَرَ .

فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْخُرُوجُ لِلزِّنَا فَلَا وَجْهَ لَهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْخُرُوجَ هُوَ خُرُوجُ الْقَتْلِ وَالْإِعْدَامِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَثْنًى فِي حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْبَذَاءُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ كُلُّ مَعْصِيَةٍ فَوَهْمٌ ؛ لِأَنَّ الْغَيْبَةَ وَنَحْوَهَا مِنْ الْمَعَاصِي لَا تُبِيحُ الْإِخْرَاجَ وَلَا الْخُرُوجَ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْخُرُوجُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ صَحِيحٌ .

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ شَرْعًا إلَّا أَنْ يَخْرُجْنَ تَعَدِّيًا .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ السُّكْنَى ، وَحَرَّمَ الْخُرُوجَ وَالْإِخْرَاجَ تَحْرِيمًا عَامًّا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مَا بَيَّنَّاهُ ، وَرَتَّبْنَا عَلَيْهِ إيضَاحَ الْخُرُوجِ الْمَمْنُوعِ مِنْ الْجَائِزِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ : قَالَ جَمِيعُ

الْمُفَسِّرِينَ : أَرَادَ بِالْأَمْرِ هَاهُنَا الرَّغْبَةَ فِي الرَّجْعَةِ ، وَمَعْنَى الْقَوْلِ : التَّحْرِيضُ عَلَى طَلَاقِ الْوَاحِدَةِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الثَّلَاث ؛ فَإِنَّهُ إذَا طَلَّقَ ثَلَاثًا أَضَرَّ بِنَفْسِهِ عِنْدَ النَّدَمِ عَلَى الْفِرَاقِ ، وَالرَّغْبَةِ فِي الِارْتِجَاعِ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدَ إرَادَةِ الرَّجْعَةِ سَبِيلًا .

(362/770)

وَكَمَا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فِيهِ الْأَمْرُ بِالطَّلَاقِ فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامِعْ [فِيهِ لِئَلَّا يَضُرَّ بِالْمَرْأَةِ فِي تَطْوِيلِ الْعِدَّةِ ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ فِيهِ] النَّهْيُ عَنْ طَلَاقِ الثَّلَاثِ ، لِئَلَّا تَفُوتَ الرَّجْعَةُ عِنْدَمَا يَحْدُثُ لَهُ مِنْ الرَّغْبَةِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يَعْنِي قَارَبْنَ بُلُوغَ أَجَلِهِنَّ يَعْنِي الْأَجَلَ الْمُقَدَّرَ فِي انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ .

وَالْعِبَارَةُ عَنْ مُقَارَبَةِ الْبُلُوغِ [بِالْبُلُوغِ] سَائِغٌ لُغَةً وَمَعْلُومٌ شَرْعًا .

وَمِنْهُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ كَانَ لَا يُنَادِي حَتَّى يُقَالَ لَهُ أَصْبَحْت يَعْنِي قَارَبْت الصُّبْحَ ، وَلَوْ كَانَ لَا يُنَادِي حَتَّى يَرَى [وَكِيلُهُ] الصُّبْحَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُعْلِمُهُ هُوَ ، فَيَرْقَى

عَلَى السَّطْحِ بَعْدَ ذَلِكَ يُؤَذِّنُ لَكَانَ النَّاسُ يَأْكُلُونَ جُزْءًا مِنْ النَّهَارِ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا كَانَ يُقَالُ لَهُ : أَصْبَحْت أَيْ قَارَبْت ، فَيُنَادِي فَيُمْسِكُ النَّاسُ عَنْ الْأَكْلِ فِي وَقْتٍ يَنْعَقِدُ لَهُمْ فِيهِ الصَّوْمُ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ ، أَوْ مَعَهُ .

(363/770)

وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الشَّمَّاخِ : وَتَشْكُو بِعَيْنٍ مَا أَكَلَّ رِكَابُهَا وَقِيلَ الْمُنَادِي أَصْبَحَ الْقَوْمُ أَدْلِجْ يَعْنِي قَارَبَ الْقَوْمُ الصَّبَاحَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ يَعْنِي بِالرَّجْعَةِ ، أَوْ فَارِقُوهُنَّ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ مَعْنَاهُ أَوْ اتْرُكُوهُنَّ عَلَى حُكْمِ الطَّلَاقِ الْأَوَّلِ ؛ فَيَقَعُ الْفِرَاقُ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ بِالطَّلَاقِ الْمَاضِي لِتَرْكِ الْإِمْسَاكِ بِالرَّجْعَةِ ؛ إذْ قَدْ وَقَعَ الْفِرَاقُ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا لَهُ الِاسْتِدْرَاكُ بِالتَّمَسُّكِ بِالتَّصْرِيحِ بِالرَّجْعَةِ الْمُنَاقِضِ لِلتَّصْرِيحِ بِالطَّلَاقِ ، وَسُمِّيَ التَّمَادِي عَلَى حُكْمِ الْفِرَاقِ وَتَرْكِ التَّمَسُّكِ بِالتَّصْرِيحِ بِالرَّجْعَةِ فِرَاقًا مَجَازًا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْلُومٍ مِنْ الْإِشْهَادِ .

الثَّانِي : الْقَصْدُ إلَى الْخَلَاصِ مِنْ

النِّكَاحِ عِنْدَ تَعَذُّرِ الْوَصْلَةِ مَعَ عَدَمِ الْأُلْفَةِ لَا بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ ، حَسْبَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ

الْجَاهِلِيَّةِ ؛ كَانُوا يُطَلِّقُونَ الْمَرْأَةَ حَتَّى إذَا أَشْرَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ أَشْهَدَ بِرَجْعَتِهَا حَتَّى إذَا مَرَّ لِذَلِكَ مُدَّةٌ طَلَّقَهَا هَكَذَا ، كُلَّمَا رَدَّهَا طَلَّقَهَا ، فَإِذَا أَشْرَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ رَاجَعَهَا ، لَا رَغْبَةً ؛ لَكِنْ إضْرَارًا وَإِذَايَةً ، فَنُهُوا أَنْ يُمْسِكُوا أَوْ يُفَارِقُوا إلَّا بِالْمَعْرُوفِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ﴾ .

وَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ .

(364/770)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ ﴾ : يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ قَوْلَ الْمَرْأَةِ فِي انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ إذَا ادَّعَتْ ذَلِكَ فِيمَا يُمْكِنُ ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، تَمَامُهُ أَنَّ الزَّوْجَ لَهُ الرَّجْعَةُ فِي الْعِدَّةِ بِلَا خِلَافٍ ، وَالرَّجْعَةُ تَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ عِنْدَنَا ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَاللَّيْثُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا تَصِحُّ إلَّا بِالْقَوْلِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ التَّابِعُونَ قَدِيمًا ، بَيْدَ أَنَّ عُلَمَاءَنَا قَالُوا : إنَّ الرَّجْعَةَ لَا تَكُونُ بِالْفِعْلِ ، حَتَّى تَقْتَرِنَ بِهِ النِّيَّةُ ، فَيَقْصِدَ بِالْوَطْءِ أَوْ الْقُبْلَةِ الرَّجْعَةَ وَبِالْمُبَاشَرَةِ كُلِّهَا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَاللَّيْثُ : الْوَطْءُ مُجَرَّدًا رَجْعَةٌ ، وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَى أَصْلٍ ، هُوَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ هَلْ الرَّجْعِيَّةُ مُحَرِّمَةُ الْوَطْءِ أَمْ لَا ؟ فَعِنْدَنَا أَنَّهَا مُحَرِّمَةُ الْوَطْءِ ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَعَطَاءٌ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ :

وَطْؤُهَا مُبَاحٌ ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ فِي إحْدَى رِوَايَتَيْهِ .

وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ طَلَاقٌ لَا يَقْطَعُ النِّكَاحَ ؛ فَلَمْ يُحَرِّمْ الْوَطْءَ ، كَمَا لَوْ قَالَ : إنْ قَدِمَ زَيْدٌ فَأَنْتِ طَالِقٌ .

(365/770)

وَهَذَا لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ الْمُعَلَّقَ بِقُدُومِ زَيْدٍ لَمْ يَقَعْ ، هَذَا طَلَاقٌ وَاقِعٌ فَيَجِبُ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي تَحْرِيمِ الْوَطْءِ الْمَقْصُودِ مِنْ الْعَقْدِ ، لَا سِيَّمَا وَهِيَ جَارِيَةٌ [بِهِ] إلَى بَيْنُونَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ الْعِصْمَةِ ؛ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهَا مُحَرِّمَةُ الْوَطْءِ فَلَا بُدَّ مِنْ قَصْدِ الرَّدِّ ، وَحِينَئِذٍ يَصِحُّ مَعَهُ الرَّدُّ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا تَكُونُ الرَّجْعَةُ بِالْفِعْلِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِالْقَوْلِ وَلَا مُعْتَمَدَ لَهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ،

وَلَنَا كُلُّ ذَلِكَ ؛ فَأَمَّا الْقُرْآنُ فَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ؛ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ؛ إذْ الْإِمْسَاكُ يَكُونُ بِهِمَا عَادَةً ، وَيَكُونُ شَرْعًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ خِيَارَ الْمُعْتَقَةِ يَكُونُ إمْسَاكُهَا بِالْقَوْلِ بِأَنْ تَقُولَ : اخْتَرْت ، وَبِالْفِعْلِ بِأَنْ تُمَكِّنَ مِنْ وَطْئِهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ وَالرَّدُّ يَكُونُ تَارَةً بِالْقَوْلِ ، وَتَارَةً بِالْفِعْلِ .

وَمِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ لِلشَّافِعِيِّ قَوْلَيْنِ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ لِلْمُطَلَّقَةِ الرَّجْعِيَّةِ أَمْسَكْتُهَا ، هَلْ يَكُونُ رَجْعَةً أَمْ لَا ؟ قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُظَفَّرٍ الطَّبَرِيُّ : لَا يَكُونُ رَجْعَةً ؛ لِأَنَّ اسْتِبَاحَةَ الْوَطْءِ لَا تَكُونُ إلَّا بِلَفْظَيْنِ ، وَهُمَا قَوْلُهُ : رَاجَعْت ، أَوْ رَدَدْت ، كَمَا يَكُونُ النِّكَاحُ بِلَفْظَيْنِ وَهُمَا قَوْلُهُ : زَوَّجْت ، أَوْ نَكَحْت ، وَهَذَا مِنْ رَكِيكِ الْكَلَامِ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِ ذَلِكَ الْإِمَامِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ تَحَكُّمٌ .

(366/770)

وَالثَّانِي أَنَّهُ لَوْ صَحَّ أَنْ يَقِفَ عَلَى [لَفْظَيْنِ لَكَانَ وُقُوفُهُ عَلَى] لَفْظَيْ الْقُرْآنِ ، وَهُمَا رَدَدْت وَأَمْسَكْت اللَّذَانِ جَاءَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَهَا هُنَا أَوْلَى مِنْ لَفْظِ رَاجَعْت الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ ، بَيْدَ أَنَّهُ جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ : مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، كَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ لَفْظٌ ثَالِثٌ فِي النِّكَاحِ ، وَهُوَ فِي شَأْنِ

الْمَوْهُوبَةِ ؛ إذْ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُهَا بِمَا مَعَك مِنْ الْقُرْآنِ ؛ فَذَكَرَ النِّكَاحَ بِلَفْظِ التَّمْلِيكِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ مِنْ قَوْلِ عُلَمَائِنَا كَمَا تَقَدَّمَ : إنَّ الرَّجْعَةَ تَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَعَ النِّيَّةِ ، فَلَوْ خَلَا ذَلِكَ فِي نِيَّةٍ ، أَوْ كَانَتْ نِيَّةٌ دُونَ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ مَا حُكْمُهُ ؟ قَالَ أَشْهَبُ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ : إذَا عَرَى الْقَوْلُ أَوْ الْفِعْلُ عَنْ النِّيَّةِ فَلَيْسَا بِرَجْعَةٍ .

وَفِي الْمُدَوَّنَةِ أَنَّ الْوَطْءَ الْعَارِيَ مِنْ نِيَّةٍ لَيْسَ بِرَجْعَةٍ ، وَالْقَوْلُ الْعَارِي عَنْ النِّيَّةِ جَعَلَهُ رَجْعَةً ؛ إذَا قَالَ : رَاجَعْتُك وَكُنْت هَازِلًا ، فَعَلَى قَوْلِ عَلِيٍّ بِأَنَّ النِّكَاحَ بِالْهَزْلِ لَا يَلْزَمُ فَلَا يَكُونُ رَجْعَةً ؛ فَإِنْ كَانَتْ رَجْعَةً بِالنِّيَّةِ دُونَ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَحَمَلَهُ الْقَرَوِيُّونَ عَلَى قَوْلِ مَالِكٍ فِي الطَّلَاقِ وَالْيَمِينِ إنَّهُ يَصِحُّ بِالنِّيَّةِ دُونَ قَوْلٍ ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ أَسْرَعُ فِي الثُّبُوتِ مِنْ النِّكَاحِ .

(367/770)

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ : وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْوُجُوبِ بِمُطْلَقِ الْأَمْرِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ ، وَالشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ مَالِكٌ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَأَحْمَدُ ، وَالشَّافِعِيُّ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ : إنَّ الرَّجْعَةَ لَا تَفْتَقِرُ إلَى

الْقَبُولِ ، فَلَمْ تَفْتَقِرْ إلَى الْإِشْهَادِ ، كَسَائِرِ الْحُقُوقِ ، وَخُصُوصًا حِلُّ الظِّهَارِ بِالْكَفَّارَةِ .

وَرَكَّبَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ عَلَى وُجُوبِ الْإِشْهَادِ فِي الرَّجْعَةِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ : كُنْت رَاجَعْت أَمْسِ ، وَأَنَا أُشْهِدُ الْيَوْمَ ؛ لِأَنَّهُ إشْهَادٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالرَّجْعَةِ ؛ وَمِنْ شَرْطِ الرَّجْعَةِ الْإِشْهَادُ عَلَيْهَا ، فَلَا تَصِحُّ دُونَهُ ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْإِشْهَادَ فِي الرَّجْعَةِ تَعَبُّدٌ ، وَنَحْنُ لَا نُسَلِّمُ فِيهَا وَلَا فِي النِّكَاحِ .

بَلْ نَقُولُ : إنَّهُ مَوْضُوعٌ لِلتَّوَثُّقِ ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْإِقْرَارِ ، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْإِنْشَاءِ ، وَبَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ وَهِيَ فَرْعٌ غَرِيبٌ : إذَا رَاجَعَهَا بَعْدَ أَنْ ارْتَدَّتْ لَمْ تَصِحَّ الرَّجْعَةُ .

(368/770)

وَقَالَ الْمُزَنِيّ : تَصِحُّ لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ زَوْجَةٍ مُسْلِمَةٍ أَوْ مُرْتَدَّةٍ ؛ وَلِأَنَّ الرَّجْعَةَ تَصِحُّ فِي حَالِ كَوْنِهَا مُحَرَّمَةً بِالْإِحْرَامِ وَالْحَيْضِ ، كَذَلِكَ الرِّدَّةُ ، وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ فَإِنَّ الرَّجْعَةَ اسْتِبَاحَةُ فَرْجٍ مُحَرَّمٍ ، فَلَمْ تَجُزْ مَعَ الرِّدَّةِ ، كَالنِّكَاحِ ؛ وَالْمُحَرَّمَةُ وَالْحَائِضُ لَيْسَتَا بِمُحَرَّمَتَيْنِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْخَلْوَةُ بِهِمَا لِزَوْجِهِمَا .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لَوْ قَالَ بَعْدَ الْعِدَّةِ ، كُنْت رَاجَعْتهَا وَصَدَّقَتْهُ جَازَ ، وَلَوْ أَنْكَرَتْ

حَلَفَتْ ، وَذَلِكَ فِي مَسَائِلَ الْخِلَافِ مَشْرُوحٌ ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ بِإِعْمَالِ الْإِقْرَارِ فِي الرَّجْعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ : وَهَذَا يُوجِبُ اخْتِصَاصَ الشَّهَادَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ بِالذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ ذَوَيْ ﴾ مُذَكَّرٌ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَا مَدْخَلَ لِشَهَادَةِ النِّسَاءِ فِيمَا عَدَا الْأَمْوَالَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ : يَعْنِي لَا تُضَيِّعُوهَا وَلَا تُغَيِّرُوهَا ، وَأْتُوا بِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(369/770)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ : وَهَذِهِ آيَةٌ مُشْكِلَةٌ ، وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي تَأْوِيلِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ

أَنَّ مَعْنَاهَا إِذَا ارْتَبْتُمْ .

وَحُرُوفُ الْمَعَانِي يُبْدَلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَالُوا هَذَا اخْتَلَفُوا فِي الْوَجْهِ الَّذِي رَجَعَتْ فِيهِ إِنْ بِمَعْنَى إِذَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مَا رُوِيَ أَنَّ ﴿ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَ لَنَا عِدَّةَ الْحَائِضِ بِالْأَقْرَاءِ فَمَا حُكْمُ الْآيِسَةِ وَالصَّغِيرَةِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴾ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ وَهُوَ الثَّانِي : إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ عِدَّةَ الْحَائِضِ بِالْأَقْرَاءِ ، فَمَنْ انْقَطَعَ حَيْضُهَا ، وَهِيَ تَقْرُبُ مِنْ حَدِّ الِاحْتِمَالِ [فَوَاجِبٌ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ بِالْأَشْهُرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَمَنْ ارْتَفَعَتْ عَنْ حَدِّ الِاحْتِمَالِ] وَجَبَ عَلَيْهَا الِاعْتِدَادُ بِالْأَشْهُرِ بِالْإِجْمَاعِ ، لَا بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا رِيبَةَ فِيهَا .

الثَّالِثُ : قَالَ مُجَاهِدٌ : الْآيَةُ وَارِدَةٌ فِي الْمُسْتَحَاضَةِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَدْرِي دَمَ حَيْضٍ هُوَ أَوْ دَمَ عِلَّةٍ .

(370/770)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَحْقِيقِ الْمَقْصُودِ : أَمَّا وَضْعُ حُرُوفِ الْمَعَانِي إِبْدَالًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ .

وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي حُرُوفِ الْخَفْضِ ؛ وَإِنَّمَا الْآيَةُ وَارِدَةٌ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْعِدَّةِ مَوْضُوعٌ لِأَجْلِ

الرِّيبَةِ ؛ إذْ الْأَصْلُ بَرَاءَةُ الرَّحِمِ ، وَتَرْتَابُ لِشُغْلِهِ بِالْمَاءِ ؛ فَوُضِعَتْ الْعِدَّةُ لِأَجْلِ هَذِهِ الرِّيبَةِ ، وَلَحِقَهَا ضَرْبٌ مِنْ التَّعَبُّدِ .

وَيُحَقِّقُ هَذَا أَنَّ حَرْفَ " إنْ " يَتَعَلَّقُ بِالشَّرْطِ الْوَاجِبِ ، كَمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّرْطِ الْمُمْكِنِ ، وَعَلَى هَذَا خُرِّجَ قَوْلُهُ : " وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ " .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَلْجَئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ إلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ .

وَأَمَّا حَدِيثُ أُبَيٍّ فَغَيْرُ صَحِيحٍ ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ يَقُولُ فِي شَأْنِ الْعِدَّةِ : إنَّ تَفْسِيرَهَا : إنْ لَمْ تَدْرُوا مَا تَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهَا فَهَذِهِ سَبِيلُهَا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاَللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يَعْنِي الصَّغِيرَةَ ، وَعِدَّتُهَا أَيْضًا بِالْأَشْهُرِ ؛ لِتَعَذُّرِ الْأَقْرَاءِ فِيهَا عَادَةً ؛ وَالْأَحْكَامُ إنَّمَا أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى الْعَادَاتِ ، فَهِيَ تَعْتَدُّ بِالْأَشْهُرِ ، فَإِذَا رَأَتْ الدَّمَ فِي زَمَنِ احْتِمَالِهِ عِنْدَ النِّسَاءِ انْتَقَلَتْ إلَى الدَّمِ ، لِوُجُودِ الْأَصْلِ .

فَإِذَا وُجِدَ الْأَصْلُ لَمْ يَبْقَ لِلْبَدَلِ حُكْمٌ ، كَمَا أَنَّ الْمُسِنَّةَ إِذَا اعْتَدَّتْ بِالدَّمِ ، ثُمَّ انْقَطَعَ عَادَتْ إِلَى الْأَشْهُرِ .

رَوَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ : أَيُّمَا امْرَأَةٍ اعْتَدَّتْ حَيْضَةً أَوْ حَيْضَتَيْنِ ثُمَّ رَفَعَتْهَا حَيْضَتُهَا فَإِنَّهَا تَنْتَظِرُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ اسْتَبَانَ بِهَا حَمْلٌ فَذَلِكَ وَإِلَّا اعْتَدَّتْ بَعْدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ حَلَّتْ ، وَأَمَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّرَبُّصِ سَنَةً .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : تَبْقَى إِلَى سِنِّ الْيَأْسِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : تَعْتَدُّ سَنَةً ؛ وَإِنْ كَانَتْ مُسِنَّةً وَانْقَطَعَ حَيْضُهَا وَقَالَ النِّسَاءُ : إِنَّ مِثْلَهَا لَا تَحِيضُ اعْتَدَّتْ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ .

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ إِنَّهَا تَبْقَى إِلَى سِنِّ الْيَأْسِ فَإِنَّ مَعْنَاهُ إِذَا كَانَتْ مُرْتَابَةً بِحَمْلٍ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَشْهَبُ لَا تَحِلُّ أَبَدًا حَتَّى تَيْأَسَ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْمَرْءِ أَنْ يُنْكِحَ وَلَدَهُ الصِّغَارَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ عِدَّةَ مَنْ لَمْ يَحِضْ مِنْ النِّسَاءِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَلَا تَكُونُ عَلَيْهَا عِدَّةٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا نِكَاحٌ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ ، وَهُوَ بَدِيعٌ فِي فَنِّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ : هَذَا وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا فِي الْمُطَلَّقَةِ لِأَنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهَا ، وَإِلَيْهَا رَجَعَ عَقِبَ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا كَذَلِكَ لِعُمُومِ الْآيَةِ ، وَحَدِيثِ سُبَيْعَةَ فِي السُّنَّةِ ؛ وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّ بَرَاءَةَ الرَّحِمِ قَدْ حَصَلَتْ يَقِينًا ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ إِذَا وَضَعَتْ الْحَامِلُ مَا وَضَعَتْ مِنْ عَلَقَةٍ أَوْ مُضْغَةٍ حَلَّتْ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : لَا تَحِلُّ إِلَّا بِمَا يَكُونُ وَلَدًا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي وَضْعِ اللَّهِ الْعِدَّةَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أَنَّهَا الْمُدَّةُ الَّتِي فِيهَا يُخْلَقُ الْوَلَدُ فَوُضِعَتْ اخْتِبَارًا لِشَغْلِ الرَّحِمِ مِنْ فَرَاغِهِ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ : قَالَ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ : يَخْرُجُ عَنْهَا إِذَا طَلَّقَهَا ، وَيَتْرُكُهَا فِي الْمَنْزِلِ ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ فَلَوْ كَانَ مَعَهَا مَا قَالَ : أَسْكِنُوهُنَّ .

وَرَوَى ابْنُ نَافِعٍ قَالَ : قَالَ مَالِكٌ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ يَعْنِي الْمُطَلَّقَاتِ اللَّاتِي قَدْ بِنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، فَلَا رَجْعَةَ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَتْ حَامِلًا ؛ فَلَهَا السُّكْنَى وَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا كِسْوَةَ ؛ لِأَنَّهَا بَائِنٌ مِنْهُ ، لَا يَتَوَارَثَانِ وَلَا رَجْعَةَ لَهُ عَلَيْهَا .

وَإِنْ كَانَتْ حَامِلًا فَلَهَا النَّفَقَةُ وَالْكِسْوَةُ وَالْمَسْكَنُ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا .

فَأَمَّا مَنْ لَمْ تَبِنْ مِنْهُنَّ فَإِنَّهُنَّ نِسَاؤُهُمْ يَتَوَارَثْنَ ، وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ مَا كُنَّ فِي عِدَّتِهِنَّ ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِالسُّكْنَى لَهُنَّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ مَعَ نَفَقَتِهِنَّ وَكِسْوَتِهِنَّ ، كُنَّ حَوَامِلَ أَوْ غَيْرَ حَوَامِلَ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالسُّكْنَى لِلَّاتِي بِنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ فَجَعَلَ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَوَامِلِ اللَّائِي قَدْ بِنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي بَسْطِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقِهِ : أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ السُّكْنَى أَطْلَقَهَا لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ ، فَلَمَّا ذَكَرَ النَّفَقَةَ قَيَّدَهَا

بِالْحَمْلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُطَلَّقَةَ الْبَائِنَ لَا نَفَقَةَ لَهَا ؛ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ مَهَّدْنَا سُبُلَهَا قُرْآنًا وَسُنَّةً وَمَعْنًى فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَهَذَا مَأْخَذُهَا مِنْ الْقُرْآنِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَا حُجَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ رَاجِعٌ إلَى مَا قَبْلَهُ ، وَهِيَ الْمُطَلَّقَةُ الرَّجْعِيَّةُ .

قُلْنَا : لَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا لَمَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ ؛ فَإِنَّ الْمُطَلَّقَةَ الرَّجْعِيَّةَ يُنْفَقُ عَلَيْهَا حَامِلًا كَانَتْ أَوْ غَيْرَ حَامِلٍ ، فَلَمَّا خَصَّهَا بِذِكْرِ النَّفَقَةِ حَامِلًا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا الْبَائِنُ الَّتِي لَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا .

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ الْمُطَلَّقَةَ الرَّجْعِيَّةَ وَأَحْكَامَهَا حَتَّى بَلَغَ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ حُكْمًا يَعُمُّ الْمُطَلَّقَاتِ كُلَّهُنَّ مِنْ تَعْدِيدِ الْأَشْهُرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ [مِنْ الْأَحْكَامِ] ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مُطَلَّقَةٍ ؛ فَرَجَعَ مَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْكَامِ إلَى كُلِّ مُطَلَّقَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ شَيْئًا مِنْ مَسَائِلِ الرَّضَاعِ ، وَوَضَّحْنَا أَنَّهُ يَكُونُ تَارَةً عَلَى الْأُمِّ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهَا تَارَةً .

وَتَحْرِيرُهُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِيمَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ رَضَاعُ الْوَلَدِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : رَضَاعُ الْوَلَدِ عَلَى الزَّوْجَةِ مَا دَامَتْ الزَّوْجِيَّةُ ، إلَّا لِشَرَفِهَا أَوْ مَرَضِهَا فَعَلَى الْأَبِ حِينَئِذٍ رَضَاعُهُ فِي مَالِهِ .

الثَّانِي : قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ [وَالشَّافِعِيُّ] : لَا يَجِبُ عَلَى الْأُمِّ بِحَالٍ .

الثَّالِثُ : قَالَ أَبُو ثَوْرٍ : يَجِبُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ حَالٍ .

(375/770)

وَدَلِيلُنَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ وَقَدْ مَضَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّهُ لَفْظٌ مُحْتَمِلٌ لِكَوْنِهِ حَقًّا عَلَيْهَا أَوْ لَهَا ، لَكِنَّ الْعُرْفَ يَقْضِي بِأَنَّهُ عَلَيْهَا ، إلَّا أَنْ تَكُونَ شَرِيفَةً ، وَمَا جَرَى بِهِ الْعُرْفُ فَهُوَ كَالشَّرْطِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ مِنْ أَنَّ الْعُرْفَ وَالْعَادَةَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ يُقْضَى بِهِ فِي الْأَحْكَامِ [وَالْعَادَةُ] إذَا كَانَتْ شَرِيفَةً أَلَّا تُرْضِعَ فَلَا يَلْزَمُهَا ذَلِكَ .

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَلْزَمُهَا إرْضَاعُهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ قَابِلٍ ثَدْيَ غَيْرِهَا ، فَيَلْزَمُهَا حِينَئِذٍ الْإِرْضَاعُ ؛ أَوْ تَكُونَ مُخْتَارَةً لِذَلِكَ فَتُرْضِعُ فِي الْوَجْهَيْنِ بِالْأُجْرَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وَيُحَقِّقُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ فَالْمَعْرُوفُ أَنْ تُرْضِعَ مَا دَامَتْ زَوْجَةً إلَّا أَنْ تَكُونَ شَرِيفَةً ، وَأَلَّا تُرْضِعَ بَعْدَ الزَّوْجِيَّةِ إلَّا بِأَجْرٍ .

فَإِنْ قَبِلَ غَيْرَهَا لَمْ يَلْزَمْهَا ، وَإِنْ شَاءَتْ إِرْضَاعَهُ فَهِيَ أَوْلَى بِمَا يَأْخُذُهُ غَيْرُهَا .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

(376/770)

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ : الْمَعْنَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إذَا امْتَنَعَتْ مِنْ رَضَاعِهِ بَعْدَ الطَّلَاقِ فَغَيْرُهَا تُرْضِعُ يَعْنِي إنْ قَبِلَ ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ كَمَا تَقَدَّمَ لَزِمَهَا وَلَمْ يَنْفَعْهَا تَعَاسُرُهَا مَعَ الْأَبِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ : هَذَا يُفِيدُ أَنَّ النَّفَقَةَ لَيْسَتْ مُقَدَّرَةً شَرْعًا ، وَإِنَّمَا تَتَقَدَّرُ عَادَةً بِحَسَبِ الْحَالَةِ مِنْ الْمُنْفِقِ وَالْحَالَةِ مِنْ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ ، فَتُقَدَّرُ بِالِاجْتِهَادِ عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ .

وَقَدْ فَرَضَ عُمَرُ لِلْمَنْفُوسِ مِائَةَ دِرْهَمٍ فِي الْعَامِ بِالْحِجَازِ ، وَالْقُوتُ بِهَا مَحْبُوبٌ ، وَالْمِيرَةُ عَنْهُ بَعِيدَةٌ ، وَيَنْظُرُ الْمُفْتِي إلَى قَدْرِ حَاجَةِ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ إلَى حَالَةِ الْمُنْفِقِ ؛ فَإِنْ احْتَمَلَتْ الْحَالَةُ الْحَاجَةَ أَمْضَاهَا عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَصُرَتْ حَالَتُهُ عَنْ حَالَةِ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ رَدَّهَا

إلى قدر احتمال حاله لقوله تعالى وهي : المسألة الثالثة ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾ ؛ فإذا كان للعبد ما يكفيه ، ويفضل عنه فضل أخذه ولده ، ومن يجب عليه الإنفاق ؛ وإنما يبدأ به أولا ، لكن لا يرتفع له ؛ بل يقدر له الوسط ، حتى إذا استوفاه عاد الفضل إلى سواه .

(377/770)

والأصل فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم لهند ﴿ : خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف ﴾ ؛ فأحالها على الكفاية حين علم السعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها

المسألة الرابعة في تقدير الإنفاق : قد بينا أنه ليس له تقدير شرعي ، وإنما أحاله الله سبحانه على العادة ، وهي دليل أصولي بنى الله عليه الأحكام ، وربط به الحلال والحرام ؛ وقد أحاله الله على العادة فيه في الكفارة ، فقال : ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ﴾ .

وقال : ﴿ فإطعام ستين مسكينا ﴾ .

وقد تكلمنا عليه في موضعه ، وقدرنا

للكبير نفقة لشبعه وكسوته وملاءته .

وَأَمَّا الصَّغِيرُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ فَلِأُمِّهِ أَجْرُهَا بِالْمِثْلِ إذَا شَطَّتْ عَلَى الْأَبِ ، وَالْمُفْتُونَ مِنَّا يُقَدِّرُونَهَا بِالطَّعَامِ وَالْإِدَامِ ، وَلَيْسَ لَهَا تَقْدِيرٌ إلَّا بِالْمِثْلِ مِنْ الدَّرَاهِمِ لَا مِنْ الطَّعَامِ .

وَأَمَّا إذَا أَكَلَ فَيُفْرَضُ لَهُ قَدْرُ مَأْكَلِهِ وَمَلْبَسِهِ عَلَى قَدْرِ الْحَالِ .

كَمَا قَدَّمْنَا .

وَفَرَضَ عُمَرُ لِلْمَنْفُوسِ مِائَةَ دِرْهَمٍ ، وَفَرَضَ لَهُ عُثْمَانُ خَمْسِينَ دِرْهَمًا .

وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاخْتِلَافُ بِحَسَبِ حَالِ السِّنِينَ ، أَوْ بِحَسَبِ حَالِ الْقَدْرِ فِي التَّسْعِيرِ لِثَمَنِ الْقُوتِ وَالْمَلْبَسِ .

(378/770)

وَقَدْ رَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ لَا يَفْرِضُ لِلْمَوْلُودِ حَتَّى يُطْعَمَ ، ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى : لَا تُعَجِّلُوا أَوْلَادَكُمْ عَنْ الْفِطَامِ ، فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ .

وَقَدْ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ هِلَالٍ الْمُزَنِيّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي وَجَدَّتِي أَنَّهَا كَانَتْ تَرِدُ عَلَى عُثْمَانَ فَفَقَدَهَا ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ : مَالِي لَا أَرَى فُلَانَةَ ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَدَتْ اللَّيْلَةَ ، فَبَعَثَ إلَيْهَا بِخَمْسِينَ دِرْهَمًا وَشُقَيْقَةً أَنْبِجَانِيَّةً ثُمَّ قَالَ : هَذَا عَطَاءُ ابْنِك ، وَهَذِهِ كِسْوَتُهُ ، فَإِذَا مَرَّتْ لَهُ سَنَةٌ رَفَعْنَاهُ إلَى مِائَةٍ .

وَقَدْ أَتَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِمَنْبُوذٍ ، فَفَرَضَ لَهُ مِائَةً .

وَقَالَ الْقَاضِي : هَذَا الْفَرْضُ قَبْلَ الْفِطَامِ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَآهُ مُسْتَحَبًّا ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْآيَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَآهُ وَاجِبًا لِمَا تَجَدَّدَ مِنْ حَاجَتِهِ وَعَرَضَ مِنْ مُؤْنَتِهِ ، وَبِهِ أَقُولُ ؛ وَلَكِنْ يَخْتَلِفُ قَدْرُهُ بِحَالِهِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ ، وَبِحَالِهِ عِنْدَ الْفِطَامِ .

وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ بْنُ وَهْبٍ أَنَّ عُمَرَ أَخَذَ الْمُدَّ بِيَدٍ وَالْقِسْطَ بِيَدٍ ، وَقَالَ : إنِّي فَرَضْتُ لِكُلِّ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ مُدَّيْ حِنْطَةٍ

وَقِسْطَيْ خَلٍّ ، وَقِسْطَيْ زَيْتٍ .

زَادَ غَيْرُهُ ، وَقَالَ : إنَّا قَدْ أَجَزْنَا لَكُمْ أَعْطِيَاتِكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ .

فَمَنْ انْتَقَصَهَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ كَذَا وَكَذَا ، وَدَعَا عَلَيْهِ .

(379/770)

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَمْ سُنَّةٍ رَاشِدَةٍ مَهْدِيَّةٍ قَدْ سَنَّهَا عُمَرُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [وَالْمُدُّ] وَالْقِسْطُ كَيْلَانِ شَامِيَّانِ فِي الطَّعَامِ وَالْإِدَامِ ، وَقَدْ دُرِسَا بِعُرْفٍ آخَرَ ؛ فَأَمَّا الْمُدُّ فَدُرِسَ إلَى الْكِيلَجَةِ ، وَأَمَّا الْقِسْطُ فَدُرِسَ إلَى الْكَيْلِ ، وَلَكِنَّ التَّقْدِيرَ فِيهِ عِنْدَنَا رُبْعَانِ فِي الطَّعَامِ ، وَثُمُنَانِ فِي الْإِدَامِ ، وَأَمَّا الْكِسْوَةُ فَبِقَدْرِ الْعَادَةِ قَمِيصٌ وَسَرَاوِيلُ ، وَجُبَّةٌ فِي الشِّتَاءِ

وَكِسَاءٌ وَإِزَارٌ وَحَصِيرٌ .

وَهَذَا الْأَصْلُ ، وَيَتَزَيَّدُ بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ وَالْعَادَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي وُجُوبِ النَّفَقَةِ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ دُونَ الْأُمِّ ، خِلَافًا لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمَوَّازِ ؛ إذْ يَقُولُ : إنَّهَا عَلَى الْأَبَوَيْنِ عَلَى قَدْرِ الْمِيرَاثِ ، وَبَيَانُهَا فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ وَالْخِلَافِيَّاتِ ، وَلَعَلَّ مُحَمَّدًا أَرَادَ أَنَّهَا عَلَى الْأُمِّ عِنْدَ عَدَمِ الْأَبِ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَقُولُ لَك الْمَرْأَةُ أَنْفِقْ عَلَيَّ وَإِلَّا طَلِّقْنِي ، وَيَقُولُ الْعَبْدُ : أَنْفِقْ عَلَيَّ وَاسْتَعْمِلْنِي ، وَيَقُولُ لَك ابْنُك : أَنْفِقْ عَلَيَّ إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ فَقَدْ تَعَاضَدَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَتَوَارَدَا فِي مَشْرَعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(380/770)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الطلاق

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾

قوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه خطابٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ الجمع تعظيماً كقوله :

4271 فإنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النساءَ سواكُمُ . . . وإن شِئْتِ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدا

/ الثاني : أنه خطابٌ له ولأمَّته والتقدير : يا أيها النبيُّ وأمَّتَه إذا طلَّقْتُمْ فحذف المعطوفَ لدلالةِ ما بعده عليه ، كقوله :

4272 . . . . . إذا حَذَفَتْه رِجْلُها .

. . . . . .

أي ، ويَدُها ، وتقدَّم هذا في سورة النحل عند ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] .

الثالث : أنه خطابٌ لأمَّتِه فقط بعد ندائِه عليه السلام ، وهو مِنْ تلوينِ الخطابِ خاطبَ أمتَه بعد أَنْ خاطبه . الرابع : أنَّه على إضمارِ قول ، أي : يا أيها النبيُّ قُلْ لأمتك : إذا طلَّقْتم . الخامس : قال الزمخشري : " خصَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالنداء وعَمَّ بالخطابِ ؛ لأنَّ النبيَّ إمامُ أمَّتِه وقُدْوَتُهم ، كما يُقال لرئيس القومِ وكبيرِهم : يا فلانُ افعلوا كيتَ وكيتَ اعتباراً بتقدُّمِه وإظهاراً لترؤُّسه " في كلامٍ حسنٍ ، وهذا هو معنى القولِ الثالثِ الذي قَدَّمْتُه .

وقوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ ، أي : إذا أَرَدْتُمْ كقولِه : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة : 6] ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن ﴾ [النحل : 98] وتقدَّم تحقيقُ ذلك .

قوله : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال الزمخشري : " مُسْتَقْبِلاتٍ لِعِدَّتهن ، كقولك : " أتيتُه لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ من المحرَّم " ، أي : مُسْتقبلاً لها ، وفي قراءةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم " في قُبُل عِدَّتِهِنَّ " انتهى . وناقشه الشيخ في تقديره الحال التي تَعلَّق بها الجارُّ كوناً خاصاً . وقال : " الجارُّ إذا وقع حالاً إنما يتعلَّق بكونٍ مطلقٍ " وفي مناقَشَتِه نظرٌ لأنَّ الزمخشري لم يَجْعَل الجارَّ حالاً بل جَعَلَه متعلِّقاً بمحذوفٍ دَلَّ عليه معنى الكلامِ . وقال أبو البقاء : " لِعِدَّتِهِنَّ ، أي : عند أول ما يُعْتَدُّ لهنَّ به ، وهُنَّ في قُبُل الطُّهْر " وهذا منه تفسيرُ معنى لا تفسيرُ إعراب . وقال الشيخ : " هو على حَذْفِ مضاف ، أي : لاستقبالِ عِدَّتِهن ، واللامُ للتوقيت نحو : لَقِيْتُه لِلَيْلَةٍ بَقِيْتَ مِنْ شهرِ كذا " انتهى . فعلى هذا تتعلَّقُ اللامُ ب " طَلِّقُوهن " .

قوله : ﴿ لَعَلَّ الله ﴾ هذه الجملةُ مستأنفةٌ لا تعلُّقَ بما لها بما قبلَها ؛ لأنَّ النحاةَ لم يَعُدُّوها في المُعلِّقات . وقد جَعَلَها الشيخ . مِمَّا يَنْبغي أَنْ يُعَدَّ فيهنَّ ، وقَرَّر ذلك في قوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 111] فهناك يُطْلَبُ تحريرُه .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا (2)

وقرأ العامَّةُ : ﴿ أَجَلَهُنَّ ﴾ : لأنَّ الأجلَ من حيث هو واحدٌ وإنْ اختلفَتْ أنواعُهُ بالنسبةِ إلى المعتدَّات . والضحاك وابن سيرين "آجالَهُنَّ" جمعَ تكسير ، اعتباراً بأنَّ أَجَلَ هذه غيرُ أجلِ تَيْكَ .

(382/770)

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)

قوله : ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ : قرأ حفص "بالغُ" مِنْ غير تنوين ، "أمرِه" مضافٌ إليه على التخفيفِ . والباقون بالتنوينِ والنصبِ وهو الأصلُ خلافاً للشيخ . وقرأ ابن أبي عبلة وداود بن أبي هند وأبو عمرو في روايةٍ "بالغٌ أمرُه" بتنوين "بالغٌ" ورفع "أَمْرُه" وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ "بالغٌ" خبراً مقدماً ، و "أَمْرُه" مبتدأٌ مؤخرٌ . والجملة خبرُ "إنَّ" والثاني : أَنْ يكونَ "بالغٌ" خبرَ "إنَّ" و "أَمْرُه" فاعلٌ به . وقرأ المفضَّلُ "بالغاً" بالنصب ، "أَمْرُه" بالرفع . وفيه وجهان ، أظهرهما : وهو تخريج الزمخشري أَنْ يكونَ "بالغاً" نصباً على الحال ، و ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ ﴾ هو خبرُ "إنَّ" تقديرُه : إن اللَّهَ قد جعل لكلِّ شيءٍ

قَدْراً بالغاً أَمْرُه . والثاني : أَنْ يكونَ على لغةِ مَنْ ينْصِبُ الاسمَ والخبرَ بها ، كقولِه :

4273 . . . . . .

. . . . . إنَّ حُرَّاسَنا أُسْدا

ويكون " قد جَعَل " مستأنفاً كما في القراءةِ الشهيرةِ . ومَنْ رفع " أَمْرُه " فمفعولُ " بالغ " محذوفٌ تقديره : ما شاء . وجناح بن حبيش " قَدَرا " بفتح الدال .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4)

(383/770)

قوله : ﴿ واللائي يَئِسْنَ ﴾ : قد تقدَّم الخلافُ فيه ، وأبو عمرو يقرأ هنا " واللايْ يَئِسْنَ " بالإِظهار ، وقاعدتُه في مثلِه الإِدغامُ ، إلاَّ أنَّ الياء لَمَّا كانَتْ عنده عارضةً لكونِها بدلاً مِنْ همزةٍ ، فكأنه لم يجتمعْ مِثلان . وأيضاً فإنَّ سكونَها عارضٌ ، فكأنَّ ياء " اللاي " محرَّكةٌ ، والحرف ما دام متحركاً لا يُدْغَمُ في غيرِه/ وقرأ " يَئِسْنَ " فعلاً ماضياً ، وقُرِىء " يَيْئَسْنَ " مضارعاً . و " مِنْ المحيض مِنْ نسائكم " " مِنْ " الأولى لابتداءِ الغاية ، وهي متعلِّقةٌ بالفعل قبلَها ، والثانيةُ للبيان ، متعلِّقةً بمحذوف و " اللائي " مبتدأ ، و " فعِدَّتُهُنَّ " مبتدأ ثانٍ ، "

وثلاثةُ أشهر " خبرُه ، والجملةُ خبرُ الأول ، والشرطُ معترضٌ ، وجوابُه محذوف . ويجوزُ أَنْ يكونَ " إنِ ارْتَبْتُم " جوابُه ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ ، والجملةُ الشرطيةُ خبرُ المبتدأ ، ومتعلَّقُ الارتيابِ محذوفٌ فقيل : تقديرُه : إنِ ارْتَبْتُمْ في أنها يَئِسَتْ أم لا لإمكانِ ظهورِ حَمْلٍ . وإن كان انقطع دَمُها . وقيل : إنِ ارتَبْتُمْ في دَمِ البالغاتِ مَبْلَغَ اليأسِ : أهو دَمُ حيضٍ أم استحاضةٍ ؟ وإذا كان هذا عِدَّةَ المرتابِ فيها فغيرُ المرتابِ فيها أَوْلَى ، وأغربُ ما قيل : إنَّ " إنْ ارتَبْتُمْ " بمعنى تَيَقَّنْتُم فهو من الأضداد .

(384/770)

قوله : ﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ مبتدأٌ ، خبرُه محذوفٌ . فقدَّروه جملةً كالأول ، أي : فعدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهرٍ أيضاً ، والأَوْلَى أن يقدَّرَ مفرداً ، أي : فكذلك ، أو مِثْلهنَّ ولو قيل : بأنَّه معطوفٌ على " اللائي يَئِسْنَ " عَطْفَ المفرداتِ ، وأخبر عن الجميع بقولِه " فعِدَّتُهنَّ " لكان وجهاً حسناً . وأكثرُ ما فيه توسُّطُ الخبرِ بين المبتدأ وما عُطِف عليه ، وهذا ظاهرُ قولِ الشيخ : ﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ معطوفٌ على قولِه " واللائي يَئِسْن " فإعرابُه مبتدأ كإعراب " واللائي " .

قوله : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال ﴾ متبدأ و " أَجَلُهُنَّ " مبتدأ ثانٍ و " أن يَضَعْن " خبره والجملة

خبر الأول ، أي : وَضْع حَمْلهن . ويجوز أَنْ يكونَ " أَجلُهنَّ " بدلَ اشتمال مِنْ أُولات و " أنْ يضعن " خبرَ المبتدأ . والعامَّةُ على إفرادِ " حَمْلهنَّ " والضحاك " آجالُهُنَّ " جمع تكسير .

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)

قوله : ﴿ وَيُعْظِمْ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ مضارعَ أَعْظَمَ ، وابن مقسم " يُعَظِّمْ " بالتشديد مضارعَ عَظَّم مشدداً . والأعمش " نُعْظِم " مضارعَ أَعْظم ، وهو التفاتٌ مِنْ غَيْبةٍ إلى تكلُّمٍ .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6)

قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ " منْ " للتبعيض . قال الزمخشري : " مُبَعَّضُها محذوفٌ معناه : أَسْكنوهنَّ مكاناً مِنْ حيث سَكَنْتُمْ ، أي : بعضَ مكانِ سُكْناكم ، كقولِه تعالى : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور : 30] ، أي : بعضَ أبصارِهم . قال قتادة : " إن لم يكنْ إلاَّ بيتٌ واحدٌ أَسْكنها في بعضِ جوانبه " . والثاني :

أنها لابتداء الغاية قاله الحوفي وأبو البقاء . قال أبو البقاء : " والمعنى : تَسَبَّبُوا إلى إسكانِهنَّ من الوجه الذي تُسْكِنون أنفسَكم . ودلَّ عليه قولُه مِنْ وُجْدِكم ، والوُجْدُ : الغِنى " .

قوله : ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه بدلٌ مِنْ قولِه " مِنْ حيثُ " بتكريرِ العاملِ ، وإليه ذهب أبو البقاء كأنه قيل : أسْكنوهن مِنْ سَعَتكم . والثاني : أنه عطف بيان لقوله ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ ، وإليه ذهب الزمشخري ، فإنه قال بعد أن أعربَ " مِنْ حيث " تبعيضيةً كما تقدَّم : " فإن قلتَ : وقولُه " مِنْ وُجْدِكم " ؟ قلت : هو عطفُ بيانٍ لقولِه : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ ومُفَسِّرٌ له كأنه قيل : أَسْكِنوهنَّ مكاناً مِنْ مَساكنكم مِمَّا تُطيقونه .

والوُجْدُ الوُسْع والطاقَةُ " . وناقشه الشيخ : بأَنَّه لم يُعْهَدْ في عطفِ البيانِ إعادةُ العاملِ ، إنما عُهد هذا في البدلِ ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً . والعامَّة " وُجْدِكم " بضمِّ الواو ، والحسن والأعرج وأبو حيوةَ بفتحِها ، والفياضُ بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب بكسرِها ، وهي لغاتٌ بمعنىً . والوَجْدُ بفتح الواو : الحُزْنُ أيضاً ، والحُبُّ ، والغَضَب .

قوله : ﴿ وَأْتَمِرُواْ ﴾ افْتَعِلوا مِنْ الأَمْر يقال : ايتَمَرَ القومُ وتآمروا ، أي : أمَر بعضُهم بعضاً .

وقال الكسائيُّ : ائتمروا : تَشاوروا وتلا قولَه تعالى : ﴿ إِنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ [القصص : 20] وأنشد قولَ امرِىءِ القيس :

4274 . . . . . ويَعْدُوْ على المَرْءِ ما يَأْتَمِرْ

/ قوله : ﴿ فَسَتُرْضِعُ ﴾ قيل : هو خبرٌ في معنى الأَمْر . والضمير في " له " للأبِ كقولِه : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ ، والمفعولُ محذوفٌ للعِلْمِ به ، أي : فسترضعُ الولدَ لوالدِه امرأةٌ أخرى . والظاهرُ أنه خبرٌ على بابِه .

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)

قوله : ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ هذه قراءةُ العامَّةِ ، أعني كَسْرَ اللامِ وجزمَ المضارعِ بها . وحكى أبو معاذ القارىء " لِيُنْفِقَ " بنصب الفعل على أنها لامُ كي نَصَبَ الفعلَ بعدَها بإضمار " أَنْ " ويتعلَّقُ الحرفُ حينئذٍ بمحذوفٍ ، أي : شَرَعْنا ذلك لِيُنْفِقَ . وقرأ العامَّة " قُدِر " مخففاً . وابن أبي عبلة " قَدَّر " مشدداً .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8)

قوله : ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ : ضُمِّن معنى أَعْرَضَ ، كأنه قيل : أَعْرَضَتْ بسبب عُتُوِّها . وقوله " فحاسَبْناها " إلى آخره كلُّه في الآخرة ، وأتى به على لفظِ المُضِيِّ لتحقُّقِه . وقيل : العذاب في الدنيا فيكونُ على حقيقتِه و " أعدَّ الله " تكريرٌ للوعيدِ وتوكيداً . وجَوَّزَ الزمخشري أَنْ يكونَ " عَتَتْ " وما عُطِفَ عليه صفةً ل " قريةٍ " ويكونُ الخبرُ " كأَيِّنْ " الجملةَ مِنْ قوله " أعدَّ اللَّهُ " فعلى الأول يكونُ الخبرُ " عَتَتْ " وما عُطِفَ عليه .

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10)

قوله : ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ : منصوبٌ بإضمار أَعْني بياناً للمنادي ، أو يكون عطفَ بيان للمنادِي أو نعتاً له ، ويَضْعُفُ كونُه بدلاً لعدمِ حُلولِه المبدلِ منه .

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11)

قوله : ﴿ رَّسُولاً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها وإليه ذهب الزجَّاج والفارسي أنه منصوبٌ

بالمصدرِ المنونِ قبلَه ؛ لأنه يَنْحَلُّ لحرفٍ مصدري وفعلٍ ، كأنه قيل : أن ذَكَرَ رسولاً ، والمصدرُ المنوَّنُ عاملٌ كقولِه تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14] وقولِه :

4275 بضَرْبٍ بالسيوفِ رؤوسَ قَوْمٍ . . . أَزَلْنا هامَهُنَّ عن المَقيلِ

(388/770)

الثاني : أَنَّه جُعِل نفسُ الذِّكْرِ مبالغةً فأُبْدِل منه . الثالث : أَنَّه بدلٌ منه على حَذْفِ مضافٍ مِنْ الأول تقديرُه : أنزل ذا ذكرٍ رسولاً . الرابع : كذلك ، إلاَّ أَنَّ " رسولاً " نعت لذلك المحذوف .

الخامس : أنه بدلٌ منه على حَذْفِ مضافٍ مِنْ الثاني ، أي : ذِكْراً ذِكْرَ رسول . السادس : أَنْ يكونَ " رسولاً " نعتاً لِ ذِكْراً على حَذْفِ مضاف ، أي : ذِكْراً ذا رسول ، ف " ذا رسول " نعتٌ لذِكْر . السابع : أَنْ يكونَ " رسولاً " بمعنى رسالة ، فيكونَ " رسولاً " بدلاً صريحاً مِنْ غير تأويل ، أو بياناً عند مَنْ يرى جَرَيانه في النكراتِ كالفارسيِّ ، إلاَّ أَنَّ هذا يُبْعِدُه قولُه : " يَتْلُو عليكم " ، لأَنَّ الرسالةَ لا تَتْلوا إلاَّ بمجازٍ ، الثامن ، أَنْ يكونَ " رسولاً " منصوباً بفعلٍ مقدر ، أي : أرسل رسولاً لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه . التاسع : أَنْ يكونَ منصوباً على الإغراء ،

أي : اتبِعوا والزَمُوا رسولاً هذه صفتُه .

واختلف الناس في " رسولاً " هل هو النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، أو القرآنُ نفسُه ، أو جبريلُ ؟ قال الزمخشري : " هو جبريلُ عليه السلام " أُبْدِل مِنْ " ذِكْراً " لأنه وُصِف بتلاوةِ آياتِ اللَّهِ ، فكأنَّ إنزالَه في معنى إنزالِ الذِّكْرِ فصَحَّ إبدالُه منه " . قال الشيخ : " ولا يَصِحُّ لتبايُنِ المدلولَيْنِ بالحقيقة ، ولكونِه لا يكونَ بدلَ بعضٍ ولا بدلَ اشتمال " انتهى . وهذا الذي قاله الزمخشريُّ سبقه إليه الكلبيُّ . وأمَّا اعتراضُه عليه فغيرُ لازمٍ لأنه إذا بُولِغَ فيه حتى جُعِل نفسَ الذِّكْرِ كما تقدَّم بيانُه . وقُرِىء " رسولٌ " على إضمار مبتدأ ، أي : هو رسول

.

(389/770)

قوله : ﴿ لِّيُخْرِجَ ﴾ متعلِّقٌ إمَّا ب " أَنْزَل " ، وإمَّا ب " يَتْلو " وفاعِلُ يُخْرِج : إمَّا ضميرُ الباري تعالى المنَزِّل ، أو ضميرُ الرسولِ ، أو الذِّكر ، و " مَنْ يُؤْمِنْ " هذا أحدُ المواضعِ التي رُوْعي فيها اللفظُ أولاً ، ثم المعنى ثانياً ، ثم اللفظُ آخِراً ، وقد تقدَّم ذلك في المائِدة . وقد تأوَّلَ بعضُهم هذه الآية [وقال : ليس قولُه " خالدين " فيه ضميرٌ عائدٌ على " مَنْ " إنما يعود على مفعولِ " يُدْخِلْه " ، و " خالدين " حالٌ منه ، والعاملُ فيها " يُدْخِلْه " لا فِعْلُ الشرطِ]

. هذه عبارةُ الشيخِ ، وفيها نظرٌ ؛ لأنَّ " خالدين " حالٌ مِنْ مفعول "يُدْخِلْه" عند القائلين بالقول الأول ، وكأنَّ إصلاحَ العبارة أَنْ يقالَ : حالٌ مِنْ مفعولِ "يُدْخِلْه" الثاني ، وهو " جناتٍ " والخلودُ في الحقيقةِ لأصحابِها ، وكان ينبغي على رأي البصريين أن يقال : خالدين هم فيها ، لجريان الوصفِ على غير مَنْ هو له .

قوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ ﴾ حالٌ ثانيةٌ ، أو حال مِنْ الضمير في " خالدين " فتكونُ متداخلةً . /

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

(390/770)

قوله : ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ : العامَّةُ بالنصب ، وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه عطفٌ على " سَبْعَ سماواتٍ " قاله الزمخشري . واعترض الشيخُ بلزومِ الفَصْلِ بين حرفِ العطفِ ، وهو على حرفٍ واحدٍ ، وبين المعطوفِ بالجارِّ والمجرورِ ، وهو مختصٌّ بالضرورةِ عند أبي عليّ .

قلت : وهذا نظيرُ قولِه : ﴿ آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] عند ابنِ مالك ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا الخلافِ في البقرة والنساء وهود عند قولِه : ﴿

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس ﴾ [النساء : 58] ، ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] .

والثاني : أنه منصوبٌ بمقدَّر بعد الواوِ ، أي : وخَلَق مثلَهُنَّ من الأرضِ . واختلف الناس في المِثْلِيَّة ، فقيل : مِثْلُها في العدد . وقيل : في بعض الأوصاف فإنَّ المِثْلِيَّةَ تَصْدُقُ بذلك ، والأول هو المشهورُ . وقرأ عاصم في رواية " مثلُهُنَّ " بالرفع على الابتداء والجارُّ قبلَه خبرُه .

قوله ﴿ يَتَنَزَّلُ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ نعتاً لِما قبله ، وقاله أبو البقاء . وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ وعيسى "يُنَزِّل" بالتشديد ، أي : الله ، " الأمر " مفعولٌ به ، والضميرُ في " بينهنَّ " عائد على السماوات والأرضين عند الجمهور ، أو على السماوات والأرض عند مَنْ يقولُ : إنها أرضٌ واحد .

قوله : ﴿ لتعلموا ﴾ متعلقٌ ب " خَلَقَ " أو ب "يَتنزَّل " والعامَّةُ " لتعلَموا " خطاباً ، وبعضُهم بياء الغَيْبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 351.362 ﴾

(391/770)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الطلاق

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم من لا سبيل إلى وصاله ، ولاغية في غيره ، عن فعاله ، اسم من علمه وقع في كل سكون وراحة ، اسم من عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة ، العلماء بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطان حكمه اضطلعوا عن شواهدهم .

. فبادروا وطاحوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ . . . ﴾ .

الطلاقُ – وإنْ كان فراقاً – فلم يجعله الحقُّ محظوراً . . . وإن كان من وجهٍ مكروهاً .

وللطلاق وقتية : سُنّية بدْعيه ، ومباحة ، لا سنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أَنْ تطلَّقَ في طُهْرٍ لم تُباشَر فيه طلقةً واحدة ، والبدعية : في حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه ، والمباحة : في طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها – والطلاق أكثر من واحدة .

والعِدَّةُ – وان كانت في الشريعة لتحصين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءُ آخر – فالغالبُ والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة

النكاح.

والإشارة في لآيات التالية إلى انه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تَحِضْ، وهذه الآيسة من الحيض، وتلك التي انقطع حَيْضُهَا، والحُبْلَى حتى تلد . . كل ذلك مراعاةً للحرمة: وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرْمَة الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة. . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾.

(392/770)

العبودية: الوقوف عند الحدِّ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومَنْ راعى مع اللَّهِ حَدَّه أخلص اللَّهُ له عَهْدَه. . .

﴿ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾.

قالوا: أراد نَدَماً، وقيل: وَلَداً، وقيل: مَيْلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوبَ تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشْكال حقّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُسَاكنة الأمثال، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أوْلَى وأحَقُّ.

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ .

إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجين لا يَعْلَقُ بها شيءٌ . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي سرادقاتِ عنايته ، ويُدْخِلُه في كنف الإيواء ، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه ، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره ، ويُجَرِّدُه من كل أمر ، وينقله إلى فضاء تقديره .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

لم يقل : ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّلُه حَسْبُه ، بل قال : ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ أي فاللَّهُ حَسْبُه أي كافيه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالة يكون ، وتَوَكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكنَّ التوكَّل بنيانه على أنْ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ . . . وهذا من أَجَلِّ النِّعم .

قوله : ﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ ﴾ . . . إلى قوله :

﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾

التوكلُ : شهود نَفْسِك خارجاً عن المُنَّة تجري عليكَ أحكامُ التقديرِ من غير تدبيرٍ منك ولا اطّلاعٍ لكَ على حُكمِه ، وسبيلُ العبدِ الخمودُ والرضا دونَ استعلام الامر ، وفي الخبر : " اعوذ بك من عِلْمٍ لا ينفع " ومن العلم الذي لا ينفع – ويجب أَنْ تستعيذَ منه – أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه ، وتكون مُطَالَباً بالتفويض – فَطَلَبُكَ العلم وتمنّيكَ أَنْ تعرفَ متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأي سبَبٍ ؟ ومِنْ أيِّ وجهٍ ؟ وعلى يد مَنْ ؟ . . . كل هذا تخليطٌ ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شيءٌ منه للأكابر .

فيجب عليك السكونُ ، وحُسْنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكَشْف فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (. . .) من الجامع ، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت . . كلُّ هذا ترْكٌ للأدب ، واللَّهُ لا يَرْضى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكونُ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَآ ءَاتَاهَا ﴾ .

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه – أي ضيِّق – فينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت ، ومن رأسِ المال – إن لم يكن من الربح ، ومن ثمنِ الضيعة – إن لم يكن من الغَلَّة .

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتمَّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضيٍّ عنه ، وصاحبُه غير مُعَان . فأمَّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ ، فإن الله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَآ ءَاتَاهَا ﴾ وسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً . هذا من أصحاب المواعيد – وتصديقه على حسب الإيمان ، وذلك على قَدْرِ اليقين – ويقينه على حسب القِسْمة .

وانتظارُ اليُسْرِ من اللَّهِ صفةُ المتوسطين في الاحوال ، الذين انحطُّوا عن حدِّ الرضا واستواءِ وجودِ السبب وفَقْدِه ، وراتقوا عن حدِّ اليأس والقنوط ، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلِّلون بحُسْنِ المواعيد . . . وأبداً هذه حالتهم وهي كما قلنا :

إنْ نَابَكَ الدهرُ بمكروهه . . . فعِشْ بتهوين تصانيفه

فَعنْ قريبٍ ينجلي غَيْمُه . . . وتنقضي كلُّ تصاريفه

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ .

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ ، ومَنْ أضاع حقَّ اللَّهِ لا يُطاع في حظِّ نَفْسه . ومن اجترأ بمخالفةِ أمرِ الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

إنّ كتابَ الله فيه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ . . . فَمَنْ استضاءَ بنوره اهتدى ، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داءِ الجهل إلى شِفائه .

ومَنْ يؤمِنْ بالله ، ويعملْ صالحاً لله ، وفي الله ، فله دوامُ النُّعمى من الله . . . قال تعالى :

﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ﴾ .

(395/770)

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية ؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِقَ لحْرصِه .

كذلك أرزاقُ القلوب . أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به في الوقت ؛ من غير نقصان يجعله يتعذَّب بتعَطُّشِه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خَطَرٍ من مغاليط لا يَخْرُجُ منها إلاَّ بتأييدٍ سماويٍّ من الله .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر ، حتى نعلم استحقاقَ

جلالِهِ وكمالَ صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حُكماً ، وأنه أحاط بكل شيء علماً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 598 . 603 ﴾

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ الْمُتَّقِي يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْهُ الْمَضَرَّةَ بِمَا يَجْعَلُهُ لَهُ مِنْ الْمَخْرَجِ وَيَجْلِبُ لَهُ مِنْ الْمَنْفَعَةِ بِمَا يُيَسِّرُهُ لَهُ مِنْ الرِّزْقِ وَالرِّزْقُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُغْتَذَى بِهِ الْإِنْسَانُ ؛ وَذَلِكَ يَعُمُّ رِزْقَ الدُّنْيَا وَرِزْقَ الْآخِرَةِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَا افْتَقَرَ تَقِيٌّ قَطُّ قَالُوا : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . وَقَوْلُ الْقَائِلِ : قَدْ نَرَى مَنْ يَتَّقِي وَهُوَ مَحْرُومٌ . وَمَنْ هُوَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَهُوَ مَرْزُوقٌ . فَجَوَابُهُ : أَنَّ الْآيَةَ اقْتَضَتْ أَنَّ الْمُتَّقِي يُرْزَقُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَلَمْ تَدُلَّ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُتَّقِي لَا يُرْزَقُ ؛ بَلْ لَا بُدَّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ الرِّزْقِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ حَتَّى

إنَّ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْحَرَامِ هُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا الرِّزْقِ فَالْكُفَّارُ قَدْ يُرْزَقُونَ بِأَسْبَابٍ مُحَرَّمَةٍ وَيُرْزَقُونَ رِزْقًا حَسَنًا وَقَدْ لَا يُرْزَقُونَ إلَّا بِتَكَلُّفٍ وَأَهْلُ التَّقْوَى يَرْزُقُهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ وَلَا يَكُونُ رِزْقُهُمْ بِأَسْبَابٍ مُحَرَّمَةٍ وَلَا يَكُونُ خَبِيثًا وَالتَّقِيُّ لَا يُحَرِّمُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ الرِّزْقِ وَإِنَّمَا يُحْمَى مِنْ فُضُولِ الدُّنْيَا رَحْمَةً بِهِ وَإِحْسَانًا إلَيْهِ ؛ فَإِنَّ تَوْسِيعَ الرِّزْقِ قَدْ يَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى صَاحِبِهِ وَتَقْدِيرُهُ يَكُونُ رَحْمَةً لِصَاحِبِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ يَكُونُ مُكْرَمًا وَلَا كُلُّ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ يَكُونُ مُهَانًا ؛ بَلْ قَدْ يُوَسَّعُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ إمْلَاءً وَاسْتِدْرَاجًا وَقَدْ يُقَدَّرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ حِمَايَةً وَصِيَانَةً لَهُ وَضِيقُ الرِّزْقِ عَلَى عَبْدٍ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ قَدْ يَكُونُ لِمَا لَهُ مِنْ ذُنُوبٍ وَخَطَايَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ أَكْثَرَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِلرِّزْقِ وَالنِّعْمَةِ وَأَنَّ الْمَعَاصِيَ سَبَبٌ لِلْمَصَائِبِ وَالشِّدَّةِ فَقَالَ تَعَالَى :

(399/770)

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا إذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَقَدْ

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ؛ فَالْحَسَنَاتُ هِيَ النِّعَمُ وَالسَّيِّئَاتُ هِيَ الْمَصَائِبُ ؛ لِيَكُونَ الْعَبْدُ صَبَّارًا شَكُورًا . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى

(400/770)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا :

فَصْلٌ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ أَخَذَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَكَفَتْهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : (مَخْرَجًا) عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ : أَيْ مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطَابِقَةٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الْجَامِعَةِ لِعِلْمِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ كُلِّهَا ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الْعِبَادَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَطَاعَتَهُ أَسْمَاءٌ مُتَقَارِبَةٌ مُتَكَافِئَةٌ

مُتَلَازِمَةٌ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ هُوَ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ فَمَنْ يَتَّقِي اللَّهَ مِثَالُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ مِثَالُ ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . ثُمَّ جَعَلَ لِلتَّقْوَى فَائِدَتَيْنِ : أَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَخْرَجًا وَأَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ

(401/770)

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . وَالْمَخْرَجُ هُوَ مَوْضِعُ الْخُرُوجِ وَهُوَ الْخُرُوجُ وَإِنَّمَا يُطْلَبُ الْخُرُوجُ مِنْ الضِّيقِ وَالشِّدَّةِ وَهَذَا هُوَ الْفَرَجُ وَالنَّصْرُ وَالرِّزْقُ فَبَيَّنَ أَنَّ فِيهَا النَّصْرَ وَالرِّزْقَ كَمَا قَالَ : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَهَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلَّا بِضُعَفَائِكُمْ ؟ بِدُعَائِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ ﴾ هَذَا لِجَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَهَذَا لِدَفْعِ الْمَضَرَّةِ . وَأَمَّا التَّوَكُّلُ فَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ حَسْبُهُ أَيْ كَافِيهِ وَفِي هَذَا بَيَانُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ إنَّ اللَّهَ يَكْفِي الْمُتَوَكِّلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ؟ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ : لَيْسَ فِي التَّوَكُّلِ إلَّا التَّفْوِيضُ وَالرِّضَا . ثُمَّ إنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ لَيْسَ هُوَ كَالْعَاجِزِ . ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ وَقَدْ فَسَّرُوا الْآيَةَ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ضِيقِ الشُّبُهَاتِ بِالشَّاهِدِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ الصَّرِيحِ وَالذَّوْقِ . كَمَا قَالُوا يُعَلِّمُهُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ بَشَرٍ

وَيُفَطِّنُهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبَةٍ ؛ ذَكَرَهُ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ إنَّهُ نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ كَمَا قَالُوا : بَصَرًا وَالْآيَةُ تَعُمُّ الْمَخْرَجَ مِنْ الضِّيقِ الظَّاهِرِ وَالضِّيقِ الْبَاطِنِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

(402/770)

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ وَتَعُمُّ ذَوْقَ الْأَجْسَادِ وَذَوْقَ الْقُلُوبِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وَكَمَا قَالَ : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 16 صـ 52.55 ﴾

(403/770)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطّلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبني على الضمّ في محلّ نصب

(النبي) بدل من أيّ – أو عطف بيان – تبعه في الرفع لفظا (الفاء) رابطة لجواب الشرط

(لعدتهنّ) متعلق بحال من الضمير المفعول في (طلقوهنّ) بحذف مضاف أي : مستقبلات لأول عدّتهنّ (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (ربّكم) نعت للفظ الجلالة منصوب (لا) ناهية جازمة (من بيوتهنّ) متعلّق بـ (تخرجوهنّ) ، (لا) مثل الأولى (يخرجن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ جزم (إلّا) للاستثناء (يأتين) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ نصب (بفاحشة) متعلّق بـ (يأتين) . .

والمصدر المؤوّل (أن يأتين . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بحال أي إلّا مذنبات بإتيانهنّ الفاحشة " 1 " .

(الواو) استئنافيّة ، والإشارة في (تلك) إلى الأحكام السابقة (الواو) عاطفة (من) اسم شرط في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (لا) نافية ، والفاعل في (تدري) ضمير تقديره أنت ، والخطاب للمطلّق (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يحدث) . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها جواب النداء " 2 " .

وجملة : " طلّقتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " طلّقوهنّ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " أحصوا العدّة " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) هذه الحال مستثناة من عموم الأحوال أي لا يخرجن في حال من الحالات إلّا في حال كونهنّ مذنبات . . .

(2) في تفسير النداء للنبيّ آراء كثيرة يرجع إليها في التفاسير . . ويجوز في جملة الشرط وفعله وجوابه أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يأيّها النبيّ قل لأمتك . . .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لا تخرجوهنّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا يخرجن . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف البيانيّ .

وجملة : " يأتين . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تلك حدود . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يتعدّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تلك حدود .

وجملة : " يتعدّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " قد ظلم نفسه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا تدري . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لعلّ اللَّه يحدث . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " يحدث . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) ومفعول تدري مقدّر . . أما من يجعل (لعل) معلقة للفعل فإنّ الجملة في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي تدري .

(405/770)

---

2 – (الفاء) استئنافيّة ، والثانية رابطة لجواب الشرط (بمعروف) متعلّق بحال من فاعل أمسكوهنّ ، والثاني حال من فاعل فارقوهنّ (منكم) متعلّق بحال من (ذوي) – أو بنعت له – (للَّه) متعلّق بـ (أقيموا) بحذف مضاف أي لوجه اللَّه ، والإشارة في (ذلكم) إلى المذكور من أول السورة إلى هنا من أحكام (به) متعلّق بـ (يوعظ) ، (من) موصول في محلّ رفع نائب الفاعل (باللَّه) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) استئنافيّة (من يتّق اللَّه) مثل من يتعدّ حدود . . (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . .

وجملة : " بلغن . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أمسكوهنّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " فارقوهنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمسكوهنّ .

وجملة : " أشهدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمسكوهن .

وجملة : " أقيموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمسكوهن .

وجملة : " ذلكم يوعظ به . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يوعظ به من كان . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة : " كان يؤمن باللَّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " يؤمن باللَّه . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " من يتّق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتّق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

3 - (الواو) عاطفة في الموضعين (حيث) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يرزقه) ، (لا) نافية (على اللَّه) متعلّق بـ (يتوكّل) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (لكلّ) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 2 " .

وجملة : " يرزقه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعل . . .

وجملة : " لا يحتسب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " من يتوكّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يتّق اللَّه . . .

وجملة : " يتوكّل على اللَّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " هو حسبه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ اللَّه بالغ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل اللَّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(1) يتعدّ : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه يتفعّ .

(1 ، 3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو متعلّق بحال من (قدرا) إذا ضمّن جعل معنى خلق .

---

(2) مخرجا : مصدر ميميّ من الثلاثيّ خرج ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وقد يكون اسم مكان .

الفوائد

الالتفات : في قوله تعالى لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً .

التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى : لا تَدْرِي ، فالخطاب في " لا تدري " للمتعدي ،

بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي ، لا للنبي (صلّى اللَّه عليه وسلّم) كما قيل ، فالمعني : من يتعدّ حدود اللَّه تعالى ، فقد عرّض نفسه للضرر ، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 4 إلى 7]

(408/770)

وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من المحيض) متعلّق بـ (يئسن) ، (من نسائكم) متعلّق بحال من فاعل

يئسن (ارتبتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (الواو) عاطفة (اللائي) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول " 1 " ، (يحضن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ جزم (أجلهنّ) مبتدأ ثان مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (يضعن) في محلّ نصب بأن (الواو) استئنافيّة (من يتّق اللَّه يجعل له) مرّ إعرابها " 2 " ، (من أمره) متعلّق بحال من (يسرا) وهو المفعول الأول . .

والمصدر المؤوّل (أن يضعن . .) في محلّ رفع خبر المبتدأ الثاني أي :

أجلهنّ وضع حملهنّ .

جملة : " اللائي يئسن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يئسن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (اللائي) .

وجملة : " إن ارتبتم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللائي) وجملة : " عدّتهنّ ثلاثة أشهر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لم يحضن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (اللائي) الثاني .

وجملة : " أولات الأحمال . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " أجلهن أن يضعن . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أولات . . .

وجملة : " يضعن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " من يتّق اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتق اللَّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون الموصول مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه الخبر الأول ، والعطف حينئذ من عطف الجمل .

(2) في الآية (2) من السورة .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

5 - والإشارة في (ذلك) إلى الأحكام السابقة (إليكم) متعلّق بـ (أنزله) ، (الواو) عاطفة (من يتق اللَّه يكفّر) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (عنه) متعلّق بـ (يكفّر) بتضمينه معنى ينزل ، (يعظم) مضارع مجزوم معطوف على (يكفّر) بالواو (له) متعلّق بـ (يعظم) .

وجملة : " ذلك أمر اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزله إليكم . . . " في محلّ نصب حال من أمر اللَّه ، والعامل فيها الإشارة .

وجملة : " من يتّق اللَّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك أمر اللَّه .

وجملة : " يتّق اللَّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " يكفّر . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يعظم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكفّر .

6 - (حيث) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أسكنوهنّ) " 3 " ، (من وجدكم) بدل من حيث بإعادة الجار (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (اللام) لام التعليل (تضيّقوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، (عليهنّ) متعلّق بـ (تضيّقوا) . . والمصدر المؤوّل (أن تضيّقوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تضارّوهنّ) .

(الواو) عاطفة (كنّ) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عليهنّ) الثاني متعلّق بـ (أنفقوا) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (يضعن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ نصب بأن مضمرة بعد حتّى . .

---

(1) في الآية (2) من السورة .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب . [. . . . .]

(3) (من) للتبعيض - أو لابتداء الغاية -

والمصدر المؤوّل (أن يضعن) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (أنفقوا) .

(الفاء) عاطفة (أرضعن) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (لكم) متعلّق بـ (أرضعن) ، ومفعول الإرضاع محذوف أي أولادكم (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أجورهنّ) مفعول به ثان منصوب (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (ائتمروا) ، (بمعروف) متعلّق بحال من فاعل ائتمروا (إن تعاسرتم) مثل إن أرضعن (الفاء) رابطة لجواب الشرط (السين) حرف استقبال (له) متعلّق بـ (سترضع) . .

وجملة : " أسكنوهنّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " سكنتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا تضارّوهنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسكنوهنّ .

وجملة : " تضيّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إن كنّ أولات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسكنوهنّ " 1 " .

وجملة : " أنفقوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يضعن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " إن أرضعن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن كنّ . .

---

(1) أو هي استئنافيّة .

وجملة : " آتوهنّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ائتمروا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة آتوهنّ .

وجملة : " إن تعاسرتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أرضعن . . .

وجملة : " سترضع له أخرى " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

7 - (اللام) لام الأمر (من سعته) متعلّق بـ (ينفق) ، (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (عليه) متعلّق بـ (قدر) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام الأمر (ممّا) متعلّق بـ (ينفق) ، (لا) نافية (إلّا) للحصر (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان ، والعائد محذوف أي آتاه إيّاه (بعد) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

وجملة : " ينفق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من قدر عليه رزقه " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينفق .

وجملة : " قدر عليه رزقه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " ينفق . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " آتاه اللَّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا يكلّف اللَّه نفسا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " آتاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " سيجعل اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(4) أولات : مؤنّث : أولو - وأولي - وانظر الآية (179) من سورة البقرة .

(6) وجدكم : مصدر وجد في المال بمعنى استغنى ، وزنه فعل بضمّ فسكون وقد تفتح الفاء وتكسر .

الفوائد :

عدة المطلقة وأحكامها .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب .

(412/770)

المعتدة الرجعية ، تستحق على الزوج النفقة والسكنى ، ما دامت في العدة ، وأما المعتدة البائنة ، بالخلع أو بالطلاق الثلاث أو باللعان ، فلها السكنى ، حاملا كانت أو غير حامل ،

عند أكثر أهل العلم ، وقال ابن عباس ، لا سكنى لها إلا ان تكون حاملا ، وقال ابن عباس والحسن الشعبي والشافعي لا نفقه لها إلا ان تكون حاملا ، وهو ظاهر الآية الكريمة ، وأما المعتدة عن وطء ، لشبهة ، والمفسوخ نكاحها

بعيب أو خيار عتق ، فلا سكنى لها ولا نفقة وإن كانت حاملا ، وأما المعتدة عن وفاة الزوج ، فلا نفقة لها عند أكثر أهل العلم ، وأما السكنى ، فهناك قولان : أحدهما :

لا سكنى لها ، وهو أحد قولي الشافعي وابن عباس وعائشة وعطاء والحسن وأبي حنيفة ، والثاني : أن لها سكنى ، وهو قول عمر وعثمان وابن مسعود وابن عمر ومالك والثوري وأحمد وإسحاق . واعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة ، وكذلك في الطهر الذي جامعها فيه . والطلاق السني : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه . هذا في حال امرأة تلزمها العدة بالأقراء ، أما إذا طلّق غير المدخول بها في حال الحيض ، أو الصغيرة التي لم تحض ، أو الآيسة بعد ما جامعها ، أو طلق الحامل بعد ما جامعها ، أو طلق التي لم تر الدم ، فلا حرج في ذلك ، أما الخلع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه فلا حرج في ذلك أيضا .

والطلاق آخر إجراء يلجأ إليه الزوج ، وبعد إخفاق جميع محاولات الإصلاح .

عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) : أبغض الحلال إلى اللَّه الطلاق ،

و

عن ثوبان أن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) قال : أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس حرم عليها رائحة الجنة .

- اللام الجازمة (لام الأمر) . .

(413/770)

هي اللام الموضوعة للطلب ، وحركتها الكسر ، وإسكانها بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها ، كقوله تعالى : (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي) وقد تسكن بعد ثم (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) ، ولا فرق ، في اقتضاء اللام الطلبية للجزم ، بين كون الطلب أمرا ، كقوله تعالى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ) ، أو دعاء (لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ) ، أو التماسا كقولك لمن يساويك (ليفعل فلان كذا) إذا لم ترد الاستعلاء عليه ، وكذا لو أخرجت عن الطلب إلى غيره ، كالتي يراد بها وبمصحوبها الخبر ، كقوله تعالى (مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا) أي فيمد ، أو التهديد (وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) . وأما قوله تعالى : (لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا) فيحتمل اللامان منه التعليل ، فيكون ما بعدهما منصوبا ، والتهديد فيكون مجزوما ، ودخول اللام على فعل المتكلم قليل ، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام (قوموا فلأصل لكم) وقوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ

، وقد تحذف اللام في الشعر ويبقى عملها كقول الشاعر :

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من شيء تبالا

أي لتفد . والتبال : الوبال بمعنى الهلاك .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 8 إلى 9]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كأيّن) اسم كناية العدد مبنيّ على السكون في محلّ رفع مبتدأ (من قرية) تمييز (عن أمر) متعلّق بـ (عتت) ، (الفاء) عاطفة (حسابا) مفعول مطلق منصوب ، وكذلك (عذابا) . .

جملة : "كأيّن من قرية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عتت . . . " في محلّ رفع خبر كأيّن .

وجملة : " حاسبناها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عتت .

وجملة : " عذّبناها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عتت .

9 - (الفاء) عاطفة (الواو) حاليّة - أو استئنافيّة - . .

وجملة : " ذاقت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عذّبناها .

وجملة : "كان عاقبة أمرها خسرا " في محلّ نصب حال بتقدير قد .

الصرف :

(عتت) ، فيه إعلال بالحذف كما في عتوا . . انظر الآية (77) من سورة الأعراف .

(خسرا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ خسر ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وثمّة

مصادر أخرى للفعل هي خسر بفتح فسكون ، وخسر بضمّتين ، وخسار بفتح الخاء ،

وخسارة بفتح الخاء ، وخسران بضمّ الخاء وسكون السين . .

البلاغة

مجاز مرسل : في قوله تعالى وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها .

وعلاقة هذا المجاز المحلية ، من إطلاق المحل وارادة الحال .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 10 إلى 12]

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ

خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

الإعراب :

(415/770)

(لهم) متعلق بـ (أعدّ) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أولي) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الياء (الذين) موصول في محلّ نصب عطف بيان على أولي - أو بدل منه - (قد) حرف تحقيق (إليكم) متعلّق بـ (أنزل) .

جملة : " أعدّ اللَّه . . . " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق .

وجملة : " اتّقوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أعدّ اللَّه العذاب لمن عتا عن أمره فاتّقوه .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أنزل اللَّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

11 - (رسولا) مفعول به لفعل محذوف أي أرسل رسولا " 1 " ، (عليكم) متعلّق بـ (يتلو)

، (اللام) للتعليل (يخرج) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من الظلمات) متعلّق بـ (يخرج) وكذلك (إلى النور) ، (الواو) استئنافيّة . .

والمصدر المؤوّل (أن يخرج . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزل) ، أو بـ (يتلو) .

(من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (باللَّه) متعلّق بـ (يؤمن) ، (يعمل) مضارع مجزوم معطوف على فعل الشرط بالواو (صالحا) مفعول به منصوب " 2 " ، (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 3 " بحذف مضاف أي من تحت أشجارها (خالدين) حال من ضمير الغائب في (يدخله) والمراعى فيه لفظ من (فيها) متعلّق بـ (خالدين) ، وكذلك (أبدا) ظرف الزمان (قد) حرف تحقيق (له) متعلّق بحال من (رزقا) " 4 " .

وجملة : " يتلو . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رسولا) .

وجملة : " يخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " آمنوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من (ذكرا) ، أو مفعول به للمصدر (ذكرا) ، أو مفعول به لفعل محذوف على الإغراء أي الزموا .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته ، والمفعول به مقدر .

(3) أو متعلّق بحال من الأنهار .

(4) نعت تقدّم على المنعوت .

(416/770)

وجملة : " من يؤمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمن باللَّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " يعمل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يؤمن .

وجملة : " يدخله . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " قد أحسن اللَّه . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (يدخله) .

12 - (الواو) عاطفة (من الأرض) متعلّق بحال من (مثلهنّ) المعطوف على سبع سموات " 2 " ، (بينهنّ) ظرف منصوب متعلّق بـ (يتنزّل) ، (لتعلموا) مثل ليخرج (على كلّ) متعلّق بالخبر (قدير) ، (الواو) عاطفة (بكل) متعلّق بـ (أحاط) " 3 " (علما) تمييز محوّل عن الفاعل أي : أحاط علم اللَّه بكلّ شيء .

وجملة : " اللَّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يتنزّل الأمر . . . " في محلّ نصب حال من سبع سموات ، أو من السموات والأرض .

وجملة : " تعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن تعلموا .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أخبركم بذلك .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللَّه على كلّ شيء قدير) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي تعلموا .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) ويجوز أن يكون (مثلهنّ) مفعولا به لفعل محذوف أي وخلق مثلهنّ من الأرض ، والعطف حينئذ من عطف الجمل .

(3) أو متعلّق بـ (علما) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه قد أحاط . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأخير .

وجملة : " قد أحاط . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ . حيث شبه سبحانه وتعالى الكفر بالظلمات ، ثم حذف المشبه ، وأبقى المشبه به . وشبه الإيمان بالنور ، وحذف المشبه أيضا ، وأبقى المشبّه به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 28 صـ 277. 291 ﴾

(418/770)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(65) سورة الطّلاق

مدنيّة وآياتها اثنتا عشرة

[سورة الطلاق (65) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ

حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً (1) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)

الإعراب :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة طلقتم النساء في محل جر بإضافة

(419/770)

الظرف وإنما جمع لأن النداء موجّه للنبي مع أمته أو أن لفظ النبي أطلق والمراد أمته ، وقال الزمخشري : " خصّ النبي صلى اللّه عليه وسلم بالنداء وعمّ بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتبارا بتقدمه وإظهارا لترؤسه بكلام حسن " والفاء رابطة للجواب وطلّقوهنّ فعل أمر وفاعل ومفعول به وفي تعليق اللام خلاف كبير بين مذاهب الفقهاء وأولى ما يقال فيها أنها متعلقة بمحذوف حال

أي مستقبلين بطلاقهنّ العدّة أي الوقت الذي يشرعن فيه فيها . وعبارة البيضاوي : " لعدتهنّ أي في وقتها وهو الطهر فإن اللام في الأزمان وما يشبهها للتأقيت ومن عدد العدّة بالحيض – وهو أبو حنيفة – علّق اللام بمحذوف مثل مستقبلات ، وظاهره يدلّ على أن العدّة بالأطهار وأن طلاق المعتدّة بالإقرار ينبغي أن يكون في الطهر وأنه يحرم في الحيض من حيث أن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده ولا يدل على عدم وقوعه إذ النهي إذا كان لأمر خارج لا يستلزم الفساد " .

(420/770)

وعلّق زاده في حاشيته على البيضاوي على هذا الكلام فقال : " وقوله علّق اللام بمحذوف أي لأنه لا يمكنه جعل اللام للتأقيت للإجماع على أن الإطلاق في حال الحيض منهي عنه بل يعلقها بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام أي فطلقوهنّ مستقبلات لعدتهنّ أي متوجهات إليها وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم على القرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدّتها والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه ثم يتركن حتى تنقضي عدّتهنّ وأيد هذا بقراءة فطلقوهنّ من قبل عدّتهنّ " . أما أبو حيان فقد أفاض في الموضوع وناقش الزمخشري مناقشة ممتعة وهذا نص عبارته : " واللام للتوقيت نحو كتبته لليلة بقيت من شهر

كذا وتقدير الزمخشري هنا حالا محذوفة يدل عليها المعنى ويتعلق بها الجار والمجرور ، وليس بجيد ، أي مستقبلات لعدّتهنّ ، لأنه قدّر عاملا خاصا ولا يحذف العامل في الظرف والجار والمجرور إذا كان خاصا بل إذا

(421/770)

كان كونا مطلقا لو قلت زيد عندك أو في الدار تريد ضاحكا عندك أو ضاحكا في الدار لم يجز فتعليق اللام بقوله فطلقوهنّ ويجعل على حذف مضاف هو الصحيح " يريد أبو حيان بتقدير المضاف أي لاستقبال عدّتهنّ . ولم يتعرض أبو البقاء لتعليق اللام ، وقد رأيت تعقيبا لابن المنير قاله ردّا على الزمخشري نورده أيضا فيما يلي : " ونظر الزمخشري اللام فيها باللام في قولك مؤرخا : أتيته لليلة بقيت من المحرم وإنما يعني أن العدّة بالحيض كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أن الإقراء الحيض ولا يتم له ذلك فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة وأكدوا الدلالة بالشاذّة على أن الإقراء الاطهار ووجه الاستدلال لها على ذلك أن اللّه تعالى جعل العدّة وإن كانت في الأصل مصدرا ظرفا للطلاق المأمور به ، وكثيرا ما تستعمل العرب المصادر ظرفا مثل خفوق النجم ومقدّم الحاج وإذا كانت العدّة ظرفا للطلاق المأمور به وزمانه هو الطهر وفاقا فالظهر عدّة إذن ونظير اللام هنا على التحقيق

اللام في قوله يا ليتني قدّمت لحياتي وإنما تمنّى أن لو عمل عملا في حياته " (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ) وأحصوا فعل أمر معطوف على الأمر قبله والعدّة مفعول به أي احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق لتراجعوا قبل فراغها ولتعرفوا زمن النفقة والسكنى وحلّ النكاح لأخت المطلّقة ونحو ذلك من الفوائد المبسوطة في كتب الفقه (لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) لا ناهية وتخرجون فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والهاء مفعول به ومن بيوتهنّ متعلق بتخرجوهنّ ، ولا يخرجن الواو حرف عطف ولا ناهية أيضا ويخرجن فعل مضارع مبني على السكون في محل جزم ونون النسوة فاعل وإنما جمع بين النهيين إشارة إلى أن الزوج لو أذن لها في الخروج لا يجوز لها الخروج ، وإلا أداة حصر وأن مصدرية ويأتين فعل

مضارع مبني على السكون في محل نصب بأن وهي مع ما في حيّزها في محل نصب على الحال من فاعل لا يخرجن ومن مفعول لا تخرجوهنّ أي لا يخرجن ولا تخرجوهنّ في حال من الحالات إلا في حال كونهنّ آتيات بفاحشة وبفاحشة متعلقان بيأتين ومبينة نعت لفاحشة (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الواو استئنافية وتلك مبتدأ

والإشارة إلى المذكورات وحدود اللّه خبر والواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ ويتعدّ فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة وحدود اللّه مفعول به والفاء رابطة للجواب لاقترانه بقد وظلم نفسه فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجزاؤه خبر من (لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً) جملة مستأنفة مسوقة لتعليل مضمون الشرط ، وسيأتي مزيد من الحديث عن هذا الالتفات في باب البلاغة ، ولا نافية وتدري فعل مضارع مرفوع وفاعله أنت ولعلّ واسمها وجملة يحدث خبرها وبعد ذلك ظرف متعلق بيحدث وأمرا مفعول يحدث وجملة لعلّ اللّه إلخ سدّت مسدّ مفعولي تدري المعلقة عن العمل بالترجّي واستشكل بأن النحاة لم يعدّوا الترجّي من المعلقات فتكون الجملة مستأنفة (فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة بلغن في محل جر بالإضافة وأجلهنّ مفعول به والفاء رابطة

(423/770)

و أمسكوهنّ فعل أمر وفاعل ومفعول به وبمعروف حال أو فارقوهنّ بمعروف عطف على ما تقدم (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ) وأشهدوا فعل أمر وفاعل وذوي

مفعول به وهو تثنية ذا بمعنى صاحب ومنكم صفة لذوي عدل ، وأقيموا عطف على أشهدوا والشهادة مفعول به ولله متعلقان بأقيموا أي لوجهه (ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) ذلكم مبتدأ وجملة يوعظ خبر وبه متعلقان بيوعظ ومن نائب فاعل وجملة كان صلة واسم كان مستتر تقديره هو وجملة يؤمن خبر كان وبالله متعلقان بيؤمن واليوم الآخر عطف على بالله (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)

الواو للاستئناف والجملة مستأنفة سيقت استطرادا عند ذكر المؤمنين وبعضهم جعلها معترضة ، ومن شرطية مبتدأ ويتّق فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة والله مفعول به ويجعل جواب الشرط وله متعلقان بيجعل أو في موضع المفعول الثاني ومخرجا مفعول يجعل ويرزقه عطف على يجعل ومن حيث متعلقان بيرزقه وجملة لا يحتسب في محل جر بإضافة الظرف وهو حيث إليها (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) عطف على ما تقدم ومن شرطية مبتدأ ويتوكل فعل الشرط وعلى الله متعلقان بيتوكل والفاء رابطة وهو مبتدأ وحسبه خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من (إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) الجملة تعليل لما تقدم وإن واسمها وبالغ خبرها وأمره مضاف إليه وقرىء بالغ بالتنوين وأمره بالنصب مفعول به لبالغ لأنه اسم فاعل وقد حرف تحقيق وجعل الله فعل وفاعل ولكل شيء متعلقان بجعل إذا كانت بمعنى الخلق أو في موضع

المفعول الثاني المقدّم إذا كانت بمعنى التصيير وأمرا مفعول به على كل حال .

البلاغة :

(424/770)

في قوله " لا تدري لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرا " التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والفائدة منه مشافهة المتعدي بالخطاب لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدّي ، وقد تورط بعضهم فحسب أن الخطاب للنبي والمعنى ومن يتعد حدود اللّه فقد ظلم نفسه وأضربها ، فأنت لا تدري أيها المتعدّي مغبّة الأمر وما عسى أن يسفر عنه لعلّ اللّه يحدث في قلبك بعد ذلك الذي أقدمت عليه من التعدّي أمرا يقتضي خلاف ما فعلت فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالا عليها وبالصدود رضا .

[سورة الطلاق (65) : الآيات 4 إلى 7]

وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (

(425/770)

يضا بالكسر أي استغنى " (وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) الواو حرف عطف ولا ناهية وتضارّوهنّ فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به واللام للتعليل وتضيّقوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والجار والمجرور متعلقان بتضارّوهم ومفعول تضيّقوا محذوف تقديره المساكن أو النفقة وعليهنّ متعلقان بتضيّقوا (وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) الواو عاطفة وإن شرطية وكنّ فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والنون اسمها وأولات حمل خبرها والفاء رابطة للجواب وأنفقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وعليهنّ متعلقان بأنفقوا وحتى حرف غاية وجر ويضعن فعل مضارع مبني على السكون في محل نصب بأن مضمرة وجوبا بعد حتى ونون النسوة فاعل وحتى ومجرورها متعلقان بأنفقوا (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ

بِمَعْرُوفٍ) الفاء عاطفة وإن شرطية وأرضعن فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط ونون النسوة فاعل ولكم متعلقان بأرضعن ومفعول أرضعن محذوف تقديره ولدا منهنّ والفاء رابطة للجواب وآتوهنّ فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط وأجورهنّ مفعول به ثان ، وائتمروا فعل أمر معطوف على آتوهنّ أي ليأمر بعضكم بعضا والائتمار بمعنى التآمر وكالاشتوار بمعنى التشاور وبينكم ظرف متعلق بائتمروا وبمعروف

متعلقان بائتمروا أيضا (وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى) الواو عاطفة وإن شرطية وتعاسرتم ، أي تضايقتم ، فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط

و الفاء رابطة للجواب والسين حرف استقبال وترضع فعل مضارع مرفوع والجملة في محل جزم جواب الشرط وله متعلقان بسترضع وأخرى فاعل والضمير في له عائد على الأب

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ) اللام لام الأمر وينفق فعل مضارع مجزوم باللام وذو سعة فاعل ومن سعته متعلقان بينفق والواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم مبتدأ وقدّر بالبناء للمجهول فعل ماض في محل جزم فعل الشرط أي

ضيّق عليه رزقه وعليه متعلقان بقدر ورزقه نائب فاعل والفاء رابطة للجواب واللام لام الأمر وينفق فعل مضارع مجزوم باللام والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجزاؤه خبر من ومما متعلقان بينفق وجملة آتاه اللّه صلة ما (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها) الجملة مستأنفة ولا نافية ويكلف فعل مضارع مرفوع واللّه فاعل ونفسا مفعول به وإلا أداة حصر وما مفعول به ثان وجملة آتاها صلة ما (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) كلام مستأنف أيضا مسوق لتأكيد الوعد للفقراء بفتح أبواب الرزق، والسين حرف استقبال ويجعل فعل مضارع مرفوع واللّه فاعل وبعد عسر ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني ليجعل ويسرا مفعول يجعل الأول.

[سورة الطلاق (65) : الآيات 8 إلى 12]

(427/770)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ

بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

(428/770)

الإعراب :

)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ) كلام مستأنف مسوق لتصديق وعد اللّه بالفتح ، وكأين خبرية بمعنى كم ، وقد تقدم الكلام عليها مفصلا في آل عمران ، ومن قرية تمييز كأين وهي في محل رفع مبتدأ وجملة عتت أي أعرضت خبر وعن أمر ربها متعلقان بعتت ورسله عطف على ربها (فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً) الفاء عاطفة وحاسبناها فعل ماض وفاعل ومفعول به وحسابا مفعول مطلق وشديدا نعت ، وعذبناها عطف على حاسبناها وعذابا مفعول مطلق ونكرا نعت وهي بضم الكاف وسكونها وهما قراءتان أي شنيعا قبيحا جاوز الحد (فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً) الفاء عاطفة وذاقت فعل ماض والتاء تاء التأنيث الساكنة والفاعل مستتر

يعود على قرية ووبال أمرها مفعول به وكان فعل ماض ناقص وعاقبة أمرها اسمها وخسرا خبرها (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ) الجملة مفسّرة لما تقدم تأكيدا للوعيد ، وأعدّ اللّه فعل ماض وفاعل ولهم متعلقان بأعدّ وعذابا مفعول به وشديدا نعت والفاء الفصيحة أي

إن عرفتم ذلك فاتقوا اللّه ويا حرف نداء وأولي الألباب منادى مضاف منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم (الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً) الذين نعت للمنادى أو بدل منه وجملة آمنوا صلة وقد حرف تحقيق وأنزل اللّه فعل وفاعل وإليكم متعلقان بأنزل وذكرا مفعول به (رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ) في نصب رسولا أوجه تكاد تكون متساوية نوردها لك فيما يلي :

1- منصوب بالمصدر المنوّن قبله وهو ذكرا كما عمل " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما "

وكما قال الشاعر :

بضرب السيوف رؤوس قوم أزلنا هامهنّ عن المقيل

وإلى هذا الإعراب ذهب الزجّاج والفارسي .

2- بدل من ذكرا وجعل نفس الذكر مبالغة ، وإليه جنح الزمخشري .

3- بدل من ذكرا على حذف مضاف من الأول تقديره ذا ذكر رسولا .

4- مفعول به لفعل محذوف أي أرسل رسولا لدلالة ما تقدم عليه .

5- أن يكون مفعولا به لفعل محذوف على طريقة الإغراء أي اتبعوا والزموا رسولا هذه صفته .

وجملة يتلو عليكم في محل نصب صفة وعليكم متعلقان بيتلو وآيات اللّه مفعول به ومبينات حال .

(لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) اللام للتعليل ويخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بيتلو ، والذين مفعول به وما بعده صلة ومن الظلمات

(430/770)

متعلقان بيخرج وإلى النور متعلقان بيخرج أيضا (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويؤمن فعل الشرط وباللّه متعلقان بيؤمن ويعمل عطف على يؤمن وصالحا

نعت لمصدر محذوف أي عملا صالحا أو مفعول به ويدخله جواب الشرط والهاء مفعول به أول وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات وخالدين حال من الهاء وروعي معنى " من " بعد مراعاة لفظها ، وفيها متعلقان بخالدين وكذلك الظرف أبدا (قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً) الجملة حال ثانية وقد روعي لفظ من وقد حرف تحقيق وأحسن اللّه فعل وفاعل وله متعلقان بأحسن ورزقا مفعول به (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) اللّه مبتدأ والذي خبره وجملة خلق صلة وسبع سموات مفعول ومن الأرض حال ومثلهنّ معطوف على سبع سموات أو منصوب بفعل مقدّر بعد الواو أي وخلق مثلهنّ من الأرض وقرىء مثلهنّ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر والجار والمجرور قبله خبر مقدم (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الجملة مستأنفة ويتنزل الأمر فعل وفاعل أي الوحي وبينهنّ متعلقان بيتنزل واللام لام التعليل وتعلموا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل واللام ومجرورها متعلقان بيتنزل أيضا وإن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي تعلموا (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) الواو عاطفة وأن واسمها وجملة قد أحاط خبرها وبكل شيء متعلقان بأحاط وعلما تمييز محوّل عن الفاعل .

البلاغة :

1- في قوله " وكأين من قرية عتت عن أمر ربها " مجاز مرسل علاقته المحلية ، من إطلاق المحل وإرادة الحال وقد تقدمت له نظائر كثيرة .

(431/770)

2- وفي قوله " ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور " استعارتان تصريحيتان شبّه الكفر بالظلمات ثم حذف المشبّه وأبقى المشبّه به وشبّه الإيمان بالنور وحذف المشبّه وأبقى المشبّه به أيضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 129.117﴾

(432/770)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادي والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/771)

الجزء الحادي والسبعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التحريم)

(4/771)

(سورة التحريم)

(5/771)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة التحريم

مقصودها الحث على تقدير التدبير في الأدب مع الله ومع رسوله (صلى الله عليه وسلم) ومع سائر العباد والندب إلى التخلق بالأدب الشرعي وحسن المباشرة لا سيما للنساء اقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في حسن عشرته وكريم صحبته وبيان ان الأب الشرعي تارة يكون باللين والأناة ، وأخرى بالسوط وما داناه ومرة بالسيف وما والاه ، وكل من اسميها التحريم والنبي (صلى الله عليه وسلم) موضح لذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 43 ﴾

(6/771)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها النبى لم تحرم)

السّورة مدنيّة .

وآياتها اثنتا عشرة .

وكلماتها مائتان وأَربعون .

وحروفها أَلف وستُّون .

وفواصل آياتها (منار) على الأَلف آية فحسب : ﴿ أَبْكَارًا ﴾ سميت سورة التَّحريم والمتحرم ؛ لمفتتحه : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : عتاب الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – فى التَّحريم والتحليل قبل ورود وَحْى سماوىّ ، وتعيير الأَزواج الطَّاهرات على إِيذائه وإِظهارِ سرّه ، والأَمر بالتحرّز والتجنّب من جهنَّم ، والأَمر بالتَّوبة النَّصُوح ، والوعد بإِتمام النُّور فى القيامة ، والأَمر بجهاد الكفَّار بطريق السّياسة ، ومع المنافقين بالبرهان والحجّة ، وبيان أَنَّ القرابة غير نافعة بدون الإِيمان والمعرفة ، وأَن قرب المفسدين لا يَضُرّ مع وجود الصّدق والإِخلاص ، والخبر عن الفُتُوّة ، وتصديق مريم بقوله : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ .

السورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ ﴾ ذكر الجميع بغير واو ، ثم خَتَم بالواو ، فقال : ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ لأَنَّه استحال العطف على ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ فعطفها على أَوّل الكلام, ويحسن الوقف على ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ لَمّا استحال عطف ﴿ أَبْكَاراً ﴾ عليها .

وقول من قال : إِنها واو الثمانية بعيد .

وقد سبق تعجبنا فيه .

والله أَعلم .

فضل السّورة

فيه الحديث الضَّعيف عن أُبيّ : مَنْ قرأَها تاب توبة نَصوحاً ، وحديث عليّ : يا عليّ مَن قرأَها كان رفيقى فى الجَنَّة ، وله بكل آية قرأَها مثل ثُواب مَن يعدِل فى وصيّته بعد موته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 471.472 ﴾

(7/771)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة التحريم

سورة) يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ((التحريم : 1) الخ سميت (سورةَ التحريم) في كتب السنة وكتب التفسير . ووقع في رواية أبي ذرّ الهروي (لصحيح البخاري) تسميتها باسم (سورة اللِّمَ تُحرّم) بتشديد اللاَّم ، وفي (الإِتقان) وتسمى (سورة اللِّم تحرّم) ، وفي (تفسير الكواشي) (أي بهمزة وصل وتشديد اللام مكسورة) وبفتح الميم وضم التاء محققة وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة) لم تحرم (وجعْلِها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين .

وتسمى (سورة النبي) (صلى الله عليه وسلم) وقال الآلوسي : إن ابن الزبير سماها (سورة النساء) . قلت ولم أقف عليه ولم يذكر صاحب (الإِتقان) هذين في أسمائها .

واتفق أهل العدد على أن عدة آيها اثنتا عشرة .

وهي مدنيَّة . قال ابن عطية : بإجماع أهل العلم وتبعه القرطبي . وقال في (الإِتقان) عن قتادة : إن أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي ، كما وقعت حكاية كلامه . ولعله أراد إلى عشر آيات ، أي أن الآية العاشرة من المكي إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنيّة والحادية عشرة مكيّة .

وهي معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الحجرات وقبل سورة الجمعة .

ويدل قوله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ((التحريم : 2) أنها نزلت بعد سورة المائدة كما سيأتي .

وسبب نزولها حادثتان حدثتا بين أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)

إحداهما : ما ثبت في (الصحيح) عن عائشة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان شرِب عسلاً عند إحدى نسائه اختلف في أنها زينب بنت جحش ، أو حفصة ، أو أم سلمة ، أو سَودة بنت زمعة . والأصح أنها زينب . فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هي وحفصة على أن أيَّتهما دخل عليها تقول له (إني أجد منك ريح مغافير أَكَلْتَ مغافير) (والمغافير صمغ شجر العُرفط وله رائحة مختمرة) وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يكره أن توجد منه رائحة وإنما تواطأتا على ذلك غَيرة منهما أن يحتبس عند زينب زماناً يشرب فيه عسلاً . فدخل على حفصة فقالت له ذلك ، فقال : بل شربتُ عسلاً عند فلانة ولن أعود له ، أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة (لأنه يكره غضبها) فأخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات .

هذا أصح ما روي في سبب نزول هذه الآيات . والتحريم هو قوله : (ولن أعود له) (لأن

النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يقول إلا صدقاً وكانت سودة تقول : لقد حَرَمْنَاه) .

والثانية : ما رواه ابن القاسم في (المدونة) عن مالك عن زيد بن أسلم قال : حرّم رسول الله أم إبراهيم جاريته فقال : (والله لا أطؤك) ثم قال : (هي عليّ حرام) فأنزل الله تعالى : (يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك ((التحريم : 1) .

(9/771)

وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني (عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأم ولده مارية في بيت حفصة فوجدتْه حفصة معها ، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها . فقالت حفصة : تُدخلها بيتي ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هَوانِي عليك . فقال لها : لا تذكري هذا لعائشة فهي عليّ حرام إن قربتُها . قيل : فقالت له حفصة : كيف تَحْرُم عليك وهي جاريتُك فحلف لها أن لا يقْربها فذكرته حفصة لعائشة فآلى أن لا يَدخل على نسائه شهراً

فأنزل الله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) . وهو حديث ضعيف . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 343.345 ﴾

(10/771)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة التحريم

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ; وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ; وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ; وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان . .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة , شاملا كاملا متكاملا , يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم , في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض , وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده , ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام: نموا وتكاثرا , ورفعة وتطهرا , في آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية , ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم , الذي يهيئ الأرواح في الدنيا لمستوى نعيم الآخرة , ويعد المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها (صلى الله عليه وسلم) إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها , وتتجسم فيه بكل حقيقتها , ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي , قوي البنية , سليم البناء ; صحيح الحواس , يقظ الحس , يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة , حي الطبع , سليم الحساسية , يتذوق الجمال , متفتح للتلقي والإستجابة . وهو في الوقت ذاته كبير العقل , واسع الفكر , فسيح الأفق , قوي الإرادة , يملك نفسه ولا تملكه . . ثم هو بعد ذلك كله . . النبي . . الذي تشرق روحه بالنور الكلي , والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج , والذي ينادى من السماء , والذي يرى نور ربه , والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر , فيسلم عليه الحصى والحجر , ويحن له الجذع , ويرتجف به أحد - الجبل . . ! . . ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها . .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها , تقرأ فيه صور هذه العقيدة , وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا , ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن , ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للناس !

(12/771)

إنه ليس له في نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ جانب من حياته (صلى الله عليه وسلم) أو يخبأ ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ; وقد جاء (صلى الله عليه وسلم) ليعرضها للناس في شخصه , وفي حياته , كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء .

(13/771)

ولقد حفظ عنه أصحابه (صلى الله عليه وسلم) ونقلوا للناس بعدهم – جزاهم الله خيرا – أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية , لم تسجل ولم تنقل . . وكان هذا طرفا من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول , أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة .

وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض , وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته (صلى الله عليه وسلم) وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك . . ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محددا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من زينب بنت جحش قطعا .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصا عن قصة أزواج النبي , وعن حياته البيتية يعين على تصور الحوادث والنصوص التي جاءت بصددها في هذه السورة . ونعتمد في هذا الملخص على ما أثبته الإمام ابن حزم في كتابه: " جوامع السيرة " . . وعلى السيرة لابن هشام مع

بعض التعليقات السريعة:

أول أزواجه (صلى الله عليه وسلم) خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون , وسنها - رضي الله عنها - أربعون أو فوق الأربعين , وماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات , ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين .

(14/771)

فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة . فلما توفي عنها , تزوجها رسول الله - (صلى الله عليه وسلم) .

ثم تزوج عائشة - رضي الله عنها - بنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكرا غيرها . وكانت أحب نسائه إليه , وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفي عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ثم تزوج حفصة بنت عمر – رضي الله عنه وعنها – بعد الهجرة بسنتين وأشهر . تزوجها ثيبا . بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبي خيرا منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه في حياته (صلى الله عليه وسلم) . وقيل كان زوجها قبل النبي هو عبد الله بن جحش الأسدي المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجا لأبي سلمة , الذي جرح في أحد , وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أرملته . وضم إليه عيالها من أبي سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها . وقد عرضنا قصتها في سورة الأحزاب في الجزء الثاني والعشرين , وكانت جميلة وضيئة . وهي التي كانت عائشة – رضي الله عنها – تحس أنها تساميها , لنسبها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي بنت عمته , ولوضاءتها !

(15/771)

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق في أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق:وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير , عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها . قالت:" لما قسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في أسهم الثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها , وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه , فأتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تستعينه في كتابتها . قالت عائشة:فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ! وعرفت أنه سيرى منها (صلى الله عليه وسلم) ما رأيت , فدخلت عليه فقالت:يا رسول الله . أنا جويرية بنت الحارث بن أبي صرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس – أو لابن عم له – فكاتبته على نفسي , فجئت أستعينك على كتابتي . قال:" فهل لك في خير من ذلك ؟ " قالت:وما هو يا رسول الله ؟ قال:" أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ؟ " قالت:نعم يا رسول الله . قال:" قد فعلت " " .

.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة في بلاد الحبشة , فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضا . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه (صلى الله عليه وسلم) منها :أنه أتي بها وبأخرى معها من السبي , فمر بهما بلال – رضي الله عنه – على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال (صلى الله عليه وسلم) :" اعزبوا عني هذه الشيطانة " وأمر بصفية فحيزت خلفه , وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبلال – فيما بلغني – حين رأى بتلك اليهودية ما رأى:" أنزعت منك الرحمة يا بلال ? حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ? " .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن . وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس . وكانت قبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند أبي رهم بن عبد العزى . وقيل حويطب بن عبد العزى . وهي آخر من تزوج (صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه (صلى الله عليه وسلم) قصة وسببا في زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش , وجويرية بنت الحارث , لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة – رضي الله عنها – هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر – إلى جانب جاذبيتهن – ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلا , ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبدا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا . ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه فيحياته وفي أزواجه (صلى الله عليه وسلم) على اختلاف الدوافع والأسباب .

ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله , وكما أمره أن يقول: (قل: سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟) . .

استمتع بأزواجه وأمتعهن , كما قالت عائشة – رضي الله عنها – عنه: "كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحاكا بساما " . . ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه , ومن فيض قلبه , ومن حسن أدبه , ومن كريم معاملته . فأما حياتهن

المادية فكانت في غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبحبح المسلمون بالغنائم والفيء . وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة , وما أعقب هذا الطلب من أزمة , انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة , أو المتاع والتسريح من عصمته (صلى الله عليه وسلم) فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

(18/771)

ولكن الحياة في جو النبوة في بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية , والهواتف البشرية في نفوس أزواجه - رضي الله عنهن - فقد كان يبدر أو يشجر بينهن , ما لابد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال . وقد سلف في رواية ابن إسحاق عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلا ! وكذلك روت هي نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . " قلت للنبي (صلى الله عليه وسلم) : حسبك من صفية كذا وكذا " . قال الراوي : تعني قصيرة ! فقال (صلى الله عليه وسلم) : " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " . . كذلك روت عن نفسها أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حين نزلت آية التخيير التي في الأحزاب , فاختارت هي

الله ورسوله والدار الآخرة , طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها ! – وظاهر لماذا طلبت هذا ! – فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إن الله تعالى لم يبعثني معنفا , ولكن بعثني معلما ميسرا . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . . " .

وهذه الوقائع التي روتها عائشة – رضي الله عنها – عن نفسها – بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة – ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنساني الذي لابد منه في مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يؤدي رسالته بالتربية والتعلية في بيته كما يؤديها في أمته سواء .

وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

(19/771)

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية , ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار . واختتمت

السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر , وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك , تبتغي مرضاة أزواجك , والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض , فلما نبأها به قالت: من أنبأك هذا ؟ قال: نبأني العليم الخبير .

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما , وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين , والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) . .

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال: حدثنا إبراهيم ابن موسى , أخبرنا هشام بن يوسف , عن ابن جريج , عن عطاء , عن عبيد بن عمير , عن عائشة , قالت: كان النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – يشرب عسلا عند زينب بنت جحش , ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير . إني أجد منك ريح مغافير . قال: " لا . ولكني كنت أشرب

عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحدا " . .

فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: (لم تحرم ما أحل الله لك ؟) .

(20/771)

ويبدو أن التي حدثها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها . فأطلع الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته: (من أنبأك هذا ؟) . . ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته ! ولكنه أجابها : (نبأني العليم الخبير) . . فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلم كل ما دار , لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تآمر ومكايدات في بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن غضب . فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا , وهم بتطليقهن – على ما تسامع المسلمون – ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه (صلى الله عليه وسلم) فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان له أمة يطؤها , فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ; تبتغي مرضات أزواجك . . .

وفي رواية لابن جرير ولابن إسحاق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتحريم مارية وحلف بهذا . وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة . . فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .

(21/771)

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع , ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذي يسود بيوت النبي , مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا . . والله أعلم أي ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث – حادث إيلاء النبي (صلى الله عليه وسلم) من أزواجه , فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو يرسم كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك . . قال: حدثنا عبد الرزاق , أخبرنا معمر , عن الزهري , عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور , عن ابن عباس قال: "لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اللتين قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه , فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة , فتبرز , ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ , فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) اللتان قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ؟ فقال عمر: واعجبا لك يا ابن عباس ! [قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه] قال: هي عائشة وحفصة . قال: ثم أخذ يسوق الحديث , قال: كنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال: فغضبت يوما على امرأتي , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن

تراجعني . فقالت:ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال:فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت:أتراجعين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالت:نعم ! قلت:وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت:نعم ! قلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك , ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك - يريد عائشة - قال:وكان لي جار

(23/771)

من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينزل يوما وأنزل يوما , فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال:وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوما ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى , فخرجت إليه , فقال:حدث أمر عظيم . فقلت:وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال:لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه ! فقلت:قد خابت حفصة

وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت:أطلقكن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم ? – فقالت:لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاما أسودا فقلت:استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت !

فانطلقت حتى أتيت المنبر , فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلا , ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر , ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام

فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعوني . فقال:ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت:أطلقت يا رسول الله نساءك ? فرفع رأسه إلي وقال:" لا " . فقلت:الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم , فغضبت على امرأتي يوما , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني , فقالت:ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر !

أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ; فإذا هي قد هلكت ? فتبسم رسول الله (صلى الله

(24/771)

عليه وسلم) فقلت:يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت:لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك ! فتبسم أخرى . فقلت:أستأنس يا رسول الله ! قال:" نعم " فجلست , فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت:ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسا وقال:" أفي شك أنت يا بن الخطاب ? أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت:استغفر لي يا رسول الله . . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل " . . [وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص] . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3609 . 3615 ﴾

(25/771)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة التحريم

مدنية وآياتها اثنتا عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشئون التشريعية ، وهي هنا تعالج قضايا وأحكاما تتعلق " ببيت النبوة " وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الطاهرات ، وذلك في إطار تهيئة (البيت المسلم) ، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة ، المتمسكة بآداب بالإسلام .

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول (صلى الله عليه وسلم) لجاريته ومملوكته " مارية القبطية " على نفسه ، وامتناعه عن معاشرتها إرضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات ، وجاء العتاب له لطيفا رقيقا ، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يضيق على نفسه ما وسعه الله له [يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك . .] الآية .

* ثم تناولت السورة أمرا على جانب كبير من الخطورة ، ألا وهو " إفشاء السر " الذي يكون بين الزوجين ، والذي يهدد الحياة الزوجية ، وضربت المثل على ذلك برسول الله (

صلى الله عليه وسلم) حين أسر إلى حفصة بسر واستكتمها إياه ، فأفشته إلى عائشة ، حتى شاع الأمر وذاع ، مما أغضب الرسول حتى هم بتطليق أزواجه [وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا . .] الآية .

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة ، على أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) حين حدث ما حدث بينهن من التنافس ، وغيرة بعضهن من بعض ، لأمور يسيرة ، وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بنساء خير منهن ، انتصارا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) [عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات . .] الآية .

(26/771)

---

* وختمت السورة بضرب مثلين : مثل (للزوجة الكافرة) في عصمة الرجل الصالح المؤمن ، ومثل ! (للزوجة المؤمنة) في عصمة الرجل الفاجر الكافر ، تنبيها للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد ، ولا ينفع حسب ولا نسب ، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحا [ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما – أي كفرتا بالله ولم تؤمنا – فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل أدخلا النار مع

الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة . .] الآيات . وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 405 . 406 ﴾

(27/771)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة التحريم

تحرّم : أي تمتنع ، ما أحل اللّه لك : هو العسل ، تبتغى : أي تطلب ، فرض :

أي شرع وبيّن كما جاء فى قوله : " سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها " ، وتحلة أيمانكم :

أي تحليلها بالكفارة ، وتحليلة القسم تستعمل على وجهين :

(1) أحدهما تحليله بالكفارة كما فى الآية .

(2) ثانيهما بمعنى الشيء القليل وهذا هو الأكثر كما جاء فى الحديث : " لن يلج النار إلا تحلة القسم " أي إلا زمنا يسيرا .

مولاكم : أي وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبأت به : أي

أخبرت عائشة به ، وأظهره : أي أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عرّف :

أي أعلمها ببعض الحديث الذي أفشته ، وأعرض عن بعض : أي لم يخبرها به ، إن تتوبا : أي حفصة وعائشة ، صغت قلوبكما : أي عدلت ومالت إلى ما يجب للرسول صلى اللّه عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أي تتظاهرا وتتعاونا على إيذاء الرسول ، مولاه : اى وليه وناصره ، ظهير : أي ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون ، مسلمات : أي خاضعات للّه بالطاعة ، مؤمنات : أي مصدّقات بتوحيد اللّه ، مخلصات ، قانتات : أي مواظبات على الطاعة ، تائبات : أي مقلعات عن الذنوب ، عابدات : أي متعبدات متذللات لأمر الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، سائحات . أي صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لا زاد معه ، ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام كالصائم لا يزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

قوا أنفسكم : أي اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصي ، وأهليكم : أي بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب ، والوقود (بفتح الواو) : ما توقد به النار ، والحجارة :

هى الأصنام التي تعبد لقوله تعالى : " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ " ملائكة : هم خزنتها التسعة عشر ، غلاظ : أي غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ، شداد : أي أقوياء الأبدان ، والتوبة النصوح : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

الجهاد تارة يكون بالسيف وأخرى بالحجة والبرهان ، واغلظ عليهم : أي شدّد ، والمأوى : مكان الأبواء والإقامة .

ضرب المثل : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أحرى تشاكلها فى الغرابة ، تحت عبدين : أي فى عصمتهما ، فخانتاها : أي نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط نزل قومه على نزول أضيافه عليه ، فلم يغنيا عنهما : أي لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من اللّه شيئًا ، امرأة فرعون :

على ما قيل هى آسية بنت مزاحم ، نجنى من فرعون وعمله : أي خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله ، والقوم الظالمون : هم الوثنيون أقباط مصر ، وأحصنت فرجها : أي حفظته وصانته ، والفرج : شق جيب الدرع (القميص) إذ الفرج لغة كل فرجة بين الشيئين ، ويراد بذلك عفتها ، وكلمات ربها : أي شرائعه وكتبه التي أنزلها على رسله ، والقانتين : أي الطائعين المخبتين إلى اللّه الممتثلين أوامره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 155 . 167 ﴾ . باختصار .

وقال الفراء :

سورة (التحريم)

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله جلّ وعز: ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . . ﴾ .

نزلت فى ماريَّة القبطية ، وكان النبى صلى الله عليه يجعل لكل امرأة من نسائه يوماً ، فلما كان يوم عائشة زارتها حفصة بنت عمر ، فخلا بيتها ، فبعث النبى صلى الله عليه إلى مارية القبطية ، وكانت مع النبى صلى الله عليه فى منزل حفصة ، وجاءت حفصة إلى منزلها فإذا الستر مرخى ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أتكتمين علىَّ ؟ فقالت: نعم ، قال: فإنها علىَّ حرام يعنى مارية ، وأخبرك: أن أباك وأبا بكر سيملكان من بعدى ، فأخبرت حفصة عائشة الخبر ، ونزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فدعا حفصة قال: ما حملك على ما فعلتِ ؟ قالت له: ومن أخبرك أنى قلت ذلك لعائشة ؟ قال: "نبأنى العليم الخبير" ثم طلق حفصة تطليقة ، واعتزل نساءه تسعة

وعشرين يوماً . ونزل عليه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من نكاح مارية ، ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ . . . ﴾ يعنى: كفارة أيمانكم ، فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم رقبة ، وَعاد إلى مارية .

قال [الفراء] : حدثنى بهذا التفسير حِبان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، ثم قال: "عرف بعضه" يقول: عرف حفصة بعض الحديث ؛ وترك بعضاً ، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمى "عَرَف" خفيفة .

[حدثنا محمد بن الجهم] حدثنا الفراء قال: حدثنى محمد بن الفضل المروزى عن عطاء عن أبى عبدالرحمن السلمى "عَرَف" خفيفة .

(30/771)

حدثنا الفراء ، وحدثنى شيخ من بنى أسد يعنى الكسائى عن نعيم عن أبى عمرو عن عطاء عن أبى عبدالرحمن قال: كان إذا قرأ عليه الرجل: "عَرَّف بعضه" بالتشديد حصبه بالحصباء ، وكأن الذين يقولون: عرَف خفيفة يريدون: غضب من ذلك وَجازى عليه ، كما تقول للرجل يسىء إليك: أما والله لأعرفن لك ذلك ، وقد لعمرى جازى حفصة بطلاقها ، وهو وجه حسن ، [وذكر عن الحسن البصرى أنه قرأ عرف بالتخفيف كأبى

عبدالرحمن] .

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ . . . ﴾ .

يعنى: عائشة وحفصة ، وذلك: أن عائشة قالت: يا رسول الله ، أما يوم غيرى فتتمه ، وأما يومى فتفعل فيه ما فعلت ؟ فنزل: إن تتوبا إلى الله من تعاونكما على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ زاغت ومالت ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ تعاونا عليه ، قرأها عاصم وَالأعمش بالتخفيف ، وقرأها أهل الحجاز: "تظَّاهرا" بالتشديد ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ ﴾ : وليه عليكما ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مثل أُبى بكر وعمر الذين ليس فيهم نفاق ، ثم قال: ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ بعد أولئك ، يريد أعوان ، ولم يقل: ظهراء ، ولو قال قائل: إن ظهيراً لجبريل ، ولصالح المؤمنين ، والملائكة ـ كان صوابا ، ولكنه حسن أن يجعل الظهير للملائكة خاصة ، لقوله: (والملائكة) بعد نصرة هؤلاء ظهير .

(31/771)

وأما قوله: ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنه موحد فى مذهب الجميع، كما تقول: لا يأتينى إلا سائس الحرب، فمن كان ذا سياسة للحرب فقد أمر بالمجىء واحداً كان أو أكثر منه، ومثله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾، هذا عامٌّ [/ب] وليس بواحد ولا اثنين، وكذلك قوله: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾، وكذلك: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾، و ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾، فى كثير من القرآن يؤدى معنى الواحد عن الجمع.

وقرأ عاصم والأعمش: "أَنْ يُبْدِلَهُ" بالتخفيف، وقرأ أهل الحجاز، "أن يبدّله" [بالتشديد] وكلٌّ صواب: أبدلت، وبدّلت.

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾

وقوله: ﴿ سَائِحَاتٍ . . . ﴾.

هنّ الصائمات، قال: ونرى أن الصائم إنما سمّى سائحاً لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل حيث يجد، فكأنه أخذ من ذلك. والله أعلم.

والعرب تقول للفَرس إذا كان قائماً على غير علف: صائم، وذلك أن له قُوتَيْن. قُوتاً غدوة وقوتا عشية؛ فشبه بتسحر الآدمى وإفطاره.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ

غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ . . . ﴾ .

علِّموا أهليكم ما يدفعون به المعاصى ، علموهم ذلك .

(32/771)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً . . . ﴾ .

قرأها بفتح النون أهلُ المدينة والأعمش ، وذكر عن عاصم والحسن "نُصُوحاً" ، بضم النون ، وكأن الذين قالوا: "نُصوحاً" أرادوا المصدر مثل: قُعودا ، والذين قالوا: "نَصوحا" جعلوه من صفة التوبة ، ومعناها : يحدّث نفسه إذا تاب من ذلك الذنب ألاّ يعود إليه أبداً .

وقوله: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا . . . ﴾ .

لا يقوله كل من دخل الجنة ، إنما يقوله أدناهم منزلة ؛ وذلك: أن السابقين فيما ذكر يمرون كالبرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم كالفرس الجواد ، وبعضهم حَبْوًا وَزحفاً ،

فأولئك الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ حتّى ننجو.

ولو قرأ قارىء: "ويدخلْكم" جزماً لكان وجهاً؛ لأن الجواب فى عسى فيضمر فى عسى. الفاء، وينوى بالدخول أن يكون معطوفاً على موقع الفاء، ولم يقرأ به أحدٌ،

ومثله: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

ومثله قول الشاعر:

فأبلونى بليتكُم لعلى * أصالحكم، واستدرجْ نَوَيَّا

فجزم لأنه نوى الرد على لعلى.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾.

(33/771)

هذا مثل أريد به عائشة، وحفصة فضرب لهما المثل، فقال: لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط إيمانُ زوجيهما، ولم يضر زوجيهما نفاقُهما، فكذلك لا ينفعكما نُبوَّةُ النبى ـ صلى الله عليه ـ لو لم تؤمنا، ولا يضره ذنوبكما، ثم قال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾

فأمرهما أن تكونا: كآسية، وكمريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها. والفرج ها هنا: جيب درعها، وذكر أن جبريل: ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفخ فى جيبها، وكل ما كان فى الدرع من خرْق أو غيره يقع عليه اسم الفرج. قال الله تعالى: ﴿وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعنى السماء من فطور ولا صدوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 165 ـ 169﴾.

(34/771)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة التحريم

(لم تحرم) [1] أصاب النبي عليه السلام من مارية في بيت حفصة وقد خرجت [لزيارة] أبيها، فلما علمت عتبت، فقال: "حرمتها علي". ويقال: إنه كان في يوم [عائشة]، وكانت وحفصة [متصافيتين]، فأخبرت عائشة -وكان قال: لا تخبري عائشة، فقد حرمتها علي- فطلق حفصة، واعتزل سائر نسائه شهراً، فنزلت هذه الآية، فراجع حفصة، واستحل مارية، وعاد إلى نسائه.

(عرف بعضه وأعرض عن بعض) [3]

أعلمها بعض الأمر أنه وقف عليه ، وأعرض عن بعض حياءً وإبقاءً . وعرف بالتخفيف ، معناه عند الفرداء : جازة عليه ، وغضب منه ، كقولك لمن تهدده : عرفت ما عملت ، ولأعرفنك ما عملت ، أي : لأجازينك عليه . (قوا أنفسكم) [6] يقال ق ، وقيا ، وقوا ، وقي للمرأة ، وقيا ، وقين ، / فإن جئت بالنون الثقيلة للتوكيد ، قلت : قين يا رجل وقيان وقن ، وقن يا امرأة ، وقيان وقينان يا نسوة . (توبة نصوحاً) [8] كل فعول إذا كان بمعنى الفاعل استوى فيه المذكر والمؤنث ، فمعنى (توبة نصوحاً) : توبة ناصحة صادقة ، وهي التي لا يهم معها الفتى بمعاودة المعصية .

وقيل : هي التي يناصح المرء فيها نفسه ، فيعلم بعدها ما لها وما عليها . (جاهد الكفار) [9] أي : بالقتل . (والمنافقين) بالقول الغليظ ، والوعظ البليغ . وقيل : بإقامة الحدود ، فكانوا أكثر الناس مواقعةً [للكبائر] .

[تمت سورة التحريم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1515.1519 ﴾

(35/771)

وقال الأخفش :

سورة (التحريم)

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

قال ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ فجعله جماعة لأنهما اثنان من اثنين .

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ ﴾ و ﴿ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ [11] على: "وَضَرَبَ اللهُ امْرَأَةَ فِرْعَونَ وَمَرْيَمَ مَثَلا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 545 ﴾

(36/771)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة التحريم

مدنية كلها

2 - قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ ، أي أوجب لكم الكفارة .

4 - فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما أي عدلت ومالت .

وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ أي تتعاونا عليه ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ ، أي وليّه .

5 - قانِتاتٍ : مطيعات .

سائِحاتٍ : صائمات .

ويرى أهل النظر أنه إنما سمي الصائم سائحا : تشبيها بالسائح الذي لا زاد معه .

[و] قال الفراء : تقول العرب للفرس - إذا كان قائما لا علف بين يديه - : صائم ، وذلك :

ان له قوتين غدوة وعشية ، فشبّه به صيام الآدميّ بتسحره وإفطاره .

6 - قوله : قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا أي قوا أنفسكم النار :

بطاعة اللّه ورسوله ، وقوا أهليكم النار : بتعليمهم وأخذهم بما ينجيهم منها .

8 - تَوْبَةً نَصُوحاً أي تنصحون فيها للّه ، ولا تدهنون .

12 - وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ : المطيعين للّه عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 405 ﴾

(37/771)

وقال الغزنوى :

سورة التحريم

1 لِمَ تُحَرِّمُ : أصاب النّبيّ - عليه السّلام - من مارية في بيت حفصة

وقد خرجت إلى أبيها ، فلمّا علمت عتبت ، فقال : «حرّمتها عليّ» .

وقيل «1» : إنه كان في يوم عائشة وكانت وحفصة متصافيتين فأخبرت عائشة ، وكان قال لها : لا تخبريها ، فطلّق حفصة ، واعتزل النساء شهرا وحرّم مارية .

وقيل «2» : حرّم شراب عسل كان يشربه عند زينب بنت جحش ، فأنكرت ذلك عائشة وحفصة وقالتا : إنا نشمّ منك ريح المغافير «3» - وهي بقلة متغيرة - فحرّم ذلك الشّراب .

3 عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ : أعلمها بعض الأمر أنه وقف عليه .

وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ : حياء وإبقاء . و«عرف» بالتخفيف «4» : جازى

---

(1) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : 28/ 258 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وكذا الواحدي في أسباب النزول : 504 ، وذكره البغوي في تفسيره : 4/ 363 بغير سند .

وأورد الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 186 نحو هذا القول من رواية الهيثم بن كليب في مسنده عن عمر رضي اللّه عنه ، وعقب عليه بقوله : «و هذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

(2) صحح الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 187 هذا القول في نزول هذه الآية .

وقد ثبت هذا في صحيح البخاري : 6/ 68 ، كتاب التفسير «تفسير سورة التحريم» .

وصحيح مسلم : 2/ 1100 ، كتاب الطلاق ، باب «وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق» .

وعقب الحافظ في الفتح : 9/ 289 على الروايات المختلفة في سبب نزول هذه الآية بقوله : «و طريق الجمع بين هذا الاختلاف الحمل على التعدد ، فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد . . » .

(3) جاء في هامش الأصل : «المغفور مثل الصمغ يخرج من الرّمث : ضرب من الشجر مما ينبت في السهل ، وهو من الحمض .

وفي الدستور : المغفور شيء ينضحه العرفط حلو . . . ، والعرفط من شجر العضاة» اه .

ينظر النهاية لابن الأثير : 3/ 218 ، واللسان : 7/ 350 (عرفط) .

(4) هذه قراءة الكسائي كما في السبعة لابن مجاهد : 640 ، والتبصرة لمكي : 354 ، والتيسير للداني : 212 .

(38/771)

عليه وغضب منه ، كقولك لمن تهدده : عرفت ما عملت ولأعرفنّك ما فعلت ، أي : أجازيك .

وقيل «1» : لمّا حرّم مارية أخبر حفصة أنّه يملك من بعده أبو بكر وعمر ، فعرّفها بعض ما أفشت ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ : عن خلافتهما .

5 قانِتاتٍ : دائمات على الطاعة «2» .

سائِحاتٍ : ماضيات «3» فيها . وقيل «4» : صائمات ، لأنّ السّائح لا مأوى له ولا زاد ، وإنّما يأكل ما وجد إذا آواه اللّيل ، كالصّائم يأكل ما وجد إذا أدركه اللّيل «5» .

6 قُوا أَنْفُسَكُمْ يقال : ق ، وقيا ، وقوا ، وقى ، وقيا ، وقين ، وبالنون الثقيلة قينّ يا رجل «6» .

8 تَوْبَةً نَصُوحاً كلّ «فعول» بمعنى الفاعل يستوي فيه المذكّر ،

---

(1) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 12/ 117 حديث رقم (12640) عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 261 عن الضحاك .

وأورد الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 192 رواية الطبراني ، ثم قال : إسناده فيه نظر .

وأورد الحافظ ابن حجر في الفتح : رواية الطبراني وزاد نسبتها إلى ابن مردويه ، ثم قال وفي كل منهما ضعف .

(2) ينظر تفسير الطبري : 28/ 164 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 193 ، والمفردات للراغب :

413 ، واللسان : 2/ 73 (قنت) .

(3) تفسير القرطبي : 18/ 194 ، والبحر المحيط : 8/ 292 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : (28/ 164 ، 165) عن ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك . .

وانظر مجاز القرآن لابن عبيدة : 2/ 261 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 472 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 194 . [. . . . .]

(5) عن معاني القرآن للفراء : 3/ 167 .

(6) في «ك» : «يا امرأة قيان وقينان يا نسوة» .

وانظر اللسان : 15/ 405 (وقي) .

(39/771)

[100/أ] والمؤنث «1» ، ف «توبة نصوح» : ناصحة/ صادقة لا يهمّ معها بالمعاودة .

وقيل «2» : هي التي يناصح المرء فيها نفسه فيعلم بعدها ما لها وما عليها .

9 جاهِدِ الْكُفَّارَ : بالسّيف ، وَالْمُنافِقِينَ : بالقول الغليظ والوعظ البليغ .

وقيل «3» : بإقامة الحدود ، وكانوا أكثر الناس مواقعة للكبائر .

10 فَخانَتاهُما : امرأة نوح كانت تقول : إنه مجنون ، وامرأة لوط كانت تدل على الضّيف «4» .

12 فَنَفَخْنا فِيهِ نفخ جبريل في جيبها بأمر اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 821.824 ﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 194 ، وزاد المسير : 8/ 313 ، وتفسير القرطبي :

18/ 199 .

(2) ذكر نحوه أبو حيان في البحر المحيط : 8/ 293 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 267 ، وكذا في تفسير القرطبي : 18/ 201 .

(4) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : (28/ 169 ، 170) ، والحاكم في المستدرك : 2/ 496 ، كتاب التفسير - كلاهما عن ابن عباس رضي اللّه عنهما - قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 228 ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وقال ملاحويش :

تفسير سورة التحريم

عدد 21 - 107 و66

نزلت بالمدينة بعد الحجرات ، وهي اثنتا عشرة آية ، ومئتان وسبع وأربعون كلمة ، والف وستون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ومثلها في عدد الآي سورة الطّلاق وتقدم بيان السّور المبدوءة بما بدئت بها في سورة الأحزاب ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ" من النّساء "تَبْتَغِي" بذلك التحريم "مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ" لما وقع منك في ذلك "رَحِيمٌ" (1) بك يحل لك ما تحرم على نفسك .

مطلب في اثبات قصة التحريم وتفنيد الرّوايات فيها لأن اللّه تعالى لم يبين ما هو الذي سرّه الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم لزوجاته :

روى البخاري ومسلم عن عائشة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم كان يمكث عند زينب

بنت جحش فيشرب عندها عسلا قالت فتواطأت أنا وحفصة إن أتانا ودخل علينا النّبي صلّى اللّه عليه وسلم أن نقول هل إنا نجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت له أكلت مغافير – هو صمغ حلو له رائحة كريهة ينضجه شجر المعرفط وهو نبات له ورق عريض يفرش على الأرض له شوكة وثمرة خبيثة الرّائحة – فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود إليه وفي رواية قد حلفت فلا تخبري بذلك أحدا فنزلت هذه الآية .

وما قيل من أن هذه الآية في قضية مارية حينما واقعها حضرة الرسول في بيت حفصة أو في بيت عائشة المذكورة في الصّحيحين فلم تأت من

طريق صحيح ، والأخبار فيها متعارضة ، لأن رواية ابن عباس في بيت حفصة وما نقله الكشاف أنها في بيت عائشة ، وفي رواية أنس التي أخرجها الحاكم والنّسائي لم تعين الأمة ولا البيت ، وإنما ذكرا فيها أن عائشة وحفصة لم تزالا برسول اللّه حتى جعلهما حراما على نفسه .

(41/771)

قال النّووي في شرح مسلم الصحيح أن الآية في قصة العسل لا في قصة مارية .

وقال الخافجي نقلا عنه ، الصواب أن شرب العسل كان عند زينب خلافا الحديث المروي في الصّحيحين عن عائشة أيضا بأن العسل شربه عند حفصة وإن عائشة وسودة وصفية تواطأن عليه بذلك ، أي اتفقن فيما بينهن على ذلك القول ، لأن الخطاب في الآية إلى اثنتين لا إلى ثلاثة .

وقال الطيبي فيما نقله عن الكشاف من أنه صلّى اللّه عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت ذلك حفصة ، فقال لها اكتبي عليّ ، وقد حرمت مارية على نفسي ، وأبشرك بأن أبا بكر وعمر سيملكان بعدي أمتي .

ما وجدته في الكتب المشهورة فضلا عن تضاربها واختلاف رواتها واضطرابهم بالاسم والزمان والمكان ، ولا أراها إلّا موضوعة أو ملفقة فلا عمدة على شيء فيها ، ولهذه الأسباب اعتمدنا الرّواية الأولى الثابتة في الصحيحين والتي لا طعن فيها ، تأمل قال تعالى "قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ" بأن أوجب عليكم كفارة لتحليل يمينكم .

وإنما جمع الضّمير تضخيما لسيد المخاطبين وإعلاما بأن هذا الحكم ليس له وحده بل لأمنه أيضا "وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ" جميعا وناصركم ومغيثكم ومؤيدكم "وَهُوَ الْعَلِيمُ" بما يقع منكم "الْحَكِيمُ" (2) يحلل ويحرم ويرخص في الأمور وقد يسر عليكم في كفارة الأيمان وسهلها لكم رحمة لكم .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال إذا حرم الرجل امرأته فهو يمين يكفرها ، وقال لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة .

وفي رواية إذا حرم امرأته ليس بشيء .

والحكم الشّرعي فيها لو قال أنا عليك حرام ونوى الطّلاق يقع ، ولو قال أنا حرام ولم يقل منك وعليك لا يقع ، وإن نوى ولو قال لامرأته مرتين أنت علي حرام ونوى بالأول الطّلاق وفي الثانية اليمين فهو على ما نوى .

راجع بحث الكنايات في فتاوى الهندية والبزّازية والخانية والأنقروي وغيرها من كتب الفتاوى والفقه كالدرر والدّر وغيرها .

(42/771)

قال تعالى مبينا القصة

التي هي سبب التحريم "وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً" لم يذكره اللّه ما هو ، والمجمع عليه أنه قصة شرب العسل عند زينب وحلفه أو تحريم مارية ، أو أمر الخلافة على ما مرّ لك ، وقوله لحفصة أنه لا يعود إليه كما أنه تعالى لم يذكر التي أسر إليها إلّا أن أكثر الأخبار تدل على أنها حفصة ، ولذلك خصصناها بالذكر واللّه أعلم "فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ"

أخبرت حفصة عائشة بالأمر الذي علمته "وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ" بان أطلعه على اخبارها واتفاقها مع عائشة على مسألة المغافير المارة ، وقد "عَرَّفَ بَعْضَهُ" إلى حفصة بأن قال لها إنك قلت لعائشة كذا وكذا مع اني نهيتك ان تبوئي بما قلته لك من شرب العسل وغيره "وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ" وهو قوله إني حلفت فلا تخبري أحدا فلم يقله لها ، ولم يؤنبها عليه ، إلا أنه غضب من افشائها ما أسره لها ، مع أنه أمرها بكتمانه وهمّ بطلاقها ، فأتاه جبريل وقال له لا تطلقها فإنها صوامة قوامة ، وانها من نسائك في الجنّة .

وهذا وان كان ليس بشيء إلّا أنه بالنسبة لمقام حضرة الرّسول شيء عظيم ، كما أن ما يقع منهن لو وقع من الغير لما سمي ذنبا البتة ، ولكن الأنبياء يعدونه كبيرا بالنسبة لمقامهم من اللّه عز وجل ، على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين .

قال تعالى "فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا" النبأ الذي ذكرته مع أنه لم يطلع عليه أحد إلّا أنا وعائشة "قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ" 3 بكل ما يقع في ملكه ، قبل لما بلغ ذلك عمر وظن أن حضرة الرّسول طلقها قال لها لو كان في الخطاب خير لما طلقك رسول اللّه .

(43/771)

قال تعالى "إِنْ تَتُوبا" على طريق الالتفات وهو أبلغ من المعاتبة ، والخطاب لعائشة وحفصة لأنهما اللّتان تواطأتا على ذلك كما مر آنفا وترجعا "إِلَى اللَّهِ" عما وقع منكما من الاتفاق والتعاون على أذى حضرة الرّسول وعلى كتمان ما يأمر كنّ بكتمانه ، لأنه الواجب عليكما طلبا لرضائه ، لأن اللّه تعالى يغفر لكما ما بدر منكما ، لأن ما تواطأتما به عليه "فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما" به أي زاغت ومالت هما هو الواجب عليكما من الإخلاص لحضرته بأن تحبا ما يحبه وتكرها ما يكرهه ، وامتثال أمره مهما كان ، وقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الامتثال لما أراده منكما

لأن ذلك مخالفة لحضرته تستوجب العقوبة ، وهي إثم تجب التوبة منه عليكما ، لأن طاعته واجبة ، ثم هددهما بقوله "وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ" وتتعاونا بما يسوءه قولا وفعلا "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ" وحافظه من كيدكن وناصره عليكما وعلى كلّ من يناوئه "وَجِبْرِيلُ" وليه أيضا "وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ" أوليائه وفي طليعتهم أبواكما ينصرانه عليكما "وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ" النصر والتولي من اللّه وجبريل وكلّ مخلص من المؤمنين والملائكة الكرام "ظَهِيرٌ" (4) له على كلّ من يناوئه فما يغني تظاهركما عليه .

واعلمن أيها النّساء كلكن إذا أصررتن على ما أنتنّ عليه فمصيركن الهلاك فبادرون بالندم وأسرعن بالتوبة مما وقع منكن واسترضينه ، فإذا رضي عنكما فلعل ربّه أن يقبل توبتكما وإذا أصررتما فما تدريان "عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ" لأن

تصييركن بوجودكن عنده وفضلكن بما نلتنه من قربه ، فإذا طلقكن زالت منكن تلك الصّفات ولم يبق لكن فضل على غيركن .

(44/771)

ثم وصف النّساء اللاتي يبدلهن بهن بأنهن "مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ" مهاجرات وقيل صائمات لأن السّائح لا زاد له فشبه بالصائم "ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً" (5) وهذا من باب الإخبار عن القدرة لا عن الكون ، لأنه قال إن طلقكن وقد علم أنه لا يطلقهن ، فأخبر عن قدرته بأنه إذا طلقهن أبدله خيرا منهن تخويفا لهن .

مطلب استئناس عمر رضي اللّه عنه مع حضرة الرّسول وما قاله أبو رواحة إلى زوجته حتى تخلص مما اتهمته به :

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال لم أزل حريصا على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين في أزواج النّبي صلّى اللّه عليه وسلم اللّتين قال اللّه عز وجل فيهما إن تتوبا إلى اللّه فقد إلخ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان بعض الطّريق عدل وعدلت معه بالأداوه الرّكوة التي فيها ماء ، والعدول هو الميل إلى جانب الطّريق الملوك والبراز محل قضاء الحاجة ، فتبرز ثم اتاني ، فصببت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النّبي

صلّى اللّه عليه وسلم اللّتان قال اللّه فيهم إن تتوبا إلخ ؟

قال عمر ووا عجبا لك يا ابن عباس قال الزهري كوه منه ما سأله عنه ولم يكتمه ،

(45/771)

قال هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ بسوق الحديث قال كنا معشر قريش قوما نغلب نساءنا ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي (هي أماكن بأعلى أراضي المدينة جمع عالية) فغضبت يوما على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك ، فو اللّه ان أزواج النّبي صلّى اللّه عليه وسلم ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى اللّيل ، فانطلقت فدخلت على حفصة ، قلت أتراجعن رسول اللّه ، فقالت نعم ، فقلت أتهجره إحداكن اليوم إلى اللّيل ، قالت نعم قلت لقد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أفتأمنّ إحداكن أن تغضب اللّه عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت رسول اللّه ولا تسأليه شيئًا وسلي ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم (أكثر حسنا وجمالا) وأحب إلى رسول اللّه منك (يريد عائشة) ، وكان لي جار من الأنصار ، فكنا نتناوب النّزول إلى رسول اللّه فينزل يوما فيأتيني بخبر الوحي ، وأنزل يوما وآتيه بمثل ذلك ،

وكنا نتحدث ان غسان تبعث الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته ثم أتاني عشاء فضرب بابي ثم ناداني ، فخرجت إليه ، فقال حدث أمر عظيم ، قلت ماذا حدث أجاءت غسان ؟ قال بل أعظم منه وأهول طلق رسول اللّه نسائه ، قلت قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون ، حتى إذا صليت الصّبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول اللّه ؟ قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في هذه المشربة (الغرفة والعلية ولها معان ليست مرادا هنا) فأتيت غلاما له أسود ، فقلت استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج ، فقال قد ذكرتك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المشربة ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلا ، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام ، فقلت استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج فقال ذكرتك له فصمت ، فوليت مدبرا ، فإذا الغلام يدعوني فقال أدخل فقد أذن

(46/771)

لك ، فدخلت

فسلمت على رسول اللّه ، فإذا هو متكىء على رمال حصير (أي حصير مضفور ، من رملت الحصير إذا ضفرته أي ليس له وطاء غيره) قد أثر في جنبه ، فقلت أطلقت يا رسول

اللّه نساءك ؟ فرفع رأسه إلى فقال لا ، فقلت اللّه أكبر لو رأيتنا يا رسول اللّه قد كنا معشر قريش نغلب النّساء ، فلما قدمنا

المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يوما فإذا هي تراجعني فأنكرت إذا راجعتني ، فقالت ما تنكر أن أراجعك ، فو اللّه إن أزواج النّبي يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى اللّيل ، فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر أفتأمن إحداهن أن يغضب اللّه عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ، فتبسم صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم قال عمر فدخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول اللّه منك ، فتبسم أخرى ، فقلت استأنس يا رسول اللّه ؟ قال نعم ، فجلست فرفعت رأسي في البيت ، فو اللّه ما رأيت فيه ما يرد البصر إلّا أهبة (جمع أهاب وهو الجلد) ثلاثة ، فقلت يا رسول اللّه أدع اللّه أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والرّوم وهم لا يعبدون اللّه فاستوى جالسا ثم قال أفي شك أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدّنيا ، فقلت استغفر لي يا رسول اللّه وكان أقسم لأن لا يدخل عليهن شهرا من أجل ذلك الحديث الذي أفشته حفصة لعائشة من شدة موجدته أي غضبه الشّديد عليهن حتى عاتبه اللّه ، قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت لما مضت تسع وعشرون دخل علي رسول اللّه بدأ بي ، فقلت يا رسول اللّه إنك أقسمت أن لا تدخل شهرا وإنك دخلت في تسع وعشرين ليلة أعدهن ، قال إن

الشّهر يكون تسعا وعشرين ، وفي رواية قلت يا رسول اللّه ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن اللّه معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون ، فنزلت هذه الآية .

(47/771)

هذا ويعلم من قوله تعالى إذ أسرّ إلخ جواز أسرار بعض شأن الرّجل لزوجته أو صديقه ممن يأتمنه ويعتمد عليه ، ويلزم ذلك المسر اليه الكتمان .

وتشير هذه الآية إلى لزوم حسن معاشرة الزوجة والتلطف بعتابها

عند تقصيرها ، ونؤمى أيضا إلى الإعراض عن زلتها .

روي أن عبد اللّه بن رواحة أحد النّقباء كانت له جارية فأتهمته زوجته أنه واقعها حيث رأته معها فأنكر عليها ذلك تعريضا ، فقالت له إن كنت صادقا فاقرأ القرآن فأنشد :

شهدت فلم أكذب بأن محمدا رسول الذي فوق السّموات من على

وان أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل في دينه متقبل

وان التي بالجزع من بطن نخلة ومن دانها كلّ عن الخير معزل

قالت زدني ، فأنشد :

وفينا رسول اللّه نتلو كتابه كما لاح معروف من الصّبح ساطع

أتى بالهدى بعد العمى فنفوسنا به موقنات إن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا رقدت بالكافرين المضاجع

فقالت زدني أيضا ، فأنشد :

علمت أن وعد اللّه حق وان النّار مثوى الكافرينا

وان محمدا يدعو بحق وان اللّه مولى المؤمنينا

وان العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ملائكة اللّه مسوّمينا

فقالت أما وقد قرأت اكثر من ثلاث آيات من القرآن فقد صدقت وصدق اللّه وكذب بصري .

وهذا من كمال يقينها رحمها اللّه ورحم زوجها ، وذهب بالحال وأخبر رسول اللّه بذلك كله فتبسم صلّى اللّه عليه وسلم وقال خيركم خيركم لنسائه .

(48/771)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ" بأن تنهوهم عما نهى اللّه عنه وتأمروهم بما أمر به وتعلموهم ما ينفعهم ويضرهم من أمر الدّين وما لهم وما عليهم من الحقوق للّه ولخلقه وخاصة أزواجكم لأنكم مسؤولون عنهم ومكلفون بتعليمهم وبذلك تخلصون من أن تصلوا "ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ" وهذه نار مخصوصة لا تتقد إلّا بالناس والحجارة بان يكونا كبريتا لها ، تتقد به والعياذ باللّه وتقدم مثل هذه الجملة في الآية 34 من سورة البقرة "عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ" لم يخلق اللّه رحمة في قلوبهم ولا شفقة ولا لطفا ولا رأفة وهم شديدوا الانقياد لأوامر اللّه تعالى "لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ" (6) به في أعداء اللّه من انواع العذاب ، ولم يتأثروا مما يفعلونه في المعذبين ، لأن اللّه لم يخلق فيهم حنانا على أحد ، ولم يتريثوا في إنفاذ أمره بل يوقعونه حالا كلمح البصر أو أقرب .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا" اخرسوا لا تنبسوا ببنة شفة فقد انقطعت المحاججة و"لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ"

(49/771)

حيث تقدم لكم الإنذار والإعذار في الدّنيا فلا محل له في الآخرة "إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (7) في الدّنيا من الخبائث في هذا اليوم الذي وعدتم به ، الذي لا يقبل فيه عذر

البتة ، واعلم أنه لا يوجد في القرآن مثل صدر هذه الآية قطعا ، وهذا من لطفه تعالى ، إذ كان نداؤه يا أيها النّاس ، يا أيها الّذين آمنوا يا بني آدم ، يا أهل الكتاب ، بما يشم منه عدم دخول الغير في هذا الخطاب ، ولذلك خصصه بالكافرين وله الحمد ، ومن عطفه أيضا على المؤمنين أنه أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلم أن يعاملنا باللطف ، إذ قال (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) راجع آخر سورة النّحل في ج 2 "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ" في هذه الدّنيا من جميع السّيئات "تَوْبَةً نَصُوحاً" صادقة خالصة لا عودة فيها إلى الذنب قبل حلول آجالكم ، راجع بحث التوبة في الآية 36 من سورة الشّورى المارة في ج 2 فإذا أتيتم توبة محضة "عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ" بها .

(50/771)

واعلم أن عسى هنا وفي كلّ موضع من القرآن تفيد التحقيق كما سيأتي في الآية 103 من سورة التوبة الآتية "وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" بل مكرمهم بكرامته راجع الآية 192 من آل عمران المارة ، وحين يمشون على الصراط يوم القيامة يكون "نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" أمامهم "وَبِأَيْمانِهِمْ" من جوانبهم واستغنى بذكر اليمين عن الشّمال اكتفاء به ، وإلا فالنور محيط بهم من جميع جوانبهم من

الجهات السّت ، وإذا رأوا نور المنافقين انطفا ، إذ يكون لهم نور كما للمؤمنين بأول الأمر ، ثم يسلب منهم زيادة في حسرتهم وأسفهم "يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا" اجعله مصاحبا لنا دائما مثل إخواننا المؤمنين الكاملين الّذين هم مع الأنبياء والشّهداء "وَاغْفِرْ لَنا" ما سلف منا "إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (8) فيجيب اللّه دعاءهم ، ويبقي المنافقين في الظّلمة المستمرة ، أجارنا اللّه منها ، لأن إيمانهم كان صوريا ، فيلقون عقابه من جنسه ، إذ يريهم النّور ويدخلهم في الظّلمة كما كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، راجع الآيتين 12 و13 من سورة الحديد المارة قال تعالى

"يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ" بالقول فهم مخزيّون في هذه الدّنيا "وَمَأْواهُمْ" في الآخرة "جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (9) هي لأهلها .

مطلب في المثل الذي ضربه اللّه تعالى لنساء الأنبياء وقصة آسية زوجة فرعون ومريم ابنة عمران :

(51/771)

قال تعالى "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ" واعلة الكافرة راجع الآية 97 من سورة هود في ج 2 لتقف على السّبب الذي غمسها في النّار ، وامرأة لوط واهلة الكافرة أيضا ،

راجع ما وقع منها في الآية 77 من سورة هود أيضا "كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ" نبيّين كريمين خليلين "فَخانَتاهُما" بالكفر بدينهما والتجسس عليهما وإخبار قومهما بمن يؤمن بهما ومن يأتي إليهما وتحريض قومهما لا بالبغي وحاشاهما منه .

قال ابن عباس ما بغت امرة نبي قط .

لأن البغي يقدح فيهم ويمس جانبهم العالي النّزيه المبرأ من كل عيب ، المنزه من كلّ ما به وصمة مطلقا ، "فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً" اي لم ينجياهما من عذاب اللّه مع كونهما محترمين عنده لوجود الحائل وهو الكفر "وَقِيلَ" لهما يوم القيامة "ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" (10) فيها ، لأن محبة الكافر للمسلم مع بقائه على كفره لا تنفعه عند اللّه ، وكذلك حجة المعاصي ، قال تعالى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الآية 67 من سورة الزخرف ج 2 ، راجع تفسير الآية هذه ففيه بحث نفيس لا غنى لك عنه .

وإذا كان كذلك فكيف تنفع حجة الكفرة لأوثانهم التي هي نفسها عاجزة محتاجة إلى من يحرسها ؟ وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث أيضا في الآية 31 من سورة ابراهيم في ج 2 فراجعه .

قال تعالى "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ" المؤمنة آسية بنت مزاحم التي كانت مصاحبة لزوجها المتناهي في الكفر "إِذْ قالَتْ" حينما عذبها على إيمانها بموسى وأرادها

على الكفر ولم تفعل "رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ" لأني تركت بيت فرعون وجنته في الدّنيا من أجلك رغبة بما عندك في الآخرة "وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ"

(52/771)

الخبيث الذي أرادني عليه "وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" الّذين وكلهم فرعون بعذابي وصبرت حتى ماتت على إيمانها ولم يثنها عنه تعذيب المعذبين ، رحمها اللّه رحمة واسعة ، ولا شك أن اللّه أجاب دعاءها بفضله وكرمه .

وقد بين اللّه في هذين المثلين أن وصلة الكافر للمؤمن لا تضره ولا تنفع الكافر ما دام على كفره كما أن وصلة المؤمن للكافر لا تنفعه ولا تضر المؤمن إذا لم يمل إليه ويواليه راجع آخر سورة الممتحنة المارة ومن هذا القبيل وصلة السّيدة مريم عليها السّلام وما أوتيت من الكرامة مع قومها الكافرين فلا تنفعهم ولا يضرونها .

(53/771)

قال تعالى في براعتها مما وصمها به قومها "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها" وتمتعت بالعفة في حياتها الدّنيوية كلها "فَنَفَخْنا فِيهِ" بواسطة الأمين جبريل عليه السّلام من جيب درعها نفخة "مِنْ رُوحِنا" التي خلقناها في الأزل لحياة ابنها عيسى عليه السّلام راجع الآية 92 من سورة الأنبياء ج 2 لنقف على كيفية النّفخ هذا وقد أضاف اللّه تعالى الرّوح اليه إضافة تشريف ، لأنه هو الذي خلقها وأبقاها عنده للوقت المقدر لبعث ابنها لأنها له ، كما يقال بيت اللّه وهو لخلقه ، وناقة اللّه وهي لقوم صالح عليه السّلام ، وقد جرت عليها السّلام على أذى قومها وو صمهم لها وهي براء "وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها" التي بشرها بها جبريل عليه السلام بما لها عند اللّه من الكرامة ، وبإيجاد عيسى منها من غير أب ، وبهذا المعنى أطلق عليه كلمة اللّه ، لأنه خلق بلفظ كن ، وهي كلمة اللّه التي أوجد فيها جميع الخلق النّامي منه والجامد "وَكُتُبِهِ" المنزلة على أنبيائه ، صدقت بها أيضا ، ومنها إنجيل ابنها الذي تلقاه عن ربه "وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ" (12) للّه تعالى وهي من نسل القانتين ، لأن رهطها وعشيرتها من بيت الصّلاح والنّبوة ، ولما كان القنوت صفة تشمل كلّ من يقنت ذكرا كان أو أنثى غلب في الذكور هنا ، فيدخل فيه القانتات واعلم أن في هذين المثلين تعريضا بأمّي المؤمنين حفصة وعائشة رضي اللّه عنهما على ما فرط منهما في تواطئهما على ما يغيظ حضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، وتحذير لهما من العود إلى مثله ،

واعلاما لهما بأنهما إذا لم يخلصا له كاخلاص آسية ومريم إلى اللّه تعالى لم ينتفعا من صحبته في الآخرة ، وأن لا يتكلا على كونهما

(54/771)

زوجتين له لان الزوجية لا تكفي للخلاص من عذاب اللّه كما هي الحالة في زوجتي نوح ولوط لأنهما خلدتا في النّار لعدم نصحهما لزوجيهما وعدم إيمانهما بهما ، وإذا أردت أن تقف على حقيقة الصّحبة ومنافعها ومضارها راجع ما ألمعنا اليه في الآية 10 المارة .

أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال قال صلّى اللّه عليه وسلم حسبك من نساء المسلمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم .

وتقدمت قصة ما شطتها مع فرعون بالآية 10 من سورة الفجر في ج 1 ، وأما قصتها هي ما رواه ابن عباس رضي اللّه عنهما أنها كانت من أجمل نساء زمانها ، وقد قصتها هي ما رواه ابن عباس رضي اللّه عنهما أنها كانت من أجمل نساء زمانها ، وقد غاظها فرعون بما فعل بما شطتها المار ذكرها وقصتها ، وقد عيل صبرها من هول ما رأت من الفظاعة التي أجرتها عليها شرطة فرعون بأمره فجلست تفكر ماذا تفعل معه وهي بعصمته ،

فدخل عليها وهي على تلك الحالة ، فقال لها ما بالك ؟

قالت له بالي إنك شر الخلق ، فقال لها هل الجنون الذي كان في الماشطة أصابك ؟

(55/771)

قالت ما بي من جنون ولا بها ، وإن الرّب الذي لي ولها ولمن في السّموات والأرض هو اللّه الواحد الذي لا شريك له ولا رب غيره ولا يستحق العبادة إلا هو ، فبصق عليها وضربها وأخبر أبويها بذلك لينصحاها ، فجاءا وقالا لها يا آسية ألست من خير نساء العالمين وزوجك إلههم ؟ قالت أعوذ باللّه أن يكون فرعون إلها إن الإله الحق واحد لا شريك له في ملكه ، فإن كان ما يدعيه فرعون حقّا من الألوهية فليتوخ تاجا تكون الشّمس أمامه والقمر خاتمه والكواكب حوله ، ولم يزالا بها يقنعانها ويهددانها وهى ثابتة على إيمانها باللّه كافرة بفرعون مؤنّبة لمن يعده إلها ، وصارت تصرح بذلك بعد أن كانت تسرّ به ، فلما رأى الخبيث منها هذا الإصرار ورأى أن التهديد لم يجدها نفعا ولم يثنها عن عقيدتها وصارحته بالإيمان باللّه والكفر به ودعته إلى الإيمان باللّه ، أخرج أبويها ومدها بين أربعة أوتاد وصار يعذبها بالضرب والكي بالنار إلى أن ماتت مصرة على إيمانها باللّه وحده ، كافرة بما سواه ، رحمها اللّه رحمة واسعة .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 231 . 241 ﴾

(56/771)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة التحريم

مدنية

أزواجك كاف رحيم تام تحله أيمانكم حسن عبد بعضهم والأحسن الوقف على مولاكم وهو قول أبي حاتم الحكيم وكذا عن بعض الخبير حسن قلوبكما صالح وصالح المؤمنين كاف ظهير تام وكذا وأبكارا والحجارة كاف ما أمرهم مفهوم ما يؤمرون تام لا تعتذر واليوم صالح تعلمون تام نصوحا كاف الأنهار وبأيمانكم كاف وكذا واغفر لنا قدير تام جهنم كاف المصير تام وامرأت لوط كاف مع الداخلين حسن الظالمين كاف إن نصب ومريم أبنت

عمران بإضمار اذكروا جائز إن عطف على امرأت فرعون لأنه عطف جملة آخر السور

تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(57/771)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة التحريم

مدنية اثنتا عشرة آية إجماعاً كلمها مائتان وسبع وأربعون كلمة وحروفها ألف ومائة

وستون حرفاً كحروف سورة الطَّلاق

ما أحل الله لك (تام) عند محمد بن عيسى وليس الأمر كما قال لأنَّ تبتغي في موضع الحال

قد عمل فيه ما قبله

أزواجك (كاف)

رحيم (تام)

تَحِلَّةَ أيمانكم (حسن)

مولاكم (أحسن) مما قبله

الحكيم (كاف) حديثاً (جائز) على القراءتين في عرف بتشديد الراء وبتخفيفها فقرأ

الكسائي بالتخفيف والباقون بالتشديد

وأعرض عن بعض (حسن) ومثله من أنبأك هذا

الخبير (تام)

قلوبكما (حسن)

هو مولاه (كاف) عند يعقوب وقال نافع تام لأنَّه انقضاء نعتهن وما بعده مستأنف يريد أنَّ

مولى النبي صلى الله عليه وسلم هو الله تعالى كقوله نعم المولى ونعم النصير ثم قال تعالى

وجبريل وصالح المؤمنين على الابتداء والخبر ظهير قاله أبو العلاء الهمداني والأكثر على أنَّ

الوقف على وصالح المؤمنين ثم يبتدئ والملائكة

ظهير (كاف) ولا وقف من قوله عسى ربه إلى قوله وأبكاراً فلا يوقف على منكن لأنَّ

مسلمات وما بعدها صفة لقوله أزواجاً وأبكاراً معطوف على ثيِّبات وهذا تقسيم

للأزواج وقيل الواو في وأبكاراً واو الثمانية والصحيح أنَّها للعطف ويجوز لوقف على

وأهليكم وعلى ناراً وفي ذلك نظر لأنَّ قو يتعدَّى لمفعولين الأول أنفسكم والثاني ناراً

فأهليكم عطف على أنفسكم ومعنى وقايتهم حملهم على الطاعة فيكون ذلك وقاية بينهن

وبين النار لأنَّ ربَّ المنزل راعٍ ومسؤول عن رعيته

والحجارة (حسن) ومثله شداد وقيل في قوله عليها تسعة عشر هؤلاء الرؤساء ما بين

منكبي أحدكم مسيرة سنة وقوّته أن يضرب بالمقمعة فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً

فيهوون في النار لكل واحد تسع عشرة يداً أصابعها بعدد من في النار

ما أمرهم (جائز) وانتصب ما أمرهم على البدل أي لا يعصون أمره

ما يؤمرون (تام)

اليوم (جائز) وقال نافع تام

تعلمون (تام)

(58/771)

نصوحاً (كاف) على استئناف ما بعده وقيل لا يجوز لأنَّ قوله عسى في موضع الجواب لتوبوا الأنهار (جائز) وقيل لا يجوز لأنَّ قوله يوم لا يخزي الله النبي ظرف لما قبله والمعنى ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار في هذا اليوم

يوم لا يخزي الله النبي قيل تام على أنَّ قوله والذين آمنوا في موضع رفع على الابتداء والخبر قوله نورهم يسعى ويكون النور للمؤمنين خاصة وقيل الوقف على يوم لا يخزي الله النبيّ والذين أمنوا معه (تام) قال يحيى بن نصير النحوي تم الكلام هنا ويكون قوله والذين آمنوا معه معطوفاً على النبي أو مبتدأ والخبر محذوف والمعنى يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه لا يخزون فعلى هذا يكون نورهم مستأنفاً وهذا أوجه من الأول وإن جعل والذين آمنوا

معه مبتدأ والخبر نورهم يسعى فلا يوقف على معه

وبأيمانهم (حسن)

واغفر لنا (كاف)

قدير (تام)

والمنافقين (جائز) ومثله واغلظ عليهم

جهنم (كاف) عند أبي حاتم

المصير (تام)

وامرأت لوط (حسن) لأنَّ الجملة لا تكون صفة للمعرفة وليس بوقف إن جعلت الجملة مفسرة لضرب المثل ومثله في الحسن فخانتاهما على استئناف ما بعده

الداخلين (تام)

امرأت فرعون ليس بوقف لتعلق إذ بما قبلها

الظالمين (كاف) إن نصب ومريم بفعل مقدر فهي مفعول به وهو من عطف الجمل وعطف الجمل من مقتضيات الوقف وجائز إن عطف ومريم على امرأت فرعون لأنَّه رأس آية ولا يوقف على أحصنت فرجها لمكان الفاء

من روحنا (جائز)

وكتبه (حسن) على القراءتين قرأ أبو عمرو و حفص بالجمع والباقون بالأفراد لأنَّه مصدر

يدل على القليل والكثير بلفظه واتفق علماء الرسم على كتابة امرأت نوح و امرأت لوط و امرأت فرعون وكذا كل امرأة ذكرت مع زوجها فهي بالتاء المجرورة

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(59/771)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة التحريم 1 :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "وَقُودُهَا2" - بضم الواو - مجاهد والحسن وطلحة وعيسى الهمداني .

قال أبو الفتح : هذا على حذف المضاف ، أي : ذو وقودها يعنى ما تطعمه النار من الوقود وقد مضى ذكره3 ، وتفسير ما فيه .

ومن ذلك قراءة سهل بن شعيب : "وَبِأَيْمَانِهِم4" ، مكسورة الهمزة .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على ذلك5 ، وأنه معطوف عل الظرف ، على أن الظرف حال .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء : "وَكُتُبِهِ وَكَانَت6" ، ساكنة التاء ، واختلف عنه .

وقرأ "وكتابه" .

قال أبو الفتح قال أبو حاتم : كتبه أجمع من كتابه ، وكل صواب . وعلى كل حال ففيه وضع المضاف موضع الجنس ، وقد تقدم تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 323﴾

---

1 المتحرم : مصدر ميمي من تحرم منه ، بمعنى تمنع وتحمي ، فالكلمة بمعنى التحريم .

والمتحرم اسم آخر للسورة ، كما في بصائر ذوي التمييز : 1 : 471 .

2 سورة التحريم : 6 .

3 انظر الصفحة : 63 من الجزء الأول .

4 سورة التحريم : 8 .

5 انظر الصفحة 311 من هذا الجزء .

6 سورة التحريم : 12 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة التحريم

مدنية وآيها اثنا عشرة في غير الحمصي وثلاث فيه خلافها آية الأنهار حمصي مشبه الفاصلة وصالح المؤمنين القراآت قرأ نافع بهمز النبيء ووقف البزي ويعقوب بخلفهما على لم بهاء السكت وأمال مرضات الكسائي وحده ووقف عليها بالهاء وحده أيضا وهي مخصصة من ذوات الواو ولذا فتحها الأزرق وقرأ نافع النبيء إلى بهمزتين محققة فمسهلة كالياء وبإبدالها واوا

واختلف في ( ) عرف بعضه (الآية 3 فالكسائي بتخفيف الراء على معنى المحازاة أي حاز على بعض وأعرض عن بعض تكرما وحلما والباقون بتشديدها فالمفعول الأول محذوف أي عرف الرسول حفصة بعض ما فعلت وأدغم دال فقد صغت أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (تظاهرا) الآية 4 بتخفيف الظاء على حذف إحدى التاءين عاصم وحمزة والكسائي وخلف والباقون بتشديدها بإدغام التاء في الظاء كما مر في البقرة وسبق فيها حكم جبريل وأمال عسى معا حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وتقدم الخلاف لأبي عمرو في إدغام طلقكن في بابه

وقرأ ( ) أن يبدله (الآية 5 بفتح الموحدة وتشديد الدال نافع وأبو عمرو وأبو جعفر والباقون

بالسكون والتخفيف ومر بالكهف

واختلف في (نصوحا) الآية 8 فأبو بكر بضم النون مصدر نصح نصحا ونصوحا وافقه الحسن والباقون بفتحها صيغة مبالغة كضروب أسند النصح إليها مبالغة وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة فيأتي بها على طريقتها ونصبها في القراءة الأولى على المفعول له أي لأجل نصح صاحبها أو نعتا على الوصف بالمصدر أي ذات نصح عن ابن عباس رضي الله عنه هي اليقين بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالجوارح

والاطمئنان على الترك ووقف على امرأت الثلاث كابنت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب

وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وأمال عمران بن ذكوان من طريق هبة الله عن الأخفش

(61/771)

وقرأ (وكتبه) الآية 12 بالجمع أبو عمرو وحفص ويعقوب والباقون بالتوحيد

المرسوم روى نافع كالبقية ﴿ تظهرون ﴾ بحذف الألف بعد الظاء واتفقوا على رسم (

مرضات) بالتاء وكذا (أمرأت) الثلاث و ﴿ ابنت عمران ﴾) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(62/771)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة التحريم "

" النبي " لم عند الوقف ، وهو ، عليه ، مولاه ، طلقكن ، أزواجا خيرا ، ملائكة غلاظ ، تعتذروا ، يكفر ، أيديهم عليهم ، وقيل كله جلي .

" عرف " قرأ الكسائي بتخفيف الراء وغيره بتشديدها .

" تظاهرا " قرأ الكوفيون بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها .

" وجبريل " قرأ المدنيان والبصريان والشامي وحفص بكسر الجيم والراء وبعد الراء ياء ساكنة وبعدها اللام والمكي كذلك إلا إنه يفتح الجيم ، وشعبة بفتح الجيم والراء وبعدها همزة مكسورة وبعد الهمزة اللام ، والأخوان وخلف مثله لكنهم يزيدون ياء ساكنة بين الهمزة واللام .

" يبدله " قرأ المدنيان والبصري بفتح الباء وتشديد الدال وغيرهم بإسكان الباء وتخفيف

الدال .

" نصوحا " ضم النون شعبة وفتحها غيره .

" امرأت الثلاثة وابنت " رسمت كلها بالتاء ووقف عليها بالهاء المكي والبصريان والكسائي ، والباقون بالتاء .

" عمران " لا يرقق ورش راءه لأنه من الأسماء الأعجمية .

" وكتبه " قرأ حفص والبصريان بضم الكاف والتاء على الجمع ، والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الإفراد .

" القانتين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" مرضاة " للكسائي وحده ، مولاكم ومولاه ومأواهم وعسى معا ويسعى ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه عمران لابن ذكوان بخلف عنه .

المدغم

الصغير: " فقد صغت " للبصري وهشام والأخوين وخلف ، واغفر لنا للبصري بخلف عن الدوري .

الكبير: " تحرم ما " ، فإن الله هو ، طلقكن على أحد الوجهين ، والله تعالى أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 330 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة التحريم

قوله تعالى ﴿ عرف بعضه ﴾ يقرأ بتشديد الراء وتخفيفها فالحجة لمن خفف انه أراد عرف بعضه من نفسه وغضب بسببه وجازى عليه بأن طلق حفصة تطليقة لإذاعتها ما إئتمنها عليه من سره والعرب تقول لمن يسيء إليها أما والله لأعرفن لك ذلك والحجة لمن شدد أنه أراد ترداد الكلام في محاورة التعريف فشدد لذلك ومعناه عرف بعض الحديث وأعرض عن بعضه واحتج بأنه لو كان مخففا لأتى بعده بالإنكار لأنه ضده بالإعراض

قوله تعالى ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ يقرأ بتشديد الظاء وتخفيفها وقد ذكرت علل ذللك في عدة مواضع فأغنى عن الإعادة

قوله تعالى ﴿ توبة نصوحا ﴾ يقرأ بضم النون فالحجة لمن ضم أنه أراد المصدر من قولهم نصح نصوحا كما قالوا صلح صلوحا والحجة لمن فتح أنه جعله صفة للتوبة وحذف الهاء لأنها معدولة عن أصلها لأن الأصل فيها ناصحة فلما عدلت من فاعل إلى فعول حذفت

الهاء منها دلالة على العدل

والتوبة النصوح التي يعتقد فاعلها أنه لا يعاود فيما تاب منه أبدا

قوله تعالى ﴿ أن يبدله أزواجا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكرت وجوه علله في سورة الكهف

قوله تعالى ﴿ وكتبه وكانت ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكرت علله فيما تقدم فإن قيل ما وجه قوله تعالى ﴿ من القانتين ﴾ ولم يقل من القانتات فقل أراد من القوم القانتين ومعنى القانت ها هنا المطيع وفي غير هذا الساكن والداعي والمصلي ومعنى التذكير في قوله ﴿ فنفخنا فيه ﴾ اراد في جيب درعها فذكر للمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 348 . 349 ﴾

(64/771)

وقال ابن زنجلة :

66 - سورة التحريم

فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض 3

قرأ الكسائي عرف بعضه بالتخفيف وقرأ الباقون عرف بالتشديد من قولك عرفتك

الشيء أي أخبرتك به فالمعنى عرف حفصة بعض الحديث وأعرض عن بعض فلم يعرفه إياها على وجه التكرم والإغضاء وألا يبلغ أقصى ما كان منها وجاء في التفسير أن النبي صلى الله عليه أخبرها ببعض ما أعلمه الله عنها أنها قالت وحجتهم قوله فلما نبأها به أي خبرها فهذا دليل على التعريف ويقوي ذلك قوله وأعرض عن بعض يعني أنه لم يعرفها إياه ولو كان عرف لكان الإنكار ضده فقيل وأنكر بعضا ولم يقل وأعرض عنه

ووجه التخفيف لقراءة الكسائي عرف بعضه أي جازى عليه وغضب من ذلك وحجته في ذلك أن جاء في التفسير أن النبي صلى الله عليه جازى حفصة بطلاقها قال الزجاج وتأويل هذا حسن بين معنى عرف بعضه أي جازى عليه كما تقول لمن تتوعده قد علمت ما عملت وقد عرفت ما صنعت تأويله فسأجازيك عليه لا أنك تقصد إلى أن تعرفه أنك قد علمت فقط ومثله قوله تعالى وما تفعلوا من خير يعلمه الله فتأويله يعلمه الله ويجازي عليه والله يعلم كل ما يعمل فقيل إن النبي صلى الله عليه طلق حفصة تطليقة فكان ذلك جزاءها عنده وكانت صوامة قوامة فأمر الله عز و جل أن يراجعها فراجعها وإن تظهرا عليه فإن الله هو موله 4

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وإن تظاهرا عليه بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد أرادوا تتظاهرا فأدغموا التاء في الظاء ومن خفف أسقط التاء مثل تذكرون عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن 5

قرأ نافع وأبو عمرو أن يبدله بالتشديد من بدل يبدل وقرأ الباقون بالتخفيف من أبدل يبدل

وقد ذكرت يأيها الذين ءامنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا 8

قرأ أبو بكر توبة نصوحا بضم النون جعله مصدرا من نصح ينصح نصحا ونصاحة ونصوحا

مثل شكرت شكورا وجلست جلوسا وقعدت قعودا المعنى ينصحون فيها نصوحا يقال

نصح الشيء نصوحا أي خلص

(65/771)

وقرأ الباقون نصوحا بالفتح جعلوه صفة للتوبة ومعناه توبة بالغة في النصح لأن فعولا لا

يستعمل إلا للمبالغة في الوصف كما تقول رجل صبور وشكور وجاء في التفسير أن التوبة

النصوح التي لا ينوى معها معاودة

وقال عبد الرحمن بن زيد نصوحا صادقة وقيل خالصة وإنما قيل نصوحا ولم يقل نصوحة

لأن فعولا يستوي فيه المذكر والمؤنث فتقول أرض طهور وماء طهور ورجل صبور وامرأة

صبور وصدقت بكلمت ربها وكتبه وكانت من القنتين 12

قرأ أبو عمرو وحفص وكتبه جماعة وحجتهما أنها صدقت بجميع كتب الله فالجمع أولى

وأحسن

وقرأ الباقون وكتابه أرادوا الجنس كما تقول كثر الدرهم في ايدي الناس تريد الجنس وكما قال جل وعز وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها المراد الكثرة فكذلك قوله وكتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 713.715 ﴾

(66/771)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة التحريم 66

مدنية وقد ذكر نظيرتها في غير البصري ولا نظير لها فيه

وكلمها مئتان وسبع وأربعون كلمة

وحروفها ألف ومئة وستون حرفا

وهي اثنتا عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

رحيم

1 الحكيم

2 الخبير

3 ظهير

4 وأبكارا

5 يؤمرون

6 تعملون

7 قدير

8 المصير

9 الداخلين

10 الظالمين

11 القانتين

12 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 250﴾

(67/771)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (تبتغى) هو حال من الضمير في تحرم ، ويجوز أن يكون مستأنفا وأصل (تحلة) تحللة ، فأسكن الأول وأدغم (وإذ) في موضع نصب باذكر .

قوله تعالى (عرف بعضه) من شدد عداه إلى اثنين ، والثانى محذوف: أي عرف بعضه بعض نسائه ، ومن خفف فهو محمول على المجازاة لا على حقيقة العرفان لأنه كان عارفا بالجميع ، وهو كقوله تعالى " والله بما تعملون خبير " ونحوه: أي يجازيكم على أعمالكم .

قوله تعالى (إن تتوبا) جواب الشرط محذوف تقديره: فذلك واجب عليكما أو يتب الله عليكما ، ودل على المحذوف (فقد صغت) لأن إصغاء القلب إلى ذلك ذنب .

قوله تعالى (قلوبكما) إنما جمع ، وهما اثنان لأن لكل إنسان قلبا ، وما ليس في الأنسان منه إلا واحد جاز أن يجعل الاثنان فيه بلفظ الجمع ، وجاز أن يجعل بلفظ التثنية ، وقيل وجهه أن التثنية جمع .

قوله تعالى (هو مولاه) مبتدأ وخبره خبر إن ، ويجوز أن يكون هو فصلا ، فأما (جبريل وصالح المؤمنين) ففيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، والخبر محذوف أو مواليه ، أو يكون معطوفا على الضمير في مولاه أو على معنى الابتداء .

والثانى

أن يكون مبتدأ (والملائكة) معطوفا عليه ، و (ظهير) خبر الجميع ، وهو واحد في معنى الجمع: أي ظهراء ، و (مسلمات) نعت آخر وما بعده من الصفات كذلك ، فأما الواو في قوله تعالى (وأبكارا) فلا بد منها ، لأن المعنى بعضهن ثيبات وبعضهن أبكار .

قوله تعالى (قوا) في هذا الفعل عينه لأن فاءه ولامه معلتان ، فالواو حذفت في المضارع لوقوعها بين ياء مفتوحة وكسرة ، والأمر مبنى على المضارع .

قوله تعالى (لا يعصون الله) هو في موضع رفع على النعت .

قوله تعالى (توبة نصوحا) يقرأ بفتح النون ، قيل هو مصدر ، وقيل هو اسم فاعل: أي ناصحة على المجاز ، ويقرأ بضمها وهو مصدر لا غير مثل القعود .

(68/771)

قوله تعالى (يقولون) يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (امرأة نوح وامرأة لوط) أي مثل امرأة نوح ، وقد ذكر في يس وغيرها ، و (كانتا) مستأنف ، و (إذ قالت) العامل في إذ المثل ، و (عندك) يجوز أن يكون ظرفا لابن ، وأن يكون حالا من (بيتا) .

قوله تعالى (ومريم) أي واذكر مريم ، أو ومثل مريم ، و (فيه) الهاء تعود على الفرج ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(69/771)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة التحريم

[سورة التحريم (66) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1)

"يا أَيُّهَا" يا حرف نداء ومنادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل من أيها "لِمَ" اللام حرف جر وما : اسم استفهام في محل جر باللام وهما متعلقان بالفعل بعدهما "تُحَرِّمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "أَحَلَّ اللَّهُ" ماض وفاعله "لَكَ" متعلقان بالفعل والجملة صلة .

"تَبْتَغِي مَرْضاتَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حالية . "أَزْواجِكَ" مضاف إليه . "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" مبتدأ وخبراه والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التحريم (66) : آية 2]

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

"قَدْ فَرَضَ اللَّهُ" قد حرف تحقيق وماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ" مفعول به مضاف وأيمانكم مضاف إليه "وَ" الواو حالية "اللَّهُ مَوْلاكُمْ" مبتدأ وخبره والجملة حال. "وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" معطوف على ما قبله.

[سورة التحريم (66) : آية 3]

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

(70/771)

"وَ" الواو حرف استئناف "إِذْ" ظرف زمان "أَسَرَّ النَّبِيُّ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى بَعْضِ" متعلقان بالفعل "أَزْواجِهِ" مضاف إليه "حَدِيثاً" مفعول به "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لما" ظرفية شرطية غير جازمة "نَبَّأَتْ" ماض فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها. "عَرَّفَ" ماض فاعله مستتر

والجملة جواب الشرط لا محل لها "بَعْضَهُ" مفعول به "وَأَعْرَضَ" معطوف على عرف "عَنْ بَعْضٍ" متعلقان بالفعل "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لما" سبق إعرابها "نَبَّأَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة.

"قالَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها. "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "أَنْبَأَكَ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "هذا" مفعول به ثان والجملة الفعلية خبر من والجملة الاسمية مقول القول "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ" ماض ومفعوله والعليم فاعله "الْخَبِيرُ" صفة والجملة مقول القول.

[سورة التحريم (66) : آية 4]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

"إِنْ تَتُوبا" حرف شرط جازم ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها "فَقَدْ" الفاء حرف تعليل "قد صَغَتْ" حرف تحقيق وماض "قُلُوبُكُما" فاعله وجواب الشرط محذوف وجملة

صغت تعليل لا محل لها ومعنى صغت : مالت "وَإِنْ" الواو حرف عطف "إِنْ تَظاهَرا" معطوف على إن تتوبا وجواب الشرط محذوف تقديره يجد ناصرا "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل ، "فَإِنَّ" الفاء حرف تعليل "إن اللَّهِ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "مَوْلاهُ" خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها ، "وَجِبْرِيلُ" مبتدأ "وَصالِحُ" معطوف على جبريل "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه "وَالْمَلائِكَةُ" مبتدأ "بَعْدَ ذلِكَ" ظرف زمان مضاف إلى اسم الإشارة "ظَهِيرٌ" خبر لما سبق .

[سورة التحريم (66) : آية 5]

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (5)

"عَسى " ماض جامد من أفعال الرجاء "رَبُّهُ" اسمه "إِنْ طَلَّقَكُنَّ" إن شرطية جازمة وماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف "أَنْ يُبْدِلَهُ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعول به أول والمصدر المؤول من أن وما بعدها خبر عسى "أَزْواجاً" مفعول به ثان "خَيْراً" صفة أزواجا "مِنْكُنَّ" متعلقان بخيرا "مُسْلِماتٍ ، مُؤْمِناتٍ ، قانِتاتٍ ، تائِباتٍ ، عابِداتٍ ، سائِحاتٍ ، ثَيِّباتٍ" صفات متعددة لأزواجا "وَأَبْكاراً" معطوف على ما قبله .

[سورة التحريم (66) : آية 6]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6)

(72/771)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ" سبق إعرابها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة النداء ابتدائية لا محل لها "قُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "أَنْفُسَكُمْ" مفعول به "وَأَهْلِيكُمْ" معطوف على أنفسكم "ناراً" مفعول به ثان "وَقُودُهَا النَّاسُ" مبتدأ وخبره والجملة صفة نارا "وَالْحِجارَةُ" معطوف على الناس "عَلَيْها" خبر مقدم "مَلائِكَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة ثانية لنارا "غِلاظٌ شِدادٌ" صفتان لملائكة "لا" نافية "يَعْصُونَ اللَّهَ" مضارع مرفوع والواو فاعله ولفظ الجلالة مفعوله "ما" بدل من لفظ الجلالة والجملة صفة ثالثة "أَمَرَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة. "وَيَفْعَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" مفعول به "يُؤْمَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة ما.

[سورة التحريم (66) : آية 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ"

سبق إعرابها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "لا تَعْتَذِرُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف. "الْيَوْمَ" ظرف زمان "إِنَّما" كافة ومكفوفة "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "ما" مفعول به ثان "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم.

[سورة التحريم (66) : آية 8]

(73/771)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" : سبق إعرابها "تُوبُوا" أمر وفاعله "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها "تَوْبَةً" مفعول مطلق "نَصُوحاً" صفة "عَسى" فعل ماض جامد "رَبُّكُمْ" اسم عسى "أَنْ يُكَفِّرَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب خبر عسى "عَنْكُمْ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتِكُمْ" مفعول به "وَيُدْخِلَكُمْ" مضارع ومفعوله

الأول والفاعل مستتر والجملة معطوفة على يكفر "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان "تَجْرِي" مضارع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات "يَوْمَ" ظرف زمان "لا" نافية "يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "وَالَّذِينَ" معطوف على النبي "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة. "مَعَهُ" ظرف مكان "نُورُهُمْ" مبتدأ "يَسْعى" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" ظرف مكان مضاف إلى أيديهم "وَبِأَيْمانِهِمْ" معطوفان على الظرف "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال "رَبَّنا" منادى مضاف "أَتْمِمْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لَنا" متعلقان بالفعل "نُورَنا" مفعول به والجملتان مقول القول "وَاغْفِرْ لَنا" معطوف على ما قبله، "إِنَّكَ" إن واسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر إنّ والجملة الاسمية تعليلية.

(74/771)

[سورة التحريم (66) : آية 9]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

"يا أَيُّهَا النَّبِيُّ" سبق إعرابها. "جاهِدِ الْكُفَّارَ" فعل أمر والكفار مفعوله "وَالْمُنافِقِينَ"

معطوف على الكفار "وَاغْلُظْ" أمر فاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ" مبتدأ وخبره والجملة حالية "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التحريم (66) : آية 10]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "امْرَأَتَ نُوحٍ" بدل مضاف إلى نوح "وَامْرَأَتَ لُوطٍ" معطوف على ما قبله . "كانَتا" كان واسمها "تَحْتَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كان "عَبْدَيْنِ" مضاف إليه "مِنْ"

"عِبادِنا" متعلقان بمحذوف صفة عبدين "صالِحَيْنِ" صفة عبدين والجملة حال .

"فَخانَتاهُما" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

"فَلَمْ يُغْنِيا" مضارع مجزوم بلم والألف فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَنْهُما" متعلقان بالفعل "مِنَ اللَّهِ" حال "شَيْئاً" مفعول به "وَقِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة معطوفة على ما قبلها "ادْخُلَا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "النَّارَ" مفعول به "مَعَ" ظرف

مكان "الدَّاخِلِينَ" مضاف إليه.

[سورة التحريم (66) : آية 11]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ" : سبق إعراب مثيله. "إِذْ" ظرف زمان "قالَتْ رَبِّ" ماض فاعله مستتر ومنادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "ابْنِ" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملتان مقول القول وجملة قالت في محل جر بالإضافة "لِي" متعلقان بابن "عِنْدَكَ" ظرف مكان "بَيْتاً" مفعول به "فِي الْجَنَّةِ" متعلقان بمحذوف صفة "وَنَجِّنِي" فعل دعاء ومفعوله والفاعل مستتر "مِنْ فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَعَمَلِهِ" معطوف على ما قبله "وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ" معطوف على ما قبله "الظَّالِمِينَ" صفة القوم.

[سورة التحريم (66) : آية 12]

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها

وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

"وَمَرْيَمَ" معطوف على امرأة فرعون "ابْنَتَ عِمْرانَ" صفة مريم مضاف إلى عمران "الَّتِي" صفة مريم أيضا "أَحْصَنَتْ" ماض فاعله مستتر "فَرْجَها" مفعول به والجملة صلة.

"فَنَفَخْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ رُوحِنا" متعلقان بالفعل أيضا ، "وَصَدَّقَتْ" فعل ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِكَلِماتِ" متعلقان بالفعل "رَبِّها" مضاف إليه "وَكُتُبِهِ" معطوف على ما قبله "وَكانَتْ" ماض ناقص واسمه مستتر "مِنَ الْقانِتِينَ" خبر كانت والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 357. 360﴾

(76/771)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ التَّحْرِيم

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

1376 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلا بمارية فِي يَوْم عَائِشَة وَعلمت بذلك حَفْصَة فَقَالَ لَهَا اكْتُمِي عَلَي ذَلِك وَقد حرمت مَارِيَة عَلَى نَفسِي وأبشرك أَن أَبَا بكر وَعمر يملكَانِ بعدِي أَمر أمتِي فَأَخْبرت بِهِ عَائِشَة وكانتا مُتَصَادِقَتَيْنِ

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه باخْتِلَاف يسير فَقَالَ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن نائلة الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَمْرو البَجلِيّ ثَنَا أَبُو عوَانَة عَن أبي عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى وَإِذ أسر النَّبِي إِلَى بعض أَزوَاجه حَدِيثا قَالَ دخلت حَفْصَة عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيتهَا وَهُوَ يطَأ مَارِيَة فَقَالَ لَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُخْبِرِي عَائِشَة حَتَّى أُبَشّرك ببشَارَة فَإِن أَبَاك يَلِي

الْأَمر من بعد أبي بكر إِذا أَنا مت فَذَهَبت حَفْصَة فَأَخْبرت عَائِشَة أَنَّهَا رَأَتْ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطَأ مَارِيَة وَأَنه أخْبرهَا أَن أَبَا بكر يَلِي بعد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعمر من بعده فَقَالَت عَائِشَة للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَنْبَأَك هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيم الْخَبِير فَقَالَت عَائِشَة لَا أنظر إِلَيْك حَتَّى تحرم مَارِيَة فَحَرمهَا فَأَنْزل الله يأيها النَّبِي لم تحرم . . . الْآيَة انْتَهَى

(77/771)

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد ثَنَا إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد ابْن برة الصَّنْعَانِيّ ثَنَا أَبُو الْوَلِيد هِشَام بن إِسْمَاعِيل المَخْزُومِي أَنا مُوسَى بن جَعْفَر ابْن أبي كثير مولَى الْأَنْصَارِيّ عَن عَمه عَن أبي بكر بن عبد الرَّحْمَن بن الْحَارث ابْن هِشَام عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن بن عَوْف عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ دخل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بمارية الْقبْطِيَّة فِي بَيت حَفْصَة بنت عمر فَوَجَدتهَا مَعَه فَقَالَت يَا رَسُول الله فِي بَيْتِي وَتفعل هَذَا بِي من دون نسَائِك قَالَ فَإِنَّهَا حرَام أَن أَمسهَا يَا حَفْصَة الا أُبَشّرك فَقَالَت بلَى قَالَ يَلِي هَذَا الْأَمر بعدِي أَبُو بكر ويليه من بعده أَبوك واكتمي عَلّي هَذَا فَخرجت حَتَّى أَتَت عَائِشَة فَقَالَت يَا بنة أبي بكر أَلا أُبَشّرك قَالَت بِمَاذَا قَالَت وجدت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَعَ مَارِيَة فِي بَيْتِي فَقلت لَهُ يَا رَسُول الله فِي بَيْتِي وَتفعل بِي هَذَا من دون نسَائِك وَكَانَ أول السرُور أَن حرمهَا عَلَى نَفسه ثمَّ قَالَ لِي يَا حَفْصَة أَلا أُبَشّرك قلت بلَى قَالَ إِن أَبَا بكر يَلِي هَذَا الْأَمر من بعدِي وَإِن أَبَاك يَليهِ من بعده وَقد اسْتَكْتَمَنِي ذَلِك فَاكْتُمِيهِ فَأَنْزل الله فِي ذَلِك يأيها النَّبِي لم تحرم مَا أحل الله لَك . . . الْآيَة انْتَهَى

1377 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خلا بمارية فِي يَوْم حَفْصَة فأرضاها بذلك واستكتمها فَلم تكْتم فَطلقهَا وَاعْتَزل نِسَاءَهُ وَمكث تسعا وَعشْرين لَيْلَة فِي بَيت مَارِيَة

قلت غَرِيب وَرَوَى ابْن أبي خَيْثَمَة فِي تَارِيخه بسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّد بن إِسْحَاق قَالَ اخبرني بعض آل عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَصَاب جَارِيَته الْقبْطِيَّة أم إِبْرَاهِيم فِي بَيت حَفْصَة وَفِي يَوْمهَا فَعَثَرَتْ حَفْصَة عَلَى ذَلِك فَقَالَت يَا رَسُول الله لقد جِئْت إِلَيّ شَيْئًا مَا جِئْته إِلَى أحد من نِسَائِك فِي بَيْتِي وَعَلَى فِرَاشِي وَفِي دَوْلَتِي قَالَ أيرضيك أَن أحرمهَا فَلَا أَمسهَا أبدا قَالَت نعم فَحَرمهَا عَلَى نَفسه وَقَالَ لَا تَذْكُريه لأحد من النَّاس قَالَت افْعَل وَكَانَت حَفْصَة لَا تكْتم عَائِشَة شَيْئًا فَلَمَّا خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذهبت إِلَى عَائِشَة فَأَخْبرتهَا فَأَنْزل الله يأيها النَّبِي لم تحرم . . . الْآيَة فَكفر يَمِينه وَقرب جَارِيَته انْتَهَى وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر حَدثنِي عمر بن عقبَة عَن شُعْبَة قَالَ سَمِعت ابْن عَبَّاس يَقُول خرجت حَفْصَة من بَيتهَا وَكَانَ يَوْم عَائِشَة فَدخل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِجَارِيَتِهِ الْقبْطِيَّة بَيت حَفْصَة فَجَاءَت حَفْصَة وَالْبَاب مُجَاف فَرَقَبَته حَتَّى خرجت الْجَارِيَة فَقَالَت حَفْصَة لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أما إِنِّي قد رَأَيت مَا صنعت فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ السَّلَام فَاكْتُمِي عني وَهِي عَلَّي حرَام فَانْطَلَقت حَفْصَة إِلَى عَائِشَة فَأَخْبرتهَا فَأَنْزل الله وَإِذ أسر النَّبِي إِلَى بعض أَزوَاجه حَدِيثا إِلَى قَوْله قُلُوبكُمَا يَعْنِي عَائِشَة

وَحَفْصَة فَتَرَكَهُنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعا وَعشْرين لَيْلَة ثمَّ نزل يأيها النَّبِي لم تحرم مَا أحل الله لَك . . . الْآيَة فَكفر يَمِينه وَحبس نِسَاءَهُ انْتَهَى

(79/771)

1378 - الْحَدِيث الثَّالِث

وَرُوِيَ أَن عمر قَالَ لَهَا لَو كَانَ فِي آل الْخطاب خير لما طَلَّقَك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ لَهُ رَاجعهَا فَإِنَّهَا صَوَّامَة قَوَّامَة وَإِنَّهَا لمن نِسَائِك فِي الْجنَّة

قلت غَرِيب وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْفَضَائِل من حَدِيث الْحسن ابْن أبي جَعْفَر ثَنَا ثَابت عَن انس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلق حَفْصَة تَطْلِيقَة فَأَتَاهُ جِبْرِيل فَقَالَ يَا مُحَمَّد طلقت حَفْصَة رَاجعهَا فَإِنَّهَا قَوَّامَة صَوَّامَة وَإِنَّهَا زَوجتك فِي الْجنَّة انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن الْحسن بن أبي جَعْفَر عَن عَاصِم عَن زر بن حُبَيْش عَن عمار بن يَاسر قَالَ لما طلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفْصَة أَتَاهُ جِبْرِيل فَقَالَ لَهُ رَاجع حَفْصَة فَإِنَّهَا صَوَّامَة قَوَّامَة وَإِنَّهَا زَوجتك فِي الْجنَّة انْتَهَى قَالَ الْبَزَّار لَا

نعلمهُ عَن عمار إِلَّا من هَذَا الْوَجْه انْتَهَى

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة حَفْصَة أخْبرْنَا يزِيد بن هَارُون عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن أبي عمرَان الْجونِي عَن قيس بن زيد أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم طلق حَفْصَة بنت عمر فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن جِبْرِيل أَتَانِي فَقَالَ لِي رَاجع حَفْصَة فَإِنَّهَا صَوَّامَة قَوَّامَة وَهِي زَوجتك فِي الْجنَّة

أخبرنَا سعيد بن عَامر عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة . . . فَذكر نَحوه

وَبِالسَّنَدِ الأول رَوَاهُ الْحَارِث بن أبي أُسَامَة فِي مُسْنده ثَنَا عَفَّان ثَنَا حَمَّاد ابْن سَلمَة بِهِ

1379 - الحَدِيث الرَّابِع

(80/771)

رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام شرب عسلا وَمَضَى إِلَى بَيت زَيْنَب بنت جحش فَتَوَاطَأت عَائِشَة وَحَفْصَة فَقَالَتَا لَهُ إِنَّا نَشُمُّ مِنْك ريح مَغَافِير وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يكره التفل فَحرم الْعَسَل

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه وَمُسلم أَيْضا من حَدِيث عبيد بن عُمَيْر عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يشرب عسلا عِنْد زَيْنَب بنت جحش وَيمْكث عِنْدهَا فَتَوَاطَأت أَنا وَحَفْصَة أَيَّتنَا دخل عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ إِنِّي أجد مِنْك ريح مَغَافِير قَالَ لَا

وَلَكِنِّي كنت أشْرب عسلا عِنْد زَيْنَب بنت جحش فَلَنْ أَعُود لَهُ وَقد حَلَفت لَا تُخْبِرِي بذلك أحدا انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَزَاد فِيهِ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يكره أَن يُوجد مِنْهُ ريح

وَفِي لفظ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يشْتَد عَلَيْهِ أَن يُوجد مِنْهُ الرّيح

1380 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يَمُوت لأحد ثَلَاثَة من الْوَلَد فَتَمَسهُ النَّار إِلَّا تَحِلَّة الْقسم

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا أَنا دَاوُد فَرَوَاهُ مُسلم فِي الزّهْد وَالْبَاقُونَ فِي الْجَنَائِز من حَدِيث سعيد بن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يَمُوت لأحد إِلَى آخِره

1381 - قَوْله

عَن أبي بكر وَعمر وَابْن عَبَّاس وَابْن مَسْعُود وَزيد وَعَائِشَة إِن الْحَرَام يَمِين

وَعَن عَلّي أَنه ثَلَاث

قلت رَوَى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه حَدثنَا عبد الرَّحِيم بن سليم عَن جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك أَن أَبَا بكر وَعمر وَابْن مَسْعُود قَالُوا من قَالَ لامْرَأَته هِيَ عَلّي حرَام فَلَيْسَتْ بِحرَام وَعَلِيهِ كَفَّارَة يَمِين انْتَهَى

حَدثنَا عبد الله بن الْمُبَارك عَن خَالِد عَن عِكْرِمَة عَن عمر قَالَ الْحَرَام يَمِين انْتَهَى

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أَخْبرنَا ابْن عُيَيْنَة عَن عبد الله بن أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن مَسْعُود قَالَ فِي الْحَرَام هِيَ يَمِين يكفرهَا انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث سعيد بن جُبَير عَنهُ قَالَ فِي الْحَرَام يَمِين يكفرهَا ثمَّ قَرَأَ لقد كَانَ لكم فِي رَسُول الله أُسْوَة حَسَنَة . . . انْتَهَى وَفِي لفظ لمُسلم قَالَ إِذا حرم الرجل امْرَأَته فَهِيَ يَمِين يكفرهَا انْتَهَى

وَحَدِيث عَلّي فِي مُصَنف ابْن أبي شيبَة حَدثنَا حَاتِم بن إِسْمَاعِيل عَن جَعْفَر ابْن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن عَلّي قَالَ فِي قَول الرجل لامْرَأَته أَنْت عَلّي حرَام هِيَ ثَلَاث انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه ثَنَا ابْن جريج عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد بِهِ

وَحَدِيث عَائِشَة رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن مطر الْوراق عَن عَطاء عَن عَائِشَة أَنَّهَا قَالَت فِي الْحَرَام يكفر انْتَهَى

1382 - الْحَدِيث السَّادِس

عَن مقَاتل أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اعْتِقْ رَقَبَة فِي تَحْرِيم مَارِيَة

وَعَن الْحسن أَنه لم يكفر لِأَنَّهُ كَانَ مغفورا لَهُ مَا تقدم من ذَنبه وَمَا تَأَخّر

قلت غَرِيب وَفِي مَرَاسِيل أبي دَاوُد عَن الْحسن خلاف هَذَا فروَى من حَدِيث قَتَادَة عَنهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حرم فتَاته أم إِبْرَاهِيم الْقبْطِيَّة فَأمر أَن يكفر عَن يَمِينه وَعُوتِبَ فِي ذَلِك

(82/771)

وَقد تقدم فِي الحَدِيث الثَّانِي عِنْد ابْن أبي خَيْثَمَة من طَرِيق ابْن إِسْحَاق أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَفر عَن يَمِينه

1383 - الحَدِيث السَّابِع

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لم أزل حَرِيصًا عَلَى أَن أسأَل عمر عَنْهَا يَعْنِي قَوْله إِن تَتُوبَا إِلَى الله . . . حَتَّى حج وَحَجَجْت مَعَه فَلَمَّا كَانَ ببَعْض الطَّرِيق عدل وَعدلت مَعَه بالْإِدَاوَةِ فَسَكَبت المَاء عَلَى يَده فَتَوَضَّأ فَقلت من هما فَقَالَ عجبا يَا بن عَبَّاس كَأَنَّهُ كره مَا سَأَلته عَنهُ ثمَّ قَالَ هما حَفْصَة وَعَائِشَة

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا أَبَا دَاوُد فَالْبُخَارِي وَالتِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَأخرجه مُسلم فِي الطَّلَاق عَن عبيد الله بن عبد الله عَن ابْن عَبَّاس وَأخرجه البُخَارِيّ أَيْضا لَكِن لم يذكر فِيهِ كَلَام الزُّهْرِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي الصَّوْم وَابْن ماجة فِي الزّهْد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لم أزل حَرِيصًا أَن

اسْأَل عمر عَن الْمَرْأَتَيْنِ من أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اللَّتَيْنِ قَالَ الله فيهمَا إِن تَتُوبَا إِلَى الله فقد صغت قُلُوبكُمَا حَتَّى حج عمر وَحَجَجْت مَعَه فَلَمَّا كُنَّا ببَعْض الطَّرِيق عدل عمر وَعدلت مَعَه بالْإِدَاوَةِ فَتبرز ثمَّ أَتَانِي فَصَبَبْت عَلَيْهِ من الْإِدَاوَة فَتَوَضَّأ فَقلت يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ من الْمَرْأَتَانِ من أَزوَاج النَّبِي اللَّتَان قَالَ الله إِن تَتُوبَا إِلَى الله فقد صغت قُلُوبكُمَا فَقَالَ

لي وَاعجبا يَا بن عَبَّاس قَالَ الزُّهْرِيّ وَكره وَالله مَا سَأَلَهُ عَنهُ وَلم يكْتُمهُ فَقَالَ هِيَ عَائِشَة وَحَفْصَة مُخْتَصر

1384 - الْحَدِيث الثَّامِن

(83/771)

فِي الْحَدِيث رحم الله رجلا قَالَ يَا أهلاه صَلَاتكُمْ صِيَامكُمْ زَكَاتكُمْ مسكينكم يتيمكم جِيرَانكُمْ لَعَلَّ الله يجمعهُمْ مَعَه فِي الْجنَّة

قلت غَرِيب

1385 - قَوْله عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا بَغت امْرَأَة نَبِي قطّ

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره فِي سُورَة هود أَخبرنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن أَبِي عَامر

الْهَمدَانِي عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا بَغت امْرَأَة نَبِي قطّ انْتَهَى

وَعَن عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فِي السُّورَة الْمَذْكُورَة

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث سُفْيَان عَن مُوسَى بن أبي عَائِشَة عَن عبد الله ابْن شَدَّاد عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذكره

وَرَوَاهُ فِي هَذِه السُّورَة حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا مهْرَان عَن سُفْيَان عَن أبي عَامر بِهِ وَزَاد فِيهِ فَخَانَتَاهُمَا أَي فِي الدِّين انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة هود من حَدِيث حُصَيْن بن مُخَارق عَن حَمْزَة الزيات عَن مُوسَى بن أبي عَائِشَة عَن سُلَيْمَان بن قَتَّة عَن ابْن عَبَّاس وَعَن عبد الصَّمد بن عَلّي عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذكره

1386 - الْحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ كمل من الرِّجَال كثير وَلم يكمل من النِّسَاء إِلَّا أَرْبَعَة آسِيَة بنت مُزَاحم امْرَأَة فِرْعَوْن وَمَرْيَم بنة عمرَان وَخَدِيجَة بنت خويلد وَفَاطِمَة بنت مُحَمَّد وَفضل عَائِشَة عَلَى النِّسَاء كفضل الثَّرِيد عَلَى سَائِر الطَّعَام

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عَمْرو بن مرّة فَقَالَ حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد ثَنَا يُوسُف القَاضِي ثَنَا عَمْرو بن مَرْزُوق ثَنَا شُعْبَة عَن عَمْرو بن مرّة سمع مرّة يحدث عَن أبي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَمل من الرِّجَال كثير وَلم يكمل من النِّسَاء إِلَّا أَربع . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

والْحَدِيث رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه لَيْس فِيهِ خَدِيجَة وَلَا فَاطِمَة رَوَاهُ فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب قَوْله تَعَالَى وَضرب الله مثلا للَّذين آمَنُوا امْرَأَة فِرْعَوْن . . . من حَدِيث مرّة الْهَمدَانِي عَن أبي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَمل من الرِّجَال كثير وَلم يكمل من النِّسَاء إِلَّا آسِيَة امْرَأَة فِرْعَوْن وَمَرْيَم بنة عمرَان وَإِن فضل عَائِشَة عَلَى النِّسَاء كفضل الثَّرِيد عَلَى سَائِر الطَّعَام انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ فِي الْأَطْعِمَة فِي بَاب الثَّرِيد وَسَنَده فِيهِ ثَنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا غنْدر ثَنَا شُعْبَة بِهِ

وَرَوَاهُ الْبَاقُونَ إِلَّا مُسلما فَالتِّرْمِذِي وَابْن ماجة فِي الْأَطْعِمَة وَالنَّسَائِيّ فِي المناقب

وَرَوَى ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَفضل نسَاء الْعَالمين أَربع . . . فَذَكرهنَّ وَصَححهُ الْحَاكِم

1387 - الحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ أَن عَائِشَة سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَيف سَمّى الله الْمسلمَة تَعْنِي

(85/771)

مَرْيَم وَلم يسم الْكَافِرَة فَقَالَ بغضا لَهَا قَالَت فَمَا اسْمهَا قَالَ اسْم امْرَأَة نوح وَاغِلَة وَاسم امْرَأَة لوط وَاهِلَة ثمَّ قَالَ الْمُصَنّف وَهَذَا حَدِيث أثر الصَّنْعَة عَلَيْهِ ظَاهر بَين وَلَقَد سَمّى الله تَعَالَى جمَاعَة من الْكفَّار بِأَسْمَائِهِمْ وَكُنَاهُمْ

قلت غَرِيب

1388 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة التَّحْرِيم آتَاهُ الله توبة نصُوحًا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد ابْن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة الْبَاهِلِيّ عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . .

فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 59 . 68 ﴾

(86/771)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة التحريم

قوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ، الآية/ 1 .

قيل : إن الآية وردت في تحريم العسل «1» .

وقيل : وردت في تحريم مارية لما أصابها في بيت حفصة ، فعلمت به ، فخرجت منه فقال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ فقالت : بلى .

فحرمها فنزلت الآية .

والأشبه هذا ، فإنه تعالى قال : (لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ) ؟ وفي حديث العسل ، روي أنه حلف ، وروي أنه حلف في الجارية أيضا ،

واحتجوا عليه بقوله تعالى : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ) ، الآية/ 2 .

ولا أيمان في مجرد التحريم «2» .

قوله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ) ، الآية/ 6 .

قال علي رضي اللّه عنه في تفسيره : علموا أنفسكم وأهليكم الخير .

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ، وأسباب النزول للواحدي النيسابوري .

(2) انظر تفسير محاسن التأويل ج 16 .

وقال الحسن : نعلمهم ونأمرهم وننهاهم .

وهذا يدل على أن علينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير ، وما لا يستغنى عنه من الأدب ، وهو معنى قوله تعالى : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها) «1» ، ونحو قوله : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) «2» .

وفي الحديث «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» «3» .

قوله تعالى : (جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ) ، الآية/ 9 :

وفيه دليل على التشدد في دين اللّه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا

هراسي حـ 4 صـ 425. 426 ﴾

---

(1) سورة طه آية 132 .

(2) سورة الشعراء آية 214 .

(3) أخرجه الامام أحمد في مسنده ، وأبو داود في سننه ، والحاكم في المستدرك .

(88/771)

وقال السايس :

من سورة التحريم

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

ذهب العلماء في سبب نزول الآيتين مذاهب مروية : فروى عكرمة عن ابن عباس أنّها نزلت في الواهبة التي جاءت النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت له : إنّي وهبت لك نفسي ، فلم يقبلها .

وقال الحسن وقتادة : بل نزلت في شأن مارية القبطية أمّ إبراهيم ، « 1 » حيث خلا بها النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في منزل حفصة ، وكانت هذه خرجت إلى منزل أبيها في زيارة ، فلما

عادت ، وعلمت ، عتبت على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فحرم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم مارية على نفسه إرضاء لحفصة ، وأمرها ألا تخبر أحدا من نسائه ، فأخبرت بذلك عائشة ، لمصافاة كانت بينهما ، فطلّق النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم حفصة ، واعتزل نساءه شهرا ، وكان جعل على نفسه أن يحرمهن شهرا ، فأنزل اللّه هذه الآية ، فراجع حفصة .

واستحل مارية ، وعاد إلى نسائه .

وقد اختلف أصحاب هذا القول فيما بينهم : هل كان تحريم مارية بيمين ؟

فقال قتادة والحسن والشعبي : حرمها بيمين .

وقال غيرهم : حرمها بغير يمين ، وهو عن ابن عباس .

وثالث الأقوال : ما

ثبت في «الصحيح» «2» عن عبيد بن عمير عن عائشة قالت : كان النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواصيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير - وهو نبت كريه الرائحة - قال : «لا ولكنّي شربت عسلا عند

---

(1) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، المسمى جامع البيان في تفسير القرآن (28/ 100) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1100) ، 18 - كتاب الطلاق ، 3 - وجوب الكفارة ، حديث رقم (20/ 1474) ، والبخاري في الصحيح (6/ 81) ، 65 - كتاب التفسير ، 1 - باب (يا أيها النبي . . .) حديث رقم (4912) . [. . . . .]

زينب بنت جحش ، ولن أعود إليه ، وقد حلفت لا تخبري أحدا . يبتغي مرضاة أزواجه» .

وقد روى مسلم ، وأشهب عن مالك أنّ النبي شرب العسل عند حفصة ، وروي أنّه كان عند أم سلمة ، والأكثر أنّه كان عند زينب بنت جحش ، ولعلّ الحادثة تكررت قبل النزول .

وبعد فيرى ابن العربي «1» أن ما قيل من أنّ الآية نزلت في الواهبة فهو ضعيف من حيث السند ، وضعيف من حيث المعنى :

فأما السند : فرواته غير عدول .

وأما المعنى : فما يصحّ أن يقال : إن رد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم للهبة كان تحريما ، بل هو

رفض لها ، وللموهوب له شرعا ألا يقبل الهبة .

وأما ما روي من أنه حرم مارية فهو أمثل في السند وإن قرب من حيث المعنى ، لكنّه لم يدوّن في صحيح ولا نقله عدل . قال ابن العربي : إنما الصحيح أنّه كان في العسل ، وأنّه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة ، وجرى ما جرى ، فحلف ألّا يشرب ، وأسرّ ذلك ، ونزلت الآية في الجميع .

وبعد ، فقد اختلف العلماء في أنّ تحريم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما حرّم أكان بيمين ، أم لم يصحبه يمين ، وقد جرى بناء على ذلك خلاف بين العلماء في أنّ الرجل إذا حرّم شيئا ولم يحلف أيكون ذلك يمينا ، فيجب فيه ما يجب في اليمين ، أم لا يكون ؟ وتشعبت أطراف الخلاف بينهم إلى حدّ كبير ، سنقفك على شيء منه بعد التفسير .

لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أي لم تمنع نفسك من شيء أباح اللّه لك الانتفاع به تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ الابتغاء : الطلب ، والجملة حال من فاعل تحرّم . فيكون قيدا للعامل . وقد قال العلماء : إنّ العتاب موجّه إلى هذا القيد ، لأنّ الكلام إذا كان مقيّدا بقيد إثباتا أو نفيا ، فالنظر فيه إلى القيد ، ولا مانع من أن يكون العتاب موجها إلى المقيّد مع قيده .

ويرى البعض أنّ الجملة استئناف ، وذلك أنّ الاستفهام ليس على حقيقته ، بل هو معاتبة على أنّ التحريم لم يكن عن باعث صحيح ، وحينئذ

---

(1) انظر أحكام القرآن لابن العربي (4/ 1833) .

يكون الاستفهام منشأ لأن يسأل فيقال : وما ينكر منه في التحريم وقد كان الأنبياء يحرّمون كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ [آل عمران : 93] فقيل في جواب هذا السؤال : تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ فكأنّ التحريم لم ينكر لذاته ، وإنّما لما اشتمل عليه من الحرص على مرضاة الأزواج ، ومثل النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أجلّ من أن يقدم على ما يقدم عليه ، ويمتنع عما يمتنع منه تبعا لإرضاء النساء .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ إنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يقارف ذنبا ، والذي كان منه إنما هو خلاف الأولى ، فالإتيان بالغفران والرحمة هنا تكريم للنبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث جعل ما لا يعدّ ذنبا كأنه ذنب ، ولا يكون ذلك إلا لمن سمت منزلته .

وقد رأيت أنّا فسرنا التحريم هنا بالامتناع ، وامتناعه عن شرب العسل أو غيره إنما كان كامتناعه عن أكل الضب ، وهو بهذه المثابة لا شيء فيه ، وإنما عوتب من أجل أنّ الباعث كان الحرص على مرضاة الأزواج .

وقد أراد الزمخشريّ « 1 » أن يقول : بل هو قد قال : إنّ الذي وقع هنا هو أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم حرّم من عند نفسه ما أحل اللّه ، فيكون قد غيّر الحكم ابتغاء مرضاة الأزواج

فآخذه اللّه به ، وأنكره عليه ، وغفر له ما وقع منه من الزلة ، وقد شنع العلماء على الزمخشري في قوله هذا .

وذلك أن تحريم الحلال ينتظم معنيين :

فقد يراد منه اعتقاد حكم التحريم فيما جعله اللّه حلالا ، وذلك تغيير لحكم اللّه ، وتبديل له على نحو الذي كان من الكفار من تحريمهم البحائر والسوائب والوصائل وغيرها ، وكقولهم : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ [الأنعام : 138] وعلى نحو ما حكى اللّه عنهم في قوله : وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [النحل : 35] وتحريم الحلال بهذا المعنى كفر لا يكون إلا من الكافرين .

والمعنى الثاني : الامتناع من الحلال امتناعا مطلقا ، أو مؤكّدا باليمين مع اعتقاد حل الفعل الذي امتنع منه ، وهذا شيء لا خطر فيه ، ولا شيء ، وقد امتنع النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من أكل الضب ، وقال : «إنّه لم يكن بأرض

---

(1) انظر كتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (4/ 564) .

قومي» «1»

. والذي وقع من النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كان من هذا النوع ، وإنما عوتب على ما صاحب الامتناع من الحرص على مرضاة الأزواج ، خصوصا بعد المظاهرة التي كانت منهنّ ، ومرضاة مثل هؤلاء ينبغي ألا يحرص عليها .

وقد اعتذر بعض العلماء عن الزمخشري ، وأوّل كلامه .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ الفرض : التقدير ، والمراد منه هنا : جعل تحلة اليمين شريعة ، والمراد من التحلة الكفارة ، والتحلة مصدر حلّل ، كالتكرمة مصدر كرّم ، وهو مصدر غير قياسي ، إذ المصدر القياسي في كلّ منهما : التحليل والتكريم .

وأصله من الحلّ ضدّ العقد ، وذلك أنّ من حلف على شيء فكأنّه قد عقد عليه ، لأنّه التزمه . وقد جعل اللّه الكفارة حلّا لهذا الالتزام .

وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ هو سيدكم ، ومتولي أموركم ، وهو العليم بشأنكم ، يعلم ما فيه مصلحتكم ، فيشرع لكم ما تقضي به هذه المصلحة ، وهو الحكيم الذي لا يصدر عنه إلا كل متقن محكم .

اختلف العلماء في أنّ التحريم الذي كان من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم هل كان مقترنا بيمين ، وظاهر الآية قد يؤيّد القول بالإيجاب ، لقوله تعالى : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ إذ هو

مشعر بأن ثمة يمينا تحتاج إلى التحلة ، وقد جاء في بعض الروايات ما يؤيده .

واختلفوا أيضا في أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أعطى كفارة ، أو لم يفعل .

وقد ذهب الحسن إلى أنه لم يعط كفارة ، ويقول في التوجيه : إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو توجيه لا يخلو من شيء ، وقد نقل عن الإمام مالك رحمه اللّه في «المدونة» أنّه أعطى الكفارة .

وقد اختلف العلماء بعد ذلك في الرجل يحرّم شيئا ، كأن يقول لزوجته : أنت عليّ حرام ، أو الحلال عليّ حرام ، ولم يستثن شيئا .

ويقول ابن العربي «2» : بأنّ للعلماء في تحريم الرجل لزوجته خمسة عشر قولا ، يجمعها ثلاثة مقامات :

المقام الأول : في جمع الأقوال .

الثاني : في التوجيه .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1543) ، 34 - كتاب الصيد ، 7 - باب إباحة الضب حديث رقم (43/ 1945) ، والبخاري في الصحيح (6/ 288) ، 72 - كتاب الذبائح ، 33 - باب النصب حديث رقم (5537) .

(2) انظر أحكام القرآن لابن العربي (4/ 1835) .

المقام الثالث : في عد الصور في ذلك .

ونحن نقتصر هنا على جمع الأقوال ، ونترك المقامين الآخرين إلى الفقه وعلم الخلاف ، فإنّ الآية لا تحتمل كلّ ما قال الفقهاء .

القول الأول : روي عن أبي بكر وعائشة والأوزاعي أنّ تحريم الزوجة يمين تلزم فيها الكفارة .

القول الثاني : قال ابن مسعود : ليس تحريم الزوجة بيمين ، وتلزم فيه الكفارة .

القول الثالث : قال عمر بن الخطاب : إنّ تحريم الزوجة طلقة رجعية ، وهو رأي الزهري .

القول الرابع : أن تحريم الزوجة ظهار ، وهو رأي عثمان البتي وأحمد بن حنبل .

القول الخامس : قال حماد بن سلمة «1» ، وهو رواية عن مالك : أنه طلقة بائنة .

القول السادس : أنّه ثلاث تطليقات ، وهو مروي عن علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي هريرة ، ومالك .

القول السابع : قال أبو حنيفة : إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى ، وإلّا كانت يمينا ، وكان الرجل موليا من امرأته .

القول الثامن : قال ابن القاسم «2» : إنّ من حرّم زوجته لا تنفعه نية الظهار ، وإنما يكون طلاقا .

القول التاسع : قال يحيى بن عمر «3» : يكون طلاقا ، فإن ارتجعها لم يجز له وطؤها حتى يكفّر كفارة الظهار .

القول العاشر : هو ثلاث قبل الدخول وبعده ، لكنه ينوي في التي لم يدخل بها إذا قال : نويت الواحدة ، وهو عن مالك وابن القاسم .

القول الحادي عشر : هو ثلاث ، ولا ينوي بحال ، ولا في محل ، قال ابن العربي هو قول عبد الملك في «المبسوط» .

---

(1) ابن دينار البصري أبو سلمة ، مفتي البصرة ، وأحد رجال الحديث ومن النحاة كان حافظا ثقة مأمونا ، وكان إماما في العربية ، شديدا على المبتدعة ، انظر الأعلام للزركلي (2/ 272) .

(2) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري أبو عبد اللّه ، فقيه ، ولد في مصر سنة (191 ه) انظر الأعلام للزركلي (3/ 323) .

(3) يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني الأندلسي أبو زكريا فقيه مالكي عالم بالحديث نشأ بقرطبة ، وسكن القيروان توفي سنة (289 ه) انظر الأعلام للزركلي (8/ 160) .

القول الثاني عشر : هو في التي لم يدخل بها واحدة ، وفي التي دخل بها ثلاث ، وهو رأي أبي مصعب ، ومحمد بن عبد الحكم .

القول الثالث عشر : أنّه إن نوى الظهار – وهو أن ينوي أنّها محرمة كتحريم أمه – كان ظهارا ، وإن نوى تحريم عينها بجملته بغير طلاق تحريما مطلقا وجبت كفارة يمين ، وإن لم ينو شيئا فعليه كفارة يمين ، وهو عن الشافعي .

القول الرابع عشر : أنّه إن لم ينو شيئا لا يلزمه شيء .

القول الخامس عشر : أنّه لا شيء عليه أصلا ، قاله مسروق ، وربيعة من أهل المدينة .

وبعد فإنّك ترى أنّ الآية الكريمة ليس فيها أكثر من أنّ اللّه سبحانه عاتب نبيّه على أنّ منع نفسه شيئا أباحه اللّه له ، والظاهر أنّ هذا المنع كان مصحوبا باليمين ، فقال اللّه : لا تمتنع ، وكفّر عن يمينك بالتحلة ، وإذا جرينا على ما هو الصحيح من أنّ الحادثة كانت في شرب العسل ازددت يقينا بأنّ كلّ هذه الأقوال التي قبلت في تحريم الزوجة من غير يمين تحتاج إلى أدلتها من غير الآية ، فلتطلب في أماكنها ، واللّه المستعان ، وبه التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 799 . 804 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة التّحريم» (66)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما» (4) قد عدلت ومالت «وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ» العرب قد تجعل فعل الجميع على لفظ الواحد قال :

إن العواذل ليس لى بأمير

(590) .

«قانِتاتٍ» (5) مطيعات . .

«سائِحاتٍ» (5) صائمات . .

«وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ» (12) مجاز لفظ خبرها مجاز الذكور إذا كان مع المؤنث مذكّر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 261 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة التحريم

اثنتا عشرة آية

وهي مدنيّة ، قال القرطبي « 1 » : في قول الجميع .

وتسمى سورة النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم .

[الآيتان : الأولى والثانية]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) .

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ : اختلف في سبب نزول الآية على أقوال :

الأول : قول أكثر المفسرين ، قال الواحدي : قال المفسرون : كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت . فلما رأى النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها : «لا تخبري عائشة ولك عليّ أن لا أقربها أبدا» فأخبرت حفصة عائشة - وكانتا متصافيتين - فغضبت عائشة ، ولم تزل

بالنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حتى حلف أن لا يقرب ماريّة ، فأنزل اللّه هذه السورة «2» .

---

(1) انظر : تفسيره (18/ 177) .

(2) ضعيف : رواه ابن جرير (28/ 107) ، والطبراني في «الأوسط» (7/ 126 ، 127 مجمع) ، والدارقطني (2/ 41 ، 42) ، عن ابن عباس ، وعمر وأبي هريرة . وأورده السيوطي في «الدر» (8/ 214 ، 215 ، 216) . وقال الحافظ (8/ 657) : «و هذه طرق يقوي بعضها بعضا ، فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معا» . . .

قال القرطبي «1» : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة وذكر القصة .

وقيل : السبب أنه كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة أن يقولا له إذا دخل عليهما : إنا نجد منك ريح مغافير «2» .

وقيل : السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، وسنده ضعيف

«3» .

والجمع ممكن بوقوع القصتين : قصة العسل وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعا .

تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ : ومرضاة اسم مصدر وهو الرضا .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) : لما فرط منك من تحريم ما أحل اللّه لك .

قيل : وكان ذلك ذنبا من الصغائر ، فلذا عاتبه اللّه عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ : أي شرع لكم تحليلها وبين لكم ذلك ، فكان اليمين عقد والكفارة حل ، لأنها تحل للحالف ما حرمه على نفسه .

قال مقاتل : المعنى قد بين اللّه كفارة أيمانكم في سورة المائدة ، أمر اللّه نبيه أن يكفر يمينه ويراجع وليدته فأعتق رقبة .

قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحل اللّه .

قلت : وهذا هو الحق ، إن تحريم ما أحل اللّه لا ينعقد ولا يلزم صاحبه ، فالتحليل والتحريم هو إلى اللّه سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته نبيه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل والمذاهب فيه كثيرة والمقالات فيه طويلة ، وقد حققه الشوكاني رحمه اللّه تعالى في مؤلفاته بما يشفي .

واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفي ذلك خلاف وليس في

الآية ما يدل على أنه يمين لأن اللّه سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله اللّه له ،

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/ 177 ، 179) .

(2) المغافير : بقلة متغيرة الرائحة .

(3) أورده السيوطي في «الدر» (8/ 217) ، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا .

وضعّفه القرطبي في «تفسيره» (18/ 179) .

(97/771)

ثم قال : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ ، وقد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية «1» أنه حرم أولا ، ثم حلف ثانيا كما قدمنا .

وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ : أي وليكم وناصركم والمتولي لأموركم .

وَهُوَ الْعَلِيمُ : بما فيه صلاحكم وفلاحكم .

الْحَكِيمُ (2) : في أقواله وأفعاله «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نيل المرام صـ 457.

459﴾

---

(1) حديث صحيح : رواه البخاري (11/ 293) ، (14/ 385) ، ومسلم (10/ 75) ، وأبو داود (3/ 386) ، والنسائي (6/ 123) ، (7/ 13) ، وابن سعد في «طبقاته» (8/ 76 ق 1) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 276) ، عن عائشة مرفوعا مختصرا وتاما .

ورواه النسائي كما في «تفسير ابن كثير (4/ 386) ، والحاكم في «المستدرك» (2/ 493) وصححه وأقرّه الذهبي عن أنس مرفوعا .

وصححه الحافظ في «الفتح» (11/ 392) .

(2) انظر في تفسير هذه الآية : الفرّاء (3/ 165) ، النكت (4/ 260) ، زاد المسير (8/ 302) ، القرطبي (18/ 177 ، 184) ، ابن كثير (4/ 386) ، اللباب (217) ، ابن قتيبة (472) .

(98/771)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «التحريم»

[سورة التحريم (66): آية 4]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

قوله تعالى: إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما [4] وهذه استعارة.

ومعنى صغت قلوبكما: أي مالت وانحرفت.

قال النضر بن «1» شميل: يقال قد صغوت إليه وصغيت، وصغيت، وأصغيت إليه، وهو الكلام. ولم تمل قلوبهما على الحقيقة، وإنما اعتقد قلباهما خلاف الاستقامة فى طاعة النبي صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، فحسن أن يوصف بميل القلبين من هذا الوجه.

وذلك كقول القائل: قد مال إلى فلان قلبى. إذا أحبه. وقد نفر عن فلان قلبى. إذا أبغضه. والقلب فى الأمرين جميعا بحاله، لم يخرج عن نياطه، ولم يزل عن مناطه.

وإنما قال سبحانه: قلوبكما، والخطاب مع امرأتين، لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع فى عادة العرب. قال الراجز «2».

---

(1) هو النضر بن شميل بن خرشة التميمي المازني وكان عالما بأيام العرب ورواية الحديث واللغة.

اتصل بالخليفة المأمون العباسي فأكرمه وقربه إليه. توفى بمرو سنة 203 ه.

(2) لم يذكر القرطبي اسم هذا الراجز. وقد نسبه محقق «الجامع لأحكام القرآن» للشاعر الخطام المجاشعي ونبه على ذلك فى هامش الجزء الخامس ص 73. ولم يذكر ابن مطرف الكناني فى «القرطين» اسم الشاعر واكتفى بقوله: أنشدنى بعضهم، وكذلك فعل العلامة محب الدين فى «شرح شواهد الكشاف» ص 318.

والخطام اسمه بشر - كما كتب ذلك بخطه عبد القادر البغدادي، على هامش «المؤتلف والمختلف» للآمدى ص 112 - وهو شاعر إسلامى اشتهر بالرجز.

والقذف (بفتحتين وبضمتين): البعيد من الأرض. والمرت (بفتح الميم وسكون الراء): الأرض لا ماء فيها ولا نبات. والظهر: ما ارتفع من الأرض.

(99/771)

ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور التّرسين

وقال اللّه سبحانه فى موضع آخر: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما «1» وإنما أراد سبحانه قطع يمين السارق، ويمين السارقة. وذلك مشهور فى اللغة.

[سورة التحريم (66): آية 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

وقوله سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً [8] وهذه استعارة. لأن نصوحا من أسماء المبالغة. يقال: رجل نصوح. إذا كان كثير النصح لمن يستنصحه. وذلك غير متأت فى صفة التوبة على الحقيقة. فنقول: إن المراد بذلك - والله أعلم - أنّ التوبة لما كانت بالغة غاية الاجتهاد فى تلافى ذلك الذّنب «2»، كانت كأنها بالغة غاية الاجتهاد فى نصح صاحبها، ودلالته على طريق النجاة بها. فحسن أن تسمّى «نصوحا» من هذا الوجه.

وقال بعضهم: النّصوح: هى التوبة التي يناصح الإنسان فيها نفسه، ويبذل مجهوده فى إخلاص الندم، والعزم على ترك معاودة الذنب. وقرأ أبو بكر بن عياش «3» عن عاصم «4»: نَصُوحاً بضم النون. على المصدر. وقرأ بقية السبعة نَصُوحاً بفتح النون على صفة التوبة.

---

(1) سورة المائدة. الآية رقم 38.

(2) فى الأصل «المذنب» وهو تحريف.

(3) أبو بكر بن عياش. واسمه شعبة هو إمام فى اللغة والقراءات، وكان راوى عاصم وإماما من أئمة السنة توفى سنة 193 ه. له ترجمة موجزة فى «الأعلام»، و«النشر»،

و«القراءات واللهجات» لعبد الوهاب حمودة ، و«الفهرست» لابن النديم .

(4) هو عاصم بن أبى النجود الكوفي الأسدى أحد القراء السبعة ، كان ثقة فى القراءات . وله اشتغال بحديث رسول اللّه . توفى سنة 127 ه وقد روى عنه أبو بكر بن عياش . وله ترجمة فى «تهذيب التهذيب» و«الوفيات» و«الأعلام» للزركلى ، و«القراءات واللهجات «لعبد الوهاب حمودة .

(100/771)

[سورة التحريم (66) : آية 10]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

وقوله سبحانه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما [10] وهذه استعارة . لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتّحت ، وإنما المراد أنّ منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل ، لقيامه عليها ، وغلبته على أمرها . كما قال سبحانه: الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ . وكما يقول القائل: فلان الجندىّ

تحت يدى فلان الأمير . إذا كان من شحنة عمله ، أو متصرفا على أمره . وكما يقول الآخر : لا آخذ رزقى من تحت يدى فلان . إذا كان هو الذي يلى إطلاق رزقه ، وتوفية مستحقه . وذلك مشهور فى كلامهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 336 . 338 ﴾

(101/771)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة التحريم

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة وأعلاهن طهرا ومكانة وتقوى ، وقد صحبن النبى الكريم وعاونه !على أداء رسالته وارتفعن إلى ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، وقد آخذهن الله بأمرين معروفين فى السيرة: الأول ، اتفاقهن على مطالبة النبى بالمزيد من النفقة ، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التى التزمها . وقد رضين جميعا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه ما بد من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة ! أما الأمر الثانى فإن النبى كان لطيف العشرة لين الجانب دميث الأخلاق ، فأطمع ذلك بعض نسائه فى الجراءة

عليه . وكانت الغيرة هى السبب ، فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحة غير طبيعية ، فقال: شربت عسلا عند زينب ! فقالت: لعل نحله وقع على نبات سيئ . فقال: لا أعود إليه ولا تخبرى أحدا . ثم ظهر أن القصة مفتعلة ، وأنها مؤامرة لتزهيده فى فلانة ! ! وغضب الرسول لما وقع ، وهجر نساءه جميعا حتى شاع أنه طلقهن ! ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة وتؤدب من أحرج الرسول وأساء المسلك ، وبدأت بالآية " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم . . " . والعلماء على أن تحريم الحلال يمين ، وكفارته كفارة يمين ، وليس لأحد أن يحزم ما أباح الله . ثم أومأ الوحى إلى القصة . والمفسرون يذكرون أن حفصة بنت عمر وعائشة بنت أبى بكر هما سبب ما حدث ، والمعنيتان بقوله تعالى: " إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير " .

(102/771)

ومعنى صغت قلوبكما انحرفت وجدير بكما إصلاحها وإلا أصابكما ما يحبط عملكما ويعزلكما عن سائر الصالحين ! ثم اتجه الخطاب إلى نساء النبى ينصحهن بالوعى والاعتدال

وتقدير الأدب الرفيع الذى يعاملن به " عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا " . إن الشمائل الجميلة الحلوة لصاحب الرسالة لا يسوغ أن تكون سببا فى إزعاجه وإتعابه . . ! وبيت النبوة ليس مسرحا للغيرة والتحاسد وإنما هو صومعة عبادة ومجال إقبال على الآخرة ، وتفان فى مرضاة الله . ولعل ما ختمت به السورة تلويح شديد القسوة لمن شاركن فى إغضاب الرسول وأثرن الحزن فى نفسه . إن امرأة نوح وامرأة لوط لم يساعدا رجالهما فى إبلاغ الدعوة ، بل كانتا عونا لأعداء الله وخصوم الوحى " ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين " . والخيانة المذكورة ليست فى الناحية الجنسية ، فتلك غضاضة يأباها الله على عباده المرسلين ، وإنما هى خيانة الدعوة والهدف الأسمى من الحياة . . كانت لسقراط امرأة سليطة تزدرى شخصه وتستهجن فلسفته وتنغص حياته ! وكانت لنوح ولوط نسوة ينصرن أقاربهن ويخذلن أزواجهن ويكرهن الله ورسله ! ! فجعلهن الله مع الكفار فى مصير واحد "وقيل ادخلا النار مع الداخلين" . والمسئولية الشخصية أساس الحساب فى الإسلام فلا يغنى والد عن ولد ولا زوج عن زوجة . وسيدخل فرعون النار وتفوز امرأته بالجنة لا يمسها من عمله شىء . وبين أوائل السورة وخواتيمها ، طلب الله من أرباب الأمر أن يرقبوا بيوتهم ويجعلوها مهادا للنعيم المقيم

وحجابا عن العذاب الشديد " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة . . . " . ثم بين جل شأنه أن الله لم يكلف الناس بالعصمة فلا يخطئوا أبدا ، بل أمرهم إذا أخطئوا أن يثوبوا إلى رشدهم

(103/771)

ويرجعوا إلى ربهم ويستفيدوا من التجارب ما يرزقهم الصواب ويحصنهم من الانزلاق " يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . . . " والتوبة النصوح هى التى تصنع ضميرا آمرا بالخير زاجرا عن الشر مذكرا بالله . .

ومما يذكر هنا أن بعض المستشرقين استنكر على الوحى الإلهى أن يعنى بنزاع ثار فى بيت محمد ، وأن يشغل الناس به . وقد سرد الدكتور محمد حسين هيكل الشبهة ثم قال:

أليست القصة أولى بالذكر مما أورده الكتاب المقدس عن زنى لوط بابنتيه بعدما أسكرتاه وأفقدتاه الوعى ؟ ونقولى نحن: أوليست أولى بالذكر من زنى أحد الأنبياء بامرأة ابنه ، والثمن الذى دفعه فى هذه الفعلة الشنعاء . . إن المستشرقين يلمحون القشة فى عيون الآخرين ولا يحسون الخشبة فى عيونهم . ولله فى خلقه شئون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 468 . 470 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والسبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة التحريم)

وحتى الآية ﴿ 9 ﴾ من السورة

(4/772)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/772)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة التحريم

أقول: هذه السورة متآخية مع التي قبلها بالافتتاح بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء وبينهما من المناسبة مالا يخفى ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبي صلى الله

عليه وسلم ، إعظاماً لمنصهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 140 . 141 ﴾

(6/772)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الكمال كله على الدوام (الرحمن) الذي عم عباده بعظيم الإنعام (الرحيم) الذي أتم خواصه نعمة الإسلام .

(7/772)

لما ختم سبحانه الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره ، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي من خير النساء واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه فأظهره سبحانه عتاباً لأزواج نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صورة عقابه لأنه أبلغ رفقاً به لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة لأمته تارة لطلب رضاهم وأخرى رغبة في هداهم ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغ في تهذيب أخلاقه مع ما طهره الله به من نزاهتها عن كل دنس حتى ضيق عليها بالامتناع عن بعض ما أبيح له حفظاً لخاطر الغير ، فقال تعالى منادياً له بأداة البعد وهو أقرب أهل الحضرة مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل ومعنى جسيم جليل ، وفيها إيماء إلى تنبيه الغير وإسماعه إرادة لتأديبه وتزكيته وتهذيبه : ﴿ يا أيها النبي ﴾ مخاطبة بالوصف الذي يعلم بالعصمة ويلائمه أشد الملاءمة خلو البال وسرور القلب وانشراح الصدر لأنه للتلقي عن الله تعالى فيحث كل سامع على البعد عن كل ما يشوش عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدنى تشويش ﴿ لم تحرم ﴾ أي تفعل فعل المحرم بمنع نفسك الشريفة ﴿ ما أحل الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه ﴿ لك ﴾ بالوعد لبعض أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ ن بالامتناع من شرب العسل الذي كان عند حفصة أو زينب ـ رضى الله عنهما ـ والامتناع من ملامسة سريتك مارية رضي الله تعالى عنها فتضيق على نفسك لإحسان العشرة مع نسائك ـ رضى الله

عنه ـ ن أجمعين ، فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يشرب عسلاً عند حفصة بنت عمر أو زينت بنت جحش ـ رضى الله عنهما ـ على اختلاف الروايتين في ذلك في الصحيح ، وفي رواية " أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى الغداة دخل على نسائه ـ رضى الله عنه ـ ن امرأة امرأة ، وكانت قد أهديت لحفصة بنت عمر ـ رضى الله عنهما ـ عكة من العسل ، فكانت إذا دخل عليها فسلم حبسته وسقته منها ، وأن عائشة ـ رضى

(8/772)

الله عنه ـ ا أنكرت احتباسه عندها فقالت لجويرية عندها حبشية يقال لها خصرة : إذا دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حفصة فادخلي عليها فانظري ماذا يصنع فأخبرتها الخبر فوصت صواحباتها فنفرنه من شربه بإخباره بأنه يوجد منه ريح كريهة لأن نحلة جرست العرفط ، فقال : لن أعود له ، " وروى الطبري وابن مردوية " أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلا بمارية ـ رضى الله عنه ـ ا أم ولده إبراهيم عليه السلام في بيت حفصة ـ رضى الله عنه ـ ا فتوجعت من ذلك حفصة ـ رضى الله عنه ـ ا فقال هي علي حرام ولا تذكري ذلك لأحد وأبشرك على ذلك بشارة ، وهي أن أبا بكر يلي هذا الأمر من بعدي وأباك يليه من بعد أبي بكر ـ رضى الله عنهما ـ ، لا تخبري بذلك أحداً ، فأخبرت عائشة ـ

رضى الله عنه.ا "

ويروى أن حفصة.رضى الله عنه.ا قالت في يومها من النبي.صلى الله عليه وسلم.: "إن بي إلى أبي حاجة نفقة له عنده فأذن لي أن أزوره وآتي بها ، فأذن لها فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية.رضى الله عنه.ا فوقع عليها فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقاً فجلست عنده فخرج رسول الله.صلى الله عليه وسلم.ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : إنما أذنت لي من أجل هذا وقعت عليها في يومي وعلى فراشي ، أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن ، فقال.صلى الله عليه وسلم.: أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي اسكتي فهي علي حرام ألتمس بذاك رضاك فلا تخبري بهذا أحداً ، فلما خرج أخبرت عائشة.رضى الله عنه.ا فحلفته على ترك مارية.رضى الله عنه.ن " ثم علل ذلك سبحانه بقوله : ﴿ تبتغي ﴾ أي تريد إرادة عظيمة من مكارم أخلاقك وحسن صحبتك ﴿ مرضات أزواجك ﴾ أي الأحوال والمواضع والأمور التي يرضين بها ومن أولى بأن تبتغين رضاك وكذا جميع الخلق لتفرغ لما يوحى إليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد .

(9/772)

ولما كان أعلى ما يقع به المنع من الأشياء من جهة العباد الإيمان ، وكان تعالى قد جعل من رحمته لعباده لإيمانهم كفارة قال : ﴿ والله ﴾ أي تفعل ذلك لرضاهن والحال أن الله الملك الأعلى ﴿ غفور رحيم ﴾ أي محاء ستور لما يشق على خلص عباده مكرم لهم ، ثم علل أو بين بقوله : ﴿ قد فرض الله ﴾ أي قدر ذو الجلال والإكرام الذي لا شريك له ولا أمر لأحد معه ، وعبر بالفرض حثاً على قبول الرخصة إشارة إلى أن ذلك لا يقدح في الورع ولا يخل بحرمة اسم الله لأن أهل الهمم العوالي لا يحبون النقلة من عزيمة إلى رخصة بل من رخصة إلى عزيمة ، أو عزيمة إلى مثلها .

(10/772)

ولما كان التخفيف على هذه الأمة إنما هو كرماً منه وتعظيماً لهذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ﴿ لكم ﴾ أي أيتها الأمة التي أنت رأسها ، وعبر بمصدر حلل المزيد مثل كرمه وتكرمه إظهاراً لمزيد الغاية فقال : ﴿ تحلة ﴾ أي تحللة ﴿ أيمانكم ﴾ أي شيئاً يحللكم مما أوثقتم به أنفسكم منها تارة بالاستثناء وتارة بالكفارة تحليلاً عظيماً بحيث يعيد الحال إلى ما كان عليه قبل اليمين ، وقد بين ذلك في سورة المائدة فحلل يمينك واخرج من تضييقك على نفسك واشرح من صدرك لتتلقى ما يأتيك من أنباء الله تعالى وأنت متفرغ له بطيب

النفس وقرة العين ، وهذا يدل على أن قوله " أنت علي حرام " كاليمين إذا لم يقصد به طلاقاً للزوجة ولا إعتاقاً للأمة ، وإذا كان الله قد فرض ذلك لكافة الأمة تيسيراً عليهم فرأسهم أولى بأن يجعل له ذلك ، قال مقاتل : فأعتق ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الواقعة رقبة ، وقد قيل : إن تحريمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنا كان بيمين حلفها وحينئذ لا يكون فيه حجة لمن رأى أن " أنت على حرام " يمين ﴿ والله ﴾ أي والحال أن المختص بأوصاف الكمال ﴿ مولاكم ﴾ أي يفعل معكم فعل القريب الصديق ﴿ العليم ﴾ أي البالغ العلم بمصالحكم وغيرها إلى ما لا نهاية له ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يضع كل ما يصدر عنه لكم في أتقن محاله بحيث لا ينسخه هو ولا يقدر غيره أن يغيره ولا شيئاً منه ، وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لاخفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما ، وقد ظن أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلق نساءه حين اعتزل في المشربة حتى سأله عمر ـ رضى الله عنه ـ والقصة معروفة وتخييره صل الله عليه وسلم إياهن أثر ذلك وبعد اعتزالهن شهراً كاملاً وعتب الله عليهن في قوله :

﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ﴾ [التحريم : 4] وقوله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ [التحريم : 5] فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد - انتهى .

(12/772)

ولما كانت العدة فيمن رأى حبيبه قد ضاق صدره أن يسعى أولاً في شرح صدره وطيب نفسه ثم يزيده بسطاً بأن يقول للحاضرين : إن حبيبنا هذا الكريم علينا اتفق له كذا ، وقد كرهت هذا وضمنت زواله ، وكان تعالى قد طيب نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأول السورة ، ثم أتبعه الأمر الآخر ، فكان التقدير : اذكروا هذا الذي ذكرته من حسن عشرة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنسائه رضي الله تعالى عنهن وكريم صحبته وشريف أخلاقه وجميل أفضاله وجليل حلمه واذكروا ما خفف الله به عنكم في الأيمان التي لا مثنوية فيها واذكروا فيها اسمه المقدس ، عطف عليه قوله تعالى تشريفاً لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعاتبة عليه وبإظهار ما هو حامل له من ثقل هذا السر على أجمل وجه تخفيفاً عنه وترويحاً له : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا كريم أخلاقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطاهر شمائله في عشرتهن حين ﴿ أسر النبي ﴾ أي الذي شأنه أن يرفعه الله دائماً بأن يتلقى من

فياض علمه ما يخبر به الناس فإنه ما ينطق عن الهوى وأبهم الزوجة ولم يعينها سبحانه تشريفاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولها ـ رضى الله عنه ـ ن فقال تعالى : ﴿ إلى بعض أزواجه ﴾ وهي حفصة ـ رضى الله عنه ـ ا ، كنى عنها صيانة لهن لأن حرمتهن ـ رضى الله عنه ـ ن من حرمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ حديثاً ﴾ ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لهم به وأعلنه ولم يخص به ولا أسره وذلك هو تحريم مارية ـ رضى الله عنه ـ ا ووعده بأن يترك العسل وبشارته بولاية أبي بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ ولم يبين الحديث ويفصله إكراماً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفظاً لسره لأن العادة جارية بأن الإنسان لا يحب تفصيل سره وإن كنا اطلعنا عليه بعد ذلك لنتأسى به فيما فيه من الأحكام ، فإن أحواله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها أحكام لنا إلا ما اختص به وأشار إلى قرب زمن إفشائه من زمن التحديث بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فلما نبأت ﴾ أي أخبرت إخباراً عظيماً

(13/772)

جليلاً لشرفه في نفسه ولأنه من عند الله وبالغت في ذلك وأخبرت ﴿ به ﴾ كله من جميع وجوهه ، وجعل ذلك في سياق حكاية لأنه أستر لحرمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث لم يقل : فنبأت به ولا قال : أساءت بالإنباء به ، ونحو ذلك مما يفهم أنه مقصود بالذات

﴿ وأظهره الله ﴾ أي أطلعه الملك الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ عليه ﴾ أي الحديث بأنه قد أفشى مناصحة له في إعلامه بما يقع في غيبته ليحذره إن كان شراً ويثيب عليه إن كان خيراً ﴿ عرف ﴾ أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي أسر إليها ﴿ بعضه ﴾ وهو أمر الخلافة عتاباً لها عليه لأنه كان أوصاها أن لا تظهره ، والكف عن بعض العتب أبعث على حياء المعتوب وأعون على توبته وعدم عدده إلى فعل مثله ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ وهو أمر السرية والعسل تكرما منه أن يستقصي في العتاب وحياء وحسن عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان الثوري : ما زال التغافل من فعل الكبراء وإنما عاتب على أمر الخلافة خوفاً من أن ينتشر في الناس ويذيع ، فربما أثار حسداً من بعض المنافقين وأورث الحسود للصديق والفاروق كيداً أو جر إلى مفسدة لا نعلمها ، وخفف الكسائي : عرف أي أقر به والمعرفة سبب التعريف والتعريف عن المعرفة فإطلاق أحدهما على الآخر شائع وعلاقته ذلك وأشار إلى مبادرته بتعريفها ذلك لئلا ينتشر ما يكرهه منه بقوله : ﴿ فلما نبأها ﴾ بما فعلت من إفشاء ما عرفها منه على وجه لم يغادر من ذلك الذي عرفها ﴿ به ﴾ شيئاً منه ولا من عوارضه ليزداد بصيرة ، روي أنها قالت : قلت لعائشة ـ رضى الله عنه ـ ا سراً وأنا أعلم أنها لا تظهره ، قاله الملوي وهو معنى قوله : ﴿ قالت ﴾ أي ظناً منها أن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا أفشت عليها ﴿ من أنبأك هذا ﴾ أي مطلق إخبار ، واستأنف قوله : ﴿ قال نبأني ﴾ وحذف المتعلق اختصاراً للفظ

وتكثيراً للمعنى بالتعميم إشارة إلى أنه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة ـ رضى الله عنهما ـ مما عرفها به ومن غيره على أتم ما

(14/772)

كان ﴿ العليم ﴾ أي المحيط بالعلم ﴿ الخبير ﴾ أي المطلع على الضمائر والظواهر فهو أهل لأن يحذر فلا يتكلم سراً ولا جهراً إلا بما يرضيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 47.43 ﴾

(15/772)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات ﴿ عرف ﴾ بالتخفيف : عليّ ﴿ تظاهرا ﴾ عاصم وحمزة وعلي وخلف . ﴿ أن يبدله ﴾ بالتشديد : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ نصوحاً ﴾ بضم النون : يحيى وحماد ﴿ وكتبه ﴾ على الجمع : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحفص .

الوقوف ﴿ لك ﴾ ج لاحتمال أن الجملة بعده حال أو استفهامية بحذف الحرف وهذا أحسن ، لأن تحريم الحلال بغير ابتغاء مرضاتهن أيضاً غير جائز ﴿ أزواجك ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ أيمانكم ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ مولاكم ﴾ ط للابتداء بذكر ما لم يزل من الوصفين مع اتفاق الجملتين ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ حديثاً ﴾ ج ﴿ عن بعض ﴾ ج ﴿ هذا ﴾ ط ﴿ الخبير ﴾ ه ﴿ قلوبكما ﴾ ج ﴿ المؤمنين ﴾ ه لتناهي الشرط إلى الإخبار ﴿ ظهير ﴾ ه ﴿ وأبكاراً ﴾ ه ﴿ ما يؤمرون ﴾ ه ﴿ اليوم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ نصوحاً ﴾ ط ﴿ الأنهار ﴾ لا بناء على أن الظرف يتعلق بقوله ﴿ ويدخلكم ﴾ وج لاحتمال أن ﴿ يوم ﴾ متعلق بقوله ﴿ يسعى ﴾ بعد ﴿ واغفر لنا ﴾ ج للابتداء بأن مع احتمال اللام ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ عليهم ﴾ ه ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ لوط ﴾ ط لابتداء الحكاية ﴿ الداخلين ﴾ ه ﴿ فرعون ﴾ ج لئلا يتوهم أن الظرف متعلق ب ﴿ ضرب ﴾ بل التقدير " اذكروا " ﴿ الظالمين ﴾ ه لأن ما بعده معطوف على امرأة فرعون ﴿ القانتين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 318 .

﴿ 319

(16/772)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾

أما التعلق بما قبلها ، فذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء ، واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة لما كان الطلاق في الأكثر من الصور أو في الكل كما هو مذهب البعض مشتملاً على تحريم ما أحل الله ، وأما الأول بالآخر ، فلأن المذكور في آخر تلك السورة ، يدل على عظمة حضرة الله تعالى ، كما أنه يدل على كمال قدرته وكمال علمه ، لما كان خلق السموات والأرض وما فيهما من الغرائب والعجائب مفتقراً إليهما وعظمة الحضرة مما ينافي القدرة على تحريم ما أحل الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ واختلفوا في الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ، قال في "الكشاف" : روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : "اكتمي علي وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ، فأخبرت به عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وقيل : خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها ، فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروي أن عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : راجعها فإنها

صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة ، وروي أنه ما طلقها وإنما نوه بطلاقها ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرم العسل ، فمعناه : لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ، والأول قول الحسن ومجاهد وقتادة والشعبي ومسروق ورواية ثابت عن أنس قال مسروق : حرم النبي صلى الله عليه وسلم أم ولده وحلف أن لا يقربها فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل له : أما الحرام فحلال ، وأما اليمين التي حلفت عليها ، فقد فرض الله لكم

(17/772)

تحلة أيمانكم .

وقال الشعبي : كان مع الحرام يمين فعوتب في الحرام ، وإنما يكفر اليمين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ الله ﴾ الآية قال صاحب "النظم" قوله : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والإنكار من الله تعالى نهي ، وتحريم الحلال مكروه ، والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أزواجك ﴾ و ﴿ تَبْتَغِي ﴾ حال خرجت مخرج المضارع والمعنى : لم تحرم مبتغياً مرضات أزواجك قال في "الكشاف" : ﴿ تَبْتَغِي ﴾ ، إما

تفسير لتحرم ، أو حال أو استئناف ، وهذا زلة منه ، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قد غفر لك ما تقدم من الزلة ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ قد رحمك لم يؤاخذك به ، ثم في الآية مباحث :

البحث الأول : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب وخطاب الوصف ، وهو النبي ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم فكيف هو نقول : الظاهر أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن كما ينبغي .

البحث الثاني : تحريم ما أحل الله تعالى غير ممكن ، لما أن الإحلال ترجيح جانب الحل والتحريم ترجيح جانب الحرمة ، ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين فكيف يقال : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ ﴾ ؟ نقول : المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحل الله تعالى فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالاً ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر فكيف يضاف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذا .

(18/772)

البحث الثالث : إذا قيل : ما حكم تحريم الحلال ؟ نقول : اختلفت الأئمة فيه فأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله أو أمة فعلى وطئها أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن وكذلك إن نوى اثنتين ، وإن نوى ثلاثاً فكما نوى ، فإن قال : نويت الكذب دين فيما بينه وبين ربه ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء ، وإن قال : كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى ولا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً (في الكفارة) في النساء وحدهن ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده ، وأما اختلاف الصحابة فيه فكما هو في "الكشاف" ، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ ﴾ .

(19/772)

قال مقاتل : قد بين الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أنزلناها وفرضناها ﴾ [النور : 1] وقال الباقون : قد أوجب ، قال صاحب "النظم" : إذا وصل بعلى لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب : 50] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين ، وقوله تعالى : ﴿ تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾ أي تحليلها بالكفارة وتحلة على وزن

تفعلة وأصله تحللة وتحلة القسم على وجهين أحدهما : تحليله بالكفارة كالذي في هذه الآية وثانيهما : أن يستعمل بمعنى الشيء القليل ، وهذا هو الأكثر كما روي في الحديث : " لن يلج النار إلا تحلة القسم " يعني زماناً يسيراً ، وقرىء (كفارة أيمانكم) ، ونقل جماعة من المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف أن لا يطأ جاريته فذكر الله له ما أوجب من كفارة اليمين ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الحرام يمين ، يعني إذا قال : أنت علي حرام ولم ينو طلاقاً ولا ظهاراً كان هذا اللفظ موجباً لكفارة يمين ﴿ والله مولاكم ﴾ ، أي وليكم وناصركم وهو العليم بخلقه الحكيم فيما فرض من حكمه ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك وقيل لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين تحريم الأمة على نفسه والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر ، قاله ابن عباس وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي أخبرت به عائشة وأظهره الله عليه أطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة عند ذلك ببعض ما قالت وهو قوله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ حفصة : ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ لم يخبرها أنك أخبرت عائشة على وجه التكرم والإغضاء ، والذي أعرض عنه ذكر خلافة أبي بكر وعمر ، وقرىء (عرف) مخففاً أي جازى عليه من قولك للمسيء لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ما

صنعت قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء : 63] أي يجازيهم وهو يعلم ما في قلوب الخلق أجمعين وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ ﴾ حفصة : ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ وصفه بكون خبيراً بعد ما وصفه بكونه عليماً لما أن في الخبير من المبالغة ما ليس في العليم ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : كيف يناسب قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ إلى قوله ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ [التحريم : 1] ؟ نقول : يناسبه لما كان تحريم المرأة يميناً حتى إذا قال لامرأته : أنت علي حرام فهو يمين ويصير مولياً بذكره من بعد ويكفر .

البحث الثاني : ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ إنه كانت منه يمين فهل كفر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك ؟ نقول : عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه أعتق رقبة في تحريم مارية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 37. 39 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ ثبت في صحيح مسلم " عن عائشة رضي الله عنها : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان يمكث عند زينب بنت جَحْش فيشرب عندها عَسَلاً ؛ قالت : فتواطأتُ أنا وحفصة أنّ أَيَّتَنَا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل : إني أجد منك رِيح مَغَافِير ! أَكَلْتَ مَغَافِير ؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك .

فقال : "بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له" " فنزل : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ (لعائشة وحفصة) ، ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ لقوله : " "بل شربتُ عسلاً" .

وعنها أيضاً قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْواء والعسل ، فكان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيَدْنُو منهنّ ؛ فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبِس ؛ فسألتُ عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأةٌ من قومها عُكّةً من عسل ، فسقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منه شَرْبَةً .

فقلت : أمَا والله لَنَحْتَالَنَّ له ، فذكرت ذلك لسَوْدةَ وقلت : إذا دخل عليكِ فإنه سَيَدْنُو

منكِ فقولي له : يا رسول الله ، أَكَلْتَ مَغَافِير ؟ فإنه سيقول لكِ لا .

فقولي (له) : ما هذه الريح ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتدّ عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول لكِ سَقَتْني حَفْصَةُ شربةَ عسلٍ .

فقولي له : جَرَسَتْ نَحلُه العُرْفُطَ .

وسأقول ذلك له ، وقوليه أنتِ يا صفِيّة .

فلما دخل على سَوْدَةَ قالت : تقول سَوْدَةَ والله الذي لا إله إلا هو لقد كِدْتُ أن أبادِئه بالذي قلتِ لي ، وإنه لعلى الباب ، فَرَقاً منك .

(22/772)

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ؟ قال : "لا" قالت : فما هذه الريح ؟ قال : "سَقَتْني حَفْصَةُ شَرْبَةَ عسلٍ" قالت : جَرَسَتْ نَحْلُه الْعُرْفُطَ .

فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك .

ثم دخل على صَفِيّة فقالت بمثل ذلك .

فلما دخل على حَفْصَة قالت : يا رسول الله ، ألا أسقيك منه .

قال "لا حاجة لي به" قالت : تقول سَوْدَة سبحان الله ! (والله) لقد حَرَمناه .

قالت : قلت لها اسكتي " ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها العسل حفصة .

وفي الأولى زينب .

وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة .

وقد قيل : إنما هي أمّ سلمة ؛ رواه أسباط عن السّديّ .

وقاله عطاء بن أبي مسلم .

ابن العربي : وهذا كله جهل أو تصوّر بغير علم .

فقال باقي نسائه حَسَداً وغَيْرَةً لمن شرب ذلك عندها : إنا لنجد منك ريح المغافير .

والمغافير : بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة ، فيها حلاوة .

واحدها مَغْفُور ، وجَرَست : أكلت .

والعُرْفُطُ : نبت له ريح كريح الخمر .

وكان عليه السلام يعجِبه أن يوجد منه الريح الطيبة أو يجدها ، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة المَلَك .

فهذا قول .

وقول آخر أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها لأجل أزواجه ؛ قاله ابن عباس وعِكرمة .

والمرأة أمّ شريك .

وقول ثالث إن التي حرم مارية القبطية ، وكان قد أهداها له المُقَوْقِس ملك الإسكندرية .

قال ابن إسحاق : هي من كُورة أُنْصِنا من بلد يقال له حَفْن فواقعها في بيت حفصة .

روى الدَّارَقُطنيّ عن ابن عباس عن عمر قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمّ ولده مارية في بيت حفصة ، فوجدته حفصة معها وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تُدخلها بيتي ! ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هَوَانِي عليك .

(23/772)

فقال لها : "لا تَذْكُرِي هذا لعائشة فهي عليّ حرام إن قَرُبْتُها" قالت حفصة : وكيف تحرّم عليك وهي جاريتك ؟ فحلف لها ألا يَقْرَبها .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تذكريه لأحد" .

فذكرته لعائشة ، فآلَى لا يدخل على نسائه شهراً ، فاعتزلهنّ تسعا وعشرين ليلة " ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ الآية .

الثانية : أصحّ هذه الأقوال أوّلها .

وأضعفها أوسطها .

قال ابن العربيّ : "أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته ، وأما ضعفه في معناه فلأن ردّ النبيّ صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريماً لها ؛ لأن من ردّ ما وُهب له لم يَحْرُم عليه ، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل .

وأما من روى أنه حَرّم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى ؛ لكنه لم يدوّن في الصحيح .

وروي مرسلاً .

وقد روى ابن وهب عن مالك عن زيد بن أسلم قال : " حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ إبراهيم فقال : "أنت عليّ حرام والله لا آتينّك" .

فأنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ " وروى مثله ابن القاسم عنه .

وروى أشهب عن مالك قال : راجعتْ عمرَ امرأةٌ من الأنصار في شيء فاقشعرّ من ذلك وقال : ما كان النساء هكذا ! قالت : بلى ، وقد كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يراجعنه .

فأخذ ثوبه فخرج إلى حفْصة فقال لها : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، ولو أعلم أنك تكره ما فعلت .

فلما بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجر نساءه قال : رَغِمَ أَنْفُ حفصة .

وإنما الصحيح أنه كان في العسل وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسرّ ذلك .

ونزلت الآية في الجميع .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ إن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم حرّم ولم يحلف فليس ذلك بيمين عندنا .

(24/772)

ولا يحرّم قول الرجل : "هذا عليّ حرام" شيئاً حاشا الزوجة .

وقال أبو حنيفة : إذا أطلق حمِل على المأكول والمشروب دون الملبوس ، وكانت يميناً توجب الكفارة .

وقال زُفَر : هو يمين في الكل حتى في الحركة والكون .

وعوّل المخالف على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرّم العسل فلزمته الكفارة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ فسماه يميناً .

ودليلُنا قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تعتدوا ﴾ [المائدة : 87] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ اللهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ

حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

فذمّ الله المحرِّم للحلال ولم يوجب عليه كفارة .

قال الزجاج : ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله .

ولم يجعل لنبيّه صلى الله عليه وسلم أن يحرّم إلا ما حرّم الله عليه .

فمن قال لزوجته أو أَمِته : أنتِ عليّ حرام ؛ ولم يَنْوِ طلاقاً ولا ظِهاراً فهذا اللفظ يوجب كفارة اليمين .

ولو خاطب بهذا اللفظ جمعاً من الزوجات والإماء فعليه كفارة واحدة .

ولو حرّم على نفسه طعاماً أو شيئاً آخر لم يلزمه بذلك كفارة عند الشافعيّ ومالك .

وتجب بذلك كفارة عند ابن مسعود والثَّوْرِي وأبي حنيفة .

الرابعة : واختلف العلماء في الرجل يقول لزوجته : "أنت عليّ حرام" على ثمانية عشر قولا :

أحدها : لا شيء عليه .

وبه قال الشعبيّ ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأَصْبَغ .

وهو عندهم كتحريم الماء والطعام ؛ قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : 87] والزوجة من الطيبات ومما أحلّ الله .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلَالٌ وهذا حَرَامٌ ﴾ [النحل : 116] .

(25/772)

وما لم يحرّمه الله فليس لأحد أن يحرّمه ، ولا أن يصير بتحريمه حراماً .

ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحلّه الله هو عليّ حرام .

وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله : " والله لا أقربها بعد اليوم " فقيل له : لم تحرّم ما أحلّ الله لك ؛ أي لم تمتنع منه بسبب اليمين .

يعني اقْدم عليه وكَفّر .

وثانيها : أنها يمين يكفرها ؛ قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم والأوزاعيّ ؛ وهو مقتضى الآية .

قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إذا حرّم الرجل عليه امرأته فإنما هي يمين يكفرها .

وقال ابن عباس : لقد كان لكم في رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَة ؛ يعني أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان حرّم جاريته فقال الله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ إلى قوله ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ فكفّر عن يمينه وصيّر الحرام يميناً .

خرّجه الدّارَقُطْنيّ .

وثالثها : أنها تجب فيها كفارة وليست بيمين ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه ، والشافعي في أحد قوليه ، وفي هذا القول نظر .

والآية تردّه على ما يأتي .

ورابعها : هي ظِهار ؛ ففيها كفارة الظِّهار ، قاله عثمان وأحمد بن حنبل وإسحاق .

وخامسها : أنه إن نوى الظِّهار وهو ينوي أنها محرّمة كتحريم ظَهْر أمّه كان ظِهاراً .

وإن نوى تحريم عَيْنها عليه بغير طلاق تحريماً مطلقاً وجبت كفارة يمين .

وإن لم ينو شيئاً فعليه كفارة يمين ، قاله الشافعيّ .

وسادسها : أنها طلقة رجعية ، قاله عمر بن الخطاب والزُّهْرِيّ وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماجِشُون .

وسابعها : أنها طلقة بائنة ، قاله حماد ابن أبي سليمان وزيد بن ثابت .

ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك .

وثامنها : أنها ثلاث تطليقات ، قاله علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت أيضاً وأبو هريرة .

وتاسعها : هي في المدخول بها ثلاث ، وينوى في غير المدخول بها ، قاله الحسن وعلي ابن زيد والحكم .

وهو مشهور مذهب مالك .

وعاشرها : هي ثلاث ؛ ولا ينوي بحال ولا في محل وإن لم يدخل ؛ قاله عبد الملك في المبسوط ، وبه قال ابن أبي لَيْلَى .

وحادي عشرها : هي في التي لم يدخل بها واحدة ، وفي التي دخل بها ثلاث ؛ قاله أبو مصعب ومحمد ابن عبد الحكم .

وثاني عشرها : أنه إن نوى الطلاق أو الظِّهار كان ما نَوَى .

فإن نوى الطلاق فواحدة بائنة إلا أن ينوي ثلاثاً .

فإن نوى ثنتين فواحدة .

فإن لم ينوِ شيئاً كانت يميناً وكان الرجل مُولِياً من امرأته ؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه .

وبمثله قال زُفَر ؛ إلا أنه قال : إذا نوى اثنتين ألزمناه .

وثالث عشرها : أنه لا تنفعه نِيّة الظِّهار وإنما يكون طلاقاً ؛ قاله ابن القاسم .

ورابع عشرها : قال يحيى بن عمر : يكون طلاقاً ؛ فإن ارتجعها لم يجز له وَطْؤُها حتى يكفر كفّارة الظِّهار .

وخامس عشرها : إن نوى الطلاق فما أراد من أعداده .

وإن نوى واحدة فهي رجعية .

وهو قول الشافعيّ رضي الله عنه .

وروي مثله عن أبي بكر وعمر وغيرهم من الصحابة والتابعين .

وسادس عشرها : إن نوى ثلاثاً فثلاثاً ، وإن واحدةً فواحدةً .

وإن نوى يميناً فهي يمين .

وإن لم يَنْو شيئاً فلا شيء عليه .

وهو قول سفيان .

وبمثله قال الأوزاعي وأبو ثور ؛ إلا أنهما قالا : إن لم يَنْو شيئاً فهي واحدة .

وسابع عشرها : له نِيّتُه ولا يكون أقل من واحدة ؛ قاله ابن شهاب .

وإن لم يَنْو شيئاً لم يكن شيء ؛ قاله ابن العربي .

ورأيت لسعيد بن جُبير وهو :

الثامن عشر : أن عليه عِتْق رَقَبة وإن لم يجعلها ظِهاراً .

ولست أعلم لها وجهاً ولا يبعد في المقالات عندي .

قلت : قد ذكره الدّارَقُطْنيّ في سننه عن ابن عباس فقال : حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا محمد بن منصور قال حدّثنا رَوْح قال : حدّثنا سفيان الثَّوْري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً . فقال : كذبت ! ليست عليك بحرام ؛ ثم تلا ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ عليك أغلظ الكفارات : عِتْقُ رَقَبة .

وقد قال جماعة من أهل التفسير : إنه لما نزلت هذه الآية كفّر عن يمينه بعتق رقبة ، وعاد صلى الله عليه وسلم إلى مارية ؛ قاله زيد بن أسلم وغيره .

الخامسة : قال علماؤنا : سبب الاختلاف في هذا الباب أنه ليس في كتاب الله ولا في سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصٌّ ولا ظاهرٌ صحيحٌ يعتمد عليه في هذه المسألة ، فتجاذبها العلماء لذلك .

فمن تمسَّك بالبراءة الأصلية فقال : لا حكم ، فلا يلزم بها شيء .

وأما من قال إنها يمين ؛ فقال : سَمّاها الله يميناً .

وأما من قال : تجب فيها كفارة وليست بيمين ؛ فبناه على أحد أمرين : أحدهما أنه ظن أن الله تعالى أوجب الكفارة فيها وإن لم تكن يميناً .

والثاني أن معنى اليمين عنده التحريم ، فوقعت الكفارة على المعنى .

وأما من قال : إنها طلقة رجعية ؛ فإنه حمل اللفظ على أقلّ وجوهه ، والرجعية محرِّمة

الوطء كذلك ؛ فيحمل اللفظ عليه .

وهذا يلزم مالكاً ، لقوله : إن الرجعية محرِّمة الوطء .

وكذلك وجه من قال : إنها ثلاث ، فحمله على أكبر معناه وهو الطلاق الثلاث .

وأما من قال : إنه ظهار ، فلأنه أقلّ درجات التحريم ، فإنه تحريم لا يرفع النكاح .

وأما من قال : إنه طلقة بائنة ، فعَوَّل على أن الطلاق الرجعيّ لا يحرّم المطلقة ، وأن الطلاق البائن يحرّمها .

وأما قول يحيى بن عمر فإنه احتاط بأن جعله طلاقاً ، فلما ارتجعها احتاط بأن يلزمه الكفّارة .

(28/772)

ابن العربي : "وهذا لا يصح ، لأنه جمع بين المتضادين ، فإنه لا يجتمع ظِهار وطلاق في معنى لفظ واحد ، فلا وجه للاحتياط فيما لا يصح اجتماعه في الدليل .

وأما من قال : إنه يُنَوَّى في التي لم يدخل بها ، فلأن الواحد تُبينُها وتحرّمها شرعاً إجماعاً .

وكذلك قال من لم يحكم باعتبار نيته : إن الواحدة لا تكفي قبل الدخول في التحريم بالإجماع ، فيكفي أخذاً بالأقل المتفَق عليه .

وأما من قال : إنه ثلاث فيهما ، فلأنه أخذ بالحكم الأعظم ، فإنه لو صرح بالثلاث لنفذت في التي لم يدخل بها نفوذها في التي دخل بها .

ومن الواجب أن يكون المعنى مثله وهو التحريم" .

والله أعلم .

وهذا كله في الزوجة .

وأما في الأَمَة فلا يلزم فيها شيء من ذلك ، إلا أن ينوي به العتق عند مالك .

وذهب عامة العلماء إلى أن عليه كفارة يمين .

ابن العربي : والصحيح أنها طلقة واحدة ، لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقلّه وهو الواحدة إلا أن يعدّده .

كذلك إذا ذكر التحريم يكون أقلّه إلا أن يقيّده بالأكثر ، مثل أن يقول : أنت عليّ حرام إلا بعد زوج ، فهذا نص على المراد .

قلت : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة لما خلا النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيتها بجاريته ؛ ذكره الثعلبيّ .

وعلى هذا فكأنه قال : لا يَحْرُم عليك ما حرّمتَه على نفسك ولكن عليك كفارة يمين ، وإن كان في تحريم العسل والجارية أيضاً .

فكأنه قال : لم يَحْرُم عليك ما حَرَّمته ، ولكن ضَمَمْتَ إلى التحريم يميناً فكفّر عن اليمين .

وهذا صحيح ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرّم ثم حلف ، كما ذكره الدّارَقُطْنيّ .

(29/772)

وذكر البخاريّ معناه في قصة العَسَل عن عبيد بن عُمير " عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عند زينب بنت جَحْش عسلاً ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيّتنا دخل عليها فلْتَقُلْ : أكلتَ مَغَافِير ؟ إني لأجد منك رِيح مَغَافير ! قال : "لا ولكن شربتُ عسلاً ولن أعود له وقد حلفت لا تخبري (بذلك) أحداً" " يبتغي مرضات أزواجه .

فيعني بقوله : "ولن أعود له" على جهة التحريم .

وبقوله : "حلفت" أي بالله ، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك ، وحوالته على كفّارة اليمين بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ يعني العسل المحرّم بقوله : "لن أعود له" .

﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي تفعل ذلك طلباً لرضاهن .

﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفورٌ لما أوجب المعاتبة ، رحيمٌ برفع المؤاخذة .

وقد قيل : إن ذلك كان ذنباً من الصغائر .

والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى ، وأنّه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ تحليل اليمين كفّارتها .

أي إذا أحببتم استباحة المحلوف عليه ، وهو قوله تعالى في سورة "المائدة" : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة : 89] .

ويتحصل من هذا أن من حَرّم شيئاً من المأكول والمشروب لم يَحْرُم عليه عندنا ، لأن الكفارة لليمين لا للتحريم على ما بيّناه .

وأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه ، فإذا حَرّم طعاماً فقد حلف على أكله ، أو أَمَةً فعلى وطئها ، أو زوجةً فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ، وإن نوى الظِّهار فظهارٌ ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن .

وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثاً .

وإن قال : نَوَيت الكذب دِينَ فيما بينه وبين الله تعالى .

ولا يَدين في القضاء بإبطال الإيلاء .

وإن قال : كل حلال عليه حرام ؛ فعلى الطعام والشراب إذا لم يَنْو ، وإلا فعلى ما نَوَى .

ولا يراه الشافعي يميناً ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن .

وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده ، على ما تقدم بيانه .

فإن حلف ألا يأكله حنِث ويَبرّ بالكفارة .

الثانية : فإن حَرّم أَمَته أو زوجته فكفّارة يمين ، كما في صحيح مسلم عن ابن عباس قال :

إذا حَرَّم الرجل عليه امرأته ، فهي يمين يكفّرها .

وقال : لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .

الثالثة : قيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كفّر عن يمينه .

وعن الحسن : لم يكفّر ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر

، وكفارة اليمين في هذه السورة إنما أمر بها الأمّة .

والأوّل أصح ، وأن المراد بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الأمّة تقتدي به في ذلك .

وقد قدّمنا عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كفّر بعتق رقبة .

وعن مقاتل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية .

والله أعلم .

وقيل : أي قد فرض الله لكم تحليل مِلْك اليمين ، فبيّن في قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النبي مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ﴾ [الأحزاب : 38] أي فيما شرعه له في النساء المحلّلات .

أي حلّل لكم مِلك الأيمان ، فلِم تُحَرّم مارية على نفسك مع تحليل الله إياها لك .

وقيل : تحِلّة اليمين الاستثناء ، أي فرض الله لكم الاستثناء المخرج عن اليمين .

ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الأيمان متى شاء وإن تحلّل مدّة .

وعند المُعْظَم لا يجوز إلا متصلاً ، فكأنه قال : استثن بعد هذا فيما تحلف عليه .

وتَحِلة اليمين تَحليلُها بالكفارة ، والأصل تحللة ، فأدغمت .

وتفعلة من مصادر فَعّل ؛ كالتّسمية والتّوصية .

فالتَّحِلّة تحليل اليمين .

فكأن اليمين عَقْد والكفّارة حلّ .

(31/772)

وقيل : التّحِلّة الكفارة ؛ أي إنها تُحِل للحالف ما حَرّم على نفسه ؛ أي إذا كَفّر صار كمن لم يحلف .

﴿ واللهُ مَوْلاَكُمْ ﴾ وَلِيّكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرّمونه على أنفسكم ، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفارة ، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفارة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾

أي واذكر إذ أسرّ النبيّ إلى حفصة "حَدِيثاً" يعني تحريم مارية على نفسه واستكتامه إياها ذلك .

وقال الكَلبيّ : أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتيّ على أمّتي من بعدي ؛ وقاله ابن عباس .

قال : أسرّ أمر الخلافة بعده إلى حفصة فذكرته حفصة .

روى الدّارَقُطْنيّ في سننه عن الكَلْبي عن أبي صالح : " عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ قال : اطلعت حفصة على النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أم إبراهيم فقال : "لا تخبري عائشة" وقال لها "إن أباك وأباها سيملكان أو سَيَلِيَان بعدي فلا تخبري عائشة" قال : فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه ، فعرّف بعضه وأعرض عن بعض .

قال أعرض عن قوله : "إن أباكِ وأباها يكونان بعدي" "كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر ذلك في الناس .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي أخبرت به عائشة لمصافاة كانت بينهما ، وكانتا متظاهرتين على

نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ أي أطلعه الله على أنها قد نَبَّأت به .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "فلما أنبأت" وهما لغتان : أنبأ ونَبّأ .

ومعنى "عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ" عَرَّف حفصة بعض ما أوحي إليه من أنها أخبرت عائشة بما نهاها عن أن تخبرها ، وأعرض عن بعض تَكَرُّماً ؛ قاله السُّدّي .

وقال الحسن : ما استقصى كريمٌ قطّ ؛ قال الله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ .

(32/772)

وقال مقاتل : يعني أخبرها ببعض ما قالت لعائشة ، وهو حديث أم ولده ولم يخبرها ببعض وهو قول حفصة لعائشة : إن أبا بكر وعمر سيملكان بعده .

وقراءة العامة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ مشدّداً ، ومعناه ما ذكرناه .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ أي لم يعرّفها إياه .

ولو كانت مخففة لقال في ضدّه وأنكر بعضاً .

وقرأ عليّ وطلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلَمِي والحسن وقتادة والكلبي والكسائي والأعمش عن أبي بكر "عَرَف" مخففة.

قال عطاء: كان أبو عبد الرحمن السُّلَمي إذا قرأ عليه الرجل "عرف" مشدّدة حَصَبه بالحجارة.

قال الفرّاء: وتأويل قوله عز وجل: "عَرَف بَعْضَهُ" بالتخفيف، أي غضب فيه وجازى عليه؛ وهو كقولك لمن أساء اليك: لاعرفَنّ لك ما فعلت، أي لأجازِيَنَّك عليه.

وجازاها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن طلّقها طلقة واحدة.

فقال عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلقك.

فأمره جبريل بمراجعتها وشفع فيها.

واعتزل النبيّ صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً، وقعد في مشربة مارية أمّ إبراهيم حتى نزلت آية التحريم على ما تقدم.

وقيل: هَمّ بطلاقها حتى قال له جبريل: "لاتطلّقها فإنها صوّامة قوّامة وإنها من نسائك في الجنة" فلم يطلّقها.

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أي أخبر حفصة بما أظهره الله عليه.

﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ يا رسول الله عني.

فظنّت أن عائشة أخبرته، فقال عليه السلام: ﴿ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ أي الذي لا يخفى

عليه شيء .

و"هذا" سدّ مسدّ مفعولي "أَنْبَأَ" .

و"نَبّأَ" الأول تعدى إلى مفعول ، و "نَبَّأَ" الثاني تعدّى إلى مفعول واحد ، لأن نَبّأ وأنبأ إذا لم يدخلا على المبتدأ والخبر جاز أن يكتفي فيهما بمفعول واحد وبمفعولين ، فإذا دخلا على الابتداء والخبر تعدّى كلّ واحد منهما إلى ثلاثة مفعولين .

(33/772)

ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث ، لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل فلا يقتصر دونه ، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(34/772)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾

روى البخاري . وابن سعد . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن مردويه عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود " وفي رواية " وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً " فنزلت ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الخ ، وفي رواية " قالت سودة : أكلت مغافير ؟ قال : لا قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل ، فقالت : جرست نحلة العرفط " فحرم العسل فنزلت ، وفي حديث رواه

البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والنسائي عن عائشة شرب العسل في بيت حفصة ، والقائلة سودة .

وصفية .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه قال الحافظ السيوطي : بسند صحيح عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه " فنزلت ، وأخرج النسائي .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة .

وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الخ ، ويوافقه ما أخرجه البزار .

والطبراني بسند حسن صحيح عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الآية في سريته .

(35/772)

والمشهور أنها مارية وأنه عليه الصلاة والسلام وطئها في بيت حفصة في يومها فوجدت وعاتبته فقال صلى الله عليه وسلم : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ قالت : بلى

فحرمها ، وفي رواية أن ذلك كان في بيت حفصة في يوم عائشة ، وفي "الكشاف" روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها : اكتمي علي وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي فأخبرت عائشة وكانتا متصادقتين .

وبالجملة الأخبار متعارضة ، وقد سمعت ما قيل فيها لكن قال الخفاجي : قال النووي في "شرح مسلم" : الصحيح أن الآية في قصة العسل لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية في طريق صحيح ثم قال الخفاجي نقلاً عنه أيضاً : الصواب أن شرب العسل كان عند زينب رضي الله تعالى عنها ، وقال الطيبي فيما نقلناه عن الكشاف ما وجدته في الكتب المشهورة والله تعالى أعلم .

والمغافير : بفتح الميم والغين المعجمة وبياء بعد الفاء على ما صوبه القاضي عياض جمع مغفور بضم الميم شيء له رائحة كريهة ينضحه العرفط وهو شجر أو نبات له ورق عريض ، وعن المطلع أن العرفط هو الصمغ ، والمغفور شوك له نور يأكل منه النحل يظهر العرفط عليه ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب جداً ويكره الرائحة الكريهة للطافة نفسه الشريفة ولأن الملك يأتيه وهو يكرهها فشق عليه صلى الله عليه وسلم ما قيل فجرى ما جرى ، وفي ندائه صلى الله عليه وسلم بيا أيها النبي في مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ

لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] والمراد بالتحريم الامتناع .

وبما أحل الله العسل على ما صححه النووي رحمه الله تعالى ، أو وطء سريته على ما في بعض الروايات ، ووجه التعبير بما على هذين التفسيرين ظاهر .

(36/772)

وفسر بعضهم ﴿ مَا ﴾ بمارية ؛ والتعبير عنها بما على ما هو الشائع في التعبير بها عن ملك اليمين ، والنكتة فيه لا تخفى ، وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِي مرضات أزواجك ﴾ حال من فاعل ﴿ تُحَرِّمُ ﴾ ، واختاره أبو حيان فيكون هو محل العتاب على ما قيل ، وكأن وجهه أن الكلام الذي فيه قيد المقصود فيه القيد إثباتاً أو نفياً ، أو يكون التقييد على نحو ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] على أن التحريم في نفسه محل عتب ؛ والباعث عليه كذلك كما في "الكشف" ، أو استئناف نحوي أو بياني ، وهو الأولى ، ووجهه أن الاستفهام ليس على الحقيقة بل هو معاتبة على أن التحريم لم يكن عن باعث مرضي فاتجه أن يسأل ما ينكر منه وقد فعله غيري من الأنبياء عليهم السلام ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسرائيل على نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران : 93] فقيل : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أزواجك ﴾ ومثلك من أجل أن تطلب مرضاتهن بمثل ذلك ، وجوز أن يكون

تفسيراً لتحرم بجعل ابتغاء مرضاتهن عين التحريم مبالغة في كونه سبباً له ، وفيه من تفخيم الأمر ما فيه ، والإضافة في ﴿ أزواجك ﴾ للجنس لا للاستغراق .

(37/772)

﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه تعظيم شأنه صلى الله عليه وسلم بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن في نفسه كذلك ، وأن عتابه صلى الله عليه وسلم ليس إلا لمزيد الاعتناء به ، وقد زل الزمخشري ههنا كعادته فزعم أن ما وقع من تحريم الحلال المحظور لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام ، وقد شن ابن المنير في الانتصاف الغارة في التشنيع عليه فقال ما حاصله : إن ما أطلقه في حقه صلى الله عليه وسلم تقول وافتراء والنبي عليه الصلاة والسلام منه براء ، وذلك أن تحريم الحلال على وجهين : الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل في الحرام محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلاً ، والثاني : الامتناع من الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان ترك المباح والامتناع منه غير مباح لاستحالت حقيقة الحلال ، وما وقع منه صلى الله عليه وسلم كان من هذا النوع وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقاً به وتنويهاً بقدره وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعي

مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به ، وتأول بعضهم كلام الزمخشري ، وفيه ما ينبو عن ذلك .

وقيل : نسبة التحريم إليه صلى الله عليه وسلم مجاز ، والمراد لم تكون سبباً لتحريم الله تعالى عليك ما أحل لك بحلفك على تركه وهذا لا يحتاج إليه ، وفي وقوع الحلف خلاف ، ومن قال به احتج ببعض الأخبار ، وبظاهر قوله تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾

(38/772)

أي قد شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقدته الأيمان بالكفارة ، فالتحلة مصدر حلل كتكرمة من كرم ، وليس مصدر مقيساً ، والمقيس التحليل والتكريم لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل ، وأصله تحللة فأدغم ، وهو من الحل ضد العقد فكأنه باليمين على الشيء لالتزامه عقد عليه وبالكفارة يحل ذلك ، ويحل أيضاً بتصديق اليمين كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم " يعني ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] الخ ، وتحليله بأقل ما يقع عليه الاسم كمن حلف أن ينزل يكفي فيه إلمام خفيف ، فالكلام كناية عن التقليل أي قدر الاجتياز اليسير ، وكذا

يحل بالاستثناء أي بقول الحالف : إن شاء الله تعالى بشرطه المعروف في الفقه .

ويفهم من كلام الكشاف أن التحليل يكون بمعنى الاستثناء ومعناه كما في "الكشف" تعقيب اليمين عند الإطلاق بالاستثناء حتى لا تنعقد ، ومنه حلاً أبيت اللعن ، وعلى القول بأنه كان منه عليه الصلاة والسلام يمين كما جاء في بعض الروايات وهو ظاهر الآية اختلف هل أعطى صلى الله عليه وسلم الكفارة أم لا ؟ فعن الحسن أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وفيه أن غفران الذنب لا يصلح دليلاً لأن ترتب الأحكام الدنيوية على فعله عليه الصلاة والسلام ليس من المؤاخذة على الذنب لا يصلح دليلاً لأن ترتب الأحكام الدنيوية على فعله عليه الصلاة والسلام ليس من المؤاخذة على الذنب كيف وغير مسلم أنه ذنب ، وعن مقاتل أنه صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية ، وقد نقل مالك في المدونة عن زيد بن أسلم أنه عليه الصلاة والسلام أعطى الكفارة في تحريمه أم ولده حيث حلف أن لا يقربها ، ومثله عن الشعبي ، واختلف العلماء في حكم قول الرجل لزوجته : أنت علي حرام .

(39/772)

أو الحلال علي حرام ولم يستثن زوجته فقيل : قال جماعة منهم مسروق .

وربيعة .

وأبو سلمة .

والشعبي .

وأصبغ : هو كتحريم الماء والطعام لا يلزمه شيء ، وقال أبو بكر .

وعمر .

وزيد .

وابن مسعود .

وابن عباس .

وعائشة .

وابن المسيب .

وعطاء .

وطاوس .

وسليمان بن يسار .

وابن جبير .

وقتادة .

والحسن .

والأوزاعي .

وأبو ثور .

وجماعة : هو يمين يكفرها ، وابن عباس أيضاً في رواية ، والشافعي في قول في أحد قوليه : فيه تكفير يمين وليس بيمين ، وأبو حنيفة يرى تحريم الحلال يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعاماً فقد حلف على عدم أكله .

أو أمة فعلى وطئها .

أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم تكن له نية فإن نوى الظهار فظهار وإن نوى الطلاق فطلاق بائن ، وكذلك إن نوى اثنتين وإن نوى ثلاثاً فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب دين بينه وبين الله تعالى ، ولكن لا يدين في قضاء الحاكم بإبطال الإيلاء لأن اللفظ إنشاء في العرف ، وقال جماعة : إن لم يرد شيئاً فهو يمين ، وفي التحرير قال أبو حنيفة .

وأصحابه : إن نوى الطلاق فواحدة بائنة .

أو اثنتين فواحدة .

أو ثلاثاً فثلاث .

أو لم ينو شيئاً فمول .

أو الظهار فظهار ، وقال ابن القاسم : لا تنفعه نية الظهار ويكون طلاقاً ، وقال يحيى بن عمر

: يكون كذلك فإن ارتجعها فلا يجوز له وطؤها حتى يكفر كفارة الظهار ، ويقع ما أراد من إعداده فإن نوى واحدة فرجعية وهو قول للشافعي ، وقال الأوزاعي .

وسفيان .

وأبو ثور : أي شيء نوى به من الطلاق وقع وإن لم ينو شيئاً فقال سفيان : لا شيء عليه ، وقال الأوزاعي .

وأبو ثور : تقع واحدة ، وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً ، وقال أبو قلابة .

وعثمان .

وأحمد .

وإسحاق : التحريم ظهار ففيه كفارته ، وعن الشافعي إن نوى أنها محرمة كظهر أمه فظهار ، أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين ، وقال مالك : يقع ثلاث في المدخول بها وما أراد من واحدة .

أو ثنتين .

(40/772)

أو ثلاث في غير المدخول بها ، وقال ابن أبي ليلى .

وعبد الملك بن الماجشون : تقع ثلاث في الوجهين ، وروى ابن خويزمنداد عن مالك ، وقاله زيد .

وحماد بن أبي سليمان : تقع واحدة بائنة فيهما ، وقال الزهري .

وعبد العزيز بن الماجشون : واحدة رجعية ، وقال أبو مصعب .

ومحمد بن عبد الحكم : يقع في التي لم يدخل بها واحدة وفي المدخول بها ثلاث ، وفي "الكشاف" لا يراه الشافعي يميناً ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن ، وأما الطلاق فرجعي عنده ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه ثلاث ، وعن زيد واحدة بائنة ، وعن عثمان ظهار ، وأخرج البخاري .

ومسلم .

وابن ماجه .

والنسائي عن ابن عباس أنه قال : من حرم امرأته فليس بشيء .

وقرأ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] وللنسائي أنه أتاه رجل فقال : جعلت امرأتي علي حراماً قال : كذبت ليست عليك بحرام ثم تلا هذه الآية ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ عليك أغلظ الكفارة عتق رقبة إلى غير ذلك من الأقوال ، وهي في هذه المسألة كثيرة جداً ، وفي نقل الأقوال عن أصحابها اختلاف

كثير أيضاً ، واحتج بما في هذه الآية من فرض تحليلها بالكفارة إن لم يستثن من رأي التحريم مطلقاً ، أو تحريم المرأة ، يميناً لأنه لو لم يكن يميناً لم يوجب الله تعالى فيه كفارة اليمين هنا .

وأجيب بأنه لا يلزم من وجوب الكفارة كونه يميناً لجواز اشتراك الأمرين المتغايرين في حكم واحد فيجوز أن تثبت الكفارة فيه لمعنى آخر ، ولو سلم أن هذه الكفارة لا تكون إلا مع اليمين فيجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم أقسم مع التحريم فقال في مارية :

" والله لا أطؤها " أو في العسل " والله لا أشربه " وقد رواه بعضهم فالكفارة لذلك اليمين لا للتحريم وحده ، والله تعالى أعلم .

(41/772)

﴿ والله مولاكم ﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ فيعلم ما يصلحكم فيشرعه سبحانه لكم ﴿ الحكيم ﴾ المتقن أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ﴾

أي واذكر ﴿ إِذْ أَسَرَّ ﴾ ﴿ النبى إلى بَعْضِ أزواجه ﴾ هي حفصة على ما عليه عامة المفسرين ، وزعم بعض الشيعة أنها عائشة وليس له في ذلك شيعة ، نعم رواه ابن مردويه

عن ابن عباس وهو شاذ ﴿ حَدِيثاً ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام على ما في بعض الروايات : " لكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً " ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ ﴾ أي أخبرت .

وقرأ طلحة أنبأت ﴿ بِهِ ﴾ أي بالحديث عائشة لأنهما كانتا متصادقتين ، وتضمن الحديث نقصان حظ ضرتهما زينب من حبيبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث إنه عليه الصلاة والسلام كما في البخاري .

وغيره كان يمكث عندها لشرب ذلك وقد اتخذ ذلك عادة كما يشعر به لفظ كان فاستخفها السرور فنبأت بذلك ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ أي جعل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ظاهراً على الحديث مطلعاً عليه من قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] والكلام على ما قيل : على التجوز ، أو تقدير مضاف أي على إفشائه ، وجوز كون الضمير لمصدر ﴿ نَبَأَتْ ﴾ وفيه تفكيك الضمائر ، أو جعل الله تعالى الحديث ظاهراً على النبي صلى الله عليه وسلم فهو نظير ظهر لي هذه المسألة وظهرت على إذا كان فيه مزيد كلفة واهتمام بشأن الظاهر فلا تغفل ﴿ عَرَّفَ ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ﴿ بَعْضَهُ ﴾ أي الحديث أي أعلمها وأخبرها ببعض الحديث الذي أفشته .

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : قلت كذا لبعض ما أسره إليها قيل : هو قوله لها : "كنت شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود " ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ هو على ما قيل قوله عليه الصلاة والسلام : " وقد حلفت " فلم يخبرها به تكرماً لما فيه من مزيد خجلتها حيث إنه يفيد مزيد اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمرضاة أزواجه وهو لا يحب شيوع ذلك ، وهذا من مزيد كرمه صلى الله عليه وسلم .

وقد أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وقال الشاعر :

ليس الغبي بسيد في قومه . . .

لكن سيد قومه المتغابي

وجوز أن يكون ﴿ عَرَّفَ ﴾ بمعنى جازى أي جازاها على بعض بالعتب واللوم أو بتطليقه عليه الصلاة والسلام إياها ، وتجاوز عن بعض ، وأيد بقراءة السلمى .

والحسن .

وقتادة .

وطلحة .

والكسائي .

وأبي عمرو في رواية هارون عنه ﴿ عَرَّفَ ﴾ بالتخفيف لأنه على هذه القراءة لا يحتمل معنى العلم لأن العلم تعلق به كله بدليل قوله تعالى : ﴿ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ ﴾ مع أن الإعراض عن الباقي يدل على العلم فتعين أن يكون بمعنى المجازاة .

قال الأزهري في "التهذيب" : من قرأ ﴿ عَرَّفَ ﴾ بالتخفيف أراد معنى غضب وجازى عليه كما تقول للرجل يسيء إليك : والله لأعرفن لك ذلك ، واستحسنه الفراء ، وقول "القاموس" : هو بمعنى الإقرار لا وجه له ههنا ، وجعل المشدد من باب إطلاق المسبب على السبب والمخفف بالعكس ، ويجوز أن تكون العلاقة بين المجازاة والتعريف اللزوم ، وأيد المعنى الأول بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ ﴾ لتعرف هل فضحتها عائشة أم لا ؟ ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية فإنه أوفق للإعلام ، وهذا على ما في "البحر" على معنى بهذا ، وقرأ ابن المسيب .

وعكرمة عراف بعضه بألف بعد الراء وهي إشباع ، وقال ابن خالويه .

ويقال : إنها لغة يمانية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم أسر إلى حفصة تحريم مارية وأن أبا بكر .

وعمر يليان الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف بعضه وهو أمر مارية وأعرض عن بعض وهو أن أبا بكر .

وعمر يليان بعده مخافة أن يفشو ، وقيل : بالعكس ، وقد جاء أسرار أمر الخلافة في عدة أخبار ؛ فقد أخرج ابن عدي .

وأبو نعيم في فضائل الصديق ، وابن مردويه من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس قالا : إن أمارة أبي بكر .

وعمر لفي كتاب الله ﴿ وَإِذَ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ قال لحفصة : " أبوك .

وأبو عائشة واليا الناس بعدي فإياك أن تخبري أحداً " .

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن الضحاك أنه قال : في الآية أسر صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أن الخليفة من بعده أبو بكر ومن بعد أبي بكر عمر ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران نحوه ، وفي "مجمع البيان" للطبرسي من أجل الشيعة عن الزجاج قال : لما حرم عليه الصلاة والسلام مارية القبطية أخبر أنه يملك من بعده أبو بكر .

وعمر فعرفها بعض ما أفشت من الخبر وأعرض عن بعض أن أبا بكر .

وعمر يملكان من بعدي ، وقريب من ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر الباقر رضي الله تعالى عنه إلا أنه زاد في ذلك أن كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك فعاتبهما في أمر مارية وما أفشتا عليه من ذلك ، وأعرض أن يعاتبهما في الأمر الآخر انتهى .

وإذا سلم الشيعة صحة هذا لزمهم أن يقولوا بصحة خلافة الشيخين لظهوره فيها كما لا يخفى ، ثم إن تفسير الآية على هذه الأخبار أظهر من تفسيرها على حديث العسل لكن حديثه أصح ، والجمع بين الأخبار مما لا يكاد يتأتى .

(44/772)

وقصارى ما يمكن أن يقال : يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرب عسلاً عند زينب كما هو عادته ، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل ، واتفق له عليه الصلاة والسلام قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية في بيتها في يومها على فراشها فوجدت فحرم صلى الله عليه وسلم مارية ، وقال لحفصة ما قال تطييباً لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما .

والبعض الآخر على نقل الأخرى ، وقال كل : فأنزل الله تعالى ﴿ مُّنتَظِرُونَ يا أيها النبى ﴾ [التحريم : 1] الخ ، وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله فإن صح هذا هان أمر الاختلاف وإلا فاطلب لك غيره ، والله تعالى أعلم .

واستدل بالآية على أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمه ، وفيها على ما قيل : دلالة على أنه يحسن حسن العشرة مع الزوجات والتلطف في العتب والإعراض عن استقصاء الذنب ، وقد روي أن عبد الله بن رواحة وكان من النقباء كانت له جارية فاتهمته زوجته ليلة ، فقال قولاً بالتعريض ، فقالت : إن كنت لم تقربها فاقرأ القرآن فأنشد :

شهدت فلم أكذب بأن محمدا . . .

رسول الذي فوق السماوات من عل

وأن أبا يحيى .

ويحيى كلاهما . . .

له عمل في دينه متقبل

وأن التي بالجزع من بطن نخلة . . .

ومن دانها كل عن الخير معزل

فقالت : زدني ، فأنشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه . . .

كما لاح معروف من الصبح ساطع

أتى بالهدى بعد العمى فنفوسنا . . .

به موقنات إن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه . . .

إذا رقدت بالكافرين المضاجع

فقالت : زدني ، فأنشد :

شهدت بأن وعد الله حق . . .

وأن النار مثوى الكافرينا

وأن محمداً يدعو بحق . . .

وأن الله مولى المؤمنينا

وأن العرش فوق الماء طاف . . .

وفوق العرش رب العالمينا

ويحمله ملائكة شداد . . .

ملائكة الإله مسومينا

فقالت : أما إذ قرأت القرآن فقد صدقتك ، وفي رواية أنها قالت وقد كانت رأته على ما تكره إذن صدق الله وكذب بصري ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فتبسم ، وقال : " خيركم خيركم لنسائه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(46/772)

وقال الشيخ المراغى :

سورة التحريم

هى مدنية ، وآيها ثنتا عشرة ، نزلت بعد الحجرات .

ومناسبتها لما قبلها :

(1) أن سورة الطلاق فى حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن ، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى اللّه عليه وسلم تعليما لأمته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبي صلى اللّه عليه وسلم بذلك ، وأن ينصحوهن نصححا مؤثّرا .

(2) أن كلتيهما افتتحا بخطاب النبي صلى اللّه عليه وسلم .

(3) أن تلك فى خصام نساء الأمة ، وهذه فى خصومة نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقد أفردن بالذكر تعظيما لمكانتهن .

(47/772)

[سورة التحريم (66) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) ﴾

شرح المفردات

تحرّم : أي تمتنع ، ما أحل اللّه لك : هو العسل ، تبتغى : أي تطلب ، فرض : أي شرع وبيّن كما جاء فى قوله : « سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها » ، وتحلة أيمانكم : أي تحليلها بالكفارة ، وتحليلة القسم تستعمل على وجهين :

(1) أحدهما تحليله بالكفارة كما فى الآية .

(2) ثانيهما بمعنى الشيء القليل وهذا هو الأكثر كما جاء فى الحديث : « لن يلج النار إلا تحلة القسم » أي إلا زمنا يسيرا .

مولاكم : أي وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبأت به : أي أخبرت عائشة به ، وأظهره : أي أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عرّف :

أي أعلمها ببعض الحديث الذي أفشته ، وأعرض عن بعض : أي لم يخبرها به ، إن تتوبا : أي حفصة وعائشة ، صغت قلوبكما : أي عدلت ومالت إلى ما يجب للرسول صلى اللّه عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أي تتظاهرا وتتعاونا على إيذاء الرسول ، مولاه : اى وليه وناصره ، ظهير : أي ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون ، مسلمات : أي خاضعات للّه بالطاعة ، مؤمنات : أي مصدّقات بتوحيد اللّه ، مخلصات ، قانتات : أي مواظبات على الطاعة ، تائبات : أي مقلعات عن الذنوب ، عابدات : أي متعبدات متذللات لأمر الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، سائحات . أي صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لا زاد معه ، ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام كالصائم لا يزال كذلك حتى يجىء وقت الإفطار .

(48/772)

المعنى الجملي

روى البخاري ومسلم عن عائشة أنها قالت : « كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أنّ أيّتنا دخل النبي صلى اللّه عليه وسلم عليها فلتقل له : إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير (صمغ حلوله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز) ، فقال لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحدا .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ويقال إن التي دخل عليها النبي صلى اللّه عليه وسلم وحرّم على نفسه العسل أمامها هى حفصة فأخبرت عائشة بذلك ، مع أن النبي صلى اللّه عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرّها به من الحديث الذي يسرّها ويسر عائشة ، أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدي ، فالسر كان لها بأمرين :

(1) تحريم العسل الذي كان يبغيه عند زينب .

(2) أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

الإيضاح

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ ؟) أي يا أيها النبي لم تمتنع عن شرب العسل الذي أحله اللّه لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وهذا عتاب من اللّه على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باعث مرضى ، بل كان طلبا لمرضاة

الأزواج.

وفى هذا تنبيه إلى أن ما صدر منه لم يكن مما ينبغى لمقامه الشريف أن يفعله.

تفسير المراغي ، ج28 ، ص : 157

وفى ندائه صلى اللّه عليه وسلم بيا أيها النبي فى مفتتح العتاب حسن تلطف ، وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ما جاء فى قوله : « عفا اللّه عنك لم أذنت لهم ؟ » .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي واللّه غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب.

(49/772)

وإنما عاتبه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه ، تعظيما لقدره الشريف ، وإجلالا لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا على ما ألف من لطف اللّه به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك.

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ) أي قد شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها ، فعليك أن تكفر عن يمينك.

وقد روى « أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن يمينه فأعتق رقبة (عبدا أو أمة) » .

(وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ) أي والله متولى أموركم بنصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وآخرتكم ، ومنير لكم طريق الهداية إلى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم .

(وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) أي وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا وفق ما تقتضيه المصلحة .

ثم ساق ما هو كالدليل على علمه فقال :

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ) أي واذكر حين أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أنه كان يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحدا ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه - أخبر حفصة ببعض الحديث الذي أفشته وهو قوله لها : كنت شربت عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرما منه لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

(فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا ؟ قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) أي فلما أخبر حفصة بما دار بينها وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظمّا منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شىء فيهما .

وفى الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة :

(1) أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق .

(2) أنه يجب على من استكتم الحديث أن يكتمه .

(3) أنه يحسن التلطّف مع الزوجات فى العتب والإعراض عن الاستقصاء فى الذنب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 154 . 158 ﴾

(51/772)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾

افتتاح السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي صلى الله عليه وسلم والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه .

والاستفهام في قوله : ﴿ لم تحرم ﴾ مستعمل في معنى النفي ، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرّم على نفسك ما أحلّ اللَّه لك ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاماً بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصداً بذلك تطمين أزواجه اللاء تمالأْنَ عليه لِفرط غيرتهن ، أي ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن ، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإِكرام في بعض الأيام .

وهذا يومىء إلى ضبط ما يراعى من الغيرة وما لا يراعَى .

وفعل ﴿ تحرم ﴾ مستعمل في معنى : تجعل ما أحلّ لك حراماً ، أي تحرّمه على نفسك كقوله تعالى : ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ [آل عمران : 93] وقرينتهُ قوله هنا : ﴿ ما أحل الله لك ﴾ .

وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراماً كما في قوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : 32] ، وقوله : ﴿ يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ﴾ [التوبة : 37] ، فإن التفعيل يأتي بمعنى التصيير كما يقال : وسّعْ هذا الباب ويأتي بمعنى إيجاد الشيء على حالة مثل ما يقال للخياط : وسِّعْ طَوْق الجبّة .

ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيّرت إباحته حراماً على الناس أو عليك .

ومن العجيب قول "الكشاف" : ليس لأحد أن يُحرّم ما أحلّ الله لأن الله إنما أحله لمصلحة عرفها في إحلاله إلخ .

وصيغة المضارع في قوله : ﴿ لم تحرم ﴾ لأنه أوقع تحريماً متجدداً .

فجملة ﴿ تبتغي ﴾ حال من ضمير ﴿ تحرم ﴾ .

(52/772)

فالتعجيب واقع على مضمون الجملتين مثل قوله : ﴿ لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] .

وفي الإتيان بالموصول في قوله : ﴿ ما أحل الله لك ﴾ لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض لأن تناوله شكرٌ لله واعترافٌ بنعمته والحاجة إليه .

وفي قوله : ﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾ عذر للنبي صلى الله عليه وسلم فيما فعله من أنه أراد به خيراً وهو جلب رضا الأزواج لأنه أعون على معاشرته مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها لأن الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضاً وذلك مما يختل به

حسن المعاشرة بينهن ، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارَض بأن تحريم ما أحلّ الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة .

وذيل بجملة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ استئناساً للنبيء صلى الله عليه وسلم من وحشة هذا الملام ، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله : ﴿ عفا الله عنك لما أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

استئناف بياني بيّن الله به لنبيئه صلى الله عليه وسلم أن له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه ، وذلك فيما شرع الله من كفارة اليمين فأفتاه الله بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمة كلها ومن آثار حكم هذه الآية ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس بعد أن استحملوه وحلف أن لا يحملهم إذ ليس عنده ما يحملهم عليه ، فجاءه ذود من إبل الصدقة فقال لهم : "وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير" .

وافتتاح الخبر بحرف التحقيق لتنزيل النبي صلى الله عليه وسلم منزلة من لا يعلم أن الله فرض تَحِلَّة الأيمان بآية الكفارة بناء على أنه لم يأخذ بالرخصة تعظيماً للقَسَم.

فأعلمه الله أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه فإن في الكفارة ما يكفي للوفاء بتعظيم اليمين بالله إلى شيء هذا قوله تعالى في قصة أيوب ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ [ص: 44] كما ذكرناه في تفسيرها و ﴿ فرض ﴾ عيَّن ومنه قوله تعالى: ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ [النساء: 7].

وقال: فرض له في العطاء والمعنى: قد بيَّن الله لكن تحلة أيمانكم.

واعلم أنه إن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه في تلك الحادثة إلا أنه التزم أن لا يعود لشرب شيء عند بعض أزواجه في غير يوم نوبتها أو كان وعد أن يحرّم مارية على نفسه بدون يمين على الرواية الأخرى.

كان ذلك غير يمين فكان أمرُ الله إياه بأن يكفر عن يمينه إما لأن ذلك يجري مجرى اليمين لأنه إنما وعد لذلك تطميناً لخاطر أزواجه فهو التزام لهن فكان بذلك ملحقاً باليمين وبذلك أخذ أبو حنيفة ولم يره مالك يميناً ولا نذراً فقال في "الموطأ": ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من نذر أن يعصي الله فلا يعصه" أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر مما ليس لله بطاعة إن كلم فلاناً، فليس عليه في ذلك شيء إنْ هو كلّمه لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة فإن حَلف فقال: "والله لا آكل هذا الطعام ولا ألبس هذا الثوب فإنما

عليه كفارة يمين" أ هـ .

وقد اختلف هل كفّر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه تلك .

فالتحلّة على هذا التفسير عند مالك هي : جعل الله ملتزم مثل هذا في حلِّ منِ التزامِ ما التزمه .

أي مُوجب التحلل من يمينه .

وعند أبي حنيفة : هي ما شرعه الله من الخروج من الأيمان بالكفارات وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم صدر منه يمين عند ذلك على أن لا يعود فتحِلَّة اليمين هي الكفارة عند الجميع .

(54/772)

وجملة ﴿ والله مولاكم ﴾ تذييل لجملة ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ .

والمولى : الولي ، وهو الناصر ومتولي تدبير ما أضيف إليه ، وهو هنا كناية عن الرؤوف والميسّر ، كقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] .

وعطف عليها جملة ﴿ وهو العليم الحكيم ﴾ أي العليم بما يصلحكم فيحملكم على

الصواب والرشد والسداد وهو الحكيم فيما يشرعه ، أي يجري أحكامه على الحكمة .

وهي إعطاء الأفْعال ما تقتضيه حقائقها دون الأوهام والتخيلات .

واختلف فقهاء الإِسلام فيمن حرّم على نفسه شيئاً مما أحل الله له على أقوال كثيرة أنها ها القرطبي إلى ثمانية عشر قولاً وبعضها متداخل في بعض باختلاف الشروط والنيات فتؤول إلى سبعة .

أحدها : لا يلزمه شيء سواء كان المحرَّم زوجاً أو غيرها .

وهو قول الشعبي ومسروق وربيعة من التابعين وقاله أصبغ بن الفرج من أصحاب مالك .

الثاني : تجب كفارة مثل كفارة اليمين .

وروي عن أبي بكر وعمر وابن مسعود وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير ، وبه قال الأوزاعي والشافعي في أحد قوليه .

وهذا جار على ظاهر الآية من قوله : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ .

الثالث : لا يلزمه في غير الزوجة وأما الزوجة فقيل : إن كان دخل بها كان التحريم ثلاثاً ، وإن لم يدخل بها ينوّ فيما أراد وهو قول الحسن والحكم ومالك في المشهور .

وقيل هي ثلاث تطليقات دخل بها أم لم يدخل .

ونسب إلى علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي هريرة .

وقاله ابن أبي ليلى وهو عند عبد الملك بن الماجشون في "المبسوط" .

وقيل طلقة بائنة .

ونسب إلى زيد بن ثابت وحماد بن سليمان ونسبه ابن خُويز منداد إلى مالك وهو غير المشهور عنه .

وقيل : طلقة رجعية في الزوجة مطلقاً ، ونسب إلى عمر بن الخطاب فيكون قيداً لما روي عنه في القول الثاني .

(55/772)

وقاله الزهري وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماجشون ، وقال الشافعي يعني في أحد قوليه : إن نوى الطلاق فعليه ما نوى من أعداده وإلا فَهي واحدة رجعية .

وقيل : هي ثلاث في المدخول بها وواحدة في التي لم يدخل بها دون تنوية .

الرابع : قال أبو حنيفة وأصحابه إن نوى بالحرام الظهار كان ما نوى فإن نوى الطلاق فواحدة بائنة إلا أن يكون نوى الثلاث .

وإن لم ينو شيئاً كانت يميناً وعليه كفارة فإنْ أباها كان مولياً .

وتحريم النبي صلى الله عليه وسلم سريته مارية على نفسه هو أيضاً من قبيل تحريم أحد شيئاً مما أحلّ الله له غير الزوجة لأن مارية لم تكن زوجة له بل هي مملوكته فحكم قوله : ﴿

قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ جار في قضية تحريم مارية بيمين أو بغير يمين بلا فرق .

و ﴿ تحلة ﴾ تفعِلة مِن حلَّل جعل الفعل حلالاً .

وأصله تَحْلِلة فأدغم اللامان وهو مصدر سماعي لأن الهاء في آخره ليست بقياس إذ لم يحذف منه حرف حتى يعوض عنه الهاء مثل تزكية ولكنه كثير في الكلام مثل تعلة .

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

هذا تذكير وموعظة بما جرى في خلال تينك الحادثتين ثني إليه عنان الكلام بعد أن قضي ما يهم من التشريع للنبيء صلى الله عليه وسلم بما حرّم على نفسه من جرّائهما .

وهو معطوف على جملة ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ [التحريم : 1] بتقدير واذكر .

وقد أعيد ما دلت عليه الآية السابقة ضمناً بما تضمنته هذه الآية بأسلوب آخر ليبن عليه ما فيه من عبر ومواعظ وأدب ، ومكارم وتنبيه وتحذير .

فاشتملت هذه الآيات على عشرين معنى من معاني ذلك .

إحداها ما تضمنه قوله : ﴿ إلى بعض أزواجه ﴾ .

الثاني : قوله : ﴿ فلما نبأت به ﴾ .

والثالث : ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ .

الرابع : ﴿ عرف بعضه ﴾ .

الخامس : ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ .

السادس : ﴿ قالت من أنبأك هذا ﴾ .

السابع : ﴿ قال نبأني العليم الخبير ﴾ .

(56/772)

الثامن والتاسع والعاشر : ﴿ إن تتوبا إلى الله إلى فإن الله هو مولاه ﴾ [التحريم : 4] .

الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر : ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ﴾ [التحريم : 4] .

الرابع عشر والخامس عشر : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً ﴾ [التحريم : 5] .

السادس عشر : ﴿ خيراً منكن ﴾ [التحريم : 5] .

(السابع عشر : ﴿ مسلمات ﴾ [التحريم : 5] إلخ .

الثامن عشر : ﴿ سائحات ﴾ [التحريم : 5] .

التاسع عشر : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] ، وسيأتي بيانها عند تفسير كل آية منها .

العشرون : ما في ذكر حفصة أو غيرها بعنوان ﴿ بعض أزواجه ﴾ دون تسميته من الاكتفاء في الملام بذكر ما تستشعِر به أنها المقصودة باللوم .

وإنما نبّأها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإن الله ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل .

والحديث هو ما حصل من اختلاء النبي صلى الله عليه وسلم بجاريته مارية وما دار بينه وبين حفصة وقوله لحفصة : "هي عليّ حرام ولا تخبري عائشة" وكانتا متصافيتين وأطلع الله نبيئه صلى الله عليه وسلم على أن حفصة أخبرت عائشة بما أسرّ إليها .

والواو عاطفة قصة على قصة لأن قصة إفشاء حفصة السرّ غير قصة تحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحلّ له .

ولم يختلف أهل العلم في أن التي أسر إليها النبي صلى الله عليه وسلم الحديث هي حفصة ويأتي أن التي نَبأَتْها حفصة هي عائشة .

وفي "الصحيح" عن ابن عباس قال : مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجاً فخرجت معه فلما رجع ببعض الطريق قلت : يا أمير المؤمنين مَن اللتان تظاهرتا على رسول الله من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة وساق القصة بطولها .

وأصل إطلاق الحديث على الكلام مجاز لأنه مشتق من الحدثان فالذي حدث هو الفعل ونحوه ثم شاع حتى صار حقيقة في الخبر عنه وصار إطلاقه على الحادثة هو المجاز فانقلب حال وضعه واستعماله .

و﴿ أسر ﴾ أخبر بما يراد كتمانه عن غير المخبر أو سأله عدم إفشاء شيء وقع بينهما وإن لم يكن إخباراً وذلك إذا كان الخبر أو الفعل يراد عدم فشوّه فيقوله صاحبه سرّاً والسرّ ضد الجهر ، قال تعالى : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ [التغابن : 4] فصار ﴿ أسر ﴾ يطلق بمعنى الوصاية بعدم الإِفشاء ، أي عدم الإِظهار قال تعالى : ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾ [يوسف : 77] .

و﴿ أسر ﴾ : فعل مشتق من السرّ فإن الهمزة فيه للجعل ، أي جعله ذا سرّ ، يقال : أسرّ في نفسه ، إذا كتم سرّه .

ويقال : أسرّ إليه ، إذا حدثه بسرّ فكأنه أنهاه إليه ، ويقال : أسرّ له إذا أسرّ أمراً لأجله ، وذلك في إضمار الشر غالباً وأسرّ بكذا ، أي أخبر بخبر سرّ ، وأسرّ ، إذا وضع شيئاً خفياً .

وفي المثَل "يُسِرّ حَسْواً في ارتغاء" .

و﴿ بعض أزواجه ﴾ هي حفصة بنت عمر بن الخطاب .

وعدل عن ذكر اسمها ترفعاً عن أن يكون القصد معرفة الأعيان وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به .

وكذلك طي تعيين المنبَّأة بالحديث وهي عائشة .

وذكرت حفصة بعنوان بعض أزواجه للإِشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع سِرّه في موضعه لأن أولى الناس بمعرفة سرّ الرجل زوجهُ .

وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سرّه لأن واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه .

وهذا المعنى الأول من المعاني التهذيبية التي ذكرناها آنفاً .

ونبَّأ : بالتضعيف مرادف أنبأ بالهمز ومعناهما : أخبر ، وقد جمعهما قوله : ﴿ فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير ﴾ .

وقد قيل : السرّ أمانة ، أي وإفشاؤه خيانة .

(58/772)

وفي حديث أم زرع من آدابهم العربية القديمة قالت الحادية عشرة : "جَارية أبي زرع فَما جارية أبي زرع لا تَبث حديثنا تبثيثاً ولا تنفث ميرثنا تنفيثاً" .

وكلام الحكماء والشعراء في السرّ وحفظه أكثر من أن يحصى .

وهو المعنى الثاني من المعاني التهذيبية التي ذكرناها .

ومعنى و ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أطلعه عليه وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب .

استعير الإِظهار إلى الإِطْلاَع لأن إطلاع الله نبيئه صلى الله عليه وسلم على السرّ الذي بين حفصة وعائشة كان غلبةً له عليهما فيما دبرتاه فشبهت الحالة الخاصة من تآمر حفصة وعائشة على معرفة سرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومن علمه بذلك بحال من يغالب غيره فيغلبه الغير ويكشف أمره فالإِظهار هنا من الظهور بمعنى الانتصار .

وليس هو من الظهور ضد الخفاء ، لأنه لا يتعدى بحرف (على) .

وضمير ﴿ عليه ﴾ عائد إلى الإِنباء المأخوذ من ﴿ نبأت به ﴾ أو على الحديث بتقدير مضاف يدل عليه قوله : ﴿ نبأت به ﴾ تقديره : أظهره الله على إفشائه .

وهذا تنبيه إلى عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم وانتصاره له لأن إطلاعه على ما لا علم له به مما يهمه ، عناية ونصح له .

وهذا حاصل المعنى الثالث من المعاني التي اشتملت عليها الآيات وذكرناها آنفاً .

ومعفول ﴿ عرف ﴾ الأول مُحذوف لدلالة الكلام عليه ، أي عرفها بعضه ، أي بعض ما أطْلعه الله عليه ، وأعرض عن تعريفها ببعضه .

والحديث يحتوي على أشياء : اختلاء النبي بسريته مارية ، وتحريمها على نفسه ، وتناوله

العسل في بيت زينب ، وتحريمه العودة إلى مثل ذلك ، وربّما قد تخلل ذلك كلام في وصف عثور حفصة على ذلك بغتة ، أو في التطاول بأنها استطاعت أن تريحهن من ميله إلى مارية .

وإنما عرّفها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سرّ زوجها .

وهذا هو المعنى الرابع من المعاني التي سبقت إشارتي إليها .

(59/772)

وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعضَ ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه .

قال سفيان : ما زَال التغافل من فعل الكرام ، وقال الحسن : ما استقصى كريمٌ قط ، وما زاد على المقصود بقلب العتاب من عتاب إلى تقريع .

وهذا المعنى الخامس من مقاصد ذكر هذا الحديث كما أشرنا إليه آنفاً .

وقولها : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ يدل على ثقتها بأن عائشة لا تفشي سرّها وعلمت أنه لا

قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي فرامت التحقق من أحد الاحتمالين .

والاستفهام حقيقي ولك أن تجعله للتعجب من علمه بذلك .

وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سرّ زوجها زلَة خُلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها ، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سرّ زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإِخلاص لرسول الله أعلى من فضيلة الإِخلاص للخلائل .

وهذا هو الأدب السادس من معاني الآداب التي اشتملت عليها القصة وأجملنا ذكرها آنفاً .

وإيثار وصفي ﴿ العليم الخبير ﴾ هنا دون الاسم العَلَم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من إحاطة الله تعالى علماً وخُبْراً بكل شيء .

و﴿ العليم ﴾ : القوي العلم وهو في أسمائه تعالى دالّ على أكمل العلم ، أي العلم المحيط بكل معلوم .

و ﴿ الخبير ﴾ : أخص من العليم لأنه مشتق من خبر الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله ولذلك يُقال خبرته ، أي بلوته وتطلعتُ بواطن أمره ، قال ابن بُرَّجان (بضم الموحدة وبجيم مشددة) في "شرح الأسماء" : "الفرق بين الخُبر والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من وجه وأضِف ذلك إلى تلك الصفة وسَم الفائدة بذلك الوجه الذي عنه حَصَلَتْ فمتى حصلت من موضع الحُضور سميت مشاهدة والمتصف بها هو الشاهد والشهيد .

وكذلك إن حصلت من وجه سمع أو بصر فالمتصف بها سميع وبصير .

وكذلك إن حصَلت من عِلْم أو علامة فهو العلم والمتصف به العالم والعليم ، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبُور عن باطنه بِبَلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ فهو الخَبْر . والمسمّى به الخبير" أهـ .

وقال الغزالي في "المقصد الأسنى" : "العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خِبرة وسمي صاحبها خبيراً اه" .

فيتضح أن أتباع وصف ﴿ العليم ﴾ بوصف ﴿ الخبير ﴾ إيماء إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السرّ للأخرى .

وقد حصل من هذا الجواب تعليمها بأن الله يطلع رسول صلى الله عليه وسلم على ما غاب

إن شاء قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ [الجن : 26 ، 27] وتنبيهاً على ما أبطنته من الأمر .

وهو الأدب السابع من آداب هذه الآيات .

واعلم أن نبّأ وأنبأ مُترادفان وهما بمعنى أخبر وأن حقهما التعدية إلى مفعول واحد لأجل ما فيهما من همزة تعدية أو تضعيف .

وإن كان لم يسمع فعل مجرد لهما وهو مما أميت في كلامهم استغناء بفعل علم .

والأكثر أن يتعديا إلى ما زاد على المفعول بحرف جر نحو : نَبأتُ به .

وقد يحذف حرف الجر فيعدّيان إلى مفعولين ، كقوله هنا : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ أي بهذا ، وقول الفرزدق :

نبئت عبد الله بالجو أصبحت

كراماً مواليها لآماً ما صميمها . . .

حمله سيبويه على حذف الحرف .

وقد يضمنان معنى : اعلم ، فيعديان إلى ثلاثة مفاعيل كقول النابغة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها

يهدي إليّ غرائب الأشعار . . .

ولكثرة هذا الاستعمال ظن أنه معنى لهما وأغفل التضمين فنسب إلحاقهما بـ (اعلم) إلى سيبويه والفارسي والجرجاني وأُلْحَق الفراء خبّر وأخبر ، وألحق الكوفيون حدَّث .

قال زكريا الأنصاري : لم تسمع تعديتها إلى ثلاثة في كلام العرب إلا إذا كانت مبنية إلى المجهول .

وقرأ الجمهور ﴿ عرف ﴾ بالتشديد .

وقرأه الكسائي ﴿ عَرَف ﴾ بتخفيف الراء ، أي علم بعضه وذلك كناية عن المجازاة ، أي جازى عن بعضه التي أفشته باللوم أو بالطلاق على رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح وقد يكنى عن التوعد بفعل العلم .

ونحوه كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ [النساء : 63] .

وقول العرب للمسيء : لأعرفن لك هذا .

وقولك : لقد عرفت ما صنعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الحديث)

وقد ورد فى القرآن على خمسة أَوجه : الأَوّل بمعنى : الأَخبار والآثار .

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَى أَتخبرونهم .

الثَّانى بمعنى : القول والكلام ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ أَى قولاً .

الثَّالث بمعنى : القرآن العظيم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الرّابع بمعنى : القِصَصَ ذات العِبَرِ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ أَى أَحسن القِصَصِ .

الخامس بمعنى : العِبَر فى حديث الكفَّار والفجّار ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ قال الشاعر :

*كلُّ العلومِ سوى القُرْآنِ مَشْغَلَة * أَو الأَحاديث من دون الدواوينِ*

*فبالقرَانِ أُقيمت كلُّ مائلةٍ * وبالحديث استقامتْ دولةُ الدين*

*العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سواه فوسواس الشياطين*

وكلُّ كلام يَبلغ الإِنسان من جهة السّمع أَو الوحى فى يقظته أَو منامه يقال له : حديث .

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ وقوله ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أَى ما يحدّث به الإِنسان فى نومه .

والحديث أَيضاً : الطرىّ من الثمار .

ورجل حَدُث : حسن الحديث .

ويقال لكلِّ ما قرب عهده : حديث ، فَعَالاً كان أَو مقالاً ، قال تعالى ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ .

والحُدُوث : كون الشئ بعد أَن لم يكن ، عَرَضاً كان أَو جوهراً ، وإِحداثه : إِيجاده .

وإِحداث الجوهر ليس إِلاَّ لله تعالى .

والمحدَث : ما أُوجد بعد أَن لم يكن ، وذلك إِمّا فى ذاته أَو إِحداثه عند ما حصل عنده نحو : أَحدثت مِلكاً .

ورجل حَدَث وحديث السّنِّ بمعنًى ، وحِدْث النساء بالكسر أَى محادثهنَّ وتحادثوا وصاروا أَحدوثة .

والحادثة : النَّازلة العارضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 439 . 440 ﴾

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عرف)

عرفه يعرِفه مَعْرِفة وعِرْفاناً فهو عارِف وعَرِيف وعَرُوفة : عَلِمَهُ .

وقرأَ الكسائى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ مخفَّفة أَى جازى حفصَة ببعض ما فعلتْ .

ومنه : أَعرِف للمحسن والمسىءِ ، أَى لا يخفى علىَّ ذلك ولا مقابلته بما يوافقه .

والمعرفة : إِدراك الشىءِ بتفكُّر وتدبّر لأَثره ، وهو أَخَصّ من العلم ، ويقال : فلان يعرف اللهَ ، ولا يقال : يعلم الله متعدّياً إِلى مفعول واحد ، لَمَّا كان معرفة البشر لله هى بتدبّر آثاره دون إِدراك ذاته .

ويقال : الله يعلم كذا ولا يقال : يعرف كذا ، لَمَّا كان المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصَّل إِليه بتفكُّر وتدبّر .

وقد ورد فى القرآن لفظ المعرفة ولفظ العلم .

فلفظ المعرفة كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

وأَمّا لفظ العلم فهو أَكثر وأَوسع إطلاقاً كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ، وقوله : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ، ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ ﴾ ﴿ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ وغير ذلك من الآيات .

واختار الله لنفسه اسم العلم وما يتصرّف منه كالعالِم والعلِيم والعلاّم ، وعَلِم ويَعْلم ، وأَخبر

أَن له عِلماً دون لفظ المعرفة ، ومعلوم أَنَّ الاسم الذى اختاره لنفسه أَكمل نوعى المشارِك له فى معناه .

(65/772)

وإنما جاءَ لفظ المعرفة فى مؤمنى أَهل الكتاب خاصّة كقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وقد تقدّمت الآيتان .

وإِنَّ الطائفة المتصوّفة –نفع الله بهم– يُرجّحون المعرفة على العلم ، وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأساً ، ويراه قاطعاً وحجاباً دون المعرفة ، وأَهل الاستقامة منهم أَشدّ الناس وصِيّة للمريدين بالعلم .

وعندهم أَنه لا يكون وِلِىٌّ لله كامل الولاية من غير أولى / العلم أَبدًا ، فما اتَّخذ الله ولا يتَّخذ وِلِيًّا جاهلا .

فالجهل رأْس كلّ بدعة وضلال ونقص ، والعلم أَصل كلّ خير وهدى .

والفرق بين المعرفة والعلم من وجوه لفظاً ومعنى :

أَمّا اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، تقول : عرفت الدّيار وعرفت زيداً ، قال تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

وفعل العلم يقتضى مفعولين ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

وأَمّا الفرق من جهة المعنى فمن وجوه :

أَحدها : أَنَّ المعرفة تتعلَّق بذات الشىءِ والعلم يتعلَّق بأَحواله ، فتقول : عرفت أَباك وعِلمته صالِحاً ، ولذلك جاءَ الأَمر فى القرآن بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، ﴿ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ .

(66/772)

فالمعرفة : تصوّر صورة الشىءِ ومثالِه العلمىّ فى النَّفس ، والعلم : حضور أَحواله وصفاته ونسبتها إِليه .

فالمعرفة : نسبة التصوّر ، والعلم : نسبة التصديق .

الثانى : أَنَّ المعرفة فى الغالب تكون لِمَا غاب عن القلب بعد إدراكِه ، فإذا أَدركه قيل :

عرفه ، أَو تكونِ لمَا وُصف له بصفات قامت فى نفسه فإذا رآه وعلم أَنَّه الموصوف بها قيل : عرفه ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ ، وفى الحديث : "إِنَّ الله سبحانه يقول لآخر أَهل الجنّة دخولا : أَتعرف الزمان الذى كنت فيه فيقول : نعم . فيقول : تمنَّ .

فيتمنَّى على ربّه" .

وقال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ .

فالمعرفة نسبة الذِكر النفسىّ وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكر ، ولهذا كان ضدّها الإِنكار وضدّ العلم الجهل ، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ويقال : عرف الحقّ فأَقرّ به ، وعرفه فأنكره .

الوجه الثالث : أَنَّ المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره ، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره .

وهذا الفرق غير الأَوّل ، فإِنَّ ذلك يرجع

إِلى إِدراك الذات وإِدراك صفاتها ، وهذا يرجع إِلى تخليص الذات من غيرها ، وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

الفرق الرابع : أَنك إذا قلت : علمت زيداً لم تفد المخاطب شيئاً ، لأَنَّه يَنتظر أَن تخبره على أَيّ حال علمته ، فإذا قلت : كريماً أَو شجاعاً حصلت له الفائدة ، وإذا قلت : عرفت زيدا استفاد المخاطب أَنك أَثبتَّه وميّزته عن غيره ولم يبق ينتظر شيئاً آخر .

وهذا الفرق فى التحقيق إيضاح الذى قبله .

(67/772)

الفرق الخامس : أَنَّ المعرفة علم بعين الشىءِ مفصَّلاً عمّا سواه ، بخلاف العلم فإنه قد يتعلَّق بالشىءِ مُجملاً ، فلا يتصوّر أَن يعرف الله البتَّة ، ويستحيل هذا الباب بالكلّية ؛ فإن الله سبحانه لا يحاط به علمًا ولا معرفة ولا رؤية ، فهو أَكبر من ذلك وأَعظم .

قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ .

والفرق بين العلم والمعرفة عند المحقّقين أَنَّ المعرفة عندهم هى العلم الذى يقوم العالِم بموجَبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول / العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلاَّ من كان عالِمًا بالله وبالطَّريق الموصِّل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة .

فالعارف عندهم مَن عرف الله سبحانه بأَسمائه وصفاته وأَفعاله ، ثمّ صَدَق الله فى معاملاته ، ثمّ أَخلص له فى قصوده ونيَّاته ، ثمّ انسلخ من أَخلاقه الرّديئة وآفاته ، ثمّ تطهَّر من

أَوساخه وأَدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أَحكامه فى نِعمه وبلّياته ، ثمّ دعا [إِلى] الله على بصيرة بدينة وإِيمانه ، ثم جرّد الدّعوة إِليه وحده بما جاءَ به رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يَشُبْهَا بآراءِ الرِّجال وأَذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ، ولم يزِنْ بها ما جاءَ به الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، فهذا الذى يستحقُّ اسم العارف على الحقيقة ، وإِذا سمّى به غيره فعلى الدّعوى والاستعارة .

وقد تكلَّموا فى المعرفة بآثارها وشواهدها ، فقال بعضهم : مِن أَمارات المعرفة بالله حصول الهيبة ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقال أَيضا : المعرفة توجب السكينة .

وقيل : علامتها أَن يحس بقرب قلبه من الله فيجده قريباً منه .

وقال الشّبلى : ليس لعارف عَلاَقة ، ولا لمحبّ شكوى ، ولا لعبد دَعْوَى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأَحد من الله فِرار .

(68/772)

وهذا كلامٌ جيّد ، فإِن المعرفة الصّحيحة تقطع من القلب العلائق كلَّها ، وتعلّقه بمعروفه فلا يبقى فيه عَلاَقة لغيره ، ولا يمرّ به العلائق إِلاَّ وهى مجْتازَة .

وقال أَحمد بن عاصم : من كان بالله أَعرف كان من الله أَخوف .

ويدلّ على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، وقول النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم : "أَنا أَعرفكم بالله وأَشدّكم له خَشْية" .

وقال آخر : من عرف الله ضاقت عليه الأَرضُ بسعتها ؛ وقال غيره : من عرف الله اتَّسَع عليه كلُّ ضيق .

ولا تنافى بين هذين الكلامين فإِنَّه يضيق عليه كلَّ مكان لاتّساعه فيه على شأْنه ومطلوبه ، ويتَّسع له ما ضاق على غيره لأَنَّه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه .

والأَوّل فى بداية المعرفة والثانى فى غايتها التى يصل اليها العبد .

وقال : من عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كلّ شىءٍ ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأَنس بالله .

وقال غيره : من عرف الله قرّت عينه بالله وقرّت به كلُّ عين ، ومن لم يعرف الله تقطَّع قلبه على الدّنيا حَسَرَاتٍ ، ومن عرف الله يلم يبق له رغبة فيما سواه .

وعلامة العارف أَن يكون قلبه مرآة إِذا نظر فيها رأَى فيها الغَيْب الذى دعا إِلى الإِيمان به ، فعلى قَدْر جلاءِ تلك المرآة يتراءَى فيها سبحانه والدّارُ الآخرة والجنَّة والنار والملائكة والرُّسُل ، كما قيل :

*إِذا سكن الغَديرُ على صَفاءٍ * فيُشْبه أَن يحرّكه النسيمُ*

*بَدَتْ فيه السماءُ بلا مِرَاءٍ * كذلك الشمسُ تبدو والنجومُ*

*كذلك قلوبُ أَربابِ التَجَلّى * يُرى فى صَفْوِهَا اللهُ العظيمُ*

ومن علامات المعرفة أَن يبدو لك الشاهد وتَفْنَى الشَّواهد ، وتنجلى العَلائق وتنقطع العَوائق ، وتجلس بين يدى الرّب ، وتقوم وتضطجع على التأَهب للقائه كما يجلس الذى قد شدّ أَحماله وأَزمع السفر على تأَهب له ويقوم على ذلك ويضطجع عليه .

(69/772)

ومن علامات العارف أَنه لا يطالِب ولا يخاصِم ولا يعاقب ولا يرى له على أَحد حقًّا ، ولا يأْسف على فائت ولا يفرح بآت لأَنه ينظر فى الأَشياءِ الفناءَ والزَّوال ، وأَنَّها فى الحقيقة كالظِّلال والخيال .

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفاً حتىَّ يكون كالأَرض يطؤها البَرّ والفاجر ، وكالسّحاب يُظلّ كلّ شىءٍ ، وكالمطر يَسقى ما يحِبُّ وما لا يحبّ .

وقال يحيى بن مُعاذ : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربّه .

وهذا من أَحسن ما قيل ، لأَنَّه يدلُّ على معرفته بنفسه وعلى معرفته بربّه وجماله وجلاله ،

فهو شديد الإِزراءِ على نفسه لِهجٌ بالثناءِ على ربّه .

وقال أَبو يزيد : إِنَّما نالوا المعرفة بتضييع ما لَهُم ، والوقوف مع ما لَه .

يريد تضييع حظوظهم والوقوف مع حقوق الله تعالى .

وقال آخر : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطى مُلْك سليمان لم يشغله عن الله طَرْفة عين .

وهذا يحتاج إِلى شرح ، فإِنَّ ما هو دون ذلك يشغل القلب ، لكن إِذا كان اشتغاله بغير الله لله فذلك اشتغال بالله .

وقال ابن عطاء : المعرفة على ثلاثة أَركان : الهيبة ، والحَياءُ ، والأُنْس .

وقيل : العارف ابن وقته .

وهذا من أَحسن الكلام وأَخصَره .

فهو مشغول بوظيفة وقته عمّا مضى وصار فى العدم ، وعمّا لم يدخل بعد فى الوجود ، فهمّه عمارة وقته الذى هو مادّة حياته الباقية .

ومن علاماته أَنه مستوحش ممّن يقطعه عنه .

ولهذا قيل : العارف من أَنس بالله فأَوحشه من الخَلْق ، وافتقر إِلى الله فأَغناه عنهم ، وذلَّ لله فأَعزَّه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغنى بالله فأَحوجهم إِليه .

وقيل : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

يعنى أَنَّ العالِم علمُه أَوسع من حاله وصفته ، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره .

وقال أَبو سليمان الدارانى : إِن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلىّ .

(70/772)

وقال ذو النون : لكل شىءٍ عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله

وقال بعضهم : رياءُ العارفين أَفضل من إِخلاص المريدين .

وهذا كلام ظاهره منكر ومحتاج إِلى شرح ؛ فإِن العارف لا يرائى المخلوق طلباً لمنزلة فى قلبه ، وإِنما يكون ذلك منه نصيحة وإِرشادا وتعليما ، فهو يدعو إِلى الله بَعمله كما يدعو إِلى الله بقوله ، وإِخلاصُ المريد مقصور على نفسه .

وقال ذو النون : الزُّهَّاد ملوك الآخرة ، وهم فقراءُ العارفين .

وسئل الجُنَيد عن العارف فقال : لون الماءِ لون إِنائه .

وهذه كلمة رمز بها إِلى حقيقة العبوديّة ، وهو أَنَّه يتلوّن فى أَقسام العبوديّة ، فبينا تراه مصلِّيًا إِذْ رأَيته ذاكراً أَو قارئاً أَو متعلمًا أَو معلِّمًا أَو مجاهدًا أَو حاجّاً أَو مساعدًا للضَّيف أَو معيناً

للملهوف ، فيضرب فى كلِّ غنيمة بسهم .

فهو مع المنتسبين منتسب ، ومع المتعلّمين متعلِّم ، ومع الغُزَاة غاز ، ومع المصلّين مصلٍّ ، ومع المتصدّقِين متصدّق [و] هكذا ينتقل فى منازل العبوديّة من عبوديّة إِلى عبوديّة ، وهو مستقيم على معبود واحد لا ينتقل عنه إِلى غيره .

وقال يحيى بن مُعاذ : العارف كائن بائن .

وقد فسّر كلامه على وجوه : منها أَنه كائن مع الخَلْق بظاهره بائن عن / نفسه .

ومنها أَنَّه كائِن مع أَبناءِ الآخرة بائِن عن أَبناءِ الدّنيا .

ومنها أَنَّه كائن مع الله بموافقته ، بائن عن النَّاسِ لمخالفته .

ومنها أَنَّه داخل فى الأَشياءِ خارج عنها ، يعنى [أَن] المريد لا يقدر على الدّخول فيها والعارف داخل فيها خارج منها .

وقال ذو النون رحمه الله : علامة العارف ثلاثة : لا يطفئُ نور معرفته نورَ ورعه ، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله على هتك أَستار محارم الله .

وهذا أَحسن ما قيل فى المعرفة .

وقال : ليس بعارفٍ مَن وصف المعرفة عند أَبناءِ الآخرة فكيف عند أَبناءِ الدّنيا ؟ يريد أَنه ليس من المعرفة وصف المعرفة لغير أَهلها سواءٌ كانوا عُبَّادًا أَو من أَبناءِ الدنيا .

وسئل ذو النون عن العارف فقال : كان هاهُنا فذهب .

فسئل الجنيد عن معناه فقال : لا يحصرُه حال عن حال ، ولا يحجبه منزل عن التنقّل فى المنازل ، فهو مع أهل كل منزل (على الَّذِى هم) فيه ، يجد مثل الذى يجدون ، وينطق بمعالمها ليتبلغوا .

وقال بعض السّلف : نوم العارف يقظة ، وأَنفاسه تسبيح ، ونومه أَفضل من صلاة الغافل .

إنما كان نومه يقظة لأَنَّ قلبه حىّ فعيناه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يَدَىْ ربّها ؛ وإِنَّمَا كان نومه أَفضل من صلاة الغافل لأَنَّ بدنه فى الصلاة واقف وقلبه يَسْبح فى حُشُوش الدنيا والأَمانىِّ .

وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ستٍّ إِلى ستّ : من الشك إِلى اليقين ، ومن الرياءِ إِلى الإِخلاص ، ومن الغفلة إِلى الذكر ، ومن الرغبة فى الدنيا إِلى الرغبة فى الآخرة ، ومن الكِبْر إِلى التواضع ، ومن سوءِ الطوِيّة إِلى النصيحة .

وللكلام فى المعرفة تتمة نذكرها فى محلّها فى المقصد المشتمل على علوم الصوفية إِن شاءَ الله .

وتعارفوا : عَرَف بعضهم بعضاً .

وعرّف : جعل له عَرْفاً أَى ريحاً طيبة .

قال تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أَى طيّبَهَا وزيّنَهَا .

وقيل : عرّفها لهم من المعرفة أَى وصفها وشوّقهم إليها .

وعَرَفَات : موقف الحاجّ فى تاسع ذى الحِجّة ببطن نَعْمان .

سميّت لأَن آدم وحوّاءَ تعارفا بها ، أَو لقول جبريل عليه السّلام لإبراهيم عليه السّلام لمّا أَعلمه المناسك : أَعَرَفْتَ ، أَو لأَنها مقدّسة معظَّمة كأَنَّها عُرّفت أَى طيّبت ، أَو لأَن النّاس يتعارفون فيه ، أَو لتعرّف

العباد إلى الله تعالى بالعبادات والأَدعية .

ويوم عرفة يوم الوقوف .

وهو اسم فى لفظ الجمع فلا يجمع .

(72/772)

وهى معرفة وإن كانت جمعاً ؛ لأَن الأَماكن لا تزول فصارت كالشىءِ الواحد ، مصروفة لأَنّ التاءَ بمنزلة الياء والواو فى مسلمين ومسلمون ، والنسبة إليه عَرَفىّ .

والمعروف : اسم لكلّ فعل يُعرف بالشرع والعقل حُسنُه .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَى بالاقتصاد والإحسان .

وقوله : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ أَى رَدّ جميل ودعاءٌ خير من صدقة هكذا .

والعُرْف : المعروف من الإِحسان .

وجاءَت القَطَا عُرْفًا أَى متتابعة ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾ .

والعرّاف : الكاهن ، غير أَن العَرَّاف يخصّ بمن يخبر بالأَحوال المستقبلة ، والكاهن بالماضية .

والتعريف مَن يعرف الناس ويعرّفهم ، وسيّد القوم .

والاعتراف : الإِقرار بالذنب ، وأَصله / إِظهار معرفة الذَّنب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 47 . 57 ﴾

(73/772)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الإظهار والإفشاء والجهر

أن الإفشاء كثرة الإظهار ومنه أفشى القوم إذا كثر مالهم مثل أمشوا والفشاء كثرة المال ومثله المشاء وقريب منه النماء والصباء وقد أنمى القوم واصبوا وأمشوا وأفشوا إذا كثر مالهم ولهذا يقال فشا الخير في القوم أو الشر إذا ظهر بكثرة وفشا فيها الجرب إذا ظهر وكثر والإظهار يستعمل في كل شيء والإفشاء لا يصح إلا في ما لا تصح فيه الكثرة ولا يصح في ذلك ألا ترى أنك تقول هو ظاهرة المروءة ولا تقول كثير المروءة

الفرق بين الجهر والإظهار

أن الجهر عموم الإظهار والمبالغة فيه الا ترى أنك إذا كشفت الأمر للرجل والرجلين قلت أظهرته لهما ولا تقول جهرت به إلا إذا أظهرته للجماعة الكثيرة فيزول الشك ولهذا قالوا (أرنا الله جهرة) أي عيانا لا شك معه وأصله رفع الصوت يقال جهر بالقراءة إذا رفع صوته بها وفي القرآن (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أي بقراءتك في صلاتك وصوت جهير رفيع الصوت ولهذا يتعدى بالباء فيقال جهرت به كما تقول رفع صوته به لأنه في معناه وهو في غير ذلك استعارة وأصل الجهر إظهار المعنى للنفس وغذا أخرج الشيء من وعاء أو بيت لم يكن ذلك جهرا وكان إظهار وقد يحصل الجهر نقيض

الهمس لأن المعنى يظهر للنفس بظهور الصوت

الفرق بين الجهر والكشف

أن الكشف مضمن بالزوال ولهذا يقال لله عز وجل كاشف الضر ولم يجز في نقيضه ساتر

الضر لأن نقيضه من الستر ليس متضمنا بالثبات فيجرى مجراه في ثبات الضر كما جرى هو في زوال الضر والجهر غير مضمن بالزوال

الفرق بين الإعلان والجهر

أن الإعلان خلاف الكتمان وهو إظهار المعنى للنفس ولا يقتضي رفع الصوت به والجهر يقتضي رفع الصوت به ومنه يال رجل جهير وجهوري إذا كان رفيع الصوت

(74/772)

الفرق بين البدو والظهور

أن الظهور يكون بقصد وبغير قصد تقول استتر فلان ثم ظهر ويدل هذا على قصد للظهور ويقال ظهر أمر فلان إن لم يقصد لذلك فأما قوله تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر) فمعنى ذلك الحدوث وكذلك قولك ظهرت في وجه حمرة أي حدثت ولم يعن أنها كانت فيه فظهرت والبدو ما يكون في وجهه حمرة أي حدثت ولم يعن أنها كانت فيه فظهرت والبدو ما يكون بغير قصد تقول بدا لابرق وبدا الصبح وبدت الشمس وبدا لي في الشيء لأنك لم تقصد للبدو وقيل في هذا بدو وفي الأول بدء وبين المعنيين فرق والأصل واحد

الفرق بين الكتمان والإخفاء والستر والحجاب

وما يقرب من ذلك أن الكتمان هو السكوت عن المعنى وقوله تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) أي يسكتون عن ذكره والإخفاء يكون في ذلك وفي غيره والشاهد أنك تقول أخفيت الدرهم في الثوب ولا تقول كتمت ذلك وتقول كتمت المنى وأخفيته فالاخفاء أعم من الكتمان

الفرق بين قولك سترته وبين قولك كننته

أن معنى

وكننه صنته والموضع الكنين وهو المصون وذلك يكون كنينا وإن لم يكن مستورا وقيل الدر المكنون لأنه في حق يصان فيه وجارية مكنونة في الحجاب أي مصونة قال الأعشى من السريع

وبيضة في الدعص مكنونة

والبيضة ليست بمستورة وإنما هي مصونة عن الترجرج والانكاسر واكتننت الشيء في نفسي إذا صنته عن ا لأداء ودخلت فيه الألف واللام على معنى جعلت له كذا وفي القرآن (ما تكن صدورهم

(75/772)

الفرق بين الغشاء والغطاء

أن الغشاء قد يكون رقيقا يبين ما تحته ويتوهم الرائي أنه لا شيء عليه لرقته ومن ثم سميت أغشيته البدن وهي أعصاب رقيقة قد غشي بها كثير من أعضاء البدن مثل الكبد والطحال فالغطاء يقتضي ستر ما تحته والغشاء لا يقتضي ذلك ومن ثم قيل غشي على الإنسان لن ما يعتريه من الغشي ليس بشيء بين والغطاء لا يكون إلا كثيفا ملاصقا وقيل الغشاء يكون من جنس الشيء والغطاء ما يقتضيه من جنسه كان أو من غير جنسه ولذلك تقول تغطيت بالثياب ولا تقول تغشيت بها فإن استعمل الغشاء موضع الغطاء فعلى التوسع

الفرق بين الغطاء والستر

أن الستر ما يسترك عن غيرك وإن لم يكن ملاصقا لك مثل الحائط والجبل والغطاء لا يكون إلا ملاصقا ألا ترى أنك تقول تستري بالحيطان ولا تقول تغطيت بالحيطان وإنما تغطيت بالثياب لأنها ملاصقة لك والغشاء أيضا لا يكون إلا ملاصقا

الفرق بين الستر والحجاب والغطاء

أنك تقول حجبني

فلان عن كذا ولا تقول سترني عنه ولا غطاني وتقول احتجبت بشيء كما تقول تسترت فالحجاب هو المانع والممنوع به والستر هو المستور به ويجوز أن يقال حجاب الشيء ما

قصده ستره ألا ترى أنك لا تقول لمن منع غيره من الدخول إلى الرئيس داره من غير قصد المنع له إنه حجبه وإنما يقال حجبه إذا قصد منعه ولا تقول احتجبت بالبيت إلا إذا قصدت منع غيرك عن مشاهدتك ألا ترى أنك إذا جلست في البيت ولم تقصد ذلك لم تقل إنك قد احتججت وفرق آخر أن الستر لا يمنع من الدخول على المستور والحجاب يمنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 305 . 307 ﴾

(76/772)

قوله تعالى ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما عرف من هذا أن المعاتب المنبئة ومن نباته ، وكان قد يكون عدداً أشار إلى أنه واحد فالمعاتب اثنتان ، وكانتا قد اتسعت قلوبهما لما يأتي من قبل الله من الرغائب بهذا العتاب

على هذا الأمر الخفي جداً والكرم عليهما فيه بعدم الاستقصاء فمالت قلوبهما إلى المعالي وغاصت على جليل المعارف فصاغت من جواهر ذلك دقيق المعاني ، لفت إليهما الخطاب بلطيف العباد لشريف المتاب ، فقال تشريفاً آخر له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإقبال على نسائه رضي الله تعالى عنهن بالعتاب لأجله قياماً عنه بما ربما أزعجه لو باشره حفظاً لخاطره الشريف مما قد يغره ﴿ إن تتوبا ﴾ أي يا عائشة ويا حفصة مما صنعته حفصة بالإفشاء وعائشة بالاحتيال على المنع من شرب العسل والتحليف على مارية ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الذي أحاط علمه فجلت قدرته ولطف بهما لأجله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غاية اللطف في قوله : ﴿ فقد صغت ﴾ أي مالت وغاضت بما صاغت ﴿ قلوبكما ﴾ وفي جمع القلوب جمع كثرة تأكيد لما فهمته من ميل القلب بكثرة المعارف بما أفادهما إظهار هذا السر والعتاب عليه من الحياء ، فصارتا جديرتين بالمبادرة إلى التوبة متأهلتين لذلك غاية التأهل .

(77/772)

ولما أورد ما صارتا حقيقيتين به بأداة الشك إقامة للسامع بين الخوف والرجاء من ذلك وهو أعلم مما يكون أكمل ذلك بذكر شق الخوف ، فقال معلماً بأن الملك وأوليائه أنصار له ﴿ وإن

تظاهرا ﴾ بالتشديد للإدغام في قراءة الجماعة لأن النظر هنا إن وقع كان على وجه الخفاء في أعمال الحيلة في أمر مارية ـ رضى الله عنه ـ ا والعسل وما يأتي من مثل ذلك ما يبعث عليه الغيرة ﴿ عليه ﴾ أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبأ من قبل الله بما يرفع قدره ويعلي ذكره ، وقراءة الكوفيين بالتخفيف بإسقاط إحدى التاءين إشارة إلى سهولة أمر هذه المظاهرة وقلة أذاها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان المعنى كأنه لا يبالي بمظاهرة كما عبر عنه بعلته ، فقال مؤكداً إعلاماً بأن حال المتظاهرين عليه حال المنكر لمضمون الكلام : ﴿ فإن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ﴿ هو ﴾ أي بنفسه الأقدس وحضرة غيب غيبه التي لا يقوم لما لها من العظمة شيء ﴿ مولاه ﴾ أي ناصره والمتولي من أمره ما يتولاه القريب الصديق القادر وكل من له وعي يعلم كفايته سبحانه في ذلك فهو يعمل أبلغ ما يعمله مولى مع من هو متول لأمره وفي معاونته لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إظهار لشرفه ومراعاة لحفظ خاطره وشرح لصدره .

ولما كانت النفوس لمبنى هذه الدار على حكمة الأسباب مؤكلة بها ناظرة أتم نظر إليها ، وكان نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكثرة ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام وكثرة تردده إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيوتهن ويعلمهن قد صار عندهن بذلك من الأسباب الظاهرة المألوفة ، وكان هو أعظم أنصار

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ﴿ وجبريل ﴾ لأنه من أعظم الأسباب التي يقيمها الله سبحانه .

(78/772)

ولما كان الحامل على مظاهرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل ما يريده الإيمان فكل ما كان الإنسان فيه أمكن كان له أشد مظاهرة وأعون قال : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ أي الراسخين في رتبة الإيمان والصلاح من الإنس والجن وأبواهما ـ رضى الله عنهما ـ أعظم مراد بهذا ، وقد روي أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لو أمرتني لأضربن عنقها ، والصالح وإن كان لفظه مفرداً فمعناه الجمع المستغرق لأنه للجنس ، ودل على ذلك مع دلالة السياق إضافته للجمع ولعله عبر بالإفراد مع أن هذا المراد للإشارة إلى قلة المتصف بهذا جداً لقلة الراسخين في الإيمان وقلة الراسخين في الصلاح من الراسخين في الإيمان فهو قليل من قليل وقد جوز بعضهم أن يكون جمعاً وأنه حذفت واؤه في الرسم على خلاف القياس وهي محذوفة في الوصل لالتقاء الساكنين ، فظن لذلك مفرداً ودخل في ذلك جبريل عليه السلام أيضاً .

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد أعطى الملائكة من القوى والتصرف في الظواهر .

والبواطن ما يجل عن الوصف ، قال تعظيماً للمقام بعد تعظيمه بما ذكر من رئيس الكروبيين عليهم الصلاة والسلام ﴿ والملائكة ﴾ أي كلهم ومنهم جبريل عليهم الصلاة والسلام فهو مذكور خصوصاً وعموماً ثلاث مرات إظهاراً لشدة محبته وموالاته للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(79/772)

ولما كان المراد التعميم في الزمان والمكان بعد التعميم في الصالحين من الملائكة والإنس والجان ، قال من غير جار معظماً لنصرة الملائكة لما لهم من العظمة في القلوب لما تقرر لمن باشر منهم العذاب تارة بالرجفة وأخرى بالصعقة وتارة بالخسف وأخرى بغير ذلك ، فكيف إذا تصور الآدمي المقيد بالمحسوسات اجتماعهم على ما لهم من الأشكال المهولة ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي تقدم ذكره وهو مظاهرة الله ومن ذكر معه ﴿ ظهير ﴾ أخبر عن الجمع باسم الجنس إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة في المظاهرة ، فخوف بهذا كله لأجل المتاب لطفاً به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإظهاراً لعظمته وفي قصة صاحب ياسين قال ﴿ وما أنزلنا على قومه ﴾ الآية ، تحقيراً لقومه وإهانة لهم ، ويجوز أن

يكون " ظهير " خبر جبريل عليه الصلاة والسلام ، وخبر ما بعده محذوف لدلالته عليه أي كذلك .

(80/772)

ولما حذر بما تقدم ، زاد في التحذير ما يقطع القلوب لأن أشد ما على المرأة أن تطلق ثم إذا طلقت أن تستبدل بها ثم أن يكون البدل خيراً منها فقال مبيناً لأدنى أنواع المظاهرة سائقاً الأمر مساق الرجاء إشارة إلى أنه يكفي العاقل في الخوف تجويز احتمال الضرر فكيف إذا كان الأمر حتماً لأن من المعلوم أن " عسى " من الله على طريق الكبراء لا سيما الملوك في اكتفائهم بالإشارات والرموز فمن هنا كانت واجبة لأنه ملك الملوك وهو ذو الكبرياء في الحقيقة لا غيره ﴿ عسى ربه ﴾ أي المسحن إليه بجميع أنواع الإحسان التي عرفتموها وما لم تعرفوه جدير وحقيق ، ووسط بينها وبين خبرها اهتماماً وتخويفاً قوله : ﴿ إن طلقكن ﴾ أي بنفسه من غير اعتراض عليه جمع أو بعضكن بإيجاد الطلاق لمن لم يطلقها وإدامته من طلقها ﴿ أن يبدّله ﴾ منكن بمجرد طلاقه لكن من غير أن تحوجه إلى التفتيش تبديلاً مبالغاً فيه بما أشارت إليه قراءة نافع وأبي جعفر وأبي عمرو بالتشديد ، فهي أبلغ من قراءة الباقين بالتخفيف الدال على مطلق الإبدال الصالح للمبالغ فيه وغيره ، ومن التشريف

أيضاً إضافة الطلاق إليه والإبدال إلى الله مع التعبير بصفة الإحسان وتخصيص الإضافة ! بضميره .

(81/772)

ولما كان الأوجع لقب الحرة حرة مثلها لا سرية قال : ﴿ أزواجاً ﴾ ولما كان علوها عليها في الرتبة هو النهاية في التأسيف قال : ﴿ خيراً ﴾ ودل على أنها للتفضيل بقوله : ﴿ منكن ﴾ وهذا على سبيل الفرض وعام في الدنيا والآخرة فلا يقتضي وجود من هو خير منهن مطلقاً وإن قيل بوجوده في خديجة ـ رضى الله عنه ـ ا لما جرب من تحاملها على نفسها في حقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلوغها في حبه والأدب معه ظاهراً وباطناً النهاية القصوى ومريم عليها السلام التي أحصنت فرجها حتى كانت من القانتين ، وذلك في الآخرة ، والكلام خارج مخرج الشرط بالطلاق وقد علم سبحانه أنه لا يقع لكنه سبحانه علم أنه لو وقع أبدله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هو بالصفات المذكورة المقتضية للإخلاص في طاعته كما أشار إليه " قانتات " ولا شك أن من لازم طاعته وقيد الاتصال به في الدارين كان خيراً من غيره ، وتعليق تطلق الكل لا يدل على أنه لم يطلق حفصة ـ رضى الله عنه ـ ا فقد روي أنه طلقها ولم يزدها ذلك إلا فضلاً من الله تعالى لأن الله تعالى أمره بأن يراجعها لأنها صوامة

قوامه – والله الموفق .

ولما وعد بما ذكر ، وكان أول منظور إليه الظاهر ، فصل ذلك الوعد وفسر الخيرية بادئاً بقوله : ﴿ مسلمات ﴾ أي ملقيات لجميع قيادهن ظاهراً وباطناً لله ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على وجه الخضوع .

ولما كان المشاهد من الإسلام إنما هو الظاهر قال : ﴿ مؤمنات ﴾ أي راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن .

ولما كان ذلك قد يكون فيه نوع شوب قال : ﴿ قانتات ﴾ أي مخلصات في ذلك لا شائبة في شيء منه فهن في غاية ما يكون من إدامة الطاعة له من الذل والانكسار والمبادرة إلى امتثال أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنشط والمكره .

(82/772)

ولما كان الإنسان مجبولاً على النقصان ، وكان الإخلاص يدل صاحبه على تقصيره فكان ربما فتره ذلك ، قال تسهيلاً لخدمته وتقريباً لدوام طاعته معلماً الأدب لمحتاجه

﴿ تائبات ﴾ أي راجعات من الهفوات أو الزلات سريعاً إن وقع منهن شيء من ذلك .

ولما كان هذا مصححاً للعبادة مسهلاً لدوامها قال : ﴿ عابدات ﴾ أي مديمات للعبادة

بسبب إدامة تجديد التوبة .

ولما كان دوام العبادة مسهلاً للخروج عن الدنيا قال : ﴿ سائحات ﴾ أي متصفات بصفات الملائكة من التخلي عن الدنيا والاستغراق في الآخرة بما أدناه الصيام ماضيات في ذلك غاية المضاء ليتم الانقياد لله ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأن من كان هكذا لم يكن له مراد ، فكان تابعاً لربه في أمره دائماً ويصير لطيف الذات حلو الشمائل ، قال الملوي : والمرأة إذا كانت كثيرة الصيام قليلة الأكل يقل عرقها ويصغر كرشها وتلطف رائحتها وتخف حركتها لما يراد منها – انتهى .

وسوق هذه الأوصاف هذا السياق في عتاب من هو متصف بها معرف أن المراد منها التمام لا سيما وهي لا يوجد وصف منها على سبيل الرسوخ إلا كان مستلزماً لسائرها ، فلذلك لم يحتج في تعدادها إلى العطف بالواو .

والتجريد عنه أقعد في الدلالة على إرادة اجتماعها كلها .

ولما أكمل الصفات الدينية النافعة في أمر العشرة ولم يبق إلا الصفات الكونية وكان التنويع إلى عارفة بالعشرة وباقية على أصل الفطرة ، ألذ وأشهى إلى النفس ، قال مقسماً للنساء المتصفات بالصفات الست عاطفاً ثاني الوصفين بالواو للتضاد ﴿ ثيبات ﴾ قدمهن لأنهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها ﴿ وأبكاراً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 51.47 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾

خطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما والتوبة من التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيذاء ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي عدلت ومالت عن الحق ، وهو حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق العتاب بأدنى تقصير وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير : كان خيراً لكما ، والمراد بالجمع في قوله تعالى : ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ التثنية ، قال الفراء : وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان إثنان في الإنسان كاليدين والرجلين والعينين ، فلما جرى أكثره على ذلك ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الإثنين ، وقد مر هذا ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي وإن تعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه ﴾ أي لم يضره ذلك التظاهر منكما

﴿ ومولاه ﴾ أي وليه وناصره ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ رأس الكروبيين ، قرن ذكره بذكره مفرداً له من الملائكة تعظيماً له وإظهاراً لمكانته (عنده) ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(84/772)

قال ابن عباس : يريد أبا بكر وعمر مواليين النبي صلى الله عليه وسلم على من عاداه ، وناصرين له ، وهو قول المقاتلين ، وقال الضحاك خيار المؤمنين ، وقيل من صلح من المؤمنين ، أي كل من آمن وعمل صالحاً ، وقيل : من برىء منهم من النفاق ، وقيل : الأنبياء كلهم ، وقيل : الخلفاء وقيل : الصحابة ، وصالح ههنا ينوب عن الجمع ، ويجوز أن يراد به الواحد والجمع ، وقوله تعالى : ﴿ والملائكة بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد حضرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ أي فوج مظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعوان له وظهير في معنى الظهراء ، كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] قال الفراء : والملائكة بعد نصرة هؤلاء ظهير ، قال أبو علي : وقد جاء فعيل مفرداً يراد به الكثرة كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : 10 ، 11] ثم خوف نساءه بقوله تعالى : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ قال المفسرون : عسى من الله واجب ، وقرأ أهل الكوفة ﴿ أَن يُبْدِلَهُ ﴾ بالتخفيف ، ثم إنه تعالى كان عالماً أنه لا يطلقهن

لكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدله خيراً منهم تخويفاً لهن ، والأكثر في قوله :

﴿ طَلَّقَكُنَّ ﴾ الإظهار ، وعن أبي عمرو إدغام القاف في الكاف ، لأنهما من حروف الفم ، ثم وصف الأزواج اللاتي كان يبدله فقال : ﴿ مسلمات ﴾ أي خاضعات لله بالطاعة ﴿ مؤمنات ﴾ مصدقات بتوحيد الله تعالى مخلصات ﴿ قانتات ﴾ طائعات ، وقيل : قائمات بالليل للصلاة ، وهذا أشبه لأنه ذكر السائحات بعد هذا والسائحات الصائمات ، فلزم أن يكون قيام الليل مع صيام النهار ، وقرىء (سيحات) ، وهي أبلغ وقيل للصائم : سائح لأن السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد من يطعمه فشبه بالصائم الذي يمسك إلى أن يجيء وقت إفطاره ، وقيل : سائحات مهاجرات ، ثم قال تعالى : ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ لأن أزواج النبي

(85/772)

صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة بعضها من الثيب وبعضها من الأبكار ، فالذكر على حسب ما وقع ، وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ليس على حسب الشهوة والرغبة ، بل على حسب ابتغاء مرضات الله تعالى وفي الآية مباحث :

البحث الأول : قوله ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقرىء ﴿ تَظَاهَرَا ﴾

و ﴿ تتظاهرا ﴾ و ﴿ تَظهرا ﴾ .

البحث الثاني : كيف يكون المبدلات خيراً منهن ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين ؟ نقول : إذا طلقهن الرسول لعصيانهن له ، وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله خيراً منهن .

البحث الثالث : قوله : ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ يوهم التكرار ، والمسلمات والمؤمنات على السواء ؟ نقول : الإسلام هو التصديق باللسان والإيمان هو التصديق بالقلب ، وقد لا يتوافقان فقوله : ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ تحقيق للتصديق بالقلب واللسان .

البحث الرابع : قال تعالى : ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ بواو العطف ، ولم يقل : فيما عداهما بواو العطف ، نقول : قال في "الكشاف" : إنها صفتان متنافيتان ، لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات .

(فلم يكن بد من الواو) .

البحث الخامس : ذكر الثيبات في مقام المدح وهي من جملة ما يقلل رغبة الرجال إليهن .

نقول : يمكن أن يكون البعض من الثيب خيراً بالنسبة إلى البعض من الأبكار عند الرسول لاختصاصهن بالمال والجمال ، أو النسب ، أو المجموع مثلاً ، وإذا كان كذلك فلا يقدح ذكر الثيب في المدح لجواز أن يكون المراد مثل ما ذكرناه من الثيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 40 . 41 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾

روي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أهدى المقوقس مارية القبطية اتخذها سرية ، فلما كان في بعض الأيام وهو يوم حفصة بنت عمر ، وقيل بل كان في يوم عائشة ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت حفصة فوجدها قد مرت إلى زيارة أبيها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جاريته فقال معها ، فجاءت حفصة فوجدتهما فأقامت خارج البيت حتى أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية وذهبت ، فدخلت حفصة غيرى متغيرة اللون فقالت : يا رسول الله أما كان في نسائك أهون عليك مني ؟ أفي بيتي وعلى فراشي ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضياً لها : أيرضيك أن أحرمها قالت : نعم ، فقال : إني قد حرمتها . قال ابن عباس ، وقال مع ذلك والله لا أطؤها أبداً ، ثم قال لها : لا تخبري بهذا أحداً ، فمن قال إن ذلك كان في يوم عائشة ، قال استكتمها خوفاً من غضب عائشة وحسن عشرتها ، ومن قال : كان في يوم حفصة ، قال استكتمتها لنفس الأمر ، ثم إن

حفصة رضي الله عنها قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة ، وأخبرتها لتسرها بالأمر ، ولم ترض إفشاءه إليها حرجاً واستكتمتها ، فأوحى الله بذلك إلى نبيه ، ونزلت الآية .

وروي عن عكرمة أن هذا نزل بسبب شريك التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس ، وروى عبد بن عمير عن عائشة أن هذا التحريم المذكور في الآية ، إنما هو بسبب شراب العسل الذي شربه صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش ، فتمالأت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له : من دنا منها ، أكلتَ مغافير ، والمغافير صمغ العرفط ، وهو حلو ثقيل الريح ، ففعلن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولكني شربت عسلاً " ، فقلن : جرست نحله العرفط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أشربه أبداً " وكان يكره أن توجد منه رائحة ثقيلة ، فدخل بعد ذلك على زينب ، فقالت :

(87/772)

ألا نسقيك من ذلك العسل ؟ قال : " لا حاجة لي به " ، قالت عائشة : تقول سودة حين بلغها امتناعه والله لقد حرمناه . قلت لها : اسكتي .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول إن الآية نزلت بسبب مارية أصح وأوضح ، وعليه

تفقه الناس في الآية ، ومتى حرم رجل مالاً أو جارية دون أن يعتق ويشترط عتقاً أو نحو ذلك ، فليس تحريمه بشيء ، واختلف العلماء إذ حرم زوجته بأن يقول لها : أنت علي حرام ، والحلال علي حرام ، ولا يستثني زوجته ، فقال مالك رحمه الله : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها فهو ما أراد من الواحدة أو الاثنين أو الثلاث ، وقال عبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ولا ينوي في شيء .

وقال أبو المصعب وغيره .

(88/772)

وروى ابن خويز منداد عن مالك : أنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها ، وروي عن عبد العزيز بن الماجشون ، أنه كان يحملها على واحدة رجعية ، وقال غير واحد من أهل العلم : التحريم لا شيء ، وإنما عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم فيه ودله على تحلة اليمين المبينة في المائدة لقوله : " قد حرمتها والله لا أطؤها أبداً " ، وقال مسروق : ما أبالي أحرمتها أو قصعة من ثريد . وكذلك قال الشعبي ليس التحريم بشيء ، قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ [النحل : 116] وقال : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ [المائدة : 87] ، ومحرم زوجته

مسم حراماً ما جعله حلالاً ، ومحرم ما أحل الله له ، وقال أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وابن مسعود وابن عباس وعائشة وابن المسيب وعطاء وطاوس وسليمان بن يسار وابن جبير وقتادة وأبو ثور والأوزاعي والحسن وجماعة : " التحريم " يلزم فيه تكفير يمين بالله ، والتحلة إنما هي من جهة التحريم ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لا أطؤها " ، وقال أبو قلابة : التحريم ظهار ، وقال أبو حنيفة وسفيان والكوفيون : هو ما أراد من الطلاق ، فإن لم يرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء . وقال : هو ما أراد من الطلاق ، فإن لم يرد طلاقاً فهو يمين ، فدعا الله تعالى نبيه باسم النبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خصه بها دون البشر ، وقرره كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أحل الله له ، وقوله : ﴿ تبتغي ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿ تحرم ﴾ ، و" المرضاة " مصدر كالرضى ، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورحمه ، وقوله : ﴿ قد فرض الله ﴾ أي بين وأثبت ، وقال قوم من أهل العلم : هذه إشارة إلى تكفير التحريم ، وقال آخرون : هي إشارة إلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم . والتحلة : مصدر ووزنها تفعلة وأدغم لاجتماع المثلين ، وأحال في هذه الآية على الآية

التي فسر فيها الإطعام في كفارة اليمين بالله والمولى الموالي الناصر العاضد ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ أسر النبي ﴾ الآية معناه اذكر يا محمد ذلك ، على وجه التأنيب والعتب لهن ، وقال الجمهور الحديث هو قوله في أمر مارية ، وقال آخرون : بل هو قوله : " إنما شربت عسلاً " ، وبعض أزواجه هي حفصة ، و ﴿ نبأت ﴾ معناه ، أخبرت ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ طلحة : " أنبأت " وكان إخبارها لعائشة ، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتا فيه ، وقال ميمون بن مهران : الحديث الذي أسر إلى حفصة ، أنه قال لها :

(90/772)

" وأبشري بأن أبا بكر وعمر يملكان أمر أمتي بعدي خلافة " ، وتعدت " نبأ " في هذه الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى مفعول واحد ، لأن ذلك يجوز في أنبأ ونبأ إذا كان دخولها على غير الابتداء والخبر ، فمتى دخلت على الجملة تعدت إلى ثلاثة مفاعيل ، ولا يجوز الاقتصار . وقوله تعالى : ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أي أطلعه ، وقرأ الكسائي وحده وأبو عبد الرحمن وطلحة وأبو عمرو بخلاف والحسن وقتادة : " عرَف " بتخفيف الراء ، وقرأ الباقون وجمهور الناس : " عرّف " بشدها ، والمعنى في اللفظة مع التخفيف جازى بالعتب واللوم ، كما تقول لإنسان يؤذيك : قد عرفت لك هذا ولأعرفن لك هذا بمعنى لأجازينك عليه ،

ونحوه في المعنى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ﴾ [النساء : 63] ، فعلم الله زعيم بمجازاتهم ، وكذلك معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى مع الشد في الراء علم به وأنب عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ أي تكرماً وحياء وحسن عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حينئذ حفصة ، ثم إن الله تعالى أمره بمراجعتها ، وروي أنه عاتبها ولم يطلقها ، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بالخبر ، وأنها أفشته إلى عائشة ، ظنت أن عائشة فضحتها ، فقالت : من أنبأك هذا ؟ على جهة التثبت ، فلما أخبرها أن الله تعالى أخبره ، سكتت وسلمت .

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا

(91/772)

المخاطبة بقوله تعالى : ﴿ إن تتوبا ﴾ هي لحفصة وعائشة ، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : مَن اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال حفصة وعائشة ، وقوله تعالى : ﴿ صغت قلوبكما ﴾ ، معناه مالت أي عن المعدلة والصواب ، والصغا : الميل ، ومنه صياغة الرجل وهم حواشيه الذين يميلون

إليه ، ومنه أصغى إليه بسمعه ، وأصغى الإناء ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود " فقد زاغت قلوبكما " ، والزيغ الميل وعرفه في خلاف الحق ، قال مجاهد : كما نرى صغت شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود : " زاغت " ، وجمع القلوب من حيث الإنسان جمع ومن حيث لا لبس في اللفظ ، وهذا نظير قول الشاعر [حطام المجاشعي] : [الرجز]

(92/772)

ظهراهما مثل ظهور الترسين . . . ومعنى الآية ، إن تبتما فقد كان منكما ما ينبغي أن يتاب منه ، وهذا الجواب الذي للشرط هو متقدم في المعنى ، وإنما ترتب جواباً في اللفظ ، ﴿ وإن تظاهرا ﴾ معناه : تتعاونا ، وقرأ جمهور الناس والسبعة " تظاهرا " وأصله تتظاهرا ، فأدغمت التاء في الظاء بعد البدل ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس : " إن تتظاهرا " بتاءين على الأصل ، وقرأ نافع بخلاف عنه وعاصم وطلحة وأبو رجاء والحسن : " تظهرا " بتخفيف الظاء على حذف التاء الواحدة ، وروي عن ابن عمر أنه قرأ : " تظّهّرا " بشد الظاء والهاء دون ألف ، والمولى : الناصر المعين ، وقوله ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله : ﴿ هو ﴾ ، فيكون ﴿ جبريل وصالح المؤمنين ﴾ في الولاية ، ويحتمل أن يكون ﴿ جبريل ﴾ رفعاً بالابتداء ، وما بعده عطف

عليه ، و﴿ ظهير ﴾ الخبر فيكون حينئذ من الظهراء لا في الولاية ويختص بأنه مولى الله تعالى ، واختلف الناس في ﴿ صالح المؤمنين ﴾ ، فقال الطبري وغيره من العلماء : ذلك على العموم ، ويدخل في ذلك كل صالح ، وقال الضحاك وابن جبير وعكرمة : المراد أبو بكر وعمر . ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مجاهد نحوه ، وقال أيضاً : وعلي ، وروى علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ صالح المؤمنين ﴾ ، علي بن أبي طالب ذكره الثعلبي . وقال قتادة والعلاء بن زياد وغيره : هم الأنبياء ، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم أنهم قدوة وأسوة فهم عون بهذا ، وقوله تعالى : ﴿ وصالح ﴾ يحتمل أن يكون اسم جنس مفرداً ، ويحتمل أن يريد " وصالحو " فحذفت الواو في خط المصحف ، كما حذفوها في قوله : ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق : 18] وغير ذلك . ويروى عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لا تكترث بأمر نسائك والله معك وجبريل معك ولو بكر معك ، وأنا معك .

(93/772)

فنزلت الآية موافقة نحو أمر قول عمر ، قال المهدوي : وهذه الآية نزلت على لسان عمر ، وكذا روي أن عمر بن الخطاب قال لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ عسى ربه إن

طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ . فنزلت الآية على نحو قوله ، وقال عمر رضي الله عنه : قالت لي أم سلمة : يا ابن الخطاب ، أدخلت نفسك في كل شيء حتى دخلت بين رسول الله وبين نسائه ، فأخذتني أخذاً كسرتني به ، وقالت لي زينب بنت جحش : يا عمر ، أما يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، وقرأ الجمهور : " طلقَكن " بفتح القاف وإظاهره ، وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه : " طلقكنّ " بشد الكاف وإدغام القاف فيها ، وقال أبو علي : وإدغام القاف في الكاف حسن ، وقرأ ابن كثير وابن عامر والكوفيون والحسن وأبو رجاء وابن محيصن : " أن يبْدِله " بسكون الباء وتخفيف الدال ، وقرأ نافع والأعرج وأبو جعفر : " أن يبَدّله " بفتح الباء وشد الدال ، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل ، وكرر الله تعالى الصفات مبالغة ، وإن كان بعضها يتضمن بعضاً ، فالإسلام إشارة إلى التصديق ، والعمل والإيمان : تخصيص للإخلاص وتنبيه على شرف موقعه ، ﴿ وقانتات ﴾ معناه : مطيعات ، والسائحات قيل معناه : صائمات ، قاله أبو هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك . وذكر الزجاج أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وقيل معناه هاجرات قاله زيد بن أسلم ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : معناه ذاهبات في طاعة الله ، وشبه الصائم بالسائح من حيث ينهمل السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم ، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش لفقد الطعام ، وقوله تعالى ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ تقسيم لكل واحدة من

الصفات المتقدمة ، وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها : واو الثمانية لأنها هنا ضرورية ، ولو سقطت لاختل هذا المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(94/772)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى الله ﴾

يعني حفصة وعائشة ، حَثَّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي زاغت ومالت عن الحق .

وهو أنهما أَحَبَّتَا ما كَرِه النبيّ صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته واجتناب العسل ، وكان عليه السلام يحبّ العسل والنساء .

قال ابن زيد : مالت قلوبهما بأن سَرّهما أن يحتبس عن أم ولده ، فسرّهما ما كَرِهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : فقد مالت قلوبكما إلى التوبة .

وقال : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ولم يقل : فقد صغى قلباكما ، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشّيئين من اثنين جمعوهما ، لأنه لا يُشْكل .

وقد مضى هذا المعنى في "المائدة" في قوله تعالى : ﴿ فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] .

وقيل : كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به ، لأنه أمكن وأخف .

وليس قوله : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ جزاء للشرط ، لأن هذا الصَّغْو كان سابقاً ، فجواب الشرط محذوف للعلم به .

أي إن تتوبا كان خيراً لكما ، إذ قد صغت قلوبكما .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تتظاهرا وتتعاونا على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مكثتُ سنةً وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجع فكنا ببعض الطريق عَدل إلى الأراك لحاجة له ، فوقفت حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين ، مَن اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة .

قال فقلت له : والله إنْ كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبةً لك .

قال : فلا تفعل ، ما ظننت أن عندي من علم فسَلْني عنه ، فإن كنتُ أعلمه أخبرتك . .

.

وذكر الحديث .

(95/772)

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ ﴾ أي وَلِيّه وناصره ، فلا يضرّه ذلك التظاهر منهما .

﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة وسعيد بن جُبير : أبو بكر وعمر ، لأنهما أبوا عائشة وحفصة ، وقد كانا عوناً له عليهما .

وقيل : صالح المؤمنين عليّ رضي الله عنه .

وقيل : خيار المؤمنين .

وصالح : اسم جنس كقوله تعالى : ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ ، قاله الطَّبَرِي .

وقيل : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هم الأنبياء ، قاله العَلاَء بن زيادة وقتادة وسفيان .

وقال ابن زيد : هم الملائكة .

السدّي : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليس لفظ الواحد وإنما هو صالحو المؤمنين : فأضاف

الصالحين إلى المؤمنين ، وكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه .

كما جاءت أشياء في المصحف متنوّع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط .

وفي صحيح مسلم " عن ابن عباس قال : حدّثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما اعتزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم نساءه قال دخلت المسجد فإذا الناس ينْكُتُونُ بالحصى ويقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وذلك قبل أن يُؤْمَرْنَ بالحجاب .

فقال عمر : فقلت لأعْلمنّ ذلك اليوم ، قال فدخلتُ على عائشة فقلت : يا بنة أبي بكر ، أَقَد بَلَغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : مالي ومالك يا بن الخطاب ! عليك بِعيْبَتِك قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها : يا حفصة ، أَقَد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! والله لقد علمتِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُحبّكِ ، ولولا أنا لطلّقَكِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبكت أشدّ البكاء ، فقلت لها : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هو في خِزانته في الْمَشْرُبَة .

(96/772)

فدخلت فإذا أنا بِرَبَاحٍ غلامِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً على أُسْكُفَّةِ المَشْرُبَة مُدَلٍّ رجليه على نَقِيرٍ من خشب ، وهو جِذعٌ يَرْقَى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر .

فناديت : يا رباح ، استأذِن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر رَباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً .

ثم قلت : يا رَبَاح ، استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر رَبَاح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً .

ثم رفعت صوتي فقلت : يا رَبَاح ، استأذِن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنّ أني جئتُ من أجل حفصة ، والله لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنُقها لأضربنّ عنقها ، ورفعت صوتي فأَوْمَأَ إليّ أن ارْقَهْ ؛ فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير ، فجلست فَأَدْنَى عليه إزاره وليس عليه غيرُه ؛ وإذا الحصير قد أثّر في جنبه ، فنظرت ببصري في خِزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بِقَبْضَةٍ من شعيرٍ نحوِ الصاع ، ومِثلِها قرَظاً في ناحية الغُرفْة ؛ وإذا أَفِيقٌ معلَّق قال فابتدرتْ عيناي .

قال : "ما يُبْكيك يا بن الخطاب" ؟ قلت : يا نبيّ الله ، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك ، وهذه خِزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ! وذاك قَيْصَرُ وكِسْرى في الثمار والأنهار

وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصَفْوَتُه ، وهذه خِزانتك ! فقال : "يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا" قلت : بلى .

قال : ودخلتُ عليه حين دخلتُ وأنا أرى في وجهه الغضب ، فقلت : يا رسول الله ، ما يشقّ عليك من شأن النساء ؛ فإن كنتَ طلّقتهن فإن الله معك وملائكتَه وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

(97/772)

وقلّما تكلّمتُ وأحْمَدُ الله بكلامٍ إلا رَجَوتُ أن يكون الله عز وجل يُصدّق قولي الذي أقول ونزلت هذه الآية ، آية التَّخيير : ﴿ عسى ربُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ .

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفْصَةُ تَظاهران على سائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت : يا رسول الله ، أطلّقتهنّ ؟ قال : "لا" .

قلت : يا رسول الله ، إني دخلت المسجد والمسلمون يَنْكُتُون بالحصى يقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرَهم أنك لم تطلّقهن ؟ قال : "نعم إن شئت" .

فلم أزل أحدّثه حتى تَحَسَّرَ الغضبُ عن وجهه ، وحتى كَشَرَ فضحك ، وكان من أحسن الناس ثَغْراً .

ثم نزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ونزلتُ ؛ فنزلت أتشبَّث بالجذْع ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسّه بيده .

فقلت : يا رسول الله ، إنما كنتَ في الغرفة تسعاً وعشرين .

قال : "إن الشهر يكون تسعاً وعشرين" فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه "

ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمن أَوِ الخوف أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : 83] .

فكنت أنا استنبطتُ ذلك الأمرَ ؛ وأنزل الله آية التخيير .

قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ فيه لغات تقدّمت في سورة "البقرة" .

ويجوز أن يكون معطوفاً على "مَوْلاَهُ" والمعنى : الله وَلِيُّهُ وجبريل وَلِيّهُ ؛ فلا يوقف على

"مَوْلاَهُ" ويوقف على "جِبْرِيلُ" ويكون ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ ﴾ معطوفا عليه.

(98/772)

و ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ خبراً؛ وهو بمعنى الجمع.

وصالح المؤمنين أبو بكر؛ قاله المسيّب بن شريك.

وقال سعيد بن جُبير: عمر.

وقال عكرمة: أبو بكر وعمر.

وروى شقيق عن عبد الله: عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: إن صالح المؤمنين أبو بكر وعمر.

وقيل: هو عليّ.

"عن أسماء بنت عُمَيْس قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عليّ بن أبي طالب" " وقيل غير هذا مما تقدم القول فيه.

ويجوز أن يكون "وجِبْرِيلُ" مبتدأ وما بعده معطوفاً عليه.

والخبر "ظَهِيرٌ" وهو بمعنى الجمع أيضاً.

فيوقف على هذا على "مَوْلاَهُ" .

ويجوز أن يكون ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ معطوفاً على "مَوْلاَهُ" فيوقف على "المؤمنينَ" ويكون ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ابتداء وخبراً .

ومعنى "ظَهِيرٌ" أعوان .

وهو بمعنى ظهراء ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

وقال أبو عليّ : قد جاء فعيل للكثرة كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾

[المعارج : 10-11] .

وقيل : كان التظاهر منهما في التحكّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في النفقة ، ولهذا آلى منهن شهراً واعتزلهنّ .

(99/772)

وفي صحيح مسلم " عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأُذن لأبي بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له ، فوجد النبيّ صلى الله عليه وسلم جالساً حوله

نساؤه واجماً ساكتاً قال فقال لأقولن شيئاً أُضحك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنتَ خارِجة سألتني النفقة فقمتُ إليها فوَجَأْتُ عُنُقها ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "هُنّ حَوْلي كما ترى يسألْنَني النفقة" .

فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ؛ وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها ؛ كلاهما يقول : تَسْأَلْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً أبداً ليس عنده .

ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين .

" ثم نزلت عليه هذه الآية : ﴿ يا أيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ حتى بلغ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 28-29] الحديث .

وقد ذكره في سورة "الأحزاب" .

قوله تعالى : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾

قد تقدم في الصحيح أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه .

ثم قيل : كل "عَسَى" في القرآن واجبٌ ؛ إلا هذا .

وقيل : هو واجب ولكن الله عز وجل علّقه بشرط وهو التطليق ولم يطلّقهن .

﴿ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ لأنكن لو كنتن خيراً منهن ما طلّقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال معناه السُّدّي .

وقيل : هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، لو طلّقهن في الدنيا أن يزوّجه في الدنيا نساء خيراً منهن .

وقرىء "أن يبدله" بالتشديد والتخفيف .

والتبديل والإبدال بمعنىً ، كالتنزيل والإنزال .

والله كان عالماً بأنه كان لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ، على أنه إن طلّقهن أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن .

(100/772)

وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38] .

وهو إخبار عن القدرة وتخويفٌ لهم ، لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ يعني مُخلصات ، قاله سعيد بن جُبير .

وقيل : معناه مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله .

﴿ مُّؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدّقات بما أُمِرن به ونُهين عنه .

﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ مطيعات .

والقنوت : الطاعة .

وقد تقدّم .

﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ أي من ذنوبهن ؛ قاله السُّدّيّ .

وقيل : راجعات إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحاب أنفسهن .

﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ أي كثيرات العبادة لله تعالى .

وقال ابن عباس : كلّ عبادة في القرآن فهو التوحيد .

﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات ؛ قاله ابن عباس والحسن وابن جُبير .

وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن ويَمَان : مهاجرات .

قال زيد : وليس في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة .

والسِّيَاحَة الجَولاَن في الأرض .

وقال الفرّاء والقُتَبِيّ وغيرهما : سُمّي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام .

وقيل : ذاهبات في طاعة الله عز وجل ؛ من ساح الماء إذا ذهب .

وقد مضى في سورة "براءة" والحمد لله .

﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ أي منهن ثَيِّبٌ ومنهن بِكْرٌ .

وقيل : إنما سُمِّيَت الثَّيِّب ثيباً لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها ، أو إلى غيره إن فارقها .

وقيل : لأنها ثابت إلى بيت أبويها .

وهذا أصح ؛ لأنه ليس كل ثَيّب تعود إلى زوج .

وأما البِكْرُ فهي العذراء ؛ سُمّيَت بِكْراً لأنها على أوّل حالتها التي خُلقت بها .

وقال الكلبي : أراد بالثَّيب مثل آسية امرأة فرعون ، وبالبكر مثل مريم ابنة عمران .

قلت : وهذا إنما يمشي على قول من قال : إن التبديل وعدٌ من الله لنبيّه لو طلّقهنّ في الدنيا زوّجه في الآخرة خيراً منهن .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(101/772)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾

رُوِيَ أن النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ خَلا بمارية في يومَ عائشةَ وعلمتْ بذلكَ حفصةُ فقالَ لها اكتُمِي عليَّ فقدْ حرمتُ ماريةَ على نفسِي وأُبشركِ أن أبا بكرٍ وعمرَ يملكانِ بعدِي أمرَ أُمتي فأخبرتْ بِهِ عائشةَ وكانَتا متصادقتين ، وقيلَ خَلا بها في يومِ حفصةَ فأرضاهَا بذلكَ واستكتَمَها فلم تكتُمْ فطلَّقَها واعتزلَ نساءَهُ فنزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ راجعْها فإنَّها

صوّامةٌ قوامةٌ وإنها لمنْ نسائِكَ في الجَنّةِ ورُوِيَ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ شربَ عسلاً في بيتِ زينبَ بنت جحشٍ فتواطأتْ عائشةُ وحفصةُ فقالتَا نشمُّ منكَ ريحَ المغافيرِ وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يكرهُ التفلَ فحرّمَ العسلَ فنزلتْ فمعناهُ لمَ تحرمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ منْ ملكِ اليمينِ أو منَ العسلِ ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أزواجك ﴾ إما تفسيرٌ لتحرِّمُ أو حالٌ من فاعِله أو استئنافٌ ببيانِ ما دعاهُ إليهِ مُؤْذِنٌ بعدمِ صلاحيتِهِ لذلكَ ﴿ واللهُ غَفُورٌ ﴾ مبالغٌ في الغفرانِ قد غفرَ لكَ هذهِ الزلةَ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ قد رحمَكَ ولم يؤاخِذْكَ بِهِ وإنما عاتبكَ محاماةً على عصمتِك ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾ أي شرعَ لكُم تحليلَهَا وهو حَلُّ ما عقدَهُ بالكفارةِ أو بالاستثناءِ متصلاً حتَّى لا يحنثَ والأولُ هو المرادُ منها ﴿ واللهُ مولاكم ﴾ سيدكُم ومتولّي أُمورِكُم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بما يُصلحكُم فيشرعُه لكُم ﴿ الحكيم ﴾ المتقنُ في أفعالِهِ وأحكامِهِ فلا يأمركُم ولا ينهاكُمْ إلا حسبما تقتضيهِ الحكمةُ ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه ﴾ وهي حفصةُ ﴿ حَدِيثاً ﴾ أي حديثَ تحريمِ ماريةَ أو العسلِ أو أمرِ الخلافةِ ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي أخبرتْ حفصةُ عائشةَ بالحديثِ وأفشته إليهَا وقُرِىءَ أنبأتْ بِهِ ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ أي أطلعَ اللهُ تعالَى النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ على إفشاءِ

حفصةَ ﴿ عَرَّفَ ﴾ أي النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حفصةَ ﴿ بَعْضَهُ ﴾ بعضَ الحديثِ الذي أفشَتْهُ . قيلَ هو حديثُ الإمامةِ رُوِيَ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ لها ألم أقل لكِ اكتَمِي عليَّ قالت : والذي بعثكَ بالحقِّ ما ملكتُ نفسي فرحاً بالكرامةِ التي خصَّ اللهُ تعالَى بهَا أباهَا ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ أي عن تعريفِ بعضٍ تكرماً ، قيلَ هو حديثُ ماريةَ ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أي أخبرَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حفصةَ بما عرفَهُ من الحديثِ ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ أي إفشاءَهَا للحديثِ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ الذي لا تَخْفَى عليهِ خافيةٌ .

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ ﴾

(103/772)

خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ على الالتفاتِ للمبالغةِ في العتابِ ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الفاءُ للتعليلِ كما في قولِكَ اعبُدْ ربَّكَ فالعبادةُ حقٌّ أي فقدْ وُجدَ منكُما ما يوجبُ التوبةَ من ميلِ قلوبِكما عمَّا يجبُ عليكُما من مُخالصةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وحبِّ ما يحبُه وكراهةِ ما يكرهُهُ وقُرِئَ فقدْ زاغَت ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ بإسقاطِ إحْدَى

التاءينِ . وقُرِىءَ عَلى الأصلِ ، وبتشديدِ الظَّاءِ ، وتَظهرا أي تتعاونَا عليهِ بما يسوؤه من الإفراطِ في الغيرةِ وإفشاءِ سرِّه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فلَنْ يَعدمَ مَن يظاهرُهُ فإنَّ الله هُوَ ناصرُهُ وجيريلُ رئيسُ الكُروبيينَ قرينُه ومَن صلحَ منَ المؤمنينَ أتباعُه وأعوانُه قال ابنُ عباسٍ رضيَ الله تعالى عنهُما : أرادَ بصالحِ المؤمنينَ أبا بكرٍ وعمرَ رضيَ الله عنهُما وقد رُويَ ذلكَ مرفوعاً إلى النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وبهِ قالَ عكرمةُ ومقاتلٌ وهو اللائقُ بتوسيطِه بين جبريلَ والملائكةِ عليهم السلامُ فإنَّه جمعٌ بينَ الظهيرِ المعنويِّ والظهيرِ الصُّوريِّ ، كيفَ لاَ وإنَّ جبريلَ ظهيرٌ لهُ عليهما السلامُ يؤيدهُ بالتأييداتِ الإلهيةِ وهما وزيراهُ وظهيراهُ في تدبيرِ أمورِ الرسالةِ وتمشيةِ أحكامِهَا الظاهرةِ ولأنَّ بيانَ مظاهرتِهما لهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أشدُّ تأثيراً في قلوبِ بنتيهمَا وتوهيناً لأمرِهما فكانَ حقيقاً بالتقديمِ بخلافِ ما إذا أُريدَ بهِ جنسُ الصالحينَ كما هوَ المشهورُ ﴿ والملائكة ﴾ مع تكاثرِ عددِهِم وامتلاءِ السمواتِ من جموعِهم ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قيلَ أي بعدَ نُصرةِ الله عزَّ وجلَّ وناموسِهِ الأعظمِ وصالحِ المؤمنينَ ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ أي فوجٌ مظاهرٌ لهُ كأنَّهم يدٌ واحدةٌ على منْ يُعاديهِ فماذَا يفيدُ تظاهرُ امرأتينِ على مَن هؤلاءِ ظُهراؤُه وما ينبىءُ عنه قولُه

تعالَى بعدَ ذلكَ من فضلِ نُصرتِهم على نُصرةِ غيرِهِم مِنْ حيثُ إنَّ نصرةَ الكلِّ نصرةِ الله تعالَى ، وإنَّ نصرتَهُ تعالى بهم وبمظاهرتِهم أفضلُ من سائرِ وجوهِ نُصرتِهِ . هذا ما قالُوه ولعلَّ الأنسبَ أنْ يجعلَ ذلكَ إشارةً إلى مظاهرةِ صالحِ المؤمنينَ خاصَّة ، ويكونَ بيانُ بعديةِ مظاهرةِ الملائكةِ تداركاً لما يُوهمه الترتيبُ الذكريُّ من أفضليةِ المقدمِ فكأنه قيلَ بعد ذكرِ مظاهرةِ صالحِ المؤمنينَ : وسائرُ الملائكةِ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ له عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيذاناً بعلوِّ رتبةِ مظاهرتِهم وبُعدِ منزلتِهَا وخبراً لفصلِها عن مظاهرةِ جبريلَ عليهِ السلامُ .

﴿ عسى ربُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ ﴾ أي يعطيَهُ عليهِ السلامُ بدلكُنَّ ﴿ أزواجا خَيْراً مّنكُنَّ ﴾ على التغليبِ ، أو تعميمِ الخطابِ ، وليسَ فيهِ ما يدلُّ على أنه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لم يُطلقْ حفصةَ وإنَّ في النساءُ خيراً منهنَّ فإنَّ تعليقَ طلاقِ الكلِّ لا يُنافي تطليقَ واحدةٍ وما عُلِّقَ لما لم يقعْ لا يجبُ وقوعُه وقُرِىءَ أنْ يبدّله بالتشديد ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ مُقِراتٍ مخلصاتٍ أو منقاداتٍ مصدقاتٍ ﴿ قانتات ﴾ مصلياتٍ أو مواظباتٍ على الطاعةِ ﴿ تائبات ﴾ من الذنوبِ ﴿ عابدات ﴾ متعبداتٍ أو متذللاتٍ لأمرِ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ﴿ سائحات ﴾ صائماتٍ سمي الصائمُ سائحاً لأنه يسيحُ في النهارِ بلا زادٍ أو مهاجراتٍ وقُرِىءَ سيحاتٍ ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ وُسّطَ بينَهُما العاطفَ لتنافيهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله ﴾

خطاب لحفصة .

وعائشة رضي الله تعالى عنهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المعاتبة فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب أولاً بعيداً عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد ، وكون الخطاب لهما لما أخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وابن حبان .

وغيره عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر رضي الله تعالى عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا ﴾ الخ حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداوة فنزل ثم أتي صببت على يديه فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا ﴾ الخ ؟ فقال : واعجباً لك يا ابن عباس هما

عائشة .

وحفصة ثم أنشأ يحدثني الحديث الحديث بطوله ؛ ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ مالت عن الواجب من مخالفته صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته ، والجملة قائمة مقام جواب الشرط بعد حذفه ، والتقدير إن تتوبا فلتوبتكما موجب وسبب ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أو فحق لكما ذلك فقد صدر ما يقتضيها وهو على معنى فقد ظهر أن ذلك حق كما قيل في قوله

: إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

من أنه بتأويل تبين أني لم تلدني لئيمة ، وجعلها ابن الحاجب جواباً من حيث الإعلام كما قيل في : إن تكرمني اليوم فقد أكرمتك أمس ، وقيل : الجواب محذوف تقديره يمح إثمكما ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ ﴾ الخ بيان لسبب التوبة ، وقيل : التقدير فقد أديتما ما يجب عليكما أو أتيتما بما يحق لكما ، وما ذكر دليل على ذلك قيل : وإنما لم يفسروا ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ بمالت إلى الواجب .

أو الحق .

(106/772)

أو الخير حتى يصح جعله جواباً من غير احتياج إلى نحو ما تقدم لأن صيغة الماضي وقد وقراءة ابن مسعود فقد زاغت قلوبكما وتكثير المعنى مع تقليل اللفظ تقتضي ما سلف ، وتعقب بأنه إنما يتمشى على ما ذهب إليه ابن مالك من أن الجواب يكون ماضياً وإن لم يكن لفظ كان ، وفيه نظر ، والجمع في ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد ، وهو في مثل ذلك أكثر استعمالاً من التثنية والإفراد ، قال أبو حيان : لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر كقوله

: حمامة بطن الواديين ترنمي . . .

وغلط رحمه الله تعالى ابن مالك في قوله في "التسهيل" : ويختار لفظ الأفراد على لفظ التثنية

﴿ وَأَنْ تظاهرا عَلَيْهِ ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيف الظاء ، وهي قراءة عاصم .

ونافع في رواية ، وطلحة .

والحسن .

وأبو رجاء ، وقرأ الجمهور تظاهراً بتشديد الظاء ، وأصله تتظاهرا فأدغمت التاء في الظاء ، وبالأصل قرأ عكرمة ، وقرأ أبو عمرو في رواية أخرى تظهرا بتشديد الظاء والهاء دون ألف ، والمعنى فإن تتعاونا عليه صلى الله عليه وسلم بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه ﴾ أي ناصره ؛ والوقف على ما في "البحر" .

وغيره هنا أحسن ، وجعلوا قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ مبتدأ ، وقوله سبحانه : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَئِكَةُ ﴾ معطوفاً عليه ، وقوله عز وجل : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد نصرة الله تعالى متعلقاً بقوله جل شأنه : ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ وجعلوه الخبر عن الجميع ، وهو بمعنى الجمع أي مظاهرون ، واختير الافراد لجعلهم كشيء واحد ، وجوز أن يكون خبراً عن ﴿ جبريل ﴾ وخبر ما بعده مقدر نظير ما قالوا في قوله

: ومن يك أمسي بالمدينة رحله . . .

فإني وقيار بها لغريب

(107/772)

وجوز أن يكون الوقف على ﴿ جبريل ﴾ أي ﴿ مولاه وَجِبْرِيلُ ﴾ مولاه ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مبتدأ ، وما بعده معطوف عليه ، والخبر ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ ، وظاهر كلام الكشاف اختيار الوقف على ﴿ المؤمنين ﴾ فظهير خبر الملائك ، وعليه غالب مختصريه ، وظاهر كلامهم التقدير لكل من جبريل وصالح المؤمنين خبراً وهو إما لفظ مولى مراداً به مع كل معنى من معانيه المناسبة أي ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ مواه أي قرينه ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مولاه أي تابعه ، أو لفظ آخر بذلك المعنى المناسب وهو قرينه في الأول وتابعه في تابعه ، ولا

مانع من أن يكون المولى في الجميع بمعنى الناصر كما لا يخفى ، وزيادة ﴿ هُوَ ﴾ على ما في الكشاف للإيذان بأن نصرته تعالى عزيمة من عزائمه وأنه عز وجل متولى ذلك بذاته تعالى ، وهو تصريح بأن الضمير ليس من الفصل في شيء ، وأنه للتقوى لا للحصر ، والحصر أكثري في المعرفتين على ما نقله في الإيضاح ، وإن كان كلام السكاكي موهماً الوجوب ؛ هذا والمبالغة محققة على ما نص عليه سيبويه وحقق في الأصول ، وأما الحصر فليس من مقتضى اللفظ فلا يرد أن الأولى أن يكون ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ وما بعده مخبراً عنه بظهير وإن سلم فلا ينافيه لأن نصرتهم نصرته تعالى فليس من الممتنع على نحو زيد المنطلق .

وعمرو ، كذا في "الكشف" ، ووجه تخصيص جبريل عليه السلام بالذكر مزيد فضله بل هو رأس الكروبيين ، والمراد بالصالح عند كثير الجنس الشامل للقليل والكثير ، وأريد به الجمع هنا ، ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر ، ولذا عم بالإضافة ، وجوز أن يكون اللفظ جمعاً ، وكان القياس أن يكتب وصالحوا بالواو إلا أنها حذفت خطاً تبعاً لحذفها لفظاً ، وقد جاءت أشياء في المصحف تبع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط نحو

﴿ ويدع الإنسان ﴾ [الاسراء : 11] .

﴿ ويدع الداع ﴾ [القمر : 6] .

و﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ [ص : 21] إلى غير ذلك ، وذهب غير واحد إلى أن الإضافة للعهد فقيل : المراد به الأنبياء عليهم السلام .

وروى عن ابن زيد .

وقتادة .

والعلا بن زياد ، ومظاهرتهم له قيل : تضمن كلامهم ذم المتظاهرين على نبي من الأنبياء عليهم السلام وفيه من الخفاء ما فيه ؛ وقيل : علي كرم الله تعالى وجهه ، وأخرجه ابن مردويه .

وابن عساكر عن ابن عباس ، وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ؛ ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ علي بن أبي طالب ؛ وروى الإمامية عن أبي جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت أخذ بيد علي كرم الله تعالى وجهه فقال : يا أيها الناس هذا صالح المؤمنين .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن البصري أنه قال : هو عمر بن الخطاب ، وأخرج هو .

وجماعة عن سعيد بن جبير قال : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نزل في عمر بن الخطاب خاصة ، وأخرج ابن عساكر عن مقاتل بن سليمان أنه قال : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر .

وعمر .

وعلي رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : الخلفاء الأربعة .

وأخرج الطبراني في "الأوسط" .

وابن مردويه عن ابن عمر .

وابن عباس قالا : نزلت ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في أبي بكر .

وعمر ، وذهب إلى تفسيره بهما عكرمة .

وميمون بن مهران .

وغيرهما ، وأخرج الحاكم عن أبي أمامة .

والطبراني .

وابن مردويه .

وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر .

وعمر ، وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أبي يقرؤها ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أبو بكر .

وعمر ، ورجح إرادة ذلك بأنه اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فإنه جمع بين الظهير المعنوي والظهير الصوري كيف لا وأن جبريل عليه السلام ظهير له صلى الله عليه وسلم يؤيده بالتأييدات الإلهاية وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة مع أن بيان مظاهرتهما له عليه السلام أشد تأثيراً في قلوب بنيتهما وتوهيناً لأمرهما .

وأنا أقول العموم أولى ، وهما وكذا علي كرم الله تعالى وجهه يدخلان دخولاً أولياً ، والتنصيص على بعض في الأخبار المرفوعة إذا صحت لنكتة اقتضت ذلك لا لإرادة الحصر ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك : من صالح المؤمنين أبو بكر .

وعمر ، وفائدة ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ التنبيه على أن نصرة الملائكة عليهم السلام أقوى وجوه نصرته عز وجل وإن تنوعت ، ثم لا خفاء في أن نصرة جميع الملائكة وفيهم جبريل أقوى من نصرة جبريل عليه السلام وحده .

(110/772)

وقيل : الإشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة فالتعظيم بالنسبة إليها ، وفي التنبيه على هذا دفع توهم ما يوهمه الترتيب الذكري من أعظمية مظاهرة المتقدم ، وبالجملة فائدة ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ نحو فائدة ثم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] وهو التفاوت الرتبي أي أعظمية رتبة ما بعدها بالنسبة إلى ما قبلها وهذا لا يتسنى على ما نقل عن "البحر" بل ذلك للاشارة إلى تبعية المذكورين في النصرة والإعانة عز وجل ، وأياً ما كان فإن شرطية وتظاهرا فعل الشرط ، والجملة المقرونة بالفاء دليل الجواب ، وسبب أقيم مقامه ، والأصل فإن تظاهرا عليه فلن يعدم من يظاهره فإن الله مولاه ، وجوز أن تكون هي بنفسه الجواب على أنها مجاز أو كناية عن ذلك ، وأعظم جل جلاله شأن النصرة لنبيه صلى الله عليه وسلم على هاتين الضعيفتين إما للإشارة إلى عظم مكر النساء أو للمبالغة في قطع حبال طعمهما لعظم مكانتهما عند رسول الله عليه الصلاة والسلام وعند المؤمنين لأمومتهما لهم وكرامة له صلى الله عليه وسلم ورعاية لأبويهما في أن تظاهرهما يجديهما نفعاً .

(111/772)

وقيل : المراد المبالغة في توهين أمر تظاهرهما ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة والتبليغ وقهر أعداء الدين لما أن العادة قاضية باشتغال بال الرجل بسبب تظاهر أزواجه عليه ، وفيه أيضاً مزيد إغاظة للمنافقين وحسم لأطماعهم الفارغة فكأنه قيل : فإن تظاهرا عليه لا يضر ذلك في أمره فإن الله تعالى هو مولاه وناصره في أمر دينه وسائر شؤونه على كل من يتصدى لما يكرهه ﴿ وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ﴾ مظاهرون له ومعينون إياه كذلك ، ويلائم هذا ترك ذكر المعان عليه حيث لم يقل ظهير له عليكما مثلاً ، وكذا ترك ذكر المعان فيه وتخصيص صالح المؤمنين بالذكر ، وتقوى هذه الملاءمة على ما روى عن ابن جبير من تفسير صالح المؤمنين بمن برىء من النفاق فتأمل .

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ ﴾

(112/772)

أي أن يعطيه عليه الصلاة والسلام بدلكن ﴿ أزواجا خَيْراً مّنكُنَّ ﴾ والخطاب لجميع زوجاته صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين على سبيل الالتفات ، وخوطبن لأنهن في مهبط الوحي وساحة العز والحضور ، ويرشد إلى هذا ما أخرج البخاري عن أنس قال :

قال عمر : اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه فقلت : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ فنزلت هذه الآية ، وليس فيها أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً منهن مع أن المذهب على ما قيل ؛ إنه ليس على وجه الأرض خير منهن لأن تعلق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه ، وجوز أن يكون الخطاب للجميع على التغليب ، وأصل الخطاب لاثنتين منهن وهما المخاطبتان أولاً بقوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] الخ فكأنه قيل : عسى ربه إن طلقكما وغيركما أن يبدله خيراً منكما ومن غيركما من الأزواج ، والظاهر أن عدم دلالة الآية على أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً من أزواجه صلى الله عليه وسلم على حاله لأن التعليق على طلاق الاثنتين ولم يقع فلا يجب وقوع المعلق ولا ينافي تطليق واحدة ، وقال الخفاجي .

التغليب في خطاب الكل مع أن المخاطب أولاً اثنتان ، وفي لفظة ﴿ إن ﴾ الشرطية أيضاً الدالة على عدم وقوع الطلاق .

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم طلق حفصة فغلب ما لم يقع من الطلاق على الواقع وعلى التعميم لا تغليب في الخطاب ولا في ﴿ إن ﴾ انتهى ، وفيه بحث ، ثم إن المشهور إن ﴿ عَسَى ﴾ في كلامه تعالى للوجب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط ، وقيل : هي كذلك إلا هنا ، والشرط معترض بين اسم ﴿ عَسَى ﴾ وخبرها .

والجواب محذوف أي إن طلقكن فعسى الخ ، و﴿ أزواجا ﴾ مفعول ثان ليبدل و﴿ خَيْرًا ﴾ صفته وكذا ما بعد ، وقرأ أبو عمرو في رواية عياش ﴿ طَلَّقَكُنَّ ﴾ بإدغام القاف في الكاف .

وقرأ نافع .

وأبو عمرو .

وابن كثير ﴿ يُبْدِلَهُ ﴾ بالتشديد للتكثير ﴿ مسلمات ﴾ مقران ﴿ مؤمنات ﴾ مخلصات لأنه يعتبر في الإيمان تصديق القلب ، وهو لا يكون إلا مخلصاً ، أو منقادات على أن الإسلام بمعناه اللغوي مصدقات ﴿ قانتات ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعة مطلقا ﴿ تائبات ﴾ مقلعات عن الذنب ﴿ عابدات ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ عابدات سائحات ﴾ صائمات كما قال ابن عباس .

وأبو هريرة .

وقتادة .

والضحاك .

والحسن .

وابن جبير .

وزيد بن أسلم .

وابنه عبد الرحمن ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الفراء : وسمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه .

وإنما يأكل من حيث يجد الطعام ، وعن زيد بن أسلم .

ويمان مهاجرات ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذاهبات في طاعة الله تعالى أي مذهب .

(114/772)

وقرأ عمرو بن قائد سيحات ﴿ ثيبات ﴾ جمع ثيب من ثاب يثوب ثوباً ، وزنه فيعل كسيد وهي التي تثوب أي ترجع عن الزوج أي بعد زوال عذرتها ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ جمع بكر من بكر إذا خرج بكرة وهي أول النهار ، وفيها معنى التقدم سميت بها التي لم تفتض اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء ، وترك العطف في الصفات السابقة لأنها صفات تجتمع في شيء واحد وبينها شدة اتصال يقتضي ترك العطف ووسط العاطف هنا للدلالة على

تغاير الصفتين وعدم اجتماعهما في ذات واحدة ، ولم يؤت بأو قيل : ليكون المعنى أزواجاً بعضهن ثيبات وبعضهن أبكار ، وقريب منه ما قيل : وسط العاطف بين الصفتين لأنهما في حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملات على الثيبات والأبكار فتدبر ، وفي الانتصاف لابن المنير ذكر لي الشيخ ابن الحاج أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب كان يعتقد أن الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة ، وكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة قبله : أحدها في التوبة ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] والثاني في قوله تعالى : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] ، والثالث في قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] إلى أن ذكر ذلك يوماً بحضرة أبي الجود النحوي المقري فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل ، وأحال على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها ههنا لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا الاشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة فأنصفه الفاضل واستحسن ذلك منه ، وقال : أرشدتنا يا أبا الجود انتهى .

وذكر الجنسان لأن في أزواجه صلى الله عليه وسلم من تزوجها ثيباً وفيهن من تزوجها بكراً ، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج بكراً إلا عائشة رضي الله تعالى عنها وكانت تفتخر بذلك على صواحباتها ، وردت عليها الزهراء على أبيها وعليها الصلاة والسلام بتعليم النبي صلى الله عليه وسلم إياها حين افتخرت على أمها خديجة رضي الله تعالى عنه بقولها : إن أمي تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بكر لم يره أحد من النساء غيرها ولا كذلك أنتن فسكتت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(116/772)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال : الأوّل قول أكثر المفسرين .

قال الواحدي : قال المفسرون : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة ، فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم في وجه حفصة الغيرة

والكآبة قال لها : لا تخبري عائشة ، ولك عليّ أن لا أقربها أبداً ، فأخبرت حفصة عائشة ، وكانتا متصافيتين ، فغضبت عائشة ، ولم تزل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقرب مارية .

فأنزل الله هذه السورة .

قال القرطبي : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة ، وذكر القصة .

وقيل : السبب أنه كان صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما إنا نجد منك ريح مغافير .

وقيل : السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله ، وستعرف كيفية الجمع بينهما ، وجملة ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أزواجك ﴾ مستأنفة ، أو مفسرة لقوله : ﴿ تُحَرِّمُ ﴾ ، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ تحرّم ﴾ أي : مبتغياً به مرضاة أزواجك ، و ﴿ مرضاة ﴾ اسم مصدر ، وهو الرضى ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف إلى المفعول ، أي : أن ترضي أزواجك ، أو إلى الفاعل ، أي : أن يرضين هنّ ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : بليغ المغفرة والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحلّ الله لك ، قيل : وكان لك ذنباً من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ أي : شرع لكم تحليل أيمانكم ، وبيّن لكم ذلك ، وتحلة أصلها : تحللة ، فأدغمت .

(117/772)

وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد ، والكفارة حلّ ؛ لأنها تحلّ للحالف ما حرّمه على نفسه .

قال مقاتل : المعنى قد بيّن الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة .

أمر الله نبيه أن يُكَفر يمينه ، ويراجع وليدته ، فأعتق رقبة .

قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله .

قلت : وهذا هو الحقّ أن تحريم ما أحلّ الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه .

فالتحليل والتحريم هو إلى الله سبحانه لا إلى غيره ، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل ، والمذاهب فيه كثيرة ، والمقالات فيه طويلة ، وقد حققناه في مؤلفاتنا بما يشفي .

واختلف العلماء هل مجرّد التحريم يمين يوجب الكفارة أم لا ؟ وفي ذلك خلاف ، وليس في الآية ما يدلّ على أنه يمين ؛ لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال : ﴿ قَدْ

فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ وقد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين إلى أنها هي سبب نزول الآية أنه حرّم أوّلاً ، ثم حلف ثانياً ، كما قدّمنا ﴿ والله مولاكم ﴾ أي : وليكم وناصركم ، والمتولي لأموركم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله .

﴿ وَإِذَ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ قال أكثر المفسرين : هي حفصة كما سبق ، والحديث ، هو تحريم مارية ، أو العسل ، أو تحريم التي وهبت نفسها له ، والعامل في الظرف فعل مقدّر ، أي : واذكر إذ أسرّ .

وقال الكلبي : أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي : أخبرت به غيرها ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ أي : أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ أي : عرّف حفصة بعض ما أخبرت به .

(118/772)

قرأ الجمهور : ﴿ عرّف ﴾ مشدّداً من التعريف ، وقرأ عليّ ، وطلحة بن مصرف ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وقتادة ، والكسائي بالتخفيف .

واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم القراءة الأولى لقوله : ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ أي : لم يعرّفها إياه ، ولو كان مخففاً لقال في ضدّه : وأنكر بعضاً ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ أي : وأعرض عن تعريف بعض ذلك كراهة أن ينتشر في الناس ، وقيل : الذي أعرض عنه هو حديث مارية .

وللمفسرين ها هنا خبط وخلط ، وكلّ جماعة منهم ذهبوا إلى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول ، وسنوضح لك ذلك إن شاء الله ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أي : أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ أي : من أخبرك به ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ أي : أخبرني الذي لا يخفى عليه خافية .

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة ، أي : إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، ومعنى ﴿ صَغَتْ ﴾ : عدلت ومالت عن الحقّ ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو إفشاء الحديث .

وقيل المعنى : إن تتوبا إلى الله ، فقد مالت قلوبكما إلى التوبة ، وقال : ﴿ قلوبكما ﴾ ، ولم يقل " قلباكما " ؛ لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي : تتظاهرا ، قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً .

وقرأ عكرمة : (تتظاهرا) على الأصل .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، ونافع ، وعاصم في رواية عنهما : (تظهر) بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون ، والمعنى : وإن تعاضدا وتعاونا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل ، ومن صلح من عباده المؤمنين ، فلن يعدم ناصراً ينصره ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ﴾ أي : بعد نصر الله له ، ونصر جبريل ، وصالح المؤمنين ﴿ ظَهِير ﴾ أي : أعوان يظاهرونه ، والملائكة مبتدأ ، وخبره ظهير .

قال أبو عليّ الفارسي : قد جاء فعيل للكثرة كقوله : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] قال الواحدي : وهذا من الواحد الذي يؤدّي عن الجمع كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] وقد تقرّر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع .

وقيل : كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في النفقة .

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مّنكُنَّ ﴾ أي : يعطيه بدلكنّ أزواجاً أفضل منكنّ ، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهنّ ؛ ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهنّ .

وهو كقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38] فإنه إخبار عن القدرة وتخويف لهم .

ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله : ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ أي : قائمات بفرائض الإسلام مصدّقات بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشرّه .

وقال سعيد بن جبير : مسلمات أي : مخلصات وقيل معناه : مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لله ، والقنوت : الطاعة ، وقيل : مصليات ﴿ تائبات ﴾ يعني : من الذنوب ﴿ عابدات ﴾ لله متذللات له .

قال الحسن ، وسعيد بن جبير : كثيرات العبادة ﴿ سائحات ﴾ أي : صائمات .

(120/772)

وقال زيد بن أسلم : مهاجرات ، وليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلاّ الهجرة .

قال ابن قتيبة ، والفراء ، وغيرهما : وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه ، وقيل المعنى : ذاهبات في طاعة الله ، من ساح الماء : إذا ذهب ، وأصل السياحة : الجولان في الأرض ، وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ وسط

بينهما العاطف لتنافيهما ، والثيبات : جمع ثيب ، وهي المرأة التي قد تزوّجت ، ثم ثابت عن زوجها فعادت ، كما كانت غير ذات زوج .

والأبكار : جمع بكر ، وهي العذراء ، سميت بذلك ؛ لأنها على أوّل حالها التي خلقت عليه .

وقد أخرج البخاري وغيره عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ، ويشرب عندها لبناً ، أو عسلاً ، فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلتقل إني أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال : " لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود " ، فنزلت : ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ لقوله : "بل شربت عسلاً" .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، قال السيوطي بسندٍ صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فدخل على حفصة ، فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فقال :

" أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه أبداً " ، فأنزل الله : ﴿ عِلْمَا يا أَيُّهَا

النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أمّ سلمة عن هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ قالت : كانت عندي عكة من عسل أبيض ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يلعق منها ، وكان يحبه .

(121/772)

فقالت له عائشة : نحلها تجرس عرفطاً فحرّمها ، فنزلت الآية .

وأخرج النسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ وأخرج البزار ، والطبراني ، قال السيوطي : بسندٍ صحيح عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدوّ الحديث في شأن مارية القبطية أمّ إبراهيم أصابها النبيّ صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في يومها ، فوجدت حفصة ، فقالت : يا رسول الله لقد جئت إليّ بشيء ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري على فراشي ، قال : " ألا ترضين أن أحرمها ، فلا أقربها أبداً ؟ " قالت : بلى فحرّمها وقال : " لا تذكري ذلك

لأحد " ، فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ .

الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفّر عن يمينه وأصاب مارية .

وأخرجه ابن سعد ، وابن مردويه عنه بأطول من هذا ، وأخرجه ابن مردويه أيضاً من وجه آخر عنه بأخصر منه ، وأخرجه ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عنه مختصراً بلفظ قال : حرّم سريته ، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روي عنه من هذه الطرق ،

وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده ، والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لحفصة : " لا تحدّثي أحداً ، وإن أمّ إبراهيم عليّ حرام " ، فقالت : أتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : " فوالله لا أقربها " ، فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾ .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن أبي هريرة أن سبب نزول الآية تحريم مارية كما سلف ، وسنده ضعيف .

(122/772)

فهذان سببان صحيحان لنزول الآية ، والجمع ممكن بوقوع القصتين : قصة العسل ، وقصة مارية ، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً ، وفي كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض

أزواجه .

وأما ما قيل : من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها ، فليس في ذلك إلاّ ما روى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال السيوطي : وسنده ضعيف .

ويردّ هذا أيضاً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقبل تلك الواهبة لنفسها ، فكيف يصحّ أن يقال : إنه نزل في شأنها ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ ؟ فإن من ردّ ما وهب له لم يصحّ أن يقال : إنه حرّمه على نفسه ، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ إلى آخر ما حكاه الله .

وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة ، ثم ذكر قصة الإيلاء ، كما في الحديث الطويل ، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل ، وقصة السرية ؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين ، وذكر فيه أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يراجعنه ، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ .

ويؤيد هذا ما قدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ فأخبره

بأنهما حفصة وعائشة ، وبيّن له أن السبب قصة مارية .

هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ، ودفع الاختلاف في شأنه ، فاشدد عليه يديك ؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين .

(123/772)

وأخرج عبد الرزاق ، والبخاري ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .

وأخرج ابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه عنه أنه جاءه رجل ، فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً ، فقال : كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ فأحلّ يمينه وأنفق عليه .

وأخرج ابن عديّ ، وابن عساكر عن عائشة في قوله : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إِلَى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ قالت : أسرّ إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي .

وأخرج ابن عديّ ، وأبو نعيم في الصحابة ، والعشاري في فضائل الصدّيق ، وابن مردويه ،

وابن عساكر من طرق عن عليّ ، وابن عباس قال : والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ قال لحفصة : أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي ، فإياك أن تخبري أحداً بهذا .

قلت : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ بل فيه أن الحديث الذي أسرّه صلى الله عليه وسلم هو هذا ، فعلى فرض أن له إسناداً يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة ، وهي مقدّمة عليه ومرجحة بالنسبة إليه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ قال : زاغت وأثمت .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : مالت .

وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه في قوله : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود مثله .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في فضائل الصحابة من وجه آخر عنه مثله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر ، وابن عباس مثله .

وأخرج الحاكم عن أبي أمامة مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم .

قال السيوطي بسندٍ ضعيف عن عليّ مرفوعاً قال : هو عليّ بن أبي طالب .

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عليّ بن أبي طالب " وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : هو عليّ بن أبي طالب .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن بريدة في قوله : ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالبكر مريم بنت عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 249 . 253 ﴾

(125/772)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهه الله إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبي صلى الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإِرشاد إلى رأْب ما انثلم من واجبها نحو زوجها .

وإذ قد كان ذلك إثماً لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سرّه ذكَّرها بواجب التوبة منه .

وخطاب التّثنية عائدة إلى المنبئة والمنأبة فأمّا المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله : ﴿ إلى بعض أزواجه ﴾ [التحريم : 3] .

وأما المنبَّأة فمعادها ضمنيّ لأن فعل ﴿ نبأت ﴾ [التحريم : 3] يقتضيه فأما المنبَّئة فأمرها بالتوبة ظاهر .

وأما المُذاع إليها فلأنها شريكة لها في تلقي الخبر السر ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك فهاتان موعظتان لمذيع السرّ ومشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضرتها .

و﴿ صَغَت ﴾ : مالت ، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج ، ومنه سمي سماع الكلام إصغاء لأن المستمع يُميل سمعه إلى من يكلمه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ في سورة [الأنعام : 113] .

وفيه إيماء إلى أن فيما فعَلَتَاه انحرافاً عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به وأن عليهما أن تتوبا

مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما .

وهذان الأدَبَان الثامن والتاسع من الآداب التي اشتملت عليها هذه الآيات .

والتوبة : الندم على الذنب ، والعزم على عدم العودة إليه وسيأتي الكلام عليها في هذه السورة .

وإذْ كان المخاطب مثنّى كانت صيغة الجمع في (قلوب) مستعملة في الاثنين طلباً لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين فإن صيغة التثنية ثقيلة لقلة دورانها في الكلام .

(126/772)

فلما أُمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية .

وهذا استعمال للعرب غير جار على القياس .

وذلك في كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى فإن المضاف يصير جمعاً كما في هذه الآية

وقول خطام المجاشعي :

ومَهمهين قَذَفين مَرْتَيْنْ

ظهراهما مثلُ ظُهور التُرسين . . .

وأكثر استعمال العرب وأفصحه في ذلك أن يعبروا بلفظ الجمع مضافاً إلى اسم المثنى لأن صيغة الجمع قد تطلق على الاثنين في الكلام فهما يتعاوران .

ويقلّ أن يؤتى بلفظ المفرد مضافاً إلى الاسم المثنى .

وقال ابن عصفور : هو مقصور على السماع .

وذكر له أبو حيّان شاهداً قول الشاعر :

حمامةَ بطنِ الواديين ترنّمي

سقاكِ من الغُرّ الغوادي مطيرها . . .

وفي التسهيل ﴿ : ترجيح التعبير عن المثنى المضافِ إلى مثنى باسمٍ مفرد ، على التعبير عنه بلفظ المثنى .

وقال أبو حيّان في "البحر المحيط" : إن ابن مالك غلط في ذلك .

قلت : وزعم الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" ، أن قول القائل : اشترِ رأسَ كبشين يريد رأسَيْ كبشين خطأ .

قال : لأن ذلك لا يكون أ هـ .

وذلك يؤيد قول ابن عصفور بأن التعبير عن المضافِ المثنى بلفظ الإفراد مقصور على السماع ، أي فلا يصار إليه .

وقيّد الزمخشري في "المفصل" هذا التعبير بقيد أن لا يكون اللفظان متصلين .

فقال : "ويُجعل الاثنان على لفظ جمع إذا كانا متصلين كقوله : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾

ولم يقولوا في المنفصلين : أفراسهما ولا غلمانهما .

وقد جاء وضَعا رحالهما" .

فخالف إطلاق ابن مالك في "التسهيل" وطريقة صاحب "المفصل" أظهر .

وقوله : ﴿ وإن تظّاهرا عليه ﴾ هو ضد ﴿ إن تتوبا ﴾ أي وإن تصرّا على العود إلى

تألبكما عليه فإن الله مولاه الخ .

والمظاهرة : التعاون ، يقال : ظاهره ، أي أيده وأعانه .

قال تعالى : ﴿ ولم يظاهروا عليكم أحداً ﴾ في سورة [براءة : 4] .

(127/772)

ولعلّ أفعال المظاهر ووصف ظهير كلها مشتقة من الاسم الجامد ، وهو الظَّهر لأن المعين

والمؤيد كأنه يشد ظَهر من يعينه ولذلك لم يسمع لهذه الأفعال الفرعية والأوصاف المتفرعة

عنها فعل مجرد .

وقريب من هذا فعل عَضَد لأنهم قالوا : شَد عضده .

وأصل تظّاهرا ﴾ تتظاهرا فقلبت التاء ظاء لقرب مخرجيها وأدغمت في ظاء الكلمة

وهي قراءة الجمهور .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ﴿ تَظَاهرا ﴾ بتخفيف الظاء على حذف إحدى التاءين للتخفيف .

﴿ وصالحُ ﴾ مفرد أريد به معنى الفريق الصالح أو الجنس الصالح من المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ فمنهم مهتد ﴾ [الحديد : 26] .

والمراد بـ ﴿ صالح المؤمنين ﴾ المؤمنون الخالصون من النفاق والتردد .

وجملة ﴿ فإن الله هو مولاه ﴾ قائمة من مقام جواب الشرط معنى لأنها تفيد معنى يتولّى جزاءكما على المظاهرة عليه ، لأن الله مولاه .

وفي هذا الحذف مجال تذهب فيه نفس السامع كل مذهب من التهويل .

وضمير الفصل في قوله : ﴿ هو مولاه ﴾ يفيد القصر على تقدير حصول الشرط ، أي إن تظاهرتما متناصرتين عليه فإن الله هو ناصره لا أنتما ، أي وبطل نصركما الذي هو واجبكما إذْ أخللتما به على هذا التقدير .

وفي هذا تعريف بأن الله ناصر رسولَه صلى الله عليه وسلم لئلا يقع أحد من بعد في محاولة التقصير من نصره .

فهذا المعنى العاشر من معاني الموعظة والتأديب التي في هذه الآيات .

وعطفُ ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ في هذا المعنى تنويه بشأن رسول الوحي من

الملائكة وشأن المؤمنين الصالحين .

وفيه تعريض بأنهما تكونان (على تقدير حصول هذا الشرط) من غير الصالحين .

وهذان التنويهان هما المعنيان الحادي عشر والثاني عشر من المعاني التي سبقت إشارتي إليها .

(128/772)

وقوله : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ عطف جملةٍ على التي قبلها ، والمقصود منه تعظيم هذا النصر بوفرة الناصرين تنويهاً بمحبة أهل السماء للنبيء صلى الله عليه وسلم وحسنِ ذكره بينهم فإن ذلك مما يزيد نصر الله إياه شأناً .

وفي الحديث "إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأَحِبَّه فيحبُّه جبريل ثم ينادي جبريلُ في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأَحِبُّوه فيحبُّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض" .

فالمراد بأهل الأرض فيه المؤمنون الصالحون منهم لأن الذي يحبه الله يحبّه لصلاحه والصالح لا يحبّه أهل الفساد والضلال .

فهذه الآية تفسيرها ذلك الحديث .

وهذا المعنى الثالث عشر من معاني التعليم التي حوتها الآيات .

وقوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ اسم الإِشارة فيه للمذكور ، أي بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين .

وكلمة ﴿ بعد ﴾ هنا بمعنى (مع) فالبَعدية هنا بَعدية في الذّكر كقوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : 13] .

وفائدة ذكر الملائكة بعد ذكر تأييد الله وجبريل وصالح والمؤمنين أن المذكورين قبلهم ظاهره آثار تأييدهم بوحي الله للنبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ونصره إياه بواسطة المؤمنين فنبه الله المرأتين على تأييد آخر غيرِ ظاهرة آثاره وهو تأييد الملائكة بالنصر في يوم بدر وغير النصر من الاستغفار في السماوات ، فلا يتوهم أحد أن هذا يقتضي تفضيل نصرة الملائكة على نصرة جبريل بَلْه نصرة الله تعالى .

و ﴿ ظهير ﴾ وصف بمعنى المظاهر ، أي المؤيد وهو مشتقّ من الظهر ، فهو فعيل بمعنى مفاعل مثل حكيم بمعنى محكم كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ ، وفعيل الذي ليس بمعنى مفعول أصله أن يطابق موصوفه في الإِيراد وغيره فإن كان هنا خبراً عن الملائكة كما هو الظاهر كان إفراده على تأويل جمع الملائكة بمعنى الفَوج المظاهر أو هو من إجراء فعيل الذي بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول .

كقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] ، وقوله : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ [الفرقان : 55] وقوله : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : 69] ، وإن كان خبراً عن جبريل كان ﴿ صالح المؤمنين والملائكة ﴾ عطفاً على جبريل وكان قولُه ﴿ بعد ذلك ﴾ حالاً من الملائكة .

وفي الجمع بين ﴿ أظهره الله عليه ﴾ [التحريم : 3] وبين ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ وبين ﴿ ظهير ﴾ تجنيسات .

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ

ليس هذا مما يتعلق بالشرط في قوله : ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ [التحريم : 4] بل هو كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع فيفارقهن لتقلع المتلبسة وتحذر غيرها من مثل فعلها .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً عقبت بها جملة ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم تتوبا مما جرى منهما في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاد هذا الإيماء إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهن يأمر الله فيها نبيئه صلى الله عليه وسلم وهي عقوبة الطلاق عليه ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة إن لم تتوبا ، ولذلك فصلت عن التي قبلها لاختلاف الغرضين .

وفي قوله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ إيجاز بحذف ما يترتب عليه إبدالهن من تقدير إن فارقكن .

فالتقدير : عسى أن يطلقكن هو (وإنما يطلق بإذن ربه) أن يُبدله ربُّه بأزواج خيرٍ منكن .

وفي هذا ما يشير إلى المعْنى الرابع عشر والخامس عشر من معاني الموعظة والإِرشاد التي ذكرناها آنفاً .

(130/772)

و ﴿ عسى ﴾ هنا مستعملة في التحقيق وإيثارها هنا لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع لأنهن لا يظن بهن عدم الارعواء عما حذرن منه ، وفي قوله : ﴿ خيراً منكن ﴾ تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو ﴿ خيراً منكن ﴾ للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن فيكمل اللاء يتزوجهن النبي صلى الله عليه وسلم فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجاً للنبيء صلى الله عليه وسلم

وهذه الآية إلى قوله : ﴿ خيراً منكن ﴾ نزلت موافِقة لقول عمر لابنته حفصة رضي الله عنهما مثل هذا اللفظ وهذا من القرآن الذي نزل وفاقاً لقول عمر أو رأيه تنويهاً بفضله .

وقد وردت في حديث في "الصحيحين" واللفظ للبخاري "عن عمر قال : وافقت ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى ، فنزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : 125] ، وقلت : "يدخلُ عليك البرّ والفاجر فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب" فأنزل الله آية الحجاب .

وبلغنِي معاتبة النبي بعضَ نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلَنَّ الله رسولَه خيراً منكن فأنزل الله ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات ﴾ الآية .

وهي موعظة بأن يأذن الله له بطلاقهن وأنه تصير له أزواجٌ خيرٌ منهن .

وهذا إشارة إلى المعنى السادس عشر من مواعظ هذه الآي .

.

وقرأ الجمهور ﴿ أن يبدّله ﴾ بتشديد الدال مضارع بدّل .

وقرأه يعقوب بتخفيف مضارع أبدل .

والمسلمات : المتصفات بالإِسلام .

والمؤمنات : المصدّقات في نفوسهن .

والقانتات : القائمات بالطاعة أحسن قيام .

وتقدم القنوت في قوله تعالى : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ في سورة [البقرة : 238] .

وقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ في سورة [الأحزاب : 31] .

(131/772)

وفي هذا الوصف إشعار بأنهن مطيعات لله ورسوله ففيه تعريض لما وقع من تقصير إحداهن في ذلك فعاتبها الله وأيقظها للتوبة .

والتائبات : المقلعات عن الذنب إذا وقعن فيه .

وفيه تعريض بإعادة التحريض على التوبة من ذنبهما التي أُمرتا بها بقوله : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ [التحريم : 4] .

والعابدات : المقبلات على عبادة الله وهذه الصفات تفيد الإِشارة إلى فضل هذه التقوى وهو المعنى السابع عشر من معاني العبرة في هذه الآيات .

والسائحات : المهاجرات وإنما ذكر هذا الوصف لتنبيههن على أنهنّ إن كنّ يمتُنّ بالهجرة فإن المهاجرات غيرَهن كثير ، والمهاجرات أفضل من غيرهن ، وهذه الصفة تشير إلى المعنى الثامن عشر من معاني الاعتبار في هذه الآي .

وهذه الصفات انتصبت على أنها نعوت ل ﴿ أزواجاً ﴾ ، ولم يعطف بعضُها على بعض

الواو ، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن ولو عطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم ، أي تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض ، ألا ترى أنه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين دون أخرى من النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو قولُه : ﴿ وأبكاراً ﴾ لأن الثّيبات لا يوصفن بأبكار .

والأبكار لا يوصفن بالثّيبات .

قُلت وفي قوله تعالى : ﴿ مسلمات ﴾ ، إلى قوله : ﴿ سائحات ﴾ مُحسن الكلام المتزن إذْ يَلتئم من ذلك بيت من بحر الرمل التام :

فاعلتن فاعلتن فاعلتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلتن . . .

ووجه هذا التفصيل في الزوجات المقدرات لأن كلتا الصفتين محاسنها عند الرجال ؛ فالثيب أرعى لواجبات الزوج وأميل مع أهوائه وأقوم على بيته وأحسن لِعاباً وأبهى زينة وأحلى غنجاً .

والبكر أشد حياء وأكثر غرارة ودلاً وفي ذلك مجلبة للنفس ، والبكر لا تعرف رجلاً قبل زوجها ففي نفوس الرجال خلق من التنافس في المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم .

فما اعتزت واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمزية إلا وقد أنبأها الله بأن سيبدله خيراً منها في تلك المزية أيضاً .

وهذا هو المعنى التاسع عشر من معاني الموعظة والتأديب في هذه الآيات .

وتقديم وصف ﴿ ثيبات ﴾ لأن أكثر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لمّا تزوجهن كن ثيبات .

ولعله إشارة إلى أن الملام الأشد موجه إلى حفصة قبل عائشة وكانت حفصة ممن تزوجهن ثيبات وعائشة هي التي تزوجها بكراً .

وهذا التعريض أسلوب من أساليب التأديب كما قيل : "الحر تكفيه الإِشارة" .

وهذا هو المعنى العشرون من مغزى آداب هذه الآيات .

ومن غرائب المسائل الأدبية المتعلقة بهذه الآية أن الواو في قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ زَعمها ابنُ خَالويه واواً لها استعمال خاص ولقبها بواو الثمانية (بفتح المثلثة وتخفيف التحتية بعد النون) وتبعهُ جماعة ذكروا منهم الحريري والثعلبي النيسابوري المفسر والقاضي الفاضل .

أنهم استخرجوا من القرآن أن ما فيه معنى عدد ثمانية تدخل عليه واو ويظهر من الأمثلة التي مثلوا بها أنهم يعتبرون ما دل على أمر معدود بعدد كما فيه سواء كان وصفاً مشتقاً من

عدد ثمانية أو كان ذاتاً ثامنة أو كان يشتمل على ثمانية سواء كان ذلك مفرداً أو كان جملة .

فقد مثلوا بقوله تعالى في سورة [براءة : 112] : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ قالوا لم يعطف الصفات المسرودة بالواو إلا عند البلوغ إلى الصفة الثامنة وهي الناهون عن المنكر ﴾ .

وجعلوا من هذا القبيل آية سورة التحريم إذ لم يعطف من الصفات المبدوءة بقوله : ﴿ مسلمات ﴾ إلا الثامنة وهي ﴿ وأبكاراً ﴾ ومثلوا لما وصف فيه بوصف ثامن بقوله تعالى : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ في سورة [الكهف : 22] .

فلم يعطف رابعهم ﴾ ولا ﴿ سادسهم ﴾ وعطفت الجملة التي وقع فيها وصف الثامن بواو عطف الجمل .

(133/772)

ومثلوا لما فيه كلمة ثمانية بقوله تعالى : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ في سورة [الحاقة : 7] .

ومثلوا لما يشتمل على ثمانية أسماء بقوله تعالى في سورة [الزمر : 73] : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها قالوا جاءت جملة وفتحت ﴾

هذه بالواو ولم تجيء أختها المذكورة قبلها وهي ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 71] .

لأن أبواب الجنة ثمانية .

وترددت كلماتهم في أن هذه الواو من صنف الواو العاطفة يمتاز عن الصنف الآخر يلزم ذكره إذا كان في المعطوف معنى الثامن أو من صنف الواو الزائدة .

وذكر الدمَاميني في الحواشي ﴾ الهندية على "المغني" أنه رأى في "تفسير العماد الكندي" قاضي الإِسكندرية (المتوفى في نحو عشرين وسبعمائة) نسبة القول بإثبات واو الثمانية إلى عبد الله الكفيف المالقي النحوي الغرناطي من علماء غرناطة في مدة الأمير ابن حَبوس (بموحدة بعد الحاء المهملة) هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة سنة 420 .

وذكر السهيلي في "الروض الأنف" عند الكلام على نزول سورة الكهف أنه أفرد الكلام على الواو التي يسميها بعض الناس واو الثمانية باباً طويلاً ولم يبد رأيه في إثباتها ولم أقف على الموضع الذي أفرد فيه الكلام عليها .

ويظهر أنه غير موافق على إثبات هذا الاستعمال لها .

ومن عجيب الصدف ما اتفق في هذه الآيات الأربع من مثير شبهة للذين أثبتوا هذا المعنى في معاني الواو .

ومن غريب الفطنة تنبه الذي أنبأ بهذا .

وذكر ابن المنير في "الانتصاف" أن شيخه ابن الحاجب ذكر له أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب كان يعتقد أن الواو في قوله تعالى : ﴿ وأبكاراً ﴾ هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية .

(134/772)

وكان الفاضل يُتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة إلى أن ذكره يوماً بحضيرة أبي الجود النحوي المقري ، فبين لهم أنه واهم في عدها من ذلك القبيل وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري في دعاء اللزوم إلى الإتيان بالواو هنا لامتناع اجتماع هذين الصنفين في موصوف واحد .

فأنصفه الفاضل وقال : أرشدتنا يا أبا الجود .

قلت : وأرى أن القاضي الفاضل تعجل التسليم لأبي الجُود إذ كان له أن يقول : إنا لم نلتزم أن يكون المعدود الثامن مستقلاً أو قسيماً لغيره وإنما تتبعنا ما فيه إشعار بعدد ثمانية .

ونقل الطيبي والقزويني في "حاشيتي الكشاف" أنه روى عن صاحب "الكشاف" أنه قال : الواو تدخل في الثامن كقوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] ، وقوله : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] ويسمونه واو الثمانية وهي كذلك ، وليس بشيء .

قال الراوي عنه وقد قال لنا عند قراءة هذا الموضع : أنسيتم واو الثمانية عند جوابي هذا (أي يلومهم على إهمالهم ذلك المعنى في تلك الآية) أي هو جواب حسن وذلك خطأ محض لا يجوز أن يؤخذ به أ هـ .

قلت : وهذا يخالف صريح كلامه في "الكشاف" فلعل الراوي لم يحسن تحرير مراد صاحب "الكشاف" ، أو لعل صاحب "الكشاف" لم ير منافاة بين لزوم ذكر الواوين اقتضاء المقام ذكرها بأن المعطوف بها ثامن في الذكر فإن النكت لا تتزاحم فتأمل بتدقيق .

وتقدم الكلام على واو الثمانية عند قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية في سورة [براءة : 112] .

وعند قوله : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ في سورة [الكهف : 22] ، وتقدمت في سورة الزمر وفي سورة الحاقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(135/772)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾

لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرد أفردوه وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعوه وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح من لغتهم جمعه لقوله تعالى فقد صغت قلوبكما التحريم4 وإنما هما قلبان لا غير وقوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما المائدة38

وتقول العرب إضرب أعناقهما واقطع ألسنتهما وهذا أفصح استعمالهم وتارة يفردون المضاف فيقولون لسانهما وقلبهما وظهرهما وتارة يثنونه كقوله ظهراهما مثل ظهور الترسين والقرآن إنما نزل بلغة العرب لا بلغة العجم والطماطم والأنباط الذين أفسدوا الدين وتلاعبوا بالنصوص وانتهكوا حرماتها وجعلوها عرضة لتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين

تثنيتين ولا لبس هناك فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه مجموعا أولى بالجواز يدل عليه أنك لا تكاد تجد في كلامهم عينينا ويدينا ونحو ذلك ولا يلبس على السامع قول المتكلم نراك بأعيننا ونأخذك بأيدينا ونحو ذلك ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونا كثيرة على وجه واحد وأيديا متعددة على بدن واحد فهل قدر القرآن حق قدره من زعم أن هذا ظاهره. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الصواعق المرسلة جـ 1 صـ 266. 268 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبلغ سبحانه في عتاب أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع صيانتهن عن التسمية إكراماً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم اتصافهن بهذه الصفات العظيمة على سبيل الرسوخ من دوام صحبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهن ليكن من جملة أزواجه في الجنة وكان اتصافهن بذلك الذي أداهن إلى السعادة العظمى إنما هو بحسن تأديب أوليائهن لهن وإكمال ذلك الأدب بحسن عشرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأدبهن بكريم أخلاقه أثمر ذلك أمر الأمة بالتأسي به في هذه الأخلاق الكاملة والتأسي بأوليائهن في ذلك ليعرفن حق الله وحق الأزواج فيحصل بذلك صلاح ذات البين المثمرات للخير كله فقال تعالى متبعاً لهذه الموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأقرب فالأقرب ﴿ يا أيها ﴾ مخاطبة لأدنى الأسنان إشارة إلى أن من فوقهم تأسى من حين دخوله في الإسلام فهو غني عن أمر جديد ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بذلك ﴿ قوا أنفسكم ﴾ أي

اجعلوا لها وقاية بالتأسي به ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أدبه مع الخلق والخالق في لينه لمن يستحق اللين من الخلق تعظيماً للخالق فعاملوه قبل كل شيء بما يعاملكم به من الأدب ، وكذا كونوا مع بقية الخلق .

(137/772)

ولما كان الإنسان راعياً لأهل بيته مسؤولاً عن رعيته قال تعالى : ﴿ وأهليكم ﴾ من النساء والأولاد وكل من يدخل في هذا الاسم قوهم ﴿ ناراً ﴾ بالنصح والتأديب ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما روى أحمد والطبراني عن سعيد بن العاص ـ رضى الله عنه ـ رفعه : " ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن " ولما كانت الأشياء لا تعظم في نفسها وعند المخبر بها إلا بإخباره بما يشتمل عليه من الأوصاف قال : ﴿ وقودها ﴾ أي الذي توقد به ﴿ الناس والحجارة ﴾ أي ألين الأشياء وأصلبها ، فما بين ذلك هو لها وقود بطريق الأولى .

ولما وصفها بغاية الأدب في الائتمار أتبعه وصف القُوَام فقال معبراً بأداة الاستعلاء دلالة على تمكنهم من التصرف فيها : ﴿ عليها ملائكة ﴾ أي يكون أمرها على سبيل الاستعلاء فلا تعصيهم شيئاً لتأديب الله لها ﴿ غلاظ ﴾ أي في الأبدان والقلوب فظاظة على أهلها

لاستحقاقهم لذلك بعصيانهم الملك الأعلى .

ولما كان الغلظ قد يكون مع الرخاوة قال : ﴿ شداد ﴾ أي في كل شيء يحاولونه بالقول والفعل حتى روي أن الواحد منهم يلقي بالدفعة الواحدة في النار من الكفار سبعين ألفاً .

ولما كان المعنى أنهم يوقعون غلظتهم وشدتهم بأهل المعاصي على مقادير استحقاقهم . بين ذلك بما يخلع القلوب لكونه بأمر الله تعالى فقال : ﴿ لا يعصون الله ﴾ أي الملك الأعلى في وقت من الأوقات ﴿ ما أمرهم ﴾ أي أوقع الأمر لهم به في زمن ما .

(138/772)

ولما كان المطيع منا قد يخل ببعض المأمور به في ذاته بنقص ركن أو شرط أو وقت لنسيان ، أو نوم ونحوه أو بترك مندوب ونحوه أو ما في معناه بوسوسة أو حديث نفس ونحوه يقصر عن إيقاعه على أعلى الدرجات كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ والطيالسي عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ : " استقيموا ولن تحصوا " قال نافياً لذلك عنهم : ﴿ ويفعلون ﴾ أي مجددين مع كل أمر على سبيل الاستمرار ﴿ ما يؤمرون ﴾ أي ما يقع لهم الأمر به في أي وقت كان من غير نقص ما ، وبني الفعل لما لم يسم فاعله كناية عن سهولة انقيادهم وإشارة إلى أن الذي أمرهم معلوم أنه الله

سبحانه وتعالى .

ولما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم من أريد بأمر الأمة بالتأدب معه فكان تعمد الإخلال بالأدب معه كفراً ، علم أن هذه النار لأولئك فعلم أن التقدير : يقولون : ﴿ يا أيها الذين كفروا ﴾ أي بالإخلال بالأدب في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأداهم ذلك إلى الإخلال بالأدب مع الله وبالأدب مع سائر خلقه ﴿ لا تعتذروا ﴾ أي تبالغوا في إظهار العذر وهو إيساع الحيلة في وجه يزيل ما ظهر من التقصير ﴿ اليوم ﴾ فإنه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار ، وقد فات زمان الاعتذار ، وصار الأمر إلى ما صار ، وإذا نهى عن المبالغة في الاعتذار لعدم نفعها كان النهي عن مطلقه من باب الأولى ، وهذا قطع لرجائهم وإيجاب لباسهم ليعظم همهم وتنقطع قلوبهم لأن معناه أن الاعتذار لا ينفعكم وإن بالغتم فيه ، ولذلك استأنف قوله على سبيل الحصر : ﴿ إنما تجزون ﴾ أي في هذا اليوم ﴿ ما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة والطبع ﴿ تعملون ﴾ أي على سبيل الإصرار ولا بعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله بحيث لا يشك أنها عمله ، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 51 .

﴿ 53 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي بالانتهاء عما نهاكم الله تعالى عنه ، وقال مقاتل : أن يؤدب المسلم نفسه وأهله ، فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، وقال في "الكشاف" : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ، ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بأن تؤاخذوهم بما تؤاخذون به أنفسكم ، وقيل : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ مما تدعو إليه أنفسكم إذ الأنفس تأمرهم بالشر وقرىء : ﴿ وأهلوكم ﴾ عطفاً على واو ﴿ قُوا ﴾ وحسن العطف للفاصل ، و ﴿ نَارًا ﴾ نوعاً من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة ، وعن ابن عباس هي حجارة الكبريت ، لأنها أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها ، وقرىء : ﴿ وَقُودُهَا ﴾ بالضم ، وقوله : ﴿ عَلَيْهَا ملائكة ﴾ يعني الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ في أجرامهم غلظة وشدة أي جفاء وقوة ، أو في أفعالهم جفاء وخشونة ، ولا يبعد أن يكونوا بهذه الصفات في خلقهم ، أو في أفعالهم بأن يكونوا أشداء على أعداء الله ، رحماء على أولياء الله كما قال تعالى : ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] وقوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يدل على اشتدادهم لمكان الأمر ، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله تعالى

والانتقام من أعدائه ، وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي .

(140/772)

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ لما ذكر شدة العذاب بالنار ، واشتداد الملائكة في انتقام الأعداء ، فقال : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ أي يقال لهم : لا تعتذروا اليوم إذ الاعتذار هو التوبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول في النار ، فلا ينفعكم الاعتذار ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني إنما أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب في الحكمة ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : أنه تعالى خاطب المشركين في قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ وقال : ﴿ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : 24] جعلها معدة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ نقول : الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مع الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا : ﴿ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ باجتناب الفسق مجاورة الذين أعدت لهم هذه النار ، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد .

البحث الثاني : كيف تكون الملائكة غلاظاً شداداً وهم من الأرواح ، فنقول : الغلظة والشدة بحسب الصفات لما كانوا من الأرواح لا بحسب الذات ، وهذا أقرب بالنسبة إلى الغير من الأقوال .

البحث الثالث : قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ في معنى قوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فما الفائدة في الذكر فنقول : ليس هذا في معنى ذلك لأن معنى الأول أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا ينكرونها ، ومعنى الثاني أنهم (يؤدون) ما يؤمرون به كذا ذكره في "الكشاف" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 41.42 ﴾

(141/772)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

فيه مسألة واحدة وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهلَه النار .

قال الضحاك : معناه قُوا أنفسكم ، وأهلوكم فَلْيَقُوا أنفسهم ناراً .

وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : قُوا أنفسكم وأْمُرُوا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يَقِيَهم الله بكم .

وقال عليّ رضي الله عنه وقتادة ومجاهد : قُوا أنفسكم بأفعالكم وقُوا أهليكم بوصِيّتكم .

ابن العربي : وهو الصحيح ، والفقه الذي يعطيه العطف الذي يقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في معنى الفعل ؛ كقوله :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارداً . . .

وكقوله :

ورأيتُ زَوْجَك في الوَغَى . . .

متقلّداً سيفاً ورُمْحاَ

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية .

ففي صحيح الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كلّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعِيَّته فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عنهم والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم " وعن هذا عبّر الحسن في هذه الآية [بقوله :] يأمرهم وينهاهم .

وقال بعض العلماء لما قال : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ ﴾ دخل فيه الأولاد ؛ لأن الولد بعض منه .

كما دخل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ على أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور : 61] فلم يُفْرَدُوا بالذِّكر إفراد سائر القرابات .

فيعلّمه الحلال والحرام ، ويجنّبه المعاصي والآثام ، إلى غير ذلك من الأحكام .

وقال عليه السلام : " حَقُّ الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلّمه الكتابة ويزوّجه إذا بلغ "

وقال عليه السلام : " ما نَحَل والدٌ ولداً أفضل من أدب حسن " وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرّقوا بينهم في المضاجع " خرّجه جماعة من أهل الحديث .

(142/772)

وهذا لفظ أبي داود .

وخرّج أيضاً عن سَمُرَة بن جُنْدُب قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مُرُوا الصَّبِيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها " وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب ؛ مستنداً في ذلك إلى رؤية الهلال .

وقد روى مسلم : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أَوْتَر يقول : "قومي فأَوْتِري يا عائشة" " وروي : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " رحم الله امرءاً قام من الليل فصلّى فأيقظ أهله فإن لم تقم رَشّ وجهها بالماء .

رحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشّت على وجهه من الماء " ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أيقظوا صواحب الحُجَر " ويدخل هذا في عموم قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى ﴾ [المائدة : 2] .

وذكر القشيري : " أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله ، نقِي أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال : "تنهونهم عمّا نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله" "

وقال مقاتل : ذلك حقّ عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه .

قال الكِيا : فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدّين والخير ، وما لا يُستغنى عنه من الأدب .

وهو قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] .

ونحو قوله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] .

وفي الحديث : " مُرُوهم بالصلاة وهم أبناء سَبْع " ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ تقدم في سورة "البقرة" القول فيه .

﴿ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ يعني الملائكة الزبانية غِلاظ القلوب لا يرحمون إذا اسْتُرْحِمُوا ، خُلقوا من الغضب ، وحُبّب إليهم عذاب الخلق كما حُبِّبَ لبني آدم أكل الطعام والشراب .

﴿ شِدَادٌ ﴾ أي شداد الأبدان .

وقيل : غِلاظُ الأقوال شداد الأفعال .

وقيل غِلاَظ في أخذهم أهل النار شدادٌ عليهم .

يقال : فلان شديد على فلان ؛ أي قَوِي عليه يعذّبه بأنواع العذاب .

وقيل : أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم ، وبالشدّة القوّة .

قال ابن عباس : ما بين مَنْكِبَي الواحد منهم مسيرةُ سنة ، وقوّة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم .

وذكر ابن وهب قال : وحدّثنا عبد الرحمن بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خَزَنَة جهنم : " ما بين مَنْكِبَي أحدهم كما بين المشرق والمغرب "

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ أي لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان .

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي في وقته ، فلا يؤخرونه ولا يقدّمونه .

وقيل أي لذتهم في امتثال أمر الله ؛ كما أن سرور أهل الجنة في الكون في الجنة ؛ ذكره بعض المعتزلة .

وعندهم أنه يستحيل التكليف غداً .

ولا يخفى معتقد أهل الحق في أن الله يكلّف العبد اليوم وغدا ، ولا ينكر التكليف في حق الملائكة .

ولله أن يفعل ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾

فإن عذركم لا ينفع .

وهذا النّهي لتحقيق اليأس .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

ونظيره : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] .

وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(144/772)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾

أي نوعاً من النار ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ، ووقاية النفس عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات ، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب ، وروى أن عمر قال حين نزلت : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " تنهوهن عما نهاكم الله عنه وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار " .

وأخرج ابن المنذر .

والحاكم وصححه .

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم ، والمراد بالأهل على ما قيل : ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة .

واستدل بها على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ، وأدخل بعضهم الأولاد في الأنفس لأن الولد بعض من أبيه ، وفي الحديث " رحم الله رجلاً قال : يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معه في الجنة " وقيل : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله .

وقرىء وأهلوكم بالواو وهو عطف على الضمير في ﴿ قُواْ ﴾ وحسن العطف للفصل بالمفعول ، والتقدير عند بعض وليق أهلوكم أنفسهم ولم يرتضه الزمخشري ، وذكر ما حاصله أن الأصل ﴿ قُواْ ﴾ أنتم وأهلوكم أنفسكم وأنفسهم بأن يقي ويحفظ كل منكم ومنهم نفسه عما يوبقها ، فقدم أنفسكم ، وجعل الضمير المضاف إليه الأنفس مشتملاً على الأهلين تغليباً فشملهم الخطاب ، وكذا اتعتبر التغليب في ﴿ قُواْ ﴾ ، وفيه تقليل للحذف وإيثار العطف المفرد الذي هو الأصل والتغليب الذي نكتته الدلالة على الأصالة والتبعية .

وقرأ الحسن .

ومجاهد ﴿ وَقُودُهَا ﴾ بضم الواو أي ذو وقودها ، وتمام الكلام في هذه الآية يعلم مما مر في سورة البقرة ﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ ﴾ أي أنهم موكولون يلون أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية التسعة عشر قيل : وأعوانهم ﴿ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة ، أخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه إلى قدمه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ صفة أخرى لملائكة و ﴿ مَا ﴾ في محل النصب على البدل أي لا يعصون ما أمر الله أي أمره تعالى كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه : 93] أو على إسقاط الجار أي لا يعصون فيما أمرهم به ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي الذي يأمرهم عز وجل به ، والجملة الأولى لنفي المعاندة والاستكبار عنهم صلوات الله تعالى عليهم فهي كقوله تعالى :

﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأنبياء : 19] ، والثانية لإثبات الكياسة لهم ونفي الكسل عنهم فهي كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ إلى ﴿ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء :

19] ، وبعبارة أخرى إن الأولى لبيان القبول باطناً فإن العصيان أصله المنع والإباء ، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة لأن الإتيان بالمأمور إنما يعدّ طاعة إذا كان بقصد الامتثال فإذا نفي العصيان عنهم دل على قبولهم وعدم إبائهم باطناً ، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوان على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ فلا تكرار ، وفي المحصول ﴿ لاَّ يَعْصُونَ ﴾ فيما مضى على أن المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ في الآتي .

(146/772)

وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس مبالغة في أنهم لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أو أمر الله عز وجل والغضب له سبحانه .

﴿ يا أَيُّهَا الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾

مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به ، فتعريف اليوم للعهد ونهيهم عن الاعتذار لأنهم لا عذر لهم أو لأن العذر لا ينفعهم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتهم

عنهما أشد النهي وأمرتم بالايمان والطاعة على أتم وجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(147/772)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

كانت موعظة نساء النبي صلى الله عليه وسلم مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدّهم استبقاء الودّ بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذى .

وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداءِ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ [التحريم : 1] .

وجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتنسوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أهليهم .

وعبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار على سبيل المجاز لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضي إلى عذاب النار أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة .

وتنكير "نار" للتعظيم وأجرى عليها وصف بجملة ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النار .

وتذكيراً بحال المشركين الذي في قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ في سورة [الأنبياء : 98] .

وتفظيعاً للنار إذ يكون الحجر عِوضاً لها عن الحَطب .

ووصفت النار بهذه الجملة لأن مضمون هذه الجملة قد تقرر في علم المسلمين من قبل نزول هذه الآية بما تقدم في سورة [البقرة : 24] من قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ وبما تقدمهما معاً من قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ في سورة [الأنبياء : 98] .

والحجارة ﴾ : جمع الحجر على غير قياس فإن قياسه أحجار فجمعوه على حِجارٍ بوزن فِعال وألحقوا به هاء التأنيث كما قالوا : بِكارة جمع بَكر ، ومِهارة جمع مُهْر .

وزيد في تهويل النار بأنَّ عليها ملائكة غلاظاً شداداً وجملة ﴿ عليها ملائكة ﴾ إلى آخرها صفة ثانية .

ومعنى ﴿ عليها ﴾ أنهم موكلون بها .

فالاستعلاء المفاد من حرف (على) مستعار للتمكن كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وفي الحديث " فلم يكن على بابه بوّابون "

و ﴿ غلاظ ﴾ جمع غليظ وهو المتصف بالغلظة .

وهي صفة مشبهة وفعلها مِثل كَرُم .

وهي هنا مستعارة لقساوة المعاملة كقوله تعالى : ﴿ ولو كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : 159] أي لو كنت قاسياً لما عاشروك .

و"شداد" : جمع شديد .

والشدة بكسر الشين حقيقتها قوة العمل المؤذي والموصوف بها شديد .

والمعنى : أنهم أقوياء في معاملة أهل النار الذين وكلوا بهم : يقال : اشتدّ فلان على فلان ، أي أساء معاملته ، ويقال : اشتدّت الحرب ، واشتدت البأساء .

والشدة من أسماء البؤس والجوع والقحط .

وجملة ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ ثناء عليهم أعقب به وصفهم بأنهم غلاظ شداد تعديلاً لما تقتضيانه من كراهية نفوس الناس إياهم ، وهذا مؤذن بأنهم مأمورون بالغلظة والشدة في تعذيب أهل النار .

وأما قوله : ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ فهو تصريح بمفهوم ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ دعا إليه مقام الإِطناب في الثناء عليهم ، مع ما في هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به .

وقد عُطف هذا التأكيد عطفاً يقتضي المغايرة تنويهاً بهذه الفضيلة لأن فعل المأمور أوضح في الطاعة من عدم العصيان واعتبار لمغايرة المعنيين وإن كان قالهما واحد ولك أن تجعل مرجع ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ أنهم لا يعصون فيما يكلفون به من أعمالهم الخاصة بهم ، ومرجع ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ إلى ما كلفوا بعمله في العصاة في جهنم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

هو من قول الملائكة الذين على النار .

(149/772)

وذكر هذه المقالة هنا استطرَاد يُفيد التنفير من جهنم بأنها دار أهل الكفر كما قال تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : 24] ، وإلاّ فإن سياق الآية تحذير للمؤمنين من الموبقات في النار .

ومعنى ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ مماثل ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ ، وأفادت ﴿ إنما ﴾ قصرَ

الجزاء على مماثلة العمل المجزى عليه قصرَ قلب لتنزيلهم منزلة من اعتذر وطلب أن يكون جزاؤه أهون مما شاهده .

والاعتذار : افتعال مشتق من العُذر .

ومادة الافتعال فيه دالة على تكلف الفعل مثل الاكتساب والاختلاق ، والعذر : الحجة التي تُبرىء صاحبها من تبعة عمل مّا .

وليس لمادة الاعتذار فعل مجرد دال على إيجاد العذر وإنما الموجود عَذَر بمعنى قِبل العُذر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ في سورة [براءة : 90] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(150/772)

فصل فى منزلة الأدب

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الأدب

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: 6] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع

فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته

عن الخطاء والخلل وهو شعبة من الأدب العام والله أعلم

فصل و الأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه وأدب مع رسوله

وشرعه وأدب مع خلقه فالأدب مع الله ثلاثة أنواع أحدها : صيانة معاملته: أن يشوبها

بنقيصة الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك

عليه قال أبو علي الدقاق: العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ويصل بأدبه في طاعته إلى الله

وقال: رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة إلى أنفه فقبض على يده وقال ابن عطاء: الأدب

الوقوف مع المستحسنات فقيل له: وما معناه فقال: أن تعامله سبحانه بالأدب سرا وعلنا

ثم أنشد

إذا نطقت جاءت بكل ملاحة . . . وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال أبو علي: من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل وقال يحيى بن معاذ: إذا

ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين وقال أبو علي: ترك الأدب يوجب الطرد

فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة

الدواب وقال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله وقال ابن المبارك:

نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب فقال: التفقه في الدين والزهد في الدنيا والمعرفة بما لله عليك

(151/772)

وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله وصبروا لله على آداب الله وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف وقال أبو حفص لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين فقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن فالأدب مع الله حسن الصحبة معه بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء كحال مجالس الملوك ومصاحبهم وقال أبو نصر السراج: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا: فأكبر آدابهم: في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم: في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات وأما أهل الخصوصية: فأكبر آدابهم: في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص وقال عبد الله بن

المبارك: قد أكثر الناس القول في الأدب ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها وتجنب تلك الرعونات وقال الشبلي: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي: ألزمته الأدب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي: ألزمته العطب فاختر الأدب أو العطب

(152/772)

ويشهد لهذا: أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب وقال النوري رحمه الله: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ذو النون: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب: فإنه يرجع من حيث جاء وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به قال المسيح عليه السلام: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ [المائدة: 116] ولم يقل: لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: تعلم ما في نفسي ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ولا أعلم ما في نفسك ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: إنك أنت علام الغيوب ثم نفى أن

يكون قال لهم غير ما أمره ربه به وهو محض التوحيد فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ [المائدة: 117] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: 117] ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: وأنت على كل شيء شهيد ثم قال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: 118] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس

(153/772)

العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له: لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيده لولا فرط عتوهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: 116] أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم

وعلانيتهم فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب ثم قال: ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 118] ولم يقل الغفور الرحيم وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا

وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ وكذلك قول إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: 7880] ولم يقل وإذا أمرضني حفظا للأدب مع الله وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: 79] ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها وقال في الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: 82] وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الجن: 10] ولم يقولوا: أراده ربهم ثم قالوا: أم أراد بهم ربهم رشدا وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: 24] ولم يقل أطعمني وقول آدم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23] ولم يقل: رب قدرت علي وقضيت علي وقول أيوب عليه السلام: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 83] ولم يقل فعافني واشفني وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: 100] ولم يقل: أخرجني من الجب حفظا للأدب مع

إخوته وتفتيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب وقال: ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة أدبا معهم وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿ مِنْ بَعْدِ

(155/772)

أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فأعطى الفتوة

والكرم والأدب حقه ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

ومن هذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل: أن يستر عورته وإن كان خاليا لا يراه أحد أدبا مع الله على حسب القرب منه وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى

الفعل

فإن لله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد فألهمه ومكنه وعرفه وأرشده وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: 7- 10] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدالة على الاعتدال والتمام ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى وأن ذلك نالها منه امتحانا واختبارا ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه وهي التقوى ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه

(156/772)

حين أراه ما أراه: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: 17] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية وكذلك غيره وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه في ذلك المقام إذ لم يلتفت جانبا ولا تجاوز ما رآه وهذا كمال الأدب

والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله أو يتطلع أمام المنظور فالالتفات زيغ والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ولا يتجاوزه هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وفي هذه الآية أسرار عجيبة وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر: تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له وما شاهدته بصيرته فهو أيضا حق مشهود بالبصر فتواطأ في حقة مشهد البصر والبصيرة ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ [النجم: 11-12] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره ولهذا قرأها أبو جعفر ما كذب الفؤاد ما رأى بتشديد الذال أي لم يكذب الفؤاد البصر بل صدقه وواطأه لصحة الفؤاد والبصر أو استقامة البصيرة والبصر وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقا وقرأ الجمهور ما كذب الفؤاد بالتخفيف وهو متعد و ما رأى مفعوله: أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه بل واطأه ووافقه فلمواطأة قلبه لقالبه وظاهره لباطنه وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر ولم يتجاوز البصر حده فيطغى

ولم يمل عن المرئي فيزيغ بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه فإنه أقبل على الله بكليته وللقلب زيغ وطغيان كما

للبصر زيغ وطغيان وكلاهما منتف عن قلبه وبصره فلم يزغ قلبه التفاتا عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه

(157/772)

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه ألا ترى إلى موسى لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية ونبينا لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة ولأجل هذا ما عاقه عائق ولا وقف به مراد حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه وقال: يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله وهذا قد جاوزني وخلفني علوا فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته وفي رواية للبخاري: فلما جاوزته بكى قيل: ما يبكيك قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة ولم تقف به دون كمال العبودية همة ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف فيضع قدمه عند منتهى طرفه مشاكلا لحال راكبه وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره كما كان قدمه لا يتأخر عن محل معرفته فلم يزل في خفارة كمال أدبه

مع الله سبحانه وتكميل مراتب عبوديته له حتى خرق حجب السموات وجاوز السبع الطباق وجاور سدرة المنتهى ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين فانصبت

(158/772)

إليه هناك أقسام القرب انصبابا وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرا وباطنا حجابا حجابا وأقيم مقاما غبطه به الأنبياء والمرسلون فإذا كان في المعاد أقيم مقاما من القرب ثانيا يغبطه به الأولون والآخرون واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ما زاغ البصر عنه وما طغى فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم فقال تعالى: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يس: 1-4] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته حتى يجوزونه إلى جنات النعيم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

فصل و الأدب هو الدين كله فإن ستر العورة من الأدب والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهرا ولهذا كانوا

يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة وهو أخذ الزينة فقال تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: 31] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة إيذانا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة

(159/772)

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي ومعلوم: أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده لا سيما إذا وقف بين يديه فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرا وباطنا ومن الأدب: نهى النبي صلى الله عليه وسلم المصلي: أن يرفع بصره إلى السماء فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقا خافضا طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته على عرشه كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رسله وجميع أهل السنة قال: وهذا من جهلهم بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول على نقيض قولهم إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين

أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه وسمعته يقول في نهيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود : إن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله وحالتا الركوع

والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به

(160/772)

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد : أنه من السنة و: كان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به ومنها : السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج: 23] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال:

سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ أهم الذين يصلون دائما قال: لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها فهذا الدوام والمداومة في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: 34] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرا وباطنا ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا والله المستعان

فصل وأما الأدب مع الرسول: فالقرآن مملوء به

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا أو يحمله شبهة أو شكا أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن

(162/772)

أمره وخبره وفوضه إليهم وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلا وحملا فقال: نؤوله ونحمله فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له: سألتك بالله لو قدر أن الرسول حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس

وعقولهم فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا وبأي شيء نسخ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة هذا أدب الخواص معه لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وأن يستفاد منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ

(163/772)

أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ

رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: 6374

والناصح لنفسه العامل على نجاتها : يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ويتأملها حق تأملها

وينزلها على الواقع: فيرى العجب ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا فالحديث لك

واسمعي يا جارة والله المستعان ومن الأدب مع الرسول: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي

ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: 1] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ

فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل

سليم قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو

عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور: 63] وفيه قولان للمفسرين أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا بل قولوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم يا نبي الله فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا إن شاء أجاب وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ [النور: 62] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجليله هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43] [الأنبياء: 7] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر

الأقيسة وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة

فصل وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق

(165/772)

بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به ومع العالم: أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله مع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ولكل حال أدب: فللأكل آداب وللشرب آداب وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب وللبول آداب وللكلام آداب وللسكوت والاستماع آداب

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة والإخلال به مع الأم تأويلا وإقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم

صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السلب بعد أن برد بيديه وانظر أدب الصديق

رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان

ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أورثه مقامه

والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك

التأخر إلى خلفه وقد أوما إليه أن: اثبت مكانك جمزا وسعيا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء

مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم

فصل قال صاحب المنازل الأدب: حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر

العدوان

(166/772)

هذا من أحسن الحدود فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب

والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها

ما جعلت حدودا له فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين والعدوان: هو سوء الأدب

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه وقد صانه الله من ذلك وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الأولى فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نقر الصلاة وسرقها فإن ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر وهو كجائع قدم

(167/772)

إليه طعام لذيذ جدا فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك لكن القلب شبعان من شيء آخر ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود فالنصاري عبدوهم واليهود قتلوهم وكذبوهم والأمة الوسط: آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية فإن الطرفين من العدوان الضار وعلى هذا الحد فحقيقة الأدب: هي العدل والله أعلم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: منع الخوف: أن لا يتعدى إلى اليأس وحبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن وضبط السرور: أن يضاهىء الجرأة يريد: أنه لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله فإن هذا الخوف مذموم

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك: فهو غير محتاج إليه وهذا الخوف الموقع في الإياس: إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها وأما حبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حد يأمن معه العقوبة فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وهذا

إغراق في الطرف الآخر بل حد الرجاء: ما طيب لك العبادة وحملك على السير فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة فإذا انقطعت وقفت السفينة وإذا زادت ألقتها إلى المهالك وإذا كانت بقدر: أوصلتها إلى البغية

وأما ضبط السرور: أن يخرج إلى مشابهة الجرأة فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم الذين لا تستفزهم السراء فتغلب شكرهم ولا تضعفهم الضراء فتغلب صبرهم كما قيل:

لا تغلب السراء منهم شكرهم . . . كلا ولا الضراء صبر الصابر

(168/772)

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته وتشبهه في صفاته ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح فالنفس تسترق السمع فإذا نزلت على القلب تلك المواهب: وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره من عدتها وحواصلها فالمسترسل معها الجاهل بها: يدعها تستوفي ذلك فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها فصالت به وطغت لأنها رأت غناها به والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدرا من المال بما لا نسبة بينهما: من علم أو حال أو معرفة أو كشف فإذا صار ذلك من حاصلها: انحرف العبد به ولابد إلى طرف

مذموم من جرأة أو شطح أو إدلال ونحو ذلك فوالله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول: من أين أتيت ومن أين

دهيت ومن أين أصبت وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد

ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئًا من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس واستدعوا حارس الخوف وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ونظروا إلى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه وأدناهم منه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قربوس سرجه: انخفاضا وانكسارا وتواضعا لربه تعالى في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها: أن يملكها سرورها وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها إلى عنان السماء فالرجل: من صان فتحه ونصيبه من الله وواره عن استراق نفسه وبخل عليها به والعاجز: من جاد لها به فيا له من جود ما أقبحه وسماحة ما أسفه صاحبها والله المستعان

فصل قال: الدرجة الثانية: الخروج عن الخوف إلى ميدان القبض والصعود

من الرجاء إلى ميدان البسط ثم الترقي من السرور إلى ميدان المشاهدة ذكر في الدرجة الأولى: كيف يحفظ الحد بين المقامات حتى لا يتعدى إلى غلو أو جفاء وذلك سوء أدب

فذكر مع الخوف: أن يخرجه إلى اليأس ومع الرجاء: أن يخرجه إلى الأمن ومع السرور: أن يخرجه إلى الجرأة ثم ذكر في هذه الدرجة: أدب الترقي من هذه الثلاثة إلى ما يحفظه عليها ولا يضيعها بالكلية كما أن في الدرجة الأولى: لا يبالغ به بل يكون خروجه من الخوف إلى القبض يعني لا يزايل الخوف بالكلية فإن قبضه لا يؤيسه ولا يقنطه ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان

البسط بل يكون بين القبض والبسط وهذه حال الكمل وهي السير بين القبض والبسط وسروره: لا يقعد به عن ترقيه إلى ميدان مشاهدته بل يرقى بسروره إلى المشاهدة ويرجع من رجائه إلى البسط ومن خوفه إلى القبض

ومقصوده: أن ينتقل من أشباح هذه الأحوال إلى أرواحها فإن الخوف شبح والقبض روحه والرجاء شبح والبسط روحه والسرور شبح والمشاهدة روحه فيكون حظه من هذه الثلاثة: أرواحها وحقائقها لا صورها ورسومها

فصل قال: الدرجة الثالثة: معرفة الأدب ثم الفناء عن التأدب بتأديب

الحق ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب قوله: معرفة الأدب يعني لابد من الاطلاع على حقيقته في كل درجة وإنما يكون ذلك في الدرجة الثالثة فإنه يشرف منها على الأدب في الدرجتين الأوليين فإذا عرفه وصار له حالا فإنه ينبغي له أن يفنى عنه بأن يغلب عليه

شهود من أقامه فيه فينسبه إليه تعالى دون نفسه ويفنى عن رؤية نفسه وقيامها بالأدب بشهود الفضل لمن أقامها فيه ومنته فهذا هو الفناء عن التأدب بتأديب الحق قوله: ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب يعني: أنه يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ففناؤه عن الأدب فيها: هو الأدب حقيقة فيستريح حينئذ من كلفة حمل أعباء الأدب وأثقاله لأن استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئا من أعباء الأدب والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 375. 396 ﴾

(170/772)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم الأمر بالوقاية والمدح للملائكة أن المأمورين بالوقاية مقصرون قال مرشداً إلى داوء التقصير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ناداهم بما هو أليق بهم من أداة البعد ﴿ توبوا ﴾ أي ارجعوا رجوعاً تاماً ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له .

ولما كان كل فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث قال : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ أي بالغة في كونها ناصحة عن الإسناد المجازي أي منصوحاً فيها بالإخلاص في الأزمان الثلاثة ، الماضي بالندم ، والحال بالإقلاع .

والمستقبل بالعزم على عدم العود إلى الذنب ، فلا يقع فيها رجوع كما لا يعود الحليب إلى الضرع ، فلا يؤذي أحد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإن أذى رسوله من أذاه ، قال القرطبي : النصوح مجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الإخوان ، وقال رويم الراعي : هي أن تكون لله وجهاً بلا قفا كما كانت له عند المعصية قفاء بلا وجه .

(171/772)

ولما أمر بالتوبة عللها بما يفيد الإطماع من الإقامة بين الرجاء والخوف إعلاماً بأن هذا المقام هو المنجي لأنه اعتقاد الكمال له سبحانه وهو أن له أن يفعل ما يشاء في المطيع وغيره بقوله : ﴿ عسى ربكم ﴾ أي افعلوا ذلك ليكون المحسن إليكم بهذا البيان جديراً أو حقيقاً ﴿ أن يكفر ﴾ أي يغطي تغطية عظيمة ﴿ عنكم ﴾ أي بالتوبة ، وإذا كان التائب على خطر فما ظنك بالمصر على ذنوبه ﴿ سيئاتكم ﴾ أي ما بدا منكم ما يسوءه .

ولما ذكر نفع التوبة في دفع المضار ، ذكر نفعها في جلب المسار فقال : ﴿ ويدخلكم ﴾ أي يوم الفصل ﴿ جنات ﴾ أي بساتين كثيرة الأشجار تستر داخلها لأنها ﴿ تجري ﴾ .

ولما كان ذلك الجري في بعض أرضها قال معبراً بأداة التبعيض : ﴿ من تحتها ﴾ أي تحت غرفها وأشجارها ﴿ الأنهار ﴾ فهي لا تزال ريا .

ولما ذكر الغفران والإكرام .

ذكر وقته فقال مبشراً لأهله معرضاً لغيرهم مستحمداً لأهل وده لكونه وفقهم ولم يخذلهم كأعدائه : ﴿ يوم لا يخزي الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة بالكمال ﴿ النبي ﴾ أي الرجل الذي ينبئه الله بما يوجب له الرفعة التامة من الإخبار التي هي في غاية العظمة ﴿ والذين ﴾ أي ولا يخزي الذين ﴿ آمنوا معه ﴾ وهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم إن كان المراد المعية في مطلق الزمان ، وسابقوهم إن كان المراد في الوصف أو زمان مخصوص كبدر وبيعة الرضوان لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لا يدخل النار أحد بايع

تحت الشجرة "كما رواه مسلم عن أم مبشر ـ رضى الله عنه ـ ا وأبو داود والترمذي عن جابر ـ رضى الله عنه ـ : " ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال : " اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " "

(172/772)

وقال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا ﴾ [الحديد : 10] إلى قوله ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10] ونساءه ـ رضى الله عنه ـ ن أحق بأن يكن أول راغب في الكون معه في الإيمان ليبعدن عن النيران ، وإذا استحضرت قصص الأنبياء من سورة هود عليه الصلاة والسلام اتضح لك حسن هذا الوجه ، ويجوز أن يكون " الذين " مبتدأ خبره " نورهم " أو يكون الخبر " معه " إشارة إلى أن جميع الأنبياء وصالحي أممهم من أمته وتحت لوائه ، وذلك في غاية ما يكون من الشرف والرفعة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيمان المقيد بمعيته ، أي تأهله لمصاحبة إيمانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير الإيمان المطلق ، فلا مانع من أن يدخل غيرهم من المؤمنين النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين فلا متمسك للمعتزلة بها في أن مرتكب الكبائر مخلد في النار لأنه داخل النار فهو مخزي ، فهو غير موصوف بالإيمان لأن من اتصف بالإيمان لا يخزى

بدليل هذه الآية ، قال أبو حيان : وفي الحديث : " أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تضرع في أمر أمته فأوحى الله إليه : إن شئت جعلت حسابهم إليك ، فقال : يا رب ! أنت أرحم بهم مني ، فقال تعالى : إذاً لا أخزيك فيهم " .

ولما نفى عنهم الخزي ، فسره بقوله مقدماً للنور لأن السياق لتعظيم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخلاف ما مضى في الحديد : ﴿ نورهم يسعى ﴾ أي سعياً مستمر التجدد ، وعلى التفسير الآخر تكون هذه الجملة حالية ، ويجوز أن تكون خبراً ل " الذين " إذا جعلناه مبتدأ ﴿ بين أيديهم ﴾ وحذف الجار إشارة إلى أنه ملأ تلك الجهة ﴿ و ﴾ كذا ﴿ بأيمانهم ﴾ وأما ما يلي شمائلهم فإنهم لا يلتفتون إليه لأنهم إما من السابقين وإما من أهل اليمين ، فهم يمشون فيما بين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما ، وأما أهل الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم بما لهم من النر إن قالوا سمع لهم وإن شفعوا شفعوا .

(173/772)

ولما كانت إدامة للملك هي أشرف صفات العبد قال : ﴿ يقولون ﴾ أي مجددين لذلك دائماً لعلمهم أن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء ، لا حق لأحد عليه ولا سيما إذا رأوا انطفاء نور المنافقين ، قال سهل : لا يسقط الافتقار إلى الله تعالى عن المؤمنين في الدنيا ولا في الآخرة

بل هم في الآخرة أشد افتقاراً إليه وإن كانوا في دار العز لشوقهم إلى لقائه : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كنا أو نكون فيه ﴿ أتمم ﴾ فأظهروا لأن المقام له .

ولما كان الإنسان ربما رزق شيئاً فانتفع به غيره دونه قالوا : ﴿ لنا نورنا ﴾ أي الذي مننت به علينا حتى يكون في غاية التمام فتوصلنا به إلى المأمن في دار السلام ، ولا تجعلنا كالمنافقين الذين أطفأت أنوارهم فكانت عاقبتهم إلى الظلام .

ولما كان كل من حسن أدبه لا بد أن يعتقد في نفسه النقص ، قالوا على سبيل الذلة والمسكنة والتواضع : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي امح عنا كل نقص كان يميل بنا إلى أحوال المنافقين عينه وأثره ، وهذا النور هو صورة أعمالهم في الدنيا لأن الآخرة تظهر فيها حقائق الأشياء وتتبع الصور معانيها ، وهو شرع الله الذي شرعه وهو الصراط الذي يضرب بين ظهراني جهنم لأن الفضائل في الدنيا متوسطة بين الرذائل ، فكل فضيلة تكتنفها رذيلتان : إفراط وتفريط ، فالفضيلة هي الصراط المستقيم ، والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله ، فمن كان يمشي في الدنيا على ما أمر به سواء من غير إفراط ولا تفريط كان نوره تاماً ، ومن أمالته الشهوات طفىء نوره – أعاذنا الله من ذلك ورزقنا حسن الثبات ، وكان ذلك الطفىء في بعض الأوقات واختطفته كلاليب هي صور الشهوات فتميل به في النار بقدر ميله إليها ، والمنافق يظهر له نور إقراره بكلمة التوحيد ، فإذا مشى طفىء لأن إقراره لا حقيقة له فنوره لا حقيقة له .

(174/772)

ولما كان ما ذكر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، علله بقوله مؤكداً لإنكار الكفار البعث وما تفرع عنه : ﴿ إنك ﴾ أي وحدك ﴿ على كل شيء ﴾ أي يمكن دخول المشيئة فيه ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة .

(175/772)

ولما ذكر ما تقدم من لينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأضعف الناس النساء وحسن أدبه وكريم عشرته لأنه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم ، وختم بما للمؤمنين من الشرف ولله من تمام القدرة ، أنتج ذلك القطع بإذلال أعدائهم وإخزائهم فقال مدارياً لهم من خطر ذلك اليوم بيد أنصح الخلق ليكون ـ صلى الله عليه وسلم ـ جامعاً في طاعته سبحانه وتعالى بين المتضادات من اللين والشدة والرضى والغضب والحلم والانتقام وغيرها ، فيكون ذلك أدل على التعبد لله بما أمر به سبحانه وتعالى والتخلق بأوامره وكل ما يرضيه : ﴿ يا أيها النبي ﴾ منادياً بأداة التوسط إسماعاً للأمة الوسطى تنبيهاً على أنهم المنادون في

الحقيقة ، ولأجل دلالتها على التوسط والله أعلم كان لا يتعقبها إلا ما له شأن عظيم ، معبراً بالوصف الدال على الرفعة بالإعلام بالأخبار الإلهية المبني على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة ، وأما وصف الرسالة فيغلب فيه الرحمة فيكثر إقباله على اللين والمسايسة نظراً إلى وصف الربوبية : ﴿ جاهد الكفار ﴾ أي الجاهرين بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف وما دونه ليعرف أن الأسود إنما اكتسبت من صولتك ، فيعرف أن ذلك اللين لأهل الله إنما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك ، وكبير حلمك وخوفك من الله ونبلك :

﴿ والمنافقين ﴾ أي المساترين بما يليق بهم من الحجة إن استمروا على المساترة ، والسيف إن احتيج إليه إن أبدوا نوع مظاهرة ﴿ وأغلظ ﴾ أي كن غليظاً بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والإبعاد والهجر ﴿ عليهم ﴾ فإن الغلظة عليهم من اللين لله كما أن اللين لأهل الله من خشية الله ، وقد أمره سبحانه باللين لهم في أول الأمر لإزالة أعذارهم وبيان إصرارهم ، فلما بلغ الرفق أقصى مداه جازه إلى الغلظة وتعداه ، وقد بان بهذه الآية أن أفعل التفضيل في قول النسوة لعمر ـ رضى الله عنه ـ : " أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " على بابه ولا محذور .

(176/772)

ولما كان انتقام الولي من العدو إنما هو لله سبحانه وتعالى ، لاحظ له فيه ، فكان موجباً لعدم اكتفاء الله به في حق الولي ، فكان التقدير : فإنهم ليس لهم عصمة ولا حرمة في الدنيا ولا قوة وإن لاح في أمرهم خلاف ذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ جهنم ﴾ أي الدركة النارية التي تلقى داخلها بالعبوسة والكراهة .

ولما كان التقدير : إليها مصيرهم لا محالة ، عطف عليه قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي هي ، فذلك جزاء الله لهم عن الإساءة إلى أوليائه والانتقاص لأحبائه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 53 . 57 ﴾

(177/772)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾

قوله : ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ أي توبة بالغة في النصح ، وقال الفراء : نصوحاً من صفة التوبة والمعنى توبة تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه ، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم ، وعن عاصم ، ﴿ نَّصُوحاً ﴾ بضم النون ، وهو مصدر نحو العقود ،

يقال : نصحت له نصحاً ونصاحة ونصوحاً ، وقال في "الكشاف" : وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي ، وهو أن يتوبوا عن القبائح نادمين عليها غاية الندامة لا يعودون ، وقيل : من نصاحة الثوب ، أي خياطته و ﴿ عسى رَبُّكُمْ ﴾ إطماع من الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النبي ﴾ نصب بيدخلكم ، و ﴿ لا يخزي ﴾ تعريض لمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسق واستحماد للمؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ، ثم المعتزلة تعلقوا بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النبي ﴾ وقالوا : الإخزاء يقع بالعذاب ، فقد وعد بأن لا يعذب الذين آمنوا ، ولو كان أصحاب الكبائر من الإيمان لم نخف عليهم العذاب ، وأهل السنة أجابوا / عنه بأنه تعالى وعد أهل الإيمان بأن لا يخزيهم ، والذين آمنوا ابتداء كلام ، وخبره ﴿ يسعى ﴾ ، أو ﴿ لا يخزي الله ﴾ ، ثم من أهل السنة من يقف على قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النبي ﴾ أي لا يخزيه في رد الشفاعة ، والإخزاء الفضيحة ، أي لا يفضحهم بين يدي الكفار ، ويجوز أن يعذبهم على وجه لا يقف عليه الكفرة ، وقوله : ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي عند المشي ﴿ وبأيمانهم ﴾ عند الحساب ، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير ، ويسعى النور بين أيديهم في موضع وضع الأقدام وبأيمانهم ، لأن خلفهم وشمالهم طريق الكفرة .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ قال ابن عباس : يقولون ذلك عند إطفاء نور المنافقين إشفاقاً ، وعن الحسن : أنه تعالى متمم لهم نورهم ، ولكنهم يدعون تقرباً إلى حضرة الله تعالى ، كقوله : ﴿ واستغفر لذَنبكَ ﴾ [محمد : 19] وهو مغفور ، وقيل : أدناهم منزلة من نوره بقدر ما يبصر مواطىء قدمه ، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبواً وزحفاً ، فهم الذين يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ قاله في "الكشاف" ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ ذكر المنافقين مع أن لفظ الكفار يتناول المنافقين ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ أي شدد عليهم ، والمجاهدة قد تكون بالقتال ، وقد تكون بالحجة تارة باللسان ، وتارة بالسنان ، وقيل : جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، لأنهم هم المرتكبون الكبائر ، لأن أصحاب الرسول عصموا منها ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ وقد مر بيانه ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : كيف تعلق ﴿ يا أيها الّذين آمنوا ﴾ بما سبق وهو قوله : ﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ ﴾ [التحريم : 7] ؟ فنقول : نبههم تعالى على دفع العذاب في ذلك اليوم بالتوبة في هذا اليوم ، إذ في ذلك اليوم لا تفيد وفيه لطيفة : وهي أن التنبيه على الدفع بعد الترهيب فيما مضى يفيد الترغيب بذكر أحوالهم والإنعام في حقهم وإكرامهم .

البحث الثاني : أنه تعالى لا يخزي النبي في ذلك اليوم ولا الذين آمنوا ، فما الحاجة إلى قوله ﴿ مَعَهُ ﴾ ؟ فنقول : هي إفادة الاجتماع ، يعني لا يخزي الله المجموع الذي يسعى نورهم وهذه فائدة عظيمة ، إذ الاجتماع بين الذين آمنوا وبين نبيهم تشريف في حقهم وتعظيم .

(179/772)

البحث الثالث : قوله : ﴿ واغفر لَنَا ﴾ يوهم أن الذنب لازم لكل واحد من المؤمنين والذنب لا يكون لازماً ، فنقول : يمكن أن يكون طلب المغفرة لما هو اللازم لكل ذنب ، وهو التقصير في الخدمة والتقصير لازم لكل واحد من المؤمنين .

البحث الرابع : قال تعالى في أول السورة : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم : 1] ومن بعده ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾ خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه كقوله لآدم يا آدم ، ولموسى يا موسى ولعيسى يا عيسى ، نقول : خاطبه بهذا الوصف ، ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر .

البحث الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يدل على أن مصيرهم بئس المصير مطلقاً إذ المطلق يدل على الدوام ، وغير المطلق لا يدل لما أنه يطهرهم عن الآثام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 42 . 43 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ﴾

معناه : اجعلوا وقاية بينكم وبين النار ، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة ، وقوله تعالى : ﴿ وأهليكم ﴾ معناه : بالوصية لهم والتقويم والحمد على طاعة الله تعالى ، وفي حديث : " لا تزن فيزني أهلك " ، وفي حديث آخر : " رحم الله رجلاً قال : يا أهلاه ، صلاتكم ، صيامكم ، مسكينكم ، يتيمكم " ، وقرأ الجمهور : " وقَودها " بفتح الواو ، وقرأ مجاهد والحسن وطلحة وعيسى والفياض بن غزوان وأبو حيوة بضمها ، وقيل هما بمعنى ، وقيل الضم مصدر والفتح اسم ، ويروى أن ﴿ الحجارة ﴾ : هي حجارة الكبريت ، وقد تقدم القول في ذلك في سورة البقرة . ويروى أنها جميع أنواع الحجارة ، وفي بعض الحديث أن عيسى ابن مريم سمع أنيناً في فلاة من الأرض فتبعه حتى بلغ إلى حجر يئن ويحزن ، فقال له : ما بالك أيها الحجر ؟ فقال : يا روح الله ، إني سمعت الله يقول : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ، فخفت أن أكون من تلك الحجارة ، فعجب منه عيسى وانصرف ، ويشبه أن يكون هذا المعنى في التوراة أو في الإنجيل ، فذلك الذي سمع الحجر إذا عبر عنه بالعربية

كان هذا اللفظ ، ووصف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : 159] والشدة القوة ، وقيل المراد شدتهم على الكفار ، فهي بمعنى الغلظ ، ووصفهم تعالى بالطواعية لربهم ، وكرر المعنى تأكيداً بقوله تعالى : ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ما يقتضي أنهم يدخلون الكفار النار بجد واختيار ، ويغلظون عليهم ، فكأنه قال بعد تقرير هذا المعنى ، فيقال للكفار : ﴿ لا تعتذروا اليوم ﴾ : أي إن المعذرة لا تنفعكم ، وإنما تجزون بأعمالكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، ثم أمر عباده بالتوبة ، والتوبة فرض على كل مسلم ، وتاب معناه : رجع فتوبة العبد : رجوعه من المعصية إلى الطاعة ، وتوبة الله تعالى على العبد إظهار صلاحه ونعمته

(181/772)

عليه في الهداية إلى الطاعة ، وقبول توبة الكفار يقطع بها على الله إجماعاً من الأمة ، واختلف الناس في توبة العاصي ، فجمهور أهل السنة على أنه لا يقطع بقبولها ولا ذلك على الله بواجب ، والدليل على ذلك دعاء كل واحد من المذنبين في قبول التوبة ولو كانت مقطوعاً بها لما كان معنى للدعاء في قبولها ، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة

، وروي عن أبي الحسن الأشعري أنه قال : التوبة إذا توفرت شروطها قطع على الله بقبولها لأنه تعالى أخبر بذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا المسك بظواهر القرآن ، وعلى هذا القول أطبقت المعتزلة ، والتوبة الندم على فارط المعصية والعزم على ترك مثلها في المستقبل ، وهذا من المتمكن ، وأما غير المتمكن كالمجبوب في الزنا فالندم وحده يكفيه ، والتوبة عبادة كالصلاة ونحوها ، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب ، فتوبته الأولى لا تفسدها عودة بل هي كسائر ما تحصل من العبادات ، والنصوح بناء مبالغة من النصح إلى توبة نصحت صاحبها وأرشدته ، وقرأ الجمهور : "نَصوحاً" بفتح النون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم وخارجة عن نافع والحسن والأعرج وعيسى : "نُصوحاً" بضم النون ، وهو مصدر ، يقال : نصح ، ينصح ، نصاحة ، ونصاحة قاله الزجاج ، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور وغيره ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التوبة النصوح ، هي أن يتوب ثم لا يعود ، وقال أبو بكر الوراق : هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خلفوا ، وقوله تعالى : ﴿ عسى ربكم ﴾ الآية ، ترجية ، وقد روي أن ﴿ عسى ﴾ من الله واجبة ، والعامل في ﴿ يوم ﴾ قوله : ﴿ يدخلكم ﴾ ، وروي في معنى قوله تعالى : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي ﴾ ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم تضرع في أمر أمته فأوحى الله إليه : إن شئت جعلت حسابهم إليك ، فقال :

" يا رب أنت أرحم بهم " فقال الله تعالى : إذا لا أخزيك فيهم ، فهذا معنى قوله : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي ﴾ ، والخزي المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى نقصه ، أو سوء منزلته ، وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ النبي ﴾ فيخرج المؤمنون من الخزي ، ويحتمل أن يكون ابتداء ، و ﴿ نورهم يسعى ﴾ جملة هي خبره ، ويبقى النبي صلى الله عليه وسلم مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يخزى ، وقد تقدم القول في نظير قوله : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [التحريم : 8] ، وقرأ سهل بن سعد : " وبإيمانهم " ، بكسر الهمزة ، وقوله تعالى : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ ، قال الحسن بن أبي الحسن هو عندما يرون من انطفاء نور المنافقين حسبما تقدم تفسيره ، وقيل يقول من أعطي من النور بقدر ما يرى قدميه فقط .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

هذه الآية تأكيد لأمر الجهاد وفضله المتقدم ، والمعنى دم على جهاد الكافرين بالسيف ، وجاهد المنافقين بنجههم وإقامة الحدود عليهم وضربهم في كل جرائمهم ، وعند قوة الظن بهم ، ولم يعين الله تعالى لرسوله منافقاً يقع القطع بنفاقه ، لأن التشهد الذي كانوا يظهرون كان

ملبساً لأمرهم مشبهاً لهم بالعصاة من الأمة . والغلظة عليهم هي فظاظة القلب والانتهار وقلة الرفق بهم ، وقرأ الضحاك : " وأغِلظ " بسكر اللام وقطع الألف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(183/772)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله ﴾ أمر بالتوبة ، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان .

وقد تقدّم بيانها والقول فيها في "النساء" وغيرها .

﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا ؛ فقيل : هي التي لا عَوْدة بعدها كما لا يعود اللّبن إلى الضَّرع ؛ وروي عن عمر وابن مسعود وأُبَيّ بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم .

ورفعه مُعاذ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : النَّصُوح الصادقة الناصحة .

وقيل الخالصة ؛ يقال : نصح أي أخلص له القول .

وقال الحسن : النَّصُوح أن يُبْغِض الذنب الذي أحبّه ويستغفر منه إذا ذكره .

وقيل : هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وَجَل منها .

وقيل : هي التي لا يحتاج معها إلى توبة .

وقال الكلبيّ : التوبة النصوح النّدم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على أنه لا يعود .

وقال سعيد بن جُبير : هي التوبة المقبولة ؛ ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط : خوف ألا تقبل ، ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات .

وقال سعيد بن المسيّب : توبة تنصحون بها أنفسكم .

وقال القرظي : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العَوْد بالجنَان ، ومهاجرة سيء الخِلان .

وقال سفيان الثَّوْري : علامة التوبة بالنصوح أربعة : القِلّة والعِلة والذِّلّة والغُرْبة .

وقال الفُضَيل ابن عياض : هو أن يكون الذنب بين عينيه ، فلا يزال كأنه ينظر إليه .

ونحوه عن ابن السّماك : أن تَنصِب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعدّ لمنتظرك .

وقال أبو بكر الوَرَّاق : هو أن تضيق عليك الأرض بما رحُبَت ، وتضيق عليك نفسك ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا .

(184/772)

وقال أبو بكر الواسطي : هي توبة لا لفقد عِوض ؛ لأن من أذنب في الدنيا لرَفَاهِية نفسه ثم تاب طلباً لرفاهيتها في الآخرة ؛ فتوبته على حفظ نفسه لا لله .

وقال أبو بكر الدَّقاق المصري : التوبة النصوح هي ردّ المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات .

وقال رُوَيْم : هو أن تكون لله وجهاً بلا قَفَا ، كما كنت له عند المعصية قَفاً بلا وجه .

وقال ذو النُّون : علامة التوبة النصوح ثلاث : قِلّة الكلام ، وقِلّة الطعام ، وقِلّة المنام .

وقال شقيق : هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة ، ولا ينفك من الندامة ؛ لينجوَ من آفاتها بالسلامة .

وقال سَرِيّ السَّقَطِيّ : لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ؛ لأن من صحب توبته أحبّ أن يكون الناس مثله .

وقال الجُنَيْد : التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبداً ؛ لأن من صحّت توبته

صار مُحباً لله ، ومن أحبّ الله نَسِيَ ما دون الله .

وقال ذو الأُذُنَيْن : هو أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح ، وقلبٌ عن المعاصي جَمُوح .

وقال فتح المَوْصِليّ : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظمأ .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هي التوبة لأهل السنة والجماعة ؛ لأن المبتدع لا توبة له ؛ بدليل :

قوله صلى الله عليه وسلم : " حجب الله على كل صاحب بدعة أن يتوب " وعن حُذَيْفَة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه .

وأصل التوبة النصوح من الخلوص ؛ يقال : هذا عَسَلٌ ناصح إذا خَلَص من الشَّمْع .

وقيل : هي مأخوذة من النَّصاحة وهي الخياطة .

وفي أخذها منها وجهان : أحدهما لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخيّاط الثوب بخياطته ويوثقه .

والثاني لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم ؛ كما يجمع الخياط الثوب ويُلصق بعضه ببعض .

وقراءة العامة "نَصُوحاً" بفتح النون ، على نعت التوبة ، مثل امرأة صبور ، أي توبة بالغة في النصح .

وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بالضم ؛ وتأويله على هذه القراءة : توبةُ نصح لأنفسكم .

وقيل : يجوز أن يكون "نُصُوحاً" ، جمع نُصح ، وأن يكون مصدراً ، يقال : نصح نصاحة ونُصُوحا .

وقد يتفق فعالة وفعول في المصادر ، نحو الذِّهاب والذُّهوب .

وقال المبرّد : أراد توبة ذات نُصح ، يقال : نصحت نصحاً ونَصاحة ونُصوحاً .

الثانية : في الأشياء التي يُتاب منها وكيف التّوبة منها .

قال العلماء : الذنب الذي تكون منه التوبة لايخلو ، إما أن يكون حقاً لله أو للآدميين .

فإن كان حقاً لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاءُ ما فات منها .

وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطاً في الزكاة .

وإن كان ذلك قتلَ نفس بغير حق فأن يُمَكِّن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوباً به .

وإن كان قذفاً يوجب الحدّ فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوباً به .

فإن عُفِيَ عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص .

وكذلك إن عُفيَ عنه في القتل بمال فعليه أن يؤدّيه إن كان واجداً له ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : 178] .

وإن كان ذلك حداً من حدود الله كائناً ما كان فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه .

وقد نصّ الله تعالى على سقوط الحدّ عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم .

وفي ذلك دليل على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم ؛ حسب ما تقدم بيانه .

وكذلك الشُّرّاب والسُّراق والزُّناة إذا أصلحوا وتابوا وعُرف ذلك منهم ، ثم رفعوا إلى الإمام فلا ينبغي له أن يحدّهم .

وإن رُفعوا إليه فقالوا : تُبْنا ، لم يتركوا ، وهم في هذه الحالة كالمحاربين إذا غُلبوا .

هذا مذهب الشافعيّ .

(186/772)

فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا بردّه إلى صاحبه والخروج عنه عَيْناً كان أو غيره إن كان قادراً عليه ، فإن لم يكن قادراً فالعزم أن يؤدّيه إذا قَدَرَ في أعجل وقت

وأسرعه .

وإن كان أضرّ بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتى ، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه ، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له ، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه .

وإن أرسل من يسأل ذلك له ، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه عَرفَه بعينه أو لم يعرفه فذلك صحيح .

وإن أساء رجل إلى رجل بأن فزّعه بغير حقّ ، أو غمّه أو لطمه ، أو صفعه بغير حقّ ، أو ضربه بسوط فآلمه ، ثم جاءه مستعفِياً نادماً على ما كان منه ، عازماً على ألاّ يعود ، فلم يزل يتذلّل له حتى طابت نفسه فعفا عنه ، سقط عنه ذلك الذنب .

وهكذا إن كان شانَه بشتم لا حدّ فيه .

قوله تعالى : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ "عسى" من الله واجبة .

وهو معنى قوله عليه السلام : " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " و "أن" في موضع رفع اسم عسى .

قوله تعالى : "وَيُدْخِلَكُمْ" معطوف على ﴿ يُكَفِّرَ ﴾ .

وقرأ ابن أبي عَبْلة ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ ﴾ مجزوماً ، عطفاً على محل عسى أن يكفّر .

كأنه قيل : توبُوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار .

﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النبي ﴾ العامل في "يَوْمَ" : "يُدخلكم" أو فعل مضمر .

ومعنى "يُخْزي" هنا يعذّب ، أي لا يعذّبه ولا يعذّب الذين آمنوا معه .

﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ تقدم في سورة "الحديد" .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَآ إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين ؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة "الحديد" .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾

(187/772)

فيه مسألة واحدة وهو التشديد في دين الله .

فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله .

والمنافقين بالغلْظة وإقامة الحجة ، وأن يعرّفهم أحوالهم في الآخرة ، وأنهم لا نور لهم يَجُوزون به الصراط مع المؤمنين .

وقال الحسن : أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود .

وكانت الحدود تقام عليهم .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يرجع إلى الصّنفين .

﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(188/772)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾

بتركِ المعاصِي وفعلِ الطاعاتِ ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بأنْ تأخذوهم بما تأخذونَ به أنفسَكُم وقُرِىءَ أهلُوكم عطفاً على واو قُوا فيكونَ أنفسَكُم عبارةً عن أنفسِ الكلِّ على تغليبِ المخاطبينَ أي قُوا أنتُم وأهلُوكم أنفسكُم ﴿ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ أي ناراً تتقدُ بهمَا اتقادَ غيرِها بالحطبِ وأمرَ المؤمنينَ باتقاءِ هذه النارِ المعدةِ للكافرينَ كما نصَّ عليهِ في سورةِ البقرةِ للمبالغةِ في التحذيرِ ﴿ عَلَيْهَا ملائكة ﴾ أي تَلي أمرَها وتعذيبَ أهلِهَا وهم الزبانيةُ ﴿ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ غلاظُ الأقوالِ شدادُ الأفعالِ أو غلاظُ الخُلقِ شدادُ الخَلقِ أقوياءُ على الأفعالِ الشديدةِ ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ﴾ أي أمرَهُ على أنَّهُ بدلُ اشتمالٍ من الله أو فيما أمرَهُم بهِ على نزعِ الخافضِ أي لا يمتنعُون من قبولِ الأمرِ ويلتزمونَهُ ﴿

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي ويؤدونَ ما يُؤمرونَ بِهِ من غيرِ تثاقلٍ ولا توانٍ . وقولُه تعالَى : ﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ مقولٌ لقولٍ قد حُذفَ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليهِ أي يُقالُ لهم ذلكَ عند إدخالِ الملائكةِ إياهم النارَ حسبما أُمروا بهِ ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا من الكفرِ والمعاصِي بعدَ ما نُهيتُم عنهُما أشدَّ النَّهي وأُمرتم بالإيمانِ والطاعةِ فلا عذرَ لكُم قطعاً .

(189/772)

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ أي بالغةً في النصحِ وُصفتْ التوبةُ بذلكَ على الإسنادِ المجازِي وهو وَصفُ التائبينَ وهو أنْ ينصحُوا بالتوبةِ أنفسَهُم فيأتُوا بها على طريقتِهَا وذلكَ أن يتوبُوا عن القبائحِ لقُبحِها نادمينَ عليها مغتمينَ أشدَّ الاغتمامِ لارتكابِهَا عازمينَ على أنَّهم لا يعودونَ في قبيحٍ من القبائحِ موطِّنينَ أنفسَهُم على ذلكَ بحيثُ لا يَلويهم عنه صارفٌ أصلاً . عن عَلي رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ التوبةَ يجمعها ستةُ أشياءٍ : على الماضِي من الذنوبِ الندامةُ وللفرائضِ الإعادةُ وردُّ المظالمِ واستحلالُ الخصومِ وأن تعزمَ على أنْ لا تعودَ وأن تذيبَ نفسكَ في طاعةِ اللهِ كما ربيتها في المعصيةِ وأن تذيقَها مرارةَ الطاعةِ كما أذقتَها حلاوةَ المعصيةِ . وعن شهرِ بنِ حَوْشَبَ أنْ لا يعودَ ولو حُزَّ بالسيفِ

وأُحرقَ بالنَّارِ ، وقيلَ نصوحاً من نصاحةِ الثوبِ أي توبةٌ ترفُو خروقَكَ في دينكَ وترمُّ خَلَّكَ وقيل خالصةٌ من قولِهم عسلٌ ناصحٌ إذا خلصَ من الشمعِ . ويجوزُ أنْ يرادَ توبةً تنصحُ الناسُ أي تدعُوهم إلى مثلِها لظهورِ أثرِها في صاحبِها واستعمالِه الجدَّ والعزيمةَ في العملِ بمقتضياتِهَا وقُرِىءَ توباً نصوحاً ، وقُرِىءَ نُصوحاً وهو مصدرُ نصحَ فإنَّ النُّصحَ والنُّصوحَ كالشكرِ والشُكورِ أي ذاتُ نصوحٍ أو تنصحُ نصوحاً أو توبُوا لنصحِ أنفسِكُم على أنَّه مفعولٌ له ﴿ عسى ربُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم ويُدْخِلَكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ورودُ صيغةِ الإطماعِ للجريِ على سنَنِ الكبرياءِ والإشعارِ بأنَّهُ تفضلٌ والتوبةُ غيرُ موجبةٍ له وأن العبدَ ينبغِي أن يكونَ بين خوفٍ ورجاءٍ وإنْ بالغَ إقامةِ وظائفِ العبادةِ .

(190/772)

﴿ يَوْمٌ لاَّ يُخْزِى الله النبى ﴾ ظرفُ ليدخلَكُمْ ﴿ والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ عطفٌ على النبيِّ وفيهِ تعريضٌ بمن أخزاهُم الله تعالَى من أهلِ الكفرِ والفسوقِ واستحمادٌ إلى المؤمنينَ على أنَّ عصمَهُم من مثلِ حالِهم وقيلَ هو مبتدأٌ خبرُهُ قولُهُ تعالَى : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ أيْ على الصراطِ وهو على الأولِ استئنافٌ أو حالٌ وهذا قولُه تعالَى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ وعلى الثاني خبرٌ آخرُ للموصولِ أي يقولونَ إذا طُفِىءَ نورُ المنافقينَ ﴾

رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقيل يدعونَ تقرباً إلى الله مع تمامِ نورِهِم وقيل تتفاوتُ أنوارُهُم بحسبِ أعمالِهم فيسألونَ إتمامَهُ تفضُّلاً وقيل السابقونَ إلى الجنةِ يمرونَ مثلَ البرقِ على الصراطِ وبعضُهم كالريحِ وبعضُهُم حَبْواً وزحفاً وأولئكَ الذينَ يقولونَ ربنا أتمِمْ لنا نورَنَا .

﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار ﴾

بالسيفِ ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجَّةِ ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ واستعملِ الخشونةَ على الفريقينِ فيما تجاهدهُما من القتالِ والمحاجَّة ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ سيرونَ فيها عذاباً غليظاً ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي جهنمُ أو مصيرُهُم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(191/772)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله ﴾

من الذنوب .

﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ أي بالغة في النصح فهو من أمثلة المبالغة كضروب وصفت التوبة به

على الإسناد المجازي وهو وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها ، ولعله ما تضمنه ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : " قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع " وروى تفسيرها بما ذكر عن عمر .

وابن مسعود .

وأبي .

والحسن .

ومجاهد .

وغيرهم ، وقيل : نصوحاً من نصاحة الثوب أي خياطته أي توبة ترفو خروقك في دينك وترم خللك ، وقيل : خالصته من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع ، وجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعمال الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها ، وفي المراد بها أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولاً : منها ما سمعت .

وقرأ زيد بن علي توبا بغير تاء ، وقرأ الحسن .

والأعرج .

وعيسى .

وأبو بكر عن عاصم .

وخارجة عن نافع ﴿ نَّصُوحاً ﴾ بضم النون وهو مصدر نصح فإن النصح والنصوح كالشر والشكور والكفر والكفور أي ذات نصح أو تنصح نصوحاً أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له .

(192/772)

هذا والكلام في التوبة كثير وحيث كانت أهم الأوامر الإسلامية وأول المقامات الإيمانية ومبدأ طريق السالكين ومفتاح باب الواصلين لا بأس في ذكر شيء مما يتعلق بها فنقول : هي لغة الرجوع ، وشرعاً وصفاً لنا على ما قال السعد : الندم على المعصية لكونها معصية لأن الندم عليها بإضرارها بالبدن أو إخلالها بالعرض أو المال مثلاً لا يكون توبة ، وأما الندم لخوف النار أو للطمع في الجنة ففي كونه توبة تردد ، ومبناه على أن ذلك هل يكون ندماً عليها لقبحها ولكونها معصية أم لا ؟ وكذا الندم عليها لقبحها مع غرض آخر ، والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقق الندم فتوبة وإلا فلا كما إذا كان الغرض مجموع الأمرين لا كل واحد منهما ، وكذا في التوبة عند مرض مخوف بناءاً على أن ذلك الندم هل يكون لقبح المعصية بل للخوف ، وظاهر الاخبار قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت

ويتحقق أمره عادة ، ومعنى الندم تحزن وتوجع على أن فعل وتمني كونه لم يفعل ولا بد من هذا للقطع بأن مجرد الترك كالماجن إذا مل مجون فاستروح إلى بعض المباحات ليس بتوبة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : " الندم توبة "

وقد يزاد قيد العزم على ترك المعاودة .

واعترض بأن فعل المعصية في المستقبل قد لا يخطر بالبال لذهول أو جنون أو نحوه ، وقد لا يقدر عليه لعارض آفة كخرس في القذف مثلاً أوجب في الزنا فلا يتصور العزم على الترك لما فيه من الإشعار بالقدرة والاختيار .

وأجيب بأن المراد العزم على الترك على تقدير الخطور والاقتدار حتى لو سلب القدرة لم يشترط العزم على الترك ، وبذلك يشعر كلام إمام الحرمين حيث قال : إن العزم على ترك المعاودة إنما يقارن التوبة في بعض الأحوال ولا يطرد في كل حال إذ العزم إنما يصح ممن يتمكن من مختل ما قدمه ، ولا يصح من المجبوب العزم على ترك الزنا .

(193/772)

ومن الأخرس العزم على ترك القذف ، وقال بعض الأجلة : التحقيق أن ذكر العزم إنما هو للبيان والتقرير لا للتقييد والاحتراز إذ النادم على المعصية لقبحها لا يخلو عن ذلك العزم

البتة على تقدير الخطور والاقتدار ، وعلامة الندم طول الحسرة والخوف وانسكاب الدمع ، ومن الغريب ما قيل : إن علامة صدق الندم عن ذنب كالزنا أن لا يرى في المنام أنه يفعله اختياراً إذ يشعر ذلك ببقاء حبه وإياه وعدم انقلاع أصوله من قلبه بالكلية وهو ينافي صدق الندم ، وقال المعتزلة : يكفي في التوبة أن يعتقد أنه أساء وأنه لو أمكنه رد تلك المعصية لردها ولا حاجة إلى الأسف والحزن لافضائه إلى التكليف بما لا يطاق .

وقال الإمام النووي : التوبة ما استجمعت ثلاثة أمور : أن يقلع عن المعصية .

وأن يندم على فعلها وأن يعزم عزماً جازماً على أن لا يعود إلى مثلها أبداً فإن كانت تتعلق بآدمي لزم رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه ، وركنها الأعظم الندم .

(194/772)

وفي "شرح المقاصد" قالوا : إن كانت المعصية في خالص حق الله تعالى فقد يكفي الندم كما في ارتكاب الفرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد في الشرب وتسليم ما وجب في ترك الزكاة ، ومثله في ترك الصلاة وإن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم ، والعزم إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظلماً كما في الغصب والقتل العمد ، ولزم إرشاده إن كان الذنب إضلالاً له ، والاعتذار إليه إن كان

إيذاءاً كما في الغيبة إذا بلغته ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش ، والتحقيق أن هذا الزائد واجب آخر خارج عن التوبة على ما قاله إمام الحرمين من أن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته في حق الله تعالى وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجددة تستدعي توبة ولا يقدح في التوبة عن القتل ، ثم قال : وربما لا تصح التوبة بدون الخروج من حق العبد كما في الغصب ففرق بين القتل والغصب ، ووجهه لا يخفى على المتأمل ، ولم يختلف أهل السنة .

وغيرهم في وجوب التوبة على أرباب الكبائر ، واختلف في الدليل ، فعندنا السمع كهذه الآية وغيرها وحمل الأمر فيها على الرخصة والإيذان بقولها ودفع القنوط كما جوزه الآمدي احتمالاً وبني عليه عدم الإثابة عليها مما لا يكاد يقبل ، وعند المعتزلة العقل ، وأوجبت الجهمية التوبة عن الصغائر سمعاً لا عقلا ، وأهل السنة على ذلك ، ومقتضى كلام النووي .

والمازري .

وغيرهما وجوبها حال التلبس بالمعصية ، وعبارة المازري اتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة ، وأنها واجبة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة .

وفي "شرح الجوهرة" أن التمادي على الذنب بتأخير التوبة منه معصية واحدة ما لم يعتقد

معاودته ، وصرحت المعتزلة بأنها واجبة على الفور حتى يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر تجب التوبة عنه .

(195/772)

وساعتين إثمان وهلم جرا ، بل ذكروا أن بتأخير التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة يكون له كبيرتان : المعصية .

وترك التوبة ، وساعتين أربع : الأوليان .

وترك التوبة على كل منهما ، وثلاث ساعات ثمان وهكذا ، وتصح عن ذنب دون ذنب لتحقق الندم والعزم على عدم العود ، وخالف أبو خالف أبو هاشم محتجاً بأن الندم على المعصية يجب أن يكون لقبحها وهو شامل لها كلها فلا يتحقق الندم على قبيح مع الإصرار على آخر .

وأجيب بأن الشامل للكل هو القبح لا خصوص قبح تلك المعصية وهذا الخلاف في غير الكافر إذا أسلم وتاب من كفره مع استدامته بعض المعاصي أما هو فتوبته صحيحة وإسلامه كذلك بالإجماع ولا يعاقب إلا عقوبة تلك المعصية ، نعم اختلف في أن مجرد إيمانه هل يعدّ توبة أم لا بد من الندم على سالف كفره ؟ فعند الجمهور مجرد إيمانه توبة ، وقال

الإمام.

والقرطبي : لا بد من الندم على سالف الكفر وعدم اشتراط العمل الصالح مجمع عليه عند الأئمة خلافاً لابن حزم ، وكذا تصح التوبة عن المعاصي إجمالاً من غير تعيين المتون عنه ولو لم يشق عليه تعيينه ، وخالف بعض المالكية فقال : إنما تصح إجمالاً مما علم إجمالاً ، وأما ما علم تفصيلاً فلا بد من التوبة منه تفصيلاً ولا تنتقض التوبة الشرعية بالعود فلا تعود عليه ذنوبه التي تاب منها بل العود والنقض معصية أخرى يجب عليه أن يتوب منها .

وقالت المعتزلة : من شروط صحتها أن لا يعاود الذنب فإن عاوده انتقضت توبته وعادت ذنوبه لأن الندم المعتبر فيها لا يتحقق إلا بالاستمرار ، ووافقهم القاضي أبو بكر .

(196/772)

والجمهور على أن استدامة الندم غير واجبة بل الشرط أن لا يطرأ عليه ما ينافيه ويدفعه لأنه حينئذ دائم حكماً كالإيمان حال النوم ، ويلزم من اشتراط الاستدامة مزيد الحرج والمشقة ، وقال الآمدي : يلزم أيضاً اختلاف الصلوات وسائر العبادات ، ويلزم أيضاً أن لا يكون بتقدير عدم استدامة الندم وتذكره تائباً ، وأن يجب عليه إعادة التوبة وهو خلاف الإجماع ، نعم اختلف العلماء فيمن تذكر المعصية بعد التوبة منها ، هل يجب عليه أن يجدد

الندم؟ وإليه ذهب القاضي منا .

وأبو علي من المعتزلة زعماً منهما أنه لو لم يندم كلما ذكرها لكان مشتهياً لها فرحاً بها ، وذلك إبطال للندم ورجوع إلى الإصرار ، والجواب المنع إذ ربما يضرب عنها صفحاً من غير ندم عليها ولا اشتهاء لها وابتهاج بها ولو كان الأمر كما ذكر للزم أن لا تكون التوبة السابقة صحيحة ، وقد قال القاضي نفسه : إنه إذا لم يجدد ندماً كان ذلك معصية جديدة يجب الندم عليها والتوبة الأولى مضت على صحتها إذ العبادة الماضية لا ينقضها شيء بعد ثبوتها انتهى .

وبعدم وجوب التجديد عند ذكر المعصية صرح إمام الحرمين ، ويفهم من كلامهم أن محل الخلاف إذا لم يبتهج عند ذكر الذنب به ويفرح ويتلذذ بذكره أو سماعه ، وإلا وجب التجديد اتفاقاً ، وظاهر كلامهم أن المعاودة غير مبطلة ولو كانت في مجلس التوبة بل ولو تكررت تكراراً يلتحق بالتلاعب ، وفي هذا الأخير نظر فقد قال القاضي عياض : إن الواقع في حق الله تعالى بما هو كفر تنفعه توبته مع شديد العقاب ليكون ذلك زجراً له . ولمثله إلا من تكرر ذلك منه وعرف استهانته بما أتى به فهو دليل على سوء طويته وكذب توبته انتهى .

وينبغي عليه أن يقيد ذلك بأن لا تكثر كثرة تشعر بالاستعانة وتدخل صاحبها في دائرة الجنون ، واختلف في صحة التوبة الموقتة بلا إصرار كأن لا يلابس الذنوب أو ذنب كذا سنة فقيل : تصح ، وقيل : لا ، وفي "شرح الجوهرة" قياس صحتها من بعض الذنوب دون بعض صحتها فيما ذكر ، ثم إن للتوبة مراتب من أعلاها ما روى عن يعسوب المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه سمع أعرابياً يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، فقال الأعرابي : وما التوبة ؟ قال كرم الله تعالى وجهه : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة .

وللفرائض الإعادة .

ورد المظالم .

واستحلال الخصوم .

وأن تعزم على أن لا تعود .

وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية .

وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي ، وأريد بإعادة الفرائض أن يقضي منها ما وقع في زمان معصيته كشارب الخمر يعيد صلاته قبل التوبة لمخامرته للنجاسة غالباً ، وهذه توبة نحو الخواص فلا مستند في هذا الأثر لابن حزم وأضرابه كما لا يخفى ، ثم

إنه تعالى بين فائدة التوبة بقوله سبحانه :

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم وَيُدْخِلَكُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

قيل : المراد أنه عز وجل يفعل ذلك لكن جيء بصيغة الأطماع للجري على عادة الملوك فإنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا : ﴿ عَسَى ﴾ أن نفعل كذا ، والإشعار بأن ذلك تفضل منه سبحانه والتوبة غير موجبة له .

وإن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء .

وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة ، واستدل بالآية على عدم وجوب قبول التوبة لأن التكفير أثر القبول ، وقد جيء معه بصيغة الأطماع دون القطع ، وهذه المسألة خلافية فذهب المعتزلة إلى أنه يجب على الله تعالى قبولها عقلاً وأتوا في ذلك بمقدمات مزخرفات ، وقال إمام الحرمين .

(198/772)

والقاضي أبو بكر : يجب قبولها سمعاً ووعداً لكن بدليل ظني إذ لم يثبت في ذلك نص قاطع لا يحتمل التأويل ، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري : بل بدليل قطعي ومحل النزاع بين الأشعري وتلميذيه ما عدا توبة الكافر أما هي فالإجماع على قبولها قطعاً بالسمع لوجود

النص المتواتر بذلك كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَإِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] بخلاف ما جاء في توبة غيره فإنه ظاهر ، وليس بنص في غفران ذنوب المسلم بالتوبة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [الزمر : 53] ، وأما حديث " التوبة تجب ما قبلها " فليس بمتواتر ولأنه إذا قطع بقبول توبة الكافر كان ذلك فتحاً لباب الإيمان وسوقاً إليه ، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن كان ذلك سداً لباب العصيان ومنعاً منه ، وهذا وما قبله ذكرهما القاضي لما قيل له : إن الدلائل مع الشيخ أبي الحسن : وقال ابن عطية : إن جمهور أهل السنة على قول القاضي ، والدليل على ذلك دعاء كل أحد من التائبين بقبول توبته ولو كان مقطوعاً به لما كان للدعاء معنى ، ومثل ذلك وجوب الشكر على القبول فإنه لو كان واجباً لما وجب الشكر عليه .

وتعقب ذلك السعد بأنه ربما يدفع بأن المسؤول في الدعاء هو استجماعها لشرائط القبول فإن الأمر فيه خطير ، ووجوب القبول لا ينافي وجوب الشكر لكونه إحساناً في نفسه كتربية الوالد لولده ؛ وقال الإمام النووي : لا يجب على الله تعالى قبول التوبة إذا وجدت بشروطها عند أهل السنة لكنه سبحانه يقبلها كرماً منه وتفضلاً ، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع فلا تغفل ، وقرىء ﴿ يدخلكم ﴾ بسكون اللام ، وخرجه أبو حيان على أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيهاً لما هو في كلمتين بالكلمة الواحدة فإنه يقال في قمع : قمع .

وفي نطع : نطع ، وقال : إنه أولى من كونه للعطف على محل ﴿ نَّصُوحاً عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ ﴾ ، واختاره الزمخشري كأنه قيل : توبوا يرج تكفير أو يوجب تكفير سيئآتكم ويدخلكم ﴿ يَوْمَ لاَّ يُخْزِى الله النبى ﴾ ظرف ليدخلكم وتعريف ﴿ النبى ﴾ للعهد ، والمراد به سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بنفي الإخزاء إثبات أنواع الكرامة والعز .

وفي "القاموس" يقال : أخزى الله تعالى فلاناً فضحه ، وقال الراغب : يقال : خزي الرجل لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياء المفرط ومصدره الخزاية .

وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف ، ومصدره الخزي ، و ﴿ يَوْمَ لاَّ يُخْزِى الله النبى ﴾ هو من الخزي أقرب ، ويجوز أن يكون منهما جميعاً ﴿ والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ عطف عليه عليه الصلاة والسلام ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق ، واستحماد على المؤمنين على أن عصمهم من مثل حالهم ، والمراد بالإيمان هنا فرده الكامل على ما ذكره الخفاجي ، وقوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ أي على الصراط كما قيل ، ومر الكلام فيه جملة مستأنفة ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ ، وجوز أن تكون الجملتان في موضع الحال من الموصول ، وأن تكون الأولى حالاً منه .

والثانية حالاً من الضمير في ﴿ يسعى ﴾ ، وأن تكون الأولى مستأنفة .

والثانية من الضمير ، وأن تكون الأولى حالاً من الموصول .

والثانية مستأنفة أو حالاً من الضمير ، وجوز أن يكون الموصول مبتدأ خبره معه ،

والجملتان خبران آخران .

أو مستأنفتان .

أو حالان من الموصول ، أو الأولى حال منه .

والثانية حال من الضمير ، أو الأولى مستأنفة .

والثانية حال من الضمير ، أو الأولى حال .

والثانية مستأنفة ، أو الأولى خبر بعد خبر .

(200/772)

والثانية حال من الضمير أو مستأنفة ، وجوز أن يكون الموصول مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يسعى ﴾ الخ ، والجملة الأخرى مستأنفة أو حال أو خبر بعد خبر فهذه عدة احتمالات لا يخفى ما هو الأظهر منها .

والقول على ما روي عن ابن عباس .

والحسن : يكون إذا طفىء نور المنافقين أي يقولون إذا طفىء نور المنافقين ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا

نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفي رواية أخرى عن الحسن يدعون تقرباً إلى الله تعالى مع تمام نورهم ، وقيل : يقول ذلك من يمر على الصراط زحفاً وحبواً .

وقيل : من يعطي من النور بقدر ما يبصر به موضع قدمه ، ويعلم منه عدم تعين حمل الإيمان على فرده الكامل كما سمعت عن الخفاجي ، وقرأ سهل بن شعيب السهمي .

وأبو حيوة ﴿ وبأيمانهم ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر معطوف على الظرف أي كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم .

﴿ يا أَيُّهَا النبى جاهد الكفار ﴾

بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرفق مداه .

وعن الحسن أكثر ما كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقين فأمر عليه الصلاة والسلام أن يغلظ عليهم في إقامة الحدود ، وحكى الطبرسي عن الباقر أنه قرأ جاهد الكفار بالمنافقين وأظن ذلك من كذب الإمامية عاملهم الله تعالى بعدله ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ أي وسيرون فيها عذاباً غليظاً ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي جهنم أو مأواهم ، والعطف قيل : من عطف القصة على القصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾

بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بأمرهم بطاعة الله ، ونهيهم عن معاصيه ﴿ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ أي ناراً عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالحطب ، وقد تقدّم بيان هذا في سورة البقرة .

قال مقاتل بن سليمان : المعنى : قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار في الآخرة .

وقال قتادة ، ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم .

قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير ، وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ﴾ [طه : 132] وقوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 224] .

﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ أي : على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها ، غلاظ على أهل النار شداد عليهم لا يرحمونهم إذا استرحموهم ؛ لأن الله سبحانه خلقهم من غضبه ، وحبب إليهم تعذيب خلقه ، وقيل : المراد غلاظ القلوب : شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل : الغلاظ : ضخام الأجسام ، والشداد : الأقوياء ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ﴾ أي : لا يخافونه في أمره ، و"ما" في ﴿ مَا

أَمَرَهُمْ ﴾ يجوز أن تكون موصولة ، والعائد محذوف ، أي : لا يعصون الله الذي أمرهم به ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، أو على تقدير نزع الخافض ، أي : لا يعصون الله في أمره ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي : يؤدّونه في وقته من غير تراخ لا يؤخرونه عنه ولا يقدّمونه .

(202/772)

﴿ يأَيُّهَا الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ أي : يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال في الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ أي : تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازي ، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب ، وترك المعاودة له .

والتوبة فرض على الأعيان .

قال قتادة : التوبة النصوح الصادقة ، وقيل : الخالصة .

وقال الحسن : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره .

وقال الكلبي : التوبة النصوح : الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على أن لا يعود .

وقال سعيد بن جبير : هي التوبة المقبولة .

قرأ الجمهور : ﴿ نصوحاً ﴾ بفتح النون على الوصف للتوبة ، أي : توبة بالغة في النصح ، وقرأ الحسن ، وخارجة ، وأبو بكر عن عاصم بضمها ، أي : توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح ، وأن يكون مصدراً يقال : نصح نصاحة ونصوحاً .

(203/772)

قال المبرّد : أراد توبة ذات نصح ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم وَيُدْخِلَكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بسبب تلك التوبة ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع ، فهي من الله واجبة ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ويدخلكم معطوف على يكفر منصوب بناصبه ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرىء بالجزم عطفاً على محل عسى ، كأنه قال : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ، ويدخلكم ﴿ يَوْمَ لاَّ يُخْزِى الله النبى ﴾ الظرف متعلق ب ﴿ يدخلكم ﴾ ، أي : يدخلكم يوم لا يخزي الله النبي ﴿ والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾

والموصول معطوف على النبي ، وقيل : الموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ والأوّل أولى ، وتكون جملة ﴿ نُورُهُمْ يسعى ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لبيان حالهم ، وقد تقدّم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط ، وجملة ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ في محل نصب على الحال أيضاً ، وعلى الوجه الآخر تكون خبراً أخر ، وهذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين ، كما تقدّم بيانه وتفصيله .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، وأمروا أهلكم بالذكر ينجكم الله من النار .

وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال : أدّبوا أهليكم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب ، يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه إلى قدمه .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح ، قال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وأخرج أحمد ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التوبة من الذنب أن يتوب منه ، ثم لا يعود إليه أبداً " ، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري ، وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف ، كما أخرجه موقوفاً عنه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كلّ سيئة ، وهو القرآن ، ثم قرأ هذه الآية .

وأخرج الحاكم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى ﴾ الآية قال : ليس أحد من الموحدين إلاّ يعطى نوراً يوم القيامة ،

فأما المنافق فيطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 253 . 255 ﴾

(205/772)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾

أعيد خطاب المؤمنين وأعيد نداؤهم وهو نداء ثالث في هذه السورة .

والذي قبله نداء للواعظين .

وهذا نداء للموعوظين وهذا الأسلوب من أساليب الإِعراض المهتم بها .

أُمر المؤمنون بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأن ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أن أمروا بأن يجنّبوا أنفسهم وأهليهم ما يَزِجّ بهم في عذاب النار ، لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها ، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهُدُوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم .

وهذا ناظر إلى ما ذكر من موعظة امرأتي النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ [التحريم : 4] .

والتوبة : العزم على عدم العود إلى العصيان مع الندم على ما فرط منه فيما مضى .

وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ في سورة [البقرة : 37] .

وفي مواضع أخرى وخاصة عند قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ في سورة [النساء : 17] .

وتعديتها بحرف (إلى) لأنها في معنى الرجوع لأن (تاب) أخو (ثاب) .

والنصوح : ذُو النصح .

والنصح : الإِخلاص في العمل والقول ، أي الصدق في إرادة النفع بذلك .

ووصف التوبة بالنصوح مجاز جعلت التوبة التي لا تردد فيها ولا تخالطها نية العودة إلى العمل المتوب منه بمنزلة الناصح لغيره ففي (نصوح) استعارة وليس من المجاز العقلي إذ ليس المراد نصوحاً صاحبها .

وإنما لم تلحق وصف (نصوح) هاء التأنيث المناسبة لتأنيث الموصوف به لأن فعولاً بمعنى فاعل يلازم الإِفراد والتذكير .

وقرأ الجمهور نصوحاً ﴾ بفتح النون على معنى الوصف كما علمت .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم النون على أنه مصدر (نصح) مثل : القُعود من قعد .

وزعم الأخفش أن الضم غير معروف والقراءة حجة عليه .

ومن شروط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما وقع التفريط فيه مثل المظالم للقادر على ردّها .

روي عن علي رضي الله عنه : يجمع التوبة ستة أشياء : الندامة على الماضي من الذنوب ، وإعادة الفرائض .

ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي .

وتقوم مقام ردّ المظالم استحلال المظلوم حتى يعفو عنه .

ومن تمام التوبة تمكين التائب من نفسه أن ينفذ عليها الحدود كالقود والضرب .

قال إمام الحرمين : هذا التمكين واجب خارج عن حقيقة التوبة لأن التائب إذا ندم ونوى أن لا يعود صحت توبته عند الله وكان منَعه من تمكين نفسه معصية متجددة تستدعي توبة .

وهو كلام وجيه إذ التمكين من تنفيذ ذلك يشق على النفوس مشقة عظيمة فلها عذر في الإِحجام عن التمكين منه .

وتصح التوبة من ذنب دون ذنب خلافاً لأبي هاشم الجبائي المعتزلي ، وذلك فيما عدا

التوبة من الكفر .

وأما التوبة من الكفر بالإِيمان فصحيحة في غفران إثم الكفر ولو بقي متلبساً ببعض الكبائر بإجماع علماء الإِسلام .

والذنوب التي تجب منها التوبة هي الكبائر ابتداء ، وكذلك الصغائر وتمييز الكبائر من الصغائر مسألة أخرى محلها أصول الدين وأصول الفقه والفقهُ .

إلا أن الله تفضّل على المسلمين فغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، أخذ ذلك من قوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإِثم والفواحش إلا اللمم وقد مضى القول فيه ﴾ في تفسير سورة [النجم : 32] .

ولو عاد التائب إلى بعض الذنوب أو جميعها ما عدا الكفر اختلف فيه علماء الأمة فالذي ذهب إليه أهل السنة أن التوبة تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب في خصوص الذنب المعود إليه ولا تنتقض فيما سواه .

وأن العود معصية تجب التوبة منها .

وقال المعتزلة : تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب فتعود إليه ذنوبه ووافقهم الباقلاني .

وليس في أدلة الكتاب والسنة ما يشهد لأحد الفريقين .

والرجاء المستفاد من فعل عسى ﴾ مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضل على طريقة الاستعارة وذلك التائب لا حق له في أن يعفى عنه ما اقترفه لأن العصيان قد حصل وإنما التوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب ولكن ما لصاحبها من الندم والخوف الذي بعث على العزم دل على زكاء النفس فجعل الله جزاءه أن يمحو عنه ما سلف من الذنوب تفضلاً من الله فذلك معنى الرجاء المستفاد من ﴿ عسى ﴾ .

وقد أجمع علماء الإِسلام على أن التوبة من الكفر بالإِيمان مقبولة قطعاً لكثرة أدلة الكتاب والسنة ، واختلفوا في تعيُّن قبول توبة العاصي من المؤمنين ، فقال جمهور أهل السنة : قبولها مرجوّ غير مقطوع ، وممن قال به الباقلاني وإمام الحرمين وعن الأشعري أنه مقطوع به سمعاً ، والمعتزلة مقطوع به عقلاً .

وتكفير السيئات : غفرانها ، وهو مبالغة في كَفَر المخفف المتعدي الذي هو مشتق من الكَفر بفتح الكاف ، أي الستر .

﴿ الانها ر يَوْمَ لاَ يُخْزِى الله النبى والذين ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَآ إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

﴿ يوم ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ يدخلكم جنات ﴾ وهو تعليقٌ تخلص إلى الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه .

وهو يوم القيامة وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزي الله عنهم تعريض بأن الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين آمنوا لتشريف المؤمنين ولا علاقة له بالتعريض .

والخزي : هو عذاب النار ، وحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] على أن انتفاء الخزي يومئذٍ يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما كما أشعر به قوله تعالى:

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ [آل عمران : 185] .

وفي صلة ﴿ الذين آمنوا معه ﴾ إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم .

(208/772)

ومعية المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم

و(مع) يجوز تعلقها بمحذوف حال من ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي حال كونهم مع الشيء في انتفاء خزي الله عنهم فيكون عموم ﴿ الذين آمنوا ﴾ مخصوصاً بغير الذين يتحقق فيهم خزي الكفر وهم الذين ارتدوا وماتوا على الكفر .

وفي هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

ويجوز تعلق (مع) بفعل ﴿ آمنوا ﴾ أي الذين آمنوا به وصحبوه ، فيكون مراداً به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به ولم يرتدوا بعده ، فتكون الآية مؤذنة بفضيلة للصحابة .

وضمير ﴿ نورهم ﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه .

وإضافة نور إلى ضمير هم مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه ولكن الإِضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذٍ .

وسعي النور : امتداده وانتشاره .

شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحفّ بهم حيثما انتقلوا تنويهاً بشأنهم كما تنشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة .

وإنما خص بالذكر من الجهات الأمامُ واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإِيمان والنصر .

وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة .

والباء للملابسة ، ويجوز أن تكون بمعنى (عن) .

وقد تقدم نظير هذا في سورة الحديد وما ذكرناه هنا أوسع .

وجملة ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ إلى آخرها حال من ضمير ﴿ نورهم ﴾ ، وظاهره أن تكون حالاً مقارنة ، أي يقولون ذلك في ذلك اليوم ، ودعاؤهم طلب للزيادة من ذلك النور ، فيكون ضمير ﴿ يقولون ﴾ عائد إلى جميع الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ ، أو يقول ذلك من كان نوره أقل من نور غيره ممن هو أفضل منه يومئذٍ فيكون ضمير ﴿ يقولون ﴾ على إرادة التوزيع على طوائف الذين آمنوا في ذلك اليوم .

وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفاً وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة ، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له مثل ما قيل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرة .

ويظهر بذلك وجه التذييل بقولهم : ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ المشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

لما أبلغ الكفار ما سيحل بهم في الآخرة تصريحاً بقوله : ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ [التحريم : 7] ، وتعريضاً بقوله : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ [

التحريم : 8] ، أمَرَ رسولَه صلى الله عليه وسلم بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقاً ، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط عليهم عذاب السيف في العاجلة فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم وإنما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك لأن الكفار تألبُوا مع المنافقين بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فاتخذوهم عيوناً لهم وأيدي يدسُّون بها الأذى للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

فهذا نداء ثان للنبيء صلى الله عليه وسلم يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج .

(210/772)

وجهاد الكفار ظاهر ، وأما عطف ﴿ المنافقين ﴾ على ﴿ الكفار ﴾ المفعول ل ﴿ جاهد ﴾ فيقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بجهاد المنافقين وكان حال المنافقين ملتبساً إذ لم يكن أحد من المنافقين معلناً بالكفر ولا شُهد على أحد منهم بذلك ولم يعين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منافقاً يوقن بنفاقه وكفره أو أطلعه إطلاعاً خاصاً ولم

يأمره بإعلانه بين المسلمين كما يؤخذ ذلك من أخبار كثيرة في الآثار .

فتعين تأويل عطف ﴿ المنافقين ﴾ على ﴿ الكفار ﴾ إما بأن يكون فعل ﴿ جاهد ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه وهما الجهاد بالسيف والجهاد بإقامة الحجة والتعريض للمنافق بنفاقه فإن ذلك يطلق عليه الجهاد مجازاً كما في قوله صلى الله عليه وسلم " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " ، وقوله للذي سأله الجهاد فقال له : "ألك أبوان ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد " .

وعندي أن الأقرب في تأويل هذا العطف أن يكون المراد منه إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمرصاد بهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح فتكون هذه الآية من قبيل قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ [الأحزاب : 60 ، 61] .

والغلظة : حقيقتها صلابة الشيء وهي مستعارة هنا للمعاملة بالشدة بدون عفو ولا تسامح ، أي كن غليظاً ، أي شديداً في إقامة ما أمر الله به أمثالهم .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ في سورة [براءة : 123] ، وقوله : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

والمأوى : المسكن ، وهو مفعل من أوى إذا رجع لأن الإِنسان يرجع إلى مسكنه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(211/772)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ [8]

قال : التوبة النصوح أن لا يرجع ، لأنه صار من جملة الأحبة ، والمحب لا يدخل في شيء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تقله أرض ولا تظله سماء إلا هو متعلق بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف في هذا الزمان أقل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول : دعني أفعل كذا وكذا ، دعني أتنفس ساعة .

ثم قال : إن التائب المخلص ولو مقدار ساعة ، ولو مقدار نفس واحد قبل موته ، يقال له : ما أسرع ما جئت به صحيحاً ، وجئنا حيث جئت .

قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى الله النبي ﴾ [8] قال : لا يخزيه في أمته ، ولا يرد شفاعته .

ولقد أوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أحببت جعلت أمر أمتك إليك .

فقال : يا رب أنت خير لهم مني .

فقال الله تعالى : إذاً لا أخزيك فيهم .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [8] فقال : لا يسقط الافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ عن المؤمنين في الدنيا ولا في العقبى ، هم في الجنة أشد افتقاراً إليه ، وإن كانوا في دار العز والأمن والغنى لشوقهم إلى لقائه ، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [8] وارزقنا لقاءك ، فإنه منوّر الأنوار وغاية الطلاب .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 171 ﴾

(212/772)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/773)

الجزء الثالث والسبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 10 ﴾ من (سورة التحريم)

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ آخر السورة

(4/773)

قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل ، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء ، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين ، وكان للكفار قرابات بالمسلمين وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم ، وللمسلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم ، قال مجيباً لما يتخيل من ذلك تأديباً لمن ينكر عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النساء وغيرهن :

﴿ ضرب الله ﴾ أي الملك الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ مثلاً ﴾ يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ ﴿ للذين كفروا ﴾ أي غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم سواء كانوا مشاققين أو منافقين في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين

المؤمنين من الوصل والعلائق فيغلظ عليهم في الدارين معاملة بما يستحقون من غير محاباة لأحد وإن جل مقامه ، وعلا منصبه ومرامه ، لأن الكفر قاطع للعلائق بين الكافر والمسلم : ﴿ امرأت نوح ﴾ الذي أهلك الله من كذبه بالغرق ونصره وآواه عليه الصلاة والسلام وكان اسمها فيما يقال واعلة ﴿ وامرأت لوط ﴾ الذي أهلك الله أيضاً من كذبه بالحصب والخسف والإغراق ، واسمها فيما قيل واهلة ، ودل على وجه الشبه بقوله : ﴿ كانتا ﴾ أي مع كونهما كافرتين .

ولم يقل : تحتهما ، بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح لأن ذلك أفخم ، فيكون أشد تأثيراً للموعوظ وأعظم ، ودفعاً لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام فقال : ﴿ تحت عبدين ﴾ أي كل واحدة منهما تحت عبد ، وعبر بذلك لأن أثر الناس عند الملك كما تقدم عبيده ، ودل على كثرة عبيده تنبيهاً على غناه بقوله : ﴿ من عبادنا ﴾ .

(5/773)

ولما كانت طبقات القرب متفاوتة بحسب الصلاح قال : ﴿ صالحين ﴾ وهما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام ﴿ فخانتاهما ﴾ بعدم المتابعة في الدين نفاقاً منهما لا بالخيانة في

الفرش ، فقد صان الله جميع الأنبياء من ذلك فلم تقل واحدة منهما لأجل كفرهما : رب اجعلني مع نبيك في الجنة ، وآذن بعدم قبول الشفاعة فيمن أساء إلى الحبيب وبعذابه حتماً للتشفي بقوله : ﴿ فلم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن العبدين الصالحين لم ﴿ يغنيا عنهما ﴾ أي المرأتين بحق الزواج ﴿ من الله ﴾ أي من عذاب الملك الذي له الأمر كله فلا أمر لغيره ﴿ شيئاً ﴾ أي من إغناء لأجل خيانتهما بالمخالفة في الدين ، ودل على كمال قدرته تعالى بالتعبير بالمجهول فقال : ﴿ وقيل ﴾ أي للمرأتين ممن أذن له في القول النافذ الذي لا مرد له : ﴿ ادخلا النار ﴾ أي مقدماتها من الإصرار على الكفر ثم الإهلاك بعذاب الانتقام في الدنيا وحقيقتها في الآخرة لأن الله أبغضهما لأنهما عدو لأوليائه ، وذلك كما قيل : عدو صديقي ليس لي بصديق .

ولما فعلتا فعل الرجال في استقلالهما وعدم عدهما لأنفسهما تبعاً ، غلظ عذابهما بالكون مع الرجال في عذابهم فقال دالاً على نفوذ الحكم فيمن هو أقوى منهما بعد نفوذه فيهما : ﴿ مع الداخلين ﴾ أي الذين هم أعظم منهما ممن لهم وصلة بأهل الله وممن لا وصلة لهم بهم ، فليتأدب كل أحد مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غاية الأدب خوفاً من مثل ذلك ، وهذا خالع لقلوب من ابتدأ بتأديبهن – رضي الله تعالى عنهن .

ولما أتم مثل النذارة بأن طاعة المطيع لا تنفع العاصي وإن كان أقرب الناس إلى المطيع إلا إن كان له أساس يصح البناء عليه ، ويجوز الاعتداد به والنظر إليه ، أتبعه مثل البشارة بأن عصيان العاصي لا يضر المطيع فقال : ﴿ وضرب الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له صفات الكمال ﴿ مثلاً للذين آمنوا ﴾ ولو كان في أدنى درجات الإيمان مبيناً لأن وصلة الكفار إذا كانت على وجه الإكراه والإجبار لا تضر ﴿ امرأت فرعون ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم ، آمنت وعملت صالحاً فلم تضرها الوصلة بالكافر بالزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه إيمانها ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ [الطور : 21] وأثابها ربها سبحانه أن جعلها زوجة خير خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دار كرامته بصبرها على عبادة الله وهي في حبالة عدوه ، وأسقط وصفه بالعبودية دليلاً على تحقيره وعدم رحمته لأنه أعدى أعدائه ، وأشار إلى وجه الشبه في المثل وهو التحيز إلى حزب الله بقدر الوسع فقال : ﴿ إذ ﴾ أي مثلهم مثلها حين ﴿ قالت ﴾ تصديقاً بالعبث منادية نداء الخواص بإسقاط الأداة لأجل أنها مؤمنة وإن كانت تحت كافر بنا فلم تضر صحبته شيئاً لأجل إيمانها : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بالهداية وأنا في حبالة هذا الكافر الجبار ولم تغرني بعز الدنيا وسعتها ﴿ ابن لي ﴾ .

ولما كان الجار مطلوباً – كما قالوا – قبل الدار ، طلبت خير جار وقدمت الظرف اهتماماً

به لنصه على المجاورة ولدلالته على الزلفى فقالت : ﴿ عندك بيتاً ﴾ وعينت مرادها بالعندية فقالت : ﴿ في الجنة ﴾ لأنها دار المقربين فظهر من أول كلامها وآخره أن مطلوبها أخص داره ، وقد أجابها سبحانه بأن جعلها زوجة لخاتم رسوله الذي هو خير خلقه وأقربهم منه ، فكانت معه في منزله الذي هو أعلى المنازل .

(7/773)

ولما سألت ما حيّزها إلى جناب الله سألت ما يباعدها في الدارين من أعدائه فقالت : ﴿ ونجني ﴾ أي تنجية عظيمة ﴿ من فرعون ﴾ أي فلا أكون عنده ولا تسلطه عليّ بما يضرني عندك ﴿ وعمله ﴾ أي أن أعمل بشيء منه ﴿ ونجني ﴾ أعادت العامل تأكيداً ﴿ من القوم الظالمين ﴾ أي الناس الأقوياء العريقين في أن يضعوا أعمالهم في غير مواضعها التي أمروا بوضعها فيها فعل من يمشي في الظلام عامة ، وهم القبط ، لا تخالطني بأحد منهم ، فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن إليها لأجل محبتها للمحبوب وهو موسى عليه الصلاة والسلام كما يقال : صديق صديقي داخل في صداقتي ، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما غلب السحرة آمنت به فعذبها فرعون فماتت بعد أن أراها الله بيتها في الجنة ولم يضرها كونها تحت فرعون شيئاً لأنها كانت معذورة في ذلك ، فالآية من الاحتباك

: حذف أولاً " فلم تسألا الجنة " لدلالة " رب ابن لي " ثانياً عليه ، وحذف ثانياً " كانت تحت كافر " لدلالة الأول عليه .

(8/773)

ولما أتم المثل بمن أساءتا الأدب فلم تنفعهما الوصلة بالأولياء بل زادتهما ضرراً للإعراض عن الخير مع قربه وتيسره ، وبمن أحسنت الأدب فلم تضرها الوصلة بأعدى الأعداء بل زادتها خيراً لإحسانها مع قيام المغتربها عن الإحسان ضرب مثلاً بقرينتها في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه الشيخان عن أبي موسى ـ رضى الله عنه ـ : " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام " ومع مقارنتها لها في الكمال ، فبين حاليهما في الثيوبة والبكورة طباق ، فلم يبتلها سبحانه بخلطة زوج جمعاً بين ما تقدم من صنفي الثيبات والأبكار اللاتي يعطيهما لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحسنت الأدب في نفسها مع الله ومع سائر من لزمها الأدب معه من عباده فأحسن إليها رعاية لها على ما وفقها إليه من الإحسان ، وذلك رعاية لأسلافها إذ كانوا من أعظم الأحباب فقال : ﴿ ومريم ﴾ أي وضرب الله مثلاً لأهل الانفراد والعزلة من الذين آمنوا مريم ﴿ ابنة عمران ﴾ أي أحد

الأحباب ، وذكر وجه الشبه فقال : ﴿ التي أحصنت فرجها ﴾ أي عفت عن السوء وجميع مقدماته عفة كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على بكريتها إلى الممات فتزوجها في الجنة جزاء لها بخير عبادنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء وإمام المرسلين .

ولما اغتنت بأنسها بروح الله الذي بثه في قلبها من محبة الذكر والعبادة عن الأنس بأرواح الناس ، كان ذلك سبباً لأن وهبها روحاً منه جسده في أكمل الصور المقدرة في ذلك الحين فقال مخبراً عن ذلك : ﴿ فنفخنا ﴾ أي بعظمتنا بواسطة ملكنا روح القدس .

(9/773)

ولما كانت هذه السورة لتشريف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكميل نسائه في الدنيا والآخرة ، نص على المقصود بتذكير الضمير ولم يؤنثه قطعاً للسان من يقول تعنتاً : إن المراد نفخ روحها في جسدها : ﴿ فيه ﴾ أي فرجها الحقيقي وهو جيبها وكل جيب يسمى فرجاً ، ويدل على الأول قراءة " فيها " شاذة ﴿ من روحنا ﴾ أي روح هو أهل لشرفه بما عظمنا من خلقه ولطف تكوينه أن يضاف إلينا لكونه خارجاً عن التسبيب المعتاد وهو جبريل عليه الصلاة والسلام أو روح الحياة .

ولما كان التقدير : فكان ما أردنا ، فحملت من غير ذكر ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام الذي كان من كلمتنا وهي " احملي " ثم كلمتنا " كن يا حمل من غير ذكر " ثم كلمتنا " لديه يا مريم من غير مساعد " ثم كلمتنا " تكلم عيسى في المهد بالحكمة " عطف عليه قوله : ﴿ وصدقت ﴾ فاستحقت لذلك أن تسمى صديقة ﴿ بكلمات ربها ﴾ أي المحسن إليها بما تقدم وغيره مما كان من كلام جبريل عليه الصلاة والسلام بسببه ومن عيسى عليه الصلاة والسلام ومما تكلم به عن الله سبحانه وتعالى ﴿ وكتبه ﴾ أي وكتابه الضابط الجامع لكلامه أنزل على ولدها وغيره من كتب الله كما دل على ذلك قراءة البصريين وحفص بالجمع .

(10/773)

ولما كان المصدق ربما كان تصديقه في الظاهر أو مشوباً بشيء من الضمائر قال : ﴿ وكانت ﴾ أي جبلة وطبعاً ، وشرفها بأن جعلها في رتبة الأكمل وهم الرجال فقال : ﴿ من القانتين ﴾ أي المخلصين الذين هم في غاية القوة والكمال لأنها كانت من بنات الأحباب المصطفين على العالمين ، فلم تكن عبادتها تقصر عن عبادة الأقوياء الكلمة ، وقد أتم سبحانه الأمثال في الآداب بالثيبات والأبكار والأخيار والأشرار ، فانعطف آخر

السورة على أولها في المعاني بالآداب ، وزاد ذلك حسناً كونها في النساء وفي الذوات والأعيان بزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران في الجنة دار القرار السالمة عن الأكدار الزواج الأبدي فصار أول السورة وآخرها في أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي ختامها بالقنوت الذي هو خلاصة الأوصاف الماضية في الأبدال المذكورات أعظم مناسبة – والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 57 ـ 61 ﴾.

(11/773)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾

أي بين حالهم بطريق التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير اتقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كانوا فيه من القرابة بينهم وبين نبيهم وإنكارهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما جاء به من عند الله وإصرارهم عليه ، وقطع العلائق ، وجعل الأقارب من جملة الأجانب بل أبعد منهم وإن كان المؤمن الذي يتصل

به الكافر نبياً كحال امرأة نوح ولوط ، لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان وقيل لهما في اليوم الآخر ادخلا النار ثم بين حال المسلمين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم كحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة ظالم من أعداء الله تعالى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً ، وفي ضمن هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين ، وهما حفصة وعائشة لما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر ، وضرب مثلاً آخر في امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ، وقيل : هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت قصة إلقاء موسى عصاه ، وتلقف العصا ، فعذبها فرعون عذاباً شديداً بسبب الإيمان ، وعن أبي هريرة أنه وتدها بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس ، وألقى عليها صخرة عظيمة ، فقالت : رب نجني من فرعون فرقى بروحها إلى الجنة ، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ، قال الحسن .

رفعها إلى الجنة تأكل فيها وتشرب ، وقيل : لما قالت : ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ رأت بيتها في الجنة يبنى لأجلها ، وهو من درة واحدة ، والله أعلم كيف هو وما هو ؟ وفي الآية مباحث :

البحث الأول : ما فائدة قوله تعالى ﴿ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ ؟ نقول : هو على وجهين أحدهما : تعظيماً لهم كما مر الثاني : إظهاراً للعبد بأنه لا يترجح على الآخر عنده إلا بالصلاح .

البحث الثاني : ما كانت خيانتهما ؟ نقول : نفاقهما وإخفاؤهما الكفر ، وتظاهرهما على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه إنه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف إبراهيم ، ولا يجوز أن تكون خيانتهما بالفجور ، وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط ، وقيل : خيانتهما في الدين .

البحث الثالث : ما معنى الجمع بين ﴿ عِندَكَ ﴾ و ﴿ فِى الجنة ﴾ ؟ نقول : طلبت القرب من رحمة الله ثم بينت مكان القرب بقولها : ﴿ فِى الجنة ﴾ أو أرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش .

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

أحصنت أي عن الفواحش لأنها قذفت بالزنا .

والفرج حمل على حقيقته ، قال ابن عباس : نفخ جبريل في جيب الدرع ومده بأصبعيه ونفخ فيه ، وكل ما في الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج ، وقيل :

﴿ أَحْصَنَتْ ﴾ تكلفت في عفتها ، والمحصنة العفيفة : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي

فرج ثوبها ، وقيل : خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان .

وقوله : ﴿ فِيهِ ﴾ أي في عيسى ، ومن قرأ (فيها) أي في نفس عيسى والنفث مؤنث ، وأما التشبيه بالنفخ فذلك أن الروح إذا خلق فيه انتشر في تمام الجسد كالريح إذا نفخت في شيء ، وقيل : بالنفخ لسرعة دخوله فيه نحو الريح وصدقت بكلمات ربها .

قال مقاتل : يعني بعيسى ، ويدل عليه قراءة الحسن (بكلمة ربها) وسمي عيسى (كلمة الله) في مواضع من القرآن .

(13/773)

وجمعت تلك الكلمة هنا ، وقال أبو علي الفارسي : الكلمات الشرائع التي شرع لها دون القول ، فكأن المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات ﴾ [البقرة : 124] وقوله تعالى : ﴿ صَدَّقْتَ ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه ، وقرىء (كلمة) و (كلمات) ، و (كتبه) و (كتابه) ، والمراد بالكتاب هو الكثرة والشياع أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ الطائعين قاله ابن عباس ، وقال عطاء : من المصلين ، وفي الآية

مباحث .

البحث الأول : ما كلمات الله وكتبه ؟ نقول : المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على إدريس وغيره ، وبكتبه الكتب الأربعة ، وأن يراد جميع ما كلم الله تعالى (به) ملائكته وما كتبه في اللوح المحفوظ وغيره ، وقرىء : ﴿ بِكَلِمَةِ الله وكتابه ﴾ أي بعيسى وكتابه وهو الإنجيل ، فإن قيل : (لم قيل) ﴿ مِنَ القانتين ﴾ على التذكير ، نقول : لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين ، فغلب ذكوره على إناثه ، ومن للتبعيض ، قاله في "الكشاف" ، وقيل : من القانتين لأن المراد هو القوم ، وأنه عام ، ك ﴿ اركعي مَعَ الراكعين ﴾ [آل عمران : 43] أي كوني من المقيمين على طاعة الله تعالى ، ولأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام .

(14/773)

وأما ضرب المثل بامرأة نوح المسماة بواعلة ، وامرأة لوط المسماة بواهلة ، فمشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى ، منها التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم ، والعذاب الأليم ، ومنها العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد ، وفساد الغير لا يضر المصلح ، ومنها أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة ، ولا يأمن نفسه ،

كالصادر من امرأتي نوح ولوط ، ومنها العلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة ، كما أفاد مريم بنت عمران ، كما أخبر الله تعالى ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ اصطفاكِ وَطَهَّرَكِ واصطفاكِ ﴾ [آل عمران : 42] ومنها التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب ، وإلى الثواب بغير حساب ، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب ، وإليه المرجع والمآب ، جلت قدرته وعلت كلمته ، لا إله إلا هو وإليه المصير ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 44 . 45 ﴾

(15/773)

وقال ابن عطية :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

وهذان المثلان اللذان للكفار والمؤمنين معناهما : أن من كفر لا يغني عنه شيء ولا ينفعه وَزَرٌ ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب ، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشأ وأخسر حال . وقال بعض الناس : إن في المثلين عبرة لزوجات النبي محمد عليه السلام ، حين تقدم عتابهن ، وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا .

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين ، فقال ابن عباس وغيره : خانتا في الكفر ، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأن امرأة لوط كانت تنم إلى قومه متى ورده ضيف فتخبر به ، وقال ابن عباس : وما بغت زوجة نبي قط ، ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا ، وقال الحسن في كتاب النقاش : خانتاهما بالكفر والزنا وغيره ، وقرأ الجمهور : " يغنيا " بالياء ، وقرأ مبشر بن عبيد : " تغنيا " بالتاء من فوق .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

﴿ امرأة فرعون ﴾ اسمها آسية وقولها : ﴿ وعمله ﴾ معناه وكفره ، وما هو عليه من الضلالة ، وهذا قول كافة المفسرين ، وقال جمهور من المفسرين : معناه من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي ، وروي في هذا أن فرعون اتصل به إيمانها بموسى ، وأنها تحب أن يغلب ، فبعث إليها قوماً ، وقال : إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض ووتدوا يديها ورجليها وألقوا عليها أعظم حجر ، وإن لم تروا ذلك فهي امرأتي . قال ، فذهب القوم فلما أحست بالشر منهم دعت بهذه الدعوات فقبض الله روحها وصنع أولئك أمر الحجر بشخص لا روح فيه ، وروي في قصصها غير هذا مما يطول ذكره ، فاختصره لعدم صحته . وقال آخرون في كتاب النقاش : ﴿ وعمله ﴾ كناية عن الوطء والمضاجعة . وهذا ضعيف .

واختلف الناس في الفرج الذي أحصنت مريم ، فقال الجمهور : هو فرج الدرع الذي كان عليها ، وأنها كانت صينة ، وأن جبريل عليه السلام : نفخ فيها الروح من جيب الدرع ، وقال قوم من المتأولين : هو الفرج الجارحة ، فلفظة ﴿ أحصنت ﴾ : إذا كان فرج الجارحة متمكناً حقيقة ، والإحصان : صونه ، وفيه هي مستعملة ، وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ ﴿ أحصنت ﴾ فيه مستعارة من حيث صانته ، ومن حيث صار مسلكاً لولدها ، وقوله تعالى : ﴿ فنفخنا ﴾ عبارة عن فعل جبريل حقيقة ، وإن ذهب ذاهب إلى أن النفخ فعل الله تعالى ، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها ، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يسير في الشيء برفق ولطف . وقوله تعالى : ﴿ من روحنا ﴾ إضافة المخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك كما تقول : بيت الله وناقة الله ، وكذلك الروح الجنس كله هو روح الله . وقرأ الجمهور : " وصدّقت " بشد الدال ، وقرأ أبو مجلز : بتخفيفها ، وقرأ جمهور الناس : " بكلمات " على الجمع ، وقرأ الجحدري : " بكلمة " على الإفراد ، فأما الإفراد فيقوي : أن يريد أمر عيسى ويحتمل أن يريد أنه اسم جنس في التوراة ، ومن قرأ على الجمع فيقوي أنه يريد التوراة ، ويحتمل أن يريد أمر عيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ونافع : " وكتابه " على الوحيد ، وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ، وخارجة عن نافع : " وكُتُبه " بضم التاء والجمع ، وقرأ أبو

رجاء بسكون التاء " وكُتْبه " ، وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل ، والقانتون : العابدون ، والمعنى كانت من القوم ﴿ القانتين ﴾ في عبادتها وحال دينها .

(نجز تفسير سورة التحريم والحمد لله كثيراً) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(17/773)

وقال القرطبى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾

ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يُغْني أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرّق بينهما الدّين .

وكان اسم امرأة نوح والهة ، واسم امرأة لوط والعة ؛ قاله مقاتل .

وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها : إن جبريل نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والهة .

﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال عكرمة والضحاك : بالكفر .

وقال سليمان بن رقية عن ابن عباس : كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون .

وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه .

وعنه : ما بَغَت امرأة نبيّ قط .

وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القُشَيريّ .

إنما كانت خيانتهما في الدِّين وكانتا مشركتين .

وقيل : كانتا منافقتين .

وقيل : خيانتهما النميمة إذا أوحى (الله) إليهما شيئاً أفشتاه إلى المشركين ؛ قاله الضحاك .

وقيل : كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنّت لتُعْلِم قومها أنه قد نزل به ضيف ؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال .

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لمّا عَصتَا شيئاً من عذاب الله ؛ تنبيهاً بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة .

ويقال : إن كفار مكة استهزءوا وقالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يشفع لنا ؛ فبيّن الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفّار مكة وإن كانوا أقرباء ، كما لا تنفع شفاعةُ نوح لامرأته وشفاعةُ لوط لامرأته ، مع قربهما لهما لكفرهما .

وقيل لهما : ﴿ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ في الآخرة ؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم .

ثم قيل : يجوز أن تكون "امرأة نوح" بدلا من قوله : "مَثَلاً" على تقدير حذف المضاف ؛ أي ضرب الله مثلاً امرأة نوح .

ويجوز أن يكونا مفعولين .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأةَ فِرْعَوْنَ ﴾

(18/773)

واسمها آسية بنت مزاحم .

قال يحيى بن سلام : قوله ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مَثَلٌ ضربه الله يحذّر به عائشة وحَفْصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ضرب لهما مَثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنت عمران ؛ ترغيباً في التمسك بالطاعة والثبات على الدِّين .

وقيل : هذا حَثٌّ للمؤمنين على الصبر في الشدّة ؛ أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعفَ من امرأة فرعون حين صَبَرت على أذى فرعون .

وكانت آسية آمنت بموسى .

وقيل : هي عمة موسى آمنت به .

قال أبو العالية : اطّلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثْنَوْا عليها .

فقال لهم : إنها تعبد رباً غيري .

فقالوا له : اقتلها .

فأوْتَد لها أوتاداً وشدّ يديها ورجليها فقالت : ﴿ رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ ووافق ذلك حضور فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة .

فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعذبها وهي تضحك ؛ فقبض روحها .

وقال سَلْمان الفارِسي فيما روى عنه عثمان النَّهْديّ : كانت تعذب بالشمس ، فإذا أذاها حَرُّ الشمس أظلّتها الملائكة بأجنحتها .

وقيل : سمّر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحىً ، فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة .

وقيل : لما قالت : ﴿ رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ أُرِيَت بيتها في الجنة يُبْنى .

وقيل : إنه من دُرّة ؛ عن الحسن .

ولما قالت : ﴿ وَنَجِّنِي ﴾ نجَّاها الله أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة ، فهي تأكل وتشرب وتتنعّم .

ومعنى ﴿ مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ تعني بالعمل الكفر .

وقيل : من عمله من عذابه وظلمه وشماتته .

وقال ابن عباس : الجماع .

﴿ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ قال الكلبي : أهل مصر .

مقاتل : القبط .

قال الحسن وابن كَيْسان : نجاها الله أكرم نجاة ، ورفعها إلى الجنة ؛ فهي فيها تأكل وتشرب .

(19/773)

قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ ﴾

أي واذكر مريم .

وقيل : هو معطوف على امرأة فرعون .

والمعنى : وضرب الله مَثَلاً لمريم ابنت عمران وصبّرها على أذى اليهود .

﴿ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي عن الفواحش .

وقال المفسرون : إنه أراد بالفرج هنا الجيب ؛ لأنه قال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾

وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جَيْبها ولم ينفخ في فرجها .

وهي في قراءة أُبَيّ فنفخنا في جَيْبها من روحِنا .

وكل خرق في الثوب يسمى جَيْباً ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] .

ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جَيبها .

ومعنى ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾ أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى .

وقد مضى في آخر سورة "النساء" بيانه مستوفىً والحمد الله .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ قراءة العامة "وَصَدَّقَتْ" بالتشديد .

وقرأ حُميد والأموي "وَصَدَقَتْ" بالتخفيف .

﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ قول جبريل لها : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم : 19] الآية .

وقال مقاتل : يعني بالكلمات عيسى وأنه نبيّ وعيسى كلمة الله .

وقد تقدم .

وقرأ الحسن وأبو العالية "بِكَلِمَةِ رَبِّهَا وكِتَابِهِ" .

وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم "وكُتُبِه" جمعاً .

وعن أبي رجاء "وكُتْبِهِ" مخفف التاء .

والباقون "بِكِتَابِه" على التوحيد .

والكتاب يراد به الجنس ؛ فيكون في معنى كل كتاب أنزل الله تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ أي من المطيعين .

وقيل : من المصلّين بين المغرب والعشاء .

وإنما لم يقل من القانتات ؛ لأنه أراد وكانت من القوم القانتين .

ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها ؛ فإنهم كانوا مطيعين لله .

(20/773)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهي تجود بنفسها : "أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله في الكره خيراً فإذا قدمت على ضَرّاتك فأقرئيهن مني السلام مريم بنْت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة أو قال حكيمة بنت عمران أخت موسى بن عمران" " فقالت : بالرفاء والبنين يا رسول الله .

وروى قتادة عن أنس : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خُويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم " وقد مضى في "آل عمران" الكلام في هذا مستوفى والحمد الله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(21/773)

وقال أبو السعود :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

ضربُ المثلِ في أمثالِ هذهِ المواقعِ عبارةٌ عن إيرادِ حالةٍ غريبةٍ ليعرفَ بها حالةٌ أُخرى مشاكلةٌ لها في الغرابةِ أي جعلَ اللهُ مثلاً لحالِ هؤلاءِ الكفرةِ حالاً ومآلاً على أنَّ مثلاً مفعولٌ ثانٍ لضربَ ، واللامُ متعلقةٌ بهِ وقولُه تعالَى : ﴿ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾ أي حالَهُما ، مفعولُهُ الأولُ أُخِّرَ عنْهُ ليتصلَ بهِ ما هو شرحٌ وتفصيلٌ لحالِهما ويتضحُ بذلكَ حالُ هؤلاءِ فقولِهِ تعالَى : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين ﴾ بيانٌ لحالِهما الداعيةِ لهما إلى الخيرِ والصلاحِ أي كانتا في عصمةِ نبيينِ عظيمي الشأنِ متمكنتينِ من تحصيلِ خيري الدُّنيا والآخرةِ وحيازةَ سعادتيهما . وقولُه تعالَى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ بيانٌ لما صدرَ عنهُما من الجنايةِ العظيمةِ مع تحققِ ما ينفيها من صحبةِ النبيِّ أي خانتاهُما بالكفرِ والنفاقِ ، وهذا تصويرٌ لحالِهما المحاكيةِ لحالِ هؤلاءِ الكفرةِ في خيانتِهم لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالكفرِ والعصيانِ مع تمكنِهم التامِّ من الإيمانِ والطاعةِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ الخ بيانٌ لما أدَّى إليه خيانتُهُما أي فلم يُغنِ النبيانِ ﴿ عَنْهُمَا ﴾ بحقِّ الزواجِ ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي مِن عذابِهِ تعالَى ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً منَ الإغناءِ ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهما عندَ موتِهما أو يومَ القيامةِ ﴿ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ أي مع سائرِ الداخلينَ من الكفرةِ الذينَ لا وصلةَ

بينهُم وبينَ الأنبياءِ عليهم السلامُ .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾

(22/773)

أي جعلَ حالها مثلاً لحالِ المؤمنينَ في أنَّ وصلةَ الكفرةِ لا تضرُّهم حيثُ كانتْ في الدُّنيا تحت أعدى أعداءِ اللهِ وهيَ في أعلى غرفِ الجنةِ وقولِه تعالَى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ أشيرَ إليهِ أي ضربَ اللهُ مثلاً للمؤمنينَ حالَها إذْ قالتْ ﴿ رَبّ ابن لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ قريباً من رحمتكَ أو في أعلَى درجاتِ المقربينَ . رُوِيَ أنها لما قالتْ ذلكَ أريتْ بيتَها في الجنةِ من دُرَّةٍ وانتُزِعَ رُوحُها ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي مِنْ نفسِه الخبيثةِ وعملِه السيءِ ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ من القبطِ التابعينَ لهُ في الظلمِ ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ ﴾ عطفٌ على امرأةِ فرعونٍ تسليةً للأراملِ أي وضربَ اللهُ مثلاً للذينَ آمنُوا حالَها ومَا أوتيتْ من كرامةِ الدُّنيا والآخرةِ والاصطفاء على نساءِ العالمينَ مع كونِ قومِها كُفاراً ﴿ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ وقُرِىءَ فيها أي مريمُ ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من رُوحٍ خلقناهُ بلا توسطٍ أصلاً ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات رَبِّهَا ﴾ بصحفِهِ المنزلةِ أو بما أُوْحى إلى أنبيائِه ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بجميعِ كتبِه المنزلةِ وقُرِىءَ بكلمةِ اللهِ وكتابِه أي بعيسَى وبالكتابِ

المنزلِ عليهِ وهو الإنجيلُ ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ أي من عدادِ المواظبينَ على الطاعةِ ، والتذكيرُ للتغليبِ والإشعارِ بأنَّ طاعتها لم تقصُرْ عنْ طاعاتِ الرجالِ حتى عُدَّت مِنْ جُملَتهم أو مِنْ نَسلِهم لأنَّها من أعقابِ هارونَ أخِي مُوسى عليهما السلامُ .

(23/773)

وعن النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : "كَمُلَ من الرجالِ كثيرٌ ولم يكملْ من النساءِ إلا أربعٌ آسيةُ بنتُ مُزاحمٍ ومريمُ بنتُ عمرانَ وخديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمةُ بنتُ محمدٍ صلواتُ اللهِ عليهِ وفضلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعامِ " وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قرأَ سورةَ التحريمِ آتاهُ اللهُ توبةً نصاحاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(24/773)

وقال الآلوسى :

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

ضرب المثل في مثل هذا الموقع عبارة عن إيراد حالة غريبة لتعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة أي جعل الله تعالى مثلاً لحال الكفرة حالاً ومآلاً على أن مثلاً مفعول ثان لضرب .

واللام متعلقة به ، وقوله تعالى : ﴿ امرأت نُوحٍ ﴾ واسمها قيل : والعة ﴿ وامرأت لُوطٍ ﴾ واسمها قيل : واهلة ، وقيل : والهة ، وعن مقاتل اسم امرأة نوح والهة .

واسم امرأة لوط والعة مفعوله الأول ؛ وأخر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفسير لحالهما ، ويتضح بذلك حال الكفرة ، والمراد ضرب الله تعالى مثلاً لحال أولئك حال ﴿ امرأت ﴾ الخ ، فقوله تعالى :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين ﴾ بياناً لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح ، ولم يقل : تحتهما للتعظيم أي كانتا في عصمة نبيين عظيمي الشأن متمكنتين من تحصيل خير الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما ، وقوله تعالى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ بيان لما صدر عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقق ما ينافيها من مرافقة النبي عليه الصلاة والسلام ، أما خيانة امرأة نوح عليه السلام فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف رواه جمع وصححه الحاكم عن ابن عباس .

وأخرج ابن عدي .

والبيهقي في "شعب الإيمان" ، وابن عساكر عن الضحاك أنه قال : خيانتهما النميمة ،

وتمامه في رواية : كانتا إذا أوحى الله تعالى بشيء أفشتاه للمشركين ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : خيانتهما أنهما كانتا كافرتين مخالفتين ، وقيل : كانتا منافقتين ، والخيانة .

(25/773)

والنفاق قال الراغب : واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة ، وحمل ما في الآية على هذا ، ولا تفسر ههنا بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس " ما زنت امرأة نبي قط " ورفعه أشرس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي "الكشاف" لا يجوز أن يراد بها الفجور لأنه سمج في الطبع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفر لا يستسمجونه ويسمونه حقاً .

ونقل ابن عطية عن بعض تفسيرها بالكفر .

والزنا .

وغيره ، ولعمري لا يكاد يقول بذلك إلا ابن زنا ، فالحق عندي أن عهر الزوجات كعهر الأمهات من المنفرات التي قال السعد : إن الحق منعها في حق الأنبياء عليهم السلام ، وما ينسب للشيعة مما يخالف ذلك في حق سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم كذب عليهم فلا

تعول عليه وإن كان شائعاً ، وفي هذا على ما قيل : تصوير لحال المرأتين المحاكية لحال الكفرة في خيانتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ الخ بيان لما أدى إليه خيانتهما أي فلم يغن ذانك العبدان الصالحان والنبيان العظيمان ﴿ عَنْهُمَا ﴾ بحق الزواج ﴿ مِنَ الله ﴾ أي من عذابه عز وجل ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الإغناء ، أو شيئاً من العذاب .

﴿ وَقِيلَ ﴾ لهما عند موتهما .

أو يوم القيامة ، وعبر بالماضي لتحقق الوقوع ﴿ ادخلا النار مَعَ الدخلين ﴾ أي مع سائر الداخلين من الكفرة الذي لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام .

(26/773)

وذكر غير واحد أن المقصود الإشارة إلى أن الكفرة يعاقبون بكفرهم ولا يراعون بما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من الوصلة ، وفيه تعريض لأمهات المؤمنين وتخويف لهنّ بأنه لا يفيدهن إن أتين بما حظر عليهم كونهن تحت نكاح النبي صلى الله عليه وسلم وليس في ذلك ما يدل على أن فيهن كافرة أو منافقة كما زعمه يوسف الأوالي من متأخري الإمامية سبحانك هذا بهتان عظيم .

وقرأ مبشر بن عبيد تغنيا بالتاء المثناة من فوق ، و ﴿ عَنْهُمَا ﴾ عليه بتقدير عن نفسهما قال أبو حيان : ولا بد من هذا المضاف إلا أن يجعل عن اسماً كهي في : دع عنك لأنها إن كانت حرفاً كان في ذلك تعدية الفعل الرافع للضمير المتصل إلى ضميره المجرور وهو يجري مجرى الضمير المنصوب وذلك لا يجوز ، وفيه بحث .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾

أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله عز وجل وهي في أعلى غرف الجنة واسمها آسية بنت مزاحم ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ ظرف لمحذوف أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا حال امرأة فرعون إذ قالت ﴿ رَبّ ابن لِى عِندَكَ ﴾ قيل : أي قريباً من رحمتك لتنزهه سبحانه عن المكان .

(27/773)

وجوز في ﴿ عِندَكَ ﴾ كونه حالاً من ضمير المتكلم وكونه حالاً من قوله تعالى : ﴿ بيا تا ﴾ لتقدمه عليه وكان صفة لو تأخر ، وقوله تعالى : ﴿ فِى الجنة ﴾ بدل أو عطف بيان لقوله تعالى : ﴿ عِندَكَ ﴾ أو متعلق بقوله تعالى : ﴿ ابن ﴾ وقدم ﴿ عِندَكَ ﴾ لنكتة ، وهي كما في الفصوص الإشارة إلى قولهم : الجار قبل الدار ، وجوز أن يكون المراد بعندك

أعلى درجات المقربين لأن ما عند الله تعالى خير ، ولأن المراد القرب من العرش ، و ﴿ عِندَكَ ﴾ بمعنى عند عرشك ومقر عزك وهو على ما قيل : على الاحتمالات في إعرابه ولا يلزم كونه ظرفاً للفعل ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ ﴾ أي من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ﴿ وَعَمَلِهِ ﴾ أي وخصوصاً من عمله وهو الكفر وعبادة غير الله تعالى والتعذيب بغير جرم إلى غير ذلك من القبائح ؛ والكلام على أسلوب ﴿ مولاه وَجِبْرِيلُ ﴾ [البقرة : 98] ، وجوز أن يكون المراد ﴿ نَجِّنِى ﴾ من عمل فرعون فهو من أسلوب أعجبني زيد وكرمه ، والأول أبلغ لدلالته على طلب البعد من نفسه الخبيثة كأنه بجوهره عذاب ودمار يطلب الخلاص منه ، ثم طلب النجاة من عمله ثانياً تنبيهاً على أنه الطامة العظمى ، وخص بعضهم عمله بتعذيبه ، وعن ابن عباس أنه الجماع ، وما تقدم أولى ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ من القبط التابعين له في الظلم قاله مقاتل ، وقال الكلبي : من أهل مصر : وكأنه أراد بهم القبط أيضاً ، والآية ظاهرة في أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث ، وذكر بعضهم أنها عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف العصا الإفك فعذبها فرعون . وأخرج أبو يعلى .

والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة عليهم السلام فقالت : ﴿ رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة وهو على ما قيل : من درة ، وفي رواية عبد بن حميد عنه أنه وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت ﴿ رَبِّ ابنِ لِي ﴾ إلى ﴿ الظالمين ﴾ ففرج الله تعالى عن بيتها في الجنة فرأته ، وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله تعالى فرقى بروحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ، وعن الحسن فنجاها الله تعالى أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها ، وظاهره أنها رفعت بجسدها وهو لا يصح .

وفي الآية دليل على أن الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إليه عز وجل ومسألة الخلاص منه تعالى عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء ، وهو في القرآن كثير ، وقوله تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ ﴾

عطف على ﴿ امرأة فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم : 11] أي وضرب مثلاً للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء مع كون أكثر قومها كفاراً ، وجمع في التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لقلوبهن على ما قيل ، وهو من بدع

التفاسير كما في "الكشاف" ، وقرأ السختياني ابنه بسكون الهاء وصلاً أجراه مجرى الوقف ﴿ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ صانته ومنعته من الرجال ؛ وقيل : منعته عن دنس المعصية .

والفرج ما بين الرجلين وكني به عن السوءة ؛ وكثر حتى صار كالصريح ، ومنه ما هنا عند الأكثرين ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام فالإسناد مجازي ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي فنفخ رسولنا ، وضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للفرج ، واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج .

(29/773)

وروي ذلك عن قتادة ، وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها وهو محتمل لأن الفرج معناه في اللغة كل فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهي للنفس أمنع ، وفي "مجمع البيان" عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام ، وكان ذلك على ما قيل : قولها ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 18] وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها على ما نقل أولاً عن الفراء كناية عن العفة نحو قولهم : هو نقي

الجيب طاهر الذيل .

وجوز في ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ رجوعه إلى الحمل ، وهو عيسى عليه السلام المشعر به الكلام ، وقرأ عبد الله فيها كما في الأنبياء ، فالضمير لمريم ، والإضافة في قوله تعالى : ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ للتشريف ، والمراد من روح خلقناه بلا توسط أصل ، وقيل : لأدنى ملابسة وليس بذاك ﴿ وَصَدَّقَتْ ﴾ آمنت ﴿ بكلمات رَبِّهَا ﴾ بصحفه عز وجل المنزلة على إدريس عليه السلام .

وغيره ، وسماها سبحانه كلمات لقصرها ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول ، أو التوراة .

والإنجيل .

(30/773)

والزبور ، وعد المصحف من ذلك وإيمانها به ولم يكن منزلاً بعد كالإيمان بالنبي الموعود عليه الصلاة والسلام فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك وإيمانها به ولم يكن منزلاً بعد كالإيمان بالنبي الموعود عليه الصلاة والسلام فقد كان صلى الله عليه وسلم مذكوراً بكتابه في الكتب الثلاث ، وتفسير الكلمات والكتب بذلك هو ما اختاره جمع ، وجوز غير واحد

أن يراد بالكلمات ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام ، وبالكتب ما عرف فيها مما يشمل الصحف وغيرها ، وقيل : جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره ، وأن يراد بالكلمات وعده تعالى ووعيده أو ذلك وأمره عز وجل ونهيه سبحانه ، وبالكتب أحد الأوجه السابقة ، وإرادة كلامه تعالى القديم القائم بذاته سبحانه من الكلمات بعيد جداً ، وقرأ يعقوب .

وأبو مجلز .

وقتادة .

وعصمة عن عاصم ﴿ صَدَّقْتَ ﴾ بالتخفيف ، ويرجع إلى معنى المشدد ؛ وفي "البحر" أي كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات ، وفيه قصور لا يخفى .

وقرأ الحسن .

ومجاهد .

والجحدري بكلمة على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس ، وأن يكون عبارة عن كلمة التوحيد ، وأن يكون عبارة عن عيسى عليه السلام فقد أطلق عليه عليه السلام أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وقد مر شرح ذلك ، وقرأ غير واحد من السبعة وكتابه على الافراد فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى عليه

السلام ، وقرأ أبو رجاء ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بسكون التاء على ما قال ابن عطية ، وبه .

وبفتح الكاف على أنه مصدر أقيم مقام الاسم على ما قال صاحب اللوامح .

(31/773)

﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ أي من عداد المواظبين على الطاعة فمن للتبعيض ، والتذكير للتغليب ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم فهو أبلغ من قولنا : وكانت من القانتات ، أو قانتة ، وقيل : ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، والمراد كانت من نسل القانتين لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام ، ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لأصله ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [الأعراف : 58] وهي على ما في بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن ، روى أحمد في مسنده : سيدة نساء أهل الجنة مريم .

ثم فاطمة .

ثم خديجة .

ثم آسية .

ثم عائشة ، وفي "الصحيح" كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت

مزاحم امرأة فرعون .

ومريم ابنة عمران .

وخديجة بنت خويلد .

وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وخص الثريد وهو خبز يجعل في مرق وعليه لحم كما قيل

: إذا ما الخبز تأدمه بلحم . . .

فذاك أمانة الله الثريد

(32/773)

لا اللحم فقط كما قيل لأن العرب لا يؤثرون عليه شيئاً حتى سموه بجبوحة الجنة ، والسر فيه على ما قال الطيبي : إن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في المرىء فضرب به مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب للبعل فهي تصلح للبعل والتحدث والاستئناس بها والإصغاء إليها ، وحسبك أنها عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعقل غيرها من النساء وروت

ما لم يرو مثلها من الرجال ، وعلى مزيد فضلها في هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبتها حفصة رضي الله تعالى عنهما ما لا يخفى ، ثم لا يخفى أن فاطمة رضي الله تعالى عنها من حيث البضعية لا يعدلها في الفضل أحد ، وتمام الكلام في ذلك في محله .

وجاء في بعض الآثار أن مريم .

وآسية زوجا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ، أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى عليه السلام " وزعم نبوتها كزعم نبوة غيرهما من النساء كهاجر .

وسارة غير صحيح لاشتراط الذكورة في النبوة على الصحيح خلافاً للأشعري ، وقد نبه على هذا الزعم العلامة ابن قاسم في الآيات البينات وهو غريب فليحفظ ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(33/773)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾

أي : بالسيف والحجة ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في سورة براءة ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : شدّد عليهم في الدعوة ، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع .

قال الحسن : أي : جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : مصيرهم إليها ، يعني : الكفار والمنافقين ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي : المرجع الذي يرجعون إليه .

﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قد تقدّم غير مرّة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة ، أي : جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾ هذا هو المفعول الأوّل ، و ﴿ مثلاً ﴾ المفعول الثاني حسبما قدّمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له ، وإيضاح لمعناه ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط ، أي : كانتا في عصمة نكاحهما ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي : فوقعت منهما الخيانة لهما .

قال عكرمة ، والضحاك : بالكفر ، وقيل : كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه ، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبيّ قطّ .

وقيل : كانت خيانتهما النفاق ، وقيل : خانتاهما بالنميمة ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً ﴾ أي : فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئًا من النفع ، ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله شيئًا من الدفع ﴿ وَقِيلَ ادخلا النار مَعَ

الدخلين ﴾ أي : وقيل لهما في الآخرة ، أو عند موتهما : ادخلا النار مع الداخلين لها من أهل الكفر والمعاصي .

وقال يحيى بن سلام : ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين تظاهرتا عليه .

(34/773)

وما أحسن من قال : فإن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرشد أتمّ إرشاد ، ويلوّح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئًا ، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأةَ فِرْعَوْنَ ﴾ الكلام في هذا كالكلام في المثل الذي قبله أي : جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة والتمسك بالدين ، والصبر في الشدّة ، وأن صولة الكفر لا تضرّهم ، كما لم تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين ، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبّ

ابن لِى عِندكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ الظرف متعلق بضرب ، أو بمثلاً ، أي : ابن لي بيتاً قريباً من رحمتك ، أو في أعلى درجات المقربين منك ، أو في مكان لا يتصرّف فيه إلاّ بإذنك ، وهو الجنة ﴿ وَنَجّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي : من ذاته وما يصدر عنه من أعمال الشرّ ﴿ وَنَجّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ قال الكلبي : هم أهل مصر .

وقال مقاتل : هم القبط .

قال الحسن ، وابن كيسان : نجاها الله أكرم نجاة ، ورفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب .

﴿ وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ معطوف على امرأة فرعون ، أي : وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران ، أي : حالها وصفتها ، وقيل : إن الناصب لمريم فعل مقدّر أي : واذكر مريم ، والمقصود من ذكرها : أن الله سبحانه جمع لها بين كرامة الدنيا والآخرة ، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي : عن الفواحش ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة النساء .

(35/773)

قال المفسرون : المراد بالفرج هنا الجيب لقوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعيسى ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات رَبّهَا ﴾ يعني : شرائعه

التي شرعها لعباده ، وقيل : المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ الآية [مريم : 19] .

وقال مقاتل : يعني بالكلمات : عيسى .

قرأ الجمهور : ﴿ وصدّقت ﴾ بالتشديد ، وقرأ حمزة الأموي ، ويعقوب ، وقتادة ، وأبو مجلز ، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف .

وقرأ الجمهور : ﴿ بكلمات ﴾ بالجمع ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، والجحدري : (بكلمة) بالإفراد .

وقرأ الجمهور : (وكتابه) بالإفراد ، وقرأ أهل البصرة ، وحفص : ﴿ كتبه ﴾ بالجمع ، والمراد على قراءة الجمهور : الجنس ، فيكون في معنى الجمع ، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ قال قتادة : من القوم المطيعين لربهم .

وقال عطاء : من المصلين ، كانت تصلي بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين : رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، وقال : ﴿ من القانتين ﴾ ، ولم يقل " من القانتات " ؛ لتغليب الذكور على الإناث .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا : أما خيانة امرأة نوح ، فكانت تقول للناس : إنه

مجنون ؛ وأما خيانة امرأة لوط : فكانت تدل على الضيف ، فتلك خيانتهما .

وأخرج ابن المنذر عنه : قال : ما بغت امرأة نبيّ قط ، وقد رواه ابن عساكر مرفوعاً .

(36/773)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة : أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد ، وأضجعها على ظهرها ، وجعل على صدرها رحى ، واستقبل بها عين الشمس ، فرفعت رأسها إلى السماء ، فقَالَت ﴿ رَبّ ابن لِى عِندكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فرأته .

وأخرج أحمد ، والطبراني ، والحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت : ﴿ رَبّ ابن لِى عِندكَ بَيْتاً ﴾ " الآية .

وفي الصحيحين ، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" وأخرج وكيع في الغرر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ قال : من جماعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 255. 257 ﴾

(37/773)

وقال ابن عاشور :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾

أعقبت جملة ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التحريم : 9] الآية المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين ، بأن ضرَب مثلين للفريقين بنظيرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحاً ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة .

وقد تقدمت فائدة ذكر الأمثال في قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في سورة [البقرة : 17] .

وضربُ المثل : إلقاؤه وإيضاحه ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

وهذا المثل لا يخلو من تعريض بحث زوْجي النبي على طاعته وبأنَّ رضى الله تعالى يتبع رضى رسله .

فقد كان الحديث عن زوجتي النبي قريباً وكان عَملهما ما فيه بارقة من مخالفة ، وكان في المثلين ما فيه إشعار بالحالين .

وتعدية ضرب باللام الدال على العلة تفيد أن إلقاء المثل لأجل مدخول اللام .

فمعنى ضرب الله مثلاً للذين كروا ﴾ أنه ألقى هذا التنظير لأجلهم ، أي اعتبارهم بهم وقياسسِ حالهم على حال الممثل به ، فإذا قيل : ضرب لفلان مثلاً ، كان المعنى : أنه قصده به وأعلمه إياه ، كقوله تعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ [الزخرف : 58] .

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الروم : 58] .

ونحو ذلك وتقديم المجرور باللام على المفعول للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا .

فمعنى ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط ﴾ ، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيهاً للذين كفروا ، أي ليُذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صَارِف فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله ، ولا أن مكانهم من جوار بيتِه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم ، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين .

ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم .

وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح ، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة ، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تمالُؤِ أُمي المؤمنين على زوجهما صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإِخلاص للنبيء صلى الله عليه وسلم ليكون الشَّبه في التمثيل أقوى .

فعن مقاتل "يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة : لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم" .

ووضحه في "الكشاف" بأنه من قبيل التعريض .

ومنعه الفخر ، وقال ابن عطية : "قال بعض الناس في المثلين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن .

وفي هذا بُعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا" أ هـ .

ويدفع استبعاده أن دلالة التعريض لا تنافي اللفظ الصريح ، ومن لطائف التقييد بقوله تعالى : ﴿ للذين كفروا ﴾ أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وذلك من الاحتراس من أن تحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة التشبيهات ومنه تجريد الاستعارة .

(39/773)

وقصة امرأة نوح لم تذكر في القرآن في غير هذه الآية والذي يظهر أنها خانت زوجها بعد الطوفان وأن نوحاً لم يعلم بخونها لأن الله سمى عملها خيانة .

وقد ورد في سفر التكوين من التوراة ذكر امرأة نوح مع الذين ركبوا السفينة وذِكر خروجها من السفينة بعد الطوفان ثم طوي ذكرها لما ذكر الله بركته نوحاً وبنيه وميثاقه معهم فلم تذكر معهم زوجه .

فلعلها كفرت بعد ذلك أو لعل نوحاً تزوج امرأة أخرى بعد الطوفان لم تذكر في التوراة .

ووصف الله فعل امرأة نوح بخيانة زوجها ، فقال المفسرون : هي خيانة في الدين ، أي كانت كافرة مسرة الكفر ، فلعل الكفر حدث مرة أخرى في قوم نوح بعد الطوفان ولم يذكر في القرآن .

وأما حديث امرأة لوط فقد ذكر في القرآن مرات .

وتقدم في سورة الأعراف ويقال : فلانة كُانت تحت فلان ، أي كانت زوجاً له .

والتحتية هنا مجاز في معنى الصيانة والعصمة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في "الموطأ" وفي "صحيح البخاري" عن أم حرام بنت ملحان : "وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت" .

ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة : من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه : "الذي كانت ابنتُه تحتَه" فظن أنه فضل علياً إذْ فهم أن الضمير المضاف إليه "ابنَة" ضميرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الضمير المضاف إليه (تحت) ضمير اسم الموصول ، وإنما أراد السنيّ العكس بأن يكون ضمير "ابنته" ضمير الموصول "تحته" ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك هو أبو بكر .

وقد ظهر أن المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصّا بوصف "عبدين صالحين" مع أن وصف النبوة أخص من وصف الصلاح تنويهاً بوصف الصلاح وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم

بذلك شأن الصالحين كما في قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ [الصافات : 112] .

(40/773)

ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإِسلامية ، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم .

والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء ، وذلك تفريط المرء ما اؤتمن عليه وما عهد به إليه .

وقد جمعها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال : 27] .

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعولية المطلقة ل ﴿ يغنيا ﴾ لأن المعنى شيئاً من الغنى ، وتنكير ﴿ شيئاً ﴾ للتحقير ، أي أقل غنى وأجحفه بَلْهَ الغنى المهم ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ في سورة [الجاثية : 19] .

وزيادة مع الداخلين ﴾ لإِفادة مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة .

وذلك تأييس لهما من أن ينتفعا بشيء من حظوة زوجيهما كقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : 22] .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ

لما ضرب المثل ﴿ للذين كفروا ﴾ [الممتحنة : 10] أعقب بضرب مثل للذين آمنوا لتحصل المقابلة فيتضح مقصود المثَلَين معاً ، وجريا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب .

وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثَلَين السابقين ، فهذا من مراعاة النظير في المثلين .

وجاء أحد المثلين للذين آمنوا مثلاً لإِخلاص الإِيمان .

والمثل الثاني لشدة التقوى .

فكانت امرأة فرعون مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين ومريم مثلاً للقانتين لأن المؤمنين تبرأوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة .

وامرأة فرعون هذه هي امرأة فرعون الذي أُرسل إليه موسى وهو منفط الثالث وليست امرأة فرعون التي تبنتْ موسى حين التقطتْه من اليَمّ ، لأن ذلك وقع في زمن فرعون رعمسيس الثاني وكان بين الزمنين ثمانون سنة .

ولم يكن عندهم علم بدين قبل أن يرسل إليهم موسى .

ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام .

وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى ، أو تكون هداها الله إلى الإِيمان بموسى كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدم ذكره في سورة غافر .

وسماها النبي صلى الله عليه وسلم آسية في قوله : "كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريمُ ابنة عمران وآسيةُ امرأة فرعون " رواه البخاري .

وأرادت بعمل فرعون ظلمه ، أي نجّني من تبعة أعماله فيكون معنى ﴿ نجّني من فرعون ﴾ من صحبته طلبت لنفسها فرجاً وهو من عطف الخاص على العام .

ومعنى ﴿ قالت ﴾ أنها أعلنت به ، فقد روي أن فرعون اطّلع عليها وأعلن ذلك لقومه وأمر بتعذيبها فماتت في تعذيبه ولم تحس ألماً .

والقوم الظالمون : هم قوم فرعون .

وظلمهم : إشراكهم بالله .

والظاهر أن قولها : ﴿ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ مؤذن بأن فرعون وقومه صدّوها عن الإِيمان به وزيّنوا لها أنا إن آمنت بموسى تضيع ملكاً عظيماً وقصراً فخيماً أو أن فرعون

وعظها بأنها إن أصرّت على ذلك تقتل ، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه في بادىء الملوك .

ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درّة واحدة فتكون مشابهة الهرم الذي كان معدّاً لحفظ جثتها بعد موتها وزوجها .

فقولها ذلك كقول السحرة الذين آمنوا جواباً عن تهديد فرعون ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض ﴾ الآية في سورة [طه : 72] .

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

عطف على ﴿ امرأت فرعون ﴾ ، أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران ، فضرَب مثلَيْن في الشرّ ومثلين في الخير .

(42/773)

ومريم ابنة عمران تقدم الكلام على نسبها وكرامتها في سورة آل عمران وغيرها ، وقد ذكر الله باسمها في عدة مواضع من القرآن ، وقال ابن التلمساني في "شرح الشفاء" لعياض : لم يَذكُر الله امرأة في القرآن باسمها إلا مريم للتنبيه على أنها أمةُ الله إبطالاً لعقائد النصارى .

والإِحصان : جعل الشيء حصيناً ، أي لا يُسلك إليه .

ومعناه : منعت فرجها عن الرجال .

وتفريع ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ تفريع العطية على العمل لأجله .

أي جزيناها على إحصان فرجها ، أي بأن كوّن الله فيه نبيئاً بصفة خارقة للعادة فخلد بذلك ذكرها في الصالحات .

والنفخ : مستعار لسرعة إبداع الحياة في المكوّن في رحمها .

وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة لأن تكوين المخلوق الحيّ في رحمها كان دون الأسباب المعتادة ، أو أُريد بالروح الملك الذي يؤمر بنفخ الأرواح في الأجنة ، فعلى الأول تكون ﴿ من ﴾ تبعيضية ، وعلى الثاني تكون ابتدائية ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ في سورة [الأنبياء : 91] .

وتصديقها : يقينها بأن ما أبلغ إليها الملَكُ من إرادة الله حملها .

وكلمات ربها ﴾ : هي الكلمات التي ألقاها إليها بطريق الوحي .

و﴿ وكتابه ﴾ يجوز أن يكون المراد به "الإِنجيل" الذي جاء به ابنها عيسى وهو إن لم يكن مكتوباً في زمن عيسى فقد كتبه الحواريون في حياة مريم .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ كتابه ﴾ ، أراده الله وقدّره أن تحمل من دون مس رجل إياها من باب وكان كتاباً مفعولاً .

والقانت : المتمحض للطاعة .

يجوز أن يكون و ﴿ من ﴾ للابتداء .

والمراد بالقانتين : المكثرون من العبادة .

والمعنى أنها كانت سليلة قوم صالحين ، أي فجاءت على طريقة أصولها في الخير والعفاف

. . . .

وهل ينبت الخَطِّيُّ إلا وشيجَهُ

وهذا إيماء إلى تبرئتها مما رماها به القوم البهت .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ [النور : 26] .

(43/773)

ويجوز أن تجعل ﴿ من ﴾ للتعبيض ، أي هي بعض من قنت لله .

وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل : من القانتات ، جرياً على طريقة التغليب وهو من تخريج الكلام على مقتضى الظاهر .

وهذه الآية مثال في علم المعاني .

ونكتته هنا الإِشارة إلى أنها في عداد أهل الإِكثار من العبادة وأن شأن ذلك أن يكون

للرجال لأن نساء بني إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة .

ووصفت مريم بالموصول وصلته لأنها عُرفت بتلك الصلة من قصتها المعروفة من تكرر ذكرها فيما نزل من القرآن قبل هذه السورة .

وفي ذكر ﴿ القانتين ﴾ إيماء إلى ما أوصى الله به أمهات المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين ﴾ [الأحزاب : 31] الآية .

وقرأ الجمهور ﴿ وكتابه ﴾ .

وقرأه حفص وأبو عمرو ويعقوب ﴿ وكُتُبه ﴾ بصيغة الجمع ، أي آمنت بالكتب التي أنزلت قبل عيسى وهي "التوراة" و"الزبور" وكتب الأنبياء من بني إسرائيل ، و"الإِنجيل" إن كان قد كتبه الحواريون في حياتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(44/773)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط . . . الآيات ﴾

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال مثل للكفار ومثلين للمؤمنين فتضمن مثل الكفار أن

الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا قيل ادخلا النار مع الداخلين

قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال فلا اتصال فوق اتصال البنوة الأبوة والزوجية ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئًا قال الله تعالى لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم وقال تعالى يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا وقال تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئًا وقال واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا إن وعد الله حق وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله أو هو يشفع لهم عند الله وهذا أصل ضلالة بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله وهو الذي بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم

فصل

وأما المثلان اللذان للمؤمنين فأحدهما امرأة فرعون ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئا في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين

المثل الثاني للمؤمنين مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر فذكر ثلاثة أصناف من النساء المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها والثانية لا تضرها وصلتها وسببها والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئا

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ص – والتحذير من تظاهرهن عليه وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ص – كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة

قال يحيى بن سلام ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضا اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند

(46/773)

الله شيئا قذف أعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي ص - فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون قالوا فهذا بعض ما اشتمل عليه القرآن من التمثيل والقياس والجمع والفرق واعتبار العلل والمعاني وارتباطها بأحكامها تأثيرا واستدلالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 188.190 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾

لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من أن المرأة ليست من الرجال وهو تعالى لم يقل من القانتات .

والجواب هو اطباق أهل للسان العربي على تغليب الذكر على الأنثى في الجمع فلما أراد أن يبين أن مريم من عباد الله القانتين وكان منهم ذكور وأناث غلب الذكور كما هو الواجب في اللغة العربية ونظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 298 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) ﴾

أخرج ابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه " عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً ، فتواصيت أنا وحفصة أن أتينا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ، فدخل إلى إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود فنزلت ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى ﴿ أن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ لقوله : بل شربت عسلاً " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فدخل على حفصة ، فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فقال : " أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه " فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآية " .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ قالت : كانت عندي عكة من عسل أبيض ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يلعق منها ، وكان يحبسه ، فقالت له عائشة : نحلها تجرش عرفطاً فحرمها ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن عبد الله بن عتيبة أنه سئل أي شيء حرم النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : عكة من عسل .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى آخر الآية .

(49/773)

وأخرج الترمذي والطبراني بسند حسن صحيح عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ الآية ، في سريته .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث

في شأن مارية أم إبراهيم القبطية أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في يومها ، فوجدت حفصة ، فقالت : يا نبي الله لقد جئت إليَّ شيئاً ما جئته إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري وعلى فراشي فقال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ قالت : بلى فحرمها وقال : لا تذكري ذلك لأحد ، فذكرته لعائشة رضي الله عنها فأظهره الله عليه ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عنها فأظهر الله يمينه وأصاب جاريته " .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ قال : حرم سريته .

(50/773)

وأخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كانت عائشة وحفصة متحابتين ، فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه حفصة فوجدتهما في بيتها فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد

سؤتني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لأرضينك وإني مسر إليك سراً فاحفظيه " قالت : ما هو ؟ قال : " إني أشهدك أن سريتي هذه عليّ حرام رضاً فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرت إليها أن أبشري إن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته ، فلما أخبرت بسر النبي صلى الله عليه وسلم أظهر الله النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ذكر عند عمر بن الخطاب ﴿ يا أيها النبي ، لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك ﴾ قال : إنما كان ذلك في حفصة .

وأخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل أم إبراهيم منزل أبي أيوب قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل النبي صلى الله عليه وسلم بيتها يوماً ، فوجد خلوة فأصابها ، فحملت بإبراهيم ، قالت عائشة : فلما استبان حملها فزعت من ذلك ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ولدت ، فلم يكن لأمه لبن فاشترى له ضائنة يغذي منها الصبي ، فصلح عليه جسمه وحسن لحمه وصفا لونه ، فجاء به يوماً يحمله على عنقه ، فقال يا عائشة كيف تري الشبه ؟ فقلت : أنا غيري ما أدري شبهاً ، فقال : ولا باللحم ؟ فقلت : لعمري لمن تغذى بألبان الضأن ليحسن لحمه قال : فجزعت عائشة رضي الله عنها وحفصة من ذلك فعاتبته حفصة ، فحرمها وأسر إليها سراً فأفشته إلى

عائشة رضي الله عنها ، فنزلت آية التحريم ، فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم رقبة .

(51/773)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وجدت حفصة رضي الله عنها مع النبي صلى الله عليه وسلم أم ولده مارية أم إبراهيم ، فحرم أم ولده لحفصة رضي الله عنها ، وأمرها أن تكتم ذلك ، فأسرته إلى عائشة رضي الله عنها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ فأمره الله بكفارة يمينه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآية ، قال : كان حرم فتاته القبطية أم إبراهيم عليه السلام في يوم حفصة ، وأسر ذلك إليها ، فأطلعت عليه عائشة رضي الله عنها ، وكانتا تظاهرتا على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فأحل الله له ما حرم على نفسه ، وأمره أن يكفر عن يمينه ، فقال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الشعبي وقتادة رضي الله عنهما ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ قال : حرم جاريته ، قال الشعبي : وحلف يميناً مع التحريم ، فعاتبه

الله في التحريم ، وجعل له كفارة اليمين ، وقال قتادة : حرمها فكانت يميناً .

وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم أم إبراهيم ، فقال : هي عليّ حرام ، فقال : والله لا أقربها ، فنزلت ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ " .

وأخرج ابن سعد عن مسروق والشعبي قالا : آلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمته وحرمها ، فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ وأنزل ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

وأخرج الهيثم بن كليب في مسنده والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع عن ابن عمر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحفصة : لا تحدثي أحداً وإن أم إبراهيم عليَّ حرام ، فقالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : فوالله لا أقربها ، فلم يقربها نفسه حتى أخبرت عائشة فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ " .

(52/773)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مسروق " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف لحفصة أن لا يقرب أمته ، وقال : هي عليَّ حرام ، فنزلت الكفارة ليمينه وأمر

أن لا يحرم ما أحل الله له " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الضحاك " أن حفصة زارت أباها ذات يوم ، وكان يومها ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فلم يجدها في المنزل ، فأرسل إلى أمته مارية ، فأصاب منها في بيت حفصة ، وجاءت حفصة على تلك الحال ، فقالت يا رسول الله : أتفعل هذا في بيتي وفي يومي ؟ قال : فإنها عليّ حرام ولا تخبري بذلك أحداً ، فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأخبرتها بذلك فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ فأمر أن يكفر عن يمينه ، ويراجع أمته " .

(53/773)

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية سريته بيت حفصة فوجدتها معه ، فقالت : يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك ؟ قال : فإنها عليَّ حرام أن أمسها ، واكتمي هذا عليَّ ، فخرجت حتى أتت عائشة ، فقالت : ألا أبشرك ؟ قالت : بماذا ؟ قالت : وجدت مارية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، فقلت : يا رسول الله في بيتي من بين بيوت نسائك ؟ فكان أوّل السر أنه أحرمها على نفسه ، ثم قال لي : يا حفصة ألا أَبشرك

فأعلمي عائشة أن أباك يلي الأمر من بعده ، وأن أبي يليه بعد أبيك ، وقد استكتمني ذلك فاكتميه ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ أي لما كان منك إلى قوله : ﴿ وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه ﴾ يعني حفصة ﴿ حديثاً فلما نبأت به ﴾ يعني عائشة ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أي بالقرآن ﴿ عرف بعضه ﴾ عرف حفصة ما أظهر من أمر مارية ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ عما أخبرت به من أمر أبي بكر وعمر ، فلم يُبْدِه ﴿ فلما نبأها به ﴾ إلى قوله : ﴿ الخبير ﴾ ثم أقبل عليهما يعاتبهما فقال : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ إلى قوله : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ فوعده من الثيبات آسية بنت مزاحم وأخت نوح عليه السلام ، ومن الأبكار مريم بنت عمران وأخت موسى " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم .

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ

أخرج عبد الرزاق والبخاري وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : في الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب : 21] .

وأخرج ابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال : جعلت امرأتي عليَّ حراماً فقال : كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن عائشة قالت : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح ، فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ فأحل يمينه وأنفق عليه .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق علي عن ابن عباس ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ قال : أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا حرموا شيئاً مما أحل الله لهم أن يكفروا أيمانهم بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، وليس يدخل في ذلك الطلاق .

وأخرج عبد بن حميد عن ميمون بن مهران رضي الله عنه في قوله : ﴿ تحلة أيمانكم ﴾ قال : يقول قد أحللت لك ما ملكت يمينك ، فلم تحرم ذلك وقد فرضت لك تحلة اليمين تكفر بها يمينك ؟ كل ذلك في هذا .

أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : " دخلت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخبري عائشة حتى أبشرك بشارة فإن أباك

يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أنا مت ، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فقالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير ، فقالت عائشة : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية ، فحرمها ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ " .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن عائشة في قوله : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي .

(55/773)

وأخرج ابن عدي وأبو نعيم في فضائل الصحابة والعشاري في فضائل الصديق وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن علي وابن عباس قالا : والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال لحفصة : " أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي فإياك أن تخبري أحداً " .

وأخرج ابن عساكر عن ميمون بن مهران في قوله : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي .

وأخرج ابن عساكر عن حبيب بن أبي ثابت ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : أخبر عائشة أن أباها الخليفة من بعده ، وأن أبا حفصة الخليفة من بعد أبيها .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم جارية له في يوم عائشة ، وكانت حفصة وعائشة متحابتين ، فأطلعت حفصة على ذلك ، فقال لها : لا تخبري عائشة بما كان مني ، وقد حرمتها عليَّ فأفشت حفصة سر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ الآيات " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : أسر إلى عائشة في أمر الخلافة بعده ، فحدثت به حفصة .

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن الضحاك ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال : أسر إلى حفصة بنت عمر أن الخليفة من بعده أبو بكر ، ومن بعد أبي بكر عمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ عرف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ قال : الذي عرف أمر مارية ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ قوله : " إن أباك وأباها يليان الناس بعدي " مخافة أن يفشو .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مثله .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : ما استقصى كريم قط لأن الله تعالى يقول : ﴿ عرف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن عطاء الخرساني قال : ما استقصى حليم قط ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ عرف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ .

(56/773)

أما قوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ قال : مالت وأثمت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ صغت ﴾ قال : مالت .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ صغت ﴾ قال : مالت .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : كنا نرى أن ﴿ صغت قلوبكما ﴾ شيء هين حتى سمعناه بقراءة عبد الله أن تتوبا إلى الله ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وأحمد والعدني وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ حتى حج عمر

وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه ، بالإِداوة فتبرز ثم أتى فصببت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ فقال : واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة ، ثم أنشأ يحدثني الحديث ، فقال : كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر من ذلك ؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قلت : قد خابت من فعلت ذلك منهن وخسرت ، قال : وكان منزلي بالعوالي ، وكان لي جار من الأنصار كنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره ، وأنزل يوماً فآتيه بمثل ذلك .

(57/773)

قال : وكنا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ، فجاء يوماً فضرب على الباب فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : أجاءت غسان ؟ قال : أعظم من ذلك ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، قلت في نفسي : قد خابت حفصة وخسرت قد

كنت أرى ذلك كائناً ، فلما صلينا الصبح شددت عليَّ ثيابي ، ثم انطلقت حت دخلت على حفصة فإذا هي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا أدري هوذا معتزل في المشربة . فانطلقت فأتيت غلاماً أسوداً فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إليَّ فقال : قد ذكرتك له فلم يقل شيئاً ، فانطلقت إلى المسجد ، فإذا حول المسجد نفر يبكون ، فجلست إليهم ، ثم غلبني ما أجد ، فانطلقت فأتيت الغلام ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج ، فقال : قد ذكرتك له فلم يقل شيئاً ، فوليت منطلقاً فإذا الغلام يدعوني ، فقال : أدخل فقد أذن لك فدخلت فإذا النبي صلى الله عليه وسلم متكىء على حصير قد رأيت أثره في جنبه ، فقلت : يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ قال : لا قلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت يوماً على امرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت ذلك فقالت : ما تنكر فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خابت من فعل ذلك منهن ، فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجع إحداكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهجره اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم ، فقلت : قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإذا هي قد هلكت ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لحفصة : لا تراجعي رسول الله

صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك أوسم منك وأحب إلى رسول الله صلى الله

(58/773)

عليه وسلم ، فتبسم أخرى ، فقلت يا رسول الله : استأنس قال : نعم . فرفعت رأسي فما رأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً وقال : أو في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، وكان قد أقسم أن لا يدخل على نسائه شهراً فعاتبه الله في ذلك ، وجعل له كفارة اليمين .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : آلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه وحرم فجعل الحرام حلالاً وجعل في اليمين كفارة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : آلى النبي صلى الله عليه وسلم من نسائه وحرم ، فأما الحرام فأحله الله له ، وأما الإِيلاء فأمره بكفارة اليمين .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ خفيفة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله ﴾ خفيفة مرفوعة الياء ﴿ سائحات ﴾ خفيفة الألف .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : " لما اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه دخلت المسجد ، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب ، فقلت : لأعلمن ذلك اليوم ، فدخلت على عائشة فقلت يا بنت أبي بكر ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ما لي ولك يا ابن الخطاب . فدخلت على حفصة فقلت لها يا حفصة ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك رسول الله ، فبكت أشد البكاء ، فقلت لها : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هو في خزانته في المشربة . فدخلت ، فإذا أنا برباح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً على أسكفة المشربة مدلياً رجليه على نقير من خشب ، وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر ، فناديت : يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً . فقلت يا رباح : استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر

رباح إلى الغُرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئاً ، ثم رفعت صوتي ، فقلت : يا رباح . استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظن أني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقها لأضربن عنقها ، ورفعت صوتي فأومأ إليّ بيده أن ارقه ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير فجلست فإذا عليه إزار ليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، ونظرت في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها من قرظ في ناحية الغرفة ، وإذا أفيق معلق فابتدرت عيناي ، فقال : ما يبكيك يا

(60/773)

ابن الخطاب ؟ فقلت يا نبي الله : وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ؟ وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك . ، قال : يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ، قلت : بلى ، ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب ، فقلت يا رسول الله : ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن ، فإن الله تعالى معك وملائكته وجبريل

وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقوله ، ونزلت هذه الآية ﴿ عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ وكانت عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله : أطلقتهن ؟ قال : لا . قلت يا رسول الله : إني دخلت المسجد والمؤمنون ينكتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، أفانزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن ؟ قال : نعم إن شئت ، ثم لم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه ، وحتى كشر وضحك وكان من أحسن الناس ثغراً ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت أتشبث بالجذع ، ونزل نبي الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده ، فقلت يا رسول الله : إنما كنت في الغرفة تسعاً وعشرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشهر قد يكون تسعاً وعشرين ، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . قال : ونزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء : 83] فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله آية التخيير " .

قوله تعالى : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ .

أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أبي يقرؤها ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ أبو بكر وعمر .

وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة وميمون بن مهران مثله .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن البصري رضي الله عنه في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وأخرج ابن عساكر عن مقاتل بن سليمان رضي الله عنه في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم .

وأخرج ابن عساكر من طريق مالك بن أنس رضي الله عنه عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ قال : مالت ، وفي قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : الأنبياء عليهم السلام

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله

﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : صلى الله عليه وسلم " " من صالح المؤمنين أبو بكر وعمر " رضي الله عنهما " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : " صالح المؤمنين أبو بكر وعمر " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قالا : نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : نزلت في عمر بن الخطاب خاصة .

وأخرج عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : صالح المؤمنين أبو بكر وعمر .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عمر وابن عباس في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قالا : نزلت في أبي بكر وعمر .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : نزلت في عمر خاصة .

وأخرج الحاكم عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن عليّ قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : " هو عليّ بن أبي طالب " " .

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : " عليّ بن أبي طالب " " .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : هو عليّ بن أبي طالب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن العلاء بن زياد في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : الأنبياء عليهم السلام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة وأبي مالك وقتادة في قوله : ﴿ قانتات ﴾ قال : مطيعات ، وفي قوله : ﴿ سائحات ﴾ قالوا : صائمات .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قرأ " سيحات " مثقلة بغير ألف .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن بريدة في قوله : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يزوّجه بالثيب آسية امرأة فرعون وبالبكر مريم بنت عمران .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم .

(63/773)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : وأهليكم فليقوا أنفسهم .

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ فقالوا : يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً ؟ قال : " تأمرونهم بما يحبه الله وتنهونهم عما يكره الله " " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : أدبوا أهليكم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : أوصوا أهليكم بتقوى الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : مروهم بطاعة الله ، وانهوهم عن معصية الله .

وأخرج ابن المنذر عن عبد العزيز بن أبي رواد قال : مر عيسى عليه السلام بجبل معلق بين السماء والأرض ، فدخل فيه وبكى وتعجب منه ، ثم خرج منه إلى من حوله ، فسأل : ما قصة هذا الجبل ؟ فقالوا : ما لنا به علم ، كذلك أدركنا آباءنا ، فقال : يا رب ، ائذن لهذا الجبل يخبرني ما قصته ؟ فأذن له فقال : لما قال الله : ﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ اضطربت خفت أن أكون من وقودها ، فأدع الله أن يؤمنني ، فدعا الله تعالى فأمنه ، فقال : الآن قررت ، فقرَّ على الأرض .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن قدامة في كتاب البكاء والرقة عن محمد بن هاشم قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ قرأها النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعها شاب إلى جنبه ، فصعق ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه في حجره رحمة له ، فمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم فتح عينيه ، فإذا رأسه في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : بأبي أنت وأمي مثل أي شيء الحجر ؟ فقال : " أما يكفيك ما أصابك ، على أن الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه ، وإن مع كل إنسان منهم حجراً أو شيطاناً والله أعلم " " .

قوله تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم . . . ﴾ .

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائتي خريف ليس في قلوبهم رحمة ، إنما خلقوا للعذاب ، ويضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه إلى قدمه .

وأخرج ابن جرير عن كعب قال : ما بين منكب الخازن من خزنتها مسيرة ما بين سنة ، مع كل واحد منهم عمود وشعبتان يدفع به الدفعة يصدع في الناس سبعمائة ألف .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن التوبة النصوح قال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التوبة من الذنب لا تعود إليه أبداً " .

(65/773)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان بسند ضعيف عن أبيّ بن كعب قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التوبة النصوح فقال : " هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك عند الحافر ثم لا تعود إليه أبداً " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قال معاذ بن جبل يا رسول الله : ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب ، فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود

رضي الله عنه في قوله : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ قال : التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود إليه أبداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ قال : هو أن يتوب ثم لا يعود .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ توبة نصوحاً ﴾ قال : النصوح الصادقة الناصحة .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : التوبة النصوح تكفر كل سيئة وهو في القرآن ثم قرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ نصوحاً ﴾ برفع النون .

أخرج الحاكم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى ﴾ قال : ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم

القيامة ، فأما المنافق فيطفأ نوره والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ .

(66/773)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ قال : قول المؤمنين حين يطفأ نور المنافقين .

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فخانتاهما ﴾ قال : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل على الضيف ، فتلك خيانتها .

وأخرج ابن عساكر عن أشرس الخراساني رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما بغت امرأة نبي قط " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ فخانتاهما ﴾ قال : كانتا كافرتين مخالفتين ، ولا ينبغي لامرأة تحت نبي أن تفجر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما بغت امرأة نبي قط .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ فخانتاهما ﴾ قال : في الدين .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : امرأة النبي إذا زنت لم يغفر لها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ الآية قال : يقول لن يغني صلاح هذين عن هاتين شيئاً وامرأة فرعون لم يضرها كفر فرعون ، والله تعالى أعلم .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن سلمان رضي الله عنه قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

(67/773)

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها ، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة عليهم السلام ، فقالت : ﴿ رب

ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد ، وأضجعها على صدرها ، وجعل على صدرها رحى ، واستقبل بهما عين الشمس ، فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : ﴿ رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ إلى ﴿ الظالمين ﴾ ففرج الله عن بيتها في الجنة فرأته .

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قصّ الله علينا من خبرهما في القرآن ﴿ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ " .

وأخرج وكيع في الغرر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ قال : من جماعه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ قال : في جيبها ، وفي قوله : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ قال : من المطيعين .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ بالألف " وكتابه واحد " .

وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله

زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 213 . 229 ﴾

(68/773)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ ،

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خلا في يوم لعائشة رضي الله عنها مع جاريته مارية القبطية ، فوقعت حفصة على ذلك ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تُعْلِمِي عَائِشَةَ " وحرم مارية على نفسه ، فأخبرت حفصة عائشة بذلك ، فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك ، فطلق النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ، فأمر الله تعالى رسوله بكفارة اليمين ، لتحريم جاريته على نفسه ، وأمره بأن يراجع حفصة ، فقال له جبريل : راجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة ، ونزلت هذه الآية : ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ يعني : مارية ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أزواجك ﴾ يعني : تطلب رضا زوجتك عائشة .

﴿ واللهُ غَفُورٌ ﴾ فيما حرم على نفسه .

ويقال : غفور لذنب حفصة .

﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لم يعاقبها .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ يعني : بيَّن الله لكم كفارة أيمانكم .

ويقال : أوجب الله عليكم كفارة أيمانكم .

وفي الآية وجه آخر ؛ روى هشام بن عروة ، عن أبية ، عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلو والعسل ، وكان إذا صلى العصر ، دار على نسائه ، فيدنو منهن ؛ فدخل على حفصة ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فسألت عائشة عن ذلك ، فقيل لها : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت لرسول الله صلى الله عليه وسلم منه .

فقالت : أما والله لنحتالن .

فذكرت ذلك لسودة ، وقالت : إذا دخل فإنه سيدنو منك ، فقولي له : أكلت المغافير ؟ فإنه سيقول لك : لا .

فقولي له : ما هذه الريح ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه إذا وجد منه الريح ، فإنه سيقول لك : حفصة سقتني شربة عسل .

فقولي له : جرست نحلة العُرْفُط يعني : أن تلك النحلة أكلت العرفط ، وهو نبات به رائحة منكرة .

(69/773)

وسأقول له ذلك ، وقولي له أنت يا صفية .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سودة ، قالت سودة : لقد كدت أن أناديه وإنه لعلى الباب فرقاً منك ، فلما دنا مني ، قلت : أكلت المغافير ؟ قال : لا ، قالت : فما هذه الريح ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل .

قلت : جرست نحلة العرفط .

فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك ، فلما دخل على حفصة ، قالت له : يا رسول الله ، ألا أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لي به .

وروى ابن أبي مليكة ، عن عبد الله بن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة ، فقالت له : إني أجد منك ريحاً .

ثم دخل على حفصة ، فقالت : إني أجد منك ريحاً .

قال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزل : ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾ يعني : أوجب عليكم كفارة أيمانكم .

﴿ والله مولاكم ﴾ يعني : ناصركم وحافظكم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بما قالت حفصة لعائشة في أمر مارية .

﴿ الحكيم ﴾ حكم بكفارة اليمين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَ أَسَرَّ النبى ﴾ يعني : أخفى النبي ﴿ إلى بَعْضِ أزواجه حَدِيثاً ﴾ يعني : كلاماً .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ يعني : أخبرت بذلك الخبر حفصة عائشة ، ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ يعني : أظهر الله قولها لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة ، فأخبرها ببعض ما أخبرت عائشة ، ولم يخبرها عن الجميع ، فذلك قوله : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ يعني : سكت عن بعض .

ومن هذا قيل : إن الكريم لا يبالغ في العتاب .

قرأ الكسائي : ﴿ عَرَّفَ ﴾ بالتخفيف يعني : جازاها ببعضه ، والباقون ﴿ عَرَّفَ ﴾ بالتشديد يعني : عرف حفصة .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ يعني : لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الخبر حفصة ، ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ يعني : من أخبرك بهذا .

﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ﴾ يعني : أخبرني ﴿ العليم الخبير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله ﴾ يعني : عائشة وحفصة ، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ يعني : مالت قلوبكما عن الحق .

وذكر عن الفراء أنه قال : معناه إن لا تتوبا إلى الله ، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ عن الحق ، ويقال : فيه مضمر ، ومعناه : إن تتوبا إلى الله يقبل الله توبتكما ، ويقال معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني : مالت إلى الحق .

وروى الزهري ، عن عبد الله بن عباس قال : كنت مع عمر رضي الله عنه حين حج ، فلما كنا في بعض الطريق ، نزل في موضع ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله ﴾ ؟ فقال عمر رضي الله عنه واعجبا لك يا ابن عباس .

قال الزهري : كأنه كره ما سأله عنه ، ولم يكتمه .

قال : هي حفصة وعائشة رضي الله عنهما ثم قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

فغضبت يوماً على امرأتي ، فإذا هي تراجعني .

فأنكرت أن تراجعني ، فقالت ما تنكر أن أراجعك ، فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لتراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فدخل على حفصة ، فذكرت لها ، فقالت : نعم .

فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ؟ لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تسأليه شيئاً ، واسأليني ما بدا لك .

قال : كان لي جار من الأنصار يأتيني بخبر الوحي ، وأتاه بمثل ذلك .

قال : فأتاني يوماً فناداني ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم .

فقلت : ماذا ؟ قال : طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة وخسرت .

(71/773)

فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قالت : لا أدري ، هو ذا معتزلاً في هذه المشربة .

فأتيته ، فدخلت فسلمت عليه ، فإذا هو متكىء على رمل حصير .

قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .

فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله ، وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أقسم أن لا يدخل شهراً عليهن ، حتى نزل : ﴿ عِلْمَا يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ يعني : تعاونا على أذاه ومعصيته ، فيكون مثلكما كمثل امرأة نوح وامرأة لوط ، تعملان عملاً تؤذيان بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ﴿ تظاهر ﴾ بالتخفيف ، وقرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد ، وكذلك ابن كثير وابن عامر في إحدى الروايتين ، لأن أصله تتظاهر .

﴿ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه ﴾ يعني : وليه وناصره .

﴿ وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحابه رضي الله عنهم قال : حدثنا الفقيه ابن جعفر قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن حمدان قال : حدثنا أحمد بن جرير قال : حدثنا سعيد بن هشام قال : حدثنا هشام بن عبد الملك ، عن محمد بن أبان ، عن عبد الله بن عثمان ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما قال عبد الله : فذكرت ذلك لسعيد بن جبير ، قال : صدق

عكرمة.

ويقال: ﴿ صالح المؤمنين ﴾ يعني: خيار أصحابه.

ثم قال: ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ يعني: الملائكة أيضاً أنصار النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يعني: مع ذلك أعوان النبي صلى الله عليه وسلم.

(72/773)

ثم قال: ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾، فخوفهن الله تعالى بفراق النبي صلى الله عليه وسلم إياهن، وعسى من الله واجب ﴿ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ عسى ربه ﴿ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا ﴾.

قرأ نافع، وأبو عمرو ﴿ يُبْدِلَهُ ﴾ بتشديد الدال، والباقون بالتخفيف ومعناهما واحد.

يقال: بدّل وأبدل.

﴿ خَيْراً مِّنكُنَّ مسلمات ﴾ يعني: مستسلمات لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

ويقال: يعني: معينات.

ثم قال: ﴿ مؤمنات ﴾ يعني: مصدقات في إيمانهن، ﴿ قانتات ﴾ يعني: مطيعات لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿ تائبات ﴾ يعني: راجعات عن الذنوب، ﴿

عابدات ﴾ يعني : موحدات مطيعات ، ﴿ سائحات ﴾ يعني : صائمات .

وقال أهل اللغة : إنما سمي الصائم سائحاً ، لأن الذي يسيح للعبادة لا زاد معه ، يمضي نهاره لا يطعم شيئاً ؛ ولذلك سمي الصائم سائحاً ، ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ .

الثيبات : جمع الثيب ؛ والأبكار : جمع البكر .

وهن العذارى .

ويقال : هذا وعد من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يزوجه في الجنة ، والثيب : هي آسية امرأة فرعون ، والبكر : هي مريم أم عيسى عليه السلام وهي ابنة عمران تكون وليته في الجنة ، ويجتمع عليها أهل الجنة فيزوج الله تعالى هاتين المرأتين محمداً صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَبْكَاراً يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : بعدوا أنفسكم عن النار بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ يعني : أهليكم ﴿ نَارًا ﴾ بتعليمهم ما ينجيهم منها .

وقال قتادة : مروهم بطاعة الله تعالى ، وانهوهم عن معصية الله .

وقال مجاهد : يعني : أوصوا أهليكم بتقوى الله ؛ ويقال : أدبوهم وعلموهم خيراً ، تقوهم بذلك ناراً ﴿ وَقُودُهَا ﴾ يعني : حطبها .

والوقود : ما توقد به النار يعني : حطبها ﴿ الناس ﴾ إذا صاروا إليها وحطبها ، ﴿ والحجارة ﴾ قبل أن يصير الناس إليها ، وهي حجارة الكبريت .

(73/773)

ثم قال : ﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ يعني : على النار ملائكة موكلين غلاظ يعني : أقوياء يعملون بأرجلهم ، كما يعملون بأيديهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ﴾ يعني : ليسوا كأعوان ملوك الدنيا يمتنعون بالرشوة ، ولكن يفعلون ﴿ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعني : لا يفعلون غير ما أمرهم الله تعالى .

ثم قال : ﴿ يُؤْمَرُونَ يا أَيُّهَا الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ يعني : يقول لهم الملائكة يوم القيامة حين يعتذرون : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ يعني : لا يقبل منكم العذر .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : تعاقبون بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي .

ثم أمر المؤمنين بالتوبة عن الذنوب .

فقال : ﴿ تَعْمَلُونَ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ يعني : صادقاً في توبته ، ويقال : تنصحون لله فيها من غير مداهنة .

وروى سماك بن حرب ، عن النعمان بن بشير قال : سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن التوبة النصوح ، فقال : هو الرجل يتوب من عمل السوء ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وروي ، عن ابن عباس أنه قال : توبة النصوح : الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإضمار أن لا يعود إليها .

قرأ نافع ، وعاصم في إحدى الروايتين ﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ بضم النون ، والباقون بالنصب .

فمن قرأ بالنصب ، فهو صفة التوبة يعني : توبة بالغة في النصح ، كما يقال : رجل صبور وشكور .

ومن قرأ بالضم ، يعني : ينصحوا بها نصوحاً ، كما يقال : نصحت له نصحاً ونصوحاً .

ثم قال : ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم ﴾ يعني : يغفر لكم ما مضى من ذنوبكم إن تبتم .

﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار يَوْمَ لاَ يُخْزِى الله النبى ﴾ صار اليوم نصاً لنزع الخافض ﴿ يعني ﴾ .

يكفر عنكم في يوم لا يخزي الله النبي .

(74/773)

قال الكلبي : يعني : لا يعذب الله النبي ، ويقال : يوم لا يخزيه فيما أراد من الشفاعة .

وغيره ، وتم الكلام .

ثم قال : ﴿ النبى والذين ءامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : على الصراط .

وروى الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ نُورُهُ أَبْعَدُ ما بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدنٍ أَبْيَنَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُه لَا يُجَاوِزُ قَدَمَيْهِ " فقال : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾

يعني : يضيء بين أيديهم .

﴿ وبأيمانهم ﴾ يعني : عن أيمانهم وعن شمائلهم على وجه الإضمار .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ، ذلك حين طفئت أنوار المنافقين ، أشفق المؤمنون على نورهم ، ويتفكرون فيما مضى منهم من العذاب ، فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ يعني : احفظ علينا نورنا ، ﴿ واغفر لَنَا ﴾ ما مضى من ذنوبنا ﴿ إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إتمام النور والمغفرة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ يعني : جاهد الكفار بالسيف ، وجاهد المنافقين بالقول والتهديد .

﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : اشدد عليهم ، يعني : على كلا الفريقين ، يعني : على الكفار بالسيف ، وعلى المنافقين باللسان .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يعني : إن لم يرجعوا ولم يتوبوا ، فمرجعهم إلى جهنم ، ﴿ وَبِئْسَ

المصير ﴾ يعني : بئس القرار وبئس المرجع .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ يعني : وصف الله شبهاً لكفار مكة ، وذلك أنهم استهزؤوا وقالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يشفع لنا .

فبيّن الله تعالى أن شفاعته عليه السلام لا تنفع لكفار مكة ، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته .

وشفاعة لوط لامرأته .

وذلك قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ ﴾ واسمها واعلة ، ﴿ ضَرَبَ اللهُ ﴾ واسمها داهلة .

(75/773)

ويقال : فيه تخويف لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ليثبتن على دينه وطاعته .

ثم قال : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين ﴾ يعني : نوحاً ولوطاً عليهما السلام ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ يعني : خالفتاهما في الدين .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ما زنت امرأة نبي قط ، وما كانت خيانتهما إلا في الدين .

فأما امرأة نوح كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وأما امرأة لوط كانت تدل على الأضياف .

وقال عكرمة : الخيانة في كل شيء ليس في الزنى .

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ يعني : لم يمنعهما صلاح زوجيهما مع كفرهما من الله شيئاً ، يعني : من عذاب الله شيئاً .

﴿ وَقِيلَ ﴾ لهما في الآخرة : ﴿ ادخلا النار مَعَ الدخلين ﴾ ، فكذلك كفار مكة ، وإن كانوا أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم ، لا ينفعهم صلاح النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك أزواجه ، إذا خالفنه .

ثم ضرب الله مثلاً للمؤمنين ، فقال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني : بيَّن الله شبهاً وصفة للمؤمنين الذين آمنوا .

﴿ امرأة فِرْعَوْنَ ﴾ ، فإنها كانت صالحة ، لم يضرها كفر فرعون ، فكذلك من كان مطيعاً لله لا يضره شر غيره ؛ ويقال : هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة ، يعني : لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون ، صبرت على إيذاء فرعون .

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ ؛ وذلك أن فرعون لما علم بإيمانها ، فطلب منها أن ترجع ، فأبت ولم ترجع عن إيمانها ، فوتدها بأربعة أوتاد في يديها ورجليها ، وربطها وجعل على صدرها حجر الرحى ، وجعلها في الشمس .

فأراها الله تعالى بيتها في الجنة ، ونسيت ما هي فيه من العذاب ، وضحكت ، فقالوا عند ذلك : هي مجنونة تضحك ، وهي في العذاب .

وروى أبو عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا ذرت ، أي طلعت الشمس وارتفعت ، أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وأريت مقعدها من الجنة .

وروى قتادة ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ أَرْبَعٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ " .

ثُمّ قال الله عز وجل : ﴿ رَبِّ ابن لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ يعني : ارزقني في الجنة .

﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ يعني : من عذاب فرعون وظلمه .

﴿ وَنَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ يعني : من قوم فرعون ، يعني : من تعييرهم وشماتتهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ ﴾ يعني : واذكر مريم ، ويقال : معناه : وضرب الله مثلاً مريم ابنة عمران وصبرها على إيذاء اليهود ، ﴿ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يعني : عفت نفسها عن الفواحش .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ يعني : أرسلنا جبريل عليه السلام فنفخ في جيب درعها ،

وذلك قوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي : في جيبها ، أي روحاً من أرواحنا ، وهي روح عيسى عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات رَبِّهَا ﴾ أي : صدقت بعيسى عليه السلام ويقال : صدقت بالبشارات التي بشرها بها جبريل .

﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ يعني : آمنت بكتاب الله تعالى ؛ وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ يعني : الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والباقون ﴿ بكتابه ﴾ يعني : الإنجيل . وقرأ بعضهم ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَةِ رَبِّهَا ﴾ يعني : صار عيسى مخلوقاً بكلمة الله ، فصدقت بذلك .

﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ يعني : المطيعين لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 450.444 ﴾

(77/773)

وقال الثعلبى :

سورة التحريم

﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وذلك " أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الغداة دخل على نسائهِ امرأة

امرأة ، وكان أهديت لحفصة بنت عمر عكّة عسل ، فكان إذا دخل عليها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مُسلِّماً حبستهُ وسقته منها ، وإنّ عائشة أنكرت احتباسهُ عندها ؛ فقالت لجويرية عندها حبشية يقال لها : حصن : إذا دخل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم على حفصة فادخلي عليها وانظري ماذا يصنع ، فأخبرتها الخبر وشأن العسل ، فغارت عائشة وأرسلت إلى صَواحبها فأخبرتهن وقالت : إذا دخل عليكنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقلن : إنّا نجد منك ريح مغافير ، وهو صمغ العرفط ، كريه الرائحة ، وكان رسول اللّه يكرهه .

قال : فدخل رسول اللّه على سودة ، قالت : فما أردت أنْ أقول ذلك لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم ثم أنّي فرقت من عائشة فقلتُ : يا رسول اللّه ما هذه الريح التي أجدُها منك ؟ أكلت المغافير ؟ فقال : " لا ، ولكن حفصة سقتني عسلا " . ثمَّ دخل رسول على امرأة امرأة وهنَّ يقلنّ له ذلك ، ثمّ دخل على عائشة فأخذت بأنفها . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم " ما شأنك ؟ "

قالت : أجدُ ريح المغافير ، أكلتها يا رسول اللّه ؟ قال : " لا ؛ بل سقتني حفصة عسلا " .

قالت : حرست إذاً نحلها العرفط ، فقال لها صلى الله عليه وسلم " واللّه لا أطعمهُ أبداً " فحرّمهُ على نفسه " .

وقال عطاء بن أبي مسلم : إنَّ التي كانت تسقي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أُم سلمة .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد ، أخبرنا محمد بن الحسن ، حدّثنا علي بن الحسن ، حدّثنا علي ابن عبد اللّه ، حدّثنا حجّاج بن محمد الأعور عن ابن جريج قال : " زعم عطاء أنّهُ سمع عبيد بن عمير قال : سمعتُ عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها تخبر أنَّ رسول اللّه كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا ، قالت : فتواطأتُ أنا وحفصة أيَّتُنَا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل : إني أجدُ منك ريح مغافير ، فدخل على احداهما ، فقالت له ذلك ، فقال : " لا بل شربتُ عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له " فنزلت ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ . . . ﴾ الآيات .

" قالوا : وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قسّم الأيام بين نسائهِ فلمّا كان يوم حفصة قالت : يا رسول اللّه ، إنّ لي إلى أبي حاجة نفقة لي عندهُ ، فأذنْ لي أنْ أزوره وآتي ، فأذن لها ، فلمّا خرجت أرسل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى جاريته مارية القبطية أُم إبراهيم وكان قد أهداها المقوقس فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها ، فأتت حفصة فوجدت الباب مُغلقاً فحُبست عند الباب ، فخرج رسول اللّه (عليه السلام) ووجههُ يقطرُ عرقاً وحفصة تبكي ، فقال : ما يُبكيكِ ؟ قالت : إنّما أذنت لي من أجل هذا ،

أدخلت أَمتك بيتي ، ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي ، أما رأيت لي حُرمة وحقاً ؟ ما كنتَ تصنعُ هذا بامرأة منهنّ ؟ فقال رسول اللّه (عليه السلام) : " أليس هي جاريتي قد أحلّها اللّه لي ؟ اسكتي فهي حرام عليَّ ألتمس بذلك رضاكِ ، فلا تخبري بهذا امرأة منهن هو عندك أمانة " " .

(79/773)

فلمّا خرج رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت : ألا أُبشركِ أنّ رسول اللّه قد حرّم عليه أمته مارية ، فقد أراحنا اللّه منها ، فأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين ، متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فغضبت عائشة فلم تزل بنبي اللّه صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها ؛ فأنزل اللّه ﴿ يا أيها النبيِ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ يعني العسل ومارية .

وقال عكرمة : نزلت في المرأة التي وهبت نفسها للنبي عليه والسلام ، ويُقال لها أُم شريك ؛ فأبى النبي (عليه السلام) أن يصلها لأجل امرأته ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أن تكفروها إذا حنثم ، وهي قولهُ في سورة

المائدة.

﴿ والله مَوْلاَكُمْ وَهُوَ العليم الحكيم ﴾ فأمرهُ أنْ يكفِّر حنثه، ويُراجع أَمته. ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ وهو تحريمهُ صلى الله عليه وسلم فتاته على نفسه، وقوله لحفصة: لا تخبري بذلك أحداً.

وقال الكلبي: أسرّ إليها أنْ أباكِ وأبا عائشة يكونان خليفتين على أُمتي من بعدي.

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قراءة عليه، أخبرنا عمر بن الحسن، حدّثنا أحمد بن الحسن بن سعيد، حدّثنا أُبي، حدّثنا حصين عن الحر المسلي عن خلف بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ قال: أسرَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمر الخلافة بعده؛ فحدّثت به حفصة.

(80/773)

أخبرنا عبد اللّه بن حامد، أخبرنا نصر بن محمد بن شيرزاد، حدّثنا الحسن بن سعيد البزار، حدّثنا خالد بن العوام البزار، حدّثني فرات بن السائب عن ميمون بن مهران في قول اللّه تعالى ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ قال: أسرَّ إليها أنّ أبا بكر خليفتي من بعدي.

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ خبّرت بالحديث الذي أسرّ إليها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم صاحبتها .

﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ اي وأطلع اللّه نبيه صلى الله عليه وسلم على أنّها قد نبّأت به .

وقرأ طلحة بن مصرف : فلمّا أنبأت به بالألف .

﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ قرأ علي وأَبو عبد الرّحمن والحسن البصري وقتادة والكسائي : عرف بالتخفيف .

أخبرنا محمد بن عبدوس ، حدّثنا محمد بن يعقوب ، حدّثنا محمد بن الجهم ، حدّثنا الفرّاء ، حدّثني شيخ من بني أسد يعني الكسائي عن نعيم بن عَمُرو عن عطاء عن أبي عبد الرّحمن قال : كان إذا قرأ عليه الرجل عرّف بالتشديد حصبه بالحصباء ، ومعناه على هذه القراءة : عرف بعض ذلك ما فعلت الفعل الذي فعلته من إفشاء سِرّه أي غضب من ذلك عليها وجازاها به ، من قول القائل لمن اساء إليه : لأعرفنّ لك بمعنى لأجازينّك عليه .

قالوا وجازاها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بإنّ طلّقها ، فلمّا بلغ ذلك عُمر قال : لو كان في آل عمر خير لما طلقك رسول اللّه شهراً ، فجاءه جبرائيل (عليه السلام) وأمرهُ بمراجعتها ، واعتزل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً ، وقعد في مشربة أُم إبراهيم مارية حتى نزلت آية التخيير ، فقال مقاتل بن حيّان : لم يطلق رسول اللّه صلى الله

عليه وسلم حفصة وإنّما همَّ بطلاقها فأتاهُ جبرائيل (عليه السلام) فقال : لا تطلّقها ؛ فإنّها صوّامة قوّامة ، وإنّها من أحدى نسائك في الجنة ، فلم يطلقها .

(81/773)

وقرأ الباقون : عرّف بالتشديد يعني : إنّهُ عرّف حفصة بعض ذلك الحديث وأخبرها به ، واختاره أَبو حاتم وأَبو عبيدة قال : لأنّه في التفسير أنّهُ أخبرها ببعض القول الذي كان منها ، ومما يحقق ذلك قوله : ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ يعني : إنّه لم يعرّفها أياهُ ولم يخبرها به . ولو كانت ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ مخففه لكان ضدّه وأنكر بعضاً ، ولم يقل أعرّض عنه . قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، قال اللّه تعالى ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ .

قال مقاتل : يعني أخبرها ببعض ما قال لعائشة ، فلم يخبرها بقولها أجمع ، عرّف حفصة بعضهُ وأعرض عن بعض الحديث بأنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أي أخبر حفصة بما أظهره اللّه عليه .

﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ .

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي زاغت ومالت واستوجبتما التوبة .

وقال ابن زيد : مالت قلوبهما بأن سرّهما ان يجتنب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلمّ) جاريته ، وذلك لهما موافق فسرّهما ما كره رسول اللّه .

(82/773)

أخبرنا أَبو سعيد محمد بن عبد اللّه بن حمدون قراءة عليه ، أخبرنا أَبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن ، حدّثنا محمد بن يحيى ، حدّثنا عبد الرّزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن أبي ثور عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً أَنْ أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج رسول اللّه اللّتين قال اللّه تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلمّا كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلتُ معه بالأداوة فتبرّد ثم أتاني فسكبت على يديه ، فتوضّأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم اللّتان قال اللّه تعالى ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ . فقال عمر : واعجباً لك يا ابن عبّاس .

قال الزّهري : كره واللّه ما سأله ولم يكتمه ثمّ قال : هي حفصة وعائشة ، ثمّ أخذ يسوق الحديث فقال : "كنّا معاشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلَمْنَ من نسائهم .

قال : وكان منزلي في بني أُميّة بن زيد بالغوالي قال : فتعصّبتُ يوماً على إمرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأَنكرت أنْ تراجعني فقالت : وما يُنكر أن أُراجعك ؟ فواللّه إنّ أزواج النّبي صلّى اللّه عليه ليراجعنه ، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر ، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب اللّه عليها لغضب رسوله صلّى اللّه عليه فاذا هي قد هلكت .

(83/773)

لا تراجعي رسول اللّه صلّى اللّه عليه ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدالك ولا يغرنّك إنْ كانت جارتك هي أَوسم وأحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم منك يريد عائشة رضي اللّه عنها قال : وكان لي جارٌ من الأنصار ، قال : كنّا نتناوب النزول إلى رسول اللّه (عليه السلام) فينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، قال : وكنّا نتحدّث أنّ غسّان تفعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي يوماً ثم أَتاني غشيان فضرب بابي ، ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أَمرٌ عظيم .

قلت : ماذا ، أجاءت غسّان ؟ قال : بل أعظم من ذلك طلق الرسول نساءه . فقلت : قد

خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظنّ هذا كائناً ، حتّى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي ، ثمّ نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلّقكنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا أدري هو معتزل في هذه المشربة ، فأتيت غلاماً له أسود ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثمّ خرج إليّ فقال : قد ذكرتك له فَصَمَتْ ، فانطلقت حتّى أتيتُ المنبر فإذا حوله رهط جلوس بعضهم ، فجلست قليلا ثمّ غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر فدخل ثّم خرج إليّ فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فخرجت فجلست إلى المنبر ثمّ غلبني ما أجد فأتيت يعني الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثمّ خرج إليّ فقال : قد ذكرتك له فَصَمَتْ ، قال : فوليّت مدبراً ، فاذا الغلام يدعوني فقال : أدخل فقد أذن لك ، فدخلت فسلّمتُ على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثّر في جنبه ، فقلت : أطلّقت يا رسول اللّه نساءك ؟ فرفع رأسه إليّ وقال : لا .

(84/773)

فقلت : اللّه أكبر ، ثم ذكر لهُ ما قال لامرأته وما قالت لهُ امرأته ، فتبسم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول اللّه قد دخلت عليّ حفصة وذكرت ما قلت لها . فتبسّم

أُخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول اللّه ؟ قال : نعم . فجلست فرفعت رأسي في البيت ، فواللّه ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلاّ أهن ثلاثة ، فقلت : يا رسول اللّه ادع اللّه تعالى أنْ يوسّع على أُمتك فقد وَسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون اللّه ، فاستوى جالساً ثم قال : " أفي شكّ أنت يا ابن الخطاب ، أولئك عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت : استغفر لي يا رسول اللّه ، وكان أقسم ألاّ يدخل عليهنّ شهراً من شدة مُوجدَتِه عليهنّ حتى عاتبه اللّه تعالى " .

قال الزهري : فأخبرني عُروة ع" ن عائشة رضي اللّه عنها قالت : فلمّا مضى تسع وعشرون ليلة على رسول اللّه بدأني ، فقلت : يا رسول اللّه إنّك أقسمت أنْ لا تدخل علينا شهراً ، وإنّك قد دخلتَ عن تسع وعشرين ، أعدهنّ ، قال : إن الشهر تسع وعشرون ، ثم قال : يا عائشة إنّي ذاكر لك أمراً فلا عليك ألاّ تعجلي فيه حتى تسامري أبويك ، قالت : ثم قرأ عليّ ﴿ يا أيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ [الأحزاب : 28] حتى بلغِ ﴿ وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 35] قالت عائشة : قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني وقيل : ليأمراني بفراقه فقلت : أفيْ هذا أتسأمر أبوي ؟ فإنّي أريدُ اللّه ورسولهُ والدار الآخرة .

قالت عائشة : فقلت لهُ يا رسول اللّه لا تخبر أزواجك أني اخترتك فقال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنّما بعثني اللّه مبلِّغاً ولم يبعثني متعنتاً " .

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا ﴾ تعاونا على أذى النبي صلى الله عليه وسلم قرأ أهل الكوفة بتخفيف الظاء على الحذف واختاره أَبو عُبيد ، وقرأ الباقون بالتشديد على الإدغام واختاره أَبو حاتم .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ ﴾ وليّه وحافظه وناصره .

(85/773)

﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال المسيب بن شريك : هو أَبو بكر رضي الله عنه .

وقال سعيد بن جبير : عمر (رضي الله عنها) ، عكرمة : أَبو بكر وعمر ، يدلّ عليه ما أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا علي بن أحمد بن نصرويه ، حدّثنا أَبو الحسن علي بن الحسن بن سليمان الباقلاني ، حدّثنا أَبو عمار الحسين بن الحرث ، حدّثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سقيق عن عبد اللّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عزَّ وجل ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : " إنّ صالح المؤمنين أَبو بكر وعمر " رضي اللّه عنهما .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا أَبو علي المقري ، حدّثنا أَبو القاسم بن الفضل ، حدّثنا محمد بن يحيى بن أبي عمر ، حدّثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ، حدّثني رجل ثقة يرفعه إلى علي بن أبي طالب قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه

وسلم في قوله اللّه تعالى : " ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه " .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد الوران ، أخبرنا عمر بن الحسن ، حدّثنا أحمد بن الحسن ، حدّثنا أبي ، حدّثنا حصين عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن أسماء بنت عميس قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " وصالح المؤمنين هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه " .

وقال الكلبي : هُمْ المخلصون الذين ليسوا بمنافقين .

وقال قتادة والعلاء بن زياد العدوي : هم الأنبياء .

﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي أعوان ، فلم يقل : صالحو ولا ظهراً ، لأن لفظهما وأنْ كان واحداً فهو في معنى الجمع كقول الرجل : لا يُقرئني إلاّ قارئ القرآن ، فهو واحد ومعناه الجمع ؛ لأنّه قد أذن لكل قارئ القرآن ان يقرأه .

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ داعيات ، وقيل : مُصليات .

﴿ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ﴾ يُسحَن معه حيث ما ساح، وقيل: صائمات.

وقال زيد بن أسلم وأبنهُ ويمان: مهاجرات.

﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ والآية واردة في الإخبار، عن القدرة لا عن الكون في الوقت؛ لأنهُ تعالى قال: ﴿ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ وقد عِلمَ أنّهُ لا يطلقهنّ، وهذا قوله ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: 38] فهذا إخبار عن القدرة وتخويف لهم، لا أن في الوجود من هو خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ يعني: مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر وعلّموهم وأدبوهم تقوهم بذلك ناراً ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ ﴾ فظاظ ﴿ شِدَادٌ ﴾ أقوياء لم يخلق الله فيهم الرّحمة، وهم الزبانية التسعة عشر وأعوانهم من خزنه النّار.

﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ قراءة العامة بفتح النون على نعت التوبة.

وروى حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بضمّهِ على المصدر، وهي قراءة الحسن.

قال المبرّد: أراد توبة ذات نصح، واختلف المفسّرون في معنى التوبة النّصوح.

وقال عُمَر وأُبي ومعاذ: التوبة النصوح أنْ يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى

الضرع ، ورفعهُ معاذ .

وقال الحسن : هي أنْ يكون العبد نادماً على ما مضى ، مجمعاً على أنْ لا يعود فيه .

الكلبي : أن يستغفر باللسان ، ويندمُ بالقلب ، ويمسك بالبدن .

قال قتادة : هي الصادقة الناصحة .

سعيد بن جبير : هي توبة مقبولة ، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاث : خوف أن لا تُقبل ، ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات .

(87/773)

سعيد بن المسيّب : توبة تنصحون بها أنفسكم .

القرظي : تجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والأقلاع بالأبدان ، وإظهار ترك العود بالجَنان ، ومهاجرة سيّئ الخلاّن .

سفيان الثوري : علامة التوبة النّصوح أربع : القلّة ، والعلة ، والذلة ، والغربة .

فضيل بن عياض : هي أن يكون الذنب نصب عينيه ، ولا يزال كأنّهُ ينظرُ إليه .

أَبو بكر محمد بن موسى الواسطي : هي توبة لا لعقد عوض ؛ لأن من أذنب في الدنيا لرفاهيّة نفسه ، ثم تاب طلباً لرفاهيتها في الآخرة فتوبته على حظ نفسه لا لله . أَبو بكر الورّاق :

هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، وتضيق عليك نفسك كتوبة الثلاثة الذين خلِّفوا .

أَبو بكر الرقاق المصري : ردّ المظالم واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات . رويم الرّاعي : هو أن تكون للّه وجهاً بلا قفاً كما كنت لهُ عند المعصية قفاً بلا .

رابعة : توّبة لا بيات منها .

ذو النون : علامتها ثلاث : قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام .

سقيق : هي أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة ، ولا ينفك من الندّامة ، لينجو من آفاتها بالسّلامة .

سري السقطي : لا تصح التوبة النصوح إلاّ بنصحة النفس من المؤمنين ؛ لأن مَن صحت توبته أحب أن يكون النّاس مثله .

الجنيد : هي أَن ينسى الذنب فلا يذكره أبداً ؛ لأن من صحت توبته صار محبّاً للّه ، ومن أَحب اللّه نسي ما دون اللّه .

سهل : هي توبة أهل السُنّة والجماعة لأنّ المبتدع لا توبة له ، بدليل قوله صلّى اللّه عليه وسلم : " حجب اللّه على كل صاحب بدعة أن يتوب " .

أَبو الأَديان : هي أَن يكون لصاحبها دمع سفوح ، وقلب عن المعاصي جموع ، فاذا كان ذلك فإنّ توبته نصوح ، وأمارات التوبة منه تلوح .

فتح الموصلي : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظماء .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنهار يَوْمَ لاَ يُخْزِى الله النبي والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ على الصراط .

﴿ يَقُولُونَ ﴾ إذا طفئ نور المنافقين .

﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ ثمّ ضرب مثلا للصالحات ، والصالحات من النساء فقال عزّ من قائل : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ ﴾ واسمها واعلة وامرأة لوط واسمها واهلة . وقال مقاتل : والعدو والهة .

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في الدين ، وما بغت امرأة النّبي قط .

قال ابن عبّاس : ليس بخيانة الزّنا وهما (امرأتا) نوح ولوط (عليهما السلام) وإنّما خيانتهما أنّهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تخبر النّاس أنّه مجنون وتُطلع على سرّه ، فاذا آمنَ بنوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به . وأمّا امرأة لوط فكانت تدلّ قومه على أضيافه .

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا ﴾ مع توبتهما ﴿ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ يخوّف عائشة وحفصة رضي اللّه عنهما .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسية بنت مزاحم .

(89/773)

قال المفسرون : لمّا غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون فلمّا تبيّن إسلامها وثبتت عليه أوتد يديها ورجليها بأَربعة أَوتاد وأَلقاها في الشمس وأَمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها ، فلمّا أتوها بالصخرة ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ وأبصرت بيتها في الجنّة من دُرّة ، وانتزع اللّه روحها ، فألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح ، فلم تجد ألماً من عذاب فرعون .

وقال الحسن وابن كيسان : رفع اللّه امرأة فرعون إلى الجنّة فهي فيها تأكل وتشرب .

أخبرنا محمد بن عبد اللّه بن حمدون ، أخبرنا علي بن عبدان ، حدّثنا أَبو الأزهر ، حدّثنا أسباط عن سُليمان عن أبي عثمان عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس ، وإذا انصرفوا عنها أظلّتها الملائكة وجعلت ترى بيتها في الجنّة .

﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي دينه .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد ، أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي سعيد ، حدّثنا علي بن حرث ، حدّثنا أَبو المنذر هشام بن محمد عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قول اللّه تعالى ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ الكافرين ، قطع اللّه بهذه الآية طمع من ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره ، وأخبر أنّ معصية الغير لا تضرّه إذا كان مطيعاً .

﴿ وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي في درعها ، لذلك ذكر الكناية .

﴿ وَصَدَّقَتْ ﴾ قراءة العامّة بالتشديد ، وقرأ لاحق بن حميد بالتخفيف .

﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ قراءة العامّة بالجمع .

وقرأ الحسن وعيسى والجحدري : الكلمة على الواحد يعنون عيسى (عليه السلام) ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ قرأ أَبو عمر ويعقوب : وكتبه ، على الجمع ، وهي رواية حفص عن عاصم واختيار أبي حاتم قال : لأنّها أَعم .

وقرأ الباقون : و ﴿ وكتابه ﴾ ، على الواحد وهي اختيار أبي عبيد .

(90/773)

﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ المطيعين ، مجازه : من القوم العابدين ، ولذلك لم يقل قانتات ، نظيره ﴿ يامريم اقنتي لِرَبِّكِ ﴾ [آل عمران : 43] .

أخبرنا الحسن بن محمد ، حدّثنا أحمد بن محمّد بن اسحاق السني ومحمد بن المظفّر قالا : حدّثنا علي بن أحمد بن سليمان ، حدّثنا موسى بن سابق ، حدّثنا ابن وهب أخبرني الماضي ابن محمد عن بردة عن مكحول عن معاذ بن جبل : " أنّ النبّي صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهي تجود بنفسها فقال : " أكره ما نزل بك يا خديجة وقد جعل اللّه في الكره خيراً كثيراً ، فإذا قدمت على ضرّاتك فأقرئيهنّ منّي السلام " . قالت : يا رسول اللّه من هنّ ؟ قال : "مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة أو حليمة أُخت موسى" . شكَّ الراوي ، فقالت : بالرفاه والبنين " .

أخبرنا الحسن بن محمد ، حدّثنا عبد اللّه بن محمد بن شيبة ، حدّثنا عبيد اللّه أحمد بن منصور الكسائي ، حدّثنا محمد بن عبد الجبار المعروف بسندول الهمداني ، حدّثنا أَبو أُسامة عن شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي موسى قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم "كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ أربع : آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون ، ومريم أبنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وفضل عائشة على النّساء كفضل الثريد على سائر الطعام " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 343 . 353 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة التحريم

مدنية ، وتسمى سورة النبي صلى اللّه عليه وسلم وهي ثنتا عشرة آية [نزلت بعد الحجرات

] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التحريم (66) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمي علىّ ، وقد حرمت مارية على نفسي «1» ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان

---

(1) . «نقل الزمخشري في سبب نزولها أنه عليه السلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمي علىّ وقد حرمت مارية على نفسي . . . الخ» قال أحمد

: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلى اللّه عليه وسلم تقول وافتراء ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم منه براء ، وذلك أن تحريم ما أحله اللّه على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه اللّه عز وجل ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الايمان ، وإن صدر سلب المؤمن حكم الايمان واسمه . الثاني : الامتناع مما أحله عز وجل ، وحمل التحريم بمجرده صحيح ، لقوله وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ أى منعنا لا غير ، وقد يكون مؤكدا باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال ، فإذا علمت بون ما بين القسمين ، فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده ، فان النبي صلى اللّه عليه وسلم حلف باللّه لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفر عن يمينه ، ويدل عليه : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وقال مالك في المدونة : عن زيد بن أسلم إنما كفر النبي صلى اللّه عليه وسلم في تحريمه أم ولده ، لأنه حلف أن لا يقربها .

ومثله عن الشعبي ، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له : لم تحرم ما أحل اللّه لك ، رفقا به وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه صلى اللّه عليه وسلم : أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف اللّه تعالى بنبيه ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا ، ليظهر اللّه كمال نبوته

بظهور نقصانهم عنه ، والزمخشري قطعا لم يحمل التحريم على هذا الوجه ، لأنه جعله زلة ، فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ اللّه وحاش للّه وإن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحل اللّه له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي عليه السلام عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة ، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على اللّه ورسوله ، وإطلاق القول من غير تحرير ، وإبراز الرأى الفاسد بلا تخمير ، نعوذ باللّه من ذلك ، وهو المسئول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيما لنبينا صلوات اللّه عليه ، وأن يجنبنا خطوات للشيطان ، ويقبلنا من عثرات اللسان ، آمين .

(92/773)

بعدي أمر أمتى ، فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين «1» . وقيل : خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم «2» ، فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية . وروى أن عمر قال لها : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوّامة قوّامة ، وإنها لمن نسائك في الجنة «3» . وروى أنه شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش ، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكره

التفل ، فحرّم العسل «4» ، فمعناه لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ من ملك اليمين أو العسل . وتَبْتَغِي إما تفسير لتحرم . أو حال : أو

---

(1) . لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة رضى اللّه عنها ، إلا فيما رواه ابن سعد عن الواقدي عن عمر بن عقبة عن شعبة هو مولى ابن عباس سمعت ابن عباس يقول «خرجت حفصة من بيتها . وكان يوم عائشة فدخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة ، فجاءت حفصة والباب بجاف فدفعته حتى خرجت الجارية . فقالت حفصة : أما إنى قد رأيت ما صنعت . فقال لها : اكتمي على وهي على حرام ، فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها فأنزل اللّه تعالى يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فأمر فكفر عن يمينه وحبس نساءه» وروى الطبراني في عشرة النساء وابن مردويه في التفسير عنه من طريق موسى بن جعفر بن أبى كثير بن عبد الرحمن عن عمر عن أبى بكر بن عبد الرحمن عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه . فقالت : يا رسول اللّه في بيتي وتفعل هذا بى من دون نسائك قال : فإنها على حرام أن أمسها يا حفصة ، ألا أبشرك ؟ فقالت : بلى . قال : يلي هذا الأمر من بعدي أبو بكر ويليه من بعده أبوك واكتمي هذا على ، فخرجت حتى أتت عائشة فذكرت ذلك كله . وفيه قوله : وكان أدى السرور أن حرمها على نفسه ، فأنزل اللّه تعالى يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ وروى

الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس قال «دخلت حفصة على النبي صلى اللّه عليه وسلم في بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة ، فان أباك يلي من بعد أبى بكر إذا أنا مت ، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة . فقالت عائشة رضى اللّه عنها : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فحرمها . فأنزل اللّه الآية» .

(2) . أخرجه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبى خيثمة قال : أخبرنى بعض آل عمر قال «أصاب النبي صلى اللّه عليه وسلم جاريته القبطية أم ابراهيم في بيت حفصة وفي يومها . فعثرت حفصة على ذلك . فقالت : يا رسول اللّه ، لقد جئت أمرا ما جئته إلى أحد من نسائك في بيتي وعلى فراشي ، وفي دولتى ؟ قال : أيرضيك أن أحرمها فلا أمسها أبدا ؟ قالت : نعم . فحرمها على نفسه . وقال لا تذكريه لأحد من الناس ، وكانت حفصة لا تكتم عائشة شيئا ، فلما خرجت ذهبت إلى عائشة فأخبرتها . فأنزل اللّه تعالى «يا أيها النبي لم تحرم ، فكفر عن يمينه ، وقرب جاريته» وقوله «و طلقها واعتزل نساءه ومكث تسعة وعشرين ليلة في بيت مارية» : لم أر هذا . [. . . . .]

(3) . لم أره هكذا ، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه ، وقال ابن سعد : أخبرنا زيد » وقال الحرث أخبرنا عفان قال : عن حماد عن أبى عمران الجونى عن قيس بن زيد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم طلق حفصة ، فقال :

إن جبريل أتانى فقال لي : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وهي زوجتك في الجنة»

وروى الحاكم من طريق الحسن بن أبي جعفر عن ثابت عن أنس نحوه وزاد تطليقة ، والحسن ضعيف . واختلف عليه فيه ، ورواه الطبراني والبزار من رواية الحسن المذكور عن عاصم عن عمار رضى اللّه عنه .

(4) . متفق عليه من حديث عمر بدون قوله «يكره التفل» فعندهما «وكان يشتد عليه أن يوجد منه الريح» .

(93/773)

استئناف ، وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ اللّه لأن اللّه عزّ وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله ، فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة وَاللَّهُ غَفُورٌ قد غفر لك ما زللت فيه رَحِيمٌ قد رحمك فلم يؤاخذك به قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ فيه معنيان ، أحدهما : قد شرع اللّه لكم الاستثناء في أيمانكم ، من قولك : حلل فلان في يمينه ، إذا استثنى فيها . ومنه : حلا أبيت اللعن «1» ، بمعنى : استثن في يمينك إذا أطلقها ، وذلك أن يقول «إن شاء اللّه» عقيبها ، حتى لا يحنث . والثاني : قد شرع اللّه لكم تحلتها بالكفارة . ومنه قوله عليه السلام : «لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم» «2» وقول ذى الرمّة :

قليلا كتحليل الألىّ «3»

فإن قلت : ما حكم تحريم الحلال ؟ قلت : قد اختلف فيه ، فأبو حنيفة براه يمينا في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه ، فإذا حرّم طعاما فقد حلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ، وإن نوى الظهار فظهار ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن «و كذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثا فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب دّين فيما بينه وبين اللّه تعالى ، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء . وإن قال : كل حلال علىّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، ولا يراه الشافعي يمينا . ولكن سببا في الكفارة في النساء وحدهنّ ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده . وعن أبى بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضى اللّه عنهم : أنّ الحرام يمين «4» وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعى . وعن على رضى اللّه عنه : ثلاث «5» . وعن زيد : واحدة بائنة . وعن عثمان : ظهار .

---

(1) . قوله «و منه : حلا أبيت اللعن» في الصحاح : يقال حلا ، أى استثنى . ويا حالف اذكر حلا ، وهو بالكسر أفاده الصحاح أيضا . (ع)

(2) . أخرجه مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى اللّه عنه .

(3) . قوله «كتحليل الألى» في الصحاح «الالية» : اليمين على فعلية ، وكذلك الألوة والألوة ، فأما الألوة بالتشديد :

فهو العود الذي يتبخر به اه ، فالألى في كلام ذى الرمة جمع الألوة بالتخفيف «كالمدية والمدى ، والخطوة والخطى . (ع)

(4) . حديث أبى بكر رضى اللّه عنه أخرجه ابن أبى شيبة من رواية جويبر عن الضحاك : أن أبا بكر وعمر وابن مسعود قالوا : من قال لامرأته : هي على حرام ، فليست بحرام وعليه كفارة يمين . وإسناده ضعيف ومنقطع . وحديث عمر رضى اللّه عنه مثله ، وله طريق أخرى أخرجها ابن أبى شيبة أيضا من رواية خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال «الحرام يمين» وهذا منقطع وحديث ابن عباس رضى اللّه عنهما مثله متفق عليه من رواية ابن جبير عنه قال : الحرام يمين يكفرها .

وفي رواية لمسلم «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها» . وحديث ابن مسعود مثله ، وله طريق أخرى أخرجها عبد الرزاق من طريق الطبراني عن ابن عقبة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه ، قال : في الحرام يمين يكفرها . ورجاله ثقات مع انقطاعه . وحديث زيد بن ثابت رضى اللّه عنه مثله .

(5) . أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن على في قول الرجل لامرأته :

أنت على حرام ، هي ثلاث . وهذا منقطع أيضا .

وكان مسروق لا يراه شيئا ويقول : ما أبالى أحرمتها أم قصعة من ثريد ، وكذلك عن الشعبي قال : ليس بشيء ، محتجا بقوله تعالى وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ وقوله تعالى لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وما لم يحرّمه اللّه تعالى فليس لأحد أن يحرّمه ولا أن يصير بتحريمه حراما ، ولم يثبت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لما أحله اللّه : هو حرام علىّ ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه ، وهو قوله عليه السلام :

واللّه لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له : لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أى لم تمتنع منه بسبب اليمين ، يعنى : أقدم على ما حلفت عليه ، وكفر عن يمينك . ونحوه قوله تعالى وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ أى ، منعناه منها . وظاهر قوله تعالى قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ أنه كانت منه يمين .

فإن قلت : هل كفر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لذلك ؟ قلت : عن الحسن : أنه لم يكفر ، لأنه كان مغفورا له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر « 1 » ، وإنما هو تعليم للمؤمنين . وعن مقاتل : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ سيدكم ومتولى أموركم وَهُوَ الْعَلِيمُ بما يصلحكم فيشرعه لكم الْحَكِيمُ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة . وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم

لأنفسكم.

[سورة التحريم (66) : آية 3]

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

بَعْضِ أَزْواجِهِ حفصة. والحديث الذي أسر إليها : حديث مارية وإمامة الشيخين نبأت به أفشته إلى عائشة. وقرئ : أنبأت به وَأَظْهَرَهُ وأطلع النبي عليه السلام عَلَيْهِ على الحديث، أى : على إفشائه على لسان جبريل. وقيل : أظهر اللّه الحديث على النبي صلى اللّه عليه وسلم من الظهور عَرَّفَ بَعْضَهُ أعلم ببعض الحديث تكرما. قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام. وقرئ : عرف بعضه، أى : جاز عليه، من قولك للمسىء : لأعرفن لك ذلك، وقد عرفت ما صنعت. ومنه : أولئك الذين يعلم اللّه ما في قلوبهم، وهو كثير في القرآن، وكان جزاؤه تطليقه إياها. وقيل : المعرف : حديث الإمامة، والمعرض عنه : حديث مارية : وروى

---

(1). لم أجده. وفي المراسيل لأبى داود عنه خلاف ذلك، أخرجه من طريق قتادة عنه في تحريم أم إبراهيم.

قال : فأمر أن يكفر عن يمينه، وكذا ذكره ابن اسحق كما تقدم أنه كفر عن يمينه.

أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لها : ألم أقل لك اكتمي عليّ ، قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحا بالكرامة التي خص اللّه بها أباها . فإن قلت : هلا قيل : فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضه ؟ قلت : ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرف ، وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها ، وأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكرمه وحلمه ، لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه ، وهو حديث الإمامة . ألا ترى أنه لما كان المقصود في قوله فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا ذكر المنبأ ، كيف أتى بضميره .

[سورة التحريم (66) : آية 4]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

إِنْ تَتُوبا خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ في معاتبتهما .

وعن ابن عباس : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فسكبت الماء على يده فتوضأ ، فقلت : من هما ؟ فقال :

عجبا يا ابن عباس - كأنه كره ما سألته عنه - ثم قال : هما حفصة وعائشة «1» فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه . وقرأ ابن مسعود : فقد زاغت وَإِنْ تَظاهَرا وإن تعاونا عَلَيْهِ بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره ، فلن يعدم هو من يظاهره ، وكيف يعلم المظاهر من اللّه مولاه أى وليه وناصره ، وزيادة هُوَ إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه ، وأنه يتولى ذلك بذاته وَجِبْرِيلُ رأس الكروبيين ، وقرن ذكره بذكره مفردا له من بين الملائكة تعظيما له وإظهارا لمكانته عنده وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ومن صلح من المؤمنين ، يعنى : كل من آمن وعمل صالحا . وعن سعيد بن جبير : من بريء منهم من النفاق . وقيل : الأنبياء وقيل : الصحابة . وقيل : الخلفاء منهم . فإن قلت : صالح المؤمنين واحد أم جمع ؟ قلت : هو واحد أريد به الجمع ، كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس ، تريد الجنس ، كقولك : لا يفعله من صلح منهم . ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر . ويجوز أن يكون أصله : صالحوا المؤمنين بالواو ، فكتب بغير واو على اللفظ ، لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه ، كما جاءت أشياء في المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط وَالْمَلائِكَةُ على تكاثر عددهم ، وامتلاء السماوات من جموعهم بَعْدَ ذلِكَ بعد نصرة اللّه وناموسه وصالحي المؤمنين ظَهِيرٌ فوج مظاهر له ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء

(1) . متفق عليه .

ظهراؤه ؟ فإن قلت : قوله بَعْدَ ذِلكَ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم . وقد تقدّمت نصرة اللّه وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة اللّه تعالى أعظم وأعظم . قلت : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة اللّه ، فكأنه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى ، لفضلهم على جميع خلقه «1» . وقرئ : تظاهرا . وتتظاهرا . وتظهرا .

[سورة التحريم (66) : آية 5]

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (5)

قرئ : يبدله ، بالتخفيف والتشديد للكثرة مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ مقرّات مخلصات سائِحاتٍ صائمات . وقرئ : سيحات ، وهي أبلغ . وقيل للصائم : سائح ، لأنّ السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد ما يطعمه ، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره . وقيل :

سائحات مهاجرات ، وعن زيد بن أسلم : لم تكن في هذه الأمّة سياحة إلا الهجرة . فإن

قلت :

كيف تكون المبدلات خيرا منهن ، ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمّهات المؤمنين ؟ «2» قلت : إذا طلقهن رسول اللّه لعصيانهن له وإيذائهن إياه ، لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والنزول على هواه ورضاه خيرا منهن ، وقد عرض بذلك في قوله قانِتاتٍ لأنّ القنوت هو القيام بطاعة اللّه ، وطاعة اللّه في طاعة رسوله . فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف «3» ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن «4» في سائر الصفات ،

---

(1) . قوله «لفضلهم على جميع خلقه» مذهب المعتزلة تفضيل الملك على البشر ، وأهل السنة على تفضيل بعض البشر على الملائكة . (ع)

(2) . قوله «نساء خير من أمهات المؤمنين» لعله خيرا . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت لم أخليت هذه الصفات من العاطف . . . الخ» قال أحمد : وقد ذكر لي الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه اللّه : أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب رحمه اللّه كان يعتقد أن الواو في الآية هي الواو التي سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية ، لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة ، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة ، أحدها التي في الصفة الثامنة من قوله التَّائِبُونَ

الْعابِدُونَ عند قوله وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ والثانية في قوله وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ والثالثة في قوله وَفُتِحَتْ أَبْوابُها قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب : ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكره يوما بحضرة أبى الجود النحوي المقري فبين له أنه واهم في عدها من ذلك القبيل ، وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري من دعاء الضرورة إلى الإتيان بها هاهنا ، لامتناع اجتماع الصفتين في موصوف واحد ، وواو الثمانية إن ثبتت فإنما ترد بحيث لا حاجة إليها إلا للاشعار بتمام نهاية العدد الذي هو السبعة ، فأنصفه الفاضل رحمه اللّه ، واستحسن ذلك منه وقال : أرشدنا يا أبا الجود .

(4) . قوله «لا يجتمعن فيهما اجتماعهن» لعل فيه قلبا ، والأصل : لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن . (ع)

(97/773)

فلم يكن بد من الواو .

[سورة التحريم (66) : الآيات 6 إلى 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ

إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

قُوا أَنْفُسَكُمْ بترك المعاصي وفعل الطاعات وَأَهْلِيكُمْ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. وفي الحديث «رحم اللّه رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ اللّه يجمعهم معه في الجنة» «1» وقيل: إنّ أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله. وقرئ: وأهلوكم «2»، عطفا على واو قُوا وحسن العطف للفاصل. فإن قلت: أليس التقدير: قوا أنفسكم، وليق أهلوكم أنفسهم؟ قلت: لا، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، فكأنه قيل: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه، فجعلت ضميرهما معا على لفظ المخاطب نارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ نوعا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة، كما يتقد غيرها من النيران بالحطب. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: هي حجارة الكبريت، وهي أشدّ الأشياء حرا إذا أوقد عليها. وقرئ: وقودها بالضم، أى ذو وقودها عَلَيْها يلي أمرها وتعذيب أهلها مَلائِكَةٌ يعنى الزبانية التسعة عشر وأعوانهم غِلاظٌ شِدادٌ في أجرامهم غلظة وشدّة، أى: جفاء وقوّة. أو في أفعالهم جفاء وخشونة، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر اللّه والغضب له والانتقام من أعدائه ما أَمَرَهُمْ في محل النصب على البدل، أى: لا يعصون ما أمر اللّه. أى: أمره، كقوله تعالى أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي أو لا يعصونه فيما أمرهم. فإن قلت: أليست الجملتان في معنى واحد؟ قلت: لا، فإنّ

معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها . ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون

---

(1) . لم أجده . [. . . . .]

(2) . قال محمود في قوله تعالى قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً : قرئ وأهلوكم . قال أحمد : ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، وأنفسكم واقع بعده ، كأنه قال : قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين : غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة . ثم قال : فان قلت قوله لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ أليس الجملتان في معنى واحد ؟ وأجاب بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها . . . الخ» قال أحمد :

جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم ، ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل نعوذ بالله منه ، وإلا فالسؤال غير وارد ، فانه لا يمتنع أن المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان ، كقوله في آل عمران خطابا للمؤمنين وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه . فإن قلت : قد خاطب اللّه المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ وقال أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فجعلها معدّة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ قلت : الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مساكنون الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا :

قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة .

ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد ، والندم على الدخول في الإسلام ، وأن يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ، ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا ، لأنه لا عذر لكم . أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار .

[سورة التحريم (66) : آية 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

تَوْبَةً نَصُوحاً وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى ، والنصح : صفة التائبين ، وهو

أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات ، وذلك : أن يتوبوا عن القبائح لقبحها ، نادمين عليها ، مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع ، موطنين أنفسهم على ذلك .

وعن على رضى اللّه تعالى عنه : أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا ، إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . قال : وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب : الندامة ، وللفرائض : الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة اللّه ، كما ربيتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي . وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه . وعن شهر بن حوشب : أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار . وعن ابن السماك : أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من اللّه أمام عينك وتستعد لمنتظرك . وقيل : توبة لا يتاب منها . وعن السدى : لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله . وقيل : نصوحا من نصاحة الثوب ، أى : توبة ترفو

خروقك في دينك ، وترم خلك « 1 » . وقيل : خالصة ، من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع . ويجوز أن يراد : توبة تنصح الناس ، أى : تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها . وقرأ زيد بن على : توبا نصوحا . وقرئ :

نصوحا بالضم ، وهو مصدر نصح . والنصح والنصوح ، كالشكر والشكور ، والكفر والكفور أى : ذات نصوح . أو تنصح نصوحا . أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له عَسى رَبُّكُمْ إطماع من اللّه لعباده ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل . ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثاني : أن يجيء به تعليما العباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء ، والذي يدل على المعنى الأول وأنه في معنى البت :

قراءة ابن أبى عبلة : ويدخلكم بالجزم ، عطفا على محل عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ كأنه قيل : توبوا يوجب لكم تكفير سيئاتكم ويدخلكم يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ نصب بيدخلكم ، ولا يخزى : تعريض بمن أخزاهم اللّه من أهل الكفر والفسوق ، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم يَسْعى نُورُهُمْ على الصراط أَتْمِمْ لَنا نُورَنا قال ابن عباس : يقولون ذلك إذا طفئ نور المنافقين إشفاقا . وعن الحسن : اللّه متممه لهم ولكنهم يدعون تقربا إلى اللّه ،

كقوله تعالى وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو مغفور له . وقيل : يقوله أدناهم منزلة ، لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم ، لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلا .

وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا ، فأولئك الذين يقولون رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا فإن قلت : كيف يشفقون والمؤمنون آمنون ، أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ . فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ أو كيف «2» يتقربون وليست الدار دار تقرّب ؟ قلت : أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن . وأما التقرّب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة : سماه تقرّبا .

[سورة التحريم (66) : آية 9]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف وَالْمُنافِقِينَ بالاحتجاج ، واستعمل الغلظة والخشونة على

---

(1) . قوله «و ترم خلك» في الصحاح «الخل» الثوب البالي . وعبارة النسفي : خالك . وفي الصحاح «الخلل» بالتحريك : الفرجة بين الشيئين ، وفساد في الأمر . (ع)

(2) . قوله «أو كيف» لعله : وكيف . (ع)

الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة. وعن قتادة: مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم. وعن مجاهد: بالوعيد. وقيل: بإفشاء أسرارهم.

[سورة التحريم (66): آية 10]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

مثل اللّه عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم «1» من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر، لأن عداوتهم لهم وكفرهم باللّه ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء اللّه - بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء مّا من عذاب اللّه وَقِيلَ لهما عند موتهما أو يوم القيامة:

ادْخُلَا النَّارَ مَعَ سائر الدَّاخِلِينَ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من

إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط . ومثل حال المؤمنين – في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئًا من ثوابهم وزلفاهم عند اللّه – بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند اللّه تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء اللّه الناطق بالكلمة العظمى ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أنّ قومها كانوا كفارا . وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما في التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه في التغليظ قوله تعالى وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول اللّه ، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول اللّه ، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن نبصره .

---

(1) . قوله «حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم» أى الذين بينهم وبين المؤمنين علاقة . وقوله «مثلهم» أى ممن لا علاقة بينهم وبين المؤمنين . (ع)

(2) . قوله «على التظاهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» لعله من التظاهر ، كعبارة النسفي . (ع)

فإن قلت ، ما فائدة قوله مِنْ عِبادِنا ؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان ، وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند اللّه : قال عبدين من عبادنا صالحين ، فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا ، من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارا وإبانة ، لأن عبدا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير ، وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده . فإن قلت : ما كانت خيانتهما ؟ قلت : نفاقهما وإبطانهما الكفر ، وتظاهرهما على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه . ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقا ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما «ما بغت امرأة نبى قط» «1» .

[سورة التحريم (66) : الآيات 11 إلى 12]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي

أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)

وامرأة فرعون : : آسية بنت مزاحم . وقيل : هي عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك ، فعذبها فرعون . عن أبى هريرة : أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس ، وأضجعها على ظهرها ، ووضع رحى على صدرها . وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت اللّه فرقى بروحها ، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه .

وعن الحسن : فنجاها اللّه أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها . وقيل :

لما قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة : أريت بيتها في الجنة يبنى . وقيل : إنه من درة . وقيل : كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة . فإن قلت : ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة ؟ قلت طلبت القرب من رحمة اللّه والبعد من عذاب أعدائه ، ثم بينت مكان القرب بقولها فِي الْجَنَّةِ أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها عِنْدَكَ .

مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ من عمل فرعون . أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ، وخصوصا

(1) . أخرجه عبد الرزاق والطبري وابن مردويه من طريق عنه في تفسير هود وهنا .

(102/773)

من عمله وهو : الكفر ، وعبادة الأصنام ، والظلم ، والتعذيب بغير جرم وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ من القبط كلهم . وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل : من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين : فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ . فِيهِ في الفرج . وقرأ ابن مسعود : فيها ، كما قرئ في سورة الأنبياء ، والضمير للجملة ، وقد مرّ لي في هذا الظرف كلام . ومن بدع التفاسير : أنّ الفرج هو جيب الدرع ، ومعنى أحصنته : منعته جبريل ، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتى لا زوج لها ، تسلية للأرامل وتطييبا لأنفسهنّ وَصَدَّقَتْ قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة ، يعنى : وصفتها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه . فإن قلت :

فما كلمات اللّه وكتبه ؟ قلت : يجوز أن يراد بكلماته : صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، سماها كلمات لقصرها «1» ، وبكتبه : الكتب الأربعة «2» ، وأن يراد جميع ما

كلم اللّه به ملائكته وغيرهم ، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره . وقرئ : بكلمة اللّه وكتابه .

أى : بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل . فإن قلت : لم قيل مِنَ الْقانِتِينَ على التذكير ؟ قلت : لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين ، فغلب ذكوره على إناثه .

ومِنْ للتبعيض . ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هرون أخى موسى صلوات اللّه عليهما .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد .

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» «3» وأما ما روى أنّ عائشة سألت

---

(1) . قال محمود : «يجوز أن يراد بالكلمات الصحف التي أنزلها اللّه تعالى على إدريس وغيره : سماها كلمات لقصرها . . . الخ» قال أحمد : هو يعتقد حدوث كلام اللّه ويجحد الكلام القديم . فلا جرم أن كلامه لا يعدو الاشعار بأن كلمات اللّه متناهية ، لأنه في الوجه الأول جعلها مجموعة جمع قلة لقصرها ، وفي الثاني حصرها بقوله «جميع» وأين وصفه لها بالقصر والحصر من الآيتين التوأمتين اللتين إحداهما قوله قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي والأخرى قوله وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ . . . الآية وما هو في الحقيقة إلا غير

مؤمن بكلمات اللّه تعالى ، فالحق أن كلام اللّه تعالى صفة من صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية ، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب اللّه العزيز ، ثبتنا اللّه على الايمان ، ووقانا الخذلان ، واللّه المستعان .

(2) . قوله «و بكتبه الكتب الأربعة» لعلها علمت بالإنجيل والقرآن نزولهما . (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة عن أبى موسى بهذا .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة من هذا الوجه . قال : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يوسف القاضي حدثنا عمرو بن مرزوق بهذا . وهو في البخاري من رواية مرة عن أبى موسى دون ذكر خديجة وفاطمة رضى اللّه عنهما . وفي ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما رفعه «أفضل نساء العالمين أربع . . . فذكره» .

(103/773)

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كيف سمى اللّه المسلمة ؟ تعنى مريم ، ولم يسم الكافرة ؟ فقال :

بغضا لها : قالت : وما اسمها ؟ قال : اسم امرأة نوح «واعلة» واسم امرأة لوط «واهلة»

فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين ، ولقد سمى اللّه تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ، ولو كانت التسمية للحب وتركها البغض لسمى آسية ، وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين ، وأبى اللّه إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تنم عليه ، وكلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحكم وأسلم من ذلك .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من قرأ سورة التحريم آتاه اللّه توبة نصوحا » « 1 » .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 562 . 574 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب .

(104/773)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه عسل شربه النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه ، واختلف فيها

فروى عروة عن عائشة أنه شربه عند حفصة وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة . وروى أسباط عن السدي أنه شربه عند أم سلمة ، فقال يعني نساؤه عدا من شرب ذلك عندها : إنا لنجد منك ريح المغافير ، وكان يكره أن يوجد منه الريح ، وقلن له : جَرَسَتْ نحلة العُرفُط ، فحرّم ذلك على نفسه ، وهذا قول من ذكرنا .

الثالث : أنها مارية أم إبراهيم خلا بها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة بنت عمر وقد خرجت لزيارة أبيها ، فلما عادت وعلمت عتبت على النبي صلى الله عليه وسلم فحرمها على نفسه أرضاء لحفصة ، وأمرها أن لا تخبر أحداً من نسائه ، فأخبرت به عائشة لمصافاة كانت بينهما وكانت تتظاهران على نساء النبي صلى الله عليه وسلم أي تتعاونان ، فحرّم مارية وطلق حفصة واعتزل سائر نسائه تسعة وعشرين يوماً ، وكان جعل على نفسه أن يُحرّمهن شهراً ، فأنزل اللّه هذه الآية ، فراجع حفصة واستحل مارية وعاد إلى سائر نسائه ، قاله الحسن وقتادة والشعبي ومسروق والكلبي وهو ناقل السيرة .

واختلف من قال بهذا ، هل حرّمها على نفسه بيمين آلى بها أم لا ، على قولين :

أحدهما : أنه حلف يميناً حرّمها بها ، فعوتب في التحريم وأُمر بالكفارة في اليمين ، قاله الحسن وقتادة والشعبي .

الثاني : أنه حرّمها على نفسه من غير يمين ، فكان التحريم موجباً لكفارة اليمين ، قاله ابن عباس .

﴿ قد فَرَضَ اللَّهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قد بيّن اللّه لكم المخرج من أيمانكم .

الثاني : قد قدر اللّه لكم الكفارة في الحنث في أيمانكم .

(105/773)

﴿ وإذْ أسَرَّ النبيُّ إلى بَعْضِ أزْاجِهِ حَديثاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أسَرَّ إلى حفصة تحريم ما حرمه على نفسه ، فلما ذكرته لعائشة وأطلع اللَّه نبيه على ذلك عرّفها بعض ما ذكرت ، وأعرض عن بعضه ، قاله السدي .

الثاني : أسرّ إليها تحريم مارية ، وقال لها : اكتميه عن عائشة وكان يومها منه ، وأُسِرّك أن أبا بكر الخليفة من بعدي ، وعمر الخليفة من بعده ، فذكرتها لعائشة ، فلما أطلع اللَّه نبيه ﴿ عرّف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ فكان الذي عرف ما ذكره من التحريم ، وكان الذي أعرض عنه ما ذكره من الخلافة لئلا ينتشر ، قاله الضحاك . وقرأ الحسن : " عَرَف بعضه " بالتخفف ، وقال الفراء : وتأويل قوله : عرف بعضه بالتخفيف أي غضب منه وجازى عليه ، ﴿ إن تَتوبا إلى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكما ﴾ يعني بالتوبة اللتين تظاهرتا وتعاونتا من نساء النبي صلى الله عليه وسلم على سائرهن وهما عائشة وحفصة .

وفي " صغت " ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني زاغت ، قاله الضحاك .

الثاني : مالت ، قاله قتادة ، قال الشاعر :

تُصْغِي القلوبُ إلى أَغَرَّ مُبارَكٍ . . . مِن نَسْلِ عباس بن عبد المطلب

والثالث : أثمت ، حكاه ابن كامل .

وفيما أوخذتا بالتوبة منه وجهان :

أحدهما : من الإذاعة والمظاهرة .

الثاني : من سرورهما بما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من التحريم ، قاله ابن زيد .

﴿ وإن تَظَاهَرا عليه ﴾ عين تعاونا على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فإن الله هو مولاه ﴾ يعني وليه ﴿ وجبريل ﴾ يعني وليه أيضاً .

﴿ وصالحُ المؤمنين ﴾ فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم الأنبياء ، قاله قتادة وسفيان .

الثاني : أبو بكر وعمر ، قال الضحاك وعكرمة : لأنهما كانا أبوي عائشة وحفصة وقد كانا عونا له عليهما .

الثالث : أنه عليّ .

الرابع : أنهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

الخامس : أنهم الملائكة ، قاله ابن زيد .

(106/773)

ويحتمل سادساً : أن صالح المؤمنين من وقى دينه بدنياه .

﴿ والملائكةُ بعدَ ذلك ظهيرٌ ﴾ يعني أعواناً للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل تحقيق تأويله وجهاً ثانياً : أنهم المستظهر بهم عند الحاجة اليهم .

﴿ عَسى ربُّه إن طَلّقكُنّ أَن يُبدِلَه أَزْواجاً خيراً مِنكُنَّ ﴾ أما نساؤه فخير نساء الأمّة .

وفي قوله ﴿ خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أطوع منكن .

والثاني : أحب إليه منكن .

والثالث : خيراً منكن في الدنيا ، قاله السدي .

﴿ مَسْلِماتٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني مخلصات ، قاله ابن جبير ونرى ألا يستبيح الرسول إلا مسلمة .

الثاني : يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة كثيراً ، قاله السدي .

الثالث : معناه مسلمات لأمر اللَّه وأمر رسوله ، حكاه ابن كامل .

﴿ مؤمناتٍ ﴾ يعني مصدقات بما أُمرْن به ونُهين عنه .

﴿ قانتاتٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مطيعات .

الثاني : راجعات عما يكرهه اللَّه إلى ما يحبه .

﴿ تائباتٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الذنوب ، قاله السدي .

الثاني : راجعات لأمر الرسول تاركات لمحاب أنفسهن .

﴿ عابداتٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عابدات للَّه ، قاله السدي .

الثاني : متذللات للرسول بالطاعة ، ومنه أخذ اسم العبد لتذلله ، قاله ابن بحر .

﴿ سائحاتٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : صائمات ، قاله ابن عباس والحسن وابن جبير .

قال ابن قتيبة : سمي الصائم سائحاً لأنه كالسائح في السفر بغير زاد .

وقال الزهري : قيل للصائم سائح لأن الذي كان يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه كان ممسكاً عن الأكل ، والصائم يمسك عن الأكل ، فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحاً ، وإن

أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح ، والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المشتهى ، وهو الأكل والشرب والوقاع .

(107/773)

وعندي فيه وجه آخر وهو أن الإنسان إذا امتنع عن الأكل والشرب والوقاع وسد على نفسه أبواب الشهوات انفتحت عليه أبواب الحكم وتجلت له أنوار المتنقلين من مقام إلى مقام ومن درجة إلى درجة فتحصل له سياحة في عالم الروحانيات .

الثاني : مهاجرات لأنهن بسفر الهجرة سائحات ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ ثَيِّباتٍ وأَبْكاراً ﴾ أما الثيب فإنما سميت بذلك لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها ، أو إلى غيره إن فارقها ، وقيل لأنها ثابَتْ إلى بيت أبويها ، وهذا أصح لأنه ليس كل ثيّب تعود إلى زوج .

وأما البكر فهي العذراء سميت بكراً لأنها على أول حالتها التي خلقت بها .

قال الكلبي : أراد بالثيب مثل آسية امرأة فرعون ، والبكر مثل مريم بنت عمران .

روى خداش عن حميد عن أنس قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول اللَّه لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى ، وقلت : يا رسول اللَّه إنك يدخل إليك البرُّ

والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين ، فأنزل اللَّه آية الحجاب ، وبلغني عن أمهات المؤمنين شيء [فدخلت عليهن فقلت] : لتَكُفُّنّ عن رسول اللَّه أو ليبدلنه اللَّه أزوجاً خيراً منكن حتى دخلت على إحدى أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر أما في رسول اللَّه ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأمسكت فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ عسى ربُّه إن طلّقكنّ ﴾ الآية .

﴿ يا أيها الذين آمَنوا قُوا أَنفُسَكم وأهْليكم ناراً ﴾ قال خيثمة : كل شيء في القرآن يا أيها الذين آمنوا ففي التوراة يا أيها المساكين .

وقال ابن مسعود : إذا قال اللَّه يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه .

وقال الزهري : إذا قال اللَّه تعالى : يا أيها الذين آمنوا افعلوا ، فالنبي منهم .

ومعنى قوله : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أي اصرفوا عنها النار ، ومنه قول الراجز :

ولو توقى لوقاه الواقي . . . وكيف يوقى ما الموت لاقي

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه قوا أنفسكم ، وأهلوكم فليقوا أنفسهم ناراً ، قاله الضحاك .

الثاني : قوا أنفسكم ومروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيكم اللَّه بهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

الثالث : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم ، قاله علي وقتادة ومجاهد .

وفي الوصية التي تقيهم النار ثلاثة أقاويل :

أحدها : يأمرهم بطاعة اللَّه وينهاهم عن معصيته ، قاله قتادة .

الثاني : يعلمهم فروضهم ويؤدبهم في دنياهم ، قاله علي .

الثالث : يعلمهم الخير ويأمرهم به ، ويبين لهم الشر ، وينهاهم عنه .

قال مقاتل : حق ذلك عليه في نفسه وولده وعبيده وإمائه .

﴿ وَقودها الناسُ والحجارةُ ﴾ في ذكر الحجارة مع الناس ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الحجارة التي عبدوها ، حتى يشاهدوا ما أوجب مصيرهم إلى النار ، وقد بين اللّه ذلك في قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ .

الثاني : أنها حجارة من كبريت وهي تزيد في وقودها النار وكان ذكرها زيادة في الوعيد والعذاب ، قاله ابن مسعود ومجاهد .

الثالث : أنه ذكر الحجارة ليعلموا أن ما أحرق الحجارة فهو أبلغ في إحراق الناس .

روى ابن أبي زائدة قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها

الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾ الآية ، وعنده بعض أصحابه ، ومنهم شيخ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال والذي نفسي بيده لصخرة من جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها ، فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على فؤاده فإذا هو حي ، فقال : يا شيخ قل لا إله إلا اللَّه ، فقال بها ، فبشره بالجنة ، فقال أصحابه : يا رسول اللَّه أمِن بيننا ؟ قال : نعم لقول اللَّه تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

﴿ عليها ملائكة غِلاظٌ شدادٌ ﴾ يعني غلاظ القلوب ، شداد الأفعال وهم الزبانية .

(109/773)

﴿ لا يعْصُون اللّه ما أمرهم ﴾ أي لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان .

﴿ ويَفْعلون ما يُؤْمَرونَ ﴾ يعني في وقته فلا يؤخرونه ولا يقدمونه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى اللَّه تَوْبةً نَصوحاً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن التوبة النصوح هي الصادقة الناصحة ، قاله قتادة .

الثاني : أن النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره ، قاله الحسن .

الثالث : أن لا يثق بقبولها ويكون على وجل منها .

الرابع : أن النصوح هي التي لا يحتاج معها إلى توبة .

الخامس : أن يتوب من الذنب ولا يعود إليه أبداً ، قاله عمر بن الخطاب .

وهي على هذه التأويلات مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة .

وفي أخذها منها وجهان :

أحدهما : لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه .

الثاني : لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء اللَّه وألصقته بهم كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض .

ومنهم من قرأ نُصوحاً بضم النون ، وتأويلها على هذه القراءة توبة نُصْح لأنفسكم ، ويروي نعيم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم بضالَّته يجدها بأرض فلاة عليها زاده وسقاؤه

" .

﴿ يا أيها النبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمنافقين واغْلُظْ عليهم ﴾ أما جهاد الكفار فبالسيف ، وأما جهاد المنافقين ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه باللسان والقول ، قاله ابن عباس والضحاك .

الثاني : بالغلظة عليهم كما ذكر اللَّه ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وليقابلهم بوجه مكفهر ، قاله ابن مسعود .

الرابع : بإقامة الحدود عليهم ، قاله الحسن .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً للذين كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادنا صالحَيْنِ فخانتاهما ﴾

في خيانتهما أربعة أوجه :

(110/773)

أحدها : أنهما كانتا كافرتين ، فصارتا خائنتين بالكفر ، قاله السدي .

الثاني : منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر ، وهذه خيانتهما قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتهما في الدين .

الثالث : أن خيانتهما النميمة ، إذا أوحى اللَّه تعالى إليهما [شيئاً] أفشتاه إلى المشركين ، قاله الضحاك .

الرابع : أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به ، وخيانة امرأة لوط أنه كان إذا نزل به ضيف دخّنت لِتُعْلِم قومها أنه قد نزل به

ضيف ، لما كانوا عليه من إتيان الرجال .

قال مقاتل : وكان اسم امرأة نوح والهة ، واسم امرأة لوط والعة .

وقال الضحاك عن عائشة أن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واعلة ، واسم امراة لوط والهة .

﴿ فلم يُغْنِيا عنهما مِنَ اللَّهِ شيئاً ﴾ أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب اللَّه ، تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة دون الوسيلة .

قال يحيى بن سلام : وهذا مثل ضربه اللَّه ليحذر به حفصة وعائشة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيباً في التمسك بالطاعة .

﴿ وضَرَبَ اللَّهُ مَثلاً للذينَ آمنوا امرأَةَ فِرْعونَ ﴾ قيل اسمها آسية بنت مزاحم .

(111/773)

﴿ إذْ قالت رَبِّ ابْنِ لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ قال أبو العالية : اطّلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها ، فقال

لهم : فإنها تعبد ربّاً غيري ، فقالوا له : اقتلْها ، فأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : " رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة " الآية ، فكشف لها الغطاء فنظرت إلى بيتها في الجنة ، فوافق ذلك حضور فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ، فعذبها وهي تضحك وقُبض روحها .

وقولها : ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الشرك .

الثاني : الجماع ، قاله ابن عباس .

﴿ وَنَجِّنِي من القوم الظالمين ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل مصر ، قاله الكلبي .

الثاني : القبط ، قاله مقاتل .

﴿ ومريمَ ابنَةَ عِمرانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ قال المفسرون :

إنه أراد بالفرج الجيب لأنه قال ﴿ فنفخنا فيه مِن رُوحنا ﴾ وجبريل إنما نفخ في جيبها ، ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها .

﴿ وصَدَّقَتْ بكلماتِ رَبِّها وكُتُبِه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن "كلمات ربها " الإنجيل ، و "كتبه " التوراة والزبور .

الثاني : أن "كلمات ربها " قول جبريل حين نزل عليها ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك

غلاماً زكياً ﴾ ، ﴿ وكتبه ﴾ الإنجيل الذي أنزله من السماء ، قاله الكلبي .

الثالث : أن "كلمات ربها " عيسى ، و "كتبه " الإنجيل ، قاله مقاتل .

﴿ وكانت من القانتين ﴾ أي من المطيعين في التصديق .

الثاني : من المطيعين في العبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 38 .

48 ﴾

(112/773)

وقال ابن الجوزى :

سورة التحريم

قوله تعالى : ﴿ لم تحرِّم ما أحل الله لك ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : " أن حفصة ذهبتْ إلى أبيها تَتَحَدَّثُ عنده ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غَيْرةً شديدةً .

فلما دخلت حفصة قالت : قد رأيت من كان عندك .

والله لقد سُؤْتَني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "والله لأُرْضِيَنَّك ، وَإني مُسِرٌّ إليك سراً فاحفظيه" ، قالت : وما هو ؟ قال : "إني أشهدكِ أن سِرِّيَتي هذه عليَّ حرام رضىً لَكِ" ، وكانت عائشة وحفصة متظاهرتين على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فقالت لها : أبشري ، إن النبي صلى الله عليه وسلم قد حرَّم عليه فتاته " ، فنزلت هذه الآية رواه العوفي عن ابن عباس .

وقد روي عن عمر نحو هذا المعنى ، وقال فيه : " فقالت حفصة : كيف تحرمها عليك ، وهي جاريتك ؟ ! فحلف لها أن لا يقربها ، فقال لها : "لا تذكريه لأحد" ، فذكرته لعائشة ، فآلى أن لا يدخل على نسائه شهراً " ، فنزلت هذه الآية وقال الضحاك : قال لها : " لا تذكري لعائشة ما رأيت " ، فذكرته ، فغضبت عائشة ، ولم تزل بنبي الله حتى حلف أن لا يقربها ، فنزلت هذه الآية ، وإلى هذا المعنى : ذهب سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والشعبي ، ومسروق ، ومقاتل ، والأكثرون .

(113/773)

والثاني : ما روى عروة عن عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْواء والعسل ، وكان إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نسائه ، فدخل على

حَفصَة بنت عمر ، واحتبس عندها ، فسألت عن ذلك ، فقيل : أهدت لها امرأة من قومها عُكَّةً من عسل ، فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أما والله لنحتالَنَّ له ، فقلت لسودة : إنه سيدنو منكِ إذا دخل عليك ، فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ وسأقول ذلك ، وقولي أنت يا صفية ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله أسقيك منه ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قالت : تقول : سودة سبحان الله ، والله لقد حَرَمْنَاه قلت لها : اسكتي " ، أخرجه البخاري ومسلم في "الصحيحين" .

وفي رواية ابن أبي ملكية عن ابن عباس : أن التي شرب عندها العسل سودة ، فقالت له عائشة : إِني لأجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة ، فقالت : إني أجد منك ريحاً ، فقال : إني أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت هذه الآية .

وفي حديث عبيد بن عمير عن عائشة أن التي شرب عندها العسل زينب بنت جحش ، فتواطأت حفصة وعائشة أن تقولا له ذلك القول .

قال أبو عبيد : المغافير : شيء شبيه بالصمغ فيه حلاوة .

وخرج الناس يتمغفرون : إذا خرجوا يجتنونه .

ويقال : المغاثير بالثاء ، مثل جدث ، وجدف .

وقال الزجاج : المغافير : صمغ متغير الرائحة .

فخرج في المراد بالذي أحلَّ الله له قولان .

أحدهما : أنه جاريته .

والثاني : العسل .

قوله تعالى : ﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾ أي : تطلب رضاهن بتحريم ذلك .

(114/773)

﴿ والله غفور رحيم ﴾ غفر الله لك التحريم ﴿ قد فرض الله لكم ﴾ قال مقاتل : قد بيَّن الله لكم ﴿ تَحِلَّةَ أَيمانِكم ﴾ أي : كفارة أيمانكم ، وذلك البيان في [المائدة : 89] قال المفسرون : وأصل "تَحِلَّة" تَحْلِلَه على وزن تَفْعِلَة ، فأدغمت ، والمعنى : قد بين الله لكم تحليل أيمانكم بالكفَّارة ، فأمره الله أن يكفِّر يمينه ، فأعتق رقبة .

واختلفوا هل حرّم مارية على نفسه بيمين ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : حرَّمها من غير ذكر يمين ، فكان التحريم موجباً لكفارة اليمين ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه حلف يميناً حرَّمها بها ، قاله الحسن .

والشعبي ، وقتادة ، ﴿ والله مولاكم ﴾ أي : وليُّكم وناصركم .

قوله تعالى : ﴿ وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ يعني : حفصة من غير خلاف

علمناه .

وفي هذا السِّرِّ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قال لها : إني مُسِرٌّ إليك سِرّاً فاحفظيه ، سرّيتي هذه عليَّ حرام ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، والشعبي ، والضحاك ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، والسدي .

والثاني : أنه قال لها : أبوك ، وأبو عائشة ، والِيا الناس من بعدي ، فإياك أن تخبري أحداً ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : أنه أسر إليها أن أبا بكر خليفتي من بعدي ، قاله ميمون بن مهران .

قوله تعالى : ﴿ فلما نَبَّأَتْ به ﴾ أي : أخبرت به عائشة ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أي : أطلع الله نبيه على قول حفصة لعائشة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، لأنه استكتم حفصة ذلك ، ثم دعاها ، فأخبرها ببعض ما قالت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ عرَّف بعضَه وأعرض عن بعض ﴾ وفي الذي عرَّفها إياه قولان .

أحدهما : أنه حدَّثها ما حدثتها عائشة من شأن أبي بكر وعمر ، وسكت عما أخبرتْ عائشة من تحريم مارية ، لأنه لم يبال ما أظهرت من ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن الذي عرَّف : تحريم ماريّة ، والذي أعرض عنه : ذِكر الخلافة لئلا ينتشر ، قاله الضحاك ، وهذا اختيار الزجاج .

قال : ومعنى "عرَّف بعضه" عرَّف حفصة بعضه .

وقرأ الكسائي ، "عَرَفَ" بالتخفيف .

قال الزجاج : على هذه القراءة قد عرف كل ما أسرَّه ، غير أن المعنى جارٍ على بعضه ، كقوله تعالى : ﴿ وما تَفْعلوا من خَير يعلمْه الله ﴾ [البقرة : 179] أي : يعلمه ويجازِ عليه ، وكذلك : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [الزلزلة : 7] أي : ير جزاءه .

فقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة تطليقة ، فكان ذلك جزاءها عنده ، فأمره الله أن يراجعها .

وقال مقاتل بن حيَّان : لم يطلقها ، وإنما همَّ بطلاقها ، فقال له جبريل : لا تطلقها ، فإنها صوَّامة قوَّامة .

وقال الحسن : ما استقصى كريم قط ، ثم قرأ "عرَّف بعضه وأعرض عن بعض" وقرأ ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن السميفع "عُرَّاف" برفع العين ، وتشديد الراء وبألف "بعضِه" بالخفض .

قوله تعالى : ﴿ فلما نَبَّأها به ﴾ أي : أخبر حفصة بإفشائها السرَّ ﴿ قالت من أنبأك

هذا ؟ ﴾ أي : من أخبرك بأني أفشيت سرك ؟ ﴿ قال نبأني العليم الخبير ﴾ ثم خاطب عائشة وحفصة ، فقال : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ أي : من التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيذاء ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ قال ابن عباس : زاغت ، وأثمت .

قال الزجاج : عدلت ، وزاغت عن الحق .

قال مجاهد : كنا نرى قوله تعالى : "فقد صغت قلوبكما" شيئاً هيّناً حتى وجدناه في قراءة ابن مسعود : فقد زاغت قلوبكما .

وإنما جعل القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة .

وقد أشرنا إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ فإن كان له إخوة ﴾ [النساء : 11] وقوله تعالى : ﴿ إذ تسوَّروا المحراب ﴾ [ص : 11] .

(116/773)

قال المفسرون : وذلك أنهما أحبَّا ما كَرِهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته ، ﴿ وإن تظاهرا ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن ومجاهد ، والأعمش "تظاهرا" بتخفيف الظاء ، أي : تعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء ﴿ فإن الله هو مولاه ﴾ أي : وَلِيُّه في العون ، والنصرة ﴿ وجبريل ﴾ وليُّه ﴿ وصالح المؤمنين ﴾

وفي المراد بصالح المؤمنين ستة أقوال .

أحدها : أنهم أبو بكر وعمر ، قاله ابن مسعود ، وعكرمة ، والضحاك .

والثاني : أبو بكر ، رواه مكحول عن أبي أُمامة .

والثالث : عمر ، قاله ابن جبير ، ومجاهد .

والرابع : خيار المؤمنين ، قاله الربيع بن أنس .

والخامس : أنهم الأنبياء ، قاله قتادة ، والعلاء بن زياد العدوي ، وسفيان .

والسادس : أنه علي رضي الله عنه ، حكاه الماوردي .

قاله الفراء : "وصالح المؤمنين" موحّد في مذهب جميع ، كما تقول : لا يأتيني إلا سائس الحرب ، فمن كان ذا ساسة للحرب ، فقد أمر بالمجيء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة ﴾ [المائدة : 38] ، وقوله تعالى : ﴿ واللَّذان يأتيانها منكم ﴾ [النساء : 16] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ [المعارج : 19] في كثير من القرآن يؤدي معنى الواحد عن الجميع .

قوله تعالى : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أي : ظهراً ، وهذا مما لفظه لفظ الواحد ، ومعناه الجميع ، ومثله ﴿ يخرجكم طفلاً ﴾ [غافر : 67] ، وقد شرحناه هناك .

ثم خوَّف نساءه ، فقال تعالى : ﴿ عسى ربُّه إن طلقكنَّ ﴾ وسبب نزولها ما روى أنس عن عمر بن الخطاب قال : بلغني بعض ما آذى به رسولَ الله نساؤه ، فدخلتُ عليهنَّ ،

فجعلت أَستقرئهن واحدةً واحدةً ، فقلت : والله لتنتهِنَّ ، أو ليبدلنَّه الله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت هذه الآية .

(117/773)

والمعنى : واجبٌ من الله ﴿ إن طلقكنَّ ﴾ رسوله ﴿ أن يبدلَه أزواجاً خيراً منكنَّ مسلماتٍ ﴾ أي : خاضعات لله بالطاعة ﴿ مؤمناتٍ ﴾ مصدِّقات بتوحيد الله ﴿ قانتاتٍ ﴾ أي : طائعات ﴿ سائحات ﴾ فيه قولان .

أحدهما : صائمات ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ السائحون ﴾ [التوبة : 112] .

والثاني : مهاجرات ، قاله زيد بن أسلم ، وابنه .

﴿ والثّيبات ﴾ جمع ثَيِّب ، وهي المرأة التي قد تزوَّجت ، ثم ثابت إلى بيت أبويها ، فعادت كما كانت غير ذات زوج .

"والأبكار" : العذارى .

قوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ وقاية النفس : بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، ووقاية الأهل : بأن يُؤْمَروا بالطاعة ، ويُنْهَوا عن المعصية .

وقال علي رضي الله عنه : علِّموهم وأدِّبوهم ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ وقد ذكرناه في [البقرة : 24] ﴿ عليها ملائكةٌ غِلاظٌ ﴾ على أهل النار ﴿ شِدادٌ ﴾ عليهم .

وقيل : غلاظ القلوب شِدَاد الأبدان .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : خَزَنَةُ النَّار تسعةَ عشر ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، وقُوَّته : أن يضرب بالمقمعة ، فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً .

فيهوُون في قعر جهنَّم ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ أي : لا يخافون فيما يأمر ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يتجاوزون ما يؤمرون .

والثاني : يفعلونه في وقته لا يؤخِّرونه ، ولا يقدِّمونه .

ويقال لأهل النار : ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع "نصوحاً" بضم النون .

والباقون بفتحها .

قال الزجاج : فمن فتح فعلى صفة التوبة ، ومعناه : توبةً بالغةً في النصح ، و"فَعُول" من أسماء الفاعلين التي تستعمل للمبالغة في الوصف .

تقول : رجل صبور ، وشكور .

ومن قرأ بالضم ، فمعناه : ينصحون فيها نصوحاً ، يقال : نصحت له نصحاً ، ونصاحة ، ونصوحاً .

(118/773)

وقال غيره : من ضم أراد : توبة نُصْحٍ لأنفسكم .

وقال عمر بن الخطاب : التوبة النصوح : أن يتوب العبد من الذنب وهو يحدّث نفسه أنَّه لا يعود .

وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح ، فقال : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، ثم قرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ يوم لا يخزي الله النبي ﴾ قد بيَّنا معنى "الخزي" في [آل عمران : 192] وبيَّنا معنى قوله تعالى : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ في [الحديد : 12] ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ وذلك إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يُطفأ سألوا الله تعالى أن يتمم لهم نورهم ، ويبلِّغهم به الجنة .

قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة .

فأما المنافق فيُطفَأ نورُه ، والمؤمن مُشْفِق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون : "ربنا أتمم لنا نورنا" .

قوله تعالى : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قد شرحناه في [براءة : 73] .

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ﴾ قال المفسرون منهم مقاتل : هذا المثل يتضمن تخويف عائشة وحفصة أنهما إن عَصيا ربَّهما لم يُغْنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما شيئاً .

قال مقاتل : اسم امرأة نوح "والهة" وامرأة لوط "والغة" .

قوله تعالى : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ يعني : نوحاً ولوطاً عليهما السلام ﴿ فخانتاهما ﴾ قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتهما في الدِّين ، كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف ، فإذا نزل بلوط ضيفٌ بالليل أوقدت النار ، وإذا نزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه قد نزل به ضيف .

وقال السدي : كانت خيانتهما : كفرهما .

وقال الضحاك : نميمتهما .

وقال ابن السائب : نفاقهما .

قوله تعالى : ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ أي : فلم يدفعا عنهما من عذاب الله شيئاً .

وهذه الآية تقطع طمع مَن ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره .

ثم أخبر أن معصية الغير لا تضر المطيع .

بقوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها .

وقال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذِّر به عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

ثم ضرب لهما هذا المثل يرغبهما في التمسك بالطاعة .

وكانت آسية قد آمنت بموسى .

قال أبو هريرة : ضرب فرعون لامرأته أوتاداً في يديها ورجليها ، وكانوا إذا تفرَّقوا عنها أظلتها الملائكة ، فقالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته قبل موتها ﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن عمله : جِمَاعُهُ .

والثاني : أنه دينه رويا عن ابن عباس ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ يعني : أهل دين المشركين .

قوله تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ قد ذكرنا فيه قولين في سورة [الأنبياء : 92]

فمن قال : هو فرج ثوبها ، قال "الهاء" في قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيه ﴾ يرجع إليه ، وذلك أن جبريل مَدَّ جيب درعها ، فدخل فيه .

ومن قال : هو مخرج الولد ، قال : "الهاء" كناية عن غير مذكور ، لأنه إنما نفخ في درعها لا في فرجها .

قوله تعالى : ﴿ وصدَّقت بكلمات ربها ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنها قول جبريل ﴿ إنما أنا رسول ربكِ ﴾ [مريم : 19] .

والثاني : أن الكلمات هي التي تضمنَّتها كتب الله المنزلة .

(120/773)

وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وأبو مجلز ، وعاصم الجحدري ، "بكلمةِ ربها" على التوحيد "وكُتُبه" قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وابو بكر عن عاصم "وكتابِهِ" على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وخارجة عن نافع "وكُتُبه" جماعة ، وهي التي أنزلت على الأنبياء ، ومن قرأ "وكتابه" فهو اسم جنس على ما بيَّنَّا في خاتمة [البقرة : 285] وقد بيَّنَّا فيها القنوت مشروحاً [البقرة : 116] .

ومعنى الآية : وكانت من القانتين ، ولذلك لم يقل : من القانتات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 302.317 ﴾

(121/773)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾

(122/773)

ذكر سبب نزولها ، (ق) عن عائشة ا قالت "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي (صلى الله عليه وسلم) منه شربة فقلت أما أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له يا رسول الله أكلت مغافير فإنه سيقول لا فقولي ما هذه الريح التي أجد

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل فقولي له جرست نحله العرفط وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك فلما دخل على سودة قالت تقول سودة والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أبادئه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب فرقاً منك فلما دنا منها قالت له سودة يا رسول الله أكلت مغافير ؟ قال لا قالت فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال سقتني حفصة شربة عسل قال جرست نحله العرفط فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك ثم دخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال لا حاجة لي فيه قالت تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قلت لها اسكتي " (ق) عن عائشة ا " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له " فنزلت ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى قوله ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ لقوله " بل شربت عسلاً ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً " زاد في رواية " يبتغي بذلك مرضاة أزواجه " .

(شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما)

قولها كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحب الحلواء والعسل الحلواء بالمد وهو كل شيء حلو وذكر العسل بعدها وإن كان داخلاً في جملة الحلواء تنبيهاً على شرفه ومزيته وهو من باب ذكر الخاص بعد العام قولها في الحديث الثاني فتواطيت أنا وحفصة هكذا ذكر في الرواية وأصله فتواطأت أي اتفقت أنا وحفصة قولها إني لأجد منك ريح مغافير هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء وهو صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة وبالفاء يكون بالحجاز وقيل العرفط نبات له ورق عريض يفرش على الأرض له شوكة وثمره خبيث الرائحة ، وقال أهل اللغة العرفط من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك ، وقيل رائحته كرائحة النبيذ وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يكره أن يوجد منه رائحة كريهة قولها جرست نحله العفرط هو بالجيم والراء وبالسين المهملتين ومعناه أكلت نحله العرفط فصار منه العسل قولها في الحديث الثاني فقال شربت عسلاً عند زينب بنت جحش وفي الحديث الأول أن الشرب كان عند حفصة بنت عمر بن الخطاب وأن عائشة وسودة وصفية هن اللواتي تظاهرن عليه قال القاضي عياض والصحيح الأول قال النسائي إسناد حديث حجاج بن محمد عن ابن جريج صحيح جيد غاية وقال الأصيلي حديث حجاج أصح وهو أولى بظاهر كتاب الله وأكمل

فائدة يريد قوله تعالى : ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ وهما ثنتان لا ثلاثة وأنهما عائشة وحفصة كما اعترف به عمر في حديث ابن عباس وسيأتي الحديث قال وقد انقلبت الأسماء على الراوي في الرواية الأخرى يعني الحديث الأول الذي فيه أن الشرب كان عند حفصة قال القاضي عياض : والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ذكره الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم وكذا ذكره القرطبي أيضاً وقال المفسرون في سبب النزول

(124/773)

" إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في زيارة أبيها فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة وخلا بها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال ما يبكيك ؟ قالت إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ووقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي اسكتي فهي علي حرام ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة

منهن فلما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد حرم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي بها (صلى الله عليه وسلم) فغضبت عائشة فلم تزل بنبي الله (صلى الله عليه وسلم) حتى حلف أن لا يقربها "

﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ أي بين وأوجب لكم تحليل أيمانكم بالكفارة وهو ما ذكر في سورة المائدة فأمره الله أن يكفر عن يمينه ويراجع أمته فأعتق رقبة ﴿ والله مولاكم ﴾ أي وليكم وناصركم ﴿ وهو العليم ﴾ أي بخلقه ﴿ الحكيم ﴾ أي فيما فرض من حكمه .

(فصل)

(125/773)

اختلف العلماء في لفظ التحريم فقيل ليس هو بيمين فإن قال لزوجته أنت علي حرام أو قال حرمتك فإن نوى طلاقاً فهو طلاق وإن نوى ظهاراً فظهار وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين بنفس اللفظ وإن قال ذلك لجاريته فإن نوى عتقاً عتقت وإن نوى تحريم

ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين وإن قال لطعام حرمته على نفسي فلا شيء عليه وهذا قول أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة والتابعين وإليه ذهب الشافعي وإن لم ينو شيئاً ففيه قولان للشافعي أحدهما أنه يلزمه كفارة اليمين ، والثاني لا شيء عليه وأنه لغو فلا يترتب عليه شيء من الأحكام وذهب جماعة إلى أنه يمين فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقربها كما لو حلف أن لا يطؤها وإن حرم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكله وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه (ق) عن ابن عباس قال " إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " وفي رواية " إذا حرم امرأته ليس بشيء وقال لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " لفظ الحميدي .

(126/773)

قوله تعالى : ﴿ وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ﴾ يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم مارية على نفسه واستكتمها ذلك وهو قوله لا تخبري بذلك أحداً وقال ابن عباس أسر أمر الخلافة بعده فحدثت به حفصة قال الكلبي أسر إليها إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي ، وقيل لما رأى الغيرة في وجه حفصة أراد أن يراضيها فسرها

بشيئين بتحريم مارية على نفسه وأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر ﴿ فلما نبأت به ﴾ أي أخبرت بذلك حفصة عائشة ﴿ وأظهره الله عليه ﴾ أي أطلع الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) على قول حفصة لعائشة ﴿ عرف بعضه ﴾ قرىء بتخفيف الراء أي عرف بعض الذي فعلته حفصة فغضب من إفشاء سره وجازاها عليه بأن طلقها فلما بلغ عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بمراجعتها وقيل لم يطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حفصة وإنما هم بطلاقها فأتاه جبريل فقال لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة وقرىء عرف بالتشديد ، ومعناه عرف حفصة بعض الحديث وأخبرها ببعض ما كان منها ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ أي لم يعرفها إياه ولم يخبرها به قال الحسن ما استقصى كريم قط قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض والمعنى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه (صلى الله عليه وسلم) كره أن ينتشر ذلك في الناس ﴿ فلما نبأها به ﴾ أي أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ﴿ قالت ﴾ يعني حفصة ﴿ من أنبأك هذا ﴾ أي من أخبرك بأني أفشيت السر ﴿ قال نبأني العليم ﴾ أي بما تكنه الضمائر ﴿ الخبير ﴾ أي بخفيات الأمور .

قوله : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ يخاطب عائشة وحفصة أي من التعاون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والإيذاء له ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما أن تتوبا وذلك بأن سرهما ما كره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو اجتناب مارية ، (ق) عن ابن عباس قال " لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) اللتين قال الله إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما حتى حج عمر وحججت معه فلما كان عمر ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإرادة فتبرز ثم أتاني فصببت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صبلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما قال عمر واعجباً لك يا ابن العباس قال الزهري كره منه ما سأله عنه ولم يكتمه قال هما عائشة وحفصة ثم أخذ يسوق الحديث قال كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم قال وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقالت نعم فقلت أتهجره إحداكن اليوم إلى

الليل ؟ قالت نعم قلت لقد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا هي قد هلكت لا تراجعي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك يريد عائشة وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينزل يوماً ويأتيني بخبر الوحي

(128/773)

وغيره وآتيه بمثل ذلك وكنا نتحدث أن غسان تبعث الخيل لتغزونا فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته ثم أتاني عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال حدث أمر عظيم قلت ماذا أجاءت غسان ؟ قال لا بل أعظم من ذلك وأهول طلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه قلت قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالت لا أدري ها هو ذا معتزل في هذه المشربة فأتيت غلاماً له أسود فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج إليّ فقال قد ذكرتك له

فصمت فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرتك له فصمت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال قد ذكرتك له فصمت فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا هو متكىء على رمال حصير قد أثر في جنبه فقلت أطلقت يا رسول الله نساءك فرفع رأسه إليّ وقال لا فقلت الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله قد كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت إذ راجعتني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت يا رسول الله قد دخلت علي حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك فتبسم أخرى فقلت استأنس يا رسول الله قال نعم قال

فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال أفي اشك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت استغفر لي يا رسول الله وكان قد أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة لعائشة من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله تعالى "

قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة قالت

" لما مضت تسع وعشرون دخل علي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بدأ بي فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنك دخلت في ليلة تسع وعشرين أعدهن فقال إن الشهر يكون تسعاً وعشرين زاد في رواية وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة ثم قال يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ثم قال يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها حتى بلغ إلى قوله عظيماً قالت عائشة قد علم رسول الله والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه فقلت أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله و الدار الآخرة "

﴿ عسى ربه ﴾ أي واجب من الله ﴿ إن طلقكن ﴾ يعني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ ثم وصف الأزواج اللواتي كان يزوجه بهن فقال ﴿ مسلمات ﴾ أي خاضعات لله بالطاعة ﴿ مؤمنات ﴾ أي مصدقات بتوحيد الله تعالى : ﴿ قانتات ﴾ أي طائعات وقيل داعيات وقيل مصليات بالليل ﴿ تائبات ﴾ أي تاركات للذنوب ، لقبحها أو كثيرات التوبة ﴿ عابدات ﴾ وكثيرات العبادة ﴿ سائحات ﴾ أي صائمات وقيل مهاجرات وقيل يسحن معه حيث ساح ﴿ ثيبات ﴾ جمع ثيب وهي التي تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه ﴿ وأبكاراً ﴾ أي عذارى جمع بكر وهذا من باب الإخبار عن القدرة لا عن الكون لأنه قال إن طلقكن وقد علم أنه لا يطلقهن فأخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدله أزواجاً خيراً منهن تخويفاً لهن .

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾ قال ابن عباس بالانتهاء عما نهاكم الله عنه والعمل بطاعته ﴿ وأهليكم ﴾ يعني مروهم بالخير وانهوهم عن الشر وعلموهم وأدبوهم تقوهم بذلك ، ﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ يعني الكبريت ، لأنه أشد الأشياء حراً وأسرع إيقاداً ﴿ عليها ملائكة ﴾ يعني خزنة النار وهم الزبانية ﴿ غلاظ ﴾ أي فظاظ على أهل النار ﴿ شداد ﴾ يعني أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار لم يخلق الله الرحمة فيهم ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ أي لا يخالفون الله فيما أمرهم

به ونهاهم عنه ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامره والانتقام من أعدائه ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ أي يقال لهم لا تعتذروا اليوم وذلك حين يعاينون النار وشدتها لأنه قد قدم إليهم الإنذار والإعذار فلا ينفعهم الاعتذار لأنه غير مقبول بعد دخول النار ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ يعني أن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب .

(131/773)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ أي ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب الذي تاب منه قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع وقال السن هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود إليه وقال الكلبي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن وقال سعيد بن المسيب معناه توبة تنصحون بها أنفسكم وقال محمد بن كعب القرظي التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيىء الإخوان .

(فصل)

وقال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب على الفور ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاث شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية ؛ والثاني أن يندم على فعلها ، والثالث أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحاً وإن فقد شرط منها لم تصح توبته فإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة والرابع أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت المعصية مالاً ونحوه رده إلى صاحبه وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه من نفسه أو طلب عفوه وإن كانت غيبة استحله منها ويجب أن يتوب العبد من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته من ذلك الذنب وبقي عليه ما لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة ، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة (م) عن الأغر بن يسار المزني قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(132/773)

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أي بين شبهاً وحالاً ﴿ للذين كفروا امرأة نوح ﴾ واسمها واعلة ﴿ وامرأة لوط ﴾ واسمها واهلة وقيل اسمهما والعة ووالهة ﴿ كانتا تحت

عبدين من عبادنا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام وقوله من عبادنا إضافة تشريف وتعظيم ﴿ فخانتاهما ﴾ قال ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن أحد أخبرت به الجبابرة من قومها وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل قومها على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار وإذا نزل به ضيف بالنهار دخنت لتعلم قومها بذلك وقيل أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ أي لم يدفعا عن امرأتيهما مع نبوتهما عذاب الله ﴿ وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات من النساء وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت القرابة متصلة بينهم وأن القريب كالأجانب بل أبعد وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً كامرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان عن امرأتيهما شيئاً فقطع بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية ويتكل على صلاح غيره وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ثم ضرب مثلاً آخر يتضمن أن معصية الغير لا تضره إذا كان مطيعاً وأن وصلة المسلم بالكافر لا تضر المؤمن فقال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ يعني آسية بنت مزاحم قال المفسرون لما غلب موسى السحرة آمنت به امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فكانت تعذب

في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ﴿ إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة وقيل إن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى

(133/773)

عليها فلما أتوها بالصخرة قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة فأبصرت بيتها في الجنة ، من درة بيضاء وانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً وقيل رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي تأكل وتشرب فيها ﴿ ونجني من فرعون عمله ﴾ يعني وشركه وقال ابن عباس عمله يعني جماعه ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ يعني الكافرين ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ أي عن الفواحش والمحصنة العفيفة ﴿ فنفخنا فيه ﴾ أي في جيب درعها ولذلك ذكر الكناية ﴿ من روحنا ﴾ إضافة تمليك وتشريف كبيت الله وناقة الله ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ يعني الشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه ﴿ وكتبه ﴾ يعني الكتب المنزلة على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ﴿ وكانت من القانتين ﴾ يعني كانت من القوم القانتين أي المطيعين وهم رهطها وعشيرتها لأنهم كانوا أهل بيت صلاح وطاعة الله عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " حسبك من نساء العالمين

مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون " أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح .

والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 114.123 ﴾

(134/773)

وقال النسفى :

﴿ يا أَيها النبى لِمَ تُحَرّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة رضي الله عنها وعلمت بذلك حفصة فقال لها : اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة وكانتا مصادقتين .

وقيل خلابها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة .

روي أنه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة وقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم التفل فحرم العسل ،

فمعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أزواجك ﴾ تفسير ل ﴿ تُحَرِّمُ ﴾ أو حال أو استئناف وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿ والله غَفُورٌ ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ قد رحمك فلم يؤاخذك به ﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم ﴾ قد قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم وهي الكفارة ، أو قد شرع لكم تحليلها بالكفارة ، أو شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حلل فلان في يمينه إذا استثنى فيها وذلك أن يقول "إن شاء الله" عقيبها حتى لا يحنث ، وتحريم الحلال يمين عندنا .

وعن مقاتل" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة في تحريم مارية" .

وعن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين ﴿ والله مولاكم ﴾ سيدكم ومتولي أموركم .

وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم أنفسكم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿ الحكيم ﴾ فيما أحل وحرم .

(135/773)

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه ﴾ يعني حفصة ﴿ حَدِيثاً ﴾ حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أفشته إلى عائشة رضي الله عنها ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ وأطلع النبي صلى الله عليه وسلم على إفشائها الحديث على لسان جبريل عليه السلام ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ فلم يخبر به تكرماً .

قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ﴿ عَرَّفَ ﴾ بالتخفيف : عليّ أي جازى عليه من قولك للمسيء لأعرفن لك ذلك .

وقيل : المعروف حديث الإمامة والمعرض عنه حديث مارية .

وروي أنه قال لها : ألم أقل لك اكتمي عليّ ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أباها ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ نبأ النبي حفصة بما أفشت من السر إلى عائشة ﴿ قَالَتْ ﴾ حفصة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم ﴾ بالسرائر ﴿ الخبير ﴾ بالضمائر .

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى الله ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن تتوبا إلى الله فهو الواجب ودل على المحذوف ﴿ فَقَدْ صَغَتْ ﴾ مالت ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه وكراهة ما يكرهه ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ بالتخفيف : كوفي وإن تعاونا عليه بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ

هُوَ مولاه ﴾ وليه وناصره .

وزيادة ﴿ هُوَ ﴾ إيذان بأنه يتولى ذلك بذاته ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ أيضاً وليه ﴿ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن صلح من المؤمنين أي كل من آمن وعمل صالحاً .

وقيل : من بريء من النفاق .

وقيل : الصحابة .

وقيل : واحد أريد به الجمع كقولك لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد الجنس .

(136/773)

وقيل : أصله صالحو المؤمنين فحذفت الواو من الخط موافقة للفظ ﴿ والملئكة ﴾ على تكاثر عددهم ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعد نصرة الله وجبريل وصالحي المؤمنين ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ فوج مظاهر له فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ، ولما كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله قال بعد ذلك تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم .

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ ﴾ ﴿ يُبْدِلَهُ ﴾ مدني وأبو عمرو فالتشديد للكثرة ﴿ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيراً منهن ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين ؟ قلت : إذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم

لإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهن ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ مقرات مخلصات ﴿ قانتات ﴾ مطيعات ، فالقنوت هو القيام بطاعة الله وطاعة الله في طاعة رسوله ﴿ تائبات ﴾ من الذنوب أو راجعات إلى الله وإلى أمر رسوله ﴿ عابدات ﴾ لله ﴿ سائحات ﴾ مهاجرات أو صائمات .

وقيل : للصائم سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ إنما وسط العاطف بين الثيبات والأبكار دون سائر الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات .

(137/773)

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ نوعاً من النار لا تتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿ عَلَيْهَا ﴾ يلي أمرها وتعذيب أهلها ﴿ مَلَئِكَةٌ ﴾ يعني الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ في أجرامهم غلظة وشدة أو غلاظ الأقوال شداد الأفعال ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله ﴾ في موضع الرفع على النعت ﴿ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ في محل النصب على البدل أي لا يعصون ما أمر الله أي

أمره كقوله

﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه : 93] أو لا يعصونه فيما أمرهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وليست الجملتان في معنى واحد ، إذ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ﴿ يأَيُّهَا الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا لأنه لا عذر لكم ، أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ صادقة عن الأخفش رحمه الله .

وقيل : خالصة .

يقال : عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

وقيل : نصوحاً من نصاحة الثوب أي توبة ترفو خروقك في دينك وترم خللك ، ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها ، وبضم النون : حماد ويحيى وهو مصدر أي ذات نصوح أو تنصح نصوحاً وجاء مرفوعاً "إن التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضرع" وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي الاستغفار باللسان والندم بالجنان والإقلاع بالإركان .

﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم ﴾ هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة ب "عسى" و"لعل" ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ونصب ﴿ يَوْمَ ﴾ ب ﴿ يدخلكم ﴾ ﴿ لاَ يُخْزِي الله النبى والذين ءَامَنُواْ مَعَهُ ﴾ فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ﴿ نُورُهُم ﴾ مبتدأ ﴿ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ في موضع الخبر ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين ﴿ واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ يا أيها النبى جاهد الكفار ﴾ بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالقول الغليظ والوعد البليغ .

وقيل : بإقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة باللسان ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ .

﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً وَقِيلَ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة وإن كان المؤمن الذي

يتصل به الكافر نبياً بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما ، فلم يغن الرسولان عنهما أي عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من الزواج اغناء ما من عذاب الله .

وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة : ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

(139/773)

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ هي آسية بنت مزاحم آمنت بموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ وهي تعذب ﴿ رَبّ ابن لِى عِندكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾ فكأنها أرادت الدرجة العالية لأنه تعالى منزه عن المكان فعبرت عنها بقولها عندك ﴿ وَنَجّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي من عمل فرعون أو من نفس فرعون الخبيثة وخصوصاً من عمله وهو الكفر والظلم والتعذيب بغير جرم ﴿ وَنَجّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ من القبط كلهم ، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ من الرجال ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿ فِيهِ ﴾ في الفرج ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ المخلوقة

لنا ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات رَبِّهَا ﴾ أي بصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بصري وحفص ، يعني الكتب الأربعة ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ لما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين غلب ذكوره على إناثه .

و"من" للتبعيض ، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هارون أخ موسى عليهما السلام .

ومثل حال المؤمنين في أن وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً .

وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه ، وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين وأن لا يتكلا على أنهما زوجا رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 273.269 ﴾

(140/773)

وقال ابن جزى :

سورة التحريم

﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾

في سبب نزولها روايتان ؛ أحدهما : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوماً إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب ، فوجدها قد خرجت لزيارة أبيها ، فبعث إلى جاريته مارية فجامعها في البيت ، فجاءت حفصة فقالت : يا رسول الله ما كان في نسائك أهون عليك مني . أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضياً لها : أيرضيك أن أحرمها ، قالت : نعم ، فقال : إني قد حرّمتها " .

والرواية الأخرى : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ؛ فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول من دنا منها : أكلت مغافير ، والمغافير صمغ العرفط ، وهو حلو كريه الريح ، ففعلن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ولكني شربت عسلاً ، فقلن له : جرست نحله العرفط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أشربه أبداً . وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة ، فدخل بعد ذلك على زينب فقالت : ألا أسقيك من ذلك فقال : لا حاجة لي به ، فنزلت الآية عتاباً له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل " ،

والرواية الأولى أشهر ، وعليها تكلم الناس في فقه السورة ، وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره .

(141/773)

ولنتكلم على فقه التحريم ، فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء ، فلا يلزم ، ولا شيء عليه عند مالك ، وأوجب عليه أبو حنيفة الكفارة ، وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم ، وإن لم ينوِ به ذلك لم يلزم . وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام . أما تحريم الزوجة فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة : فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم : إنما يلزم فيه كفارة يمين . وقال مالك في المشهور عنه : ثلاثة تطليقات في المدخول بها وينوي في غير المدخول بها فيحكم بما نوى من طلقة أو اثنتين أو ثلاث ، وقال ابن الماجشون ، هي ثلاث في الوجهين ، وروي عن مالك أنها طلقة بائنة ، وقيل طلقة رجعية .

﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك ، يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة ، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية ، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ في

هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم ، على أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له ، وإنما وقع العتاب على تضييقه عليه السلام على نفسه ، وامتناعه مما كن له فيه أرب ، وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة ، لأنه حرّم ما أحل الله ، وذلك قلة أدب على منصب النبوة .

(142/773)

﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ التحلة هي الكفارة وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة [المائدة : 89] من صفتها ، واختلف في المراد بها هنا فأما على قول من قال : إن الآية نزلت في تحريم الجارية فاختلف في ذلك . فمن قال إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدل بها ، ومن قال : إن التحريم يلزم فيه طلاق قال : إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف وقال : والله لا أطؤها أبداً . وأما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل فاختلف أيضاً ؛ فمن أوجب في تحريم الطعام كفارة قال : هذه الكفارة للتحريم ومن قال : لا كفارة فيه : قال : إنما هي الكفارة لأنه حلف ألا يشربه ، وقيل : هي في يمينه عليه السلام أن لا يدخل على نسائه شهراً ﴿ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون المولى بمعنى الناصر أو بمعنى السيد الأعظم .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه تحريم الجارية ، فإنه لم حرمها قال لحفصة : لا تخبري بذلك أحداً ، والآخر أنه قال : إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده ، والثالث : أنه قوله شربت عسلاً ، والأول أشهر ، وبعض أزواجه حفصة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية ، فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك ، فعاقب حفصة عن إفشائها لسره فطلقها ، ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها . وقيل : لم يطلقها . فقوله فلما نبأت به حذف المفعول وهو عائشة . وقوله : ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ أي أطلعه على إخبارها به ، وقوله : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ أي عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعض حياء وتكريماً ، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في العتاب ، وقرئ عَرَف بالتخفيف من المعرفة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ أي لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بأنها قد أفشت سره ، ظنت بأن عائشة هي التي أخبرته فقالت له : من أنبأك هذا ؟ فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه سكتت وسلمت .

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ هذا خطاب لعائشة وحفصة ، وتوبتهما مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل . ومعنى ﴿ صَغَتْ ﴾ أي : مالت عن الصواب وقرأ ابن مسعود زاغت والمعنى : إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ ﴾ المعنى أن تعاونتما عليه صلى الله عليه وسلم بما يسؤوه من إفراط الغيرة ، وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من ينصره ، ومولاه هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم ، فيوقف على مولاه ويكون جبريل مبتدأ وظهير خبره وخبر ما عطف عليه ، ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الولي الناصر ، فيكون جبريل معطوف فيوصل مع ما قبله ، ويوقف على صالح المؤمنين ويكون الملائكة مبتدأ وظهير خبره ، وهذا أظهر وأرجح لوجهين : أحدهما : أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع ، فإن ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم وتشريفاً له ، وأما إذا كان بمعنى السيد فذاك يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع غيره ، لأن الله تعالى مولى جميع خلقه بهذا المعنى ، فليس في ذلك إظهار مزية له ، الوجه الثاني : أنه ورد في الحديث الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما يشق عليك من شأن

النساء ؛ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك ، فنزلت الآية موافقة لقول عمر ، فقوله يقتضي معك النصرة ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ اختلف في صالح هل هو مفرد أو جمع محذوف النون للإضافة ؟ فعلى القول بأنه مفرد هو أبو بكر ، وقيل : علي بن أبي طالب ، وعلى القول بأنه جمع فهو على العموم في كل صالح .

(145/773)

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ الآية ، نصرة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وروي أن عمر قال ذلك ونزل القرآن بموافقته ، ولقد قال عمر حينئذ للنبي صلى الله عليه وسلم : والله يا رسول الله لئن أمرتني بضرب عنق حفصة لضربت عنقها ، وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان والقنوت ، والسائحات : معناه الصائمات قاله ابن عباس : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل معناه مهاجرات وقيل ذاهبات إلى الله ، لأن أصل السياحة الذهاب في الأرض ، وقوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ قال بعضهم : المراد بالأبكار هنا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ؛ فإن الله يزوج النبي صلى الله عليه وسلم إياهما في الجنة وهذا يفتقر إلى نقل صحيح ، ودخلت الواو هنا للتقسيم . ولو سقطت لاختل المعنى لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان ، وقال الكوفيون : هي واو الثمانية وذلك ضعيف .

﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ أي أطيعوا الله وأمروا أهلكم بطاعته ، لتقوا أنفسكم وأهليكم بطاعته من النار ، فعبر بالمسبب وهو وقاية النار عن السبب وهو الطاعة ﴿ وَقُودُهَا ﴾ ذكر في [البقرة : 24] ﴿ مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ يعني زبانية النار وغلظهم وشدتهم ، يحتمل أن يريد في أجرامهم وفي قساوة قلوبهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ قيل : إن هذا تأكيد لقوله : لا يصعون الله ، وقيل : إن معنى لا يعصون امتثال الأمر ، ومعنى يفعلون ما يؤمرون ، جدهم ونشاطهم فيما يؤمرون به من عذاب الناس .

﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ يعني يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون هذا خطاب من الله للكفار أو خطاب من الملائكة .

(146/773)

﴿ تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ قال عمر بن الخطاب التوبة النصوح هي أن تتوب من الذنب ثم لا تعود إليه أبداً ، ولا تريد أن تعود . وقيل : معناه توبة خالصة فهو من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع ، وقيل : هو أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت ؛ كتوبة ﴿ الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة : 118] قال الزمخشري : وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح في الحقيقة صفة التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، وقد تكلمنا

على التوبة في قوله : وتوبوا إلى الله جميعاً : في [النور : 31] ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النبي ﴾ العامل في ﴿ يَوْمَ ﴾ يحتمل أن يكون ما قبله ، أو ما بعده أو محذوف تقديره : اذكر ، والوقف والابتداء يختلف على ذلك ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على النبي أو مبتدأ وخبره عبده ﴿ نُورُهُمْ يسعى ﴾ ذكر في [الحديد : 19] ﴿ جَاهِدِ الكفار والمنافقين ﴾ ذكر في [براءة : 88] .

(147/773)

﴿ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾ قيل اسم امرأة نوح والهة ، واسم امرأة لوط والعة ، وهذا يفتقر إلى صحة نقل ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال ابن عباس : خيانة امرأة نوح في أنها كانت تقول : إنه مجنون ، وخيانة امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه ، وكانتا مع ذلك كافرتين ، وقيل : خانتا بالزنا ، وأنكر ابن عباس ذلك وقال : ما زنت امرأة نبي قط تنزيهاً من الله لهم عن هذا النقص ، وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل ؛ كأنه يقول : لا يغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه ؛ كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما . وقيل : هذا مثال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكر في أول السورة ، وهذا باطل ؛ لأن الله إنما ضربه للذين كفروا . و ﴿ امرأت فِرْعَوْنَ

﴿ اسمها آسية وكانت قد آمنت بموسى عليه السلام فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها ، فدعت بهذا الدعاء فقبض الله روحها ، وروي في قصصها غير هذا مما يطول وهو غير صحيح ﴿ مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ تعني : كفره وظلمه ، وقيل : مضاجعته لها ، وهذا ضعيف .

﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا ﴾ يعني الفرج الذي هو الجارحة ، وإحصانها له هو صيانتها وعفتها عن كل مكروه ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ عبارة عن نفخ جبريل في فرجها ، فخلق الله فيه عيسى عليه السلام وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافة مخلوق إلى خالقه ، وفي ذلك تشريف له ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ كلمات ربها ، يحتمل أن يريد بها الكتب التي أنزل الله أو كلامه مع الملائكة وغيرهم ، وكتابه بالإفراد يحتمل أن يريد به التوراة أو الإنجيل أو جنس الكتب ، وقرأ أبو عمرو وحفص بالجمع يعني : جميع كتب الله ﴿ مِنَ القانتين ﴾ أي من العابدين ، فإن قيل : لم قال من القانتين بجمع المذكر وهي أنثى ؟ فالجواب : أن القنوت صفة تجمع الرجال والنساء فغلب الذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 130.133 ﴾

(148/773)

وقال البيضاوى :

سورة التحريم

مدنية وآيها اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ ﴾

" روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في نوبة عائشة رضي الله تعالى عنها أو حفصة ، فاطلعت على ذلك حفصة فعاتبته فيه فحرم مارية فنزلت . وقيل شرب عسلاً عند حفصة ، فواطأت عائشة سودة وصفية فقلن له إنا نشمُّ منك ريح المعافير فحرم العسل فنزلت " . ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَجِكَ ﴾ تفسير ل ﴿ تُحَرِّمُ ﴾ أو حال من فاعله أو استئناف لبيان الداعي إليه . ﴿ والله غَفُورٌ ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله . ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ رحمك حيث لم يؤاخذك به وعاتبك محاماة على عصمتك .

(149/773)

﴿ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيمانكم ﴾ قد شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقَّدتهُ بالكفارة ، أو الاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا تحنث من قولهم : حلل في يمينه إذا استثنى فيها ،

واحتج بها من رأى التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً ، وهو ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يميناً مع احتمال أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمين كما قيل ﴿ والله مولاكم ﴾ متولي أمركم ﴿ وَهُوَ العليم ﴾ بما يصلحكم ﴿ الحكيم ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزواجه ﴾ يعني حفصة ﴿ حَدِيثاً ﴾ تحريم مارية أو العسل أو أن الخلافة بعده لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله تعالى عنهما بالحديث ﴿ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ واطلع النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائه . ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ عرف الرسول صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما فعلت . ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ عن أعلام بعض تكرماً أو جازاها على بعض بتطليقه إياها وتجاوز عن بعض ، ويؤيده قراءة الكسائي بالتخفيف فإنه لا يحتمل ههنا غيره لكن المشدد من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والمخفف بالعكس ، ويؤيد الأول قوله : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِىَ العليم الخبير ﴾ فإنه أوفق للإسلام .

(150/773)

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعاتبة . ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله عليه الصلاة والسلام بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه . ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ وإن تتظاهرا عليه بما يسؤوه ، وقرأ الكوفيون بالتخفيف . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلن يعدم من يظاهره من الله والملائكة وصلحاء المؤمنين ، فإن الله ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ، ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه .

﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ متظاهرون ، وتخصيص جبريل عليه السلام لتعظيمه ، والمراد بالصالح الجنس ولذلك عمم بالإضافة وبقوله بعد ذلك تعظيم لمظاهرة الملائكة من جملة ما ينصره الله تعالى به .

﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ على التغليب ، أو تعميم الخطاب ، وليس فيه ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه ، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿ يُبْدِلَهُ ﴾ بالتخفيف . ﴿ مسلمات مؤمنات ﴾ مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات . ﴿ قانتات ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعات . ﴿ تائبات ﴾ عن الذنوب . ﴿ عابدات ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿

سائحات ﴾ صائمات سمي الصائم سائحاً لأنه يسبح بالنهار بلا زاد ، أو مهاجرات . ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ وسط العاطف بينهما لتنافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملات على الثيبات والأبكار .

(151/773)

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات . ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بالنصح والتأديب ، وقرىء و"أهلوكم" عطف على واو ﴿ قُواْ ﴾ ، فيكون ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ أنفس القبيلين على تغليب المخاطبين . ﴿ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ ناراً تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب . ﴿ عَلَيْهَا مَلَئِكَةٌ ﴾ تلي أمرها وهم الزبانية . ﴿ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة . ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ﴾ فيما مضى . ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فيما يستقبل ، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به .

﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار ، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم .

(152/773)

﴿ ي ﴾ ﴿ أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ بالغة في النصح وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة ، وصفت به على الإِسناد المجازي مبالغة أو في النصاحة ، وهي الخياطة كأنها تنصح ما خرق الذنب . وقرأ أبو بكر بضم النون وهو مصدر بمعنى النصح كالشكر والشكور ، والنصاحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً ، أو توبوا نصوحاً لأنفسكم . وسئل علي رضي الله تعالى عنه عن التوبة فقال : يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية . ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سيئاتكم وَيُدْخِلَكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ذكر بصيغة الأطماع جرياً على عادة الملوك ، وإشعاراً بأنه تفضل والتوبة غير موجبة وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء . ﴿ يَوْمَ لاَّ يُخْزِى الله النبى ﴾ ظرف ل ﴿ يدخلكم ﴾ ﴿ والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم ، وقيل مبتدأ خبره : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ أي على الصراط . ﴿ يَقُولُونَ ﴾ إذا طفىء نور المنافقين . ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً .

﴿ ا يا أيها النبى جاهد الكفار ﴾ بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة. ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ واستعمل الخشونة فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرفق مداه. ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ جهنم أو مأواهم.

(153/773)

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأة نُوحٍ وامرأة لُوطٍ ﴾ مَثَّلَ الله تعالى حالهم في أنهم يعاقبون بكفرهم ولا يحابون بما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من النسبة بحالهما. ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صالحين ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط عليهما السلام. ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ بالنفاق. ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً ﴾ فلم يغن النبيان عنهما بحق الزواج شيئاً إغناء ما. ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي لهما عند موتهما أو يوم القيامة. ﴿ ادخلا النار مَعَ الداخلين ﴾ مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ امرأة فِرْعَوْنَ ﴾ شبه حالهم في أن وصلة الكافرين لا تضرهم بحال آسية رضي الله عنها ومنزلتها عند الله مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله. ﴿ إِذْ قَالَتِ ﴾ ظرف للمثل المحذوف. ﴿ رَبِّ ابن لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى الجنة ﴾

قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين . ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيء . ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ من القبط التابعين له في الظلم .

(154/773)

﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ ﴾ عطف على ﴿ امرأة فِرْعَوْنَ ﴾ تسلية للأرامل . ﴿ التى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ من الرجال ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ في فرجها ، وقرىء "فيها" أي في ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أو في الجملة . ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصل . ﴿ وَصَدَّقَتْ بكلمات رَبِّهَا ﴾ بصحفه المنزلة أو بما أوحى إلى أنبيائه . ﴿ وَكِتَابِهِ ﴾ وما كتب في اللوح المحفوظ ، أو جنس الكتب المنزلة وتدل عليه قراءة البصريين وحفص بالجمع ، وقرىء "بكلمة الله وكتابه" أي بعيسى عليه السلام والإنجيل . ﴿ وَكَانَتْ مِنَ القانتين ﴾ من عداد المواظبين على الطاعة ، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم ، أو من نسلهم فتكون ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية .

عن النبي صلى الله عليه وسلم "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون : ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" وعنه عليه الصلاة

والسلام " من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 354.359 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(155/773)

وقال أبو حيان :

سورة التحريم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) ﴾

﴿ يا أيها النبي ﴾ : نداء إقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم ؛ ﴿ لم تحرم ﴾ : سؤال تلطف ، ولذلك قدم قبله ﴿ يا أيها النبي ﴾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ومعنى ﴿ تحرم ﴾ : تمنع ، وليس التحريم المشروع بوحي من الله ، وإنما هو امتناع لتطييب خاطر بعض من يحسن معه العشرة .

﴿ ما أحل الله لك ﴾ : هو مباشرة مارية جاريته ، وكان (صلى الله عليه وسلم) ألمّ بها في بيت بعض نسائه ، فغارت من ذلك صاحبة البيت ، فطيب خاطرها بامتناعه منها ،

واستكتمها ذلك ، فأفشته إلى بعض نسائه .

وقيل : هو عسل كان يشربه عند بعض نسائه ، فكان ينتاب بيتها لذلك ، فغار بعضهن من دخوله بيت التي عندها العسل ، وتواصين على أن يذكرن له على أن رائحة ذلك العسل ليس بطيب ، فقال : "لا أشربه" .

وللزمخشري هنا كلام أضربت عنه صفحاً ، كما ضربت عن كلامه في قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ وكلامه هذا ونحوه محقق قوي فيه ، ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً .

فلو حرم الإنسان على نفسه شيئاً أحله الله ، كشرب عسل ، أو وطء سرية ؛ واختلفوا إذا قال لزوجته : أنت عليّ حرام ، أو الحلال على حرام ، ولا يستثني زوجته ؛ فقال جماعة ، منهم الشعبي ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأصبغ : هو كتحريم الماء والطعام .

وقال تعالى : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ والزوجة من الطيبات ومما أحله الله .

وقال أبو بكر وعمر وزيد وابن عباس وابن مسعود وعائشة وابن المسيب وعطاء وطاووس وسليمان بن يسار وابن جبير وقتادة والحسن والأوزاعي وأبو ثور وجماعة : هو يمين يكفرها .

وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً في إحدى روايتيه ، والشافعي في أحد قوليه : فيه تكفير يمين وليس بيمين .

وقال أبو حنيفة وسفيان والكوفيون : هذا ما أراد من الطلاق ، فإن لم يرد طلاقها فهو لا شيء .

وقال آخرون : كذلك ، فإن لم يرد فهو يمين .

وفي التحرير ، قال أبو حنيفة وأصحابه : إن نوى الطلاق فواحدة بائنة ، أو اثنين فواحدة ، أو ثلاثاً فثلاث ، أو لم ينو شيئاً فيمين وهو مول ، أو الظهار فظهار .

وقال ابن القاسم : لا تنفعه نية الظهار ويكون طلاقاً .

وقال يحيى بن عمر : يكون ، فإن ارتجعها ، فلا يجوز له وطئها حتى يكفر كفارة الظهار فما زاد من أعداده ، فإن نوى واحدة فرجعية ، وهو قول الشافعي .

وقال الأوزاعي وسفيان وأبو ثور : أي أي شيء نوى به من الطلاق وقع وإن لم ينو شيئاً ، فقال سفيان : لا شيء عليه .

وقال الأوزاعي وأبو ثور : تقع واحدة .

وقال الزهري : له نيته ولا يكون أقل من واحدة ، فإن لم ينو فلا شيء .

وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً .

وقال أبو قلابة وعثمان وأحمد وإسحاق : التحريم ظهار ، ففيه كفارة .

وقال الشافعي : إن نوى أنها محرمة كظهر أمه ، فظهار أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين .

وقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوى في غير المدخول بها ، فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث .

وقاله علي وزيد وأبو هريرة .

وقيل : في المدخول بها ثلاث ، قاله عليّ أيضاً وزيد بن أسلم والحكم .

وقال ابن أبي ليلى وعبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيء .

وروى ابن خويز منداد عن مالك ، وقاله زيد وحماد بن أبي سليمان : إنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها .

وقال الزهري وعبد العزيز بن الماجشون : هي واحدة رجعية .

وقال أبو مصعب ومحمد بن الحكم : هي في التي لم يدخل بها واحدة ، وفي المدخول بها ثلاث .

وفي الكشاف لا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن ، وإن نوى الطلاق فهو رجعي .

وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي .

وعن علي : ثلاث ؛ وعن زيد : واحدة ؛ وعن عثمان : ظهاراً . انتهى .

وقال أيضاً : ولم يثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لما أحله : "هو حرام علي" ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه ، وهو قوله : " والله لا أقربها بعد اليوم " ، فقيل له : ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ : أي لم تمتنع منه بسبب اليمين ؟ يعني أقدم على ما حلفت عليه وكفر ، ونحو قوله تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ أي منعناه منها . انتهى .

و﴿ تبتغي ﴾ : في موضع الحال .

وقال الزمخشري تفسير لتحرم ، أو استئناف ، ﴿ مرضات ﴾ : رضا أزواجك ، أي بالامتناع مما أحله الله لك .

﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ : الظاهر أنه كان حلف على أنه يمتنع من وطء مارية ، أو من شرب ذلك العسل ، على الخلاف في السبب ، وفرض إحالة على آية العقود ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

وتحلة : مصدر حلل ، كتكرمة من كرم ، وليس مصدراً مقيساً ، والمقيس : التحليل

والتكريم ، لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل ، وأصل هذا تحللة فأدغم .

وعن مقاتل : أعتق رقبة في تحريم مارية .

وعن الحسن : لم يكفر . انتهى .

فدل على أنه لم يكن ثم يمين .

و ﴿ بعض أزواجه ﴾ : حفصة ، والحديث هو بسبب مارية .

﴿ فلما نبأت به ﴾ : أي أخبرت عائشة .

وقيل : الحديث إنما هو : "شربت عسلاً" .

وقال ميمون بن مهران : هو إسراره إلى حفصة أن أبا بكر وعمر يملكان إمرتي من بعدي خلافه .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلما نبأت به ﴾ ؛ وطلحة : أنبأت ، والعامل في إذا : اذكر ، وذكر ذلك على سبيل التأنيب لمن أسرّ له فأفشاه .

ونبأ وأنبأ ، الأصل أن يتعديا إلى واحد بأنفسهما ، وإلى ثان بحرف الجر ، ويجوز حذفه فتقول : نبأت به ، المفعول الأول محذوف ، أي غيرها .

و ﴿ من أنبأك هذا ﴾ : أي بهذا ، ﴿ قال نبأني ﴾ أي نبأني به أو نبأنيه ، فإذا ضمنت

معنى أعلم ، تعدت إلى ثلاثة مفاعيل ، نحو قول الشاعر :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها . . .

(158/773)

تهدي إليّ غرائب الأشعار

﴿ وأظهره الله عليه ﴾ : أي أطلعه ، أي على إفشائه ، وكان قد تكوتم فيه ، وذلك بإخبار جبريل عليه السلام .

وجاءت الكناية هنا عن التفشية والحذف للمفشى إليها بالسر ، حياطة وصوناً عن التصريح بالاسم ، إذ لا يتعلق بالتصريح بالاسم غرض .

وقرأ الجمهور : ﴿ عرّف ﴾ بشد الرّاء ، والمعنى : أعلم به وأنب عليه .

وقرأ السلمي والحسن وقتادة وطلحة والكسائي وأبو عمرو في رواية هارون عنه : بخف الراء ، أي جازى بالعتب واللوم ، كما تقول لمن يؤذيك : لأعرفن لك ذلك ، أي لأجازينك .

وقيل : إنه طلق حفصة وأمر بمراجعتها .

وقيل : عاتبها ولم يطلقها .

وقرأ ابن المسيب وعكرمة : عراف بألف بعد الراء ، وهي إشباع .

وقال ابن خالويه : ويقال إنها لغة يمانية ، ومثالها قوله :

أعوذ بالله من العقراب . . .

الشائلات عقد الأذناب

يريد : من العقرب .

﴿ وأعرض عن بعض ﴾ : أي تكرماً وحياء وحسن عشرة .

قال الحسن : ما استقصى كريم قط .

وقال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، ومفعول عرّف المشدد محذوف ، أي عرّفها بعضه ، أي أعلم ببعض الحديث .

وقيل : المعرّف خلافة الشيخين ، والذي أعرض عنه حديث مارية .

ولما أفشت حفصة الحديث لعائشة واكتتمتها إياه ، ونبأها الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) به ، ظنت أن عائشة فضحتها فقالت : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ على سبيل التثبت ، فأخبرها أن الله هو الذي نبأه به ، فسكنت وسلمت .

﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ : انتقال من غيبة إلى خطاب ، ويسمى الالتفات والخطاب لحفصة وعائشة .

﴿ فقد صغت ﴾ : مالت عن الصواب ، وفي حرف عبد الله : راغت ، وأتى بالجمع في قوله : ﴿ قلوبكما ﴾ ، وحسن ذلك إضافته إلى مثنى ، وهو ضميراهما ، والجمع في مثل

هذا أكثر استعمالاً من المثنى ، والتثنية دون الجمع ، كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ . . .

كنوافذ العبط التي لا ترفع

(159/773)

وهذا كان القياس ، وذلك أن يعبر بالمثنى عن المثنى ، لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع ، لأن التثنية جمع في المعنى ، والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر ، كقوله :

حمامة بطن الواديين ترنمي . . .

يريد : بطني .

وغلط ابن مالك فقال في كتاب التسهيل : ونختار لفظ الإفراد على لفظ التثنية .

وقرأ الجمهور : تظاهرا بشد الظاء ، وأصله تتظاهرا ، وأدغمت التاء في الظاء ، وبالأصل قرأ عكرمة ، وبتخفيف الظاء قرأ أبو رجاء والحسن وطلحة وعاصم ونافع في رواية ، وبشد الظاء والهاء دون ألف قرأ أبو عمرو في رواية ، والمعنى : وأن تتعاونا عليه في إفشاء سره والإفراط في الغيرة ، ﴿ فإن الله هو مولاه ﴾ : أي مظاهره ومعينه ، والأحسن الوقف على قوله : ﴿ مولاه ﴾ .

ويكون ﴿ وجبريل ﴾ مبتدأ ، وما بعده معطوف عليه ، والخبر ﴿ ظهير ﴾ .

فيكون ابتداء الجملة بجبريل ، وهو أمين وحي الله واختتامه بالملائكة .

وبدىء بجبريل ، وأفرد بالذكر تعظيماً له وإظهاراً لمكانته عند الله .

ويكون قد ذكر مرتين ، مرة بالنص ومرة في العموم .

واكتنف صالح المؤمنين جبريل تشريفاً لهم واعتناء بهم ، إذ جعلهم بين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فعلى هذا جبريل داخل في الظهراء لا في الولاية ، ويختص الرسول بأن الله هو مولاه .

وجوزوا أن يكون ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ عطفاً على اسم الله ، فيدخلان في الولاية ، ويكون ﴿ والملائكة ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ ظهير ﴾ ، فيكون جبريل داخلاً في الولاية بالنص ، وفي الظهراء بالعموم ، والظاهر عموم وصالح المؤمنين فيشمل كل صالح .

وقال قتادة والعلاء بن العلاء بن زيد : هم الأنبياء ، وتكون مظاهرتهم له كونهم قدوة ، فهم ظهراء بهذا المعنى .

وقال عكرمة والضحاك وابن جبير ومجاهد : المراد أبو بكر وعمر ، وزاد مجاهد : وعلي بن أبي طالب .

وقيل : الصحابة .

وقيل : الخلفاء .

وعن ابن جبير : من يرىء من النفاق ، وصالح يحتمل أن يراد به الجمع ، وإن كان مفرداً فيكون كالسامر في قوله : ﴿ مستكبرين به سامراً ﴾ أي سماراً .

ويحتمل أن يكون جمعاً حذفت منه الواو خطأ لحذفها لفظاً ، كقوله : ﴿ سندع الزبانية ﴾ وأفرد الظهير لأن المراد فوج ظهير ، وكثيراً ما يأتي فعيل نحو : هذا للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد ، كأنهم في الظاهرة يد واحدة على من يعاديه ، فما قد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ، وذلك إشارة إلى تظاهرهما ، أو إلى الولاية .

وفي الحديث أن عمر قال : يا رسول الله لا تكترث بأمر نسائك ، والله معك ، وجبريل معك ، وأبو بكر وأنا معك ، فنزلت .

وروي عنه أنه قال لزوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية ، فنزلت .

وقرأ الجمهور : طلقكن بفتح القاف ، وأبو عمرو في رواية ابن عباس : بإدغامها في الكاف ، وتقدم ذكر الخلاف في ﴿ أن يبدله ﴾ في سورة الكهف ، والمتبدل به محذوف لدلالة المعنى عليه ، تقديره : أن يبدله خيراً منكن ، لأنهن إذا طلقهن كان طلاقهن لسوء عشرتهن

، واللواتي يبدلهن بهذه الأوصاف يكن خيراً منهن .

وبدأ في وصفهن بالإسلام ، وهو الانقياد ؛ ثم بالإيمان ، وهو التصديق ؛ ثم بالقنوت ، وهو الطواعية ؛ ثم بالتوبة ، وهي الإقلاع عن الذنب ؛ ثم بالعبادة ، وهي التلذذ ؛ ثم بالسياحة ، وهي كناية عن الصوم ، قاله أبو هريرة وابن عباس وقتادة والضحاك .

وقيل : إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فسره بذلك ، قاله أيضاً الحسن وابن جبير وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن .

قال الفراء والقتيبي : سمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام .

وقال زيد بن أسلم ويمان : مهاجرات .

وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة .

وقيل : ذاهبات في طاعة الله .

(161/773)

وقرأ الجمهور : سائحات ، وعمرو بن فائد : سيحات ، وهذه الصفات تجتمع ، وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان ، فلذلك عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل

المعنى .

وذكر الجنسين لأن في أزواجه (صلى الله عليه وسلم) من تزوجها بكراً ، والثيب : الراجع بعد زوال العذرة ، يقال : ثابت تثوب ثووباً ، ووزنه فعيل كسيد .

ولما وعظ أزواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) موعظة خاصة ، أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم ، وعطف ﴿ وأهليكم ﴾ على ﴿ أنفسكم ﴾ ، لأن رب المنزل راع وهو مسؤول عن أهله .

ومعنى وقايتهم : حملهم على طاعته وإلزامهم أداء ما فرض عليهم .

قال عمر : يا رسول الله ، نقي أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ قال : " تنهونهن عما نهاكم الله تعالى عنه ، وتأمرونهن بما أمركم الله به ، فتكون ذلك وقاية بينهن وبين النار " ، ودخل الأولاد في ﴿ وأهليكم ﴾ .

وقيل : دخلوا في ﴿ أنفسكم ﴾ لأن الولد بعض من أبيه ، فيعلمه الحلال والحرام ويجنبه المعاصي .

وقرىء : وأهلوكم بالواو ، وهو معطوف على الضمير في ﴿ قوا ﴾ وحسن العطف للفصل بالمفعول .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أليس التقدير قوا أنفسكم وليق أهلوكم أنفسهم ؟ قلت : لا ، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده ، فكأنه قيل : قوا أنتم وأهلوكم

أنفسكم .

لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه .

فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب . انتهى .

وناقض في قوله هذا لأنه قدر وليق أهلوكم فجعله من عطف الجمل ، لأن أهلوكم اسم ظاهرة لا يمكن عنده أن يرتفع بفعل الآمر الذي للمخاطب ، وكذا في قوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ثم قال : ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو ، فناقض لأنه في هذا جعله مقارناً في التقدير للواو ، وفيما قبله رفعه بفعل آخر غير الرافع للواو وهو وليق ، وتقدم الخلاف في فتح الواو في قوله : ﴿ وقودها ﴾ وضمها في البقرة .

(162/773)

وتفسير ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ في البقرة ﴿ عليها ملائكة ﴾ : هي الزبانية التسعة عشر وأعوانهم .

ووصفهم بالغلظ ، إما لشدة أجسامهم وقوتها ، وإما لفظاظتهم لقوله : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب ﴾ أي ليس فيهم رقة ولا حنة على العصاة .

وانتصب ﴿ ما أمرهم ﴾ على البدل ، أي لا يعصون أمره لقوله تعالى : ﴿ أفعصيت أمري

﴿ أو على إسقاط حرف الجر .

أي فيما أمرهم ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

قيل : كرر المعنى توكيداً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أليس الجملتان في معنى واحد ؟ قلت : لا فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يودون ما يؤمرون ، لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه .

﴿ لا تعتذروا ﴾ : خطاب لهم عند دخولهم المنار ، لأنهم لا ينفعهم الاعتذار ، فلا فائدة فيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

ذكروا في النصوح أربعة وعشرين قولاً .

وروي عن عمر وعبد الله وأبي ومعاذ أنها التي لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، ورفعه معاذ إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ الجمهور : ﴿ نصوحاً ﴾ بفتح النون ، وصفاً لتوبة ، وهو من أمثلة المبالغة ، كضروب وقتول .

وقرأ الحسن والأعرج وعيسى وأبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع : بضمها ، هو

مصدر وصف به ، ووصفها بالنصح على سبيل المجاز ، إذ النصح صفة التائب ، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة ، فيأتي بها على طريقها ، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها ، من قولهم : عسل ناصح ، أي خالص من الشمع ، أو من النصاحة وهي الخياطة ، أي قد أحكمها وأوثقها ، كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه .

(163/773)

وسمع عليّ أعرابياً يقول : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، قال : وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وعلى الفرائض الإعادة ، ورد المظالم واستحلال الخصوم ، وأن يعزم على أن لا يعودوا ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما أذبتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي .

وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . انتهى .

ونصوحاً من نصح ، فاحتمل وهو الظاهر أن تكون التوبة تنصح نفس التائب ، واحتمل أن يكون متعلق النصح الناس ، أي يدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها .

وقرأ زيد بن علي : توباً بغير تاء ، ومن قرأ بالضم جاز أن يكون مصدراً وصف كما قدمناه

، وجاز أن يكون مفعولاً له ، أي توبوا لنصح أنفسكم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويدخلكم ﴾ عطفاً على ﴿ أن يكفر ﴾ .

وقال الزمخشري : عطفاً على محل عسى أن يكفر ، كأنه قيل : توبوا يوجب تكفير سيآتكم ويدخلكم . انتهى .

والأولى أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيهاً لما هو من كلمتين بالكلمة الواحدة ، تقول في قمع ونطع : قمع ونطع .

﴿ يوم لا يخزي ﴾ منصوب بيدخلكم ، ولا يخزي تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ، والنبي هو محمد رسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفي الحديث أنه (صلى الله عليه وسلم) تضرع إلى الله عز وجل في أمر أمته ، فأوحى الله تعالى إليه : إن شئت جعلت حسابهم إليك ، فقال : " يا رب أنت أرحم بهم " ، فقال تعالى : إذاً لا أخزيك فيهم .

وجاز أن يكون : ﴿ والذين ﴾ معطوفاً على ﴿ النبي ﴾ ، فيدخلون في انتفاء الخزي .

وجاز أن يكون مبتدأ ، والخبر ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ .

وقرأ سهل بن شعيب وأبو حيوة : وبإيمانهم بكسر الهمزة ، وتقدم في الحديث .

﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ .

قال ابن عباس والحسن : يقولون ذلك إذا طفىء نور المنافقين .

وقال الحسن أيضاً : يدعونه تقرباً إليه ، كقوله : ﴿ واستغفر لذنبِك ﴾ وهو مغفور له .

وقيل : يقوله من يمر على الصراط زحفاً وحبوا .

وقيل : يقوله من يعطى من النور مقدار ما يبصر به موضع قدميه .

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ : تقدم نظير هذه الآية في التوبة .

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ : ضرب تعالى المثل لهم بامرأة نوح وامرأة لوط في أنهم لا ينفعهم في كفرهم لحمة نسب ولا وصلة صهر ، إذ الكفر قاطع العلائق بين الكافر والمؤمن ، وإن كان المؤمن في أقصى درجات العلا .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ كما لم ينفع تينك المرأتين كونهما زوجتي نبيين .

وجاءت الكناية عن اسمهما العلمين بقوله : ﴿ عبدين من عبادنا ﴾ ، لما في ذلك من التشريف بالإضافة إليه تعالى .

ولم يأت التركيب بالضمير عنهما ، فيكون تحتهما لما قصد من ذكر وصفهما بقوله : ﴿ صالحين ﴾ ، لأن الصلاح هو الوصف الذي يمتاز به من اصطفاه الله تعالى بقوله في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وفي قول يوسف عليه السلام : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ وقول سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ وأدخلني

برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ ﴿ فخانتاهما ﴾ ، وذلك بكفرهما وقول امرأة نوح عليه السلام : هو مجنون ، ونميمة امرأة لوط عليه السلام بمن ورد عليه من الأضياف ، قاله ابن عباس .

وقال : لم تزن امرأة نبي قط ، ولا ابتلي في نسائه بالزنا .

قال في التحرير : وهذا إجماع من المفسرين ، وفي كتاب ابن عطية .

وقال الحسن في كتاب النقاش : فخانتاهما بالكفر والزنا وغيره .

وقال الزمخشري : ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور ، لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر ، فإن الكفر يستسمجونه ويسمونه حقاً .

وقال الضحاك : خانتاهما بالنميمة ، كان إذا أوحى إليه بشيء أفشتاه للمشركين ، وقيل : خانتاهما بنفاقهما .

(165/773)

قال مقاتل : اسم امرأة نوح والهة ، واسم امرأة لوط والعة .

﴿ فلم يغنيا ﴾ بياء الغيبة ، والألف ضمير نوح ولوط : أي على قربهما منهما فرق بينهما الخيانة .

﴿ وقيل ادخلا النار ﴾ : أي وقت موتهما ، أو يوم القيامة ؛ ﴿ مع الداخلين ﴾ : الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو مع من دخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

وقرأ مبشر بن عبيد : تغنيا بالتاء ، والألف ضمير المرأتين ، ومعنى ﴿ عنهما ﴾ : عن أنفسهما ، ولا بد من هذا المضاف إلا أن يجعل عن اسما ، كهي في : دع عنك ، لأنها إن كانت حرفاً ، كان في ذلك تعدية الفعل الرافع للضمير المتصل إلى ضمير المجرور ، وهو يجري مجرى المنصوب المتصل ، وذلك لا يجوز .

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ : مثل تعالى حال المؤمنين في أن وصلة الكفار لا تضرهم ولا تنقص من ثوابهم بحال امرأة فرعون ، واسمها آسية بنت مزاحم ، ولم يضرها كونها كانت تحت فرعون عدوّ الله تعالى والمدعي الإلهية ، بل نجاها منه إيمانها ؛ وبحال مريم ، إذ أوتيت من كرامة الله تعالى في الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً .

﴿ إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ : هذا يدل على إيمانها وتصديقها بالبعث . قيل : كانت عمة موسى عليه السلام ، وآمنت حين سمعت بتلقف عصاه ما أفك السحرة .

طلبت من ربها القرب من رحمته ، وكان ذلك أهم عندها ، فقدمت الظرف ، وهو ﴿

عندك بيتاً ﴾ ، ثم بينت مكان القرب فقالت : ﴿ في الجنة ﴾ .

وقال بعض الظرفاء : وقد سئل : اين في القرآن مثل قولهم : الجار قبل الدار ؟ قال : قوله تعالى ﴿ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ ، فعندك هو المجاورة ، وبيتاً في الجنة هو الدار ، وقد تقدم ﴿ عندك ﴾ على قوله : ﴿ بيتاً ﴾ .

﴿ ونجني من فرعون ﴾ ، قيل : دعت بهذه الدعوات حين أمر فرعون بتعذيبها لما عرف إيمانها بموسى عليه السلام .

(166/773)

وذكر المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها ، وليس في القرآن نصاً أنها عذبت .

وقال الحسن : لما دعت بالنجاة ، نجاها الله تعالى أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم .

وقيل : لما قالت : ﴿ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ ، أريت بيتها في الجنة يبنى ، ﴿ وعمله ﴾ ، قيل : كفره .

وقيل : عذابه وظلمه وشماتته .

وقال ابن عباس : الجماع .

﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ ، قال : أهل مصر ، وقال مقاتل : القبط ، وفي هذا دليل على الالتجاء إلى الله تعالى عند المحن وسؤال الخلاص منها ، وإن ذلك من سنن الصالحين والأنبياء .

﴿ ومريم ﴾ : معطوف على امرأة فرعون ، ﴿ ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ : تقدم تفسير نظير هذه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقرأ الجمهور : ابنت بفتح التاء ؛ وأيوب السختياني : ابنه بسكون الهاء وصلاً أجراه مجرى الوقف .

وقرأ الجمهور : ﴿ فنفخنا فيه ﴾ : أي في الفرج ؛ وعبد الله : فيها ، كما في سورة الأنبياء ، أي في الجملة .

وجمع تعالى في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لقلوبهن .

وقرأ الجمهور : ﴿ وصدقت ﴾ بشد الدال ؛ ويعقوب وأبو مجلز وقتادة وعصمة عن عاصم : بخفها ، أي كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى عليه السلام ، وما أظهر الله له من الكرامات .

وقرأ الجمهور : وكلماته جمعاً ، فاحتمل أن تكون الصحف المنزلة على إدريس عليه السلام وغيره ، وسماها كلمات لقصرها ، ويكون المراد بكتبه : الكتب الأربعة .

واحتمل أن تكون الكلمات : ما كلم الله تعالى به ملائكته وغيرهم ، وبكتبه : جميع ما يكتب في اللوح وغيره .

واحتمل أن تكون الكلمات : ما صدر في أمر عيسى عليه السلام .

وقرأ الحسن ومجاهد والجحدري : بكلمة على التوحيد ، فاحتمل أن يكون اسم جنس ، واحتمل أن يكون كناية عن عيسى ، لأنه قد أطلق عليه أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم .

(167/773)

وقرأ أبو عمرو وحفص : وكتبه جمعاً ، ورواه كذلك خارجة عن نافع .

وقرأ باقي السبعة : وكتابه على الإفراد ، فاحتمل أن يراد به الجنس ، وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى .

وقرأ أبو رجاء : وكتبه .

قال ابن عطية : بسكون التاء وكتبه ، وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل .

وقال صاحب اللوامح أبو رجاء : وكتبه بفتح الكاف ، وهو مصدر أقيم مقام الاسم .

قال سهل : وكتبه أجمع من كتابه ، لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس ، فالكتب عام ، والكتاب هو الإنجيل فقط . انتهى .

﴿ وكانت من القانتين ﴾ : غلب الذكورية على التأنيث ، والقانتين شامل للذكور والإناث ، ومن للتبعيض .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى ، صلوات الله وسلامه عليهما ، وقال يحيى بن سلام : مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنت عمران ترغيباً في التمسك بالطاعات والثبات على الدّين . انتهى .

وأخذ الزمخشري كلام ابن سلام هذا وحسنه وزمكه بفصاحة فقال : وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه .

ومن التغليظ قوله : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص والكتمان فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا يشكلا على أنهما زوجتا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإن ذلك الفضل لا ينقصهما إلا مع كونهما مخلصين . والتعريض بحفصة أرج ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(168/773)

وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

وقال ابن عطية : وقال بعض الناس : إن في المثلين عبرة لزوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) حين تقدم عتابهن ، وفي هذا بعد ، لأن النص أنه للكفار يبعد هذا ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(169/773)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) ﴾

التفسير : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي زينب بنت جحش فيشرب عندها العسل ، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنما نشم منك ريح المغافير . والمغفور والمغثور شيء

واحد ينضحه العرفط والرمث مثل الصمغ وهو حلو كالعسل ويؤكل وله ريح كريهة . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره التفل فحرم لقولهما على نفسه العسل . الثاني أنه ما أحل الله له من ملك اليمين . وههنا روايتان : الأولى " أنه صلى الله عليه وسلم خلا بمارية القبطية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها : اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ، فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين . الثانية أنه خلا بمارية في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية فقال عمر لابنته : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك . فنزل جبريل صلى الله عليه وسلم وقال : راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها لمن نسائك في الجنة . قال جمع من العلماء : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريم حلال بأن يقول : هو عليّ حرام ولكنه كان يميناً كقوله " والله لا أشرب العسل ولا أقرب الجارية بعد اليوم " فقيل له : لم تحرم أي لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني أقدم على ما حلفت عليه وكفر عن يمينك ﴿ والله غفور ﴾ لك ﴿ رحيم ﴾ بك لوالدليل عليه ظاهر .

(170/773)

قوله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة ﴾ بمعنى التحليل كالتكرمة ﴿ أيمانكم ﴾ أي شرع لكم تحليلها بالكفارة . وقيل : قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حلل فلان في يمينه إذا استثنى فيها وذلك أن يقول : إن شاء الله عقبها حتى لا يحنث . والتحلة تفعلة بمعنى التحليل كالتكرمة بمعنى التكريم . عن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم لم يكفر عن يمينه لأنه كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين . وعن مقاتل أنه أعتق رقبة في تحريم مارية . وما حكم تحريم الحلال ؟ قال أبو حنيفة : هو يمين على الامتناع من الانتفاع المقصود ، فلو حرم طعاماً فهو يمين على الامتناع من أكله ، أو أمه فعلى الامتناع من وطئها ، أو زوجة فمحمول على ما نوى ، فإن نوى الظهار فظهار ، أو الطلاق فطلاق بائن ، وإن لم ينو شيئاً فعلى الإيلاء ، وإن قال : كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى . وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد أن الحرام يمين . وقال الشافعي : هو في النساء من صرائح ألفاظ الطلاق . وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي . وعن علي رضي الله عنه : ثلاث . وعن عثمان : ظهار . وعن مسروق والشعبي أنه ليس بشيء فما لم يحرمه الله ليس لأحد أن يحرمه ﴿ والله مولاكم ﴾ متولي أموركم وقيل : أولى بكم من أنفسكم ونصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم ﴿ وهو العليم ﴾ بما يصلحكم ﴿ الحكيم ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذا أسرّ النبي إلى بعض أزواجه ﴾ وهي حفصة ﴿ حديثاً ﴾ هو حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿ فلما

نبأت به ﴿ حفصة عائشة ﴿ وأظهره الله ﴾ على نبيه أي أطلعه على إفشائه على لسان جبريل . وقيل : أظهر الله الحديث على النبي فيكون من الظهور ﴿ عرف بعضه ﴾ أعلم ببعض الحديث . ومن قرأ بالتخفيف من العرفان فمعناه المجازاة من قولك للمسيء " لأعرفنّ لك ذلك " وكان جزاؤه تطليقه إياها . وقيل : المعرف حديث الإمامة والمعرض عنه

(171/773)

حديث مارية . وإنما أعرض عن البعض تكرماً . قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام . وروي أنه قال لها : ألم أقل لك اكتمي عليّ ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله بها أبي . وإنما ترك المفعول ولم يقل " فلما نبأت به بعضهنّ وعرفها بعضه لأن ذلك ليس بمقصود وإنما الغرض ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به " ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرمه وحلمه لم يوجد منه إلا الإعلام بالبعض وهو حديث الإمامة . ولما كان المقصود في قوله ﴿ من أنبأك هذا ﴾ ذكر المنبأ به أتى بالمفعولين جميعاً . ثم وبخ عائشة وحفصة على طريقة الالتفات قائلاً ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أي فقد وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن

إخلاص رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه وبغض ما يكرهه والأصل قلباكما .

ووجه الجمع ما مر في قوله ﴿ فاقطعوا أيديهما ﴾ [المائدة : 38] ﴿ وإن تظاهرا ﴾ أي تعاونا على ما يوجب غيظه فلم يعدم هو من يظاهره كيف والله ﴿ مولاه ﴾ أي ناصره ﴿ وجبريل ﴾ خاصة من بين الملائكة ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ قال أكثر العلماء : هو واحد في معنى الجمع لأنه أريد الجنس لشمول كل من آمن وعمل صالحاً . وجوز أن يكون جمعاً وقد أسقط الواو في الخط لسقوطه في اللفظ . عن سعيد بن جبير : هو كل من برىء من النفاق . وقيل : الأنبياء والصحابة والخلفاء . ﴿ والملائكة ﴾ على كثرة جموعهم ﴿ بعد ذلك ﴾ الذي عرف من نصرة المذكورين ﴿ ظهير ﴾ فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة فأي وزن لاتفاق امرأتين بعد تظاهر هؤلاء على ضد مطلوبهما . ولا يخفى أن الكلام مسوق للمبالغة في الظاهر وإلا فكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً .

(172/773)

ثم وبخهما بنوع آخر وهو قوله ﴿ عسى ربه إن طلقكنّ ﴾ الآية . والسائحات الصائمات كما في آخر التوبة . قال جار الله : شبه الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره

بالسائح الذي لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد من يطعمه . وقيل : السائحات المهاجرات فانظر في شؤم العصيان فإن أمهات المؤمنين وهنّ خير نساء العالمين يصير غيرهن بفرض عدم العصيان خيراً منهن بفرض العصيان وتطليق الرسول إياهن . وقد عرفت في النظائر أن الواو في قوله ﴿ وأبكاراً ﴾ يقال لها " واو الثمانية " إلا أن للواو في هذا المقام فائدة أخرى وهي أن وصفي الثيابة والبكارة متنافيان لا يكون إلا أحدهما بخلاف الصفات المتقدمة فإنها ممكنة الاجتماع ، فالمراد أن أولئك النساء جامعات للأوصاف المتقدمة ولأحد هذين . ثم عمم التحذير فقال ﴿ قوا أنفسكم ﴾ وهو أمر من الوقاية في الحديث " رحم الله رجلاً قال يا أهلاه صلاتكم وصيامكم وزكاتكم مسكينكم ويتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعهم معه في الجنة " وتفسير قوله ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ قد مر في أول " البقرة " . وكونها معدّة للكافرين لا ينافي تعذيب المؤمنين الفسقة بها إن استحقوها . وجوز أن يكون أمراً بالتوقي من الارتداد وأن يكون خطاباً للذين آمنوا بألسنتهم ﴿ عليها ملائكة ﴾ أي موكل على أهلها الزبانية التسعة عشر الموصوفون بالغلظة والشدة في الإجرام أو في الأفعال أو فيهما لأنه لا تأخذهم رأفة بمن عصى الله . وقوله ﴿ ما أمرهم ﴾ نصب على البدل أي لا يعصون أمر الله . ولا يخفى أن عدم العصيان يستلزم امتثال الأمر فصرح بما عرف ضمناً قائلاً ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ويجوز أن يكون الأوّل عائداً إلى الماضي والثاني إلى المستقبل .

ثم وعظ المؤمنين بما يقال للكافرين عند دخولهم النار وهو قوله ﴿ لا تعتذروا ﴾ لأنه لا عذر لكم أو لا عذر مقبولاً لكم ، وليس هذا من قبيل الظلم ولكنه جزاء أعمالهم . ثم أرشد المؤمنين إلى طريق التوبة ، ووصفت بالنصوح على الإسناد المجازي لأن النصح صفة التائبين وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة لا يكون فيها شوب رياء ولا نفاق . وقيل : هو من نصاحة الثوب أي توبة ترفأ خروقك في دينك . وقيل : خالصة عسل ناصح إذا خلص من الشمع . وقيل : توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها . و ﴿ عسى ﴾ من الكريم إطماع ولئلا يتكلوا . قوله ﴿ لا يخزي ﴾ تعريض لمن أخزاهم من أهل النار ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران : 192] كأنه استحمد المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم . قوله ﴿ نورهم يسعى ﴾ قد مرّ في الحديد قوله ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ أي قائلين ذلك إذا طفىء نور المنافقين خوفاً من زواله على عادة البشرية ، أو لأن الإخلاص والنفاق من صفة الباطن لا يعرفه إلا الله سبحانه على أنه يجوز أن يدعو المؤمن بما هو حاصل له مثل اهدنا ، ويجوز أن يدعو به من هو أدنى منزلة لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً لا مجازاة لانقطاع

التكليف والعمل يومئذ . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة أو بإقامة الحدود عليهم ، وأمر باستعمال الغلظة والخشونة على الفريقين هذا عذابهم في الدنيا ولهم في الآخرة جهنم وقد سبق نظير الآية في " التوبة " . ثم ضرب مثلاً لأهل الكفر امرأة نوح واسمها قيل واعلة وامرأة لوط . واسمها قيل واهلة ومثلاً لأهل الإيمان امرأة فرعون واسمها آسية وهي عمة موسى ومريم ابنة عمران . وفي ضمن التمثيلين تعريض بما مرّ في أول السورة من حال عائشة وحفصة وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين لا الكافرتين اللتين حين خانتا زوجيهما لم يغنيا عنهما من عذاب

(174/773)

الله شيئاً ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ ادخلا النار مع ﴾ سائر ﴿ الداخلين ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء من قوم نوح وقوم لوط أو من كل قوم . وفي قوله ﴿ عبدين من عبادنا ﴾ إشارة إلى أن سبب المزية والرجحان عند الله ليس إلا الصلاح كائناً من كان . وخيانة المرأتين ليست هي الفجور وإنما هي نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين . فامرأة نوح قالت لقومه إنه لمجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه . قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط . عن أبي هريرة أن آسية حين آمنت بموسى عليه السلام

وتدها فرعون باربعة أوتاد واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع الرحى على صدرها .

قال الحسن : فنجاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب وتنعم فيها . وقيل : لما ﴿ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ بنى من درّة . ومعنى ﴿ عندك بيتاً في الجنة ﴾ أنها طلبت القرب من الله والبعد عن عدوّه في مقام القرب ، أو أرادت أعلى موضع في الجنة . وقولها ﴿ من فرعون وعمله ﴾ كقولك " أعجبني زيد وكرمه " وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله من الأشرار دأب الصالحين . والضمير في ﴿ فيه ﴾ للفرج . وقيل : هو جيب الدرع وقد مرّ في " الأنبياء " . وكلمات الله صحف إبراهيم وغيره أو جميع ما كلم الله به وكتبه اللوح أو الكتب الأربعة ومن وحد فهو الإنجيل . وقرىء ﴿ بكلمة الله ﴾ أي بعيسى ﴿ وكانت من القانتين ﴾ من باب التغليب كما مرّ في قوله ﴿ واركعي مع الراكعين ﴾ [آل عمران : 43] وقيل : " من " للابتداء أي ولدت منهم لأنهم من أعقاب هارون عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 319.322 ﴾

(175/773)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة التحريم

مكية وهي اثنتا عشرة آية ، ومائتان وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الكمال كله على الدوام ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم عباده بعظيم الإنعام ﴿ الرحيم ﴾ الذي أتم على خواصه نعمة الإسلام .

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

(176/773)

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿ لك ﴾ فقالت عائشة : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند زينب بنت جحش ، فشرب عندها عسلاً ، قالت : فتواطيت أنا وحفصة أنّ آيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت له : ذلك ، فقال بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ لعائشة وحفصة" وعنها أيضاً قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل ، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة

فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ، فإنه سيقول لك : لا ، فقولي : ما هذه الريح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي له : جرست نحله العرفط ، وسأقول ذلك له وقولي أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت سودة : والله الذي لا إله غيره لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت وإنه لعلى الباب فرقاً منك ، فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له : يا رسول الله أكلت مغافير ، قال : لا ، قلت : فما هذه الريح ؟ قال : سقتني حفصة شربة عسل ، قالت : جرست نحله العرفط . فلما دخل علي قلت له : مثل ذلك ، ثم دخل على صفية فقالت مثل ذلك ، فلما دخل على حفصة قالت : يا رسول الله ألا أسقيك منه ، قال : لا حاجة لي به ، قالت : تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه منه ، قالت : فقلت لها : اسكتي .

(177/773)

ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ، وفي الأولى زينب . وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه شربه عند سودة ، وقيل : إنما هي أم سلمة رواه أسباط عن السدي ، وقاله عطاء بن أبي مسلم .

تنبيه : شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما قولها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى بالمد والقصر قاله في "المصباح" ، وهو على كل شيء يحلو ، وذكر العسل بعدها وإن كان داخلاً في جملة الحلوى تنبيهاً على شرفه ومرتبته ، وهو من باب الخاص بعد العام . وقولها : فتواطيت أنا وحفصة هكذا وقع في الرواية ، وأصله : فتوطأت بالهمز ، أي : اتفقت أنا وحفصة . وقولها : إني لأجد منك ريح مغافير ، هو بغين معجمة وفاء بعدها ياء وراء ، وهو صمغ حلو كالناطف وله ريح كريهة ينضحه شجر يقال له : العرفط بضم العين المهملة والفاء يكون بالحجاز ، وقيل : العرفط نبات له ورق يفرش على الارض له شوك وثمره خبيث الرائحة .

وقال أهل اللغة : العرفط من شجر العضاه ، وهو كل شجر له شوك . وقيل رائحته كرائحة النبيذ ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منة رائحة كريهة .

قولها : جرست نحله العرفط بالجيم والراء وبالسين المهملتين ، ومعناه : أكلت نحله العرفط فصار منه العسل .

قال القاضي عياض : والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ، ذكره النووي في شرح مسلم ، وكذا ذكره أيضاً القرطبي . وقال أكثر المفسرين في سبب نزول ذلك : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيارة أبيها فأذن لها ، فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي ، فقال صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ فقالت : إنما أذنت لي من أجل ذلك أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي على فراشي ، أما رأيت لي حرمة وحقاً ، ما كنت تصنع هذا بإمرأة منهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي فهي حرام علي ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت : ألا أبشرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه أمته مارية ، وأن الله قد أراحنا منها ، وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضبت عائشة ، فلم يزل نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها" .

وعن أنس بن مالك "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أمة يطؤها ، فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ الآية" أخرجه النسائي .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ يوهم أن الخطاب بطريق العتاب ، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم ؟ .

أجيب : بأنه ليس بطريق العتاب بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي .

(179/773)

فإن قيل : تحريم ما أحل الله غير ممكن ، فكيف قال ﴿ لما تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟

أجيب : بأن المراد بهذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحله الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم امتنع من الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالاً ، فإن من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحل الله فقد كفر ، فكيف يضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ تبتغي ﴾ أي : تريد إرادة عظيمة من مكارم أخلاقك وحسن صحبتك ﴿ مرضاة أزواجك ﴾ أي : الأحوال والأمور والمواضع التي يرضين بها

، وهن أولى بأن يبتغين رضاك ، وكذا جميع الخلق لتتفرغ لما يوحى إليك من ربك لكن ذلك للزوجات آكد ﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ غفور رحيم ﴾ أي : محاء ستور لما يشق على خلص عباده مكرم لهم ، فقد غفر لك هذا التحريم .

ثم علل وبين ذلك بقوله تعالى : ﴿ قد فرض الله ﴾ أي : قدر ذو الجلال والإكرام الذي لا شريك له ولا أمر لأحد معه ، وعبر بالفرض حثاً على قبول الرخصة إشارة إلى أن ذلك لا يقدح في الورع ، ولا يخل بحرمة اسم الله تعالى لأن أهل الهمم العوالي لا يجوزون النقلة من عزيمة إلى رخصة ، بل من رخصة إلى عزيمة أو عزيمة إلى مثلها .

ولما كان التخفيف على أمته تعظيماً له صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ لكم ﴾ أيتها الأمة التي أنت رأسها ﴿ تحلة ﴾ أي : تحليل ﴿ أيمانكم ﴾ بالكفارة المذكورة في سورة المائدة ، وقيل : قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك : حلل فلان في يمينه إذا استثنى بمعنى استثن في يمينك إذا أطلقتها بأن تقول : إن شاء الله متصلاً بحلفك ، وتنويه قبل الفراغ منه .

(180/773)

واختلف أهل العلم في لفظ التحريم ، فقال قوم : هو ليس بيمين ، فإن قال لزوجته : أنت حرام أو حرّمتك فإن نوى به طلاقاً فهو طلاق ، وإن نوى به ظهاراً فهو ظهار ، وإن نوى تحريم ذاتها وأطلق فعليه كفارة يمين وإن قال لطعام : حرمته على نفسي فلا شيء عليه ، وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه ، وإليه ذهب الشافعي .

وروى الدارقطني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي علي حراماً ، فقال : كذبت ليست عليك بحرام وتلا عليه هذه الآية .

وذهب جماعة إلى أنه يمين فإن قال ذلك لزوجته أو جاريته فلا تجب الكفارة ما لم يقربها ، كما لو حلف لا يأكله فلا كفارة عليه ما لم يأكله ، يروى ذلك عن أبي بكر وعائشة ، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة .

وعند أبي حنيفة إن نوى الطلاق بالحرام كان بائناً ، وإن قال : كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، نقله الزمخشري . وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي ، وعن علي : ثلاث ، وعن زيد واحدة بائنة .

وعن ابن عباس رصي الله عنهما قال : إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها ، وقال : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . قال مقاتل : فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة رقبة . قال زيد بن أسلم : وعاد إلى مارية ، وقال الحسن : لم يكفر عليه السلام لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكفارة اليمين في هذه السورة إنما أمر

بها الأمة . قال ابن عادل : والأول أصح ، وأن المراد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم الأمة تقتدي به في ذلك ﴿ والله ﴾ أي : والحال أن المختص بأوصاف الكمال ﴿ مولاكم ﴾ أي : يفعل معكم فعل القريب الصديق فهو سيدكم ومتولي أموركم ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ العليم ﴾ أي : البالغ العلم بمصالحكم وغيرها إلى ما لا نهاية له . ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يضع كل ما يصدر عنه لكم في أتقن محاله بحيث لا يقدر غيره أن يغيره ولا شيئاً منه .

(181/773)

والعامل في قوله تعالى : ﴿ وإذ ﴾ اذكر فهو مفعول به لا ظرف ، والمعنى اذكر إذ ﴿ أسرّ النبي ﴾ أي : الذي شأنه أن يرفعه الله تعالى دائماً فإنه ما ينطق عن الهوى ﴿ إلى بعض أزواجه ﴾ وأبهمها لم يعينها تشريفاً له صلى الله عليه وسلم ولها وهي حفصة صيانة لهن لأن حرمتهن من حرمته صلى الله عليه وسلم ﴿ حديثاً ﴾ ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لعم به ولم يخص به ، ولا أسره وذلك هو تحريمه فتاته على نفسه ، وقوله لحفصة : لا تخبري بذلك أحداً ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : أسرّ أمر الخلافة بعده فحدثت حفصة ، وقال الكلبي : أسرّ إليها إن أباك وأب عائشة

يكونان خليفتين على أمتي من بعدي ، وقال ميمون بن مهران : أسر أن أبا بكر خليفتي من بعدي ﴿ فلما نبأت ﴾ أي : أخبرت ﴿ به ﴾ عائشة ظناً منها أنه لا حرج عليها في ذلك ﴿ وأظهره الله ﴾ أي : أطلعه الملك الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ عليه ﴾ أي : الحديث على لسان جبريل عليه السلام بأنه قد أفشى مناصحة له في إعلامه بما يقع في غيبته ليحذره إن كان شراً ويثبت عليه إن كان خيراً وقيل : أظهر الله الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم من الظهور ﴿ عرف ﴾ أي : النبي صلى الله عليه وسلم التي أسرّ إليها ﴿ بعضه ﴾ أي : بعض ما فعلت ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ أي : إعلام بعض تكرماً منه أن يستقصي في العبارات وحياء وحسن عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وإنما عاتبها على ذكر الإمامة وأعرض عن ذكر الخلافة خوفاً من أن ينتشر في الناس ، فربما أثار حسد بعض المنافقين وأورث الحسود للصديق كيداً .

(182/773)

وقال بعض المفسرين : إنه أسر إلى حفصة شيئاً فحدثت به غيرها فطلقها مجازاة على بعضه ، ولم يؤاخذها بالباقي وهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾

(البقرة :) أي : يجازيكم عليه ، وقيل : المعرّف حديث الإمامة ، والمعرض عنه حديث مارية . وروي "أنه قال لها : ويلك ألم أقل لك أكتمي علي ، قالت : والذي بعثك بالحق نبياً ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خص الله تعالى بها أباها" ﴿ فلما نبأها به ﴾ أي : بما فعلت على وجه لم يغادر من ذلك الذي عرفها به شيئاً منه ، ولا من عوارضه لتزداد بصيرة .

روي أنها قالت لعائشة سراً فأنا أعلم أنها لا تظهره ، قاله الملوي ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ قالت ﴾ أي : ظناً منها أن عائشة أفشت عليها ﴿ من أنبأك هذا ﴾ أي : من أخبرك أني أفشيت السر ﴿ قال نبأني ﴾ وحذف المتعلق اختصاراً للفظ وتكسيراً للمعنى بالتعميم إشارة أنه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة على أتم ما كان . ﴿ العليم ﴾ أي : المحيط العلم ﴿ الخبير ﴾ أي : المطلع على الضمائر والظواهر ، فهو أولى أن يحذر فلا يتكلم سراً أو جهراً إلا بما يرضيه .

وقوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ أي : الملك الأعظم شرط ، وفي جوابه وجهان : أحدهما : قوله تعالى : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ والمعنى : إن تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حب ما يحب وكراهة ما يكره . وصغت : مالت وزاغت عن الحق ، قال القرطبي : وليس قوله : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ جواب الشرط لأن هذا الصغو كان سابقاً فجزاء

الشرط محذوف للعلم به أي : إن تتوبا كان خيراً لكما إذ قد صفت قلوبكما . الثاني : أن الجواب محذوف تقديره : فذلك واجب عليكما ، أو فتاب الله عليكما ، قاله أبو البقاء . ودل على المحذوف ﴿ فقد صغت ﴾ لأن إصغاء القلب إلى ذلك ذنب . قال بعضهم : وكأنه زعم أن ميل القلب ذنب ، وكيف يحسن أن يكون جواباً وقد غفل عن المعنى المصحح لكونه جواباً .

(183/773)

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ قلوبكما ﴾ من أفصح الكلام حيث أوقع الجمع موقع المثنى استثقالاً لمجيء تثنيتين لو قيل : قلباكما ، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لأنه لا يشكل ، والأحسن في هذا الباب الجمع ثم الإفراد ثم التثنية كقوله:

*فتخالسا نفسيهما بتواقد ال ** غيظ الذي من شأنه لم يرفع*

وقال ابن عصفور : لا يجوز الإفراد إلا في ضرورة ، كقوله:

*حمامة بطن الواديين ترنمي ** سقاك من الغر الغوادى مطيرها*

وتبعه أبو حيان ، وغلط ابن مالك في كونه جعله أحسن من التثنية . قال ابن عادل : وليس بغلط لكراهة توالي تثنيتين مع أمن اللبس ، وقوله تعالى ﴿ إن تتوبا ﴾ فيه التفات من الغيبة

إلى الخطاب ، والمراد بهذا الخطاب إما المؤمنتان بنتا الشيخين الكريمين عائشة وحفصة حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهما كرها ما أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من إحباب جاريته وإحباب العسل ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب العسل والنساء .

وقال ابن زيد : مالت قلوبكما بأن سرهما أن يحتبس عن أم ولده ، فسرهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : قد مالت قلوبكما إلى التوبة .

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجع وكان ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له فوقفت حتى فرغ ، ثم سرت معه بإداوة ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ ، فلما رجع قلت : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تلك حفصة وعائشة ، قال : فقلت له : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذه منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم فسلني عنه فإن كنت أعلمه أخبرتك" ، وفي رواية قال : والله عجباً لك يا ابن عباس .

قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه ، قال : هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث ، قال : كنت أنا وجار لي من الأنصار وكان منزلي في بني أمية وهم من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك . وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فصحت على امرأتي فراجعتني ، فأنكرت أن تراجعني قالت : لم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت لها : أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ، قالت : نعم ، فقلت : قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله لا تراجعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئاً ، وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة رضي الله عنها قال عمر : كنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل الأنصاري يوماً نوبته ثم أتاني عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً ، ففزعت فخرجت إليه فقال : قد حدث اليوم أمر عظيم ، قلت : ما هو أجاء غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأهول ، طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ،

فقلت : خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة فأتيت غلاماً له أسود فقلت : أستأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فصمت ، ثم انطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام ، فقلت : أستأذن لعمر فدخل ثم خرج فقال : ذكرتك

(185/773)

له فصمت فوليت

(186/773)

مدبراً فإذا الغلام يدعوني ، فقال : ادخل فقد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير وليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف ، ثم قلت وأنا قائم : يا رسول الله

أطلقت نساءك فرفع إلي بصره ، وقال : لا ، فقلت : الله أكبر قلت وأنا قائم لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت : يا رسول الله لو رأيتني دخلت على حفصة فقلت لها : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عائشة ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة ، فقلت : يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وسع عليهم وأعطوا الدنيا ، وهم لا يعبدون الله فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً ، وقال : "أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب ، إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا" فقلت : يا رسول الله استغفر الله لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة ، وكان قال : "ما أنا بداخل عليهن شهراً" من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى ، فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة : يا رسول الله إنك كنت أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عداً ، فقال : الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسع وعشرون ليلة قالت عائشة : ثم أنزل الله التخيير فبدأ بي أول امرأة من نسائه فاخترته ، ثم خيرهن فقلن مثلها ، وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها

حين أمره الله أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني ذاكر لك أمراً فلا

(187/773)

عليك

أن لا تستعجلي

حتى تستأمري أبويك ، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : إن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ (الأحزاب :) إلى تمام الآيتين فقلت : أوفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" وفي رواية أن عائشة قالت له : لا تخبر نساءك أني اخترتك ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله أرسلني مبلغاً" وفي رواية قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولي الذي أقول ، ونزلت هذه الآية ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ (التحريم :)

﴾

وإن تظاهرا عليه ﴾ (التحريم :)

" الآية . وفي رواية "أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، وإنه قام على باب المسجد ونادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه" .

شرح بعض ألفاظ هذا الحديث:

قوله : فعدلت معه أي : فملت معه ، بالأداوة أي : الركوة ، والعوالي جمع عالية ، وهي أماكن بأعلى أرض المدينة . وقوله : لا يغرنك إن كانت جارتك يريد بها الضرة وهي عائشة ، وأوسم منك أي : أكثر حسناً ، وقوله : فكنا نتناوب النزول : التناوب هو ما يفعله الإنسان مرة ، ويفعله آخر بعده ، والمشربة بضم الراء وفتحها الغرفة . وقوله : فإذا هو متكئ على رمال حصير : يقال : رملت الحصير إذا ظفرته ونسجته ، والمراد أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير . وقوله : ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاث : الأهبة والأهب جمع إهاب ، وهو الجلد . وقوله : من شدة موجدته : الموجدة الغضب .

(188/773)

وقرأ : ﴿ وإن تظاهرا ﴾ الكوفيون بتخفيف الظاء ، والباقون بتشديدها أي : تتعاونا ﴿ عليه ﴾ أي : النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكرهه ﴿ فإن الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا كفء له ، وقوله تعالى : ﴿ هو ﴾ يجوز أن يكون فصلاً ، وقوله : ﴿ مولاه ﴾ الخبر ، وأن يكون مبتدأ ومولاه خبره ، والجملة خبر إن ، والمعنى فإن الله وليه وناصره فلا يضره ذلك التظاهر منهما . Y

وقوله تعالى : ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ معطوف على محل اسم إن فيكونون ناصريه ، ويجوز أن يكون جبريل مبتدأ و ما بعده عطف عليه وظهير خبر الجميع فتختص الولاية بالله .

واختلف في صالح المؤمنين ، فقال عكرمة : هو أبو بكر وعمر ، وقال المسيب بن شريك : هو أبو بكر . وقال سعيد بن جبير : هو عمر ، وعن أسماء بنت عميس : هو علي بن أبي طالب . وقال الطبري : هو خيار المؤمنين . وصالح اسم جنس كقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ (العصر :) وقال قتادة : هم الأنبياء . وقال ابن زيد : هم الملائكة . وقال السدي : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والأولى أن يشمل هذه الأقوال كلها ﴿ والملائكة ﴾ أي : كلهم ﴿ بعد ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي تقدم ذكره ﴿ ظهير ﴾ أي : ظهراء أعوان له في نصره عليكما .

تنبيه : أخبر عن الجمع باسم الجنس إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة ، ومنهم جبريل عليه

السلام فهو مذكور خصوصاً وعموماً ثلاث مرات على القول بأن صالح المؤمنين هم الملائكة إن قلنا بالعموم ، وذلك إظهار لشدة محبته وموالاته للنبي صلى الله عليه وسلم وهذه الأية عكس آية البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة :) فإنه ذكر الخاص بعد العام تشريفاً له ، وهنا ذكر العام بعد الخاص .

قال ابن عادل : ولم يذكر الناس إلا القسم الأول ، وفي جبريل لغات تقدم ذكرها في البقرة .

ولما كان أشد ما على المرأة أن تطلق ، ثم إذا طلقت أن يستبدل بها ، ثم يكون البدل خيراً منها قال تعالى محذراً لهن:

(189/773)

وإن تظاهرا عليه ﴾ (التحريم :)

" الآية . وفي رواية "أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، وإنه قام على باب المسجد ونادى بأعلى صوته لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه" .

شرح بعض ألفاظ هذا الحديث:

قوله : فعدلت معه أي : فملت معه ، بالأداوة أي : الركوة ، والعوالي جمع عالية ، وهي

أماكن بأعلى أرض المدينة . وقوله : لا يغرنك إن كانت جارتك يريد بها الضرة وهي عائشة ، وأوسم منك أي : أكثر حسناً ، وقوله : فكنا نتناوب النزول : التناوب هو ما يفعله الإنسان مرة ، ويفعله آخر بعده ، والمشربة بضم الراء وفتحها الغرفة . وقوله : فإذا هو متكئ على رمال حصير : يقال : رملت الحصير إذا ظفرته ونسجته ، والمراد أنه لم يكن على السرير وطاء سوى الحصير . وقوله : ما رأيت فيه ما يرد البصر إلا أهبة ثلاث : الأهبة والأهب جمع إهاب ، وهو الجلد . وقوله : من شدة موجدته : الموجدة الغضب .

وقرأ : ﴿ وإن تظاهرا ﴾ الكوفيون بتخفيف الظاء ، والباقون بتشديدها أي : تتعاونا ﴿ عليه ﴾ أي : النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكرهه ﴿ فإن الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا كفء له ، وقوله تعالى : ﴿ هو ﴾ يجوز أن يكون فصلاً ، وقوله : ﴿ مولاه ﴾ الخبر ، وأن يكون مبتدأ ومولاه خبره ، والجملة خبر إن ، والمعنى فإن الله وليه وناصره فلا يضره ذلك التظاهر منهما . Y

وقوله تعالى : ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ معطوف على محل اسم إن فيكونون ناصريه ، ويجوز أن يكون جبريل مبتدأ و ما بعده عطف عليه وظهير خبر الجميع فتختص الولاية بالله .

واختلف في صالح المؤمنين ، فقال عكرمة : هو أبو بكر وعمر ، وقال المسيب بن شريك : هو أبو بكر . وقال سعيد بن جبير : هو عمر ، وعن أسماء بنت عميس : هو علي بن أبي طالب . وقال الطبري : هو خيار المؤمنين . وصالح اسم جنس كقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ (العصر :) وقال قتادة : هم الأنبياء . وقال ابن زيد : هم الملائكة . وقال السدي : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والأولى أن يشمل هذه الأقوال كلها ﴿ والملائكة ﴾ أي : كلهم ﴿ بعد ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي تقدم ذكره ﴿ ظهير ﴾ أي : ظهراء أعوان له في نصره عليكما .

تنبيه : أخبر عن الجمع باسم الجنس إشارة إلى أنهم على كلمة واحدة ، ومنهم جبريل عليه السلام فهو مذكور خصوصاً وعموماً ثلاث مرات على القول بأن صالح المؤمنين هم الملائكة إن قلنا بالعموم ، وذلك إظهار لشدة محبته وموالاته للنبي صلى الله عليه وسلم وهذه الأية عكس آية البقرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة :) فإنه ذكر الخاص بعد العام تشريفاً له ، وهنا ذكر العام بعد الخاص . قال ابن عادل : ولم يذكر الناس إلا القسم الأول ، وفي جبريل لغات تقدم ذكرها في البقرة .

ولما كان أشد ما على المرأة أن تطلق ، ثم إذا طلقت أن يستبدل بها ، ثم يكون البدل خيراً منها قال تعالى محذراً لهن:

﴿ عسى ربه ﴾ أي : المحسن إليه بجميع أنواع الإحسان التي عرفتموها ، وما لم تعرفوه منها أكثر جدير وحقيق ووسط بين عسى وخبرها اهتماماً وتخويفاً قوله تعالى : ﴿ إن طلقكن ﴾ أي : بنفسه من غير اعتراض عليه جميعكن أو بعضكن .

(191/773)

قيل : كل عسى في القرآن واجب إلا هذه الآية ، وقيل : هو واجب ولكن الله تعالى علقه بشرط ، وهو التطليق ولم يطلقهن فإن طلقكن شرط معترض بين اسم عسى وخبرها وجوابه محذوف أو متقدم أي : إن طلقكن فعسى ربه وقوله تعالى ﴿ أن يبدله ﴾ أي : بمجرد طلاقه . وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال ، والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال . ﴿ أزواجاً خيراً منكن ﴾ خبر عسى ، والجملة جواب الشرط ولم يقع التبدل لعدم وجود الشرط .

فإن قيل : كيف تكون المبدلات خيراً منهن ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً منهن لأنهن أمهات المؤمنين ؟

أجيب : بأنه إذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعصيانهن وإيذائهن إياه كان غيرهن من الموصوف بالصفات الآتية مع الطاعة له صلى الله عليه وسلم خيراً ، أو أن هذه

على سبيل الفرض وهو عام في الدنيا والآخرة ، فلا يقتضي وجود من هو خير منهن مطلقاً .

وإن قيل : بوجوده في خديجة لما جرب من تحاملها على نفسها في حقه صلى الله عليه وسلم وبلوغها في حبه والأدب معه ظاهراً وباطناً الغاية القصوى ، ومريم أحسنت حين كانت من القانتين فذلك في الآخرة ، وتعليق تطليق الكل لا يدل على أنه لم يطلق حفصة . فقد روي أنه طلقها ولم يزدها ذلك إلا فضلاً لأن الله تعالى أمره أن يراجعها ، لأنها صوامة قوامة .

(192/773)

ثم بين تعالى الخيرية بقوله تعالى : ﴿ مسلمات ﴾ إلى أخره ، وهو إما نعت ، أو حال ، أو منصوب على الاختصاص . قال سعيد بن جبير : مسلمات يعني مخلصات ، وقيل : مسلمات لأمر الله عز وجل وأمر رسول الله خاضعات لله تعالى بالطاعات ﴿ مؤمنات ﴾ أي : مصدقات بتوحيد الله تعالى ، وقيل : مصدقات بما أمرن به ونهين عنه ، وقيل : مسلمات مقرات بالإسلام مؤمنات مخلصات ﴿ قانتات ﴾ أي : مطيعات والقنوت الطاعة ، وقيل : داعيات ﴿ تائبات ﴾ أي : راجعات من الهفوات والزلات سريعاً إن وقع منهن

شيء من ذلك ، وقيل : راجعات إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحاب أنفسهن ﴿ عابدات ﴾ أي : كثيرات العبادات لله تعالى ، وقال ابن عباس : كل عبادة في القرآن فهو التوحيد ﴿ سائحات ﴾ قال ابن عباس : صائمات ، وقال الحسن : مهاجرات ، وقال ابن زيد : وليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة ، والسياحة الجولان في الأرض ، وقال الفراء وغيره : سمي الصائم سائحاً لأن السائح لازاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه ، فشبه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ، وقيل : ذاهبات في طاعة الله تعالى . من ساح الماء إذا ذهب ﴿ ثيبات ﴾ جمع ثيب ، وهي التي تزوجت ثم بانت بوجه من الوجوه ، أو زالت بكارتها بوطء من غير نكاح ﴿ وأبكاراً ﴾ أي : عذارى جمع بكر ، وهي ضد الثيب ، وسميت بذلك لأنها على أول حالها التي خلقت بها وقدم الثيبات لأنهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها ، ووسط الواو بين الثيبات والأبكار لتنافي الوصفين دون سائر الصفات .

فإن قيل : كيف ذكر الثيبات في مقام المدح وهن من جملة ما يقل رغبة الرجال فيهن ؟

أجيب : بأنه يمكن أن يكون بعض الثيبات خيراً من كثير من الأبكار لاختصاصهن بالمال والجمال .

ولما بالغ سبحانه في عتاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم مع صيانتهن عن التشبه إكراماً له صلى الله عليه وسلم أتبع ذلك أمر الأمة بالتأسي به في هذه الأخلاق الكاملة فقال تعالى متبعاً لهن بالموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأقرب فالأقرب .

﴿ يا أيها الذين أمنوا ﴾ أي : أقروا بذلك ﴿ قوا أنفسكم ﴾ أي : اجعلوا لها وقاية بالتأسي به صلى الله عليه وسلم وترك المعاصي وفعل الطاعات ، وفي أدبه مع الخلق والخالق ﴿ وأهليكم ﴾ من النساء والأولاد وكل من يدخل في هذا الاسم قوهم ﴿ ناراً ﴾ بالنصح والتأديب ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبي صلى الله عليه وسلم كما روى الطبراني عن سعيد بن العاص : "ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن" وفي الحديث : "رحم الله رجلاً قال : يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنة" وقيل : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله ، وقال صلى الله عليه وسلم "رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله ، فإن لم تقم رش على وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها ، فإن لم يقم رشت على وجهه من الماء" وقال بعض العلماء : لما قال ﴿ قوا أنفسكم ﴾ دخل فيه الأولاد لأن الولد بعض منه ، كما دخلوا في قوله تعالى : ﴿ ولا عل أنفسكم جناح أن تأكلوا

من بيوتكم ﴾ (النور :) وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن أحل ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه" فلم يفرد بالذكر أفراد سائر القرابات فيعلمه الحلال والحرام . وقال عليه الصلاة والسلام : "حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويعلمه الكتابة ، ويزوجه اذا بلغ" .

(194/773)

ثم بين تعالى وصف تلك النار بقوله عز وجل : ﴿ وقودها ﴾ أي : الذي توقد به ﴿ الناس ﴾ أي : الكفار ﴿ والحجارة ﴾ كأصنامهم منها ، وعن ابن عباس أنها حجارة الكبريت ، وهي أشد الأشياء حراً إذا أوقد عليها ، والمعنى أنها مفرطة الحرارة تتقد بما ذكر لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه ﴿ عليها ملائكة ﴾ خزنتها عدتهم تسعة عشر كما سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة المدثر ﴿ غلاظ ﴾ أي : غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا خلقوا من الغضب ، وحبب إليهم عذاب الخلق كما حبب لبني أدم أكل الطعام والشراب ﴿ شداد ﴾ أي : شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال يدفع واحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار ، لم يخلق الله فيهم الرحمة ، وقيل : في أخذهم أهل النار شداد عليهم ، يقال : فلان شديد على فلان ، أي : قوي عليه يعذبه

بأنواع العذاب .

وقيل : غلاظ أجسامهم ضخمة شداد ، أي : الأقوياء . قال ابن عباس : ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم : "ما بين منكبي كل واحد منهم كما بين المشرق والمغرب" ﴿ لا يعصون الله ﴾ أي : الملك الأعلى في وقت من الأوقات ، وقوله تعالى : ﴿ ما أمرهم ﴾ بدل من الجلالة أي : لا يعصون أمر الله ، وقوله تعالى : ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ تأكيد ؛ هذا ما جرى عليه الجلال المحلي . وقال الزمخشري : فإن قلت : أليست الجملتان في معنى واحد ؟ قلت : لا فإن معنى الأولى أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . وقيل : لا يعصون الله ما أمرهم الله فيما مضى ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل ، وصدر بهذا البيضاوي .

فإن قيل : إنه تعالى خاطب المشركين في قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (البقرة :) فجعلها معدة للكافرين فما معنى مخاطبته للمؤمنين بذلك ؟

(195/773)

أجيب : بأن الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار فإنهم مع الكفار في دار واحدة ، فقيل للذين آمنوا : ﴿ قوا أنفسكم ﴾ باجتناب الفسوق مساكنة الذين أعدت لهم هذه الدار الموصوفة ، ويجوز أن يأمرهم بالتوقي عن الارتداد والندم على الدخول في الإسلام ، وأن يكون خطاباً للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون .

قال الزمخشري : ويعضد ذلك قوله تعالى على الإثر :

﴿ يا أيها الذين كفروا ﴾ أي : بالإخلال بالأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم فأداهم ذلك إلى الإخلال بالأدب مع الله تعالى ، وبالأدب مع سائر خلقه ﴿ لا تعتذروا ﴾ أي : تبالغوا في إظهار العذر هو إيساغ الحيلة في وجه يزيل ما ظهر من التقصير ﴿ اليوم ﴾ فإنه يوم الجزاء لا يوم الاعتذار ، وقد فات زمان الاعتذار وصار الأمر إلى ما صار وهذا النهي لتحقيق اليأس ﴿ إنما تجزون ﴾ أي : في هذا اليوم ﴿ ما كنتم ﴾ أي : ما هو لكم كالجبلة والطبع ﴿ تعملون ﴾ في الدنيا ، ونظيره ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ (الروم :) قال البقاعي : ولا بعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله بحيث لا يشك أنه عمله ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم الله تعالى أنه بمقدار استحقاقه .

ولما بين تعالى أن المعذرة لا تنفع في ذلك اليوم أمر بالتوبة في الدنيا بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا ﴾ أي : ارجعوا رجوعاً تاماً ﴿ إلى الله ﴾ أي : الملك الذي لا نظير له ﴿ توبة ﴾ وقوله : ﴿ نصوحاً ﴾ صيغة مبالغة أسند النصح إليها مجازاً ، وهي من

نصح الثوب إذا خاطه فكأن التائب يرقع بالمعصية . وقيل : من قولهم : ناصح ، أي : خالص . وقرأ شعبة بضم النون ، والباقون بفتحها .

(196/773)

تنبيه : أمرهم بالتوبة وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وفي كل الأزمان . واختلفوا في معناها ، فقال عمر ومعاذ : التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب ، كما لا يعود اللبن في الضرع ، وقال الحسن : هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه . وقال الكلبي : أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن .

وعن حوشب : أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار ، وعن سماك : أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله تعالى أمام عينيك ، وتتبعه نظرك . وعن السدي : لا تصح إلا بنصيحة النفس ، ونصيحة المؤمنين لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله .

وقال سعيد بن المسيب : توبة ينصحون فيها أنفسهم . وقال القرطبي : يجمعها أربع أشياء : الإستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الإخوان .

وقال الفقهاء : التوبة التي لا تعلق لحق آدمي فيها لها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن

المعصية ، وثانيها : أن يندم على ما فعله ، وثالثها : أن يعزم على أن لا يعود إليها . فإذا اجتمعت هذه الشروط في التوبة كانت نصوحاً وإن فقد شرط منها لم تصح توبته . وإن كانت تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة المتقدمة ، والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت المعصية مالاً ونحوه رده إلى مالكه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه ، أو طلب العفو منه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

(197/773)

قال العلماء : التوبة واجبة من كل معصية كبيرة أو صغيرة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها وتجب من جميع الذنوب ، وإن تاب من بعضها صحت توبته عما تاب منه ، وبقي عليه الذي لم يتب منه ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم "يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة" وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة" وعن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده

بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" . وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" .

وعن علي أنه سمع أعرابياً يقول : اللهمّ إني أستغفرك وأتوب إليك فقال : يا هذا إن سرعة الاستغفار بالتوبة توبة الكذابين ، قال : وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة ، وردّ المظالم واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما أذبتها في المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي . وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . وقوله تعالى : ﴿ عسى ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم ﴿ أن يكفر ﴾ ، أي : يغطي تغطية عظيمة ﴿ عنكم سيئاتكم ﴾ ، أي : ما بدا منكم مما يسوء بالتوبة ، إطماع من الله لعباده في قبول التوبة وذلك تفضلاً وتكرماً لا وجوباً عليه ، وإن كان التائب على خطر فما ظنك بالمصر ولكن الفضل واسع .

(198/773)

ولما ذكر نفع التوبة في دفع المضار ذكر نفعها في جلب المسارّ بقوله تعالى : ﴿ ويدخلكم ﴾ ، أي : يوم الفصل ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين كثيرة الأشجار تستر داخلها ﴿ تجري من

تحتها ﴾ أي : تحت غرفها وأشجارها ﴿ الأنهار ﴾ فهي لا تزال رياً ، وقوله تعالى : ﴿ يوم لا يخزي الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ النبي ﴾ أي : الذي نبأه الله تعالى بما يوجب له الرفعة التامّة من الأخبار التي هي في غاية العظمة ، منصوب بيدخلكم أو بإضمار اذكر ، ومعنى يخزي هنا يعذب ، أي : لا يعذبه ، وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ يجوز فيه وجهان : أحدهما : أن يكون منسوقاً على النبي ، أي : ولا يخزي الذين آمنوا معه . وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ مستأنفاً أو حالاً ، الثاني : أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ نورهم يسعى ﴾ إلى آخره . وقوله تعالى : ﴿ يقولون ﴾ خبر ثان أو حال .

(199/773)

تنبيه : التقييد بالإيمان لا ينفي أن لهم نوراً عن شمائلهم بل لهم نور لكن لا يلتفتون إليه لأنهم إما من السابقين وإما من أهل اليمين فهم يمشون في هاتين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما ، وأما أصحاب الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم بما لهم من النور إن قالوا سمع لهم وإن شفعوا شفعوا ﴿ ربنا ﴾ ، أي : أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كنا أو نكون فيه ﴿ أتمم لنا نورنا ﴾ ، أي : الذي مننت به علينا حتى يكون في غاية التمام ، قال ابن عباس : يقولون ذلك إذا طفئ نور المنافقين إشفاقاً ، وعن الحسن : لله

متمه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله كقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ (غافر :) وهو مغفور له ، وقيل : يقوله أدناهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون مواطئ أقدامهم لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرّون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح وبعضهم حبواً وزحفاً فأولئك الذين يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ﴿ واغفر لنا ﴾ أي : وامح عنا كل نقص كان يميل بنا إلى أحوال المنافقين عينه وأثره وهذا النور من صور أعمالهم في الدنيا ، لأن الآخرة تظهر فيها حقائق الأشياء وتتبع الصور معانيها ، وهو شرع الله الذي شرعه وهو الصراط الذي يضرب بين ظهراني جهنم ، لأن الفضائل في الدنيا متوسطة بين الرذائل فكل فضيلة يكتنفها رذيلتان إفراط وتفريط فالفضيلة هي الصراط المستقيم والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله ، فمن كان يمشي في الدنيا على ما أمر به سواء من غير إفراط ولا تفريط كان نوره تاماً ومن أمالته الشهوات طفئ نوره في بعض الأوقات واختطفته كلاليب هي صور الشهوات فتميل به في النار بقدر ميله إليها والمنافق يظهر له نور إقراره بكلمة التوحيد فإذا مشى طفئ لأن إقراره لا حقيقة له ﴿ إنك ﴾ أي : وحدك ﴿ على كل شيء ﴾ يمكن دخول المشيئة فيه ﴿ قدير ﴾ أي : بالغ القدرة .

ولما ذكر ما تقدم من لينه صلى الله عليه وسلم لأضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لأنه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم أمره سبحانه بالغلظة والشدة على أعدائه بقوله تعالى:

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾ أي : بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف ، وما دونه من المواعظ الحسنة والدعاء إلى الله تعالى ليعرف أن ذلك اللين لأهل الله تعالى إنما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك ﴿ والمنافقين ﴾ ، أي : جاهدهم بما يليق بهم من الحجة والسيف إن احتيج إليه إن أبدوا نوع مظاهرة وعرفهم أحوالهم في الآخرة ، وإنهم لا نور لهم يجوزون به على الصراط مع المؤمنين ، وقال الحسن : وجاهدهم بإقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عليهم ﴾ ، بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والإبعاد والهجر ، فالغلظة عليهم من اللين لله تعالى كما أنّ اللين لأهل الله من خشية الله تعالى . وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها ﴿ ومأواهم ﴾ أي : في الآخرة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ ، أي : هي . ولما كان للكفار قرابات بالمسلمين ربما توهم أنها تنفعهم وللمسلين قرابات بالكفار توهم أنها تضرهم ضرب لكل مثلاً ، وبدأ بالأول فقال تعالى:

تنبيه : التقييد بالإيمان لا ينفي أن لهم نوراً عن شمائلهم بل لهم نور لكن لا يلتفتون إليه لأنهم إما من السابقين وإما من أهل اليمين فهم يمشون في هاتين الجهتين ويؤتون صحائف أعمالهم منهما ، وأما أصحاب الشمال فيعطونها من وراء ظهورهم ومن شمائلهم وهم بما لهم من النور إن قالوا سمع لهم وإن شفعوا شفعوا ﴿ ربنا ﴾ ، أي : أيها المتفضل علينا بهذا النور وبكل خير كنا أو نكون فيه ﴿ أتمم لنا نورنا ﴾ ، أي : الذي مننت به علينا حتى يكون في غاية التمام ، قال ابن عباس : يقولون ذلك إذا طفئ نور المنافقين إشفاقاً ، وعن الحسن : لله متمه لهم ولكنهم يدعون تقرباً إلى الله كقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ (غافر :) وهو مغفور له ، وقيل : يقوله أدناهم منزلة لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون مواطئ أقدامهم لأنّ النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلاً ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرّون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح وبعضهم حبواً وزحفاً فأولئك الذين يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ﴿ واغفر لنا ﴾ أي : وامح عنا كل نقص كان يميل بنا إلى أحوال المنافقين عينه وأثره وهذا النور من صور أعمالهم في الدنيا ، لأن الآخرة تظهر فيها حقائق الأشياء وتتبع الصور معانيها ، وهو شرع الله الذي شرعه وهو الصراط الذي يضرب بين ظهراني جهنم ، لأن الفضائل في الدنيا متوسطة بين الرذائل فكل فضيلة يكتنفها رذيلتان إفراط وتفريط فالفضيلة هي الصراط المستقيم والرذيلتان ما كان من جهنم عن يمينه وشماله ، فمن كان

يمشي في الدنيا على ما أمر به سواء من غير إفراط ولا تفريط كان نوره تاماً ومن أمالته الشهوات طفئ نوره في بعض الأوقات واختطفته كلاليب هي صور الشهوات فتميل به في النار بقدر ميله إليها والمنافق يظهر له نور إقراره بكلمة التوحيد فإذا مشى طفئ لأن إقراره لا حقيقة له ﴿ إنك ﴾ أي : وحدك ﴿ على كل شيء ﴾ يمكن دخول المشيئة فيه ﴿ قدير ﴾ أي : بالغ القدرة .

(202/773)

ولما ذكر ما تقدم من لينه صلى الله عليه وسلم لأضعف الناس وحسن أدبه وكرم عشرته لأنه مجبول على الشفقة على عباد الله والرحمة لهم أمره سبحانه بالغلظة والشدة على أعدائه بقوله تعالى:

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾ أي : بكل ما يجهدهم فيكفهم من السيف ، وما دونه من المواعظ الحسنة والدعاء إلى الله تعالى ليعرف أن ذلك اللين لأهل الله تعالى إنما هو من تمام عقلك وغزير علمك وفضلك ﴿ والمنافقين ﴾ ، أي : جاهدهم بما يليق بهم من الحجة والسيف إن احتيج إليه إن أبدوا نوع مظاهرة وعرفهم أحوالهم في الآخرة ، وإنهم لا نور لهم يجوزون به على الصراط مع المؤمنين ، وقال الحسن : وجاهدهم بإقامة الحدود عليهم

﴿ واغلظ عليهم ﴾ ، بالفعل والقول بالتوبيخ والزجر والإبعاد والهجر ، فالغلظة عليهم من اللين لله تعالى كما أنّ اللين لأهل الله من خشية الله تعالى . وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها ﴿ ومأواهم ﴾ أي : في الآخرة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ ، أي : هي . ولما كان للكفار قرابات بالمسلمين ربما توهم أنها تنفعهم وللمسلين قرابات بالكفار توهم أنها تضرهم ضرب لكل مثلاً ، وبدأ بالأول فقال تعالى:

﴿ ضرب الله ﴾ ، أي : الملك الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ مثلاً ﴾ يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ ﴿ للذين كفروا ﴾ ، أي : غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم وقوله تعالى : ﴿ امرأت نوح ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله تعالى من كذبه بالغرق ﴿ وامرأت لوط ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله تعالى من كذبه بالحصب والخسف ، يجوز أن يكون بدلاً من قوله : ﴿ مثلاً ﴾ على تقدير حذف المضاف ، أي : ضرب الله مثلاً مثل امرأة نوح وامرأة لوط ، ويجوز أن يكونا مفعولين ، وضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحد عن قريب ولا نسيب في الآخرة إذا فرق بينهما الدين .

(203/773)

قال مقاتل : وكان اسم امرأة نوح والهة واسم امرأة لوط والعة ، وقال الضحاك : عن عائشة : "إن جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واعلة واسم امرأة لوط والهة" .

تنبيه : رسمت امرأت في الثلاثة وابنت بالتاء المجرورة ، فوقف عليهنّ بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ، ووقف الباقون بالتاء . وقوله تعالى : ﴿كانتا﴾ أي : مع كونهما كافرتين ﴿تحت عبدين﴾ جملة مستأنفة كأنها مفسرة لضرب المثل ، ولم يأت بضميرها فيقال : تحتهما ، أي : تحت نوح ولوط لما قصد من تشريفهما بهذه الإضافة الشريفة قال القائل:

*لا تدعني إلا بيا عبدها ** فإنه أشرف أسمائي*

ودلّ على كثرة عبيده تنبيها على غناه بقوله تعالى : ﴿من عبادنا﴾ ووصفهما بأجل الصفات وهو قوله تعالى : ﴿صالحين﴾ واختلف في معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿فخانتاهما﴾ فقال عكرمة والضحاك : بالكفر .

وعن ابن عباس : كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرت الجبابرة من قومه ، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه ، وعن ابن عباس ما بغت امرأة نبيّ قط وإنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين ، وقيل : كانتا منافقتين ، وقيل : خيانتهما النميمة إذا أوحي إليهما شيء أفشتاه إلى المشركين ؛ قاله الضحاك ، وقيل : كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال ﴿ فلم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن العبدين الصالحين لم ﴿ يغنيا عنهما ﴾ ، أي : المرأتين بحق النكاح ﴿ من الله ﴾ ، أي : من عذاب الملك الذي له الأمر كله فلا أمر لغيره ﴿ شيئاً ﴾ أي : من إغناء لأجل خيانتهما ﴿ وقيل ﴾ أي : للمرأتين ممن أذن له في القول النافذ الذي لا مردّ له ﴿ ادخلا النار ﴾ ، أي : قيل لهما ذلك عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ مع الداخلين ﴾ ، أي : سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيئاً من عذاب الله تعالى وفي هذا المثل تعريض بأمي المؤمنين عائشة وحفصة وما فرط منهما وتحذير لهما على أعلى وجه وأشده وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة وقيل : أن كفار مكة استهزؤا وقالوا : إن محمداً يشفع لنا فبين تعالى أن الشفاعة لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء ، كما لا ينفع نوح امرأته ولا لوط امرأته مع قربهما لهما لكفرهما .

ثم شرع تعالى في ضرب المثل الثاني : فقال تعالى:

﴿ وضرب الله ﴾ ، أي : الملك الأعلى الذي له صفات الكمال ﴿ مثلاً للذين آمنوا امرأت فرعون ﴾ واسمها آسية وهي بنت مزاحم آمنت وعملت صالحاً فلم تضرّها الوصلة بالكافر بالزوجية التي هي من أعظم الوصل ، ولا نفعه إيمانها ، كل امرئ بما كسب رهين وأثابها ربها تعالى أن جعلها في الآخرة زوجة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم في دار كرامته بصبرها على عبادة الله تعالى وهي في حبالة عدوّه وأسقط وصفه بالعبودية دليلاً على تحقيره وعدم رحمته له لأنه من أعدى أعدائه وقوله تعالى : ﴿ إذ قالت ﴾ ظرف للمثل المحذوف ، أي : مثلهم مثلها حين قالت ﴿ رب ﴾ ، أي : أيها المحسن إلي بالهداية وأنا في حبالة هذا الكافر الجبار ﴿ ابن لي عندك بيتاً ﴾ وبينت مرادها بالعندية فقالت : ﴿ في الجنة ﴾ أي : دار المقربين وقد أجابها سبحانه بأن جعلها زوجة أكمل خلقه محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معه في منزله الذي هو أعلى المنازل ﴿ ونجني من فرعون ﴾ أي : فلا أكون عنده ﴿ وعمله ﴾ فلا تسلطه علي بما يضرني عندك في الآخرة فلا أعمل بشيء من عمله وهو شركه ، وقال ابن عباس : جماعه ﴿ ونجني ﴾ أعادت العامل تأكيداً ﴿ من القوم الظالمين ﴾ أي : الناس الأقوياء العريقين الذين يضعون أعمالهم في غير موضعها

، فاستجاب الله تعالى دعاءها وأحسن إليها لأجل محبتها للمحبوب ، وهو كليم الله موسى عليه السلام كما يقال:

*صديق صديقي داخل في صداقتي

وذلك أن موسى عليه السلام لما غلب السحرة آمنت به فلما تبين لفرعون إيمانها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ، وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوها بالصخرة قالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ فأبصرته من مرمرة بيضاء فانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً ، وقال الحسن وابن كيسان : رفع الله تعالى امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب .

(206/773)

وقوله تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلية للأرامل ﴿ التي أحصنت فرجها ﴾ أي : عفت عن السوء وجميع مقدماته ، كانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على حالها إلى الممات فزوجها الله تعالى في الجنة جزاء لها بخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعض المفسرين : أراد بالفرج هنا الجيب لقوله تعالى :

﴿ فنفخنا ﴾ ، أي : بما لنا من العظمة بواسطة ملكنا جبريل عليه السلام ﴿ فيه ﴾ ، أي : في جيب درعها .

قال البقاعي : أو في فرجها الحقيقي ، وعلى هذا فلا حاجة إلى التأويل ﴿ من روحنا ﴾ ، أي : من روح خلقناه بلا تواسط أصل وهو روح عيسى عليه السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ ، أي : المحسن إليها واختلف في تلك الكلمات فقال : مقاتل يعني بالكلمات عيسى وأنه نبيّ وعيسى كلمة الله وقال البغوي : يعني الشرائع التي شرعها الله تعالى للعباد بكلماته المنزلة وقيل : هي قول جبريل عليه السلام لها ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ (مريم :) الآية ، وعلى كل قول استحقت أن تسمى لذلك صديقة ، وقرأ : ﴿ وكتبه ﴾ أبو عمرو وحفص بضم الكاف والتاء جمعاً ، والباقون بكسر الكاف وفتح التاء وبعدها ألف إفراداً والمراد منه الكثرة فالمراد به الجنس فيكون في معنى كل كتاب أنزله الله تعالى على ولدها أو غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وكانت من القانتين ﴾ يجوز في ﴿ مَن ﴾ وجهان:

أحدهما : أنها لابتداء الغاية .

والثاني : أنها للتبعيض . وقد ذكرهما الزمخشري فقال : فمن للتبعيض ، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هارون أخي موسى صلوات الله

وسلامه على نبينا وعليهما وعليها وعلى سائر الأنبياء وآلهم أجمعين .

قال الزمخشري : فإن قلت لم قيل : من القانتين على التذكير ؟

(207/773)

قلت : لأن القنوت صفه تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه . وقيل : أراد من القوم القانتين ، ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها فإنهم كانوا مطيعين لله ، والقنوت : الطاعة ، وقال عطاء : من المصلين بين المغرب والعشاء . وعن معاذ بن جبل : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهي تجود بنفسها : "إذا قدمت على ضرّاتك فأقرئيهنّ منى السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم" وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كمل من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون" وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري : "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 5 ـ 24﴾

وقال القاسمى :

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال المهايميّ : ناداه ليقبل إليه بالكلية ، ويدبر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبّر عنه بالمبهم إشعاراً منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه . وأتى بلفظ : ﴿ النَّبِيُّ ﴾ إشعاراً بأنه الذي نبئ بأسرار التحليل والتحريم الإلهيّ . والمراد بتحريمه ما أحلّ له امتناعه منه ، وحظره إيّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتنويهاً لقدره ولمنصبه صلى الله عليه وسلم ، أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى نبيّه ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خلقوا ، ليظهر الله كمال نبوته ، بظهور نقصانهم عنه ، كما أفاده الناصر .

تنبيهان :

الأول : للأثريين في هذا الذي حرمه صلوات الله عليه على نفسه روايات .

فروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها فلتقل له : إني أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال : < بل شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت ! لا تخبري بذلك أحداً > ، فنزلت الآية .

(209/773)

وروى الشيخان أيضاً عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحَلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه ، فيدنو من كل واحدة منهن ، فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فسألت عن ذلك ، فقيل لي : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة ، فقلت : والله لنحتالنَّ له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقولي له : يا رسول الله ! أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقولي له : وما هذه الريح ؟ و < كان صلى الله عليه وسلم يكره أن يوجد منه الريح الكريه > ! فإنه سيقول لك :

سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي له : أكلت نحلُه العُرفطَ ، حتى صار فيه – أي : في العسل – ذلك الريح الكريه ، وإذا دخل عليّ فسأقول له ذلك ، وقولي أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة ، قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابها بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك ، فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك ؛ فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يا رسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال : < لا حاجة لي به > . قالت : إن سودة تقول : سبحان الله ! لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتي . والمغافير صمغٌ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر ، يقال له : العرفط بضم العين المهملة والفاء .

وفي هذه الرواية أن التي شرب عندها العسل حفصة ، وفي سابقتها أنها زينب . والاشتباه في الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

(210/773)

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين ، وكانتا زوجتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة

، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، واللهِ لقد سؤتني ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < واللهِ لأرضينك ، فإني مسرّ إليك سراً فاحفظيه > ! قالت : ما هو ؟ قال : < إني أشهدك أن سرّيَتي هذه عليّ حرام ، رضا لك > – وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي صلى الله عليه وسلم – فانطلقت عائشة فأسرت إليها أن أبشري ، إن النبي صلى وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسرِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، أظهر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ الآيات .

وروي أيضاً عن الضحاك قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < اكتمي عليّ ، ولا تذكري لعائشة ما رأيت > ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة ، فلم تزل بنبيّ الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفِّر يمينه ويأتي جاريته .

وروى النسائي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أمَة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرَّمها ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجح ابن جرير أحد السببين المرويين في نزولها على الآخر ، بل وقف على إجمال الآية ، على عادته في أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك ، غير أنه ، أي : ذلك كان ، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالاً ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه كما كان له قد أحله ، وبيَّن له تحلة يمينه . انتهى .

والذي يظهر لي هو ترجيح روايات تحريم الجارية في سبب نزولها ، وذلك لوجوه :

منها : أن مثله يبتغي به مرضاة الضرات ، ويهتم به لهن .

ومنها : أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفةً من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لا تحدث صاحبته به شفقة عليها ، إلا أن يكنَّ عاتبنه في ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فحرمه .

ولكن ليس في الرواية ما يشعر به . وما زاد على ذلك فمن اجتهاد الرواة .

ومنها : أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن

في المظاهرة عليه ، وإيعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستدلال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهراءَهُ مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيماً دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روي في شأن الجارية, فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على ما يقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية .

هذا ما ظهر لي الآن .

(212/773)

وأما تخريج رواية العسل في هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف في قولهم : نزلت في كذا ، كما نبهنا عليه مراراً . وكأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواةُ بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا مانع من العود إلى شربه ، والله أعلم .

الثاني : في " الإكليل " : استدل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أو زوجة ، لم تحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : في الحرام يكفَر ؛ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرَّده يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين في عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها ، يعني جاريته ، فكانت يميناً - رواه ابن جرير - وسيأتي ما يؤيده . وقوله تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [2]

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أي : شرع تحليلها - وهو حل ما عقدته - بالكفارة . والتحلة مصدر بمعنى التحليل .

﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي : متولي أموركم ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي : بمصالحكم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به .

تنبيهات :

الأول : قال ابن قدامة في " الروضة " : دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه في تحريم ما أحل له قال عقيبه :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تمَّمه بلفظ الجمع بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ والمسألة طويلة الذيل في الأصول .

الثاني : قال تقيّ الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حللت الشيء تحليلاً وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمه ، وهذا المصدر يسمَّى به المحلل نفسه ، الذي هو الكفارة فإن أريد المصدر ، فالمعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذي هو خلاف العقد .

ولهذا استدل من استدل من أصحابنا وغيرهم كأبي بكر عبد العزيز ، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ، لأن التحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنا هي بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما في الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التي جعلها بدلاً من الوفاء في جملة ما رفعه عنها من الآصار .

الثالث : شمل قوله تعالى :

﴿ أَيمَانِكُمْ ﴾ تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة ، لدخوله فيه دخولاً أولياً ، بل كل يمين .

قال تقي الدين ابن تيمية في " فتاويه " : قوله تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ نصّ عام في كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبي صلى الله عليه وسلم ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم تخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً معنوياً ، مع عمومه اللفظي ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل ، فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود في اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه في غيرهما من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن النفس ، أو ليقطعن رحمه ، أو ليمنعن الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ، أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرضة ، ثم إن وفَّى بيمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه . وإن طلق امرأته ففي الطلاق أيضاً من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه . وإن طلق امرأته ، ففي الطلاق أيضاً من ضرر الدنيا والدين ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وذلك يقتضي أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضي ثبوت

التحريم ؛ لأن قوله لأي شيء استفهام في معنى النفي والإنكار والتقدير ، لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم ، فلو كان الحالف بالنذر والعتاق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لكان هنا سبب يقتضي تحريم الحلال ، ولا يبقى موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

(215/773)

ومما يوضح عمومه أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق في عموم حديث : < من حلف فقال : إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك > ، فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعتاق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعي وأحمد ومن وافقهما في مسألة نذر اللجاج والغضب ؛ فإنهم احتجوا على التكفير فيه بهذه الآية ، وجعلوا قوله ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ كفارة أيمانكم عاماً في اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب في الحج والعتق ونحوهما ، سواء .

فإذا قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة في قوله :

﴿ عَقَّدتُّمُ الأَيمَانَ ﴾ [المائدة : 89] ، و ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ منصرفاً إلى اليمين

المعهودة عليهم ، وهي اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم . ولو كان اللفظ عاماً ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بالمخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة لقوله : < من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت > وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة ، فلا كفارة لها ولا حنث . فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء اسم اليمين في هذا كله . كقوله صلى الله عليه وسلم : < النذر حلف > . وقول الصحابة لمن حلف بالهدي بالعتق : كفِّر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولإدخال العلماء ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : < من حلف فقال : إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك > . ويدل على عمومه في الآية أنه سبحانه قال :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ثم قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ فاقتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدل به ابن عباس . وسبب نزول الآية إما تحريمه العسل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله ، لهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وغيرهم ، أن تحريم الحلال يمين مكفرة ، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله . ومازال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً .

وأيضاً فإن قوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقا ، فإن أريد الأول والثالث فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى ، ثم فيعم ، وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمى الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية ، لكن لما أوجبت امتناع الحالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل في قوة قوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ وحينئذ فقوله :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ لا بد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلا بد أن يطابق صوره ؛ لأن تحريم الحلال هو سبب قوله :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وسبب الجواب إذا كان عاماً كان الجواب عاماً ،

لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضي للتعميم .

وقال الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " : الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها ، فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله :

(217/773)

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ وهذا صريح في أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصاً به ، وإما شاملاً له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلي سبب الكفارة المذكورة في السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم ، كالمنع منه باليمين ، بل أقوى ؛ فإن اليمين ، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره ، فإنه إذا شرع حلالاً فحرمه المكلف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ما شرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنث في اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جداً ، فإن الحنث إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لعباده الحنث مع الكفارة . وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا حلف على يمين ، ورأى

غيرها خيراً منها كفر عن يمينه ، وأتى المحلوف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى لم يبح في شريعة قط ، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة ، وهي تفعلة من الحل ، فهي تحل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم .

وظهر سر قوله تعالى :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، عقيب قوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

وقال رحمه الله فيه ، قبلُ : أما من قال : إنه يمين مكفرة بكل حال ، فمأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال :

(218/773)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ الآية ، ولا بدّ أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العامّ ، ممتنع قطعاً ؛ إذ هو المقصود بالبيان أولاً ، فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال في غاية القوة ، فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى في الزوجة ،

كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال :

وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفَّر .

وقال رحمه الله في " أعلام الموقعين " : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمه لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالمخلوق التي لا تنعقد ، ولا هي من لغو اليمين ، وهي يمين منعقدة ، ففيها كفارة يمين .

ثم قال في المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال ، صحَّ ذلك أيضاً عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعي وأبي ثور ، وخلق سواهم رضي الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً ، فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التي قصد ذكرها لأجله .

(219/773)

وقال في " زاد المعاد " : لا فرق بين التحريم – في غير الزوجة – بين الأمَة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعي وحده ، فإنه أوجب في تحريم الأمة خاصة ، كفارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير في الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعوه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعمّ من تحريم الأمة وغيرها ، فتجب الكفار حيث وجد سببها . وقد تقدّم تحريره .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [3] .

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ﴾ هي حفصة في قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبي والضحاك ، كما نقله ابن جرير ﴿ حَدِيثاً ﴾ وهو تحريم فتاته في قولهم . قال ابن جرير : أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحله له ، وقوله : < لا تذكري ذلك لأحد > .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي : أخبرت بالسرّ ، صاحبتها كما تقدم ، ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي : أطلعه على تحديثها به ، ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ أي : عرّفها بعض ما أفشته معاتباً ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ أي : بعض الحديث تكرماً ، ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا

قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أي : الذي لا تخفى عليه خافية .

تنبيه :

(220/773)

في " الإكليل " : في الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانه . وفيها حسن المعاشرة مع الزوجات ، والتلطف في العتب ، والإعراض عن استقصاء الذنب .

وحكى الزمخشري عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام .

ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيه ، صلوات الله عليه ، مما أتت به من إفشاء السر إلى صاحبتها ، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [4]

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي : إلى الحق ، وهو ما وجب من مجانبة ما يسخط رسوله . وقد صح عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن

المتظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : عائشة وحفصة .

وفي خطابهما ، على الالتفات من الغيب إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب مطروداً بعيداً عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد

.

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي : تتظاهرا وتتفقا على ما يسوؤه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي : متظاهرون على من أراد مساءته ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم المخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أفخم في التنويه بالنبي صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هي هنا بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوّه ومناوئه .

(221/773)

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [5]

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ﴾ أي : خاضعات لله

بالطاعة ﴿ مُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : مصدقات بالله ورسوله ﴿ قَانِتَاتٌ ﴾ أي : مطيعات لما يؤمرن به ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ أي : من الذنوب لا يصررن عليها ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ أي : متعبدات لله ، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ قيل : معناه صائمات ، وسننبه على ما فيه ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾

اعلم أن في توصيف المبدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ، لا سيما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا في سورة التوبة في تفسير ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ [الآية : 112] أن الحق فيه هو المعنى الحقيقيّ لعدم ما يمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لمانع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هي كذلك للرجال . فمعنى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ مسافرات ، سواء كان السفر لهجرة أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم له ، حفظاً لهن .

ثم قال : كأن الذي دعا البعض لتفسير ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ بالصائمات ، أو بخصوص المهاجرات ، تصوره أن السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو

كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة ، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد ؟ ! وأما قوله تعالى :

(222/773)

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾

[البقرة : 29] ، فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها ، وهو الرجال . وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه صلى الله عليه وسلم في سفره مع أزواجه ؟ فقد < كان يقرع بينهن > ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها في الدين . وهكذا صح أنه صلى الله عليه وسلم < لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب > .

وبالجملة فالسياحة في القرآن الكريم ليست ترمي إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد :

أولاً : إدراك المعقولات ، والإحاطة بعظات المسموعات ، كما نتعلمه من آية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ

وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 46] .

ثانياً : الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، وما لهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر : 21] ، وقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم : 9] .

(223/773)

ثالثاً : البحث والتنقيب في أنحاء المسكونة بالنظر في الكون ، وفي الفنون ، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى ، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالي بقوله :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : 20] .

رابعاً : الحصول على ربح التجارة كما نتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل : 20] .

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى ، حتى يكون السير خاصاً بالرجل ؟ كلا ! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾ [سبأ : 18] . وامتن على جميع عباده بقوله :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [يونس : 22] ، وقال تعالى : ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ [المائدة : 96] ، فهل يجوز أن نذهب إلى أن هذه المنن هي من مخصوصات الرجل دون النساء ؟ كلا ! بل الكل مغمور بهذه المنّات ، كما هو مقتضى عموم الآيات .

انتهى ملخصاً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [6]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ أي : سببها ، وذلك بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، والقيام على تأديب الأهل ، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ أي : تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ ﴾ أي : تلي أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ أي : جفاة قساة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ قال الزمخشري : وليست الجملتان في معنى واحد ، فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، لا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً ما لم يؤمروا به ، كقوله تعالى :

﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] ، فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيده ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون في كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [7]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد

ب ﴿ الْيَوْمَ ﴾ وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

(225/773)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[8] أي : توبة ترقع الخروق ، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من النصح بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذي تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه من النصوح بمعنى الخلوص ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ ﴾ أي : بمناصحة أنفسكم بالتوبة النصوح ﴿ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أي : لا يذلهم . تعريض لأعدائهم بالخزي والصغار ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ أي : أدمه أو زده ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

[9]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : بالسنان والبرهان ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : فيما تجاهدهم به ، لتنكسر صلابتهم ، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنقهر نفوسهم وتذل وتخضع .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(226/773)

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [10]

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ﴾ أي : حالهما ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي : بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان ، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي : من عذابه ﴿ شَيْئاً وَقِيلَ ﴾ أي : لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة :

﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ أي : مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم

وبين الأنبياء .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [11 - 12]

(227/773)

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : من عملهم وعذابهم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي : حفظته وصانته ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ يعني جبريل عليه السلام ، أو من روح خلقناه بلا توسط ، وهو عيسى عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ أي : بصحفه المنزلة من عنده ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ أي : الموحاة . والعطف للتفسير ، أو الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب خاصة بالمخطوط من الأسفار .

﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ أي : من المواظبين على الطاعة لله ، والخضوع لأحكامه .

والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

(228/773)

الأول : قال الزمخشريّ : مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة ونسب ، أو وصلة صهر ، لأن عداوتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله ، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر ، نبياً من أنبياء الله ، بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناءً ما من عذاب الله ، ومثل حال المؤمنين في وصلة الكافرين لا تضرهم ، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأميّ المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما في التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه في التغليظ :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 97] ، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين .

والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدق على تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثاني : قال الإمام ابن القيم في " أعلام الموقعين " اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

(229/773)

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على

أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح ، مع عدم الإيمان ، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل : ادخلا النار مع الداخلين قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال ، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً ؛ قال تعالى :

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة : 3] ، وقال تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [الانفطار : 19]

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48و123] ، وقال :

﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان : 33] ، وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة ، أن من تعلقوا به من دون الله ، من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة ، أو يجيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله . وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا

يغفره الله ، وهو الذي بعث الله جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

(230/773)

وأما المثلان اللذان للمؤمنين : فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة ، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله ، فتأتي عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أكفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ، وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثاني للمؤمنين : مريم ، التي لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة ، والثانية التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينهما وبين أحد ، فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببه ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقت في ذكر

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه .

(231/773)

وفي هذه تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبي صلى الله عليه وسلم . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن ، والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي

منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولاسيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث : قال القاشانيّ : بيَّن تعالى أن الوصل الطبيعية ، والاتصالات الصورية غير معتبرة في الأمور الأخروية ، بل المحبة الحقيقية ، والاتصالات الروحانية ، هي المؤثرة فحسب . والصورية التي بحسب اللحمة الطبيعية والخلطة والمعاشرة لا يبقى لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا في الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كإحصان مريم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المعدة إياها لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لا تفي بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلة في نار الحرمان ، وجحيم الهجران مع المحجوبين ، ولا تغني هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء في باب العذاب ، وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذي قويت فيه قوة محبة الله لصفائه ، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه وضعفه ، لا يبقى في العذاب بمجاورتها حيناً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هي القابلة لفيض روح القدس المتنورة بنور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكمية ، والشرائع الإلهية ، المطيعة لله مطلقاً ، علماً وعملاً ، سراً وجهراً . انتهى ملخصاً .

الرابع : في " الإكليل " : استدل بقوله تعالى : ﴿ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ على صحة أنكحة الكفار . أقول : ويستدل بقوله تعالى ﴿ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لا يعد من قلة التورع ، وهو جليّ . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً في شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ في آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير في قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع .

السادس : قال الزمخشريّ : في دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 118] .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس : 85 - 86] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 169.186 ﴾

(233/773)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة التحريم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (1) ﴾

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال: حدثنا إبراهيم ابن موسى , أخبرنا هشام بن يوسف , عن ابن جريج , عن عطاء , عن عبيد بن عمير , عن عائشة , قالت: كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش , ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير . إني أجد منك ريح مغافير . قال: " لا . ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحدا " . . فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: (لم تحرم ما أحل الله لك ؟) .

ويبدو أن التي حدثها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها . فأطلع الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته: (من أنبأك هذا ؟) . . ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته ! ولكنه أجابها : (نبأني العليم الخبير) . . فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلم كل ما دار , لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تآمر ومكايدات في بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن غضب . فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا , وهم بتطليقهن – على ما تسامع المسلمون – ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه (صلى الله عليه وسلم) فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

(234/773)

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان له أمة يطؤها , فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل:

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ; تبتغي مرضات أزواجك . . .

وفي رواية لابن جرير ولابن أسحاق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتحريم مارية وحلف بهذا . وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة . . فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع , ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذي يسود بيوت النبي , مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا . . والله أعلم أي ذلك كان .

(235/773)

أما وقع هذا الحادث – حادث إيلاء النبي (صلى الله عليه وسلم) من أزواجه , فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو يرسم

كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك . . قال:حدثنا عبد الرزاق , أخبرنا معمر , عن الزهري , عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور , عن ابن عباس قال:"لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اللتين قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)حتى حج عمر وحججت معه , فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة , فتبرز , ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ , فقلت:يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) اللتان قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ? فقال عمر:واعجبا لك يا ابن عباس ! [قال الزهري:كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه] قال:هي عائشة وحفصة . قال:ثم أخذ يسوق الحديث , قال:كنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال:وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال:فغضبت يوما على امرأتي , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني . فقالت:ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال:فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت:أتراجعين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ? قالت:نعم ! قلت:وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ? قالت:نعم ! قلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ? لا تراجعي رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك , ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك - يريد عائشة - قال:وكان لي جار

(236/773)

من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينزل يوما وأنزل يوما , فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال:وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوما ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى , فخرجت إليه , فقال:حدث أمر عظيم . فقلت:وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال:لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نساءه ! فقلت:قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت:أطلقكن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ - فقالت:لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاما أسودا فقلت:استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر , فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلا

, ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر , ثم غلبني ما أجد , فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعوني . فقال:ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت:أطلقت يا رسول الله نساءك ? فرفع رأسه إلي وقال:" لا " . فقلت:الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم , فغضبت على امرأتي يوما , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني , فقالت:ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ; فإذا هي قد هلكت ? فتبسم رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك ! فتبسم أخرى . فقلت: أستأنس يا رسول الله ! قال: " نعم " فجلست , فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسا وقال: " أفي شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت: استغفر لي يا رسول الله . . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل " . . [وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص] . .

الدرس الأول: 1 – 5 معالجة مشكلة في بيت النبي وعتابه على يمينه وعتاب زوجاته على فعلهن

هذه رواية الحادث في السير . فلننظر في السياق القرآني الجميل:

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله (صلى الله عليه وسلم) :

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك , تبتغي مرضاة أزواجك , والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم , والله مولاكم , وهو العليم الحكيم . .

وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع .

والرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي ; إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد . . والتعقيب: (والله غفور رحيم) . . يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة , وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إيحاء لطيف .

(238/773)

فأما اليمين التي يوحي النص بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حلفها , فقد فرض الله تحلتها . أي كفارتها التي يحل منها . ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى . (والله مولاكم) . . فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الأيمان , للخروج من العنت والمشقة . . (وهو العليم الحكيم) . يشرع لكم عن علم وعن حكمة , ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم . فلا تحرموا إلا ما حرم , ولا تحلوا غير ما أحل . وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله , لأن موضوعه ليس هو المهم , وليس هو العنصر الباقي فيه . إنما العنصر الباقي هو دلالته وآثاره:

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا) . .

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة في تاريخ البشرية . الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلا . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

(239/773)

الذي أسره إلى بعض أزواجه . وأنه (صلى الله عليه وسلم) حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعا عن السرد الطويل , وتجملا عن الإطالة في التفصيل ; وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل:

(فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت:من

أنبأك هذا ؟ قال:نبأني العليم الخبير) . .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة في حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها , وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) . .

وحين نتجاوز صدر الخطاب , ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله , فقد بعدت عنه بما كان منها . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدا رعيبا مخيفا . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير !

ولا بد أن الموقف في حس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر – رضي الله عنهما – وهو يسأله: جاءت غسان ؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة , وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير , وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحي بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر , فهو إذن صحيح قويم عميق .

وكذلك دلاله الآية التالية , وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبدل الله النبي بهن من أزواجه ولو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد :

(عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات , مؤمنات , قانتات , تائبات , عابدات , سائحات , ثيبات وأبكارا) . .

وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب , وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته . وهن – مع هذه الصفات – من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

(241/773)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكايداتهن في قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد نزول هذه الآيات , وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة , وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه . وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة , وإقامة دولة , على غير مثال معروف , وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة , وتنشئ في الأرض مجتمعا ربانيا , في صورة واقعية يتأسى بها الناس .

(242/773)

وهي صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته . فلا تفترق هذه عن تلك ; لأن القدر جرى بأن يكون بشرا رسولا , حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانا . فلا

تكبت طاقة من طاقاته البانية , ولا تعطل استعدادا من استعداداته النافعة ; وفي الوقت ذاته تهذبه وتربيه , وترتفع به إلى غاية مراقيه .

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به , حتى استحالوا نسخا حية منه . وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية , بكل ما فيها من تجارب الإنسان , ومحاولات الإنسان , وضعف الإنسان , وقوة الإنسان , مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية , مرتقية بها خطوة خطوة – كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه – كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة , يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية , التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات !

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة . وفي اختيار الرسول الذي يطيق تلقيها وترجمتها في صورة حية . وفي جعل حياة هذا الرسول كتابا مفتوحا يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال . . .

الدرس الثاني: 6 – 9 توجيه المؤمنين إلى تربية أبنائهم والتوبة النصوح

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقا في نفوس المسلمين , يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير , فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار . ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفي ظلال الدعوة إلى التوبة التي وردت في سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة , ويصور لهم الجنة التي تنتظر

التائبين . ثم يدعو النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى جهاد الكفار والمنافقين . . وهذا هو المقطع الثاني في السورة:

(243/773)

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا , وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم , ويفعلون ما يؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم , إنما تجزون ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم , ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار , يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه , نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم , يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا إنك على كل شيء قدير . يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم , ومأواهم جهنم وبئس المصير) . .

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله , وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعرة: (وقودها الناس والحجارة) . . الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة وفي رخص الحجارة , وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها نارا هذه

التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة !

وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب: (عليها ملائكة غلاظ شداد) . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون . . (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

. فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم , ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف , فلا يؤبه لاعتذارهم , بل يجبهون بالتيئيس:

(يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون) . .

(244/773)

لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار , إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار ? إنه يبين لهم الطريق , ويطمعهم بالرجاء:

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا , عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم , ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه , نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم , يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) . .

هذا هو الطريق . . توبة نصوح . . توبة تنصح القلب وتخلصه , ثم لا تغشه ولا تخدعه . توبة عن الذنب والمعصية , تبدأ بالندم على ما كان , وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة , فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها ; وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هي التوبة النصوح . التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب .

فإذا كانت هذه التوبة فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما هم في المشهد الذي سبق في السياق . ولا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع , وتكريم عظيم , أن يضم الله المؤمنين إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نورا (يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) . نورا يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونورا يهتدون به في الزحام المريج . ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف !

وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله: (يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا , إنك على كل شيء قدير) . . وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب , هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ؟

إن هذا الثواب , كذلك العقاب , كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار , وإنالتهمهذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي (صلى الله عليه وسلم) ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله , وإصلاح بيته , كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه . إن الإسلام دين أسرة – كما أسلفنا في سورة الطلاق – ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته , وواجبه في بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة , وهو الخلية التي يتألف منها ومن

الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي . . المجتمع الإسلامي . .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها , كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه , فلا يصعب على طارق , ولا يستعصي على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .

(246/773)

ولابد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة . لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال . لابد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء , وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ; وكان ينظم البيوت , ويقيمها على المنهج الإسلامي , وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) . .

هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ; وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلا كثير الثغرات !

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه . . كان قد أنشئ مجتمع مسلم – في المدينة – يهيمن عليه الإسلام . يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية , ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه , مرجع الرجال والنساء جميعا , إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير . . وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلا بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلا بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام . .

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك ! !

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي , وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبي الإسلام , سواء اهتدت إليه بنفسها , أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها .

.

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاكمون إلى تصور واحد , وحكم واحد , وطابع واحد . فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتا أن يبحث أولا عن حارسة للقلعة , تستمد تصورها من مصدر تصوره هو . . من الإسلام . .

وسيضحي في هذا بأشياء : سيضحي بالالتماع الكاذب في المرأة . سيضحي بخضراء الدمن ! سيضحي بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين , التي تعينه على بناء بيت مسلم , وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء

المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا إليهن وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ;

ونرجع الكرة – بهذه المناسبة – إلى طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الإسلام , والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي . فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . الإسلام عقيدتها , والإسلام نظامها , والإسلام شريعتها , والإسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها .

(248/773)

هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الإسلامي ويحمله إلى النفوس , ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي , كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء .

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة , محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العش المسلم , أو في القلعة المسلمة , التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر

الإسلامي .

إنها ضرورة – وليست نافلة – أن تقوم جماعة مسلمة , تتواصى بالإسلام , وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراته كلها , فتعيش بها فيما بينها , وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو إليها , في صورة واقعية يراها من يدعون إليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال في ظله , في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب . .

وفي سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمجاهدة أعدائها :(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين , واغلظ عليهم , ومأواهم جهنم وبئس المصير) . .

وهي لفتة لها معناها وقيمتها بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار . وبالتوبة النصوح التي تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجري من تحتها الأنهار . .

لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار . فلا تترك هذه العناصر المفسدة

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

الجائرة الظالمة , تهاجم المعسكر الإسلامي من خارجه كما كان الكفار يصنعون . أو تهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلظة عليهم . لأن كلا من الفريقين يؤدي دورا مماثلا في تهديد المعسكر الإسلامي , وتحطيمه أو تفتيته . فجهادهم هو الجهاد الواقي من النار . وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله والمؤمنين في الدنيا .

(ومأواهم جهنم وبئس المصير) في الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ; كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى في السياق . .

الدرس الثالث: 10 - 12 نموذجان امرأتان كافرتان وامرأتان مؤمنتان

ثم تجيء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ تتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات في وسط كفار:

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط , كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين , فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا , وقيل ادخلا النار مع الداخلين . . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون , إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة , ونجني من فرعون وعمله , ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من

روحنا , وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين) . .

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط , أنها كانت خيانة في الدعوة , وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ; وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه !

(250/773)

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره – ولعلها كانت أسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى . وقد ورد في التاريخ أن أم "أمنحوتب الرابع" الذي وحد الآلهة في مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس , وسمى نفسه "إخناتون" . . كانت أسيوية على دين غير دين المصريين . . والله أعلم إن كانت هي المقصودة في هذه السورة أم أنها امرأة فرعون موسى . . وهو غير "أمنحوتب" هذا . .

ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون . فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة . .

إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا , بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهن أنفسهن بعد

كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن , ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين !

وها هي ذي امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط . (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) .

.(فخانتاهما) . . (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) . . (وقيل:ادخلا النار مع الداخلين) .

.

فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وها هي ذي امرأة فرعون , لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه . . في قصر فرعون .

. عن طلب النجاة وحدها . . وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا في الجنة .

وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: (ونجني من فرعون

(251/773)

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

وعمله) . . وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: (ونجني من القوم الظالمين) . .

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة .

فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي . . ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب , بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه . وتتفلت من عقابيله , وتطلب النجاة منه !

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية . . وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة – كما أسلفنا – أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة . . وحدها . . في وسط ضغط المجتمع , وضغط القصر , وضغط الملك , وضغط الحاشية , والمقام الملوكي . في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء . . وحدها . . في خضم هذا الكفر الطاغي !

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر , وكل هذه المعوقات , وكل هذه الهواتف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد . الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى . .

(ومريم ابنة عمران) . . إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى . ويذكر هنا تطهرها : (التي أحصنت فرجها) . . يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة ! (فنفخنا فيه من روحنا) . ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام , كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد "سورة مريم" فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر , الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها : (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) . .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر . بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها . وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله لأزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة , ويضربهما للمؤمنات من بعد في كل جيل . .

وأخيرا فإن هذه السورة – وهذا الجزء كله – قطعة حية من السيرة , رسمها القرآن بأسلوبه الموحي . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآني أكثر إيحاء , وأبعد آمادا , وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ,

الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان . . كما هو شأن القرآن . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3615.3622 ﴾

(253/773)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قول تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ . الآية .

تقدم في أول السورة قبلها بيان علاقة الامة بالخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف في تحريم ما أحل الله له بين كونه العسل أو هو مارية جاريته صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي زيادة إيضاحه عند الكلام وعلى حكمه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ظاهر به معنى العتاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَآءَهُ الأعمى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [عبس : 1 - 3] .

وكلاهما له علاقة بالجانب الشخصي سواء ابتغاء مرضاة الأواج ، أو استرضاء صناديد قريش ، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه .

وبهذا نأخذ بقياس العكس دليلاً واضحاً على بطلان قول القائلين : إن إعماره صلى الله

عليه وسلم لعائشة من التنعيم كان تطيباً لخاطرها ، ولا يصح لأحد غيرها .

ومحل الاستدلال هو أن من ليس له حق في تحريم ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه لا يحل له إحلال ، وتجويز ما لا يجوز ابتغاء مرضاتهن ، وهذا ظاهر بين لله والحمد .

أما تحلة اليمين وكفارة الحنث وغير ذلك ، فقد تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللغو في أَيمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : 255] .

أما حقيقة التحريم هنا ، ونوع الكفارة ، وهل كفر صلى الله عليه وسلم عن ذلك ام أن الله غفر له فلم يحتج لتكفير ، فقد أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء عند هذه الآية .

(254/773)

وفي الأضواء عند قوله تعالى في أول سورة الأحزاب ﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [الأحزاب : 4] ، وذلك أن للعلماء نحو عشرين قولاً ، ورجح القول بأن التحريم ظهار لما يدل عليه ظاهر القرآن ، وأن القول الذي يليه أنه يمين وناقش المسألة بأدلتها هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

أطلقت التوبة هنا وقيدت في الأية بعدها بأنها توبة نصوح ، في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾ [التحريم : 8] .

وحقيقة التوبة النصوح وشروطها وآثارها تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا المؤمنون ﴾ [النور : 31] .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

قال الشيخ في إملائه : صغت : بمعنى مالت ورضيت وأحبت ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

وقال : وقلوبكما جمع مع أنه لاثنتين هما حفصة وعائشة ، فقيل لأن المعنى معلوم والجمع أخف المثنى إذا أضيف . وقيل هو مام استدل به على أن أقل الجمع اثنين كما في الميراث في قوله ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء : 11] .

وجواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ محذوف تقديره ، فقال واجب عليكما ، لأن قلوبكما مالت إلى ما لا يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

وقدره القرطبي بذلك خير لكم ومعناهما متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

قال أبو حيان : الوقف على مولاه ، وتكون الولاية خاصة بالله ، ويكون جبريل مبتدأ وما

بعده عطف عليه ، وظهير خبر ، وعليه يكون جبريل ذكر مرتين بالخصوص أولاً وبالعموم ثانياً .

(255/773)

وقيل : الوقف على وجبريل معطوفاً على لفظ الجلالة في الولاية ، ثم ابتدئ بصالح المؤمنين وعطف عليهم الملائكة ، ويدخل فيهم جبريل ضمناً اه .

فعلى الوقف الأول يكون درج صالح المؤمنين بين جبريل وبين الملائكة تنبيهاً على علو منزلة صالح المؤمنين ، وبيان منزلتهم من عموم الملائكة بعد جبريل ، وعلى الوقف الثاني فيه عطف جبريل على لفظ الجلالة في الولاية بالواو ، وليس فيه ما يوهم التعارض مع الحديث في ثم إذ محل العطف هو الولاية ، وهي قدر ممكن من الخلق ومن الله تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين ﴾ [الأنفال : 62] لأن النصر يكون من الله ويكون مكن العباد ، من باب الأخذ بالأسباب ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله ﴾ [التوبة : 40] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ يَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [الحشر : 8] .

وقوله : ﴿ مَنْ أنصاري إِلَى الله ﴾ [آل عمران : 52] بخلاف سياق الحديث ، فقد كان

في موضع المشيئة حينما قال الأعرابي : ما شاء الله وشئت . فقال له صلى الله عيله وسلم : " أجعلتني لله ندا ؟ قل ما شاء الله وحده " لأن حقيقة المشيئة لله تعالى وحده كما في قوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ [التكوير : 29] .

وكقوله : ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعاً ﴾ [الرعد : 31] .

وكقوله : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] .

(256/773)

ومن اللطائف في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر ما سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنه قال : إن المتظاهرتين على رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأتان فقط تآمرتا عليه فيما بينهما ، فجاء بيان الموالين له ضدهما كل من ذكر في الآية . فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، ما يدل على عظم كيدهن وضعف الرجال أمامهن ، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] ، بينما قال في كيد الشيطان : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 76] .

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله :

ما استعظم الإله كيدهنه . . . إلا لأنَّهن هن هنه

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

فيه بيان أن الخيرية التي يختارها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في النساء هي تلك الصفات من الإيمان والصلاح.

وجاء الحديث " فعليك بذات الدين تربت يمينك "

وقوله تعالى: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [البقرة: 221].

وفي تقديم الثيبات على الأبكار هنا في معرض التخيير ما يشعر بأوليتهن. مع أن الحديث " هلا بكراً تداعبك وتداعبها "، ونساء الجنة لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، ففيه أولوية الأبكار. وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط، وأن الثيبات في الدنيا والأبكار في الجنة كمريم ابنة عمران، والذي يظهر والله تعالى أعلم: أنه لما كان في مقام الانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن ذكر من الصفات العالية ديناً وخلقاً، وقدم الثيبات ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق.

(257/773)

وقوله تعالى : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ لم يبين هل طلقهن أم لا ؟ مع أن عسى من الله للتحقيق ، ولكنه لم يقع طلاقهن كما بينه تعالى في سورة الأحزاب ، بأنه تعالى خيرهن بين الله ورسوله ، وبين الحياة الدنيا وزينتها ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فلم يطلقهن ، ولم يبدله أزواجاً خيراً منهن .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة وإخلال الزواج إليه وتحريم النساء بعدهن عليه عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ [الأحزاب : 50] .

وقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ [الأحزاب : 51] .

وقوله : ﴿ لاَّ يَحِلُّ لَكَ النسآء مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : 52] الآية .

وبين الناسخ من المنسوخ في ذلك في دفع إياهم الاضطراب عن آيات الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ﴾ .

لم يبيّن هنا نوع الاعتذار الذي نهوا عنه ولا سبب النهي عنه لماذا ؟ ولا زمنة ، وقد بين تعالى نوع اعتذارهم في مثل قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] .

وكقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ

على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام: 23 - 24].

وكقوله بعدها: ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام: 27] فهذا غاية في الاعتذار، ولكنهم نهوا عنه وذلك يوم القيامة، كما في قوله: ﴿ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ ﴾ [الأنعام: 27] أي إلى الدني.

(258/773)

وقد نهوا عن هذا الاعتذار لأنه لا ينفعهم كما في قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: 57].

وقوله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ [غافر: 52].

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى الله تَوْبَةً نَّصُوحاً ﴾.

تقدمتا الإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في بيان أنواع التوبة وشروط كونها نصوحاً على قوله تعالى: ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً ﴾ [النور: 31].

قوله تعالى: ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾.

إلى آخر الآية، تقدم بيان هذا النور وحالتهم تلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في

سورة الحديد عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [الحديد : 12] .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فيه الأمر بقتال الكفار ، والمنافقين والغلظة عليهم ، ومعلوم أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قاتل الكفار ، ولم علم أنه قاتل المنافقين قتاله للكفار ، فما نوع قتاله صلى الله عليه وسلم للمنافقين وبينه ؟ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 52] أي بالقرآن لقوله قبله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً فَلاَ تُطِعِ الكافرين وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 50 - 52] .

(259/773)

ومعلوم أن المنافقين كافرون ، فكان جهاده صلى الله عليه وسلم للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن .

كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في عدم قتلهم ، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل

أصحابه ، ولكن كان جهادهم بالقرآن لا يقل شدة عليهم من السيف ، لأنهم أصبحوا في خوف وذعر يحسبون كل صيحة عليهم ، وأصبحت قلوبهم خاوية كأنهم خشب مسندة ، وهذا أشد عليهم من الملاقاة بالسيف . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأة نُوحٍ وامرأة لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ . الآية .

أجمع المفسرون هنا على ان الخيانة ليست زوجية .

وقال ابن عباس : نساء الانبياء معصومات ، ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهن وإخبار أقوامهن بمن يؤمن مع أزواجهن اه .

وقد يستأنس لقول ابن عباس هذا بتحريم التزوج من نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم بعده ، والتعليل له بأن ذلك يؤذيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلكم كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 53] .

فإذا كان تساؤلهنّ بدون حجاب يؤذيه ، والزواج بهنّ من بعده عند الله عظيم ، فكيف إذا كان غير التساؤل وبغير الزواج ؟ إن مكانه الأنبياء عند الله أعظم من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئاً من الكفر ، وقد بين تعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القرابات كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 88] .

قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس : 34 - 35] الآية .

وجعل الله هاتين المرأتين مثلاً للذين كفروا ، وهو شامل لجميع الأقارب كما قدمنا .

(260/773)

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في معرض محاضرة له الاستطراد في ذلك ، وذكر قصة هاتين المرأتين ، وقصة إبراهيم مع أبيه ونوح مع ولده ، فاستكمل جهات القرابات زوجة مع زوجها ، وولد مع والده ، ووالد مع ولده . وذكر حديث " يا فاطمة إعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً "

ثم قال : ليعلم المسلم أن أحداً لا يملك نفع أحد يوم القيامة ، ولو كان أقرب قريب إلا بواسطة الإيمان بالله وبما يكرم الله به من شاء بالشفاعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] الآية .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

جاء في هذا المثل بيان مقابل للبيان المتقدم اولمفهوم المخالف له ، وهو أن المؤمن لا تضره معاشرة الكافر كما أن الكافر لا تنفعه معاشرة المؤمن ، وفي هذا المثل قال الشيخ رحمة الله

تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء :

لقد اختارت امرأة فرعون في طلبها حسن الجوار قبل الدار اه .

أي في قولها : ﴿ ابن لِي عِندكَ بَيْتاً فِي الجنة ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ .

بين تعالى المراد بالروح بأنه جبريل عليه السلام في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 17] وهو جبريل .

(261/773)

كما في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] أي نزل جبريل بالقرآن ، وفي هذه الآية رد على النصارى استدلالهم بها على أن عيسى عليه السلام ابن الله ومن روحه تعالى ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وبيان هذا الرد أن قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا ﴾ [مريم : 17] تعدية أرسل بنفسه ، يدل على أن الذي أرسل يمكن إرساله بنفسه ، وهو فرق عند أهل اللغة ، بينما يرسل نفسه وما يرسل مع غيره كالرسالة ، والهداية ، فيقال فيه : أرسلت إليه بكذا ، كما في قوله : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل : 35] الآية .

فالهدية لا ترسل بنفسها ، ومثله بعثت ، تقول : بعثت البعير من مكانه ، وبعثت مبعوثاً ، وبعثت برسالة ، ثانياً قوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم 17] لفظ الروح مؤنث ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 83 – 84] أنت الفعل في بلغت ، وهنا الضمير مذكر عائد لجبريل .

وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 17] ، ولو أنه من روح الله على ما ذهب إليه النصارى ، لما كان في حاجة إلى هذا التمثيل .

ثالثاً قوله لها : ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم : 19] ورسوله ربها هو جبريل عليه السلام ، وليس روحه تعالى .

رابعاً : قوله : ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ [مريم : 19] ، ولم يقل لأهب لك روحاً من الله .

(262/773)

ومن هذا أيضاً قوله تعالى للملائكة ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ [ص : 71] يعني آدم عليه السلام ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص : 72] أي نفخت فيه الروح التي بها الحياة ، ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : 72] . فلو أن الروح من الله لكان آدم

أولى من عيسى ، لأنه لم يذكر إرسال رسول له ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] ، فكذلك عيسى عليه السلام لما بشرتها به الملائكة ، ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 47] ، فكل من آدم وعيسى ، قال له تعالى ﴿ كن فكان ﴾ والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(263/773)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ وُجُوهٌ : أَحَدُهَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَشْرَبُ وَيَأْكُلُ عِنْدَ زَيْنَبَ ، فَتَوَاطَأَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ عَلَى أَنْ تَقُولَا لَهُ : نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الْمَغَافِيرِ ،

قَالَ : " بَلْ شَرِبْت عِنْدَهَا عَسَلًا وَلَنْ أَعُودَ لَهُ " ، فَنَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك ﴾ .

وَقِيلَ : إنَّهُ شَرِبَ عِنْدَ حَفْصَةَ ، وَقِيلَ : عِنْدَ سَوْدَةَ ، وَأَنَّهُ حَرَّمَ الْعَسَلَ ؛ وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : " وَاَللَّهِ لَا أَذُوقُهُ " وَقِيلَ : إنَّهُ أَصَابَ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةَ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ ، فَعَلِمَتْ بِهِ فَجَزِعَتْ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهَا : " أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبُهَا ؟ " قَالَتْ : بَلَى ؛ فَحَرَّمَهَا وَقَالَ : " لَا تَذْكُرِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ " ، فَذَكَرَتْهُ لِعَائِشَةَ ، فَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك ﴾ الْآيَةَ رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِذَلِكَ .

(264/773)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا قَدْ كَانَا مِنْ تَحْرِيمِ مَارِيَةَ وَتَحْرِيمِ الْعَسَلِ ، إلَّا أَنَّ الْأَظْهَرَ أَنَّهُ حَرَّمَ مَارِيَةَ وَأَنَّ الْآيَةَ فِيهَا نَزَلَتْ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِك ﴾ ، وَلَيْسَ فِي تَرْكِ شُرْبِ الْعَسَلِ رِضَا أَزْوَاجِهِ ، وَفِي تَرْكِ قُرْبِ مَارِيَةَ رِضَاهُنَّ فَرُوِيَ فِي الْعَسَلِ أَنَّهُ حَرَّمَهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ حَلَفَ أَنْ لَا يَشْرَبَهُ وَأَمَّا مَارِيَةُ فَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : حَرَّمَهَا ؛ وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلَى وَحَرَّمَ ، فَقِيلَ لَهُ :

الْحَرَامُ حَلَالٌ وَأَمَّا الْيَمِينُ فَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ : " حَرَّمَ جَارِيَتَهُ " ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّهُ حَرَّمَ وَحَلَفَ أَيْضًا ، فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا فِيهَا التَّحْرِيمُ فَقَطْ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُلْحَقَ بِالْآيَةِ مَا لَيْسَ فِيهَا ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّحْرِيمُ يَمِينًا لِإِيجَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا كَفَّارَةَ يَمِينٍ بِإِطْلَاقِ لَفْظِ التَّحْرِيمِ .

(265/773)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : لَا فَرْقَ بَيْنَ التَّحْرِيمِ وَالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّ الْيَمِينَ تَحْرِيمٌ لِلْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ وَالتَّحْرِيمَ أَيْضًا يَمِينٌ ؛ وَهَذَا عِنْدَ أَصْحَابِنَا يَخْتَلِفُ فِي وَجْهٍ وَيَتَّفِقُ فِي وَجْهٍ آخَرَ ، فَالْوَجْهُ الَّذِي يُوَافِقُ الْيَمِينُ فِيهِ التَّحْرِيمَ أَنَّ الْحِنْثَ فِيهِمَا يُوجِبُ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَخْتَلِفَانِ فِيهِ أَنَّهُ لَوْ حَلَفَ أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ هَذَا الرَّغِيفَ فَأَكَلَ بَعْضَهُ لَمْ يَحْنَثْ ، وَلَوْ قَالَ : " قَدْ حَرَّمْت هَذَا الرَّغِيفَ عَلَى نَفْسِي " فَأَكَلَ مِنْهُ الْيَسِيرَ حَنِثَ وَلَزِمَتْهُ الْكَفَّارَةُ ؛ لِأَنَّهُمْ شَبَّهُوا تَحْرِيمَهُ الرَّغِيفَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ وَاَللَّهِ لَا أَكَلْت مِنْ هَذَا الرَّغِيفِ شَيْئًا ، تَشْبِيهًا لَهُ بِسَائِرِ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ مِنْ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ أَنَّهُ اقْتَضَى تَحْرِيمَ الْقَلِيلِ مِنْهُ وَالْكَثِيرِ .

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي الرَّجُلِ يُحَرِّمُ امْرَأَتَهُ ، فَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَزَيْدِ بْنِ

ثَابِتٍ وَابْنِ عُمَرَ : " أَنَّ الْحَرَامَ يَمِينٌ " ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ الْمُسَيِّبِ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ مِثْلُهُ ، وَرُوِيَ عَنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رِوَايَةٌ وَابْنِ عُمَرَ رِوَايَةٌ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ قَالُوا : " هِيَ ثَلَاثٌ " وَرَوَى خُصَيْفٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الْحَرَامِ

(266/773)

بِمَنْزِلَةِ الظِّهَارِ وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " النَّذْرُ وَالْحَرَامُ إذَا لَمْ يُسَمَّ مُغَلَّظَةٌ ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ رَقَبَةٌ أَوْ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ أَوْ إطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا " .

وَرَوَى ابْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا : " إذَا حَرَّمَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فَهِيَ يَمِينٌ يُكَفِّرُهَا ، أَمَا لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ يَمِينٍ ، وَأَنَّهُ إنْ أَرَادَ الظِّهَارَ كَانَ ظِهَارًا .

وَقَالَ مَسْرُوقٌ " مَا أُبَالِي إيَّاهَا حَرَّمْت أَوْ قَصْعَةً مِنْ ثَرِيدٍ " وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : " مَا أُبَالِي حَرَّمْت امْرَأَتِي أَوْ مَاءً فُرَاتًا " .

(267/773)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ يَمِينًا ؛ لِأَنَّهُ لَا جَائِزَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمَا فِي تَحْرِيمِ الثَّرِيدِ وَالْمَاءِ أَنَّهُ يَمِينٌ ، فَكَأَنَّهُمَا لَمْ يَرَيَا ذَلِكَ طَلَاقًا ؛ وَكَذَلِكَ نَقُولُ : إنَّهُ لَيْسَ بِطَلَاقٍ إلَّا أَنْ يَنْوِيَهُ ، فَلَمْ تَظْهَرْ مُخَالَفَةُ هَذَيْنِ لِمَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُمْ مِنْ الصَّحَابَةِ وَاتِّفَاقُهُمْ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَيْسَ بِلَغْوٍ وَأَنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ يَمِينًا أَوْ طَلَاقًا أَوْ ظِهَارًا وَاخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي الْحَرَامِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " إنْ نَوَى الطَّلَاقَ فَوَاحِدَةٌ بَائِنَةٌ إلَّا أَنْ يَنْوِيَ ثَلَاثًا ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ طَلَاقًا فَهُوَ يَمِينٌ وَهُوَ مُولٍ " وَذَكَرَ ابْنُ سِمَاعَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ : " أَنَّهُ إنْ نَوَى ظِهَارًا لَمْ يَكُنْ ظِهَارًا ؛ لِأَنَّ الظِّهَارَ أَصْلُهُ بِحَرْفِ التَّشْبِيهِ " وَرَوَى ابْنُ شُجَاعٍ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي اخْتِلَافِ زُفَرَ وَأَبِي يُوسُفَ : " أَنَّهُ إنْ نَوَى ظِهَارًا كَانَ ظِهَارًا " وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : " هِيَ ثَلَاثٌ وَلَا أَسْأَلُهُ عَنْ نِيَّتِهِ " وَقَالَ مَالِكٌ فِيمَا ذَكَرَ عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ : " الْحَرَامُ لَا يَكُونُ يَمِينًا فِي شَيْءٍ إلَّا أَنْ يُحَرِّمَ امْرَأَتَهُ فَيَلْزَمُهُ الطَّلَاقُ ،

وَهُوَ ثَلَاثٌ ، إلَّا أَنْ يَنْوِيَ وَاحِدَةً أَوْ ثِنْتَيْنِ فَيَكُونَ عَلَى مَا نَوَى " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : " إنْ نَوَى ثَلَاثًا فَثَلَاثٌ ، وَإِنْ نَوَى وَاحِدَةً فَوَاحِدَةٌ بَائِنَةٌ ، وَإِنْ نَوَى يَمِينًا فَهِيَ يَمِينٌ يُكَفِّرُهَا ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ فُرْقَةً وَلَا يَمِينًا فَلَيْسَ بِشَيْءٍ هِيَ كِذْبَةٌ " .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " هُوَ عَلَى مَا نَوَى ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا فَهُوَ يَمِينٌ " وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ " هُوَ بِمَنْزِلَةِ الظِّهَارِ " وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " لَيْسَ بِطَلَاقٍ حَتَّى يَنْوِيَ فَإِذَا نَوَى فَهُوَ طَلَاقٌ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ عَدَدِهِ ، وَإِنْ أَرَادَ تَحْرِيمَهَا بِلَا طَلَاقٍ فَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ وَلَيْسَ بِمُولٍ " .

(269/773)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ جَعَلَ أَصْحَابُنَا التَّحْرِيمَ يَمِينًا إذَا لَمْ تُقَارِنْهُ نِيَّةُ الطَّلَاقِ إذَا حَرَّمَ امْرَأَتَهُ ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ لَهَا : " وَاَللَّهِ لَا أَقْرَبُك " فَيَكُونُ مُولِيًا ، وَأَمَّا إذَا حَرَّمَ غَيْرَ امْرَأَتِهِ مِنْ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَغَيْرِهِمَا فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : " وَاَللَّهِ لَا آكُلُ مِنْهُ وَاَللَّهِ لَا أَشْرَبُ مِنْهُ " وَنَحْوَ ذَلِكَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، فَجَعَلَ التَّحْرِيمَ يَمِينًا ، فَصَارَتْ الْيَمِينُ فِي مَضْمُونِ لَفْظِ التَّحْرِيمِ وَمُقْتَضَاهُ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ ، فَإِذَا أَطْلَقَ كَانَ مَحْمُولًا عَلَى الْيَمِينِ إلَّا أَنْ يَنْوِيَ غَيْرَهَا فَيَكُونُ مَا نَوَى ، فَإِذَا حَرَّمَ امْرَأَتَهُ وَأَرَادَ الطَّلَاقَ كَانَ طَلَاقًا لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ لَهُ ؛ وَكُلُّ لَفْظٍ يَحْتَمِلُ الطَّلَاقَ وَيَحْتَمِلُ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ مَتَى أَرَادَ بِهِ الطَّلَاقَ كَانَ طَلَاقًا ، وَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرُكَانَةَ حِينَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ أَلْبَتَّةَ : ﴿ بِاللَّهِ مَا أَرَدْت إلَّا وَاحِدَةً ﴾ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ يَحْتَمِلُ الثَّلَاثَ وَيَحْتَمِلُ غَيْرَهَا فَإِنَّهُ مَتَى أَرَادَ الثَّلَاثَ كَانَ ثَلَاثًا ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَسْتَحْلِفْهُ عَلَيْهَا .

(270/773)

وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمْ يَلْزَمْهُ الثَّلَاثُ بِوُجُودِ اللَّفْظِ وَجَعْلِ الْقَوْلِ قَوْلَهُ لِلِاحْتِمَالِ فِيهِ ، فَصَارَ ذَلِكَ أَصْلًا فِي أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ يَحْتَمِلُ الطَّلَاقَ وَغَيْرَهُ أَنَّا لَا نَجْعَلُهُ طَلَاقًا إلَّا بِمُقَارَنَةِ الدَّلَالَةِ لِإِرَادَةِ الطَّلَاقِ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّفْظَ الْمُحْتَمِلَ لِلطَّلَاقِ يَجُوزُ إيقَاعُ الطَّلَاقِ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَلَاقًا فِي نَفْسِهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِسَوْدَةَ : " اعْتَدِّي " ثُمَّ رَاجَعَهَا فَأَوْقَعَ الطَّلَاقَ بِقَوْلِهِ : " اعْتَدِّي " لِاحْتِمَالِهِ لَهُ ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ السَّلَفِ مَنَعَ إيقَاعَ الطَّلَاقِ بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : هُوَ يَمِينٌ فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ عِنْدَنَا إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةُ الطَّلَاقِ وَلَمْ تُقَارِنْهُ دَلَالَةُ الْحَالِ .

(271/773)

وَزَعَمَ مَالِكٌ أَنَّ مَنْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا غَيْرَ امْرَأَتِهِ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ بِذَلِكَ شَيْءٌ وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِيَمِينٍ ، وَقَدْ اقْتَضَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك ﴾ مِنْ كَوْنِهِ يَمِينًا ،

لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إسْقَاطُ مُوجَبِ هَذَا اللَّفْظِ مِنْ كَوْنِ الْحَرَامِ يَمِينًا بِرِوَايَةِ مَنْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ أَنْ لَا يَشْرَبَ الْعَسَلَ ، إذْ غَيْرُ جَائِزٍ الِاعْتِرَاضُ عَلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ؛ وَلِأَنَّ مَنْ رَوَى الْيَمِينَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إنَّمَا عَنَى بِهِ التَّحْرِيمَ وَحْدَهُ ؛ إذْ كَانَ التَّحْرِيمُ يَمِينًا وَيَدُلُّ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ عَلَى أَنَّ التَّحْرِيمَ يَمِينٌ أَنَّ الْمُحَرِّمَ لِلشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ قَدْ اقْتَضَى لَفْظُهُ إيجَابَ الِامْتِنَاعِ مِنْهُ كَالْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَذَلِكَ فِي مَعْنَى النَّذْرِ وَقَوْلُ الْقَائِلِ : " لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ لَا أَفْعَلَ ذَلِكَ " ، فَلَمَّا كَانَ النَّذْرُ

يَمِينًا بِالسُّنَّةِ وَاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ تَحْرِيمُ الشَّيْءِ بِمَنْزِلَةِ النَّذْرِ فَتَجِبُ فِيهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ إذَا حَنِثَ كَمَا تَجِبُ فِي النَّذْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ قَالَ : " عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ الْخَيْرَ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " تُعَلِّمُهُمْ وَتَأْمُرُهُمْ وَتَنْهَاهُمْ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلَيْنَا تَعْلِيمَ أَوْلَادِنَا وَأَهْلِينَا الدِّينَ وَالْخَيْرَ وَمَا لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ مِنْ الْآدَابِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وَنَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنَّا مَزِيَّةً بِهِ فِي لُزُومِنَا تَعْلِيمَهُمْ وَأَمْرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّاعِيَ كَمَا عَلَيْهِ حِفْظُ مَنْ اسْتُرْعِيَ وَحِمَايَتُهُ وَالْتِمَاسُ مَصَالِحِهِ فَكَذَلِكَ عَلَيْهِ تَأْدِيبُهُ وَتَعْلِيمُهُ ؛ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ وَالْأَمِيرُ رَاعٍ عَلَى رَعِيَّتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ﴾ .

(273/773)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى السَّعْدِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَهْرَمَانِ آلِ الزُّبَيْرِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا خَيْرًا مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ ﴾ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَضْرَمِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا جُبَارَةُ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى بْنِ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَبِيعَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ مِنْ عَطِيَّةَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِذَا بَلَغَ أَوْلَادُكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَعَلِّمُوهُمْ الصَّلَاةَ ، وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ .

(274/773)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : " أَكْثَرُ مَنْ كَانَ يُصِيبُ الْحُدُودَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ الْمُنَافِقُونَ ، فَأُمِرَ أَنْ يَغْلُظَ عَلَيْهِمْ فِي إقَامَةِ الْحَدِّ " وَقِيلَ : جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ بِالْقَوْلِ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ بِالْحَرْبِ " .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ الْغِلْظَةِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَنَهْيٌ عَنْ مُقَارَبَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : " إذَا لَمْ تَقْدِرُوا أَنْ تُنْكِرُوا عَلَى الْفَاجِرِ فَالْقَوْهُ بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ " وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " كَانَتَا مُنَافِقَتَيْنِ مَا زَنَتْ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ " ؛ وَكَانَتْ خِيَانَتُهُمَا أَنَّ امْرَأَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ : إنَّهُ

مَجْنُونٌ ، وكَانَتْ امْرَأَةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَدُلُّ عَلَى الضَّيْفِ .

آخِرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(275/773)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِك وَاَللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا ﴿ الْمَوْهُوبَةُ الَّتِي جَاءَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : إنِّي وَهَبْت لَك نَفْسِي .

فَلَمْ يَقْبَلْهَا ﴾ رَوَاهُ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثَّانِي : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مَارِيَةَ أُمِّ إبْرَاهِيمَ ، خَلَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

بَيْتِ حَفْصَةَ ، وَقَدْ خَرَجَتْ لِزِيَارَةِ أَبِيهَا ، فَلَمَّا عَادَتْ وَعَلِمَتْ عَتَبَتْ عَلَيْهِ ، فَحَرَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفْسِهِ إِرْضَاءً لِحَفْصَةَ ، وَأَمَرَهَا أَلَّا تُخْبِرَ أَحَدًا مِنْ نِسَائِهِ ، فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ عَائِشَةَ لِمُصَافَاةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا ؛ فَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفْصَةَ ، وَاعْتَزَلَ نِسَاءَهُ شَهْرًا ، وَكَانَ جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُحَرِّمَهُنَّ شَهْرًا ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَرَاجَعَ حَفْصَةَ ، وَاسْتَحَلَّ مَارِيَةَ ، وَعَادَ إِلَى نِسَائِهِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالشَّعْبِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ .

وَاخْتَلَفُوا هَلْ حَرَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَارِيَةَ بِيَمِينٍ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَقَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ ، وَالشَّعْبِيُّ : حَرَّمَهَا بِيَمِينٍ .

(276/773)

وَقَالَ غَيْرُهُمْ : إِنَّهُ حَرَّمَهَا بِغَيْرِ يَمِينٍ ، وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

الثَّالِثُ : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّفْظُ لِلْجُعْفِيِّ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ﴿ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى أَيَّتِنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ : أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ

مَغَافِيرَ .

قَالَ : لَا .

وَلَكِنِّي شَرِبْت عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ .

وَقَدْ حَلَفْت لَا تُخْبِرِي أَحَدًا يَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِهِ ﴾ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ شَرِبَهُ عِنْدَ حَفْصَةَ ، وَذَكَرَ نَحْوًا مِنْ الْقِصَّةِ ، وَكَذَلِكَ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ .

وَالْأَكْثَرُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عِنْدَ زَيْنَبَ ، وَأَنَّ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَيْهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ شَرِبَهُ عِنْدَ سَوْدَةَ .

وَرَوَى أَسْبَاطٌ عَنْ السُّدِّيِّ أَنَّهُ شَرِبَهُ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَكُلُّهُ جَهْلٌ وَتَسَوُّرٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا مَنْ رَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمَوْهُوبَةِ فَهُوَ ضَعِيفٌ فِي السَّنَدِ ، وَضَعِيفٌ فِي الْمَعْنَى ؛ أَمَّا ضَعْفُهُ فِي السَّنَدِ فَلِعَدَمِ عَدَالَةِ رُوَاتِهِ ، وَأَمَّا ضَعْفُهُ فِي مَعْنَاهُ فَلِأَنَّ رَدَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَوْهُوبَةِ لَيْسَ تَحْرِيمًا لَهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ رَدَّ مَا وُهِبَ لَهُ لَمْ يَحْرُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهُ التَّحْرِيمُ بَعْدَ التَّحْلِيلِ .

وَأَمَّا مَنْ رَوَى أَنَّهُ حَرَّمَ مَارِيَةَ فَهُوَ أَمْثَلُ فِي السَّنَدِ ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْمَعْنَى ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يُدَوَّنْ فِي صَحِيحٍ ، وَلَا عُدِّلَ نَاقِلُهُ ، كَمَا أَنَّهُ رُوِيَ مُرْسَلًا .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ؛ قَالَ ﴿ : حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ ؛ وَاللَّهِ لَا أَتَيْتُك .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِك ﴾

﴾ .

وَرَوَى مِثْلَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ .

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ ، قَالَ : رَاجَعَتْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي شَيْءٍ ، فَاقْشَعَرَّ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ : مَا كَانَ النِّسَاءُ هَكَذَا .

قَالَتْ : بَلَى ، وَقَدْ كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَاجِعْنَهُ .

فَاحْتَزَمَ ثَوْبَهُ ، فَخَرَجَ إِلَى حَفْصَةَ ، فَقَالَ لَهَا : أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَنَّك تَكْرَهُ مَا فَعَلْت .

فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَجَرَ نِسَاءَهُ قَالَ : رَغْمَ أَنْفِ حَفْصَةَ .

وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ فِي الْعَسَلِ ، وَأَنَّهُ شَرِبَهُ عِنْدَ زَيْنَبَ ، وَتَظَاهَرَتْ عَلَيْهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ فِيهِ ، وَجَرَى مَا جَرَى ، فَحَلَفَ أَلَّا يَشْرَبَهُ ، وَأَسَرَّ ذَلِكَ ، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي الْجَمِيعِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ إنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ وَلَمْ يَحْلِفْ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِيَمِينٍ عِنْدَنَا فِي الْمَعْنَى ، وَلَا يُحَرِّمُ شَيْئًا قَوْلُ الرَّجُلِ : هَذَا حَرَامٌ عَلَيَّ ، حَاشَا الزَّوْجَةَ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إذَا أُطْلِقَ حُمِلَ عَلَى الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ دُونَ الْمَلْبُوسِ ، وَكَانَتْ يَمِينًا تُوجِبُ الْكَفَّارَةَ .

[وَقَالَ زُفَرُ : هُوَ يَمِينٌ فِي الْكُلِّ ، حَتَّى فِي الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ .

وَعَوَّلَ الْمُخَالِفُ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ الْعَسَلَ ، فَلَزِمَتْهُ الْكَفَّارَةُ] .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ فَسَمَّاهُ يَمِينًا ؛ وَعَوَّلَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْيَمِينِ التَّحْرِيمُ ، فَإِذَا وُجِدَ مَلْفُوظًا بِهِ تَضَمَّنَ مَعْنَاهُ كَالْمِلْكِ فِي الْبَيْعِ .

وَدَلِيلُنَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ فَذَمَّ اللَّهُ الْمُحَرِّمَ لِلْحَلَالِ ، وَلَمْ يُوجِبْ عَلَيْهِ كَفَّارَةً .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَهَذَا يَنْقُضُ مَذْهَبَ الْمُخَالِفِينَ : زُفَرَ ، وَأَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَنْقُضُ مَذْهَبَ أَبِي حَنِيفَةَ إخْرَاجُهُ اللِّبَاسَ مِنْهُ ، وَلَا جَوَابَ لَهُ عَنْهُ ، وَخَفِيَ عَنْ الْقَوْمِ سَبَبُ الْآيَةِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ أَلَّا يَشْرَبَ عَسَلًا .

وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الْكَفَّارَةِ ؛ وَقِيلَ لَهُ : لِمَ تُحَرِّمُ .

وَقَوْلُهُمْ : إنَّ مَعْنَى النَّهْيِ تَحْرِيمُ الْحَلَالِ فَكَانَ كَالْمَالِ فِي الْبَيْعِ لَا يَصِحُّ ؛ بَلْ التَّحْرِيمُ مَعْنًى يُرَكَّبُ عَلَى لَفْظِ الْيَمِينِ ، فَإِذَا لَمْ يُوجَدْ اللَّفْظُ لَمْ يُوجَدْ الْمَعْنَى بِخِلَافِ الْمِلْكِ فَإِنَّهُ لَمْ يُرَكَّبْ عَلَى لَفْظِ الْبَيْعِ ، بَلْ هُوَ فِي مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَقَدْ اسْتَوْعَبْنَا الْقَوْلَ فِي كِتَابِ تَخْلِيصِ التَّلْخِيصِ ، وَالْإِنْصَافِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ إذَا حَرَّمَ الزَّوْجَةَ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ قَوْلًا ، وَجَمَعْنَاهَا فِي كِتَابِ الْمَسَائِلِ ، وَأَوْضَحْنَاهَا بِمَا مَقْصُودُهُ أَنْ نَقُولَ : يَجْمَعُهَا ثَلَاثَةُ مَقَامَاتٍ : الْمَقَامُ الْأَوَّلُ : فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا يَمِينٌ تُكَفَّرُ ؛ قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعَائِشَةُ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ .

الثَّانِي قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : تَجِبُ فِيهِ كَفَّارَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي إحْدَى

رِوَايَتَيْهِ ، وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ ؛ قَالَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَالزُّهْرِيُّ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونِ .

(280/773)

الرَّابِعُ أَنَّهَا ظِهَارٌ ؛ قَالَهُ عُثْمَانُ ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ .

الْخَامِسُ أَنَّهَا طَلْقَةٌ بَائِنَةٌ ؛ قَالَهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، وَرَوَاهُ ابْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادٍ عَنْ مَالِكٍ .

السَّادِسُ أَنَّهَا ثَلَاثُ تَطْلِيقَاتٍ ؛ قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ [وَمَالِكٌ] .

السَّابِعُ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنْ نَوَى الطَّلَاقَ أَوْ الظِّهَارَ كَانَ مَا نَوَى ، وَإِلَّا كَانَتْ يَمِينًا وَكَانَ الرَّجُلُ مُولِيًا مِنْ امْرَأَتِهِ .

الثَّامِنُ أَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ نِيَّةُ الظِّهَارِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ طَلَاقًا ؛ قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ .

التَّاسِعُ قَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ : يَكُونُ طَلَاقًا ، فَإِنْ ارْتَجَعَهَا لَمْ يَجُزْ لَهُ وَطْؤُهَا حَتَّى يُكَفِّرَ كَفَّارَةَ الظِّهَارِ .

الْعَاشِرُ هِيَ ثَلَاثٌ قَبْلُ وَبَعْدُ ، لَكِنَّهُ يَنْوِي فِي الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهَا فِي الْوَاحِدَةِ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ ،

وَابْنُ الْقَاسِمِ .

الْحَادِيَ عَشَرَ ثَلَاثٌ ، وَلَا يَنْوِي بِحَالٍ ، وَلَا فِي مَحِلٍّ ؛ قَالَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي الْمَبْسُوطِ .

الثَّانِيَ عَشَرَ هِيَ فِي الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهَا وَاحِدَةٌ ، وَفِي الَّتِي دَخَلَ بِهَا ثَلَاثٌ ؛ قَالَهُ أَبُو مُصْعَبٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ .

الثَّالِثَ عَشَرَ أَنَّهُ إنْ نَوَى الظِّهَارَ ، وَهُوَ أَنْ

يَنْوِيَ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ كَتَحْرِيمِ أُمِّهِ كَانَ ظِهَارًا ، وَإِنْ نَوَى تَحْرِيمَ عَيْنِهَا عَلَيْهِ بِغَيْرِ طَلَاقٍ تَحْرِيمًا مُطْلَقًا وَجَبَتْ كَفَّارَةُ يَمِينٍ ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا فَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ ؛ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ .

الرَّابِعَ عَشَرَ أَنَّهُ إنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ .

(281/773)

الْخَامِسَ عَشَرَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِيهَا ؛ قَالَهُ مَسْرُوقُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ .

وَرَأَيْت بَعْدَ ذَلِكَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ عَلَيْهِ عِتْقَ رَقَبَةٍ ، وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْهَا ظِهَارًا .

وَلَسْت أَعْلَمُ لَهُ وَجْهًا ، وَلَا يَتَعَدَّدُ فِي الْمَقَالَاتِ عِنْدِي .

الْمَقَامُ الثَّانِي فِي التَّوْجِيهِ : أَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا يَمِينٌ فَقَالَ : سَمَّاهَا اللَّهُ يَمِينًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَك ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

أَيْمَانِكُمْ ﴾ ؛ فَسَمَّاهَا اللَّهُ يَمِينًا ، وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ عَلَى شُرْبِ الْعَسَلِ ، وَهَذِهِ يَمِينٌ كَمَا قَدَّمْنَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : تَجِبُ فِيهَا كَفَّارَةٌ وَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ فَبَنَاهُ عَلَى أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ الْكَفَّارَةَ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ يَمِينًا ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ .

الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى الْيَمِينِ عِنْدَهُ التَّحْرِيمُ ، فَوَقَعَتْ الْكَفَّارَةُ عَلَى الْمَعْنَى ، وَنَحْنُ لَا نَقُولُ بِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ وَفِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ ، فَبَنَاهُ عَلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ وَهُوَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى أَقَلِّ وُجُوهِهِ ، وَالرَّجْعِيَّةُ مُحَرِّمَةُ الْوَطْءِ ، فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ اللَّفْظُ ، وَهَذَا يَلْزَمُ مَالِكًا لِقَوْلِهِ : إنَّ الرَّجْعِيَّةَ مُحَرِّمَةُ الْوَطْءِ .

(282/773)

وَكَذَلِكَ وَجْهُ مَنْ قَالَ : إنَّهُ ثَلَاثٌ ، فَحَمَلَهُ عَلَى أَكْبَرِ مَعْنَاهُ ؛ وَهُوَ الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ

وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ ظِهَارٌ فَبَنَاهُ عَلَى أَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَقَلُّ دَرَجَاتِ التَّحْرِيمِ فَإِنَّهُ تَحْرِيمٌ لَا

يَرْفَعُ النِّكَاحَ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّهُ طَلْقَةٌ بَائِنَةٌ فَعَوَّلَ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ لَا يُحَرِّمُ الْمُطَلَّقَةَ، وَأَنَّ الطَّلَاقَ الْبَائِنَ يُحَرِّمُهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ لَهَا: أَنْتِ طَالِقٌ لَا رَجْعَةَ لِي عَلَيْك نَفَذَ وَسَقَطَتْ الرَّجْعَةُ، وَحُرِّمَتْ؛ فَكَذَلِكَ إذَا قَالَ لَهَا: أَنْتِ حَرَامٌ [عَلَيَّ] فَإِنَّهُ يَكُونُ طَلَاقًا بَائِنًا مَعْنَوِيًّا، وَكَأَنَّهُ أَلْزَمَ نَفْسَهُ مَعْنَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ إنْفَاذِ الطَّلَاقِ وَإِسْقَاطِ الرَّجْعَةِ.

وَنَحْنُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ يَنْفُذُ قَوْلُهُ: أَنْتِ طَالِقٌ لَا رَجْعَةَ لِي عَلَيْك؛ فَإِنَّ الرَّجْعَةَ حُكْمُ اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ إسْقَاطُهُ إلَّا بِمَا أَسْقَطَهُ اللَّهُ مِنْ الْعِوَضِ الْمُقْتَرِنِ بِهِ، أَوْ الثَّلَاثِ الْقَاضِيَةِ عَلَيْهِ وَالْغَايَةِ لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ وَهُوَ أَبُو حَنِيفَةَ إنَّهَا تَكُونُ عَارِيَّةً عَنْ النِّيَّةِ يَمِينًا فَقَدْ تَقَدَّمَ بُطْلَانُهُ.

وَأَمَّا نَفْيُ الظِّهَارِ فِيهِ فَيَنْبَنِي عَلَى أَنَّ الظِّهَارَ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ يَخْتَصُّ بِمَعْنًى، فَاخْتَصَّ بِلَفْظٍ، وَهَذَا إنَّمَا يَلْزَمُ لِمَنْ يَرَى مُرَاعَاةَ الْأَلْفَاظِ؛ وَنَحْنُ إنَّمَا نَعْتَبِرُ الْمَعَانِيَ خَاصَّةً، إلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ تَعَبُّدًا.

وَأَمَّا قَوْلُ يَحْيَى بْنِ عُمَرَ فَإِنَّهُ احْتَاطَ بِأَنْ جَعَلَهُ طَلَاقًا ؛ فَلَمَّا ارْتَجَعَهَا احْتَاطَ بِأَنْ أَلْزَمَهُ الْكَفَّارَةَ .

وَهَذَا لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْمُتَضَادَّيْنِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ ظِهَارٌ وَطَلَاقٌ فِي مَعْنَى لَفْظٍ وَاحِدٍ ، فَلَا وَجْهَ لِلِاحْتِيَاطِ فِيمَا لَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُ فِي الدَّلِيلِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ يَنْوِي فِي الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهَا فَلِأَنَّ الْوَاحِدَةَ تُبِينُهَا وَتُحَرِّمُهَا شَرْعًا إجْمَاعًا .

وَكَذَلِكَ قَالَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِاعْتِبَارِ نِيَّتِهِ : إنَّ الْوَاحِدَةَ تَكْفِي قَبْلَ الدُّخُولِ فِي التَّحْرِيمِ بِالْإِجْمَاعِ ، فَيَكْفِي أَخْذًا بِالْأَقَلِّ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ مُخْتَلَفٌ فِي اقْتِضَائِهِ التَّحْرِيمَ فِي الْعِدَّةِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا ثَلَاثٌ فِيهِمَا فَلِأَنَّهُ أَخَذَ بِالْحُكْمِ الْأَعْظَمِ فَإِنَّهُ لَوْ صَرَّحَ بِالثَّلَاثِ لَنَفَذَتْ فِي الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ بِهَا نُفُوذَهَا فِي الَّتِي دَخَلَ بِهَا .

وَمِنْ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِثْلَهُ وَهُوَ التَّحْرِيمُ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ فَيَرْجِعُ إلَى إيجَابِ الْكَفَّارَةِ فِي التَّحْرِيمِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فَسَادُهُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : لَا شَيْءَ فِيهَا فَعُمْدَتُهُمْ أَنَّهُ كَذِبٌ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَاقْتَحَمَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّحْرِيمُ فِي الشَّرْعِ مُرَتَّبًا عَلَى أَسْبَابِهِ ؛ فَأَمَّا إرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ فَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا طَلْقَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ ذَكَرَ الطَّلَاقَ لَكَانَ أَقَلَّهُ وَهُوَ الْوَاحِدَةُ ، إلَّا أَنْ يُعَدِّدَهُ ، كَذَلِكَ إذَا ذَكَرَ التَّحْرِيمَ يَكُونُ أَقَلَّهُ ، إلَّا أَنْ يُقَيِّدَهُ بِالْأَكْثَرِ ؛ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ إلَّا بَعْدَ زَوْجٍ ، فَهَذَا نَصٌّ عَلَى الْمُرَادِ .

وَقَدْ أَحْكَمْنَا الْأَسْئِلَةَ وَالْأَجْوِبَةَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَالتَّفْرِيعِ .

الْمَقَامُ الثَّالِثُ فِي تَصْوِيرِهَا ، وَأَخَّرْنَاهُ فِي الْأَحْكَامِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَا يَجِبُ مِنْ تَقْدِيمِ مَعْنَى الْآيَةِ ، وَاسْتَقْدَمْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَالتَّفْرِيعِ ؛ لِيَقَعَ الْكَلَامُ عَلَى كُلِّ صُورَةٍ مِنْهَا .

وَعَدَدُ صُوَرِهَا عَشْرَةٌ : الْأُولَى : قَوْلُهُ : حَرَامٌ .

الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : عَلَيَّ حَرَامٌ .

الثَّالِثَةُ : أَنْتِ حَرَامٌ .

الرَّابِعَةُ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ .

الْخَامِسَةُ : الْحَلَالُ عَلَيَّ حَرَامٌ .

السَّادِسَةُ : مَا أَنْقَلِبُ إلَيْهِ حَرَامٌ .

السَّابِعَةُ : مَا أَعِيشُ فِيهِ حَرَامٌ .

الثَّامِنَةُ : مَا أَمْلِكُهُ حَرَامٌ عَلَيَّ .

التَّاسِعَةُ :

الْحَلَالُ حَرَامٌ .

الْعَاشِرَةُ أَنْ يُضِيفَ التَّحْرِيمَ إلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا .

فَأَمَّا الْأُولَى ، وَالثَّانِيَةُ ، وَالتَّاسِعَةُ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ مُطْلَقٌ لَا ذِكْرَ لِلزَّوْجَةِ فِيهِ ، وَلَوْ قَالَ : مَا أَنْقَلِبُ إلَيْهِ حَرَامٌ فَهُوَ مَا يَلْزَمُهُ فِي قَوْلِهِ : الْحَلَالُ عَلَيَّ حَرَامٌ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الزَّوْجَةُ ، إلَّا أَنْ يُحَاشِيَهَا .

وَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ فِي غَيْرِهَا مِنْ الْمُحَلَّلَاتِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

(285/773)

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي وَجْهِ الْمُحَاشَاةِ ، فَقَالَ أَكْثَرُ أَصْحَابِنَا : إنْ حَاشَاهَا بِقَلْبِهِ خَرَجَتْ .

وَقَالَ أَشْهَبُ : لَا يُحَاشِيهَا إلَّا بِلَفْظِهِ ، كَمَا دَخَلَتْ فِي لَفْظِهِ .

وَالصَّحِيحُ جَوَازُ الْمُحَاشَاةِ بِالْقَلْبِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعُمُومَ يَخْتَصُّ بِالنِّيَّةِ .

وَأَمَّا إضَافَةُ التَّحْرِيمِ إلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا فَشَأْنُهُ شَأْنُهُ فِيمَا إذَا أَضَافَ الطَّلَاقَ إلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ كَبِيرَةٌ .

قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : يُطَلِّقُ فِي جَمِيعِهَا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَلْزَمُهُ الطَّلَاقُ فِي ذِكْرِ [الرَّأْسِ وَنَحْوِهِ ، وَلَا يَلْزَمُهُ الطَّلَاقُ فِي ذِكْرِ] الْيَدِ

وَنَحْوِهَا ؛ وَذَلِكَ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ وَالتَّفْرِيعِيَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ إذَا حَرَّمَ الْأَمَةَ لَمْ يَلْزَمْهُ تَحْرِيمٌ ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ : تَلْزَمُهُ الْكَفَّارَةُ ، وَسَاعَدَهُ سِوَاهُ ، فَإِنْ تَعَلَّقُوا بِالْآيَةِ فَلَا حُجَّةَ فِيهَا ، وَإِنْ تَعَلَّقُوا بِأَنَّ الظِّهَارَ عِنْدَنَا يَصِحُّ فِيهَا فَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الظِّهَارَ حُكْمٌ مُخْتَصٌّ لَا يَلْحَقُ بِهِ غَيْرُهُ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّمَا صَحَّ ظِهَارُهُ فِي الْأَمَةِ لِأَنَّهَا مِنْ النِّسَاءِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ ، وَأَوْضَحْنَا أَيْضًا أَنَّ الْأَمَةَ مِنْ الْمُحَلَّلَاتِ ، فَلَا يَلْحَقُهَا التَّحْرِيمُ كَالطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ شُبْهَةٍ قَدْ تَقَصَّيْنَا عَنْهَا فِي مَسَائِلِ الْإِنْصَافِ .

(286/773)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُوا ﴾ : قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ : مَعْنَاهُ اصْرِفُوا ، وَتَحْقِيقُهَا اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا وِقَايَةً .

وَمِثْلُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَأْوِيلِهَا .

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ مَعْنَاهُ قُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَأَهْلِيكُمْ فَلْيَقُوا أَنْفُسَهُمْ .

الثَّانِي : قُوا أَنْفُسَكُمْ وَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ .

(287/773)

الثَّالِثُ : قُوا أَنْفُسَكُمْ بِفِعَالِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ بِوَصِيَّتِكُمْ إِيَّاهُمْ ؛ قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ، وَالْفِقْهُ الَّذِي يُعْطِيهِ الْعَطْفُ الَّذِي يَقْتَضِي التَّشْرِيكَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ ، كَقَوْلِهِ : عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا وَكَقَوْلِهِ : وَرَأَيْت زَوْجَك فِي الْوَغَى مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ يُصْلِحَ نَفْسَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَيُصْلِحَ أَهْلَهُ إصْلَاحَ الرَّاعِي لِلرَّعِيَّةِ ؛ فَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ﴾ .

وَعَنْ هَذَا عَبَّرَ الْحَسَنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ .

وَقَدْ رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ ؛ خَرَّجَهُ

جَمَاعَةٌ .

وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُد ، وَخُرِّجَ أَيْضًا عَنْ سَمُرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ﴾ .

وَكَذَلِكَ يُخْبِرُ أَهْلَهُ بِوَقْتِ الصَّلَاةِ ، وَوُجُوبِ الصِّيَامِ ، وَوُجُوبِ الْفِطْرِ إذَا وَجَبَ ، مُسْتَنِدًا فِي ذَلِكَ إلَى رُؤْيَةِ الْهِلَالِ .

(288/773)

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا أَوْتَرَ يَقُولُ : قُومِي فَأَوْتِرِي يَا عَائِشَةُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَأَيْقَظَ أَهْلَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقُمْ رَشَّ وَجْهَهَا بِالْمَاءِ .

رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ تُصَلِّي وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا ، فَإِنْ لَمْ يَقُمْ رَشَّتْ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ الْمَاءِ ﴾ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ : أَيْقِظُوا صَوَاحِبَ الْحُجَرِ ﴾ .

وَيَدْخُلُ هَذَا فِي عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَكَمَا يُؤَدِّبُ وَلَدَهُ فِي مَصْلَحَتِهِمْ فَكَذَلِكَ يُؤَدِّبُ أَهْلَهُ فِيمَا يُصْلِحُهُ وَيُصْلِحُهُمْ أَدَبًا خَفِيفًا عَلَى طَرِيقِ التَّعْزِيرِ .

وَلَيْسَ يَدْخُلُ ذَلِكَ فِي شَرْطِهَا الْمُحْدَثِ الَّذِي يَكْتُبُهُ الْمُتَصَدِّرُونَ وَيَقُولُونَ : وَلَا يَضْرِبُهَا فِي نَفْسِهَا ، فَإِنْ فَعَلَ فَأَمْرُهَا بِيَدِهَا ؛ فَيَظُنُّ الْمُتَصَدِّرُونَ مِنْ الْمُفْتِينَ أَنَّهُ إذَا أَرَادَ أَدَبَهَا كَانَ أَمْرُهَا بِيَدِهَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، إنَّمَا يَجِبُ لَهَا الْخِيَارُ إذَا كَانَ ضَرْبُهَا ابْتِدَاءً ، أَوْ عَلَى غَيْرِ سَبَبٍ مُوجِبٍ لِذَلِكَ ، وَهُوَ الضَّرَرُ .

فَأَمَّا مَا يُصْلِحُ الزَّوْجَ وَيُصْلِحُ الْمَرْأَةَ فَلَيْسَ ضَرَرًا ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى حَدِّ الضَّرَرِ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَبَيَّنَّا حَدَّهُ الَّذِي يُخْرِجُ عَنْ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ .

(289/773)

وَالتَّقْرِيبُ فِيهِ الْآنَ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ الْأَلَمُ الَّذِي لَا نَفْعَ مَعَهُ يُوَازِيهِ أَوْ يَرْبُو عَلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ وِقَايَةِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ إقَامَةُ الرَّجُلِ حَدَّهُ عَلَى عَبْدِهِ وَأَمَتِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ وَغَيْرِهَا .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ

﴾

(290/773)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة التحريم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1)

قوله : ﴿ تَبْتَغِي ﴾ : يجوز أن يكونَ حالاً مِنْ فاعل " تُحَرِّم " أي : لِمَ تُحَرِّمُ مُبْتَغياً به مَرْضاتَ أزواجِك . ويجوز أَنْ يكون تفسيراً ل تُحَرِّمُ ، ويجوز أن يكونَ مستأنفاً ، فهو جوابٌ للسؤال . و " مَرْضاة " اسمُ مصدرٍ ، وهو الرِّضا ، وأصلُه مَرْضَوَة ، وقد تَقَدَّم ذلك والمصدرُ هنا مضافٌ : إمَّا للمفعولِ أو للفاعل أي : أن تُرْضِيَ أنت أزواجَك ، أو أَنْ يَرْضَيْنَ .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

قوله : ﴿ تَحِلَّةَ ﴾ : مصدر تَحَلَّل مضعَّفاً وهو نحو ، تَكْرِمَة ، وهذان ليسا مقيسَيْن ؛ فإنَّ قياسَ مصدرِ فعَّل : التفعيل ، إذا كان صحيحاً غيرَ مهموزٍ ، فأما المعتلُّ اللام نحو : زَكَّى ، والمهموزُها نحو : نَبَّأ فمصدرُهما تَفْعِلة نحو : تَزْكية وتَنْبِئَة ، على أنه قد جاء التفعيل كاملاً في المعتلِّ نحو قولِه :

4276 باتَتْ تُنَزِّي دَلْوَها تَنْزِيَا . . . وأصلُها تَحْلِله كتَكْرِمة فأُدغِمَتْ ، وانتصابُها على المفعول به .

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

قوله : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ﴾ : العاملُ فيه اذكُرْ ، فهو مفعولٌ به لا ظرفٌ .

(291/773)

قوله : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أصلُ نَبَّأ وأنبأ وأخبر وخبَّر وحَدَّث أَنْ يتعدَّى لاثنين إلى الأول بنفسِها ، والثاني بحرف الجر ، وقد يُحْذَفُ الجارُّ تخفيفاً ، وقد يُحْذَفُ الأول للدلالة عليه . وقد جاءت الاستعمالاتُ الثلاثةُ في هذه الآياتِ ، فقولُه : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ تعدَّ لاثنين حُذِفَ أوَّلُهما ، والثاني مجرورٌ بالباء ، أي : نَبَّأت به غيرَها ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾

ذكرهما ، وقولُه : ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هذا ﴾ ذَكَرهما وحَذَفَ الجارَّ .

قوله : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الراء ، والباقون بتثقيلِها . فالتثقيلُ يكون المفعولُ الأول معه محذوفاً أي : عَرَّفها بعضَه أي : وقَّفها عليه على سبيل الغَيْبِ ، وأعرضَ عن بعضٍ تكرُّماً منه وحِلْماً . وأمَّا التخفيفُ فمعناه : جازَى على بعضِه ، وأعرضَ عن بعضٍ . وفي التفسير : أنَّه أسَرَّ إلى حفصةَ شيئاً فحدَّثَتْ به غيرَها فطلَّقَها ، مجازاةً على بعضِه ، ولم يُؤَاخِذْها بالباقي ، وهو من قبيل قولِه : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ [البقرة : 197] أي : يُجازيكم عليه ، وقولِه : ﴿ أولئك الذين يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء : 63] وإنما اضْطُررنا إلى هذا التأويلِ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَطْلَعَهُ على جميعِ ما أنبأَتْ به غيرَها لقولِه تعالى : ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ عكرمة " عَرَّاف " بألفٍ بعد الراء ، وخُرِّجَتْ على الإشباعِ كقولِه :

4277 . . . . . من العَقْرابِ . . . الشائلاتِ عُقَدَ الأَذْنَابِ

(292/773)

وقيل : هي لغةٌ يمانيةٌ ، يقولون : " عَرَافَ زيدٌ عمراً " أي : عَرَفه . وإذا ضُمِّنت هذه الأفعالُ الخمسةُ معنى أَعْلَم تعدَّتْ لثلاثةٍ . وقال الفارسي : " تَعدَّتْ بالهمزةِ أو التضعيف

، وهو غَلَطٌ ؛ إذ يقتضي ذلك أنها قبل التضعيفِ والهمزةِ كانَتْ متعدّيةً لاثنين ، فاكتسَبَتْ بالهمزةِ أو التضعيفِ ثالثاً ، والأمرُ ليس كذلك اتفاقاً .

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4)

قوله : ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ : شرطٌ وفي جوابه وجهان ، أحدهما : هو قولُه " فقد صَغَتْ " والمعنى : إن تتوبا فقد وُجِدَ منكم ما يُوْجِبُ التوبةَ ، وهو مَيْلُ قلوبكما عن الواجبِ في مخالفةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حُبِّ ما يُحِبُّه وكراهةِ/ ما يكرهه . وصَغَتْ : مالَتْ ، ويَدُلُّ له قراءةُ ابنِ مسعودٍ " فقد راغَتْ " . والثاني : أن الجوابَ محذوفٌ تقديرُه : فذلك واجبٌ عليكما ، أو فتابَ اللَّهُ عليكما ، قاله أبو البقاء . وقال : " ودَلَّ على المحذوفِ فقد صَغَتْ ؛ لأن إصغاءَ القلبِ إلى ذلك ذنبٌ " . وهذا الذي قاله لا حاجةَ إليه ، وكأَنَّه زَعَمَ أنَّ مَيْلَ القلبِ ذنبٌ فكيف يَحْسُنُ أَنْ يكونَ جواباً ؟ وغَفَلَ عن المعنى الذي ذكرْتُه في صحةِ كَوْنِه جواباً . و " قلوبُكما " مِنْ أفصحِ الكلامِ حيث أوقع الجمعَ موقعَ المثنى ، استثقالاً لمجيءِ تثنيتَيْن لو قيل : قلباكما . وقد تقدَّم تحريرُ هذا في آيةِ السَّرِقةِ في المائدة ، وشروطُ المسألةِ وما اختلف الناس فيه . ومِنْ مجيءِ التثنيةِ قولُه :

4278 فتخالَسا نَفْسَيْهما بنوافِذٍ . . . كنوافِذِ العُبْطِ التي لا تُرْقَعُ

والأحسنُ في هذا البابِ الجمعُ ، ثم الإفرادُ ، ثم التثنيةُ ، وقال ابن عصفور : " لا يجوز الإفراد إلاَّ في ضرورة كقوله :

4279 حمامةَ بَطْنِ الواديَيْنِ ترَنَّمي . . . سَقاكِ مِنْ الغُرِّ الغوادِي مَطيرُها

وتبعه الشيخُ ، وغلَّط ابنَ مالك في كونِه جعَلَه أحسن من التثنيةِ . وليس بغلطٍ للعلة التي ذكرها ، وهي كراهةُ توالي تثنيتَيْن مع أَمْنِ اللَّبْس .

وقوله : ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ فيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطابِ ، والمرادُ أُمَّا المؤمنين بنتا الشيخَيْن عائشةُ وحفصةُ رضي الله عنهما وعن أبويْهما .

قوله : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا ﴾ أصلُه تتظاهرا فأَدْغَمَ ، وهذه قراءة العامَّةِ ، وعكرمةُ " تتظاهرا " على الأصل ، والحسن وأبو رجاء ونافع وعاصم في روايةٍ عنهما بتشديد الظاء والهاء دون ألف وأبو عمرو في روايةٍ " تظاهرا " بتخفيف الطاء والهاء ، حَذَفَ إحدى التاءَيْن وكلُّها بمعنىً المعاونة مِن الظهر لأنه أقوى أعضاءِ الإنسانِ وأجلُّها .

قوله : ﴿ هُوَ مَوْلاَهُ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ " هو " فصلاً ، و " مَوْلاه " الخبرَ ، وأن يكونَ مبتدأً ، و " مَوْلاه " خبرُه ، والجملةُ خبرُ " إنَّ " .

قوله : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ يجوز أَنْ يكون عطفاً على اسمِ الله تعالى ورُفِعَ نظراً إلى محلِّ اسمِها ، وذلكَ بعد استكمالِها خبرَها ، وقد عَرَفْتَ مذاهبَ الناسِ فيه ، ويكونَ " جبريلُ " وما

بعده داخلَيْن في الولايةِ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ويكونَ جبريلُ ظهيراً له بدخولِه في عمومِ الملائكةِ ، ويكونَ " الملائكة " مبتدأً و " ظهيرٌ " خبرَه ، أُفْرِدَ لأنه بزنةِ فَعيل . ويجوزُ أَنْ يكونَ الكلامُ تمَّ عند قولِه : " مَوْلاه " ويكونُ " جبريل " مبتدأ ، وما بعده عَطْفٌ عليه .

(294/773)

و " ظهيرٌ " خبرُ الجميع ، فتختصُّ الولايةُ بالله ، ويكون " جبريل " قد ذُكر في المعاونةِ مرَّتين : مرةً بالتنصيصِ عليه ، ومرةً بدخولِه في عموم الملائكةِ ، وهذا عكس ما في البقرة مِنْ قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ فإنه ذكر الخاصَّ بعد العامِّ تشريفاً له ، وهنا ذُكِر العامُّ بعد الخاصِّ ، لم يَذْكُرِ الناسُ إلاَّ القسمَ الأول .

وقوله : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الظاهرُ أنه مفردٌ ، ولذلك كُتب بالحاء دونَ واوِ الجمع . وجَوَّزوا أن يكونَ جمعاً بالواو والنون ، حُذِفَتْ النونُ للإضافة ، وكُتِبَ دون واوٍ اعتباراً بلفظه لأنَّ الواوَ ساقطةٌ لالتقاء الساكنين نحو : ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ بالشورى : 24] و ﴿ يَدْعُ الداع ﴾ ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] إلى غيرِ ذلك ، ومثل هذا ما جاء في الحديثِ : " أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصَّتُه " قالوا : يجوز أن يكونَ مفرداً ، وأن يكونَ جمعاً كقولِه : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح : 11] وحُذِفَتِ الواوُ لالتقاء

الساكنين لفظاً ، فإذا كُتِب هذا فالأحسنُ أَنْ يُكتبَ بالواوِ لهذا الغرضِ ، وليس ثَمَّ ضرورةٌ لحَذْفِها كما مَرَّ في مرسوم الخط .

وجَوَّزَ أبو البقاء في " جبريلُ " أن يكونَ معطوفاً على الضمير في " مَوْلاه " يعني المستتَر ، وحينئذ يكون الفصلُ بالضميرِ المجرورِ كافياً في تجويزِ العطفِ عليه . وجوَّز أيضاً أَنْ يكونَ مبتدأ و " صالحُ " عطفٌ عليه . والخبرُ محذوفٌ أي : مَواليه .

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

(295/773)

قوله : ﴿ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ : شرطٌ معترضٌ بين اسم عَسَى وخبرِها ، وجوابُه محذوفٌ أو متقدمٌ/ أي : إنْ طَلَّقَكُنْ فعسَى . وأدغم أبو عمرو القافَ في الكاف على رأيِ بعضِهم قال : " وهو أَوْلَى مِنْ " يَرْزُقكم " ونحوِه لِثِقَلِ التأنيث " .

" مُسْلماتٍ " إلى آخره : إمَّا نعتٌ أو حالٌ أو منصوبٌ على الاختصاص ، وتقدَّمَتْ قراءتا ﴿ يُبْدِلَهُ ﴾ تخفيفاً وتشديداً في الكهف . وقرأ عمرو بن فائد " سَيِّحاتٍ " ، وإنما وُسِّطَتِ الواوُ بين " ثَيِّبات وأَبْكاراً " لتنافي الوصفَيْن دون سائر الصفات . وثَيِّبات ونحوه لا

ينقاسُ لأنه اسمُ جنسٍ مؤنثٍ فلا يُقال : نساء خَوْدات ، ولا رأيت عِيْنات .

والثَّيِّبُ : وزنُها فَيْعل مِن ثاب يثوب أي : رَجَعَ كأنها ثابَتْ بعد زوالِ عُذْرَتِها ، وأصلها ثَيْوب كسَيِّد ومَيِّت ، أصلُهما سَيْود ومَيْوت فأُعِلَّ الإعلالَ المشهورَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

(296/773)

قوله : ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ ﴾ : أمرٌ من الوِقايةِ فوزنُه " عُوا " لأن الفاءَ حُذِفَتْ لوقوعِها في المضارع بين ياءٍ وكسرةٍ ، وهذا محمولٌ عليه ، واللامُ حُذِفَتْ حَمْلاً له على المجزوم ، بيانه أنَّ أصلَه اِوْقِيُوا كاضْرِبوا فحُذِفَتِ الواوُ التي هي فاءٌ لِما تقدَّمَ ، واستُثْقِلَتِ الضمةُ على الياء فحُذِفَتْ ، فالتقى ساكنان ، فحُذِفَتْ الياءُ وضُمَّ ما قبل الواو لتصِحَّ . وهذا تعليلُ البَصْريين . ونقل مكيٌّ عن الكوفيين : أنَّ الحذفَ عندهم فرقاً بين المتعدي والقاصر فحُذِفت الواوُ التي هي فاءٌ في يَقي ويَعِدُ لتعدِّيهما ، ولم تُحْذَفْ من يَوْجَل لقُصوره . قال : " ويَرِدُ عليهم نحو : يَرِمُ فإنه قاصرٌ ومع ذلك فقد حذفوا فاءَه " . قلت : وفي هذا نظرٌ ؛ لأنَّ يَوْجَل لم تَقَعْ فيه الواوُ بين ياءٍ وكسرةٍ لا ظاهرةٍ ولا مضمرةٍ . فقلت : " ولا مضمرة " تحرُّزاً

مِنْ يَضَعُ ويَسَعُ ويَهَبُ .

و" ناراً " مفعولٌ ثانٍ . و ﴿ وَقُودُهَا الناس ﴾ صفةٌ ل" ناراً " وكذلك " عليها ملائكةٌ " . ويجوزُ أَنْ يكونَ الوصفُ وحدَه عليها و " ملائكةٌ " فاعلٌ به . ويجوزُ أَنْ تكونَ حالاً لتخصُّصِها بالصفة الأولى وكذلك ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله ﴾ .

وقرأ بعضُهم " وأَهْلوكم " وخُرِّجَتْ على العطفِ على الضمير المرفوع ب " قُوا " وجَوَّزَ ذلك الفصلُ بالمفعولِ . قال الزمخشري بعد ذِكْرِه القراءةَ وتخريجَها : " فإنْ قلتَ : أليس التقديرُ : قُوا أنفسَكم ، ولْيَقِ أَهْلوكم أنفسكم ؟ قلت : لا . ولكن المعطوفَ في التقديرِ مقارنٌ للواو ، و " أنفسَكم " واقعٌ بعده كأَنَّه قيل : قُوا أنتم وأهلوكم أنفسَكم لمَّا جَمَعْتَ مع المخاطبِ الغائبَ غَلَّبْته [عليه] فجعَلْتَ ضميرَهما معاً على لفظِ المخاطبِ " . وتقدَّم الخلافُ في واو " وقود " ضماً وفتحاً في البقرة .

(297/773)

قوله : ﴿ مَا آمَرَهُمْ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ " ما " بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ أي ما أَمَرَهموه ، والأصلُ : به . لا يُقال : كيف حَذَفَ العائدَ المجرورَ ولم يَجُرَّ الموصولَ بمثله ؟ لأنه يَطَّرِدُ حَذْفُ هذا الحرفِ فلم يُحْذَفْ إلاَّ منصوباً ، وأن تكونَ مصدريةً ، ويكونَ مَحَلُّها بدلاً من

اسمِ الله بدلَ اشتمالٍ ، كأنه قيل : لا يَعْصُون أَمْرَه .

وقوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ ﴾ قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : أليسَتْ الجملتان في معنى واحدٍ ؟ قلت : لا ؛ لأن الأولى معناها : أنهم يتقبّلون أوامرَه ويلتزمونها ، والثانيةَ معناها : أنهم يُؤَدُّون ما يؤمرون به ، لا يتثاقلون عنه ولا يَتوانَوْن فيه " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

قوله : ﴿ نَّصُوحاً ﴾ : قرأ الجمهور بفتحِ النونِ ، وهي صيغةُ مبالغةٍ ، أسند النصحَ إليها مجازاً ، وهي مِنْ نَصَحَ الثوبَ أي : خاطه ، وكأنَّ التائبَ يُرَقِّع ما خرقه بالمعصية . وقيل : مِنْ قولِهم : " عسلٌ ناصِح " أي خالص . وأبو بكر بضم النون وهو مصدرٌ لـ نَصَحَ يقال : نَصَحَ نُصْحاً ونُصوحاً نحو : كَفَرَ كُفْراً وكُفوراً ، وشَكَرَ شُكراً وشُكوراً . وفي انتصابِه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مفعولٌ له أي : لأجلِ النصحِ الحاصلِ نفعُه عليكم . والثاني : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ محذوفٍ أي : ينصحُهم نُصْحاً . الثالث : أنه صفةٌ لها : إمَّا على المبالغةِ على أنها نفسُ المصدرِ أو على حَذْفِ مضافٍ أي ذاتَ نَصوحٍ .

وقرأ زيد بن علي " تَوْباً " دونَ تاءٍ .

قوله : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ ﴾ قراءةُ العامةِ بالنصبِ عطفاً على "يُكَفِّر" وابنُ أبي عبلة بسكون الراء ، فاحتمل أَنْ يكونَ من إجراء المنفصل مُجْرَى المتصل ، فسَكَنَتِ الكسرةُ ؛ لأنه يُتَخيل من مجموع "يُكَفِّرَ عنكم" مثل : نِطَع وقِمَع فيقال فيهما : نِطْع وقِمْع . ويُحتمل أَنْ يكونَ عطفاً على محلِّ "عسى أَنْ يُكَفِّر" كأنه قيل : تُوبوا يُوْجبْ تكفيرَ سيئاتِكم ويُدْخِلْكم ، قاله الزمخشري ، يعني أنَّ "عسى" في محلِّ جزم جواباً للأمر ؛ لأنه لو وقع موقعَها مضارع لا نجزم كما مَثَّل به الزمخشري ، وفيه نظرٌ ؛ لأَنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ "عسى" جوابٌ ، ولا تقع جواباً لأنها للإنشاء .

قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى ﴾ منصوبٌ ب "يُدْخلكم" أو بإضمار اذكُرْ .

قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ يجوز فيه وجهان أحدُهما : / أن يكونَ مَنْسوقاً على النبيِّ [أي] : ولا يُخْزي الذين آمنوا . فعلى هذا يكون "نورُهم يسعى" مستأنفاً أو حالاً . والثاني : أن يكونَ مبتدأ ، وخبره "نورُهم يَسْعى" و "يقولون" خبرٌ ثانٍ أو حال . وتقدَّم إعرابُ مثلِ هذه الجملِ في الحديد فعليك باعتبارِه . وتقدَّمَ إعرابُ ما بعدَها في براءة .

وقرأ أبو حَيْوَةَ وسهل الفهمي " وبإيمانهم " بكسر الهمزة ، وتقدَّم ذلك في الحديد .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

قوله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ : إلى آخره قد تَقَدَّمَ الكلامُ على " ضَرَبَ " مع المثل . وهل هي بمعنى صَيَّر أم لا ؟ وكيف ينتصِبُ ما بعدها ؟ في سورةِ النحلِ فأغنى ذلك عن إعادتِه هنا .

(299/773)

قوله : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ جملةٌ مستأنفة كأنها مفسّرةٌ لضَرْبِ المَثَلِ ، ولم يأتِ بضميرِها ، فيُقال : تحتَهما أي : تحتَ نوحٍ ولوطٍ ، لِما قُصِدَ مِنْ تَشْريفِهما بهذه الأوصافِ الشريفةِ :

4280 لا تَدْعُني إلاَّ ب " يا عبدَها " . . . فإنَّه أشرفُ أسمائي

وليصِفَها بأجلِّ الصفاتِ وهو الصَّلاحُ .

قوله : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيا ﴾ العامَّةُ بالياء مِنْ تحتُ أي : لم يُغْنِ نوحٌ ولوطٌ عن امرأتيهما شيئاً مِنْ الإغناءِ مِنْ عذابِ الله .

وقرأ مبشر بن عبيد " تُغْنِيا " بالتاءِ مِنْ فوقُ أي : فلم تُغْنِ المرأتان عن أنفسِهما . وفيها إشكالٌ : إذ يلزمُ من ذلك تعدّي فعل المضمرِ المتصل إلى ضميره المتصل في غيرِ المواضعِ

المستثناةِ وجوابُه : أنَّ " عَنْ " هنا اسم كهي في قوله :

4281 دَعْ عنك نَهْباً صِيْحَ في حَجَراتِهِ . . . . . .

. . . . . .

وقد تقدَّم لك هذا والاعتراضُ عليه بقوله : ﴿ وهزى إِلَيْكِ ﴾ [مريم : 25] ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ [القصص : 32] وما أُجيب به ثَمَّة .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

قوله : ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ : منصوبٌ ب " ضَرَبَ " وإنْ تأخر ظهورُ الضَّرْبِ ، ويجوز أَنْ ينتصِبَ بالمَثَل .

قوله : ﴿ عِندَكَ ﴾ يجوز تعلُّقُه ب ابنِ ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " بيتاً " ، كان نعتَه ، فلما قُدِّم نُصِبَ حالاً . و " في الجنة " : إمَّا متعلِّقٌ ب " ابْنِ " وإمَّا بمحذوفٍ على أنه نعتٌ ل بيتاً .

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

قوله: ﴿ وَمَرْيَمَ ﴾: عطفٌ على "امرأةَ فرعونَ" ضَرَبَ الله تعالى المَثَل للكافرين بامرأتَيْن وللمؤمنين بامرأتَيْن. وقال أبو البقاء: "ومريم أي: واذكر مريمَ. وقيل: ومَثَل مريمَ" انتهى. وهذا لا حاجةَ إليه مع ظهور المعنى الذي ذكرْتُه.

وقرأ العامَّةُ "ابنةَ" بنصب التاء. وأيوب السُّخْتياني بسكون الهاء وَصْلاً، أَجْرى الوصلَ مُجْرى الوقفِ. والعامَّةُ أيضاً "فَنَفَخْنا فيه" أي: في الفَرْج. وعبد الله "فيها" أي: في الجُملة. وتقدَّم في الأنبياء مثله.

والعامَّةُ أيضاً "وصَدَّقَتْ" بتشديد الدال. ويعقوبُ وقتادةُ وأبو مجلز وعاصمٌ في روايةٍ بتخفيفِها أي: صَدَقَتْ فيما أخبرَتْ به من أمرِ عيسى عليه السلام. والعامَّة على "بكلمات" جمعاً. والحسن ومجاهد والجحدري "بكلمة" بالإفراد. فقيل: المرادُ بها عيسى لأنه كلمة الله. وتقدَّم الخلافُ في كتابة "وكتبه" في أواخر البقرة. وقرأ أبو رجاء "وكُتْبِه" بسكون التاء وهو تخفيفٌ حسنٌ، ورُوي عنه "وكَتْبِه" بفتح الكاف. قال أبو الفضل: مصدرٌ وُضِع مَوْضِعَ الاسمِ يعني: ومكتوبِه.

قوله: ﴿ مِنَ القانتين ﴾ يجوزُ في "مِن" وجهان، أحدهما: أنها لابتداء الغاية. والثاني: أنها للتبعيضِ، وقد ذكرهما الزمخشريُّ فقال: "ومِنْ للتبعيض. ويجوزُ أَنْ تكونَ لابتداء

الغاية ، على أنَّها وُلِدَتْ من القانتين ؛ لأنها من أعقابِ هارونَ أخي موسى عليهما السلام "

. قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِم قيل : " من القانتين " على التذكير ؟ قلت : لأنَّ القُنوتَ

صفةٌ تَشْمل منْ قَنَتَتْ من القبيلَيْن ، فغلَّب ذكورَه على إناثِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر

المصون حـ 10 صـ 363.376 ﴾

(301/773)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة التحريم

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز يمهل من عصاه ، فإذا رجع وناداه .

. أجابه ولباه فإن لم يتوسل بصدق قدمه في ابتداء أمره ثم تنصل بصدق ندمه في آخر عمره

أوسعه وقبل منه عذرا ، وأكمل له ذخرا ، وأجزل له برا .

قوله جل ذكره : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور

رحيم)

جاء في القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حَرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفي الحال حَلَفَ ألاَّ يطأَها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبي صلى الله عليه وسلم معها في يومها .

وقيل : حَرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لَمَّا قالت له زوجاته ، إنَّا نشم منك ريح المغافير !

– والمغافير صمغ في البادية كريه الرائحة ، ويقال : بقلة كريهة الرائحة . . . فعاتَبَه اللَّهُ على ذلك .

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه ، وتَرْكٌ للأُوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز .

وقيل : إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صوَّامَةٌ قوَّامَة .

وقيل : لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فَمَنَعه اللَّهُ عن ذلك .

وقيل : لَمَّا رأته حفصة مع مارية في يومها قال لها : إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرّاً فلا تخبري أحداً : إنَّ هذا الأمر يكون بعدي لأبي بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبيُّ حفصة : لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت ؟

فقالت به : ومَنْ أخبرك بذلك ؟ قال أخبرني الله ، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت ، ولم

يصرِّحْ لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ ، فعاتبها على بعضٍ وأعرْضَ عن بعض – على عادة الكِرام .

ويقال : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – لَمَّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : " اللهم إني أعوذ بك من كل قاطعٍ يقطعني عنك " .

(302/773)

وظاهرُ هذا الخطاب عتاب على أنَّه مراعاةً لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما احلَّ اللَّهُ له .

والإشارةُ فيه : وجوبُ تقديم حقِّ الله – سبحانه – على كل شيء في كل وقت .

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كَفَّرَ بعتق رقبة ، وعاوَدَ مارية .

واللَّهُ – سبحانه – أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أَنْ يُعَاوَدَ رَبَّه ، ثم يكفيه ذلك – ولكن بعد تطويل مدةٍ ،

وأنشدوا في معناه :

إذا عُلِّقَت روحي حبيباً تعلَّقت . . . به غَيرُ الأيام كل تَسْلَبَنِّيَهُ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة . . كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه ، وإرادتُه – سبحانه – تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ظَهِيرٌ ﴾ .

عاتبهما على السير من خَطَراتِ القلب ، ثم قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . . . . ﴾ .

﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مَنْ لم يكن منهم في قلبه نفاق ، مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله :

لو أمرتني لأضربنَّ عُنُقَها !

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضى الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية .

ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة :

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ .

أي : فَقِّهوهم ، وأَدِّبوهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم .

ودلَّت الآيةُ : على وجوبِ الأمرِ بالمعروف في الدِّين للأقرب فالأقرب .

وقيل : أَظْهِرُا من أنفسكم العبادات ليتعلَّموا منكم ، ويعتادوا كعادتكم .

ويقال : دلُّوهم على السُّنَّةِ والجماعة .

ويقال : عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان .

ويقال : مُرُوهم بقبول النصيحة .

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ : الوقود : الحطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حَجَرَةٌ مقامَ مَدَرة فلا غرو من فَضْلِ الله .

اللهمَّ فأَلْقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ ، وانغلق البابُ ، وسقطت الحِيَلُ . . . . فالواجبُ البدارُ والفرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ .

التوبةُ النصوحُ : هي التي لا يَعقُبها نَقْصٌ .

ويقال : هي التي لا تراها من نَفْسِك ، ولا تبى نجاتَكَ بها ، وإنما تراها بربِّك .

ويقال : هي أنْ تجدَ المرارةَ في قلبك عند ذكر الزَّلّة كما كُنْتَ تجد الراحة لنفسِك عند فِعْلِها .

(304/773)

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

لا يُخزِي اللَّهُ النبيَّ بتَرْكِ شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحِهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته .

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم .

ويقال : بأَيمانهم كتابُ نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، وما يخصُّهم

اللَّهُ به من الأنوار في ذلك اليوم .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ : يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ في السؤال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أَمَرَه بالمُلاَيَنَةِ في وقت الدعوة ، وقال : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ثم لَمَّا أصرُّوا – بعد بيان الحُجَّةِ – قال : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ : لأن هذا في حالِ إصرارهم ، وزوالِ أعذارهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

لَمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةُ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قالوا : صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً في الجنة ، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير . . .

ولا كما تَوهَّموا : فإنها قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ ﴾ فطلبَتْ جوارَ القربة ، ولَبيْتٌ في الجِوار أفضلُ من ألف قصرٍ في غير الجوار . ومن المعلوم أنَّ عِنديَّةَ هنا العِنديَّةُ القربة والكرامة . . ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفي معناه أنشدوا :

إني لأحْسُد جاركم لجواركم . . . طُوبى لِمَن أضحى لدارِكَ جارا

يا ليت جارَكَ باعني من داره . . . شِبْراً لأُعطيه بشِبْر دارا

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

خَتَم السورة بذِكْرها بعد ما ذكر امرأةُ فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولَمَّا كثُر في هذه السورة ذِكْرُ النساء أراد الله سبحانه أَلاَّ يُخْلَى السورة من ذكرها تخصيصاً لقدْرِها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 604. 609 ﴾

(306/773)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

وَسُئِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

عَنْ قَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ هَلْ هَذَا اسْمُ رَجُلٍ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْ لَا ؟ وإيش مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ نَصُوحًا ﴾ ؟

فَأَجَابَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُهُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ : أَنْ يَتُوبَ مِنْ الذَّنْبِ ثُمَّ لَا يَعُودُ إلَيْهِ و " نَصُوحٌ " هِيَ صِفَةٌ لِلتَّوْبَةِ وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ النُّصْحِ وَالنَّصِيحَةِ . وَأَصْلُ ذَلِكَ هُوَ الْخُلُوصُ . يُقَالُ : فُلَانٌ يَنْصَحُ لِفُلَانٍ إذَا كَانَ يُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ إرَادَةً خَالِصَةً لَا غِشَّ فِيهَا وَفُلَانٌ يَغُشُّهُ إذَا كَانَ بَاطِنُهُ يُرِيدُ السُّوءَ وَهُوَ يُظْهِرُ إرَادَةَ الْخَيْرِ كَالدِّرْهَمِ الْمَغْشُوشِ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَيْ أَخْلَصُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ قَصْدَهُمْ وَحُبَّهُمْ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

(307/773)

﴿ الدِّينُ النَّصِيحَةُ ثَلَاثًا قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ﴾ فَإِنَّ أَصْلَ الدِّينِ هُوَ حُسْنُ النِّيَّةِ وَإِخْلَاصُ الْقَصْدِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ ثَلَاثٌ لَا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ إخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ ﴾ أَيْ هَذِهِ الْخِصَالُ الثَّلَاثُ لَا يَحْقِدُ عَلَيْهَا قَلْبُ مُسْلِمٍ بَلْ يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا . فَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ الْخَالِصَةُ مِنْ كُلِّ غِشٍّ وَإِذَا كَانَتْ كَذَلِكَ كَائِنَةً فَإِنَّ الْعَبْدَ إنَّمَا يَعُودُ إلَى الذَّنْبِ لِبَقَايَا فِي نَفْسِهِ فَمَنْ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ الشُّبْهَةُ وَالشَّهْوَةُ لَمْ يَعُدْ إلَى الذَّنْبِ فَهَذِهِ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ وَهِيَ وَاجِبَةٌ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَلَوْ تَابَ الْعَبْدُ ثُمَّ عَادَ إلَى الذَّنْبِ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ الْأُولَى ثُمَّ إذَا عَادَ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيْضًا . وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ إذَا تَابَ ثُمَّ عَادَ أَنْ يُصِرَّ ؛ بَلْ يَتُوبُ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفْتَنَ التَّوَّابَ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ لَا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ﴾

وَمَنْ قَالَ مِنْ الْجُهَّالِ : إنَّ " نَصُوحَ " اسْمُ رَجُلٍ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتُوبُوا كَتَوْبَتِهِ : فَهَذَا رَجُلٌ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ جَاهِلٌ بِالْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ جَاهِلٌ بِاللُّغَةِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّ هَذَا امْرُؤٌ لَمْ يَخْلُقْهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا كَانَ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ أَحَدٌ اسْمُهُ نَصُوحٌ وَلَا ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَوْ كَانَ كَمَا زَعَمَ الْجَاهِلُ لَقِيلَ تُوبُوا إلَى اللَّهِ تَوْبَةَ نَصُوحٍ وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ وَالنَّصُوحُ هُوَ التَّائِبُ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ اسْمُهُ نَصُوحٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى عَهْدِ عِيسَى أَوْ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ يَجِبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ هَذِهِ فَإِنْ لَمْ يَتُبْ وَجَبَتْ عُقُوبَتُهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 57 . 59 ﴾

(309/773)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1)

الإعراب :

(يا أيها النبيّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (لم) متعلّق بـ (تحرّم) ، و(ما) اسم استفهام حذفت منه الألف ، (ما) موصول " 2 " في محلّ نصب مفعول به (لك) متعلّق بـ (أحلّ) ، (الواو) استئنافيّة - أو حاليّة - .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تحرّم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أحلّ اللَّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 3 " .

وجملة : " تبتغي . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تحرّم .

وجملة : " اللَّه غفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

---

(1) في الآية (1) من سورة الطلاق .

(2) أو نكرة مقصودة .

(3) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

(4) يجوز أن تكون في محلّ نصب حالا . [. . . . .]

الفوائد :

1 - (يا أَيُّهَا) المنادي : اسم ظاهر يذكر بعد أداة من أدوات النداء لطلب استدعاء مسماه أو تنبيهه مثل : (يا خالد اذهب إلى الملعب) .

أدوات النداء هي : (يا ، أيا ، هيا ، أي ، والهمزة) .

اختصاصها : (أي والهمزة) لنداء القريب (وأيا ، وهيا) لنداء البعيد و(يا) لكل منادى .

أقسام المنادي : الأول : مبني على ما يرفع به في محلّ نصب وهو نوعان آ - إذا كان علما مفردا ، أي : لا يكون مضافا ولا شبيها بالمضاف نحو :

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا) .

ب - إذا كان نكرة مقصودة ، وهي النكرة المعينة كقولنا لمن هو أمامنا : (يا رجل أقبل) .

الثاني : منصوب بالفتحة أو ما ينوب عنها ، وهو ثلاثة أنواع :

1 - المنادي المضاف ، نحو : يا عبد اللَّه 2 - المنادي الشّبيه بالمضاف ، نحو : يا حافظا وقته أبشر بالفوز .

(311/773)

3 - المنادي النكرة غير المقصودة ، نحو : يا جنديا احترس . والمنادي في هذه الأنواع الثلاثة (معرب) واجب النصب .

2 - اختلفت العلماء في لفظ التحريم ، فقيل : هو ليس بيمين ، فإن قال لزوجته : أنت علي حرام ، أو قال : حرمتك ، فإن نوى طلاقا فهو طلاق ، وإن نوى ظهارا فظهار ، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين ، وإن قال ذلك لجاريته ، فإن نوى عتقا أعتقها ، وإن نوى تحريم ذاتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين ، وإن قال لطعام : حرمته على نفسي ، فلا شيء عليه . وهذا قول أبي بكر وعمر وجمع من الصحابة والتابعين والشافعي .

[سورة التحريم (66) : آية 2]

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (لكم) متعلّق بـ (فرض) بمعنى شرع (الواو) استئنافيّة - أو حاليّة - والثانية عاطفة .

جملة : " قد فرض اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللَّه مولاكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " هو العليم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللَّه مولاكم .

الصرف :

(تحلّة) ، مصدر سماعيّ ، للرباعيّ حلّل ، والقياسيّ تحليل .

[سورة التحريم (66) : آية 3]

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3)

الإعراب :

---

(1) يجوز أن تكون في محل نصب حالا .

(312/773)

(الواو) استئنافيّة (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه قوله : العليم الخبير أي علم اللَّه . . (إلى بعض) متعلّق بـ (أسرّ) ، (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب عرّف (به) متعلّق بـ (نبّأت) ، (عليه) متعلّق بـ (أظهره) بتضمينه معنى أطلعه (عن بعض) متعلّق بـ (أعرض) ، (فلمّا نبّأها به) مثل فلما نبّأت به . .

جملة : " أسرّ النبيّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نبّات به . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أظهره . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نبّأت به " 1 " .

وجملة : " عرّف . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أعرض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " نبّأها به . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " من أنبأك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنبأك هذا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نبّأني العليم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة التحريم (66) : الآيات 4 إلى 5]

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (5)

الإعراب :

(إلى اللَّه) متعلّق بـ (تتوبا) ، (الفاء) تعليليّة (قد) حرف تحقيق (الواو) عاطفة (تظاهرا) مضارع مجزوم حذفت منه إحدى التاءين (عليه) متعلّق بـ (تظاهرا) ، (الفاء) تعليليّة

(هو) ضمير فصل " 2 " ، (جبريل)

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة أو في محلّ نصب حالا بتقدير قد .

(2) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره مولاه ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(313/773)

مبتدأ مرفوع خبره (ظهير) " 1 " ، (صالح) معطوف على جبريل مرفوع وعلامة الرفع الواو وقد حذفت للتخفيف مراعاة لقراءة الوصل (بعد) ظرف منصوب متعلّق بالخبر ظهير .

جملة : " تتوبا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . وجواب الشرط محذوف تقديره يقبل منكما أو تقبلا .

وجملة : " قد صغت قلوبكما . . . " لا محلّ لها تعليل للشرط أي : إن تتوبا إلى اللَّه لأنكما قد ملتما مع نفسيكما يقبل منكما التوبة .

وجملة : " تظاهرا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تتوبا . . وجواب الشرط محذوف تقديره يجد ناصرا ينصره .

وجملة : " إن اللَّه . . . مولاه " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط الثاني .

وجملة : " جبريل . . . ظهير " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة الأخيرة .

5 - (طلّقكنّ) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (أن) حرف مصدري ونصب (خيرا) نعت لـ (أزواجا) منصوب ، (منكنّ) متعلّق بـ (خيرا) ، (مسلمات . . .)

حال من (أزواجا) " 2 " منصوبة . .

والمصدر المؤوّل (أن يبدله . .) في محلّ نصب خبر عسى .

وجملة : " عسى ربّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " طلّقكنّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن طلّقكنّ فعسى ربّه أن يبدله . .

وجملة : " يبدله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو هو معطوف على محلّ إنّ واسمها - ومحلّه الرفع - فـ (الملائكة) حينئذ مبتدأ خبره ظهير ، والجملة مستقلّة عن الأولى ومعطوفة عليها .

(2) تخصّص بالنعت . ويجوز أن يكون نعتا ثانيا لـ (أزواجا) مع بقية الصفات الأخرى .

(314/773)

الصرف :

(صغت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، حذفت منه لام الكلمة ، وزنه فعت .

(ثيّبات) ، جمع ثيّب ، اسم جنس مؤنّث ، وسمّيت المرأة كذلك لأنها تثوب إلى بيت أبويها ، وزنه فيعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله ثيوب - بسكون الياء وكسر الواو - قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأخرى

البلاغة

سر الجمع : في قوله تعالى " قلوبكما " .

الجمع في " قلوبكما " دون التثنية ، لكراهة اجتماع تثنيتين ، مع ظهور المراد ، وهو في مثل ذلك أكثر استعمالا من التثنية والإفراد .

[سورة التحريم (66) : آية 6]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6)

الإعراب :

(يأيها الذين) مثل يأيها النبيّ " 1 " ، (نارا) مفعول به ثان منصوب عامله (قوا) ، (عليها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملائكة) ، (لا) نافية (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، والثاني موصول والعائد محذوف . .

والمصدر المؤوّل (ما أمرهم . .) في محلّ نصب بدل من لفظ الجلالة أي :

لا يعصون أمر اللَّه .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (1) من سورة الطلاق .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف والعائد محذوف أي : بما أمرهم إيّاه .

(315/773)

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " وقودها الناس " في محلّ نصب نعت لـ (نارا) .

وجملة : " عليها ملائكة . . . " في محلّ نصب نعت ثان لـ (نارا) .

وجملة : " لا يعصون . . . " في محلّ رفع نعت لملائكة .

(316/773)

وجملة : " يفعلون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يعصون . .

وجملة : " أمرهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة : " يؤمرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(قوا) ، فيه إعلال بالحذف من موضعين ، الأول فاء الكلمة بدءا من المضارع لأنها وقعت بين ياء وكسرة ، ثم امتّد الحذف إلى الأمر – كما في المعتلّ المثال – والثاني لام الكلمة بدءا من المضارع أيضا حيث أسند إلى واو الجماعة ، ثمّ امتدّ الحذف إلى الأمر . . الأصل يقيونا ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى القاف " 1 " ، فلما التقى ساكنان حذفت الياء ، ثمّ انجرّ الحذف إلى الأمر ، وحذفت النون للبناء . . وزنه عوا .

(يعصون) ، فيه إعلال بالحذف أصله يعصيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الصاد ولمّا التقى ساكنان حذفت الياء فأصبح يعصون ، وزنه يفعون .

البلاغة

فن السلب والإيجاب : في قوله تعالى لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ .

وهذا الفن هو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى ، أو

---

(1) وقال بعضهم : حذفت الياء لثقلها ثمّ ضمّت القاف لتناسب الواو .

أمر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة .

وفي الآية الكريمة ، سلب عز وجل عن هؤلاء الموصوفين العصيان ، وأوجب لهم الطاعة .

[سورة التحريم (66) : آية 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تعتذروا) ، (إنّما) كافّة ومكفوفة ، و(الواو) في (تجزون) نائب الفاعل (ما) حرف مصدريّ " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ نصب مفعول به بحذف مضاف أي جزاء ما كنتم . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تعتذروا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تجزون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كنتم تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب ، والعائد محذوف .

(2) أو هي في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي تقول الملائكة . . .

(318/773)

[سورة التحريم (66) : آية 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

الإعراب :

(إلى اللَّه) متعلّق بـ (توبوا) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (عنكم) متعلّق بـ (يكفّر) بتضمينه معنى ينزل (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (يدخلكم) مضارع منصوب معطوف على (يكفّر) ، (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) بحذف مضاف أي من تحت أشجارها " 1 " ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يدخلكم) " 2 " ، (لا) نافية

(الذين) موصول في محلّ نصب معطوف على النبيّ " 3 " ، (معه) ظرف منصوب متعلّق بـ (آمنوا) ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يسعى) " 4 " ، (بأيمانهم) متعلّق بما تعلّق به بين ، فهو معطوف عليه (لنا) متعلّق بـ (أتمم) ، والثاني متعلّق بـ (اغفر) ، (على كلّ) متعلّق بالخبر (قدير) .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار .

(2) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . .

(3) أو في محلّ رفع خبره جملة نورهم يسعى . . .

(4) أو متعلّق بحال من فاعل يسعى . [. . . . .]

وجملة : " توبوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " عسى ربّكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يكفّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يكفّر . .) في محلّ نصب خبر عسى .

وجملة : " يدخلكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكفّر .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " لا يخزي اللَّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آمنوا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " نورهم يسعى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يسعى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نورهم) .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في أيديهم " 2 " .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أتمم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اغفر لنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " إنّك . . . قدير " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(نصوحا) ، صفة مشبهة من الثلاثيّ نصح . . . أو هي من صيغ المبالغة ، وزنه فعول بفتح الفاء .

---

(1) أو هي في محلّ نصب حال من النبيّ والذين آمنوا معه .

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(320/773)

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى تَوْبَةً نَصُوحاً .

حيث وصفت التوبة بالنصح ، على الإسناد المجازي ، والنصح صفة التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ، ماحية للسيئات .

[سورة التحريم (66) : آية 9]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة ، وحالية - أو استئنافيّة - في الموضع الرابع ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنّم . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاهد . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اغلظ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " مأواهم جهنّم " لا محلّ لها معطوفة على تعليل مقدّر أي سنحاسبهم ومأواهم جهنّم . . .

وجملة : " بئس المصير " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

انتهى المجلد الرابع عشر ويليه المجلد الخامس عشر

---

(1) أو حال من جهنّم ، والعامل فيها الابتداء .

[سورة التحريم (66) : الآيات 10 إلى 12]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

الإعراب :

(مثلا) مفعول به ثان مقدّم (للذين) متعلق بنعت

(322/773)

ل (مثلا) " 1 " ، (امرأة) مفعول به أوّل مؤخّر " 2 " منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (تحت) ظرف منصوب متعلّق بخبر كانتا ، والظرفيّة مجازيّة (من عبادنا) متعلّق بنعت لـ (عبدين) (الفاء) عاطفة في الموضعين (عنهما) متعلّق بـ (يغنيا) بتضمينه معنى يدفعا (من اللّه) متعلّق بـ (يغنيا) بحذف مضاف أي من عذاب اللّه (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 3 " أي شيئا من الإغناء (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (ادخلا) .

جملة : " ضرب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كانتا تحت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " خانتاهما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانتا . . .

وجملة : " لم يغنيا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خانتاهما .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يغنيا .

وجملة : " ادخلا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 4 " .

11 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (ضرب اللّه . . . امرأة فرعون) مثل ضرب اللّه . . . امرأة نوح (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (مثلا) ، (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف (لي) متعلّق بـ (ابن) ، (عندك) ظرف منصوب متعلّق بحال من الضمير في (لي) " 5 " (في الجنّة) متعلّق بنعت لـ (بيتا) ،

---

(1) أو متعلّق بـ (مثلا) .

(2) بحذف مضاف أي حال امرأة .

(3) أو هو مفعول به منصوب .

(4) لأنها مقول القول مع الفعل المعلوم .

(5) أو بحال من (بيتا) ، نعت تقدّم على المنعوت . . . ويجوز (في الجنّة) أن يكون بدلا - أو عطف بيان - للظرف عندك . . .

(من فرعون) متعلّق بـ (نجّني) ، (من القوم) متعلّق بـ (نجّني) الثاني . . .

وجملة : " ضرب اللّه (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضرب اللّه (الأولى) .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " قالت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ابن لي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نجّني (الأولى) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " نجّني (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجّني (الأولى) .

12 – (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (مريم) معطوف على (امرأة فرعون) منصوب (بنة) بدل من مريم – أو عطف بيان عليه – منصوب (التي) موصول في محلّ نصب نعت لمريم (فيه) متعلّق بـ (نفخنا) ، والضمير يعود على فرجها مجازا لأنّ النفخ كان في جيب قميصها (من روحنا) متعلّق بـ (نفخنا) ، و(من) تبعيضيّة (بكلمات) متعلّق بـ (صدّقت) ، (من القانتين) متعلّق بخبر كانت . . .

وجملة : " أحصنت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " نفخنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " صدّقت . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فحملت بعيسى

وصدّقت بكلمات . . .

وجملة : "كانت من القانتين . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة صدّقت " 1 " . . .

البلاغة

1 - التمثيل : في قوله تعالى " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا . . . " الآية .

حيث مثّل اللّه عز وجل حال الكفار - في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا بتقدير قد .

للمؤمنين ، معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر ، لأن عداوتهم له وكفرهم باللّه ورسوله قطع العلائق وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء اللّه - بحال امرأة نوح وامرأة لوط ، لما نافقتا وخانتا الرسولين ، لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب اللّه .

2 - التعريض : في قوله تعالى " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا " الآية في ضرب هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين ، المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول اللّه (صلّى اللّه

عليه وسلّم) بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما في التمثيل من ذكر الكفر وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول اللّه ، والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) .

الفوائد :

طهارة عرض الأنبياء . . .

ضرب اللّه مثلا في هذه الآية بأن الفاسد العاصي الكافر ، لا ينفعه صلاح غيره لو كان نبيا ، فامرأة نوح واسمها واعلة ، وقيل : والعة ، وامرأة لوط واسمها واهلة وقيل :

والهة ، كانتا زوجتين لعبدين صالحين نبيين ، وهما نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام (فخانتاهما) . قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : ما بغت امرأة نبي قط ، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، وكانت امرأة نوح تقول للناس : إنه مجنون ، وإذا آمن به أحد أخبرت الجبابرة من قومها . وأما امرأة لوط ، فإنها كانت تدل قومها على أضيافه ، إذا نزل به ضيف بالليل أوقدت النار ، وإذا نزل به ضيف في النهار دخنت لتعلم قومها

بذلك . لذا أجمع العلماء على طهارة عرض الأنبياء ، وقالوا : بأن زوجة النبي إذا أصرت على الكفر هذا لا يقدح في شرفه وعصمته ، أما إذا زنت فهذا لا يتفق مع عصمة الأنبياء وطهارتهم ، فعرضهم مصون من الزنا ، فلا يقع ذلك في نسائهم أبدا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 28 صـ 292 : حـ 29 صـ 11 ﴾

(326/773)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(66) سورة التحريم

مدنيّة وآياتها اثنتا عشرة

[سورة التحريم (66) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ

تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ

عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً (5)

اللغة :

(تَحِلَّةَ) مصدر لحلل مضعفا نحو تكرمة وهذان ليسا بمقيسين فإن قياس مصدر التفعيل إذا كان صحيحا غير مهموز فأما المعتل اللام نحو زكّى والمهموز اللام نحو نبأ فمصدرهما تزكية وتنبئة على أنه قد جاء التفعيل كاملا في المعتل نحو :

باتت تنزي دلوها تنزيا كما تنزي شهلة صبيا

وأصله تحللة كتكرمة فأدغمت .

)

تَظاهَرا) بإدغام التاء الثانية في الأصل في الظاء وفي قراءة بدونها أي تتعاونا .

(قانِتاتٍ) مطيعات .

(ثَيِّباتٍ) جمع ثيّب من ثاب يثوب أي رجع كأنها ثابت بعد زوال عذرتها وأصلها ثيوب كسيد وميت أصلهما سيود وميوت فأعلّا الإعلال الذي يأتي في باب الفوائد .

الإعراب :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يا أيها النبي تقدّم إعرابها كثيرا ، ولم : اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام وقد تقدم أن ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حذف ألفها ، والجار والمجرور متعلقان بتحرم وما مفعول به وجملة أحلّ اللّه صلة ولك متعلقان بأحلّ وجملة تبتغي حالية من فاعل تحرم ومرضاة أزواجك مفعول به واللّه مبتدأ وغفور خبر ورحيم خبر ثان (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ) قد حرف تحقيق وفرض اللّه

فعل وفاعل ولكم متعلقان بفرض وتحلّة مفعول به وأيمانكم مضاف إليه أي شرع اللّه لكم تحليل أيمانكم بما هو مبسوط في كتب التشريع (وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) الواو عاطفة واللّه مبتدأ ومولاكم خبر وهو مبتدأ والعليم خبر أول والحكيم خبر ثان (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً) الواو استئنافية وإذ مفعول به لفعل محذوف أي اذكر وجملة أسرّ النبي في محل جر بإضافة الظرف إليها وحديثا مفعول به (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ) الفاء عاطفة ولما ظرف بمعنى حين أو رابطة متضمنة معنى الشرط وجملة نبأت في محل جر بإضافة الظرف إليها والأصل في أنبأ ونبأ وأخبر وخبّر وحدّث أن تتعدى إلى واحد بأنفسها وإلى ثان بحرف الجر ويجوز حذفه فتقول نبأت به المفعول الأول محذوف أي غيرها ومن أنبأك هذا أي بهذا قال نبّأني أي نبأني به أو نبأنيه

فإذا ضمنت معنى أعلم تعدّت إلى ثلاثة مفاعيل نحو قوله :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إليّ غرائب الأشعار

(328/773)

و قد تعدى نبأت في الآية لاثنين حذف أولهما والثاني مجرور بالباء أي نبأت به غيرها ، وأظهره : الواو حرف عطف وأظهره أي أطلعه فعل ومفعول به واللّه فاعل وعليه متعلقان بأظهره وجملة عرف لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبعضه مفعول به وأعرض عطف على عرف وعن بعض متعلقان بأعرض ومفعول عرف الثاني محذوف أي عرفها بعض ما فعلت وفي قراءة عرف بالتخفيف أي جازى بالعتب واللوم كما تقول لمن يؤذيك لأعرفنّ لك ذلك أي لأجازينّك (فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) الفاء حرف عطف ولما ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط على كل حال ونبأها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة قالت لا محل لها ومن اسم

(329/773)

استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة أنبأك خبر والكاف مفعول أول وهذا مفعول ثان وقال فعل ماض وجملة نبأني العليم الخبير مقول القول والعليم فاعل نبأني والخبير صفة (إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما) إن شرطية وتتوبا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل وإلى اللّه متعلقان بتتوبا وجواب الشرط محذوف تقديره يتب عليكما والفاء تعليلية وقد حرف تحقيق وصغت أي مالت فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والتاء تاء التأنيث الساكنة وقلوبكما فاعل صغت (وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وإن شرطية وتظاهرا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل وعليه متعلقان بتظاهرا وجواب الشرط محذوف تقديره يجد ناصرا والفاء تعليلية وإن واسمها وهو ضمير فصل ومولاه خبران والوقف هنا ، وجبريل مبتدأ وصالح المؤمنين عطف على جبريل وصالح اسم جنس لا جمع ولذلك جاء من غير واو بعد الحاء وجوّزوا أن يكون جمعا بالواو والنون وحذفت النون للإضافة وكتبت دون واو اعتبارا بلفظ لأن الواو ساقطة لالتقاء الساكنين ولا داعي لهذا التكلّف ، ويجوز أن تعطف جبريل وصالح المؤمنين على محل إن واسمها فالخبر عن الجميع مولاه وعلى الابتداء يكون الخبر قوله ظهير لأن فعيلا يستوي فيه الواحد والجمع كما تقدم (وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ) لك أن تعطف الملائكة على ما تقدم أو تعربها مبتدأ خبره ظهير ، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك (عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ)

عسى فعل ماض من أفعال الرجاء وربه اسمها وإن شرطية وطلقكنّ فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به في محل جزم فعل الشرط وأن حرف مصدري ونصب ويبدله بالتخفيف وقرىء بالتشديد فعل مضارع منصوب بأن وأن

(330/773)

و ما في حيّزها خبر عسى والهاء مفعول به أول وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فعسى ، وأزواجا مفعول به

ثان وخيرا صفة ومنكنّ متعلقان بخيرا وفصل بين عسى وخبرها بالشرط اهتماما بالأمر وتخويفا لهنّ (مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً)

مسلمات نعت لأزواجا ثان ويجوز أن يعرب حالا ونصبه بعضهم على الاختصاص وهو جميل وما بعده صفات متعددة ، ووسطت الواو بين ثيّبات وأبكارا لتنافي الوصفين فيه دون سائر الصفات وليست هي واو الثمانية كما توهم بعضهم وقد مرّ بحث ذلك مفصلا .

البلاغة :

أتى بالجمع في قوله " قلوبكما " وساغ ذلك لإضافته إلى مثنى وهو ضميراهما والجمع في مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع كما قال :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العبط التي لا ترفع

وهذا كان القياس وذلك أن يعبّر عن المثنى بالمثنى ولكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع لأن التثنية جمع في المعنى والإفراد لا يجوز عند البصريين إلا في الشعر كقوله :

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من العز الفوادي مطيرها

يريد بطني .

الفوائد :

لم يجعل الرسول من هيبة النبوّة سدّا رادعا بينه وبين نسائه بل أنساهنّ برفقه وإيناسه ، أنهنّ يخاطبن رسول اللّه في بعض الأحايين ، فكانت منهنّ من تقول له أمام أبيها : تكلم ولا تقل إلا حقا ، ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ الاجتراء عليه ما يسمع به

(331/773)

رجل كعمر بن الخطاب في شدّته فيعجب له ويهمّ بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترىء كما تجترىء الزوجات الأخريات ، والقصة التالية نموذج صحيح لهذه المعاملة السامية ، قال معظم المفسرين ما خلاصته : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمي وقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن

أبا بكر وعمر يملكان من بعدي أمر أمتي فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين ، وقيل خلا بها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلّقها واعتزل نساءه ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروي أن عمر قال لها : لو كان في آل الخطاب خير لما طلّقك فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوّامة قوّامة وإنها من نسائك في الجنة .

وروي أنه شرب عسلا في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنّا نشم منك ريح المغافير والمغافير جمع مغفور بالضم كعصفور أي صمغ حلوله رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط بضم العين المهملة والفاء يكون بالحجاز له رائحة كرائحة الخمر وكان صلّى اللّه عليه وسلم يكره أن يوجد منه الريح الكريه فحرّم العسل .

وقد تجرأ الزمخشري فأطلق في حق النبي صلّى اللّه عليه وسلم ما لا يسوغ إطلاقه مما لا يسيغ نقله ، وقد ردّ عليه ابن المنير ردّا صائبا وحلّل هذا التحريم تحليلا لطيفا ونكتفي بنقله ضاربين صفحا عن بقية الأقوال المتعددة قال ابن المنير :

" ما أطلقه الزمخشري في حق النبي صلّى اللّه عليه وسلم تقوّل وافتراء والنبي منه براء ، وذلك أن تحريم ما أحلّ اللّه على وجهين :

اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما

حرّمه اللّه عزّ وجلّ وكلاهما محظور لا يصدر من المتّسمين بسمة الإيمان وإن صدر سلب المؤمن حكم الإيمان واسمه ، الثاني الامتناع مما أحلّه اللّه عزّ وجلّ وحمل التحريم بمجرده صحيح لقوله وحرّمنا عليه المراضع من قبل أي منعنا لا غير وقد يكون مؤكدا باليمين مع اعتقاد حلّه وهذا مباح صرف ، وعلى القسم الثاني تحمل الآية والتفسير الصحيح يعضده فإن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حلف باللّه لا أقرب مارية ولما نزلت الآية كفّر عن يمينه ويدلّ عليه : قد فرض اللّه لكم تحلّة أيمانكم وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح وإنما قيل له لم تحرّم ما أحلّ اللّه لك رفقا به وشفقة عليه وتنويها لقدره ولمنصبه صلّى اللّه عليه وسلم أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه جريا على ما ألف من لطف اللّه تعالى بنبيّه ورفعه عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا ليظهر اللّه كمال نبوّته بظهور نقصانهم عنه ، والزمخشري لم يحمل التحريم على هذا الوجه لأنه جعله زله فيحمل على المحمل الأول ومعاذ اللّه وحاش للّه وأن آحاد المؤمنين حاش أن يعتقد تحريم ما أحلّ اللّه فكيف لا يربأ بمنصب النبي عمّا يرتفع عنه منصب عامّة الأمة وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على اللّه ورسوله وإطلاق القول من غير تحرير وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير " .

[سورة التحريم (66) : الآيات 6 إلى 8]

(333/773)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

الإعراب :

(334/773)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ) قوا فعل أمر من الوقاية فوزنه عوا لأن الفاء حذفت لوقوعها في المضارع بين ياء وكسرة وهذا محمول عليه واللام حذفت حملا له على المجزوم وبيانه أن أوقوا كاضربوا فحذفت الواو التي هي فاء

الكلمة لما تقدم وحذفت همزة الوصل لحذف مدخولها الساكن واستثقلت الضمة على الياء فحذفت فالتقى ساكنان فحذفت الياء وضم ما قبل الواو لتصحّ ، والواو فاعل وأنفسكم مفعول به أول وأهليكم عطف على أنفسكم وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ونارا مفعول به ثان ووقودها مبتدأ والناس خبر أو بالعكس والحجارة عطف على النار وجملة وقودها الناس صفة لنارا (عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ) الجملة صفة ثانية لنارا وعليها خبر مقدّم وملائكة مبتدأ مؤخر وغلاظ نعت لملائكة وشداد نعت ثان ولا نافية ويعصون اللّه فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به وما مصدرية وأمرهم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وما مع مدخولها في تأويل مصدر في محل نصب بدل اشتمال من اللّه كأنه قيل لا يعصون أمره

(335/773)

وأجاز أبو حيان نصبه على نزع الخافض أي فيما أمرهم ، ويفعلون الواو عاطفة ويفعلون فعل مضارع مرفوع وفاعل وما اسم موصول مفعول به وجملة يؤمرون صلة والعائد محذوف أي به ، قال الزمخشري : " فإن قلت : أليست الجملتان في معنى واحد ؟ قلت : لا فإن معنى الأولى أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها ومعنى الثانية أنهم يؤدّون ما يؤمرون به ولا

يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه " فحصلت المغايرة ، وأما البيضاوي فقد أجاب عن هذا السؤال بقوله " وقيل لا يعصون اللّه فيما مضى ويفعلون ما يؤمرون فيما يستقبل " (يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) لا ناهية وتعتذروا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية واليوم ظرف متعلق بتعتذروا والجملة مقول قول محذوف أي يقال لهم ذلك عند دخول النار وإنما كافّة ومكفوفة وتجزون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وما مفعول به ثان وجملة كنتم صلة ما وجملة تعملون خبر كنتم (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً) توبوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى اللّه متعلقان بتوبوا وتوبة مفعول مطلق ونصوحا نعت لتوبة (عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ) عسى فعل ماض جامد من أفعال الرجاء وربكم اسمها وأن وما في حيّزها في موضع نصب خبر عسى وعنكم متعلقان بيكفر وسيئاتكم مفعول به (وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) ويدخلكم عطف على يكفر والكاف مفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري نعت لجنات ومن تحتها متعلقان بتجري والأنهار فاعل تجري (يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ) الظرف متعلق بيدخلكم أو بفعل محذوف تقديره اذكر فيكون مفعولا به ولا نافية ويخزي اللّه فعل مضارع وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها والنبي مفعول به (وَ

الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ) يجوز أن تكون الواو عاطفة والذين في محل نصب نسقا على النبي فيكون نورهم مبتدأ

وجملة يسعى خبر والجملة مستأنفة أو حالية ، ويجوز أن تكون الواو استئنافية والذين مبتدأ وجملة نورهم يسعى خبره وبين أيديهم الظرف متعلق بيسعى وبأيمانهم عطف على الظرف متعلق بما تعلق به (يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا) الجملة خبر ثان أو حالية وربنا منادى مضاف وجملة النداء وفعل الأمر بعدها وفاعله ومفعوله مقول القول (وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) عطف على ما تقدم .

البلاغة :

1- في قوله " توبة نصوحا " إسناد مجازي ، أسند النصح إلى التوبة مجازا وإنما هو من التائب للمبالغة ، وقد تقدم نظيره كثيرا .

2- في قوله " لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " فن عجيب سمّوه " السلب والإيجاب " وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة وقد تقدم بحثه فيما مضى ، وهو في الآية ظاهر فقد سلب عزّ وجلّ عن هؤلاء الموصوفين العصيان وأوجب لهم الطاعة ، فإن قيل على ظاهر هذه الآية إشكال من جهة التداخل والتكرار فإن معنى عجزها داخل في معنى صدرها

فهو مكرر وإن اختلف لفظه وهذا عيب يتحاشى عن نظم الكتاب العزيز فإن من لا يعصي يطيع ، ولم أر من تعرّض لهذا الإشكال وأجاب عنه إلا الإمام فخر الدين الرازي فقال " لا يعصون اللّه في الحال ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل " وهو على كل حال جواب لا يحلّ الإشكال بل يبقى واردا وأجاب ابن أبي الإصبع بقوله :

"

الوصف بالطاعة والعصيان على ثلاثة أقسام : تقول : زيد لا يعصي ويطيع ونقيضه لا يطيع ويعصي والواسطة لا يعصي ولا يطيع والأول وصف أعلى والثاني وصف أدنى والثالث وصف متوسط والحق سبحانه

(337/773)

أراد ، وهو أعلم ، أن يصف هؤلاء الملائكة بالوصف الأعلى فلو اقتصر عزّ وجلّ على قوله لا يعصون احتمل أن يوصل بقولك ولا يطيعون فلا يوفي ذلك بالمعنى المراد فإن المراد وصفهم بأعلى الأوصاف فوجب أن يقول ويفعلون فتكمل الوصف واللّه أعلم " .

وأورد الزمخشري هذا الإشكال وأجاب عنه بما يلي : " فإن قلت أليست الجملتان في معنى واحد ؟ قلت : لا فإن معنى الأولى يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها

ومعنى الثانية أنهم يؤدّون ما يؤمرون ، به ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ، فإن قلت قد خاطب اللّه المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى : فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، وقال : أعدّت للكافرين فجعلها معدّة للكافرين فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ قلت :

الفسّاق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفّار فإنهم مساكنون للكفّار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفّار الذين أعدّت لهم هذه النار الموصوفة ، ويجوز أن يأمرهم بالتوقّي من الارتداد والندم على الدخول في الإسلام .

وتعقبه ابن المنير المالكي في كتابه الانتصاف فقال : " جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفسّاق في جهنم ولعلّه إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفّس عمّا في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل " .

[سورة التحريم (66) : الآيات 9 إلى 12]

(338/773)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا

صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ
وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ
(12)

اللغة :

(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) شدّد عليهم في الخطاب ولا تأخذك هوادة أو لين في معاملتهم . وفي القاموس : " الغلظة مثلثه والغلاظة بالكسر وكعنب ضد الرقّة ، والفعل ككرم وضرب فهو غليظ وغلاظ كغراب وأغلظ له في القول خشن " .

الإعراب :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) يا أيها النبي تقدّم إعرابها كثيرا وجاهد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والكفّار مفعول به والمنافقين عطف على الكفّار واغلظ فعل أمر معطوف على جاهد وعليهم متعلقان بأغلظ (وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الواو استئنافية ومأواهم مبتدأ وجهنم خبر وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمصير فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي هي (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ) كلام مستأنف مسوق لإيراد حالة

غريبة ليعرف على ضوئها حالة غريبة أخرى مشاكلة لها في الغرابة .

وضرب اللّه فعل وفاعل ومثلا مفعول به ثان مقدّم واللام ومجرورها متعلقة بمحذوف صفة لمثلا وامرأة نوح مفعول به أول وامرأة لوط عطف على امرأة نوح (كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما) الجملة مستأنفة مسوقة لتفسير ضرب المثل ، وكان فعل ماض ناقص والتاء تاء التأنيث الساكنة والألف اسم كان وتحت عبدين الظرف متعلق بمحذوف خبر كان ومن عبادنا نعت لعبدين ، فخانتاهما عطف وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به ، وسيأتي اسم المرأتين وحديثهما في باب الفوائد (فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) الفاء عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم ويغنيا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل وعنهما متعلقان بيغنيا ومن اللّه حال وشيئا مفعول مطلق أو مفعول به وقيل عطف على ما تقدم وهو فعل ماض مبني للمجهول وجملة ادخلا مقول القول والنار مفعول به على السعة ومع الداخلين ظرف متعلق بادخلا والفعل الماضي قيل مضارع في المعنى أي ويقال لهما (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ) عطف على ما تقدم وإذ ظرف متعلق بمثلا ولعلّ

الأولى أن يقال أنه متعلق بمحذوف بدل من مثلا وجملة قالت في محل جر بإضافة الظرف إليها وربّ منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وابن فعل أمر للدعاء مبني على حذف حرف العلة ولي متعلقان بابن وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال من ضمير المتكلم أو من بيتا لتقدمه عليه وفي الجنة عطف بيان أو بدل لقوله عندك أو متعلقان بابن (وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ونجّني عطف على ابن ومن فرعون متعلقان بنجّني وعمله عطف ومن القوم

(340/773)

متعلقان بنجّني والظالمين نعت للقوم (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا) ومريم عطف على امرأة فرعون وابنة بدل أو نعت لمريم وعمران مضاف وجر بالفتحة لأنه لا ينصرف للعلمية وزيادة الألف والنون والتي نعت لمريم وجملة أحصنت فرجها صلة التي أي حفظته وصانته من الرجال ، فنفخنا عطف على أحصنت وفيه متعلقان بنفخنا ومن روحنا صفة لمفعول به محذوف أي روحا من روحنا ومن للتبعيض ، وقد مرّ معنى النفخ فيما تقدم (وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ) وصدّقت عطف على محذوف مقدّر مناسب للسياق أي فحملت

بعيسى وصدّقت ، وبكلمات متعلقان بصدّقت وربها مضاف إليه وكتبه عطف على كلمات وكانت فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هي ومن القانتين خبر ، ويجوز في من وجهان أحدهما أنها لابتداء الغاية والثاني أنها للتبعيض والتذكير للتغليب .

البلاغة :

في ضرب المثل تعريض بحفصة وعائشة المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكتمان فيه كمثل هاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجتا رسول اللّه فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول اللّه ، قال ابن عطية : " إن في المثلين عبرة لزوجات النبي صلّى اللّه عليه وسلم حين تقدّم عتابهنّ وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفّار يبعد هذا " .

الفوائد :

ذكر المفسرون أن امرأة نوح كانت تقول لقومه إنه مجنون واسمها واهلة بتقديم الهاء على اللام وقيل بالعكس وامرأة لوط تدل قومه على

أضيافه إذا نزلوا به ليلا بإيقاد النار ونهارا بالتدخين واسمها واعلة بتقديم العين على اللام وقيل بالعكس . أما امرأة فرعون واسمها آسية بنت مزاحم وكانت ذات فراسة صادقة في يوسف حين قالت قرّة عين لي ولك ، ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك وعذاب الدنيا على النعيم الذي كانت ترفل فيه .

هذا وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط ، وقيل كانت خيانتهما النفاق ، وقيل خانتاهما بالنميمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 130 .

﴿144

(342/773)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/774)

الجزء الرابع والسبعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المُلْك)

(4/774)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المُلْك)

(5/774)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الملك

وتسمى تبارك والمانعة والواقية والمنجية ، قال الولي الملوي : هذه السورة كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحبها لكثرة علومها ، وقال : " وددت لو كانت في صدر كل مسلم " .

مقصودها الخضوع لله لاتصافه بكمال الملك الدال عليه تمام القدرة الدال عليه قطعا أحكام المكونات الدال عليه تمام العلم الدال عليه أحكام المصنوعات علم ما في الصدور لينتج ذلك العلم بتحتم البعث لدينونة العباد على ما هم عليه من الصلاح والعناد كما هي عادة الملوك في دينونة رعاياهم لتكمل الحكمة وتتم النعمة وتظهر سورة الملك ، واسمها الملك واضح في ذلك لأن الملك محل الخضوع من كل من يرى الملك وكذا تبارك لأن من كان كذلك كان له تمام الثبات والبقاء ، وكان له من كل شيء كمال الخضوع ولالاتقاء ، وكذا اسمها المانعة والواقية

والمنجية لأن الخضوع حامل على لزوم طريق السعادة ، ومن لزمها نجا مما يخاف ومنع من كل هول ووقي كل مخلوق ، وترد السؤال عمن لازم عليها وهذا من أهم الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 62 ﴾

(6/774)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة . . فى تبارك الذى بيده الملك)

السّورة مكية ، وآياتها ثلاثون عند الجمهور ، وإِحدى وثلاثون عند المكّيين .

وكلماتها ثلاثمائة وثلاثون .

وحروفها أَلف وثلاثمائة وثلاث عشرة .

والمختلف فيها آية ﴿ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ مجموع فواصل آياتها (تمر) على الميم اثنان : أَليم و مستقيم .

ولها فى القرآن والسُّنن سبعة أَسماء : سُورة المُلْك ؛ لمفتتحها ، والمُنجية لأَنها تنجى قارئها من العذاب ، والمانعة ؛ لأَنها تمنع مِن قارئها عذابَ القبر – وهذا الاسم فى التوراة –

والدافعة ؛ لأَنها تدفع بلاءَ الدنيا وعذابَ الآخرة من قارئها ، والشافعة ؛ لأَنها تشفع فى القيامة لقارئها ، والمجادِلة ؛ لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها ، السابعة : المخلِّصة ؛ لأَنها تخاصم زَبانية جهنم ؛ لئلا يكون لهم يدٌ على قارئها .

معظم مقصود السّورة : بيان استحقاق الله المُلْك ، وخَلْقُ الحياة والموت للتجربة ، والنظرُ إلى السموات للعِبرة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أُعد للمنكرين : من العذاب ، والعقوبة ، و (ما) وُعِد به المتَّقون : من الثَّواب ، والكرامة ، وتأْخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرّحمة ، وحفظ الطُّيور فى الهواءِ بكمال القدرة ، واتصال الرّزق إلى الخليقة ، بالنَّوال والمنَّة ، وبيان حال أَهل الضَّلالة ، والهداية ، وتعجُّل الكفَّار بمجىءِ القيامة ، وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ .

والسّورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

المتشابهات

قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ وبعده : ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أَى مع الكرّة الأُولى .

وقيل : هى ثلاث مرّات ، أَى ارجع البصر – وهذه مرّة – ثم ارجع البصر كرّتين ، فمجموعها ثلاث مرّات .

قال أَبو القاسم الكرمانى : ويحتمل أَن يكون أَربع مرّات ؛ لأَنَّ قوله ﴿ ارجِعِ ﴾ يدلُّ على سابقة مرّة .

قوله : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ ، وبعده : ﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ خوّفهم بالخسف أوّلا ، لكونهم على الأَرض ، وأَنها أَقرب عليهم من السّماءِ ، ثم بالحصْب من السماءِ .

فلذلك جاءَ ثانية .

فضل السّورة

فيه حديث حسن عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : إِن سورة من كتاب الله ما هى إِلاَّ ثلاثون آية ، شفعت لرجل ، فأَخرجته يوم القيامة من النار ، وأَدخلته الجنَّة ، وهى سورة تبارك ؛ وأَحاديث ضعيفة : منها حديث أُبىّ : ودِدْتُ أَنَّ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ فى قلب كلّ مؤمن ، وحديث : إِنَّ فى القرآن سُورةً تجادل عن صاحبها يوم القيامة خُصَماءَه ، وهى الواقية : تقيه من شدائد القيامة ، وهى الدّافعة : تدفع عنه بَلْوَى الدّنيا ، وهى المانعة : تمنع عن قارئها عذاب القبر ، فلا يؤذيه منكر ونكير ؛ وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها جاءَ يوم القيامة راكباً على أَجنحة الملائكة ، ووجهه فى الحسن كوجه يوسف

الصّدّيق ، وله بكلّ آية قرأها مثل ثواب شُعَيْب النبيّ صلّى اله عليه وسلّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 473.475 ﴾

(8/774)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الملك

443 - مسألة :

قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

ثم قال تعالى : (أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا) قدم الخسف على الحاصب

وفى الأنعام : قدم المؤخر ههنا وأخر المقدم في قوله تعالى : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ؟ .

جوابه :

لما تقدم هنا : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا) الآية ،

ناسب أن يليه الوعيد بالخسف في الأرض التي أذلها .

وأية الأنعام : تقدمها قوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) الآية ، وهو فوق الأرض فناسب ذلك تقدم ما هو من جهة فوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 361.362 ﴾

(9/774)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الملك

سماها النبي (صلى الله عليه وسلم) (سورة تبارك الذي بيده الملك) في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن سورة من القرآن ثلاثون آية شفَعت لرجل حتى غُفِر له وهي (سورة تبارك الذي بيده الملك) قال الترمذي : هذا حديث حسن .

فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها فتكون تسمية بجملة كما سمي ثابتُ بن جابر (تأبَّط شَرّاً) ولفظ (سورة) مضاف إلى تلك الجملة المحكية .

وسميت أيضاً (تباركَ المُلكُ) بمجموع الكلمتين في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)

ويسمع منه فيما رواه الترمذي عن ابن عباس (أن رجلاً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) قال له : ضَرَبْتُ خِبائي على قبرٍ وأنا لا أحسِب أنه قبر فإذا فيه إنسان (أي دفين فيه) يقرأ سورة (تبارك الملكُ) حتى ختمها فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (هي المانعة هي المُنْجِية تنجيه من عذاب القبر) حديث حسن غريب فيكون اسمُ السورة مجموع هذين اللفظين على طريقة عدّ الكلمات في اللفظ دون إضافة إحداهما إلى

(10/774)

الأخرى مثل تسمية (لام ألف) . ونظيره أسماء السور بالأحرف المقطعة التي في أولها على بعض الأقوال في المراد منها وعليه فيحكى لفظ (تبارك) بصيغة الماضي ويُحكى لفظ (المُلكُ) مرفوعاً كما هو في الآية ، فيكون لفظ (سورة) مضافاً من إضافة المسمى إلى الاسم . لأن المقصود تعريف السورة بهاتين الكلمتين على حكاية اللفظين الواقعين في أولها مع اختصار ما بين الكلمتين وذلك قصداً للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان) ، كما قالوا : عُبَيْدُ الله الرُّقَيَّاتِ ، بإضافة مجموع (عبيدُ الله) إلى (الرقيات) تمييزاً لعبيد الله بن قيس العامري الشاعر عن غيره ممن يشبه اسمُه اسمَه مثل عُبيد الله ابن عبد الله بن عُتبة بن مسعود أو لمجرد اشتهاره بالتشبيب في نساءٍ كان اسم كل واحدة منهن رُقية وهن ثلاث

ولذلك يجب أن يكون لفظ (تبارك) في هذا المركب مفتوح الآخر . ولفظ (الملك) مضموم الكاف ، وكذلك وقع ضبطه في نسخة (جامع الترمذي) وكلتاهما حركةُ حكايةٍ .

والشائع في كتب السنة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة (سورة المُلْك) وكذلك ترجمها الترمذي : باب ما جاء في فضل سورة المُلك . وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال (كنا نسميها على عهد رسول الله المانعة) ، أي أخذاً من وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) إياها بأنها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي المذكور آنفاً وليس بالصريح في التسمية .

وفي (الإتقان) عن (تاريخ ابن عساكر) من حديث (أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سماها المنجية) ولعل ذلك من وصفه إياها بالمنجية في حديث الترمذي وليس أيضاً بالصريح في أنه اسم .

وفي (الإتقان) عن (كتاب جمال القراء) تسمى أيضاً (الواقية) ، وتسمى (المنّاعة) بصيغة المبالغة .

وذكر الفخر : أن ابن عباس كان يسميها (المُجادِلة) لأنها تجادل عن قارئها عند سؤال الملكين ولم أره لغير الفخر .

فهذه ثمانية أسماء سميت بها هذه السورة .

وهي مكية قال ابن عطية والقرطبي : باتفاق الجميع .

وفي (الإتقان) أخرج جويبر في (تفسيره) (عن الضحاك عن ابن عباس : نزلت تبارك الملك في أهل مكة إلاّ ثلاث آيات اه . فيحتمل أن الضحاك عنى استثناء ثلاث آيات نزلت في المدينة . وهذا الاحتمال هو الذي يقتضيه إخراج صاحب (الإِتقان) هذا النقل في عداد السور المختلف في بعض آياتها ، ويحتمل أن يريد أن ثلاث آيات منها غير مخاطب بها أهل مكة ، وعلى كلا الاحتمالين فهو لم يعين هذه الآيات الثلاث وليس في آيات السورة ثلاث آيات لا تتعلق بالمشركين خاصة بل نجد الخمس الآيات الأوائل يجوز أن يكون القصد منها الفريقين من أول السورة إلى قوله : (عذاب السعير ((الملك : 5) .

وقال في (الإتقان) أيضاً (فيها قول غريب (لم يعْزه) أن جميع السورة مدني) . وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة .

وآيها في عد أهل الحجاز إحدى وثلاثون وفي عد غيرهم ثلاثون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 5 . 7 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الملك

هذا الجزء كله من السور المكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية . ولكل منهما طابع مميز , وطعم خاص . . وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة "المدثر" ومطلع سورة "المزمل" . كما أن فيه سورا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة "القلم" . وبحوالي عشر سنوات كسورة "الجن" التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الطائف , حيث أوذي من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفرا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن , مما حكته سورة الجن في هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة .

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة . في الله وفي الوحي , وفي اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق

تعريفا يجعل الشعور به حيا في القلب , مؤثرا موجها موحيا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب , وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب , وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة , وسنرى نماذج منه في هذا الجزء .

والقرآن المدني يعالج – في الغالب – تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية ; وحمل النفوس على الإضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة , والنهوض بتكاليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي .

(13/774)

وهذه السورة الأولى – سورة تبارك – تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود , إلى عوالم في السماوات , وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير , وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم , فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة , في هذه الأرض . كما

أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والإنطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ; وتفتح المنافذ هنا وهناك , وتنفض الغبار وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون , وأغوار النفس , وطباق الجو , ومسارب الماء , وخفايا الغيوب , فترى هناك يد الله المبدعة , وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله .

وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر , وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض – على سعتها – إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر , وحركة الحياة , وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه , ومن حكمة الله وتدبيره: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا , وهو العزيز الغفور) .

(14/774)

والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته , ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والإستغراق في هذا الجمال والكمال وما

وراءها من حركة وأهداف: (الذي خلق سبع سماوات طباقا . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ? ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . .) .

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود , ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والإنتظار : وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ? قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ; إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! .

(15/774)

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه , ولا تلقي بالا إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا محبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة .

فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ; وتهز في حسهم هذه الأرض الثابتة التي يطمئنون إليها ويستغرقون فيها (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير) . .

والطير . إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذي صور وقدر : (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير) .

وهم آمنون في دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسي ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم ، تهزهم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه : (أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور) .

والرزق الذي تناله أيديهم ، إنه في حسهم قريب الأسباب ، وهي بينهم تنافس وغلاب .

ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك في السماء , ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون:(أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ? بل لجوا في عتو ونفور) . .

(16/774)

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا , في صورة متحركة موحية:(أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ? أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ?) .

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ; ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم , وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر , وتدبر الغاية من هذه البداية: 6 :هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة , قليلا ما تشكرون . قل:هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون . .

وهم يكذبون بالبعث والحشر , ويسألون عن موعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوؤهم أن يكون:(ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? قل إنما العلم عند الله , وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا , وقيل:هذا الذي كنتم به

تدعون !) . .

وهم يتربصون بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود !

فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب , فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب: (قل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ? قل: هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين) .

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون , والذي يجريه هو الله الذي به يكفرون !(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ?) . .

إنها حركة . حركة في الحواس , وفي الحس , وفي التفكير , وفي الشعور .

ومفتاح السورة كلها , ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها , هو مطلعها الجامع الموحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3628 . 3630 ﴾

(17/774)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الملك

مكية وآياتها ثلاثون آية

بين يدي السورة

* سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السور أهدافا رئيسية ثلاثة وهي (إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة . . وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين . . ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور) .

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملك والسلطان ، وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب ، وتعنو له الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة [تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير] الآيات .

* ثم تحدثت عن خلق السموات السبع ، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته [الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . .] الآيات .

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب ، وهم يرون جهنم تتلظى ، وتكاد

تتقطع من شدة الغضب ، والغيظ على أعداء الله ، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب [إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . .] الآيات .

* وبعد أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ، حذرت من عذابه وسخطه ، أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين [ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول ، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهلاك المؤمنين [قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم] ؟ الآيات ، ويا له من وعيد شديد ، ترتعد له الفرائص ! ! .

فضلها :

(18/774)

تسمى هذه السورة " الواقية " و " المنجية " لأنها تقي قارئها من عذاب القبر ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) (هي المانعة وهي المنجية ، تنجي من عذاب القبر) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 414 ﴾

(19/774)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الملك

ألقوا فيها : أي طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار ، والشهيق : تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرّد ، تفور : أي تغلى بهم كغلى المرجل قاله ابن عباس ، وقال الليث : كل شىء جاش فقد فار كفور القدر والماء من العين ، تميز : أي ينفصل بعضها من بعض ، والغيظ : شدة الغضب قاله الراغب ، فوج : أي جماعة ، خزنتها : واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، نذير : أي رسول ينذركم بأس اللّه وشديد عقابه ، إن أنتم : أي ما أنتم ، ضلال كبير : أي ضلال بعيد عن الحق والصواب ، فسحقا لهم : أي فبعدا لهم من رحمة ربهم . بالغيب : أي غائبين عن أعين الناس ، بذات الصدور : أي بما فى النفوس ، واللطيف : هو

العالم بالأشياء التي يخفى علمها على العالمين ، ومن ثم يقال : إن لطف اللّه بعباده عجيب ، ويراد به دقائق تدبيره لهم ، الخبير : أي بظواهر الأشياء وبواطنها ، ذلولا : أي سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وفيما فيها ، والمناكب : واحدها منكب ، وهو مجتمع ما بين العضد والكتف ، والمراد طرقها وفجاجها ، النشور : أي المرجع بعد البعث . الأمن : ضد الخوف ، من فى السماء : هو ربكم الأعلى ، وخسف اللّه به الأرض غيّبه فيها ، ومنه قوله : " فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ " وتمور : أي تهتز وتضطرب حاصبا : أي ريحا شديدة فيها حصباء تهلككم ، نذير : أي إنذارى وتخويفى ، نكير : أي إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم ، صافّات : أي باسطات أجنحتهن فى الجوّ حين طيرانها تارة ، ويقبضن : أي ويضممنها تارة أخرى .

(20/774)

جند : أي عون ، ينصركم : أي يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ، من دون الرحمن : أي من غيره ، فى غرور : أي فى خداع من الشيطان الذي يغركم بأن لا عذاب ولا حساب ، أمسك رزقه : أي بإمساك المطر وغيره من الأسباب التي ينشأ منها الرزق ، لجّوا : أي تمادوا ، فى عتوّ : أي تكبر وعناد عن قبول الحق ، ونفور :

أي إعراض وتباعد منه ، مكبّا على وجهه : أي واقعا عليه ، سويا : أي معتدلا منتصبا ، والأفئدة : العقول واحدها فؤاد ، ذرأكم : أي خلقكم ، الوعد : أي الحشر الموعود ، إنما العلم : أي العلم بوقته ، زلفة : أي مزدلفا قريبا ، سيئت وجوه الذين كفروا : أي تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والقترة ، ويقال : ساء الشيء يسوء إذا قبح ، تدّعون : أي تطلبونه وتستعجلونه استهزاء وإنكارا

أرأيتم : أي أخبرونى ، غورا : أي غائرا فى الأرض لا تناله الدلاء ، معين : أي جار سهل المأخذ تصل إليه الأيدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 9 . 23 ﴾ . باختصار .

(21/774)

وقال الفراء :

سورة (الملك)

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾ .

لم يوقع البلوى على أىّ ؛ لأن فيما بين أى ، وبين البلوى إضمار فعل ، كما تقول فى الكلام:

بلوتكم لأنظر أيّكم أطوع ، فكذلك ، فأعمل فيما تراه قبل ، أى مما يحسن فيه إضمار النظر فى قولك: اعلم أيُّهم ذهب [/ا] وشبهه ، وكذلك قوله: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ يريد : سلهم ثم انظر أيهم يكفل بذلك ، وقد يصلح مكان النظر القولُ فى قولك: اعلم أيهم ذهب ؛ لأنه يأتيهم ؛ فيقول . أيكم ذهب ؟ فهذا شأن هذا الباب ، وقد فسر فى غير هذا الموض . ولو قلت: اضرب أيّهم ذهب . لكان نصبا ؛ لأن الضرب لا يحتمل أن يضمر فيه النظر ، كما احتمله العلم والسؤال والبلوى .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ . . . ﴾ .

[حدثنى محمد بن الجهم قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى بعض أصحابنا عن زهير بن معاوية الجُعفى عن أبى إسحق: أنّ عبدالله بن مسعود قرأ "من تفوّت" .

حدثنا محمد بن الجهم ، حدثنا الفراء قال: وحدثنى حِبان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة: أنه قرأ: "تفوّت" وهى قراءة يحيى ، وأصحاب عبدالله ، وأهل المدينة وعاصم . وأهل البصرة يقرءون: "تفاوتٍ" وهما بمنزلةٍ واحدة ، كما قال: "ولا تُصَاعِرْ ، وتُصَعّر" وتعهّدت فلانا وتعاهدته ، والتفاوت: الاختلاف ، أى: هل ترى فى خلقه من اختلاف ، ثم

قال: فارجع البصر ، وليس قبله فعل مذكور ، فيكون الرجوع على ذلك الفعل ، لأنه قال: ما ترى ، فكأنه قال: انظر ، ثم ارجع ، وأما الفطور فالصدوع والشقوق .

(22/774)

﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً . . . ﴾ .

يريد : صاغرا ، وهو حسير كليل ، كما يحسَر البعيرُ والإبلُ إذا قوّمت عن هزال وكلال فهى الحسرى ، وواحدها : حسير .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ . . . ﴾ تقطع عليهم غيظا .

﴿ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

وقوله: ﴿ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ . . . ﴾ .

ولم يقل: "بذنوبهم" لأنّ فى الذنب فعلا ، وكل واحد أضفته إلى قوم بعد أن يكون فعلا أدّى عن جمع أفاعيلهم ، ألا ترى أنك تقول: قد أذنب القوم إذنابا ، ففى معنى إذناب: ذنوب ، وكذلك تقول: خرجَتْ أعطيته الناس وعطاء الناس فالمعنى واحد والله أعلم .

وقوله: ﴿ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ . . . ﴾ . اجتمعوا على تخفيف السُّحْق ، ولو قرئت: فسُحُقاً كانت لغة حسنة .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

وقوله: ﴿ فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا . . . ﴾ فى جوانبها .

﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾

وقوله: ﴿ أَأَمِنتُمْ . . . ﴾ يجوز فيه أن تجعل بين الألفين ألفا غير مهموزة ، كما يقال: ﴿ آأنتم ﴾ ، ﴿ آإذ مِتْنا ﴾ . كذلك ، فافعل بكل همزتين تحركتا فزد بينهما مدة ، وهى من لغة بنى تميم .

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ . . . ﴾ .

تقول: قد أكبَّ الرجل: إذا كان فعله غير واقع على أحد ، فإذا وقع الفعل أسقطت الألف ، فتقول: قد كبّه الله لوجهه ، وكببتُه أنا لوجهه .

(23/774)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَاذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقِيلَ هَاذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ . . . ﴾ .

يريد : تَدْعُونَ ، وهو مثل قوله: تَذْكُرون ، وتَذَكَّرون ، وتخبرون و تختبرون ، والمعنى واحد والله أعلم .

وقد قرأ بعض القراء : "ما تَدْخَرون" يريد : تدّخرون ، فلو قرأ قارىء : "هذا الذى كُنتم به تدْعون" كان صوابا .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَسَيَعْلَمُون . . . ﴾ .

قراءة العوامّ "فستعلمون" بالتاء .

[حدثنا محمد بن الجهم قال: سمعت الفراء وذكر محمد بن الفضل [/ب] عن عطاء عن أبى عبد الرحمن عن على (رحمه الله) فسيعلمون بالياء ، وكل صواب .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً . . . ﴾ .

العرب تقول: ماء غور ، وبئر غور ، وماءان غور ، ولا يثنون ولا يجمعون: لا يقولون: ماءان غوران ، ولا مياه أغوار ، وهو بمنزلة: الزَّوْر ؛ يقال: هؤلاء زور فلان ، وهؤلاء ضيف فلان

، ومعناه: هؤلاء أضيافه ، وزواره . وذلك أنه مصدر فأُجرى على مثل قولهم: قوم عدل ، وقوم رِضا ومَقْنَع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 169.172 ﴾

(24/774)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الملك

(سموات طباقاً) [3] يجوز جمع طبق كجمال وجمل ، فيكون المعنى: بعضها فوق بعض . ويجوز اسماً من التطابق على وزن فعال ، فيكون المعنى: متشابهاً من قولهم: هذا مطابق لذلك . (من تفاوت) وتفوت لغتان ، مثل: تعهد وتعاهد ، وتجوز وتجاوز . وقيل: التفوت مخالفة الجملة ما سواها ، والتفاوت: مخالفة بعض الجملة بعضاً ، كأنه الشيء المختلف لا على نظام .

ومن لطائف أبي سعد الغانمي: إن الفوت: هو الفرجة بين الإصبعين ، والفوت والتفوت واحد ، فكأن معنى (من تفوت) معنى (هل ترى من فطور) . والفطور: الصدوع . قال:

1283- [شققت] القلب ثم ذررت فيه هواك فليط فالتأم الفطور 1284- تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور .

(ثم ارجع البصر كرتين) [4] أي: ارجع البصر، وكرر النظر أبداً، وقد أمرناك بذاك كرتين إيجاباً للحجة عليك. (خاسئاً) صاغراً ذليلاً. (وهو حسير) معيى كليل، قال:

1285- تطاولت كيما أبصر الروح خاسئاً فعاد إلي الطرف وهو حسير/1286- وددت من الشوق المبرح أنني أعار جناحي طائر فأطير. (شهيقاً) [7] زفرة من زفرات جهنم.

(تفور) تغلي. (تميز) [8] تنقطع وتتفرق. (يخشون ربهم بالغيب) [12] أي: بالخلوة، إذا ذكروا في الخلوة ذنبهم استغفروا ربهم. (جعل لكم الأرض ذلولاً) [15] أي: سهلة، ذات أنهار وأشجار، ومساكن مطمئنة. (في مناكبها) [15] أطرافها وأطرارها.

(ءأمنتم من في السماء) [16] أي: من الملائكة. أو من في السماء عرشه أو سلطانه.

(25/774)

أو يكون "في" بمعنى "فوق"، كقوله: (فسيحوا في الأرض)، فيكون المراد: العلو والظهور. أو من هو المعبود في السماء، وخص السماء للعادة برفع الأدعية إليها، ونزول الأقضية منها. (صافات) [19] أي: صافات أجنحتها في الطيران، ويقبضنها عند الهبوط. وقيل: يقبضن: يسرعن، من القبيض، وهو شدة العدو. قال تأبط شراً: 1287- لا

شيء أسرع مني ليس ذا عذر [أو ذا] جناح بجنب [الريد] خفاق 1288 - حتى نجوت ولما ينزعوا سلبي بواله من قبيض الشد غيداق .

(ما يمسكهن إلا الرحمن) [19] أي: لو غير الهواء ، والأجنحة ، عن الهيئة التي [تصلح] لطيرانهن لسقطن . وكذلك العالم كله ، فلو أمسك قبضه عنها طرفة عين لتهافتت الأفلاك ، وتداعت الجبال . (لجوا) [21] تقحموا في المعاصي . واللجاج: تقحم الأمر مع [كثرة] الصوارف عنه . والعتو: الخروج إلى فاحش الفساد . (مكباً على وجهه) [22] ساقطاً . يقال: كبّ[ـه] على وجهه فأكب ، بخلاف القياس . ومثله: نزفت ماء البئر ، وأنزفت البئر [نضب] ماؤها ، ومريت الناقة ، وأمرت إذا در لبنها . (زلفة) [27] قريباً . (سيئت) [27] قبحت ، أي: ظهر السوء في وجوههم . (تدعون)

تتداعون/بوقوعه ، بمعنى الدعوى التي هي الدعاء . وجاء في التفسير تكذبون . وتأويله في اللغة: تدعون الباطيل والأكاذيب ، كما قال: 1289 - فما برحت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها أولون وآخر 1290 - لدن غدوة حتى أتى الليل وانجلت عماية يوم شره متظاهر . (ماؤكم غوراً) [30] غائراً ذاهباً ، فوصف الفاعل بالمصدر ، كقولهم: رجل عدل ، أي: عادل . والمعين: سبق ذكره .

[تمت سورة الملك] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1519.1526 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (الملك)

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾

وقال ﴿ طِبَاقاً ﴾ وواحدها "الطَبَق" .

﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

قال ﴿ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ لأنك تقول: "خَسَأْتُهُ" فـ"خَسَأَ" فـ﴿ هُوَ خَاسِيء ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

وقال ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أيْ: إنكاري .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾

وقال ﴿ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ فجمع لأن "الطَيْر" جماعة مثل قولك "صاحِب" و"صَحْب" و"شَاهِد" و"شَهْد" و"رَاكِب" و"رَكْب" .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هذا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾

وقال ﴿ هذا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ لأنهم كانوا يقولون ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾

و﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ فقيل لهم حين رأوا العذاب ﴿ هذا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدْعُونَ ﴾ خفيفة و﴿ تَدَّعُونَ ﴾ ثقيلة قرأه الناس على هذا المعنى وهو أجود [177] وبه نقرأ لأنه شيء بعد شيء .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾

وقال ﴿ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ أَيْ: غائرا ولكن وصفه بالمصدر وتقول: "لَيْلَةٌ غَمٌّ" تريد "غَامَّةٌ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 546 ﴾

(27/774)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الملك

«1»

2 - لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي ليختبركم .

3 - ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ أي اضطراب واختلاف .

وأصله من «الفوت» وهو : أن يفوت شيء شيئا ، فيقع الخلل ولكنه متصل بعضه ببعض .

هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ؟ أي من صدوع . ومنه يقال : فطر ناب البعير ، إذا شقّ اللحم وظهر .

4 - خاسِئاً : مبعدا . من قولك : خسأت الكلب ، إذا باعدته .

وَهُوَ حَسِيرٌ أي كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه .

8 - تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ أي تنشقّ غيظا على الكفار .

11 - فَسُحْقاً أي بعدا .

15 - فَامْشُوا فِي مَناكِبِها أي جوانبها . «ومنكبا الرجل» :

جانباه .

---

(1) هي مكية .

---

16 - فَإِذا هِيَ تَمُورُ أي تدور ، كما يمور السحاب : إذا دار وجاء وذهب .

17 - فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ أي إنذاري .

18 - وكذلك : فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي إنكاري .

19 - صافَّاتٍ : باسطات أجنحتهن ، وَيَقْبِضْنَ : يضربن بها جنوبهن .

22 - أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ : لا يبصر يمينا ، ولا شمالا ، ولا ما بين يديه . يقال :

أكبّ فلان على وجهه (بالألف) ، وكبّه اللّه لوجهه .

وأراد : الأعمى .

27 - فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً أي قريبا منهم . يقول : لمّا رأوا ما وعدهم اللّه قريبا منهم ، سِيئَتْ . . . وجوههم ، وَقِيلَ لهم : هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ أي تدعون . وهو «تفتعلون» من الدعاء . يقال : دعوت وادّعيت ، كما يقال : خبرت واختبرت ، ودخرت وادّخرت .

30 - أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً أي غائرا ، وصف بالمصدر . يقال : ماء غور . ولا يجمع ، ولا يثنّي ، ولا يؤنّث . كما يقال : رجل صوم ورجال صوم ، ونساء صوم .

فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ أي ظاهر . وهو «مفعول» من العين ، [كمبيع من البيع] . وقد تقدم ذكر هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 406. 407 ﴾

(29/774)

وقال الغزنوى :

سورة الملك

2 خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ الحياة لنختبركم فيها ، والموت للبعث والجزاء . أو تعبّد بالصّبر على الموت والشكر في الحياة .

3 طِباقاً : جمع «طبق» جمل وجمال ، أي : بعضها فوق بعض «1» . أو

---

(6) ينظر تفسير الطبري : 29/ 2 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 198 ، وتفسير البغوي :

4/ 370 ، وتفسير القرطبي : 18/ 208 .

(30/774)

من التطابق والتشابه «1» .

مِنْ تَفاوُتٍ ، وتفوّت «2» مثل : تعاهد وتعهّد ، وتجاوز وتجوّز «3» .

وقيل : التفوّت مخالفة الجملة ما سواها ، والتفاوت مخالفة بعض [الجملة] «4» . بعضا كأنه الشّيء المختلف لا على نظام . ومن لطائف المعاني أنّ الفوت الفرجة بين الإصبعين ، والفوت والتفوّت واحد «5» ، فمعنى : «من تفوّت» معنى هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ، أي : صدوع .

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ارجع البصر وكرّر النّظر أبدا قد أمرناك بذلك كرّتين .

خاسِئاً : صاغرا ذليلا «6» .

وَهُوَ حَسِيرٌ : معيى كليل «7» .

«شهيق» «8» : زفرة من زفرات جهنّم «9» .

7 تَفُورُ : تغلي .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 271 عن ابن بحر .

(2) بتشديد الواو من غير ألف ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 644 ، والتبصرة لمكي : 355 ، والتيسير للداني : 212 .

(3) تفسير الطبري : 29/ 2 ، وتفسير القرطبي : 18/ 208 .

(4) في الأصل : الحكمة والمثبت في النص عن «ج» .

(5) معاني القرآن للفراء : 3/ 170 ، وتفسير القرطبي : 18/ 208 .

(6) تفسير الطبري : 29/ 3 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 198 ، وتفسير الماوردي : 4/ 272 ، والمفردات للراغب : 148 . [. . . . .]

(7) الكليل : الذي ضعف عن إدراك مرآه .

ينظر هذا المعنى في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 474 ، وتفسير الطبري : 29/ 3 ، ومعاني الزجاج : 5/ 198 ، وتفسير الماوردي : 4/ 272 .

(8) من قوله تعالى : إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ [آية : 7] .

(9) تفسير الفخر الرازي : 30/ 63 ، وتفسير القرطبي : 18/ 211 .

---

8 تَمَيَّزُ : تتقطع وتتفرّق «1» .

15 ذُلُولًا : سهلة «2» ذات أنهار وأشجار ومساكن مطمئنّة .

فِي مَناكِبِها : أطرافها [وأقطارها] «3» . وقيل «4» : جبالها وإذا أمكن سلوك جبالها فهو أبلغ في التذليل .

16 أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ من الملائكة «5» . أو من في السّماء عرشه أو سلطانه «6» أو «في» [بمعنى] «7» «فوق» ، كقوله «8» : فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ، فيكون المراد العلوّ والظهور . أو المعنى : من هو المعبود في السّماء وخصّ السّماء للعبادة برفع [الأيدي في] «9» الأدعية إليها ونزول الأقضية منها .

19 صافَّاتٍ أي : أجنحتها في الطيران وبقبضها عند الهبوط . أو «يقبضن» يسرعن ، من «القبيض» : شدّة العدو «10» .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 170 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 474 ، وتفسير الطبري : 29/ 5 ، والمفردات للراغب : 478 .

(2) المفردات للراغب : 181 ، وزاد المسير : 6/ 321 ، وتفسير القرطبي : 18/

(3) في الأصل : وإظهارها ، وفي «ك» : وأطوارها ، والمثبت في النص عن «ج» .

واختار الطبري هذا القول في تفسيره : 29/ 7 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 274 عن مجاهد ، والسدي .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 262 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 475 ، ومعاني الزجاج : 5/ 199 .

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 199 ، واختاره .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (29/ 6 ، 7) عن ابن عباس ، وبشير بن كعب ، وقتادة .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 274 عن ابن بحر وذكره القرطبي في تفسيره :

18/ 215 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 302 .

(6) ينظر تفسير الفخر الرازي : 30/ 70 ، وتفسير القرطبي : 18/ 215 .

(7) في الأصل : «معنى» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(8) سورة التوبة : آية : 2 .

(9) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(10) اللسان : 7/ 215 (قبض) .

ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ لو غيّر الهواء والأجنحة/ عن الهيئة التي [100/ ب] تصلح لطيرانهن لسقطن، وكذلك العالم كله فلو أمسك حفظه وتدبيره عنها طرفة عين لتهافتت الأفلاك وتداعت الجبال.

21 لَجُّوا: تقحّموا في المعاصي «1»، و«اللّجاج»: تقحّم الأمر مع [كثرة] «2» الصّوارف عنه.

و«العتوّ»: الخروج إلى فاحش الفساد «3».

22 مُكِبًّا: ساقطا «4». كببته على وجهه فأكبّ، ومثله: نزفت ماء البئر، وأنزفت البئر: نضب ماؤها «5»، ومريت النّاقة وأمرت: درّ لبنها «6».

27 زُلْفَةً: قريبا «7».

سِيئَتْ: ظهر السّوء في وجوههم «8».

تَدَّعُونَ تتداعون بوقوعه بمعنى الدعوى التي هي الدعاء «9»،

---

(1) المفردات للراغب: 447. [.....]

(2) في الأصل: «كثر»، والمثبت في النص عن «ك» و«ج».

(3) اللسان : 15/ 27 (عثا) .

(4) المفردات : 420 .

(5) اللسان : 9/ 325 (نزف) عن ابن جني قال : «نزفت البئر وأنزفت هي ، فإنه جاء مخالفا للعادة ، وذلك أنك تجد فيها «فعل» متعديا ، و«أفعل» غير متعد» .

وهذه الأفعال التي ذكرها المؤلف تتعدى إن جردت عن الألف ، وتلزم إذا اتصلت بها .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 475 ، وتفسير القرطبي : 18/ 219 .

(6) اللسان : 15/ 278 (مرا) .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 262 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 475 ، وتفسير الطبري : 29/ 11 ، وزاد المسير : 8/ 324 .

(8) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 276 ، وانظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 201 ، وزاد المسير : 8/ 324 .

(9) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 201 ، وأورده القرطبي في تفسيره : 18/ 220 ، وقال : «وهو قول أكثر العلماء» .

وانظر هذا القول في تفسير المشكل لمكي : 349 ، وتفسير الماوردي : 4/ 276 ، وتفسير البغوي : 4/ 373 .

وجاء في التفسير : تكذبون ، وتأويله : تدّعون الأكاذيب «1» .

30 غَوْراً : غائرا «2» ، وصف الفاعل بالمصدر ، كقولهم : رجل عدل ، [أي : عادل] «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 824.828 ﴾

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 201 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 324 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 18/ 221 عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 262 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 476 ، وتفسير الطبري : 29/ 13 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 201 .

(3) ما بين معقوفين عن «ك» ، وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 172 ، ومعاني الزجاج : 5/ 201 ، وتفسير القرطبي : 18/ 222 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الملك

عدد 27 - 77 - 65

نزلت بمكة بعد سورة الطور ، وهي ثلاثون آية ، وثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة ، وألف وثلاثمائة وثلاثة عشر حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ونظائرها في الآي الفجر والسجدة فقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "تَبارَكَ" تقدم ما فيه أول الفرقان في ج 1 فراجعه ، "الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ" يتصرف فيه وبما فيه ، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء "وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 1 بالغ القدرة في كل ممكن ، وهل يوجد شيء غير ممكن على اللّه تعالى إلا إخراج خلقه عن ملكه ، وذلك رحمة بهم لأنه قادر على تبديلهم بغيرهم كما أنه قادر على تبديل السموات والأرض ، قال تعالى (وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ) الآية 67 من الواقعة في ج 1 ، وقال تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ) الآية 48 من سورة إبراهيم المارة وأمثالها كثير في القرآن ، ولما كان لا يكون ذلك إلا بإعدامهم وقد قدر لهم أجلا في هذه الدنيا لا بد بالغوه فلا يمكن إخراجهم من ملكه .

مطلب في إمكان القدرة وفوائد الكواكب :

قال بعض المفسرين إن قدرته تعالى مقيدة لأنه لا يقدر على ذاته المقدسة ولا على جعل صاحبة له أو ولد أو شريك تعالى عن ذلك ، وهذا وإن كان كذلك لأن هذه ليست من

الممكنات ، وإن القول بتقييد القدرة بهذه الأسباب مما يعبس ويكفهرّ لها الوجوه ويقشعر لها البدن وترتعد لها الفرائص وينكمش لها القلب ،

لهذا فالأحسن الصفح عن هكذا إيرادات والاكتفاء بظاهر اللفظ ، ولهذا قال الإمام الرباني ما قال كما أثبتناه في الآية 42 من سورة النجم في ج 1 ، فتدبره أرشدك اللّه لهداك وأبعدك عما فيه رداك .

(35/774)

واعلم أن هذه الآية من آيات الصفات التي مر ذكرها ، راجع الآية 158 من الأنعام المارة ففيها كفاية ، وقد ذكرنا جواز إطلاق اليد عليه تعالى اتباعا لما جاء في ظاهر القرآن إذ ألزمنا أنفسنا في هذا التفسير المبارك السير فيه على ظاهره ما وجدنا لذلك سبيلا ، وقد جاءت أحاديث قدسية بذلك أيضا وهي مفسرة لكتاب اللّه ، ومن عرف أن اللّه عز وجل منزه عن المثل والشبهيّة عرف أن يده ومجيئه وقبضته وإتيانه المشار إليه في القرآن لا تشابه شيئا من مسمياتها في البشر تدبر ، قال في بدء الأمالي :

تسمى اللّه شيئا لا كالاشيا وذاتا عن جهات الست خالي

وقال القائل :

ما كل زهر ينبت الأرض طيب ولا كل مصقول الحديد يماني

هذا ، وليحذر العاقل أن يتصرف بآيات الصفات حسبما يسبح بفكره أو تحدثه نفسه ، ففيه مزالق مهلكة ، كما أن عليه الكف مما يتصوره في إمكان القدرة الآنفة الذكر لأن منشأها من وساوس الشيطان ومسيرها الحيرة والوقوع بما لا يليق أن يوصف به الرب الجليل وليتعوذ من ذلك بالله ومن الذي يسأل عن مثل هذه الأسئلة ، وليقل لا إله إلا الله العظيم للفرد الصمد الجبار القهار القادر على كل شيء الرحيم بعباده اللطيف بهم العطوف عليهم ، وليراجع تفسير الآية 27 من سورة الشورى المارة ليقف على رأفة ربه به .

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ" في الدنيا لأن الأشياء كانت ابتداء في حكم الموتى كالتراب والنطفة والبيضة ، ثم طرأت عليها الحياة ، وفي الآخرة الموت عند نهاية الأجل في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام البرزخ ، والحياة عند البعث في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، أو المراد بالموت في الدنيا والحياة في الآخرة وهو أولى والله أعلم ، "لِيَبْلُوَكُمْ" يختبركم ويمتحنكم أيها الناس ليظهر لخلقه "أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" له وأخلصه وأصونه لشريعته وأحبه لخلقه "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب لمن عصاه القادر على من ناوأه

"الْغَفُورُ" 2 لمن تاب إليه وأناب "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً" بعضها فوق بعض "ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ" اختلاف أو اعوجاج أو عدم تناسب "فَارْجِعِ الْبَصَرَ" أيها الإنسان وكرر النظر فيها ودوره مرة بعد أخرى وتأمل فيها "هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ" 3 أو شقوق أو صدوع في شيء منها "ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ" أو عشرا أو أكثر إذ يراد به التكثير لا العدد كما تقول لبيك وسعديك ، وعليه قوله :

لو عد قبر وقبر كان أكرمهم بيتا وأبعدهم عن منزل الدام

فإنك منها كررت البصر فيه "يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً" ذليلا صاغرا مبعدا لم يتوفق الرؤية ما يهواه "وَهُوَ حَسِيرٌ" 4 كليل معمي منقطع عن إدراك مطوبه محروم من رؤية مراده "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ" كواكب متنوعة كالمصابيح الكهربائية بالنسبة لنظرنا وإلا فهي فوق ذلك بكثير ، وهذه أول فائدة من فوائدها ، والثانية "وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ" الذين يسترقون السمع ، وليس المراد أنهم يرمون نفس المصابيح لمنافاته معنى الزينة بل المراد أنهم يرمون بشعلة نارية منها كالقبس الذي يؤخذ من النار وهي باقية على حالها ، قال تعالى (فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ) الآية 10 من الصافات المارة فراجعها ، ومن المعلوم أن الشهاب ما يؤخذ من النار لا نفسها .

والفائدة الثالثة الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر .

والرابعة ما يحصل بها من نضوج الأثمار وألوانها وطعمها .

والخامسة اختلاف الأنواء والمواسم الحاصلين بسيرها ، وفوائد كثيرة ألمعنا إليها في الآية 62 من سورة الإسراء في ج 1 ، والآية 16 من سورة الحجر المارة فراجعها .

(37/774)

واعلم أن هذا عذابهم في الدنيا "وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ" 5 في الآخرة وهو النار المتأججة المتوقدة يحرق فيها كل كافر متمرد من الشياطين "وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ" من الإنس والجن "عَذابُ جَهَنَّمَ" بصلونها "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" 6 مصير الكفرة من الفريقين الذين "إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها" لكل من السعير وجهنم وسائر طبقات النار الخاصتين بهذين الصفتين ومن ماثلهم "شَهِيقاً" هو أول نهيق الحمار "وَهِيَ تَفُورُ" 7 بهم فوران الماء بالجب القليل ، أرأيت كيف ترفعه وتخفضه الفورة فهم كذلك فيها "تَكادُ تَمَيَّزُ" تنقطع وتنفصل أعضاؤهم وأمعاؤهم بعضها عن بعض "مِنَ" شدة "الْغَيْظِ" عليهم والحنق من شدة الفوران لولا قوله تعالى (كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها) الآية 55 من سورة النساء في ج 3 ، وقد شبه اشتعال النار بكفرة الإنس والجن في قوة تأثيرها فيهم وإيصالها الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه ، فاستعير اسم الغيظ لذلك

الاستعمال استعارة تصريحية ، والله يعلم كيف يصوغ الألفاظ إلى المعاني وكيف يجعلها في قوالب لائقة لمعاني بالغة "كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ" جماعة كثيرة جدا أكثر من فوج أهل الدنيا كما أن الآخرة أكبر منها "سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها" أي سأل خزنة جهنم ذلك الفوج ، وقد بين الله تعالى صفة هذا السؤال بقوله عز قوله "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ" 8 يخوفكم عذاب هذه النار ؟

(38/774)

فأجابوا معترفين "قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ" أكدوا جوابهم بقد المفيدة للتحقيق لشدة تحسرهم على ما فلتهم من السعادة وكثرة تأثرهم على ما لحقهم من الشقاء "فَكَذَّبْنا" ما ذكره لنا ولم نلتفت إلى رشده ونصحه "وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ" مما تقول ونسبناه للسحر والكهانة والكذب والافتراء و(من) هنا يسمونها الزائدة على أن القران لا زائد فيه وهي هنا كأمثالها تأتي للتأكيد ويشترط أن يتقدمها النفي وأن تكون الكلمة الداخلة عليها نكرة كما هنا تدبر ، وقلنا المرسل "إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ" 9 وخطأ عظيم لأنكم أتيتمونا بما لا نعلمه ولم نسمعه في آبائنا "وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ" كلام الرسل "أَوْ نَعْقِلُ" ما وعظونا به "ما كُنَّا" الآن "فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ" 10 تفيد هذه الآية أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وهو كذلك لأنهما حجتان ملزمتان للعبد عند ربه

"فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ" الذي جعلهم في جملة أصحاب جهنم "فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ" 11 وطردا عن رحمة اللّه تعالى وكرامته ، وكلمة سحقا لم تكرر في القرآن أي سحقهم اللّه سحقا ، قال الشاعر :

بجول بأطراف البلاد مغربا وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ" من حيث لم يروه ولم يشاهدوا عذابه وآمنوا بما أخبرهم رسله "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ" لذنوبهم عنده جزاء إيمانهم به وبما جاء في كتابه وذكرته رسله من غير معاينة "وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" 12 على ذلك وعلى أعمالهم الصالحة التي دعموا بها إيمانهم .

(39/774)

وبعد أن ذكر جل ذكره ما للفريقين في الآخرة التفت إلى المشركين الذين كانوا ينالون من حضرة الرسول فأنزل فيهم قوله العظيم "وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ" أيها الكفرة في حق الرسول "أَوِ اجْهَرُوا بِهِ" فهو على حد سواء عند اللّه "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ" 13 ودخائلها وما خبىء فيها مما حدث أو سيحدث ، ثم أكد قوله بقوله "أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ" الخلق ما يقوله خلقه ، وهذا استفهام إنكاري ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى الواقع من قبل خلقه ، أي ألا

يعلم ذلك من أوجد جميع الموجودات بحكمته التي هم من جملتها ؟ بلى يعلم بكل ما يقع في ملكه "وَهُوَ" أي ذلك البليغ علمه هو "اللَّطِيفُ" العالم بدقائق الأشياء "الْخَبِيرُ" 14 بحقائقها .

ثم طفق يعدد نعمه على عباده بقوله عز قوله "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا" بحيث سهلها وجعلها صالحة لا يمتنع المشي عليها بأن يسّر وعرها وحزنها وغليظها وأوديتها وجبالها "فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا" في جوانبها وفجاجها لبرزق والنزهة والزيارة "وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ" المخلوق لكم فيها أيها الناس في هذه الدنيا "وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" 15 في الآخرة من القبور إلى المحشر .

(40/774)

ثم طفق يخوف الكفرة بقوله عز قوله "أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" خاطبهم جل خط به بحسب اعتقادهم لأنهم من المشبهة أو من أشباههم إذ يعتقدون أنه في السماء وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه ، تعالى الله عن المكان "أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ" كما خسفها بقارون وغيره "فَإِذَا هِيَ تَمُورُ" 16 تضطرب من شدة حركتها من أثر الخسف المسائل "أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا" ريحا شديدة قاصفة ذات حجارة يرجمكم فيها كما فعل

بقوم لوط وغيرهم "فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ" 17 إذا عاينتم العذاب وإذا علمتم أن لا أمان لكم من أحد فلما ذا تتمادون على الكفر "وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" قبل قومك يا محمد وهم الأمم السابقة أنبياءهم "فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" 18 عليهم بإنزال العذاب على غاية من الهول والفظاعة ، أي هل وجدوا إنذاري الذي أنذروا به على لسان رسلي في الأمر والنهي ونكيري على منكري البعث والجزاء حقا أم لا ؟ بل وجدوه حقا ، وقرىء بالياء فيهما وبحذفها اكتفاء بالكسرة .

(41/774)

قال تعالى "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ" أجنحتها باسطتها في الهواء في جو السماء "وَيَقْبِضْنَ" أجنحتها إذا ضربن بها جنوبهن "مَا يُمْسِكُهُنَّ" حالتي البسط والقبض من الوقوع في الأرض "إِلَّا الرَّحْمَنُ" الذي شملت رحمته كل شيء "إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ" 19 يعلم كيف خلق وكيف دبر خلقه ، راجع الآية 79 من سورة النحل المارة ، وهذه الآية والتي بعدها تنبيه على قدرة اللّه تعالى على الخسف وإرسال الخاصب الذي خوفهم به في الآيتين المتقدمتين "أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ" إن أراد بكم إيقاع العذاب ؟ الجواب لا أحد "إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ" 20 مما ينفخ الشيطان في

صدورهم ويمنيّهم بأن لا عذاب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا حساب "أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ" اللّه "رِزْقَهُ" عليكم ؟ كلا ، لا أحد أبدا ، وتراهم عند الإمساك يتركون أوثانهم ويرجعون إلى ربهم "بَلْ لَجُّوا" ضجوا وتمادوا بالغي والعناد فلم يتأثروا ولم يرتدعوا بل صاحوا وظلوا "فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ" 21 في نبو عن الحق وشراد وتباعد عنه .

(42/774)

قال تعالى "أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى " له وأولى "أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" 22 وهذا مثل ضربه اللّه للكافر والمؤمن الذي كان مطاطئا رأسه في الضلالة والجهالة ، والمؤمن الرافع رأسه في الهدى والرشد "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ" 23 اللّه على هذه الجوارح التي لولاها لكنتم مثل البهائم وقد ضيعتم نعمتها بصرفها لغير ما خلقت لها فحرمتم من الثواب المقدر لذلك "قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ" خلقكم وبثكم فيها في الدنيا لتفكروا بآلاء اللّه "وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" 24 في الآخرة لتحاسبوا وتكافؤا على أعمالكم الخير بأحسن منه والشر بمثله ، وتراهم يا سيد الرسل معرضين عن كل ذلك "وَيَقُولُونَ"

لك "مَتى هذَا الْوَعْدُ" الذي توعدنا به وتهددنا فيه أنت وأصحابك "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 25 أن هناك حياة أخرى نحاسب فيها على أعمالنا ونثاب أو نعاقب .

مطلب تبرؤ الرسول عن علم الغيب وأمر الرسول بسؤال الكفرة :

(43/774)

"قُلْ" لهم يا سيد الرسل "إِنَّمَا الْعِلْمُ" بوقته ونوعه "عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ" 26 فقط لا أعلم ما هو ومتى يأتيكم ، وما علي إلا أن أبلغكم ما أتلقاه من ربي وأخوفكم نزوله ، لأنه من الغيب ولا يعلمه إلا الله "فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً" قريبا منهم في الدنيا أو في الآخرة ، وقد جاء بالماضي مع أنه مستقبل لتحقق وقوعه "سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا" وعلتها الكآبة وغشيتها الفترة وعمّتها الغبرة حين رؤيته "وَقِيلَ" لهم من قبل ملائكة الموت في الدنيا وفي الآخرة من قبل الخزنة الموكلين بالعذاب أو من قبل الملائكة الموكلين بتدبير الأرض أو الملائكة الموكلين بإنزال العذاب من السماء على أهل الأرض "هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ" من قبل في الدنيا "تَدَّعُونَ" 27 وقوعه وتطلبون نزوله وتتمنون قربه وتسألون تعجيله وهو الذي كنتم تدعون كذبه وتكذبون من أنذركم به "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الكفرة "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ" من المؤمنين "أَوْ رَحِمَنا" بتأخير آجالنا لأننا ننتظر إحدى الحسنيين البقاء مع

النصر عليكم والظفر بكم أو الموت ودخول الجنة ، لأن اللّه يأخذ بيد المؤمنين ويجيرهم "فَمَنْ "يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ" 28 لا تطيقه أجسامهم ولا بد لهم منه إذا ماتوا على كفرهم ، والمراد بالكافرين المخاطبون في هذه الآية ، أي ماذا تصنعون إذا حل بكم عذاب اللّه ومن هو الذي يجيركم منه وأنتم على كفركم ، ويدخل في هذه الآية كل من هو على شاكلتهم "قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ" الذي أدعوكم إليه أيها الناس هو اللّه ربنا الذي "آمَنَّا بِهِ" نحن "وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا" في كل أمورنا فهو مجيرنا من كل سوء لإيماننا به وأنتم لا مجير لكم البتة لإصراركم على الكفر وتفويض أمركم إلى أوثانكم "فَسَتَعْلَمُونَ" غدا "مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 29 نحن

(44/774)

أم أنتم وهل يشفع لنا ربنا أم تشفع لكم أوثانكم ، وهذه الآية جارية مجرى التهديد ، ثم ذكرهم ببعض نعمه على طريق الاحتجاج بقوله عز قوله "قُلْ" لهم

يا خاتم الرسل "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً" ذاهبا في الأرض غائرا فيها لوصفه بالمصدر كعدل وعادل وهو سبب حياتكم لأنكم تشربون منه "فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ" 30 جار على وجه الأرض أو راكد فيها تناله أيديكم ودلائكم ، فسيقولون لك حتما اللّه يأتينا به ،

فقل لهم إذا لم تشركون فيه من لا يقدر على شيء ؟ فتلزمهم الحجة .

قالوا تليت هذه الآية عند محمد بن زكريا المتطبب وهو ملحد فقال يأتي به المعول والفأس ، فأذهب اللّه ماء عينه في تلك الليلة أعاذنا اللّه من الغرور وحفظنا من الاتكال على أنفسنا وزادنا بصيرة في مكوناته .

ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بمثل هذه اللفظة ، وتسمى سورة المجادلة لأنها تجادل عن قارئها ملائكة العذاب ، والمنجية لادخار ثوابها عند اللّه ، والمانعة لأنها تمنع من يواظب على قراءتها العذاب في الآخرة وتنجيه من عذاب القبر ، والواقية لأنها تقيه مجادلة الملكين ومن العذاب الأخروي .

أخرج الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إن في القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك .

وإنما قال تبارك لأن سورة السجدة وسورة الفجر المارتين كل منهما ثلاثون آية لعدم الالتباس .

وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم خباء على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فأخبره فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر .

وأخرج الطبراني والحاكم وابن مردويه وعبد بن حميد في مسنده واللفظ عن ابن عباس أنه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال بلى ، قال اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له أن تنجيه من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر .

واعلم أن هذه الأحاديث وشبهها من قبيل الإخبار بالغيب مما أطلع اللّه تعالى رسوله على بعض أحوال القيامة وأنه يكون حال من يقرأها أو السور الأخرى الواردة فيها من هذا القبيل كما أخبر وإلا فدفع العذاب والحساب ودخول الجنة أو النار يكون في القيامة لا في الدنيا ، راجع آخر سورة الواقعة في ج 1 وآخر السجدة

المارة فيما يتعلق بهذا .

واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 392 . 400 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الملك

مكية

قدير كاف إن جعل خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل نعتا للذي بيده الملك وكذا الحكم في الغفور طباقا كاف وكذا من تفاوت وهو حسير تام للشياطين كاف السعير تام لمن قرا عذاب جهنم بالرفع وان قرئ بالنصب فجائز جهنم كاف وكذا المصير ومن الغيظ ونذير وقيل الوقف على بلى وهو جائز كبير وكذا السعير وفاعترفوا بذنبهم لاصحاب السعير تام كبير كاف أو اجهروا به صالح بذات الصدور حسن الخبير تام من رزقه كاف النشور حسن حاصبا كاف كيف نذير تام وكذا نكير ويقبضن وإلا الرحمن بصير كاف وكذا من دون الرحمن وغرور إن أمسك رزقه ونفور حسن وكذا مستقيم والأفئدة كاف ما تشكرون كاف صادقين حسن وكذا نذير مبين وتوعدون واليم توكلنا كاف في ضلال مبين حسن آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الملك

مكية ثلاثون آية وكلمها ثلاثمائة وخمس وثلاثون كلمة وحروفها ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر حرفاً

بيده الملك (حسن)

قدير (تام) إن جعل ما بعده مبتدأ وكاف إن جعل خبر مبتدأ محذوف أو نصب بتقدير أعني وليس بوقف إن جعل نعتاً أو بدلاً ولا يوقف على ليبلوكم لأنَّ الفائدة فيما بعده

أحسن عملاً (حسن)

الغفور (كاف) إن جعل ما بعده في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي أو نصب بتقدير أعني وليس بوقف إن جعل نعتاً لما قبله أو بدلاً منه

طباقاً (كاف) ومثله من تفاوت على القراءتين قرأ الأخوان من تفوُّت بتشديد الواو دون الألف والباقون بتخفيفها وبالألف وهما بمعنى واحد ومن تفاوت مفعول ترى ومن زائدة والمعنى ما ترى يا بن آدم فيما خلق الرحمن من تناقض ولا اعوجاج ولا خلل بوجه مّا من فطور (جائز)

كرتين ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب الأمر 0

وهو حسير (تام)

بمصابيح (جائز)

للشياطين (حسن)

السعير (تام) لمن قرأ عذاب جهنم بالرفع وليس بوقف على قراءة الأعرج عذاب جهنم بالنصب عطفاً على عذاب السعير 0

جهنم (كاف)

المصير (تام) ومثله من الغيظ عند أبي حاتم

ألم يأتكم نذير (كاف) لأن قالوا وما بعده جواب الاستفهام واعتراف بمجيء النذير لهم وفيه دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها إذ قالوا بلى لفهم المعنى ولكنهم أظهروه تحسراً وزيادة في غمهم على تفريطهم في قبول النذير ونذير الثاني عدَّه المدني الأخير رأس آية فعلى قوله تكون السورة إحدى وثلاثين آية 0

من شيء (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل إن أنتم مفعول قلنا أو مفعول قول الخزنة المحذوف أي قالت الخزنة إن أنتم أو هو من قول الكفار للرسل الذين جاؤا نذراً لهم أنكروا أنَّ الله أنزل شيئاً 0

كبير (كاف)

أو نعقل ليس بوقف لأنَّ جواب لو ما بعده 0

في أصحاب السعير (كاف)

فاعترفوا بذنبهم (حسن)

لأصحاب السعير (تام)

(48/774)

بالغيب ليس بوقف لأنَّ خبر أن لم يأت بعد 0

كبير (تام)

أو اجهروا به (كاف)

الصدور (تام)

من خلق (حسن) لتناهي الاستفهام 0

الخبير (تام)

ذلولاً (جائز)

في مناكبها ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

من رزقه (كاف)

النشور (تام) قرأ قنبل النشور وأمنتم بواو مفتوحة بدل من همزة أأمنتم في الوصل خاصة 0

بكم الأرض (جائز) أي يجعل الأرض مخسوفة بكم إن عصيتم 0

تمور رأس آية وليس بوقف وقوله إن يرسل وإن يخسف بدلان مِن مَن في السماء بدل اشتمال

أي أمنتم خسفه وإرساله قاله أبو البقاء أو هو على حذف من أي أمنتم من الخسف

والإرسال والأول أظهر ومعنى تمور تتحرك عند الخسف بهم 0

حاصباً (كاف) للابتداء بالتهديد

كيف نذير (تام) ومثله كيف كان نكير وكذا ويقبضن عند أبي حاتم ونافع والوقف على

الرحمن و بصير و من دون الرحمن و في غرور كلها وقوف كافية لأنَّ أم في الأخير تصلح

استفهاماً مستأنفاً وتصلح جواباً للأولى 0

إن أمسك رزقه (حسن) ومثله ونفور وقيل كاف 0

أهدى ليس بوقف لأنَّ قوله أمن يمشي معطوف على من الأولى كأنَّه قال أ أحد يمشي مكباً

على وجهه أهدى أم أحدٌ يمشي سوياً معتدلاً يبصر الطريق وهو المؤمن إذ لا يوقف على

المعادل دون معادله لأن أمن يمشي سوياً معادل أفمن يمشي مكباً 0

مستقيم (تام)

والأفئدة (كاف) وانتصب قليلاً على أنَّه صفة لمصدر محذوف 0

تشكرون (تام)

في الأرض (حسن)

تحشرون (تام)

صادقين (كاف)

عند الله (حسن)

مبين (كاف)

الذين كفروا (جائز)

تدعون (تام)

أو رحمنا ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت وهو فمن يجير فلا يفصل بين الشرط وجوابه

بالوقف 0

أليم (كاف)

قل هو الرحمن (حسن)

آمنَّا به (أحسن) منه

توكلنا (كاف) للابتداء بالتهديد

مبين (تام)

(49/774)

غوراً (حسن) كذا وسمه شيخ الإسلام بالحسن ولعله من حيث أنَّ العامل قد أخذ معموليه وذلك يقتضي الوقف وأما من حيث أنَّ الشرط لم يأت جوابه فذلك يقتضي عدم الوقف والثاني أظهر والله أعلم بكتابه ومعنى غوراً غائراً وصف الماء بالمصدر كما يقال درهم ضرب وماء سكب ومن اسم استفهام مبتدأ في محل رفع ويأتيكم في محل رفع خبر وجواب من الاستفهامية مقدر تقديره الله رب العالمين وكذا يقدر بعد قوله أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى وكذا بعد قوله أليس الله بأحكم الحاكمين فيستحب أن يقول بلى فيها وينبغي الفصل بالوقف بين الاستفهام وجوابه ولا تبطل الصلاة بذلك وانظر لو قال ذلك عند سماع ذلك من غير الإمام 0

آخر السورة (تام) كل شيء في القرآن من ذكر معين فهو الماء الجاري إلا هذا الحرف فإنَّ الله عنى به ماء زمزم 0 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(50/774)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الملك

مكية وآيها ثلاثون في جميع العدد سوى المكي وشيبة ونافع وإحدى وثلاثون عندهم خلافها آية قد جاءنا نذير مكي وشيبة ونافع مشبه الفاصلة ثلاث الشياطين وهي تفور يأتكم نذير القراآت اختلف في تفوت فحمزة والكسائي بتشديد الواو بلا ألف وافقهما الأعمش والباقون بتخفيفها بعد الألف لغتان كالتعهد والتعاهد وأدغم لام هل ترى أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام في المشهور عنه وأبدل خاسئا ياء مفتوحة الأصبهاني وأبو جعفر وأدغم دال ولقد زينا أبو عمرو وهشام وابن ذكوان بخلفه وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ ( ) تكاد تميز (الآية 8 بتشديد التاء وصلا البزي بخلفه وأمال بلى بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو على ما تقدم وأدغم دال قد جاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (فسحقا) الآية 11 بضم الخاء الكسائي وابن وردان بخلفهما وابن جماز ونصب على المصدر أي سحقهم الله سحقا

وقرأ ﴿ وإليه النشور ءأمنتم ﴾ الآية 15 بتسهيل الثانية وإدخال ألف قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وهشام بخلفه وبتسهيلها بلا ألف ورش والبزي ورويس وللأزرق أيضا إبدالها ألفا خالصة مع القصر فقط لعروض حرف المد بالإبدال وضعف السبب بتقدمه على الشرط وقرأ قنبل في الوصل بالنشور بإبدال الهمزة الأولى واوا من غير خلف وبتسهيل

الثانية بلا ألف من طريق ابن مجاهد وبتحقيقهما كذلك من طريق ابن شنبوذ فإذا ابتدأ حقق الأولى وسهل الثانية فقط بلا ألف والوجه الثاني لهشام للتحقيق مع الفصل والثالث له التحقيق مع القصر وبه قرأ الباقون وهم ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف وأبدل الثانية ياء مفتوحة من السماء أن معا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وأثبت الياء في نكير ونذير وصلا ورش وفي الحالين يعقوب

وقرأ (ينصركم) الآية 20 بسكون الراء وباختلاسها أبو عمرو وروى الإتمام عنه الدوري

(51/774)

وقرأ (صراط) الآية 22 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة وأمال متى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأبو عمرو وبخلفهما وقصر في الطيبة الخلف فيها على الدوري والأول صححه في النشر عن ابن شريح وغيره وأشم سيئت نافع وابن عامر الكسائي وأبو جعفر ورويس ويوقف عليها لحمزة بالنقل على القياس وبالبدل مع الإدغام عند من ألحقه بالزائد وأما يين يين فضعيف وأشم قيل هشام والكسائي ورويس

واختلف في ( ) به تدعون (الآية 27 فيعقوب بسكون الدال مخففة من الدعاء أي تطلبون

وتستعجلون وافقه الحسن ورويت عن عصمة عن أبي بكر والأصمعي عن نافع والباقون بالفتح والتشديد تفتعلون من الدعاء أيضا أو من الدعوى أي تدعون أنه لا جنة ولا نار وقرأ (أرأيتم) معا بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر زاد الأزرق إبدالها ألفا مع المد وحذفها الكسائي وأثبتها الباقون محققة وفتح ياء الإضافة من) أهلكني الله (الآية 28 كلهم إلا حمزة فسكنها وسكنها من ( ) معي أو (أبو بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف واختلف في ( ) فستعلمون من (الآية 30 فالكسائي بالياء من تحت والباقون بالتاء من فوق وخرج فستعلمون كيف نذير المتفق على خطابه

المرسوم اختلف في قطع كل ما ألقى ياءات الإضافة اثنتان ( ) إن أهلكني الله ومن معي أو (الآية 28 وزائدتان (نذير) الآية 17 و (نكير) الآية 18 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(52/774)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الملك "

" وهو " كله ، وهى وبئس ، يأتكم ، نذير ، مغفرة ، وأسروا ، من خلق ، الكافرون ،

صراط ، رأوه ، وقيل ، أرأيتم ، بخير ، جلي .

" تفاوت " قرأ الأخوان بحذف الألف بعد الفاء وتشديد الواو والباقون بإثبات الألف وتخفيف الواو .

" خاسئا " أبدل همزه ياء خالصة في الحالين أبو جعفر وكذلك حمزة إن وقف .

" تكاد تميز " شدد البزي التاء وصلا وخففها غيره ، ولا خلاف بينهم في تخفيفها ابتداء وقدر مثله مرارا .

" فسحقا " ضم الحاء الكسائي وابو جعفر وأسكنها غيرهما .

" النشور ءأمنتم " قرأ قالون والبصري وأبو جعفر بتسهيل الثانية مع الإدخال . وورش والبزي بالتسهيل من غير إدخال ، ولورش الإبدال مع القصر وهشام بالتسهيل والتحقيق مع الإدخال في كل منهما ، وأما قنبل فإذا وصل النشور بأأمنتم أبدل الأولى واوا خالصة ، وسهل الثانية من غير إدخال وإذا وقف على النشور وابتدأ بأأمنتم قرأ كالبزي فحقق الأولى وسهل الثانية من غير إدخال والباقون بتحقيقهما من غير إدخال .

" السماء أن معا " أبدل الثانية ياء خالصة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون .

" نذير ونكير " أثبت الياء فيهما وصلا فقط ورش ، وفي الحالين يعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" ينصركم " قرأ البصري بخلف عن الدوري بإسكان الراء ، والوجه الثاني للدوري اختلاس ضمتها والباقون بالضمة الخالصة .

" سيئت " قرأ بإشمام السين الضمة الشامي والكسائي ، ونافع ورويس وأبو جعفر والباقون بالكسرة الخالصة ، ووقف عليه حمزة بالنقل والإدغام لأصالة الياء .

" تدعون " قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة وغيره بفتحها مشددة .

" أهلكني الله " أسكن الياء حمزة وفتحها غيره .

" معي أو " أسكن الياء شعبة والأخوان وخلف ويعقوب وفتحها غيرهم .

" فستعلمون من هو " قرأ الكسائي بياء الغيبة وغيره بتاء الخطاب ، وأما قوله تعالى " فستعلمون كيف نذير " فأجمعوا على قراءته بالخطاب .

" بماء معين " آخر السورة وآخر الربع .

(53/774)

الممال

ترى معا بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه " بلى وأهدى ومتى " بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف

عنه . جاءنا لابن ذكوان وحمزة وخلف . الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " هل ترى للبصري وهشام والأخوين . ولقد زينا للبصري والأخوين وخلف والشامي بخلف عن ابن ذكوان . قد جاءنا للبصري وهاشم والأخوين وخلف .

" الكبير " تكاد تميز ، يعلم من ، جعل لكم ، كان نكير ، يرزقكم ، وجعل لكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 331 ﴾

(54/774)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الملك

قوله تعالى ﴿ من تفاوت ﴾ يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبحذفها والتشديد فالحجة لمن أثبت الألف وخفف أنه جعله مصدرا لقولهم تفاوت الشيء تفاوتا والحجة لمن حذفها وشدد أنه أخذه من تفوت الشيء تفوتا مثل تكرم تكرما وقيل هما لغتان بمعنى واحد

كقولهم تعاهد وتعهد ومعناهما الإختلاف

قوله تعالى ﴿ هل ترى من فطور ﴾ و ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ يقرآن بالإدغام والإظاهر وقد ذكرت علله فيما تقدم

فإن قيل فإن أبا عمرو لم يدغم من أمثال هذين سواهما فقل أحب أن يعرف جواز اللغتين ليعلمك أنهما مستعملتان

قوله تعالة ﴿ أأمنتم ﴾ يقرأ بهمزتين وبهمزة ومدة وقد تقدمت العلة في ذلك آنفا

قوله تعالى ﴿ فسحقا ﴾ يقرأ بضم الحاء وأسكانها وقد تقدم ذكره فأما نصبه ففيه وجهان أحدهما بالدعاء يريد به ألزمهم الله ذلك والآخر على المصدر وإن لم يتصرف من فعل كقولك سقيا ورعيا وويحا وويلا ولو رفع لجاز رفعه يريد ثبت لهم ذلك ولزمهم ومنه قول الشاعر

فترب لأفواه الوشاة وجندل

قوله تعالى ﴿ إن أهلكني الله ومن معي ﴾ يقرآن بالفتح معا والإسكان وبإسكان الأولى وفتح الثانية على ما قدمناه من القول في أمثاله

قوله تعالى ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ يقرأ بالتاء على معنى المخاطبة وبالياء على معنى الغيبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 349 .

350 ﴾

وقال ابن زنجلة :

67 – سورة الملك

ما ترى في خلق الرحمن 2من تفوت 3

قرأ حمزة والكسائي من تفوت وقرأ الباقون بالألف

قال سيبويه فاعل وفعل بمعنى واحد تقول ضاعف وضعف وتعاهد وتعهد فعلى هذا القياس يكون تفاوت وتفوت بمعنى يقال تفاوت الشيء تفاوتا وتفوت تفوتا إذا اختلف والمعنى ما ترى في خلقه السماء اختلافا ولا اضطرابا قالوا وتفاوت أجود لأنهم يقولون تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون تفوت الأمر

فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحب السعير 11

قرأ الكسائي فسحقا لأصحاب السعير بضم الحاء وقرأ الباقون بإسكان الحاء وهما لغتان مثل الرعب والرعب والسحت والسحت و سقحا منصوب على المصدر المعنى سحقهم الله سحقا أي باعدهم من رحمته مباعدة وإليه النشور ءأمنتم 15 و16

وقرأ ابن كثير في رواية القواس وإليه النشور وأمنتم بواو في اللفظ أصله أأمنتم إذا حقق

الهمزتين فإذا خفف الهمزة الأولى قلبها واوا لانضمام ما قبلها وهذا في المنفصل نظير قولهم في المتصل مثل جؤن إذا خففت قلبت واوا فتقول جون

وقرأ نافع وأبو عمرو والبزي آمنتم فهو أن تحقق الأولى وتخفف الثانية وقد ذكرت الحجة في سورة البقرة

وقرأ أهل الشام وأهل الكوفة بهمزتين فستعملون من هو في ضلل مبين 29

قرأ الكسائي فسيعلمون من هو بالياء وحجته أن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله فمن يجير الكافرين من عذاب أليم 28

وقرأ الباقون فستعلمون بالتاء أي قل لهم وحجتهم قوله قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي 28 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 715.717﴾

(56/774)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الملك 67

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأول والكوفي والشامي ونظيرتها في الآخر والمكي

الإنسان ولا نظير لها في البصري

وكلمها ثلاث مئة وخمس وثلاثون كلمة

وحروفها ألف وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفا

وهي إحدى وثلاثون آية في المدني الأخير والمكي وثلاثون في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ قد جاءنا نذير ﴾) عدها المدني الأخير والمكي ولم يعدها الباقون

وعدها شيبة ولم يعدها أبو جعفر

وفيها مما يشبه الفواصل موضعان وهما (﴿ طباقا ﴾) و (﴿ للشياطين ﴾) ورؤوس الآي

قدير

1 الغفور

2 فطور

3 حسير

4 السعير

5 المصير

6 تفور

7 نذير

8 نذير

*كبير

9 العير

10 السعير

11 كبير

12 الصدور

13 الخبير

14 النشور

15 تمور

16 نذير

17 نكير

18 بصير

19 غرور

20 ونفور

21 مستقيم

22 تشكرون

23 تحشرون

24 صادقين

25 مبين

26 تدعون

27 أليم

28 مبين

29 معين

30 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 251﴾

(57/774)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (طباقا) واحدها طبقة ، وقيل طبق ، و (تفاوت) بالألف وضم الواو مصدر

تفاوت ، وتفوت بالتشديد مصدر تفوت وهما لغتان ، و (كرتين) مصدر : أي رجعتين .

قوله تعالى (كفروا بربهم عذاب) بالرفع على الابتداء ، والخبر للذين ، ويقرأ بالنصب عطفا على عذاب السعير .

قوله تعالى (فسحقا) أي فالزمهم سحقا ، أو فاسحقهم سحقا .

قوله تعالى (من خلق) من في موضع رفع فاعل يعلم ، والمفعول محذوف أي ألا يعلم الخالق خلقه ، وقيل الفاعل مضمر ، ومن مفعول .

قوله تعالى (النشور أأمنتم) يقرأ بتحقيق الهمزة على الأصل ، وبقلبها واوا في الوصل لانضمام الراء قبلها ، و (أن يخسف) و (أن يرسل) هما بدلان من بدل الاشتمال .

قوله تعالى (فوقهم صافات) يجوز أن يكون صافات حالا ، وفوقهم ظرف لها ، ويجوز أن يكون فوقهم حالا ، وصافات حالا من الضمير في فوقهم (ويقبضن) معطوف على اسم الفاعل حملا على المعنى : أي يصففن ويقبضن : أي صافات وقابضات ، و (ما يمسكهن إلا الرحمن) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من الضمير في يقبضن ، ومفعول يقبضن محذوف : أي أجنحتهن .

قوله تعالى (أمن) من مبتدأ ، و (هذا) خبره ، و (الذى) وصلته نعت لهذا أو عطف بيان ، و (ينصركم) نعت جند محمول على اللفظ ، ولو جمع على المعنى لجاز ، و (مكبا) حال ، و (على وجهه) توكيد ، و (أهدى) خبر " من " وخبر " من " الثانية محذوف .

قوله تعالى (غورا) هو خبر أصبح أو حال إن جعلتها التامة وفيه بعد ، والغور مصدر في معنى الغائر ، ويقرأ " غورا " بالضم والهمز على فعول ، وقلبت الواو همزة لانضمامها ضما لازما ووقوع الواو بعدها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(58/774)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الملك

[سورة الملك (67) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

"تَبارَكَ الَّذِي" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "بِيَدِهِ" خبر مقدم "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة الموصول "وَهُوَ" مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الملك (67) : آية 2]

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)

"الَّذِي" بدل "خَلَقَ" ماض وفاعله مستتر "الْمَوْتَ" مفعول به والجملة صلة "وَالْحَيَاةَ" معطوفة على الموت. "لِيَبْلُوَكُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والكاف مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بخلق "أَيُّكُمْ" اسم استفهام مبتدأ "أَحْسَنُ" خبره "عَمَلًا" تمييز والجملة الاسمية مفعول به ثان ليبلوكم "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" مبتدأ وخبراه والجملة حال.

[سورة الملك (67) : آية 3]

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (3)

(59/774)

"الَّذِي" بدل ثان من اسم الموصول "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "سَبْعَ سَماواتٍ" مفعول به مضاف إلى سموات والجملة صلة "طِباقاً" صفة سبع "ما تَرى" ما نافية ومضارع فاعله مستتر "فِي خَلْقِ" متعلقان بالفعل "الرَّحْمنِ" مضاف إليه "مِنْ تَفاوُتٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول ترى والجملة استئنافية لا محل لها "فَارْجِعِ" الفاء الفصيحة

وأمر فاعله مستتر "الْبَصَرَ" مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "هَلْ تَرى" هل حرف استفهام ومضارع فاعله مستتر "مِنْ فُطُورٍ" فطور مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول ترى والجملة في محل نصب بفعل محذوف .

[سورة الملك (67) : آية 4]

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

"ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ" ثم حرف عطف وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "كَرَّتَيْنِ" نائب مفعول مطلق "يَنْقَلِبْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْبَصَرَ" فاعل "خاسِئاً" حال والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَهُوَ حَسِيرٌ" مبتدأ وخبره والجملة حال .

[سورة الملك (67) : آية 5]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5)

"وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ" الواو واو القسم واللام واقعة في جواب القسم المحذوف "قد" حرف تحقيق وماض وفاعله ومفعوله "الدُّنْيا" صفة "بِمَصابِيحَ" متعلقان بزيّنا والجملة جواب القسم لا محل لها "وَجَعَلْناها" ماض وفاعله ومفعوله الأول "رُجُوماً" مفعوله الثاني "لِلشَّياطِينِ" متعلقان برجوما

و الجملة معطوفة على ما قبلها . "وَأَعْتَدْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على جملة زيّنا لا محل لها "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "عَذابَ" مفعول به مضاف إلى "السَّعِيرِ" مضاف إليه .

[سورة الملك (67) : آية 6]

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6)

"وَلِلَّذِينَ" خبر مقدم "كَفَرُوا" ماض وفاعله "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الذين "عَذابُ" مبتدأ مؤخر "جَهَنَّمَ" مضاف إليه والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" ماض جامد وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الملك (67) : آية 7]

إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7)

"إِذا أُلْقُوا" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "فِيها" متعلقان بالفعل "سَمِعُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "لَها" متعلقان بالفعل "شَهِيقاً" مفعول به "وَهِيَ تَفُورُ" مبتدأ ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال .

[سورة الملك (67) : آية 8]

تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

"تَكادُ" مضارع ناقص اسمه مستتر "تَمَيَّزُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر تكاد وجملة تكاد . .

استئنافية لا محل لها "مِنَ الْغَيْظِ" متعلقان بالفعل "كُلَّما" : أداة شرط غير جازمة "أُلْقِيَ" ماض مبني للمجهول "فِيها" متعلقان بالفعل "فَوْجٌ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "سَأَلَهُمْ" ماض ومفعوله "خَزَنَتُها" فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "أَلَمْ يَأْتِكُمْ" الهمزة للاستفهام التوبيخي ومضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به "نَذِيرٌ" فاعل والجملة مفعول به ثان لسأل .

[سورة الملك (67) : آية 9]

قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "بَلى" حرف جواب "قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ" قد حرف تحقيق وماض ومفعوله وفاعله والجملة مقول القول "فَكَذَّبْنا" ماض وفاعله

والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقُلْنا" معطوف على كذبنا "ما نَزَّلَ اللَّهُ" ما نافية وماض وفاعله "مِنْ شَيْءٍ" شيء مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول به والجملة مقول القول "إِنْ" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "فِي ضَلالٍ" خبر المبتدأ "كَبِيرٍ" صفة والجملة مقول القول.

[سورة الملك (67) : آية 10]

وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10)

"وَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَوْ" شرطية غير جازمة "كُنَّا نَسْمَعُ" كان واسمها ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر كنا وجملة كنا . . ابتدائية لا محل لها "أَوْ" عاطفة "نَعْقِلُ" معطوف على نسمع "ما" نافية "كُنَّا" كان واسمها "فِي أَصْحابِ" خبر كنا "السَّعِيرِ" مضاف إليه وجملة ما كنا . ، . جواب الشرط لا محل لها . وجملة لو وما بعدها مقول القول.

[سورة الملك (67) : آية 11]

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11)

"فَاعْتَرَفُوا" ماض وفاعله "بِذَنْبِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها .

"فَسُحْقاً" الفاء حرف عطف "سحقا" مفعول مطلق لفعل محذوف "لِأَصْحابِ" متعلقان بسحقا "السَّعِيرِ" مضاف إليه.

[سورة الملك (67) : آية 12]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

(62/774)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يَخْشَوْنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية صلة "رَبَّهُمْ" مفعول به "بِالْغَيْبِ" متعلقان بالفعل "لَهُمْ" خبر مقدم "مَغْفِرَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن استئنافية لا محل لها "وَأَجْرٌ" معطوف على مغفرة "كَبِيرٌ" صفة.

[سورة الملك (67) : آية 13]

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13)

"وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "أَوِ" عاطفة "اجْهَرُوا" معطوف على أسروا "بِهِ" متعلقان بالفعل "إِنَّهُ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه.

[سورة الملك (67) : آية 14]

أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

"أَلا يَعْلَمُ مَنْ" ألا حرف استفتاح ومضارع وفاعله "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة

صلة . "وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" مبتدأ وخبراه والجملة حال .

[سورة الملك (67) : آية 15]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به أول "ذَلُولًا" مفعول به ثان والجملة صلة "فَامْشُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله "فِي مَنَاكِبِها" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ" معطوف على ما قبله "وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة حال .

[سورة الملك (67) : آية 16]

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16)

"أَأَمِنْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "مَنْ" مفعول به "فِي السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "أَنْ يَخْسِفَ" مضارع منصوب بأن "بِكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بدل من اسم

الموصول . "فَإِذا" الفاء حرف عطف "إذا" الفجائية "هِيَ" مبتدأ "تَمُورُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الملك (67) : آية 17]

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

"أَمْ أَمِنْتُمْ" أم حرف عطف بمعنى بل وماض وفاعله "مَنْ" مفعوله "فِي السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صلة

الموصول "أَنْ يُرْسِلَ" مضارع منصوب بأن "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "حاصِباً" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بدل من اسم الموصول "فَسَتَعْلَمُونَ" الفاء حرف استئناف والسين للاستقبال ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "كَيْفَ" اسم استفهام خبر مقدم "نَذِيرِ" مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والجملة الاسمية سدت مسد مفعول تعلمون .

[سورة الملك (67) : آية 18]

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "كَذَّبَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة جواب القسم لا محل لها "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "فَكَيْفَ" الفاء الفصيحة "كيف" اسم استفهام خبر كان المقدم "كانَ" كان ماض

ناقص "نَكِيرِ" اسمها مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها .

[سورة الملك (67) : آية 19]

(64/774)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام والواو استئنافية "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والكلام مستأنف لا محل له "إِلَى الطَّيْرِ" متعلقان بالفعل "فَوْقَهُمْ" ظرف مكان "صافَّاتٍ" حال "وَ" الواو حرف عطف "يَقْبِضْنَ" مضارع مبني على السكون ونون النسوة فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "ما يُمْسِكُهُنَّ" ما نافية ومضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الرَّحْمنُ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها "إِنَّهُ" إن واسمها "بِكُلِّ" متعلقان ببصير "شَيْءٍ" مضاف إليه "بَصِيرٌ" خبر والجملة تعليل .

[سورة الملك (67) : آية 20]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

"أَمَّنْ" أم حرف عطف بمعنى بل ومن اسم استفهام مبتدأ "هذَا" اسم الإشارة خبر "الَّذِي" اسم الموصول بدل من هذا "هُوَ جُنْدٌ" مبتدأ وخبره والجملة صلة "لَكُمْ" صفة جند "يَنْصُرُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة ثانية لجند "مِنْ دُونِ" متعلقان بالفعل "الرَّحْمنِ" مضاف إليه.

"إِنِ" نافية "الْكافِرُونَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "فِي غُرُورٍ" خبر والجملة اعتراضية لا محل لها.

[سورة الملك (67) : آية 21]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

(65/774)

"أَمَّنْ هذَا الَّذِي" سبق إعرابه "يَرْزُقُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الموصول "إِنْ أَمْسَكَ" إن حرف شرط جازم وماض في محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف "رِزْقَهُ" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "بَلْ لَجُّوا" بل حرف عطف وانتقال وماض وفاعله "فِي عُتُوٍّ" متعلقان بالفعل "وَنُفُورٍ" معطوف على عتو والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الملك (67) : آية 22]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

"أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء حرف استئناف من اسم موصول مبتدأ "يَمْشِي" مضارع فاعله مستتر

والجملة صلة "مُكِبًّا" حال "عَلى وَجْهِهِ" متعلقان بمكبا "أَهْدى" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها . "أَمَّنْ" أم حرف عطف ومن مبتدأ "يَمْشِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "سَوِيًّا" حال "عَلى صِراطٍ" متعلقان بسويا "مُسْتَقِيمٍ" صفة وخبر المبتدأ محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الملك (67) : آية 23]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "أَنْشَأَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الموصول "وَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "السَّمْعَ" مفعول به "وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ" معطوفان على السمع والجملة معطوفة على ما قبلها "قَلِيلاً" صفة مفعول مطلق محذوف "ما" زائدة "تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة التعليلية لا محل لها .

[سورة الملك (67) : آية 24]

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

(66/774)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "ذَرَأَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول "وَإِلَيْهِ" متعلقان بتحشرون "تُحْشَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الملك (67) : آية 25]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25)

"وَيَقُولُونَ" الواو حرف استئناف ومضارع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "مَتى" اسم استفهام خبر مقدم "هذَا" مبتدأ مؤخر "الْوَعْدُ" بدل من اسم الإشارة والجملة الاسمية مقول القول "إِنْ كُنْتُمْ" شرطية جازمة وكان واسمها "صادِقِينَ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف والجملة الشرطية مقول القول .

[سورة الملك (67) : آية 26]

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "إِنَّمَا" كافة مكفوفة "الْعِلْمُ" مبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة الاسمية مقول القول "وَإِنَّما" والواو حرف عطف "إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ" إنما كافة ومكفوفة ومبتدأ وخبره "مُبِينٌ" صفة نذير والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الملك (67) : آية 27]

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لما" ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في

محل جر بالإضافة "زُلْفَةً" حال "سِيئَتْ" ماض مبني للمجهول "وُجُوهُ" نائب فاعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "الَّذِينَ" مضاف إليه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَقِيلَ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "هذَا الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية مقول القول "كُنْتُمْ" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بتدعون "تَدَّعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله

والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . .

صلة الموصول وجملة قيل . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الملك (67) : آية 28]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري وماض وفاعله والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية جازمة "أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "وَمَنْ" معطوفة على ياء المتكلم "مَعِيَ" ظرف مكان "أَوْ" حرف عطف "رَحِمَنا" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَمَنْ" الفاء واقعة في جواب الشرط "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "يُجِيرُ" مضارع فاعله مستتر "الْكافِرِينَ" مفعوله "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة عذاب والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملة الشرط سدت مسد مفعولي أرأيتم .

[سورة الملك (67) : آية 29]

قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "هُوَ الرَّحْمنُ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "آمَنَّا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة حال "وَعَلَيْهِ" متعلقان بتوكلنا "تَوَكَّلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَسَتَعْلَمُونَ" الفاء حرف استئناف والسين للاستقبال ومضارع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "مَنْ" مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "فِي ضَلالٍ" جار ومجرور خبر المبتدأ "مُبِينٍ" صفة والجملة الاسمية سدت مسد مفعولى تعلمون وجملة ستعلمون . . استئنافية لا محل لها

[سورة الملك (67) : آية 30]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ" سبق إعرابها "إِنْ" شرطية جازمة "أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً" أصبح واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لا محل لها "فَمَنْ" الفاء واقعة في جواب الشرط "من" اسم استفهام مبتدأ "يَأْتِيكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "بِماءٍ" متعلقان بالفعل "مَعِينٍ" صفة ماء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 361. 366﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْملك

فِيهَا حديثان

1389 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلَاهَا فَلَمَّا بلغ قَوْله أَيكُم أحسن عملا قَال أَيكُم أحسن عقلا وَأَوْرَع عَن محارم الله وأسرع فِي طَاعَة الله

قلت تقدم فِي أول هود

1390 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال من قَرَأَ سُورَة الْملك فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَة الْقدر

قلت رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 71 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الملك» (67)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ» (3) صدوع . .

«خاسِئاً» (4) مبعّدا . .

«وَهُوَ حَسِيرٌ» (4) لا يبصر ، قال الأول «1» :

إن العسير بها داء مخامرها فشط ها نظر العينين محسور

(74) العسير اسم ناقة . .

«فِي مَناكِبِها» (15) فى جوانبها «2» . .

«فَإِذا هِيَ تَمُورُ» (16) كما يمور السحاب . .

«إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ» (19) باسطات أجنحتهن ويقبضن فيضربن بأجنحتهن . .

«قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» (23) تشكرون قليلا . .

«رَأَوْهُ زُلْفَةً» (27) قربة ، قال :

طىّ اللّيالي زلفا فزلفا

(340) .

«الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ» (27) أي تدّعون به وتكذبون وتردّون . .

«أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً» (30) مجازها : غائرا والغور مصدر وقد تفعل العرب ذلك ، قال ابن الزّبعرى :

---

(1) . - 5 «الأول» : أي القائل الأول الذي مضى ذكره وهو قيس بن خويلد الهذلي .

(2) . - 8 «فى مناكبها . . . جوانبها» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 504) .

(71/774)

يا رسول المليك إنّ لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

(390) قال أبو عبيدة الزّبعرى وأبو عمرو الزّبعرى ، والزبعرى كثير شعر الوجه والحاجبين وجمل زبعرى كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 262. 263 ﴾

(72/774)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الملك»

[سورة الملك (67) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

قوله تعالى: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [1] وهذه استعارة. وقد مضت لها نظائرها فيما تقدم. والمراد بذكر اليد ها هنا استيلاء الملك وتدبير الأمر.

يقال: هذه الدار فى يد فلان أي فى ملكه. وهذا الأمر فى يد فلان أي هو المدبّر له.

فمعنى بِيَدِهِ الْمُلْكُ أي هو مالك الملك، ومدبّر الأمر.

[سورة الملك (67) : آية 4]

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

وقوله سبحانه: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ [4] وهذه من الاستعارات المشهورة. والمراد بها - والله أعلم - أي كرّر أيها الناظر

بصرك إلى السماء مفكرا فى عجائبها ، ومستنبطا غوامض تركيبها ، يرجع إليك بصرك بعيدا مما طلبه ، ذليلا «1» بفوت ما قدّره .

والخاسئ فى قول قوم: البعيد . من قولهم: خسأت الكلب . إذا أبعدته . وفى قول قوم: هو الذليل «2» . يقال رجل خاس أي ذليل ، وقد خسى أي خضع وذلّ .

والحسير: البعير المعيى ، الذي قد بلغ السير مجهوده ، واعتصر عوده . فتلخيص المعنى أن البصر يرجع بعد سروحه فى طلب مراده ، وإبعاده فى غايات مرامه ، كالّا معيى «3» ، بعيدا من إدراك بغيته ، خائبا من نيل طلبته .

[سورة الملك (67): الآيات 7 الى 8]

إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

وقوله سبحانه فى صفة نار جهنم نعوذ باللّه منها : إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ، تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [7 ، 8] الآية .

وفى هذا الكلام استعارتان . إحداهما قوله تعالى: سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ والشهيق: الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد ، والكمد الطويل . وهو صوت مكروه السماع . فكأنه سبحانه وصف النار بأنّ لها أصواتا مقطعة تهول من سمعها

، ويصعق من قرب منها .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ من قولهم:

تغيظت القدر . إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان المغضب .

فكأنه سبحانه وصف النار - نعوذ بالله منها - بصفة المغيظ الغضبان ، الذي من شأنه إذا

بلغ ذلك الحد أن يبالغ فى الانتقام ، ويتجاوز الغايات فى الإيقاع والإيلام .

وقد جرت عادتهم فى صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا : يكاد فلان يتميز غيظا .

---

(1) فى الأصل «دليلا» بالدال المهملة وهو تحريف من الناسخ .

(2) فى الأصل «الدليل» بالدال المهملة ، وهو تحريف . [. . . . .]

(3) الكال: هو الذي أدركه الكلال . والمعيي: هو الذي أدركه الإعياء .

أي تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل ، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد ، من شدة اهتياج

غيظه ، واحتدام طبعه . فأجرى سبحانه هذه الصفة - التي هى أبلغ صفات الغضبان -

على نار جهنم لما وصفها بالغيظ ، ليكون التمثيل فى أقصى منازله ، وأعلى مراتبه .

[سورة الملك (67) : آية 15]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

وقوله سبحانه: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها [15] وهذه استعارة. لأن الذّلول من صفة الحيوان المركوب. يقال: بعير ذلول. وفرس ذلول. إذا أمكن من ظهره، وتصرّف على مراده راكبه.

وضدّ ذلك وصفهم للمركوب المانع ظهره، والممتنع على راكبه بالصّعب والمصعب.

والمعنى: أنه سبحانه جعل الأرض للناس كالمركوب الذلول، ممكنة من الاستقرار عليها، والتصرّف فيها، طائعة غير مانعة، ومذعنة غير مدافعة.

والمراد بقوله تعالى: فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها أي فى ظهورها وأعاليها، وأعلى كلّ شىء منكب له.

وقال بعضهم: معنى ذلك أنه سبحانه لما أصابنا فى بعض الأحيان بالرجفات والزلازل التي لا قرار معها على وجه الأرض، وخلق الجبال الخشن الملامس، الصعبة المسالك لتكون للأرض ثقلا، وللخلق معقلا، أعلمنا سبحانه أنه لو لا ما أنعم به علينا من تسكين الأرض وتوطئتها، ونفى الحزونة «1» والوعوث عن أكثرها حتى أمكنت من التصرف على ظهرها، لما كان عليها مثبت قدم، ولا مسرح نعم. وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير.

---

(1) الحزونة: غلظ الأرض، والوعوث: صعوبة الطريق وتعسر السلوك فيه.

[سورة الملك (67) : آية 22]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

وقوله سبحانه: أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [22] وهذه استعارة، والمراد بها صفة من يخبط فى الضلال، وينحرف عن طريق الرشاد. لأنهم يصفون من تلك حاله بأنه ماش على وجهه. فيقولون: فلان يمشى على وجهه، ويمضى على وجهه، إذا كان كذلك.

وإنما شبّهوه بالماشي على وجهه، لأنه لا ينتفع بمواقع بصره، إذ كان البصر فى الوجه. وإذا كان الوجه مكبوبا على الأرض كان الإنسان كالأعمى الذي لا يسلك جددا، ولا يقصد سددا.

ومن الدليل على أن قوله تعالى: أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ من الكنايات عن عمى البصر، قوله تعالى فى مقابلة ذلك: أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا لأن السّوىّ ضدّ المنقوص فى خلقه، والمبتلى فى بعض كرائم جسمه. انتهى. اهـ ﴿تلخيص البيان صـ 338. 341﴾

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الملك

الدنيا دار لها ما بعدها . والتدين الفاسد يستقبل هذه الحقيقة بالنواح والتشاؤم ، لا بالعمل الجاد والاستعداد للخلود الدائم . إن تحديد الموقف من الآخرة لابد منه فى مواجهة الحضارة المعاصرة . وهذا التحديد يفرض علينا أن ندرس الحياة وأن نعرف الحكمة من الوجود الموقوت بها . إن العقل البليد الذى لا يدرس الحياة ولا يستعد لما بعدها ليس هو العقل المؤمن . وسورة الملك تنبه إلى هذا فى كلمات واعية " الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " . " الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " . " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح . . . " . والمحزن أن العقل الإسلامى الآن جهول بالكون ، تائه عن قوانينه ، ضعيف الخبرة بها والقدرة على استغلالها . . وهنا شىء آخر انضم إلى هذا العجز : شراهة فى طلب الملذات والعكوف عليها مع السماع إلى أغان تقول له الدنيا ضحك ولعب وعش أيامك عش لياليك . واليوم الفائت لن يعود أبدا ، فلماذا تضيعه ؟ وهكذا تجمعت على المسلمين كل الهزائم المادية والروحية . . فلا عجب إذا هددوا بمصاير الكفار الذين إذا رموا فى جهنم " سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا

بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء . . " . " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير " . المفروض أن العقل المؤمن أخبر بالحياة وأذكى فى الكون من العقل الملحد ، لأن الإيمان بالله يقوم فى الإسلام على تأمل فى الكون ووعى بآيات الله فى آفاقه ! إنه لشىء يثير الحزن والقلق أن نجد المسلمين فى مؤخرة القافلة البشرية على النحو الذى يقول فيه الشاعر : ويقضى الأمر حين تغيب تيم – ولا يستأمرون وهم شهود ! !

(77/774)

قد يكون الإيمان بالله من الغيوب التى يعمل فيها العقل عمله ، ولكن أثر هذا الغيب فى النفس أقوى من الحواس كلها لأن المرء قد يضحى بروحه استجابة لهذا الغيب ، وقد يترك أشهى الملذات استجابة ، لوحيه ولذلك قال الله سبحانه " إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير " . ومع الإيمان بالغيب هناك سيطرة على عالم الشهادة ومهارة فى تطويع فجاج الأرض لما ينشده المسلم من تمكين وسيادة " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه . . . " ومع الأكل من هذا الرزق فمستقبل الإنسان ليس هنا . . إنه عند الله " . . . وإليه النشور " . والآية الأولى فى هذه السورة تشير إلى أن الله بيده الملك . وقد صرحت آيات أخرى أنه بيده الفضل ، وبيده الخير ، وأن الأرض جميعا

قبضته ، وأن السموات مطويات بيمينه . إن استمكانه من ملكه – جل شأنه – لا نظير له ، ويستحيل أن يقوم له معترض ! ولذلك يقول للكافرين " أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا . . . " . وتعبير "من في السماء" نموذج من تعابير أخرى تصف الملكوت الإلهى . فإن الله ، وإن كان مستويا على عرشه فعلمه وسمعه وبصره وقيامه على كل نفس وتدبيره لكل أمر وإمساكه لكل ذرة فى السموات والأرض ، تجعله جل شأنه لا يغيب عن شىء ولا يغيب عنه شىء ولذلك يقول " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم " . ويقول " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا " . ويقول "وهو معكم أينما كنتم" . إن شهود الله علينا لاشك فيه . ومن التطاول البحث فى كنه هذا الشهود ، إننا لا نعرف كيف يحول الله اللقيمات التى نطعمها إلى عيون وآذان ، فكيف نعرف كنه ذاته وقربه ؟ إن الله أقرب إلينا من أنفسنا ولكنا أعجز من أن نبصر ! ! وحسبنا إذا علمنا ذلك أن نستنصر به ونسترزقه ونعد غيره صفرا

(78/774)

كما

بين لنا فى هذه السورة "أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور" .

وتتحدث السورة فى آخرها عن الكافرين الذين يحاولون نقل المعركة إلى الرسول وأتباعه من المؤمنين ، فيسائلهم: ما جدوى ذلك عليكم إذا كنتم أغبياء تعمون عن الواقع حتى تصطدموا به ؟ هل قصور الآخرين – كما زعمتم – يشفع لكم ويسوغ ضلالكم ؟ " قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين" . وتختم السورة بسؤال إلى عبيد المادة الذين ينكرون ربها المسخر لها " قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين " ؟ حكوا أن أحد الملاحدة سمع هذه الآية فقال: تأتينا به الفئوس والمعاول ! أى أن تعميق الحفر فى البئر سيخرج الماء حتما ! وشاء الله أن يغيض ماء عينه فيعمى ! فهل قدر أحد على رد بصره ؟ نعوذ بالله من الخذلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 471.473 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

سورة تبارك

أقول: ظهر لي بعد الجهد : أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، افتتحت هذه السورة بقوله: (الَذي خَلقَ الموتُ والحياة) مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال ، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته ، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط ، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين ، وآمنت امرأة فرعون ، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد ، لما سبق في كل من القضاء والقدر ووجه آخر ، وهو أن تبارك متصل بقوله في آخر الطلاق: (اللَهُ الَذي خَلقَ سبعَ سمواتٍ ومِن الأَرض مثلهن) فزاد ذلك بسطاً في هذه الآية: (الَذي خَلقَ سبعَ سماواتٍ طباقاً ما ترى في خَلقِ الرحمَنِ مِن تفاوت فارجعِ البصَر هَل تَرى مِن فطور) إلى قوله: (ولَقد زينّا السماءَ الدُنيا بمصابيح) وإنما

فصلت بسورة التحريم لأنها كالتتمة لسورة الطلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 141 ﴾

(81/774)

قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي خضعت لكمال عظمته الملوك (الرحمن) الذي عم بنعمة الإيجاد وتبيان محل السلوك (الرحيم) الذي خص أولياءه الهعداية وزوال الشكوك .

لما ختمت تلك بأن من أعرض عنه سبحانه أهلكته ولم يغن عنه أحد ، ومن أقبل عليه رفعه واستخلصه ولم يضره أحد ، وختم بأنه قوى مريم عليها السلام حتى كانت في درجة الكملة ورزقها الرسوخ في الإخلاص ، وكان مثل هذا لا يقدر على فعله إلا من لا كفوء له ،

وكان من لا كفوء له أهلاً لأن يخلص له الأعمال ولا يلتفت إلى سواه بحال ، لأنه الملك الذي يملك الملك قال مثيراً للهمم إلى الاستبصار المثير للإرادة إلى رياضة تثمر جميع أبواب السعادة : ﴿ تبارك ﴾ أي تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتاً لا مثل له مع اليمن والبركة وتواتر الإحسان والعلى .

ولما كان من له الملك قد لا يكون متمكناً من إبقائه في يده أو إعطاء ما يريد منه لغيره ونزعه منه متى أراد قال : ﴿ الذي بيده ﴾ أي بقدرته وتصرفه لا بقدرة غيره ﴿ الملك ﴾ أي أمر ظاهر العالم فإليه كل تدبير له وتدبير فيه وبقدرته إظهار ما يريد ، لا مانع له من شيء ولا كفوء له بوجه ، وهو كناية عن الإحاطة والقهر ، وذكر اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام القدرة لأنها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما يفهم حاجة أو شبهاً بالخلق .

(82/774)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : ورود ما افتتحت به هذه السورة من التنزيه وصفات التعالي إنما يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه كورود قوله تعالى " فتبارك الله أحسن الخالقين " عقيب تفصيل التقلب الإنساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقاً آخر وكذا كل ما ورد من هذا ما لم يرد أثناء أي قد جردت للتنزيه

والإعلام بصفات التعالي والجلال .

ولما كان قد أوقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر ، وأعلى آية لمن استبصر ، من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده واجتهدا في دعاء الخلق ، فحرم الاستنارة بنورهما والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه ولا أكثر مشاهدة لما مدا به من الآيات وعظيم المعجزات ، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها ، وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يغرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ [التحريم : 11] وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك به أولى الناس في ظاهر الأمر وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه ، ثم أعقب ذلك بقصة عريت عن مثل هذين السببين وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين ، وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب ، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب ، أعقب تعالى ذلك .

(83/774)

بقوله الحق ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ [الملك : 1] وإذا كان الملك سبحانه وتعالى بيده الملك فهو الذي يؤتي الملك والفضل من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران ، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسطه التفسير – انتهى .

ولما كان المتصرف في الملك قد لا يكون قدرته تامة ولا عامة قال تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي وحده له عظمة تستولي على القلوب وسياسة تعم كل جلب نفع ودفع ضرر لأنه ﴿ على كل شيء ﴾ أي يمكن يشاؤه من الملك وغيره من باطنه وهو الملكوت وغيره مما وجد وما لم يوجد ﴿ قدير ﴾ أي تام القدرة ، ودل على ذلك بقوله : ﴿ الذي خلق ﴾ أي قدر وأوجد .

ولما كان الخوف من إيقاع المؤلم ادعى إلى الخضوع لأنه أدل على الملك مع أن الأصل في الأشياء العدم ، قدم قوله : ﴿ الموت ﴾ أي هذا الجنس وهو زوال الحياة عن الحي الذي هو في غاية الاقتدار على التقلب بجعله جماداً كأن لم يكن به حركة أصلاً .

أول ما يفعل في تلك الدار بعد استقرار كل فريق في داره وأن يعدم هذا الجنس فيذبح بعد أن يصور في صورة كبش ﴿ والحياة ﴾ أي هذا الجنس وهو المعنى الذي يقدر الجماد به على التقلب بنفسه وبالإرادة ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الموت خلقه الله على

صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات ، والحياة على صورة فرس بلقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها فلا يجد ريحها شيء إلا حيي ، وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها وألقاه على الحلي الذي ألقاه بنو إسرائيل ونوى أن يكون عجلاً فصار عجلاً .

(84/774)

ولما ذكر الدال على القدرة أتبعه غايته ، وهو الحكم الذي هو خاصة الملوك فقال تعالى : ﴿ ليبلوكم ﴾ أي يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لإظهار ما عندكم من العمل بالاختيار ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ أي من جهة العمل أي عمله أحسن من عمل غيره ، وعبارة القرآن في إسناد الحسن إلى الإنسان تدل على أن من كان عمله أحسن كان هو أحسن ولو أنه أبشع الناس منظراً ، ومن كان عمله أسوأ كان بخلاف ذلك ، والحسن إنما يدرك بالشرع ، فما حسنه الشرع فهو الحسن وما قبحه فهو القبيح ، وكان ذلك مفيداً للقيام بالطاعة لأن من تفكر في حاله علم أنه مباين لبقية الحيوانات بعقلة وللنباتات بحياته ، وللجمادات بنموه ، وأن ذلك ليس له من ذاته بدليل موته ، فما كان له ذلك إلا بفاعل مختار ، له الحياة من ذاته ، فيجتهد في رضاه باتباع رسله إن كان عاقلاً ، فيشكره إذا أنعم ، ويصبر

إن امتحن وانتقم ، ويخدمه بما أمر وينزجر عما عنه زجره ، فهذه الآية مشتملة على وجود المقتضي للسعادة وانتفاء المانع منها ووجود المقتضي إعداد وإرشاد ، فالإعداد إعانته سبحانه للعبد بإعداده لقبول السعادة كالحداد يلين الحديد بالنار ليقبل أن يكون سكيناً ، والإرشاد أخذه بالناصية إلى ما أعد له كالضرب بالسكين وإصلاحها للقطع بها ، وانتفاء المانع هو الموقف عن ذلك وهو دفع المشوشات والمفسدات كتثلم السكين وهو يجري السبب وسبب السبب ، وهو ما اشتمل عليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(85/774)

" اللهم أعني ولا تعن عليّ " الحديث ، فذكره لتمام القدرة والعزة مع ذكر الأحسن دال على توفيقه بما ذكر ، ومن تأمل الآية عرف أنه ما خلق لا ليتميز جوهره من صدق غيره أو صدقه من جوهر غيره ، وأن الدنيا مزروعة ، وأن الآخرة محصدة ، فيصير من نفسه على بصيرة ، وثارت إرادته لما خلق له تارة بالنظر إلى جمال ربه من حسن وإحسان ، وأخرى إلى جلاله من قدرة وإمكان ، وتارة بالنظر لنفسه بالشفقة عليها من خزي الحرمان ، فيجتهد في رضا ربه وصلاح نفسه خوفاً من عاقبة هذه البلوى .

ولما كان لا يغفل الابتلاء منا إلا جاهل بالعواقب وعاجز عن رد المسيء عن إساءته

وجعله محسناً من أول نشأته ، قال نافياً لذلك عن منيع جنابه بعد أن نفاه بلطيف تدبيره وعظيم أمره في خلق الموت والحياة ، ومزيلاً بوصف العزة لما قد يقوله من يكون قوي الهمة : أنا لا أحتاج إلى تعب كبير في الوصول إليه سبحانه بل أصل إليه أي وقت شئت بأيسر سعي ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يصعب الوصول إليه جداً ، من العزاز وهو المكان الوعر والذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، فلو أراد جعل الكل محسنين ، ولا يكون كذلك إلا وهو تام القدرة فيلزم تمام العلم والوحدانية ووجوب الوجود أزلاً وأبداً .

ولما كان العزيز منا يهلك كل من خالفه إذا علم مخالفته ، قال مبيناً إمهاله للعصاة مرغباً للمسيء في التوبة ، بعد ترهيبه من الإصرار على الحوبة ، لأنه قد يكون مزدرئاً لنفسه قائلاً : إن مثلي لا يصلح للخدمة لما لي من الذنوب القاطعة وأين التراب من رب الأرباب ﴿ الغفور ﴾ أي أنه مع ذلك يفعل في محو الذنوب عيناً وأثراً فعل المبالغ في ذلك ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلق كما قال تعالى في الحديث القدسي " ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

(86/774)

ولما أثبت له سبحانه صفتي العز والغفر على أبلغ ما يكون ، دل على ذلك بقوله دالاً على كمال تفرده بعد آيات الأنفس بآيات الآفاق إرشاداً إلى معالي الأخلاق : ﴿ الذي خلق ﴾ أي أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق ﴿ سبع سماوات ﴾ حال كونها ﴿ طباقاً ﴾ جمع طبق كل واحدة منها كأنها لشدة مطابقتها للأخرى طالبة مطابقتها بحيث يكون كل جزء منها مطابقاً لجزء من الأخرى ، ولا يكون جزء منها خارجاً عن ذلك وهي لا تكون كذلك إلا بأن تكون الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة بالبيضة من جميع الجوانب والثانية محيطة بالدنيا وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل ، والكرسي الذي هو أقربها إليه بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة ، فما ظنك بما تحته ، وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة ، وقد قرر أهل الهيئة أنها كذلك ، وليس في الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولا سيما التشبيه بالحلقة الملقاة في فلاة كما مضى بسط ذلك في ذلك سورة السجدة ، وأحاط سبحانه بالأرض منافعها من جميع الجوانب ، وجعل المركز بحيث يجذب إليه الأسفل فكيفما مشى الحيوان في جوانبها اقتضى المركز أن تكون رجلاه إلى الأرض ورأسه إلى السماء لتكون السماء في رأيه دائماً أعلى ، والأرض أسفل في أي جانب كان هو عليها ، فسبحان اللطيف الخبير ، ولا شك أن من تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأه فيها لنا من المنافع ، آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد ، فانقطع باللجاء إليه ولم يعول إلا عليه في كل دفع ونفع ، وسارع في مراضيه ومحابه في كل خفض ورفع .

ولما كان ذلك في حد ذاته خارجاً عن طوق المخلوق ، وكان سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، ولما بين كل سماءين كذلك مع عدم الفروج والعمد والأطناب ، فكان ذلك النهاية في الخروج عن العادة في حد ذاته ولأنه قيل : إن القبة إذا بنيت بلا فروج ولا شيء يدخل الهواء منه تفسد وتسقط ، دل على عزته بعظيم صنعه في ذلك بقوله واصفاً لها : ﴿ ما ترى في ﴾ وكان الأصل : خلقها ، ولكنه دل على عزته وعموم عظمته بقوله : ﴿ خلق الرحمن ﴾ أي لها ولغيرها ولولا رحمته وعموم عظمته التي اقتضت إكرامه لخلقه بعد غفرانه لما لهم من النقائص ما أحسن إليهم بها في اتساعها وزينتها وما فيها من المنافع ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من تفاوت ﴾ بين صغير ذلك الخلق وكبيره بالنسبة إلى الخالق في إيجاده له على حد سواء ، إنما قوله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فلا فرق في ذلك بين الذرة مثلاً والغرس ولا بالنسبة إلى الخالق من عجز صغيرهم وكبيرهم عن إيجاد شيء من العدم صغيراً كان أو كبيراً جليلاً كان أو حقيراً ، ولا ترى تفاوتاً في الخلق بأن يكون شيء منه فائتاً للآخر بالمخالفة والاضطراب والتناقض في الخلقة غير مناسب له بأن يكون خارجاً عنه أو منافراً له في مقتضى الحكمة ، وآثار الإحسان في الصنعة ، والنزول عن

الإتقان والاتساق ، والخروج عن الإحكام والاتفاق ، والدلالة للخالق على كمال القدرة وللمخلوق على الحدوث بنوع من ضعف البنية بحيث يكون كل واحد كالطالب لأن يخالف الآخر ، أو تعمد لأن يفوت الآخر ويخالفه – على قراءة حذف الألف والتشديد بحيث يكون التفاضل في المزدوجات وعدم المساواة كأنه مقصود بالذات وبالقصد الأول ، بل لا توجد المخالفة إلا نادراً بحيث يعلم أن المشاكلة هي المقصود بالذات وبالقصد الأول ، فإذا وقع في شيء منه مخالفة كان على وجه الندور ليعلم أنه ليس مقصوداً بالذات ، وإنما أريد به الدلالة على الاختيار وأن الفاعل هو القادر المختار لا الطبيعة ، قال

(88/774)

الرازي : كأن التفاوت الشيء المختلف لأعلى النظام ، وقال البغوي : من اعوجاج واختلاف وتناقض ، وقال غيره : عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ، وهو من الفوت وهو أن يفوت بعضها بعضاً لقلة استوائها ، وقال أبو حيان : والتفاوت تجاوز الحد الذي يجب له زيادة أو نقصان – انتهى .

يظهر ذلك بأن أغلب الخلق أجوف ، والأجوف يعمل مبسوطاً ثم يضم ويوصل أحد جانبيه بالآخر فيكون ثم نوع فطر يعرفه أهل الحذق وإن اجتهد صانعه في إخفائه وإن كان فيه

أشياء متقابلة كان فيها تفاوت ولو قل وإن اجتهد الصانع في المساواة ، وخلق الله لا تفاوت فيه بوجه ، فالسماوات كرية ولا ترى في جانب منها شقاً ولا فطراً ظاهراً ولا خفياً ، والحيوان أجوف ولا ترى في شيء من جسده فصماً يكون الضم والتجويف وقع به وكل من متقابليه مساو للأخر كالعينين والأذنين والمنخرين والساقين ونحوها مما يقصد فيه التساوي لا تفاوت فيه أصلاً – إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، ولا يمكن ضبطه ، فسبحان من لا تتناهى قدرته فلا تتناهى مقدوراته ، ولا تحصى بوجه معلوماته ، وكل ذلك عليه هين ، والأمر في ذلك واضح بين ، هذا مع الاتساع الذي لا يدرك مقداره بأكثر من أن كل سماء بالنسبة إلى التي فوقها كحلقة ملقاة في فلاة إلى أن يوصل إلى الكرسي ثم العرش العظيم ، ومن سر كونها كذلك حصول النفع بكل ما فيها من كواكب مرطبة أو ميبسة أو منورة واتصالات ممطرة ومثبتة يجري كل ذلك منها على ترتيب مطرد ، ونظام غير منخرم مقدر جريه بالقسط مرتب على منافع الوجود ومصالح الكائنات كلها مكفوفة على هواء لطيف بتدبير شريف : لا يتعدى شيء منها طوره ولا يتخطى حده ، ولا يرسب فيها تحته من الهواء فيهوي ، ولا يرتفع عن محله بمقدار ذرة فيطفو ، قد أحاط بكلها الأمر ، وضبطها صاغرة القهر .

ولما كان العلم الناشىء عن الحسن أجل العلوم ، دل على بديع ما ذكره بمشاهدة الحس له كذلك ، فسبب عنه قوله منبهاً بالرجع الذي هو تكرير الرجوع على أن كل أحد يشاهد ذلك كذلك من حين يعقل إلى أن يبلغ حد التكليف المقتضي للمخاطبة بهذا الكلام :

﴿ فارجع البصر ﴾ أي بعد ترديدك له قبل ذلك ، ودل بتوجيه الخطاب نحو أكمل الخلق - صلى الله عليه وسلم - في السمع والبصر والبصيره وكل معنى إلى أن ذلك لا شبهة فيه .

ولما كان السؤال عن الشيء يدل على شدة الاهتمام بالبحث عنه ، نبه على أن هذا مما اشتدت عناية الأولين به فقال : ﴿ هل ترى ﴾ أي في شيء منها .

ولما كان هذا الاستفهام مفيداً للنفي ، أعرق في النفي بقوله : ﴿ من فطور ﴾ أي خلل بشقوق وصدوع أو غيرها لتغاير ما هي عليه وأخبرت به من تناسبها واستجماعها واستقامتها ما يحق لها مما يدل على عزة ما فيها وبليغ غفرانه ، وهذا أيضاً يدل على إحاطة كل منها بما دونه فإنه لو كان لها فروج لفاتت المنافع التي رتبت لها النجوم المفرقة في طبقاتها أو بعضها أو كمالها ، فالهواء وجميع المنافع منحبسة فيها محوطة بها مضطربة متصرفة فيها على حسب التدبير والحيوان في الهواء كالسمك في الماء ، أو انحبس الهواء عنه لمات كما أنه لو انكشف الماء عن السمك لمات .

ولما كان في سياق المجازاة بالأعمال الصالحة والطالحة التي دل عدم الانتصاف من الظالمين في هذه الدار على أنها تكون بعد البعث وكانت العزة مقتضية لذلك ، وكان خلقه سبحانه وتعالى لهذا الوجود على هذا النظام مثبتاً لها ، وكانت أعمالهم أعمال المنكر لها ، ولا سيما تصريحهم بأنه لا بعث ، دل على عظمة عزته بما أبدعه من هذا السقف الرفيع البديع ، ثم بجعله محفوظاً هذا الحفظ المنيع ، على تعاقب الأحقاب وتكرر السنين ، فقال معبراً بأداة التراخي دالاً على جلاله بإدامة التكرير طول الزمان : ﴿ ثم ارجع البصر ﴾ وأكد ما أفهمته الآية من طلب التكرير بقوله تعالى : ﴿ كرتين ﴾ أي مرتين أخريين – هذا مدلولها لغة ، وبالنظر إلى السياق علم أن المرد مرة بعد مرة لا تزال تكرر ذلك لارتياد الخلل لا إلى نهاية ، كما أن " لبيك " مراد به إجابة إلى غير غاية ، وعلى ذلك دل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ينقلب إليك ﴾ أي من غير اختيار بل غلبة وإعياء وانكسار ﴿ البصر خاسئاً ﴾ أي صاغراً مطروداً ذليلاً بعيداً عن إصابة المطلوب ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ حسير ﴾ أي كليل تعب معيى من طول المعاودة وتدقيق النظر وبعد المسرح ، وإذا كان هذا الحال في بعض المصنوع فكيف يطلب العلم بالصانع في كماله من جلاله وجماله ، فكيف بمن يتفوه

بالحلول أو الاتحاد حسبه جهنم وبئس المهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 68.62 ﴾

(91/774)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ من تفوّت ﴾ من التفعل : حمزة وعلي ﴿ هل ترى ﴾ بالإدغام : أبو عمرو وحمزة وعلي وهشام ﴿ ولقد زينا ﴾ مثل ﴿ لقد سمع ﴾ : ابن فليح ﴿ فسحقا ﴾ بالضم : يزيد وعلي الآخرون : بالسكون ﴿ أءمنتم ﴾ بهمزتين : حمزة وعلي وخلف وابن عامر . والباقون ﴿ ءأمنتم ﴾ بتوسيط ألف بين الهمزتين ﴿ نذيري ﴾ ﴿ ونكيري ﴾ كنظائرهما . ﴿ سيئت ﴾ مثل ضربت : أبو جعفر ونافع وابن عامر وعلي ورويس . ﴿ يدعون ﴾ بسكون الدال : يعقوب . ﴿ أهلكني الله ﴾ بسكون الياء : حمزة ﴿ معي ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وعاصم غير يحيى وحماد ﴿ فسيعلمون ﴾ على الغيبة : علي .

(92/774)

الوقوف ﴿ الملك ﴾ ط لنوع اختلاف بين الجملتين من حيث تقدم الظرف في الأولى ﴿ قدير ﴾ ه لا لأن ﴿ الذي ﴾ بدل ﴿ عملاً ﴾ ه ﴿ الغفور ﴾ ه لا لأن ما بعده صفة أو بدل ﴿ طباقاً ﴾ ط ﴿ تفاوت ﴾ ط ﴿ البصر ﴾ ط في الموضعين لأن ما بعد الأول مفعول أي فانظر هل ترى ، وما بعد الثاني ظرف مع أن الجواب منتظر ﴿ فطور ﴾ ه ﴿ حسير ﴾ ه ﴿ السعير ﴾ ه ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ تفور ﴾ ه لا لأن ما بعده خبر آخر أو بدل ﴿ الغيظ ﴾ ط ﴿ نذير ﴾ ه ﴿ من شيء ﴾ ط ج لاحتمال أن ما بعده من تمام قول الكفار وأن يكون مقول قول محذوف للخزنة ﴿ كبير ﴾ ه ﴿ السعير ﴾ ه ﴿ يذنبهم ﴾ ج لابتداء الشتم مع الفاء ﴿ كبير ﴾ ه ﴿ أو اجهروا به ﴾ ه ط ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ خلق ﴾ ط لتناهي الاستفهام مع أن الواو يحسن حالاً . ﴿ الخبير ﴾ ه ﴿ من رزقه ﴾ ط ﴿ النشور ﴾ ه ﴿ هي تمور ﴾ ه لا لأن أم معادل ﴿ أم أمنتم ﴾ ﴿ حاصبا ﴾ ط لابتداء التهديد ﴿ نذير ﴾ ه ﴿ نكير ﴾ ه ﴿ ويقبض ﴾ م ﴿ الرحمن ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ الرحمن ﴾ ط ﴿ غرور ﴾ ه ﴿ رزقه ﴾ ط ﴿ ونفور ﴾ ه ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ والأفئدة ﴾ ط ﴿ تشكرون ﴾ ه ﴿ تحشرون ﴾ ه ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ عند الله ﴾ ط ص ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ تدعون ﴾ ه ﴿ رحمنا ﴾ لا لأن ما بعده جواب الشرط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ توكلنا ﴾ ج ومن قرأ ﴿ فسيعلمون ﴾ بياء الغيبة فوقفه

مطلق للعدول ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ معين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 324 ﴾

(93/774)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

أما قوله : ﴿ تبارك ﴾ فقد فسرناه في أول سورة الفرقان ، وأما قوله : ﴿ بِيَدِهِ الملك ﴾ فاعلم أن هذه اللفظة إنما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكاً ومالكاً ، كما يقال : بيد فلان الأمر والنهي والحل والعقد ولا مدخل للجارحة في ذلك .

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ بِيَدِهِ الملك ﴾ على كل موجود ، ﴿ وَهُوَ على كُلِّ ﴾ ما لم يوجد من الممكنات ﴿ قَدِيرٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الآية احتج بها من زعم أن المعدوم شيء ، فقال قوله : ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ يقتضي كون مقدوره شيئاً ، فذلك الشيء الذي هو مقدور الله تعالى ، إما أن

يكون موجوداً أو معدوماً ، لا جائز أن يكون موجوداً ، لأنه لو كان قادراً على الموجود ، لكان إما أن يكون قادراً على إيجاده وهو محال ، لأن إيجاد الموجود محال ، وإما أن يكون قادراً على إعدامه وهو محال ، لاستحالة وقوع الإعدام بالفاعل ، وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة فلا بد لها من تأثير ، والعدم نفي محض ، فيستحيل جعل العدم أثر القدرة ، فيستحيل وقوع الإعدام بالفاعل فثبت أن الشيء الذي هو مقدور الله ليس بموجود ، فوجب أن يكون معدوماً ، فلزم أن يكون ذلك المعدوم شيئاً ، واحتج أصحابنا النافون لكون المعدوم شيئاً بهذه الآية فقالوا : لا شك أن الجوهر من حيث إنه جوهر شيء والسواد من حيث هو سواد شيء ، والله قادر على كل شيء .

(94/774)

فبمقتضى هذه الآية يلزم أن يكون قادراً على الجوهر من حيث إنه جوهر ، وعلى السواد من حيث هو سواد ، وإذا كان كذلك كان كون الجوهر جوهراً ، والسواد سواداً واقعاً بالفاعل ، والفاعل المختار لا بد وأن يكون متقدماً على فعله ، فإذاً وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهراً ، أو السواد سواداً ، فيلزم أن لا يكون المعدوم شيئاً وهو المطلوب ، ثم أجابوا عن شبهة الخصم بأنا لا نسلم أن الإعدام لا يقع بالفاعل ، ولئن سلمنا ذلك ، لكن

لم يجوز أن يقال المقدور الذي هو معدوم سمي شيئاً ، لأجل أنه سيصير شيئاً ، وهذا وإن كان مجازاً إلا أنه يجب المصير إليه ، لقيام سائر الدلائل الدالة على أن المعدوم ليس بشيء .

المسألة الثانية :

زعم القاضي أبو بكر في أحد قوليه أن إعدام الأجسام إنما يقع بالفاعل ، وهذا اختيار أبي الحسن الخياط من المعتزلة ، ومحمود الخوارزمي ، وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة أنه يستحيل وقوع الإعدام بالفاعل ، احتج القاضي بأن الموجودات أشياء ، والله على كل شيء قدير ، فهو إذاً قادر على الموجودات ، فإما أن يكون قادراً على إيجادها وهو محال لأن إيجاد الموجود محال ، أو على إعدامها ، وذلك يقتضي إمكان وقوع الإعدام بالفاعل .

المسألة الثالثة :

زعم الكعبي أنه تعالى غير قادر على مثل مقدور العبد ، وزعم أبو علي وأبو هاشم أنه تعالى غير قادر على مقدور العبد ، وقال أصحابنا : إنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد وعلى غير مقدوره ، واحتجوا عليه بأن عين مقدور العبد ومثل مقدوره شيء ، والله على كل شيء قدير ، فثبت بهذا صحة وجود مقدور واحد بين قادرين .

المسألة الرابعة :

زعم أصحابنا أنه لا مؤثر إلا قدرة الله تعالى ، وأبطلوا القول بالطبائع على ما يقوله الفلاسفة ، وأبطلوا القول بالمتولدات على ما يقوله المعتزلة ، وأبطلوا القول بكون العبد موجداً لأفعال نفسه ، واحتجوا على الكل بأن الآية دالة على أنه تعالى قادر على كل شيء ، فلو وقع شيء من الممكنات لا بقدرة الله بل بشيء آخر ، لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيما كان مقدوراً له وذلك محال ، لأن ما سوى الله ممكن محدث ، فيكون أضعف قوة من قدرة الله ، والأضعف لا يمكن أن يدفع الأقوى .

المسألة الخامسة :

هذه الآية دالة على أن الإله تعالى واحد ، لأنا لو قدرنا إلهاً ثانياً ، فإما أن يقدر على إيجاد شيء أو لا يقدر ، فإن لم يقدر ألبتة على إيجاد شيء أصلاً لم يكن إلهاً ، وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثاني شيئاً ، فيلزم كونه مقدوراً للإله الأول لقوله : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال ، لأنه إذا كان واحد منهما مستقلاً بالإيجاد ، يلزم أن يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، فيكون محتاجاً إليهما ، وغنياً عنهما ، وذلك محال .

المسألة السادسة :

احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء فقال : لو كان شيئاً لكان قادراً على نفسه

لقوله : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لكن كونه قادراً على نفسه محال ، فيمتنع كونه شيئاً ، وقال أصحابنا لما دل قوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله شَهِيدٌ ﴾ [الأنعام : 19] على أنه تعالى شيء وجب تخصيص هذا العموم ، فإذاً هذه الآية قد دلت على أن العام المخصوص وارد في كتاب الله تعالى ، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع .

المسألة السابعة :

(96/774)

زعم جمهور المعتزلة أن الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل والعبث والظلم ، وزعم النظام أنه غير قادر عليه ، واحتج الجمهور بأن الجهل والكذب أشياء ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فوجب كونه تعالى قادراً عليها .

المسألة الثامنة :

احتج أهل التوحيد على أنه تعالى منزه عن الحيز والجهة ، فإنه تعالى لو حصل في حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذي حكم بحصوله فيه متميزاً عن الحيز الذي حكم بأنه غير حاصل فيه ، إذ لو لم يتميز أحد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حصل فيه ولم يحصل

في الآخر ثم إن امتياز أحد الحيزين عن الآخر في نفسه يقتضي كون الحيز أمراً موجوداً لأن العدم المحض يمتنع أن يكون مشاراً إليه بالحس وأن يكون بعضه متميزاً عن البعض في الحس ، وأن يكون مقصداً للمتحرك ، فإذن لو كان الله تعالى حاصلاً في حيز لكان ذلك الحيز موجوداً ، ولو كان ذلك الحيز موجوداً لكان شيئاً ولكان مقدور الله لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وإذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرة الله وبإيجاده ، فيلزم أن يكون الله متقدماً في الوجود على تحقق ذلك الحيز ، ومتى كان كذلك كان وجود الله في الأزل محققاً من غير حيز وله جهة أصلاً والأزلي لا يزول ألبتة ، فثبت أنه تعالى منزه عن الحيز والمكان أزلاً وأبداً .

المسألة التاسعة :

أنه تعالى قال أولاً : ﴿ بِيَدِهِ الملك ﴾ ثم قال بعده : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا مشعر بأنه إنما يكون بيده الملك لو ثبت أنه على كل شيء قدير ، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله ، لكان ذلك مشعراً بالعجز والضعف ، وبأن لا يكون مالك الملك على الإطلاق ، فدل ذلك ، على أنه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادراً على جميع الأشياء .

المسألة العاشرة :

القدير مبالغة في القادر ، فلما كان قديراً على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه ألبتة مانع عن إيجاد شيء من مقدوراته ، وهذا يقتضي أن لا يجب لأحد عليه شيء وإلا لكان ذلك الوجوب مانعاً له من الترك وأن لا يقبح منه شيء وإلا لكان ذلك القبح مانعاً له من الفعل ، فلا يكون كاملاً في القدرة ، فلا يكون قديراً ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالوا : الحياة هي الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر واختلفوا في الموت ، فقال قوم : إنه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال أصحابنا : إنه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم بأنه تعالى قال : ﴿ الذى خَلَقَ الموت ﴾ والعدم لا يكون مخلوقاً هذا هو التحقيق ، وروى الكلبي بإسناده عن ابن عباس أن الله تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء ، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فارس يلقاه فوق الحمار ودون البغل ، لا تمر بشيء ولا يجد ريحتها شيء إلا حيي .

واعلم أن هذا لا بد وأن يكون مقولاً على سبيل التمثيل والتصوير ، وإلا فالتحقيق هو الذي

ذكرناه .

المسألة الثانية :

(98/774)

إنما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أن الحياة مقدمة على الموت لوجوه : أحدها : قال مقاتل : يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح وثانيها : روى عطاء عن ابن عباس قال : يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة دار الحيوان وثالثها : أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن منادياً ينادي يوم القيامة يا أهل الجنة ، فيعلمون أنه من قبل الله عز وجل فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا : نعم ، ثم يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ويذبح ثم ينادي يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزن " واعلم أنا بينا أن الموت عرض من الأعراض كالسكون والحركة فلا يجوز أن يصير كبشاً بل المراد منه التمثيل ليعلم أن في ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت ، فظهر بما ذكرناه أن أيام الموت هي أيام الدنيا وهي منقضية ، وأما أيام الآخرة فهي أيام الحياة وهي متأخرة فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة لا جرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة ورابعها إنما قدم

الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم .

المسألة الثالثة :

اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا وهي الأصل أيضاً في نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم ، والموت أيضاً نعمة على ما شرحنا الحال فيه في مواضع من هذا الكتاب ، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه ، قال عليه الصلاة والسلام :

" أكثروا من ذكر هازم اللذات " وقال لقوم : " لو أكثرتم ذكر هازم اللذات لشغلكم عما أرى " وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأثنوا عليه ، فقال : " كيف ذكره الموت ؟ قالوا قليل ، قال فليس كما تقولون "

(99/774)

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي وذلك في حق من وجب أن

يكون عالماً بجميع المعلومات أزلاً وأبداً محال ، إلا أنا قد حققنا هذه المسألة في تأويل قوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات ﴾ [البقرة : 124] والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه (الابتلاء) على المختبر .

المسألة الثانية :

احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ قالوا : هذه اللام للغرض ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وجوابه أن الفعل في نفسه ليس بابتلاء إلا أنه لما أشبه الابتلاء سمي مجازاً ، فكذا ههنا ، فإنه يشبه الغرض وإن لم يكن في نفسه غرضاً ، فذكر فيه حرف الغرض .

المسألة الثالثة :

اعلم أنا فسرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة ، والحياة بعد ذلك فوجه الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادراً على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات ويستوي فيه الفقير والغني والمولى والعبد ، وأما إن فسرناهما بالموت في الدنيا وبالحياة في القيامة فالابتلاء فيهما أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة في القيامة ، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا .

المسألة الرابعة :

في تعلق قوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بقوله : ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وجهان : الأول : وهو قول الفراء والزجاج : إن المتعلق بأيكم مضمر والتقدير ليبلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عملاً والثاني : قال صاحب "الكشاف" : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ في معنى ليعلمكم والتقدير ليعلمكم أيكم أحسن عملاً .

(100/774)

المسألة الخامسة :

ارتفعت (أي) بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام فإنك إذا قلت : لا أعلم أيكم أفضل كان المعنى لا أعلم أزيد أفضل أم عمرو ، واعلم أن ما لا يعمل فيما بعد الألف فكذلك لا يعمل في (أي) لأن المعنى واحد ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ﴾ [القلم : 40] وقد تقدم الكلام فيه .

المسألة السادسة :

ذكروا في تفسير ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وجوهاً : أحدها : أن يكون أخلص الأعمال وأصوبها لأن العمل إذا كان خالصاً غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صواباً غير خالص

فالخالص أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السنة وثانيها : قال قتادة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" يقول أيكم أحسن عقلاً " ثم قال : " أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً " ، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل ، فمن كان أتم عقلاً كان أحسن عملاً على ما ذكر في حديث قتادة وثالثها : روي عن الحسن أيكم أزهد في الدنيا وأشد تركاً لها ، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده : ﴿ وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ أي وهو العزيز الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة .

(101/774)

واعلم أن كونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلا بعد كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات أما أنه لا بد من القدرة التامة ، فلأجل أن يتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتمامه إليه سواء كان عقاباً أو ثواباً ، وأما أنه لا بد من العلم التام فلأجل أن يعلم أن المطيع من هو والعاصي من هو فلا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه ، فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن ثبوتها إلا بعد ثبوت القدرة التامة والعلم التام ، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على

ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام ، ولما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً ، لا جرم ذكر أولاً دلائل القدرة وثانياً دلائل العلم .

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)

أما دليل القدرة فهو قوله : ﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر صاحب "الكشاف" في ﴿ طِبَاقاً ﴾ ثلاثة أوجه أولها : طباقاً أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق ، وهذا وصف بالمصدر وثانيها : أن يكون التقدير ذات طباق وثالثها : أن يكون التقدير طوبقت طباقاً .

المسألة الثانية :

دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه أحدها : من حيث إنها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة وثانيها : من حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص وثالثها : أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة ورابعها : كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها إلى قادر تام القدرة .

وأما دليل العلم فهو قوله : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت فارجع البصر هَلْ ترى مِن

فُطُورٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(102/774)

قرأ حمزة والكسائي ﴿ مِن تَفَوت ﴾ والباقون ﴿ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ، قال الفراء : وهما بمنزلة واحدة مثل تظهر وتظاهر ، وتعهد وتعاهد ، وقال الأخفش : ﴿ تفاوت ﴾ أجود لأنهم يقولون : تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون : تفوت ، واختار أبو عبيدة : ﴿ تَفَوت ﴾ ، وقال : يقال تفوت الشيء إذا فات ، واحتج بما روي في الحديث أن رجلاً تفوت على أبيه في ماله .

المسألة الثانية :

حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ومنه قولهم : (تعلق متعلق متفاوت ونقيضه متناسب) ، وأما ألفاظ المفسرين فقال السدي : من تفاوت أي من اختلاف عيب ، يقول الناظر : لو كان كذا كان أحسن ، وقال آخرون : التفاوت الفطور بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ نظيره قوله : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] قال القفال : ويحتمل أن يكون المعنى : ما ترى في خلق الرحمن من

تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وأنه لم يخلقها عبثاً .

المسألة الثالثة :

الخطاب في قوله : ﴿ مَّا ترى ﴾ إما للرسول أو لكل مخاطب وكذا القول في قوله : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا ﴾ .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ طِبَاقاً ﴾ صفة للسموات ، وقوله بعد ذلك : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله : ﴿ خَلْقِ الرحمن ﴾ تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب .

المسألة الخامسة :

(103/774)

اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل أن هذه السموات السبع ، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان ، وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فإنه

لا بد وأن يكون عالماً ، فدل هذه الدلالة على كونه تعالى عالماً بالمعلومات فقوله : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ إشارة إلى كونها محكمة متقنة .

المسألة السادسة :

احتج الكعبي بهذه الآية على أن المعاصي ليست من خلق الله تعالى ، قال : لأنه تعالى نفى التفاوت في خلقه ، وليس المراد نفي التفاوت في الصغر والكبر والنقص والعيب فوجب حمله على نفي التفاوت في خلقه من حيث الحكمة ، فيدل من هذا الوجه على أن أفعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذي بعضه جهل وبعضه كذب وبعضه سفه ، الجواب : بل نحن نحمله على أنه لا تفوت فيه بالنسبة إليه ، من حيث إن الكل يصح منه بحسب القدرة والإرادة والداعية ، وإنه لا يقبح منه شيء أصلاً ، فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذي ذكرتم أولى من حملها على نفي التفاوت من الوجه الذي ذكرناه ، ثم إنه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة ، وقال : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ والمعنى أنه لما قال : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ كأنه قال بعده : ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد ، ولا تعتمد عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة ، ولكن ارجع البصر واردد النظرة مرة أخرى ، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ألبتة .

والفطور جمع فطر ، وهو الشق يقال : فطره فانفطر ومنه فطر ناب البعير ، كما يقال : شق

ومعناه شق اللحم فطلع ، قال المفسرون : ﴿ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ أي من فروج وصدوع وشقوق ، وفتوق ، وخروق ، كل هذا ألفاظهم .

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

(104/774)

أمر بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع ، هل يجد فيه عيباً وخللاً ، يعني أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب ، بل يرجع إليك خاسئاً أي مبعداً من قولك خسأت الكلب إذا باعدته ، قال المبرد : الخاسيء المبعد المصغر ، وقال ابن عباس : الخاسيء الذي لم ير ما يهوى ، وأما الحسير فقال ابن عباس : هو الكليل ، قال الليث : الحسر والحسور الإعياء ، وذكر الواحدي ههنا احتمالين أحدهما : أن يكون الحسير مفعولاً من حسر العين بعد المرئي ، قال رؤبة :

يحسر طرف عيناه فضا . . الثاني : قول الفراء : أن يكون فاعلاً من الحسور الذي هو الإعياء ، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً ، بل البصر يرجع خاسئاً من الكلال والإعياء ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : كيف ينقلب البصر خاسئاً حسيراً برجعه كرتين اثنتين الجواب : التثنية

للتكرار بكثرة كقولهم : لبيك وسعديك يريد إجابات متوالية .

السؤال الثاني : فما معنى ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ ﴾ الجواب : أمره برجع البصر ثم أمره بأن لا يقنع بالرجعة الأولى ، بل أن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعيده ويعاوده إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 46.52 ﴾

(105/774)

وقال القرطبى :

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة .

وقد تقدّم .

وقال الحسن : تقدّس .

وقيل دام .

فهو الدائم الذي لا أوّل لوجوده ولا آخر لدوامه .

﴿ الذي بِيَدِهِ الملك ﴾ أي ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة .

وقال ابن عباس : بيده الملك يُعِزّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء ، ويُحيي ويميت ، ويُغني ويفقِر ،

ويُعطي ويمنع .

وقال محمد بن إسحاق : له ملك النبوّة التي أعزّ بها من اتبعه وذلّ بها من خالفه .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إنعام وانتقام .

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ قيل : المعنى خلقكم للموت والحياة ؛ يعني للموت في الدنيا والحياة في الآخرة وقدّم الموت على الحياة ؛ لأن الموت إلى القهر أقرب ؛ كما قدّم البنات على البنين فقال : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً ﴾ [الشورى : 49] وقيل : قدّمه لأنه أقدم ؛ لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنُّطْفَة والتراب ونحوه .

وقال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أذلّ بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار مَوْت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء " وعن أبي الدَّرْداء : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت وإنه مع ذلك لَوَثّاب "

المسألة الثانية : ﴿ الموت والحياة ﴾ قدّم الموت على الحياة ، لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نَصب موته بين عينيه ؛ فقدّم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهمّ قال العلماء : الموت ليس بعدم مَحْض ولا فناء صِرْف ، وإنما هو انقطاع تعلّق الروح بالبدن

ومفارقته ، وحيلولةٌ بينهما ، وتبدّلُ حال وانتقالٌ من دار إلى دار .

والحياة عكس ذلك .

(106/774)

وحُكي عن ابن عباس والكَلْبي ومُقاتل : أن الموت والحياة جسمان ، فجعل الموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلْقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها خطوتها مدّ البصر ، فوق الحمار ودون البغل ، لا تمرّ بشيء يجد ريحها إلا حَيِيَ ، ولا تطأ على شيء إلا حَيي .

وهي التي أخذ السَّامِريّ من أثرها فألقاه على العجل فَحيي .

حكاه الثعلبيّ والقُشَيري عن ابن عباس .

والمَاوَرْدِي معناه عن مقاتل والكلبيّ .

قلت : وفي التنزيل ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : 11] ، ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة ﴾ [الأنفال : 50] ثم ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] ثم قال : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] فالوسائط ملائِكة مكرَّمون صلوات الله عليهم .

وهو سبحانه المميت على الحقيقة ، وإنَّما يُمَثَّل الموت بالكبش في الآخرة ويذبح على الصراط ؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح .

وما ذُكر عن ابن عباس يحتاج إلى خبر صحيح يقطع العذر .

والله أعلم .

وعن مقاتل أيضاً : خلق الموت ؛ يعني النُّطْفَة والعَلَقَة والمُضْغَة ، وخلق الحياة ؛ يعني خلق إنساناً ونفخ فيه الروح فصار إنساناً .

قلت : وهذا قول حسن ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ وتقدّم الكلام فيه في سورة "الكهف" .

وقال السدّيّ في قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياةِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي أكثركم للموت ذكراً وأحسن استعداداً ، ومنه أشدّ خوفاً وحذراً .

وقال ابن عمر : " تلا النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك ﴾ حتى بلغ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فقال : "أَوْرع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله" "

(107/774)

وقيل : معنى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ؛ أي ليبلُوَ العبد بموت من يَعِزّ عليه ليبيّن صبره ، وبالحياة ليبيّن شكره .

وقيل : خلق الله الموت للبعث والجزاء ، وخلق الحياة للآبتلاء .

فاللام في ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت ؛ ذكره الزجاج .

وقال الفرّاء والزجاج أيضاً : لم تقع البَلْوَى على "أيّ" لأن فيما بين البلوى و "أيّ" إضمار فعل ؛ كما تقول : بلوتكم لأنظر أيّكم أطوع .

ومثله قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ [القلم : 40] أي سلهم ثم انظر أيهم .

ف "أيّكم" رفع بالابتداء و "أَحْسَنُ" خبره .

والمعنى : ليبلوكم فيعلم أو فينظر (أيكم) أحسن عملا .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في انتقامه ممن عصاه .

﴿ الغفور ﴾ لمن تاب .

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾

أي بعضها فوق بعض .

والملتزق منها أطرافها ؛ كذا روي عن ابن عباس .

و ﴿ طِبَاقاً ﴾ نعت ل ﴿ سَبْعَ ﴾ فهو وصف بالمصدر .

وقيل : مصدر بمعنى المطابقة ؛ أي خلق سبع سموات وطبّقها تطبيقاً أو مطابقة .

أو على طُوبقت طِباقاً .

وقال سيبويه : نصب "طباقاً" لأنه مفعول ثان .

قلت : فيكون ﴿ خَلَقَ ﴾ بمعنى جعل وصَيّر .

وطِباق جمع طَبَق ؛ مثل جَمَل وجِمال .

وقيل : جمع طبقة .

وقال أَبان بن تَغْلِب : سمعت بعض الأعراب يذم رجلاً فقال : شَرّه طباق ، وخيره غير باق .

ويجوز في غير القرآن سبع سموات طباقٍ ؛ بالخفض على النعت لسموات .

ونظيره ﴿ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ ﴾ [يوسف : 6] .

﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتِ ﴾ قراءة حمزة والكسائي "مِن تَفَوُّتٍ" بغير ألف مشدّدة .

وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه .

الباقون "منْ تَفَاوُتٍ" بألف .

وهما لغتان ؛ مثل التعاهد والتعهّد ، والتحمّل والتحامل ، والتظّهر والتظاهر ، وتصاغر وتصغّر ، وتضاعف وتضعّف ، وتباعد وتبعّد ؛ كلّه بمعنىً .

واختار أبو عبيد "من تَفَوُّت" واحتج بحديث عبد الرحمن بن أبي بكر : "أمثلي يُتَفَوَّتُ عليه في بَنَاتِه" ! النحاس : وهذا أمر مردود على أبي عبيد ، لأن يتفوّت يُفتات بهم .

"وتفاوت" في الآية أشبه .

كما يقال تباين يقال : تفاوت الأمر إذا تباين وتباعد ؛ أي فات بعضها بعضا .

ألا ترى أن قبله قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ .

والمعنى : ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها وإن اختلفت صُوَره وصفاته .

وقيل : المراد بذلك السموات خاصة ؛ أي ما ترى في خلق السموات من عَيْب .

وأصله من الفَوْت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً فيقع الخلل لقلة استوائها ؛ يدل عليه قول ابن عباس رضي الله عنه : من تَفَرّق .

وقال أبو عبيدة : يقال : تفوت الشيء أي فات .

ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به فيتفكروا في قدرته فقال : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ أي اردد طرفك إلى السماء .

ويقال : قلّب البصر في السماء .

ويقال : اجْهَدْ بالنظر إلى السماء .

والمعنى متقارب .

وإنما قال : "فَارْجِعِ" بالفاء وليس قبله فعل مذكور ؛ لأنه قال : "ما تَرَى" .

والمعنى انظر ثم ارجع البصر هل ترى من فطور ؛ قاله قتادة .

والفطور : الشّقوق ، عن مجاهد والضحاك .

وقال قتادة : من خَلَل .

السُّدِّي : من خروق .

ابن عباس : من وهَنْ .

وأصله من التّفطُّر والانفطار وهو الانشقاق .

قال الشاعر :

بَنَى لكُم بِلا عَمدٍ سماءً . . .

وَزَيَّنَها فما فيها فطورُ

وقال آخر :

شققْتِ القلب ثم ذَرَرْتِ فيه . . .

هَواكِ فَلِيم فالتأم الفُطُورُ

تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ . . .

ولا سكر ولم يبلغ سرور

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾

"كرتينِ" في موضع المصدر ؛ لأن معناه رجعتين ، أي مَرَّة بعد أخرى .

وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرةً لا يرى عَيْبَه ما لم ينظر إليه مرةً أخرى .

(109/774)

فأخبر تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيباً بل يتَحيّر بالنظر إليها ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾ أي خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك .

يقال : خسأت الكلبَ أي أبعدته وطردته .

وخسأ الكلبُ بنفسه ، يتعدى ولا يتعدّى .

وانخسأ الكلبُ أيضاً .

وخسأ بصرُه خَسْئاً وخسوءاً أي سَدِر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾ .

وقال ابن عباس : الخاسىء الذي لم ير ما يهوى .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي قد بلغ الغاية في الإعياء .

فهو بمعنى فاعل ؛ من الحسور الذي هو الإعياء .

ويجوز أن يكون مفعولاً من حسره بُعْدُ الشيء ، وهو معنى قول ابن عباس .

ومنه قول الشاعر :

مَن مَدّ طرفاً إلى ما فوق غايته . . .

ارْتدّ خَسْآنَ منه الطَّرْفُ قد حَسرا

يقال : قد حَسَرَ بَصرُه يَحْسِر حُسوراً ، أي كَلّ وانقطع نظره من طول مَدىً وما أشبه ذلك ،

فهو حَسير ومحسورٌ أيضاً .

قال :

نظرت إليها بالْمُحصّبِ من مِنىً . . .

فعاد إليّ الطَّرف وهو حسير

وقال آخر يصف ناقة :

فشَطْرَهَا نَظَرُ العينين محسور . . .

نصب "شطرها" على الظرف ، أي نحوها .

وقال آخر :

والخيل شُعْثٌ ما تزال جيادُها . . .

حَسْرَى تغادر بالطريق سخالهَا

وقيل : إنه النادم .

ومنه قول الشاعر :

ما أنا اليومَ على شيىءٍ خَلاَ . . .

يا بنة القين تَوَلىَّ بحَسِرْ

والمراد ب "كَرَّتَيْنِ" ها هنا التكثير .

والدليل على ذلك : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ وذلك دليل على كثرة النظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(110/774)

وقال الآلوسى :

﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾

البركة النماء والزيادة حسية كانت أو عقلية وكثرة الخير ودوامه ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه جل وعلا عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك كما في نظائره مما لا يتصور نسبته إليه تعالى من

الصيغ كالتكبر وعلى الثاني باعتبار كثرة ما يفيض منه سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها قيل ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وانبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى وقد مر تمام الكلام في هذا المقام وإسنادها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها لأن المراد بذلك أنه سبحانه كامل الإحاطة والاستيلاء بناء على أن بيده الملك استعارة تمثيلة لذلك ولا تجوز في شيء من مفرداته أو أن الملك على حقيقته واليد مجاز عن الإحاطة والاستيلاء كما قيل ولاستدعاء ذلك استغناء المنصف به مع افتقار الغير إليه في وجوده وكمالات وجوده كان له اختصاص بالموجود وكذلك في العرف العامي لا يطلق الملك على ما ليس كذلك فلذا قيل هنا في بيان معنى الآية تعالى وتعاظم بالذات عن كل ما سواه ذاتا وصفة وفعلا الكامل الإحاطة والاستيلاء على كل موجود وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تكميل لذلك لأن القرينة الأولى تدل على التصرف التام في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازع ولا مدافع لا متصرف فيها غيره عز وجل كما يؤذن به تقديم الظرف وهذه تدل على القدرة الكاملة الشاملة ولو اقتصر على الأولى لأوهم أن

تصرفه تعالى مقصور على تغيير أحوال الملك كما يشاهد من تصرف الملاك المجازي فقرنت بالثانية ليوذن بانه عز سلطانه قادر على التصرف وعلى إيجاد الأعيان المتصرف فيها

(111/774)

وعلى إيجاد عوارضها الذاتية وغيرها ومن ثم عقب ذلك بالوصف المتضمن للعوارض وهذا ما اختاره العلامة الطيبي وصاحب الكشاف اختار في القرينة الأولى ما ذكرناه فيها من التخصيص بالموجود فقال أي تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين الذي بيده الملك على كل موجود لما سمعت وفي الثانية التخصيص بالمعدوم فقال وهو على كل ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قدير ووجهه على ما في الكشف أن الشيء وان كان عاماً في كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه لكن لما قرن بالقدرة اختص بالمعدوم لاستغناء الموجود عن الفاعل عند جمهور المتكلمين القائلين بأن علة الاحتياج الحدوث وعليه الزمخشري وأصحابه وأما عند القائلين بأن علة الاحتياج الإمكان كالمحققين فلأن الاختيار يستدعي سبق العدم وجيء بالقرينة الثانية عليه تكميلاً أيضاً لأن الاختصاص بالموجود فيها إيهام نقص واختار صاحب التقريب أن قوله تعالى الذي بيده الملك مطلق وقوله سبحانه وهو على كل شيء قدير عام لما وضع له الشيء فيكون قد قصد بيان القدرة أولا وعمومها ثانيا ولم يرتض

صنيع الزمخشري ونظر فيه بأن الشيء اما أن يختص بالموجود أو يشمل الموجود والمعدوم وعلى المذهبين فلا وجه لتخصيصه بما لم يوجد مع انضمام كل إليه اللهم إلا أن يقال خصصه به ليغاير ما قبله إذ خصصه بالموجود وفيه أيضاً نظر إذ لو عمم الثاني لتحقق التغاير أيضاً مع أن اليد مجاز عن القدرة فإن تخصصت به كما هو مذهبه تخصص الأول بالمعدوم وان لم تتخصص لم يتخصص الثاني بالمعدوم وادعى صاحب الكشف سقوطه بما نقلناه عنه واعترض عليه وأجيب بما لا يخلوا عن نظر فليتأمل ومن الناس من حمل الملك على الموجودات وجعل إليه مجازاً عن القدرة فيكون المعنى في قدرته الموجودة وتعقبه بعضهم بأن فيه ركاكة وأشار إلى أن الخلاص منها إما بجعل اليد مجازاً عن التصرف أو بتفسير الملك بالتصرف وقيل المراد من كون الملك بيده تعالى أنه عز وجل مالكه فمعنى بيده الملك مالك الملك

(112/774)

وفسر الراغب الملك في مثل ذلك بضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم وشاع تخصيصه بعالم الشهادة ويقابله حينئذ الملكوت وليس بمراد هنا كما لا يخفى وقوله تعالى :

(113/774)

﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الأول وصلته كصلته في الشهادة بتعاليه عز وجل وجوز الطبرسي كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي الخ والموت على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة واستدل على وجوديته بتعلق الخلق به وهو لا يتعلق بالعدمي لازلية الاعدام وأما ما روى عن ابن عباس من أنه تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء لا مات وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء لا تمر بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلا حي فهو أشبه شيء بكلام الصوفية لا يعقل ظاهره وقيل هو وارد على منهاج التمثيل والتصوير وذهب القدرية وبعض أهل السنة إلى أنه أمر عدمي هو عدم الحياة عما هي من شأنه وهو المتبادر الأقرب وأجيب عن الاستدلال بالآية بأن الخلق فيها بمعنى التقدير وهو يتعلق بالعدمي كما يتعلق بالوجودي أو ان الموت ليس عدما مطلقا صرفا بل عو عدم شيء مخصوص ومثله يتعلق به الخلق والإيجاد بناء على أنه إعطاء الوجود ولو للغير دون إعطاء الوجود للشيء في نفسه أو أن الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات دون الإيجاد وهو بهذا المعنى يجري في العدميات أو أن الكلام على تقدير مضاف أي خلق أسباب الموت أو أن المراد بخلق الموت والحياة خلق زمان ومدة معينة لهما لا يعلمها إلا الله تعالى فإيجادهما عبارة عن إيجاد زمانهما

مجازاً ولا يخفى الحال في هذه الاحتمالات ومن الغريب ما قيل أنه كنى بالموت عن الدنيا إذ هو واقع فيها وبالحياة عن الآخرة من حيث لا موت فيها فكأنه قيل الذي خلق الدنيا والآخرة والحق أنهما بمعناهما الحقيقي والموت على ما سمعت والحياة صفة وجودية بلا خلاف وهي ما يصح بوجوده الإحساس أو معنى زائد على العلم والقدرة يوجب للموصوف به حالاً لم يكن قبله من صحة العلم والقدرة وتقديم الموت على تقدير كونه عدما مطلقاً

(114/774)

أعني عدم الحياة عما هي من شأنه ظاهر لسبقه على الوجود وعلى تقدير كونه العدم اللاحق كما هو الأنسب بالاردة هنا أعني عدم الحياة عما انصف بها فلان فيه مزيد عظة وتذكرة وزجر عن ارتكاب المعاصي وحث على حسن العمل ولذا ورد أكثروا من ذكرها ذم اللذات والحياة وان كانت داعية لذلك ضرورة أن من عرف أنها نعمة عظيمة وكان ذا بصيرة عمل شكر الله تعالى عليها لكنها ليست بمثابة الموت في ذلك فمن زعم أنها لا داعية فيها أصلاً وإنما ذكرت باعتبار توقف العمل عليها لم يدقق النظر وأل في الموضعين عوض عن المضاف إليه أي الذي خلق موتكم الطارىء وحياتكم أيها المكلفون ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي

ليعاملكم معاملة من يختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي أصوبه وأخلصه فيجازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت مراتب أعمالكم وأصل البلاء الاختبار ولأنه يقتضي عدم العلم بما اختبره وهو غير صحيح في حقه عز وجل حمل الكلام على ما ذكر ويرجع ذلك إلى الاستعارة التمثيلية واعتبار الاستعارة التبعية فيه دونها دون في البلاغة والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح ولذا قال صلى الله عليه وسلم في الآية

(115/774)

" أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع في طاعة الله عز وجل " أي أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله تعالى وأكمل ضبطا لما يؤخذ من خطابه سبحانه وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للمكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال احسان المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً لكمال تعاضد الموجبات له وأما الاعراض عن ذلك فبمعزل من الإندراج تحت لوقوع فضلاً عن الانتظام في سلك الغاية أو الفرض عند من يراه لأفعال الله عز وجل وإنما هو عمل يصدر عن عامله لسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب وفيه من الترغيب في الترقي إلى

معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائصها ما لا يخفى وجعل ذلك من باب الزيادة المطلقة أو من باب ﴿ أي الفريقين خير مقاماً ﴾ [مريم : 73] ليس بذاك وأيكم أحسن مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب على أنها مفعول ثان ليبلوكم وذلك على ما في الكشاف لتضمنه معنى العلم وهل يسمى نحو هذا تعليقاً أم لا قيل فيه خلاف ففي البحر لأبي حيان نقلاً عن أصحابه أنه يسمى بذلك قال إذا عدى الفعل إلى اثنين ونصب الأول وجاءت بعده جملة استفهامية أو مقرونة بلام الابتداء أو بحرف نفي كانت الجملة معلقا عنها الفعل وكانت في موضع نصب كما لو وقعت في موضع المفعولين وفيها ما يعلق الفعل عن العمل وفي الكشاف هنا لا يسمى تعليقاً إنما التعليق أن يوقع بعد الفعل الذي يعلق ما يسد مسد المفعولين جميعاً كقولك علمت أيهما زيد وعلمت أزيد منطلق واما إذا ذكر بعده أحد المفعولين نحو علمت القوم أيهم أفضل فلا يكون تعليقاً والآية من هذا القبيل واعترضه صاحب التقريب بأن العلم مضمر وهو المعلق كما قال الفراء والزجاج ولا يلزم ذكر المفعول معه بل التقدير ليبلوكم فيعلم أيكم أحسن وأيضاً لا تقع الجملة

(116/774)

الاستفهامية مفعولاً ثانياً لعلمت وإنما تقع موقع المفعولين في علمت أيهم خرج لأن المعنى علمت جواب هذا الاسفهام ولا معنى لتقدير مثله في علمته أيهم خرج وأجيب بأن التضمين يغني عن الإضمار وكون الجملة الاستفهامية لا تقع مفعولاً ثانياً ضعيف لأنها إذا وقعت مفعولاً أولاً في نحو لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على معنى لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد كما قال الخليل فلم يمتنع وقوعها مفعولاً ثانياً بتأويل ليعلمكم الذين يقال في حقهم أيهم أحسن وإليه ذهب الطيبي ثم قال وقد انصف صاحب الانتصاف حيث قال التعليق عن أحد المفعولين فيه خلاف والأصح هو الذي اختاره الزمخشري وهذا النحو عشه فيه يدرج ويدري كيف يدخل ويخرج انتهى والذي ذكره في سورة هود أن في الآية تعليقاً لما في الاختبار من معنى العلم لأنه طريق إليه ومثله بقوله أنظر أيهم أحسن وجهاً فجعلوا بين كلاميه تنافيا وفي الكشف أن كلامه هناك صريح بأن التعليق فيه بمعنى تعليق فعل القلب على ما فيه استفهام وهو بهذا المعنى خاص بفعل القلب من غير تخصيص بالسبعة المتعدية إلى مفعولين وفي الاستفهام خاصة دون ما فيه لام الابتداء ونحوها صرح به الشيخ ابن الحاجب نصاً فلا ينافي ما ذكر في هذه السورة من أنه ليس بتعليق فإنما نفي التعليق بالمعنى المشهور وأما الحمل عن الإضمار في آية هود والتضمين في آية الملك للتفنن فلا وجه له بعد تصريحه بأنه استعارة انتهى وكذا على هذا لا وجه لكون ما هناك اختياراً لمذهب الفراء والزجاج وما هنا اختيار لمذهب آخر فتدبر وتذكر فإنه كثيراً ما يسئل عن ذلك قديماً

وحديثاً والله تعالى الموفق ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يعجزه عقاب من أساء ﴿ الغفور ﴾ لمن شاء منهم أو لمن تاب على ما اختاره بعضهم لأنه أنسب بالمقام ﴿ الذى ﴾ .

(117/774)

﴿ خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾ قيل هو نعت للعزيز الغفور أو بيان أو بدل واختار شيخ الإسلام أنه نصب أو رفع على المدح متعلق بالموصولين السابقين معنى وان كان منقطعاً عنهما اعراباً منتظم معهما في سلك الشهادة بتعاليه سبحانه وتعالى ومع الموصول الثاني في كونه مداراً للبلاء كما نطق به قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ [هود : 7] وقوله تعالى : ﴿ طِبَاقاً ﴾ صفة لسبع وكون الوصف للمضاف إليه العدد ليس بلازم بل أكثرى وهو مصدر طابقت النعل بالنعل إذا خصفتها وصف به للمبالغة أو على حذف مضاف أي ذات طباق أو بتأويل اسم المفعول أي مطابقة وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً مؤكداً لمحذوف أي طوبقت طباقاً والجملة في موضع الصفة وأن يكون جمع طبق كجمل وجمال أو جمع طبقة كرحبة بفتح الحاء ورحاب والكلام بتقدير مضاف لأنه اسم جامد لا يوصف به أي ذات طباق

وقيل يجوز كونه حالاً من سبع سموات لقربه من المعرفة بشموله الكل وعدم فرد وراء ذلك وتعقب بأن قصارى ذلك بعد القيل والقال أن يكون نحو شمس مما انحصر في فرد وهو لا تجيء الحال المتأخرة منه فلا يقال طلعت علينا شمس مشرقة وأياً ما كان فالمراد كما أخرج عبد بن حميد بعضها فوق بعض ولا دليل في ذلك على تلاصقها كما زعمه متقدمو الفلاسفة ومن وافقهم من الإسلاميين مخالفين لما نطقت به الأحاديث الصحيحة وان لم يكفر منكر ذلك فيما أرى واختلف في موادها فقيل الأولى من موج مكفوف والثانية من درة بيضاء والثالثة من حديد والرابعة من نحاس والخامسة من فضة والسادسة من ذهب والسابعة من زمردة بيضاء وقيل غير ذلك ولا أظنك تجد خبراً يعول عليه فيما قيل ولو طرت إلى السماء وأظنك لو وجدت لأولت مع اعتقاد أن الله عز وجل على كل شيء قدير وقوله تعالى : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ صفة أخرى على ما في الكشاف لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع

(118/774)

الضمير الرابط للتعظيم والاشعار بعلة الحكم بحيث يمكن أن يترتب قياس من الشكل الأول ينتج نفي رؤية تفاوت فيها وبأنه عز وجل خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلاً وبأن في

إبداعها نعماً جليلة وما ذكره ابن هشام في الباب الرابع من المغنى من أن الجملة الموصوف بها لا يربطها إلا الضمير اما مذكوراً وإما مقدراً ليس بحجة على جار الله والتوفيق بأن ذلك إذا لم يقصد التعظيم ليس بشيء لأنه لا بد له من نكتة سواء كانت التعظيم أو غيره

واستظهر أبو حيان أنه استئناف وان خلق الرحمن عام للسموات وغيرها والخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب وجوز أن يكون لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ولعل الأول أولى ومن لتأكيد النفي أي ما ترى شيئاً من تفاوت أي اختلاف وعدم تناسب كما قال قتادة وغيره من الفوت فإن كلا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر وفسر بعضهم التفاوت بتجاوز الشيء الحد الذي يجب له زيادة أو نقصاً وهو المعنى بالاختلاف وعلى ذلك قول بعض الأدباء

.

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى . . .

بهن اختلافاً بل أتين على قدر

(119/774)

وقال السدى أي من عيب وإليه يرجع قول من قال أي من تفاوت يورث نقصاً وقال عطاء بن يسار أي من عدم استواء وقيل أي من اضطراب وقيل أي من اعوجاج وقيل أي من تناقض ومآل الكل ما ذكرنا ومن الغريب ما قاله شيخ الطائفة الكشفية في زماننا من أن بين الأشياء جميعها ربطاً وهو نوع من التجاذب لا يفوت بسببه بعضها عن بعض وحمل الآية على ذلك وإلى نحو هذا ذهب الفلاسفة اليوم فزعموا أن بين الأجرام علويها وسفليها تجاذباً على مقادير مخصوصة به حفظت أوضاعها وارتبط بعضها ببعض لكن ذهب بعضهم إلى أن ما به التجاذب والارتباط يضعف قليلاً قليلاً على وجه لا يظهر له أثر إلا في مدد طويلة جداً واستشعروا من ذلك إلى أنه لا بد من خروج هذا العالم المشاهد عن هذا النظام المحسوس فيحصل التصادم ونحوه بين الأجرام وقالوا إن كان قيامة فهو ذاك ولا يخفى حال ما قاله وما قالوه وإن الآية على ما سمعت بمعزل عن ذلك وقرأ عبد الله وعلقمة والأسود وابن جبير وطلحة والأعمش من تفوت بشد الواو مصدر تفوت وحكى أبو زيد عن العرب في تفاوت فتح الواو وضمها وكسرها والفتح والكسر شاذان كما في البحر وقوله تعالى : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ متعلق بما قبله على معنى التسبب أي عن الاخبار بذلك فإنه سبب للأمر بالرجوع دفعا لما يتوهم من الشبهة فهو في المعنى جواب شرط مقدر أي ان كنت في ريب من ذلك فارجع البصر حتى يتضح الحال ولا يبقى لك ريب وشبهة في تحقق ما تضمنه ذلك المقال من تناسب خلق الرحمن واستجماعه ما ينبغي له .

والفطور قال مجاهد الشقوق جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر والظاهر أن المراد الشق مطلقاً لا الشق طولاً على ما هو أصله كما قال الراغب وفي معناه قول أبي عبيدة الصدوع وأنشدوا قول عبيد الله بن عقبة بن مسعود

.

شققت القلب ثم ذررت فيه . . .

هواك فليط فالتأم الفطور

(120/774)

وقول السدى الخروق وأريد بكل ذلك على ما يفهم من كلام بعض الأجلة الخلل وبه فسره قتادة وفسره ابن عباس بالوهن وجملة هل ترى الخ قال أبو حيان في موضع نصب بفعل معلق محذوف أي فانظر هل ترى أو ضمن فارجع البصر معنى فانظر ببصرك .

﴿ ثُمَّ ٱرجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما قالوا في لبيك وسعديك أي رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة بعضها في أثر بعض وهذا كما أريد باصل المثنى التكثير في قوله

: لوعد قبر وقبر كان أكرمهم . . .

بيتاً وأبعدهم عن منزل الذام

(121/774)

فإنه يريد لوعدت قبور كثيرة وقيل هو على ظاهره وأمر برجع البصر إلى السماء مرتين إذ يمكن غلط في الأولى فيستدرك بالثانية أو الأولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها وليس بشيء ويؤيد الأول قوله تعالى ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ فإنه جواب الأمر والجوابية تقتضي الملازمة وما تضمنه لا يلزم من المرتين غالباً والمعنى يعد إليك البصر محروماً من إصابة ما التمسه من إصابة العيب والخلل كأنه طرد عنه طردا بالصغار بناء على ما قيل أنه مأخوذ من خسأ الكلب المتعدي أي طرده على أنه استعارة لكن في الصحاح يقال خسا بصره خسا وخسوأ أي سدر والسدر تحير النظر فكان تفسير خاسئاً بمتحيراً أخذاً له من ذلك أقرب وكأنهم اختاروا ما تقدم لأن فيه مبالغة وبلاغة ظاهرة مع كونه أبعد عن التكرار مآلا مع قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة يقال حسر بعيره يحسر حسوراً أي كل وانقطع فهو حسير ومحسور وقال الراغب الحسر كشف الملبس عما عليه يقال حسرت عن الذراع أي

كشفت والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر وناقة حسير انحسر عنها اللحم والقوة ونوق حسرى والحاسر أيضاً المعيي لانكشاف قواه ويقال له أيضاً محسور أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره وحسير في الآية يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور والجملة في موضع الحال كالوصف السابق من البصر ويحتمل أن تكون حالاً من الضمير فيه وقرأ الخوارزمي عن الكسائي ينقلب بالرفع وخرج على أن الجملة في موضع حال مقدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(122/774)

وقال ابن عاشور :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحاً يؤذن بأن ما حَوتْه يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده .

ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدم في طالع سورة الفرقان .

وفعل ﴿ تَبَارَكَ ﴾ يدل على المبالغة في وفرة الخير ، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة ، أي يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى .

وصيغة تفاعَل إذا أسندت إلى واحد تدل على تكلف فعل ما اشتقت منه نحو تَطاول وتغابن ، وترد كناية عن قوة الفعل وشدته مثل : تواصل الحبل .

وهو مشتق من البَركة ، وهي زيادة الخير ووفرته ، وتقدمت البركة عند قوله تعالى : ﴿ وبركات عليك في ﴾ [سورة هود : 48] .

وتقدم ﴿ تَبَارَكَ ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ تبارك الله رب العالمين في أول ﴾ [الأعراف : 54] .

وهذا الكلام يجوز أن يكون مراداً به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناء على الله أثناه على نفسه ، وتعليماً للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه كما في ﴿ الحمد لله ربَ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] : إمّا على وجه الكناية بالجملة عن إنشاء الثناء ، وإمّا باستعمال الصيغة المشتركة بين الإخبار والإنشاء في معنييها ، ولو صيغ بغير هذا الأسلوب لما احتمل هاذين المعنيين ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ [الفرقان : 1] .

وجُعل المسندُ إليه اسمَ موصول للإِيذان بأن معنى الصلة ، مما اشتهر به كما هو غالب

أحوال الموصول فصارت الصلة مغنية عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به إذ يعلم كل أحد أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلاّ لله .

(123/774)

وذكر ﴿ الذي بيده الملك ﴾ هنا نظير ذكر مثله عقب نظيره في قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده إلى قوله : ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 21] .

والباء في ﴿ بِيَدِهِ ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (في) مثل الباء التي تدخل على أسماء الأمكنة نحو ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ [آل عمران : 123] وقول امرء القيس:

بسقط اللوى . . .

فالظرفية هنا مجازية مستعملة في معنى إحاطة قدرته بحقيقة المُلك ، والمُلك على هذا اسم للحالة التي يكون صاحبها مَلِكاً .

والتعريف في ﴿ المُلك ﴾ على هذا الوجه تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراد الجنس ، وهو الاستغراق فما يوجد من أفراده فرد إلاّ وهو مما في قدرة الله فهو يعطيه وهو يمنعه .

واليَد على هذا الوجه استعارة للقدرة والتصرف كما في قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها

بأيد ﴾ [الذاريات : 47] وقول العرب : مَا لي بهذا الأمر يَدَان .

ويجوز أن تكون الباء للسببية ، ويكون ﴿ المُلكُ ﴾ اسماً فيأتي في معناه ما قرر في الوجه المتقدم .

وتقديم المسند وهو ﴿ بِيَدِهِ ﴾ على المسند إليه لإفادة الاختصاص ، أي الملك بيده لا بيد غيره .

وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بمُلك غيره ، ولا بما يتراءى من إعطاء الخلفاء والملوك الأصقاع للأمراء والسلاطين وولاة العهد لأن كل ذلك مُلك غير تام لأنه لا يعمّ المملوكات كلها ، ولأنه معرض للزوال ، ومُلك الله هو الملك الحقيقي ، قال : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ [طه : 114] .

فالناس يتوهمون أمثال ذلك مُلكاً وليس كما يتوهمون .

واليد : تمثيل بأن شبهت الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد ؛ بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك تشبيه معقول بمحسوس في المركبات .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء في ﴾ [سورة آل عمران : 26] .

و ﴿ المُلك ﴾ بضم الميم : اسم لأكمل أحوال المِلك بكسر الميم ، والمِلك بالكسر جنس للمُلك بالضم ، وفسر المُلك المضموم بضبط الشيء المتصرَّف فيه بالحُكم ، وهو تفسير قاصر ، وأرى أن يُفسر بأنه تصرف في طائفة من الناس ووطنهم تصرفاً كاملاً بتدبير ورعاية ، فكل مُلك (بالضم) مِلك (بالكسر) وليس كل مِلك مُلكاً .

وقد تقدم في قوله : ﴿ مَلِك يوم الدين في ﴾ [الفاتحة : 4] وعند قوله : ﴿ أنّى يكون له الملك علينا في ﴾ [سورة البقرة : 247] ، وجملة : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ بِيده المُلك ﴾ التي هي صلة الموصول وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة ، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات ، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات ، فيكون قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ مفيداً معنى آخر غير ما أفاده قوله : ﴿ بيده الملك ﴾ تفادياً من أن يكون معناه تأكيداً لمعنى ﴿ بيده الملك ﴾ وتكون هذه الجملة تتميماً للصلة .

وفي معنى صلة ثانية ثمّ عطفت ولم يكرر فيها اسم موصول بخلاف قوله : ﴿ الذي خلق الموت ﴾ [الملك : 2] وقوله : ﴿ الذي خلق سبع سموات ﴾ [الملك : 3] .

و ﴿ شيء ﴾ ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، وهذا هو الإطلاق الأصلي في اللغة .

وقد يطلق (الشيء) على خصوص الموجود بحسب دلالة القرائن والمقامات .

وأما التزام الأشاعرة : أن الشيء لا يطلق إلاّ على الموجود فهو التزام ما لا يلزم دعا إليه سد باب الحجاج مع المعتزلة في أن الوجود عين الموجود أو زائد على الموجود ، فتفرعت عليه مسألة : أن المعدوم شيء عند جمهور المعتزلة وأن الشيء لا يطلق إلاّ على الموجود عند الأشعري وبعض المعتزلة وهي مسألة لا طائل تحتها ، والخلاف فيها لفظي ، والحق أنها مبنية على الاصطلاح في مسائل علم الكلام لا على تحقيق المعنى في اللغة .

(125/774)

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ على كل شيء قدير ﴾ للاهتمام بما فيه من التعميم ، ولإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم مع اعترافهم بأنها لا تقدر على خلق السموات والأرض ولا على الإحياء والإماتة .

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

صفة ل ﴿ الذي بيده الملك ﴾ [الملك : 1] فلما شمل قوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الملك : 1] تعلق القدرة بالموجود والمعدوم أتبع بوصفه تعالى بالتصرف الذي منه خلق المخلوقات وأعراضِها لأن الخلق أعظم تعلق القدرةِ بالمقدور لدلالته على صفة

القدرة وعلى صفة العلم .

وأوثر بالذكر من المخلوقات الموتُ والحياة لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه ، وهو المقصود بالمخاطبة بالشرائع والمواعظ ، فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء ، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده ثم إعطائه الحياة ليستكمل وجود نوعه .

فليس ذكر خلق الموت والحياة تفصيلاً لمعنى المُلك بل هو وصف مستقل .

والاقتصار على خلق الموت والحياة لأنهما حالتان هما مظهرا تعلق القدرة بالمقدور في الذاتِ والعرض لأن الموت والحياة عرضان والإنسان معروض لهما .

والعَرَض لا يقوم بنفسه فلما ذُكر خلق العَرَض علم من ذكره خَلْق معروضه بدلالة الاقتضاء .

وأوثر ذكر الموت والحياةِ لما يدلان عليه من العبرة بتداول العرضين المتضادَيْن على معروض واحد ، وللدلالة على كمال صنع الصانع ، فالموت والحياة عرضان يعرضان للموجود من الحيوان ، والموتُ يُعِد الموجود للفناء والحياة تُعِد الموجود للعمل للبقاء مدة .

وهما عند المتكلمين من الأعراض المختصة بالحي ، وعند الحكماء من مقولة الكيف ومن قسم الكيفيات النفسانية منه .

فالحياة : قوة تَتْبَع اعتدالَ المزاج النوعي لتَفيضَ منها سائر القوى .

و ﴿ الموت ﴾ : كيفية عدمية هو عدم الحياة عما شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت ، أي زوال الحياة عن الحي ، فبين الحياة والموت تقابُل العَدَم والمَلَكة .

ومعنى خلق الحياة : خلق الحي لأن قوام الحي هو الحياة ، ففي خَلقه خلقُ ما به قوامه ، وأما معنى ﴿ خلق الموت ﴾ فإيجاد أسبابه وإلاّ فإن الموت عدم لا يتعلق به الخلق بالمعنى الحقيقي ، ولكنه لما كان عرضاً للمخلوق عبّر عن حصوله بالخَلق تبعاً كما في قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تَعْمَلون ﴾ [الصافات : 96] .

وأيضاً لأن الموت تصرف في الموجود القادر الذي من شأنه أن يدفع عن نفسه ما يكرهه .

والموت مكروه لكل حي فكانت الإماتة مظهراً عظيماً من مظاهر القدرة لأن فيها تجلي وصْف القاهِر .

فأما الإِحياء فهو من مظاهر وصف القادر ولكن مع وصفه المنعم .

فمعنى القدرة في الإِماتة أظهر وأقوى لأن القهر ضرب من القدرة .

ومعنى القدرة في الإِحياء خفي بسبب أمرين بدقة الصنع وذلك من آثار صفة العلم ، وبنعمة كمال الجنس وذلك من آثار صفة الإِنعام .

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [سورة البقرة : 28] .

وفي ذكرهما تخلص إلى ما يترتب عليهما من الآثار التي أعظمها العملُ في الحياة والجزاءُ عليه بعد الموت ، وذلك ما تضمنه قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ فإن معنى الابتلاء مشعر بترتب أثر له وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة جعل هذين الناموسين البديعين في الحيوان لتظهر حكمة خلق الإنسان ويُفضِيا به إلى الوجود الخالد ، كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عَبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] .

وهذا التعليل من قبيل الإِدماج .

وفيه استدلال على الوحدانية بدلالة في أنفسهم قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

(127/774)

والمعنى : أنه خلق الموت والحياة ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات ، ثم أمواتاً يَخلُصون إلى يوم الجزاء فيجزون على أعمالهم بما يناسبها .

فالتعريف في ﴿ الموتَ ﴾ و ﴿ والحياة ﴾ تعريف الجنس .

وفي الكلام تقديرُ : هو الذي خلق الموت والحياة لتحيَوا فيبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وتموتوا فتُجزوا على حسب تلك البلوى ، ولكون هذا هو المقصود الأهم من هذا الكلام قدم الموت على الحياة .

وجملة ﴿ ليبلوكم ﴾ إلى آخرها معترضة بين الموصولين .

واللام في ﴿ ليبلوكم ﴾ لام التعليل ، أي في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم .

الخ .

وتعليل فعل بعلةٍ لا يقتضي انحصار علله في العلة المذكورة فإن الفعل الواحد تكون له علل متعددة فيذكر منها ما يستدعيه المقامَ ، فقوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ تعليلٌ لفعل ﴿ خَلَقَ ﴾ باعتبار المعطوف على مفعوله ، وهو ﴿ والحياة ﴾ لأن حياة الإِنسان حياة خاصة تصحح للموصوف بمن قامت به الإدراك الخاص الذي يندفع به إلى العمل باختياره ، وذلك العمل هو الذي يوصف بالحسن والقبح ، وهو ما دل عليه بالمنطوق والمفهوم قوله تعالى : ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ أي وأيكم أقبح عملاً .

ولذلك فذكر خلق الموت إتمام للاستدلال على دقيق الصنع الإلهي وهو المسوق له الكلام ، وذِكر خلق الحياة إدماج للتذكير ، وهو من أغراض السورة .

ولا أشك في أن بناء هذا العالم على ناموس الموت والحياة له حكمة عظيمة يعسر على

الأفهام الاطلاع عليها .

والبلوى : الاختبار وهي هنا مستعارة للعلم ، أي ليعلم علم ظَهورٍ أو مستعارةٌ لإظهار الأمر الخفي ، فجعل إظهار الشيء الخفي شبيهاً بالاختبار .

وجملة ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ مرتبطة بـ ﴿ يبلوكم ﴾ .

و(أيٌّ) اسم استفهام ورفعه يعيّن أنه مبتدأ وأنه غير معمول للفظٍ قبله فوجب بيان موقع هذه الجملة ، وفيه وجهان:

(128/774)

أحدهما قول الفراء والزجاج والزمخشري في تفسير أول سورة هود أن جملة الاستفهام سادة مَسدَّ المفعول الثاني ، وأن فعل ﴿ يبلوكم ﴾ المضمن معنى (يَعْلَمكم) معلق عن العمل في المفعول الثاني ، وليس وجود المفعول الأول مانعاً من تعليق الفعل عن العمل في المفعول الثاني وإن لم يكن كثيراً في الكلام .

الوجه الثاني أن تكون الجملة واقعة في محل المفعول الثاني ﴿ ليبلوكم ﴾ أي تؤول الجملة بمعنى مفردٍ تقديره : ليعلمكم أهذا الفريق أحسنُ عملاً أم الفريقُ الآخر .

وهذا مختار صاحب "الكشاف" في تفسير هذه الآية .

ومبناه على أن تعليق أفعال العلم عن العمل لا يستقيم إلاّ إذا لم يذكر للفعل مفعول فإذا ذكر مفعول لم يصح تعليق الفعل عن المفعول الثاني ، وحاصله : أن التقدير ليَعلم الذين يقال في حقهم ﴿ أيهم أحسن عملاً ﴾ على نحو قوله تعالى:

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشدُّ على الرحمان عتياً ﴾ [مريم : 69] أي : لنَنْزِعَنّ الذين يقال فيهم : أيهم أشد .

وجوز صاحب "التقريب" أن يكون التقدير : ليعلم جواب سؤال سائلٍ : أيكُم أحسنُ عملاً .

قلت : ولك أن تجعل جملة : ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ مستأنفة وتجعلَ الوقف على قوله : ﴿ ليبلوكم ﴾ ويكون الاستفهام مستعملاً في التحْضيض على حُسن العمل كما هو في قول طرفة:

إذا القوم قالوا مَن فتًى خلتُ أنني . . .

عُنيت فلم أكسل ولَم أتبلَّد

فجعل الاستفهام تحضيضاً .

و﴿ أحسن ﴾ تفضيل ، أي أحسن عملاً من غيره ، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها ، فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوى لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأوْلى لأن إحصاءها والإِحاطة بها أولى في الجزاء لما يترتب

عليها من الاجتراء على الشارع ، ومن الفساد في النفس ، وفي نظام العالم ، وذلك أولى بالعقاب عليه ففي قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ إيجاز .

(129/774)

وجملة : ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ تذييل لجملة : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ إشارة إلى أن صفاته تعالى تقتضي تعلقاً بمتعلقاتها لئلا تكون معطلة في بعض الأحوال والأزمان فيفضي ذلك إلى نقائضها ، فأما ﴿ العزيز ﴾ فهو الغالب الذي لا يعجز عن شيء ، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ كما تقدم آنفاً ، أي ليجزيكم جزاء العزيز ، فعلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة .

وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ .

وأما ﴿ الغفور ﴾ فهو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن فلتاتهم فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه ، قال تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [طه : 82] فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين .

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ

صفة ثانية للذي بيده الملك ، أعقب التذكيرُ بتصرف الله بخلق الإنسان وأهم أعراضه

بذكر خلق أعظم الموجودات غير الإِنسان وهي السماوات ، ومفيدةٌ وصفاً من عظيم صفات الأفعال الإلهية ، ولذلك أعيد فيها اسم الموصول لتكون الجُمل الثلاث جارية على طريقة واحدة .

والسماوات تكرر ذكرها في القرآن ، والظاهر أن المراد بها الكواكب التي هي مجموع النظام الشمسي ما عدا الأرض ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ [سورة البقرة : 29] فإنها هي المشاهدة بأعين المخاطبين ، فالاستدلال بها استدلال بالمحسوس .

والطباق يجوز أن يكون مصدر طابق وُصفت به السماوات للمبالغة ، أي شديدة المطابقة ، أي مناسبة بعضها لبعض في النظام .

ويجوز أن تكون ﴿ طِباقاً ﴾ جمع طَبَق ، والطبَق المساوي في حالةٍ ما ، ومنه قولهم في المثَل : "وافَقَ شَنٌّ طبَقَه" .

(130/774)

والمعنى : أنها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق ، أو المعنى : أنها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرّك المنتظم في أنفسها وفي تحرك كل واحدة منها بالنسبة

إلى تحرك بقيتها بحيث لا تَرْتَطِمُ ولا يتداخل سيرها .

وليس في قوله : ﴿ طباقاً ﴾ ما يقتضي أن بعضها مظروف لبعض لأن ذلك ليس من مفاد مادة الطباق (فلا تَكُن طَبَاقاء) .

وجاءت جملة ﴿ ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت ﴾ تقريراً لقوله : ﴿ خلق سبع سموات طباقاً ﴾ .

فإن نفي التفاوت يحقق معنى التطابق ، أي التماثل .

والمعنى : ما ترى في خلق الله السماوات تفاوتاً .

وأصل الكلام : ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمان من تفاوت فعبر بخلق الرحمان لتكون الجملة تذييلاً لمضمون جملة : ﴿ خلق سبع سماوات طباقاً ﴾ ، لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السماوات وغيرها ، أي كانت السماوات طباقاً لأنها من خلق الرحمان ، وليس فيما خلق الرحمان من تفاوت ومن ذلك نظام السماوات .

والتفاوت بوزن التفاعل : شدة الفَوت ، والفوت : البعد ، وليست صيغة التفاعل فيه لحصول فعل من جانبين ولكنها مفيدة للمبالغة .

ويقال : تفوَّت الأمر أيضاً ، وقيل : إن تفوَّت ، بمعنى حصل فيه عيب .

وقرأ الجمهور ﴿ من تفاوت ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ من تفوُّت ﴾ بتشديد الواو دون ألف بعد الفاء ، وهي

مرسومة في المصحف بدون ألف كما هو كثير في رسم الفتحات المشبعة .

وهو هنا مستعار للتخالف وانعدام التناسق لأن عدم المناسبة يشبه البعد بين الشيئين

تشبيه معقول بمحسوس .

والخطاب لغير معين ، أي لا تَرى أيها الرائي تفاوتاً .

(131/774)

والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب ، وذلك مُمكن لكل من يبصر ، قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ﴾ [ق : 6] فكأنه قال : ما تَرون في خلق الرحمان من تفاوت ، فيجوز أن يكون ﴿ خلق الرحمان ﴾ بمعنى المفعول كما في قوله تعالى:

﴿ هذا خَلْق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ [لقمان : 11] ، ويراد منه السماوات ، والمعنى : ما ترى في السماوات من تفاوت ، فيكون العدول عن الضمير لتتأتى الإضافة إلى اسمه ﴿ الرحمان ﴾ المشعر بأن تلك المخلوقات فيها رحمة بالناس كما سيأتي .

ويجوز أن يكون ﴿ خلق ﴾ مصدراً فيشمل خلق السماوات وخلقَ غيرها فإن صنع الله رحمة للناس لو استقاموا كما صنع لهم وأوصاهم ، فتفيد هذه الجملة مفاد التذييل في أثناء الكلام على وجه الاعتراض ولا يكون إظهاراً في مقام الإِضمار .

والتعبير بوصف ﴿ الرحمان ﴾ دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم ، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سبباً لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق ، قال تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ [الأنعام : 97] وقال : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق ﴾ [يونس : 5] .

وأيضاً في ذلك الوصف تورك على المشركين إذْ أنكروا اسمه تعالى : ﴿ الرحمان ﴾ ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ [الفرقان : 60] .

وفرع عليه قوله : ﴿ فارجع البصر ﴾ الخ .

والتفريع للتسبب ، أي انتفاء رؤية التفاوت ، جعل سبباً للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوماً عن يقين دون تقليد للمخبِر .

ورَجْع البصر : تكريره والرجْع : العود إلى الموضع الذي يجاء منه ، وفِعل : رَجع يكون قاصراً ومتعدياً إلى مفعول بمعنى : أرْجَعَ ، فأرجع هنا فعل أمر من رجع المتعدي .

والرَّجع يقتضي سبق حلول بالموضع ، فالمعنى : أعِد النظر ، وهو النظر الذي دل عليه قوله : ﴿ ما تَرى في خلق الرحمان من تفاوت ﴾ أي أعد رؤية السماوات وأنها لا تفاوت فيها إعادة تحقيق وتبصر ، كما يقال : أعِدْ نَظَراً .

والخطاب في قوله : ﴿ ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت ﴾ وقوله : ﴿ فارجع البصر ﴾ الخ .

خطاب لغير معين .

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال .

والبصر مستعمل في حقيقته .

والمراد به البصر المصحوب بالتفكر والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها .

وهذا يتصل بمسألة إيمان المقلد وما اختلف فيه من الرواية عن الشيخ أبي الحسن الأشعري .

والاستفهام في ﴿ هل ترى من فطور ﴾ تقريري ووقع بـ ﴿ هل ﴾ لأن ﴿ هل ﴾ تفيد

تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى (قد) في الاستفهام ، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل ، أي لا تقتنع بنظرة ونظرتين ، فتقول : لم أجد فُطوراً ، بل كَرّر النظر وعاوده باحثاً عن مصادفة فطور لعلك تجده .

والفطور : جمع فَطْر بفتح الفاء وسكون الطاء ، وهو الشَق والصدع ، أي لا يسعك إلاّ أن تعترف بانتفاء الفطور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقاً ، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامِه الشمسي ، قال تعالى:

﴿ وفُتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] وقال : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] .

(133/774)

وعطْف ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ دال على التراخي الرتبي كما هو شأن ﴿ ثم ﴾ في عطف الجمل ، فإن مضمون الجملة المعطوفة بـ ﴿ ثم ﴾ هنا أهمّ وأدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها لأن إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت في الخَلق رسوخاً ويقيناً .

و﴿ كرتين ﴾ تثنية كرّة وهي المرة وعبر عنها هنا بالكَرَّة مشتقة من الكر وهو العود لأنها عَود إلى شيء بعد الانفصال عنه ككَرة المقاتل يحمِل على العدوّ بعد أن يفر فراراً مصنوعاً .

وإيثار لفظ كرتين في هذه الآية دون مرادفة نحو مرتين وتارتين لأن كلمة كرة لم يغلب إطلاقها على عدد الاثنين ، فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد اثنين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز ، ألا ترى أن مقام إرادة عدد الزوج كان مقتضياً تثنية مرة في قوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ [البقرة : 229] لأنه أظهر في إرادة العدد إذ لفظ مرة أكثر تداولاً .

وتثنية ﴿ كرتين ﴾ ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلق غرض بخصوص هذا العدد ، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير فإن من استعمالات صيغة التثنية في الكلام أن يراد بها التكرير وذلك كما في قولهم : "لَبَّيك وسَعديك" يريدون تلبيات كثيرة وإسعاداً كثيراً ، وقولهم : دَواليك ، ومنه المثل "دُهْدُرَّيْن ، سَعْدُ القَين" (الدُّهْدُرُّ الباطل ، أي باطلاً على باطل ، أي أتيتَ يا سعدُ القَيْن دهدرين وهو تثنية دُهْدرّ الدال المهملة في أوله مضمومة فهاء ساكنة فدال مهملة مضمومة فراء مشددة) وأصله كلمة فارسية نقلها العرب وجعلوها بمعنى الباطل .

وسبب النقل مختلف فيه وتثنيته مكنّى بها عن مضاعفة الباطل ، وكانوا يقولون هذا المثل عند تكذيب الرجل صاحبَه وأما سعد القين فهو اسم رجل كان قيناً وكان يمرّ على الأحياء لصقل سيوفهم وإصلاحِ أسلحتهم فكان يُشيع أنه راحل غَداً ليُسرع أهل الحي بجلب ما يحتاج للإِصلاح فإذا أتوه بها أقام ولم يرحل فضُرب به المثل في الكذب فكان هذا المثل جامعاً لمثلين ؛ وقد ذكره الزمخشري في "المستقصى" ، والميداني في "مجمع الأمثال" وأطال .

وأصل استعمال التثنية في معنى التكرير أنهم اختصروا بالتثنية تعداد ذكر الاسم تعداداً مشيراً إلى التكثير .

وقريب من هذا القبيل قولهم : وقَع كذَا غيرَ مرة ، أي مرات عديدة .

فمعنى ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ عاودِ التأمّلَ في خلق السماوات وغيرها غير مرة والانقلاب : الرجوع يقال : انقلب إلى أهله ، أي رجع إلى منزله قال تعالى : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ [المطففين : 31] وإيثار فعل : ﴿ ينقلب ﴾ هنا دون : يرجع ، لئلا يلتبس بفعل ﴿ ارجع ﴾ المذكور قبله .

وهذا من خصائص الإِعجاز نظير إيثار كلمة ﴿ كرتين ﴾ كما ذكرناه آنفاً .

والخاسىء : الخائب ، أي الذي لم يجد ما يطلبه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال اخسأوا

فيها ﴾ [سورة المؤمنين : 108] .

والحَسير : الكليل .

وهو كلل ناشىء عن قوة التأمل والتحديق مع التكرير ، أي يرجع البصر غير واجد ما أُغْري بالحرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل والفحص حتى عيي وكلّ ، أي لا تجدْ بعد اللَّأْي فطوراً في خلق الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(135/774)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى طبق)

الطَبَق : غِطاءُ كلّ شىء ، والذى يؤكل عليه ، ويُنقل فيه الطعام ونحوه ، والجمع : أَطْبَاق ، وأَطبِقَه .

وطَبّقه ، وأَطبقه فتطبَّق وانطبق .

قال الشاعر :

*ما من صديقٍ وإِنْ تَمَّت صداقته * يومًا بأَنجحَ للحاجات من طَبَقِ*

*إذا تلثَّم بالمِنديل منطلقاً * لم يخش صَوْلَةَ بوّابٍ ولا غَلَق*

*لا تُكْذِبَنَّ فإنَّ الناس قد خُلِقُوا * عن رغبةٍ يُكرمون النَّاس أَو فَرَقِ*

والطَّبَق أَيضاً من كل شيء : ما ساواه .

والجمع : أَطباق .

وقد طابقه مطابقة وطِبَاقاً .

وهي – أَعني المطابقة – من الأَسماء المتضايفة ، وهو أَن يجعل الشيء فوق شيء آخر بقَدْره .

ومنه مطابقة النعل ، قال الشاعر :

*إذا لاوذ الظلّ القصير بخُفَّه * وكان طباقَ الخُفِّ أَو قَلّ زائدا*

ثم يستعمل الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة ، وفيما يوافق غيره تارة ، كسائر الأَسماء الموضوعة لمعنيين ثم يستعمل في أَحدهما دون الآخر ، كالكأس ، والرواية ونحوها .

قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ ، أَي طبقة فوق طبقة ، أَو طبقا فوق طبق .

وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ ، أَي / تترقَّى منزلاً عن منزل .

وذلك إشارة إلى أَحوال الإنسان من ترقّيه في أَحوال شتَّى في الدنيا ، نحو ما أَشار إليه

بقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ، وَأَحوالٍ شتَّى فى الآخرة : من النشور ، والبعث ، والحساب ، والصّراط .

إلى حين المستقَرّ فى إحدى الدّارين .

وهذا طِباقه ، وطِبْقُه ، وطَبيقه ، وَطَبَقُهُ ، أَى مطابقه .

وطبَّق العنق : أَصاب المَفْصِلَ فأَبانها ، ومنه سيف مطبِّق .

ومطر وجراد مُطبِق : عامّ .

ومضى طَبَق بعد طبَق : عالَم من النَّاس بعد عالَم ، قال العبّاس رضى الله عنه :

*تُنقل من صالِب إلى رَحِمٍ * إذا مضَى عالَم بدا طَبَقُ*

والدّهر أَطباق : حالات .

(136/774)

وفلان على طبقات شتَّى ، والنَّاس طبقات : منازل ودرجات بعضها أَرفع من بعض .

وأَطبقوا على الأَمر : أَجمعوا .

وبناتُ طَبَق : الدّواهى ، وأَصلها الحيّة لشبهها بالطبق إذا استدارت ، أَوْ لأَنَّها تمسَك تحت طَبَق السّفَط ، أَوْ لإطباقها على الملسوع .

وجنون مُطْبِق ، وحُمَّى مُطْبِقة ، وسَنَة مُطْبِقة ، من أَطبقه : غطَّاه .

وأَطْبِق شفتيك : اسكت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 496 .

498 ﴾

(137/774)

من الإعجاز المعرفي في القرآن الكريم والسنة

علامة الصانع في صنعه

بقلم الدكتور زيد الغزاوي

دكتوراه في الهندسة الطبية

مقدمة :

يبين الله عز وجل آياته للناس في أنفسهم وفيما حولهم ليكونوا على يقين به وعلى يقين أيضا بصدق القرآن الكريم ورسالة الله للناس فيه، كما يقول الحق في سورة الرعد (آية 2) (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) .

يبين هذا الموضوع آية عظيمة من آيات المولى عز وجل تبين بالدليل العلمي أن الله هو خالق كل شيء وأنه لا يوجد شريك له في ملكوته .

علامة الصانع في صنعه :

يقول الحق في سورة النمل (آية 88) (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) . فإذا تفكرنا في هذه الآية الكريمة نجد بأن الله يصف الجبال وهي مخلوق من مخلوقاته بعملية صنع (صُنْعَ اللَّهِ) ، بحيث أن خلق الله عملية تصنيع لمركبات ثم يؤلف الله بينها لتصبح خلقاً .

وكل صانع بحاجة إلى علامة تميز صنعه ومنتجاته عن صنع ومنتجات غيره، وبالمثل ولله المثل الأعلى فإن الله وضع علامة في خلقه تبين بالدليل العلمي بأنه خالق كل شيء وأن جميع الذي نراه من حولنا هو من صنع الله عز وجل .

(138/774)

فالسؤال الآن هو عن ماهية هذا العلامة ؟ يمكن معرفة الإجابة على هذا السؤال من التفكر في الآية رقم 21 في سورة الأنبياء (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) . حيث يبين الله في هذه الآية

الكريمة أنه جعل من الماء كل شيء حي وهذا يعني بأن المولى صمم خلقه بالكامل بنفس تصميم الماء . فإذا علامة الله في صنعه يجب أن تكون موجودة في الماء وإذا درسنا تصميم الله للماء نجد بأنه رتب الذرات المؤلفة لنسيج الماء بترتيب سداسي (أي على هيئة شكل هندسي له ستة أضلاع) . وهذا الشكل السداسي هو علامة الله (الصانع) في صنعه . وهناك آية أخرى من الله في كون الشكل السداسي علامة الله في خلقه، حيث يقول الحق في آية 7 في سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) . بحيث يظهر الله رقم ستة الذي استخدمه في خلق السماوات والأرض في علامته في خلقه بحيث يبين الله بالدليل العلمي بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام باختياره للشكل السداسي الذي يتألف من ستة أضلاع كعلامته في خلقه .

المعرفة التي يمكن تعلمها من الشكل السداسي في خلق الرحمن :

التركيب الداخلي للحاء للشجر تركيب سداسي

يريد الله للإنسان المؤمن أن يكون المعلم للآخرين وليس المتلقي الذليل، حيث يؤكد الله ذلك في الكلمات الأواخر من آية 282 في سورة البقرة (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . ويعلم الله الإنسان المؤمن من لدنه علماً عندما يتفكر في هذا الشكل السداسي الذي استخدمه الله لتصميم خلقه .

فعلى سبيل المثال استخدم الله الشكل السداسي لترتيب مركبات العظم البشري بحيث رتب الله الصفائح الكلسية في العظم البشري على هيئة شكل سداسي له ستة أضلاع والذي يضمن بأن يكون العظم البشري خفيف الوزن، قوي، ومتزن . فإذاً يعلمنا الله بأن استخدام الشكل السداسي لتصميم المنشآت يضمن جميع هذه الميزات في التصميم ويريد الله للمؤمن أن يعلم الناس هذه المعارف ويعلي كلمته .

و مثال آخر لاستخدام الله للشكل السداسي يكمن في تصميم عيون الحشرات، حيث نجد بأن الخلايا الضوئية التي يسقط عليها الضوء في عيون الحشرات قد رتبها المولى بترتيب سداسي والذي يضمن أعلى حساسية لالتقاط فوتونات الضوء (أي وحدات الضوء الأساسية) الساقطة على العين . فإذاً يعلمنا المولى بأن تصميم المجسات الضوئية يجب أن يتم بترتيب سداسي للحصول على أعلى نقاوة في التصميم .

لاحظ الشكل السداسي يكمن في تصميم عيون الحشرات

ومثال جميل آخر على علامة الله في خلقه تكمن في تصميم المولى لأجسام الملائكة، حيث ذكر الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة خلقت من نور وإذا تفكرنا في هذا القول نجد بأن الضوء يتألف من فوتونات وهذه الفوتونات رتبها الله بترتيب سداسي في الضوء . فإذا نجد علامة الله في خلقه لأجسام الملائكة .

(140/774)

و نلاحظ بأن المولى وضع الشكل السداسي كعلامة في مخلوقاته تبين بالدليل العلمي بأن الله لا شريك له في ملكوته وأن جميع ما نراه حولنا هو من صنع الله، لأنه لو تعددت الآلهة لكان هناك علامات وفروقات في طرق الخلق ولكن بما أن طريقة الخلق واحدة أي السنة واحدة في الخلق إذا الخالق واحد أحد .

لاحظ أن شكل جزيئات الماء سداسي

لاحظ أن بيوت النحل لها شكل سداسي

أهمية آية علامة الصانع في صنعه :

يمكن تلخيص جوانب أهمية الآية المبينة في هذه المقالة بالنقاط التالية :

1 . آية تبين بالدليل العلمي بأن المولى خلق كل خلقه بنفس تصميم الماء وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام مما يبين بالدليل العلمي صدق كلام الله في القرآن الكريم .

2 . تعليم الله للمؤمنين معرفة في مجال هندسة المنشآت والرياضيات في استخدام المولى للشكل السداسي في أجسامهم وفي الخلق ليكونوا المعلمين للناس، تصديقاً لقول الحق في الآيات (20-21) من سورة الذاريات (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

3 . آية دالة على وحدانية الله عز وجل، حيث نجد علامة الله (أي الشكل السداسي) في جميع المخلوقات من بشر، ملائكة، جبال، حشرات، وغيرها مما يثبت بالدليل العلمي بأن الخالق هو واحد ولا يوجد شريك له في ملكوته . لأنه لو كان هناك آله أخرى لوجدنا علامات وطرق مختلفة في الخلق .

استاذ الهندسة الطبية في الجامعة الهاشمية

www.quran-miracle.com

.

.

.

0-ثلاثة أسرار حول الكعبة

تختزن الكعبة في داخلها وحولها أسرار لا يوجد مثلها في الأرض . لا يزيد حجمها عن حجرة مكعبة، ما أن تبلغها حتى يخر القلب خاشعاً متضرعاً ، يلفه السكون، فتكاد لا تسمع خفقاته . تتحول العين إلى نبع للدموع فأنت حينئذ في أحب مكان إلى الله ينزل إليه سبعون ألفا من الملائكة يطوفون حولها كل يوم وليلة .

(141/774)

كبير سدنة بيت الله الحرام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الشيبي هو الذي يوجد لديه مفتاح الكعبة، يقول ابنه نزار الشيبي يقال عنا أيضا (الحجبي) أي الذي يحجب البيت، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون للكعبة المشرفة سدنة، أي من هم مسؤولون عنها ، وأن يكون لها مفتاح وقد تسلمناه نحن آل الشيبي، وتأتي السدانة بعدة معان في معجم اللغة العربية مثل الأمين والخادم والحاجب . . الخ .

وسدانة الكعبة ترجع إلى تاريخ بنائها وتعني القيام بجميع أمورها من فتحها وأغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما

يتعلق بذلك، فقد كان يقوم بأمر السدانة إسماعيل عليه السلام ثم من بعده ذريته، إلى أن كان عهد قصي بن كلاب فأخذ قصي سدانة الكعبة من خزاعة التي كانت قد استولت على السدانة بالقوة مدة ليست بالطويلة وهي قبيلة هاجرت من اليمن بعد انفجار سد مأرب واتجهت إلى مكة وأقامت بها .

وقد ولد لقصي عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي، وبعد وفاة قصي انحصرت السدانة في عبد الدار وأبنائه حتى كان منهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة .

وينتهي نسب سدانة الكعبة المشرفة الحاليين إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وقد اسلم عام الفتح على أصح الروايات وله صحبة ورواية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(142/774)

وجميع آل الشيبي الموجودون في هذا العصر هم من أبناء الشيخ محمد بن زين العابدين رحمه الله تعالى، وينقسمون إلى أبناء الشيخ عبد القادر بن على وهم عائلة عبد الله، وحسن آل الشيبي، وأبناء عبد الرحمن بن عبد الله الشيبي، وهم محل احترام وإكرام كما دلت على ذلك الأخبار الواردة في حقهم، ولا يزالون في موضع الإكرام والرعاية عند عموم حكام

المسلمين وبالأخص عند كل من تولى خدمة الحرمين الشريفين، ولا يزال وجودهم من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي اخبر أمته بها بقوله صلى الله عليه وسلم : (خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم) .

قصة انتقال مفتاح الكعبة

نزار الشيبي وهو من سدنة بيت الله الحرام يقول : آلت إلينا السدانة منذ أيام جدنا (قصي) وانتقلت بين أبناء ابنه عبد الدار الذي كان له خمسة أولاد ، وكان لا يخرج في رحلة الشتاء والصيف فيعايره إخوانه بسبب ذلك، فسمعهم أبوه قصي فقال : والله لأشرفنك عليهم، فأعطاه سقاية الكعبة والسدانة والرئاسة والندوة والرفادة ولواء الحرب، وعندما جاء إخوانه، قالوا له انك أخذت كل الشرف، وما تركت لنا شيئا ، فقال : خذوها كلها إلا السدانة والرئاسة حيث كان هو رئيس قريش .

ويقول إن الكعبة المشرفة تفتح مرتين في السنة لغسلها ، ويسمح بدخولها حينئذ لبعض كبار ضيوف الدولة وبعض العلماء والمشايخ، وأيضا القائمون بغسلها .

صورة لمفتاح الكعبة المشرفة

ويضيف : تعلق في داخل الكعبة الهدايا التي قدمت لها ، وبعض الموجودات بداخلها ربما تعود إلى ما بعد أن ضربها الحجاج بن يوسف الثقفي بالمنجنيق، يعني تقريبا تعود إلى

1200 سنة، لكن هناك بلا شك أشياء تعود إلى عصور لاحقة، وأشياء أخرى حديثة.

ثلاثة أسرار حول الكعبة

(143/774)

من أسرار الكعبة – كما يقول الكاتب الصحفي السعودي عمر المضواحي المهتم بالكتابة عن تاريخ الأماكن المقدسة – أنها صرة الأرض وموصولة بالبيت المعمور في السماء السابعة، وأول بيت وضع للناس بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وليس هناك في الكون بقعة أكثر مهابة وقدسية من هذه الحجرة المكعبة.

لم تعبد في تاريخها من دون الله قط، فقد كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان حولها ولم يخصوها أبدا بالعبادة، حج إليها كل الأنبياء، ومجرد النظر إليها عبادة تعادل أجر عابد في غير مكة.

يضيف المضواحي متحدثا عن ما سجله قلمه عن هذه البقعة التي توصف بأنها قدس الأقداس الإسلامية: حول الكعبة ثلاثة أسرار لا يوجد مثيل لها في الأرض، الحجر الأسود, ومقام إبراهيم, وهما ياقوتاتان من يواقيت الجنة, وبئر زمزم وهو نهر من أنهار الجنة

ينبع عينه المتدفق من تحت أعتاب الحجر الأسود .

على يسار باب الكعبة المهيب وبين الملتزم والحجر الأسود إلى الداخل منها يقع مكان (حطيم السيئات) حيث يتم فيه التضرع بالدعوات، والى اليمين من باب الكعبة على بعد أقل من مترين يرتفع صندوق من الرخام النادر تحفظ فيه أدوات خدمة البيت وحوائج غسيل الكعبة من دهون الطيب كالعود والورد والعنبر ولفائف من قماش قطني معد للغسيل .

في منتصف الكعبة ترتفع ثلاثة أعمدة محاطة بأفخر أنواع الخشب المزخرف, وهي المعروفة بأعمدة الصحابي عبد الله ابن الزبير حين رأى في زمن حكمه مكة أن يسند سقف الكعبة بها خشية انهياره عندما قام بترميم بناء الكعبة .

(144/774)

في الجهة الشمالية من الكعبة، على يمين الداخل باب صغير يعرف بباب "التوبة" وهو آية في الصنعة والإتقان، يمتاز بمقاساته العادية وهو بنسبة قياس واحد إلى ثمانية مقارنة بباب الكعبة الخارجي الوافر البهاء والضخامة، ويؤدي باب التوبة المصنوع من أندر قطع الأخشاب المكسوة بصفائح الذهب والفضة المشغولة، إلى درج حلزوني من الزجاج

السميك يصل إلى سطح الكعبة .

وفي الجدار الغربي المواجه لباب الكعبة علقت تسعة ألواح أثرية من الرخام منقوش عليها أسماء الولاة والخلفاء تؤرخ لأعمال تجديد وترميم الكعبة, وكلها مكتوبة بعد القرن السادس للهجرة .

وفي الحائط الشرقي وبين باب الكعبة المشرفة وباب التوبة وضعت وثيقة تؤرخ لقيام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (رحمه الله) بشرف ترميم وتجديد الكعبة المشرفة الذي دشنه خادم الحرمين الملك عبد الله بن عبد العزيز في عام 1419هـ وكان حينها وليا للعهد . وكان آخر ترميم شامل للكعبة في زمن السلطان مراد الرابع من سلاطين آل عثمان سنة 1040 من الهجرة النبوية .

جوانب الكعبة الأربعة محاطة بالرخام الأبيض، بارتفاع نحو مترين وبرخام ملون ومزركش بنقوش هندسية إسلامية . وما يعلوها مغطى بستارة خاصة من الحرير الأحمر الوردي مشغولة بالنسيج الأبيض على هيئة الشهادتين وبعض أسماء الله الحسنى على شكل رقمي ثمانية وسبعة متكررة بخط الثلث العربي البديع، وهي إهداء من الملك فهد بن عبد العزيز يرحمه الله إلى الكعبة، ويقوم بصناعتها يدويا مصنع كسوة الكعبة المشرفة في مكة المكرمة .

أباريق وشمعدانات وأوان ذهب وفضة

وبين الأعمدة الثلاثة يمتد عمود معدني يكتسي بالفضة الخالصة له خطافات صغيرة معلق

فيها هدايا الكعبة من أباريق وشمعدانات وأوان أثرية من الذهب والفضة تعود بتاريخها إلى ماضٍ بعيد أهداها ملوك وخلفاء وسلاطين .

(145/774)

ويسن قبل التشرف بدخول الكعبة الطواف سبعاً حولها , واستلام الحجر الأسود "يمين الله في الأرض" , والركن اليماني إقتداء بالسنة النبوية . كما يسن أيضا الصلاة فوق لوح من الرخام المنقوش بعلامة ظاهرة إشارة إلى المكان الذي ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي فيه، وهو باتجاه الحائط الجنوبي بالقرب من الركن اليماني إلى الداخل من جدار الكعبة .

والصلاة في الكعبة ثمان ركعات وهي من سنن الدخول إلى الكعبة، ركعتان في اتجاه كل حائط من جدرانها الأربعة حيث لا قبلة في جوف القبلة .

تغيير كسوة الكعبة

وأثناء فريضة الحج وبعد أن يتوجه الحجاج إلى صعيد عرفة، يتوافد أهل مكة إلى المسجد الحرام للطواف والصلاة ومتابعة تولي سدنة البيت الحرام تغيير كسوة الكعبة المشرفة القديمة واستبدالها بالثوب الجديد استعدادا لاستقبال الحجاج في صباح اليوم التالي الذي يوافق

عيد الأضحى .

وقبل هذا الوقت وفي منتصف شهر ذي القعدة تقريباً يتسلم كبير السدنة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الشيبي في حفل سنوي الثوب الجديد من الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بقاعة المناسبات الرئيسية في مصنع كسوة الكعبة المشرفة بضاحية أم الجود بمكة .

وبعد إحضار الثوب الجديد تبدأ عقب صلاة العصر مراسم تغيير الكسوة حيث يقوم المشاركون في عملية استبدال الكسوة عبر سلم كهربائي بتثبيت قطع الثوب الجديد على واجهات الكعبة الأربعة على التوالي فوق الثوب القديم .

وتثبت القطع في عرى معدنية خاصة (47 عروة) مثبتة في سطح الكعبة، ليتم فك حبال الثوب القديم ليقع تحت الثوب الجديد نظرا لكراهية ترك واجهات الكعبة مكشوفة بلا ساتر .

(146/774)

ويتولى الفنيون في مصنع الكسوة عملية تشبيك قطع الثوب جانبا مع الآخر، إضافة الى تثبيت قطع الحزام فوق الكسوة (16 قطعة جميع أطوالها نحو 27 مترا) و6 قطع تحت

الحزام , وقطعة مكتوب عليها عبارات تؤرخ إهداء خادم الحرمين الشريفين لثوب الكعبة وسنة الصنع، ومن ثم تثبت 4 قطع صمدية (قل هو الله أحد الله الصمد) توضع على الأركان, و 11 قطعة على شكل قناديل مكتوب عليها آيات قرآنية توضع بين أضلاع الكعبة الأربعة .

ستارة الكعبة أصعب مراحل تغيير الكسوة

وآخر قطعة يتم تركيبها هي ستارة باب الكعبة المشرفة وهي أصعب مراحل عملية تغير الكسوة، وبعد الانتهاء منها تتم عملية رفع ثوب الكعبة المبطن بقطع متينة من القماش الأبيض، وبارتفاع نحو مترين من شاذروان (القاعدة الرخامية للكعبة) والمعروفة بعملية (إحرام الكعبة) .

ويرفع ثوب الكعبة لكي لا يقوم بعض الحجاج والمعتمرين بقطع الثوب بالأمواس والمقصات الحادة للحصول على قطع صغيرة طلبا للبركة والذكرى .

ويتم تسليم الثوب القديم بجميع متعلقاته للحكومة السعودية التي تتولى عملية تقسيمه كقطع صغيرة وفق اعتبارات معينة لتقديمه كإهداء لكبار الضيوف والمسؤولين وعدد من المؤسسات الدينية والهيئات العالمية والسفارات السعودية في الخارج .

ويستهلك الثوب الواحد للكعبة نحو 670 كيلو جراما من الحرير الطبيعي و 150 كيلو جراما من سلك الذهب والفضة، ويبلغ مسطحه الإجمالي 658 مترا مربعا ويتكون من

47 لفة، طول الواحدة 14 مترا وبعرض 95 سنتيمترا . ويكلف الثوب الواحد نحو 17 مليون ريال سعودي .

ويعود إنشاء المصنع إلى بداية العهد السعودي حين أمر الملك عبد العزيز آل سعود في غرة شهر محرم عام 1357 هـ بإنشاء المصنع بجوار البيت العتيق ليكون أول مصنع للتاريخ لكسوة الكعبة المشرفة يقام في مكة المكرمة وتديره أيد سعودية مدربة .

المصدر : تقرير فراج إسماعيل منقول بتصرف عن موقع العربية . نت

www.alarabiya.net

.

.

.

(147/774)

0-تفاصيل وأسرار يرويها قليلون دخلوا الحجرة النبوية الشريفة

رغم الكثير من الوصف الذي ورد عنها في كتب المؤرخين القدماء فقد ظلت في نظر

الكثير من الناس سرا من الأسرار التي يستحيل معرفتها ، ما أن تسمع رواية أو وصفا حتى تكتشف أن هناك المزيد والمزيد وأنك مهما حاولت واجتهدت فلن تنال من المعرفة عنها سوى أقل القليل .

في هذا المقال نلامس مشاعر فياضة لأناس سمح لهم بدخول الحجرة النبوية . . المكان الذي عاش فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وحجرة السيدة عائشة التي أسلم فيها الروح.

يقول الكاتب الصحفي عمر المضواحي المهتم بالكتابة عن الحرمين الشريفين والأماكن المغروسة في وجدان المسلمين : غمست وجهي محدقا من بين فتحات الحجرة . . كنت خائفاً حتى الموت، لكن شيئا ما دفعني للنظر، علني أرى ما نبأني عنه شيوخ التقيت بهم في مكة المكرمة .

شاهدت قناديل معلقة بسقف الحجرة النبوية، رأيت مثلها في جوف الكعبة المشرفة، هدايا قديمة مصاغة من الذهب والفضة، تعكس مراحل ضاربة في عمق التاريخ الإسلامي، واختلست نظرات لحجرة السيدة فاطمة الزهراء ، ومتعت عيني في بقعة ضمت الشطر الأكبر من حياة الرسول الكريمo أنوار تتجلى في ذات المكان، وهديل حمائم جاورت، كما جاورت غار ثور يوم هجرة الرسول وصاحبه أبي بكر الصديق .

صناع كسوة الحجرة النبوية

يضيف : كنت أقوم بعمل تحقيق صحفي منذ عدة سنوات عن الكسوة الخضراء وهي كسوة الحجرة النبوية، فأتيح لي أن التقي من نالوا شرف المشاركة في نسج هذه الكسوة التي يعود تاريخها إلى قرون مضت، حيث أورد المؤرخ السعودي حسين سلامة في كتابه (تاريخ الكعبة المعظمة) أنه جاء في كتاب الرحلة الحجازية للبتنوني نقلا عن كتاب الخطط للمقريزي، أن العباسيين كانوا يعملون كسوة الكعبة المشرفة بمدينة (تنيس) المصرية، وكانت لها شهرة عظيمة في المنسوجات الثمينة .

(148/774)

ويذكر البتنوني أنه لما استولت الدولة العلية على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة، وكسوة البيت الداخلية، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية .

واستمرت الكسوة تصنع في عدد من الدول الإسلامية كمصر وتركيا والهند حتى صدر أمر مؤسس الدولة السعودية الثالثة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بإنشاء مصنع كسوة الكعبة بمكة المكرمة، وبات المصنع يقوم بعمل الكسوتين لأول مرة في التاريخ في أرض الحرمين الشريفين .

وتوجد الحجرة النبوية في الجزء الجنوبي الشرقي من مسجد الرسول، وهي محاطة بمقصورة، عبارة عن حجرة خاصة مفصولة عن الغرف المجاورة فوق الطبقة الأرضية، من النحاس الأصفر، ويبلغ طول المقصورة 16 مترا وعرضها 15 مترا، ويوجد بداخلها بناء ذو خمسة أضلاع يبلغ ارتفاعه نحو 6 أمتار بناه نور الدين زنكي ونزل بأساسه إلى منابع المياه، ثم سكب عليه الرصاص حتى لا يستطيع أحد حفره أو خرقه، وداخل البناء قبر الرسول، وقبرا أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب.

وفي شمال المقصورة النبوية وجدت مقصورة أخرى نحاسية ويصل بين المقصورتين بابان، ويحيط بالحجرة النبوية أربعة أعمدة أقيمت عليها القبة الخضراء التي تميز المسجد، أما الروضة الشريفة فهي بين المنبر وقبر الرسول ويبلغ طولها 22 مترا، وعرضها 15 مترا.

في المسجد النبوي تشتم طيب روائح الصحابة، تكاد تسمع أحاديثهم ومسامراتهم، ترى حركاتهم وأثر خطواتهم العارية على صفحات هذه الأرض المباركة، لكن ما يحزنك حتى البكاء، أن يترك هذا التراث بدون تدوين وأن تموت أنفس قليلة بقيت تعرف وحدها كل هذه التفاصيل.

أحاديث الدموع والخشوع

ويؤكد أن هذه التفاصيل والأسرار ما هو مدون منها قليل، ومهمل، وضائع في الكتب

القديمة ويفتقر إلى التوثيق بالصور بجانب المعلومات، ولا أليق ولا أكمل من أن نوثق هذه المواقع ونعرفها، بطريقة أو بأخرى لنحافظ على روح المكان في جسده الجديد العملاق.

(149/774)

لماذا ظل مكتوما خبر هذه الكسوة قبل الآن، ولماذا نمر عليها لماما في حين، ونتجاهل في أحايين أخرى؟.. يقول المضواحي: لا زلت أذكر حديث الشيخين في مكة، وأنا أرى نسج عملهم. كنت في مكة، فذهبت صوب مصنع كسوة الكعبة، وهناك عرفت أن للمصنع شرفا آخر، فهو ينتج أيضا كسوة أخرى للحجرة النبوية.

التقيت في ذلك الوقت قبل عدة سنوات برجال شاركوا في الصنع والتركيب، لم أشأ حينها أن أفوت الفرصة حيث إن أصغرهم كان في الستينات من عمره، وخفت أن يودعوا الدنيا دون أن أتمكن من توثيق هذا العمل.

سجلت معهم أحاديث اختلطت بالدموع والخشوع، خانهم التعبير مرات وخنقتهم العبرات في أخرى، وهم يتحدثون عن تجربتهم الفريدة، كانت أطرافهم ترتعش من مجرد الذكرى كأنها حدثت بالأمس، وليس قبل ربع قرن من الزمان.

كان الشيخ محمد على مدني، رئيس قسم النسيج الآلي بالمصنع في ذلك الوقت، كريما

معي، وعرفت منه أنه كان أحد الذين شاركوا في نسج كسوة الحجرة النبوية وتركيبها .

قلت له حدثني عن كسوة الحجرة النبوية، صفهما لي : جال ببصره بعيدا ، كأنه يستحضر تلك الذكريات الغالية، ثم أجابني : شعرت يومها بحالة ذهول كامل تملكتني . إنها بقعة عظيمة، غاية في العظمة، لا أعرف محيطها بالتحديد لكن بدا لي أن محيط الحجرة النبوية 48 مترا .

هيبة المكان غلبت على أن ألحظ فيها شيئا ملفتا للنظر أو للانتباه، كنت مبهورا ولم أر سوى قناديل معلقة بسقف الحجرة، وهي هدايا قديمة كانت تهدى للمسجد النبوي من قديم الزمان، وقيل لي إنه كانت هناك آثار نبوية وضعت في مكان آخر لا أعرف أين، وما أعرفه أن هناك بعض الأشياء التاريخية محفوظة في حجرة السيدة فاطمة الزهراء ، وهو ذات المكان الذي كانت تسكن فيه .

(150/774)

أضاف : كسوة الحجرة نسيج من حرير خالص، أخضر اللون، مبطن بقماش قطني متين، ومتوجة بحزام مشابه لحزام كسوة الكعبة المشرفة، غير أن لونه أحمر قان، خط عليه بتطريز ظاهر آيات قرآنية كريمة من سورة الفتح تشغل ربع مساحته، بخيوط من القطن وأسلاك من

الذهب والفضة وهو بارتفاع 95سم2 .

وهناك قطع أخرى من ذات اللون الأحمر وبنفس النسج لكنها أصغر قليلا مكتوب عليها إشارات تدل على مواقع القبور الثلاثة، وهي من ذات العينة والطراز للكسوة الداخلية لجوف الكعبة، وباختلاف بسيط يتمثل في اختلاف الآيات القرآنية المنسوجة يدويا بطريقة "الجاكار" المعمول مثلها آليا على ظاهر كسوة الكعبة .

كسوة الحجرة النبوية لا تتبدل كل عام مثل كسوة الكعبة المشرفة، فهي محفوظة في بناء الحجرة وبعيدة عن الأيادي وعوامل المناخo ويتم تغييرها كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

مفاتيح الحجرة عند كبير الأغوات

ترتفع السترة بمقدار ستة أمتار، ويتم تركيبها عادة في السادس من شهر ذي الحجة، كلما صدر الأمر الملكي بذلك، وعند كبير الأغوات مفاتيح الحجرة، وهم من يقوم بخدمتها وتنظيفها والعناية بها كل ليلة اثنين وجمعة حتى الآن .

ويضيف عمر المضواحي متحدثا لـ"العربية.نت" : كنت أرغب في المزيد، ووجدته عند الشيخ محمد جميل خياط مدير الإنتاج بالمصنع، وهو رجل بدا لي حينها في الستينات من عمره . قال له الشيخ جميل : تم الإبقاء على الصنع اليدوي في المصنع لعمل الكسوتين، الداخلية لجوف الكعبة المشرفة، والأخرى للحجرة النبوية، للحفاظ على هذا التراث الفني الراقي .

يستطرد المضواحي : ثم التقيت بالشيخ أحمد ساحرتي رئيس قسم التطريز بالمصنع، بدا لي في ذلك الوقت البعيد أيضا كبر سنه، وضعف نظره، بادرني : كيف أستطيع أن أحدثك عن مشاعري لحظة دخولي الى الحجرة النبوية . . لا يمكنني ذلك، اعذرني . . هذا حديث فوق قدرتي على الكلام، ولم أظن في يوم من الأيام أن أسئل عن هذه التجربة . . وأؤكد لك أنني لن أستطيع خوضها ثانية .

اقترب مني أكثر وأضاف : أنظر إلى عدسات نظارتي - وأشار إلى غلظتها - ودقق النظر في شيبتي وثقل السنين التي أحملها ، عمري لا أحصيه، لكنني سمعتهم يقولون إنني من مواليد 1333هـ، ومع كل هذه السنين لم أعرف لي هواية غير حب العطور والروائح الجميلة، وصرفت ردحا من أيامي التي عشتها طولا وعرضا لأشبع هذا النهم الذي لايزال يرافقني للآن، سافرت كثيرا وتعرفت على الكثير لكنني أستطيع أن أقول بثقة أن لي تركيبات عطرية خاصة، لا تكون عند غيري ولا يقدر عليها أحد سواي .

عندما فتحت الأبواب ودخلوا الحجرة

يواصل الساحرتي متحدثا للمضواحي : أقول ذلك لأنني عرفت عجزي وقلة معرفتي في

تلك الليلة المباركة، عندما فتحت لنا الأبواب، ودخلنا الحجرة النبوية، لقد أستنشقت عطرا وروائح ما عرفتها من قبل، ولم أعرفها من بعد . لم أعرف سر تركيبتها أبدا، كان عطرا فوق العطر، وشذا فوق الشذا، وشيئا آخر لا قبل لنا به نحن أهل الصنعة والمعرفة . يحكي عمر المضواحي قائلا : عندما سألته أن يصف لي الحجرة النبوية، سرت في جسده رعدة خفيفة أصابته، وقال بصوت خافت : أعتقد أن ارتفاع الحجرة أحد عشر مترا، وأسفل القبة الخضراء، قبة أخرى مكتوب عليها : قبر النبي وقبر أبو بكر الصديق وقبر عمر بن الخطاب، ورأيت أيضا أن هناك قبرا آخر لكنه خاو، وبجانب القبور الأربعة، حجرة السيدة فاطمة الزهراء، وهو البيت الذي كانت تسكنه .

(152/774)

من رهبتنا لم نكن نعرف كيف نرفع المقاسات الخاصة بالقبة، كانت أصابعنا ترتجف، وأنفاسنا تتسارع . وبقينا 14 ليلة كاملة نعمل فيها من بعد صلاة العشاء إلى وقت أذان الفجر الأول، لننجز مهمتنا .

ظللنا نرفع المقاسات، ونحل أربطة السترة القديمة، نكنس وننظف ما علق بالمكان الطاهر من غبار وريش حمام، هذا الموقف يعود إلى عام 1971 ميلادية، وكانت الكسوة التي

قمنا بتغييرها قديمة، كان عمرها 75 عاما حسب التاريخ المنسوج عليها ، ولم تستبدل طوال هذا الوقت .

ويمضي الشيخ الساحرتي في تفاصيل تلك الزيارة : كنت أول من دخل مع السيد حبيب من أعيان المدينة المنورة، وأسعد شيرة مدير الأوقاف في المدينة وقتها وحبيب مغربي من إدارة المصنع، وعبد الكريم فلمبان وناصر قاري، وعبد الرحيم بخاري وآخرين، كنا 13 رجلا، لا أذكر معظمهم، فقد ذهبوا إلى رحمة الله .

كان يرافقنا كبير الأغوات وعدد من خدام الحجرة النبوية . . الهمس حديثنا ، هذا إذا لم تكن الإشارة تغني عن الكلام . كنت ومازلت أعاني من ضعف شديد في الإبصار ، وهذه النظارة لم تفارق عيني منذ تلك الأيام، لكنني كنت في الحجرة شخصا آخر . . كنت أشعر بذلك، وألمس الفرق .

أشياء غريبة حدثت لي

ويقسم الشيخ الساحرتي قائلا : "كنت أدخل الخيط في ثقب الإبرة من غير نظارة، رغم الضوء الخافت الذي كنا نعمل فيه . كيف تفسر ذلك، وكيف تفسر أنني لم أشعر بحساسية في صدري كنت أعاني منها ومازلت، فأنا أسعل بشدة مع أدنى غبار ، لكنني يومها لم أتأثر بغبار الحجرة، ولا بالأتربة المتطايرة، كأن التراب لم يعد ترابا ، وكأن الغبار أصبح دواءً لعلتي، كنت أشعر طوال تلك الليالي أنني شاب، وأن فتوة الصبا قد ردت اليّ .

لقد حدث معي شيء غريب آخر لم أفهم سره حتى اليوم، فبعد تجديد كسوة الحجرة يومها، كان علينا أن نخرج الستارة القديمة، حمل من حمل الستارة، وبقي حزامها المطرز بطول 36 مترا، قلت لهم لفوه ثم أتركوه، تقدمت إليه، وحملته على ضعفي فوق كتفي هذا، خرجت به من الحجرة النبوية، لم أشعر بثقله أبدا، لكنهم بعد ذلك جاءوا برجال خمسة ليحملوه فلم يستطيعوا، وانخرط الشيخ في بكاء صامت، وأكمل بتأوه: سأل بعضهم عن الذي حمله وجاء به إلى هنا، قلت مجيبا: أنا، لم يصدقوا . . قلت لهم اسألوا عبد الرحيم بخاري خطاط الكسوة الشهير.

أجمل وصف للحجرة النبوية

يقول الناقد والباحث في تاريخ المدينة المنورة محمد الدبيسي: كثير من المؤرخين شغفوا بتاريخ المدينة المنورة والكتابة عنه، لقد أحصيت أكثر من 500 كتاب إضافة إلى الأبحاث العلمية التي نشرت في دوريات، فمثلا أول كتاب عن تاريخ المدينة كان لابن زبالة في القرن الثاني الهجري، بعد ذلك كتب مؤرخون آخرون مثل المراغي والسخاوي والسمهودي، الأخير له كتاب باسم (وفاء الوفاء في إخبار دار المصطفى) في القرن العاشر

الهجري "عام 1325هـ" والذي يحتوي على مجلدين، ويعتبر مرجعا في هذا الباب، لكن أجمل وصف وقفت عليه بخصوص الحجرة النبوية وجدته في كتاب (مرآة الحرمين) للدكتور إبراهيم رفعت باشا الذي جاء من مصر وزار الحرمين ووصف الحجرة بأورع ما يمكن.

ويقول الدبيسي إن الحجرة تقع شرق المسجد النبوي الشريف، وكان بابها يفتح على الروضة الشريفة التي وصفها الرسول عليه السلام بأنها روضة من رياض الجنة، وهي حجرة السيدة عائشة بنت الصديق التي قبضت فيها روحه فدفن بها، وكان قبره جنوب الحجرة، وكانت عائشة بعد وفاته تقيم في الجزء الشمالي منها، وكما يُذكر تاريخيا بأنه عليه السلام قد دفن ورأسه الشريف إلى الغرب ورجلاه إلى الشرق ووجهه الكريم إلى القبلة.

(154/774)

وعندما توفى الصديق دفن خلف النبي صلى الله عليه وسلم بذراع، ورأسه مقابل كتفيه الشريفين، ولما توفي عمر بن الخطاب أذنت له عائشة بعد أن استأذنها قبل وفاته بأن يدفن إلى جوار صاحبيه داخل هذه الحجرة.

وعن القبر الخالي في الحجرة النبوية يشير محمد الدبيسي إلى إن بعض العلماء يذكرون أن

هذا القبر سيدفن فيه النبي عيسى عليه السلام . أما قصة تسمية الكوكب الدري الموجود في الحجر النبوية، فقد كان يوجد في الجدار القبلي من الحجرة تجاه الرأس الشريفة مسمار فضة، ويذكر رفعت إبراهيم باشا أنه ابدل بقطعة من الألماس كانت بحجم بيضة الحمام، وتحته قطعة أخرى أكبر منها ، والقطعتان مشدودتان بالذهب والفضة، ومن ثم أطلق عليهما اسم "الكوكب الدري" .

ويطلق على الحجرة في بعض الكتب – والكلام للدبيسي – المقصورة الشريفة، ولها ستة أبواب، الباب الجنوبي ويسمى باب التوبة، وعليه صفيحة مكتوب عليها تاريخ صنعه 1026 هـ، والباب الشمالي ويسمى باب التهجد ، والباب الشرقي ويسمى باب فاطمة، والباب الغربي ويسمى باب النبي وبعض الناس يسمونه باب الوفود ، وعلى يمين المثلث داخل المقصورة باب آخر ، ثم باب سادس على يسار المثلث في داخل المقصورة أيضا .

ويضيف أن الملك عبد العزيز آل سعود أعطى عناية كبيرة بالحجرة البنوية والقبة الخضراء ، ووجه بالمحافظة على البناء العثماني لها ، مع الترميم إذا احتاج الأمر لذلك، وكذلك بطلاء القبة كلما بهت لونها .

ويقول إن عمر بن عبد العزيز بنى حول الحجرة سور من خمسة أضلاع خوفا من أن تشبه الكعبة فيصلى عليها . ويوضح أن كتاب مرآة الحرمين ذكر أن الخيزران أم هارون الرشيد هي أول من كسا الحجرة الشريفة بالدائر المخمس، ثم كساها ابن أبي الهجاء بالديباج الأبيض والحرير الأحمر وكتب عليه سورة يس، ثم كساها الخليفة الناصر بالديباج الأسود ثم صارت الكسوة ترسل من مصر كل ست سنوات من الديباج الأسود المرقوع بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة .

ويشير إلى أن تكاليف كسوة الحجرة النبوية عندما أصبحت تأتي من مصر، أوقفت على بيت مال المسلمين في مصر في عهد السلطان الصالح اسماعيل الناصر، وكانت تجدد كل خمس سنوات .

ويقول إن كتاب "مرآة الحرمين" يؤكد أن الهدايا التي أهديت للمسجد النبوي والحجرة الشريفة في عهده عام 1325 هـ تقدر بسبعة ملايين من الجنيهات و620 قنديلا معلقة، ونجف من البلور، وأربع شجرات على أعمدة بلور مفرعات بأغصان مائلة عليها تنانير صافية وضعت بالروضة الشريفة .

وحول الحجرة الشريفة 106 من القناديل كلها بالذهب المرصع بالألماس والياقوت وحول الحجرة كذلك معاليق من الجواهر الثمينة ومن اللؤلؤ الفاخر .

وأهدى السلطان عبد المجيد الحجرة النبوية سنة 1274 هـ شمعدانين مصنوعين من

الذهب الخالص المرصع بالألماس الفاخر، وتم وضعهما بمقصورة الحجرة الشريفة أحدهما باتجاه الرأس الشريف والآخر بمحاذاة رجليه الكريمتين، كما جاء في كتاب مرآة الحرمين.

ويؤكد الدبيسي أن الكتب التاريخية تشير إلى تعرض الحجرة النبوية للسلب والنهب عبر العصور المختلفة قبل الدولة السعودية، وأن بعض الأشياء التي تعرض في بعض المتاحف التركية، أخذت في عهد الدولة العثمانية من مقتنيات الحجرة، التي يقال إنها كانت تضم الذهب والفضة.

(156/774)

ويشير إلى أن ابراهيم رفعت باشا ذكر في كتابه أن الملك العادل نور الدين الشهيد أمر عام 557 هـ ببناء خندق صب فيه الرصاص حول الحجرة النبوية، عندما علم أن هناك من يحاول الوصول إلى جسد الرسول.

ويقول إن الحجرة مرت بمراحل في بنائها، فقد كانت إبان العهد الأول مبنية باللبن وجريد النخل على مساحة صغيرة ثم أبدل الجريد بالجدار في عهد عمر بن الخطاب ثم أعاد عمر بن عبد العزيز بناءها بأحجار سوداء.

الحجرة تجدد بناؤها أكثر من مرة

وقد ذكر الأديب المصري الراحل محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) عام 1947م عن رحلة الحج التي قصد بها الأراضي المقدسة، إن الحجرة النبوية ظلت كما هي حتى زمن بني أمية، حين أمر الوليد بن عبد الملك واليه علي المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز أن يضم حجرات أزواج النبي رضي الله عنهن.

وبنى عمر بن عبد العزيز الحجرة سنة ثمان وثمانين وقيل سنة إحدى وتسعين للهجرة، وبالتالي فقد ظلت ثمانية وسبعين أو ثمانين سنة بعد وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم في مثل بساطتها حين وفاته.

ويقول محمد حسين هيكل إن الحجرة قد تجدد بناؤها بعد ذلك أكثر من مرة، فقد شب حريق في القرن السابع الهجري وامتد إلي الحجرة ولكنها لم تحرق، كما امتد إلي المسجد كله، وتعرضت لحريق آخر علي اثر الصاعقة التي نزلت في أواخر القرن التاسع الهجري.

وقد بنيت أول قبة في المسجد النبوي فوق الحجرة النبوية في القرن السابع الهجري، بأمر السلطان المملوكي المنصور قلاوون الصالحي سنة 678 هـ وهي التي عرفت مؤخراً بالقبة الخضراء، وكانت مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها، مصنوعة من أخشاب أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة الشريفة، مكسوة بألواح الرصاص، منعاً لتسرب مياه الأمطار.

وفي عام 881 هـ وبعد الانتهاء من بعض الترميمات في المسجد قرر السلطان قايتباي إبدال السقف الخشبي للحجرة بقبة لطيفة، فرفعوا السقف الخشبي، ثم عقدوا قبواً على نحو ثلث الحجرة مما يلي المشرق والأرجل الشريفة، ليتأتى لهم تربيع محل القبة المتخذة على بقية الحجرة من الغرب، ثم عقدوا القبة على جهة الرؤوس الشريفة بأحجار منحوتة من الحجر الأسود والأبيض، ونصبوا بأعلاها هلالاً من نحاس، وبيضوها من الخارج بالجص، فجاءت جميلة بديعة.

وقد سلمت هذه القبة من الحريق الذي شب بالمسجد سنة 886 هـ، بينما احترقت القبة التي فوقها، فأعاد السلطان قايتباي عام 892 هـ بناءها بالآجر، وأسس لها دعائم عظيمة بأرض المسجد، ثم ظهرت بعض الشقوق في أعاليها، فرممت وأصبحت في غاية الإحكام.

ثم عمل قبة على المحراب العثماني، وغطى السقف بين القبة الخضراء والحائط الجنوبي بقبة كبيرة حولها ثلاث قباب، كما أقام قبتين أمام باب السلام من الداخل، وقد كسيت هذه القباب بالرخام الأبيض والأسود، وزخرفت بزخارف بديعة.

وفي سنة 1119 هـ أضاف السلطان محمود الأول رواقاً في جهة القبلة، وسقّف ما يليه بعدد من القباب. وفي عام 1228 هـ جدد السلطان محمود الثاني العثماني قبة الحجرة

النبوية ، ثم دهنها باللون الأخضر ، فاشتهرت بالقبة الخضراء ، وكانت قبل ذلك تعرف بالبيضاء والزرقاء ، وكان بعضهم يطلق عليها : الفيحاء .

المصدر : تقرير فراج إسماعيل منقول بتصرف عن موقع العربية . نت

www.alarabiya.net

.

.

.

0-آيات الله في الجمبري

إعداد / مروه عزمي مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي كلية الزراعة جامعة المنصورة

قال تعالى : (الذي أحسن كل شيء خلقه) السجدة : 7

سبحان الله العظيم بديع السماوات والأرض الذي خلق جميع المخلوقات الحية فأحسن واحكم صنعها تبارك وتعالى .

في هذه المقالة سوف نوضح قدرة الخالق عز وجل في واحدة من اكبر مجاميع الحيوانات اللافقارية وهى شعبة مفصليات الأرجل أو تسمى شعبة المفصليات : Phylum Arthropoda وتنتشر هذه الحيوانات في الهواء والماء وعلى الأرض وعلى مسافات كبيرة ما بين 20 ألف قدم فوق سطح البحر إلى 18 ألف قدم تحت سطح البحر ومنها ما يقل طوله عن 1مم كما في الحشرات والحلم ومنها ما يصل إلى 2قدم كما في السرطان اليابان عندما تكون أرجله ممتدة .

وسميت هذه الشعبة بالمفصليات لأن أجسامها تتكون من عدة حلقات تتمفصل وتلتحم مع بعضها البعض بالإضافة إلى أن معظم حلقات الجسم أو جميعها تحمل أزواج من الزوائد المفصلية . هذه الزوائد المفصلية لها تركيب نموذجي ولكن سبحان الله الخالق الذي أتقن كل شيء خلقه، نجد حدوث تحور كبير في تركيب هذه الزوائد المفصلية ليلائم وظائف عديدة في الحيوان المفصلي ويلائم أيضا مكان معيشته وطريقة تغذيته . فقد تتحور هذه الزوائد المفصلية إلى أرجل للمشي أو أرجل للعوم أو تتحور إلى أجزاء فم يتغذى بها الحيوان .

سبحان الله الخالق المصور إن قوله الحق : قال تعالى : –

(يخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) . إن هذه الآيات الكريمة الجليلة توضح عظمة الخالق وقدرته الكبيرة وإبداع خلقه وان الله عز وجل هو القادر على كل شيء .

تعالوا معنا أحبائي في الله نبحر سوياً في أعماق أحد البحار أو المحيطات أو البحيرات ونشاهد عظمة الخالق وإبداعه في احد الكائنات الحية الحيوانية التي تتبع طائفة الحيوانات القشرية (القشريات) Class : Crustacea احد الطوائف الحيوانية التابعة لشعبة الحيوانات المفصلية . إنه حيوان صغير الجسم ومحبب لمعظم الكائنات البحرية وذلك لطعمه الجميل بل ومحبب لمعظم الشعوب العربية والأجنبية .

(159/774)

قال تعالى عز وجل :) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) النحل : 14 .

صدق الله العلى العظيم فسبحانه الذي وهب لنا العديد من الحيوانات البحرية التي نتغذى عليها ومنها الحيوان الذي سوف نتحدث عنه بإيجاز في السطور التالية . (هل تعرفون هذا الحيوان ؟ ؟ ؟ ؟)

انه : حيوان الجمبري : Shrimp

تعالوا معنا نرى عظمة الخالق الوهاب وإبداعه الكبير في تركيب جسم حيوان الجمبري ونقول جميعا كلمة واحدة (سبحان الله الخالق المصور) فكل ما حولنا يدل على إعجاز

الخالق عز وجل .

قالي تعالى : (هو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) الحشر : 24

حيوان الجمبري يعيش في البحار والمحيطات والبحيرات ويوجد أكثر من 2000نوع والتي تنتشر في كل أنحاء العالم ويتغذى الجمبري على النباتات المائية والطحالب والحيوانات الصغيرة . وتتعدد ألوانه وأشكاله ويصل طوله من عدة مليمترات إلى 23سم إلا انه اليوم الموافق 2006/4/17 قام احد الصيادين بكولومبيا بصيد نوع من أنواع الجمبري وصل طوله إلى 42 سم وهذا يعتبر إعجاز لعلماء الحيوان أن يصل احد أنواع الجمبري إلى هذا الطول الكبير والذي يهدد الأنواع الأخرى الصغيرة الحجم من الجمبري .

تركيب جسم الجمبري : -

يتركب جسم الجمبري من 3 مناطق هي الرأس والصدر والبطن ونجد أن منطقة الرأس والصدر من الناحية الظهرية مغطاة بصفيحة من مادة كيتينية صلبة تسمى (الدرقة) ويطلق على منطقة الرأس والصدر منطقة (الرأس صدر (Cephalothorax .

وعدد حلقات الجسم كلها 20 حلقة تحمل كل حلقة زوج من الزوائد المفصلية التي تتحور في التركيب تحورا كبيرا لتؤدى وظائف متعددة وبهذا يكون للجمبري 20زوج من الزوائد

تعالوا معنا نتعرف على كل منطقة في الجسم وزوائدها ونعرف وظيفتها .

أولا : الرأس Head : -

(160/774)

الرأس عبارة عن 6 حلقات تتمفصل مع بعضها البعض .

الحلقة الأولى : تحمل الزوج الأول من الزوائد وهو عبارة عن (ساقا العين) والذى ينتهي كلا منها بعين مركبة يبصر بها الجمبري والتي تتكون من عدد من الوحدات المستقبلة للضوء تسمى (العوينات) .

الحلقة الثانية : تحمل الزوج الأول من (قرون الاستشعار) وهذه الزائدة المفصلية حدث بها إعجاز كبير في تراكيبها يجعلنا نتوقف أمام إعجاز الله الكبير عندما قال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) النحل : 88

نجد وجود تجويف في تركيب قرن الاستشعار يسمى (حجاج العين) لتحتمي بداخله العين عند اللزوم بالإضافة لذلك يوجد تركيب يعلوا حجاج العين يسمى (فرشاة العين) ليقوم الجمبري بتنظيف عيناه من الرمال بواسطة الأهداب الموجودة على الفرشاة .

بالإضافة لذلك يوجد تركيب يسمى (حوصلة الاتزان) هذه الحوصلة لها فتحة على

السطح الظهري للجمبري يدخل من هذه الفتحة حبات من الرمل تعرف (بحصى الاتزان) والتي تعمل على إعادة توازن الجمبري إذا تغير وضعة داخل الماء (كيف هذا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟) عندما يتغير وضع الحيوان تتحرك حبات الرمل من حوصلة الاتزان ثم تلامس الشعرات الحسية الموجودة على قرن الاستشعار ثم تعطى الشعرات الحسية تنبيه للمخ والذي بدوره يعطى إشارة حسية منبه للحيوان فيقوم باستعادة توازنه من جديد داخل الماء .

سبحانك يا الله إن قولك الحق : (إن الله كان على كل شيء حسيبا) سورة النساء : 86

أي أن الله خلق كل شيء بقدر وحسابات دقيقة لا يعلمها إلا الله ثم يعطينا الله صور من آيات خلقه لنسبح بحمده كثيرا ونشكره كثيرا .

الحلقة الثالثة : تحمل الزوج الثاني من (قرون الاستشعار) وهى زائدة طويلة يفوق طولها طول جسم الحيوان من مرة ونصف إلى مرتين ويستخدمها الجمبري في الإحساس والتحسس بفرائسه وأعداؤه داخل الماء .

(161/774)

الحلقة الرابعة والخامسة والسادسة : تتحور إلى 3 أزواج من الزوائد يطلق عليها (أجزاء فم الجمبري) والتي يستخدمها الجمبري في دفع الغذاء داخل الفم من طحالب وحيوانات

صغيرة ثم طحنها إلى أجزاء صغيرة يسهل بلعها .

ثانيا : منطقة الصدر Thorax :

وهى عبارة عن 8 حلقات تتمفصل مع بعضها وتحمل كل حلقة زوج من الزوائد المفصلية الحلقة الأولى والثانية والثالثة : تحمل 3 أزواج من الأرجل تسمى (الأرجل الفكية) فالزوج الأول من الأرجل الفكية يستخدمها الجمبري في طحن الغذاء الذي حصل علية حيث تتركب من صفيحة تحمل أشواك على حافتها تساعده على طحن الطعام . الزوج الثاني يتحور جزء من تركيبه إلى جزء صغير ومقوس علية أشواك تتقاطع مع بعضها فتستعمل كمصفاة تحول دون دخول جزيئات الغذاء الكبيرة إلى الفم . الزوج الثالث يشبه الأول في التركيب .

من علم هذا الكائن الصغير أن يقوم بتصفية الغذاء واستبعاد الأجزاء الكبيرة التي لا يستطيع إدخالها إلى فتحة الفم ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ (انه الله الخالق المصور) .

الحلقات الرابعة والخامسة والسادسة : تحمل 3 أزواج من (أرجل المشي الكلابية) والكلاب (chela) بكسر الكاف هو تركيب تنتهي به هذه الرجل يشبة الملقط يستخدمه الحيوان في المشي في قاع الماء بالإضافة إلى الإمساك بالطعام والدفاع عن نفسه .

شكل (1) : يوضح تركيب رجل المشي الكلابية

الحلقات السابعة والثامنة : – تحمل زوجين من (أرجل المشي) تشبة السابقة فيما عدا أنها تنتهي بمخلب (زائدة إصبعية الشكل) ويستخدم الجمبري أرجل المشي في المشي على الأرض في أعماق البحار .

ثالثا : البطن :

(162/774)

تتكون البطن من 6 حلقات تتمفصل مع بعضها وتحمل كل حلقة زوج من الزوائد المفصلية ونجد أن الحلقات الست واضحة وتغطى كل حلقة من السطح الظهري بمادة بروتينية وكلسية تسمى الكيوتيكل أو الجليد وتتركب بين كل حلقة والأخرى منطقة غشائية رقيقة لتسهل على الحيوان انثناء جسمه بسهوله وبمرونة أثناء العوم أو المشي في أعماق البحار .

الحلقة الأولى : تحمل زوج من الأرجل تسمى (أرجل تناسلية) من خلالها نميز الذكور عن الإناث

الحلقة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة : تحمل 4 أزواج من الزوائد تسمى (أرجل العوم) يستخدمها الحيوان كمجداف لتساعده على العوم والاندفاع للإمام حيث يضرب بهيما تيار الماء على جانبي جسمه ليعوم بسهوله .

الحلقة السادسة والأخيرة في جسم الجمبري : تحمل زوج من الأرجل تسمى (الزائدة المروحية) يستخدمها الحيوان في العوم ولكن هذه المرة للخلف وليس للإمام فإذا أراد الهروب سريعا ليتفادى سمكه تريد أن تتغذى عليه أو أي حيوان بحري آخر فانه يجدف بها فيحدث تيارا من الماء على جانبي جسمه يرجعه سريعا للوراء .

شكل (2) : يوضح الزائدة المروحية على الحلقة البطنية السادسة

في نهاية المقال لابد أن نقول سبحان الله العظيم الخالق البارئ المصور بديع السماوات والأرض

قال تعالى : (قال فمن ربكما يا موسى) طه : 49 (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه : 50

وفى هذه الآيات يوضح الله عز وجل انه الذي أعطى جميع مخلوقاته صورتها وهيئتها ثم ارشد كل كائن لما يصلح له فالذي يعيش في الماء كييف الله له بعض التراكيب لتلائم معيشته في الماء والذي يعيش على الأرض هيأ له أيضا ما يساعده ويكيفه لهذه المعيشة .

سبحانك يا الله

للمراسلة : Email : marwaaz2002@yahoo.com

المراجع :

1- اللافقاريات : (1975) للدكتور عبد العزيز محمود - الدكتور محمود عبد الرحمن البرعى - الدكتور سمير محمد حسن - الدكتور محمد نظيم شحاتة . مكتبة الانجلو المصرية . 625صفحة .

2- الأساسيات المتكاملة لعلم الحيوان : (1988) ترجمة الدكتور مصطفى المفتى - الدكتور عبد الفتاح غباشى - الدكتور مصطفى رمضان - الدكتور سامح حافظ - الدكتور عبد المنعم إبراهيم - الدكتورة عفاف عبد الرحمن الصيفي . 612صفحة

3- http : //www.enchantedlearning.com/subjects/invertebrates/crustacean/Shrimp.shtml

4- http : //www.lander.edu/rsfox/310penaeusLab.html

.

.

.

0-من آيات قدرة الله في القواقع

إعداد/ مروة عزمى مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان كلية الزراعة جامعة المنصورة

قال تعالى : (يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) صدق الله العظيم

وفى هذه الآية يوضح الله عز وجل إعجازه الكبير في خلقه وقدرته على خلق كل شيء في الكون من نبات وحيوان وجبال وانهار وسماوات وكواكب ونجوم وغيرها من مخلوقات الله عزل وجل .

وهذه المقالة نوضح إعجاز الخالق في ثاني اكبر مجموعه من مجاميع الحيوانات اللافقارية وهى شعبة الرخويات (phylum : mollusca) والتي تأتى في المرتبة الثانية بعد شعبه مفصليات الأرجل . وشعبه الرخويات تضم حوالي 50 ألف نوع وتتميز حيواناتها بان أجسامها رخوة ولينه ورهيفة وتضم عده طوائف واهم هذه الطوائف وأكبرها هي طائفة البطنقدميات (Gastropoda) وهذه الحيوانات تتميز بوجود قدم عضلي زاحف على سطحها البطنى ومن هنا جاءت تسميتها بالبطنقدميات .

وتنقسم طائفة البطنقدميات إلى نوعين من الكائنات الحيوانية هي : -

أولا : القواقع : snails

وعددها حوالي 1000 نوع في العالم ومنها ما يعيش على الأرض ويسمى بالقواقع الأرضية وهذه تتغذى على النباتات وتسبب خسائر كبيرة في الحاصلات الزراعية . ومنها ما يعيش في الماء المالح وتسمى قواقع الماء المالح وهذه تعتبر مصدر لغذاء الأسماك والكائنات البحرية الأخرى ومنها ما يتغذى عليه الإنسان . ومنها ما يعيش في الماء العذب وتسمى قواقع الماء العذب ومعظم هذه القواقع تعتبر عوائل وسطيه لكثير من الديدان الكبدية التي تصيب الإنسان وحيوانات المزرعة وتسبب لها الأمراض مثل ديدان البلهارسيا .

تركيب جسم القوقع : -

شكل (1) : يوضح تركيب جسم أحد القواقع الأرضية الموجودة على سطح ورقه النبات للتغذية عليها

ويتركب جسم القوقع من 3 مناطق لا توجد فواصل بينها وهى : -

1 - منطقه الرأس :

وهى المنطقة الأمامية من جسم القوقع وتحمل الرأس نوعين من التراكيب الحسية المجوفة من

الداخل والتي يمكن لجزئها العلوي الارتداد للداخل عن طريق مجموعه من العضلات ويمكنها أيضا التحرك في جميع الاتجاهات وتسمى هذه التراكيب (باللوامس tentacles) ومنها زوجين احديهما يسمى اللوامس السفلية lower tentacles ووظيفتها الشم وزوج أعلى منه يسمى اللوامس العلوية upper tentacles وهى أطول من الأخرى وتنتهي كل واحده منها بعين مركبه يبصر بها القوقع .

كما يوجد أسفل هذه اللوامس فتحه الفم والتي تؤدى إلى التجويف الفموي buccal cavity ويوجد به عضو يسمى : -

آلة البشرة أو السفن radula وهى عبارة عن شريط أو غشاء قاعدي قرني مثبت عليه عده صفوف من الأسنان الكيتينية ينحني طرفها العلوي إلى الخلف ويتحرك هذا الشريط إلى الأمام ويتكون هذا الشريط من نسيج طلائي غدي يقوم بتكوين الخلايا السنية بحيث كل خلية تختص بتكوين سن واحدة ونجد أن هناك ثلاثة أنواع من الأسنان في كل صف من صفوف آلة البشر هي :

· السنة المركزية :

وهى سنه واحده في منتصف كل صف ويختلف تركيبها ويتنوع في الشكل حسب كل نوع

· الأسنان الجانبية :

وهى مجموعة من الأسنان توجد على جانبي السنة المركزية وجميعها يأخذ شكل واحد داخل النوع الواحد من القواقع

· الأسنان الحافية :

وهى مجموعة من الأسنان توجد على جانبي الأسنان الجانبية وجميعها يأخذ شكل واحد داخل النوع الواحد من القواقع

ونجد أن اله البشر أو السفن ترتكز على جزء غضروفي به ألياف عضلية طولية تعرف بعضلات آلة البشر والذي عن طريق انقباضها وانبساطها تتحرك صفوف الأسنان الموجودة عليها وتعمل على تفتيت الغذاء إلى أجزاء صغيرة داخل التجويف الفمى .

بالإضافة لآلة البشر الموجودة في التجويف الفمى يوجد أيضا (فكjaw) واحد داخل الفم يعمل على تفتيت الطعام إلى فتات صغيرة جدا بعد تفتيتها بواسطة آلة البشر ومنها تنتقل المواد الغذائية إلى باقي أجزاء الجهاز الهضمي . وهذا الفك يختلف شكله باختلاف أنواع القواقع .

(شكل2) : يوضح شكل الفك في نوعين من القواقع الارضية على قوة تكبير 100مرة .

سبحان الله العظيم الذي احكم صنعه حيث قال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء

) سورة النحل : 88

2- منطقه القدم العضلي :

وهو عبارة عن قدم مفلطح موجود على السطح البطنى للقوقع ولهذا سميت هذه الطائفة بالبطنقدميات أي الحيوانات التي منطقة قدمها على سطحها البطنى ومزود هذا القدم مجموعة من العضلات الطولية التي تحدث انقباضات متتالية تبتدئ من الخلف إلى الأمام ويتحرك بذلك الحيوان ويسير إلى الأمام ويوجد على منطقه القدم غدة مخاطية قدمية تقوم بإفراز إفراز مخاطي يسهل زحف القواقع الأرضية على الأرض وتسلقها للأشجار العالية زحفا بحثا عن الغذاء . أما الأنواع البحرية فتستخدم قدمها العضلي كمجداف لتعوم به بمساعدة حركه الانقباض والانبساط للعضلات القدمية .

شكل (3) : يوضح مقدمه القدم العضلي الزاحف في احد القواقع الارضية والشكل المقابل له يوضح القدم العضلي لقوقع أرضى

سبحان الله العلى الكبير الخالق المصور إن قوله الحق عندما قال تعالى :

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم

من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) النور : 45

3- الكتلة الحشوية

وهى المنطقة الظهرية الوسطية من جسم القوقع والتي تحتوى على جميع الأجهزة الداخلية من الجهاز الهضمي والتنفسي والاخراجى والدوري والعصبي والتناسلي .

4- الصدفة : (the shell)

وتتصل الصدفة بجسم القوقع عن طريق منطقه الكتلة الحشوية ولو قمنا بنزع الصدفة من على جسم القوقع يموت في الحال . وتتكون الصدفة من كربونات الكالسيوم وهى عبارة عن ثلاث طبقات : - طبقه خارجية وأخرى وسطية وطبقة داخلية . وتعتبر الصدفة هي مصدر الحماية للقوقع حيث تحمى أجزاء جسمه الرخوة الرهيفة وتحمية من أشعة الشمس المباشرة والجو الحار .

سبحان الله الخالق المصور (صنع الله الذي أتقن كل شيء) سورة النحل : 88 .

والصدفة تتكون من مجموعة من اللفات الحلزونية تسمى لفات الصدفة shell whorls والتي يختلف عددها باختلاف الأنواع وتلتف هذه اللفات من الداخل على محور داخلي يسمى العويميد columella وهو مزود بمجموعة كبيرة من العضلات التي تسهل خروج ودخول جسم القوقع داخل الصدفة ولكل صدفة قمة apex وهى أول منطقة بدأت تتكون عندها الصدفة وتنتهي الصدفة بفتحة تسمى فتحة الصدفة shell

aperture والتي يختلف شكلها باختلاف الأنواع . وتتميز الأصداف بألوانها الجميلة المتعددة بالإضافة إلى العديد من البقع والنقط الملونة .

شكل (4) : يوضح أشكال مختلفة من أصداف القواقع والتي تتعدد ألوانها وأشكالها حيث الرمز (a) منظرا ظهريا بينما الرمز (b) منظرا بطنيا

ثانيا : – البزاقات slugs :

وهى حيوانات تتبع طائفة البطنقدميات أيضا ومنها ما يعيش على الأرض ومنها ما يعيش في المياه المالحة والأنواع الأرضية مثلها مثل القواقع الأرضية تقوم بالتغذية على النباتات أما المائية منها فتتغذى على الطحالب المائية والكائنات البحرية .

والبزاقات لها نفس تركيب جسم القواقع فيما عدا شيء واحد وهو عدم وجود الصدفة الخارجية فهي تنعدم أو تكون مختزلة وصغيرة جدا . ولهذا فهي تحمى نفسها من أشعة الشمس والعوامل الخارجية عن طريق اختبائها أسفل أوراق النباتات المتساقطة أو بالقرب من سطح التربة أسفل جذوع الأشجار أو أسفل الأصص النباتية أو الأحواض النباتية .

شكل (5) : يوضح أشكال مختلفة من البزاقات

المراجع :

1- www.applesnail.net

2 - اللافقاريات : (1975) للدكتور عبد العزيز محمود - الدكتور محمود عبد الرحمن البرعى - الدكتور سمير محمد حسن - الدكتور محمد نظيم شحاتة . مكتبة الانجلو المصرية . 625صفحة .

إعداد / مروة عزمى مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان

كلية الزراعة

جامعة المنصورة

جمهورية مصر العربية

Email : marwaaz2002@yahoo.com

.

.

.

0-بئر زمزم سر نبعه الغامض وفيضانه

المستمر وخواص اللبن والعسل

في منبعه الأساسي سر غامض يعتبره علماء الجيولوجيا كنزا كبيراً ربما يستحيل كشف رموزه إلى أن تقوم الساعة . . ما من ماء يصل إلى هذا النبع حتى يكتسب خواص ماء زمزم، نقاءه وطهارته . هذه النتيجة ليست نظرية أو غيبية أو منقولة من بطون الكتب القديمة، لكنها خلاصة أبحاث علمية شملت البئر وماءه ودرجة نقائه، وشملت مياه آبار أخرى قريبة جدا منه، وجد أنها لا تتمتع بنفس الخواص .

(168/774)

يفيض الماء منه منذ آلاف السنين دون أن يجف البئر أو ينقص حجم المياه فيه، وكانت مفاجأة مدهشة للعلماء أثناء توسعة الحرم المكي وتشغيل مضخات ضخمة لشفط المياه من بئر زمزم حتى يمكن وضع الأساسات، أن غزارة المياه المسحوبة قابلها فيضان مستمر في الماء، يفور ويمور كأنه أمواج البحر .

فإذا كان العلم يقول هذا ويتعجب منه، فإن بعض المنقطعين للعبادة في الحرم المكي والعاكفين يروون أسرارا لا يجدون لها تفسيرا، فيكتفون باعتبارها من الغيبيات التي توجب الاستنكار أو الدهشة، فماء زمزم الذي يشربونه في انقطاعهم للعبادة تتغير خواصه فيصبح كأنه لبن أو عسل مصفى.

مكنوز أسرار لا تستوعبه العقول

ويقول الكاتب السعودي عمر المضواحي المهتم بالكتابة عن الأماكن المقدسة إن هذا البئر هو أقدس آبار المياه عند المسلمين، وليس هناك شراب على وجه الأرض يفوق مكانة ماء زمزم عندهم. ويحملون لهذا الماء ذي الطعم الفريد، قدسية خاصة، ويؤمنون بأنه مكنوز بأسرار لا قبل للعقل البشري في استيعابها، أو لا يعرفون تفسيرا لتغير خواصه ومنافعه وفق حالة شاربه ورغبته.

وهو في لغة "العارفين" بريد الأمنيات المحققة، ولا يخالط قلوبهم ذرة شك في أن" زمزم لما شرب له"، وبأنه كفيل بتحقيق أمنيات شاربه مهما كانت، شرط أن يكون مؤمنا صادق الإيمان والنية، غير مكذب لخاصيته ولا يفعل ذلك كنوع من التجربة.

وعند هؤلاء "العارفين" أيضا أن الله مع المتوكلين وهو يفضح المجربين، فشرب زمزم عندهم للخائف أمان, وللمريض شفاء، وللجائع طعام، ولا يخالط شاربه, لإيمانه القاطع بأسراره, أي عجب أو استنكار فيما لو تغير حاله من محض ماء, إلى شراب من سويق أو لبن أو

عسل مصفي, للمنقطعين والعاكفين في البيت العتيق . والمرويات حول هذه الغرائب كثيرة, ناءت بحملها بطون الكتب الدينية وأسفار التاريخ والسير .

(169/774)

يضيف عمر المضواحي : ما يزيد هذا البئر شرفا عند المسلمين أنه حفر بجناح جبريل، وساقت الملائكة مياهه من أنهار الجنة غياثا للسيدة هاجر وإبنها الرضيع إسماعيل (عليهما السلام) ، وسقيا لضيوف الرحمن، وليكون آية للناس على مر العصور والأزمان .

وقد كانت رئاسة شؤون الحرمين الشريفين, وهي الجهة التي تتولى مسؤولية العناية بالمسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي الشريف بالمدينة, قد أكملت مشروع توسعة صحن الطواف المحيط بالكعبة المشرفة، ليستوعب الآن نحو ثلاثة أضعاف عدد الطائفين عما كان في السابق .

وقامت بردم مدخل البئر السابق في الجنوب الشرقي من واجهة الكعبة المشرفة, وتسقيف سطحه المفتوح ليدمج مع صحن الطواف . ونقل المدخل إلى خارج الحرم من جهة الصفا في المسعى باتجاه جبل أبي قبيس . ويهدف المشروع لمواجهة كثافة أعداد الحجاج والمعتمرين بعد موافقة الحكومة السعودية على فتح باب العمرة واستقبال نحو 10 ملايين

معتمر طوال تسعة أشهر من السنة .

ويستطرد المضواحي أن بئر زمزم هو بئر الماء الوحيد الذي تشرف عليه وزارة للبترول في العالم، وهو البئر رقم (1) في سلم اهتمام ملوك آل سعود . وبموجب إرادة سامية تشرف وزارة البترول والثروة المعدنية في الحكومة السعودية على بئر زمزم باعتباره ثروة قومية ودينية في البلاد .

ويصف الدكتور المهندس يحيى حمزة كوشك في حديث مع عمر المضواحي نشره في جريدة الشرق الأوسط عام 2004 ميلادية المشروع الجديد بأنه حل جيد من ناحية توسعة المطاف لكنه يؤيد مشاهدة الناس لبئر زمزم وبأي وسيلة كانت . وقال : "كانت هناك فكرة لتسقيف سطح البئر بالزجاج الشفاف, لكن المشكلة أنه سيكون عائقا جديدا نتيجة تجمهر الناس عليه لرؤية البئر مما سيتسبب في مضايقة الطائفين, كما هو الحال الآن, أمام وخلف مقام إبراهيم وخط بداية الطواف الجديد" .

البئر تحت صحن الطواف

ويؤكد الكوشك وهو أول خبير سعودي في المياه والذي أشرف على دراسة تاريخية لبئر زمزم في العام 1401 هـ أنه : "لم تخرج بئر زمزم من ساحة الحرم . وهو موجود في مكانه تحت مستوى صحن الطواف منذ توسعة خادم الحرمين الشريفين للمسجد الحرام . وهو محاط بسياج من ألواح الزجاج السميك ليتمكن الناس من مشاهدته قبل المشروع الجديد بهدف منع الروائح النافذه التي كانت تنتج من اغتسال بعض الحجاج والمعتمرين والمصلين, والذين كانوا يستخدمون ماء زمزم بشكل سيئ" .

وقديما كان على البئر بناء تعلوه قبة مساحته 88.8 متر مربع يحتوى على غرف مستودعات ومستبرد لدوارق ماء زمزم تم هدمه ما بين عام 1381.1388 هـ لتوسعة المطاف . وتم عمل بدروم مكيف أسفل المطاف بمدخل منفصل للرجال والنساء . ويمكن رؤية البئر من خلف حاجز زجاجي شفاف، كما استبدلت أيضا طريقة الشرب القديمة التي كانت تعتمد على جلب الماء بالدلاء من جوف البئر إلى اعتماد أنظمة حديثة توفر ماء زمزم عبر نظم سقاية حديثة لتوفيره مفلترا وباردا ومعالجا بالأشعة فوق البنفسجية ليكون بأفضل المستويات الصحية .

صورة قديمة لبئر زمزم

نقود وأباريق شاي في قاع البئر

ويتذكر الكوشك في حديثه المشار إليه، أنه تم إحاطة البئر بالزجاج لمنع الناس من إلقاء أشياء ومتعلقات وسط البئر طلبا للبركة وغيرها . يقول : " وجدنا أثناء عمليات تنظيف البئر نقود معدنية وأباريق شاي, وقرون عظمية تحمل نقوشا وأعمالا سحرية . وكان من بين ما وجدنا في البئر قطعة من الرخام كتب عليها المجاهد الليبي عمر المختار (رب حقق ما في نفسي !) " .

(171/774)

يضيف الكوشك عن المشروع الجديد : " تم عمل نفق أرضي من خارج الحرم للوصول إلى البئر وهو خاص بعمليات الصيانة فقط . وكان هناك رأيين حول استخدامات هذا النفق . الأول أن يتاح للراغبين في رؤية البئر الدخول منه من دون السماح بالاغتسال فيه . والرأي الآخر أستبعد ذلك لعدة عوامل منها أن مسافة النفق طويلة (نحو نصف ميل) , ومساحته ضيقة, ويحتاج إلى أنظمة تهوية وإنارة وإجراءات أمنية" .

المصدر الرئيسي تحت الحجر الأسود

ولماء زمزم أسماء تزيد عن (60) اسما أشهرها زمزم، وسقيا الحاج، وشراب الأبرار، وطيبة، وبرة، وبركة، وعافية . وتمت عدة دراسات علمية بهدف معرفة مصادرها من

المياه . وخلصت هذه الدراسات أن بئر زمزم تستقبل مياهها من صخور قاعية تكونت من العصور القديمة، وذلك عبر ثلاث تصدعات صخرية تمتد من الكعبة المشرفة والصفا والمروة وتلتقي في البئر .

أيضا ينقل عمر المضواحي عن المهندس فخري بخش مدير مبيعات مياه (أفيان) الفرنسية في شركة البحراوي السعودية قوله : إن شركة فرنسية اخترعت جهاز دقيق للغاية في تحليل تركيب المياه، وجاءت إلى السعودية لتسويقه . وقام ممثل الشركة بعرض إمكانيات الجهاز الحديث أمام مندوبي وكلاء المياه المحلاة والمعدنية المستوردة إلى السوق المحلي تبين فيه أن ماء زمزم كان أنقى المياه التي تم اختبارها في هذا الجهاز" .

ويصف المهندس يحي كوشك وهو يحمل شهادة الدكتوراه في هندسة البيئة من جامعة واشنطن الأمريكية العام 1971م مصادر مياه بئر زمزم وفق التحديد الذي قام به مع الفريق العلمي الذي رأسه عام 1400 هـ ونشر نتائجه في كتابه (زمزم) بقوله : "المصدر الرئيسي فتحة تحت الحجر الأسود مباشرة وطولها 45 سم، وارتفاعها 30 سم، ويتدفق منها القدر الأكبر من المياه .

والمصدر الثاني فتحة كبيرة باتجاه المكبرية (مبنى مخصص لرفع الأذان والإقامة مطل على الطواف) ، وبطول 70 سم، ومقسومة من الداخل إلى فتحتين، وارتفاعها 30 سم .

وهناك فتحات صغيرة بين أحجار البناء في البئر تخرج منها المياه، خمس منها في المسافة التي بين الفتحتين الأساسيتين وقدرها متر واحد . كما توجد 21 فتحة أخرى تبدأ من جوار الفتحة الأساسية الأولى، وباتجاه جبل أبي قبيس من الصفا والأخرى من اتجاه المروة .

ويبلغ عمق البئر 30 مترا على جزئين، الجزء الأول مبني عمقه 12.80 مترا عن فتحة البئر، والثاني جزء منقور في صخر الجبل وطوله 17.20 متر . ويبلغ عمق مستوى الماء عن فتحة البئر حوالي أربعة أمتار، وعمق العيون التي تغذي البئر عن فتحة البئر 13 مترا ومن العيون إلى قعر البئر 17 مترا" .

الماء فاض خلال 11 دقيقة فقط

ويقول عند حديثه عن ضخ مياه زمزم : "بعد أن وضعت أربع مضخات قوية جدا كانت تعمل على مدار 24 ساعة, وبمعدل ضخ وصل إلى 8000 لتر في الدقيقة . كان منسوب المياه من الفوهة 3.23 مترا، وكانت القراءة تتم كل نصف دقيقة، حتى وصل منسوب المياه في داخل البئر إلى 12.72 مترا، ثم وصل إلى 13.39 مترا، وفي هذا العمق توقف هبوط الماء في البئر .

ولما تم توقيف المضخات بدأ الماء يرتفع حتى وصل إلى 3.9 مترا خلال إحدى عشرة دقيقة" . وسجل مشاهداته بقوله : " لن أنسى ما حييت هذا المنظر الرهيب، كانت المياه تتدفق من هذه المصادر بكميات لم يكن يتخيلها أحد ، وكان صوت المياه وهي تتدفق بقوة يصم الآذان" .

وينفى الكوشك وهو مدير عام سابق لمصلحة المياه بالمنطقة الغربية أن تكون لعمليات حفر الأنفاق في الجبال وحفريات الأساسات العميقة للأبراج السكنية المحيطة بالحرم أي تأثير في التركيب الجيولوجي لمسار مياه زمزم أو اختلاطها بمصادر أخرى سواء من الآبار أو غيرها .

(173/774)

وقال : هذا لم يحدث أبدا . وشرح مزيدا للتوضيح : " وفقا للدراسات التي قمنا بها وجدنا أنه عندما تهطل الأمطار على مكة المكرمة ويسيل وادي إبراهيم يزداد منسوب مياه زمزم زيادة طفيفة في البئر .

ولكن عندما تهطل الأمطار على المناطق المحيطة بمكة كالطائف وغيرها تزداد المياه زيادة عظيمة في بئر زمزم . ومعنى هذا أن المصدر الأساسي للبئر هو الجبال المحيطة بمكة

والتصدعات الصخرية الموجودة فيها . وفي كتابي (زمزم) توجد صورة أخذت عبر الستالايت مرفقة بتحليل يبين أن كل هذه التصدعات الصخرية متجهة الى بئر زمزم" .

السر يكمن في النبع الأساسي للبئر

أضاف : " اعتقد أن السر يكمن في النبع الأساسي للبئر . فأي مياه تنبع من هذا المكان تكتسب خاصية ماء زمزم . والغريب في الموضوع أن هناك بئر آخر في الحرم إسمه بئر "الداؤدية" وكان موجودا عند باب إبراهيم ويبعد في حدود 120 مترا عن بئر زمزم، لكن نتائج تحليل مياهه تختلف تماما عن تركيبة ماء زمزم وهي النتيجة ذاتها التي توصلت إليها عند تحليل مياه عين زبيدة أيضا" .

يقول المضواحي : من لطائف ما يشاع بين المسلمين في حياتهم الاجتماعية أن يدعو الساقي لشارب الماء بأن يمد الله في عمره ليشرب من ماء زمزم . تماما كما يتمنون لبعضهم البعض بعد فراغهم من الصلوات بقولهم (حرما) فيجيب الآخر (جمعا إن شاء الله !) .

ومنذ القدم كان المكيون يستقبلون ضيوفهم بماء زمزم إظهارا لتكريمهم والاحتفاء بهم . وهم يتفننون بتقديمه باردا من دوارق طينية نظيفة مبخرة باللبان (المستكه) لإكسابه نكهة خاصة محببة للشارب منه . ولاتزال هذه العادة باقية حتى الآن .

لكنهم لا يقدمون في شهر رمضان على موائد الإفطار غير ماء زمزم إلى جانب حبات من

رطب التمر . ويحرصون على (تحنيك) مواليدهم حال ولادتهم بماء زمزم وبشق تمرة إقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم مع السبطين الحسن والحسين رضي الله عنهما .

(174/774)

كما يحرص المكيون على جعل ماء زمزم آخر ما يغسل به موتاهم قبل دفنهم رجاء بركته وحسن عائدته . ومن الطريف أن الأمهات في مكة يحرصون على شرب أبنائهم الطلاب ماء زمزم قبيل توجههم إلى الاختبارات الدراسية رجاء أن لا ينسوا ما حفظوه من دروس للإجابة عليها في ورقة الاختبار .

ويألف كل من قدم إلى المسجد الحرام رؤية معظم الحجاج والمعتمرين القادمين من الخارج على غسل قطع طويلة من قماش قطن أبيض اللون وغمرها بماء زمزم، ومن ثم تجفيفها في أروقة الحرم ليحفظوها بعد ذلك لاستخدامها تبركا كأكفان لهم ولموتاهم في بلادهم .

كما أنه يندر أن يقفل حاج أو معتمر في رحلة العودة إلى بلده دون أن يتزود بكميات منه يتحف بها أهله ومقربيه على سبيل الإهداء والتبرك بها .

ويحرص شيوخ الرقى الشرعية على التزود بكميات كبيرة من ماء زمزم ليتولوا قراءة القرآن عليه وتقديمه لقاصديهم من المرضى ومن مسهم الجن لشرب مقدار يحددونه لإتمام العلاج

بالرقية .

الاستشفاء بماء زمزم

ويجيب الشيخ الدكتور عبد الله بن بيه وزير العدل الموريتاني الأسبق عن جواز استشفاء غير المسلمين بماء زمزم بقوله : "لا أعرف في هذا نصا . لكن الظاهر لي إذا كان المسلم يعالج غيره، فيمكنه أن يعالجه بماء زمزم حتى يظهر كرامة هذا الماء لغير المسلم، وحتى يكون من باب الدعوة له في دخول الإسلام" .

وأستدل الشيخ العلامة بقصة تصدي بعض الصحابة (رضي الله عنهم) لعلاج رجل كافر كان لديغا ، فعالجوه بقراءة الفاتحة عليه . وأقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك كما ورد في الحديث الشريف" .

(175/774)

وروى المؤرخ الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) قصصا تشير إلى حب علماء أهل الكتاب لماء زمزم . ونقل عن أبي حصين عن مجاهد بن جبر التابعي المكي، شيخ القراء والمفسرين قوله : "كنا نسير في أرض الروم، فآوانا الليل إلى راهب، فقال هل فيكم من أهل مكة أحد ؟ قلت : نعم، قال : كم بين زمزم والحجر الأسود ؟ . قلت : لا أدري، إلا أن أحزره،

قال : لكني أدري، إنها تجري من تحت الحجر، ولأن يكون عندي منها ملء طست، أحب إلي من أن يكون عندي ملأه ذهبا" .

وروى الشيخ سائد بكداش مصنف كتاب (فضل ماء زمزم) عن محمد بن حرب أنه قال : إنه أسر في بلاد الروم، وأنه صار الى الملك، فقال له : من أي بلد أنت ؟ . قال من أهل مكة، فقال : هل تعرف بمكة هزمة جبريل ؟ قال : نعم ، قال : فهل تعرف برة ؟ قال : نعم، قال : فهل لها اسم غير هذا ؟ قال : نعم، هي اليوم تعرف بزمزم . قال : فذكر من بركتها ، ثم قال : أما إنك إن قلت هذا ، إنا نجد في كتبنا : أنه لا يحثو رجل على رأسه منها ثلاث حثيات فأصابته ذلة أبدا" .

نبع باق إلى يوم القيامة

وتروي كتب التاريخ الإسلامي أن ماء زمزم نبع باق لا ينقطع إلى يوم القيامة . وأن كل المياه تغور قبل يوم القيامة إلا زمزم . وروي عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : "إن الله عز وجل يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة، وتغور المياه غير ماء زمزم" . وروي عن ابن عباس أنه قال : صلوا في مصلى الأخيار واشربوا من شراب الأبرار . قيل لابن عباس : ما مصلى الأخيار ؟ قال : تحت الميزاب (ميزاب الكعبة) ، قيل : وما شراب الأبرار ؟ قال : ماء زمزم .

حضور غامض لزمزم في قصص الغيبيات

ومن العجيب أن المتفحص لقصص (الغيبيات) في الإسلام، يجد حضورا غامضا لماء زمزم خلف معظم الحالات . ودائما ما يرتبط حضور زمزم بدور فريد وفعال في كل حالة . فبهذا الماء المقدس غسل قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مرارا ، ودائما في طست من الذهب وبيد جبريل عليه السلام، توطئة لبعثته صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وتهيئة لمعراجه في طريقه للسماء مرة واحدة .

ويقول الدكتور المهندس " سامي عنقاوي " رئيس مركز أبحاث الحج " : عندما كنا نحفر في زمزم عند التوسعة الجديدة للحرم كنا كلما أخذنا من ماء زمزم زادنا عطاء ، فقمنا بتشغيل عدد من المضخات لكي نرفع الماء حتى يتيسر لنا وضع الأسس, وكلما نشفط المياه التي وصلت الى واحد وعشرين ألف لتر في الدقيقة تضخ مرة أخرى .

الأبحاث العلمية أكدت خلوه تماما من الجراثيم

وأضاف : قمنا بدراسة لماء زمزم من منبعه لنرى هل فيه جراثيم، فوجدنا أنه لا يوجد فيه جرثومة واحدة . . فهو نقي طاهر ليس فيه أدنى شيء, لكن قد يحدث نوع من التلوث بعد ذلك في استعمال الآنية أو أنابيب المياه أو الدلو فيأتي التلوث من غيره . ومن خصوصية ماء زمزم أيضا أنك تجده دائما فهو يعطي ويفيض منذ آلاف السنين إلى اليوم .

المصدر : إعداد فراج إسماعيل وحنان الزير نقلاً عن موقع قناة العربية : http

.

.

.

0-معجزة الجزيء

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

ما الذي يجعل الأشياء التي تراها حولك تختلف عن بعضها البعض ؟

ما الذي يميز ألوانها ، وأشكالها وروائحها ومذاقاتها ؟ لماذا تكون إحدى المواد ناعمة والأخرى صلبة والثالثة سائلة ؟

(177/774)

استناداً إلى ما قرأته حتى الآن، فقد تجيب على هذه الأسئلة بقولك : "إن الاختلافات الموجودة بين ذراتها هي السبب في ذلك" ولكن هذه الإجابة غير كافية، لأنه لو كانت الذرات هي السبب في تلك الاختلافات، لكان يجب أن تكون هناك بلايين الذرات التي

تحمل خواص مختلفة عن بعضها البعض ومن الناحية العملية، لا تسير الأمور على هذا النحو إذ إن هناك مواد عديدة تبدو مختلفة وتحمل خواص مختلفة على الرغم من احتوائها على الذرات نفسها ويرجع السبب في ذلك إلى اختلاف الترابطات الكيميائية التي تكونها الذرات فيما بينها لكي تصبح جزيئات وتعتبر الجزيئات الخطوة الثانية بعد الذرات في الطريق إلى المادة وتمثل الجزيئات أصغر الوحدات التي تحدد الخواص الكيميائية للمادة وتتكون هذه الأجسام الصغيرة من ذرتين أو أكثر، وبعضها يتكون من آلاف المجموعات من الذرات وتتماسك الذرات ببعضها البعض داخل الجزيئات بواسطة ترابطات كيميائية تحددها قوة الجذب الكهرومغناطيسية، مما يعني أن هذه الترابطات تتكون على أساس الشحنات الكهربائية للذرات وتتحدد الشحنات الكهربائية للذرات، بدورها، بواسطة الإلكترونات الموجودة على الغلاف الخارجي ويؤدي ترتيب الجزيئات في اتحادات مختلفة إلى تنوع المادة الذي نراه حولنا وتبرز عند هذه النقطة بالذات أهمية الترابطات الكيميائية التي تشكل جوهر تنوع المادة

الترابطات الكيميائية كما فسرنا آنفا ، تتكون الترابطات الكيميائية من خلال حركة الإلكترونات في الأغلفة الإلكترونية الخارجية للذرات وتميل كل ذرة إلى ملء غلافها الخارجي بأقصى عدد من الإلكترونات تستطيع أن تستوعبه وأقصى عدد من الإلكترونات يمكن أن تحتفظ به الذرة في أغلفتها الخارجية هو (8) إلكترونات وللوصول إلى هذا العدد ، إما أن تستقبل الذرات إلكترونات من ذرات أخرى لتستكمل الثمانية إلكترونات في أغلفتها الخارجية، وإما أن يكون لديها عدد أقل من الإلكترونات في أغلفتها الخارجية، فتعطيها لذرة أخرى، مما يؤدي إلى تكوين غلاف فرعي تم استكماله من قبل في مداراته الخارجية ويعتبر ميل الذرات إلى تبادل الإلكترونات القوة الأساسية المحرضة على الترابطات الكيميائية التي تكونها فيما بينها وتجدر الإشارة إلى أن هذه القوة الدافعة – أي هدف الذرات المتمثل في زيادة عدد الإلكترونات في أغلفتها الخارجية إلى الحد الأقصى – تحث الذرة على تكوين ثلاثة أنواع من الترابطات مع الذرات الأخرى، هي :

الترابط الأيوني ionic bond،والترابط التساهمي covalent bond، والترابط المعدني metallic bond وفي العادة، تعمل بين الجزيئات ترابطات خاصة تندرج تحت العنوان العام "الترابطات الضعيفة"weak bonds وتتسم هذه الترابطات بأنها أضعف من الترابطات التي تكونها الذرات من أجل تشكيل الجزيئات، لأن الجزيئات تحتاج إلى مزيد من التركيبات المرنة لتشكيل المادة دعونا الآن نبحث، باختصار، في خواص هذه

الترابطات وكيفية تكونها .

تعطي ذرة الصوديوم إلكترونها الخارجي لذرة الكلور فتصبح موجبة الشحنة . وبعد أن تحصل ذرة الكلور على الإلكترون، تصبح سالبة الشحنة . وتكوِّن الذرتان رابطة أيونية من خلال انجذاب هاتين الشحنتين المتضادتين نحو بعضهما البعض

الترابطات الأيونية

(179/774)

تقوم الذرات المتحدة بواسطة هذا الترابط بمقايضة الإلكترونات فيما بينها لتصل بعدد الإلكترونات في أغلفتها الخارجية إلى ثمانية إلكترونات وتقوم الذرات التي لديها ما يصل إلى أربعة إلكترونات في أغلفتها الخارجية بإعطاء هذه الإلكترونات إلى الذرة التي ستتحد معها ، أي التي ستترابط معها في حين تقوم الذرات التي لديها أكثر من أربعة إلكترونات في أغلفتها الخارجية باستقبال الإلكترونات من الذرات التي ستترابط معها وتتميز الجزيئات التي تتكون نتيجة لهذا النوع من الترابطات بتركيبات بلورية (تكعيبية) وتجدر الإشارة إلى أن جزيئات ملح الطعام المألوف (كلوريد الصوديوم) هي من بين المواد التي تتكون بواسطة

هذه الرابطة ولكن، ما سبب وجود هذا الميل لدى الذرات؟ وماذا كان يحدث لو لم يكن لديها هذا الميل؟ حتى اليوم، لا يمكن تعريف الترابطات التي تكونها الذرات إلا بعبارات عامة جداً ولم يُفهم حتى الآن السبب في تقيد الذرات بهذا المبدأ هل يمكن أن يكون السبب هو أن الذرات قررت بنفسها أن عدد الإلكترونات في أغلفتها الخارجية يجب أن يكون ثمانية؟ بالقطع لا، ذلك أن حدوث سلوك بمثل هذا القدر من الحسم يتخطى قدرات الذرة، لأنها لا تملك أي ذكاء أو إرادة أو وعي ويعتبر هذا العدد مفتاحاً لاتحاد الذرات من أجل تكوين الجزيئات التي تشكل الخطوة الأولى في خلق المادة وخلق الكون في النهاية ولو لم يكن لدى الذرات مثل هذا الميل وفقا لهذا المبدأ، لما كان هناك وجود للجزيئات، وبالتالي، للمادة ولكن، منذ اللحظة الأولى لخلق الذرات وهي تعمل بفضل هذا الميل على تكوين الجزيئات والمادة بطريقة متقنة

الترابطات التساهمية:

(180/774)

واجه العلماء الذين درسوا الترابطات بين الذرات وضعا مشوقاً ففي حين أن بعض الذرات تقايض الإلكترونات من أجل تكوين الترابطات، يتقاسم البعض الآخر الإلكترونات في

أغلفته الخارجية وقد كشف المزيد من البحث أن العديد من الجزيئات التي تحظى بأهمية حاسمة في الحياة تدين بوجودها إلى هذه الترابطات "التساهمية "دعونا نعطي مثالاً بسيطاً لتفسير الترابطات التساهمية بشكل أفضل كما ذكرنا آنفا في موضوع الأغلفة الإلكترونية، يمكن أن تحمل الذرات إلكترونين بحد أقصى في أغلفتها الإلكترونية الداخلية وتحتوي ذرة الهيدروجين على إلكترون واحد وتميل إلى زيادة عدد إلكتروناتها إلى اثنين لتصبح ذرة مستقرة لذلك، تكون ذرة الهيدروجين ترابطاً تساهمياً مع ذرة هيدروجين ثانية ويعني ذلك أن ذرتي الهيدروجين تتقاسمان إلكترونهما الوحيد بوصفه إلكتروناً ثانيا وبالتالي، يتكون جزيء (H_2) إذا تجمع عدد كبير من الذرات عن طريق تقاسم الإلكترونات فيما بينها ، يسمى ذلك

تكوِّن بعض الذرات جزيئات جديدة من خلال الترابط التساهمي الذي تتقاسم فيه إلكترونات مداراتها الخارجية

"بالترابط المعدني "إن المعادن مثل الحديد والنحاس والزنك والألومنيوم ... إلخ التي تشكل المادة الخام للعديد من الأدوات والآلات التي نراها حولنا أو نستخدمها في حياتنا اليومية، قد اكتسبت قواماً واقعياً وملموساً نتيجة للترابطات المعدنية التي كونتها الذرات التي تتألف منه .

ولا يستطيع العلماء الإجابة على السؤال التالي : لماذا يوجد مثل هذا الميل لدى الإلكترونات الموجودة في أغلفة الذرات ؟ .

إذ تدين الكائنات الحية بوجودها ، على نحو مثير جداً ، إلى هذا الميل .

هل تساءلت عن عدد المركبات المختلفة التي تستطيع هذه الترابطات أن تكونها ؟

(181/774)

تنتج في المختبرات مركبات جديدة كل يوم وفي الوقت الحالي، يمكن التحدث عن نحو مليوني مركب تقريبا ويمكن أن يكون أبسط مركب كيميائي بالصغر نفسه لجزيء الهيدروجين، في حين توجد مركبات أخرى تتكون من ملايين الذرات (1) ولكن، ما هو الحد الأقصى من المركبات المختلفة الذي يستطيع العنصر أن يكونه ؟

إن الإجابة على هذا السؤال مشوقة جداً لأنه، من ناحية، توجد عناصر معينة لا تتفاعل مع أي عناصر أخرى (الغازات الخاملة) ، في حين توجد ، من ناحية أخرى، ذرة الكربون التي تستطيع أن تكون 1,700,000 مركب وكما ورد آنفاً ، يصل إجمالي عدد المركبات إلى نحو مليوني مركب وتكون 108 عناصر من إجمالي 109 عناصر

300,000 مركب ومع ذلك، يكون الكربون وحده 1,700,000 مركب بطريقة

مدهشة جداً .

وحدة بناء الحياة :

ذرة " الكربون "يعتبر الكربون أكثر العناصر حيوية بالنسبة إلى الكائنات الحية، لأن جميع الكائنات الحيةتتركب من مركبات الكربون. ولن تكفي صفحات عديدة لوصف خواص ذرة الكربون، التي تلعب دوراً مهما للغاية في وجودنا ، كما أن علم الكيمياء لم يتمكن حتى الآن من كشف جميع خواصها وسنذكر هنا فقط بضعاً من خواص الكربون المهمة جداً تتكون تركيبات متنوعة مثل غشاء الخلية، وقرون ظبي الإلكة، وجذع الشجر الأحمر doowde وعدسة العين وسم العنكبوت من مركبات الكربون وينتج عن اتحاد الكربون بالهيدروجين والأكسجين والنيتروجين – بكميات وترتيبات هندسية عديدة ومختلفة – تشكيلة ضخمة من المواد التي يوجد اختلاف هائل بين خواصها إذن، ما هو السبب في قدرة الكربون على تكوين نحو 1,7 مليون مركب ؟ .

(182/774)

تتمثل إحدى أهم خواص الكربون في قدرته على تكوين سلاسل كيميائية بسهولة كبيرة من خلال صف ذرات الكربون الواحدة تلو الأخرى وتتكون أقصر سلسلة كربونية من ذرتي

كربون وعلى الرغم من عدم وجود رقم محدد لعدد الكربونات التي تتألف منها أطول سلسلة كربونية، فيمكننا أن نتحدث عن سلسلة بها سبعون حلقة وإذا علمنا أن الذرة التي تستطيع أن تكوِّن أطول سلسلة بعد ذرة الكربون هي ذرة السليكون التي تكون ست حلقات، سندرك بشكل أفضل الوضع غير العادي لذرة الكربون (2) ويرجع السبب في قدرة الكربون على تكوين سلاسل متعددة الحلقات إلى أن سلاسله ليست كلها طولية، فقد تكون السلاسل متفرعة، كما يمكن أيضا أن تشكل مضلعات polygons وعند هذه النقطة، يلعب شكل السلسلة دوراً مهما جداً ففي مركبين من الكربون، على سبيل المثال، إذا كان عدد ذرات الكربون متساوياً في كل منهما ولكن الاتحاد تم في سلاسل مختلفة الأشكال، ستتكون مادتان مختلفتان وتنتج عن خصائص ذرة الكربون المذكورة آنفاً جزيئات تلعب دوراً بالغ الأهمية في الحياة وتتكون بعض جزيئات مركبات الكربون من بضع ذرات فقط؛ في حين تتكون جزيئات أخرى من آلاف بل حتى ملايين الذرات ولا يوجد كذلك عنصر آخر مثل الكربون تتعدد استخداماته في تكوين جزيئات بمثل هذا القدر من التحمل والاستقرار وسنستشهد هنا بكلمات ديفيد بيرني David Burnie الواردة في كتابه الذي يحمل عنوان الحياة" Life الكربون عنصر غير عادي على الإطلاق وبدون وجود الكربون وخواصه غير العادية، كان من المستبعد أن توجد حياة على الأرض" (3)

ثلاثة جزيئات متشابهة

النتيجة : ثلاث مواد شديدة الاختلاف

يؤدي أي اختلاف في بضع ذرات بين الجزيئات إلى نتائج مختلفة للغاية . تمعن مثلا، في الجزيئين المكتوبين أدناه . يبدو كلاهما مشابها جدا للآخر باستثناء اختلافات صغيرة للغاية في عنصري الكربون والهيدروجين في كل منهما . وتكون النتيجة مادتين متضادتين تماما :

(183/774)

$C_{18}H_{24}O_2$ و $C_{19}H_{28}O_2$

هل تستطيع أن تخمن ماهية هذين الجزيئين ؟ دعنا نخبرك على الفور : الأول هو الإستروجين والآخر هو التستوستيرون . ويعني ذلك أن الأول هو الهرمون المسؤول عن خصائص الأنوثة وأن الثاني هو الهرمون المسؤول عن خصائص الذكورة . والأمر المثير للاهتمام هنا هو أنه حتى وجود اختلاف واحد في بضع ذرات يمكن أن يسبب اختلافات جنسية .

والآن إلقِ نظرة على الصيغة الموضحة أدناه

$C_6H_{12}O_2$

ألا يبدو هذا الجزيء شديد الشبه بجزيئات هرموني الإستروجين والتستوستيرون ؟

ولكن، ما هو هذا الجزيء ؟ هل هو هرمون آخر ؟ دعنا نجيب في الحال : هذا هو جزيء السكر .

ومن خلال أمثلة الجزيئات الثلاثة السابقة المكونة من عناصر من ذات النوع، يظهر بوضوح شديد كم هي متنوعة المواد التي يمكن أن تنتج عن الاختلاف في عدد الذرات . فمن ناحية، توجد الهرمونات المسؤولة عن الخصائص الجنسية، ومن ناحية أخرى، يوجد السكر، وهو طعام أساسي .

وفيما يتعلق بأهمية الكربون بالنسبة إلى الكائنات الحية، كتب الكيميائي البريطاني نيفيل سيدويك Nevil Sidgwick في كتابه العناصر الكيميائية

ومركباتها Chemical Elements and Their Compounds ما يلي " يعتبر الكربون عنصراً فريداً من بين العناصر من حيث عدد المركبات التي يمكن أن يكونها وتنوعها . فقد تم فعليا فصل أكثر من ربع مليون مركب ووصفها ، ولكن هذا يعطي فكرة ناقصة جدا عن قواه، لأنه يشكل أساسا لكل أشكال المادة الحية" (4) ويعرف نوع المركبات المكوَّن فقط من الكربون والهيدروجين باسم

"الهيدروكربونات" hydrocarbons" ويشمل هذا النوع عائلة ضخمة من المركبات تتضمن الغاز الطبيعي، والنفط السائل، والكيروسين وزيوت التشحيم ويشكل اثنان من

مركبات الهيدروكربونات هما الإيثيلين والبروبلين أساس الصناعة البتروكيمياوية وتعتبر بعض الهيدروكربونات مثل البنزين

(184/774)

الماس حجر ثمين للغاية، وهو أحد مشتقات الكربون الذي يوجد عادة في الطبيعة في غير ذلك من الأحوال في شكل جرافيت .

والتولوين والتربنتين مواد مألوفة بالنسبة إلى أي شخص يستخدم الطلاء ويعتبر النفتالين الذي يحمي ملابسنا من العثة شكلا آخر من أشكال الهيدروكربونات وتكوّن الهيدروكربونات التي تتحد مع الكلورين والفلورين مواد التخدير، والمواد الكيميائية المستخدمة في مطافئ الحريق والفريونات المستخدمة في التبريد وكما وضح الكيميائي سيدويك آنفا ، فإن العقل البشري غير قادر على إدراك إمكانيات هذه الذرة المكونة فقط من ستة بروتونات وستة نيوترونات وستة إلكترونات ومن المستحيل حتى بالنسبة إلى خاصية واحدة من خواص هذه الذرة، التي لا غنى عنها في الحياة، أن تتكون بالمصادفة فقد خلق الله ذرة الكربون، مثل كل شيء آخر، بطريقة تجعلها قادرة على التكيف المتقن مع أجسام الكائنات الحية، التي يحيط الله بكل ذرة من ذراتها (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا) سورة النساء : 126 .

ماذا سيحدث إذا تفاعلت على الفور كل ذرة موجودة على مقربة من ذرة أخرى ؟

لقد قلنا للتو إن الكون كله يتكون من تفاعل ذرات 109 عناصر مختلفة . وهنا ، لابد أن نذكر نقطة معينة، ألا وهي أن هناك شرطاً مهماً جداً ينبغي استيفاؤه لكي يبدأ التفاعل .

(185/774)

فعلى سبيل المثال، لايتكون الماء كلما اجتمع الأكسجين مع الهيدروجين، ولا يصدأ الحديد بمجرد أن يلامس الهواء . ذلك أنه لو سارت الأمور على هذا النحو، لَتحول الحديد ، هذا المعدن الصلب واللامع، خلال بضع دقائق إلى أكسيد الحديدوز، وهو مسحوق ناعم، ولما بقي على الأرض أي شيء يمكن أن يطلق عليه معدن ولاختل نظام العالم اختلالاً كبيراً . ولو كانت الذرات الموضوعة على مقربة من بعضها البعض على بعد مسافة معينة تتحد على الفور دون أن تستوفي شروطاً معينة، لتفاعلت ذرات أي مادتين مختلفتين في الحال . وفي تلك الحالة، سيستحيل عليك حتى أن تجلس على كرسي، لأن الذرات المكونة للكرسي ستتفاعل فورا مع الذرات المكونة لجسمك وسوف تصبح كياناً بين الكرسي والإنسان (!) . ولاشك في أن الحياة في مثل هذا العالم ستكون مستحيلة . ولكن، كيف يمكن تفادي

هذه النهاية؟

فلنضرب مثالاً: تتفاعل جزيئات الهيدروجين والأكسجين ببطء شديد عند درجة حرارة الغرفة، مما يعني أن الماء يتكون ببطء شديد عند درجة حرارة الغرفة. ولكن كلما ارتفعت درجة حرارة الغرفة ازدادت أيضا طاقات الجزيئات وتسارع التفاعل، وبالتالي تكوّن الماء بسرعة أكبر.

ويطلق على الحد الأدنى من الطاقة اللازم لتفاعل الجزيئات مع بعضها البعض "طاقة التنشيط" "energy activation". وعلى سبيل المثال، لكي تتفاعل جزيئات الهيدروجين والأكسجين مع بعضها البعض لتكوّن الماء، يجب أن تكون طاقاتها أعلى من طاقة التنشيط.

(186/774)

فكر قليلا. لو كانت درجة الحرارة على الأرض أعلى قليلا، لتفاعلت الذرات بسرعة كبيرة جدا، مما يعني تدمير التوازن الموجود في الطبيعة. ولو كان العكس صحيحا، أي كانت درجة الحرارة على الأرض أقل بعض الشيء، لتفاعلت الذرات ببطء شديد، مما يعني الإخلال أيضا بالتوازن الموجود في الطبيعة. ويتضح مما سبق أن المسافة الفاصلة بين

الأرض والشمس ملائمة تماماً لإبقاء الحياة على الأرض . وبالطبع، لا تنتهي التوازنات الدقيقة اللازمة للحياة عند هذا الحد . ذلك أن ميل محور الأرض، وكتلتها ، ومساحة سطحها ، ونسب الغازات الموجودة في غلافها الجوي، والمسافة بين الأرض والقمر الذي يدور حولها ، وعوامل عديدة أخرى يجب أن تكون مماثلة لمقاديرها الحالية بالضبط حتى تتمكن الكائنات الحية من البقاء على قيد الحياة . ويشير هذا إلى حقيقة أن كل هذه العوامل لا يمكن أن تكون قد تشكلت تدريجيا بمحض المصادفة وأنها جميعا من خلق الله، مالك القوة الفائقة، الذي يعرف كل خواص الكائنات الحية .

وكما هو معتاد ، فخلال تلك العمليات، لا يتعدى دور العلم تسمية القوانين الفيزيائية التي يلاحظها . وكما شرحنا في البداية، ففي حالة هذه الظواهر، تصبح أسئلة مثل "ماذا ؟"، و"كيف ؟"، و"بأية طريقة ؟" غير ذات أهمية . إذ إن ما يمكننا أن نتوصل إليه من خلال تلك الأسئلة ينحصر فقط حول تفاصيل قانون موجود بالفعل . أما الأسئلة الأساسية التي يجب أن تطرح فهي : "لماذا ؟" و"من الذي ابتكر هذا القانون ؟" وما زالت إجابة هذه الأسئلة تشكل لغزا بالنسبة إلى العلماء الذين يلتزمون بشكل أعمى بعقائدهم المادية .

وعند هذه النقطة، حيث يصل الماديون إلى طريق مسدود، تصبح الصورة واضحة جدا بالنسبة إلى الشخص الذي يتأمل الأحداث بعقله وضميره. ذلك أن التوازنات الموجودة في الكون التي لا تشوبها شائبة، والتي لا يمكن أن يتم تفسيرها من خلال المصادفات، نشأت بأمر من عقل وإرادة فائقة، كما ورد في الآية التالية، ﴿ . . . إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [سورة النساء : 86]، وأنه قد خلق كل شيء وفقا لحسابات، وترتيبات، وتوازنات دقيقة جدا .

الترابطات ما بين الجزيئات

الترابطات الضعيفة تتسم الترابطات التي توجد بين ذرات الجزيئات بقوتها الكبيرة مقارنة بهذه الترابطات الضعيفة ما بين الجزيئات ولكن هذه الترابطات يمكن أن تساعد في تكوين ملايين، بل بلايين الأنواع من الجزيئات حسنا، كيف تتحد الجزيئات لتكون المادة؟

(188/774)

وبما أن الجزيئات تستقر بعد تكوينها، فإنها لن تقايض الذرات بعد ذلك إذن، ما الذي يربطها ببعضها البعض؟ في محاولة للإجابة على هذا السؤال، وضع الكيميائيون نظريات مختلفة وقد أوضحت البحوث أن الجزيئات تستطيع أن تتحد بطرق مختلفة حسب خواص

الذرات التي تتركب منها وتحظى هذه الترابطات بأهمية بالغة في الكيمياء العضوية، أي كيمياء الكائنات الحية، لأن معظم الجزيئات المهمة لتشكيل الحياة تتكون بسبب قدرة هذه الجزيئات على تكوين هذه الترابطات دعونا نأخذ مثال البروتينات سنجد أن البروتينات التي تمثل وحدات بناء الكائنات الحية تتسم بأشكال معقدة ثلاثية الأبعاد، تتكون بسبب هذه الترابطات ويعني هذا أن الحاجة إلى الترابط الكيميائي الضعيف بين الجزيئات ليست أقل من الحاجة إلى الترابط الكيميائي القوي بين الذرات لتكوين الحياة ومما لا شك فيه أن قوة هذه الترابطات ينبغي أن تخضع لمعايير معينة ويمكننا أن نستكمل مثال البروتين إذ تتحد جزيئات تسمى الأحماض الأمينيةamino acids لتكوين البروتينات، التي هي جزيئات أكبر بكثير وتتحد الذرات المكونة للأحماض الأمينية بواسطة ترابطات تساهمية وتعمل الترابطات الضعيفة على اتحاد هذه الأحماض الأمينية بطريقة تجعلها تشكل أنماطا ثلاثية الأبعاد ولا تستطيع البروتينات أن تؤدي وظائفها في الكائنات الحية إلا إذا كانت تتسم بهذه الأنماط ثلاثية الأبعاد لذلك، لو لم يكن هناك وجود لهذه الترابطات، لما وجدت البروتينات، وبالتالي، لما وجدت الحياة ويؤدي الترابط "الهيدروجيني"، الذي هو نوع من الترابطات الضعيفة، دوراً رئيساً في تكوين المواد التي تحظى بأهمية بالغة في حياتنا فمثلا، تتحد الجزيئات المكونة للماء، الذي يشكل أساس الحياة، بواسطة الترابط الهيدروجيني.

المصدر: كتب هارون يحيى http : //www.harunyahya.com

الهوامش

1. L. Vlasov, D. Trifonov, 107 Stories About Chemistry, 1977, p. 117

---

2. L. Vlasov, D. Trifonov, 107 Stories About Chemistry, 1977, p. 118

3. David Burnie, Life, Eyewitness Science, London : Dorling Kindersley, 1996, p.8

4. Nevil V. Sidgwick, The Chemical Elements and Their Compounds, vol.1, Oxford : Oxford University Press, 1950, p.490

.

.

.

0-سمكة مكتوب عليها الله أكبر

قال الله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿ 20 ﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

صدق الله العظيم .

فلم يتناول قصة رائعة لاكتشاف مواطنة من سلطنة عمان سمكة مكتوب عليها عبارة الله أكبر الفلم مؤثر جدا نرجو تحميل الملف ونشره بين الأحبة

ملاحظة : حجم الملف حوالي 18 ميكا وهو عبارة عن ملف فيديوا مضغوط على برنامج ون رار يجب فكه بأحد برامج فك الضغط بعد تحميله على الجاهز

أضغط للتحميل

http : //www.55a.net/words/fish.rar

المصدر : القناة الفضائية لسلطنة عمان

.

.

.

0-احترس نبات مفترس ! !

الدكتور نظمي خليل أبو العطا

كان هذا عنوان محاضرة لأستاذنا الحبيب الذي كنا نتزاحم على محاضراته ونحبه لأنه ظريف يدرس وكأنه يحكي، ويقص علينا القصص العلمي, وييسر العلوم المعقدة بطريقة العالم المتقن الفاهم والوالد الحنون.

(190/774)

لا أنسى منظره في بسطة جسمه ونضارة وجهه وبسمته الجميلة، وهو يقص علينا قصة النبات الذي يخدع الإنسان ثم يفترسه ويقول: يصدر النبات صوت أنين خافت وحزين وكأن إنساناً في النزع الأخير يئن ويبكي، يجري الإنسان نحو الأنين، يفتش عن صاحب الأنين ولكن لا يجده، مازال صوت الأنين مستمراً، يقترب الإنسان نحو مصدر الصوت بهدوء، إنه قريب منه يئن، يصدر الصوت من تلك الشجرة الضخمة، يقترب منها يضع أذنيه ليسمع الصوت، وفجأة ينغلق عليه الباب وهو بداخله كما يفعل المصعد الكهربائي مع الصاعد المتسرع، يفاجأ الإنسان بالمشهد المرعب والعجيب، يصرخ ولكن لا مجيب، فقد أغلقت عليه الشجرة أبوابها وأنزلت عليه الأحماض منهمرة لتشل حركته، تحتضنه الشجرة حضن الموت إلى أن تطمئن لموته، وتبدأ في تحليل جسمه ثم التغذى عليه، وبعد مدة تفتح الباب وتلقي بهيكله العظمي المفتت خارج ساقها القاتل، هكذا قال لنا أستاذنا الدكتور

محمد كامل عبد المجيد طلبه، رئيس قسم الأحياء في كلية المعلمين (تربية عين شمس لاحقاً) بعدما كتب على السبورة بخطه الجميل : احترس 000 نبات مفترس ! ! ، ونحن في ذهول من العنوان العجيب، والوصف الأدبي الرائع لهذا الرجل العبقري .

وتدور الأيام وأضع صورة لضفدع قد افترسه نبات الديونيا وأكتب أسفل الصورة : عندما يفترس نبات الديونيا (Dionaea) تلك الضفدعة القافزة، فإنه يفرز عليها ثجاجاً من الأنزيمات القاتلة والمحللة، فتبدأ الضفدعة بالاستسلام والموت, ثم التحلل، وتدخل بعض مكوناتها الغذائية إلى خلايا النبات، متحولة إلى مركبات حيوية، وما ينتج عن هذه العملية من مركبات إخراجية يخرجها النبات خارج خلاياه .

وتسمى هذه العملية بالأيض (Metabolism) المشتمل على عمليتي البناء والهدم، ففي عملية البناء (Anabolism) يحول الكائن الحي المواد الغذائية إلى مكونات خلوية حية وحيوية ضرورية لنمو الكائن الحي واستمرار حياته .

(191/774)

أما في عملية الهدم (Catabolism) فتتحلل بعض مكونات الخلية الحية، وتخرج نواتج ذلك إلى خارج الخلية، أو تُبعد عن عمليات البناء فيها ، أو تُعاد إليها مرة أخرى .

وتعمل عمليات البناء والهدم في اتزان إلهي عجيب، يحفظ على الكائن الحي حياته والاستمرار فيها ، وعندما يختل هذا الاتزان الحيوي، فإن الكائن الحي يسير في طريق المرض أو الموت والفناء .

وهذه العمليات هي موضوع دراستنا في مساقي الأيض والاتزان حيا (212) وحيا (213) بإذن الله . هذا ما كتبته على الصفحة الأخيرة لكتاب الأيض والاتزان [1] للمرحلة الثانوية في مملكة البحرين [2] .

وأظنني في هذا الكلام قد تأثرت بأستاذنا الدكتور محمد كامل عبد المجيد طلبه رحمه الله، وأغرب ما في الأمر أن البعض اتهم هذه الصورة للنبات والضفدع أنها مركبة، إذ كيف يتسنى لهذا النبات الضعيف أن يفترس تلك الضفدعة القوية ؟ ! ولكن هذه هي الحقيقة فالنبات هنا يفترس الحيوان ليتغذى على لحمه .

والنباتات المفترسة أو اللاحمه مجموعة من النباتات موطنها الأصلي جزيرة مدغشقر وأواسط آسيا واستراليا ، وبعضها يباع في محلات بيع النبات والأزهار في البحرين والخليج العربي، وهي نباتات مستوردة من موطنها الأصلي أتت إلينا مع كل شيء مستورد في حياتنا ، وقد أدى انتشار البرامج العلمية في بعض المحطات الفضائية إلى عرض أفلام رائعة عن تلك النباتات، ولكن يعاب على هذه البرامج أن الذين أعدوها يقيمون تصوراتهم لنشأة الحياة بأنها نشأت بالصدفة والعشوائية، لذلك يسندون كل فعل حيوي إلى الكائن الحي،

وأنه طور نفسه للحياة الجديدة (1) , من هنا رأينا أن نعيد كتابة هذه الموضوعات على أساس من عقيدتنا في الخلْق ونشأة الحياة[3] .

(192/774)

والافتراس كما نعلم هو علاقة حيوية يجهز فيها كائن حي (مفترس) على كائن حي آخر (فريسه) ويتغذى عليه . ونحن تعودنا أن نرى الحيوان يفترس الحيوان أو الإنسان، ولكن ليس من الشائع أن نرى النبات يفترس الانسان ويقتنصه، وتعودنا أن نرى الانسان يقتنص الحيوان، والحيوان يقتنص الحيوان والانسان بآليات مختلفة، ولكن لم نتعود أن نرى النبات يقتنص الحيوان أو الانسان .

ومن العجيب أن ورقة النبات الرقيقة اللطيفة الجميلة في النبات قد هيأها الله سبحانه وتعالى مرة لتكون زهرة جميلة مختلفة الشكال والألوان[4], ويحولها مرة إلى شوكة قوية تدافع عن النبات، وإلى معلاق Tendril يتعلق به النبات على النبات والجدران، ومرة إلى مخزن لتخزين الغذاء، وأخرى إلى معدة وجهاز قنص يقتنص ويتغذى به النبات على الحيوان، علاوة على وظيفتها المعتادة في القيام بعملية البناء الضوئي Photosynthess بتثبيت الطاقة الضوئية، وشطر ثاني أكسيد الكربون

وتثبيت كربونه، وشطر الماء وتثبيت هيدروجينه وانطلاق أكسجينه، فسبحان الخالق القادر (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [طه50] .

وهذه المجموعة النباتية المفترسة تعيش في بيئات فقيرة في النيتروجين الضروري لبناء سيتوبلازمها وبروتينها ، وأنزيماتها ، وأغشيتها , وعضيتها , ولكن الرزاق لم ينساها , وساق إليها رزقها النيتروجيني في هذا الحيوان الذي تقتنصه وتتغذى عليه .

من هذه النباتات المفترسة :

نبات القدر أو الجرة (Nepenthes) :

(193/774)

ويسميه البعض بنبات السلوى لاحتوائه على السوائل السكرية[5]، وفيه تتحور الورقة إلى شكل جرة أو قدر له غطاء عمقه 30سم في بعض الأنواع وعرضه 12سم بحيث يسمح بدخول الحشرات الكبيرة، وبعض الطيور الصغيرة والزواحف، وللنبات ألوان زاهية, وروائحة زكية وبداخله سائل، وكل الطرق والتراكيب تهيأت لإغراء الفريسه واقتناصها ، فقمة القدر متدحرجة إلى الداخل وكل شئ يسمح بالمرور في اتجاه الداخل، ويحول دون المرور للخارج، والجدار الداخلية مغطاه بزوائد وحراشيف زلقة شمعية الملمس، وبعض

الزوائد المتدلاة للداخل كالحبال الهابطة إلى الوادي من أعلى الجبل، وفي قاع القدر بعض الماء المتجمع من افرازات الورقة وماء المطر، والمخلوط بالإنزيمات الهاضمة للبروتين، والكاوية للفريسة التي تفرزها مجموعة كبيرة من الغدد الداخلية عددها ستة آلاف غدة في كل سنتيمتر مربع، وبعد سقوط الفريسة في السائل ينغلق الغطاء عليها وتبدأ عملية القتل والهضم والامتصاص والتمثيل الغذائي للفريسه .

أما نبات الفخ أو الديونيا (Dionaea) :

فقد تحور نصل الورقة إلى صمامين متمفصلين عند العرق الوسطي، وفي حوافهما أشواك متبادلة الوضع في الصمامين، وعلى السطح العلوي للورقة زوائد استشعار باللمس، فعندما تلمس الفريسة، سواء أكانت حشرة أو ضفدعة، أو عصفور صغير, أو زاحف أصغر ينطبق المفصلان في سرعة خاطفة على الفريسة كما ينطبق الفخ الحديدي الذي يضعه الصياد للطيور والحيوانات، وبذلك تقتنص الورقة الفريسة وتحبسها في الفخ وتمنعها من الهرب والحركة، ثم تغرقها بالإنزيمات والسوائل الحارقة فتقتلها وتحللها , ثم تمتص عصارتها المهضومة والمتحللة، وبعد تمام امتصاص العصارة تفتح الورقة مصراعيها ملقية بالفضلات أسفل النبات، حيث تجد البكتيريا المحللة والفطريات الهاضمة رزقها فيه, وهكذا تعاد دورة الغذاء بافتراس حيوان جديد .

صورة لنبات الديونيا Dionaea

(194/774)

والغريب في الأمر أن النبات يستطيع تمييز الفريسة الصالحة للهضم والامتصاص بأنزيماته الخاصة عن الفريسة غير القابلة للهضم والامتصاص، فيمسك القابلة، ويطرد غير القابلة قبل أن تموت أو يفرز عليها العصارات الهاضمة .

ولا يكتفي النبات بالمصائد الهوائية السابقة بل هناك المصائد المائية التي تصطاد الحيوانات السابحة في الماء في أكياس مثانية (Bladders) ولكل مصيدة مثانية فتحة البواب المزودة بالملامس الاستشعارية، وعندما يلامس الحيوان تلك الملامس الاستشعارية يفتح الباب للداخل فيندفع الماء حاملاً الفريسة إلى داخل المثانة, حيث تحجز إلى أن يتم قتلها في هذا الجُب العميق وتحليلها وامتصاص عصارتها المهضومة .

ولقد حاول باحثوا نظرية التطور البحث في هذه النباتات المفترسة عن مبررات لتطويرها ونشأتها بالصدفة والعشوائية والطفرة والانتخاب الطبيعي، ولكن جاءت محاولاتهم غير علمية ولا تصمد أمام الحقائق الكونية .

فمن حور هذه الورقة من ورقة إلى ومصيدة، وجهاز تحليل وهضم وامتصاص (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان

من أعلم هذه النباتات أنها تحتاج إلى النتروجين وانها في بيئة فقيرة فيه ؟ ! هل لها عقل يفكر، هل عندها تفكير مدبر ؟ !

ومن انبأها أن هذه الحيوانات تحتوي النيتروجين الذي تفتقده في غذائها ، وأنها ستموت ان لم تحصل على هذا النيتروجين ؟

من أعطاها هذه الآليات المعجزة للاحساس والامساك والهضم والامتصاص ؟ !

ومن زودها بالإنزيمات الهاضمة للبروتين، وكل النباتات تحصل على نيتروجينها من البيئة الأرضية، فمن حول هذه النباتات إلى المصادر النتروجينية الحيوانية الحية ؟ !

يقولون الصدفة ؟

الصدفة توقع الحيوان في ورقة النبات، ولكن لاتهيء النبات للامساك بالحيوان, ولاتهيء الجهاز الانزيمي للنبات لهضم الحيوان .

(195/774)

لو أراد الانسان تخليق انزيم لهضم البروتين لاحتاج للخبراء والمصانع والمعامل والبحوث والمواد الكيمياوية ويعجز عن فعل ذلك .

فأين المصانع التي أجرى فيها النبات بحوثه ؟

وأين الخبراء ذو العلم الدقيق ليقدروا له ذلك ؟ !

لا إجابة علمية عقلية شرعية شافية سوى أن الخالق خلق هذا النبات، وأودع فيه علمه وقدرته، ليعلم الإنسان أن الله على كل شيء قدير .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿62﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [سورة غافر] .

[1] الأيض والاتزان

[2] نظمي خليل موسى وآخرون، البحرين : إدارة المناهج (1929م) .

[3] انظر كتاب نشأة الحياة، نظمي خليل أبو العطا وآخرون ,إدارة المناهج – البحرين (تحت الطبع)

– وكتاب نظرية التطور بين المؤيدين والمعارضين حيث ناقشنا فيه لأدلة العقلية والأدلة العلمية والأدلة العقلية على بطلان النظرية التطورية .

[4] الزهرة علمياً ساق تقاربت عقدها وسلامياتها وتحورت أوراقها للقيام بعملية التكاثر الزهري .

[5]النباتات اللاحمه، محمد فرج، الخفجي – العدد الرابع يوليو (1989م) (ص26)

.

– انظر النبات العام، أحمد مجاهد وآخرون (ص 100) .

.

.

.

0–عجائب التربة ديل سوارتزن دروبر*

عندما يسير سكان المدن بسيارتهم في الطرقات التي تخترق الريف والمزارع نجدهم يعجبون بالمحاصيل الزراعية ، وهم يعلمون أنها تخرج من الأرض ،ولكنهم قلما يعيرون التربة التي تنبتها جانباً من الاهتمام . وعلى نقيض ذلك يهتم الممتازون من الفلاحين والزراع بأنواع التربة وخواصها ،ولو أننا لا نتوقع من الغالبية منهم أن يقوموا بدارسة علمية لمادة التربة التي يتوقف عليها كسبهم ومستوى معيشتهم .

و التربة عالم يفيض بالعجائب ، ولكنها عجائب لا يستطيع أن يصل إلى كنهها أو يكشف أمرها إلا العلوم والدراسة العلمية ،و لذلك فإنني أحب أن أشير هنا إلى خواص التربة بإيجاز .

و قد لا يستطيع القارئ أن يتابعني بسهولة عند سرد بعض النواحي والمصطلحات الفنية ، إلا أنني واثق من أنه سوف يتفق معي في أن عالم التربة مليء بالعجائب كما أنه سوف تروعه تلك العلاقات المتشابهة العديدة التي لا يمكن أن تكون قد تمت إلا عن تصميم وإبداع ، ولا شك أن ذلك سوف يقود القارئ إلى التفكير في المبدع الأعظم .

فلننظر إلى التربة لكي نرى كيف تنتج من عوامل التعرية، وقد قسمت نواتج هذه العوامل إلى أقسام : فهنالك الطبقة المتخلفة السفلى تعلوها الكتل المتخلفة ثم فوق ذلك طبقة التربة .

وجميع الطبقات تنتج من عملية التفتيت والتكسير التي تسببها عوامل التعرية . وللتربة أهمية خاصة بالنسبة لنا لأنها مصدر المواد الغذائية الهامة التي يحصل عليها النبات في أثناء نموه ، كما أنها ضرورية لتثبيت النباتات الأرضية فوق سطح الأرض

فعندما تتعرض الصخور النارية لعوامل التفتت تزول عنها تدريجياً القواعد القابلة للذوبان في الماء مثل الكلسيوم والماجنيزيوم والبوتاسيوم ، وتتبقى أكاسيد السليكون والألومونيوم والحديد مكونة الغالبية الكبرى من التربة ، ولا يحب هذه العملية انخفاض كبير في المنسوب الفسفوري ، بينما يترتب عليها عادة ارتفاع في نسبة النيتروجين .

ويؤدي تحلل عناصر السليكات الأصلية بتأثير عوامل التفتت هذه إلى تكون الصلصال ، ويشتمل الصلصال في المناطق المعتدلة والباردة على نسبة كبيرة من السليكات غير المتبلورة وعلى كميات ضئيلة من غير السليكات ، أما في المناطق الاستوائية فترتفع في الصلصال نسبة الأكاسيد الطليقة والأكاسيد المائية والألومونيوم .

(197/774)

ومن الخواص الهامة للصلصال قدرته على تبادل الأيونات الموجبة (الكتيونات) ، إذ تمكنه هذه الخاصية من الاحتفاظ بالقواعد القابلة للذوبان واللازمة لنمو النبات ويؤدي ذلك إلى عدم انخفاض نسبة هذه المواد بالتربة انخفاضاً كبيراً أو انعداماً كلياً ، ومن ذلك نرى أن عمليات التفتت تؤدي من جهة إلى فقدان بعض المواد القاعدية القابلة للذوبان ،ولكنها تقدم في نفس الوقت طريقة أخرى للمحافظة على هذه المواد .

ولا يتسع المقام لتناول العناصر الغذائية الأخرى اللازمة لحياة النبات فلننظر إذن إلى مشكلة أخرى وهي كيف الله المدبر الأعظم هيأ الظروف المناسبة لنمو النباتات في الأحقاب الجيولوجية القديمة ، وعلم على استمرار حياتها وبقائها .

فإذا سلمنا بأن هذه النباتات القديمة كان لها نفس الاحتياجات الغذائية مثل النباتات

الحالية ، فلابد أن تكون القواعد القابلة للذوبان وكذلك المواد الفسفورية قد وجدت بكميات أكبر مما توجد عليه الآن . أما بالنسبة للنيتروجين فإن الوضع يختلف ، فالنباتات تحتاج إلى قدر كبير من المواد النيتروجينية ، ومع ذلك فإن قدرة التربة القديمة على الاحتفاظ بهذه المواد كانت ضعيفة . فكيف كانت النباتات الأولى تحصل إذن على حاجاتها من النيتروجين ؟

هنالك شواهد تدل على أن الصخور النارية التي لم تتأثر بعوامل التفتت تحتوي على قدرة من النتروجين النشادري . ومن الممكن أن تكون النباتات الأولى قد استفادت من هذا المصدر . ولكن هنالك مصادر أخرى غير ذلك ، هنالك البرق مثلاً ، وقد يظن كثير من الناس أن البرق يؤدي إلى تكوين أكاسيد النيتروجين التي تحصل عليها التربة بهذه الطريقة في صورة نترات بما يقرب من خمسة أرطال للفدان الواحد سنوياً ، وهو ما يعادل ثلاثين رطلاً من نترات الصوديوم ، وهذه كمية تكفي لبدء نمو النباتات .

(198/774)

ويلاحظ أن كمية النيتروجين الذي يثبته البرق تكون في المناطق الاستوائية أكثر منها في المناطق الرطبة ، وهذه بدورها تزيد على الكمية التي تتكون في المناطق الصحراوية .

و من ذلك نرى أن النتروجين يوزع على المناطق الجغرافية المختلفة بصورة متفاوتة تبعاً لمدى احتياج كل منطقة منها لهذا العنصر الهام .

فمن الذي دبر كل ذلك ؟ إنه المدبر الأعظم .

وعندما نتحدث عن المدبر الأعظم ، هل من الممكن أن نستدل بما بين النباتات والتربة من علاقات متشابكة وتوافق عجيب متشابكة وتوافق عجيب على وجود تدبير وغرض واضح في الطبيعة ؟ إننا لا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال دون أن نتدبر مقتضياته بالنسبة لدائرة العلوم كلها .

إن العلماء قد لا يستطيعون أن يتفقوا على تعريف واحد للطريقة العلمية ، ولكنهم متفقون جميعاً على أن العلوم تستهدف كشف قوانين الطبيعة . ولابد للمشتغل بالعلوم أن يسلم أولاً بوجود هذه القوانين حتى لا يكون متناقضاً مع نفسه . وقد أصبح من المحال أن ينكر أحد وجود هذه القوانين بعد اكتشاف الإنسان الكثير منها في ضمن ميادين البحث ومن الطبيعي أن يتساءل الإنسان بعد كل ذلك : لماذا وجدت هذه القوانين ؟ ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ،ومن بينها التربة والنبات ، تلك العلاقات العديدة التي تتسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين مما يؤدي إلى تحقيق النفع والفائدة ؟

إننا نعترف بأننا وقد وصلنا إلى هذا الحد من التفكير قد اقتربنا من الحد الفاصل بين العلوم والفلسفة . فكيف نفسر كل ذلك النظام والإبداع الذي يسود هذا الكون ؟

هنالك حلان : فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة، وهو مالا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، ومالا يتفق في الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم . وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر ، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق . وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره .

وأنا واثق أن الأخذ بهذا الرأي سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعة وقوانينها ، ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية ويظنون أن النظريات التي يصلون إليها في تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينها ولكن هنالك من المسوغات ما يدعو إلى الاعتقاد أن ما وصلنا إليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس إلا تفسيرات مؤقتة ، وليست لها صفة الإطلاق أو الثبات . فإذا ما سلمنا بهذا الرأي تضاءل خطر المعارضين في غرضية الكون أو وجود غاية منه ، فمما لاشك فيه أن هنالك حكمة وتصميماً وراء كل شيء سواء في السماء التي فوقنا أو الأرض التي من تحتنا . إن إنكار وجود المصمم والمبدع الأعظم يشبه في

تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الإنسان حقلاً يموج بنباتات القمح الصفراء الجميلة ثم ينكر في نفس الوقت وجود الفلاح الذي زرع والذي يسكن في البيت الذي يقوم بجوار الحقل .

*.إختصاصي فيزياء التربة.حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة أبووا .أستاذ بجامعة كاليفورنيا .عضوا جمعية علم التربة أمريكا .اختصاصي في تركيب التربة وحركة الماء بها .

المصدر : عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . . "fقلم : جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة .

.

.

.

0-تأملات في عالم الذرة

بقلم الداعية التركي هارون يحيى

تركيب الذرة

إن الهواء والماء والجبال والحيوانات والنباتات وجسمك والكرسي الذي تجلس عليه، وباختصار، كل شيء تراه، وتلمسه، وتشعر به من أثقل الأشياء إلى أخفها مكون من ذرات وتشتمل كل صفحة من صفحات الكتاب الذي تمسك به في يدك على بلايين الذرات والذرات هي جسيمات دقيقة جداً يستحيل أن يراها المرء حتى باستخدام أقوى الميكروسكوبات ويبلغ قطر الذرة نحو جزء من مليون جزء من المليمتر ولا يمكن للإنسان أن يتصور هذا الحجم لذلك، دعونا نحاول أن نفسره بمثال تخيل أنك تحمل مفتاحا في يدك لا شك في أنك من المستحيل أن ترى الذرات الموجودة في هذا المفتاح وإذا قلت إنك ينبغي أن ترى الذرات، فيجب عليك حينئذ أن تكبر المفتاح الموجود في يدك حتى يصل إلى حجم العالم وبمجرد أن يصبح المفتاح الموجود في يدك بحجم الأرض، تكون كل ذرة من الذرات الموجودة داخل المفتاح بحجم حبة الكرز (1) دعونا نضرب مثالاً آخر لفهم مدى دقة الذرات وكيف أن كل مكان وكل شيء مليء بالذرات : لنفترض أننا نريد أن نحصي جميع الذرات الموجودة في حبة ملح واحدة، ولنفترض أيضا أننا قادرون أن نحصي بليون (1,000,000,000) ذرة في الثانية على الرغم من مهارتنا الكبيرة، فإننا نحتاج إلى

أكثر من خمسمائة سنة لنحصي عدد الذرات الموجودة داخل حبة الملح بالغة الصغر (2)

إذن، ماذا يوجد داخل هذه البنية الصغيرة؟ على الرغم من أن حجم الذرة صغير جداً، فإنها تحتوي على نظام فريد ومعقد وخال من الأخطاء يمكن مقارنته من حيث التطور بالنظام الذي نراه في الكون ككل.

مجموعة من ثلاثة كواركات – تكوِّن بروتوناً – في قلبها أوتار

تتكون البروتونات والإلكترونات من مجموعات ثلاثية الكواركات.

ذرة

(201/774)

وتتكون كل ذرة من نواة وعدد من الإلكترونات تتحرك في أغلفة مدارية تبعد مسافة كبيرة جدا عن النواة وتوجد داخل النواة جسيمات أخرى تسمى البروتونات والنيوترونات وفي هذا الفصل، سنلقي نظرة على التركيب غير العادي للذرة التي تمثل أساس كل شيء حي

وغير حي، وسنرى كيف تتجمع الذرات لتكون جزيئات وفي النهاية، مادة.

القوة الخفية

(202/774)

في النواة توجد النواة في وسط الذرة بالضبط وتتألف من عدد معين من البروتونات والنيوترونات حسب خصائص تلك الذرة ويبلغ نصف قطر النواة نحو جزء من عشرة آلاف جزء من نصف قطر الذرة وللتعبير عن ذلك بالأعداد، يبلغ نصف قطر الذرة 10^{-8} (0,00000001) سم، في حين يبلغ نصف قطر النواة 10^{-12} (0,000000000001) سم ومن ثم، يساوي حجم النواة جزءاً من عشرة بلايين جزء من حجم الذرة وبما أننا لا نستطيع أن نتصور هذا الاتساع (من الأفضل أن نقول : الدقة) ، دعونا نرجع إلى مثالنا الخاص بحبة الكرز فلنبحث عن النواة داخل الذرات التي تصورناها في حجم حبة الكرز عندما تم تكبير المفتاح الموجود في يدك حتى أصبح في حجم الأرض ولكن مثل هذا البحث لن يكون مجدياً، لأنه حتى بهذا المقياس، يستحيل علينا تماماً أن نرى النواة، التي ما زالت صغيرة جداً وإذا أردنا حقا أن نراها، يجب علينا أن نغير المقياس مرة أخرى إذ ينبغي أن تتمدد حبة الكرز التي تمثل ذرتنا مرة أخرى وتصبح

في حجم كرة قطرها مائتا متر وحتى بهذا المقياس الذي لا يصدق، لن يزيد حجم نواة ذرتنا عن حجم حبة غبار صغيرة جداً (3) وعندما نقارن نصف قطر النواة البالغ 10-12سم بنصف قطر الذرة البالغ10-8 سم، سنصل إلى النتيجة التالية : إذا افترضنا أن الذرة كرة وأردنا أن نملأ هذه الكرة كلها بالنوى، فسنحتاج إلى10-15 (0,000000000000001) نواة (4) ومع ذلك، يوجد شيء آخر أكثر إثارة للدهشة؛ فعلى الرغم من أن حجم النواة يساوي جزءاً من عشرة بلايين جزء من حجم الذرة، فإن كتلة النواة تشكل 99,95%من كتلة الذرة كيف يعقل أن شيئاً يكاد يشكل كتلة معينة بأكملها ، في حين أنه، من ناحية أخرى، لا يكاد يشغل أي حيز ؟ السبب يكمن في أن الكثافة المكونة لكتلة لذرة ليست موزعة بالتساوي على الذرة بأكملها ، وهو ما يعني أن كتلة الذرة كلها تقريباً مجمعة في النواة. فلنقل أن لديك منزلاً مساحته 10 بلايين متر مربع وأنك

(203/774)

مضطر لأن تضع جميع

أثاث المنزل في غرفة مساحتها متر مربع واحد هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ بالطبع لن

تستطيع ولكن النواة الذرية تستطيع أن تفعل ذلك بفضل قوة هائلة لا تشبه أية قوة أخرى في الكون وهذه القوة هي "القوة النووية الشديدة"، إحدى القوى

تتكون البروتونات والنيوترونات في نواة الذرة من جسيمات أصغر تسمى الكواركات الأساسية الأربع في الكون التي ذكرناها في الفصل السابق. لقد أشرنا إلى أن هذه القوة، أشد القوى في الطبيعة، تحافظ على النواة سليمة وتمنعها من التجزؤ إلى قطع صغيرة. إذ إن جميع البروتونات في النواة شحناتها موجبة، ومن ثم فهي تتنافر عن بعضها البعض بسبب القوة الكهرومغناطيسية ومع ذلك، تصبح هذه القوة الكهرومغناطيسية بلا فعالية نتيجة للقوة النووية الشديدة، التي هي أقوى 100 مرة من القوة التنافرية بين البروتونات، وهكذا تظل البروتونات متماسكة ولتلخيص ما سبق، توجد قوتان عظميان تتفاعلان مع بعضهما البعض داخل الذرة التي هي من الصغر بمكان بحيث يتعذر علينا رؤيتها وتستطيع النواة أن تحافظ على تماسكها ككل بفضل القيم الدقيقة لهاتين القوتين وعندما نتأمل حجم الذرة وعدد الذرات الموجودة في الكون، يستحيل علينا ألا نلاحظ وجود قدر هائل من التوازن والتصميم الفعالين ومن الجلي للغاية أن القوى الأساسية في الكون قد خلقت بطريقة خاصة جداً وبقدر عظيم من الحكمة والقوة ولا يلجأ أولئك الذين يرفضون الإيمان بالله إلى أكثر من الادعاء بأن كل هذه الأشياء قد نشأت نتيجة "مصادفات" ومع ذلك، فإن الحسابات

العلمية للاحتمالات تضع "صفرًا" لاحتمال نشوء التوازنات الموجودة في الكون "بالمصادفة" وتعتبر كل هذه الأشياء أدلة واضحة على وجود الله وكمال خلقه قال الله تعالى : (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ) سورة الأنعام : 80 .

الفراغ داخل الذرة

(204/774)

كما ذكرنا آنفاً ، يتكون الجزء العظيم من الذرة من الفراغ. وهذا يدعو الجميع إلى التفكير في السؤال نفسه : لماذا يوجد مثل هذا الفراغ؟ دعونا نفكر تتكون الذرة، بتعبيرات بسيطة، من نواة تدور حولها إلكترونات، ولا يوجد شيء آخر بين النواة والإلكترونات وفي الواقع، تعتبر هذه المسافة الميكروسكوبية "التي لا يوجد فيها شيء" مسافة كبيرة بالمقياس الذري ويمكننا أن نضرب مثلا على هذا المقياس على النحو التالي : إذا كانت رخامة صغيرة قطرها سنتيمتر واحد تمثل الإلكترون الأقرب إلى النواة، ستكون النواة على بعد كيلومتر واحد من هذه الرخامة (5) ويمكننا أن نستشهد بالمثال التالي لتوضيح هذا الحجم بشكل أكبر في أذهاننا : يوجد فراغ كبير بين الجسيمات الأساسية وإذا اعتبرتُ بروتون نواة ذرة الأكسجين هو رأس الدبوس الموجود على الطاولة أمامي، فسيرسم الإلكترون الذي

يدور حوله دائرة تمر بهولندا وألمانيا وأسبانيا (يعيش كاتب هذه السطور في فرنسا) ومن ثم، إذا تجمعت كل الذرات المكونة لجسدي معاً بحيث أصبحت متقاربة إلى حد تستطيع معه ملامسة بعضها البعض، لن تتمكن من رؤيتي أبداً وفي الواقع، لن تتمكن أبداً من رؤيتي بالعين المجردة، لأنني سأكون آنذاك في صغر جسيم الغبار الدقيق الذي يبلغ حجمه بضع أجزاء من ألف جزء من المليمتر".18 وعند هذه النقطة، ندرك أن هناك تشابها بين أكبر الفراغات المعروفة في الكون وأصغرها فعندما نديرأعيننا نحو النجوم، نرى مرة أخرى فراغاً مشابها للفراغ الموجود في الذرات، إلا أن الفراغات الموجودة بين النجوم وبين المجرات تبلغ بلايين الكيلومترات. ومع ذلك، يسود في كلا هذين النوعين من الفراغات نظام يتخطى حدود فهم العقل البشري.

(205/774)

في الرسم البياني على الجهة اليسرى، ترى أربعة أنواع مختلفة من مدارات الإلكترونات، حسب الحركة الموجية. وتتحرك الإلكترونات في المدارات بالطريقة نفسها تقريبا التي تتحرك بها الكواكب حول الشمس حسب خواص جسيماتها. وتحول حركات الإلكترونات المختلفة هذه دون رؤيتها بوضوح

داخل الذرة

البروتونات والنيوترونات كان يُعتقد ، حتى عام ،1932 أن النواة تتكون فقط من البروتونات والإلكترونات واكتشف بعد ذلك أن ما يوجد في النواة إلى جانب البروتونات ليس إلكترونات بل نيوترونات (أثبت العالم الشهير تشادويك Chadwick في عام 1932 وجود النيوترونات داخل النواة وحصل على جائزة نوبل عن اكتشافه هذا)

وهكذا لم تتعرف البشرية على التركيب الحقيقي للذرة حتى هذا التاريخ القريب لقد ذكرنا من قبل مدى صغر نواة الذرة ويبلغ حجم البروتون القادر على أن يُوَجد داخل النواة الذرية 10-15 متراً .

وقد تعتقد أن مثل هذا الجسيم الصغير ليس له أي مغزى في حياة المرء ومع ذلك، فإن هذه الجسيمات التي تعد من الصغر بمكان بحيث لا يمكن للعقل البشري أن يدركها هي التي تشكل أساس كل شيء تراه حولك .

مصدر التنوع في الكون

لقد تم تحديد 109 عناصر حتى الآن وتجدر الإشارة إلى أن الكون كله، وأرضنا، وجميع الكائنات الحية وغير الحية تتكون نتيجة ترتيب المائة والتسعة عناصر هذه في اتحادات متنوعة وقد رأينا، حتى هذا الحد، أن جميع العناصر مؤلفة من ذرات تشبه بعضها البعض وتتألف، بدورها من الجسيمات نفسها ولكن، إذا كانت جميع الذرات التي تتكون منها العناصر مؤلفة من الجسيمات نفسها، فما الذي يجعل العناصر تختلف عن بعضها البعض ويتسبب في تكوين مواد متنوعة لا حدود لها ؟ إن عدد البروتونات في نوى الذرات هو الذي يفرق أساساً بين العناصر إذ يوجد بروتون واحد في ذرة الهيدروجين، أخف العناصر، وبروتونان في ذرة الهليوم، ثاني أخف العناصر، و79 بروتونا في ذرة الذهب، و8 بروتونات في ذرة الأكسجين، و26 بروتوناً في ذرة الحديد ومن ثم، فإن ما يفرق الذهب عن الحديد والحديد عن الأكسجين ببساطة هو اختلاف أعداد البروتونات في ذراتها ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الهواء الذي نتنفسه وأجسادناً والنباتات والحيوانات والكواكب في الفضاء والأشياء الحية وغير الحية والمر والحلو والصلب والسائل وكل شيء في هذا الكون ... يتألف في النهاية من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات .

الخط الفاصل للوجود المادي : الكواركات

حتى 20 عاما مضت، كان الاعتقاد السائد أن أصغر الجسيمات التي تتألف منها الذرات هي البروتونات والنيوترونات ولكن اكتُشف، في وقت قريب جداً، أن في الذرة جسيمات أصغر بكثير تقوم بتكوين الجسيمات المذكورة آنفا وقد أدى هذا الاكتشاف إلى ظهور فرع في الفيزياء يسمى "فيزياء الجسيمات"Particle Physics" يبحث في "الجسيمات دون الذرية"sub-particles" الموجودة داخل الذرة وحركاتها المحددة وقد كشفت البحوث التي أجريت في فيزياء الجسيمات أن البروتونات والنيوترونات التي تتألف منها الذرة تتكون فعلياً من جسيمات دون ذرية تسمى "الكواركات""quarks" ولا بد أن نذكر هنا أن أبعاد الكواركات المكونة للبروتون، الذي يتخطى في صغر حجمه كل قدرات العقل البشري على التخيل، تثير قدرا أكبر من الدهشة: 10-18 (0,000000000000000001) متراً ولا يمكن أبداً للكواركات الموجودة داخل البروتونات أن تنفصل عن بعضها البعض لمسافات كبيرة جداً لأن "القوة النووية الشديدة" المسؤولة عن المحافظة على تماسك الجسيمات داخل النواة تمتد فعاليتها إلى هناك أيضاً، إذ تعمل هذه القوة كشريط مطاطي بين الكواركات؛ فكلما زادت المسافة بين الكواركات، زادت أيضا هذه القوة بحيث لا يستطيع أي كواركين أن يبتعدا عن بعضهما البعض لأكثر من جزء من كوادريليون جزء من المتر وتتكون هذه

الشرائط المطاطية بين الكواركات بواسطة جلوونات gluons تمتلك القوة النووية الشديدة ويوجد تفاعل قوي جداً بين الكواركات والجلوونات ومع ذلك، لم يتمكن العلماء حتى الآن من اكتشاف كيفية حدوث هذا التفاعل وهناك بحوث يتم إجراؤها حاليا في مجال "فيزياء الجسيمات" للكشف عن عالم الجسيمات دون الذرية ولكن، على الرغم من كل الذكاء، والوعي، والمعرفة الموجودة لدى البشرية، فإننا لم نتمكن إلا مؤخراً من اكتشاف الجسيمات الأساسية الحقيقية التي تكون كل شيء، بما في ذلك أنفسنا. وفضلا عن ذلك، كلما نقبنا في هذه

(208/774)

الجسيمات، زادت التفاصيل المرتبطة بهذا الموضوع، مما يضعنا في موقف حرج عند حدود أبعاد الكواركات التي تبلغ 10-18 مترا إذن، ما الذي يوجد وراء هذه الحدود ؟ يقترح العلماء اليوم فرضيات متنوعة لهذا الموضوع، ولكن كما ذكرنا آنفا، يعتبر هذا الحد أبعد مرحلة تم التوصل إليها حتى الآن في الكون المادي ولا يمكن التعبير عن كل الأشياء الموجودة وراء هذه النقطة إلا بوصفها طاقة، وليست مادة ولكن النقطة المهمة فعلا هي أن الإنسان يجد، في موقع لم يتمكن من اكتشافه إلا في وقت قريب جداً، رغم كل الوسائل

التكنولوجية الموجودة تحت تصرفه، توازنات وقوانين فيزيائية هائلة تعمل فعلياً مثل الساعة وعلاوة على ذلك، يوجد هذا الموقع داخل الذرة، التي تشكل وحدة بناء كل المادة الموجودة في الكون، والبشر كذلك لقد بدأ الإنسان في وقت قريب جداً في التعرف على الآلية المتقنة التي تعمل دون توقف في أعضاء جسمه وأجهزته وهو لم يكتشف آليات الخلايا المكونة لهذه التركيبات إلا منذ بضعة عقود فقط ولكن الخلق الفائق الجلي في الذرات الموجودة في أساس الخلايا ، والبروتونات والنيوترونات داخل الذرات، والكواركات داخل هذه الجسيمات يصل إلى درجة من الإتقان تثير ذهول الجميع، سواء كانوا من المؤمنين بالله أم من غير المؤمنين به وتتمثل النقطة الأساسية التي يجب التأمل فيها هنا في أن كل هذه الآليات المتقنة تعمل بطريقة منتظمة في كل ثانية طوال حياة الإنسان، دون أي تدخل منه، ودون أن تخضع لسيطرته بتاتاً ومن الحقائق البديهية لكل من يستخدم ضميره وحكمته أن كل هذه الآليات قد خلقها الله سبحانه وتعالى، مالك القوة والعلم الفائقين، وأنها خاضعة له) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (سورة الرحمن : 29-30

الجانب الآخر من الذرات

الإلكترونات

الإلكترونات هي جسيمات تدور حول نواة الذرة مثلما تدور الأرض حول محورها وحول الشمس أيضا وتحدث عملية الدوران هذه، الشبيهة بتلك التي تقوم بها الكواكب، بشكل متواصل وبطريقة متقنة في مسارات تسمى المدارات ولكن التناسب بين حجم الأرض والشمس مختلف تماماً عن المقياس الذري فلنعقد مقارنة بين حجم الإلكترونات وحجم الأرض إذا قمنا بتكبير الذرة حتى تصل إلى حجم الأرض، سيكون الإلكترون في حجم التفاحة (6) إن عشرات الإلكترونات التي تدور في مساحة من الصغر بمكان بحيث تتعذر رؤيتها حتى باستخدام أقوى الميكروسكوبات تتسبب في حركة مرور معقدة جداً داخل الذرة ومن أكثر النقاط اللافتة للنظر هنا أن هذه الإلكترونات المحيطة بالذرة مثل درع من الشحنات الكهربائية لا تتعرض ولو لحادثة صغيرة وفي الواقع، فإن أي حادث صغير داخل الذرة من شأنه أن يتسبب في حدوث كارثة بالنسبة إليها ومع ذلك، لا يحدث مثل هذا الحادث مطلقاً، وتسير العملية بأكملها دون أخطاء ذلك أن الإلكترونات التي تدور حول النواة بسرعة مربكة للعقل تبلغ 1,000 كم/الثانية لا تتصادم أبدا ببعضها البعض ومن المدهش حقا أن هذه الإلكترونات، التي لا تختلف عن بعضها البعض في شيء، تدور في مدارات منفصلة، ومن الواضح أن ذلك نتيجة "خَلْق واع" فلو كانت لهذه الإلكترونات كتل وسرعات مختلفة، فربما كان من الطبيعي بالنسبة إليها أن تستقر في مدارات مختلفة

حول النواة فعلى سبيل المثال، تسير الكواكب في نظامنا الشمسي وفقا لهذا المنطق، لأن من الطبيعي أن تستقر الكواكب ذات الكتل والسرعات المختلفة تماماً في مدارات مختلفة حول الشمس ولكن وضع الإلكترونات في الذرة مختلف تماماً عن وضع تلك الكواكب فالإلكترونات متشابهة تماماً ولكنها تدور في مدارات مختلفة حول النواة، ولكن كيف تتبع الإلكترونات هذه المسارات دون إخفاق ؟ وكيف لا تصطدم ببعضها البعض على الرغم من أبعادها متناهية الصغر وسرعاتها المدهشة التي

(210/774)

تتحرك بها ؟ وتقودنا هذه الأسئلة إلى نقطة واحدة : تتجسد الحقيقة الوحيدة التي نواجهها في هذا النظام الفريد والتوازن الدقيق في الخلق المتقن الذي أبدعه الله سبحانه وتعالى (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سورة الحشر : 24 .

الإلكترونات هي جسيمات صغيرة تبلغ تقريبا جُزأَين من الألف من حجم النيوترونات والبروتونات وتحتوي الذرة على العدد نفسه من الإلكترونات والبروتونات، ويحمل كل إلكترون شحنة سالبة (–) تساوي الشحنة الموجبة (+) التي يحملها كل بروتون ويؤدي

إجمالي الشحنات الموجبة (+) في النواة وإجمالي الشحنات السالبة (–) في الإلكترونات إلى إلغاء بعضها البعض فتصبح النواة متعادلة الشحنة وتقوم الشحنة الكهربائية التي تحملها الإلكترونات بإجبارها على إتباع قوانين فيزيائية معينة ويتمثل أحد القوانين الفيزيائية هذه في أن "الشحنات الكهربائية المتشابهة تتنافر عن بعضها البعض والشحنات المتضادة تجذب بعضها البعض" .

(211/774)

أولاً ،في الظروف الاعتيادية، يتوقع من الإلكترونات، سالبة الشحنة، أن تتنافر عن بعضها البعض وفقا لهذه القاعدة وأن تنطلق بعيداً عن النواة ولكن هذا لا يحدث ذلك أنه إذا تناثرت الإلكترونات بعيدًا عن النواة، فسيتألف الكون من بروتونات، ونيوترونات، وإلكترونات عاطلة تجوب الفراغ ثانيا ، يتوقع من النواة موجبة الشحنة أن تجذب الإلكترونات سالبة الشحنة، ومن ثم تلتصق الإلكترونات بالنواة وفي هذه الحالة، ستجذب النواة جميع الإلكترونات وتنفجر الذرة إلى الداخل ومع ذلك، لا يحدث أي من تلك الأشياء ذلك أن سرعات الإفلات غير العادية للإلكترونات المذكورة آنفا (1,000كم/ الثانية) ، والقوة التنافرية التي تؤثر بها على بعضها البعض، وقوة الجذب التي تؤثر بها النواة على

الإلكترونات مبنية على قيم دقيقة جداً تؤدي إلى توازن هذه القوى الثلاث المتضادة مع بعضها البعض بشكل متقن ونتيجة لذلك، يعمل هذا النظام المدهش الموجود داخل الذرة دون أن ينهار ولو كانت واحدة فقط من هذه القوى المؤثرة في الذرة أشد أو أضعف قليلاً مما يجب أن تكون عليه، لما كان للذرة أي وجود وبالإضافة إلى هذه العوامل، فلو لم يكن هناك وجود للقوى النووية التي تربط البروتونات والنيوترونات ببعضها البعض، لما تسنى حتى للبروتونات التي تحمل شحنات متساوية أن تقترب من بعضها البعض، ناهيك عن الارتباط ببعضها البعض داخل نواة وبنفس الطريقة، لما تمكنت النيوترونات أبدا من الالتصاق بالنواة ونتيجة لذلك، لما كانت هناك أية نواة، وبالتالي، أية ذرة وتشير كل هذه الحسابات الدقيقة إلى أنه حتى الذرة الواحدة ليست عاطلة بل تتصرف تحت سيطرة كاملة من الله سبحانه وتعالى ولو لم تكن الحال كذلك، لكان من الحتمي أن ينتهي الكون الذي نعيش فيه قبل أن يبدأ وكانت هذه العملية ستأتي بنتائج عكسية منذ البداية ولم يكن الكون ليتكون ومع ذلك، فقد وضع الله، خالق كل شيء، المقتدر القوي، توازنات دقيقة جدا

(212/774)

داخل

الذرة – شأنها شأن كل التوازنات الأخرى في الكون – ما زالت الذرة بفضلها مستمرة في الوجود بنظام متقن لقد بذل العلماء أقصى جهودهم على مدى السنين لإيجاد حل لسر هذا التوازن الذي وضعه الله، وقد انتهوا إلى مجرد تحديد مسميات معينة لظواهر مرصودة مثل "القوة الكهرومغناطيسية"، و"القوة النووية الشديدة"، و"القوة النووية الضعيفة"، و"قوة جذب الكتل" ... ولكن لم يفكر أي أحد في السؤال "لماذا ؟" ... لماذا تعمل هذه القوى عند شِدّات معينة وفقا لقواعد معينة ؟ لماذا يوجد كل هذا التوافق الكبير بين هذه المجالات التي تخضع لهذه القوى، وشِدّاتها، والقواعد التي تتبعها ؟ لقد أصيب العلماء باليأس في مواجهة كل هذه الأسئلة لأن كل ما يستطيعون فعله هو تخمين الترتيب الذي جرت به هذه الأحداث ومع ذلك، فقد نشأت عن بحوثهم حقيقة غير قابلة للجدال ألا وهي : إن كل نقطة في الكون تكشف عن تدخل مالك الحكمة والإرادة الذي لا يترك حتى ذرة واحدة عاطلة وتوجد قوة واحدة تبقي كل القوى مع بعضها البعض في توافق، وهذه القوة هي الله سبحانه وتعالى، مالك كل القدرة والقوة ويبدي الله قوته أينما يشاء ووقتما يشاء وهكذا، فإن بقاء الكون كله في الوجود، من أصغر الذرات إلى المجرات اللانهائية، مرهون فقط بمشيئة الله وحفظه ويقول الله في محكم آياته إنه لا قوة غير قوته، ويبين عقاب أولئك الذين يفترضون، دون إدراك لهذا، أن مخلوقات الله التي لا حول لها ولا قوة (سواء

كانت حية أو غير حية) تمتلك من دونه قوة وقدرة ذاتية، وينسبون لها صفات إلهية (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) سورة البقرة : 165 .

(213/774)

وحتى الآن، لم يستطع أي عالم أن يفسر سبب القوى الموجودة في الذرة ومصدرها ، ومن ثم تلك الموجودة في الكون، والسبب في أن بعض القوى تعمل في ظروف معينة ولا يفعل العلم شيئا غير تسجيل الملاحظات، والقياسات، وتعيين "أسماء" لها وتعد مثل هذه "التسميات" اكتشافات عظيمة في دنيا العلوم وفي الواقع، إن ما يقوم به العلماء ليس محاولة لتكوين توازن جديد في الكون أو بناء نظام جديد وإنما هو مجرد جهد لفهم سر التوازن الجلي في الكون وتوضيحه وإن ما يفعله هؤلاء العلماء في الغالب هو مجرد رصد لواحدة من عجائب خلق الله في الكون، التي لا حصر لها ، وتعيين اسم لها ويحصل العلماء الذين يكتشفون نظاما أو تركيبا فائقا من خلق الله على جوائز علمية متنوعة، ويحظون باحترام الآخرين وإعجابهم وفي هذه الحالة، فإن من يستحق الاحترام حقا هو، بلا شك، الله

الرحمن الرحيم، الذي أوجد هذا النظام حينما كان عدما ، وزوده بتوازنات بالغة الدقة، الله الذي يخلق معجزات غير عادية ولا نهاية لها (إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) سورة يونس : 6 .

الجسيمات المسرَّعة

المسرِّعات وأجهزة التصادم

يمكن دراسة الجسيمات التي هي وحدات بناء المادة من خلال البحث في الجسيمات التي تصغر الذرة بملايين المرات . ولا يمكن إجراء البحوث على هذه الجسيمات بالغة الصغر إلا باستخدام أدوات تجريبية في غاية الضخامة والتعقيد خاصة بفيزياء الجسيمات . ولا يمكن التحكم في مثل هذه التجارب شديدة التعقيد إلا من خلال الاستخدام المكثف لأجهزة الكمبيوتر .

(214/774)

ويجب أن نشير هنا إلى أن فيزياء الجسيمات عالية الطاقة هي مجال من المجالات العلمية التي تدرس وحدات بناء المادة والتفاعلات التي تحدث بينها . وتمكننا التجارب الأخيرة التي

أُجريت باستخدام التكنولوجيا الحديثة المتقدمة من الإسراع في توسيع معارفنا حول تركيب المادة. وتجرَى بحوث فيزياء الجسيمات في مختبرات مسرِّعات الجسيمات التي يبلغ قطرها عدة كيلومترات. وفي مسرِّعات الجسيمات، تُسرَّع الجسيمات المشحونة – معظمها من البروتونات والإلكترونات – لتصل إلى سرعات كبيرة جدا في مجال كهرومغناطيسي ثم تُوجَّه إلى حجرة غيمية cloud chamber. وبعد ذلك، تجبَر الجسيمات المسرَّعة على الاصطدام إما بأهداف ثابتة أو ببعضها البعض. وتتم دراسة الجسيمات المبعثرة الناتجة عن هذه التصادمات باستخدام نظم كشف متنوعة.

(215/774)

ومن خلال تكنولوجيات المسرِّعات ونظم الكشف، التي تطورت كثيرا بدءاً من خمسينيات القرن العشرين وما بعدها، أصبحت التصادمات عالية الطاقة ممكنة. ولا شك في أن دراسة هذه التصادمات بنظم الكشف المتقدمة قد مهدت الطريق لاكتشاف حقيقة أن البروتونات والنيوترونات، المعروف عنها أنها أساس المادة، تحتوي على تركيبات دون ذرية مؤلفة من جسيمات تسمى الكواركات. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن القياسات التي أُجريت عند مستويات الطاقة العالية أتاحت الفرصة للعلماء لكي يدرسوا

تركيب المادة عند مسافات تصل في صغرها إلى جزء من مائة جزء من نصف قطر البروتون . ولا توجد مختبرات المسرِّعات إلا في بضع مراكز عالمية، لأن تكلفة إنشائها وتشغيلها باهظة جداً . وأهم هذه المختبرات هي : مختبر سيرن CERN (جنيف) ، ومختبر ديسي DESY (هامبورج) ، ومختبر فيرميلاب – فنال –Fermilab FNAL (شيكاغو) ، ومختبر إس . إل . سي SLC (كاليفورنيا) . وتشارك في هذه المراكز مجموعات كبيرة من فيزيائيي الطاقة العالية لإجراء دراسات تجريبية لمعرفة أسرار الذرة . ومن بين هذه المختبرات، يوجد مختبر إس . إل . سي الذي يبلغ قطره 35 كم ومختبر سيرن الذي يبلغ قطره 27 كم . ومع ذلك، فإن البطل الحقيقي في مسابقة الحجم هذه هو المشروع الأمريكي إس . إس . سي SSC الذي يجري إنشاؤه في قلب تكساس بالولايات المتحدة، والذي يبلغ محيط قطره نحو 85 كم . وتزداد تكلفة المعدات بتناسب مباشر مع الحجم (بالنسبة إلى مختبر إس . إس . سي، سيصل هذا الرقم إلى نحو 6 بلايين دولار تقريباً) (8)

يستخدم مختبر سيرن لفيزياء الجسيمات أنبوبا طوله 100 كم يمتد تحت الأرض في دائرة قطرها 27 كيلومترا . ويتم في البداية تسريع الجسيمات داخل هذا الأنبوب الطويل، ثم تجبَر بعد ذلك على الاصطدام ببعضها البعض إن مختبر سيرن لفيزياء الجسيمات هو مركز بحوث دولي يقع على الحدود السويسرية – الفرنسية، وقد أنشئ هذا المختبر بعضوية 19 دولة أوروبية . ويدور موضوع البحث الرئيسي لهذا المختبر حول التركيب الأساسي للمادة والجسيمات الرئيسية المكونة لهذا التركيب . ويعمل في هذا المختبر نحو 3000 فيزيائي، ومهندس، وفني، وإداري، ويزوره أكثر من 6000 فيزيائي لأغراض بحثية .

مدارات الإلكترونات

(217/774)

إن وجود عشرات الإلكترونات، التي تلف وتدور في منطقة لا يمكن ملاحظتها حتى باستخدام أقوى الميكروسكوبات، ينشأ عنه حركة مرورية معقدة داخل الذرة كما ذكرنا من قبل ومع ذلك، تسير حركة المرور هذه بنظام بالغ يفوق أكثر حركات المرور نظاما داخل المدن ويجعلها فوق مستوى المقارنة بها . ولا تصطدم الإلكترونات ببعضها البعض أبدا، لأن لكل إلكترون مدارا منفصلا وهذه المدارات لا تلتقي عند نقطة مشتركة أبدا وتوجد

سبعة أغلفة إلكترونية حول نواة الذرة وقد تم تحديد أعداد الإلكترونات في هذه الأغلفة الإلكترونية السبعة، التي لا تتغير أبداً، بواسطة معادلة رياضية هي : $2n^2$ ومن خلال هذه المعادلة، يتحدد الحد الأقصى من الإلكترونات، الذي يمكن أن يوجد في كل غلاف إلكتروني محيط بالذرة (يوضح الحرف n في المعادلة رقم الغلاف الإلكتروني (إن الالتزام الدقيق للأعداد اللانهائية للأغلفة الإلكترونية للذرات المكونة للكون بنفس العدد من الإلكترونات وفقا للمعادلة $2n^2$ يعد دليلا على النظام كما أن عدم حدوث أي فوضى داخل الذرة على الرغم من حركة الإلكترونات بسرعات لا تصدق يعد دليلاً آخر على هذا النظام الفريد ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعزى هذا النظام إلى المصادفة ويتمثل التفسير الوحيد لوجود هذا النظام في أن الله خلق كل شيء بنظام وتوافق لإظهار قدرته كما ورد في القرآن الكريم ويشير الله جل جلاله في آيات القرآن إلى هذا النظام الذي خلقه :

(قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) سورة الطلاق : 3

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) سورة الفرقان : 2

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) سورة الرعد : 8-9

)

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ سورة الحجر : 19

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) سورة الرحمن : 5

(وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (سورة الرحمن : 7

وكما تكشف الآيات، فإن الله، رب العالمين، هو الذي يخلق كل شيء بنسب، ومقاييس، ونظم متقنة وتشمل هذه النسب والمقاييس عالم الكائنات كله من أصغر الجسيمات دون الذرية إلى الأجرام السماوية العملاقة في الفضاء : أي النظم الشمسية والمجرات وكل شيء بينهما وقد نشأ كل ذلك نتيجة لقدرة الله وعلمه وإبداعه وحكمته المطلقة ويجلِّي الله سبحانه وتعالى صفاته للبشر فيما يخلقه من الكائنات والنظم بمقاييس ونظم وتوازنات متقنة ويبدي قوته اللانهائية أمام أعيننا هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتوصل إليها الإنسان من خلال جميع البحوث والحسابات العلمية

موجة أم جسيم ؟

(219/774)

عندما اكتشفت الإلكترونات لأول مرة، كان يُعتقد أنها جسيمات مثل البروتونات والنيوترونات الموجودة في النواة ولكن في التجارب اللاحقة، اكتشف أنها تظهر خصائص موجية مثل الجسيمات الضوئية، أي، الفوتونات photons وفيما بعد ، توصل فيزيائيو الكم إلى استنتاج بأن كل جسيم هو في الوقت نفسه شكل موجي له تردده المميز له ومن المعروف أن الضوء ينتشر بطريقة شبيهة بانتشار الموجات الصغيرة التي تتكون على سطح الماء عند إلقاء حجر في بحيرة. ومع ذلك، يحمل الضوء أحيانا خصائص جسيم المادة ويظهر في شكل نبضات متفرقة ومتقطعة مثل قطرات المطر الساقطة على زجاج النافذة وقد لوحظ أن الإلكترون لديه أيضا هذه الطبيعة المزدوجة، مما أدى إلى حدوث ارتباك كبير في دنيا العلوم وبفضل الكلمات التالية لريتشارد فينمان Richard Feynman، أستاذ الفيزياء النظرية الشهير، اختفى كل هذا الارتباك : نحن نعرف الآن كيف تتصرف الإلكترونات والضوء ولكن ماذا يمكنني أن أسمي ذلك ؟ إذا قلت إنهما يتصرفان مثل الجسيمات فسأعطي انطباعا خاطئًا ؛ وكذلك الحال إذا قلت إنهما يتصرفان مثل الموجات ذلك أنهما يتصرفان بطريقة فريدة خاصة بهما ، يمكن أن تُسمّى تقنيا بالطريقة

تدور الإلكترونات في مدار معقد للغاية داخل الذرة . وعلى الرغم من أن هذا المكان

الصغير تتشكل فيه بيئة أكثر ازدحاما بكثير من حركة المرور بالمدينة، فإنه لا يقع فيه أي حادث على الإطلاق

(220/774)

الكمية الميكانيكية فهما يتصرفان بطريقة لم يُر مثلها قط ··· فالذرة لا تتصرف مثل ثقل متدل من زنبرك يتذبذب، كما أنها لا تتصرف مثل صورة مصغرة من النظام الشمسي مع وجود كواكب صغيرة تدور في مدارات وهي أيضا لا تبدو مثل نوع من سحاب أو ضباب يحيط بالنواة إنها تتصرف بطريقة لم يُر مثلها قط ويوجد إيضاح واحد لذلك على الأقل، وهو أن الإلكترونات تتصرف في هذا الصدد بالطريقة نفسها التي تتصرف بها الفوتونات بالضبط؛ فكلاهما يتصرف بغرابة، ولكن بنفس الطريقة بالضبط لذلك، يتطلب إدراك طريقة تصرفهما قدراً كبيراً من التخيل، لأننا سنصف شيئاً مختلفاً عن أي شيء عرفته في حياتك" (9) ونتيجة لعجز العلماء التام عن تفسير سلوك الإلكترونات، فقد أطلقوا، كحل للمعضلة، اسماً جديداً على هذا السلوك هو : "الحركة الكمية الميكانيكية" "Quantum Mechanical Motion" دعونا نستشهد مرة أخرى بالأستاذ فينمان الذي يوضح في الكلمات التالية الطبيعة غير العادية لهذا السلوك وما يحس به من

رهبة تجاه هذا السلوك : " لا تظل تقول لنفسك، إذا كان باستطاعتك أن تتجنب ذلك، "ولكن كيف يمكن أن تسير الأمور كذلك ؟" لأنك "ستضيع وقتك هباء"، وستدخل نفسك في زقاق مظلم لم يفلت منه أحد حتى الآن لا أحد يعرف كيف يمكن أن تسير الأمور كذلك" (10) ولكن الزقاق المظلم الذي يشير إليه فينمان هنا ليس كذلك في الواقع إذ يكمن السبب الذي يجعل بعض الأشخاص غير قادرين أبدا على اكتشاف مخرج من هذه الورطة في أنه على الرغم من كثرة الأدلة، فإنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا أن هذه النظم والتوازنات المدهشة قد أوجدها الله جل جلاله والوضع في غاية الوضوح؛ فقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون عندما كان عدماً ، وزوده بتوازنات غير عادية، وأوجده دون أن يستعين بأي مثال سابق "كيف يمكن أن تسير الأمور كذلك ؟" ... تكمن الإجابة على سؤال العلماء هذا ، الذي يتعذر حله، وفهمه، في حقيقة أن الله هو

(221/774)

خالق كل

شيء وأنه لا يمكن أن يوجد أي شيء في الكون إلا بأمره "كن "

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) . سورة البقرة :

.117

العالم مليء بألوان تفتَحُ الإلكتروناتُ بوابا تِها

هل فكرت في أي وقت من الأوقات كيف ستكون الحال لو أنك عشت في عالم بدون ألوان ؟ حاول أن تتخيل جسدك، الناس المحيطين بك، البحار، السماء، الأشجار، الزهور، باختصار، كل شيء أسود إنك لن ترغب أبداً في العيش في عالم كهذا، أليس كذلك ؟ ولكن، ما الذي يجعل الأرض غنية بالألوان ؟ ما الذي يؤدي إلى نشوء الألوان، التي تضفي على عالمنا جمالا غير عادي ؟ .

توجد خصائص معينة في طبيعة المادة تسمح لنا بإدراك الأجسام بالألوان إذ تتكون الألوان نتيجة طبيعية لحركات معينة للإلكترونات داخل الذرة وهنا قد تسأل نفسك :

"وما علاقة حركات الإلكترونات بالألوان ؟"

دعونا نفسر هذه العلاقة باختصار

(222/774)

لا تدور الإلكترونات في غير أغلفتها الإلكترونية وقد ذكرنا من قبل أن هناك سبعة أغلفة إلكترونية ولكل غلاف إلكتروني مستوى محدد من الطاقة، يختلف حسب بُعد الغلاف

عن النواة وكلما اقترب الغلاف الإلكتروني من النواة، قلت طاقة إلكتروناته وكلما ابتعد الغلاف عن النواة، زادت طاقة إلكتروناته ولكل غلاف إلكتروني "أغلفة فرعية" "sub-shells"، تتحرك فيما بينها إلكترونات هذا الغلاف باستمرار ويحتاج الإلكترون إلى طاقة خارجية لكي يستطيع أن ينتقل إلى الخارج بين الأغلفة ويتمثل مصدر هذه الطاقة في "الفوتون" وبعبارات بسيطة، الفوتون هو "جسيم ضوئي" وكل نجم في الكون هو مصدر للفوتونات ويتجسد أهم مصدر للفوتونات في عالمنا ، بالطبع، في الشمس وتنتشر الفوتونات من الشمس في جميع أرجاء الفضاء بسرعة 300,000كم في الثانية وعندما تصطدم هذه الفوتونات القادمة إلى الأرض من الشمس بذرات الأجسام الموجودة على الأرض، تبدأ إلكترونات الذرات أحيانا في الانتقال وإذا استطاعت الإلكترونات القادرة على الانتقال بمساعدة هذه الطاقة أن ترتفع إلى غلاف ذي مستوى طاقة أعلى ثم تعود بعد ذلك إلى غلافها الأصلي، عندئذ ينبعث منها فوتون يقوم بتشكيل اللون الذي سيقابل أعيننا وتجدر الإشارة إلى أن كل عملية من هذه العمليات التي أوجزناها في الجمل القليلة المذكورة آنفاً ظلت مستمرة منذ بدء الخليقة دون انقطاع وتعمل كل خطوة بانتظام وفقا لخطة عظيمة وإذا لم يعمل جزء واحد فقط من هذا التفاعل القائم بين الإلكترونات والفوتونات، فسينتج عن ذلك كون مظلم بلا ألوان دعونا مرة أخرى نعدد هذه الخطوات التي يجب أن تعمل وفقا للخطة الموضوعة حتى يتكون كون مُلوَّن بدلا من كون مظلم :

1 . ينتشر الضوء القادم من الشمس إلى الأرض في شكل جسيمات فوتونية تنتشر حول الأرض وتصطدم بذرات المواد .

(223/774)

---

2 . لا تستطيع الفوتونات أن تتنقل لمسافة طويلة داخل الذرات، فتصطدم بالإلكترونات التي تدور حول النواة .

3 . تمتص الإلكترونات هذه الفوتونات التي تصطدم بها .

4 . عندما تكتسب الإلكترونات طاقة الفوتونات التي تمتصها ، تقفز إلى غلاف آخر ذي مستوى أعلى من الطاقة .

5 . تحاول هذه الإلكترونات أن تعود إلى حالاتها الأصلية

6 . وأثناء رجوعها إلى أغلفتها الأصلية، تُطلق فوتونات مشحونة بالطاقة

7 . تحدد هذه الفوتونات التي تُطلقها الإلكترونات لون ذلك الجسم

(224/774)

وتلخيصا لما سبق، يتشكل لون الجسم في الواقع من مزيج من هذه الجسيمات الضوئية التي يمتصها هذا الجسم ثم يطلقها وتصل إلى أعيننا وتجدر الإشارة هنا إلى أن لون الجسم – الذي لا ينبعث منه هو نفسه ضوء بل يعكس الضوء الذي يحصل عليه من الشمس – يعتمد على كل من الضوء الذي يحصل عليه والتغيير الذي يُحدثه في هذا الضوء وإذا كان الجسم المنار بالضوء الأبيض يظهر "أحمر" اللون، فإن ذلك يرجع إلى أنه يمتص جزءا كبيرا من المزيج الذي يصل إليه من أشعة الشمس وينبعث منه اللون الأحمر فقط وعندما نقول "يمتص"، فإننا نعني التالي : كما ذكرنا من قبل، فإن كل غلاف إلكتروني تتبعه أغلفة فرعية وإلكترونات تنتقل بين هذه الأغلفة الفرعية ويقابل كل غلاف مستوى محدد من الطاقة، وتحمل الإلكترونات أقصى قدر من الطاقة يسمح به مستوى طاقة الغلاف الذي تدور فيه وتتسم الأغلفة الأبعد مسافة عن النواة بمستوى أعلى من الطاقة وعندما يتوفر حيز لإلكترون واحد في غلاف أعلى، يختفي الإلكترون فجأة، ثم يعاود الظهور مرة أخرى في الغلاف الفرعي الذي يتسم بمستوى أعلى من الطاقة ولكن لكي يقوم الإلكترون بهذه الخطوة، يجب أن يرفع مستوى طاقته إلى المستوى المطلوب في الغلاف الذي سيقفز إليه ويزيد الإلكترون من مستوى طاقته عن طريق امتصاص (ابتلاع) الجسيمات الفوتونية القادمة من الشمس ويمكننا أن نوضح الموقف أكثر بضرب بضعة أمثلة. دعونا نتأمل فراشة مورفو Morpho Butterfly .

تقوم الأصباغ الموجودة على الفراشة بامتصاص ضوء الشمس كله ولكنها تعيد إطلاق اللون الأزرق فقط. وعندما تصل جسيمات الضوء الخاصة بهذا اللون المنعكس إلى شبكية العين، تتحول إلى إشارات كهربائية بواسطة الخلايا المخروطية الموجودة في الشبكية بحيث يتم إدراكها بوصفها لونا أزرق ثم تنتقل إلى الدماغ وفي النهاية، يتكون اللون الأزرق في الدماغ ويعني هذا أن لون الجسم يتوقف على خصائص الضوء المنبعث من مصدر الضوء وكمية الضوء التي يقوم الجسم موضع البحث بإعادة إطلاقها فمثلا، لون الفستان يختلف تحت ضوء الشمس عنه في المتجر وإذا كان دماغنا يدرك جسما بوصفه أسود، فإن هذا يعني أن ذلك الجسم يمتص كل الضوء القادم من الشمس ولا يعكس منه شيئا إلى الخارج وبنفس الطريقة، إذا عكس الجسم كل الضوء القادم من الشمس ولم يمتص منه أي جزء، يدركه دماغنا بوصفه أبيض وفي هذه الحالة، تتمثل النقاط التي تحتاج إلى دراسة متأنية فيما يلي

تصل إلى الأرض من الشمس تشكيلة كبيرة جدا من الأشعة. وكما هو مبين في الطيف

الكهرومغناطيسي بالجهة اليسرى، نحن لا ندرك سوى نسبة صغيرة جدا من هذه الأشعة.

1. يتوقف لون الجسم على خصائص الضوء المنبعث من مصدر الضوء.

2. يتوقف لون الجسم على رد فعل إلكترونات الجزيئات الموجودة في تركيبه، من حيث نوع الضوء الذي ستمتصه هذه الإلكترونات والنوع الذي لن تمتصه.

3. يتوقف لون الجسم على كيفية إدراك دماغنا للفوتون الذي يصطدم بالشبكية. دعونا نتوقف هنا ونفكر مرة أخرى.

(226/774)

إن الإلكترونات التي تدور بسرعة مدهشة حول نواة الذرة، التي هي عبارة عن مادة أصغر من أن ترى بالعين المجردة، تختفي فجأة من أغلفتها وتقفز إلى مكان آخر يسمى الغلاف الفرعي ولا بد أيضا من وجود فراغ على الغلاف الفرعي ليستوعب هذه الوثبة وتحصل الإلكترونات على الطاقة التي تحتاجها أثناء هذه العملية عن طريق امتصاص الفوتونات، ثم تعود مرة أخرى إلى مداراتها الأصلية وأثناء هذه العملية، تتكون الألوان التي تدركها العين البشرية وبالإضافة إلى ذلك، فإن الذرات التي يتم التعبير عن أعدادها بآلاف البلايين تظل

تقوم بهذه العملية كل لحظة، وبفضل هذه العملية نستطيع أن نرى "صورة" غير متقطعة ولا يمكن مقارنة هذه الآلية الرائعة بطريقة عمل أية آلة من صنع الإنسان فعلى سبيل المثال، تتميز الساعة في حد ذاتها بآلية معقدة جدا، وينبغي أن توضع كل أجزاء الساعة (التروس، والأقراص، والمسامير الملولبة، والصواميل، إلخ) في الأماكن الصحيحة وبالطريقة الصحيحة لكي تعمل الساعة كما ينبغي وأصغر مشكلة في هذه الآلية تؤدي إلى إعاقة عمل الساعة ولكن، عندما نفكر في

(227/774)

تركيب الذرة وآلية عمل الإلكترونات المذكورة آنفا، فإننا ندرك بشكل أفضل بساطة تركيب الساعة وكما قلنا، تتسم آلية الإلكترونات بقدر فائق من التعقيد، والإتقان، والخلو من العيوب بحيث لا يمكن مقارنتها بأي نظام من صنع الإنسان ولا يوجد أدنى شك في أن وجود نظام بهذا القدر من التعقيد المربك للذهن وعمله بمنتهى الإتقان لم يحدث تلقائيا نتيجة المصادفة، كما يدعي العلماء الماديون ودعونا الآن نطرح السؤال التالي : إذا رأيت أثناء سيرك في الصحراء ساعة ملقاة تعمل على سطح الأرض، هل ستعتقد أن هذه الساعة قد تكونت من الغبار والرمال والتراب والأحجار بمحض المصادفة ؟ لن يعتقد

أحد ذلك، لأن دقة التصميم والحكمة المستخدمة في الساعة واضحة جدا ومع ذلك، فإن التصميم والحكمة الموجودين في ذرة واحدة، كما ذكرنا آنفا، يفوقان على نحو لا يضاهَى نظيريهما في أية آلة من صنع الإنسان ومالك هذه الحكمة هو الله، صاحب العلم الأعلى، الذي يعلم، ويرى، ويخلق كل شيء لقد خلق الله في كل " مكان" ما يمكن أن نراه وما لا يمكن أن نراه بإبداع فني لا حدود له، ومنَّ علينا بنعم سخرها لخدمتنا، سواء أدركنا وجودها أم لم ندرك لقد لفت التقدم العلمي انتباهنا إلى موضوع الألوان بكل تفاصيله وتعقيداته التي لم نكن نعرف عنها شيئًا من قبل، ولم نشعر بالحاجة لمعرفة شيء عنها ولا يمكن إنكار أن التقدم والتطور العلميين لا بد أن يقودا كل من يستخدم حكمته وضميره إلى الإيمان بوجود الله وعلى الرغم من ذلك، فما زال هناك أشخاص ينكرون الحكمة والإبداع الفني الفائق الملاحَظ في كل مكان من الكون لقد أبدى العالم المعروف، لوي باستور Louis Pasteur، ملاحظة مشوقة حول هذا الموضوع، إذ قال : "إن قلة العلم تبعدك عن الله ولكن كثرته تجذبك إليه" (11) وكلما تعلم الإنسان المزيد عن أمثلة الخلق المحيطة به، أدرك بشكل أفضل أن الله محيط به من كل اتجاه، فالله هو الذي يدبر الأمور في السماء

والأرض،

ويتحكم في كل شيء. وسيفهم الإنسان أيضا أن حياته إلى نهاية بالتأكيد وأنه سيُسأل عن كل شيء فعَله على هذه الأرض. وكلما ألَمَّ المؤمن بالظواهر التي لا حصر لها التي تحدث حوله، ازداد إكباره لعلم الله. ويمثل هذا الإكبار خطوة مهمة جدا على الطريق الذي يجعله يدرك بقدر الإمكان قدرة الله وقوته اللانهائيتين ويخشى الله على النحو المطلوب. وقد ورد ذلك في القرآن الكريم) : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) سورة فاطر : 27-28

المصدر : موقع هارون يحيى

الهوامش :

1. Paul Davies, The Accidental Universe, Cambridge : Cambridge University Press, 1982, Foreword

2. Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 62

3. Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le

Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 62

Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le .4

Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 62

mit Simsek, Atom (The Atom) , Yeni Asya ..5

Yayinlari, p.7

Taskin Tuna, Uzayin Otesi (Beyond Space) , .6

Bogazici Yayinlari, 1995, p. 53

Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le .7

Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 62

Taskin Tuna, Uzayin Otesi (Beyond Space) , .8

Bogazici Yayinlari, 1995, p. 52

Richard Feynman, The Character of Physical .9

Law, The M.I.T. Press, March 1967, p. 128

Richard Feynman, The Character of Physical .10

Law, The M.I.T. Press, March 1967, p. 129

11. Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 5

.

.

.

0-تأملات إيمانية من سورة تبارك ج2

أ.د. سلامه عبد الهادي

أستاذ في علوم إدارة الطاقة وعميد سابق للمعهد العالي للطاقة بأسوان

و تعالوا نستكمل تأملاتنا أمام آية أخرى من هذه السورة الكريمة، التي لها فضل كبير بين سور القرآن الكريم، فهي الواقية وهي المنجية، كما أخبر عنها سيد المرسلين، ونسأل الله أن ينجينا بها بإذن الله.

نقف أمام الآية 19 والتي يأتي فيها قول الحق: (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن، إنه بكل شيء بصير).

لقد بدأت الآية الكريمة بهذا السؤال الاستهجاني الذي لا يستطيع أي إنسان لديه القدرة

عل الرؤية والتبصر أن يحجب الحقيقة الناصعة بكفره أو أن ينكر الحق وهو ماثل أمامه . . . كيف لهذا الجسم الذي له وزن أن يقاوم قوانين الجاذبية دون أن يهوى إلى الأرض . . . ثم يخبرنا الحق أن ما يحقق للطير هذا الاتزان والاستقرار فى الطيران ويمسكها عن السقوط، هي رحمة الله وبصيرته وقدرته . . . ليست الطبيعة، ولكنها حكمة الخالق التي سخرت الطبيعة . . . إنها قوانين رحمة الله الخالق البصير التي فرضها وأخضع لها الطبيعة أو تمسكت بها الطبيعة طائعة مستجيبة، فالتزم بها الهواء فى دفعه ورفعه للطير وأمسكت الطير فى تحليقه فى أجواء السماء، فحفظ له استقراره واتزانه، إن هذه الكلمة التي وضعها الخالق بقوله تعالى : "ما يمسكهن" تدل على أن كل ما يجرى فى هذا الكون من حركات وسكنات وصعود وهبوط ودوران وانطلاق هو من منطلق خضوع كل شيء لقدرة الله ورحمته وحكمته . . . وإن اختص بها الحق فى هذا القول الطير . . . ولكنها سارية فى كل ما نراه حولنا من إمساك السمك فى الماء والنحل فى الجبال وكل مخلوق من حولنا فى حياته وأحواله .

(230/774)

تصف الآية أيضاً وضعين متمايزين للطيور أثناء تحليقها ، الوضع الأول عندما تطير صافات أي باسطات أجنحتهن وسابحات فى أسراب متناسقة وصفوف منتظمة، تستغل فى اندفاعها ما يسره الله لها من قدرة على تقوس أجنحتها والميل بها للمناورة فى الحركة وتوجيه ذيلها وخفض رأسها وخفة وزنها وانسيابية جسمها فتظل سابحة فى الهواء الذي فرض الله عليه قوانين رحمته، وإذا نظرنا على سبيل المثال إلى اختلاف درجة تقوس السطح العلوي لجناح الطير عن سطحه السفلى عندما تبسط أجنحتها ، حيث يؤدى هذا الاختلاف إلى زيادة ضغط الهواء أسفل الجناح عن الضغط أعلى الجناح، فيتمكن الهواء من رفع الطير إلى أعلى بقوة تفوق وزنه، وكذلك عندما ننظر كيف يخفض الطائر رأسه تحت مستوى جناحيه كي يقلل مقاومة الهواء لحركته أثناء اندفاعه، فسنرى حقاً أن ما يمسك الطيور وهي صافات هو من صنع إله رحيم وهداية رب بصير كما تنص هذه الآية الكريمة بأدق وأصدق الكلمات .

ثم تصف الآية بالرغم من كلماتها المحدودة وضعاً ثانياً أثناء حركة الطير، عندما يقبضن أجنحتهن، وذلك بما هيأه الله لهذه الطيور من قدرات على الإحساس باتجاهات وقوة التيارات الهوائية من حولها ، فما أن تشعر بريح مواتية قادرة على رفعها ، تقبض أجنحتها للاستراحة والاستعانة بهذه الرياح لرفعها ، ولأن الغالب هو بسط الجناحين فعبرت الآية

الكريمة عنه بصيغة اسم الفاعل "صافات" . . . ولأن القبض يأتي متجدداً بحسب ظروف طيرانها جاء ذكره بصيغة الفعل لقلته بقوله سبحانه وتعالى . . . " ويقبضن"

(231/774)

وإذا عدنا مرة أخرى إلى بداية الآية الكريمة للرد على هذا الاستفسار الرباني بقول الحق "أولم يروا " . . . نجد أن الإنسان عندما تدبر أيضا جسم الطائر من أسرار، اكتشف الأسرار والأشكال الهندسية التي مكنته من الطيران، فصنع طائرة لها جسم يحاكى جسم الطائر فى انسيابيته لتقلل مقاومة الهواء، ومن مواد خفيفة مفرغة كجسم الطائر وريشه كي يتمكن الهواء من حملها، وجناحين تحاكى جناحي الطائر لتستقر حركتها فى الهواء وذو زعانف تحاكى قدرة الطير على تقوس أجنحته عند الطيران للارتفاع والهبوط . . . وزعانف تحاكى ذيل الطائر لتوجه حركتها فى الطيران، واكتشف علوم الديناميكا الهوائية وأسرار وخواص الهواء الذي ألزم الخالق الهواء بها حتى تمكنه من حمل الطير وإمساكه، ولكن من علم الطير أسرار هذه السباحة الواعية المستقرة التي يعجز عن تنفيذها كل البشر بهذه الدقة المتناهية وبهذه القدرة المبدعة وبهذا الاتزان الكامل والاستقرار التام . . . إن العرب المسلمين هم أول من حاول من خلال طاعته لأمر الله بالنظر إلى الطير

أن يحاكى الطير فى طيرانه . . . وجاء العلماء بعد هذا واخترعوا الطيران الشراعي الذي حاكى أيضا الطير فى طيرانه عندما يطير باسطاً جناحيه بدون محركات تدفعه . . . حيث تستغل الطائرة الشراعية اندفاعها فى تيارات هواء صاعدة فتصعد بها إلى أعلى عندما تريد الارتفاع . . والعكس عندما تريد الهبوط . . . إذا نظرنا إلى حركة الطائرة الشراعية التي اجتهدت عقول البشر كي تصممها حتى يمسكها الهواء الذي سخره الله وألزمه بالطاعة ونظرنا إلى حركة الطير . . نجد أن الطائرة الشراعية تحتاج إلى معدات تجرها على الأرض حتى تكتسب السرعة التي تمكن الهواء من حملها ولا تتركها هذه المعدات إلا بعد أن تصل إلى الارتفاع المناسب لحركتها . . . وبالرغم منها فكثيرا ما نسمع عن أحداث تحطم الطائرات الشراعية ووفاة قائدها . . .

(232/774)

أما الطير فهو ينتقل من الثبات إلى الحركة ومن الحركة إلى الثبات فى سهولة ويسر دون أن يعجز أي طير مهما قل عمره وحجمه عن أداء هذه المهمة . . وتعتمد الطائرة الشراعية على الكثير من المعدات كي تحدد اتجاه حركة الهواء كي تستغله فى دفعها وتحركها ، وبالرغم من كثرة هذه المعدات فإن الطيران الشراعي يسترشد بحركة الطيور فى

السماء . . فالطيور هي التي تدلهم بما لديها من حواس أودعها الخالق بها كي يمسكها فى طيرانها فتقودهم إلى أماكن تيارات الرفع

الطيور تدل الطيارين من خلال حواس أودعها الخالق بها إلى أماكن تيارات الرفع الحرارية التي تنشأ في الهواء الساخن

(233/774)

الحرارية التي تنشأ من ارتفاع الهواء الساخن إلى أعلى أو من تدفقات الهواء الدوامية على سفوح الجبال والوديان، فإذا تابع قائد الطائرة الشراعية أماكن حركات أسراب الطيور إلى أعلى عندما تكون أقرب إلى القبض، أدرك أن هذا المكان هو مركز للتيارات الصاعدة فيحاول التوجه إليه للصعود إلى أعلى . . . ما هي هذه الأجهزة المعقدة داخل الطير التي يعي بها ويحدد بها حركته واتزانه . . . إن علومنا ومداركنا ودراستنا تقف عاجزة عن أن تحاكى ما وهبة الخالق لهذا الطير البسيط من قدرات . . . إنها قدرة الخالق الذي يتحدى كل من له رؤية وبصيرة جاء فى هذه الآية عن أن يسجد ويقر برحمته وقدرته وبصيرته . . . وعندما ندقق الرؤية التي وجهنا الخالق إليها ونظرنا إلى الطير كيف يمد

ساقيه إذا اقترب من الأرض ثم يرفعها ويخفيها داخل جسمه عندما يحلق فى السماء كي يقلل مقاومة الهواء لحركته . . . ثم نظرنا إليه كيف يحدد الارتفاع الذي يستقر عنده فى طيرانه باستخدام قوانين الطفو فى الهواء التي لم يكتشف الإنسان بعد معظم أسرارها . . . ولكن ما تمكن من فهمه ومعرفته ومحاكاته حقق له أن يرتاد الهواء بالطائرات والمناطيد وسفن الهواء التي تحمل معدات ووسائل غاية فى التعقيد لتحقق بعض ما وهبه الخالق لهذه الطيور من قدرات وحركات . . . سنصل حتما إلى أن وراء هذا الخلق إله عظيم حكيم أعدت كل شيء بالحكمة والرحمة والبصيرة، حقا " ما يمسكهن إلا الرحمن، إنه بكل شيء بصير" .

(234/774)

إن ما يميز الطائرة الهليوكبتر عن باقي الطائرات قدرتها على الصعود عمودياً ، فهي تستخدم مروحة رأسية تدور بمحركات هائلة القدرة تمكنها من هذا الصعود العمودي أو الرأسي حتى لا تحتاج إلى مطارات أو مسارات صعود ، وتصدر محركاتها أزيزاً هائلاً وتطلق غازات ملوثات وعوادم تضر بالبيئة والبشر ، ولكن الطير أيضاً يصعد إلى أعلى رأسيا وعمودياً دون الحاجة إلى مطارات، ودون أن يحتاج أيضاً إلى محركات هائلة ودون

أن يصدر أزيزاً أو يلوث الهواء بغازات وعوادم . . كيف هذا ؟ إن الرد واضح من هذه الآية المتكاملة : إنها رحمة الإله الرحمن البصير بكل شيء .

أننا نرى الطيور عندما تنتقل بين القارات وتصعد إلى طبقات الجو العليا حيث يقل الضغط ودرجة الحرارة، بسبب برودة الجو وانخفاض الضغط فى هذه الطبقات، فإننا نزود الطائرات بمعدات معقدة لتحافظ على الضغط الجوى ودرجات الحرارة المناسبة داخل الطائرة كي لا تتجمد أو تنفجر أجساد ركاب الطائرة، فكيف يتأتى للطيور ذلك الثبات عندما تطير "فوقنا" ؟ ما الذي يمسكها مستقرة ثابتة عند هذه الارتفاعات ؟ ، أو ما الذي يحتويه جسم الطائر بحيث يتوازن الضغط داخله ودرجة حرارة جسمه مع هذه المتغيرات ؟ . . . تقف علومنا عاجزة حقاً عن سبر هذه الأسرار، وكل ما لدينا من رد أنها حقا رحمة الخالق البصير بكل شيء الذي اقتضت إرادته أن يمسكها برحمته كما ينص على هذا قوله الحق فى محكم كتابه .

(235/774)

إننا أيضا إذا اشتملت رؤيتنا تلك الطائرات العادية التي تستخدم عدداً لا يحصى من الوسائل الملاحية كي تهتدي فى مسارها ، بوصلات وخرائط وأجهزة استقبال وتوجيه

ومحطات إرسال وأبراج مراقبة وأقمار صناعية وحاسبات الكترونية وتأمينات، وإذا تحركت فى أسراب فهناك قائد سرب له خبرة شاسعة كي ينظم حركة سربه الذي لا يتعدى بضع طائرات كي لا تصطدم ببعضها وفى وقت محدود لا يتعدى الساعات ومسافة محدودة، وهو مزود فى طائرة القيادة بأعقد الوسائل والمعدات، وكثيراً ما نسمع عن حوادث اصطدام وسقوط وارتطام . . . ولكن من يقود ويوجه أسراب الطير وهي سابحة بأعداد كبيرة يصل بعضها إلى الآلاف وفى صفوف متراصة بكل الانتظام والكمال والجمال، البعض منها عند هجرتها تعبر القارات والمحيطات فى فترات تتعدى الأسابيع أو الشهور . . . إذن ملاحين أرضيين أو محطات تبث الإشارات أو تحدد المسافات . .

وبالرغم من هذا فلم نسمع عن طيور ضلت الطريق، كما نسمع عن طائرات انحرفت عن مسارها وكان الحطام نهايتها . . . كيف هذا ولديها ما لديها وهذه الطيور ليس لديها كل هذه التعقيدات . . . إنها رحمة الخالق البصير بكل شيء . .

وإذا نظرنا إلى الطاقة التي يحتاجها الطير كي يحلق فوق رؤوسنا ويقطع بها هذه المسافات، وقارناها بما تحتاجه الطائرة لقطع نفس المسافات من وقود وزيوت وشحوم، ووضعنا قوانين النسبة والتناسب، لوجدنا قدرة وحكمة الخالق الرحمن البصير بكل شيء . . .

فما يحتاجه الطائر ليس أكثر من بعض الحبوب الصغيرة التي سخر الخالق الأرض أن تنبتها

له، فلا تنوء بحملها وهي طائرة . . . أما الطائرة فتمتلأ خزانات الوقود بما يرهقها صعودا وطيرانا حتى تجد ما يمكنها من الحركة لقطع أقل المسافات . . .

(236/774)

هل أمامنا بعد هذا الاستفسار إلا الشهادة بالله الواحد الأحد، الذي يخبرنا فى كتابه بأدق الكلمات أن نرى كيف سخر الهواء ليكون قادراً على حمل الطير، وخلق الطير بحيث يتوافق فى خلقه مع القوانين التي ألزم بها الهواء، وخلق الأرض التي تعد للطائر هذا الغذاء والوقود لحركته . . . وهدى الطير لأن يؤدى حركات لا يقدر أن يؤديها أعظم الطيارين بعد تدريبهم فى أعرق الكليات ومعرفتهم لعلوم ديناميكا الطيران والديناميكا الهوائية . . . هكذا يمسكهن الرحمن برحمته والبصير بقدرته والمرسل الكتاب بعلمه وحكمته، وهكذا نرى الله الواحد الرحمن البصير فى كل شيء عندما نحاول أن نرد على استفساره البليغ فى صدر الآية : أو لم يروا إلى الطير ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ .

(237/774)

ثم تعالوا نقف وقفة أخرى أمام آية كريمة قرب نهاية هذه السورة العظيمة تذكرنا بفضل الله الذي أكرمنا بهذا الخلق . . . قامة مشدودة وقدرات فريدة ميزتنا عن كل ما حولنا من حيوانات وحشرات وغيرها من سلالات الأرض، وبالرغم من هذا لا نوافى حق الكريم الذي أكرمنا بما يليق بكرمه ونعمه من الشكر . . . حيث يقول الحق فى كتابه " قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون" . . . تبدأ الآية بكلمة معجزة لم نعرف شمولها إلا بعد أن دخل جامعاتنا علم الإنشاءات . . . فعندما يقف الإنسان منتصباً على قدميه في أي بقعة من بقاع الأرض ولا يمشى منبطحاً على أربع كمثل باقي الحيوانات والحشرات من حوله، ألا يثير هذا فضوله، ألا يحاول أن يبحث عمن أتاح له هذا الفضل كي يتوجه إليه بالشكر، ألا يثير فضوله عندما يرى المباني المنشأة بطراز فريد فى أن يتعرف على من وضع تصميمها وقام بحساب هيكلها الخرساني أو الحديدي حتى يمكن أن تتحمل الأحمال الواقعة عليها والإجهادات التي تتعرض لها فتحفظ لها ثباتها واستقرارها . . . ألا يعلم أن قامته المشدودة هكذا تعتمد أيضاً على هيكل خرساني أو عظمى شبيه بالهيكل الخرساني لأي منشأة ويتكون من 206 عظمة بينها 365 مفصل، بحيث تجد أن كل عظمة أو مفصل قد صمم بالصلابة والأبعاد التي تحقق لأي منها مقومات الحركة وتحمل الأحمال الواقعة عليها فى كل مستوى والتي تتناسب مع ضخامة الجسم ووزنه . . . . ألا ينظر إلى عظام القدم وكيف تتصل بباقي المنشأ العظمى بأضخم

مفصل يتيح له الوقوف منتصباً وهو مفصل الحرقفة الذي يخرج منه خمس عظمات على شكل مجموعة من الجسور تنتهي بخمس نقاط للارتكاز على الأرض . . حيث تشكل نقاط الارتكاز مع المفصل مثلث اتزان بديع الصنع والتصميم والقدرة على التحمل بحيث تعطى هذا الإنشاء أو الهيكل العظمى القدرة على الوقوف ثم الحركة المتزنة فوق الأرض . . .

(238/774)

أنه أشبه بالأساس الخرساني الذي يصب داخل الأرض ليتحمل وزن المنشأة من فوقه، ولكنه قادر أيضا على أن يتحرك بما عليه من أحمال دون أن ينهار . . . ويعقب القدم عظام الساق ثم الفخدين ثم عظام الحوض التي تحمل العمود الفقري، الذي يحمل بدوره عظام الأكتاف (الترقوة) والقفص الصدري والرقبة ثم الرأس فى تسلسل إنشائي بديع الصنع والكمال والجمال والإتقان، عظام ترتبت ونشزت أنسجتها فى اتجاهات تتحمل الإجهادات العمودية والالتوائية والمماسيه بدقة كاملة وحسابات دقيقة بالأبعاد والصلابة والقوة المطلوبة لكافة الإجهادات والمقاومات . . إنه أعظم إنشاء هندسي يمكن أن يتخيله البشر شيده أعظم وأحسن الخالقين . . . كل فقرة وعظمة ومفصل جاء بحكمة بالغة

ودقة كاملة ونظام بديع . . . ثم يشتمل هذا الإنشاء أو المنشأ أيضا على مجموعة هائلة من العضلات ولأربطة التي تعطينا القدرة على التحكم فى كل عظمة ومفصل ونحركها كيفما نشاء فى سلاسة ويسر وفى كافة الأعمال . . وكل عضلة أيضا بالقوة والأبعاد المناسبة لما تؤديه من أعمال . . . ثم نأتي إلى ما يمكن هذا الإنشاء فى الحركة من طاقة ثم القدرة على التكيف مع الظروف الخارجية من ضغط ودرجة حرارة ورطوبة ثم الصيانة ليستمر فى القيام بعمله ثم تمد الجسم بصفة منتظمة بقطع الغيار المطلوبة عندما يحين أوانها فى التغيير ثم الزيوت والشحوم المطلوبة لحركة المفاصل والخامات المطلوبة لترميم أي كسر أو اعوجاج . . .

(239/774)

هكذا أمد الله هذا الإنشاء بالجهاز الهضمي الذي يعد له الوقود والزيوت والشحوم ومواد البناء والاستعراض والترميم، ثم جهاز تنفسي يحقق له حرق الغذاء داخل العضلات ليمد الجسم بالطاقة المطلوبة والقوة التي تمكنه من هذه الحركة بنظام يعجز العقل البشرى عن تخيله، ثم الجلد البشرى الذي يعد أعظم جهاز تكييف فى العالم لكي يتكيف المنشأ مع الظروف الخارجية، إنها أجهزة ومعدات ونظم أعجز عن سردها بالدقة المطلوبة والكمال

الذي يعطيها حقها من الشرح، فكل له تخصصه وحدوده من العلم، ولكن لو استرسلنا فى الحديث بما يدركه كل منا لعجزنا عن أن نحيط بفضل الله ولأيقنا أن مهما توجهنا بالشكر للخالق الذي أكرمنا بهذا الإنشاء بديع الصنع، فلن نوافيه حقه من الشكر كما تنص الآية الكريمة.

يكفى أن نعلم أن هذا المنشأ الذي أنشأه الخالق بعلمه وقدرته كما يذكرنا فى هذه الآية يحتوى على آلاف البلايين من الخلايا وكل خلية تختلف فى وظيفتها عن الخلية المجاورة لها وإن اتحدت فى أشكالها وعدد كروموزوماتها، تؤدى جميعا وظائفها فى تكامل وتنسيق تسبيحاً لله الذي خلقها دون أن يكون لنا أي دخل فى إدارتها . . . لقد علمت أو تعلمت حقا كل خلية كيفية لتسبيحها وصلاتها كما تذكر الآية الكريمة من سورة (!) هذا القول (كل قد علم صلاته وتسبيحه) . . . لقد وهبنا الله جهاز فى رؤوسنا كي يؤدى هذا المنشأ أو هذه البلايين من الخلايا وظائفها فى تناسق وإبداع بإدارة محكمة كما أمرها الله من خلال الجهاز العصبي، جهاز يعمل بالإشارات الكهربية والكهرومغناطيسية بطاقة كهربية محدودة لا تتعدت بعض الواتات فى الرأس، جهاز يراقب ويتابع ويسجل ويرصد ويصحح ويبلغ . . . ولو حاول البشر محاكاة نظام كهذا يقوم ويؤدى ما يؤديه جهازنا العصبي لما أكفته طاقة السد العالي بأكملها . . .

هكذا بدأت هذه الآية بقول الحق " قل هو الذي أنشأكم "، قل لهم يا خاتم المرسلين فى خاتم الكتب السماوية أنه "هو" الله الخالق البارئ المصور الذي أعطى هذا الإنشاء خلقه ثم هدى.

ثم تتعاقب كلمات الآية بفضل الله فى خلقنا . . . فيقول الحق : وجعل لكم السمع، ونقف أولا عند كلمة " جعل " . . . ونحاول أن نتدبر . . . لماذا لم يقول الحق " وخلق لكم السمع " أو يقول " و أنشأ لكم السمع "، ويكفى أن كلمة أنشأكم فى بداية الآية الكريمة أن هذا الإنشاء يتضمن أيضاً إنشاء أجهزة السمع . . . الرد لم نعلمه إلا بعد أن صعد الإنسان فوق القمر، ووجد أن لا أحد يمكن أن يسمع أحدا هناك . . . فالأذن تتوقف قدرتها عن السمع إذا لم يكون الوسط الذي ينتقل فيه الصوت هو الهواء الجوى . . . فأنت فى غير جو الأرض لك آذان ولكن لن تسمع بها . . . فبهذا الهواء الذي سخره الله بمجموعة من الخواص "جعل" لك بجهازك السمعي قدرة على السمع، وبدون ما أنشأه الله فى جسمك وبدون الهواء الذي سخره لك فى جو الأرض لن تستمع ولن تشعر بنعمة السمع . . .

هكذا جاءت كلمة "جعل " بإعجاز فريد لا يذكره بهذه الدقة غيره "هو" . . . تعالوا نفهم بهدوء كيف يعمل جهاز السمع فى الإنسان . . . أن الصوت ينتقل من حنجرة الإنسان من خلال اهتزازات الحبال الصوتية، فتهتز حبيبات الهواء الملاصقة لها فى الحنجرة وتنتقل

هذه الاهتزازات التي نسميها بالموجات الصوتية من خلال الهواء لتصل إلى طبلة إذن إنسان آخر، وقد هيأ الخالق الهواء من حولنا بقدر من التماسك بين جزيئاته بما يتيح له المرونة المطلوبة لنقل هذه الموجات من حنجرة المتكلم إلى أذن السامع . . . وتعتمد مرونة الهواء التي ينشأ عنها انتقال الموجات على خواص الهواء من حيث الضغط ودرجة الحرارة والكثافة . . . ولو اختلفت هذه المقادير عن نسب معينة، لن تتمكن الموجات الصوتية من الانتقال من خلالها ولن يستمع أي منا للآخر . . .

(241/774)

ولكن هذه الخواص انضبطت بفضل الله وحكمته لتنقل هذه الموجات بالقوة والسرعة المطلوبة التي يمكن أن تتأثر بها طبلة الأذن، فتستجيب لاهتزازاتها وتهتز معها بقدر محدود . . . فطبلة الأذن أيضا لها سمك ومرونة وأبعاد لا تستجيب سوى لهذه الترددات والشدة التي تصدرها الحنجرة والقوة والسرعة التي ينقلها الهواء . . . ويقصد بالتردد عدد الاهتزازات التي تنشأ من الجسم المهتز فى الثانية الواحدة، وهناك أصوات تنشأ من اهتزازات لا تستطيع الأذن أن تسمعها، لأن ترددها أو قوتها خارج نطاق إحساس الأذن مثل الموجات فوق الصوتية . . . وعندما تستجيب طبلة الأذن للموجات الواقعة فى

نطاق حساسها ، تهتز الطبلة وتنتقل هذه الاهتزازات منها من خلال نظم هندسية داخل تجويف الأذن تعد غاية فى الإبداع والكمال والإبهار بحيث تتضاعف حجم هذا الاهتزازات ثم تتحول داخلها من نبضات وطرقات إلى ومضات كهربية وكهرومغناطيسية ينقلها العصب السمعي إلى مراكز السمع داخل المخ . . . إن ما يحدث داخل المركز السمعي أو ما فهمه من نطلق عليه بلغة العصر الحالية micro-processor تعجز علومنا حتى يومنا عن إدراكه وفهمه . . . فقد " جعله " الخالق هكذا . . . أن هذا المركز منطقة محدودة جداً فى القشرة الصدغية العليا . . . ولكن ما يحدث فيها من ترجمة هذه النبضات إلى حروف وتمييز كل حرف عن الآخر بحسب تردده وتجميع هذه الحروف فى كلمات . . . وكل المراكز فى جميع البشر لهم قانون واحد يترجم الترددات والاهتزازات إلى نفس الحروف فى توحد تام بحيث يفهم كل منا حديث الآخر . . . حديث تستوعبه عقولنا . . . هل يمكن ألا نعترف أن هذا من "جعل" خالق واحد أحد . . . ولا قدرة لنا مهما شكرنا واهب هذه النعمة أن نوفيه حقه من الشكر . . .

العين من أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان

ومما "جعله" الخالق لنا أيضا من نعم تستحق الشكر كما تذكر الآية الكريمة نعمة البصر . . . ولم يذكر الحق أيضا هذه النعمة بنص مثل هذا " وخلق لكم البصر " أو " أنشأ لكم البصر " ، فهذا القول لا ليتفق مع الحقائق التي اكتشفتها علومنا الحديثة . . . فالعين لا ترى بدون "الضوء" الذي "جعله الله" فى نطاق قدرة خلايا الشبكية فى قاع العين . . . وقد ظن العلماء قديما أن العين ترسل أشعة ترى بها ، إلى أن جاء العلم الحديث وأتضح أن العين ترى بالأشعة التي تشعها مصادر الضوء فتنعكس على الأجسام التي حولنا فتكون لنا القدرة على رؤيتها بهذه الأشعة . . . وتسمى هذه الأشعة بالموجات الكهرومغناطيسية، وهي موجات كموجات الصوت ولكن تسير بسرعات عالية جدا ولهذا نرى الضوء الناشئ عن تصادم السحاب المشحون الذي نسميه بالبرق قبل أن نسمع صوت هذا التصادم الذي نسميه بالرعد ، حيث تفوق سرعة الضوء آلاف المرات سرعة الصوت . . . والموجات الكهرومغناطيسية لها ترددات أو أطوال مختلفة . . فموجات الراديو والأشعة السينية والإشعاع الحراري موجات كهرومغناطيسية تختلف عن بعضها البعض بطول موجاتها . . . وينحصر إدراك خلايا شبكية العين فى الموجات الكهرومغناطيسية التي ينحصر طول موجاتها فى المدى من 0.39 ميكرون حتى 0.70 مبكرون . . . ولهذا يطلق على الموجات فى هذا المدى "الضوء" . .

ولا تدرك عيون البشر أي موجات خارج هذا النطاق . . . ومن آيات الله وفضله ورحمته أن "جعل" معظم أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض تشتمل على موجات كهرومغناطيسية فى مدى رؤية عيوننا . . . أي على هيئة ما نسميه بالضوء . . . بالإضافة إلى ما تحدثه هذه الأشعة من دفء لأجسامنا . . . فقد سخر الخالق معدلات احتراق الشمس وأبعادها عن الأرض بحيث تصل إلى الأرض أشعة الشمس فى المدى الذي تبصر به عيوننا ويفيد أجسامنا . . ثم جعل فى السماء طبقات تمنع الضار منها من الوصول إلى أعيننا وأرضنا مثل طبقة الأوزون . . . . هكذا "جعلنا" الخالق نستمتع بنعمة البصر عندما تشرق الشمس فيأتي الضوء الذي ينير حياتنا . . ولو اختلفت درجة حرارة الشمس أو معدلات احتراقها أو أبعادها لأصبحنا وأمسينا فى ظلام تام لا ندرك فيه شيئا . . . فهناك المخلوقات التي لا ترى فى النهار كالخفاش والعقرب . . . ولكنها نعمة الخالق الذي "جعلها " لنا هكذا . . . وحقا لن نوف الخالق حقه مهما شكرناه على

هذه النعمة التي جعلها . . . وكما جاء فى الآية الكريمة . . . "قليلا ما تشكرون" . لكن تعالوا أيضا نتدبر كيف ترى العين . . .

(244/774)

إن الضوء عندما ينعكس على الأشياء . . . تمر أشعته من خلال حدقة العين . . . وتصل الصورة إلى شبكية العين مقلوبة كما تنبأنا بهذا علوم الضوء . . . وخلايا الشبكية التي تقع عليها الصورة خلقها الله على هيئة أعمدة ومخروطات . . . وتنقسم هذه المخروطات ثلاثة أقسام، بعضها يمتص موجات الضوء الطويلة و"يجعلنا" الخالق نميز الأجسام القادرة على إن تعكس الموجات التي لها هذه الأطوال إلى أعيننا أنها أجسام حمراء . . . والبعض الآخر من خلايا الشبكية يمتص موجات الضوء المتوسطة الطول و"يجعلنا" الخالق نميز بها الأجسام التي عكستها ولم تمتصها أنها خضراء، والبعض الأخير من هذه الأشِكال المخروطية يمتص فقط موجات الضوء القصيرة و"يجعلنا الخالق نميز بها الأجسام التي عكستها أنها زرقاء . . . هذه الأسماء وهذه الألوان من "جعل" الخالق، فلا وجود لأحمر ولا لأخضر أو أزرق . . . ولكنه الخالق "المصور" هو الذي أراد أن "يصور" الأشياء والألوان داخل عيوننا بهذه الكيفية وبهذه الموجات . . أي أن "يجعلها" هكذا . . . .

وباقي الألوان تنشأ من اختلاط هذه الألوان كما سنرى بواسطة مركز الإبصار فى المخ . . . ويأتي الآن دور العصب البصري الذي ينقل هذه الطاقات والموجات التي امتصتها خلايا الشبكية، كل عصب ينقل الومضات من مكان سقوط محدد داخل الشبكية وبتردد محدد وشدة محددة . . . إنها ملايين من الخلايا والمخروطات داخل الشبكية لنقل دقائق الصورة التي تراها العين إلى مركز الإبصار . . . فتنعدل الصورة وتتجمع النقاط وتترجم الموجات الكهرومغناطيسية إلى ألوان وتتكامل هذه الألوان لتعطى العقل صورة متكاملة بالحجم الطبيعي كي يدركها الإنسان ويتعامل ببصره مع من حوله . . . مالذى يحدث داخل مركز الإبصار أو ما يمكن أن نطلق عليه microprocessor آخر فى العقل البشرى . . . سر لم يصل البشر إلى معرفته . . . ولا وسيلة إلى هذه المعرفة إلا أن نؤمن أنه "هو" الذي "جعلها" هكذا . . . فحقا قليلا ما تشكرون . . .

(245/774)

ولنا وقفة أو تدبر آخر أمام قول الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية عن السمع الذي جاء مفردا . . وعن البصر الذي جاء على صورة جمع . . . هناك أقوال تعلل هذا وإن

اختلفت . . . ولكن ألا يبصرنا الخالق فى هذا الجمع أن للإنسان ملكات أخرى يبصر بها بالإضافة إلى العينين . . . تلك الأبصار التي تختزن وترتب وتشغل وتحول ما رأيناه وما سمعناه إلى معلومات ومعارف ومدارك . . . إن وراء الآذان والعيون أجهزة لا نعى من أمرها شيئًا ، تجعل لكل منا بصيرته وأبصاره التي تعجز علومنا عن فهمها و "تجعلنا" قادرين على أن نسجل الصور والأشخاص والأماكن والكلمات والأصوات . . . إن أجهزة التسجيل فى العالم بأجمعه تعجز عن أن تسجل ما يمكن أن يتذكره أي منا من أحداث وبلاد ومعارف . . . أين هذه الأبصار التي جعلها الخالق لنا . . . الحمد لله الذي "جعل" لنا هذه الأبصار التي لا يصيبها فيروس ولا ندرى من أمرها شيئًا . .

(246/774)

ثم تتوالى نعم الخالق فى خلقنا . . . فقد "جعل" لنا أيضا "الأفئدة" . . . وتنبئنا قواميس اللغة بأن مفرد الأفئدة هو "الفؤاد" بمعنى القلب . . . وتوقف القلب معناه الموت . . . فهو الذي يبعث الغذاء والهواء والدفء والطاقة إلى كل خلايا الجسم من خلال الشرايين ويعود بها من خلال الأوردة كي يخلصها من المخلفات كغاز ثاني أكسيد الكربون والسموم الأخرى . . . وقد حفظ الله لنا هذا القلب داخل قفص صدري من العظام الصلبة

لحمايته ثم أحاطه بوسادة هوائية تتيح له التمدد والتقلص وهي الرئة وأودعه فى غرفة محاطة بالحجاب الحاجز لتمنع عنه تقلصات الجهاز الهضمى . . . هذا القلب "جعله" الخالق قادراً على النبض 80 مره فى الدقيقة قبل أن نولد بعدة شهور وبعد أن نولد لمدة قد تتجاوز 60 عاما . . . يدفع القلب أثناءها كمية تصل إلى 65 مليون جالون من الدماء بضغط يزيد بمقدار الخمس عن الضغط الجوى ويسير مسافة تزيد عشرات المرات عن محيط الكرة الأرضية . . . إنه يعمل كمضخة مستمرة العمل بلا توقف . . . فتوقفها معناه الوفاة، وفى عملها تحتاج إلى قدر من الطاقة تعادل الطاقة المطلوبة لدفع عربة متوسطة (4 ركاب) لتدور دورة كاملة حول الأرض . . . إنها مهمة لا تصدق . . يساعد القلب فى هذه المهمة الكبد والكليتين والبنكرياس وكثير من الأجهزة التي يصعب حصرها بما أدركه من علوم . . . لكن الآن من الذي أنشأ هذا القلب ثم "جعله" لنا يؤدى هذا الأداء الرائع بهذه الدقة والكمال والنظام كي تستمر حياتنا . . . . . الرد جاء فى خاتم كتبه بأبسط الكلمات وأدق العبارات وأكمل المعاني، أنه "هو" . . . ولا إله إلا "هو" . . . وحقا" قليلا ما تشكرون" .

(247/774)

ونقف أيضا أمام كلمة "الأفئدة" التي جاءت بصيغة الجمع . . . بالرغم من لكل كنا قلبا واحدا . . إن الله يبلغنا أن هناك أيضا أفئدة أخرى تفضل بها علينا . . . أفئدة قد نعرف بعضها ولا نعرف الآخر . . . فأين تكمن المشاعر الإنسانية الفياضة التي تميزنا وتزكى قيمتنا . . . أين تكمن القيم الإنسانية التي تسمو بالإنسان . . الحب والعطف والحنان والحياء والجود والكرم والبر والشجاعة والإقدام . . . الفرح والرضا والصدق والقناعة والصبر . . . هل كل منها له فؤاد . . . يقف العلم البشرى عاجزا عن تحديد أين تكون هذه الأفئدة . . . والآن نرى فى آية واحدة صياغة لكل من ينظر إلى إنشائه ومداركه إلى قول الحق . . قل يا محمد صلى الله عليه وسلم لكل هؤلاء أنه "هو" صاحب كل هذه النعم . . . فليوفوه حقه من الشكر إن كانوا يعلمون . . .

يمكن المراسلة على البريد التالي :

salama_abdelhady@hotmail.com

المصادر

http : //en.wikipedia.org/wiki/Human_eye

.

.

.

0-تأملات في سورة تبارك

أ . د . سلامه عبد الهادي

أستاذ في علوم إدارة الطاقة وعميد سابق للمعهد العالي للطاقة بأسوان

نقف هنا أمام أول أربع آيات من سورة الملك وهي آيات تسوق الأدلة والبراهين العقلية والعلمية والمنطقية بما نراه من حولنا أنه لا إله إلا الله . . .

حقيقة ناصعة وظاهرة جاءت بالكلمات والمعاني والآفاق التي لا يقدر على سبر أغوارها أهل الأرض ولو اجتمعوا لها . . . يقول الحق : تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ،الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير .

(248/774)

أول ما تبدأ به هذه الآيات هو أن هذا الكون بما فيه ومن فيه هو ملك لله الواحد الأحد . . . ثم إن إدارة هذا الملك له وحده . . . وكما أن كل سيارة أو باخرة أو طائرة لها

مالك مسئول عنها وقائم على قيادتها وتسييرها . . . فكذلك هذا الكون المترامي الأطراف والمتسع اتساعاً لا نهائياً وما فيه من بلايين المجرات والنجوم والكواكب التي تسير في أفلاك محددة لا تخرج عنها . . . ومن مخلوقات وأرزاق ورياح وسحاب يسير كل منها بقدر محسوب ومنتظم . . يعلن سبحانه أنه هو وحده مالك هذا كله والقائم عليه وبيده تسير أموره وأن كل هذا الانتظام في الخلق والدقة في تسيير هذا الكون تتم بإرادته . . . فهو الخالق الواحد الأحد مالك الملك . . . وقد جاءت هذه الآية في البداية بهذا القول الجامع لتؤكد هذه الحقيقة الناصعة الآخذة في الحق . . .

" تبارك الذي بيده الملك " . . . نعم . . تباركت يا ربنا وتعاليت . . . فكم تعطلت السيارة وكم جنحت الباخرة وكم تحطمت الطائرة . . ولكن ملكك على اتساعه ولا نهائيته لا يتعطل ولا يجنح ولا يتحطم . . . فكل شيء يسير بانتظام وامتثال والتزام لأن له مالك قدير وعزيز وعظيم قائم عليه ومهيمن على أدائه يعلن عن نفسه بهذه الكلمات المحددة في خاتم كتبه . . . فمن ينظر إلى الأرض بجمالها وامتدادها واتساعها ودورانها . . . وإلى الشمس واحتراقها وجريها وضيائها . . . وإلى النجوم والبروج والمجرات وحارات الكون اللانهائية . . . يجد الالتزام والانتظام في كل هذا الكون . . . يشعر حقا أنه أمام مالك عظيم واحد أحد لا يسير كل هذا إلا بعظمته ورحمته وقدرته التي لا تحدها حدود . . . وحتى لا يضل العقل البشرى في عصرنا هذا الذي تتكشف بعلومه

بعض الأسرار ونحاول أن نضع نظريات طائشة دون إثبات جاء هذا الإعلان في سر هذا الانتظام بهذا القول القرآني الشامل والمعجز والبديع . .

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . . .

(249/774)

إنها حقاً آيات تعبر عن مدى حب الله لبشره وخلقه حتى يجعلهم يباركونه بآياته وهو المانح لكل بركة وكل نعمة . . . ولكن هكذا يعطى الخالق المثل الأعلى لخلقه فيعطيهم هذا القول الجدير به كي يتلونه في كل وقت وحين تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . . . فهل يسع أحد يرى هذه القدرة التي وسعت كل شيء رحمة وعلماً وقدرةً إلا أن يبارك الخالق بهذا القول آلاف وملايين المرات

(250/774)

ثم نأتي إلى الآية التالية وتضع هذه الآية حقيقة أخرى عن حكمة الحياة والموت بقوله سبحانه وتعالى الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . . هكذا تأتى الآية

الثانية بأن الموت والحياة ليسا إلا مراحل من حلقات الوجود الإنساني . . . قدرها مانح الحياة ومقدر الموت بمشيئته . . . والهدف منها هو الحساب على ما يقدمه الإنسان من أعمال . . فتسجل له أو تسجل عليه . . . وإن الحياة مرحلة تنقضي لاختبار هذا المخلوق الذي ميزه خالقه بنعمة العقل، وصورة في أحسن صورة، وأنعم عليه بالسمع والبصر والفؤاد، وأسبغ عليه كل النعم، وسخر له هذا الملك والملكوت . . . فهل يقابل الإنسان كل هذا الإحسان بالإحسان . . . فيستحق ما أعده له الله من نعم أخرى في حياة ممتدة كامتداد هذا الكون اللانهائي . . . هذه هي حكمة الحياة على الأرض جاءت بآيات الكتاب في أنصع وأكمل نص لتضع ردا على حيرة الإنسان عندما يفكر عن أسرار الحياة والموت . . . جاءت بهذا النص الكامل بكلمة فريدة ليبلوكم . . . فليست الحياة إلا بلاء من مانح الحياة ومقدر الموت وابتلاء لخليفة الله على الأرض . . . إنه نص كامل من كلمة واحدة تضع نهاية لتيه الفلاسفة وضلال المارقين عن معنى وهدف الحياة . . . لقد صاغت هذه الآية معاني كثيرة في سهولة ويسر وإعجاز . . . ولا مجال للاسترسال هنا بما أدركه من العلوم الهندسية التي أعي منها قدراً محدوداً . . ولكن علماء الفلسفة يمكن أن يضيفوا بما يعرفونه من نظريات الكثير على ما في هذه الكلمات من إعجاز عن فلسفة الحياة التي أوردتها الآية بأنها مرحلة من مراحل لوجود الإنسان . . . وجاء الموت في الآية الكريمة مؤكداً للحياة ومتقدما عليها ، لأن كل منها مرحلة من مراحل تكمل بعضها البعض في دائرة

مغلقة لخالق قدير . . . يخرج ألحى من الميت ويخرج الميت من الحي . . ثم جاءت بهدفاً سامياً للحياة يستطيع أن يعيه كل البشر . . .

(251/774)

و هو السبق في أداء صالح الأعمال، وأن يرفعوا شعار الإحسان حتى يتحقق لهم اجتياز اختبار المرحلة الأولى أو الحياة التي نعرفها إلى مرحلة الموت ثم إلى الحياة مرة أخرى . . . وهكذا يجب أن تكون حياة المسلم وحياة البشر في الخير ومن أجل الخير . . . فهل جاءت فلسفة بمثل هذا . . إنه الكمال والإبداع في الحكمة من خلق الإنسان جاء بها القرآن استكمالا لكمال هذا الكون بجماله وإبداعه حين تصير لوحة الوجود مكتملة للخالق المصور الرحمن الواحد الأحد . . . لوحة يعمها الانسجام والتجانس والرحمة في آن واحد .

(252/774)

ثم نأتي إلى الآية التالية في تسلسل هذه الآيات . . . وقد جاءت تستكمل الأدلة والبراهين على وحدانية الله عز وجل، وعلى رحمته في إظهار هذه الأدلة أمام كل من له عقل أو بصر، فيقول الحق الذي خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . . إن من يتعمق ببصره في بناء هذا الكون وينظر إلى السماء الممتدة فوقه، يجد التطابق والتماثل سمة كل شيء ، وعندما نتوقف عند الرقم 7 في الآية الكريمة نرى أن هذا الرقم يفيد التعداد التكراري في دورات لا تنتهي كما اعتاد العرب أن يستخدموه . . . كما نراهم في استخدام هذا الرقم في تكرار أيام الأسبوع التي تتكرر في دورات لا تنتهي كل منها سبعة أيام . . . وهكذا استخدم القرآن هذا الرقم في تعداد السماوات التي تتكرر دوراتها وأعدادها ومجراتها وبروجها ونجومها مئات وملايين ومليارات المرات . . . وفي صور مختلفة ومتعددة ومجموعات قطبية ونجمية ومجرات وحارات ونظم متعددة لا نعلم منها إلا القليل ولم تصل علومنا وأبصارنا لفهما بعد ولكن جاء ذكرها في كتاب الله بهذا القول الشامل والجامع . . . الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . . . وكما أن الأعداد عند العرب كانت تقف عند الألف، فلا يوجد رقم معجز يتسع لأعداد بالمليارات سوى هذا الرقم التكراري اللانهائي . . . وفي كل مجموعة نجمية نجد نجم يدور حوله مجموعة من الكواكب، وكل نجم هو كرة هائلة من الهيدروجين تحترق في اندماج نووي لتخرج لنا هذا الضوء الذي تبعثه إلينا كما تبعث الشمس الضوء والحرارة، وكل نجم له دورات، وكل مجموعة من النجوم تشترك في

مجرة هائلة الحجم تدور فيها النجوم حول مركز للمجرة، وتدور المجرات نفسها في حارات كونية هائلة الامتداد حول مركز للكون بأبعاد لا يتخيلها عقل وتتحرك بسرعة هائلة كأنها تندفع إلى مصير ونهاية لا يعلمها إلا خالقها الذي يحدثنا سبحانه وتعالى عنها بأحكم وأكمل الكلمات . . .

(253/774)

و كل هذه الكواكب والنجوم والمجرات . . . بل كل حارات الكون التي يصل عددها كما ذكرنا إلى بلايين وبلايين تدور أيضا وتتكرر وتتطابق جميعها في مادتها وأشكالها وأطوارها وأعمارها والقوانين السارية عليها والتي تطيعها وتلتزم بالمثول أمامها ، كواكب تتطابق في مادتها ونشأتها ودورانها حول بعضها وحول نجم محدد لكل مجموعة منها . . . و نجوم تتطابق في مادتها ونشأتها وحياتها وموتها وحركتها والتفافها وإشعاعها وفي مجرات كل منها ما تدور حوله ومعه وإليه وعنه . . . ومجرات تتطابق وحارات تتطابق في دورات لا تنتهي، وتتكرر وتتكرر هذه الدورات حتى يصل أعداد كل منها إلى بلايين وبلايين، كل هذه المعاني نستشفها في هذه الإشارة القرآنية المعجزة بقول الحق دون إسراف يتعب الأولين والآخرين أو يصعب فهمه وإدراكه على أي إنسان مهما بلغ علمه من البساطة أو

التعقيد . . . الذي خلق سبع سماوات طباقاً . . . أي إعجاز هذا وأي إبداع وأي إيجاز وأي إلمام بهذا القول كإعلان شامل وكامل من الله سبحانه وتعالى .

(254/774)

إن ما أثبتته العلوم الحديثة التي تبنى عليها الاختراعات والأجهزة والمعدات العلمية والهندسية والطبية أن جميع المواد والأجسام التي جاء منها صنع السماوات والأرض وكل ما حولنا تتكون من أجسام دقيقة ومتناهية في الصغر تسمى الذرات، وأن ذرات جميع المواد متشابهة في خلقها وتكوينها والحركة التي تتم بداخلها . . . إنها جميعا تتكون من نواة في مركز الذرة . . . وتتركز في هذه النواة كتلة الذرة وشحنتها الموجبة . . وتدور حول هذه النواة جسيمات صغيرة جدا تسمى الإلكترونات ولها شحنة سالبة . . وتدور هذه الجسيمات حول نواة الذرة دون أن تلتصق بها وكأنها تسبح لخالقها الرحمن . . ومن دوران هذه الجسيمات حول نواة الذرة يصير للذرة حجما وللمادة وجود . . . أي لولا دوران هذه الجسيمات داخل الذرة لما كان لما حولنا من جبال ومباني حجم أو وجود يذكر ولتحول الجمل بحجمه الضخم إلى مقدار شعرة رأس وتمكن من أن ينفذ بكتلته هذه الهائلة من ثقب المغزل . . . وكل ما في هذا الوجود من أقمار وكواكب ونجوم وشموس وحديد ونحاس

وماء وهواء وصخور وتلال يتكون من ذرات تستقر هيئتها على هذا المنوال الثابت فيها جميعاً وكأنها تقوم جميعاً بالتسبيح الواحد المتوحد لجلال الله بنغمة واحدة ونظام واحد وتشكيل واحد، نظمه خالق هذا الكون وارتضاه أسلوباً لخلقه في التسبيح بعظمته والسجود لجلاله، بلا تفاوت أو اختلاف بين ذرة تراها في قاع محيط أو على قمة جبل أو في المريخ أو من الشمس . . . ولا تجد شيء له وجود في هذا الكون دون أن يأتي بناؤه من ذرات على هذا المنوال وبهذا الأسلوب الواحد في التسبيح . . . فالكل من خلق إله واحد هو الرحمن ويسبح له بنظام ثابت وتشكيل لا يتغير ولا يتبدل في كل بنيان أو تكوين . . . وهكذا جاء هذا البرهان على وحدانية ورحمة الله في كتابه بهذه الكلمات السبعة المضيئة والمعجزة . . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . . .

(255/774)

حقاً، لا يوجد أي اختلاف في خلق الله، وكل هذا الكون من خلق الله الذي جاء برحمته متوحداً في ناموسه وسننه وقوانينه وأطواره وأشكاله وتكوينه ووحدات بنائه وإعماره ودوراته . . . يحمل علامة الرحمة التي لا يملكها سواه . . . فهو خلق الرحمن، الذي أوجد هذا التوحد برحمته حتى لا تكد العقول في الإيمان بوحدانيته . . . وهذه الذرة التي تعد

وحدة البناء وإحدى العلامات المميزة لخلق الرحمن تقف دليلاً على رحمته ووحدانيته بالتطابق في كل شيء والتماثل في كل ما حولنا دون وجود أي خلق بوحدة أخرى غير هذه الذرة.

إننا لو امتدت أبصارنا إلى المجموعة الشمسية فسنجد أن حجمها الهائل يأتي من دوران مجموعة الكواكب التابعة لها حول الشمس.. وأن كتلة المجموعة الشمسية تتركز أساساً في الشمس... ولهذا تنجذب هذه الكواكب في دورانها إلى الشمس تماما مثل ما تتركز كتلة الذرة في نواتها وتنجذب الإلكترونات في دورانها إلى النواة... هكذا تتماثل المجموعة الشمسية وكل المجموعات النجمية التي جاء منها بناء السماء مع أي ذرة في هذا الكون والتي جاء منها بناء كل ما نراه كما جاء منها بناء النجوم والكواكب وكل ما نراه من جبال ومحيطات وأجسام أيضا..

فلولا التفاف الكواكب حول نجومها والتفاف النجوم حول مركز المجرة لما كان للكون أيضاً هذه الأبعاد الهائلة... ثم نرى أن كل ما يسرى على أفلاك الكواكب حول الشمس من قوانين وعلاقات يسرى أيضاً على أفلاك الإلكترونات حول النواة... إنها قوانين وسنن سنها خالق واحد برحمته كي يدلنا على وحدانيته.. يخضع لها كل شيء دون تفاوت مهما كان حجمه متناهيا في الصغر أو موغلا في الكبر.. فالكل من خلقه والكل خاضع لمشيئته... والكل يسعى برحمته.

وإذا رجعنا بالبصر مرة أخرى فسنجد أن جميع الأجسام والأشياء من حولنا تتشكل من عدد محدود من ذرات عناصر كيميائيه تمكن العلماء من حصرها فيما لا يزيد عن مائة وعشرون عنصر . . وقد وجد أن جميع الذرات في هذا الكون الممتد تتشابه في تركيبها وتكوينها ومكوناتها وحركتها وقوانينها وأفلاكها ونشاطها وخمولها ، ولكن تختلف في عدد جسيمات داخل نواة هذه الذرات تسمى البروتونات، ويستتبعها أعداد جسيمات أخرى مرتبطة بأعداد هذه البروتونات تسمى النيوترونات والإلكترونات . . وبهذا الاختلاف تتغير الصفات عنصر عن عنصر آخر . . ولكن ذرة الهيدروجين على الأرض وفي الشمس وفي القمر وفي كل النجوم لها نفس التركيب ونفس الأعداد للجسيمات داخل ذرتها وكذلك جميع العناصر الأخرى والتي تم حصرها في بضع ومائة عنصر . . . وقد وجد العلماء انه بترتيب هذه الذرات بحسب أعداد البروتونات فى نواة كل عنصر في دورات سباعية (أو سبعة مجموعات) . . . فإن خصائص عناصر كل مجموعة تتكرر وتتماثل في صورة دورية . . . حيث تتشابه توزيع إلكترونات هذه الذرات في أفلاكها حول النواة وتتشابه أيضاً عناصر كل مجموعة من هذه المجموعات في طرق اتحادها بالعناصر الأخرى وحالتها

في كل درجة حرارة ونشاطها وارتباطها والخواص الطبيعية والكيميائية لهذه العناصر . . إنها مرتبة ومعدة بيد خالق رحيم في هذه المجموعات السبعة . . . ألا يحمل هذا الرقم الذي حدده الخالق عددا لمراحل خلقه ثم جعله في كل الأجناس والأزمان والأديان عددا لأيام الأسبوع ثم وضعه في كتابه رمزاً لتعدد سماواته سراً لوحدانيته . . . لقد وجدنا بعد ترتيب العناصر بهذا الأسلوب الالتزام الكامل لكل منها حسب قوانين ثابتة تخضع لها جميعها دون اختلاف أو تفاوت . . وبهذه القوانين التي سنها الخالق تتحد وتتآلف الذرات من مختلف العناصر بطرق ثابتة ومحددة لتكون آلاف المركبات التي تملأ السماوات والأرض . . .

(257/774)

فصخور القمر ورمال الأرض وغازات الشمس وكواكب مثل الزهرة والمريخ وعطارد كلها جميعا جاءت من هذه العناصر المحددة وبطرق ثابتة دون تفاوت . . فالكل من خلق إله واحد هو الرحمن . . . والكل يقيم بنائه ووجوده بالتسبيح لخالقه الرحمن بلغة موحدة وبتسبيح محدد . . . سبحانه وتعالى . . ولو توقف تسبيحها أو حركتها التي تجعل لها حجماً ووجوداً لانهارت السماوات والأرض . . ويحضرنا في هذا السياق أن نتذكر هذه

الآية من سورة الإسراء حيث يقول الحق تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا .

وكما تتراص هذه الذرات بأعداد محدودة لتكون المركبات الغير عضوية مثل الصخور والرمال والجبال والمياه . . . فإنها تتراص أيضاً وبصورة موحدة أيضا لتكون المركبات العضوية أو التي تكون الأعضاء التي نراها في كل كائن حي . . . وما يبهر حقاً أنك ترى أن أي مركب من هذه المركبات يتكون من ملايين من الذرات وقد تراصت وترتبت بترتيب ثابت دون اختلاف بإعجاز وإبداع . . . . إنها حقا تدل كل من له عقل أن بناؤها قد تم بيد إله واحد وخالق واحد . . هو الرحمن

(258/774)

إن أصغر وأدق كائن حي هو الخلية الحية . . . وكما أن الذرة بشكلها الثابت الذي أرتاه العلماء هي وحدة البناء الأساسية لكل مادة في هذا الكون . . . كذلك نجد أن الخلية الحية بشكلها الذي يراه العلماء هي وحدة البناء الأساسية لكل المخلوقات الحية . . شكل واحد بمركبات واحدة وبأنماط وأطوار واحدة لخالق واحد ، هو الرحمن . . . هذه الذرات التي ينشأ منها مركبات الطين والتراب في الأرض هي التي تراصت في سلاسل

كيميائية بارعة وباهرة الخلق والصنع لتبنى تكوينا وخلقا آخر يشابه أيضا الذرة أو وحدة البناء الأولى من حيث الشكل العام . . . كما في وسط الذرة نواة تحدد بأعداد بروتوناتها صفات كل ذرة أو كل عنصر . . . نجد في وسط الخلية نواة تتحدد بأعداد جسيماتها صفات الخلية والمهام والوظائف لكل منها . . . وتتكون الخلية من مركبات تسمى الأحماض النووية وكلها جاءت من ذرات العناصر المعروفة وبترتيب معجز وثابت في كل مخلوقات الله عليها خاتم الصانع الذي سمي خلقه بهذا الاسم "خلق الرحمن" . . وتسبح هذه النواة في وسط سائل هلامي يحيط بها ويدور حولها وينفذ ما تمليه عليه النواة من مهام . . . ويتكون هذا الوسط أيضا من جزيئات عملاقة يصل تعداد ذراتها إلى الملايين والبلايين التي تراصت أيضا بترتيب ثابت ومعجز في جميع الخلايا الحية ويطلق عليها اسم الأحماض الامينية . . . وفي هذه الأحماض المكونة التي جاءت من الطين توهب الحياة . . . كيف ؟ وما هي مادة هذها لعلماء . تي وهبها الخالق لها جميعا لتحي جميعها بصورة واحدة ؟ هنا يعجز العلم والعلماء . . وليس أمامهم إلا أن يؤمنوا ويقروا بما جاء بإعلان الخالق سبحانه بهذه الكلمات المعجزة في قرآنه الكريم ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . . . إنه الرحمة وخلق الرحمن

إن تماثل وحدة البناء في كل المخلوقات الحية دليل قائم على وحدانية الله ورحمته . . .

وكما أن ذرة كل عنصر تتماثل مع عناصر الذرات الأخرى في التركيب والتشكيل والقوانين والحركات والأفلاك وتختلف من عنصر إلى آخر في عدد تلك الجسيمات داخل نواة الذرة والتي تسمى البروتونات . . . كذلك نجد أن كل الخلايا الحية تتحد في أشكالها وقوانينها وتنفسها وإخراجها وغذائها وموتها وحياتها وتكاثرها . . وتختلف أيضا في أعداد جسيمات داخل النواة وتسمى الكروموسومات . . . وتتماثل أعداد هذه الكر وموسومات في كل مخلوق حي . . . فخلية الإنسان بها 46 كروموزوم، والقطة بها 24 والفأر بها 28، وهكذا لكل مخلوق حي . . . ويتكون كل كروم وزم من مئات آلاف الجينات . . . وتتماثل هذه الجينات أو الشفرات حيث تحمل الصفات الوراثية والسجل لجميع الوظائف والمهام لكل إنسان ولكل عضو أو نسيج أو خلية بالتحديد . . . وبحسب كلام العلماء فإنه مطلوب لتسجيل شفرات الخلية الواحدة عدة ملايين من الصفحات، وهذا في اعتقادهم سوف يستغرق عدة أجيال لاكتشاف أسراره . . إذا لم يخيب ظنهم

شكل افتراضي لذرة وتدور حولها الإلكترونات

وعندما تتراص هذه الخلايا بجانب بعضها بترتيب خالقها تنشأ الأنسجة الحية . .

وتتراص هذه الأنسجة لتكون أعضاء المخلوقات الحية . . . ومن مجموع هذه الأعضاء تأتى جميع المخلوقات الحية . . . ويمكن أن تحيى الخلية الحية منفردة في هذا الكون كما يمكن أن تحيى أعظم المخلوقات الحية مثل الإنسان أو الأسد . . . فكلاهما يقوم بنفس الوظائف الحيوية من غذاء وتنفس وإخراج وتكاثر وإحساس . . . خالق واحد يعدد مخلوقاته من وحدة واحدة وبأسلوب موحد بإبداع وقدرة ورحمة حتى نهتدي إليه ونسبح قائلين ومعلنين ومؤذنين لا إله إلا الله . . . الرحمن .

(260/774)

ولو نظرنا إلى المخلوقات الحية التي تسير وتتحرك ويطلق عليها العلماء المملكة الحيوانية ومن أعضائها الإنسان . . سنجد أنها أيضا تتكون من نفس الأنسجة والأجهزة والأعضاء الثابتة والمتشابهة في تكوينها وتركيبها . . . وتتماثل أيضا في وظائفها وبنائها وتناسقها ، ولنقف أمام بعض الأجهزة في أجسام المملكة الحيوانية . . . فنرى كل جهاز يتكون من مجموعة من الأنسجة المتشابهة في كل أعضاء المملكة . . . ولو قمنا بفحص مجهري لأنسجة معدة الإنسان نجدها تتشابه مع الأنسجة في معدة القط والفأر وكذلك أمعاء الفيل مع أمعاء الأرنب . . . ولو نظرنا في كل أعضاء المملكة الحيوانية ونرى أن لها جميعاً الجهاز

الهضمي الذي يحول ما نتناوله إلى غذاء يمكن امتصاصه في خلايا الجسم وإلى الجهاز التنفسي وهو يستخدم الهواء الجوى ليمد الجسم بالأكسيجين اللازم لاحتراق الغذاء داخل خلايا الجسم فيحصل الجسم وخلاياه على الطاقة اللازمة للدفء والحركة . . . والجهاز الدوري وهو يوزع هذا الأكسيجين والغذاء على خلايا الجسم فيمدها باحتياجاتها . . . والجهاز التناسلي الذي يحفظ لمخلوقات الله نوعها . . . والجهاز العصبي الذي يتعامل به الجسم مع المؤثرات الخارجية . . . والجهاز السمعي الذي يتعامل به المخلوق مع أفراد أمته . . . والجهاز البصري الذي يدرك به المخلوق ما حوله . . ونرى كيف تستمع كل المخلوقات الأصوات التي لها نفس الترددات وترى بالضوء الذي له نفس أطوال الموجات وتميزها بنفس الطريقة والأسلوب . . . وكيف تتنفس جميعا نفس الأكسيجين الموجود في الهواء . . . وكما أن لكل أعضاء المملكة الحيوانية نفس الأنسجة والوظائف نجد أنها أيضا لها نفس الأعضاء . . . فالكل له رأس وأقدام ويدان . . وبالرأس فم وأنف وعينان ومخ بفصوصه وتكوينه الثابت . . . والكل له بطن وصدر وأعضاء تناسلية وجلد . . . وفي الطير تتحول اليدان إلى جناحان وتتحول في الأسماك إلى زعانف . .

(261/774)

إنها جميعا خلق واحد لإله واحد أنشأ خلقه كله بناموس واحد . . بلا تفاوت . . فكانت رحمته الثابتة في كل شيء . . وكما يتميز كل صانع بصفة ثابتة تجدها في صنعته . .

فكذلك يتميز خلق الله بالرحمة والوحدانية التي تجدها في كل شيء . . خلقا واحدا يشيع فيه رحمة ثابتة من خلية واحدة بتكوين ثابت وأنسجة واحدة وأجهزة واحدة وأعضاء واحدة جاءت كلها بصناعة يد رحيمة واحدة

إن اتحاد وتآلف الذرات جميعا لتكوين هذه المركبات والأحماض رحمة . . واتحاد الخلايا لتكون هذه الأنسجة التي تحقق الحياة الكاملة والبقاء المستقل رحمة . . والبصر رحمة والسمع رحمة والأبوة رحمة والأمومة رحمة والبنوة لرحمة والماء رحمة والهواء رحمة والقرآن رحمة وكل ما حولنا رحمة ومن خلق الرحمن ولن يسعنا في تعداد رحمة الله التي جاءت بسنة واحدة تأكيدا لوحدانيته كل مجلدات الأرض كي نعطى هذه الآية الكريمة حقها مما أفاض لله به على البشرية من رؤى وعلوم .

إننا لو تجولنا بأبصارنا مرة أخرى إلى تلك المخلوقات التي يكسوها الله باللون الأخضر وتسمى بالمملكة النباتية فسنجد أنها جاءت أيضا جميعها برحمة الله لتؤدى دوراً مطلوبا لحياة أعضاء المملكة الحيوانية وبقائها . . . فقد جاء خلق المملكة النباتية بنفس وحدة البناء التي تقيم المملكة الحيوانية وهي الخلية الحية بنفس التركيب والأحماض . . ثم تميزت هذه المملكة بالأوراق الخضراء التي تقوم بأهم عملية لبقاء النبات والحيوان معا . . حيث

تعد هذه الأوراق الخضراء غذاء كل الأحياء من الهواء والماء وضوء الشمس وما تمتصه الجذور من مركبات الأرض وطينها

(262/774)

إن النبات يمتص غاز ثاني أكسيد الكربون الناتج من تنفس الحيوان ويخرج له مرة أخرى غاز الأكسيجين الذي يحتاجه الحيوان أو الإنسان ليحترق به الغذاء داخل جسمه مرة أخرى . . . هكذا يعيش هذا على هذا وكلاهما بنفس التركيب . . . ثم يوفر النبات للإنسان أو الحيوان بغاز ثاني أكسيد الكربون وضوء الشمس ما يحتاجه من طاقة يتحركون ويستمتعون بها . . إنه التكامل والترابط وتوزيع الأدوار بيد الله الخالق الواحد دون تفاوت . . إن تكامل المملكة النباتية والحيوانية وتشابكها وتآلفها دليل أنها حقا جاءت من إله واحد أو أنها جميعا خلق الرحمن

ثم لهارنا مرة أخرى إلى أعضاء المملكة النباتية فسنجد أن جميع النباتات مع اختلاف أشكالها وأطوالها ومذاقها ويصل عددها إلى ملايين الأنواع والأشكال والأصناف تتكون جميعها من جذور تمتص ماء واحد وما يذيبه هذا الماء من مركبات الأرض . . . ثم لها سيقان وأوراق خضراء تقوم جميعها بنفس الوظائف . . الماء واحد واللون واحد

والوظائف واحدة . . كلها جاءت لتتفق مع إعلان الخالق في خاتم كتبه ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت

هكذا نرى أيضا أن كل ما حولنا من ظواهر طبيعية وحركات وسكنات تخضع جميعاً لقوانين ثابتة يكتشف منها العلماء شيئاً جديداً في كل يوم . . إن خضوعها والتزامها جميعاً بهذه القوانين التي وضعها الخالق سبحانه وتعالى ينشأ منها هذا الانتظام الكامل في الكون رغم امتداده اللانهائي زمناً ووجوداً . . . وهذا هو أعمق دليل على وحدانية الله ورحمته

(263/774)

إن من يتعمق في القوانين الطبيعية التي نكتشفها يجد أن كل شيء مهما كان حجمه أو وزنه يخضع لهذه القوانين بكل التزام . . . فلا يسعنا إلا أن نقر برحمة الخالق بنا وفي كل خلقه . . قانون الغازات المثالية الذي يخضع له كل الغازات على اختلافها وألوانها وأشكالها وأوزانها ، بل وكل مواد الأرض، فما من مادة إلا ويمكن أن تجدها في الحالة الغازية التي تخضع لهذا القانون . . . من الذي أخضع كل شيء لقانون واحد ثابت لا يخضع لقياساتنا ولكنه ثابت أمام كل طرق القياسات . . إنجليزية أو فرنسية أو عالمية . . . والثلاثة أوجه

التي تجد عليها المواد هي في كل خواصها عندما تكون غازية أو سائلة أو صلبة . .

فالحديد الصلب كالثلج الصلب والنيتروجين الصلب وعندما ينصهر الحديد تجده سائلا مثل الماء ومثل النيتروجين سائلاً . . . وعندما يتحول الحديد إلى أبخرة تجد له نفس خواص بخار الماء والنيتروجين وتسرى عليها نفس القوانين . . . وقوانين الحركة التي تخضع لها كل حركات وسكنات كل الأشياء في هذا الكون من حولنا . . كرة المضرب والكرة الأرضية . . . الذرة في المفاعل النووي والذرة في باطن الشمس . . . الطائرة والطائر . . . السمكة والباخرة . . . الإلكترون حول النواة والأرض حول الشمس . . . قوانين انتقال الحرارة والطاقة والمادة وكمية الحركة التي تتماثل جميعاً ويخضع لها كل تغير يحدث في هذا الكون . . وإذا ما كتبت هذه القوانين بالصورة التي لا تخضع لما يضعه البشر من أوزان وأطوال . . تجدها سارية على كل الظواهر والتغيرات في كل الكون وما يسرى به أو عليه . . . ويطلق العلماء على القوانين التي تستنتج بهذه الكيفية قوانين التماثل وتنشأ من ظاهرة التماثل بين كل شيء وفي كل شيء وأن كل شيء في هذا الكون محكوماً بلا تفاوت . . . فما يجده العلماء في أنبوبة صغيرة يماثل ما يحدث في أكبر الأنهار . . .

وما يجدونه في معمل صغير يماثل ما يحدث في الكون الممتد، وما يحدث في ذرة صغيرة يماثل ما يحدث في أعتى المجموعات الكونية . . . الترابط والانسجام والوحدة الكاملة بين كل حلقات هذا الكون الممتد بلا تفاوت حقيقة ماثلة يراها البسطاء والعلماء برحمة الله وهدايته

. . . ثم أن العلوم الحديثة قد اكتشفت قانون بقاء الطاقة ثم قانون بقاء المادة ثم جاءت النظرية النسبية لتقول أن المادة والطاقة جاءتا من جوهر واحد لهما نفس الطبيعة . . . فالمادة طور من أطوار الوجود لا يعلم نهايتها وبدايتها إلا الله الذي يدبر بقائها برحمته وبدون تفاوت

وكما ذكرنا فيما سبق أن وحدة بناء كل هذا الكون هي الذرة ووحدة بناء كل الأحياء هي الخلية الحية . . ولكن من في هذا الكون يستطيع أن يخلق ذرة رغم صغر حجمها . . يتحرك فيها عالم من الإلكترونات والنيوترونات والبروتونات دون توقف أو تداخل في الاختصاصات . . ولو توقفت أو تداخلت لكان انهياراً للكون بقوانينه وأحجامه ووجوده . . . أو من يستطيع أن يخلق خلية من هذه الذرات رغم معرفتنا بتركيبها وأن يهب لخلية واحدة القدرة على أن تحيى وتتحرك وتتنفس وتتكاثر وتخرج وتؤدى مهام لها ولجيرانها . .

إنه إعجاز خالق وصف خلقه بأنه خلق الرحمن . . . والرحمن اسم من أسماء الله الحسنى

اختص به نفسه ولم يطلق على أحد سواه . . فكل هذا من صنع خالق نسج برحمته وقدرته كل هذا الخلق وكل هذا الكون من نفس اللبنات وبنفس الوحدات . . . فجاء هذا التوافق والانسجام والترابط والالتحام . . . هذه الوحدة التي تدل على وحدانيته برحمته وبالفطرة التي فطرنا عليها . . . ثم جاء رسوله بالهدى وهذا النور الكامل والشامل يضيء لنا برحمته الهداية إلى وحدانيته حتى نشهد أنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى رحمة منه وفضلا به وله .

(265/774)

لقد أمرنا الخالق في الآية الثالثة أن نرجع البصر . . . لنرى هل هناك فبما نراه حولنا ما يدل أن هناك خالق غير الله . . . أم أن هذا الكون كله جاء بيد واحدة دون أي اختلاف كما ذكرنا ثم نأتي إلى الآية الرابعة في تسلسل هذه الآيات حيث يأمرنا الله عز وجل بأن تمتد أبصارنا إلى أقصى ما ندركه فيما حولنا . . بدءا من أقرب أو أصغر الأشياء وانتهاء بأبعدها أو أكبرها . . . وإذا ما ابتدأنا بما يمكن أن نعيه بأبصارنا وهو الجبال ورأينا قدرة الله في تثبيتها في الأرض ارتفاعها رغم كل ما يقيمه البشر من عمارات ينهار . . ثم تجولنا إلى الأصغر فالأصغر حتى نصل إلى الذرة وهي أصغر الأشياء . . . فسنجد مداركنا

وأبصارنا تعجز حقاً عن أن تصل إلى ما يحدث فيها وما يدور في أفلاكها، وكل ما نقوله عنها هو محض افتراضات يؤيدها النتائج وليس المشاهدات . . وهكذا نقر بأن أبصارنا تنحسر عن تعدي حدود حددها الله لنا حتى في هذه الأشياء التي تتكون منها أجسامنا وكل ما حولنا، ولكن تبنى نظرياتنا على ما نفترضه فيها من أجسام وأشكال وتحركات وطاقات وانبعاثات، ولا يمكن لأعظم مجهر أن يتغلغل داخل الذرة كي نرى بأبصارنا ما تؤكده نظرياتنا وتعتمد عليه كل علومنا . . . هكذا تعتمد العلوم على عدم رؤية لأساس هذه العلوم . . . ألا يكون هذا واعظاً لمن ينكرون وجود الله لأنهم لا يرونه رغم اعتماد كل العلوم على ما لا ترى . . . هكذا اقتضت حكمة الله أن تكون لأبصارنا حدودا تنحسر دونها في هذا الكون القائم بحكمته كما جاءت في الآية الرابعة .

(266/774)

ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . . . . ثم تعالوا ننفذ أمر الله وتمتد أبصارنا لما هو أكبر من الجبل . . . إلى هذا الكون الذي يمتد إلى ما لا نهاية له زمانا ومكانا . . . فهل تستطيع أبصارنا ومداركنا أن تدرك هذا الكون أو ما ليس له حدود . . . لقد خلقنا الله بأبعاد محددة وأعمار محدده . . فهل يمكن أن يدرك المحدود

اللامحدود . . . هنا يأتي اعترافنا بالعجز والانحسار . . . أي ينحسر بصرنا عن تعدى الحدود التي حددها الخالق بعداً كما انحسرت قرباً . . . لقد أثبتت العلوم الحديثة أن هناك نجوماً في السماء على بعد من الأرض يبلغ آلاف ملايين السنين الضوئية . . والسنة الضوئية تمثل أبعاداً ومسافات . . معنى هذا أن الضوء الذي نرى به هذه النجوم قد أرسلته إلينا منذ هذه السنين التي لا تعد وأخذ الضوء كل هذه الدهور السحيقة حتى يقطع هذه المسافات الفاصلة ويصل إلينا . . . أي أن هذا النجم كان موجودا هناك قبل خلق الأرض وما عليها ومن عليها منذ بلايين السنين . . هل تستطيع حقا عقولنا أن تستوعب هذه الأبعاد مكانا وأزمنة . . . ثم هل لهذا الكون غلافا يغلفه . . . أو أنه كون مفتوح حتى المالا نهاية . . وكيف تكون هذه المالا نهاية . . . لا قدرة لعقولنا على استيعاب هذه الأبعاد ولا قدرة لأبصارنا رغم وجود اعتي التلسكوبات أن ترى حتى هذه الأبعاد . . . وهكذا تأتى الآية الرابعة لتعيد الإنسان إلى معرفة قصوره وعجزه بقول الحق

(267/774)

" ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير " . . . هذا هو الإنسان . . محدود في رؤياه صغراً أو كبراً . . . ومحدود في مداركه . . . بعداً أو

قرباً . . . زمناً أو مكاناً . . . فلا مجال لغروره عندما يعلن أنه اكتشف ما اكتشف . .

ولكن عليه دائماً أن يقر أنه إذا ما تطاول في أي مجال، فإنه سيرتد ببصره وبنفسه خاسئاً أمام عظمة خلق الرحمن من حوله وهو حسير . . ينحسر ولا يتطاول إلى ما لا قدرة له عليه صغراً وكبراً . . . لهذا جاء قول الحق كرتين . . . كرة لما هو أصغر فأصغر حتى يصل إلى تلك البذرة الضئيلة التي بنى علها نظرياته، وكرة إذا ما ذهب إلى الأكبر فالأكبر فيصل إلى الكون الذي لا يتخيل أبعاده . . . فكيف به يتطاول ويقول " أرنا الله جهرة " . . . وكان أولى به أن يعلم أنه عاجز ببصره وبصيرته أن يرى أصغر خلق الله ثم هذا الكون الذي خلقه الله والممتد بعلم الله وقدرته .

وأخيرا وقد وقفنا أمام أربع آيات من كتاب الله العزيز الرحيم . . . واهتدينا بمعانيها وأرسلنا البصر في هذا الكون مرات ومرات لنرى أوجه الإعجاز التي لا تعد في هندسة الكون وهذا البناء ورأينا كيف حوت هذه الآيات معاني لا تعد ولا تحصى . . . ثم رأينا أنه لو اجتمع علماء الأرض بما عرفوه فلن يستطيعوا يأتوا بأدق وأشمل وأجمل من هذه الكلمات والآيات التي تعطى البرهان والحقائق وتهدى إلى الحق والتوحيد دون أن يأتيها الباطل في الماضي أو الحاضر والمستقبل مصداقا لقول اله عز وجل :

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " . . . " فبأي حديث بعد يؤمنون "

صدق الله العظيم

أفلا يؤمنون

.

.

.

0-مُجمع مصانع تثبيت الطاقة وتخزينها

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

(268/774)

في جولة علمية متخصصة لخبراء الطاقة في العالم , قال كبيرهم للزائرين : اليوم نأخذكم في جولة علمية نكشف لكم خلالها عن أعجب وأصغر وأدق مجمع لمصانع تثبيت وتخزين الطاقة الحيوية وتحريرها في العالم .

تلك المصانع التي ظلت سراً مكنوناً عن الناس لملايين السنين, وظلت تعمل في هدوء

عجيب وفي سرية تامة بلا كللٍ ولا مللٍ ولا تلفٍ دون علمنا إلى أن عثرنا عليها وبدأنا نستطلعها وندرسها , فأدهشتنا بدقة تكوينها وعملها المعجز .

هذه المصانع تكون مجمعاً صناعياً عظيماً يتألف من وحدات ميكرونية مجهرية صغيرة, بحيث تقوم كل وحدة بعملها لإنتاج الطاقة وتخزينها وتحريرها , واستغلال المخلفات الحيوانية والنباتية والبكتيرية والفطرية والبشرية, وتحويلها إلى مواد سكرية حلوة الطعم, خالية من الجراثيم والإضافات الغذائية المضرة, وطاقة حيوية يستفاد بها .

وهي المصانع الوحيده في العالم التي لاتلوث البيئة الأرضية, ولا تحدث ضجيجاً , وهي تنتج السكريات, والدهون, والبروتين, والفيتامينات, والأصباغ الطبيعية, والهرمونات النباتية, والأدوية, والصموغ, والشموع , والراتنجات والطاقة وغيرها .

وتغلف هذه المواد آلياً بعد تصنيعها وإرسالها إلى وحدات التخزين والتوزيع , حيث يتم تخزينها في عبوات صغيرة يمكن استهلاكها دون إسراف , وهذه العبوات متعددة الأشكال والألوان والحجوم والروائح والفوائد والتركيب, وتحتوي الواحدة منها على الطاقة اللازمة للمستهلكين , ومن مكوناتها الداخلية الفيتامينات والألياف المانعة للأمراض والسرطان , وهي وحدات سهلة القضم والهضم والامتصاص والتمثيل داخل الأجسام الحية, وهي سهلة الإخراج والإفراز .

صورة توضيحية لآلية إنتاج الأوكسجين وتحول ثاني أوكسيد الكربون إلى سكر الكربوهيدرات وعملية تخزين الطاقة الشمسية في الأوراق النباتية

(269/774)

وهذه المصانع رغم تراكيبها الداخلية المعقدة وتبايناتها في البناء الخارجي, ولكنها سهلة الحمل والإنشاء والصيانة والرعاية .

- وهي من أقدم وأعظم وأصغر مصانع الطاقة في العالم .
- وتحول ثاني أكسيد الكربون الجوي إلى مواد غذائية .
- وتحفظ نسبتي ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ثابتتين في البيئة الأرضية .
- وتنقي الجو ولا تلوثه بل تلطفه وتحسنه .
- خاماتها متوفرة في معظم البيئات الأرضية .
- وهي التي أنتجت :
- كل بترول العالم . وكل خشب العالم .
- وكل فحم العالم . وكل سكر العالم
- وكل مطاط العالم وكل دهن العالم .

- وكل صمغ العالم . وكل الأكسجين في العالم .

- وكل عملات الطاقة الحيوية في العالم .

ويعتبرها العلماء والمختصون أقدم مفاعلات ذرية أرضية عرفتها البشرية .

صورة توضيحية لآلية عمل البلاستيدات الخضراء في الورقة أثناء عملية التركيب الضوئي

فسبحان الله

وهي تشطر الماء وتستخدم هيدروجينه وتطلق الأكسجين, وتشطر ثاني اكسيد الكربون وتستخدم كربونه وتطلق الأكسجين

وتثبت الطاقة الضوئية الشمسية وتحولها إلى طاقة كيميائية مخزنة في الروابط الغذائية .

دهش الزائرون وقالوا لكبير الخبراء : إن هذا لشئ عجيب . فما اسم هذا المصنع ؟ !

قال الخبير : القسم الأول من هذا المجمع الصناعي هو قسم الأوراق النباتية وبلاستيداتها الخضراء ((Chloroplast .

قالوا له : صف لنا هذه المصانع العجيبه .

قال : تخرج تلك الأوراق الخضراء الغضة الرقيقة من السيقان النباتية الصلبة, ولكل نبات أوراقه المميزة له, وهي على العموم تتركب من القاعدة المتصلة بالنبات, والحامل وهو يمتد ليكون العرق الوسطي الرئيس, وباقي العروق الممتدة في شبكة دقيقة من قمة الورقة إلى

قاعدتها . يلي العنق النصل, وهو الجزء المفلطح من الورقة عادة , وفيه تتم عملية تثبيت الطاقة بالبناء الضوئي العجيب تلك العملية التي أنتجت كل المواد النباتية في العالم .

(270/774)

صورة توضيحية لآلية عمل بلاستيد تخضراء في ورقة نباتية

ولأوراق النبات أشكال متباينة منها البسيط , والمركب, والمتضاعف, والعريض, والسهمي والابري والأنبوبي .

وأحياناً تتحور الأوراق إلى معاليق أو محالبق يتسلق بها النبات, وتتحور إلى أشواك للحماية والتقليل من فقد الماء بعملية النتح في البيئات الصحراوية والجافة, وأحياناً تستخدم كمخازن للماء في البيئات الصحراوية .

وللورقة بشرة خارجية تحيط بتراكيبها الداخلية إحاطة تامة ماعدا بعض الفتحات الصغيرة المسماه بالثغور, وبشرة الورقة مغطاة بطبقة شمعية دهنية رقيقة للحفاظ على الماء والتراكيب الداخلية للورقة .

وللورقة من الداخل نسيج متوسط يشغل المساحة بين بشرتيها العليا والسفلى وهو يحتوي البلاستيدات الخضراء التي تقوم بعملية البناء الضوئي, وتنتشر في الورقة الأوعية الناقلة

الخشبية لإمدادها بالماء والأملاح والغذاء . وفيها أوعية اللحاء المكلفة بنقل المصنعات الغذائية إلى أماكن تخزينها وتغليفها وحمايتها .

والبلاستيدات الخضراء تراكيب صغيرة ذات شكل وبناء هندسي معجز, يمكن مشاهدتها بالمجاهر الضوئية المركبة كعضيات صغيرة متباينة الحجم والشكل, وتم التعرف مؤخراً على تراكيبها الدقيقة بالمجاهر الإلكترونية, وهي عضيات يتراوح قطرها من (4) إلى (6) ميكرون .

وقد استخدم في بناء هذه الوحدات نفس النظام المستخدم في بناء الأوراق والخلايا الحية للنبات والحيوان من حيث الأغشية الحية المزدوجة ذات النفاذية الاختيارية, وبداخل تلك البلاستيدات تراكيب قرصية الشكل تسمى بالجرانا (Granum) وهي تكون الوحدات فائقة التركيب والوظيفة في البلاستيدة المسماه الثلاكويد (Thallakoids) ,ويصل بين الجرانا أغشية وطرق مزدوجة تسمى الصفائح (Lanella) وكل هذه التراكيب محاطة بسائل حيوي يسمى الحشوة (Stroma)

وحتى تتخيل أخي المسلم هذا التركيب العجيب , تصور أن هناك حافظة نقود كبيرة بيضاوية الشكل مزدوجة الجدار بداخلها مجموعة من النقود المعدنية الصغيرة الملتصقة مرصوصة فوق بعضها البعض في مجموعات رأسية ومرتبة كما نرص الأطباق بعد غسلها , كل مجموعة تسمى بالجرانا (Granum) , وكل طبق يسمى بالثلاكويد Thallakoid)) , ويصل بين الجرانا أغشية تسمى (Lamella) وقد حشيت هذه المحفظة بسائل حيوي يحيط بتلك التراكيب من جميع الجهات يسمى الحشوة ((Matrex .

وهذا التركيب وما يشابهه من البلاستيدات الخضراء هي التي صنعت كل المركبات النباتية في العالم .

تمتص البلاستيدات الخضراء الموجات الضوئية , وتشطر هيدروجين الماء وثاني اكسيد الكربون الجوي لتكوين أول جزيء طاقة حيوي في عمليات معقدة معجزة وفي النهاية تعطي المواد السكرية .

ومن عجائب خلق الله المعجز أن أهم ثلاثة مركبات حيوية في الكائنات الحية هي اليخضور (الكلوروفيل) في النبات , واليحمور (الهيموجلوبين) في الحيوان والانسان , والسيتوكرومات في النبات والحيوان والاختلاف الجوهري بين اليخضور وكل من اليحمور والسيتوكروم هو احتواء اليخضور على ذرة مغنسيوم بدلاً من ذرة حديد في كل من

اليحمور والسيتوكروم .

وهذه التراكيب الثلاثة تدحض نظرية الصدفة والعشوائية في خلق الكائنات الحية , وهي من الأدلة العلمية الدالة على بطلان النظرية التطورية (نظرية الصدفة والعشوائية والانتخاب الطبيعي) (1) .

والعالمون بخلق الله وعظمته يسألون أنفسهم ما العلاقة بين الانسان والنبات في عملية نشأة الحياة بالطريقة التطورية التي يدعيها دارون ؟ ! هذا نبات وهذا حيوان ومع ذلك هناك أدلة توضح وحدانية الخالق واظهار قدرته وعظمته وعلمه وتدبيره في تلك الغضيات .

و العاقل منا أن يسأل نفسه :

هل هذه الأوراق خلقت بغير خالق عليم خبير لطيف مدبر ؟

وهل البلاستيدات خلقت بالصدفة ؟

ومما يدلل على وحدانية الخالق ان كل العضيات الخلوية في الخلايا حقيقة النواة (أي الخلايا التي تحاط مادتها النووية بالغشاء النووي) كل هذه العضيات في الانسان والنبات ذات أغشية مزدوجة . الخلية مزدوجة الأغشية , والبلاستيدات مزدوجة الأغشية ,

والميتوكوندريا مزدوجة الأغشية , فمن فعل هذا سوى الواحد الأحد الفرد الصمد , القادر على ذلك , رب كل شئ ومِلكه .

أقرأ المزيد

(1) انظر كتابنا نظرية التطور بين المؤيدين والمعارضين والأدلة العقلية والأدلة العلمية والأدلة الشرعية الداحضة للنظرية الدروانية .

.

.

.

0-القوى الأساسية في الكون

بقلم هارون يحيى

لقد ذكرنا من قبل أن قوانين الفيزياء في الكون قد نشأت بعد الانفجار العظيم وتستند هذه القوانين إلى "القوى الأساسية الأربعة" المعروفة في الفيزياء الحديثة اليوم وقد تكونت هذه القوى مع تكون أول جسيمات دون ذرية في أزمنة محددة بدقة بعد الانفجار العظيم مباشرة لكي تشكل كل ترتيبات الكون ونظمه وتدين الذرات، التي يتألف منها الكون المادي، بوجودها وتوزيعها المنتظم بدقة عبر الكون لتفاعل هذه القوى وهذه القوى هي : قوة

جذب الكتل المعروفة باسم القوة التجاذبية gravitational force ، والقوة الكهرومغناطيسية electromagnetic force ، والقوة النووية الشديدة strong nuclear force ، والقوة النووية الضعيفة weak nuclear force وتتسم كل واحدة من هذه القوى بشدة مميزة ومجال مؤثر ولا تعمل القوى النووية الشديدة والضعيفة إلا عند النطاق دون الذري وتقوم القوتان المتبقيتان – القوة التجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية– بالتحكم في تجمعات الذرات، وفي عبارة أخرى في "المادة".

(273/774)

وقد نتج نظام الأرض الخالي من العيوب عن التناسب بالغ الدقة لهذه القوى وبإجراء مقارنة بين هذه القوى ستظهر نتيجة مثيرة للغاية، وهي أن كل المادة التي نشأت وتشتت عبر الكون بعد الانفجار العظيم تشكلت نتيجة لتأثير هذه القوى التي تختلف فيما بينها اختلافات شاسعة ومبين أدناه، بوحدات القياس المعيارية الدولية، مقادير هذه القوى المختلفة المدهشة : تسمح هذه القوى الأساسية بتكوين العالم المادي من خلال توزيع كامل للقوة ويرتكز هذا التناسب بين القوى إلى توازن دقيق جدا يمكِّن هذه القوى من تحقيق الأثر

اللازم على الجسيمات من خلال هذه النسب المحددة فقط .

القوة النووية الشديدة : 15

القوة النووية الضعيفة : 7.03×10^{-10}

القوة التجاذبية : 5.90×10^{-39}

القوة الكهرومغناطيسية : 3.05×10^{-12}

القوة النووية الشديدة وتضمن هذه القوة بقاء البروتونات والنيوترونات مع بعضها البعض في نواة

(274/774)

---

1 . القوة العملاقة (الشديدة) في النواة : القوة النووية الشديدة لقد استعرضنا مقال سابق كيف تم خلق النواة لحظة بلحظة والتوازنات الدقيقة الفاعلة في هذا الخلق ورأينا أن كل شيء حولنا ، بما في ذلك أنفسنا ، يتكون من ذرات، وأن هذه الذرات مؤلفة من جسيمات عديدة ما هي إذن تلك القوة التي تحافظ على تماسك كل هذه الجسيمات المكونة لنواة الذرة ؟ إن هذه القوة، التي تحافظ على النواة سليمة، والتي تعتبر أشد قوة عرفتها قوانين

الفيزياء، هي "القوة النووية الشديدة" وتضمن هذه القوة بقاء البروتونات والنيوترونات مع بعضها البعض في نواة الذرة دون أن تتطاير بعيداً وتتكون نواة الذرة بهذه الطريقة وهذه القوة من الشدة بمكان بحيث إنها تكاد تجعل البروتونات والنيوترونات تلتصق ببعضها البعض داخل النواة ولهذا السبب يطلق على الجسيمات الدقيقة التي تمتلك هذه القوة اسم "gluon" وهي تعني "اللصق" باللاتينية وقد ضبطت قوة الربط هذه بدقة بالغة، إذ تم ترتيب شدة هذه القوة بشكل دقيق للإبقاء على مسافة معينة بين البروتونات والنيوترونات فلو كانت هذه القوة أشد قليلاً، لتصادمت البروتونات والنيوترونات مع بعضها البعض أما لو كانت هذه القوة أضعف قليلاً، لتشتت البروتونات والنيوترونات لقد بلغت هذه القوة القدر المناسب اللازم لتكوين نواة الذرة بعد الثواني الأولى من الانفجار العظيم، وتبين لنا تفجيرات هيروشيما وناكازاكي كيف يمكن أن تصبح القوة النووية الشديدة مصدراً للتدمير بمجرد تحريرها والسبب الوحيد الذي يجعل القنابل الذرية، التي سيتم استعراضها بمزيد من التفصيل في مقالات أخرى، بهذا

القوة النووية الضعيفة تحافظ على التوازن في النيوترون والبروتون داخل النوا

القدر من الفعالية هو تحرر كميات صغيرة جداً من هذه القوة المختبئة داخل نواة الذرة .

2 . حزام أمان الذرة (القوة النووية الضعيفة) : إن أحد أهم العوامل في استمرار النظام على الأرض هو التوازن الموجود داخل الذرة إذ يضمن هذا التوازن عدم انهيار الأشياء فجأة وعدم انبعاث أشعة ضارة منها وتتحمل "القوة النووية الضعيفة" مسؤولية الحفاظ على هذا التوازن بين البروتونات والنيوترونات داخل نواة الذرة وتؤدي هذه القوة دوراً مهما في الحفاظ على توازن النوى التي تحتوي على أعداد عالية من النيوترونات والبروتونات وإذا تمت المحافظة على هذا التوازن، يمكن أن يتحول النيوترون، إذا لزم الأمر، إلى بروتون وبما أن عدد البروتونات في النواة يتغير في نهاية هذه العملية، فإن الذرة تتغير معه أيضا وتصبح ذرة مختلفة وهنا ، تكون النتيجة في غاية الأهمية؛ لأن الذرة تتحول إلى ذرة أخرى مختلفة دون أن تتفتت وتستمر في الحفاظ على وجودها ويحمي حزام الأمان هذا الكائنات الحية من الأخطار التي كانت ستنشأ لولا وجوده من جراء تحرر الجسيمات بشكل غير قابل للسيطرة ومؤذ للبشر .

3 . القوة التي تُبقي الإلكترونات في المدار (القوة الكهرومغناطيسية) :

لقد بشر اكتشاف هذه القوة بمقدم عصر جديد في عالم الفيزياء فقد تبين بعد ذلك أن كل جسيم يحمل "شحنة كهربائية" وفقاً لخصائصه التركيبية، وأن هناك قوة بين هذه الشحنات الكهربائية تجعل الجسيمات ذات الشحنات الكهربائية المتناقضة تنجذب نحو

بعضها البعض وتجعل الجسيمات ذات الشحنات المتشابهة تتنافر عن بعضها البعض، ومن ثم يضمن ذلك أن البروتونات

القوة الكهرومغناطيسية تجعل الإلكترونات والبروتونات ضمن الذرة الواحدة تنجذب نحو بعضها البعض

(276/774)

الموجودة في نواة الذرة والإلكترونات التي تتحرك في المدارات حولها ستنجذب نحو بعضها البعض وبهذه الطريقة، تبقى "النواة" و"الإلكترونات"، وهما العنصران الأساسيان في الذرة، مع بعضهما البعض إن أدنى تغيير في شدة هذه القوة من شأنه أن يؤدي إلى انطلاق الإلكترونات بعيداً عن النواة أو إلى وقوعها داخلها وفي كلتا الحالتين، سيؤدي ذلك إلى استحالة وجود الذرة، وبالتالي، استحالة وجود الكون المادي ومع ذلك، فمنذ اللحظة الأولى التي تكونت فيها هذه القوة، قامت البروتونات الموجودة داخل النواة بجذب الإلكترونات بالقوة المطلوبة بالضبط لتكوين الذرة بفضل قيمة هذه القوة.

4. القوة المسؤولة عن تماسك الكون (القوة التجاذبية):

على الرغم من أن هذه القوة هي القوة الوحيدة التي نستطيع إدراكها عادة، فإنها هي أيضا القوة التي نعرف عنها أقل قدر من المعلومات وعادة ما نطلق على هذه القوة اسم الجاذبية، في حين أنها تسمى في الواقع "قوة جذب الكتل""mass attraction force" .

وعلى الرغم من أن هذه القوة هي أقل القوى شدة مقارنة بالقوى الأخرى، فإن الكتل الكبيرة جدا تنجذب بواسطتها نحو بعضها البعض وهذه القوة هي السبب في بقاء المجرات والنجوم الموجودة بالكون في مدارات بعضها البعض ومرة أخرى، تظل الأرض والكواكب الأخرى تدور في مدار معين حول الشمس بمساعدة هذه القوة التجاذبية كما أننا نتمكن من المشي على الأرض بسبب هذه القوة ولو حدث انخفاض في قيمة هذه القوة، لسقطت النجوم، لانتزعت الأرض من مدارها ، ولتشتتنا نحن عن الأرض في الفضاء قال الله تعالى في القرآن الكريم : (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [سورة فاطر : 41] .

(277/774)

وفي حال حدوث أدنى زيادة في قيمة هذه القوة تتصادم النجوم ببعضها البعض، وتصطدم الأرض بالشمس، وننجذب نحن نحو القشرة الأرضية. وقد يبدو لك أن احتمالات

حدوث تلك الأشياء بعيدة جداً الآن، ولكنها ستكون حتمية لو انحرفت هذه القوة عن قيمتها الحالية ولو حتى لفترة قصيرة جدا من الوقت ويعترف كل العلماء الذين يجرون بحوثاً حول هذا الموضوع أن القيم المحددة بدقة لهذه القوى الأساسية تعتبر من العوامل الحاسمة في وجود الكون وعندما تناول هذه النقطة عالم البيولوجيا الجزيئية الشهير مايكل دنتون Michael Denton، أشار في كتابه "قدر الطبيعة : كيف تكشف قوانين البيولوجيا الغاية من الكون " How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe Nature's Destiny" إلى أنه : "لو كانت، على سبيل المثال، القوة التجاذبية أقوى تريليون مرة، لكان الكون أصغر بكثير، ولكان تاريخ حياته أقصر بكثير ولكانت كتلة أي نجم عادي أقل تريليون مرة من الشمس ولبلغت دورة حياته نحو سنة واحدة ومن ناحية أخرى، لو كانت الجاذبية أقل قوة، لم تكن أية نجوم أو مجرات لتتكون على الإطلاق وليست العلاقات والقيم الأخرى أقل خطراً فلو كانت القوة الشديدة أضعف قليلاً، لكان الهيدروجين هو العنصر الوحيد المستقر ولما تمكنت أية ذرات أخرى من الوجود ولو كانت القوة الشديدة أقوى قليلاً مقارنة بالقوة الكهرومغناطيسية، لأصبحت النواة الذرية المكونة من بروتونين فقط سمة ثابتة في الكون – ويعني ذلك انعدام وجود الهيدروجين – وإذا نشأت أية نجوم أو مجرات، ستكون مختلفة جداً عن شكلها الحالي ومن الواضح أنه لو لم تكن لهذه القوى والثوابت المختلفة قيمها

الحالية بالضبط، لما كانت هناك أية نجوم، أو نجوم متفجرة فائقة الوهج supernova، أو كواكب، أو ذرات، أو حياة" (1) وقد عبر الفيزيائي المعروف بول ديفيز Paul Davies عن إعجابه بالقيم المقدرة سلفاً لقوانين الفيزياء في الكون : " عندما

يلجأ

المرء لدراسة علم الكونيات، يزداد لديه الميل إلى الشك. ولكن الاكتشافات الأخيرة فيما يتعلق بالكون البدائي تضطرنا إلى القبول بأن الكون المتمدد قد بدأ في حركته بتعاون يتسم بدقة مثيرة للدهشة" (2) ويسود الكون كله تصميم فائق وتنظيم متقن يقومان على أساس توفر هذه القوى الأساسية ومالك هذا النظام هو، دون شك، الله سبحانه وتعالى، الذي خلق كل شيء من العدم دون أية عيوب وإذا تأملنا قليلاً سنجد أن الله، رب العالمين، يبقي النجوم في مداراتها بأضعف القوى، ويبقي على توازن نواة الذرة الدقيقة بأشد القوى وتعمل كل القوى وفقاً "للحدود" التي قدرها الله وقد أشار الله إلى النظام الموجود في خلق الكون والتوازنات "المقدرة بمنتهى الدقة" في إحدى آياته : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (

الفرقان : 2) .

المصدر : موقع هارون يحيى http : //www.harunyahya.com

11. Michael Denton, Nature's Destiny : How The Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe, The New York : The Free Press, 1998, pp. 12-13

12. Paul Davies, The Accidental Universe, Cambridge : Cambridge University Press, 1982, Foreword

.

.

.

0-وحدة بناء الكائنات الحية معجزة علمية ! !

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى

وجميع الكائنات الحية تحتاج إلى المواد الكربونية لبناء أجسادها وتوليد الطاقة, وتحتاج إلى المواد النيتروجينية (أو البروتينية) لبناء البروتين, والأنزيمات التي تقوم بالعمليات الحيوية

الأنزيمية المهمة للكائنات الحية, وتحتاج إلى المعادن في تغذيتها , وفي بناء بعض المركبات الحية المهمة للخلية .

(279/774)

وهذه المواد والمركبات المتحدة بين جميع الكائنات الحية تدلل على أن الخالق واحد والمدبر واحد , وهو عليم خبير مبدع , خلق هذه الخلايا على غير مثال سابق .

وتركيب الغشاء الخلوي (Plasma Membrane) تركيب معقد ومعجز يدخل فيه الفوسفوليبدات (Phospholipids) والبروتين (Proteins) .

وهو يعزل سيتوبلازم الخلية عن البيئة الخارجية, وينظم تبادل المواد الأساسية بين السيتوبلازم والبيئة الخارجية بعمليات حيوية معلومة,ومعقدة, ودقيقة للغاية لايتسع المقام لذكرها . وإذا مات هذا الغشاء هلكت الخلية , ولذلك تعتمد بعض المطهرات والمنظفات والتأثيرات الحرارية والاشعاعية على اتلاف الخصائص الحيوية لهذا الغشاء , فتخرج المواد من الخلية وتدخل إليها دون نظام أو حارس, أو ضابط, أو رابط, فتهلك الخلية .

ويستخدم الغشاء الحيوي الحي الطاقة في نقل المواد المطلوبة للخلية عكس ممال التركيز , كما تؤثر على هذا الغشاء عمليات الانتشار (Diffusion) والأسموزية (

Osmosis) , وتستخدم هذه الخصائص في حفظ الخلايا الحيوانية والنباتية بالتمليح والتطهير والتجفيف والتسكير وغيرها من الوسائل المعتمدة على امتصاص الماء من الخلايا .

ويوجد جدار خلوي (Cell Wall) لتدعيم الخلايا وحمايتها في النبات والأوليات والفطريات والبكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة .

وتحتوي الخلايا في النبات والحيوان على تراكيب مشتركة مثل جهاز جولجي (Golgi complex) , وهو مجموعة من الأكياس الغشائية , والعازلة للبروتين والدهون عن الانزيمات المحلله لها .

(280/774)

وفي الخلايا النباتية والحيوانية توجد شبكة بلازمية داخلية (Endoplasmic reticulum) وهي شبكة نقل للمواد داخل الخلية وعلى بعض أجزائها توجد مواضع تكوين البروتين في الخلية والمسماة بالريبوزومات (Ribosomes) , وتحتوي الخلايا على الليسومات (Lysosomes) وهي مخازن للأنزيمات المحلله لمكونات الخلية, ولذلك عندما يموت الكائن الحي, وتفسد النفاذية الاختيارية لأغشية الليسوسوم تنطلق

الأنزيمات منها إلى الخلايا معلنة تحللها والاسراع في تفكيكها .

من هنا كان من السنة ومن إكرام الميت الاسراع في دفنه قبل أن تعمل الانزيمات المحلله على تحلل خلاياه وصعود رائحة التحلل منها .

وتوجد الميتوكندريا (Mitochondria) في النبات والحيوان , وهي مولدات الطاقة الحيوية الهوائية في الحيوان والنبات من الطاقة سابقة التجهيز والتخزين – أي أنها مصانع تحرير الطاقة في النبات والحيوان (1) .

أقرأ المزيد

.

.

.

0–وحدة بناء الكائنات الحية معجزة علمية الجزء الثاني

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى

كما توجد البلاستيدات الخضراء مصانع انتاج الطاقة الحيوية والمواد الغذائية في النبات من ضوء الشمس , وثاني اكسيد الكربون , والماء في عملية حيوية معجزة (1) .

و تتكاثر جميع الكائنات الحية بالانقسامات البسيطة أو الانقسام غير الاختزالي (Mitosis) , أو الانقسام الاختزالي (Meiosis) أو بهما معاً .

وقد أسهبت المؤلفات العلمية في عمليات التكاثر, ولكن مايهمنا هنا انها عمليات منظمة ودقيقة ومقدره بميزان الحكمة, وهي تهدم نظرية العشوائية والصدفة في خلق وعمل الكائنات الحية .

(281/774)

والقانون المهم في النظرية الخلوية أن الحياة لاتتولد إلا من الحياة, فحتى نحصل على خلية حية وكائن حي فعلينا أن نأخذها من خلية حية سابقة , وكائن حي الخلايا سابقا , وهذا يدلل على أن واهب الحياة هو الله , فهو وحده الذي يخرج الحي من الميت, وغيره لايمكن أن يخرج الحي من الميت, وكل التجارب التي تجري على الاستنساخ والهندسة الوراثية وزراعة الأنسجة واستغلال الخرائط الوراثية والجينوم تعتمد على خلايا حية سابقة .

من هنا كانت وحدة بناء الكائنات الحية معجزة علمية, تعجز البشرية عن انشائها من العدم وصدق الله العظيم : (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون

في ضلال مبين) لقمان 11 .

.

.

.

0-الميكروبات وكرامات الشهداء

بقلم الدكتور عبد الحميد القضاة

اختصاصي تشخيص الأمراض الجرثومية

والأمصال (بريطانيا) مدير المختبرات التخصصية

كتاب رائع تناول فيه الكاتب كرامات الشهداء في حفظ أجسادهم بعد وفاتهم وذلك

بالأدلة العلمية والشواهد الحية

الكتاب عبارة عن ملف PDF مضغوط يمكن تصفح بواسطة برنامج أكروبات رايدر

أضغط هنا لتحميله

http : //www.55a.net/words/chwhdaa.zip

.

.

.

0-معجزات النبات الجذور الحفارات الطبيعية

بقلم الداعية هارون يحيى

(282/774)

تحتاج النباتات إلى القيام بعملية التركيب الضوئي لكي تبقى على قيد الحياة، ولذلك فهي تحتاج إلى الماء والمعادن الموجودة في التربة، واستجابة لهذه المتطلبات فهي في حاجة إلى جذور لحفر التربة ووظيفة هذه الجذور هي الانتشار بسرعة تحت الأرض مثل الشبكة لتسحب الماء والمعادن؛ وعلاوة على ذلك تقوم جذور النباتات- على الرغم من بنيتها الهشة - بتمكين النباتات التي يمكن أن يصل وزنها إلى عدة أطنان من التشبث بالتربة وتُعد هذه الخاصية أهم ميزة للجذور لأنها تمنع انهيال التربة والطبقات العلوية الخصبة بسبب المطر لا تحتاج الجذور إلى معدات لتقوم بكل هذا ؛وليس لديها محرك لتزويدها بالطاقة لتبدأ بعملية سحب الماء ولا توجد لديها أي أجهزة لضخ الماء والمعادن إلى الساق التي تبعد

أمتاراً؛ ولكن الجذور يمكنها أن تنتشر على مساحة واسعة وتسحب الماء ، إذن كيف تفعل ذلك ؟ كيف يعمل هذا النظام ؟

(283/774)

ربما تخسر شجرة قيقب تنمو في مناخ رطب 200 ليتر من الماء تقريباً في اليوم؛ مما يمثل خسارة كبيرة بالنسبة إليها ، ويجب أن تستعيد الشجرة هذه الكمية من الماء فوراً لتبقى على قيد الحياة (31) ترسل الجذور التي تنتشر عميقاً في التربة الماء والمعادن التي يحتاجها النبات إلى الأوراق عبر الساق والأغصان؛ وسحب الجذور للماء من الأرض يشبه تقنية الحفر وتواصل نهاية الجذور البحث عن الماء في أعماق التربة حتى تجده، ويدخل الماء إلى الجذر عبر الغشاء الخارجي والخلايا الشعرية؛ وبعد ذلك تمر عبر الخلايا إلى نسيج الساق ومن هناك يتم نقلها إلى كل قسم في النبات في الواقع هذه العملية التي يقوم بها النبات بشكل فائق الدقة هي عملية معقدة جداً إلى درجة أن سر النظام لا يزال غير معروف بشكل كلي حتى في عصرنا هذا عصر تقنية الفضاء وقد تم اكتشاف وجود هذا الأسلوب من نظام "ضغط الخزان" في الأشجار منذ 200 سنة مضت، ولكن لم يتم اكتشاف أي قانون يفسر بدقة كيف تتم حركة الماء هذه إزاء الجاذبية؛ فكل ما استطاع

العلماء عمله هو وضع عدد من النظريات عن آليات محددة وبعض هذه التجارب التي تم شرحها هي تجارب تتمتع بمصداقية كبيرة إلى حد ما وكانت محصلة جهود العلماء هي إدراك الكمال في نظام ضغط الخزان وهذه التقنية

توضح الصورة على جميع أعضاء جهاز الدوران (النقل) في النبات. فجذور النباتات تقوم بامتصاص الماء من التربة، وينتقل الماء إلى أعلى النبات عن طريق الأنابيب الناقلة. وتقوم هذه الأنابيب بنقل الماء والمواد الغذائية الممتصة إلى جميع أجزاء النبات حتى القمة وعلى ارتفاع أمتار عديدة جدا دون أية صعوبة تذكر. وهذا النقل الممتاز للمواد من الجذور إلى أبعد جزء في النبات هو وليد تصميم مدهش وخارق، ولا شك أن هذا التصميم هو من صنع الذي خلق كل شيء وهو الله عز وجل.

(284/774)

الموضوعة في مكان صغير وضئيل هي أحد الأدلة على الذكاء الذي لا يقارن لمصمم هذا النظام فنظام نقل الماء في الأشجار وكل شيء في الكون هو من خلق الله عز وجلّ نظام الضغط في جذور النبات عندما يكون الضغط الداخلي في خلايا الجذر أقل من الضغط

الخارجي تأخذ النباتات الماء من الخارج، أي أن النباتات تأخذ الماء من الخارج عندما تحتاجه فقط وأهم عامل يحدد هذا الموضوع هو كمية الضغط الناتجة من الماء في الجذور ويجب أن يكون هناك توازن بين الضغط الداخلي والخارجي، ولكي يحدث هذا التوازن على النبات أن يأخذ الماء من الخارج عندما ينخفض الضغط الداخلي؛ ويطرح الماء من داخله بواسطة الأوراق عندما يحدث العكس أي عندما يكون الضغط الداخلي أعلى من الخارج لكي يعيد التوازن إذا كان مستوى الماء في التربة أعلى بقليل من المعدل الطبيعي فإن النبات يستمر في أخذ الماء لأن الضغط الخارجي أعلى، وهو ما يسبب له ضررا في النهاية ومن ناحية أخرى إذا كان مستوى الماء أقل بقليل لن تستطيع خلية النبات أن تسحب الماء من الخارج لأن

الصورتان إلى فوق فتبينان تركيب قمة الجذور ونموّها .

(285/774)

الضغط الخارجي سيكون منخفضاً ، بل إن النبات سيضطر إلى طرح الماء ليحافظ على توازن الضغط وفي كلتا الحالتين سوف يجف النبات ويموت وهذا يكشف لنا أن جذور

النبات تحتوي على آلية تمكنها من تنظيم مستوى الضغط المطلوب في لحظة محددة بدون زيادة أو نقصان كيف تأخذ الجذور الأيونات من التربة تختار الخلايا الموجودة في جذر النبات أيونات معينة من التربة لتستخدمها في تفاعلات الخلية وتستطيع خلايا النبات أن تأخذ الأيونات إلى داخلها بسهولة على الرغم من أن التركيز الداخلي لبعض الأيونات في النبات أكثر بألف مرة منها في التربة، وهذه عملية مهمة جداً (32) في الظروف الطبيعية يحدث نقل للمواد من منطقة ذات تركيز أعلى إلى منطقة ذات تركيز أخفض، ولكن كما رأينا فإن الذي يحدث هو العكس حيث تمتص الجذور الأيونات من التربة وهذه العملية تتطلب كمية كبيرة من الطاقة وهناك عاملان يؤثران في مرور الأيونات عبر غشاء الخلية : نفاذية الغشاء وتركيز الأيونات على جانبيه لنفحص هذين العاملين بأن نسأل بعض الأسئلة ماذا يعني اختيار النبات للعناصر المطلوبة من التربة ؟

لنأخذ أولاً مفهوم "المتطلبات" يجب أن تعرف خلية الجذر جميع العناصر الموجودة في النبات –واحدة واحدة– لتفي بمتطلباته، كما يجب أن تعرف أي العناصر ناقصة في كل أجزاء النبات وتحددها باعتبارها حاجات لنسأل سؤالاً آخر كيف يعرف أيَّ عنصر ؟

إذا كانت التربة ليست صافية، بمعنى إذا كانت هناك عناصر أخرى ممزوجة بها ماذا يجب فعله لتمييز عنصر عن العناصر الأخرى ؟ هل يمكن لشخص ما أن يميز بين عنصر وآخر إذا وضعت أمامه عناصر ممزوجة مثل الحديد والكالسيوم والمغنزيوم والفوسفور ؟ كيف يمكنه أن يفرق بينها ؟ إذا كان تلقى تدريباً في هذا الموضوع ربما يستطيع أن يتعرف إلى بعض هذه العناصر، ولكن من المستحيل أن يتعرف على العناصر الباقية، فكيف تستطيع النباتات التمييز ؟ أو بالأحرى كيف بإمكان النبات أن يعرف العناصر بنفسه وأن يميز المفيدة منها بالنسبة إليه تلك ؟ هل من الممكن أن تكون هذه العملية التي تجرى بشكل صحيح منذ ملايين السنين تتم بمحض المصادفة ؟ إن الجواب هو بلا شك "مستحيل" أن يكون ذلك حدث مصادفة لكي نفكر في هذه الأسئلة بشكل أعمق وبتفصيل أكثر لنتفحص ما هي الخاصية الانتقائية التي تملكها الجذور وماذا يحدث أثناء عملية الانتقاء ؟ لنفترض أنه طلب منا تمييز المواد المعدنية المفيدة لأجسامنا من بين المواد المبينة في الصورة مثلا . فإذا كان الواحد منا لم ينل نصيبا وافرا من التعليم اللازم فإنه لن يستطيع القيام بهذا الأمر . أما النباتات فتقوم بهذه العملية منذ ملايين السنين . أي أنها تقوم بتمييز المواد المعدنية اللازمة لنموها من بين الكثير الكثير من المواد الموجودة في التربة . وهذه العملية يستحيل على الإنسان العادي أن يقوم بها ، بينما هي عملية بسيطة لدى النباتات، وهذا يوضح القدرة الإلهية التي أودعت هذه الميزة في النباتات .

انتقائية الجذور لنراجع معرفتنا الكيميائية فيما يتصل بالعناصر والمعادن التي تظهر بأشكال متعددة في الطبيعة وأين توجد ؟ أي المواد التي تتكون منها كل مجموعة ؟ ما هي الاختلافات بينها ؟ ما هي التجارب أو الملاحظات المطلوبة لمعرفة ماهيتها ؟ هل يمكن التوصل لأسرع النتائج بالأساليب الكيميائية أو الفيزيائية في هذه التجارب ؟ إذا نظرنا إلى الأشياء من وجهة نظر الفيزياء هل نستطيع أن نصنف هذه المواد تصنيفاً مناسباً إذا وضعت أمامنا ؟ هل يمكننا التمييز بين المعادن من خلال شكلها أو لونها ؟ يمكننا أن نستمر في التساؤل، وستكون الأجوبة على الأسئلة الواردة هي نفسها تقريباً ؛ إلا أن يكون الشخص خبيراً في هذا المجال، فالمعرفة المترسبة من المدرسة أو الجامعة هي معرفة جزئية وغير كافية حتى توصل الشخص إلى حل دقيق ولنأخذ هذه المرة أمثلة من الجسم البشري كي نصنف معرفتنا بالمعادن هناك ما يقرب من ثلاثة كيلوغرامات من المعادن في أجسامنا قسم منها أساسي لصحتنا ، وهي موجودة بالمقادير الضرورية فعلى سبيل المثال إذا لم يكن لدينا كالسيوم في أجسامنا تفقد أسناننا وعظامنا قوتها وإذا لم يكن هناك حديد لن يستطيع الأوكسجين أن يصل إلى أنسجتنا لأنه لن يكون لدينا هيموغلوبين أو خضاب الدم؛

وإذا لم يكن لدينا بوتاسيوم أو صوديوم تفقد خلايا أجسامنا الشحنات الكهربائية ونهرم بسرعة توجد المعادن في التربة بالطريقة نفسها الموجودة في الجسم البشري، ولكن كمياتها ووظائفها وأشكالها الموجودة في التربة مختلفة؛ وتستفيد الكثير من الكائنات الحية من هذه المعادن وعلى سبيل المثال جُهزت الأنظمة في النباتات بحيث تستطيع أن تأخذ بسهولة العناصر التي تحتاجها من التربة؛ وهذه العناصر لها استخدامات ومهام مختلفة، وعليها التوجه بعد امتصاصها إلى أقسام مختلفة من النبات يحتاج النبات كي يعيش بصحة جيدة إلى عناصر رئيسية مثل النيتروجين والفوسفور والبوتاسيوم والكالسيوم

(288/774)

والمغنيزيوم والكبريت وبينما تستطيع النباتات أن تأخذ معظم هذه المواد مباشرة من التربة فإن الوضع يختلف مع النتروجين الذي يشكل 80% من الهواء، ومع ذلك لا يمكن للنباتات الخضراء الحصول عليه مباشرة من الهواء فتأخذ حاجتها من التربة عن طريق امتصاص النترات الممتزجة ببكتريا التربة هناك عناصر أخرى ضرورية أيضاً لتطور النبات بشكل صحي لكن بكميات صغيرة جداً، وتتضمن هذه المجموعة الحديد والكلور والنحاس والمنغنيز والزنك والموليبدينوم والبورون بالإضافة إلى المعادن الثلاثة عشر المذكورة تحتاج

النباتات إلى ثلاثة عناصر رئيسية للبناء وهي الأكسجين والهيدروجين والكربون وتحصل عليها من ثاني أكسيد الكربون، والأكسجين، والماء وتحتاج جميع النباتات إلى العناصر الستة عشر كاملة إذا أُخذت هذه العناصر بكميات كبيرة جداً أو بكميات قليلة جداً تنشأ عيوب مختلفة في النبات وعلى سبيل المثال تؤدي كثرة النتروجين في التربة إلى نمو هش خاصة في درجات الحرارة العالية، بينما القليل منه يؤدي إلى الاصفرار وظهور بقع حمراء أرجوانية، ونقص في البراعم الجانبية ويؤدي إلى نمو متأخر ويتسبب نقص الفوسفور في خلل في النمو، وتتحول ألوان بعض النباتات إلى البني أو الأرجواني وتكون سيقانها نحيلة، كما تكون براعمها هشة وأوراقها السفلية ضعيفة كما أن أزهارها تكون ذابلة والفوسفور عنصر هام جداً لنمو النباتات الشابة وإنتاج البذور؛ وباختصار فإن وجود هذه الأيونات وسحبها من التربة بالكميات المناسبة ضروري لنمو صحي للنبات (33) ماذا سيحدث لو أن النباتات لم تمتلك آلية انتقاء الأيونات هذه؟ ماذا يحدث لو أن النباتات أخذت جميع أنواع المعادن وليس فقط التي تحتاجها أو أخذت الكثير جداً أو القليل جداً من المعادن؟ في هذه الحالة يختل نظام التوازن بشكل تام في العالم.

قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) سورة طه آية 50 .

المصدر : موقع الداعي التركي هارون يحيى : http :

//www.harunyahya.com

الهوامش :

31. Milani, Bradshaw, Biological Science, A molecular Approach, D.C.Heath and Company, Toronto, p.430

32. Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, Facts on File Publications, 1988, p.119

33. http :

//ag.arizona.edu/pubs/garden/mg/botany/macronutrient.html

.

.

.

0-معجزة النبات البذرة

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

الكمال في تصميم البذرة

تكون الملقحات الذكرية التي تصل إلى أعضاء الزهرة المؤنثة قد أنهت رحلتها بواسطة الرياح أو بواسطة ناقلات أخرى وكل شيء جاهز لتكوين البذرة، وهي أهم خطوة في التكاثر الجنسي ومن المفيد أن نتفحص هذا التكون بدءاً من التركيب العام للزهرة في مركز أغلب الأزهار توجد كربلة واحدة أو أكثر (وحدة عضو التأنيث في الزهرة) تكون نهايتها منتفخة وتدعى الميسم (الجزء الأعلى من مدقة الزهرة) وتحته سويقة تدعى قلم السمة وفي الأسفل مبيض يحتوي على السمات الخاصة بالبذور يهبط غبار الطلع الذي يأتي من الأعضاء الذكرية على الميسم وسطحه مغطى بسائل لزج دبق، وبعد ذلك يصل إلى المبيض بواسطة قلم السمة ووظيفة السائل اللزج هامة جداً، وإذا لم تتمكن حبات غبار الطلع من الوصول إلى المبيض تحت قلم السمة فلن تقدر على تخصيب البذور، لذلك يضمن هذا السائل التصاق حبات الطلع مع بعضها البعض حتى لا تذهب سُدًى وتتشكل البذرة حين التقاء خلايا التكاثر المؤنثة والمذكرة تطور كل حبة غبار طلع – أو كل خلية تكاثر مذكرة – بعد نزولها فوق الميسم أنبوباً رفيعاً موجهًا نحو الأسفل وتدخل المبيض من خلال قلم السمة وهناك نطفتان في كل أنبوب

صورة توضح أقسام الزهرة والأعضاء التناسلية

(290/774)

من هذه الأنابيب وينمو الأنبوب إلى الأسفل، ويدخل المبيض وتتحرر النطاف وبهذه الطريقة تتحد نواة إحدى النطاف مع البيضة في المبيض فتتخصب البيضة وتتطور في الرحم مشكلة فيما بعد البذرة أما نواة النطفة الثانية فتتحد مع نواتي الخلية المركزية مشكلة نسيجاً خاصاً يحيط بالرحم ويغذيه ويعرف هذا التطور بالتخصيب بعد التخصيب تتغلف البيضة بغطاء، ويدخل الرحم في فترة راحة وينمو ليصبح بذرة محاطة بمصادر الغذاء في كل بذرة مشكلة، باتحاد الخلايا الجنسية المذكرة والمؤنثة هناك نباتا جنينيا ومؤونة من الغذاء، وهذه المؤونة مهمة جداً لتطور البذرة لأنه في المراحل الأولى عندما تكون تحت الأرض لا يكون للبذرة جذور أو أوراق قادرة على إنتاج الغذاء ولذلك تحتاج إلى مصدر غذائي لتتمكن من النمو خلال هذا الوقت إن الجنين والغذاء المخزن حوله هو ما ندعوه في الواقع بالفاكهة، ويوجد في تركيبها مستويات عالية من البروتينات والكربوهيدرات لتغذية البذور، بالإضافة إلى أنها تعد مصدراً ضرورياً لتغذية البشر

والكائنات الحية؛ وتمتلك كل ثمرة أفضل الخصائص لحماية وتغذية البذور التي تحويها بدءاً من القسم اللبّي إلى كمية الماء إلى تركيب القشرة الخارجية هناك مسألة تفصيلية هامة أخرى ألا وهي أن كل نبات يمكنه أن يخصب نباتاً آخر من الفصيلة نفسها وإذا هبطت حبة غبار طلع على ميسم لنبات من فصيلة أخرى يفهم النبات هذا، ولا يسمح لغبار الطلع بالدخول ليصل إلى المبيض، ونتيجة لذلك لا تتطور البذرة لعدم وجود تخصيب (20) فعلى سبيل المثال إذا سقطت حبة غبار طلع لزهرة قمح فوق شجرة تفاح لن تنتج الشجرة ثمار التفاح ومن المفيد عند هذه النقطة أن نتوقف ونفكر قليلاً حول الطبيعة المدهشة لما سبق ذكره تميز زهرة فصيلة من النباتات حبة غبار الطلع من الفصيلة نفسها، ويمكن أن تبدأ عملية التخصيب إذا كانت من الفصيلة نفسها، أما إذا لم تكن كذلك فلن تقوم بعملية التخصيب كيف حدث أن

ميسم الزهرة المؤنثة– الذي يستطيع أن يميز غبار الطلع العائد لفصيلته نفسها تبعاً لمعيار محدد – تعلّم أن يقوم بعملية المطابقة هذه؟ كيف تعلّم أن عليه إغلاق هذه الآلية أمام حبات غبار الطلع الغريبة؟ ليس هناك شك في أن الذكاء الذي يتحكم في كل خطوة في

النبات صمم هذه الآلية في الزهرة بهذه الطريقة البارعة ليضمن استمرارية الأنواع من جيل إلى جيل .

صورة توضح كيفية وصول غبار الطلع إلى البيضة في داخل الزهرة المؤنثة وتلقيحها

ما هو نوع البيئة المناسبة لتطور جنين البذرة ؟

ماذا تحتاج البذرة خلال مراحل تطورها ؟

ماذا ستجد عندما تنبثق من التربة ؟ ما هو نوع الحماية الذي تحتاجه ؟

صُممت البذرة وفقاً لهذه الاحتياجات وتم التفكير في كل المتطلبات مقدماً إن الطبقات الخارجية التي تحمي البذور (غلاف البذور) تكون في العادة قوية جداً ، وهذا التركيب يحميها من التهديدات الخارجية التي تواجهها ويقوم بالتعديلات المناسبة وفقاً للبيئة التي توجد فيها ومثال ذلك : في المرحلة الأخيرة من تطور بعض البذور تتشكل مادة شمعية مقاومة على الأسطح الخارجية، ويعود الفضل لها في مقاومة البذور لتأثيرات الماء والغاز لا تنتهي التراكيب الدقيقة في حياة الزهرة عند هذا الحد وربما تُغطّى أغلفة البذرة بأنواع مختلفة من المواد تبعاً لفصيلة النبات، وعلى سبيل المثال تغطى حبة الفاصولياء بغشاء رقيق، وبذرة الكرز تكون محمية بغلاف خشبي قاسٍ أما أغلفة البذور التي تحتاج لمقاومة الماء فتكون أقسى

إن المواد الغذائية مثل الفيتامينات والسكريات والزلاليات التي توجد في الفواكه والثمار المختلفة تعتبر وسيلة حفاظ وتغذية للبذور وكذلك غذاء لباقي الأحياء . وتتميز الفواكه والخضر باختلافها عن بعضها البعض اختلافا كبيرا بالرغم من أنها تنشأ من تربة واحدة وبواسطة الماء نفسه . فهي بروائحها ومذاقاتها وأشكالها تمثل نماذج رائعة للتصميم الخارق .

(292/774)

وأثخن من غيرها ، وإضافة إلى ذلك أعطيت البذور أشكالاً وأحجاما مختلفة تبعاً لأنواعها وتختلف كمية الغذاء بين البذور التي عليها أن تعيش لفترة طويلة قبل التبرعم (مثال بذور جوز الهند) ، وتلك التي تحتاج إلى فترة أقصر للتبرعم بعد ملامستها للماء (البطيخ، البطيخ الأحمر الخ (وقت النثر : انتثار البذور تتنوع الأساليب التي تستخدمها النباتات عند نثرها لبذورها (جميع الطريق فعالة) باختلاف تركيب بذور كل نبات وعلى سبيل المثال : البذور الصغيرة والخفيفة التي يمكن أن تطير مع أخف نسمة هواء تسقط فوراً عندما تحركها الريح وتتخصب بدون أية صعوبة ويكفي بعض النباتات لكي تتكاثر

بذورها أن تسقط على الأرض، بينما تنثر نباتات أخرى بذورها بطريقة القذف، ويحدث ذلك بتحرير الشدّ الذي يتشكل عند نمو البذرة داخل غلافها وتنفصل أغلفة البذور لبعض النباتات بعد جفافها تحت أشعة الشمس بينما تُفتح بذور أخرى محتوياتها عند تأثرها بعوامل خارجية مثل الريح أو الحيوانات النباتات التي تنثر بذورها بالانفطار قثاء الحمار المتوسطية عندما تتفحص الأساليب التي يستخدمها

الصورة إلى أعلى اليسار تمثل بذور شجرة الحور وهي تنطلق إلى الجو من الحويصلات الحاملة لها . أما الصور الأخرى فتمثل بعض النباتات التي تنفث بذورها ذات الاستطالات الخيطية الدقيقة . وهذه الاستطالات هي التي تسهل عملية طيران البذور في الهواء . النبات في عملية الانتشار –المهمة جداً لتكاثر النباتات– نرى أنها دقيقة وحساسة جداً فعلى سبيل المثال : تستخدم بعض النباتات مثل قثاء الحمار قوتها الذاتية لتنثر البذور وعندما تبدأ قثاء

الحمار في النضوج يتشكل داخلها نسغ لزج وبعد فترة يزداد ضغط هذا السائل إلى درجة أن القشرة الخارجية للقثاء لا تستطيع مقاومة الضغط فتنفجر بعيداً عن زنيدها وعندما يحدث هذا ترش القثاء السائل الموجود داخلها ومعه البذور مثل أثر صاروخ أُطلق في الجو (21) إن الآليات هنا حساسة جداً، إذ يمتلئ غلاف البذرة بالسائل عندما تبدأ القثاء بالنضوج ويحدث الانفجار في وقت النضوج الكامل وإذا بدأ هذا النظام في العمل قبل الأوان تنفجر القثاء قبل تشكل البذور وهذا لن يحقق الهدف ومثل هذا الاحتمال يعني نهاية فصيلة النبات ولكن مجازفة من هذا القبيل لا تحدث أبدا، وذلك بفضل التوقيت المخطط مسبقاً والإدعاء بأن هذه الآليات – التي يجب أن تكون قد وجدت منذ البداية – قد تطورت نتيجة لتغير دام مئات وآلاف بل ملايين السنين هو بالتأكيد ليس مبنياً على العقل أو المنطق أو العلم إن أغلفة البذور، والسائل الموجود بداخلها، ونضج البذور وكل شيء يجب أن يظهر إلى الوجود في وقت واحد ويظهر استمرار النظام الذي عمل بكفاءة تامة ولم يصبه أي خلل حتى اليوم أنه نشأ منذ البداية بشكل كامل ولا عيب فيه وبتعبير آخر إن الله تعالى هو الذي خلق هذا النظام البديع.

الوزّال وشجرة الهيورا

يحدث تكاثر الوزال بطريقة الفتح الذاتي نفسه، ولكن بطريقة معاكسة لتلك التي تكون في قثاء الحمار المتوسطية ويحدث انفجار بذور الوزال بتبخر السائل عوضاً عن زيادته وعندما تزداد حرارة الغلاف في أحد أيام الصيف فإن الجانب المواجه للشمس يجف أسرع من الجانب الذي يكون في الظل وينقسم غلاف البذرة فجأة إلى نصفين نتيجة للاختلاف في الضغط بين الجانبين، وبهذه الطريقة فإن البذور السوداء الصغيرة داخلها تنتشر في جميع الاتجاهات أحد أكثر النباتات نجاحاً في نثر بذوره بطريقة الانفطار هو الشجرة البرازيلية المعروفة بإسم "هيورا" فعندما تجف الشجرة ويحين الوقت لانتثار بذورها يمكنها أن تقذف البذور لمسافة تصل إلى 12 متراً، وهي، بالنسبة إلى الشجرة، تعتبر مسافة كبيرة (22) البذور الحوامة لبذور القيقب والدلب الأوروبي تصميم مشوق جداً، فهي مجهزة بجناح ينبت من جانب واحد فقط ويتناسب وزن البذرة مع طول الجناح لدرجة أن هذه البذور يمكن أن تدور وينمو الدلب غالباً في مواقع منعزلة نسبياً، وبهذا تستطيع الريح أن تقدم للبذور مساعدة كبيرة، ويمكن للبذور بواسطة الدوران حول نفسها أن تقطع مسافات كبيرة بنسمة خفيفة (23) .

تبقى البذور في أشجار البيرثوليتيا – التي تنمو في أمريكا الجنوبية – داخل أغلفتها بعد سقوطها على الأرض، والسبب وراء ذلك أنه ليس لديها خاصية تجذب اهتمام الحيوانات، إذ أنه لا ليس لها رائحة ومظهرها الخارجي لا يلفت النظر على الإطلاق بالإضافة إلى أنها صعبة الكسر ولكي تتكاثر هذه الشجرة على القرنات التي تحوي البندق أن تخرج من قشرتها الخارجية وتُدفن تحت الأرض لا تشكل هذه الصفات السلبية مشكلة للبرثوليتيا لأن هناك مخلوقاً يشاركها البيئة نفسها يمكنه أن يتغلب على كل هذه النواقص والعيوب يعلم حيوان الأغوطي – وهو قارض يعيش في جنوب أمريكا – أن له طعاماً تحت القشرة السميكة عديمة الرائحة، ويستطيع الأغوطي بفضل أسنانه الأمامية الحادة أن يكسر القشرة الصلبة بسهولة ليصل إلى البذرة ويوجد حوالي 20 بندقة داخل كل قشرة، وليس بإمكان الأغوطي أن يأكلها في وجبة، لذلك يقوم بحشو البندق في جيوب داخل خده ويغطيها بعد أن يدفنها في حفر صغيرة وبالرغم من أنه يقوم بهذه العملية لكي يحصل على البندق فيما بعد ويأكله إلا أنه لسوء حظه لا يملك ذاكرة قوية، ولذلك ينسى أكثر البذور فتنبت شجرة جديدة بعد حوالي سنة (24) بالطبع لم ينشأ هذا التناغم بالمصادفة ولم تكتشف هذه الكائنات الحية بعضها البعض بالمصادفة لقد خُلقت هذه الكائنات خلقا وهناك أمثلة لا تحصى على هذا التكامل في الطبيعة وهو نتاج حكمة

خارقة إن الله هو مالك هذه الحكمة، وهو الذي خلق هذين الكائنين بجميع خواصهما وأنشأ بينهما ذلك التناغم العجيب البذور التي تصمد أمام جميع الظروف هناك قاعدة تقول بأنّ خلايا التكاثر في الكائنات الحية تموت بعد فترة وجيزة من مغادرتها لبيئتها الطبيعية ولا ينطبق هذا على النباتات، فيمكن لحبات غبار طلع النبات وبذوره أن تبقى حية لآلاف الأميال بعيدة عن النبات الأم بالإضافة إلى ذلك لا يهم الزمن الذي يمر بعد مغادرتها النبات الأم، فهناك بذور تبقى قابلة للحياة

(296/774)

والنمو بعد سنوات وحتى مئات السنين وجود بذور الترمس في منطقة التندرة في القطب الشمالي هو مثال ممتاز عن كيفية تمكن بذور النباتات من البقاء حية لفترات طويلة من الزمن وتشعر بذور النباتات بالحاجة إلى الجو الدافئ في أوقات معينة من السنة لكي تنبت، وعندما تشعر أن الحرارة غير كافية حتى لو توافرت لها كل الظروف الأخرى لن تنفجر البذور بل تنتظر في التربة المتجمدة لترتفع الحرارة، وعندما تحصل على البيئة المناسبة تبدأ في النمو وتنبت في النهاية دون الأخذ بعين الاعتبار طول الفترة الزمنية التي مرت منذ مغادرتها النبات الأم وقد وُجدت بذور في شقوق صخور بقيت لمئات السنين بدون أن

تنبت أو تفسد إن هذا الوضع مشوق جداً ماذا يعني أن يدرك النبات البيئة الخارجية ؟ بما أن النبات لن يقدر على تدبر أمره بنفسه لنتأمل ما هي الاحتمالات الأخرى : آلية داخل النبات تخبره عن الوضع، ثم يوقف النبات تطوره فجأة كما لو أنه تلقى أمراً بذلك ولكن في تلك الحالة كيف يمكن لمثل هذا النظام أن يتطور ؟ كيف أنتج التقنيات الضرورية داخله ؟ بالطبع لم يبنِ النبات هذا النظام بنفسه، وجميع هذه المعلومات مخزنة في الشفرة الجينية في بذرة النبات منذ نشأة النبات الأولى وتمتلك بذرة الترمس نظاماً يستطيع إيقاف تطورها عندما تصادف جواً بارداً ومن المستحيل لمثل هذا التركيب أن يحصل بالمصادفة من تلقاء نفسه ومهما كان زمن التشكل الخيالي الذي دعاه التطوريون "الفترة التطورية"، ومهما كانت المصادفات التي حدثت خلال هذه الفترة المزعومة فإن تشكل نظام يُعلم النباتات عن حالة الجو هو شيء مستحيل تماماً بالطريقة نفسها تبقى الميموزا المكبية محفوظة في الأعشاب الجافة وتنبت حال نقعها بالماء وهناك مثال آخر لنبات تتميز بذورة بالقدرة على المقاومة، وهو ألبزيا جوليبريسين حيث بقيت بذوره محفوظة في معشبة المتحف البريطاني في لندن ونبتت بعد 147 سنة عند تعرضها للماء خلال الجهود

(297/774)

المبذولة لإخماد حريق اندلع في البناء أثناء الحرب العالمية الثانية (25) يحدث الفساد ببطء بسبب درجات الحرارة المنخفضة في منطقة التندرا لدرجة أن بعض البذور – التي تم أخذها من جليد عمره عشرة آلاف سنة – يمكن أن تعود للحياة عند أخذها للمختبرات وتوفير الحرارة والرطوبة المناسبة لها (26) كما نعرف جميعاً فإن المادة داخل البذرة تحتوي على كمية معينة من الغذاء مع قشرة خارجية تشبه الخشب والقول بأنها يمكن أن تملك ميزاناً للحرارة داخلها أو أن لها القدرة لتقرر ما العمل المطلوب بناء على معلومات تصلها من الخارج كنتيجة لقدراتها الذاتية يجب أن توصف بأنها فكرة غير منطقية وحتى "غير عقلانية" ونحن أمام مادة غير عادية تبدو مثل قطعة صغيرة من الخشب من الخارج بدون رابط بين المكان الذي حصرت فيه والعالم الخارجي، ومع ذلك يمكنها أن تقيس درجة الحرارة وفي مراحل تالية أن تقرر إذا كانت الحرارة مناسبة لتطورها وتملك قطعة من الخشب مثل هذه الآليات التامة لتدرك أن الظروف غير مؤاتية وستؤذي تطور نموها وتعلم ما يجب عليها فعله لتوقف تطورها لحظة إحساسها بهذه الظروف غير المناسبة، وتستمر في تطورها من لحظة توقفه عندما ترتفع درجة الحرارة إلى المستوى المطلوب لا يمكن تفسير هذه الآلية الرائعة في البذور مع هذا التركيب المقاوم بواسطة المصادفات كما يزعم التطوريون وفي الواقع لقد صممت البذور بطريقة تمكنها من مقاومة

جميع الظروف الصعبة يكشف الله تعالى دلائل خلقه ووجوده حتى في هذه البذور الصغيرة

)

(298/774)

وَهوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون . سورة) الأنعام : 99 .

البذور التي تبقى في الماء 80 يوماً إلى جانب البذور التي تستطيع مقاومة ظروف الجو الباردة :

هناك بذور أخرى لها بنية تمكنها من البقاء في الماء لفترة طويلة، وبعضها يستطيع البقاء في الماء لمدة ثمانين يوماً بدون أن تنبت أو تفسد وأشهر هذه البذور هي بذرة جوز الهند ، ولكي تنتقل بأمان فهي محفوظة داخل قشرة قاسية جداً ، بالإضافة إلى أن كل ما تحتاجه لرحلة طويلة متوفر فيها كمؤونة من الغذاء الغني ونصف بينت (البينت هي وحدة وزن تساوي ثمن غالون) أو ما يعادله من الماء ، أما من الخارج فهي مغلفة بنسيج يمكّنها من

البقاء طافية على سطح الماء إن فاصولياء البحر نوع آخر من النبات الذي يرسل بذوره بواسطة الماء لكن بذوره ليست بكبر حجم بذور جوز الهند ولكنها تظل حية ولو بمرور سنة في البحر (27) كما رأينا في المثالين السابقين فإن أهم ميزة للنباتات التي تتضاعف باستخدام الماء كوسيلة للنقل هي أن بذورها تنبت فقط عندما تصل إلى الأرض الجافة وفي الواقع فهذا وضع استثنائي ومثيرٌ جداً لأنه كما نعرف تبدأ بذور النباتات بالانتعاش والنمو حالما تلامس الماء، ولكن هذا لا ينطبق على النباتات المذكورة سابقا بسبب تركيبها البنيوي الخاص، فالنباتات التي تنثر

تستطيع بذور نبات "اللوبين" أن تكمن تحت سطح التربة لسنوات طويلة حتى تجد درجة الحرارة الملائمة للإنبات .

(299/774)

تبدأ بذور جوز الهند في الإنبات حال بلوغها الشاطئ بعد رحلة طويلة عبر الماء . وقد خلقت هذه البذور بصورة لا يؤثر عليها الماء أبدا خلال تلك الرحلة .

تعتبر فاصوليا البحر مثل جوز الهند من النباتات التي تنتقل بذورها عبر الماء .

بذورها بواسطة الماء لا تلتزم بهذه القاعدة وإذا كانت هذه النباتات تبدأ بالانتعاش حالما تلامس الماء، كحال النباتات الأخرى، فإنها تكون قد ماتت منذ أمد طويل، ولكن هذه النباتات تستطيع أن تعيش بسبب آليات عامة تناسب الظروف التي تعيش فيها تمتلك جميع النباتات أفضل التراكيب التي تناسبها وهذه الخواص الاستثنائية تجعل العقل يطرح السؤال التالي :

"كيف تكون للبذور خاصية مقاومة الماء في أنواع معينة من النباتات هي في حاجة إلى هذه المقاومة ؟

لنأخذ مثال جوز الهند كجواب لهذا السؤال :

1 . تحتاج بذور النخيل لتركيب مقاوم لكي تكون قادرة على البقاء فترة طويلة في الماء ولهذا السبب فقشورها قاسية ولها خواص مقاومة للماء وهذا ليس مصادفة !

2 . تحتاج هذه البذور إلى غذاء أكثر من الغذاء العادي في رحلتها الطويلة، والكمية المطلوبة موضوعة بدقة داخل غلاف بذرة جوز الهند وهذا أيضاً لم يتكون بالمصادفة ! .

(300/774)

3 . تفتح البذور حالما " تعرف" أنها وصلت إلى الأرض الجافة ولا مجال أن تكون هذه أيضا مصادفة !كما رأينا صُممت هذه البذور بقشورها القاسية، ومخازنها من الغذاء وأحجامها ، وباختصار جميع خواصها المميزة لتكون مقاومة لفترات طويلة عند الضرورة ستنتعش البذور وتموت قبل أن تصل إلى اليابسة إذا كان هذا التركيب المحسوب بدقة– أي سُمك القشرة المناسبة والمخزون المطلوب من الغذاء– نتيجة المصادفات بالطبع لا يمكن أن يحدث شيء كهذا ، والفضل يعود للتحكم الدقيق في انتعاش البذور وليس هناك أدنى شك في أن كمية الغذاء والماء في البذور التي تمكنها من الوصول إلى اليابسة (باختصار التدابير الوقائية) لم تأتِ نتيجة لذكاء أو قدرات البذور نفسها إن الله عزّ وجلّ هو الذي أنجز كلّ هذه الحسابات والقياسات الدقيقة فهو الذي خلق البذور وهو يعلم حاجاتها وخصائصها ، وهو الذي يملك العلم اللاّنهائي والذكاء المطلق (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) سورة الرعد : 8 .

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) سورة الحجر : 19 النمل .

حمال مأجور

لبعض البذور خواص بنيوية مختلفة عن غيرها من البذور المعروفة، وتظهر حقائق مذهلة عندما نتفحصها ، دعنا مثلا نأخذ بذرة مغطاة بنسيج زيتي صالح للأكل؛ ربما يبدو هذا النسيج الزيتي عادياً تماماً من النظرة الأولى لكن له في الواقع ميزة هامة جداً لبقاء هذا النوع من النبات وهو السبب في اهتمام النمل به ويحدث تضاعف هذه النباتات بواسطة النمل على عكس معظم أنواع النباتات، فالنبات الذي لا يقدر على وضع بذوره تحت التربة بنفسه اختار أن يفعل هذا عن طريق النمل الذي يجمع هذه البذور المغطاة بالنسيج الزيتي – وهو طعام جذاب جداً للنمل – ويحملها إلى أعشاشه حيث يدفنها تحت الأرض ربما يظن البعض أن السبب في اجتهاد النمل لجمع البذور كونها هي طعامه لكن هذا الاعتقاد خاطئ فبالرغم من كل الجهود التي يبذلها النمل ليحمل البذور إلى أعشاشه فإنه لا يأكل سوى الغلاف الخارجي ويترك اللبّ، وبهذه الطريقة يحصل النمل على شيء ليأكله، أما قسم البذرة الذي يحمل آلية تضاعف البذرة فيُترك مدفوناً في التربة (28) ؛

لبذرة المبينة في الصورة تحتاج في انتقالها وتكاثرها إلى النمل . فالنمل يقوم بنقل البذرة إلى تحت مستوى التربة، ومن ثم يقوم بالتغذي على الجزء الأمامي من البذرة، وعلى هذا النحو يساهم في ظهور الجزء الملائم للنمو . ومن هنا يتضح لنا مدى عظمة الخالق عز وجل، فقد جُعل شكل البذرة المذكورة وطريقة تغذية النحل مُنسجمين مع بعضهما البعض .

والادعاء بأن النمل يفعل كل هذا عن معرفة وأن النبات رتب أن يكون لبذوره خواص محددة تروق لنوع معين من النمل أو خطط ليكون معه في البيئة نفسها هو ادعاء غير واقعي علمياً لا مجال للجدل بأن هناك عقلا عظيما نظم هذه العلاقة التبادلية، إنه ليس النبات ولا النمل، بل هو خالق يعلم خواص كليهما ، إنه الله تعالى الذي منحهما هذا الإدراك (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) سورة الروم : 26 .

(302/774)

إن الطيور تحب التغذي على الجزء اللحمي من البذور ، وبالتالي تسهل عملية بروز الجزء اللازم للإنبات .

تحول البذرة إلى نبتة المرحلة الأولى :

الإنتاش البذور – التي تشبه قطعاً صغيرة من الخشب الجاف – هي في الحقيقة حاملات للشفرات الجينية التي تحوي بداخلها آلاف المعلومات عن النباتات وتوجد داخل البذرة جميع المعلومات المتعلقة بالنبات الذي ستنتجه فيما بعد حتى أدق التفاصيل بدءاً من الشعيرات الدقيقة في نهاية جذورها إلى الأنابيب داخل ساقها إلى أزهارها والثمار التي ستحملها بعد التخصيب تكون أول مرحلة في تحول البذرة إلى زهرة هي الانتعاش تبدأ

البذرة الموجودة تحت الأرض في العمل عندما تتهيأ عوامل مناسبة كالدفء والرطوبة والضوء، وقبل ذلك تكون في سبات وعندما يحين الوقت تستفيق وتبدأ في النمو هناك عدد من المراحل في عملية الإنتاش في المقام الأول يجب أن تتعرض البذور للماء لكي تترطب الخلايا الموجودة داخلها وتصبح قادرة على النشاط الأيضي، وعند بداية هذا النشاط يبدأ البرعم والجذر في النمو، وفي هذه المرحلة تبدأ الخلايا في الانقسام؛ وعلى الخلايا التخلق لكي تبدأ بعض العمليات الخاصة بالنسج وتتطلب كل هذه العمليات قدراً كبيراً من الطاقة لكي تنمو البذرة تحتاج إلى الغذاء، ولكن البذرة تحتاج إلى مصدر أولي من الطعام حتى تستطيع أن تحصل على المواد غير العضوية المطلوبة بواسطة جذورها .

تستيقظ البذور من سباتها حالما يحين الموعد الملائم لذلك، ثم تشرع في الأنبات والظهور فوق سطح مستوى التربة مهما كان هناك من عوائق .

إذن كيف تجد البذرة غذائها الذي تحتاجه لكي تنمو ؟

(303/774)

يكمن جواب هذا السؤال في بنية البذرة يتشكل احتياط البذرة من الطعام معها عند عملية التخصيب وتستخدمه البذرة حتى تتبرعم وتظهر فوق الأرض، وتحتاج البذور للغذاء التكميلي في أجسامها حتى تصل إلى مرحلة تكون قادرة فيها على إنتاج غذائها الخاص يبدأ الإنتاش عندما تكون الظروف مناسبة وتأخذ البذرة الماء من التربة وتبدأ الخلايا الجنينية في الانقسام؛ وبعد ذلك يفتح غلاف البذرة ويظهر أول جذر صغير – هو بداية نظام الجذر – وينمو باتجاه أسفل التربة ثم بعد ذلك تتطور البراعم التي ستنتج الساق والأوراق يبدأ الإنتاش تحت الأرض ثم يتجه النبات الصغير الجديد باتجاه الأعلى نحو الضوء وينمو ليصبح أكثر قوة وحالما تتفتح الأوراق الأولى يستطيع النبات أن يبدأ في إنتاج غذائه الخاص بواسطة التمثيل أو التركيب الضوئي ما تم شرحه حتى الآن أمر معروف، فالنباتات التي تنشأ من البذور تحت التربة هو شيء معروف ومألوف لكل شخص، لكن بينما تنمو النبتة الصغيرة تحدث معجزة حقيقية لا تجد البذرة التي تزن عدداً من الغرامات صعوبة في إحداث ثقب خلال ما يمكن أن يكون بضعة كيلوغرامات من التربة من فوقها إن هدف البذرة الوحيد هو البروز من التربة والوصول إلى الضوء تحرّك النباتات التي بدأت في الإنتاش ساقها النحيلة الضئيلة وكأنها في مكان فارغ متجهة ببطء نحو ضوء النهار وكأنه لا يوجد فوقها وزن ثقيل، وهي تبرز من التربة في مواجهة قوة الجاذبية، إنها تتجاهل جميع القوانين الفيزيائية التي تسري عليها تخرج البذرة الصغيرة ذات الجذور الدقيقة بعرض نصف

ميليميتر بدون أذى وتنمو بسرعة وتتطور من التربة التي تفسد الأشياء وتدمرها تم إجراء تجارب لمنع رشيم النبتة من الوصول إلى الضوء وذلك بإغلاق طريق الهرب في أعلى البذرة بوسائل متنوعة وكانت النتائج مذهلة جداً؛ تنمّي النباتات الرشيم المتبرعم بطول كاف ليلتف على أي عقبة تقف في طريقه نحو الأعلى أو تشكل ضغطاً قوياً مزيحة العقبة

(304/774)

التي تحجب الضوء عنها فالنباتات التي تنمو في شقوق وتصدعات تفتح طريقاً ممهداً، وبذلك تتغلب على أية صعوبة عندما تتوجه نحو ضوء النهار تنمو البراعم بشكل عمودي دائماً عندما تخرج من التربة وعندما تفعل ذلك فهي تعارض قوة

عندما تبدأ البذور في الإنبات لا يحول التراب الذي يغطيها بثقله أو أي مانع آخر دون بروزها إلى الأعلى لكي تتصل بأشعة الشمس. فالبذرة التي تبدأ في الإنبات تباشر صنع غذائها بنفسها بواسطة إجراء عملية التركيب الضوئي. ويتكون من نمو البذرة التدريجي نبات صغير شبيه بالنبتة الأم. وبينما تنمو البذور نحو الأعلى تنمو البذور شيئاً فشيئاً نحو أعماق التربة لكي تقوم بامتصاص المواد اللازمة لصنع الغذاء خلال عملية التركيب الضوئي

لجذر الأصلي 1

الجذر الثانوي 2

الجذع 3

نتوء 4 .

غشاء البذرة 5 .

الورقتان الأوليان 6

البرعم الأخير يسهل من استطالة الغصن 7 .

الجاذبية، بينما تطيع الجذور من ناحية أخرى قوة الجاذبية متجهة نحو الأسفل وهذا يطرح سؤالا مهما :

"كيف ينمو عضوان من النبات نفسه باتجاهين مختلفين ؟

(305/774)

" وللإجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نلقي نظرة على بعض آليات النباتات هناك عاملان يتحكمان في نمو النباتات : الضوء والجاذبية فالبرعم والجذر لديهما أنظمة حساسة لهذين العاملين هناك خلايا في الجذر لنبات منتش تحس بإشارات الجاذبية أما في

الرشيم المتبرعم الذي يتجه نحو الأعلى فهناك خلايا حساسة جدا إزاء الضوء، وهذه الحساسية للضوء والجاذبية الموجودة في الخلايا تتحكم في الأقسام المختلفة من النبات المتجهة إلى الاتجاه الصحيح وهذان الحافزان قادران أيضاً على تصحيح نمو البرعم والجذر إذا لم يكن عمودياً (29) إذا نظرنا من ناحية أخرى إلى ما ذكرناه نرى أننا أمام وضع غير عادي حيث تبدأ الخلايا التي تصنع النبات في النمو في اتجاهات مختلفة وتغير شكلها لتشكل أقساماً مختلفة من النبات بالإضافة إلى ذلك ينمو البرعم والجذر باتجاهين مختلفين لنتأمل الآن في توجه الجذر نحو عمق التربة متوافقاً مع قوة الجاذبية وتوجه البرعم إلى الأعلى نحو سطح التربة إن حركة شق التربة في الاتجاهين من قبل الجذر والبرعم الضعيفين نسبياً تطرح في الذهن العديد من الأسئلة؛ من أو ماذا يحدد شروع الخلايا في الانقسام ومن يُرشدها إلى الطريق الذي تسير فيه؟ كيف تعلم كل خلية المنطقة التي ستكون فيها؟ كيف لا تحدث فوضى كأن تتجه خلايا الجذر إلى الأعلى؟

(306/774)

هناك جواب جوهري واحد لجميع هذه الأسئلة من الواضح أن النبات لا يتخذ القرار وينفذه أو يضع الأنظمة الضرورية ويشكلها في جسمه بحيث لا تحصل أي فوضى؛ ومن غير

المحتمل أن يحدث تدخل أي كائن حي آخر في حدوث هذه الأنظمة، ولا تستطيع الخلايا التي يتشكل منها النبات أن تفعل ذلك أيضاً تكشف لنا جميع هذه العوامل أن النباتات موجهة ومحكومة بقوة أخرى؛ أي أنه يجب أن يكون هناك ذكاء أعلى خلق التراكيب التي يتألف منها النبات وأرشد الخلايا لتأخذ القرارات المناسبة وبين لها الطريق لتؤدي عملها ليس هناك أدنى شك في أن هذه الحكمة الفائقة هي حكمة الله تعالى رب العالمين البراعم التي تتغلب على

تختلف النباتات فيما بينها من ناحية تنوع الغلاف المحيط بالبذور، وكما هو واضح من الصورة فإن غلاف بذرة البندق يتميز بصلابته الملحوظة حيث يتكون من مادة صعبة الكسر، ولكن البذرة الكامنة داخل هذا الغلاف الصلب تبدأ في الإنبات عندما يحين الموعد الملائم لذلك دون أن تكون صلابة الغلاف المذكور عائقا أمام عملية الإنبات ونمو البذرة نحو الخارج.

(307/774)

الصعوبات قد لا يجد البرعم الذي يخرج من التربة بيئة مناسبة دائماً، فربما يجد نفسه مثلاً تحت ظل صخرة أو نبات كبير؛ وبالتالي يجد صعوبة في القيام بالتركيب الضوئي في مثل هذا

الوضع- إذا استمر في النمو- لأنه لا يستقبل ضوء الشمس المباشر؛ وفي هذه الحالة يُغير البرعم اتجاه نموه باتجاه مصدر الضوء وتظهر هذه العملية- المعروفة بالنزعة الضوئية-أن للبراعم نظام توجيه حساس للضوء وعندما نقارن النباتات بالبشر والحيوانات نرى أنها تتميز عنهم في موضوع الإحساس بالضوء لأن البشر على سبيل المثال يستطيعون استقبال الضوء بأعينهم فقط بينما للنباتات ثلاث آليات على الأقل لاستقبال الضوء، ولهذا السبب لا تخطئ في الاتجاه وتجد طريقها بسهولة بفضل أنظمة التوجيه الدقيقة لديها المعتمدة على الضوء وقوة الجاذبية تتمركز إلى جانب الأنظمة الحساسة للضوء داخل النباتات مناطق انقسام الخلية -التي تعرف بالمرستيمة وهي نسيج جنيني مؤلف من خلايا قادرة على الانقسام غير المحدود- الموجودة عادة في أطراف الجذور والسويقات النامية وإذا نمت الخلايا دائماً في مناطق النمو بالطريقة نفسها خلال الإنتاش فهذا يجعل الساق تنمو بشكل مستقيم ويأخذ كل نبات شكله تبعاً لاتجاه النمو لخلايا النبات في النسج الجنينية للبراعم والجذور وإذا كان نمو الخلايا في جهة أكثر منه في جهة أخرى فستنمو ساق النبات بزاوية، أما إذا كانت الظروف مناسبة فإن النبات يبدأ في النمو في كل المناطق في الوقت نفسه ويوجه النبات المتبرعم ساقه بشكل مستقيم باتجاه الضوء الذي يحتاجه بشدة ومن ناحية أخرى تنمو الجذور -التي ستزود النبات بالماء والمعادن الضرورية من التربة- بأفضل الطرق المناسبة بفضل أنظمة التوجيه الحساسة للجاذبية لديها من النظرة الأولى يمكن

الاعتقاد أن الجذور تنتشر تحت الأرض بشكل عشوائي في حين أنه بفضل هذا النظام الحساس تبرز استطالات الجذور مثل الصواريخ المتجهة إلى أهدافها بشكل

(308/774)

دقيق ومُحكم يختلف النمو الذي تحكمه هذه الآليات من نبات إلى آخر لأن نمو أي نبات يكون متوافقاً مع معلوماته الجينية الخاصة، فعلى سبيل المثال أعلى معدل نمو لنبات التُرمس يكون في غضون عشرة أيام من عمره، ونبات الذرة في الأسبوع السادس وشجرة الزان بعد ربع قرن من الزمن (30) (الإنتاش هو أول مرحلة لكي يصبح جسم البذرة الضئيل نباتاً طوله عدة أمتار ووزنه عدة أطنان وبينما تتوجه الجذور إلى الأسفل والأغصان إلى الأعلى في النباتات بطيئة النمو فإن الأنظمة الموجودة داخلها (أنظمة نقل الطعام، والتكاثر، والهرمونات التي تتحكم في النمو العلوي والجانبي للنبات ومن ثم توقفه) تنشأ سوية وليس هناك أي تأخير أو عيب في أي منها وهذا مهم جداً لأنه على سبيل المثال بينما تتطور أجهزة تكاثر النبات من جهة فإن الأنابيب الناقلة (للماء والطعام) تتطور من جهة أخرى؛ وإلا لن يكون للحاء أو الأنابيب الخشبية أية أهمية لنبات لم تتطور آلية تكاثره بعد نظراً إلى أن مثل هذا النبات لن يستطيع أن ينتج أجيالاً لاحقة، ولم تعد هناك أهمية للآليات المساعدة

الفرعية وكما لاحظنا فهناك مخطط لهذا التصميم المتناسق للعلاقة التبادلية في النبات والذي لم يحدث نتيجة المصادفة والتطور على مراحل -كما زعم دعاة التطور من العلماء- هو شيء مستحيل لنبرهن على ذلك بتجربة بسيطة يمكن لأي شخص أن يقوم بها لنأخذ بذرة واحدة ومزيجا يحتوي على جميع جزيئات بذرة من نفس النوع والحجم وندفنهما في التربة بالعمق نفسه وننتظر برهة؛ وحالما تمر فترة من الزمن تختلف حسب أنواع النبات سنرى أن البذرة التي زرعناها شقت التربة وظهرت على السطح، لكن مهما انتظرنا فإن المادة الأخرى لن تظهر على السطح وستبقى النتيجة نفسها ولو انتظرنا لمئات بل آلاف السنين والسبب في ذلك هو بكل وضوح التصميم الخاص للبذرة فجينات النبات تحمل شفرة تحوي جميع المعلومات الضرورية لهذه العملية وتكشف جميع أنظمة

(309/774)

النباتات

وجود إدراك واعٍ، كما تظهر كل التفاصيل أن النباتات لم تنشأ نتيجة أحداث عشوائية بل على العكس فهي تُظهر أن هناك إدراكاً تدخل في نشوء النباتات بالطبع إن هذا التصميم المثالي هو دليل على وجود خالق يعلم ويخلق كل شيء بأدق التفاصيل؛ كما تكشف لنا

بوضوح أول مرحلة من حياة النباتات –وهي ظهور البذرة– الطبيعة الفريدة لخلق الله تعالى وينبهنا الله عز وجل إلى هذه الحقيقة في القرآن : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) سورة الواقعة : 63-65 .

المصدر : موقع الداعي التركي هارون يحيى : : http //www.harunyahya.com

الهوامش :

20. Temel Britannica, Vol 4, p.299

21. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, p.15

22. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, p.16

23. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, p.19

24. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New

Jersey, p.35

Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, .25

Facts on File Publications, 1988, p.46-47

John King, Reaching for The Sun, 1997, .26

Cambridge University Press, Cambridge, p.117

David Attenborough, The Private Life of .27

Plants, Princeton University Press, Princeton, New

Jersey, p.22

David Attenborough, The Private Life of .28

Plants, Princeton University Press, Princeton, New

Jersey, p.24

Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, .29

Facts on File Publications, 1988, p.65-66

Guy Murchie, The Seven Mysteries of Life, .30

USA, Houhton Mifflin Company, Boston, 1978

.

.

.

0–معجزات النباتات غبار الطلع

بقلم هارون يحيى

(311/774)

تمتلك النباتات – التي لها أهم دور في التوازن البيئي العالمي وفي استمرارية الحياة – نظام تكاثر أكثر فاعلية نسبياً من أي نظام آخر لدى الكائنات الحية، وبفضل هذه الخاصية المميزة تتكاثر النباتات بدون صعوبة، ويكفي أحياناً أن تُقطع ساق نبات وتوضع في التربة أو أن تحط حشرة على زهرته ليتكاثر إن نظام التكاثر في النباتات والذي يعتبر معقدا أذهل العلماء على الرغم من أنه يبدو بسيطاً ظاهرياً حياة جديدة تبدأ بعد ترك النبات الأصلي بعض النباتات ليس لها جنس منفصل لكنها تستمر في عملية تكاثر السلالة كجنس واحد

بواسطة طرق خاصة فالجيل الجديد الذي ينشأ نتيجة لعملية التكاثر بهذه الطريقة هو نسخة طبق الأصل، وأفضل وسيلة تكاثر لا جنسي معروفة لدى النباتات هي فصل سويقات النبات إلى أجزاء مختلفة تتم طريقة التكاثر (بتقسيم السويقات أو تعديلها) – بمساعدة بعض الأنزيمات الخاصة– بشكل نموذجي لعدد كبير من النباتات، فعلى سبيل المثال : تتكاثر الأعشاب والفريز باستخدام سويقات أفقية تُعرف بـ" الأغصان الهوائية "، أما في حالة البطاطا وهي نبات ينمو تحت الأرض فتتكاثر بتشكيل جذمورات تكبر لتصبح في النهاية سويقات أرضية شبيهة بالجذر بالنسبة إلى أنواع معينة من النباتات يكفي وقوع قسم من أوراقها على الأرض لينبت نبات آخر مثال : ينتج النبات الطحلبي المسمى Bryophyllum daigremontianum الأعراس تلقائياً على حافة أوراقه، وتسقط في النهاية على الأرض وتبدأ في حياة مستقلة (1) في بعض النباتات الأخرى مثل البيغونية الاستوائية عندما تسقط أوراقها على تربة رملية رطبة سرعان ما تبدأ الأعراس في النمو حول قاعدة الورقة، وفي وقت قصير تبدأ في تشكيل نبات جديد يشبه الأصل (2) ما هو الشيء الضروري والأساسي للنبات لكي

يتكاثر ؟ هل هو بقطع قسم منه ؟ إذا أخذنا الأمثلة السابقة بعين الاعتبار فمن السهل الإجابة على هذا السؤال بعد فحص الهيكلية الجينية للنبات المقصود مثل جميع الكائنات الحية فإن للنباتات خواص هيكلية مميزة في تركيب الـ DNA في خلاياها بمعنى آخر كيف يتكاثر النبات ؟ كيف يتنفس ؟

كيف يحصل على غذائه ولونه ورائحته وطعمه ؟

ما هو مقدار السكر فيه ؟

توجد هذه المعلومات وغيرها بدون استثناء في خلايا النبات وتمتلك خلايا جذر النبات معرفة كيفية قيام الأوراق بالتركيب الضوئي، وتعرف خلايا الأوراق كذلك مقدار الماء الذي ستمتصه الجذور من التربة وباختصار توجد شفرة وتصميم لتكوين نبات جديد كامل في أي فرع يترك النباتو توجد جميع خواص النبتة الأم الجينية كاملة بأدق التفاصيل في كل خلية، وفي كل جزء صغير يقتطع منها في هذه الحالة كيف ومن أعطى المعلومات المخزنة في كل جزء من النبات لتشكيل نبات جديد إن المعلومات الكاملة الموجودة داخل كل خلية من خلايا النبات لا يمكن أن تنسب إلى الصدفة؛ أو إلى النبات نفسه أو إلى المعادن والفلزات الموجودة في التربة هذه أجزاء النظام التي تكون النبات، وكما يحتاج مهندس المعمل إلى برنامج لروبوتات خط الإنتاج لأن الرجال الآليين لا يمكنهم وضع التعليمات بأنفسهم، فكذلك يجب أن يكون هناك من يعطي النباتات الصيغة الضرورية للنمو

والتكاثر لأنها تشبه الروبوتات إنّ الله تعالى هو الذي وضع المعلومات الضرورية في خلايا النباتات كما هو الأمر مع جميع الكائنات الحية في العالم، الله تعالى، بدون شك، هو خالق كل شيء بشكل كامل، وهو عالم بخلقه وتكوينه ويشير الله إلى هذه الحقيقة في عدد من الآيات القرآنية الكريمة :

(313/774)

قال الله تعالى : (الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ أَرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِب إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهوَ حَسِيرٌ) سورة الملك : 3-4 .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ) [سورة الحج : 63] .

التكاثر الجنسي

يسمى التكاثر بواسطة أعضاء التكاثر المذكرة والمؤنثة في النبات بالتكاثر الجنسي وتُظهر الأزهار اختلافات في الخواص مثل الشكل واللون وغلاف خلايا التكاثر والبتلات؛ لكن بالرغم من هذا التنوع في التركيب فجميع الأزهار لها الوظائف الأساسية نفسها ، وهي

إنتاج خلايا تكاثر والتحضير لانتشارها وتخصيب خلايا التكاثر الأخرى التي تصلها عند تفتح الأزهار يظهر غبار الطلع وهو الخلايا الذكرية للنبات، ودورها هو أن تصل إلى الأعضاء الأنثوية في أزهار السلالة نفسها وتلقحها لتضمن استمرارية النوع لكل نبات طريقته الخاصة أو آليته التي يستخدمها لإرسال غبار الطلع، فبعض النباتات تستفيد من الحشرات بينما تستفيد نباتات أخرى من قوة الريح وأهم نقطة في تخصيب النباتات هي بدون شك حقيقة أن كل نبات يخصب نباتاً آخر من النوع نفسه أو السلالة نفسها ، ولهذا السبب فمن المهم جداً أن يصل غبار الطلع إلى النبات الصحيح كيف لا تحدث فوضى خلال عملية التخصيب خاصة في فصل الربيع حيث يكون هناك العديد من حبات غبار الطلع في الجو ؟ وكيف تتحمل حبات غبار الطلع الرحلات الطويلة والظروف المتغيرة ؟ سنعرف الجواب على هذه الأسئلة عندما ندرس تركيب غبار الطلع وأنظمة انتشارها غبار الطلع جينات معبأة بشكل مثالي

(314/774)

غبار الطلع هو مادة على شكل مسحوق يُنتج في الأسدية (الأعضاء الذكرية للأزهار) ومن ثم ينتقل إلى القسم الخارجي من الزهرة؛ وعند وصوله يبدأ في النمو ويصبح جاهزاً

لتخصيب النسل التالي وهذه هي أول مرحلة في حياة غبار الطلع لنلق نظرة على تركيب غبار الطلع فهو مصنوع من عضويات بالغة الصغر لا ترى بالعين المجردة (حجم كل حبة غبار طلع لشجرة الزان يساوي 2 ميكرون، أما حجم حبة غبار طلع اليقطين فيساوي 200 ميكرون) والميكرون جزء من ألف من المليمتر وتتألف حبة غبار الطلع من خليتي نطاف نباتية (خلية مولدة) محتواة في خلية أكبر (خلية أنبوبية) .

(315/774)

يمكن أن نشبه كل حبة من غبار الطلع بصندوق يحوي داخله خلايا تكاثر، ومن الضروري أن تكون مخبأة جيداً لحماية حياتها وحفظها من الأخطار الخارجية؛ ولهذا السبب فإن بنية الصندوق قوية جداً وهو محاط بجدار يدعى "الكيس الطلعي" أما الطبقة الخارجية للجدار فتدعى أكسين وهي المادة العضوية الأكثر مقاومة حسب ما هو معروف في العالم، ولم يعرف تركيبها الكيميائي بشكل كلي حتى الآن وهذه المادة تقاوم أذى الحوامض والأنزيمات، وعلاوة على ذلك لا تتأثر بدرجة الحرارة العالية أو بالضغط العالي وكما رأينا فقد اتُخذت احتياطات كثيرة ودقيقة لحماية غبار الطلع الهام جداً لاستمرارية وجود النباتات، فحبات الطلع مغلفة جيداً بمادة مقاومة قوية، وبفضل هذا التغليف مهما كانت

طريقة انتثار غبار الطلع فيمكنه البقاء حياً حتى مسافات بعيدة عن النبات الأم، بالإضافة إلى ذلك تنتثر حبات غبار الطلع بأعداد ضخمة مما يضمن تضاعف النبات مثلما يلاحظ من التركيب الدقيق لغبار الطلع فقد كشف الله تعالى لنا عن قدرته التي لا تضاهى في جميع الأشياء التي خلقها، وطلب منا أن نتفكر فيها وقد أشير إلى ذلك في العديد من آيات القرآن الكريم وفي الآية التالية فيها إشارات خاصة: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [سورة الرعد: 4].

ترسل النباتات بلايين حبوب غبار الطلع في كل مرحلة إنتاج لها وسبب ذلك أن غبار الطلع يتعرض لمخاطر كثيرة تمنع وصول معظمه إلى الهدف المرسوم له، في الأعلى بعض أشكال حبيبات غبار الطلع والتي يختلف شكلها من نبات آخر

عموماً هناك طريقتان مختلفتان لوصول غبار الطلع إلى الأزهار كي تخصبها خلال عملية الانتثار أول مرحلة في عملية التخصيب:

1- يلتصق غبار الطلع بجسم نحلة أو فراشة أو أية حشرة أخرى أو

2- تحمله تيارات الهواء غبار الطلع المحمول بالريح تستفيد العديد من النباتات من الريح لتنثر غبار طلعها من أجل استمرار سلالتها ويتم تلقيح نباتات مثل البلوط والصفصاف والحور والصنوبر والعشب والقمح . . الخ بواسطة الريح التي تحمل هذه الجسيمات الدقيقة من النباتات إلى نباتات أخرى من الفصيلة نفسها ، وبهذا تضمن التخصيب ما تزال هناك عدة نقاط لا يستطيع العلماء تفسيرها والعديد من الأسئلة التي تنتظر الإجابة عليها بخصوص التلقيح بواسطة الريح، ومن ذلك على سبيل المثال : كيف تستطيع حبة غبار الطلع من آلاف متنوعة تحملها الريح تمييز نباتات من فصيلتها نفسها ؟ كيف يمكن لحبات الطلع التي يطرحها النبات الوصول إلى أعضاء النبات الأنثوية دون أن تلتصق في مكان آخر ؟

كيف تتخصب الآلاف من النباتات بهذه الطريقة مع أن احتمالات التخصيب منخفضة ؟ وكيف فعلت ذلك عبر ملايين السنين ؟ للإجابة على هذه الأسئلة شرع كارل ج نيكلاس وفريقه من جامعة كورنيل في دراسة النباتات الملقحة بواسطة الريح وكانت النتائج التي تم التوصل إليها مذهلة بالفعل، فقد اكتشف نيكلاس وفريقه أن للنباتات الملقحة بالريح أزهار ذات تركيب ديناميكي هوائي (أيروديناميكي) تمكنها من جذب كميات كبيرة من

غبار الطلع من الهواء

ما هو هذا التركيب الأيروديناميي في النباتات ؟ ما هو تأثيره ؟

(317/774)

للإجابة على هذه الأسئلة علينا أن نشرح ماذا يعني "التركيب الأيروديناميي" تعمل القوى الناشئة من تيارات الهواء على الأجسام المتحركة في الهواء وتعرف بالقوى الأيروديناميية والأجسام التي تستطيع التحرك في الهواء تدعى الأجسام "ذات التركيب الأيروديناميي" وتستخدم بعض النباتات تركيبها الأيروديناميي بشكل فعال جداً لكي تستفيد من الريح للتلقيح، وأفضل مثال على ذلك مخاريط الصنوبر المخاريط الأيروديناميكية ربما يكون أهم سؤال جعل كارل نيكلاس وفريقه يدرسون التلقيح بواسطة الريح هو :

"كيف تصل كل حبة غبار طلع إلى فصيلتها نفسها دون غيرها على الرغم من وجود عدد ضخم من حبات غبار الطلع في الهواء ؟ "

(318/774)

هذا ما جعل العلماء يدرسون النباتات التي يتم تخصيبها بواسطة الرياح وخاصة أكواز الصنوبر مخروطية الشكل تعرف الأشجار ذات المخاريط بارتفاعها وعمرها المديد ، وتراكيب المخاريط مذكرة ومؤنثة ويمكن أن توجد في الشجرة نفسها أو في أشجار مختلفة وهناك قنوات مصممة خصيصاً في المخاريط لترسم لنفسها المسالك التي تحمل غبار الطلع الذي يصل بسهولة إلى المناطق التي تحتاج إلى تخصيب بفضل هذه القنوات إنّ المخاريط المؤنثة أكبر من المذكّرة وتنمو الواحدة بعد الأخرى وتتألف المخاريط المؤنثة من محور مركزي وحوله العديد من الأبواغ مشابهة لتراكيب الأوراق وهذه التراكيب على شكل أغطية مشابهة لحراشف السمك وتشكل كل حرشفة مبيضاً مفتوحاً (ليس له قلم ولا ميسم) مؤلف من خباء واحد في أسفله زائدة صغيرة تسمى القنابة وفي أعلاه بذيرتان عاريتان (لهذا تسمى عريانات البذور) ، وعندما تكون المخاريط مستعدة للإلقاح تأخذ حراشفها في التباعد بعضها عن بعض مما يمكن غبار طلع المخاريط الذكرية من الدخول بالإضافة إلى ذلك توجد تراكيب خاصة تمكن غبار الطلع من الدخول بسهولة إلى المخروط، مثال : حراشف المخروط المؤنثة مغطاة بوبر دبق، وبفضل ذلك يلتصق به غبار الطلع ويؤخذ بسهولة إلى الداخل للتخصيب وتتحول المخاريط المؤنثة بعد التخصيب إلى تراكيب متخشبة تحوي البذور وبعد ذلك تُنبت البذور نباتاً جديداً في ظروف مناسبة كما تملك المخاريط المؤنثة خاصية مميزة أخرى، فالمنطقة التي تتشكل فيها البيضة (المبيض

) قريبة جداً من مركز المخروط، وظاهرياً من الصعب على غبار الطلع أن يصل إلى هذه المنطقة لأنه لكي يصل إلى القسم الداخلي من المخروط عليه الدخول من ممر خاص إلى المركز ومن النظرة الأولى تبدو هذه المسألة معيقة لتخصيب المخاريط لكن الدراسات أثبتت أن هذه ليست مشكلة أجُريت تجربة من خلال تحضير نموذج لمخروط لمعرفة كيفية عمل نظام التخصيب الخاص بالمخاريط وتمت مراقبة

(319/774)

حركة

بالونات صغيرة مملوءة بغاز الهليوم في مجرى من الهواء وتبين أن البالونات الصغيرة تبعت بسهولة مجرى الهواء، وامتلكت خاصية سهولة الدخول إلى الدهاليز الضيقة في المخروط بعد ذلك تم تصوير حركات البالونات في النموذج التجريبي باستخدام تقنية تصوير فوتوغرافية خاصة، ثم تحليل الصور بمساعدة الكومبيوتر وتثبيت اتجاه الرياح وسرعتها اكُتشف تبعاً لنتائج الحاسب أن المخاريط غيرت حركة الريح بثلاث طرق .

أولاً : تم تحويل اتجاه الريح إلى المركز بواسطة الأوراق، ثم بعد ذلك حركت بحركة دائرية وسحبت إلى مكان تشكل البيض .

ثانياً : وجُهت الريح – التي تدور بشكل دوامة وتلمس الأخبية الصغيرة–إلى منطقة تؤدي إلى مركز المخروط .

(320/774)

ثالثاً : تحول المخاريط بفضل نتوءاتها التي تعطي دفعاً للمجاري الصغيرة الريح إلى الأسفل وتوجهها نحو الأخبية يصل معظم غبار الطلع في الهواء إلى المكان المقصود بفضل هذه الحركات والنقطة الجديرة بالاهتمام هنا أن العمليات الثلاثة–التي تكّمل بعضها البعض– يجب أن تكون متوالية وينشأ التخطيط الكامل للمخاريط عند هذه النقطة تدّعي نظرية التطور أن هناك تطورا مرحليا عبر الزمن في النباتات أيضا – كما في جميع الكائنات الحية–، ووفقاً لدعاة هذه النظرية فإن سبب التركيب الدقيق للنباتات هو المصادفة؛ ولكي ندرك بطلان هذا الزعم يكفي أن نتفحص التركيب الدقيق لنظام تكاثر المخاريط من غير الممكن لسلالة حية أن تتواصل بدون نظام تكاثر وتنطبق هذه الحقيقة الحتمية بالطبع على أشجار الصنوبر ومخاريطها؛ وبمعنى آخر وجد نظام التكاثر في المخاريط مع نشأة أشجار الصنوبر حتماً ، ومن غير المحتمل لتركيب المخاريط التام أن يظهر للوجود بمفرده عبر فترة من الزمن في مراحل مختلفة إنّ التركيب الذي يقود الريح للأكواز ثم لتركيب آخر يوجهها إلى القنوات

التي تؤدي إلى حيث توجد البيوض، وكل ما سبق من الضروري أن يوجد في الوقت نفسه بدون أي نقص لأنه إذا فُقد أحد هذه التراكيب فمن المستحيل أن يعمل نظام التكاثر بقي أن نقول أيضا إن هناك استحالة لتواجد خلية البيضة في المخروط والخلايا التي ستخصبها بالمصادفة، وهذا مأزق آخر لنظرية التطور من المستحيل أن ينشأ جزء واحد من النظام لوحده بالصدفة، فكيف بكل الأجزاء ؟

الصورة إلى في الأعلى : توضح الأوراق إبرية الشكل المحيطة بالبذرة الصنوبرية الأنثوية .

(321/774)

يلعب التيار الهوائي (المتكون بفعل الريح) حول البذرة الصنوبرية الأنثوية دورا كبيرا في عملية التلقيح . فالتيار الهوائي يتجه نحو مركز البذرة (الشكل أ) وبعد دورانه حول المحور يفعل فعل الفرشاة مؤثرا على سطح البذرة (الشكل ب) ، ومن ثم تبدأ حبوب اللقاح في التكون بصورة عشوائية في الناحية القريبة من فتحة البويضة (الشكل ج) . ويتم توجيه التيار الهوائي في البذرة الأنثوية نحو البذرة الذكرية بموازاة الريح

(322/774)

إنه أمر لا يصدق لقد دحضت المكتشفات العلمية ادعاءات نظرية التطور بأن كل شيء نشأ بالمصادفة، ولهذا السبب فمن الجلي أن المخاريط من لحظة ظهورها كانت بشكلها الكامل ونظامها الدقيق لأن الله قد خلقها كذلك هناك ميزات أخرى لأشجار الصنوبر تسرّع اصطياد حبات غبار الطلع، فعلى سبيل المثال تتشكل المخاريط الأنثوية عموماً في أطراف الأغصان وهذا يخفف من نقصان غبار الطلع إلى أدنى درجة علاوة على ذلك تساعد الأوراق بفضل ترتيبها التناظري حول المخاريط في التقاط غبار الطلع القادم من جميع الجهات بتخفيفها من سرعة تيارات الهواء إنّ غبار طلع الصنوبر ككل أنواع غبار الطلع له أشكال وأحجام وكثافات مختلفة تبعاً للسلالة التي ينتمي إليها مثال : إنّ حبات غبار طلع لسلالة معينة لها كثافة تمنعها من إتباع تيار الهواء الذي تقوم به المخاريط لسلالة أخرى، ولهذا السبب تقع على الأرض وتُحدث المخاريط المتنوعة تيارات هوائية تتناسب مع حبات غبار الطلع لسلالتها ، وهذه الميزة في المخاريط ليست فقط لالتقاط غبار الطلع بل تستخدم النباتات هذه الفلترة (التصفية) لتيارات الهواء لأعمال مختلفة أخرى، فالمخاريط المؤنثة تستطيع بهذه الطريقة تغيير اتجاه غبار الطلع المصاب بالفطريات الذي يمكن أن يؤذي خلايا البيض فيها لا تقتصر الاحتياطات أو التدابير الوقائية التي تقوم بها النباتات كي يصل إليها غبار الطلع المتناثر في الهواء ويخصبها على ذلك بل تتعداه،

فالنبات ينتج كمية كبيرة من غبار الطلع أكثر من المطلوب إلى حد يضمن معه عملية الإلقاح، وبذلك لا يتأثر النبات بنقص غبار الطلع الذي يمكن أن يكون لأسباب عديدة مثال ذلك أن كل مخروط مذكر يُنتج على شجرة الصنوبر أكثر من 5 مليون حبة غبار طلع في السنة، وتنتج شجرة صنوبر واحدة في المنطقة 12,5 بليون حبة غبار طلع في السنة، وهو رقم ضخم وغير عادي مقارنة بالكائنات الحية الأخرى (3) بالرغم مما سبق يواجه غبار الطلع الذي

(323/774)

تحمله

(324/774)

الرياح عدداً من الصعوبات أو العوائق، إحداها الأوراق، لذلك عندما يتناثر غبار الطلع في الهواء تتفتح أزهار بعض النباتات (البندق، الجوز، الخ) قبل أوراقها حتى يحدث الإلقاح بينما لا تزال أوراقها غير نامية وتوجد الأزهار في ثلاثة أقسام من الفصيلة النجيلية (

الحبوب) والصنوبر لتسهيل الإلقاح، وفي هذه الحالة تكون الأوراق منظمة بشكل لا يجعلها عائقاً أمام حركة غبار الطلع يمكن لغبار الطلع بواسطة هذه الترتيبات المسبقة أن يقطع مسافات طويلة نسبياً وتتنوع المسافة حسب السلالة مثال : يمكن أن تسافر حبات غبار الطلع المزودة بجيوب هوائية إلى مسافات أبعد من غيرها ، وقد تبين أن حبات غبار طلع الصنوبر التي لديها جيبين هوائيين يمكن أن تقطع مسافة تصل إلى 300 كم في تيارات الهواء العالية (4) ويوازي ذلك في الأهمية حقيقة أن آلاف الأنواع من غبار الطلع تقطع مثل هذه المسافات في الجو محمولة بنفس الريح لكن دون أن تحدث أي فوضى بينها توجه حبات غبار الطلع نحو هدف هالكي نفهم بشكل أفضل الميزات المدهشة للنباتات المُخصَبة بواسطة الريح نأخذ مثالاً آخر : تتبع الصواريخ مساراً محددا مسبقاً لتصل إلى أهدافها ، ولهذا السبب يجب أن تكون هناك حسابات دقيقة جداً في التخطيط لمسار الصاروخ ليصل إلى هدفه وميزات الصاروخ هي : قدرة المحرك وسرعة الطيران بالإضافة إلى ما يرافقها من خصائص الظروف الجوية مثل كثافة الهواء ، مع البرمجة الدقيقة لكل ما سبق وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تكون هناك معرفة دقيقة بتركيب منطقة الهدف والظروف السائدة هناك؛ ولكي نصل إلى هذا الأمر علينا القيام بقياسات دقيقة وإلا فإن الصاروخ يخرج عن مساره ويفشل في الوصول إلى هدفه ويتعين على المهندسين العمل بشكل جماعي والتفكير في كل التفاصيل لكي يصيب الصاروخ هدفه بنجاح ومن الواضح أن النجاح في

التصويب وبلوغ الهدف هو نتاج عمل جماعي وحسابات دقيقة وتقنية عالية يشبه التصميم الدقيق

(325/774)

لنظام

التكاثر في المخاريط نظام الصاروخ وتصويبه نحو هدفه لكون كل شيء محسوب بدقة وبشكل مسبق مع تعديلات حساسة جداً، وقد أخذ في الحسبان العديد من التفاصيل مثل اتجاه تيار الهواء والكثافات المختلفة للمخاريط وشكل الأوراق الخ، وبنيت خطط التكاثر على أساس هذه المعلومات يطرح وجود مثل هذه التراكيب المعقدة في النباتات السؤال عن كيفية ظهور هذه الآليات، ولكن لنجب على هذا السؤال بسؤال آخر، هل يمكن أن يكون هذا التركيب في المخاريط محض مصادفة؟

إنّ النظام المعمول به داخل الصواريخ هو نتاج سنوات طويلة من الدراسة والعمل الشاق لمهندسين خبراء في مجالهم يتمتعون بالذكاء والمعرفة والتراكيب المعقدة في المخاريط والتي تشبه النظام الذي يعمل في الصواريخ خططت بالطريقة نفسها، والادعاء بأن الصاروخ تكون بالمصادفة وأنه يمكن أن يصيب هدفه بأتباع مسار عشوائي هو شيء غير منطقي

كالادعاء بأن الحركات غير العادية لحبات غبار الطلع المصوبة إلى هدفها بالطريقة نفسها ، والتراكيب الدقيقة في المخاريط هي نتيجة المصادفة من المستحيل بالطبع أن تكون لحبات غبار الطلع القدرة والمعرفة حتى تجد طرقها المختلفة في هذه الرحلة وفي نهاية المطاف فحبات غبار الطلع هي عبارة عن مجموعة من الخلايا ، وإذا تمعنا فيها نجد أنها مصنوعة من ذرات غير مدركة ولا مجال للشك بأن امتلاك مخروط لنظام مليء بالمعلومات المفصلة عن التخصيب هو نتيجة لخلق الله العليم العلي القدير هناك نقطة هامة أخرى في تخصيب أشجار الصنوبر ألا وهي أن الريح الموضوعة قيد التحكم تقوم بواجبات النقل بشكل دقيق دون أي خطأ وهذا دون شك من عمل الله رب العالمين الذي يوجه العملية برمتها من السّماوات إلى الأرض وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في هذه الآية : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ سورة) [الحجر : 22] .

(326/774)

تقوم جميع النباتات في العالم بدون استثناء بالعمليات نفسها وكل سلالة تعرف ما عليها القيام به منذ نشأتها وهذا الحدث الذي يجري بمساعدة تيارات الريح منذ ملايين السنين وحتى الآن يتم دون صعوبة بالرغم من أنه معتمد على احتمالات مختلفة وكما رأينا فكل

شيء يحدث في مكانه المناسب وتوقيته الصحيح لأن كل آلية من هذه الآليات ملزمة بالعمل في انسجام مع غيرها في المكان والزمان، وإذا فُقدت أو غابت إحداها فهذا يعني نهاية السلالة النباتية لهذا الصنف من النبات من الواضح أن هذه الأنظمة التي ليس لديها ذكاء أو إرادة أو إدراك تلعب دورها في هذه الأحداث التي لا تصدق بأمر من خالقها، من الله تعالى ذي القوة المطلقة والمعرفة، فهو الذي يتحكم في كل شيء في كل لحظة وخطط لكل شيء حتى أدق التفاصيل فالله هو الذي أوجد كل شيء حي وجامد وكل، ويبين الله تعالى هذا السر في الآية الكريمة: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [سورة الطلاق: 12].

(327/774)

لكي نشرح هذه النقطة علينا أن نتخيل أننا نشهد إنجازاً تكنولوجياً دقيقاً أو معملاً أو مبنى كل تفصيل فيه تم التخطيط له بدقة وروّية: فنحن نشعر، بدون شك، أن وراء ما ذكر مُخطِط أو مُصمِم نحن نعرف بالطبع أن من قام بالتخطيط هم أُناس مختصون ذوو معرفة ودراية، وأن هناك فهما دقيقا لكل مرحلة ولا يمكن لأحد بعد ذلك أن يقف ويدّعي

بأن هذه الأشياء ظهرت لوحدها عبر الزمن نحن نقدر ذكاء المخططين ونثني على براعتهم إن جميع الكائنات خُلقت مزودة بأنظمة في غاية الدقة ومعتمدة على أدق الموازين نرى هذا أينما نظرنا من حولنا بدون استثناء وليس هناك أدنى شك في أن الله يستحق المديح والثناء، فهو خالق جميع الكائنات الحية ومبدعها والنباتات ككل شيء آخر في الكون تحافظ على وجودها بفضل الأنظمة التي خلقها الله وبتعبير آخر فهي تحت رقابته وسيطرته: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ . سورة الحج: 64وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [سورة الأنعام: 59].

(328/774)

الملقحات أثناء العمل كما ذكرنا سابقاً فإن بعض السلالات النباتية تتكاثر بواسطة غبار الطلع الذي تحمله الحيوانات مثل الحشرات والطيور والنحل والفراشات أذهلت العلاقة بين النباتات –التي تسمح للحيوانات بنثر غبار طلعها– والحيوانات التي تقوم بهذا الواجب وتؤثر هذه الكائنات الحية على بعضها البعض بأساليب خبيرة بهدف المحافظة على

استمرارية نظام الأخذ والعطاء المتبادل وفي البدء كان الاعتقاد الشائع أن النباتات تلعب دوراً صغيرًا في هذه العلاقة، في حين بيّنت نتائج الباحثين خلاف هذا الرأي، فالنباتات تلعب دوراً فعالاً ومباشر في التأثير على سلوك الحيوانات، ولقد اتبعت استراتيجيات مثالية لتوجيه الحيوانات التي تحمل غبار طلعها مثال ذلك أنّ الإشارات اللونية للنبات تدل الطيور والحيوانات الأخرى على الثمرات الناضجة والجاهزة للانتشار، كما ترتبط كمية الرحيق الموجودة مع لون الأزهار لتزيد فرص التخصيب بتشجيع الملقح للبقاء مدة أطول فوق النبات، وهناك روائح زهرية خاصة تجذب الملقحين الملائمين في الوقت المناسب تماماً (5) وفي بعض الأحيان تستخدم النباتات طرق خداع لبدء عملية التلقيح، وبشكل عام يقع الحيوان الذي سيحمل ذرات غبار الطلع المنتثرة في الشرك الذي نصبه النبات وبهذا يبلغ النبات هدفه الأساليب التي تستخدمها النباتات : اللون، الشكل، الرائحة يساعد اللون في إعلام الملقحين بوجود الأزهار، وليس ذلك فحسب بل إنه يعلن عن مكافأة وهي رحيق الزهرة فعندما يقترب ملقح ما تعطي الزهرة إشارات منبهة مثل الرائحة لترشد الحشرة لموقع الرحيق، أما الأزهار التي ترشد الملقحين بواسطة اللون فهي توجههم إلى المركز حيث يوجد الرحيق، وهكذا يحدث التخصيب (6) تُعرف النباتات بالوظيفة الإرشادية لألوانها، وفي الواقع فهي تخدع الحيوانات باستخدام هذه الميزة بإدراك قويو تستخدم بعض النباتات التي لا رحيق لها الميزات اللونية للأزهار منتجة الرحيق لتجذب

الحشرات

إليها ، وأحد الأمثلة الجيدة على ذلك : cephelanthera الحمراء وهي صنف من الأوركيد (نبتة من الفصيلة السحلبية) وbeltflowers الزرقاء التي تنمو في الغابات في المناخ المتوسطي بينما تعطي beltflowers الزرقاء الرحيق الذي يجذب النحل لا تملك cephelanthera الحمراء هذه الميزة لتعمل الشيء نفسه، ولكن، وفي الوقت نفسه، فإنّ النحلة البرية المعروفة بـ "قاطعة الأوراق" تخصب هذين النباتين المختلفين كلياً وعندما يقوم النحل البري بتخصيب الأزهار الزرقاء فإنه يشعر بالحاجة إلى تخصيب الأزهار الحمراء أيضاً ولقد جذب تلقيح النحل لنبات لا يحوي رحيقاً اهتمام العلماء وبحثوا عن سبب تصرف النحل هذا يأتي جواب هذا السؤال نتيجة بحث أنجز بواسطة أداة تدعى "

spectrophotometer" (أداة لقياس شدة الضوء في أقسام مختلفة من الطيف الضوئي الصادر من مادة أو محلول بطول موجي معين) عُرف أن النحل البري لا يقدر على التمييز بين الطول الموجي للضوء الخارج من الزهرتين المختلفتين؛ وبكلام آخر بالرغم من أن

البشر يمكن أن يميزوا بين الطول الموجي الخارج من الزرقاء وذلك الخارج من الحمراء لأنهم يستطيعون رؤية الفرق في اللون بين الأزهار لكن النحل البري لا يستطيع رؤية هذا الاختلاف فاللون عامل هام للملقحين والنحلة التي تذهب للزهرة الزرقاء وتعطي اللقاح تزور الزهرة الحمراء التي تنمو بجانب الزرقاء وتخصبها وتراها على أنها من اللون نفسه وكما نرى يستمر الأوركيد في الحياة والفضل في ذلك يعود لتشابهه الخفي مع الزهرة الزرقاء (7) تعلن بعض الفصائل النباتية عن جائزة تلقيح للحشرات بتغيير لون براعمها ويبين المثال التالي ذلك :

(330/774)

تحدث فريتز مولر، وهو عالم في التاريخ الطبيعي، في رسالة له عن نبات يدعى اللنتانة ينمو في الغابات البرازيلية : "لدينا أزهار اللنتانة (نبتة استوائية) التي تبقى لثلاثة أيام، يكون لونها أصفر في اليوم الأول وبرتقالي في اليوم الثاني وأرجواني في اليوم الثالث وتزور هذه النبتة أنواع متعددة من الفراشات، وكما رأيتُ فإن الأزهار الأرجوانية لا تُلمس أبداً ويُدخل بعض أنواع الفراش خرطومه (الأجزاء الفموية) في داخل الأزهار الصفراء والبرتقالية؛ بينما يقتصر بعضها الآخر على الأزهار الصفراء في اليوم الأول وهذه في اعتقادي مسألة تثير

الاهتمام وفي نهاية اليوم الأول من الإزهار تقع بعض الأزهار أو تصبح أقل بروزاً، وإذا لم تغير لونها مع الزمن فستضيع الفراشات وتدخل خراطيمها في الأزهار الملقحة سابقاً" (8)

كما لاحظ مولر فإن تغير لون الزهرة هو من مصلحة النبات والملقح معاً وتقدم النباتات التي تغير لونها الكثير من الرحيق للملقحين عندما تكون أزهارها فتية، وعندما يزداد عمر الزهرة يتغير لونها ويقل رحيقها؛ وبالتفسير الصحيح لتغيرات اللون يوفر الملقحون طاقة قد تضيع هباءً بزيارة النباتات التي لديها القليل من الرحيق أو لا شيء على الإطلاق تستخدم النباتات طريقة أخرى لتجذب الطيور أو الحشرات وهي الرائحة العطرة التي تفوح من أزهارها وتستخدم النباتات العطور – التي تنعشنا – لجذب الحشرات ولعطر الزهرة خاصية إظهار الطريق للحشرات من حولها فعندما تشمّ الحشرة العطر تدرك أن هناك رحيقاً لذيذاً مخزناً بالقرب منها، بعد ذلك تتجه مباشرة نحو مصدر الرائحة، وعندما تصل إلى لزهرة تحاول أن تحصل على الرحيق، وعندئذ يلتصق غبار الطلع بها؛ وتترك الحشرة نفسها خلفها غبار الطلع الذي علق بها من زهرة أخرى زارتها وبهذا تقوم بالتخصيب إن هدفها الوحيد هو الوصول إلى الرحيق الذي شمت رائحته، وإن كانت لا تعلم بالدور المهم الذي تقوم به أساليب خداع النبات

قلنا

(332/774)

إنّ بعض النباتات تستخدم أساليب من الخداع وهذه النباتات لا تملك الرحيق الذي يجذب الحشرات وتتخصب هذه الأنواع من النباتات بالاستفادة من تشابهها بالنسبة إلى الحشرات وأحد أنواع الأوركيد – الأوركيد المرآة– لديه شكل ولون أنثى النحل كي يجذب النحل، وحتى أن هذا النوع من الأوركيد قادر على طرح مادة كيميائية مناسبة تدعى الفيرومون لجذب ذكور النحل إن أوركيد نحلة قبرص هو نوع آخر من النباتات التي تقلد الحشرات لتضمن تخصيبها وعدد أنواع الأوركيد التي تستخدم هذه الطريقة كبير وتختلف الأساليب من نوع إلى آخر؛ بعضها يقلد أنثى النحلة ورأسها للأعلى أما البعض الآخر فيكون رأسها للأسفل مثال : يستخدم أوركيد النحلة الصفراء الطريقة الثانية ولهذا السبب تختلف أشكال تخصيب الأوركيد (9) يقلد نوع آخر من الأوركيد يدعى أوركيد التنين أنثى الدبور حيث تشبه حافة زهرة أوركيد التنين شكل أنثى الدبور عديمة الأجنحة لدرجة أن ذكر الدبور فقط ينجذب إليها وتنجح بعض أنواع فصيلة الأوركيد في

جذب الحشرات إليها حتى وإن كانت لا تحوي أي رحيق على الإطلاق، وهي تضمن الهبوط الآمن لذكر الدبور في أخفض منطقة في الزهرة بتقليد شكل أنثى الدبور وطرح عطر جذاب ويحاول ذكر الدبور الذي يهبط على الزهرة أن يتزاوج، ونتيجة لذلك يلتصق غبار طلع الأوركيد بجسمه، وبفضل هذا الخداع ينتقل غبار الطلع الملتصق بجسمه عندما يهبط إلى زهرة أخرى للهدف نفسه (10) هناك نبات آخر يقلد شكل أنثى الحيوانات وهو أوركيد هامر إن آلية تكاثر هذا النوع من الأوركيد الذي ينمو في الأراضي العشبية الجافة جنوب أستراليا مذهلة حقاً فلدى أوركيد هامر ورقة واحدة فقط على شكل قلب ويشبه كلياً أنثى الدبور وبينما تطير ذكور الدبابير لا تملك إناث الدبابير أجنحة وتقضي معظم وقتها في التراب وعندما يحين وقت التزاوج تخرج الإناث من الأرض وتتسلق إلى أعلى ساق نبات طويل لكي تجدها الذكور وحالما تصبح في

(333/774)

القمة تطرح

(334/774)

رائحة خاصة بالتزاوج وتنتظر وصول الذكور لذكور الدبابير ميزة خاصة أنها تصل إلى الأوركيد قبل أسبوعين من وصول الإناث، وهذا وضع مشوق لأنه لا توجد أية أنثى دبور في الجوار إنما الأوركيد فقط الذي يبدو وكأنه أنثى الدبور تنتظر التخصيب وعندما تصل ذكور الدبابير إلى الأوركيد تشم رائحة مشابهة لتلك التي تصدر عن إناث الدبابير وتطرحها نباتات الأوركيد ، وتحت تأثير هذه الرائحة يهبط ذكر الدبور على الأوركيد محاولاً التزاوج، وعندما يحاول الهروب من الزهرة يلتصق كيسان محملان بغبار الطلع خلف رأسه أو على ظهره وبهذه الطريقة عندما يتنقل الدبور إلى زهرة أوركيد ثانية فإن غبار الطلع الملتصق به يقوم بعملية التخصيب (11) وكما رأينا هناك علاقة متناغمة ومنسجمة بين أوركيد هامر والدبور وهذا التعايش مهم جدّاً لتكاثر النبات لأنه إذا لم يحدث الإلقاح بنجاح، أو بتعبير آخر إذا لم تحمل الحشرة غبار الطلع إلى نبات آخر من الفصيلة نفسها فلن يحدث التخصيب تبين العديد من الأمثلة في الطبيعة مثل هذا التوافق الموجود بين أوركيد هامر والنحل البري وفي بعض الأحيان يكون الاختلاف بين الأزهار هو السبب لمثل هذه العلاقة ومثال لك : من السهل جدّاً لبعض الحشرات أن تدخل بعض الأزهار لأن ذلك القسم من الزهرة حيث يوجد غبار الطلع مفتوح وتستطيع الحشرات أن تدخل بسهولة إلى هذه المناطق وتصل إلى غبار الطلع وبعض النباتات لديها مدخل للرحيق

بحجم مخصص لنوع محدد من الحيوانات فعلى سبيل المثال في بعض الحالات تدفع النحلات نفسها داخل هذه الفتحات لتصل إلى رحيق الزهرة إنه لمن الصعب بل من المستحيل لكائنات حية أخرى أن تفعل ما يفعله النحل بسهولة من ناحية أخرى، فالنحل وبعض الحشرات الأخرى لا تقدر على تخصيب الأزهار التي لها أنابيب تويجية دقيقة، ويمكن للحشرات ذات الخرطوم الطويل فقط كالفراشات والبشارات أن تخصب هذه الأزهار (12) إنّ الأمثلة السابقة تبين لنا أن هناك

(335/774)

انسجاماً وتوافقاً دقيقاً بين الحشرات وأشكالها التي تناسب النباتات وكذلك بين النباتات بعضها مع بعض من المستحيل لمثل هذه العلاقة التبادلية "التي تشبه القفل والمفتاح" أن تكون بمحض المصادفة كما يدعي التطوريون، فهي تناقض منطق نظرية التطور نفسها فتبعاً لهؤلاء فإن الاصطفاء الطبيعي حسب زعمهم هو : أنّ أي حياة لا تتكيف مع البيئة المحيطة بها عليها إما أن تطور آليات جديدة أو تختفي وفي هذه الحالة وتبعاً لآلية الاصطفاء الطبيعي فعلى النباتات التي لم تُخصب من الحشرات بسبب تركيبة شكلها الخاص عليها إما الاختفاء أو تغيير شكل أزهارها ، وبالطريقة نفسها على الحشرات التي تُخصب هذا النوع

فقط من الأزهار بسبب تركيبة أعضائها الفموية أن تختفي بسبب نقص الطعام أو أن تُغير تركيبة أعضائها التي تستخدمها لجمع الغذاء لكننا عندما ننظر إلى النباتات ذات الأنابيب التويجية الطويلة أو غيرها من النباتات نرى أنها لم تطور أي تكيف أو تغير من أي نوع، وكذلك لم تفعل الكائنات الحية مثل الفراشات والبشارات استمرت الأزهار –المستفيدة من هذه العلاقة التبادلية أو التكافلية مع الملقحات التي تخصبها – بالعيش على هذا المنوال لسنوات عديدة حتى يومنا هذا ما تم شرحه حتى الآن هو موجز قصير للأساليب التي تتبعها بعض الفصائل المختلفة من النباتات لتبقى على قيد الحياة لأجيال قادمة إنك قد ترى جميع هذه التفاصيل في أي كتاب بيولوجي لكن هذه المصادر لا تستطيع تقديم أي تفسير مقنع للأسباب التي دعت النباتات لاستخدام عملية انتثار غبار الطلع؛ لأنه في كل عملية تُنفذ ، فخواص مثل الفكر والإدراك واتخاذ القرار والحسابات التي لا نستطيع نسبها إلى النبات واضحة فنحن نعلم جميعاً بأن النبات ليس لديه إدراك لينفذ هذه العملية برمتها منتلقاء نفسه "يحسب" النبات أن تركيبه الأيروديناميكي مناسب لانتثار غبار الطلع بواسطة الريح، وكل جيل لاحق يستخدم الطريقة نفسها أما

النباتات الأخرى "فتفهم" أنها لن تقدر على الاستفادة الكافية من الريح، ولهذا السبب تستفيد من الحشرات لتحمل غبار طلعها؛ كما "تعلم" النباتات بأنها يجب أن تجذب الحشرات نحوها لكي تستطيع التكاثر، وتحاول بشتى الأساليب ليتم ذلك وتتعرف النباتات على ما يجب أن يكون عليه شكل الحشرات وبعد اكتشاف أي رحيق وأي رائحة فعالة لكل حشرة فإنها تُنتج الروائح بواسطة عمليات كيميائية وتنشرها في الوقت المناسب تماماً، وتتعرف على طعم الرحيق التي تفضله الحشرات وما يحوي من مواد وتنتجها بنفسها وإذا لم تكف الرائحة والرحيق لجذب الحشرات فإنها تقرر القيام بطريقة أخرى لتتناسب مع الوضع وتقوم بـ"التقليد الخادع"؛ بالإضافة إلى ذلك فإنها "تحسب" مقدار غبار الطلع الذي سيصل إلى نبات آخر من الفصيلة والمسافة نفسها التي سيقطعها وعلى هذا الأساس تقوم بإنتاج غبار الطلع بأفضل الكميات وأنسب الأوقات فالنباتات "تفكر" في احتمالات عدم وصول غبار الطلع و"تقوم باتخاذ الإجراءات الوقائية" بهذا الخصوص بالطبع، إنّ مثل هذا السيناريو لا يمكن أن يكون حقيقة وفي الواقع يخرق هذا السيناريو كل قواعد المنطق، ولا يستطيع نبات عادي أن يستنبط أياً من الإستراتيجيات المذكورة لأن النبات لا يدرك ولا يحسب الزمن ولا يقرر الحجم والشكل ولا يستطيع أن يحسب قوة الريح واتجاهه، ولا يمكنه أن يقرر بنفسه أي تقنية يحتاجها للتخصيب، ولا يفكر في أن عليه جذب حشرة ما لم يرها قط، وعلاوة على ذلك لا يستطيع أن يقرر أيّ

الأساليب يحتاج ليتمكن من عمل أي مما ذُكر مهما كثرت التفصيلات، ومن أي جهة تم التطرق إلى هذا الموضوع، وأي منطق اُستخدم فلن يتغير الاستنتاج بأن هناك شيئًا استثنائيا في العلاقة بين النباتات والحيوانات لقد خُلقت هذه الكائنات الحية منسجمة مع بعضها البعض ويظهر لنا هذا النظام الدقيق من المنفعة المتبادلة أن القوة التي خلقت النباتات والحشرات لها علم دقيق بطبيعة

(337/774)

النوعين وتدرك احتياجاتهما كاملة وخلقتهما ليكمل أحدهما الآخر إنّهما من صنع الله تعالى الذي يعلمهما جيداً ويعلم بكل شيء إنهما دليل آخر على عظمة الله وقوته المطلقة وعمله المنزه عن كل عيب مقارنة بعمل الإنسان لا تعلم النبتة سبب وجودها ولا بعملها الخارق الذي تقوم به لأنها تحت سيطرة الله الذي خطط مستقبلها وخلق كل شيء في الكون، ويستمر في خلقه كل لحظة وقد أشار الله عز وجل إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ سورة الرحمن : 6 .

تحتوي النبتة المسماة بالثريا على أوراق كبيرة تتخذ شكلا شبيها بالـ "بروش–دبوس

الزينة" . ويقع في مركز هذا التركيب الورقي سويق يحمل زهرة هذه النبتة . وتتميز النبتة أيضا بأن حبوب اللقاح فيها تقع في جزء منحن أو مائل . ولهذا السبب لا تستطيع أية حشرة الوصول إلى مكان تجمع حبوب اللقاح إلا إذا كانت ذات فم معقوف . ومن هنا يتضح لنا أن حشرة العث تستطيع القيام بهذه العملية بسهولة، فهي تقوم بجمع حبوب اللقاح حتى تصبح على شكل كرة، ومن ثم تنقلها إلى زهرة ثريا أخرى حيث تقوم أولا بالنزول إلى أسفل الزهرة لوضع البيض ثم تصعد إلى القمة لكي تقوم بهز كرات حبوب اللقاح المتجمعة لديها من زهرة أخرى لكي تسقط نحو الأسفل . ويفقص البيض بعد فترة عن يرقات صغيرة تتغذى على هذه الحبوب . ولولا العث لما استطاعت نباتات الثريا التكاثر بنفسها

تتميز بعض الأزهار بكون رحيقها يقع في أعماقها . وللوهلة الأولى تبدو هذه الميزة مانعة للتلقيح الحاصل بفعل الطيور والحشرات . إلا أن هذا لا يمنع من تلقيح الأزهار أبدا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق كائنات حية ذات صفات ومزايا تستطيع بواسطتها أن تصل إلى هذا الرحيق القابع في العمق وإتمام عملية التلقيح .

الإلقاح والتكاثر في النباتات تحت الماء :

على النقيض من الاعتقاد السائد فإن التكاثر بواسطة غبار الطلع لا يقتصر على النباتات الموجودة على سطح الأرض وهناك نباتات بحرية أيضاً تتكاثر بالطريقة نفسها .

(339/774)

وقد اُكتشف أول نبات دُعي "زوسترا" يعيش في البحر ويتكاثر بطريقة الإلقام عام 1787م من قبل عالم النبات الإيطالي فيليبو كافوليني (15) إنّ سبب الاعتقاد بأن الإلقاح يقتصر على النباتات الموجودة على اليابسة أن حبات غبار طلع نباتات اليابسة التي تلامس الماء تتفرق وتتعطل عن العمل أظهرت الدراسات التي أُجريت على النباتات التي تتكاثر بإلقاح غبار الطلع في الماء أن هذا موضوع آخر وجدت فيه نظرية التطور نفسها في ورطة تصنف النباتات التي تنثر غبار طلعها عبر الماء إلى 31 نوعاً في مناطق مختلفة جداً من شمال السويد إلى جنوب الأرجنتين، ومن 40 متراً تحت مستوى سطح الماء إلى 4800 متر في بحيرة تيتيكاكا في جبال الأنديز وقد عاشت هذه النباتات، حسب وجهة نظر علم البيئة، في ظروف مختلفة تماما بدءاً من الغابات المطرية الاستوائية إلى البحيرات الصحراوية الموسمية (16) ظهرت صعوبات كبيرة أمام دعاة التطور حول هذا الموضوع

لأنه، وحسب النظرية فالإلقاح كان طريقة للتكاثر بدأت النباتات في استخدامها بعد أن عاشت على الأرض؛ وعلاوة على ذلك تبين أن هناك بعض النباتات البحرية استخدمت هذه الطريقة، مما دعا التطوريين إلى تسميتها بـ" النباتات المزهرة التي رجعت إلى الماء"؛ولم يستطع هؤلاء أن يعطوا أي تفسير منطقي وعلمي عن سبب عودة النباتات إلى الماء وكيف تمت تلك العودة، كما لم يقدموا أي تفسير للأشكال الانتقالية التي اتخذتها نشأت مشكلة أخرى أمام دعاة التطور من بعض خواص الماء وكما أوضحنا سابقاً فالماء بيئة لا تناسب البتة انتشار غبار الطلع، بل وتؤدي إلى تفرق البذور ومن الصعب التنبؤ بحركة المياه؛ قد تُوجد تيارات مائية غير منتظمة أو مدّ قد يُغرق النباتات أو يحملها إلى مسافات بعيدة على

سطحه، وعلى الرغم من هذه العوامل تستخدم النباتات المائية بنجاح الماء كملقح كونها خُلقت بهذه الطريقة لتتمكن من العمل تحت سطح الماء وإليك بعض الأمثلة عن هذه النباتات :

الفاليسنيريا

تتطور أزهار الفاليسنيريا المذكرة في قسم النبات الذي يبقى تحت الماء، وبعد ذلك تترك

جسم النبات وتطفو بحرية لكي تصل إلى النباتات ذات الخواص الأنثوية وقد خُلقت هذه الزهرة بطريقة تساعدها على الظهور بسهولة إلى السطح حالما تكون حرة، وعند هذه النقطة تبدو الزهرة كبرعم كروي وتغلق الأوراق من حولها وتلفها مثل قشرة البرتقال وهذا الشكل التركيبي الخاص يؤمن لها الحماية من التأثيرات السلبية للماء على القسم الذي يحمل غبار الطلع وعندما تظهر الزهرة على السطح تتباعد البتلات التي كانت مغلقة سابقا الواحدة عن الأخرى ملتفة للوراء منتشرة على سطح الماء وتظهر الأعضاء الحاملة لغبار الطلع فوق

ستخدم نبات الفاليسنيريا الماء لنقل حبوب لقاحه . ويتبين لنا أن النبات خلق بطريقة أكسبته القدرة على معرفة التوقيت المضبوط لفتح الأزهار ومكانها وعلى جعل حبوب لقاحه قادرة على مقاومة تأثيرات الوسط المائي .

الأوراق التي تعمل كأشرعة مصغرة قادرة على الحركة حتى بأقل نسمة من الهواء، كما أنها تُبقي غبار طلع الفاليسنيريا فوق سطح الماء أما بالنسبة إلى أزهار النبات المؤنثة فإنها تطفو على سطح الماء في نهاية ساق طويلة جذرها في البحيرة أو قاع البركة، وتفتح أوراق الزهرة المؤنثة على السطح مشكلة منخفضاً سطحياً يساعد على خلق قوة جذب للنبتة المذكرة عند اقترابها من النبتة المؤنثة وفي الواقع عندما تمر الزهرة المذكرة بالقرب من المؤنثة

فإنها تنجذب نحوها وتجتمع الزهرتان معاً ، وبهذه الطريقة يصل غبار الطلع إلى عضو التكاثر في الزهرة المؤنثة ويتم الإلقاح (17) .

(341/774)

إن حماية الزهرة المذكرة لغبار الطلع عندما تكون مغلقة في الماء ثم ظهورها على سطح الماء واختيارها للشكل الذي يمكّنها من الحركة بحرية أمرٌ يتطلب تفكيراً خاصاً وخواص الزهرة هذه شبيهة بقوارب النجاة المستخدمة في البحر والتي تُفتح أتوماتيكياً عند رميها في البحر وقد ظهرت هذه القوارب نتيجة لجهود مشتركة طويلة من قبل مصممين ومتخصصين في المنتجات الصناعية ولا شك أنه كانت هناك أخطاء في التخطيط عند إنتاج القوارب في بادئ الأمر ، ثم ظهرت أخطاء أخرى عند التجارب تم أخذها بعين الاعتبار وصُححت وتم التوصل إلى نظام يعمل بشكل مناسب نتيجة للتجارب المستمرة دعنا نفكر في هذه الدراسات مقارنة مع وضع الفاليسنيريا : على النقيض من مصممي قارب النجاة لم تحظ الفاليسنيريا سوى بفرصة واحدة وكان لأول فاليسنيريا في العالم فرصة واحدة فقط إن استخدام نظام ناجح تماماً من أول تجربة هو الذي ضمن فرصة البقاء للأجيال اللاحقة؛ لن يلقّح الزهرة المؤنثة نظام خاطئ، وإلاّ فإن النبات سوف يختفي من

العالم لكونه لن يستطيع التكاثر وكما رأينا فمن المستحيل أن تكون استراتيجية إلقاح الفاليسنيريا حصلت على مراحل وهذا يعني أن النبات قد خُلق بتركيب يمكّنه من إرسال غبار طلعه في الماء .

الهالودي

(342/774)

ولنبات مائي آخر يمتلك استراتيجية إلقاح فعالة، وهو ينمو على طول السواحل الرملية في جزر فيجي ويطفو هذا النبات في شكل شرائط، وتتأرجح حبات غبار الطلع مرتفعة إلى سطح الماء وهذا التصميم يمكّن نبات الهالوديول من إحراز علامات أعلى من نبات الفليسنيريا ، بالإضافة إلى ذلك تكون شرائط غبار الطلع مغلفة ببروتينات وكربوهيدرات تجعلها دبقة فتلتصق ببعضها البعض على سطح الماء مشكلة طوفاً طويلة ويحمل المد الملايين من مراكب النقل النباتية الاستكشافية هذه عندما يعود للبرك الضحلة حيث تطفو النباتات المؤنثة وعند اصطدام هذه المراكب بأعضاء التكاثر في النبات المؤنث التي تطفو على السطح يتم الإلقاح بسهولة ونجاح (18)

يقوم نبات "الهالوديول" – بنجاح باهر –بعملية إيصال حبوب لقاحه الذكرية إلى النبات

المؤنث باستخدام استطالاته الجسمية التذاكرية والتي تتميز بالقدرة على الاتصاق والسباحة مستفيدا من حركة المد والجزر .

الثالاسيا

(343/774)

لقد تحدثنا عن النباتات التي ينتقل غبار طلعها فوق سطح الماء أو يكون ملامسا لهو في هذه الحالة يكون لغبار الطلع بُعدان وبعض الأنواع لها أنظمة إلقاح ثلاثية الأبعاد أي تعمل تحت السطح إن تنفيذ إستراتيجيات الإلقاح تحت الماء أكثر صعوبة من تلك التي تكون فوق الماء لأن أي تغير طفيف في حركة غبار الطلع سيكون له تأثير كبير على الإلقاح، ولهذا السبب فاتصال غبار الطلع بالعضو المؤنث تحت الماء أصعب من اتصاله على سطح الماء ومع ذلك يعيش الثالاسيا النبات الموجود على سواحل الكاريبي دائماً تحت الماء لأنه خُلق باستراتيجية لقاح تجعل الظروف بادية الصعوبة للإلقاح سهلة وتطلق الثالاسيا حبات غبار طلعها المدورة تحت الماء بشكل جدائل أو أشرطة طويلة ثم يحملها الموج لتلتصق بأعضاء الأزهار المؤنثة مما يمكن النبات من التكاثر (19) يزيد غبار طلع الثالاسيا والهالوديول

المرسل بشكل شرائط المسافة التي تقطعها مراكب البحث وليس هناك أيّ شك في أن هذا التصميم الذكي هو من إبداع الله الذي خلق النباتات المائية واستراتيجية إلقاحها في الماء وهو العليم بخلقه.

يختلف نبات "الثالاسيا" عن باقي النباتات المائية لأنه يقضي كل حياته تحت سطح الماء. وبالرغم من ذلك يستطيع ذكره إيصال حبوب لقاحه إلى أنثاه. ويتضح من الشكل أعلاه أن ذكر هذا النبات له استطالات خيطية ذات قدرة على الالتصاق، أي أنه أعطي هذه الميزة لكي يستطيع البقاء حيا تحت سطح الماء

المصدر: موقع الداعي التركي هارون يحيى: http : //www.harunyahya.com

الهوامش:

1. Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, Facts on File Publications, 1988, P. 164
2. Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, Facts on File Publications, 1988, p. 164
3. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal) , May 1995, p.76

4. Bilim ve Teknik Dergisi (Science and Technology Journal) , May 1995, p.77

5. John King, Reaching for The Sun, 1997, Cambridge University Press, Cambridge, p.152

6. John King, Reaching for The Sun, 1997, Cambridge University Press, Cambridge, p.150

7. Bilim ve Teknik Dergisi, (Science and Technology Journal) , February 1988, p.22

8. John King, Reaching for The Sun, Cambridge University Press, Cambridge, p.148-149

9. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, p.128

10. David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton University Press, Princeton, New

Jersey, p.130

Malcolm Wilkins, Plantwatching, New York, .11

Facts on File Publications, 1988, p.143

The Guinness Encyclopedia of the Living .12

World, Guinness Publishing, 1992, p.42-43

Robert, R.Halpern, Green Planet Rescue, .13

A.B.D, The Zoological Society of Cincinnati Inc., p.26

David Attenborough, Life on Earth, Collins .14

British Broadcasting Corporation, 1985, p.84

Scientific American, October 1993, p.68 .15

Scientific American, October 1993, p.69 .16

Scientific American, October 1993, p.70-71 .17

Scientific American, October 1993, p.70 .18

Scientific American, October 1993, p.71 .19

.

.

.

0-المعجزات الربانية في العين

د محمد السقا عيد

ماجستير طب وجراحة العيون

لقد أتمن الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن وهبه نعمة الإبصار قال تعالى في محكم التنزيل : (قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون) الملك آية (23) .

(345/774)

كما أتمن سبحانه وتعالى على بني آدم بأن وهبهم آلة الإبصار وهي العين قال الله تعالى : (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿ 8 ﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿ 9 ﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿ 10 ﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) سورة البلد .

إذاً ما هي الأسرار الربانية التي أودعها الله في العين ؟

ولِمَ أمتن سبحانه على الإنسان بهذه النعمة ؟

إن شاء الله تعالى سنتناول كل هذا في هذا البحث المختصر ونبحر في عالم العين والإبصار ونكتشف قدرة الله تعالى في هذا العضو المذهل .

وصف العين :

العين مثل الكرة لها جدار وبها محتويات . يتكون جدار العين من ثلاث طبقات :

الطبقة الخارجية (الليفية) :

وتتكون من جزء أمامي يسمى القرنية، يكون خمس جدار العين، وجزء خلفي وهو الصلبة Sclera ويكون أربعة أخماسها . والجزءان ملتحمان أحدهما بالأخر بحيث يتداخل الجزء الأمامي في الجزء الخلفي كما تتداخل الساعة في الإطار المعد لها .

الطبقة المتوسطة :

وهى المغذية للعين، وتتكون أساسا من أوعية دموية تحمل الغذاء إلى أجزاء العين المختلفة . ومنها تأتى سوائل العين التي تغذى القرنية وعدسة العين . وتحافظ على وجود ضغط طبيعي في العين . وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء :

أ- الجزء الخلفي : ويسمى المشيمية "Choroid" وهو يحتوى بالإضافة إلى الأوعية الدموية على طبقة من الخلايا الملونة التي تحتوى على حبيبات داكنة تبطن الصلبة، وبذلك تمنع الضوء من الدخول كلية خلال الصلبة .

ب- أما الجزء المتوسط من هذه الطبقة فيسمى الجسم الهدبي (C.B) وهو يحتوى على أهداب كثيرة بها أوعية دموية . . وهذا الجزء يفرز السائل المائي للعين . وإفراز هذا السائل وتصريفه بشكل طبيعي يحفظ للعين ضغطها الطبيعي اللازم لحفظ شكلها وتأدية وظيفتها . . كما يحتوى الجسم الهدبى على عضلات تعمل تلقائيا : فتنقبض عندما يريد الإنسان أن يرى شيئا قريبا وتنبسط عندما ينظر الإنسان إلى شيء بعيد . وتسمى قدرة العين على رؤية الأشياء القريبة والبعيدة بوضوح باسم (تكيف الإبصار) (Accommodation) .

جـ- الجزء الأمامي ويسمى القزحية : وهو عبارة عن قرص مستديرة، وفى هذا القرص ثقب يدخل منه الضوء يطلق عليه اسم الحدقة أو

" البؤبؤ " يمر من خلاله الضوء إلى داخل العين . وتحتوى القزحية على صبغيات تتحكم في لون العين . . كما تحتوى أيضا على عضلات تلقائية تتحكم في حجم الحدقة .

الطبقة الحساسة :

وهى شبكية العين (Retina) وهذه الطبقة شفافة بالرغم من

أنها تتكون من عشرة طبقات . وتحتوى على نهايات عصبية حساسة للضوء، وتتجمع هذه النهايات العصبية معا لتعطى العصب البصري (Optic nerve) .

عدسة العين : Lens

وتستقر خلف القرنية، وهى شفافة أيضا مثل القرنية لتسمح بمرور الأشعة الضوئية إلى الداخل . وتتلخص وظيفة العدسة في تجميع الأشعة الضوئية الصادرة من مختلف المرئيات وإسقاطها على الشبكية، وعن طريق العصب البصري تنتقل صور هذه المرئيات من الشبكية إلى المخ حتى يستطيع الإنسان التعرف عليها .

وعدسة العين لها ما للعدسات الزجاجية العادية ما يعرف بـ (البعد البؤري) وهذا البعد هو عبارة عن مسافة بين العدسة ونقطة تجمع الأشعة الضوئية ويطلق على النقطة الأخير اسم (البؤرة) .

ولا يستطيع الإنسان الرؤية بوضوح كامل إلا إذا وقعت البؤرة على الشبكية تماما عندئذ تكون صور المرئيات التي تقع على الشبكية واضحة كل الوضوح.

(347/774)

أما إذا وقعت هذه الصور أمام الشبكية بقليل أو خلفها بقليل فإنها تصبح صورا مهزوزة غير واضحة . . . ويكون من الضروري عندئذ استخدام العدسات الزجاجية (النظارات) لتصحيح الأخطاء التي قد تكون موجود في العين .

عيناك . . والكاميرا :

ولكي تستطيع استيعاب الكلام السابق – عزيزي القارئ – فإنني أرى أن أشبه لك العين بشيء محسوس تستخدمه في حياتك العملية حتى يسهل عليك فهم ميكانيزم النظر . . فالعين في طريقة إدراكها للصورة واستقبالها تشبه الكاميرا أو آلة التصوير . . هذا مع الفارق الشاسع بينهما حيث لا يوجد وجه للمقارنة على الإطلاق إلا أن هذا المثال للتبسيط ليس إلا . فالكاميرا أو جهاز التصوير تتكون أساسا من :

o صندوق مظلم :

ويقابله في العين الجزء الذي نطلق عليه اسم (الصلبة . . . ولا يستطيع الضوء أن ينفذ من خلال جدران هذا الصندوق . . . ولكنه يدخل فقط من خلال فتحة محددة من الأمام .

عدسة الكاميرا :

ويقابلها في العين القرنية والعدسة الشفافة، وتقوم القرنية والعدسة بتجميع الضوء المنعكس من المرئيات ليكون صورة واضحة مقلوبة

على الشبكية .

الفيلم الحساس في الكاميرا :

في فيلم الكاميرا طبقة حساسة تتأثر بالضوء . . ويقابلها في العين الشبكية التي توجد بها الأقماع والعصيات (Rodes , Cons) التي تحتوى على قرمز الإبصار الذي يتأثر

بالضوء .

وتتكون على الفيلم الحساس صورة عكسية (نيجاتيف) يعاد طبعها على ورق حساس لتبدو الصورة الطبيعية .

أما على شبكية العين . فإن الصورة التي تتكون تكون مقلوبة عكسية . . وفى المخ يعاد وضعها لتصبح معتدلة .

في كل ذلك . . تبدو لنا قدرة الخالق وعظمته . . إذن أن شبكية العين عبارة عن فيلم تصويري متجدد إلى ما لا نهاية ولا يحتاج إلى تبديل كما هو الحال مع فيلم الكاميرا .

وفى العين ترى صورة متحركة وملونة . وهذا هو ما يدعوني إلى تشبيه العين – مع الفارق بآلة التصوير التليفزيونية .

(348/774)

أما أعصاب العين . . فهي الكابلات الموصولة من كاميرا التليفزيون إلى " المونيتور " الذي يعدل من وضع الصورة . . كما يحدث في مخ الإنسان .

ومرة أخرى نجد أن فيلم التليفزيون له طول محدد ومدة محددة . . بينما نجد أن شبكية العين عبارة عن فيلم متجدد دائما أبدا . . . فسبحان الله ! ! .

ثم . . نجد أن الإنسان ينقل بصره من منظر إلى آخر دون أن يحدث أي اضطراب في العين مع سرعة توارد المناظر واختلاف شدة الضوء . . . كل ذلك يوضح إلى أي مدى مدي تتفوق العين على آلة التصوير التليفزيوني .

وهنا تتجلى عظمة الخالق . . فبالرغم من هذا التفوق نجد آلة التصوير التليفزيوني بالأجهزة الضخمة الملحقة بها تقوم بجزء بسيط من عمل العين المحددة الحجم ذات الصورة الرائعة ! !

حركة العينان :

الواقع أن حركة العين في حد ذاتها تعتبر معجزة . . فمقلة العين تتحرك في كافة الاتجاهات حسب إرادة الإنسان بواسطة ست عضلات دقيقة . . هذه العضلات تغذيها أعصاب من المخ . . وتتعاون العضلات مع بعضها ليس فقط في ذات العين . . . بل مع العضلات التي تحرك العين الأخرى أيضا .

والهدف من ذلك التعاون الوثيق هو أن يتجه محور الإبصار في كل عين إلى ذات الشيء الذي ينظر إليه الإنسان، وهكذا تراه العينان في صورة واحدة وبأوضح ما يمكن . فإذا حدث خلل ما في هذه الحركة الموحدة . . . ترى ماذا يحدث ؟ ؟

التجربة البسيطة التالية توضح الإجابة عن هذا السؤال :

إذا نظرت إلى إصبعك أمام عينيك تراه واحدة . . فإذا ضغطت على العين اليمنى مثلا

فإنك ترى صورة أخرى للإصبع . . . أي يحدث ازدواج للرؤية بالعين بدلا من توحيدها .

فإذا توقف الضغط على العين زال هذا الازدواج.

موقع العين :

يتميز الإنسان عن الحيوانات الأدنى رقي بموقع العينين ! . . ففي الإنسان تقع العينان في مقدمة الرأس وليس على جانبيه . . فعين الطائر اليمنى لا ترى شيئا مما تراه العين اليسرى

.

(349/774)

وعلى ذلك فما تراه العين اليمنى للطائر يختلف تماما عما تراه العين اليسرى، وبالتالي فإن مخ الطائر لا يستطيع مزج الصورتين المختلفتين اللتين تصلان من العينين . . بل يهمل إحدى الصورتين . وعلى هذا فإن عالم هذه المخلوقات مسطح لا عمق له .

فموقع العينين بالنسبة للإنسان تتيح الفرصة أن ترى العين اليمنى صورة مشابهة جدا لما تراه العين اليسرى . . أي أن العينين تريان ذات الشيء من زاوية مختلفة . والمخ هنا يمكنه مزج هاتين الصورتين في صورة واحدة مجسمة . أي لها طول وعرض وارتفاع أو عمق .

على هذا . . . يستطيع الإنسان بالنظر الموحد بالعينين أن يقدر بعد الأشياء بعضها عن

البعض الآخر .

النظر الموحد بالعينين :

يكتسب الإنسان هذه القدرة (النظر الموحد بالعينين) منذ الولادة وأثناء النمو، ويخزن المخ خبرة رؤية الأشياء بأبعادها وأعماقها بشرط أن تكون العينين سليمتان وبدرجة إبصار متقاربة

أما إذا حدث أن ضعف بصر إحدى العينين بدرجة كبيرة عن العين الأخرى في فترة الطفولة المبكرة . . . فإن الطفل يفقد القدرة على النظر الموحد بالعينين، وهكذا يفقد فرصة العمل في مهنة تحتاج إلى هذه القدرة . مثل مهنة الطيار مثلا .

جهاز الأمن الرباني للعين

لقد أمن الخالق سبحانه وتعالى العين بجهاز إحساس دقيق يقيها من غوائل الزمن، نستطيع أن نطلق عليه تجاوزا (جهاز الأمن الرباني للعين) .

والحقيقة أن كل أنسجة الجسم وحواشيها تشترك بشكل ما في وقاية العين وحمايتها من أي ضرر . . فالجفون مثلا بحركتها المستمرة تحمى العين وتخلصها من الضرر . حيث أنها مزودة بأهداب على حافتها في أكثر من صف، وهذه الأهداب عبارة عن شعيرات قوية بالغة الحساسية لأي شيء يمر عليها حتى ولو كان في رقة النسيم لذلك تقفل العين عن

طريق حركة الجفون إذا ما أحست باقتراب الخطر . كذلك فالحواجب تمنع سقوط العرق على العين . .

(350/774)

وحتى نعطى الموضوع حقه تعال معي – عزيزي القارئ – لنستعرض بشيء من التفصيل دور كل عضو من الأعضاء في تأمين العين ووقايتها من الأضرار المحدقة بها حتى تكتمل الفائدة ويعم النفع .

دور الجفون :

إذا تأملنا بشيء من التروي فإننا سنجد : أنها خفيفة وسريعة كما أن بها مزيدا من اتساع السطح وهذا يتيح لها مجالا حركيا واسعا . والجفون كذلك في حركة رمش وبريشة ذاتية "Reflex Blinking" . . وهذه الحركة تتيح للجفون أن تقوم بوظيفتها المتمثلة في الآتي :

أ – توزيع الدموع والإفرازات الغدية على سطح المقلة فتجعلها دائما رطبة لامعة .

ب – تعطى شبكية العين فترات من الراحة لحجب الضوء عنها .

جـ – تزيل الأجسام الغريبة من على سطح المقل وتدفعها إلى الكيس الدمعي .

د – تقلل نسبة التبخر للإفرازات الغدية الدمعية فتظل القرنية دائما شفافة ؟

وقد زود الخالق سبحانه حافة الجفون الهدبية بعضلة عاصرة دائرية تجعل قفل العين (الجفن) قفلا محكما لدرجة أن لا تخر السوائل منها أو إليها .

كذلك فإن ملامسة هذه الحواف لجسم المقلة يولد خاصية التوتر السطحي بينها وبين الدموع فلا تنهمر خارج العين إنما توجه إلى الكيس الدمعي .

دون الجهاز الدمعي :

للجهاز الدمعي أهمية كبيرة في الحفاظ على نظافة وحيوية أنسجة العين . . فنحن نعلم أن الدموع لها صفات تقاوم نمو الجراثيم لاحتوائها على خمائر هاضمة لها مثل خميرة الليزوزيم . (Lyzo Zyme) .

هذا بالإضافة إلى خصائصها الحركية التي تمكنها من تخفيف وإذابة الأجسام الغريبة والتخلص منها عن طريق توجيهها إلى المسالك الدمعية الأنفية .

وأي عامل يؤثر على هذه الصفات يؤدى إلى اضطراب وظيفي واختلال في جهاز الدفاع عن العين .

دور القرنية :

يتحدد دور القرنية في الآتي : زودها الخالق سبحانه بأعصاب حساسة وخاصة للألم، وهذا يجعلها جهاز إنذار بالغ الحساسية . . لهذا فإن رد الفعل الذي يعقب الإحساس بجسم غريب أو ألم بالقرنية هو قفل العين فورا مع الابتعاد عن مصدر الأذى سواء بالرأس أو بالجسم ككل .

وعند إثارة أعصاب الألم بالقرنية فإن ذلك يعقبه احتقان في شبكة الأوعية الدموية الملتحمة مع سرعة إفراز الدموع التي تخفف وتريح أثر العامل الضار، وهذه تساعد على سرعة التئام الجروح ورجوع الأنسجة إلى حالتها الطبيعية .

سلامة واكتمال سطح القرنية الغشائي يمنع أغلب الجراثيم من المرور والنفاذ إلى داخل العين حيث أنه يقاومها مقاومة تجعلها غير قادرة على اختراقه .

ولذلك فإن أي عامل يؤثر على هذه الصفة سواء أكان خارجياً أو داخلياً مباشراً أو غير مباشر يجعل العين ساحة مباحة للغزو الجرثومي وللفتك بالعين .

ويحتو الكيس الدمعي على كثير من الجراثيم التي تعيش في وئام وسلام وتعايش مع الأنسجة المحيطة به، ومنها بالطبع القرنية ولكنها تفقد هذه الخاصية من الهدوء والمسالمة وتتحول إلى وحش كاسر حينما تجد أن هذه الأنسجة قد ضعفت قوتها وقلت حيلتها وتشققت جدرانها فإنها سرعان ما تهاجمها وتغزوها غزواً مدمراً . . . ويحدث هذا غالباً في

حالات قرح القرنية .

غشاء ديسمت Desment Membrane

ومع ما لهذا الغشاء من خاصية أنه مطاط فإن هذا يجعله يقاوم الإنثقاب . ولهذا فهو يعتبر خط الدفاع الأخير في القرنية الذي لا يستسلم بسهولة أمام أي غزو من الداخل أو من الخارج .

أي أنه يحارب على جبهتين . . . الجبهة الأولى الأمامية مقاوماً عوامل الهدم نتيجة لغزو الجراثيم أو الإصابات، والجبهة الخلفية لازدياد الضغط الداخلي للعين الذي يبدو زائداً في مثل هذه الحالات وكأنه تحالف مع الأعداء في سبيل إيجاد ثغرة في هذا الخط المنيع .

(352/774)

وذلك بالضغط عليه من الداخل أو مطه إلى الخارج حتى تفقد قواه فينهار ويحدث إنثقاب وانفصال بين مكوناته .

وهنا تحدث الكارثة إذ تنبثق محتويات المقلة إلى الخارج مع ما في ذلك من احتمال لفقدانها . وبمعنى أقرب للفهم فإن العين تفنى وتموت إما مذبوحة (نزيف) أو محترقة (عدوى) أو مختنقة (ضغط عال) .

دور القزحية :

إن دور القزحية في حماية العين يأتي في الترتيب الزمني والتشريحي بعد دور القرنية ولكنه لا يقل أهمية عنها ، بمعنى أنه إذا انهار خط الدفاع الأول المتمثل في القرنية . فإن الخط الذي يليه هو خط القزحية .

ويحدث هذا حينما يحدث اختراق وثغرة في القرنية يجعل مساحة العمل الداخلية مباحة للدخول والخروج . فالجراثيم والأجسام الغريبة تنفذ داخل العين، كما أن محتويات الأخيرة يمكن أن تقذف خارجها .

هنا تبرز القزحية في الميدان وتتقدم لسد الثغرة فتلتصق بظهر القرنية أو تلقى بجسدها كاملاً في الثغرة في محاولة لسدها . . . وتكون هذه العملية مثل عمليات الأبطال المغاوير وذلك بمحاولة إنقاذ العين بأي شكل كان .

ووجود العدسة خلف القزحية مباشرة أدى إلى مشاركتها في الملمات التي تقع بها . . . هذه المشاركة في الأتراح جعلت القزحية تقوم برد الجميل لها في الظروف العادية وذلك بحمايتها من أي شئ خارجي ضار سواء أكان إشعاعاً أو حرارة أمراً ارتجاليا أو ضربة . والقزحية سواء بجسدها ككل أو بحدقتها كجزء تقي العدسة من أن تتأثر خلاياها من الأشعة القصيرة أو الأشعة الحامية أو من إصابات مباشرة على العين أو غير مباشرة على الرأس، فهي تقف سداً حائلاً بين المؤذيات التي تؤدى العين والعدسة .

كذلك يوجد بالقزحية خلايا ملونة والتي تلعب دوراً كبيراً في صد الأشعة الضارة، وفى تقليل كمية من الضوء النافذ داخل العين .

وكلنا يعلم ويدرك كم يقاسى الشخص الأبهق الذي يفقد الخلايا الملونة في قزحيته . . . إنه لا يستطيع أن يحتمل الضوء العادي الذي يمكن لأي شخص مواجهته .

(353/774)

إذن نستطيع أن نلخص دور القزحية في حماية العين في الآتي :

- في حالات إنثقاب القرنية فإنها تسد مكان الثقب بالتصاقها بظهر الأخيرة أو بملأ الثقب
- وفى حالات الضوء الشديد تنقبض الحدقة فتحمى الشبكية من الاختراق وتريحها من العمل وكذلك تحمى العدسة من الضرر .
- في حالات الضوء العادي تقلل الخلايا الملونة كمية الضوء النافذة إلى العين، وبذلك يتمكن الشخص من القيام بعمله دون مضايقات أو إرهاق .

هذا عن جهاز الأمن في الشقة الأمامية للمقلة "Anterior Segment"

الجفون – الجهاز الدمعي – القرنية – القزحية والحدقة .

وهناك سؤال يفرض نفسه . وهو هل هناك جهاز مماثل واقي في الشقة الخلفية للعين ؟

والجواب : لا

فالشقة الخلفية بما فيها من أنسجة تتميز بالدقة والضعف، لهذا فهي ناقصة القدرة على حماية نفسها ، ولذلك فإن العدوى إذا وصلت إلى الشقة الخلفية للعين فإنها تنتشر بسرعة فيها انتشار النار في الهشيم .

إلا أن هناك أعضاء أخرى أنسجتها محمية بجدران قوية ومصانة في أماكن قوية تتلقى عليها الإصابات وتقيها الضربات . . . وهذه الأنسجة هي :

- المحجر أو المربض (الحجاج) Orbit .

- النسيج ألدهني الخلفي "Retrobulbar Fatty tissue"

- العضلات ومحفظة تانون .

- الصلبة .

والآن تعال معي - عزيزي القارئ - لنفند هذه النقاط الأربع لنستخرج منها وسائل الوقاية للعين وكيفية حمايتها لها .

دور الحجاج (المحجر) : يتميز ببعض الصفات التي تؤهله لحماية العين منها :

- صلابة حوافه الأمامية وخاصة تلك التي تتعرض للإصابات أكثر، وهى الجزء السفلي والعلوي والوسيط (nasal) .

- مكانة الغشاء السحاقى الذي يغلف باطنه حولية العظام "Periosteium"

- إحاطة الجيوب الأنفية به والتي تتميز بالآتي :

o عازلة للحرارة وعازلة للصوت .

o تعطى عمق أكبر للفراغ المحجرى . . . الأمر الذي يمكن المقلة من أن تلجأ إليه لحمايتها .

o تمتص الصدمات من العين .

(354/774)

دور النسيج الحجاجى Orbital Tissue

- يمتص الصدمات الأمامية ويهيئ للمقلة حشوة طرية تغوص فيها المقلة أمام الضغوط الأمامية .

- يغلف العضلات والأعصاب والأوعية في غلاف ونسيج لين يصلها ببعضها البعض ويحميها من التقصف والتمزق .

- يحفظ للعين حرارتها ويدفعها للأمام فيحسن رونقها وتتسع فتحتها .

دور العضلات والمحفظة :

تقوم العضلات بتحريك مقلة العين . . . هذه هي وظيفتها الأساسية . بجانب ذلك تكون طبقة خارجية تشارك في تغليف وحماية المقلة من الأذى الخارجي . ولا شك أن سرعة

حركة المقلة عامل مهم في تجنب آثار الضربات السريعة – لاسيما للجزء الشفاف منها ألا وهو القرنية .

ظاهر بيل Bell's Phenomenon

تحدث هذه الظاهرة عند محاولة فتح الجفون غصباً أثناء النوم أو في حالات توقع الخطر أو عند الفحص ووضع القطرات . . . حيث تتجه العيون إلى أعلى وتختفي القرنية خلف الجفن العلوي وربما تحت السطح العلوي للحجاج .

هذا كله دليل قاطع على مدى مشاركة العضلات العينية في توجيه المقلة إلى المكان الآمن الذي لا يجيء منه الضرر .

محفظة تانون :

هي اللباس الداخلي للمقلة والقميص ذو الأكمام للعضلات غلف الجميع في ثوب واحد فسهل حركتهم وقلل من إحتكاكاتهم (Friction) فحفظ طرواتهم ولدانتهم .

دور الصلبة : Sclera

يبرز دور الصلبة في حماية العين من خلال :

– تكوينها المتين وطريقة ترتيب أليافها في طبقات متقاطعة وليست متوازية . . وهذه الألياف لا يمكن فصلها عن بعضها بسهولة .

– غير قابلة للمط أي جامدة (Rigid) .

- عدم شفافيتها وعدم سماحها للضوء من النفاذ خلالها .

وفى النهاية يمكن تلخيص الجهاز الحامي (الواقي) للعين فيما يلي :

(1) الشقة الأمامية :

أ- الجفون ب- الجهاز الدمعي .

جـ- القرنية د- القزحية .

(2) الأجزاء الخلفية :

أ- المحجر (الحجاج) . ب- الغشاء الدهن خلف المقلة

جـ- العضلات والأغشية د- الصلبة .

فسبحان الخالق . . . قدر فخلق فأبدع . . .

(355/774)

خلق كل شئ بقدر تبارك جل شأنه

شفافية العين

لما كانت العين هي الكرة السحرية والنافذة التي يطل منها الجسد على العالم، فإن الله عز وجل قد حباها بجهاز حساس دقيق يقيها غوائل الزمن من هجير وريح وضوء وغبار

وإشعاع وهوام وصد وضرب في يقظة أو نوم .

لكي تقوم العين بوظيفتها على الدرجة الأكمل . . . فينبغي أن تكون مزودة بالآتي :

- أوساط شفافة (Transparent Media) وهى القرنية - العدسة - السائل المائي - الجسم الزجاجي - الشبكية .

- أعصاب دقيقة الحس (Perfect Sensory System)

- جهاز حركي متوازن (Balanced Oculomotor System)

- ضغط معتدل متوازن بين السوائل الداخلة والمنصرفة .

(Normal Intra - Ocular Pressue)

- خطوط بصرية سليمة (Intact Visual Pathway)

- مراكز بصرية عاملة (Acting Visual Centres) .

ولكي تعم الفائدة . . . فسنقتصر في حديثنا على نقطة واحدة وهى النقطة الأولى الخاصة بـ (شفافية العين) . . . وتشمل الحديث على القرنية السائل الزجاجي - العدسة - الجسم الزجاجي والشبكية .

شفافية العين : وهى حصيلة العوامل التالية :

- عوامل تكوينية : Anatomical

- عوامل وظيفية : Physiological

- عوامل إعاشية : Metabolic

العوامل التكوينية :

1- تكوين القرنية من رقاقات أليافها مصففة بطريقة متوازنة بلا تقاطع أو ميل . وفى طبقات متعامدة بعضها مع بعض، هذا يؤدى بدوره إلى أن الأشعة الضوئية تستطيع النفاذ دون انعكاس أو تفرق . أي أن القرنية ليس لها أي تأثير إنكسارى ضوئي فتظهر شفافة لا لون لها .

ومن ثم فإن أي عامل يؤدى إلى صف هذه الخلايا والألياف بطريقة غير متوازية في طبقات مائلة وغير منظمة يجعل سطحها يفقد شفافيته ويصبح معتماً . . . ويظهر ذلك جلياً في حالات قرح القرنية المندملة .

2- خلوها من الأوعية الدموية . حيث أن وجودها يؤدى إلى إعتام القرنية

3- خلوها من الخلايا .

العوامل الوظيفية :

1- وجود ضغط معين متوازن ثابت واقع على أنسجتها ، لو اختل بالزيادة أو النقص لانعدمت الشفافية .

2- سلامة وتكامل الأغشية الطلائية الخارجية "Epithelium" والداخلية "Endothelium" فلو حدث أي خلل بهما سواء إصابة أو مرض . . فإن القرنية تعانى من الإعتام، وذلك لفشل عاملين مهمين هما :

- عامل الوقاية المسئول عن منع السوائل من النفاذ إلى قلبها وصلب جسدها .

- عامل الوظيفة التنفيذية الذي تتميز به هذه الأنسجة والذي بمقتضاه تحدث عملية تنفسية نشطة تؤدى إلى ضخ الماء الزائد خارج القرنية بحيث تكون القرنية دائماً في حالة نشف "dehydration"

العوامل الإعاشية :

كثيراً ما نجد القرنية نتيجة لاضطراب إعاشى إما موضعياً أو كلياً .

الاضطراب الموضعي :

- كما في حالات الضمور الهلامي، والذي ينتج عنه عتامة دائرية تظهر في الشيوخ المسنين فوق الخمسين، وقد يظهر أحياناً في الشباب .

- الضمور الدهنوى . . . وهو يظهر بين طبقات القرنية السطحية على هيئة مخروطية ويكون لون العتامة مصفراً لترسيب خلايا دهنية بها .

الاضطراب الكلى :

- يحدث نتيجة لترسب السكاكر الرغوية بها .

- ترسب بعض الأحماض الأمينية السستينية "Cysteine" كما في الحالات الخلقية المسماة مركب فانسونى "Fanconi"

- ترسب أملاح الكالسيوم .

شفافية السائل المائي :

والسائل المائي كما يدل عليه أسمه مائي التكوين أي لا لون له، وبذلك يكتسب خاصية الشفافية، ويقوم بالمشاركة في السماح بمرور الضوء إلى داخل العين، وإذا تغير هذا التكوين . فإن خاصية الشفافية تفقد ، وهذا يتأتى في حالات مرضية عديدة منها :

- وجود دم بالخزانة الأمامية نتيجة إصابة أو التهاب العين أو مرض دموي .

- وجود أجسام غريبة بالخزانة الأمامية . مثل أي جسم خارجي غريب أو انزلاق عدسة معتمة بها .

- تغيير في تكوين السائل المائي نتيجة لتمدد وتسيب الأوعية الدموية بالقزحية والجسم الهدبي والذي على أثره يصبح السائل المائي سميكاً، ويحتوى على مزيد من الزلاليات تماثل تلك التي توجد في مصل البلازما .

شفافية العدسة :

عدسة العين في شكل حبة الترمس، ولها غلاف مطاط، وتتكون من محفظة "Capsule" وقرطاسية "Cortex" ونواة "Nucleus" وكل هذه المكونات أوساطها شفافة لإمرار الضوء . وتعتمد العدسة في اكتساب شفافيتها على العوامل التالية :

* عوامل بنائية :

- وجود غشاء طلائي متماسك صحيح .
- عدم وجود أوعية دموية أو خلايا ذات أنوية داخلياً .
- تصفيف الخلايا العدسية في نظام متوازي متقوس بحيث تتقابل أطرافها في رتوق ثلاثية الشكل .

* عوامل إعاشية :

- وجود جهاز تنفسي داخلي لأنسجتها يعتمد على وجود خمائر " Enzymes" ومصاحبات منشطة للخمائر "Coenzymes" مثل مركبات السيتوكروم .

والجلوتاثيون "Glutatimione" وفيتامين أ وأملاح الكالسيوم .

شفافية الجسم الزجاجي :

يعتمد الجسم الزجاجي في أدائه على :

- سلامة وحدته : بمعنى وجود وجه سليم صحيح "intact Face" وقوام هلامي "Gel Body" وإذا فقد هذا الجسم فإنه لا يستعوض، ولكن يحل محله السائل المائي .

وتتم حالة الإحلال هذه في حالات الالتهاب القزح تحت الحاد فيتحول القوام الهلامي إلى سائل مائي وتتحلل أليافه وخلاياه .

ويلاحظ أنه في كل الحالات التي يفقد فيها الجسم الزجاجي شفافيته تتفاوت درجات فقدان الشفافية والتي تتراوح ما بين عكارة خفيفة تظهر على وجهه الأمامي ولا ترى إلا بالمصباح الشقى "Slit Lamp" أو أجسام سابحة فيه ربما تعيق الرؤية حينما تعبر المجال الحدقي . وهذه ما يعبر عنها بالذبابة الطائرة "musca volitantes"

عوامل الشفافية بالشبكية :

نسيج الشبكية نسيج شفاف تام الشفافية، ولذلك فإن لون قاع العين الذي تراه مكتسباً اللون الأحمر إنما هو في الحقيقة يمثل الأوعية الدموية الموجودة بالمشيمية "Choroid" وما بها من دماء ترى من خلال الشبكية الشفافة .

وسرعة الإعاشة "Metabolic Rate" في الشبكية عالية جداً، لذلك فإن أي عامل يؤدى إلى إنقاصها إنما يؤدى إلى ضمورها ووكفها .

وإذا حدث ذلك فإن شفافيتها تختل وتعتريها التغيرات اللونية وتختل مكوناتها العصبية وينتج عنها ترسبات هلامية . . . وكل هذه التغيرات تفقدها شفافيتها فتعتم في المكان المصاب ويظهر ذلك جلياً في حالات الانفصال الشبكي .

وتستمد الشبكية مددها الدموي من الشريان المركزي الشبكي وكذلك من الشعيرات المشيمية، ومن هنا تجئ أهمية هذين المصدرين في العمل على حيوية وإعاشة الشبكية .

لذلك فإن من أهم أسباب ضمور وإعتام الشبكية :

- تجلط أو انسداد في الشريان المركزي الشبكي "Central retinal artery"
- الانفصال الشبكي بأنواعه الأولى والثانوية .
- تسمم الشبكية من مرض عام أو سبب خارجي .
- تيبس في شرايين المشيمية الشعرية "Chorio-capillaries"

بهذه الشفافية التي وهبها الله تعالى لعيوننا فإنها تستطيع أن تقوم بوظائفها التي من أهمها أنها

تقوم بعمل النافذة التي منها يستطيع الجسم أن يطل على العالم الخارجي . . . كل من يريد أن يفحص داخل الجسم فما عليه إلا أن ينظر إلى العين . . . وصدق من قال " العين مرآة الجسم" .

فلتكن لنا مع أنفسنا وقفات ووقفات نتأمل فيها ونبحث عن كوامن وأسرار خلق الله للإنسان لنقف خاشعين خاضعين متذللين للخالق جل شأنه نقر بوحدانيته ونذعن له بالاستسلام والطاعة

فالله سبحانه لم يخلق أي عضو – في أجسامنا – إلا بإحكام وتقدير لكي يلاءم طبيعة وظيفته . فسبحان المبدع الخالق جل شأنه .

وصدق الله العظيم القائل :

) إنا كل شئ خلقناه بقدر) القمر (49)

) وفى أنفسكم أفلا تبصرون (الذاريات (21)

.

.

.

0-طفل يُولد وعلي رأسه مختومة عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله

آيات الله ودلالاته جل وعلا شأنه موجودة في كل مكان حولنا وفينا ولكن ما حدث في مستشفي أم شوك الريفي بمحلية ريفي سنجة أمر في جمهورية السودان اعجز الأطباء . والقصة بدأت بحمل السيدة الرضية آدم التي تقيم بمنطقة العمارة دقلة وحملها كان غير طبيعي أطلاقاً فهي قد عانت كثيرا في هذا الحمل وكان أول حمل لها فبدأت رحلة المتابعة بمستشفي أم شوك الريفي واشرف علي علاجها الطبيب البارع د . منتصر الطيب إبراهيم أخصائي النساء والتوليد بالمستشفي وكان سير الأمور عاديا مع ما فيه من مرض السيدة الرضية المتكرر الذي الزمها فراش المستشفي ثماني مرات حتى انتهي الأمر بولادتها ، وهنا كانت المفاجأة التي كانت فوق التصور . ولنترك د . منصر الطيب إبراهيم أخصائي النساء والتوليد يواصل القصة من بداياتها :

يقول د . منتصر : كان حمل السيدة رضية آدم طبيعي من حيث انه حمل ولكنها مرضت كثيرا بأمراض شتى الأمر الذي الزمها فراش المرض بالمستشفي ثماني مرات بالملاريا وأحياناً بأمراض أخرى .

-شيء غريب مع اقتراب الولادة

مع اقتراب ساعة الولادة حدث أمر غريب فبالكشف أتضح أن وضع الجنين طبيعي والأم

في حالة طبيعية وحوضها طبيعي ويمكن أن تلد بسهولة لكن رأس الجنين كان لأعلى وحتى ساعة الولادة رفض الرأس ان ينزل وحانت ساعة الولادة يوم 12/31 والوضع على ما هو عليه فاجرينا لها عملية قيصرية .

(360/774)

بعد أن أجريت للسيدة الرضية ادم عملية الولادة هكذا يواصل د . منتصر أخذت الداية الجنين وانصرفت أنا لخياطة الرحم ولكن الداية عادت لي دهشة وهي تشير إلى رأس الجنين فلم ادقق النظر لان الشيء كان مختبيء بين الشعر فقلت لها هذه شامة وانصرفت عن الأمر وفي اليوم التالي كانت والدته قد فاقت من البنج فذهبت اليها متفقدا صحتها وكانت قد استيقظت من البنج فوجدتها تنظر في رأس طفلها متفقدة الشعر فسألتني ما هذا فاقتربت ونظرت للرأس فاكتشفت إنها ليست شامة ولا تعرجات جلدية ولكني رأيتها واضحة : "لا اله إلا الله محمد رسول الله " لحظتها اقشعر كل بدني ورجفت وأصابتني حالة انفعال رهيبة بكيت حملت الكاميرا وصورتها . . أنا اعتبرت أن الأمر رسالة من ربنا لحظتها عدت بذهني للوراء وتذكرت ان الرأس رفض أن ينزل لتتم الولادة طبيعية كأن الرأس المكتوب عليه اسم الجلالة لا يريد ان ينزل تنزيهاً لاسم الله ولمدة ثلاثة أيام

لم انم حتى الصباح وأصبح الأمر حدث كل سكان القرية والقرى المجاورة توافدوا لرؤية رأس الطفل " صلاح ابو القاسم حميدة " الذي أطلق عليه أهله اسم صلاح ليكون صالحاً ولم يسموه علي اسم سيدنا محمد رسول الله لان والده له ابن من زوجة أخرى اسمه محمد .

وحول شعور الأهل فور تلقيهم الخبر قال والده كان غير مصدق وقال معقول أنا يكون عندي ولد زي ده . . أما الأم ففهمت انه سيموت رغم انه طفل طبيعي فقامت بدسه . . وحول صحة الطفل قال انه بصحة تامة رغم انه في اليوم الثالث أصيب بالملاريا

صورة لرأس الطفل ومكتوب عليها بخط واضح لا إله إلا الله محمد رسول الله

.والدة الطفل صلاح

(361/774)

السيدة الرضية آدم والدة الطفل صلاح ابو القاسم حميدة كان واضح الخوف على ابنها من صوتها فالنسوة وضعن في رأسها أن طفلها لن يعيش لأنه جاء برسالة معينة سيذهب بعد إيصالها . . وقالت السيدة الرضية نحن أسرة عادية جدا وهذا هو أول حمل لي ولكني

مرضت كثيرا قبل الولادة وساعة الولادة كان الأطباء في حيرة من أمرهم لان وضع الحوض طبيعي والجنين طبيعي ومع هذا هو رافع رأسه لأعلى الأمر الذي يجعل من الولادة الطبيعية أمرا عسيرا وتمت الولادة قيصرياً رأيت شيء في الرأس لم أدرك ما هو سألت الطبيب وحينما اقترب رأيت حالته غير طبيعية وبكي فقال بانفعال إنها "لا اله إلا الله محمد رسول الله" أصابتني رهبة ودهشت ولكني اعلم ان الله قادر علي كل شيء وكون أن يحدث هذا الأمر فهو شيء عادي ولكن ما أخافني هو أحاديث النسوة ولكن طفلي حتى هذه اللحظة طبيعي ولا يشكو من شيء وفترة حملي كانت طبيعية لم اشعر بشيء غير عادي ربما لان هذه أول مرة يحدث لي هذا الأمر الحمل ولكن ما أتمناه أن يتركنا الناس وشأننا وان يقدر الناس وضعي كأم تخشي على ابنها .

ويقول والد صلاح أبو القاسم حميدة بان الطفل وضعه الصحي عادي وهو بخير وهو يدرك بان الله قادر علي كل شيء .

في الحلقة القادمة ماذا يقول العلماء حول الأمر ؟ ! .

المصدر :

جريدة أخبار اليوم السودانية على الرابط التالي :

http : //www.akhbaralyoumsd.net/modules.php?name=News&file=article&sid=490

العربية.نت

http : //www.alarabiya.net/Articles/2006/01/16/20349.htm

.

.

.

0-صور للعبرة

قال الله تعالى : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [سورة الإسراء] .

ويقول الشاعر العباسي أبو العتاهية :

وفي كل شي له آية تدل على انه الواحد

ولله في كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهد

فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

تطالعنا من وقت لآخر وسائل الإعلان ببعض الصور التي لها دلالة خاصة ومنها الصور التي تشير إلى اسم الجلالة أو الصور التي تدل على عزة الدين وعناية الله تعالى وإليكم بعض الصور التي رأيت أنه من الواجب نشرها حتى يرى الناس قدرة الله تعالى وأنه إله واحد وأن الإسلام هو دين حق .

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لخلية نحل نقشت على الشمع اسم ربها الله

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة حقيقية لأمواج تسونامي أتلقطت جواً عبر قمر صناعي أمريكي متخصص بالتقاط الصور على أرتفاعات عالية

صورة لمسجد في اندونيسيا في مقاطعة باندا آتشي التي ضربتها أمواج تسونامي مم أدى إلى مقتل أكثر من (100.000 شخص) ولكن عناية الله تعالى حمت المسجد القديم والذين لاذوا به من غضب الله تعالى ولقد قدر عدد الذين كانوا في المسجد بألف شخص

لم يصاب أحد منهم بسوء

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صور لحمل مكتوب على جلدها اسم الجلالة

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لبقرة مكتوب على جلدها اسم الجلالة الله

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لشاة في روسيا كتب على جلدها اسم الجلالة الله

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لمسجد في استانبول نجا من الزلزال المدمر الذي ضرب تركيا قبل سنوات

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صور ثمرة من الخضار مكتوب عليها آمنوا بالله

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لنبتة من الصبار الصحراوي تكتب اسم الجلالة الله

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

صورة لغيمة تكتب اسم الله تعالى الله

(363/774)

روابط ذات صلة

صورة سمكة مكتوب عليها اسم الجلالة واسم محمد

صور لأحجار من العقيق مكتوب عليها اسم الله

.

.

.

0-دورة حياة اللاّقم البكتيري

life cycle of Bacteriophage

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

اللاّقم البكتيري (Bacteriophage) من الفيروسات المتطفلة على البكتيريا ، وبعض أجناس الأكتينومسيسيات (Actinomycetes) في التربة لإحداث توازن ميكروبي، كما أنه يتطفل على بكتيريا العقد الجذرية وبكتيريا القولون E.Coli .

يتكون اللاّقم البكتيري من رأس (Head) سداسي الشكل بداخله الحمض النووي الوراثي (DNA) يغلف بغلاف بروتيني، يلي الرأس من ناحية الذيل الياقة (Collar) يخرج منها المحور أو الذيل (Tail) يستند على القرص القاعدي الذي يخرج منه زوائد تسمى بالليفات الذيلية (Tail fiber) وينتهي القرص القاعد بالثاقب (Dril) .

شكل توضيحي لبنية فيروس اللاقم البكتيري Bacteriophage

- تبدأ دورة حياة اللاقم البكتيري بعدوى تصيب الخلية البكتيرية بالفيروس، حيث يلتصق اللاقم البكتيري بالخلية بواسطة القرص وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الالتصاق (Adsorption) .

- يستخدم الفيروس زوائده والثاقب في اختراق جدار الخلية البكتيرية والغشاء الخلوي ثم يدخل المادة الوراثية له إلى داخل الخلية البكتيرية وتسمى هذه المرحلة بطور العدوى (Infection stage) .

.يبدأ الحمض النووي الفيروسي بتسخير الحمض النووي البكتيري لإنتاج وحدات من DNA الفيروس وأغلفه بروتينية , ويتكون عدد هائل من مكونات اللاقم البكتيري داخل الخلية البكتيرية وتسمى هذه المرحلة بمرحلة التضاعف أو الاستنساخ (Replicotion) وتكوين الفيروس .

.ثم تأتي مرحلة التصاعد (Rise staye) حيث تتكون أعداد كاملة من الفيروس بعدد الأغلفة المتكونة والمادة الوراثية المستنسخة .

(364/774)

.وفي المرحلة النهائية (Final stage) يزداد الضغط الفيروسي على جدار الخلية البكتيرية التي استنفدت محتوياتها في تكوين وحدات الفيروس , وتخرج مئات الفيروسات لتعاود دورتها من جديد .

الشكل التالي يبين آلية عمل الباكتروفاج أثناء مهاجمة البكتريا

وتستمر في حاله من العدوى والانتشار إلى أن تنفد خلايا البكتيريا في المكان حيث يدخل الفيروس في مرحلة اللاحياة والكمون البلوري استعداداً للقاء بكتيريا جديدة .

تستغرق دورة حياة اللاقم البكتيري الهستيرية حوالي نصف ساعة فقط وفي هذه الدورة تنجلي العديد من المعجزات في الخلق منها :

.السرعة التي تتم بها العدوى والاستنساخ والتكوين الفيروسي ثم إعادة العدوى تبين مدى القدرة لهذا الفيروس، والفيروسات الأخرى على العدوى .

.عندما يلتصق الفيروس بالخلية البكتيرية تبدأ تدب فيه الحياة ويدخل (DNA) إلى داخل الخلية البكتيرية ويسلك سلوك الأحياء في التكاثر وبهذا يتمثل في هذا الفيروس قدرة الله على إخراج الحي من الميت .

.ماذا لو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الأمر للفيروس في الاستمرار في التطفل والهلاك للبكتيريا مع عدم وجود تخصص للعائل ؟ .

لو حدث هذا لاختفت البكتيريا من الكرة الأرضية في فترة وجيزة وحدث خلل كبير في دورات الحياة الكربونية والنتروجينية وغيرها وحدث خلل بيئي كبير وصدق الله تعالى في قوله : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [سورة القمر : 49] .

.في هذه الدورة يتمثل الدور الانتهازي للاستعمار والاستيطان الذي يسخر ممتلكات صاحب الأرض لصالحه ولا يتركه إلا بعد القضاء عليه .

.هنا تتمثل المصلحة المادية بين المستعمر والمستعمر، والعائل والطفيل في أسوأ صورها .

فكل مستعمر هو لاقم بشري يلتقم ممتلكات الناس لصالحه .

.وهنا تتمثل أيضاً خطورة التضليل المعلوماتي والإعلامي حيث يستخدم الفيروس التضليل الإعلامي المعلوماتي لتسخير الخلية البكتيرية ومراكزها الحيوية لصالحه .

(365/774)

قال الله تعالى : (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿ 49 ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [سورة : طه] .

- الدماغ يتوضأ في اليوم والليلة خمس مرات

بقلم الدكتور محمد جميل الحبال

يقول تعالى في محكم الذكر : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) [البقرة : 238] .

هل تعلمون أن الدماغ في الوضع الجانبي له كأنه رجل وهو ساجد ! ! وهذا الدماغ يتوضأ في اليوم والليلة خمس مرات !

هل تشعر بثقل الدماغ ؟

هناك سائل النخاع الشوكي، سائل النخاع الشوكي الذي يوجد تحت الأم . . غشاء الأم . . العنكبوتية، الدماغ يحاط بثلاثة أغشية وتوجد بين هذا الأغشية سائل النخاع

الشوكي الذي يكون له وظيفة الحماية . . الحماية لهذا الدماغ، وأيضاً للتغذية واللي كما تقول : التبريد : كيف أن الماء يبرد السيارة في الراديتير، فالدورة سائل النخاع الشوكي CSF Fluid يدور في هذه المناطق في البطين من الدماغ وحوله ويقوم بالتغذية وبالحماية، لماذا ؟ لأن الدماغ وزنه 1700 جرام، لا نشعر بوزنه، هل تشعر بثقل الدماغ الذي هو تقريباً حوالي كيلوين إلا ربع ؟

من تقدير البارئ عزّ وجلّ

إننا لا نشعر، لقد وزنوا الدماغ داخل الجمجمة فوجدوه 50 جرام، ووزنه الحقيقة . . الحقيقة حوالي -كما قلت- 1700 جرام، لأنه يطفو في سائل النخاع الشوكي، والقاعدة الفيزيائية تقول : "كل جسم يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر وزن السائل المُزاح" . ولذلك لا نشعر بوزنه وثقله، وهذا من تقدير الباري عز وجل . فالسائل النخاع الشوكي يتولد من منطقة خاصة في الدماغ تسمى الظفرة الشبكية The corogy plaxis ويدور في مساحاته ويخرج من منطقة أخرى كشبكة المياه في أي عمارة أو . . أو بيت، ويقوم بواجباته .

وهذه الدورة تكون في اليوم والليلة خمس مرات بقدر الصلوات وقد ذكر الله الباري عز وجل الصلوات الخمسة . أيضاً كلمة الصلوات مذكورة في القرآن خمس مرات، ونحن نسجد على الفص الأمامي الذي فيه مراكز اتخاذ القرار لأننا في مفهوم المخالفة، المؤمن إذا ما يسجد ويعبد الله فإن ناصيته ستكون مصيبة صادقة .

يقول تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [المؤمنون : 1-11] . اه

الطبيب الاستشاري

الدكتور محمد جميل الحبال

باحث في الإعجاز العلمي والطبي في القرآن والسنة

الموصل – العراق – يمكن التواصل على العنوان :

alhabbal45@yahoo.com

انتهى انتهى ﴿ الإعجاز المعرفي في القرآن الكريم والسنة ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن بديع هذا الخلق ، ونبه على بعض دقائقه وأمر بالإبصار وتكريره ، وكان السامع أول ما يصوب نظره إلى السماء لشرفها وغريب صنعها وبديع وضعها ومنيع رفعها ، فكان بحيث يتوقع الإخبار عن هذه الزينة التي رصعت بها ، قال في

جواب من توقعه مؤكداً بالقسم إعلاماً بأنه ينبغي أن يبعد العاقل عن إنكار شيء مما ينسب إلى صاحب هذا الخلق من الكمال ، عاطفاً على ما تقديره : لقد كفى هذا القدر في الدلالة على عظمة مبدع هذا الصنع وتمام قدرته : ﴿ ولقد ﴾ واستجلب الشكر بجلب المسار فقال ناظراً إلى مقام العظمة صرفاً للعقول عما اقتضاه " الرحمن " من عموم الرحمة تذكيراً بما في الآية الماضية ، وتنبيهاً على ما في الزينة بالنجوم من مزجها بالرجوم الذي هو عذاب " الجن المتمردين الطاغين " : ﴿ زينا ﴾ دلالة أخرى تدل على العظمة بعد تلك الدلالة الأولى ﴿ السماء الدنيا ﴾ أي أدنى السماوات إلى الأرض وهي التي تشهد وأنتم دائماً تشاهدونها وهي سقف الدار التي اجتمعتم فيها في هذه الحياة الدنيا ﴿ بمصابيح ﴾ أي نجوم متقدة عظيمة جداً ، كثرتها تفوت الحصر ، ظاهرة سائرة مضيئة زاهرة .

وهي الكواكب التي تنور الأرض بالليل إنارة السرج التي تزينون بها سقوف دوركم ، فتفيد شعبة من ضوء الصباح ، والتزيين بها لا يمنع أن تكون مركوزة فيها فوقها من السماوات وهي تتراءى لنا بحسب الشفوف بما للاجرام السماوية من الصفاء ، ولتلك المصابيح من شدة الإضاءة .

(368/774)

ولما أخبر – جلت قدرته – بعظيم قدرته فيها منبهاً على ما فيها من جلب المسار بتلك الأنوار والهداية في الدين والدنيا التي لولا هي لما انتفع أحد في ليل انتفاعاً تاماً ، أخبر بما فيها مع الزينة من دفع المضار بعبارة عامة وإن كان المراد البعض الأغلب فإن ما للرجوم منها غير ما للاهتداء والرسوم فقال : ﴿ وجعلناها ﴾ أي النجوم من حيث هي بعظمتنا مع كونها زينة وأعلاماً للهداية ﴿ رجوماً ﴾ جمع رجم وهو مصدر واسم لما يرجم به ﴿ للشياطين ﴾ الذين يستحقون الطرد والبعد والحرق من الجن لما لهم من الاحتراق ، وذلك بياناً لعظمتنا وحراسة للسماء الدنيا التي هي محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر ، وإنزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع منها على الناس دينهم الحق ، ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذي ختمنا به الأديان بالباطل ، فيخرجوهم – لأنهم أعداؤهم – من النور إلى الظلمات كما كانوا في الجاهلية مع ما فيها بما خلق سبحانه في أمزجتها من ترطيب وتجفيف وحر وبرد واعتدال ينشأ عنه الفصول الأربعة وقهرها به من شروق وغروب وحركة وسكون يعرف بها ما إليه المآل ، مما أخبرت به الرسل من الزوال ، مع ما يدل من الليل والنهار والعشي والإبكار وأشياء يكل عنها الوصف في ذواتها وعن إحصاء منافعها حتى لو عدم شيء مما في السماوات مما دبره الحكيم لصلاح هذا العالم يهلك كل حيوان ونبات على وجه الأرض ، والشهاب المرجوم به منفصل من نار الكواكب وهو قار في فلكه على حالة كقبس النار يؤخذ منها وهي باقية على حالها لا نقص ، وذلك

مسوغ لتسميتها بالرجوم ، فمن لحقه الشهاب منهم قتله أو ضعضع أمره وخبله ، ويحتمل مع ذلك أن يكون المراد : ظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجمون يتكلمون بها رجماً بالغيب في أشياء هي من عظيم الابتلاء ليتبين الموقن من المزلزل والعالم من الجاهل ؛ وفي البخاري : قال قتادة : " خلقت النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى

(369/774)

بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف بما لا علم له به " ولما كان التقدير : ورجمناهم بها بالفعل عند استراقهم للسمع إبعاداً لهم عن مسكن المكرمين ومحل النزاهة والأنس ومهبط القضاء والتقدير ، ونكالاً لغيرهم من أمثالهم عذاباً لهم في الدنيا ، عطف عليه قوله ترهيباً من جلاله بعد ما رغب في عظيم جماله : ﴿ وأعتدنا ﴾ أي هيأنا في الآخرة مع هذا الذي في الدنيا بما لنا من العظمة ﴿ لهم ﴾ أي الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ عذاب السعير - ﴾ أي النار التي هي في غاية الاتقاد ، ففي الآية بشارة أهل السمع والبصر والعقل وفيها من التنبيه ما لا يخفى .

ولما أخبر سبحانه عن تهيئته العذاب لهم بالخصوص ، أخبر أيضاً عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال حاثاً على التكفر في عظيم انتقامه الخارج عن

العادة في عدم الانطفاء ، لكونه ليس بسيف ولا عصا .

ولا بسوط ونحوه بل النار الخارجة عن العادة في عدم الانطفاء ، ولا للمعذب من الخلاص منها مسلك ولا رجاء بل كلما طال الزمان تلقته بالشدة والامتداد ، بئس الجامعة للمذام في كل انتقام مع الإهانة والاحتقار ﴿ وللذين كفروا ﴾ أي أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الإذعان للإله ، فقال صارفاً القول عن مقام العظمة إلى صفة الإحسان الخاصة بالتربية تنبيهاً على ما في إنكاره من عظيم الكفران : ﴿ بربهم ﴾ أي الذي تفرد بإيجادهم والإحسان إليهم فأنكروا إيجاده لهم بعد الموت وذلك كفراً منهم بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم ﴿ عذاب جهنم ﴾ أي الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب .

ولما كان التقدير : هي مصيرهم ، قال دالاً على عدم خلاصهم منها أصلاً أزلاً وأبداً : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي هي .

(370/774)

ولما عبر عن ذمها بمجمع المذام ، أتبعه الوصف لبعض تجهمها على وجه التعليل ، فقال دالاً بالإلقاء على خساستهم وحقارتهم معبراً بأداة التحقيق دالالة على أنه أمر لا بد منه ،

وبالبناء للمفعول على أن إلقاءهم في غاية السهولة على كل من يؤمر به : ﴿ إذا ألقوا ﴾ أي طرح الذين كفروا والأخساء من أي طارح أمرناه بطرحهم ﴿ فيها ﴾ حين تعتلهم الملائكة فتطرحهم كما تطرح الحطب في النار ﴿ سمعوا لها ﴾ أي جهنم نفسها ﴿ شهيقاً ﴾ أي صوتاً هائلاً أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها ، أو لأهلها – على حذف مضاف ﴿ وهي تفور ﴾ أي تغلي بهم كغلي المرجل بما فيه من شدة التلهب والتسعر ، فهم لا يزالون فيها صاعدين هابطين كالحب إذا كان الماء – يغلي به ، لا قرار لهم أصلاً .

ولما وصفها بالفوران ، بين سببه تمثيلاً لشدة اشتعالها عليهم فقال : ﴿ تكاد تميز ﴾ أي تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال : يكاد فلان ينشق من غيظه وفلان غضب فطارت شقة منه في الأرض وشقة في السماء – كناية عن شدة الغضب ﴿ من الغيظ ﴾ أي عليهم ، كأنه حذف إحدى التاءين إشارة إلى أنه يحصل منها افتراق واتصال على وجه من السرعة لا يكاد يدرك حق الإدراك ، وذلك كله لغضب سيدها ، وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به ، وهي شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الأزمة جميعاً وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم إلا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقابلها بنوره فترجع مع أن لكل ملك من القوة ما لو أمر به أن يقتلع الأرض وما عليها من الجبال ويصعد بها في الجو فعل من غير كلفة ، وهذا كما أطفأها

في الدنيا بنفخة كما رواه الجماعة إلا الترمذي وهذا لفظ أبي داود عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : " انكسفت الشمس على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر صلاته إلى أن قال : ثم نفخ في آخر سجوده .

(371/774)

فقال : أف أف ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون " وفي رواية النسائي أنه قال : قال - صلى الله عليه وسلم - : " لقد أدنيت مني النار حتى جعلت ألفتها خشية أن تغشاكم " .

ولما ذكر سبحانه حالها ، أتبعه حالهم في تعذيب القلب باعتقادهم أنهم ظلمة على وجه ، بين السبب في عذابهم زجراً عنه فقال : ﴿ كلما ﴾ ولما كان المنكىء مجرد الإلقاء بني للمفعول دلالة على ذلك وعلى حقارتهم بسهولة إلقائهم قوله : ﴿ ألقي فيها ﴾ أي جهنم بدفع الزبانية بهم الذين هم أغيظ عليهم من النار ﴿ فوج ﴾ أي جماعة هم في غاية الإسراع موجفين مضطربي الأجواف من شدة السوق ﴿ سألهم ﴾ أي ذلك الفوج ﴿ خزنتها ﴾ أي النار سؤال توبيخ وتقريع وإرجاف .

ولما كان كأنه قيل : ما كان سؤالهم ؟ قال : قالوا موبخين لهم مبكتين محتجين عليهم في

استحقاقهم العذاب زيادة في عذابهم بتعذيب أرواحهم بعد تعذيب أشباحهم : ﴿ ألم يأتكم ﴾ أي في الدنيا ﴿ نذير ﴾ أي يخوفكم هذا العقار ويذكركم بما حل بكم وبما حل ممن قبلكم من المثلاث ، لتكذيبهم بالآيات ، ويقرأ عليكم الكتب المنزلات ﴿ قالوا بلى ﴾ ولما طابق هذا الجواب فتوقع السامع إيضاحه .

افصحوا بما أفهمه وشرحوه تأسفاً على أنفسهم مما حل بهم وتحسراً فقالوا : ﴿ قد جاءنا ﴾ وأظهروا موضع الإضمار تأكيداً وتنصيصاً فقالوا : ﴿ نذير ﴾ أي مخوف بليغ التحذير ﴿ فكذبنا ﴾ أي فتسبب عن مجيئه أننا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير ﴿ وقلنا ﴾ أي زيادة في التكذيب والنكاية له والعناد الذي حل شؤمه بنا : ﴿ ما نزل الله ﴾ أي الذي له الكمال كله عليكم ولا على غيركم ، ولعل التعبير بالتفعيل إشارة إلى إنكارهم الفعل بالاختيار الملازم للتدريج – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وأعرقنا في النفي فقلنا : ﴿ من شيء ﴾ لا وحياً ولا غيره ، وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين : ﴿ إن ﴾ أي ما .

ولما كان تكذيبهم برسول واحد تكذيباً لجميع الرسل قالوا عناداً : ﴿ أنتم ﴾ أي أيها النذر المذكورون في " نذير " المراد به الجنس ، وفي خطاب الجمع إشارة إيضاً إلى أن جواب الكل للكل كان متحداً مع افتراقهم في الزمان حتى كأنهم كانوا على ميعاد ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي بعد عن الطريق وخطأ وعمى محيط بكم ﴿ كبير ﴾ فبالغنا في التكذيب والسفه بالاستجهال والاستخفاف .

ولما حكى سبحانه ما قالوه للخزنة تحسراً على أنفسهم حكى ما قالوه بعد ذلك فيما بينهم زيادة في التحزن ومقتاً لأنفسهم بأنفسهم فقال تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ أي الكفرة في توبيخ أنفسهم : ﴿ لو كنا ﴾ أي بما هو لنا كالغريزة .

ولما كان السمع أعظم مدارك العقل الذي هو مدار التكليف قالوا : ﴿ نسمع ﴾ أي سماعاً ينفع بالقبول للحق والرد للباطل ﴿ أو نعقل ﴾ أي بما أدته إلينا حاسة السمع وغيرها عقلاً ينجي وإن لم يكن سمع ، وإنما قصروا الفعلين إشارة إلى أن ما كان لهم من السمع والعقل عدم لكونه لم يدفع عنهم هذا البلاء بالقبول من الرسل لما ذكروهم به من نصائح ربهم وشهادة الشواهد من الآيات البينات ﴿ ما كنا ﴾ أي كونا دائماً ﴿ في أصحاب السعير ﴾ أي في عداد من أعدت له النار التي هي في غاية الاتقاد والحر والتلهب والتوقد حتى كأن بها جنوناً ، وحكم بخلودهم في صحبتها ، وأعظم ما في هذا من العذاب بكونهم ألجئوا إلى أن يباشروا توبيخ أنفسهم ومقتها بأنفسهم أنه لا يقبل منهم خروجاً عن العادة في الدنيا من أن

الإنسان إذا أظهر الخضوع باعترافه ولومه نفسه وإنصافه رحم وقبل ، وفي الآية أعظم فضيلة للعقل ، روى ابن المحبر في كتاب العقل والحارث عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير " .

(373/774)

ولما كان هذا الإقرار زائداً في ضررهم ، وإنما كان يكون نافعاً لهم لو قالوه في دار العمل وندموا عليه وأقلعوا عنه ، سبب عنه قوله ضاماً – إلى ما تقدم من تعذيب أرواحهم بمقت الملائكة لهم ثم مقتهم لأنفسهم – مقت الله لهم : ﴿ فاعترفوا ﴾ أي بالغوا جامعين إلى مقت الله وملائكته لهم مقتهم لأنفسهم في الاعتراف وهو الإقرار عن معرفة .

ولما كان الذي أوردهم المهالك هو الكفر الذي تفرعت عنه جميع المعاصي ، أفرد فقال تعالى : ﴿ بذنبهم ﴾ أي في دار الجزاء كما كانوا يبالغون في التكذيب في دار العمل فلم يكن ينفعهم لفوات محله ، أو أنه لم يجمع الذنب إشارة إلى أنهم كانوا كلهم في المبالغة في التكذيب على حد واحد ، كما قال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر

أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 53] أو أن الإفراد أشد في التحذير من كثير الذنوب وقليلها حقيرها وجليلها .

ولما كانوا قد أبلغوا في كلتي الدارين في إبعاد أنفسهم عن مواطن الرحمة وتسفيلها إلى حال النقمة أنتج ذلك وسبب قوله : ﴿ فسحقاً ﴾ أي بعداً في جهة السفل وهو دعاء عليهم مستجاب ﴿ لأصحاب ﴾ وأظهر تنبيهاً على عظيم توقدها وتغيظها وتهددها فقال : ﴿ السعير ﴾ أي الذي قضت عليهم أعمالهم بملازمتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 69.73 ﴾

(374/774)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾

اعلم أن هذا هو الدليل الثاني على كونه تعالى قادراً عالماً ، وذلك لأن هذه الكواكب نظراً إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص ، وموضع معين ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر ونظراً إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا ، وسبباً

لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم ، ونظير هذه الآية في سورة الصفات ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : 7] وههنا مسائل .

المسألة الأولى :

﴿ السماء الدنيا ﴾ السماء القربى ، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس ، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح ، فقيل : ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح أي بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، أما قوله تعالى : ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ فاعلم أن الرجوم جمع رجم ، وهو مصدر سمي به ما يرجم به ، وذكروا في معرض هذه الآية وجهين : الوجه الأول أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع رجموا بها ، فإن قيل : جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها واستمرارها وجعلها رجوماً للشياطين ورميهم بها يقتضي زوالها والجمع بينهما متناقض ، قلنا : ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب ، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها ، وتلك الشعل هي الشهب ، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار باقية الوجه الثاني : في تفسير كون الكواكب رجوماً للشياطين أنا جعلناها ظنوناً ورجوماً

بالغيب لشياطين الإنس وهم الأحكاميون من المنجمين .

المسألة الثانية :

(375/774)

اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا ، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها ، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها ، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح .

واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرات السيارات ، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن ، فيجب أن تكون كلها هناك ، وإنما قلنا : إن بعضها في الفلك الثامن ، وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات ، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة ، وإنما قلنا : إن هذه الثوابت لما كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك ، لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة ، فلا بد وأن تكون مركوزة في كرة واحدة .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، فإنه لا يلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك ، لأنه لا يبعد وجود كرة تحت القمر ، وتكون في البطء مساوية لكرة الثوابت ، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة في هذه الكرة السفلية ، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة ، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة في السماء الدنيا ، فثبت أن مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيف .

المسألة الثالثة :

(376/774)

اعلم أن منافع النجوم كثيرة ، منها أن الله تعالى زين السماء بها ، ومنها أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء ، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت الظلمة ، وذلك بسبب أن السحاب يحجب أنوارها ، ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة ، فإنها أجسام عظيمة نورانية ، فإذا قارنت الشمس كوكباً مسخناً في الصيف ، صار الصيف أقوى حراً ، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى ، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى ، ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر

، على ما قال تعالى : ﴿ وعلامات وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] ومنها أنه تعالى جعلها رجوماً للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر ، يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرست السماء ، ورصدت الشياطين ، فمن جاء منهم مسترقاً للسمع رمي بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره ، فهذا هو السبب في انقضاض الشهب ، وهو المراد من قوله : ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ ومن الناس من طعن في هذا من وجوه أحدها : أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة ، قالوا : إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، وإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها ، فتلك الشعلة هي الشهاب وثانيها : أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومراراً وألفاً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة وثالثها : أنه يقال في ثخن السماء فإنه مسيرة خمسمائة عام ، فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا اتصاله ، فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك :

3] وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء ، فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم ، ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم ، فلا يسمعوا كلام الملائكة حال كونهم في الأرض ورابعها : أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة ، إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها من وحي الله تعالى إليهم ، وعلى التقديرين فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها وخامسها : أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار بل تقويها ، فكيف يعقل أن يقال : إن الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب وسادسها : أنه كان هذا الحذف لأجل النبوة فلم دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وسابعها : أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض ، بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك ، لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب ، وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض ، فكيف يقال : إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك وثامنها : أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة ، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار ، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم ؟ وتاسعها : لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب ؟ .

والجواب عن السؤال الأول : أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لأسباب أخر ، إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم .

(378/774)

يروى أنه قيل للزهري : أكان يرمى في الجاهلية قال : نعم ، قيل : أفرأيت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [الجن : 9] قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

والجواب عن السؤال الثاني : أنه إذا جاء القدر عمي البصر ، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها ، قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها ، تقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار .

والجواب عن السؤال الثالث : أن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، فأما ثخن الفلك فلعله لا يكون عظيماً .

وأما الجواب عن السؤال الرابع : ما روى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن ابن عباس قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في نفر من أصحابه

إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال : " ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا ، " قالوا : كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم" قال عليه الصلاة والسلام : " فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبحت حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء ، وسبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ، ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، ويتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزيدون فيه "

والجواب عن السؤال الخامس : أن النار قد تكون أقوى من نار أخرى ، فالأقوى يبطل الأضعف .

والجواب عن السؤال السادس : أنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة ، فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة ، وذلك يقدح في خبر الرسول عن بطلان الكهانة .

(379/774)

والجواب عن السؤال السابع : أن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع ، فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا في تلك الموضع سمعوا كلام الملائكة .

والجواب عن السؤال الثامن : لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين .

والجواب عن السؤال التاسع : أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فهذا ما يتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة المنافع أنها رجوم للشياطين ، قال بعد ذلك : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ أي أعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة ، قال المبرد : سعرت النار فهي مسعورة وسعير كقولك : مقبولة وقبيل ، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية ، لأن قوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ إخبار عن الماضي .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6)

اعلم أنه تعالى بين في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات ، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادراً على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان ، وبين أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزاً في حق المصرين على الإساءة غفوراً في حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزاً وغفوراً لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملاً في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة ، وحينئذ ثبت كونه قادراً على تعذيب العصاة فقال : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ أي ولكل من كفر بالله من الشياطين

وغيرهم عذاب جهنم ، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ، وقرىء :

﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ بالنصب عطف بيان على قوله : ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ [الحج : 4]

ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفاته كثيرة .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)

(380/774)

الصفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ .

﴿ أُلْقُواْ ﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به فيها ، ومثله قوله :

﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] وفي قوله : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ وجوه أحدها :

قال مقاتل : سمعوا لجهنم شهيقاً ، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق ، قال

الزجاج : سمع الكفار للنار شهيقاً ، وهو أقبح الأصوات ، وهو كصوت الحمار ، وقال المبرد

: هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ وثانيها : قال عطاء : سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم

فيها شهيقاً وثالثها : سمعوا من أنفسهم شهيقاً ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [

هود : 106] والقول هو الأول .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ قال الليث : كل شيء جاش فقد فار ، وهو فور

القدر والدخان والغضب والماء من العين ، قال ابن عباس : تغلي بهم كغلي المرجل ، وقال مجاهد : تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل ، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب ، قال المبرد : يقال تركت فلاناً يفور غضباً ، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية .

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ يقال : فلان يتميز غيظاً ، ويتعصف غيظاً وغضب فطارت منه (شعلة في الأرض وشعلة) في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه .

(381/774)

وأقول لعل السبب في هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب والدم عند الغليان يصير أعظم حجماً ومقداراً فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات في البدن ، فكلما كان الغضب أشد كان الغليان أشد ، فكان الازدياد أكثر ، وكان تمدد الأوعية وانشقاقها وتميزها أكثر ، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب ، فإن قيل : النار ليست من الأحياء ، فكيف يمكن وصفها بالغيظ قلنا الجواب من وجوه أحدها : أن البنية عندنا ليست شرطاً للحياة فلعل الله يخلق فيها وهي نار حياة وثانيها : أنه شبه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته وثالثها : يجوز أن يكون المراد غيظ

الزبانية .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

الفوج الجماعة من الناس والأفواج الجماعات في تعرفه ، ومنه قوله : ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ [النبأ : 18] و ﴿ خَزَنَتُهَا ﴾ مالك وأعوانه من الزبانية ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو سؤال توبيخ ، قال الزجاج : وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب ، وفي الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

احتجت المرجئة على أنه لا يدخل النار أحد إلا الكفار بهذه الآية ، قالوا : لأنه تعالى حكى عن كل من ألقي في النار أنهم قالوا : كذبنا النذير ، وهذا يقتضي أن من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار ، واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصر لا يدخل النار ، وأجاب القاضي عنه بأن النذير قد يطلق على ما في العقول من الأدلة المحذرة المخوفة ، ولا أحد يدخل النار إلا وهو مخالف للدليل غير متمسك بموجبه .

المسألة الثانية :

احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان إلا بعد ورود السمع بهذه الآية وقالوا : هذه الآية دلت على أنه تعالى إنما عذبهم لأنه أتاهم النذير ، وهذا يدل على أنه لو لم يأتهم النذير لما عذبهم .

ثم إنه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين :

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9)

الأول : قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْءٍ ﴾ .

واعلم أن قوله : ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل ، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا : ﴿ مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْءٍ ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الآية وجهان الوجه الأول : وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين

الوجه الثاني : يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار ، والتقدير أن الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

يحتمل أن يكون المراد من الضلال الكبير ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الهلاك ، ويحتمل أن يكون سمي عقاب الضلال باسمه .

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

هذا هو الكلام الثاني مما حكاه الله تعالى عن الكفار جواباً للخزنة حين قالوا : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

نَذِيرٌ﴾ [الملك : 8] والمعنى لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق أو نعقله عقل من كان متأملاً متفكراً لما كنا من أصحاب السعير ، وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(383/774)

احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة الهدى والإضلال بأن قالوا لفظة لو تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره فدلت الآية على أنه ما كان لهم سمع ولا عقل ، لكن لا شك أنهم كانوا ذوي أسماع وعقول صحيحة ، وأنهم ما كانوا صم الأسماع ولا مجانين ، فوجب أن يكون المراد أنه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية .

المسألة الثانية :

احتج بهذه الآية من قال : الدين لا يتم إلا بالتعليم فقال : إنه قدم السمع على العقل تنبيهاً على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي ، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلم والجواب : أنه إنما قدم السمع لأن المدعو إذا لقي الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه ، فلما كان السمع مقدماً بهذا السبب على التعقل

والتفهم لا جرم قدم عليه في الذكر .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي ، ثم قال كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم .

المسألة الرابعة :

احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية ، وقالوا : دلت الآية على أن للسمع مدخلاً في الخلاص عن النار والفوز بالجنة ، والبصر ليس كذلك ، فوجب أن يكون السمع أفضل .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال : ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ قال مقاتل : يعني بتكذيبهم الرسول وهو قولهم : ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك : 9] وقوله : ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن الذنب ههنا في معنى الجمع ، لأن فيه معنى الفعل ، كما يقال : خرج عطاء الناس ، أي عطياتهم هذا قول الفراء والثاني : يجوز أن يراد بالواحد المضاف الشائع ، كقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ [النحل : 34] .

ثم قال : ﴿ فَسُحْقًا لأصحاب السعير ﴾ قال المفسرون : فبعداً لهم اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لا ينفعهم ، والسحق البعد ، وفيه لغتان : التخفيف والتثقيل ، كما تقول في العنق والطنب ، قال الزجاج : سحقاً منصوب على المصدر ، والمعنى أسحقهم الله سحقاً ، أي باعدهم الله من رحمته مباعدة ، وقال أبو علي الفارسي : كان القياس سحاقاً ، فجاء المصدر على الحذف كقولهم : عمرك الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 58.52 ﴾

(385/774)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة ، وهي التزيد في الخيرات ، ولم يستعمل بيتبارك ولا متبارك ، وقوله : ﴿ بيده ﴾ عبارة عن تحقيق ﴿ الملك ﴾ ، وذلك أن اليد في عرف الآدميين هي آلة التملك فهي مستعرة ، و ﴿ الملك ﴾ على الإطلاق هو الذي لا يبيد ولا يختل منه شيء ، وذلك هو ملك الله تعالى ، وقيل المراد في هذه الآية : ملك المولك ، فهو بمنزلة قوله : ﴿

اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران : 26] ، عن ابن عباس رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ عموم ، والشيء معناه في اللغة الموجود ، و ﴿ الموت والحياة ﴾ معنيان يتعاقبان جسم الحيوان يرتفع أحدهما بحلول الآخر ، وما في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح على الصراط " ، فقال أهل العلم : ذلك تمثال كبش يوقع الله عليه العلم الضروري لأهل الدارين ، إنه الموت الذي ذاقوه في الدنيا ، ويكون ذلك التمثال حاملاً للموت على أنه يحل الموت فيه ، فتذهب عنه حياة ، ثم يقرن الله تعالى بذبح ذلك التمثال إعدام الموت . وقوله تعالى : ﴿ خلق الموت والحياة ليبلوكم ﴾ أي ليختبركم في حال الحياة ، ويجازيكم بعد الموت ، وقال أبو قتادة نحوه عن ابن عمر : قلت يا رسول الله : ما معنى قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ فقال : " يقول : أيكم أحسن عقلاً ، وأشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم في أمره ونهيه ، نظراً وإن كانوا أقلكم تطوعاً " . وقال ابن عباس وسفيان الثوري والحسن بن أبي الحسن : ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ أزهدكم في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿ ليبلو ﴾ دال على فعل تقديره : فينظر أو فيعلم أيكم ، وقال جماعة من المتأولين : الموت والحياة ، عبارة عن الدنيا والآخرة ، سمى هذه موتاً من حيث إن فيها الموت ، وسمى تلك الحياة من حيث لا موت فيها ، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف المضاف ، كعدل وزور ، وقدم ﴿ الموت ﴾ في اللفظ ، لأنه متقدم في النفس هيبة وغلظة ، و ﴿

طباقاً ﴾ قال الزجاج : هو مصدر ، وقيل : هو جمع طبقة أو جمع طبق مثل : رحبة ورحاب ، أو جمل وجمال ، والمعنى بعضها فوق بعض ، وقال أبان بن ثعلب : سمعت أعرابياً يذم رجلاً ، فقال : " شره طباق ، خيره غير باق " ، وما ذكر بعض المفسرين في السماوات من أن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كله ، ولم يثبت بذلك حديث ، ولا يعلم أحد من البشر حقيقة لهذا . وقوله تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ معناه من قلة تناسب ، ومن خروج عن إتقان ، والأمر المتفاوت ، هو الذي يجاوز الحدود التي توجب له زيادة أو نقصاناً ، وقرأ جمهور القراء : " من تفاوت " ، وقرأ حمزة والكسائي وابن مسعود وعلقمة والأسود وابن جبير وطلحة والأعمش : " من تفوت " وهما بمعنى واحد ، وقال بعض العلماء : ﴿ في خلق الرحمن ﴾ يعني به السماوات فقط ، وهي التي تتضمن اللفظ ، وإياها أراد بقوله : ﴿ هل ترى من فطور ﴾ ، وإياها أراد بقوله : ﴿ ينقلب إليك البصر ﴾ الآية ، قالوا وإلا ففي الأرض فطور ، وقال آخرون : ﴿ في خلق الرحمن ﴾ يعني به جميع ما في خلق الله تعالى من الأشياء ، فإنها لا تفاوت فيها ولا فطور ، جارية على غير إتقان ، ومتى كانت فطور لا تفسد الشيء المخلوق من حيث هو

ذلك الشيء ، بل هي إتقان فيه ، فليست تلك المرادة في الآية ، وقال منذر بن سعيد : أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلقها ثم أمر بالتكرير في النظر ، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ، ليرى فيها خللاً أو نقصاً ، فإن بصره ينقلب ﴿ خاسئاً ﴾ حسيراً ، ورجع البصر ترديده في الشيء المبصر .

(387/774)

وقوله : ﴿ كرتين ﴾ معناه مرتين ، ونصبه على المصدر ، والخاسئ المبعد بذل عن شيء أراده وحرص عليه ، ومنه الكلب الخاسئ ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد : " اخسأ فلن تعد وقدرك " ، ومنه قوله تعالى للكفار الحريصين على الخروج من جهنم : ﴿ اخسؤوا فيها ﴾ [المؤمنون : 108] ، وكذلك هنا البصر يحرص على روية فطور أو تفاوت فلا يجد ذلك ، فينقلب ﴿ خاسئاً ﴾ ، والحسير العييّ الكالّ ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

لهن الوجا لم كن عوناً على النوى . . . ولا زال منها طالح وحسير

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ

(388/774)

أخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا التي تلينا بمصابيح وهي النجوم ، فإن كانت جميع النجوم في السماء الدنيا فهذا اللفظ عام للكواكب ، وإن كان في سائر السماوات كواكب ، فإما أن يريد كواكب سماء الدنيا فقط ، وإما أن يريد الجميع على أن ما في غيرها لما كانت هي تشق عنه ، ويظهر منها ، فقد زينت به بوجه ما ، ومن تكلف القول بمواضع الكواكب وفي أي سماء هي ، فقوله ليس من الشريعة . وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ معناه وجعلنا منها ، وهذا كما تقول : أكرمت بني فلان وصنعت بهم وأنت إنما فعلت ذلك ببعضهم دون بعض ، ويوجب هذا التأويل في الآية أن الكواكب الثابتة والبروج ، وكل ما يهتدى به في البر والبحر فليست براجم ، وهذا نص في حديث السير ، وقال قتادة رحمه الله : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ورجوماً للشياطين وليهتدى بها في البر والبحر ، فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة . ﴿ وأعتدنا ﴾ معنا : أعددنا والضمير في : ﴿ لهم ﴾ عائد على الشياطين ، وقرأ جمهور الناس : " وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم " بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور المتقدم ، وقرأ الحسن في رواية هارون عنه : " عذابَ " بالنصب على معنى " وأعتدنا للذين كفروا عذابَ جهنم " ، قالوا : وعاطفة فعل على فعل ، وتضمنت هذه الآية ، أن عذاب جهنم للكافرين المخلدين ، وقد جاء في الأثر أنه يمر على جهنم زمن تخفق أبوابها قد أخلتها

الشفاعة ، فالذي قال في هذا إن ﴿ جهنم ﴾ اسم تختص به الطبقة العليا من النار ثم قد تسمى الطبقات كلها جهنم باسم بعضها ، وهكذا كما يقال النجم للثريا ، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس فالذي في هذه الآية هي جهنم بأسرها ، أي جميع الطبقات ، والتي في الأثر هي الطبقة العليا ، لأنها مقر العصاة ، والشهيق : أقبح ما يكون من صوت الحمار ، فاحتدام النار وغليانها بصوت مثل ذلك ، قوله تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي يزايل

(389/774)

بعضها بعضاً لشدة الاضطراب كما قال الشاعر في صفة الكلب المحتدم في جريه : [الرجز] :

يكاد أن يخرج عن إهابه . . . وقرأ الضحاك : " تمايز " بألف ، وقرأ طلحة : " تتميز " بتاءين ، وقرأ الجمهور : " تكادُ تَميز " بضم الدال وفتح التاء مخففة ، وقرأ البزي " تكادُ " بضم الدال وشد التاء أنها " تتميز " وأدغم إحدى التاءين في الأخرى .

وقرأ أبو عمرو بن العلاء : ﴿ تكاد تميز ﴾ بإدغام الدال في التاء ، وهذا فيه إدغام الأقوى في الأضعف ، وقوله تعالى : ﴿ من الغيظ ﴾ معناه على الكفرة بالله ، وقوله تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ ، الفوج : الفريق من الناس ، ومنه قوله تعالى :

﴿ في دين الله أفواجاً ﴾ [النصر : 2] الآية ، تقتضي أنه لا يلقى فيها أحد إلا سئل على جهة التوبيخ عن النذر فأقر بأنهم جاؤوا وكذبوهم ، وقوله : ﴿ كلما ﴾ حصر . فإذا الآية تقتضي في الأطفال من أولاد المشركين وغيرهم ، وفيمن نقدره صاحب فترة أنهم لا يدخلون النار لأنهم لم يأتهم نذير ، واختلف الناس في أمر الأطفال ، فأجمعت الأمة على أن أولاد الأنبياء في الجنة ، واختلفوا في أولاد المؤمنين ، فقال الجمهور : هم في الجنة ، وقال قوم هم في المشيئة ، واختلفوا في أولاد المشركين ، فقالت فرقة : هم في النار ، واحتجوا بحديث روي من آبائهم ، وتأول مخالف هذا الحديث ، أنهم في أحكام الدنيا ، وقال : هم في المشيئة ، وقال فريق : هم في الجنة ، واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مساءلة الخزنة ، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التفسير ، يتضمن أنهم في الجنة . وبقوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، فالأطفال لم يبلغوا أن يصنع بهم شيء من هذا " . وقوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كذبوا النذر ، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر .

(390/774)

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

المعنى وقال الكفار للخزنة في محاورتهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ﴾ سمعاً أو عقلاً ينتفع به ويغني شيئاً لآمنا ولم نستوجب الخلود في السعير ، ثم أخبر تعالى محمداً أنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف ، وقوله تعالى : ﴿ فسحقاً ﴾ نصب على جهة الدعاء عليهم وجاز ذلك فيه ، وهو من قبل الله تعالى من حيث هذا القول مستقراً فيهم أزلاً ووجوده لم يقع ولا يقع إلا في الآخرة ، فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى فيه ، كما تقول : سحقاً لزيد وبعداً ، والنصب في هذا كله بإضمار فعل ، وأما ما وقع وثبت ، فالوجه فيه الرفع كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين : 1] ، و ﴿ سلام عليكم ﴾ [الأنعام : 54 ، الأعراف : 46 ، الرعد : 24 ، القصص : 55 ، الزمر : 73] ، وغير هذا من الأمثلة ، وقرأ الجمهور : " فسحْقاً " بسكون الحاء ، وقرأ الكسائي : " فسُحقاً " بضم الحاء وهما لغتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(391/774)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾

جمع مصباح وهو السراج.

وتُسَمَّى الكواكب مصابيح لإضاءتها .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً ﴾ أي جعلنا شُهُبَهَا ؛ فحذف المضاف .

دليلُه ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها .

وقيل : إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب ، ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته .

قاله أبو عليّ جواباً لمن قال : كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى .

قال المهدَوِيّ : وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب .

والتقدير الأول على أن يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب .

القُشَيْريّ : وأمثل من قول أبي عليّ أن نقول : هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين .

والرّجوم جمع رجم ؛ وهو مصدر سُمِّيَ به ما يرجم به .

قال قتادة : خلق الله تعالى النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يُهتَدى بها في البر والبحر والأوقات .

فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف ما لا علم له به ، وتعدّى وظلم .

وقال محمد بن كعب : والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم ، ولكنهم يتخذون

الكهانة سبيلاً ويتخذون النجوم علّة .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ أي أعتدنا للشياطين أشدّ الحريق ؛ يقال : سعرت النار فهي مسعورة وسعير ؛ مثل مقتولة وقتيل .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا ﴾ يعني الكفار .

﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً ﴾ أي صَوْتاً .

قال ابن عباس : الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها ؛ تَشْهَق إليهم شهقة البغلة للشعير ، ثم تَزْفِر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف .

وقيل : الشَّهِيق من الكفار عند إلقائهم في النار ؛ قاله عطاء .

(392/774)

والشَّهيق في الصدر ، والزَّفِير في الحَلْق .

وقد مضى في سورة "هود" .

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي تَغْلي ؛ ومنه قول حسان :

تركتم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها . . .

وقِدْرُ القوم حامية تفورُ

قال مجاهد : تفور بهم كما يفور الحَبّ القليلُ في الماء الكثير .

وقال ابن عباس : تَغْلي بهم على المِرْجل ؛ وهذا من شدّة لَهَب النار من شدّة الغضب ؛ كما تقول فلان يفور غَيْظاً .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ يعني تتقطّع وينفصل بعضها من بعض ؛ قاله سعيد بن جُبَير .

وقال ابن عباس والضحاك وابن زيد : تتفرّق .

"مِنَ الغَيْظِ" من شدّة الغيظ على أعداء الله تعالى .

وقيل : "مِنَ الغَيْظِ" من الغليان .

وأصل "تميّز" تتميز .

﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي جماعة من الكفار .

﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي رسول في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا .

﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أنذرنا وخوّفنا .

﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي على ألسنتكم .

﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ يا معشر الرسل .

﴿ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ اعترفوا بتكذيب الرسل ، ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا وهم في النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ من النذر يعني الرسل ما جاءوا به ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عنهم .

قال ابن عباس : لو كنا نسمع الهدى أو نعقله ، أو لو كنا نسمع سماع من يَعي ويفكّر ، أو نعقل عقْلَ من يميّز وينظر .

ودلّ هذا على أن الكافر لم يُعْطَ من العقل شيئاً .

وقد مضى في "الطُّور" بيانه والحمد لله .

﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ يعني ما كنا من أهل النار .

وعن أبي سعيد الخُدرِيّ .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لقد نَدِم الفاجر يوم القيامة قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فقال الله تعالى فاعترفوا بذنبهم " أي بتكذيبهم الرسل .

(393/774)

والذنب ها هنا بمعنى الجمع ؛ لأن فيه معنى الفعل .

يقال : خرج عطاء الناس أي أعطيتهم .

﴿ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ﴾ أي فبُعْداً لهم من رحمة الله .

وقال سعيد بن جُبير وأبو صالح : هو وادٍ في جهنم يقال له السَّحْق .

وقرأ الكسائي وأبو جعفر "فَسُحُقاً" بضم الحاء ، ورُوِيَت عن عليّ .

الباقون بإسكانها ، وهما لغتان مثل السُّحْتُ والرُّعُبُ .

الزجاج : وهو منصوب على المصدر ؛ أي أسحقهم الله سُحقاً ؛ أي باعدهم بُعْداً .

قال امرؤ القيس :

يجول بأطراف البلاد مُغَرّباً . . .

وتَسْحَقُه رِيح الصّبَا كُلَّ مَسْحَقِ

وقال أبو عليّ : القياس إسحاقاً ؛ فجاء المصدر على الحذف ؛ كما قيل :

* وإن أهلك فذلك كان قدري . . .

أي تقديري .

وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ من قول خزنة جهنم لأهلها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾

البركةُ النماءُ والزيادةُ حسيةً كانتْ أو عقليةً ، وكثرةُ الخيرِ ودَوامُهُ أيضاً ، ونسبتُهَا إلى الله عزَّ وجلَّ على المَعْنَى الأولِ وهُو الأليقُ بالمقامِ باعتبارِ تعاليهِ عمَّا سواهُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وصيغةُ التفاعلِ للمبالغةِ في ذلكَ فإنَّ ما لا يتصورُ نسبتُهُ إليهِ تعالَى من الصيغِ كالتكبرِ ونحوِهِ إنَّما تنسبُ إليه سبحانَهُ باعتبارِ غاياتِهَا ، وعلى الثَّاني باعتبارِ كثرةِ ما يفيضُ منهُ على مخلوقاتِهِ من فنونِ الخيراتِ ، والصيغةُ حينئذٍ يجوزُ أن تكونَ لإفادةِ نماءِ تلكَ الخيراتِ وازديادِها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً بحسبِ حدوثِهَا أو حدوثِ متعلقاتِهَا ، ولاستقلالِهَا بالدلالةِ على غايةِ الكمالِ وإنبائِها عن نهايةِ التعظيمِ لم يجُزْ استعمالُهَا في حقِّ غيرِه سبحانَهُ ، ولا استعمالُ غيرِهَا من الصيغِ في حقِّه تباركَ وتعالَى . وإسنادُها إلى الموصولِ للاستشهادِ بما في حيزِ الصَّلةِ على تحققِ مضمونِهَا ، واليدُ مجازٌ عن القدرةِ التامَّةِ والاستيلاءِ الكاملِ ، أي تعالَى وتعاظَم بالذاتِ عن كلِّ ما سواهُ ذاتاً وصفةً وفعلاً الذي بقبضةِ قُدرتِهِ التَّصرفُ الكليُّ في كلِّ الأمورِ . ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياءِ ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مُبالِغٌ في القُدرةِ عليهِ يتصرفُ فيهِ حسبَما تقتضيهِ مشيئتُهُ المبنيةُ على الحِكَمِ البالغةِ . والجملةُ معطوفةٌ على الصِّلةِ مقررةٌ لمضمونِهَا مفيدةٌ لجريانِ أحكامِ مُلكِهِ تعالَى في جَلائلِ الأُمورِ ودقائقِها . وقولُه تعالَى :

﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ شروعٌ في تفصيلِ بعضِ أحكامِ المُلكِ وآثارِ القُدرةِ وبيانِ ابتنائِهما على قوانينِ الحِكَمِ والمَصالحِ واستتباعِهما لغاياتٍ جليلةٍ . والموصولُ بدلٌ من الموصولِ الأولِ داخلٌ معهُ في حُكمِ الشهادةِ بتعاليهِ تعالَى . والموتُ عندَ أصحابِنَا صفةٌ وجُوديةٌ مضادةٌ للحياةِ ، وأمَّا ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا منْ أنَّهُ تعالَى خلقَ الموتَ في صُورةِ كبشٍ أملحَ لا يمرُّ بشيءٍ ولا يجدُ رائحَتَهُ شيءٌ إلا ماتُ وخلقَ الحياةَ في صورةِ فرسٍ بَلقاءَ لا تمرُّ بشيءٍ ولا يجدُ رائحتَهَا شيءٌ إلا حَيِي ، فكلامٌ واردٌ على منهاجِ التمثيلِ والتصويرِ . وقيلَ هو عدمُ الحياةِ فمعنَى خلقِه حينئذٍ تقديرُهُ أو إزالةُ الحياةِ وأيّاً ما كانَ فالأقربُ أنَّ المرادَ بهِ الموتُ الطارئُ وبالحياةِ ما قبلَهُ وما بعدَهُ لظهورِ مداريتِهما ، لما ينطقُ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فإن استدعاءَ ملاحظتِهما لإحسانِ العملِ بما لا ريبَ فيهِ معَ أنَّ نفسَ العملِ لا يتحققُ بدونِ الحياةِ الدنيويةِ . وتقديمُ الموتِ لكونِهِ أدعى إلى إحسانِ العملِ ، واللامُ متعلقةٌ بخلقَ أي خلقَ موتَكُم وحياتَكُم ، على أنَّ الألفَ واللامَ عوضٌ عن المضافِ إليهِ ليعاملَكُم معاملةَ مَنْ يختبرُكم أيكُم أحسنُ عملاً

فيحازيكُم على مراتبَ متفاوتةٍ حسبَ تفاوتِ طبقاتِ علومِكُم وأعمالِكُم فإنَّ العملَ غيرُ مختصَ بعملِ الجوارحِ ، ولذلكَ فسَّرَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه :

(396/774)

" أيكم أحسنُ عقلاً وأورعُ عن محارمِ الله وأسرعُ في طاعةِ الله " فإنَّ لكلَ من القلبِ والقالبِ عملاً خاصَّاً به ، فكَما أنَّ الأولَ أشرفُ من الثَّاني ، كذلكَ الحالُ في عملِهِ ، كيفَ لاَ ولا عملَ بدونِ معرفةِ الله عزَّ وجلَّ الواجبةَ على العبادِ أثر ذي أثير وإنما طريقُها النظريُّ التفكرُ في بدائعِ صُنْعِ الله تعالَى والتدبرُ في آياتِه المنصوبةِ في الأنفسِ والآفاقِ ، وقَد رُويَ عنْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّهُ قالَ : " لا تُفضّلُوني على يونسُ بنِ مَتَّى فإنَّهُ كانَ يُرفعُ لهُ كلَّ يومٍ مثلُ عملِ أهلِ الأرضِ " قالُوا وإنَّما كانَ ذلكَ التفكرَ في أمرِ الله عزَّ وجلَّ الذي هُو عملُ القلبِ ضرورةَ أنَّ أحداً لا يقدرُ على أنْ يعملَ بجوارحِهِ كلَّ يومٍ مثلَ عملِ أهلِ الأرضِ . وتعليقُ فعلِ البَلْوَى أي تعقيبُهُ بحرفِ الاستفهامِ لا التعليقُ المشهورُ الذي يقتضِي عدمَ إيرادِ المفعولِ أصلاً مع اختصاصِهِ بأفعالِ القلوبِ لما فيهِ من مَعْنَى العلمِ باعتبارِ عاقبتِهِ كالنظرِ ونظائِره ولذلك أُجرَي مَجْرَاه بطريقِ التمثيلِ ، وقيلَ بطريقِ الاستعارةِ التبعيةِ . وإيرادُ صيغةِ التفضيلِ معَ أنَّ الابتلاَ شاملٌ لهم باعتبارِ أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسنِ والقبيحِ أيضاً لا إلى الحسنِ

والأحسنِ فقطْ للإيذانِ بأنَّ المرادَ بالذاتِ والمقصدِ الأصليِّ من الابتلاءِ هو ظهورُ كمالِ إحسانِ المحسنينَ مع تحققِ أصلِ الإيمانِ والطاعةِ في الباقينَ أيضاً لكمالِ تعاضدِ الموجباتِ له وأما الإعراضُ عن ذلكَ فبمعزلٍ من الاندراجِ تحتَ الوقوعِ فضلاً عن الانتظامِ في سلكِ الغايةِ للأفعالِ الإلهيةِ وإنَّما هُو عملٌ يصدرُ عن عاملِهِ بسوءِ اختيارِهِ من غيرِ مصححٍ لهُ ولا تقريبٍ وفيهِ من الترغيبِ في الترقّي إلى معارجِ العلومِ ومدارجِ الطاعاتِ والزجرِ عن مباشرةِ نقائضِها ما لا يَخْفى ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالبُ الذي لا

(397/774)

يفوتُهُ من أساءَ العملَ ﴿ الغفور ﴾ لمن تابَ منهُم.

﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ﴾

قيلَ هو نعتٌ للعزيزُ الغفورُ أو بيانٌ أو بدلٌ والأوجهُ أنه نُصبَ أو رُفعَ على المدحِ متعلقٌ بالموصلينِ السابقينِ مَعْنَى وإنْ كانَ منقطعاً عنهُما إعراباً كما مرَّ تفصيلُهُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ من سورةِ البقرةِ منتظمٌ معهما في سلكِ الشهادةِ بتعاليهِ سبحانَهُ، ومع الموصولِ الثَّاني في كونِه مداراً للبلوى كما نطقَ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ وقولُه

تعالَى : ﴿ طِبَاقاً ﴾ صفةٌ لسبعَ سمواتٍ أي مطابقةً على أنَّه مصدرُ طابقتَ النعلَ إذا خصفتَها وُصفَ بهِ المفعولُ أو مصدرٌ مؤكدٌ لمحذوفٍ هو صفتُها أي طُوبقتْ طباقاً . وقولُه تعالَى : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ صفةٌ أُخرى لسبعَ سمواتٍ ، وضع فيها خلقُ الرحمنِ موضعَ الضميرِ للتعظيمِ والإشعارِ بعلةِ الحكمِ وبأنَّه تعالى خلقَها بقدرتِهِ القاهرةِ رحمةً وتفضلاً ، وبأنَّ في إبداعِها نعماً جليلةً أو استئنافٌ ، والخطابُ للرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلحُ للخطابِ ، ومنْ لتأكيدِ النَّفي أي ما ترى فيهِ من شيءٍ من تفاوتٍ أي اختلافٍ وعدم تناسُبٍ ، من الفَوتِ ، فإنَّ كلاً من المتفاوتينَ يفوتُ منهُ بعضُ ما في الآخرِ وقُرِىءَ من تفوتٍ ، ومعناهُمَا واحدٌ . وقولُه تعالَى : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ متعلقٌ بهِ على مَعْنَى التسببِ حيثُ أخبرَ أولاً بأنه لا تفاوتَ في خلقهنَّ ثم قيلَ فارجعِ البصرَ حتَّى يتضحَ لك ذلكَ بالمعاينةِ ولا يبقى عندكَ شبهةٌ ما ، والفطورُ الشقوقُ والصدوعُ جمعُ فِطْرٍ وهو الشقُّ يقالُ فطرَهُ فانفطرَ .

(398/774)

﴿ ثُمَّ ارجعِ البَصرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي رجعتينِ أُخريَينِ في ارتيادِ الخللِ والمرادُ بالتثنيةِ التكريرُ والتكثيرُ كما في لبَّيكَ وسَعديكَ أي رجعةً بعدَ رجعةٍ وإنْ كثُرتْ . ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصرُ

خَاسِئًا ﴾ أي بعيداً محروماً من إصابةِ ما التمسَهُ من العيبِ والخللِ كأنَّه يُطردُ عن ذلكَ طرداً بالصَّغارِ والقَماءةِ ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليلٌ لطولِ المعاودةِ وكثرةِ المُراجعةِ . وقولُه تعالَى :

(399/774)

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ بيانٌ لكونِ خلقِ السمواتِ في غايةِ الحسنِ والبهاءِ إثرَ بيانِ خُلوهَا عن شائبةِ القصورِ . وتصديرُ الجملةِ بالقسمِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بمضمونِهَا أي وباللهِ لقد زيَّنا أقربَ السمواتِ إلى الأرضِ ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكبَ مضيئةً بالليلِ إضاءةَ السرجِ من السياراتِ والثوابتِ تتراءى كأن كلَّها مركوزةٌ فيها مع أنَّ بعضَها في سائرِ السمواتِ وما ذاكَ إلا لأنَّ كلَّ واحدةٍ منها مخلوقةٌ على نمطٍ رائقٍ تحارُ في فهمِهِ الأفكارُ وطرازٍ فائقٍ تهيمُ في دركِهِ الأنظارُ ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ وجعلنَا لها فائدةً أُخرى هي رجمُ أعدائِكُم بانقضاضِ الشهبِ المقتبسةِ من نارِ الكواكبِ ، وقيلَ معناهُ وجعلنَاهَا ظنوناً ورجوماً بالغيبِ لشياطينِ الإنسِ وهم المنجمونَ ، ولا يساعدهُ المقامُ والرجومُ جمع رَجْمٍ بالفتحِ وهو ما يُرجمُ بِهِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ في الآخرةِ ﴿ عَذَابَ السعير ﴾ بعد الاحتراقِ في الدُّنيا بالشهبِ ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطينِ وغيرِهم ﴿

عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ وقُرِىءَ بالنصبِ على أنَّه عطفٌ على عذابِ السعيرِ وللذينَ على لهم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي جهنمُ ﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا ﴾ أي لجهنَم وهو متعلقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من قولِهِ تعالَى : ﴿ شَهِيقًا ﴾ لأنه في الأصلِ صفتُه فلما قُدمتْ صارتْ حالاً أي سمعُوا كائناً لَها شهيقاً أي صوتاً كصوتِ الحميرِ وهو حسيسُها المنكرُ الفظيعُ قالوا الشهيقُ في الصدرِ والزفيرُ في الحلقِ ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ أي والحالُ أنها تغلِي بهم غليانَ المِرْجلِ بما فيهِ ، وجعلُ الشهيقِ لأهلِهَا منهُم وممن طُرِحَ فيها قبلَهُم كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ يرده قوله تعالَى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ أي تتميزُ وتتفرقُ ﴿ مِنَ الغيظ ﴾ أي منْ شدةِ الغضبِ عليهِم

(400/774)

فإنَّه صريحٌ في أنَّهُ من آثارِ الغضبِ عليهِم كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً ﴾ فأينَ هُو من شهيقِهم الناشىءِ من شدةِ ما يقاسونَهُ من العذابِ الأليمِ ، والجملةُ إما حالٌ من فاعلِ تفورُ أو خبرٌ آخرُ . وقولُه تعالَى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِ أهلِها بعد بيانِ حالِ نفسِها وقيلَ حالٌ من ضميرِها أي كلما أُلقَى فيها جماعةٌ من الكفرةِ .

﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ بطريقِ التوبيخِ والتقريعِ ليزدادُوا عذاباً فوقَ عذابٍ وحسرةً على حسرةٍ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ يتلُو عليكُم آياتِ ربّكُم وينذركُم لقاءَ يومِكُم هذا كما وقعَ في سورةِ الزمرِ ويعربُ عنه جوابهُم أيضاً ﴿ قَالُواْ ﴾ اعترافاً بأنه تعالَى قد أزاحَ عللَهُم بالكليةِ ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ ﴾ جامعينَ بينَ حرفِ الجوابِ ونفسِ الجملةِ المجابِ بها مبالغةً في الاعترافِ بمجيءِ النذيرِ وتحسراً على ما فاتَهُم من السعادةِ في تصديقِهم وتمهيداً لبيانِ ما وقعَ منهُم من التفريطِ تندماً واغتماماً على ذلكَ أيْ قالَ كلُّ فوجٍ من تلكَ الأفواجِ قد جاءَنا نذيرٌ أي واحدٌ حقيقةً أو حكماً كأنبياءِ بني إسرائيلَ فإنهم في حكمِ نذيرٍ واحدٍ فأنذرنا وتَلا علينا ما نزّلَ اللهُ تعالَى من آياتِهِ .

(401/774)

﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلكَ النذيرَ في كونِهِ نذيراً من جهتِهِ تعالَى : ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حقِّ ما تلاهُ من الآياتِ إفراطاً في التكذيبِ وتمادياً في النكيرِ ﴿ مَّا نَزَّلَ اللهُ ﴾ على أحدٍ ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ من الأشياءِ فضلاً عن تنزيلِ الآياتِ عليكُم ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتُم في ادعاءِ أنَّه تعالَى نزّلَ عليكُم آياتٍ تُنذرونَنا بمَا فيها ﴿ إِلاَّ فِى ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ بعيدٍ عن الحقِّ والصوابِ . وجمعُ ضميرِ الخطابِ مع أنَّ مخاطِبَ كلِّ فوجٍ نذيرُهُ لتغليبِهِ على أمثالِه مبالغةً في التكذيبِ وتمادياً

في التضليلِ كما ينبىءُ عنهُ تعميمُ المُنزِّلِ مع تركِ ذكرِ المُنزَّلِ عليهِ فإنَّه مُلوِّحٌ بعمومِهِ حتماً وأما إقامةُ تكذيبِ الواحدِ مُقامَ تكذيبِ الكلِّ فأمرٌ تحقيقيٌّ يصارُ إليهِ لتهويلِ ما ارتكبُوا من الجناياتِ لا مساغَ لاعتبارِهِ من جهتِهِم ولا لإدراجِهِ تحت عبارَتِهِم ، كيفَ لا وهو منوطٌ بملاحظةِ إجماعِ النذرِ على ما لا يختلفُ من الشرائعِ والأحكامِ باختلافِ العصورِ والأعوامِ وأين هُم من ذلك وقد حال الجريضُ دونَ القريضِ . هَذا إذا جَعلَ ما ذُكِرَ حكايةً عن كلِّ واحدٍ من الأفواجِ ، وأما إذا جُعلَ حكايةً عن الكلِّ فالنذيرُ إمَّا بمَعْنَى الجمعِ لأنَّه فعيلٌ أو مصدرٌ مقدرٌ بمضافٍ عامَ أي أهلُ نذيرٍ أو منعوتٌ بهِ فيتفقُ كلا طَرَفَي الخطابِ في الجمعيةِ ، ومن اعتبرَ الجمعيةَ بأحدِ الوجوهِ الثلاثةِ على التقديرِ الأولِ ولم يخصَّ اعتبارَهَا بالتقديرِ الأخيرِ فقد اشتَبَه عليهِ الشؤونُ واختلطَ بهِ الظنونُ وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الخطابُ من كلامِ الخزنةِ للكفارِ على إرادةِ القولِ على أنَّ مرادَهُم بالضَّلالِ ما كانُوا عليهِ في الدُّنيا أو هلاكُهُم أو عقابُ ضلالِهِم تسميةً لهُ باسمِ سببِهِ وأن يكونَ من كلامِ الرسلِ للكفرةِ وقد حكَوه للخزنةِ فتأملْ وكُنْ على الحقِّ المبينِ .

(402/774)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أيضاً معترفينَ بأنَّهم لم يكونُوا ممن يسمعُ أو يعقلُ ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلاماً ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ شيئاً ﴿ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ أي في عدادِهِم ومن أتباعِهِم وهم الشياطينُ لقولِهِ تعالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ كأنَّ الخزنةَ قالُوا لهم في تضاعيفِ التوبيخِ ألم تسمعُوا آياتِ ربّكُم ولم تعقِلُوا معانِيهَا حتَّى لا تُكذبُوا بها فأجابُوا بذلكَ ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ الذي هو كُفرهم وتكذيبُهُم بآياتِ الله ورسولِهِ ﴿ فَسُحْقًا ﴾ بسكونِ الحاءِ ، وقُرِىءَ بضمّها مصدرٌ مؤكدٌ إمَّا لفعلٍ متعدَ من المزيدِ بحذفِ الزوائدِ كَما في قعدكَ الله أي فأسحقَهُم الله أي أبعدَهُم من رحمتِهِ سُحْقَاً أي إسْحَاقاً أو لفعلٍ مترتبٍ على ذلكَ الفعلِ أي فأسحقَهُم الله فسَحقُوا أي بُعدوا سُحقاً أي بُعْداً كما في قولِ مَنْ قالَ

وعضةُ دهرٍ يا ابْنَ مروانَ لم تدَعْ . . . مِنَ المالِ إلا مُسْحَتٌ أو مُجلّفُ

أي لم تدعَ فلم يبقَ إلا مسحتٌ الخ وعلى هذينِ الوجهينِ قولُه تعالَى : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ واللامُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ لأصحاب السعير ﴾ للبيانِ كما في هيتَ لكَ ونحوِهِ والمرادُ بهم الشياطينُ والداخلونَ في عدادِهِم بطريقِ التغليبِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(403/774)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء ﴾ الخ

كلام مسوق للحث على النظر قدرة وامتناناً وفي الإرشاد بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء أثر بيان خلوها عن شائبة العيب والقصور وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها أي وبالله لقد زينا السماء ﴿ الدنيا ﴾ منكم أي التي هي أتم دنوا منكم من غيرها فدنوها بالنسبة إلى ما تحت وأما بالنسبة إلى من حول العرش فبالعكس ﴿ بمصابيح ﴾ جمع مصباح وهو السراج وتجوز به عن الكوكب ثم جمع أو تجوز بالمصابيح ابتداء عن الكواكب وفسره بعض اللغويين بمقر السراج فيكون حينئذ تجوزاً على تجوز ولا حاجة إليه مع تصريحهم بأن المصباح نفس السراج أيضاً وتنكيرها للتعظيم أي بمصابيح عظيمة ليست كمصابيحكم التي تعرفونها وقيل للتنويع والأول أولى والظاهر أن المراد الكواكب المضيئة بالليل إضاءة السراج من السيارات والثوابت بناء على أنها كلها في أفلاك ومجار متفاوتة قرباً وبعدا في ثخن السماء الدنيا وكون السماء هي الفلك خلاف المعروف عن السلف وإنما هو قول قاله من أراد الجمع بين كلام الفلاسفة الأولى وكلام الشريعة فشاع فيما بين الإسلام واعتقده من اعتقده وعن عطاء أن الكواكب في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور في أيدي ملائكة وعليه فزينا السماء بمصابيح

كقول القائل

زينت السقف بالقناديل . . .

(404/774)

وهو ظاهر لكن الخبر لا يكاد يصح ومن اعتقد أن السماء الدنيا فلك القمر والست الباقية أفلاك السيارات الباقية على الترتيب المشهور وأن للثوابت فلكاً مخصوصاً يسمى بلسان الشرع بالكرسي أو جوز أن تكون هذه في فلك زحل وهو السماء السابعة أو يكون بعضها في فلك وبعضها الآخر في آخر فوقه أو كل منها في فلك وسماء غير السبع والاقتصار على العدد القليل لا ينفي الكثير قال إن تخصيص السماء بالتزيين بها لأنها إنما ترى عليها ولا ترى جرم ما فوقها أو رعاية لمقتضى إفهام العامة لتعذر التمييز بين سماء وسماء عليهم فهم يرون الكواكب كجواهر متلألئة على بساط الفلك الأزرق الأقرب ومن اعتبر ما عليه أهل الهيئة اليوم من أن الكواكب فلك عجائب القدرة مواخر في بحر جو الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة ومجاريها فيه هي أفلاكها وقد تحركت إذ تحركت في خلاء أو ما يشبهه مع قوى بها تجاذبت وارتبطت ولها حركات على أنفسها وحركات غير ذلك وليست مركوزة كما اشتهر في أجرام صلبة شفافة لا ثقيلة ولا خفيفة تسمى أفلاكاً أو سماء وهي متفاوتة

قرباً وبعداً تفاوتاً كلياً وإن رؤيت كلها قريبة لسبب خفي إلى الآن عليهم حتى أن منها ما لا يصل شعاعه إلينا إلا في عدة سنين مع أن شعاع الشمس وبيننا وبينها أربعة وثلاثون مليوناً من الفراسخ والمليون ألف ألف يصل إلينا في ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية إلى آخر ما زعموا فيها قال يجوز أن يراد بالسماء الدنيا طبقة مخصوصة في هذا الفضاء وبالمصابيح كواكب فيها نفسها قد زينت تلك الطبقة بها تزيين فضاء دار بطيور يطرن وحائمات فيه مثلاً أو جميع ما يرى من الكواكب وإن كان فوقها وتزيينها بذلك بإظهاره فيها كما مر وأنت تعلم أن من تصدى لتطبيق الآيات والأخبار على ما قاله الفلاسفة مطلقاً فقد تصدى لأمر لا يكاد يتم له والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أحق بالاتباع نعم تأويل النقلي إنما ينبغي إذا قام الدليل العقلي على خلاف ما دل عليه

(405/774)

وأكثر أدلة الفلاسفة قاعدة على العجز عن إثباتها إثباتاً صحيحاً ما يخالف أدلة أهل الشرع كما لا يخفى على من استضاء بمصابيحه ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ الضمير للمصابيح على ما هو الظاهر لا للسماء الدنيا على معنى جعلنا منها أي من جهتها كما قيل والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرجم به أي يرمى فصار له حكم

الأسماء الجامدة ولذا جمع وإن كان الأصل في المصادر أنها لا تجمع وقيل أنه هنا مصدر بمعنى الرجم أيضاً والمراد بالشياطين مسترقوا السمع ورجمهم على ما اشتهر بانقضاض الشهب المسببة عن الكواكب وإليه ذهب غير واحد من المفسرين وهو مبني على ما قرره الفلاسفة المتقدمون من أن الكواكب نفسها غير منقضة وإنما المنقض شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة لكرة النار لكنها بواسطة تسخين الكواكب للأرض فالتجوز في إسناد الجعل إليها أو في لفظها وهو مجاز بوسايط وقال الشهاب لا مانع من جعل المنقض نفسه من جنس الكواكب وإن خالف اعتقاد الفلاسفة وأهل الهيئة ولكن في النصوص الإلهية ما فيه رجوم للشياطين انتهى .

(406/774)

وأقول : لا يخفى أن ذلك المبنى لا يتم أيضاً إلا بثبوت كرة النار الذي لا تراهم يستدلون عليه إلا بحدوث هذه الشهب وسلف الأمة لا يقولون بذلك وكذا أهل الفلسفة الجديدة وهؤلاء لم يحققوا إلى الآن أمر هذه الشهب لكن يميلون إلى أنها أجسام انفصلت عن الكواكب التي يزعمونها عوالم مشتملة على جبال ونحوها اشتمال الأرض على ذلك وخرجت لبعض الحوادث عن حد القوى الجاذبة لها إلى ما انفصلت عنه ولم تصل إلى حد جذب قوة الأرض

لها فبقيت تدور عند منتهى كرة الأرض وما يحيط بها من الهواء فإذا عرض لها الدخول في هواء الأرض أثناء حركتها احترقت كلاً أو بعضاً كما تحترق بعض الأجسام المحفوظة عن الهواء إذا صادمها الهواء وربما تصل في بعض حركاتها إلى حد جذب الأرض فتقع عليها وبعضهم يزعم في الحجارة الساقطة من الجو التي تسمى عندهم بالابروليت يعنون حجارة الهواء أنها من تلك الأجسام وكل ذلك حديث خرافة ورجم بظنون فاسدة وقصارى ما يقال في هذه الشهب أنها تحتمل أن تكون ناشئة من أجرام من جنس الكواكب فيها قوة الإحراق سواء كان كل مضيء محرقاً أم لا متكونة في جو هذا الفضاء المشاهد إلا أنها لغاية صغرها لا تشاهد ولو بالنظارات حتى إذا قربت بانقضاضها شوهدت وقد تصادف في انقضاضها أجساماً متصاعدة من الأرض فتحرقها وربما يتصل الحريق إلى ما يقرب من الأرض جداً وربما تكونت الحجارة من ذلك ثم إن العقل يجوز أن يكون لها دوران على شكل من الأشكال فترجع بعد ما يشاهد لها من الانقضاض وأن تتلاشى بعد انقضاضها ويخلق الله تعالى غيرها من مادة لا يعلمها إلا هو عز وجل والضمير المنصوب في جعلناها وإن عاد على المصابيح لكن لم يعد عليها إلا باعتبار الجنس دون خصوصية كونها مزينة بها السماء الدنيا نظير

﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ [فاطر : 11] وعندي درهم ونصفه لما أن التزيين باعتبار الظهور ولا ظهور لهذه الأجرام قبل انقضاضها وإن اعتبر في كونها مصابيح أو كواكب أو نجوماً ظهورها في نفسها ولمن يقرب منها دون خصوصية ظهورها لنا وفي كونها زينة للسماء كونها زينة لها في الجملة فالأمر ظاهر جداً ويحتمل أن تكون ناشئة من المصابيح المشاهدة المزين بها بأن ينفصل عنها وهي في محلها شعل هي الشهب وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة وإليه ذهب الجبائي وكثير وهو محتمل لأن يكون لكل منها قابلية أن ينفصل عنه ذلك وأن يكون القابلية لبعضها دون بعض وهذا لعدم الاطلاع على حقائق الأجرام العلوية وأحوالها في أنفسها والكلام نحو قولك اسكن الأمير قبيلة كذا في ثغر كذا وجعلها ترمى بالبنادق من يقرب منه فإنه لا يلزم أن يكون لكل واحد منها قابلية الرمي ثم لا يلزم أن يكون كل ما يشاهد من الشهب قبساً من المصابيح بل يجوز أن يكون بعضه وهو الذي ترمى به الشياطين منها وبعضه من أمور تحدث في الجو من اصطكاك أو نحوه وتفاوت الشهب قلة وكثرة يحتمل أن يكون لتفاوت حوادث الجو وأن يكون لتفاوت الاستراق وليس في الآيات والأخبار ما هو نص في أن الشهب لا تكون إلا لرمي الشياطين فيحتمل أن يكون أكثر الشهب من الحوادث الجوية وذوات الأذناب منها في رأي المتقدمين وهي في أنفسها دون أذنابها نجوم كثيرة جداً تدور لا كما يدور غيرها من النجوم فتقرب تارة وتبعد أخرى

فتخرج عن مدارات السيارات إلى حيث لا تشاهد أصلاً عند فلاسفة العصر ولهم فيها كلام أطول من أذنابها وقد أورد الإمام الرازي في هذا الفصل أسئلة وشبهاً أجاب عنها بما أجاب ونحن فعلنا نحو ذلك فيما تقدم على وجه أتم فليتذكر وقد أطنبنا هناك الكلام فيما يتعلق بهذا المقام إلا أن بعضاً مما ذكرناه هناك فخذ من الموضعين ما صفا ودع ما كدر بعد أن تتأمل حق التأمل وتتدبر وقيل معنى الآية وجعلناها

(408/774)

ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون المعتقدون تأثير النجوم في السعادة والشقاوة ونحوهما وقد رددنا عليهم أي رد فيما تقدم فارجع إليه إن أردته فإنه نفيس جداً ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ وهيأنا للشياطين ﴿ عَذَابَ السعير ﴾ عذاب النار المسعرة المشعلة في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب ولا يمنع من ذلك أنهم خلقوا من نار لأنهم ليسوا ناراً فقط بل هي أغلب عناصرهم فهي منهم كالتراب من بني آدم فيتأثرون من ذلك على أنه تكون ناراً أقوى من نار واستدل بالآية على أن النار مخلوقة الآن وعلى أن الشياطين مكلفون .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ من غير الشياطين أو منهم ومن غيرهم على أنه تعميم بعد

التخصيص لدفع ايهام اختصاص العذاب بهم والجار والمجرور خبر مقدم وقوله تعالى : ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ مبتدأ مؤخر والحصر إضافي بقرينة النصوص الواردة في تعذيب العصاة فلا حجة فيه لمن قال من المرجئة لا يعذب غير الكفرة وقرأ الضحاك والأعرج وأسيد بن أسيد المزني وحسن في رواية هارون عنه عذاب بالنصب عطفاً عن ﴿ عذاب السعير ﴾ [الملك : 5] أي وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي جهنم .

(409/774)

﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا ﴾ أي طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ أي لجهنم نفسها كما هو الظاهر ويؤيده ما بعد والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من قوله تعالى : ﴿ شَهِيقًا ﴾ لأنه في الأصل صفته فلما قدمت صارت حالاً أي سمعوا كائناً لها شهيقاً أي صوتاً كصوت الحمير وهو حسيسها المنكر الفظيع ففي ذلك استعارة تصريحية وجوز أن يكون الشهيق لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ومن أنفسهم كقوله تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ [هود : 106] والكلام على حذف مضاف أو تجوز في النسبة واعترض بأن ذلك إنما يكون لهم بعد القرار في النار وبعد ما يقال لهم ﴿ اخسؤا فيها ﴾ [المؤمنون : 108] وهو بعد ستة آلاف سنة من دخولهم كما في بعض الآثار ورد

بأن ذلك إنما يدل على انحصار حالهم حينئذٍ في الزفير والشهيق لا على عدم وقوعهما منهم قبل ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي ينفصل بعضها من بعض .

(410/774)

﴿ مِنَ الغيظ ﴾ من شدة الغضب عليهم قال الراغب الغيظ أشد الغضب وقال المرزوقي في الفصيح أنه الغضب أو أسوؤه وقد شبه اشتعال النار بهم في قوة تأثيرها فيهم وإيصال الضرر إليهم باغتياظ المغتاظ على غيره المبالغ في إيصال الضرر إليه على سبيل الاستعارة التصريحية ويجوز أن تكون هنا تخييلية تابعة للمكنية بأن تشبه جهنم في شدة غليانها وقوة تأثيرها في أهلها بإنسان شديد الغيظ على غيره مبالغ في إيصال الضرر إليه فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية وهي الغضب الباعث على ذلك واستعير لتلك الحالة المتوهمة للغيظ وجوز أن يكون الإسناد في تكاد تميز إلى جهنم مجازاً وإنما الإسناد الحقيقي إلى الزبانية وأن يكون الكلام على تقدير مضاف أي تميز زبانيتهم من الغيظ وقيل إن الله تعالى يخلق فيها إدراكاً فنغتظ عليهم فلا مجاز بوجه من الوجوه وورد في بعض الأخبار ما يؤيد ذلك وزعم بعضهم أنه لا حاجة لشيء مما ذكر لمكان تكاد كما في قوله تعالى ﴿ يكاد

زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ [النور : 35] وفيه ما فيه والجملة إما حال من فاعل تفور أو خبر آخر وقرأ طلحة تتميز بتاءين وأبو عمرو تكاد تميز بإدغام الدال في التاء والضحاك تمايز على وزن تفاعل وأصله تتمايز بتاءين وزيد بن علي وابن أبي عبلة تميز من ماز ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ استئناف مسوق لبيان حال أهلها بعد بيان نفسها وقيل لبيان حال آخر من أحوال أهلها وجوز أن تكون الجملة حالاً من ضميرها أي كلما ألقي فيها جماعة من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ وهم مالك وأعوانه عليهم السلام والسائل يحتمل أن يكون واحداً وأن يكون متعدداً وليس السؤال سؤال استعلام بل هو سؤال توبيخ وتقريع وفيه عذاب روحاني لهم منضم إلى عذابهم الجسماني ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ يتلو عليكم آيات الله وينذركم لقاء يومكم هذا .

(411/774)

﴿ قَالُواْ ﴾ اعترافاً بأنه عز وجل قد أزاح عللهم بالكلية ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ ﴾ وجمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير وتحسراً على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم وتمهيداً لما وقع منهم من التفريط تندماً واغتماماً على ذلك أي قال كل فوج من تلك الأفواج قد جاءنا نذير أي واحد حقيقة أو

حكماً كنذر بني إسرائيل فإنهم في حكم نذير واحد فانذرنا وتلا علينا ما أنزل الله تعالى من آياته ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب وتمادياً في النكير ﴿ مَّا نَزَّلَ الله ﴾ على أحد ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ من الأشياء فضلاً عن تنزيل الآيات على بشر مثلكم ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء ما تدعونه ﴿ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ بعيد عن الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله ولو فرضاً ليشمل أول فوج أنذرهم نذير والأصل أنت وأمثالك ممن ادعى أو يدعي دعواك مبالغة في التكذيب وتمادياً في التضليل كما ينبىء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فإنه ملوح بعمومه حتماً وأما إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فقيل أمر تحقيقي يصار إليه لتهويل ما ارتكبوه من الجناية لكن لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم كيف لا وهو منوط بملاحظة اجتماع النذر على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام وأين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا إذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الأفواج كما هو الظاهر وأما إذا جعل حكاية عن الكل فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل وهو يستوي فيه الواحد وغيره أو مصدر مقدر بمضاف عام أي أهل نذير أو منعوت به للمبالغة فيتفق كلا طرفي الخطاب في الجمعية ويستشعر من بعض العبارات جواز اعتبار الجمعية بأحد الأوجه المذكورة على الوجه الأول أيضاً

(412/774)

وفيه بحث وجوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول على أن مرادهم بالضلال ما كانوا عليه في الدنيا أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى وكذا ما قيل من جواز كونه من كلام النذير للكفرة حكوه للخزنة وفي "الكشف" هذا الوجه فيه تكلف بين فأما أن يكون مقول قول محذوف يستدعيه قد جاءنا نذير كأنه قيل بلى قد جاءنا نذير قال إن أنتم إلا في ضلال كبير فكذبنا وقلنا وقدم فكذبنا وقلنا تنبيهاً على أن التكذيب لم يكن مقصوراً على قولهم هذا وأما أن يكون التكذيب واقعاً على الجملة أعني إن أنتم وقوله سبحانه وقلنا ما نزل الله من شيء عطف على كذبنا قدم على صلته ليجري مجرى الاعتراض مؤكداً لحكم التكذيب ودالاً على عدم القصر أيضاً والأول أولى انتهى واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل البعثة وحمل النذير على ما في العقول من الأدلة مما لا يقبله منصف ذوي العقول .

(413/774)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل كان الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها فأجابوهم بقولهم : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلاماً ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ شيئاً ﴿ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ أي في عدادهم ومن جملتهم والمراد بهم قيل الشياطين لقوله تعالى : ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [الملك : 5] وقيل الكفار مطلقاً واختصاص إعداد السعير بالشياطين ممنوع لقوله تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ [الإنسان : 4] والآية لا تدل على الاختصاص وفيه دغدغة لعلك تعرفها مما يأتي إن شاء الله تعالى قريباً فلا تغفل ونفيهم السماع والعقل لتنزيلهم ما عندهم منهما لعدم انتفاعهم به منزلة العدم وفي ذلك مع اعتبار عموم المسموع والمعقول ما لا يخفى من المبالغة واعتبرهما بعض الأجلة خاصين قال أي لو كنا نسمع كلام النذير فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقه بالمعجز أو نعقل فنفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين ما كنا الخ وفيه إشارة إلى أن السماع والعقل هنا بمعنى القبول والتفكر واو للترديد لأنه يكفي انتفاء كل منهما لخلاصهم من السعير أو للتنويع فلا ينافي الجمع وقيل أشير فيه إلى قسمي الإيمان التقليدي والتحقيقي أو إلى الأحكام التعبدية وغيرها واستدل بالآية كما قال ابن السمعاني في القواطع من قال بتحكيم العقل وأنت تعلم أن قصارى ما تشعر به أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة التي بها النجاة من السعير وأما أنها تدل على أن العقل حاكم كما يقول المعتزلة فلا واستدل بها

أيضاً كما نقل عن ابن المنير على أن السمع أفضل من البصر ومن العجيب استدلال بعضهم بها على أنه لا يقال للكافر عاقل .

(414/774)

﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى ونذره عز وجل ﴿ فَسُحْقًا لاصحاب السعير ﴾ أي فبعداً لهم من رحمته تعالى وهو دعاء عليهم وقرأ أبو جعفر والكسائي فسحقاً بضم الحاء والسحق مطلقاً البعد وانتصابه على أنه مصدر مؤكد أي سحقهم الله تعالى سحقاً قال الشاعر

: يجول بأطراف البلاد مغربا . . .

وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

وقيل هو مصدر إما لفعل متعد من المزيد بحذف الزوائد كما في قوله

وإن أهلك فذلك كان قدري . . .

أي تقديري والتقدير فأسحقهم الله سحقاً أي إسحاقاً أو بفعل مرتب على ذلك الفعل أي فأسحقهم الله تعالى فسحقوا سحقاً كما في قوله

: وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع . . .

من المال إلا مسحت أو مجلف

(415/774)

أي لم تدع فلم يبق إلا مسحت وإلى أول الوجهين ذهب أبو علي الفارسي والزجاج وبعد ثبوت الفعل الثلاثي المتعدي كما في البيت وبه قال أبو حيان لا يحتاج إلى ما ذكر واللام في لا صحاب للتبيين كما في ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : 23] وسقياً لك وفي الآية على ما قيل تغليب ولعل وجهه عند القائل وهو أن السوق يقتضي أن يقال فسحقاً لهم ولأصحاب السعير فإنه تعالى بين أولاً أحوال الشياطين حيث قاله سبحانه ﴿ واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ [الملك : 5] ثم بين أحوال الكفار حيث قال عز وجل ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ﴾ [الملك : 6] والأوفق بقراءة النصب والأبعد من شبهة التكرار أن يراد بالموصول غير الشياطين ثم قال تعالى شأنه فسحقاً لأصحاب السعير فكان السوق يقتضي فسحقاً لهم ولأصحاب السعير لكن لم يقل كذلك لأجل التغليب حيث أطلق أصحابه السعير على الشياطين والكفار جميعاً ولا يضر في هذا دلالة غير آية على عدم اختصاص أصحاب السعير بالشياطين بل يطلق على سائر الكفرة أيضاً لأنه يكفي في التغليب

الاختصاص المتبادر من السوق هنا ولا توقف له على عدم جواز إطلاق ذلك على غير الشياطين في شيء من المواضع على أنه يمكن أن يقال لا حاجة إلى التزام اختصاص أصحاب السعير بالشياطين أصلاً ولو بحسب السوق بل يكفي لصحة التوجيه كونهم أصيلاً في دخول السعير والكفار ملحقين بهم كما يشعر به قوله تعالى ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك : 10] بمعنى في عدادهم وجملتهم فحينئذٍ يكون الداخل في السعير قسمين وكان مقتضى الظاهر ذكرهما معاً في الدعاء عليهم بالسحق كما يشهد به سياق الآية لكنه عدل وغلب أصحاب السعير الدال على الأصالة على غيره من التوابع وذكر أن في هذا التغلب إيجازاً وهو ظاهر ومبالغة أي في الإبعاد إذ لو أفرد كل من الفريقين بالذكر لأمكن أن يتوهم تفاوت الإبعادين بأن يكون إبعاد الكفرة دون إبعاد الشياطين على ما يشعر به جعلهم الشياطين أصيلاً وأنفسهم ملحقة

(416/774)

بهم فلما ضموا إليهم في الحكم به دل على أن إبعادهم لم يقصر عن إبعاد أولئك وأيضاً لما غلب سبحانه وتعالى أصحاب السعير وهم الشياطين على الكفار فقد جعل الكفار من قبيل الشياطين فكأنهم هم بأعيانهم وفيه من المبالغة ما لا يخفى وتعليلاً فإن ترتب الحكم

على الوصف وكذا تعلقه به يشعر بعليته له فيشعر ذلك بأن الإبعاد حصل لهم لأجل كونهم أصحاب السعير وقيل في توجيه التغليب وما فيه من الأمور الثلاثة غير هذا وقد عد ذلك من المشكلات وغدا معتركاً لعلماء الروم وغيرهم من العلماء الأعلام ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأفهام وأبعد عن النزاع والخصام فتأمل والله تعالى ولي الأفهام . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(417/774)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾

تبارك تفاعل من البركة ، والبركة النماء والزيادة .

وقيل : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين .

وقيل : دام فهو الدائم الذي لا أوّل لوجوده ، ولا آخر لدوامه .

وقال الحسن : تبارك : تقدّس ، وصيغة التفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء ، والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة ، فهو يعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقيل : المراد بالملك ملك النبوّة ، والأوّل أولى ؛

لأن الحمل على العموم أكثر مدحاً وأبلغ ثناء ، ولا وجه للتخصيص ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرّف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ، ورفع ووضع ، وإعطاء ومنع .

﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ الموت : انقطاع تعلق الرّوح بالبدن ومفارقته له ، والحياة تعلق الرّوح بالبدن واتصاله به .

وقيل : هي ما يصح بوجوده الإحساس .

وقيل : ما يوجب كون الشيء حياً .

وقيل : المراد الموت في الدنيا ، والحياة في الآخرة .

وقدّم الموت على الحياة ؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة ، والحياة عارضة لها .

وقيل : لأن الموت أقرب إلى القهر .

وقال مقاتل : خلق الموت يعني : النطفة ، والمضغة والعلقة ، والحياة يعني : خلقه إنساناً ، وخلق الروح فيه ، وقيل : خلق الموت على صورة كبش لا يمرّ على شيء إلاّ مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا تمرّ بشيء إلاّ حيي ، قاله مقاتل والكلبي .

وقد ورد في التنزيل : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت الذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : 11] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملئكة ﴾ [الأنفال : 50] ، وقوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] ، وقوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] وغير ذلك من الآيات ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ اللام متعلقة بخلق أي : خلق الموت والحياة ؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم أيكم أحسن عملاً ، فيجازيكم على ذلك .

وقيل المعنى : ليبلوكم أيكم أكثر للموت ذكراً وأشدّ منه خوفاً ، وقيل : أيكم أسرع إلى طاعة الله ، وأورع عن محارم الله .

وقال الزجاج : اللام متعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت .

وقال الزجاج أيضاً ، والفراء : إن قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ لم يقع على أيّ ، لأن فيما بين البلوى وأيّ إضمار فعل ، كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ، ومثله قوله : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ ﴾ [القلم : 40] أي : سلهم ثم انظر أيهم ، فأيكم في الآية مبتدأ ، وخبره أحسن ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط ؛ للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي : الغالب الذي لا يغالب ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب وأناب .

﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ الموصول يجوز أن يكون تابعاً للعزيز ، الغفور نعتاً ، أو بياناً ، أو بدلاً ، وأن يكون منقطعاً عنه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، و ﴿ طباقاً ﴾ صفة لسبع سموات أي : بعضها فوق بعض ، وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب ، أو مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقاً ، ويكون على هذا الوجه الوصف بالمصدر للمبالغة ، أو على حذف مضاف ، أي : ذات طباق ، ويجوز أن يكون منتصباً على المصدرية بفعل محذوف ، أي : طوبقت طباقاً

﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لسبع سموات ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، و"من" مزيدة لتأكيد النفي .

قرأ الجمهور : ﴿ من تفاوت ﴾ .

وقرأ ابن مسعود وأصحابه ، وحمزة ، والكسائي : " تفوّت " مشدّداً بدون ألف ، وهما لغتان .

كالتعاهد والتعهد ، والتحامل والتحمل ؛ والمعنى على القراءتين .

ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ، ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هي مستوية مستقيمة دالة على خالقها ، وإن اختلفت صورها وصفاتها ، فقد اتفقت من هذه الحيثية

﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ الفطور : الشقوق والصدوع والخروق أي : اردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة .

أخبر أوّلاً بأنه لا تفاوت في خلقه ، ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة .

قال مجاهد ، والضحاك : الفطور : الشقوق جمع فطر وهو الشق .

وقال قتادة : هل ترى من خلل ؟ .

وقال السديّ : هل ترى من خروق ، وأصله من التفطر والانفطار ، وهو التشقق والانشقاق ، ومنه قول الشاعر :

بنى لكم بلا عمد سماء . . . وزينها فما فيها فطور

وقول الآخر :

شققت القلب ثم رددت فيه . . . هواك فليم فالتام الفطور

(420/774)

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي : رجعتين مرّة بعد مرّة ، وانتصابه على المصدر ، والمراد بالتثنية : التكثير ، كما في لبيك وسعديك ، أي : رجعة بعد رجعة وإن كثرت .

ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة ، أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية ، ولهذا قال أوّلاً : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ ثم قال ثانياً : ﴿ فارجع البصر ﴾ ثم قال ثالثاً : ﴿ ثُمَّ ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة ، وأقطع للمعذرة ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا ﴾ أي : يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى شيئًا من ذلك ، وقيل : معنى خاسئاً : مبعداً مطروداً عن أن يبصر ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب أي : أبعدته وطردته .

قرأ الجمهور ﴿ ينقلب ﴾ بالجزم جواباً للأمر .

وقرأ الكسائي في رواية بالرفع على الاستئناف ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي : كليل منقطع .

قال الزجاج : أي : وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً ، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور ، وهو الإعياء ، يقال : حسر بصره يحسر حسوراً أي : كلّ وانقطع ، ومنه قول الشاعر :

نظرت إليها بالمحصب من منى . . . فعاد إليّ الطرف وهو حسير

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ بيّن سبحانه بعد خلق السموات ، وخلوّها من العيب والخلل أنه زينها بهذه الزينة ، فصارت في أحسن خلق وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح ، وهو السراج ، وسميت الكواكب مصابيح ؛ لأنها تضيء كإضاءة السراج وبعض الكواكب ، وإن كان في غير سماء

الدنيا من السموات التي فوقها ، فهي تتراءى كأنها كلها في سماء الدنيا ؛ لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافة ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ أي : وجعلنا المصابيح رجوماً يرجم بها الشياطين .

(421/774)

وهذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى ، وهي كونها زينة للسماء الدنيا ؛ والمعنى أنها يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم جمع رجم بالفتح ، وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به ، كما في قولهم : الدرهم ضرب الأمير أي : مضروبة ، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته ، ويقدر مضاف محذوف أي : ذات رجم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه .

وقيل : إن الضمير في قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف أي : شهبها ، وهي نارها المقتبسة منها لا هي أنفسها : لقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] ووجه هذا : أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول ولا يرجم بها ، كذا قال أبو عليّ الفارسي جواباً لمن سأله : كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم ؟ قال القشيري : وأمثل من قوله هذا أن تقول : هي زينة

قبل أن يرجم بها الشياطين .

قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها في البرّ والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك ، فقد تكلم فيما لا يعلم ، وتعدّى وظلم .

وقيل : معنى الآية : وجعلناها ظنوناً لشياطين الإنس ، وهم المنجمون ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ أي : وأعتدنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب عذاب السعير أي : عذاب النار ، والسعير : أشدّ الحريق ، يقال : سعرت النار ، فهي مسعورة .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ من كفار بني آدم ، أو من كفار الفريقين : ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ قرأ الجمهور برفع ﴿ عذاب ﴾ على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

وقرأ الحسن ، والضحاك ، والأعرج بنصبه عطفاً على ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ ، ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ ما يصيرون إليه ، وهو جهنم .

(422/774)

﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا ﴾ أي : طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار ﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ أي : صوتاً كصوت الحمير عند أوّل نهيقها ، وهو أقبح الأصوات ، وقوله : ﴿ لها ﴾ في

محل نصب على الحال أي : كائناً لها ، لأنه في الأصل صفة ، فلما قدّمت صارت حالاً .

وقال عطاء : الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم في النار ، وجملة : ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل ، ومنه قول حسان :

تركتم قدركم لا شيء فيه . . . وقدر الغير حامية تفور

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ أي : تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من تغيظها عليهم .

قال ابن قتيبة : تكاد تنشقّ غيظاً على الكفار .

قرأ الجمهور ﴿ تميز ﴾ بتاء واحدة مخففة ، والأصل : تتميز بتاءين .

وقرأ طلحة بتاءين على الأصل .

وقرأ البزي عن ابن كثير بتشديدها بإدغام إحدى التاءين في الأخرى .

وقرأ الضحاك " تمايز " بالألف وتاء واحدة ، والأصل تتمايز ، وقرأ زيد بن عليّ : " تميز " من ماز يميز ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها خبر آخر لمبتدأ ، وجملة : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها ، أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ تميز ﴾ والفوج : الجماعة من الناس أي : كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ نَذِيرٍ ﴾ ينذركم هذا اليوم ، ويحذركم منه .

وجملة : ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا السؤال ، فقال : قالوا : بلى قد جاءنا نذير ، فأنذرنا وخوّفنا وأخبرنا بهذا اليوم ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ من الأشياء على ألسنتكم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ أي في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ، والمعنى : أنه قال : كلّ فوج من تلك الأفواج حاكياً لخزنة جهنم ما قاله لمن أرسل إليه : ما أنتم أيها الرسل فيم تدّعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلاّ في ذهاب عن الحق ، وبعد عن الصواب كبير لا يقادر قدره .

ثم حكى عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ أيّ : لو كنا نسمع ما خاطبنا به الرسل ، أو نعقل شيئاً من ذلك ما كنا في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير ، وهم الشياطين ، كما سلف .

قال الزجاج : لو كنا نسمع سمع من يعي ، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه : ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ الذي استحقوا به عذاب النار ، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿ فَسُحْقًا لأصحاب السعير ﴾ أي : فبعداً لهم من الله ومن رحمته .

وقال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : هو وادٍ في جهنم يقال له : السحق .

قرأ الجمهور : ﴿ فسحقاً ﴾ بإسكان الحاء .

وقرأ الكسائي ، وأبو جعفر بضمها ، وهما لغتان مثل السحت والرعب .

قال الزجاج ، وأبو عليّ الفارسي : فسحقاً منصوب على المصدر أي : أسحقهم الله سحقاً .

قال أبو عليّ الفارسي : وكان القياس إسحاقاً ، فجاء المصدر على الحذف ، واللام في ﴿ لأصحاب السعير ﴾ للبيان ، كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ قال : بعضها فوق بعض .

(424/774)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ قال : ما تفوت بعضه بعضاً تفاوتاً مفرقاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ مِن تفاوت ﴾ قال : من تشقق ، وفي قوله : ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ قال : شقوق ، وفي قوله : ﴿ خَاسِئاً ﴾ قال : ذليلاً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً .

قال : الفطور : الوهي .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿ مِن فُطُورٍ ﴾ قال : من تشقق أو خلل ، وفي قوله : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴾ قال : يرجع إليك ﴿ خَاسِئًا ﴾ قال : صاغراً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال : معييَّ ، ولا يرى شيئًا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً خاسئاً قال : ذليلاً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال : عييّ مرتجع .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ قال : تتفرّق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ قال : يفارق بعضها بعضاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ فَسُحْقًا ﴾ قال : بعداً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 257. 261 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾

انتقل من دلائل انتفاء الخلل عن خِلقة السماوات ، إلى بيان ما في إحدى السماوات من إتقان الصنع فهو مما شمله عموم الإِتقان في خلق السماوات السبع وذكره من ذِكر بعض أفراد العام كذكر المثال بعد القاعدة الكلية ، فدقائق السماء الدنيا أوضح دلالةً على إتقان الصنع لكونها نصب أعين المخاطبين ، ولأن من بعضها يحصل تخلص إلى التحذير من حيل الشياطين وسوء عواقب أتباعهم .

وتأكيد الخبر بـ (قد) لأنه إلى أنه نتيجة الاستفهام التقريري المؤكد بـ (هل) أختتِ (قد) في الاستفهام .

والكلام على السماء الدنيا ولماذا وصفت بالدنيا وعن الكواكب تقدم في أول سورة الصافات .

وسميت النّجوم هنا مصابيح على التشبيه في حسن المنظر فهو تشبيه بليغ .

وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال ، أي زيّنَاها لكم مثل الامتنان في قوله : ﴿ ولكم فيها جَمال ﴾ في سورة النحل (6) .

والمقصد : التخلص إلى ذكر رجم الشياطين ليتخلص منه إلى وعيدهم ووعيد متبعيهم .

وعدل عن تعريف (مصابيح) باللام إلى تنكيره لما يفيده التنكير من التعظيم .

والرجوم : جمع رَجْم وهو اسْم لما يُرجم به ، أي ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه تسميةً للمفعول بالمصدر مثل الخَلْق بمعنى المخلوق في قوله تعالى : ﴿ هذا خَلق الله ﴾ [لقمان : 11] .

والذي جُعل رُجوماً للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقَضَّة ، وتسمى الشُهُب ومضى القول عليها في سورة الصافات .

وضمير الغائبة في ﴿ جعلناها ﴾ المتبادر أنه عائد إلى المصابيح ، أي أن المصابيح رجوم للشياطين .

(426/774)

ومعنى جعل المصابيح رجوماً جار على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة كقوله تعالى : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ [البقرة : 85] وقول العرب : قتلت هُذيل رضيع بني ليث تمَّام بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وجعل بعض المفسرين الضمير المنصوب في ﴿ جعلناها ﴾ عائد إلى ﴿ السماء الدنيا ﴾ على تقدير : وجعلنا منها رجوماً إما على حذف حرف الجر .

وإمّا على تنزيل المكان الذي صدر منه الرجوم منزلة نفس الرجوم فهو مجاز عقلي ومنه قوله تعالى : ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ في سورة البقرة (66) ولكنها على جعل الضمير المنصوب راجعاً إلى القرية وإن لم تذكر في تلك الآية ولكنها ذكرت في آية سورة الأعراف (163) ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ وقصتها هي المشار إليها بقوله : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ [البقرة : 65] فالتقدير : فجعلنا منها ، أي من القرية نكالاً ، وهم القوم الذين قيل لهم ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ [البقرة : 65] .

والشياطين هي التي تسترق السمع فتطردها الشهب كما تقدم في سورة الصافات .

وأصل ﴿ أعتدنا ﴾ أعدَدْنا أي هيّأنا ، قلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجيهما ليتأتى الإدغَام طلباً للخفة .

و﴿ السعير ﴾ : اسم صيغ على مثال فعيل بمعنى مفعول من : سَعَرَ النار ، إذا أوقدها وهو لهب النار ، أي أعددنا للشياطين عذاب طبقة أشد طبقات النار حرارة وتوقداً فإن جهنم طبَقَات .

وكان السعير عذاباً لشياطين الجن مع كونهم من عنصر النار لأنّ نار جهنم أشد من نار طبعهم ، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً .

وتسمية عذابهم ﴿ السعير ﴾ دون النار ، أو جهنم مراد لهذا المعنى ومثله قوله تعالى في عذاب الجن ﴿ ومن يَزِغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير ﴾ [سبأ : 12] وقال ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [فاطر : 6] يعني الشيطان .

ومعنى الإِعداد يحتمل أنه إعداد تقدير وإيجاد فلا يقتضي أن تكون جهنم مخلوقة قبل يوم القيامة ويحتمل أنه إعداد استعمال ، فتكون جهنم مخلوقة حين نزول الآية وقد اختلف علماؤنا في أن النار موجودة أو توجد يوم الجزاء إذ لا دليل في الكتاب والسنة على أحد الاحتمالين وإنما دعاهم إلى فرض هذه المسألة تأويل بعض الآيات والأحاديث .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6)

هذا تتميم لئلا يتوهم أن العذاب أُعد للشياطين خاصة ، والمعنى : ولجميع الذين كفروا بالله عذاب جهنم فالمراد عامة المشركين ولأجل ما في الجملة من زيادة الفائدة غايرت الجملةَ التي قبلها فلذلك عطفت عليها .

وتقديم المجرور للاهتمام بتعلقه بالمسند إليه والمبادرة به .

وجملة ﴿ وبئس المصير ﴾ حال أو معترضة لإِنشاء الذم وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبل ﴿ بئس ﴾ عليه .

والتقدير : وبئس المصير عذابُ جهنم .

والمعنى : بئست جهنم مصيراً للذين كفروا .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)

الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان ذمَ مصيرهم في جهنم ، أي من جملة مذام مصيرهم مذمة ما يسمعونه فيها من أصوات مؤلمة مخيفة .

و﴿ إذا ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ سمعوا ﴾ يدل على الاقتران بين زمن الإِلقاء وزمن سماع الشهيق .

والشهيق : تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبُكاء ونحوه أطلق على صوت التهاب نار جهنم الشهيق تفظيعاً له لأن قوله : ﴿ سمعوا لها ﴾ يقتضي أن الشهيق شهيقها لأن أصل اللام أن تكون لشبه الملك .

وجملة ﴿ وهي تفور ﴾ حال من ضمير ﴿ فيها ﴾ وتفور : تغلي وترتفع ألسنَة لهيبها .

و ﴿ الغيظ ﴾ أشد الغضب .

وقوله : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ خبر ثان عن ضمير ﴿ وهي ﴾ ، مثلت حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يُلقون إليها ، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا

يترك شيئاً مما غاظه إلاّ سلط عليه ما يستطيع من الإِضرار .

واستعمل المركب الدال على الهيئة المشبه بها مع مرادفاته كقولهم : يكاد فلان يتميز غيظاً ويتقصف غَضَباً ، أي يكاد تتفرق أجزاؤه فيتميز بعضها عن بعض وهذا من التمثيلية المكنية وقد وضحناها في تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) .

ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ﴾ في سورة الكهف (77) إذ مثل الجدار بشخص له إرادة .

وتميَّز ﴾ أصله تتميز ، أي تنفصل ، أي تتجزأ أجزاءً تخييلاً لشدة الاضطراب بأن أجزاءها قاربت أن تتقطع ، وهذا كقولهم : غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء .

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

أُتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقائهم فيها من فظائع أهوالها بوصف ما يتلقاهم به خزنة النار .

فالجملة استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يَتساءل السامع عن سبب وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه بأنه تكذيبهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، مع ما انضمّ إلى ذلك من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل الله وعلى

إهمالهم النظر في دعوة الرسل والتدبر فيما جاء وهم به .

و﴿ كلما الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا ﴾

مركب من (كل) اسم دال على الشمول ومن (ما) الظرفية المصدرية وهي حرف يؤوّل مع الفعل الذي بعده بمصدره .

والتقدير : في كل وقت إلقاء فوج يسألهم خزنتُها الفوجَ .

(429/774)

وباتصال (كل) بحرف (ما) المصدرية الظرفية اكتسبَ التركيب معنى الشرط وشابه أدوات الشرط في الاحتياج إلى جملتين مُرتبة إحداهما على الأخرى .

وجيء بفعلى ﴿ أُلقي ﴾ و ﴿ سألهم ﴾ ماضيين لأن أكثر ما يقع الفعل بعد ﴿ كلما ﴾ أن يكون بصيغة المضي لأنها لما شابهت الشرط استوى الماضي والمضارع معها لظهور أنه للزمن المستقبل فأوثر فعل المضي لأنه أخف .

والفوج : الجماعة أي جماعة ممن حق عليهم الخلود ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ في سورة النمل (83) .

وجيء بالضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع في قوله : سألهم ﴾ الخ .

لتأويل الفوج بجماعة أفراده كما في قوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] .

وخزنة النار : الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل بالحفظ وأصل الخازن : الذي يخزن شيئاً ، أي يحفظه في مكان حصين ، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل .

وجملة ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ بيان لجملة ﴿ سألهم ﴾ كقوله : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا ءادم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ [طه : 120] .

والاستفهام في ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ للتوبيخ والتنديم ليزيدهم حسرة .

والنذير : المنذر ، أي رسول منذر بعقاب الله وهو مصوغ على غير قياس كما صيغ بمعنى المسمع السميع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن رياحنة الداعي السميع . . .

والمراد أفواج أهل النار من جميع الأمم التي أرسلت إليهم الرسل فتكون جملة : ﴿ كلما أُلقي فيها فوج ﴾ الخ بمعنى التذييل .

وجملة : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴾ معترضة بين كلام خزنة جهنم اعتراضاً يشير إلى أن الفوج قاطَعَ كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبّخوهم عليه وذلك من شدة الخوف .

وفصلت الجملة لوجهين لأنها اعتراض ، ولوقوعها في سياق المحَاورة كما تقدم غير مرة كقوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

وكان جوابهم جواب المتحسر المتندم ، فابتدأوا الجواب دفعة بحرف بلى ﴾ المفيد نقيض النفي في الاستفهام ، فهو مفيد معنى : جاءنا نذير .

ولذلك كان قولهم : ﴿ قد جاءنا نذير ﴾ موكداً لما دلت عليه ﴿ بلى ﴾ ، وهو من تكرير الكلام عند التحسر ، مع زيادة التحقيق بـ ﴿ قد ﴾ ، وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف بالخطأ .

وجملة : ﴿ إن أنتم إلاَّ في ضلال كبير ﴾ الأظهر أنها بقية كلام خزنة جهنم فصل بينها وبين ما سبقها من كلامهم اعتراضُ جوابِ الفوج الموجه إليهم الاستفهام التوبيخي كما ذكرناه آنفاً ، ويؤيد هذا إعادة فعل القول في حكاية بقية كلام الفوج في قوله تعالى : ﴿ وقَالوا لو كنا نسمع ﴾ [الملك : 10] الخ لانقطاعه بالاعتراض الواقع خلال حكايته .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ من تمام كلام كل فوج لنذيرهم .

وأتي بضمير جمع المخاطبين مع أن لكل قوم رسولاً واحداً في الغالب باستثناء موسى وهارون وباستثناء رسل أصحاب القرية المذكورة في سورة يس ؛ إما على اعتبار الحكاية بالمعنى بأن جُمع كلام جميع الأفواج في عبارة واحدة فجيء بضمير الجمع والمراد التوزيع

على الأفواج، أي قال جميع الأفواج: ﴿ بلى قد جاءنا نذير ﴾ إلى قوله: ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾، على طريقة المثال المشهور: "رِكب القوم دوابهم"، وإما على إرادة شمول الضمير للنذير وأتباعِه الذين يؤمنون بما جاء به.

وعموم ﴿ شيء ﴾ في قوله: ﴿ ما نزّل الله من شيء ﴾ المرادِ منه شيء من التنزيل، يدل على أنهم كانوا يحيلون أن يُنزل الله وحياً على بشر، وهذه شنشنة أهل الكفر قال تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ وقد تقدم في آخر [الأنعام: 91].

ووصف الضلال بـ ﴿ كبير ﴾ معناه شديد بالغ غاية ما يبلغ إليه جنسه حتى كأنه جسم كبير.

(431/774)

ومعنى القصر المستفادِ من النفي والاستثناء في ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ قصرُ قلب، أي ما حالكم التي أنتم متلبسون بها إلاّ الضلال، وليس الوحَي الإلهي والهدى كما تزعمون.

والظرفية مجازية لتشبيههم تَمَحُّضَهم للضلال بإحاطة الظرف بالمظروف.

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

أعيد فعل القول للإِشارة إلى أن هذا كلام آخر غير الذي وقع جواباً عن سؤال خزنة جهنم وإنما هذا قول قالوه في مجامعهم في النار تحسراً وتندماً ، أي وقال بعضهم لبعض في النار فهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ [الأعراف : 38] الخ .

لتأكيد الإِخبار على حسب الوجهين المتقدمين في موقع جملة ﴿ إن أنتم إلاّ في ضلال كبير ﴾ [الملك : 9] .

وذكروا ما يدل على انتفاء السمع والعقل عنهم في الدنيا ، وهم يريدون سمعاً خاصاً وعقلاً خاصاً ، فانتفاء السمع بإعراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] وانتفاء العقل بترك التدبر في آيات الرسل ودلائل صدقهم فيما يدْعون إليه .

ولا شك في أن أقل الناس عقلاً المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم ، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات ، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال ، فكان حكم العقل قاضياً بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإِنذار بالامتثال إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبر

بخلاف حال أهل الأديان أتباع الرسل الذين كانوا على دين فهم يخشون إن أهملوه أن لا يغني عنهم الدين الجديد شيئاً فكانوا إلى المعذرة أقرب لولا أن الأدلة بعضها أقوى من بعض .

(432/774)

وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ [سورة الطور : 32] عن كتاب الحكيم الترمذي أنه أخرج حديثاً " أن رجلاً قال : يا رسول الله ما أعقلَ فلاناً النصراني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم مَهْ ، إن الكافر لا عقل له أما سمعتَ قول الله تعالى : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ " قال وفي حديث ابن عمر فزجره النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " مَهْ إن العاقل من يعمل بطاعة الله " ولم أقف عليه فيما رأيت من كتب التفسير ولم يذكره السيوطي في التفسير بالمأثور في سورة الطور ولا في سورة الملك .

ويؤخذ من هذه الآية أن قوام الصلاح في حسن التلقي وحسن النظر وأن الأثر والنظر ، أي القياس هما أصلا الهدى ، ومن العجيب ما ذكره صاحب "الكشاف" : أن من المفسرين من قال : إن المراد من الآية : لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي .

ولم أقف على تعيين من فسر الآية بهذا ولا أحسبه إلاّ من قبيل الاسترواح .

و﴿ أو ﴾ للتقسيم وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد ، وحسنَ التفهم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها ، أو من دواعي أنفسها ، قال تعالى : ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ [الزمر : 1718] .

ووجه تقديم السمع على العقل أن العقل بمنزلة الكليّ والسمع بمنزلة الجُزئي ورعياً للترتيب الطبيعي لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذَرون ، ثم يُعمِلون عقولهم في التدبر فيها .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

الفاء الأولى فصيحة ، والتقدير : إذ قالوا بذلك فقد تبين أنهم اعترفوا هنالك بذنبهم ، أي فهم محقوقون بما هم فيه من العذاب .

والسُحق : اسم مصدر معناه البعد ، وهو هنا نائب عن الإسحاق لأنه دعاء بالإبعاد فهو مفعول مطلق نائب عن فعله ، أي أسحقهم الله إسحاقاً ، ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجيب من حالهم كما يقال : قاتله الله ، وويل له ، في مقام التعجب .

والفاء الثانية للتسبب ، أي فهم جديرون بالدعاء عليهم بالإبعاد أو جديرون بالتعجيب من بُعدهم عن الحق ، أو عن رحمة الله تعالى .

ويحتمل أيضاً أن يقال لهم يومَ الحساب عقبَ اعترافهم ، تنديماً يزيدهم ألماً في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم .

واللام الداخلة على (سحقاً) لام التقوية إن جعل (سحقاً) دعاء عليهم بالإبعاد لأن المصدر فرع في العمل في الفعل ، ويجوز أن يكون اللام لام التبيين لآياته تعلق العامل بمعموله كقولهم : شكراً لك ، فكل من (سحقاً) واللام المتعلقة به مستعمل في معنييه .

و ﴿ لأصحاب السعير ﴾ يعمّ المخاطبين بالقرآن وغيرهم فكان هذا الدعاء بمنزلة التذييل لما فيه من العموم تبعاً للجمل التي قبله .

وقرأ الجمهور ﴿ فسحقاً ﴾ بسكون الحاء .

وقرأه الكسائي وأبو جعفر بضم الحاء وهو لغة فيه وذلك لإتباع ضمة السين . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(434/774)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه أهل المعاملة بصفة العزة لما حصل لهم من العزة ، أتبعهم أضدادهم المطوعين أنفسهم لإشارة العقل المتأهلين لنعت المعرفة ، فقال مؤكداً لما للأضداد من التكذيب : ﴿ إن الذين يخشون ﴾ أي يخافون خوفاً أرق قلوبهم وأرق غيرهم بحيث كانوا كالحب على المقلي لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة ، كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية ، يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة فوقوا أنفسهم فوران النار بهم ، وعدل عن سياق الجلالة الجامع إلى صفة الإحسان تنبيهاً على أنهم غلب عليهم النظر إلى الإحسان فقادهم إلى الشكر مع ما نبهت عليه الخشية من اتصافهم بالفرق الذي أداهم إلى الذعر فقال :

﴿ ربهم ﴾ الذي أحسن إليهم بتطويرهم بما جعل لهم من الأسباب في أطوار الخير وإذا

كانوا يخشونه مع نظرهم إلى صفة إحسانه فما ظنك بهم عند النظر إلى صفات انتقامه ﴿ بالغيب ﴾ أي حال كونهم غائبين عنه سبحانه ووعيده غائباً عنهم وهو غائبون عن أعين الناس وقد ملأ الخوف ما غاب عنهم عن الناس وهي قلوبهم فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تتلظى بنيران الخوف وتكلم بسيوف الهيبة ، فيتركون المعصية حيث لا يراهم أحد من الناس ! ولا يكون لهم هذا إلا برياضة عظيمة لما عند الناس من القوى الموجبة للطغيان ، قال بعض العارفين : في الإنسان خواص تستدعي العلم بما يشوبها من الحظوظ فتنشأ منها – والعياذ بالله – المنازعة في الكبرياء والعظمة والجلال والجمال ، فالقلب يستدعي التفرد بالوجود والأمر والنهي ، فما من أحد إلا وهو مستبطن ما قال فرعون ، ولكن لا يجد له مجالاً كما وجد فرعون ، والعقل يستدعي في تدبيره وتأثيره اعتقاد أنه لو مكن من الوجود لدبره ، ويرى أن تدبيره هو التدبير وإن كان أفسد الفاسد ، وكذلك لا يزال يقول : لو كان كذا لكان كذا ، والنفس لا تتخيل أنها من القوة والاقتدار بحيث لو أرادت أن تخرب مدناً وتبنيها فعلت ، فليحذر الإنسان فإن أعدى عدوه نفسه التي هي بين جنبيه ، فمهما تركها

انتشرت ، قال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 6 و 7] وينسى ما بعدها ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ [العلق : 8] ولهذا كان بعض الأكاسرة – وكانوا أعقل الملوك – يرتب واحداً يكون وراءه بالقرب منه ، يقول له إذا اجتمعت جنوده بعد كل قليل : أنت عبد ، لا يزال يكرر ذلك ، والملك يقول له كلما قاله : نعم : فعلى العاقل أن يطوع نفسه لأن ترجع مطمئنة بأن يرضى بالله رباً ليدخل في رق العبودية ، وبالإسلام ديناً ليصير عريقاً فيها ، فلا ينازع الملك في ردائه الكبرياء وإزاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال ، ولا ينازعه فيما يدبره من الشرائع ، ويظهره من المعارف ، ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره .

ولما كانت الخشية مشيرة إلى الذنوب ، فكان أهم ما إليهم الإراحة منها قال تعالى : ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي سترة عظيمة تأتي على جميع ذنوبهم .

ولما كان السرور إنما يتم بالإعطاء قال : ﴿ وأجر ﴾ أي من فضل الله ﴿ كبير ﴾ يكون لهم به من الإكرام ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الآلام ، وتصغر في جنبه لذائذ الدنيا العظام .

ولما كانت الخشية من الأفعال الباطنة ، وكان كل أحد يدعي أنه يخشى الله ، قال مخوفاً لهم بعلمه نادباً إلى مراقبته لئلا يغتروا بحلمه ، عاطفاً على ما تقديره لإيجاب المراقبة : فأبطنوا أفعالهم وأظهروها : ﴿ وأسروا ﴾ أي أيها الخلائق .

ولما كان إفراد الجنس دالاً على قليله وكثيره قال : ﴿ قولكم ﴾ أي خيراً كان أو شراً ﴿ أو اجهروا به ﴾ فإنه يعلمه ويجازيكم به لأن علمه لا يحتاج إلى سبب ، وذلك أن المشركين كانوا يقولون : أسروا وإلا يسمع إله محمد : ثم علل ذلك مؤكداً لأجل ما للناس من استبعاد ذلك بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي ربكم ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها سواء كانت قد تخيلته ولم تعبر عنه ، أو كان مما لم تتخيله بعد بدليل ما يخبر به سبحانه وتعالى عنهم مما وقع وهم يخفونه ، أو لم يقع بعد ثم يقع كما أخبر به سبحانه ؛ ثم دل على ذلك بقوله معجباً ممن يتوقف فيه أدنى توقف ومنكراً عليهم بإثبات العلم ونفى ضده على أبلغ وجه : ﴿ ألا يعلم ﴾ أي وكل ما يمكن أن يعلم ، وحذف المفعول للتعميم ، ثم ذكر الفاعل واصفاً له بما يقرب المخبر به للإفهام فقال : ﴿ من خلق ﴾ أي الذي أوجد الخلق من القلوب الحاوية للأسرار والأبدان وغير ذلك ، وطبع في كل شيء من ذلك ما طبع مما قدره بعلمه وأتقنه بحكمته ، فإن كل صانع أدرى بما صنعه ، ويجوز – وهو أحسن – أن يكون " من " مفعولاً والفاعل مستتراً ، أي ألا يعلم الله مخلوقه على الإطلاق وله صفتا اللطف والخبر اللتان شأنهما إدراك البواطن إدراكاً لا يكون

مثله لأن الغرض إثبات العلم لما أخفوه لظنهم أنهم إذا أسروا يخفى ، لا إثبات مطلق العلم فإنهم لم ينكروه ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه هو ﴿ اللطيف ﴾ أي الذي يعلم ما بثه في القلوب لأنه يصل إلى الأشياء بأضدادها فكيف بغير ذلك ﴿ الخبير ﴾ أي بالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شيء من الأشياء ، وهو أعظم تهديد يكون ؛ فإن من علم أن من يعصيه عالماً به وهو قادر عليه لا يعصيه أبداً .

(437/774)

ولما كان ذلك أمراً غامضاً ، دل عليه بأمر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبرته لاستدعاء الشكر من عباده على ما أبدع لهم ومن عليهم به من النعم الباهرة التي بها قوامهم ، ولولاه لما كان لهم بقاء فقال مستأنفاً : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي جعل لكم ﴾ لتتوصلوا إلى ما ينفعكم ﴿ الأرض ﴾ على سعتها وعظمها وجزونة كثير منها ﴿ ذلولاً ﴾ أي مسخرة لا تمتنع ، قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشي وإنباط مياه وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك غاية الانقياد ، بما تفهمه صيغة المبالغة مع أن فيها أماكن خوارة تسوخ فيها الأرجل ويغوص فيها ما خالطها ، ومواضع مشتبكة بالأشجار يتعذر أو يتعسر سلوكها ، وأماكن ملأى سباعاً وحيات وغير ذلك من الموانع ، وأماكن هي جبال شاهقة إما يتعذر

سلوكها كجبل السد بيننا وبين ياجوج وماجوج ، ورد في الحديث أنه تزلق عليه الأرجل ولا تثبت ، أو يشق سلوكها ، ومواطن هي بحور عذبة أو ملحة فلو شاء لجعلها كلها كذلك ليكون بحيث لا يمكن الانتفاع بها ، فما قسمها إلى سهول وجبال وبرور وبحور وأنهار وعيون وملح وعذب وزرع وشجر وتراب وحجر ورمال ومدر وغير ذلك إلا لحكمة بالغة وقدرة باهرة ، لتكون قابلة لجميع ما تريدون منها ، صالحة لسائر ما ينفعكم فيها .

ولما كان معنى التذليل ما تقدم ، سبب عنه قوله تمثيلاً لغرض التذليل لأن منكبي البعير وملتقاهما من الغاربين أرق شيء وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه :

﴿ فامشوا ﴾ أي الهوينا مكتسبين وغير مكتسبين إن شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثباً أو حبواً ﴿ في مناكبها ﴾ أي أماكنها التي هي لولا تسهيلنا لمناكب الحيوانات لكانوا ينتكبون عن الوقوف عليها ، فكيف بالمشي ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إنها الجبال – لأن تذليلها أدل دليل على تذليل غيرها ، وليكن مشيتكم فيها وتصرفكم بذل وإخبات وسكون استصغاراً لأنفسكم وشكراً لمن سخر لكم ذلك – والله الهادي .

(438/774)

ولما ذكر سبحانه أنه يسرها للمشي ، ذكرهم بأنه سهلها لإخراج الخيرات والبركات فقال : ﴿ وكلوا ﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله : ﴿ من رزقه ﴾ أي الذي أودعه لكم فيها وأمكنكم من إخراجه بضد ما تعرفون من أحوالكم فإن الدفن في الأرض مما يفسد المدفون ويحيله إلى جوهرها كما يكون لمن قبرتموه فيها ، ومع ذلك فأنتم تدفنون الحب وغيره مما ينفعكم فيخرجه لكم سبحانه على أحسن ما تريدون ويخرج لكم من الأقوات والفواكه والأدهان والملابس ما تعلمون ، وكذلك النفوس هي صعبة كالجبال وإن قدتها للخير انقادت لك كما قيل " هي النفس ما عودتها تتعود " .

ولما كان التقدير للبعث على الشكر والتحذير من الكفر : واعبدوه جزاء على إحسانه إليكم وتربيته لكم .

فمنه مبدأ جميع ذلك ، عطف عليه ما يدعو إلى الحياء من السيد والخجل من توبيخه عند لقائه فقال : ﴿ وإليه ﴾ أي وحده ﴿ النشور ﴾ وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفسدتها ، يخرجها في الوقت الذي يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الأرزاق ، لا فرق بين هذا وذاك ، غير أنكم لا تتأملون فيسألكم عما كنتم تعملون ، فيا فوز من شكر ويا هلاك من كفر ، فإن هذا أبعث شيء على الشكر ، وأشد شيء إبعاداً عن العصيان لا سيما الكفر ، لما قرر من حاجة الإنسان ، والإحسان إليه بأنواع الإحسان .

ولما لم يكن بعد الاستعطاف إلا الإنذار على الخلاف ، قال مهدداً للمكذبين بعذاب دون عذاب جهنم ، منكراً عليهم الأمان بعد إقامة الدليل على أن بيده الملك ، وأنه قادر على ما يريد منه بأسباب جنوده وبغير سبب ، مقرراً بعد تقرير حاجة الإنسان وعجزه أنه لا حصن له ولا مانع له بوجه من عذاب الله ، فهو دائم الافتقار ملازم للصغار : ﴿ أأمنتم ﴾ أي أيها المكذبون ، وخاطبهم بما كانوا يعتقدون مع أنه إذا حمل على الرتبة وأول السماء بالعلو أو جعل كناية عن التصرف لأن العادة جرت غالباً أن من كان في شيء كان متصرفاً فيه صح من غير تأويل فقال : ﴿ من في السماء ﴾ أي على زعمكم العالية قاهرة لكم ، أو المعنى : من الملائكة الغلاظ الشداد الذي صرفهم في مصالح العباد ، أو المعنى : في غاية العلو رتبة ، أو أن ذلك إشارة إلى أن في السماء أعظم أمره لأنها ترفع إليها أعمال عباده وهي مهبط الوحي ومنزل القطر ومحل القدس والسلطان والكبرياء وجهة العرش ومعدن المطهرين والمقربين من الملائكة الذين أقامهم الله في تصريف أوامره ونواهيه ، والذي دعا إلى مثل هذا التأويل السائغ الماشي على لسان العرب قيام الدليل القطعي على أنه سبحانه ليس بمتحيز في جهة لأنه محيط فلا يحاط به ، لأن ذلك لا يكون إلا لمحتاج ؛ ثم أبدل من " من

" بدل اشتمال فقال : ﴿ أن ﴾ .

ولما كانت قدرته على ما يريد بلا واسطة كقدرته بالواسطة ، وقدرته إذا كان الواسطة جمعاً كقدرته إذا كان واحداً ، لأن الفاعل على كل تقدير حقيقة هو لا غيره ، وحد بما يقتضيه لفظ " من " إشارة إلى هذا المعنى سواء أريد ب " من " هو سبحانه أو ملائكته أو واحد منهم فقال : ﴿ يخسف ﴾ أي أأمنتم خسفه ، ويجوز أن يراد ب " من " الله سبحانه وتعالى كما مضى خطاباً على زعمهم وظنهم أنه في السماء وإلزاماً لهم بأنه كما قدر على الإمطار والإنبات وغيرهما من التصرفات في الأرض فهو يقدر على غيره ﴿ بكم الأرض ﴾ كما خسف بقارون وغيره .

(440/774)

ولما كان الذي يخسف به من الأرض يصير كالساقط في الهواء وكان الساقط في الهواء يصير يضطرب ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فإذا هي ﴾ أي الأرض التي أنتم بها ﴿ تمور ﴾ أي تضرب وهي تهوي بكم وتجري هابطة في الهواء وتتكفأ إلى حيث شاء سبحانه ، قال في القاموس : المور الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك .

ولما كانوا ربما استبعدوا الخسفة ، وكانوا يعهدون ما ينزل من السماء من الندى والأمطار

والصواعق ، عادل بذلك قوله : ﴿ أم أمنتم ﴾ أي أيها المكذبون ، وكرر لهم ذكر ما يخشونه زيادة في الترهيب فقال : ﴿ من في السماء ﴾ على التقديرين ﴿ أن يرسل عليكم ﴾ أي من السماء ﴿ حاصباً ﴾ أي حجارة يحصبكم - أي يرميكم - بها مع ريح عاصف بقوتها كما وقع لقوم لوط وأصحاب الفيل .

ولما كان هذا الكلام إنذاراً عظيماً ووعظاً بليغاً شديداً ، وكان حالهم عنده متردداً بين إقبال وإدبار ، سبب عنه على تقدير إدبارهم بتماديهم بما للإنسان من النقصان قوله متوعداً بما يقطع القلوب ، ولفت القول إلى مقام التكلم إيذاناً بتشديد الغضب :

﴿ فستعلمون ﴾ أي عن قريب بوعد لا خلف فيه في الدنيا ثم في الآخرة .

ولما كان العلم بكيفية الشيء أعظم من العلم بمطلق ذلك الشيء لأنه يلزم من العلم بها العلم بمطلق ذلك الشيء ، وكان ما هو بحيث يسأل عنه لا يكون إلا عظيماً قال : ﴿ كيف نذير ﴾ أي إنذاري البليغ إذا شاهدتم العذاب وهو بحيث لا يستطاع ، ولا تتعلق الأطماع بكشف له ولا دفاع ، وحذف الياء منه ومن " نكير " إشارة إلى أنه وإن كان خارجاً عن الطرق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد ، لا غاية له بوجه ولا تحديد .

ولما كان من المعلوم أن المأمور بإبلاغهم وإنذارهم هذا الإنذار ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غاية الرحمة لهم والشفقة عليهم فهو بحيث يشق عليه غاية المشقة ما أفهمه هذا الكلام من إهلاكهم أن يصدقوا ، ويحب التأني بهم ، لفت سبحانه الخطاب إليه عاطفاً على ما تقديره : فلقد طال إمهالنا لهم وحلمنا عنهم وتعريفنا لهم بعظيم قدرتنا وهم لا يرجعون وكثر وعظنا لهم وتصريفنا القول بينهم على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام وهم يتمادون ولا ينتهون ، قوله مصوراً لهم ما توعدهم به في أمر محسوس لأن الأمور المشاهدات أروع للإنسان لما له من التقيد بالوهم مؤكداً للإشارة إلى أن التكذيب مع إقامة البراهين أمر يجب إنكاره فلا يكاد يصدق : ﴿ ولقد كذب ﴾ وطغى وبغى وأعرض وتجبر وتمرد وولى بوجهه وقلبه ﴿ الذين ﴾ .

ولما كان هذا التكذيب لم يعم الماضين بعض فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ يعني كفار الأمم الماضية .

ولما كان سبحانه قد أملى لهم ثم أخذهم بعد طول الحلم أخذاً بقيت أخباره ، ولم تندرس إلى الآن على تمادي الزمان آثاره ، فكان بحيث يسأل عنه لعظم أحواله ، وشدة زلازله وفظاعة أهواله ، سبب عن ذلك قوله منبهاً على استحضار ذلك العذاب ولو بالسؤال عنه : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب في تمكن كونه وهول

أمره ، فقد جمع إلى التسلية غاية التهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 74 .

79 ﴾

(442/774)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال :

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

وفيه وجهان الوجه الأول : أن المراد : إن الذين يخشون ربهم وهم في دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة إلى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال الوجه الثاني : أن هذا إشارة إلى كونه متقياً من جميع المعاصي لأن من يتقي معاصي الله في الخلوة اتقاها حيث يراه الناس لا محالة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق فقالوا : دلت الآية على أن من كان موصوفاً بهذه الخشية فله الأجر العظيم ، فإذا جاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية ، فقد حصل الأمران فإما أن يثاب ثم يعاقب وهو بالإجماع باطل أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعد المؤمنين على سبيل المغايبة رجع بعد ذلك إلى خطاب الكفار فقال :

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13)

وفيه وجهان : الوجه الأول : قال ابن عباس كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية القول الثاني : أنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال ، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد ، فالحال واحد في علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصي سراً كما تحترزون عنها جهراً فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى ، وكما بين أنه تعالى عالم بالجهر وبالسر بين أنه عالم بخواطر القلوب .

ثم إنه تعالى لما ذكر كونه عالماً بالجهر وبالسر وبما في الصدور ذكر الدليل على كونه عالماً بهذه الأشياء فقال :

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن معنى الآية أن من خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضاً مقررة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك الشيء فإن الغافل عن الشيء يستحيل أن يكون قاصداً إليه ، وكما أنه ثبت أن الخالق لا بد وأن يكون عالماً بماهية المخلوق لا بد وأن يكون عالماً بكميته ، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو أنقص لا بد وأن يكون بقصد الفاعل واختياره ، والقصد مسبوق بالعلم فلا بد وأن يكون قد علم ذلك المقدار وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولى من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه ، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحاً لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ، فثبت أن من خلق شيئاً فإنه لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته ، وإذا ثبتت هذه المقدمة فنقول : تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن العبد غير موجد لأفعاله من وجهين الوجه الأول : قالوا : لو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها ، لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجد لها ، بيان الملازمة من وجهين الأول : التمسك بهذه الآية الثاني : أن وقوع عشرة أجزاء من الحركة مثلاً ممكن ووقوع الأزيد منه والأنقص منه أيضاً ممكن ، فاختصاص العشرة بالوقوع دون الأزيد ودون

الأنقص ، لا بد وأن يكون لأجل أن القادر المختار خصه بالإيقاع ، وإلا لكان وقوعه دون الأزيد والأنقص وقوعاً للممكن المحدث من غير مرجح ، لأن القادر المختار إذا خص تلك العشرة بالإيقاع فلا بد وأن يكون عالماً بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا أنقص ، فثبت أن العبد لو كان موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها وأما أنه غير عالم بتفاصيلها فلوجوه أحدها : أن المتكلمين اتفقوا على أن

(444/774)

التفاوت بين الحركة السريعة والبطيئة لأجل تخلل السكنات ، فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل في بعض الأحياز حركة وفي بعضها سكوناً مع أنه لم يخطر ألبتة بباله أنه فعل ههنا حركة وههنا سكوناً وثانيها : أن فاعل حركة لا يعرف عدد أجزاء تلك الحركات إلا إذا عرف عدد الأحياز التي بين مبدأ المسكنة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردية التي تتسع لها تلك المسافة من أولها إلى آخرها كم هي ؟ ومعلوم أن ذلك غير معلوم وثالثها : أن النائم والمغمى عليه قد يتحرك من جنب إلى جنب مع أنه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا

كميتها ورابعها : أن عند أبي علي ، وأبي هاشم ، الفاعل إنما يفعل معنى يقتضي الحصول في الحيز ، ثم إن ذلك المعنى الموجب مما لا يخطر ببال أكثر الخلق ، فظهر بهذه الدلالة أن العبد غير موجد لأفعاله الوجه الثاني : في التمسك بهذه الآية على أن العبد غير موجد أن نقول : إنه تعالى لما ذكر أنه عالم بالسر والجهر وبكل ما في الصدور قال بعده : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقاً لكل ما يفعلونه في السر والجهر ، وفي الصدور والقلوب ، فإنه لو لم يكن خالقاً لها لم يكن قوله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ مقتضياً كونه تعالى عالماً بتلك الأشياء ، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه في السر والجهر من أفعال الجوارح ومن أفعال القلوب ، فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد : ألا يعلم من خلق الأجسام والعالم الذي خلق الأجسام هو العالم بهذه الأشياء ؟ قلنا : إنه لا يلزم من كونه خالقاً لغيره هذه الأشياء كونه عالماً بها ، لأن من يكون فاعلاً لشيء لا يجب أن يكون عالماً بشيء آخر ، نعم يلزم من كونه خالقاً لها كونه عالماً بها لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالماً به .

المسألة الثانية :

الآية تحتمل ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ في محل الرفع والمنصوب يكون مضمراً والتقدير ألا يعلم من خلق مخلوقه وثانيها : أن يكون من خلق في محل النصب ويكون المرفوع مضمراً ، والتقدير ألا يعلم الله من خلق والاحتمال الأول أولى لأن الاحتمال الثاني يفيد كونه تعالى عالماً بذات من هو مخلوقه ، ولا يقتضي كونه عالماً بأحوال من هو مخلوقه والمقصود من الآية هذا لا الأول وثالثها : أن تكون ﴿ مَنْ ﴾ في تقدير ما كما تكون ما في تقدير من في قوله : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وعلى هذا التقدير تكون ما إشارة إلى ما يسره الخلق وما يجهرونه ويضمرونه في صدورهم وهذا يقتضي أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

أما قوله : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ فاعلم أنهم اختلفوا في ﴿ اللطيف ﴾ فقال بعضهم : المراد العالم وقال آخرون : بل المراد من يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين ، ولهذا يقال : إن لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم ، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكراراً .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بين بالدلائل كونه عالماً بما يسرون وما يعلنون ، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد ، ونظيره من قال لعبده الذي أساء إلى مولاه في السر : يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك ، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن تأديبي ، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ للآفات التي تتحير فيها ومنبعاً للمحن التي تهلك بسببها ، فكذا ههنا ، كأنه تعالى قال : أيها الكفار اعلموا أني عالم بسركم وجهركم ، فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي ، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها ، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم ، أنا الذي ذللتها إليكم وجعلتها سبباً لنفعكم ، فامشوا في مناكبها ، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض ، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن ، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها .

المسألة الثانية :

الذلول من كل شيء : المنقاد الذي يذل لك ، ومصدره الذل ، وهو الانقياد واللين ، ومنه يقال : دابة ذلول ، وفي وصف الأرض بالذلول أقوال : أحدها : أنه تعالى ما جعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها ، كما يمتنع المشي على وجوه الصخرة الخشنة وثانيها : أنه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها ، وبناء الأبنية منها كما يراد ، ولو كانت حجرية

صلبة لتعذر ذلك وثالثها : أنها لو كانت حجرية ، أو كانت مثل الذهب أو الحديد ، لكانت تسخن جداً في الصيف ، وكانت تبرد جداً في الشتاء ، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة ، والغراسة فيها متعذرة ، ولما كانت كفاتاً للأموات والأحياء ورابعها : أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها في جو الهواء ، ولو كانت متحركة على الاستقامة ، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أمر إباحة ، وكذا القول في قوله : ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ .

المسألة الرابعة :

ذكروا في مناكب الأرض وجوهاً أحدها : قال صاحب "الكشاف" : المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير ، وأبعده من إمكان المشي عليه ، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه ، فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة ، فثبت أن قوله : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلولية وثانيها : قول قتادة والضحاك وابن عباس : إن مناكب الأرض جبالها وآكامها ،

وسميت الجبال مناكب ، لأن مناكب الإنسان شاخصة والجبال أيضاً شاخصة ، والمعنى أني سهلت عليكم المشي في مناكبها ، وهي أبعد أجزائها عن التذليل ، فكيف الحال في سائر أجزائها وثالثها : أن مناكبها هي الطرق ، والفجاج والأطراف والجوانب وهو قول الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل ، ورواية عطاء عن ابن عباس ، واختيار الفراء ، وابن قتيبة قال : مناكبها جوانبها ، ومنكبا الرجل جانباه ، وهو كقوله تعالى :

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً * لّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح : 19 ، 20]

أما قوله : ﴿ وَكُلُواْ مِن رّزْقِهِ ﴾ أي مما خلقه الله رزقاً لكم في الأرض : ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ يعني ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض ، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله ، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر ، ثم إنه تعالى بين أن بقاءهم مع هذه السلامة في الأرض إنما كان بفضل الله ورحمته ، وأنه لو شاء لقلب الأمر عليهم ، ولأمطر عليهم من سحاب القهر مطر الآفات .

فقال تقريراً لهذا المعنى :

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

واعلم أن هذه الآيات نظيرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام : 65] وقال : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] .

(449/774)

واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله : ﴿ ءامِنتم مَّن فِى السماء ﴾ ، والجواب عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين ، لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب ، فيكون أصغر من السماء ، والسماء أصغر من العرش بكثير ، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش ، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال ، ولأنه تعالى قال : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والأرض قُلْ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : 12] فلو كان الله في السماء لوجب أن يكون مالكاً لنفسه وهذا محال ، فعلمنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل ، ثم فيه وجوه : أحدها : لم لا يجوز أن يكون تقدير الآية : أأمنتم من في السماء عذابه ، وذلك لأن عادة الله تعالى جارية ، بأنه إنما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويعصيه من السماء فالسماء موضع عذابه تعالى ، كما أنه موضع نزول رحمته ونعمته وثانيها : قال أبو مسلم : كانت العرب مقرين بوجود الإله ،

لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة ، فكأنه تعالى قال لهم : أتأمنون من قد أقررتم بأنه في السماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض وثالثها : تقدير الآية : من في السماء سلطانه وملكه وقدرته ، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات وَفِى الأرض ﴾ [الأنعام : 3] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين ، فوجب أن يكون المراد من كونه في السموات وفي الأرض نفاذ أمره وقدرته ، وجريان مشيئته في السموات وفي الأرض ، فكذا ههنا ورابعها : لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله : ﴿ مَّن فِى السماء ﴾ الملك الموكل بالعذاب ، وهو جبريل عليه السلام ، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بأمر الله وإذنه .

(450/774)

وقوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ قالوا معناه : إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك ، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها ، فيذهبون والأرض فوقهم تمور ، فتلقيهم إلى أسفل السافلين ، وقد ذكرنا تفسير المور فيما تقدم .

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

ثم زاد في التخويف فقال : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مّن فِى السماء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ .

قال ابن عباس : كما أرسل على قوم لوط فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ [القمر : 34] والحاصب ريح فيها حجارة وحصباء ، كأنها تقلع الحصباء لشدتها ، وقيل : هو سحاب فيها حجارة .

ثم هدد وأوعد فقال : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ .

قيل في النذير ههنا إنه المنذر ، يعني محمداً عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك ، والمعنى فستعملون رسولي وصدقه ، لكن حين لا ينفعكم ذلك ، وقيل : إنه بمعنى الإنذار ، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول ، و (كيف) في قوله : ﴿ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ ينبىء عما ذكرنا من صدق الرسول وعقوبة الإنذار .

واعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بهذه التخويفات أكد ذلك التخويف بالمثال والبرهان أما المثال فهو أن الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم فقال :

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18)

يعني عاداً وثمود وكفار الأمم ، وفيه وجهان أحدهما : قال الواحدي : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري وتغييري ، أليس وجدوا العذاب حقاً والثاني : قال أبو مسلم : النكير عقاب المنكر ، ثم قال : وإنما سقط الياء من نذيري ، ومن نكيري حتى تكون مشابهة لرؤوس الآي المتقدمة عليها ، والمتأخرة عنها .

وأما البرهان فهو أنه تعالى ذكر ما يدل على كمال قدرته ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادراً على إيصال جميع أنواع العذاب إليهم ؛ وذلك البرهان من وجوه :

البرهان الأول : هو قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات وَيَقْبِضْنَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 58.62 ﴾

(452/774)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾

ثم وصف تعالى أهل الإيمان ، وهم ﴿ الذين يخشون ربهم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما : ﴿ بالغيب ﴾ الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار ، فآمنوا بذلك ، وخشوا ربهم فيه ، ونحا إلى هذا قتادة والمعنى الثاني : أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس ، أي في خلواتهم ، ومنه تقول العرب : فلان سالم الغيب ، أي لا يضر ، فالمعنى يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم ، وانفرادهم ، فالاحتمال الأول : مدح بالإخلاص والإيمان ، والثاني : مدح بالأعمال

الصالحة في الخلوات ، وذلك أحرى أن يعملوها علانية ، وقوله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ مخاطبة لجميع الخلق .

قال ابن عباس : سببها أن المشركين قال بعضهم لبعض : أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد فالمعنى أن الأمر سواء عند الله لأنه يعلم ما هجس في الصدور دون أن ينطق به ، فكيف إذاً ينطق به سراً أو جهراً ، و ﴿ ذات الصدور ﴾ ، ما فيها ، وهذا كما قال : الذئب مغبوط بذي بطنه ، وقد تقدم تفسيره غير ما مرة . وقوله تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ اختلف الناس في إعراب : ﴿ من ﴾ ، فقال بعض النحاة : إعرابها رفع ، كأنه قال : ألا يعلم الخالق خلقه ؟ فالمفعول على هذا محذوف ، وقال قوم : إعرابها نصب ، كأنه قد لا يعلم الله من خلق ؟ قال مكي : وتعلق أهل الزيغ بهذا التأويل لأنه يعطي أن الذين خلقهم الله هم العباد من حيث قال ﴿ من ﴾ فتخرج الأعمال عن ذلك ، لأن المعتزلة تقول : العباد يخلقون أعمالهم .

(453/774)

قال القاضي أبو محمد : وتعلقهم بهذا التأويل ضعيف ، والكلام مع المعتزلة في مسالة خلق الأعمال مأخذه غير هذا ، لأن هذه الآية حجة فيها لهم ولا عليهم ، والذلول فعول بمعنى

مفعول أي مذلول . فهي كركوب وحلوب ، يقال : ذلول ، بين الذل بضم الذال ، واختلف المفسرون في معنى : المناكب ، فقال ابن عباس : أطرافها وهي الجبال ، وقال الفراء ومنذر بن سعيد : جوانبها ، وهي النواحي ، وقال مجاهد : هي الطرف والفجاج ، وهذا قول جار مع اللغة ، لأنها تنكب يمنة ويسرة ، وينكب الماشي فيها ، في مناكب . وهذه الآية تعديد نعم في تقريب التصرف للناس ، وفي التمتع فقي رزق الله تعالى ، و ﴿ النشور ﴾ : الحياة بعد الموت .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر : " أأمنتم " بهمزتين مخففتين دون مد ، وقرأ أبو عمرو ونافع : " النشور آمنتم " بمد وهمزة ، وقرأ ابن كثير : " النشور وأمنتم " ببدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمة وهو بعد الواو . وقوله تعالى : ﴿ من في السماء ﴾ جار على عرف تلقي البشر أوامر الله تعالى ، ونزول القدر بحوادثه وخسف الأرض : أن تذهب سفلاً ، و ﴿ تمور ﴾ معناه : تذهب وتتموج كما يذهب التراب الموار وكما يذهب الدم الموار . ومنه قول الأعرابي : وغادرت التراب موراً ، والحاصب : البرد وما جرى مجراه لأنه في اللغة الريح ترمي بالحصباء ، ومنه قول الفرزدق : [البسيط]

مستقبلين شمال الريح ترجمهم . . . بحاصب كنديف القطن منشور

وقرأ جمهور السبعة : " فستعلمون " بالتاء ، وقرأ الكسائي وحده : " فسيعلمون بالياء ،

وقرأ السبعة وغيرهم : " نذير " بغير ياء على طريقهم في الفواصل المشبهة بالقوافي ، وقرأ نافع في رواية ورش وحده : " نذيري " بالياء على الأصل ، وكذلك في " نكيري " والنكير : مصدر بمعنى الإنكار ، والنذير كذلك . ومنه قول حسان بن ثابت : [الوافر]

فأنذر مثلها نصحاً قريشاً . . . من الرحمن ان قلبت نذيري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(454/774)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾

نظيره : ﴿ وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ق : 33] وقد مضى الكلام فيه .

أي يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب ؛ وهو عذاب يوم القيامة .

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر ؛ يعني إن

أخفيتم كلامكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو جهرتم به ف ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر .

ابن عباس : نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبيّ صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام ؛ فقال بعضهم لبعض : أسِرّوا قولكم كي لا يسمع ربّ محمد ؛ فنزلت : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ .

يعني : أسِرُّوا قولكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل في سائر الأقوال .

أوِ اجْهَرُوا به ، أعلنوه .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ ذات الصدور ما فيها ؛ كما يسمَّى ولد المرأة وهو جنين "ذا بطنها" .

ثم قال : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ يعني ألا يعلم السرّ من خلق السرّ .

يقول أنا خلقت السرّ في القلب أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد .

وقال أهل المعاني : إن شئت جعات "من" اسماً للخالق جل وعز ويكون المعنى ألا يعلن الخالق خلقه .

وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله مَن خلق .

ولا بدّ أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه .

قال ابن المسّيب : بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عَصَفت الريح فوقع في نفس الرجل : أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودي من جانب الغيْضة بصوت عظيم : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(455/774)

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينِي : من أسماء صفات الذات ما هو للعلم ؛ منها "الْعَلِيمُ" ومعناه تعميم جميع المعلومات .

ومنها "الخَبيرُ" ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون .

ومنها "الْحَكِيم" ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف .

ومنها "الشهيد" ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه ألا يغيب عنه شيء .

ومنها "الحافظ" ويختص بأنه لا ينسى .

ومنها "الْمُحصي" ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق ؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة .

وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق ! وقد قال : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ أي سهلة تستقرّون عليها .

والذَّلُول المنقاد الذي يَذِلّ لك ؛ والمصدر الذُّلِ وهو اللين والانقياد .

أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغِلظة .

وقيل : أي ثبتّها بالجبال لئلا تزول بأهلها ؛ ولو كانت تتكفّأ متماثلة لما كانت منقادة لنا .

وقيل : أشار إلى التمكن من الزرع والغرس وشق العيون والأنهار وحفر الآبار .

﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ هو أمر إباحة ، وفيه إظهار الامتنان .

وقيل : هو خبر بلفظ الأمر ؛ أي لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها .

وقال ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب : ﴿ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ في جبالها .

وروِي أن بشير بن كعب كانت له سُرِّية فقال لها : إن أخْبرتني ما مناكب الأرض فأنت حرّة ؟ فقالت : مناكبها جبالها .

فصارت حرة ، فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال : دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

مجاهد : في أطرافها .

وعنه أيضاً : في طرقها وفجاجها .

وقاله السُّدّي والحسن .

وقال الكَلْبي : في جوانبها .

ومَنْكِبَا الرجل : جانباه .

وأصل المَنْكِب الجانب ؛ ومنه مَنْكِب الرجل .

والريح النكباء .

وتَنَكّب فلان عن فلان .

يقول : امشوا حيث اردتم فقد جعلتها لكم ذلولاً لا تمتنع .

(456/774)

وحكى قتادة عن أبي الجلد : أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ؛ فللسودان اثنا عشر ألفا ، وللروم ثمانية الآف ، وللفرس ثلاثة الآف ، وللعرب ألف .

﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ أي مما أحلّه لكم ؛ قاله الحسن .

وقيل : مما أتيته لكم .

﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ المرجع .

وقيل : معناه أن الذي خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرضَ ذلولاً قادر على أن ينشركم .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

قال ابن عباس : أأمِنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه .

وقيل : تقديره أأمِنتم من في السماء قدرته وسلطانُه وعرشُه ومملكتُه .

وخصّ السماء وإن عَمّ مُلْكُه تنبيهاً على أن الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من

يعظّمونه في الأرض .

وقيل : هو إشارة إلى الملائكة .

وقيل : إلى جبريل وهو المَلَك المُوَكّل بالعذاب .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى : أأمنتم خالق مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون .

﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي تذهب وتجيء .

والمَوْر : الاضطراب بالذهاب والمجيء .

قال الشاعر :

رَمَيْنَ فأَقْصَدْنَ القلوبَ ولن ترى . . .

دماً مائراً إلاّ جَرَى في الحَيازِمِ

جمع حَيْزوم وهو وسط الصدر .

وإذا خُسف بإنسان دارت به الأرض فهو المَوْر .

وقال المحققون : أمنتم مَن فَوقَ السماء ؛ كقوله : ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرض ﴾ [التوبة : 2] أي فوقها لا بالمماسّة والتحيّز لكن بالقهر والتدبير .

وقيل : معناه أمنتم مَن على السماء ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي عليها .

ومعناه أنه مديرها ومالكها ؛ كما يقال : فلان على العراق والحجاز ؛ أي واليها وأميرها .

والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة ، مشيرة إلى العلو ؛ لا يدفعها إلا مُلْحدٌ أو جاهل معاند .

والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السّفل والتّحت .

(457/774)

ووصفه بالعلوّ والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام .

وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي ، ومنزل القطر ، ومحل القُدس ، ومعدن المطهرين من الملائكة ، وإليها ترفع أعمال العباد ، وفوقها عرشه وجنته ؛ كما جعل الله الكعبة قِبلةً للدعاء والصلاة ، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها ، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان .

وهو الآن على ما عليه كان .

وقرأ قُنْبل عن ابن كَثير "النشور وامنتم" بقلب الهمزة الأولى واواً وتخفيف الثانية .

وقرأ الكوفيون والبصريون وأهل الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتخفيف في الهمزتين ، وخفّف الباقون .

وقد تقدم جميعه .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾

أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفِيل .

وقيل : ريح فيها حجارة وحَصْباء .

وقيل : سحاب فيه حجارة .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إنذاري .

وقيل : النذير بمعنى المنذر .

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

يعني كفار الأمم ؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَدْيَن وأصحاب الرَّسِّ وقومِ فرعون .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري وقد تقدّم .

وأثبت وَرْش الياء في "نذيري ، ونكيري" في الوصل .

وأثبتها يعقوب في الحالين .

وحذف الباقون اتباعاً للمصحف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾

أي يخافونَ عذابَهُ غائباً عنهُم أو غائبينَ عنْهُ أو عن أعينِ النَّاسِ أو بما خَفِيَ منهُم وهو قلوبُهُم

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمةٌ لذنوبِهِم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يُقَادرُ قَدرُهُ .

(459/774)

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ بيانٌ لتساوِي السرِّ والجهرِ بالنسبةِ إلى علمِهِ تعالَى كما في قولِه : ﴿ سَوَاء مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما نزلتْ في المشركينَ كانُوا ينالُونَ من النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فيُوحَى إليهِ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ فقال بعضُهُم لبعضٍ أسرُّوا قولَكُم كيلاَ يسمعَ ربُّ محمدٍ فقيلَ لهُم أسِرُّوا ذلكَ أو اجهروا بِهِ فإنَّ اللهَ يعلمهُ ، وتقديمُ السرِّ على الجهرِ للإيذانِ بافتضاحِهِم ووقوعِ ما يحذرونَهُ من أولِ الأمرِ والمبالغةِ في بيانِ شمولِ علمِهِ المحيطِ لجميعِ المعلوماتِ كأنَّ علمَهُ تعالَى بما يُسرُّونَهُ أقدرُ منهُ بما يجهرونَ بِهِ مع كونِهما في الحقيقةِ على السويةِ فإنَّ علمَهُ تعالَى بمعلوماتِهِ ليسَ بطريقِ حصولِ صورِهَا بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسِهِ علمٌ بالنسبةِ إليهِ تعالَى أو لأنَّ

مرتبةَ السرِّ متقدمةٌ على مرتبةِ الجهرِ إذْ مَا من شيءٍ يُجهرُ بِهِ إلا وهُو أو مباديهِ مضمرٌ في القلبِ يتعلقُ بِهِ الأسرارُ غالباً فتعلقُ علمِهِ تعالَى بحالتِهِ الأُولى متقدمٌ على تعلقِهِ بحالتِهِ الثانيةِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليلٌ لما قبلَهُ ، وتقريرٌ لهُ . وفي صيغةِ الفعيلِ وتحليةِ الصدورِ بلامِ الاستغراقِ ووصفِ الضمائرِ بصاحبيتِها من الجزالةِ ما لا غايةَ وارءَهُ كأنَّهُ قيلَ إنه مبالغٌ في الإحاطةِ بمضمراتِ جميعِ الناسِ وأسرارِهِم الخفيةِ المستكنةِ في صدورِهِمْ بحيثُ لا تكادُ تفارقُها أصلاً فكيفَ يَخْفى عليهِ ما تُسرُّونَهُ وتجهرونَ بِهِ ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بذاتِ الصُّدورِ القلوبُ التي في الصدرِ ، والمعنى أنه عليمٌ بالقلوبِ وأحوالِهَا فلا يَخْفَى عليهِ سرٌّ من أسرارِهَا .

وقولُهُ تعالَى :

(460/774)

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لعدمِ إحاطةِ علمِهِ تعالَى بالمُضمرِ والمُظهرِ ، أي ألا يعلمُ السرَّ والجهرَ من أوجدَ بموجبِ حكمتِهِ جميعَ الأشياءِ التي هُمَا من جُملَتِهَا . وقولُهُ تعالَى : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ حالٌ من فاعلِ يعلمُ مؤكدةٌ للإنكارِ والنَّفيِ ، أي ألا يعلمُ ذلكَ والحالُ أنَّه المتوصلُ علمُهُ إلى ما ظهرَ من خلقِهِ وما بطنَ ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَنْ خَلَقَ منصوباً ،

والمَعْنَى ألا يعلمُ اللهُ مَنْ خلقَهُ والحالُ أنَّهُ بهذِهِ المثابةِ من شمولِ العلمِ ، ولا مساغَ لإخلاءِ العلم عن المفعولِ بإجرائِهِ مَجْرَى يُعْطِي ويمنعُ على مَعْنَى ألا يكونُ عالِماً مَنْ خلقَ لأنَّ الخلقَ لا يتأتَّى بدونِ العلمِ لخلوِّ الحالِ حينئذٍ من الإفادةِ لأنَّ نظمَ الكلامِ حينئذٍ ألا يكونُ عالماً وهو مبالغٌ في العلمِ .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾

لينةً يسهلُ عليكُم السلوكُ فيها ، وتقديمُ لكُم على مفعُولَي الجعلِ مع أنَّ حقَّهُ التأخرُ عنهُما للاهتمامِ بما قُدمَ والتشويقِ إلى ما أُخرَ فإنَّ ما حقَّه التقديمُ إذا أُخرَ لا سيَّما عند كونِ المقدمِ ممَّا يدلُّ على كونِ المؤخرِ من منافعِ المخاطبينَ تبقَى النفسُ مترقبةً لورودِهِ فيتمكنُ لديها عندَ ذكرِهِ فضلُ تمكنٍ . والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ لترتيبِ الأمرِ على الجعلِ المذكورِ أي فاسلكُوا في جوانبِهَا أو جبَالِهَا ، وهو مَثَلٌ لفرطِ التذليلِ فإن منكبَ البعيرِ أرقُّ أعضائِهِ وأنباها عن أنْ يطأَهُ الراكبُ بقدمِهِ فإذا جُعل الأرضُ في الذُّلِّ بحيثُ يتأتَّى المشيُ في مناكبِهَا لم يبقَ منها شيءٌ لم يتذللْ . ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ والتمسُوا من نعمِ اللهِ تعالَى : ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ أي المرجعُ بعدَ البعثِ لا إلى غيرِه فبالِغُوا في شكرِ نعمِهِ وآلائِهِ .

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِى السماء ﴾ أي الملائكةَ الموكلينَ بتدبيرِ هذا العالمِ ، أو اللهُ سبحانَهُ على تأويلِ من في السماءِ أمرُهُ وقضاؤهُ ، أو على زعمِ العربِ حيثُ كانُوا يزعمونَ أنَّه تعالَى في السماءِ أي أأمنتُم منْ تزعمُونَ أنَّهُ في السماءِ وهُو متعالٍ عن المكانِ . ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ بعدَ ما جعلَهَا لكُم ذلولاً تمشون في مناكبِهَا وتأكلونَ من رزقِهِ لكفرانِكُم تلكَ النعمةَ أي يقلبُهَا ملتبسةً بكُم فيغيبكم فيهَا كما فعلَ بقارونَ وهو بدلُ اشتمالٍ مِنْ مَنْ ، وقيلَ هو عَلى حذفِ الجارِّ أيْ مِنْ أنْ يخسفَ ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي تضطربُ ذهاباً ومجيئاً على خلافِ ما كانَتْ عليهِ من الذُّلِّ والاطمئنانِ ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مّن فِى السماء ﴾ إضرابٌ عن التهديدِ بما ذُكِرَ ، وانتقالٌ إلى التهديدِ بوجهٍ آخرَ ، أيْ بلْ أأمنتُم مَنْ في السَّماءِ ﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ أي حجارةً من السماءِ كما أرسلَها على قومِ لوطٍ وأصحابِ الفيلِ ، وقيلَ ريحاً فيها حجارةٌ وحصباءُ كأنَّها تقلعُ الحصباءَ لشدَّتِهَا وقوتِهَا وقيلَ هي سحابٌ فيها حجارةٌ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريبٍ ألبتةَ ﴿ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إنذاري عندَ مُشاهدتِكُم للمنذرِ بهِ ولكنْ لا ينفعكُم العلمُ حينئذٍ . وقُرِىءَ فسيعلمُونَ بالياءِ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبلِ كفارِ مكةَ من كفارِ الأممِ السَّالفةِ كقومِ نوحٍ وعادٍ وأضرابِهِم . والالتفاتُ إلى الغيبةِ لإبرازِ الإعراضِ عنهُم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهِم بإنزالِ العذابِ أي كانَ على غايةِ الهولِ والفظاعةِ وهذا هو موردُ التأكيدِ

القسَمِي لا تكذيبُهُم فقطْ ، وفيهِ من المبالغةِ في تسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتشديدِ التهديدِ لقومِهِ ما لا يَخْفَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(462/774)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾

أي يخافون عذابه غائباً عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس غير مرائين أو بما خفي منهم وهو قلوبهم ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يقادر قدره وتقديم المغفرة على الأجر لأن درء المضار أهم من جلب المنافع والجملة المذكورة قيل استئناف بياني وقوله تعالى :

(463/774)

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ خطاب عام للمكلفين كما في قوله تعالى أولاً ﴿ ليبلوكم ﴾ [الملك : 2] عطف على مقدر قال في "الكشف" أصل الكلام وللذين كفروا منكم

أيها المكلفون المبتلون وللذين يخشون منكم فقطع هذا الثاني جواباً عن السؤال الذي يقطر من بيان حال الكافرين مع أن ذكرهم بالعرض وهو ماذا حال من أحسن عملاً ومن خرج ممحصاً عند الابتلاء فأجيب بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ ﴾ [الملك : 12] الخ فأثبت لهم كمال العلم ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] وكمال التقوى لقوله تعالى بالغيب وفي هذا القطع ترشيح للمعنى المرموز إليه في قوله تعالى ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك : 2] أي ليبلوكم أيكم المتقي تخصيصاً لهم بأنهم المقصودون ولو عطف لدل على التساوي ثم قيل فاتقوه في السر والعلن ودوموا أنتم أيها الخاشعون على خشيتكم وأنيبوا إلى الخشية والتقوى أيها المغترون واعتقدوا استواء إسراركم وجهركم في علم ربكم فكونوا على حذر واخشوه حق الخشية فقوله تعالى ذلك عطف على هذا المضمر وجوز أن يجعل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ﴾ الخ استطراداً عقيب ذكر الكفار وجزائهم وقوله سبحانه وأسروا أو اجهروا على سبيل الالتفات إلى ﴿ أصحاب السعير ﴾ [الملك : 11] لبعد العهد وزيادة الاختصاص عطفاً على قوله تعالى ﴿ وللذين كفروا ﴾ [الملك : 6] كأنه قيل وللكافرين بربهم عذاب جهنم ثم قيل من صفتها كيت وكيت وإسراركم بالقول وجهركم به أيها الكافرون سيان فلا تفوتوننا جهرتم بالكفر والبغضاء أو أبطنتموهما فهو من تتمة الوعيد ثم قال والأول املأ بالقبول انتهى ويظهر لي بعد الأول ويؤيد الثاني ما روي عن ابن عباس أنه قال نزلت وأسروا الخ في المشركين كانوا ينالون

من النبي صلى الله عليه وسلم فيوحى إليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمد فقيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله تعالى

(464/774)

يعلمه وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في شمول علمه عز وجل المحيط بجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شيء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبتها من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل أنه عز وجل مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلاً فكيف لا يعلم ما تسرونه وتجهرون به ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور والمعنى أنه تعالى عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى :

(465/774)

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه جل شأنه ومن فاعل يعلم أي ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التي هما من جملتها وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار والنفي أي ألا يعلم ذلك والحال أنه تعالى المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن وقيل حال من فاعل خلق والأول أظهر وقدر مفعول يعلم بما سمعت ولم يجعل الفعل من باب يعطي ويمنع لمكان هذه الحال على ما قيل إذ لو قلت ألا يكون عالماً من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنى صحيحاً لاعتماد ألا يعلم على الحال والشيء لا يوقت بنفسه فلا يقال ألا يعلم وهو عالم ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم كل شيء وأورد عليه أن اللطيف هو العالم بالخفيات فيكون المعنى ألا يكون عالماً وهو عالم بالخفيات وهو مستقيم وأجيب بأن لا يعلم من ذلك الباب وهو على ما قرره السكاكي مستغرق في المقام الخطابي واللطيف الخبير من يوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن فهما سواء في الاستغراق والإطلاق وتعقب بأن الاستغراق غير لازم كما ذكره الزمخشري في قوله تعالى ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 23] الآية ولو سلم فالوجه مختلف لأن العموم المستفاد من الثاني ليس العموم المستفاد من الأول فإن اللطف للعلم بالخفايا خاصة ويلزم العلم بالجلايا من طريق الدلالة ثم إن الغزالي اعتبر في مفهوم اللطيف مع العلم بخفايا الأمور سلوك سبيل الرفق في إيصال ما يصلحها فلا يتكرر مع

الخبير بناءً على أنه العالم بالخفايا أيضاً والوجه في الحاجة إلى التقدير كما قال بعض الأئمة أن قوله تعالى ألا يعلم تذييل بعد التعليل بقوله سبحانه ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك : 13] فربط المعنى أن يقال ألا يعلم هذا الخفي أعني قولكم المسر به أو ألا يعلم سركم وجهركم من يعلم دقائق الخفايا وجلائلها جملها وتفاصيلها ولو قيل ألا يكون عالماً بليغ العلم من هو كذا لم يرتبط

(466/774)

ولكان فيه عي وقصور وجوز كون من مفعول خلق واستظهره أبو حيان أي ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله ورجح الأول بأن فيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع إلى الرب وهو أدل على المحذوف أعني السر والجهر وتعميم المخلوق المتناول لهما تناولاً أولياً ولهذا قدروا من خلق الأشياء دلالة على أن حذف المفعول للتعميم .

(467/774)

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ غير صعبة يسهل جداً عليكم السلوك فيها فهو فعول للمبالغة في الذل من ذل بالضم ويكسر ضد الصعوبة ويستعمل المضموم فيما يقابل العز كما يقتضيه كلام القاموس وقال ابن عطية الذلول فعول بمعنى مفعول أي مذلولة كركوب وحلوب انتهى وتعقب بأن فعله قاصر وإنما يعدى بالهمزة أو التضعيف فلا يكون بمعنى المفعول واستظهر أن مذلولة خطأ وقال بعضهم يقولون للدابة إذا كانت منقادة غير صعبة ذلول من الذل بالكسر وهو سهولة الانقياد في الكلام استعارة وقيل تشبيه بليغ وتقديم لكم على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن والفاء في قوله تعالى : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ لترتيب الأمر على الجعل المذكور وزعم بعضهم أنها فصيحة والمراد بمناكبها على ما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما جبالها وقال الحسن طرقها وفجاجها وأصل المنكب مجتمع ما بين العضد والكتف واستعماله فيما ذكر على سبيل الاستعارة التصريحية التحقيقية وهي قرينة المكنية في الأرض حيث شبهت بالبعير كما ذكره الخفاجي ثم قال فإن قلت كيف تكون مكنية وقد ذكر طرفها الآخر في قوله تعالى : ﴿ ذَلُولاً ﴾ قلت هو بتقدير أرضاً ذلولا فالمذكور جنس الأرض المطلق والمشبه هو الفرد الخارجي وهو غير مذكور فيجوز كون ذلولاً استعارة والمكنية حينئذٍ هي مدلول الضمير لا

المصرح بها في "النظم الكريم" والمانع من الاستعارة ذكر المشبه بعينه لا بما يصدق عليه فتأمل ولا تغفل وفي "الكشاف" المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه لم يترك بقية من التذليل والمراد أنه ليس هنا أمر بالمشي

(468/774)

حقيقة وإنما القصد به إلى جعله مثلاً لفرط التذليل سواء كانت المناكب مفسرة بالجبال أو غيرها وسواء كان ما قبل استعارة أو تشبيهاً ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ انتفعوا بما أنعم جل شأنه وكثيراً ما يعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم وفي أنوار التنزيل أي التمسوا من نعم الله سبحانه وتعالى على أن الأكل مجاز عن الالتماس من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللازم قيل وهو المناسب لقوله تعالى امشوا وجوز بعض إبقاءه على ظاهره على أن ذلك من قبيل الاكتفاء وليس بذاك واستدل بالآية على ندب التسبب والكسب وفي الحديث أن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف وهذا لا ينافي التوكل بل أخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرة قال مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بقوم فقال : من أنتم فقالوا : المتوكلون قال : أنتم المتأكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل

وتمام الكلام في هذا الفصل في محله والمشهور أن الأمر في الموضعين للإباحة وجوز كونه لمطلق الطلب لأن من المشي وما عطف عليه ما هو واجب كما لا يخفى ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ أي المرجع بعد البعث لا إلى غيره عز وجل فبالغوا في شكر نعمه التي منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها ومما يقضي منه العجب جواز عود ضمير رزقه على الأرض باعتبار أنها مبدأ أو عنصر من العناصر أو ذلول وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث والإضافة لأدنى ملابسة أي من الرزق الذي خلق عليها وكذا ضمير إليه أي وإلى الأرض نشوركم ورجوعكم فتخرجون من بيوتكم وقصوركم إلى قبوركم وجملة إليه النشور قيل عطف على الصلة بعد ملاحظة ما ترتب عليها وقيل حال مقدرة من ضمير المخاطبين المرفوع فتدبر .

(469/774)

﴿ ءامَنْتُمْ مَّن فِى السماء ﴾ وهو الله عز وجل كما ذهب إليه غير واحد فقيل على تأويل من في السماء أمره سبحانه وقضاؤه يعني أنه من التجوز في الإسناد أو أن فيه مضافاً مقدراً وأصله من في السماء أمره فلما حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ارتفع واستتر وقيل على تقدير خالق من في السماء وقيل في بمعنى على ويراد العلو بالقهر والقدرة وقيل

هو مبني على زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنه سبحانه في السماء فكأنه قيل أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعال عن المكان وهذا في غاية السخافة فكيف يناسب بناء الكلام في مثل هذا المقام على زعم بعض زعم الجهلة كما لا يخفى على المنصف أو هو غيره عز شأنه وإليه ذهب بعضهم فقيل أريد بالموصول الملائكة عليهم السلام الموكلون بتدبير هذا العالم وقيل جبريل عليه السلام وهو الملك الموكل بالخسف وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره تعالى والآية عندهم من المتشابه وقد قال صلى الله عليه وسلم : " آمنوا بمتشابهه " ولم يقل أولوه فهم مؤمنون بأنه عز وجل في السماء على المعنى الذي أراده سبحانه مع كمال التنزيه وحديث الجارية من أقوى الأدلة لهم في هذا الباب وتأويله بما أول به الخلف خروج عن دائرة الإنصاف عند أولي الألباب وفي "فتح الباري" للحافظ ابن حجر أسند اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال : اتفاق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير وأسند البيهقي بسند صحيح عن أحمد بن أبي الحواري عن سفيان بن عيينة كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه وهذه طريقة الشافعي وأحمد بن حنبل وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل

وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله عز وجل والذي نرتضيه رأياً وندين الله تعالى به عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع انتهى كلام الإمام وقد تقدم النقل في ذلك عن أهل العصر الثالث وهم فقهاء الأمصار كالثوري والأوزاعي ومالك والليث ومن عاصرهم وكذا من أخذ عنهم من الأئمة فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام انتهى كلام الحافظ على وجه الاختصار ونقل نصوص الأئمة في إجراء ذلك على الظاهر مع التنزيه من غير تأويل يفضي إلى مزيد بسط وتطويل وقد ألفت فيه كتب معتبرة مطولة ومختصرة وفي تنبيه العقول لشيخ مشايخنا إبراهيم الكوراني أن إجماع القرون الثلاثة على إجراء المتشابهات على مواردها مع التنزيه بليس كمثله شيء دليل على أن الشارع صلوات الله تعالى وسلامه عليه أراد بها ظواهرها والجزم بصدقه صلى الله عليه وسلم دليل على عدم المعارض العقلي الدال على نقيض ما دل عليه الدليل النقلي في نفس الأمر

وإن توهمه العاقل في طور النظر والفكر فمعرفة الله تعالى بهذا النحو من الصفات طور وراء ذلك انتهى وأنا أقول في التأويل اتباع الظن وقول في الله عز وجل بغير علم وإلا لاتحد ما يذكرونه من المعنى فيه مع أن الأمر ليس كذلك حيث يذكرون في تأويل شيء واحد وجوهاً من الاحتمالات وفيما عليه السلف سلامة من ذلك ويكفي هذا في كونه أحسن المسالك

: وما علي إذا ما قلت معتقدي . . .

دع الجهول يظن الجهل عدوانا

(471/774)

وقرأ نافع أأمنتم بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وأدخل أبو عمرو وقالون بينهما ألفاً وقرأ قنبل بإبدال الأولى واواً لضم ما قبلها وهوراء النشور وعنه وعن ورش غير ذلك أيضاً وقوله تعالى : ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ بدل اشتمال من من وجوز أن يكون على حذف الجار أي من أن يخسف ومحله حينئذٍ النصب أو الجر والباء للملابسة والأرض مفعول به ليخسف والخسف قد يتعدى قال الراغب يقال خسفه الله تعالى وخسف هو قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص 81] أي أأمنتم من أن يذهب

الأرض إلى سفل ملتبسة بكم وزعم بعضهم لزوم لزومه وأن الأرض نصب بنزع الخافض أي أن يخسف بكم في الأرض وليس كذلك ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ حين الخسف ﴿ تَمُورُ ﴾ ترتج وتهتز اهتزازاً شديداً وأصل المور التردد في المجيء والذهاب .

(472/774)

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِى السماء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ إضراب عن الوعيد بما تقدم إلى الوعيد بوجه آخر أي بل أأمنتم من في السماء أن يرسل الخ وقد تقدم الكلام في الحاصب والوعيد بالخسف أولاً لمناسبة ذكر الأرض في قوله تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً وقد ذكر المنة في تسهيل المشي في مناكبها وذكر إرسال الحاصب ثانياً وهذا في مقابلة الامتنان بقوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك : 15] ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات : 22] قاله في "الكشف" وفي "غرة التنزيل" للراغب في وجه تقديم الوعيد بالخسف على التوعد بالحاصب أنه لما كانت الأرض التي مهدها سبحانه وتعالى لهم لاستقرارهم يعبدون فيها خالقها فعبدوا الأصنام التي هي شجرها أو حجرها خوفوا بما هو أقرب إليهم والتخويف بالحاصب من السماء التي هي مصاعد كلمهم الطيبة ومعارج أعمالهم الصالحة لأجل أنهم بدلوهما بسيئات كفرهم وقبائح أعمالهم

ولعل ما أشير إليه أولاً أولى ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إنذاري فنذير مصدر مثله في قول حسان :

فانذر مثلها نصحاً قريشا . . .

من الرحمن إن قبلت نذيري

وهو مضاف إلى ياء الضمير والقراء مختلفون فيها فمنهم من حذفها وصلاً وأثبتها وقفاً ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة والمعنى فستعلمون ما حال إنذاري وقدرتي على إيقاعه عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرىء شاذاً فسيعلمون بالياء التحتانية .

(473/774)

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة قوم نوح وعاد وأضرابهم والالتفات إلى الغيبة لإبراز الاعراض عنهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بإنزال العذاب أي كان على غاية الهول والفظاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط الكلام في نكير كالكلام في ﴿ نذير ﴾ [17] وفي الكلام من

المبالغة في تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 29 صـ ﴾

(474/774)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) ﴾

اعتراض يفيد استئنافاً بيانياً جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة ، فلما ذكر ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والثواب للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال المشركين .

وقدم المغفرة تطميناً لقلوبهم لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه ، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم ، فكان الكلام جارياً على قانون تقديم التخلية على التحْلية ، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع ، والوصف بالكبير بمعنى العظيم نظير ما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ إن أنتم إلاّ في ضلال كبير ﴾ [الملك : 9] .

وتنكير ﴿ مغفرة ﴾ للتعظيم بقرينة مقارنته بـ ﴿ أجر كبير ﴾ وبقرينة التقديم .

وتقديم المسند على المسند إليه في جملة ﴿ لهم مغفرة ﴾ ليتأتى تنكير المبتدأ ، ولإفادة

الاهتمام ، وللرعاية على الفاصلة وهي نُكت كثيرة .

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13)

عطف على الجمل السابقة عطف غرض على غرض ، وهو انتقال إلى غرض آخر لِمناسبة حكاية أقوالهم في الآخرة بذكر أقوالهم في الدنيا وهي الأقوال التي كانت تصدر منهم بالنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الله يطلعه على أقوالهم فيخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنكم قلتم كذا وكذا ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كيلا يسمعه رب محمد فأنزل الله ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ كذا روي عن ابن عباس . وصيغة الأمر في ﴿ وأسروا ﴾ و ﴿ اجهروا ﴾ مستعملة في التسوية كقوله تعالى : ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ [الطور : 16] ، وهذا غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها ﴿ أو ﴾ عاطفة نقيض أحد الفعلين على نقيضه .

فقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر بقرينة المقام وسبب النزول ، أي فسواء في علم الله الإِسرار والإِجهار لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بَلْهَ ما يسرون به من الكلام ، ولذلك جيء بوصف عليم إذ العليم من أمثلة

المبالغة وهو القويّ علمُه .

وضمير ﴿ إنه ﴾ عائد إلى الله تعالى المعلوم من المقام ، ولا معاد في الكلام يعود إليه الضمير ، لأن الاسم الذي في جملة ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ [الملك : 12] لا يكون معاداً لكلام آخر .

و(ذات الصدور) مَا يتردد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال .

وهو مركب من (ذات) التي هي مؤنث (ذُو) بمعنى صاحب ، و ﴿ الصدور ﴾ بمعنى العقول وشأن (ذُو) أن يضاف إلى ما فيه رفعة .

وجملة ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ بأن يسأل سائل منهم : كيف يعلم ذات الصدور ، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه ؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور ، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالاً لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خَلدها ، فالإتيان بـ ﴿ مَن ﴾ الموصولة لإفادة التعليل بالصلة .

فيجوز أن يكون ﴿ مَن خَلَق ﴾ مفعول ﴿ يعلم ﴾ فيكون ﴿ يعلم ﴾ و ﴿ خلَق ﴾ رافعين ضميرين عائدَيْن إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ ، فيكون ﴿ مَن ﴾ الموصولة صادقة على المخلوقين وحُذف العائد من الصلة لأنه ضمير نصب

يكثر حذفه .

والتقدير : من خلقهم .

ويجوز أن يكون ﴿ من خلق ﴾ فاعل ﴿ يعلم ﴾ والمراد الله تعالى ، وحُذف مفعول ﴿ يعلم ﴾ لدلالة قوله : ﴿ وأسروا قولَكم أو اجهروا به ﴾ .

والتقدير : ألا يعلم خالقكم سركم وجهركم وهو الموصوف بلطيف خبير .

(476/774)

والعلم يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دالٌ على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام ، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة .

وجملة ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ الأحسن أن تجعل عطفاً على جملة ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ لتفيد تعليماً للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء علي الله بما يسرون ، أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإِسرار من الأحوال .

و﴿ اللطيف ﴾ : العالم خبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة .

و﴿ الخبير ﴾ : العليم الذي لا تعزب عنه الحوادثُ الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضاً بحدوثها فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ في الأنعام (103) وعند قوله : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ في سورة لقمان (16) .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

استئناف فيه عود إلى الاستدلال ، وإدماج للامتنان ، فإن خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلاّ جزء من الأرض أو كجزء منها قال تعالى : ﴿ منها خلقناكم ﴾ [طه : 55] ، فلما ضَرب لهم بخلق أنفسهم دليلاً على علمه الدال على وحدانيته شفَّعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها ، مع المنة بأنه خلقها هيّنة لهم صالحة للسير فيها مخرِجة لأرزاقهم ، وذُيّل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره .

والذَّلول من الدواب المنقادة المطاوعة ، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد ، فَعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إنها بقرة لا ذلول ﴾ الآية في سورة البقرة (71) ، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيهاً بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة .

والمناكب : تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد ، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها .

وفُرع على هذه الاستعارة الأمر في فامشوا في مناكبها ﴾ فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإِدامة تذكيراً بما سخّر الله لهم من المشي في الأرض امتناناً بذلك .

ومناسبة ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ أن الرزق من الأرض .

والأمر مستعمل في الإِدامة أيضاً للامتنان ، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها .

فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول ، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك .

وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة .

وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإِنعام ليتدبروا فيتركوا العناد ، قال تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ [النحل : 81] .

وأما عطف ﴿ وإليه النشور ﴾ فهو تتميم وزيادة عبر استطرون لمناسبة ذكر الأرض فإنها مثوى الناس بعد الموت .

والمعنى : إليه النشور منها ، وذلك يقتضي حذفاً ، أي وفيها تعودون .

وتعريف ﴿ النشور ﴾ تعريف الجنس فيعم أي كل نشور ، ومنه نشور المخاطبين فكان قوله : ﴿ وإليه النشور ﴾ بمنزلة التذييل .

والقصر المستفاد من تعريف جزأي ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ﴾ قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن الأصنام خلقت الأرض لأن اعتقادهم إلهيتها يقتضي إلزامهم بهذا الظن الفاسد وإن لم يقولوه .

(478/774)

وتقديم المجرور في جملة ﴿ وإليه النشور ﴾ للاهتمام .

ومناسبة ذكر النشور هو ذكر خلق الأرض فإن البعث يكون من الأرض .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

انتقال من الاستدلال إلى التخويف لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يُصيّر مشيهم في

مناكب الأرض إلى تَجَلْجل في طبقات الأرض .

فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير .

و﴿ مَن ﴾ اسم موصول وصلته صادِق على موجود ذي إدراك كائن في السماء .

وظاهر وقوع هذا الموصول عقب جُمل ﴿ هو الذي جَعل لكم الأرض ذلولاً إلى قوله : ﴿ وإليه النشور ﴾ [الملك : 15] أن الإتيان بالموصول من قبيل الإِظهار في مقام الإِضمار ، وأن مقتضى الظاهر أن يقال أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض ؛ فيتأتى أن الإِتيان بالموصول لِما تأذن به الصلة من عظيم تصرفه في العالم العلوي الذي هو مصدر القُوى والعناصر وعجائب الكائنات فيصير قوله : ﴿ من في السماء ﴾ في الموضعين من قبيل المتشابه الذي يعطي ظاهره معنى الحلول في مكان وذلك لا يليق بالله ، ويجيء فيه ما في أمثاله من طريقتي التفويض للسلف والتأويل للخلَف رحمهم الله أجمعين .

وقد أوّلوه بمعنى : من في السماء عذابُه أو قدرتُه أو سلطانه على نحو تأويل قوله تعالى : ﴿ وجاء ربك ﴾ [الفجر : 22] وأمثاله ، وخُص ذلك بالسماء لأن إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم .

ولكن هذا الموصول غير مَكين في باب المتشابه لأنه مجمل قابل للتأويل بما يَحتمله ﴿ من ﴾ أن يَكون مَا صْدَقُه مخلوقات ذات إدراك مقرها السماء وهي الملائكة فيصح أن تصدق ﴿ مَن ﴾ على طوائف من الملائكة الموكلين بالأمر التكويني في السماء والأرض قال تعالى : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ [الطلاق : 12] ، ويصح أن يراد باسم الموصل ملك واحد معيَّن وظيفته فعل هذا الخسف ، فقد قيل : إن جبريل هو الملَك الموكّل بالعذاب .

وإسناد فعل ﴿ يخسف ﴾ إلى "الملائكة" أو إلى واحد منهم حقيقة لأنه فاعل الخسف قال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿ قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية . . .

إنا مُنجوك وأهلك . . .

إنَّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء ﴾ [العنكبوت : 31 34] .

وإفراد ضمير ﴿ يخسف ﴾ مراعاة للفظ ﴿ مَن ﴾ إذا أريد طائفة من الملائكة أو مراعاة للفظ والمعنى إذا كان ما صْدق ﴿ مَن ﴾ ملكاً واحداً .

والمعنى : توبيخهم على سوء معاملتهم ربهم كأنهم آمنون من أن يَأمر الله ملائكته بأن يخسفوا الأرض بالمشركين .

والخسف : انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطناً وباطنه ظاهراً وهو شدة الزلزال .

وفعل خسف يستعمل قاصراً ومتعدياً وهو من باب ضرب ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ سورة النحل (45) .

والباء في قوله : بكم ﴾ للمصاحبة ، أي يخسف الأرض مصاحبة لذواتكم .

وفي الجمع بين السماء والأرض محسّن الطباق .

والمصدر المُنسبك من ﴿ أن يخسف ﴾ يجوز أن يكون بدل اشتمال من اسم الموصول لأن الخسف من شأن مَن في السماء ، ويجوز أن يكون منصوباً على نزع الخافض وهو مطّرد مع ﴿ أنْ ﴾ ، والخافض المحذوف حرف (مِن) .

(480/774)

وفُرع على الخسف المتوقع المهدد به أن تمور الأرضُ تفريعَ الأثر على المؤثر لأن الخسف يحدث المَور ، فإذا خسفت الأرض فاجأها المَور لا محالة ، لكن نظم الكلام جرى على مَا يناسبُ جعل التهديد بمنزلة حادث وقع فلذلك جيء بعده بالحرف الدال على المفاجأة لأن حق المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال لا الاستقبال كما في "مغني اللبيب" فإذا أريد تحقيق حصول الفعل المستقبل نُزل منزلة الواقع في الحال كقوله تعالى : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ [الروم : 25] ، وإذا أريد استحضار حالة فعل حصل فيما مضى نُزل كذلك منزلة المشاهد في الحال كقوله تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من

بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ [يونس : 21] ، فكان قوله : ﴿ فإذا هي تمور ﴾ مؤذناً بتشبيه حالة الخسف المتوقع المهدد به بحالة خسف حصل بجامع التحقق كما قالوا في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، وحُذف المركب الدال على الحالة المشبه بها ورمز إليه بما هو من آثاره ويتفرع عنه فكان في الكلام تمثيلية مَكْنيّة .

والمور : الارتجاج والاضطراب وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ في سورة الطور (9) .

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

﴿ أم ﴾ لإضراب الانتقال من غرض إلى غرض ، وهو انتقال من الاستفهام الإنكاري التعجيبي إلى آخر مثله باعتبار اختلاف الأثرين الصادرين عن مفعول الفعل المستفهَم عنه اختلافاً يوجب تفاوتاً بين كنهي الفعلين وإن كانا متحدين في الغاية ، فالاستفهام الأول إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلاً أرضياً .

والاستفهام الواقع مع ﴿ أم ﴾ إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصب وذلك أمكن لمن في السماء وأشد وقعاً على أهل الأرض .

والكلام على قوله : ﴿ من في السماء ﴾ تقدم في الآية قبلها ما يغني عنه .

وتفريع جملة ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ على الاستفهام الإِنكاري كتفريع ملة ﴿ فإذا هي تمور ﴾ [الملك : 16] أي فحين يُخسف بكم أو يرسل عليهم حَاصب تعلمون كيف نذيري ، وحرف التنفيس حقه الدخول على الأخبار التي ستقع في المستقبل ، وإرسال الحاصب غير مخبر بحصوله وإلاّ لَمَا تخلف لأن خبر الله لا يتخلف ، وإنما هو تهديد وتحذير فإنهم ربما آمنوا وأقلعوا فسلموا من إرسال الحاصب عليهم ولكن لما أريد تحقيق هذا التهديد شبه بالأمر الذي وقع فكان تفريع صيغة الإِخبار على هذا مؤذناً بتشبيه المهدد به بالأمر الواقع على طريقة التمثيلية المكنية ، وجملة ﴿ فستعلمون ﴾ قرينتها لأنها من روادف المشبه به كما تقدم .

و﴿ كيف نذير ﴾ ، استفهام مُعلِّق فعل (تعلمون) عن العمل ، وهو استفهام للتهديد والتهويل ، والجملة مستأنفة .

وحذفت ياء المتكلم من ﴿ نذيري ﴾ تخفيفاً وللرعي على الفاصلة .

والنذير مصدر بمعنى الإِنذار مثل النكير بمعنى الإِنكار .

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب لأن الخسف من أحوال الأرض ، والكلام على أحوالها أقرب هنا فسُلك شبه طريق النشر المعكوس ، ولأن إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض المشار إليه بقوله : ﴿ وكلوا من

رزقه ﴾ [الملك : 15] فإن منشأ الأرزاق الأرضية من غيوث السماء قال تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ [الذاريات : 22] .

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18)

(482/774)

بعد أن وَجه الله إليهم الخطاب تذكيراً واستدلالاً وامتناناً وتهديداً وتهويلاً ابتداء من قوله : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ [الملك : 13] التفتَ عن خطابهم إلى الإِخبار عنهم بحالة الغيبة ، تعريضاً بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فكانوا جديرين بإبعادهم عِزّ الحضور للخطاب ، فلذلك لم يقل (ولقد كذب الذين من قبلكم) ولم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن الله لم يدخرهم نصحاً .

فالجملة عطف على جملة ﴿ أم أمنتم مَن في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ [الملك : 17] لمناسبة أن مما عوقب به بعض الأمم المكذبين من خسف أو إرسال حجارة من السماء وهم قوم لوط ، ومنهم من خُسف بهم مثل أصحاب الرس .

ولك أن تجعل الواو للحال ، أي كيف تأمنون ذلك عندما تكذبون الرسول في حال أنه قد كذب الذين من قبلكم فهل علمتم ما أصابهم على تكذيبهم الرسل .

ضرب الله لهم مثلاً بأمم من قبلهم كذبوا الرسل فأصابهم من الاستئصال ما قد علموا أخباره لعلّهم أن يتّعظوا بقياس التمثيل إن كانت عقولهم لم تبلغ درجة الانتفاع بأقيسة الاستنتاج ، فإن المشركين من العرب عرفوا آثار عاد وثمود وتناقلوا أخبار قوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرسّ وفرع ﴿ فكيف كان نكيرِ ﴾ استفهاماً تقريرياً وتنكيرياً وهو كناية عن تحقيق وقوعه وأنه وقع في حال فظاعة .

وقد أكد الخبر باللام و (قد) لتنزيل المعرّض بهم منزلة من يظن أن الله عاقب الذين من قبلهم لغير جرم أو لجرم غير التكذيب .

فهو مفرع على المؤكد ، فالمعنى : لقد كذب الذين من قبلهم ولقد كان نكيري عليهم بتلك الكيفية .

و﴿ نكير ﴾ ؛ أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً ، كما في قوله : ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ [الملك : 17] ، والمعنى : كيف رأيتم أثر نكيري عليهم فاعلموا أن نكيري عليكم صائر بكم إلى مثل ما صار بهم نكيري عليهم .

والمراد بالنكير المنظر بنكير الله على الذين مِن قبلهم ، ما أفاده استفهام الإِنكار في قوله : ﴿ أأمنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ [الملك : 16] وقوله : ﴿ أم أمنتم مَن في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ [الملك : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(484/774)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/775)

الجزء الخامس والسبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة الأحقاف

وحتى الآية ﴿ 30 ﴾ آخر السورة

(4/775)

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر بمصارع الأولين ، وكان التذكير بالحاصب تذكيراً لقريش بما حصب به على قرب الزمان عدوهم أصحاب الفيل بما أرسل عليهم من الطير الأبابيل تحذيراً لهم من ذلك إن تمادوا على كفره ، ولم ينقادوا إلى شكره ، فكان التقدير تقريراً لزيادة قدرته وحسن تدبيره ولطف تربيته حيث جبر الطير لضعفها بالطيران ليكمل بعموم رحمانيته أمر معاشها تقريراً لأن بيده الملك وترهيباً من أن ينازعه أحد في تدبيره مع تبقية القول مصروفاً عن خطابهم ، إيذاناً بشدة حسابهم وسوء منقلبهم ومآبهم ؛ ألم يروا إلى قدرتنا على مصارع الأولين وإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين ، عطف عليه قوله معرضاً عنهم زيادة في الإنذار بالحصب من الطير وغيرها : ﴿ أو لم يروا ﴾ وأجمع القراء على القراءة هنا بالغيب لأن السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل .

وأشار إلى بعد الغاية بحرف النهاية فقال : ﴿ إلى الطير ﴾ وهو جمع طائر .

ولما كان الجو كله مباحاً للطيران نزع الجار فقال : ﴿ فوقهم ﴾ وبين حال الطير في الفوقية بقوله واصفاً لها بالتأنيث إشارة إلى ضعفها في أنفسها لولا تقويته لها ﴿ صافات ﴾ أي باسطات أجنحتها تمدها غاية المد بحيث تصير مستوية لا اعوجاج فيها مع أنه إذا كان جماعة منها كانت صفوفاً أو صفاً واحداً في غاية الانتظام تابعة لإمام منها .

ولما عبر عن الصف بالاسم لأنه الأصل الثابت ، عبر عن التحريك بالفعل لأن الطيران في ساحة الهواء كالسباحة في باحة الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ،

والبقض طارىء على البسط فقال : ﴿ ويقبضن ﴾ أي يوقعن قبض الأجنحة وبسطها وقتاً بعد وقت للاستراحة والاستظهار به على السبح في الهواء .

ولما تم هذا التقدير على هذا الوجه الرائع للقلوب ترجمه بقوله : ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي في الجو في حال القبض والبسط عن السقوط على خلاف ما يقتضيه الطبع .

(5/775)

ولما كان هذا من التدبير المحكم الناظر إلى عموم الرحمة قال : ﴿ إلا الرحمن ﴾ أي الملك الذي رحمته عامة لكل شيء بأن هيأهن - بعد أن أفاض عليهن رحمة الإيجاد - على أشكال مختلفة وخصائص مفترقة للجري في الهواء بما أوجد لها من القوادم والحوافي وغير ذلك من الهيئات المقابلة لذلك ، وكذا جميع العالم لو أمسك عنه حفظه طرفة عين لفسد بتهافت الأفلاك وتداعي الجبال وغيرها ، وعبر في النحل بالاسم الأعظم لأن سياقها للرد على أهل الطبائع وهم الفلاسفة الذين لا يقوم بالرد عليهم إلا المتبحر في معرفة جميع أصول الدين بمعرفة جميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى التي جمعها اسم الذات .

ولما كان هذا أمراً رائعاً للعقل ، ولكنه لشدة الإلف صار لا يتنبه له إلا بالتنبيه ، وكان الجاهل ربما ظن أن التقدير على الطيران خاص بالطير ، نبه سبحانه على عظمة ما هيأ

الطير له وعلى أنه يقدر أن يجعل ذلك لغيره بقوله مؤكداً لأجل قصور بعض العقول عن التصديق بذلك وتضمن الإشراك للطعن في تمام الاقتدار المتضمن للطعن في تمام العلم : ﴿ إنه ﴾ أي الرحمن سبحانه ﴿ بكل شيء ﴾ قل أو كثر جليل وحقير ظاهر وباطن ﴿ بصير ﴾ بالغ البصر والعلم بظواهر الأشياء وبواطنها ، فمهما أراد كان وهو يخلق العجائب ويوجد الغرائب ، فيهيىء من أراد من الآدميين وغيرهم لمثل ذلك .

(6/775)

ولما كان التقدير تقريراً لذلك : فمن يدبر مصالحكم ظاهراً وباطناً ، وفعل هذه الأنواع من العذاب بالمكذبين من قبلكم ، عطف عليه قوله عائداً إلى الخطاب لأنه أقعد في التكبيت والتوبيخ ، وأدل على أن المخاطب ليس بأهل لأن يهاب مقرراً لأنه مختص بالملك : ﴿ أمن ﴾ ونبه على أن المدبر للأشياء لا بد أن يكون في غاية القرب والشهادة لها ليكون بصيراً برعيها ، ويكون مع مزيد قربه عالي الرتبة بحيث يشار إليه ، فقال مقرراً لعجز العباد : ﴿ هذا ﴾ بإشارة الحاضر ﴿ الذي ﴾ وأبرز العائد لأنه لا بد من إبرازه مع الاسم بعدم صلاحه لتحمل الضمير فقال : ﴿ هو جند ﴾ أي عسكر وعون ، وصرف القول عن الغيبة إلى الخطاب لأنه أبلغ في التقريع فقال : ﴿ لكم ينصركم ﴾ أي على من يقصدكم

بالخسف والحصب وغيرهما ، ويجوز أن يكون التقدير : ألكم إله يدبر مصالحكم غيرنا أم كان الذي عذب من كذب الرسل سوانا أم لكم جند يصار إليه ينصركم دوننا كما قال تعالى ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ [الأنبياء : 43] ولكنه أخرجه مخرج الاستفهام عن تعيين الجند تعريفاً بأنهم لغاية جهلهم اعتقدوا أن لهم من أجناد الأرض أو السماء من ينصرهم وإلا لما كانوا آمنين .

(7/775)

ولما كانت المراتب متضائلة عن جنابه متكثرة جداً ، قال تعالى مشيراً بالحرف والظرف إلى ذلك منبهاً على ظهوره سبحانه فوق كل شيء ، لم يقدر أحد ولا يقدر أن ينازعه في ذلك ولا في أنه مستغرق لكل ما دونه من المراتب : ﴿ من دون الرحمن ﴾ إن أرسل عليكم عذابه ، وأظهر ولم يضمر بعثاً على استحضار ما له من شمول الرحمة ، وتلويحاً إلى التهديد بأنه لو قطعها عن أحد ممن أوجده عمه الغضب كله ، ولذلك قال مستنتجاً عنه تنبيهاً على أن رفع المضار وجمع المسار ليس إلا بيده لأنه المختص بالملك : ﴿ إن ﴾ أي ما ، وأبرز الضمير تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ومواجهة بذلك لأنه أقعد في التوبيخ فقال : ﴿ الكافرون ﴾ أي العريقون في الكفر وهم من يموت عليه ﴿ إلا في غرور ﴾ أي قد أحاط

بهم فلا خلاص لهم منه وهو أنهم يعتمدون على غير معتمد .

ولما قدم أعظم الرحمة بالحياطة والنصرة الموجبة للبقاء ، أتبعه ما يتم به البقاء فقال : ﴿ أمّن ﴾ وأشار إلى القرب بالعلم والبعد بالعلو والعظمة بقوله : ﴿ هذا ﴾ وأشار إلى معرفة كل أحد له بصفاته العلية التي تنشأ عنها أفعاله المحكمة السنية ، فقال : ﴿ الذي ﴾ وأسقط العائد لتحمل الفعل له فقال : ﴿ يرزقكم ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ، لا ينقطع معروفه أبداً مع أنه قد وسع كل شيء ولا غفلة له عن شيء ﴿ إن أمسك رزقه ﴾ بإمساك الأسباب التي تنشأ عنها ويكون وصوله إليكم منها كالمطر ، ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك الله عنه قوة الازدراء عجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة .

(8/775)

ولما قامت بهذا دلائل قدرته وشمول علمه على سبيل العموم فالخصوص ، فكان ذلك مظنة أن يرجع الجاحد ويخجل المعاند ، ويعلم الجاهل ويتنبه الغافل ، فكان موضع أن يقال : هل رجعوا عن تكذيبهم ، عطف عليه قوله لافتاً الكلام إلى الغيبة إعراضاً عنهم تنبيهاً على سقوط منزلتهم وسوء أفهامهم وقوة غفلتهم : ﴿ بل لجوا ﴾ أي تمادوا سفاهة لا احتياطاً

وشجاعة ، قال الرازي في اللوامع : واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه ﴿ في عتو ﴾ أي مظروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج إلى فاحش الفساد ﴿ ونفور ﴾ أي شراد عن حسن النظر والاستماع ، دعا إليه الطباع ، واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع أنه لا قوة لأحد منهم في جلب سار ولا دفع ضار ، والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 79 . 81 ﴾

(9/775)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات وَيَقْبِضْنَ ﴾ .

﴿ صَافَّات ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

فإن قيل لم قال : ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل وقابضات ، قلنا : لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارىء غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهن

صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح .

ثم قال تعالى : ﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : هل تدل هذه الآية على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله ، قلنا : نعم ، وذلك لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري للطير .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ فدل هذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

السؤال الثاني : أنه تعالى قال في النحل [79] : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مسخرات فِى جَوّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله ﴾ وقال ههنا : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ فما الفرق ؟ قلنا : ذكر في النحل أن الطير مسخرات في جو السماء فلا جرم كان إمساكها هناك محض الإلهية ، وذكر ههنا أنها صافات وقابضات ، فكان إلهامها إلى كيفية البسط ، والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن .

(10/775)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ وفيه وجهان الوجه الأول : المراد من البصير ، كونه عالماً بالأشياء الدقيقة ، كما يقال : فلان بصر في هذا الأمر ، أي حذق والوجه الثاني : أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول : إنه تعالى شيء ، والله بكل شيء بصير ، فيكون رائياً لنفسه ولجميع الموجودات ، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه تعالى يصح أن يكون مرئياً وأن كل الموجودات كذلك ، فإن قيل : البصير إذا عدي بالباء يكون بمعنى العالم ، يقال : فلان بصير بكذا إن كان عالماً به ، قلنا : لا نسلم ، فإنه يقال : إن الله سميع بالمسموعات ، بصير بالمبصرات .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان ، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان تعويلهم على شيئين أحدهما : القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم والثاني : أنهم كانوا يقولون : هذه الأوثان ، توصل إلينا جميع الخيرات ، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين ، أما الأول فبقوله : ﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ وهذا نسق على قوله : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِى السماء ﴾ [الملك : 17] والمعنى أم من يشار إليه من المجموع ، ويقال : هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم ، ثم قال : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى

غُرُورٍ ﴾ أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم .

أما الثاني فهو قوله : ﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ .

(11/775)

والمعنى : من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم ، وهذا أيضاً مما لا ينكره ذو عقل ، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى : ﴿ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوّ وَنُفُورٍ ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق ، في عتو أي في تمرد وتكبر ونفور ، أي تباعد عن الحق وإعراض عنه فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية ، والنفور بسبب جهلهم ، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 62.64 ﴾

(12/775)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾

أي كما ذلّل الأرض للآدمي ذلّل الهواء للطيور .

و"صَافّات" أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ؛ لأنهن إذا بسطنها صَفَفْنَ قوائمها صَفّاً .

﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي يضربن بها جُنُوبَهُنَّ .

قال أبو جعفر النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحيه : صافٌّ ، وإذا ضَمّهما فأصابا جَنْبَه : قابض ؛ لأنه يقبضهما .

قال أبو خِرَاش :

يبادر جُنْح الليل فهو مُوَائل . . .

يَحُثّ الجناح بالتبَسُّطِ والْقَبضِ

وقيل : ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران .

وهو معطوف على "صَافَّاتٍ" عطف المضارع على اسم الفاعل ؛ كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر :

بات يُعَشّيها بَعضْب باتر . . .

يَقْصِدُ في أسْوُقها وجائِرِ

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أي ما يمسك الطير في الجوّ وهي تطير إلا الله عز وجل .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس : حزب ومنعة لكم .

﴿ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه .

ولفظ الجُنْد يُوَحَّد ؛ ولهذا قال : ﴿ هذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ وهو استفهام إنكار ؛ أي لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله ﴿ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ أي من سوى الرحمن .

﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ من الشياطين ؛ تغرّهم بأن لا عذاب ولا حساب .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ ﴾ أي يعطيكم منافع الدنيا .

وقيل المطر من آلهتكم .

﴿ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ يعني الله تعالى رزقه .

﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أي تمادوا وأصروا .

﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ طغيان ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(13/775)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾

أغفلوا ولم ينظروا ﴿ إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها أعني ما تقدم من ريشها صفاً ونصب صافات على الحال من الطير أو من ضميرها في فوقهم وهو في موضع الحال فتكون الحال متداخلة وجوز أن يكون ظرفا لصافات أو ليروا ومفعول صافات على الاحتمالات محذوف كما أشرنا إليه وناسب ذكر الاعتبار بالطير ذكر التوعد بالحاصب لا سيما إذا فسر بالحجارة إذ قد أهلك الله تعالى بذلك أصحاب الفيل حينما رمتهم به الطير ففي ذلك إذكار قريش بتلك القصة ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ويضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن والعطف على صافات لأن المعنى يصففن ويقبضن أو صافات وقابضات وعطف الفعل على الاسم في مثله فصيح شائع وعكسه جائز حسن إلا عند السهيلي فإنه عنده قبيح نحو قوله

: بات يعيشها بعضب باتر . . .

يقصد في أسوقها وجائر

(14/775)

فإنه أراد قاصد وجائر ولما كان أصل الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل فيها مد الأطراف وبسطها وكان القبض طارئاً على البسط للاستظهار به على التحرك جيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل وبما هو أصل بلفظ الاسم على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ويتجدد حيناً إثر حين كما يكون من السابح ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها ﴿ إِلَّا الرحمن ﴾ الواسع رحمته كل شيء حيث برأهن عز وجل على أشكال وخصائص وألهمهن حركات قد تأتي منها الجري في الهواء والجملة مستأنفة أو حال من الضمير في يبقضن وقرأ الزهري ما يمسكهن بالتشديد ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ دقيق العلم فيعلم سبحانه وتعالى كيفية إبداع المبدعات وتدبير المصنوعات ومن هذا خلقه عز وجل للطير على وجه تأتي به جريه في الجو مع قدرته تعالى أن يجريه فيه بدون ذلك إلا أن الحكمة اقتضت ربط المسببات بأسبابها وليس فيما ذكرنا نزوع إلى ما يضر من أقوال أهل الطبيعة لأن كون طبيعة الأجسام الثقيلة ما سمعت أمر محسوس لا ينكره إلا من كابر حسه ومثله كون الإمساك بالسبب السابق وكونه سبباً من آثار رحمته تعالى الواسعة وأبى ذلك أبو حيان توهماً منه أنه نزوع إلى ما يضر من أقوال أهل الطبيعة وقال نحن نقول إن أثقل الأشياء إذا أراد الله سبحانه إمساكه في الهواء واستعلاءه إلى العرش كان ذلك وإذا أراد جل شأنه إنزال ما هو أخف سفلاً إلى

منتهى ما ينزل كان أيضاً وليس ذلك لشكل أو ثقل أو خفة ونحن لا ننكر أن الله تعالى على كل شيء قدير وأنه سبحانه فعال لما يريد وأنه لا يتوقف فعله عز وجل على السبب عقلاً بيد أنا نقول أنه تعالى اقتضت حكمته في هذا العالم ذلك الربط وهو أمر عادي اختاره تعالى حكمة وتفضلاً ولو شاء جل وعلا غيره لكان كما شاء وتقديم بكل شيء على بصير

(15/775)

للفاصلة أو للحصر رداً على من يزعم عدم شمول علمه تعالى شأنه :

﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾

(16/775)

متعلق عند كثير بقوله سبحانه ﴿ أو لم يروا إلى الطير ﴾ [الملك : 19] فقال في "الإرشاد" هو تبكيت لهم بنفي أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية ويعضده قوله تعالى ما يمسكهن إلا الرحمن أو ناصر من عذابه تعالى كما هو الأنسب بقوله تعالى بعد ﴿ أن أمسك رزقه ﴾ [الملك : 21] كقوله تعالى ﴿ أم لهم آلهة

تمنعهم من دوننا ﴾ [الأنبياء : 43] في المعنيين معاً خلا أن الاستفهام هناك متوجه إلى نفس المانع وتحققه وهنا متوجه إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه وأم منقطعة مقدرة ببل للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل إلى التبكيت بما ذكر والالتفات للتشديد في ذلك ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها لأن بعدها من الاستفهامية والاستفهام لا يدخل على الاستفهام في المعروف عندهم وهي مبتدأ وهذا خبره وفي الموصول هنا الاحتمالات المشهورة في مثله وجملة ينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الأول أما حال من فاعل ينصركم أو نعت لمصدره وعلى الثاني متعلق بينصركم كما في قوله تعالى ﴿ من ينصرني من الله ﴾ [هود : 30] فالمعنى من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزاً نصر الرحمن أو ينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ اعتراض مقرر لما قبله ناع عليهم ما هم فيه من غاية الضلال أي ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط وإن آلهتهم تحفظهم من بأس الله تعالى إلا في غرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم في ذلك شيء يعتد به في الجملة والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم وبيان قبائحهم للغير والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام

(17/775)

في قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ ﴾

أي الله عز وجل : ﴿ رِزْقَهُ ﴾ بإمساك المطر وسائر مباديه كالذي مر وقوله تعالى : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ الخ منبىء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل أثر التبكيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا ﴿ فِى عُتُوّ ﴾ في عناد واستكبار وطغيان ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ شراد عن الحق لثقله عليهم وجعل ناصر الدين ﴿ أمن هذا الذي هو ﴾ [الملك : 20] الخ عديلاً لقوله تعالى أو لم يروا على معنى ألم ينظروا في أمثال هذه الصنائع من القبض والبسط والإمساك وما شاكل ذلك مما يدل على كمال القدرة فلم يعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب أم لكم جند ينصركم من دون الله إن أرسل عليكم عذابه .

(18/775)

وقال إنه كقوله تعالى ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ [الأنبياء : 43] إلا أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصرهم إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم وجعل قوله تعالى أم من هذا الذي يرزقكم الخ على معنى أم من يشار إليه ويقال هذا الذي يرزقكم فقيل إنه عليه الرحمة جعل في الأولى أم متصلة ومن استفهامية وجعل في الثانية أم منقطعة ومن موصولة وهذا الذي مبتدأ وخبر واقع صلة على تقدير القول وقدر لاستهجان أن يقال الذي هذا الذي يرزقكم ويجعل هذا قائماً مقام الضمير الراجع إلى الموصول الأول ومن قيل مبتدأ خبره محذوف أي رازق لكم وكأنه أشار بذلك إلى صحة كل من الأمرين في الوضعين وحديث لزوم اجتماع الاستفهامين في بعض الصور ودخول الاستفهام على الاستفهام قيل عليه أنه ليس بضائر إذ لا مانع من اجتماع الاستفهامين إذا قصد التأكيد وقد نقل ابن الشجري عن جميع البصريين أن أم المنقطعة أبداً بمعنى بل والهمزة أي ولو دخلت على استفهام نحو ﴿ أم هل تستوي الظلمات ﴾ [الرعد : 16] و﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾ [النمل : 84] ومذهب غيرهم أنها قد تأتي بمعنى الاستفهام المجرد وروى ذلك عن أبي عبيدة وأنها قد تأتي للإضراب المجرد وقد تتضمنه والاستفهام الإنكاري أو الطلبي والزمخشري قال في الموضعين أم من يشار إليه ويقال هذا الذي وجوز في هذا أن يكون إشارة إلى مفروض وأن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم فكأنهم الجند والناصر والرازق والآية على هذا ليست متعلقة بقوله تعالى ﴿ أو لم يروا ﴾

[الملك : 19] على ما حققه "صاحب الكشف" قال بعد أن أوضح كلامه إذا تقرر ذلك فاعلم أن الذي يقتضيه النظم على هذا التفسير أن يكون قوله تعالى ﴿ أمن هذا الذي هو جند ﴾ [الملك : 20] متعلقاً بحديث الخسف وقوله سبحانه أم من هذا الذي يرزقكم بحديث إرسال الحاصب على سبيل النشر كأنه لما قيل أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم

(19/775)

الأرض فتضطرب نافرة بعد ما كانت في غاية الذلة عقب بقول أم آمنكم الفوج الذي هو في زعمكم هو جند لكم يمنعكم من عذاب الله تعالى وبأسه على أن أم منقطعة والاستفهام تهكم وكذلك لما قيل أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً بدل ما يرسل عليكم رحمته ذنب بقول أم آمنكم الذي تتوهمون أنه يرزقكم وأما قوله تعالى

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ [الملك : 18] فاعتراض يشد من عضد التحذير وإن في الأمم الماضين المخسوف بهم والمرسل عليهم الحواصب إلى غير ذلك من أنواع عذابه عز وجل ما يسلبهم الطمأنينة والوقار لو اعتبروا وكذلك قوله سبحانه أو لم يروا تصوير لقدرته تعالى الباهرة وإن من قدر على ذلك كان الخسف وإرسال الحاصب عليه أهون شيء

وفيه كما أنه بعظيم قدرته وشمول رحمته أمسك الطير كذلك إمساكه العذاب وإلا فهؤلاء يستحقون كل نكال وفي الإتيان بهذا من التحقير الدال على تسفيه رأيهم وتقدير القول الدال على الزعم والتأكيد بالموصولين الدال على تأكد اعتقادهم في ذلك الباطل إن كان إشارة إلى الأصنام أو كمال التهكم بهم كأنهم محققون معلومون إن كان إشارة إلى فوج مفروض لأن حالهم في الأمن يقتضي ذلك وهذا أبلغ ولذا قدمه الزمخشري ما يقضي منه العجب ويلوح الإعجاز التنزيلي كأنه رأي العين ثم قال فهذا ما هديت إليه مع الاعتراف بأن الاغتراف من تيار كلام الله تعالى له رجال ما أبعد مثلي عنهم ولكن أتسلى بقول إمامنا الشافعي . . . .

انتهى ولعمري لقد أبدع وتبوأ ما قاله من القبول عند ذوي العقول المحل الأرفع

: ويعجبني طرف تدر دموعه . . .

على فضله العالي فلله دره

(20/775)

وظاهره أن من في الموضعين فاعل لفعل محذوف دل عليه السياق أعني أمنكم لا مبتدأ خبره محذوف كما قيل فيما سبق وقد جوز في الآية غير ما تقدم من أوجه الإعراب وهو أن يكون من خبراً مقدماً وهذا مبتدأ ورجح على ما مر من عكسه بأنه سالم عما فيه من

الأخبار بالمعرفة عن النكرة فإنه غير جائز عند الجمهور وجوازه مذهب سيبويه إذا كان المبتدأ اسم استفهام أو أفعل تفضيل .

وقرأ طلحة في الأولى أمن بتخفيف الميم وشدد في الثانية كالجماعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(21/775)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة ، وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول ، أي : غائبين عنه ، أو غائباً عنهم ، والمعنى : أنهم يخشون عذابه ، ولم يروه ، فيؤمنون به خوفاً من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى : يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، وذلك في خلواتهم ، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم لأنهم في الدنيا ، وهو إنما يكون يوم القيامة ، فتكون الباء على هذا سببية ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ق : 33] .

ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ هذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الإسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، والمعنى : إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله ، فكلّ ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وجملة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تعليل للاستواء المذكور ، وذات الصدور هي مضمرات القلوب .

والاستفهام في قوله : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ للإنكار ، والمعنى : ألا يعلم السرّ ، ومضمرات القلوب من خلق ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق ، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفي يعلم ضمير يعود إلى الله ، أي : ألا يعلم الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه ، وجملة : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يعلم ، أي : الذي لطف علمه بما في القلوب ، الخبير بما تسرّه وتضمره من الأمور ، لا تخفى عليه من ذلك خافية .

(22/775)

ثم امتنّ سبحانه على عباده ، فقال : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ أي : سهلة لينة تستقرّون عليها ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها ،

والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذلّ لك ، ولا يستصعب عليك ، والمصدر الذلّ ، والفاء في قوله : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور ، والأمر للإباحة .

قال مجاهد ، والكلبي ، ومقاتل : مناكبها طرقها وأطرافها وجوانبها .

وقال قتادة ، وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها ، وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، ومنه الريح النكباء لأنها تأتي من جانب دون جانب ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ أي : مما رزقكم وخلقه لكم في الأرض ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ أي : وإليه البعث من قبوركم لا إلى غيره ، وفي هذا وعيد شديد .

ثم خوّف سبحانه الكفار فقال : ﴿ ءامَنْتُمْ مَّن فِى السماء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾

قال الواحدي : قال المفسرون : يعني : عقوبة من في السماء ، وقيل : من في السماء قدرته ، وسلطانه ، وعرشه ، وملائكته ، وقيل : من في السماء من الملائكة ، وقيل : المراد جبريل ، ومعنى ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ يقلعها ملتبسة بكم ، كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها ، وقوله : ﴿ أَن يَخْسِفَ ﴾ بدل اشتمال من الموصول أي : ءأمنتم خسفه ، أو على حذف من أي : من أن يخسف ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي : تضطرب ، وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون .

قرأ الجمهور .

﴿ ءأمنتم ﴾ بهمزتين .

وقرأ البصريون ، والكوفيون بالتخفيف .

وقرأ ابن كثير بقلب الأولى واواً .

(23/775)

ثم كرّر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر ، فقال : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِى السماء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ أي : حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل : سحاب فيها حجارة ، وقيل : ريح فيها حجارة ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي : إنذاري إذا عاينتم العذاب ، ولا ينفعكم هذا العلم ، وقيل : النذير هنا محمد ، قاله عطاء ، والضحاك .

والمعنى : ستعلمون رسولي وصدقه ، والأوّل أولى .

والكلام في : ﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ كالكلام في : ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ فهو : إما بدل اشتمال ، أو بتقدير من ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : الذين قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية .

كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس ، وقوم فرعون

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾ الهمزة للاستفهام ، والواو للعطف على مقدّر ، أي : أغفلوا ولم ينظروا ، ومعنى : ﴿ صافات ﴾ أنها صافة لأجنحتها في الهواء ، وتبسيطها عند طيرانها ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي : يضممن أجنحتهنّ .

قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه : صافّ ، وإذا ضمها : قابض كأنه يقبضها ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح ، وقبضه بعد البسط ، ومنه قول أبي خراش :

يبادر جنح الليل فهو مزايل . . . تحت الجناح بالتبسط والقبض

وإنما قال : ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل " قابضات " ، كما قال صافات ؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة ، وأما البسط فهو الأصل ، كذا قيل .

وقيل : إن معنى ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ : قبضهنّ لأجنحتهنّ عند الوقوف من الطيران ، لا قبضها في حال الطيران ، وجملة ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يقبضن ، أو مستأنفة ؛ لبيان كمال قدرة الله سبحانه .

والمعنى : أنه ما يمسكهنّ في الهواء عند الطيران إلاّ الرحمن القادر على كلّ شيء ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان .

﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ .

والمعنى : أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند الحزب والمنعة .

قرأ الجمهور : ﴿ أمّن ﴾ هذا بتشديد الميم على إدغام ميم أم في ميم من ، وأم بمعنى بل ، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها ، كما هو الغالب في تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة ؛ لأن بعدها هنا " من " الاستفهامية ، فأغنت عن ذلك التقدير ، ومن الاستفهامية مبتدأ ، واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الإشارة ، وينصركم صفة لجند ، ومن دون الرحمن في محل نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى : بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم متجاوزاً نصر الرحمن .

وقرأ طلحة بن مصرف بتخفيف الأولى وتثقيل الثانية ، وجملة : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ معترضة مقرّرة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من الضلال ، والمعنى : ما الكافرون إلاّ في غرور عظيم من جهة الشيطان يغرّهم به .

﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ الكلام في هذا كالكلام في الذي قبله قراءة وإعراباً ، أي : من الذي يدرّ عليكم الأرزاق من المطر وغيره ، إن أمسك الله ذلك عنكم ومنعه عليكم ﴿ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أي : لم يتأثروا لذلك بل تمادوا في عناد

واستكبار عن الحقّ ونفور عنه ، ولم يعتبروا ولا تفكروا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره ، والعتوّ العناد ، والطغيان ، والنفور الشرود .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ قال : أبو بكر ، وعمر ، وعليّ ، وأبو عبيدة بن الجراح .

(25/775)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ قال : جبالها .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : أطرافها .

وأخرج الطبراني ، وابن عديّ ، والبيهقي في الشعب ، والحكيم الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله : " إن الله يحبّ العبد المؤمن المحترف " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوّ وَنُفُورٍ ﴾ قال : في ضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 262 . 263 ﴾

(26/775)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ [الملك : 15] استرسالاً في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات ، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم ، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطيرِ في نظام حركاتها في حال طيرانها إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات غيرها على الأرض ، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفردِ به .

واشتمل التذكير بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله : ﴿ فوقهم صافات ويقبضن ﴾ تُصَوِّر صورة حركات الطيران للسامعين فتنبههم لدقائق ربما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتُهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصِّبا ، فإن المرء التونسي أو المغربي مثلاً إذا سافر إلى بلاد الهند أو إلى بلاد السودان فرأى الفِيلَة وهو مكتمل العقل دَقيق التمييز أدرك من دقائق خلقة الفيل ما لا يدركه الرجل من أهل الهند الناشىء بين الفِيلة ، وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها مَا يَمْلأ وصفُه الصحف قال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيفَ رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى

الأرض كيف سطحت ﴾ [الغاشية : 1720] ، وقال : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

وقد رأيت بعض من شاهد البحر وهو كبير ، ولم يكن شاهده من قبل ، كيفَ امتلكه من العجب ما ليس لأحدٍ ممن ألفوه معشاره .

(27/775)

وهذا الإطناب في هذه السورة مخالف لما في نظير هذه الآية من سورة النحل (79) في قوله : ﴿ ألمَ يَروا إلى الطير مسخرات في جَوّ السماء ما يمسكهن إلاّ الله ﴾ وذلك بحسب ما اقتضاه اختلاف المقامين فسورة النحل رابعة قبل سورة الملك ، فلما أوقظت عقولهم فيها للنظر إلى ما في خلقة الطير من الدلائل فلم يتفطنوا وسُلك في هذه السورة مسلك الإِطناب بزيادة ذكر أوصاف ثلاثة:

فالوصف الأول : ما أفاده قوله : فوقهم ﴾ فإن جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات وهي السير في الجوّ بواسطة تحريك جناحيه وذلك سرّ قوله تعالى : ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] بعد قوله : ﴿ ولا طائر في ﴾ [سورة الأنعام : 38] لقصد تصوير تلك الحالة .

الوصف الثاني : ﴿ صافات ﴾ وهو وصف بوزن اسم الفاعل مشتق من الصَّف ، وهو كون أشياء متعددة متقاربة الأمكنة وباستواء ، وهو قاصر ومتعد ، يقال : صَفّوا ، بمعنى اصطفوا كما حكى الله عن الملائكة : ﴿ وإنا لنحن الصَّافُّون ﴾ [الصافات : 165] وقال تعالى في البُدْن ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صَوافَّ ﴾ [الحج : 36] .

ويقال : صفهم إذا جعلهم مستوين في الموقف ، وفي حديث ابن عباس في الجنائز "مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبر منبوذ" إلى قوله : "فصفَّنا خلفه وكبَّر" .

والمراد هنا أن الطير صافّة أجنحتها فحذف المفعول لعلمه من الوصف الجاري على الطير إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلاّ ريش أجنحتها عند الطيران فالطائر إذا طار بسط جناحيه ، أي مدها فصفّ ريش الجناح فإذا تمدد الجناحُ ظهر ريشه مصطّفاً فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والطير صافات ﴾ في سورة النور (41) .

وبسط الجناحين يُمكّن الطائرَ من الطيران فهو كمدّ اليدين للسابح في الماء .

(28/775)

الوصف الثالث : ويقبضن ﴾ وهو عطف على ﴿ صافات ﴾ من عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق وإفادةِ الاتصاف بحدوث المصدر في فاعله ، فلم يفت بعطفه تماثل المعطوفين في الاسمية والفعلية الذي هو من محسنات الوصل .

والقَبض : ضد البسط .

والمراد به هنا ضد الصّف المذكور قبله ، إذ كان ذلك الصف صادقاً على معنى البسط ومفعوله المحذوف هنا هو عين المحذوف في المعطوف عليه ، أي قابضات أجنحتهن حين يدنينها من جُنوبهن للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران .

وأوثر الفعل المضارع في ﴿ يَقْبضن ﴾ لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين إذ بذلك العكس يزداد الطيران قوة امتداد زمان .

وجيء في وصف الطير بـ ﴿ صافات ﴾ بصيغة الاسم لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات ، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد ، أي ويجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يَحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران ، ونظيره قوله تعالى في الجِبال والطيرِ ﴿ يسبحن بالعشيّ والإشراق والطيرَ محشورة ﴾ [ص : 18 19] لأن التسبيح في وقتين والطير محشورة دَوْماً .

وانتصَب ﴿ فوقهم ﴾ على الحال من ﴿ الطير ﴾ وكذلك انتصب ﴿ صافات ﴾ .

وجملة ﴿ ويقبضن ﴾ في موضع نصب على الحال لعطفها على الوصف الذي هو حال فالرؤية بصرية مضمنة معنى النظر ، ولذلك عُديت إلى المرئي بـ (إلى) .

والاستفهام في ﴿ أو لم يَروا ﴾ إنكاري ، ونزلوا منزلة من لم يرَ هاته الأحوال في الطير لأنهم لم يعتبروا بها ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهية .

(29/775)

وجملة ﴿ ما يمسكهن إلاّ الرحمان ﴾ مبينة لجملة ﴿ أو لم يروا إلى الطير ﴾ وما فيها من استفهام إنكار ، أي كان حقهم أن يعلموا أنهن ما يُمسكُهن إلاّ الرحمان إذ لا ممسك لها ترونه كقوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ [الحج : 65] .

وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهُوِيّ المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبلِ هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطيْر من الهُوِيّ .

ومعنى إمساك الله إياها : حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم ، وهي ريشات عشر هي مقاديم ريش الجناح ، ومن الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه ،

وما خلقه من شكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعاً لها من السقوط وليس ذلك بمعاليق يعلقها بها أحد كما يعلق المشعوذ بعض الصور بخيوط دقيقة لا تبدو للناظرين .

وإيثار اسم ﴿ الرحمان ﴾ هنا دون الاسم العلَم بخلاف ما في سورة النحل (79) ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله ﴾ لعله للوجه الذي ذكرناه آنفاً في خطابهم بطريقة الإِطناب من قوله : أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ الآية .

فمن جملة عنادهم إنكارهم اسم ﴿ الرحمان ﴾ فلما لم يرعووا عما هم عليه ذكر وصف ﴿ الرحمان ﴾ في هذه السورة أربع مرات .

وجملة ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ تعليل لمضمون ﴿ ما يمسكُهُنّ إلاّ الرحمان ﴾ أي أمسكهن الرحمان لعموم علمه وحكمته ولا يمسكهن غيره لقصور علمهم أو انتفائه .

والبصير : العليم ، مشتق من البصيرة ، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو : السميع البصير ، وإنما هو هنا من باب قولهم : فلان بصير بالأمور .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ [غافر : 44] ، فهو خبر لا وصف ولا منزل منزلة الاسم .

وتقديم ﴿ بكل شيء ﴾ على متعلقه لإفادة القصر الإِضافي وهو قصر قلب ردّاً على من يزعمون أنه لا يعلم كل شيء كالذين قيل لهم ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ [الملك : 13] .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

(أم) منقطعة وهي للإِضراب الانتقالي من غرض إلى غرض فبعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحق لله تعالى بالوحدانية وتذكيرهم بأنهم مفتقرون إليه ، انتقل إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعدهم الله به فوُجه إليهم استفهام أن يدلّوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه هذا هو الذي ينصر من دون الله ، فإنهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك إلاّ إذا سلكوا طريق البهتان وما هم بسالكيه في مثل هذا لافتضاح أمره .

وهذا الكلام ناشىء عن قوله : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ [الملك : 16] الآية فهو مثله معترض بين حجج الاستدلال .

و(أم) المنقطعة لا يفارقها معنى الاستفهام ، والأكثر أن يكون مقدراً فإذا صرح به كما هنا فأوضح ولا يتوهم أن الاستفهام يقدر بعدها ولو كان يليها استفهام مصرح به فيشكل اجتماع استفهامين .

والاستفهام مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء ، والإشارة مشار بها إلى

مفهوم ﴿ جند ﴾ مفروض في الأذهان استُحضر للمخاطبين ، فجعل كأنه حاضر في الخارج يشاهده المخاطبون ، فيطلب المتكلم منهم تعيين قبيله بأن يقولوا : بنو فلان .

ولما كان الاستفهام مستعملاً في التعجيز استلزم ذلك أن هذا الجند المفروض غير كائن .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 255] ونحوه .

و(مَن) في موضع مبتدأ واسم الإشارة خبر عن المبتدأ .

(31/775)

وكتب في المصحف ﴿ أمَّن ﴾ بميم واحدة بعد الهمزة وهما ميم (أم) وميم (مَن) المدغمتين بجعلهما كالكلمة الواحدة كما كتب ﴿ عمّ يتساءَلون ﴾ [النبأ : 1] بميم واحدة بعد العين ، ولا تقرأ إلاّ بميم مشددة إذ المعتبر في قراءة القرآن الرواية دون الكتابة وإنما يكتب القرآن للإعانة على مراجعته .

و﴿ الذي هو جند ﴾ صفة لاسم الإِشارة و ﴿ لكم ﴾ صفة ل ﴿ جند ﴾ و ﴿ ينصركم ﴾ جملة في موضع الحال من ﴿ جُندٌ ﴾ أو صفة ثانية ل ﴿ جند ﴾ .

ويجوز أن يكون اسم الإشارة مشاراً به إلى جماعة الأصنام المعروفة عندهم الموضوعة في

الكعبة وحولَها الذي اتخذتموه جنداً فمَن هو حتى ينصركم من دون الله .

فتكون (مَنْ) استفهامية مستعملة في التحقير مثل قوله : ﴿ من فرعون ﴾ [الدخان : 31] في قراءة فتح ميم (مَن) ورفع فرعون ، أي من هذا الجند فإنه أحقر من أن يعرف ، واسم الإِشارة صفة لاسم الاستفهام مبينة له ، و ﴿ الذي هو جند لكم ﴾ صفة لاسم الإِشارة وجملة ﴿ ينصركم ﴾ خبر عن اسم الاستفهام ، أي هو أقل من أن ينصركم من دون الرحمان .

وجيء بالجملة الإسمية ﴿ الذي هو جند لكم ﴾ لدلالتها على الدوام والثبوت لأن الجند يكون على استعداد للنصر إذا دعي إليه سواء قاتل أم لم يقاتل لأن النصر يحتاج إلى استعداد وتهيُّؤ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها "

أي هيعة جهاد .

فالمعنى : ينصركم عند احتياجكم إلى نصره ، فهذا وجه الجمع بين جملة ﴿ هو جند لكم ﴾ وجملة ﴿ ينصركم ﴾ ولم يُستغن بالثانية عن الأولى .

و ﴿ دون ﴾ أصله ظرف للمكان الأسفل ضِد (فَوق) ، ويطلق على المغاير فيكون بمعنى غير على طريقة المجاز المرسل .

فقوله : ﴿ مِن دون الرحمان ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في موضع الحال من الضمير المستتر في ﴿ ينصركم ﴾ .

(32/775)

أي حالة كون الناصر من جانب غير جانب الله ، أي مَن مستطيع غير الله يدفع عنكم السوء على نحو قوله تعالى : ﴿ أم لهم ءالهة تمنعهم من دوننا ﴾ [الأنبياء : 43] فتكون ﴿ مِن ﴾ زائدة مؤكدة للظرف وهي تزاد مع الظروف غير المتصرفة ، ولا تجر تلك الظروف بغير ﴿ مِن ﴾ ، قال الحريري في المقامة الرابعة والعشرين : ومَا منصوب على الظرف لا يخفضه سوى حرف .

وفسره بظرف (عند) ولا خصوصية ل (عند) بل ذلك في جميع الظروف غير المتصرفة .

وتكرير وصف ﴿ الرحمان ﴾ عقب الآية السابقة للوجه الذي ذكرنا في إيثار هذا الوصف في الآية السابقة .

وذيل هذا بالاعتراض بقوله : ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ ، أي ذلك شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك من المخاطبين وغيرهم ، أي في غرور من الغفلة عن توقع بأس الله تعالى ، أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام فكما غَر الأمم السالفة دينُهم بأن الأوثان

تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة فكذلك سيقع لأمثالهم قال تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] وقال ﴿ أكفّاركُم خير من أولئكم ﴾ [القمر : 43] فتعريف ﴿ الكافرون ﴾ للاستغراق .

وليس المراد به كافرون معهودون حتى يكون من وضع المظهر موضع الضمير .

والغرور : ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها ، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ في آخر آل عمران (196) وقوله : ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ في الأنعام (112) وقوله : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ في سورة فاطر (5) .

والظرفية مجازية مستعملة في شدة التلبس بالغرور حتى كأنَّ الغرور محيط بهم إحاطة الظرف .

والمعنى : ما الكافرون في حال من الأحوال إلاّ في حال الغرور ، وهذا قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم في مأمن من الكوارث بحماية آلهتهم .

(33/775)

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

انتقال آخر والكلام على أسلوب قوله : ﴿ أم مَن هذا الذين هو جند لكم ﴾ [الملك : 20] ، وهذا الكلام ناظر إلى قوله : ﴿ وكُلوا من رزقه ﴾ [الملك : 15] على طريقة اللف والنشر المعكوس .

والرزق : ما يَنتفِع به الناس ، ويطلق على المطر ، وعلى الطعام ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَجَد عندها رزقاً ﴾ [آل عمران : 37] .

وضمير ﴿ أمسَكَ ﴾ وضمير ﴿ رزقه ﴾ عائدان إلى لفظ ﴿ الرحمان الواقع في قوله : ﴿ مِن دون الرحمان ﴾ [الملك : 20] .

وجيء بالصلة فعلاً مضارعاً لدلالته على التجدد لأن الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرة .

وكتب ﴿ أمَّن ﴾ في المصحف بصورة كلمة واحدة كما كتبت نظيرتها المتقدمة آنفاً .

استئناف بَياني وقع جواباً عن سؤال ناشىء عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] إلى هنا ، فيتجه للسائل أن يقول : لعلهم نفعت عندهم الآيات والنذر ، واعتبروا بالآيات والعِبر ، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لَجُّوا في عُتُوّ ونفور .

و ﴿ بل ﴾ للإضراب أو الإبطال عما تضمنه الاستفهامان السابقان أو للانتقال من غرض

التعجيز إلى الإِخبار عن عنادهم .

يقال : لجّ في الخصومة من باب سمع ، أي اشتد في النزاع والخصام ، أي استمروا على العناد يكتنفهم العُتّو والنفور ، أي لا يترك مخلصاً للحق إليهم ، فالظرفية مجازية ، والعتوّ : التكبر والطغيان .

والنفور : هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه .

والمعنى : اشتدوا في الخصام متلبسين بالكبر عن اتباع الرسول حرصاً على بقاء سيادتهم وبالنفور عن الحق لكراهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(34/775)

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا فعل من لا بصر له ولا بصيرة ، سبب عنه قوله ممثلاً للموحد والمشرك بسالكين ولدينيهما بمسلكين : ﴿ أفمن يمشي ﴾ أي على وجه الاستمرار ﴿ مكباً ﴾ أي داخلاً بنفسه في الكب وصارا إليه ، وهو السقوط ﴿ على وجهه ﴾ وهو كناية عن السير على رسم مجهول وأثر معوج معلول ، على غير عادة العقلاء لخلل في أعضائه ، واضطراب في عقله ورأيه ، فهو كل حين يعثر فيخر على وجهه ، لأنه لعدم نظره يمشي في أصعب الأماكن لإمالة الهوى له عن المنهج المسلوك ، وغلبة الجهل عليه فهو بحيث لا يكون تكرار المشاق عليه زاجراً له عن السبب الموقع له فيه ، ولم يسم سبحانه وتعالى ممشاه طريقاً لأنه لا يستحق ذلك .

ولما كان ربما صادف السهل لا عن بصيرة بل اتفاقاً قال : ﴿ أهدى ﴾ أي أشد هداية ﴿ أمّن يمشي ﴾ دائماً مستمراً ﴿ سوياً ﴾ قائماً رافعاً رأسه ناصباً وجهه سالماً من العثار لأنه لانتصابه يبصر ما أمامه وما عن يمينه وما عن شماله ﴿ على صراط ﴾ أي طريق موطأ واسع مسلوك سهل قويم ﴿ مستقيم ﴾ أي هو في غاية القوم ، هذا مثل من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً فإنه يتبع الفطرة الأولى السليمة عن شهوة أو غضب أو شائبة حظ ، والأول مثل الكافر ، حاله في سيره إلى الله حال المكب أي الذي كب نفسه بغاية الشهوة على وجهه ، لا يرى ما حوله ولا يشعر بما أحاط به ، ولا ينظر في الآيات ولا يعتبر بالمسموعات ، فهو اليوم شيء باطن لظهر يوم القيامة فيحشر على وجهه إلى النار جزاء

لرضاه بحالته هذه في هذه الدار فيظهر له سبحانه ما أبطن له اليوم ، والمؤمن بخلاف ذلك فيهما ، والآية من الاحتباك : ذكر الكب أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، والمستقيم ثانياً دليلاً على المعوج أولاً ، وسره أنه ذكر أنكأ ما للمجرم وأسر ما للمسلم .

(35/775)

ولما كان العرب الموعوظون بهذا الذكر يتغالون في التفاخر بالهداية في الطرق المحسوسة وعدم الإخلال بشكر المعروف لمسديه ولو قل ، فنفى عنهم الأول بقيام الأدلة على خطئهم الفاحش في كل ما خالفوا فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طريقهم المعنوي الذي اتخذوه ديناً ، فهو أشرف من الطريق المحسوس ، أتبعه بيان انسلاخهم من الثاني مع التأكيد لانسلاخهم من الأول ، قال آمراً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنبيههم لأن الإنسان على نوعه أقبل لأنه إليه أميل ، إسقاطاً لهم من رتبة الفهم عن الله سبحانه وتعالى لسفول هممهم ولقصور نظرهم مع أنه جعل لهم حظاً ما من الحضور بتأهيلهم لخطاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإقامتهم بالمذكور في الآية فيما يرجى معه العلم ويورث الفطنة والفهم :

﴿ قل ﴾ أي يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكراً لهم بما دفع عنهم الملك من المفسدات وجمع لهم من المصلحات والقوى والعقل ليرجعوا إليه ، ولا يعولوا في حال من أحوالهم إلا

عليه ، وينظروا في لطيف صنعه وحسن تربيته فيمشي كل منهم سوياً : ﴿ هو ﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿ الذي ﴾ شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان وحده الذي ﴿ أنشأكم ﴾ أي أوجدكم ودرجكم في مدارج التربية حيث طوركم في أطوار الخلقة في الرحم ويسر لكم بعد خروجكم الخروج اللين حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه .

(36/775)

ولما كان من أعظم النعم الجليلة بعد الإيجاد العقل ، أتبعه به ، وبدأ بطريق تنبيهه فقال : ﴿ وجعل لكم ﴾ أي خاصة مسبباً عن الجسم الذي أنشأه ﴿ السمع ﴾ أي الكامل لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم ، ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه في القلوب بغاية المفاوتة مع أنه أعظم الطرق الموصلة للمعاني إليها ﴿ والأبصار ﴾ لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم ﴿ والأفئدة ﴾ أي القلوب التي جعلها سبحانه في غاية التوقد بالإدراك لما لا يدركه بقية الحيوان لتتفكروا فتقبلوا على ما يعليكم ، وجمعاً لكثرة التفاوت في نور الأبصار وإدراك الأفكار ، وهذا تنبيه على إكمال هذه القوى في درك الحقائق بتلطيف السر لتدقيق الفكر ، قال الشيخ ولي الدين الملوي : انظر إلى الأفئدة كيف تحكم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين في آن واحد ، وأن

الضدين لا يجتمعان - وغير ذلك مما لا يخفى .

ولما كان التقدير : فمشيتم مشي المكب على وجهه فلم تستعملوا شيئاً من هذه الأسرار الشريفة فيما خلق له ، كانت ترجمة ذلك : ﴿ قليلاً ﴾ وأكد المعنى بما صورته صورة النافي فقال : ﴿ ما ﴾ ولما زاد تشوف النفس إلى العامل في وصف المصدر دل عليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ تشكرون ﴾ أي توقعون الشكر لمن أعطاكم ما لا تقدرون قدره باستعماله فيما خلق لأجله تدعون أنكم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم في العرفان .

(37/775)

ولما دل سبحانه على بعدهم عن الهداية وعن الشكر اللذين يفخرون على الناس كافة بكل منهما ، واستعطفهم بما أودع فيهم من اللطائف الربانية الروحانية المقتضية بنورانيتها للعروج إلى مواطن القدس ومعادن الأنس ، دل على قدرته على حشرهم تحذيراً لهم من التمادي في الإعراض بمعنى يجده كل منهم في نفسه على وجه دال على كمال قدرته بما أودع فيهم مع تلك اللطائف مع كثائف طباع الأرض الموجبة للسفول ليكون - إذا أعلته تلك اللطائف بالتوبة - مجتهداً في تنقية آثار تلك الكثائف المسفلة كما يكون للزرع إذا حصد من بقايا تلك الجذر التي إن لم تقلع من أصلها عادت بالنبات إلى ما كان عليه الزرع أولاً ، فقال

مستأنفاً بياناً لأنه دليل برأسه كاف فيما سبق له : ﴿ قل هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي ذرأكم ﴾ أي خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعد ما كنتم كالذر أطفالاً ضعفاء ، ثم قواكم ثم جعلكم شيباً ضعفاء وأسكنكم الغضب والذعر واللجاج الحامل لكم على الولوع بما يلجىء إليه الطباع المثيرة ﴿ في الأرض ﴾ التي تقدم أنه ذللها لكم ورزقكم منها النبات الذي تقدم أن إبداءه منها ثم رده إليها وإفنائه فيها ثم إعادته كما كان بعد أن صار رفاتاً وشيئاً فانياً مماتاً دليل على القدرة على البعث ، لا فرق في ذلك بينه وبينكم أصلاً ، فكان منه البدأ ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ تحشرون ﴾ شيئاً فشيئاً إلى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث على أيسر وجه بمن أراد من عباده كرهاً منكم كما كان أمركم في الدنيا ، فإنه لم يكن إلى الإنسان منكم أحب من الدعة والسكون ، فكأنه سبحانه يضطره بما أودعه من الطبائع المتضادة وأثار له من الأسباب في طلب رزقه وغير ذلك من أمره إلى السعي إلى حيث يكره ، فكما أنه قدر على ذلك منكم في الابتداء فهو يقدر على مثله في الانتهاء ، ليحكم بينكم ويجازي كلاًّ على عمله كما يفعل كل ملك برعيته ، وكل إنسان منكم بجماعته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 84.81 ﴾

(38/775)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور ، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين .

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : أكب مطاوع كبه ، يقال : كببته فأكب ونظيره قشعت الريح السحاب فأقشع ، قال صاحب "الكشاف" : ليس الأمر كذلك ، و (جاء) شيء من بناء أفعل مطاوعاً ، بل قولك : أكب معناه دخل في الكب وصار ذا كب ، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع ، وأنفض أي دخل في النفض ، وهو نفض الوعاء فصار عبارة عن الفقر وألام دخل في اللوم ، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع .

المسألة الثانية :

ذكروا في تفسير قوله : ﴿ يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ وجوهاً : أحدها : معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكباً فحاله نقيض حال من يمشي سوياً أي قائماً سالماً من العثور والخرور وثانيها : أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم

واليقين وثالثها : أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم ، ثم اختلفوا فمنهم من قال : هذا حكاية حال الكافر في الآخرة ، قال قتادة : الكافر أكب على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه ، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوي يوم القيامة ، وقال آخرون : بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا ، واختلفوا أيضاً فمنهم من قال : هذا عام في حق جميع المؤمنين والكفار ، ومنهم من قال : بل المراد منه شخص معين ، فقال مقاتل : المراد أبو جهل والنبي عليه الصلاة والسلام ، وقال عطاء عن ابن عباس : المراد أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر .

البرهان الثاني : على كمال قدرته قوله تعالى :

(39/775)

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23)

اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان أولاً من حال سائر الحيوانات ، وهو وقوف الطير في الهواء ، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية ، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع

والبصر والفؤاد ، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة في هذا الكتاب مراراً فلا فائدة في الإعادة ، واعلم أن في ذكرها ههنا تنبيهاً على دقيقة لطيفة ، كأنه تعالى قال : أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة ، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه ، فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب ، فلهذا قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وذلك لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه ، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته ألبتة .

البرهان الثالث : قوله تعالى :

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

(40/775)

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانات أولاً ثم بصفات الإنسان ثانياً وهي السمع والبصر والعقل ، ثم بحدوث ذاته ثالثاً وهو قوله : ﴿ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ واحتج المتكلمون بهذه الآية على أن الإنسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين لأنه قال : ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ فبين

أنه ذرأ الإنسان في الأرض ، وهذا يقتضي كون الإنسان متحيزاً جسماً ، واعلم أن الشروع في هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء في قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ [الملك : 2] ثم لأجل إثبات هذا المطلوب ، ذكر وجوهاً من الدلائل على قدرته ، ثم ختمها بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ ولما كانت القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الإعادة لا جرم قال بعده : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فبين بهذا أن جميع ما تقدم ذكره من الدلائل إنما كان لإثبات هذا المطلوب .

واعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار شيئين أحدهما : أنهم طالبوه بتعيين الوقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 64.65 ﴾

(41/775)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾

ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر ﴿ مُكِبّاً ﴾ أي منكّساً رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينَه ولا

شماله ؛ فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه .

كمن يمشي سوِيًّا معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله .

قال ابن عباس : هذا في الدنيا ؛ ويجوز أن يريد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف ؛ فلا يزال ينكبّ على وجهه .

وأنه ليس كالرجل السوِيّ الصحيح البصير الماشي في الطريق المهتدي له .

وقال قتادة : هو الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه .

وقال ابن عباس والكَلْبي : عَنَى بالذي يمشي مُكِبًّا على وجهه أبا جهل ، وبالذي يمشي سوِيًّا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل أبو بكر .

وقيل حمزة .

وقيل عَمّار ابن ياسِر ؛ قاله عكرمة .

وقيل : هو عام في الكافر والمؤمن ؛ أي أن الكافر لا يدري أعلى حقّ هو أم على باطل .

أي أهذا الكافر أهدى أو المسلم الذي يمشي سَوِيًّا معتدلاً يُبصر للطريق وهو ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الإِسلام .

ويقال : أكبّ الرجل على وجهه ؛ فيما لا يتعدّى بالألف .

فإذا تعدى قيل : كبّه الله لوجهه ؛ بغير ألف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ ﴾ أمر نبيه أن يعرّفهم قبح شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني القلوب ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي لا تشكرون هذه النِّعم ، ولا توحّدون الله تعالى .

تقول : قلّما أفعل كذا ؛ أي لا أفعله .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأرض ﴾ أي خلقكم في الأرض ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : نشركم فيها وفرّقكم على ظهرها ؛ قاله ابن شجرة .

﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ حتى يجازِي كُلاًّ بعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(42/775)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾

مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحاليهما في الدنيا وتحقيقاً لشأن مذهبيهما والفاء

لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حال الكفرة وخرورهم في مهاوي الغرور وركوبهم متن
عشواء العتو والنفور فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضاء الصدارة وأما بحسب
المعنى فالمعنى بالعكس على ما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل فهل من
يمشي الخ ومن موصولة مبتدأ ويمشي صلته ومكباً حال من الضمير المستتر فيه وعلى
وجهه ظرف لغو متعلق بمكبا أو مستقر حال والأول أولى وأهدى خبر من ومن الثانية
عطف على الأولى وهو من عطف المفرد على المفرد كما في قولك أزيد أفضل أم عمرو
وقيل مبتدأ خبره محذوف لدلالة خبر الأولى عليه ولا حاجة إلى ذلك لما سمعت والمكب
الساقط على وجه يقال أكب خر على وجهه وهو من باب الأفعال والمشهور أنه لازم
وثلاثيه متعد فيقال كبه الله تعالى فاكب وقد جاء ذلك على خلاف القياس وله نظائر
يسيرة كأمرت الناقة درت ومر تيهاً وأشنق البعير رفع رأسه وشنقته واقشع الغيم وقشعته
الريح أي أزالته وكشفته وأنزفت البئر ونزفتها أخرجت ماءها وأنسل ريش الطائر ونسلته
وقال بعضهم التحقيق أن الهمزة فيه للصيرورة فمعنى أكب صار ذا كب ودخل فيه كما في
الأم إذا صار لئيماً وانفض إذا صار نافضاً لما في مزودته وليست للمطاوعة ومطاوع كب
إنما هو انكب وقد ذهب إلى ذلك ابن سيده في المحكم تبعاً للجوهري وغيره وتبعه ابن
الحاجب وأكثر شراح المفصل إلا أن كلام بعض الأجلة ظاهر في التسوية بين المطاوعة
والصيرورة وحكى ابن الأعرابي كبه الله تعالى وأكبه بالتعدية وفي "القاموس" ما هو نص فيه

وعليه لا مخالفة للقياس والمعنى أفمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائه بانخفاض بعض وارتفاع بعض آخر أهدى وأرشد إلى المقصد الذي يؤمه أم من يمشي قائماً سالماً من الخبط والعثار على طريق مستوى الأجزاء لا إعواج فيه ولا انحراف ولم يصرح

(43/775)

بطريق الكافر بل أشير إليه بما دل على توعره وعدم استقامته أعني مكباً للاشعار بأن ما عليه لا يليق أن يسمى طريقا وفسر بعضهم السوي بمستوى الجهة قليل الانحراف على أن المكب المتعسف الذي ينحرف هكذا وهكذا وهو غير مناسب هنا لأن قوله تعالى على صراط مستقيم يصير كالمكرر وأفعل هنا مثله على ما في "البحر" في قولك العسل أحلى من الخل والآية على ما روى عن ابن عباس نزلت في أبي جهل عليه اللعنة وحمزة رضي الله تعالى عنه والمراد العموم كما روى عن ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك وقال قتادة نزلت مخبرة عن حال الكافر والمؤمن في الآخرة فالكفار يمشون فيها على وجوههم والمؤمنون يمشون على استقامة وروى أنه قيل للنبي كيف يمشي الكافر على وجهه فقال عليه الصلاة والسلام إن الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر على أن يمشيه في الآخرة على وجهه

وعليه فلا تمثيل وقيل المراد بالمكب الأعمى وبالسوي البصير وذلك إما من باب الكناية أو من باب المجاز المرسل وهو لا يأبى جعله بعد تمثيلاً لمن سمعت كما هو معلوم في محله .

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

أي القلوب ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي تلك النعم كان تستعملون السمع في سماع الآيات التنزيلية على وجه الانتفاع بها والأبصار في النظر بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل والأفئدة بالتفكر بها فيما تسمعونه وتشاهدونه ونصب قليلاً على أنه صفة مصدر مقدر أي شكراً قليلاً وما مزيدة لتأكيد التقليل والجملة حال مقدرة والقلة على ظاهرها أو بمعنى النفي إن كان الخطاب للكفرة وجوز في الجملة أن تكون مستأنفة والأول أولى .

﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي خلقكم وكثركم فيها لا غيره عز وجل ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء لا إلى غيره سبحانه اشتركا أو استقلالاً فابنوا أمركم على ذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(44/775)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) ﴾ هذا مثَل ضربه الله للكافرين والمؤمنين أو لرجلين : كافر ومؤمن ، لأنه جاء مفرعاً على قوله : ﴿ إن الكافرون إلاّ في غرور ﴾ [الملك : 20] وقوله : ﴿ بل لَجُّوا في عتوّ ونفور ﴾ [الملك : 21] وما اتصل ذلك به من الكلام الذي سيق مساق الحجة عليهم بقوله : ﴿ أمَّنْ هذا الذي هو جندٌ لكم ﴾ [الملك : 20] ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ [الملك : 21] ، وذلك مما اتفق عليه المفسرون على اختلاف مناحيهم ولكن لم يعرج أحد منهم على بيان كيف يتعين التمثيل الأول للكافرين والثاني للمؤمنين حتى يظهر وجه إلزام الله المشركين بأنهم أهل المثل الأول مثَلِ السوء ، فإذا لم يتعين ذلك من الهيئة المشبهة لم يتضح إلزام المشركين بأن حالهم حال التمثيل الأول ، فيخال كل من الفريقين أن خصمه هو مضرب المثل السوء .

ويتوهم أن الكلام ورد على طريقة الكلام المُنصِف نحو ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] بذلك ينبو عنه المقام هنا لأن الكلام هنا وارد في مقام المحاجة والاستدلال وهنالك في مقام المتاركة أو الاستنزال .

والذي انقدح لي : أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ فلا بد من اعتبار مَشي المكبّ على وجهه مشياً على صراط مُعْوجّ ، وتعين أن يكون في قوله : ﴿ مكباً على وجهه ﴾ استعارة أخرى بتشبيه حال السالك صراطاً معوجاً في تأمله وترسُّمه آثار السير في الطريق غير المستقيم خشية أن يضلّ فيه ، بحال المكِبّ على وجهه يتوسم حال الطريق وقرينة ذلك مقابلته بقوله : ﴿ سَوِيّاً ﴾ المشعر بأن ﴿ مُكباً ﴾ أطلق على غير السوي وهو المنحني المطاطىء يتوسم الآثار اللائحة من آثار السائرين لعله يعرف الطريق الموصلة إلى المقصود .

فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض وأعطفُ على بعض القبائل من بعض ، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات ، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة ولكل قبيلة إله أو آلهة فتقسموا الحاجات عندها واستنصر كل قوم بآلهتهم وطمعوا في غنائها عنهم وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في أنهم مضرب المثل الأول ، وكذلك حال أهل الإِشراك في كل زمان ، ألا تسمع ما حكاه الله عن يوسف عليه السلام من قوله : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] .

ويُنَور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا

السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : 153] وقوله : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : 108] ، فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم المشبه به الإِسلام بالسُّبل المتفرقة المشبه بها تعداد الأصنام ، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبهاً بالسبيل وسالكُه يدعو ببصيرة ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله:

﴿ وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : 108] .

(46/775)

فالآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية فقوله ﴿ يمشي مكبّاً على وجهه ﴾ تشبيه لحال المشرك في تقسُّم أمره بين الآلهة طلباً للذي ينفعه منها الشاكّ في انتفاعه بها ، بحال السائر قاصداً أرضاً معينة ليست لها طريق جادة فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية وتلتبس عليه ولا يوقن بالطريقة التي تبلُغ إلى مقصده فيبقى حائراً متوسماً يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإِبل فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة .

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله : ﴿ مكباً على وجهه ﴾ بتشبيه حال المتحيّر المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من

الأرض .

0 وقوله : ﴿ أمَّن يمشي سويّاً ﴾ تشبيه لحال الذي آمن بربّ واحد الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق ، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلاّ إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره .

وقد حصل في الآية إيجاز حذف إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني .

والفاء التي في صدر الجملة للتفريع على جميع ما تقدم من الدلائل والعبر من أول السورة إلى هنا ، والاستفهام تقريري .

والمُكِب : اسم فاعل من أكَب ، إذا صار ذا كَبّ ، فالهمزة فيه أصلها لإفادة المصير في الشيء مثل همزة : أقشع السحابُ ، إذا دخل في حالة القشع ، ومنه قولهم : أنفض القوم إذا هلكت مواشيهم ، وأرملوا إذا فني زادهم ، وهي أفعال قليلة فيما جاء فيه المجرد متعدياً والمهموز قاصراً .

و﴿ أهدى ﴾ مشتق من الهُدَى ، وهو معرفة الطريق وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة لأن الذي يمشي مكباً على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] في قول كثير من الأيمة .

ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام .

والسويّ : الشديد الاستواء فعيل بمعنى فاعل قال تعالى : ﴿ أَهْدِكَ صراطاً سوياً ﴾ [مريم : 43] .

و(أم) في قوله : ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ حرف عطف وهي (أم) المعادلة لهمزة الاستفهام .

و(مَن) الأولى والثانية في قوله : ﴿ أفمن يمشي مكباً ﴾ أو قوله : ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ موصولتان ومحْملهما أن المراد منهما فريق المؤمنين وفريق المشركين ، وقيل : أريد شخص معيّن أريد بالأولى أبو جهل ، وبالثانية النبي صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر أو حمزة رضي الله عنهما .

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23)

هذا انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقُول لهم ما سيُذكر تفنناً في البيان وتنشيطاً للأذهان حتى كأنَّ الكلامَ صدَر من قائلين وترفيعاً لقدر نبيئه صلى الله عليه وسلم بإعطائه حظاً من التذكير معه كما قال تعالى : ﴿ فإنما

يسرناه بلسانك ﴾ [الدخان : 58] .

والانتقال هنا إلى الاستدلال بفُروع المخلوقات بعد الاستدلال بأصولها ، ومن الاستدلال بفروع أعراض الإِنسان بعد أصلها ، فمن الاستدلال بخلق السماوات والأرض والموت والحياة ، إلى الاستدلال بخلق الإِنسان ومداركه ، وقد أتبع الأمر بالقول بخمسةٍ مِثْله بطريقة التكرير بدون عاطف اهتماماً بما بعد كل أمر من مقالة يبلغها إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار ﴾ ، الخ .

والضمير ﴿ هو ﴾ إلى ﴿ الرحمان ﴾ من قوله : ﴿ من دون الرحمان ﴾ [الملك : 20] .

والإِنشاء : الإيجاد .

(48/775)

وإفراد ﴿ السمع ﴾ لأن أصله مصدر ، أي جعل لكم حاسة السمع ، وأما ﴿ الأبصار ﴾ فهو جمع البصر بمعنى العَين ، وقد تقدم وجه ذلك عند قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ في سورة البقرة (7) والأفئدة ﴾ القلوب ، والمراد بها العقول ، وهو إطلاق شائع في استعمال العرب .

والقصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسندِ في قوله : ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ إلى آخره قصرُ إفراد بتنزيل المخاطبين لشركهم منزلةَ من يعتقد أن الأصنام شاركت الله في الإنشاء وإعطاء الإحساس والإدراك .

و﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ حال من ضمير المخاطبين ، أي أنعم عليكم بهذه النعم في حال إهمالكم شكرها .

و﴿ مَا ﴾ مصدرية والمصدر المنسبك في موضع فاعل ﴿ قليلاً ﴾ لاعتماد ﴿ قليلاً ﴾ على صاحب حال .

و﴿ قليلاً ﴾ صفة مشبَّهة .

وقد استعمل ﴿ قليلاً ﴾ في معنى النفي والعدم ، وهذا الإطلاق من ضروب الكناية والاقتصاد في الحكم على طريقة التمليح وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [البقرة : 88] وقوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾ في سورة النساء (155) ، وتقول العرب : هذه أرض قلما تنبت .

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

إعادة فعل ﴿ قل ﴾ من قبيل التكرير المشعر بالاهتمام بالغرض المسوقة فيه تلك الأقوال .

والذرْء : الإكثار من الموجود ، فهذا أخص من قوله : ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ [الملك : 23] أي هو الذي كثَّركم على الأرض كقوله : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها

﴿ [هود : 61] أي أعمركم إياها .

والقول في صيغة القصر في قوله : ﴿ هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ .

مثل القول في قوله : ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ [الملك : 23] الآية .

(49/775)

وقوله : ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أي بعد أن أكثركم في الأرض فهو يزيلكم بموت الأجيال فكني عن الموت بالحشر لأنهم قد علموا أن الحشر الذي أُنذروا به لا يكون إلاّ بعد البعث والبعث بعد الموت ، فالكناية عن الموت بالحشر بمرتبتين من الملازمة ، وقد أدمج في ذلك تذكيرهم بالموت الذي قد علموا أنه لا بد منه ، وإنذارهم بالبعث والحشر .

فتقديم المعمول في ﴿ وإليه تحشرون ﴾ للاهتمام والرعاية على الفاصلة ، وليس للاختصاص لأنهم لم يكونوا يدعون الحشر أصلاً فضلاً عن أن يدعوه لغير الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(50/775)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى أفمن)

اعلم أَنَّ (أَمَن) و (أَمْ مَنْ) و (أَوَمَنْ) و (أَفَمَنْ) كانت فى الأَصل (مَنْ) ، وأَلحقوا بها هذه الحروف للاستفهام .

والأَصل فى الاستفهام الهمزة وحدها ، ثم أَلحقوا الواو ، والفاءَ ، والميم ، لزيادة التقرير والتأْكيد .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ لإِلزام الحُجّة ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ؛ لبيان التمثيل .

وقد ورد (أَفَمَنْ) فى التَّنزيل على ستَّةَ عشرَ وجهاً .

منها ثلاثة فى حَقِّ الله تعالى ، وثلاثة فى ذكر الرّسول صَلَّى الله عليه وسلَّم ، وخمسة فى شأن الصّحابة رَضى الله عنهم واثنان لتشريف المؤمنين ، وثلاثة فى توبيخ الكافرين .

أَمّا التى فى حقّ الله تعالى فالأَول للدليل والهداية : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ .

الثانى للحفظ والرّعاية : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الثالث لإِظهار القُدْرة ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ .

وأَمّا الثلاثة الَّتى فى ذكر المصطفى – صلَّى الله عليه وسلم – فالأوّل للبرهان والحُجّة :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

الثانى فى وعد الرّضا والرّؤية : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ الثالث فى بيان الثبات والاستقامة : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ ﴾ يعنى أَبا جهل .

﴿ أَمْ مَنْ يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ يعنى محمّداً صلَّى الله عليه وسلَّم .

وأَمّا الخمس الَّتى للصّحابة ، فالأَوّل للصّدّيق ذى الصّدق والحقيقة : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ .

الثانى للفاروق ذى العَدْل ، والأَمْن ، والأَمانة : ﴿ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً ﴾ .

(51/775)

الثالث لذى النُّورين أَهلِ الطاعة والعبادة ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً ﴾

الرّابع للمَرْضىّ صاحب الدّيانة والصّيانة ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ﴾ .

الخامس للصّحابة أَهلِ الصحبة والحُرْمة : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ .

وأَمَّا الاثنان فى تشريف أَهل الإِيمان فالأَوّل الوعد بنعمة الجنَّة : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً ﴾ .

الثانى اشتعال سِراج المعرفة : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ .

وأَمّا التى لتوبيخ الكفَّار فالأَوّل لبيان كمال الضلالة ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ : الثانى فى تحقيق العذاب والعقوبة : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ .

الثالث لإِتمام الطَرْد والإِهانة : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 47. 48 ﴾

(52/775)

قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فلقد أبلغ سبحانه في وعظهم بنفسه وعلى لسانك يا أشرف الخلق - صلى الله عليه وسلم - وذلك بما هدى إليه السياق قطعاً ، ذكر حالهم عند ذلك فقال إعلاماً بكثافة طباعهم حيث لم تلطف أسرارهم لقبول محبة الله تعالى وإثارة الأحوال الحسنة من الصبر المثبت واليقين وحسن الانطباع لقبول النصائح والخوف وعدم الاعتزاز بأحد غير الله تعالى من جهة نفع أو ضر ، وكذلك لفت القول إلى الإعراض إيذاناً بشديد الغضب منهم : ﴿ ويقولون ﴾ أي يجددون هذا القول تجديداً مستمراً استهزاء وتكذيباً ، ويجوز أن يكون حالاً من الواو في " بل لجوا " : ﴿ متى هذا ﴾ وزادوا في الاستهزاء بقولهم ﴿ الوعد ﴾ وألهبوا وهيجوا إيضاحاً للتكذيب على زعمهم بقولهم : ﴿ إن كنتم ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ صادقين ﴾ في أنه لا بد لنا منه ، وأنكم مقربون عند الله ، فلو كان لهم ثبات الصبر واليقين لما طاشوا هذا الطيش بإبراز هذا القول القبيح الذي ظاهره طلب الإخبار بوقت الأمر المتوعد به ، وباطنه الاستعجال به استهزاء وتكذيباً .

(53/775)

ولما كان قولهم هذا مع أنه استعجال بأمر الساعة استهانة بها حتى أنه عندهم كأنها من قبل الوعد الحسن وهو متضمن لإيهام أنها مما يطلع الخلق على تعيين وقته ، نفى ذلك بياناً لعظمتها بعظمة من أمرها بيده فقال آمراً له بجوابهم مؤذناً بدون ذلك الإعراض لأنهم لا ينكرون علمه تعالى ذلك الإنكار : ﴿ قل ﴾ يا أكرم الخلق منبهاً لهم على تحصيل اليقين بأن ما علموه وحكموا بعلمهم فيه وما لا ردوا علمه إلى الله : ﴿ إنما العلم ﴾ أي المحيط من جميع الوجوه بما سألتم عنه من تعيين زمان هذا الوعد وغيره ، ولأجل إظهار فضل العلم اللازم من كماله تمام القدرة صرف القول عن عموم الرحمة إلى إفهام العموم المطلق بالاسم الأعظم فقيل : ﴿ عند الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ، فهو الذي يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه ، لا يطلع عليه غيره ، وهيبته تمنع العالم بما له من العظمة أن يجترىء على سؤاله عما لم يأذن فيه ، وعظمته تقتضي الاستئثار بالأمور العظام ، وإلى ذلك يلوح قوله تعالى : ﴿ وإنما أنا ﴾ ولما كان السياق للتهويل والتخويف ، وكانت النذارة يكفي فيها تجويز وقوع المنذور به فكيف إذا كان مظنوناً فكيف إذ كان معلوم الوقوع في الجملة ليكون العاقل متوقعاً له في كل وقت قال : ﴿ نذير ﴾ أي كامل في أمر النذارة التي يلزم منها البشارة لمن أطاع النذر لا وظيفة لي عند هذا الملك الأعظم غير ذلك ، فلا وصول لي إلى سؤاله عما لا يأذن لي في السؤال عنه .

ولما كان النذير قد لا يقدر على إقامة الدليل على ما ينذر به لأنه يكفي العاقل في قبوله غلبة

الظن بصدقه بل إمكان صدقه في التحرز عما ينذر به ، بين أنه ليس كذلك فقال :

﴿ مبين ﴾ أي كاشف للنذري غاية الكشف بإقامة الأدلة عليها حتى تصير كأنها مشاهدة لمن له قبول للعلم .

(54/775)

ولما كان ما ينذر به لا بد من وقوعه ، وكان كل آت قريباً ، عبر عن ذلك بالفاء والماضي فقال صارفاً العقول إلى الإعراض لأن وقت الرؤية للعذاب في غاية المناسبة للإهانة :

﴿ فلما رأوه ﴾ أي الوعد بانكشاف الموعود به عند كونه ، وحقق معنى الماضي والفاء بقوله : ﴿ زلفة ﴾ أي ذا قرب عظيم منهم ، وذلك بالتعبير عن اسم الفاعل بالمصدر إبلاغاً في المعنى المراد وأكد المبالغة بالتاء لأنها ترد للمبالغة إذا لم يرد منها التأنيث ، ولا سيما إن دلت قرينة أخرى على ذلك .

ولما كان المخوف في النذري الوقوع في السوء لا بقيد كونه من معين قال : ﴿ سيئت ﴾ ولما كان السوء يظهر في الوجه قال : ﴿ وجوه ﴾ وأظهر في موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ظهر السوء وغاية الكراهة في وجوه من أوقع هذا الوصف ولو على أدنى وجوه الإيقاع وعلتها الكآبة .

ولما كان لا أوجع من التبكيت عند إحاطة المكروه من غير حاجة إلى تعيين فاعله ، بنى للمفعول قوله : ﴿ وقيل ﴾ أي لهم تقريعاً وتوبيخاً : ﴿ هذا الذي ﴾ أي تقدم من عنادكم ومكركم واستكباركم ﴿ كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ به ﴾ أي بسببه ومن أجله ، وصرف القول إلى الخطاب لأن التقريع به أنكأ في العذاب : ﴿ تدعون ﴾ أي تطلبون وتوقعون الطلب له طلباً شديداً تبلغون فيه غاية الجهد على وجه الاستعجال أن يستنزل بكم مكروهه فعل من لا يبالي به بوجه ، وتكررون ذلك الطلب وتعودون إليه في كل وقت معرضين عن السعي في الخلاص فيه من عدوان العذاب ونيل الوعد الحسن بجزيل الثواب لبيان قوة طلبهم له وتداعيهم إليه استهزاء به حتى كأنهم لا مطلوب لهم غيره ، قدم الجار المفيد غالباً للاختصاص فهو افتعال من دعا الشيء وبالشيء إذا طلبه ، ودعاه الله بمكروه : أنزله به .

(55/775)

ولما كان من المعلوم أن من نهى آخر عن هواه وبالغ في ذلك أبغضه ذلك الناهي وتمنى هلاكه ، فكيف إذا والى عليه الإنذار والتخويف بما لا يصل إلى دركه عقله ولا يرى له مقدمة بتحققها ، وكان الكفار يسعون في هلاك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعه كل سعي ،

وكان هلاك النذير إنما ينفع المنذر على تقدير نجاته من هول ما كان يحذره منه النذير ، أمره سبحانه أن يذكرهم بهذا لينظروا في ذلك المتوعد به ، فإن كان ممكناً سعوا في الخلاص مما قد يكون منه من العذاب ، وسلكوا في الهرب منه مسلكاً سهلاً بعيداً من سوء الانقلاب ، ودخلوا إلى فسيح المانع منه من أوسع باب ، أو كفوا عن السعي في هلاك النذير وطووا ما مدوا له من الأسباب ، ليدلهم إذا كان صادقاً على شيء يحميهم أو يخفف عنهم ذلك المصاب ، فقال منبهاً على شدة الحذر من مكر الله وعدم الاغترار به للمؤمن الطائع لعلمه ، أنه لا يقدر أن يقدر الله حق قدره فكيف بالعاصي فضلاً عن الكافر مكرراً للأمر بالقول تنبيهاً على أن كل جملة صدرت به كافية في الدلالة على مقصود السورة وعائدة إليه لما اشتملت عليه من باهر القدرة ووافر العظمة : ﴿ قل ﴾ أي يا أفضل الخلق كلهم وأشرفهم وأعظمهم وأتقاهم لهؤلاء الذين طال تضجرهم منك وهم يتمنون هلاكك حسداً منهم وعمى في قلوبهم وبعداً وطرداً ، قد استحكم واستدار بهم ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية .

(56/775)

ولما كانوا غير عالمين بعاقبة الأمر في هلاكه ومن معه بما يقصدونهم به ، حذرهم عاقبة ذلك بالتعبير بأداة الشك ، وإسناد الإهلاك إلى الله معبراً عن الاسم الدال على تناهي العظمة إلى حد لا يدع لغيره منها شيئاً إعلاماً بأنه على القطع بأنه لا شيء في أيديهم فهو لا يخافهم بوجه فقال : ﴿ إن أهلكني ﴾ أي أماتني بعذاب أو غيره ﴿ الله ﴾ أي الذي له من صفات الجلال والإكرام ما يعصم به وليه ويقصم به عدوه ﴿ ومن معي ﴾ أي من المؤمنين والمناصرين ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين بغضبه علينا مع ما لنا من الأسباب بالطاعة بالأعمال الصالحة التي رتب سبحانه عليها الفوز والنجاة حتى لا يبقى أحد ممن يكدر عليكم بالمنع من الهوى القائد إلى القوى والحث على العقل الضامن للنجاة ﴿ أو رحمنا ﴾ بالنصرة وإظهار الإسلام كما نرجو فأنجانا بذلك من كل سوء ووقانا كل محذور وأنالنا كل سرور ، فالآية من الاحتباك : ذكر الإهلاك أولاً دليلاً على النجاة ثانياً ، والرحمة ثانياً دليلاً على الغضب أولاً ﴿ فمن ﴾ وكان ظاهر الحال يقتضي : يجيركم مع طلبكم المسببات من الفوز والنجاة بغير أسباب بل بأسباب منافية للنجاة جالبة للعذاب ، فوضع الظاهر موضع الضمير تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف واستعطافاً لهم إلى إيقاع الإيمان والرجوع عن الكفران فقال : ﴿ يجير الكافرين ﴾ أي العريقين في الكفر بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره ﴿ من عذاب أليم ﴾ يصيبهم به الذي هم عالمون بأنه لا شيء إلا بيده ، وإلا لنجى أحد من الموت الذي خلقه وقدره بين عباده جزاء على ما كانوا يؤلمون من يدعوهم إليه

وينصحهم فيه ، فإذا كان لا ينجيهم من عذابه شيء سواء متنا أو بقينا فالذي ينبغي لهم إن كانوا عقلاء السعي فيما ينجى من عذابه ، لا السعي في إهلاك من هو ساع في خلاصهم من العذاب ، ولا يقدرون على إهلاكه أصلاً إلا بتقدير الذي أمره بإنذارهم .

(57/775)

ولما كان لا يقدر على التعميم بالنعمة إلا من كان عام القدرة والنعمة والرحمة ، وكان التذكير بالنعم أشد استعطافاً ، صرف القول إلى التعبير بما هو صريح في ذلك ، فقال مذكراً بذلك لعلمهم بأنه لا نعمة عليهم إلا منه واعترافهم بذلك ليحذروه ويتذكروا عموم قدرته فيعلموا قدرته على البعث فينفصل النزاع : ﴿ قل ﴾ يا خير الخلق : ﴿ هو ﴾ أي الله وحده ﴿ الرحمن ﴾ أي الشامل الرحمة لكل ما تناولته الربوبية ، فلا يليق بعقل عاقل أن يدع أحداً من خلقه في ظلم ظالمه فلا يأخذ له بحقه ، لأن ذلك لا يرضاه أقل الناس لنفسه مع عجزه فكيف بمن هو كامل القدرة وإلا لما قدر على عموم الرحمة ﴿ آمنا به ﴾ أي أنا ومن آمن بي لهذا البرهان القاطع بأنه لا يكافئه شيء فهو كاف في الإيمان به ﴿ وعليه ﴾ أي وحده ﴿ توكلنا ﴾ لأنه لا شيء في يد غيره وإلا لرحم من يريد عذابه أو عذاب من يريد رحمته ، فكل ما جرى على أيدي خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذي أجراه لأنه الفاعل بالذات ،

المستجمع لما يليق به من الصفات ، فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره ، وقد أقررنا له بهذه العبارة على وجه الحصر بالألوهية والربوبية فلا نحتج في السلوك إليه إلى معوق عن ذكره والتفكر في آلائه ولو كان المعوق نفيساً في ظاهر الحياة الدنيا ولو كان مخوفاً فإنه لا خوف معه سبحانه ، فالتوكل عليه منجاة من كل هلكة مجلبة لكل ملكة ، ولم يفعل كما تفعلون أنتم في توكلكم على رجالكم وجاهكم وأموالكم .

(58/775)

ولما أبان هذا طريق الصواب ، وجلى كل ارتياب ، وكان لا بد من الرجوع إليه والانقلاب ، لإتمام الرحمة بالثواب والعقاب ، سبب عنه قوله : ﴿ فستعلمون ﴾ أي عند التجلي عليكم بصفة القهر عما قليل بوعد لا خلف فيه ﴿ من هو ﴾ أي منا ومنكم متداع بذاته ظاهراً وباطناً ﴿ في ضلال ﴾ أي أخذ في غير مسلك موصل إلى مقصد محيط به الضلال بحيث إنه لا قدرة له على الانفكاك منه إلا إن أطاع من يجره بيده فيخرجه منه ، ولما كان الشيء إذا كان فيه نوع لبس كان ربما اقتضى قبول العذر قال : ﴿ مبين ﴾ أي بين في نفسه موضح لكل أحد أنه لا خفاء به .

ولما افتتح سبحانه السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في مملكته ، ودل على ذلك

بتفرده بالإماتة والإحياء ، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده هو سبب للحياة وعدمه سبب للموت ، فقال قارعاً بالتنبيه مشيراً بتكرير الأمر إلى مزيد التوبيخ والزجر والتبكيت دالاً على تعيين ما أبهم من أهل الضلال ، ومصرحاً بما لوح إليه من ذلك الإجمال .

﴿ قل ﴾ أي يا أعظم خلقنا وأعلمهم بنا : ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني إخباراً لا لبس فيه ولا خفاء ، ولما كان شديد العناية بهذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، سكن قلبه في وعيدهم بالإشارة إلى الرفق بهم لأجله ، فابتدأ الوعيد بحرف الشك فقال : ﴿ إن ﴾ ولما كانت النعمة أشد ما يكون إذا كانت في الصباح الذي هو موضع ارتقاب الفلاح قال : ﴿ أصبح ماؤكم ﴾ أي الذي تعدونه في أيديكم – بما نبهت عليه الإضافة .

(59/775)

ولما كان المقصود المبالغة ، جعله نفس المصدر فقال : ﴿ غوراً ﴾ أي نازلاً في الأرض بحيث لا يمكن لكم نيله بنوع حيلة – بما دل على ذلك الوصف بالمصدر ﴿ فمن يأتيكم ﴾ على ضعفكم حينئذ وافتقاركم وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم ﴿ بماء معين ﴾ أي جار دائماً لا ينقطع أو ظاهراً للأعين سهل المأخذ إلا الله رب العالمين فإنه هو القادر على

ذلك ، فقد رجع ذلك الآخر كما ترى على ذلك الأول ، وعانقه على أحسن وجه وأكمل - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 84.88 ﴾

(60/775)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو مسلم إنه تعالى قال : يقول بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل ، ويحتمل الماضي ، والتقدير : فكانوا يقولون هذا الوعد .

المسألة الثانية :

لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية ، ولعلهم كانوا يقولونها إيهاماً للضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له .

المسألة الثالثة :

الوعد المسؤول عنه ما هو ؟ فيه وجهان أحدهما : أنه القيامة والثاني : أنه مطلق العذاب ، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله .

ثم أجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى :

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26)

والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع ، فالعلم الأول حاصل عندي ، وهو كاف في الإنذار والتحذير ، أما العلم الثاني فليس إلا لله ، ولا حاجة في كوني نذيراً مبيناً إليه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

ثم إنه تعالى بين حالهم عند نزول ذلك الوعد فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : قوله ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ الضمير للوعد ، والزلفة القرب والتقدير : فلما رأوه قرباً ويحتمل أنه لما اشتد قربه ، جعل كأنه في نفس القرب .

وقال الحسن : معاينة ، وهذا معنى وليس بتفسير ، وذلك لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ قال ابن عباس : اسودت وعلتها الكآبة والقترة ، وقال الزجاج : تبين فيها السوء ، وأصل السوء القبح ، والسيئة ضد الحسنة ، يقال : ساء الشيء يسوء فهو سيىء إذا قبح ، وسيىء يساء إذا قبح ، وهو فعل لازم ومتعد فمعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا ، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل .

المسألة الثالثة :

اعلم أن قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ إخبار عن الماضي ، فمن حل الوعد في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ [الملك : 25] على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلهذا قال أبو مسلم في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ يعني أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذي نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربه منهم ، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ معناه فمتى ما رأوه زلفة ، وذلك لأن قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ إخبار عن الماضي وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية فوجب تفسير اللفظ بما قلناه ، قال مقاتل : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ أي لما رأوا العذاب في الآخر قريباً .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم : القائلون هم الزبانية ، وقال آخرون : بل يقول بعضهم لبعض ذلك .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ تَدْعُونَ ﴾ وجوه : أحدها : قال الفراء : يريد تدعون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به ، وتدعون وتدعون واحد في اللغة مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون وثانيها : أنه من الدعوى معناه : هذا الذي كنتم تبطلونه أي تدعون أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم بسببه وتدعون أنكم لا تبعثون وثالثها : أن يكون هذا استفهاماً على سبيل الإنكار ، والمعنى أهذا الذي تدعون ، لا بل كنتم تدعون عدمه .

المسألة الثالثة :

(62/775)

قرأ يعقوب الحضرمي ﴿ تَدْعُونَ ﴾ خفيفة من الدعاء ، وقرأ السبعة ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ مثقلة من الادعاء .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28)

اعلم أن هذا الجواب هو من النوع الثاني مما قاله الكفار لمحمد صلى الله عليه وسلم حين خوفهم بعذاب الله ، يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعلى المؤمنين بالهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] وقال : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ [الفتح : 12] ثم إنه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين الوجه الأول : هو هذه الآية ، والمعنى قل لهم : إن الله تعالى سواء أهلكني بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل ، فأي راحة لكم في ذلك ، وأي منفعة لكم فيه ، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها ، فإذا علمتم أن لا مجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث .

الوجه الثاني : في الجواب قوله تعالى :

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29)

والمعنى أنه الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا ، مع أنا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم ، ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم ، وقرىء ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ على المخاطبة ، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله : ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين ﴾ [الملك : 28] .

واعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره ، ذكر الدليل عليه .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر ، أي أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض فمن يأتيكم بماء معين ، فلا بد وأن يقولوا : هو الله ، فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في المعبودية ؟ وهو كقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ * أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ [الواقعة : 68 ، 69] وقوله : ﴿ غَوْرًا ﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض يقال : غار الماء يغور غوراً ، إذا نضب وذهب في الأرض ، والغور ههنا بمعنى الغائر سمي بالمصدر كما يقال : رجل عدل ورضا ، والمعين الظاهر الذي تراه العيون فهو من مفعول العين كمبيع ، وقيل : المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجري كأنه قيل : ممعن في الجري ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 65. 67 ﴾

(64/775)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقال ابن عطية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾

ثم أحال على العبرة في أمر ﴿ الطير ﴾ ، وما أحكم من خلقتها وذلك بين عجز الأصنام والأوثان عنه ، و: ﴿ صافات ﴾ جمع صاقة ، وهي التي تبسط جناحيها وتصفهما حتى كأنها ساكنة ، وقبض الجناح ضمه إلى الجنة ومنه قول أبي خراش : [الطويل]

يحث الجناح بالتبسط والقبض . . . وهاتان حالان للطائر يستريح من إحداهما للأخرى .

وقوله تعالى : ﴿ ويقبضن ﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل وذلك جائز كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر : [الرجز]

بات يغشّيها بعضب باتر . . . يقصد في أسوقها وجائر

وقرأ طلحة بن مصرف : " أمَن " بتخفيف الميم في هذه ، وقرأ التي بعدها مثقلة كالجماعة والجند أعوان الرجل على مذاهبه ، وقوله تعالى : ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ خطاب لمحمد بعد تقرير ، قل لم يا محمد ﴿ أمن هذا ﴾ .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

هذا أيضاً توقيف على أمر لا مدخل للأصنام فيه ، والإشارة بالرزق إلى المطر ، لأنه عظم الأرزاق ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم : ﴿ لجوا ﴾ وتمادوا في التمنع عن طاعة الله ، وهو

العتو في نفور ، أي بعد عن الحق بسرعة ومبادرة ، يقال : نفر عن الأمر نفوراً ، وإلى الأمر نفيراً ، ونفرت الدابة نفاراً .

(65/775)

واختلف أهل التأويل في سبب قوله : ﴿ أفمن يمشي مكباً ﴾ الآية ، فقال جماعة من رواة الأسباب : نزلت مثلاً لأبي جهل بن هشام وحمزة بن عبد المطلب ، وقال ابن عباس وابن الكلبي وغيره : نزلت مثلا لأبي جهل بن هشام ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد والضحاك : نزلت مثالاً للمؤمنين والكافرين على العموم ، وقال قتادة : نزلت مخبرة عن حال القيامة ، وإن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة ، وقيل للنبي : كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ قال : " إن الذي أمشاه في الدنيا على رجله قادر على أن يمشيه في الآخرة على وجهه " .

قال القاضي أبو محمد : فوقف الكفار على هاتين الحالتين حينئذ ، ففي الأقوال الثلاثة الأول المشي مجاز يتخيل ، وفي القول الرابع هو حقيقة يقع يوم القيامة ويقال : أكب الرجل ، إذا رد وجهه إلى الأرض ، وكبه : غبره ، قال عليه السلام : " وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم " ، فهذا الفعل خلاف للباب : أفعل لا يتعدى وفعل يتعدى ، ونظيره

قشعت الريح فأقشع ، و﴿ أهدى ﴾ في هذه الآية أفعل من الهدى ، وقرأ طلحة : " أمَن يمشي " بتخفيف الميم ، وإفراد ﴿ السمع ﴾ لأنه اسم جنس يقع للكثير و﴿ قليلاً ﴾ نصب بفعل مضمر ، و﴿ ما ﴾ : مصدرية ، وهي في موضع رفع ، وقوله : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ يقتضي ظاهره أنهم يشكرون قليلاً ، فهذا إما أن يريد به ما عسى أن يكون للكافر من شكر وهو قليل غير نافع ، وإما أن يريد جملة فعبر بالقلة كما تقول العرب : هذه أرض قل ما تنبت كذا ، وهي لا تنبته بتة ، ومن شكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه النعمة أنه كان يقول في سجوده : " سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره " ، و" ذرأكم " معناه : بثكم والحشر المشار إليه ، هو بعث القيامة ، وإليه أشار بقوله : ﴿ هذا الوعد ﴾ فأخبر تعالى أنهم يستعجلون أمر القيامة ، ويوقفون على الصدق ، في الإخبار بذلك .

(66/775)

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26)

(67/775)

أمر الله تعالى نبيه أن يخبرهم بأن علم القيامة والوعد الصدق هو مما تفرد الله به ، وأن محمداً إنما هو نذير يعلم ما علم ويخبر بما أمر أن يخبر به ، وقوله : ﴿ فلما رأوه ﴾ الضمير للعذاب الذي تضمنه الوعد ، وهذه حكاية حال تأتي المعنى : ﴿ فإذا رأوه ﴾ و: ﴿ زلفة ﴾ معناه قريباً . قال الحسن : عياناً . وقال ابن زيد : حاضراً ، و: ﴿ سيئت ﴾ معناه : ظهر فيها السوء ، وقرأ جمهور الناس : " سِيئت " بكسر السين ، وقرأ أبو جعفر الحسن ونافع أيضاً وابن كثير وأبو رجاء وشيبة وابن وثاب وطلحة : بالإشمام بين الضم والكسر . وقرأ جمهور الناس ونافع بخلاف عنه : " تدّعون " بفتح الدال وشدها ، على وزن : تفتعلون ، أي تتداعون أمره بينكم ، وقال الحسن : يدّعون أنه لا جنة ولا نار ، وقرأ أبو رجاء والحسن والضحاك وقتادة وابن يسار وسلام : " يدْعون " بسكون الدال على معنى : يستعجلون ، كقولهم : عجل لنا قطنا ، وأمطر علينا حجارة وغير ذلك ، وروي في تأويل قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا ﴾ الآية ، أنهم كانوا يدعون على محمد وأصحابه بالهلاك ، وقيل بل كانوا يترامون بينهم بأن يهلكوه بالقتل ونحوه فقال الله تعالى : قل لهم أرأيتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتم ذلك فينا ، أو أرأيتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يهلكنا من يجيركم من العذاب الذي يوجبه كفركم على كل حال ؟ وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص ، وعن عاصم : " إن أهلكنيَ الله ومن معيَ " بنصب الياءين ، وأسكن

الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر الياء في : " معي " وقرأ حمزة : بإسكان الياءين ، وروى المسيب عن نافع أنه أسكن ياء : " اهلكني " ، قال أبو علي التحريك في الياءين حسن وهو الأصل ، والإسكان كراهية الحركة في حرف اللين ، يتجانس ذلك ، وقرأ الكسائي وحده : " فسيعلمون " بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة ، ثم وقفهم تعالى على مياههم التي يعيشون منها إن غادرت أي

(68/775)

ذهبت في الأرض ، ومن يجيئهم بماء كثير واف ، والغور : مصدر يوصف به على معنى المبالغة ، ومنه قول الأعرابي : وغادرت التراب مورا والماء غورا .

والمعين : فعيل من معنى الماء إذا كثر أو مفعول من العين ، أي جار كالعين ، أصله معيون ، وقيل هو من العين ، لكن من حيث يرى بعين الإنسان ، لا من حيث يشبه بالعين الجارية ، وقال ابن عباس : ﴿ معين ﴾ عذب وعنه في كتاب الثعلبي : ﴿ معين ﴾ جار ، وفي كتاب النقاش : ﴿ معين ﴾ ظاهر ، وقال بعض المفسرين وابن الكلبي : أشير في هذا الماء إلى بئر زمزم ، وبئر ميمون ، ويشبه أن تكون هاتان عظم ماء مكة ، وإلا فكانت فيها بئار

كثيرة كخم والجفر وغيرهما . والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ

﴾

(69/775)

وقال القرطبى :

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

أي متى يوم القيامة ! ومتى هذا العذاب الذي تعِدوننا به ! وهذا استهزاء منهم .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم عِنْدَ الله ﴾

أي قل لهم يا محمد علم وقت قيام الساعة عند الله ؛ فلا يعلمه غيره ، نظيره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] الآية .

﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي مخوّف ومعلم لكم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ مصدر بمعنى مُزْدَلفاً ، أي قريباً ؛ قاله مجاهد .

الحسن عِياناً .

وأكثر المفسرين على أن المعنى : فلما رأوه يعني العذاب ، وهو عذاب الآخرة .

وقال مجاهد : يعني عذاب بَدْر .

وقيل : أي رأوا ما وُعِدوا من الحشر قريباً منهم .

ودلّ عليه ﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ .

وقال ابن عباس : لما رأوا عملهم السّيّىء قريباً .

﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي فُعل بها السوء .

وقال الزجاج : تُبُيِّن فيها السوء ؛ أي ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سِمَةٌ تدلّ على كفرهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] .

وقرأ نافع وابن مُحَيْصِن وابن عامر والكسائيّ "سئت" بإشمام الضم .

وكسر الباقون بغير إشمام طلباً للخفّة .

ومن ضمّ لاحظ الأصل .

﴿ وَقِيلَ هذا الذي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ قال الفرّاء : "تَدّعُونَ" تفتعلون من الدعاء ؛ وهو قول أكثر العلماء ؛ أي تتمنْون وتسألون .

وقال ابن عباس : تَكْذِبون ؛ وتأويله : هذا الذي كنتم من أجله تدّعون الأباطيل والأحاديث ؛ قاله الزجاج .

وقراءة العامة "تدّعون" بالتشديد ، وتأويله ما ذكرناه .

وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق والضحاك ويعقوب "تَدْعون" مخففة .

قال قتادة: هو قولهم ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص: 16] وقال الضحاك: هو قولهم ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال: 32] الآية.

وقال أبو العباس: "تَدعُونَ" تستعجلون؛ يقال: دعوت بكذا إذا طلبته؛ وادعيت افتعلت منه.

النحاس: "تَدّعُونَ وتَدْعُون" بمعنًى واحد؛ كما يقال: قدر واقتدر، وعَدَى واعتدى؛ إلا أن في "افتعل" معنى شيء بعد شيء، و "فَعَل" يقع على القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ﴾ أي قل لهم يا محمد يريد مشركي مكة، وكانوا يَتَمَنَّوْن موتَ محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور: 30]: أرأيتم إن مِتْنَا أو رُحِمْنَا فأخّرت آجالُنا فمن يجيركم من عذاب الله؛ فلا حاجة بكم إلى التربّص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة.

وأسكن الياء في "أهلكني" ابن مُحَيْصِن والْمُسَيّبي وشيبة والأعمش وحمزة.

وفتحها الباقون.

وكلهم فتح الياء في "ومَنْ معيَ" إلا أهل الكوفة فإنهم سكّنوها .

وفتحها حَفْص كالجماعة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ قرأ الكِسَائيّ بالياء على الخبر ؛ ورواه عن عليّ .

الباقون بالتاء على الخطاب .

وهو تهديد لهم .

ويقال : لم أخّر مفعول "آمَنَّا" وقدّم مفعول "تَوَكَّلْنَا" فيقال : لِوُقوع "آمَنَّا" تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم .

كأنه قيل : آمَنَّا ولم نكفر كما كفرتم .

ثم قال ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ خصوصاً لم نتكّل على ما أنتم متكّلون عليه من رجالكم وأموالكم ؛ قاله الزَّمَخْشَرِيّ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾

يا معشر قريش ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً ﴾ أي غائِراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء .

وكان ماؤهم من بئرين : بئر زمزم وبئر ميمون .

﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ أي جارٍ ؛ قاله قتادة والضحاك .

فلا بدّ لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله ؛ فقل لهم لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم .

يقال : غار الماء يَغُور غوراً ؛ أي نَضَب .

والْغَوْر : الغائر ؛ وُصِف بالمصدر للمبالغة ؛ كما تقول : رجل عَدْلٌ ورِضاً .

وقد مضى في سورة "الكهف" ومضى القول في المعنى في سورة "المؤمنون" والحمد لله .

وعن ابن عباس : "بِمَاءٍ مَعِينٍ" أي ظاهر تراه العيون ؛ فهو مفعول .

وقيل : هو من مَعَن الماءُ أي كثُر ؛ فهو على هذا فعيل .

وعن ابن عباس أيضاً : أن المعنى فمن يأتيكم بماء عَذْب .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(72/775)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾

أغفَلوا ولم ينظُروا ﴿ إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾ باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوّ عند طيرانِهَا فإنهنَّ إذا بسطنَهَا صففنَ قوادِمها صفاً ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ويضمُمنها إذا ضربنَ بها جنوبهنَّ حيناً فحيناً للاستظهارِ بهِ على التحركِ وهو السرُّ في إيثارِ يقبضنَ الدالِّ على تجددِ القبضِ تارةً بعد تارةٍ على قابضاتٍ ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجوّ عند الصفّ والقبضِ على خلافِ مقتضى الطبعِ ﴿ إِلاَّ الرحمن ﴾ الواسعُ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ بأنْ برأهُنَّ على أشكالٍ وخصائصَ وهيأهُنَّ للجريِ في الهواءِ ، والجملةُ مستأنفةٌ أو حالٌ من الضميرِ في يقبضنَ ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ يعلمُ كيفيةَ إبداعِ المبدعاتِ وتدبيرِ المصنوعاتِ . وقوله تعالَى :

(73/775)

﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ تبكيتٌ لهم بنفي أنْ يكونَ لهم ناصرٌ غيرُ الله تعالَى كما يلوحُ به التعرضُ لعنوانِ الرحمانيةِ ويعضُدهُ قولُه تعالَى : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ أو ناصرٌ من عذابِهِ تعالَى كما هو الأنسبُ بما سيأتي من قولِه تعالَى : ﴿ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ كقولِهِ تعالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ في المعنيينِ معاً خَلا أنَّ الاستفهامِ هُناكَ متوجهٌ إلى نفسِ المانعِ وتحققهِ وههُنا إلى تعيينِ الناصرِ لتبكيتِهم بإظهارِ عجزِهم عن تعيينِهِ ، وأم منقطعةٌ مقدرةٌ ببل المفيدةِ للانتقالِ من توبيخِهم على تركِ

التأملِ فيما يشاهدونَهُ من أحوالِ الطيرِ المنبئةِ عن تعاجيبِ آثارِ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ إلى التبكيتِ بما ذُكِرَ ، والالتفاتُ للتشديدِ في ذلكَ ولا سبيلَ إلى تقديرِ الهمزةِ معَها لأنَّ ما بعدَهَا مَنْ الاستفهاميةُ وهي مبتدأٌ وهذا خبرُهُ والموصولُ مع صلتِهِ صفتُهُ كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ ﴾ وإيثارُ هذا لتحقيرِ المشارِ إليهِ . وينصركُم صفةٌ لجندٌ باعتبارِ لفظِهِ ، ومن دونِ الرحمنِ على الوجهِ الأولِ إما حالٌ من فاعلِ ينصركُم أو نعتٌ لمصدرِهِ وعلى الثاني متعلقٌ بينصركم كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ مَن يَنصُرُنى مِنَ الله ﴾ فالمَعْنَى بلْ مَنْ هذا الحقيرُ الذي هُو في زعمِكُم جندٌ لكم ينصركُم متجاوزاً نصرَ الرحمنِ أو ينصركُم نصراً كائناً من دونِ نصرِهِ تعالَى أو ينصركُم من عذابٍ كائنٍ من عندِ الله عزَّ وجلَّ . وتوهمُ أنَّ أمَّ معادلةٌ لقولِهِ تعالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الخ مع القولِ بأنَّ مَنِ استفهاميةٌ مما لا تقريبَ له أصلاً . وقولُه تعالَى : ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ ناعٍ عليهِم ما هُم فيهِ من غايةِ الضلالِ أي ما هُم في

(74/775)

زعمِهِم أنَّهم محفوظونَ من النوائبِ بحفظِ آلهتِهِم لا بحفظِهِ تعالَى فقطْ أو أنَّ آلهتَهُم تحفظُهُم من بأسِ الله إلا في غرورٍ عظيمٍ وضلالٍ فاحشٍ من جهةِ الشيطانِ ليسَ لهُم في ذلكَ شيءٌ

يعتدُّ بهِ في الجملةِ . والالتفاتُ إلى الغيبةِ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهُم وبيانِ قبائِحِهم لغيرِهِم . والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لذمِّهم بالكُفرِ وتعليلِ غرورِهِم بهِ . والكلامُ في قوله تعالَى :

﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ﴿ رِزْقَهُ ﴾ بإمساكِ المطرِ وسائرِ مباديهِ كالذي مرَّ تفصيلُه خَلا أنَّ قولَه تعالَى : ﴿ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوّ وَنُفُورٍ ﴾ منبئٌ عن مقدَّرٍ يستدعيهِ المقامُ كأنَّه قيلَ إثرَ تمامِ التبكيتِ والتعجيزِ لم يتأثروا بذلكَ ولم يُذعنُوا للحقِّ بل لَجُّوا وتمادَوا في عتوَ ، أي عنادٍ واستكبارٍ وطغيانٍ ونفورٍ أيْ شرادٍ عن الحقِّ .

وقولُه تعالَى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى ﴾ الخ مثلٌ ضُرِبَ للمشركِ والموحدِ توضيحاً لحالِهما وتحقيقاً لشأنِ مذهبيهما ، والفاءُ لترتيبِ ذلكَ على ما ظهرَ من سوءِ حالِهم وخرورِهِم في مهاوِي الغرورِ وركوبِهم متنَ عشواءِ العتوِّ والنفورِ ، وعدمِ اهتدائِهم في مسلكِ المُحاجَّةِ إلى جهةٍ يتوهمُ فيها رشدٌ في الجملةِ فإنَّ تقدمَ الهمزةِ عليها صورةً إنَّما هُو لاقتضائِهَا الصدارةَ وأما بحسبِ المعنى فالأمرُ بالعكسِ كَمَا هو المشهورُ حتَّى لو كانَ مكانُ الهمزةِ هلْ لقيلَ فهَلْ مَنْ يمشِي مُكباً الخ . والمُكِبُّ الساقطُ على وجهِهِ يقالُ أُكبَّ خرَّ على وجهِهِ وحقيقتُهُ صارَ ذا كبَ ودخلَ في الكبِّ كأقشعَ الغمامُ أي صارَ ذا قشعٍ والمَعْنَى أفمنْ يمشِي وهو يعثرُ في كلِّ ساعةٍ ويخرُّ على وجهِهِ في كلِّ خُطوةٍ لتوعرِ طريقِه واختلالِ قُواه أهدَى إلى المقصدِ الذي يؤمُّه .

﴿ أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ أي قائماً سالماً من الخبطِ والعثارِ ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مستوِي الأجزاءِ لا عوجَ فيهِ ولا انحرافَ قيلَ خبرٌ من الثانيةِ محذوفٌ لدلالةِ خبرِ الأُولى عليهِ ولا حاجةَ إلى ذلكَ فإنَّ الثانيةَ معطوفةٌ على الأُولى عطفَ المفردِ كقولِكَ أزيدٌ أفضلُ أم عمروٌ وقيل أُريدَ بالمكبِّ الأَعْمَى وبالسويِّ البصيرُ وقيلَ من يمشِي مُكباً هو الذي يُحشرُ على وجهِهِ إلى النَّارِ ومَنْ يمشِي سوياً الذي يُحشرُ على قدميهِ إلى الجنَّةِ ﴿ قُلْ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ ﴾ إنشاءً بديعاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع ﴾ لتسمعُوا آياتِ اللهِ وتمتثلُوا بما فيهَا من الأوامرِ والنواهِي وتتعظُوا بمواعظِهَا ﴿ والأبصار ﴾ لتنظرُوا بها إلى الآياتِ التكوينيةِ الشاهدةِ بشؤونِ اللهِ عزَّ وجلَ ﴿ والأفئدة ﴾ لتتفكرُوا بهَا فيمَا تسمعونَهُ وتشاهدونَهُ من الآياتِ التنزيليةِ والتكوينيةِ وترتقُوا في معارجِ الإيمانِ والطاعةِ ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي باستعمالِهَا فيما خُلقتْ لأجلهِ من الأمورِ المذكورةِ . وقليلاً نعتٌ لمحذوفٍ وما مزيدةٌ لتأكيدِ القلةِ أي شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تشكرونَ ، وقيلَ القلةُ عبارةٌ عن العدمِ ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ أي خلقكُم وكثركُم فيهَا لا غيرُهُ ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزءِ لا إلى غيرِهِ اشتراكاً أو استقلالاً فابنُوا أموركُم على ذلكَ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرطِ عُتوِّهم

وعنادِهِم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أيِ الحشرُ الموعودُ كما ينبىءُ عنهُ قولُه تعالَى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يخاطبونَ بِهِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنينَ حيثُ كانُوا مشاركينَ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في الوعدِ وتلاوةِ الآياتِ المتضمنةِ له وجوابُ الشرطِ محذوفٌ أي إنْ كنتُم صادقينَ فيما تخبرونَهُ من مجيءِ الساعةِ والحشرِ فبيِّنُوا وقتَهُ .

(76/775)

﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم ﴾ أي العلمُ بوقتِهِ ﴿ عَندَ الله ﴾ عزَّ وجلَّ لا يطلعُ عليهِ غيرُهُ كقولِهِ تعالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنذركُم وقوعَ الموعودِ لا محالةَ وأما العلمُ بوقتِ وقوعِهِ فليسَ من وظائفِ الإنذارِ . والفاءُ في قولِه تعالَى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ فصيحةٌ معربةٌ عن تقديرِ جملتينِ ، وترتيبِ الشرطيةِ عليهِمَا ، كأنَّه قيلَ وقد أتاهُم الموعودُ فرأَوهُ فلمَّا رَأَوهُ إلى آخره كما مرَّ تحقيقُهُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ إلاَّ أنَّ المقدرَ هُناكَ أمرٌ واقعٌ مرتبٌ على ما قبلَهُ بالفاءِ وههُنَا أمرٌ منزلٌ منزلةَ الواقعِ واردٌ على طريقةِ الاستئنافِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ زُلْفَةً ﴾ حالٌ من مفعولِ رَأَوْا ، إمَّا بتقديرِ المضافِ أيْ ذَا زُلفةٍ وقربٍ ، أو على أنَّه مصدرٌ بمَعْنَى الفاعلِ أي مُزدَلِفاً ، أو على أنَّه مصدرٌ نُعتَ بِهِ مبالغةً ، أو ظرفٌ أيْ رَأَوهُ في مكانٍ ذِي زُلفةٍ ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ

الذين كَفَرُواْ ﴾ بأنْ غشِيَتْهَا الكآبةُ ورهَقَهَا القَترُ والذلةُ ، ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهِم لذمّهِم بالكُفرِ وتعليلِ المساءةِ بهِ ﴿ وَقِيلَ ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لعذابِهِم ﴿ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أي تطلبُونَهُ في الدُّنيا وتستعجلونَهُ إنكاراً واستهزاءً على أنَّه تفتعلونَ من الدعاءِ ، وقيلَ هو من الدَّعْوَى أي تدَّعُونَ أنْ لا بعثَ ولا حشرَ . وقُرِىءَ تَدْعُون ، هَذا وقَدْ رُوِيَ عن مجاهدٍ أن الموعودَ عذابُ يومِ بدرٍ . وهُو بعيدٌ .

(77/775)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَهْلَكَنِىَ الله ﴾ أي أماتَنِي ، والتعبيرُ عنه بالإهلاكِ لما كانُوا يدعُون عليهِ صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنينَ بالهلاكِ ﴿ وَمَن مَّعِىَ ﴾ من المؤمنينَ ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بتأخيرِ آجالِنَا فنحنُ في جوارِ رحمَتِهِ متربصونَ لإحدَى الحُسنيينِ ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لا ينجّيكُم منهُ أحدٌ مِتنا أو بَقِينا ، ووضعُ الكافرينَ موضعَ ضميرِهِم للتسجيلِ عليهِم بالكفرِ ، وتعليلِ نَفي الإنجاءِ بِهِ ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن ﴾ أي الذي أدعُوكم إلى عبادَتِهِ مُولِي النعمِ كُلِّها ﴿ ءَامَنَا بِهِ ﴾ وحدَهُ لَمَّا علمنَا أنَّ كلَّ ما سواهُ إما نعمةٌ أو منعَمٌ عليهِ ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لا على غيرِهِ أصلاً لعِلمنا بأنَّ ما عداهُ كائناً ما كانَ بمعزلٍ من النفعِ والضُّرِّ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ عن قريبٍ ألبتةَ ﴿ مَنْ هُوَ فِى

ضلال مُّبِينٍ ﴾ منَّا ومنكُم . وقُرِىءَ فسيعلمُونَ بالياءِ التحتانيةِ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبرونِي ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ أي غائراً في الأرضِ بالكليةِ وقيلَ بحيثُ لا تنالُهُ الدِّلاءُ ، وهو مصدرٌ وُصِفَ بِهِ . ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ جارٍ ، أو ظاهرٍ سهلِ المأخذِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(78/775)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾

من فرط عتوهم ونفورهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي الحشر الموعود كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وإليه تحشرون ﴾ [الملك : 24] إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام في الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته .

﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم ﴾ أي العلم بوقته ﴿ عَندَ الله ﴾ عز وجل لا يطلع عليه غيره عز وجل كقوله تعالى ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ [الأعراف : 187] ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

﴿ أنذركم وقوع الموعود لا محالة وأما العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار والفاء في قوله تعالى :

(79/775)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأواه فلما رأوه الخ وهذا نظير قوله تعالى ﴿ فلما رآه مستقرا عنده ﴾ [النمل : 4] إلا أن المقدر هناك أمر واقع مرتب على ما قبله بالفاء وههنا أمر منزل منزلة لواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى : ﴿ زُلْفَةً ﴾ حال من مفعول رأوه اما بتقدير المضاف أي ذا زلفة وقرب أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي مزدلفاً أو على أنه مصدر نعت به مبالغة أو ظرف أي رأوه في مكان ذي زلفة وفسر بعضهم الزلفة بالقريب والأمر عليه ظاهر وكذا على ما روى عن ابن زيد من تفسيره بالحاضر وقال الراغب الزلفة المنزلة والحظوة وما في الآية قيل معناه زلفة المؤمنين وقيل زلفة لهم واستعمل الزلفة في منزلة العذاب كما استعملت البشارة ونحوها من الألفاظ انتهى ولا زلفة في كلا القولين ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ سامتها رؤيته بأن غشيتها بسببها الكآبة ورهقها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به وأشم أبو جعفر والحسن

وأبو رجاء وشيبة وابن وثاب وطلحة وابن عامر ونافع والكسائي كسر سين سيئت الضم ﴿ وَقِيلَ ﴾ توبيخاً لهم وتشديد العذاب بهم ﴿ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاء على أنه تفتعلون من الدعاء والباء صلة الفعل وقيل هو من الدعوى أي تدعون أن لا بعث ولا حشر فالباء سببية أو للملابسة باعتبار الذكر وأيد التفسير الأول بقراءة أبي رجاء والضحاك والحسن وقتادة وابن يسار وعبد الله بن مسلم وسلام ويعقوب تدعون بسكون الدال وهي قراءة ابن أبي عبلة وأبي زيد وعصمة عن أبي بكر والأصمعي عن نافع وذكر الزمخشري في سورة المعارج إن يدعون مخففاً من قولهم دعا بكذا إذا استدعاه وعن الفراء أنه من دعوت أدعو والمعنى هذا الذي كنتم به تستعجلون وتدعون الله تعالى بتعجيله يعني قولهم ﴿ إن

(80/775)

كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : 32] الخ وروى عن مجاهد أن الموعود عذاب يوم بدر وهو بعيد وأما ما قيل من أن الموعود الخسف والحاصب وقد وقعا لأن المراد بالخسف الذي كما في قوله

: ولا يقيم على خسف يراد به . . .

إلا الأذلان عير الحي والوتد

وبالحاصب الحصي وقد رمى صلى الله عليه وسلم به في وجوههم كما في الخبر المشهور أو لم يقعا بناء على ما عرف أولاً من المراد بهما ولا يضر ذلك إذ تخلف الوعيد لا ضير فيه فليس بشيء كما لا يخفى وكان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك فقال سبحانه له عليه الصلاة والسلام .

(81/775)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أروني كما هو المشهور وقد مر تحقيقه ﴿ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللهُ وَمَن مَّعِىَ ﴾ أي من المؤمنين ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ أي بالنصرة عليكم ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فمن يجيركم من عذاب النار وأقيم الظاهر مقام المضمر المخاطب دلالة على أن موجب البوار محقق فأني لهم الإجارة والظاهر أن جواب الشرط والمعطوف عليه شيء واحد وحاصل المعنى لا مجير لكم من عذاب النار لكفركم الموجب له انقلبنا إلى رحمة الله تعالى بالهلاك كما تمنون لأن فيه الفوز بنعيم الآخرة أو بالنصرة عليكم والأدلة للإسلام كما نرجو لأن في ذلك الظفر بالبغيتين ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص بالايمان وأن فيما هم فيه شغلاً شاغلاً عن تمني هلاك النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين وهذا

أوجه أوجه ثلاثة ذكرها الزمخشري ثانيها أن المعنى إن أهلكنا الله تعالى بالموت ونحن هداتكم والآخذون بحجزكم فمن يجيركم من النار وإن رحمنا بالغلبة عليكم وقتلكم عكس ما تمنون فمن يجيركم لأن المقتول على أيدينا هالك في الدنيا والآخرة وعلى هذا الجواب متعدد لتعدد موجبه ورجح الأول بأن فيه تسفيهاً لرأيهم لطلبهم ما هو سعادة أعدائهم ثم الحث على ما هو أحرى وهو الخلاص مما هم فيه من موجب الهلاك وهذا فيه الأول من حيث أنهم لم يتمنون هلاك من يجيرهم من العذاب بإرشاده والسياق ادعى للأول وثالثها أن المعنى إن أهلكنا الله تعالى في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم وإن رحمنا بالايمان فمن يجير من لا إيمان له وعلى هذا الجواب متعدد أيضاً والهلاك فيه محمول على المجاز دون الحقيقة كما في سابقه والغرض الجزم بأنهم لا مجير لهم وإن حالهم إذا ترددت بين الهلاك بالذنب والرحمة بالايمان وهم مؤمنون فما ذا يكون حال من لا إيمان له وهذا فيه بعد .

(82/775)

﴿ قُلْ ﴾ أي لهم جواباً عن تمنيهم ما لا يجديهم بل يرديهم معرضاً بسوء ما هم عليه ﴿ هُوَ الرحمن ﴾ أي الله الرحمن ﴿ بِهِ إِنَّهُ ﴾ أي فيجيرنا برحمته عز وجل من عذاب الآخرة ولم

نكفر مثلكم حتى لانجار البتة ولما جعل الكفر سبب الإساءة في الآية الأولى جعل الايمان سبب الإجارة في هذه ليتم التقابل ويقع التعريض موقعه ولم يقدم مفعول آمناً لأنه لو قيل به آمناً كان ذهاباً إلى التعريض بإيمانهم بالأصنام وكان خروجاً عما سيق له الكلام وحسن التقديم في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لاقتضاء التعريض بهم في أمر التوكل ذلك أي وعليه توكلنا ونعم الوكيل فنصرنا لا على العدد والعدد كما أنتم عليه والحاصل أنه لما ذكر فيما قبل الإهلاك والرحمة وفسر برحمة الدنيا والآخرة أكد ههنا بحصولها لهم في الدارين لايمانهم وتوكلهم عليه تعالى خاصة وفي ذلك تحقيق عدم حصولها للكافرين لانتفاء الموجبين ثم في الآية خاتمة على منوال السابقة وتبيين أن أحسن العمل الايمان والتوكل على الله تعالى وحده وهو حقيقة التقوى وقوله تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في الدارين وعيد بعد تلخيص الموجب لكنه أخرج مخرج الكلام المنصف أي من هو منا ومنكم في الخ وقرأ الكسائي فسيعلمون بياء الغيبة نظراً إلى قوله تعالى ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ [الملك : 28] وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض بالكلية وعن الكلبي لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به للمبالغة أو مؤل باسم الفاعل وأياً ما كان فليس المراد بالماء ماء معيناً وإن كانت الآية كما روى ابن المنذر والفاكهي عن ابن الكلبي نازلة في بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمي ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ أي جار أو ظاهر سهل المأخذ لوصول الأيدي إليه وهو فعيل من معن أو مفعول من عين وعيد في الدنيا خاصة واردف الوعيد السابق به تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإنكم إذا لم تعبدوه عز وجل للحياة الباقية فاعبدوه للفانية وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فلما سمع فمن يأتيكم الخ قال تجيء به الفؤس والمعاول فذهب ماء عينيه نعوذ بالله تعالى من الجراءة على الله جل جلاله وآياته وتفسير الآيات على هذا الطرز هو ما اختاره بعض الأئمة وهو أبعد مغزى من غيره والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(84/775)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) ﴾

ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما ، فقال : ﴿ أَفَمَن

يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى ﴾ والمكبّ والمنكبّ : الساقط على وجهه ، يقال : كببته فأكبّ وانكبّ .

وقيل : هو الذي يكب رأسه ، فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ، فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه .

وقيل : أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق ، فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه .

قال قتادة : هو الكافر يكبّ على معاصي الله في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه .

والهمزة للاستفهام الإنكاري أي : هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده ؟ ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً ﴾ معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على طريق مستوي لا اعوجاج به ولا انحراف فيه ، وخبر "من" محذوف لدلالة خبر "من" الأولى ، وهو أهدى عليه ، وقيل : لا حاجة إلى ذلك ؛ لأن "من" الثانية معطوفة على "من" الأولى عطف المفرد على المفرد ، كقولك : أزيد قائم أم عمرو ؟ وقيل : أراد بمن يمشي مكباً على وجهه من يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشي سوياً من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذي ذكرناه ، ومثله قوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ [الإسراء : 97] .

﴿ قُلْ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ ﴾ أمر سبحانه رسوله أن يخبرهم بأن الله هو الذي أنشأهم النشأة الأولى ﴿ وَجَعَلَ ﴾ لهم ﴿ السمع ﴾ ليسمعوا به ﴿ والأبصار ﴾ ليبصروا بها ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، وقد قدّمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة في البيان ﴿ والأفئدة ﴾ القلوب التي يتفكرون بها في مخلوقات الله ، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة ، وذماً لهم على عدم شكر نعم الله ، ولهذا قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وانتصاب قليلاً على أنه نعت مصدر محذوف ، و"ما" مزيدة للتأكيد أي : شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً ، وقيل : أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم . قال مقاتل : يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها ، وأن حشرهم للجزاء إليه لا إلى غيره .

ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي : متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من الحشر والقيامة ، والنار والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك ؟ والخطاب منهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين

، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا ، وهذا منهم استهزاء وسخرية .

(86/775)

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ أي : إن وقت قيام الساعة علمه عند الله لا يعلمه غيره ، ومثله قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب ، فقال : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنذركم وأخوّفكم عاقبة كفركم ، وأبين لكم ما أمرني الله ببيانه .

ثم ذكر الله سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ يعني : رأوا العذاب قريباً ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل ، أي : مزدلفاً ، أو حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف ، أي : ذا زلفة وقرب ، أو ظرف ، أي : رأوه في مكان ذي زلفة .

قال مجاهد : أي : قريباً .

وقال الحسن : عياناً .

قال أكثر المفسرين : المراد عذاب يوم القيامة ، وقال مجاهد : المراد عذاب بدر ، وقيل :

رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وقيل : لما رأوا عملهم السيء قريباً ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي : اسودّت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة ، يقال : ساء الشيء يسوء ، فهو سيء إذا قبح .

قال الزجاج : المعنى تبين فيها السوء أي : ساءهم ذلك العذاب ، فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] .

قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وابن محيصن بالإشمام ﴿ وَقِيلَ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أي : قيل لهم توبيخاً وتقريعاً : هذا المشاهد الحاضر من العذاب ، هو العذاب الذي كنتم به تدّعون في الدنيا أي : تطلبونه وتستعجلون به استهزاءً ، على أن معنى ﴿ تدّعون ﴾ الدعاء .

قال الفراء : تدّعون تفتعلون من الدعاء ، أي : تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين .

وقال الزجاج: هذا الذي كنتم به تدّعون الأباطيل والأحاديث.

وقيل: معنى ﴿ تَدْعُونَ ﴾: تكذبون، وهذا على قراءة الجمهور: ﴿ تدّعون ﴾ بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه، والمعنى: أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار.

وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والضحاك: "تدعون" مخففاً، ومعناها ظاهر.

قال قتادة: هو قولهم: ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص: 16].

وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [الأنفال: 32] الآية.

قال النحاس: تدّعون وتدعون بمعنى واحد، كما تقول قدر واقتدر، وغدا واغتدى، إلاّ أنّ أفعل معناه مضى شيئًا بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ الله وَمَن مَّعِىَ ﴾ أي: أخبروني إن أهلكني الله بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بتأخير ذلك إلى أجل.

وقيل المعنى: إن أهلكني الله ومن معي بالعذاب، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب.

والمعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه، كما كان

الكفار يتمنونه أو أمهلهم .

وقيل : المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء ، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر ، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم .

﴿ قُلْ هُوَ الرحمن ءامَنَّا بِهِ ﴾ وحده لا نشرك به شيئاً ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لا على غيره ، والتوكل : تفويض الأمور إليه - عزّ وجلّ - ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ منا ومنكم ، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف .

قرأ الجمهور : ﴿ ستعلمون ﴾ بالفوقية على الخطاب .

(88/775)

وقرأ الكسائي بالتحتية على الخبر .

ثم احتجّ سبحانه عليهم ببعض نعمه ، وخوّفهم بسلب تلك النعمة عنهم فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ أي : أخبروني إن صار ماؤكم غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً ، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء . يقال : غار الماء غوراً ، أي : نضب ، والغور الغائر ، وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال : رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ أي :

ظاهر تراه العيون وتناله الدلاء ، وقيل : هو من معن الماء ، أي : كثر .

وقال قتادة ، والضحاك : أي : جار ، وقد تقدّم معنى المعين في سورة المؤمن .

وقرأ ابن عباس " فمن يأتيكم بماء عذب " .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً ﴾ قال : في الضلالة ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ قال : مهتدياً .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ " وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ، وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ إلى ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : 98] و ﴿ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فإنه يبرأ بإذن الله " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ قال : داخلاً في الأرض ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ قال : الجاري .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ قال : يرجع في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ قال : ظاهر .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً : ﴿ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ قال : عذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 264.266 ﴾

(90/775)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) ﴾

لما لم تكن لهم معارضة للحجة التي في قوله : ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ [الملك : 23] إلى ﴿ هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ [الملك : 24] انحصر عنادهم في مضمون قوله : ﴿ وإليه تحشرون ﴾ [الملك : 24] فإنهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجبوا من إنذار القرآن به ، وقال بعضهم لبعض ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جِنة ﴾ [سبأ : 78] وكانوا يقولون : ﴿

متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [سبأ : 29] واستمروا على قوله ، فلذلك حكاه الله عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير .

و﴿ الوعد ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي متى هذا الوعد فيجوز أن يراد به الحشر المستفاد من قوله : ﴿ وإليه تحشرون ﴾ [الملك : 24] فالإشارة إليه بقوله : ﴿ هذا ﴾ ظاهرة ، ويجوز أن يراد به وعد آخر بنصر المسلمين ، فالإشارة إلى وعيد سمعوه .

والاستفهام بقولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ مستعمل في التهكم لأن من عادتهم أن يستهزئوا بذلك قال تعالى : ﴿ فسيقولون من يُعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ﴾ [الإسراء : 51]

وأتوا بلفظ ﴿ الوعد ﴾ استنجازاً له لأن شأن الوعد الوفاء .

وضمير الخطاب في : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين لأنهم يلهجون بإنذارهم بيوم الحشر ، وتقدم نظيره في سورة سبأ .

(91/775)

وأمر الله رسوله بأن يجيب سؤالهم بجملة على خلاف مرادهم بل على ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد على طريقة الأسلوب الحكيم ، بأن وقت هذا الوعد لا يعلمه إلاّ الله ،

فقوله : ﴿ قل ﴾ هنا أمر بقول يختص بجواب كلامهم وفصل دون عطف بجريان المقول في سياق المحاورة ، ولم يعطف فعل ﴿ قل ﴾ بالفاء جرياً على سنن أمثاله الواقعة في المجاوبة والمحاورة ، كما تقدم في نظائره الكثيرة وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

ولام التعريف في العلم ﴾ للعهد ، أي العلم بوقت هذا الوعد .

وهذه هي اللام التي تسمى عوضاً عن المضاف إليه ، وهذا قصر حقيقي .

﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ قصر إضافي ، أي ما أنا إلاّ نذير بوقوع هذا الوعد لا أتجاوز ذلك إلى كوني عالماً بوقته .

والمبين : اسم فاعل من أبان المتعدي ، أي مبين لما أمرت بتبليغه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

(لما) حرف توقيت ، أي سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الوعد .

والفاء فصيحة لأنها اقتضت جملة محذوفة تقديرها : فحل بهم الوعد فلما رأوهُ الخ ، أي رأوا الموعود به .

وفعل ﴿ رأوه ﴾ مستعمل في المستقبل ، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] لأنه صادر عمن لا إخلاف في أخباره فإن هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث كما

هو مقتضى السياق أم أريد به وعد النصر ، بقرينة قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [الملك : 25] فإنه يقتضي أنهم يقولونه في الحال وأن الوعد غير حاصل حين قولهم لأنهم يسألون عنه بـ ﴿ متى ﴾ .

(92/775)

ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في سورة النساء (41) وقوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ في سورة النحل (89) إذ جمع في الآيتين بين فعل نبعث ﴾ مضارعاً وفعل ﴿ جئنا ﴾ ماضياً .

وأصل المعنى : فإذا يرونه تساء وجوه الذين كفروا الخ ، فعدل عن ذلك إلى صوغ الوعيد في صورة الإخبار عن أمر وقع فجيء بالأفعال الماضية .

وضمير ﴿ رأوه ﴾ عائد إلى ﴿ الوعد ﴾ [الملك : 25] بمعنى : رأوا الموعود به .

والزُلفة بضم الزاي : اسم مصدر زَلف إذا قرب وهو من باب تعب .

وهذا إخبار بالمصدر للمبالغة ، أي رأوه شديد القرب منهم ، أي أخذ ينالهم .

و ﴿ سيئت ﴾ بني للنائب ، أي ساء وجوهَهم ذلك الوعد بمعنى الموعود .

وأسند حصول السوء إلى الوجوه لتضمينه معنى كَلَحَتْ ، أي لأنه سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه ، كما أسند الخوف إلى الأعين في قول الأعشى :

وأقدِم إذا ما أعيُن الناس تَفْرَقُ . . .

﴿ وقيل ﴾ أي لهم .

و﴿ تدَّعون ﴾ بتشديد الدال مضارع ادَّعى .

وقد حذف مفعوله لظهوره من قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الملك : 25] ، أي تدَّعون أنه لا يكون .

و﴿ به ﴾ متعلق بـ ﴿ تدعون ﴾ لأنه ضمّن معنى "تكذّبون" فإنه إذا ضمّن عامل معنى عامل آخر يحذف معمول العامل المذكور ويذكر معمول ضمنه ليدل المذكور على المحذوف .

وذلك ضرب من الإيجاز .

وتقديم المجرور على العامل للاهتمام بإخطاره وللرعاية على الفاصلة .

والقائل لهم ﴿ هذا الذي كنتم به تدَّعون ﴾ ملائكة المحشر أو خَزَنَة جهنم ، فعدل عن تعيين القائل ، إذ المقصود المقول دون القائل فحذْف القائل من الإيجاز .

والقصر المستفاد من تعريف جزأي الإسناد تعريضٌ بهم بأنهم من شدة جحودهم بمنزلة من إذا رأوا الوعد حسبوه شيئاً آخر على نحو قوله تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : 24] .

وقرأ الجمهور ﴿ سِيئت ﴾ بكسرة السين خالصة ، وقرأه ابن عامر والكسائي بإشمام الكسرة ضمة ، وهما لغتان في فاء كل ثلاثي معتل العين إذا بُني للمجهول .

وقرأ الجمهور ﴿ تَدَّعون ﴾ بفتح الدال المشددة وقرأه يعقوب بسكون الدال من الدعاء ، أي الذي كنتم تدعون الله أن يصيبكم به تهكماً وعناداً كما قالوا ﴿ فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28)

هذا تكرير ثان لفعل ﴿ قل هو الذي أنشأكم ﴾ [الملك : 23] .

(94/775)

كان من بَذاءة المشركين أن يجهروا بتمني هلاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك من معه من المسلمين ، وقد حكى القرآن عنهم ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [

الطور : 30] وحكى عن بعضهم ﴿ ويَتربص بكم الدوائر ﴾ [التوبة : 98] ، وكانوا يتآمرون على قتله ، قال تعالى : ﴿ وإذ يَمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك ﴾ [الأنفال : 30] ، فأمره الله بأن يعرفهم حقيقةً تدحض أمانيَّهم ، وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جرَه إليه عمله ، وقد جرَّت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيده فهو نائلهم حَيي الرسول صلى الله عليه وسلم أو بادره المنون ، قال تعالى : ﴿ فإمَّا نذهبَنَّ بك فإنّا منهم منتقمون أو نُرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ [الزخرف : 41 ، 42] وقال : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهُم الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] وقال : ﴿ إنك مَيت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] أي المشركين ، وقد تكرر هذا المعنى وما يقاربه في القرآن ، وينسب إلى الشافعي :

تمنَّى رجال أن أموت فإنْ أمت . . .

فتلكَ سبيل لستُ فيها بأوْحَدِ

فقد يكون نزول هذه الآيات السابقة صادف مقالة من مقالاتهم هذه فنزلت الآية في أثنائها وقد يكون نزولها لمناسبة حكاية قولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [الملك : 25] بأن قارنه كلام بذيء مثل أن يقولوا : أَبعْدَ هلاكك يأتي الوَعْد .

والإهلاك : الإِماتة ، ومقابلةُ ﴿ أهلكني ﴾ بـ ﴿ رحِمنا ﴾ يدل على أن المراد : أو رحمنا بالحياة ، فيفيد أن الحياة رحمة ، وأن تأخير الأجل من النعم ، وإنما لم يؤخر الله أجل نبيئه صلى الله عليه وسلم مع أنه أشرف الرسل لِحِكَم أرادها كما دلّ عليه قوله : "حياتي خيرٌ لكم وموْتي خيرٌ لكم" ، ولعلّ حكمة ذلك أن الله أكمل الدين الذي أراد إبلاغه فكان إكماله يوم الحج الأكبر من سنة ثلاث وعشرين من البعثة ، وكان استمرار نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم خصّيصية خصّه الله بها من بين الأنبياء ، فلما أتم الله دينه ربا برسوله صلى الله عليه وسلم أن يبقى غير متصل بنزول الوحي فنقله الله إلى الاتصال بالرفيق الأعلى مباشرة بلا واسطة ، وقد أشارت إلى هذا سورة ﴿ إذا جاء نصر الله من قوله : ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ [النصر : 13] .

ولله درَ عبد بني الحسحاس في عبرته بقوله:

رأيت لمنايا لم يدعْنَ محمداً . . .

ولا باقياً إلاَّ لَهُ الموتُ مُرْصَداً

وقد عوضه الله تعالى بحياة أعلى وأجل ، إذ قال ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح : 4] ، وبالحياة الأبدية العاجلة وهي أنه يَرُدُّ عليه روحَه الزكية كلَّما سلّم عليه أحد فيردّ عليه

السلام كما ثبت بالحديث الصحيح .

وإنما سمَّى الحياة رحمة له ولمن معه ، لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام الله مقدراً حياته ، وحياة المؤمن رحمة لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة .

والاستفهام في ﴿ أرأيتم ﴾ إنكاري أنكر اندفاعهم إلى أمنيات ورغائب لا يجتنون منها نفعاً ولكنها مما تمليه عليهم النفوس الخبيثة من الحقد والحسد .

والرؤية علمية ، وفعلها معلق عن العمل فلذلك لم يرد بَعْدَه مفعولاه ، وهو معلق بالاستفهام الذي في جملة جواب الشرط ، فتقدير الكلام : أرأيتم أنفسكم ناجين من عذاب أليم إن هلكتُ وهلك من معي ، فهلاكنا لا يدفع عنكم العذاب المُعدّ للكافرين .

(96/775)

وأُقحم الشرط بين فعل الرؤية وما سدّ مسد مفعوليه .

والفاء في قوله : ﴿ فمن يأتيكم ﴾ [الملك : 30] رابطة لجواب الشرط لأنه لما وقع بعد ما أصلُه المبتدأ والخبرُ وهو المفعولان المقدّران رُجّح جانب الشرط .

والمعية في قوله : ﴿ ومن معي ﴾ معية مجازية ، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين ، كما في قوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ [

الفتح : 29] الآية ، أي الذين آمنوا معه ، وقوله : ﴿ والذين ءامنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ [التحريم : 8] كما أطلقت على الموافقة في الرأي والفهم في قول أبي هريرة : "أنا مع ابن أخي" ، يعني موافق لأبي سلمة بن عبد الرحمان ، وذلك حين اختلف أبو سلمة وابن عباس في المتوفّى عنها الحامل إذا وضعتْ حملها قبل مضي عدة الوفاة .

والاستفهام بقوله : ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ الخ إنكاري ، أي لا يجيرهم منه مجير ، أي أظننتم أن تجدوا مجيراً لكم إذا هَلَكنا فذلك متعذر فماذا ينفعكم هلاكنا .

والعذاب المذكور هنا ما عبّر عنه بالوعد في الآية قبلها .

وتنكير ﴿ عذاب ﴾ للتهويل .

والمراد بـ ﴿ الكافرين ﴾ جميع الكافرين فيشمل المخاطبين .

والكلام بمنزلة التذييل ، وفيه حذف ، تقديره : من يجيركم من عذاب فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين .

وذُكر وصف ﴿ الكافرين ﴾ لما فيه من الإيماء إلى علة الحكم لأنه وصف إذا علق به حكم أفاد تعليل ما منه اشتقاق الوصف .

وقرأ الجمهور بفتحة على ياء ﴿ أهلكنيَ ﴾ ، وقرأها حمزة بإسكان الياء .

وقرأ الجمهور ياء ﴿ معيَ ﴾ بفتحة .

وقرأها أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء .

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29)

هذا تكرير ثالث لفعل ﴿ قل ﴾ من قوله : ﴿ قل هو الذي أنشأكم ﴾ [الملك : 23] الآية .

(97/775)

وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله : ﴿ أو رحمنا ﴾ [الملك : 28] فإنه بعد أن سوَّى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أيّ الحالين فُرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب ، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمان ، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة ، فيعلم المشركون علم اليقين أيّ الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة .

وضميرُ ﴿ هو ﴾ عائد إلى الله تعالى الواقع في الجملة قبله ، أي الله هو الذي وَصْفُه ﴿ الرحمان ﴾ فهو يرحمنا ، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تُحرَموا آثار رحمته .

ونحن توكلنا عليه دون غيره وأنتم غرّكم عزّكم وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم .

وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى الجانب المهتدي والجانب الضالّ من قوله : ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ لأنه يظهر بداءً تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا

وصف ﴿ الرحمان ﴾ وتوكلوا على الأوثان .

و﴿ مَن ﴾ موصولة ، وما صُدِقَ ﴿ مَن ﴾ فريق مُبهم متردد بين فريقين تضمنهما قوله : ﴿ إن أهلكني الله ومَن معي ﴾ [الملك : 28] وقوله : ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ [الملك : 28] ، فأحد الفريقين فريق النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ، والآخر فريق الكافرين ، أي فستعلمون اتضاح الفريق الذي هو في ضلال مبين .

وتقديم معمول ﴿ توكلنا ﴾ عليه لإفادة الاختصاص ، أي توكلنا عليه دون غيره تعريضاً بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوها في التوكل مع الله ، أو نَسُوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الْأصنام .

(98/775)

وإنما لم يقدم معمول ﴿ آمنَّا ﴾ عليه فلم يقل : به آمنا لمُجرد الاهتمام إلى الإِخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله : ﴿ فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ [الملك : 28] فإن هذا جواب آخر عن تمنّيهم له الهلاك سُلك به طريق التبكيت ، أي هو الرحمان يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكْفر به كما كفرتم ، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإِشراك وإثبات التوحيد ، إذ الكلام في الإِهلاك والإنجاء المعبّر

عنه بـ ﴿ رَحِمنَا ﴾ [الملك : 28] فجيء بجملة ﴿ ءامنا ﴾ على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص ، بخلاف قوله : ﴿ وعليه توكلنا ﴾ لأن التوكل يقتضي منجياً وناصراً ، والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم ، فقيل : نحن لا نتكل على ما أنتم متكلون عليه ، بل على الرحمان وحده توكلنا .

وفعل ﴿ فستعلمون ﴾ معلق عن العمل لمجيء الاستفهام بعده .

وقرأ الجمهور ﴿ فستعلمون ﴾ بتاء الخطاب على أنه مما أمر بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم وقرأه الكسائي بياء الغائب على أن يكون إخباراً من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالّين .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

(99/775)

إيماءٌ إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم ، كما دل عليه خبر تعجب القافلة مِن (جُرْهم) التي مرّت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجَر بابنه إسماعيل ففجّر الله لها زمزم ولمحتْ القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا : ما عهدنا بهذه الأرض ماء ، ثم حفَر ميمون بن خالد

الحضرمي بأعلاها بئراً تسمى بئر ميمون في عهد الجاهلية قُبيل البعثة ، وكانت بها بئر أخرى تسمى الجَفْر (بالجيم) لبني تيم بن مُرة ، وبئر تسمى الجَم ذكرها ابن عطية وأهملها "القاموس" و"تاجه" ، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

فماء هذه الآبار هو الماء الذي أُنذروا بأنه يصبح غوراً ، وهذا الإِنذار نظير الواقع في سورة القلم (17 33) ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ إلى قوله : لو كانوا يعلمون . !

والغور : مصدر غارتْ البئر ، إذا نَزح ماؤها فلم تنله الدلاء .

والمراد : مَاء البئر كما في قوله : ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ في ذكر جنة سورة الكهف (41) .

وأصل الغور : ذهاب الماء في الأرض ، مصدر غار الماء إذا ذهب في الأرض ، والإِخبار به عن الماء من باب الوصف بالمصدر للمبالغة مثل : عَدل ورِضَى .

والمعين : الظاهر على وجه الأرض ، والبئر المعينة : القريبة الماء على وجه التشبه .

والاستفهام في قوله : فمن يأتيكم بماء ﴾ استفهام إنكاري ، أي لا يأتيكم أحد بماء مَعِين : أي غير الله واكتفي عن ذكره لظهوره من سياق الكلام ومن قوله قبله ﴿ أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ﴾ [الملك : 20] الآيتين .

وقد أصيبوا بقحط شديد بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو المشار إليه في سورة الدخان .

(100/775)

ومن المعلوم أن انحباس المطر يتبعه غور مياه الآبار لأن استمدادها من الماء النازل على الأرض ، قال تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ [الزمر : 21] وقال : ﴿ وإنَّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشَّقّق فيخرج منه الماء ﴾ [البقرة : 74] .

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما أشار إليه في "الكشاف" مع ما نقل عنه في "بيانه" ، قال : وعن بعض الشُطَّار (هو محمد بن زكرياء الطبيب كما بينه المصنف فيما نقل عنه) أنها (أي هذه الآية) تُليت عنده فقال : تجيء به (أي الماء) الفُؤوس والمَعاول ، فذهب ماء عينيه .

نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(101/775)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن الضريس والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه والضياء في المختارة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ " .

وأخرج الترمذي والحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : " ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتاة على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا هو بإنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر "

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سورة

تبارك هي المانعة من عذاب القبر " .

وأخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أنزلت عليّ سورة تبارك وهي ثلاثون آية جملة واحدة " وقال : " هي المانعة في القبور ، وإن قرأءة قل هو الله أحد في صلاة تعدل قراءة ثلث القرآن ، وإن قراءة قل يا أيها الكافرون في صلاة تعدل ربع القرآن ، وإن قراءة إذا زلزلت في صلاة تعدل نصف القرآن " .

(102/775)

وأخرج عبد بن حميد في مسنده واللفظ له والطبراني والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى ، قال اقرأ ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له أن تنجيه من عذاب النار ، وينجو بها صاحبها من عذاب القبر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي " .

وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن رجلاً ممن كان قبلكم مات وليس معه شيء من كتاب الله

إلا تبارك الذي بيده الملك ، فلما وضع في حفرته أتاه الملك فثارت السورة في وجهه فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره شقاقك ، وإني لا أملك لك ولا له ولا لنفسي ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقي إلى الربّ فاشفعي له ، فانطلقت إلى الرب ، فتقول : يا رب إن فلاناً عمد إليّ من بين كتابك فتعلمني وتلاني ، أفمحرقه أنت بالنار ومعذبه وأنا في جوفه ؟ فإن كنت فاعلاً به فامحني من كتابك فيقول : ألا أراك غضبت فتقول : وحق لي أن أغضب ، فيقول : اذهبي فقد وهبته لك ، وشفعتك فيه ، فتجيء سورة الملك فيخرج كاسف البال لم يحل منه شيء فتجيء فتضع فاها على فيه ، فتقول : مرحبا بهذا الفم فربما تلاني ، وتقول : مرحباً بهذا الصدر فربما وعاني ، ومرحباً بهاتين القدمين فربما قامتا بي ، وتؤنسه في قبره مخافة الوحشة عليه "

فلما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث لم يبق صغير ولا كبير ولا حر ولا عبد إلا تعلمها ، وسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم المنجية .

(103/775)

وأخرج ابن الضريس والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : يؤتى الرجل في قبره فيؤتى من قبل رجليه ، فتقول رجلاه : ليس لكم على ما

قبلي سبيل ، قد كان يقوم علينا بسورة الملك ، ثم يؤتى من قبل صدره فيقول : ليس لكم على ما قبلي سبيل قد كان وعى فيّ سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول : ليس لكم على ما قبلي سبيل قد كان يقرأ بي سورة الملك ، فهي المانعة تمنع من عذاب القبر ، وهي في التوراة سورة الملك ، من قرأها في ليلة فقد كثر وأطيب .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود قال : كنا نسميها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المانعة ، وإنها لفي كتاب الله سورة الملك ، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب .

وأخرج أبو عبيد والبيهقي في الدلائل من طريق مرة عن ابن مسعود قال : إن الميت إذا مات أوقدت حوله نيران فتأكل كل نار يليها إن لم يكن له عمل يحول بينه وبينها ، وإن رجلاً مات ولم يكن يقرأ من القرآن إلا سورة ثلاثين آية فأتته من قبل رأسه ، فقالت : إنه كان يقرؤني ، فأتته من قبل رجليه ، فقالت : إنه كان يقوم بي ، فأتته من قبل جوفه فقالت : إنه كان وعاني فأنجته . قال : فنظرت أنا ومسروق في المصحف فلم نجد سورة ثلاثين آية إلا تبارك .

وأخرجه الدارمي وابن الضريس عن مرة مرسلاً .

وأخرج سعيد بن منصور عن عمرو بن مرة قال : كان يقال : إن في القرآن سورة تجادل عن صاحبها في القبر تكون ثلاثين آية فنظروا فوجدوها تبارك .

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً قال : يبعث رجل يوم القيامة لم يترك شيئاً من المعاصي إلا

ركبها إلا أنه كان يوحد الله ، ولم يكن يقرأ من القرآن إلا سورة واحدة فيؤمر به إلى النار فطار من جوفه شيء كالشهاب ، فقالت : اللهم إني مما أنزلت على نبيك صلى الله عليه وسلم وكان عبدك هذا يقرؤني ، فما زالت تشفع حتى أدخلته الجنة ، وهي المنجية ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ .

(104/775)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن مسعود قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وفي صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ ألم تنزيل ﴾ [السجدة : 1] و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ .

وأخرج الديلمي بسند واه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأجد في كتاب الله سورة هي ثلاثون آية من قرأها عند نومه كتب له منها ثلاثون حسنة ، ومحي عنه ثلاثون سيئة ، ورفع له ثلاثون درجة ، وبعث الله إليه ملكاً من الملائكة ليبسط عليه جناحه ويحفظه من كل شيء حتى يستيقظ ، وهي المجادلة تجادل عن صاحبها في القبر ، وهي ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ " .

وأخرج الديلمي بسند واه عن أنس رضي الله عنه رفعه " لقد رأيت عجباً ، رأيت رجلاً

مات كان كثير الذنوب مسرفاً على نفسه ، فكلما توجه إليه العذاب في قبره من قبل رجليه أو من قبل رأسه أقبلت السورة التي فيها الطير تجادل عنه العذاب ، أنه كان يحافظ عليّ ، وقد وعدني ربي أنه من واظب عليّ أن لا يعذبه ، فانصرف عنه العذاب بها وكان المهاجرون والأنصار يتعلمونها ويقولون : " المغبون من لم يتعلمها وهي سورة الملك " .

وأخرج ابن الضريس عن مرة الهمداني قال : أتى رجل من جوانب قبره فجعلت سورة من القرآن ثلاثون آية تجادل عنه حتى منعته من عذاب القبر ، فنظرت أنا ومسروق فلم نجدها إلا تبارك .

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي الصباح عن عبد العزيز عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخل رجل الجنة بشفاعة سورة من القرآن ، وما هي إلا ثلاثون آية تنجيه من عذاب القبر ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ ألم تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ كل ليلة لا يدعها في سفر ولا حضر .

(105/775)

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ﴾ الآيتين .

أخرج ابن عساكر عن عليّ رضي الله عنه مرفوعاً "كلمات من قالهن عن وفاته دخل الجنة لا إله إلا الله الحليم الكريم ثلاث مرات ، الحمد لله رب العالمين ثلاث مرات ، ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن السدي في قوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أيكم أحسن للموت ذكراً ، وله استعداداً ، ومنه خوفاً وحذراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ قال : الحياة فرس جبريل عليه السلام ، والموت كبش أملح .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : خلق الله الموت كبشاً أملح مستتراً بسواد وبياض له أربعة أجنحة ، جناح تحت العرش ، وجناح في الثرى ، وجناح في المشرق وجناح في المغرب .

أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ سبع سماوات طباقاً ﴾ قال : بعضها فوق بعض .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج مثله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ قال : ما يفوت بعضه بعضاً ، مفاوت : مفرق .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ قال : من اختلاف ﴿ فارجع البصر هل ترى فطور ﴾ قال : من خلل ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ قال : صاغراً ﴿ وهو حسير ﴾ قال : يعني لا ترى في خلق الرحمن تفاوتاً ولا خللاً .

(106/775)

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه قرأ " ما ترى في خلق الرحمن من تفوت " .

وأخرج سعيد بن منصور عن علقمة أنه كان يقرأ " ما ترى في خلق الرحمن من تفوت " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ من تفاوت ﴾ قال : تشقق ، وفي قوله : ﴿ هل ترى من فطور ﴾ قال : شقوق وفي قوله : ﴿ خاسئاً ﴾ قال

: ذليلاً ﴿ وهو حسير ﴾ قال : كليل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفطور الوهي .

وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله : ﴿ من فطور ﴾ قال : من خلل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ من فطور ﴾ قال : تشقق أو خلل ، وفي قوله : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ قال : يرجع إليك ﴿ خاسئاً ﴾ قال : صاغراً ﴿ وهو حسير ﴾ قال : يعي ولا يرى شيئاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ خاسئاً ﴾ قال : ذليلاً ﴿ وهو حسير ﴾ قال : مترجع .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ سمعوا لها شهيقاً ﴾ قال : صياحاً .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه كان يستحي مني فيقول : أرسلوا عبدي قال : وإن العبد ليجر إلى النار فيقول يا رب ما كان هذا الظن بك ، قال : فما كان ظنك ؟ قال : كان ظني أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي ، قال : وإن الرجل ليخر إلى النار فتشهق إليه شهيق البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

وأخرج هناد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ وهي تفور ﴾ قال : تفور بهم كما يفور

الحب القليل في الماء الكثير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر في قوله : ﴿ تكاد تميز ﴾ قال : تتفرق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ تكاد تميز ﴾ قال : يفارق بعضها بعضاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فسحقاً ﴾ قال : بعداً .

(107/775)

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ فسحقاً ﴾ قال : بعداً ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول حسان :

ألا من مبلغ عني أبياً . . . فقد ألقيت في سحق السعير

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ قال : سحق واد في جهنم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ الآية

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ قال : أبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة بن الجراح .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قال

: الجنة .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مناكبها ﴾ قال : جبالها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ مناكبها ﴾ قال : أطرافها .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة أن بشير بن كعب قرأ هذه الآية ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ فقال لجاريته : إن دريت ما مناكبها فأنت حرة لوجه الله ، قالت : فإن مناكبها جبالها ، فسأل أبا الدرداء رضي الله عنه ، فقال : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ مناكبها ﴾ قال : أطرافها وفجاجها .

وأخرج الخطيب في تاريخه وابن المنذر عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه وليقرأ هذه الآية ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ " .

(108/775)

وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه وليقرأ هاتين الآيتين سبع مرات ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ﴾ [الأنعام : 98] إلى قوله : ﴿ يفقهون ﴾ ﴿ هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع ﴾ إلى ﴿ تشكرون ﴾ فإنه يبرأ بإذن الله تعالى " .

وأخرج الطبراني وابن عدي والبيهقي في شعب الإِيمان والحكيم الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف "

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب العبد محترفاً " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرة قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم فقال : من أنتم ؟ قالوا : المتوكلون ، فقال : أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ قال : الله تعالى ، وفي قوله : ﴿ فإذا هي تمور ﴾ قال : يمور بعضها فوق بعض واستدارتها ، وفي قوله : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ قال : يبسطن أجنحتهن ﴿ ويقبضن ﴾ قال : يضربن بأجنحتهن .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ إلا في غرور ﴾ قال : في باطل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول حسان :

تمنتك الأماني من بعيد . . . وقول الكفر يرجع في غرور

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ قال : في الضلال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ قال : كفور ، وفي قوله : ﴿ أفمن يمشي مكبّاً على وجهه ﴾ قال : في الضلالة ﴿ أَمَّنْ يمشي سويّاً على صراط مستقيم ﴾ قال : على الحق المستقيم .

(109/775)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أفمن يمشي مكبّاً ﴾ قال : في الضلال ﴿ أمّن يمشي سويّاً ﴾ قال : مهتدياً .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه ﴾ قال : هو الكافر عمل بمعصية الله فحشره الله يوم القيامة على

وجهه ﴿ أم من يمشي سويّاً على صراط مستقيم ﴾ يعني المؤمن عمل بطاعة الله يحشره الله على طاعته وفي قوله : ﴿ فلما رأوه ﴾ قال : لما رأوا عذاب الله ﴿ زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ قال : ساءت بما رأت من عذاب الله وهوانه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ قال : قد اقترب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قرأ ﴿ وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ مخففة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم أنه قرأ ﴿ تدعون ﴾ مثقلة قال أبو بكر : تفسير تدعون تستعجلون .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

أخرج ابن المنذر والفاكهي عن ابن الكلبي رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ في بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضر ، وكانت جاهلية . قال الفاكهي : وكانت آبار مكة تغور سراعاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ قال : داخلاً في الأرض ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ قال : الجاري .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ قال : يرجع في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ غوراً ﴾ قال : ذاهباً وفي قوله : ﴿ بماء معين ﴾ قال : الجاري .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ بماء معين ﴾ قال : ظاهر .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ بماء معين ﴾ قال : عذب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 229.239 ﴾

(110/775)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾

يعني : تعالى وتعظم .

وهذا قول ابن عباس وقيل : تفاعل من البركة .

وقال الحسن : تبارك يعني : تقدس ﴿ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ يعني : الذي له الملك ، كما قال

: ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ ويقال : ﴿ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ يعني : الذي له القدرة ونفاذ الأمر .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : في العز والذل ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .

ثم قال : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ قال مقاتل : ﴿ خَلَقَ الموت ﴾ يعني : النطفة والعلقة والمضغة ، وخلق الحياة يعني : خلق إنساناً ، ونفخ فيه الروح ، فصار حياً .

وقال الكلبي : ﴿ خَلَقَ الموت ﴾ بمنزلة كبش أملح ، لا يمر على شيء ، ولا يجد ريحه شيء إلا مات ﴿ والحياة ﴾ شيء كهيئة الفرس البلقاء الأنثى التي يركب عليها جبريل والأنبياء .

وقال قتادة في قوله : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ يعني : أذل الله ابن آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة وفناء ، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء .

ويقال : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ يعني : قدر الحياة ثم قدر الموت بعد الحياة .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ يعني : ليختبركم ما بين الحياة والموت .

﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ في حياته ، ويقال : أيكم أكمل عملاً وأخلص عملاً .

ويقال : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ أي : خلق الحياة للامتحان ، وخلق ؛ الموت للجزاء كما قيل : لولا المحن لقدمنا مفاليس ، وذلك أن الله تعالى ، خلق الجنة .

وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، وابتلاهم بالعمل والأمر والنهي ،

فيستوجبون بفعلهم الثواب والعقاب .

والابتلاء من الله تعالى ، أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ يعني : العزيز بالنقمة للكافر ، والغفور لمن تاب منهم .

(111/775)

ثم قال : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ يعني : تبارك الذي خلق ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ يعني : مطبقاً بعضها فوق بعض مثل القبة .

﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ .

قرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ مِن تفاوت ﴾ بغير ألف ، والباقون بالألف ، وهما لغتان .

تفاوت الشيء وتفوت ، إذا اختلف ، يعني : ما ترى في خلق الرحمن اختلافاً واضطراباً ، ويقال : ما ترى فيها من اعوجاج ، ولكنه مستوي .

ويقال : معناه ما ترى في خلق السموات من عيب .

وأصله من الفوت أي يفوت الشيء ، فيقع فيه الخلل ، ولكنه متصل بعضها ببعض .

ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ، ليعتبروا به ويتفكروا في قدرته ، فقال عز وجل : ﴿ فارجع البصر ﴾ يعني : رد البصر إلى السماء .

ويقال : قلب البصر في السماء ، ويقال : اجتهد بالنظر إلى السماء .

﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ ؟ يعني : هل ترى فيها من شقوق ؟ ويقال : هل ترى فروجاً أو صدوعاً أو خللاً ؟ ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ يعني : انظر إليها وإنما أمر بالنظر إلى السماء مرتين ، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة ، لا يرى أثر عيبه ما لم ينظر فيه مرة أخرى ؛ فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر إلى السماء مرتين ، لا يرى فيها عيباً ، بل يتحير بالنظر إليها ، فذلك قوله : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا ﴾ يعني : يرجع البصر ذليلاً .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ يعني : قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً .

وقال القتبي : ﴿ خَاسِئًا ﴾ أي مبعداً ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي : كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه قبل أن يرى شيئاً من الخلل .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ يعني : بالنجوم والكواكب .

﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ يعني : جعلنا بعض النجوم رمياً للشياطين ، إذا تصدوا استراق السمع .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ يعني : للشياطين ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ يعني : الوقود .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني : أعتدنا للذين جحدوا ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ يعني : بوحدانية الله تعالى ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ .

قرىء في الشاذ ﴿ عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ بالنصب يعني : أعتدنا لهم عذاب جهنم ، فيصير نصباً لوقوع الفعل عليه ، وقراءة العامة بالضم ، على معنى خبر الابتداء .

ثم قال : ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ يعني : المرجع .

ثم قال : ﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا ﴾ يعني : ألقوا الكفار في نار جهنم .

﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ يعني : سمعوا منها ﴿ شَهِيقًا ﴾ يعني : صوتاً كصوت الحمار .

﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ يعني : تغلي كغلي المرجل .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ يعني : تكاد تتفرق من غيظها على أعداء الله تعالى .

﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ يعني : من النار فوج ، يعني : أمة من الأمم .

﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ يعني : رسولاً يخبركم ويخوفكم ؟ ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ يعني : يقولون : بلى ﴿ قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ ﴾ يعني : الرسول ، ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ الرسول ، ﴿ وَقُلْنَا ﴾ : إنكم لكاذبون على الله تعالى .

﴿ مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : كتاباً ولا رسولاً .

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ يعني : قلنا لهم ما أنتم إلا في خطأ عظيم .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ يعني : لو كنا نسمع إلى الحق ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ يعني نرغب

في الهدى وتتفكر في الخلق .

﴿ مَا كُنَّا فِي أصحاب السعير ﴾ يعني : مع أصحاب الزقوم في النار .

ويقال : يعني : ما كنا في أهل النار .

﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ يعني : أقروا بشركهم ﴿ فَسُحْقًا ﴾ يعني : فبعداً من رحمة الله تعالى ﴿ لاصحاب السعير ﴾ يعني : الوقود .

وقال الزجاج : ﴿ فَسُحْقًا ﴾ نصب على المصدر ، فمعناه أسحقهم الله سحقاً ، فباعدهم من رحمته .

والسحق : البعيد ، كقوله : ﴿ في مكان سحيق ﴾ [الحج : 31] أي : بعيد .

(113/775)

قرأ الكسائي بضم السين والحاء ، وجزم الحاء والباقون بضم السين ، وهما لغتان معناهما واحد .

ثم بين حال المؤمنين .

فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يعني : يخافون الله تعالى ويخافون عذابه ، الذي هو ﴿ بالغيب ﴾ ، فهو عذاب يوم القيامة .

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ يعني : مغفرة لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني : ثواباً عظيماً في الجنة ثم قال : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ .

اللفظ لفظ الأمر ، والمراد به الخبر يعني : إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو جهرتم به .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : بما في القلوب من الخير والشر ، وذلك أن جماعة من الكفار كانوا يتشاورون فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض : لا تجهروا بأصواتكم ، فإن رب محمد يسمع فيخبره ، قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد : ﴿ أَسَرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ فإنه يعلم به .

ثم أخبر بما هو أخفى من هاتين الحالتين ، فقال : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : فكيف لا يعلم قول السر .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ يعني : ألا يعلم السر ، من خلق السر يعني : هو خلق السر في قلوب العباد ، فكيف لا يعلم بما في قلوب العباد ؟ ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ يعني : لطف علمه بكل شيء ، يعني : يرى أثر كل شيء بما في القلوب من الخير والشر ؛ ويقال : ﴿ لَطِيفٌ ﴾ يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ يعني : عالم بأفعال العباد وأقوالهم .

ثم ذكر نعمه على خلقه ، ليعرفوا نعمته ، فيشكروه ويوحدوه ، فقال : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ

لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ يعني : خلق لكم الأرض ذلولاً ، ومدها وذللها ؛ وجعلها لينة ، لكي تزرعوا فيها ، وتنتفعوا منها بألوان المنافع ، ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ يعني : لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وجبالها .

(114/775)

وهذا خبر بلفظ الأمر ؛ وقال القتبي : ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ يعني : جوانبها .

ومنكبا الرجل : جانباه .

وقال قتادة : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : جبالها .

قال : وكان لبشر بن كعب سرية ، فقال لها : إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة لوجه الله ؟ فقالت : مناكبها : جبالها ، فصارت حرة .

فأراد أن يتزوجها ، فسأل أبو الدرداء ، فقال له : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

ويقال : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ ، أي سهل لكم السلوك ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ ، أي : تمشون فيها .

﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ يعني : تأكلون من رزق الله تعالى وتشكرونه .

﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ يعني : إلى الله تبعثون من قبوركم .

ويقال : معناه : هو الذي ذلل لكم الأرض ، قادر على أن يبعثكم ، لأنه ذكر أولاً خلق السماء ، ثم ذكر خلق الأرض ، ثم ذكر النشور .

ثم خوفهم ، فقال عز وجل : ﴿ ءامَنْتُمْ مَّن فِى السماء ﴾ ؟ قال الكلبي ، ومقاتل : يعني : أمنتم عقوبة من في السماء ؟ يعني : الرب تعالى إن عصيتموه .

ويقال : هذا على الاختصار ؛ ويقال : أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السماء .

قرأ أبو عمرو ، ونافع ﴿ أَمِنتُمْ ﴾ بالمد ، والباقون بغير مد بهمزتين ، ومعناهما واحد وهو الاستفهام ، والمراد به التوبيخ .

وقرأ ابن كثير بهمزة واحدة بغير مد ، على لفظ الخبر .

﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ يعني : يغور بكم الأرض ، كما فعل بقارون .

﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ يعني : تدور بكم إلى الأرض السفلى .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مّن فِى السماء ﴾ يعني : عذاب من في السماء .

﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ يعني : حجارة كما أرسلنا إلى قوم لوط .

وقال القتبي : "أم" على وجهين ، مرة يراد بها الاستفهام ، كقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس ﴾ ، ومرة يراد بها أو ، كقوله : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ ويعني : أو أمنتم .

وهذا كقوله : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 68] .

ثم قال : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ يعني : تعبيري عليهم بالعذاب .

ويقال : معناه سيظهر لكم كيف عذابي .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : الأمم الخالية كذبوا رسلهم ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ؟ يعني : كيف كانت عقوبتي إياهم وإنكاري لهم ؟ ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير ﴾ ؟ يعني : أو لم يعتبروا في خلق الله تعالى كيف خلق الطيور ؟ ﴿ فَوْقَهُمْ صافات ﴾ يعني : باسطات أجنحتها في الهواء .

﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ يعني : ويضممن أجنحتهن ويضربن بها .

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ يعني : ما يحفظهن في الهواء عند القبض والبسط .

﴿ إِلاَّ الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ يعني : عالماً بصلاح كل شيء .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : حزب لكم ومنفعة لكم .

﴿ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ يعني : من عذاب الرحمن ؛ ومعناه : هاتوا أخبروني من الذي يمنعكم من عذاب الله تعالى إن عصيتموه .

﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ يعني : ما الكافرون إلا في خداع وأباطيل .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ يعني : من الذي يرزقكم إن حبس الله رزقه ؟ وهذا كقوله : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأرض لاَ إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : 3] ؟ ثم قال : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ يعني : تمادوا في الذنب .

ويقال : تمادوا في الكفر .

ويقال : بل مضوا ﴿ فِى عُتُوّ ﴾ يعني : في تكبر ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ يعني : تباعداً من الإيمان .

(116/775)

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ يعني : الكافر يمشي ضالاً في الظلمة أعمى القلب .

﴿ أهدى ﴾ يعني : هو أصوب ديناً .

﴿ أَفَمَن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو المؤمن يعمل بطاعة الله يعني : على دين الإسلام .

وقال قتادة : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ ، قال : هو الكافر عمل بمعصية الله ، يحشره الله تعالى يوم القيامة على وجهه ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، هو

المؤمن يعمل بطاعة الله تعالى ، يسلك به يوم القيامة طريق الجنة .

وقال الزجاج : أعلم الله تعالى أن المؤمن يسلك الطريق المستقيم ، وإن كان الكافر في ضلال بمنزلة الذي يمشي مكباً على وجهه .

قال مقاتل : نزلت في شأن أبي جهل ؛ وقال بعضهم : هو وجميع الكفار .

ثم قال : ﴿ قُلْ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ ﴾ يعني : خلقكم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع ﴾ لكي تسمعوا بها الحق ، ﴿ والابصار ﴾ يعني : لكي تبصروا ، ﴿ والافئدة ﴾ يعني : القلوب لكي تعقلوا بها الهدى .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ يعني : شكركم فيما صنع إليكم قليلاً .

ويقال : معناه خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة آلة لطاعات ربكم ، وقطعاً لحجتكم ، وقدرة على ما أمركم ؛ فاستعملتم الآلات في طاعة غيره ولم توحدوه .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأرض ﴾ يعني : خلقكم .

ويقال : كثركم في الأرض ، وأنزلكم في الأرض .

﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يعني : إليه ترجعون بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعني : البعث بعد الموت إن كنتم صادقين أنَّا نبعث ، خاطبوا به النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الجماعة .

ويقال : أراد به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم عِندَ الله ﴾ يعني : علم قيام الساعة عند الله .

(117/775)

﴿ وَإِنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مخوف أخوفكم بلغة تعرفونها .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ ﴾ يعني : لما رأوا العذاب قريباً .

ويقال : لما رأوا القيامة قريبة وسيئت ﴿ وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : ذللت ، ويقال : قبحت وسودت .

وقال القتبي : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ يعني : لما رأوا ما وعدهم الله قريباً منهم ؛ وقال الزجاج : ﴿ سيئات ﴾ أي : تبيَّن فيها السوء في وجوه الذين كفروا .

﴿ وَقِيلَ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ ، أي : تشكون في الدنيا قرأ قتادة ، والضحاك ، ويعقوب الحضرمي : ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتخفيف يعني : تستعجلون ، وتدعون إليه في قولكم : فأمطر علينا حجارة من السماء ، وقراءة العامة ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتشديد يعني : تكذبون .

ويقال : من أجله ﴿ تَدْعُونَ ﴾ الأباطيل يعني : تدعون أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً ،

لا ترجعون ولا تجازون .

ويقال : ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي : تتمنون .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللهُ وَمَن مَّعِىَ ﴾ يعني : إن عذبنا الله .

﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ يعني : غفر لنا .

﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين ﴾ يعني : من ينجيهم ويغيثهم ﴿ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : " نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بالله ، وَنَتَوَسَّلُ بِعِبَادَتِهِ إِلَيهِ ، لا نَأْمَنُ عَذَابَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ مَعَ كُفْرِكُم بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعُقُوبَتِهِ ؟ " فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن ءامَنَّا بِهِ ﴾ يعني : قل هو الرحمن بفضله ، إن شاء عذبنا ، وإن شاء رحمنا .

﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ يعني : فوضنا إليه أمورنا .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني : فستعرفون ، عند نزول العذاب ، من هو في خطأ بيّن .

(118/775)

قرأ الكسائي : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ بالياء بلفظ الخبر ، والباقون بالتاء على معنى المخاطبة

يعني : سوف تعلمون يا كفار مكة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ يعني : إن صار ماؤكم غائراً ، لا تناله الأيدي ولا الدلاء .

﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ يعني : بماء طاهر .

والغور والغائر ، يقال : ماء غور .

ومياه غور وهو مصدر لا يثنى ولا يجمع .

وقال مجاهد : ﴿ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ يعني : جار .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني : الطاهر .

وروى أبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سُورَةٌ فِي القُرْآنِ ثَلاَثُونَ ، شُفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ .

﴿ تبارك الذي بيده الملك " .

وروى زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود قال : يؤتى بالرجل في قبره من قبل رأسه ،

فيقول له : ليس لك علي من سبيل .

قد كان يقرأ على سورة الملك ، فيؤتى من قبل رجليه ، فيقول : ليس لك علي سبيل .

كان يقوم بسورة الملك ، فيؤتى من قبل جوفه ، فيقول : ليس لك علي سبيل .

قد أوعاني سورة الملك ، قال : وهي المنجية تنجي صاحبها من عذاب القبر .

وروى ابن الزبير ، عن جابر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ سورة ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ ؛ والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 451.457 ﴾

(119/775)

وقال الثعلبى :

سورة الملك

﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ قدّم الموت على الحياة لأَنَّهُ إلى القهر أقرب ، كما قدّم البنات على البنين في قوله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [الشورى : 49] .

قال قتادة : أذلّ اللّه ابن آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء ، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء . وقيل : قدّمه لأَنَّهُ أقدم ، وذلك أنّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموات

كالنطفة والتراب ونحوها ، ثم اعترضت عليها الحياة .

قال ابن عباس : خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمرّ بشيء ولا يجد ريحه شيء إلاّ مات ، وخلق الحياة على صورة فرس بلقاء ، وهي التي كان جبرئيل والأنبياء (عليهم السلام) يركبونها ، خطوها مد البصر ، وهي فوق الحمار ودون البغل ، لا تمر بشيء ، ولا تطأ شيئاً ولا يجد ريحها شيء إلاّ حيّ ، وهي التي أخذ السامري من أثرها ؛ فألقاها على العجل فحيي .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ فيما بين الحياة إلى الموت ، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أخبرنا الحسن بن محمد بن فنجويه ، حدّثنا محمد بن عبد اللّه بن برزة ، حدّثنا الحرث بن أُسامة ، حدّثنا داود بن المحر ، حدّثنا عبد الواحد بن زياد العبدي عن كليب بن وائل عن ابن عمر " عن النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) أنّه تلا (تبارك الذي بيده الملك) حتى بلغ إلى قوله (أيكم أحسن عملا) . ثم قال : أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم اللّه ، وأسرعكم في طاعة اللّه " .

وبإسناده عن داود بن المحر ، حدّثنا ميسر عن محمد بن زيد عن أبي سلمة عن أبي قتادة قال : قلت : " يا رسول اللّه أرأيت قول اللّه تعالى ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ما عُني به ؟ قال : " يقول أيكم أحسن عقلا " " .

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " أتمّكم عقلا وأشدّكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر اللّه تعالى به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً " .

أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل ، حدّثنا أَبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد ، حدّثنا أَبو بكر بن أبي الدّنيا القرشي ، حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن سقيق عن إبراهيم عن الأشعث عن فضيل بن عَياض ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، قلت : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتّى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : إذا كان للّه ، والصّواب : إذا كان على السُنّة .

وقال الحسن : يعني أيّكم أزهد في الدنيا زهداً ، وأترك لها تركاً .

وقال سهل : أيّكم أحسن توكّلا على اللّه .

قال الفرّاء : لم يرفع البلوى على أي ؛ لأنّ فيما بين أي والبلوى إضماراً وهو كما يقول في الكلام : بلوتكم لأنظر أيّكم أطوع ، ومثله

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ [القلم : 40] أي سلهم وانظر أيهم . فأيّ رفع على الابتداء وأحسن خبره .

﴿ وَهُوَ العزيز الغفور * الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ طبقا على طبق ، بعضها

فوق بعض ، يقال : أطبقت الشيء إذا وضعت بعضه فوق بعض .

قال أبان بن تغلب : سمعت بعض الأعراب يذمّ رجلا فقال : شرّه طباق ، وخيره غير باق .

قال سيبويه : ونصب طباقاً لأنّه مفعول ثان .

﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ قرأ يحيى بن ثابت والأعمش وحمزة والكسائي : من تفوّت بغير ألف ، وهي اختيار أبي عبيد وقراءة عبد اللّه وأصحابه .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد الورّاق ، أخبرنا مكي بن عبدان ، حدّثنا عبد اللّه بن هاشم ، حدّثنا يحيى بن سعيد القطّان عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد اللّه أنّه كان يقرأ : من تفوّت .

(121/775)

قال الأعمش : فذكرتُ لأبي رزين فقال : لقد سمعتها من عبد اللّه فيما قبلتها وأخذتها ، وقرأ تفاوت ، وهي قراءة الباقين واختيار أبي حاتم وهما لغتان مثل التّعهد التّعاهد ، والتحمّل والتحامل ، والتطّهر والتطاهر . ومعناه : ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج واختلاف وتناقض وتباين ، بل هي مستوية مستقيمة ، وأصله من الفوت ، وهي أَنْ يفوت بعضها بعضاً لقلّة استوائها ، يدلّ عليه قول ابن عبّاس : من تفرق .

﴿ فارجع ﴾ فَردّ ﴿ البصر ﴾ قال الفراء : إنّما قال فارجع وليس قبله فعل مذكور فيكون الرجوع على ذلك الفعل ؛ لأَنّ مجاز الكلام : أُنظر ثمّ ارجع البصر .

﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ فتوق وشقوق وخروق .

الضحّاك : اختلاف وشطور ، عطية : عيب ، ابن كيسان : تباعد ، القرظي : قروح ، أَبو عبيدة : صدوع قال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود :

شققت القلب ثم ذررت فيه . . . هواك فليم فالتأم الفطورُ

وقال آخر :

تغلغل حيث لم يبلغ شراب . . . ولا سُكر ولم يبلغ سرور

وقال آخر :

بنى لكمُ بلا عمد سماءً . . . وزيّنها فما فيها فطور

﴿ ثُمَّ ارجعِ البَصَرَ ﴾ رُدَّ البصر وكرّر النظر ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ مرتين ، ﴿ يَنْقَلِبْ ﴾ ينصرفْ ويرجع ﴿ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾ خاشعاً ، ذليلا ، مبعداً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ يعني كليل ، منقطع لم يُدرك ما طلب قال الشاعر :

نظرتُ إليها بالمحصب من منى . . . فعاد إليّ الطرفُ وهو حسير

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا موسى بن محمد ، حدّثنا الحسن بن علويه ، حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، حدّثنا المسيب ، حدّثنا إبراهيم البكري عن صالح بن جبار عن عبد اللّه بن يزيد عن أبيه ، قال المسيب : وحدّثنا أَبو جعفر عن الرّبيع عن كعب قالا : السماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية مرمرة بيضاء ، والثالثة حديد ، والرابعة صفر وقال نحاس والخامسة فضة ، والسادسة ذهب والسّابعة ياقوتة حمراء ، وبين السّماء السّابعة إلى الحجب السبعة صحاري من نور ، واسم صاحب الحجب " فنطاطروس " . ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ أي الكواكب ، واحدها مصباح وهو السراج .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً ﴾ مرمىً ﴿ لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ إذا اخترقوا السّمع ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ السعير ﴾ ما جعلنا لهم في الدنيا من الشهب ، و ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير ﴾ ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً ﴾ صوتاً كصوت الحمار ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ تزفر وتغلي بهم كما يغلي القدر .

وقال مجاهد : تفور بهم كما يفوّر الحبّ القليل في الماء الكثير .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ يتفرق بعضها من بعض على أهلها غيظاً وانتقاماً للّه تعالى ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ قومٌ ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ رسول في الدنيا ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا ﴾ للرُسُل ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ

كَبِيرٍ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ وهم في النّار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ النذر من الرُسُل ، وما جاؤونا به ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عنهم . قال ابن عباس : لو كنّا نسمع الهدى أو نعقله فنعلم به .

(123/775)

﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً ﴾ بعداً ، وقال سعيد بن جبير : هو وادٍ في جهنم ﴿ لأَصْحَابِ السعير ﴾ ونقله أَبو جعفر والكسائي بروايتيه الدوري وقتيبة الخلاف عنهما ، وحققه الآخرون : وهما لغتان مثل الرُّعب والرَّعب ، السُّحت والسَّحت ، أخبرنا عبد اللّه ابن حامد ، أخبرنا محمد بن خالد حدّثنا داود بن سليمان ، حدّثنا عبد بن حميد ، حدّثنا عبيد الله ابن موسى عن إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إنّ الرجل ليجرّ إلى النار فتنزوي ، وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالكِ ؟ قالت : إنّه كان يستجير منّي فيقول : أرسلوا عبدي . وإنّ الرجل ليُجرّ إلى النار ، فيقول : يا ربّ ما كان هذا الظنّ بك قال : فما كان ظنّك ؟ قال : كان ظنّي أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإنّ الرجل ليُجرّ إلى النار فتشهق إليه النار شهيق البغلة إلى الشعير ، ثمّ تزفر زفرة لا يبقى أحدٌ إلاّ خاف .

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ .

قال ابن عباس : نزلت في المشركين ، كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره جبرائيل ما قالوا فيه ونالوا منه ، فيقول بعضهم لبعض : أسرّوا قولكم كي لا يسمع إله محمد . وقال أهل المعاني : إن شئت جعلت " من " في قوله : ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ اسماً للخالق ؟ فقلت : ألا يعلم الخالق ما في الصدور وهو اللطيف الخبير ، وإن شئت جعلته اسماً ، فقلت : ألا يعلم الله مخلوقه .

(124/775)

أخبرنا الفنجوي حدّثنا موسى بن الحسن بن علويّة حدّثنا عيسى بن إسماعيل بن عيسى بن المسيّب ، قال : بينا رجل واقف بالليل في شجر كثير وقصفت الريح فوقع في نفس الرجل فقال : أترى الله يعلم ما يسقط من هذه الورق ؟ فنودي من خلفه : ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير ؟ وروى محمد بن فضيل عن زرين عن ابن أبي أسماء أنّ رجلا دخل غيضة فقال : لو خلوت ها هنا للمعصية مَنْ كان يراني ؟ قال : فسمع صوتاً ملأ ما بين لا يتي الغيضة ، ألا يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير ؟ !

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ سهلا مُسخّرة لا تمتنع ﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : في جبالها ، ضحاك : في آكامها ، مجاهد : طرقها وفجاجها ، وقال الكلبي : أطرافها ، الفرّاء : في جوانبها ، مقاتل : نواحيها ، الحسن : سهلها حيث أردتم فقد جعلها لكم ذلولا لا تمتنع ، وأصل المنكب الجانب ومنه منكب الرجل ، والريح النكاب ، وتنكب فلان .

﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ الحلال ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء ﴾ وقال ابن عباس : أمنتم عذاب مَنْ في السماء أن عصيتموه . وقيل : معنى ﴿ أَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء ﴾ : قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته ، وقيل : إنّما قال : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مّن فِي السمآء ﴾ لأنّهم كانوا يعترفون بأنّه إله السماء ، ويزعمون إنّ الأصنام آلهة الأرض ، وكانوا يدعون الله من جهة السماء ، وينتظرون نزول أمره بالرحمة والسطوة منها .

وقال المحقّقون : معنى قوله : ﴿ فِي السمآء ﴾ أي فوق السماء كقوله تعالى : ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأرض ﴾ [التوبة : 2] ، أي فوقها لا بالمماسة والتحيز ولكن بالقهر والتدبير .

وقيل : معناه على السماء كقوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ﴾ [طه : 71] ومعناه : إنّه مالكها ومدبّرها والقائم عليها ، كما يقال : فلان على العراق والحجاز ، وفلان على خراسان وسجستان يعنون أنّه واليها وأميرها .

وأعلم أنّ الآيات والأخبار الصحاح في هذا الباب كثيرة وكلّها إلى العلو مشيرة ، ولا يدفعها إلاّ ملحد جاحد أو جاهل معاند ، والمراد بها والله أعلم توقيره وتعظيمه وتنزيهه عن السفل والتحت ، ووصفه بالعلو والعظمة دون أن يكون موصوفاً بالأماكن والجهات والحدود والحالات ؛ لأنّها صفات الأجسام وأمارات الحدث والله سبحانه وتعالى كان ولا مكان فخلق الأمكنة غير محتاج إليها ، وهو على ما لا يزل ، ألا يرى أنّ الناس يرفعون أيديهم في حال الدعاء إلى السماء مع إحاطة علمه وقدرته ومملكته بالأرض وغيرها أحاطتها بالسماء ، إلاّ أنّ السماء مهبط الوحي ومنزل القطر ومحلّ القدس ومعدن المطهرين المقرّبين من ملائكته ، وإليها تُرفع أعمال عباده وفوقها عرشه وجنّته وبالله التوفيق .

﴿ أَن يَخْسِفَ ﴾ يغور ﴿ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ قال الحسن : تُحرّك بأهلها ، وقال الضحّاك : تدور بهم وهم في قعرها ، وقال ابن كيسان : تهوى بهم .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إنذاري بالعذاب .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري ، وأثبت بعض القرّاء الياء في هذه الحروف وجوابها على الأصل وحذفها بعضهم على الخط .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ ﴾ ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ أجنحتها وهي تطير ، ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾

أجنحتها بعد انبساطها ، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ يحبسهنّ في حال القبض والبسط أن يسقطن ، ﴿ إِلاَّ الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .

(126/775)

﴿ أَمَّنْ هذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس : منعه لكم ﴿ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ فيدفع عنكم ما أراد بكم ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ ﴾ في الضلال ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ تباعد من الحقّ ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ راكباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى القلب والعين لا يُبصر يميناً ولا شمالا ، وهو الكافر .

وقال قتادة : هو الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه ، ﴿ أهدى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو المؤمن ، وقوله ﴿ مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ فعل غريب لأنّ أكثر اللغة في التعدّي واللزوم أن يكون أفعلت يفعّل ، وهذا على ضدّه يقال : كببت فلاناً على وجهه فأكب ، قال الله تعالى :

﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ [النمل : 90] ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم " وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم " .

ونظيره في الكلام قولهم : قشعت الريح السحاب فأقشعت ، وبشرته بمولود فأبشر ، وقيل مكبّاً لأنه فعل غير واقع ، قال الأعشى :

مكبّاً على روقيه يُحفّز عرفه . . . على ظهر عُريان الطريقة أهيما

(127/775)

﴿ قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا العلم عِنْدَ الله وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ ويعني العذاب في الآخرة عن أكثر المفسّرين ، وقال مجاهد : يعني العذاب ببدر ، ﴿ زُلْفَةً ﴾ قريباً ، وهو اسم بوصف مصدر يستوي فيه المذكّر والمؤنّث والواحد والاثنان والجميع ﴿ سِيئَتْ ﴾ أُخزيت ﴿ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ فاسودّت وعلتها الكآبة والغربة يقول العرف : سويه فسيء ، ونظيره سررته فسر وشعلته فشعل ﴿ وَقِيلَ ﴾ قال لهم الخزنة : ﴿ هذا الذي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أي أن يعجّله لكم .

وقراءة العامّة : (تدّعون) بتشديد الدال يفتعلون من الدعاء عن أكثر العلماء أي يتمنّون ويتسلّون ، وقال الحسن : معناه يدّعون أن لا جنّة ولا نار ، وقرأ الضحاك وقتادة ويعقوب

بتخفيف الدال ، أي تدعون الله أن يأتكم به وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] الآية .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكّة الذين يتمنّون هلاكك ويتربّصون بك ريب المنون ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ﴾ فأماتني ﴿ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ أبقانا وأخّر في آجالنا ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فإنّه واقع بهم لا محالة ، وهذا اختيار الحسين بن الفضل ومحمد بن الحسن .

(128/775)

وقال بعضهم : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ﴾ فعذّبني (ومَنْ معي أو رحمنا) غفر لنا (فمن يُجير الكافرين من عذاب أليم) ونحن معاً إنّما خائفون من عذابه ؛ لأنّ له أن يأخذنا بذنوبنا ويعاقبنا ويهلكنا ؛ لأنّ حكمه جائز وأمره نافذ وفعله واقع في ملكه ، فنحن مع إيماننا خائفون من عذابه فمن يمنعكم من عذاب الله وأنتم كافرون ؟ وهذا معنى قول ابن عباس واختيار عبد العزيز ابن يحيى وابن كيسان .

﴿ قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ بالياء الكسائي ورواه عن عليّ رضي الله عنه ، الباقون بالتاء ، ﴿ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ نحن أم أنتم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً ﴾ يعني غائراً ذاهباً ناضباً في الأرض لا تناله الأيدي والدلاء ، قال الكلبي ومقاتل : يعني ماء زمزم وبئر ميمون الحضرمي وهي بئر عادية قديمة .

﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ ظاهر تناله الأيدي والدلاء ، وقال عطاء عن ابن عباس : جار ، وقال المؤرخ : عذب بلغة قريش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 362.354 ﴾

(129/775)

وقال الزمخشرى :

سورة الملك

مكية ، وهي ثلاثون آية [نزلت بعد الطور] وتسمى : الواقية ، والمنجية ، لأنها تقى وتنجي قارئها من عذاب القبر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الملك (67) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي

خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

تَبارَكَ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ على كل موجود

(130/775)

وَهُوَ عَلى كُلِّ ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قَدِيرٌ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة: ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل: ما يوجب كون الشيء حيا، وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر. والموت عدم ذلك «1» فيه، ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون لِيَبْلُوَكُمْ وسمى علم الواقع منهم باختيارهم «بلوى» وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر. ونحوه قوله تعالى وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ. فإن قلت: من أين تعلق قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بفعل البلوى «2»؟ قلت: من حيث أنه تضمن معنى العلم، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملا، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملا أم هو؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه، كما تقول:

علمته هو أحسن عملا. فإن قلت: أتسمى هذا تعليقا؟ قلت: لا، إنما التعليق أن توقع

بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعا ، كقولك : علمت أيهما عمرو ، وعلمت أزيد منطلق . ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به ، ولو كان تعليقا لا فترقت الحالتان كما افترقتا في قولك : علمت أزيد منطلق . وعلمت زيدا منطلقا . أَحْسَنُ عَمَلًا . قيل : أخلصه وأصوبه ، لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل ، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص ، فالخالص : أن يكون لوجه اللّه تعالى ، والصواب : أن يكون على السنة . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه تلاها ، فلما بلغ قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا قال : «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم اللّه وأسرع في طاعة اللّه» «3» يعنى : أيكم أتم عقلا عن اللّه وفهما لأغراضه ، والمراد : أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه ، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه . وقدم الموت على الحياة ، لأنّ أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم وَهُوَ الْعَزِيزُ

---

(1) . قال محمود : «أى ما يوجب كون الشيء حيا أو ما يصح بوجوده الاحساس والموت عدم ذلك . . . الخ» قال أحمد : أخطأ في تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية ، ومنها قطع اللّه ذكرها :

أن الموت عدم ، وهو خطأ صراح . ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودى يضاد الحياة ،

وكيف يكون العدم بهذه المثابة ، ولو كان العدم مخلوقا حادثا وعدم الحوادث مقرر أزلا : للزم قطع الحوادث أزلا ، وذلك أبشم من القول بقدم العالم ، فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه . وكيف أهوى بصاحبه فأرداه ، نعوذ باللّه من الزلل والخطل .

(2) . قال محمود : «أين تعلق قوله أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بفعل البلوى ؟ وأجاب بأن معناه ليعلمكم أيكم أحسن عملا ، لأن البلوى تتضمن العلم . . . الخ» قال أحمد : التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة ، والأصح ما أجازه ، وهو في هذا الفن يمشى وفيه يدرج ويدرى كيف يدخل فيه ويخرج .

(3) . تقدم الكلام عليه في أول سورة هود .

(131/775)

الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل الْغَفُورُ لمن تاب من أهل الإساءة طِباقاً مطابقة بعضها فوق بعض ، من طابق النعل : إذا خصفها طبقا على طبق ، وهذا وصف بالمصدر . أو على ذات طباق ، أو على : طوبقت طباقا مِنْ تَفاوُتٍ وقرئ : من تفوت . ومعنى البناءين واحد ، كقولهم :

تظاهروا من نسائهم . وتظهروا . وتعاهدته وتعهدته ، أى : من اختلاف واضطراب في

الخلقة ولا تناقض ، إنما هي مستوية مستقيمة . وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه . ومنه قولهم : خلق متفاوت . وفي نقيضه : متناصف . فإن قلت :

كيف موقع هذه الجملة مما قبلها ؟ قلت : هي صفة مشايعة لقوله طِباقاً وأصلها : ما ترى فيهنّ من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله خَلْقِ الرَّحْمنِ تعظيما لخلقهنّ ، وتنبيها على سبب سلامتهنّ من التفاوت : وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ، والخطاب في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب . وقوله تعالى فَارْجِعِ الْبَصَرَ متعلق به على معنى التسبيب ، أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهنّ ، ثم قال فَارْجِعِ الْبَصَرَ حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ، ولا تبقى معك شبهة فيه هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ من صدوع وشقوق : جمع فطر وهو الشق . يقال : فطره فانفطر . ومنه : فطر ناب البعير ، كما يقال : شق وبزل . ومعناه :

شق اللحم فطلع . وأمره بتكرير البصر فيهنّ متصفحا ومتتبعا يلتمس عيبا وخللا يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ أى إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب ، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور ، أى : بالبعد عن إصابة الملتمس . كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة « 1 » . وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والبرديد .

فإن قلت : كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرّتين اثنتين ؟ قلت : معنى التثنية

التكرير بكثرة «2» ، كقولك :

لبيك وسعديك ، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض ، وقولهم في المثل : دهدرّين سعد القين «3» من ذلك . أى : باطلا بعد باطل . فإن قلت : فما معنى ثم ارجع ؟ قلت : أمره يرجع

---

(1) . قوله «بالصغار والقماءة» أى : الصغر والذل ، كما في الصحاح . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «لم خص الكرتين ؟ فأجاب بأن معنى التثنية ها هنا التكثير . . . الخ» قال أحمد : وفي قوله يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ وضع الظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة : التنبيه على أن الذي يرجع خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور : هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء . ومن هذا القبيل قوله خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ وأصله : ما ترى في خلقهن من تفاوت ، ولكنه ذكرهن منسربات لخلق الرحمن ، تنبيها على السبب الذي ربأ بهن على الفطور والتفاوت .

(3) . قوله «دهدرين . . . الخ» في القاموس بضم الدالين وفتح الراء المشددة : اسم لبطل ، وللباطل والكذب كالدهدر . ودهدرين سعد القين : أى بطل سعد الحداد . أو أن فينا ادعى أن اسمه سعد زمانا ، ثم تبين كذبه ، فقيل له ذلك» أى : جمعت باطلا إلى باطل يا

سعد الحصاد . ويروى منفصلا «ده» أمر من الدهاء ، و«درين» من در : أى تتابع ، أى : بالغ في الكذب يا سعد . وفيه غير ذلك ، فراجعه ، كذا بهامش الأصل . (ع)

(132/775)

البصر ، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء ، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ، ثم يعاود ويعاود ، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة ، فإنه لا يعثر على شيء من فطور .

[سورة الملك (67) : آية 5]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5)

الدُّنْيا القربى ، لأنها أقرب السماوات إلى الناس ، ومعناها : السماء الدنيا منكم .

والمصابيح السرج ، سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح «1» ، فقيل :

ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بِمَصابِيحَ أى بأى مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، وضممنا إلى ذلك منافع أخر : أنا جَعَلْناها رُجُوماً أعدائكم : لِلشَّياطِينِ الذين

يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر . قال قتادة : خلق اللّه النجوم لثلاث :

زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وعن محمد بن كعب : في السماء واللّه ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم ، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة . والرجوم : جمع رجم : وهو مصدر سمى به ما يرجم به .

ومعنى كونها مراجم للشياطين : أنّ الشهب التي تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب ، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها ، لأنها قارة في الفلك على حالها . وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار ، والنار ثابتة كاملة لا تنقص . وقيل : من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب . ومنهم من يخبله . وقيل : معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون «2» وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا .

[سورة الملك (67) : الآيات 6 إلى 12]

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9) وَقالُوا

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10)

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

---

(1) . قوله «و دورهم بأثقاب المصابيح» في الصحاح «ثقبت النار» : اتقدت . وأثقبتها أنا . وشهاب ثاقب ، أى : مضيء . (ع)

(2) . حمل الزمخشري الشياطين على ظاهره ، ونقل عن بعضهم أن معناه : وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب . . . الخ. قال أحمد : وهذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموما والله أعلم .

(133/775)

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أى : ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عَذابُ جَهَنَّمَ ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك . وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفا على عذاب السعير إِذا أُلْقُوا فِيها أى طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ، ويرمى به . ومثله قوله تعالى حَصَبُ جَهَنَّمَ . سَمِعُوا لَها شَهِيقاً إمّا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها . أو من أنفسهم ، كقوله لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ وإما للنار تشبيها لحسيسها »

المنكر الفظيع بالشهيق وَهِيَ تَفُورُ تغلى بهم غليان المرجل بما فيه . وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون : فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا ، وغضب فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء : إذا وصفوه بالإفراط فيه . ويجوز أن يراد : غيظ الزبانية أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ توبيخ يزدادون به عذابا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم . وخزنتها : مالك وأعوانه من الزبانية قالُوا بَلى اعتراف منهم بعدل اللّه ، وإقرار بأن اللّه عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة «2» ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار اللّه وأمر به وأوعد على ضده . فإن قلت : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ من المخاطبون به ؟ قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين ، على أنّ النذير بمعنى الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير . أو وصف منذروهم لغلوهم في الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا ، وكذلك قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ونظيره قوله تعالى نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

أى حاملا رسالته . ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا . أو أرادوا بالضلال : الهلاك . أو سموا عقاب الضلال باسمه . أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة ، أى قالوا لنا هذا فلم نقبله لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

---

(1) . قوله «تشبيها لحسيسها» في الصحاح : الحس والحسيس : الصوت ، والخفي . (ع)

(2) . قوله «كما تزعم المجبرة» إن كان مراده أهل السنة كعادته لقولهم : إنه تعالى هو الخالق

لأفعال العباد ، وأنها بقضائه تعالى وقدره ، بل من جهة ما لهم فيها من الكسب والاختيار كما تقرر في محله وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة في الهواء لا دخل له في عمله أصلا ، فقد أصاب الفرق الضروري بين حركة اليد في البطش وحركتها في الارتعاش ، كما تقرر في علم التوحيد ، فارجع إليه . (ع)

(134/775)

الإنذار سماع طالبين للحق «1» . أو نعقله عقل متأمّلين . وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل ، لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل . ومن بدع التفاسير : أنّ المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب «2» الرأى ، كأنّ هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل اللّه وعيدهم ، وكأن من كان من هؤلاء فهو من من الناجين لا محالة ، وعدّة المبشرين من الصحابة : عشرة ، لم يضم إليهم حادي عشر ، وكأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين بِذَنْبِهِمْ بكفرهم في تكذيبهم الرسل فَسُحْقاً قرئ بالتخفيف والتثقيل ، أى : فبعدا لهم ، اعترفوا أو جحدوا ، فإنّ ذلك لا ينفعهم .

[سورة الملك (67) : الآيات 13 إلى 14]

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

ظاهره الأمر بأحد الأمرين : الإسرار والإجهار . ومعناه : ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم «3» في علم اللّه بهما ، ثم أنه علله ب إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها ، فكيف لا يعلم ما تكلم به . ثم أنكر أن لا يحيط علما بالمضمر والمسر والمجهر مَنْ خَلَقَ الأشياء «4» ، وحاله أنه اللطيف الخبير ، المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه

---

(1) . قال محمود : «معناه لو كنا نسمع للانذار سماع طالبين للحق . . . الخ» قال أحمد : إن عنى أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقبيح ، فهو غير بعيد من أصحاب السعير .

وإن عنى أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية : فهو مع أهل السنة .

(2) . قال محمود : «و من بدع التفاسير أن المراد : لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأى . . . الخ» قال أحمد : ولو تفطن نبيه لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر ، فانه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

(3) . قوله «إسراركم وإجهاركم» في الصحاح «إجهار الكلام» : إعلانه . (ع)

(4) . قال محمود : «أنكر أن لا يحيط علما بالسر أو الجهر من خلق ذلك . . . الخ» قال أحمد : هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح الطريق التي يسلكها أهل السنة في الرد عليهم ، فان أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها ، وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفى الملزوم الذي هو الخلق ، وبهذه الملازمة دلت الآية ، فان اللّه تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق ، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم ، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم الباري عز وجل ، وإبطال خلق العبد لأفعاله ، وإعراب الآية ينزل على هذا المعنى ، فان الوجه فيها أن يكون مَنْ فاعلا مرادا به الخالق ، ومفعول العلم محذوف تقديره : ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك . والتقدير في الجميع : ألا يعلم السر والجهر من خلقهما . ومتى حذونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف ، فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر ، والتقدير : ألا يعلم اللّه المسرين والجاهرين ، وليس مطابقا للمفصل ، فانه لم يقع ذوات الفاعلين ، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر . وعليه وقع الاستدلال . ويحتمل غير ذلك أبعد منه . والأول هو الأولى لفظا ومعنى . واللّه الموفق .

(135/775)

وما بطن . ويجوز أن يكون مَنْ خَلَقَ منصوبا بمعنى : ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله . وروى أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فيظهر اللّه رسوله عليها ، فيقولون : أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد ، فنبه اللّه على جهلهم . فإن قلت : قدرت في أَلَا يَعْلَمُ مفعولا على معنى :

ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق ، فهلا جعلته مثل قولهم : هو يعطى ويمنع ، وهلا كان المعنى : ألا يكون عالما من هو خالق ، لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم ؟

قلت : أبت ذلك الحال التي هي قوله وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ لأنك لو قلت : ألا يكون عالما من هو خالق وهو اللطيف الخبير : لم يكن معنى صحيحا ، لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال . والشيء لا يوقت بنفسه ، فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء .

[سورة الملك (67) : آية 15]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

المشي في مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ، لأنّ المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل

بحيث يمشى في مناكبها لم يترك «1» . وقيل : مناكبها جبالها . قال الزجاج : معناه سهل لكم السلوك في جبالها ، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ التذليل . وقيل جوانبها . والمعنى : وإليه نشوركم ، فهو مسائلكم «2» عن شكر ما أنعم به عليكم .

[سورة الملك (67) : الآيات 16 إلى 19]

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

مَنْ فِي السَّماءِ فيه وجهان : أحدهما من ملكوته في السماء ، لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه . والثاني : أنهم

---

(1) . قوله «لم يترك» لعل هنا سقطا تقديره : لم يترك شيئا منها إلا قد ذلله . (ع)

(2) . قوله «فهو مسائلكم» عبارة النسفي : سائلكم . (ع)

كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه في السماء ، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنه في السماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب ، كما تقول لبعض المشبهة : أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل ، إذا رأيته يركب بعض المعاصي فَسَتَعْلَمُونَ قرئ بالتاء والياء كَيْفَ نَذِيرِ أى إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذارى حين لا ينفعكم العلم صافَّاتٍ باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها «1» صفا وَيَقْبِضْنَ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن . فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ، ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي «2» ، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتى منها الجري في الجو إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب .

[سورة الملك (67) : الآيات 20 إلى 21]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

أَمَّنْ يشار إليه من الجموع ويقال هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ اللّه إن أرسل عليكم عذابه أَمَّنْ يشار إليه ويقال هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ وهذا على التقدير. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند الناصر والرازق. ونحوه قوله تعالى أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا. بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ بل تمادوا في عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه.

[سورة الملك (67): الآيات 22 إلى 24]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

---

(1). قال محمود: «معناه: باسطات أجنحتها، لأنها إذا بسطتها صفت قوادمها ... الخ» قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى في قوله وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً بعد قوله إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ولم يقل مسبحات، مثل محشورة لقربه من هذا التفسير، ولقد أحسن فيه كل الإحسان.

(2). قوله «من القوادم والخوافي» في الصحاح «قوادم الطير»: مقاديم ريشه، وهي عشر ريشات في كل جناح. والخوافي ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح. (ع) [.....]

يجعل «أكب» مطاوع «كبه» يقال : كببته فأكب ، من الغرائب والشواذ . ونحوه :

قشعت الريح السحاب فأقشع ، وما هو كذلك ، ولا شيء من بناء أفعل مطاوعا ، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وإنما «أكب» من باب «انفض ، وألأم» «1» ومعناه : دخل في الكب ، وصار ذا كب ، وكذلك أقشع السحاب : دخل في القشع . ومطاوع كب وقشع :

انكب وانقشع . فإن قلت : ما معنى يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ ؟ وكيف قابل يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ قلت : معناه : يمشى معتسفا في مكان معتاد غير مستوفيه انخفاض وارتفاع ، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبا ، فحاله نقيض حال من يمشى سويا ، أى :

قائما سالما من العثور والخرور . أو مستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو . ويجوز أن يراد الأعمى الذي لا يهتدى إلى الطريق فيعتسف ، فلا يزال ينكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدى له ، وهو مثل للمؤمن والكافر . وعن قتادة : الكافر أكب على

معاصى اللّه تعالى فحشره اللّه يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عنى به أبو جهل بن هشام. وبالسوىّ: رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم، وقيل: حمزة بن عبد المطلب.

[سورة الملك (67): الآيات 25 إلى 27]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

فَلَمَّا رَأَوْهُ الضمير للوعد. والزلفة: القرب، وانتصابها على الحال أو الظرف، أى: رأوه ذا زلفة أو مكانا ذا زلفة سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أى ساءت رؤية الوعد وجوههم: بأن عليها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة، وكلحوا، وكما يكون «2» وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب وَقِيلَ القائلون: الزبانية تَدَّعُونَ تفتعلون من الدعاء،

---

(1). قوله «من باب انفض وألأم» في الصحاح «انفض القوم» هلكت أموالهم. وانفضوا أيضا: مثل ارملوا فنى زادهم. وفيه أيضا: ألأم الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لئيما. (ع)

(2). قوله «وكما يكون» لعله كما بدون واو. (ع)

أى : تطلبون وتستعجلون به . وقيل : هو من الدعوى ، أى : كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون .

وقرئ : تدعون . وعن بعض الزهاد : أنه تلاها في أول الليل في صلاته ، فبقى يكررها وهو يبكى إلى أن نودي لصلاة الفجر ، ولعمري إنها لوقاذة «1» لمن تصور تلك الحالة وتأملها .

[سورة الملك (67) : آية 28]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28)

كان كفار مكة يدعون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ، فأمر بأن يقول لهم : نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين : إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو ، فأنتم ما تصنعون ؟ من يجيركم - وأنتم كافرون - من عذاب النار ؟ لا بدّ لكم منه ، يعنى : إنكم تطلبون لنا الهلاك الذي هو استعجال للفوز والسعادة ، وأنتم في أمر هو الهلاك الذي لإهلاك بعده ، وأنتم غافلون لا تطلبون الخلاص منه . أو إن أهلكنا اللّه بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم ، والآخذين بحجزكم من النار ، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم ، فإنّ المقتول على أيدينا هالك . أو إن أهلكنا اللّه في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون ، فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم ، وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له .

[سورة الملك (67) : آية 29]

قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29)

فإن قلت : لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا ؟ قلت : لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم ، كأنه قيل : آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، ثم قال : وعليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم .

[سورة الملك (67) : آية 30]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

غَوْراً غائرا ذاهبا في الأرض . وعن الكلبي لا تناله الدلاء ، وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا . وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال : تجيء به الفئوس والمعاول ، فذهب ماء عينيه ، نعوذ باللّه من الجرأة على اللّه وعلى آياته .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر» «2» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف جـ 4 صـ 574. 583﴾

---

(1) . قوله «إنها لوقاذة لمن تصور» في الصحاح «وقذه» ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ تباركَ الذي بيدِهِ المُلْكُ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن التبارُك تفاعُل من البركة ، قاله ابن عباس . وهو أبلغ من المبارك لاختصاص اللَّه بالتبارك واشتراك المخلوقين في المبارك .

الثاني : أي تبارك في الخلق بما جعل فيهم من البركة ، قاله ابن عطاء .

الثالث : معناه علا وارتفع ، قاله يحيى بن سلام .

وفي قوله " الذي بيده الملك " وجهان :

أحدهما : ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة .

الثاني : ملك النبوة التي أعزّ بها من اتبعه وأذل بها من خالفه ، قاله محمد بن إسحاق .

﴿ وهو عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إنعام وانتقام .

﴿ الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ﴾ يعني الموت في الدنيا ، والحياة في الآخرة .

قال قتادة : كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول : " " إن اللَّه أذل بني آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء " .

الثاني : أنه خلق الموت والحياة جسمين ، فخلق الموت في صورة كبش أملح ، وخلق الحياة

في صورة فرس [أنثى بلقاء] ، وهذا مأثور حكاه الكلبي ومقاتل .

﴿ لِيَبْلُوكم أَيُّكم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة .

الثاني : أيكم أزهد في الدنيا ، قاله سفيان .

الثالث : أيكم أورع عن محارم اللَّه وأسرع إلى طاعة اللَّه ، وهذا قول مأثور . الرابع : أيكم للموت أكثر ذِكْراً وله أحسن استعداداً ومنه أشد خوفاً وحذراً ، قاله السدي .

الخامس : أيكم أعرف بعيوب نفسه .

ويحتمل سادساً : أيكم أرضى بقضائه وأصبر على بلائه .

﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سمواتٍ طِباقاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي متفق متشابه ، مأخوذ من قولهم هذا مطابق لهذا أي شبيه له ، قاله ابن بحر .

الثاني : يعني بعضهن فوق بعض ، قال الحسن : وسبع أرضين بعضهن فوق بعض ، بين كل سماء وأرض خلق وأمر .

﴿ ما تَرَى في خَلْق الرحمنِ من تفاوُتٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : من اختلاَف ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

متفاوتات من الأعنة قطّباً . . . حتى وفي عشية أثقالها .

الثاني : من عيب ، قاله السدي .

الثالث : من تفرق ، قاله ابن عباس .

الرابع : لا يفوت بعضه بعضاً ، قاله عطاء بن أبي مسلم .

قال الشاعر :

فلستُ بمُدْرِكٍ ما فاتَ مِنّي . . . بِلَهْفَ وَلاَ بِلَيْتَ ولا لَوأَنّي

﴿ فارْجِعِ البَصَرَ ﴾ قال قتادة : معناه فانظر إلى السماء .

﴿ هل تَرَى من فُطور ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : من شقوق ، قاله مجاهد والضحاك .

الثاني : من خلل ، قاله قتادة .

الثالث : من خروق قاله السدي .

الرابع : من وهن ، قاله ابن عباس .

﴿ ثم ارْجع البَصَرَ كَرّتَيْنِ ﴾ أي انظر إلى السماء مرة بعد أخرى .

ويحتمل أمره بالنظر مرتين وجهين :

أحدهما : لأنه في الثانية أقوى نظراً وأحدّ بصراً .

الثاني : لأنه يرى في الثانية من سير كواكبها واختلاف بروجها ما لا يراه من الأولى فيتحقق أنه لا فطور فيها .

وتأول قوم بوجه ثالث : أنه عنى بالمرتين قلباً وبصراً .

﴿ ينْقَلِبْ إليك البَصَرُ خَاسئاً وهو حَسيرٌ ﴾ أي يرجع إليك البصر لأنه لا يرى فطوراً فيرتد .

وفي " خاسئاً " أربعة أوجه :

أحدها : ذليلاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : منقطعاً ، قاله السدي .

الثالث : كليلاً ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : مبعداً ، قاله الأخفش مأخوذ من خسأت الكلب إذا أبعدته .

وفي " حسير " ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه النادم ، ومنه قول الشاعر :

ما أنا اليوم على شيء خلا . . . يا ابنة القَيْنِ تَوَلّى بحَسيرْ

الثاني : أنه الكليل الذي قد ضعف عن إدراك مرآه ، قاله ابن عباس ومنه قول الشاعر :

مَنْ مدّ طرْفاً إلى ما فوق غايته . . . ارتدَّ خَسْآنَ مِنه الطّرْفُ قد حَسِرا

والثالث : أنه المنقطع من الإعياء ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

والخيلُ شُعثٌ ما تزال جيادها . . . حَسْرى تغادرُ بالطريق سخالها

﴿ إذا أُلقُوا فيها ﴾ يعني الكفار ألقوا في جهنم .

(141/775)

﴿ سمعوا لها شهيقاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار .

الثاني : أن الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها ، قال ابن عباس : تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

وفي الشهيق ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الشهيق في الصدور ، قاله الربيع بن أنس .

الثاني : أنه الصياح ، قاله ابن جريج .

الثالث : أن الشهيق هو آخر نهيق الحمار ، والزفير مثل أول نهيق الحمار ، وقيل إن الزفير من الحلق ، والشهيق من الصدر .

﴿ وهي تفورُ ﴾ أي تغلي ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قِدْرَكم لا شيءَ فيها . . . وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ

﴿ تكادُ تَمَيّزُ مِنَ الغَيْظِ . . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تنقطع ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : تتفرق ، قاله ابن عباس والضحاك .

وقوله " من الغيظ " فيه ها هنا وجهان :

أحدهما : أنه الغليان ، قال الشاعر :

فيا قلب مهلاً وهو غضبان قد غلا . . . من الغيظ وسط القوم ألا يشبكا

الثاني : أنه الغضب ، يعني غضباً على أهل المعاصي وانتقاماً للّه منهم .

﴿ أَلَمْ يأتِكم نَذيرٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن النذر من الجن ، والرسل من الإنس ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم الرسل والأنبياء ، واحدهم نذير ، قاله السدي .

﴿ فسُحْقاً لأصحاب السّعيرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فبعداً لأصحاب السعير يعني جهنم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه وادٍ من جهنم يسمى سحقاً ، قاله ابن جبير وأبو صالح ، وفي هذا الدعاء إثبات لاستحقاق الوعيد .

﴿ إنّ الذين يَخْشَوْنَ ربَهم بالغَيْبِ ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : أن الغيب اللَّه تعالى وملائكته ، قاله أبو العالية .

الثاني : الجنة والنار ، قاله السدي .

الثالث : أنه القرآن ، قاله زر بن حبيش .

الرابع : أنه الإسلام لأنه يغيب ، قاله إسماعيل بن أبي خالد .

الخامس : أنه القلب ، قاله ابن بحر .

السادس : أنه الخلوة إذا خلا بنفسه فذكر ذنبه استغفر ربه ، قاله يحيى بن سلام .

(142/775)

﴿ لهم مغْفرةٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالتوبة والاستغفار .

الثاني : بخشية ربهم بالغيب .

الثالث : لأنهم حلّوا باجتناب الذنوب محل المغفور له .

﴿ وأجرٌ كبيرٌ ﴾ يعني الجنة .

ويحتمل وجهاً آخر : أنه العفو عن العقاب ومضاعفة الثواب .

﴿ هو الذي جَعَلَ لكم الأَرْضَ ذَلولاً ﴾ يعني مذللة سهلة .

حكى قتادة عن أبي الجلد : أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ، فللسودان اثنا عشر [ألفاً] ، وللروم [ثمانية آلاف] ، وللفرس ثلاثة آلاف وللعرب ألف . ﴿ فامْشُوا في مَنَاكِبِها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في جبالها ، قاله ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب .

الثاني : في أطرافها وفجاجها ، قاله مجاهد والسدي .

الثالث : في طرفها .

ويحتمل رابعاً : في منابت زرعها وأشجارها ، قاله الحسن .

﴿ وكُلوا مِن رِزْقِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مما أحله لكم ، قاله الحسن .

الثاني : مما أنبته لكم ، قاله ابن كامل .

﴿ وإليه النشور ﴾ أي البعث .

﴿ أأَمِنتُم مَنْ في السماءِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله ابن بحر .

الثاني : يعني أنه اللَّه تعالى ، قاله ابن عباس .

﴿ أنْ يَخْسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تمورُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تتحرك ، قاله يحيى .

الثاني : تدور ، قاله قطرب وابن شجرة .

الثالث : تسيل ويجري بعضها في بعض ، قاله مجاهد ، ومنه قول الشاعر :

رَمَيْن فأقصدْن القلوب ولن ترى . . . دماً مائراً إلا جرى في الخيازم

﴿ أفمن يْمشي مُكِبّاً على وَجْهِه أهْدَى ﴾ هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للهدى والضلالة ، ومعناه ليس من يمشي مُكباً على وجهه ولا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله . كمن يمشي سوياً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر ، فالمكب على وجهه الكافر يهوي بكفره ، والذي يمشي سوّياً المؤمن يهتدي بإيمانه ، ومعناه : أمَّن يمشي في الضلالة أهدى أم من يمشي مهتدياً ، قاله ابن عباس .

(143/775)

الثاني : أن المكب على وجهه أبو جهل بن هشام ، ومن يمشي سوياً عمار بن ياسر ، قاله عكرمة .

﴿ على صراطٍ مستقيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الطريق الواضح الذي لا يضل سالكه ، فيكون نعتاً للمثل المضروب .

الثاني : هو الحق المستقيم ، قاله مجاهد ، فيكون جزاء العاقبة الاستقامة وخاتمة الهداية .

﴿ قُلْ هو الذي ذَرَأَكُمْ في الأرضِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خلقكم في الأرض ، قاله ابن عباس .

الثاني : نشركم فيها وفرّقكم على ظهرها ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل ثالثاً : أنشأكم فيها إلى تكامل خلقكم وانقضاء أجلكم .

﴿ وإليهِ تُحْشَرون ﴾ أي تُبْعثون بعد الموت .

﴿ فلما رأَوْه زُلْفَةً سِيئَتْ وُجوهُ الذين كَفروا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ظهرت المساءة على وجوههم كراهة لما شاهدوا ، وهو معنى قول مقاتل .

الثاني : ظهر السوء في وجوههم ليدل على كفرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسْوَدُّ وجوه ﴾ [آل عمران : 106] .

﴿ وقيل هذا الذي كُنْتُمْ به تَدَّعُونَ ﴾ وهذا قول خزنة جهنم لهم ، وفي قوله ﴿ كنتم به تدّعون ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : تمترون فيه وتختلفون ، قاله مقاتل .

الثاني : تشكّون في الدنيا وتزعمون أنه لا يكون ، قاله الكلبي .

الثالث : تستعجلون من العذاب ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : أنه دعاؤهم بذلك على أنفسهم ، وهو افتعال من الدعاء ، قاله ابن قتيبة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤكم غَوْراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ذاهباً ، قاله قتادة .

الثاني : لا تناله الدِّلاء ، قاله ابن جبير ، وكان ماؤهم من بئر زمزم وبئر ميمون .

﴿ فَمَنْ يأتيكم بماءٍ مَعِينٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن معناه العذب ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الطاهر ، قاله الحسن وابن جبير ومجاهد .

الثالث : أنه الذي تمده العيون فلا ينقطع .

الرابع : أنه الجاري ، قاله قتادة ، ومنه قول جرير :

إنّ الذين غدوا بُلبِّك غادَروا . . . وشَلاً بعيْنِك لا يزال مَعِيناً

(144/775)

روى عاصم عن رُزين عن ابن مسعود قال : سورة الملك هي المانعة من عذاب القبر ، وهي في التوراة تسمى المانعة ، وفي الإنجيل تسمى الواقية ، ومن قرأها من كل ليلة فقد أكثر وأطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 49 . 58 ﴾

(145/775)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تبارك ﴾

قد شرحناه في [الأعراف : 54] .

قوله تعالى : ﴿ الذي بيده الملك ﴾ قال ابن عباس : يعني : السلطان يُعِزُّ ويُذِلُّ .

قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ قال الحسن : خلق الموت المزيل للحياة ، والحياة التي هي ضد الموت ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قد شرحناه في [هود : 7] قال الزجاج : والمعلَّق ب ﴿ أيكم ﴾ مضمر تقديره : ليبلوكم ، فيعلم أيُّكم أحسن عملاً ، وهذا علم وقوع .

وارتفعت "أي" بالابتداء ، ولا يعمل فيها ما قبلها ، لأنها على أصل الاستفهام ، ومثله ﴿ أيُّ الحزبين أحصى ﴾ [الكهف : 12] .

والمعنى : خلق الحياة ليختبركم فيها ، وخلق الموت ليبعثَكم ويجازيَكم .

وقال غيره : اللام في "ليبلوَكم" متعلق بخلق الحياة دون خلق الموت ، لأن الابتلاء بالحياة ، ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ أي : خلقهنَّ مطابقات ، أي : بعضها فوق بعض ﴿ ما ترى ﴾ يا ابن آدم ﴿ في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ قرأ حمزة والكسائي : "من تفوُّت" بتشديد الواو من غير ألف .

وقرأ الباقون بألف .

قال الفراء : وهما بمنزلة واحدة ، كما تقول : تعاهدت الشيء ، وتعهَّدته .

والتفاوت : الاختلاف .

وقال ابن قتيبة : التفاوت : الاضطراب والاختلاف ، وأصله من الفوت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً ، فيقع الخلل ، ولكنه متصل بعضه ببعض .

قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر ﴾ أي : كرِّر البصر ﴿ هل ترى من فطور ﴾ وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، "هل ترى" بإدغام اللام في التاء ، أي : هل ترى فيها فروجاً وصُدوعاً .

قوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرَّتين ﴾ أي : مرَّةً بعد مرَّة ﴿ ينقلبْ إليك البصر خاسئاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : مبعداً من قولك : خسأتُ الكلب : إذا باعدتَه ﴿ وهو حسير ﴾ أي : كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه .

وقال الزجاج : قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خَلَلاً .

(146/775)

قوله تعالى : ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وقد شرحناه في [حم السجدة : 12] ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ أي : يرجم بها مسترقو السمع .

وقد سبق بيان هذا المعنى [الحجر : 18] ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ أي : في الآخرة ﴿ عذاب السعير ﴾ وهذا وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى : ﴿ سمِعوا لها شهيقاً ﴾ أي : صوتاً مثل صوت الحمار .

وقد بينا معنى الشهيق في [هود : 106] ﴿ وهي تفور ﴾ أي : تغلي بهم كغلي المِرْجَل ﴿ تكاد تميّز ﴾ أي : تتقطّع من تَغَيُّظها عليهم ﴿ كلما أُلقي فيها فَوْجٌ ﴾ أي : جماعة منهم ﴿ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتكم نذير ؟ ! ﴾ وهذا سؤال توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ إن أنتم ﴾ أي : قلنا للرسل : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال ﴾ أي : في ذهاب عن الحق بعيد .

قال الزجاج : ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا : ﴿ لو كنا نسمع ﴾ أي : سماع من يعي ويفكّر ﴿ أو نعقل ﴾ عقل من يُميّز وينظر ﴿ ما كنا ﴾ من أهل النار ﴿ فسحقاً ﴾ أي : بُعْداً .

وهو منصوب على المصدر ، المعنى : أسحقهم الله سحقاً ، أي : باعدهم الله من رحمته مباعدة ، والسحيق : البعيد .

وكذلك روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس "فسحقاً" أي : بُعْداً .

وقال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : السُّحق : وادٍ في جهنم يقال له : سُحق .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب ﴾ قد شرحناه في [سورة الأنبياء : 49] ﴿ لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ وهو : الجنة .

ثم عاد إلى خطاب الكفَّار ، فقال تعالى : ﴿ وأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به ﴾ قال ابن عباس : نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيخبره جبرائيل بما قالوا ، فيقول بعضهم : أسروا قولكم حتى لا يسمع إله محمد .

قوله تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ؟ ! ﴾ أي : ألا يعلم ما في الصدور خالقها ؟ ! ، و"اللطيف" مشروح في [الأنعام : 103] و"الخبير" في [البقرة : 234] .

(147/775)

قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذَلُولاً ﴾ أي : مُذَلَّلةً سَهْلَةً لم يجعلها ممتنعة بالحُزُونَة والغِلَظ .

قوله تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : طرقاتها ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : جبالها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، واختاره الزجاج ، قال : لأن المعنى : سهل لكم السلوك فيها ، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها ، فهو أبلغ في

التذليل .

والثالث : في جوانبها ، قاله مقاتل ، والفراء ، وأبو عبيدة ، واختاره ابن قتيبة ، قال : ومنكبا الرجل : جانباه .

قوله تعالى : ﴿ وإليه النشور ﴾ أي : إليه تُبْعَثُون من قبوركم .

ثم خوف الكفار فقال : ﴿ أأمنتم ﴾ قرأ ابن كثير : "وإليه النشور وأمنتم" وقرأ نافع ، وأبو عمرو : "النشور آمنتم" بهمزة ممدودة .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "أأمنتم" بهمزتين ﴿ مَنْ في السماء ﴾ قال ابن عباس : أمنتم عذاب مَنْ في السماء ، وهو الله عزَّ وجل ؟ ! و"تمور" بمعنى تدور . قال مقاتل : والمعنى : تدور بكم إلى الأرض السفلى .

قوله تعالى : ﴿ أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ وهي : الحجارة ، كما أرسل على قوم لوط ﴿ فستعلمون كيف نذيرِ ﴾ أي : كيف كانت عاقبة إنذاري لكم في الدنيا إذا نزل بكم العذاب ﴿ ولقد كذَّب الذين من قبلهم ﴾ يعني : كفار الأمم ﴿ فكيف كان نكيرِ ﴾ أي : إنكاري عليهم بالعذاب .

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافَّات ﴾ أي : تصفُّ أجنحتها في الهواء ، وتقبض أجنحتها بعد البسط ، وهذا معنى الطيران ، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ﴿ ما

يُمسِكُهنَّ ﴾ أن يقعن ﴿ إلا الرحمنُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أمَّن هذا الذي هو جند لكم ﴾ هذا استفهام إنكار .

(148/775)

ولفظ "الجُنْدِ" مُوحَّد ، فلذلك قال تعالى : "هذا الذي هو" والمعنى : لا جُنْدَ لكم ﴿ ينصركم ﴾ أي : يمنعكم من عذاب الله إن أراده بكم ﴿ إنِ الكافرون إلا في غرور ﴾ وذلك أن الشيطان يغرُّهم ، فيقول : إن العذاب لا ينزل بكم ﴿ أمَّن هذا الذي يرزقكم ﴾ المطر وغيرَه ﴿ إن أمسك ﴾ الله ذلك عنكم ﴿ بل لجُّوا في عُتُوٍّ ﴾ أي : تمادٍ في كفر ﴿ ونفور ﴾ عن الإيمان .

ثم ضرب مثلاً ، فقال تعالى : ﴿ أفمن يمشي مُكِبّاً على وجهه ﴾ قال ابن قتيبة : أي : لا يبصر يميناً ، ولا شمالاً ، ولا من بين يديه .

يقال : أكبَّ فلانٌ على وجهه بالألف ، وكبَّه الله لوجهه ، وأراد : الأعمى .

قال المفسرون : هذا مثل للمؤمن ، والكافر .

و"السويُّ" : المعتدل ، أي : الذي يبصر الطريق .

وقال قتادة : هذا في الآخرة يحشر الله الكافر مُكِبّاً على وجهه ، والمؤمن يمشي سوياً .

قوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنهم لا يشكرون ، قاله مقاتل .

والثاني : يشكرون قليلاً ، قاله أبو عبيد .

قوله تعالى : ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ أي : خلقكم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ يعنون بالوعد : العذابَ ﴿ فلما رأوه زُلْفَةً ﴾ أي : رأوا العذاب قريباً منهم ﴿ سِيْئَتْ وجوه الذين كفروا ﴾ قال الزجاج : أي : تبين فيها السُّوءُ .

وقال غيره : قُبِّحْت بالسواد ﴿ وقيل هذا الذي كنتم به تَدَّعُونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنَّ "تدَّعون" بالتشديد ، بمعنى تدعون بالتخفيف ، وهو "تفتعلون" من الدعاء .

يقال : دعوت ، وادَّعيت ، كما يقال : خَبَرْتُ وَاخْتَبَرْتُ ، ومثله : يَدَّكِرون ، ويَدْكُرون ، هذا قول الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أن المعنى : هذا الذي كنتم من أجله تَدَّعون الأباطيلَ والأكاذيبَ ، تَدَّعون أنكم إذا مُتُّم لا تُبْعَثُون ؟ ! وهذا اختيار الزجاج .

(149/775)

وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : "تَدْعون" بتخفيف الدال ، وسكونها ، بمعنى تَفْعَلون من الدعاء .

وقال قتادة : كانوا يَدعُون بالعذاب .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ﴾ بعذابه ﴿ ومن معيَ ﴾ من المؤمنين .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "معيَ" بفتح الياء .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ، والكسائي : "معي" بالإسكان ﴿ أو رَحِمَنَا ﴾ فلم يعذِّبْنَا ﴿ فَمَنْ يجير الكافرين ﴾ أي يمنعهم ويؤمِّنُهم ﴿ من عذاب أليم ﴾ ومعنى الآية : إنا مع إيماننا ، بين الخوف الرَّجاء : فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ؟ ! أي : لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين ﴿ قل هو الرحمن ﴾ الذي نعبُدُ ﴿ فستعلمون ﴾ وقرأ الكسائي : "فسيعلمون" بالياء عند معاينة العذاب مَن الضالُّ نَحْن أم أنتم .

قوله تعالى : ﴿ إن أصبح ماؤكم غَوْراً ﴾ قد بيَّنَّاه في [الكهف : 41] ﴿ فمن يأتيكم بماءٍ معينٍ ؟ ! ﴾ أي : بماءٍ ظاهر تراه العيون ، وتناله الأرشية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 318.325 ﴾

(150/775)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾

أي له الأمر والنهي والسلطان فيعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي من الممكنات ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ قيل أراد موت الإنسان وحياته في الدنيا جعل الله الدنيا دار حياة وفناء وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء وإنما قدم الموت لأنه أقرب إلى قهر الإنسان ، وقيل قدمه لأنه أقدم وذلك لأن الأشياء كانت في الابتداء في حكم الموتى كالتراب والنطفة والعلقة ونحو ذلك ثم طرأ عليها الحياة وقال ابن عباس خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلقت الحياة على صورة فرس بلقاء وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي وهي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فخار وحيي وقيل إن الموت صفة وجودية مضادة للحياة ، وقيل الموت عبارة عن زوال القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد وضده الحياة وهي القوة الحساسة مع وجود الروح في الجسد وبه سمي الحيوان حيواناً وقيل إن الموت نعمة لأن الفاصل بين حال التكليف في هذه الدار وحال المجازاة في دار القرار والحياة أيضاً نعمة إذ لولاها لم يتنعم أحد في الدنيا ولم يصل إليه الثواب في الآخرة ﴿ ليبلوكم ﴾ أي ليختبركم فيما بين الحياة إلى الموت ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته وقال

الفضيل بن عياض أحسن عملاً أخلصه وأصوبه ، وقال أيضاً العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة وقيل أيكم أزهد في الدنيا ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه ﴿ الغفور ﴾ أي لمن تاب إليه ورجع عن إساءته .

(151/775)

قوله تعالى : ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ يعني طبقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى وسماء الدنيا كالقبة على الأرض قال كعب الأحبار سماء الدنيا موج مكفوف والثانية مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر أو قال نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وما بين السماء إلى الحجب السبعة صحار من نور ، ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ أي ما ترى يا ابن آدم في شيء مما خلق الرحمن اعوجاجاً ولا اختلافاً ولا تناقضاً بل خلقهن مستقيمة مستوية ﴿ فارجع البصر ﴾ أي كرر النظر ﴿ هل ترى من فطور ﴾ أي من شقوق وصدوع ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ قال ابن عباس مرة بعد مرة ﴿ ينقلب ﴾ أي ينصرف ﴿ إليك ﴾ فيرجع ﴿ البصر خاسئاً ﴾ أي صاغراً ذليلاً مبعداً لم ير ما يهوي ﴿ وهو حسير ﴾ أي

كليل منقطع لم يدرك ما طلب ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا ﴾ أي القربى من الأرض وهي التي يراها الناس ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكب كالمصابيح في الإضاءة وهي أعلام الكواكب ، وقال ابن عباس بنجوم لها نور وقيل خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ورجوماً للشياطين وهو قوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ قال ابن عباس : يرجم بها الشياطين الذين يسترقون السمع .

فإن قلت جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها وجعلها رجوماً للشياطين يقتضي زوالها فكيف الجمع بين هاتين الحالتين .

(152/775)

قلت قالوا إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وترمي الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ أي وأعتدنا للشياطين بعد الاحتراق في الدنيا ﴿ عذاب السعير ﴾ أي في الآخرة وهي النار الموقدة ﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ أي ليس العذاب مختصاً بالشياطين بل لكل من كفر بالله من إنس وجن ﴿ عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ ثم وصف جهنم فقال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ هو أول صوت نهيق

الحمار وذلك أقبح الأصوات ﴿ وهي تفور ﴾ أي تغلي بهم كغلي المرجل وقيل تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل ، ﴿ تكاد تميز ﴾ أي تتقطع ﴿ من الغيظ ﴾ من تغيظها عليهم ﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ أي جماعة ﴿ سألهم خزنتها ﴾ يعني سؤال توبيخ وتقريع ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ أي رسول ينذركم .

(153/775)

﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ﴾ يعني للرسول ﴿ ما نزل الله من شيء ﴾ وهذا اعتراف منهم بأنه أزاح عللهم ببعثة الرسل ولكنهم كذبوا وقالوا ما نزل الله من شيء ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ فيه وجهان أحدهما وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار للرسل والثاني يحتمل أن يكون من كلام الخزنة للكفار والمعنى لقد كنتم في الدنيا في ضلال كبير ﴿ وقالوا لو كنا نسمع ﴾ أي من الرسل ما جاؤوا به ﴿ أو نعقل ﴾ أي نفهم منهم ، قال ابن عباس لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وقيل معناه لو كنا نسمع سمع من يعي ونعقل عقل من يميز وننظر ونتفكر ما كنا في أصحاب السعير ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ هو في معنى الجمع أي بتكذيبهم الرسل وقولهم " ما نزل الله من شيء " ﴿ فسحقاً ﴾ أي بعداً ﴿ لأصحاب السعير ﴾ قوله : ﴿ إن الذين يخشون

ربهم بالغيب ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه فيؤمنوا به خوفاً من عذابه ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ يعني جزاء أعمالهم الصالحة ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ قال ابن عباس نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيخبره جبريل بما قالوا فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد فأخبره الله أنه لا يخفى عليه خافية فقال تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ يعني ألا يعلم من خلق مخلوقه ، وقيل ألا يعلم الله من خلق والمعنى ألا يعلم الله ما في صدور من خلق ﴿ وهو اللطيف ﴾ أي باستخراج ما في الصدور ﴿ الخبير ﴾ بما فيها من السر والوسوسة .

(154/775)

قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ الذلول المنقاد من كل شيء والمعنى جعلها لكم سهلة لا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ أمر إباحة وكذا قوله ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ ومناكبها جوانبها وأطرافها ونواحيها وقيل طرقها وفجاجها وقال ابن عباس جبالها والمعنى هو الذي سهل لكم السلوك في جبالها وهو أبلغ التذلل وكلوا من رزقه أي مما خلقه الله لكم في الأرض ﴿ وإليه النشور ﴾ أي وإليه تبعثون

من قبوركم ثم خوف كفار مكة فقال تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ قال ابن عباس يعني عقاب من في السماء إن عصيتموه ﴿ أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أي تتحرك بأهلها وقيل تهوي بهم والمعنى أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى يقلبهم إلى أسفل وتعلو الأرض عليهم وتمور فوقهم أي تجيء وتذهب .

﴿ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ يعني ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿ فستعلمون ﴾ أي عند الموت في الآخرة ﴿ كيف نذير ﴾ أي إنذاري إذا عاينتم العذاب ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل كفار مكة وهم الأمم الخالية ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم أليس وجدوا العذاب حقاً .

(155/775)

قوله : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ ويقبضن ﴾ أي يضممن أجنحتهن إذا ضربن بهن جنوبهن بعد البسط ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي حال القبض والبسط ﴿ إلا الرحمن ﴾ والمعنى : أن الطير مع ثقلها وضخامة جسمها لم يكن بقاؤها وثبوتها في الجو إلا بإمساك الله إياها وحفظه لها ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم

﴿ استفهام إنكار أي لا جند لكم ﴿ ينصركم ﴾ أي يمنعكم ﴿ من دون الرحمن ﴾ أي من عذاب الله قال ابن عباس أي من ينصركم مني إن أردت عذابكم ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ يعني من ذا الذي يرزقكم المطر إن أمسكه الله عنكم ﴿ بل لجوا ﴾ أي تمادوا ﴿ في عتو ﴾ أي نبو وتكبر ﴿ ونفور ﴾ أي تباعد عن الحق ثم ضرب مثلاً للكافر والمؤمن فقال تعالى : ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه ﴾ أي كاباً رأسه في الضلالة والجهالة أعمى القلب والعين لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر أكب على الكفر والمعاصي في الدنيا فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿ أهدى ﴾ أي هو أهدى ، ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ أي قائماً معتدلاً لا يبصر الطريق ﴿ على صراط مستقيم ﴾ يعني المؤمن يمشي يوم القيامة سوياً ﴿ قل هو الذي أنشأكم ﴾ أي خلقكم ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني أنه تعالى ركب فيكم هذه القوى لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ولا تأملتم ما عقلتموه فكأنكم ضيعتم هذه النعم فاستعملتموها في غير ما خلقت له فلهذا قال ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ وذلك لأن شكر نعم الله صرفها في وجه مرضاته فلما صرفتموها في غير مرضاته فكأنكم ما شكرتم رب هذه النعم الواهب لها ﴿ قل هو الذي ذرأكم ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿ في الأرض وإليه تحشرون ﴾ أي يوم القيامة والمعنى أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ﴿ ويقولون

(156/775)

متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ هذا سؤال يحتمل وجهين : أحدهما أنه سؤال عن نزول العذاب بهم والثاني أنه سؤال عن يوم القيامة فأجاب الله عن ذلك بقوله ﴿ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ أمره بإضافة العلم إلى الله تعالى وتبليغ ما أوحي إليه ﴿ فلما رأوه ﴾ يعني العذاب في الآخرة على قول أكثر المفسرين ، وقيل يعني العذاب ببدر ﴿ زلفة ﴾ أي قريباً ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي اسودت وعلتها الكآبة والمعنى قبحت وجوههم بالسواد ﴿ وقيل ﴾ لهم أي وقالت لهم الخزنة ﴿ هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ من الدعاء أي تتمنون وتطلبون أن يعجله لكم وقيل من الدعوى أي تدعون أنه باطل .

(157/775)

﴿ قل ﴾ يا محمد لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي ﴾ أي من المؤمنين ﴿ أو رحمنا ﴾ أي فأبقانا وأخر في آجالنا ﴿ فمن يجير الكافرين من

عذاب أليم ﴾ أي إنه واقع بهم لا محالة وقيل في معنى الآية قل أرأيتم إن أهلكني الله أي فعذبني ومن معي أو رحمنا أي فغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا لأن حكمه نافذ فينا فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون وهذا قول ابن عباس ، ﴿ قل ﴾ أي قل لهم في إنكارك عليهم وتوبيخك لهم ﴿ هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ أي نحن آمنا به وعبدناه وأنتم كفرتم به ﴿ فستعلمون ﴾ أي عند معاينة العذاب ﴿ من هو في ضلال مبين ﴾ أي نحن أم أنتم وهذا تهديد لهم ثم ذكرهم ببعض نعمه عليهم على طريق الاحتجاج فقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم ﴾ قيل يريد ماء زمزم وقيل غيرها من المياه ﴿ غوراً ﴾ أي غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء ، وقال ابن عباس معين أي جار والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه عليهم ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر والمعنى أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض فمن يأتيكم بماء معين فلا بد أن يقولوا هو الله تعالى فيقال لهم حينئذ فلم تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية فهذا محال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 124 . 128 ﴾

وقال النسفى :

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقي قارئها من عذاب القبر وجاء مرفوعاً من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تبارك ﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ أي بتصرفه الملك والاستيلاء على كل موجود وهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من المقدورات أو من الإنعام والانتقام ﴿ قَدِيرٌ ﴾ قادر على الكمال ﴿ الذى خَلَقَ الموت ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو بدل من الذي قبله ﴿ والحياة ﴾ أي ما يصح بوجوده الإحساس والموت ضده ، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصحح وإعدامه ، والمعنى خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعم الأمير والأسير والحياة التي لا تفي بعليل ولا طبيب فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم فيجازيكم على عملكم لا على علمه بكم ﴿ أَيُّكُمْ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي أخلصه وأصوبه ، فالخالص أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السنة .

والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل ، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح فما وراءه إلا البعث والجزاء الذي لا بد منه .

وقدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهم .

ولما قدم الموت الذي هو أثر صفة القهر على الحياة التي هي أثر اللطف ، قدم صفة القهر على صفة اللطف بقوله ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿ الغفور ﴾ الستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل .

﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سماوات طِبَاقاً ﴾ مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق ، وهذا وصف بالمصدر ، أو على ذات طباق أو على طوبقت طباقاً .

وقيل : جمع طبق كجمال وجمال .

(159/775)

والخطاب في ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن ﴾ للرسول أو لكل مخاطب ﴿ مِن تفاوت ﴾ ﴿ تَفَوُتٍ ﴾ حمزة وعلي .

ومعنى البناءين واحد كالتعاهد والتعهد أي من اختلاف واضطراب .

وعن السدي : من عيب .

وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ، وهذه الجملة صفة ل ﴿ طِبَاقاً ﴾ وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع ﴿ خَلْقِ الرحمن ﴾ موضع الضمير تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿ فارجع البصر ﴾ رده إلى السماء حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة فلا تبقى معك شبهة فيه ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ صدوع وشقوق جمع فطر وهو الشق ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ كرر النظر مرتين أي كرتين مع الأولى .

وقيل : سوى الأولى فتكون ثلاث مرات .

وقيل : لم يرد الاقتصار على مرتين بل أراد به التكرير بكثرة أي كرر نظرك ودققه هل ترى خللاً أو عيباً .

وجواب الأمر ﴿ يَنقَلِبَ ﴾ يرجع ﴿ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا ﴾ ذليلاً أو بعيداً مما تريد وهو حال من البصر ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل معي ولم ير فيها خللاً .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا ﴾ القربى أي السماء الدنيا منكم ﴿ بمصابيح ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح ، والمصابيح السرج فسميت بها الكواكب ، والناس يزينون

مساجدهم ودورهم بإيقاد المصابيح .

فقيل : ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح أي بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ أي لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات ، قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به .

(160/775)

ومعنى كونها رجوماً للشياطين أن ينفصل عنها شهاب قبس يؤخذ من نار فيقتل الجني أو يخبله ، لأن الكواكب لا تزول عن أماكنها لأنها قارة في الفلك على حالها ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ للشياطين ﴿ عَذَابَ السعير ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصون بذلك ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ المرجع جهنم ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا ﴾ طرحوا في جهنم كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿ سَمِعُواْ لَهَا ﴾ لجهنم ﴿ شَهِيقًا ﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمير شبه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿

وَهِيَ تَفُورُ ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ أي تتميز يعني تتقطع وتتفرق ﴿ مِنَ الغيظ ﴾ على الكفار فجعلت كالمغتاظة عليهم استعارة لشدة غليانها بهم.

﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة من الكفار ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ مالك وأعوانه من الزبانية توبيخاً لهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ رسول يخوفكم من هذا العذاب ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ ﴾ اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأنه تعالى أزاح عللهم ببعث الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ أي فكذبناهم ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ ﴾ مما يقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضلال كَبِيرٍ ﴾ أي قال الكفار للمنذرين: ما أنتم إلا في خطأ عظيم.

فالنذير بمعنى الإنذار.

(161/775)

ثم وصف به منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً، وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفار عن إرادة القول ومرادهم بالضلال الهلاك، أو سموا جزاء الضلال باسمه كما سمي جزاء السيئة والاعتداء سيئة واعتداء ويسمى المشاكلة في علم البيان، أو كلام

الرسل لهم حكوه للخزنة أي قالوا لنا هذا فلم نقبله ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار سماع طالب الحق ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ أي نعقله عقل متأمل ﴿ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ في جملة أهل النار ، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملزمتان ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿ فَسُحْقًا لأصحاب السعير ﴾ وبضم الحاء : يزيد وعلي ، فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته اعترفوا أو جحدوا فإن ذلك لا ينفعهم .

وانتصابه على أنه مصدر وقع موقع الدعاء .

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ للذنوب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي الجنة ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين : الإسرار والإجهار ، ومعناه ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما .

رُوي أن مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل بما قالوه فيه ونالوه منه فقالوا فيما بينهم : أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فنزلت .

ثم علله بقوله ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها فكيف لا يعلم ما تكلم به ؟ ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ "من" في موضع رفع بأنه فاعل ﴿ يَعْلَم ﴾ ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر من خلقها

وصفته أنه اللطيف أي العالم بدقائق الأشياء الخبير العالم بحقائق الأشياء ، وفيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد .

(162/775)

وقال أبو بكر بن الأصم وجعفر بن حرب : ﴿ مَنْ ﴾ مفعول والفاعل مضمر وهو الله تعالى فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ لينة سهلة مذللة لا تمنع المشي فيها ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ جوانبها استدلالاً واسترزاقاً أو جبالها أو طرقها ﴿ وَكُلُواْ مِن رّزْقِهِ ﴾ أي من رزق الله فيها ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ أي وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم ﴿ ءامِنْتُمْ مَّن فِى السماء ﴾ أي من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه فكأنه قال : أأمنتم خالق السماء وملكه ، أو لأنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء ، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعالٍ عن المكان ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ كما خسف بقارون ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ تضطرب وتتحرك ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مّن فِى السماء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ حجارة أن يرسل بدل من بدل الاشتمال وكذا ﴿

أَن يَخْسِفَ ﴾ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أي إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل قومك ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم إذ أهلكتهم .

ثم نبه على قدرته على الخسف وإرسال الحاصب بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير ﴾ جمع طائر ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ في الهواء ﴿ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

و ﴿ يقبضن ﴾ معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى أي يصففن ويقبضن ، أو صافات وقابضات .

واختيار هذا التركيب باعتبار أن أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والهواء للطائر كالماء للسابح .

(163/775)

والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ عن الوقوع عند

القبض والبسط ﴿ إِلاَّ الرحمن ﴾ بقدرته وإلا فالثقيل يتسفل طبعاً ولا يعلو، وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك و ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ مستأنف وإن جعل حالاً من الضمير في ﴿ يقبضن ﴾ يجوز ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

﴿ أَمَّنْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ هذا ﴾ ويبدل من ﴿ هذا ﴾ ﴿ الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ ومحل ﴿ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ رفع نعت ل ﴿ جُندٌ ﴾ محمول على اللفظ والمعنى من المشار إليه بالنصر غير الله تعالى ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ أي ما هم إلا في غرور ﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ أم من يشار إليه ويقال هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم فكأنهم الجند الناصر والرازق. فلما لم يتعظوا أضرب عنهم فقال ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ تمادوا ﴿ فِى عُتُوٍّ ﴾ استكبار عن الحق ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتبعوه.

ثم ضرب مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ أي ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي معتسفاً وخبر من ﴿ أهدى ﴾ أرشد.

فأكب مطاوع كبه يقال: كببته فأكب ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ مستوياً منتصباً سالماً من العثور والخرور ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على طريق مستوٍ.

وخبر ﴿ منْ ﴾ محذوف لدلالة ﴿ أهدى ﴾ عليه ، وعن الكلي : عني بالمكب أو جهل ، وبالسوي النبي عليه السلام ﴿ قُلْ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ ﴾ خلقكم ابتداء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ خصها لأنها آلات العلم ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم لأنكم تشركون بالله ولا تخلصون له العبادة ، والمعنى تشكرون شكراً قليلاً و"ما" زائدة . وقيل : القلة عبارة عن العدم ﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ ﴾ خلقكم ﴿ فِى الأرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للحساب والجزاء .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدوننا به يعني العذاب ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في كونه فأعلمونا زمانه ﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم ﴾ أي علم وقت العذاب ﴿ عِندَ الله وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴾ مخوّف ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أبين لكم الشرائع ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي الوعد يعني العذاب الموعود ﴿ زُلْفَةً ﴾ قريباً منهم وانتصابها على الحال ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علتها الكآبة والمساءة وغشيتها القترة والسواد ﴿ وَقِيلَ هذا الذى ﴾ القائلون الزبانية ﴿ كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ تفتعلون من الدعاء أي تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا ، أو هو من الدعوى أي كنتم

بسببه تدعون أنكم لا تبعثون وقرأ يعقوب ﴿ تَدْعُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ الله ﴾ أي أماتني الله كقوله ﴿ إِن امرؤ هَلَكَ ﴾ [النساء : 176] ﴿ وَمَن مَّعِىَ ﴾ من أصحابي ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ أو أخر في آجالنا ﴿ فَمَن يُجِيرُ ﴾ ينجي ﴿ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم .

(165/775)

كان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر بأن يقول لهم : نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين ، إما أن نهلك كما تتمنون فنقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة عليكم متربصون لإحدى الحسنيين ، إما أن نهلك كما تتمنون فنقلب إلى الجنة ، أو نرحم بالنصرة عليكم كما نرجو ، فأنتم ما تصنعون مِنْ مجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار لا بد لكم منه ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن ﴾ أي الذي أدعوكم إليه الرحمن ﴿ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ صدقنا به ولم نكفر به كما كفرتم ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فوضنا إليه أمورنا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ إذا نزل بكم العذاب وبالياء : علي ﴿ مَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ نحن أم أنتم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء ، وهو وصف بالمصدر كعدل بمعنى عادل ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ جارٍ يصل إليه من

أراده .

وتليت عند ملحد فقال : يأتي بالمعول والمعن فذهب ماء عينه في تلك الليلة وعمي .

وقيل : إنه محمد بن زكريا المتطبب زادنا الله بصيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 273. 278 ﴾

(166/775)

وقال ابن جزى :

سورة الملك

﴿ تَبَارَكَ ﴾

فعل مشتق من البركة ، وقيل معناه تعاظم وهو مختص بالله تعالى ولم يُنطق له بمضارع ﴿ بِيَدِهِ الملك ﴾ يعني ملك السموات والأرض والدنيا والآخرة ، وقيل : يعني ملك الملوك في الدنيا فهو كقوله : مالك الملك ، والأول أعم وأعظم .

﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ يعني موت الخلق وحياتهم ، وقيل : الموت الدنيا لأن أهلها يموتون ، والحياة الآخرة لأنها باقية ، فهو كقوله : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ [العنكبوت : 64] وهو على هذا وصف بالمصدر والأول أظهر ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليختبركم ،

واختبار الله لعباده إنما هو لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم ، وقد كان الله علم ما يفعلون قبل كونه ، والمعنى ليبلوكم فيجازيكم بما ظهر منكم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها فقال : أيكم أحسن عملاً وأشدكم لله خوفاً وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله .

﴿ سَبْعَ سماوات طِبَاقاً ﴾ أي بعضها فوق بعض ، والطباق مصدر وصفت به السموات ، أو على حذف مضاف تقديره : ذوات طباق وقيل : إنه جمع طبقة .

(167/775)

﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أي : من قلة تناسب وخروج عن الإتقان ، والمعنى أن خلقة السموات في غاية الإتقان وقيل ؛ أراد خلقة جميع المخلوقات ، ولا شك أن جميع المخلوقات متقنة ، ولكن تخصيص الآية بخلقة السموات أظهر لورودها بعد قوله ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سماوات طِبَاقاً ﴾ ، فبان قوله : ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، بيان وتكميل ما قبله ، والخطاب في قوله : ما ترى وارجع البصر وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل مخاطب ليعتبر ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ الفطور الشقوق جمع فطر ، وهو الشق . وإرجاع البصر : ترديده في النظر ، ومعنى الآية : الأمر بالنظر إلى

السماء فلا يرى فيها شقاق ولا خلل بل هي ملتئمة مستوية ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي انظر نظراً بعد نظر للتثبت والتحقق ، وقال الزمخشري : معنى التثنية في كرتين التكثير لا مرتين خاصة . كقولهم : لبيك فإن معناه إجابات كثيرة ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ الخاسئ هو المبعد عن الشيء الذي طلبه ، والحسير هو الكليل الذي أدركه التعب ، فمعنى الآية أنك إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة لترى فيها شقاقاً أو خلالاً رجع بصرك ولم تر شيئاً من ذلك ؛ فكانه خاسئ لأنه لم يحصل له ما طلب من رؤية الشقاق والخلل ، وهو مع ذلك كليل من شدة النظر وكثرة التأمل .

(168/775)

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ السماء الدنيا ، هي القريبة منا ، والمصابيح يراد بها النجوم فإن كانت النجوم كلها في السماء الدنيا فلا إشكال ، لأنها ظاهرة فيها لنا ، ويحتمل أن يريد أنه زيَّن السما الدنيا بالنجوم التي فيها دون التي في غيرها . على أن القول بموضع الكواكب وفي أي سماء هي لم يرد في الشريعة ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ أي جعلنا منها رجوماً ، لأن الكواكب الثابتة ليست ترجم الشياطين ، فهو كقولك : أكرمت بني فلان ؛ إذا أكرمت بعضهم ، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سُمَي به ما يرجم به ، قال

الزمخشري : معنى كون النجوم رجوماً للشياطين : والشهب تنقض من النجوم لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء ، فالشهب الراجمة منفصلة من نار الكواكب ، لا أن الراجمة هي الكواكب أنفسها ؛ لأنها ثابتة في الفلك . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : زينة السماء ورجوم الشياطين ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ يعني للشياطين .

﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً ﴾ الشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار ، ويعني به هنا ما يسمع من صوت جهنم لشدّة غليانها وهَوْلها أو شهيق أهلها ، والأول أظهر ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي تغلي بأهلها غليان القدر بما فيها .

(169/775)

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ أي تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض لشدّة غيظها على الكفار ، فيحتمل أن تكون هي المغتاظة بنفسها ، ويحتمل أن يريد غيظ الزبانية والأول أظهر ؛ لأن حال الزبانية يذكر بعد هذا ، وغيظ النار يحتمل أن يكون حقيقة بإدراك يخلقه الله له ، أو يكون عبارة عن شدتها ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار سألتهم الزبانية هل جاءكم من نذير ؟ أي رسول ، وهذا السؤال على

وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم ، ولذلك اعترفوا فقالوا : ﴿ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقوله : كلما يقتضي أن يقال ذلك لكل جماعة تلقى في النار ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار ، أو من قول الكفار للرسل في الدنيا .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير للكفار أي ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلام الرسل ونعقل الصواب ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ اعترافهم هذا في وقت لا ينفعهم الاعتراف ، وذنبهم هنا يراد به تكذيب الرسل ﴿ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ﴾ انتصب فسحقاً بفعل مضمر على معنى الدعاء عليهم .

﴿ بالغيب ﴾ فيه قولان أحدهما : أن معناه وهم غائبون عن الناس ، ففي ذلك وصف لهم بالإخلاص والآخر أن الغيب ما غاب عنهم من أمور الآخرة وغيرها . على أن هذا القول إنما يحسن في قوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] .

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ المعنى سواء جهرتم أو أسررتم ، فإن الله يعلم الجهر والسر .

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ هذا برهان على أن الله تعالى يعلم كل شيء ، لأن الخالق يعلم مخلوقاته ، ويحتمل أن يكون ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ فاعلاً يراد به الخالق والمفعول محذوف تقديره : ألا يعلم الخالق خلقه أو يكون ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ مفعولاً والفاعل مضمر تقديره : ألا يعلم الله من خلق ، والأول أرجح ؛ لأن من خلق إذا كان مفعولاً اختص بمن يعقل ، والمعنى الأول يعم من يعقل ومن لا يعقل .

﴿ الأرض ذَلُولاً ﴾ فعول هنا بمعنى : مفعول ، أي ذلولة فهي كركوب وحلوب ﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ قال ابن عباس : هي الجبال وقيل : الجواب والنواحي وقيل : الطرق والمعنى تعديد النعمة في تسهيل المشي على الأرض ، فاستعار لها الذل والمناكب تشبيهاً بالدواب ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ يعني البعث يوم القيامة .

﴿ أَأَمِنتُمْ ﴾ الآية مقصودها التهديد والتخويف للكفار ، وكذلك الآية التي بعدها ﴿ تَمُورُ ﴾ ذكر في [الطور : 9] ﴿ حَاصِباً ﴾ يحتمل أن يريد حجارة أو ريحاً شديدة ﴿ نَذِيرِ ﴾ بمعنى الإنذار وكذلك النكير بمعنى الإنكار .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ تنبيه على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها ، وصافَّات جمع صافة وهي التي تبسط جناحها للطيران ، والقبض : ضم الجناحين إلى الجنب وعطف يقبض على صافات ، لأن الفعل في معنى الاسم تقديره : قابضات . فإن قيل : لِمَ لم يقل قابضات على طريقة صافات ؟ فالجواب :

أن يبسط الجناحين هو الأصل في الطيران ، كما أن مدّ الأطراف هو الأصل في السباحة ، فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته ، وأما قبض الجناحين فإما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة ، فذكر بلفظ الفعل لقلته .

(171/775)

﴿ أَمَّنْ هذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ ﴾ خطاب للكفار على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم ، ودخلت ﴿ أَمَّ ﴾ التي يراد بها الإنكار على ﴿ مَّنْ ﴾ فأدغمت فيها ، وكذلك ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ ﴾ والضمير في أمسك : لله ، أي من يرزقكم إن منع الله رزقه ، ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أي تمادوا في العتوّ والنفور عن الإيمان .

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ الآية توقيف على الحالتين ، أيهما أهدى والمراد بها توبيخ الكفار ، وفي معناها قولان : أحدهما : أن المشي هنا استعارة في سلوك طريق الهدى والضلال في الدنيا ، والآخر : أنه حقيقة في المشي في الآخرة لأن الكافر يحمل على المشي إلى جهنم على وجهه ، فأما على القول الأول فقيل : إن الذي يمشي مكباً أبو جهل والذي يمشي سوياً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : حمزة وقيل ؛ هي على العموم في كل مؤمن وكافر ، وقد تمشي هذه الأقوال أيضاً على الثاني ، والمكب هو الذي يقع

على وجهه ، يقال : أكب الرجل وكبه غيره ، فالمعدي دون همزة والقاصر بالهمزة بخلاف الأفعال .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ الضمير للكفار والوعد يراد به البعث أو عذابهم في الدنيا .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ ضمير الفاعل للكفار وضمير المفعول للعذاب الذي يتضمنه الوعد ﴿ زُلْفَةً ﴾ أي قريباً ، وقيل : عياناً ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي ظهر فيها السوء لما حل بها ﴿ وَقِيلَ هذا الذي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ تفتعلون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به ، والقائلون لذلك الملائكة أو يقال لهم بلسان الحال .

(172/775)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ﴾ الآية . سببها أن الكفار كانوا يتمنون هلاك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فأمره الله أن يقول لهم : إن أهلكني الله وأهلك من معي أو رحمنا ؛ فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال ، والهلاك هنا يحتمل أن يراد به الموت أو غيره ، ومعنى ﴿ يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ : من يمنعهم من العذاب .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً ﴾ الآية احتجاج على المشركين ، والغور مصدر

وصف به فهو بمعنى غاير أي ذاهب في الأرض ، والمعين الكثير ، واختلف هل وزنه فعيل أو مفعول ؟ فالمعنى إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم غير الله بماء معين ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 133. 137 ﴾

(173/775)

وقال البيضاوى :

سورة الملك

﴿ مكية ، وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقي قارئها وتنجيه من عذاب القبر ، وآيها ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾

بقبضة قدرته التصرف في الأمور كلها . ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ على كل ما يشاء قدير .

﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ قدرهما أو أوجد الحياة وأزالها حسبما قدره ، وقدم الموت لقوله : ﴿ وكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل . ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾

ليعاملكم المختبر بالتكليف أيها المكلفون . ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أصوبه وأخلصه ، وجاء مرفوعاً : " أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته " جملة واقعة موقع المفعول ثانياً لفعل البلوى المتضمن معنى العلم ، وليس هذا من باب التعليق لأنه يخل به وقوع الجملة خبراً لما لا يعلق الفعل عنها بخلاف ما إذا وقعت موقع المفعولين . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل . ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب منهم .

(174/775)

﴿ الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ مطابقة بعضها فوق بعض مصدر طابقت النعل إذا خلطتها طبقاً على طبق وصف به ، أو طوبقت طباقاً أو ذات طباق جمع طبق كجبل وجبال ، أو طبقة كرحبة ورحاب . ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ وقرأ حمزة والكسائي "من تفوت" ومعناهما واحد كالتعاهد والتعهد ، وهو الاختلاف وعدم التناسب من الفوت كأن كلا من المتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر ، والجملة صفة ثانية ل ﴿ سَبْعَ ﴾ وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم ، والإشعار بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلاً ، وأن في إبداعها نعماً جليلة لا تحصى ، والخطاب فيها للرسول أو لكل مخاطب وقوله : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ متعلق به على

معنى التسبب أي قد نظرت إليها مراراً فانظر إليها مرة أخرى متأملاً فيها لتعاين ما أخبرت به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها ، وال ﴿ فُطُورٍ ﴾ الشقوق والمراد الخلل من فطره إذا شقه .

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في لبيك وسعديك ، ولذلك أجاب الأمر بقوله : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة .

(175/775)

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ أقرب السموات إلى الأرض . ﴿ بمصابيح ﴾ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة السرج فيها ، والتنكير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها . ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم ، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرجم به بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجمون . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ في الآخرة بعد

الإحراق بالشهب في الدنيا .

﴿ والذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطين وغيرهم . ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير ﴾ وقرىء بالنصب على أن ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ عطف على ﴿ لَهُمْ ﴾ و ﴿ عَذَابِ ﴾ على ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ .

﴿ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ صوتاً كصوت الحمير . ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ تتفرق غيظاً عليهم ، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم ، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية . ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة من الكفرة . ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ يخوفكم هذا العذاب وهو توبيخ وتبكيت .

(176/775)

﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ أي فكذبنا الرسل وأفرطنا في التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبلغنا في نسبتهم إلى الضلال ، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذار ، أو منعوت به للمبالغة أو الواحد والخطاب له ولأمثاله على التغليب ، أو إقامة

تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل ، أو على أن المعنى قالت الأفواج قد جاء إلى كل فوج منا رسول من الله فكذبناهم وضللناهم ، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول فيكون الضلال ما كانوا عليه في الدنيا ، أو عقابه الذي يكونون فيه .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات . ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ فنتفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين . ﴿ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ في عدادهم ومن جملتهم .

﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ حين لا ينفعهم ، والاعتراف إقرار عن معرفة ، والذنب لم يجمع لأنه في الأصل مصدر ، أو المراد به الكفر . ﴿ فَسُحْقًا لأصحاب السعير ﴾ فأسحقهم الله سحقاً أبعدهم من رحمته ، والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل وقرأ الكسائي بالتثقيل .

﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد ، أو غائبين عنه أو عن أعين الناس ، أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم . ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ تصغر دونه لذائذ الدنيا .

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بالضمائر قبل أن يعبر عنها سراً أو جهراً .

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء حسبما قدرته حكمته .

﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ، أو ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة والتقييد بهذه الحال يستدعي أن يكون ل ﴿ يَعْلَمْ ﴾ مفعول ليفيد ، روي : أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فيخبر الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فيقولون : أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فنبه الله على جهلهم .

﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ لينة يسهل لكم السلوك فيها . ﴿ فامشوا فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ في جوانبها أو جبالها ، وهو مثل لفرط التذليل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب ولا يتذلل له ، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يبق شيء لم يتذلل . ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ والتمسوا من نعم الله . ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ المرجع فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم .

﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السماء ﴾ يعني الملائكة الموكلين على تدبير هذا العالم ، أو الله تعالى على تأويل ﴿ مَّن فِى السماء ﴾ أمره أو قضاؤه ، أو على زعم العرب فإنهم زعموا أنه تعالى في السماء ، وعن ابن كثير "وامنتم" بقلب الهمزة الأولى واواً لانضمام ما قبلها ، "وآمنتم" بقلب الثانية ألفاً ، وهو قراءة نافع وأبي عمرو ورويس . ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض ﴾ فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل الاشتمال . ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ تضطرب ،

والمور التردد في المجيء والذهاب .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَّن فِى السماء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصبا ﴾ أن يمطر عليكم حصباء . ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب ، وهو تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لقومه المشركين .

(178/775)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، فإنهن إذا بسطنها صففن قوادمها . ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت للاستظهار به على التحريك ، ولذلك عدل به إلى صيغة الفعل للتفرقة بين الأصل في الطيران والطارىء عليه . ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو على خلاف الطبع . ﴿ إِلاَّ الرحمن ﴾ الشامل رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيأتهن للجري في الهواء . ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب .

﴿ أَمَّنْ هذا الذى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ﴾ عديل لقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾

على معنى أو لم تنظروا في أمثال هذه الصنائع ، فلم تعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب ، أم لكم جند ينصركم من دون الله إن أرسل عليكم عذابه فهو كقوله

﴿ أَمْ لَهُمْ اِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ إلا أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصرهم إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم ، و﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ و﴿ هذا ﴾ خبره و﴿ الذى ﴾ بصلته صفته و﴿ يَنصُرُكُمُ ﴾ وصف ل ﴿ جُندٌ ﴾ محمول على لفظه . ﴿ إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ لا معتمد لهم .

﴿ أَمَّنْ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ ﴾ أم من يشار إليه ويقال ﴿ هذا الذى يَرْزُقُكُمْ ﴾ . ﴿ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب المخلصة والموصلة له إليكم . ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ تمادوا . ﴿ فِى عُتُوّ ﴾ عناد . ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ شراد عن الحق لتنفر طباعهم عنه .

(179/775)

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى ﴾ يقال كببته فأكب وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع ، والتحقيق أنهما من باب أنفض بمعنى صار ذا كب وذا قشع ، وليس مطاوعي كب وقشع بل المطاوع لهما أنكب وانقشع ، ومعنى ﴿ مُكِبّاً ﴾ أنه يعثر كل

ساعة ويخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه ، ولذلك قابله بقوله : ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ قائماً سالماً من العثار . ﴿ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مستوي الأجزاء والجهة ، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين ، ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً ، كمشي المتعسف في مكان متعاد غير مستو . وقيل المراد بالمكب الأعمى فإنه يتعسف فينكب وبالسوي البصير ، وقيل من ﴿ يَمْشِى مُكِبّاً ﴾ هو الذي يحشر على وجهه إلى النار ومن ﴿ يَمْشِى سَوِيّاً ﴾ الذي يحشر على قدميه إلى الجنة .

﴿ قُلْ هُوَ الذى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع ﴾ لتسمعوا المواعظ . ﴿ والأبصار ﴾ لتنظروا صنائعه . ﴿ والأفئدة ﴾ لتتفكروا وتعتبروا . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجلها .

﴿ قُلْ هُوَ الذى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي الحشر أو ما وعدوا به من الخسف والحاصب . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا العلم ﴾ أي علم وقته . ﴿ عَندَ الله ﴾ لا يطلع عليه غيره . ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ والإنذار يكفي فيه العلم بل الظن بوقوع المحذر منه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي الوعد فإنه بمعنى الموعود . ﴿ زُلْفَةً ﴾ ذا زلفة أي قرب منهم . ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ بأن علتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب . ﴿ وَقِيلَ هذا الذى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ تطلبون وتستعجلون تفتعلون من الدعاء ، أو ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أن لا بعث فهو من الدعوى .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ الله ﴾ أماتني . ﴿ وَمَن مَّعِىَ ﴾ من المؤمنين . ﴿ أَوْ رَحِمَنَا ﴾ بتأخير آجالنا . ﴿ فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب متنا أو بقينا ، وهو جواب لقولهم ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الرحمن ﴾ الذي أدعوكم إليه مولى النعم كلها . ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ للعلم بذلك ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ للوثوق عليه والعلم بأن غيره بالذات لا يضر ولا ينفع ، وتقديم الصلة للتخصيص والإشعار به . ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ منا ومنكم ، وقرأ الكسائي بالياء .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ غائراً في الأرض بحيث لا تناله الدلاء مصدر وصف به . ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر " . (1) انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 360 . 367 ﴾

(1) حديث موضوع.

(181/775)

وقال أبو حيان:

سورة الملك

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

قال: ﴿ تبارك ﴾: أي تعالى وتعاظم، ﴿ الذي بيده الملك ﴾: وهو كناية عن الإحاطة والقهر، وكثيراً ما جاء نسبة اليد إليه تعالى كقوله: ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ﴿ بيدك الخير ﴾ وذلك في حقه تعالى استعارة لتحقيق الملك، إذ كانت في عرف الآدميين آلة للتملك، والملك هنا هو على الإطلاق لا يبيد ولا يختل.

وعن ابن عباس: ملك الملوك لقوله تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ وناسب الملك ذكر وصف القدرة والحياة ما يصح بوجوده الإحساس.

ومعنى ﴿ خلق الموت ﴾: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه، والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون، وسمى علم الواقع منهم باختيارهم بلوى وهي الحيرة، استعارة من فعل المختبر.

وفي الحديث أنه فسر ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ : أي أحسن عقلاً وأشدّكم خوفاً وأحسنكم في أمره ونهيه نظراً ، وإن كان أقلكم تطوعاً .

وعن ابن عباس والحسن والثوري : أزهدكم في الدنيا .

وقيل : كنى بالموت عن الدنيا ، إذ هو واقع فيها ، وعن الآخرة بالحياة من حيث لا موت فيها ، فكأنه قال : هو الذي خلق الدنيا والآخرة ، وصفهما بالمصدرين ، وقدّم الموت لأنه أهيب في النفوس .

وليبلوكم متعلق بخلق .

﴿ وإيكم أحسن عملاً ﴾ مبتدأ وخبر ، فقدر الحوفي قبلها فعلاً تكون الجملة في موضع معموله ، وهو معلق عنها تقديره : فينظر ، وقدّر ابن عطية فينظر أو فيعلم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : من أين تعلق قوله : ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ بفعل البلوى ؟ قلت : من حيث أنه تضمن معنى العلم ، فكأنه قيل : ليعلمكم أيكم أحسن عملاً ، وإذا قلت : علمته أزيد أحسن عملاً أم هو ؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه ، كما تقول : علمته هو أحسن عملاً .

(182/775)

فإن قلت : أيسمى هذا تعليقاً ؟ قلت : لا ، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسدّ المفعولين جميعاً ، كقولك : علمت أيهما عمرو ، وعلمت أزيد منطلق .

ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدّراً بحرف الاستفهام وغير مصدّر به ؟ ولو كان تعليقاً لافترقت الحالتان ، كما افترقتا في قولك : علمت أزيد منطلق ، وعلمت زيداً منطلقاً . انتهى .

وأصحابنا يسمون ما منعه الزمخشري تعليقاً ، فيقولون في الفعل إذا عدى إلى اثنين ونصب الأول ، وجاءت بعده جملة استفهامية ، أو بلام الابتداء ، أو بحرف نفي ، كانت الجملة معلقاً عنها الفعل ، وكانت في موضع نصب ، كما لو وقعت في موضع المفعولين وفيها ما يعلق الفعل عن العمل .

وقد تقدّم الكلام على مثل هذه الجملة في الكهف في قوله تعالى : ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ ، وانتصب ﴿ طباقاً ﴾ على الوصف السبع ، فإما أن يكون مصدر طابق مطابقة وطباقاً لقولهم : النعل خصفها طبقاً على طبق ، وصف به على سبيل المبالغة ، أو على حذف مضاف ، أي ذا طباق ؛ وإما جمع طبق كجمل وجمال ، أو جمع طبقة كرحبة ورحاب ، والمعنى : بعضها فوق بعض .

وما ذكر من مواد هذه السموات .

فالأولى من موج مكفوف ، والثانية من درّة بيضاء ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس

، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من زمردة بيضاء يحتاج إلى نقل صحيح ، وقد كان بعض من ينتمي إلى الصلاح ، وكان أعمى لا يبصر موضع قدمه ، يخبر أنه يشاهد السموات على بعض أوصاف مما ذكرنا .

﴿ من تفاوت ﴾ ، قال ابن عباس : من تفرّق .

وقال السدّي : من عيب .

وقال عطاء بن يسار : من عدم استواء .

وقال ثعلب : أصله من الفوت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً من الخلل .

وقيل : من اضطراب .

وقيل : من اعوجاج .

وقيل : من تناقض .

وقيل : من اختلاف .

وقيل : من عدم التناسب والتفاوت ، تجاوز الحد الذي تجب له زيادة أو نقص .

قال بعض الأدباء :

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى . . .

بهن اختلافاً بل أتين على قدر

وقرأ الجمهور : ﴿ من تفاوت ﴾ ، بألف مصدر تفاوت ؛ وعبد الله وعلقمة والأسود وابن جبير وطلحة والأعمش : بشدّ الواو ، مصدر تفوّت .

وحكى أبو زيد عن العربي : تفاوتاً بضم الواو وفتحها وكسرها ، والفتح والكسر شاذان .

والظاهر عموم خلق الرحمن من الأفلاك وغيرها ، فإنه لا تفوت فيه ولا فطور ، بل كل جار على الإتقان .

وقيل : المراد في ﴿ خلق الرحمن ﴾ السموات فقط ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ما ترى ﴾ استئناف أنه لا يدرك في خلقه تعالى تفاوت ، وجعل الزمخشري هذه الجملة صفة متابعة لقوله : ﴿ طباقاً ﴾ ، أصلها ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : ﴿ خلق الرحمن ﴾ تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المناسب . انتهى .

والخطاب في ترى لكل مخاطب ، أو للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولما أخبر تعالى أنه لا تفاوت في خلقه ، أمر بترديد البصر في الخلق المناسب فقال : ﴿ فارجع ﴾ ، ففي الفاء معنى التسبب ، والمعنى : أن العيان يطابق الخبر .

و ﴿ الفطور ﴾ ، قال مجاهد : الشقوق ، فطر ناب البعير : شق اللحم وظهر ، قال الشاعر

:

بنى لكم بلا عمد سماء . . .

وسوّاها فما فيها فطور

وقال أبو عبيدة : صدوع ، وأنشد قول عبيد بن مسعود :

شققت القلب ثم رددت فيه . . .

هواك فليط فالتأم الفطور

وقال السدي : خروق .

وقال قتادة : خلل ، ومنه التفطير والانفطار .

وقال ابن عباس : وهن وهذه تفاسير متقاربة ، والجملة من قوله : ﴿ هل ترى من فطور ﴾ في موضع نصب بفعل معلق محذوف ، أي فانظر هل ترى ، أو ضمن معنى ﴿ فارجع البصر ﴾ معنى فانظر ببصرك هل ترى ؟ فيكون معلقاً .

(184/775)

﴿ ثم ارجع البصر ﴾ : أي ردده كرتين هي تثنية لا شفع الواحد ، بل يراد بها التكرار ، كأنه قال : كرة بعد كرة ، أي كرات كثيرة ، كقوله : لبيك ، يريد إجابات كثيرة بعضها في إثر

بعض ، وأريد بالتثنية التكثير ، كما أريد بما هو أصل لها التكثير ، وهو مفرد عطف على مفرد ، نحو قوله :

لو عدّ قبر وقبر كان أكرمهم . . .

بيتاً وأبعدهم عن منزل الزام

يريد : لو عدت قبور كثيرة .

وقال ابن عطية وغيره : ﴿ كرتين ﴾ معناه مرتين ونصبها على المصدر .

وقيل : أمر برجع البصر إلى السماء مرتين ، غلط في الأولى ، فيستدرك بالثانية .

وقيل : الأولى ليرى حسنها واستواءها ، والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها .

وقرأ الجمهور : ﴿ ينقلب ﴾ جزماً على جواب الأمر ؛ والخوارزمي عن الكسائي : برفع الباء ، أي فينقلب على حذف الفاء ، أو على أنه موضع حال مقدرة ، أي إن رجعت البصر وكررت النظر لتطلب فطور شقوق أو خللاً أو عيباً ، رجع إليك مبعداً عما طلبته لانتفاء ذلك عنها ، وهو كالّ من كثرة النظر ، وكلاله يدل على أن المراد بالكرتين ليس شفع الواحد ، لأنه لا يكل البصر بالنظر مرتين اثنتين .

والحسير : الكال ، قال الشاعر :

لهن الوجى لم كر عوناً على النوى . . .

ولا زال منها ظالع وحسير

يقال : حسر بعيره يحسر حسوراً : أي كلّ وانقطع فهو حسير ومحسور ، قال الشاعر يصف ناقة :

فشطرها نظر العينين محسور . . .

أي : ونحرها ، وقد جمع حسير بمعنى أعيا وكل ، قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها . . .

البيت .

﴿ السماء الدنيا ﴾ : هي التي نشاهدها ، والدنو أمر نسبي وإلا فليست قريبة ، ﴿ بمصابيح ﴾ : أي بنجوم مضيئة كالمصابيح ، ومصابيح مطلق الأعلام ، فلا يدل على أن غير سماء الدنيا ليست فيها مصابيح .

﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ : أي جعلنا منها ، لأن السماء ذاتها ليست يرجم بها الرجوم هذا إن عاد الضمير في قوله : ﴿ وجعلناها ﴾ على السماء .

والظاهر عوده على مصابيح .

ونسب الرجم إليها ، لأن الشهاب المتبع للمسترق منفصل من نارها ، والكواكب قارّ في ملكه على حاله .

فالشهاب كقبس يؤخذ من النار ، والنار باقية لا تنقص .

والظاهر أن الشياطين هم مسترقو السمع ، وأن الرجم هو حقيقة يرمون بالشهب ، كما تقدم في سورة الحجر وسورة والصافات .

وقيل : معنى رجوماً : ظنوناً لشياطين الإنس ، وهم المنجمون ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم ، والتمويه والاختلاق من أزكيائهم ، ولهم في ذلك تصانيف تشتمل على خرافات يموهون بها على الملوك وضعفاء العقول ، ويعملون موالد يحكمون فيها بالأشياء لا يصح منها شيء .

وقد وقفنا على أشياء من كذبهم في تلك الموالد ، وما يحكونه عن أبي معشر وغيره من شيوخ السوء كذب يغرون به الناس الجهال .

وقال قتادة : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وليهتدي بها في البر والبحر ؛ فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة .

والضمير في لهم عائد على الشياطين .

وقرأ الجمهور : ﴿ عذاب جهنم ﴾ برفع الباء ؛ والضحاك والأعرج وأسيد بن أسيد المزني والحسن في رواية هارون عنه : بالنصب عطفاً على ﴿ عذاب السعير ﴾ ، أي

وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم .

﴿ إذا ألقوا فيها ﴾ : أي طرحوا ، كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به ، ومثله حصب جهنم ، ﴿ سمعوا لها ﴾ : أي لجهنم ، ﴿ شهيقاً ﴾ : أي صوتاً منكراً كصوت الحمار ، تصوت مثل ذلك لشدة توقدها وغليانها .

ويحتمل أن يكون على حذف مضاف ، أي سمعوا لأهلها ، كما قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ ﴿ وهي تفور ﴾ : تغلي بهم غلي المرجل .

﴿ تكاد تميز ﴾ : أي ينفصل بعضها من بعض لشدة اضطرابها ، ويقال : فلان يتميز من الغيظ إذا وصفوه بالإفراط في الغضب .

(186/775)

وقرأ الجمهور : ﴿ تميز ﴾ بتاء واحدة خفيفة ، والبزي يشدّدها ، وطلحة : بتاءين ، وأبو عمرو : بإدغام الدال في التاء ، والضحاك : تمايز على وزن تفاعل ، وأصله تتمايز بتاءين ؛ وزيد بن علي وابن أبي عبلة : تميز من ماز من الغيظ على الكفرة ، جعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ومثل هذا في التجوز قول الشاعر :

في كلب يشتد في جريه . . .

يكاد أن يخرج من إهابه

وقولهم : غضب فلان ، فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا أفرط في الغضب .

ويجوز أن يراد من غيظ الزبانية .

﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ : أي فريق من الكفار ، ﴿ سألهم خزنتها ﴾ : سؤال توبيخ وتقريع ، وهو مما يزيدهم عذاباً إلى عذابهم ، وخزنتها : مالك وأعوانها ، ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ : ينذركم بهذا اليوم ، ﴿ قالوا بلى ﴾ : اعتراف بمجيء النذر إليهم .

قال الزمخشري : اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأنه عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم فيما وقعوا فيه ، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم واختيارهم ، خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده .

انتهى ، وهو على طريق المعتزلة .

والظاهر أن قوله : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ ، من قول الكفار للرسل الذين جاءوا نذراً إليهم ، أنكروا أولاً أن الله نزل شيئاً ، واستجهلوا ثانياً من أخبر بأنه تعالى أرسل إليهم الرسل ، وأن قائل ذلك في حيرة عظيمة .

ويجوز أن يكون من قول الخزنة للكفار إخباراً لهم وتقريعاً بما كانوا عليه في الدنيا .

أرادوا بالضلال الهلاك الذي هم فيه ، أو سموا عقاب الضلال ضلالاً لما كان ناشئاً عن

الضلال .

وقال الزمخشري : أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة ، أي قالوا لنا هذا فلم نقبله . انتهى .

فإن كان الخطاب في ﴿ إن أنتم ﴾ للرسل ، فقد يراد به الجنس ، ولذلك جاء الخطاب بالجمع .

﴿ وقالوا ﴾ : أي للخزنة حين حاوروهم ، ﴿ لو كنا نسمع ﴾ سماع طالب للحق ، ﴿ أو نعقل ﴾ .

(187/775)

عقل متأمل له ، لم نستوجب الخلود في النار .

﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ : أي بتكذيب الرسل ، ﴿ فسحقاً ﴾ : أي فبعداً لهم ، وهو دعاء عليهم ، والسحق : البعد ، وانتصابه على المصدر : أي سحقهم الله سحقاً ، قال الشاعر :

يجول بأطراف البلاد مغرباً . . .

وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

والفعل منه ثلاثي .

وقال الزجاج : أي أسحقهم الله سحقاً ، أي باعدهم بعداً .

وقال أبو علي الفارسي : القياس إسحاقاً ، فجاء المصدر على الحذف ، كما قيل :

وإن أهلك فذلك كان قدري . . .

أي تقديري .

انتهى ، ولا يحتاج إلى ادعاء الحذف في المصدر لأن فعله قد جاء ثلاثياً ، كما أنشد :

وتسحقه ريح الصبا كل مسحق . . .

وقرأ الجمهور : بسكون الحاء ؛ وعلي وأبو جعفر والكسائي ، بخلاف عن أبي الحرث عنه : بضمها .

قال ابن عطية : ﴿ فسحقاً ﴾ : نصباً على جهة الدعاء عليهم ، وجاز ذلك فيه ، وهو من قبل الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقر أولاً ، ووجوده لم يقع إلا في الآخرة ، فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى به ، كما تقول : سحقاً لزيد وبعداً ، والنصب في هذا كله بإضمار فعل ، وإن وقع وثبت ، فالوجه فيه الرفع ، كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ و ﴿ سلام عليكم ﴾ وغير هذا من الأمثلة . انتهى .

﴿ يخشون ربهم بالغيب ﴾ : أي الذي أخبروا به من أمر المعاد وأحواله ، أو غائبين عن أعين الناس ، أي في خلواتهم ، كقوله : ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

﴿ وأسروا قولكم ﴾ : خطاب لجميع الخلق .

قال ابن عباس : وسببه أن بعض المشركين قال لبعض : أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد .

(188/775)

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ : الهمزة للاستفهام ولا للنفي ، والظاهر أن من مفعول ، والمعنى : أينتفي علمه بمن خلق ، وهو الذي لطف علمه ودق وأحاط بخفيات الأمور وجلياتها ؟ وأجاز بعض النحاة أن يكون من فاعلاً والمفعول محذوف ، كأنه قال : ألا يعلم الخالق سركم وجهركم ؟ وهو استفهام معناه الإنكار ، أي كيف لا يعلم ما تكلم به من خلق الأشياء وأوجدها من العدم الصرف وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ؟

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ : منة منه تعالى بذلك ، والذلول فعول للمبالغة ، من ذلك تقول : دابة ذلول : بينة الذل ، ورجل ذليل : بين الذل .

وقال ابن عطية : والذلول فعول بمعنى مفعول ، أي مذلولة ، فهي كركوب وحلوب . انتهى .

وليس بمعنى مفعول لأن فعله قاصر ، وإنما تعدى بالهمزة كقوله : ﴿ وتذل من تشاء ﴾

وأما بالتضعيف لقوله : ﴿ وذللناها لهم ﴾ وقوله : أي مذلولة يظهر أنه خطأ .

﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ : أمر بالتصرف فيها والاكتساب ؛ ومناكبها ، قال ابن عباس وقتادة وبشر بن كعب : أطرافها ، وهي الجبال .

وقال الفراء والكلبي ومنذر بن سعيد : جوانبها ، ومنكبا الرجل : جانباه .

وقال الحسن والسدي : طرفها وفجاجها .

قال الزمخشري : والمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجازوته الغاية ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنبأه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم ينزل . انتهى .

وقال الزجاج : سهل لكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل .

﴿ وإليه النشور ﴾ : أي البعث ، فسألكم عن شكر هذه النعمة عليكم .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

(189/775)

قرأ نافع وأبو عمرو والبزي : ﴿ أأمنتم ﴾ بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وأدخل أبو عمرو وقالون بينهما ألفاً ، وقنبل : بإبدال الأولى واواً لضمة ما قبلها ، وعنه وعن ورش أوجه غير هذه ؛ والكوفيون وابن عامر بتحقيقهما .

﴿ من في السماء ﴾ : هذا مجاز ، وقد قام البرهان العقلي على أن تعالى ليس بمتحيز في جهة ، ومجازه أن ملكوته في السماء لأن في السماء هو صلة من ، ففيه الضمير الذي كان في العامل فيه ، وهو استقر ، أي من في السماء هو ، أي ملكوته ، فهو على حذف مضاف ، وملكوته في كل شيء .

لكن خص السماء بالذكر لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأمره ونهيه ، أو جاء هذا على طريق اعتقادهم ، إذ كانوا مشبهة ، فيكون المعنى : أأمنتم من تزعمون أنه في السماء ؟ وهو المتعالي عن المكان .

وقيل : من على حذف مضاف ، أي خالق من في السماء .

وقيل : من هم الملائكة .

وقيل : جبريل ، وهو الملك الموكل بالخسف وغيره .

وقيل : من بمعنى على ، ويراد بالعلو القهر والقدرة لا بالمكان ، وفي التحرير : الاجماع منعقد على أنه ليس في السماء بمعنى الاستقرار ، لأن من قال من المشبهة والمجسمة أنه على العرش لا يقول بأنه في السماء .

﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ وهو ذهابها سفلاً ، ﴿ فإذا هي تمور ﴾ : أي تذهب أو تتموج ، كما يذهب التراب في الريح .

وقد تقدم شرح الحاصب في سورة الإسراء ، والنذير والنكير مصدران بمعنى الإنذار

والإنكار ، وقال حسان بن ثابت :

فأنذر مثلها نصحاً قريشا . . .

من الرحمن إن قبلت نذيرا

وأثبت ورش ياء نذيري ونكيري ، وحذفها باقي السبعة .

(190/775)

ولما حذرهم ما يمكن إحلاله بهم من الخسف وإرسال الحاصب ، نبههم على الاعتبار بالطير وما أحكم من خلقها ، وعن عجز آلهتهم عن شيء من ذلك ، وناسب ذلك الاعتبار بالطير ، إذ قد تقدمه ذكر الحاصب ، وقد أهلك الله أصحاب الفيل بالطير والحاصب الذي رمتهم به ، ففيه إذكار قريش بهذه القصة ، وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير ، كما فعل بأصحاب الفيل .

﴿ صافات ﴾ : باسطة أجنحتها صافتها حتى كأنها ساكنة ، ﴿ ويقبضن ﴾ : ويضممن الأجنحة إلى جوانبهن ، وهاتان حالتان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى . وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً فأثرن ﴾ عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى : فاللاتي أغرن صبحاً فأثرن ، ومثل هذا

العطف فصيح ، وعكسه أيضاً جائز إلا عند السهيلي فإنه قبيح ، نحو قوله :

بات يغشيها بغضب باتر . . .

يقصد في أسوقها وجائر

أي : قاصد في أسوقها وجائر .

وقال الزمخشري : ﴿ صافات ﴾ : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ، ﴿ ويقبضن ﴾ : ويضمنها إذا ضربن بها جنوبهن .

فإن قلت : لم قيل ﴿ ويقبضن ﴾ ، ولم يقل : وقابضات ؟ قلت : أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها .

وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السابح . انتهى .

وملخصه أن الغالب هو البسط ، فكأنه هو الثابت ، فعبر عنه بالاسم .

والقبض متجدد ، فعبر عنه بالفعل ب ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ : أي بقدرته .

قال الزمخشري : وبما دبر لهن من القوادم والخوافي ، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد يأتي منها الجري في الجو ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ : يعلم كيف يخلق وكيف يدبر

العجائب .

انتهى ، وفيه نزوع إلى قول أهل الطبيعة .

(191/775)

ونحن نقول : إن أثقل الأشياء إذا أراد إمساكها في الهواء واستعلاءها إلى العرش كان ذلك ، وإذا أراد إنزال ما هو أخف سفلاً إلى منتهى ما ينزل كان ، وليس ذلك معذوقاً بشكل ، لا من ثقل ولا خفة .

وقرأ الجمهور : ما يمسكهن مخففاً .

والزهري مشدداً .

وقرأ الجمهور : ﴿ من ﴾ ، بإدغام ميم أم في ميم من ، إذ الأصل أم من ، وأم هنا بمعنى بل خاصة لأن الذي بعدها هو اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء ، وهذا خبر ، والمعنى : من هو ناصركم إن ابتلاكم بعذابه ؛ وكذلك من هو رازقكم أن أمسك رزقه ، والمعنى : لا أحد ينصركم ولا يرزقكم .

وقرأ طلحة : أمن بتخفيف الميم ونقلها إلى الثانية كالجماعة .

قال صاحب اللوامح : ومعناه : أهذا الذي هو جند لكم ينصركم ، أم الذي يرزقكم ؟

فلفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه التقريع والتوبيخ . انتهى .

﴿ بل لجوا ﴾ : تمادوا ، ﴿ في عتو ﴾ : في تكبر وعناد ، ﴿ ونفور ﴾ : شراد عن الحق لثقله عليهم .

وقيل : هذا إشارة إلى أصنامهم .

﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه ﴾ ، قال قتادة نزلت مخبرة عن حال القيامة ، وأن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة .

وقيل للنبي (صلى الله عليه وسلم) : كيف يمشى الكافر على وجهه ؟ فقال : " إن الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه " فالمشي على قول قتادة حقيقة .

وقيل : هو مجاز ، ضرب مثلاً للكافر والمؤمن في الدنيا .

فقيل : عام ، وهو قول ابن عباس ومجاهد والضحاك ، نزلت فيهما .

وقال ابن عباس أيضاً : نزلت في أبي جهل والرسول عليه الصلاة والسلام .

وقيل : في أبي جهل وحمزة ، والمعنى أن الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه ، كالماضي في انخفاض وارتفاع ، كالأعمى يتعثر كل ساعة فيخر لوجهه .

وأما المؤمن ، فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان ، وكونه قد وضح له الحق ، كالماشي صحيح البصر مستوياً لا ينحرف على طريق واضح الاستقامة لا حزون فيها ، فآلة نظره صحيحة ومسلكه لا صعوبة فيه .

و﴿ مكباً ﴾ : حال من أكب ، وهو لا يتعدى ، وكب متعد ، قال تعالى : ﴿ فكبت وجوههم في النار ﴾ والهمزة فيه للدخول في الشيء أو للصيرورة ، ومطاوع كب انكب ، تقول : كببته فانكب .

وقال الزمخشري : ولا شيء من بناء افعل مطوعاً ، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه ، وكم من نص في كتاب سيبويه عمى بصره وبصيرته حتى أن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري وما جهله من نصوص كتاب سيبويه .

وأهدي : افعل تفضيل من الهدى في الظاهر ، وهو نظير : العسل أحلى أم الخل ؟ وهذا الاستفهام لا تراد حقيقته ، بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن الماشي سوياً على صراط مستقيم أهدى .

وانتصب ﴿ قليلاً ﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف ، وما زائدة ، وتشكرون مستأنف أو حال مقدرة ، أي تشكرون شكراً قليلاً .

وقال ابن عطية : ظاهر أنهم يشكرون قليلاً ، وما عسى أن يكون للكافرين شكر ، وهو قليل غير نافع .

وأما أن يريد به نفي الشكر جملة فعبر بالقلة ، كما تقول العرب : هذه أرض قلّ ما تنبت كذا ، وهي لا تنبته ألبتة . انتهى .

وتقدم نظير قوله والرد عليه في ذلك .

﴿ ذرأكم ﴾ : بثكم ، والحشر : البعث ، والوعد المشار إليه هو وعد يوم القيامة ، أي متى إنجاز هذا الوعد ؟ .

﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ : أي رأوا العذاب وهو الموعود به ، ﴿ زلفة ﴾ : أي قرباً ، أي ذا قرب .

وقال الحسن : عياناً .

وقال ابن زيد : حاضراً .

وقيل : التقدير مكاناً ذا زلفة ، فانتصب على الظرف .

﴿ سيئت ﴾ : أي ساءت رؤيته وجوههم ، وظهر فيها السوء والكآبة ، وغشيها السواد كمن يساق إلى القتل .

وأخلص الجمهور كسرة السين ، وأشمها الضم أبو جعفر والحسن وأبو رجاء وشيبة وابن وثاب وطلحة وابن عامر ونافع والكسائي .

﴿ وقيل ﴾ لهم ، أي تقول لهم الزبانية ومن يوبخهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ تدعون ﴾ بشد الدال مفتوحة ، فقيل : من الدعوى .

قال الحسن : تدعون أنه لا جنة ولا نار .

وقيل : تطلبون وتستعجلون ، وهو من الدعاء ، ويقوي هذا القول قراءة أبي رجاء والضحاك والحسن وقتادة وابن يسار عبد الله بن مسلم وسلام ويعقوب : تدعون بسكون الدال ، وهي قراءة ابن أبي عبلة وأبي زيد وعصمة عن أبي بكر والأصمعي عن نافع .

روي أن الكفار كانوا يدعون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بالهلاك .

وقيل : كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه ، فأمر أن يقول : ﴿ إن أهلكني الله ﴾ كما تريدون ، ﴿ أو رحمنا ﴾ بالنصر عليكم ، فمن يحميكم من العذاب الذي سببه كفركم ؟ ولما قال : ﴿ أو رحمنا ﴾ قال : ﴿ هو الرحمن ﴾ ، ثم ذكر ما به النجاة وهو الإيمان والتفويض إلى الله تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ فستعلمون ﴾ بتاء الخطاب ، والكسائي : بياء الغيبة نظراً إلى قوله : ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ ولما ذكر العذاب ، وهو مطلق ، ذكر فقد ما به حياة النفوس

وهو الماء ، وهو عذاب مخصوص .

والغور مشروح في الكهف ، والمعين في قد أفلح ، وجواب ﴿ إن أهلكني ﴾ : ﴿ فمن يجير ﴾ ، وجواب ﴿ إن أصبح ﴾ : ﴿ فمن يأتيكم ﴾ ، وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فقال : تجيء به الفوس والمعاويل ، فذهب ماء عينيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(194/775)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

التفسير : كثير خير من تحت تصرفه وتسخيره ﴿ الملك ﴾ الحقيقي ﴿ وهو على ﴾ إيجاد ﴿ كل ﴾ ممكن وإعدامه ﴿ قدير ﴾ بيانه أنه ﴿ خلق الموت والحياة ﴾ وهما عرضان يتعاقبان على كل من صح عليه ذلك . فالموت نظير الإعدام والحياة مثلا الإيجاد ، وتقديم الموت لأن الأصل في الأشياء العدم ، قال مقاتل : يعني كونه نطفة وعلقة ومضغة ثم نفخ فيه الروح .

وعن ابن عباس : الموت في الدنيا والحياة في الآخرة دار الحيوان ، وإن الله خلق الموت في

صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد رائحته شيء إلا مات ، وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي ، قال الحكماء الإسلاميون : هذا على سبيل التمثيل وإلا فالعرض لا يكون جوهراً .

(195/775)

أقول : لعل الأملح والبلقاء إشارة إلى أن هذين العرضين في عالمنا هذا لا يطرآن إلا على ما فيه طبائع متضادة فتكون بسبب ذلك تارة وتفقد أخرى . قال جار الله : إنما قدم الموت لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم . زعم الكلبي أنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد ، وقال أبو علي وأبو هاشم : إنه تعالى لا يقدر على عين مقدور العبد . وقالت الأشاعرة : إنه قادر على القبيلين وإلا لم يكن على كل شيء قدير وهو خلاف الآية فلزمهم صحة وجود مقدور بين قادرين وبهذا بطل القول بالطبائع على ما تقوله الفلاسفة ، وبالمتولدات على ما تقوله المعتزلة ، ويكون العبد موجد الأفعال نفسه . ومعنى الغاية في قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ أنه إذا علم أن وراء الموت حياة وحالة يستوي فيها الغني والفقير والمولى والعبد ولا ينفعه إلا ما قدم من خير صار ذلك داعياً إلى جسن العمل وزاجراً عن ضده . وكذا لو قيل : إن الموت حال

كونه نطفة والحياة نفخ الروح في الجنين فإنه إذا تفكر في أمور نفسه علم أن وراء هذه الحياة موتاً ينقطع به تدارك ما فات ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فلما بلغ قوله ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لقومه " لو أكثرتم ذكرها ذم اللذات لشغلكم عما أرى " والابتلاء مجاز كما مر في قوله ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ﴾ وفي الكهف قوله ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ مفعول ثاني ﴿ ليبلوكم ﴾ على أنه متضمن معنى العلم وليس هذا من باب التعليق لأن التعليق هو أن تكون الاستفهامية سادة مسد المفعولين جميعاً نحو " علمت أزيد منطلق " نعم إنه تعليق على قول الفراء والزجاج لأنهما قالا تقديره ليبلوكم فيعلم أيكم أحسن عملاً ﴿ وهو العزيز ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب من أهل الإساءة ، وهذان الوصفان

(196/775)

يتوقفان على كمال القدرة والعلم فلا جرم دل عليهما ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ أي ذات طباق أو طوبقت طباقاً أو هو وصف بالمصدر مبالغة أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا طار طارقها . ثم أشار إلى أنها محكمة متقنة بقوله ﴿ ما ترى في

خلق الرحمن من تفاوت ﴾ أو تفوّت قال الفراء : وهما واحد ومعناه يرجع إلى عدم التناسب والنظام بحيث يقول الناظر الفهم لو كان كذا لكان أحسن ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل راءٍ . والأصل ما ترى فيهن فعدل إلى العبارة الموجودة تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على أنه سبب تناسبهن كقوله " خلق الرحمن " .

(197/775)

فلو علم للمكلفين أنفع من هذا الخلق لفعل . وفسر بعضهم التفاوت بالفطور لقوله ﴿ هل ترى من فطور ﴾ أي صدوع وشقوق وخروق وفتور كل هذه من عبارات المفسرين وهو كقوله في أول " ق " ﴿ وما لها من فروج ﴾ [ق : 4] وإنما أمر برجع البصر لأن النظرة الأولى حمقاء ، ثم أمر بتكرير رجع البصر كرتين وهو تثنية الكرة مثل لبيك وسعديك إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من الخلل والعيب ، ومعنى ﴿ خاسئاً ﴾ بعيداً عن إصابة الملمس ، قوله ﴿ ولقد زينا ﴾ قد مر تفسيره في " حم السجدة " . والرجوم جمع رجم مصدر سمي به ما يرجم به . وقيل : معناه جعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم الأحكاميون من أهل التنجيم . وحين بين أنه أعد لهؤلاء عذاب السعير في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عمم الوعيد بقوله ﴿ وللذين

كفروا ﴾ الآية . ثم وصف جهنم بصفات منها أن ﴿ لها شهيقاً ﴾ تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بصوت الحمار . ويجوز أن يكون الشهيق لأهلها ممن تقدم طرحهم أو من أنفسهم ومنها الفوران . قال ابن عباس : تغلي بهم كغلي المرجل . وقال مجاهد : تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل . ويجوز أن يكون من فور الغضب يؤيده قوله ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ يقال فلان يتميز غيظاً وغضباً فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه ، ولعل السبب في هذا المجاز هو أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب ، والدم عند الغليان يصير أعظم حجماً ومقداراً فيمدد الأوعية حتى كادت تنشق وتنخرق ، فجعل ذكر هذا اللازم كناية عن شدة الغضب ، وقيل : الغيظ للزبانية احتجت المرجئة بقوله ﴿ كلما ألقي ﴾ الآية . على أنه لا يدخل النار إلا الكفار لأنه تعالى حكى عن كل من ألقي فيها أنه قال كذبنا النذير أجاب القاضي بأن النذير قد يطلق على ما في المقول من الأدلة المحذرة عن المعصية فيشمل الفاسق ، القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان إلا بعد

(198/775)

ورود الشرع. احتجوا بأنه تعالى ما عذبهم إلا بعد مجيء النذير. ثم حكى عن أهل النار أنهم يقولون للخزنة ﴿ لو كنا نسمع ﴾ الإنذار سماع من كان طالباً للحق أو نعقله عقل متأمل متفكر ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وإنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل واحتج بالآية من فضل السمع على البصر لأنه تعالى جعل مناط الفوز السمع ولم يذكر البصر القائل بأن الدين لا يتم إلا بالتعليم. احتج بأنه قدم السمع على العقل تنبيهاً على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي.

(199/775)

وأجيب بأن سبب التقديم هو أن المكلف لا بد أن يسمع قول الرسول ثم يتفكر فيه. قال في الكشاف: ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي، ثم قال في إبطاله كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم، وكأن من كان من هؤلاء فهو من الناجين لا محالة. قلت: الإنصاف أن نزول الآية قبل المذهبين لا ينافي توبيخ أهل النار يوم القيامة أنفسهم بأنهم على تلك السيرة، وكم من قصة قد أخبر الله بوقوعها من قبل أن تقع وهو أحد أنواع إعجاز القرآن وأيضاً لا يلزم من كونهما ناجمين كون غيرهما من أهل

الوعيد . وأيضاً على هذا التفسير لو صح يلزم كونهما من أهل النجاة قطعاً فينضم إلى المبشرين أفراد غير محصورة فضلاً عن حادي عشر فيكون دعوى انحصار المبشرين في العشرة مصادرة على المطلوب . والفاء في قوله ﴿ فاعترفوا ﴾ للنتيجة أي فصح بعد البيانات السابقة أنهم اعترفوا ﴿ بذنبهم ﴾ قال مقاتل : يعني تكذيبهم الرسل . قال الفراء : الذنب ههنا بمعنى الجمع لأن فيه معنى الفعل كما يقال : خرج عطاء الناس أي أعطيتهم . ثم بين أن ذلك الاعتراف مما لا ينفع قائلاً فيه ﴿ فسحقاً ﴾ أي فبعداً لهم عن رحمة الله اعترفوا أو جحدوا . والتخفيف والتثقيل لغتان والمعنى أسحقهم الله سحقاً . وقال أبو علي : إسحاقاً إلا أن المصدر جاء على الحذف كقولهم " عمرك الله " ثم أتبهم الوعيد الوعد قائلاً ﴿ إن الذين ﴾ الآية . وقد مر مراراً . ثم هدد على العموم فقال ﴿ وأسروا ﴾ وهو من التسرية وعلل ذلك بقوله ﴿ أنه عليم بذات الصدور ﴾ قال ابن عباس : كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيخبره جبرائيل فقالوا : أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد فأنزل الله الآية بياناً لجهلهم . ثم استدل على كمال علمه بنوع آخر قائلاً ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ومحل " من " رفع أي ألا يعلم من خلق مخلوقه ، وذلك أن خلق الشيء يتوقف

على معرفة تفاصيل كمياته وكيفياته من خلقه ، وجوز أن يكون " من " بمعنى " ما " ويكون إشارة إلى ما يسره الخلق ويجهرونه ويضمرونه في صدورهم ، وهذا يقتضي أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى . وقد يستدل بالوجهين الأولين أيضاً على ذلك لأن العبد لو كان موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها بناء على الآية . ولكنه غير عالم بتفاصيلها لأنه لا يعرف مقادير حركته وسكونه وكمية الجواهر الفردة الواقعة على مسافته ، بل لا يعرف الأسباب السابقة والغايات اللاحقة لا بكلها ولا بأكثرها في كل من أفعاله . وأنكر في الكشاف أن يكون قوله ﴿ ألا يعلم ﴾ متروك المفعول على تقادير كون " من " مرفوع المحل نحو " فلان يعطي " قال : لأن قوله ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ حال والشيء لا يوقت بنفسه فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ولكن ، ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء قلت : أما قوله ﴿ وهو اللطيف ﴾ حال فممنوع ولم لا يجوز أن يكون مستأنفاً ، وعلى تقدير تسليمه فليس معنى قوله ﴿ ألا يعلم ﴾ متروك المفعول على تقدير كون " من " مرفوع المحل حتى يلزم توقيت الشيء بنفسه ، بل المعنى ألا يتصف الخالق بالعلم والحال أن علمه وصل إلى بواطن الأشياء وخبايا الأمور .

(201/775)

وذلك أن المتصف بالأخص متصف بالأعم ضرورة . قوله ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ﴾ قال أهل النظم : وجه التعلق أنه سبحانه وتعالى قال : أيها الكافرون أنا عالم بسركم وجهركم فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم أنا الذي ذللتها لكم وإن شئت خسفت بكم إياها ، والذلول من كل شيء المناقد الذي يذل لك ، ومن ذلها أنه ما جعلها خشنة يمتنع المشي عليها ، ولا صلبة بحيث لا يمكن حفرها والبناء عليها ، ولا متحركة على الاستقامة واستدارة ، بل جعلها ساكنة في جو الهواء عند المركز . قال جار الله : المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل لأن ملتقى المنكبين من الغارب أبعد شيء من أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا كان هذا الموضع ذلولاً فما ظنك بغيره ، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة أن مناكب الأرض جبالها وآكامها ، وإذا كانت هذه الأمكنة مع شخوصها وارتفاعها مذللة فغيرها أولى . قال الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس واختاره الفراء وابن قتيبة : أن مناكبها جوانبها وطرقها ، ومنكبا الرجل جانباه فيكون كقوله ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ [نوح : 19 ، 20] ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ الذي خلق لكم في الأرض ولا يخفى أن الأمر بالمشي والأكل للإباحة . ثم قال ﴿ وإليه النشور ﴾ يعني ينبغي أن يكون مشيكم في الأرض وأكلكم من رزق الله مشي من يعلم وأكل من يتيقن أن المصير إلى الله ،

والمراد التحذير من المعاصي سراً وجهراً . ثم بين أن بقاءهم سالمين على هذه الأرض إنما هو بفضل الله ولو شاء لخسف بهم الأرض أو أمطر عليهم مطر القهر ، واستدلال المشبهة بقوله ﴿ من في السماء ﴾ ظاهر . وأهل السنة يتأولونه بوجوه منها : قول أبي مسلم أن العب كانوا يقرون بوجود الإله لكنهم يزعمون أنه في السماء فقيل لهم على حسب اعتقادهم ﴿ أأمنتم من ﴾ تزعمون أنه ﴿ في السماء ﴾

(202/775)

ومنها قول جمع من المفسرين أأمنتم من السماء ملكوته أو سلطانه أو قهره لأن العادة جارية بنزول البلاء من السماء . ومنها قول آخرين أن المراد جبرائيل يخسف بهم الأرض بأمر الله والمور حركة في اضطراب وقد مر في " الطور " .

(203/775)

والحاصل ريح فيها حصباء وقد مر أيضاً . ثم هدد وأوعد قائلاً ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ قال عطاء والضحاك عن ابن عباس : هو المنذر يعني محمداً صلى الله عليه وسلم

والمعنى فستعلمون رسولي وصدقه حين لا ينفعكم ذلك . وقيل : بمعنى الإنذار أي عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول ، ثم مثل بحال الأمم السابقة . قال أبو مسلم : النكير عقاب المنكر . وقال الواحدي : أراد إنكاري وتغييري . ثم برهن على الوحدانية وكمال القدرة بوجوه : الأول ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ أي باسطات أجنحتهن لأنهم إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً . قال أهل المعاني : وإنما قيل ﴿ ويقبضن ﴾ دون " قابضات " على نحو " صافات " لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في كل منهما مد الأطراف وبسطها ، والقبض طارىء على البسط لأجل الإعانة فالمعنى أنهن صافات ويكون منهن القبض في بعض الأوقات كما يكون من السابح . وإنما قال في " النحل " ﴿ ما يمسكهن إلا الله ﴾ [الآية : 79] وفي هذه السورة ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ لأن التسخير في جو السماء محض الآلهية ، وأما صافات وقابضات فكان إلهامها كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن . ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ فيعلم أو يرى كيف يدبر العجائب . قالوا وفي الآية دليل على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله تعالى ، لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري لها وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه ، ثم إن الكفار كانوا يمتنعون من الإيمان ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول وكان تعويلهم على أمرين : أحدهما القوة من جهة الإخوان والأعوان . والثاني الاستظهار بالأصنام والأوثان وكانوا يقولون إنها توصل إلينا جميع الخيرات وتدفع عنا كل الآفات ،

فأبطل الله الأول بقوله ﴿ أمن هذا الذي ﴾ يعني من يشار إليه من المجموع ويقال هذا الذي ﴿ هو جند لكم ﴾ هو ﴿ ينصركم من دون الرحمن ﴾ إن أرسل عذابه عليكم ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ من

(204/775)

الشياطين يغرونهم أن العذاب لا ينزل بهم ولو أنزل دفعه أصنامهم وأبطل الثاني بقوله ﴿ أمن هذا الذي ﴾ يشار إليه هذا الذي ﴿ يرزقكم ﴾ بزعمكم ﴿ إن أمسك ﴾ الله ﴿ رزقه ﴾ بإمساك أسبابه من المطر وغيره هل يقدر على رزقكم ﴿ بل لجوا في عتو ﴾ وتباعد عن الحق ﴿ ونفور ﴾ عنه بالطبع والأول دليل فساد القوة العلمية ، والثاني إشارة إلى فساد القوة النظرية . ثم نبه على قبح هذين الوصفين قائلاً ﴿ أفمن يمشي مكباً ﴾ قال الواحدي " أكب " مطاوع " كب " . وأنكر عليه صاحب الكشاف بأن مطاوع " كب " هو " انكب " ومثله " قشعت الريح السحاب فانقشع " وأما الهمزة في " أكب " و " أقشع " فللصيرورة أي صار ذا كب وقشع ، أو دخل فيهما ولا شيء من بناء أفعل مطاوعاً ولا يخفى أن هذا نزاع لفظي ، أما المثل فقيل : هو في حق راكب التعاسيف وفي الذي يمشي على الصراط السوي وقيل : هو الأعمى والبصير أو العالم والجاهل .

وعن قتادة : الكافر أكب على معاصي الله فحشره يوم القيامة على وجهه ، والمؤمن كان على الدين الواضح فهداه الله للطريق السوي إلى الجنة . ومنهم من قال : هو في شخصين فقال مقاتل : أبو جهل والنبي صلى الله عليه وسلم وقال عطاء عن ابن عباس : أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب . وعن عكرمة : أبو جهل وعمار بن ياسر . والأصح التعميم وإن كان السبب خاصاً . البرهان الثاني ابتداء خلق الإنسان وتبيين جوارحه . وفي قوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ إشارة إلى أنه أعطاهم هذه القوى الشريفة ولكنهم ضيعوها في غير ما خلقت لأجله . البرهان الثالث ذرء الناس ونشرهم ﴿ في الأرض ﴾ ثم أشار إلى المعاد بقوله ﴿ وإليه تحشرون ﴾ لأن القادر على البدء أقدر على الإعادة وقد مر نظير الآيتين في سورة " المؤمنين " . وحين أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار أنهم طالبوه بتعيين الوقت . قال أبو مسلم : المراد كانوا ﴿ يقولون متى هذا الوعد ﴾ يعني العذاب النازل بعاد وثمود وغيرهما لقوله بعد ذلك ﴿ فلما رأوه ﴾ ومن حمل اللفظ على المستقبل وفسر الوعد بالقيامة كان قوله ﴿ فلما رأوه ﴾ من قبيل ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 72] وأجابهم الله بقوله ﴿ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير

مبين ﴾ العلم بوقوعه حاصل عندي وكان كافياً الإنذار والتحذير ، وأما العلم بوقته فليس إلا لله ولا حجة في النذارة إلى ذلك . والضمير في ﴿ رأوه ﴾ للوعيد في الدنيا أو في الآخرة والزلفة القرب . قال الحسن : أراد عياناً لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة . وقال في الكشاف : انتصابها على الحال أو الظرف أي رأو ذا زلفة أو مكاناً ذا زلفة . قوله ﴿ سيئت ﴾ قال ابن عباس : اسودت وعلتها الكآبة والقترة كوجه من يقاد إلى القتل . وقال الزجاج : تبين فيها السوء وهذا الفعل يستعمل لازماً ومتعدياً بمعنى القبح أو التقبيح . قوله ﴿ وقيل هذا الذي ﴾ الأكثرون على أن القائلين هم الزبانية . وقال آخرون : بل يقول

بعضهم لبعض . و ﴿ تدعون ﴾ تفعلون من الدعاء أي تتمنون وتستعجلون به ويؤيده قراءة من قرأ بالتخفيف . وقيل : هو من الدعوى أي كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون وكنتم ببطلانه مدعين . وقيل : استفهام على سبل الإنكار والمعنى ، أهذا ما ادعيتموه لا بل كنتم بسببه تدعون عدمه . يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين . بالهلاك ويتربصون بهم الدوائر فأمر الله بنوعين من الجواب الأول . ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي ﴾ كما تتمنون فنقلب إلى الجنة ﴿ أو

رحمنا ﴾ بالنصرة وإمهال المدة كما نرجو ﴿ فمن يجير الكافرين من عذاب ﴾ النار فنحن متربصون لإحدى الحسنيين وأنتم هالكون بالهلاك الذي لا هلاك بعده ، وإن أهلكنا الله بالموت فمن يخلصكم من النار بعد موت هداتكم ؟ وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم فمن ينجيكم من العذاب فإن المقتول على أيدينا هالك ؟ وإن أهلكنا الله في الآخرة بذنوبنا ونحن له مسلمون فأي خلاص ومناص للكافرين ؟ وإن رحمنا لأجل الإيمان فمن يرحم الكافرين ولا إيمان لهم ؟ النوع الثاني في الجواب ﴿ قل هو الرحمن آمنا به ﴾ ولم نكفر كما كفرتم ﴿ وعليه ﴾ خاصة ﴿ توكلنا ﴾ لا على غيره ، وفيه تعريض بالكفرة أنهم متكلون على الرجال والأموال وإذا كانت حالنا هكذا فكيف يقبل الله دعاءكم علينا ؟ ثم أشار إلى وجوب الاعتماد عليه في كل حاجة مع أنه برهان آخر على كمال قدرته ووحدانيته فقال ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ أي غائراً مصدر بمعنى الفاعل للمبالغة .

(207/775)

عن الكلبي : لا تناله الدلاء . والمعين الجاري على وجه الأرض وقد ذكرنا الخلاف في اشتقاقه في " الصافات " . يحكى أن بعض المتجبرين على الله قرئت الآية عنده فقال :

تأتينا به الفؤس والمتكل فذهب ماء عينيه وهذا من الإعجاز . قال مؤلف الكتاب :

وحكم القريحة كذلك فإن فتح باب العويصات لا يتيسر إلا بإعانة رب الأرض والسموات والله الموفق وإليه المآب وبالله التوفيق والنصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 324. 331 ﴾

(208/775)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الملك

مكية وتسمى : الواقية والمنجية ، وتدعى في التوراة المانعة لأنها تقي وتنجي من عذاب القبر ، وعن ابن شهاب أنه كان يسميها المجادلة لأنها تجادل عن صاحبها في القبر . وهي ثلاثون آية وثلاثمائة ، وثلاثون كلمة ، وألف وثلاثمائة حرف .

﴿ بسم الله ﴾ الذي خضعت لكمال عظمته الملوك ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمة الإيجاد كل من في الوجود ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بالنعيم بدار الخلود .

﴿ تبارك ﴾ ، أي : تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتاً لا مثل له مع اليمن والبركة ، وقيل : دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه ﴿ الذي بيده ﴾ أي : بقدرته

وتصرفه لا بقدرة غيره ﴿ الملك ﴾ ، أي : له الأمر والنهي وملك السموات في الدنيا والآخرة ، وقال ابن عباس : بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ويحيي ويميت ويغني ويفقر ويعطي ويمنع . قال الرازي : وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكاً ومالكاً كما يقال : بيد فلان الأمر والنهي والحل والعقد ، وذكر اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام القدرة ؛ لأنها محلها مع التنزه عن الجارحة وعن كل ما يفهم حاجة أو شبهها ﴿ وهو على كل شيء ﴾ ، أي : من الممكنات ﴿ قدير ﴾ أي : تام القدرة .

(209/775)

تنبيه : احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يؤثر إلا قدرة الله تعالى ، وأبطلوا القول بالطبائع كقول الفلاسفة ، وأبطلوا القول بالتولدات كقول المعتزلة ، وأبطلوا القول بكون العبد موجداً لأفعال نفسه لقوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ودلت هذه الآية على الوحدانية لأنا لو قدرنا إلهاً ثانياً فإمّا أن يقدر على إيجاد شيء أو لا ، فإن لم يقدر على إيجاد شيء لم يكن إلهاً وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثاني شيئاً فيلزم كون ذلك الشيء مقدوراً للإله الأول لقوله : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ فيلزم وقوع مخلوق من خالقين وإنه محال ، لأنه إذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد يلزم أن يستغني كل واحد منهما عن كل واحد

منهما فيكون محتاجاً إليهما وغنياً عنهما وذلك محال . وقرأ : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ ﴿ وهو اللطيف ﴾ وما أشبه ذلك أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها ، وخرج بقولنا من الممكنات أنه تعالى ليس قادراً على نفسه ، وأجاب بعضهم بأن هذا عام مخصوص .

ودل على تمام قدرته قوله تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ أي : قدر وأوجد ﴿ الموت والحياة ﴾ قيل : خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، وقدم الموت على الحياة لأنّ الموت إلى القهر أقرب كما قدم البنات على البنين فقال : ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ (الشورى :)

(210/775)

وقيل : قدمه لأنه أقدم ، لأنّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطف والتراب ونحوه . وقال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء" وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت" وقيل : إنما قدم الموت على الحياة لأن من نصب الموت بين عينيه كان أقوى

الدواعي إلى العمل ، وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل أنّ الموت والحياة جسمان ، والموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء وهي التي كان جبريل عليه السلام والأنبياء عليهم السلام يركبونها خطوتها مدّ البصر فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشيء ولا يجد ريحها إلا حيي ولا تطأ على شيء إلا حيي وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي ، حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس .

(211/775)

وعن مقاتل : ﴿ خلق الموت ﴾ يعني : النطفة والعلقة والمضغة ، وخلق الحياة يعني : خلق إنساناً فنفخ فيه الروح فصار إنساناً . قال القرطبي : وهذا حسن يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم ﴾ أي : يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملة المختبر لإظهار ما عندكم من العمل بالاختبار ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ أي : من جهة العمل ، أي : عمله أحسن من عمل غيره ، وروي عن عمر مرفوعاً : "أحسن عملاً أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله" وقال الفضيل بن عياض : أحسن عملاً أخلصه وأصوبه وقال : العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على

السنة ، وقال الحسن : أيكم أزهد في الدنيا وأترك لها ، وقال السدي : أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن استعداداً وأشد خوفاً وحذراً . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر ، فيبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره وبالحياة ليبين شكره ، وقيل : خلق الله تعالى الموت للبعث والجزاء وخلق الله الحياة للابتلاء .

فإن قيل : الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي وذلك في حق الله تعالى العالم بجميع الأشياء محال . أجيب : بأن الابتلاء من الله تعالى هو أن يعامل عبده معاملة تشبه المختبر كما مرّت الإشارة إليه .

﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الغفور ﴾ أي : الذي مع ذلك يفعل في محو الذنوب عيناً وأثراً فعل المبالغ في ذلك ، ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلق كما قال تعالى في الحديث القدسي : "ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" .

(212/775)

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ ، أي : أبدع على هذا التقدير من غير مثال سبق ﴿ سبع سموات ﴾ يجوز أن يكون تابعاً للعزيز الغفور نعتاً أو بياناً أو بدلاً ، وأن يكون منقطعاً عنه

خبر مبتدأ محذوف أو مفعول فعل مقدر . وقوله تعالى : ﴿ طباقاً ﴾ صفة لسبع وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه جمع طبق نحو جبل وجبال . والثاني : أنه جمع طبقة نحو : رحبة ورحاب ، والثالث : أنه مصدر طابق ، يقال : طابق مطابقة وطباقاً . ثم إما أن يجعل نفس المصدر مبالغة وإما على حذف مضاف ، أي : ذات طباق وإما أن ينتصب على المصدر بفعل مقدر ، أي : طوبقت طباقاً من قولهم : طابق النعل ، أي : جعله طبقة فوق طبقة أخرى . وروي عن ابن عباس : طباقاً أي : بعضها فوق بعض ، قال البقاعي : بحيث يكون كل جزء منها مطابقاً لجزء من الأخرى ولا يكون جزء منها خارجاً عن ذلك قال : وهي لا تكون كذلك إلا أن تكون الأرض كرة والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة من جميع الجوانب ، والثانية : محيطة بالدنيا وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكلّ .

والكرسي الذي هو أقربها بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة فما ظنك بما تحته ؟ وكل سماء في التي فوقها بهذه النسبة ، وقد قرر أهل الهيئة أنها كذلك وليس في الشرع ما يخالفه بل ظواهره توافقه ولا سيما التشبيه بالحلقة الملقاة في فلاة فسبحان اللطيف الخبير ، ولا شك أن من تفكر في هذه العظمة مع ما لطف بنا فيما هيأ فيها لنا من المنافع آثره سبحانه بالحب وأفرده عن كل ضد فانقطع باللجا إليه ولم يعول إلا عليه في كل دفع ونفع وسارع في مرضاته ومحابه في كل خفض ورفع .

تنبيه : دلت هذه الآية على القدرة من وجوه : أحدها : من حيث بقاؤها في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة . ثانيها : أنّ كلاً منها اختص بحركة خاصة متقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معنية . ثالثها : كونها في ذاتها محدثة وكل ذلك يدل على إسنادها إلى قادر تام القدرة .

(213/775)

وقوله تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن ﴾ أي : للسموات ولغيرها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب ، وكذا القول في قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر ﴾ ﴿ ثم ارجع البصر ﴾ ﴿ ينقلب إليك البصر ﴾ ﴿ من تفاوت ﴾ ، أي : من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها وإن اختلف صورة ، وقيل : المراد بذلك السموات خاصة ، أي : ما ترى في خلق السموات من عيب وأصله من الفوت وهو : أن يفوت بعضها بعضاً فيقع الخلل لعدم استوائها يدل عليه قول ابن عباس : من تفرّق ، وقال السدي : أي من اختلاف وعيب يقول الناظر : لو كان كذا لكان أحسن ، وقيل : المراد من التفاوت الفطور لقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وما لها من فروج ﴾ (ق :) قال القفال : ويحتمل أن يكون المعنى : ما ترى في

خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكم الصانع وأنه لم يخلقها عبثاً .

تنبيه : دلت هذه الآية على كمال علم الله تعالى ، وذلك أن الحس دل على أن هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فلا بدّ وأن يكون عالماً فدلت الآية على كونه تعالى عالماً بالمعلومات فقوله تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ إشارة إلى كونها محكمة متقنة .

وقرأ : ﴿ ما ترى ﴾ و ﴿ هل ترى ﴾ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ، وأدغم لام هل في التاء أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي ، وقرأ من تفوت حمزة والكسائي بغير ألف بعد الفاء وتشديد الواو والباقون بألف بعد الفاء وتخفيف الواو .

وقوله تعالى : ﴿ فارجع البصر ﴾ مسبب عن قوله تعالى : ﴿ ما ترى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هل ترى من فطور ﴾ جملة يجوز أن تكون معلقة لفعل محذوف يدل عليه فارجع البصر ، أي : فارجع البصر فانظر هل ترى ، وأن يكون فارجع البصر مضمناً معنى انظر لأنه بمعناه فيكون هو المعلق .

والفطور جمع فطر وهو الشق يقال : فطره فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير كما يقال : شق ومعناه شق اللحم وطلع ، قال المفسرون : الفطور : الصدوع والشقوق قال القائل:

*شققت القلب ثم ذرأت فيه ** هواك فليط فالتام الفطور*

﴿ ثم ارجع البصر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كرتين ﴾ نصب على المصدر كمرتين وهو مثنى لا يراد به حقيقته بل التكثير بدليل قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ ، أي : صاغراً ذليلاً بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿ وهو حسير ﴾ ، أي : كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة ، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين ولا ثلاث ، وإنما المعنى : كرات ، وهذا كقولهم : لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك وهذاذيك ؛ لا يريدون بهذه التثنية تشفيع الواحد إنما يريدون التكثير ، أي : إجابة لك بعد إجابة وإلا لتناقض الغرض ، والتثنية تفيد التكثير لقرينة كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة كقوله:

لو عد قبر وقبر كنت أكرمه

أي : قبور كثيرة ليتم المدح ، وقال ابن عطية : كرتين معناه مرتين ونصبهما على المصدر . وقيل : الأولى : ليرى حسنها واستواءها ، والثانية : ليبصر كواكبها في مسيرها وانتهائها وهذا بظاهره يفهم التثنية فقط ، وروى البغوي عن كعب أنه قال : السماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية : مرمرة بيضاء ، والثالثة : حديد ، والرابعة : صفر أو قال : نحاس ،

والخامسة : فضة ، والسادسة : ذهب ، والسابعة : ياقوتة حمراء ، وبين السماء السابعة والحجب السبعة صحارى من نور .

(215/775)

ثم ذكر تعالى دلالة أخرى بعد تلك الدلالة تدل على تمام قدرته بقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ السماء الدنيا ﴾ أي : القربى لأنها أقرب السموات إلى الأرض وهي التي تشاهدونها ﴿ بمصابيح ﴾ جمع مصباح وهو السراج أي : بنجوم متقدة عظيمة جداً تفوت الحصر ظاهرة سائرة مضيئة ظاهرة زاهرة وهي الكواكب التي تنوّر الأرض بالليل إنارة السرج التي تنوّرون بها سقوف دوركم ، وسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها وزينة لأن الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح ، فكأنه قال : ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح والتزين بها لا يمنع أن تكون مركوزة فيما فوقها من السماوات وهي تتراءى بحسب الشفوف وبما لأجرام السماوات من الصفاء ولتلك المصابيح من شدة الإضاءة .

﴿ وجعلناها ﴾ أي : المصابيح بما لنا من العظمة مع كونها زينة وإعلاماً للهداية ﴿ رجوماً للشياطين ﴾ أي : الذين يحق لهم الطرد من الجن لما لهم من الاحتراق حراسة للسماء التي

هي محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر ، وإنزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع فيها على الناس دينهم الحق ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذي قد ختمنا به الأديان بالباطل .

والرجوم جمع رجم وهو مصدر في الأصل أطلق على المرجوم به كضرب الأمير ، ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته ، ويقدر مضاف ، أي : ذات رجوم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه ، والشهاب المرجوم به منفصل من نار الكوكب وهو قارّ في فلكه على حاله كقبس النار يؤخذ منها وهي باقية لا تنقص ، وذلك مسوغ لتسميتها بالنجوم فمن لحقه الشهاب منهم قتله أو ضعضع أمره وخبله ، وقال أبو علي جواباً لمن قال : كيف تكون زينة وهي رجوم ؟ : لا تنفي كيفية الرجم أن يؤخذ نار من ضوء الكوكب يرمى بها الشيطان والكوكب في مكانه لا يرجم به ، وقيل : الرجوم هنا الظنون والشياطين شياطين الإنس كما قال القائل:

وما هو عنها بالحديث المرجم

(216/775)

فيكون المعنى : جعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون يتكلمون بها رجماً بالغيب في أشياء من عظيم الابتلاء ، وعن قتادة : خلقت النجوم لثلاث : زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وتكلف ما لا علم له به وتعدى وظلم .

﴿ وأعتدنا ﴾ أي : هيأنا في الآخرة مع هذا الذي في الدنيا بما لنا من العظمة ﴿ لهم ﴾ أي : للشياطين ﴿ عذاب السعير ﴾ أي : التي في غاية الاتقاد في الآخرة قال المبرد : سعرت النار فهي مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، وهذه الآية تدل على أن النار مخلوقة الآن لأن قوله تعالى : ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ خبر عن الماضي .

ولما أخبر تعالى عن تهيئة العذاب لهم بالخصوص أخبر عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال عز من قائل : ﴿ وللذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الإذعان للإله ﴿ بربهم ﴾ أي : الذي تفرد بإيجادهم والإحسان إليهم فأنكروا إيجاده لهم بعد الموت كفراً بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم ﴿ عذاب جهنم ﴾ أي : الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب ﴿ وبئس المصير ﴾ أي : هي .

﴿ إذا ألقوا ﴾ أي : طرح الكفار ﴿ فيها ﴾ أي : في نار جهنم من أيّ طارح أمرناه بطرحهم كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿ سمعوا لها ﴾ أي : جهنم نفسها ﴿ شهيقاً ﴾ أي :

صوتاً هائلاً أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها ، قال ابن عباس : الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها كشهيق البغلة للشعير أو لأهلها على حذف مضاف كما قال عطاء : الشهيق للكفار ، أي : سمعوا من أنفسهم شهيقاً كقوله تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ (هود :) قال القرطبي : الشهيق في الصدر ، والزفير في الحلق وقد مضى في سورة هود . ﴿ وهي تفور ﴾ أي : تغلي بهم ومنه قول حسان:

*تركتم قدركم لا شيء فيها ** وقدر القوم حابية تفور*

(217/775)

قال ابن عباس : تغلي بهم كغلي المراجل ، وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها .

﴿ تكاد تميز ﴾ أي : تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال : يكاد فلان ينشق من غيظه ، وفلان غضب فطارت شقة منه في الأرض وشقة في السماء ، كناية عن شدة الغضب . وقرأ البزي بتشديد التاء من تميز في الوصل ، والسوسي على أصله بإدغام الدال في التاء ﴿ من الغيظ ﴾ أي : عليهم ، وقال سعيد بن جبير : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ يعني : ينقطع وينفصل بعضها من بعض ، وقال ابن عباس : تتمزق من شدة الغيظ على

أعداء الله تعالى وذلك كله لغضب سيدها ، وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك يقودونها به ، وهي من شدة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الأزمة جميعاً وتحطم أهل المحشر فلا يردها عنهم إلا النبي صلى الله عليه وسلم يقابلها بنوره فترجع مع أن لكل ملك من القوة ما لو أمر أن يقلع الأرض وما عليها من الجبال ويصعد بها في الجو فعل من غير كلفة ، وهذا كما أطفأها في الدنيا بنفخه ، روى أبو داود عن ابن عمر أنه قال : "انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر صلاته إلى أن قال : ثم نفخ في آخر سجوده فقال : أف أف ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون" . ٧

ولما ذكر تعالى حالها أتبعه حالهم فقال تعالى : ﴿كلما ألقي فيها ﴾ أي : في جهنم بدفع الزبانية لهم ﴿فوج ﴾ أي : جماعة في غاية الإسراع ، والأفواج الجماعات في تفرقة ومنه قوله تعالى : ﴿فتأتون أفواجاً ﴾ (النبأ :) والمراد هنا بالفوج جماعة من الكفار ﴿سألهم ﴾ أي : ذلك الفوج ﴿خزنتها ﴾ أي : النار وهم مالك وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع ﴿ألم يأتكم ﴾ أي : في الدنيا ﴿نذير ﴾ أي : رسول يخوفكم هذا اليوم حتى تحذروا . قال الزجاج : وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب .

﴿ قالوا بلى ﴾ قرأه حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح والوقف عليها كما في الوصل ﴿ قد جاءنا نذير ﴾ أي : محذر بليغ التحذير .

تنبيه : في ذلك دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها إذ لو قالوا : بلى لفهم المعنى ، ولكنهم أظهروه تحسراً وزيادة في نقمتهم على تفريطهم في قبول قول النذير وليعطفوا عليه قولهم ﴿ فكذبنا ﴾ أي : فتسبب عن مجيئه أنا أوقعنا التكذيب بكل ما قاله النذير ﴿ وقلنا ﴾ أي : زيادة في التكذيب ﴿ ما نزل الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله عليكم ولا على غيركم ﴿ من شيء ﴾ لا وحياً ولا غيره وما كفانا هذا الفجور حتى قلنا مؤكدين : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أنتم ﴾ أي : أيها النذر المذكورون في نذير ، المراد به الجنس ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي : بعد عن الطريق ﴿ كبير ﴾ فبالغنا في التكذيب والسفه بالاستجهال والاستخفاف . وقيل : قوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب .

﴿ وقالوا ﴾ أي : الكفار زيادة في توبيخ أنفسهم ﴿ لو كنا ﴾ أي : بما لنا من الغريزة ﴿ نسمع ﴾ أي : كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات ﴿ أو نعقل ﴾ أي : بما أدته إلينا حاسة السمع فنفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين ﴿ ما كنا ﴾ أي : كونا دائماً ﴿ في أصحاب السعير ﴾ أي : في

عداد من أعدت له النار التي هي في غاية الإيقاد .

تنبيه : في الآية أعظم فضيلة للعقل ، روي عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ﴾ " الآية

(219/775)

﴿ فاعترفوا ﴾ أي : بالغوا في الاعتراف حيث لا ينفعهم الاعتراف ﴿ بذنبهم ﴾ أي : في دار الجزاء كما بالغوا في التكذيب في دار العمل ، والذنب لم يجمع لأنه في الأصل مصدر والمراد به تكذيب الرسل ﴿ فسحقاً ﴾ أي : فبعداً لهم من رحمة الله تعالى وهو دعاء عليهم مستجاب ﴿ لأصحاب السعير ﴾ أي : الذين قضت عليهم أعمالهم بملازمتها ، وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد في جهنم يقال : له السحق ، وقرأ الكسائي بضم الحاء والباقون بسكونها .

ولما ذكر أصحاب السعير أتبعهم ذكر أضدادهم بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ﴾ أي : يخافون ﴿ ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم خوفاً أرق قلوبهم وأرق أعينهم بحيث لا يقر لهم قرار من توقعهم العقوبة كلما ازدادوا طاعة ازدادوا خشية ﴿ يؤتون ما آتو وقلوبهم وجلة ﴾

(المؤمنون :) . ﴿ بالغيب ﴾ أي : حال كونهم غائبين عن عذابه سبحانه ، أو وعيده غائباً عنهم أو وهم غائبون عن أعين الناس فهم مع الناس يتكلمون وقلوبهم تتلظى بنيران الخوف وتتكلم بسيوف الهيبة فيتركون المعصية حيث لا يراهم أحد من الناس ولا يكون لهم هذا إلا برياضة عظيمة ، فعلى العاقل أن يطوع نفسه لترجع مطمئنة بأن ترضى بالله رباً لتدخل في رق العبودية ، وبالإسلام ديناً ليصير غريقاً فيها ، فلا ينازع الملك في ردائه الكبرياء وإزاره العظمة وتاجه الجلال وحلته الجمال ، ولا ينازعه فيما يدبره من الشرائع ويظهره من المعارف ويحكم به على عبيده من قضائه وقدره . ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي : عظيمة تأتي على جميع ذنوبهم ﴿ وأجر ﴾ أي : من فضل الله تعالى ﴿ كبير ﴾ يكون لهم به من الإكرام ما ينسيهم ما قاسوه في الدنيا من شدائد الإيلام ويصغر في جنبه لذائذ الدنيا العظام .

(220/775)

﴿ وأسروا ﴾ أي : أيها الخلائق ﴿ قولكم ﴾ أي : خيراً كان أو شراً ﴿ أو اجهروا به ﴾ فإنه يعلمه ويجازيكم به ، اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر ، يعني : إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره أو جهرتم به فسواء ﴿ إنه ﴾ أي : ربكم ﴿ عليم ﴾

أي : بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي : بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها من الخير والشر وقال ابن عباس : "نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام فقال : بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد" . فأسروا قولكم أو اجهروا به يعني : وأسروا قولكم في محمد صلى الله عليه وسلم وقال غيره : إنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال ، والمراد أن قولكم وعملكم على أيّ سبيل وجد فالحال واحد في علمه تعالى ، فاحذروا من المعاصي سراً كما تحذرون عنها جهراً فإنّ ذلك لا يتفاوت بالنسبة إلى علم الله تعالى .

(221/775)

ولما قال تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ ذكر الدليل على أنه عالم فقال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ أي : من خلق لا بدّ وأن يكون عالماً بما خلقه ، لأن الخلق هو الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشيء لابد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية . والمعنى : ألا يعلم السر من خلق السر ، يقول : أنا خلقت السر في القلب أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد ، قال أهل المعاني : إن شئت جعلته من أسماء الخالق تعالى ويكون المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه ، وإن شئت جعلته من أسماء المخلوق

والمعنى : ألا يعلم الله من خلقه ، ولا بد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه قال ابن المسيب : بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع في نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق فنودي من جانب الغيضة بصوت عظيم ألا يعلم من خلق ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه هو ﴿ اللطيف ﴾ الذي يعلم ما بثه في القلوب ﴿ الخبير ﴾ أي : البالغ العلم بالظواهر والبواطن فكيف يخفى عليه شيء من الأشياء .

وقال أبو إسحاق الاسفرايني : من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات ، ومنها الحكيم ، ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف ، ومنها الشهيد ، ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه أن لا يغيب عنه شيء ، ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى شيئاً ، ومنها المحصي ويختص بأنه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

(222/775)

ولما كان هذا أمراً غامضاً دل عليه بأمر مشاهد أبدعه بلطفه وأتقنه بخبره فقال مستأنفاً : ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي جعل لكم الأرض ﴾ على سعتها وعظمتها وحزونة كثير

منها ﴿ ذلولاً ﴾ أي : مسخرة لا تمتنع لتتوصلوا إلى منافعكم فيها قابلة للانقياد لما تريدون منها من مشي وزرع حبوب وغرس أشجار وغير ذلك ، وقيل : ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها ولو كانت متمايلة لما كانت منقادة لنا ، وقيل : لو كانت مثل الذهب والحديد لكانت تسخن جداً في الصيف وتبرد جداً في الشتاء .

تنبيه : في ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدمة تهديد للكفرة كقول السيد لعبده الذي أساء إليه سراً : يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها لك ، وكل هذا الخبز الذي هيأته لك ولا تأمن مكري وتأديبي ، فكأنه تعالى يقول : يا أيها الكفار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم فخافوني فإن الأرض التي هي قراركم أنا ذللتها لكم ولو شئت خسفت بكم .

(223/775)

وقوله تعالى : ﴿ فامشوا ﴾ ، أي : الهوينا مكتسبين وغير مكتسبين إن شئتم من غير صعوبة توجب لكم وثوباً أو حبواً ﴿ في مناكبها ﴾ مثل لفرط التذلل ومجاوزته الغاية ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير ، وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك شيئاً وهذا أمر إباحة وفيه

إظهار الامتنان وقيل : خبر بلفظ الأمر ، أي : لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها ، وقال ابن عباس وبشير بن كعب وقتادة : في مناكبها في جبالها وتذليلها أدل على تذليل غيرها ، وليكن مشيكم فيها وتصرفاتكم بذل وإخبات وسكون استصغاراً لأنفسكم وشكراً لمن سخر لكم ذلك ، وروي أن بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها : إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة ، فقالت : مناكبها جبالها ، فقال لها : صرت حرة فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال : "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" وقال مجاهد : في أطرافها ، وعنه أيضاً في طرقها وفجاجها ، وهو قول السدي والحسن ، وقال الكلبي : في جوانبها ، ومنكبا الرجل جانباه .

فائدة : حكى قتادة عن أبي الخلدان : الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ، للسودان اثنا عشر ألف ، وللروم ثمانية آلاف ، وللفرس ثلاثة آلاف ، وللعرب ألف .

ثم ذكرهم تعالى بأنه سهلها لإخراج البركات بقوله تعالى : ﴿ وكلوا ﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله تعالى : ﴿ من رزقه ﴾ الذي أودعه لكم فيها ، قال الحسن : مما أحل لكم ، وقيل : مما خلقه الله لكم رزقاً في الأرض ﴿ وإليه ﴾ أي : وحده ﴿ النشور ﴾ وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفسدتها يخرجها سبحانه في الوقت الذي يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الأرزاق ، لا فرق بين هذا وذاك غير أنكم لا تتأملون ، فيا فوز من شكر ويا هلاك من كفر ، فعوّدوا أنفسكم بالخيرات لعلها تنقاد

كما قيل:

* ** هي النفس ما عودتها تتعود *

(224/775)

ولما كان لم يكن بعد الاستعطاف إلا الإنذار قال تعالى مهدداً للمكذبين : ﴿ أأمنتم ﴾ قرأ قنبل في الوصل بإبدال الهمزة بعد راء النشور واواً ، وسهل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ، وحققها الباقون ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير إدخال ، وقوله تعالى : ﴿ من في السماء ﴾ فيه وجوه:

أحدها : من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

والثاني : أن ذلك على حذف مضاف ، أي : أأمنتم خالق من في السماء .

والثالث : أن في بمعنى على ، أي : على السماء ، كقوله : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ (طه :) أي : على جذوع النخل وإنما احتاج القائل بهذين الوجهين إلى ذلك لأنه اعتقد أن من واقعة على الباري تعالى شأنه وهو الظاهر وثبت بالدليل القطعي أنه ليس

بمتحيز لئلا يلزم التجسيم ، ولا حاجة إلى ذلك ، فإن من هنا المراد بها الملائكة سكان السماء وهم الذين يتولون الرحمة والنقمة .

(225/775)

والرابع : أنهم خوطبوا بذلك على اعتقادهم فإن القوم كانوا مجسمة مشبهة وأنه في السماء ، وأن الرحمة والعذاب نازلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ أي : من تزعمون أنه في السماء . قال الرازي : هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها بإجماع المسلمين ، لأنّ ذلك يقتضي إحاطة السماء به من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السماء بكثير فيكون حقيراً بالنسبة إلى العرش وهو باطل بالاتفاق ، ولأنه تعالى قال : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض ﴾ (الأنعام :) فلو كان فيها لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنى : أما من في السماء عذابه ، وإما إن ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده ، وأما من في السماء سلطانه وملكه وقدرته كما قال تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ (الأنعام :) فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة في مكانين ، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام .

فائدة : حكى قتادة عن أبي الخلدان : الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ، للسودان اثنا عشر ألف ، وللروم ثمانية آلاف ، وللفرس ثلاثة آلاف ، وللعرب ألف .

ثم ذكرهم تعالى بأنه سهلها لإخراج البركات بقوله تعالى : ﴿ وكلوا ﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله تعالى : ﴿ من رزقه ﴾ الذي أودعه لكم فيها ، قال الحسن : مما أحل لكم ، وقيل : مما خلقه الله لكم رزقاً في الأرض ﴿ وإليه ﴾ أي : وحده ﴿ النشور ﴾ وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفسدتها يخرجها سبحانه في الوقت الذي يريده على ما كان كل منها عليه عند الموت كما أخرج تلك الأرزاق ، لا فرق بين هذا وذاك غير أنكم لا تتأملون ، فيا فوز من شكر ويا هلاك من كفر ، فعوّدوا أنفسكم بالخيرات لعلها تنقاد كما قيل :

* * * هي النفس ما عودتها تتعود *

(226/775)

ولما كان لم يكن بعد الاستعطاف إلا الإنذار قال تعالى مهدداً للمكذبين : ﴿ أأمنتم ﴾ قرأ قنبل في الوصل بإبدال الهمزة بعد راء النشور واواً ، وسهل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ، وحققها الباقون ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام

والباقون بغير إدخال ، وقوله تعالى : ﴿ من في السماء ﴾ فيه وجوه:

أحدها : من ملكوته في السماء لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

والثاني : أن ذلك على حذف مضاف ، أي : أأمنتم خالق من في السماء .

والثالث : أن في بمعنى على ، أي : على السماء ، كقوله : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ (طه :) أي : على جذوع النخل وإنما احتاج القائل بهذين الوجهين إلى ذلك لأنه اعتقد أن من واقعة على الباري تعالى شأنه وهو الظاهر وثبت بالدليل القطعي أنه ليس بمتحيز لئلا يلزم التجسيم ، ولا حاجة إلى ذلك ، فإن من هنا المراد بها الملائكة سكان السماء وهم الذين يتولون الرحمة والنقمة .

(227/775)

والرابع : أنهم خوطبوا بذلك على اعتقادهم فإن القوم كانوا مجسمة مشبهة وأنه في السماء ، وأن الرحمة والعذاب نازلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها فقيل لهم على حسب اعتقادهم : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ أي : من تزعمون أنه في السماء . قال الرازي : هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها بإجماع المسلمين ، لأنّ ذلك يقتضي إحاطة السماء به

من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السماء بكثير فيكون حقيراً بالنسبة إلى العرش وهو باطل بالاتفاق ، ولأنه تعالى قال : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض ﴾ (الأنعام :) فلو كان فيها لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنى : أما من في السماء عذابه ، وإما إن ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده ، وأما من في السماء سلطانه وملكه وقدرته كما قال تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ (الأنعام :) فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة في مكانين ، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ بدل من ﴿ من في السماء ﴾ بدل اشتمال ، وقال القرطبي : يحتمل أن يكون المعنى : أأمنتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ، وقرأ : ﴿ من في السماء أن ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإبدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد الكسرة ياء في الوصل والباقون بتحقيقهما ﴿ فإذا هي ﴾ أي : الأرض التي أنتم عليها ﴿ تمور ﴾ أي : تضطرب وهي تهوي بكم وتجري ها بطة في الهواء وتتكفأ إلى حيث شاء سبحانه ، قال في "القاموس" : المور الاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرك ، وقال الرازي : إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها يذهبون ، والأرض فوقهم تمور فتقلبهم إلى أسفل السافلين .

وقال القرطبي : قال المحققون : أأمنتم من فوق السماء كقوله تعالى : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ (التوبة :) ، أي : فوقها لا بالمماسة والتحيز بل بالقهر والتدبير والأخبار في هذا صحيحة كثيرة منتشرة مشيرة إلى العلوّ لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل أو معاند ، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلوّ والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود ، لأنها صفات الأجسام وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء ، لأن السماء مهبط الوحي ومنزل القطر ومحل القدس ومعدن المطهرين من الملائكة وإليها ترفع أعمال العباد وفوقها عرشه وجنته ، كما جعل الله تعالى الكعبة قبلة للصلاة ، ولأنه تعالى خلق الأمكنة وهو غير متحيز وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان .

وقوله تعالى : ﴿ أم أمنتم ﴾ أي : أيها المكذبون ﴿ من في السماء أن يرسل ﴾ بدل من ﴿ من في السماء ﴾ بدل اشتمال . ﴿ عليكم ﴾ أي : من السماء ﴿ حاصباً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل : ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها ، وقيل : هي

سحاب فيها حجارة ﴿ فستعملون ﴾ أي : عن قريب بوعد لا يخلف عند معاينة العذاب ﴿ كيف نذير ﴾ أي : إنذاري البليغ إذا شاهدتم العذاب ، وهو بحيث لا يستطاع ولا تتعلق الأطماع بكشف له ولا دفاع . قال البقاعي : وحذف الياء منه ومن نكير إشارة إلى أنه وإن كان خارجاً عن الطوق ليس منتهى مقدوره بل لديه مزيد لا غاية له بوجه ولا تحزير ، أي : على قراءة أكثر القراء فقد قرأ ورش بالياء في الوصل فيهما دون الوقف والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً .

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ أي : إنكاري عليهم لما أصبتهم به من العذاب .

(229/775)

ولما ذكر تعالى ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته بقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا ﴾ أجمع القراء على القراءة بالغيب لأن السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل وأشار إلى بعد الغاية بحرف النهاية فقال تعالى : ﴿ إلى الطير ﴾ وهو جمع طائر ﴿ فوقهم ﴾ أي : في الهواء ، وقوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أي : باسطات أجنحتهن يجوز أن يكون حالاً من الطير وأن يكون حالاً من فوقهم إذا جعلناه حالاً فتكون متداخلة وفوقهم

ظرف لصافات على الأول أو ليروا .

وقوله تعالى : ﴿ ويقبضن ﴾ عطفه الفعل على الاسم لأنه بمعناه ، أي : وقابضات فالفعل هنا مؤول بالاسم عكس قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا ﴾ (الحديد :) فإن الاسم هناك مؤول بالفعل وقال أبو حيان : وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً فأثرن ﴾ (العاديات ، الآيات : ـ) عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى : فاللاتي أغرن فأثرن ، ومثل هذا العطف فصيح وكذا عكسه إلا عند السهيلي فإنه قبيح ، وقال الزمخشري : ﴿ صافات ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ؛ لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ﴿ ويقبضن ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .

فإن قلت : لم قال : ﴿ ويقبضن ﴾ ولم يقل قابضات ؟ قلت : لأن أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ، اه .

وقال أبو جعفر النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحيه : صاف ، وإذا ضمهما فأصابا جنبيه : قابض ، لأنه يقبضهما . وقيل : ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا أوقفن عن الطيران . ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي : عن الوقوع في حال البسط والقبض ﴿ إلا الرحمن ﴾ أي : الملك الذي رحمته عامة لكل شيء بأن هيأهن بعد أن أفاض عليهن رحمة الإيجاد على أشكال مختلفة وخصائص مفترقة هيأهن للجري في الهواء . ﴿ إنه ﴾ أي : الرحمن سبحانه ﴿ بكل شيء بصير ﴾ أي : بالغ البصر والعلم بظواهر الأشياء وبواطنها فمهما أراد كان . والمعنى : أولم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قدرتنا أن نفعل بهم ما تقدم وغيره من العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ أمن ﴾ مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ خبره ، وقوله تعالى : ﴿ الذي ﴾ بدل من هذا ، وقوله تعالى : ﴿ هو جند ﴾ أي : أعوان ﴿ لكم ﴾ صلة الذي ، وقوله تعالى : ﴿ ينصركم ﴾ صفة جند ﴿ من دون الرحمن ﴾ أي : غيره يدفع عنكم عذابه ، أي : لا ناصر لكم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جندٌ لكم ، أي : حزب ومنعة لكم ولفظ الجند يوحد ولذلك قال تعالى : ﴿ هذا الذي هو جند لكم ﴾ وهو استفهام إنكاري ، أي : لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله من دون الرحمن ، أي : من سوى الرحمن . وقرأ أبو عمرو بسكون الراء ، وللدوري اختلاس الضمة أيضاً والباقون

بالرفع ﴿إن الكافرون﴾ أي: ما الكافرون ﴿إلا في غرور﴾ أي: من الشيطان يغرّهم بأن لا عذاب ولا حساب.

قال بعض المفسرين: كان الكفار يمتنعون عن الإيمان ويعاندون النبي صلى الله عليه وسلم معتمدين على شيئين: أحدهما: قوتهم بمالهم وعددهم. والثاني: اعتقادهم أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع الآفات، فأبطل الله تعالى عليهم الأول بقوله تعالى: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم﴾ الآية، ورد عليهم الثاني بقوله تعالى:

(231/775)

﴿أمن هذا الذي يرزقكم﴾ أي: على سبيل التجدد والاستمرار ﴿إن أمسك رزقه﴾ بإمساك الأسباب التي ينشأ عنها كالمطر، ولو كان الرزق موجوداً وكثيراً وسهل التناول فوضع الأكل في فمه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد عجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي: فمن يرزقكم، أي: لا رازق لكم غيره، ﴿بل لجوا﴾ أي: تمادوا سفاهة لا احتياطاً وشجاعة. قال الرازي في "اللوامع": واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه، ﴿في عتوّ﴾ أي: مطروفين لعناد وتكبر عن الحق وخروج إلى فاحش الفساد ﴿ونفور﴾ أي: تباعد عن الحق،

واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع أنه لا قوة لأحد منهم في جلب سارّ ولا دفع ضارّ والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب .

﴿ أفمن يمشي مكباً ﴾ أي : واقعاً ﴿ على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً ﴾ أي : معتدلاً ﴿ على صراط ﴾ أي : طريق ﴿ مستقيم ﴾ وخبر من الثانية محذوف دل عليه خبر الأولى ، أي : أهدى ، والمثل في المؤمن والكافر ، أي : أيهما أهدى ، وقيل : المراد بالمكب الأعمى ، فإنه يتعسف فينكب وبالسوي البصير . وقيل : المكب هو الذي يحشر على وجهه إلى النار ، ومن يمشي سوياً : الذي يحشر على قدميه إلى الجنة ، وقال ابن عباس والكلبي رضي الله عنهم : عنى بالذي يمشي مكباً على وجهه أبا جهل ، وبالذي يمشي سوياً رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : أبو بكر ، وقيل : حمزة ، وقيل : عمار بن ياسر ، قال عكرمة : وقيل : عامٌّ في الكافر والمؤمن ، أي : أن الكافر لا يدري أعلى حق هو أم على باطل ، أي : أهذا الكافر أهدى أم المسلم الذي يمشي سوياً معتدلاً يبصر الطريق وهو على صراط مستقيم وهو الإسلام ، وقرأ قنبل بالسين وقرأ خلف بالإشمام ، أي : بين الصاد والزاي والباقون بالصاد الخالصة .

(232/775)

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الخلق وأشفقهم عليهم مذكراً لهم بما رفع عنهم الملك من المفسدات وجمع لهم من المصلحات ليرجعوا إليه ، ولا يعولوا في حال من أحوالهم إلا عليه ﴿ هو ﴾ أي : الذي شرفكم بهذا الذكر وبين لكم هذا البيان ﴿ الذي أنشأكم ﴾ أي : أوجدكم ودرجكم في مدارج التربية حيث طوركم في الأطوار المختلفة في الرحم ، ويسر لكم بعد الخروج اللبن حيث كانت المعدة ضعيفة عن أكثف منه ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ أي : لتسمعوا ما تعقله قلوبكم فيهديكم ، ووحده لقلة التفاوت فيه ليظهر سر تصرفه سبحانه في القلوب بغاية المفاوتة مع أنه أعظم الطرق الموصلة للمعاني إليها ﴿ والأبصار ﴾ لتنظروا صنائعه فتعتبروا وتزدجروا عما يرديكم ﴿ والأفئدة ﴾ أي : القلوب التي جعلها سبحانه في غاية التوقد بالإدراك لما لا يدركه بقية الحيوان لتتفكروا فتقبلوا على ما يعليكم ، وجمعهما لكثرة التفاوت في نور الأبصار وإدراك الأفئدة . ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي : باستعمالها فيما خلقت لأجله ، وما مزيدة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جداً على هذه النعم ، وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأعلاهم في العرفان .

﴿ قل هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي ذرأكم ﴾ أي : خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعد ما كنتم كالذر أطفالاً ضعفاء ﴿ في الأرض ﴾ التي تقدم أنه ذللها لكم ورزقكم منها النبات وغيره ﴿ وإليه ﴾ أي : وحده بعد موتكم ﴿ تحشرون ﴾ شيئاً فشيئاً إلى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث للحساب فيجازى كلاً بعمله .

﴿ ويقولون ﴾ أي : يجددون هذا القول تجديداً مستمراً استهزاء وتكذيباً ﴿ متى هذا ﴾ وزادوا في الاستهزاء بقولهم ﴿ الوعد ﴾ أي : يوم القيامة والعذاب الذي توعدوننا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في أنه لابدّ لنا منه وأنكم مقربون عند الله ، فلو كان لهم ثبات الصبر لما كانوا طاشوا هذا الطيش بإبراز هذا القول القبيح .

(233/775)

ثم إنه تعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله عز وجل : ﴿ قل ﴾ أي : يا أكرم الخلق لهؤلاء البعداء ﴿ إنما العلم ﴾ أي : علم وقت قيام الساعة ونزول العذاب ﴿ عند الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال ، فهو الذي يكون عنده وبيده جميع ما يراد منه لا يطلع عليه غيره ﴿ وإنما أنا نذير ﴾ أي : كامل في أمر النذارة التي يلزم منه البشارة لمن أطاع النذير ، لا وظيفة لي عند الملك الأعظم غير ذلك فلا وصول إلى سؤاله عما لا يؤذن لي في السؤال عنه ﴿ مبين ﴾ أي : بين الإنذار بإقامة الأدلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهدة لمن له قبول العلم .

﴿ فلما رأوه ﴾ أي : العذاب بعد الحشر ﴿ زلفة ﴾ أي : ذا قرب عظيم منهم ﴿ سيئت ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : اسودّت ﴿ وجوه ﴾ وأظهر في

موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي : أظهروا السوء وغاية الكراهة في وجوه من أوقع هذا الوصف .

تنبيه : الأصل ساء ، أي : أحزن وجوههم العذاب ورؤيته ثم بني للمفعول وساء هنا ليست المرادفة لبئس .

وأشم كسرة السين نافع وابن عامر والكسائي والباقون باختلاس الكسرة . وقيل : أي : قال لهم الخزنة تقريعاً وتوبيخاً ﴿ هذا الذي كنتم ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ به ﴾ أي : بسببه ومن أجله ﴿ تدّعون ﴾ أي : تتمنون وتسألون وتزعمون أنكم لا تبعثون ، وهذه حكاية حال تأتي عبر عنها بطريق المضي لتحقق وقوعها ، وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها .

﴿ قل ﴾ أي : يا أكرم الخلق لهؤلاء الذين طال تضجرهم منك وهم يتمنون هلاكك كما قال تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ (الطور :) ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به على ما هو كالرؤية ﴿ إن أهلكني الله ﴾ أي : أماتني بعذاب أو غيره الذي له من الجلال والإكرام ما يعصم به وليه ويقصم عدوه .

وقرأ : قل أرأيتم في الموضعين ، نافع بتسهيل الهمزة بعد الواو ، ولورش أيضاً إبدالها ألفاً وأسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق وإذا وقف حمزة سهل الهمزة ، وقرأ : ﴿ إن أهلكني الله ﴾ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ، ومن سكن الياء رقق اللام من الاسم الجليل ومن فتحها فخم ﴿ ومن معي ﴾ أي : من المؤمنين ﴿ أو رحمنا ﴾ أي : بالنصر وإظهار الإسلام كما نرجو فأنجانا بذلك من كل سوء ووقانا كل محذور ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿ فمن يجير الكافرين ﴾ أي : العريقين في الكفر بأن يدفع عنهم ما يدفع الجار عن جاره ﴿ من عذاب أليم ﴾ أي : لا مجير لهم منه .

﴿ قل ﴾ أي : يا خير الخلق ﴿ هو ﴾ أي : الله وحده ﴿ الرحمن ﴾ أي : الشامل الرحمة ﴿ آمنا به ﴾ أي : أنا ومن معي ﴿ وعليه ﴾ أي : وحده ﴿ توكلنا ﴾ أي : لأنه لا شيء في يد غيره وإلا لرحم من يريد عذابه أو عذب من يريد رحمته ، فكل ما جرى على أيدي خلقه من رحمة أو نقمة فهو الذي أجراه لأنه الفاعل بالذات المستجمع لما يليق به من الصفات فنحن نرجو خيره ولا نخاف غيره ﴿ فستعلمون ﴾ أي عند معاينة العذاب عما قليل بوعد لا خلف فيه ﴿ من هو في ضلال مبين ﴾ أي : بين أنحن أم أنتم ، وقرأ الكسائي بعد السين بياء الغيبة نظراً إلى قول الكافرين والباقون بتاء الخطاب إما على الوعيد ، وإما على الالتفات من الغيبة المرادة في قراءة الكسائي وهو تهديد لهم .

﴿ قل ﴾ أي : يا أعظم خلقنا وأعلمهم بنا ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني إخباراً لا لبس فيه ﴿ إن أصبح ماؤكم ﴾ أي : الذي تعدّونه في أيديكم بما نبهت عليه الإضافة ﴿ غوراً ﴾ أي : غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء وكان ماؤهم من بئرين بئر زمزم وبئر ميمونة ﴿ فمن يأتيكم ﴾ على ضعفكم حينئذ وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم ﴿ بماء معين ﴾ ، أي : دائم لا ينقطع وظاهر للأعين سهل المأخذ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بماء معين أي : ظاهر تراه العيون فهو مفعول . وقيل : هو من معن الماء ، أي : كثر فهو على هذا فعيل ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أن المعنى : فمن يأتيكم بماء عذب أي : لا يأتيكم به إلا الله فكيف تنكرون أن يبعثكم ؟

ويستحب أن يقول القارىء عقب معين : الله رب العالمين ، كما في الحديث . وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال : تأتي به الفؤوس والمعاول ، فذهب ماء عينيه وعمي نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل يوم القيامة فأخرجته من النار وأدخلته الجنة وهي سورة تبارك" . وعن عبد الله بن مسعود رضي

الله عنه قال : "إذا وضع الميت في قبره يؤتى من قبل رجليه فيقال : ليس لكم عليه سبيل لأنه قد كان يقوم بسورة الملك ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول لسانه ليس لكم عليه سبيل كان يقرأ بي سورة الملك ثم قال : هي المانعة من عذاب الله ، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب" . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وددت أن تبارك الملك في قلب كل مؤمن" . وأما ما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر" فحديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 25 . 43 ﴾

(236/775)

وقال القاسمى :

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال ابن جرير : أي : تعاظم الذي بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانيّ : الملك عالَم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس ؛ ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذي هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد في العلوّ والبركة ، وباعتبار تسخيره عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذي هو التنزيه ، كقوله ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس : 83] ، كلاً بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فمعنى ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تعالى وتعاظم ، الذي يتصرف في عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدها على ما يشاء .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ أي : قدر الموت والحياة فأمات من شاء وما شاء ، وأحيى من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدّره .

(237/775)

قال القاشانيّ : الموت والحياة من باب العدم والملكة ، فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له ، وعدم

الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود . والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجوديّ ، فلذلك صح تعلق الخلق به ، كتعلقه بالحياة ، وجعل الغرض من خلقهما بلاء الْإِنْسَانْ في حسن العمل وقبحه ، أي : العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء ، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الْإِنْسَانْية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس إلا علم الله الكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم ؛ لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها ، وبها تتفاضل النفوس في الدرجات ، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ؛ لأن الموت في علم الملك ذاتيّ ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود ، أو العدم اللاحق فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل ﴿ الْغَفُورُ ﴾ أي : لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ قال ابن جرير : طبقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

وقال المهايميّ : أي : يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليتم أمر الحكمة في الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ السماء يطلق لغة على كل ما علا الْإِنْسَانْ ، فإنه من

السموّ ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ [الحج : 15] أي : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ، وهذا الفضاء اللانهائي سماء ، ومنه قوله تعالى :

(238/775)

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم : 24] . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ، [البقرة : 22] ، والكواكب سماوات ؛ فالسماوات السبع المذكورة كثيراً في القرآن الشريف ، هي هذه السيارات السبع ، وهي طباق ، أي : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أي : تخالف وعدم تناسب في رعاية الحكم ، بل راعاها في كل خلقه .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أي : إن شككت فكرّر النظر ﴿ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ أي : خلل . وأصل الفطور الصدوع والشقوق ، أريد به لازمه ، كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أي : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السماوات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هي متجاذبة ، مرتبط

بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم في سورة (ق) في آية :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] .

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أي : كرره ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير .

﴿ يَنقَلِبْ ﴾ أي : يرجع ﴿ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً ﴾ أي : مطروداً عن إصابة المطلوب .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي : مَعْيي كالّ .

تنبيهات :

الأول : ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ صفة ثانية لقوله :

﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ وضع فيها ﴿ خَلْقِ الرَّحْمَنِ ﴾ موضع الضمير للتعظيم ، والأصل : فيهن ، وتابعة القاضي والقاشانيّ ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك ، لأنها السماوات ، لا ترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها . وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة, ومبادئ سائر النعم الدنيوية

، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لا يفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى :

﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ مستأنفاً ، مقرراً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهي حسنه ، فيشمل ما قبله – لكان أولى من تخصيصه بوصفية ما قبله ، ويكون كآية :

﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 7] ، وآية :

﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] ، وتلطف بعضهم فقال : في الآية إشارة إلى قياس تقديره : ما ترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى في خلقه من تفاوت .

الثاني : للإمام ابن حزم رحمه الله كلام في هذه الآية في كتاب " الفِصَل " ساقه في مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاثته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمي الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذي نفاه الله تعالى عن خلقه ، فإذن ليس هو الذي يسميه الناس : تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذي نفاه الله تعالى عما خلق هو شيء غير موجود فيه البتة ؛ لأنه لو وجد في خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله تعالى : ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ولا يكذّب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود في خلق الله عز وجل ، مرئي فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذي أخبر الله عز وجل أنه لا يرى في خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود في العالم أصلاً ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً في العالم ، لوجد التفاوت في خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا وأخبر أنه لا يُرى في خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله ما دون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشي شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر في تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً في تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها المميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة, وهيئة واحدة ، على أن

يبلغ إلى الأشخاص التي تلي أنواع الأنواع ، لا تفاوت في شيء من ذلك البتة بوجه من الوجوه ، ولا تخالف في شيء منه أصلاً ، ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت في هذا بوجه من التقسيم .

(241/775)

وكذلك أيضاً نعلم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرَض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم ، وكذلك أيضاً نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفية ، وتحت اسم العرض ، وقوعاً حقاً مستوياً لا تفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول في الظلم والإنصاف ، وفي العدل والجور ، وفي الصدق والكذب ، وفي الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما في العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأوَل التي ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى ، وهي الجوهر والكم والكيف والإضافة ؛ فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى وعادت الآية المذكورة حجة على

المعتزلة ؛ ضرورة لا منفك لهم عنها ، وهي أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً في خلق الرحمن ، وقد كذَّب الله تعالى ذلك ، وهي أن يرى في خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث : قال الناصر : في قوله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً ﴾ وضع للظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسأ حسيراً غير مدرك الفطور ، وهو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ، دل على أنه لا شيء .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ قال ابن جرير : وهي النجوم . وجعلها ﴿ مَصَابِيحَ ﴾ لإضاءتها . وكذلك الصبح إنما قيل له : صبح ؛ للضوء الذي يضيء للناس من النهار .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ قال ابن كثير : عاد الضمير في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح ، لا على عينها ؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

(242/775)

وقال القاضي : أي : وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس ، وهم المنجمون . قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . والرجم يكون بمعنى الظن ، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 6 – 10] . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أي : في الآخرة .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع ذلك العذاب المحرق . قال الناصر : هذا من الاستطراد ؛ لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً .

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً ﴾ أي : لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسيّ ، أو لأنفسهم ، فإنهم يَصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] ، أولها نفسها ، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذي يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي : تغلي بهم وتعلو .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أي : تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله ، شبهت في شدة غليانها وقوة تأثيرها في أهلها بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ في إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهي الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ كما في " شرح المفتاح الشريفي " ، وأما ثبوت الغيظ الحقيقي لها ، بخلق الله فيها إدراكاً فبحث آخر ، لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن ﴿ تَكَادُ ﴾ تأباه ، كما في قوله : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ [النور : 35] ، وقد صرح به علماء المعاني في بحث المبالغة والغلوّ . وجوز أن يراد غيظ الزبانية ؛ فالإسناد مجازيّ ، أو على تقدير مضاف ، كما في " العناية " .

﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي : جماعة من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي : في الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال في " الإكليل " : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾

أي : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا في التكذيب ، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ أي : من النذر ما جاءت به ، سماع طالب الحق ، وعقل من نبذ الهوى ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : في عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول : قال الناصر : لو تفطن نبيهٌ لهذه الآية لعدّها دليلاً على تفضيل السمع على البصر ، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثاني : قال ابن السمعانيّ في " القواطع " : استدل به من قال بتحكيم العقل .

وقال الزمخشريّ : قيل : إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

(244/775)

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : فأقروا بجحدهم الحق وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أي : يخافونه أو يخافون عذابه ، وهم لم يروه ﴿ لَهُم

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : بضمائرها ، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي : ألا يعلم السر والجهر من خلق الأشياء ، والخلق يستلزم العلم كما قال :

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ أي : اللطيف بعباده ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة ، فـ ﴿ مَنْ ﴾ مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزاليّ : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها وما لطفَ منها ، ثم يسلك في إيصال ما يصلحها سبيل الرفق دون العنف . و ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ هو الذي لا يعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك في الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ﴾ أي : ليّنة سهلة المسالك .

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي : في نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير : لأن نواحيها نظير مناكب الْإِنْسَانْ التي هي من أطرافه .

﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ أي : التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره ، فهو

اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ، وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أي : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

(245/775)

قال في " الإكليل " : في قوله تعالى : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : في الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه في تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيَّأ فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافِروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات .

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ خطاب للكافرين ، أي : أأمنتم العليّ

الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين .

﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أي : تضطرب وتهتز هزّاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ وهو التراب ، فيه الحصباء الصغار ، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ قال ابن جرير : أي : عاقبة نذيري لكم ، إذا كذبتم به ، ورددتموه على رسولي .

وقد بينّ تعالى نذيره لهم في غير ما آية ، وهو زهوق باطِلهم إذا أصروا ، ونصر رسوله ، وغلبة جنده ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] .

قال الشهاب : النذير مصدر ، والياء محذوفة ، والقرّاء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وصلاً ، وأثبتها وقفاً ، ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة ، وكذلك الحال في ﴿ نَكِيرِ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : مع كونهم أشد منهم عَدَداً وعُدَداً ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : نكيري تكذيبهم ، وذلك بإنزال العذاب بهم ودحرِ باطلهم .

قال القاضي : هو تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهديد لقومه المشركين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ أي : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي : ويضممنها إذا ضربن بها جيوبهن ، وقت للاستظهار ، ولتجدده عبّر عنه بالفعل إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف ، يفعل في بعض الأحيان للتقوي بالتحريك ، كما يفعله السابح في الماء يقيمم بدنه أحياناً بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت في حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

﴿ وما يمسكهن ﴾ أي : في الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أي : المقيض لكلّ ما قُدّر له ، حسب استعداده بسعة رحمته ، ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجري في الجوّ .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ قال القاشانيّ : أي : فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب مشيئته ، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .

ثم بكّت تعالى المشركين بنفي أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [20]

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ أي : معشر المشركين ﴿ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : إن أراد بكم سوءاً ، فيدفع عنكم بأسه .

﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ أي : من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ ، أو أنها تقرّبهم إلى

الله زلفى .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [21]

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ يعني المطر ونحوها ﴿ بَل لَّجُّوا ﴾ أي : تمادوا ﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ أي : عناد وطغيان ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ أي : شراد عن الحق واستكبار مع وضوح براهينه ، فأصروا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعناداً .

(247/775)

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [22]

. ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تمثيل للضالين والمهتدين . والمكب : هو المتعثر الذي يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذي يمشي سويّاً هو القائم السالم من العثار لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضي : والمراد تمثيل المشرك والموحِّد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل

الاكتفاء بما في الكَبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً ، أي : فلذلك ذكر المسلك في الثاني دون الأول .

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي : المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه ﴿ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أي : العقول والإدراكات ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : باستعمالها فيما خلقت له .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : خلقكم فيها لتعبدوه وتقوموا بالقسط الذي أمر به ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : للجزاء .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أي : الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في الإنذار به ، والترهيب منه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بيّن الحجّة على ما أنذركم به من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته فليس إليّ .

(248/775)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم ﴿ زُلْفَةً ﴾ أي : قريباً ، أو ذا زلفة ، أي : قرب ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ظهر عليها آثار الاستياء من

الكآبة والغم والانكسار والحزن ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي : لهم تبكيتاً ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أي : تطلبون وتستعجلون به من الدعاء ، أو تدّعون أن لا بعث ، من الدعوى

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

كان كفار مكة يتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم رَيبَ المنون ؛ تخلصاً من دعوته وانتشارها ، فأمر أن يقول لهم ذلك . أي : أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين ، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أي : خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذَّبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعني بالعذاب : إما الدنيوي وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم ، أو الأخروي ، وهو أشد وأبقى .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي : اعتمدنا في أمورنا لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : في ذهاب عن الحق وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح في الدنيا ، ونشأته الثانية في الأخرى .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ أي : غائراً لا تناله الدلاء ، أو ذاهباً في الأرض ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ أي : جار ظاهر سهل التناول .

(249/775)

قال الرازي : المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى ، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر . أي : أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ فلا بد وأن يقولوا : هو الله ؛ فيقال لهم حينئذٍ : فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية ، وهو كقوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة : 68] ، أي : بل هو الذي أنزله وسلكه ينابيع ؛ رحمة بالعباد ، فله الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 188 . 200 ﴾

(250/775)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الملك

الدرس الأول: 1 الله المالك القادر (تبارك الذي بيده الملك , وهو على كل شيء قدير) . .

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة , وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها . .

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة , وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والإستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء في الأرض والحشر . وكان الإختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد . .

فكل حقائق السورة وموضوعاتها , وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير: (تبارك الذي بيده الملك , وهو على كل شيء قدير) ! !

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق , وتتدفق بلا توقف , مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل , مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها في

سياقها بالتفصيل:

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) . .

هذه التسبيحة في مطلع السورة توحي بزيادة بركة الله ومضاعفتها , وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك , وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية . وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود , ويعمر بها قلب كل موجود . وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم , من الكتاب المكنون , إلى الكون المعلوم .

(251/775)

(تبارك الذي بيده الملك) . . فهو المالك له , المهيمن عليه , القابض على ناصيته , المتصرف فيه . . وهي حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ; وتخليه من التوجه أو الإعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ; كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد , والسيد الفريد !

(وهو على كل شيء قدير) . . فلا يعجزه شيء , ولا يفوته شيء , ولا يحول دون إرادته شيء , ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء , ويفعل ما يريد , وهو قادر على ما يريده

غالب على أمره ; لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود . . وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال . . والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود . ويكلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

الدرس الثاني:2 حكمة خلق الموت والحياة

(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا , وهو العزيز الغفور) . .

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له , وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته .

. أنه خلق الموت

من الاية 2 الى الاية 3

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (3)

والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية , التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني ; وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافا بلا غاية . إنما هو الإبتلاء لأظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض , واستحقاقهم للجزاء على العمل: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . . واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة في النية المستسرة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح . ومن ثم يجيء التعقيب: (وهو العزيز الغفور) ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب , وشعر أنه هنا للإبتلاء والاختبار , وحذر وتوقى , فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب , لا يطارد البشر , ولا يعنتهم , ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ; وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ; وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه . فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو عن

كثير .

الدرس الثالث: 3 – 5 خلق الله للسماوات وتزينها بالنجوم واتقانها وتحدي الناظرين

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاليه ; كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة , بعد الابتلاء بالموت والحياة:

(253/775)

الذي خلق سبع سماوات طباقا , ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت , فارجع البصر هل ترى من فطور ? ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح , وجعلناها رجوما للشياطين , واعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم , وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ , كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ? قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء , إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! . وكل ما في هذه الآيات آثار لمدلول الآية الأولى , ومظاهر للهيمنة المتصرفة في الملك , وللقدرة التي لا يقيدها قيد . ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ,

ثم الجزاء . .

والسماوات السبع الطباق التي تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها , استقاء من نظريات الفلك , فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح , كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله , في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله , وهو يتحدى بكماله كما لا يرد البصر عاجزا كليلا مبهورا مدهوشا .

(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) . . فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب . . (فارجع البصر) . . وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت (هل ترى من فطور ?) . . وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ?(ثم

من الاية 4 الى الاية 4

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

ارجع البصر كرتين)فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه , فأعد النظر ثم أعده (ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير) . .

وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها . فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق , الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته , ولا يشبع القلب من تلقي إيحاءاته وأيماءاته ; ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع , لا تخلق بدائعه , لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئًا عن طبيعة هذا الكون ونظامه – كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها – يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ; فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقيا مباشرا حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي ; قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئًا عن هذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون , وإلى تملي مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا , وفي كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ,

كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفا , كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون , وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع .

(255/775)

والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) . .

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين , التي نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم , وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ; ويختلف من صباح إلى مساء , ومن شروق إلى

غروب , ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك , وكأنها عين جميلة , تلتمع بالمحبة والنداء !

وها تان النجمتان المنفردتان هناك , وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك , وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة . . !

من الاية 5 الى الاية 6

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6)

وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يمل البصر امتداده , ولا يبلغ البصر آماده .

إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه , ولكن لا يجد له وصفا فيما يملك من الألفاظ والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء , وإلى جمال الكون كله , لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه , لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة , في عالم طليق جميل , بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون . ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه .

الدرس الرابع: 5 – 12 صورة لعذاب وخزي الكفار في جهنم

ويذكر النص القرآني هنا أن هذه المصابيح التي زين الله السماء الدنيا بها هي كذلك ذات وظيفة أخرى: (وجعلناها رجوما للشياطين) . .

وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفا من خبرها ; وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقا اسمهم الشياطين , وردت بعض صفاتهم في القرآن , وسبقت الإشارة إليها في هذه الظلال , ولا نزيد عليها شيئا ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه

المصابيح التي تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين , في صورة شهب كما جاء في سورة أخرى:(وحفظا من كل شيطان مارد) . . . (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) . . كيف ? من أي حجم ? في آية صورة ? كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئا , وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه في مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم الله أن هناك خيرا في الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فمالنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه خيرا ? :في مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ? !

(257/775)

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم:

(وأعتدنا لهم عذاب السعير) . .

فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا , الذي أعده الله للشياطين في الدنيا والآخرة هي ذكر السماء أولا , ثم يجيء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصابيح السماء ذكر اتخاذها رجوما للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين من عذاب السعير ذكر

بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين:

(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) . .

ثم يرسم مشهدا لجهنم هذه , وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد :

(إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ !) . .

وجهنم هنا مخلوقة حية , تكظم غيظها , فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور ; ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !

والتعبير في ظاهره يبدو مجازا تصويريا لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة . فكل خليقة من خلائق

من الاية 7 الى الاية 11

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده ; وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه , وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن: (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن , وإن من شيء إلا يسبح بحمده , ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . . وورد كذلك: (يا جبال أوبي معه والطير) . . وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل .

كذلك ورد (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض:ائتيا طوعا أو كرها قالتا :أتينا طائعين) . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها :(لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض , وتخر الجبال هدا , أن دعوا للرحمن ولدا , وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) . .

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة , حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه , وتسبيح كل شيء

بحمده . ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر , ويشذ عن هذا الموكب ; وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق ; كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه , فيغتاظ ويحنق , ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهي:

(تفور . تكاد تميز من الغيظ !) .

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم:

(كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟) . .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب , وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

(259/775)

والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة , بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضلال:

(قالوا: بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا , وقلنا: ما نزل الله من شيء . إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير !) . .

فالذي يسمع أو يعقل , لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح , الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعي ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول: (ما نزل الله من شيء :إن أنتم إلا في ضلال كبير) !

(فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) . .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لا رجاء لهم في مغفرة , ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويا لها من صحبة ! ويا له من مصير !

وهذا العذاب , عذاب السعير , في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور , عذاب شديد مروع حقا . والله لا يظلم أحدا . ونحسب – والله أعلم – أن النفس التي تكفر بربها – وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله – هي

من الاية 12 الى الاية 14

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتبارا في الوجود , فهي

كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار , إلى غير نجاة منها ولا فرار !

(260/775)

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه , حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة , صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة , وكل شيء يسبح بحمد ربه , وكل شيء فيه هذا الخير , وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود . . ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود , الآبدة الشريرة , الجاسية الممسوخة النفور . فأي مكان في الوجود كله تنتهي إليه , وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود ? إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة , الحارقة , المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ; بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة !

والمألوف في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين , تتمة لمدلول الآية الثانية في السورة: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . . بذكر الجزاء بعد ذكر الإبتلاء:

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب , لهم مغفرة وأجر كبير) . .

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه , كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين , وكلاهما معنى كبير , وشعور نظيف , وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال: وهو المغفرة والتكفير , والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله في السر والخفية , وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون , هو ميزان الحساسية في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا طالوت بن عباد , حدثنا الحارث بن عبيد , عن ثابت , عن أنس , قال: قالوا: يا رسول الله إنا نكون عندك على حال , فإذا فارقناك كنا على غيره . قال: " كيف أنتم وربكم ؟ " قالوا: الله ربنا في السر والعلانية . قال: " ليس ذلكم النفاق " . . فالصلة بالله هي الأصل . فمتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

(261/775)

الدرس السادس: 13 - 14 الله يعلم السر والجهر لأنه خالق الإنسان

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها , في تقرير علم الله بالسر والجهر , وهو يتحدى البشر . وهو الذي خلق نفوسهم , ويعلم مداخلها ومكامنها , التي أودعها

إياها :

وأسروا قولكم أو اجهروا به , أنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ? .

أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر .

(إنه عليم بذات الصدور) التي لم تفارق الصدور ! عليم بها , فهو الذي خلقها في الصدور , كما خلق الصدور ! (ألا يعلم من خلق ?) ألا يعلم وهو الذي خلق ? (وهو اللطيف الخبير ?) الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير , يبدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله , وهو يعلم دروبه وخفاياه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ? وأين يستخفون ?

من الاية 15 الى الاية 18

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18)

والقرآن يعني بتقرير هذه الحقيقة في الضمير . لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكا صحيحا للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى , تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة , وأمانة التجرد لله في العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذي يعلمه الله . وهو اللطيف الخبير . .

عندئذ يتقي المؤمن النية المكنونة , والهاجس الدفين , كما يتقي الحركة المنظورة , والصوت الجهير . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر , الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

الدرس السابع: 15 الأرض ذلول مسخرة للإنسان

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التي خلقها الله , إلى الأرض التي خلقها لهم , وذللها وأودعها أسباب الحياة:

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا , فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه , وإليه النشور) . .

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ; وسهولة استقرارهم عليها , وسيرهم فيها , واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا . . ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة , ويبصرهم بها , في هذا

التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول

.

والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى , هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة , وبالفلك التي تمخر البحار . والمذللة للزرع والجني والحصاد . والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم – فيما اهتدى إليه حتى اليوم – تفصيلا يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك .

(263/775)

فمما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول: إن هذا الوصف: (ذلولا) . . الذي يطلق عادة على الدابة , مقصود في إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة , هي دابة متحركة . . بل رامحة راكضة مهطعة ! ! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها على ظهرها , ولا تتعثر خطاها , ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة , ثم تدور مع هذا

حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة . ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة , مبتعدة نحو برج الجبار في السماء . . ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله , ولا تتناثر أشلاؤه , بل لا يرتج مخه ولا يدوخ , ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هذا الإنسان , بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد , ولو كان النهار سرمدا لاحترقت الحياة كلها من الحر . . ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة –فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد . ولا بد أن لها ارتباطا بالتناسق الكوني الكبير .

وهذه الدابة الذلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد , ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة – يحدده ميل محورها بمقدار 23 . 5 درجة لأن هذا الميل هو الذي تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس , والذي لو اختل في أثناء

الحركة لاختلت الفصول التي تترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا !

(264/775)

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى , كما جعل لها ضغطا جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل – حسب درجة ثقل الضغط – فإما أن يسحقه أو يعوقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله , كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولا ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخورا صلدة – كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها – لتعذر السير فيها , ولتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتتت هذه الصخور الصلدة , وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا للعناصر التي تحتاج الحياة إليها , بالنسب الدقيقة التي لو اختلت ما قامت الحياة , وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي 21

تقريبا ونسبة الأزوت أو النتروجين هي 78

تقريبا والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة . . ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر , وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها . . إلى آخره . . إلى آخره . وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولا . وهي التي جعلت فيها رزقا , وهي التي سمحت بوجود الحياة , وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق , وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته , ليشعر بيد الله – الذي بيده الملك – وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله , وتذلل له الأرض , وتحفظه وتحفظها . ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه ! فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها : (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

والمناكب المرتفعات , أو الجوانب . وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى . فمتى أذن له في الشموس منها فقد أذن له في الذلول !

والرزق الذي فيها كله من خلقه , وكله من ملكه , وهو أوسع مدلولا مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده , ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض , من أسباب الرزق ومكوناته . وهي في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التي تكونت منها , وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التي وجدت بها . ثم القدرة التي أودعها الله النبات والحيوان – ومنه الإنسان – على الانتفاع بهذه العناصر .

وفي اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى:

"تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التي تكاد تكون متناهية في الصغر من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء , والتي يمكن القول بأنها تتنسمها . ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوي المركب المختص بالتركيب الضوئي بأبسط طريقة ممكنة نقول: "إن أوراق الشجر هي رئات , وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسجين . وبتعبير آخر يلفظ الأكسجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع هيدروجين الماء الذي يستمده النبات من جذوره "حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين" . وبكيمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرا أو سليلوزا ومواد كيمائية أخرى عديدة , وفواكه وأزهارا . ويغذي النبات نفسه , وينتج فائضا يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذي نتنسمه والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق .

"وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب , وكل ما يتعلق بمياه الزرع , تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثاني أكسيد الكربون , بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة , فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين , أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريبا . ومتى انقلب التوازن تماما ذوى النبات أو مات الإنسان , فيلحق به الآخر

وشيكا . وقد اكتشف أخيرا أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضروري لمعظم حياة الحيوان , كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

"ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضا , وإن كنا لا نتنسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولا غنى عنه مطلقا" .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين في رزق الأرض .

(267/775)

"وبدون النتروجين في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الوسيلتين اللتين يدخل بها النتروجين في التربة الزراعية هي طريق نشاط جراثيم" بكتريا" معينة تسكن في جذور النباتات البقلية , مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

"وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد . وكلما ومض برق خلال الهواء , وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ,

فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب "أي في الصورة التي يستطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالي 78 كما أسلفنا" .

والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لابستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق في ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولا مما يفهمه الناس من هذا اللفظ . وأعمق أسبابا في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس في الأكل منه , فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ; كما يمنح البشر القدرة على تناولها والإنتفاع بها : (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) . .

وهو محدود بزمن مقدر في علم الله وتدبيره زمن الإبتلاء بالموت والحياة , وبكل ما يسخره الله للناس في هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الإبتلاء كان الموت وكان ما بعده:

(وإليه النشور) . .

إليه . . وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ? والملك بيده ? ولا ملجأ منه إلا إليه ? وهو على كل شيء قدير ?

الدرس الثامن:16 – 18 عدم أمن الكفار والعذاب لهم()

والآن – وبينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول , وفي هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره . . الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجها رجا فإذا هي تمور . ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور . . يهز هذه الأرض في حسهم ويثير هذا الحاصب في تصورهم , لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار , ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب , ويعلقوا قلوبهم بقدر الله:

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟) . .

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول , ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب , في بعض الأحيان , عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلا فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين , التي تكشف عن الوحش الجامح , الكامن في الدابة الذلول , التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر , ولا تجمح إلا ثواني معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ; أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفه منها . . وهي تمور . . البشر ولا

يملكون من هذا الأمر شيئًا ولا يستطيعون .

وهم يبدون في هول الزلزال والبركان والخسف كالفئران الصغيرة محصورة في قفص الرعب , من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرب , وتحرق وتصعق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون , بكل ما يعلمون وما يعملون . والعاصفة حين تزأر وتضرب بالحصى الحاصب , وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجو يقف الإنسان أمامها صغيرا هزيلا حسيرا حتى يأخذ الله بزمامها فتسلس وتلين !

(269/775)

والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها , ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها . يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئًا . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور , وتقذف بالحمم وتفور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر , ولا تصده عن التدمير . . يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

(فستعلمون كيف نذير) ! ! !

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية , ومن وقائع الغابرين المكذبين: (ولقد كذب الذين من قبلهم , فكيف كان نكير ؟) . .

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار , ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم: (فكيف كان نكير ؟) وهم يعلمون كيف كان , فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس , هو الأمان الذي يوحي بالغفلة عن الله وقدرته وقدره , وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذاك . فالمؤمن يطمئن إلى ربه , ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها , إنما يدعوه إلى التطلع الدائم , والحياء من الله , والحذر من غضبه , والتوقي من المخبوء في قدره , مع الإخبات والاطمئنان .

(270/775)

قال الإمام أحمد – بإسناده – عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: "ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته . إنما كان يبتسم . وقالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في

وجهه . قالت:يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر , وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم –:" يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ? قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا , هذا عارض ممطرنا "

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره , وبما قصه القرآن من هذا في سيره . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بجاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير . فالخسف والحاصب , والبراكين والزلازل , والعواصف , وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها , ولكنهم لا يتدخلون في أحداثها , ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئونه على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها , أو إعصار من أعاصيرها , كما لو كان لعبا من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون , ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر , ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء – حيث هي رمز للعلو – فيتذكروا الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير

.

إن الإنسان قوي بالقدر الذي وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه , ونواميسه من صنعه , وقواه من إمداده . وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره . وما يصيب الإنسان منها مقدور مرسوم , وما يعلمه الإنسان منها مقدور معلوم . والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيرا , ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ; وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها , ويسخر ما هو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة , ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون , فإنه يصبح مخلوقا مسيخا مقطوعا عن العلم الحقيقي الذي يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ; ويخلد إلى الأرض في عزلة عن روح الوجود ! بينما العالم المؤمن يركع في مهرجان الوجود الجميل , ويتصل ببارئ الوجود الجليل . وهو متاع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجئ الإنسان إلجاء إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه

الحلاوة أم حرمها . فهو يكشف ما يكشف , ويبدع ما يبدع , ويبلغ من القوة ما يبلغ . ثم يواجه قوى الكون في انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتقي العاصفة أحيانا ولكن العاصفة تمضي في طريقها لا يملك وقفها . ولا يملك أن يقف في طريقها , وقصارى ما يبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمي من العاصفة وينزوي عنها ! . . أحيانا . . وأحيانا تقتله وتسحقه من وراء جدرانه وبنيانه . وفي البحر تتناوحه الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبي في مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذي يهيئ لبعض المناكيد أن "الإنسان يقوم وحده" في هذا الوجود , أو أنه سيد هذا الوجود !

(272/775)

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم ما يشاء الله . والله كالئه وحاميه . والله رازقه و معطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظة لسحقته أقل القوى المسخرة له , ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب ولكنه بإذن الله ورعايته مكلوء . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم , وذلك الفضل العظيم .

الدرس التاسع: 19 آيات الله في تحليق الطير في الفضاء

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير , إلى لمسة التأمل والتفكير . في مشهد يرونه كثيرا , ولا يتدبرونه إلا قليلا . وهو مظهر من مظاهر القدرة , وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف .

(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ? ما يمسكهن إلا الرحمن , إنه بكل شيء بصير) . .

وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة , تنسينا بوقوعها المتكرر , ما تشي به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير , وهو يصف جناحيه ويفردهما , ثم يقبضهما ويضمهما , وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة , وحالة القبض العارضة يظل في الهواء , يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة ; ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد , ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه , لا يمله النظر , ولا يمله القلب . وهو متعة فوق ما هو مثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع , الذي يتعانق فيه الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير:

(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ?) . .

ثم يوحي بما وراءه من التدبير والتقدير:

(ما يمسكهن إلا الرحمن) . .

والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب, الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة, المحسوب فيه حساب الخلية والذرة . . النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقة الطير, لتتم هذه الخارقة وتتكرر, وتظل تتكرر بانتظام .

(273/775)

والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة التي لا تكل, وعنايته الحاضرة التي لا تغيب . وهي التي تحفظ هذه النواميس أبدا في عمل وفي تناسق وفي انتظام . فلا تفتر ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله: (ما يمسكهن إلا الرحمن) . . بهذا التعبير المباشر الذي يشي بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح, والطائر صاف جناحيه

من الاية 19 الى الاية 20

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

وحين يقبض , وهو معلق في الفضاء !

(إنه بكل شيء بصير) . .

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهيئ وينسق , ويعطي القدرة , ويرعى كل شيء في كل لحظة رعاية الخبير البصير .

وإمساك الطير في الجو كإمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها في الفضاء . كإمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه ; ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته . وإلا فصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع , وكلها إيحاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه , ويلحظ منها ما يراه . حسب توفيق الله .

الدرس العاشر: 20 - 21 الله المالك الناصر الرازق

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفزع من الخسف والحاصب , بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عودا وبدءا كما يعلم الله من أثر هذا الترداد في قلوب العباد :

(أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ? إن الكافرون إلا في غرور) . .

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب , وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم: من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله , غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ (إن الكافرون إلا في غرور) . . غرور يهيئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي اطمئنان , وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن , بلا شفاعة لهم من إيمان ولا عمل يستنزل رحمة الرحمن .

ولمسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به , وينسون مصدره , ثم لا يخشون ذهابه , ثم يلجون في التبجح والإعراض:

(أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور) . .

ورزق البشر كله – كما سلف – معقود بإرادة الله في أول أسبابه , في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقا , ولا تتعلق بعملهم بتاتا . فهي أسبق منهم في الوجود , وهي أكبر منهم في الطاقة , وهي أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .

فمن يرزق البشر إن أمسك الماء , أو أمسك الهواء , أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟ إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهدا وأعمق جذورا مما يتبادر

إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة . ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره , وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

(275/775)

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق , مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه , كالعمل , والإبداع , والإنتاج . . وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأي نفس يتنفسه العامل , وأي حركة يتحركها , إلا من رزق الله , الذي أنشأه , ومنحه المقدرة والطاقة , وخلق له النفس الذي يتنفسه , والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟ وأي جهد عقلي يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأي إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا في مادة هي من صنع الله ابتداء , وإلا بأسباب كونية

من الاية 21 الى الاية 22

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (22)

وإنسانية هي من رزق الله أصلا ؟ . . (أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ !) .

.

(بل لجوا في عتو ونفور) .

والتعبير يرسم خدا مصعرا , وهيئة متبجحة , بعد تقريره لحقيقة الرزق , وأنهم عيال على الله فيه , وأقبح العتو والنفور , والتبجح والتصعير , ما يقع من العيال في مواجهة المطعم الكاسي , الرازق العائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يتفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون معرضون وقحاء !

وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات , وفي إعراض نافر , وتنسى أنها من صنع الله , وأنها تعيش على فضله , وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئا على الإطلاق !

الدرس الحادي عشر: 22 ضلال الكافر مقابل استقامة المؤمن

ولقد كانوا – مع هذا – يتهمون النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن معه بالضلال ; ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلا ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله في كل زمان . ومن ثم

يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يجسم حقيقة الحال:

(أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ؟) . .

والذي يمشي مكبا على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلا لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله , وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه , ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر , ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيما سويا في طريق لا عوج فيه ولا عثرات , وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله , المحروم من هداه , الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته , لأنه يعترضها في سيره , ويتخذ له مسارا غير مسارها , وطريقا غير طريقها , فهو أبدا في تعثر , وأبدا في عناء , وأبدا في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله , الممتع بهداه , الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور , الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال . .

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك . . مشهد جماعة يمشون على وجوههم , أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات , مستقيمة الخطوات , في طريق مستقيم , لهدف مرسوم .

إنه تجسيم الحقائق , وإطلاق الحياة في الصور , على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير . .

(277/775)

من الاية 23 الى الاية 23

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (23)

الدرس الثاني عشر: 23 نعمة الله على الإنسان في السمع والبصر والفؤاد وعلى ذكر الهدى والضلال , يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى , وأدوات الإدراك ثم لم ينتفعوا بها , ولم يكونوا من الشاكرين:

(قل: هو الذي أنشأكم , وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة , قليلا ما تشكرون) . .

وحقيقة أن الله هو الذي أنشأ الإنسان , حقيقة تلح على العقل البشري , وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد – وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من الخلائق –

وهو لم يوجد نفسه , فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده . . ولا مفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والمماراة فيها نوع من المماحكة لا يستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليذكر بجانبها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة . . (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) . .

وما قابل الإنسان به هذه النعمة: نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة: (قليلا ما تشكرون) . .

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة , معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد . .

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة:

"تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية , ولا يعلم الا الله أين تنتهي . ويقول العلم: إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن , التي تنظم دخوله , ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن .

"والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس .

"فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيبا خاصا ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب" .

"ومركز حاسة الإبصار العين , التي تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء , وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية . . وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية .

"وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة , والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات . ويقال: إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود , وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات . . وعدسة عينيك تختلف في الكثافة , ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة , ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلا" . .

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنسانا . وهي قوة الإدراك والتمييز

والمعرفة التي استخلف

من الاية 24 الى الاية 26

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26)

(279/775)

بها الإنسان في هذا الملك العريض . والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختياري , والاهتداء الذاتي , والإستقامة الإرادية على منهج الله القويم ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة , ولا مركزها , داخل الجسم أو خارجه ! فهي سر الله في الإنسان لم يعلمه أحد سواه .

وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطيها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى , فإنه لم يشكر : (قليلا ما تشكرون) . . وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به , كما يذكرهم القرآن في هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر , لا يشكر نعمة الله عليه ; وهو لا يوفيها حقها لو عاش للشكر دون سواه !

الدرس الثالث عشر : 24 – 27 حقيقة البعث وقدومه المفاجيء وحسرة الكفار

ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء في يوم الجزاء :

(قل: هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون) . .

والذرء: الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر: الجمع بعد النشر في الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصورية , تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق في آية واحدة , ليتقابل المشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . وليتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها , هي الجمع والحشر . وأن هناك أمرا وراء هذا , ووراء الابتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكي شكهم في هذا الحشر , وارتيابهم في هذا الوعد :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) . .

(280/775)

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحك المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ; ولا علاقة لها بحقيقته , وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء .

ويستوي بالقياس إليهم أن يجيء غدا أو أن يجيء بعد ملايين السنين . . فالمهم أنه آت , وأنهم محشورون فيه , وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة .

ومن ثم لم يطلع الله أحدا من خلقه على موعده , لأنه لا مصلحة لهم في معرفته , ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته , ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعدادا لملاقاته , بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة , واختصاص الله بعلم ذلك الموعد , دون الخلق جميعا :

(قل إنما العلم عند الله , وإنما أنا نذير مبين) .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والمخاليق . وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق – بما فيهم الرسل والملائكة – في مقامهم متأدبين عند مقام الألوهية العظيم:

(قل:إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين) . . وظيفتي الإنذار , ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون في شك ويجابون في جزم , يخيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ,

من الاية 27 الى الاية 28

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28)

والموعد الذي يشكون فيه قد حان ; وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان:

(فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا , وقيل: هذا الذي كنتم به تدعون) !

(281/775)

فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضرا أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم , وبدا فيها الاستياء . ووجه إليهم التأنيب: (وقيل: هذا الذي كنتم به تدعون) . . هذا هو حاضرا قريبا . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون !

وهذه الطريقة في عرض ما سيكون تتكرر في القرآن , لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجها لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ; أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو في علم الله . فهذا الانتقال المفاجئ لهم من الدنيا إلى الآخرة , ومن موقف الشك والارتياب إلى موقف المواجهة والمفاجأة , يشير إلى

حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة تصويرا يهز مشاعرهم .

الدرس الرابع عشر: 28 - 29 توكل المؤمن على الله ولا ناصر للكافرين

ولقد كانوا يتربصون بالنبي (صلى الله عليه وسلم) والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ; وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل , فتسكن هذه الزوبعة التي أثارتها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحيانا فيزعمون أن الله سيهلك محمدا ومن معه لأنهم ضالون , ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء , ينبههم إلى أن أمنيتهم حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم:

(قل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا , فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟) . .

(282/775)

وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم , والتفكير في شأنهم , وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانيهم فيهلك الله النبي ومن معه - كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه

ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون . .

ولكنه لا يقول لهم: فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين: (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) . . وهو أسلوب في الدعوة حكيم , يخوفهم من ناحية , ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون , وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم . . فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعل في النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين , إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه , مع التلميح إلى اطمئنانهم لأيمانهم , وثقتهم بهداهم , وبأن الكافرين في ضلال مبين .

(قل: هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين) . .

وذكر صفة (الرحمن) هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ; فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون .

من الاية 29 الى آخر السورة

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ (30)

ويوجه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان (آمنا به) . . وصلة التوكل (وعليه توكلنا) . . عليه وحده . . والتعبير يشي بالقربى بينهم وبين الرحمن . والله – سبحانه – هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القربى , ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما ليقول له: لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بي منتسبون إلي . وأنت مأذون مني في أن تظهر هذه الكرامة , وهذا المقام ! فقل لهم . . . وهذا ود من الله وتكريم . .

ثم ذلك التهديد الملفوف: (فستعلمون من هو في ضلال مبين) . . وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ; ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية: (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ?) وفي الوقت ذاته لا يجبههم بأنهم ضالون فعلا , حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس . .

الدرس الخامس عشر: 30 حتى الماء يعجزون عن إحضاره

وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة , وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول وهو الماء:

(قل: أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ?) . .

والماء الغور: الغائر الذاهب في الأرض لا يقدرون عليه . والمعين: النابع الفائض المتدفق .

وهي لمسة قريبة في حياتهم , إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه . .

والملك بيد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب !

ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور !

(284/775)

وهكذا تنتهي هذه السورة , وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات , وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعا خاصا . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب , أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب .

إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد , ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ; فهي تقر في الضمير حقيقة القدرة المطلقة , وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الإبتلاء بالموت والحياة تمهيدا للحشر

والجزاء . وحقيقة الكمال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق , وحضوره سبحانه – مع كل مخلوق . . . وجملة من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخالق الوجود . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه , واستقباله للحياة . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3631 . 3648 ﴾

(285/775)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى تبارك ، وذكر أقوال المفسرين واختلافهم في معناها . ورجّح أنه بحسب اللغة والاشتقاق أنه تفاعل من البركة ، والمعنى : تكاثرت البركات والخيرات من قبله ، وهذا يستلزم عظمته وتقديسه . . إلخ .

ثم ذكر تنبيهاً في عدم تصريفها واختصاصها بالله تعالى . وإطلاق العرب إياها على الله

تعالى .

وقال في إملائه : الذي بيده الملك . أي نفوذ المقدور في كل شيء يتصرف في كل شيء بما يشاء لا معقب لحكمه اه .

والتقديم للموصول وصلته هنا بالصفة الخاصة به تعالى ، وهي قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ يدل على عظمة الموصول .

ويدل له قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 83] ، لأن التقديم بالتسبيح وهو التنزيه يساوي التقديم بقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، والموصول بعد التسبيح بصلته كالموصول بعد تبارك وصلته سواء بسواء ، وهذا يؤيد ما ذكره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه . والله أعلم .

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الملك والمالك عند قوله تعالى : ﴿ الملك القدوس المؤمن ﴾ [الحشر : 23] ، وهنا تجتمع الصفتان ، فالذي بيده الملك وملكوت كل شيء هو المالك له الملك عليه ، وهو رب العالمين سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياةِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

قدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى هذه الآية الكريمة بما يوضحها من الآيات عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات :

56] ، وقبلها في سورة هود على قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] .

(286/775)

وقال رحمه الله في إملائه : جعل للعالم موتتين وإحياءتين ، وبينه بقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] الآية .

والآية تدل عن أن الموت أمر وجودي لا عدمي كما زعم الفلاسفة ، لأنه لو كان عدمياً ، لما تعلق به الخلق .

لى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ الآية .

ذكر خلق السماوات السبع الطباق على هذا النحو دون تفاوت أو فطور بعد ذكر أول السورة ، يدل على أن خلق هذه السبع من كمال قدرته .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الحكمة في خلق السماوات والأرض ضمن تنبيه عقده في أواخر سورة الذاريات .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى الآية الكريمة ، والآيات الموضحة لها عند الكلام على أول سورة ق عند قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ

بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] قال في إملائه : إن قوله تعالى في خلق الرحمن عام في جميع مخلوقاته ، من معنى الاستواء والحكمة والدقة في الصنع ، وتدخل السماوات في ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] وإتقان كل شيء بحسبه ، كما ي قوله : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

وقوله : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 7] .

وبدأ خلق الإنسان من طين ، وهذا الحال للسماء في الدنيا فقط ، وستنفطر يوم القيامة ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الأنفطار : 1] ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ .

(287/775)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] في سورة الأنبياء .

وعند قوله : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ ﴾ [ق : 6] في سورة ق .

ولعل مجيء هذه الآية بعد ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] توجيه إلى حسن صنع الله وإبداعه في خلقه ﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُت ﴾ [الملك : 3] .

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

المصنوص هنا إرجاع البصر كرتين ، ولكن حقيقة النظر أربع مرات .

الأولى في قوله : ﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : 3] .

والثانية في قوله : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] .

والثالث والرابعة في قوله : ﴿ ثُمَّ ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْن ﴾ [الملك : 4] .

وليس بعد معاودة النظر أربع مرات من تأكيد ، والحسير : العي الكليل اعاجز المتقطع دون غاية ، كما في قول الشاعر :

من مد طرفاً إلى ما فوق غايته . . . ارتد خسآن من الطرف قد حسرا

وقال القرطبي : يقال قد حسر بصره يحسر حسوراً ، أي كل وانقطع نظره من طول مدى ، وما أشبه ذلك فهو حسير ومحسور أيضاً .

قال :

نظرت إليها بالمحصب من منى . . . فعاد إلي الطّرف وهو حسير

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان زينة السماء بالمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين بياناً كاملاً عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : 16 - 18] .

(288/775)

وقد ذكر طرفاً من هذا البحث في سورة الفرقان لا بد من ضمه إلى هذا المبحث هناك لارتباط بعضها ببعض .

تنبيه

فقد ظهرت تلك المخترعات الحديثة ونادى أصحاب النظريات الجديدة والناس ينقسمون إلى قسمين : قسم يبادر بالإنكار وآخر يسارع للتصديق ، وقد يستدل كل من الفريقين بنصوص من القرآن أو السنة ، ولعل من الأولى أن يقال : إن النظريات الحديثة قسمان : نظرية تتعارض مع صريح القرآن ، فهذه مردودة بلا نزاع كنرية ثبوت الشمس مع قوله تعالى :

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : 38] .

ونظرية لا تتعارض مع نص القرآن ولم ينص عليها ، وليس عندنا من وسائل العلم ما يؤيدها ولا يرفضها .

فالأولى أن يكون موقفنا موقف التثبت ولا نبادر بحكم قاطع إيجاباً أو نفياً ، وذلك أخذاً من قضية الهدهد وسبأ مع نبي الله سليمان لما جاء يخبرهم . وكان عليه السلام لم يعلم عنهم شيئاً فلم يكذب الخبر بكونه من الهدهد ولم يصدقه لأنه لم يعلم عنهم سابقاً ، مع أنه وصف حالهم وصفاً دقيقاً .

وكان موقفه عليه السلام موقف التثبت مع ما لديه من إمكانيات الكشف والتحقيق من الريح والطير والجن ، فقال للمخبر وهو الهدهد : سننظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين . ونحن في هذه الآونة لسنا أشد إمكانيات من نبي الله سليمان آنذاك ، وليس المخبرون عن مثل هذه النظريات أقل من الهدهد . فليكن موقفنا على الأقل موقف من سينظر أيصدق الخبر أم يظهر كذبه ؟

والغرض من هذا التنبيه هو ألا نحمل لفظ القرآن فيما هو ليس صريحاً فيه ما لا يحتمله ، ثم يظهر كذب النظرية أو صدقها ، فنجعل القرآن في معرض المقارنة مع النظريات الحديثة ، والقرآن فوق ذلك كله ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 42] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا ﴾ فالدنيا تأنيث الأدنى أي السماء الموالية للأرض ، ومفهومه أن بقية السماوات ليست فيها مصابيح التي هي النجوم والكواكب كما قال : ﴿ بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [الصافات : 6] ويدل لهذا المفهوم ما جاء به عن قتادة : أن الله جعل النجوم لثلاثة أمور . أمران هنا ، وهما زينة السماء الدنيا ورجوماً للشياطين . والثالثة علامات واهتداء في البر والبحر ، وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بالسماء الدنيا . لأن الشياطين لا تنفذ إلى السماوات الأخرى لأنها أجرام محفوظة ، كما في حديث الإسراء " لها أبواب وتطرق ولا يدخل منها إلا بإذن "

وكقوله : ﴿ إِنَّ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا واستكبروا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ﴾ [الأعراف : 40] .

وكذلك ليس هناك من يحتاج إلى اهتداء بها في سيره لأن الملائكة كل في وضعه الذي أوجده الله عليه لأن الزينة لن ترى لوجود جرم السماء الدنيا ، فثبت أن النجوز خاصة بالسماء الدنيا .

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً

مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : 6 - 7] .

ومفهوم الدنيا عدم وجودها فيما بعدها ، ولا وجود للشيطان في غير السماء الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ ، وهي الشهب من النار ، والشهب النار ، كما في قوله : ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل : 7] ، والرجوم والشهب هي التي ترمي بها الشياطين عند استراق السمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [الجن : 9] .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

(290/775)

وهنا سؤال ، وهو إذا كان الجن من نار ، كما في قوله : ﴿ وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : 15] ، فكيف تحرقه النار ؟

فأجاب عنه الفخر الرازي بقوله : إن النار يكون بعضها أقوى من بعض ، فالأقوى يؤثر على الأضعف ، ومما يشهد لما ذهب إليه قوله تعالى بعده ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ والسعير : أشد النار .

ومعلوم أن النار طبقات بعضها أشد من بعض ، وهذا أمر ملموس ، فقد تكون الآلة

مصنوعة من حديد وتسلط عليها آلة من حديد أيضاص ، أقوى منها فتكسرها .

كما قيل : لا يقل الحديد إلا الحديد ، فلا يمنع كون أصله من نار ألا يتعذب بالنار ، كما أن أصل الإنسان من طين من حمإٍ مسنون ، ومن صلصال كالفخَّار ، وبعد خلقه فإنه لا يحتمل التعذيب بالصلصال ولا بالفخار ، فقد يقضي عليه بضربة من قطعة من فخَّار ، والعلم عند الله .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

قوله تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه في هذه الآية : إثبات أن للنار حساً وإدراكاً وإرادة ، والقرآن أثبت للنار أنها تغتاظ وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد ، كما قال هنا : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظ ﴾ .

وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] .

وقال : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ .

بين تعالى أن للنار خزنة ، وقد بين تعالى ان هؤلاء الخزنة هم الملائكة الموكلون بالنار ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

كما بين عدتهم في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] .

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : 31] .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : دلت هذه الآية على أن أهل النار يدخلونها جماعة بعد جماعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : هذا سؤال الملائكة لأهل النار ، والنذير بمعنى المنذر ، فهو فعيل بمعنى مفعل ، وإن ذكر عن الأصمعي إنكاره ونظيره من القرآن : بديع السماوات : بمعنى مبدع ، وأليم : بمعنى مؤلم .

ومن كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانه الداعي السميع . . . يؤرقني وأصحابي هجوع

فالسميع بمعنى المسمع .

وقول غيلان :

ويرفع من صدور شمردلات . . . يصد وجوهها وهج أليم

أي مؤلم ، والإنذار إعلام مقترن بتخويف .

وقال : وهذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحداً إلا بعد أن ينذره في الدنيا ، وقد بين هذا المعنى بأدلته بتوسع عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] ، وساق هذه الآية هناك .

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9)

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ .

قد اعتقوا بمجيء النذير إليهم .

وقد بين تعالى ذلك في قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] .

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : أي قال أهل النار : لو كنا نسمع من يعقل

عن الله حججه أو نعقل حجج الله ما كنا في أصحاب السعير ، أي النار ، فهم يسمعون ، ولكن لا يسمعون ما ينفعهم في الآخرة ، ويعقلون ولكن لا يعقلون ما ينفعهم في الآخرة ، لأن الله قال : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] .

وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] .

وقد بين هذا الذي ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه عدة نصوص صريحة في ذلك ، منها أصل خلقتهم الكاملة في قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] .

وفي آخر سورة الملك هذه قوله ﴿ قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : 23] .

ولكنهم سمعوا وعصوا ، كما في قوله : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : 93] .

وهذا ، وإن كان في بني إسرائيل ، إلا أنه قال لهذه الأمة : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : 21] .

وقال تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ [الأنفال : 31] .

وقوله عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26]

وقد بين تعالى سبب عدم استفادتهم بما يسمعون في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً ﴾ الجاثية : 7 – 9] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان : 7] .

فقولهم هنا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ أي سماع تعقل وتفهم .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

قال رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : الاعتراف الإقرار ، أي أقروا بذنبهم يوم القيامة حيث لا ينفع الإقرار والندم ، وتقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان انتفاع الكفار بإقرارهم هذا بتوسع عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أعراف : 53] .

واستدل بهذه الآية ، آية الملك هناك .

والظاهر أن الأصل في ذلك كله أن اعترافهم وإيمانهم بعد فوات الأوان بالمعاينة ، كما جاء في حق فرعون في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ

بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] ، فقيل له : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91] .

(294/775)

وجاء أصرح ما يكون في قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ ﴿ الأنعام : 158] .

فلما جاء بعض آيات الله وظهر الحق ، لم يكن للإيمان محل بعد المعاينة ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ أي من قبل المعاينة كحالة فرعون المذكورة ، لأن حقيقة الإيمان التصديق بالمغيبات ، فإذا عاينها لم تكن حينذاك غيباً ، فيفوت وقت الإيمان والعلم عند الله ، وعليه حديث التوبة : ما لم يغرغر .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

الخشية : شدة الخوف ، كما قال تعالى : ﴿ 1649 ;لَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُون ﴾ [الأنبياء : 49 .

وبين تعالى محل تلك الخشية في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ فاطر : 28] لأنهم يعرفون حق الله تعالى ويراقبونه .

وقد بين تعالى حقيقة خشية الله : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] .

فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حق الله عليهم ومراقبته إياهم في السر والعلن ، ويعلمون أنه مطلع عليهم مهما تخسفوا وتستروا وهم دائماً منيبون إلى الله ، كما في قوله : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : 32 - 33] ، وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى ، كما بين أنها منزلة العلماء .

(295/775)

وقد عاب تعالى أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، ويخشون الناس ولا يخشون الله ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء ، كما في قوله : ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله وكفى بالله حَسِيباً ﴾ [الأحزاب : 39] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : والعرب تمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس .

ومنه قول مسلم بن الوليد :

يتجنب الهفوات في خلواته . . . عف السريرة غيبه كالمشهد

والواقع أن هذه الصفة ، وهي خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله ، ومعاملاته ، لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعاً في ثواب الله ، كما في مستهل المصحف ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 1 - 3] الآية .

وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء ، فيسلم ويتحصل له ما قال الله تعالى عنهم : ﴿ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ، مغفرة من ذنوب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على أعماله ، رزقنا الله خشيته في السر والعلن .

وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده ، كما في الحديث في الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه .

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء ، لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وقوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد : 10] .

وقوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] .

(296/775)

وتقدم للشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية .

وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى الله ﴾ [المجالة : 1] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] الآية .

وتقدم في سورة التحريم قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ ﴾ [التحريم : 3] الآية ، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى ، ولذا قال تعالى هنا ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] .

كما قال في سورة التحريم : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ [التحريم :

3] .

وقال القرطبي نقلاً عن أبي إسحاق الإسفرائيني : من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم ، ومعناه تفهيم جميع المعلومات ، ومنها الخبير ، ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ، ومنها الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف ، ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ، ومعناه ألا يغيب عنه شيء . ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى ، ومنها المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأرواق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] ، ومن في قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أجازوا فيها أن تكون فاعل يعلم ، وهو الله تعالى ، أي إن الذي خلق يعلم ما خلق ومنه ما في الصدور .

وأجازوا أن تكون مفعولاً والفاعل ضمير مستتر في الفعل يعلم ، ذكرهما القرطبي وأبو حيان ، وهو واضح ومحتمل .

(297/775)

ولكن الذي تشهد له النصوص أنها مفعول كما في قوله : ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى : 12] ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : 19] .

وقوله : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 96] ، ومن أعمالهم ما يسرون ، وما يجهرون . والعلم عند الله تعالى .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

الذلول فعول بمعنى مفعول ، وهو مبالغة في الذل .

تقول : دابة ذلول بينة الذل ، وقيل في معنى تذليل الأرض عدة أقوال لا تنافي بينها ، ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال ، كقوله تعالى : ﴿ والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 32 - 33] .

ومن إمكان الزرع فيها كقوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : 27 - 32] ، وقد جمع أكثرها في قوله : تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً أَحْيَآءً وَأَمْواتاً وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 25 - 27] .

وكنت أسمع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول في هذه الآية : إنها من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتاً للإنسان في حياته بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها ، فإذا مات كانت له أيضاً كفاتاً بدفنه فيها .

ويقول : لو شاء الله لجعلها حديداً ونحاساً فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها ولا يحفر ولا يبني ، وإذا مات لا يجد مدفناً فيها .

(298/775)

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى : ﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ لترتبه على ما قبله بالفاء ، أي بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها ، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ .

والأمر في قوله تعالى : ﴿ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ للإباحة . ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً ﴾ فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهاً وحثاً للأمة على السعي والعمل والجد ، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها وتذليلها ، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها .

كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج : 65] .

وفي قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : 13

] وغير ذلك من الآيات .

ومن رأى هذا التسخير اعترف لله بالفضل والقيام لله بالحمد ، وتقديم الشرك كما قال تعالى : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : 36] .

وقوله : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 12 - 14] .

أي مع شكر النعمة الاتعاظ والعبر والاستدلال على كمال القدرة .

(299/775)

ومنها المعاد والمنقلب إلى الله تعالى ، فقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ بعد المشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 14] بعد ذكر ﴿ خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ [

الزخرف : 12] أي الأصناف وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر فيه ضمناً إثبات القدرة على البعث ، فيكون المشي في مناكب الأرض واستخدام مناكبها واستغلال ثرواتها والانتفاع من خيراتها لا لطلب الرزق وحده ، وإلا لكان يمكن سوقه إليهم ، ولكن للأخذ بالأسباب أولاً ، وللنظر في المسببات والعبرة بالمخلوقات والتزود لما بعد الممات ، كما في آية الجمعة : ﴿ فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [الجمعة : 10] .

وعليه ، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى ، والاستغناء والاستثمار والإنتاج ، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود .

وقد قال النووي في مقدمة المجموع : إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة لتستغني عن غيرها ، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج ، وهذا هو واقع العالم اليوم ، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية .

وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولية في هذا كله ، فعليهم أن يحتلو مكانهم ويحافظوا على مكانتهم ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معاً . وبالله التوفيق .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

ذكر أبو حيان قراءة ﴿ ءَأَمِنتُم ﴾ عدة قراءات من تحقيق الهمزتين ، ومن تسهيل الثانية ومن إدخال ألف بينهما وغير ذلك ، والخسف ذهابها سفلاً ، كما خسف بقارون ، والمور الحركة المضطربة أو الحركة بسرعة ، وقد ثبتها تعالى بالجبال أوتاداً كما قال : ﴿ والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 32 – 33] ، ومن السماء .

قال ابن جرير : هو الله تعالى اه .

وعزاه القرطبي لابن عباس ، ويشهد لما قاله : ما جاء بعده من خسف الأرض وإرسال الحاصب ، فإنه لا يقدر عليه إلا الله ، كما أنه ظاهر النص ، وبهذا يرد على الكسائي فيما ذهب إليه ومن تبعه عليه كأبي حيان ، إذا قالوا : إنه على تقدير محذوف من قبيل المجاز ، ومجازه عندهم أن ملكوته في السماء أي على حذف مضاف وملكوته في كل شيء ، ولكن خص السماء بالذكر ، لأنها مسكن ملائكته ، وثم عزته وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تتنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونهيه . إلخ .

وقيل : هو جبريل لأنه الموكل بالخسف ، وقيل : إنه مجاراة لهم في معتقدهم بأن الله في السماء ، وهذه الأقوال مبناها على نفي صفة العلو لله تعالى ، وفراراً من التشبيه في نظرهم

، ولكن ما عليه السلف خلاف ما ذهبوا إليه ، ومعتقد السلف هو طبق ما قاله ابن جرير لحديث الجارية : " أين الله ؟ قالت في السماء ، قال : اعتقها فإنها مؤمنة " ولعدة آيات في هذا المعنى .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث بأوسع وأوضح ما يمكن مما لم يدع لبساً ولا يترك شبهة ، ولا يستغني عنه مسلم عالماً كان أو متعلماً ، فالعالم يأخذ منه منهج التعليم السليم وأسلوب البيان الحكيم ، والمتعلم يأخذ منه ما يجب عليه من معتقد قويم واضح جلي سليم .

وقد يقال : إن معنى في هو الظرفية ، فنجعل السماء ظرفاً لله تعالى ، وهذا يقتضي التشبيه بالمتحيز .

فيقال : إنه سبحانه منزه عن الظرفية بالمعنى المعروف والمنصوص في حق المخلوق .

(301/775)

وقد دلت النصوص من السنة على نفي ذلك عنه تعالى واستحالته عقلاً عليه سبحانه في حديث : " ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة أو دراهم في ترس ، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة ، وما العرش في كف الرحمن إلا كحبة خردل في كف أحدكم "

فانتفت ظرفية السماء له سبحانه على المعروف لنا ، ولأنه سبحانه مستو على عرشه .

وفيما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في هذا المبحث شفاء وغناء ، ولله الحمد والمنة . قال القرطبي : إن في السماء بمعنى فوق السماء كقوله : ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأرض ﴾ [التوبة : 2] أي فوقها لا بالمماسة والتحيز

وقيل : في بمعنى على كقوله : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي عليها إلى أن قال : والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة مشيرة إلى العلو لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل أو معاند ، اولمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو اه .

وهذا الذي ذكره هو عين مذهب السلف ، وقد ذكر كلاما آخره فيه التأويل وفيه التنزيه .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

الطير صافات ، أي مادات أجنحتها . ويقبضن : أي يضمنها إلى أجسامها .

قال أبو حيان : عطف بالفعل ويقبضن على الاسم ، صافات ، ولم يعطف باسم قابضات ، لأن الأصل في الطيران هو بسط الجناح ، والقبض طارئ ، وهذا الذي قاله أبو حيان : جار على القاعدة عندهم من أن الاسم للدوام والثبوت ، والفعل للتجدد والحدوث ، فالحركة الدائمة في الطيران هي صف الجناح ، والجديد عليه هو القبض .

وقوله تعالى : يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن ﴾ دليل على قدرته تعالى وآية لخلقه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 79] .

فهي آية على القدرة ، وقد جاء في آيات أخرى أنه تعالى هو الذي يمسك السماوات والأرض بقدرته جل وعلا ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر : 41] .

فهو سبحانه ممسكهما بقدرته تعالى عن أن تزولا ، ولو قدر فرضاً زوالهما لا يقدر على إمساكهما إلا هو وكما في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : 65] .

تنبيه

ولعل مما يستدعي الانتباه توجيه النظر إلى الطير في الهواء صافات . ويقبض ، ك ما يمسكهن إلا الرحمن ، بعد التخويف بخسف الأرض بأن معلقة في الهواء كتعلق الطير المشاهد إليكم ما يمسكها إلا الله ، وإيقاع اخسف بها ، كإسقاط الطير من الهواء ، لأن

الجميع ما يمسكه إلا الله ، وهو القادر على الخسف بها ، وعلى إسقاط الطير .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند وقله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 18] في سورة المؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(303/775)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الملك

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)

قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ : متعلِّقٌ ب " خَلَقَ " وقوله : " أيُّكم أحسنُ " قد تقدَّم مثلُه في أول هود . وقال الزمخشري هنا : " فإنْ قلتَ : مِن أين تعلَّقَ قولُه : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ بفعلِ البَلْوى ؟ قلت : من حيث إنَّه تضمَّن معنى العلمِ ، فكأنه قيل : لِيُعْلِمَكم أيُّكم أحسنُ عملاً . وإذا قلتَ : عَلِمْتُه : أزيدٌ أحسن عملاً أم هو ؟ كانت هذه الجملةُ واقعةً موقعَ الثاني

مِنْ مفعولَيْه ، كما تقول : عَلِمْتُه هو أحسن عملاً . فإنْ قلتَ : أتُسَمِّي هذا تعليقاً ؟ قلت : لا ، إنما / التعليقُ ، أَنْ يقعَ بعده ما يَسُدُّ مَسَدَّ المفعولَيْن جميعاً ، كقولك : عَلِمْتُ أيُّهما عمروٌ ، وعلِمْتُ أزيدٌ منطلق ؟ . ألا ترى أنه لا فَصْلَ بعد سَبْقِ أحدِ المفعولَيْن بين أَنْ يقَع ما بعده مُصَدَّراً بحرف الاستفهامِ وغيرَ مصدَّرٍ به . ولو كان تعليقاً لافترقَتِ الحالتان كما افترقتا في قولِك : عَلِمْتُ أزيد منطلِقٌ ، وعلمْتُ زيداً منطلقاً " .

قلت : وهذا الذي مَنَعَ تسميتَه تعليقاً سَمَّاه به غيرُه ، ويجعلون تلك الجملةَ في محلِّ ذلك الاسمِ الذي يتعدَّى إليه ذلك الفعلُ ، فيقولون في " عَرَفْت أيُّهم منطلقٌ " : إنَّ الجملةَ الاستفهاميةَ في محلِّ نصبٍ لسَدِّها مَسَدَّ مفعولِ " عَرَفْتُ " وفي " نَظَرْتُ أيُّهم منطلقٌ " : إن الجملةَ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافض ؛ لأنَّ " نظر " يتعدَّى به .

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)

(304/775)

قوله : ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ تابعاً للعزيز الغفور نعتاً أو بياناً أو بدلاً ، وأَنْ يكونَ منقطِعاً عنه خبرَ مبتدأ ، أو مفعولَ فعلٍ مقدرٍ .

قوله : ﴿ طِبَاقاً ﴾ صفةٌ لـ " سبعَ " وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه جمعُ طَبَق نحو : جَبَل وجِبال . والثاني : أنه جمعُ طَبَقة نحو : رَقَبة ورِقاب . والثالث : أنه مصدرُ طابَقَ يقال : طابقَ مُطابقة وطِباقاً . ثم : إمَّا أَنْ يجعلَ نفسَ المصدرِ مبالغةً ، وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : ذاتَ طباق ، وإمَّا أَنْ ينتصِبَ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ أي : طُوْبِقَتْ طباقاً مِنْ قولِهم : طابَقَ النعلَ أي : جعله طبقةً فوق أخرى .

قوله : ﴿ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ هو مفعولُ " تَرَى " و " مِنْ " مزيدةٌ فيه . وقرأ الأخَوان " تَفَوُّتٍ " بتشديدِ الواوِ دون ألفٍ . والباقون بتخفيفها بعد ألفٍ ، وهما لغتان بمعنىً واحدٍ كالتعهُّد والتعاهد ، والتظهُّر والتظاهُر . وحكى أبو زيد " تفاوَتَ الشيءُ تفاوُتاً بضم الواو وفتْحِها وكسرِها ، والقياسُ الضمّ كالتقابُل ، والفتحُ والكسرُ شاذان . والتفاوُت : عدمُ التناسُبِ ؛ لأنَّ بعض الأجزاءِ يَفُوت الآخَرَ . وهذه الجملةُ المنفيةُ صفةٌ مُشايعةٌ لقولِه : " طباقاً " وأصلُها : ما ترى فيهنَّ ، فوضَع مكانَ الضميرِ قوله : ﴿ خَلْقِ الرحمن ﴾ تعظيماً لخلقِهنَّ وتنبيهاً على سببِ سلامَتِهن ، وهو أنه خَلْقُ الرحمن ، قاله الزمخشريُّ ، وظاهر هذا : أنه صفةٌ لـ " طباقاً " ، وقام الظاهرُ فيها مَقامَ المضمرِ ، وهذا إنما نعرِفُه في خبرِ المبتدأ ، وفي الصلةِ ، على خلافٍ فيهما وتفصيلٍ .

وقال الشيخ : " الظاهرُ أنه مستأنَفٌ " وليس بظاهرٍ لانفلاتِ الكلامِ بعضِه من بعض .

و" خَلْق " مصدرٌ مضافٌ لفاعِله ، والمفعولُ محذوفٌ أي : في خَلْقِ الرحمنِ السماواتِ ، أو كلَّ مخلوقٍ ، وهو أَوْلى ليعُمَّ ، وإن كان السياقُ مُرْشِداً للأول .

(305/775)

قوله : ﴿ فارجع ﴾ مُتَسَبِّبٌ عن قولِه : " ما تَرَى " و " كرَّتَيْن " نصبٌ على المصدرِ كمرَّتَيْن ، وهو مثنى لا يُراد به حقيقتُه ، بل التكثيرُ ، بدليلِ قولِه : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي : مُزْدجراً وهو كليلٌ ، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتَيْن ولا ثلاثٍ ، وإنما المعنى كرَّات ، وهذا كقولهم : " لَبَّيْك وسَعْديك وحنانَيْك ودَواليك وهذاذَيْك لا يُريدون بهذه التثنيةِ شَفْعَ الواحدِ ، إنما يريدون التكثيرَ أي : إجابةً لك بعد أخرى ، وإلاَّ تناقَضَ الغرضُ ، والتثنيةُ تفيدُ التكثيرَ لقرينةٍ كما يُفيده أصلُها ، وهو العطفُ لقرينةٍ كقولِه :

4282 لو عُدَّ قبرٌ كنتَ أكرَمَهم . . . . . .

أي : قبول كثيرة ليتمَّ المَدْحُ . وقال ابن عطية : " كرَّتَيْن معناه مرَّتَين ، ونصبُها على المصدرِ " . وقيل : الأُوْلى ليُرى حُسْنُها واستواؤُها ، والثانية لتُبْصرَ كواكبُها في سَيْرها وانتهائِها ،

وهذا تظاهرٌ يُفهِمُ التثنية فقط .

قوله : ﴿ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكونَ مُعَلِّقَةً لفعلٍ محذوفٍ يَدُلُّ عليه " فارْجِعِ البصر " أي : فارْجِعِ البصرَ فانظر : هل ترى ، وأَنْ يكونَ " فارجعِ البصر " مضمَّناً معنى انظر ؛ لأنه بمعناه ، فيكونُ هو المعلَّق . وأدغَم أبو عمرو لامَ " هل " في التاء هنا ، وفي الحاقة وأَظْهرها الباقون ، وهو المشهورُ في اللغة .

والفُطور : الصُّدوع والشُّقوق قال :

4283 شَقَقْتُ القلب ثم ذَرَرْتُ فيه . . . هواكِ فَلِيْطَ فالتأَمَ الفُطورُ

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

(306/775)

قوله : ﴿ يَنْقَلِبْ ﴾ : العامَّةُ بجزمِه على جوابِ الأمر ، والكسائي / في روايةٍ برفعِه ، وفيه وجهان ، أحدهما : أَنْ تكونَ حالاً مقدرة . والثاني : أنه على حذفِ الفاءِ أي : فينقلِبْ . وخاسِئاً . حال وقوله : " وهو حسيرٌ " حال : إمَّا مِنْ صاحبِ الأولى ، وإمَّا من الضمير المستتر في الحالِ قبلَها ، فتكونُ متداخلةٌ . وقد تقدَّم مادتا " خاسئاً " و " حسيراً " في المؤمنين والأنبياء .

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)

قوله: ﴿ الدنيا ﴾: [يعني] منكم؛ لأنَّها فُعْلَى تأنيثُ أَفْعَلِ التفضيلِ. و"جَعَلْناها" يجوزُ في الضميرِ وجهان، أحدُهما: أنه عائدٌ على "مَصابيحَ" وهو الظاهر. قيل: وكيفيةُ الرَّجْم: أَنْ يُؤْخَذَ نارٌ من ضوءِ الكوكبِ، يُرْمى به الشيطانُ والكوكبُ في مكانِه لا يُرْجَمُ به. والثاني: أنَّ الضميرَ يعودُ على السماء والمعنى: منها، لأنَّ السماءَ ذاتَها ليست للرُّجوم، قاله الشيخ. وفيه نظرٌ لعدمِ ظهورِ عَوْدِ الضميرِ على السماءِ. والرُّجوم: جمعُ رَجْم وهو مصدرٌ في الأصل، أُطْلِقَ على المَرْجوم به كضَرْبِ الأميرِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ باقياً على مصدريته، ويُقَدَّرُ مُضافٌ أي: ذاتُ رُجوم. وجَمْعُ المصدرِ باعتبارِ أنواعِه، فعلى الأولِ يتعلَّقُ قولُه: "للشياطين" بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لـ رُجوماً، وعلى الثاني لا تعلُّقَ له لأنَّ اللامَ مزيدةٌ في المفعول به، وفيه دلالةٌ حينئذٍ على إعمالِ المصدرِ منوناً مجموعاً. ويجوزُ أَنْ يكونَ صفةً له أيضاً كالأولِ فيتعلَّقُ بمحذوفٍ. وقيل: الرُّجومُ هنا: الظنونُ والشياطينُ شياطينُ الإِنْسِ، كما قال:

4283 . . . . . وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6)

قوله : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ : خبرٌ مقدَّمٌ في قراءةِ العامَّةِ ، و " عذابُ جهنَم " مبتدَؤُه .

وفي قراءةِ الحسن والضحاك والأعرج بنصبهِ متعلِّقٌ ب " أَعْتَدْنا " عطفاً على " لهم " ، و " عذابَ جهنمَ " عطفٌ على " عذابَ السعير " فعطَفَ منصوباً على منصوب ، ومجروراً على مجرورٍ ، وأعاد الخافضَ ؛ لأنَّ المعطوفَ عليه ضميرٌ . والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ أي : وبئسَ المصيرُ مَصيرُهم ، أو عذابُ جهنم ، أو عذابُ السعير .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7)

قوله : ﴿ لَهَا ﴾ : متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " شهيقاً " لأنه في الأصلِ صفتُه .

ويجوزُ أَنْ يكونَ على حَذْفِ مضافٍ أي : سمعوا لأهلها . و " وهي تفور " جملةٌ حاليةٌ .

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

قوله : ﴿ تَمَيَّزُ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ بتاءٍ واحدةٍ مخففةٍ . والأصلُ : تتميَّزُ بتاءَيْن وبها قرأ طلحةُ والبزيُّ عن ابنِ كثير بتشديدها ، أدغم إحدى التاءَيْن في الأخرى ، وهي قراءةٌ حسنةٌ لعدمِ التقاء ساكنين ، بخلافِ قراءتِه ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ [النور : 15] و ﴿ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] وبابه . وأبو عمرو يُدْغِمُ الدالَ في التاءِ على أصلِه في المتقاربَيْنِ .

وقرأ الضحاك " تمايَزُ " والأصل : تتمايَزُ بتاءَيْن فحَذَفَ إحداهما . وزيد بن علي " تَمِيْزُ "

مِنْ ماز ، وهذا كلُّهُ استعارةٌ مِنْ قولِهم : تميَّز فلان من الغيظِ أي : انفصل بعضُه من بعض من الغيظ ف " مِنْ " سببيَّةٌ أي : بسببِ الغَيْظِ . ومثلُه [قولُ الراجزِ] في وصف كَلْبٍ اشتدَّ عَدْوُه :

(308/775)

4285 يكادُ أَنْ يخرجَ مِنْ إهابِهْ . . . قوله : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ ﴾ قد تقدَّم الكلامُ على " كلما " وهذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً مِنْ ضميرِ جهنَّم .

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9)

قوله : ﴿ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ : فيه دليلٌ على جوازِ الجمعِ بين حرفِ الجوابِ ونفسِ الجملةِ المجابِ بها ، إذ لو قالوا : بلى لَفُهِمَ المعنى ، ولكنهم أظهروه تَحَسُّراً وزيادةً في تَغَمُّمِهم على تفريطِهم في قبولِ قولِ النذيرِ وليَعْطِفوا عليه قولهم : " فكذَّبْنا " إلى آخره .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ ظاهرُه أنه مِنْ مقولِ الكفارِ للنذير . وجوَّزَ الزمخشريُّ أَنْ يكونَ مِنْ كلامِ الرسلِ للكفرةِ ، وحكاه الكفرةُ للخَزَنَةِ أي : قالوا لنا هذا فلم نَقْبَلْه .

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

وقوله : ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ : وحدَه لأنه مصدرٌ في الأصلِ ، ولم يَقْصِدِ التنويعَ بخلافِ " بذنوبهم "

في مواضعَ .

قوله : ﴿ فَسُحْقاً ﴾ فيه وجهان أحدُهما : أنَّه منصوبٌ على المفعولِ به أي : ألزَمَهم اللَّهُ سُحْقاً . والثاني : أنَّه منصوبٌ على المصدرِ تقديرُه : سَحَقَهم اللَّهُ سُحْقاً ، فناب المصدرُ عن عامِله في الدُّعاءِ نحو : جَدْعاً له وعَقْراً ، فلا يجوزُ إظهارُ عامِله . / واختلف النحاة : هل هو مصدرٌ لفعلٍ ثلاثيّ أم لفعلٍ رباعي فجاء على حَذْفِ الزوائدِ ؟ فذهب الفارسيُّ والزجَّاجُ إلى أنه مصدرُ أَسْحَقَه اللَّهُ أي : أبعَدَه . قال الفارسي : " فكان القياسُ إسْحاقاً ، فجاء المصدرُ على الحَذْفِ كقوله :

4286 فإن أَهْلِكْ فذلك كان قَدْري . . . . . .

. . . . . .

(309/775)

أي تقديري . والظاهرُ أنه لا يُحتاج لذلك ؛ لأنه سُمع : سَحَقَه اللَّهُ ثلاثياً . وفيه قولُ الشاعر :

4287 يجولُ بأطرافِ البلادِ مُغَرِّباً . . . وتَسْحَقُه ريحُ الصَّبا كلَّ مَسْحَقِ

والذي يظهرُ أنَّ الزجَّاج والفارسيَّ إنما قالا ذلك فيَمْن يقولُ مِن العربِ أَسْحقه الله سُحْقاً .

وقرأ العامَّةُ بضمةٍ وسكونٍ ، والكسائيُّ في آخرَين بضمتين ، وهما لغتان . والأحسنُ أَنْ يكونَ المثقَّلُ أصلاً للخفيفِ . و [قوله] "لأصحاب" بيانٌ ك ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] وسَقْياً لك . وقال مكي : "والرفعُ يجوز في الكلامِ على الابتداء "أي : لو قيل : " فَسُحْقٌ " جاز لا على أنه تلاوةٌ بل من حيث الصناعةُ ، إلاَّ أنَّ ابنَ عطيةَ قد قال ما يُضَعِّفُه ، فإنه قال : " فسُحْقاً نصباً على جهةِ الدعاءِ عليهم ، وجازَ ذلك فيه وهو مِنْ قِبل اللَّهِ تعالى من حيثُ هذا القولُ ، فيهم مستقرٌّ أَوَّلاً ، ووجودُه لم يَقَعْ ، ولا يَقَعُ إلاَّ في الآخِرة ، فكأنه لذلك في حَيِّز المتوقَّع الذي يُدَّعَى فيه كما تقول : " سُحْقاً لزيدٍ ، وبُعْداً له " والنصبُ في هذا كلِّه بإضمار فعلٍ ، وأما ما وَقَعَ وثَبَتَ فالوجهُ فيه الرفعُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : 1] ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 24] وغيرُ هذا مِن الأمثلة " انتهى .

فضعَّفَ الرفعَ كما ترى لأنه لم يَقَعْ بل هو متوقَّعٌ في الآخرةِ .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

قوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ : الأحسنُ أَنْ يكونَ الخبر " لهم " و " مغفرةٌ " فاعلٌ به ؛ لأن الخبرَ المفرد أصلٌ ، والجارُّ من قبيل المفرداتِ أو أقربُ إليها .

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

قوله: ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنه فاعلُ "يَعْلَمُ" والمفعول محذوفٌ تقديرُه: ألا يعلم الخالقُ خَلْقَه، وهذا هو الذي عليه جمهورُ الناسِ وبه بدأ الزمخشريُّ. والثاني: أنَّ الفاعلَ مضمرٌ يعود على الباري سبحانه وتعالى، و "مَنْ" مفعولٌ به أي: ألا يعلمُ اللَّهُ مَنْ خَلَقَه. قال الشيخ: "والظاهر أن "مَنْ" مفعولٌ، والمعنى: أينتفي علمُه بمَنْ خَلَقَه، وهو الذي لَطَفَ عِلْمُه ودَقَّ" ثم قال: "وأجاز بعضُ النَّحْويين أَنْ يكون "مَنْ" فاعلاً والمفعولُ محذوفٌ، كأنه قال: ألا يعلَم الخالقُ سِرَّكم وجهرَكم، وهو استفهامٌ، معناه الإنكار". قلت: وهذا الوجهُ الذي جَعَلَه هو الظاهر يَعْزِيه الناسُ لأهلِ الزَّيْغِ والبِدَعِ الدافِعين لعمومِ الخَلْق لله تعالى.

(311/775)

وقد أَطْنَبَ مكي في ذلك، وأنكر على القائلِ به ونسبه إلى ما ذكرتُ فقال: "وقد قال بعضُ أهلِ الزَّيْغِ: إن "مَنْ" في موضع نصبٍ اسمٌ للمُسِرِّين والجاهرين لِيُخْرِجَ الكلامُ عن عمومِه ويُدْفَعَ عمومُ الخَلْقِ عن الله تعالى، ولو كان كما زعم لقال: ألا يعلمُ ما خلق لأنه إنما تقدَّم ذِكْرُ ما تُكِنُّ الصدورُ فهو في موضعِ "ما" ولو أَتَتْ "ما" في موضعِ "مَنْ" لكان فيه

أيضاً بيانُ العموم : أنَّ اللَّهَ خالقُ كلِّ شيءٍ مِنْ أقوال الخلقِ أَسَرُّوها أو أظهرُها خيراً كانَتْ أو شرّاً ، ويُقَوِّي ذلك ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ ، ولم يقلْ : عليمٌ بالمُسِرِّين والمجاهرين وتكون " ما " في موضع نصب ، وإنما يُخْرِجُ الآيةَ مِنْ هذا العموم إذا جَعَلْتَ " مَنْ " في موضعِ نصبٍ اسماً للأُناسِ المخاطبين قَبْلَ هذه الآيةِ ، وقوله : " بذات الصدورِ " يمنعُ مِنْ ذلك " انتهى . ولا أَدْري كيف يَلْزَمُ ما قاله مكيٌّ بالإعرابِ الذي ذكره والمعنى الذي أبداه ؟ وقد قال بهذا القولِ أعني الإعرابَ الثاني جماعةٌ من المحققين ولم يُبالوا بما ذكرَه لعَدَمِ إفهامِ الآيةِ إياه .

(312/775)

وقال الزمخشري بعد كلامٍ ذكرَه : " ثم أنكر ألاَّ يُحيط علماً بالمُضْمَر والمُسَرّ والمُجْهَر مَنْ خلق الأشياء ، وحالُه أنه/ اللطيفُ الخبيرُ المتوصّلُ عِلْمُه إلى ما ظَهَر وما بَطَن . ويجوز أَنْ يكون " مَنْ خَلَقَ " منصوباً بمعنى : ألا يعلَمُ مَخْلوقَه ، وهذه حالُه " ثم قال : " فإنْ قلتَ : قَدَّرْتَ في " ألا يَعْلَمُ " مفعولاً على معنى : ألا يعلمُ ذلك المذكورَ مِمَّا أُضْمِر في القلب وأُظْهِر باللسان مَنْ خلق ؟ فهلا جَعَلْتَه مثلَ قولِهم : " هو يُعْطي ويمنع " ، وهلا كان المعنى : ألا يكونُ عالماً مَنْ هو خالقٌ لأن الخالقَ لا يَصِحُّ إلاَّ مع العِلْم ؟ قلت : أَبَتْ ذلك الحالُ التي هي

قولُه : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ لأنَّك لو قلتَ : ألا يكون عالماً مَنْ هو خالقٌ وهو اللطيفُ الخبيرُ لم يكن معنى صحيحاً ؛ لأنَّ " ألا يَعْلَمُ " معتمِدٌ على الحالِ والشيءُ لا يُوَقَّتُ بنفسِهِ ، فلا يقال : " ألا يعلَمُ وهو عالمٌ ، ولكن ألا يعلم كذا ، وهو عالمٌ بكلِّ شيءٍ " .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

قوله : ﴿ ذَلُولاً ﴾ : مفعولٌ ثانٍ ، أو حالٌ . وذَلول فَعُول للمبالغةِ مِنْ ذَلَّ يَذِلُّ فهو ذالٌّ كقوله : دابَّةٌ ذَلول بَيِّنَةُ الذَّلِّ بالكسرِ ، ورجلٌ ذُلُولٌ بَيِّنُ الذُّلِّ بالضم . وقال ابن عطية : " ذلول فَعُول بمعنى مَفْعول أي : مَذْلولة ، فهي كـ رَكوب وحَلوب " . قال الشيخ : " وليس بمعنى مَفْعول لأنَّ فِعْلَه قاصِرٌ ، وإنما يُعَدَّى بالهمزةِ كقوله تعالى : ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] أو بالتضعيفِ كقولِه : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ [يس : 72] ، وقولُه : " أي مَذْلولة " يظهر أنَّه خطأٌ " . انتهى يعني : حيث استعمل اسمَ المفعولِ تامّاً مِنْ فِعْلٍ قاصرٍ ، وهي مناقشةٌ لفظيةٌ .

(313/775)

قوله : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ استعارةٌ حسنة جداً . وقال الزمخشري : " مَثَلٌ لفَرْطِ التذليل ومجاوَزَتِه الغايةَ ؛ لأن المَنْكِبَيْن وملتقاهما من الغارِبِ أرقُّ شيءٍ مِن البعير وأَنْبأه عن أَنْ يطأَه

الراكبُ بقدمِه ويَعْتمد عليه ، فإذا جعلها في الذُّلِّ بحيث يُمشَى في مناكبها لم يَتْرُكْ " .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

قوله : ﴿ أَأَمِنتُمْ ﴾ : قد تقدَّم اختلافُ القراءِ في الهمزتَيْن المفتوحتين نحو ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة : 6] تحقيقاً وتخفيفاً وإدخالِ ألفٍ بينهما وعَدَمِه في البقرة ، وأن قُنْبلاً يَقرأ هنا بإبدالِ الهمزة الأولى واواً في الوصل . فيقول : ﴿ وَإِلَيْهِ النشور ﴾ و ﴿ أَمِنْتُمْ ﴾ وهو على صِلِه مِنْ تسهيلِ الثانيةِ بينَ بينَ وعَدَمِ ألفٍ بينهما ، وأمَّا إذا ابتدأ فيُحقِّق الأولى ويُسَهِّلُ الثانيةَ بينَ بينَ على ما تقدَّم ، ولم يُبْدل الأولى واواً لزوالِ مُوجِبه وهو انضمامُ ما قبلها وهي مفتوحةٌ نحو : مُوَجَّل ويُواخِذُكم ، وهذا قد مضى في سورة الأعراف عند قولِه : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ ﴾ [الأعراف : 123] وإنما أَعَدْتُه بياناً وتذكيراً .

قوله : ﴿ مَّن فِي السمآء ﴾ ، مفعولُ " أَمِنْتُم " ، وفي الكلامِ حَذْفُ مضافٍ أي : أَمِنْتُمْ خالقَ مَنْ في السماوات . وقيل : " في " بمعنى على أي : على السماء ، وإنما احتاج القائلُ بهذَيْن إلى ذلك لأنه اعتقد أن " مَنْ " واقعةٌ على الباري تعالى وهو الظاهرُ ، وثَبَتَ بالدليل القطعيِّ أنه ليس بمتحيِّزٍ لئلا يلزَمَ التجسيمُ . ولا حاجةَ إلى ذلك فإن " مَنْ " هنا المرادُ بها الملائكةُ سكانُ السماء ، وهم الذين يَتَوَلَّوْن الرحمة والنِّقْمة . وقيل : خُوطبوا بذلك على اعتقادِهم ، فإنَّ القومَ كانوا مُجَسِّمة مشبِّهَةً ، والذي تقدَّم أحسنُ .

وقوله : ﴿ أَن يَخْسِفَ ﴾ و " أَنْ يرسلَ " فيه وجهان ، أحدُهما : أنهما بدلان مِنْ " مَنْ في السماء " بَدلُ اشتمال ، أي : أَمِنْتُمْ خَسْفَه وإرسالَه ، كذا قاله أبو البقاء . والثاني : أَنْ يكونَ على حَذْفِ " مِنْ " أي : أَمِنْتُم مِنَ الخَسْفِ والإرسالِ ، والأول أُظهرُ . وقد تقدَّم أنَّ " نذير " " ونكير " مصدران بمعنى الإنكار والإنذار . وأثبت ورش يا " نَذيري " وَقْفاً وحذفَها وَصْلاً ، وحَذفَها الباقون في الحالَيْن .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

قوله : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِن " الطير " وأَنْ يكونَ حالاً مِن ضمير " فوقَهم " إذا جَعَلْناه حالاً فتكونُ متداخِلةً . و " فوقَهم " ظرفٌ لصافَّات على الأولى أول " يَرَوْا " .

قوله : ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ عَطَفَ الفعلَ على الاسمِ لأَنَّه بمعناه أي : وقابضاتٍ ، فالفعلُ هنا مؤولٌ بالاسمِ عكسَ قولِه : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُوا ﴾ [الحديد : 18] فإن الاسمَ هناك مؤولٌ بالفعلِ . وقد تقدَّم الاعتراضُ على ذلك . وقولُ أبي البقاء : " معطوفٌ على اسم الفاعل ، حَمْلاً على المعنى أي : يَصْفِفْنَ ويَقْبِضْنَ أي : صافَّاتٍ وقابِضاتٍ " لا حاجةَ إلى تقديره : يَصْفِفْنَ ويَقْبَضْنَ ؛ لأن الموضعَ للاسمِ فلا نُؤَوِّلُه بالفعل .

وقال الشيخ : " وعَطَفَ الفعلَ على الاسم/ لمَّا كان في معناه ، ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ فالمغيرات صُبْحاً فَأَثَرْنَ ﴾ [العاديات : 3-4] عطفَ الفعلَ على الاسم لمَّا كان المعنى : فاللاتي أغَرْنَ فأَثَرْنَ ، ومثلُ هذا العطفِ فصيحٌ وكذا عكسُه ، إلاَّ عند السهيليِّ فإنه قبيحٌ نحو قوله :

4288 باتَ يُغَشِّيها بعَضْبٍ باترٍ . . . يَقْصِدُ في أسْوُقِها وجائِرُ

(315/775)

أي : قاصدٌ في أَسْوُقِها وجائر " انتهى ، هو مثلُه في عطفِ الفعلِ على اسمٍ ، إلاَّ أنَّ الاسمَ فيه مؤولٌ بالفعلِ عكسَ هذه الآيةِ . ومفعولُ "يَقْبِضْنَ" محذوفٌ أي : ويَقْبِضْنَ أجنحتَهُنَّ ، قاله أبو البقاء ولم يُقَدِّرْ ل " صافَّاتٍ " مفعولاً كأنه زَعَمَ أنَّ الاصطفافَ في أنفسِها أي : مصطفَّةً . والظاهرُ أنَّ المعنى : صافَّاتٍ أجنحتَها وقابضَتَها ، فالصَّفُّ والقَبْضُ منها لأجنحتِها .

وكذلك قال الزمخشريُّ : " صافَّاتٍ باسِطاتٍ أجنحتَهن " ثم قال : " فإنْ قلتَ لِمَ قال : ويقبضْنَ ولم يَقُلْ : وقابضاتٍ ؟ قلت : لأنَّ الطيرانَ هو صَفُّ الأجنحةِ ؛ لأنَّ الطيرانَ في الهواءِ كالسِّباحةِ في الماءِ ، والأصلُ في السباحةِ مَدُّ الأطرافِ وبَسْطُها ، وأمَّا القَبْضُ

فطارِئٌ على البَسْطِ للاستظهارِ به على التحرُّكِ ، فجيء بما هو طارِئٌ غيرُ أصلٍ بلفظِ الفعلِ على معنى أنَّهن صافاتٌ ، ويكونُ منهنَّ القَبْضُ تارةً بعد تارةً ، كما يكون من السَّابح "

.

قوله : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً ، وأن تكونَ حالاً من الضمير في " يَقْبِضْنَ " قاله أبو البقاء ، والأولُ هو الظاهرُ . وقرأ الزهري بتشديدِ السينِ .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20)

قوله : ﴿ أَمَّن ﴾ : العامَّةُ بتشديد الميمِ على إدغامِ ميم " أم " في ميم " مَنْ " ، و " أم " بمعنى بل ؛ لأنَّ بعدها اسمَ استفهامٍ ، وهو مبتدأٌ ، خبرُه اسمُ الإشارة . وقرأ طلحة بتخفيفِ الأولِ وتثقيل الثاني قال أبو الفضل : " معناه أهذا الذي هو جندٌ لكم أم الذي يَرْزُقكم " . و " يَنْصُرُكم " صفةٌ لجند .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

(316/775)

قوله : ﴿ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ : شرطٌ جوابُه محذوفٌ للدلالةِ عليه أي : فَمَنْ يَرْزُقكم غيرُه ؟ وقدَّر الزمخشريُّ شرطاً بعد قولِه : " أمَّن هذا الذي هو جندٌ لكم ، تقديرُه : إنْ أَرْسَلَ

عليكم عذابَه . ولا حاجةَ له صناعةً .

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

قوله : ﴿ مُكِبّاً ﴾ : حالٌ مِنْ فاعلِ "يَمْشي" . و "أَكَبَّ" مطاوعُ كَبَّه يقال : كَبَبْتُه فأَكَبَّ . قال الزمخشري : " هو من الغرائبِ والشواذ ونحوُه : قَشَعَتِ الريحُ السَّحابَ فأَقْشَعَ ، ولا شيءَ من بناءِ أَفْعَلَ مطاوعاً ، ولا يُتْقِنُ نحو هذا إلاَّ حَمَلَةُ كتابِ سيبويهِ ، وإنما أَكَبَّ ، مِنْ بابِ أَنْفَضَ وأَلام ، ومعناه : دَخَلَ في الكَبِّ وصار ذا كبٍّ ، وكذلك أَقْشَعَ السحابُ : دَخَلَ في القَشْعِ ، ومطاوعُ كَبَّ وقَشَعَ انكبَّ وانْقَشَعَ " .

قال الشيخ " : " ومُكِبّاً " حالٌ مِنْ "أَكَبَّ" وهو لا يتعدَّى ، وكَبَّ متعدٍ قال تعالى : ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ [النمل : 90] والهمزةُ للدخولِ في الشيءِ أو للصيرورةِ ومطاوعُ كَبَّ : انْكَبَّ . تقول : كَبَبْتُه فانكَبَّ . قال الزمخشري : " ولا شيءَ مِنْ بناءِ أَفْعَل " إلى قوله : كتاب سيبويه " انتهى ، وهذا الرجل كثيرُ التبجُّح بكتاب سيبويهِ ، وكم مِنْ نَصٍّ في كتابِ سيبويه عَمِي بَصَرُه وبصيرتُه عنه ، حتى إن الإمامَ أبا الحجاج يوسفَ بن معزوزٍ صَنَّف كتاباً ، يذكر فيه ما غَلِطَ الزمخشريُّ فيه وما جَهِله من كتاب سيبويه " . انتهى ما قاله الشيخُ .

وانظر إلى هذا الرجلِ : كيف أخَذَ كلامَه الذي أَسْلَفْتُه عنه ، طَرَّزَ به عبارتَه حرفاً بحرف ، ثم أخذ يُنْحي عليه بإساءةِ الأدب ، جزاءَ ما لَقَّنه تِلك الكلماتِ الرائعةَ وجعله يقول : إن مطاوِعَ كَبَّ انْكَبَّ لا أَكَبَّ وإن الهمزةَ في أَكَبَّ للصيرورةِ ، أو للدخولِ في الشيء ، وبالله لو بَقِي دهرَه غيرَ مُلَقَّنٍ إياها لما قالها أبداً ، ثم أخذ يذكُر عن إنسانٍ مع أبي القاسم كالسُّها مع القمر أنَّه غَلَّطه في نصوصِ كتابِ سيبويه ، اللَّهُ أعلمُ بصحتِها . [قال الشاعر :]

4289 وكم مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً . . . وآفَتُهُ من الفَهْمِ السَّقيمِ

وعلى تقديرِ التسليمِ فالفاضلُ مَنْ عدَّتْ سَقَطاتُه .

وقوله : ﴿ أَمَّن يَمْشِي ﴾ هو المعادِلُ ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً ﴾ . وقال أبو البقاء : و " أَهْدَى " خبرُ " مَنْ يمشي " ، وخبرُ " مَنْ " الثانيةِ محذوفٌ " يعني : أنَّ الأصلَ : أَمَّنْ يمشي سويّاً أَهْدى ، ولا حاجة إلى ذلك ، لأنَّ قولَه : " أزيدٌ قائمٌ أم عمروٌ " لا يُحتاج فيه من حيث الصناعةُ إلى حَذْفِ الخبرِ ، بل تقولُ : هو معطوفٌ على " زيد " عَطْفَ المفرداتِ ، ووحَّد الخبرَ لأنَّ " أم " لأحدِ الشيئين .

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23)

قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ : نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أو حالٌ من ضميرِ المصدرِ كما هو رأْيُ سيبويه و " ما " مزيدةٌ أي : تَشْكرون قليلاً . والجملةُ من " تَشْكرون " : إمَّا مستأنفةٌ ، وهو الظاهرُ

، وإمَّا حالٌ مقدرةٌ لأنهم حالَ الجَعْلِ غيرُ شاكرين . والمرادُ بالقِلَّة/ العَدَمُ أو حقيقتُها .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

(318/775)

قوله : ﴿ رَأَوْهُ ﴾ : أي : الموعودَ أو العذابَ زُلْفَةً أي : قريباً ، فهو حالٌ ولا بُدَّ مِن حَذْفِ مضافٍ أي : ذا زُلْفَةٍ ، أو جُعِل نفسَ الزُّلْفَةِ مبالغةً . وقيل : " زُلْفَةً " تقديرُه : مكاناً ذا زُلْفَةٍ فينتصِبُ انتصابَ المصدرِ .

قوله : ﴿ سِيئَتْ ﴾ الأصلُ : ساء أي : أحزنَ وجوهَهم العذابُ ورؤيتُه . ثم بُني للمفعول . و " ساء " هنا ليسَتْ المرادِفَةَ لـ " بِئْسَ " كما عَرَفْتَه فميا تقدَّم غيرَ مرةٍ . وأَشَمَّ كسرةَ السينِ الضمَّ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ ، كما فعلوا ذلك في ﴿ سيء بِهِمْ ﴾ [هود : 77] في هود ، وقد تقدَّم ، والباقون بإخلاصِ الكسرِ ، وقد تقدَّم في أولِ البقرةِ تحقيقُ هذا وتصريفُه ، وأنَّ فيه لغاتٍ ، عند قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة : 11] .

قوله : ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ العامَّةُ على تشديدِ الدالِ مفتوحةً . فقيل : من الدَّعْوى أي : تَدَّعُون أنه لا جنةَ ولا نارَ ، قاله الحسن . وقيل : من الدعاءِ أي : تَطْلبونه وتستعجلونه . وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والضحاك ويعقوبُ وأبو زيدٍ وابنُ أبي عبلةَ ونافعٌ في روايةِ

الأصمعيّ بسكونِ الدالِ ، وهي مؤيِّدةٌ للقولِ : إنَّها من الدعاء في قراءةِ العامَّة .

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29)

قوله : ﴿ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ : تقدَّم : لِمَ أُخِّر متعلَّقُ الإيمانِ ، وقُدِّمَ مُتَعَلَّقُ التوكلِ ؟ وأنَّ التقديمَ يُفيدُ الاختصاصَ . وقرأ الكسائيُّ " فسيَعْلمون " بياءِ الغَيْبة نظراً إلى قولِه : " الكافرين " . والباقون بالخطاب : إمَّا على الوعيدِ ، وإمَّا على الالتفاتِ من الغَيْبة المرادةِ في قراءةِ الكسائيِّ .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

(319/775)

قوله : ﴿ غَوْراً ﴾ : خبرُ " أصبح " وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ حالاً على تمامِ " أصبح " ، ولكنه استبعَده ، وحكى أنه قُرِىء " غُؤْوْراً " بضم الغينِ وهمزةٍ مضمومةٍ ، ثم واوٍ ساكنةٍ على فُعُول ، وجَعَلَ الهمزةَ منقلبةَ عن واوٍ مضمومةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 377.396 ﴾

(320/775)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الملك

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم من لم تتعطر القلوب إلا بنسيم إقباله ن ولم تتقطر الدموع إلا للوعة فراقه أو روح وصاله ، فدموعهم في كلتا الحالتين منسكبة ، وقلوبهم في عموم أحوالهم ملتهبة وعقولهم غالب أوقاتهم منتهية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

تَقَدَّسَ وتعالَى ، مَنْ إحسانُه تَواتَرَ وتَوالَى ، فهو المتكبِّرُ في جلالِ كبريائه ، المتجرِّد في علاءِ بهائه ودوامِ سنائه .

﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ : بقدرته إظهارُ ما يريد ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ .

خَلَقَ الموتَ والحياةَ ، ابتلاءً للخَلْق ، يختبرهم ليَظْهَر له شكرانُهم وكفرانُهم ، كيف يكونان عند المحنة في الصبر وعند النعمة في الشكر – ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ .

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ

تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ .

عَرَّفَهم كمالَ قدرتِه بدلالاتِ خَلْقِه ، فَمسَكَ السماءَ وأمسكها بلا عِمدَ ، وركَّبَ أجزاءَها غيرَ مُسْتعينٍ بأحدٍ في خَلْقِها ، وبالنجومِ زَيَّنَهَا ، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنها ، وبغيرِ تعليم مُعلِّم أحكمها وأتقنها .

﴿ مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ؟ ﴾ : لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافي آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة .

(321/775)

ويقال : ما ترى فيها تفاوتاً ، في استغنائه عن الجميع . . . ما ترى فيها تفاوتاً في الخَلْقِ ؛ فَخَلْقُ الكثير واليسير عنده سيَّان ، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به .

فأَنْعِمْ النظرَ ، وكَرِّرِ السَّبْرَ والفِكْرَ . . . فلن تجد فيها عيباً ولا في عِزِّه قصوراً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ .

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم ، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم ؛ فالمؤمنون

قلوبُهم مُزَيَّنةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأَمُّل بالبرهان ، ثم بالتوفيق لطلب البيان .

والعارفون قلوبهم مُزَيَّنةٌ بشمسِ التوحيد ، وأرواحُهم مُزَيَّنةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد . . . وعلى القياس : " لكلِّ طائفةٍ أنوارٌ " .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينَ ﴾ : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للأهتداء به معلوم . . . فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي ، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين في السعير .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

أخبر : أنهم يحْتَجُّ عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائكةُ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ .

(322/775)

﴿ قَالُواْ بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ . . . ﴾ فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا

العقوبة لأَجْلِه ، لم يسمعو نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين ، ولا ما فيه لقلوبهم حياة .

وفي الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فإِنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُه من الله وبالله وفي الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف . . . فلا جَرَمَ يقال لهم : ﴿ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار فيكون العبدُ أبداً – لانزعاجه – كالحَبِّ على المَقْلَى ؛ لا يَقَرُّ ليلَه أو نهارَه ، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس ، وكلمَّا ازداد في الله طاعةً ازداد لله خشيةً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

خوَّفَهم بعلْمِه ، وندَبَهم إلى مراقبته ، لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى ، ويسمع الجَهْرَ والنجوى . . . ثم قال مُبَيِّناً :

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

وفي كل جُزْءٍ مِنْ خَلْقِه – من الأعيانِ والآثارِ – أدِلةٌ على علمه وحكمته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْ مِن رِّزْقِه وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ .

أي إذا أردتم أن تضربوا في الأرض سَهَّلَ عليكم ذلك .

كذلك جعل النَّفْس ذلولاً ؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُساعدةً مُوافقة ، مُتَابِعةً مُسَابِقة . . . وقد قيل في صفتها :

هي النَّفْسُ ما عَوَّدْتها تتعودُ . . . وللدهرِ أيامٌ تُذمُّ وتُحْمَدُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ .

﴿ مَّن فِى السَّمَآءِ ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء ، فهم مُوَكَّلون بالعذاب . وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خَوَّفَهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاءِ رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرُ

﴾ .

أو لم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة – بخلاف الأجسام الأخر . . . مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء ؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر ؟

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ .

إن أراد الرحمنُ بك سوءاً . . . فَمَنْ الذي يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه ، أو يمحوا ما أثبته ، أو يُقَدِّمُ ما أَخَّرَه ، أو يُؤَخِّرُ ما قدَّمَه ؟ .

(324/775)

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ ﴾ .

وخَصّكم بالسمع والبصر والأفئدة ، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25)

وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، وبيَّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف

يندمون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكَافِرِينَ مِنَ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . . ﴾ .

وإليه أمورنا – جملةً – فَوَّضْنَا .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِين ﴾ مَنْ الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 615.610 ﴾

(325/775)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي

خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

الإعراب :

(بيده) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (الملك) (الواو) عاطفة (على كلّ) متعلّق بالخبر (قدير) .

جملة : " تبارك الذي . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " بيده الملك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هو . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

2 - (الذي) في محلّ رفع بدل من الموصول الأول فاعل تبارك (الواو) عاطفة في الموضعين (اللام) للتعليل (يبلوكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (أيّكم) اسم استفهام مبتدأ مرفوع ، و(كم) مضاف إليه (عملا) تمييز منصوب .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " يبلوكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يبلوكم . . .) " في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلق) .

وجملة : " أيّكم أحسن . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله يبلوكم المعلّق بالاستفهام أيّكم .

وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

3 - (الذي) في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ هو " 2 " ، (طباقا) نعت لسبع منصوب " 3 " ، (ما) نافية (في خلق) متعلّق بحال من تفاوت (تفاوت) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لفعل الرؤية (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام (فطور) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به . . .

وجملة : " خلق (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثالث .

وجملة : " ما ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " ارجع البصر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردت المعاينة فارجع . . .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من فاعل خلق .

(2) أو نعت للغفور ، أو بدل منه ، أو عطف بيان عليه . . .

(3) أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف ، بكونه مصدرا ، أي طابقت طباقا .

(4) أو نعت ثان لسبع بتقدير الرابط أي من تفاوت فيها .

وجملة : " هل ترى من فطور . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل مقدّر معلّق بالاستفهام أي ارجع البصر وانظر هل ترى . . .

4 - (ثمّ) حرف عطف (كرّتين) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو عدده (ينقلب) مضارع مجزوم فهو جواب الأمر (إليك) متعلّق بـ (ينقلب) ، (خاسئًا) حال منصوبة من البصر (الواو) حالية . .

وجملة : " ارجع البصر . . . " معطوفة على جملة ارجع البصر (الأولى) .

وجملة : " ينقلب إليك البصر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " هو حسير . . . " في محلّ نصب حال من البصر أو من الضمير في (خاسئًا) ، فهي حينئذ متداخلة مع الحال الأولى .

الصرف :

(طباقا) : جمع طبقة بفتح فسكون ، أو جمع طبق بفتحتين وهو اسم في الحالتين . . أو هو مصدر سماعيّ للرباعيّ طابق ، والقياسيّ منه مطابقة ، ويجوز أن يكون وصفا مبالغة ، ووزن طباق فعال بكسر الفاء .

(ترى) قياس صرفه كفعل نرى . . . انظر الآية (5) من سورة البقرة .

(تفاوت) ، مصدر قياسيّ للخماسيّ تفاوت بمعنى تباين ، وزنه تفاعل بفتح التاء وضمّ العين .

(فطور) ، جمع فطر بكسر فسكون وهو الشقّ والصدع . . وفي المختار :

الفطر الشقّ يقال فطره فانفطر وتفطّر الشيء تشقّق ، وبابه نصر .

(حسير) ، صفة مشبّهة باسم الفاعل من الثلاثيّ حسر باب ضرب أي كلّ وانقطع نظره ، وزنه فعيل .

[سورة الملك (67) : آية 5]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بمصابيح) متعلّق بـ (زيّنا) ، و(الباء) للاستعانة (للشياطين) متعلّق بـ (رجوما) " 1 " ، (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (أعتدنا) . .

جملة : " زيّنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " جعلناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " أعتدنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناها " 2 " .

الصرف :

(رجوما) مصدر الثلاثيّ رجم ، استعمل صفة بمعنى المفعول أي المرجوم به ، ويجوز أن يستعمل كمصدر بعد حذف مضاف أي ذات رجوم ، وجمع المصدر باعتبار أنواعه ، وزنه فعول بضمّ الفاء ، أو هو جمع رجم اسم لما يرجم به زنة فعل بفتح فسكون .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ .

حيث شبه الكواكب والنجوم بمصابيح ، وحذف المشبه وأبقى المشبه به ، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية وذلك أن الناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح ، ولكنها مصابيح لا توازيها ، أي مصابيح إضاءة .

[سورة الملك (67) : الآيات 6 إلى 8]

---

(1) على أنه مصدر . . . أو متعلّق بنعت لـ (رجوما) . [. . . . .]

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا بتقدير قد .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للذين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) (بربّهم) متعلّق بـ (كفروا) ، (الواو) استئنافيّة – أو حاليّة – والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنم .

وجملة : " للذين كفروا . . . عذاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " بئس المصير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

7 – (الواو) في (ألقوا) نائب الفاعل (فيها) متعلّق بـ (ألقوا) ، (لها) متعلّق بحال من (شهيقا) ، (الواو) حاليّة . . .

وجملة : " ألقوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سمعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " هي تفور . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لها) .

8 – (من الغيظ) متعلّق بـ (تميّز) " 2 " ، (كلّما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب سألهم (فيها) متعلّق بـ (ألقي) ، (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ

. . .

وجملة : " تكاد تميّز . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تفور . .

وجملة : " تميّز . . . " في محلّ نصب خبر تكاد .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ألقي فيها فوج . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سألهم خزنتها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لم يأتكم نذير . . . " في محلّ نصب مفعول به – وهو مقيد بالجار – لفعل سأل المعلّق عن العمل بالاستفهام . أي سألوهم عن مجيء النذير إليهم .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من جهنّم ، والعامل فيها الابتداء .

(2) و(من) سببيّة . . أو هو تمييز أي : تتميّز غيظا . . أو متعلّق بحال من الضمير الفاعل في (تميّز) .

(329/775)

الصرف :

(يأتكم) فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه يفعكم .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ " .

حيث شبه اشتعال النار بهم ، في قوة تأثيرها فيهم ، وإيصال الضرر إليهم ، باغتياظ المغتاظ على غيره ، المبالغ في إيصال الضرر إليه ، على سبيل الاستعارة التصريحية ويجوز أن تكون هنا تخييلية تابعة للمكنية ، بأن تشبه جهنم ، في شدة غليانها وقوة تأثيرها في أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ في إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهي الغضب الباعث على ذلك ، وأستعير لتلك الحالة المتوهمة للغيظ .

9 -

[سورة الملك (67) : الآيات 9 إلى 11]

قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11)

الإعراب :

(بلى) حرف جواب لإيجاب السؤال المنفّي (قد) حرف تحقيق (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (ما) نافية (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إن) حرف نفي (إلّا)

للحصر (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ (أنتم) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قد جاءنا نذير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(330/775)

وجملة : "كذّبنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " قلنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " ما نزّل اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول الثاني .

وجملة : " إن أنتم إلّا في ضلال . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول الثاني " 1 " .

10 - (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (أو) حرف عطف (ما) نافية (في أصحاب) متعلّق بخبر (كنّا) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا (الأولى) .

وجملة : " لو كنّا نسمع . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نسمع . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة : " نعقل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة نسمع وجملة : " ما كنّا . . . " لا

محلّ لها جواب شرط غير جازم " 2 " .

11 - (الفاء) استئنافيّة في الموضعين (بذنبهم) متعلّق بـ (اعترفوا) ، (سحقا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 3 " (لأصحاب) متعلّق بـ (سحقا) . . . " 4 " .

وجملة : " اعترفوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (أسحقهم اللّه) سحقا " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(سحقا) ، مصدر الثلاثيّ سحق بمعنى بعد باب فرح وباب كرم ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

---

(1) إذا كانت من كلام الكافرين . . . وهي اعتراضيّة إذا كانت من كلام الملائكة . . .

(2) ومعنى الشرط : إذا لم يكونوا من أصحاب السعير فهم من أصحاب الجنّة ، وقد امتنع كونهم كذلك لامتناع كونهم سامعين أو عاقلين . .

(3) أو مفعول به لفعل محذوف أي : ألزمهم اللّه سحقا .

(4) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الدعاء لأصحاب السعير .

- 12

[سورة الملك (67) : آية 12]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12)

الإعراب :

(بالغيب) متعلّق بحال من فاعل يخشون (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (مغفرة

. . .

وجملة : "إنّ الذين يخشون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يخشون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "لهم مغفرة . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

13 - 14

(332/775)

[سورة الملك (67) : الآيات 13 إلى 14]

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ(14)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أو) حرف عطف (به) متعلّق بـ (اجهروا) ، (بذات) متعلّق بالخبر (عليم) .

وجملة : " أسرّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اجهروا به . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسرّوا .

وجملة : " إنّه عليم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

14 - (ألا) استفهام إنكاريّ ونفي (من) موصول في محلّ رفع فاعل (يعلم) " 1 " ، (الواو) حاليّة . . .

وجملة : " يعلم من خلق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) أو في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل مستتر يعود على اللّه والعائد ضمير الغائب محذوف .

وجملة : " هو اللطيف . . . " في محلّ نصب حال .

15 -

[سورة الملك (67) : آية 15]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

الإعراب :

(لكم) متعلّق بـ (ذلولا) المفعول الثاني (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (في مناكبها) متعلّق بـ (امشوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (من رزقه) متعلّق بـ (كلوا) ، (إليه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (النشور) .

وجملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " امشوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي انتبهوا لهذا فامشوا .

وجملة : " كلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة امشوا .

وجملة : " إليه النشور . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(امشوا) ، فيه إعلال بالحذف كما في (يمشون) لأنه مأخوذ منه . . انظر الآية (195) من الأعراف .

(مناكبها) ، جمع منكب ، اسم بمعنى الجانب ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين ، ووزن مناكب مفاعل .

16 - 17

[سورة الملك (67) : الآيات 16 إلى 17]

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التهديديّ (في السماء) متعلّق بمحذوف صلة من (أن) حرف مصدريّ ونصب (بكم) متعلّق بـ (يخسف) ، (الفاء) عاطفة " 1 " ، (إذا) حرف فجاءة . .

والمصدر المؤوّل (أن يخسف . . .) في محلّ نصب بدل اشتمال من الموصول (من) .

وجملة : " أمنتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخسف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هي تمور . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هي تمور " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تمور . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هي .

17 - (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (من في السماء أن يرسل . . .) مثل من في السماء أن يخسف (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كيف) اسم استفهام في محلّ رفع خبر مقدّم للمبتدأ (نذيري) . . . وهو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة لمناسبة فاصلة الآية .

وجملة : " أمنتم (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يرسل) في محلّ نصب بدل اشتمال من الموصول الثاني (من) .

وجملة : " ستعلمون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جاءكم العذاب فستعلمون حالة إنذاري به .

وجملة : " كيف نذير . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالاستفهام كيف .

---

(1) وهي زائدة لازمة عند بعضهم منهم الفارسيّ والمازنيّ .

- 18

[سورة الملك (67) : آية 18]

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الفاء) عاطفة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (نكير) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للفاصلة ، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه .

جملة : "كذّب الذين . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : "كان نكير " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فعذّبهم فكيف كان نكير .

- 19

[سورة الملك (67) : آية 19]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ

(19)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (إلى الطير) متعلّق بـ (يروا) بمعنى ينظروا (فوقهم) ظرف مكان منصوب متعلّق بحال من الطير " 1 " ، (صافّات) حال ثانية منصوبة (الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (بكلّ) متعلّق بالخبر (بصير) .

جملة : " لم يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلوا ولم يروا وجملة : " يقبضن . . . " في محلّ نصب معطوفة على الحال المفردة صافّات .

---

(1) أو متعلّق بصافّات .

(336/775)

وجملة : " ما يمسكهنّ إلّا الرحمن . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " إنّه . . . بصير " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

عطف الفعل على الاسم : في قوله تعالى " أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ " .

---

(1) قال العكبريّ : يجوز أن تكون حالا من الضمير في (يقبضن) ، أي : غير ممسكات إلّا من الرحمن .

(337/775)

حيث قال : ويقبضن ، والسياق أن يقول : وقابضات . وذلك لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة ، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارئ على البسط ، للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ، فالبسط عبّر عنه بالاسم لأنه الغالب ، والقبض عبّر عنه بالفعل لأنه طارئ.

20 -

[سورة الملك (67) : آية 20]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20)

الإعراب :

(أم) بمعنى بل (الذي) موصول في محلّ رفع بدل من اسم الإشارة (لكم) متعلّق بنعت لـ

(جند) ، (من دون) متعلّق بحال من فاعل ينصركم (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (في غرور) متعلّق بخبر المبتدأ (الكافرون) .

وجملة : " من هذا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو جند . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ينصركم . . . " في محلّ رفع نعت لجند .

وجملة : " إن الكافرون إلّا في غرور " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- إن النافية :

(338/775)

وهي تدخل على الجملة الاسمية كقوله تعالى : (إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) ، وتدخل على الجملة الفعلية كقوله تعالى : " إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى " " إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً " وقال بعضهم : لا تأتي (إن) النافية إلا وبعدها (إلا) . فهذا القول مردود ، بدليل قوله تعالى : (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا) (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ) . وإذا دخلت على الجملة الاسمية لم تعمل عند سيبويه والفراء ، وأجاز الكسائي والمبرد إعمالها

عمل ليس ، وقرأ سعيد بن جبير (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ) وسمع من أهل العالية : " إن أحد خيرا من أحد إلا بالعافية " ولكن أكثر النحاة يعتبرونها نافية مهملة لا عمل لها " .

21 -

[سورة الملك (67) : آية 21]

أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

الإعراب :

(أم من هذا الذي) مرّ إعرابها " 1 " ، (أمسك) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير يعود على اللّه (بل) للإضراب الانتقاليّ (في عتوّ) متعلّق بحال من فاعل لجّوا . . .

وجملة : " من هذا الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرزقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أمسك رزقه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط

---

(1) في الآية السابقة (20) .

محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " لجّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

22 -

[سورة الملك (67) : آية 22]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريري (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره (أهدى) ، (على وجهه) متعلّق بـ (مكبّا) ، (أم) حرف عطف معادل للهمزة (من) موصول في محلّ رفع معطوف على الموصول الأول (على صراط) متعلّق بـ (يمشي) . . .

وجملة : " من يمشي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمشي (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يمشي (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) (الثاني) .

الصرف :

(مكبّا) ، اسم فاعل من الرباعيّ أكبّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وعينه ولامه من حرف واحد .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ " .

مثل ضرب للمشرك والموحد ، توضيحا لحالهما وتحقيقا لشأن مذهبهما ، فالمشرك أعمى لا يهتدي إلى الطريق ، يمشي متعسفا ، فلا يزال يتعثر وينكب على وجهه والموحد صحيح البصر ، يمشي في طريق واضحة مستقيمة ، سالما من العثور والانكباب على وجهه .

23 -

[سورة الملك (67) : آية 23]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لكم) متعلّق بمحذوف حال من السمع والأبصار والأفئدة " 1 " ، (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته ، عامله تشكرون ، منصوب (ما) زائدة لتأكيد التقليل . .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنشأكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تشكرون " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

24 -

[سورة الملك (67) : آية 24]

---

(1) بتضمين جعل معنى خلق . . . ومتعلّق بمفعول ثان إذا كان على بابه .

(2) أو هي في محلّ نصب حال من الضمير في (لكم) . [. . . . .]

(340/775)

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بـ (ذرأكم) ، (الواو) عاطفة (إليه) متعلّق بـ (تحشرون) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو الذي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ذرأكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إليه تحشرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

25 -

[سورة الملك (67) : آية 25]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (هذا) ، (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . . .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متى هذا الوعد . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " كنتم صادقين . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

26 -

[سورة الملك (67) : آية 26]

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة في الموضعين (عند) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ (العلم) ، (الواو) عاطفة . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " العلم عند اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا نذير . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

27 -

[سورة الملك (67) : آية 27]

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

الإعراب :

(341/775)

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب سيئت ، و(الهاء) في (رأوه) يعود على العذاب (زلفة) حال من الضمير المفعول في (رأوه) منصوبة (به) متعلّق بـ (تدّعون)

بحذف مضاف أي بإنذاره . . .

وجملة : " رأوه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " سيئت وجوه . . . " لا محلّ لها لجواب شرط غير جازم .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيئت وجملة : " هذا الذي . . . "

في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : "كنتم به تدّعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تدّعون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(زلفة) ، اسم مصدر للرباعيّ أزلف ، وهذا الاسم بمعنى اسم الفاعل أي مزلف أي قريب ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(سيئت) ، فيه إعلال بالقلب ، الياء أصلها واو مكسور ما قبلها وكانت حركة السين في الأصل فحركت بالكسر لمناسبة البناء للمجهول ، ثم قلبت الواو ياء تخلصا من الثقل الحاصل بالانتقال من الضمّ إلى الكسر لمناسبة البناء للمجهول . . .

(قيل) ، فيه إعلال مثل سيئت . . .

28 -

[سورة الملك (67) : آية 28]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28)

الإعراب :

(أرأيتم) أي أخبروني ، والمفعول به محذوف تقديره شأنكم أو حالكم (أهلكني) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الواو) عاطفة (من) موصول في محلّ نصب معطوف على الضمير

المفعول في (أهلكني) ، (أو) حرف

---

(1) لأنها في الأصل مقول القول للمبني للمعلوم . . . وبعضهم يجعلها تفسير لنائب الفاعل المقدّر أي قيل القول .

(342/775)

عطف . . . (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (من عذاب) متعلّق بـ (يجير) . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أهلكني اللّه . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية .

وجملة : " رحمنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أهلكني اللّه .

وجملة : " من يجير . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي : إن متّ أو حييت فلا فائدة لكم في ذلك لأنّه لا مجير لكم من عذاب اللّه . . .

وجملة : " يجير . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

[سورة الملك (67) : آية 29]

قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29)

الإعراب :

(به) متعلّق بـ (آمنّا) ، (الواو) عاطفة (عليه) متعلّق بـ (توكّلنا) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، (السين) حرف استقبال (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ (هو) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للاستئناف المتقدّم " 2 " .

وجملة : " هو الرحمن . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " آمنّا به " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول

---

(1) أو اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره الجارّ والمجرور (في ضلال . . .) ، و(هو) ضمير فصل ، والجملة الاسميّة سدّت مسدّ مفعولي ستعلمون المعلّق بالاستفهام .

(2) في الآية السابقة (28) .

وجملة : " توكّلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنّا به .

وجملة : " ستعلمون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جاءكم العذاب فستعلمون .

وجملة : " هو في ضلال . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

30 -

[سورة الملك (67) : آية 30]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

الإعراب :

مرّ إعراب نظير هذه الآية " 1 " ، (بماء) متعلّق بـ (يأتيكم) .

(344/775)

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للاستئناف المتقدّم " 2 " .

وجملة : " رأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أصبح ماؤكم غورا . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل رأيتم .

وجملة : " من يأتيكم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: "يأتيكم . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 29 صـ 13.31﴾

(1، 2) في الآية السابقة (28) .

(345/775)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(67) سورة الملك

مكيّة وآياتها ثلاثون

[سورة الملك (67) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

اللغة :

(طِباقاً) جمع طبقة كرحبة ورحاب أو جمع طبق كجمل وجمال وجبل وجبال ، وفي المصباح " وأصل الطبق الشيء على مقدار الشيء مطبقا له من جميع جوانبه " .

(فُطُورٍ) صدوع وشقوق وفي المختار : " والفطر الشق يقال فطره فانفطر وتفطر الشيء تشقّق وبابه نصر " .

(حَسِيرٌ) في المختار : " حسر بصره انقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك فهو حسير ومحسور أيضا وبابه جلس " وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور وهو الإعياء .

الإعراب :

)

(346/775)

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تبارك فعل ماض أي تنزّه عن صفات المحدّثين والذي فاعل وبيده خبر مقدّم والملك مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول وهو مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر هو وهذه الجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا) الذي بدل من اسم الموصول الأول وجملة خلق الموت والحياة لا محل لها لأنها صلة ، وليبلوكم اللام للتعليل ويبلو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والفاعل هو والكاف مفعول به وأيّكم مبتدأ وأحسن خبر وعملا تمييز والجملة الاسمية في محل نصب مفعول ثان ليبلوكم ولام التعليل ومجرورها متعلقان بخلق من حيث تعلقه بالحياة إذ هي محل الاختبار والتكليف وأما الموت فلا شيء من ذلك فيه . وفي الكلام استعارة تمثيلية تبعية على تشبيه حالهم في تكليفه تعالى لهم بتكاليفه ، وخلق الموت والحياة لهم وإثابته لهم وعقوبته بحال المختبر مع من جرّبه واختبره لينظر مدى طاعته أو عصيانه فيكرمه أو يهينه (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) مبتدأ وخبراه (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً) الذي بدل ثان من اسم الموصول وقيل من العزيز الغفور وقيل نعت لهما أو أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وجملة خلق صلة وسبع سموات مفعول به وطباقا صفة لسبع سموات أو منصوب بفعل مقدّر أي طبقت طباقا فيكون مصدر طابق مطابقة وطباقا (ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ)

(347/775)

كلام مستأنف مسوق لتوكيد استقامة خلقه تعالى وما نافية وترى فعل مضارع وفاعله مستتر يعود على من يصلح للخطاب وفي خلق الرحمن متعلقان بتري ومن حرف جر زائد وتفاوت مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول ترى وقرىء تفوت بالتشديد للواو دون ألف ، والتفاوت عدم التناسب لأن بعض الأجزاء يفوت الآخر ، ومن الغريب أن الزمخشري جعل هذه الجملة صفة متابعة لقوله طباقا قال :

" وهذه الجملة المنفية صفة لقوله طباقا وأصلها ما ترى فيهنّ فوضع مكان الضمير خلق الرحمن تعظيما لخلقهنّ وتنبيها على سبب سلامتهنّ وهو خلق الرحمن " وفي هذا من التعسّف ما فيه لانفلات الكلام بعضه من بعض .

فارجع : الفاء تعليلية لأن قوله فارجع البصر متسبّب عن قوله ما ترى ، وارجع البصر فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وهل حرف استفهام وترى فعل مضارع مرفوع ومن حرف جر زائد وفطور مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به والجملة الاستفهامية في موضع نصب بفعل محذوف وهذا الفعل معلق بالاستفهام أي هل ترى (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وارجع البصر فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وكرتين نصب على المصدر كمرتين وهو وإن كان مثنى لا يقصد به التثنية بل المقصود به التكثير ، وينقلب فعل مضارع مجزوم لأنه وقع جوابا للطلب وإليك متعلقان بينقلب والبصر فاعل وخاسئا حال والواو حالية وهو مبتدأ

وحسير خبر والجملة حال إما من صاحب الأولى وإما من الضمير المستكن في الحال قبلها فتكون حالا متداخلة.

[سورة الملك (67) : الآيات 5 إلى 11]

(348/775)

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9) وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11)

اللغة:

(رُجُوماً) الرجوم جمع رجم وهو مصدر سمّي به المفعول أي ما يرجم به ويجوز أن يكون باقيا على مصدريته ويقدّر مضاف أي ذات رجوم وإنما جمع المصدر باعتبار أنواعه.

الإعراب:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في ذكر دلائل أخرى على تمام قدرته تعالى واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وزينّا فعل وفاعل والسماء مفعول به والدنيا نعت أي القربى إلى الأرض وبمصابيح متعلقان بزينّا ، وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به ورجوما مفعول به ثان وللشياطين متعلقان برجوما أو نعت له (وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ)

(349/775)

وأعتدنا عطف على زينّا ولهم متعلقان بأعتدنا وعذاب السعير مفعول به (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الواو عاطفة وللذين خبر مقدّم وجملة كفروا صلة وبربهم متعلقان بكفروا وعذاب جهنم مبتدأ مؤخر وبئس المصير فعل جامد لإنشاء الذم وفاعله ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي (إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ) إذا ظرف زمان مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بسمعوا وجملة ألقوا في محل جر بإضافة الظرف إليها و .

(350/775)

لقوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفيها متعلقان بألقوا والجملة مستأنفة وجملة سمعوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ولها متعلقان بمحذوف حال من شهيقا لأنه في الأصل صفته وتقدم عليه وشهيقا مفعول سمعوا والواو حالية وهي مبتدأ وجملة تفور خبر والجملة حالية من الهاء في لها (تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) الجملة مستأنفة كأنها وقعت جوابا لسؤال سائل ، وتكاد فعل مضارع من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره هي وجملة تميّز خبر ، وتميّز أصلها تتميّز فعل مضارع أي تتقطع فحذفت إحدى التاءين ، ومن الغيظ في محل نصب على التمييز أي غيظا وكلما ظرف زمان متعلق بجوابه وهو سألهم وقد مرّ تفصيل إعرابها ، وألقي فعل ماض مبني للمجهول وفيها متعلقان بألقي وفوج نائب فاعل وجملة سألهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو فعل ماض ومفعول به وخزنتها فاعل والهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأتكم فعل مضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به ونذير فاعل وجملة الاستفهام مفعول به ثان لسأل (قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ) قالوا فعل وفاعل وقد حرف تحقيق وجاءنا فعل ماض ومفعول به مقدّم ونذير فاعل مؤخر والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا قالوا بعد السؤال ، فقال : قالوا بلى قد جاءنا نذير وجملة قد جاءنا في محل نصب مقول القول (فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

الفاء حرف عطف وكذبنا فعل وفاعل وقلنا عطف على كذبنا وما نافية ونزل فعل ماض والله فاعل ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به والجملة مقول القول (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ) إن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة حصر وفي ضلال خبر أنتم وكبير نعت (وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ) الواو عاطفة وقالوا فعل ماض وفاعل ولو شرطية وكان واسمها وجملة نسمع خبرها وأو حرف عطف ونعقل عطف على نسمع وما نافية وكان واسمها وفي أصحاب السعير خبرها والجملة لا محل لها وجملة الشرط وجوابه مقول القول (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ) الفاء عاطفة واعترفوا فعل وفاعل وبذنبهم متعلقان باعترفوا والفاء عاطفة وسحقا منصوب على المصدر تقديره سحقهم الله سحقا فناب المصدر عن عامله في الدعاء نحو جدعا له وعقرا فلا يجوز إظهاره وقيل هو مفعول به لفعل محذوف أي ألزمهم الله سحقا وفي المختار :

" والسحق البعد يقال سحقا له والسحق بضمتين مثله وقد سحق الشيء بالضم سحقا بوزن بعد فهو سحيق أي بعيد وأسحقه الله أي أبعده " وكان القياس إسحاقا فجاء

بالمصدر على المحذوف ، واللام في لأصحاب السعير للبيان كما في هيت لك .

البلاغة :

1- في قوله " ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح " استعارة تصريحية ، شبّه الكواكب والنجوم بمصابيح وحذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية لأن الناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح ولكنها مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة .

(352/775)

2- وفي قوله : " تكاد تميز من الغيظ " استعارة مكنية تبعية ، شبّه جهنم بالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه لأن المغتاظة تتميز وتتقصف غضبا ويكاد ينفصل بعضها عن بعض لشدة اضطرابها ويقولون فلان يتميز غيظا إذا وصفوه بالإفراط في الغضب . وفي هذه الآية أيضا فن حسن الاتباع فقد جرى الشعراء على نهجها فولعوا بإسناد أفعال من يعقل إلى ما لا يعقل وقد أوردنا له أمثلة في الكهف وفي الفرقان فجدّد بها عهدا .

[سورة الملك (67) : الآيات 12 إلى 17]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16)

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)

اللغة :

(ذَلُولاً) فعوّل بمعنى مفعول أي مذللة مسخرة منقادة لما تريدون منها .

(مَنَاكِبِها) المناكب جمع منكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد يقال : تشابهت منهم المناكب والرءوس أي ليس فيهم مفضل ، ويقال :

هزّ منكبه لكذا أي فرح به وفلان معي على حدّ منكب أي كلما رآني التوى ولم يتلقني بوجهه ، والمنكب أيضا : ناحية كل شيء وجانبة يقال سرنا في منكب من الأرض أو الجبل أي في ناحية والمنكب من القوم عريفهم أو عونهم والمنكب من الأرض : الطريق والموضع المرتدم وفي القرآن الكريم " فامشوا في مناكبها " أي في مواضعها المرتفعة فعلى هذا يكون

الكلام حقيقة وعلى الأول يكون فيه استعارة تصريحية وإلى هذا جنح الزمخشري فقال : " المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه فإذا جعلها من الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك شيئا منها إلا قد ذلله " وقال الزجّاج " معناه سهّل لكم السلوك في جبالها فإذا أمكنكم السلوك في جبالها فهو أبلغ في التذليل " وقيل جوانبها .

(تَمُورُ) تتحرك بكم وفي المختار : " مار من باب قال تحرّك وجاء وذهب ومنه : يوم تمور السماء مورا ، قال الضحّاك : تموج موجا " .

الإعراب :

)

(354/775)

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) إن واسمها وجملة يخشون صلة الذين وربهم مفعول به وبالغيب حال من الواو في يخشون والباء بمعنى في ولهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخر وأجر عطف على مغفرة وكبير نعت لأجر والجملة الاسمية خبر إن (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ) الواو استئنافية وأسرّوا فعل أمر مبني على

حذف النون والواو فاعل وقولكم مفعول به وأو حرف عطف واجهروا فعل أمر وفاعل وبه متعلقان باجهروا وإن واسمها وعليم خبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم وجملة إن وذي أحاط بمكنونات الأمور وجليّاتها وأجاز الزمخشري ورجحه الجمل في حاشيته نقلا عن شيخه أبو البقاء وغيرهما أن يكون من فاعل يعلم والمفعول محذوف كأنه قال ألا يعلم الخالق سرّكم وجهركم والاستفهام معناه الإنكار وعبارة الزمخشري : " ويجوز أن يكون من خلق منصوبا بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله وروي أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيظهر اللّه رسوله عليها فيقولون أسرّوا قولكم لئلا يسمعه إله محمد ، فنبّه اللّه على جهلهم فإن قلت قدّرت في ألّا يعلم مفعولا على معنى ألا يعلم ذلك المذكور فما أضمر في القلب وأظهر باللسان من خلق فهلّا جعلته مثل قولهم : هو يعطي ويمنع وهلّا كان المعنى ألا يكون عالما من هو خالق لأن الخلق لا يصحّ إلا مع العلم قلت : أبت ذلك الحال التي هي قوله وهو اللطيف الخبير لأنك لو قلت : ألا يكون عالما من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنى صحيحا لأن ألا يعلم معتمد على الحال والشيء ولا يوقت بنفسه فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شيء " .

(355/775)

وقد تعقب ابن المنير المالكي الزمخشري وناقشه مناقشة قيّمة قال فيها : " هذه الآية ردّ على المعتزلة وتصحيح للطريق التي يسلكها أهل السنّة في الردّ عليهم فإن أهل السنّة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها وهو استدلال بنفي اللازم الذي هو العلم على نفي الملزوم الذي هو الخلق وبهذه الملازمة دلّت الآية فإن اللّه تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عزّ وجلّ بثبوت الخلق وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للبارىء عزّ وجلّ وإبطال خلق العبد

(356/775)

لأفعاله وإعراب الآية ينزل على هذا المعنى فإن الوجه فيها أن يكون من فاعلا مرادا به الخالق ومفعول العلم محذوف تقديره ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك والتقدير في الجميع ألا يعلم السر والجهر من خلقهما ومتى حذونا غير هذا الوجه من الإعراب ألقانا إلى مضايق التكلّف والتعسّف فمن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر والتقدير ألا يعلم اللّه المسرّين والجاهرين وليس مطابقا للمفصل فإنه لم يقع على ذوات الفاعلين وإنما وقع على أفعالهم من السرّ والجهر وعليه وقع الاستدلال ويحتمل غير ذلك أبعد منه والأول هو الأولى لفظا ومعنى واللّه الموفّق " والواو

حالية وهو مبتدأ واللطيف خبر أول والخبير خبر ثان (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) هو مبتدأ والذي خبر وجملة جعل صلة ولكم متعلقان بذلولا والأرض مفعول جعل الأول وذلولا مفعولها الثاني إذا كانت بمعنى صيّر وإن كانت بمعنى خلق يعرب حالا والفاء الفصيحة أي إن عرفتم ذلك فامشوا والأمر أمر إباحة وفي مناكبها متعلقان بامشوا وكلوا فعل أمر وفاعل ومن رزقه متعلق بكلوا وإليه خبر مقدم والنشور مبتدأ مؤخر (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وأمنتم فعل وفاعل ومن مفعول به وهي عبارة

(357/775)

عن اللّه تعالى وفي السماء متعلقان بمحذوف صلة الموصول وأن يخسف المصدر المؤول في محل نصب بدل اشتمال من " من " وبكم متعلقان بيخسف والأرض مفعول به والفاء عاطفة وإذا الفجائية وقد تقدم القول فيها وهي مبتدأ وجملة تمور خبر (أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) أم عاطفة بمعنى بل كأنه أضرب عن التهديد الأول لينتقل إلى تهديد آخر وأمنتم فعل وفاعل ومن مفعول به وفي السماء صلة وأن وما في حيّزها بدل اشتمال من " من " وحاصبا مفعول به

والفاء الفصيحة والسين حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وكيف اسم استفهام خبر مقدّم ونذيري مبتدأ مؤخر وحذفت ياء المتكلم رسما والجملة المعلقة في محل نصب مفعول تعلمون.

[سورة الملك (67) : الآيات 18 إلى 22]

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

اللغة:

(الطَّيْرِ) في المصباح: "جمع الطائر طير مثل صاحب وصحب وراكب وركب وجمع الطير طيور وأطيار وقال أبو عبيدة وقطرب: ويقع الطير على الواحد والجمع وقال ابن الأنباري: الطير جماعة وتأنيثها أكثر من تذكيرها ولا يقال للواحد طير بل طائر وقلّما يقال للأنثى

طائرة " وفي القاموس واللسان وغيرهما ما خلاصته : الطير مصدر وجمع طائر وقد يقع على الواحد والاسم من التطيّر ومنه قولهم : لا طير إلا طير اللّه وطير اللّه لا طيرك كما يقال : صباح اللّه لا صباحك ويقال أيضا : كأنّ على رءوسهم الطير أي هم ساكنون هيبة وأصله أن الغراب يقع على رأس

البعير فيلقط منه القراد فلا يتحرك البعير لئلا ينفر عنه الغراب ، وازجر أحناء طيرك أي جوانب خفتك وطيشك .

(صافَّاتٍ) باسطات أجنحتهنّ في الجو عند طيرانها .

(وَيَقبضنها) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنّ ، وسيأتي المزيد في باب البلاغة .

(لَجُّوا) تمادوا .

(مُكِبًّا) اسم فاعل من أكب اللازم المطاوع لكبه يقال كبّه اللّه على وجهه في النار فأكبّ أي سقط وهذا على خلاف القاعدة في أن الهمزة إذا دخلت على اللازم تصيّره متعديا ، وهنا قد دخلت على اللازم فصيّرته لازما ، هذا ما ذكره اللغويون وأنكره الزمخشري قال : " يجعلون أكبّ مطاوع كبّه يقال : كببته فأكبّ من الغرائب والشواذ ونحوه قشعت الريح السحاب فأقشع وما هو كذلك ولا شيء من بناء أفعل مطاوعا ولا يتقن هذا إلا حملة كتاب سيبويه وإنما أكبّ من باب أنغض وألأم ومعناه دخل في الكب وصار ذا كب وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع ومطاوع كب وقشع انكبّ وانقشع " وفي الصحاح ما يؤيد

قول الزمخشري قال : " أنغض القوم هلكت أموالهم وانفضّوا أيضا مثل أرملوا فني زادهم "

وفيه أيضا : " ألأم الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لئيما " .

(359/775)

وقال أبو حيان : " ومكبّا حال من أكبّ وهو لا يتعدى وكب متعد قال تعالى : فكبت وجوههم في النار ، والهمزة فيه للدخول في الشيء أو للصيرورة ومطاوع كب : انكب تقول كببته فانكب " .

وفي القاموس : " كبه قلبه وصرعه كأكبّه وكبكبه فأكبّ وهو لازم ومتعدّ " .

وعبارة الأساس : " أكبّ لوجهه وعلى وجهه فانكبّ : أفمن يمشي مكبّا على وجهه ، وكببته وهو مكبوب ومكبوت وكببته في الهوّة وكبكبته وكذلك إذا رمى به من رأس جبل أو حائط ، والفارس يكبّ الوحوش وهم يكبّون العشار قال :

يكبّون العشار لمن أتاهم إذا لم تسكت المائة الوليدا

ورجل أكب لا يزال يعثر قال عدي :

إن يصبني بعض الهنات فلا وا ن ضعيف ولا أكبّ عثور

ومن المجاز : أكبّ على عمله وهو مكبّ عليه لازم له لا يفارقه قال لبيد :

جنوح الهالكي على يديه مكبّا يجتلي نقب النصال

وأكبّ فلان على فلان يطلبه "

الإعراب :

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وكذب فعل ماض والذين فاعل ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الموصول والفاء حرف عطف وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان مقدّم وكان فعل ماض ناقص ونكير اسمها وحذفت الياء اتّباعا لرسم المصحف أي إنكاري عليهم (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو عاطفة على مقدّر أي أغفلوا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل وإلى الطير متعلقان بيروا وفوقهم ظرف متعلق بصافّات وصافّات حال ، ويقبضن الواو عاطفة ويقبضن فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة ونون النسوة فاعل ،

(360/775)

و سيأتي سر عطف المضارع على الاسم المشتق في باب البلاغة ، ومفعول يقبض محذوف أي أجنحتهنّ (ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) الجملة مستأنفة أو في محل

نصب على الحال من فاعل يقبضن وأعربها أبو البقاء بدلا من الضمير في يقبضن ولم أر لهذا الإعراب مساغا ، وما نافية ويمسكهنّ فعل مضارع مرفوع والهاء مفعول به وإلا أداة حصر والرحمن فاعل وإن واسمها وبكل شيء متعلقان ببصير وبصير خبر إن والجملة تعليل للقدرة التي تدخل كل شيء في نطاق علمها (أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ) أم حرف عطف بمعنى بل فهي منقطعة ومن اسم استفهام مبتدأ وهذا اسم إشارة خبر والذي بدل من هذا أو صفة لاسم الإشارة وهو مبتدأ وجند خبر ولكن نعت والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة وجملة ينصركم نعت ثان أو حال ومن دون الرحمن متعلقان بمحذوف حال من فاعل ينصركم (إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) إن نافية والكافرون مبتدأ وإلا أداة حصر وفي غرور خبر المبتدأ والجملة معترضة لا محل لها (أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) عطف على ما تقدم وإن شرطية وأمسك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف دلّ عليه ما تقدم ورزقه مفعول به (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) بل حرف إضراب وعطف ولجوا فعل ماض وفاعل وفي عتو متعلقان بلجوا ونفور عطف على عتو (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الهمزة للاستفهام التوبيخي والفاء عاطفة على محذوف مقدّر ومن اسم موصول مبتدأ وجملة يمشي صلة ومكبّا حال من فاعل يمشي وعلى وجهه متعلق بمكبّا وأهدى خبر وأم حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام ومن عطف على من الأولى وجملة يمشي صلة

وسويا حال وعلى صراط مستقيم متعلقان بيمشي .

البلاغة :

(361/775)

1- في قوله " أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن " عطف الفعل على الاسم والسياق يقتضي أن يقول قابضات وذلك لسرّ لطيف ، فإن أصل الطيران هو رصف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرّك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهنّ صافّات ويكون منهنّ القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ، وخلاصة القول أن الغالب هو البسط فكأنه هو الثابت فعبّر عنه بالاسم والقبض متجدّد فعبّر عنه بالفعل .

2- وفي قوله " أ فمن يمشي مكبّا على وجهه أهدى أم من يمشي سويّا على صراط مستقيم " استعارة تمثيلية وهو مثل للمؤمن والكافر ، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى الطريق بل يمشي متعسفا فلا يزال يتعثر وينكب على وجهه والمؤمن صحيح البصر يمشي في طريق واضحة مستقيمة سالما من العثور والخرور على وجهه . وهكذا تتجلى طريقة القرآن في

التجسيد .

[سورة الملك (67) : الآيات 23 إلى 30]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

(362/775)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

اللغة :

(زُلْفَةً) الزلفة : القرب .

الإعراب :

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ) هو مبتدأ

والذي خبر وجملة أنشأكم صلة والجملة الاسمية مقول القول وجعل عطف على أنشأكم ولكم متعلقان بجعل أو في محل نصب مفعول به لجعلنا ، وقد تقدم الفرق بين الجعل بمعنى الخلق والجعل بمعنى التصيير ، والسمع مفعول به والأبصار عطف على السمع والأفئدة عطف أيضا وقليلا صفة مصدر مقدّم وما زائدة لتأكيد التقليل وتشكرون فعل مضارع مرفوع ويجوز إعراب قليلا ظرف متعلق بتشكرون والجملة في محل نصب حال مقدّرة (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة ذرأكم صلة والجملة مقول القول وفي الأرض متعلقان بذرأكم وإليه متعلقان بتحشرون وتحشرون فعل مضارع مرفوع والواو نائب فاعل (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الواو عاطفة ويقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومتى اسم استفهام في محل نصب ظرف زمان والظرف متعلق بمحذوف في محل رفع خبر مقدم وهذا

مبتدأ مؤخر والوعد بدل وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط وكان واسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من أمر القيامة والحشر فبيّنوا وقته على وجه التحديد (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا

نَذِيرٌ مُبِينٌ) إنما كافّة ومكفوفة والعلم مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ وإنما عطف على إنما الأولى وأنا مبتدأ ونذير خبر ومبين نعت والجملتان مقول القول (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) الفاء الفصيحة لأنها أعربت عن جملتين مقدرتين كأنه قيل وقد أتاهم ما وعدوا به فرأوه فلما رأوه ، ولما حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط ورأوه فعل ماض وفاعل ومفعول به وزلفة حال من مفعول رأوه وهو اسم مصدر لأزلف وهو بمعنى اسم الفاعل وأجاز الزمخشري إعرابها ظرفا أي مكانا ذا زلفة ، وجملة سيئت لا محل لها لأنها جواب لما ووجوه نائب فاعل والذين مضاف إليه وجملة كفروا صلة (وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر أي قال الخزنة لهم ، وهذا مبتدأ والذي اسم موصول في محل رفع صفة للخبر المحذوف أي هذا العذاب الذي وجملة كنتم صلة وكان واسمها وبه متعلقان بتدعون وجملة تدعون خبر كنتم (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا) أرأيتم الهمزة للاستفهام الإنكاري ورأيتم بمعنى أخبروني فعل وفاعل وإن شرطية وأهلكني اللّه فعل ماض ومفعول به وفاعل والجملة الشرطية التالية سدّت مسدّ مفعولي أرأيتم وقد تقدمت لهذا الإعراب نظائر وإن شرطية وأهلكني فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والنون للوقاية والياء مفعول به واللّه فاعل وجواب الشرط محذوف تقديره فلا فائدة لكم ولا نفع يعود عليكم والواو حرف عطف ومن

عطف على الياء ومعي ظرف متعلق بمحذوف صلة من وأو حرف عطف ورحمنا فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به (فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ)

الفاء تعليلية ومن اسم استفهام معناه النفي ، أي لا أحد ، في محل رفع فاعل وجملة يجير خبر والكافرين مفعول ومن عذاب أليم متعلقان بيجير (قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا) هو مبتدأ والرحمن خبر وجملة آمنّا به خبر ثان وبه متعلقان بآمنّا وعليه متعلقان بتوكلنا والجملة عطف على آمنّا به (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الفاء الفصيحة والسين حرف استقبال وتعلمون فعل وفاعل ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وهو ضمير فصل وفي ضلال مبين خبر من والجملة الاستفهامية سادّة مسدّ مفعولي تعلمون المعلقة بالاستفهام (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ) أرأيتم تقدم قريبا إعرابها فجدّد به عهدا ، والجملة الشرطية سدّ مسدّ مفعوليها وماؤكم اسم أصبح وغورا خبر أي غائرا ذاهبا في مسارب الأرض لا تناله الدلاء والأرشية والفاء رابطة ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة يأتيكم خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط

، وبما متعلقان بيأتيكم ومعين صفة لماء أي ظاهر تتراءاه العيون وأصله معيون بوزن مفعول

كمبيع أصله مبيوع فنقلت ضمة الياء إلى العين قبلها فالتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الواو ثم كسرت العين لتصح الياء ، وقيل هو من معن الماء أي كثر فهو على هذا الاعتبار فعيل لا مفعول والميم أصلية أما على الأول فالميم زائدة لأن الفعل عين .

البلاغة :

في قوله : " آمنّا به وعليه توكلنا " التقديم والتأخير فقد قدّم المفعول في قوله وعليه توكلنا وأخّره في قوله آمنّا به ، وقال الزمخشري بصدده :

"

(365/775)

فإن قلت لم أخّر مفعول آمنّا وقدّم مفعول توكلنا ؟ قلت لوقوع آمنّا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل آمنّا ولم نكفر كما كفرتم ثم قال وعليه توكلنا خصوصا لم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم وأموالكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 145.162 ﴾

(366/775)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/776)

الجزء السادس والسبعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القلم)

(4/776)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القلم)

(5/776)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة القلم

مقصودها إظهار ما استتر ، وبيان ما أبهم في آية (فستعلمون من هو في ضلال مبين) بتعيين النهتدي الذي برهن على هدايته حيازته العلم الذي هو النور الأعظم الذي لا يضل

بمصاحبته بتقبل القرآن والتخلق بالفرقان الذي هو صفة الرحمن بقدر الإمكان الذي تصل إليه قوة الإنسان ، وأدل ما فيها على هذا الغرض " ن " وكذا " القلم " فلذا سميت بكل منهما ، وبالكلام على كل منهما يعرف ذلك ، وحاصله أن النون مبين محيط يفيبيانه كما يحيط ضوء الشمس بما يظهره وكما تحيط الدواة بمدادها بآية ما دل عليه بمخرجه وصفاته ، واستقر الكلام الواقع فيها وفي المعهاني التي اشتركت في لفظه ، وأمات القلم فإباتته للمعارف أمر لا ينكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 89 ﴾

(6/776)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ن والقلم)

السّورة مكّيّة .

آياتها اثنتان وخمسون .

وكلماتها ثلاثمائة .

وحروفها أَلف ومائتان وستّ وخمسون .

فواصل آياتها (من) .

ولها اسمان : سورة ن ، وسورة القلم .

وهذا أَشهر .

معظم مقصود السّورة : الذَّبّ عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وعذابُ ما نعى الزَّكاة ، وتخويف الكفَّار بالقيامة ، وتهديد المجرمين بالاستدراج ، وأَمر الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – بالصّبر ، والإِشارةُ إلى حال يونس عليه السّلام فى قلَّة الصّبر ، وقصد الكفَّار رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليصيبوه بالعين فى ﴿ لَيُزْلِقُوْنَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ الآية .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان : ﴿ فَذَرْنِي ﴾ م ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ م آية السّيف .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ زَنِيم ﴾ تسعة أَوصاف ، ولم يدخل بينها واو العطف [ولا بعد السابع] فيدلّ على ضعف القول بواو الثمانية .

﴿ فَأَقْبَلَ ﴾ بالفاءِ سبق .

﴿ فَاصْبِر ﴾ بالفاءِ سبق .

فضل السّورة

فيه حديثان منكران ، حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب الَّذين حسّن الله أَخلاقَهم

، وحديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها نوّر الله قلبه ، وقبره ، وبيّض وجهه ، وأَعطاهُ كتابه بيمينه ، وله بكلِّ آية قرأَها ثوابُ مَن مات مبطوناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 476. 477 ﴾

(7/776)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة القلم

سميت هذه السورة في معظم التفاسير وفي (صحيح البخاري)) سورةَ ن والقلم على حكاية اللفظين الواقعين في أولها ، أي سورة هذا اللفظ .

وترجمها الترمذي في جامعه (وبعضُ المفسِرين سورة) ن بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سميت سورة ص وسورة ق .

وفي بعض المصاحف سميت سورة القلم وكذلك رأيت تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس .

وهي مكية قال ابن عطية : لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل .

وذكر القرطبي عن الماوردي : أن ابن عباس وقتادة قالا : أولُها مكي ، إلى قوله : على الخرطوم ((القلم : 16) ومن قوله : (إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون ((القلم : 17 33) مدني ، ومن قوله : (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم إلى قوله : فهم يكتبون ((القلم : 34 47) مكي

(8/776)

ومن قوله : (فاصبر لحكم ربك إلى قوله : من الصالحين ((القلم : 48 50) مدني ، ومن قوله : (وإن يكاد الذين كفروا ((القلم : 51) إلى آخر السورة مكي .

وفي (الإِتقان) عن السخاوي : أن المدني منها من قوله : (إنا بلوناهم إلى لو كانوا يعلمون ((القلم : 17 33) ومن قوله : (فاصبر لحكم ربك إلى قوله : من الصالحين ((القلم : 48 50) فلم يجعل قوله : (إن للمتقين عند ربهم إلى قوله : فهم يكتبون ((القلم : 34 47) مدنياً خلافاً لما نسبَه الماوردي إلى ابن عباس .

وهذه السورة عَدّها جابر بن زيد ثانية السور نزولاً قال : نزلت بعد سورة) اقرأ باسم ربك وبعدَها سورةُ المزمل ثم سورة المدثر ، والأصح حديث عائشة أن أول ما أنزل سورة اقرأ باسم ربك ثم فَتَرَ الوحي ثم نزلت سورة المدثر .

وما في حديث جابر بن عبد الله أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي يحمل على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك جمعاً بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها .

وفي تفسير القرطبي (: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل .

واتفق العادّون على عدّ آيها ثنتين وخمسين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 58.57 ﴾

(9/776)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة القلم

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا , وأن سائرها نزل أخيرا – ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد , وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقولهم: إنه مجنون !

والروايات التي تقول: إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة , ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ; ولكن سياق السورة

وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة , التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية , في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها , فتقول عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلك القولة الفاجرة ; وأخذ القرآن يردها وينفيها , ويهدد المناهضين للدعوة , ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفي فيه:(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . . جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي (صلى الله عليه وسلم) على نفسه في أول الوحي , من أن يكون ذلك جنونا أصابه . . هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة , ولأن سياق السورة المتماسك يدل على أن هذا النفي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى:(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون:إنه لمجنون) . . فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه , كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتماسكة الحلقات .

(10/776)

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم , والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت . . ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكيته . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقا مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ; وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له: (وأنذر عشيرتك الأقربين) . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم , التي قال عنها قائلهم: (أساطير الأولين) . . وبعد ما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة , وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين , والتهديد القاصم في أولها وفي آخرها على السواء . . والمشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك: (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون: إنه لمجنون) . . فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا –

كما تقول الروايات الراجحة – إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي (صلى الله عليه وسلم) للالتقاء في منتصف الطريق , والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة:(ودوا لو تدهن فيدهنون) . وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية , ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها , وشعور المشركين بخطرها .

(11/776)

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل – قابلة للزيادة – بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم يتنزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة , وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة , تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف , للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

لقد كانت هذه الغرسة – غرسة العقيدة الإسلامية – تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة , لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعا .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش , ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم , وبين الصورة الباهرة العظيمة المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد (صلى الله عليه وسلم) متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى – دين إبراهيم عليه السلام – وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض , الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب , وعبادة الملائكة وتماثيلها , والتعبد للجن وأرواحها , وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية . . وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها , وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

(12/776)

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقية السائدة في الجزيرة , والكهانة السائدة في دياناتها , واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين . . وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها , وجاء محمد (صلى الله عليه وسلم) يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات – ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها – على ضخامتها .

كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !) . . والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع شرف نسبه , وأنه في الذؤابة من قريش , لم تكن له مشيخة فيهم ولا رياسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما , في بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبلية كل الاعتبار , فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد (صلى الله عليه وسلم) من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التي تجعل رجلا كأبي جهل "عمرو بن هشام" يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية , لأن نبيها من بني عبد مناف . . وذلك كما ورد في قصته مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب , حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية , وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه: "ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا , وحملوا فحملنا , وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب , وكنا كفرسي رهان , قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! " .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن تثبت جذورها وتتعمق , وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ; وأمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يجهر بالدعوة ; وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز , كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول (صلى الله عليه وسلم) ولو أنه نبي , ولو أنه يتلقى من ربه الوحي , ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى . . هو بشر , تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة , وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون , ويعاني وقعها العنيف الأليم , هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

(14/776)

وكان (صلى الله عليه وسلم) يسمع والمؤمنون به يسمعون , ما كان يتقوله عليه المشركون , ويتطاولون به على شخصه الكريم , (ويقولون: إنه لمجنون) . . ولم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة , التي حكاها القرآن في السور الأخرى ; والتي كانت توجه إلى شخصه (صلى الله عليه وسلم) وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !

والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية , ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية - كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه , ويواسيه ويسري عنه , ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويبرز

العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيها الكريم . وينفي ما يقوله المتقولون عنه , ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم , ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) :

(ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم) . .

وقوله تعالى عن المؤمنين:

إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ? مالكم ? كيف تحكمون ? ! . .

ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين:

(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم !) . .

ثم يقول عن حرب المكذبين عامة:

(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين) . .

وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين:

يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . .

(15/776)

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلا على عاقبة البطر تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ; الكائدون للدعوة بسبب ما لهم من مال وبنين .

وفي نهاية السورة يوصي النبي (صلى الله عليه وسلم) بالصبر الجميل: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . .) .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت , مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب , يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف . . من خلال هذا كله تتبين ملامح تلك الفترة , فترة الضعف والقلة , وفترة المعاناة والشدة , وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !

كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت

الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء .

نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) (إنه لمجنون) !

من الاية 2 الى الاية 3

مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)

وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة , وأسلوب من لايجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان , كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حالهم: (ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون) . . وكذلك في التهديد المكشوف العنيف: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين) . .

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم: (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . . .) .

ونلمحها في القصة – قصة أصحاب الجنة – التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تفكيرهم وتصورهم وبطرهم , وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم (وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . . الخ) .

وأخيرا نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل: (أم لكم كتاب فيه تدرسون: إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) . . .

وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني , وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ; ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة في أواخر عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيما بعد , وفي الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاما لا تزيد . وهي في حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة . . التي انتقلتها الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترتفع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية , لا من ناحية طبيعة العقيدة , ولا من ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض , ولا من ناحية السعة والشمول لتضم

الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف , وفي تلبية لكل حاجاتها الشعورية , وحاجاتها الفكرية , وحاجاتها الاجتماعية , وحاجاتها التنظيمية في شتى الميادين . . إنها المعجزة تتجلى في النقلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة , والضعف إلى قوة , لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3645.3650 ﴾

(17/776)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة القلم

مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية

بين يدي السورة

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان ، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي :

أ- موضوع الرسالة ، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله (صلى

الله عليه وسلم) .

ب – قصة أصحاب الجنة " البستان " لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى .

ج – الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وما أعد الله للفريقين : المسلمين والمجرمين . ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع (إثبات نبوة محمد) صلى الله عليه وسلم .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه – وحاشاه – بالجنون ، وبينت أخلاقه العظيمة ، ومناقبه السامية [ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم] الآيات .

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أعد الله لهم من العذاب والنكال في دار الجحيم [فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين . .] الآيات .

* ثم ضربت مثلا لكفار مكة في كفرانهم (نعمة الله) العظمى عليهم ، ببعثة خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم) إليهم ، وتكذيبهم به ، بقصة أصحاب الجنة " الحديقة " ذات الأشجار والزروع والثمار ، حيث جحدوا نعمة الله ، ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين ، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرة للمعتبرين [إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ

أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم] الآيات .

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب [أفنجعل المسلمين كالمجرمين . .] ؟ الآيات .

(18/776)

---

* وتناولت السورة الكريمة ، القيامة وأحوالها وأهوالها ، وموقف المجرمين في ذلك اليوم العصيب ، الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرون [يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالصبر على أذى المشركين ، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله ، كما حدث من يونس عليه السلام ، حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ، دون إذن من الله [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم] الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 423.424 ﴾

(19/776)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القلم

يسطرون : أي يكتبون ، ممنون : أي مقطوع يقال منّه السير إذا أضعفه ، والمنين : الضعيف ، المفتون : المجنون لأنه فتن ، أي ابتلى بالجنون .

قال الليث : الإدهان : اللين والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، وقال المبرد : يقال داهن الرجل فى دينه وداهن فى أمره إذا أظهر خلاف ما يضمر ، والحلّاف : كثير الحلف فى الحق والباطل ، والمهين : المحتقر الرأى والتمييز ، والهماز : العياب الطعّان ، والمشاء بالنميم : أي الذي يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، والمنّاع للخير : البخيل ، والمعتدى : الذي يتجاوز الحق ويسير فى الباطل ، والأثيم : الكثير الآثام والذنوب ، والعتلّ : الشديد الخصومة الفظّ الغليظ ، والزنيم : الذي يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها (الجزء المسترخى من أذنها حين تشق ويبقى كالشىء المعلق) سنسمه :

أي نجعل له سمة وعلامة ، والخرطوم : الأنف .

بلوناهم : أي امتحناهم بألوان من البلاء والآفات ، والجنة : البستان ، ليصر منّها :

أي ليقطعنّ ثمار نخيلها ، مصبحين : أي وقت الصباح ، ولا يستثنون : أي ولا ينثنون عما

همّوا به من منع المساكين ، فطاف عليها طائف من ربك : أي طرقها طارق من عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها ، كالصريم : أي كالليل البهيم فى السواد بعد أن احترقت ، فتنادوا : أي نادى بعضهم بعضا ، أن اغدوا :

(20/776)

أي اخرجوا غدوة مبكّرين ، حرثكم : أي بستانكم ، صارمين : أي قاصدين الصّرم وقطع الثمار ، يتخافتون : أي يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمناجاة حتى لا يسمعهم أحد ، على حرد : أي على منع ، لضالون : أي قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه هى ، محرومون : أي حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا ، أوسطهم : أي أرجحهم رأيا ، تسبحون : أي تذكرون اللّه وتشكرونه على ما أنعم به عليكم ، يتلاومون : أي يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين ، طاغين : أي متجاوزين حدود اللّه . تدرسون : أي تقرءون ، تخيرون : أي تختارون ، أيمان : أي عهود ، بالغة : أي متناهية فى التوكيد موثّقة ، إلى يوم القيامة : أي ثابتة لكم علينا إلى هذا اليوم ، أيهم بذلك زعيم : أي أيهم كفيل بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها ، كشف الساق : يراد به الشدة ، وقد كانوا إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق .

قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

روى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال : إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه

فى الشعر فإنه ديوان العرب . أما سمعتم قول الراجز :

صبرا عناق إنه شرّ باق

قد سن لى قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

خاشعة أبصارهم : أي ذليلة ، سالمون : أي أصحاء .

تقول : ذرنى وإياه : أي كله إلىّ فإنى أكفيكه ويقال استدرجه إلى كذا :

إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورّطه فيه ، وأملى لهم : أي أمهلهم وأطيل لهم المدة

يقال أملى اللّه له : أي أطال له الملاوة وهى المدة من الزمن ، والكيد هنا :

(21/776)

الإحسان ، والمغرم : الغرامة المالية ، مثقلون : أي مكلفون أحمالا ثقالا فهم بسببها يعرضون

عنك ، الغيب : هو ما كتب فى اللوح واستأثر اللّه بعلمه ، يكتبون : أي يحكمون على اللّه

بما شاءوا وأرادوا ، حكم ربك : هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ، صاحب الحوت :

هو يونس عليه السلام ، مكظوم : أي مملوء غيظا ، من قولهم : كظم السقاء إذا ملأه ،

والعراء : الأرض الخالية ، فاجتباه : أي اصطفاه ، يزلقونك :

أي يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلىّ نظرة كاد يصرعنى ، أو كاد يأكلنى : أي لو أمكنه بنظره

أن يصرعنى أو يأكلنى لفعل ، قال شاعرهم :

يتقارضون إذا التقوا فى موطن نظرا يزل مواطن الأقدام

والذكر : القرآن ، ذكر : أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 27 . 44 ﴾ . باختصار .

(22/776)

وقال الفراء :

سورة (القلم)

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ ن وَالْقَلَمِ . . . ﴾ .

تخفى النون الآخرة ، وتظهرها ، وإظهارها أعجب إلىّ ؛ لأنها هجاء ، والهجاء كالموقوف

عليه وإن اتصل ، ومن أخفاها بنى على الاتصال . وقد قرأت القراء بالوجهين ؛ كان

الأعمش وحمزة يبينانها ، وبعضهم يترك التبيان .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . . . ﴾ .

مقطوع ، والعرب تقول: ضعُفت مُنتى عن السفر ، ويقال للضّعيف: المنينُ ، وهذا من ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . . . ﴾ أى: دين عظيم .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾

وقوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . . . ﴾ ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ . . . ﴾ .

المفتون ها هنا بمعنى: الجنون: هو فى مذهب الفتون ، كما قالوا: ليس له معقول رأى ، وإن شئت جعلته بأيكم: فى أيكم أى: فى أى الفريقين المجنون ، فهو حينئذ اسم ليس بمصدر .

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ . . . ﴾ .

يقال: ودوا لو تلينُ فى دينك ، فيلينون فى دينهم ، وقال بعضهم: لو تفكر فيكفرون ، أى: فيتبعونك على الكفر .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . . . ﴾ . المهين ، ها هنا : الفاجر . والهماز: الذي

يهمز الناس.

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ . . . ﴾ نميم ونميمة من كلام العرب.

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ عُتُلٍّ . . . ﴾.

فى هذا الموضع هو الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم: الملصق بالقوم، وليس منهم وهو: المدعى.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . . . ﴾.

(23/776)

قرأها الحسن البصرى وأبو جعفر المدنى بالاستفهام "أأن كان"، وبعضهم. "أن كان" بألف واحدة بغير استفهام، وهى فى قراءة عبد الله: ولا تُطِعْ كلَّ حَلاّفٍ مَهِينٍ أن كان: لا تطعه أَنْ كان. لِأَنْ كان ذا مالٍ.

ومن قرأ: أأن كان ذا مال وبنين، فإنه وبّخه: ألأَنْ كان ذا مالٍ وبنين تطيعه؟ وإن شئت

قلت: ألأن كان ذا مال وبنين ، إذا تليت عليه آياتنا قال: أساطير الأولين . وكلٌّ حسن .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾

وقوله: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ . . . ﴾ .

أى: سنسمه سِمَةَ أهل النار ، أى سنسوّد وجهه ، فهو وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه فى مذهب الوجه ؛ لأن بعض الوجه يؤدّى عن بعض .

والعرب تقول: أما والله لأسمنّك وسماً لا يفارقك . تريد : الأنفَ ، وأنشدنى بعضهم:

لأعْلِطَنَّكَ وسْماً لا يفارقه * كما يُحَزّ بِحُمىَّ المِيسمِ البَحرُ

فقال: الميسم ولم يذكر الأنف ، لأنه موضع السمة ، والبحر: البعير إذا أصابه البَحَر ، هو داء يأخذ البعير فيوسم لذلك .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلَوْنَاهُمْ . . . ﴾ .

(24/776)

بلونا أهل مكة كما بلونا أصحاب الجنة ، وهم قوم من أهل اليمن كان لرجل منهم زرع ، ونخل ، وكرم ، وكان يترك للمساكين من زرعه ما أخطأه المنجل ، ومن النخل ما سقط على

البسط ، ومن الكرم ما أخطأه القطاف . كان ذلك يرتفع إلى شيء كثير ، ويعيش فيه اليتامى والأرامل والمساكين فمات الرجل ، وله بنون ثلاثة ؛ فقالوا : كان أبونا يفعل ذلك ، والمال كثير ، والعيال قليل ، فأمّا إذ كثر العيال ، وقلّ المال فإنا ندع ذلك ، ثم تآمروا أن يصرموا فى سَدَف : فى ظلمة . باقية من الليل لئلا يبقى للمساكين شيء ، فسلط الله على ما لهم نارا فأحرقته ، فغَدوا على ما لهم ليصرموه ، فلم يروا شيئًا إلا سوادا ؛ فقالوا : "إنا لضالُّون" ، ما هذا بمالنا ، ثم قال بعضهم : بل هو مالنا حرمناه بما صنعنا بالأرامل والمساكين ، وكانوا قد أقسموا ليصرمنها أول الصباح ، ولم يستثنوا : لم يقولوا : إن شاء الله ، فقال أخ لهم أوسطهم ، أعد لهم قولا : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحون ؟ فالتسبيح ها هنا فى معنى الاستثناء ، وهو كقوله : ﴿ واذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾

وقوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾ .

لا يكون الطائف إلَّا ليلا ، ولا يكون نهاراً ، وقد تكلم به العرب ، فيقولون : أطفت به نهاراً وليس موضعه بالنهار ، ولكنه بمنزلة قولك : لو ترك القطا ليلا لنام ؛ لأنَّ القطا لا يسرى ليلا ، قال أنشدنى أبو الجراح العقيلى :

أطفت بها نهاراً غير ليلٍ * وألهى ربَّها طلبُ الرّخال

والرَّخِل : ولد الضأن إذا كان أنثى .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . . . ﴾ . كالليل المسود .

﴿ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . . . ﴾ ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ . . . ﴾ .

(25/776)

وفى قراءة عبد الله: "لا يدخلنها" ، بغير أن ، لأنّ التخافت قول ، والقول حكاية ، فإذا لم يظهر القول جازت "أن" وسقوطها ، كما قال الله: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ ولم يقل: أنّ للذّكر ، ولو كان كان صوابا .

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَغَدَوْاْ عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . . . ﴾ .

على جدٍّ وقدرة فى أنفسهم [/ب] والحرد أيضاً: القصد ، كما يقول الرجل للرجل: قد أقبلت قِبلك ، وقصدت قصدك ، وحَرَدْتُ حَردك ، وأَنشدنى بعضهم:

وجاء سيلٌ كان من أمر الله * يحرِد حَرْدَ الجنة المُغِلَّهْ

يريد: يقصد قصدها .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ . . . ﴾ .

يقول بعضهم لبعض: أنت الذى دللتنا ، وأشرت علينا بما فعلنا . ويقول الآخر: بل أنت فعلت ذلك ، فذلك تلاومهم .

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ . . . ﴾ .

القراء على رفع "بالغة" إلاّ الحسن ، فإنه نصبها على مذهب المصدر ، كقولك: حقاً ، والبالغُ فى مذهب الحق يقال: جيّد بالغ ، كأنه قال: جيّد حقا قد بلغ حقيقة الجودة ، وهو مذهب جيد وقرأه العوام ، أن تكون البالغة من نعت الأيمان أحب إلىّ ، كقولك ينتهى بكم إلى يوم القيامة أيمان علينا بأنَّ لكم ما تحكمون ، فلما كانت اللام فى جواب إنّ كسرتها ، ويقال: أئن لكم ما تحكمون بالاستفهام ، وهو على ذلك المعنى بمنزلة قوله: ﴿ أئذا كُنا تراباً ﴾ ﴿ أئنا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحافِرَة ﴾ .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ . . . ﴾ .

يريد : كفيل ، ويقال له: الحميل ؛ والقبيل ، والصبير ، والزعيم فى كلام العرب: الضامن والمتكلم عنهم ، والقائم بأمرهم:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبدالله: "أم لهم شرك فليأتوا بشركهم" . والشّرك ، والشركاء فى معنى واحد ، تقول: فى هذا الأمر شِرْك ، وفيه شركاء .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ . . . ﴾ .

القراء مجتمعون على رفع الياء [حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء قال: حدثنى سفيان عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس أنه قرأ "يوم تكشف عن ساق" ، يريد: القيامة والساعة لشدتها قال: وأنشدنى بعض العرب لجد أبى طرفة .

كشفَتْ لهم عن ساقها * وبدا من الشرّ البراحُ

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَاذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَاذَا الْحَدِيثِ . . . ﴾ .

معنى فذرنى ومن يكذب أى: كِلْهم إلىّ ، وأنت تقول للرجل: لو تركتك ورأيك ما أفلحت ،

: أى: لو وكلتك إلى رأيك لم تفلح ، وكذلك قوله: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وحِيداً ﴾ ، و (من) فى موضع نصب ، فإذا قلت: قد تُرِكتَ ورأيَك ، وخُليت ورأيك نصبت الرأى ؛ لأن المعنى: لو تركتَ إلى رأيك ، فتنصب الثانى لحسن هذا المعنى فيه ، ولأنّ الإسم قبله متصل بفعل .

فإذا قالت العرب: لو تركت أنت ورأيُكَ ، رفعوا بقوة: أنت ، إذ ظهرت غير متصلة بالفعل .

وكذلك يقولون: لو ترك عبد الله والأسدُ لأكله ، فإن كنّوا عن عبد الله ، فقالوا: لو ترك والأسدَ أكله ، نصبوا ؛ لأن الإسم لم يظهر ، فإن قالوا: لو ترك هو والأسد ، آثروا الرفع فى الأسد ، ويجوز فى هذا ما يجوز فى هذا إلا أن كلام [/ا] العرب على ما أنبأتك به إلا قولَهم: قد ترك بعضُ القوم وبعض ، يؤثرون فى هذا الإتباعَ ؛ لأن بعضَ وبعضٌ لما اتفقتا فى المعنى والتسمية أختير فيهما الإتباع والنصب فى الثانية غير ممتنع .

(27/776)

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . . . ﴾ .

يقول: أعندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ، ويجادلونك بذلك .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ . . . ﴾ .

كيونس صلى الله عليه وسلم ، يقول: لا تضجر بهم ؛ كما ضجر يونس حتى هرب من أصحابه ؛ فألقى نفسه فى البحر ؛ حتى التقمه الحوت .

﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ . . . ﴾ .

حين نبذ ـ وهو مذموم ، ولكنه نبد عير مذموم ، ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: "لولا أن تداركته" ، وذلك مثل قوله: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ ﴿ وأخذت ﴾ فى موضع آخر ؛ لأن النعمة اسم مؤنث مشتق من فعل ، ولك فى فعله إذا تقدم التذكير والتأنيث .

وقوله: ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ . . . ﴾ . العراء الأرض .

[حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا الفراء] .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ . . . ﴾ .

يقول: أعندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ، ويجادلونك بذلك .

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ . . . ﴾ .

(28/776)

قرأها عاصم والأعمش: (لَيُزلقونك) بضم الياء ، من أزلقتُ ، وقرأها أهل المدينة: (لَيَزلقونك) بفتح الياء من زَلَقْتُ ، والعرب تقول للذى يحلق الرأس: قد زلقه وأزلقه .

وقرأها ابن عباس: "لَيُزْهقونك بأبصارهم" حدثنا محمد قال: سمعت الفراء قال: حدثنا بذلك سفيان بن عيينة عن رجل ابن عباس ، وهى فى قراءة عبد الله بن مسعود كذلك بالهاء: "ليزهقونك" ، أى: ليلقونك بأبصارهم ؛ وذلك أن العرب كان أحدهم إذا أراد أن يعتان المال ، أى: يصيبه بالعين تجوّع ثلاثاً ، ثم يتعرض لذلك المال فيقول: تالله مالا أكثر ولا أحسن [يعنى ما رأيت أكثر] فتسقط منه الأباعر ، فأرادوا برسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلم مثل ذلك فقالوا: ما رأينا مثل حججه ، ونظروا إليه ليعينوه ، فقالوا: ما رأينا مثله ، وإنه لمجنون ، فقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ . . . ﴾ . ويقال: (وإن كادوا ليزلقونك) أى: ليرمون بك عن موضعك ، ويزيلونك عنه بأبصارهم ، كما تقول: كاد

يصرعنى بشدة نظره ، وهو بيّن من كلام العرب كثير ، كما تقول: أزهقت السهم فرهَق .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ . . . ﴾ .

كيونس صلى الله عليه وسلم ، يقول: لا تضجر بهم ؛ كما ضجر يونس حتى هرب من أصحابه ؛ فألقى نفسه فى البحر ؛ حتى التقمه الحوت .

﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ . . . ﴾ .

حين نبذ ـ وهو مذموم ، ولكنه نبد عير مذموم ، ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ . . . ﴾ .

(29/776)

وفى قراءة عبد الله: "لولا أن تداركته" ، وذلك مثل قوله: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ ﴿ وأخذت ﴾ فى موضع آخر ؛ لأن النعمة اسم مؤنث مشتق من فعل ، ولك فى فعله إذا تقدم التذكير والتأنيث .

وقوله: ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ . . . ﴾ . العراء الأرض .

[حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا الفراء] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 172. 179 ﴾

(30/776)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة ن

(غير ممنون) [3] غير مقطوع ، مننت الحبل: قطعته . (بأييكم المفتون) [6] مصدر مثل الفتون ، كما يقال: ما به معقول أي عقل ، قال الراعي: 1291 - حتى [إذا] لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولاً . (مهين) [10] وضيع بإكثاره من الفساد . (عتل) [13] قوي في كفره ، فاحش في فعله ، والوقف على (عتل) ثم (بعد ذلك زنيم) ، أي: مع ذلك كله زنيم ، معروف بالشر ، كما يعرف التيس [بزنمته] .

قال الضحاك: كان للوليد بن المغيرة أسفل من أذنه زنمة كزنمة الشاة . وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأخنس بن شريق .

. . . . . 1292 - زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع .

وقال آخر: 1293 - وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد .

(ءأن كان ذا مال وبنين) [14] فيه حذف وإضمار . الإضمار في أوله: أي: ألأن كان ذا مال .

والحذف في آخره: أي: ألأ[ن] كان ذا مال يطيعه أو يطاع . (سنسمه على الخرطوم) [16] سنقبح ذكره ، ونصفه [بخزي] يبقى عليه عاراً . كما قال جرير: 1294- لما وضعت على الفرزدق ميسمي [وضغا] البعيث جدعت أنف الأخطل/وقال في قصيدة أخرى: 1295- نبئت تغلب بعدما جدعتهم يتعذرون وما لهم من [عاذر]

وقيل: إن ذلك في الآخرة ، يوسم على أنفه بسمة [يعرف بها] . وقيل: إن الخرطوم الخمر ، أي: سنحده على شرب الخمر ، قال الفرزدق: 1296- أبا حاضر ما بال برديك أصبحا على ابنت فروخ رداء ومئزرا 1297- أبا حاضر من يزن يظهر زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكرا . واستشهد من قال: إن الخرطوم الأنف ، بقول الراعي: 1298- إذا سدرت مدامعهن يوماً [رأت] إجلاً تعرض أو صوارا

1299- بغائرة نضا الخرطوم عنها [وسدت] من خشاش الرأس غارا . (فطاف عليها طائف) [19] قال ابن جريج: خرجت عنق من النار من واديهم . (كالصريم) [20] كالرماد الأسود . وقيل: كالليل المظلم . وقيل: كالنهار المشرق ، أي: بيضاء لا شيء فيها .

فالصريم من الضداد ، ومعناهما في هذا الموضع صحيح قريب ، لأن المكان الخراب الوحش كما يشبه بالليل المظلم ، يشبه [القفر الجادب] بالنهار . قال أوس: 1300- على دبر الشهر الحرام بأرضنا وما حولها جدب سنون تلمع . (يتخافتون) [23] يسار بعضهم بعضاً ، لئلا يسمع المساكين . (وغدوا على حرد) [25] غيظ وغضب ، كما قال الفرزدق: 1301- وقالت أراه واحداً لا أخاله يؤمله في الأقربين الأباعد 1302- لعلك يوماً أن تريني كأنما بني حوالي الأسود الحوارد .

وقيل: على منع ، كما قال عدي بن زيد : 1303- ولنا خابية موضونة جونة يتبعها برزينها /1304- فإذا ما بكأت أو حاردت فك عن جانب أخرى طينها .

(إنا لضالون) [26] أي: ضللنا الطريق . (أيهم بذلك زعيم) [40] كفيل . قال المخزومي: 1305- قلت كفي لك رهن بالرضا وازعمي يا هند قالت قد وجب . أي: [اكفلي] . (يوم يكشف عن ساق) [42] عن غطاء . قال رؤبة: 1306- عجبت من نفسي ومن إشفاقها 1307- ومن طرادي الطير عن أرزاقها 1308- في سنة قد كشفت عن ساقها 1309- والموت في عنقي وفي أعناقها

وقيل: عن شدة وعناء ، كما قال تأبط شراً: 1310- . . . . . نفسي فداؤك من سار على ساق . وقال آخر: 1311- كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

المكظوم: المحبوس على الحزن فلا ينطق، ولا يشكو، من كظم القربة. وقد مر ذكره.

(ليزلقونك بأبصارهم) [51] أي: يعينونك، ويصيبونك بها. أي: يفعلون بك فعلاً تزلق منه قدمك، كما قيل: 1312- يتقارضون إذا التقوا في منزل نظراً يزيل مواقع الأقدام

[تمت سورة القلم]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1527.1537﴾

(32/776)

وقال الأخفش:

سورة (القلم)

﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾

قال ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ يريد "أَيُّكُمْ الْمَفْتُون".

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾

وقال ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذه "إِنْ" التي تكون للايجاب وهي في معنى الثقيلة الا انها ليست بثقيلة، لأنك اذا قلت: "إِنْ كانَ عبدُ اللهِ لَظَرِيفاً" فمعناه "إِنْ عبدُ اللهِ لَظَرِيفٌ قبلَ اليَوْم" فـ"إِنْ" تدخل في هذا المعنى وهي خفيفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 547﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة القلم

«1»

1 - ن . قال قتادة والحسن : هي الدواة .

ويقال : الحوت تحت الأرض .

وقد ذكرت الحروف المقطّعة في كتاب «تأويل مشكل القرآن» .

وَما يَسْطُرُونَ أي يكتبون .

3 - وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ أي غير مقطوع [ولا منقوص] .

يقال : مننت الحبل ، إذا قطعته .

6 - بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ؟ ! أي أيّكم المفتون ؟ [أي الذي فتن بالجنون] . والباء زائدة . كما قال الراجز :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج أي نرجو الفرج .

وقال الفراء : «و[قد] يكون الْمَفْتُونُ بمعنى : الفتنة ، كما يقال :

ليس له معقول - أي عقل - ولا معقود ، أي رأي . وأراد : الجنون» .

---

(1) هي مكية .

(34/776)

---

9 - وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ أي : تداهن [وتلين لهم] في دينك فَيُدْهِنُونَ : [فيلينون] في أديانهم «1» .

وكانوا أرادوه على أن يعبد آلتهم مدة ، ويعبدوا اللّه مدة .

10 - (المهين) : الحقير الدنيء .

11 - هَمَّاز : عيّاب .

12 - مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ بخيل ، مُعْتَدٍ : ظلوم .

و(العتل) : الغليظ الجافي . نراه من قولهم : فلان يعتل ، إذا غلّظ عليه وعنّف به في القود :

و(الزنيم) : الدّعيّ .

وقد ذكرت هذا في كتاب «تأويل المشكل» ، وتأويل قوله : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ .

17 - إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ ، [وَلا يَسْتَثْنُونَ] أي حلفوا ليجذنّ ثمرها صباحا ، ولم يستثنون .

20 - فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ أي سوداء كالليل محترقة. و«الليل» هو: الصّريم،

و«الصبح» أيضا: صريم. لأن كل واحد منهما ينصرم من صاحبه.

ويقال: «أصبحت: وقد ذهب ما فيها من الثمر، فكأنه صرم»، أي قطع وجذّ.

23 - و24 - وَهُمْ يَتَخافَتُونَ أي تسارّون: بِأَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ.

25 - وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ أي منع. و«الحرد» و«المحاردة»:

---

(1) روي أن الكفار قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلم: لو عبد آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية.

(35/776)

المنع. يقال: حاردت السّنة، إذا لم يكن فيها مطر. وحاردت الناقة: إذا لم يكن لها لبن.

و«الحرد» أيضا: القصد. يقال للرجل: لئن حردت حردك، أي قصدت قصدك. ومنه قول الشاعر:

أمّا إذا حردت حردي فمجرية أي إذا قصدت قصدي.

ويقال: عَلى حَرْدٍ أي على حرد. وهما لغتان، كما يقال: الدّرك والدّرك. قال الأشهب بن رميلة:

أسود شري لاقت أسود خفية تساقوا على حرد دماء الأساود

قادِرِينَ أي منعوا : وهم قادرون ، أي واجدون .

28 - قال أَوْسَطُهُمْ أي خيرهم [فعلا] ، وأعد لهم قولا - : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : لَوْلا

تُسَبِّحُونَ ؟ ! أي هلا تسبحون .

40 - أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ أي كفيل . يقال : زعمت به أزعم [زعما وزعامة] ، إذا كفلت .

42 - يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ ، أي عن شدة من الأمر ، قال الشاعر :

في سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبري اللحم عن عراقها

«عراقها» : جمع «عرق» . والعراق : العظام .

ويقال : «قامت الحرب على ساق» .

وأصل هذا مبيّن في كتاب «تأويل المشكل» .

43 - تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ : تغشاهم .

(36/776)

---

44 - سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أي نأخذهم قليلا قليلا ، ولا نباغتهم .

45 - وَأُمْلِي لَهُمْ أي أطيل لهم وأمهلهم ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أي شديد . و«الكيد» : الحيلة

والمكر .

48 - وَهُوَ مَكْظُومٌ من الغمّ . و«كظيم» مثله .

49 - (العراء) : الأرض التي لا تواري من فيها بجبل ولا شجر .

51 - وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ .

قال الفراء : «يعتانونك أي يصيبونك بأعينهم» ، وذكر : «أن الرجل من العرب كان يمثل على طريق الإبل - إذا صدرت عن الماء - فيصيب منها ما أراد بعينه ، حتى يهلكه» .

هذا معنى قوله ، وليس هو بعينه .

ولم يرد اللّه جل وعز - في هذا الموضع - انهم يصيبونك بأعينهم ، كما يصيب العائن بعينه ما يستحسنه ويعجب منه .

وإنما أراد : أنهم ينظرون إليك - إذا قرأت القرآن - نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء ، يكاد يزلقك ، أي يسقطك كما قال الشاعر :

يتقارضون - إذا التقوا في موطن - نظرا يزيل مواطىء الأقدام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 408 . 411 ﴾

(37/776)

وقال الغزنوى :

سورة ن

2 ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ أي : انتفى عنك الجنون بنعمته «1» .

وقيل «2» : هو كقولك : ما أنت بحمد اللّه مجنون .

3 غَيْرَ مَمْنُونٍ : غير مقطوع ، مننت الحبل : قطعته «3» .

4 خُلُقٍ عَظِيمٍ : سئلت عائشة عن خلقه فقالت «4» : «اقرأ الآي العشر

---

(1) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 204 ، وانظر هذا القول في تفسير الماوردي :

4/ 278 ، وتفسير البغوي : 4/ 375 .

(2) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 375 .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 477 ، وتفسير الطبري : 29/ 18 ، ومعاني الزجاج : 5/ 204 ، وتفسير المشكل لمكي : 350 . [. . . . .]

(4) لم أقف على نص هذا القول المنسوب إلى عائشة رضي اللّه عنها ، وأورده القرطبي في تفسيره : 18/ 227 بلفظ : «و سئلت (عائشة) أيضا عن خلقه عليه السلام ، فقرأت : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ إلى عشر آيات ، وقال : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . . . » .

وفي صحيح مسلم : 1/ 513 ، كتاب صلاة المسافرين ، باب «جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض» أن سعد بن هشام سأل عائشة رضي اللّه عنها عن خلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت له : «ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان القرآن . . . » .

(38/776)

في سورة المؤمنين فذلك خلقه» .

6 بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ : مصدر ، مثل : الفتون وهو الجنون بلغة قريش «1» ، كما يقال : ما به معقول وليس له مجلود «2» .

10 مَهِينٍ : وضيع بإكثاره من الفساد «3» .

13 عُتُلٍّ : قويّ في خلقه ، فاحش في فعله «4» . وسئل عنه النّبي صلى اللّه عليه وسلم فقال «5» : «الشّديد الخلق ، الرحيب الجوف ، الأكول ، الشّروب ، الظّلوم للنّاس» . والوقف على «عتل» «6» ، ثم بَعْدَ ذِلكَ زَنِيمٍ ، أي : مع ذلك كلّه زنيم «7» معروف بالشر كما يعرف التيس بزنمته «8» .

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 477 ، وتفسير الطبري : 29/ 20 .

(2) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 377 ، وقال : أي : جلادة وعقل» .

وفي تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 478 : «ليس له معقول – أي عقل – ولا معقود ، أي رأي» .

وانظر تفسير الطبري : 29/ 20 ، والكشاف : 4/ 141 ، وتفسير القرطبي : 18/ 229 .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 478 ، وتفسير الماوردي : 4/ 280 ، وتفسير البغوي :

4/ 377 ، وتفسير القرطبي : 18/ 231 .

(4) تفسير الطبري : 29/ 24 ، وتفسير القرطبي : 18/ 233 .

(5) أخرج – نحوه – الإمام أحمد في مسنده : 4/ 227 عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم عن النبي صلى اللّه عليه وسلم .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 247 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم مرفوعا .

(6) الوصل أولى من الوقف في هذا الموضع . وذكر العلماء أن الوقف التام على زَنِيمٍ آخر الآية ، ويبتدأ بقوله تعالى : أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ .

ينظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري : 2/ 943 ، والقطع والائتناف للنحاس :

736 ، والمكتفي للداني : (581 ، 582) .

(7) قال الفراء في معانيه : 3/ 173 : «و الزنيم : الملصق بالقوم ، وليس منهم ، وهو الدعي» .

(8) قال ابن الأثير في النهاية : 2/ 316 : «هي شيء يقطع من أذن الشاة ويترك معلقا بها ، وهي أيضا هنة مدلّاة في حلق الشّاة كالملحقة بها» .

(39/776)

---

14 أَنْ كانَ ذا مال فيه حذف وإضمار ، أي : ألأن كان ذا مال تطيعه أو يطاع «1» ؟ ! .

16 سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ نقبّح ذكره بجزي يبقى عليه . في الوليد «2» بن المغيرة .

19 فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ طارق «3» . خرجت عنق من النّار في واديهم «4» .

20 كَالصَّرِيمِ كالرّماد الأسود «5» .

23 يَتَخافَتُونَ يسارّ بعضهم بعضا لئلا يسمع المساكين .

25 عَلى حَرْدٍ : منع وغضب «6» .

26 إِنَّا لَضالُّونَ : ظللنا الطّريق فما هذه جنّتنا .

[101/أ] 28 لَوْلا تُسَبِّحُونَ : تستثنون «7» إذ كلّ/ تعظيم للّه تسبيح «8» .

---

(1) ورد هذا المعنى على قراءة حمزة ، وعاصم في رواية شعبة : أأن كان ذا مال بالاستفهام بهمزتين .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 646 ، وتفسير الطبري : 29/ 27 ، ومعاني الزجاج : 5/ 206 ، وإعراب القرآن للنحاس : 5/ 10 .

(2) تفسير الماوردي : 4/ 280 ، وغرائب التفسير للكرماني : 2/ 1237 ، وزاد المسير :

8/ 331 .

(3) تفسير الطبري : 29/ 30 .

(4) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 284 عن ابن جريج .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 284 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 379 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 336 .

[. . . . .]

(6) مجاز القرآن : 2/ 265 ، وتفسير غريب القرآن : 479 ، ومعاني الزجاج : 5/ 207 ، والمفردات للراغب : 113 .

(7) أي تقولوا : إن شاء اللّه ، كما في تفسير الطبري : 29/ 35 ، ومعاني القرآن للزجاج :

5/ 209 ، وزاد المسير : 8/ 335 .

قال ابن الجوزي : «قاله الأكثرون» .

(8) معاني الزجاج : 5/ 209 ، وزاد المسير : 8/ 338 .

(40/776)

---

31 فقالوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ قال عمرو «1» بن عبيد : ما أدري أكان هذا إيمانا منهم أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشّدائد .

40 زَعِيمٌ : كفيل «2» .

42 يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ : غطاء «3» . وقيل «4» : عن شدة وعناء . وفي الحديث «5» : «يخرّ المؤمنون سجّدا ويبقى الكافرون كأنّ في ظهورهم السّفافيد» «6» .

---

(1) لم أقف على هذا القول منسوبا إلى عمرو بن عبيد ، ونقله القرطبي في تفسيره : 18/ 345 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 313 عن الحسن رحمه اللّه .

قال الفخر الرازي في تفسيره : 30/ 91 : واختلف العلماء هاهنا ، فمنهم من قال إن ذلك كان توبة منهم ، وتوقف بعضهم في ذلك ، قالوا : لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه رغبة منهم في الدنيا» .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 177 ، وتفسير الطبري : 29/ 37 ، ومعاني الزجاج :

5/ 210 ، والمفردات للراغب : 213 ، واللسان : 12/ 266 (زعم) .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 286 عن الربيع بن أنس .

(4) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 481 ، وأخرجه الطبري في تفسيره (29/ 38 ، 39) عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم : 3/ 27 : «فسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث «الساق» هنا بالشدة ، أي : يكشف عن شدة وأمر مهول» .

(5) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 40 عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه .

وأخرجه أيضا الطبراني في المعجم الكبير : 9/ 414 حديث رقم (9761) ، والحاكم في المستدرك : 4/ 598 ، كتاب الأهوال ، وفي إسناده أبو الزعراء ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وتعقبه الذهبي بقوله : قلت : ما احتجا بأبي الزعراء .

والحديث أورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 259 وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في «البعث والنشور» كلهم عن ابن مسعود

رضي اللّه تعالى عنه .

(6) جمع «سفود» : حديدة ذات شعب معقفة يشوى بها اللحم .

اللسان : 3/ 218 (سفد) .

(41/776)

---

43 وَهُمْ سالِمُونَ يسمعون النّداء فلا يأتونه «1» .

44 سَنَسْتَدْرِجُهُمْ نستدرجهم أعمارهم وإن أطلنا [ها] «2» إلى عقابهم .

والاستدراج : الأخذ على غرّة «3» .

48 وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ في العجلة والمغاضبة «4» .

و «المكظوم» : المحبوس على الحزن فلا ينطق ولا يشكو «5» ، من «كظم القربة» .

51 لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ : يعينوك بها حتى تزلق قدمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 828.832 ﴾

---

(1) ينظر تفسير الطبري : 29/ 43 .

(2) في الأصل «اطلنا» ، والزيادة من «ك» و «ج» والعبارة هناك :

«نستدرج أعمارهم وإن أطلناها إلى عقابهم» .

(3) اللسان : 2/ 268 ، وتاج العروس : 5/ 560 (درج) .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 178 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 342 عن قتادة ، وانظر تفسير القرطبي : 18/ 253 .

(5) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 288 عن ابن بحر ، وانظر المفردات للراغب : 432 ، وتفسير القرطبي : 18/ 253 . [. . . . .]

(42/776)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة القلم

عدد 2- 68 وتسمى سورة نون

نزلت بمكة بعد سورة العلق عدا الآيات من 17 الى 33 و48 الى 50 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي اثنتان وخمسون آية وثلاثمائة كلمة ، والف ومائتان وستة وخمسون حرفا .

ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدأت به .

لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

ومثلها في عدد الآي (الحاقة) (وابراهيم) فقط .

بسم اللّه الرحمن الرحيم

«ن» هو حرف من حروف الهجاء المعجمة واللّه أعلم بمراده فيه وقد ذكرنا ما يتعلق فيه في بحث الإرهاص في المطلب الثاني عشر المار وسنبحث في المراد منه على ما يتوصل إليه عقل البشر في سورة ق الآتية إذ لا يوجد في القرآن غير هاتين السورتين سورة بدئت بحرف معجم واسم للحوت الذي بلع سيدنا يونس عليه السلام ولهذا سمي ذا النون ، ويأتي بمعنى الدواة قال الشاعر :

إذا ما الشوق برّح بي إليهم الفت النون بالدمع السجام

وقال ابن عباس هو حرف من حروف الرحمن وأول أسماء اللّه نافع وناصر ونصير واسم للسورة .

ويوقف عليه بالقراءة ومع السكون ويجوز إدغامها بواو .

مطلب في القلم وما جرى به وأحاديث قيمة «وَالْقَلَمِ» الذي كتب الذكر في اللوح المحفوظ واللّه أعلم بصفته ولا داعي لبيانه .

قيل أول ما خلق اللّه القلم فنظر اليه فانشق لهيبته نصفين ثم قال له اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى بذلك على اللوح .

والناس يجرون على أمر قد فرغ منه .

وروي عن عبد اللّه بن عباس قال : كنت خلف النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوما فقال يا

غلام إني أعلمك كلمات (وفي رواية مسلم زيادة ينفعك اللّه بهن) : احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل اللّه وإذا استعنت فاستعن باللّه ، واعلم ان الأمة لو اجتمعت

(43/776)

على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وفي رواية : احفظ اللّه تجده أمامك تعرف إلى اللّه بالرخاء يعرفك بالشدة واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا .

ولهذا البحث صلة في الآية 17 من سورة الأنعام ج 2 .

وفي الآية 41 من سورة الرعد ج 3 .

فراجعها .

وبعد أن ابتدأ جل ثناؤه في هذه السورة بهذا الحرف الذي هو رمز بينه وبين حبيبه أقسم فقال «وَالْقَلَمِ» الجاري بما كان وما يكون «وَما» وأقسم ايضا بالذي «يَسْطُرُونَ 1» أي

تسطره ، حفظته من أعمال الخلق ويدونونه بكتبهم ، أو باللوح الذي سطرت عليه أعمالهم إذا كان الضمير عائدا إلى القلم وجمع الضمير تعظيما لشأنه وعبر عنه بضمير العقلاء لقيامه مقامهم ولذا جعله فاعلا «ما أنت» يا أكمل الرسل «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» التي منّ بها عليك وهي النبوة والرسالة «بِمَجْنُونٍ 2» بطائش كما يزعم جهلة قومك فاشكر هذه النعمة ولا تكدر جنانك بما يقولون وعاملهم بما أنت عليه ، وهذه الجملة جواب القسم وفيها تنبيه على كذب قومه فيما رموه به من الجنّة لأنهم لا يعقلون ان من أكرمه اللّه بالنبوة لا يكون إلا كاملا في جميع الأوصاف فكيف يكون مجنونا «وَإِنَّ لَكَ» عندنا «لأجرا» عظيما لا يقدر البشر قدره «غَيْرَ مَمْنُونٍ 3» به عليك والمنة لا تكدره كامل غير منقوص دائم غير مقطوع وقد زيدت اللام في (لأجرا) تأكيدا بتحققه كما زيدت الباء في (بمجنون) تأكيدا للنفي أي فاستمر على تحمل أذاهم وجفاهم واصبر على طعنهم وتحقيرهم واجر على الحق الذي أنت عليه ولا يمنعك ما يفترون به عليك من جراء تبليغ الرسالة لأنه كذب محض وافتراء ومنشؤه الحسد على ما منّ به عليك ربك دونهم «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 4» لا أعظم منه بدليل التنكير والوصف يسع جهلهم وغيرهم وهو خير ما أوتي الرجل ، لأن حسن الخلق جامع لمحاسن الأفعال ، قالت عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها : ما كان

أحد أحسن خلقا من رسول اللّه ، ما دعاه أحد إلا قال لبيك فأنزل اللّه عليه هذه الآية وكان متحليا بأحمد الأخلاق وأرضى الأفعال وأكمل الآداب .

مطلب أخلاق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم كيف لا وقد تأدب بتأديب اللّه عز وجل المبين بقوله الكريم (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ) الآية 198 من الأعراف الآتية ولهذا فإنه كان متحليا بكثير من صفاته تعالى كالحلم والعفو والرأفة والرحمة والكرم والعلم وغيرها جاء في حديث مسلم وأبي داود والنسائي والإمام أحمد وغيرهم عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول اللّه قالت ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى .

قالت : فإن خلق نبي اللّه كان القرآن .

وفي رواية ابن المنذر وغيره عن أبي الدرداء أنه سألها عن خلقه صلّى اللّه عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه .

قال العارف باللّه المرصفي أرادت تخلقه بأخلاق اللّه لكنها لم تصرح تأدبا .

وروى البخاري ومسلم عن البراء قال كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ليس بالطويل ولا بالقصير .

ورويا عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال ان رسول اللّه لم يكن فاحشا ولا متفحشا وكان

يقول خياركم أحاسنكم أخلاقا .

ورويا عن أنس قال : خدمت النبي صلّى اللّه عليه وسلم عشر سنين واللّه ما قال لي أف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا زاد الترمذي وكان صلّى اللّه عليه وسلم من أحسن الناس خلقا وما مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول اللّه ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وروى مسلم عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول اللّه عن البر والإثم فقال : البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

ولقد قالوا الإثم خراز القلوب لأن الإنسان إذا فعل شيئا غير مشروع لا بد وأن يتردد ذلك في صدره المرة بعد الأخرى حتى يعرف ماهيته ، فاذا منّ اللّه عليه رجع عما فعل واستغفر اللّه ، وإذا أراد أن يستدرجه والعياذ باللّه سلط على قلبه الشيطان فحسنه له فطبع على قلبه .

حفظنا

(45/776)

اللّه وأجارنا من ذلك .

وروى البخاري عن أنس قال : ان كانت الأمة لتأخذ بيد رسول اللّه فتنطلق به حيث شاءت أي ليقضي لها ما تريده في الحوائج ، فاذا كان مع الأمة هكذا فكيف هو مع الغير ؟ وفقنا اللّه لاتباعه وطبعنا بطباعه ، كيف لا وقد قال تعالى (فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) الآية 195 من آل عمران في ج 3 .

وفي رواية زيادة :

ويجيب إذا دعي .

وعنه قال .

كان رسول اللّه إذا استقبله الرجل فخافه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ولم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليس .

أخرجه الترمذي .

وروى مسلم عن الأسود قال : سألت عائشة ما كان رسول اللّه يفعل في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة (خدمة) ، أهله فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة .

ورويا عن أنس قال كنت أمشي مع رسول اللّه وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه جبذة (جذبه جذبة) شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول اللّه قد

أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال يا محمد مر لي من مال اللّه الذي عندك ، فالتفت اليه وضحك وأمر له بعطاء ورويا عنه قال : كان صلّى اللّه عليه وسلم أحسن الناس خلقا ووجها وكان لي أخ يقال له أبو عمير وكان فطيما كان إذا جاءنا قال يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به (طائر صغير يشبه العصفور إلا أن منقاره أحمر) ورويا عن عائشة قالت ما خيّر رسول اللّه بين أمرين قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما فان كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه من شيء قط إلا أن تنتهك حرمة اللّه .

(أي للّه) زاد مسلم : وما ضرب رسول اللّه شيئا بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل اللّه .

وفي متن الشمائل للحافظ الترمذي . . .

عن عائشة قالت : ما رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم اللّه شيء . . .

.

وروى جابر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال ان اللّه بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال .

وعن عائشة قالت سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم .

أخرجه أبو داود .

وعنها قالت قال صلى اللّه عليه وسلم ان من أكمل الناس إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله .

أخرجه الترمذي .

وعن أبي الدرداء أن رسول

اللّه قال ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيمة من خلق حسن ، وان اللّه تعالى يبغض الفاحش البذيء .

أخرجه الترمذي أيضا .

وله عن جابر أن رسول اللّه قال ان من أحبكم إلى اللّه وأقربكم مني مجلسا يوم القيمة أحاسنكم أخلاقا .

ولهذا كان صلى اللّه عليه وسلم إذا أمر أمر بمعروف وإذا نهى نهى بمعروف راجع قوله تعالى (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) إلى آخر الآيات في سورة النحل في ج2 .

تجد ما يتعلق في هذا البحث وبه كفاية والا لو كتبت لآخر حياتي عن أخلاقه ما وفيت بها قال تعالى «فَسَتُبْصِرُ» يا محمد ظهورك ونصرتك عليهم «وَيُبْصِرُونَ 5» أي يرى مكذبوك خذلانهم وإنزال العذاب بهم وإذ ذاك يعلمون «بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ 6» المجنون الطائش هم أم أنت وهذا من الأخبار بالغيب الذي حققه الله له فيهم في واقعة بدر ، وكانوا لوثوقهم بصدقه فيما بينهم إذا سمعوا منه شيئًا يرسخ في قلوبهم ويخافون عاقبته فاذا أوعدهم أو وعدهم لا يزالون يرتقبون وقوعه ولكن عنادهم وحسدهم وتعاظمهم عليه حال دون طاعتهم له «إِنَّ رَبَّكَ» يا حبيبي «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» المستقيم الحق من كفار مكة واضرابهم الضالين «وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ 7» من خلقه أنت وأمثالك وأتباعك «فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ 8» لك الذين يدعون إلى دين آبائهم الفاسد .

نزلت هذه الآية حينما كلفه كفار مكة عبادة أصنامهم ليكفوا عن أذاه فقال له ربه «وَدُّوا» هؤلاء الكفار «لَوْ تُدْهِنُ» تلين لهم في قولك وفعلك وتوافقهم على طلبهم من داهن الرجل في دينه وأمره إذا خان فأظهر خلاف ما يبطن كالمنافق «فَيُدْهِنُونَ 9» يلينون لك ويصيرون معك فيصافونك ويتقربون إليك ، فإياك إياك يا حبيبي احذرهم .

مطلب في الأوصاف الذميمة والنميمة .

«وَلا تُطِعْ» منهم «كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ 10» حقير ذليل كذاب ولا تطع الآخرين أمثالهم أيضا

لأنهم لا يريدون لك مثل ما تريد لهم من الخير ، والمهانة تعتري الإنسان من قلة الرأي والتمييز وكثرة الكذب وعدم المبالاة بما يقع منه

(47/776)

وعليه ، والمراد به واللّه أعلم الوليد بن المغيرة لقول ابن قتيبة : لا نعلم أن اللّه وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة .

يريد ما وصفه اللّه به في هذه الآية ، وقيل هو الأسود ابن يغوث أو الأخنس بن شريق والأول أولى وكلهم يستحق ذلك

«همّاز» عياب طعان يغمز على إخوانه في المجلس وسيأتي تفسير هذه اللفظة بأوسع مما هنا في تفسير سورة الهمزة الآتية «مشّاء» كثير المشي «بِنَمِيمٍ 11» أي نقّال للحديث السّيء ، راجع الآية/ 11/ من سورة الحجرات في ج 3 ، تجد ما يتعلق بهذا البحث .

تراه دائما يسعى بالنميمة ليفسد بين الناس ويبلغهم طعن الغير بهم ويعيبهم ليفسد بينهم وهو مع هذا كله «منّاع» كثير المنع «للخير» لا يفعله ولا يترك الغير يفعله «معتد» على الناس مجاوز في الظلم حده «أثيم 12» كثير الإثم عظيم الوزر فاجر باغ طاغ عات بخيل ، يمنع

نفسه وولده وعشيرته من أفعال الخير ، ومن الإسلام والإيمان ، ويهددهم ان دخلوا فيهما ، ويندد لهم بعدم لفظه ، وبأن ما يخبرهم به الرسول من الحشر والنشر لا حقيقة له .

قاتله اللّه ، وأطلقوا لفظ الإثم على الخمر بعد الإسلام لما فيه من الضرر ، قال ابن الفارض :

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما شربت التي في تركها عندي الإثم

إلا أن هذا الإطلاق لم يعرف قبل الإسلام البتة فلا يستدل ، على أنه في معانيها أو من سماتها كما نوضحه في تفسير الآية 32 من الأعراف الآتية «عتل» غليظ جاف فاحش سيىء الخلق ، شديد الخصومة في الكفر وهو «بعد ذلك» الذي وصف به من المثالب والمعايب «زَنِيمٍ 13» دعيّ ملصق في قريش إذ ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من عمره وكانت له زنمة «قطعة لحم زائدة معلقة» في عنقه ، وتطلق هذه اللفظة على ابن الزنا ، قال حسان رضي اللّه :

زنيم تداعته الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وقال عكرمه :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم

وهذا الخبيث إنما حدا به ذلك بسبب «أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ 14» غرورا منه فأعرض يا حبيبي عنه ولا تركن اليه ، فإن كثرة ماله وولده لا تغني عنه من اللّه شيئا ، وان اللّه كافيك شره وولده ومغنيك عن ماله ونسبه ، ولهذا تراه «إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا» المنزلة عليك «قال» هي «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ 15» خرافاتهم وأقاويلهم وانا «سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ 16» الأنف منه وهذا أعيب ما يكون عند العرب حتى انهم إذا هددوا رجلا يقولون : (لنقطعن أنفك) وقد نهى عنه صلى اللّه عليه وسلم في الحيوانات ولعن فاعله فكيف بالإنسان وبأكرم موضع منه لأنه تمام الحسن وقيل فيه :

وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطل فكيف إذا ما الخال كان له حليا

وهو مكان العزة والأنفة قال جرير :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

ويقولون فلان شامخ الأنف عالي العرنين ، وفي الذليل جدع أنفه رغم أنفه ، والوسم الكي بالنار إذ لا يذهب أثره على مر السنين ، وهذا أول الآيات المدنيات من 17 إلى 33 كما حكاه السخاوي في جمال القراء وهي عبارة عن قصة قصها اللّه على رسوله عظة لقومه قال تعالى «إِنَّا بَلَوْناهُمْ» أي أهل مكة اختبرناهم بالقحط والجوع امتحانا لهم علّهم يؤمنون حتى أكلوا الجيف والجلود وذلك بسبب دعائك عليهم إذ قال ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، وذلك بعد أن أنعم عليهم بكثرة الأموال والأولاد

وجمع كلمتهم بوجوده فيهم وعزّز نعمهم بإرساله إليهم وهي أكبر نعمة لو قدروها كما سيأتي في تفسير الآية 28 من سورة ابراهيم في ج 2 فبدل أن يشكروا ذلك كفروا وتمادوا بالكفر والأذى لحضرته فكأنه قال تعالى لقد كان ابتلاؤنا لهم «كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ» أي كامتحاننا واختبارنا أهل البستان المسمى القروان دون صنعاء بفرسخين وهم جماعة مصلّون قيل انهم من ثقيف وقيل من بني إسرائيل بعد رفع المسيح ت (6)

(49/776)

عليه السلام ، وكانت هذه القصة معروفة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف بدليل التعريف فيها المعهود ذهنا ، وكانت لأبيهم وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء فلما انتقلت إليهم بعد موته قالوا إن فعلنا مثل أبينا ضاق علينا الأمر لأنا أولو عيال ، فحكى اللّه عنهم ما تذاكروا به بينهم بقوله جل قوله :

«إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها» يقطعون ثمرها «مُصْبِحِينَ 17» قبل خروج الناس من بيوتهم حتى لا يراهم أحد يستعطيهم منها «وَلا يَسْتَثْنُونَ» أي لم يقولوا إن شاء اللّه أيضا «فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ» أي طرأ عليها طارئ ليلا لأن الطائف كالطارق لا يكون إلا ليلا ، وهذا الطائف لا يرد لأنه «مِنْ رَبِّكَ» يا رسولي ولا رادّ لما أريده ، وذلك بأن أرسل عليها نارا أحاطت بها

فأحرقتها كلها «وَهُمْ نائِمُونَ 19» قبل أن يفيقوا ويأتوا إليها «فَأَصْبَحَتْ» تلك البستان الغزيرة بالأشجار والثمار «كَالصَّرِيمِ 2» أي كالرماد الأسود على لغة خزيمة ومن كثرة الدخان كالليل المظلم ، والصريم كناية عن البستان الذي صرمت أي قطعت أثماره كلها بحيث لم يبق فيها شيء .

ورملة باليمن معروفة لا تنبت شيئا أي كأنها لم يكن فيها شيء من نبات ما ، قال تعالى واصفا حالهم فيما جاؤوا إليها

«فَتَنادَوْا» نادى بعضهم بعضا بعد أن أفاقوا من نومهم «مُصْبِحِينَ 21» صبحة الليلة التي تحالفوا فيها قائلين لبعضهم «أَنِ اغْدُوا» اخرجوا غدوة «عَلى حَرْثِكُمْ» جنتكم لقطع ثمارها وقسمتها بينكم «إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ 22» عازمين على ما تقاولتم عليه من قصد قطف ثماركم قبل أن يحضركم أحد «فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ 23» يتسارون همسا لئلا يحس بهم أحد قائلين بعضهم لبعض امضوا أو اجزموا على «أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ) 24» أبدا فيسألكم منها كما كان الحال زمن أبيكم فيأخذوا ما يفضل عن قوت سنتكم «وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ 25» بزعمهم على ما صمموا عليه من القصد والمنع على اجرائه وان لا يحول بينهم حائل عنه ولم يزالوا سائرين حتى قاربوها «فَلَمَّا رَأَوْها» أرضا سوداء رمداء لا شجر

ولا نبات فيها ولا ماء «قالوا» بعضهم لبعض «إِنَّا لَضَالُّونَ 26» طريقها مخطئونه فليست هي هنا فلما تحققوا قالوا لا بل هي نفسها «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ 27» ثمرها وخيرها ونفعها لتصميمنا على منع المساكين ما كانوا يأخذونه زمن أبينا ولعدم استثنائنا في حلفنا أي لم نقل إن شاء اللّه متصلا بكلامنا ذاك ولما رأوا ان سقط في أيديهم «قال أوسطهم» أعقلهم وأفضلهم واعدلهم لأن الأوسط خيار في كل شيء «ألم أقل لكم» يا اخوتي هلا «لَوْلا تُسَبِّحُونَ 28» أي تستثنون في حلفكم وقد سمى الاستثناء تسبيحا لأنه تعظيم للإله واقرار بأن أحدا لا يقدر أن يفعل شيئا دون مشيئته «قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ 29» أنفسنا بمنعنا حق الفقراء وعدم سلوكنا ما كان يسلكه أبونا من القناعة بمؤنة السنة وانفاق الباقي لوجهه «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ 30» على ما وقع منهم نادمين على فعلهم

ثم دعوا على أنفسهم «قالُوا يا وَيْلَنا» يا هلاكنا «إِنَّا كُنَّا طاغِينَ 31» في ذلك القصد السيء ومخالفتنا عمل أبينا الحسن وحرماننا من جنتنا لتصميمنا على حرمان الفقراء منها .

ثم تراجعوا إلى أنفسهم بعد أن عنف بعضهم بعضا وسألوا اللّه تعالى بقولهم «عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ 32» طالبون الخير منه راجعون لعفوه ، قال مجاهد

تابوا فأبدلوا خيرا منها ، وقال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا للّه فأعطوا جنة تسمى الحيوان فيها عنب يحمل البغل عنقودا واحدا منه ، قال تعالى «كَذِلِكَ الْعَذابُ» الذي نفعله بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا بمن تقدم من الأمم نفعله بكم يا أمة محمد إذا لم ترجعوا عن غيكم فإنا نحرمكم من النعم في الدنيا «وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ» الموعودون به «أَكْبَرُ» من هذا لأنه فان منقطع وذاك باق دائم «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ 33» ما هو لأنه فوق ما تتصوره عقولهم .

هذا آخر الآيات المدنيات وقد نزلت بالمدينة بمناسبة ذكر قريش وما كانوا يفعلونه بالرسول الأعظم ، واعلم على سبيل الفرض والتقدير بأنك إذا طويتها وقرأت ما بعدها متصلا بما قبلها لاستقام النظم لأن هذه

القصة كالمعترض التي يؤتى بها استطرادا بين كلامين غير أنه لا يجوز طي حرف واحد من القرآن أبدا ، وهكذا كل الآيات المدنيات في السور المكية كالآيات المكيات في السور المدنية ، فتدبر هذا الكتاب العظيم وانظر مغزى قوله تعالى :

(وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) الآية 82 من سورة النساء في ج 3 .

وسبب نزولها أن أبا جهل قال يوم بدر لأصحابه خذوا أصحاب محمد فاربطوهم بالحبال

ولا تقتلوا منهم أحدا يقول اللّه تعالى ان ما صوره من قدرتهم عليهم كما صور أهل الجنة اقتدارهم على قطف ثمارها توبيخا لهم قال تعالى «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ 34» جزاء عملهم بالدنيا .

ولما سمع المشركون هذه الآية قالوا سنعطى في الآخرة إن كان هناك آخرة أفضل مما يعطى أصحاب محمد فكذبهم اللّه بقوله «أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ 35» استفهام انكاري أي لا نفعل ذلك لأن التسوية بينهم غير جائزة فكيف يعطون أفضل وكيف نحيف بالحكم ونحن أعدل الحاكمين ونأمر عبادنا بالعدل .

ثم قال استنكارا واستبعادا لحكمهم المعوج «ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ 36» وهذا استفهام آخر بمعنى التعجب من قولهم الناشئ عن فساد رأيهم وضلال فكرهم لأن حكمهم هذا لا يصدر عن عاقل قال تعالى «أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ 37» تقرءون فتعلمون منه «إِنَّ لَكُمْ فِيهِ» أي الكتاب «لَما تَخَيَّرُونَ 38» من مأربكم وتشتهونه من آمالكم «أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ» موثقة بالعهود ومؤكدة بالحلف عاهدناكم بها على ان نعطيكم ما ذكرتم فاستوثقتم بها «إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ» لا تقطع أبدا «إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ 39» لأنفسكم في هذا الميثاق من الخير والكرامة ثم خاطب نبيه بقوله «سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ 40» كفيل بأن لهم ما للمسلمين في الآخرة

«أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ» يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم منه أم لهم شهداء يشهدون

بصدق دعواهم هذه فاذا كان لديهم شيء من ذلك «فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ» الذين يزعمون أن لهم تلك القدرة على ما يقولونه

(52/776)

«إِنْ كانُوا صادِقِينَ 41» في زعمهم والمعنى لا يسلم لهم أحد هذا القول ولا يساعدهم عليه أحد كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ولا عهد ولا كفيل وإذا كان عندهم شيء من ذلك فليحضروه «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ» عن أمر فظيع يوم يشتد الكرب ويصعب الأمر وقد كنّى بالساق عن يوم القيامة لشدة هولها .

مطلب معنى الساق :

وقال بعض المفسرين إن الساق في السريانية الهزل ونقل بعضهم أنها عربية في هذا المعنى أيضا إلا أن معنى الآية لا ينطبق عليه وما جرينا عليه في تفسير الساق أولى من غيره لأن ابن عباس لما سئل عن معنى هذه الآية قال هو يوم كرب وشدة وإذا أخفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر :

سنّ لنا قومك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

فان العرب لتقول عند الشدائد شمر عن ساقك ، وقال أبو عبيدة لقيس بن زهير :

فإن شمرت لك عن ساقها فدتها ربيع ولا تسأم

وقال جرير :

ألا ربّ ساهي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمّوا

وكثر هذا المثل عند العرب حتى صار كالمثل السائر للأمر العظيم قال تعالى :

«وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ» الذي أمروا به في الدنيا (في ذلك اليوم المهول) ولم يفعلوه مع قدرتهم عليه «فَلا يَسْتَطِيعُونَ 42» عليه إذ تصير أصلابهم كصياصي (قرون) البقر لا تثنى عند الخفض والرفع فيعجزون عنه ولا يقدرون عليه «خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ» مطرقة إلى الأرض من شدة الخوف المحيط بهم أمره وإذ ذاك «تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» تغشاهم حينما تسود وجوههم وتستنير وجوه المؤمنين «وَقَدْ كانُوا» في الدنيا «يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ» فيسمعون داعي اللّه إلى

(53/776)

الصلاة ولا يجيبونه ليركعوا ويسجدوا له «وَهُمْ سالِمُونَ 43» أصحّاء قادرون عليه ولا يفعلونه فلذلك منعوا منه في الآخرة لأنها ليست محلا للعبادة «فَذَرْنِي» يا حبيبي «وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ» القرآن الذي نطرفك به آونة بعد أخرى وسمي حديثا بالنسبة

لحدوث انزاله وإلا فهو قديم أزلي ، أي دعني وهذا المكذب ، كله إليّ فأنا أكفيكه ولا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علي بالانتقام منه ، وهذا تسلية لحضرة الرسول وتطمينا لضميره وتطبيبا لخاطره الشريف وتهديدا للمكذبين العائد لهم ضمير «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ» نستدنيهم للعذاب درجة درجة ونستنزلهم له أولا بأول حتى نورطهم فتوقعهم فيه بما كسبت أيديهم وذلك ان اللّه تعالى يرزق العصاة أحيانا ويكثر نعمه عليهم فيجعلون هذه ذريعة لارتكاب المعاصي ويغفلون عما يراد بهم فيأخذهم على غرة «مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ 44» أن اللّه لهم بالمرصاد لأنهم كلما ازدادوا من الذنوب جدّد لهم النعم فيغروا بها فينسون التوبة والاستغفار والشكر ويحسبون ذلك تفضيلا لهم على المؤمنين فيسبب هلاكهم ، قال عليه الصلاة والسلام : (إذا رأيت اللّه ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج) وتلا هذه الآية .

مطلب النسخ لا يدخل الأخبار والوعد والوعيد :

ولا معنى للقول بنسخها بآية السيف وكذلك آية (واصبر) الآتية لأنهما من الأخبار والأخبار لا يدخلها النسخ وكذلك الآيات المشتملة على الوعد والوعيد وما فيه معنى التعجيل كقوله تعالى (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا) الآية 109 من سورة البقرة في ج 3 بإجماع علماء التفسير قال تعالى «وَأُمْلِي لَهُمْ» فأمتعهم بالنعم وأطيل أعمارهم وامهلهم فلا أعجّل عليهم «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ 45» قوي جدا لا يقدر الخلق على نقضه وليعلم ان ما جاء في القرآن من

ألفاظ الكيد والمكر والخداع والنسيان من قبل اللّه تعالى عز وجل هي على سبيل المقابلة لأن ذاته تعالى منزهة عنها وقد أجريتها علي ظاهرها لمعلوميتها وقد آتي بما يراد منها لفظا أو معنى تقريبا لفهم القارئ

(54/776)

قال تعالى «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً» على تبليغ الرسالة لهم وإرشادك إياهم «فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ 46» لا يستطيعون حمل تلك الغرامة المالية حتى يمتنعوا من الإيمان بك ويعرضوا عنك كلا لا تطلب منهم شيئا ، فكان اعراضهم عنك عنادا وتكبرا ليس إلا ، وهذه الجملة معطوفة على جملة (أم لهم شركاء) المارة «أم عندهم الغيب» بما هو باللوح المحفوظ لدينا «فَهُمْ يَكْتُبُونَ 47» منه ما يحكمون به ويستغنون عن علمك ، وهذا الاستفهام على طريق الإنكار أي ليس لهم ولا عندهم شيء من ذلك .

وهذه الآيات المدنيات الأخيرة من 48 إلى 50 النازلة في واقعة أحد مع الآيات 122 فما بعدها من آل عمران في ج 3 كما سنبينه هناك ، قال تعالى «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ» على أذى قومك وامهلهم «وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ» السيد يونس عليه السلام في الضجر والعجلة فتبتلى كما ابتليناه .

مطلب معنى الكيد والمكر والآيات المدنيات الأخر :

واذكر «إِذْ نادى» ربه وهو في بطن الحوت الذي ابتلعه عقوبة استعجاله أمر ربه باهلاك قومه وغضبه لرفع العذاب عنهم وقد تركهم وذهب «وَهُوَ مَكْظُومٌ 48» ممتلىء غيظا واعلم أنه «لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ» بإلهامه التوبة والندم واجابة دعائه الذي الهمناه إياه وهو في بطن الحوت كما سيأتي في الآية 88 من سورة الأنبياء ج 2 وقبول عذره الذي اعتذر به الآتي أيضا هناك «لَنُبِذَ بِالْعَراءِ» بفضاء من الأرض ولم ننبت عليه ما يقيه من الشمس والهواء مع ما هو عليه من الضعف الذي لحقه في بطن الحوت «وَهُوَ مَذْمُومٌ 49» على ما وقع منه معاتب بما فعله مؤاخذ بزلّته ، ولكن تداركته الرحمة فأنبت عليه ما أظله ووقاه ، وحميته من كافة الهوام والوحوش كما حميته في بطن الحوت ولهذا فلم ينبذ مذموما ، واعلم أن ما وقع منه يعد ذنبا بالنسبة لمقامه على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين وإلا فهو بالنسبة لغيره عبارة عن خلاف الأولى وليس بذنب

(55/776)

ويماثل هذه الآية الآية 24 من سورة يوسف في ج 2 وهي : (لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ) أي لهمّ ولكنه لم يهم لوجود البرهان كما سيأتي تفصيله هناك ، ولهذا البحث صلة في تفسير

الآية 146 من سورة الصافات في ج 2 فراجعه ، قال تعالى «فَاجْتَبَاهُ» اصطفاه واختاره «ربّه» ورد عليه حالته الأولى من الصحة والعافية والنبوة والرسالة «فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ 50» الكاملين في الصلاح ومحى زلته وما قيل أن هذه الحادثة كانت قبل النبوة مردود بقوله تعالى في الآية 140 من سورة الصافات المذكورة «وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ»

وهذه آخر الآيات المدنيات وسبب نزولها أن حضرة الرسول أراد أن يدعو على الذين انهزموا في واقعة أحد السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال سنة 56 من الولادة الشريفة إذ اشتد بالمسلمين الأمر فنزلت تذكيرا لحضرته بما وقع للسيد يونس عليهما الصلاة والسلام وهي أيضا كالمعترضة كما ذكرناه في تفسير الآية 33 المارة فراجعها ،

قال تعالى «وَإِنْ» مخففة من الثقيلة والفرق بينها وبين أن النافية أنّ أن النافية لا يعقبها اللام والمخففة لا بد أن يعقبها ولذلك يسمونها اللام الفارقة «يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ» بضم الياء وفتحها أي يزلّون قدمك ليرموك وقرأ بن عباس والأعمش وعيسى ليزهقونك أي يهلكونك وهي كالتفسير وليست من القرآن كما ذكرنا لك في المطلب العاشر في بحث القراءات «بأبصارهم» بشدة نظرهم إليك بها سزرا بعين العداوة فيكادون يصيبونك بأعينهم ، روي أن بني أسد كانوا عيّانين حتى أن الناقة أو البقرة إذا مرت بهم يعاينونها ثم يقولون لجارتهم خذي المكتل والدراهم وآتينا بلحم منها فما تبرح حتى تقع فتنكسر أو ترض فتذبح ، وكان الرجل منهم يتجوع يومين أو ثلاثة فلا يمر به شيء إلا ويقول لم أر مثله

ليعيبه فيهلك ، فكلفوا هذا الرجل أن يصيب الرسول بالعين وصارت قريش تقول كلما مر الرسول ما رأينا مثله قط بذلك القصد وليصرفوه عن القيام بما أمره به ربه فعصمه اللّه منهم ولم يستطيعوا بوجه من الوجه أن يصرفوه عن تبليغ رسالته وانزل هذه الآية

(56/776)

«لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ» القرآن العظيم لكرامتهم إياه «وَيَقُولُونَ» عند سماعه منه «إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ 51» لجهلهم حقيقته ولتنفير الناس عنه فرد اللّه عليهم بقوله الأزلي «وَما هُوَ» الذي تصفون به رسولي بالجنة لقراءته لكم إن هو «إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ 52» أجمع يتذكرون به ما وقع على الأمم السابقة ويتعظون بأوامره ونواهيه فليس بخرافات الأولين ولا سحر ولا كهانة ولا شعر بل هو كلام اللّه الأزلي المشتمل على ما كان وما يكون من أمر الدنيا والآخرة فمن وفقه اللّه لفهمه شرح صدره ، ومن خذله جعله ضيقا حرجا لا يعيه ولا يفهمه ، راجع تفسير الآية 125 من سورة الأنعام في ج 2 .

ترشد إلى هذا .

قال ابن عباس وقال الحسن دواء إصابة العين قراءة هذه الآية .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال العين حق .

وزاد البخاري ونهى عن الوشم ، وروى مسلم عن أبي عباس أن رسول اللّه قال العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا .

وعن عبد اللّه بن رفاعه الرزقي أن أسماء بنت عميس كانت تقول يا رسول اللّه إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم قال نعم ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين . أخرجه الترمذي .

وجاء في روح البيان قد صح من طرق عديدة أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وعن أبي ذر مرفوعا أن العين لتولع بالرجل بإذن اللّه تعالى جى يصعد حالقا (الجبل الشامخ) ثم يتردى منه .

فيفهم من هذا الخبر ان المعان تعتريه حالة الجنون لذلك تسوقه إلى طرح نفسه إرادة قتلها ، هذا وقد أنكر المبتدعة هذه الأحاديث التي أخذ بها جماهير العلماء ويرد قولهم ويدحض انكار (القاعدة) وهي أن كل معنى ليس مخالفا في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فانه جائز عقلا فإذا أخبر الشارع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه كهذا فان مذهب أهل السنة والجماعة ان العين إنما تفسد وتهلك عند مقابلة الشخص العاين بشخص آخر فتؤثر فيه بقدرة اللّه تعالى وفعله وقوله صلى اللّه عليه وسلم (ولو كان شيء سابق لقدر لسبقته العين) فيه اثبات القدر وانه حق ومعناه أن الأشياء كلها

بقدر اللّه ولا يقع شيء على أحد إلا بحسب ما قدره وسبق به علمه راجع الآية 78 من سورة النساء في ج 3 فما بعدها ، هذا ولا يقع ضرر العين من خير أو شر إلا بقدرة اللّه وفيه حجة اثبات المعين وانها قوية الضرر إذا وافقها القدر وليعلم أن العين من خصائص بعض النفوس وللّه أن يخص من شاء بما شاء ، ويعطي بعض الحواس قوة لا تكون في العين وذلك من عجائب قدرته وعظائم صنعه لأنه تعالى طوى في هذه النفس أسرارا تتحير منها العقول ولا ينكرها إلا الجهول ولهذا البحث صلة في الآية 67 من سورة يوسف في ج 2 (ومن باب التأثير) التأثير بالقوة الكهربائية فقد شوهد أن بعض الناس يكرر النظر إلى بعض الأشخاص من فرقه إلى قدمه فيصرعه كالمغشي عليه وقد يوجه نفسه إليه فيضعف قواه فيغشاه النوم ويتكلم بالعجائب .

الحكم الشرعي : لا يسع العاقل انكار تأثير العين بالصورة التي وصفناها لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها قديما وحديثا ، وقد تقع من النفوس الزكية عند استحسان بعض الأشياء كما تقع من النفوس الخبيثة عند كراهتها إياه وعلى المعاين أن يجتنب ذلك ويعتزل الناس وإلا فعلى الامام حبسه ومنعه من مخالطتهم كما لضرره وينفق عليه من بيت المال ، وان لم يفعل ، فعلى الأمة أن تطالبه بذلك .

هذا ويوجد أربع سور في القرآن مختومة بما ختمت به هذه السورة ، هذه والتكوير

والصافات والزمر ، والله أعلم ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 75.90 ﴾

(58/776)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة ن والقلم

مكية

وتقدم الكلام على ن وقيل هو الحوت الذي دحيت عليه الارضون وقيل الدواة ما أنت بنعمة ربك بمجنون جواب الأقسام وهو وقف كاف إن جعل ما بعده مستأنفا وليس بوقف إن جعل من تمام الجواب وكذا الحكم في ممنون لعلي خلق عظيم كاف وقال أبو عمرو كأبي حاتم تام بأيكم المفتون تام بالمهتدين كاف فيدهنون حسن مهين جائز زنيم كاف لمن قرا أن كان ذا مال على الاستفهام التوبيخي أو على الخبر وعلقه بقال بعده أو يجحد محذوفا وليس بوقف لمن قراه على الخبر وعلقه بقوله ولا تطع أو بما يدل عليه وتقدير يعتدي ويطغي

لان كان ذا مال وبنين أساطير الأولين كاف على الخرطوم تام ولا يستثنون كاف كالصراط صالح صارمين كاف وكذا مسكين ومحرومون ويسبحون وظالمين يتلاومون صالح وكذا كيف تحكمون كاف وكذا تخبرون ولما تحكمون وأجاز بعضهم الوقف على تدرسون زعيم صالح ويبتدئ بأم لهم شركاء بمعنى ألهم شركاء وكذا صادقين فلا يستطيعون كاف إن نصب خاشعة بفعل مقدر تقديره تراهم خاشعة وليس بوقف إن نصب حالا من مرفوع يدعون ترهقهم ذلة كاف وكذا وهم سالمون والحديث لا يعلمون جائز وكذا وأملى لهم متين اصح وكذا مثقلون يكتبون حسن مكظوم كاف من الصالحين حسن وكذا المجنون وقال أبو عمرو في الأول تام وفي الثاني كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(59/776)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القلم

مكية اثنتان وخمسون آية إجماعاً وكلمها ثلاثمائة كلمة وحروفها ألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً 0

وما يسطرون ليس بوقف لأنَّ جواب القسم لم يأت وهو ما أنت بنعمة ربك بمجنون 0

وبمجنون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل من تمام الجواب والكلام في غير ممنون كالكلام فيما قبله أي إن جعل ما بعده مستأنفاً كان كافياً وإن جعل القسم واقعاً على ما بعده لم يحسن

خلق عظيم (تام)

ويبصرون (تام) عند أبي عثمان المازني على أن الباء في بأيكم زائدة كأنَّه قال أيكم المفتون أي المجنون وإلى هذا ذهب قتادة وأبو عبيدة معمر بن المثنى من أنَّها تزداد في المبتدأ وهو ضعيف وإنَّما زيادتها في بحسبك درهم فقط وقيل الباء بمعنى في أي فستبصر ويبصرون في أي الفريقين الجنون أبالفرقة التي أنت فيها أم بفرقة الكفار والمفتون المجنون الذي فتنه الشيطان 0

بأيِّكم المفتون (تام) ورسموا بأييكم بياءين تحتيتين كما ترى 0

عن سبيله (جائز)

بالمهتدين (كاف)

المكذبين (حسن) على استئناف ما بعده

فيدهنون (كاف) على استئناف النهي فإن عطف على النهي الذي قبله لم يوقف على المكذبين ولا على فيدهنون قيل لو مصدرية بمعنى أن أي ودوا إدهانك وإنما لم ينصب الفعل لأنَّه جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون وفي بعض المصاحف فيدهنوا قيل نصب

على التوهم كأَّنه توهم أَّنه نطق بأن فنصب الفعل على هذا التوهم وهذا على القول بمصدرية لو وقيل نصب على جواب التمني المفهوم من ودوا وجواب لو محذوف تقديره ودوا إدهانك فحذف لدلالة لو وما بعدها عليه وتقدير الجواب لسرُّوا بذلك قال زهير بن أبي سلمى

وفي الصلح إدهان وفي العفو دربة وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق

ولا وقف من قوله ولا تطع إلى زنيم لما فيه من قطع الصفات عن الموصوف وفيه الابتداء بالمجرور 0

(60/776)

و زنيم (كاف) لمن قرأ أن كان ذا مال بهمزتين محققتين على الاستفهام التوبيخي لأنَّ الاستفهام له صدر الكلام والتقدير ألأنّ كان ذا مال وبنين يفعل هذا وبها قرأ حمزة وعاصم وقرأ ابن عامر آن كان ذا مالٍ بهمزة واحدة بعد ها مدة وليس بوقف لمن قرأ أن كان بالقصر خبراً أي لأن كان وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم في رواية حفص وكذا الكسائي عن أبي بكر عن عاصم وحاصله أَّنك إن علقت أن كان بما قبله لم تقف على زنيم وإن علقته بما بعده وقفت على زنيم 0

أساطير الأولين (كاف) على القراءتين 0

على الخرطوم (تام)

أصحاب الجنة (جائز) إن علق الظرف بمحذوف وليس بوقف إن علق ببلونا قبله ولا

يوقف على مصبحين لاتساق ما بعده على ما قبله

ولا يستثنون (تام)

نائمون (جائز) ومثله كالصريم ولا يوقف على مصبحين لأنَّ أن موضعها نصب بقوله فتنادوا

على أنَّها مصدرية أي تنادوا بهذا الكلام وكذا إن جعلت مفسرة لأنَّه تقدمها ما هو بمعنى

القول أي اغدوا صارمين

صارمين (كاف) وجواب إن كنتم محذوف أي فاغدوا صارمين أي قاطعين

يتخافتون ليس بوقف لتعلق أن بما قبلها

مسكين (كاف)

قادرين (حسن)

لضالون (كاف) على قول قتادة إنَّ الكلام عنده منقطع عما بعده لأنَّهم لما رأوا الزرع قد

احترق قالوا إنَّا لضالون الطريق ليست بجنتنا

محرومون (كاف) ومثله تسبحون أي تقولون إن شاء الله

سبحان ربنا (حسن)

ظالمين (كاف)

يتلاومون (جائز)

طاغين (حسن)

خيراً منها (أحسن) مما قبله

راغبون (تام) لأَنَّه آخر القصة وأتم منه كذلك العذاب وهو قول نافع وأبي حاتم والظاهر أنَّ أصحاب الجنة كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا والإشارة بكذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة أي كذلك العذاب الذي نزل بقريش بغتة فالتشبيه تمام الكلام ثم تبتدئ ولعذاب الآخرة أكبر

(61/776)

وأكبر (حسن) وجواب لو محذوف أي لو كانوا يعلمون لما اختاروا الأدنى ولو وصله لصار قوله ولعذاب الآخرة أكبر معلقاً بشرط أن لو كانوا يعلمون وهو محال إذ عذاب الآخرة أشق مطلقاً علموا أم لا

يعلمون (تام)

النعيم (كاف)

كالمجرمين (جائز) وأحسن منه مالكم أي أيّ شيء لكم فيما تزعمون وهو استفهام توبيخ وإنكار عليهم

ثم تبتدئ كيف تحكمون (كاف) ثم بكتهم فقال أم لكم كتاب وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم أيضاً

تدرسون ليس بوقف لأنَّ أن في معنى أن المفتوحة وهي من صلة ما قبلها وإنَّما كسرت لدخول اللام في خبرها والعامة على كسر إن معمولة لتدرسون أي تدرسون في الكتاب أنَّ لكم ما تختارونه فلما دخلت اللام كسرت الهمزة

لما تخيَّرون جواب الاستفهام وقرأ الأعرج أإنَّ لكم بالاستفهام

يوم القيامة ليس بوقف لأنَّ إن جواب الإيمان والمعنى أم لكم أيمان يان لكم وإنَّما كسرت إن لدخول اللام في خبرها

لما تحكمون (كاف) ومثله زعيم على استئناف ما بعده ويبتدئ أم لهم شركاء بمعنى ألهم شركاء

صادقين (جائز) إن نصب يوم بمحذوف أي يوم يكشف يكون كيت وكيت من الأمور الشاقة وقيل لا يجوز لأنَّ ما بعده ظرف لما قبله كأنَّه قال فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين في هذا اليوم

فلا يستطيعون (كاف) إن نصب خاشعة بفعل مقدر تقديره تراهم خاشعة وليس بوقف

إن نصب حالاً من الضمير في يدعون كأنَّه قال فلا يستطيعون السجود في حال ما أبصارهم

خاشعة

ذلَّة (جائز)

وهم سالمون (تام) قال ابن جبير كانوا يسمعون الأذان فلا يجيبون وكان كعب الأحبار

يحلف أنَّ هذه الآية نزلت في الذين يتخلفون عن الجماعات

بهذا الحديث (كاف)

لا يعلمون (جائز)

وأملي لهم (أكفى) مما قبله

متين (كاف) ومثله مثقلون

يكتبون (تام)

الحوت (جائز) لأنَّ العامل في إذا المحذوف المضاف أي كحال أو قصة صاحب الحوت إذ

نادى وهو مكظوم

مكظوم (كاف)

من ربه ليس بوقف لأنَّ جواب لولا هو ما بعدها وهو لنبذ

مذموم (حسن) على استئناف ما بعده

الصالحين (تام) للابتداء بالشرط

لَمَّا سمعوا الذكر (جائز)

لمجنون (كاف) ولا يجوز وصله لأَنَّه لو وصل لصار ما بعده من مقول الذين كفروا وليس الأمر كذلك بل هو إخبار من الله تعالى أنَّ القرآن ذكر وموعظة للإنس والجن فكيف ينسبون إلى الجنة من جاء به

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(63/776)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة القلم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الحسن : "أَيمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ1 " بالنصب .

قال أبو الفتح : يجوز أن يكون "بالغة" حالا من الضمير في لكم ؛ لأنه خبر عن "إيمان" ، ففيه ضمير منه .

وإن شئت جعلته حالا من الضمير في "علينا" إذا جعلت "علينا" وصفا لأيمان ، لا متعلقا بنفس الـ"أيمان" ؛ لأن فيه ضميرا كما يكون فيه ضمير منه إذا كان خبرا عنه .

ويجوز أن يكون حالا من نفس "أيمان" وإن [159ظ] كانت نكرة كما أجاز أبو عمر في قوله "سبحانه" : و ﴿لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ2 ﴾ أن يكون "حقا" حالا من متاع .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "يَوْمَ تكْشَفُ عَن3" ، بالتاء ، والتاء منتصبة .

وروى : "تكشف" ، بالتاء مضمومة .

قال أبو الفتح : أي : تكشف الشدة والحال الحاضرة عن ساق . وهذا مثل ، أي : تأخذ في أغراضها ، ثم شبهت بمن أراد أمرا وتأهب له ، كيف يكشف عن ساقه ؟ قال :

كشفت لكم عن ساقها وبدا من الشر الصراح4

فأضمر الحال والشدة ؛ لدلالة الموضع عليه .

ونظيره من إضمار الفاعل لدلالة الحال عليه مسألة الكتاب : إذا كان غدا فأتني5 ، أي : إذا كان ما نحن عليه من البلاء في غد فأتني . وكذلك قولهم : من كتاب كان شرا له ، أي : كان الكذب شرا ، فأضمر المصدر لدلالة المثال عليه .

وأما "يكشف" بتاء مضمومة فعلى نحو ذلك أيضا ، أي : تكشف الصورة والآخرة هناك عن شدة ، ويسرى6 ثوبها عن الحال الصعبة ، والطريق واحد .

ومن ذلك قراءة ابن هرمز والحسن : "لَوْلا أَنْ تَدَارَكَه7" ، مشددة .

قال أبو الفتح : روى هذه القراءة أبو حاتم عن الأعرج لا غير ، قال : وقال بعضهم : سألت عنها أبا عمرو فقال : لا . قال أبو حاتم : لا يجوز ذلك ؛ لأنه فعل ماض ، وليست فيها إلا تاء واحدة ، ولا يجوز تتداركه ، وهذا خطأ منه ؛ أو عليه .

---

1 انظر الصفحة 273 من هذا الجزء .

2 سورة البقرة : 241 .

3 سورة القلم : 42 .

4 لسعد بن مالك جد طرفة بن العبد . وانظر ديوان الحماسة : 1 : 198 ، والخصائص : 3 : 252 .

5 الكتاب : 1 : 114 ، وفيه أن نصب "غدا" "لغة بني تميم" .

6 أسرى الثوب : كشفه .

7 سورة القلم : 49 .

قال أبو الفتح : قول أبي حاتم : هذا خطأ – لا وجه له ؛ وذلك أنه يجوز على حكاية الحال الماضية المنقضية ، أي لولا أن كان يقال فيه : تتداركه ، كما تقول : كان زيد سيقوم ، أي : كان متوقعا منه القيام ، فكذلك هذا : لولا أن يقال : تتداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء .

ومثله ما أنشدناه أبو علي ، وهو رأيه وتفسيره من قوله :

فإن تقتلونا يوم حرة واقم فلسنا على الإسلام أول من قتل

أي : فإن تكونوا الآن معروفا هذا من خلالكم فيما مضى فلسنا كذا ، وعليه قول الله "سبحانه" : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ 1 ﴾ ، فأشار "سبحانه" إليهما إشارة الحاضر ؛ لأنه لما كان حكاية حال صارت كأنها حاضرة ، فقيل : هذا ، وهذا . ولولا ذلك لقيل : أحدهما كذا ، والآخر كذا . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ 2 ﴾ ، أعمل اسم الفاعل وإن كان لما مضى لما أراد الحال ، فكأنها حاضرة . واسم الفاعل يعمل في الحال ، كما يعمل في الاستقبال . وقد مضى هذا في هذا الكتاب ، وفي غيره من كتبنا مشروحا ملخصا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 324 . 326 ﴾

1 سورة القصص : 15 .

2 سورة الكهف : 18 .

(65/776)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة ن

مكية وآيها اثنتان وخمسون مشبه الفاصلة ثلاثة ن كذلك العذاب الحوت وعكسه

موضعان مصبحين ولا يستثنون القراآت أدغم ن في واو والقلم ورش والبزي وابن ذكوان

وعاصم بخلف عنهم وهشام والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه وافقهم ابن محيصن من

المفردة والشنبوذي وفي الأصل قال في الدر كالبحر ونقل عمن أدغم الغنة وعدمها قال

الفراء وإظهارها أي النون أعجب أي لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل

انتهى فلينظر والباقون بالإظهار وسكت على ن أبو جعفر وعن الحسن ن بكسرها لالتقاء

الساكنين

وقرأ

) بأيكم المفتون (الآية 6 بإبدال الهمزة ياء مفتوحة الأصبهاني بخلفه ويوقف عليه لحمزة

كذلك وبالتحقيق لأنه متوسط بزائد وعن الحسن عتل بالرفع أي هو عتل

وقرأ ( ) إن كان (الآية 14 بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص والكسائي وخلف عن نفسه والباقون بهمزتين على الاستفهام وهم ابن عامر وأبو بكر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وحقق الهمزتين منهم أبو بكر وحمزة وروح وسهل الثانية ابن عامر وأبو جعفر ورويس وفصل بالألف أبو جعفر والحلواني عن هشام واختلف في الفصل عن ابن ذكوان والأكثرون على عدمه ومنهم الداني وقواه في النشر لكن قال إنه قرأ بالوجهين له كما مر في أعجمي بفصلت وأشار إليهما في الطيبة بقوله

(إن كان أعجمي خلف مليا

وانفرد المفسر عن الداجوني عن هشام بالتحقيق والمد وعن الحسن إذا تتلى بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام التوبيخي على قوله ( ) أساطير الأولين (لما تليت عليه آيات الله وعنه ﴿ آن لكم فيه ﴾ الآية 38 بهمزة ممدودة على الاستفهام أيضا والجمهور بهمزة واحدة مكسورة على الخبر

وقرأ ( ) أن اغدوا (الآية 22 بكسر النون أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وأدغم لام بل نحن الكسائي وأمال عسى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن ابي عمرو بخلفهما

وقرأ ( ) أن يبدلنا (الآية 32 بالتشديد نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ومر بالكهف وشدد البزي بخلفه تاء ( ) لما تخيرون (الآية 38 وصلا عن الحسن بالغة بالنصب على الحال من أيمان لتخصصه بالعمل أو بالوصف أو من الضمير في علينا إن جعلناه صفة وعنه أيضا يكشف بكسر الشين من اكشف وعنه أيضا تداركه على أن الأصل تتداركه فأدغم وأمال فاجتبيه كنادى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه

واختلف في (ليزلقونك) الآية 51 فنافع وأبو جعفر بفتح الياء من زلقت الرجل وهو فعل يتعدى مفتوح العين لا مكسورها مثل حزن وحزنته والباقون بضمها من أزلقه معدى بالهمزة أي أزل رجله قال الحسن دواء من أصابه العين أن يقرأ هذه الآية وإن يكاد الخ

المرسوم اتفقوا على كتابة ﴿ (بأييكم المفتون ﴾ بياءين بين الألف والكاف وعلى قطع ( ) أن لا يدخلنها (وهو آخر العشرة المقطوعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة ن "

" ن والقلم " سكت أبو جعفر على نون سكتة لطيفة من غير تنفس ويلزم منه الإظهار وأدغم نون " ن " في واو والقلم مع الغنة ابن عامر وشعبة والكسائي ويعقوب وخلف في اختياره وورش بخلف عنه وأظهرها غيرهم وهو الوجه الثاني لورش .

" لأجرا غير " فستبصر ويبصرون ، وهو ، أساطير ، فانطلقوا ، خيرا ، وهو ، منه فاجتباه ، الذكر ، ذكر ، كله جلي .

" بأيكم " لحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة .

" أن كان " قرأ الشامي وشعبة وحمزة وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين مفتوحتين على الاستفهام وكل على أصله في الهمزتين إلا هشاما وابن ذكوان فخالف كل منهما أصله كما ستعلم .

فأبو جعفر وهشام بالتسهيل والإدخال ورويس وابن ذكوان بالتسهيل من غير إدخال وشعبة وحمزة وروح بالتحقيق من غير إدخال ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر .

" إن اغدوا " كسر النون وصلا عاصم وحمزة والبصريان وضمها غيرهم .

" إن يبدلنا " قرأ المدنيان وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال .

" لما تخيرون " شدد البزي التاء وصلا مع المد المشبع للساكنين وخففها غيره .

" ليزلقونك " فتح الياء المدنيان وضمها غيرهم .

" للعالمين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" تتلى وعسى ونادى فاجتباه " بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . بأبصارهم

بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " بل نحن للكسائي ، فاصبر لحكم للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " أعلم بمن ؛ أعلم بالمهتدين ، أكبر لو ، يكذب بهذا ، الحديث سنستدرجهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 332 ﴾

(68/776)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة ن القلم

قوله تعالى ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ يقرأ بالإدغام والإظهار وقد تقدم ذكر علله في يس

قوله تعالى ﴿ أن كان ذا مال ﴾ يقرا بهمزتين وبهمزة ومدة وبهمزة واحدة على لفظ الإخبار وقد ذكرت علله فيما سلف

قوله تعالى ﴿ ليزلقونك ﴾ يقرا بضم الياء وفتحها فالحجة لمن ضم أنه ماخوذ من فعل رباعي والحجة لمن فتح أنه ماخوذ من فعل ثلاثي ومعناهما ليصيبونك بأبصارهم لا بأعينهم وكان أحدهم إذا أراد ذلك من شيء تجوع له ثلاثا ثم مر عليه متعجبا منه فبلغ ما يريده ففعلوا ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فوقاه الله شرهم

قوله تعالى ﴿ عن ساق ﴾ يقرأ بألف إجماع إلا ما روى من الهمز عن ابن كثير . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 350 . 351 ﴾

(69/776)

وقال ابن زنجلة :

سورة ن والقلم وما يسطرون 1

قرأ ابن عامر والكسائي وأبو بكر وابن اليزيدي ن والقلم بإخفاء النون وقرأ الباقون بإظهار النون

فمن أظهر قال هو حرف هجاء وحكمه أن ينفصل عما بعده فبني الكلام فيه على الوقف لا على الوصل والباقون بنوا الكلام على الوصل قال الزجاج والذي أختار إدغام النون في الواو كانت النون ساكنة أو متحركة لأن الذي جاء في التفسير يباعدها من الإسكان والتبيين لأن من أسكنها وبينها فإنما يجعلها حرف هجاء والذي يدغمها فجائز أن يدغمها وهي مفتوحة وجاء في التفسير أن نون الحوت التي دحيت عليها الأرضون السبع وجاء في التفسير أن نون الدواة أن كان ذا مال وبنين 14

قرأ ابن عامر آن كان بهمزة مطولة وقرأ حمزة وأبو بكر أأن الهمزة الأولى توبيخ والثانية ألف أصل ومن مد كره الجمع بينهما فلين الثانية تخفيفا

قال الفراء من قال أأن كان ذا مال بهمزتين فإنه وبخه

ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه أي لا تطعه ليساره وعدده قال وإن شئت قلت ألأن كان ذا مال وبنين إذا تليت عليه آياتنا قال أساطير الأولين أي جعل مجازاة النعمة التي خولها الله من المال والبنين الكفر بآياتنا كما تقول أأن أعطيتك مالي سعيت علي قال الزجاج إذا جاء ألف الاستفهام فهذا هو القول لا يصلح غيره

وقرأ الباقون أن كان ذا مال بهمزة واحدة على الخبر عنه وتأويله لأن كان ذا مال وبنين وقيل في التفسير ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين أي لا تطعه ليساره وعدده وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصرهم 51

قرأ نافع ليزلقونك بفتح الياء وقرأ الباقون ليزلقونك بضم الياء والمعنى يصرعونك وهما لغتان يقال أزلق يزلق وزلق يزلق والمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 717 718.﴾

(70/776)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة ن والقلم 68

مكية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي ونظيرتها في المدنيين والمكي والحاقة ولا نظير لها في البصري والشامي

وكلمها ثلاث مئة كلمة

وحروفها ألف ومئتان وستة وخمسون حرفا

وهي خمسون وآيتان في جميع العدد ليس فيها اختلاف وكلهم لم يعد (﴿ ن ﴾)

وفيها مما يشبه الفواصل موضعان (﴿ كذلك العذاب ﴾ كصاحب الحوت) ورؤوس الآي

يسطرون

1 بمجنون

2 ممنون

3 عظيم

4 ويبصرون

5 المفتون

6 بالمهتدين

7 المكذبين

8 فيدهنون

9 مهين

10 بنميم

11 أثيم

12 زنيم

13 وبنين

14 الأولين

15 الخرطوم

16 مصبحين

17 يستثنون

18 نائمون

19 كالصريم

20 مصبحين

21 صارمين

22 يتخافتون

23 مسكين

24 قادرين

25 لضالون

26 محرومون

27 تسبحون

28 ظالمين

29 يتلاومون

30 طاغين

31 راغبون

32 يعلمون

33 النعيم

34 كالمجرمين

35 تحكمون

36 تدرسون

37 تخيرون

38 تحكمون

39 زعيم

40 صادقين

41 يستطيعون

42 سالمون

43 لا يعلمون

44 متين

45 مثقلون

46 يكتبون

47 مكظوم

48 مذموم

49 الصالحين

50 لمجنون

51 للعالمين

52 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 252﴾

(71/776)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة ن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ن والقلم) هو مثل " يس والقرآن " وقد ذكر .

قوله تعالى (بأيكم المفتون) فيه ثلاثة أوجه: أحدها الباء زائدة .

والثانى أن المفتون مصدر مثل المفعول والميسور : أي بأيكم الفتون: أي الجنون .

والثالث هي بمعنى في: أي في أي طائفة منكم الجنون .

قوله تعالى (لو تدهن فيدهنون) إنما أثبت النون لأنه عطفه على تدهن ولم يجعله جواب التمنى ، وفي بعض المصاحف بغير نون على الجواب .

قوله تعالى (أن كان) يقرأ بكسر الهمزة على الشرط ، وبفتحها على أنها مصدرية ، فجواب الشرط محذوف دل عليه (إذا تتلى) أي أن كان ذا مال يكفر ، وإذا جعلته مصدرا كان التقدير : لأن كان ذا مال يكفر ، ولا يعمل فيه

تتلى ولا مال ، لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها ، و (مصبحين) حال من الفاعل في يصر منها لا في أقسموا ، و (على حرد) يتعلق ب (قادرين) وقادرين حال ، وقيل خبر غدوا لأنها حملت على أصبحوا .

قوله تعالى (عند ربهم) يجوز أن يكون ظرفا للاستقرار ، وأن يكون حالا من (جنات) .

قوله تعالى (بالغة) بالرفع نعت لإيمان ، وبالنصب على الحال ، والعامل فيها الظرف الأول أو الثاني .

قوله تعالى (يوم يكشف) أي اذكر يوم يكشف ، وقيل العامل فيه (خاشعة) ويقرأ " تكشف " أي شدة القيامة ، وخاشعة حال من الضمير في يدعون ، و (من يكذب) معطوف على المفعول أو مفعول معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة القلم

[سورة القلم (68) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1)

"ن" حرف لا إعراب له "وَالْقَلَمِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف تقديره أقسم "وَما" اسم موصول معطوف على ما قبله "يَسْطُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة .

[سورة القلم (68) : آية 2]

ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)

"ما" عاملة عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "بِنِعْمَةِ" متعلقان بمجنون "رَبِّكَ" مضاف إليه "بِمَجْنُونٍ" خبر ما مجرور لفظا بالباء الزائدة منصوب محلا والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 3]

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)

"وَإِنَّ" الواو حرف عطف وإن حرف مشبه بالفعل "لَكَ" جار ومجرور خبر مقدم واللام

المزحلقة "أجرا" اسم إن المؤخر "غَيْرَ" صفة أجرا "مَمْنُونٍ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 4]

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

"وَإِنَّكَ" إن واسمها "لَعَلى " اللام المزحلقة "على خُلُقٍ" خبرها "عَظِيمٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 5]

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5)

"فَسَتُبْصِرُ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها

"وَيُبْصِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 6]

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

"بِأَيِّكُمُ" جار ومجرور خبر مقدم "الْمَفْتُونُ" مبتدأ مؤخر والجملة مفعول به لأحد الفعلين السابقين .

[سورة القلم (68) : آية 7]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة خبر إن "بِمَنْ" متعلقان بأعلم "ضَلَّ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بالفعل "وَهُوَ أَعْلَمُ" الواو حرف عطف ومبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "بِالْمُهْتَدِينَ" متعلقان بأعلم وجملة إن ربك . . تعليلية لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 8]

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8)

"فَلا تُطِعِ" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر "الْمُكَذِّبِينَ" مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 9]

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

"وَدُّوا" ماض وفاعله "لَوْ تُدْهِنُ" لو مصدرية ومضارع فاعله مستتر ومعنى تدهن تلين لهم والمصدر المؤول من لو والفعل مفعول ودوا والجملة تعليل للنهي لا محل لها "فَيُدْهِنُونَ" الفاء عاطفة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية معطوفة

على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : الآيات 10 الى 13]

وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13)

"وَلا تُطِعْ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية فاعله مستتر "كُلَّ" مفعوله "حَلَّافٍ" مضاف إليه "مَهِينٍ" صفة لمحذوف والجملة معطوفة على ما قبلها "هَمَّازٍ ، مَشَّاءٍ" صفتان للمحذوف "بِنَمِيمٍ" متعلقان بمشاء "مَنَّاعٍ" صفة أخرى "لِلْخَيْرِ" متعلقان بمناع "مُعْتَدٍ ، أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ" صفات لنفس المحذوف وهو الأخنس بن شريق "بَعْدَ" ظرف زمان "ذَلِكَ" اسم الإشارة مضاف إليه "زَنِيمٍ" صفة أخرى

[سورة القلم (68) : آية 14]

أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14)

"أَنْ كانَ" أن حرف مصدري ونصب وماض ناقص اسمه مستتر "ذا" خبره "مالٍ" مضاف إليه "وَبَنِينَ" معطوف على مال .

[سورة القلم (68) : آية 15]

إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "آياتُنا" نائب فاعل "قالَ" ماض فاعله مستتر "أَساطِيرُ" خبر لمبتدأ محذوف "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 16]

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

"سَنَسِمُهُ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "عَلَى الْخُرْطُومِ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 17]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17)

"إِنَّا بَلَوْناهُمْ" إن واسمها وماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "بَلَوْنا" ماض وفاعله "أَصْحابَ الْجَنَّةِ" مفعوله المضاف إلى الجنة والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف "إِذْ" ظرف زمان "أَقْسَمُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "لَيَصْرِمُنَّها" اللام واقعة في جواب

القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة فاعل والها

مفعول به "مُصْبِحِينَ" حال والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 18]

وَلا يَسْتَثْنُونَ (18)

لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 19]

فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19)

"فَطافَ" ماض "عَلَيْها" متعلقان بالفعل "طائِفٌ" فاعل "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بطائف والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُمْ نائِمُونَ" مبتدأ وخبره والجملة حال .

(75/776)

[سورة القلم (68) : آية 20]

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)

"فَأَصْبَحَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر "كَالصَّرِيمِ" جار ومجرور خبر أصبحت والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 21]

فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

"فَتَنادَوْا" ماض وفاعله "مُصْبِحِينَ" حال والجملة معطوفة على أقسموا .

[سورة القلم (68) : آية 22]

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22)

"أَنِ اغْدُوا" أن حرف تفسير وأمر وفاعله والجملة مفسرة لا محل لها "عَلى حَرْثِكُمْ" متعلقان بالفعل "إِنْ كُنْتُمْ" إن شرطية جازمة وكان واسمها "صارِمِينَ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف .

[سورة القلم (68) : آية 23]

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23)

"فَانْطَلَقُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُمْ" الواو للحال مبتدأ "يَتَخافَتُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال .

[سورة القلم (68) : آية 24]

أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24)

"أَنْ" مفسرة "لا يَدْخُلَنَّها" لا نافية ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والها مفعول به "الْيَوْمَ" ظرف زمان "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "مِسْكِينٌ" فاعل والجملة

مفسرة لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 25]

وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (25)

"وَغَدَوْا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى حَرْدٍ" متعلقان بالفعل وحرد أي منع الفقراء "قادِرِينَ" حال .

[سورة القلم (68) : آية 26]

فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضالُّونَ (26)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لما" ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِنَّا" إن واسمها "لَضالُّونَ" اللام المزحلقة "ضالون" خبرها والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القلم (68) : آية 27]

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27)

"بَلْ" حرف عطف وإضراب "نَحْنُ مَحْرُومُونَ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية معطوفة

على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 28]

قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28)

"قالَ أَوْسَطُهُمْ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "أَلَمْ أَقُلْ" الهمزة للاستفهام ومضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "لَوْلا" حرف تحضيض "تُسَبِّحُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مقول القول .

[سورة القلم (68) : آية 29]

قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "رَبِّنا" مضاف إليه "إِنَّا كُنَّا" إن واسمها وكان واسمها "ظالِمِينَ" خبرها والجملة خبر إن وجملة إنا . . تعليل والكلام سبحان . . مقول القول .

[سورة القلم (68) : آية 30]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30)

"فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بالفعل "يَتَلاوَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال .

[سورة القلم (68) : آية 31]

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (31)

"قالُوا" ماض وفاعله "يا" حرف نداء "وَيْلَنا" منادى مضاف وجملة النداء مقول القول "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا طاغِينَ" كان واسمها وخبرها الجملة خبر إن.

[سورة القلم (68) : آية 32]

(77/776)

عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (32)

"عَسى رَبُّنا" ماض ناقص واسمه "أَنْ يُبْدِلَنا" مضارع منصوب بأن ومفعوله الأول والفاعل مستتر "خَيْراً" مفعوله الثاني والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى "مِنْها" متعلقان بخيرا "إِنَّا" إن واسمها "إِلى رَبِّنا" متعلقان براغبون "راغِبُونَ" خبر إن والجملة الاسمية تعليل وجملة عسى . . مقول القول.

[سورة القلم (68) : آية 33]

كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

"كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "الْعَذابُ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "وَلَعَذابُ" الواو حالية واللام لام الابتداء "عذاب الْآخِرَةِ" مبتدأ

مضاف إلى الآخرة "أَكْبَرُ" خبر والجملة حال "لَوْ" شرطية غير جازمة "كانُوا" كان واسمها "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة القلم (68) : آية 34]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بمحذوف خبر إن "عِنْدَ رَبِّهِمْ" ظرف مكان مضاف إلى ربهم "جَنَّاتِ" اسم إن المؤخر "النَّعِيمِ" مضاف إليه.

[سورة القلم (68) : آية 35]

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35)

"أَفَنَجْعَلُ" الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "الْمُسْلِمِينَ" مفعول به أول "كَالْمُجْرِمِينَ" جار ومجرور في موضع المفعول الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة القلم (68) : آية 36]

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36)

"ما" اسم استفهام مبتدأ "لَكُمْ" جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة استفهامية لا محل لها "كَيْفَ" اسم استفهام حال "تَحْكُمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 37]

أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37)

"أَمْ" حرف عطف للإضراب "لَكُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "كِتابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "فِيهِ" متعلقان بتدرسون "تَدْرُسُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حال .

[سورة القلم (68) : آية 38]

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر إن "فِيهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "لَما" اللام لام التوكيد "ما" اسم موصول اسم إن المؤخر "تَخَيَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة ما وجملة إن . . مفعول به لتدرسون .

[سورة القلم (68) : آية 39]

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39)

"أَمْ" حرف عطف "لَكُمْ أَيمانٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "عَلَيْنا" صفة أيمان "بالِغَةٌ" صفة ثانية "إِلى يَوْمِ" متعلقان ببالغة "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَما" اللام المزحلقة "ما" موصولية اسم إن المؤخر "تَحْكُمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية صلة والجملة الاسمية جواب لقسم ملحوظ من أيمان لا محل لها .

[سورة القلم (68) : آية 40]

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40)

"سَلْهُمْ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "أَيُّهُمْ" مبتدأ "بِذلِكَ" متعلقان بالخبر "زَعِيمٌ" خبر مرفوع والجملة الاسمية سدت مسد المفعول الثاني للفعل سل .

[سورة القلم (68) : آية 41]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41)

"أَمْ" حرف عطف "لَهُمْ شُرَكاءُ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلْيَأْتُوا" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف النون والواو

فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِشُرَكائِهِمْ" متعلقان بالفعل "إِنْ" حرف شرط جازم "كانُوا صادِقِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة القلم (68) : آية 42]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42)

"يَوْمَ يُكْشَفُ" ظرف زمان ومضارع مبني للمجهول "عَنْ ساقٍ" متعلقان بالفعل وهما مناب نائب الفاعل والجملة في محل جر بالإضافة "وَيُدْعَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "إِلَى السُّجُودِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلا" لا نافية ومضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة القلم (68) : آية 43]

خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43)

"خاشِعَةً" حال "أَبْصارُهُمْ" فاعل خاشعة "تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ" مضارع ومفعوله وفاعل مؤخر والجملة حال ثانية "وَ" الواو للحال "قَدْ" حرف تحقيق "كانُوا" كان واسمها "يُدْعَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "إِلَى السُّجُودِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر كانوا وجملة قد كانوا.. حالية "وَهُمْ سالِمُونَ" مبتدأ وخبره والجملة حال.

[سورة القلم (68) : آية 44]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44)

(80/776)

"فَذَرْنِي" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر ومعنى ذرني دعني والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَمَنْ" الواو حرف عطف "مَنْ" اسم موصول معطوف على ياء المتكلم "يُكَذِّبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "بِهذَا" متعلقان بالفعل "الْحَدِيثِ" بدل من اسم الإشارة "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ حَيْثُ" متعلقان بالفعل "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة القلم (68) : آية 45]

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)

"وَأُمْلِي" مضارع فاعله مستتر ومعناه أمهلهم "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على سنستدرجهم "إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية لا محل لها.

[سورة القلم (68) : آية 46]

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

"أَمْ" حرف عطف "تَسْئَلُهُمْ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "أَجْراً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهُمْ" مبتدأ "مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ" متعلقان بالخبر "مُثْقَلُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 47]

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

"أَمْ" حرف عطف "عِنْدَهُمُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "الْغَيْبُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" مبتدأ ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القلم (68) : آية 48]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)

"فَاصْبِرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "لِحُكْمِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَلا تَكُنْ" الواو حرف عطف ومضارع ناقص

مجزوم بلا الناهية واسمه مستتر "كَصاحِبِ" متعلقان بمحذوف خبر تكن "الْحُوتِ" مضاف إليه وهو يونس عليه السلام والجملة معطوفة على ما قبلها "إِذْ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "نادى" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَهُوَ مَكْظُومٌ" مبتدأ وخبره والجملة حال.

[سورة القلم (68) : آية 49]

لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

"لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَنْ تَدارَكَهُ" مضارع منصوب بأن ومفعوله "نِعْمَةٌ" فاعل "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بنعمة والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع مبتدأ خبره محذوف "لَنُبِذَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِالْعَراءِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَهُوَ مَذْمُومٌ" مبتدأ وخبره والجملة حال.

[سورة القلم (68) : آية 50]

فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

"فَاجْتَباهُ" ماض ومفعوله "رَبُّهُ" فاعل والجملة معطوفة على مقدر "فَجَعَلَهُ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مِنَ الصَّالِحِينَ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة القلم (68) : آية 51]

وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)

(82/776)

"وَإِنْ" الواو حرف استئناف "إِنْ" مخففة مهملة "يَكادُ الَّذِينَ" مضارع ناقص واسمه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَيُزْلِقُونَكَ" اللام الفارقة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والكاف مفعوله "بِأَبْصارِهِمْ" متعلقان بالفعل ومعنى يزلقونك ينظرون نظرا شديدا يكاد أن يصرعك والجملة خبر يكاد وجملة إن يكاد . . استئنافية لا محل لها "لَمَّا" ظرفية حينية "سَمِعُوا الذِّكْرَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "وَيَقُولُونَ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُ" إن واسمها "لَمَجْنُونٌ" اللام المزحلقة "مجنون" خبرها والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القلم (68) : آية 52]

وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (52)

"وَما" الواو حالية "ما" نافية "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "ذِكْرٌ" خبر المبتدأ "لِلْعالَمِينَ"

جار ومجرور صفة ذكر والجملة حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 367. 373﴾

(83/776)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة ن

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1391 - الحَدِيث الأول

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَن سعد بن هِشَام سَأَلَهَا عَن خلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت كَانَ خلقه الْقُرْآن أَلَسْت تقْرَأ الْقُرْآن

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي التَّهَجُّد عَن زُرَارَة بن أبي أَوْفَى أَن سَعْدا أَتَى ابْن عَبَّاس فَسَأَلَهُ عَن الْوتر فَقَالَ أَلَا أدلك عَلَى أعلم النَّاس بوتْر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَالَ عَائِشَة فَذهب إِلَيْهَا وَمَعَهُ حَكِيم بن أَفْلح فَاسْتَأْذَنَا فَأَذنت فَقَالَت حَكِيم قَالَ نعم قَالَت من مَعَك قَالَ سعد بن هِشَام قَالَت من هِشَام قَالَ ابْن عَامر فَترَحَّمت عَلَيْهِ وَقَالَت

خيرا فَقلت يَا أم الْمُؤمنِينَ أَخْبرِينِي عَن خلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَت أَلَسْت تقْرَأ الْقُرْآن قَال بلَى قَالَت فَإِن خلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ الْقُرْآن مُخْتَصر وَفِي بعض طرقه قَالَ حَكِيم بن أَفْلح لِابْنِ عَبَّاس حِين أعَاد عَلَيْهِ كَلَام عَائِشَة أما إِنِّي لَو علمت أَنَّك لَا تدخل عَلَيْهَا مَا أنبأتك حَدِيثهَا وَهَذَا يدل عَلَى أَن الَّذِي سَأَلَ عَائِشَة إِنَّمَا هُوَ حَكِيم بن أَفْلح وَهِشَام يسمع لَا كَمَا هُوَ فِي لفظ الْمُصَنّف

(84/776)

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ وَهُوَ وهم وَلَفظه عَن زُرَارَة بن أبي أَوْفَى عَن سعد بن هِشَام فِي قَوْله تَعَالَى وَإِنَّك لعَلى خلق عَظِيم قَالَ سَأَلت عَائِشَة فَقلت يَا أم الْمُؤمنِينَ أَنبِئِينِي عَن خلق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت أَتَقْرَأُ الْقُرْآن قلت نعم قَالَت كَانَ خلقه

الْقُرْآن انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ وَهُوَ كَلَفْظِ الْمُصَنّف

1392 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يدْخل الْجنَّة ولد الزِّنَا وَلَا وَلَده وَلَا ولد وَلَده

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كتَاب الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مُجَاهِد من حَدِيث عبد الله بن حنيف ثَنَا

يُوسُف بن أَسْبَاط عَن أبي إِسْرَائِيل الْملَائي إِسْمَاعِيل بن إِسْحَاق عَن فُضَيْل ابْن عَمْرو عَن مُجَاهِد عَن ابْن عمر عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يدْخل الْجنَّة ولد الزِّنَا وَلَا وَلَده وَلَا ولد وَلَده انْتَهَى ثمَّ قَالَ تَابع يُوسُف ابْن أَسْبَاط عَلَيْهِ إِسْحَاق بن مَنْصُور ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث إِسْحَاق بن مَنْصُور ثَنَا أَبُو إِسْرَائِيل بِهِ

وَرَوَاهُ أَيْضا فِي تَرْجَمَة يُوسُف بن أَسْبَاط من حَدِيث بركَة بن مُحَمَّد الْحلَبِي ثَنَا يُوسُف بن أَسْبَاط بِهِ سَوَاء

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي نعيم بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَأعله بِأبي إِسْرَائِيل

(85/776)

والْحَدِيث مَعْنَاهُ عِنْد النَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى فِي كتاب الْعتْق من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن مهَاجر عَن مُجَاهِد عَن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا يدْخل الْجنَّة ولد زنا وَلَا شَيْء من نَسْله إِلَى سَبْعَة آبَاء انْتَهَى

قَالَ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء هُوَ كثير الْخَطَأ فَاسْتحقَّ التّرْك ونقل عَن ابْن معِين انه قَالَ هُوَ ضَعِيف وَكَذلِكَ ابْن طَاهِر فِي مَوْضُوعَاته وَأعله ابْن الْجَوْزِيّ فِي

الموضوعات بإبراهيم بن مهَاجر

وَرَوَى النَّسَائِيّ أَيْضا من حَدِيث شُعْبَة عَن مَنْصُور عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن نبيط من شريط عَن جَابَان عَن عبد الله بن عَمْرو عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا يدْخل الْجنَّة ولد زنية وَلَا عَاق وَلَا مدمن خمر انْتَهَى

ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن مَنْصُور عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابَان عَن عبد الله بن عَمْرو عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَحوه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع عشر من الْقسم الثَّالِث ثمَّ قَالَ وَقد اخْتلف الثَّوْرِيّ وَشعْبَة فِيهِ فَقَالَ الثَّوْرِيّ عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابَان وَقَالَ شُعْبَة عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن نبيط عَن جَابَان قَالَ وَلَا يضر ذَلِك فَإِن سالما سَمعه من جَابَان مرّة وسَمعه مرّة أُخْرَى من نبيط فَالْخبَر مُتَّصِل إِلَّا أَن الثَّوْرِيّ أعرف بِحَدِيث بَلده انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضا من حَدِيث جرير عَن يزِيد بن أبي زِيَاد عَن مُجَاهِد عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ مَرْفُوعا نَحْو حَدِيث ابْن عَمْرو وَهُوَ مَعْلُول بِيَزِيد بن أبي زِيَاد

(86/776)

قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات وَقد اخْتلف فِيهِ عَلَى مُجَاهِد من عشرَة أوجه فَتَارَة يرْوَى عَن مُجَاهِد عَن أبي هُرَيْرَة وَتارَة عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَمْرو وَتارَة عَن مُجَاهِد عَن أبي سعيد وَتارَة عَن مُجَاهِد عَن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن وَتارَة يرْوَى مَوْقُوفا وَكله من تَخْلِيط الرواة قَالَ وَفِيه مُخَالفَة للأُصُول وَأَعْظَمهَا قَوْله تَعَالَى وَلَا تزر وَازِرَة وزر أُخْرَى انْتَهَى كَلَامه

1393 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن الْعَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وسم أباعره فِي وَجهها فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْرِمُوا الْوُجُوه فوسمها فِي جواعرها

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَرَوَى مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب اللبَاس من حَدِيث يزِيد بن أبي حبيب أَن نَاعِمًا مولَى أم سَلمَة حَدثهُ انه سمع ابْن عَبَّاس يَقُول وَقد رَأَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمارا مَوْسُوم الْوَجْه فَأنْكر ذَلِك فَقَالَ الرجل وَالله لَا أَسمّه إِلَّا أَقْصَى شَيْء من الْوَجْه فَأمر بِحِمَار لَهُ أَن يُكْوَى فِي جَاعِرَتَيْهِ فَهُوَ أول من كوى الْجَاعِرَتَيْن انْتَهَى

وَبِالسَّنَدِ والمتن رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَزَاد قَالَ وَكَانَ الرجل الَّذِي كوى الْجَاعِرَتَيْنِ الْعَبَّاس بن عبد الْمطلب انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه كَذَلِك وَلَفظه عَن ابْن عَبَّاس أَن الْعَبَّاس وسم بَعِيرًا لَهُ أَو دَابَّة فِي وَجهه فَرَآهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضب فَقَالَ الْعَبَّاس لَا أَسمّه إِلَّا فِي آخِره

فَوَسمه فِي جَاعِرَتَيْهِ انْتَهَى

1394 - الْحَدِيث الرَّابِع

(87/776)

حَدِيث ابْن مَسْعُود يكْشف الرَّحْمَن عَن سَاقيه أما الْمُؤْمِنُونَ فَيَخِرُّونَ سجدا وَأما الْمُنَافِقُونَ فَتكون ظُهُورهمْ طبقًا كَأَن فِيهَا السَّفَافِيد

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْفِتَن وَفِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث الْحُسَيْن بن حَفْص ثَنَا سُفْيَان ثَنَا سَلمَة بن كهيل عَن أبي الزَّعْرَاء عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ إِنَّكُم ستفترقون أَيهَا النَّاس لخروجه يَعْنِي الدَّجَّال ثَلَاث فرق . . . فَذكر حَدِيثا طَويلا إِلَى أَن قَالَ ثمَّ يتمثل الله للخلق حَتَّى يمر الْمُسلمُونَ فَيُقَال لَهُم من تَعْبدُونَ فَيَقُولُونَ نعْبد الله وَلَا نشْرك بِهِ شَيْئًا فَيُقَال هَل تعرفُون ربكُم فَيَقُولُونَ سُبْحَانَهُ إِذا اعْترف لنا عَرفْنَاهُ قَالَ فَعِنْدَ ذَلِك يكْشف عَن سَاق فَلَا يَبْقَى مُؤمن إِلَّا خر لله سَاجِدا وَيبقى الْمُنَافِقُونَ ظُهُورهمْ طبق وَاحِد كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيد فَيُقَال لَهُم قد كُنْتُم تدعون إِلَى السُّجُود وَأَنْتُم سَالِمُونَ . . . الْحَدِيث بِطُولِهِ وَقَالَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَفِي الصَّحِيح بعضه رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث أبي سعيد الْخُدْرِيّ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول يكْشف رَبنَا عَن سَاقه فَيسْجد لَهُ كل مُؤمن ومؤمنه وَيبقى من كَانَ يسْجد فِي الدُّنْيَا رِيَاء وَسُمْعَة فَيذْهب فَيسْجد فَيَعُود طبقًا وَاحِدًا مُخْتَصر

(88/776)

وَاخْتصرَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدِيث الْحَاكِم فَقَالَ ثَنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن مهْدي ثَنَا سُفْيَان بِهِ عَن ابْن مَسْعُود قَالَ يتمثَّل الله تَعَالَى لِلْخَلَائِقِ يَوْم الْقِيَامَة حَتَّى يمر الْمُسلمُونَ فَيُقَال لَهُم من تَعْبدُونَ فَيَقُولُونَ نعْبد الله وَلَا نشْرك بِهِ شَيْئًا فَيَقُول هَل تعرفُون ربكُم فَيَقُولُونَ سُبْحَانَهُ إِذا اعْترف إِلَيْنَا عرفْنَاهُ قَالَ فَعِنْدَ ذَلِك يكْشف عَن سَاق فَلَا يَبْقَى مُؤمن إِلَّا خر لله سَاجدا وَيبقى الْمُنَافِقُونَ ظُهُورهمْ طبق وَاحِد كَأَنَّمَا فِيهَا السَّفَافِيد فَيَقُولُونَ رَبنَا فَيُقَال لَهُم قد كُنْتُم تدعون إِلَى السُّجُود وَأَنْتُم سَالِمُونَ انْتَهَى

1395 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْقَلَم أعطَاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ ثَوَاب الَّذين حسن الله أَخْلَاقهم

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 75 . 79﴾

(89/776)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة ن» (68)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«ن وَالْقَلَمِ» (1) كسائر فواتح السور . .

«وَما يَسْطُرُونَ» (1) وما يكتبون ، قال رؤبة :

إنى وأسطار سطرن سطرا

«1» [872].

«بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ» (6) مجازها : أيكم المفتون كما قال الأوّل «2» :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

(505) .

«لَوْ تُدْهِنُ» (9) من المداهنة . .

«عُتُلٍّ» (13) العتلّ الفظّ الكافر فى هذا الموضع وهو الشديد فى كل شىء «3» قال ذو الإصبع العدوانىّ :

والدهر يغدو معتلّا جذعا

«4» [905] أي شديدا .

---

(1) . - 872 : وهو مضى وانظر أيضا فى الطبري 29/ 11 . [. . . . .]

(2) . - 6 «الأول» : أي القائل الأول الذي مضى ذكره وهو راجز من بنى جعدة بن قيس .

(3) . - 9 «العتل . . . شىء» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 508 .

(4) . - 905 : لعله من قصيدته المفضلية رقم 29 تمامها فى شعراء الجاهلية ص 629 وهو فى الطبري 29/ 14 .

«بَعْدَ ذِلكَ» (13) مع ذلك . .

«زَنِيمٍ» (13) الزنيم المعلّق فى القوم ليس منهم قال حسّان بن ثابت :

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

«1» [906] ويقال للتيس : زنيم له زنمتان «2» «3» . .

«فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ «4»» (20) انصرم فى الليل وهو الليل وكل رملة انصرمت من معظم الرمل فهى الصريمة . .

«وَهُمْ يَتَخافَتُونَ» (23) أي يتسارّون . .

«وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ» (25) مجازها : على منع «5» ، بمعنى «حاردت الناقة» فلا لبن لها وعلى حرد أيضا على قصد ، قال الأول :

---

(1) . - 906 : ديوانه ص 160 والطبري 29/ 15 واللسان (زنم) والقرطبي 18/ 234.

(2) . - 2 - 4 «زنيم . . . زنمتان» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 507)

(3) . - 907 : الطبري 29/ 15 والقرطبي 18/ 234 وفتح الباري 8/ 508 .

(4) . - 4 «أنها . . . قطعه» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة ليدل على أن البخاري أخذ تفسيره لهذه الآية عنه (فتح الباري 8/ 507) .

(5) . - 8 «على منع . . . لها» : قال الطبري (29/ 19 : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يتأول ذلك «وغدوا على متع» ويوجهه إلى أنه من قولهم حاردت . . .

لبن وهذا قول لا نعلم له قائلا من متقدمى أهل العلم قال وإن كان له وجه فإذا كان ذلك كذلك وكان غير جائز عندنا ان يتعدى ما أجمعت عليه الحجة فما صح من الأقوال فى ذلك إلا أحد الأقوال ذكرناها عن أهل العلم وإذ كان ذلك كذلك وكان المعروف من معنى الحرد فى كلام العرب القصد من قولهم قد حرد فلان إذا قصد قصده (29/ 19) . وقال ابن حجر : وحكى أبو عبيدة فيه أقوالا اخرى : القصد والمنع والغضب والحقد (فتح الباري 8/ 506) .

(91/776)

قد جاء سيل كان من أمر اللّه يحرد حرد الجنة المغلّه

«1» [908] وقال آخر: على حرد: على غضب. قال الأشهب بن رميلة الذي كان يهاجي الفرزدق:

أسود شرى لاقت أسود خفيّة تساقوا على حرد دماء الأساود

«2» [909].

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ» (42) إذا اشتد الحرب والأمر قيل: قد كشف الأمر عن ساقه. قال قيس بن زهير «3» بن جذيمة العبسىّ:

فإذ شمّرت لك عن ساقها فويها ربيع ولا تسأم

«4» [910].

«تَرْهَقُهُمْ» (43) تغشاهم..

«مَكْظُومٌ «5»» (48) من الغم مثل كظيم..

«لَنُبِذَ بِالْعَراءِ» (49) لألقى بوجه الأرض قال رجل من خزاعة يقال له قيس ابن جعدة أحد الفزارين:

دفعت رجالا لا أخاف عثارها ونبذت بالبلد العراء ثيابى

«6» [911].

«لَيُزْلِقُونَكَ» (51) ولينقذونك وكل ذاك إزلاق. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2

---

(1) . - 908 : الرجز لقرب بن المستفيد حسب قول ابن السيد فى شرح الكامل كما فى الخزانة 4/ 343 وهو فى الكامل ص 33 والطبري 29/ 19 والقرطبي 18/ 242 وشواهد الكشاف 254 .

(2) . - 909 : فى الكامل ص 33 ، 438 ، والطبري 29/ 19 والقرطين 2/ 177 ، والسمط ص 35 ، ومعجم ما استعجم 3/ 785 ، والعيني 1/ 482 والخزانة 2/ . 508

(3) . - 6 قيس بن زهير : انظر ترجمته فى السمط ص . 582

(4) . - 910 : فى اللسان (ويه) .

(5) . - 9 «مكظوم» رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 6/ 324 ، 8/ 508) .

(6) . - 911 : فى الطبري 29/ 25 وهو يشبه بيتا لأبى خراش الهذلي وهو :

ورفّعت ساقا لا يخاف عثارها وطرّحت عنى بالعراء ثيابى

(ديوان الهذليين 2/ 168) . وفى اللسان (نشا) قال ابن برى قال أبو عبيدة فى المجاز فى آخر سورة «ن والقلم» إن البيت لقيس بن جعدة الخزاعي . [. . . . .]

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «ن والقلم»

[سورة القلم (68) : آية 42]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42)

قوله سبحانه: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ [42] وهذه استعارة. والمراد بها الكناية عن هول الأمر وشدته، وعظم الخطب وفظاعته. لأن من عادة الناس أن يشمّروا عن سوقهم عند الأمور الصّعبة، التي يحتاج فيها إلى المعاركة، ويفزع عندها إلى الدفاع والممانعة. فيكون تشمير الذيول عند ذلك أمكن للقراع، وأصدق للمصاع.

وقد جاء فى أشعارهم ذكر ذلك فى غير موضع. قال قيس «1» بن زهير بن جذيمة العبسي:

---

(1) قيس بن زهير هو صاحب الفرسين: داحس والغبراء وبسببهما قامت الحرب بين

عبس وذبيان ودامت أربعين سنة . وتجد أخباره فى «اللسان» و«أيام العرب» و«الشعر والشعراء» و«شعراء النصرانية» وغيرها .

(93/776)

فإن «1» شمّرت لك عن ساقها فويها ربيع فلا تسأم «2»

وقال الآخر «3»:

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

[سورة القلم (68): آية 44]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44)

وقوله سبحانه: فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [44] وهذه استعارة . ولها نظائر فى القرآن . منها قوله تعالى: وَذَرْنِي «4» وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا وقوله سبحانه: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «5» ومعنى ذلك أن الكلام خرج على مذهب للعرب معروف ، وغرض مقصود . يقول قائلهم لمخاطبه إذا أراد تغليظ الوعيد لغيره: ذرنى وفلانا فستعلم ما أنزله به . فالمراد إذن بهذا الخطاب النبي صلّى اللّه عليه وعلى آله . فكأنه تعالى قال له: ذر عقابى وهؤلاء المكذبين . أي «6» اترك

مسألتى فى التخفيف عنهم ، والإبقاء عليهم . لأن اللّه سبحانه لا يجوز عليه المنع ، فيصح معنى قوله تعالى لنبيّه عليه السلام: ذرنى وكذا ، لأنه المالك لا ينازع ، والقادر لا يدافع .

[سورة القلم (68) : آية 51]

وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)

وقوله تعالى: وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ [51]

---

(1) فى الأصل «فإذا» وهو تحريف من الناسخ به ينكسر الوزن .

(2) هكذا بالأصل . وفى «شعراء النصرانية» ص 927 يروى هكذا :

فإن شمرت لك عن ساقها فويها ربيع ولم يسأموا

(3) هو رويشد بن رميض العنبري المعروف بشريح بن ضبيعة ، كما فى هامش «العقد الفريد» ج 4 ص 120 طبع لجنة التأليف والترجمة . وفى «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقى بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون أن اسمه رشيد بن رميض ، لا رويشد . ويرجح الأستاذ هارون أنه العنزي ، لا العنبري ، نسبة إلى بنى عنزة ، ص 354 .

(4) فى الأصل: فذرنى بالفاء . وهو تحريف . والصواب بالواو . سورة المزمل . الآية رقم 11 .

(5) سورة المدثر . الآية رقم 11 .

(6) فى الأصل «أ نترك» وهو تحريف من الناسخ .

(94/776)

وهذه استعارة . والمراد بالإزلاق هاهنا : إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض . وذلك خارج على طريقة للعرب معروفة . يقول القائل منهم: نظر إلىّ فلان نظرا يكاد يصرعنى به . وذلك لا يكون إلا نظر المقت والإبغاض ، وعند النزاع والخصام . وقال الشاعر «1»:

يتقارضون إذا التقوا فى موقف نظرا يزيل مواقف الأقدام

وقد أنكر بعض العلماء أن يكون المراد بقوله تعالى: لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ الإصابة بالعين ، لأن هذا من نظر السخط والعداوة ، وذلك من نظر الاستحسان والمحبّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 341.343 ﴾

---

(1) لم يذكر «لسان العرب» اسم الشاعر وفى شرح «شواهد الكشاف» لم ينسب لقائل أيضا . انظر اللسان مادة قرض . وقد استشهد الزمخشري بهذا البيت فى حديثه عن هذه الآيات بالذات ، ولكنه روى «نظرا يزل» بدلا من «يزيل» .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القلم

" ن والقلم وما يسطرون " . هل القلم المقسم به هو أداة المعرفة العامة ؟ ربما ، فالكتابة من أهم وسائل المعرفة . أو المقصود كتابة القرآن نفسه وتسجيل ما حوى من حكمة بالغة ؟ هذا هو الأظهر هنا . فالقرآن الكريم أهم كتاب ظهر فى الدنيا ، وهو من ألفه إلى يائه وحى خالص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد اختار الله لتبليغه الإنسان الأول فى الوجود فكرا وشرفا وسيرة ، فلا قيمة لكلام الأعداء " ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم " . أما أعداء الوحى ، فنفر من الناس لا يزينهم شىء ، وستكشف الأيام عن دعاواهم وأحوالهم – وقد كشفت – فذهبوا بددا وبقى الإسلام . وقوله تعالى " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة " ، يفيد أن مشركى مكة سوف يتأبون على الإسلام أولا ثم يعرفون الحق ، ويدخلون فيه وينصرونه . وذاك ما وقع ! فإن ملاك الحديقة المذكورة شحوا بحق الفقراء فيها ، فأهلك الله ثمرها فلما ندموا على

رذيلتهم " قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون " . ومن يرغب إلى الله يتب الله عليه ، ويلقه بقبول حسن . وقد أعز الله قريشا بالإسلام بعد ما أهانت نفسها بالكفر . أما المصرون على زيغهم فلا مستقبل لهم " أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون " ؟ ومنطق الكفار فى شتى الأحوال لا يسانده عقل ولا نقل ، ولذلك قال الله سبحانه متهكما بهم " أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون " . إنه لا شىء لديهم يستندون إليه سوى الغرور والتعلق بالأوهام . وأمامهم حساب شاق يندمون فيه ، ولات ساعة مندم " يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون " . وكشف الساق مثل لبلوغ الأمر غاية

(96/776)

ولا عذر للكافرين فى هذا الموقف ؟ فقد خوطبوا فعاندوا ، وأعطوا فرصا شتى فأضاعوها " فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون " . وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالبلاغ والصبر على متاعبه وتحمل أذى المشركين مهما بلغ " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . . " . وقد مرت على صاحب الرسالة ليال كالحة عانى فيها من الحرج والألم ما يهز الرواسى ، ولكنه ثبت حتى أدى الأمانة كاملة .

وترك رسالة يحرسها جيل جليل نفخ فيه من روحه وبأسه فنشرها فى العالمين . وعالمية الإسلام مذكورة فى آيات كثيرة ، وبدأ ذلك فى أوائل الوحى النازل بمكة " وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين " . لقد عرف محمد أنه رسول العالم أجمع من وقت مبكر . فسورة القلم المكية من أوائل السور نزولا . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 474 . 475 ﴾

(97/776)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(98/776)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة ن

أقول: لما ذكر سبحانه في آخر تبارك التهديد بتغوير الماء ، استظهر عليه في هذه السورة

بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطاف عليه فيها ، وهم نائمون ، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً ، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة ، فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب ، ولهذا قال: (وَهُم نائمون فأَصبحت كالصريم) وقال هناك: (إِن أَصبحَ ماؤكُم غوراً) إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 142.141 ﴾

(99/776)

قوله تعالى ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الإحاطة الكاملة فهو على كل شيء قدير لأنه بكل شيء عليم (الرحمن) الذي عمت نعمة إيجاده لأهل معاده البرئ منهم والسقيم (الرحيم) الذي أتم تلك النعمة على من وفقه لطاعته فألزمه الصراط المستقيم .

لما أبهم الضال والمهتدي في آخر " الملك " والمسيء والمحسن في العمل أولها ، وختم بآية الماء المعين الذي دلت حروفه بمجموعها على تمام معناه ، ودل كل واحد منها على شيء منه ، فدلت ميمه على تمام شيء ظاهر ، وعينه على آية هادية ، وياؤه على قائم ملطف متنزل مع كل مقام ، ونونه على مظهر مبين محيط بما أظهره ، وردهم سبحانه إليه بعد شرادهم عنه بالاستفهام في هذه الآية بما نبههم عليه من عجزهم وعجز كل من يدعونه من دونه وأنه لا يقدر على الإتيان بذلك الماء الذي هو حياة الأشباح بعد ذهابه إلا من تمت قدرته ، فكان قادراً على كل ما يريد ، وكان لا يقدر على كل ما يريده إلا من كمل علمه الذي يحيي به ميت الأرواح ، دل على شمول قدرته بكمال علمه بما أفاده على النبي الكريم الأمي من العلوم التي زخرت بحارها ، فأحيا مدرارها ، وأغرق تيارها ، فافتتح هذه السورة بكلمة البيان وهو اسم الحرف الذي هو آخر حروف تلك ، ومن لوازم بعض ما دل عليه الماء الذي هو الحياة المصححة ، ونبه على نصبه له سبحانه دليلاً على العلم بما دل عليه من مخرج مسماه وصفاته ومواقعه في الكلم في جميع تقلباته فقال : ﴿ ن ﴾ هذه الكلمة حرف من حروف المعجم وهي اسم لمسمى به ظهور الأشياء وعلمها وإدراكها

كما دل عليه موقعه في اسم النور والنار والنيل والنمو والنباهة والنقاء والنصح والنبأ والنجابة والنجاة والنحت والندم ، وقد تقدم في البقرة عن أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : لكل كتاب سر وسر القرآن هذه الحروف ، ولا يعلم ما هي إلا واضعها سبحانه .

(101/776)

ولما كان هذا الحرف مشتركاً في اللغة بين حرف المعجم والدواة والحوت وشفرة السيف ، سكن للدلالة بادىء بدء على أنه حرف ، ولا يمنع إسكانه المتأصل في البناء من إرادة بقية المعاني لأن العرب ربما سكنت الكلمة بنية الوقف تنبيهاً على عظمة معناها ، فلا يلزم من الإسكان عن غير عامل البناء ، وقيل : النون اللوح ، والنونة الكلمة من الصواب ، والسمكة ، فهو صالح لحرف المعجم الكلي الصالح لكل فرد ، وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه أخر حروف الرحمن والدواة لما يتأثر عنها من العلوم ، والحوت الذي على ظهره الكون واسمه اليهموت لما في ذلك من عجائب القدر والأسرار ، ويكون الإقسام وقع بالنون والقلم علواً للإحاطة ، والسيف لما يتأثر عنه من جليل الآثار ، وكيفما كان المراد فهو

الإحاطة ، وهو سر باطن لا يظهر ، وإنما تظهر نتائجه ، فهو الحكم ونتائجه القضاء والقدر بالإشقاء أو الإسعاد .

(102/776)

ولما كان هذا الحرف آية الكشف للأشياء كان مخرجه أمكن المخارج وأيسرها وأخفها وأوسعها وهو رأس المقول ، فإنه يخرج مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا من اللثة ، وهو أخرج من مخرج اللام ومن مخرج الراء أيضاً ، وتسمى هذه الحروف الثلاثة الزلقية مع بقية حروف " فر من لب " لأن طرف كل شيء زلقة ، والنون أمكنها في هذا المخرج وأشدها انطباقاً فيما بين اللسان واللثة ، وهو مما كرر مسماه في اسمه فانتهى إلى حيث ابتدأ ، واختص بكون عماده وقوامه الحرف الأقوى الأظهر ذا الرفعة والعلو وهو الواو والزلقية التي هو أحدها ضد المصمتة وهي أخف الحروف على اللسان وأكثرها امتزاجاً بغيرها ، وأما المصمتة فمنعت أن تنفرد بنفسها في لغة العرب في كلمة هي أكثر من ثلاثة أحرف ، بل لا بد أن يكون معها بعض الزلقية ، والألف خارجة عن الصنفين لأنها مجرد إهواء لا مستقر لها ، فقد ناسبت بمخرجها لسعته وخفته ووصفها بالزلاقة التي تقع لما اتصف بها من الحروف الكمال غنية عن سواها ولا يقع لما لم يخالطها كمال فيما ذكر ما ذكر من أن معناها

البيان والإظهار ومن صفاتها الجهر وبين الشدة والرخاوة والانفتاح والاستفال ، والغنة الخارجة من الخيشوم إذا سكن ، وكل هذا واضح في العلم الذي له الاتساع والانتشار والتغلغل في الأشياء الباطنة ، ويشاركه الميم في الغنة كما أنه يشاركه في أن له حظاً من الظهور والنون وهو الأصل في الغنة كما أنه الأصل في الظهور لما له من العلو بالعماد ، وهو أيضاً من حروف الذبذبة والزيادة التي لا تستقر على حال فتقع مرة زوائد وأخرى أصولاً كما أن العلم أيضاً كذلك لا استقرار له بل مهما وسعته اتسع ، ومهما تركته اضمحل وانجمع ، وهو من حروف الأبدال التي تبدل من غيرها ولا يكون غيرها بدلاً منها فلازب ولازم الميم بدل من الباء بخلاف العكس كما أن العلم أصل يتبعه غيره ولا يكون هو تابعاً لغيره ، وهو من الحروف الصحيحة وليست معتلة ، والعلم جدير بهذا

(103/776)

الوصف وهو إذا كان مخفي من الحروف المشربة ويقال لها المخالطة – بكسر اللام وفتحها ، وهي التي اتسعت فيها العرب فزادتها على التسعة والعشرين المستعملة وهي من الحروف الصم وهي ما عدا الحلقية ، سميت بذلك لتمكنها في خروجها من الفم واستحكامها فيه ، يقال للمحكم المصتم والعلم أشد ما يكون مناسبة لهذا الوصف ، فقد

انطبقت بمخرجها وجميع صفاتها على العلم الذي هو مقصود السورة فتبين حقاً أنه مقصودها ، وأما رتبة القلم في بيان العلم وإظهاره وكشف خفاياه وأسراره وبثه وإشهاره فهي بحيث لا يجهلها أحد اتصف بالعقل ، ومما يختص به هذا الحرف أنه يصحب كل حرف لأن حده هو ما يعبر عنه التنوين الذي انتظامه بالحركات هو ما آيته العلم المكمل به الحياة التي هي آية ما يعبر عنه هذه الحركات ، فلما كانت هذه الحركات آية على ما هو الحياة كان التنوين عقبها آية على ما به كمال الحياة من العلم ، وهو سبب لما به القيام من الظهور ، ومن معناه اسمه تعالى النور ، ثم هو اسم لكل ما يظهر ما خفي باطناً كالعلم في الإدراك الذي تظهر حقائق الأشياء به ، وظاهراً كالنيرين للعيون ، وسائر الأنوار الظاهرة والباطنة ، وما هو وسيلة الظهور كالعيون مما به تشاهد الأشياء ويظهر به صورها ، والدواة التي منها مداد ما كتب بالقلم في العوالم أعلاها وأدناها وكل آلة يتوصل بها إلى إظهار صورة تكون تماماً كماء المزن الذي هو مداد كل شيء كوّن الله به الكائنات والبادئات " وجعلنا من الماء كل شيء حي " ومنه معنى النجم النباتي الذي هو للشجر بمنزلة الفول للبشر متلبساً بالنور – بالفتح – الذي فيه حظ من النور – بالضم – والذرء الذي هو ظاهر في نفسه مظهر لطرق الاهتداء ، وكذلك الأمر في النار المخلصة من رتبة ظلمتها التي هي غايتها بالرماد ، وابتداؤها بما يخرج منه من شجر وحديد وحجر .

ولما كان هذا الحرف اسماً لما به ظهور أمر لم يختص بشيء من المظهرات دون آخر بل شمل النور والحاسة والمراد والمادة ، ولذلك كان مع الكاف الذي هو علم التكوين سبب ظهور كل شيء ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : 40] ولصدقه على كل مظهر فسره ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بالدواة ففسر بما يستمد منه القلم ، وليلحظ موقعه في نجد فإنه اسم لما ارتفع من الأرض وظهر في نفسه وأظهر غيره ، وفي نهود الجارية وهو ظهور نهدها ، وفي النهب وهو ما أخذ أخذاً ظاهراً كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم " وفي النفخ والنفع والنصر والنقر والنقب وما أشبهها فإنها كلها ظهور وإظهار كالنم والمن والنمؤ ولأجل علوه واستبطانه وأنه استغراق المظهر المبين كانت إقامته يتعالى الألف وهو الواو وانتهاؤه إلى مثل ما بدأ به ، ولكون الميم تماماً كان قوامه بمتنزل كالألف التي هي الياء في قولك ميم ، ولرجوع الواو إلى علو الألف كان عمادها الألف في قولك " واو " وهذه الحروف الثلاثة ظاهرة في عالمين ظاهرهما المبدوء به وباطنهما المختوم به ، فالنون الأولى يعبر بها عن نور الأبصار ، والخاتمة يعبر بها عن نور القلب ، ولما كان الهاء وتر الدال ، وكان محيطاً باطناً غيباً وجب أن يكون محل تضعيفه بالياء محل محيط باطن نازل الرتبة في الغيب عن الهاء لوقوعه في رتب العشرات وهو النون ، فكان ظاهراً بالإضافة إلى خفاء الهاء باطناً بالإضافة إلى ظهور

الميم ، فيكون بالنون ظهور الميم المعبر عن " الملك " الذي سبق في السورة الماضية كما كان شهادة الدال وثبوته بالهاء .

(105/776)

ولذلك انبنى تمام كل عمل على نور علم كما كان قوام ظاهر كل دال غير هاء ، وكان النون مداداً لمثل العلم الذي يظهر صورها بسطر القلم حتى أن آية ما بطن منه فأظهره القلم هو ما بطن دون الأرض من النون الذي عليه الأرض الذي أول ما يطعمه أهل الجنة زيادة كبده مع الثور الذي عليه الأرض أيضاً الذي يذبح لهم – على ما ورد في الخبر ، وقابل استبطان النون في الأرض ظهور القاف على ظاهرها الذي هو جبل الزبرجد المحيط بالدنيا ، وعن ذلك الاستيلاء على القلوب في الدنيا إنما يكون بالعلم الذي هو حقيقة نون كما أن الاستيلاء على الأجسام في ظاهر الدنيا إنما يكون بالقدرة التي هي حقيقة قاف على ما يظهر من إجالتي العلماء في النون الأبطن والملوك في القاف الأظهر ، وهذان الصنفان من الخلق هما المستوليان على الناس بالأيالة ونفوذ الأمر ، ولذلك أقيم المفصل من القرآن بحرفي قاف ونون ، واقترن أيضاً هذان الحرفان في كلمة القرآن ولفظ الفرقان اللذين هما في ظواهر أسمائه ، وإنما كان أول ما يطعمه أهل الجنة من الثور الذي عليه الدنيا الذي كان يرعى في أطراف

الجنة – على ما ورد عنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأن صورة الثور هي معنى ما هو الكد والكدح وجهد العمل في الأرض الذي قام عليه أمر الدنيا ، ولما كان أهل الدنيا أول ما يراحون منه من أمر الدنيا تقديم أمر الكد بين يدي معاشهم في الجنة ، كان الذي يذبح لهم الثور الذي هو صورة كدهم فيأكلونه فهو جزاء ما عملوا به في دنياهم من حيث كانوا ذوي دين ، فاستحقوا بذلك جزاء كدهم بما هو صورته ، وأضيف لذلك زيادة كبد النون التي هي صورة حظهم من أصل العلم فأطعموها وجوزوا بها ، وروعي في أعمالهم حسن نيتهم في أصل دينهم ، فلما أتوا عليهما استقبلوا الراحة والخروج عن الكلفة في معاشهم في الجنة ، والذي جرهم به سبحانه إلى سني هذه الرتبة ما أتقنه بحكمته من ثناء المفصل القرآني على حرفي القاف الذي به القوة والقهر

(106/776)

والقدرة ، والنون الذي به إظهار ذلك للعقل بنور العلم ، وذلك أن القرآن نزله سبحانه مثاني ، ضمّن ما عدا المفصل منه الذي هو من قاف إلى خاتمة الكتاب العزيز ، وفاتحته ما يختص بأولي العلم والفقه من مبسوطات الحكم ومحكمات الأحكام ومطولات الأقاصيص ومتشابه الآيات ، والسور المفتتحة بالحروف العلية الإحاطة الغيبية المنحى المستندة إلى

آحاد الأعداد مما يختص بعلم ظاهرها خاصة الأمة ، ويختص بأمر باطنها آل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلعلو رتبة إيراد ما عدا المفصل ثنى الحق تعالى الخطاب وانتظمه في سور كثيرة العدد يسيرة عد الآي هي المفصل ، ذكر فيها من أطراف القصص والمواعظ والأحكام والأنباء وأمر الجزاء ما يليق بسماع العامة ليسهل عليهم سماعه وليأخذوا بحظ مما أخذ الخاصة ، ويتكرر على أسماعهم في قراءة الأئمة له في الصلوات المفروضة التي لا مندوحة لهم عنها ما يكون لهم خلقاً مما يفوتهم من مضمون سائر السور المطولات ، فكان أحق ما افتتح به مفصلهم حرف القاف الذي هو وتر الآحاد حتى صارت عشرة ، ثم إذا ضربت في نفسها صارت مائة ، فافتتح به المفصل ، ليكون مضمون ما يحتوي عليه أظهر مما يحتوي عليه ما افتتح بآلم ، ولذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يقرأ في خطبة الجمعة سورة " ق " فيفتتح للعامة المتوجه بخطبة يوم الجمعة إليهم لأنها صلاة جامعة الظاهر بفاتحة المفصل الخاص ، وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه كفاية ، وشفعت بسورة " ن " المظهرة ظاهر " ق " فخصوا بما فيه القهر والإبانة ، واختصت سورة " ن " من مقتضى العلم بما هو محيط بأمر العامة المنتهي إلى غاية الذكر الشامل للعالمين ، لأن القوة المعربة عن العلم ربما كان ضررها أكثر من نفعها ، كما قال بعض السلف : كل عز لم يوطده علم فإلى ذل يؤول ، وكما كان جميع السور التسع والعشرين المفتتحة بالحروف المتضمنة للمراتب التسع في التسعة

وللعاشر الجامع للمراتب التسع بإيتار آحادها والعاشر الجامع يضرب العشر الموتر في نفسه قواماً وإحاطة في جميع القرآن كذلك كان سورة " ق " وسورة " ن " قواماً خاصاً وإحاطة خاصة بما يخص العامة من القرآن الذي يجمعهم الأرض بما أحاط من ظاهرها من صورة جبل " ق " وما أحاط بباطنها من صورة حيوان " ن " الذين تمام أمرهم بما بين مددي إقامتهما ، وبهذه السورة المفتتحة بالحروف ظهر اختصاص القرآن وتميز عن سائر الكتب لتضمنه الإحاطة التي لا تكون إلا للخاتم الجامع ، واقترن من التفصيل في سورها ما يليق بإحاطتها ، ولإحاطة معانيها وإبهامها كان كل ما فسرت به من معنى يرجع إلى مقتضاها صحيحاً في إحاطتها بمتنزلها من أسماء الله وترتبها في جميع العوالم فلا يخطىء فيها مفسر لذلك لأنه كلما قصد وجهاً من التفسير لم يخرج عن إحاطة ما يقتضيه ، ومهما فسرت به من أسماء الله أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الأنبياء أو من مثل الأشياء أو صور الموجودات أو من أنها أقسام أقسم بها أو فواتح عرفت بها السور أو أعداد تدل على حوادث وحظوظ من ظاهر الأمر أو باطنه على اختلاف رتب وأحوال مما أعطيه المنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مقدار أمد الخلافة والملك والسلطنة وما ينتهي إليه أمره

من ظهور الهداية ونحو ذلك مما يحيط بأمد يومه إلى غير ذلك وكل داخل في إحاطتها ، ولذلك أيضاً لا يختص بمحل مخصوص يلزمه علامة إعراب مخصوصة ، فمهما قدر في مواقعها من هذه السورة جراً أو رفعاً أو نصباً فداخل في إحاطة رتبتها ولم يلزمها معنى خاص لما لم يكن لها انتظام ، لأنها مستقلات محيطات ، وإنما ينتظم ما يتم معنى كل واحد من المنتظمين بحصول الانتظام ، وذلك يختص من الكلم بما يقصر عن إحاطة مضمون الحروف حتى أنه متى وقع استقلال وإحاطة في كلمة لم يقع فيها انتظام .

(108/776)

ولما كان قوام هذا الوجود بالسيف والقلم ، وكان " نون " مشتركاً بين معان منها السيف والدواة التي هي آلة القلم ، واللوح الذي هو محل ما يثبت من العلم ، وكان السيف قد تقدم في حيز القاف الذي افتتحت به سورة " ق " كما هو أنسب لتضمنه القوة والقدرة والقهر في سورة الحديد بعد الوعظ والتهديد والتذكير بالنعم في السورة الواقعة بينهما ، ذكر هنا ما هو لحيز النون من آية العلم فقال مقسماً بعد حرف " ن " : ﴿ والقلم ﴾ أي قلم القدرة الذي هو أول ما أبدعه الله ، ثم قال له : اكتب ، فخط جميع الكائنات إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ حقيقة ، وفي ألواح صفحات الكائنات حالاً ومجازاً ، فأظهر جميع العلوم ، ثم ختم على فيه

فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ، والذي يكتب فيه الخلق ما نولهم الله من تلك المعارف والفهوم ، وذلك هو قوام أمور الدنيا ، والإشارة به إلى القضاء الذي هو من نتائج " ن " لأنه من مصنوعات الله الظاهرة التي اقتضت حكمته سبحانه إيجادها ووجهه إلى تفصيل ما جرى به الحكم .

ولما كان الحاصل بالقلم من بث الأخبار ونشر العلوم على تشعبها والأسرار ما يفوق الحصر ، فصار كأنه العالم المطيق واللسن المنطيق ، وكان المراد به الجنس أسند إليه كما يسند إلى العقلاء فقال : ﴿ وما يسطرون ﴾ أي قلم القدرة ، وجمعه وأجراه مجرى أولي العلم للتعظيم لأنه فعل أفعالهم ، أو الأقلام على إرادة الجنس ، ويجوز أن يكون الإسناد إلى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره ، إما الملائكة إن كان المراد ما كتب في الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه ، وإما كل من يكتب منهم ومن غيرهم حتى أصحاب الصحيفة الظالمة التي تقاسموا فيها على أن يقاطعوا بني هاشم ومن لافهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصنعون به ما شاؤوا ، وكيف ما كان فهو إشارة إلى المقدر لأنه إنما يسطر ما قضى به وحكم .

(109/776)

ولما كان المخاطب بهذا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عاشر المرسل إليهم دهراً طويلاً وزمناً مديداً أربعين سنة وهو أعلاهم قدراً وأطهرهم خلائق وأمتنهم عقلاً وأحكمهم رأياً وأرأفهم وأرفعهم عن شوائب الأدناس همة وأزكاهم نفساً بحيث إنه لا يدعى بينهم إلا بالأمين ولم يتجدد له شيء يستحق به أن يصفوه بسببه بالجنون الذي ينشأ عنه الضلال عن المقاصد المذكور آخر الملك في قوله

﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ [الملك : 29] إلا النعمة التي ما نال أحد قط مثلها في دهر من الدهور ولا عصر من الأعصار ، قال مجيباً هذا القسم العظيم راداً عليهم بأجلى ما يكون وأدله على المراد تأنيساً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أوجب افتراؤهم عليه له من الوحشة وشرحاً لصدره وتهدئة لسره : ﴿ ما أنت ﴾ أي يا أعلى المتأهلين لخطابنا ﴿ بنعمة ﴾ أي بسبب إنعام ﴿ ربك ﴾ المربي لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذي هو جامع لكل علم وحكمة ، وأكد النفي زيادة في شرفه صل الله عليه وسلم فقال : ﴿ بمجنون ﴾ أي بل الذي وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون ومعناه فضلاً عن الضلال الذي ردد في آخر تلك بينك وبينهم فيه سلوكاً لسبيل الإنصاف لينظروا في تلك بالأدلة فيعلموا ضلالهم وهدايتك بالدليل القطعي بالنظر في الآثار المظهرة لذلك غاية الإظهار ، فنفى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشقاوة التي سببها فساد العقل فثبتت السعادة التي سببها صلاح العقل ونعمة الرب له .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة الملك من عظيم البراهين ما يعجز العقول عن استيفاء الاعتبار ببعضه كالاعتبار بخلق السماوات في قوله تعالى ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ﴾ [الملك 3] أي يطابق بعضها بعضاً من طابق النعل - إذا خصفها طبقاً على طبق ، ويشعر هذا بتساويها في مساحة أقطارها ومقادير أجرامها - والله أعلم ، ووقع الوصف بالمصدر يشعر باستحكام مطابقة بعضها لبعض إنباء منه سبحانه وتعالى أنها من عظم أجرامها وتباعد أقطارها يطابق بعضها بعضاً من غير زيادة ولا نقص ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ [الملك : 3] أي من اختلاف واضطراب في الخلقة أو تناقض ، إنما هي مستوية مستقيمة ، وجيء بالظاهر في قوله تعالى ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ [الملك : 3] ولم يقل : ما ترى فيه من تفاوت - ليشعر أن جميع المخلوقات جار على هذا ، كل شكل يناسب شكله ، لا تفاوت في شيء من ذلك ولا اضطراب ، فأعطى الظاهر من التعميم ما لم يكن يعطيه الإضمار كما أشعر خصوص اسم الرحمن بما في هذ الأدلة المبسوطة من الرحمة للخلائق لمن رزق الاعتبار ، ثم نبه تعالى على ما يرفع الريب ويزيح الإشكال في ذلك فقال : ﴿ فارجع البصر ﴾ [الملك : 3] أي عاود

الاعتبار وتأمل ما تشاهده من هذه المخلوقات حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ولا يبقى معك في ذلك شبهة

(111/776)

﴿ هل ترى من فطور ﴾ [الملك : 3] أي من صدوع وشقوق ، ثم أمر تعالى بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتمتعاً هل تجد عيباً أو خللاً ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ [الملك : 4] أي إنك إذا فعلت هذا رجع بصرك بعيداً عن إصابة الملتمس كأنه يطرد عن ذلك طرداً بالصغار وبالإعياء وبالكلال لطول الإجابة والترديد ، وأمر برجوع البصر ليكون في ذلك استجمامه واستعداده حتى لا يقع بالرجعة الأولى التي يمكن فيها الغفلة والذهول إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة إذ معنى التثنية في قوله "كرتين" التكرير كقولهم : لبيك وسعديك فيحسر البصر من طول التكرار ولا يعثر على شيء من فطور ، فلو لم تنطو السورة على غير ما وقع من أوله إلى هنا لكان في ذلك أعظم معتبر ، وأوضح دليل لمن استبصر ، إذ هذا الاعتبار بما ذكر من عمومه جار في كل المخلوقات ولا يستقل بفهم مجاريه إلا آحاد من العقلاء بعد التحريك والتنبيه ، فشهادته بنبوة الآتي به قائمة واضحة ، ثم قد تكررت في السورة دلالات كقوله ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك : 5]

وقوله ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] الآيات إلى آخر السورة ، وأدناها كاف في الاعتبار فأنى يصدر بعض عن متصف ببعض ما هزئوا به في قولهم : مجنون وساحر وشاعر وكذاب ، ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين : 14] فلعظيم ما انطوت عليه سورة الملك من البراهين اتبعت بتنزيه الآتي بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما تقوله المبطلون مقسماً على ذلك زيادة في التعظيم ، تأكياً في التعزير والتكرير فقال تعالى ﴿ ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 1 ، 2] وأنى يصح من مجنون تصور بعض تلك البراهين قد انقطعت دونها أنظار العقلاء فكيف ببسطها وإيضاحها في نسق موجز ، ونظم معجز ، وتلاؤم يبهر العقول ، وعبارة تفوق كل مقول ، تعرف ولا تدرك ، وتستوضح سبلها فلا تسلك ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على

(112/776)

أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 88] فقوله سبحانه وتعالى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 2] جواباً لقوله تعالى في آخر السورة إنه لمجنون ، وتقدم الجواب بنفي قولهم والتنزيه عنه على حكاية قولهم ليكون أبلغ في إجلاله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ وأخف وقعاً عليه وأبسط لحاله في تلقي ذلك منهم ، ولهذا قدم مدحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما خص به من الخلق العظيم ، فكان هذا أوقع في الإجلال من تقديم قولهم ثم رده إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزيه عنها أتم في الغرض وأكمل ، ولا موضع أليق بذكر تنزيهه عليه الصلاة والسلام ، ووصفه من الخلق والمنح الكريمة بما وصف مما أعقب به ذلك إذ بعض ما تضمنته سورة الملك بما تقدم الإيماء إليه شاهد قاطع لكل عاقل متصف بصحة نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجليل صدقه

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : 82] فقد تبين موقع هذه السورة هنا ، وتلاؤم ما بعده من آيها يذكر في التفسير – انتهى .

(113/776)

ولما نفى سبحانه عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قالوه مما تواقحوا به ، فثبت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمال العقل ، وكان المجنون من لا يكون له عمل ينتظم ولا قول يرتبط ، فلا يستعمله أحد في شيء ليكون له عليه أجر ، أثبت له الأجر المستلزم للعقل فيتحقق إثباته من أحكم الحكماء على وجه أبلغ مما لو صرح به ، فقال على وجه التأكيد لإنكارهم له بما ادعوا فيه من البهت : ﴿ وإن لك ﴾ أي على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى صبرك

عليهم بما يرمونك به وهو تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ لأجراً ﴾ ولما أثبت له ما يلازم العقل ويصلح لأن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة دالاً بتنوينه وما أفهمه السياق من مدحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عظمته ، وكان الأجر لا يستلزم الدوام ، وقد يكون منغصاً بنوع منة قال : ﴿ غير ممنون ﴾ أي مقطوع ولا منقوص في دنياك ولا في آخرتك ولا لأحد من الناس عليك به صنيع يمتن به بأن يذكره على سبيل اللوم والتقريع ، فهذا بيان السعادة ، والأجر لا يكون إلا على العمل الصالح ، والعمل رشح الأخلاق ، فصالحه نتيجة الأخلاق الحسنة والعقل الراجح .

(114/776)

ولما ثبت بهذا العقل مع ما أفاده من الفضل ، وكان الذي يؤجر قد يكون في أدنى رتب العقل ، بين أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أعلاها بقوله مؤكداً لما مضى : ﴿ وإنك ﴾ وزاد في التأكيد لزيادتهم في المكابرة فقال : ﴿ لعلى خلق ﴾ ولما أفهم السياق التعظيم ، صرح به فقال : ﴿ عظيم ﴾ وهو الإسلام الذي دعا إليه القرآن لا بالبلاء ينحرف ، ولا بالعطاء ينصرف ، لأن خلقه – بشهادة أعرف الناس به زوجه أم المؤمنين الصديقة عائشة بنت الصديق أبي بكر ـ رضى الله عنهما ـ – القرآن ، فلا يتحرك ولا يسكن إلا بأمره ونهيه ،

فهذا الخلق نتيجة الهدى والهدى نتيجة العقل ، وهو سبب السعادة ، فأفهم ذلك عدم سعادتهم لعدم عقولهم ، وقال الواسطي : أظهر الله قدرته في عيسى عليه السلام ونفاذه في آصف ، وسخطه وقهره في عصى موسى عليه الصلاة والسلام وأطهر أخلاقه ونعوته في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان متخلقاً بأخلاق الله تعالى والتخلق بأخلاقه أن ينزه علمه عن الجهل وجوده عن البخل وعدله عن الظلم وحلمه عن السفه ، واعلم أن الخلق والخلق صورتان : الخلق صورة الظاهر ، والخلق صورة الباطن ؛ فتناسب الأعضاء الظاهرة يعبر به عن الخلق الحسن ، وتناسب المعاني الباطنة يعبر به عن الخلق الحسن ، ثم الخلق الحسن تارة مع الله ، وتارة مع حكم الله ، وتارة مع الخلق ، فمع الله بالتعظيم والإجلال ومع حكمه بالصبر في الضراء والبأساء والشكر في الرخاء والامتثال للأوامر والانزجار عن النواهي عن طيب قلب مسارعة وسماحة ، وحسن الخلق مع الخلق بث النصفة في المعاملة وحسن المجاملة في العشرة ، روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " الخلق وعاء الدين ، لأن من الخلق يخرج الدين ، وهو الخضوع والخشوع وبذل النفس لله واحتمال المكروه " .

(115/776)

ولما كان الإسلام أشرف الأديان ، أعطاه الله تعالى أقوى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء كما روي أن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء ، ومن الحياء حياة القلب ، فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين ولا يجزي بالسيئة السيئة لكن يعفو ويصفح ويحسن مع ذلك ويجذب بردته حتى يؤثر في عنقه فيلتفت وهو يضحك ويقضي حاجة الجاذب ويحسن إليه ، فقد اشتمل الكلام التدبيري المشار إليه بالنون والقضاء الكلي التأثيري المشار إليه بالقلم والقدر المبرم التفصيلي الواقع على وفق القضاء المشار إليه بالسطر ، ومثال ذلك أن من أراد بناء دولاب احتاج أولاً إلى مهندس يدبر له بعلمه موضع البئر والمدار وموضع المحلة وموضع السهم وموضع الجداول ، ونحو ذلك وهو الحكم التدبيري ، ثانياً إلى صانع يحفر البئر ويبني ونجار يركب الأخشاب على وفق حكمة المهندس ، وهو القضاء التأثيري ، وثالثاً إلى إقامة الثور في موضعه ودوران المحلة بما عليها من القواديس وجري الماء في الجداول على وفق القضاء وهو القدر ، ويحتاج رابعاً وخامساً إلى بيان انقسام المقدر له إلى شقي وسعيد ، فالحكم باطن وهو سر من أسراره سبحانه وتعالى – سبحان من لا يعلم قدره غيره .

ولما أقسم سبحانه على نفي ما بهتوه به ودل على ما وهبه من كمال العقل وتمام الشرف والنبل تصريحاً وتلويحاً فثبت غاية الثبات بأخبار العالم الحكيم ، دل عليه بالمشاهدة على وجه هو من أعلام النبوة للحكم على المستقبل فقال مسبباً عن صادق هذا الإخبار :

﴿ فستبصر ﴾ أي ستعلم يا أعلى الخلق وأشرفهم وأكملهم عن قريب بوعد لا خلف فيه علماً أنت في تحققه كالمبصر بالحسن الباصر ﴿ ويبصرون ﴾ أي يعلم الذين رموك بالبهتان علماً هو كذلك .

(116/776)

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ومن معه فريقاً والأعداء فريقاً ، وقد أبهم آخر الملك الضال في الفريقين قال : ﴿ بأييكم ﴾ أي في أي فريقيكم ﴿ المفتون ﴾ أي بالضلال والجنون حتى صد عن الهدى ودين الحق ، أو بأيكم الفتنة بالجنون وغيره على أن يكون مصدر فتن ، قال الرازي : مصدر مثل المفتون وهو الجنون بلغة قريش كما يقال : ما له معقول وليس له مجلود ، أي عقل وجلادة .

ولما كان هذا إخباراً بجنونهم المستلزم لضلالهم على هذا الوجه المتصف ، وكان مثل هذا قد يقع في محاورات الناس بضرب من الظن ، استأنف تعالى ما هو كالتعليل لما أفاده السياق من هذا الحكم عليهم إعلاماً بأنه ناشىء عن علم قطعي لا مرية فيه بوجه ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يكون الأمر على ما أفاده ما تقدم : إن ربك أي الذي رباك أحسن تربية وجبلك على أعظم الخلائق ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم ﴾ أي من كل أحد لا سيما من

يتحرض ﴿ بمن ضل ﴾ أي حار وجار وذهب وزل وضاع وغاب غيبة عظيمة لا يهتدي منها ، وسلك غير سبيل القصد ، وأخطأ موضع الرشد ، معرضاً ﴿ عن سبيله ﴾ فكان أجن المجانين لأنه سبحانه وتعالى خالقهم ، وشارعه " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " ولا سيما وهو الحي القيوم الذي لا يغفل ﴿ وهو ﴾ أي خاصة ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ أي الثابتين على الهدى وهم أولو الأحلام والنهى ، وهذا سر القدر الذي يقال : إنه إنما يظهر يوم الحاقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 89 ـ 99 ﴾

(117/776)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ن والقلم ﴾ مظهراً : يزيد وأبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وابن كثير ونافع وعاصم غير يحيى وحماد وغالب وهو الأصل للوقف . ووجه الإخفاء نية الوصل ﴿ آن كان ﴾ بهمزتين : حمزة وأبو بكر وحماد ﴿ آن كان ﴾ بقلب الثانية ألفاً ، ابن عامر ويزيد ويعقوب الباقون بهمزة واحدة ﴿ يبدلنا ﴾ بالتشديد : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ لما

تخيرون ﴾ بتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ ليزلقونك ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع الآخرون : بالضم من الإزلاق .

(118/776)

الوقوف : ﴿ يسطرون ﴾ ه ط لأن ما بعده جواب القسم ﴿ لمجنون ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح مستأنفاً وعطفاً على جواب القسم ﴿ ممنون ﴾ ه ج لذلك ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ ويبصرون ﴾ ج لأن ما بعد مفعول ﴿ المفتون ﴾ ه ﴿ سبيله ﴾ ط لاتفاق الجملتين ﴿ بالمهتدين ﴾ ه ﴿ المكذبين ﴾ ه ﴿ فيدهنون ﴾ ه ﴿ مهين ﴾ ه لا ﴿ بنميم ﴾ ه لا ﴿ أثيم ﴾ ه لا ﴿ زنيم ﴾ ه ط لمن قرأ ﴿ أن كان ﴾ مستفهماً ﴿ وبنين ﴾ ه ومن قرأ مقصوراً يقف على البنين دون ﴿ زنيم ﴾ ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ الخرطوم ﴾ ه ﴿ الجنة ﴾ ط لاحتمال أن يكون " إذ " ظرفاً ليكون وأن يكون مفعول " أذكر " محذوفاً ﴿ مصبحين ﴾ ه لا لتعلق أن المفسرة ﴿ صارمين ﴾ ه ﴿ يتخافتون ﴾ ه لا ﴿ مسكين ﴾ ه ﴿ قادرين ﴾ ه ﴿ الضالون ﴾ ه لا لعطف " بل " واتحاد المفعول ﴿ محرومون ﴾ ه ﴿ تسبحون ﴾ ه ﴿ ظالمين ﴾ ه ﴿ يتلاومون ﴾ ه ﴿ طاغين ﴾ ه ﴿ راغبون ﴾ ه ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ أكبر ﴾ م ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ النعيم ﴾ ه ﴿ كالمجرمين ﴾ ه ط ﴿

مالكم ﴾ ص وقفة لطيفة لاستفهام آخر ﴿ تحكمون ﴾ ه ج ﴿ تدرسون ﴾ ه ج لأن ما بعده مفعول ﴿ تدرسون ﴾ وإنما كسرت "أن" لدخول اللام في خبرها ﴿ تخيرون ﴾ ه لا لأن "أم" معادل الاستفهام أو بمعنى ألف الاستفهام ﴿ القيامة ﴾ لا لأن "أن" جواب الأيمان ﴿ تحكمون ﴾ ه ﴿ زعيم ﴾ ه لما مر في ﴿ تخيرون ﴾ ﴿ شركاء ﴾ ج للابتداء بأمر التعجيز مع الفاء ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ فلا يستطيعون ﴾ ه لا لأن ما بعده حال ﴿ ذلة ﴾ ط ﴿ سالمون ﴾ ه ﴿ بهذا الحديث ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ج للعطف ﴿ لهم ﴾ ط ﴿ متين ﴾ ه ﴿ مثقلون ﴾ ه ﴿ يكتبون ﴾ ه ﴿ الحوت ﴾ م بناء على أن "إذ" مفعول "اذكر ﴿ مكظوم ﴾ ه ط ﴿ مذموم ﴾ ه ﴿ الصالحين ﴾ ه ﴿ لمجنون ﴾ ه لئلا يوهم أن ما بعده مقول الكفار ﴿ للعالمين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 333 ﴾

(119/776)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

فصل فى الإسرائيليات في تفسير : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ ﴾

ومن ذلك : ما يذكر كثير من المفسرين في قوله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ ﴾ من أنه الحوت الذي على ظهره الأرض ، ويسمى : "اليهموت" ، وقد ذكر ابن جرير ، والسيوطي روايات عن ابن عباس ، منها : أول ما خلق الله القلم ، فجرى : بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء ، وخلقت منه السماوات ، ثم خلق النون ، فبسطت الأرض عليه ، فاضطرب النون ، فمادت الأرض 1 ، فأثبتت بالجبال ، وقد روي عن ابن عباس أيضا : أنه الدواة ، ولعل هذا هو الأقرب ، والمناسب لذكر القلم ، وقد أنكر الزمخشري ورود نون بمعنى : الدواة في اللغة ، وروى عنه أيضا : أنه الحرف الذي في آخر كلمة : "الرحمن" ، وأن هذا الاسم الجليل فرق في : "الر" و "حم" ، و "ن" .

واضطراب النقل عنه يقلل الثقة بما روي عنه ، ولا سيما الأثر الأول عنه ، والظاهر أنه افتراء عليه ، أو هو من الإسرائيليات ألصق به .

وإليك ما قاله إمام حافظ ، ناقد ، من مدرسة اشتهرت بأصالة النقد ، وهو الإمام ابن قيم الجوزية ، قال في أثناء كلامه على الأحاديث الموضوعة : "ومن هذا : حديث أن قال : جبل من زمردة خضراء ، محيط بالدنيا كإحاطة الحائط بالبستان ، والسماء واضعة أكنافها عليه" .

ومن هذا : حديث : أن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه ، تحركت الصخرة ، فهذا من وضع أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء بالرسل .

1 تحركت ومالت .

(120/776)

الإسرائيليات والموضوعات

الإسرائيليات في تفسير : ن والقلم

وقال الإمام أبو حيان في تفسيره : لا يصح من ذلك شيء ما عدا كونه اسما من أسماء حروف الهجاء 1 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 305 . 306 ﴾

1 وهذا الرأي هو الراجح في فواتح السور من أمثال "الم" و "حم" و "ن" فهي أسماء مسمياتها الحروف الهجائية ، لتكون بمثابة الدليل على إعجاز القرآن ، كأن الله قال : إن القرآن مؤلَّف من جنس هذه الحروف ، ومن كلمات من هذه الحروف وقد تحدى به النبي صلى الله عليه وسلم الإنس والجن فعجزوا ؛ وما ذلك إلا لأنه ليس من كلام بشر ، وإنما هو من عند خالق القوى والقدر .

(121/776)

فصل

قال الفخر :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

﴿ ن ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الأقوال المذكورة في هذا الجنس قد شرحناها في أول سورة البقرة والوجوه الزائدة التي يختص بها هذا الموضع أولها : أن النون هو السمكة ، ومنه في ذكر يونس ﴿ وَذَا النون ﴾ [الأنبياء : 87] وهذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدي ثم القائلون بهذا منهم من قال : إنه قسم بالحوت الذي على ظهره الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى ، ومنهم من قال : إنه قسم بالحوت الذي احتبس يونس عليه السلام في بطنه ، ومنهم من قال : إنه قسم بالحوت الذي لطخ سهم نمروذ بدمه والقول الثاني : وهو أيضاً مروي عن ابن عباس واختيار الضحاك والحسن وقتادة أن النون هو الدواة ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما الشوق يرجع بي إليهم . . ألقت النون بالدمع السجوم

فيكون هذا قسماً بالدواة والقلم ، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة ، فإن التفاهم

تارة يحصل بالنطق و (تارة) يتحرى بالكتابة والقول الثالث : أن النون لوح تكتب الملائكة ما يأمرهم الله به فيه رواه معاوية بن قرة مرفوعاً والقول الرابع : أن النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنا إذا جعلناه مقسماً به وجب إن كان جنساً أن نجره وننونه ، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواة منكرة أو بسمكة منكرة ، كأنه قيل : وسمكة والقلم ، أو قيل : ودواة والقلم ، وإن كان علماً أن نصرفه ونجره أو لا نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف .

والقول الخامس : أن نون ههنا آخر حروف الرحمن فإنه يجتمع من الرحمن ن اسم الرحمن فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الاسم ، والمقصود القسم بتمام هذا الاسم ، وهذا أيضاً ضعيف لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية ، بل الحق أنه إما أن يكون اسماً للسورة أو يكون الغرض منه التحدي أو سائر الوجوه المذكورة في أول سورة البقرة .

المسألة الثانية :

(122/776)

القراء مختلفون في إظهار النون وإخفائه من قوله : ﴿ ن والقلم ﴾ فمن أظهرها فلأنه ينوي بها الوقف بدلالة اجتماع الساكنين فيها ، وإذا كانت موقوفة كانت في تقدير الانفصال مما

بعدها ، وإذا انفصلت مما بعدها وجب التبيين ، لأنها إنما تخفى في حروف الفم عند الاتصال ، ووجه الإخفاء أن همزة الوصل لم تقطع مع هذه الحروف في نحو ﴿ الم * الله ﴾ [آل عمران : 1] وقولهم في العدد واحد اثنان فمن حيث لم تقطع الهمزة معها علمنا أنها في تقدير الوصل وإذا وصلتها أخفيت النون وقد ذكرنا هذا في ﴿ طس ﴾ [النمل : 1] و ﴿ يس ﴾ [يس : 1] وقال الفراء : وإظهارها أعجب إلي لأنها هجاء والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل .

وقوله تعالى : ﴿ والقلم ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن القسم به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به من في السماء ومن في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ الأكرم * الذى عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 3 5] فمنّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منَّ بالنطق فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] ووجه الانتفاع به أن ينزل الغائب منزلة المخاطب فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب والثاني : أن المقسم به هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر أن أول ما خلق الله القلم ، قال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فجرى بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال ، قال : وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ، وروى مجاهد عنه قال : أول ما خلق

الله القلم فقال : اكتب القدر فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه .

(123/776)

قال القاضي : هذا الخبر يجب حمله على المجاز ، لأن القلم الذي هو آلة مخصوصة في الكتابة لا يجوز أن يكون حياً عاقلاً فيؤمر وينهى فإن الجمع بين كونه حيواناً مكلفاً وبين كونه آلة للكتابة محال ، بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف ، بل هو مجرد نفاذ القدرة في المقدور من غير منازعة ولا مدافعة ، ومن الناس من زعم أن القلم المذكور ههنا هو العقل ، وأنه شيء هو كالأصل لجميع المخلوقات ، قالوا : والدليل عليه أنه روي في الأخبار أن أول ما خلق الله القلم ، وفي خبر آخر : أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض ، قالوا : فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد وإلا حصل التناقض .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

اعلم أن ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ، فيحتمل أن يكون المراد وسطرهم ، فيكون القسم واقعاً بنفس الكتابة ، ويحتمل أن يكون المراد المسطور والمكتوب ، وعلى التقديرين فإن حملنا القلم على كل قلم في مخلوقات الله كان المعنى ظاهراً ، وكأنه تعالى أقسم بكل قلم ، وبكل ما يكتب بكل قلم ، وقيل : بل المراد ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون ، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير في ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ لهم ، كأنه قيل : وأصحاب القلم وسطرهم ، أي ومسطوراتهم .

وأما إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ، ولفظ الجمع في قوله : ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ ليس المراد منه الجمع بل التعظيم ، أو يكون المراد تلك الأشياء التي سطرت فيه من الأعمال والأعمار ، وجميع الأمور الكائنة إلى يوم القيامة .

(124/776)

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال :

مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)

اعلم أن قوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

روي عن ابن عباس أنه عليه السلام غاب عن خديجة إلى حراء ، فطلبته فلم تجده ، فإذا به وجهه متغير بلا غبار ، فقالت له مالك ؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام وأنه قال له : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ [العلق : 1] فهو أول ما نزل من القرآن ، قال : ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ وتوضأت ، ثم صلى وصليت معه ركعتين ، وقال : هكذا الصلاة يا محمد ، فذكر عليه الصلاة والسلام ذلك لخديجة ، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها ، وكان قد خالف دين قومه ، ودخل في النصرانية ، فسألته فقال : أرسلي إليَّ محمداً ، فأرسلته فأتاه فقال له : هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو إلى الله أحداً ؟ فقال : لا ، فقال : والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصراً عزيزاً ، ثم مات قبل دعاء الرسول ، ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش فقالوا : إنه لمجنون ، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون ، وهو خمس آيات من أول هذه السورة ، ثم قال ابن عباس : وأول ما نزل قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ ﴾ [الأعلى : 1] وهذه الآية هي الثانية .

المسألة الثانية :

قال الزجاج: ﴿ أَنتَ ﴾ هو اسم ﴿ مَا ﴾ و ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ الخبر، وقوله: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ كلام وقع في البين والمعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله لست بمجنون، وأنت بنعمة الله فهم، وأنت بنعمة الله لست بفقير، ومعناه أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه، وقال عطاء وابن عباس: يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة، وهو جواب لقولهم: ﴿ يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: 6] واعلم أنه تعالى وصفه ههنا بثلاثة أنواع من الصفات.

الصفة الأولى: نفي الجنون عنه ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون.

الصفة الثانية: قوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ وفي الممنون قولان: أحدهما: وهو قول الأكثرين، أن المعنى غير منقوص ولا مقطوع يقال: منَّه السير أي أضعفه، والمنين الضعيف ومنَّ الشيء إذا قطعه، ومنه قول لبيد:

غبش كواسب ما يمن طعامها . . يصف كلاباً ضارية ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] .

(126/776)

والقول الثاني : وهو قول مجاهد ومقاتل والكلبي ، إنه غير مقدر عليك بسبب المنة ، قالت المعتزلة في تقرير هذا الوجه : إنه غير ممنون عليك لأنه ثواب تستوجبه على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، والقول الأول أشبه لأن وصفه بأنه أجر يفيد أنه لا منة فيه فالحمل على هذا الوجه يكون كالتكرير ، ثم اختلفوا في أن هذا الأجر على أي شيء حصل ؟ قال قوم معناه : إن لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجراً عظيماً دائماً ، وقال آخرون : المراد إن لك في إظهار النبوة والمعجزات ، في دعاء الخلق إلى الله ، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم ، فلا تمنعك نسبتها إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم ، فإن لك بسببه المنزلة العالية عند الله .

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(127/776)

اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب ، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه ، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة ، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ [ص : 86] أي لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع ، وقال آخرون : إنما وصف خلقه بأنه عظيم وذلك لأنه تعالى قال له : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وهذا الهدى الذي أمر الله تعالى محمداً بالاقتداء به ليس هو معرفة الله لأن ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول ، وليس هو الشرائع لأن شريعته مخالفة لشرائعهم فتعين أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم ، فكأن كل واحد منهم كان مختصاً بنوع واحد ، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقاً فيهم ، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء قبله ، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم ، وفيه دقيقة أخرى وهي قوله : ﴿ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة على للاستعلاء ، فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها ، وأنه بالنسبة

إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور .

المسألة الثانية :

الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة .

(128/776)

واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها غير ، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب ، والتشديد في المعاملات والتحبب إلى الناس بالقول والفعل ، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالبيع وغيره والتسمح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهراً له وحصل له حق آخر .

وروي عن ابن عباس أنه قال معناه : وإنك لعلى دين عظيم ، وروي أن الله تعالى قال له : "لم أخلق ديناً أحب إلي ولا أرضى عندي من هذا الدين الذي اصطفيته لك ولأمتك" يعني الإسلام ، واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأن الإنسان له قوتان ، قوة نظرية وقوة عملية ، والدين يرجع إلى كمال القوة النظرية ، والخلق يرجع إلى كمال القوة العملية ، فلا يمكن حمل أحدهما على الآخر ، ويمكن أيضاً أن يجاب عن هذا السؤال من وجهين : الوجه الأول

: أن الخلق في اللغة هو العادة سواء كان ذلك في إدراك أو في فعل الوجه الثاني : أنا بينا أن الخلق هو الأمر الذي باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلاً ، فلما كانت الروح القدسية التي له شديدة الاستعداد للمعارف الإلهية الحقة وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة ، كانت تلك السهولة حاصلة في قبول المعارف الحقة ، فلا يبعد تسمية تلك السهول بالخلق .

المسألة الثالثة :

قال سعيد بن هشام : قلت لعائشة : "أخبريني عن خلق رسول الله ، قالت ألست قرأ القرآن ؟ قلت : بلى قالت : فإنه كان خلق النبي عليه الصلاة والسلام" وسئلت مرة أخرى فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] إلى عشرة آيات ، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب ، وإلى كل ما يتعلق بها ، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة ، اللهم ارزقنا شيئاً من هذه الحالة .

(129/776)

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : "ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال لبيك" فلهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال أنس : "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي في شي فعلته لم فعلت ، ولا في شيء لم أفعله هلا فعلت"

وأقول : إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم ، فقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : 113] ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء ، فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية كانت عظيمة عالية الدرجة ، كأنها لقوتها وشدة كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة .

واعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال :

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5)

أي فسترى يا محمد ويرون يعني المشركين ، وفيه قولان : منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا ، يعني فستبصر ويبصرون الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك وعاقبة أمرهم ، فإنك تصير معظماً في القلوب ، ويصيرون دليلين ملعونين ، وتستولي عليهم بالقتل والنهب ، قال مقاتل : هذا وعيد بالعذاب ببدر ، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ [القمر : 26] .

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

ففيه وجوه : أحدها : وهو قول الأخفش وأبي عبيدة وابن قتيبة : أن الباء صلة زائدة والمعنى أيكم المفتون وهو الذي فتن بالجنون كقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنين : 20] أي تنبت الدهن وأنشد أبو عبيدة :

(130/776)

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج . . والفراء طعن في هذا الجواب وقال : إذا أمكن فيه بيان المعنى الصحيح من دون طرح الباء كان ذلك أولى ، وأما البيت فمعناه نرجو كشف ما نحن فيه بالفرج أو نرجو النصر بالفرج وثانيها : وهو اختيار الفراء والمبرد أن المفتون ههنا بمعنى الفتون وهو الجنون ، والمصادر تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر ، يقال : ليس له معقود رأي أي عقد رأى ، وهذا قول الحسن والضحاك ورواية عطية عن ابن عباس وثالثها : أن الباء بمعنى في ومعنى الآية : فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون ، أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفار ورابعها : المفتون هو الشيطان إذ لا شك أنه مفتون في دينه وهم لما قالوا إنه مجنون فقد قالوا : إن به شيطاناً فقال تعالى : سيعلمون غداً بأيهم شيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل ثم قال تعالى :

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

وفيه وجهان : الأول : هو أن يكون المعنى إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذي ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون الثاني : أن يكون المعنى إنهم رموك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل وهم كذبوا في ذلك ، ولكنهم موصوفون بالضلال ، وأنت موصوف بالهداية والامتياز الحاصل بالهداية والضلال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون ، لأن ذاك ثمرته السعادة الأبدية أو الشقاوة ، وهذا ثمرته السعادة أو الشقاوة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 68. 73 ﴾

(131/776)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ن والقلم ﴾

أدغم النون الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضَّل وهُبَيرة وورْش وابن مُحَيْصِن وابن عامر والكسائي ويعقوب .

والباقون بالإِظهار .

وقرأ عيسى بن عمر بفتحها ؛ كأنه أضمر فعلاً .

وقرأ ابن عباس ونصر وابن أبي إسحاق بكسرها على إضمار حرف القسم .

وقرأ هارون ومحمد ابن السَّمَيْقَع بضمها على البناء .

واختِلف في تأويله .

فَرَوى معاوية بن قُرّة عن أبيه يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نَ لَوْح من نور" .

ورَوَى ثابت البُنَانيّ أن "ن" الدواة .

وقاله الحسن وقتادة .

وروى الوليد بن مسلم قال : حدّثنا مالك بن أنس عن سُمَيٍّ مولى أبي بكر عن أبي صالح السّمان عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أول ما خلق الله القلم ثم خلق النُّون وهي الدواة وذلك قوله تعالى : ﴿ ن والقلم ﴾ ثم قال له اكتب قال وما أكتب قال ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثَر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة قال ثم خُتم فَمُ القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة . ثم خلق العقل فقال الجبّار ما خَلقتُ خلقاً أعجب إليّ منك وعِزّتيّ وجلالي لأُكَمّلنك فيمن أحببت ولأنقصنّك فيمن أبغضت" قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعملهم بطاعته" وعن مجاهد قال : "نا" الحوت الذي تحت الأرض السابعة .

قال : ﴿ والقلم ﴾ الذي كُتب به الذِّكر .

وكذا قال مقاتل ومُرّة الْهَمْداني وعطاء الخراساني والسُّدّي والكَلْبي : إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون .

وروى أبو ظَبيان عن ابن عباس قال : أوّل ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء ، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره ، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، وإن الجبال لتفخر على الأرض .

ثم قرأ ابن عباس ﴿ ن والقلم ﴾ الآية .

(132/776)

وقال الكَلْبي ومقاتل : اسمه البَهْمُوت .

قال الراجز :

مالي أراكم كلّكم سكوتَا . . .

والله ربِّي خلق الْبَهْمُوتَا

وقال أبو اليقظان والواقدي : ليوثاً .

وقال كعب : لوثوثاً .

وقال : بلهموثاً .

قال كعب : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسوس في قلبه ، وقال : أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها ، لو لفظتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع ؛ فهمّ ليوثا أن يفعل ذلك ، فبعث الله إليه دابّة فدخلت مَنخْره ووصلت إلى دماغه ، فضجّ الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لها فخرجت .

قال كعب : فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت كما كانت .

وقال الضحاك عن ابن عباس : إن "نا" آخر حرف من حروف الرحمن .

قال : الر ، وحم ، ون ؛ الرحمن تعالى متقطعة .

وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله تعالى به .

وقال ابن كَيْسان : هو فاتحة السورة .

وقيل : اسم السورة .

وقال عطاء وأبو العالية : هو افتتاح اسمه نصير ونور وناصر .

وقال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين ؛ وهو حقّ .

بيانه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] .

وقال جعفر الصادق : هو نهر من أنهار الجنة يقال له نون .

وقيل : هو المعروف من حروف المعجم ، لأنه لو كان غير ذلك لكان مُعْرَباً ؛ وهو اختيار القُشَيْريّ أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره .

قال : لأن "نا" حرف لم يُعْرَب ، فلو كان كلمة تامة أعرِب كما أعرب القلم ، فهو إذاً حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور .

وعلى هذا قيل : هو اسم السورة ، أي هذه سورة "ن" .

ثم قال : "وَالْقَلَمِ" أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان ؛ وهو واقع على كل قلم مما يَكتب به مَن في السماء ومَن في الأرض ؛ ومنه قول أبي الفتح البُسْتيّ :

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم . . .

وعَدُّوه مما يكسِبُ المجدَ والكَرَمْ

كَفَى قلم الكُتَّابِ عزًّا ورفعةً . . .

(133/776)

مَدَى الدهرِ أن الله أقسم بالقلْم

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة ؛ ما ذكرناه أعلاها .

وقال ابن عباس : هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله ؛ فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال : وهو قلم من نورٍ طوله كما بين السماء والأرض .

ويقال .

خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين ؛ فقال : اجر ؛ فقال : يا ربّ بِمَ أجري ؟ قال بما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فجرى على اللوح المحفوظ .

وقال الوليد بن عُبادة بن الصامت : أوصاني أبي عند موته فقال : يا بُنَيّ ، اتق الله ، واعلم أنك لن تتقي ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيره وشرّه ، سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال يا رب وما أكتب فقال اكتب القدر فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد " وقال ابن عباس : أوّل ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن ؛ فكتب فيما كتب ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ .

وقال قتادة : القلم نعمة من الله تعالى على عباده .

قال غيره : فخلق الله القلم الأوّل فكتب ما يكون في الذكر ووضعه عنده فوق عرشه ، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض ؛ على ما يأتي بيانه في سورة ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ [العلق : 1]

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي وما يكتبون .

يريد الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ؛ قاله ابن عباس : وقيل : وما يكتبون (أي) الناس ويتفاهمون به .

وقال ابن عباس : ومعنى "وَمَا يَسطُرونَ" وما يعلمون .

و"ما" موصولة أو مصدرية ؛ أي ومسطوراتهم أو وسطرهم ، ويراد به كل من يسطر أو الحفظة ؛ على الخلاف .

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي ؛ وكان المشركون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم إنه مجنون ، به شيطان .

(134/776)

وهو قولهم : ﴿ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم وتكذيباً لقولهم ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي برحمة ربك .

والنعمة ههنا الرحمة .

ويحتمل ثانياً أن النعمة ههنا قَسَم ؛ وتقديره : ما أنت ونعمةِ ربك بمجنون ؛ لأن الواو والباء من حروف القسم .

وقيل هو كما تقول : ما أنت بمجنون ، والحمد لله .

وقيل : معناه ما أنت بمجنون ، والنعمة لربك ؛ كقولهم : سبحانك اللهم وبحمدك ؛ أي والحمد لله .

ومنه قول لبيد :

وأفردْتُ في الدنيا بفقد عشيرتي . . .

وفارقني جارٌ بأربُدَ نافِعُ

أي وهو أربد .

وقال النابغة :

لم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذاء وأمُّهم . . .

طَفَحتْ عليك بناتق مِذْكارِ

أي هو ناتق .

والباء في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ متعلقة ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ منفيًّا ؛ كما يتعلق بغافل مثبتاً .

كما في قولك : أنت بنعمة ربك غافل .

ومحله النصب على الحال ؛ كأنه قال : ما أنت بمجنون مُنْعَماً عليك بذلك .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً ﴾ أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوّة .

﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص ؛ يقال : مننت الحبل إذا قطعته .

وحبل منين إذا كان غير متين .

قال الشاعر :

غُبْساً كواسِبَ لا يُمَنّ طعامُها . . .

أي لا يقطع.

وقال مجاهد: ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ محسوب.

الحسن: ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير مكدّر بالمَنّ.

الضحاك: أجراً بغير عمل.

وقيل: غير مقدر وهو التفضل؛ لأن الجزاء مقدّر والتفضل غير مقدر؛ ذكره الماوَرْدِيّ، وهو معنى قول مجاهد.

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على خُلُقٍ، على دينٍ عظيم من الأديان، ليس دين أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خُلُقه كان القرآن.

وقال عليّ رضي الله عنه وعَطِيّة: هو أدب القرآن.

وقيل: هو رِفْقه بأمّته وإكرامُه إيّاهم.

وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه .

وقيل : أي إنك على طبع كريم .

الماورديّ : وهو الظاهر .

وحقيقة الخُلُق في اللغة : هو ما يأخذ به الإنسانُ نفسَه من الأدب يُسَمَّى خُلُقاً ؛ لأنه يصير كالخِلْقة فيه .

وأما ما طُبع عليه من الأدب فهو الخِيم (بالكسر) : السَّجِيَّة والطبيعة ، لا واحد له من لفظه .

وخِيم : اسم جبل .

فيكون الخُلُق الطبعَ المتكلَّف .

والخِيم الطبع الغريزي .

وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال :

وإذا ذُو الفضول ضَنَّ على المَوْ . . .

لَى وعادت لِخيمها الأخلاقُ

أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها .

قلت : ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصحّ الأقوال .

وسئلت أيضاً عن خُلُقه عليه السلام ؛ فقرأت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ إلى عشر آيات ،

وقالت : ما كان أحد أحسن خُلُقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لَبَّيْك ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم منه الحظّ الأوفر .

وقال الجُنَيْد : سُمِّيَ خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى .

وقيل سُمِّيَ خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ؛ يدلّ عليه قوله عليه السلام : " إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق " وقيل : لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] " وقد روي عنه عليه السلام أنه قال : "أدّبني ربي تأديباً حسناً إذ قال : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ فلما قبلت ذلك منه قال : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ " .

(136/776)

الثانية : روى الترمذِيّ عن أبي ذَرٍّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها وخالق الناس بِخُلُق حَسَن " قال حديث حسن صحيح .

وعن أبي الدَّرْدَاء : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن وإن الله تعالى لَيُبْغِض الفاحش البذيء " قال : حديث حسن صحيح .

وعنه قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الخُلُق وإن صاحب حُسنِ الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم " قال : حديث غريب من هذا الوجه .

وعن أبي هريرة قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ الجنة ؟ فقال : "تقوى الله وحسن الخُلُق" .

وسئل عن أكثر ما يُدْخِل الناس النار ؟ فقال : "الفَم والفَرْج" " قال : هذا حديث صحيح غريب .

وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حُسْن الخُلُق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكَفّ الأذى .

وعن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ مِن أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً قال وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والْمُتَفَيْهِقُون " قالوا : يا رسول الله ، قد عَلِمْنا الثرثارون والمتشدّقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : "المتكبرون" .

قال : وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾

قال ابن عباس : معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة .

وقيل : فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحقّ والباطل .

﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ الباء زائدة ؛ أي فستبصر ويبصرون أيكم المفتون .

أي الذي فُتِن بالجنون ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] و ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] وهذا قول قتادة وأبي عُبيد والأخفش .

(137/776)

وقال الراجز :

نحن بنو جَعْدَةَ أصحاب الفَلَج . . .

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

وقيل : الباء ليست بزائدة ؛ والمعنى : ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ أي الفتنة .

وهو مصدر على وزن المفعول ، ويكون معناه الفُتُون ؛ كما قالوا : ما لفلان مجلود ولا معقول ؛ أي عقل ولا جلادة .

وقاله الحسن والضحاك وابن عباس .

وقال الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه . . .

لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي عقلاً .

وقيل في الكلام تقدير حذف مضاف ؛ والمعنى : بأيكم فتنة المفتون .

وقال الفرّاء : الباء بمعنى في ؛ أي فستبصِر ويبصرون في أي الفريقين المجنون ؛ أبا لِفِرْقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالْفِرقة الأخرى .

والمفتون : المجنون الذي فتنه الشيطان .

وقيل : المفتون المعذَّب .

من قول العرب : فتنت الذهب بالنار إذا حَمّيته .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] أي يعذّبون .

ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل .

وقيل : المفتون هو الشيطان ؛ لأنه مفتون في دينه .

وكانوا يقولون : إن به شيطاناً ، وعَنَوْا بالمجنون هذا ؛ فقال الله تعالى : فسيعلمون غداً بأيهم المجنون ؛ أي الشيطان الذي يحصل من مسّه الجنون واختلاط العقل .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه .

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أي الذين هم على الهدى فيجازِي كُلاًّ غداً بعمله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(138/776)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ ن ﴾

حَرْفٌ مقطع في قول الجمهور ، فيدخُله من الاخْتِلاَفِ ما يَدْخُل أَوائِلَ السُّورِ ، ويختصُّ هذا الموضعُ مِنَ الأقوال ، بأنْ قَالَ مُجاهِدٌ وابن عباس : ﴿ ن ﴾ اسْمُ الحوتِ الأَعْظَمِ الَّذِي عَلَيْه الأَرضُونَ السَّبْعُ فِيما يُرْوَى ، وقال ابن عباس أيضاً وغيره : ﴿ ن ﴾ اسمُ الدَّوَاةِ ، فَمَنْ قَال بأنه اسْمُ الحوتِ جعَلَ [القَلَمَ] القَلَمَ الذي خلقَه اللَّهُ وأَمَرَهُ بكَتْبِ الكائناتِ ، وجَعَلَ الضميرَ في ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ للملائِكَةِ ، ومَنْ قَال بأَنَّ ﴿ ن ﴾ اسْمٌ للدَّوَاةِ جَعَلَ القَلم هَذَا القلمَ المتعارفَ بأَيْدِي الناسِ ؛ نَصَّ على ذَلِكَ ابنُ عَبّاسٍ وَجَعَل الضميرَ في ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ للنَّاسِ فَجَاء القَسَمُ على هذا بمجموع أَمْرِ الكِتَابِ الذي هو قِوَامٌ للعلومِ والمعَارِفِ ، وأمورِ الدنيا ، والآخِرَةِ ، فَإِنَّ القَلَمَ أَخُو اللسانِ ، وعَضُدُ الإِنْسَانِ ، ومَطِيَّةُ

الفِطْنَةِ ، ونِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَامَّة ، ورَوَى معاويةُ بن قرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ ن ﴾ لَوحٌ من نُور " . وقالَ ابنُ عباسٍ أيضاً وغيره : ﴿ ن ﴾ هو حَرْفٌ من حروفِ الرحمن ، وقالوا إنَّه تَقَطَّعَ في القرآن ﴿ الر ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ ن ﴾ ، و ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ : معناه : يكْتُبُونَ سُطُوراً ، فإنْ أرَادَ الملائكةَ فهُوَ كَتْبُ الأَعْمَالِ ومَا يؤْمَرُون به ، وإنْ أرادَ بني آدم ؛ فهي الكُتُبُ المنزلةُ والعلومَ وما جَرَى مَجْرَاهَا ، قال ابن العربي في «أحكامه» : رَوَى الوليدُ بن مُسْلِمٍ عَنْ مالكٍ عَنْ سُمَيٍّ مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : سمعتُ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقولُ : " أوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ ، ثُمَّ خَلَق النّونَ ، وهي الدوَّاةُ ، وذلِكَ قَوْلُه : ﴿ ن والقلم ﴾ ثم قَالَ لَهُ : اكتب ؛ قَالَ : وَمَا

(139/776)

أَكْتُبُ ؟ قَالَ : مَا كَانَ وَمَا هُو كَائِنٌ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، قال : ثُمَّ خَتَمَ العَمَلَ ، فَلَمْ يَنْطِقْ وَلاَ يَنْطِقُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، ثُمَّ خَلَقَ العَقْلَ ، فَقَالَ الجَبَّارُ : مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَعْجَبَ إلَيَّ مِنْكَ ، وعِزَّتي لأُكَمِّلَنَّكَ فِيمَنْ أَحْبَبْتُ ، وَلأُنْقِصَنَّكَ فِيمَنْ أَبْغَضْتُ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً أَطْوَعُهُمْ للهِ وأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ " انتهى ، * ت * : وهذا الحديثُ هُوَ الذي يُعَوَّلُ عليهِ في تفسير الآيةِ ، لصحته ، واللَّه سبحانه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ هُوَ جَوابُ القَسَمِ ، وَ ﴿ مَا ﴾ هُنَا عَاملةٌ لها اسْمٌ وَخَبَرٌ ، وكذلك هي متَى دَخَلَتِ البَاءُ في الخَبَرِ ، وقوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ اعْتِرَاضٌ ، كما تقولُ لإنْسَانٍ : أَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ فاضلٌ ، وسَبَبُ الآيةِ هُوَ مَا كَانَ من قريشٍ في رَمْيِهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالجُنُونِ ، فَنَفَى اللَّهُ تعالى ذلك عنه ، وأخبره بأنَّ له الأَجْرَ ، وأَنَّه على الخُلُقِ العظيمِ تَشْرِيفاً له ، وَمَدْحاً واخْتُلِفَ في معنى ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ فَقَالَ أَكْثَرُ المفسرينَ : هو الوَاهِنُ المنْقَطِعُ ، يقال : حَبْل مَنِينٌ أي : ضعيفٌ ، وقال آخرون : معناه : غير مَمْنُونٍ عَلَيْكَ ، أي : لا يُكَدِّرُه مَنٌّ به ، وفي الصحيحِ : سُئِلَتْ عائشةُ رضي اللَّه عنها عن خلقِ رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم فقَالَتْ : «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ» ، وقال الجُنَيْدُ : سمّي خلقُه عَظِيماً ؛ إذ لَمْ تَكُنْ له همةٌ سِوَى اللَّهِ تعالى ؛ عَاشَرَ الخَلْقَ بخُلُقِه ، وزَايَلَهُمْ بقَلْبِهِ فكانَ ظاهرُه مَعَ الخلقِ ، وباطِنهُ مع الحق ، وفي وَصِيَّةِ بعض الحكماء : عليكَ بالخُلُقِ مَعَ الخَلْقِ ، وبالصِّدقِ مَعَ الحقِّ ، وحسْنُ الخلقِ خيرٌ كلّه ، وقال عليه السلام :

" إنَّ المؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ ، صَائِمِ النَّهَارِ " وَجَاءَ فِي حُسْنِ الخُلُقِ آثَارٌ كثيرةٌ مَنَعَنَا مِنْ جَلْبِها خَشْيَةُ الإطَالَةِ ، وقد رَوَى الترمذيُّ عَنْ أبي هريرةَ قال : " سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ؟ فقَال : تَقْوَى اللَّهِ وحُسْنُ الخُلُقِ ، وسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ فَقَالَ : الفَمُ وَالْفَرْجُ " ، قَالَ أبو عيسى : هذا حديثٌ صحيحٌ غَرِيبٌ ، انتهى ، ورَوى الترمذيُّ عَنْ أبي الدرداءِ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ ، وإنَّ اللَّهَ لَيَبْغَضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ " ، قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ ، انتهى ، قَال أبو عُمَرَ في «التمهيد» : قال اللَّه عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قَال المفسرونَ : كان خلقُهُ مَا قَالَ اللَّهُ سبحانَه : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] انتهى .

وقَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ أي : أَنْتَ وأُمَّتُكَ ، ﴿ وَيُبْصِرُونَ ﴾ أي : هُمُ ، ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ قال الأخفش : والعامل في الجملةِ المسْتَفْهَمُ عَنْها الإبصَارُ ، وأمّا البَاءُ فقال أبو عبيدةَ معمر وقتادةُ : هي زائدةٌ والمعنى : أيكم المفتونُ ، قال الثعلبيّ : المفْتُونُ المَجْنُونُ الذي فَتَنَهُ الشيطانُ ، انتهى . انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

بسْم اللَّهِ الرحمن الرَّحِيم

﴿ ن ﴾

بالسكون على الوقف وقرأ الأكثرون بسكون النون وإدغامها في واو ﴿ والقلم ﴾ بغنة عند بعض وبدونها عند آخرين وقرىء بكسر النون وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق وعيسى بخلاف عنه بفتحها وكل لالتقاء الساكنين وجوز أن يكون الفتح باضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصباً بإضمار اذكر ونحوه لا فتحاً وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنه علم للسورة ثم إن جعل اسماً للحرف مسروداً على نمط التعديد للتحدي على ما اشتهر وبين في موضعه أو اسماً للسورة منصوباً على الوجه المذكور أو مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف فالواو في قوله تعالى والقلم للقسم وإن جعل مقسماً به فهي للعطف عليه على الشائع واختار السلف إن ﴿ ن ﴾ من المتشابه وغير واحد من الخلف أنه هنا من أسماء الحروف وقالوا يؤيد ذلك أنه لو كان اسم جنس أو علماً لا عرب منوناً أو ممنوعاً من الصرف ولكتب كما يتلفظ به وكون كتابته كما ترى لنية الوقف وإجراء الوصل مجراه خلاف الأصل وكون خط المصحف لا يقاس مسلم إلا أن الأصل إجراؤه على القياس ما أمكن وقيل هو اسم لحوت عليه الأرض يقال له

اليهموت بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء ففي حديث رواه الضياء في المختار والحاكم وصححه وجمع عن ابن عباس خلق الله تعالى النون فبسطت الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ثم قرأ ﴿ ن ﴾ والقلم الخ وروى ذلك عن مجاهد وروى عن ابن عباس أيضاً والحسن وقتادة والضحاك أنه اسم للدواة وأنكر الزمخشري ورود النون بمعنى الدواة في اللغة أو في الاستعمال المعتد به وقال ابن عطية يحتمل أن يكون لغة لبعض العرب أو لفظة أعجمية عربية وأنشد قول الشاعر

: إذا ما الشوق برح بي إليهم . . .

ألقت النون بالدمع السجوم

(143/776)

والأولون منهم من فسر القلم بالذي خط في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة ومنهم من فسره بقلم الملائكة الكرام الكاتبين وال فيه على التفسيرين للعهد والآخرون منهم من فسره بالجنس على أن التعريف فيه جنسي ومنهم وهم قليل من فسره بما تقدم أيضاً لكن الظاهر من كلامهم أن الدواة ليست عبارة عن الدواة المعروفة بل هي دواة خلقت يوم خلق ذلك القلم وعن معاوية بن قرة يرفعه أن ن لوح من نور والقلم قلم من نور يجري بما هو كائن إلى

يوم القيامة وعن جعفر الصادق أنه نهر من أنهار الجنة وفي "البحر" لعله لا يصح شيء من ذلك أي من جميع ما ذكر في ن ما عدا كونه اسماً من أسماء الحروف وكأنه إن كان كان مطلعاً على الروايات التي ذكرناها لم يعتبر تصحيح الحاكم فيما روى أولاً عن ابن عباس ولا كون أحد رواته الضياء في المختارة التي هي في الاعتبار قرينة من الصحاح ولا كثرة راويه عنه وهو الذي يغلب على الظن لكثرة الاختلاف فيما روى عنه في تعيين المراد به حتى أنه روى عنه أنه آخر حرف من حروف الرحمن وإن هذا الاسم الجليل فرق في الروحمون ولا يخفى أنه إن أريد الحوت أو نهر في الجنة يصير الكلام من باب كم الخليفة وألف بادنجانة وأما إن أريد الدواة فالتنكير آب عن ذلك أشد الإباء على أنه كما سمعت عن الزمخشري لغة لم تثبت والرد عليه إنما يتأتى بإثبات ذلك عن الثقات وأنى به وذكر "صاحب القاموس" لا ينتهض حجة على أنه معنى لغوي وفي صحة الروايات كلام والبيت الذي أنشده ابن عطية لم يثبت عربياً وكونه بمعنى الحوت أطلق على الدواة مجازاً بعلاقة المشابهة فإن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سواداً من النقس يكتب به لا يخفى ما فيه من السماجة فإن ذلك البعض لم يشتهر حتى يصح جعله مشبهاً به مع إنه لا دلالة للمنكر على ذلك الصنف بعينه وكونه بمعنى الحرف مجازاً عنها أدهى وأمر كذا قيل وللبحث في البعض مجال وللقصاص هذا الفصل روايات لا يعول عليها ولا ينبغي

الإصغاء إليها ثم إن استحقاق القلم للإعظام بالإقسام به إذا أريد به قلم اللوح الذي جاء في الاخبار أنه أول شيء خلقه الله تعالى أو قلم الكرام الكاتبين ظاهر وأما استحقاق ما في أيدي الناس إذا أريد به الجنس لذلك فلكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز وجل لكفى به فضلاً موجباً لتعظيمه والضمير في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي يكتبون اما للقلم مراداً به قلم اللوح وعبر عنه بضمير الجمع تعظيماً له أو له مراداً به جنس ما به الخط فضمير الجمع لتعدده لكنه ليس بكاتب حقيقة بل هو آلة للكاتب فالإسناد إليه إسناد إلى الآلة مجازاً والتعبير عنه بضمير العقلاء لقيامه مقامهم وجعله فاعلاً أو للكتبة أو الحفظة المفهومين من القلم أو لهم باعتبار أنه أريد بالقلم أصحابه تجوزاً أو بتقدير مضاف معه ولا يخفى ما هو إلا وجه من ذلك وأما كونه لما وهي بمعنى من فتكلف بارد والظاهر فيها أنها إما موصولة أي والذي يسطرونه أو مصدرية أي وسطرهم .

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

(145/776)

جواب القسم والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفي ومجنون خبر ما والباء الأولى للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من الضمير في الخبر والعامل فيها معنى النفي والمعنى انتفى عنك الجنون في حال كونك ملتبساً بنعمة ربك أي منعماً عليك بما أنعم من حصافة الرأي والنبوة والشهامة واختاره ناصر الدين وقريب منه جعل الباء للسببية والجار والمجرور متعلقاً بالنفي كالظرف اللغو كأنه قيل انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك عليك وجوز أن تكون الباء للملابسة في موضع الحال والعامل مجنون وباؤه لا تمنع العمل لأنها مزيدة وتعقبه ناصر الدين بأن فيه نظراً من حيث المعنى ووجه بأن محصله على هذا التقدير أنه انتفى عنك الجنون وقت التباسك بنعمة ربك ولا يفهم منه انتفاء مطلق الجنون عنه صلى الله عليه وسلم وهل المراد إلا هذا وقيل عليه لا يخفى أنه وارد على ما اختاره هو أيضاً أي وذلك لأن المعنى حينئذ انتفى عنك ملتبساً بنعمة ربك الجنون ولا يفهم منه انتفاؤه عنه عليه الصلاة والسلام في جميع الأوقات وهو المراد وأجيب بأن تلك الحالة لازمة له صلى الله عليه وسلم غير منفكة عنه فنفيه عنه فيها مستلزم لنفيه عنه دائماً وسائر الحالات وتعقب بأن هذا متأت على كلا التقديرين لا اختصاص له بأحدهما دون الآخر وأنت خبير بأنه فرق بينهما إذ يصير المعنى على تقدير كون العامل مجنون كما أشير إليه أنه انتفى عنك الجنون الواقع عليك حالة الالتباس المذكور وهذا يدل على أمكان وقوعه في تلك الحالة بل على تحققه أيضاً وهو معنى لاغ إذ كيف يتصور وجود الجنون ووقوعه وقت التباسه صلى

الله عليه وسلم بالنعمة ومن جملتها الحصافة ولا يرد هذا على التقدير المختار إذ الانتفاء المفهوم حينئذ لا يكون وارداً على الجنون المقيد بما ذكر وهو وإن كان مقيداً فيه أيضاً لا ضير به لكون قيده لازماً لذات المنفي عنه كما عرفت هذا وقيل إذا حمل الباء على السببية واعتبر الظرف لغواً يظهر عدم جواز

(146/776)

تعلقه بما بعده من حيث المعنى

.

ظهور نار القرى ليلاً على علم . . .

ولهم في الجملة الحالية والحال إذا وقعت بعد النفي كلام ذكره الخفاجي وحقق أنه حينئذ إنما يلزم انتفاء مقارنة الحال لذي الحال لا نفيها نفسها فتدبر ولا تغفل وجوز كون بنعمة ربك قسماً متوسطاً في الكلام لتأكيده من غير تقدير جواب أو يقدر له جواب يدل عليه الكلام المذكور واستظهر هذا الوجه أبو حيان والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه صلى الله عليه وسلم والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه في العلو إلى غاية لا غاية وراءها والمراد تنزيهه

صلى الله عليه وسلم عما كانوا ينسبونه إليه صلى الله عليه وسلم من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة فحاصل الكلام أنت منزه عما يقولون ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك أعباء الرسالة ﴿ لاجْرًا ﴾ لثواباً عظيماً لا يقادر قدره ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي مقطوع مع عظمه أو غير ممنون عليك من جهة الناس فإنه عطائه تعالى بلا واسطة أو من جهته تعالى لأنك حبيب الله تعالى وهو عز وجل أكرم الأكرمين ومن شيمة الأكارم أن لا تمنوا بانعامهم لا سيما إذا كان على أحبابهم كما قال

: سأشكر عمرا ان تراخت منيتي . . .

أيادي لم تمنن وان هي جلت

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(147/776)

لا يدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك تحتمل من جهتهم ما لا يحتمله أمثالك من أولي العزم وفي حديث مسلم وأبي داود والإمام أحمد والدارمي وابن ماجة والنسائي عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق نبي الله كان القرآن

وأرادت بذلك على ما قيل إن ما فيه من المكارم كله كان فيه صلى الله عليه وسلم وما فيه من الزجر عن سفساف الأخلاق كان منزجراً به عليه الصلاة والسلام لأنه المقصود بالخطاب بالقصد الأول ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ [الفرقان : 32] وربما يرجع إلى هذا قولها كما في رواية ابن المنذر وغيره عن أبي الدرداء أنه سألها عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه وقال العارف بالله تعالى المرصفي أرادت بقولها كان خلقه القرآن تخلقه باخلاق الله تعالى لكنها لم تصرح به تادباً منها وفي الكشف أنه أدمج في هذه الجملة أنه صلى الله عليه وسلم متخلق باخلاق الله عز وجل بقوله سبحانه عظيم وزعم بعضهم أن في الآية رمزاً إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون وإنه كلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً كان أبعد عن الجنون ويلزم من ذلك أن سوء الأخلاق قريب من الجنون .

(148/776)

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ أي المجنون كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن المنذر عن ابن جبير وعبد بن حميد عن مجاهد وأطلق على المجنون لأنه فتن أي محن بالجنون وقيل لأن العرب يزعمون أن الجنون من تخبيل الجن وهم الفتان للفتاك منهم والباء

مزيدة في المبتدأ وجوز ذلك سيبويه أو الفتنة فالمفتون مصدر كالمعقول والمجلود أي الجنون كما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن وأبي الجوزاء وهو بناء على أن المصدر يكون على وزن المفعول كما جوزه بعضهم والباء عليه للملابسة أو بأي الفريقين منكم الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين أي في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبي جهل والوليد بن المغيرة واضرابهما والباء على هذا بمعنى في وقدر بأي الفريقين منكم دفعاً لما قيل من أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة قريش ولا يصح أن يقال لجماعة وواحد في أيكم زيد وأيد الاعتراض بأن قوله تعالى فستبصر ويبصرون خطاب له عليه الصلاة والسلام خاصة وجواب التأييد أن الخطاب بظاهره خص برسول الله صلى الله عليه وسلم ليجري الكلام على نهج السوابق ولا يتنافر لكنه ليس كالسوابق في الاختصاص حقيقة لدخول الأمة فيه أيضاً فيصح تقدير بأي الفريقين وادعى صاحب الكشف ان هذا أوجه الأوجه لإفادته التعريض وسلامته عن استعمال النادر يعني زيادة الباء في المبتدأ وكون المصدر على زنة المفعول وإليه ذهب الفراء ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة في أيكم وأياً ما كان فالظاهر أن بأيكم المفتون معمول لما قبله على سبيل التنازع والمراد فستعلم ويعلمون ذلك يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل وروي ذلك عن ابن عباس وقيل فستبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل

والنهب وصيرورتك مهيباً معظماً في قلوب العالمين وكونهم أذلة صاغرين ويشمل هذا ما كان يوم بدر وعن مقاتل ان ذلك وعيد بعذاب يوم بدر وقال أبو عثمان

(149/776)

المازني ان الكلام قد تم عند قوله تعالى ويبصرون ثم استأنف قوله سبحانه بأيكم المفتون على أنه استفهام يراد به الترداد بين أمرين معلوم نفي الحكم عن أحدهما وتعين وجوده للآخر وهو كما ترى.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمهتدين ﴾

استئناف لبيان ما قبله وتأكيد لما تضمنه من الوعد والوعيد أي هو سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين وهام في تيه الضلال متوجهاً إلى ما يقتضيه من الشقاوة الأبدية ومزيد النكال وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر بل يحسب الضرر نفعاً فيؤثره والنفع ضرراً فيهجره وهو عز وجل أعلم بالمهتدين إلى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل محذور وهم العقلاء المراجيح فيجزي كلاً من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب وفي الكشاف أن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون أو يكون وعيداً ووعدا وأنه سبحانه أعلم بجزاء

الفريقين قال في الكشف هو على الأول تذييل مؤكد لما رمز إليه في السابق من أن المفتون من قرفك به جار على أسلوب المؤكد في عدم التصريح ولكن على وجه أوضح فإن قوله تعالى ﴿ بأيكم المفتون ﴾ [القلم : 6] لا تعيين فيه بوجه وهذا بدل هو أعلم بالمجنون وبالعاقل يدل على أن الجنون بهذا الاعتبار لا بما توهموه وثبت لهم صرف الضلال في عين هذا الزعم وعلى الثاني هو تذييل أيضاً ولكن على سبيل التصريح لأن بمن ضل أقيم مقام بهم وبالمهتدين أقيم مقام بكم ولعل ما عتبرناه أملا بالفائدة وكأن تقديم الوعيد ليتصل بما أشعر به أولاً والتعبير في جانب الضلال بالفعل للإيماء بأنه خلاف ما تقتضيه الفطرة وزيادة هو أعلم لزيادة التقرير مع الإيذان باختلاف الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(150/776)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

68 ـ سورة القلم

نزولها : مكية . . نزلت بعد العلق . .

عدد آياتها : اثنتان وخمسون آية . .

عدد كلماتها : ثلاثمائة كلمة . .

عدد حروفها : ألف ومائتان وستة وخمسون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

بين هذه السورة ، وسورة الملك قبلها ، أكثر من مناسبة . .

فأولا :

ختمت سورة « الملك » بقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ » .

. وفى هذا ـ كما قلنا ـ تهديد للمشركين بذهاب هذا النور الذي يرفعه النبي صلى اللّه عليه وسلم لأبصارهم ، من آيات اللّه ، وكلماته . .

وبدئت سورة القلم بقوله تعالى : « ن . وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ » .

. لتلفت المشركين إلى هذا النور القرآنىّ الذي يكتبه الكاتبون ، بعد أن يتلقاه النبىّ من ربّه ، وأنهم إن لم يبادروا إلى الإمساك به فى قلوبهم ، وحفظه فى صدورهم ، يوشك أن يفلت من بين أيديهم ، فلا يلقوه أبدا . .

كما أن فى ذكر القلم وما يسطر به الكاتبون ، إلفاتا عامّا إلى شأن الكتابة والكاتبين ، الذين هم أهل العلم والمعرفة ، وأن هؤلاء المشركين امّيون لم ينالوا حظّا من العلم عن طريق الكتابة

والكتاب ، وها هم أولاء وقد جاءهم رسول كريم ، كان مفتتح دعوته دعوة آمرة بالقراءة ، ثم تلاها بعد ذلك هذا

(151/776)

القسم بحروف الكتابة ، وأدواتها . وذلك ليخرجوا من ظلام هذا الجهل الذي غطّى على أعينهم ، وحال بينهم وبين أن يهتدوا إلى هذا النور الذي يدعوهم الرسول الكريم إليه . . فالجهل هو الآفة التي أفسدت على هؤلاء المشركين رأيهم فى دعوة السماء لهم إلى الإيمان ، ولو أنهم أخذوا حظّا من العلم ، لاستقام طريقهم على الحق ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (2 : الجمعة) .

وثانيا : جاء فى ختام سورة « الملك » قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا » . وفى هذا ما يشير إلى نظرة الكراهية والاستثقال التي ينظر بها المشركون إلى النبي ، وإلى مقامه فيهم ، حتى إنهم ليتمنون زواله من بينهم . . وجاء فى مفتتح سورة « القلم » ما يضفى على النبىّ الكريم حلل التكريم والتمجيد التي خلعها عليه ربّه ، فوصفه سبحانه بهذا الوصف الربّانىّ ، الذي لو قسّم فى الخلق جميعا لأرضاهم ، وأغناهم ،

وأسعدهم ، فيقول اللّه سبحانه « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

. وفى هذا ما يكبت المشركين ، ويملأ قلوبهم حسرة وكمدا .

قوله تعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

اختلف المفسرون فى تأويل كلمة « ن » فأضافوا إليها مفهوما جديدا غير تلك المفاهيم الكثيرة التي تشارك فيها غيرها من الحروف التي بدئت بها أوائل السور . . فهى بهذه المفاهيم . . حرف من تلك الحروف ، يقع عليها الخلاف الذي وقع فى هذه الحروف وكثرت المقولات فيها « 1 » . .

---

(1) انظر المبحث الخاص بهذا تحت عنوان : « مفهوم جديد للحروف فى أوائل السور » من التفسير القرآنى للقرآن ، الكتاب الثالث عشر صفحة : 89 .

أما المفهوم الخاص الذي جعل لهذه « الكلمة » ، أو هذا الحرف ، فهو أن يراد به ما يقال عن « الحوت » العظيم الذي تقوم عليه الأرض ، كما يزعم لزاعمون . . وكأنّ المفسرين قد نظروا فى هذا إلى قوله تعالى : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » (87 : الأنبياء) ثم إلى ما جاء فى قوله سبحانه فى هذه السورة : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » (الآية : 48) . . فالسورة تبدأ بالحرف « ن » وفى خاتمتها يذكر « صاحب الحوت » .

. وصاحب الحوت هو « ذو النون » .

. أي يونس عليه السلام . . وإذن فهذه قرائن على أن حرف « ن » هو اسم للحوت ! . . هذا ما نحسب أن المفسّرين الذين قالوا إن « ن » هى الحوت ، قد نظروا إليه ، وأخذوا قولهم هذا عنه .

ولكن أي حوت هو ؟ أهو الحوت الذي ابتلع يونس عليه السلام ؟ وكلّا فإن الحوت الذي يقسم اللّه سبحانه وتعالى به ، يجب أن يكون ظاهرة فريدة من ظاهرات الوجود . . ليكن إذن هو الحوت الذي تتحدث عنه قصة أو قصص خلق العالم ، التي كانت تعيش فى خيال كثير من الأمم والشعوب ! ! إن هذا الحوت الذي يقال إنه يحمل الأرض ، أو بمعنى أدقّ ، يحمل الثور الذي يحمل الأرض بقرنه ـ هو من مواليد الخرافات والأساطير ، وما يروى عنه من مقولات تضاف إلى الصحابة أو التابعين ، هو أحاديث مكذوبة على هؤلاء السادة

الأعلام ، الذين يرفعهم قدرهم ودينهم عن أن يقولوا بغير علم ، والذين لو ثبت لهم قول ، لكان هذا القول من الحق المتلقّى من نور النبوة ، ولما اصطدم أبدا مع واقع الحياة ، وما يكشف عنه العلم من حقائق .

فالحرف ، أو الكلمة « ن » هى من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه ، والراسخون فى العلم ، الذين يعرفونه بإحالة المتشابه على المحكم ، والذين هم على الإيمان به إيمانهم بالمحكم . . إذ « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا » . .

(154/776)

هذا من حيث المعنى . . أما من حيث اللفظ ، فإن لهذا الحرف أثره فى صورة النظم الذي جاءت عليه السورة . . حيث كانت فواصلها تنتهى بمقطع أشبه بلفظ « نون » . . أي أنه مقطع مكون من ثلاثة أحرف ، أولها متحرك ، وثانيها حرف مدّ ساكن يتبع هذه الحركة ، وثالثها حرف ساكن بالوقف عليه .

وهذا للقطع الذي يمثله حرف « ن » الذي ينطق هكذا : « نون » هو لازمة النغم الموسيقى الذي تضبط عليه فواصل الآيات فى السورة كلها . . مثل :

يسطرون . . مجنون . . عظيم . . مفتون . . إلى خاتمة السورة .

وقوله تعالى : « وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » هو معطوف على « ن » المقسم به أي أقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . .

والمراد بالقلم ، هو أداة الكتابة ، التي يكتب بها العلماء ، العلوم والمعارف . .

فهو نعمة من نعم اللّه الجليلة ، التي تخطّ على الصحف ثمرات العقول ، ونتاج الأفهام .

وقد نوه سبحانه وتعالى بالقلم ، ورفع قدره ، فكان أول ما وضع بين يدى النبي الكريم فى أول آيات افتتحت بها رسالته : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » (1 ـ 5 : العلق) وفى القسم بما يسطر الكاتبون بالقلم ـ إشارة إلى أن هذه الأداة المكرمة ينبغى ألا يكتب بها إلا ما كان من الحق والخير ، وإلا ما كان دعوة إلى هدى وتوجيها إلى خير . . إنه أداة تسجيل العلوم والمعارف وحفظها ، وهو ينقل عن الإنسان نتاج تفكيره ، وثمرات عقله ، ويقيم له بهذا ذكرا خالدا فى الحياة ، بقدر ما يحمل القلم عنه من خير ، وما ينشر من نفع ، فكان لهذا جديرا بأن يصان من أن يخطّ باطلا ، أو يسجل لغوا . .

(155/776)

وقوله تعالى : « ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » هو جواب القسم . . وهو تكذيب لهذه التهمة الحمقاء التي كان المشركون يرمون بها النبي ، حين جاءهم يقول لهم : إنه رسول اللّه ، وإنه يتلقى آيات اللّه التي يحملها إليه رسول الوحى جبريل عليه السلام . . فلقد هالهم هذا الأمر ، واستعظموه ، ورأوا أن القول به لا يكون من عاقل ، لأنه لا يقع فى تصورهم أن يكون إنسان على اتصال بعالم السماء ، وبرب السماء ! إن اتصال الرسول باللّه ، ومخاطبة الملك له ، يعنى عندهم أمرا مستحيلا ، أشبه بمن يقول لهم : إنى أنا الذي أرسيت هذه الجبال بيدي ، فلا يرون فى قائل هذا القول إلا أنه يهذى هذيان المخمور ، أو المحموم ، أو المجنون . .

والباء فى قوله تعالى : « بمجنون » حرف جر ، ومجنون خبر المبتدأ « أنت » أي : ما أنت بذي جنة ، وفائدة حرف الجر هنا ، أنه يقوم حجازا فاصلا بين النبي ، وبين إسناد الجنون إليه . .

فهذا الجنون ، وإن كان واقعا تحت حكم النفي المسلط على المبتدأ « أنت » إلّا أنه هو حقيقة ثابتة ، لم يتناولها النفي الذي وقع على المبتدأ : « ما أنت » .

فالمنفىّ عنه الجنون هنا ، هو شخص النبي . . أما الجنون ذاته فإن نفيه عن النبي ، إنما جاء تابعا للنفى الواقع على ذات النبي فى هذا المقام : « ما أنت » .

. أي لست أنت الذي يوصف بهذا الوصف ، بل غيرك هو المجنون ، من هؤلاء الذين باعوا

عقولهم فى سوق الغواية والضلال . .

وهذا المعنى وإن كان يتحقق مع عدم ذكر حرف الجر ، بأن يجىء النظم هكذا « ما أنت مجنون » فإن فيه مواجهة للنبى بهذه الصفة ، التي هى أبعد

(156/776)

الصفات منه صلوات اللّه وسلامه عليه ، إنها داء خطير يتناول وجود الإنسان ، ويذهب بكل معالم إنسانيته . . ولهذا جاء مع نفى تلك الصفة عن النبي ـ هذه المباعدة الادية بينه وبينها ، فقام حجاز بينه وبينها بقوله تعالى : « بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » .

. ثم قام حجاز آخر بحرف الجر « الباء » .

. « ما أَنْتَ ـ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » .

وفى هذا كله ما يؤكد تلك الحقيقة التي جاءت الآية الكريمة لتقريرها ، وهى بعد النبي ـ بعدا معنويا ، وحسيّا ـ عن أن يلم بحماه الكريم شىء يمسّ عقله فى سلامته ، وكماله . . ومثل هذا قوله تعالى : « وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » وقوله سبحانه : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » .

. ففى هذين المقامين توكيد لنفى هاتين الصفتين المذمومتين عن النبي : التجبر ، والتسيطر . . وهذا آكد وأبلغ فى نفى هاتين الصفتين عن النبي ، من أن لو جاء النظم هكذا : « ما

أنت جبار » .

« ما أنت مصيطر » ، برفع هذه الحواجز المادية التي تحجز السوء عن أن يواجه به النبي ، حتى ولو كان هذا السوء واقعا فى قيد النفي . .

وقوله تعالى : « بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » . إما أن يكون جملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، يراد بها الإشارة إلى أن الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - فى نعمة سابغة من ربه ، وهو بهذه النعمة معافى من كل عارض سوء يعرض له فى عقله ، أو روحه ، أو قلبه . فهذا أشبه بمن يقال له : أنت - بحمد اللّه - فى عافية ، أو أنت - وللّه الحمد - فى أمان . .

وإما أن يكون قوله تعالى : « بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » ، متعلقا بمحذوف ، حال من الضمير المستكنّ فى قوله تعالى : « بِمَجْنُونٍ » .

. أي ما أنت بمجنون ، والحال أنك محفوف بنعمة ربك . . !

(157/776)

قوله تعالى : « وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ » معطوف على جواب القسم : « ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ، وهو وعد من اللّه سبحانه للنبى الكريم ، بالأجر العظيم المتصل ، غير الممنون ، أي غير المنقطع عنه أبدا ، وذلك جزاء جهاده ، وصبره على ما يلقى من أذى

قومه ، وسفاهتهم عليه . .

والأجر غير الممنون ، هو غير المقطوع ، أي الدائم المتصل .

ويجوز أن يكون معنى الأجر غير المنون هنا ، هو الأجر الذي لا منّة عليك فيه من أحد ، أي لا فضل لمخلوق عليك فيه . . فهو فضل خالص من عند اللّه لك ، وإنك لأهل له ، بما احتملت من أذى فى سبيل دعوة الحق التي تدعو إليها . . وفى هذا تنويه بقدر النبي ، ورفع لمقامه عند ربه ، وأن هذه المنزلة التي بلغها هى - وإن كانت من فضل اللّه - محسوبة من كسب النبي ، ومن سعيه المحمود المبرور ، عند ربه .

قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

هو تقرير لما تضمنه قوله تعالى : « وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ » - فهذا الأجر غير الممنون ، هو ثمرة لهذا الخلق العظيم ، الذي كان عليه رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم . . وحسب رسول اللّه بهذا الوصف الكريم ، من اللّه سبحانه وتعالى - حسبه بهذا شرفا وعزّا ، حيث توّجه ربه - جلّ وعلا - بتاج الكمال كله ، إذ ليس بعد حسن الخلق حلية تتحلى بها النفوس ، أو تاج تتّوج به الرءوس . . ففى مغارس الخلق الحسن ، كانت رسالات المرسلين ، ومن أجل حماية هذه المغارس ، وإطلاع ثمرها ، كانت دعوة الرسل ، وكان جهادهم ، الذي توّج بدعوة سيد

الرسل ، وجهاد خاتم النبيين . . وفى هذا يقول صلوات اللّه وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . .

قوله تعالى : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ » . .

هو وعيد للمشركين ، وفضح لما هم فيه من ضلال ، وأنه سيأتى يوم تنكشف فيه حالهم ، ويرون فيه سوء أعمالهم ، كما سيرون ما كان عليه ضلالهم فى رسول اللّه ، وفى مقولاتهم الباطلة فيه . .

وقوله تعالى : « بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ » متعلق بالفعلين : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » فالفعلان يتنازعان العمل فيه ، إذ هما مسلطان عليه . . فالنبى سيبصر ، وهم - أي المشركون - سيبصرون ، بأيّ - منه أو منهم - المفتون . .

والمفتون ، هو ، الذي فتن بنفسه ، وغرّه الغرور ، فركب مركب الفتن والضلال ، وهو على ظنّ أو يقين بأنه أهدى سبيلا ، وأقوم طريقا . .

ويكون قوله تعالى : « بِأَيِّكُمُ » متعلقا بفعل محذوف دلّ عليه المقام . . » أي ستبصر ويبصرون بأيكم تتعلق الفتنة ، وبأيكم يتحقق وصف المفتون ، أو يتمثل شخصه . .

أي فستبصر أيها النبي ، وسيبصر المشركون ، بأيكم كان الشيطان متلبّسا به ، مستوليا عليه ، مالكا زمامه ؟ . .

والجواب واضح لا يحتاج إلى بيان ، والنبي على يقين منه ، وإن كان المشركون عن هذا في غفلة وضلال ، وفى ادعاء وغرور . . وهذا مثل قوله

(159/776)

تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » (24 : سبأ) .

قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . .

أي إنكم إذا لم تعلموا أيها المشركون وأنتم فى هذه الدنيا ، أنكم مفتونون ضالون ، قد أغواكم الشيطان وفتنكم . فإن ربك . أيها النبي . هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وانقاد لشيطانه ، وبمن هو على طريق الهدى ودين الحق ، فيجازى كلّا بما عمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1074 . 1083 ﴾

(160/776)

وقال ابن عاشور :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

افتتاح هذه السورة بأحد حروف الهجاء جار على طريقة أمثالها من فواتح السور ذوات الحروف المقطعة المبيّنة في سورة البقرة وهذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف مقطع من حروف الهجاء .

ورَسَمُوا حرف ﴿ ن ﴾ بصورته التي يرسم بها في الخط وهي مسمّى اسمه الذي هو ﴿ نُون ﴾ (بنونٍ بعدها واو ثم نون) وكان القياس أن تكتب الحُروف الثلاثة لأن الكتابة تبَع للنطق والمنطوق به هو اسم الحرف لا ذاته ، لأنك إذا أردتَ كتابةَ سيف مثلاً فإنما ترسم سينا ، وياء ، وفَاء ، ولا ترسم صورة سَيْف .

وإنما يُقرأ باسم الحرف لا بهجائه كما تقدم في أول سورة البقرة .

ويُنطق باسم نون ساكنَ الآخر سكون الكلمات قبل دخول العوامل عليها ، وكذلك قرىء في القراءات المتواترة .

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

الفاء للتفريع على قوله : ﴿ مَا أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 2] باعتبار ما اقتضاه قوله ﴿ بنعمة ربك ﴾ [القلم : 2] من إبطال مقالة قيلت في شأنه قالها أعداؤه في الدين ، ابتدأ بإبطال بهتانهم ، وفرع عليه أنهم إذا نظروا الدلائل وتوسموا الشمائل علموا أي الفريقين المفتون أَهُم مفتونون بالانصراف عن الحق والرشد ، أم هو باختلال العقل كما اختلقوا .

والمقصود هو ما في قوله : ﴿ ويبصرون ﴾ ولكن أدمج فيه قوله : ﴿ فستبصر ﴾ ليتأتى

بذكر الجانبين إيقاعُ كلام منصف (أي داع إلى الإنصاف) على طريقة قوله : ﴿ وإنا أو إياكم لَعَلَى هُدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] لأن القرآن يبلغ مسامعهم ويتلى عليهم .

وفعْلا (تبصر ويبصرون) ، بمعنى البصر الحسي .

(161/776)

وروي عن ابن عباس ، أن معناه فستعلم ويعلمون ، فجعله مثل استعمال فعل الرؤية في معنى الظن ، فلعله أراد تفسير حاصل المعنى إذ قد قيل إن الفعل المشتق من (أبصر) لا يستعمل بمعنى الظن والاعتقاد عند جمهور اللغويين والنحاة خلافاً لهشام كذا في "التسهيل"

فالمعنى : ستَرى ويَرَون رأيَ العين أيكم المفتون فإن كان بمعنى العلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك فالسين في قوله : ﴿ فستبصر ﴾ للتأكيد ، وأما المشركون فسيرون ذلك ، أي يعلمون آثار فتونهم وذلك فيما يرونه يوم بدر ويوم الفتح .

وإن كان بمعنى البصر الحسي فالسين والتاء في كلا الفعلين للاستقبال .

وضمير ﴿ يُبصرون ﴾ عائد إلى معلوم مقدر عند السامع وهم المشركون القائلون : هو مجنون .

و(أي) اسم مبهم يتعرف بما يضاف هو إليه ، ويظهر أن مدلول (أي) فرد أو طائفة متميز

عن مشارك في طائفته من جنس أو وصف بمميّز واقعي أو جَعْلي ، فهذا مدلول (أيّ) في جميع مواقعه ، وله مواقع كثيرة في الكلام ، فقد يشرب (أيّ) معنى الموصول ، ومعنى الشرط ، ومعنى الاستفهام ، ومعنى التنويه بكامل ، ومعنى المعرّف بـ (ال) إذا وُصل بندائه .

وهو في جميع ذلك يفيد شيئاً متميزاً عما يشاركه في طائفته المدلولة بما أضيف هو إليه ، فقوله تعالى : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ معناه : أيُّ رجل ، أو أيُّ فريق منكم المفتون ، ف (أي) في موقعه هنا اسم في موقع المفعول ل (تُبصر ويبصرون) أو متعلق به تعلقَ المجرور .

وقد تقدم استعمال (أيّ) في الاستفهام عند قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ في سورة ﴿ الأعراف : 185] .

(162/776)

والمفتون ﴾ : اسم مفعول وهو الذي أصابته فتنة ، فيجوز أن يراد بها هنا الجُنون فإن الجنون يعدّ في كلام العرب من قبيل الفتنة (يقولون للمجنون : فَتَنَتْهُ الجن) ويجوز أن يراد ما يصدق على المضطرب في أمره المفتون في عقله حيرة وتقلقلاً ، بإيثار هذا اللفظ ، دون لفظ المجنون من الكلام الموجّه أو التورية ليصح فرضه للجانبين .

فإن لم يكن بعض المشركين بمنزلة المجانين الذين يندفعون إلى مقاومة النبي صلى الله عليه وسلم بدون تبصر يكنْ في فتنة اضطراب أقواله وأفعاله كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما الذين أغروا العامة بالطعن في النبي صلى الله عليه وسلم بأقوال مختلفة .

والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله ، والأصل : أيكم المفتونُ فهي كالباء في قوله : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

ويجوز أن تكون الباء للظرفية والمعنى : في أيّ الفريقين منكم يوجد المجنون ، أي من يصدق عليه هذا الوصف فيكون تعريضاً بأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما من مدبري السوء على دهماء قريش بهذه الأقوال الشبيهة بأقوال المجانين ذلك أنهم وصفوا رجلاً معروفاً بين العقلاء مذكوراً برجاحة العقل والأمانة في الجاهلية فوصفوه بأنه مجنون فكانوا كمن زعم أن النهار ليل ومن وصف اليوم الشديد البرد بالحرارة ، فهذا شبه بالمجنون ولذلك يجعل ﴿ المفتون ﴾ في الآية وصفاً ادعائياً على طريقة التشبيه البليغ كما جعل المتنبي القوم الذين تركوا نزيلهم يرحل عنهم مع قدرتهم على إمساكه راحلين عن نزيلهم في قوله:

إذا تَرحَّلْت عن قوم وقد قدروا . . .

أن لا تفارقهم فالرَّاحلون هُمُو

ويجوز أن يكون ﴿ المفتون ﴾ مصدراً على وزن المفعول مثل المعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجَلْد ؛ والميْسور لليسر ، والمعسورِ لضده ، وفي المثل "خُذ من ميْسوره ودَعْ

معسوره" .

والباء على هذا للملابسة في محل خبر مقدم على ﴿ المفتون ﴾ وهو مبتدأ .

(163/776)

يُضمن فعل (تُبصر ويبصرون) معنى : توقن ويوقنون ، على طريق الكناية بفعل الإِبصار عن التحقق لأن أقوى طرق الحسّ البصر ويكون الإِتيان بالباء للإِشارة إلى هذا التضمين . والمعنى : فستعلم يقيناً ويعلمون يقيناً بأيّكم المفتون ، فالباء على أصلها من التعدية متعلقة بـ (يبصر ويُبصرون) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

تعليل لجملة : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ [القلم : 56] باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له ﴿ إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] وأن ضده بضده هو الراجع العقل أي الذي أخبرك بما كنّى عنه قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ [القلم : 5] من أنهم المجانين هو الأعلم بالفريقين وهو الذي أنبأك بأن سيتضح الحق لأبصارهم فتعين أن المفتون هو الفريق الذين وسموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون المردودُ عليهم بقوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 2] إذ هم الضالون

عن سبيل ربّ النبي صلى الله عليه وسلم لا محالة ، وينتظم بالتدرج من أول السورة إلى هنا أقيسَة مساواةٍ مندرج بعضها في بعض تقتضي مساواة حقيقة من ضل عن سبل رب النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة المفتون .

ومساواة حقيقة المفتون بحقيقة المجنون ، فتُنتج أن فريق المشركين هم المتصفون بالجنون بقاعدة قياس المساواة أن مُساوِيَ المساوي لشيء مساوٍ لذلك الشيء .

وهذا الانتقال تضمن وعداً ووعيداً ، بإضافة السبيل إلى الله ومقابلةِ من ضل عنه بالمهتدين .

وعمومُ من ضل عن سبيله وعمومُ المهتدين يجعل هذه الجملة مع كونها كالدليل هي أيضاً من التذييل .

وهو بعدَ هذا كله تمهيد وتوطئة لقوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ [القلم : 8] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(164/776)

فصل فى منزلة الخلق

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الخلق

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4] قال ابن عباس ومجاهد : لعلى دين عظيم لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن رضي الله عنه: هو آداب القرآن وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله وينهى عنه من نهى الله والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم: سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئا وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199] قال جعفر بن محمد : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما هذا قال: لا أدري حتى أسأل فسأل ثم رجع إليه فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال: أحدها : أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال ومعاد له معارض وعليه في كل واحد من هذه واجب فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم وينهاهم عن ضده وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختيارا ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199] قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وقال مجاهد : يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: 219] ثم قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ وهو كل معروف وأعرفه: التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد ثم قال تعالى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ [الفرقان: 63] وعلى هذا فليست بمنسوخة بل يعرض عنه

مع إقامة حق الله عليه ولا ينتقم لنفسه وهكذا كان خلقه قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وقال: ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب

(166/776)

من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي قط: أف ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا متفق عليهما وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن البر: هو حسن الخلق وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فقابل البر بالإثم وأخبر: أن البر حسن الخلق والإثم: حواز الصدور وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ولهذا قابله بالإثم وفي حديث آخر: البر: ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في الصدر وقد فسر حسن الخلق بأنه البر فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب والإثم حواز الصدور وما حاك فيها واسترابت به وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس كما سيأتي

في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: خياركم: أحاسنكم أخلاقا وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء قال الترمذي: حديث حسن صحيح وفيه أيضا وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج وفيه أيضا عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم وصححه إن من أكمل المؤمنين إيمانا: أحسنهم خلقا وخياركم: خياركم لنسائهم

(167/776)

وفي الصحيح عن عائشة عنه: إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم رواه أبو داود وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محقا وببيت في وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه رواه الطبراني وإسناده صحيح فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة وهي حسن الخلق والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب والأدنى لأدناها

وهو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله وفي الترمذي عن جابر رضي الله عنه عنه: إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال: المتكبرون الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائده دينية والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحا وتعاظما وتطاولا وإظهارا لفضله على غيره وأصله: من الفهق وهو الامتلاء فصل الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق: زاد عليك في الدين

وكذلك التصوف قال الكتاني: التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق: فقد زاد عليك في التصوف وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى وقيل: حسن الخلق: بذل الجميل وكف القبيح وقيل: التخلي من الرذائل والتحلي بالفضائل

(168/776)

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول

والفعل وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته وتحمله على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش كما قال: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد : الذي يملك نفسه عند الغضب وهوحقيقة الشجاعة وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن والكمال نقصا والنقص كمالا والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه فيغضب في موضع الرضى

(169/776)

ويرضى في موضع الغضب ويجهل في موضع الأناة ويبخل في موضع البذل ويبذل في موضع البخل ويحجم في موضع الإقدام ويقدم في موضع الإحجام ويلين في موضع الشدة ويشتد في موضع اللين ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع التواضع والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة والفحش والطيش ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون فإن النفس قد تجمع قوة وضعفا فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر وأذلهم إذا قهر ظالم عنوف جبار فإذا قهر صار أذل من امرأة: جبان عن القوي جريء على الضعيف فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضا كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضا وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت: إما إلى كبر وعلو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة وإذا انحرفت عن خلق الحياء

انحرفت: إما إلى قحة

وجرأة وإما إلى عجز وخور ومهانة بحيث يطمع في نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه

ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس وكذلك إذا

انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط وإما إلى

غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد . . . فنحن أغلظ أكبادا من الإبل

(170/776)

وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة وإما إلى الذل

والمهانة والحقارة ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم

اقتدار وعزة وشرف كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار . . . حجة لاجىء إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف وإما إلى تفريط

وإضاعة والرفق والأناة بينهما وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين

انحرفت: إما إلى كبر وإما إلى ذل والعزة المحمودة بينهما وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة

انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود وإما إلى جبن وتأخر مذموم وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة انحرفت: إما إلى حسد وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضى بالدون وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت: إما إلى حرص وكلب وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت: إما إلى قسوة وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس كمن لا يقدم على ذبح شاة ولا إقامة حد وتأديب ولد ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك وقد ذبح أرحم الخلق بيده في موضع واحد ثلاثا وستين بدنة وقطع الأيدي من الرجال والنساء وضرب الأعناق وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم وكذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطي البشر عن البشر وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة ويزيل الوقار ويطمع في الجانب كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب عزيز جانبه حبيب لقاؤه وفي صفة نبينا: من رآه بديهة هابه ومن خالطه عشرة أحبه والله أعلم

فصل نافع جدا عظيم النفع للسالك يوصله عن قريب ويسيره بأخلاقه التي

لا يمكنه إزالتها فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز: كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها ونقدم قبل هذا مثلا نضربه مطابقا لما نريده وهو: نهر جار في صببه ومنحدره ومنته إلى تغريق أرض وعمران ودور وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرب دورهم ويتلف أراضيهم وأموالهم فانقسموا ثلاث فرق

(172/776)

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السكر فيكون إفساده وتخريبه أعظم وفرقة رأت هذه الحالة وعلمت أنه لا يغنى عنها شيئا فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذلك غاية التعذر وأبت الطبيعة النهرية

عليهم ذلك أشد الإباء فهم دائما في قطع الينبوع وكلما سدوه من موضع نبع من موضع فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ولا يتضررون به فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات وسقوها به فأنبتت أنواع العشب والكلإ والثمار المختلفة الأصناف فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر فإذا تبين هذا المثل فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان بل وسائر الحيوان على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية وشهوانية وهي الإرادية وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة فإذا عجز عن ذلك الضار: أورثه قوة الحقد وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأى غيره مستبدا به أورثه الحسد فإن ظفر به: أورثته شدة شهوته وإرادته: خلق البخل والشح وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه: أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ومنه يتولد: الكبر

والفخر والخيلاء فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب وتزوج أحدهما بصاحبه فإذا تبين هذا: فالنهر مثال هاتين القوتين وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواصله يخربها ويتلفها ولابد فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرب ديار الإيمان وقلع آثاره وهدم عمرانه وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة من حنظل وضريع وشوك وزقوم وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد وأما النفوس الزكية الفاضلة: فإنها رأت ما يؤل إليه أمر هذا النهر فافترقوا ثلاث فرق فأصحاب الرياضات والمجاهدات والخلوات والتمرينات: راموا قطعه من ينبوعه فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى وما طبع عليه الجبلة البشرية ولم تنقد له الطبيعة فاشتد القتال ودام الحرب وحمى الوطيس وصارت الحرب دولا وسجالا وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات وفرقة أعرضوا عنها وشغلوا نفوسهم بالأعمال ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها لكن لم يمكنوا نهرها من إفساد عمرانهم بل اشتغلوا بتحصين العمران وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمه بل أخذ عنه يمينا وشمالا فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة وإحكام البناء وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها خوفا من هدم البناء وسألت يوما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقطع

الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس وهو جب القذر كلما نبشته ظهر وخرج ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل

(174/776)

ولا تشتغل بنبشه فإنك لن تصل إلى قراره وكلما نبشت شيئا ظهر غيره فقلت سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها: انقطع ولم يمكنه السفر قط ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ثم امض على سيرك فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدا وأثنى على قائله إذا تبين هذا فهذه الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك والثمار والحطب وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر فرأوا أن الكبر نهر يسقي به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان ويسقي به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم وهذه درة في صدفته فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وأبقوه على حاله في نفوسهم لكن استعملوه

حيث يكون استعماله أنفع وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دجانة يتبختر بين الصفين فقال: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع فانظر كيف خلى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه وفي الحديث الآخر وأظنه في المسند: إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله فالخيلاء التي يحبها الله: اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية وكيف استحال القاطع موصلا فصاحب الرياضات والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات: هيهات هيهات إنما يوقعه ذلك في الآفات والشبهات والضلالات فإن

(175/776)

تزكية النفوس مسلم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا لا خلقا ولا إلهاما فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2] وقال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: 151]

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم والله المستعان فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيا أو هو أمر خارج عن الكسب قلت: يمكن أن يقع كسبيا بالتخلق والتكلف حتى يصير له سجية وملكة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس رضي الله عنه: إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة فقال: أخلقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما فقال: بل جبلك الله عليهما فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة وما هو مكتسب وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت فذكر الكسب والقدر والله أعلم

فصل قال صاحب المنازل: الخلق: ما يرجع إليه المتكلف من نعمته أي

خلق كل متكلف: فهو ما اشتملت عليه نعوته فتكلفه يرده إلى خلقه كما قيل: إن التخلق يأتي دونه الخلق

وقال الآخر:

راد من القلب نسيانكم . . . وتأبى الطباع على الناقل

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته: يرجع إلى شيمته ونعته وسجيته فذاك الذي يرجع إليه: هو الخلق قال: واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو بذل المعروف وكف الأذى قلت: من الناس من يجعلها ثلاثة: كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة

ومنهم: من يجعلها اثنين كما قال الشيخ بذل المعروف وكف الأذى ومنهم من يردها إلى واحد وهو بذل المعروف والكل صحيح قال: وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء في العلم والجود والصبر ف العلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف والفرق بينه وبين المنكر وترتيبه في وضعه مواضعه فلا يضع الغضب موضع الحلم ولا بالعكس ولا الإمساك موضع البذل ولا بالعكس بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها وموضع كل خلق: أين يضعه وأين يحسن استعماله

والجود يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه والاستقصاء منها بحقوق غيره فالجود هو قائد جيوش الخير

والصبر يحفظ عليه استدامة ذلك ويحمله على الاحتمال وكظلم الغيظ وكف الأذى وعدم المقابلة وعلى كل خير كما تقدم وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة قال الله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: 45] فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التصوف والتصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ومعية من تحبه فإن المرء مع من أحب كما قال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة فإن المرء مع من أحب والله أعلم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: أن تعرف مقام الخلق

(177/776)

وأنهم بأقدارهم مربوطون وفي طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقوفون فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك حتى الكلب ومحبة الخلق إياك ونجاة الخلق بك فبهذه الدرجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم وكيفية مصاحبتهم

(178/776)

وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته وبالثالثة: درجة الفناء على قاعدته وأصله يقول: إذا عرفت مقام الخلق ومقاديرهم وجريان الأحكام القدرية عليهم وأنهم مقيدون بالقدر لا خروج لهم عنه ألبتة ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدري لايتعدونه استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك وذلك: أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة: لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه بأخذ العفو منهم فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم وأيضا فإنهم يأمنون لائمته فإنه في هذه الحال عاذر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس وعذرهم بما يعذر به المحبوس وإذا بدا منهم في حقك تقصير أو إساءة أو تفريط فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم بل اغفر لهم ذلك واعذرهم نظرا إلى جريان الأحكام عليهم وأنهم آلة وههنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالما فالذي سلطك علي ليس بظالم وههنا للعبد أحد عشر مشهدا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله وهو مشهد القدر وأن ما جرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار فإن الكل أوجبته

مشيئة الله فما شاء الله كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده وإذا شهد هذا: استراح وعلم أنه كائن لا محالة فما للجزع منه وجه وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت

فصل المشهد الثاني: مشهد الصبر فيشهده ويشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء

(179/776)

أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة وعلم أنه إن لم يصبر اختيارا على هذا وهو محمود صبر اضطرارا على أكبر منه وهو مذموم

فصل المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشي في بصيرته فإنه ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بالتجربة والوجود وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل هذا وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام

فصل المشهد الرابع: مشهد الرضى وهو فوق مشهد العفو والصفح وهذا لا

يكون إلا للنفوس المطمئنة سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله وهذا شأن كل محب صادق يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره ومتى تسخط به وتشكى منه كان ذلك دليلا على كذبه في محبته والواقع شاهد بذلك والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خدي أرضا . . . للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة وليتأخر فليس من ذا الشأن

فصل المشهد الخامس: مشهد الإحسان وهو أرفع مما قبله وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان فيحسن إليه كلما أساء هو إليه ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه وأنه قد أهدى إليه حسناته ومحاها من صحيفته وأثبتها في صحيفة من أساء إليه فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب وهذا المسكين قد وهبك حسناته فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها لتثبت الهبة وتأمن رجوع الواهب فيها وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم

ويهونه عليك أيضا : علمك بأن الجزاء من جنس العمل فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه وأحسنت إليه مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلك فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك فهذا لابد منه وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها

فصل المشهد السادس: مشهد السلامة وبرد القلب وهذا مشهد شريف جدا لمن عرفه وذاق حلاوته وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه بل يفرغ قلبه من ذلك ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذ وأطيب وأعون على مصالحه فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه فيكون بذلك مغبونا والرشيد لا يرضى بذلك ويرى أنه من تصرفات السفيه فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس وإعمال الفكر في إدراك الانتقام

فصل المشهد السابع: مشهد الأمن فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام:

أمن ما هو شر من ذلك وإذا انتقم: واقعه الخوف ولا بد فإن ذلك يزرع العداوة والعاقل لا يأمن عدوه ولو كان حقيرا فكم من حقير أردى عدوه الكبير فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل:

أمن من تولد العداوة أو زيادتها ولابد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه ويكف من جزعه بعكس الانتقام والواقع شاهد بذلك أيضا

فصل المشهد الثامن: مشهد الجهاد وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من

جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلماته وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها فلا حق له على من آذاه ولا شيء له قبله إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع فإنه قد وجب أجره على الله وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم من سكنى مكة أعزها الله ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم: تلك دماء وأموال ذهبت في الله وأجورها على الله ولا دية لشهيد فأصفق الصحابة على قول عمر ووافقه عليه الصديق فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام كما قال لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: 17]

فصل المشهد التاسع: مشهد النعمة وذلك من وجوه

أحدها : أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوما يترقب النصر ولم يجعله ظالما يترقب المقت والأخذ فلو خير العاقل بين الحالتين ولابد من إحداهما لاختار أن يكون مظلوما

ومنها : أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب

ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء : فهو مغبون سفيه فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته

(182/776)

ومنها : أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة وأنها في الحقيقة نعمة والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين ومنها : توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة وفي بعض الآثار : أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء هذا

وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قبل الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض فالعاقل يعد هذا ذخرا ليوم الفقر والفاقة ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئا

فصل المشهد العاشر: مشهد الأسوة وهو مشهد شريف لطيف جدا فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه فإنهم أشد الخلق امتحانا بالناس وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم وشأن نبينا وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله وقد قال له ورقة بن نوفل: لتكذبن ولتخرجن ولتؤذين وقال له: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله وخواص عباده: الأمثل فالأمثل ومن أحب معرفة ذلك فليقف على محن العلماء وأذى الجهال لهم وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابا سماه محن العلماء

فصل المشهد الحادي عشر: مشهد التوحيد وهو أجل المشاهد وأرفعها فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله والإخلاص له ومعاملته وإيثار مرضاته والتقرب إليه وقرة العين به والإنس به واطمأن إليه وسكن إليه واشتاق إلى لقائه واتخذه وليا دون من سواه بحيث فوض إليه أموره كلها ورضي به وبأقضيته وفنى بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه عن كل ما سواه: فإنه لا يبقى

في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة فضلا عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه فهو قلب جائع غير شبعان فإذا رأى أي طعام رآه هفت إليه نوازعه وانبعثت إليه دواعيه وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها : فإنه لا يلتفت إلى ما دونها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

فصل وأما قوله: أن يستفيد بمعرفة أقدار الناس وجريان الأحكام عليهم

: محبتهم له ونجاتهم به فلأنه إذا عاملهم بهذه المعاملة: من إقامة أعذارهم والعفو عنهم وترك مقابلتهم: استوت كراهتهم ومحبتهم له وكان ذلك سببا لنجاتهم الأخروية أيضا إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه وتلقي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسن التلقي هذه طباع الناس

فصل قال: الدرجة الثانية: تحسين خلقك مع الحق وتحسينه منك: أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرا وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكرا وأن لا ترى له من الوفاء بدا هذه الدرجة مبنية على قاعدتين إحداهما : أن تعلم أنك ناقص وكل ما يأتي من الناقص ناقص

فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر أما الشر: فظاهر وأما الخير: فيعتذر من نقصانه ولا يراه صالحا لربه فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه ولذلك مدح الله أولياءه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: 60] وقال النبي

: هو الرجل يصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى والحامل له على هذا الاعتذار أمران

أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه

(184/776)

والثاني: صدق محبته فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه وهو معتذر إليه مستحي منه: أن يواجهه بما واجهه به وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه وهذا مشاهد في محبة المخلوقين القاعدة الثانية: استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليك وأنك عاجزة عن شكره ولا يتبين هذا إلا في المحبة الصادقة فإن المحب يستكثر من محبوبه كل ما يناله فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه: كان سروره بذكره له وتأهيله لعطائه: أعظم عنده من سروره بذلك العطاء بل يغيب بسروره بذكره له عن

سروره بالعطية وإن كان المحب يسره ذكر محبوبه له وإن ناله بمساءة كما قال القائل:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة . . . لقد سرني أني خطرت ببالكا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرة وإن دقت فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة فكيف هذا مع الرب تعالى الذي لا يأتي أبدا إلا بالخير ويستحيل خلاف ذلك في حقه كما يستحيل عليه خلاف كماله وقد أفصح أعرف الخلق بربه عن هذا بقوله: والشر ليس إليك أي لا يضاف إليك ولا ينسب إليك ولا يصدر منك فإن أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها فضل وعدل وحكمة ورحمة ومصلحة فبأي وجه ينسب الشر إليه سبحانه وتعالى فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر وله فيه النعمة والفضل قوله: وأن لا يرى من الوفاء بدا يعني: أن معاملتك للحق سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما منك والشكر

على ما منه: عقد مع الله تعالى لازم لك أبدا لا ترى من الوفاء به بدا فليس ذلك بأمر عارض وحال يحول بل عقد لازم عليك الوفاء به إلى يوم القيامة

فصل قال: الدرجة الثالثة: التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرقة

التخلق ثم التخلق بمجاوزة الأخلاق هذه الدرجة ثلاثة أشياء أحدها : تصفية الخلق بتكميل ما ذكر في الدرجتين قبله فيصفيه من كل شائبة وقذى ومشوش فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقته إلى جمعيتك على الله فإن التخلق والتصوف تهذيب واستعداد للجمعية وإنما سماه تفرقة: لأنه اشتغال بالغير والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية والاشتغال بالرب وحده عما سواه ثم يصعد إلى ما فوق ذلك وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأن يغيب عن الخلق والتخلق وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم إحداهما : الاشتغال بالله عز وجل عن كل ما سواه والثانية: الفناء في الفردانية التي يسمونها حضرة الجمع وهي أعلى الغايات عندهم وهي موهبية لا كسبية لكن العبد إذا تعرض وصدق في الطلب: رجى له الظفر بمطلوبه والله أعلم

فصل ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق: على حرفين ذكرهما عبد القادر الكيلاني فقال: كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس فتأمل ما أجل هاتين الكلمتين مع اختصارهما وما أجمعهما لقواعد

السلوك ولكل خلق جميل وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى وتوسط النفس بينك وبين خلقه فمتى عزلت الخلق حال كونك مع الله تعالى وعزلت النفس حال كونك مع الخلق فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم وشمروا إليه وحاموا حوله والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 304 . 327 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى النون)

وقد ورد على وجوه :

1 – حرف من حروف التهجّى ذَوْلَقِيٌّ ، مخرجه قرب مخرج اللام .

يذكَّر ويؤنث ، والنَسبة نونىّ ؛ وقد نوّنت نوناً حسناً وحسنة ، جمعه : أَنوان ونُونات .

2 – اسمٌ لعدَدَ الخَمْسِين في حِساب الجُمَّل .

3 – النون الأَصلىّ ؛ مثل نون : نجم ، ومنع ، وعجن .

4 – النون المكرّرة في باب التفعيل ؛ نحو : فنَّن .

5 – النون الكافية : الَّتى تكون كناية عن كلمة تامّة نحو : ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾

6 – نون التنوين ، نحو : رَبّ ونبىّ .

وهذا لا يكون له في الخطّ صورة إلاَّ في كَأَيِّنْ .

7 – نون التثنية ﴿ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ .

8 – نون جمع السّلامة ، ويكون مفتوحاً أبداً : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ أَيُّها المؤمنُونَ ﴾ ويكون في جمع التكسير مُعْرَباً نحو إخْوان وجيران .

9 – نون الإعراب الَّذى يكون دليل الرفع فى الأَمثلة الخمسة : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ ﴾ ، ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ ، ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

10 – نون المطاوعة فى الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ ، ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ ، ﴿ فَانفَلَقَ ﴾ .

11 – نون الاستقبال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ .

12 – نون الضمير : ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ ﴾ ، ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ .

13 – نون التوكيد : ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ .

14 – النون الزَّائدة وتكون في الأَوّل نحو : نعلمهم ، وفى الثانى نحو : عَنْسَل ومَنْدل ، وفى الثالث نحو : جَحَنفل وغَضَنْفر ، وفى الرابع نحو : رَعْشن وضَيْفَن ، وفى الخامس نحو : فَرَس فَلَتان وفى السادس نحو : زَعْفران وترجمان ، وفى السابع نحو : قَرَعْبَلاَنة .

15 – النون المبدَلَة من اللام : هَتَلت السّماء وهَتَنت ، والمبدَلة من .

الهمزة ، نحو : صَنْعانّى فى النسبة إلى صَنْعاءَ .

16 – النون اللُّغوىّ .

قال الخليل : النون : الحرف المعروف ،

والدّواة ، وجمع نونة الذَقَن ، وشَفرةُ السّيف ، والحوتُ ؛ وفى الحديث : "دَسِّمُوا نُونَتَه"

يعنى نونة الذَقَن ، وفى الدّواة مثل : ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ ، وقال فى السّيف .

*سأَجعلُه مكانَ النُّون مِنّى * وما أُعطيت من عزّ الجَلال*

وبمعنى الحوت قال الله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ .

قال الشّاعر :

*عَيْنان عَيْنان ما فاضت دُموعهما * لِكُلِّ عَيْنٍ من العَيْنَينِ نُونانِ*

*نُونانِ نُونانِ لم يكتبْهُما قَلَمٌ * فى كلّ نون من النّونَيْن نُونانِ*

وجمع نُون الحوت : نِينانٌ وأَنْوانٌ .

ولو قيل : نُنْ فى الشعر جاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 6.8 ﴾

(188/776)

فصل في ذكر شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأخلاقه

قال المقريزى :

قال الله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 68 : 4 [1] قال ابن سيده : والخلق والخلق الخليقة ، أعني الطبيعة ، وفي التنزيل : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 68 : 4 ، والجمع أخلاق ، وتخلق بخلق كذا : استعمله من غير أن يكون موضوعا في فطرته ، وفي قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 68 : 4 ثلاثة أقوال : أحدهما : دين الإسلام ، قاله عبد الله ابن عباس ومجاهد ، والثاني : أدب القرآن ، قاله الحسن وعطية العوفيّ ، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : كان خلقه القرآن ، تعني كان على ما أمره الله به في القرآن ، واختار هذا القول الزّجاج . . والثالث :

أنه الطبع الكريم ، وهذا القول هو الظاهر ، وحقيقة الخلق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب ، وسمي خلقا لأنه يصير كالخلقة في الإنسان .

وأما ما طبع عليه من الآداب فهو الخير ، فيكون الخلق هو الطبع المتكلف ، والخير هو الطبع الغريزي ، وقد اجتمع في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكارم الأخلاق ، وشهد له به تعالى بالحكمة البالغة ، والأخلاق السمية الرفيعة ، والمنازل العلية الرصينة .

قال أبو القاسم : سمي خلقه عظيما ، لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى .

وقال لأنه امتثل أمر ربه في قوله تعالى : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ 7 :

199 [2].

وخرّج البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ 7 : 199، قال: أمرني ربي أن آخذ [3] العفو من أخلاق الناس.

---

[1] الآية 4/ القلم.

[2] الآية 199/ الأعراف.

[3] (سنن أبي داود) ج 5 ص 143 حديث رقم 4787.

(189/776)

وقيل: عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه بعد مشاهدة مكونها سبحانه، وكان صلّى الله عليه وسلّم كما قالت عائشة رضي الله عنها حيث سئلت عن خلقه: القرآن، يغضب لغضبه، ويرضي لرضاه، ولا ينتقم لنفسه، ولا يغضب لها إلا أن تنتهك حرمات الله.

وإذا غضب لم يقم لغضبه أحد، فيكون غضبه لربه، وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه، [وقد] [1] عرض عليه أن ينتصر بالمشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبي [2] وقال: إنا لا نستعين بمشرك.

وكان أشجع الناس وأسخاهم وأجودهم ، ما سئل شيئا فقال لا ، ولا يبيت في بيته درهم ولا دينار ، فإن فضل ولم يجد من يأخذه وفجئه الليل لم يرجع إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، ولا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت أهله عاما فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ثم يؤثر من قوت أهله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام .

ولم يشغله الله تعالى من المال بما يقضي محبة في فضوله ولا أحوجه إلى أحد ، بل أقامه على حد الغنى [3] بالقوت ، ووفقه لتنفيذ الفضل فيما يقرب من ربه تعالى .

وكان أحلم الناس ، وأشدّ حياء من العذراء في خدرها ، وكان خافض الطرف . نظره الملاحظة ، لا يثبت بصره في وجه أحد تواضعا ، يجيب من دعاه من غني أو فقير ، وحر أو عبد ، وكان أرحم الناس ، يصغي الإناء للهرّة ، وما يرفعه حتى تروى رحمة لها .

وكان أعفّ الناس ، لم تمس يده يد امرأة إلا بملك رقّها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، وكان أعدل الناس ، وجد أصحابه قتيلا من خيارهم وفضلائهم ، فلم يحف [4] لهم من أجله على أعدائه من اليهود ، وقد وجد مقتولا بينهم ! بل وداه [5] مائة ناقة من صدقات المسلمين وإن بأصحابه حاجة إلى بعير

---

[1] زيادة للسياق .

[2] في (خ) «فأيا» .

[3] في (خ) «الغنا» .

[4] من الحيف وهو الميل من العدل .

[5] وداه : دفع ديته .

(190/776)

واحد يتقوون به ، ووودي بني خزيمة وهم غير موثوق بإيمانهم ، إذ وجب بأمر الله ذلك .

وكان أكثر الناس إكراما لأصحابه ، لا يمد رجليه بينهم ، ويوسع لهم إذا ضاق بهم المكان ، ولم تكن ركبتاه تتقدم ركبة جليسه ، وكان له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا له ، وإن أمر تبادروا لأمره ، وكان يتحمل لأصحابه ويتفقدهم ويسأل عنهم ، فمن مرض عاده [1] ، ومن غاب تفقده وسأل عنه ، ومن مات استرجع فيه وأتبعه الدعاء له ، ومن تخوّف أن يكون وجد في نفسه شيئا انطلق إليه حتى يأتيه في منزله .

ويخرج إلى بساتين أصحابه ويأكل ضيافتهم ، ويتألف أهل الشرف ، ويكرم أهل الفضل ، ولا يطوي بشره عن أحد ، ولا يجفو عليه ، ويقبل [2] معذرة المعتذر إليه ، والضعيف والقوي في الحق عنده سواء ، ولا يدع أحدا يمشي خلفه ، ويقول :

خلّوا ظهري للملائكة ، ولا يدع أحدا يمشي معه وهو راكب حتى يحمله ، فإن أبي قال : تقدمني إلى المكان الفلاني .

ويخدم من خدمه ، وله عبيد وإماء لا يرتفع عنهم [في شيء] [3] من مأكل ولا ملبس ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : خدمته نحوا من عشرين سنة ، فو الله ما صحبته في حضر ولا سفر إلا كانت خدمته لي أكثر من خدمتي له . وما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلت كذا ؟ ولا قال لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا [4] ؟ ! ! وكان صلّى الله عليه وسلّم في سفر ، فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله ، عليّ ذبحها وقال آخر عليّ سلخها ، وقال آخر : عليّ طبخها . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وعليّ جمع الحطب ! فقالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك ، فقال : قد علمت أنكم تكفوني ، ولكني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه وقام فجمع الحطب .

---

[1] في (خ) «عاداه» .

[2] في (خ) «ويقبل» .

[3] ما بين القوسين مطموس في (خ) ولعل الصواب ما أثبتناه .

[4] في (خ) «ولا يحدق شيئا إلى الشيء» وما أثبتناه أولى للسياق والمعنى .

وكان في سفر فنزل إلى الصلاة ثم كر راجعا ، فقيل : يا رسول الله ، أين تريد ؟ قال : أعقل ناقتي فقالوا : نحن نعقلها . قال : لا يستعين أحدكم بالناس في قضمة من سواك . وكان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ويعطي كل جلسائه نصيبه . لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وإذا جلس إليه أحدهم لم يقم صلّى الله عليه وسلّم حتى يقوم الّذي جلس إليه ، إلا أن يستعجله أمر فيستأذنه ، ولا يقابل أحدا بما يكره ، ولا يجزي السيئة بمثلها .

بل يعفو ويصفح . وكان يعود المرضى ويحب المساكين ويجالسهم . ويشهد جنائزهم . ولا يحقر فقيرا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، ويعظم النعمة وإن قلت .

ولا يذم منها شيئًا : وما عاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وكان يحفظ جاره ويكرم ضيفه ، وكان أكثر الناس تبسما ، وأحسنهم بشرا ، ولا يمضي له وقت في غير عمل الله ، أو فيما لا بد منه ، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون إثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه .

وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع اللحم معهن ، ويركب الفرس والبغل والحمار ، ويردف خلفه عبده أو غيره من الناس ، ويمسح وجه فرسه بطرف ردائه .

وكان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وإذا جاءه ما يحب قال : الحمد للَّه رب العالمين ، وإذا جاء

ما يكره قال : الحمد للَّه على كل حال ، وإذا رفع الطعام من بين يديه قال : الحمد للَّه الّذي أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين . وكان أكثر جلوسه وهو مستقبل القبلة ، ويكثر ذكر الله تعالى ، ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، ويستغفر في المجلس الواحد مائة مرة ، وكان يسمع لصدره وهو في الصلاة أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وكان يقوم الليل في الصلاة حتى ورمت قدماه .

وكان يصوم الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر ، وعاشوراء . وقلما كان يفطر يوم الجمعة ، وكان أكثر صيامه في شعبان ، وكان يصوم حتى يقال :

لا يفطر ، ويفطر حتى يقال : لا يصوم .

(192/776)

وكان عليه السلام تنام عيناه ولا ينام قلبه انتظارا للوحي ، وإذا نام نفخ ولا يغط وإذا رأى في منامه ما يكره قال : هو الله لا شريك له ، وإذا أخذ مضجعه قال : رب قني عذابك يوم تبعث عبادك ، وإذا استيقظ قال : الحمد الله الّذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وكان لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ويكافئ عليها ، ولا يتأنق في مأكل ، ويعصب على بطنه الحجر من الجوع ! هذا وقد آتاه الله مفاتح خزائن الأرض فلم يقبلها ، بل زهد في الدنيا

، واختار عليها الله والدار الآخرة .

وأكل الخبز بالخلّ وقال نعم الإدام الخلّ ، وأكل لحم الدجاج ولحم الحباري ، وكان يأكل ما وجد ، ولا يرد ما حضر ، ولا يتكلف ما لم يحضر ، ولا يتورع عن مطعم حلال ، إن وجد تمرا دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز برّ أو شعير أكله ، وإن وجد حلوى أو عسلا أكله ، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد ، وكان له من أصحابه من يبرد الماء وقال للهيثم بن التيهان [1] كأنك علمت حبنا اللحم ، وكان لا يأكل متكئا ، ولم يأكل على خوان ، ولم يشبع من خبز برّ ثلاثا تباعا حتى لقي الله عز وجل ، وكان يفعل ذلك إيثارا على نفسه ، لا فقرا ولا بخلا .

وكان يحضر الوليمة إذا دعي إليها ، ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدايا ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ، وكان يحب من المأكل الدباء وذراع الشاة ، وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن ، وكان منديله باطن قدميه ، ويأكل خبز الشعير بالتمر ، وأكل البطيخ بالرطب ، والقثاء بالرطب ، والتمر بالزبد ، وكان يحب الحلوى والعسل ، ويشرب قاعدا ، وربما شرب قائما ، وكان يتنفس في الإناء ثلاثا ، مبينا للإناء عن فمه ، ويبدأ بمن عن يمينه إذا سقاه ، وشرب لبنا وقال : من أطعمه الله

---

[1] هو مالك بن التيهان ، واسم التيهان أيضا : مالك بن عيتك بن عمرو بن الأعلم بن عامر بن زعون ، ابن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك الأنصاري حليف بني عبد

الأشهل ، كان أحد النقباء ليلة العقبة ثم شهد بدرا ، واختلف في وقت وفاته ، فأصح ما قيل فيه : إنه شهد مع عليّ صفّين ، وقتل فيها رحمه الله ، يقول السهيليّ : «وأحسب ابن إسحاق وابن هشام تركا نسبه على جلالته في الأنصار ، وشهوده هذه المشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لا خلاف فيه» وقد ضاف الهيثم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، في منزله ومعه أبو بكر وعمر فذبح لهم عناقا وأتاهم بقنو من رطب (الروض الأنف للسهيلي) ج2 ص 195 .

(193/776)

طعاما فليقل : اللَّهمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللَّهمّ بارك لنا فيه وزدنا منه . وقال : ليس شيء يجزي مكان الطعام والشراب غير اللبن وشرب النّبيذ الحلو (وهو الماء الّذي قد نقع فيه تمرات يسيرة حتى يحلو) ، وكان يلبس الصوف وينتعل بالمخصوف ، ولا يتأنّق في ملبس ، ويحب من اللباس الحبرة (وهي برود من اليمن فيها حمرة وبياض) .

وأحب الثياب إليه القميص ، وكان يقول إذا لبس ثوبا استجدّه اللَّهمّ لك الحمد كما ألبستنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له . وتعجبه الثياب

الخضر ، وربما لبس الإزار الواحد . أو عليه غيره ، يعقد طرفه بين كتفيه ، ويلبس يوم الجمعة برده الأحمر ويعتم ويلبس خاتما من فضة نقشه (محمد رسول الله) في خنصره الأيمن ، وربما لبسه في الأيسر .

ويحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة ، ويقول : إن الله جعل لذتي في النساء والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة ، وكان يتطيب بالغالية والمسك ويتطيب بالمسك وحده ، ويتبخر بالبخور والكافور ، ويكتحل بالإثمد ، وربما اكتحل وهو صائم ، ويكثر دهن رأسه ولحيته ، ويدهن غبّا [1] ويكتحل وترا ، ويحب التيمن في ترجله وفي تنعله وفي طهوره وفي شأنه كله . وينظر في المرآة ، ولا تفارقه قارورة الدهن في سفره ، والمرآة والمشط والمقراض والسواك والإبرة والخيط ، ويستاك في ليله ثلاث مرات : قبل نومه وبعده ، وعند القيام لورده ، وعند القيام لصلاة الصبح ، وكان يحتجم .

وكان يمزح ولا يقول إلا حقا ، قد جمع الله له كمال الأخلاق ومحاسن الأفعال ، وأتاه علم الأولين والآخرين ، وما فيه النجاة والفوز وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ ، ولا معلم له من البشر ، بل نشأ في بلاد الجهل والصحاري ، وآتاه الله ما لم [2] يؤت أحدا من العالمين ، واختاره على الأولين والآخرين ، وعصمه من الناس . ورفع له ذكره ، وضمن له إظهار دينه على الدين كله . وجعل شانئه الأبتر ، وأعزه بالنصر على كل عدوّ ، وأوجب طاعته على جميع الإنس والجان ، وأكرمه برسالته ، وأمنه

---

[1] الغبّ (بكسر الغين وتشديد الباء) اليوم بعد اليوم.

[2] في (خ) «مل لم».

(194/776)

من كل بشر، وأكب عدوه لوجهه، وغفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر صلّى الله عليه وسلّم.

وسيأتي هذا في مظانه مبسوطا إن شاء الله تعالى.

أما حسن خلقه

فخرج من حديث أبي بكر بن شيبة قال: حدثنا محمد بن بشر العبديّ، حدثنا سعيد بن أبي عروة، حدثنا قتادة عن زرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام أنه قال لعائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قالت [1]: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله كان القرآن.

وخرج الإمام أحمد من حديث مبارك عن الحسن عن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله: قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن وَإِنَّكَ [2] لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 68: 4 الحديث.

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي عمران عن يزيد ابن بابنوس [3] : قلنا لعائشة رضي الله عنها : يا أم المؤمنين ، كيف كان خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ قالت كان خلق رسول الله القرآن ، ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنين ، اقرأ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ 23 : 1 إلى العشر ، [فقرأ] [4] حتى بلغ العشر [آيات] [4] ، فقالت : هكذا كان خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وقال زيد بن واقد عن بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولانيّ ، عن أبي الدرداء قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه .

وخرّج البخاري من حديث مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما خير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل فينتقم للَّه بها .

لم يذكر فيه مسلم (فينتقم الله بها) ، وفي لفظ : ما خيّر رسول الله بين أمرين

---

[1] في (خ) «قال» .

[2] في (خ) «إنك» .

[3] بابنوس بموحدتين بينهما ألف ثم نون مضمومة ساكنة ومهملة (تهذيب التهذيب) ج

11 ص 316 .

[4] زيادة البيان .

(195/776)

إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنفسه في شيء يؤتي إليه قط حتى تنتهك حرمات الله ، فينتقم للَّه ، ولم يذكر مسلم في حديث مالك (فينتقم للَّه) .

وقال البخاري في رواية : والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتي إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم للَّه .

وفي لفظ له عن عائشة قالت : ما انتقم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنفسه في شيء يؤتي إليه حتى ينتهك من حرمات الله ، فينتقم للَّه .

ولمسلم من حديث أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما خير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر ، إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، [فإن كان إثما] [1] كان أبعد الناس منه .

وفي لفظ : ما ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئا قط بيده ، ولا امرأة ولا خادما

إلا أن يجاهد في سبيل الله عن رجل ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله عز وجل فينتقم [2] .

وخرّج الإمام أحمد من حديث محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ، قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خادما له قط ، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل من شيء فانتقمه إلا من صاحبه إلا أن ينتهك محارم الله فينتقم للَّه عز وجل ، وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثما ، فإنه كان أبعد الناس منه .

ولابن سعد من حديث وكيع عن داود بن أبي عبد الله عن ابن جدعان عن جدته عن أم سلمة : أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أرسل وصيفة له فأبطأت ، فقال : لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك . وخرّجه أبو بكر بن أبي شيبة وأبو يعلي به ، وروي منصور بن المعتمر عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت – : ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منتصرا من

---

[1] زيادة البيان ساقطة في (خ) وأتممناها من (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 83 .

[2] ونحوه في (سنن أبي داود) كتاب الأدب – باب في التجاوز في الأمر ، وأخرجه مسلم في الفضائل باب مباعدته صلّى الله عليه وسلّم للآثام ، وابن ماجة في النكاح باب ضرب النساء . ونسبه المنذري إلى النسائي .

ظلامة ظلمها قط ، إلا أن ينتهك من محارم الله ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك ، وما خير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما .

وفي لفظ : ما رأيت رسول الله منتصرا من ظلمة قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدّهم في ذلك غضبا ، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما .

وروي محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : ما خيّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراما ، فإن كان حراما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنفسه من شيء يصاب منه إلا أن تعاب حرمة الله فينتقم للّه .

وخرّج البخاري في الأدب المفرد من حديث محمد بن سلام : أخبرنا يحيى بن محمد أبو محمود البصري قال : سمعت عمر مولى المطلب قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لست من دد ، ولا الدّد مني ، يعني ليس الباطل مني

بشيء .

وخرّج البخاري في كتاب الديات في باب من استعان عبدا أو صبيا ، من حديث إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : يا رسول الله ، إن أنسا غلام كيّس فليخدمك ، قال : فخدمته في الحضر والسفر ، فو الله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا ؟

وخرجه مسلم بنحوه . وخرّج في كتاب الوصايا [1] في باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحا له ، من حديث ابن عليّة ، أخبرنا عبد العزيز عن أنس قال : قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة ليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بيدي (الحديث بمثله) ، غير أنه لم يقل (فو الله) .

وخرّج في كتاب الأدب في باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ،

---

[1] (صحيح البخاري بحاشية السندي) ج2 ص 131 .

من حديث سلام بن مسكين : سمعت ثابتا يقول : أخبرنا أنس قال : خدمت النبي صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين ، وما قال لي : أف ، ولا لم صنعت ؟ ولا ألا صنعت ؟ .

وخرجه مسلم في المناقب من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال :

خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين والله ما قال لي أفا قط ، وما قال لي لشيء :

لم فعلت كذا أو هلا فعلت كذا ؟ ! ومن حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : خدمت النبي صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين بالمدينة وأنا غلام ، ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن يكون عليه ، ما قال لي فيه : أف قط ، ولا قال لي : لم فعلت هذا ؟ وألا فعلت هذا ؟

وله من حديث زكريا قال : حدثني سعيد وهو ابن أبي برده عن أنس قال :

خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسع سنين فما أعلمه قال لي قط : لم فعلت كذا وكذا ؟

ولا عاب عليّ شيئًا قط .

ولمسلم وأبي داود من حديث عمر بن يونس قال : أخبرنا عكرمة – وهو ابن عمار – قال : قال إسحاق : قال أنس : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أحسن الناس خلقا ، فأرسلني يوما لحاجة فقلت : لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به ، رسول الله ،

فخرجت حتى أمرّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قبض بقفاي من ورائي ، قال : فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ، أذهبت حيث أمرتك ؟ قلت : نعم ، أنا أذهب يا رسول الله . وقال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ أو لشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا [1] ؟

وخرّج أبو بكر بن أبي شيبة من حديث أبي معاوية عن جعفر بن برقان عن عمران القصير عن أنس قال : خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين ، فما أرسلني في حاجة قط لم تهيّأ إلا قال : لو قضي لكان ، أو لو قدر لكان . ولمسلم من حديث عبد الوارث عن أبي التياح عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس خلقا .

---

[1] (سنن أبي داود) ج 3 ص 5 ص 133 كتاب الأدب ، باب الحلم وأخلاق النبي صلّى الله عليه وسلّم حديث رقم 4773 .

وخرّج البخاري من حديث عبد الوارث عن أبي التياح عن أنس قال : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس خلقا وكان لي أخ يقال له أبو عمير : أحسبه فطيم ، وكان إذا جاء قال : يا أبا عمير : ما فعل النّغير ؟ – نغز كان يلعب به – فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا ، فيأمر بالبساط الّذي تحته ، فيكنس وينضح ، ثم يقوم ونقوم خلفه ، فيصلي بنا . ترجم عليه (باب الكنية للصبي) .

وخرّجه مسلم ولفظه : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس خلقا ، وكان لي أخ يقال له : أبو عمير قال : وأحسبه قال : كان فطيما ، فكان إذا جاء رسول الله فرآه قال : أبا عمير ، ما فعل النّغير ؟ قال : فكان يلعب به . وخرّجه أبو داود من حديث حماد قال : حدثنا ثابت عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدخل علينا ولي أخ صغير يكنى أبا عمير ، وكان له نغر يلعب به فمات ، فدخل النبي صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم فرآه حزينا ، فقال : ما شأنه ؟ قالوا : مات نغره ! فقال : «يا أبا عمير ، ما فعل النّغير ؟» ترجم عليه . (باب الرجل يتكني وليس له ولد) [1] .

وفي هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستون وجها ، جمعها أبو العباس أحمد بن القاصّ الفقيه الشافعيّ في جزء [2] .

---

[1] أبو عمير هذا – بضم العين وفتح الميم وسكون الياء – هو أخو أنس بن مالك لأمه ، أمهما : أم سليم ، لا يعرف له اسم ، وتوفي في حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو الّذي

توفي وجرى لأم سليم مع زوجها أبي طلحة فيه ما جرى ، [يراجع ذلك في أبواب الجنائز من كتب السنن] ، والنّغر (بضم النون وفتح الغين) :

طائر صغير يجمع على النّغران .

أخرجه أبو داود في (السنن) كتاب الأدب باب ما جاء في الرجل يتكني وليس له ولد ، و(البخاري) في الأدب باب الانبساط إلى الناس ، و(مسلم) في الأدب باب استحباب تحنيك المولود ، و(الترمذي) في الصلاة باب ما جاء في الصلاة على البسط وقال : وحديث أنس صحيح – ، وفي البر باب ما جاء في المزاح ، و(ابن ماجة) في الأدب باب المزاح – ، من حديث أبي التياح – يزيد ابن حميد الضبعي – عن أنس بن مالك ، ونسبه (المنذري للنسائي أيضا) .

[2] هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد المعروف بابن القاصّ ، الطبري ، الفقيه الشافعيّ ، وعرف والده بالقاصّ لأنه كان يقصّ الأخبار .

كان ابن القاصّ إمام وقته في طبرستان ، وأخذ الفقه عن ابن شريح ، وصنّف كتبا كثيرة ، منها :

«التلخيص» ، و«أدب القاضي» ، و«المفتاح» ، وغير ذلك . وجميع تصانيفه صغيرة الحجم ، كثيرة الفائدة ، وكان يعظ الناس ، فانتهى إلى طرسوس ، وقيل : إنه تولى القضاء بها ، فعقد له مجلس

[()] وعظ ، وأدركته رقة وخشية وروعة من ذكر الله تعالى ، فخرّ مغشيا عليه ، ومات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة . (النجوم الزاهرة) و(شذرات الذهب) و(طبقات الشافعية للسبكي) و(وفيات الأعيان) و(سير أعلام النبلاء) و(الأنساب) .

قال أبو العباس بن القاصّ رحمه الله تعالى : وفيما روينا من قصة أبي عمير ستون وجها من الفقه والسنة ، وفنون الفائدة والحكمة ، فمن ذلك :

[1] أن سنة الماشي أن لا يتبختر في مشيته ولا يتبطأ فيها ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم كان إذا مشي توكأ كأنما ينحدر من صبب . [2] ومنها أن الزيارة سنة . [3] ومنها الرخصة للرجال في زيارة النساء غير ذوات المحارم (إذا لم تكن شابة وأمنت الفتنة . [4] ومنها زيارة الحاكم للرعية . [5] ومنها أنه إذا اختصّ الحاكم بالزيارة والمخالطة بعض الرعية دون بعض فليس ذلك بميل ، وقد كان بعض أهل العلم يكره للحكام ذلك . [6] وإذا ثبت ما وصفنا كان فيه وجه من تواضع الحاكم للرعية . [7] وفيه دليل على كراهية الحجّاب للحكام . [8] وفيه دليل أن الحاكم يجوز له أن يسير وحده . [9] وأن أصحاب المقارع بين يدي الحكام والأمراء محدثة مكروهة ، لما روي في الخبر : رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم

بمنى على ناقة له ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك . [10] وفي قوله : يغشانا ما يدل على كثرة زيارته لهم . [11] وأن كثرة الزيارة لا تخلق الحب والمودة ولا تنقصها إذا لم يكن معها طمع . [12] وأن قوله عليه السلام لأبي هريرة : «زر غبّا تزدد حبا ، كما قاله بعض أهل العلم لما رأى في زيارته من الطمع لما كان بأبي هريرة من الفقر والحاجة حتى دعا له النبي صلّى الله عليه وسلّم في مزودة ، وكان لا يدخل فيها يده إلا أخذ حاجته ، فحصلت له الزيارة دون الطمع . [16] وفي قوله : «يخالطنا» ، ما يدل على الألفة ، بخلاف النفور ، وذلك من صفة المؤمن ، كما روي في بعض الأخبار : المؤمن ألوف والمنافق نفور . [14] ومنها ما روي في الخبر : «فرّ من الناس فرارك من الأسد» ، إذا كانت في لقيهم مضرة لا على العموم ، فأما إذا كانت فيه للمسلمين ألفة ومودة فالمخالطة أولى . [15] وفيه دلالة على الفرق بين شباب النساء وعجائزهن في المعاشرة ، إذ اعتذر النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى من رآه واقفا مع صفية ، ولم يعتذر من زيارته أم سليم ، بل كان يغشاهم الكثير . [16] وفي قوله : «ما مسست شيئا قط ألين من كفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم» : ما يدل على مصافحته ، وإذا ثبتت المصافحة ، دلّ على تسليم الزائر إذا دخل . [17] ودلّ على مصافحته ، [18] ودلّ على أن يصافح الرجل دون المرأة ، لأنه لم يقل : «فما مسسنا» وإنما قال :

«ما مسست» ، وكذلك كانت سنته صلّى الله عليه وسلّم في التسليم على النساء

ومبايعته ، إنما كان يصافح الرجال دونهن . [19] وفي لين كفه ما يدل على أنه لا ينبغي أن يعتمد المصلّي إلى شدة الاعتماد على اليدين في السجود ، كما اختار ذلك بعضهم ، لما وجد في صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه كان شثن الكفين والقدمين ، فقال : ينبغي أن يعتمد إلى شدة الاعتماد على اليدين في السجود ، ليؤثر على يديه دون جبهته . [20] وفيه ما يدل على الاختيار للزائر إذا دخل على المزور . [21] وفيه ما يدل على ما قاله بعضهم أن الاختيار في السنّة الصلاة على البساط والجريد والحصير ، وقد قيل في بعض الأخبار أنه كان حصيرا باليا ، وذلك أن بعض الناس كان يكره الصلاة على الحصير ، وينزع بقول الله تعالى : وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً 17 : 8 . [22] وفي نضحهم ذلك له وصلاته عليه مع علمه صلّى الله عليه وسلّم أن في البيت صبيا صغيرا ، دليل على أن السنة ترك التعزر . [23] ودليل على أن الأشياء على الطهارة حتى يعلم يقين النجاسة . [24] وفي

[()] نضحهم البساط لصلاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دليل على أن الاختيار للمصلى أن يقوم في صلاته على أروح الحال وأمكنها ، لا على أجهدها وأشدها ، لئلا

يشغله الجهد عما عليه من أدب الصلاة وخشوعها ، كما أمر الجائع أن يبدأ بالطعام قبل الصلاة ، خلاف ما زعم بعض المجتهدين ، إذ زعم أن الاختيار له أن يقوم على أجهد الحال ، كما سمع في بعض الأخبار أنهم لبسوا المسح إذا قاموا من الليل وقيدوا أقدامهم . [25] وفي صلاته في بيتهم ليأخذوا علمها دليل على جواز حمل العالم علمه إلى أهله : إذا لم يكن فيه على العلم مذلة ، وأما روى في أن : «العلم يؤتى ولا يأتي» : إذا كانت فيه للعلم مذلة ، أو كان من المتعلم على العالم تطاول . [26] وفيه دلالة اختصاص لآل أبي طلحة ، إذ صلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيتهم . [27] وأخذهم قبلة بيتهم بالنص عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دون الدلائل والعلامات .

[28] وفي قوله : «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا جاء مازحه» ، ما يدل على أنه كان يمازحه كثيرا ، وإذا كان كذلك كان في ذلك شيئان : [29] أحدهما : أن ممازحة الصبيان مباح . [30] والثاني : أنها إباحة سنة لا إباحة رخصة ، لأنها لو كانت إباحة رخصة لأشبه أن لا يكثرها ، كما قال في مسح الحصى للمصلى : «فإن كنت لا بد فاعلا فمرة» ، لأنها كانت رخصة لا سنة . [31] وفيه – إذ مازحه صلّى الله عليه وسلّم – ما يدل على ترك التكبر والترفع . [32] وما يدل على حسن الخلق . [33] وفيه دليل على أنه يجوز أن يختلف حال المؤمن في المنزل من حاله إذا برز ، فيكون في المنزل أكثر مزاحا ، وإذا خرج أكثر سكينة ووقارا – إلا من طريق الرياء – كما روي في بعض الأخبار : كان

زيد بن ثابت من أفكه الناس إذا خلا بأهله ، وأزمتهم عند الناس . [34] وإذا كان ذلك كما وصفنا ففيه دليل على أن ما روي في صفة المنافق أنه يخالف سرّه علانيته ليس على العموم ، وإنما هو على معنى الرياء والنفاق ، كما قال جل ثناؤه : وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ 2 : 14 . [35] وفي قوله : «فرآه حزينا» : ما يدل على إثبات التفرس في الوجوه . وقد احتج بهذا المعنى بعض أهل الفراسة بما يطول ذكره . [36] وفيه دليل على الاستدلال بالعبرة لأهلها ، إذ استدل صلّى الله عليه وسلّم بالحزن الظاهر في وجهه على الحزن الكامن في قلبه ، حتى حداه على سؤال حاله .

[37] وفي قوله : «ما بال أبي عمير ؟» دليل على أن من السنة إذا رأيت أخاك أن تسأل عن حاله .

[38] وفيه دليل – كما قال بعض أهل العلم – على حسن الأدب بالسنة في تفريق اللفظ بين سؤالين :

فإذا سألت أخاك عن حاله قلت : مالك ؟ كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم من حديث أبي قتادة : «مالك يا أبا قتادة ؟» وإذا سألت غيره عن حاله قلت : ما بال أبي فلان ؟ كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم في هذا الحديث : «ما بال أبي عمير ؟» . [39] وفي سؤاله صلّى الله عليه وسلّم من سأل – عن حال أبي عمير – دليل على إثبات خبر

الواحد .

[40] وفيه دليل على أنه يجوز أن يكنى من لم يولد له ، وقد كان عمر بن الخطاب يكره ذلك حتى أخبر به عن النبي صلّى الله عليه وسلّم . [41] وفي قوله : «مات نغيره الّذي كان يلعب به» : تركه النكير بعد ما سمع ذلك صلّى الله عليه وسلّم دليل على الرخصة في اللعب للصبيان . [42] وفيه دليل على الرخصة للوالدين في تخلية الصبي وما يروم من اللعب إذا لم يكن من دواعي الفجور ، وقد كان بعض الصالحين يكره لوالديه أن يخلياه . [43] وفي دليل على أن إنفاق المال في ملاعب الصبيان ليس من أكل المال بالباطل ، إذا لم يكن من الملاهي المنهية . [44] وفيه دليل على إمساك الطير في القفص . [45] وقصّ جناح الطير لمنعه من الطيران ، وذلك أن لا يخلو من أن يكون النغيرة التي كان يلعب بها في قفص أو نحوه ، من شدّ رجل أو غيره ، أو أن تكون مقصوصة الجناح ، فأيهما كان المنصوص ، فالباقي قياس عليه ، يكره .

(201/776)

[()] قصّ جناح الطائر وحبسه في القفص . [46] وفيه دليل على أن رجلا لو اصطاد صيدا خارج الحرم ثم أدخل الحرم ، لم يكن عليه إرساله ، وذلك لأن النبي صلّى الله عليه

وسلّم حرّم الاصطياد بين لابتي المدينة ، وأجاز لأبي عمير إمساكه فيها .

وكان ابن الزبير يفتي بإمساك ذلك ، ومن حجته فيه : أن من اصطاد صيدا ثم أحرم وهو في يده ، فعليه إرساله ، فكذلك إذا اصطاد في الحل ثم أدخله الحرم .

وفرّق الشافعيّ بين المسألتين كما وصفنا ، فقال : من اصطاد ثم أحرم والصيد في ملكه فعليه إرساله ، ومن اصطاده ثم أدخله الحرم فلا إرسال عليه . [47] وفي قوله : «ما فعل النغير ؟» ، دليل على جواز تصغير الأسماء كما صغّر النغيرة ، وكذلك المعنى في قوله : كان ابن لأبي طلحة يكنى أبا عمير .

[48] وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا مازحه بذلك يبكي ، ففي ذلك دليل على أن قول النبي صلّى الله عليه وسلّم في حديث آخر : «إذا بكى اليتيم اهتز العرش» ، ليس على العموم في جميع بكائه ، وذلك أن بكاء الصبي على ضربين : أحدهما : بكاء الدلال عند المزاح والملاطفة ، والآخر : بكاء الحزن أو الخوف عند الظلم أو المنع عما به إليه الحاجة ، فإذا مازحت يتيما أو لاطفته فبكى ، فليس في ذلك – إن شاء الله تعالى – اهتزاز عرش الرحمن . [49] وقد زعم بعض الناس أن الحكيم لا يواجه بالخطاب غير العاقل . وقال بعض أصحابنا ، ليس كذلك ، بل صفة الحكيم في خطابه أن لا يضع الخطاب في غير موضعه ، وكان في هذا الحديث كذلك دليل ، ألا ترى أنه صلّى الله عليه وسلّم واجه الصغير بالخطاب عند المزاح فقال : «يا أبا عمير ما فعل النّغير ؟» ، ولم يواجه

بالسؤال عند العلم والإثبات ، بل خاطب غيره ، فقال : «ما بال أبي عمير ؟» . [50] وفيه دليل على أن للعاقل أن يعاشر الناس على قدر عقولهم ولا يحمل الناس كلهم على عقله . [51] وفي نومه صلّى الله عليه وسلّم عندهم دليل على أن عماد القسم بالليل ، وأن لا حرج على الرجل في أن يقيل بالنهار عند امرأة في غير يومها . [52] وفيه دليل على سنة القيلولة . [53] وفي دليل على خلاف ما زعم بعضهم في أدب الحكام أن نوم الحكام والأمراء في منزل الرعية – ونحو ذلك من الأفعال – دناءة تسقط مروءة الحكام . [54] وفي نومه على فراشها دليل على خلاف قول من كره أن يجلس الرجل في مجلس امرأة ليست له بمحرم أو يلبس ثوبها وإن كان على تقطيع الرجال . [55] وفيه أنه يجوز أن يدخل المرء على امرأة في منزلها وزوجها غائب وإن لم تكن ذات محرم له . [56] وفي نضح البساط له ونومه على فراشها دليل على إكرام الزائر . [57] وفيه أن التّنعّم الخفيف غير مخالف للسنة . وأن قوله : «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وأصغى بسمعه» ، ليس على العموم إلا فيما عدا التنعم القليل . [58] وفيه دليل على أنه ليس بفرض على المزور أن يشيّع الزائر إلى باب الدار – كما أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بتشييع الضيف إلى باب الدار – إذ لم يذكر في هذا الحديث تشييعهم له إلى الباب . [59] وقد اختلف أهل العلم في تفسير ما ذكر من صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم في حديث هند بن أبي هالة : كانوا إذا دخلوا عليه لا يفترقون إلا عن ذواق : قال بعضهم : أراد به الطعام . وقال بعضهم :

أراد به ذواق العلم . ففي تفسير هذا الحديث ، الدليل على تأويل من تأوّله على ذواق العلم ، إذ قد أذاقهم العلم ولم يذكر فيه ذواق الطعام . [60] وكان من صفته صلّى الله عليه وسلّم أنه يواسي بين جلسائه ، حتى يأخذ منه كل بحظ ، وكذلك فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دخوله على أم سليم : صافح أنسا ، ومازح أبا عمير الصغير ، ونام على فراش أم سليم ، حتى نال الجميع من بركته صلّى الله عليه وسلّم ، وزاد على الستين فقال : [61] وإذا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فأقل ما في تحفّظ طرقه أن يكون نافلة ، وفيه أن قوما أنكروا خبر الواحد واختلفوا فيه : فقال بعضهم بجواز خبر الاثنين قياسا على الشاهدين ، وقال

(202/776)

وخرّج البخاري في كتاب الأدب في باب حسن الخلق وما يكره من البخل ، من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس (الحديث) .

وخرّج في باب ما ينهي من السباب واللعن من حديث فليح بن سليمان أخبرنا هلال بن علي عن أنس بن مالك قال : لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاحشا ولا لعّانا ولا سبّابا ،

كان يقول عند المعتبة : ما له تربت جبينه . وخرّج البخاري من حديث شعبة عن سليمان ، سمعت أبا وائل ، سمعت مسروقا قال : قال عبد الله بن عمرو من حديث الأعمش عن شقيق بن سلمة عن مسروق قال : دخلنا على عبد الله بن عمر حين قدم مع معاوية إلى الكوفة ، فذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، وقال : قال رسول الله :

إن من أخيركم أحسنكم خلقا (ذكره في كتاب الأدب وفي صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم) .

وخرّجه مسلم ، ولفظه عن مسروق قال : دخلنا على عبد الله بن عمرو حين قدم معاوية إلى الكوفة ، فذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : لم يكن فاحشا ولا متفحشا ،

[()] بعضهم بجواز خبر الثلاثة ، ونزع بقول الله جل ذكره : فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ 9 : 122 ، وقال بعضهم بجواز خبر الأربعة ، قياسا على أعلى الشهادات وأكبرها ، وقال بعضهم بالشائع والمستفيض ، فكان في تحفظ طرق الأخبار ما يخرج به الخبر عن حدّ الواحد إلى حد الاثنين وخبر الثلاثة والأربعة ، ولعله يدخل في خبر الشائع المستفيض . [62] وفيه أن الخبر إذا كانت له طرق ، وطعن الطاعن على بعضها احتج الراويّ بطريق آخر ولم يلزمه انقطاع ، ما وجد إلى طريق آخر سبيلا .

[63] وفيه أن أهل الحديث لا يستغنون عن معرفة النقلة والرواة ومقدارهم في كثرة العلم

والرواية ، ففي تحفظ طرق الأخبار ، ومعرفة من رواها ، ومعرفة كم روي كل راو منهم ما يعلم به مقادير الرواة ومراتبهم في كثرة الرواية . [64] وفيه أنهم إذا استقصوا في معرفة طرق الخبر عرفوا به غلط الغالط ، وميزوا به كذب الكاذب ، وتدليس المدلّس . [65] وإذا لم يستقص المرء في طرقه واقتصر على طريق واحد كان أقل ما يلزمه إن دلّس عليه في الرواية أن يقول : لعله قد روي ولم أستقص فيه ، فرجع باللائمة والتقصير على نفسه والانقطاع وقد حلّ لخصمه . [66] إن مثل هذا الحديث فيه تثبيت الامتحان ، والتمييز بيننا وبين أمثالهم ، إذ لم يهتدوا إلى شيء من تخريج فقهه ، ويستخرج أحدنا منه – بعون الله وتوفيقه – كلّ هذه الوجوه ، وفي ذلك وجهان :

أحدهما : اجتهاد المستخرج في استنباطه ، والثاني : تبيين فضيلته في الفقه والتخريج على أغياره .

والعين المستنبط منها عين واحدة ، ولكن من عجائب قدرة اللطيف في تدبير صنعه : أن تسقى بماء واحد ويفضل بعضها على بعض في الأكل .

(جزء فيه فوائد حديث أبي عمير) : ص 19 – 35 .

(203/776)

وقال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا . ولأبي داود الطيالسي من حديث شعبة عن ابن إسحاق قال : سمعت أبا عبد الله الجدلي يقول سمعت عائشة رضي الله عنها سئلت عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، لا سخّابا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، أو قالت يعفو ويغفر (شك أبو داود) .

وخرّج البخاري في كتاب البيوع في باب كراهية السخب في الأسواق من حديث فليح : أخبرنا هلال عن عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن القاضي ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التوراة ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا [1] .

وخرّج في تفسير سورة الفتح من حديث عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال ابن أبي هلال ، عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، أن هذه الآية التي في القرآن : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً 33 : 45 ، قال في التوراة :

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا [و مبشرا] [2] وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ،

سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

وخرّج يعقوب بن سفيان الفسوي من حديث آدم وعاصم بن علي قالا : أخبرنا ابن أبي ذؤيب ، حدثنا صالح مولى التزمة قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه ينعت النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، بأبي وأمي ولم يكن فاحشا ولا

---

[1] في (خ) «أعين عمي وآذن صم وقلوب غلف» وما أثبتناه من (الطبقات الكبرى) لابن سعد ج 1 ص 361 ، (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض ج 1 ص 15 .

[2] زيادة من المرجعين السابقين .

متفحشا ولا صخابا في الأسواق (زاد آدم : ولم أر مثله قبله ، ولم أر بعده) .

وذكر الوقدي أن أعرابيا أقبل من تهامة ، فقال له أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

تعال سلّم على رسول الله ، قال : وفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فأيكم رسول الله

؟ قالوا هذا ، قال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فما في بطن ناقتي هذه إن كنت صادقا ؟ قال سلمة بن سلامة بن وقش : نكحتها ، فهي حبلي منك ، فكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقالته وأعرض عنه ، ذكر ذلك في توجه رسول الله إلى بدر ، ثم ذكره في عود رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بدر [1] .

قال : ولقيه الناس يهنئونه بالروحاء بفتح الله ، فلقيه وحوله الخزرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش : ما الّذي تهنئوننا به ؟ فو الله ما قتلنا إلا عجائز صلعا ، فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال : يا ابن أخي ، أولئك الملأ لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته ، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم ، فقال سلمة بن سلامة : أعوذ باللَّه من غضبه ، وغضب رسوله ، إنك يا رسول الله لم تزل عني معرضا منذ كنا بالروحاء في بدأتنا ، فقال رسول الله :

أما ما قلت للأعرابي وقعت على ناقتك فهي حبلي منك ، ففحشت وقلت ما لا علم لك به ، وأمّا ما قلت في القوم ، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تعالى تزهدها ، فقبل منه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معذرته ، وكان من علية أصحابه . وذكر الخطيب من حديث أبي داود : أخبرنا طلحة عن عبد الله عن عبيد الله عن أم سلمة قالت : ما طعن رسول الله في حسب ولا نسب قط .

وخرّج البخاري في المناقب من حديث شعبة عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي

سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشدّ حياء من العذراء في خدرها ، وزاد في رواية : وإذا كره شيئا عرف في وجهه ، وذكره في كتاب الأدب ولفظه : فإذا رأي شيئا يكرهه عرفناه في وجهه وخرّجه مسلم بنحوه [2] .

---

[1] راجع هذا الخبر عند الكلام على غزوة بدر من هذا الجزء تحت عنوان : خبر الأعرابي بعرق الظبية» ، وانظر أيضا (سيرة ابن هشام) ج 2 ص 187 تحت عنوان «الطريق إلى بدر» .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 78 باب كثرة حيائه صلّى الله عليه وسلّم .

ولأبي داود والبخاري في الأدب المفرد من حديث حماد بن زيد قال : حدثنا سلّم [1] العلويّ عن أنس أنّ رجلا دخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليه أثر صفرة ، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلّ ما يواجه رجلا في وجهه بشيء يكرهه ، فلما خرج قال :

لو أمرتم هذا أن يغسل ذا عنه [2] ! وله من حديث الأعمش عن سليم [3] عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا بلغه عن الرجل

الشيء لم يقل : ما بال فلان يقول ؟

ولكن يقول : ما بال من يقولون كذا وكذا ؟ .

وفي لفظ : إذا بلغه الشيء عن الرجل لم قلت كذا وكذا أثر ذكره .

وخرّج البخاري ومسلم من حديث مالك عن إسحاق عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذا شديدا حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أثّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الّذي عندك ، قال : فالتفت إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فضحك ، ثم أمر له بعطاء [4] .

وخرّج الحاكم من حديث عبد الله بن يوسف التنيسي حدثنا عبد الله بن سالم ، حدثنا محمد بن حمزة بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سالم [5] عن أبيه عن جده ، أن زيد بن سعنة – كان [6] من أحبار اليهود – أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم يتقاضاه فجبذ ثوبه عن منكبه الأيمن . ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب أصحاب مطل ، وإني بكم لعارف ، قال : فانتهره عمر ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [يا عمر] [7] : أنا وهو كنّا إلى غير هذا منك أحوج ، أن تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي ، انطلق يا عمر وفّه حقّه ، أما إنه قد بقي من أجله ثلاث ، فزده [8]

---

[1] قال أبو داود : سليم ليس هو علويا . كان يبصر في النجوم ، وشهد عند عدي بن

أرطاة على رؤية الهلال فلم يجز شهادته .

[2] (سنن أبي داود) ج 5 ص 143 حديث رقم 4789 .

[3] في (خ) «مسلم» .

[4] ونحوه في سنن أبي داود ج 5 ص 133 كتاب الأدب باب في الحلم وأخلاق النبي حديث رقم 4775 .

[5] في (خ) «سلام» .

[6] في (خ) «وكان» .

[7] زيادة من (المستدرك) .

[8] في (خ) «وزده» .

ثلاثين صاعا لتزويرك [1] عليه . قال الحاكم : صحيح الإسناد [2] .

وخرّجه الفسوي من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن زيد بن أرقم قال :

كان رجل من الأنصار يدخل علي النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فدنا منه وإنه عقد له عقدا وألقاه في بئر ، ففزّع ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فأتاه ملكان يعودانه فأخبراه أن فلانا

عقد له عقدا وهي في بئر فلان ، وقد اصفرّ الماء من شدة عقده ، فأرسل النبي صلّى الله عليه وسلّم فاستخرج العقد فوجد الماء قد اصفرّ ، فحل العقد ونام النبي عليه السلام ، ولقد رأيت الرجل بعد ذلك يدخل علي النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فما رأيته في وجه النبي عليه السلام حتى مات .

ولأبي بكر بن أبي شيبة من حديث عباد بن العوام ، عن النعمان بن ثابت عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أنس قال : ما أخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ركبتيه بين يدي جليس قط ، ولا ناول يده أحدا قط فتركها حتى يكون هو يدعها ، وما جلس إلى رسول الله أحد قط فقام حتى يقوم ، وما وجدت شيئا قط أطيب ريحا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وخرّج الفسوي من حديث عمران بن زيد الملائي قال : حدثني زيد العمي عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صافح أو صافحه الرجل . لا ينزع ، وإن استقبله بوجهه لا يعرضه عنه حتى يكون الرجل ينصرف ، ولم ير مقدما ركبتيه بين يدي جليس له .

وخرّج أبو داود من حديث مبارك بن فضالة [3] عن ثابت عن أنس قال : ما رأيت رجلا التقم أذن النبي صلّى الله عليه وسلّم فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الّذي ينحي رأسه ، وما رأيت رسول الله أخذ بيده رجل [4] فترك يده حتى يكون الرجل هو الّذي يدع يده [5] .

وفي الأدب المفرد للبخاريّ من حديث عبد الوارث ، حدثنا عتبة بن عبد الملك ،

---

[1] في (خ) «لتدورك» .

[2] وقال الذهبي في (التلخيص) : «قلت : مرسل» راجع المستدرك للحاكم ج 2 ص 32 كتاب البيوع .

[3] هو ابن فضالة ، أبو فضالة القرشي العدوي ، مولاهم البصري ، قال عفان بن مسلم : ثقة . وضعّفه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والنسائي وغيرهم .

[4] في (أبي داود) : «وما رأيت رجلا أخذ بيده فترك يده» .

[5] (سنن أبي داود) ج 5 ص 146 حديث رقم 4794 ، كتاب الأدب .

حدثني زرارة بن كريم بن الحارث بن عمرو السهمي ، أن الحارث بن عمرو السهمي حدثه قال : أتيت النبي وهو بمنى أو بعرفات ، وقد أطاف به الناس ، ويجيء الأعراب فإذا رأوا وجهه قالوا : هذا وجه مبارك ، قلت يا رسول الله استغفر لي ، فقال : اللَّهمّ اغفر لنا ، فدرت فقلت : استغفر لي فقال : اللَّهمّ اغفر لنا ، فدرت فقلت استغفر لي فقال : اللَّهمّ أغفر لنا ، فذهب بيده بزاقه ومسح به نعله ، كره أن يصيب أحدا من حوله .

وخرّج الحاكم من حديث محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عمر ابن عبد العزيز عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال : كان رسول الله إذا جلس يتحدث كثيرا يرفع طرفه إلى السماء .

وفي الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : ما عاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه [1] .

وخرّج البخاري في كتاب الأدب من حديث ابن وهب ، أخبرنا عمرو أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، إنما كن يتبسم [2] .

وخرج مسلم بنحوه .

وخرّج مسلم من حديث يحيى بن يحيى أخبرنا أبو خيثمة عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال نعم ، كثيرا ما كان لا يقوم من مصلاه الّذي يصلّى فيه الصبح حتى تطلع الشمس . فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية ، فيضحكون ويبتسم صلّى الله عليه وسلّم [3] .

---

[1] أخرجه البخاري في المناقب باب صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ومسلم في الأشربة باب لا يعيب الطعام ، والترمذي في البر باب ترك العيب للنعمة وقال : حسن صحيح ، وابن ماجة في الأطعمة باب النهي أن يعاب الطعام ، وأبو داود كتاب الأطعمة باب

كراهية ذمّ الطعام ولفظه : «ما عاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه» .

[2] (صحيح البخاري حاشية السندي) ج 4 ص 64 من كتاب الأدب .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 79 ، ولفظه : «فيأخذون في أمر الجاهلية» وفيه : استحباب الذكر بعد الصبح وملازمة مجلسها ما لم يكن عذر وفيه جواز الحديث بأخبار الجاهلية وغيرها من الأمم ، وجواز الضحك ، والأفضل الاقتصار على التبسم كما فعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في عامة أوقاته .

(208/776)

وخرّجه الترمذي من حديث شريك عن سماك ، عن جابر بن سمرة قال :

جالست النبي صلّى الله عليه وسلّم أكثر من مائة مرّة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم [1] قال هذا حديث حسن صحيح .

وقال الليث بن سعد عن الوليد بن أبي الوليد أن سليمان بن خارجة أخبره عن خارجة بن زيد أن نفرا دخلوا على أبيه زيد بن ثابت فقالوا : حدّثنا عن بعض أخلاق رسول الله صلّى

الله عليه وسلّم فقال : كنت جاره فكان إذا نزل الوحي بعث إليّ فآتيه فأكتب الوحي ، وكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا يحدثكم عنه .

وخرّج البخاري في المناقب من حديث سفيان عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يحدث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه [2] .

ومن حديث يونس عن ابن شهاب أنه قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : ألا يعجبك [3] أبا فلان جاء فجلس إلى جانب حجرتي [4] يحدث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسمعني ذلك ، وكنت أسبّح فقام قبل أن أقضي سبحتي ، ولو أدركته لرددت عليه إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يسرد [5] الحديث [كسردكم] [6] .

وخرّج مسلم من حديث ابن وهب قال : أخبرني يونس عن ابن شهاب أن عروة بن الزبير حدّث أن عائشة قالت : ألا تعجل أبا هريرة جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم يسمعني ذلك ، وكنت أسبح فقام قبل أقضي سبحتي ، ولو أدركته لرددت عليه أن رسول الله لم يكن يسرد الحديث كسردكم .

وخرّج أيضا من حديث سفيان بن عيينة عن هشام عن أبيه قال : كان أبو هريرة يحدث ويقول : اسمعي يا ربة الحجرة ، وعائشة رضي الله عنها تصلي ، فلما قضت صلاتها قالت

لعروة: ألا تسمع إلى هذا أو مقالته آنفا ؟ إنما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه.

---

[1] (الشمائل المحمدية) ص 26 حديث 246 ولفظه، وربما تبسم معهم.

[2] (فتح الباري) ج 6 ص 567 حديث رقم 3567.

[3] في (خ) «نعجل».

[4] في (خ) «حجري».

[5] في (خ) «ليرد».

[6] هذه الكلمة غير واضحة في (خ) والتكملة من المرجع السابق حديث رقم 3568.

(209/776)

وخرّج الترمذي من حديث عبد الله بن المثنى عن أبيه عن أنس قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب [1].

ولابن حبان من حديث حسين بن علوان الكوفي، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من

أهل بيته إلا قال لبيك ، فلذلك أنزل الله : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ 68 : 4 .

وخرج أبو بكر الشافعيّ من حديث عثمان بن مطر ، عن ثابت عن أنس قال : مرّ علينا النبي صلّى الله عليه وسلّم ونحن صبيان فقال : السلام عليكم يا صبيان . وقال عبد الملك بن شقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحماء قال : بايعت النبي صلّى الله عليه وسلّم ببيع قبل أن يبعث ، فبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذاك ، فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه فقال : يا بني ! لقد شققت عليّ ، إني ها هنا منذ ثلاث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق . وقال محمد بن حماد بن سلمه عن عاصم بن بهدلة عن زر [2] عن عبد الله بن مسعود قال : كنا يوم بدر نتعاقب ثلاثة على بعير ، وكان عليّ وأبو لبابة زميلي رسول الله ، فكان إذا كانت عقب رسول الله ، يقولان له : اركب حتى نمشي ، فيقول : إني لست بأغنى عن الأجر منكما ، ولا أنتما بأقوى على المشي مني . وخرجه الحاكم [3] . وقال [4] صحيح الإسناد . وخرّجه ابن حبان أيضا في صحيحه . وخرّج

---

[1] (الشمائل المحمدية) ص 113 حديث رقم 234 ، وأخرجه الترمذي في المناقب

والاستئذان ، والبخاري في العلم والاستئذان .

[2] في (خ) «ذر» والتصويب من (المستدرك) .

[3] (المستدرك على الصحيحين) ج 3 ص 20 ولفظه : «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، قال : وكان عليّ وأبو لبابة زميلي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قال : وكان إذا كانت عقبته قلنا : اركب حتى نمشي ، فيقول :

ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكم» في (خ) «بأغنا» .

[4] وقال : هذا حديث على شرط مسلم ولمن يخرجاه .

(210/776)

أبو يعلى من حديث يونس بن بكير : حدثنا إبراهيم بن إسماعيل ، حدثنا عثمان ابن كعب ، حدثني ربيع - رجل من بني النضر وكان في حجر صفية - عن صفية بنت حيي قالت : ما رأيت قط أحسن خلقا من رسول الله ، لقد رأيته راكب [] [1] من خيبر على عجز ناقته ليلا فجعلت أنعس فيضرب رأسي مؤخرة الرحل ، فيمسكني بيده ويقول : يا هذه مهلا ، يا صفية بنت حيي ! ! حتى إذا جاء الصهباء [2] قال : أما إني اعتذر إليك يا صفية مما صنعت بقومك ! ! إنهم قالوا لي كذا وكذا . وعن وهب بن منبه قال : قرأت

أحدا وسبعين كتابا ، فوجدت في جميعها أن محمدا صلّى الله عليه وسلّم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا .

وأما شجاعته

فخرّج البخاري في كتاب الأدب من حديث حماد بن زيد عن ثابت قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا ، وهو على فرس لأبي طلحة عري (ما عليه سرج) ، في عنقه سيف قال : وجدناه بحرا أو إنه لبحر [3] .

وخرّجه مسلم [4] وقال : فانطلق ناس [5] . وقال : فتلقاهم رسول الله راجعا وقد سبقهم إلى الصوت [6] . وذكره البخاري في مواضع من كتاب الجهاد .

---

[1] مكان ما بين القوسين في (خ) كلمة لم أتبين معناها .

[2] صهباء : اسم موضع بينه وبين خيبر روحة» (معجم البلدان) ج 3 ص 435 .

[3] (صحيح البخاري بشرح الكرماني) ج 21 ص 183 حديث رقم 5662 ولفظه : «فقال : لقد وجدته بحرا أو إنه البحر» .

[4] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 67 باب شجاعته صلّى الله عليه وسلّم .

[5] في المرجع السابق «فانطلق ناس قبل الصوت» .

[6] ومعنى قوله : لن تراعوا ، أي روعا مستقرا ، أو روعا يضركم ، وفيه فوائد ، منها ، بيان شجاعته صلّى الله عليه وسلّم من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس ، وفيه بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعا بعد أن كان يبطأ ، وهو معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم وجدناه بحرا ، أي واسع الجري ، وفيه جواز سبق الإنسان وحده في كشف أخبار العدو ما لم يتحقق الهلاك ، وفيه جواز العارية ، وجواز الغزو على الفرس للمستعار ، وفيه استحباب تبشير الناس بعدم الخوف (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 67 و 68 باب شجاعته صلّى الله عليه وسلّم .

(211/776)

وخرّجه النسائي من حديث أبي خيثمة عن ابن إسحاق عن حارثة بن مغرب عن علي رضي الله عنه قال : كنا إذا حمي البأس ، والتقي القوم اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . وفي رواية إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال : كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به ، يعني النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وأن الشجاع منا الّذي يحاذي به . وله من حديث إسحاق بن راهويه ، حدثنا عمرة بن محمد ، حدثنا عمر الزيات عن سعيد بن

عثمان العبدري عن عمران بن الحصين قال : ما لقي النبي صلّى الله عليه وسلّم كتيبة إلا كان أول من يضرب .

وخرّج الدارميّ من حديث يزيد بن هارون ، أخبرنا سعد عن عبد الملك بن عمير قال : قال ابن عمر : ما رأيت أحدا أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أوضأ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [1] .

وأما سعة جوده صلّى الله عليه وسلّم

فخرّج البخاري في فضائل القرآن ، وخرّج مسلم في المناقب من حديث شهاب عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان لأنّ جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ الشهر ، فيعرض عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القرآن ، فإذا لقيه جبريل ، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجود بالخير من الريح المرسلة (اللفظ لمسلم) [2] .

ولفظ البخاري : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه [في] [3] كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود من الريح المرسلة ، (هذا

---

[1] (سنن الدارميّ ج 1 ص 30 وفيه «ولا أضوأ ولا أوضأ» .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 68 ، 69 باب سعة جوده صلّى الله عليه وسلّم ، والمراد كالريح في إسراعها وهمومها ، وفي هذا الحديث فوائد منها : بيان عظم جوده صلّى الله عليه وسلّم ومنها استحباب إكثار الجود والخير عند ملاقاة الصالحين وعقب فراقهم للتأثر بلقائهم ، ومنها استحباب مدارسة القرآن .

[3] زيادة من (البخاري) ج 3 ص 227 .

(212/776)

اللفظ في كتاب فضائل القرآن) .

ولفظه في كتاب الصيام بنحو إلا أنه قال : وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان (الحديث) .

وذكره في أول كتابه ، ولفظه : كان رسول الله أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

وذكره أيضا في المناقب ، وفي كتاب بدء الخلق وقال فيه : لرسول الله حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .

ولابن سعد من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس وعائشة قالا :

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل [1] .

وخرّج من حديث سفيان عن ابن المنكدر ، سمعت جابرا يقول : ما سئل النبي صلّى الله عليه وسلّم عن شيء قط فقال لا ! [2] .

ولفظ مسلم : ما سئل رسول الله شيئا فقال لا [3] ! ذكره البخاري في كتاب الأدب ،

ولمسلم من حديث حميد عن موسى بن أنس عن أبيه قال : ما سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الإسلام شيئا إلا أعطاه ، قال : فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة [3] .

ومن حديث حماد بن سلمة عن أنس أن رجلا سأل النبي صلّى الله عليه وسلّم غنما بين جبلين فأعطاه إياه ، فأتى قومه فقال يا قوم أسلموا فوالله إن محمدا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فقال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها (انفرد به مسلم) [3] .

وله من حديث ابن شهاب قال : غزا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غزوة الفتح (فتح مكة) ، ثم خرج بمن معه من المسلمين ، فاقتتلوا بحنين . فنصر الله دينه والمسلمين ، فأعطى رسول الله يومئذ صفوان بن أمية مائة من النّعم ، ثم مائة ، قال ابن شهاب :

---

[1] (الطبقات الكبرى لابن سعد) ج 1 ص 377 باب ذكر حسن خلقه وعشرته صلّى الله عليه وسلّم.

[2] (سن الدارميّ) ج 1 ص 34، وفيه يقول أبو محمد: قال ابن عيينة: «إذا لم يكن عنده وعد».

[3] (مسلم بشرح النووي ج 15 ص 71، 72 باب في سخائه صلّى الله عليه وسلّم.

(213/776)

حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ [1].

ولأحمد بن حنبل رحمه الله، من حديث الزهري عن عمر بن محمد بن جبير ابن مطعم قال: حدثني محمد بن جبير قال: أخبرني جبير بن مطعم قال: سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الأعراب فساء لونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف وقال: ردوا على ردائي، أتخشون عليّ البخل: فلو كان عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا [2]. (أخرجه البخاري وانفرد بإخراجه).

وخرّج الإمام أحمد من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال عمر : يا رسول الله : لقد سمعت فلانا وفلانا يحسنان الثناء ، يذكران أنك أعطيتهما دينارا ، ثم قال : قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : والله لكن فلانا ما هو كذلك ، لقد أعطيته من عشرة إلى مائة ، فما يقول ذلك ، أما والله إن أحدكم ليخرج مسألته من عندي يتأبطها (يعني حتى تكون تحت إبطه يعني نارا) ، قال : قال عمر :

يا رسول الله ! تعطيها إياهم ؟ قال : فما أصنع يا عمر إلا ذاك ؟ ويأبى الله لي البخل ! !

وقال عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل على بلال وعنده صبر من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أدّخره يا رسول الله ، قال : أما تخشى أن يكون له بخار في النار ؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا [3] . وخرّج الترمذي من حديث هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فسأله أن يعطيه ،

---

[1] المرجع السابق ص 73 .

[2] في (الكامل لابن الأثير) ج 2 ص 269 «ولما فرغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من رد سبايا هوازن ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله اقسم علينا فيئا ، حتى ألقوه إلى الشجرة ، فاختطف رداؤه ، فقال :

ردّوا عليّ ردائي أيها الناس ، فوالله لو كان لي عدة شجر تهامة نعم لقسمتها عليكم ثم لا

تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا» .

[3] (البداية والنهاية) ج6 ص 54 ولفظه : «أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل على بلال فوجد عنده صبرا . . .» .

(214/776)

فقال : ما عندي شيء ولكن ابتع على ، فإذا جاءني شيء قضيته ، فقال عمر : يا رسول الله لقد أعطيته وما كلفك الله مالا بعد ، فكره النبي عليه السلام قول عمر ، فقال رجل من الأنصار : رسول الله ! أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا ، فتبسم رسول الله ، وعرف البشر في وجهه لقول الأنصاري ثم قال : بهذا أمرت . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا ثابت عن أنس أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان لا يدخر شيئا لغد .

ولأبي داود الطيالسي عن زمعة عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حييا لا يسأل شيئا إلا أعطى [1] .

وقال ابن سعد أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي المكيّ ، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي ، حدثني زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر [2] قال : سمعت جابر بن عبد الله قال : ما [3] سئل النبي صلّى الله عليه وسلّم شيئا قط فقال : لا .

أخبرنا الفضل بن دكين ، حدثنا أبو العلاء الخفاف [4] خالد بن طهمان عن المنهال بن عمرو ، عن محمد بن الحنفية قال - : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يكاد يقول لشيء لا ، فإذا هو سئل فأراد أن يفعل قال : نعم ، وإن لم يرد أن يفعل سكت ، فكان قد عرف ذلك منه .

وقال أبو يعلي : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير ، أخبرنا أبي ، حدثنا هشام ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمه ، أن رجلا كان يلقب حمارا وكان يهدي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم العكة من السمن والعكة من العسل . فإذا صاحبه يتقاضاه جاء به إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقول : رسول الله ! أعط هذا ثمن متاعه ، فما يزيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [5] على أن يتبسم ، ويأمر به فيعطى .

ولابن حبان من حديث الأوزاعي عن هارون بن رباب عن أنس قال : قدم

---

[1] في (خ) «أعطا» .

[2] في (خ) «المنكدر المنكدر» وهو تكرار من الناس (3) (سنن الترمذي) ص 10 حديث رقم 2417 .

[3] في (خ) «يا» .

[4] في (خ) «الحفان» وما أثبتناه من (تهذيب التهذيب) ج 12 ص 192 ترجمة رقم

.887

[5] في (خ) «بعد قوله صلّى الله عليه وسلّم «فيقول يا رسول الله» مكررة.

(215/776)

على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سبعون ألف درهم - هو أكثر مال أتى به - فوضع على حصير ثم قام فقسمه، فما رد سائلا حتى فرغ منه.

وقال الواقدي في حجة الوداع [1]: ثم راح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الروحاء [2]، فصلّى العصر بالمنصرف [3] ثم صلّى المغرب والعشاء وتعشى به [4]، وصلّى الصبح بالأثاية [5]، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج [6]، فحدثني أبو حمزة عبد الواحد ابن مصون [7] عن عروة بن الزبير، عن أسماء بنت بي بكر رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة: إن عندي بعيرا محمل عليه زادنا، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فذاك إذا قالت: فكانت زاملة رسول الله وأبي بكر واحدة، فأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بزاد، دقيق وسويق، فجعلا على بعير أبي بكر، فكان غلامه يركب عليه عقبة، فلما كان بالأثاية [8] عرّس الغلام وأناخ بعيره، فغلبته عيناه، فقام البعير يجر خطامه آخذا في الشعب، وقام الغلام فلزم الطريق

يظن أنه سلكها وهو ينشده فلا يسمع له بذكر ، ونزل رسول الله في أبيات بالعرج ، فجاء الغلام مظهرا ، فقال أبو بكر : أين بعيرك ؟ قال : ضل مني ، قال : ويحك ! لو لم يكن إلا أنا لهان الأمر ، ولكن رسول الله وأهله ، فلم يلبث [9] أن طلع به صفوان بن المعطل - وكان صفوان على ساقة الناس - وأناخه على باب منزل النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقال لأبي بكر : انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟ فنظر ، فقال . ما نفقد شيئا إلا قعبا كنا نشرب به ، فقال الغلام : هذا القعب معي ، فقال أبو بكر رضي الله عنه أدي الله عنك الأمانة .

حدثني يعقوب بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن عيسى بن معمر ،

---

[1] (المغازي للواقدي) ج 3 ص . 1093

[2] الرّوحاء : من الفرع على نحو أربعين يوما ، (معجم البلدان) ج 3 ص . 76

[3] المنصرف : موضع بين مكة وبدر بينهما أربعة برد (معجم البلدان) ج 5 ص . 76

[4] في (خ) «ثم صلّى المغرب والعشاء بالمتعشى وتمشى به» وما أثبتناه رواية (الواقدي) .

[5] الأثاية : موضع في طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخا (معجم البلدان) ج 1 ص . 90

[6] العرج : قرية جامعة في واد من نواحي الطائف (معجم البلدان) ج 4 ص 92 .

[7] في (خ) «بن ميمون» وما أثبتناه من (الواقدي) ج 3 ص 1093 .

[8] في (خ) «الأثابة» في المواضع كلها ، والتصويب من (معجم البلدان) و(المغازي) .

[9] في (خ) «فلم ينشب» . وما أثبتناه من (المغازي) .

(216/776)

عن عباد بن عبد الله ، عن أسماء بنت أبي بكر ، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما نزل بالعرج ، جلس معنا منزله ثم جاء أبو بكر فجلس إلى جنبه ، فجاءت عائشة فجلست إلى جنبه الآخر ، وجاءت أسماء فجلست إلى جنب أبي بكر رضي الله عنه ، فأقبل غلام أبي بكر متسربلا ، فقال له أبو بكر - : أين بعيرك ؟ قال : أضلني ، فقام إليه يضربه ويقول : بعير واحد يضل منك ، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتبسّم ويقول : ألا ترون إلى هذا المحرم وما يصنع ، وما ينهاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وحدثني أبو حمزة عن عبد الله بن سعد الأسلمي عن آل نضلة الأسلمي [1] أنهم خبّروا [2] أن زاملة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضلّت فحملوا جفنة من حيس ، فأقبلوا [3] بها ، حتى وضعوها بين يدي رسول الله ، فجعل يقول : هلم يا أبا بكر ، فقد جاءك [4] الله بغداء طيب ، وجعل أبو بكر يغتاظ على الغلام ، فقال النبي عليه السلام : هون عليك ، فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا معك ، قد كان الغلام حريصا أن لا يضل بعيره ، وهذا أخلف [5] مما

كان معه ، فأكل رسول الله وأهله وأبو بكر ، وكل من كان [6] مع رسول الله حتى شبعوا –

قال : وجاء سعد بن عبادة وابنه قيس بن سعد رضي الله عنه بزاملة تحمل زادا يؤمان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى يجد رسول الله واقفا عند باب منزله ، قد أتي الله بزاملته ، فقال سعد : يا رسول الله ! قد بلغنا أن زاملتك أضلت مع الغلام [7] ، وهذه زاملة مكانها ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد جاء الله بزاملتنا فارجعا بازملتكما [8] ، بارك الله عليكما ، أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا في ضيافتك منذ نزلنا بالمدينة ؟

قال : يا رسول الله ! المنّة للَّه ولرسوله ، والله يا رسول الله ، للذي تأخذ من أموالنا أحب إلينا من الّذي تدع ، قال صدقتم يا أبا ثابت ، أبشر فقد أفلحت ، إن الأخلاق بيد الله ، فمن أراد أن يمنحه منها خلقا صالحا منحه ، ولقد منحك الله خلقا صالحا ،

---

[1] في (خ) «الأسلميين» وما أثبتناه من (المغازي) ج 3 ص 1094 .

[2] في (خ) «أخبروا» وما أثبتناه من المرجع السابق .

[3] في (خ) «وأقبلوا» وما أثبتناه من المرجع السابق .

[4] في (خ) «جاء» وما أثبتناه من المرجع السابق .

[5] كذا في (خ) وفي (المغازي) «خلف» .

[6] في (خ) «وكل ما كان يأكل» وما أثبتناه من المرجع السابق .

[7] في (خ) «أضلت الغلام» وما أثبتناه من المرجع السابق.

[8] في (خ) «بزامليكما» وما أثبتناه من المرجع السابق.

(217/776)

فقال سعد: الحمد للَّه [الّذي] [1] هو فعل ذلك، قال ثابت بن قيس: يا رسول الله، إن أهل بيت سعد في الجاهلية سادتنا، والمطعمون في المحل منا، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، لهم [2] ما أسلموا عليه، قال ابن أبي الزّناد: يقول له جميل ذكره.

وأما تواضعه وقربه

فخرج سعيد بن منصور وأبو بكر بن أبي شيبة من حديث أبي الأحوص عن مسلم الأعور عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعود المريض ويشهد الجنازة ويجيب دعوة الملوك ويركب الحمار، وكان يوم خيبر على حمار، ويوم قريظة على حمار مخطوم [3] من ليف تحته إكاف [4] ليف.

وخرّجه الترمذي من حديث علي بن مسهر [5] عن مسلم الأعور عن أنس بنحو هذا، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس، ومسلم الأعور يضعّف

، وهو مسلم بن كيسان الملائي ، ذكره الترمذي في الجنائز [6] .

وخرّج البخاري في الأدب المفرد من حديث ابن المبارك ، أخبرنا سلمى أبو قتيبة ، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : رمدت عيني فعادني النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم قال : يا زيد ، لو أن عينك لما بها ، كيف كنت تصنع ؟ قال : كنت أصبر وأحتسب ، قال : لو أن عينك لما بها ثم صبرت واحتسبت كان ثوابك الجنة . وخرّج أيضا من حديث حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : ذهبت بعبد الله بن أبي طلحة آتي النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم ولد ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] زيادة من المرجع السابق .

[2] في (خ) «له» .

[3] مخطوم وهو الزمام الحبل من الليف .

[4] الإكاف : هو كالسرج للفرس .

[5] في (خ) «ميهر» .

[6] (الشمائل المحمدية للترمذي) ص 173 حديث رقم 325 ، (سنن الترمذي) ج 2 ص 241 حديث رقم 1022 ، (سنن ابن ماجة) ج 2 ص 1398 حديث رقم 188 ، بنحو ذلك ، ومسلم بن كيسان هذا قال عنه أبو داود : ليس بشيء ، وقال

النسائي : ليس بثقة ، وقال ابن حبان : اختلط في آخر عمره فكان لا يدري ما يحدث به . . انظر (تهذيب التهذيب) ج 1 ص 135 ترجمة رقم 247 .

(218/776)

في عباءة يهنو بعيرا له فقال : أمعك تمرات ؟ قلت : نعم ، فناولته تمرات فلاكهن ثم فغر فا الصبي ، فأوجدهن إياه ، فتلمظ الصّبي فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم حب الأنصار ، وسماه عبد الله . وخرج البخاري في الصحيح من حديث إبراهيم عن الأسود قال : سألت عائشة رضي الله عنها [1] ما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله - (تعني خدمة أهله) - فإذا حضرت الصلاة . خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ذكره في كتاب الصلاة ، وترجم عليه باب من كان في حاجة أهله ، وأقيمت الصلاة فخرج ، وذكره في كتاب النفقات ولفظه : سألت عائشة : ما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يصنع في البيت ؟ قالت : في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وترجم عليه باب خدمة الرجل في أهله وذكره ، وذكره في كتاب الأدب ولفظه : ما كان النبي يصنع في أهله ؟ قالت : كان في مهنة أهله ؟ فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة ، ترجم عليه كيف يكون الرجل في أهله [2] ؟ .

وخرج عبد الرزاق من [3] حديث الزهري ، وهشام بن عروة عن أبيه ، قال سأل رجل عائشة : أكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعمل في بيته ؟ قالت : نعم كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ؟ ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته .

وقال معاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن عمرة قالت : قيل لعائشة ما كان يعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر ، يفلّي ثوبه ويحلب شاته [4] ويخدم نفسه .

وخرج البخاري في كتاب الأدب من حديث هيثم ، أخبرنا حميد الطويل ، أخبرنا أنس قال : إن كانت الأمة من إماء لأهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتنطلق به حيث شاءت [5] .

---

[1] في (خ) «عنه» .

[2] (صحيح البخاري بشرح الكرماني) ج 21 ص 186 حديث رقم 5668 .

[3] في (خ) «بن حديث» .

[4] في (خ) بعد قوله : «يحلب شاته» عبارة «ويفلّي ثوبه» وهو تكرار من الناسخ .

[5] والمقصود من الأخذ بيده الأمة وهو الرّفق والانقياد ، يعني كان خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهذه المرتبة وهو أنه لو كان لأمة حاجة إلى بعض مواضع المدينة وتلتمس منه مساعدته في تلك الحاجة واحتاج .

وخرج مسلم من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم ، قال : أخبرنا سليمان ابن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صلّى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتي بإناء إلا غمس يده فيها ، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها [1] .

وخرج من حديث يزيد بن هارون عن عماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت : يا رسول الله ، إن لي إليك حاجة ، فقال :

يا أم فلان ، انظري أي السكك شئت حتى أقضي إليك حاجتك ، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها [2] . وقال علي بن الحسين بن واقد عن أبيه قال :

سمعت يحيى بن عقيل يقول :

سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشي مع العبد والأرملة حتى يفرغ لهم من حاجاتهم [3] .

وخرج الإمام أحمد عن أيوب عن عمرو بن سعيد عن أنس قال : ما رأيت أحدا كان أرحم

بالعيال من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وذكر الحديث .

[()] أن يمشي معها لقضائها لما تخلف عن ذلك حتى قضى حاجتها . وفيه أنواع من المبالغة من جهة أنه ذكر المرأة لا الرجل ، والأمة لا الحرة ، وعمم بلفظ الإماء : أي أيّ أمة كانت ، وبقوله : «حيث شاءت» من المكانات ، وعبر عنه بلفظ الأخذ باليد الّذي هو غاية التصرف . (صحيح البخاري بشرح الكرماني) ج 21 ص 206 كتاب الأدب حديث رقم 5700 .

[1] في (خ) «فيه» وما أثبتناه من (صحيح مسلم) .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 82 «وفي هذه الأحاديث بيان بروزه صلّى الله عليه وسلّم للناس وقربه منهم ليصل أهل الحقوق إلى حقوقهم ويرشد مسترشدهم ليشاهدوا أفعاله وحركاته فيقتدي بها ، وهكذا ينبغي لولاة الأمور ، وفيها صبره صلّى الله عليه وسلّم على المشقة في نفسه لمصلحة المسلمين وإجابته من سأل حاجته أو تبريكا بمس يده وإدخالها في الماء كما ذكروا ، وفيه التبرك بآثار الصالحين وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره صلّى الله عليه وسلّم ، وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية . . . وبيان تواضعه بوقوفه مع المرأة الضعيفة ، وقوله : «خلا معها في بعض الطرق» أي وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة ولم يكن ذلك الخلوة بالأجنبية فإن هذا كان في ممر الناس ومشاهدتهم إياه وإياها لكن لا يسمعون كلامها لأن مسألتها مما لا

يظهره والله أعلم ، (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 83 ، 83 .

[3] (سنن الدارميّ) ج 1 ص 35 ونصه : « . . . ولا يأنف ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما حاجتهما » .

(220/776)

وخرجه عن إسماعيل بن علبة عن أيوب عن عمرو بن سعيد عن أنس ، ورواه حماد بن زيد عن أيوب عن أنس (لم يذكر عمرو بن سعيد) .

وخرّج البخاري من حديث علي بن الجعد قال : حدثنا شعبة عن شيبان بن أبي الحكم عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلم عليهم [1] ، وأخرجه مسلم أيضا وقال ابن لهيعة : حدثني عمارة بن غزية عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أفكه الناس مع صبي .

وخرّج البخاري في الأدب المفرد عن طريق وكيع عن معاوية بن أبي برد عن أبيه عن أبي هريرة قال : أخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم بيد الحسن أو الحسين ثم وضع قدميه فوق قدميه ثم قال شهق .

ومن طريق عبد الله بن صالح قال : حدثني معاوية بن صالح عن راشد عن يعلي بن مرّة أنه قال : خرجنا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم ودعينا إلى طعام ، فإذا بحسين يلعب في الطريق ، فأسرع النبي صلّى الله عليه وسلّم أمام القوم ثم بسط يديه ، فجعل يمر مرة ها هنا ، ومرة ها هنا يضاحكه ، حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه ثم اعتنقه فقبّله ، ثم [قال] : حسين مني وأنا منه ، أحبّ الله من أحب الحسن والحسين ، سبطان من الأسباط . ومن طريق ابن أبي فديك قال : حدثني هشام بن سعد عن نعيم المجمر عن أبي هريرة قال : ما رأيت حسنا إلا فاضت عيناي دموعا ، وذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلّم خرج يوما فوجدني في المسجد فأخذ بيدي ، فانطلقت معه ، فما كلمني حتى جئنا سوق بني قينقاع ، فطاف به ونظر ثم انصرف وأنا معه حتى جئنا المسجد ، فاحتبى ثم قال : أين لكاع ؟ أدع لكاعا ، فجاء حسن يشتد فوقع في حجره ، ثم أدخل يده في لحيته ، ثم جعل النبي صلّى الله عليه وسلّم يفتح فاه في فيه ثم قال : اللَّهمّ إني أحبه فأحببه ، وأحب من يحبه .

---

[1] (صحيح البخاري) ج 4 ص 89 باب التسليم على الصبيان ، وأخرجه (مسلم) في باب السلام على الصبيان ، والترمذي في الاستئذان باب ما جاء في التسليم على الصبيان وقال : هذا حديث صحيح ، والنسائي ، أخرج ابن ماجة نحوه – عن حميد بن أنيس –

في الأدب باب السلام على الصبيان ، وأبو داود في كتاب الأدب في باب السلام على الصبيان ج5 ص 382 حديث 5202 ، 5203 بنحو .

(221/776)

وخرج الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يا محمد - يا سيدنا وابن سيدنا - وخيرنا وابن خيرنا ! فقال : رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يا أيها الناس قولوا بقولكم ، لا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن تعرفوني فوق منزلتي التي أنزلني الله . وخرجه النسائي بنحوه . وروي النّضر بن شميل عن شعبة عن قتادة قال : سمعت مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : أنت سيد قريش ، فقال السيد الله ، فقال : أنت أعظمها فيها طولا ، وأعلاها فيها قولا ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان - وخرجه أبو داود والنسائي بنحوه أو قريبا منه . وخرجه البخاري في الأدب المفرد من حديث مسدد ، أخبرنا بشر بن المفضل ، أخبرنا أبو مسلمة عن أبي نضرة عن مطرف ، قال : إني انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم : فقالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، قالوا : وأفضلنا

فضلا ، وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا بقولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان [1] . وللبخاريّ من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى التراب بطنه [2] .

---

[1] قوله : «السيد الله» ، يريد السؤدد حقيقة للَّه عزّ وجلّ ، وأن الخلق كلهم عبيده ، وإنما منعهم أن يدعوه سيدا ، مع قوله صلّى الله عليه وسلّم : «أن سيد ولد آدم» وقوله لبني الخزرج – قبيلة سعد – : قوموا إلى سيدكم» – يريد سعد بن معاذ – من أجل أنهم قوم حديثو عهد بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنّبوّة كهي أسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم ، ويسمونهم : «السادات» فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك فقال : «قولوا بقولكم» يريد قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبيا ورسولا ، كما سماني الله عز وجل في كتابه فقال : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ 8 : 64 ، يا أَيُّهَا الرَّسُولُ 5 : 67 ولا تسموني سيدا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم ، ولا تجعلوني مثلهم فإنّي لست كأحدهم ، إذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا ، وأنا أسودكم بالنّبوّة والرسالة ، فسموني نبيا رسولا ، وقوله : «بعض قولكم» فيه حذف واختصار ، ومعناه . دعوا بعض قولكم واتركوه ، يريد بذلك الاقتصار في المقال وقوله : «لا يستجرينكم الشيطان» معناه لا يتخذنكم جريا ، والجري : الوكيل ، ويقال : الأجير أيضا : (معالم السنن للخطابي) ج 5 ص 154 – 155 .

[2] (صحيح البخاري بحاشية السندي) ج 3 ص 23 ولفظه : «لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة . . .» .

(222/776)

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن سلمة عن حميد عن أنس قال : ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكانوا [إذا] رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك [1] .

وخرجه الترمذي ولفظه : لم يكن شخص . . . ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وخرجه البخاري في الأدب المفرد .

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح أن رجلا سمع عبادة بن الصامت يقول : خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال أبو بكر رضي الله عنه : قوموا نستغيث إلى رسول الله من هذا المنافق ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يقام إليّ ، إنما يقام للَّه تبارك وتعالى . وخرج من حديث معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن أنه ذكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : لا والله ما كانت تغلق

دونه الأبواب ، ولا يقوم دونه الحجاب ولا يغدى عليه بالجفان [2] ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقي نبي الله لقيه ، كان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه بالأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب ويردف معه ، ويلعق والله يده [3] .

وقال جعفر بن عون : حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن أبي مسعود ، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كلم رجلا فأرعد فقال : هوّن عليك ، فإنّي لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . قال ابن الجوزي : وكذا رواه هاشم ابن عمرو الحمصي عن يونس عن إسماعيل عن قيس بن جرير ، كلاها وهم ! والصواب : عن إسماعيل ، عن قيس مرسلا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم . وذكر حديث حميد ابن الربيع قال : حدثنا هشيم ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم

---

[1] وفي (الترغيب والترهيب) ج 3 ص 431 : «وعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : من أحب أن يتمثل «له الرجال قياما فليتبوّأ مقعده من النار» رواه أبو داود بإسناد صحيح والترمذي» وقال حديث حسن .

وقوله : «يتمثل» أي يقابل بتعظيم الوقوف ، قوله : «فليتبوّأ» أي فليأخذ مكانه في جهنم استكبارا وجزاء غطرسته ، فالكبرياء والتعظيم للّه وحده سبحانه .

[2] الجفان : مفردها جفنة ، وهي القصعة الكبيرة يؤكل فيها .

[3] (صفة الصفوة) ج 1 ص 169 وفيه : «ويركب الحمار ويردف عبده ، ويعلف دابته بيده صلّى الله عليه وسلّم» .

(223/776)

أن رجلا أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم فلما قام بين يديه استقبلته رعدة ! فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم :

هوّن عليك ، فإنّي لست ملكا ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد [1] .

قال : وكذلك رواه يحيى بن سعيد القطان ، وزهير بن أبي معاوية عن أبي خالد . وخرّج الحاكم من حديث عباد بن العوام عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال : أوتي النبي صلّى الله عليه وسلّم برجل ترعد فرائصه ، قال : فقال له : هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء . ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ من يَخافُ وَعِيدِ 50 : 45 قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

وخرج ابن حيان من حديث أبي بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبيد بن سعيد ابن العاص الأموي عن علي بن زيد قال : قال أنس بن مالك . أن كانت الوليدة من ولائد المدينة تجيء

فتأخذ بيد رسول الله فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت . وله من حديث شعبة عن علي بن زيد عن أنس : أن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ، فيدور بها في حوائجها حتى تفرغ ، ثم يرجع .

وله من حديث المحاربي عن عبيد الله بن الوليد الصافي عن عبد الله بن عبيد ابن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : كل – جعلني الله فداك – متكئا ، فإنه أهون عليك ، قال : لا ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد [2] . وله من حديث أبي معشر عن سعيد المقبري ، عن عائشة قالت : قال رسول

---

[1] (سنن ابن ماجة) ج 2 ص 1101 كتاب الأطعمة باب القديد حديث رقم 3312 ولفظه : «هون عليك فإنّي لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد» . قال أبو عبد الله : إسماعيل وحده وصله ، وفي الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(ترعد) أرعد الرجل أخذته الرعدة ، والرعدة : الاضطراب . وأرعدت أيضا فرائصه عند الفزع .

(الفرائص) واحدتها فريصة ، لحمة بين الجنب والكتف ترعد عند الفزع .

(القديد) هو اللحم الملح المجفف في الشمس : فعيل بمعني مفعول .

[2] ونحوه (صحيح البخاري) ج 3 ص 294 باب الأكل متكئا ، (سنن ابن ماجة) ج 2 ص 1086 حديث رقم 3262 .

الله صلّى الله عليه وسلّم : جاءني ملك فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول : إن شئت نبيا عبدا ، وإن شئت نبيا ملكا ، فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إليّ أن ضع نفسك ، فقلت نبيا عبدا [1] . وخرّج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من حديث أيوب بن نهيك قال : سمعت أبا حازم قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول : لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط علي بني قبلي ، ولا يهبط على أحد بعدي – وهو إسرافيل – فقال : السلام عليك يا محمد ، وقال : أنا رسول ربك إليك ، أمرني أن أخيّرك إن شئت نبيا عبدا ، وإن شئت نبيا ملكا ، فنظر إليّ جبريل فأومأ إلي أن تواضع ، فقال النبي عند ذلك : نبيا عبدا ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : لو أني قلت نبيا ملكا ثم أمرت لصارت معي الجبال ذهبا . قال أبو نعيم : حديث غريب من حديث أبي حازم وابن عمر ، تفرد به أيوب بن نهيك ، وأبو حازم مختلف فيه ، فقيل سلمة بن دينار ، وقيل محمد بن قيس المزني والله أعلم [1] .

وله من حديث أيمن بن نايل قال : سمعت قدامة بن عبد الملك قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرمي الجمرة على ناقة صهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك [2] .

وخرج البخاري في الأدب المفرد من طريق الأعمش عن سلام بن شرحبيل

---

[1] وفي (البداية والنهاية) ج 6 ص 48 عن يعقوب بن سفيان : حدثني أبو العباس حيوة بن شريح ، أخبرنا بقية عن الزبيدي عن الزهري عن محمد بن عبد الله بن عباس قال : كان ابن عباس يحدث أن الله أرسل إلى نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل ، فقال الملك لرسوله : «إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا وبين أن تكون ملكا نبيا» فالتفت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى جبريل كالمستشير له ، فأشار جبريل إلى رسول الله أن تواضع ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : بل أكون عبدا نبيا ، قال : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقي الله عزّ وجلّ .

وهكذا رواه البخاري في التاريخ عن حيوة بن شريح ، وأخرجه النسائي عن عمرو بن عثمان كلاهما عن بقية بن الوليد به ، وأصل هذا الحديث في الصحيح بنحو من هذا اللفظ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة – ولا أعلمه إلا عن أبي هريرة – قال : جلس جبريل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك : أفملكا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا ؟ .

[2] هو كما يقال : الطريق الطريق ، ويفعل بين يدي الأمراء ، ومعناه نحّ وأبعد وتكريره للتأكيد . (النهاية) ج 1 ص 64 .

(225/776)

عن حبه بن خالد وسواء بن خالد [1] أنهما أتيا النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو يعالج حائطا أو يناله ، فأعاناه .

وخرّج الحاكم من حديث عبد الله بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا ابن سليم عن ثابت عن أنس أن النبي صلّى الله عليه وسلّم دخل مكة ودنا منه على رحله متخشنا . قال هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

وله من حديث الحسن بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رجلا أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم بحمار وهو يمشي ، فقال : اركب يا رسول الله ، فقالا : إن صاحب الدابة أحق بصدرها [2] [إلا أن تجعله لي ، قال : قد فعلت] [3] .

وأما رقته ورحمته ولطفه

فخرج مسلم من حديث سليمان بن المغيرة قال : حدثنا ثابت عن أنس قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم ، ثم

دفعته إلى أم سيف – امرأة قين [4] يقال له أبو سيف – فانطلق يأتيه واتّبعته ، فانتيهنا إلى أبي سيف وهو ينفخ بكيره ، قد امتلأ البيت دخانا ، فأسرعت بين يدي رسول فقلت : يا أبا سيف ! أمسك جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأمسك ، فدعا النبي صلّى الله عليه وسلّم فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول ، فقال أنس لقد رأيته وهو يكيد بنفسه [5] بين يدي رسول الله ، فدمعت عينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون [6] .

---

[1] حبه بن خالد أخو سواء الأسدي وقيل العامري وقيل الخزاعي ، عدادهما في أهل الكوفة ، لهما عندنا حديث واحد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في عدم اليأس من الرزق رواه الأعمش عن سلام أبي شراحبيل عنهما .

قلت : لم يروه عنهما غيره فيما قاله الأزدي (تهذيب التهذيب) ج 2 ص 177 ترجمة رقم 320 ج 4 ص 265 ترجمة رقم 455 .

[2] (المستدرك) ج 2 ص 64 وفيه «أحق بصدر دابته» .

[3] زيادة من (المستدرك) و(سنن الدارميّ) ج 2 ص 285 باب صاحب الدابة أحق بصدرها .

[4] (القين بفتح القاف) : الحداد ، وفيه جواز تسمية المولود يوم ولادته ، وجواز التسمية بأسماء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

[5] أي يجود بها ، ومعناه وهو في النزع .

[6] فيه جواز البكاء على المريض والحزن ، وأن ذلك لا يخالف الرضا بالقدر بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما المذموم الندب والنياحة والويل والثبور ونحو ذلك من القول الباطل ، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم ولا نقول إلا ما يرضي ربنا . (مسلم بشرح النووي) ج 14 ص 74 - 75 .

(226/776)

وخرّج من حديث إسماعيل بن علية عن أيوب عن عمرو بن سعيد عن أنس ابن مالك قال : ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قال : كان إبراهيم مسترضعا في عوالي المدينة [1] ، فكان ينطلق ونحن معه ، فيدخل البيت وإنه ليدخّن ، وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع ، قال عمرو : فلما مات إبراهيم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة . وخرج البخاري [2] ومسلم [3] من حديث ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها : جاء أعرابي إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم ! فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ . وفي

لفظ مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله فقال :

تقبلون صبيانكم ؟ فقالوا نعم ؟ قالوا : لكننا ما نقبل ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :

وأملك إن كان الله قد نزع منكم الرحمة [4] ؟ . وقد خرجا [5] من حديث أنس :

رويدك يا نجشة ، سوقك بالقوارير ، يعني

---

[1] أما العوالي : فالقرى التي عند المدينة ، وقوله : أرحم بالعيال ، هذا هو المشهور الموجود في النسخ والروايات ، قال القاضي : وفي بعض الروايات الصاد ، ففيه بيان كريم خلقه صلّى الله عليه وسلّم ورحمته للعيال والضعفاء ، وفيه جواز الاسترضاع ، وقوله : وإنه مات في الثدي وإن ظئرين تكملان له رضاعه في الجنة ، معناه مات في الثدي أو في حال تغذيته بلبن الثدي ، وأما الظئر فبكسر الظاء مهموزة وهي المرضعة ولد غيرها ، وزوجها ظئر لذلك الرضيع ، فلفظة الظئر تقع على الأنثى والذكر ، ومعنى تكملان رضاعه أي تتمانه سنتين ، فإنه توفي وله ستة عشر شهرا أو سبعة عشر فترضعانه بقية السنتين فإنه تمام الرضاعة بنص القرآن» قال القاضي : واسم أبي سيف هذا : البراء ، واسم أم سيف زوجته : خولة بنت المنذر الأنصارية كنيتها : أم سيف وأم برده (المرجع السابق) ص 76 .

[2] (صحيح البخاري بشر الكرماني) ج 21 ص 64 حديث رقم 5627 .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 76 .

[4] المرجع السابق .

[5] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 80 باب رحمته صلّى الله عليه وسلّم للنساء والرّفق بهن قال العلماء : سمي النساء قوارير لضعف عزائمهن تشبيها بقارورة الزجاج لضعفها وإسراع الانكسار إليها ، واختلف العلماء في المراد بتسميتهن قوارير على قولين ذكرهما القاضي وغيره أصحهما عند القاضي وآخرين ، وهو الّذي جزم به الهروي وصاحب «التحرير» وآخرون أن معناه : أن أنجشة كان حسن الصوت وكان يحدو بهن وينشد شيئًا من القريض والرجز وما فيه تشبيب ، فلم يأمن أن يفتنهن ويقع في قلوبهن حداؤه ، فأمره بالكف عن ذلك ، ومن أمثالهم المشهورة «الغنا رقية الزنا» ، قال القاضي : هذا أشبه بمقصوده

النساء ، وفي لفظ : ويحك يا نجشة ، رويدك بالقوارير ، وفي آخر : يا أنجشة رويدا سوقك بالقوارير ، وفي آخر : أيا أنجشة رويدا سوقك بالقوارير .

وخرج البخاري في الأدب المفرد [1] عن طريق مبارك [2] عن ثابت عن أنس قال : كان

النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا أتي بالشيء يقول : اذهبوا به إلى فلانة ، فإنّها كانت صديقة خديجة ، اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنّها كانت تحب خديجة . وقال الواقدي في مغازيه وقد ذكر فتح مكة : حدثني عبد الرحمن بن محمد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : لما سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العرج ، رأى كلبة تهر على أولادها وهن حولها من ضعفها ، فأمر رجلا من أصحابه يقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاها ، لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها [3] .

وخرج ابن حبان في صحيحه من حديث عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري عن يحيى بن سعيد بن العاص عن عائشة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم استعذر أبا بكر من عائشة ، ولم يظن النبي صلّى الله عليه وسلّم أن ينال منها بالذي نال منها ، فرفع أبو بكر يده فلطمها وصكّ في صدرها ، فوجد من ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال : يا أبا بكر ، ما أنا بمستعذرك منها بعد هذا أبدا .

[()] صلّى الله عليه وسلّم وبمقتضى اللفظ . . . » والقول الثاني : أن المراد به الرّفق في السير لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واستلذّته فأزعجت الراكب وأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يصعقن عند شدة الحركة ، ويخاف ضررهن وسقوطهن ، وأما «ويحك» فبكذا وقع في مسلم ووقع في غيره ، «ويلك» ، قال القاضي : قال سيبويه : «ويل» : كلمة تقال لمن وقع في هلكه ، و«ويح» زجر لمن أشرف على الوقوع في هلكة ،

وقال الفراء : ويل ووي وويس بمعنى . . . وفي هذه الأحاديث جواز الحداء – وهو بضم الحاء ممدود – وجواز السفر بالنساء واستعمال المجاز ، وفيه مباعدة النساء من الرجال ومن سماع كلامهم إلا الوعظ ونحوه .

[1] (الأدب المفرد) ج 1 ص 320 حديث رقم 332 ، وأخرجه الحاكم والبراء وابن حبان .

[2] «مبارك» هو ابن فضالة البصري ، جالس الحسن البصري ثلاث عشر سنة أو أربع عشر سنة ، مات سنة 165 ، قال أحمد : ما روي عن الحسن يحتج به (فضل الله الصمد) هامش ص 320 .

[3] كذا في (خ) ، ورواية الواقدي : «لما سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العرج ، فكان فيما بين العرج والطلوب ، نظر إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها ، فأمر رجلا من أصحابه يقال له جعبل ابن سراقة أن يقوم حذاهما ، لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها ، والطّلوب : ماء في الطريق بين المدينة ومكة . (المغازي للواقدي) ج 2 ص 804 .

وأما حسن عهده عليه السلام

فخرج البخاري في المناقب من حديث الليث قال : كتب إليّ هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على امرأة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما غرت على خديجة – هلكت قبل أن يتزوجني – لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاه فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن [1] .

وخرّجه مسلم من حديث أبي أمامة قال : أخبرنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة – ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين – لما كنت أسمعه يذكرها ، ولقد أمره ربه تبارك وتعالي أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، وأنه كان يذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها [2] .

وخرّجه البخاري من حديث أسامة بنحوه ، إلا أنه قال : ثم يهدي في خلتها منها . ذكره في كتاب الأدب [3] .

وخرّج أيضا من حديث حفص عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي صلّى الله عليه وسلّم ما غرت على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد [4] .

وفي لفظ : ما غرت على نساء النبي صلّى الله عليه وسلّم إلا علي خديجة ، وإني لم أدركها

، قالت : وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة ، قالت : فأغضبته يوما فقلت : خديجة ! ؟ فقال : إني رزقت بحبها [4] . وخرّج في حديث علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله

---

[1] (صحيح البخاري) ج 2 ص 315 باب تزويج النبي صلّى الله عليه وسلّم خديجة وفضلها رضي الله عنها .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 300 باب فضائل خديجة رضي الله عنها .

[3] (صحيح البخاري بشرح الكرماني) ج 21 ص 167 كتاب الأدب ، باب حسن العهد من الإيمان حديث رقم 5633 وفيه : «حدثنا عبيد بن إسماعيل ، حدثنا أبو أسامة» ، وفي (خ) «من حديث أسامة» ولعله خطأ من الناسخ .

[4] (مسلم بشرح النووي) ج 15 ص 301 باب فضائل خديجة رضي الله عنها .

عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعرف استئذان خديجة ، فارتاع لذلك ، فقال : اللَّهمّ هالة . قالت : فغرت فقلت :

وما تذكر من عجوز قريش ، حمراء الشّدقين هلكت في الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها [1] .

وخرّج مسلم بمثله وقال : فارتاح لذلك فقال : اللَّهمّ هالة بنت خويلد [2] .

وخرّج الحاكم من حديث أسد بن موسى ، حدثنا مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا أتى بشيء يقول : اذهبوا به إلى فلانة فإنّها كانت صديقة خديجة ، قال : هذا حديث صحيح الإسناد [3] .

ومن حديث عبد العزيز بن محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يذبح الشاة فيتتبع بها صدائق خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

قال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم [3] .

ومن حديث عفان : حدثنا حماد بن سلمة عن ابن عمير ، عن موسى بن طلحة عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكثر ذكر خديجة ، فقلت : لقد أخلفك الله زوجا ، وقال حماد : أعقبك الله عن عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر الأول ، قالت : فتغير وجهه تغيرا ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي وإذا رأى مخيلة الرعد والبرق ، حتى يعلم أرحمة هي أم عذاب . قال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

وأما كراهته للمدح والإطراء

فخرج البخاري في كتاب الأنبياء من حديث سفيان قال : سمعت الزفري يقول : أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس ، سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر : سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم [يقول] : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله [4] .

---

[1] (صحيح البخاري) ج2 ص 316 باب فضائل خديجة رضي الله عنها .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج15 ص 202 وفيه» فأبدلك الله خيرا منها» .

[3] (المستدرك) ج4 ص 175 كتاب البر والصلة .

[4] (الشمائل المحمدية) 173 حديث رقم 323 ، والإراء هو حسن الثناء أي لا تبالغوا في مدحي كما بالغت النصارى في مدح سيدنا عيسى فجعلوه إلها أو ابن إله .

وخرّج أبو بكر بن أبي شيبة من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه ، أن رجلا قال : يا محمد ، يا سيدنا وابن سيدنا ، ويا خيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يا أيها الناس ، عليكم بقولكم ، ولا يستجرينك الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله .

وخرّجه النسائي بنحوه وخرّجه أيضا ولفظه عن أنس ، أن ناسا قالوا ، لرسول الله (الحديث) ، وقال فيه ، ولا يستهوينكم الشيطان ، وقال : التي أنزلنيها الله .

ذكرهما في كتاب اليوم وليلة . وخرّج أبو بكر بن أبي شيبة من حديث غيلان بن جرير عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رهط من بني عامر فسلمنا عليه ، فقلت : أنت ولدنا وأنت سيدنا . وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء ، فقال : قولوا بقولكم ولا يستجرئنك الشيطان .

وخرجه النسائي بهذا الإسناد وقال : لا يستهوينكم الشيطان ، ولم يذكر قوله ، وأنت الجفنة الغراء . وخرجه أبو داود من حديث سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن مطرف قال ، إني انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلنا ، أنت سيدنا ، قال : السيد هو الله ، قلنا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا ، قال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرئنكم الشيطان [1] .

وأما حلمه وصفحه صلّى الله عليه وسلّم

فخرّج الإمام أحمد من حديث جرير عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ساءل أهل مكة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعون فقيل : إن شئت أن تستأني بهم

وإن شئت أن تعطيهم الّذي ساءلوا ، فإن كفروا أهلكتهم كما أهلكت من قبلهم قال : بل استأني بهم .

---

[1] سبق تخريجه وشرح بعض ألفاظه ومعناه عند الكلام على تواضع النبي صلّى الله عليه وسلّم وقربه .

(231/776)

وخرّج البخاري من حديث شعيب ، حدثنا أبو الزناد أن عبد الرحمن قال :

قال أبو هريرة رضي الله عنه : قدم طفيل بن عمرو الدوسيّ وأصحابه على النبي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : يا رسول الله ، إن دوسا عصت وأبت ، فادع الله عليها فقيل : هلكت دوس ، فقال : اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم . ذكره في كتاب الجهاد ، وترجم عليه باب الدعاء للمشركين لتألفهم . وذكره في كتاب الدعاء في باب الدعاء للمشركين ولفظه : قدم الطفيل ابن عمرو على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله إن دوسا قد عصت وأبت فادع الله عليها ، فظن الناس أنه يدعو عليهم ، فقال : اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم .

وذكره في آخر المغازي . وخرّجه مسلم من حديث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قدم الطفيل وأصحابه فقالوا : يا رسول الله ، إن دوسا قد

كفرت وأبت ، فادع الله عليها ، فقيل : هلكت دوس ، فقال : اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم .

وخرّجه الإمام من حديث سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : جاء الطفيل بن عمرو الدوسيّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : إن دوسا قد عصت وأبت ، فادع الله عليهم ، فاستقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القبلة ورفع يديه ، فقال الناس .

هلكوا ، فقال : اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم ، اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم ، اللَّهمّ اهد دوسا وأت بهم . وخرّج البخاري في كتاب الاستئذان ، ومسلم في الجهاد من حديث معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير ، أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية ، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة 7 فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم عليهم النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء لا أحسن

من هذا ، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ، قال [1] عبد الله بن رواحة : اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، قال : فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا ، فلم يزل النبي صلّى الله عليه وسلّم يخفضهم ، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال : أي سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ - يريد عبد الله بن أبي - قال : كذا وكذا ، قال : اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الّذي أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة (وقال مسلم «البحيرة») على أن يتوجوه فيعصبونه [2] بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الّذي أعطاك ، «شرق بذلك ، فذلك [3] فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم» . وأخرجاه من حديث الليث عن عقيل عن ابن شهاب ، وزاد مسلم : (وذلك قبل أن يسلم عبد الله) ، لم يذكر غير هذا .

وقال البخاري في حديث عقيل عن ابن شهاب عن عروة أن أسامة أخبره أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ركب على حمار على إكاف على قطيفة فدكية 7 وأردف أسامة وراءه ، يعود سعد بن عبادة قبل وقعة بدر ، فسار حتى مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ ابن سلول - وذلك قبل أن يسلم عبد الله - وفي المجلس أخلاط . . . (الحديث نحو ما تقدم) ، وفيه : يا أيها المرء لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذونا به في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ،

فمن جاءك فاقصص عليه ، قال ابن رواحة : بلي يا رسول الله ! فاغشنا به في مجالسنا ، فإنّا نحب ذلك . . . (الحدى) وفيه : حتى كادوا يتشاورون ، وقال : أهل هذه البحرة ، ولم يقل في آخره : فعفا عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم . ذكره في كتاب المرضى في باب عيادة المريض راكبا وماشيا وردفا على الحمار .

وأخرجاه أيضا من حديث شعيب بن أبي حمزة وابن أبي عقيق عن الزهري ، فذكره البخاري في كتاب التفسير وفي كتاب الأدب في باب كنية المشرك ، ولفظه :

أن رسول الله ركب على حمار على قطيفة فدكية ، وأردف أسامة وراءه يعود سعد

---

[1] في (خ) «فقال» وما أثبتناه من رواية البخاري .

[2] في (خ) «فعصبوه» وما أثبتناه من رواية البخاري .

[3] في (خ) «فلذلك» وما أثبتناه من رواية البخاري .

ابن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فسارا حتى مرّا بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ ابن سلول – وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي – وإذا في المجلس أخلاط الحديث . . . (إلى آخره) ، وقال : حتى كادوا يتشاورون . وقال : أهل هذه البحرة . وقال في

آخره بعد قوله فعفا عنه رسول الله : وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله عز وجل : وَلَتَسْمَعُنَّ من الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَمن الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً 3 : 186 [1] ، وقال : وَدَّ كَثِيرٌ من أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ من بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ 2 : 109 [2] فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ، فلما غزا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدرا ، وقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادة قريش ، فقفل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه منصورين غانمين ، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادة قريش ، قال ابن أبيّ بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توحد ، فبايعوا لرسول الله ، فبايعوه .

وخرّج البخاري ومسلم من حديث أبي أمامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابن عبد الله بن عبد الله ابنه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليصلي عليه ، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله فقال :

يا رسول الله أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه ؟ – ولفظ البخاري : وقد نهاك ربك أن تصلي عليه – فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة ، وسأزيد علي السبعين ، قال : إنه منافق ، فصلى عليه

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ 9 : 84 [3] .

وذكره البخاري في كتاب التفسير ، وخرّجه مسلم من حديث يحيى القطان عن عبيد الله بهذا الإسناد ونحوه ، وزاد قال : فترك الصلاة عليهم . وخرّجه البخاري في كتاب اللباس في باب لبس القميص ، من حديث يحيى ابن سعيد عن عبيد الله ، أخبرني نافع بن عبد الله قال : لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء

---

[1] من الآية/ 186 آل عمران .

[2] من الآية 109/ البقرة .

[3] من الآية 84/ التوبة .

ابنه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه ، وصلّ عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه وقال : إذا فرغت فآذنّا ، فلما فرغ آذنه ، فجاء ليصلي عليه فجذبه عمر وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ 9 : 80 [1]

فنزلت : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً 9 : 84 [2] ، فترك الصلاة عليهم .

وذكره في كتاب الجنائز وقال فيه : فقال آذّني أصلي عليه فآذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر . وذكره في كتاب التفسير من حديث أنس بن عياض عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبيّ ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأعطاه قميصه فأمره أن يكفّنه فيه ، ثم قام يصلي عليه ، فأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثوبه وقال : تصلي عليه وهو منافق ، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟ قال : إنما خيّرني الله أو أخبرني الله فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً 9 : 80 ، فقال : سأزيده على سبعين ، قال : فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصلوا معه ، ثم أنزل عليه : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ 9 : 84 . وخرّج أيضا من حديث الليث عن عقيل عن ابن شهاب : أخبرني عبيد الله ابن عبد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما مات عبد الله ابن أبيّ ابن سلوك ، دعي له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليصلي عليه ، فلما قام رسول الله وثبت إليه فقلت : يا رسول الله ! أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا ، كذا وكذا ؟ قال : أعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله وقال : أخّر عنّي يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : إني خيّرت فاخترت ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال : فصلى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت

الآيتان من براءة [3] : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً 9 : 84 إلى قوله : وَهُمْ فاسِقُونَ 9 : 84 ، قال : فعجبت بعد من جراءتي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] من الآية 80/ التوبة .

[2] من الآية 84/ التوبة .

[3] براءة : من أسماء سورة التوبة .

يومئذ ، والله ورسوله أعلم . ذكره في الجنائز وفي التفسير ، وخرّجه النسائي في الجنائز ، وخرّجه الإمام أحمد أيضا .

وخرّج أحمد من حديث يزيد بن هارون قال : أخبرنا حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين رجلا من أهل مكة ، هبطوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من التنعيم مستحلين يريدون غرّة النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ، فأخذهم سلما فاستحياهم ، فأنزل الله عز وجل : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ 48 : 24 [1] وفي الصحيح : أن ملك الجبال بلّغه عن الله تعالى تخييره بين أن يطبق على من كذبه الأخشبين ، فقال عليه السلام : بل أرجو أن يخرج من

أصلابهم من يعبد الله ، كما ستراه في ذكر من حدث عنه عليه السلام ، وتقدم ذكر خبر الأعرابي بالبرد ، حتى أثر في عاتقه عليه السلام ، فضحك وأمر له بعطاء .

وخرّج البخاري من حديث جرير عن منصوص عن أبي وائل عن عبد الله قال : لما كان يوم حنين ، آثر النبي صلّى الله عليه وسلّم أناسا في القسمة ، وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى أناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها ، أو ما أريد بها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرن النبي صلّى الله عليه وسلّم فأتيته فأخبرته ، فقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر . وخرّج مسلم من حديث مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ، أدع على المشركين ، قال : إني لم أبعث لعّانا وإنما بعثت رحمة . ذكره في كتاب البرّ والصلة . وقال القاسم بن سلام بن مسكين الأزديّ : حدثني أبي قال : حدثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلّى ركعتين ثم أتى بالكعبة ، وأخذ بعضاد في الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : نقول : أخ كريم وابن عمّ حليم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أقول كما قال يوسف ، لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 12 : 92

[1] الآية 24/ الفتح .

(236/776)

---

[1] ، فخرجوا كأنما نشروا من القيود ، قد دخلوا في الإسلام . ولابن حبان من حديث ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن بعض آل عمر ابن الخطاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم الفتح أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى صفوان بن أمية وأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام ، قال عمر : فقلت : قد أمكنني الله منهم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته ، لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ 12 : 92 ، فانفضحت حياء من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وله من حديث عبد الله بن المغيرة : قال مالك بن أنس ، حدثني يحيى بن سعيد عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جعل يقبّض الناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال ، فقال له رجل يا نبي الله ! اعدل ، فقال : ويحك ، فن يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقال عمر رضي الله : ألا أضرب عنقه فإنه منافق ؟ فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي . وله من حديث معاذ بن هشام الدستواني قال : حدثنا أبي عن قتادة عن عقبة

ابن وشاح الأزدي عن عبد الله بن عمرو قال : أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم بقليل من ذهب وفضة ، فجعل يقسمه بين أصحابه ، فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ! والله لقد أمرك الله أن تعدل ، فما أراك تعدل ، فقال : ويحك ، من يعدل عليك بعدي ؟ فلما ولّى قال ردوه عليّ رويدا . وله من حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا إسماعيل بن عليه عن بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده ، أن أخاه أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : جيراني على ما أخذوا ، فأعرض عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : إن الناس يزعمون أنك نهيت عن البغي فلم تتحلى به ؟ فقال : إن كنت أفعل ذلك إنه لعلّي وما هو عليكم ، خلّوا عن جيرانه . وله من حديث محمد بن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ابتاع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جزورا من أعرابي بوسق من تمر الذخيرة ، فجاء به إلى منزله ، فالتمس التمر فلم يجده في البيت ، قالت : فخرج إلى الأعرابي فقال : يا عبد

---

[1] الآية 92/ يوسف .

الله ، إنا ابتعنا منك جزورك هذا بوسق من تمر الذخيرة ونحن نرى أنه عندنا فلم نجده ، فقال الأعرابي : واغدراه واغدراه ، فوكزه الناس وقالوا : لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم تقول هذا ؟ فقال : دعوه . وله من حديث إبراهيم بن الحكم بن أبان قال : حدثني أبي عن عكرمة عن أبي هريرة أن أعرابيا جاء النبي صلّى الله عليه وسلّم يستعينه في شيء فأعطاه شيئا ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : لا ، ولا أجملت ! فغضب المسلمون فقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفّوا ثم قام فدخل منزله ، ثم أرسل الأعرابي فدعاه إلى البيت ، يعني فأعطاه فرضي ، فقال : إنك جئنا فسألتنا فأعطيناك ، وقلت ما قلت وفي أنفس المسلمين شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك ، قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إن صاحبكم هذا كان جائعا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنّا دعوناه إلى البيت فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضي ، أكذاك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل عشيرة خيرا ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : ألا إن مثلي ومثل هذا الأعرابي ، كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها ، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام [1] الأرض فجاءت فاستناخت فشدّ عليها رحلها واستوى عليها ، ولو أني تركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار . وله من حديث الأعمش عن يزيد بن حبان عن

زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : سحر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما ، فأتى جبريل عليه السلام فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، فعقد ذلك عقدا ، فأرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليا رضي الله عنه فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حلّ عقدة وجد لذلك خفّة ، فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كأنما نشط من عقال - ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط .

وله من حديث علي بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيب عن أنس قال :

خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين فما سبّني سبّة قط ، ولا ضربني ضربة ولا

---

[1] هذه الكلمة غير واضحة في (خ) وأثبتناها من (الشفا) ج 1 ص 73 .

انتهرني ولا عبس في وجهي ، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني أحد من أهله قال : دعوه فلو قدّر شيء كان . وقد تقدم حديث أنس هذا ، ولكن أوردته لما في حديث ابن حبان هذا من الزيادة المفيدة .

وله أيضا من حديث الوليد بن مسلم قال : حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف قال : حدثني

أبي عن جدي قال : قال عبد الله بن سلام : إن الله عز وجل أراد هدي زيد بن سعنة [1] ، قال : زيد : ما من علامات النبوة شيء إلا قد عرفته في وجه محمد سوى اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه ، فخرج يوما ومعه علي ابن أبي طالب ، فجاءه رجل كالبدوي فقال : يا رسول الله ، إن قرية بني فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا ، وقد أصابتهم سنة وشدّة ، وإني مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء يعينهم ، قال زيد بن سعنة ، فقلت ، أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا ، فأعطيته ثمانين دينارا فدفعها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها فأعنهم ، فلما كان قبل المحل بيوم أو يومين أو ثلاث ، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى جنازة في نفر من أصحابه ، فجبذت رداءه جبذة شديدة حتى سقط عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت :

ألا تقضيني يا محمد ، فو الله ما علمتكم يا بني عبد المطلب لمطل ، فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم أومى ببصره إليّ وقال ، أي عدوّ الله ! أتقول هذا لرسول الله وتصنع به ما أرى وتقول ما أسمع ؟ فو الّذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينظر إلى عمر في تؤدة وسكون ، ثم تبسم وقال : لأنا أحوج إلى غير هذا : أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب يا عمر

فاقضه حقه وزده عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ما هذا ؟ قال أمرني رسول الله أن أزيدك وكان ما دعتك : فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا فمن أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحبر ؟ قلت الحبر ، قال : فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ما فعلت وتقول له ما قلت ؟ قلت : يا عمر ، إنه لم يبق من علامات النبوّة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد

---

[1] في (خ) «ثعنة» والتصويب من المرجع السابق ج 1 ص 63 .

اختبرتهما منه ، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ، وأشهدك أن شطر مالي لله ، فإنّي أكثرها مالا صدقة على أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فقال عمر رضي الله عنه : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم ، قال : فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فآمن به وصدّقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة .

وخرجه الحاكم من حديث الوليد بن مسلم به نحوه ، وقال : هذا حديث صحيح .

وقال الحارث بن أبي أسامة : حدثنا محمد بن سعد ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا جرير بن حازم ، حدثني من سمع الزهريّ يحدث أن يهوديا قال : ما كان بقي شيء من نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التوراة إلا ورأيته إلا الحلم ، وإني أسلفته ثلاثين دينار إلى أجل معلوم ، فتركته حتى إذا بقي من الأجل المعلوم يوم أتيته ، فقلت : يا محمد أوفني حقي ، فإنكم معاشر بني عبد المطلب مطل ، فقال عمر رضي الله عنه : يا يهودي أجننت ؟ أما والله لو لا مكانه لضربت الّذي فيه عيناك ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : غفر الله لك يا أبا حفص ، نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج : إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليّ ، وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج ، قال : فلم يزده جهلي عليه إلا حلما ، قال : يا يهودي ، إنما يحل حقك غدا ، ثم قال يا أبا حفص ، اذهب به إلى الحائط الّذي كان سألك أول يوم ، فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعا ، وزده لما قلت له كذا وكذا صاعا ، وإن لم يرض فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا ، فأتي به الحائط فرضى ، وأعطاه رسول الله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما أمره من الزيادة ، فلما قبض اليهودي تمره قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، وإنه والله ما حملني على ما رأيتني صنعت يا عمر إلا إني كنت رأيت في رسول الله صفاته في التوراة كلّها إلا الحلم ، فاختبرت حلمه اليوم على ما وصف في التوراة ، وإني أشهد أن هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين ، فقال عمر :

فقلت : أو بعضهم ، فقال : أو بعضهم وأسلم أهل بيت اليهود كلهم إلا شيخا كان له مائة سنة ، فبقي على الكفر .

وقال إسرائيل عن السدي عن الوليد بن أبي هاشم عن زيد بن زائدة عن عبد الله

(240/776)

ابن مسعود رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وإني سليم الصدر . فقال :

فأتاه مال فقسمه ، فانتهيت إلى رجلين يتحدثان وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته التي قسم وجه الله والدار الآخرة ، قال : فتثبتّ حتى سمعتها ، ثم أتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم فذكرت له ذلك ، فقلت : إنك قلت : لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا ، وإني سمعت فلانا وفلانا يقولان كذا وكذا ، قال : فاحمرّ وجهه وقال : دعنا منك فقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر . وخرج مسلم من حديث زيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : إنما لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة . انفرد بإخراجه مسلم .

وقال سفيان بن الحسن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنما أنا رحمة مهداة . وقال الواقدي في مغازيه وقد ذكر فتح مكة : وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتل جماعة فذكرهم إلى أن قال : وأما هبار بن الأسود فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان كلما بعث سرية أمرها بهبار إن أخذ أن يحرق بالنار ، ثم قال : إنما يعذّب بالنار ربّ النار ، اقطعوا يديه ورجليه إن قدرتم عليه ثم اقتلوه ، فلم يقدر عليه يوم الفتح ، وكان جرمه أنه عس [1] بابنة النبي صلّى الله عليه وسلّم زينب ، وضرب ظهرها بالرمح - وكانت حبلي - حتى أسقطت فأهدر النبي صلّى الله عليه وسلّم دمه ، فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس بالمدينة في أصحابه ، إذا طلع هبار بن الأسود - وكان لسنا - فقال : يا محمد : أسب من سبك ، إني قد جئت مقرا بالإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فقبل منه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخرجت سلمى مولاه النبي صلّى الله عليه وسلّم فقالت : لا أنعم الله بك عينا ، أنت الّذي فعلت وفعلت ، فقال : إن الإسلام محا ذلك ، ونهي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، عن سبه والتعريض له [2] . [ثم قال] [3] : حدثني هشام بن عمارة عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم

---

[1] في (خ) «نخس» وما أثبتناه من رواية الواقدي في (المغازي) ج 2 ص 857 .

[2] في (خ) «والتعرض» وما أثبتناه من (الواقدي) ج 2 ص 858 .

[3] زيادة للسياق .

(241/776)

عن أبيه عن جده قال : كنت جالسا مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في أصحابه في مسجده منصرفه من الجعرانة ، فطلع هبار بن الأسود ، قال [1] : قد رأيته فأراد بعض القوم القيام إليه ، فأشار إليه النبي صلّى الله عليه وسلّم أن اجلس ، ووقف عليه هبار فقال : السلام عليك يا رسول الله ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولقد هربت منك في البلاد ، وأردت اللحوق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرك وصفحك عن من جهل إليك [2] ، وكنا يا رسول الله أهل شرك باللَّه فهدانا باللَّه بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلي وعما كان يبلغك عني ، فإنّي مقر بسيئاتي [3] معترف بذنبي ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قد عفوت عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام ، والإسلام يجبّ ما قبله . [ثم قال] : حدثني واقد بن أبي ياسر عن يزيد بن رومان قال : قال الزبير ابن العوام رضي الله عنه : ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذكر هبارا قط إلا تغيّظ عليه ، ولا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث سرية قط إلا

قال : إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه ، والله لقد كنت أطلبه وأسأل عنه ، والله يعلم لو ظفرت به قبل يأتي إلى رسول الله لقتلته ثم طلع على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا عنده جالس ، فجعل يعتذر إلى رسول الله يقول ، سبّ يا محمد من سبّك وأوذي [4] من آذاك ، فقد كنت موضعا في سبّك وأذاك وكنت مخذولا وقد بصّرني [5] الله وهداني للإسلام . قال الزّبير : فجعلت انظر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإنه ليطأطئ رأسه استحياء منه مما يعتذر هبار ، وجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، يقول : قد عفوت عنك ، والإسلام يجبّ ما كان قبله ، وكان لسنا ، وكان يسبّ حتى يبلغ منه فلا ينتصف من أحد ، فبلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حمله وما يحمل عليه من الأذى ، فقال هبار [6] : سبّ من سبّك .

---

[1] كذا في (خ) ونص الواقدي : «فطلع هبار بن الأسود من باب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلما نظر إليه القوم قالوا : يا رسول الله ، هبار بن الأسود ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد رأيته . . . » .

[2] كذا في (خ) ، وفي (الواقدي) «جهل عليك» .

[3] كذا في (خ) ، وفي (الواقدي) «بسوء فعلي» .

[4] في (خ) «وآذي» وما أثبتناه من (الواقدي) .

[5] في (الواقدي) «نصرني» .

[6] في (خ) «يا هبار» .

(242/776)

وأما شفقته ومداراته

فقال تعالى : فَبِما رَحْمَةٍ من اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا من حَوْلِكَ 3 : 159 [1] ، قال السمرقندي فيما نقل القاضي عياض ، ذكّرهم الله تعالى منّته أنه جعل رسوله رحيما بالمؤمنين ، رءوفا ليّن الجانب ، ولو كان فظا خشنا في القول لتفرقوا من حوله ، لكن جعله الله سمحا سهلا ، طلقا برا لطيفا . هكذا قال الضحاك .

وخرج البخاري من حديث سليمان بن بلال قال : حدثني شريك بن عبد الله ، سمعت أنس بن مالك يقول : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمّه .

وخرّجه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر عن شريك عن أنس أنه قال ، ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (لم يزد على هذا) .

وخرّجا من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وجد أمّه من بكائه . ترجم عليه باب من أخف صلاته عند بكاء الصبي ، وذكر في هذا الباب في رواية أبي محمد الحموي وأبي الهيثم الكشميني حديث سعيد عن قتادة عن أنس عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز لما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه .

وخرّج البخاري من حديث الأوزاعي عن يحي بن أبي كثير عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : إني لأقوم في الصلاة ، وإني أريد أن أطوّل فيها . (الحديث) . مثله ذكره في باب خروج النساء إلى المساجد . ولمسلم من حديث يحيى بن يحيى قال : أخبرنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة ، فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة .

---

[1] من الآية 159/ آل عمران .

وله من حديث عبد الله بن وهب قال : أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج من جوف الليل فصلّى في المسجد ، فصلّى رجال بصلاته ، فأصبح الناس يتحدثون بذلك ، فاجتمع أكثر منهم فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الليلة الثانية فصلوا بصلاته ، فأصبح الناس يذكرون ذلك ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله ، فلم يخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فطفق منهم رجال يقولون : الصلاة ، فلم يخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى خرج لصلاة الفجر ، فلما قضى الصلاة أقبل على الناس ثم تشهد وقال ، أما بعد ، فإنه لم يخف عني شأنكم الليلة ، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها .

وخرّجه البخاري بنحوه ، وزاد في آخره ، فتوفي رسول الله والأمر على ذلك ، ذكره في باب فضل من قام رمضان ، وفي كتاب الجمعة في باب من قال في الخطبة بعد الثناء ، أما بعد ، غير أنه لم يذكر الزيادة ، وقال في بعض الموضعين : أما بعد ، فإنه لم يخف عليّ مكانكم .

وخرّج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى في ذات ليلة في المسجد فصلّى بصلاته ناس ، ثم صلّى من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة

الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلما . صبح قال ، قد رأيت الّذي صنعتم ، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا إنني خشيت أن تفرض عليكم ، قال : وذلك في رمضان . ذكره البخاري في باب تحريض النبي صلّى الله عليه وسلّم على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب ولم يقل فيه أبو داود : والرابعة . ذكره في باب قيام شهر رمضان [1] ، وذكر بعده متصلا به حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة قالت : كان الناس يصلون في المسجد في رمضان أوزاعا [2] ، فأمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فضربت له حصيرا فصلّى فيه رسول الله بهذه

---

[1] (سنن أبي داود) ج 2 ص 104 حديث رقم 1373 ، 1374 وأخرجه (البخاري) في الصوم باب فضل من قام رمضان (و مسلم) في الصلاة باب في قيام رمضان وهو التراويح ، (و النسائي) في قيام الليل باب قيام شهر رمضان .

[2] أوزاعا : متفرقين ومن هذا قولهم : وزّعت الشيء إذا فرقته ، وفيه إثبات الجماعة في قيام رمضان ،

القصة ، قالت [1] فيه : قال : - يعني النبي صلّى الله عليه وسلّم - أيها الناس ، أما والله ما بتّ ليلتي هذه بحمد الله غافلا ، ولا خفي علي مكانكم . وللبخاريّ من حديث يحي بن سعيد الأنصاري عن عمرة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّى من الليل في حجرته - وجدار الحجرة قصير - فرأى الناس شخص النبي صلّى الله عليه وسلّم فقام ناس يصلون بصلاته ، فأصبحوا فتحدثوا بذلك ، فقام الليلة الثانية ، فقام معه أناس يصلون بصلاته ، صنعوا ذلك ليلتين أو ثلاثا حتى إذا كان بعد ذلك ، جلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يخرج ، فلما أصبح ذكر ذلك الناس فقال : إني خشيت أن تكتب عليكم صلاة الليل ، ذكره في باب إذا كان بين الإمام وبين القوم حائط أو سترة . وخرّج الإمام أحمد من حديث معمر عن الزهري ، عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يترك العمل وهو يحب أن يعمله كراهية أن يستن الناس به فيفرض عليهم ، وكان يحب ما خفف من الفرائض .

وخرّج مسلم من حديث حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : قال رجل للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : أين أبي ؟ قال : في النار ! فلما رأى ما في وجهه قال : إن أبي وأباك في النار . انفرد بإخراجه مسلم [2] .

وخرّج الإمام أحمد من حديث يزيد بن هارون قال : حدثنا سليم بن عامر عن أبي أمامة قال : إن فتى شابا أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله ، ائذن لي بالزنا !

فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ، فقال : أدنه ، فدنا منه قريبا ، قال : فجلس ، قال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال : أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله ، يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال : أفتحبه لأختك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال : أفتحبه لعمتك ؟ قال :

لا والله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال أفتحبه لخالتك ؟

[()] وفيه إبطال من زعم أنها محدثة (معالم السنن) ج 2 ص 104 (هامش) .

[1] في (خ) «وقال» وما أثبتناه من (سنن أبي داود) .

[2] الحديث أخرجه مسلم في الإيمان بلفظ «فلما قفا الرجل دعاه فقال : «إن أبي وأباك في النار» ، قفا :

ولي قفاه منصرفا (صفة الصفوة) ج 1 ص 172 باب ذكر حلمه وصفحه صلّى الله عليه وسلّم .

قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال : فوضع يده عليه وقال : اللَّهمّ اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء [1] . وخرّج مسلم من حديث ابن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث أن بكر ابن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم تلى قول الله عز وجل : إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً من النَّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي 14 : 36 وقال عيسى عليه السلام : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 5 : 118 فرفع يديه ثم قال : اللَّهمّ أمتى أمتى ، وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل ، اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره بما قال الله تعالى : فقال الله تعالى : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . وخرّج البخاري من حديث همام ، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة عن أنس ، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم رأى أعرابيا يبول في المسجد ! فقال : دعوه ، حتى إذا فرغ دعا بماء فصبه عليه . ترجم عليه ، باب ترك النبي صلّى الله عليه وسلّم والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله . وخرّجه مسلم من حديث عكرمة بن عمار قال : حدثنا إسحاق بن أبي طلحة قال : حدثني أنس بن ملك – وهو عم إسحاق – قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا جاء أعرابي فقام يبول في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : مه مه ! فقال رسول الله صلّى

الله عليه وسلّم ، لا تزرموه لا تزرموه [2] ، دعوه ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعاه فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن - أو كما قال رسول الله - قال : فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فصبّه عليه . وأخرجاه من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن أعرابيا قام إلى ناحية في المسجد فبال فيها ، فصاح بن الناس ، فقال رسول الله

---

[1] (مسند أحمد) ج5 ص 256 ، 257 .

[2] أزرمه : قطع عليه بوله (ترتيب القاموس) ج2 ص 448 .

صلّى الله عليه وسلّم ، دعوه فلما فرغ أمر رسول الله بذنوب فصب عليه . اللفظ لمسلم .

ولفظ البخاري قال : جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس ، فنهاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فلما قضى بوله أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بذنوب من ماء فأهريق عليه . ذكره في باب صب الماء على البول في المسجد .

وخرّج البخاري ومسلم والنّسائي من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أنس ، أن أعرابيا

بال في المسجد فقام إليه بعض القوم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : دعوه ، ولا تزرموه ، فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبّه عليه . لفظهما فيه سواء . وقال النسائي بعد قوله : لا تزرموه ، لا تقطعوا بوله ، وفي لفظ للبخاريّ ، أن أعرابيا بال في المسجد فقاموا إليه : فقال رسول الله : لا تزرموه ، ودعا بدلو من ماء فصب عليه . ذكره في كتاب الأدب ، في باب الرّفق في الأمر كله . وخرّج البخاري والنسائي من حديث الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة قال : قام أعرابي في المسجد فبال : فتناوله الناس ، فقال لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم دعوه وأهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسّرين . ذكره البخاري في باب صب الماء على البول في المسجد وخرّجه في كتاب الأدب ولفظه : أن أبا هريرة أخبره أن أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله ، دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . ذكره في باب قول النبي صلّى الله عليه وسلّم يسّروا ولا تعسّروا ، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس . وخرّج أبو داود والترمذي من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة ، أن أعرابيا دخل المسجد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس ، فصلّى ركعتين ثم قال : اللَّهمّ ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم منا أحدا ! فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : لقد تحجّرت واسعا ، ثم لم يلبث أن بال في المسجد ، فأسرع الناس إليه فنهاهم النبي صلّى الله

عليه وسلّم وقال :

إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ، صبوا عليه سجلا من ماء ، أو قال : ذنوبا من ماء

[1] وقال الترمذي : أهريقوا عليه سجلا من ماء أو دلوا من ماء ، وقال

---

[1] (مسند الحميدي) ج2 ص 419 حديث رقم 938 ولفظه .

« . . . أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : دخل أعرابي المسجد والنبي صلّى الله عليه وسلّم جالس ، قال :

فيه : فلما فرغ قال . وقال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

قال مؤلفه : ذكر البخاري قول الأعرابي : اللَّهمّ ارحمني ومحمدا ، وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم له ، ولم يذكر فيه أنه بال في المسجد .

وخرّج مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا [1] استأذن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ائذنوا له فبئس أخو العشيرة ، فلما دخل عليه ألان له القول ، قالت عائشة : فقلت يا رسول الله ! قلت الّذي قلت ثم ألنت له القول ؟ قال يا عائشة إن شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، من

تركه الناس اتقاء فحشه .

وخرّج مسلم من حديث يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء ابن يسار عن معاوية بن الحكم قال : بينما أنا أصلي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله : فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : وا ثكل أمّاه ! ما شأنكم تنظرون إليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فعرفت أنهم يصمتونني ، لكني سكتّ ، فلما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – فبأبي وأمي – ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فو الله ما نهرني [2] ولا ضربني ولا شتمني ، ثم قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن – أو كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – قلت : يا رسول الله ! إني حديث عهد بجاهلية ، وقد جاء الله بالإسلام ، وإن منا رجالا يأتون الكهّان ، قال : فلا تأتهم ، قال : ومنا رجال يتطيرون ، قال : ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا

[()] فقام ، فصلّى ، فلما فرغ من صلاته قال : اللَّهمّ ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا ، فالتفت إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : لقد تحجرت واسعا ، فما لبث أن بال في المسجد ، فأسرع الناس إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أهريقوا عليه سجلا من ماء أو دلوا من ماء ، ثم قال إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين .

[1] هو عيينة بن حصن الفزاري – الّذي يقال له الأحمق المطاع – وكان إذ ذاك من أهل

النفاق ولذا قال فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما قال ليتقي شره ، وهذا ليس بغيبة بل نصيحة للأمة ، وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وحضر بعض الفتوحات وقد اعتبر العلماء قول النبي صلّى الله عليه وسلّم فيه وهو غائب وإلانته له وهو حاضر من باب المداراة والتآلف .

[2] في رواية أبي داود ج 1 ص 570 باب تشميت العاطس في الصلاة حديث رقم 930 «ما كهرني» ومعناه ما انتهرني ولا غلظ لي ، وقيل الكهر : استقبال الإنسان العبوس ، وقرأ بعض الصحابة «فأما اليتيم فلا تكهر» (معالم السنن للخطابي) .

(248/776)

يصدنكم ، قال : ومنا رجال يخطون ، قال : كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك ، قال : وكانت لي جارية ترعى غنما قبل أحد والجوانية ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم ، آسف كما يأسفون ، لكني صككتها صكّة ، فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعظم ذلك عليّ ، فقلت : يا رسول الله ، أفلا أعتقها ؟ قال : ائتني بها ، فأتيته بها : فقال لها أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : رسول الله ، قال أعتقها فإنّها مؤمنة . وخرّجه أبو داود

قريبا منه ، ذكره في باب تشميت العاطس [في الصلاة] وفيه ، قلت : يا رسول الله ، إنا حديث عهد بجاهلية وقد جاءنا الله بالإسلام ، ومنا رجال يأتون الكهان ، قال : فلا تأتونهم . وقال : فلا يصدنهم ، وقال فيه ، قلت : جارية لي كانت ترعي غنيمات قبل أحد والجوانية ، إذا طلعت عليها إطلاعة . . . الحديث [1] .

---

[1] وفي هذا الحديث من الفقه أن الكلام ناسيا في الصلاة لا يفسد الصلاة وذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلّم علّمه أحكام الصلاة وتحريم الكلام فيها ثم لم يأمره بإعادة الصلاة التي صلاها معه وقد كان تكلم بما تكلم به ، ولا فرق بين من تكلم جاهلا بتحريم الكلام عليه وبين من تكلم ناسيا لصلاته في أنّ كل واحد منهما قد تكلم ، والكلام مباح له عند نفسه . وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ، فمن قال يبني على صلاته إذا تكلم ناسيا أو جاهلا الشعبي والأوزاعي ومالك والشافعيّ وقال النخعي وحماد بن أبي سليمان وأصحاب الرأي : إذا تكلم ناسيا استقبل الصلاة ، وفرق أصحاب الرأي بين أن يتكلم ناسيا وبين أن يسلم ناسيا ، فلم يوجبوا عليه الإعادة في السلام كما أوجبوها عليه في الكلام .

وقال الأوزاعي : من تكلم في صلاته عامدا بشيء يريد به إصلاح صلاته لم تبطل صلاته ، وقال في رجل صلّى العصر فجهر بالقرآن ، فقال رجل من ورائه إنها العصر ، لم تبطل صلاته ، وفي الحديث دليل على أن المصلي إذا عطس فشمته رجل فإنه لا يجيبه .

واختلفوا إذا عطس وهو في الصلاة هل يحمد الله ؟ فقالت طائفة : يحمد الله .

روي عن ابن عمر أنه قال العاطس في الصلاة يجهر بالحمد ، وكذلك قال النخعي وأحمد بن حنبل :

وهو مذهب الشافعيّ إلا أنه يستحب أن يكون ذلك في نفسه .

وقوله «يصمتوني» ومثله يسكتوني : معناه يطلبون منى أن أسكت ، وقد حذف نون الرفع وقرئ كما في قوله تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ 39 : 64 بنون واحدة مخففة .

وقوله في الطيرة «ذلك شيء يجدونه في صدورهم» يريد أن ذلك شيء يوجد في النفوس البشرية وما يعتري الإنسان من قبل الظنون والأوهام من غير أن يكون له تأثير من جهة الطباع أو يكون فيه ضرر كما كان زعمه أهل الجاهلية .

وقوله : «ومنا رجال يخطون» فإن الخط عند العرب فيما فسره ابن الأعرابي أن يأتي الرجل العرّاف

(249/776)

وخرّجه النّسائي أيضا وفي حديث لأبي داود من طريق فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمي قال : لما قدمت على رسول الله صلّى الله عليه

وسلّم علمني أمورا من أمور الإسلام ، فكان فيما علّمت : أن قيل لي : إذا عطست فاحمد الله ، وإذا عطس العاطس فحمد الله فقل : يرحمك الله ، قال : فبينما أنا قائم مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصلاة ، إذا عطس رجل فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله – رافعا بها صوتي – فرماني الناس بأبصارهم حتى احتملني ذلك ، فقلت : ما لكم تنظرون إلى بأعين شزر ؟ قال : فسبّحوا ، فلما قضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاته قال :

من المتكلم ؟ قيل : هذا الأعرابي ، فدعاني رسول الله ، فقال : إنما الصلاة لقراءة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإذا كنت في الصلاة فليكن ذلك شأنك ، فما رأيت معلما قط أرفق من رسول الله . وخرّج البخاري ومسلم والنسائي من حديث إسماعيل بن إبراهيم بن عليه قال :

حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن مالك بن الحويرث قال : أتينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رحيما رفيقا ، فظن أنّا قد اشتقنا إلى أهلنا فسألنا عن من تركنا من أهلنا فأخبرناه ، فقال : ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم ، وعلموهم وبروهم ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم ، اللفظ لمسلم .

ولفظ البخاري : عن أبي قلابة عن أبي سليمان مالك بن الحويرث قال : أتينا

[()] وبين يديه غلام فيأمره بأن يخط في الرمل خطوطا كثيرة وهو يقول : ابني عيان أسرعا البيان ، ثم يأمره أن يمحو منها اثنين اثنين ، ثم ينظر إلى آخر ما بقي من تلك الخطوط ، فإن كان الباقي منها زوجا فهو دليل الفلح والظفر . وإن كان فردا فهو دليل الخيبة واليأس .

وقوله : «فمن وافق خطه» فذلك يشبه أن يكون أراد به الزجر عنه وترك التعاطي له إذا كانوا لا يصادفون معنى خط ذلك النبي لأنه خطه كان علما لنبوته» وقد انقطعت نبوته فذهبت معالمها .

قوله : «آسف كما يأسفون» معناه : أغضب كما يغضبون ، ومن هذا قوله تعالى : فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ 43 : 55 .

وأما قول النبي صلّى الله عليه وسلّم : أعتقها فإنّها مؤمنة ، ولم يكن ظهر له من إيمانها أكثر من قوله حين سألها :

أين الله ، فقالت : في السماء وسألها : من أنا فقالت : رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

فإن هذا السؤال عن أمارة الإيمان ، وسمة أهله ، وليس بسؤال عن أصل الإيمان وصفته وحقيقته ، ولو أن كافرا يريد الانتقال من الكفر إلى دين الإسلام فوصف من الإيمان هذا القدر الّذي تكلمت به الجارية لم يصر به مسلما حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويتبرأ من دينه الّذي كان يعتقده . (معالم السنن) .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا إلى أهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلينا ، فأخبرناه – وكان رفيقا رحيما – فقال : ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم وبروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم . ذكره في كتاب الأدب في باب رحمة الناس .

وأخرجاه أيضا من حديث عبد الوهاب الثقفي وحماد بن زيد عن أيوب قال :

قال لي أبو قلابة : يا مالك بن الحويرث أبو سليمان ، قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وناس ونحن شببة متقاربون ، وأقمنا جميعا . . الحديث بنحو حديث ابن علية .

وذكره البخاري أيضا في باب ما جاء في إجازة خبر الواحد ، من حديث عبد الوهاب ، وذكره في كتاب الصلاة في باب إذا استووا في القراءة فليؤمهم أكبرهم من حديث حماد بن زيد عن أيوب ، وذكره في باب من قال : ليؤذن في السفر مؤذن واحد من حديث وهيب عن أيوب .

وأخرجاه من حديث خالد الحذّاء عن أبي قلابة ، وذكره البخاري في باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة ، وذكره في باب اثنان فما فوقهما جماعة مختصرا . وخرّج ابن حبان والبخاري في الأدب المفرد من طريق أبي نعيم ، حدثنا ابن الغسيل عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد قال : لما أن أصيب أكحلي بعد يوم الخندق وثقل ، حولوه عند امرأة يقال لها

رفيدة – وكانت تداوي الجرحى – فكان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا مرّ به يقول : كيف أمسيت ؟ وإذا أصبح يقول : كيف أصبحت ؟ فيخبره . وخرّج الحاكم من حديث شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عليّ قال : قدم على النبي صلّى الله عليه وسلّم سبى فأمرني ببيع أخوين فبعتهما وفرّقت بينهما ثم أتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته فقال : أدركهما فارتجعهما وبعهما جميعا ولا تفرق بينهما . قال الحاكم : هذا حديث غريب صحيح على شرط الشيخين .

وخرج ابن حبان من حديث يحيى بن أبي بكير العبديّ قال : حدثنا عباد ابن كثير عن ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا فقد الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائبا عاله ، وإن كان شاهده زاره ، وإن كان مريضا

عاده .

وبلغ من مداراة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ، بل حملهم على مرّ الحق ، وجاد بأن وداه بمائة من الإبل وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد .

وخرّج مسلم من حديث مالك قال : حدثني أبو ليلي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل عن سهل عن أبي خنتمة أنه أخبر عن رجال من كبراء قومه أن عبد الله بن سهل ومحيصة خرجا إلى خيبر من جهد أصابهم ، فأتي محيصة فأخبر أن عبد الله بن سهل قد قتل وطرح في فقير أو عين ، فأتي يهود فقال : أنتم والله قتلتموه ، قالوا : والله ما قتلناه ، فأقبل حتى قدم على قوم وذكر لهم ذلك ، ثم أقبل هو وأخوه حويصة – وهو أكبر منه – وعبد الرحمن بن سهل ، فذهب محيصة ليتكلم – وهو الّذي بخيبر – فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمحيصة : كبّر كبّر (يريد السن) فتكلم حويصة ثم تكلم محيصة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أما أن تدوا [1] صاحبكم وإما أن تؤذنوا بحرب ، فكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك ، فكتبوا : إنا والله ما قتلناه ، فقال رسول الله لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن : أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم ، قالوا : لا ، قال : فتحلف لكم يهود ؟ قالوا : ليسوا بمسلمين . فوداه [2] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من عنده فبعث إليهم مائة ناقة حتى أدخلت الدار ، فقال سهل : فقد ركضتني منها ناقة حمراء . وخرّجه في كتاب الأحكام ، ولم يقل حمراء . وخرّجه أبو داود في باب القتل بالقسامة [3] . وخرّجه النسائي في كتاب الأحكام وفي القسامة [3] . وكان من حسن مداراته صلّى الله عليه وسلّم أن لا يذم طعاما ولا ينه خادما كما تقدم بطرقه .

وخرّج الحاكم من حديث يزيد بن هارون : أخبرنا جرير بن حازم قال : سمعت محمد بن

عبد الله بن عبد الله بن أبي يعقوب يحدث عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في إحدى صلاتي النهار – الظهر أو العصر –

---

[1] أي تدفعوا ديته لأوليائه .

[2] وداه : دفع ديته .

[3] القسامة : – بفتح قاف وتخفيف سين مهملة – مأخوذة من القسم ، وهي اليمين ، وهي في عرف الشرع حلف يكون عند التهمة بالقتل ، أو هي مأخوذة من قسمة الأيمان على الحالفين (سنن النسائي بحاشية السندي وشرح السيوطي) ، ج 8 ص 2 . كتاب القسامة .

(252/776)

وهو حامل الحسن ، فتقدم فوضعه عند قدمه اليمني ، فسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سجدة أطالها ، فرفعت رأسي فإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساجد ، وإذا الغلام راكب ظهره ، فعدت فسجدت ، فلما انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال ناس : يا رسول الله ! لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها ، أشيء أمرت به أو كان يوحي إليك ؟ فقال : كل ذلك لم يكن ، ابني ارتحلني فكرهت أن أعلجه

حتى يقضي حاجته [1] .

وأما اشتراطه على ربه أن يجعل سبه لمن سب من أمته أجرا

فخرّج البخاري من كتاب الدعاء من حديث يونس عن ابن شهاب : أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول : اللَّهمّ فأيّما مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة [2] . وخرّج مسلم بنحوه وقال فأيما عبد . وله من حديث ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال : حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : اللَّهمّ إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه ، فأيّما مؤمن سببته أو جلدته فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة [3] . وله من حديث جرير عن الأعمش عن أبي الضحي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو ، فأغضباه فلعنهما وسبّهما ، فلما خرجا قلت : يا رسول الله ! من [4] أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان ؟ قال وما ذاك ؟ قلت : لعنتهما وسببتهما ! قال : أو ما علمت ما شارطت [5] عليه ربي قلت : اللَّهمّ إنما أنا بشر [فأيّما أجد من] [6] المسلمين لعنته أو سببته ، فاجعله له زكاة وأجرا .

---

[1] (المستدرك للحاكم) ج 3 ص 166 باختلاف يسير وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

[2] (صحيح البخاري) ج4 ص 107 .

[3] (مسلم بشرح النووي) ج16 ص 153 .

[4] في (خ) «لمن» وما أثبتناه من رواية (مسلم) .

[5] في (خ) «شرطت» وما أثبتناه من رواية (مسلم) .

[6] كذا في (خ) ورواية مسلم : «فأيّ المسلمين» .

وخرّجه من حديث علي بن حجر السعدي وإسحاق بن إبراهيم وعلي ابن خشرم عن عيسى بن يونس عن الأعمش بهذا الإسناد نحو حديث جرير وقال فيه : فخلوا به فسبّهما ولعنهما وأخرجهما [1] . وله من حديث عبد الله بن نمير قال : حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اللَّهمّ إنما أنا بشر ، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة [1] . وخرّجه البخاري من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مثله ، إلا أن فيه : زكاة وأجرا . وله من حديث المغيرة عن عبد الرحمن الحزامي عن أبي الزناد [2] عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : اللَّهمّ إني اتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه ،

فإنما أنا بشر ، فأي المؤمنين آذيته ، شتمته ، لعنته ، جلدته ، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة [3] . وله من حديث الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن سالم مولى النصريين قال :

سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : اللَّهمّ إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر ، وإني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه ، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته ، فاجعلها له كفّارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة [4] . وله من حديث جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه [يقول] [5] : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : إنما أنا بشر ، وإني اشترطت على ربي عز وجل أيّ عبد من المسلمين سببته أو شتمته أن يكون ذلك له زكاة وأجرا . وخرّج مسلم أيضا من حديث عكرمة بن عمّار قال : أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة قال : حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كانت عند

---

[1] المرجع السابق 151 .

[2] في (خ) «أبي الدرداء» وما أثبتناه من رواية مسلم .

[3] المرجع السابق ص 153 .

[4] (مسلم بشرح النووي) ج 16 ص 153 .

[5] زيادة من المرجع السابق .

أم سليم يتيمة – وهي أم أنس – فرأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اليتيمة فقال : أأنت هيه [1] ، لقد كبرت لا كبر سنّك ، فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي ، فقالت أم سليم : ما لك يا منيّمة ؟ قالت الجارية : دعا [2] عليّ نبي الله ألا يكبر سني ! فالآن لا يكبر سني أبدا ، أو قالت : قرني ، فجرت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها حتى لقيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال لها : ما لك يا أم سليم ؟ فقالت : يا نبي الله ؟ أدعوت علي يتيمتي ؟ قال : وما ذاك يا أم سليم ؟ قالت : زعمت أنك دعوت عليها أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها ، قال [3] : فضحك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم قال : يا أم سليم ، أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت : إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر : فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها [4] له طهورا وزكاة وقربة يقربها [5] بها يوم القيامة . انفرد بإخراجه مسلم [6] .

وخرّج الإمام أحمد [7] من حديث ابن أبي ذؤيب قال : حدثني محمد بن عمر ابن عطاء عن ذكوان مولى عائشة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على النبي صلّى الله

عليه وسلّم بأسير فلهوت عنه فذهب : فجاء النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما فعل الأسير ؟

قالت : لهوت عنه مع النسوة فخرج ، فقال : ما لك ؟ قطع الله يدك ! فخرج فأذن به الناس فطلبوه ، فجاء به فدخل عليّ وأنا أقلب يدي فقال : أجننت ! قلت :

دعوت عليّ فأنا أقلب يدي انظر أيهما يقطعان ، فحمد الله وأثنى عليه ثم رفع يديه مدا وقال : اللَّهمّ إني بشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعله له زكاة وطهورا . وله من حديث محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة أن عائشة قالت : إن أمداد

---

[1] بفتح الباء وإسكان الهاء وهي هاء السكت .

[2] في (خ) «وهي» .

[3] في (خ) «قالت» .

[4] في (خ) «تجعلها» .

[5] في (خ) «نقربه» .

[6] (مسلم بشرح النووي) ج 16 ص 154 ، 155 ، انظر أيضا : (سنن أبي داود) ج 5 ص 45 ، 46 حديث رقم 4659 وفيه : «أيما رجل من أمتي سببته أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين فأجعلها عليهم

صلاة يوم القيامة» .

[7] (مسند أحمد ابن حنبل) ج2 ص 390 ، 488 ، 496 ، ج3 ص 333 ، 384 ، 391 ، 400 ، ج5 ص 437 ، 439 ، ج6 ص 45 .

(255/776)

العرب كثروا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وقام إليه المهاجرون يعرجون عنه حتى قام على عتبة عائشة فرهقوه فأسلم رداءه في أيديهم ووثب عن العتبة فدخل فقال : اللَّهمّ العنهم ، فقالت عائشة : يا رسول الله ! هلك القوم ، فقال : كلا والله : يا بنت أبي بكر ، لقد شرطت على ربي شرطا لا خلف له فقلت : إنما أنا بشر : أضيق بما يضيق به البشر : فأي المؤمنين بدرت إليه مني بادرة فاجعلها له كفارة .

وأما مزاحه وملاعبته

فخرّج الترمذي من حديث عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا ، قال : إني لا أقول إلا حقا [1] . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وخرّج أبو داود [2] والترمذي [3] والبخاري [4] في الأدب المفرد من حديث خالد عن

حميد عن أنس رضي الله عنه أن رجلا أتي النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال يا رسول الله احملني ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنا حاملوك على ولد ناقة ، قال : وما أصنع بولد ناقة ؟ فقال : النبي صلّى الله عليه وسلّم : وهل تلد الإبل إلا النّوق ؟ . وخرّج أبو داود من حديث يونس عن أبي إسحاق عن العيزار بن حريث عن النعمان بن بشير قال : استأذن أبو بكر رضي الله عنه على النبي صلّى الله عليه وسلّم فسمع صوت عائشة – رضي الله عنه – عاليا ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال : ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ، فجعل النبي صلّى الله عليه وسلّم يحجزه ، وخرج أبو بكر مغضبا ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم حين خرج أبو بكر : كيف رأيتني أنقذتك من الرجل ؟ قال : فمكث أبو بكر رضي الله عنه أياما ، ثم استأذن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوجدهما قد اصطلحا :

فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : قد فعلنا قد فعلنا [5] .

---

[1] (الشمائل المحمدية) ص 120 ولفظه «قال : نعم . غير أني لا أقول إلا حقا» . (سنن الترمذي) ج 3 ص 241 باب ما جاء في المزاح حديث رقم 2058 ، ومعني قوله : «إنك تداعبنا» إنما يعنون أنك تمازحنا .

[2] (سنن أبي داود) ج 5 ص 270 حديث رقم 4998 .

[3] (سنن الترمذي) ج 3 ص 241 حديث رقم 2060 (الشمائل المحمدية) ص 120.

[4] (الأدب المفرد) ج 1 ص 359 حديث رقم 268.

[5] (سنن أبي داود) ج 5 ص 271 حديث رقم 4999.

وله من حديث بشر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولانيّ عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فسلمت فردّ وقال: أدخل، فقلت: أكلّي يا رسول؟ قال: كلّك، فدخلت، قال عثمان ابن أبي العاتكة، إنما قال أدخل كلى من صغر القبّة [1].

وخرّج أبو داود والترمذي من حديث شريك عن عاصم عن أنس قال: ربما قال لي النبي صلّى الله عليه وسلّم: يا ذا الأذنين، يمازحه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب [2].

وله من حديث المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت: يا رسول الله، أدع الله أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها

عجوز ، قال : فولّت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله يقول : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا 56 : 35 - 37 [3] . وخرّج عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا أو حزام بن حجال : وكان يهدى إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم الهدية من البادية فيجهزه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن يخرج ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم إن زاهرا بادينا [4] ونحن حاضروه [5] ، قال : وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يحبه وكان رجلا دميما [6] : فأتاه النبي صلّى الله عليه وسلّم يوما وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ! فالتفت فعرف النبي صلّى الله عليه وسلّم فجعل لا يألو [7] ما ألصق ظهره بصدر النبي صلّى الله عليه وسلّم حين عرفه : وجعل النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول : من يشتري العبد ؟ فقال : يا رسول الله ! إذن والله تجدني كاسدا ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : لكن عند الله لست بكاسد ، أو قال :

---

[1] (سنن أبي داود) ج 5 ص 272 حديث رقم 5000 ، 5001 .

[2] (سنن أبي داود) ج 5 ص 272 حديث رقم 5002 .

[3] (الشمائل المحمدية) ص 121 ، 122 ، والآيات 35 ، 36 ، 37 من سورة الواقعة ، وقيل إن هذه العجوز هي صفية بنت عبد المطلب .

[4] أي : نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته ، والبادي : هو المقيم بالبادية .

[5] أي حاضرو المدينة له ، وهذا من حسن المعاملة تعليما لأمته في متابعة هذه المجاملة .

[6] أي قبيح الصورة مع كونه مليح السيرة .

[7] أي لا يقصر .

(257/776)

لكن عند الله أنت غال . وخرّج أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج الأندلسي في كتابه في تسمية من روي عن مالك بن أنس من حديث عبد الله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : مازح النبي صلّى الله عليه وسلّم رجلا فقال :

ضرب الله عنقك ، فقال : في سبيله يا رسول الله ! قال في سبيله . وخرّج الإمام أحمد من حديث سفيان عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : سابقني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسبقته ، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني فقال : هذه بتيك [1] .

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبي حفص المعيطي قال : حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت مع النبي صلّى الله عليه وسلّم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : تقدموا فتقدموا ثم قال : تعالي حتى أسابقك

فسابقته فسبقته ، فسكت عني حتى حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره ، فقال للناس تقدموا فقدموا ، فقال تعالي حتى أسابقك ، فسابقته فسبقني ، فجعل يضحك ، وهو يقول هذه بتلك [1] . وخرّج أبو بكر الشافعيّ من حديث يحيى بن سعيد القطان عن الصلت ابن الحجاج عن عاصم الأحوال عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لعائشة رضي الله عنها ذات يوم : ما أكثر بياض عينيك ! وله من حديث ابن المبارك قال : حدثنا حميد الطويل عن ابن أبي الورد عن أبيه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم رآه ، قال : فرأى رجلا أحمر فقال : أنت أبو الورد ؟ ولأبي بكر بن أبي شيبة من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدلع لسانه للحسن بن علي ، فيرى الصّبيّ حمرة لسانه فيهش إليه .

ولابن حبان من حديث ابن لهيعة عن عبد الله بن المغيرة قال : سمعت عبد

---

[1] (مسند أحمد) ج6 ص 39 ، 129 ، 182 ، 261 ، وأخرجه ابن ماجة في النكاح باب حسن معاشرة النساء ، ونسبه النسائي للمنذري ، وأبو داود في سننه ج 3 ص 65 باب في السبق على الرّجل حديث رقم 2578 .

الله بن يزيد قال : حدثنا إسماعيل بن أبي داود عن طفيل بن سنان عن عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إني لأمزح ولا أقول إلا حقا . وقال صلّى الله عليه وسلّم للصبي : يا أبا عمير ! ما فعل النغير ؟ وقال شعبة : حدثني علي بن عاصم عن خالد الحذّاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت في النبي صلّى الله عليه وسلّم دعابة .

وقال ابن لهيعة عن عمارة بن غزية عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس قال : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم من أفكه الناس .

وقال خالد الحذاء عن أبي قلابة عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان مزّاحا : وكان يقول : إن الله لا يؤاخذ المزّاح الصادق في مزاحه . وقال وهب بن جرير عن أبيه قال : سمعت زيد بن أسلم يحدث أنّ خوّات ابن جبير قال [1] : نزلت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّ [2] الظهران فخرجت من خبائي ، فإذا نسوة يتحدثن فأعجبنني ، فرجعت فأخرجت حلّة لي من عيبتي فلبستها ثم جلست إليهن فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من قبته فقال [3] : أبا عبد الله ! ما يجلسك إليهن ؟ قال : فقلت يا رسول الله : جمل لي شرود أبتغي له قيدا : فمضى رسول الله وتبعته : فألقى رداءه [4] ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال :

يا أبا عبد الله ! ما فعل شراد جملك ؟ ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقني في المنزل إلا قال : السلام عليكم أبا عبد الله : ما فعل شراد جملك ؟ قال : فتعجلنا إلى المدينة فاجتنبت [5] المسجد ومجالسة رسول الله ، فلما طال ذلك عليّ تحينت ساعة خلوة [6] ، فجعلت أصلّى ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بعض حجره ، فجاء فصلّى ركعتين خفيفتين ثم جلس ، وطوّلت رجاء أن يذهب ويدعني ، فقال طوّل يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائم حتى تنصرف ، فقلت والله لأعتذرن إلى رسول

---

[1] (النهاية لابن الأثير) ج 2 ص 457 ، 458 .

[2] كذا في (خ) ، وفي (النهاية) «بمر الظهران» .

[3] في (النهاية) «فمرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهبته ، فقلت : يا رسول الله جمل لي شرود وأنا أبتغي له قيدا» .

[4] في (النهاية) «ما ألقى إليّ رادءه» .

[5] في (النهاية) «فتعجلت إلى المدينة واحتفيت المسجد» .

[6] في (النهاية) «خلوة المسجد ثم أتيت المسجد فجعلت أصلي» .

الله [1] ، فانصرفت ، فقال : السلام عليكم يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد الجمل ؟ فقلت : والّذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت ، فقال : رحمك الله مرتين أو ثلاثا : ثم أمسك عني فلم يعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إمتاع الأسماع حـ 2 صـ 186 . 257﴾

---

[1] في (النهاية) «إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولأبرئن صدره» .

(260/776)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/777)

الجزء السابع والسبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 8 ﴾ من سورة (القلم)

وحتى الآية ﴿ 47 ﴾ من السورة

(4/777)

قوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من طبع البشر أن الحليم منهم الرزين إذا اشتد عليه الأذى ممن لم تجر العادة بأن مثله يطيق مثلهم قاربهم ولا يتهم فيما الخلاف بسببه بعض المقاربة ، وكان سبب تلك المقاربة إنما هو عدم علمه بالعواقب ، سبب سبحانه ما مضى من إعلامه بحقائق الأمور وكشفه لمستورها قوله إلهاباً وتهييجاً على الثبات على معاصاتهم إعلاماً للضال بأماراته ليعلم المهتدي لأن الأمور تعلم بأضدادها .

وهو خطاب له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد أمته ليكون ذلك أبلغ في سماعهم : ﴿ فلا تطع ﴾ أي أيها المأمور بإنقاذهم من غوائل أهوائهم وأشراك أهلاكهم ﴿ المكذبين ﴾ أي العريقين في التكذيب ، قال الملوي : ولا يخفى أن كل كفر ظهر وكل ضلالة ظهرت ، وكل بدعة وكل شر إنما كان سببه إفساد القوة العلمية والنطقية ، وهو يكون بالتكذيب ، ثم علل ذلك بما يكون مجموعه على وقوعه منهم من مدة طويلة وهم مستمرون عليه بقوله :

﴿ ودوا ﴾ أي أحبوا محبة عظيمة واسعة متجاوزة للحد قديماً مع الاستمرار على ذلك وأكد تهالكهم على هذه الودادة بما يفهم التمني وإن ذلك مستمر منهم لا أنه وقع ومضى ، فقال مشيراً إلى إفسادهم القوة النطقية وخلق الشجاعة الغريزية : ﴿ لو تدهن ﴾ أي تلاين فتوافق على بعض ما يريدون فتهادنهم على ترك نهيهم عن الشرك وترك التعرض لسب

آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم ؛ قال ابن برجان : والأدهان ملاينة وانجرار بالباطل وإغماض عن الحق مع المعرفة بذلك – انتهى .

وهو من الدهن لأنه يلين ما يدهن به .

(5/777)

ولما كان من طبعهم أنهم كانوا يلينون له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض الأوقات خداعاً كما قيل في سبب نزول " الكافرون " من أنهم قالوا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تعالى فلنصطلح على أن نعبد إلهك سنه وتعبد آلهتنا سنة ، ونحو هذا من الأباطيل حتى أنهم سجدوا وراءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما تلا عليهم سورة النجم فسجد فيها فسجد وراءه الكفار والمؤمنون والجن والإنس حتى سمع المهاجرون إلى الحبشة وهم بالحبشة فرجع بعضهم ظناً منهم أنهم قد أسلموا فوجدوهم على أخبث ما كانوا عليه أولاً ، قال سبحانه معرفاً بأن ذلك منهم خداع : ﴿ فيدهنون ﴾ أي فبسبب ودادتهم أنك تدهن هم يدهنون ، فهو عطف على " ودوا " لا جواب " لو " لأجل تنبيهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن لينهم إنما هو خداع لم يرد به غير الفساد ، وقد أخروا الإدهان وإن كانوا قديماً في وداده طمعاً في أن

تبدأ به فيظهروه حينئذ ، قال القشيري : من أصبح عليلاً تمنى أن يكون الناس كلهم مرضى .

(6/777)

ولما نهاه عن طاعة المكذب وعلله ، وكان من الناس من يخفي تكذيبه ، قال ناصباً علامات المكذب : ﴿ ولا تطع ﴾ أي في وقت من الأوقات منهم ولا من غيرهم ﴿ كل حلاف ﴾ أي مبالغ في الاجتراء على الأيمان وإن لم يظهر لك تكذيبه ، وليس المراد النهي عن العموم بل عموم النهي ، أي انته عن كل حلاف فالنهي أصل والكل وارد عليه ، كما تقدم تخريج مثله في آخر البقرة في قوله تعالى ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ [البقرة : 276] وهذه الأوصاف متفرخة من الكذب وخبث السجية ، فهي كالتفصيل ، فكثرة الحلف دالة على فساد القوة العلمية فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق ، فصار صاحبها لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، فلذلك يحلف صادقاً وكاذباً كيفما اتفق ﴿ مهين ﴾ أي حقير ضعيف سافل الهمة والمروءة سافل الرأي ، لأن الإنسان لا يكثر الحلف إلا وهو يتصور في نفسه أنه لا يصدق إلا بذلك ، لأنه ليس له من المهابة عند من يحدثه والجلالة ما يصدقه بسببه ، وهو مؤثر للبطالة لما فيها من موافقة طبعه ، وذلك هو الحقارة الكبرى .

ولما كان كل من اتصف بصفة ، أحب أن يشاركه الناس فيها أو يقاربوه لا سيما إن كانت تلك الصفة دنية ليسلم من العيب أو الانفراد به ولأن الشيء لما داناه ألف قال : ﴿ همازٍ ﴾ أي كثير العيب للناس في غيبتهم ، وقال الحسن : هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ، أي لأن الهمز العض والعصر والدفع – من المهماز الذي يطعن به في بطون الدواب ، وهو مخصوص بالغيبة كما أن اللمز مخصوص بالمواجهة .

ولما كانت النميمة – وهي نقل الحديث على وجه السعاية – أشد الهمز أفاد أنه يفعله ولا يقتصر على مجرد النقل بل يسعى به إلى غيره وإن بعد فقال تعالى : ﴿ مشاء ﴾ أي كثير المشي ﴿ بنميم ﴾ أي ينقل ما قاله الإنسان في آخر وأذاعه سراً ، لا يريد صاحبه إظهاره على وجه الإفساد للبين مبالغ في ذلك بغاية جهده .

(7/777)

ولما كان من كان هكذا يريد إعلاء نفسه بهضم الناس ، وكان المنع لإرادة الاستئثار بالممنوع ليكون الغير محتاجاً إليه وعاكفاً عليه لأن من طبعه أنه لا يرتبط إلا طمعاً لا شكراً بضد الجواد ، فإنه يرفع نفسه عن المطامع ، ولا يرتبط إلا شكراً على الصنائع فيجود ظناً منه أن الناس كذلك ، قال : ﴿ مناع ﴾ أي كثير المنع شديده ﴿ للخير ﴾ أي كل خير من

المال والإيمان وغيرهما من نفسه ومن غيره من الدين والدنيا - إلى غير ذلك .

ولما كان من يفعل هذه المخازي من الناس ويقتصر في الهمز والنم على الواقع ، وفي المنع على ما له منعه - لئيماً ، بين أنه لا يقنع بذلك ، بل زاد عليه ببذل الجهد فيما يصير به ألأم فقال : ﴿ معتد ﴾ أي ثابت التجاوز للحدود في كل ذلك ﴿ أثيم ﴾ أي مبالغ في ارتكاب ما يوجب الإثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث ويرغب في المعاصي ويتطلبها ، ويدع الطاعات ويزهد فيها .

(8/777)

ولما كان كل من يتصف بهذه الدنايا التي من شأنها إبعاد الناس عنه ونفرتهم منه يسعى في سترها إن كان عاقلاً بلين وتواضع وخداع وسهولة انقياد ، بين أن هذا على غير ذلك فقال منبهاً على هذا بالبعدية : ﴿ عتل ﴾ أي أكول شديد الخصومة جاف غليظ في خلقه وخلقه ثقيل مر ، كأنه قطعة جبل قد انقطع عن سائره لا ينجر إلى خير إلا بعسر وصعوبة وعنف ، من عتله - إذا قاده بغلظة ، فهو في غاية ما يكون من يبس الطباع وعدم الطواعية في الخير والانطباع ، قال الرازي : وسئل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ - أي عن العتل - فقال : " هو الشديد الخلق الرحيب الجوف الأكول الشروب الظلوم " ونبه سبحانه

على ثباته في تلك المخازي الموجب لاستغراق أوقاته وأحواله بها بنزع الخافض فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ الخلق الجدير بتكلف الإبعاد عنه الذي تجمع من هذه الأوصاف التي بلغت نهاية القباحة حتى صارت كأنها خلق واحد ثابت راسخ لا حيلة له في مداواته ، وعلى ذلك نبه قوله : ﴿ زنيم ﴾ أي صارت له علامة سوء وشر وثناء قبيح ولأمة بينة ومعرفة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها .

(9/777)

وهي الجلدة التي تكون تحت حلقها مدلاة تنوس ، والعبد بمعايبه وسفساف أخلاقه ، وقيل : هو الذي يتشبه بقوم وليس منهم في شيء ، ولا يخلو التعبير به من إشارة إلى أنه دعي ليس ثابت النسب إلى من ينتسب إليه ، ليكون منقطعاً عن كل خير وإن كان ينسب إلى آباء كرام ، أخذاً من زنمة البعير ، وهي جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة ، ولا يفعل ذلك إلا بكرام الإبل ، وهذه الأفعال كلها تنافي الشجاعة المقتضية لإحسان صاحبها إلى كل أحد وأن لا يحسب له حساباً ولا يوصل إليه أذى إلا بعد ظهور شره فيعامله حينئذ بحسب العدل بما لا يرزىء بالمروءة والمشار إليه بهذا مع إرادة العموم قيل : الوليد بن المغيرة ، وقيل : الأخنس

بن شريق ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، وقال ابن قتيبة : لا نعلم أن الله تعالى وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة .

(10/777)

ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضاً فانياً وظلاً متقلصاً زائلاً ، لا يفتخر به بل ولا يلتفت إليه إلا من كان بهذه الأوصاف ، فإذا كان أكبر همه ومبلغ علمه أثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال : ﴿ أن ﴾ أي لأجل أن ﴿ كان ﴾ هذا الموصوف ﴿ ذا مال ﴾ أي مذكور بالكثرة ﴿ وبنين ﴾ أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لأجلهما ، فكان بحيث يجب عليه شكرنا بسببهما ﴿ إذا تتلى ﴾ أي تذكر على سبيل المتابعة ﴿ عليه ﴾ ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له ﴿ آياتنا ﴾ أي العلامات الدالة دلالة في غاية الظهور على الملك الأعلى وعلى ما له من صفات العظمة ﴿ قال ﴾ أي فاجأ هذا القول من غير تأمل ولا توقف عوضاً عن الشكر ، ف " إن " مع جاره متعلق بما دل عليه الكلام نحو كذب لأجل كونه متمكناً ، ولا يتعلق بقال لأنه جزاء الشرط ، ويجوز أن يتعلق بلا تطع أي لا توجد طاعته لأجل إن كان كذا ، وقرىء بالكسر على أنها شرطية ، فيكون النهي عن طاعته لعلة الغنى مفهماً للنهي عن طاعته عند الوصف بغيره من باب الأولى كالتعليل بإملاق في

الوأد : ﴿ أساطير ﴾ جمع سطور جمع سطر ﴿ الأولين ﴾ أي أشياء سطروها ودونوها ، وفرغوا منها فحمله دنيء طبعه على تكبره بالمال فورطه في التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من يسمعه ، فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر ، فكان هذا دليلاً على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالإسناد إلى ما هو عند العاقل أوهم وأوهى من بيت العنكبوت ، والاستناد إليه وحده كاف في الاتصاف بالرسوخ في الدناءة ، ولا يعمل في " أن قال " بل ما دل عليه لأن ما في حيز الشرط لا يعمل فيما قبله .

(11/777)

ولما كان هذا المكذور قد أغرق في الشر فتوقع السامع جزاءه ، قال معلماً أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة : ﴿ سنسمه ﴾ أي نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره ، تقول العرب : وسمه ميسم سوء .

ولما كان الوسم منكئاً ، وكان جعله في موضع لا يستر أنكأ ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان ، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه

الأنفة قال : ﴿ على الخرطوم ﴾ أي الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين وسماً مستعلياً عليه بوضوح جداً ليكون هتكة بين الناس وفضيحة لقومه وذلاً وعاراً ، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع والذنب القبيح من الكفر وما معه ، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا على أنه قد حقق في الدنيا هذا الخطم حساً بأنه ضرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه – قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، والتعبير عن الأنف بهذا للاستهانة والاستخفاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 100 . 103 ﴾

(12/777)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق ، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ يعني رؤساء أهل مكة ، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم ،

وهذا من الله إلهاب وتهييج التشدد في مخالفتهم .

ثم قال :

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الليث : الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام ، قال المبرد : داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر ، والمعنى تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى فتلين لهم ويلينون لك ، وروى عطاء عن ابن عباس : لو تكفر فيكفرون .

المسألة الثانية :

إنما رفع ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني لأنه قد عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون كقوله : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ [الجن : 13] على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ ، قال سيبويه : وزعم هارون وكان من القراء أنها في بعض المصاحف : (ودوا لو تدهن فيدهنوا) .

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين ، وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفاً بصفات مذمومة وراء الكفر ، وتلك

الصفات هي هذه :

الصفة الأولى : كونه حلافاً ، والحلاف من كان كثير الحلف في الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لأيمانكم ﴾ [البقرة : 224] .

(13/777)

الصفة الثانية : كونه مهيناً ، قال الزجاج : هو فعيل من المهانة ، ثم فيه وجهان أحدهما : أن المهانة هي القلة والحقارة في الرأي والتمييز والثاني : أنه إنما كان مهيناً لأن المراد الحلاف في الكذب ، والكذاب حقير عند الناس .

وأقول : كونه حلافاً يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله ، إذ لو عرف ذلك لما أقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته ومن لم يكن عالماً بعظمة الله وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهيناً ، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية ، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية .

الصفة الثالثة : كونه هماز وهو العياب الطعان ، قال المبرد : هو الذي يهمز الناس أي يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب ، وعن الحسن يلوي شدقيه في أقفية الناس وقد

استقصينا (القول) فيه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1].

الصفة الرابعة: كونه مشاء بنميم أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نم ينم وينم نماً ونميماً ونميمة.

الصفة الخامسة: كونه مناعاً للخير وفيه قولان: أحدهما: أن المراد أنه بخيل والخير المال والثاني: كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام، وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبداً فمنعهم الإسلام فهو الخير الذي منعهم، وعن ابن عباس أنه أبو جهل وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدي: الأخنس بن شريق.

الصفة السادسة: كونه معتدياً، قال مقاتل: معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح.

الصفة السابعة: كونه أثيماً، وهو مبالغة في الإثم.

(14/777)

الصفة الثامنة: العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة، وهي محصورة في أمرين أحدهما: أنه ذم في الخلق والثاني: أنه ذم في الخلق، وهو مأخوذ من قولك: عتله إذا قاده بعنف وغلظة،

ومنه قوله تعالى : ﴿ فاعتلوه ﴾ [الدخان : 47] أما الذين حملوه على ذم الخلق فقال ابن عباس في رواية عطاء : يريد قوي ضخم .

وقال مقاتل : واسع البطن ، وثيق الخلق وقال الحسن : الفاحش الخلق ، اللئيم النفس وقال عبيدة بن عمير : هو الأكول الشروب ، القوي الشديد وقال الزجاج : هو الغليظ الجافي .

أما الذين حملوه على ذم الأخلاق ، فقالوا : إنه الشديد الخصومة ، الفظ العنيف .

الصفة التاسعة : قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الزنيم أقوال : الأول : قال الفراء : الزنيم هو الدعي الملصق بالقوم وليس منهم ، قال حسان :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم . . كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

والزنمة من كل شيء الزيادة ، وزنمت الشاة أيضاً إذا شقت أذنها فاسترخت ويبست وبقيت كالشيء المعلق ، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم ، وكان الوليد دعياً في قريش وليس من سنخهم ادعاه بعد ثمان عشرة (ليلة) من مولده .

وقيل : بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية والقول الثاني : قال الشعبي هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها والقول الثالث : روى عن عكرمة عن ابن عباس قال :

معنى كونه زنيماً أنه كانت له زنمة في عنقه يعرف بها ، وقال مقاتل : كان في أصل أذنه مثل زنمة الشاة .

المسألة الثانية :

(15/777)

قول ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ معناه أنه بعد ما عدّ له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد ، ولهذا قال عليه الصلاة السلام : " لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده " وقيل : ههنا ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ نظير ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] وقرأ الحسن (عتل) رفعاً على الذم .

ثم إنه تعالى بعد تعديد هذه الصفات قال :

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله : ﴿ أَن كَانَ ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله وأن يكون متعلقاً بما بعده أما الأول : فتقديره : ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين ، أي لا تطعه مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته ، وأما الثاني : فتقديره لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين ، والمعنى لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاة هذه النعم التي خولها الله له الكفر بآياته قال أبو علي الفاسي : العامل في قوله : ﴿ أَن كَانَ ﴾ إما أن يكون هو قوله : ﴿ تتلى ﴾ أو قوله ﴿ قَالَ ﴾ .

(16/777)

أو شيئاً ثالثاً ، والأول باطل لأن ﴿ تتلى ﴾ قد أضيفت ﴿ إِذَا ﴾ إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله ألا ترى أنك لا تقول : القتال زيداً حين يأتى تريد حين يأتي زيداً ، ولا يجوز أن يعمل فيه أيضاً ﴿ قَالَ ﴾ لأن ﴿ قَالَ ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ ، وحكم الجواب أن يكون بعد ما هو جواب له ولا يتقدم عليه ، ولما بطل هذان القسمان علمنا أن العامل فيه شيء ثالث دل ما في الكلام عليه وذلك هو يجحد أو يكفر أو يمسك عن قبول الحق أو نحو ذلك ، وإنما جاز أن يعمل المعنى فيه ، وإن كان متقدماً عليه لشبهه بالظرف ، والظرف قد تعمل فيه المعاني وإن تقدم عليها ، ويدلك على مشابهته للظرف تقدير اللام معه ، فإن تقدير الآية : لأن كان

ذا مال وإذا صار كالظرف لم يمتنع المعنى من أن يعمل فيه ، كما لم يمتنع من أن يعمل في نحو قوله : ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 7] لما كان ظرفاً ، والعامل فيه القسم الدال عليه قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فكذلك قوله : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ تقديره : إنه جحد آياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين أو كفر بآياتنا ، لأن كان ذا مال وبنين .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ أَأَن كَانَ ﴾ على الاستفهام ، والتقدير : ألأن كان ذال مال كذب ، أو التقدير : أتطيعه لأن كان ذا مال .

وروى الزهري عن نافع : إن كان بالكسر ، والشرط للمخاطب ، أي لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونظير صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ [طه : 44] .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه قبائح أفعاله وأقواله قال متوعداً له :

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الوسم أثر الكية وما يشبهها ، يقال : وسمته فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية ، وإما قطع

في أذن علامة له .

المسألة الثانية :

(17/777)

قال المبرد : الخرطوم ههنا الأنف ، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به ، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة ، لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً ، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر .

المسألة الثالثة :

الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه .

المسألة الرابعة :

منهم من قال : هذا الوسم يحصل في الآخرة ، ومنهم من قال : يحصل في الدنيا ، أما على

القول الأول : ففيه وجوه أولها : وهو قول مقاتل وأبي العالية واختيار الفراء : أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار ، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض وثانيها : أن الله تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة ، إنه كان غالياً في عداوة الرسول ، وفي إنكار الدين الحق وثالثها : أن في الآية احتمالاً آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية ، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ ، وأما على القول الثاني : وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا ففيه وجوه : أحدها : قال ابن عباس سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش .

(18/777)

وروي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال وثانيها : أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهوراً بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم ، والمعنى سنلحق به شيئاً لا يفارقه ونبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم ، تقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة : قد وسمه ميسم سوء ، والمراد أنه ألصق به

عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحي ولا تزول ألبتة ، قال جرير :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي . . وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

يريد أنه وسم الفرزدق (والبعيث) وجدع أنف الأخطل بالهجاء أي ألقى عليه عاراً لا يزول ، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالموسم على الخرطوم ، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في ﴿ زَنِيمٍ ﴾ إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وثالثها : يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد :

تظل يومك في لهو وفي طرب . . وأنت بالليل شراب الخراطيم

فعلى هذا معنى الآية : سنحده على شرب الخمر وهو تعسف ، وقيل للخمر الخرطوم كما يقال لها السلافة ، وهي ما سلف من عصير العنب ، أو لأنها تطير في الخياشيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 73 . 77 ﴾

(19/777)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

﴿ ن ﴾ حرف مقطع في قول الجمهور من المفسرين ، فيدخله من الخلاف ما يدخل أوائل السور ، ويختص هذا الموضع من الأقوال بأن قال مجاهد وابن عباس : نون ، اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع فيما يروى . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : النون اسم للدواة ، فهذا إما أن يكون لغة لبعض العرب ، أو تكون لفظة أعجمية عربت ، قال الشاعر : [الوافر]

إذا ما الشوق برح بي إليهم . . . ألقت النون بالدمع السجوم

(20/777)

فمن قال إنه اسم الحوت جعل ﴿ القلم ﴾ الذي خلقه الله تعالى وأمره فكتب الكائنات وجعل الضمير في ﴿ يسطرون ﴾ للملائكة ، ومن قال بأن " نون " اسم للدواة ، جعل ﴿ القلم ﴾ هذا المتعارف بأيدي الناس . نص ذلك ابن عباس وجعل الضمير في ﴿ يسطرون ﴾ للناس ، فجاء القسم على هذا بمجموع أم الكتاب الذي هو قوام للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة ، فإن القلم أخ اللسان ، ومطية الفطنة ، ونعمة من الله عامة . وروى معاوية بن قرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ ن ﴾ لوح من نور ، وقال ابن عباس وغيره : هو حرف من حروف الرحمن ، وقالوا إنه تقطع في القرآن : ﴿ الر ﴾ [يونس : 1 ، هود :

1 ، يوسف : 1 ، إبراهيم : 1 ، الحجر : 1] و﴿ حم ﴾ [غافر : 1 ، فصلت : 1 ، الشورى : 1 ، الزخرف : 1 ، الدخان : 1 ، الجاثية : 1 ، الأحقاف : 1] ، و﴿ ن ﴾ ، وقرأ عيسى بن عمر بخلاف " نونَ " بالنصب ، والمعنى : اذكر نونَ ، وهذا يقوى مع أن يكون اسماً للسورة ، فهو مؤنث سمي به مؤنث ، ففيه تأنيث وتعريف ، ولذلك لم ينصرف ، وانصرف نوح ، لأن الخفة بكونه على ثلاثة أحرف غلبت على العجمة ، وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق والحسن : " نونِ " بكسر النون ، وهذا كما تقول في القسم بالله ، وكما تقول : " جبر " وقيل كسرت لاجتماع الساكنين ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم : " نونْ " بسكون النون ، وهذا على أنه حرف منفصل فحقه الوقوف عليه ، وقرأ قوم ، منهم الكسائي : ﴿ ن والقلم ﴾ بالإدغام دون غنة ، وقرأ آخرون بالإدغام وبغنة ، وقرأ الكسائي ويعقوب عن نافع وأبو بكر عن عاصم بالإخفاء بين الإدغام والإظهار . و﴿ يسطرون ﴾ معناه : يكتبون سطوراً ، فإن أراد الملائكة فهو كتب الأعمال وما يؤمرون به ، وإن أراد بني آدم ، فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها ، وقوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ هو جواب القسم و﴿ ما ﴾ هنا عاملة لها اسم وخبر ، وكذلك هي

حيث دخلت الباء في الخبر ، وقوله : ﴿ بنعمة ربك ﴾ اعتراض ، كما يقول الإنسان : أنت بحمد الله فاضل .

وسبب هذه الآية ، أن قريشاً رمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون ، وهو ستر العقول ، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون ، فنفى الله تعالى ذلك عنه وأخبره بأن له الأجر ، وأنه على الخلق العظيم ، تشريفاً له ومدحاً .

(22/777)

واختلف الناس في معنى : ﴿ ممنون ﴾ فقال أكثر المفسرين هو الواهن المنقطع ، يقال : حبل منين ، أي ضعيف . وقال آخرون : معناه ﴿ غير ممنون ﴾ عليك أي لا يكدره من به . وقال مجاهد : معناه غير مصرد ولا محسوب محصل أي بغير حساب ، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : خلقه القرآن أدبه وأوامره ، وقال علي رضي الله عنه : الخلق العظيم أدب القرآن ، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده ، أما أن الظاهر من الآية أن الخلق هي التي تضاد مقصد الكفار في قولهم مجنون ، أي غير محصل لما يقول ، وإنما مدحه تعالى

بكرم السجية وبراعة القريحة والملكة الجميلة وجودة الضرائب ، ومنه قوله عليه السلام : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وقال جنيد : سمي خلقه عظيماً ، إذ لم تكن له همة سوى الله تعالى ، عاشر الخلق بخلقه وزايلهم بقلبه ، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق ، وفي وصية بعض الحكماء عليك بالخلق مع الخلق وبالصدق مع الحق ، وحسن الخلق خير كله . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة ، قائم الليل وصائم النهار " . وقال : " ما شيء أثقل في الميزان من خلق حسن " ، وقال : " أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً " والعدل والإحسان والعفو والصلة من الخلق . وقوله تعالى : ﴿ فستبصر ﴾ أي أنت وأمتك ، و ﴿ يبصرون ﴾ أي هم . واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ . فقال أبو عثمان المازني : الكلام تام في قوله : ﴿ يبصرون ﴾ ، ثم استأنف قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ ، وقال الأخفش بل الإبصار عامل في الجملة المستفهم عنها في معناها ، وأما الباء فقال أبو عبيدة معمر وقتادة : هي زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون . وقال الحسن والضحاك : ﴿ المفتون ﴾ بمعنى الفتنة ، كما قالوا : ما له معقول ، أي عقل ، وكما قالوا : اقبل ميسوره ودع معسوره ، فالمعنى : ﴿ بأيكم ﴾ هي الفتنة والفساد الذي سموه

جنوناً ، وقال آخرون : ﴿ بأيكم ﴾ فتن ﴿ المفتون ﴾ وقال الأخفش ، المعنى : ﴿ بأيكم ﴾ فتنة ﴿ المفتون ﴾ ، ثم حذف المضاف وأقيم ما أضيف إليه مقامه ، وقال مجاهد والفراء : الباء بمعنى : في أي ، في أي فريق منكم النوع المفتون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول حسن قليل التكلف ، ولا نقول إن حرفاً بمعنى حرف بل نقول إن هذا المعنى يتوصل إليه ب " في " وبالباء أيضاً ، وقرأ ابن عبلة " في أيكم المفتون " .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل ﴾ الآية ، وعيد ، والعامل في قوله : ﴿ بمن ضل ﴾ ، ﴿ أعلم ﴾ وقد قواه حرف الجر فلا يحتاج إلى إضمار فعل .

(24/777)

وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ يريد قريشاً ، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو عبدت آلهتنا وعظمتها لعبدنا إلهك وعظمناه ، وودوا أن يداهنهم النبي صلى الله عليه وسلم ويميل إلى ما قالوا فيميلوا هم أيضاً إلى قوله ودينه ، والادهان : الملاينة فيما لا يحل ، والمداراة الملاينة فيما يحل وقوله تعالى : ﴿ فيدهبون ﴾ معطوف وليس بجواب ، لأنه كان ينصب . والحلاف : المردد لحلفه الذي قد

كثر منه ، والمهين : الضعيف الرأي والعقل ، قاله مجاهد ، وهو من مهن إذا ضعف . الميم فاء الفعل ، وقال ابن عباس المهين : الكذاب ، والهماز : الذي يقع في الناس ، وأصل الهمز في اللغة : الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوه ، ثم استعير للذي ينال بلسانه ، قال المنذر بن سعيد : وبعينه وإشارته ، وسميت الهمزة ، لأن في النطق بها حدة ، وعجلة ، فأشبهت الهمز باليد . وقيل لبعض العرب : أتهمز الفأرة ؟ قال : الهرة تهمزها ، وقيل لآخر أتهمز إسرائيل : فقال : إني إذاً لرجل سوء . والنميم : مصدر كالنميمة . وهو نقل ما يسمع مما يسوء ويحرش النفوس . وروى حذيفة أن النبي قال : " لا يدخل الجنة قتات " ، وهو النمام ، وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف هي أجناس لم يرد بها رجل بعينه ، وقالت طائفة : بل نزلت في معين ، واختلف فيه ، فقال بعضها : هو الوليد بن المغيرة ، ويؤيد ذلك غناه ، وأنه أشهرهم بالمال والبنين ، وقال الشعبي وغيره : هو الأخنس بن شريق ، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة في حلقه كزنمة الشاة ، وأيضاً فكان من ثقيف ملصقاً في قريش ، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي : هو أبو جهل ، وذكر النقاش : عتبة بن ربيعة ، وقال مجاهد : هو الأسود بن عبد يغوث ، وظاهر اللفظ عموم من هذه صفته ، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمن ، لا سيما لولاة الأمور .

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

قال كثير من المفسرين : الخبر هنا المال ، فوصفه بالشح ، وقال آخرون : بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة ، ومن يمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد منع الخير ، والمعتدي : المتجاوز لحدود الأشياء . والأثيم : فعيل من الإثم ، بمعنى : آثم ، وذلك من حيث أعماله قبيحة تكسب الإثم ، والعتل : القوي البنية الغليظ الأعضاء المصحح القاسي القلب ، البعيد الفهم ، الأكول الشروب ، الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار ، فكل ما عبر به المفسرون عنه من خلال النقص فعن هذه التي ذكرت بصدر ، وقد ذكر النقاش ، أن النبي صلى الله عليه وسلم : فسر العتل بنحو هذا ، وهذه الصفات كثيرة التلازم ، والعتل : الدفع بشدة ، ومنه العتلة ، وقوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ معناه ، بعد ما وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف ، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف وإلا فكونه عتلاً ، هو قبل كونه صاحب خير يمنعه ، والزنيم : في كلام العرب ، الملصق في القوم وليس منهم ، وقد فسر به ابن عباس هذه الآية ، وقال مرة الهمداني : إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة ، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت : [الطويل]

وأنت زنيم نيط في آل هاشم . . . كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

ومنه قول حسان بن ثابت أيضاً : [الطويل]

زنيم تداعاه الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض الأديم الأكارع

فقال كثير من المفسرين : هذا هو المراد في الآية . وذلك أن الأخنس بن شريق كان من ثقيف ، حليفاً لقريش . وقال ابن عباس : أراد ب " الزنيم " أن له زنمة في عنقه كزنمة الشاة ، وهي الهنة التي تعلق في عنقها ، وما كنا نعرف المشار إليه ، حتى نزلت فعرفناه بزنمته . قال أبو عبيدة : يقال للتيس زنيم إذ له زنمتان ، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته : كأن زنمتيها نتوا قليسية . وروي أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة كان له زنمة . وروى ابن عباس أنه قال : لما نزلت هذه الصفة ، لم يعرف صاحبها حتى نزلت ﴿ زنيم ﴾ فعرف بزنمته . وقال بعض المفسرين : الزنيم : المريب ، القبيح الأفعال . واختلفت القراءة في قوله : ﴿ أن كان ذا مال ﴾ . فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وحفص عن عاصم وأهل المدينة : " أن كان " على الخبر ، وقرأ حمزة : " أأن كان " بهمزتين محققتين على الاستفهام ، وقرأ ابن عامر والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وأبو جعفر : " آن كان " على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية ، والعامل في ﴿ أن كان ﴾ فعل مضمر تقديره : كفر أو جحد أو عند ، وتفسير هذا الفعل ، قوله : ﴿ إذا تتلى عليه ﴾ الآية ، وجاز أن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله ﴿ أن كان ﴾ في منزلة الظرف ، إذ يقدر باللام ، أي لأن كان ،

وقد قال فيه بعض النحاة : إنه في موضع خفض باللام ، كما لو ظهرت ، فكما يعمل المعنى في الظرف المتقدم فكذلك يعمل في هذا ، ومنه قوله تعالى :

(27/777)

﴿ ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ [سبأ : 7] . فالعامل في : ﴿ إذا ﴾ [سبأ : 7] ، معنى قوله : ﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾ [سبأ : 7] ، أي تبعثون ، ونحوه من التقدير ، ولا يجوز أن يعمل : ﴿ تتلى ﴾ في ﴿ إذا ﴾ لأنه مضاف إليه وقد أضيف ﴿ إذا ﴾ إلى الجملة ولا يجوز أن يعمل في ﴿ أن ﴾ ، قال لأنها جواب ﴿ إذا ﴾ ولا تعمل فيما قبلها . وأجاز أبو علي أن يعمل فيه ﴿ عتل ﴾ وإن كان قد وصف ، ويصح على هذا النظر أن يعمل فيه ﴿ زنيم ﴾ لا سيما على قول من يفسره بالقبيح الأفعال ، ويصح أن يعمل في ﴿ أن كان ﴾ ، تطيعه التي يقتضيها قوله : ﴿ ولا تطع ﴾ [القلم : 10] . وهذا على قراءة الاستفهام يبعد وإنما يتجه لا تطعه لأجل كونه كذا ، و ﴿ أن كان ﴾ ، على كل وجه ، مفعول من أجله وتأمل . وقد تقدم القول في الأساطير في غير ما موضع . وقوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ معناه على الأنف قاله المبرد ، وذلك أن ﴿ الخرطوم ﴾ يستعار في أنف الإنسان . وحقيقته في مخاطم السباع ، ولم يقع التوعد في هذه

الآية ، بأن يوسم هذا الإنسان على أنفه بسمة حقيقة ، بل هذه عبارة عن فعل يشبه الوسم على الأنف . واختلف الناس في ذلك الفعل ، فقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف أي يضرب في وجهه ، وعلى أنفه فيجيء ذلك الوسم على الأنف ، وحل ذلك به يوم بدر . وقال محمد بن يزيد المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنوفهم . وقال آخرون ذلك في يوم القيامة ، أي يوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره . وقال قتادة وغيره معناه : سنفعل به في الدنيا من الذم له والمقت والإشهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً ، وهذا المعنى كما تقول : سأطوقك طوق الحمامة ، أي أثبت لك الأمر بيناً فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله : [الكامل]

(28/777)

لما وضعت على الفرزدق ميسمي . . . وفي الوسم على الأنف تشويه ، فجاءت استعارته في المذمات بليغة جداً . وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأحدوثة رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) ﴾

نهاه عن ممايلة المشركين ؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكُفّ عنهم ليكفُّوا عنه ، فبيّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 74]

وقيل : أي فلا تطع المكذبين فيما دَعوك إليه من دينهم الخبيث .

نزلت في مشركي قريش حين دَعَوه إلى دين آبائه .

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسُّدّيّ : ودّوا لو تكفر فيتَمادَوْن على كفرهم .

وعن ابن عباس أيضاً : ودّوا لو تُرَخِّص لهم فَيُرخِّصون لك .

وقال الفرّاء والكَلْبيّ : لو تلين فيلينون لك .

والادّهان : التَّليين لمن لا ينبغي له التَّليين ؛ قاله الفرّاء .

وقال مجاهد : المعنى ودّوا لو رَكَنْتَ إليهم وتركت الحقّ فيُمالئونك .

وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون .

وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك .

الحسن : ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم .

وعنه أيضاً : ودّوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم .

زيد بن أسلم : لو تنافق وترائي فينافقون ويراءون .

وقيل : ودّوا لو تضعف فيضعفون ؛ قاله أبو جعفر .

وقيل ، ودّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم ؛ قاله القُتَبيّ .

وعنه : طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدّة ويعبدوا إلهه مدّة .

فهذه اثنا عشر قولاً .

ابن العربيّ : ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلّها دعاوَى على اللغة والمعنى .

أمثلها قولهم : ودّوا لو تكذب فيكذبون ، ودّوا لو تكفر فيكفرون .

قلت : كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى ؛ فإن الادّهان : اللينُ والمصانعة .

وقيل : مجاملة العدُوّ ممايلته .

وقيل : المقاربة في الكلام والتَّليين في القول .

قال الشاعر :

لبعض الغَشْم أحزم في أمور . . .

تنوبك من مداهنة العِده

وقال المفضل : النفاق وترك المناصحة .

(30/777)

فهي على هذا الوجه مذمومة ، وعلى الوجه الأوّل غير مذمومة ، وكل شيء منها لم يكن .

قال المبرد : يقال أدهن في دينه وداهن في أمره ؛ أي خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر .

وقال قوم : داهنت بمعنى واريت ، وأدهنت بمعنى غششت ؛ قاله الجوهريّ .

وقال : "فَيُدْهِنُونَ" فساقه على العطف ، ولو جاء به جواب النهي لقال فيدهنوا .

وإنما أراد : إن تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك ؛ عطفاً لا جزاءً عليه ولا مكافأة ، وإنما هو تمثيل وتنظير .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10)

يعني الأخنس بن شَرِيق ؛ في قول الشعبيّ والسُّديّ وابن إسحاق .

وقيل : الأسود بن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود ؛ قاله مجاهد .

وقيل : الوليد بن المغيرة ، عرض على النبيّ صلى الله عليه وسلم مالاً وحلف أن يعطيه إن

رجع عن دينه ؛ قاله مقاتل .

وقال ابن عباس : هو أبو جهل بن هشام .

والحلاّف : الكثير الحَلِف .

والمَهِين : الضعيف القلب ؛ عن مجاهد .

ابن عباس : الكذاب .

والكذاب مهين .

وقيل : المكثار في الشَّر ؛ قاله الحسن وقتادة .

وقال الكلبيّ : المَهِين الفاجر العاجز .

وقيل : معناه الحقير عند الله .

وقال ابن شجرة : إنه الذليل .

الرُّمّاني : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح .

وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة .

وهي هنا القلة في الرأي والتمييز .

أو هو فعيل بمعنى مُفْعَل ؛ والمعنى مُهان .

﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن زيد : الهّماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم .

واللماز باللسان .

وقال الحسن : هو الذي يهمز ناحية في المجلس ؛ كقوله تعالى : ﴿ هُمَزَة ﴾ [الهمزة : 1]

وقيل : الهَمّاز الذي يذكر الناس في وجوههم .

واللّماز الذي يذكرهم في مغيبهم ؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضاً .

وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام : إن الهُمَزَة الذي يغتاب بالغيبة .

واللُّمَزَة الذي يغتاب في الوجه .

وقال مرّة : هما سواء .

وهو القَتّات الطّعّان للمرء إذا غاب .

ونحوه عن ابن عباس وقتادة .

قال الشاعر :

(31/777)

تُدلِي بودّ إذا لاقيتني كذباً . . .

وإنْ أغِبْ فأنت الهامز اللُّمَزَهْ

﴿ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم .

يقال : نَمّ يَنِمّ نَمًّا ونَمِيماً ونَمِيمَةً ؛ أي يمشي ويسعى بالفساد .

وفي صحيح مسلم : عن حُذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينمّ الحديث ، فقال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخل الجنة نمّام " وقال الشاعر :

ومولًى كبيت النمل لا خير عنده . . .

لمولاه إلا سَعْيُه بنميم

قال الفرّاء : هما لغتان .

وقيل : النَّميم جمع نَميمة .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي للمال أن ينفق في وجوهه .

وقال ابن عباس : يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته .

وقال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي على الناس في الظلم ، متجاوز للحدّ ، صاحب باطل .

﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي ذي إثم ، ومعناه أَثُوم ، فهو فَعيل بمعنى فعول .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ العُتُلّ الجافي الشديد في كفره .

وقال الكلبيّ والفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل .

وقيل : إنه الذي يعتِل الناس فيجرّهم إلى حبس أو عذاب .

مأخوذ من العَتْل وهو الجرّ ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه ﴾ [الدخان : 47] وفي الصَّحاح : وعتلت الرجل أعْتِله وأعْتُله إذا جذبته جذباً عنيفاً .

ورجل مِعْتَل (بالكسر) .

وقال يصف فرساً :

نَفْرعه فرعاً ولسنا نَعْتِله . . .

قال ابن السكيت : عَتَله وَعتَنه ، باللام والنون جميعاً .

والْعُتُلّ الغليظ الجافي .

والْعُتُلّ أيضاً : الرمح الغليظ : ورجل عَتِلٌ (بالكسر) بَيِّن العَتَل ؛ أي سريع إلى الشر .

ويقال : لا أنعتل معك ؛ أي لا أبرح مكاني .

وقال عُبيد بن عمير : العُتُلّ الأكول الشروب القويّ الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة ؛ يدفع المَلَك من أولئك في جهنم بالدُّفعة الواحدة سبعين ألفاً .

وقال عليّ بن أبي طالب والحسن : العُتُلّ الفاحش السيىء الخلق .

(32/777)

وقال مَعْمَر : هو الفاحش اللئيم .

قال الشاعر :

بعُتُلّ من الرجال زَنِيم . . .

غير ذي نجدة وغير كريم

وفي صحيح مسلم .

عن حارثة بن وهب سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ألاَ أخبركم بأهل الجنة قالوا بلى قال كلُّ ضعيف مُتَضَعّف لو أقسم على الله لأبرّه .

ألا أخبركم بأهل النار قالوا بلى قال كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُسْتَكْبِر " في رواية عنه "كلُّ جوّاظ زَنيم متكبّر " الجَوّاظ : قيل هو الجَمُوع المنوع .

وقيل الكثير اللحم المختال (في مشيته) .

وذكر الماوردي عن شَهْر بن حَوْشَب عن عبد الرحمن بن غنم ، ورواه ابن مسعود : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "لا يدخل الجنة .

جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا الْعُتُلّ الزَّنيم" .

فقال رجل : ما الجوّاظ وما الجَعْظَريّ وما العُتُلّ الزَّنيم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الجوّاظ الذي جَمَع ومَنَع .

والجَعْظَرِيّ الغليظ .

والعُتُل الزَّنيم الشديد الخَلْق الرّحيب الجوف المصَحَّح الأكول الشروب الواجد للطعام الظلوم للناس" " وذكره الثعلبي : عن شدّاد بن أوس : " لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظَرِيّ ولا عُتُل زنيم " سمعتهن من النبيّ صلى الله عليه وسلم قلت : وما الجوّاظ ؟ قال : الجَمّاع

المنّاع.

قلت: وما الجَعْظَرِيّ؟ قال: الفَظّ الغليظ.

قلت: وما العُتُلّ الزنيم؟ قال: الرّحِيب الجوَفْ الوثِير الخَلْق الأكول الشروب الغشوم الظلوم.

قلت: فهذا التفسير من النبيّ صلى الله عليه وسلم في العُتُل قد أربى على أقوال المفسرين.

ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجَوّاظ أنه الفظّ الغليظ.

ذكره من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة الجَوّاظ ولا الجَعْظَرِيّ" قال: والجوّاظ الفظّ الغليظ.

ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أوّلاً.

وقد قيل: إنه الجافي القلب.

(33/777)

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "تبكي السماء من رجل أصحّ الله جِسْمَه ورحّب جَوْفَه وأعطاه من الدنيا بعضاً فكان للناس ظلوماً فذلك العُتُلّ الزنيم.

وتبكي السماء من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تُقِلّه " والزّنيم المُلْصَق بالقوم الدَّعيّ ؛ عن ابن عباس وغيره .

قال الشاعر :

زَنيمٌ تداعاه الرجال زيادةً . . .

كما زيد في عَرْضِ الأَدِيم الأَكارِعُ

وعن ابن عباس أيضاً : أنه رجل من قريش كانت له زنَمة كزنمة الشاة .

وروى عنه ابن جُبَير : أنه الذي يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها .

وقال عِكرِمة : هو اللئيم الذي يُعرف بلؤمه كما تُعرف الشاة بزنمتها .

وقيل : إنه الذي يعرف بالأُبْنَةِ .

وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

وعنه أنه الظلوم .

فهذه ستة أقوال .

وقال مجاهد : زَنيم كانت له ستة أصابع في يده ، في كل إبهام له إصبع زائدة .

وعنه أيضاً وسعيد ابن المسيّب وعكرمة : هو ولد الزّنى الملحق في النسب بالقوم .

وكان الوَلِيد دَعِيًّا في قريش ليس من سِنْخهم ؛ ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده .

قال الشاعر :

زِنيمٌ ليس يُعرف مَن أبوه . . .

بغيّ الأُمّ ذو حسب لئيم

وقال حَسَّان :

وأنت زَنيم نيط في آل هاشمٍ . . .

كما نِيط خَلْفَ الراكب القَدَحُ الفَرْدُ

قلت : وهذا هو القول الأول بعينه .

وعن عليّ رضي الله عنه أنه الذي لا أصل له ؛ والمعنى واحد .

(34/777)

وروِي : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة وَلَدُ زنىً ولا ولده ولا ولد ولده " وقال عبد الله بن عمر : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أولاد الزنى يحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير " وقالت ميمونة : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولدُ الزِّنَى فإذا فَشَا فيهم ولد الزنى أوشكَ أن يعمهم الله بعقاب " وقال عكرمة : إذا كثر ولد الزنى قحط المَطَرُ .

قلت : أما الحديث الأول والثاني فما أظن لهما سنداً يصح ، وأما حديث ميمونة وما قاله

عكرمة ففي صحيح مسلم " عن زينب بنت جَحْش زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوماً فزِعاً مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يقول : "لا إله إلا الله . ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب .

فُتح اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه" وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها .

قالت فقلت : يا رسول الله ، أَنَهْلِك وفينا الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثُر الخَبَث" " خرّجه البخاريّ .

وكثرة الخبث ظهور الزنى وأولاد الزنى ؛ كذا فسّره العلماء .

وقول عكرمة "قحط المطر" تبيينٌ لما يكون به الهلاك .

وهذا يحتاج إلى توقيف ، وهو أعلم من أين قاله .

ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة ، وكان يُطعم أهلَ مِنىً حَيْساً ثلاثة أيام ، وينادي ألا لا يوقدنّ أحد تحت بُرْمَةٍ ، ألا لا يدخّنن أحد بكُراع ، ألا ومن أراد الحَيْس فليأت الوليد بن المغيرة .

وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر ، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً فقيل : "مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ" .

وفيه نزل : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ [فصلت : 6-7] .

وقال محمد بن إسحاق : نزلت في الأَخْنَس بن شَرِيق ، لأنه حليف مُلْحق في بني زُهْرة ، فلذلك سُمِّيَ زَنِيماً .

(35/777)

وقال ابن عباس : في هذه الآية نُعِت ، فلم يعرف حتى قُتل فعرُف ، وكان له زَنَمة في عنقه معلّقة يُعرف بها .

وقال مُرّة الهَمْدانيّ : إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾

قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حَيْوة والمغيرة والأعرج "آن كان" بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام .

وقرأ المُفَضّل وأبو بكر وحمزة "أأن كان" بهمزتين مُحَقّقتين .

وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ ، ويحسن له أن يقف على "زنيم" ، ويبتدىء "أَنْ كَانَ" على معنى ألِأن كان ذا مال وبنين تطيعه .

ويجوز أن يكون التقدير : ألِأن كان ذا مال وبنين يقول إذَا تُتْلَى عليهِ آيَاتُنَا : أَسَاطِيرُ

الأَوَّلِين ! ! ويجوز أن يكون التقدير : ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر .

ودلّ عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام .

ومن قرأ "أَنْ كَانَ" بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر ، والتقدير : يكفر لأن كان ذا مال وبنين .

ودل على هذا الفعل : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ .

ولا يعمل في "أَنْ" : "تُتْلَى" ولا "قَالَ" لأن ما بعد "إِذَا" لا يعمل فيما قبلها ؛ لأن "إِذَا" تضاف إلى الجمل التي بعدها ، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف .

و"قَالَ" جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء ؛ إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه ، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدماً مؤخراً في حال .

ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد .

قال ابن الأنباري : ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على "زَنِيم" لأن المعنى كان وبأن كان ، ف "أن" متعلقة بما قبلها .

قال غيره : يجوز أن يتعلق بقوله : "مَشَّاءٍ بِنَمِيم" والتقدير يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين .

وأجاز أبو عليّ أن يتعلق ب "عُتُلٍّ" .

وأساطير الأولين : أباطيلهم وتُرّهاتهم وخرافاتهم .

وقد تقدم .

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ قال ابن عباس : معنى "سَنَسِمُهُ" سَنَخْطِمه بالسيف .

قال : وقد خُطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف ؛ فلم يزل مخطوماً إلى أن مات .

وقال قتادة : سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمَةً يُعرف بها ؛ يقال : وسَمْتَه وسْماً وسِمَةً إذا أثّرت فيه بِسِمَةٍ وكَيّ .

وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] فهذه علامة ظاهرة .

وقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] وهذه علامة أخرى ظاهرة .

فأفادت هذه الآية علامة ثالثةً وهي الوسم على الأنف بالنار ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ الْمجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الرحمن : 41] قاله الكلبي وغيره .

وقال أبو العالية ومجاهد : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ أي على أنفه ، ونسوّد وجهه في الآخرة فَيُعْرف بسواد وجهه .

والخرطوم : الأنف من الإنسان .

ومن السباع : موضع الشَّفَة .

وخراطيم القوم : ساداتهم .

قال الفراء : وإن كان الخُرْطُوم قد خُصّ بالسِّمة فإنه في معنى الوجه ؛ لأن بعض الشيء يعبّر به عن الكل .

وقال الطبري : نبيّن أمره تبياناً واضحاً حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم .

وقيل : المعنى سَنُلْحِقُ به عاراً وسُبَّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه .

قال القُتَبيّ : تقول العرب للرجل يُسَبّ سُبّة سوء قبيحة باقية : قد وُسِم مِيسَم سوء ؛ أي أُلْصِق به عارٌ لا يفارقه ؛ كما أن السَّمة لا يُمْحَي أثرها " قال جرير :

لمّا وضعتُ على الفَرَزْدَق مِيسَمِي . . .

وعلى البَعِيث جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ

أراد به الهجاء .

قال : وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة .

ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ؛ فألحقه به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ؛ كالوَسْم على الخرطوم .

وقيل : هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذُلّ وصَغار ؛ قاله ابن بجر .

واستشهد بقول الأعشى :

فدعها وما يغنيك واعمد لغيرها . . .

بشعرك واعلب أنف من أنت واسم

وقال النَّضْر بن شُمَيل : المعنى سنحُدّه على شرب الخمر ، والخرطوم : الخمر ، وجمعه خراطيم ، قال الشاعر :

تَظَلّ يومك في لَهْوٍ وفي طَرَب . . .

وأنت بالليل شَرّاب الخراطيم

قال الراجز :

صَهْبَاء خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفَا . . .

وقال آخر :

أبا حاضر من يَزْنِ يُعرف زناؤه . . .

ومن يشرب الخُرْطوم يُصبح مسكرا

الثانية : قال ابن العربي : "كان الوسم في الوجه لذي المعصية قديماً عند الناس ، حتى أنه روي كما تقدم أن اليهود لما أهملوا رَجْم الزاني اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه ؛ وهذا وضع باطل .

ومن الوسم الصحيح في الوجه : ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور ، علامةً على قُبْح المعصية وتشديداً لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته ؛ فقد كان عزيزاً بقول الحق وقد صار مَهيناً بالمعصية .

وأعظم الإهانة (إهانةُ الوجه) .

وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سبباً لخيرة الأبد والتحريم له على النار ؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثَرَ السجود ؛ حسب ما ثبت في الصحيح .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(38/777)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ ن ﴾

بالسُّكُونِ على الوقفِ ، وقُرِىءَ بالكسرِ ، وبالفتحِ ، لالتقاءِ الساكنينِ ، ويجوزُ أن يكونَ الفتحُ بإضمارِ حرفِ القسمِ في موضعِ الجرِّ كقولِهم الله لأفعلنَّ بالجرِّ وأن يكونَ ذلكَ نصباً بإضمارِ أذكُرْ لا فتحاً كما سبقَ في فاتحةِ سُورةِ البقرةِ . وامتناعُ الصرفِ للتعريفِ والتأنيثِ على أنَّهُ علمٌ للسورةِ ثُمَّ إنْ جُعلَ إسماً للحرفِ مسروداً على نمطِ التعديدِ للتحدّي بأحدِ الطريقينِ المذكورينِ في موقِعِه أو إسماً للسورةِ منصوباً على الوجهِ المذكورِ أو مرفوعاً على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ فالواوُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ والقلم ﴾ للقسمِ ، وإنْ جُعلَ مقسماً بِهِ فهي للعطفِ عليهِ ، وأيّاً ما كانَ فإنْ أُريدَ بِهِ قلمُ اللوحِ والكرامِ الكاتبينَ ، فاستحقاقُهُ للإعظامِ بالإقسامِ بِهِ ظاهرٌ ، وإنْ أُريدَ بِهِ الجنسُ ، فاستحقاقُ ما في أيدي النَّاسِ لذلكَ لكثرةِ منافعِهِ ولو لم يكُنْ له مزيةٌ سوى كونِهِ آلةً لتحريرِ كتبِ اللهِ عزَّ قائلاً لكَفَى بِهِ فضلاً موجباً لتعظيمِهِ . وقُرِىءَ بإدغامِ النونِ في الواوِ . ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ الضميرُ لأصحابِ القلمِ المدلول عليهم بذكره ، وقيل للقلم على أن المراد به أصحابه ، كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم ، على أنَّ ما موصولةٌ أو سطرِهِم على أنَّها مصدريةٌ ، وقيلَ للقلمِ نفسِهِ بإسنادِ الفعلِ إلى الآلةِ وإجرائِهِ مَجْرَى العقلاءِ لإقامتِهِ مقامَهُم ، وقيلَ المرادُ بالقلمِ ما خُطَّ في اللوحِ خاصَّةً ، والجمعُ للتعظيمِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ جوابُ القسمِ ، والباءُ

متعلقةٌ بمضمرٍ هو حالٌ من الضميرِ في خبرِهَا والعاملُ فيها مَعْنَى النَّفي كأنَّه قيل أنتَ بريءٌ من الجنونِ ملتبساً بنعمةِ الله التي هيَ النبوةُ والرياسةُ العامةُ والتعرضُ لوصفِ الربوبيةِ المنبئةِ عن التبليغِ إلى معارجِ الكمالِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليهِ

(39/777)

الصَّلاةُ والسَّلامُ والإيذانِ بأنَّه تعالَى يُتمُّ نعمتَهُ عليهِ ويبلغُه من العلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وراءَهَا والمرادُ تنزيهُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عمَّا كانُوا ينسبونَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إليهِ من الجنونِ حَسَداً وعداوةً ومكابرةً مع جزمِهم بأنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في غايةِ الغاياتِ القاصيةِ ونهايةِ النهاياتِ النائيةِ من حَصانةِ العقلِ ورَزَانَةِ الرأيِ .

(40/777)

﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ بمقابلةِ مقاساتِكَ ألوانَ الشدائدِ منْ جهتِهم وتحملِك لأعباءِ الرسالةِ ﴿ لأَجْرًا ﴾ لثواباً عظيماً لا يُقادَرُ قَدرُهُ ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ معَ عظمِهِ كقولِهِ تعالَى : ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أوغيرَ ممنونٍ عليكَ من جهةِ الناسِ فإنَّهُ عطاؤُه تعالى بلاَ توسطٍ ﴿

وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يُدرِكُ شأوَهُ أحدٌ منَ الخلقِ ، ولذلكَ تحتملُ من جهتِهم ما لا يكادُ يحتملُهُ البشرُ . وسُئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنْهَا عن خُلُقِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فقالتْ : "كان خُلُقه القُرآنَ" ألستَ تقرأُ القُرآنَ . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ والجملتانِ معطوفتانِ على جوابِ القسمِ ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا فستعلمُ ويعلمونَ يومَ القيامةِ حينَ يتبينَ الحقُّ من الباطلِ ، وقيل فستبصرُ ويبصرونَ في الدُّنيا بظهورِ عاقبةِ أمرِكُم بغلبةِ الإسلامِ واستيلائِكَ عليهم بالقتلِ والنهبِ وصيرورتِكَ مهيباً مُعظماً في قلوبِ العالمينَ وكونِهم أذلةً صاغرينَ . قالَ مقاتلٌ : هَذا وعيدٌ بعذابِ يومِ بدرٍ ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ أي أيكم الذي فُتنَ بالجنونِ ، والباءُ مزيدةٌ أو بأيكم الجنونُ على أنَّ المفتونَ مصدرٌ كالمعقولِ والمجلودِ أو بأيِّ الفريقينِ منكُم المجنونُ أبفريقِ المؤمنينَ أم بفريقِ الكافرينَ أي في أيِّهما يوجدُ من يستحقُّ هَذا الإسمَ وهو تعريضٌ بأبي جهلِ بنِ هشامٍ والوليدِ بنِ المغيرةَ وأضرابِهمَا ، كقولِهِ تعالَى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ تعليلٌ لما ينبىءُ عنهُ ما قبلَهُ من ظهورِ جنونِهم بحيثُ لا يَخْفى على أحدٍ ، وتأكيدٌ لما فيهِ من الوعدِ والوعيدِ أي هُو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلِهِ تعالَى المؤدّي إلى سعادةِ الدارينِ وهامَ في تيهِ الضلالِ

متوجهاً إلى ما يفضيهِ إلى الشقاوةِ الأبديةِ وهذا هُو المجنونُ الذي لا يفرقُ بين النفعِ والضررِ بل يحسبُ الضررَ نفعاً فيؤثرهُ والنفعَ ضرراً فيهجُرهُ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ إلى سبيلِهِ الفائزينَ بكلِّ مطلوبٍ الناجينَ عن كلِّ محذورٍ ، وهُم العقلاءُ المراجيحُ فيجزي كلاً من الفريقينِ حسبَما يستحقُّهُ من العقابِ والثوابِ وإعادةُ هو أعلمُ لزيادةِ التقريرِ ، والفاءُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ لترتيبِ النَّهيِ على ما ينبىءُ عنهُ ما قبلَهُ من اهتدائِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وضلالِهِم أو على جميعِ ما فُصِّلَ من أوَّلِ السورةِ ، وهذا تهييجٌ وإلهابٌ للتصميمِ على معاصاتِهِم أيْ دُمْ على ما أنتَ عليهِ من عدمِ طاعتِهِم وتصلَّبْ في ذلك ، أو نهيٌ عن مداهنَتِهِم ومداراتِهِم بإظهارِ خلافِ ما في ضميرِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ استجلاباً لقلوبِهِم لا عن طاعتِهِم حقيقةً كما ينبىءُ عنْهُ قولُه تعالَى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ فإنَّه تعليلٌ للنَّهيِ أو للانتهاءِ وإنما عبَّر عنها بالطاعةِ للمبالغةِ في الزجرِ والتنفيرِ أيْ أَحبُوا لو تلاينُهُم وتسامحُهُم في بعضِ الأمورِ ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي فهُم يُدهِنُونَ حينئذٍ أو فهُم الآنَ يُدْهِنُونَ طمعاً في إدهانِكَ ، وقيلَ هو معطوفٌ على تُدهنُ داخلٌ في حيزِ لَوْ والمَعْنَى ودُّوا لو يُدهنُونَ عقيبَ إدهانِكَ ، ويأباهُ ما سيأتي من بدئِهِم بالإدهانِ على أن إدهانَهُم أمرٌ محققٌ لا يناسبُ إدخالَهُ تحت التمنّي ، وأيّاً ما كانَ فالمعتبرُ في جانبِهِم حقيقةُ الإدهانِ الذي هُو إظهارُ الملاينةِ وإضمارُ خلافِهَا ، وأمَّا في جانبِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فالمعتبرُ بالنسبةِ إلى ودادتِهِم

هو إظهارُ الملاينةِ فقَطْ وأمَّا إضمارُ خلافِهَا فليسَ في حيزِ الاعتبارِ بلْ هُم في غايةِ الكراهةِ لهُ إنما اعتبارُهُ بالنسبةِ إليهِ عليهِ

(42/777)

الصَّلاةُ والسَّلامُ وفي بعضِ المصاحفِ فيُدهنُوا على أنَّه جواب التمني المفهوم من ودُّوا أو أن ما بعده حكاية لوداداتهم ، وقيل على أنه عطفٌ على تُدهنُ بناءً على أنَّ لَوْ بمنزلةِ إنِ الناصبةِ فلا يكونُ لها جوابٌ وينسَبكُ منهَا وممَّا بعدَهَا مصدرٌ يقعُ مفعولاً لودُّوا كأنَّه قيلَ ودُّوا أنْ تُدهنَ فيدهنوا وقيل لَوْ على حقيقتِهَا وجوابُهَا وكذا مفعولُ ودُّوا أي ودُّوا إدهانَكَ لو تُدهنُ فيُدهنُوا لسرُّوا بذلكَ .

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ ﴾ كثيرِ الحِلفِ في الحقِّ والباطِلِ . تقديمُ هذا الوصفِ على سائرِ الأوصافِ الزاجرةِ عن الطاعةِ لكونِهِ أدخلَ في الزجرِ ﴿ مَّهِينٌ ﴾ حقيرِ الرَّأيِ والتدبيرِ ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عيابٍ طعَّانٍ ﴿ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ مضربٍ نقالٍ للحديثِ من قومٍ إلى قومٍ على وجهِ السِّعايةِ والإفسادِ بينهُم فإنَّ النميمِ والنميمةَ السِّعايةُ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي بخيلٍ أو مناعٍ للناسِ من الخيرِ الذي هُو الإيمانُ والطاعةُ والإنفاقُ ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوزٍ في الظلمِ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثيرِ الآثامِ ﴿ عُتُلٍ ﴾ جافٍ غليظٍ من عتلَهُ إذا قادَهُ بعنفٍ وغلظةٍ ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ

﴿ بعدَ ما عُدَّ من مثالبِهِ ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دَعيَ مأخوذٌ من الزَّنَمَةِ وهي الهَنةُ من جلدِ الماعزِ تُقطعُ فتخلَّى متدليةً في حَلقِهَا ، وفي قولِه تعالَى بعد ذلكَ دلالةٌ على أنَّ دعوتَهُ أشدُّ معايبِهِ وأقبحُ قبائِحِه ، قيلَ هُو الوليدُ بنُ المغيرةِ فإنَّهُ كانَ دَعِيًّا في قريشٍ وليسَ من سِنْخِهِم ادعاهُ المغيرةُ بعد ثمانِي عشرةَ من مولِدِه وقيلَ هو الأخنسُ بنُ شُريقٍ أصلُه من ثقيفٍ وعدادُه في زُهرةَ ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ متعلقٌ بقولِه تعالَى لا تُطِعْ أي لا تُطِعْ من هَذِه مثالبُه لأنْ كانَ متمولاً مستظهراً بالبنينَ .

(43/777)

وقولُه تعالَى : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير الأولين ﴾ استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التعليلِ للنَّهي ، وقيلَ متعلقٌ بما دلَّ عليهِ الجملةُ الشرطيةُ من مَعْنَى الجحودِ والتكذيبِ لا بجوابِ الشرطِ لأنَّ ما بعدَ الشرطِ لا يعملُ فيما قبلَهُ كأنْ قيلَ لكونِه مُستظهراً بالمالِ والبنينَ كذَّبَ بآياتِنَا ، وفيهِ أنَّه يدلُّ على مَعْنَى أنَّ مدارَ تكذيبِهِ كونُه ذا مالٍ وبنينَ من غيرِ أنْ يكونَ لسائرِ قبائِحِه دخلٌ في ذلكَ . وقُرِىءَ أَأَنْ كانَ على مَعْنَى ألأنْ كانَ ذَا مالٍ كذَّبَ بهَا أو أتطيعُه لأن كانَ ذا مالٍ . وقُرِىءَ إنْ كانَ بالكسرِ والشرطُ للمخاطبِ أي لا تُطعْ كلَّ حلاَّفٍ شارطاً يسارَهُ لأنَّ إطاعةَ الكافرِ لغناهُ بمنزلةِ اشتراطِ غناهُ في الطاعةِ . ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى

الخرطوم ﴾ بالكَيِّ على أكرمِ مواضعِه لغايةِ إهانتِه وإذلالِه ، قيلَ أصابَ أنفَ الوليدِ جراحةٌ يومَ بدرٍ فبقيتْ علامتُهَا ، وقيلَ معناهُ سنعلِّمُه يومَ القيامةِ بعلامةٍ مشوّهةٍ يُعلم بها عن سائرِ الكفرةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(44/777)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) ﴾

لترتيب النهي على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه صلى الله عليه وسلم وضلالهم أو على جميع ما فصل من أول السورة وهذا تهييج والهاب للتصميم على معاصاتهم أي دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك وجوز أن يكون نهيا عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره صلى الله عليه وسلم استجلاباً لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقة وينبىء عنه قوله تعالى :

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

(45/777)

﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ لأنه تعليل للنهي أو للانتهاء وإنما عبر عنها بالطاعة للمبالغة في التنفير أي أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي فهم يدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طعماً في ادهانك فالفاء للسببية داخلة على جملة مسببة عما قبلها وقدر المبتدأ لمكان رفع بالفعل والفرق بين الوجهين أن المعنى على أنهم تمنوا لو تدهن فتترتب مداهنتهم على مداهنتك ففيه ترتب احدى المداهنتين على الأخرى في الخارج ولو فيه غير مصدرية وعلى الثاني هي مصدرية والترتب ذهني على ودادتهم وتمنيهم وجوز أن تكون الفاء لعطف يدهنون على تدهن على أنه داخل معه في حيز لو متمني مثله والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك وما تقدم أبعد عن القيل والقال وأياً ما كان فالمعتبر في جانبهم حقيقة الادهان الذي هو إظهار الملاينة واضمار خلافها واما في جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبر بالنسبة إلى ودادتهم هو إظهار الملاينة فقط وأما اضمار خلافها فليس في حيز الاعتبار بل هم في غاية الكراهة له وإنما اعتباره بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام وفي بعض المصاحف كما قال هارون فيدهنوا بدون نون الرفع فقيل هو منصوب في جواب التمني المفهوم من ودوا وقيل انه عطف على تدهن بناء على أن لو بمنزلة ان الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولاً لودوا كأنه قيل ودوا أن تدهن فيدهنوا ولعل هذا مراد من قال أنه عطف على توهم أن وجمهور النحاة على أن لو

على حقيقتها وجوابها محذوف وكذا مفعول ودوا أي ودوا ادهانك لو تدهن فيدهنون لسروا بذلك .

(46/777)

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل وكفى بهذا مزجرة لمن اعتاد الحلف لأنه جعل فاتحة المثالب وأساس الباقي وهو يدل على عدم استشعار عظمة الله عز وجل وهو أم كل شر عقداً وعملاً وذكر بعضهم أن كثرة الحلف مذمومة ولو في الحق لما فيها من الجرأة على اسمه جل شأنه وهذا النهي للتهييج والالهاب أيضاً أي دم على ما أنت عليه من عدم طاعة كل حلاف ﴿ مَّهِينٍ ﴾ حقير الرأي والتدبير وقال الرماني المهين الوضيع لإكثاره من القبيح من المهانة وهي القلة وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال هو المكثار في الشر وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنه الكذاب .

﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب طعان قال أبو حيان هو من الهمز وأصله في اللغة الضرب طعناً باليد أو بالعصا ونحوها ثم استعير للذي ينال بلسانه قال منذر بن سعيد وبعينه وإشارته ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم فإن النميم والنميمة مصدران بمعنى السعاية والإفساد وقيل النميم جمع نميمة يريدون به الجنس واصل النميمة

الهمس والحركة الخفيفة ومنه اسكت الله تعالى نامته أي ما ينم عليه من حركته .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي بخيل ممسك من منع معروفه عنه إذا أمسكه فاللام للتقوية والخير على ما قيل المال أو مناع الناس الخير وهو الإسلام من منعت زيداً من الكفر إذا حملته على الكف فذكر الممنوع منه كأنه قيل مناع من الخير دون الممنوع وهو الناس عكس وجه الأول والتعميم هنا لك وعدم ذكر الممنوع منه أوقع ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام وهي الأفعال البطئة عن الثواب والمراد بها المعاصي والذنوب .

(47/777)

﴿ عُتُلٍ ﴾ قال ابن عباس الشديد الفاتك وقال الكلبي الشديد الخصومة بالباطل وقال معمر وقتادة الفاحش اللئيم وقيل هو الذي يعتل الناس أي يجرهم إلى حبس أو عذاب بعنف وغلظة ويقال عتنه بالنون كما يقال عتله باللام كما قال ابن السكيت وقرأ الحسن عتل بالرفع على الذم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي المذكور من مثالبه وقبائحه وبعد هنا كثم الدالة على التفاوت الرتبي فتدل على أن ما بعد أعظم في القباحة وفي الكشف أشعر كلام الزمخشري أنه متعلق بعتل فلزم تباينه من الصفات السابقة وتباين ما بعده أيضاً لأنه في سلكه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دعي ملحق بقوم ليس منهم كما قال ابن عباس والمراد به ولد الزنا كما جاء

بهذا اللفظ عنه رضي الله تعالى عنه وأنشد الحسان :

زنيم تداعته الرجال زيادة . . .

كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وكذا جاء عن عكرمة وأنشد :

زنيم ليس يعرف من أبوه . . .

بغي الأم ذو حسب لئيم

(48/777)

من الزنمة بفتحات وهي ما يتدلى من الجلد في حلق المعز والفلقة من أذنه تشق فتترك معلقة وإنما كان هذا أشد المعايب لأن الغالب أن النطفة إذا خبث الناشىء منها ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم فرخ الزنا أي ولده لا يدخل الجنة فهو محمول على الغالب فإنه في الغالب لخباثة نطفته يكون خبيثاً لا خير فيه أصلاً فلا يعمل عملاً يدخل به الجنة وقال بعض الأجلة هذا خارج مخرج التهديد والتعريض بالزاني وحمل على أنه لا يدخل الجنة مع السابقين لحديث الدارمي عن عبد الله بن عمر مرفوعاً لا يدخل الجنة عاق ولا ولد زنية ولا منان ولا مدمن خمر فإنه سلك في قرن العاق والمنان ومدمن الخمر ولا إرتيباب أنهم

عند أهل السنة ليسوا من زمرة من لا يدخل الجنة أبداً وقيل المراد أنه لا يدخل الجنة بعمل أبويه إذا مات صغيراً بل يدخلها بمحض فضل الله تعالى ورحمته سبحانه كأطفال الكفار عند الجمهور وروى ابن جبير عن ابن عباس أن الزنيم هو الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزنمة وفي رواية ابن أبي حاتم عنه هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء والمآل واحد وعنه أيضاً أنه المعروف بالابنة ولا يخفى أن المأبون معدن الشرور بل من لم يصل في ذلك الأمر الشنيع إلى تلك المرتبة كذلك في الأغلب ولا حاجة إلى كثرة الاستشهاد في هذا الباب وفي قول الشاعر الأكتفاء وهو

ولكم بذلت لك المودة ناصحا . . .

فغدوت تسلك في الطريق الأعوج

ولكن رجوتك للجميل وفعله . . .

يوماً فناداني النهي لا ترتج

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال نزل عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ [القلم : 10] الخ فلم يعرف حتى نزل عليه الصلاة والسلام بعد ذلك زنيم فعرفناه له زنمة في عنقه كزنمة الشاة واستشكل هذا بأن الزنيم عليه ليس صفة ذم فضلاً عن كونه أعظم فيه من الصفات التي قبل ذلك على ما يفيده بعد ذلك ولا يكاد يحسن تعليل النهي به على أن من المعلوم أن ليس المراد بالموصوف بهذه الصفات شخصاً بعينه لمكان كل ويحمل ما جاء في الروايات من أنه الوليد بن المغيرة المخزومي وكان دعيا في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده أو الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الأخنس بن سريق وكان أصله من ثقيف وعداده في زهرة أو الأسود بن عبد يغوث أو أبو جهل على بيان سبب النزول وقيل في ذلك أن المراد ذمه بقبح الخلق بعد ذمه بما تقدم وهو كما ترى فتأمل فلعلك تظفر بما يريح البال ويزيح الاشكال وقوله تعالى :

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بتقدير لام التعليل وهو متعلق بقوله سبحانه ﴿ لا تطع ﴾ [القلم : 10] أي لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولاً متقوياً بالبنين وقوله سبحانه :

﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أَساطير الأولين ﴾

استئناف جار مجرى التعليل للنهي وجوز أن يكون لأن متعلقاً بنحو كذب ويدل عليه الجملة الشرطية ويقدر مقدما دفعا لتوهم الحصر كأنه قيل كذب لأن كان الخ والمراد انه بطر نعمة الله تعالى ولم يعرف حقها ولم يجوز تعلقه بقال المذكور بعد لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولعل من يقول باطراد التوسع في الظرف يجوز ذلك وكذا من يجعل اذا هنا ظرفية وقال أبو علي الفارسي يجوز تعلقه بعتل وان كان قد وصف وتعقبه أبو حيان بأنه قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين وقيل متعلق بزنيم ويحسن ذلك إذا فسر بقبيح الأفعال وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وأبو جعفر وأبو بكر وحمزة وابن عامر أأن كان على الاستفهام وحقق الهمزتين حمزة وسهل الثاني باقيهم على ما في البحر وقال بعض قرأ أبو بكر وحمزة بهمزتين وابن عامر بهمزة ومدة والمعنى أكذب بها لأن كان ذا مال أو أطيعه لأن كان الخ وقرأ نافع في رواية اليزيدي عنه إن كان بالكسر على أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد بمعنى النهي في غير ذلك يعلم بالطريق الأولى فيثبت بدلالة النص والشرط والعلة في مثله مما لا مفهوم له أو على أن الشرط للمخاطب وحاصل المعنى لا تطع كل حلاف الخ شارطا يساره لأن اطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة وفيه تنزيل المخاطب منزلة من شرط ذلك وحققه زيادة للالهاب والثبات وتعريضاً بمن يحسب الغنى مكرمة والظاهر أن الجملة الشرطية بعد استئناف وقيل هذا مما اجتمع فيه شرطان وليسا من الشروط المترتبة الوقوع فالمتأخر لفظاً هو المتقدم والمتقدم لفظاً هو شرط في

الثاني فهو كقوله :

فإن عثرت بعدها ان وألت . . .

نفسي من ها تا فقولا لالعا

وقرأ الحسن أئذا على الاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله أساطير الأولين .

(51/777)

﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ سنجعل له سمة وعلامة ﴿ عَلَى الخرطوم ﴾ أي على الأنف وهو من باب إطلاق مشفر على شفة غليظة لإنسان كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى وعبر بذلك عن غاية الاذلال لأن السمة على الوجه شين حتى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عنه في الحيونات ولعن فاعله فكيف على أكرم موضع منه وهو الأنف لتقدمه وقد قيل الجمال في الأنف وعليه قول بعض الأدباء

.

وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطل . . .

فكيف إذاما الخال كان له حليا .

وجعلوه مكان العزة والحمية واشتقوا منه الأنفة وقالوا الأنف في الأنف وحمى أنفه وفلان

شامخ العرنين وقالوا في الذليل جدع أنفه ورغم أنفه ومنه قول جرير

.

لما وضعت على الفرزدق ميسمي . . .

وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

(52/777)

وفي لفظ الخرطوم استهانة لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الاذلال والمراد سنهينه في الدنيا ونذله غاية الاذلال وكون الوعيد المذكور في الدنيا هو المروى عن قتادة وذهب إليه جمع إلا أنهم قالوا المعنى سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بينا كما تقول سؤطوقك طوق الحمامة أي أثبت لك الأمر بينا فيك وزاد ذلك حسنا ذكر الخرطوم انتهى وبينه وبين ما تقدم فرق لا يخفى وقال بعض هو في الآخرة ومن القائلين بأن هذا وعيد بأمر يكون فيها من قال هو تعذيب بنار على أنفه في جهنم وحكى ذلك عن المبرد وقال آخرون منهم يوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره وقال أبو العالية ومقاتل واختاره الفراء

المراد يسود وجهه يوم القيامة قبل دخول النار وذكر الخرطوم والمراد الوجه مجازاً ومن القائلين بأنه يكون في الدنيا من قال هو وعيد بما أصابه يوم بدر فإنه خطم فيه بالسيف فبقيت سمة على خرطومه وروي هذا عن ابن عباس والمعروف في كتب السير والأحاديث أن أبا جهل قتل يوم بدر والباقين ما عدا الحكم ماتوا قبله فلم يسم أحد منهم بذلك الوسم وكذا الحكم لم يعلم أنه وسم بذلك وان كان لم يمت قبل وعن النضر بن شميل أن الخرطوم الخمر وأنشد

: تظل يومك في لهو وفي لعب . . .

وأنت يا لليل شراب الخراطيم

وان المعنى سنحده على شربها وتعقب بأنه تنفيه الرواية بأن أولئك الكفرة هلكوا قبل تحريم الخمر ما عدا الحكم وهو لم يثبت انه حد على أنهم لم يكونوا ملتزمي الأحكام والدراية أيضاً لتعقيد اللفظ وفوات فخامة المعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(53/777)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ ن ﴾

قرأ أبو بكر ، وورش ، وابن عامر ، والكسائي ، وابن محيصن ، وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو ، وقرأ الباقون بالإظهار ، وقرأ أبو عمرو ، وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل .

وقرأ ابن عامر ، ونصر ، وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميفع وهارون بضمها على البناء .

قال مجاهد ، ومقاتل ، والسديّ : هو الحوت الذي يحمل الأرض ، وبه قال مرّة الهمذاني ، وعطاء الخراساني ، والكلبي .

وقيل : إن نون آخر حرف من حروف الرحمن .

وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به .

وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة .

وقال عطاء ، وأبو العالية : هي النون من نصر وناصر .

قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين ، وقيل : هو حرف من حروف الهجاء ، كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتتحة بذلك ، وقد عرّفناك ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أوّل سورة البقرة ، والواو في قوله : ﴿ والقلم ﴾ واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما

فيه من البيان ، وهو واقع على كل قلم يكتب به .

وقال جماعة من المفسرين : المراد به : القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيماً له .

قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ " ما " موصولة أي : والذي يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره ؛ لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب .

والمعنى : والذي يسطرون أي : يكتبون كل ما يكتب ، أو الحفظة على ما تقدّم .

ويجوز أن تكون "ما" مصدرية ، أي : وسطرهم .

وقيل : الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة ، وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ " ما " نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها .

(54/777)

قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ كلام وقع في الوسط أي : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل ، قيل : الباء

متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل : أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة .

وقيل : الباء للقسم أي : وما أنت ونعمة ربك بمجنون .

وقيل : النعمة هنا الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا : ﴿ يَاأَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً ﴾ أي : ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوّة ، وقاسيت من أنواع الشدائد غَيْرُ مَمْنُونٍ أي : غير مقطوع ، يقال : مننت الحبل إذا قطعته .

وقال مجاهد : غَيْرُ مَمْنُونٍ غير محسوب ، وقال الحسن : غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مكدّر بالمنّ .

وقال الضحاك : أجراً بغير عمل .

وقيل : غير مقدّر وقيل : غير ممنون به عليك من جهة الناس .

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قيل : هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدي عن الأكثرين .

وقيل : هو القرآن ، روي هذا عن الحسن والعوفي .

وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله .

قال الزجاج : المعنى إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن ، وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم ، وقيل المعنى : إنك على طبع كريم .

قال الماوردي : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب .

(55/777)

وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن ، وهذه الجملة ، والتي قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ أي : ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء ، وذلك يوم القيامة ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي : المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش ، وأبو عبيدة ، وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب العلج . . . نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل : ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور ، والتقدير : بأيكم الفتون أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعي :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه . . . لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي : عقلا .

وقال الفراء : إن الباء بمعنى ، في أي في أيكم المفتون ، أفي الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق

الآخر ؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة في أيكم المفتون .

وقيل : الكلام على حذف مضاف ، أي : بأيكم فتن المفتون ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروي هذا عن الأخفش أيضاً .

وقيل : المفتون المعذب ، من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته ، ومنه قوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] ، وقيل : المفتون هو الشيطان ، لأنه مفتون في دينه ، والمعنى : بأيكم الشيطان .

(56/777)

وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ تعليل للجملة التي قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ نهاه سبحانه عن مماثلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ؛ لأنهم

كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار ، أو المراد بالطاعة : مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير ، فنهاه الله عن ذلك ، كما يدلّ عليه قوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة .

قال الفرّاء : المعنى لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبي .

وقال الضحاك ، والسديّ : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر .

وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون .

وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر ، فيذهبون معك .

وقال الحسن : ودّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك .

وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك .

قال ابن قتيبة : كانوا أرادوه على أن يعبد آلاهتهم مدّة ، ويعبدوا الله مدّة ، وقوله : ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ عطف على تدهن داخل في حيز لو ، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي : فهم يدهنون .

قال سيبويه : وزعم قالون أنها في بعض المصاحف " ودّوا لو تدهن فيدهنوا " بدون نون ، والنصب على جواب التمني المفهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة في معنى الإدهان ، هو ما ذكرناه أوّلاً .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي : كثير الحلف بالباطل ﴿ مَّهِينٍ ﴾ فعيل من المهانة ، وهي القلة في الرأي والتمييز .

وقال مجاهد : هو الكذاب .

وقال قتادة : المكثار في الشرّ ، وكذا قال الحسن .

وقيل : هو الفاجر العاجز .

وقيل : هو الحقير عند الله .

وقيل : هو الذليل .

وقيل : هو الوضيع ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ الهماز .

المغتاب للناس .

قال ابن زيد : هو الذي يهمز بأخيه .

وقيل : الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم ، واللماز الذي يذكرهم في مغيبهم ، كذا قال أبو العالية ، والحسن ، وعطاء بن أبي رباح ، وقال مقاتل عكس هذا .

والمشاء بنميم : الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال : نمّ ينمّ : إذا سعى

بالفساد بين الناس ، ومنه قول الشاعر :

ومولى كبيت النمل لا خير عنده . . . لمولاه إلاّ سعيه بنميم

وقيل : النميم جمع نميمة ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي : بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه .

وقيل : هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام .

قال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : متجاوز الحدّ في الظلم كثير الإثم ﴿ عُتُلٍ ﴾ قال الواحدي : المفسرون يقولون : هو الشديد الخلق الفاحش الخلق .

وقال الفراء : هو الشديد الخصومة في الباطل .

وقال الزجاج : هو الغليظ الجافي .

وقال الليث : هو الأكول المنوع ، يقال : عتلت الرجل أعتله إذا جذبته جذباً عنيفاً ، ومنه قول الشاعر :

نقرعه قرعاً ولسنا نعتله . . . ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أي : هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم ، والزنيم هو الدعيّ الملصق بالقوم وليس هو منهم ؛ مأخوذ من الزنمة المتدلية في حلق الشاة أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زنيم تداعاه الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزنيم المعروف بالشرّ .

وقيل : هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة .

(58/777)

وقيل : هو الظلوم ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لا تطع ﴾ أي : لا تطع من هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين .

قال الفراء ، والزجاج : أي لأن كان ، والمعنى لا تطعه لماله وبنيه .

قرأ ابن عامر ، وأبو جعفر ، والمغيرة ، وأبو حيوة ﴿ أن كان ﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر ، والمفضل " أأن كان " بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به : التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي خوّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله .

وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير الأولين ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي ، وقد تقدّم معنى أساطير الأوّلين في غير موضع ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ أي : سنسمه بالكيّ على خرطومه .

قال أبو عبيدة ، وأبو زيد ، والمبرد : الخرطوم الأنف .

قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار .

قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة ، فإنه في مذهب الوجه ؛ لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض .

قال الزجاج : سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم .

وقال قتادة : سنلحق به شيئًا لا يفارقه ، واختار هذا ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عاراً لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم ، وقيل : معنى ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ : سنحطمه بالسيف .

وقال النضر بن شميل : المعنى سنحدّه على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم ، ومنه قول الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي طرب . . . وأنت بالليل شرّاب الخراطيم

(59/777)

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقي في الأسماء والصفات ، والخطيب في تاريخه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : إن أوّل شيء خلقه الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : يا ربّ ، وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء فارتفع بخار الماء ، ففتقت منه السموات ثم خلق النون ، فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن مردويه عن عبادة ابن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد "

وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهي الدواة : وخلق القلم ، فقال : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ ن ﴾ الدواة .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النون : السمكة التي

عليها قرار الأرضين ، والقلم الذي خطّ به ربنا عزّ وجلّ القدر خيره وشرّه ، وضرّه ونفعه "

﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال : " الكرام الكاتبون " وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال : ما يكتبون .

(60/777)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال : وما يعلمون .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أمّ المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، والواحدي عنها "قالت : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه ، ولا من أهل بيته إلاّ قال : "لبيك" ، فلذلك أنزل الله ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال : سئلت

عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والترمذي وصححه ، وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت : لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً ، ولا صخاباً في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ قال : الشيطان ، كانوا يقولون : إنه شيطان ، وإنه مجنون .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : بأيكم المجنون .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ يقول : لو ترخص لهم فيرخصون .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ الآية قال : يعني : الأسود بن عبد يغوث .

وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر ، ولكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذي أنزل فيه :

﴿ والذى قَالَ لوالديه أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ [الأحقاف : 17] الآية ، قال : فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل في عبد الرحمن ، ولكن نزل في أبيك : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ " .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : " نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه بعد ذلك زنيم ، فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة" .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : العتلّ هو الدعيّ ، والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشرّ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعيّ .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه أيضاً قال : الزنيم الذي يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون رجل سوء .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : ظلوم .

وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق .

وقيل : في الوليد بن المغيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 266 . 270 ﴾

(62/777)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) ﴾

تفريع على جملة ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ [القلم : 7] إلى آخرها ، باعتبار ما تضمنته من أنه على الهدى ، وأن الجانب الآخر في ضلال السبيل ، فإن ذلك يقتضي المشادة معهم وأن لا يلين لهم في شيء ، فإن أذاهم إياه آل إلى محاربة الحق والهدى ، وتَصلّب فيما هم عليه من الضلال عن سبيل الله فلا يستأهلون به لِيناً ولكن يستأهلون إغلاظاً .

رُوي عن الكلبي وزيد بن أسلم والحسن بألفاظ متقاربة تحوم حول أن المشركين ودّوا أن يمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهرتهم بالتضليل والتحقير فيمسكوا عن أذاه ، ويصانعَ بعضُهم بعضاً فنهاه الله عن إجابتهم لما وَدُّوا .

ومعنى ﴿ ودُّوا ﴾ : أحبوا .

وليس المراد أنهم ودُّوا ذلك في نفوسهم فأطْلَع الله عليه رسوله صلى الله عليه وسلم لعدم مناسبته لقوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾

وورد في كتب السيرة أن المشركين تقدموا للنبيء صلى الله عليه وسلم بمثل هذا العرض ووسطوا في ذلك عمه أبا طالب وعتبة بن ربيعة .

فينتظم من هذا أن قوله ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ نهي عن إجابتهم إلى شيء عرضوه عليه عندما قرعهم بأول هذه السورة وبخاصة من وقْع معنى التعريض البديع الممزوج بالوعيد بسوء المستقبل من قوله : ﴿ فستبصُر ويبصرون بأيكم المفتون إلى قوله : بالمهتدين ﴾ [القلم : 75] فلعلهم تحدثوا أو أوعَزُوا إلى من يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أو صارحوه بأنفسهم بأنه إن ساءه قولهم فيه ﴿ إنه لمجنون ﴾ [القلم : 51] فقد ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه وكان الحال صلحاً بينهم ويترك كلّ فريق فريقاً وما عبده .

(63/777)

والطاعة : قبول ما يُبتغَى عمله ، ووقوع فعل ﴿ تطع ﴾ في حيز النهي يقتضي النهي عن جنس الطاعة لهم فيعم كل إجابة لطلب منهم ، فالطاعة مراد بها هنا المصالحة والملاينة

كما في قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجَاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ [الفرقان : 52] ، أي لا تلن لهم .

واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في الإِيماء إلى وجه بناءِ الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته .

ومن هنا يتضح أن جملة ﴿ ودُّوا لو تُدهِنُ فيدهنون ﴾ بيان لمتعلق الطاعة المنهي عنها ولذلك فصلت ولم تعطف .

وفعل ﴿ تدهن ﴾ مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة ، وحقيقة هذا الفعل أن يجعل لشيء دهناً إما لتليينه وإما لتلوينه ، ومن هاذين المعنيين تفرعت معاني الإِدهان كما أشار إليه الراغب ، أي ودّوا منك أن تدهن لهم فيدهنوا لك ، أي لو تُواجههم بحسن المعاملة فيواجهونك بمثلها .

والفاء في ﴿ فيدهنون ﴾ للعطف ، والتسبب عن جملة ﴿ لو تدهن ﴾ جواباً لمعنى التمني المدلول عليه بفعل ﴿ ودُّوا ﴾ بل قصد بيان سبب ودادتهم ذلك ، فلذلك لم ينصب الفعل بعد الفاء بإضمار (أنْ) لأن فاء المتسبب كافية في إفادة ذلك ، فالكلام بتقدير مبتدأ محذوف تقديره : فهم يدهنون .

وسلك هذا الأسلوب ليكون الاسم المقدر مقدماً على الخبر الفعلي فيفيد معنى

الاختصاص ، أي فالإِدهان منهم لا منك ، أي فاترك الإِدهان لهم ولا تتخلق أنت به ، وهذه طريقة في الاستعمال إذا أريد بالترتبات أنه ليس تعليق جواب كقوله تعالى : ﴿ فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ [الجنّ : 13] ، أي فهو لا يخاف بخساً ولا رهقاً .

وحرف ﴿ لو ﴾ يحتمل أن يكون شرطياً ويكونَ فعل ﴿ تدهن ﴾ شرطاً ، وأن يكون جوابُ الشرط محذوفاً ويكون التقدير : لو تدهن لحصل لهم ما يودون .

(64/777)

ويحتمل أن يكون ﴿ لو ﴾ حرفاً مصدرياً على رأي طائفة من علماء العربية أن ﴿ لو ﴾ يأتي حرفاً مصدرياً مثل (أنْ) فقد قال بذلك الفراء والفارسي والتبريزي وابن مالك فيكون التقدير : ودوا إدهانك .

ومفعول ﴿ وَدُّوا ﴾ محذوف دل عليه ﴿ لو تدهن ﴾ ، أو هو المصدر بناء على أن ﴿ لو ﴾ تقع حرفاً مصدرياً ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يوَدُّ أحدهم لو يُعَمّر ألف سنة ﴾ في سورة البقرة (96) .

وقد يفيد موقع الفاء تعليلاً لمودتهم منه أن يدهن ، أي ودوا ذلك منك لأنهم مدهنون ، وصاحب النية السيئة يود أن يكون الناس مثله .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10)

إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب فلم يُكتفَ بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين ، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال : ولا كلَّ خلاف ، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى .

وليفيد تسليط الوعيد الخاص وهو في مضمون قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ على الخرطوم ﴾ [القلم : 16] على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين .

وقريب منه قول الحارث بن همام الشيباني:

أيا ابنَ زَيَّابَةَ إنْ تلْقَنِي . . .

لَا تلْقَنِي في النعَم العازب

وتَلْقَنِي يَشْتَدُّ بي أجرد . . .

مُستقدِمُ البِرْكة كالراكب

فلم يكتف بعطفٍ : بـ (بل) أو (لكنْ) بأن يقول : بل تلقني يشتد بي أجرد ، أو لكن تلقني يشتد بي أجرد ، وعَدَل عن ذلك فأعاد فعل (تلقني) .

وكلمة ﴿ كلَّ ﴾ موضوعة لإفادة الشمول والإِحاطة لأفراد الاسم الذي تضاف هي إليه ،

فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها ﴿ كلّ ﴾ بالمباشرة وبالنعوت .

(65/777)

وقد وقعت كلمة ﴿ كلَّ ﴾ معمولة للفعل الداخلة عليه أداة النهي ولا يفهم منه أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفاً للنهي إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال ، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بَلْهَ من اجتمع له عِدَّةٌ منها .

وفي هذا ما يبطل ما أصَّلَه الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" من الفرق بين أن تقع ﴿ كلَّ ﴾ في حيز النفي ، أي أو النهي فتفيد ثبوت الفعل أو الوصف لبعض مما أضيفت إليه ﴿ كلَّ ﴾ إن كانت ﴿ كلَّ ﴾ مسنداً إليها ، أو تفيد تعلق الفعل أو الوصف ببعض ما أضيفت إليه ﴿ كل ﴾ إن كانت معمولة للمنفيِّ أو المنهيّ عنه ، وبين أن تقع ﴿ كلّ ﴾ في غَير حَيّزِ النفي ، وجعَلَ رفْع لفظ (كلُّه) في قول أبي النجم:

قد أَصْبَحَتْ أُم الخيار تدّعي . . .

عليّ ذنباً كلُّه لم أصْنَع

متعيناً ، لأنه لو نصبه لأفاد تنصله من أن يكون صنع مجموع ما ادعته عليه من الذنوب ، فيصدق بأنه صنع بعض تلك الذنوب وهو لم يقصد ذلك كما صرحَ بإبطاله العلامةُ التفتازاني في "المطول" ، واستشهد للإبطال بقوله تعالى : ﴿ والله لا يُحب كلّ كفار أثيم ﴾ [البقرة : 276] وقوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ .

وأجريت على المنهي عن الإطاعة بهذه الصفات الذميمة ، لأن أصحابها ليسوا أهلاً لأن يطاعوا إذ لا ثقة بهم ولا يأمرون إلاّ بسوء .

قال جمع من المفسرين المراد بالحَلاّف المَهين : الوليد بن المغيرة ، وقال بعضهم : الأخنس بن شَريق ، وقال آخرون : الأسودُ بن عبد يغوث ، ومن المفسرين من قال المراد : أبو جهل ، وإنما عنوا أن المراد التعريض بواحد من هؤلاء ، وإلاّ فإن لفظ ﴿ كلّ ﴾ المفيدَ للعموم لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معين ، أما هؤلاء فلعل أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف فهم ممن أريد بالنهي عن إطاعته ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم .

(66/777)

وليس المراد مَن جَمَع هذه الخلال بل من كانت له واحدة منها ، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن التي خُتم بها قوله : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ [القلم

: 15] ، لكن الذي قال في القرآن إنه ﴿ أساطير الأولين ﴾ [القلم : 15] هو الوليد بن المغيرة ، فهو الذي اختلق هذا البهتان في قصة معلومة ، فلما تلقف الآخَرون منه هذا البهتان وأُعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم ممن يقوله ولذلك أسند الله إليهم هذا القول في آية ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ [الفرقان : 5] .

وذُكرت عشر خلال من مذامّهم التي تخلقوا بها :

الأولى : ﴿ حَلاَّف ﴾ ، والحَلاف : المكثر من الأيمَان على وُعودِه وأخباره ، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمد الحنث ، وإلاَّ لم يكن ذمه بهذه المثابة ، ومن المفسرين من جعل ﴿ مَهين ﴾ قيداً ل ﴿ حلافٍ ﴾ على جَعْل النهي عن طاعة صاحب الوصفين مجتمعين .

هذه خصلة ثانية وليست قيداً لصفة ﴿ حَلاّف ﴾ .

والمهين : بفتح الميم فَعيل من مَهُن بمعنى حَقُرَ وذَلّ ، فهو صفة مشبهة ، وفعله مَهُنَ بضم الهاء ، وميمه أصلية وياؤه زائدة ، وهو فعيل بمعنى فاعل ، أي لا تطع الفاجر الحقير .

وقد يكون ﴿ مهين ﴾ هنا بمعنى ضعيف الرأي والتمييز ، وكل ذلك من المهانة .

و ﴿ مهين ﴾ : نعت ل ﴿ حَلاف ﴾ ، وكذلك بقية الصفات إلى ﴿ زنيم ﴾ [القلم : 13] فهو نعت مستقل ، وبعضهم جعله قيداً ل ﴿ حَلاّف ﴾ وفَسر المهين بالكذاب أي في حلفه .

هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11)

الهمّاز كثير الهمزة.

وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة وفي التنزيل ﴿ ويل لكلّ هُمَزَة ﴾ [الهمزة: 1].

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديداً فصاحبه ﴿ همّاز ﴾ وإذا تكرر الأذى فصاحبه ﴿ همّاز ﴾.

(67/777)

المشَاء بالنميم: الذي يَنِمّ بين الناس، ووصفه بالمشّاء للمبالغة.

والقول في هذه المبالغة مثل القول في ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ ﴾ وهذه رَابعَة المذامّ.

والمشي: استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة مثل ذِكر السعي في قوله تعالى: ﴿ ويسعَوْن في الأرض فساداً ﴾ [المائدة: 64]، ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشدّ وقعاً في تصوّر السامع من أسماء المعقولات، فذِكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمّام، ألا ترى أن قولك: قُطِع رأسُه أوقعُ في النفس من قولك: قُتِل، ويدل لذلك أنه وقع مثله في قول النبي صلى الله عليه وسلم " وأمَّا الآخَرُ فكان يمشي بالنميمة "

والنميم : اسم مرادف للنميمة ، وقيل : النميم جمع نميمة ، أي اسمُ جمع لنميمة إذا أريد بها الواحدة وصيرورتُها اسماً .

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

هذه مذمة خامسة .

﴿ منّاع ﴾ : شديد المنع .

والخير : المال ، أي شحيح ، والخير من أسماء المال قال تعالى : ﴿ وإنه لحُب الخير لشديد ﴾ [العاديات : 8] وقال : ﴿ إنْ تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] ، وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي ﴿ حَلاّفٍ ، هَمّازٍ ، مشَّاءٍ ، منَّاعٍ ﴾ وهو ضرب من محسن الموازنة .

والمراد بمنع الخير : منعه عمن أسلَمَ من ذويهم وأقاربهم ، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه : من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ، وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد ، قال الله تعالى في شأن المنافقين ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضّوا ﴾ [المنافقون : 7] .

وأيضاً فمِن منعِ الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل قال تعالى : ﴿ ولا يَحُضّون على طعام المسكين ﴾ [الفجر : 18] .

قيل : كان الوليد بن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفاً يطعم أهلَ مِنى ، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً .

هما مذمتان سادسة وسابعة قرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم .

والاعتداء : مبالغة في العُدوان فالافتعال فيه للدلالة على الشدة .

والأثيم : كثير الإِثم ، وهو فعيل من أمثلة المبالغة قال تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : 4344] .

والمراد بالإِثم هنا ما يعد خطيئة وفساداً عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة .

قال أبو حيان : وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ونوسب فيها فجاء ﴿ حَلاّف ﴾ [القلم : 10] وبعده ﴿ مَهين ﴾ [القلم : 10] لأن النون فيها تواخِ مع الميم ، أي ميم ﴿ أثيم ﴾ ، ثم جاء ﴿ همّاز مشّاء ﴾ [القلم : 11] بصفتي المبالغة ، ثم جاء ﴿ منّاع للخَير معتد أثيم ﴾ صفات مبالغة اه .

يريد أن الافتعال في ﴿ معتدٍ ﴾ للمبالغة .

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13)

ثامنة وتاسعة .

والعُتُل : بضمتين وتشديد اللام اسم وليس بوصف لكنه يتضمن معنى صفةٍ لأنه مشتق من العَتْل بفتح فسكون ، وهو الدفع بقوة قال تعالى : ﴿ خذوه فاعْتلُوه إلى سواء الجحيم ﴾ [الدخان : 47] ولم يسمع (عاتل) .

ومما يدل على أنه من قبيل الأسماء دون الأوصاف مركب من وصفين في أحوال مختلفة أو من مركب أوصاف في حالين مختلفين .

وفسر العُتل بالشديد الخِلقة الرحيب الجوف ، وبالأكول الشروب ، وبالغشوم الظلوم ، وبالكثير اللّحم المختال ، روى الماوردي عن شهر بن حوشب هذا التفسير عن ابن مسعود وعن شداد بن أوس وعن عبد الرحمان بن غَنْم ، يزيدُ بعضهم على بعض عن النبي صلى الله عليه وسلم بسند غير قوي ، وهو على هذا التفسير إتْباع لصفة ﴿ منّاع للخير ﴾ [القلم : 12] أي يمنع السائل ويدفعه ويُغلظ له على نحو قوله تعالى : ﴿ فذلك الذي يَدعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] .

ومعنى ﴿ بعد ذلك ﴾ علاوة على ما عُدّد له من الأوصاف هو سيّىء الخِلقة سيِّىء المعاملة ، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكور ، فمفادها مفاد التراخي الرتبي كقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : 30] على أحد الوجهين فيه .

وعلى تفسير العُتل بالشديد الخِلقة والرحيب الجوف يكون وجه ذكره أن قباحة ذاته مكملة لمعائبه لأن العيب المشاهد أجلب إلى الاشمئزاز وأوغل في النفرة من صاحبه .

وموقع ﴿ بعد ذلك ﴾ موقعَ الجملة المعترضة ، والظرفُ خبر لمحذوف تقديره : هو بعد ذلك .

ويجوز اتصال ﴿ بعد ذلك ﴾ بقوله : ﴿ زنيم ﴾ على أنه حال من ﴿ زنيم ﴾ .

والزنيم : اللصيق وهو من يكون دعياً في قومه ليس من صريح نسبهم : إما بمغمز في نسبه ، وإما بكونه حليفاً في قوم أو مولى ، مأخوذ من الزَنَمة بالتحريك وهي قطعة من أذن البعير لا تنزع بل تبقى معلقة بالأذن علامة على كرم البعير .

والزنمتان بضعتان في رقاب المعز .

قيل أريد بالزنيم الوليد بن المغيرة لأنه ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده .

وقيل أريد الأخنس بن شريق لأنه كان من ثقيف فحالف قريشاً وحلّ بينهم ، وأيّا ما كان المراد به فإن المراد به خاص فدخوله في المعطوف على ما أضيف إليه ﴿ كل ﴾ [القلم :

10] إنما هو على فرض وجود أمثال هذا الخاص وهو ضرب من الرمز كما يقال : ما بال أقوام يعملون كذا ، ويُراد واحد معين .

قال الخطيم التميمي جاهلي ، أو حسان بن ثابت:

زنيم تداعاه الرجال زيادةً . . .

كما زيد في عَرض الأديم الأكارع

ويطلق الزنيم على من في نسبه غضاضة من قِبَل الأمهات ، ومن ذلك قول حَسان في هجاء أبي سفيان بن حَرب ، قبل إسلام أبي سفيان ، وكانت أمه مولاةً خلافاً لسائر بني هاشم إذ كانت أمهاتهم من صريح نسب قومهن:

وأنتَ زنيم نيطَ في آل هاشم . . .

كما نِيطَ خلْفَ الراكب القَدَحُ الفَرْدُ

وإنَّ سَنام المجد من آل هاشم . . .

بنُو بنت مخزوم ووالدُكَ العَبْد

(70/777)

يريد جدّه أبا أمه وهو مَوهب غلام عبد مناف وكانت أم أبي سفيان سُمية بنت موهب هذا .

والقول في هذا الإِطلاق والمرادِ به مماثل للقول في الإِطلاق الذي قبله .

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14)

يتعلق قوله : ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ بفعل ﴿ قَال ﴾ بتقدير لام التعليل محذوفة قبل ﴿ أنْ ﴾ ، وهو حذف مطرد تعلق بذلك الفعل ظرف هو ﴿ إذا تتلى ﴾ ومجرور هو ﴿ أن كان ذا مال ﴾ ، ولا بدع في ذلك وليست ﴿ إذا ﴾ بشرطية هنا فلا يهولنك قولهم : إن (مَا) بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، على أنها لو جعلت شرطية لما امتنع ذلك لأنهم يتوسعون في المجرورات ما لا يتوسعون في غيرها وهذا مجرور باللام المحذوفة .

والمراد : كل من كان ذا مال وبنين من كبراء المشركين كقوله تعالى : ﴿ وذَرْني والمكذبين أولِي النعمة ﴾ [المزمل : 11] .

وقيل : أريد به الوليد بن المغيرة إذ هو الذي اختلق أن يقول في القرآن ﴿ أساطير الأولين ﴾ وقد علمت ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تطِعْ كلّ حلاّف مهين ﴾ [القلم : 10] .

وكان الوليد بن المغيرة ذا سعة في المال كثير الأبناء وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقتُ وحيداً وجعلتُ له مالاً ممدوداً وبنينَ شهوداً إلى قوله : ﴿ إن هذا إلاّ قول البشر ﴾ [المدثر : 1125] .

والوجه أن لا يختص هذا الوصف به .

وأن يكون تعريضاً به .

والأساطير : جمع أسطورة وهي القصة ، والأسطورة كلمة معربة عن الرومية كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ في الأنعام (25) وقوله : ﴿ وَإذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم قالوا أساطير الأولين ﴾ في سورة النحل (24) .

وختمت الأوصاف المحذر عن إطاعة أصحابها بوصف التكذيب ليُرجع إلى صفة التكذيب التي انتُقل الأسلوب منها من قوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ [القلم : 8] .

وقرأ الجمهور ﴿ أنْ كان ذا مال ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر .

(71/777)

وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بهمزتين مخففتين فهو استفهام إنكاري .

وقرأه ابن عامر بهمزة ومَدَّة بجعل الهمزة الثانية ألفاً للتخفيف .

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

استئناف بياني جواباً لسؤال ينشأ عن الصفات الذميمة التي وصفوا بها أن يسأل السامع : ما جزاء أصحاب هذه الأوصاف من الله على ما أتوه من القبائح والاجتراء على ربِّهم .

وضمير المفرد الغائب في قوله : ﴿ سنسمه ﴾ عائد إلى كُل حلاّف باعتبار لفظه وإن كان معناه الجماعات فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه ﴿ كلَّ ﴾ [القلم : 10] من الصفات التي جاءت بحالة الإِفراد .

والمعنى : سنسم كل هؤلاء على الخراطيم ، وقد علمت آنفاً أن ذلك تعريض بمعيّن بصفة قوله : ﴿ أساطير الأولين ﴾ [القلم : 15] وبأنه ذو مال وبنين .

و ﴿ الخرطوم ﴾ : أريد به الأنف .

والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل .

وقد خلط أصحاب اللّغة في ذكر معانيه خلطاً لم تتبين منه حقيقته من مجازه .

وذكر الزمخشري في "الأساس" معانيه المجازية ولم يذكر معناه الحقيقي ، وانبهم كلامه في "الكشاف" إلاّ أن قوله فيه : وفي لفظ ﴿ الخُرطوم ﴾ استخفاف وإهانة ، يقتضي أن إطلاقه على أنف الإِنسان مجاز مرسل ، وجزم ابن عطية : أن حقيقة الخرطوم مَخْطَمِ السَبع أي أنف مثل الأسد ، فإطلاق الخرطوم على أنف الإِنسان هنا استعارة كإِطلاق المِشفر وهو شفة البعير على شفة الإِنسان في قول الفرزدق:

فلو كنتَ ضبيّاً عرفتَ قرابتي . . .

ولكنّ زنجيّ غَليظُ المشافر

وكإطلاق الجحفلة على شفة الإِنسان (وهي للخيل والبغال والحمير) في قول النابغة يهجو لبيد بنَ ربيعة:

ألا مَن مبلغٌ عني لبيداً . . .

أبا الوَرداء جَحْفَلَةَ الأَتان

والوسم للإبل ونحوها ، جعل سِمة لها أنها من مملوكات القبيلة أو المالك المعيَّن .

(72/777)

فالمعنى : سنعامله معاملةً يُعرف بها أنه عبدُنا وأنه لا يغني عنه ماله وولده منا شيئاً .

فالوسم : تمثيل تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه .

وأصل (نسمه) نَوْسِمه مثل : يَعِد ويَصِل .

وذِكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإِهانة فإن الوسم يقتضي التمكن وكونَه في الوجه إذلالاً وإهانة ، وكونه على الأنف أشد إذلالاً ، والتعبير عن الأنف بالخرطوم تشويه ، والضرب والوسم ونحوهما على الأنف كناية عن قوة التمكن وتمام الغلبة وعجز صاحب الأنف عن المقاومة لأن الأنف أبرز ما في الوجه وهو مجرى النفَس ، ولذلك غلَب ذكر الأنف في التعبير عن إظهار العزة في قولهم : شمخ بأنفه ، وهُو أشمّ الأنف ، وهُم شمّ العرانين ، وعبر عن

ظهور الذلة والاستكانة بكسر الأنف ، وجَدْعِه ، ووقوعه في التراب في قولهم : رَغِم أنفه ، وعلَى رغْم أنفه ، قال جرير :

لما وَضَعْت على الفرزدق ميسَمي . . .

وعلى البعيث جَدَعْتُ أنفَ الأخطل

ومُعظم المفسرين على أن المعنيَّ بهذا الوعيد هو الوليد بن المغيرة .

وقال أبو مسلم الأصفهاني في تفسيره قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ هو ما ابتلاه الله به في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار .

يريد : ما نالهم يوم بدر وما بعده إلى فتح مكة .

وعن ابن عباس معنى ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ سنخطمه بالسيف قال : وقد خُطم الذي نزلت فيه بالسيف يوم بدر فلم يزل مخطوماً إلى أن مات ولم يعيّن ابن عباس من هو .

وقد كانوا إذا ضربوا بالسيوف قصدوا الوجوه والرؤوس .

قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لعمر بن الخطاب لما بلغه قول أبي حذيفة لئن لقيتُ العباس لألجمنَّه السيفَ ، فقال رسول الله : "يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟" .

وقيل هذا وعيد بتشويه أنفه يوم القيامة مثل قوله : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ﴾ [آل عمران : 106] وجعل تشويهه يومئذٍ في أنفه لأنه إنما بالغ في عداوة الرسول والطعن في الدين بسبب الأنفة والكبرياء ، وقد كان الأنف مظهر الكِبر ولذلك سمي الكِبر أنفة اشتقاقاً من اسم الأنف فجعلت شوهته في مظهر آثار كبريائه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(74/777)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر في أول الملك أنه خلق الموت والحياة للابتلاء في الأعمال ، وختم هنا بعيب من يغتر بالمال والبنين وهو يعلم أن الموت وراءه ، أعاد ذكر الابتلاء وأكده لأن أعمالهم مع العلم بأنه عرض زائل أعمال من ظن الملك الثابت والتصرف التام ، فقال : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أي عاملنا – على ما لنا من العظمة – الذين نسمهم على الخراطيم من قريش وسائر عبادنا بما وسعنا عليهم به معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن ، فغرهم ذلك وظنوا أنهم أحباب ، ومن قترنا عليه من أوليائنا أعداء ، فاستهانوا بهم ، ونسبوهم لأجل تقللهم في الدنيا إلى السفه والجنون والضلال والفتون ، فيوشك أن نأخذهم بغتة كما فعلنا بأصحاب الجنة ، فكل من رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ابتلى به ، فإن آمن كان ممن أحسن عملاً ، وإلا كان ممن أساء .

(75/777)

ولما لم تعرف عامة أهل مكة نعمة الله عليهم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أخرجه الله عنهم وأكرمه بأنصار جعله أكرم الكرامات لهم ، وكل من سمع به ولم يؤمن فهو كذلك ، تكون أعماله كهذه الجنة يظنها شيئاً فتخونه أحوج ما يكون إليها ، أو كان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذي دعا عليهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أكلوا الجيف فما تابوا كما تاب

﴿ كما بلونا ﴾ أي اختبرنا بأن عاملنا معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن ، وحاصله أنه استخرج ما في البواطن ليعلمه العباد في عالم الشهادة كما يعلمه الخالق في عالم الغيب ، أو أنه كناية عن الجزاء ﴿ أصحاب الجنة ﴾ عرفها لأنها كانت شهيرة عندهم وهي بستان عظيم كان دون صنعاء بفرسخين ، يقال له الضروان ، يطؤه أهل الطريق ، كان صاحبه ينادي الفقراء وقت الصرام ، ويترك لهم ما أخطأ المنجل أو ألقته الريح أو بعد عن البساط الذي يبسط تحت النخلة ، فلما مات شح بنوه بذلك فحلفوا على أن يجذوها قبل الشمس حتى لا يأتي الفقراء إلا بعد فراغهم ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أقسموا ﴾ ودل على تأكيد القسم فقال : ﴿ ليصرمنها ﴾ عبر به عن الجذاذ بدلالته على القطع البائن المعزوم عليه المستأصل المانع للفقراء ليكون قطعاً من كل وجه ، من الصريم – لعود يعرض على فم الجدي لئلا يرضع ، ومن الصرماء : المفازة لا ماء بها ، والناقة القليلة اللبن ﴿ مصبحين ﴾ أي داخلين في أول وقت الصباح ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنهم لا ﴿ يستثنون ﴾ أي لا يطلبون ولا يوجدون ثنياً – أي عوداً – إلى ما قبل اليمين بقولهم " إن شاء الله " أو غير ذلك من الألفاظ الموجبة لأن يكون شيء من جنتهم مطلقاً غير ممنوع ، وسمي ذلك استثناء لأنه إخراج لشيء يكون حكمه غير المذكور أولاً ، وكان الأصل فيه : إلا أن يشاء الله ، وألحق به إن شاء الله لرجوعه إليه في اتحاد الحكم ﴿ فطاف ﴾ أي

فتسبب عن عملهم هذا الطامح أن طاف ﴿ عليها ﴾ أي جنتهم ﴿ طائف ﴾ أي عذاب مهلك محيط

(76/777)

مع أنه أمر يسير جداً عند الله وإن كان عظيماً بالنسبة إليها لأنه لم يدع منها شيئاً ، ولا يكون الطائف بهذا المعنى إلا بالليل ، كذا قيل ، ويرده

﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ [الأعراف : 201] .

ولما كان هذا مقتاً في الصورة أخبر بأنه لطف وتربية في المعنى بقوله : ﴿ من ربك ﴾ أي المعروف بالعظمة التي لا تحد وبالإحسان إليك فهو جدير بأن يؤدب قومك ليقبلوا منك كما أدب أصحاب الجنة بما أوجب توبتهم وهو الحقيق بتربية العباد يعقلوا عنك ويكونوا خليقين بالتجنب للدنيا والإقبال على المعالي ﴿ وهم ﴾ أي والحال أن أصحاب الجنة المقسمين ﴿ نائمون ﴾ وقت إرسال الطائف ﴿ فأصبحت ﴾ أي فتسبب عن هذا الطائف الذي أرسله القادر الذي لا يغفل ولا ينام على مآل من لا يزال أسير العجز والنوم فعلاً أو قوة أن صارت جنتهم وقت اجتنائهم لها بالغد وسرورهم بها ﴿ كالصريم ﴾ أي كالأشجار التي صرم عنها ثمرها أو كالشيء الذي انقطع ما بينه وبين قاصده فلا وصول إليه بوجه ، وقيل :

كالليل المظلم الأسود ، وقيل : كالرماد الأسود ، ليس بها ثمرة ، لأن ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شيئاً ، لأنهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق بضد ما كان لأبيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة في جميع أحواله .

(77/777)

ولما كانوا لقوة عزمهم على ما أقسموا عليه كأنهم كانوا على ميعاد ، سبب عنه قوله : ﴿ فتنادوا ﴾ أي كانوا كأنهم نادى كل منهم الآخر ﴿ مصبحين ﴾ أي في حال أول دخولهم في الإصباح ، وفسر التنادي بقوله : ﴿ أن اغدوا ﴾ أي بكروا جداً مقبلين ومستولين وقادرين ﴿ على حرثكم ﴾ أي محل فائدتكم الذي أصلحتموه وتعبتم فيه فلا يستحقه غيركم ، فكأنهم استبطؤوا قيامهم وغدوهم فكفوا عنه بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي اليوم كوناً هو لكم بغاية الرغبة ﴿ صارمين ﴾ أي جاذين جذاذاً ليسلم لكم من غير مشاركة أحد لكم كما تواثقتم عليه ، أو جازمين بما عزمتم عليه ، وعبر عن إسراعهم إلى الذهاب بقوله : ﴿ فانطلقوا ﴾ أي بسبب هذا الحث وعقبه كأنهم كانوا متهيئين ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ يتخافتون ﴾ أي يقولون في حال انطلاقهم قولاً هو في غاية السر كأنهم ذاهبون إلى سرقة من دار هي في غاية الحراسة ، من الخفوت وهو الخمود ، ثم

فسر ما يتخافتون به بقوله : ﴿ أن لا يدخلنها ﴾ وأكدوه لأنه لا يصدق أن أحداً يصل إلى هذه الوقاحة وصلابة الوجه وأن جذاذاً يخلو من سائل .

(78/777)

ولما كانت العادة قاضية بأنه لا بد أن ينسى الإنسان شيئاً أو يقفل باباً أو ثغرة يدخل منه وبسببه فقير قالوا : ﴿ اليوم ﴾ أي في جميع النهار - بما دل عليه نزع الخافض - لتكروا عليه مراراً وتفتشوا فلا تدعوا فيه ثمرة واحدة ولا موضعاً يطمع بسببه أحد في قصدكم ﴿ عليكم ﴾ أي وأنتم بها ﴿ مسكين ﴾ وهو نهي للمسكين في اللفظ للمبالغة في نهي أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم ، فقال لهم أوسطهم سناً وخيرهم نفساً وأعدلهم طبعاً بما دل عليه ما يأتي : لا تقولوا هكذا واصنعوا من الإحسان ما كان يصنع أبوكم ، وكأنه طواه سبحانه لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شيئاً ، وأكد كون انطلاقهم حال الإصباح بقوله : ﴿ وغدوا ﴾ أي ساروا إليها غدوة ﴿ على حرد ﴾ لا غيره وهو القصد وشدة الغضب مع الجزم بالأمر واللجاج فيه والسرعة والنكد بالمنع وقلة الخير ، من حاردت السنة أي لم يكن فيها مطر ، والإبل : منعت درها ، وحرد - إذا أسرع ﴿ قادرين ﴾ عند أنفسهم وفي زعمهم بدليل عدم استثنائهم فإن الجزم على الفعل في المستقبل فضلاً عن أن يكون مع

الخلف فعل من لا كفؤ له ، ودل على قربها من منزلهم بالفاء فقال : ﴿ فلما رأوها ﴾ أي بعد سير يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر ﴿ قالوا ﴾ لأنها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة من حال ما كانت عليه عند تباعدهم وتغيير نياتهم فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها ، وأكدوا لأن ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم بها وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها فقالوا : ﴿ إنا لضالون ﴾ أي عن طريق جنتنا لأن هذه لا تشبهها بوجه فيما كان فيه بالأمس من النضارة وشدة الحمل وحسن الهيئة .

ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي ثابت حرماننا مما كان فيها من الخير الذي لا نغيب عنها إلا سواد الليل فحرمنا الله إياها بما عزمنا عليه من حرمان المساكين لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 103 . 106 ﴾

(79/777)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : لأجل أن كان ذا مال وبنين ، جحد وكفر وعصى وتمرد ، وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار بين في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان ، وليصرفه إلى طاعة الله ، وليواظب على شكر نعم الله ، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم ، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال : ﴿ إِنَّا بلوناهم كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم ، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار ، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم ، روي أن واحداً من ثقيف وكان مسلماً ، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء ، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء ، فلما مات ورثها منه بنوه ، ثم قالوا : عيالنا كثير ، والمال قليل ، ولا يمكننا أن نعطي المساكين ، مثل ما كان يفعل أبونا ، فأحرق الله جنتهم ، وقيل : كانوا من بني إسرائيل ، وقوله : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ إذ حلفوا : ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ليقطعن ثمر نخيلهم مصبحين ، أي في وقت الصباح ، قال مقاتل : معناه أغدوا سراً إلى جنتكم ، فاصرموها ، ولا تخبروا المساكين ، وكان أبوهم يخبر المساكين ، فيجتمعون عند صرام جنتهم ، يقال : قد صرم العذق عن النخلة ، وأصرم النخل إذا حان وقت صرامه ،

وقوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ يعني ولم يقولوا : إن شاء الله ، هذا قول جماعة المفسرين ، يقال : حلف فلان يميناً ليس فيها ثنيا ولا ثنوى ، ولا ثنية ولا مثنوية ولا استثناء وكله واحد ، وأصل هذا كله من الثنى وهو الكف والرد ، وذلك أن الحالف إذا قال : والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره ، فقد رد انعقاد ذلك اليمين ، واختلفوا في قوله : ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ فالأكثرون أنهم إنما لم يستثنوا بمشيئة الله تعالى لأنهم كانوا كالواثقين بأنهم يتمكنون من ذلك لا محالة ، وقال آخرون : بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من

(81/777)

جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إلى المساكين .

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)

﴿ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي عذاب من ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلاً أي طرقها طارق من عذاب الله ، قال الكلبي : أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون فأصبحت الجنة كالصريم .

واعلم أن الصريم فعيل ، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، وأن يكون بمعنى الفاعل وههنا احتمالات أحدها : أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر وإن حصل

الاختلاف في أمور أخر ، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها ، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه ، لكن المشابهة في هلاك الثمر حاصلة وثانيها : قال الحسن : أي صرم عنها الخير فليس فيها شيء ، وعلى هذين الوجهين الصريم بمعنى المصروم وثالثها : الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه الصرائم ، وعلى هذا شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال ، وهي لا تنبت شيئاً ينتفع به ورابعها : الصبح يسمى صريماً لأنه انصرم من الليل ، والمعنى أن تلك الجنة يبست وذهبت خضرتها ولم يبق فيها شيء ، من قولهم : بيض الإناء إذا فرغه وخامسها : أنها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم ، والليل يسمى صريماً وكذا النهار يسمى أيضاً صريماً ، لأن كل واحد منهما ينصرم بالآخر ، وعلى هذا الصريم بمعنى الصارم ، وقال قوم : سمي الليل صريماً ، لأنه يقطع بظلمته عن التصرف وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل ، وقال آخرون : سميت الليلة بالصريم ، لأنها تصرم نور البصر وتقطعه .

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض : اغدوا على حرثكم ويعني بالحرث الثمار والزروع والأعناب ، ولذلك قال : صارمين لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار .

فإن قيل : لم لم يقل اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى على ؟ قلنا : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول : غدا عليهم العدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدي عليهم بالجفنة ويراح ، أي فأقبلوا على حرثكم باكرين .

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23)

أي يتسارون فيما بينهم ، وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى كتم ومنه الخفدود للخفاش ، قال ابن عباس : غدوا إليها بصدفة يسر بعضهم إلى بعض الكلام لئلا يعلم أحد من الفقراء والمساكين .

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24)

﴿ أن ﴾ مفسرة ، وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول أي يتخافتون يقولون لا يدخلها والنهي للمسكين عن الدخول نهي لهم عن تمكينه منه ، أي لا تمكنوه من الدخول (حتى يدخل) ، كقولك لا أرينك ههنا .

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25)

وفيه أقوال : الأول : الحرد المنع يقال : حاردت السنة إذا قل مطرها ومنعت ريعها ، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها فقل اللبن ، والحرد الغضب ، وهما لغتان الحرد والحرد والتحريك أكثر ، وإنما سمي الغضب بالحرد لأنه كالمانع من أن يدخل المغضوب منه في

الوجود ، والمعنى وغدوا وكانوا عند أنفسهم وفي ظنهم قادرين على منع المساكين الثاني :

قيل : الحرد القصد والسرعة ، يقال : حردت حردك قال الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله . . يحرد حرد الجنة المغلة

وقطاً حراد أي سراع ، يعني وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم يقولون : نحن نقدر على صرامها ، ومنع منفعتها عن المساكين والثالث : قيل : حرد علم لتلك الجنة أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان .

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27)

(83/777)

فيه وجوه أحدها : أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق فقالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء وثانيها : يحتمل أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا : إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء ، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع

بها ، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 77.79 ﴾

(84/777)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يريد أهل مكة .

والابتلاء الاختبار .

والمعنى أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا لِيَبْطروا ؛ فلما بَطِرُوا وعادَوْا محمداً صلى الله عليه وسلم ابتليناهم بالجوع والقَحْط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم .

وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ويقال بفرسخين

وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها ؛ فلما مات صارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها وبَخِلُوا بحقّ الله فيها ؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها .

قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ؛ ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم .

وقيل : هي جنة بضَوْران ، وضوران على فرسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير وكانوا بخلاء فكانوا يَجُدّون التمر ليلاً من أجل المساكين ، وكانوا أرادوا حصاد زرعها وقالوا : لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ، فغَدَوْا عليها فإذا هي قد اقتلعت من أصلها فأصبحت كالصَّرِيم ؛ أي كالليل .

ويقال أيضاً للنهار صرِيم .

فإن كان أراد الليل فِلاسوداد موضعها .

وكأنهم وجدوا موْضِعَها حَمْأة .

وإن كان أراد بالصَّريم النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض منه .

وكان الطّائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتلعها .

فيقال : إنه طاف بها حَوْل البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ؛ ولذلك سُمّيت الطائف .

وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غيرها .

وقال البكري في المُعْجَم : سُمّيت الطائف لأن رجلاً من الصَّدِف يقال له الدَّمُون ، بنى حائطاً وقال : قد بَنَيْتُ لكم طائفاً حول بلدكم ؛ فسُمّيت الطائف .

والله أعلم .

الثانية : قال بعض العلماء : على من حصد زَرْعاً أوجَدّ ثمرة أن يواسي منها من حضره ؛ وذلك معنى قوله : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : 141] وأنه غير الزكاة على ما تقدّم في "الأنعام" بيانه .

وقال بعضهم : وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون .

وكان بعض العباد يتحرّون أقواتهم من هذا .

وروي أنه نُهي عن الحصاد بالليل .

فقيل : إنه لِما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق .

وتأوّل من قال هذا الآية التي في سورة "نا وَالْقَلَمِ" .

وقيل : إنما نهى عن ذلك خشية الحيّات وهوامّ الأرض .

قلت : الأوّل أصح ؛ والثاني حسن .

وإنما قلنا الأول أصح لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى .

روى أسباط عن السُّدِّي قال : كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلاً صالحاً ، وكان إذا بلغ ثمارهُ أتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزوّدوا ؛ فلما مات قال بَنُوه بعضهم لبعض : عَلاَمَ نُعطي أموالنا هؤلاء المساكين ! تعالَوْا فلْنُدْلج فنصْرِمنّها قبل أن يعلم

المساكين ؛ ولم يستثنوا ؛ فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خَفْتاً : لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ يعني حلفوا فيما بينهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ يعني لنجدنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين ؛ ولا يستثنون ؛ يعني لم يقولوا إن شاء الله .

وقال ابن عباس : كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تعدّاه المِنْجَل فلم يجذّه من الكَرْم ، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعدّاه المِنْجَل فهو للمساكين ، فإذا دَرَسُوا كان لهم كل شيء انتثر ؛ فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين ، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين ، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم .

(86/777)

فقالوا : قلّ المال وكثر العيال ؛ فتحالفوا بينهم ليغدُون غدوة قبل خروج الناس ثم ليَصْرِمنها ولا تعرف المساكين .

وهو قوله : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ أي حلفوا ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا

بسُدْفة من الليل لئلا ينتبه المساكين لهم .

والصرم القطع .

يقال : صرم العِذق عن النخلة .

وأصرم النخل أي حان وقت صِرامه .

مثل أرْكَبَ المهرُ وأحصدَ الزرعُ ، أي حان ركوبه وحَصاده .

﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله .

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ ينادي بعضهم بعضاً .

﴿ أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ عازمين على الصّرام والجداد .

قال قتادة : حاصدين زرعكم .

وقال الكلبي : ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل .

وقال مجاهد : كان حرثهم عِنَباً ولم يقولوا إن شاء الله .

وقال أبو صالح : كان استثناؤهم قولهم سبحان الله ربّنا .

وقيل : معنى ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي لا يستثنون حق المساكين ؛ قاله عكرمة .

فجاءوها ليلاً فرأوا الجنة مسودّة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون .

قيل : الطائف جبريل عليه السلام ؛ على ما تقدّم ذكره .

وقال ابن عباس : أمْرٌ من ربك .

وقال قتادة : عذاب من ربّك .

ابن جريج : عُنُق من نار خرج من وادي جهنم .

والطائف لا يكون إلا بالليل ؛ قاله الفرّاء .

الثالثة : قلت : في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم .

(87/777)

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : 25] وفي الصحيح : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " وقد مضى مبيَّناً في سورة "آل عمران" عند قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ ﴾ [آل عمران : 135]

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾

أي كالليل المظلم ؛ عن ابن عباس والفرّاء وغيرهما .

قال الشاعر :

تطاول لَيْلُك الجَوْنُ الْبَهِيمُ . . .

فما ينجاب عن صبح بَهِيم

أي احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس أيضاً : كالرَّماد الأسود .

قال : الصريم الرماد الأسود بلغة خُزَيمة .

الثورِيّ : كالزرع المحصود .

فالصريم بمعنى المصروم أي المقطوع ما فيه .

وقال الحسن : صُرِم عنها الخير أي قطع ؛ فالصريم مفعول أيضاً .

وقال المؤرّج : أي كالرملة انصرمت من معظم الرمل .

يقال : صريمة وصرائم ؛ فالرّملة لا تنبت شيئاً يُنتفع به .

وقال الأخفش : أي كالصبح انصرم من الليل .

وقال المبرد : أي كالنهار ؛ فلا شيء فيها .

قال شَمِر : الصَّريم الليل والصَّريم النهار ؛ أي ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا .

وقيل : سُمَي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل .

قال القُشَيْرِيّ : وفي هذا نظر ؛ لأن النهار يسمَّى صِريماً ولا يقطع عن تصرّف .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾

أي يتسارّون ؛ أي يُخفون كلامهم ويسرونه لئلا يَعلم بهم أحد ؛ قاله عطاء وقتادة .

وهو من خَفَت يَخْفِت إذا سكن ولم يبيّن .

كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة :

وإنّيَ لم أهلك سُلالاً ولم أمت . . .

خُفَاتاً وكُلاًّ ظَنَّه بِي عُوَّدِي

وقيل : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم .

(88/777)

وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصِرَّام .

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ أي على قَصْد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم .

قال معناه ابن عباس وغيره .

والحَرْد القصدُ .

حَرَدَ يَحْرِد (بالكسر) حَرْدَاً قصد .

تقول : حَرَدْتُ حَرْدَك ؛ أي قصدت قصدك .

ومنه قول الراجز :

أقبل سَيْلٌ جاء من عند اللَّهْ . . .

يَحْرِدُ حَرْدَ الجنة المُغِلَّهْ

أنشده النحاس :

قد جاء سيل جاء من أمر الله . . .

يحرد حرد الجنة المغله

قال المبرد : المُغِلّة ذات الغَلَّة .

وقال غيره : المغِلّة التي يجري الماء في غللها أي في أصولها .

ومنه تغلّلت بالغالية .

ومنه تغلّيت ، أبدل من اللام ياء .

ومن قال تَغَلَّفْت فمعناه عنده جعلتها غِلافاً .

وقال قتادة ومجاهد : "عَلَى حَرْدٍ" أي على جِدّ .

الحسن : على حاجة وفاقة .

وقال أبو عبيدة والقُتَيبِيّ : على حَرْد على منع ؛ من قولهم حَارَدَتِ الإبلُ حِراداً أي قلّت ألبانها .

والحَرُود من النُّوق القليلة الدَّرّ .

وحاردَتِ السَّنَةُ قلّ مطرها وخيرها .

وقال السدّي وسفيان : ﴿ على حَرْدٍ ﴾ على غضب .

والحرد الغضب .

قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي : وهو مخفف ؛ وأنشد شعراً :

إذا جياد الخيلِ جاءت تَرْدِي . . .

مملوءةً من غَضَبٍ وحَرَدِ

وقال ابن السِّكّيت : وقد يحرّك ؛ تقول منه : حَرِد (بالكسر) حَرَداً ، فهو حارد وحَرْدان .

ومنه قيل : أسَدٌ حارِدٌ ، ولُيُوثٌ حوارد .

وقيل : "عَلَى حَرْدٍ" على انفراد .

يقال : حَرَدَ يَحْرِد حُرُوداً ؛ أي تنَحىَّ عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطهم .

وقال أبو زيد : رجل حِرِيد من قوم حرداء .

وقد حَرَدَ يَحْرِد حُروداً ؛ إذا ترك قومه وتحوّل عنهم .

وكوكب حَرِيد ؛ أي معتزل عن الكواكب .

قال الأصمعيّ : رجل حَرِيد ؛ أي فريد وحيد .

قال : والمُنْحرِد المنفرد في لغة هُذَيل .

وأنشد لأبي ذؤيب :

كأنه كوكب في الجَوّ مُنْحَرِد . . .

(89/777)

ورواه أبو عمرو بالجيم ، وفسّره : منفرد .

قال : وهو سهيل .

وقال الأزهريّ : حَرْد اسم قريتهم .

السُّديّ : اسم جنتهم ؛ وفيه لغتان : حَرْدٌ وحَرَد .

وقرأ العامة بالإسكان .

وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقَع بالفتح ؛ وهما لغتان .

ومعنى "قَادِرِين" قد قدّروا أمرهم وبَنَوْا عليه ؛ قاله الفرّاء .

وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم .

وقال الشعبيّ : "قَادِرِينَ" يعني على المساكين .

وقيل : معناه من الوجود ؛ أي منعوا وهم واجدون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾

أي لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشَكُّوا فيها .

وقال بعضهم لبعض : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي ضللنا الطريق إلى جَنَّتِنَا ؛ قاله قتادة .

وقيل : أي إنا لضالون عن الصواب في غدوّنا على نية منع المساكين ؛ فلذلك عوقبنا .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرِمنا جنتنا بما صنعنا .

روى أسباط عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إياكم والمعاصي إن العبد لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحْرَم به رزقاً كان هُيِّيءَ له ثم تلا ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ " الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(90/777)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾

أي أصبنا أهل مكة ببلية وهي القحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله " اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف " ﴿ كَمَا بَلَوْنَا ﴾ أي مثل ما بلونا فالكاف في محل نصب صفة مصدر مقدر وما مصدرية وقيل بمعنى الذي أي

كالبلاء الذي بلوناه ﴿ أصحاب الجنة ﴾ المعروف خيرها عندهم كانت بأرض اليمن بالقرب منهم قريباً من صنعاء لرجل كان يؤدي حق الله تعالى منها فمات فصارت إلى ولده فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله تعالى منها فكان ما ذكره الله تعالى وكانت على ما أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جرير بأرض في اليمن يقال لها صوران بينها وبين صنعاء ستة أميال وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين فمات فقال بنوه ان كان أبونا لاحمق حين يطعم المساكين فاقسموا على أن لا يطعموا منها مسكنياً .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال كانت لشيخ من بني اسرائيل وكان يمسك قوت سنته ويتصدق بالفضل وكان بنوه ينهونه عن الصدقة فلما مات أقسموا على منع المساكين وفي رواية أنها كانت لرجل صالح على فرسخين من صنعاء وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بقي على البساط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلفوا ليصرمنها وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال عز وجل ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ معمول لبلونا ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ليقطعن من ثمارها بعد استوائها ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح وهذا حكاية لقسمهم لا على منطوقهم وإلا لقيل لنصمرنها بنون المتكلمين وكلا الأمرين جائز في مثله .

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ قيل أي ولا يقولون إن شاء الله تعالى وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤاده مؤدى الاستثناء فإن قولك لأخرجن إن شاء الله تعالى ولا أخرج إلا أن يشاء الله تعالى بمعنى واحد وقال الإمام أصل الاستثناء من الثني وهو الكف والرد وفي التقييد بالشرط رد لانعقاد ذلك اليمين فاطلاقه عليه حقيقة وقيل أي ولا يتثنون عما هموا به من منع المساكين والظاهر على القولين عطفه على أقسموا فمقتضى الظاهر وما استثنوا وكأنه إنما عدل عنه إليه استحضاراً للصورة لما فيها من نوع غرابة لأن اللائق في الحلف على ما يلزم منه ترك طاعة الاستثناء وفي الكشف هو حال أي غير مستثنين وفي العدول إلى المضارع نوع تعبير وتنبيه على مكان خطئهم وفيه رمز إلى ما ذكرنا وقيل المعنى ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم وعليه هو معطوف على قوله تعالى ﴿ ليصرمنها ﴾ [القلم : 17] ومقسم عليه أو على قوله سبحانه ﴿ مصبحين ﴾ [القلم : 17] الحال وهو معنى لا غبار عليه .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ أي أحاط نازلاً على الجنة ﴿ طَٰئِفٌ ﴾ أي بلاء محيط فهو صفة لمحذوف وقول قتادة طائف أي عذاب بيان لحاصل المعنى ونحوه قول ابن عباس أي أمر وعن الفراء تخصيص الطائف بالأمر الذي يأتي بالليل وكان ذلك على ما قال ابن جريج عنقا من نار خرج من وادي جنتهم وقيل الطائف هو جبريل عليه السلام اقتلعها وطاف بها حول البلد ثم وضعها قرب مكة حيث مدينة الطائف اليوم ولذلك سميت بالطائف وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والأعناب غيرها ولا يصح هذا عندي كالقول بأن الطائف المدينة المذكورة كانت بالشام فنقلها الله تعالى إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه السلام وكذا القول بأنها طافت على الماء في الطوفان ولو قيل كل ذلك على ظاهره حديث خرافة لا يعد حديث خرافة وقرأ النخعي طيف ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ مبتدىء من جهته عز وجل ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ في موضع الحال والمراد أتاها ليلاً كما روي عن قتادة وقيل المراد وهم غافلون غفلة تامة عما جرت به المقادير والأول أظهر من جهة السباق واللحاق .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ كالبستان الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء ففعيل بمعنى مفعول وقال ابن عباس كالرماد الأسود وهو بهذا المعنى لغة خزيمة وعنه أيضاً الصريم رملة باليمن معروفة لا تنبت شيئاً وقال مؤرج كالرملة انصرمت من معظم الرمل وهي لا تنبت شيئاً ينفع وقال منذر والفراء وجماعة الصريم الليل والمراد أصبحت محرّقة تشبه الليل في السواد وقال الثوري كالصبح من حيث أبيضت كالزرع المحصود وقال بعضهم

يسمى كل من الليل والنهار صريماً لانصرام كل عن صاحبه وانقطاعه عنه .

﴿ فَتَنَادَوْاْ ﴾ نادى بعضهم بعضاً ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ لقسمهم السابق .

(93/777)

﴿ أَنِ اغدوا ﴾ أي أي خرجوا على أن أن تفسيرية واغدوا بمعنى أخرجوا أو بأن اغدوا على أن أن مصدرية وقبلهما حرف جر مقدر وهي يجوز أن توصل بالأمر على الأصح ﴿ على حَرْثِكُمْ ﴾ أي بستانكم ﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ أي قاصدين للصرم وقطع الثمار فاغدوا وقيل يحتمل أن يكون المراد ان كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم من قولهم سيف صارم وليس بذاك وظاهر كلام جار الله إن غدا بمعنى بكر يتعدى بإلى وعدى ههنا بعلى لتضمين الغد ومعنى الإقبال كما في قولهم يغدي عليه بالجفنة ويراح أي فاقبلوا على حرثكم باكرين ويجوز أن يكون من غدا عليه إذا غار بأن يكون قد شبه غدوهم لقطع الثمار بغدو الجيش على شيء لأن معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه وهو الصرم والقطع ويكون هناك استعارة تبعية وجوز أن تعتبر الاستعارة تمثيلية وقال أبو حيان الذي في حفظي ان غدا يتعدى بعلى كما في قوله

: وقد غدو على ثبة كرام . . .

نشاوى واجدين لما نشاء

وكذا بكر مرادفه كما في قوله

: بكرت عليهم غدوة فرأيته . . .

قعودا لديه بالصريم عواذله

﴿ فانطلقوا وَهُمْ يتخافتون ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة وخفي بفتح الفاء وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ومنه الخفدود للخفاش والخفود للناقة التي تلقى ولدها قبل أن يستبين خلقه .

﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم ﴾ أي الجنة ﴿ عَلَيْكُمْ مّسْكِينٌ ﴾ ان مفسرة لما في التخافت من معنى القول أو مصدرية والتقدير بأن ويؤيد الأول قراءة عبد الله وابن أبي عبلة بإسقاطها وعليه قيل هو بتقدير القول وقيل العامل فيه يتخافتون لتضمنه معنى القول وهو المذهب الكوفي فيه وفي أمثاله وأياً ما كان فالمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه منه كقولهم لا أرينك ههنا .

(94/777)

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ ﴾ أي منع كما قال أبو عبيد وغيره من قولهم حاردت الابل إذا قلت ألبانها وحاردت السنة قل مطرها وخيرها والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ قادرين ﴾ قدم للحصر ورعاية الفواصل أي وغدوا قادرين على منع لا غير والمعنى أنهم عزموا على منع المساكين وطلبوا حرمانهم أو نكدهم وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على المنع والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان أو غدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها بدل كونهم قادرين على اصابة خيرها ومنافعها أي غدوا حاصلين على حرمان أنفسهم مكان كونهم قادرين على الانتفاع والحصر على الأول حقيقي وعلى هذا إضافي بالنسبة إلى انتفاعهم من جنتهم والحرمان عليه خاص بهم وجوز أن يكون على حرد متعلقاً بغدوا والمراد بالحرد حرد الجنة جيء به مشاكلة للحرث كأنه لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم عاقبهم الله تعالى بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد وقادرين من عكس الكلام للتهكم أي قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين وقيل الحرد الحرد بفتح الراء وقد قرىء به وهو بمعنى الغيظ والغضب كما قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي وأنشد

: إذا جياد الخيل جاءت تردى . . .

مملوءة من غضب وحرد

أي لم يقدروا إلا على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وروي هذا عن سفيان والسدى والحصر حقيقي ادعائي أو إضافي وقيل بمعنى القصد والسرعة وأنشد

: أقبل سيل جاء من أمر الله . . .

يحرد حرد الجنة المغلة

(95/777)

أي غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وروي هذا عن ابن عباس فعلى حرد ظرف مستقر حال من ضمير غدوا وقادرين حال أيضاً إلا أنها حال مقدرة على ما قيل وقيل حال حقيقية بناء على القيد بعند أنفسهم وإنما قيد به لأن ثمار جنتهم هالكة فلا قدرة لهم على صرامها وقد فنيت وقال الأزهري حرد اسم قريتهم وفي رواية عن السدى اسم جنتهم ولا أظن ذلك مراداً وقيل الحرد الانفراد يقال حرد عن قومه إذا تنحى عنهم ونزل منفرداً وكوكب حرود معتزل عن الكواكب والمعنى وغدوا إلى جنتهم منفردين عن المساكين ليس أحد منهم معهم قادرين على صرامها وهو من باب التهكم وقيل قادرين على هذا القول من التقدير بمعنى التضييق أي مضيقين على المساكين

إذ حرموهم ما كان أبوهم ينيلهم منها وهو حال مقدرة .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أول ما وقع نظرهم عليها ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ طريق جنتنا وما هي بها قاله قتادة وقيل لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين وليس بذاك .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قالوه بعد ما تأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر مضربين عن قولهم الأول أي لسنا ضالين بل نحن محرمون حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(96/777)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) ﴾

ضمير الغائبين في قوله : ﴿ بلوناهم ﴾ يعود إلى المكذبين في قوله : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ [القلم : 8] .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً دَعت إليه مناسبة قوله : ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه ءاياتُنا قال أساطير الأولين ﴾ [القلم : 1415] فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقعا من

قديم الزمان أصحابهما في بَطَر النعمة وإهمال الشكر فجَرَّ ذلك عليهم شر العواقب ، فضرب الله للمشركين مثلاً بحال أصحاب هذه الجَنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم .

كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف ، وضرب مثلاً بقارون في سورة القصص .

والبلْوى حقيقتها : الاختبار وهي هنا تمثيل بحال المبتلَى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر ، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإن الله أمدّ أهل مكة بنعمة الأمن ، ونعمة الرزق ، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة ، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإِيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطَغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكمَلَتْ لهم النعم .

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنّة المذكورة هنا هو الإِعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته .

وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب ، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحد جنسه .

وقد حصل ذلك بعد سنين إذْ أخذهم الله بسبع سنين بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وهذه القصة المضروب بها المثل قصة معروفة بينهم وهي أنه كانت ببلد يقال له : ضَرَوان (بضاد معجمة وراء وواو مفتوحات وألف ونون) من بلاد اليمن بقرب صنعاء .

وقيل : ضروان اسم هذه الجنة ، وكانت جنّة عظيمة غرسها رجل من أهل الصلاح والإيمان من أهل الكتاب قاله ابن عباس .

ولم يبين من أي أهل الكتاب هو : أمِن اليهود أم من النصارى ؟ فقيل : كان يهودياً ، أي لأن أهل اليمن كانوا تديّنوا باليهودية من عهد بلقيس كما قيل أو بعدها بِهجرة بعض جنود سليمان ، وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة كما في الإِصحاح السادس والعشرين من سفر اللاويين .

وقال بعض المفسرين : كان أصحابُ هذه الجنة بعد عيسى بقليل ، أي قبل انتشار النصرانية في اليمن لأنها ما دخلت اليمن إلاّ بعد دخول الأحباش إلى اليمن في قصة القَليس وكان ذلك زمان عام الفيل .

وعن عكرمة : كانوا من الحبشة كانت لأبيهم جنة وجعل في ثمرها حقاً للمساكين وكان يدخل معه المساكين ليأخذوا من ثمارها فكان يعيش منها اليتامى والأَرامل والمساكين

وكان له ثلاثة بنين ، فلما توفي صاحب الجنة وصارت لأولاده أصبحوا ذوي ثروة وكانوا أشحة أو كان بعضهم شحيحاً وبعضهم دونه فتمالؤوا على حرمان اليتامى والمساكين والأَرامل وقالوا : لنغدون إلى الجنة في سدفة من الليل قبل انبلاج الصباح مثل وقت خروج الناس إلى جناتهم للجذاذ فلنجذنها قبل أن يأتي المساكين .

فبيتوا ذلك وأقسموا أيماناً على ذلك ، ولعلهم أقسموا ليُلزموا أنفسهم بتنفيذ ما تداعَوا إليه .

(98/777)

وهذا يقتضي أن بعضهم كان متردداً في موافقتهم على ما عَزموا عليه وأنهم ألجموه بالقسم وهذا الذي يلتئم مع قوله تعالى : ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ [القلم : 28] ، قيل كان يقول لهم : اتقوا الله واعدلوا عن خبث نيتكم من منع المساكين ، وذكرهم انتقام الله من المجرمين ، أي فغلبوه ومضَوا لما عزموا عليه ، ولعلهم أقسموا على أن يفعلوا وأقسموا عليه أن يفعل معهم ذلك فأقسم معهم أو وافقهم على ما أقسموا عليه ، ولهذا الاعتبار أسند القسم إلى جميع أصحاب الجنة .

فلما جاءوا جنتهم وجدوها مسودّة قد أصَابها ما يشبه الاحتراق فلما رأوها بتلك الحالة

علموا أن ذلك أصابهم دون غيرهم لعزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم وأنابوا إلى الله رجاء أن يعطيهم خيراً منها .

قيل : كانت هذه الجنة من أعناب .

والصرم : قطع الثمرة وجذاذها .

ومعنى ﴿ مُصبحين ﴾ داخلين في الصباح أي في أوَائل الفجر .

ومعنى ﴿ لا يستثنون ﴾ : أنهم لا يستثنون من الثمرة شيئاً للمساكين ، أي أقسموا ليَصْرِمُنّ جميع الثمر ولا يتركون منه شيئاً .

وهذا التعميم مستفاد مما في الصرم من معنى الخزن والانتفاع بالثمرة وإلاّ فإن الصرم لا ينافي إعطاءَ شيء من المجذوذ لمن يريدون .

وأُجمل ذلك اعتماداً على ما هو معلوم للسامعين من تفصيل هذه القصة على عادة القرآن في إيجاز حكاية القصص بالاقتصار على موضع العبرة منها .

وقيل معناه : ﴿ لا يستثنون ﴾ لإيمانهم بأن يقولوا إن شاء الله كما قال تعالى : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله ﴾ [الكهف : 2324] .

ووجه تسميته استثناء أن أصل صيغته فيها حرف الاستثناء وهو (إلاّ) ، فإذا اقتصر أحد على "إن شاء الله" دون حرف الاستثناء أطلق على قوله ذلك استثناءٌ لأنه على تقدير : إلا أن يشاء الله .

على أنه لما كان الشرط يؤول إلى معنى الاستثناء أطلق عليه استثناء نظراً إلى المعنى وإلى مادة اشتقاق الاستثناء .

(99/777)

وعلى هذا التفسير يكون قوله : ﴿ ولا يستثنون ﴾ من قبيل الإِدماج ، أي لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقاً ، والجملة في موضع الحال ، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالتهم العجيبة من بُخلِهم على الفقراء والأيتام .

وعلى الروايات كلها يعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفاراً ، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو بطر النعمة والاغترار بالقوة .

وقوله : ﴿ فطاف عليها طائف من ربّك ، ﴾ الطواف : المشي حول شيء من كل جوانبه يُقال : طاف بالكعبة ، وأريد به هنا تمثيل حالة الإِصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان ، قال تعالى : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ الآية [الأعراف : 201] .

وعُدّي (طاف) بحرف (على) لتضمينه معنى : تسلط أو نزل .

ولم يعين جنس الطائف لظهور أنه من جنس ما يصيب الجنات من الهلاك ، ولا يتعلق غرض بتعيين نوعه لأن العبرة في الحاصل به ، فإسناد فعل (طاف) إلى ﴿ طائف ﴾ بمنزلة

إسناد الفعل المبني للمجهول كأنه قيل : فطِيف عليها وهم نائمون .

وعن الفراء : أن الطائف لا يكون إلاّ بالليل ، يعني ومنه سمي الخيال الذي يراه النائم في نومه طَيفاً .

قيل هو مشتق من الطائفة وهي الجزء من الليل ، وفي هذا نظر .

فقوله : ﴿ وهم نائمون ﴾ تقييد لوقت الطائف على التفسير الأول ، وهو تأكيد لمعنى ﴿ طائف ﴾ على تفسير الفراء ، وفائدته تصوير الحالة .

وتنوين ﴿ طائف ﴾ للتعظيم ، أي أمر عظيم وقد بينه بقوله : ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ فهو طائف سوء ، قيل : أصابها عنق من نار فاحترقت .

و﴿ من ربّك ﴾ أي جائياً من قِبَل ربّك ، ف ﴿ مِن ﴾ للابتداء يعني : أنه عذاب أرسل إليهم عقاباً لهم على عدم شكر النعمة .

وعُجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين .

ويؤخذ من الآية موعظة للذين لا يواسون بأموالهم .

(100/777)

وإذْ كان عقاب أصحاب هذه الجنة دنيوياً لم يكن في الآية ما يدل على أن أصحاب الجنة منعوا صدقة واجبة .

والصريم قيل : هو الليل ، والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منهما ينصرم عن الآخر كما سمي كل من الليل والنهار مَلْواً فيقال : المَلوَانِ ، وعلى هذا ففي الجمع بين (أصبحتْ) و (الصريم) محسن الطباق .

وقيل الصريم : الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة .

وقيل الصريم : اسم رملة معروفة باليمن لا تُنبت شيئاً .

وإيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية .

وبين (يصرِمُنَّها) و (الصريم) الجناس .

وفاء ﴿ فتنادوا ﴾ للتفريع على ﴿ أقسموا ليَصْرِمُنَّها مُصْبِحين ، ﴾ أي فلما أصبحوا تنادوا لإنجاز ما بيّتوا عليه أمرهم .

والتنادي : أي ينادي بعضُهم بعضاً وهو مشعر بالتحريض على الغدوّ إلى جنتهم مبكرين .

والغدوّ : الخروج ومغادرة المكان في غُدوة النهار ، أي أوله .

وليس قوله : ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ بشرط تعليق ولكنه مستعمل في الاستبطاء فكأنهم لإبطاء بعضهم في الغُدوِّ قد عدل عن الجذاذ ذلك اليوم .

ومنه قول عبد الله بن عُمر للحجاج عند زوال عرفة يحرضه على التهجير بالرواح إلى

الموقف الرواحَ إن كنت تُريد السنة .

ونظير ذلك كثير في الكلام .

و﴿ على ﴾ من قوله : ﴿ على حرثكم ﴾ مستعملة في تمكن الوصول إليه كأنه قيل :

اغدوا تكونوا على حرثكم ، أي مستقرين عليه .

ويجوز أن يضمن فعل الغدوّ معنى الإِقبال كما يقال : يُغدى عليه بالجَفْنة ويُراح .

قال الطيبي : "ومثله قيل في حق المطلب تَغدُو دِرَّتُه (التي يضرب بها) على السفهاء ، وجَفنته على الحُلماء" .

والحرث : شق الأرض بحديدة ونحوها ليوضع فيها الزريعة أو الشجر وليزال منها العشب .

(101/777)

ويطلق الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإِصلاح شجرها ، وهو المارد هنا كقوله تعالى : ﴿ وحرثٌ حِجْر ﴾ في سورة الأنعام (138) ، وتقدم في قوله : ﴿ والأَنعامِ والحرثِ ﴾ في سورة آل عمران (14) .

والتخافت : تفاعل من خَفَتَ إذا أسرّ الكَلام .

وأن لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين ﴾ تفسير لفعل ﴿ يتخافتون ﴾ و ﴿ أن ﴾

تفسيرية لأن التخافت فيه معنى القول دون حروفه .

وتأكيد فعل النهي بنون التوكيد لزيادة تحقيق ما تقاسموا عليه .

وأسند إلى ﴿ مسكين ﴾ فعل النهي عن الدخول والمراد نهي بعضهم بعضاً عن دخول المسكين إلى جنتهم ، أي لا يترك أحد مسكيناً يدخلها .

وهذا من قبيل الكناية وهو كثير في استعمال النهي كقولهم : لا أعرفنَّك تَفْعَلُ كذا .

وجملة ﴿ وغَدوا على حَردٍ قادرين ﴾ في موضع الحال بتقدير (قد) ، أي انطلقوا في حال كونهم غادين قادرين على حَرد .

وذُكِر فعل ﴿ غَدَوا ﴾ في جملة الحال لقصد التعجيب من ذلك الغدوِّ النحس كقول امرىء القيس:

وباتَ وباتت له ليلة . . .

كليلة ذي العائر الأرمد

بعد قوله:

تَطاول ليلك بالأثْمُد . . .

وباتَ الخَلي ولم تَرْقُد

يخاطب نفسه على طريقة فيها التفات أو التفاتان .

والحرد : يطلق على المنع وعلى القصد القوي ، أي السرعة وعلى الغضب .

وفي إيثار كلمة ﴿ حَرْد ﴾ في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى ، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه ، أي بأن يتعلق ﴿ على حرد ﴾ بـ ﴿ قادرين ﴾ ، أو بقوله ﴿ غَدوا ، ﴾ فإذا علق بـ ﴿ قادرين ، ﴾ فتقديم المتعلِّق يفيد تخصيصاً ، أي قادرين على المنع ، أي منع الخير أو منع ثمر جنتهم غير قادرين على النفع .

(102/777)

والتعبير بقادرين على حرد دون أن يقول : وغدوا حاردين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها قال تعالى : ﴿ لا يَقدرون على شيء مما كسبوا ﴾ [البقرة : 264] وقال : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة : 4] فقوله : ﴿ على حرد قادرين ﴾ على هذا الاحتمال من باب قولهم : فلان لا يملك إلاّ الحِرمان أو لا يقدر إلاّ على الخيبة .

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿ على حرد ﴾ متعلقاً بـ ﴿ غَدَوا ﴾ مبيناً لنوع الغُدو ، أي غدوا غدُوَّ سرعة واعتناء ، فتكون ﴿ على ﴾ بمعنى باء المصاحبة ، والمعنى : غدوا بسرعة ونشاط ، ويكون ﴿ قادرين ﴾ حالاً من ضمير ﴿

غدوا ﴾ حالاً مقدَّرة ، أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا .

وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا ، دل عليه قوله بعده ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ [القلم : 26] ، وقولُه قبله ﴿ فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون ﴾ .

وإذا أريد بالحرد الغضب والحَنق فإنه يقال : حَرَدٌ بالتحريك وحَرْدٌ بسكون الراء ويتعلق المجرور بـ ﴿ قادرين ﴾ وتقديمه للحصر ، أي غدوا لا قدرة لهم إلاّ على الحَنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها ، أي لم يقدروا إلاّ على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة .

وعن السدي : أن ﴿ حَرد ﴾ اسم قريتهم ، أي جنتهم .

وأحسب أنه تفسير ملفق وكأنَّ صاحبه تصيده من فعلي ﴿ اغْدُوا وغَدوا ﴾ .

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26)

أي استفاقوا من غفلتهم ورجعوا على أنفسهم باللائمَة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم ، وعلموا أنهم أُخذوا بسبب ذلك ، قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : 168] .

ومن حِكم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري "مَن لَم يشكر النعم فقد تَعَرَّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها" .

وأفادت (لَمَّا) اقتران جوابها بشرطها بالفور والبداهة .

والمقصود من هذا التعريضُ للمشركين بأن يكون حالهم في تدارك أمرهم وسرعة إنابتهم كحال أصحاب هذه الجنة إذ بادروا بالندم وسألوا الله عوض خير .

وإسناد هذه المقالة إلى ضمير ﴿ أصحاب الجنة ﴾ [القلم : 17] يقتضي أنهم قالوه جميعاً ، أي اتفقوا على إدراك سبب ما أصابهم .

ومعنى ﴿ إنا لضالون ﴾ أنهم علموا أنهم كانوا في ضلال أي عن طريق الشكر ، أي كانوا غير مهتدين وهو كناية عن كون ما أصابهم عقاباً على إهمال الشكر ، فالضلال مجاز .

وأكَّدوا الكلام لتنزيل أنفسهم منزلة من يشك في أنهم ضالون طريق الخير لقرب عهدهم بالغفلة عن ضلالهم ففيه إيذان بالتحسر والتندم .

و ﴿ بل نحن محرومون ﴾ إضراب للانتقال إلى ما هو أهم بالنظر لحال تبييتهم إذ بيَتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار ، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم .

والكلام يفيد ذلك إما بطريق تقديم المسند إليه بأن أُتي به ضميراً بارزاً مع أن مقتضى الظاهر أن يكون ضميراً مستتراً في اسم المفعول مقدَّراً مؤخراً عنه لأنه لا يتصور إلاّ بعد

سماع متحمّله .

فلما أبرز الضمير وقُدم كان تقديمه مؤذناً بمعنى الاختصاص ، أي القصر ، وهو قصر إضافي ، وهذا من مستتبعات التراكيب والتعويل على القرائن .

ويحتمل أن يكون الضلال حقيقياً ، أي ضلال طريق الجنة ، أي قالوا : إنا أخطأنا الطريق في السير إلى جنتنا لأنهم توهموا أنهم شاهدوا جنة أخرى غير جنتهم التي عهدوها ، قالوا ذلك تحيراً في أمرهم .

(104/777)

ويكون الإِضراب إبطالياً ، أي أبطلوا أن يكونوا ضَلّوا طريق جنتهم ، وأثبتوا أنهم محرومون من خير جنتهم فيكون المعنى أنها هي جنتهم ولكنها هلكت فحرموا خيراتها بأن أتلفها الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(105/777)

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وما كان القرع بالمصائب مظنة الرقة والتوبة لمن أريد به الخير ، وزيادة الكفر لغيره ، استأنف قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي رأياً وعقلاً وسناً ورئاسة وفضلاً ، منكراً عليهم : ﴿ ألم أقل لكم ﴾ أن ما فعلتموه لا ينبغي ، وأن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد . ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وما كان القرع بالمصائب مظنة الرقة والتوبة لمن أريد به الخير ، وزيادة الكفر لغيره ، استأنف

قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي رأياً وعقلاً وسناً ورئاسة وفضلاً ، منكراً عليهم : ﴿ ألم أقل لكم ﴾ أن ما فعلتموه لا ينبغي ، وأن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد .

(106/777)

ولما كان منع الخير ولا سيما في مثل هذا مستلزماً لظن النقص في الله تعالى إما بأنه سبحانه لا يخلف ما حصل التصدق به وإما أنه لا يقدر على إهلاك ما شح الإنسان به ، قال مستأنفاً : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ تسبحون ﴾ أي توقعون التنزيه لله سبحانه وتعالى عما أوهمه فعلكم ، وأقل التسبيح الاستثناء عند الإقسام شكاً في قدرة الإنسان وإثباتاً لقدرة الملك الديان استحضاراً لعظمته سبحانه وتعالى ، ودل سياق الكلام على أنهم كانوا متهيئين للتوبة بقوله : ﴿ قالوا ﴾ من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم فقال سبحانه حاكياً عن قولهم : ﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تنزه المحسن إلينا التنزيه الأعظم عن أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم ، وأكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وخضوعاً لربهم وتحقيقاً لتوبتهم لأن ما كانوا عليه من الحال يقتضي أن لا يصدق رجوعهم عنه بقولهم : ﴿ إنا كنا ﴾ أي بما في جبلاتنا من الفساد ﴿ ظالمين ﴾ أي راسخين في إيقاعنا الأشياء في غير مواقعها

حيث لم نعزم عزماً جازماً على ما كان يفعل أبونا من البر ، ثم حيث حلفنا على ترك ذلك ثم حيث لم نرد الأمر إلى الله بالاستثناء حيث حلفنا فإن الاستثناء تنزيه الله عن أن يجري في ملكه ما لا يريد ، وأكد توبتهم بقوله مسبباً عن اعترافهم بالظلم : ﴿ فأقبل بعضهم ﴾ أي في حال مبادرتهم إلى الخضوع ﴿ على بعض ﴾ ودلت التسوية بين فريقيهم في اللفظ على الاستواء في التوبة ﴿ يتلاومون ﴾ أي يفعل كل منهم مع الآخر في اللوم على ما قصده من المنع وترك ما تركوه من الإعطاء والدفع ما يفعله الآخر معه ، وينسب النقصان إليه كما هو دأب المغلوبين العجزة .

ولما تشوف السامع إلى معرفة بعض ذلك قال : ﴿ قالوا ﴾ منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته عن كل شيء : ﴿ يا ويلنا ﴾ أي هذا وقت حضورك أيها الويل إيانا ومنادتك لنا فإنه لا نديم لنا إلا أنت ، والويل هو الهلاك والإشراف عليه .

(107/777)

ولما كان أهل الرذالة ينكرون أن يكون من يمنع الفقراء طاغياً ، أكدوا قولهم : ﴿ إنا كنا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ طاغين ﴾ أي مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع الفقراء وعلى جذها في الصباح من غير استثناء فعل القادر ، وكان ذلك إن كان لا بد لنا منه ممكناً

بغير قسم ولا إخفاء من الغير ولا مخافتة حال السير بأن يقال للفقراء : يفتح الله ، ونحو ذلك من الكلام .

ولما قدموا ما هو أنفع لهم من اللوم المتقضي لإجماعهم على التوبة فعلم بذلك الندم الذي هو أمارة التوبة ، استأنفوا جواباً لمن سأل : هل اقتصروا على التلاوم ؟ قولهم : ﴿ عسى ﴾ أي يمكن أن يكون وهو جدير وخليق بأن يكون ﴿ ربنا ﴾ أي الذي أحسن إلينا بتربية هذه الجنة وبإهلاك ثمرها الآن تأديباً لنا ﴿ أن يبدلنا ﴾ أي من جنتنا شيئاً ﴿ خيراً منها ﴾ يقيم لنا أمر معاشنا فتنقلب أحوالنا هذه التي نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة بما أفاده إيقاع الفعل على ضميرهم ، وقراءة أبي عمرو ونافع بالتشديد وقراءة الباقين بالتخفيف وهما متقاربتان غير أن التشديد يدل على التدريج ، فالتخفيف أبلغ معنى : وإنما تعلق رجاؤنا بسبب توبتنا وعلمنا بأن ربنا قادر على ما يريد ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

(108/777)

ولما دل هذا الدعاء على إقبالهم على الله وحده صرحوا وأكدوا لأن حالهم الأول كان حال من ينكر منه مثل ذلك فقالوا معللين : ﴿ إنا ﴾ ولما كان المقام للتوبة والرجوع عن

الحوبة ، عبروا بأداة الانتهاء إشارة إلى بعدهم عن الحضرات الربانية تأدباً منهم فقالوا : ﴿ إلى ربنا ﴾ أي المحسن إلينا والمربي لنا بالإيجاد ثم الإبقاء خاصة لا إلى غيره سبحانه ﴿ راغبون ﴾ أي ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والإكرام بعد العفو ، وقد قيل إن الله تعالى جلت قدرته قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان بحيث كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل – رواه البغوي عن ابن مسعود ، ولكن لما كان المقام لترهيب من ركن إلى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله ولم يجلهم بجلاله طواه ، وذكر ما صور هذا الكلام وأنتجه من مساواة حال قريش وحال هؤلاء في الإحسان وطول الحلم مع احتقار أوليائه والتقوى عليهم بأفضاله ونعمائه ، فقال مرهباً : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الذي بلونا به أصحاب الجنة من إهلاك ما كانوا عند أنفسهم في غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان منهم لفعلهم والاستصواب وهددنا به أهل مكة فلم يبادروا إلى المتاب : ﴿ العذاب ﴾ الذي تحذرهم منه وتخوفهم به في الدنيا ، فإذا تم الأجل الذي قدرناه له أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لأنه لا يعجل إلا ناقص يخاف الفوت . ولما كانوا منكرين لأمور الآخرة أشد من إنكارهم لأمور الدنيا أكد قوله : ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي الذي يكون فيها للعصاة والجبارين ﴿ أكبر ﴾ أي في كل ما يتوهمونه .

ولما كان هذا موجباً لمن له أدنى شعور للهروب منه قال : ﴿ لو كانوا ﴾ أي الكفار ﴿ يعلمون ﴾ أي لو كان لهم علم بشيء من غرائزهم في وقت من الأوقات لرجعوا عما هم فيه مما عرفوا أنه يغضب الله فيكون سبب العذاب في الدارين ، وهم مع ذلك مما يرزىء بهم عند الله وعند الناس من تلك الآثار الخبيثة التي منها الأيمان الكاذبة ، ويدل على عدم شجاعتهم وقلة عقولهم ، لكنهم ليس لهم نوع علم الآن ، والمختوم بموته على الكفر لا يتجدد له نوع علم ، وغيره سيرجع في الوقت الذي قدره الله له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 106 . 109 ﴾

(110/777)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾

يعني أعدلهم وأفضلهم وبينا وجهه في تفسير قوله : ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] .

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ يعني هلا تسبحون وفيه وجوه الأول : قال الأكثرون معناه

هلا تستثنون فتقولون : إن شاء الله ، لأن الله تعالى إنما عابهم بأنهم لا يستثنون ، وإنما جاز تسمية قول : إن شاء الله بالتسبيح لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء ، فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله ، لكان ذلك يوجب عودة نقص إلى قدرة الله ، فقولك : إن شاء الله ، يزيل هذا النقص ، فكان ذلك تسبيحاً .

واعلم أن لفظ القرآن يدل على أن القوم كانوا يحلفون ويتركون الاستثناء وكان أوسطهم ينهاهم عن ترك الاستثناء ويخوفهم من عذاب الله ، فلهذا حكى عن ذلك الأوسط أنه قال بعد وقوع الواقعة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

الثاني : أن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم قال الأوسط لهم : توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب ، فلما رأوا العذاب ذكرهم ذلك الكلام الأول وقال : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ فلا جرم اشتغل القوم في الحال بالتوبة و :

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29)

فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به لكن بعد خراب البصرة الثالث : قال الحسن : هذا التسبيح هو الصلاة كأنهم كانوا يتكاسلون في الصلاة وإلا لكانت ناهية لهم عن الفحشاء والمنكر ولكانت داعية لهم إلى أن يواظبوا على ذكر الله وعلى قول : إن شاء الله ، ثم إنه تعالى لما حكى عن ذلك الأوسط أنه أمرهم بالتوبة وبالتسبيح حكى عنهم أشياء أولها : أنهم اشتغلوا بالتسبيح وقالوا في الحال سبحان ربنا عن أن يجري في ملكه شيء إلا بإرادته

ومشيئته ، ولما وصفوا الله تعالى بالتنزيه والتقديس اعترفوا بسوء أفعالهم وقالوا إنا كنا ظالمين .

وثانيها :

(111/777)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30)

أي يلوم بعضهم بعضاً يقول : هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول : ذاك لهذا أنت خوفتنا بالفقر ، ويقول الثالث لغيره : أنت الذي رغبتني في جمع المال فهذا هو التلاوم .

ثم نادوا على أنفسهم بالويل :

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31)

والمراد أنهم استعظموا جرمهم .

ثم قالوا عند ذلك :

﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ﴾ قرىء ﴿ يُبْدِلَنَا ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ إِنَّا إلى ربّنا راغبون ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه ، واختلف العلماء ههنا ، فمنهم من قال إن ذلك كان توبة منهم ، وتوقف بعضهم في ذلك قالوا : لأن هذا الكلام يحتمل أنهم إنما قالوه

رغبة منهم في الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ يعني كما ذكرنا من إحراقها بالنار ، وههنا تم الكلام في قصة أصحاب الجنة .

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران أحدهما : أنه تعالى قال : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير الأولين ﴾ [القلم : 14 ، 15] والمعنى : لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله كلا : بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء ، فإذا صرفه إلى الكفر دمر الله عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر الله على جنتهم فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية والثاني : أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة ويمنعوا الفقراء عنها فقلب الله عليهم القضية فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بد حلفوا على أن يقتلوا محمداً وأصحابه ، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا كأهل هذه الجنة .

ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 79 . 80 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾

يريد قريشاً ، أي امتحناهم ، و ﴿ أصحاب الجنة ﴾ فيما ذكر قوم إخوة كان لأبيهم جنة وحرث مغل فكان يمسك منه قوته ، ويتصدق على المساكين بباقيه ، وقيل بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجذه ، فيجذيهم منه فمات الشيخ ، فقال ولده : نحن جماعة وفعل أبينا كان خطأ ، فلنذهب إلى جنتنا ولا يدخلها علينا مسكين ، ولا نعطي منها شيئاً ، قال : فبيتوا أمرهم وعزمهم على هذا ، فبعث الله عليها بالليل طائفاً من نار أو غير ذلك ، فاحترقت ، فقيل : أصبحت سوداء ، وقيل : بيضاء كالزرع اليابس المحصود ، فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ، ثم تبينوها فعلموا أن الله تعالى أصابهم فيها ، فتابوا حينئذ وأنابوا وكانوا مؤمنين من أهل الكتاب ، فشبه الله تعالى قريشاً بهم ، في أنهم امتحنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وهداه كما امتحن أولئك بفعل أبيهم وبأوامر شرعهم ، فكما حل بأولئك العقاب في جنتهم كذلك يحل بهؤلاء في جميع دنياهم وفي حياتهم ، ثم التوبة معرضة لمن بقي منهم كما تاب أولئك .

(113/777)

وقال كثير من المفسرين : السنون السبع التي أصابت قريشاً هي بمثابة ما أصاب أولئك في جنتهم . وقوله تعالى : ﴿ ليصرمنها ﴾ أي ليجدنها ، وصرام النخل : جد ثمره وكذلك في كل شجرة ، و ﴿ مصبحين ﴾ معناه : إذا دخلوا في الصباح ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ ولا يتوقفون في ذلك ، أو ولا يثنون عن رأي منع المساكين ، وقال مجاهد معناه : لا يقولون إن شاء الله ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره ، والطائف : الأمر الذي يأتي بالليل ، ذكر هذا التخصيص الفراء ، ويرده قوله تعالى : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ [الأعراف : 201] ، والصريم : قال الفراء ومنذر وجماعة : أراد به الليل من حيث اسودت جنتهم . وقال آخرون : أراد به الصبح من حيث ابيضت كالحصيد ، قاله سفيان الثوري : والصريم ، يقال لليل والنهار من حيث كل واحد منهما ينصرم من صاحبه ، وقال ابن عباس : الصريم ، الرماد الأسود بلغة جذيمة ، وقال ابن عباس أيضاً وغيره : الصريم ، رملة باليمن معروفة لا تنبت فشبه جنتهم بها .

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

﴿ تنادوا ﴾ معناه : دعا بعضهم بعضاً إلى المضي لميعادهم ، وقرأ بعض السبعة : " أنُ اغدوا " بضم النون وبعضهم بكسرها ، وقد تقدم هذا مراراً . وقولهم ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ ، يحتمل أن يكون من صرام النخل ، ويحتمل أن يريد إن كنتم من أهل عزم

وإقدام على آرائكم من قولك سيف صارم ، و﴿ يتخافتون ﴾ معناه : يتكلمون كلاماً خفياً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تخافت بها ﴾ [الإسراء : 110] ، وكان هذا التخافت خوفاً من أن يشعر بهم المساكين ، وكان لفظهم الذي ﴿ يتخافتون ﴾ به أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة : "لا يدخلنها " بسقوط أن ، وقوله تعالى : ﴿ على حرد ﴾ يحتمل أن يريد على منع من قولهم : حاردت الإبل ، إذا قلت ألبانها فمنعتها ، وحاردت السنة ، إذا كانت شهباء لا غلة لها ، ومنه قول الشاعر [الكميت] : [الطويل]

(114/777)

وحاردت النكد الجلاد فلم يكن . . . لعقبة قدر المستعيرين معقب

ويحتمل أن يريد بالحرد القصد ، وبذلك فسر بعض اللغويين ، وأنشد عليه [القرطبي] : [الرجز]

أقبل سيل جاء من أمر الله . . . يحرد حرد الجنّة المغله

أي يقصد قصدها ، ويحتمل أن يريد بالحرد ، الغضب ، يقال : حرد الرجل حرداً إذا غضب ، ومنه قول الأشهب بن رميلة : [الطويل]

أسود شرى لاقت أسوداً خفية . . . تساقوا على حرد دماء الأساود

وقوله تعالى : ﴿ قادرين ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة ، أي هم قادرون في زعمهم ، ويحتمل أن يكون من التقدير كأنهم قد قدروا على المساكين ، أي ضيقوا عليهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : 7] ، وقوله : ﴿ فلما رأوها ﴾ أي محترقة حسبوا أنهم قد ضلوا الطريق ، وأنها ليست تلك ، فلما تحققوها علموا أنها أصيبت ، فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ، أي قد حرمنا غلتها وبركتها ، فقال لهم أعدلهم قولاً وخلقاً وعقلاً وهو الأوسط ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] أي عدولاً خياراً ، و﴿ تسبحون ﴾ ، قيل هي عبارة عن طاعة الله وتعظيمه ، والعمل بطاعته . وقال مجاهد وأبو صالح : هي كانت لفظة ، الاستثناء عندهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يرد عليه قولهم : ﴿ سبحان ربنا ﴾ فبادر القوم عند ذلك وتابوا وسبحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30)

(115/777)

﴿ يتلاومون ﴾ معناه : يجعل كل واحد اللوم في حيز صاحبه ، ويبرئ نفسه ، ثم أجمعوا على أنهم طغوا ، أي تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين ، ثم انصرفوا إلى رجاء الله تعالى ، وانتظار الفرج من لدنه في أن يبدلهم بسبب توبتهم خيراً من تلك الجنة . وقرأ : " يبْدلنا " بسكون الباء وتخفيف الدال ، جمهور القراء والحسن وابن محيصن والأعمش ، وقرأ نافع وأبو عمرو : بالتثقيل وفتح الباء ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك العذاب ﴾ ابتداء مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر قريش ، والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة ، أي ذلك العذاب ، هو العذاب الذي ينزل بقريش بغتة ، ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا ، وقال كثير من المفسرين : العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين ، حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(116/777)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾

أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم .

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ أي هلاّ تستثنون .

وكان استثناؤهم تسبيحاً ؛ قاله مجاهد وغيره .

وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه .

قال أبو صالح : كان استثناؤهم سبحان الله .

فقال لهم : هَلاّ تسبحون الله ؛ أي تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم .

قال النّحاس : أصل التسبيح التنزيهُ لِلّه عز وجل ؛ فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله ؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته .

وقيل : هَلاّ تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خُبْث نيّتكم ؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكّرهم انتقامه من المجرمين ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ ﴾ اعترفوا بالمعصية ونزّهوا الله عن أن يكون ظالماً فيما فعل .

قال ابن عباس في قولهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَآ ﴾ أي نستغفر الله من ذنبنا .

﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ﴾ أي يلوم هذا هذا في القسم ومنع المساكين ، ويقول : بل أنت أشرت علينا بهذا .

﴿ قَالُواْ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء .

وقال ابن كَيْسَان : طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل .

﴿ عسى رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ ﴾ تعاقدوا وقالوا : إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعنّ كما صنعت آباؤنا ؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها ، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزُغر من أرض الشام ، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها .

وقال ابن مسعود : إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً .

(117/777)

وقال اليمانيّ أبو خالد : دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم .

وقال الحسن : قول أهل الجنة ﴿ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم ، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ؛ فيوقف في كونهم مؤمنين .

وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعباً .

والمعظم يقولون : إنهم تابوا وأخلصوا ؛ حكاه القشيريّ .

وقراءة العامة "يُبْدِلَنَا" بالتخفيف .

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد ، وهما لغتان .

وقيل : التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم .

والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه .

وقد مضى في سورة "النساء" القول في هذا .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال ؛ عن ابن زيد .

وقيل : إن هذا وَعْظٌ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجَدْب لدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أي كفِعْلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا في الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الاخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وقال ابن عباس : هذا مَثَلٌ لأهل مكة حين خرجوا إلى بَدْرٍ وحلفوا ليقتلن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وليرجعنّ إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر ، وتضرب القَيْنات على رؤوسهم ؛ فأخلف الله ظنهم وأُسِرُوا وقُتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصِرَّام فخابوا .

ثم قيل : إن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم ، ويحتمل أنه كان تطوعاً ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

وقيل : السورة مَكّية ؛ فَبُعَد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القَحْط ، وعلى قتال بَدْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾

أي أهلَ مكةَ بالقحطِ بدعوةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أصحاب الجنة ﴾ وهم قومٌ من أهلِ الصلاةِ كانتْ لأبيهم هذِه الجنّةُ دونَ صنعاءَ بفرسخينِ فكانَ يأخذُ منها قوتَ سنةٍ ويتصدقُ بالباقي وكانَ يُنادِي الفقراءَ وقتَ الصّرامِ ، ويتركُ لهم ما أخطأهُ المنجلُ ، وما في أسفلِ الأكداسِ ، وما أخطأهُ القطافُ من العنبِ ، وما بقيَ على البساطِ الذي يُبسطُ تحتَ النخلةِ إذا صُرمتْ ، فكانَ يجتمعُ لهم شيءٌ كثيرٌ فلمّا ماتَ أبوهُم قال بنُوه إنْ فعلنَا ما كانَ يفعل أبونا ضاقَ علينا الأمرُ فحلفُوا فيمَا بينهُم . وذلكَ قولُه تعالى :

﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ليقطعُنَّها داخلينَ في الصباحِ ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي لا يقولونَ إنْ شاءَ الله وتسميتُه استثناءٌ مع أنَّه شرطٌ من حيثُ أنَّ مؤدّاهُ مُؤدَّى الاستثناءِ فإن قولَكَ لأخرُجنَّ إنْ شاءَ الله ولا أخرجُ إلا أنْ يشاءُ الله بمَعْنَى واحدٍ ، أو لا يستثنُونَ حِصَّةَ المساكينِ كما كانَ يفعلُهُ أبوهُم ، والجملةُ مستأنفةٌ . ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ أي على الجنّةِ ﴿ طَآئِفٌ ﴾ بلاءٌ طائفٌ ، وقُرِىءَ طيفٌ ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ مبتدأٌ من جهتِه تعالَى : ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ غافلونَ عمّا جرتْ بهِ المقاديرُ .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ كالبستانِ الذي صُرمتْ ثمارُه بحيثُ لم يبقَ منها شيءٌ ، فعيلٌ بمَعْنَى مفعولٍ ، وقيلَ كالليلِ أي احترقتْ فاسودَّتْ ، وقيلَ كالنَّهارِ أي يبستْ وابيضتْ ، سُمِّيا بذلكَ لأنَّ كلاً منهُما ينصرمُ عن صاحبِهِ ، وقيلَ الصَّريمُ الرمالُ ﴿ فَتَنَادَوْاْ ﴾ أي نادَى بعضُهُم بعضاً ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلينَ في الصباحِ ﴿ أَنِ اغدوا ﴾ أي اغدُوا على أنَّ أنْ مفسرةٌ أو بأنِ اغدُوا على أنَّها مصدريةٌ أي اخرجُوا غُدوةً ﴿ على حَرْثِكُمْ ﴾ بستانِكُم وضَيعتِكُم ، وتعديةُ الغدوِّ بعَلَى لتضمينِه مَعْنَى الإقبالِ أو الاستيلاءِ ﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ قاصدينَ للصَّرمِ ﴿ فانطلقوا وَهُمْ يتخافتون ﴾ أي يتشاورُون فيما بينَهُم بطريقِ المُخافتةِ وخَفيَ وخَفتَ وخَفَدَ ثلاثتُهَا في مَعْنَى الكتمِ ومنْهُ الخُفْدودُ للخُفَّاشِ ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ﴾ أي الجنةَ ﴿ اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ ﴾ أنْ مفسرةٌ لما في التخافتِ من مَعْنَى القولِ . وقُرِئَ بطرحِهَا على إضمارِ القولِ والمرادُ بنهيِ المسكينِ عن الدخولِ المبالغةُ في النهيِ عن تمكينِه من الدخولِ كقولِهم لا أرينَّكَ هَهُنا ﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قادرين ﴾ أي على نكدٍ لا غيرِ من حاردتِ السَّنةُ إذا لم يكُنْ فيها مطرٌ وحاردتِ الإبلُ إذا منعتْ دَرَّهَا ، والمَعْنَى أنَّهم أرادُوا أنْ يتنكدُوا على المساكينِ ويحرمُوهُم وهم قادرونَ على نفعِهم فغدَوا

بحالٍ لا يقدرونَ فيها إلا على النكدِ والحرمانِ وذلكَ أنَّهُم طلبُوا حرمانَ المساكينِ فتعجلُوا الحرمانَ والمسكنَةَ أوْ وغَدَوا على مُحاردةِ جَنَّتِهم وذهابِ خيرِهَا قادرينَ بدلَ كونِهم قادرينَ على إصابةِ خيرِهَا ومنافِعِهَا أي غَدَوا حاصلينَ على النكدِ والحرمانِ مكانَ كونِهم قادرينَ على الانتفاعِ ، وقيلَ الحردِ الحردِ وقدْ قُرِىءَ بذلكَ أي لم يقدرُوا إلا على حنقِ بعضِهم لبعضٍ لقولِه

(120/777)

تعالَى : ﴿ يتلاومون ﴾ وقيل الحَرْدُ القصدُ والسرعةُ أي غَدَوا قاصدينَ إلى جنتِهم بسرعةٍ قادرينَ عند أنفسِهم على صِرامِهَا وقيلَ هو علمٌ للجنةِ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُواْ ﴾ في بديهةِ رؤيتِهم ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي طريقَ جنتِنَا وما هيَ بهَا .

(121/777)

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ قالُوه بعد ما تأملُوا ووفقُوا على حقيقةِ الأمرِ مُضربينَ عن قولِهم الأولِ ، أي لسنا ضالينَ بل نحنُ محرومونَ حُرِمنَا خيرَهَا بجنايتِنَا على أنفسِنَا ﴿ قَالَ

أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي رأياً أو سِناً ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ لولا تذكرونَ الله تعالَى وتتوبونَ إليهِ من خُبثِ نيتِكُم وقد كانَ قالَ لهم حينَ عزمُوا على ذلكَ اذكرُوا الله وتوبُوا إليهِ عن هذهِ العزيمةِ الخبيثةِ من فورِكُم وسارِعُوا إلى حسمِ شرِّها قبلَ حُلولِ النقمةِ فعَصَوه فعيَّرهُم ، كمَا ينبىءُ عنهُ قولُه تعالَى : ﴿ قَالُواْ سبحان ربِّنَا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ وقيلَ المرادُ بالتسبيحِ الاستثناءُ لاشتراكِهما في التعظيمِ أو لأنَّه تنزيهٌ لهُ تعالَى عن أنْ يجريَ في ملكِهِ ما لا يشاؤُه ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ أي يلومُ بعضُهم بعضاً فإنَّ منهُم مَن أشارَ بذلكَ ومنهُم من استصوبَهُ ومنهُم من سكتَ راضياً بهِ ومنهُم من أنكرَهُ ﴿ قَالُواْ ياويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ متجاوزينَ حدودَ الله ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ وقُرِىءَ بالتشديدِ أي يُعطينا بدلاً منها ببركةِ التوبةِ والاعترافِ بالخطيئةِ . ﴿ خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إلى ربِّنَا راغبون ﴾ راجونَ العفوَ طالبونَ الخيرَ . وإلى لانتهاءِ الرغبةِ ، أو لضمنِهَا مَعْنَى الرجوعِ . عن مُجَاهدٍ تابوا فأُبدِلُوا خَيراً منهَا ، ورُويَ أنَّهم تعاقَدُوا وقالُوا إنْ أبدلنَا الله خيراً منها لنصنعنَّ كما صنعَ أبُونا فدَعَوا الله تعالَى وتضرعُوا إليهِ فأبدَلَهُم الله تعالَى من ليلِتهم ما هو خيرٌ منها ، قالُوا إنَّ الله تعالَى أمرَ جبريلَ عليهِ السَّلامُ أنْ يقتلعَ تلكَ الجنةَ المحترقةَ فيجعلَهَا بزُغَرَ من أرضِ الشامِ ويأخذَ من الشامِ جنةً فيجعلَهَا مكانَهَا ، وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ الله تعالَى عنهُ إنَّ القومَ لمَّا

أخلصُوا وعرفَ اللهُ منهُم الصدقَ أبدلَهُم جنةً يقالُ لها الحيوانُ فيها عنبٌ يحملُ البغلُ منهُ عُنقوداً وقالَ أبُو خالدٍ اليمانيُّ دخلتُ تلكَ الجنَّةَ فرأيتُ كلَّ عنقودٍ منهَا كالرجلِ الأسودِ القائمِ . وسُئِلَ قَتَادَةُ عن أصحابِ الجنَّةِ أهُم مِنْ أهلِ الجنَّةِ أم مِنْ أهلِ النارِ فقالَ : لقد كلفتني تعباً . وعنِ الحسنِ رحمَهُ اللهُ تعالَى : قولُ أصحابِ الجنةِ إنَّا إلى ربّنا راغبون لا أدري إيماناً كانَ ذلكَ منهُم أو على حدّ ما يكونُ من المشركينَ إذا أصابتْهُم الشدةُ ، فتوقفَ في أمرِهِم ، والأكثرونَ على أنَّهُم تابُوا وأخلصُوا ، حكاهُ القُشَيريُّ .

﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ جملةٌ منْ مبتدأٍ وخبرٍ مُقدمٍ لإفادةِ القصرِ ، والألفُ واللامُ للعهدِ أي مثلُ الذي بلونَا بهِ أهلَ مكةَ وأصحابَ الجنةِ عذابُ الدنيَا . ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أَكْبَرُ ﴾ أعظمُ وأشدُّ ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّه أكبرُ لاحترزُوا عمَّا يؤدّيهم إليهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(123/777)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) ﴾

أي أحسنهم وأرجحهم عقلاً ورأياً أو أوسطهم سنا ﴿ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك اذكروا الله تعالى وتوبوا إليه عن هذه النية الخبيثة من فوركم وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فغيرهم ويدل على هذا المعنى قوله تعالى :

(124/777)

﴿ قَالُواْ سبحان ربّنَا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ لأن التسبيح ذكر لله تعالى وانا كنا الخ ندامة واعتراف بالذنب فهو توبة والظاهر أنهم إنما تكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ولكن بعد خراب البصرة وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم لله عز وجل لأن الاستثناء تفويض إليه سبحانه والتسبيح تنزيه له تعالى وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم فكأنه قيل ألم أقل لكم لولا تستثنون أي تقولون إن شاء الله تعالى وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى وابن المنذر عن ابن جريج وحكاه في البحر عن مجاهد وأبي صالح انهما قالا كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح كما نقول نحن إن شاء الله تعالى وجعله بعض الحنفية استثناء اليوم فعنده لو قال لزوجته أنت طالق سبحان الله لا تطلق ونسب إلى الإمام ابن الهمام وادعى أنه قاله في فتاويه ووجه بأن المراد بسبحان الله

فيما ذكر أنزه الله عز وجل من أن يخلق البغيض إليه وهو الطلاق فإنه قد ورد أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق وأنكر بعض المتأخرين نسبته إلى ذلك الإمام المتقدم ونفى أن يكون له فتاوي واعترض التوجيه المذكور بما اعترض وهو لعمري أدنى من أن يعترض عليه وأنا أقول أولى منه قول النحاس في توجيه جعل التسبيح موضع الاستثناء ان المعنى تنزيه الله تعالى أن يكون شيء إلا بمشيئته وقد يقال لعل من قال ذلك بنى الأمر على صحة ما روي وان شرع من قبلنا شرع لنا إذا قصه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم علينا من غير نكير وهذا على علاته أحسن مما قيل في توجيهه كما لا يخفى وقيل المعنى لولا تستغفرون ووجه التجوز يعلم مما تقدم .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم على ما قيل من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من سكت راضياً به ومنهم من أنكره ولا يأبى ذلك إسناد الأفعال فيما سبق إلى جميعهم لما علم في غير موضع .

(125/777)

﴿ قَالُواْ يا ياويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى

(126/777)

﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ أي يعطينا بدلاً منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ أي من تلك الجنة ﴿ إِنَّا إلى رَبِّنَا ﴾ لا إلى غيره سبحانه ﴿ راغبون ﴾ راجون العفو طالبون الخير وإلى لانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع وعن مجاهد انهم تابوا فابدلوا خيراً منها وروي أنهم تعاقدوا وقالوا إن أبدلنا الله تعالى خير منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا الله عز وجل وتضرعوا إليه سبحانه فابدلهم الله تعالى من ليلتهم ما هو خير منها وقال ابن مسعود بلغني أن القوم دعوا الله تعالى وأخلصوا وعلم الله تعالى منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل على البغل منها عنقود وقال أبو خالد اليماني ورأيت تلك الجنة وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم واستظهر أبو حيان أنهم كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا وحكى عن بعض أنهم كانوا من أهل الكتاب وعن التستري أن المعظم يقولون انهم تابوا وأخلصوا وتوقف الحسن في إيمانهم فقال لادري أكان قولهم إنا إلى ربنا راغبون إيماناً أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة وسئل قتادة عنهم أهم من أهل الجنة أم من أهل النار فقال للسائل لقد كلفتني تعتا وقرأ نافع وأبو عمرو يبد لنا مشدداً ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقدم لإفادة القصر وال للعهد أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة من الجدب الشديد وأصحاب الجنة مما قص عذاب الدنيا والكلام قيل وارد تحذيراً لهم كأنه لما نهاه سبحانه عن طاعة الكفار

وخاصة رؤسائهم ذكر عز وجل أن تمردهم لما أتوه من المال والبنين وعقب جل وعلا بأنهما إذا لم يشكرا المنعم عليهما يؤل حال صاحبهما إلى حال أصحاب الجنة مدمجاً فيه أن خبث النية والزوى عن المساكين إذا أفضى بهم إلى ما ذكر فمعاندة الحق تعالى بعناد من هو على خلقه وأشرف الموجودات وقطع رحمه أولى بأن يفضي بأهل مكة إلى البوار وقوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ

(127/777)

الآخرة أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأشد تحذير عن العناد بوجه أبلغ وقوله سبحانه : ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ نعى عليهم بالغفلة أي لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبر ولأخذوا منه حذرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(128/777)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾

يعني : كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدّي حق الله منها ، فمات ، وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحقّ الله فيها .

قال الواحدي : هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله في كتابه .

قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم .

وقيل : هي جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : حلفوا ليقطعنها داخلين في وقت الصباح ، والصرم القطع للثمر والزرع ، وانتصاب ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ على الحال من فاعل ليصرمنها ، والكاف في : ﴿ كَمَا بَلَوْنَا ﴾ نعت مصدر محذوف أي : بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذي ، وإذ ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمنها جواب القسم ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ يعني : ولا يقولون إن شاء الله ، وهذه الجملة

مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال .

وقيل المعنى : ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة .

(129/777)

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل .

وقيل : الطائف جبريل اقتلعها ، وجملة ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ أي : كالشيء الذي صرمت ثماره أي : قطعت ، فعيل بمعنى مفعول ، وقال الفرّاء : كالصريم كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون الصريم . . . فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود ، قال : والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة .

وقال الأخفش : أي كالصبح انصرم من الليل ، يعني : أنها يبست وابيضت .

وقال المبرد : الصريم الليل ، والصريم النهار أي : ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا ، وقيل : سمي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف ، وقال المؤرج : الصريم الرملة ؛

لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أي : قطع ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ أي : نادى بعضهم بعضاً داخلين في الصباح .

قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ﴿ أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ ﴾ و "أن" في قوله : ﴿ أَنِ اغدوا ﴾ هي المفسرة لأنّ في التنادي معنى القول ، أو هي المصدرية أي : بأن اغدوا ، والمراد اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث : الثمار والزرع ﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ أي : قاصدين للصرم ، والغدوّ يتعدّى بإلى وعلى ، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف أي : إن كنتم صارمين فاغدوا ، وقيل : معنى صارمين ماضين في العزم ، من قولك سيف صارم ﴿ فانطلقوا وَهُمْ يتخافتون ﴾ أي : ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم ؛ لئلا يعلم أحد بهم ، يقال : خفت يخفت ، إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

وإني لم أهلك ملالا ولم أمت . . . خفاتا وكلا ظنه بي عويمر

(130/777)

وقيل المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم ، فيقصدوهم ، كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ ﴾ فإنّ

"أن" هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول ، والمعنى : يسرّ بعضهم إلى بعض هذا القول ، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم .

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قادرين ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والقصد .

قال قتادة ، ومقاتل ، والكلبي ، والحسن ، ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ؛ لأن القاصد إلى الشيء حارد .

يقال : حرد يحرد إذا قصد ، تقول : حردت حردك أي : قصدت قصدك ، ومنه قول الراجز :

أقبل سيل جاء من عند الله . . . يحرد حرد الجنة المغلة

وقال أبو عبيدة ، والمبرد ، والقتيبي : على حرد على منع ، من قولهم : حردت الإبل حرداً : إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هي القليلة اللبن .

وقال السديّ ، وسفيان ، والشعبي ﴿ على حَرْدٍ ﴾ : على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياد الخيل جاءت تردى . . . مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر :

تساقوا على حرد دماء الأساود . . . ومنه قيل : أسد حارد ، وروي عن قتادة ، ومجاهد أيضاً أنهما قالا : على حرد أي : على حسد .

وقال الحسن أيضاً : على حاجة وفاقة .

وقيل : على حرد : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حرداً أو حروداً : إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم ، وبه قال الأصمعي ، وغيره .

وقال الأزهري : حرد اسم قريتهم ، وقال السديّ : اسم جنتهم .

قرأ الجمهور : ﴿ حرد ﴾ بسكون الراء .

وقرأ أبو العالية ، وابن السميفع بفتحها ، وانتصاب ﴿ قادرين ﴾ على الحال .

قال الفراء : ومعنى ﴿ قادرين ﴾ : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم .

(131/777)

وقال الشعبي : يعني قادرين على المساكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي : لما رأوا جنتهم ، وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التي أذهبت ما فيها ﴿ قَالُواْ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي : قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا ، وليست هذه .

ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع ، قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم

على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول ، وقيل : معنى قولهم : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي : أمثلهم وأعقلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ أي : هلا تسبحون يعني : تستثنون ، وسمي الاستثناء تسبيحاً ؛ لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحاً .

قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عزّ وجلّ ، فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله ، وقيل المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم ، وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا : ﴿ سبحان ربّنَا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي : تنزيهاً له عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا ، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه .

وقيل : معنى تسبيحهم الاستغفار أي : نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا : ﴿ ياويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ أي : عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء .

قال ابن كيسان : أي : طغينا نعم الله ، فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوّضهم بخير منها ، فقالوا : ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ﴾ لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ وجلّ أن يبدلهم جنة خيراً من جنتهم ، قيل : إنهم تعاقدوا فيما بينهم ، وقالوا : إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا ، فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها .

قرأ الجمهور : ﴿ يبدلنا ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو ، وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل تغيير ذات الشيء ، أو تغيير صفته ، والإبدال رفع الشيء جملة ، ووضع آخر مكانه ، كما مضى في سورة سبأ ﴿ إِنَّا إلى ربّنا راغبون ﴾ أي : طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه ، وعدي بإلى ، وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ أي : مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به ، وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر ، و ﴿ كذلك ﴾ خبره ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ، ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ قال : هم

ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة ، وكان يطعم منها المساكين ، فمات أبوهم ، فقال بنوه : أن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين ف ﴿ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ وأن لا يطعموا مسكيناً .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ ﴾ قال : أمر من الله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والمعصية ، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد ، فينسّى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب ، فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب ، فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له .

(133/777)

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم " وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالصريم ﴾ قال : مثل الليل الأسود .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ وَهُمْ يتخافتون ﴾ قال : الإسرار والكلام الخفيّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ على حَرْدٍ قادرين ﴾ يقول : ذو قدرة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ قال : أضللنا مكان جنتنا .

وأخرجا عنه أيضاً ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال : أعدلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 271. 273 ﴾

(134/777)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28)

و ﴿ أوسطهم ﴾ أفضلهم وأقربهم إلى الخير وهو أحد الإخوة الثلاثة .

والوسط : يطلق على الأَخْيَر الأفضلِ ، قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسَطاً ﴾ [البقرة : 143] ، وقال : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوُسطى ﴾ [البقرة : 238] ويقال هو من سِطَة قومه ، وأعطني من سِطَة مالِك .

وحكي هذا القول بدون عاطف لأنه قول في مَجرى المحاورة جواباً عن قولهم ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قاله لهم على وجه توقيفهم على تصويب رأيه وخَطل رأيهم .

والاستفهام تقريري و ﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض .

والمراد بـ ﴿ تسبحون ﴾ تنزيه الله عن أن يُعصى أمره في شأن إعطاء زكاة ثمارهم .

وكان جوابهم يتضمن إقراراً بأنه وعظهم فعصوه ودلوا على ذلك بالتسبيح حين ندمِهم على عدم الأخذ بنصيحته فقالوا : ﴿ سبحان ربّنا إنا كنا ظالمين ﴾ أرادوا إجابة تقريره بإقرار بتسبيح الله عن أن يُعصى أمره في إعطاء حق المساكين فإن من أصول التوبة تدارك ما يمكن تداركه ، واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة لأنه خبر مستعمل في التندم ، والتسبيح مقدمة الاستغفار من الذنب قال تعالى:

﴿ فسبح بحمد ربّك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ [النصر : 3] .

وجملة ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ إقرار بالذنب ، والتأكيد لتحقيق الإِقرار والاهتمام به .

ويفيد حرفُ (إنّ) مع ذلك تعليلاً للتسبيح الذي قبله .

وحذف مفعول ﴿ ظالمين ﴾ ليعم ظلمهم أنفسهم بما جرّوه على أنفسهم من سلب النعمة ، وظلم المساكين بمنَعهم من حقهم فى المال .

وجرت حكاية جوابهم على طريقة المحاورة فلم تعطف وهي الطريقة التي نبّهنا عليها عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) .

ولما استقرّ حالهم على المشاركة في منع المساكين حقَّهم أخذَ بعضهم يلوم بعضاً على ما فرط من فعلهم : كل يلوم غيره بما كان قد تلبس به في هذا الشأن من ابتكار فكرة منع المساكين ما كان حقاً لهم من حياة الأب ، ومن الممالاة على ذلك ، ومن الاقتناع بتصميم البقية ، ومن تنفيذ جميعهم ذلك العزم الذميم ، فصوَّر قولُه : فأقبلَ بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ هذه الحالة والتقاذفَ الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز ، ألا ترى أن إقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع ، وأن صيغة التلاوم مع حذف متعلق التلاوم تصوّر في ذهن السامع صوراً من لوم بعضهم على بعض .

وقد تلقى كل واحد منهم لوم غيره عليه بإحقاق نفسه بالملامة وإشراك بقيتهم فيها فقال كل واحد منهم : ﴿ يا ويلنا إنّا كنّا طاغين ﴾ إلى آخره ، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك .

فجملة ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ إلى آخرها يجوز أن تكون مبينة لجملة ﴿ يتلاومون ، ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً بهذا الكلام فتكون خبراً مستعملاً في التقريع على طريقة التعريض بغيره والإقرار على نفسه ، مع التحسر والتندم بما أفاده ﴿ يا ويلنا . ﴾ وذلك كلام جامع للملامة كلها ولَم تعطف الجملة لأنها مبينة .

ويجوز أن تكون جوابَ بعضهم بعضاً عن لومه غيره ، فكما أجمعوا على لوم بعضهم بعضاً

كذلك أجمعوا على إجابة بعضهم بعضاً عن ذلك الملام فقال كل مَلُوم للائِمِه ﴿ يا ويلنا إنا كنّا طاغين ﴾ الخ جواباً بتقرير ملامه والاعتراف بالذنب ورجاء العفو من الله وتعويضِهم عن جنتهم خيراً منها إذا قبل توبتهم وجعل لهم ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة ، فيكون ترك العطف لأن فعل القول جرى في طريقة المحاورة .

والإِقبال : حقيقته المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القُبُل وهو ما يبدو من الإِنسان من جهة وجهه ضد الإِدبار ، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللَّوم .

(136/777)

واللوم : إنكار متوسط على فعل أو قولٍ وهو دون التوبيخ وفوق العتاب ، وتقدم عند قوله تعالى:

﴿ فإنهم غير مَلومين ﴾ في سورة المؤمنين (6) .

والطغيان : تجاوز الحدّ المتعارف في الكِبْر والتعاظم والمعنى : إنا كنا طاغين على حدود الله .

ثم استأنفوا عن ندامتهم وتوبتهم رجاءَهم من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم في الآخرة ولا في الدّنيا فيمحوَ عقابه في الدنيا محواً كاملاً بأن يعوضهم عن جنتهم التي قدر

إتلافها بجنة أخرى خيراً منها .

وجملة إنا إلى ربّنا راغبون ﴾ بدل من جملة الرجاء ، أي هو رجاء مشتمل على رغبة إليه بالقبول والاستجابة .

والتأكيد في ﴿ إنا إلى ربّنا راغبون ﴾ للاهتمام بهذا التوجه .

والمقصود من الإِطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكنتهم الإِنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه .

روي عن ابن مسعود أنه قال : بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدقَ فأبدلهم جنة يقال لها : الحَيَوان ، ذات عنب يُحمَل العنقودُ الواحد منه على بغل .

وعن أبي خالد اليماني أنه قال : دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم .

وقرأ الجمهور ﴿ أن يبْدِلنا ﴾ بسكون الموحدة وتخفيف الدال .

وقرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ يُبَدِّلَنا ﴾ بفتح الموحدة وتشديد الدال وهما بمعنى واحد .

قال ابن الفرس في "أحكام القرآن" : استدل بهذه الآية أبو محمد عبد الوهاب على أن من تعمد إلى نقص النصاب قبل الحول قصداً للفرار من الزكاة أو خالط غيره ، أو فارقه بعد الخلطة فإن ذلك لا يسقط الزكاة عنه خلافاً للشافعي .

ووجه الاستدلال بالآية أن أصحاب الجنة قصدوا بجذ الثمار إسقاط حق المساكين فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم .

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

(137/777)

رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ [القلم : 17] ، فالكلام فذلكة وخلاصة لما قبله وهو استئناف ابتدائي .

والمشار إليه باسم الإشارة هو ما تضمنته القصة من تلف جنتهم وما أحسوا به عند رؤيتها على تلك الحالة ، وتندمهم وحسرتهم ، أي مثل ذلك المذكور يَكون العذاب في الدنيا ، فقوله : ﴿ كذلك ﴾ مسند مقدم و ﴿ العذاب ﴾ مسند إليه ، وتقديم المسند للاهتمام بإحضار صورته في ذهن السامع .

والتعريف في ﴿ العذاب ﴾ تعريف الجنس وفيه توجيه بالعهد الذهني ، أي عذابكم الموعد مثل عذاب أولئك والمماثلة في إتلاف الأرزاق والإِصابة بقطع الثمرات .

وليس التشبيه في قوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ مثل التشبيه في قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ، ونحوه ما تقدم في سورة البقرة بل ما هنا من قبيل التشبيه

المتعارف لوجود ما يصلح لأن يكون مشبهاً به العذابُ وهو كون المشبه به غير المشبه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخْذُ ربّك إذا أخَذَ القرى وهي ظالمة ﴾ [هود : 102] بخلاف ما في سورة البقرة فإن المشبه به هو عين المشبه لقصد المبالغة في بلوغ المشبه غاية ما يكون فيه وجه الشبه بحيث إذا أريد تشبيهه لا يلجأ إلاّ إلى تشبيهه بنفسه فيكون كناية عن بلوغه أقصى مراتب وجه الشبه .

والمماثلةُ بين المشبه والمشبه به مماثلة في النوع وإلاّ فإن ما تُوعدوا به من القحط أشد مما أصاب أصحاب الجنة وأطولُ .

وقوله ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ دال على أن المراد بقوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ عذاب الدنيا .

وضمير ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله : ﴿ بلوناهم ﴾ [القلم : 17] ، وهم المشركون فإنهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهددوا بعذاب الدنيا ، ولا يصح عوده إلى ﴿ أصحاب الجنة ﴾ [القلم : 17] لأنهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(138/777)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما لأهل الجمود الذين لا يجوزون الممكنات ، ذكر أضدادهم فقال مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إن للمتقين ﴾ أي العريقين في صفة التقوى خاصة دون غيرهم ممن لا يتقي ، والتقوى : الاحتراز بالوقاء الحامل عليه الخوف من المؤذي ، الحامل عليه تجويز الممكنات ، قال الملوي : وأصلها أن الفرس الواقي – وهو الموجوع الحافي – لا يضع حافره حتى يرى هل الموضع لين يناسب ، وكذا المتقي لا يتحرك ولا يسكن إلا على بصيرة من رضا الله بذلك ، فلا يفعل أحد منهم شيئاً من تلك الآثار الخبيثة التي تقدمت للمكذبين ، فحازوا الكمال بصلاح القوة العملية الناشىء عن صلاح القوة العلمية ، وزاد في الترغيب إشارة إلى جنة القلب وبسط الروح بقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ أي المحسن إليهم في موضع ندم أولئك وخيبة آمالهم ، فإن تقريبهم دل على رضاه سبحانه ، ورضا صاحب الدار مطلوب قبل نظر الدار ، ولما أشار إلى جنة القلب أتبعها جنة القالب فقال تعالى : ﴿ جنات ﴾ جمع جنة

وهي لغة البستان الجامع ، وفي عرف الشرع مكان اجتمع فيه جميع السرور وانتفى منه جميع الشرور ﴿ النعيم ﴾ وهو الخالص من المكدر والمشوش والمنغص ، لا شيء فيها غيره أصلاً - بما أفادته الإضافة .

(139/777)

ولما كان عدم إيراث كل من الفريقين الدار التي تقدم وصفها تسوية بين المحسن والمسيء ، وكان ذلك لا يليق بحكيم أن يفعله ، وجب إنكاره لتحقق أن ما أخبر به سبحانه لا يكون إلا كذلك لا سيما وقد كان الكفار يقولون : إنهم كالمسلمين أو أحسن حالاً منهم ، وذلك أنه إن كان لا بعث ، كما كانوا يظنون ، فقد استووا فيما بعده مع ما فضلوهم به في الدنيا من اتباع الأهواء والظفر باللذائذ ، وإن كان ثم بعث فقد كانوا يقولون لشبهة دعتهم إليها شهوتهم : أما نكون على تقديره أحسن حالاً منكم وآثر عند الله في حسن العيش كما نحن في هذه الدار لأنه ما بسط لنا في هذه الدار إلا ونحن عنده أفضل منكم ، فقال تعالى منكراً ومكذباً لذلك غاية إنكار والتكذيب عائباً التحكم بالجهل غاية العيب نافياً للمساواة ليكون انتقاماً هو أعلى من باب الأولى مسبباً عما تقديره : ولا يكون لغير المتقين ذلك : ﴿ أفنجعل المسلمين ﴾ أي الذين هم عريقون في الانقياد لأوامرنا والصلة لما أمرنا بوصله طلباً لمرضاتنا

فلا اختيار لهم معنا في نفس ولا غيرها لحسن جبلاتهم ﴿كالمجرمين﴾ أي الراسخين في قطع ما أمرنا به أن يوصل وأنتم لا تقرون مثل ذلك ، بل من عاندكم نوع معاندة قاطعتموه ولو وصل الأمر إلى القتل .

ولما كشف هذا الدليل الشبه ورفع الستار ، فأوصل إلى أعظم من ضوء النهار ، لفت القول إليهم بالخطاب لفت المغضب عند العتاب ، فقال معجباً منهم منبهاً على ما هم فيه من اعوجاج الفطر وفساد الفكر منكراً عليهم غاية الإنكار : ﴿ما لكم﴾ أي أيّ شيء يحصل لكم من هذه الأحكام الجائرة البعيدة عن الصواب .

(140/777)

ولما نبههم على أنه ليس لهم في مثل هذه الأحكام شيء يمكن أن يكون نافعاً ، وكان العاقل إذا علم أن شيئاً من الأشياء لا نفع فيه بعد منه ، أنكر عليهم ثالثاً حال أحكامهم هذه لأن نفي أحوالها أشد لنفيها كما تقدم في ﴿كيف تكفرون﴾ في [البقرة : 28] فقال : ﴿كيف تحكمون﴾ أي أيّ عقل دعاكم إلى هذا الحكم الذي يتضمن التسوية من السيد بين المحسن من عبيده والمسيء .

ولما كان الحكم لا يمكن وجوده إلا مكيفاً بكيفية ، وكان سبحانه وتعالى قد نفى حكمهم

هذا بإنكار جميع كيفياته التي يمكن أن يصح معها ، وكان الحكم الصحيح لا بد وأن يكون مستنداً إلى عقل أو نقل ، زاد بطلان حكمهم وضوحاً بنفي الأمرين معاً ، فقال عاطفاً على ما تقديره : ألكم دليل من العقل إليه تلجؤون : ﴿ أم لكم كتاب ﴾ أي سماوي معروف أنه من عند الله خاص بكم ﴿ فيه ﴾ أي لا في غيره من أساطير الأولين وزبر الممحوقين ﴿ تدرسون ﴾ أي تقرؤون قراءة أتقنتم مخالطتها أو أنعمتم فهمه بسببها .

ولما ذكر الدرس ذكر المدروس فقال تعالى : ﴿ إن لكم ﴾ أي خاصة على وجه التأكيد الذي لا رخصة في تركه ﴿ فيه ﴾ أي الكتاب لتكونوا في غاية الوثوق به ، لا في غيره مما لا وثوق لكم به ﴿ لما تخيرون ﴾ أي تبالغون في انتقائه وأخذ خياره ، وكسر الهمزة وكان حقها الفتح لولا اللام لأن ما بعدها هو المدروس ، ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية .

(141/777)

ولما نفى دليل العقل والنقل مع التعجب منهم والتهكم بهم ، وكان قد بقي أن الإنسان ربما عاهد غيره على شيء فيلزمه الوفاء به وإن كان خارجاً عما يدعو إليه العقل والنقل ، نفى ذلك بقوله : ﴿ أم لكم أيمان ﴾ أي غليظة جداً ﴿ علينا ﴾ قد حملتمونا إياها ﴿ بالغة ﴾

أي لأجل عظمها إلى نهاية رتب التأكيد بحيث يكون بلوغ غيرها ما يقصد بالنسبة إلى بلوغها ذلك عدماً أي أن بلوغها هو البلوغ لا غيره ، أو ثباتها منته ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا يمكن الخروج عن عهدتها إلا في ذلك اليوم ليحتاج لأجلها إلى إكرامكم في الدارين .

ولما ذكر ذلك القسم بالأيمان ذكر المقسم عليه فقال : ﴿ إن لكم ﴾ أي خاصة دون المسلمين ﴿ لما تحكمون ﴾ أي تفعلونه فعل الحاكم الذي يلزم قوله لعلو أمره على وجه التأكيد الذي لا مندوحة عنه فتحكمون لأنفسكم بما تريدون من الخير .

ولما عجب منهم وتهكم بهم ، ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف وينزل بهم أشد الحتف ، فقال مخوفاً لهم بالإعراض : ﴿ سلهم ﴾ أي يا أيها الرسول الذي محت دلائله بقوة أنوارها الأنوار .

(142/777)

ولما كان السؤال سبباً لحصول العلم علقت ، " سل " على مطلوبها الثاني وكان حقه أن يعدى بعن فقال : ﴿ أيهم بذلك ﴾ أي الأمر العظيم من المعاهدة والدليل النقلي والعقلي ﴿ زعيم ﴾ أي كفيل وضامن أو سيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل لتلزمه في ادعائه صحة ذلك ما تدعه به ضحكة للعباد ، وأعجوبة للحاضر منهم والباد ، فلم يجسر لما

تعلمون من حقية هذا القرآن وما لأقوالهم كلها من العراقة في البطلان أحد منهم على شدة عداوتهم ومحبتهم للمغالبة وشماختهم أن يبرز لادعاء ذلك ، ولما نفى أن يكون لهم منه سبحانه في تسويتهم بالمسلمين دليل عقلي أو نقلي أو عهد وثيق على هذا الترتيب المحكم والمنهاج الأقوم ، أتبعه ما يكون من عند غيره إن كان ثم غير على ما ادعوا فقال : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أي شرعوا لهم من الدين أمراً ووعدوهم بشيء أقاموا عليه من الأدلة ما أقمنا لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ أي بأقوالهم وأفعالهم كما أتينا نحن في نصر نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأمرين معاً بما لا شبهة فيه ، وسجل عليهم بالكتاب ملهباً مهيجاً بما يحرق به أكبادهم ولا يقدرون على دفعه بوجه ، فيكون ذلك أعظم دليل على إبطالهم : فقال : ﴿ إن كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ صادقين ﴾ أي عريقين في هذا الوصف كما يدعونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 109 . 111 ﴾

(143/777)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال السعداء ، فقال :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ جنات النعيم ﴾ أي جنات ليس لهم فيه إلا التنعم الخالص لا يشوبه ما ينغصه ، كما يشوب جنات الدنيا ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا ، فلا بد وأن يفضلنا عليكم في الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة .

ثم إن الله تعالى أجاب عن هذا الكلام بقوله :

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36)

ومعنى الكلام أن التسوية بين المطيع والعاصي غير جائزة ، وفي الآية مسائل .

المسألة الأولى :

قال القاضي : فيه دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافي ، فالفاسق لما كان مجرماً وجب أن لا يكون مسلماً والجواب : أنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلاً للمجرم ، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة في جميع الأمور ، فإنهما يتماثلان في الجوهرية والجسمية والحدوث والحيوانية ، وغيرها من الأمور الكثيرة ، بل المراد إنكار استوائهما في الإسلام والجرم ، أو في آثار هذين الأمرين ، أو المراد إنكار أن يكون أثر إسلام المسلم مساوياً لأثر جرم المجرم عند الله ، وهذا مسلم لا نزاع فيه ، فمن أين يدل على أن الشخص

الواحد يمتنع أن يجتمع فيه كونه مسلماً ومجرماً ؟ .

المسألة الثانية :

(144/777)

قال الجبائي : دلت الآية على أن المجرم لا يكون ألبتة في الجنة ، لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما ، ولو حصلا في الجنة ، لحصلت التسوية بينهما في الثواب ، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم إذا كان المجرم أطول عمراً من المسلم ، وكانت طاعاته غير محبطة الجواب : هذا ضعيف لأنا بينا أن الآية لا تمنع من حصول التسوية في شيء أصلاً بل تمنع من حصول التسوية في درجة الثواب ، ولعلهما يستويان فيه بل يكون ثواب المسلم الذي لم يعص أكثر من ثواب من عصى ، على أنا نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة وذلك لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور في اللغة والعرف .

المسألة الثالثة :

أن الله تعالى استنكر التسوية بين المسلمين والمجرمين في الثواب ، فدل هذا على أنه يقبح عقلاً ما يحكى عن أهل السنة أنه يجوز أن يدخل الكفار في الجنة والمطيعين في النار والجواب

: أنه تعالى استنكر ذلك بحكم الفضل والإحسان ، لا أن ذلك بسبب أن أحداً يستحق عليه شيئاً .

واعلم أنه تعالى لما قال على سبيل الاستبعاد : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ قرر هذا الاستبعاد بأن قال على طريقة الالتفات : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم المعوج ثم قال :

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38)

وهو كقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ فَأْتُواْ بكتابكم ﴾ [الصافات : 156] والأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون بفتح أن لأنه مدرس ، فلما جاءت اللام كسرت ، وتخير الشيء واختاره ، أي أخذ خيره ونحوه تنخله وانتخله إذا أخذ منخوله .

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

يقال : لفلان على يمين بكذا إذا ضمنته منه وخلقت له على الوقاء به يعني أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد .

فإن قيل : إلى في قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ بم يتعلق ؟ قلنا : فيه وجهان الأول : أنها متعلقة بقوله : ﴿ بالغة ﴾ أي هذه الأيمان في قوتها وكمالها بحيث تبلغ إلى يوم القيامة والثاني : أن يكون التقدير .

أيمان ثابتة إلى يوم القيامة .

ويكون معنى بالغة مؤكدة كما تقول جيدة بالغة ، وكل شيء متناه في الصحة والجودة فهو بالغ ، وأما قوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ فهو جواب القسم لأن معنى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ أم أقسمنا لكم .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن بالغة بالنصب وهو نصب على الحال من الضمير في الظرف .

ثم قال للرسول عليه الصلاة والسلام :

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40)

والمعنى أيهم بذلك الحكم زعيم ، أي قائم به وبالاستدلال على صحته ، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم .

ثم قال :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41)

وفي تفسيره وجهان الأول : المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب ، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء لله وهذا كقوله : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الروم : 40] ، الوجه الثاني : في المعنى أم لهم ناس يشاركونهم في هذا المذهب وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين ، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم ، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب ، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه ، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول ، وذلك يدل على أنه باطل من كل الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 81 . 82 ﴾

(146/777)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النعيم ﴾

تقدم القول فيه ؛ أي إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشوبه ما

ينغّصه كما يشوب جنات الدنيا .

وكان صناديد قريش يرون وفور حظّهم من الدنيا وقلّة حظوظ المسلمين منها ؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا : إن صَحَّ أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا .

فقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ أي كالكفار .

وقال ابن عباس وغيره : قالت كفار مكة : إنا نُعطَى في الآخرة خيراً مما تُعْطَوْن ؛ فنزلت ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الأعوج ؛ كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين .

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارون وتشتهون .

والمعنى : أَنّ لكم (بالفتح) ولكنه كسر لدخول اللام ؛ تقول علمت أنك عاقل (بالفتح) ، وعلمت إنك لعاقل (بالكسر) .

فالعامل في ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ في المعنى .

ومنعت اللام من فتح "إن" .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي إن لكم في هذا الكتاب إذاً ما تخيرون ؛ أي ليس لكم ذلك .

والكناية في "فيه" الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب .

ثم زاد في التوبيخ فقال : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ أي عهود ومواثيق .

﴿ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾ مؤكدة .

والبالغة المؤكّدة بالله تعالى .

أي أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة .

(147/777)

﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ كُسرت "إن" لدخول اللام في الخبر .

وهي من صلة "أيمان" ، والموضع النصب ولكن كسرت لأجل اللام ؛ تقول : حلفت إن لك لكذا .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ إذاً ؛ أي ليس الأمر كذلك .

وقرأ ابن هُرْمُز "أَيْنَ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تخيّرون" "أين لكم لَمَا تحكمون" ؛ بالاستفهام فيهما جميعاً .

وقرأ الحسن البصري "بالغةً" بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في "لكم" لأنه خبر عن "أيمان" ففيه ضمير منه.

وإما من الضمير في "عَلَيْنَا" إن قدّرت "علينا" وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس الأيمان؛ لأن فيه ضميراً منه، كما يكون إذا كان خبراً عنه.

ويجوز أن يكون حالاً من "أيمان" وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب "حَقًّا" على الحال من "متاع" في قوله تعالى: ﴿ مَتَاعٌ بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين ﴾ [البقرة: 241] وقرأ العامة "بالغةٌ" بالرفع نعت ل "أيمان".

قوله تعالى: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾

أي سل يا محمد هؤلاء المتقوّلين عليَّ: أيُّهم كفيل بما تقدم ذكره.

(وهو أن لهم من الخير) ما للمسلمين.

والزعيم: الكفِيل والضّمين؛ قاله ابن عباس وقتادة.

وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى.

وقال الحسن: الزعيم الرسول.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ أي ألهم والميم صلة.

"شُرَكَاء" أي شهداء.

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ يشهدون على ما زعموا.

﴿ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم .

وقيل : أي فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم ؛ فهو أمر معناه التعجيز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(148/777)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أي من الكفر كما في "البحر" أو منه ومن المعاصي كما في "الإرشاد" ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرة فإنها مختصة به عز وجل إذ لا يتصرف فيها غيره جل جلاله أو في جوار قدسه ﴿ جنات النعيم ﴾ جنات ليس فيها إلا النعيم الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال وأخذ الحصر من الإضافة إلى النعيم لإفادتها التميز من جنات الدنيا والتعريض بأن جنات الدنيا لغالب عليها النغص

.

طبعت على كدر وأنت تريدها . . .

صفوا من الأقذار والأكدار

وقوله تعالى :

﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾

تقرير لما قبله من فوز المتقين ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله تعالى إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا والألم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا والهمزة للإنكار والفاء للعطف والعطف على مقدر يقتضيه المقال أي فيحيف في الحكم فيجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

تعجباً من حكمهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنه لا يصدر من عاقل إذ معنى مالكم أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي .

﴿ أَمْ لَكُمْ كتاب ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الكتاب والجار متعلق بقوله تعالى : ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرؤن فيه والجملة صفة كتاب وجوز أن يكون فيه متعلقاً بمتعلق الخبر أو هو الصفة والضمير للحكم أو الأمر وتدرسون مستأنف أو حال من ضمير الخطاب وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي للذي تختارونه وتشتهونه يقال تخير الشيء واختاره أخذ خيره وشاع في أخذ ما يريده مطلقاً مفعول ﴿ تدرسون ﴾ [القلم : 37] إذ هو المدروس فهو واقع موقع المفرد وأصله أن لكم فيه ما تخيرون بفتح همزة أن وترك اللام في خبرها فلما جيء باللام كسرت الهمزة وعلق الفعل عن العمل ومن هنا قيل أنه لا بد من تضمين ﴿ تدرسون ﴾ [القلم : 37] معنى العلم ليجري فيه العمل في الجمل والتعليق وجوز أن يكون هذا حكاية للمدروس كما هو عليه فيكون بعينه لفظ الكتاب من غير تحويل من الفتح للكسر وضمير فيه على الأول للكتاب وأعيد للتأكيد وعلى هذا يعود لأمرهم أو للحكم فيكون محصل ما خط في الكتاب أن الحكم أو الأمر مفوض لهم فسقط قول صاحب التقريب أن لفظ فيه لا يساعده للاستغناء بفيه أولاً من غير حاجة إلى جعل ضمير فيه ليوم القيامة بقرينة المقام أو للمكان المدلول عليه بقوله تعالى ﴿ عند ربهم ﴾ [القلم : 37] وعلى الاستئناف هو للحكم أيضاً وجوز الوقف على تدرسون على أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكُمْ ﴾ الخ استئناف على معنى إن كان لكم كتاب فلكم فيه ما تتخيرون وهو كما ترى والظاهر إن ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ الخ مقابل لما قبله نظراً لحاصل المعنى إذ محصله أفسد عقلكم حتى حكمتكم بهذا أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر إليكم وقرأ طلحة والضحاك آن لكم بفتح الهمزة واللام في لما زائدة كقراءة من قرأ ﴿ إلا أنهم ليأكلون

الطعام ﴾ [الفرقان : 20] بفتح همزة أنهم وقرأ الأعرج أن لكم بالاستفهام على الاستئناف .

(150/777)

﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ أي أقسام وفسرت بالعهود وإطلاق الإيمان عليها من إطلاق الجزء على الكل أو اللازم على الملزوم ﴿ بالغة ﴾ أي أقصى ما يمكن والمراد متناهية في التوكيد وقرأ الحسن وزيد بن علي بالغة بالنصب على الحال من الضمير المستتر في علينا أو لكم وقال ابن عطية من أيمان لتخصيصها بالوصف وفيه بعد ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها إلا يومئذٍ إذا حكمنا كم وأعطينا كم ما تحكمون أو متعلق ببالغة أي أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرة لم يبطل منها يمين فإلى على الأول : لغاية الثبوت المقدر في الظرف فهو كأجل الدين وعلى الثاني : لغاية البلوغ فهي قيد اليمين أي يميناً مؤكداً لا ينحل إلى ذلك اليوم وليس من تأجيل المقسم عليه في شيء إذ لا مدخل لبالغة في المقسم عليه فتأمل وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم أيمان علينا أم أقسمنا لكم وهو جار على تفسير الأيمان بمعنى العهود لأن العهد كاليمين من غير فرق فيجاب بما يجاب به القسم وقرأ

الأعرج آن لكم بالاستفهام أيضاً .

﴿ سَلْهُمْ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب أي سلهم مبكتاً لهم ﴿ أَيُّهُم بذلك ﴾ الحكم الخارجي عن دائرة العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ قائم يتصدى لتصحيحه والجملة الاستفهامية في موضع المعمول الثاني لسل والفعل عند أبي حيان وجماعة معلق عنها لمكان الاستفهام وكون السؤال منزلاً منزلة العلم لكونه سبباً لحصوله .

(151/777)

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في دعواهم إذ لا أقل من التقليد وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم حيث نبه جل شأنه على نفي الدليل العقلي بقوله تعالى ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ [القلم : 37] وعلى نفي الدليل النقلي بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَكُمْ كتاب ﴾ [القلم : 37] الخ وعلى نفي أن يكون الله تعالى وعدهم بذلك ووعد الكريم دين بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ الخ .

وعلى نفي التقليد الذي هو أوهن من حبال القمر بقوله عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ [

القلم : 39] وقيل المعنى أم لهم آلهة عدوها شركاء في الألوهية تجعلهم كالمسلمين في الآخرة وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة فليأتوا بشركهم والمراد به ما أريد بشركائهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(152/777)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) ﴾

استئناف بياني لأن من شأن ما ذكر من عذاب الآخرة للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال في نفس السامع يقول : فما جزاء المتقين ؟ وهو كلام معترض بين أجزاء الوعيد والتهديد وبين قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ [القلم : 16] وقوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ [القلم : 33] .

وقد أشعر بتوقع هذا السؤال قوله بعده : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ [القلم : 35] كما سيأتي .

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتقين ليسبق ذكرُ صفتهم العظيمة ذكْرَ جزائها .

واللام للاستحقاق .

و﴿ عند ﴾ ظرف متعلق بمعنى الكون الذي يقتضيه حرف الجر ، ولذلك قُدم متعلَّقُه معه على المسند إليه لأجل ذلك الاهتمام .

وقد حصل من تقديم المسند بما معه طولٌ يثير تشويق السامع إلى المسند إليه .

والعِندية هنا عندية كرامةٍ واعتناء .

وإضافة ﴿ جنات ﴾ إلى ﴿ النعيم ﴾ تفيد أنها عُرفت به فيشار بذلك إلى ملازمة النعيم لها لأن أصل الإِضافة أنها بتقدير لام الاستحقاق ف ﴿ جنات النعيم ﴾ مفيد أنها استحَقها النعيم لأنها ليس في أحوالها إلاّ حال نعيم أهلها ، فلا يكون فيها ما يكون في جنات الدّنيا من المتاعب مثل الحَرّ في بعض الأوقات أو شدة البرد أو مثل الحشرات والزنانير ، أو ما يؤذي مثل شوك الأزهار والأشجار وروث الدواب وذرق الطير .

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35)

فاء التفريع تقتضي أن هذا الكلام متفرع على ما قبله من استحقاق المتقين جنات النعيم ، ومقابلته بتهديد المشركين بعذاب الدّنيا والآخرة ، ولكن ذلك غير مصرح فيه بما يناسب أن يتفرع عليه هذا الإنكار والتوبيخ فتعيَّن تقدير إنكار من المعرض بهم ليتوجه إليهم هذا الاستفهام المفرع ، وهو ما أشرنا إليه آنفاً من توقع أو وقوعَ سؤال .

والاستفهام وما بعده من التوبيخ ، والتخطئة ، والتهكم على إدلالهم الكاذب ، مؤذن بأن ما أنكر عليهم ووبخوا عليه وسُفهوا على اعتقاده كان حديثاً قد جرى في نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بَعث ، وفرضهم أنه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزية وفضل عند وقوعه .

وعن مقاتل لما نزلت آية ﴿ إن للمتقين عند ربّهم جنات النعيم ﴾ [القلم : 34] قالت قريش : إن كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدّنيا ، وعن ابن عباس أنهم قالوا : إنا نعطى يومئذٍ خيراً مما تُعطون فنزل قوله : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ الآية .

والهمزة للاستفهام الإِنكاري ، فرع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين فالإِنكار متسلط على ما دار بين المشركين من القول عند نزول الآية السابقة أو عند نزول ما سبقها من آي القرآن التي قابلت بين جزاء المؤمنين وجزاء المشركين كما يقتضيه صريحاً قوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ إلى قوله : ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ [القلم : 39] .

وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه ، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام

العرب قال تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة : 18] ، وقال : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [الحشر : 20] ، وقال : ﴿ أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] وقال السموأل أو الحارثي :

سَلي إن جَهِلْتِ الناسَ عنّا وعنهمُ . . .

فليس سواءً عالم وجهول

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظاً في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدّنيا بطريق فحوى الخطاب .

(154/777)

وقوله : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بـ ﴿ المجرمين ، ﴾ عُبر عنهم بطريق الإِظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف ﴿ المجرمين ﴾ من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين .

فلذلك لم يكن ضمير الخطاب في قوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ التفاتاً عن ضمائر الغيبة من قوله : ﴿ ودُّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : 9] وقوله ﴿ إنا بلوناهم ﴾ [

القلم : 17] .

وإنما تغير الضمير إلى ضمير الخطاب تبعاً لتغير توجيه الكلام ، لأن شرط الالتفات أن يتغير الضمير في سياق واحد .

و﴿ ما لكم ﴾ استفهام إنكاري لحالة حكمهم ، ف ﴿ ما لكم ﴾ مبتدأ وخبر وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله ﴾ في سورة البقرة (246) .

وكيف تحكمون ﴾ استفهام إنكاري ثان في موضع الحال من ضمير ﴿ لكم ، ﴾ أي انتفى أن يكون لكم شيء في حال حكمكم ، أي فإن ثبت لهم كان منكراً باعتبار حالة حكمهم .

والمعنى : لا تحكمون أنكم مساوون للمسلمين في جزاء الآخرة أو مفضلون عليهم .

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37)

إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم .

والاستفهام المقدر مع ﴿ أم ﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب إنكاراً مبنياً على الفرض وإن كانوا لم يدّعوه .

وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ [القلم : 39] الخ ، ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ [القلم : 40] ﴿ أم لهم شركاء ﴾ [القلم : 41] الخ أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتاباً سماوياً نزل من لدنا ، وإما أن

يكون سنده عَهْداً منا بأنا نعطيكم ما تقترحون ، وإما أن يكون لكم كفيل علينا ، وأما أن يكون تعويلاً على نصر شركائكم .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على المبتدأ وهو ﴿ كِتاب ﴾ لأن المبتدأ نكرة وتنكيره مقصود للنوعية فكان تقديم الخبر لازماً .

(155/777)

وضمير ﴿ فيه ﴾ عائد إلى الحكم المفاد من قوله : ﴿ كيف تحكمون ﴾ [القلم : 36] ، أي كتاب في الحكم .

و(في) للتعليل أو الظرفية المجازية كما تقول ورد كتاب في الأمر بكذا أو في النهي عن كذا فيكون ﴿ فيه ﴾ ظرفاً مستقراً صفة ل ﴿ كتاب .

﴿ ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ﴿ كتاب ﴾ ويتعلق المجرور بفعل ﴿ تدرسون ﴾ جعلت الدراسة العميقة بمزيد التبصر في ما يتضمنه الكتاب بمنزلة الشيء المظروف في الكتاب كما تقول : لنا درس في كتاب سيبويه .

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أمِّيُّون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءَهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه قال تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه

ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء : 10] وقال : ﴿ أو تقولوا لَوْ أنا أُنزل علينا الكتاب لكُنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربّكم وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام : 157] .

وجملة ﴿ إنّ لكم فيه لما تخيّرون ﴾ في موضع مفعول ﴿ تدرسون ﴾ على أنها محكي لفظها ، أي تدرسون هذه العبارة كما جاء قوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلامٌ على نوح في العالمين ﴾ [الصافات : 78 ، 79] أي تدرسون جملة ﴿ إِنَّ لكم فيه لَما تَخيَّرون .

ويكون فيه ﴾ توكيداً لفظياً لنظيرها من قوله : ﴿ فيه تدرسون ، ﴾ قصد من إعادتها مزيد ربط الجملة بالتي قبلها كما أعيدت كلمة (من) في قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ﴾ [النحل : 67] وأصله : تتخذون سَكَراً .

و ﴿ تخيرون ﴾ أصله تتخيرون بتاءين ، حذفت إحداهما تخفيفاً .

والتخير : تكلف الخَير ، أي تطلب ما هو في أخير .

والمعنى : إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء .

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39)

﴿ أم ﴾ للانتقال إلى دليل آخر وهو نفي أن يكون مستند زعمهم عهداً أخذوه على الله لأنفسهم أن يعاملهم يوم القيامة بما يحكمون به لأنفسهم ، فالاستفهام اللازم تقديره بعد ﴿ أم ﴾ إنكاري و ﴿ بالغة ﴾ مؤكَّدة .

وأصل البالغة : الواصلة إلى ما يُطلب بها ، وذلك استعارة لمعنى مغلظة ، شبهت بالشيء البالغ إلى نهاية سيره وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل فللَّه الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : 149] .

وقوله : ﴿ علينا ﴾ صفة ثانية ل ﴿ أيمان ﴾ أي أقسمناها لكم لإثبات حقكم علينا .

و ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ صفة ثالثة ل ﴿ أيمان ، ﴾ أي أيمان مُؤبدة لا تَحلَّة منها فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدّهر ، فليس يومُ القيامة منتهى الأخذ بتلك الأيمان بل هو تنصيص على التأبيد كما في قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ في سورة الأحقاف (5) .

ويتعلق إلى يوم القيامة ﴾ بالاستقرار الذي في الخبر في قوله : ﴿ لكم أيمان ﴾ ولا يحسن تعلقه بـ ﴿ بالغة ﴾ تعلق الظرف اللغو لأنه يصير ﴿ بالغة ﴾ مستعملاً في معنى مشهور قريب من الحقيقة ، ومحملُ ﴿ بالغة ﴾ على الاستعارة التي ذكرنا أجزل وجملة ﴿ إن لكم لَما تحكمون ﴾ بيان ل ﴿ أيمان ، ﴾ أي أيمان بهذا اللفظ .

ومعنى (ما تحكمون) تأمرون به دون مراجَعة ، يقال : نزلوا على حكم فلان ، أي لم يعينوا طِلبة خاصة ولكنهم وكلوا تعيين حقهم إلى فلان ، قال خَطاب أو حطان بن المُعلَّى :

أنزلني الدّهر على حكمه . . .

من شامخٍ عالٍ إلى خفض

أي دون اختيار لي ولا عمل عملته فكأنني حكمت الدّهر فأنزلني من معاقلي وتصرف فيَّ كما شاء .

ومن أقوالهم السائرة مسرى الأمثال "حُكْمُكَ مُسَمَّطاً" (بضم الميم وفتح السين وفتح الميم الثانية مشددة) أي لك حكمك نافذاً لا اعتراض عليك فيه .

وقال ابن عَثمة:

لك المِرباع منها والصفايا . . .

وحكْمُك والنشيطةُ والفُضول

(157/777)

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40)

استئناف بياني عن جملة ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة ﴾ [القلم : 39] ، لأن الأيمان وهي العهود تقتضي الكفلاء عادة قال الحارث بن حِلّزة:

واذكُروا حِلف ذِي المَجاز وما قُدّ . . .

م فيه العهودُ والكفلاء

فلما ذُكر إنكار أن يكون لهم عهود ، كُمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعينوا من هم الزعماء بتلك الأيمان .

فالاستفهام في قوله : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ مستعمل في التهكم زيادة على الإِنكار عليهم .

والزعيم : الكفيل وقد جعل الزعيم أحداً منهم زيادة في التهكم وهو أن جعل الزعيم لهم واحداً منهم لعزتهم ومناغاتهم لكبرياء الله تعالى .

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41)

﴿ أم ﴾ إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم : إِنا نعْطَى مثل ما يُعطَى المسلمون أو خيراً مما يُعطونه ، وهو أن يُفرض أن أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حَظاً من جزاء الخير في الآخرة .

والمعنى : بل أثبتت لهم ، أي لأجلهم ونفعهم شركاءُ ، أي شركاء لنا في الإلهية في زعمهم ، فحذف متعلق ﴿ شركاء ﴾ لشهرته عندهم فصار شركاء بمنزلة اللقب ، أي أم آلهتهم لهم فليأتوا بهم لينفعوهم يوم القيامة .

واللام في ﴿ لهم ﴾ لام الأجل ، أي لأجلهم بتقدير مضاف ، أي لأجل نصرهم ، فاللام كاللام في قول أبي سفيان يوم أحد "لنا العزى ولا عزى لكم" .

وتنكير ﴿ شركاء ﴾ في حيز الاستفهام المستعمل في الإِنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد من الشركاء ، أي الأصنام لهم ، أي لنفعهم فيعم أصنام جميع قبائل العرب المشترك في عبادتها بين القبائل ، والمخصوصةَ ببعض القبائل .

وقد نقل أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة لمناسبة وقوعه بعد ﴿ سلْهُم أيهم بذلك زعيم ﴾ [القلم : 40] ، لأن أخص الناس بمعرفة أحقّية هذا الإِبطال هو النبي صلى الله عليه وسلم وذلك يستتبع توجيهَ هذا الإِبطال إليهم بطريقة التعريض .

(158/777)

والتفريع في قوله : ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ تفريع على نفي أن تنفعهم آلهتهم ، فتعين أن أمر ﴿ فليأتوا ﴾ أمر تعجيز .

وإضافة ﴿ شركاء ﴾ إلى ضميرهم في قوله : ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ لإِبطال صفة الشركة في الإلهية عنهم ، أي ليسوا شركاء في الإلهية إلاّ عند هؤلاء فإن الإلهية الحق لا تكون نسبية بالنسبة إلى فريق أو قبيلة .

ومثل هذا الإِطلاق كثير في القرآن ومنه قوله : ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كِيدُون فلا تُنظرون ﴾ [الأعراف : 195] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى جميع شبههم التي يمكن أن يتشبثوا بها مع البيان لقدرته على ما يريد من تفتيق الأدلة وتشقيق البراهين الدال على تمام العلم اللازم منه كمال القدرة فأوصلهم من وضوح الأمر إلى حد لم يبق معه إلا العناد ، أتبع ذلك تهديدهم بما يثبت ذلك قدرته عليه من يوم الفصل ومعاملتهم فيه بالعدل فقال : ﴿ يوم ﴾ يجوز أن يكون بياناً ليوم القيامة ، وبنى لإضافته إلى الجملة وأن يكون ظرفاً ليأتوا ، أو منصوباً بما أخذ من معنى الكلام من نحو : سيعلمون ما يلقون من غب هذه المعاملات وإن نالوا في هذه الدار جميع اللذات في جميع اليوم الذي

﴿ يكشف ﴾ أي يحصل الكشف فيه ، وبني للمفعول لأن المخيف وقوع الكشف الذي هو كناية عن تفاقم الأمور وخروجها عن حد الطوق ، لا كونه من معين ، مع أن من المعلوم أنه لا فاعل هناك غيره سبحانه ﴿ عن ساق ﴾ أي يشتد فيه الأمر غاية الاشتداد لأن من اشتد عليه الأمر وجد في فصله شمر عن ساقه لأجله وشمرت حرمه عن سوقهن غير محتشمات هرباً ، فهو كناية عن هذا ولذلك نكره تهويلاً له وتعظيماً ، نقل هذا التأويل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وسعيد بن جبير - رضى الله عنه - وغيرهما ، وعن انكشاف جميع الحقائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الأهوال وغيرها كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه وتركت السامع لها في مثل ضوء النهار ، وفي الجزء الخامس والثلاثين من مسند أبي يعلى الموصلي عن أبي بردة عن أبيه - رضى الله عنه - تعالى عنهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا قال :

" عن نور عظيم يخرون له سجداً " وهو لا ينافي ما ذكر من التأويلين : الشدة والكشف .

(160/777)

ولما كان هذا الكشف الذي كشف لهم المعاني في هذا القرآن إنما هو لأجل العبادة التي هي الخضوع الذي يعبر عنه بالسجود وهو آيتها وأمارة ما اشتمل عليه الباطن منها وعلامتها

فيأتونها وهم قادرون عليها ذكرهم يوماً يريدونها فيه فلا يتأتى لهم تنديماً لهم وزيادة تحسير وإظهار تظليل وتخسير لأن ظهورهم وأعضاءهم تكون طبقاً واحداً لا تنثني ، فكلما أرادوا أن يسجدوا انقلبوا على أقفائهم ، فقال بانياً للمفعول دلالة على إرادتهم للانقياد ورغبتهم فيه من أي داع كان ، وهو دال على أن التكليف لا ينقطع إلا بدخول كل من الفريقين داره و ﴿ يدعون ﴾ أي من داعي الملك الديان ﴿ إلى السجود ﴾ توبيخاً على تركه الآن وتنديماً وتعنيفاً لا تعبداً وتكليفاً فيريدونه ليضروا أنفسهم مما يرون من المخاوف ﴿ فلا ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنهم لا ﴿ يستطيعون ﴾ أي لأنهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لأنفسهم على أن تطوع لهم أعضاؤهم بما تفهمه هذه الصيغة من أن الإنسان منهم إذا أراد الفعل وعالجة بقوة فلم يطقه فإن ظهورهم تكون على حالة لا تنثني معها بل كان فيها السفافيد فيكون لهم في ذلك أشد ندم لتركهم إياه في الدنيا وهم يقدرون عليه وهو إذ ذاك نافع لهم ومعالجتهم فعله أشد معالجة وهم غير قادرين عليه وهو غير نافع لهم وإذا عجزوا مع المعالجة كانوا بدونها أعجز ، وذلك أنه يبعث المرء على ما مات عليه ويحشر على ما بعث عليه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر ، ولما كان ربما ظن ظان أن المانع لهم الكبر كما في هذه الدنيا ، قال مبيناً لنفي الكبر في مثل هذا اليوم العظيم ﴿ خاشعة ﴾ أي مخبتة متواضعة ﴿ أبصارهم ﴾ لأن ما في القلب يعرف في العين ، وذلك

أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أضوأ من الشمس ، ووجوه الكافرين والمنافقين سود مظلمة .

(161/777)

ولما كان الخاشع لذلك قد يكون خشوعه لخير عنده حمله على ذلك مع العز قال :

﴿ ترهقهم ﴾ أي تغشاهم وتقهرهم ﴿ ذلة ﴾ أي عظيمة لأنهم استعملوا الأعضاء التي أعطاهموها سبحانه وتعالى ليتقربوا بها إليه في دار العمل في التمتع بما يبعد منه .

ولما دلت هذه العبارة مطابقة لما ورد في الحديث الصحيح على أن من كان في قلبه مرض في الدنيا يصير ظهره طبقاً واحداً فقارة واحدة فيعالج السجود فيصير كلما أراده انقلب لقفاه ، عجب منهم في ملازمة الظلم الذي هو إيقاع الشيء في غير موقعه فقال : ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ أي دائماً بالخطاب الثابت ﴿ يدعون ﴾ في الدنيا من كل داع يدعو إلينا ﴿ إلى السجود وهم ﴾ أي فيأبونه والحال أنهم ﴿ سالمون ﴾ أي فهم مستطيعون ، ليس في أعضائهم ما يمنع من ذلك ، وإنما يمنعهم منه الشماخة والكبر ، فالآية من الاحتباك : ذكر عدم الاستطاعة أولاً دال على حذف الاستطاعة ثانياً ، وذكر السلامة ثانياً دال على حذف عدم السلامة أولاً .

ولما علم بهذا أنه سبحانه المتصرف وحده بما يشاء كيف يشاء من المنع والتمكين ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجد من تكذيبهم له – مع إتيانه بما لا يحتمل التكذيب بوجه – من المشقة ما لا يعلم مقداره إلا الله سبحانه وتعالى ، وكان علم المغموم بأن له منقذاً يخفف عنه ، وكان علمه باقتداره على ما يراد منه أقر لعينه سبب عن كمال اقتداره قوله مخففاً عنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، لافتاً القول إلى التكلم بالإفراد تنصيصاً على المراد زيادة في تسكين القلب وشرح الصدر : ﴿ فذرني ﴾ أي اتركني على أي حالة اتفقت ﴿ ومن يكذب ﴾ أي يوقع التكذيب لمن يتلو ما جددت إنزاله من كلامي القديم على أي حالة كان إيقاعه ، وأفرد الضمير نصاً على تهديد كل واحد من المكذبين : ﴿ بهذا الحديث ﴾ أي بسببه أي خل بيني وبينهم وكل أمرهم إليَّ ولا تكترث بشيء منه أصلاً فإني أكفيكهم لأنه لا مانع منهم فلا تهتم بهم أصلاً .

(162/777)

ولما كان كأنه قيل : وماذا تعمل فيه إذا خليت بينك وبينه ؟ أجابه بقوله جامعاً الضمير ليكون الواحد مهدداً من باب الأولى : ﴿ سنستدرجهم ﴾ أي فنأخذهم بعظمتنا عما قليل على غرة بوعد لا خلف فيه وندنيهم إلى الهلاك درجة درجة بواسطة من شئنا من

جنودنا وبغير واسطة بما نواتر عليهم من النعم التي توجب عليهم الشكر فيجعلونها سبباً لزيادة الكفر فنوجب لهم النقم .

ولما كان أخذ الإنسان من مأمنه على حالة غفلة بتوريطه في أسباب الهلاك لا يحس بالهلاك إلا وهو لا يقدر على التفصي فيها بوجه قال تعالى : ﴿ من حيث ﴾ أي من جهات ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم علم ما في وقت من الأوقات بغوائلها ، وذلك أنه سبحانه يغرهم بالإمهال ولا يعاجلهم بالعقاب في وقت المخالفة كما يتفق لمن يراد به الخير فيستيقظ بل يمهلهم ويمدهم بالنعم حتى يزول عنهم خاطر التذكر فيكونوا منعمين في الظاهر مستدرجين في الحقيقة فيقولون : قد قلتم : إن القدر فائض عن القضاء وأن الأعمال قضاء وجزاءها قدر ، ويقولون : إن أفعالنا في الدنيا قبيحة ونحن لا نرى جزاءها إلا ما يسرنا لولا يعذبنا الله بما نقول فأنتم كاذبون في توعدنا فإنا كلما أحدثنا ما تسمونه معصية تجددت لنا نعمة ، وذلك كما قادهم إلى تدريجهم وهم في غاية الرغبة ، قال القشيري : والاستدراج أن يريد السيىء ويطوي عن صاحبه وجه القصد حتى يأخذه بغتة فيدرج إليه شيئاً بعد شيء .

ولما كان الاستدراج يكون بأسباب كثيرة من بسط النعم وغيرها ، فأبرزه بالنون المشتركة بين الاستتباع والعظمة ، وكان تأخير الأجل لا يكون إلا لله وحده بغير واسطة شيء قال سبحانه : ﴿ وأملي ﴾ أي أوخر أنا وحدي في آجالهم وأوسع لهم في جميع تمتعهم ليزدادوا إثماً ﴿ لهم ﴾ لأنه لا يقدر على مد الأجل وترفيه العيش غيري .

ولما سلاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا غاية التسلية ، علل أو استأنف في جواب من لعله يقول : لم يكون أحدهم على هذا الوجه ؟ مسمياً إنعامه كيداً : ﴿ إن كيدي ﴾ أي ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه وإبدائي ذلك له في ملابس الإحسان وخلع البر والامتنان ﴿ متين ﴾ أي في غاية القوة حيث كان حاملاً للإنسان على إهلاك نفسه باختياره وسيعلم عند الأخذ أني لما أمهلته ما أهملته وأن إمهالي إنما كان استدراجاً .

ولما كان هذا القرآن أعظم إحسان ، ساقه سبحانه وتعالى إليهم فكان موجباً للشكر عليهم للذي أنزله ولإكرام الآتي به ، فكان سبباً لمباشرتهم من التكذيب به والأذى للآتي به إليهم ما يوجب أخذهم ، قال دالاً على متانة كيده سبحانه ودقة استدراجه عاطفاً على ما تقديره لبيان أنهم يباشرون ما يهلكهم باختيارهم من غير موجب : أكان تكذيبهم هذا الذكر لشيء فيه يرتابون ؟ قوله منكراً عليهم ، مبيناً أن تكذيبهم إنما هو لأنه طبع وخبث سجية لا شهوة لهم فيه ولا شبهة : ﴿ أم تسئلهم ﴾ أنت يا أعف الخلق وأعلاهم هماً ﴿ أجراً ﴾ على إبلاغك إياهم ﴿ فهم ﴾ أي فتسبب عن ذلك وتعقب أنهم ﴿ من مغرم ﴾ كلفتهم به فهم لشدته ﴿ مثقلون ﴾ أي واقع إثقالهم به حتى أوجب لهم ذلك الغرم

الناقص لأموالهم التقاعد عن التصديق بما جئت به إليهم من عندنا فصاروا يشتهون إقلاعك عنه .

ولما نفى أن يكون تكذيبهم بشهوة دعتهم إلى ذلك نفى أن يكون لهم في ذلك شبهة من شك في الذكر أو حيف في المذكر وأن يكونوا على ثقة أو ظن من سلامة العاقبة فقال : ﴿ أم عندهم ﴾ أي خاصة ﴿ الغيب ﴾ أي علموه من اللوح المحفوظ أو غيره ﴿ فهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ يكتبون ﴾ أي ما يريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله أو على أنهم لا درك عليهم في التكذيب به ، فقد علم بهذا أنه لا شهوة لهم في ذلك عادية ولا شبهة ، وإنما تكذيبهم مجرد خبث طباع ، وظلمة نفوس وأمالي فارغة وأطماع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 111.115 ﴾

(164/777)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما أبطل قولهم ، وأفسد مقالتهم شرح بعد ذلك عظمة يوم القيامة .

فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يوم منصوب بماذا ؟ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب ، بقوله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ في قوله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ [القلم : 41] وذلك أن ذلك اليوم يوم شديد ، فكأنه تعالى قال : إن كانوا صادقين في أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة ، لتنفعهم ونشفع لهم وثانيها : أنه منصوب بإضمار اذكر وثالثها : أن يكون التقدير يوم يكشف عن ساق ، كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ ، وأن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمته .

المسألة الثانية :

هذا اليوم الذي يكشف فيه عن ساق ، أهو يوم القيامة أو في الدنيا ؟ فيه قولان : الأول : وهو الذي عليه الجمهور ، أنه يوم القيامة ، ثم في تفسير الساق وجوه : الأول : أنه الشدة ، وروي أنه سئل ابن عباس عن هذه الآية ، فقال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر :

سن لنا قومك ضرب الأعناق . . وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال : وهو كرب وشدة وروى مجاهد عنه قال : هو أشد ساعة في القيامة ، وأنشد أهل اللغة أبياتاً كثيرة (منها) :

فإن شمرت لك عن ساقها . . فدنها ربيع ولا تسأم

ومنها :

كشفت لكم عن ساقها . . وبدا من الشر الصراح

وقال جرير :

ألا رب سام الطرف من آل مازن . . إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال آخر :

في سنة قد شمرت عن ساقها . . حمراء تبرى اللحم عن عراقها

وقال آخر :

قد شمرت عن ساقها فشدوا . . وجدت الحرب بكم فجدوا

(165/777)

ثم قال ابن قتيبة أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه ، يشمر عن ساقه ، فلا جرم يقال في موضع الشدة : كشف عن ساقه ، واعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعمال الساق في الشدة مجاز ، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلام إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة ، فإذا أقمنا الدلائل القاطعة على أنه تعالى ، يستحيل أن يكون جسماً ، فحينئذ يجب صرف اللفظ إلى المجاز ، واعلم أن صاحب "الكشاف" أورد هذا التأويل في معرض آخر ، فقال : الكشف عن الساق مثل في شدة الأمر ، فمعنى

قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ، ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل ، ثم أخذ يعظم علم البيان ويقول لولاه : لما وقفنا على هذه الأسرار وأقول : إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل ، أو يقول : إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة ، والأول باطل بإجماع المسلمين ، ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب تأويلات الفلاسفة في أمر المعاد فإنهم يقولون في قوله :

﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] ليس هناك لا أنهار ولا أشجار ، وإنما هو مثل للذة والسعادة ، ويقولون في قوله : ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج : 77] ليس هناك لا سجود ولا ركوع .

(166/777)

وإنما هو مثل للتعظيم ، ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع وفساد الدين ، وأما إن قال : بأنه لا يصار إلى هذا التأويل إلا بعد قيام الدلالة على أنه لا يجوز حمله على ظاهره ، فهذا هو الذي لم يزل كل أحد من المتكلمين (إلا) قال به وعول عليه ، فأين هذه الدقائق ، التي استبد هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطة علم البيان ، فرحم الله أمرأً عرف قدره ، وما تجاوز

طوره القول الثاني : وهو قول أبي سعيد الضرير : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ، أي عن أصل الأمر ، وساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر ، وساق الإنسان ، أي يظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها القول الثالث : يوم يكشف عن ساق جهنم ، أو عن ساق العرش ، أو عن ساق ملك مهيب عظيم ، واللفظ لا يدل إلا على ساق ، فأما أن ذلك الساق ساق أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه والقول الرابع : وهو اختيار المشبهة ، أنه ساق الله ، تعالى الله عنه روى عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسلام : " أنه تعالى يتمثل للخلق يوم القيامة حين يمر المسلمون ، فيقول : من تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله فيشهدهم مرتين أو ثلاثاً ثم يقول : هل تعرفون ربكم ، فيقولون : سبحانه إذا عرفنا نفسه عرفناه ، فعند ذلك يكشف عن ساق ، فلا يبقى مؤمن إلا خر ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورهم كالطبق الواحد كأنما فيها السفافيد " واعلم أن هذا القول باطل لوجوه أحدها : أن الدلائل دلت على أن كل جسم محدث ، لأن كل جسم متناه ، وكل متناه محدث ولأن كل جسم فإنه لا ينفك عن الحركة والسكون ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، ولأن كل جسم ممكن ، وكل ممكن محدث وثانيها : أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرف ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن ، أما لو حملناه على الشدة ، ففائدة التنكير الدلالة على التعظيم ، كأنه قيل : يوم يكشف عن شدة ، وأي شدة ، أي شدة لا يمكن وصفها وثالثها : أن التعريف لا يحصل بالكشف

عن الساق ، وإنما يحصل بكشف الوجه القول الثاني : أن قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ليس المراد منه يوم القيامة ، بل هو في الدنيا ، وهذا قول أبي مسلم قال : أنه لا يمكن حمله على يوم القيامة لأنه تعالى قال في وصف هذا اليوم : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه ، إما آخر أيام الرجل في دنياه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملئكة لاَ بشرى ﴾ [الفرقان : 22] ثم إنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها ، وإما حال الهرم والمرض والعجز وقد كانوا قبل ذلك اليوم يدعون إلى السجود وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت أو من العجز والهرم ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم ، فأما قوله : إنه لا يمكن حمله على القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة فجوابه أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم : إن ذلك غير جائز .

المسألة الثالثة :

قرىء : ﴿ يَوْم نكشف ﴾ بالنون و ﴿ تكشف ﴾ بالتاء المنقوطة من فوق على البناء للفاعل والمفعول جميعاً والفعل للساعة أو للحال ، أي يوم يشتد الحال أو الساعة ، كما تقول : كشف الحرب عن ساقها على المجاز .

وقرىء (تكشف) بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف ، ومنه أكشف الرجل فهو مكشف إذا انقلبت شفته العليا .

قوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ، خاشعة أبصارهم تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سالمون ﴾ .

(168/777)

اعلم أنا بينا أنهم لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً ، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا ، ثم إنه تعالى حال ما يدعوهم إلى السجود يسلب عنهم القدرة على السجود ، ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إلى السجود وهم سالمو الأطراف والمفاصل .

قال الجبائي : لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل ذلك على أنهم في الدنيا كانوا

يستطيعون ، فبطل بهذا قول من قال : الكافر لا قدرة له على الإيمان ، وإن القدرة على الإيمان لا تحصل إلا حال وجود الإيمان والجواب : عنه أن علم الله بأنه لا يؤمن مناف لوجود الإيمان والجمع بين المتنافيين محال ، فالاستطاعة في الدنيا أيضاً غير حاصلة على قول الجبائي .

أما قوله : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ فهو حال من قوله : ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ . . . تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يعني يلحقهم ذل بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم مثل العبد الذي أعرض عنه مولاه ، فإنه يكون ذليلاً فيما بين الناس ، وقوله : ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سالمون ﴾ يعني حين كانوا يدعون إلى الصلوات بالأذان والإقامة وكانوا سالمين قادرين على الصلاة ، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يجب المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة .

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44)

اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده ، وفي قدرته من القهر ، فقال : ذرني وإياه ، يريد كله إليَّ ، فإني أكفيكه ، كأنه يقول : يا محمد حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلي ، وتخلي بيني وبينه ، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك ، ثم قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ يقال : استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

وقوله : ﴿ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال أبو روق : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار ، فالاستدراج إنما حصل في الاغتناء الذي لا يشعرون أنه استدراج ، وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين ، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم .

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)

أي أمهلهم كقوله : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] وأطيل لهم المدة والملاوة المدة من الدهر ، يقال : أملى الله له أي أطال الله له الملاوة والملوان الليل والنهار ، والملأ مقصوراً الأرض الواسعة سميت به لامتدادها .

وقيل : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أي بالموت فلا أعاجلهم به ، ثم إنه إنما سمى إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكون في صورة الكيد ، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك ، واعلم أن الأصحاب تمسكوا بهذه الآية في مسألة إرادة الكائنات ، فقالوا : هذا الذي سماه بالاستدراج وذلك الكيد ، إما أن يكون له أثر في ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ، أو يكون له فيه أثر ، والأول باطل ، وإلا لكان هو سائر الأشياء الأجنبية بمثابة واحدة ، فلا

يكون استدراجاً ألبتة ولا كيداً ، وأما الثاني فهو يقتضي كونه تعالى مريداً لذلك الفعل الذي ينساق إليه ذلك الاستدراج وذلك الكيد ، لأنه إذا كان تعالى لا يزال يؤكد هذا الجانب ، ويفتر ذلك الجانب الآخر ، واعلم أن تأكيد هذا الجانب لا بد وأن ينساق بالآخرة إلى فعله ودخوله في الوجود ، فلا بد وأن يكون مريداً لدخول ذلك الفعل في الوجود وهو المطلوب ، أجاب الكعبي عنه فقال : المراد سنستدرجهم إلى الموت من حيث لا يعلمون ، وهذا هو الذي تقتضيه الحكمة فإنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه لصاروا آمنين إلى ذلك الوقت ولأقدموا على المعاصي .

(170/777)

وفي ذلك إغراء بالمعاصي ، وأجاب الجبائي عنه ، فقال : سنستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة ، وأملي لهم في الدنيا توكيداً للحجة عليهم إن كيدي متين فأمهله وأزيح الأعذار عنه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة فهذا هو المراد من الكيد المتين ، ثم قال : والذي يدل على أن المراد ما ذكرنا أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ [القلم : 44] ولا شك أن هذا التهديد إنما وقع بعقاب الآخرة ، فوجب أن يكون المراد من الاستدراج والكيد المذكورين عقيبه هو عذاب

الآخرة ، أو العذاب الحاصل عند الموت ، واعلم أن أصحابنا قالوا الحرف الذي ذكرناه وهو : أن هذا الإمهال إذا كان متأدياً إلى الطغيان كان الراضي بالإمهال العالم بتأديه إلى الطغيان لا بد وأن يكون راضياً بذلك الطغيان ، واعلم أن قولهم : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم – إلى قوله – إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ مفسر في سورة الأعراف (182) .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

وهذه الآية مع ما بعدها مفسرة في سورة الطور [40] ، وأقول : إنه أعاد الكلام إلى ما تقدم من قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ [القلم : 41] والمغرم الغرامة أي لم يطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان .

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

وفيه وجهان الأول : أن عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ثواب ما هم عليه من الكفر والشرك ، فلذلك أصروا عليه ، وهذا استفهام على سبيل الإنكار الثاني : أن الأشياء الغائبة كأنها حضرت في عقولهم حتى إنهم يكتبون على الله أي يحكمون عليه بما شاءوا وأرادوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 82.86 ﴾

(171/777)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾

يجوز أن يكون العامل في "يَوْمَ" "فَلْيَأْتُوا" أي فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم .

ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل ، أي اذكر يوم يكشف عن ساق ؛ فيوقف على "صَادِقِينَ" ولا يوقف عليه على التقدير الأول .

وقرىء "يوم نكشف" بالنون .

"وقرأ" ابن عباس "يوم تكشف عن ساق" بتاء مسمَّى الفاعل ؛ أي تكشف الشدة أو القيامة عن ساقها ؛ كقولهم : شَمّرت الحرب عن ساقها .

قال الشاعر :

فتى الحرب إن عضّت به الحربُ عَضَّها . . .

وإن شَمّرت عن ساقها الْحَرْبُ شَمّرا

وقال الراجز :

قد كشفت عن ساقها فشُدُّوا . . .

وجَدّت الحربُ بكم فَجِدُّوا

وقال آخر :

عجبت من نفسي ومن إشفاقها . . .

ومن طِرَاد الطيرِ عن أرزاقها

في سَنة قد كشفت عن ساقها . . .

حمراء تَبْري اللحَم عن عُرَاقها

وقال آخر :

كشفت لهم عن ساقها . . .

وبدا من الشّر الصُّرَاحْ

وعن ابن عباس أيضاً والحسن وأبي العالية "تُكْشَفُ" بتاء غير مسمّى الفاعل .

وهذه القراءة راجعة إلى معنى "يُكْشَف" وكأنه قال : يوم تكْشف القيامة عن شدة .

وقرىء "يَوْمَ تُكْشِف" بالتاء المضمومة وكسر الشين ؛ من أكشف إذا دخل في الكشف .

ومنه : أكشف الرجل فهو مُكْشِف ؛ إذا انقلبت شَفَتُه العليا .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : عن كرب وشدّة .

أخبرنا ابن جُريج عن مجاهد قال : شدّة الأمر وجِدّه .

وقال مجاهد : قال ابن عباس هي أشد ساعة في يوم القيامة .

وقال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل : كشف الأمرُ عن ساقه .

والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدّ شَمّر عن ساقه ؛ فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة .

وقيل : ساقُ الشيء أصله الذي به قِوامه ؛ كساق الشجرة وساق الإنسان .

أي يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها .

(172/777)

وقيل : يكشف عن ساق جهنم .

وقيل : عن ساق العرش .

وقيل : يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن ؛ أي يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه ، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج .

فأما ما رُوِي أن الله يكشف عن ساقه فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى .

ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره .

وقيل : يكشف عن نوره عز وجل .

وروى أبو موسى : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : "عَنْ سَاقٍ" قال : "

يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا " وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره : حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا ابن منيع قال حدّثنا هُدْبة قال حدّثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بُردة عن أبي موسى قال حدّثني أبي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إذا كان يوم القيامة مُثِّل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا ربًّا كنا نعبده في الدنيا ولم نره قال وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدًا وتبقى أقوام ظهورهم مثل صَيَاصِي البقر فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ فيقول الله تعالى عبادي أرفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل كل رجلٍ منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار " قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال : الله الذي لا إله إلا هو لقد حَدَّثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلف له ثلاثة أيمان ؛ فقال عمر : ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحبّ إليّ من هذا .

(173/777)

وقال قيس بن السّكَن : حَدّث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال : إذا كان يوم القيامة قام الناس لربّ العالمين أربعين عاماً شاخصةً أبصارهم إلى السماء ، حُفاةً عُراةً يُلْجمهم العرق ، فلا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاماً ، ثم ينادي منادٍ : أيها الناس ، أليس عدلاً من ربكم الذي خلقكم وصوّركم وأماتكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يُوَلِّيَ كلَّ قوم ما تولَّوْا ؟ قالوا : نعم .

قال : فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم في النار ، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم : ألا تذهبون قد ذهب الناس ؟ فيقولون حتى يأتينا ربنا ؛ فيقال لهم : أو تَعرفونه ؟ فيقولون : إن اعترف لنا عَرَفناه .

قال فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصاً ساجداً ، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد ، فيذهب بهم إلى النار ، ويدخل هؤلاء الجنة ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي ذليلةً متواضعةً ؛ ونصبها على الحال .

﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوهُهم أشدّ بياضاً من الثلج . وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشدّ سواداً من القار .

قلت : معنى حديثِ أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي

سعيد الخدريّ وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ أي في الدنيا .

﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ مُعَافَوْن أصّحاء .

قال إبراهيم التَّيْميّ : أي يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه .

وقال سعيد بن جُبَير : كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون .

وقال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلّفون عن الجماعات .

وقيل : أي بالتكليف المُوَجَّه عليهم في الشرع ؛ والمعنى متقارب .

وقد مضى في سورة "البقرة" الكلام في وجوب صلاة الجماعة .

(174/777)

وكان الربيع بن خَيْثم قد فُلِج وكان يُهَادَي بين الرجلين إلى المسجد ؛ فقيل : يا أبا يزيد ، لو صلّيتَ في بيتك لكانت لك رخصة .

فقال : من سمع حيّ على الفلاح فلْيُجِب ولو حَبْواً .

وقيل لسعيد بن المسيّب : إن طارقاً يريد قتلك فتغيّب .

فقال : أبحيث لا يَقْدِر الله عليّ ؟ فقيل له : اجلس في بيتك .

فقال : أسمع حيّ على الفلاح ، فلا أجيب

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي ﴾ أي دَعْنِي .

﴿ وَمَن يُكَذِّبُ ﴾ "مَنْ" مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم .

﴿ بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ؛ قاله السدّيّ .

وقيل : يوم القيامة .

وهذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي فأنا أجازيهم وأنتقم منهم .

ثم قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ معناه سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون ؛ فعُذّبوا يوم بَدْر .

وقال سفيان الثَّوْريّ : نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر .

وقال الحسن : كم مستدرَج بالإحسان إليه ، وكم مفتون بالثناء عليه ، وكم مغرور بالسّتر عليه .

وقال أبو رَوْق : أي كلّما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار .

وقال ابن عباس : سنمكر بهم .

وقيل : هو أن نأخذهم قليلاً ولا نباغتهم .

وفي حديث " أن رجلاً من بني إسرائيل قال يا ربّ كم أعصيك وأنت لا تعاقبني قال فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر .

إن جمود عينيك وقَسَاوَةَ قلبك استدراجٌ منيّ وعقوبةٌ لو عَقَلت " والاستدراج : ترك المعاجلة .

وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج .

ومنه قيل درجة ؛ وهي منزلة بعد منزلة .

واستدرج فلان فلاناً ؛ أي استخرج ما عنده قليلاً .

ويقال : درّجه إلى كذا واستدرجه بمعنًى ؛ (أي) أدناه منه على التدريج فتدرّج هو .

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدّة .

والملاوة : المُدة من الدهر .

وأملى الله له أي أطال له .

والملَوان : الليل والنهار .

(175/777)

وقيل : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي لا أعاجلهم بالموت ؛ والمعنى واحد .

وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا .

﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي إن عذابي لقوِيّ شديد فلا يفوتني أحد .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

عاد الكلام إلى ما تقدّم من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ .

أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ؟ فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشقّ عليهم من بذل المال ؛ أي ليس عليهم كُلْفة ، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويَصلون إلى جنات النعيم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي علم ما غاب عنهم .

﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وقيل : أينزل عليهم الْوَحْيُ بهذا الذي يقولون .

وعن ابن عباس : الغيب هنا اللوح المحفوظ ؛ فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به ، ويكتبون أنهم أفضل منكم ، وأنهم لا يعاقبون .

وقيل : ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ يحكمون لأنفسهم بما يريدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(176/777)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾

متعلق بقوله تعالى ﴿ فليأتوا ﴾ [القلم : 41] على الوجهين ويجوز تعلقه بمقدر كاذكر أو يكون كيت وكيت وقيل بخاشعة وقيل بترهقهم وأياً ما كان فالمراد بذلك اليوم عند الجمهور يوم القيامة والساق ما فوق القدم وكشفها والتشمير عنها مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب حتى أنه يستعمل بحيث لا يتصور ساق بوجه كما في قول حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها . . .

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول الراجز :

عجبت . . .

من نفسي ومن اشفاقها

ومن طواء الخيل عن أرزاقها . . .

في سنة قد كشفت عن ساقها

حمراء تبري اللحم عن عراقها . . .

وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب فإنهن لا يفعلن ذلك إلا إذا عظم الخطب واشتد الأمر فيذهلن عن الستر بذيل الصيانة وإلى نحو هذا ذهب مجاهد وإبراهيم النخعي وعكرمة وجماعة وقد روي أيضاً عن ابن عباس أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عنه أنه

سئل عن ذلك فقال إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

صبرا عناق أنه شر باق . . .

قد سن لي قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق . . .

(177/777)

والروايات عنه رضي الله تعالى عنه بهذا المعنى كثيرة وقيل ساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان والمراد يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً وإليه يشير كلام الربيع بن أنس فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قال في ذلك يوم يكشف الغطاء وكذا ما أخرجه البيهقي على ابن عباس أيضاً قال حين يكشف الأمر وتبدوا الأعمال وفي الساق على هذا المعنى استعارة تصريحية وفي "الكشف" تجوز آخر أو هو ترشيح للاستعارة باق على حقيقته وتنكير ساق قيل للتهويل على الأول وللتعظيم على الثاني وقيل لا ينظر إلى شيء منهما على الأول لأن الكلام عليه تمثيل وهو لا ينظر فيه للمفردات أصلاً وذهب بعضهم إلى أن المراد بالساق ساقه سبحانه

وتعالى وأن الآية من المتشابه واستدل على ذلك بما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً وأنكر ذلك سعيد بن جبير أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه سئل عن الآية فغضب غضباً شديداً وقال : إن أقواماً يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه وإنما يكشف عن الأمر الشديد وعليه يحمل ما في الحديث على الأمر الشديد أيضاً وإضافته إليه عز وجل لتهويل أمره وأنه أمر لا يقدر عليه سواه عز وجل وأرباب الباطن من الصوفية يقولون بالظاهر ويدعون أن ذلك عند التجلي الصوري وعليه حملوا أيضاً ما أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده والطبراني والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه وغيرهم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(178/777)

" يجمع الله الناس يوم القيامة وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي مناد يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا

ويتولى أليس ذلك عدلاً من ربكم قالوا بلى قال فلينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يتولى في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا ويمثل لمن كان يعبد عيسى عليه السلام شيطان عيسى وكذا يمثل لمن كان يعبد عزيراً حتى تمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقال لهم ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس فيقولون إن لنا رباً ما رأيناه بعد فيقول فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه قالوا بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه قال وما هي قالوا : يكشف عن ساق فيكشف عند ذلك " الحديث وهو نظائره من المتشابه عند السلف وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة يكشف بفتح الياء مبنياً الفاعل وهي رواية عن ابن عباس وقرأ ابن هرمز نكشف بالنون وقرىء يكشف بالياء التحتية مضمومة وكسر الشين من أكشف إذا دخل في الكشف ومنه اكشف الرجل فهو مكشف انقلبت شفته العليا وقرىء تكشف بالتاء الفوقية والبناء للفاعل وهو ضمير الساعة المعلومة من ذكر يوم القيامة أو الحال المعلومة من دلالة الحال وبها والبناء للمفعول وجعل الضمير للساعة أو الحال أيضاً وتعقب بأنه يكون الأصل حينئذٍ يكشف الله الساعة عن ساقها مثلاً ولو قيل ذلك لم يستقم لاستدعائه إبداء الساق وإذهاب الساعة كما تقول كشفت عن وجهها القناع والساعة ليست ستراً على الساق حتى تكشف وأجيب أنها جعلت ستراً مبالغة لأن المخدرة تبالغ في الستر جهدها فكأنها نفس الستر فقيل تكشف الساعة وهذا كما تقول كشفت زيداً عن جهله إذا بالغت في إظهار جهله لأنه كان ستراً

على جهله يستر معايبه فابنته وأظهرته إظهاراً لم يخف على أحد وقيل عليه أن الإذهاب حينئذٍ ادعائي ولا يخفى ما فيه من التكلف ولا عبرة بما ذكر من المثال

(179/777)

المصنوع وأقل تكلفاً منه جعل عن ساق بدل اشتمال من الضمير المستتر في الفعل بعد نزع الخافض منه والأصل يكشف عنها أي عن الساعة أو الحال فنزع الخافض واستتر الضمير وتعقب بأن إبدال الجار والمجرور من الضمير المرفوع لا يصح بحسب قواعد العربية فهو ضغث على إبالة وتكلف على تكلف وقيل أن عن ساق نائب الفاعل وتعقب بأن حق الفعل التذكير كصرف عن هند ومر بدعد ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إياه في الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم وعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أي ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض وتقدم في حديث البخاري ومن معه ما سمعت وفي حديث تصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً والظاهر أن الداعي الله تعالى أو الملك وقيل هو ما يرونه من سجود المؤمنين واستدل أبو مسلم بهذه الآية على أن يوم الكشف في الدنيا قال لأنه تعالى قال : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى

السجود ﴾ ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف فيراد منه إما أخر أيام الشخص في دنياه حين يرى الملائكة وإما وقت المرض والهرم والمعجزة ويدفع بما أشرنا إليه .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حال من مرفوع يدعون على أن أبصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تلحقهم وتغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ شديدة ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ في الدنيا والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير أو لأن المراد به الصلوات المكتوبة كما قال النخعي والشعبي أو جميع الطاعات كما قيل والدعوة دعوة التكليف وقال ابن عباس وابن جبير كانوا يسمعون الأذان والنداء للصلاة فلا يجيبون ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ متمكنون منه أقوى تمكن أي فلا يجيبون إليه ويأبونه وترك ذكر هذا ثقة بظهوره .

(180/777)

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذّبُ بهذا الحديث ﴾ أي إذا كان حالهم ما سمعت فكل من يكذب بالقرآن إلى واستكفنيه فإن في ما يفرغ بالك ويخلي همك وهو من بليغ الكلام يفيد أن المتكلم واثق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما يدور حول أمنية المخاطب وبما يزيد عليه وقد حققه جار الله بما حاصله أن من استكفى أحداً ترك الأمر إليه وإلا كان استعانة لا استكفاء

فأقيم الرادف أعني التخلية وأن يذره وإياه مقام الاستكفاء مبالغة وإنباء عن الكفاية البالغة كيف وهذا الكافي طلب الاستكفاء بقوله ذرني وأبرز ترك الاستكفاء في صورة المنع مبالغة على مبالغة فلو لم يكن شديد الوثوق بتمكنه من الوفاء أقصى التمكن وفوق ما يحوم حول خاطر المستكفي لما كان للطلب على هذا الوجه الأبلغ وجه ومن في موضع نصب إما عطفاً على المنصوب في ذرني أو على أنه مفعول معه وقوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالاً والضمير لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد في يكذب باعتبار لفظها أي سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدراج بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضل على المؤمنين مع أنه سبب لهلاكهم .

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثماً وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ لا يدفع بشيء وتسمية ذلك كيداً وهو ضرب من الاحتيال لكونه في صورته حيث إنه سبحانه يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهراً ومراده عز وجل به الضرر لما علم من خبث جبلتهم وتماديهم في الكفر والكفران .

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿ أَجْراً ﴾ دنيوياً ﴿ فَهُمُ ﴾ لأجل ذلك ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ أي غرامة مالية ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ مكلفون حملاً ثقيلاً فيعرضون عنك وهذه الجملة على ما قاله ابن الشيخ معطوفة على قوله تعالى ﴿ أم لهم شركاء ﴾

(181/777)

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي المغيبات أو للوح وأطلق الغيب عليه مجازاً لأنه محل لكتابة المغيبات أو لظهور صورها بناءً على الخلاف المعروف فيه والقرينة ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما يحكمون به ويستغنون بذلك عن علمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(182/777)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) ﴾)

يجوز أن يكون ﴿ يوم يُكشف ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ [القلم : 41] ، أي فليأتوا بالمزعومين يومَ القيامة ، وهذا من حُسن التخلص إلى ذكر أهوال القيامة عليهم . ويجوز أن يكون استئنافاً متعلقاً بمحذوف تقديره : اذكُرْ يوم يُكشف عن ساق ويُدعون إلى السجود الخ للتذكير بأهوال ذلك اليوم .

وعلى كلا الوجهين في تعلق ﴿ يوم ﴾ فالمراد باليوم يوم القيامة .

والكشف عن ساق : مثَل لشدة الحال وصعوبة الخطب والهول ، وأصله أن المرء إذا هلع أن يسرع في المشي ويشمر ثيابه فيكشف عن ساقه كما يقال : شمر عن ساعد الجد ، وأيضاً كانوا في الروع والهزيمة تشمر الحرائر عن سوقهن في الهرب أو في العمل فتنكشف سوقهن بحيث يشغلهن هول الأمر عن الاحتراز من إبداء ما لا تبدينه عادةً ، فيقال : كشفت عن ساقها أو شَمَّرت عن ساقها ، أو أبْدت عن ساقها ، قال عبد الله بن قيس الرقيات:

كيف نوْمي على الفراش ولما . . .

تشملْ الشامَ غارةٌ شَعْواء

تُذهل الشيخ عن بنيه وتبدي . . .

عن خِدَام العقيلة العذراء

وفي حديث غزوة أحد قال أنس بن مالك : "انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة وأم سليم وأنهما لمشمّرتان أرى خَدَم سوقهمَا تنقلان القِرَب على متُونهما ثم تُفْرِغَانها في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها " الخ ، فإذا قالوا : كشف المرء عن ساقه فهو كناية عن هول أصابه وإن لم يكن كشف ساقه .

وإذا قالوا : كشف الأمر عن ساق ، فقد مثلوه بالمرأة المروعة ، وكذلك كشفت الحرب عن

ساقها ، كل ذلك تمثيل إذ ليس ثمة ساق قال حاتم:

فتى الحرب عضّت به لحرب الحرب عضها . . .

وإن شمرت عن سَاقها الحرب شمَّرا

وقال جد طرفة من الحماسة:

كشفتْ لهم عن ساقها . . .

وبدا من الشر البَواح

(183/777)

وقرأ ابن عباس ﴿ يوم تَكشف ﴾ بمثناة فوقية وبصيغة البناء للفاعل على تقدير تكشف الشدة عن ساقها أو تكشف القيامة ، وقريب من هذا قولهم : قامت الحرب على ساق .

والمعنى : يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدة والروْع ، قال ابن عباس : يكشف عن ساق : عن كرب وشدة ، وهي أشد ساعة في يوم القيامة .

وروى عبد بن حميد وغيره عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن هذا ، فقال : "إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب" ، أما سمعتم قول الشاعر:

صبراً عَنَاقُ إنه لشِرْباقْ . . .

فقد سنّ لي قومُكِ ضربَ الأعناقْ

وقامت الحرب بنا على ساق . . .

وقال مجاهد : ﴿ يكشف عن ساق ﴾ : شدّة الأمر .

وجملة ﴿ ويُدْعون ﴾ ليس عائداً إلى المشركين مثل ضمير ﴿ إنا بلوناهم ﴾ [القلم : 17] إذ لا يساعد قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ فإن المشركين لم يكونوا في الدنيا يُدْعَون إلى السجود .

فالوجه أن يكون عائداً إلى غير مذكور ، أي ويُدعَى مدعوون فيكون تعريضاً بالمنافقين بأنهم يحشرون مع المسلمين ويمتحن الناس بدعائهم إلى السجود ليتميز المؤمنون الخُلص عن غيرهم تَميز تشريف فلا يستطيع المنافقون السجود فيفتضح كفرهم ، قال القرطبي عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود : فمن كان يعبد الله مخلصاً يخِرُّ ساجداً له ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنَّ في ظهورهم السفافيد أ هـ .

فيكون قوله تعالى : ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ إدماجاً لذكر بعض ما يحصل من أحوال ذلك اليوم .

وفي "صحيح مسلم" من حديث الرؤية وحديث الشفاعة عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فيُكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء

نفسه إلاّ أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد رياء إلاّ جعل الله ظهره طبقَة واحدة كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه " الحديث ، فيصلح ذلك تفسيراً لهذه الآية .

(184/777)

وقد اتبع فريق من المفسرين هذه الرواية وقالوا : يكشِف الله عن ساقه ، أي عن مثل الرِجْل ليراها الناس ثم قالوا هذا من المتشابه ، على أنه روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ عن ساقٍ ﴾ قال يكشف عن نور عظيم يَخرون له سجداً .

ورُويت أخبار أخرى ضعيفة لا جدوى في ذكرها .

و﴿ السجود ﴾ الذي يُدعون إليه : سجودُ الضراعة والخضوع لأجل الخلاص من أهوال الموقف .

وعدم استطاعتهم السجود لسلب الله منهم الاستطاعة على السجود ليعلموا أنهم لا رجاء لهم في النجاة .

والذي يدعوهم إلى السجود الملائكة الموكلون بالمحشر بأمر الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ يَوم يدعو الداعي إلى شيء نكر إلى قوله : ﴿ مهطعين إلى الداعي ﴾ [القمر : 68] ، أو

يدعو بعضهم بعضاً بإلهام من الله تعالى ، وهو نظير الدعوة إلى الشفاعة في الأثر المروي "فيقول بعضهم لبعض : لو استشفعنا إلى ربّنا حتى يريحنا من موقفنا هذا" .

وخشوع الأبصار : هيئة النظر بالعين بذلة وخَوف ، استعير له وصف ﴿ خاشعة ﴾ لأن الخاشع يكون مطأطئا مختفياً .

و﴿ ترهقهم ﴾ : تحل بهم وتقترب منهم بحرص على التمكن منهم ، رَهِقَ من باب فَرِح قال تعالى : ﴿ تَرْهَقُها قَتَرة ﴾ [عبس : 41] .

وجملة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ حال ثانية من ضمير ﴿ يستطيعون .

وجملة وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالمون ﴾ معترضة بين ما قبلها وما تفرع عنها ، أي كانوا في الدّنيا يُدعون إلى السجود لله وحده وهم سالمون من مثل الحالة التي هم عليها في يوم الحشر .

والواو للحال وللاعتراض .

وجملة ﴿ وهم سالمون ﴾ حال من ضمير ﴿ يُدعون ﴾ أي وهم قادرون لا علة تعوقهم عنه في أجسادهم .

والسلامة : انتفاء العلل والأمراض بخلاف حالهم يوم القيامة فإنهم مُلْجَأُون لعدم السجود .

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44)

الفاء لتفريع الكلام الذي عطفته على الكلام الذي قبله لكون الكلام الأول سبباً في ذكر ما بعده ، فبعد أن استُوفي الغرض من موعظتهم ووعيدهم وتزييف أوهامهم أعقب بهذا الاعتراض تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله تكفل بالانتصاف من المكذبين ونصْره عليهم .

وقوله : ﴿ فذرني ومن يكذب ﴾ ونحوه يفيد تمثيلاً لحال مفعول (ذر) في تعهده بأن يكفي مؤونة شيء دون استعانةٍ بصاحبِ المؤونةِ بحال من يرى المخاطب قد شرع في الانتصار لنفسه ورأى أنه لا يبلغ بذلك مبلغ مفعول (ذَرْ) لأنه أقدر من المعتدَى عليه في الانتصاف من المعتدي فيتفرغ له ولا يطلب من صاحب الحق إعانة له على أخذ حقه ، ولذلك يؤتى بفعل يدل على طلب الترك ويؤتى بعده بمفعولٍ معه ومنه قوله تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] ﴿ ذَرني ومن خلقتُ وحيداً ﴾ [المدثر : 11] وقال السهيلي في "الروض الأنف" في قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : 11] فيه تهديد ووعيد ، أي دعني وإياه فسترى ما أصنع وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه وكره أن يشفع لمن اغتاظ عليه فمعنى الكلام لا شفاعة في هذا الكافر .

والواو واو المعية وما بعدها مفعول معه ، ولا يصح أن تكون الواو عاطفة لأن المقصود : اتركني معهم .

و﴿ الحديث ﴾ يجوز أن يراد به القرآن وتسميته حديثاً لما فيه من الإِخبار عن الله تعالى ، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المغيبات ، وقد سمي بذلك في قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ في سورة الأعراف (185) وقوله تعالى : ﴿ أفمِن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ﴾ الآية في ﴾ [سورة النجم : 5960] ، وقوله : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ في سورة الواقعة (81) .

واسم الإِشارة على هذا للإِشارة إلى مقدر في الذهن مما سبق نزوله من القرآن .

ويجوز أن يكون المراد بالحديث الإِخبار عن البعث وهو ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق الآية ﴾ [القلم : 42] .

(186/777)

ويكون اسم الإشارة إشارة إلى ذلك الكلام والمعنى : حسبك إيقاعاً بهم أن تكل أمرهم إليّ فأَنا أعلم كيف أنتصف منهم فلا تشغل نفسك بهم وتوكل عليَّ .

ويتضمن هذا تعريضاً بالتهديد للمكذبين لأنهم يسمعون هذا الكلام .

وهذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم بالنصر ووعيد لهم بانتقام في الدنيا لأنه تعجيل لتسلية الرسول .

وجملة ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ﴾ بيان لمضمون ﴿ ذَرني ومن يكذّب بهذا الحديث ﴾ باعتبار أن الاستدراج والإِملاء يعقبهما الانتقام فكأنه قال : سنأخذهم بأعمالهم فلا تستبطىء الانتقام فإنه محقق وقوعه ولكن يؤخر لحكمة تقتضي تأخيره .

والاستدراج : استنزال الشيء من دَرَجة إلى أخرى في مثل السُّلم ، وكان أصل السين والتاء فيه للطلب أي محاولة التدرج ، أي التنقل في الدَّرج ، والقرينة تدل على إرادة النزول إذ التنقل في الدرَج يكون صعوداً ونزولاً ، ثم شاع إطلاقه على معاملة حسنة لمُسيءٍ إلى إبَّان مقدرٍ عند حلوله عقابُه ومعنى ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم يأتيهم من أحوال وأسباب لا يتفطنون إلى أنها مفضية بهم إلى الهلاك ، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حلول المصائب بهم ، ف ﴿ مِن ﴾ ابتدائية ، و ﴿ حيث ﴾ للمكان المجازي ، أي الأسباب والأفعال والأحوال التي يحسبونها تأتيهم بخير فتنكشف لهم عن الضر ، ومفعول ﴿ لا يعلمون ﴾ ضمير محذوف عائد إلى ﴿ حيث .

وأُملي ﴾ : مضارع أمَلى ، مقصوراً بمعنى أمْهَل وأخَّر وهو مشتق من المَلاَ مقصوراً ، وهو الحِين والزمن ، ومنه قيل لليلِ والنهار : المَلَوَان ، فيكون أملى بمعنى طَوَّل في الزمان ، ومصدره إملاء .

ولام ﴿ لهم ﴾ هي اللام المسماة لام التبيين ، وهي التي تُبين اتصال مدخولها بعامله لخفاءٍ فيه فإن اشتقاق فعل أمَلى من الملْوِ ، وهو الزمان اشتقاق غيرُ بيّن لخفاء معنى الحَدَث فيه .

ونون ﴿ سنستدرجهم ﴾ نون المتكلم المشارك ، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله فلذلك جيء بنون المتكلم المشارك فالاستدراج تعلق تنجيزي لقدرةِ الله فيحصل بواسطة الملائكة الموكلين كما قال تعالى : ﴿ إذْ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتُوا الذين ءامنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ﴾ الآية [الأنفال : 12] .

وأما الإِملاء فهو علم الله بتأجيل أخْذِهم .

وتعلُق العلم ينفرد به الله فلذلك جيء معه بضمير المفرد .

وحصل في هذا الاختلاف تفنن في الضميرين .

ونظير هذه الآية قوله في الأعراف (182 183) : ﴿ والذين كذبُوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأُملي لهم إن كيدي متين ﴾ باعتبار أنهما وعد للنبيء بالنصر وتثبيت له بأن استمرار الكافرين في نعمة إنما هو استدراج وإملاء وضرب يشبه الكيد وأن الله بالغ أمره فيهم ، وهذا كقوله : ﴿ لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ [آل عمران : 196 197] .

وموقع ﴿ إنَّ ﴾ موقع التسبب والتعليل كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ في سورة آل عمران (96) .

وإطلاق الكيد على إحسان الله لقوم مع إرادة إلحاق السوء بهم إطلاق على وجه الاستعارة لمشابهته فعل الكائد من حيث تعجيل الإِحسان وتعقيبه بالإِساءة .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

(188/777)

إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المبتدىء من قوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب ﴾ [القلم : 3637] ﴿ أم لكم أيمان ﴾ [القلم : 39] ﴿ أم لهم شركاء ﴾ [القلم : 41] فإنه بعد أن نفى أن تكون لهم حجة تؤيد صلاح حالهم ، أو وعد لهم بإعطاء ما يرغبون ، أو أولياء ينصرونهم ، عطف الكلام إلى نفي أن يكون عليهم ضر في إجابة دعوة الإسلام ، استقصاء لقطع ما يُحتمل من المعاذير بافتراض أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم أجراً على هديه إياهم ، فصدهم عن إجابته ثقل عزم المال على نفوسهم .

فالاستفهام الذي تؤذن به ﴿ أم ﴾ استفهامٌ إنكار لفرض أن يكون ذلك مما يخامر نفوسهم

فرضاً اقتضاه استقراء نواياهم من مواقع الإِقبال على دعوة الخير والرشد .

والمَغْرَمُ : ما يفرض على المرء أداؤه من ماله لغيرِ عِوض ولا جناية .

والمُثْقَل : الذي حُمل عليه شيء ثقيل ، وهو هنا مجاز في الإِشفاق .

والفاء للتفريع والتسبب ، أي فيتسبب على ذلك أنك شققت عليهم فيكون ذلك اعتذاراً منهم عن عدم قبول ما تدعوهم إليه .

و﴿ مِن مغرم ﴾ متعلق بـ ﴿ مثقلون ، ﴾ و ﴿ من ﴾ ابتدائية ، وهو ابتداء مجازي بمعنى التعليل ، وتقديم المعمول على عامله للاهتمام بموجب المشقة قبل ذكرها مع الرعاية على الفاصلة .

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

إضراب آخر انتقل به من مدارج إبطال مَعاذيرَ مفروضةٍ لهم أن يتمسكوا ببعضها تعلةً لإِعراضهم عن قبول دعوة القرآن ، قطعاً لما عسى أن ينتحلوه من المعاذير على طريقة الاستقراء ومنع الخلو .

وقد جاءَت الإِبطالات السالفة متعلقة بما يفرض لهم من المعاذير التي هي من قبيل مستندات من المشاهدات ، وانتُقل الآن إلى إبطال من نوع آخر ، وهو إبطال حجة مفروضة يستندون فيها إلى علم شيء من المعلومات المغيبات عن الناس .

وهي مما استأثر الله بعلمه وهو المعبر عنه بالغَيْب ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة البقرة (3) .

وقد استقر عند الناس كلهم أن أمور الغيب لا يعلمها إلاّ الله أو من أطْلَع من عباده على بعضها .

والكلام هنا على حذف مضاف ، أي أعندهم علم الغيب كما قال تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ في سورة النجم (35) .

فالمراد بقوله عندهم الغيب ﴾ أنه حصل في علمهم ومكنتهم ، أي بإطلاع جميعهم عليه أو بإبلاغ كبرائهم إليهم وتلقيهم ذلك منهم .

وتقديم ﴿ عندهم ﴾ على المبتدأ وهو معرفة لإِفادة الاختصاص ، أي صار علم الغيب عندهم لا عند الله .

ومعنى ﴿ يكتبون ﴾ : يَفرضون ويعينون كقوله : ﴿ كتب عليكم القصاص في القَتلى ﴾ [البقرة : 178] وقوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ [النساء : 24] ، أي فهم يفرضون لأنفسهم أن السعادة في النفور من دعوة الإِسلام ويفرضون ذلك على الدهماء من أتباعهم .

ومجيء جملة ﴿ فهم يكتبون ﴾ متفرعة عن جملة ﴿ أم عندهم الغيب ، ﴾ بناء على أن ما في الغيب مفروض كونه شاهداً على حكمهم لأنفسهم المشارِ إليه بقوله : ﴿ ما لكم

كيف تحكمون ﴾ [القلم : 36] كما علمته آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(190/777)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب الاستعارة

وقال الأعشى يذكر روضة "1" :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزّر بعميم النّبت مكتهل

وقال آخر "2" :

وضحك المزن بها ثمّ بكى يريد بضحكه انعقاقه "3" بالبرق ، وببكائه : المطر .

ويقولون : لقيت من فلان عرق القربة ، أي شدّة ومشقّة . وأصل هذا أن حامل القربة يتعب في نقلها حتى يعرق جبينه ، فاستعير عرقها في موضع الشّدّة .

ويقول الناس : لقيت من فلان عرق الجبين ، أي شدّة .

ومثل هذا في كلام العرب كثير يطول به الكتاب ، وسنذكر ما في كتاب اللّه تعالى منه .

فمن الاستعارة في كتاب اللّه قوله عز وجل : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ [القلم : 42] أي عن شدّة من الأمر ، كذلك قال قتادة "4" . وقال ابراهيم "5" : عن أمر عظيم .

وأصل هذا أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجدّ فيه – شمّر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة .

وقال دريد بن الصّمّة "6" :

---

(1) البيت من البسيط ، وهو في ديوان الأعشى ص 107 ، ولسان العرب (كوكب) ، (أزر) ، (شرق) ، (كهل) ، (عمم) ، وتهذيب اللغة 1/ 119 ، 6/ 19 ، 8/ 316 ، 10/ 402 ، ومقاييس اللغة 5/ 125 ، 144 ، وأساس البلاغة (ضحك) ، والمخصص 10/ 194 ، وتاج العروس (ككب) ، (أزر) ، (شرق) ، (كهل) ، والبيت بلا نسبة في كتاب العين 3/ 378 ، 5/ 433 .

)

2) الرجز لدكين الراجز في أمالي المرتضى 2/ 94 ، وبلا نسبة في كتاب الصناعتين ص 239 ، والحيوان 3/ 75 . [. . . . .]

(3) الانعقاق : الانشقاق .

(4) قتادة : هو قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة السدوسي ، أبو الخطاب البصري التابعي ، ولد سنة 60 ه ، وتوفي سنة 117 ه ، صنّف "تفسير القرآن" .

(كشف الظنون 5/ 834) .

(5) إبراهيم : هو إبراهيم بن يزيد ، أبو عمران النخعي الكوفي ، توفي سنة 96 ه .

(6) البيت من الطويل ، وهو في ديوان دريد بن الصمة ص 66 ، ولسان العرب (سوق) ، والمخصص 13/ 67 ، 16/ 37 ، وتهذيب اللغة 9/ 234 ، 10/ 488 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 818 ، والكامل ص 497 ، والأصمعيات ص 113 ، وجمهرة أشعار العرب ص 118 ، وديوان المعاني 1/ 56 ، وكتاب الصناعتين ص 305 ، والبيت بلا نسبة في لسان العرب (جلل) .

(191/777)

كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلّاء طلّاع أنجد

وقال الهذليّ "1" :

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة أشمّر حتّى ينصف السّاق مئزري

ومنه قول اللّه عز وجل : وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [النساء : 49] وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً [النساء : 124] والفتيل : ما يكون في شقّ النّواة . والنّقير : النّقرة في ظهرها . ولم يرد أنهم لا يظلمون ذلك بعينه ، وإنما أراد أنهم إذا حوسبوا لم يظلموا في الحساب شيئا ولا مقدار هذين التّافهين

الحقيرين .

والعرب تقول : ما رزأته زبالا . (والزبال) ما تحمله النّملة بفمها ، يريدون ما رزأته شيئًا .

وقال النابغة الذّبياني "2" :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدوّ فتيلا

وكذلك قوله عز وجل : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [فاطر : 13] وهو (الفوقة) التي فيها النّواة . يريد ما يملكون شيئًا .

ومنه قوله عز وجل : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (23) [الفرقان : 23] أي قصدنا لأعمالهم وعمدنا لها . والأصل أنّ من أراد القدوم إلى موضع عمد له وقصده .

والهباء المنثور : ما رأيته في شعاع الشمس الداخل من كوّة البيت .

والهباء المنبثّ : ما سطع من سنابك الخيل . وإنما أراد أنّا أبطلناه كما أنّ هذا مبطل لا يلمس ولا ينتفع به .

ومنه قوله : وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ [إبراهيم : 43] يريد أنها لا تعي خيرا ، لأن المكان إذا

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لأبي جندب الهذلي في شرح أشعار الهذليين 1/ 358 ، وشرح شواهد الشافية ص 383 ، ولسان العرب (جور) ، (ضيق) ، (نصف) ، (كون) ، والمعاني الكبير ص 700 ، 1119 ، وبلا نسبة في شرح المفصل 10/ 81 ،

والمحتسب 1/ 214 ، والممتع في التصريف 2/ 470 ، والمنصف 1/ 301 .

(2) البيت من الخفيف ، وهو لعبد قيس بن خفاف في الحيوان 4/ 379 ، والأغاني 11/ 16 ، وللنابغة الذبياني في ديوانه ص 135 (طبعة دار الكتاب العربي) ، والشعر والشعراء ص 171 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 4/ 472 ، والمخصص 13/ 254 .

(192/777)

كان خاليا فهو هواء حتى يشغله الشيء .

ومثله قوله عز وجل : وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ [الكهف : 21] يريد أطلعنا عليهم .

وأصل هذا أنّ من عثر بشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه . فاستعير العثار مكان التّبيّن والظهور . ومنه يقول الناس : ما عثرت على فلان بسوء قطّ . أي ما ظهرت على ذلك منه .

ومنه قوله عز وجل : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ [ص : 32] أراد الخيل ، فسمّاها الخير لما فيها من المنافع .

قال الرّاجز بعد أن عدّد فضائلها وأسباب الانتفاع بها - "1" :

فالخيل والخيرات في قرنين وقال طفيل "2" :

وللخيل أيّام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

(193/777)

و منه قوله عز وجل أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ [الانعام : 122] . اى كان كافرا فهديناه وجعلنا له ايمانا يهتدى به سبل الخير والنّجاة كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها [الأنعام : 122] أي في الكفر . فاستعار الموت مكان الكفر ، والحياة مكان الهداية ، والنّور مكان الإيمان .

ومنه قوله عز وجل : وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) [الشرح : 2] أي إثمك . وأصل الوزر : ما حمله الإنسان على ظهره . قال اللّه عز وجل : وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ [طه : 87] أي أحمالا من حليّهم . فشبه الإثم بالحمل ، فجعل مكانه ، وقال في موضع آخر : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ [العنكبوت : 13] يريد آثامهم .

ومن ذلك قوله : وَلكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا [البقرة : 235] أي نكاحا ، لأن النكاح يكون سرا ولا يظهر ، فاستعير له السرّ .

قال رؤبة "3" :

فعفّ عن أسرارها بعد العسق

---

(1) الرجز بلا نسبة في كتاب المعاني 1/ 85 ، 176 ، وفي المعاني : "في قرينين" بدل : "في قرنين" ، وفي الخزانة 3/ 643 : "كالقرينين" بدل : "في قرنين" .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان طفيل الغنوي ص 35 ، والإنصاف ص 621 ، وخزانة الأدب 9/ 44 ، وكتاب الصناعتين ص 277 ، والمعاني الكبير 1/ 85 .

(3) الرجز في ديوان رؤبة ص 204 ، وتهذيب اللغة 12/ 284 ، ولسان العرب (فرك) وفيه : "الغسق"

(194/777)

والعسق : الملازمة :

ومنه قوله : نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ [البقرة : 223] أي مزدرع لكم كما تزدرع الأرض .

ومنه قوله : وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ [البقرة : 267] أي تترخّصوا . وأصل هذا أن يصرف المرء بصره عن الشيء ويغمضه ، فسمّي الترّخّص إغماضا . ومنه يقول الناس للبائع : أغمض وغمّض . يريدون لا تستقص وكمن كأنّك لم تبصر .

ومنه قوله : هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ [البقرة : 187] لأنّ المرأة والرجل يتجردان

ويجتمعان في ثوب واحد ، ويتضامّان فيكون كلّ واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس .

قال النابغة الجعديّ "1" :

إذا ما الضّجيع ثنى جيدها تداعت عليه فكانت لباسا

ومنه قوله : وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4) [المدثر : 4] أي طهّر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب ، لأنّها تشتمل عليه .

قالت ليلى الأخيلية وذكرت إبلا "2" :

رموها بأثواب خفاف فلا ترى لها شبها إلّا النّعام المنفّرا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم .

وقال آخر "3" :

بدل : "العسق" .

(1) يروى عجز البيت بلفظ :

تداعت فكانت عليه لباسا والبيت من المتقارب ، وهو في ديوان النابغة الجعدي ص 81 ، ومقاييس اللغة 5/ 230 ، وتهذيب اللغة 12/ 444 ، ومجمل اللغة 4/ 262 ، وتاج العروس (لبس) ، ولسان العرب (لبس) ، والشعر والشعراء ص 302 .

(2) البيت من الطويل ، وهو للشماخ في تهذيب اللغة 15/ 154 ، وليس في ديوانه ، ولليلى الأخيلية في ديوانها ص 70 ، وأساس البلاغة (ثوب) ، والمعاني الكبير ص 486

، وكتاب الصناعتين ص 353 ، والبيت بلا نسبة في مجمل اللغة 1/ 372 ، وتاج العروس (ثوب) ، ولسان العرب (ثوب) .

(3) الرجز بلا نسبة في تاج العروس (دسم) ، (وذم) ، ولسان العرب (دسم) ، (وذم) ، وتهذيب اللغة 12/ 377 ، 15/ 29 ، ومقاييس اللغة 2/ 276 ، وديوان الأدب 3/ 270 ، وأساس البلاغة (دسم) ، والمعاني الكبير 1/ 481 ، ويروى : "جحّا" بتقديم الجيم على الحاء ، بدل : "حجّا" .

يل مشكل القرآن ، ص : 93

لا همّ إنّ عامر بن جهم أو ذم حجّا في ثياب دسم

(195/777)

أي هو متدنّس بالذنوب .

والعرب تقول : قوم لطاف الأزر . أي خماص البطون ، لأنّ الأزر تلاث عليها .

ويقولون : فدى لك إزاري . يريدون : بدني ، فتضع الإزار موضع النّفس .

قال الشاعر "1" :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخي ثقة إزاري

وقد يكون الإزار في هذا البيت : الأهل . قال الهذليّ "2" :

تبرّأ من دمّ القتيل وبزّه وقد علقت دمّ القتيل إزارها

أي نفسها .

ويقولون للعفاف : إزار ، لأنّ العفيف كأنّه استتر لمّا عفّ .

وقال عديّ بن زيد "3" :

أجل أنّ اللّه قد فضّلكم فوق ما أحكي بصلب وإزار

فالصّلب : الحسب ، سمّاه صلبا لأنّ الحسب : العشيرة . والخلق . من ماء الصّلب .

والإزار : العفاف .

ويجوز أن يكون سمّى العشيرة صلبا لأنّهم ظهر الرجل ، والصّلب في الظّهر .

---

(1) البيت من الوافر ، وهو لبقيلة الأكبر الأشجعي ، وكنيته أبو المنهال ، في لسان العرب (أزر) ، والمؤتلف والمختلف ص 63 ، وعجزه في لسان العرب (أزر) ، منسوبا إلى جعدة بن عبد اللّه السلمي ، وبلا نسبة في شرح اختيارات المفضل ص 250 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 162 ، ولسان العرب (قلص) . [. . . . .]

(2) البيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 77 ، ولسان العرب (أزر) ، وتاج العروس (أزر) ، والمعاني الكبير ص 483 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 432 ، ومقاييس اللغة 4/ 127 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 712 ،

والمخصص 4/ 77 ، 17/ 22 .

(3) البيت من الرمل ، وهو في ديوان عدي بن زيد ص 94 ، وتهذيب اللغة 11/ 194 ، وديوان الأدب 1/ 149 ، وتاج العروس (حكى) . ويروى البيت بلفظ :

أجل أن اللّه قد فضّلكم فوق من أحكأ صلبا بإزار

والبيت بهذا اللفظ ، لعدي بن زيد في ديوانه ص 94 ، وجمهرة اللغة ص 1051 ، ولسان العرب (حكأ) ، (صلب) ، (أزر) ، (أجل) ، (حكى) ، وبلا نسبة في مجالس ثعلب 1/ 240 .

(196/777)

و قال : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً [الفرقان : 47] : أي سترا وحجابا لأبصاركم .

قال ذو الرّمة "1" :

ودوّية مثل السّماء اعتسفتها وقد صبغ اللّيل الحصى بسواد

أي لمّا ألبسه الليل سواده وظلمته ، كان كأنّه صبغه .

وقد يكنون باللباس والثوب عما ستر ووقى ، لأنّ اللباس والثوب واقيان ساتران .

وقال الشاعر "2" :

كثوب ابن بيض وقاهم به فسدّ على السّالكين السّبيلا

قال الأصمعي : (ابن بيض) رجل نحر بعيرا له على ثنيّة فسدّها فلم يقدر أحد أن يجوز ، فضرب به المثل فقيل : سدّ ابن بيض الطريق "3" .

وقال غير الأصمعي : (ابن بيض) رجل كانت عليه إتاوة فهرب بها فاتّبعه مطالبه ، فلما خشي لحاقه وضع ما يطالبه به على الطريق ومضى ، فلما أخذ الإتاوة رجع وقال : "سدّ ابن بيض الطريق" أي منعنا من اتباعه حين وفى بما عليه ، فكأنه سدّ الطريق "4" .

فكنى الشاعر عن البعير – إن كان التفسير على ما ذكر الأصمعي .

أو عن الإتاوة – إن كان التفسير ما ذكر غيره – بالثوب ، لأنهما وقيا كما يقي الثوب .

وكان بعض المفسرين يقول في قوله عز وجل : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً [الفرقان : 47] أي سكنا ، وفي قوله تعالى : هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ [البقرة : 187] أي سكن لكم .

وإنما اعتبر ذلك من قوله : جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ [يونس : 67] ومن قوله :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 685 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 382 ، وهو بلا نسبة في شرح شذور الذهب ص 415 .

(2) البيت من المتقارب ، وهو لبشامة بن عمرو في تاج العروس (بيض) ، وشرح اختيارات المفضل ص 293 ، والمفضليات ص 60 ، وطبقات الشعراء ص 565 ، والأغاني 12/ 43 ، ولبسامة بن حزن (وهذا تحريف) في لسان العرب (بيض) ، وبلا

نسبة في تاج العروس (ثوب) .

)

3) انظر المثل في لسان العرب (بيض) ، وجمهرة الأمثال ص 118 ، ومجمع الأمثال 1/ 341 ، وأمثال العرب للمفضل الضبي ص 71 - 72 .

(4) انظر لسان العرب (بيض) ، ومجمع الأمثال 1/ 328 .

(197/777)

وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها [الأعراف : 189] .

ومن الاستعارة : وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107) [آل عمران : 107] يعني جنّته ، سمّاها رحمة ، لأن دخولهم إيّاها كان برحمته .

ومثله قوله : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ [النساء : 175] . وقد توضع (الرحمة) موضع (المطر) لأنه ينزل برحمته .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [الأعراف : 57] يعني المطر .

وقال تعالى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي [الإسراء : 100] يعني مفاتيح رزقه .

وقال تعالى : ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها [فاطر : 2] أي من رزق .

ومن الاستعارة : اللسان يوضع موضع القول ، لأنّ القول يكون بها . قال اللّه ، عز وجل ، حكاية عن إبراهيم عليه السلام : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) [الشعراء : 84] . أي ذكرا حسنا . وقال الشاعر "1" :

إنّي أتتني لسان لا أسرّ بها من علو لا عجب منها ولا سخر

أي أتاني خبر لا أسرّ به .

ومنه الذّكر يوضع موضع الشرف ، لأنّ الشّريف يذكر قال اللّه تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ [الزخرف : 44] يريد أن القرآن شرف لكم .

وقال تعالى : لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ [الأنبياء : 10] أي شرفكم .

وقال : بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ [المؤمنون : 71] أي أتيناهم بشرفهم .

ومنه قوله تعالى : فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما [الإسراء : 23] أي لا تستثقل شيئا

---

(1) البيت من البسيط ، وهو لأعشى باهلة في إصلاح المنطق ص 26 ، والأصمعيات ص 88 ، وأمالي المرتضى 2/ 20 ، وجمهرة اللغة ص 950 ، 1309 ، وخزانة الأدب 6/ 511 ، وسمط اللآلي ص 75 ، وشرح المفصل 4/ 90 ، ولسان العرب (سخر) ،

(لسن) ، والمؤتلف والمختلف ص 14 ، وبلا نسبة في خزانة الأدب 1/ 191 ، 4/ 156 ، ولسان العرب (علا) .

(198/777)

من أمرهما ، وتضق به صدرا ، ولا تغلظ لهما .

والناس يقولون لما يكرهون ويستثقلون : أفّ له . وأصل هذا نفخك للشيء يسقط عليك من تراب أو رماد وغير ذلك ، وللمكان تريد إماطة الشيء عنه لتقعد فيه . فقيل لكل مستثقل : أفّ لك ، ولذلك تحرّك بالكسر للحكاية ، كما يقولون : غاق غاق ، إذا حكوا صوت الغراب .

والوجه أن يسكّن هذا ، إلا أنه يحرّك لاجتماع الساكنين ، فربما نوّن ، وربما لم ينوّن ، وربما حرّك إلى غير الكسر أيضا .

ومنه قوله تعالى : كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ [المائدة : 64] يريد كلما هاجوا شرّا وأجمعوا أمرا ليحاربوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم - سكّنه اللّه ووهّن أمرهم .

ومنه قوله سبحانه : وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف : 157] . الإصر : الثّقل الذي ألزمه اللّه بني إسرائيل في فرائضهم وأحكامهم ، ووضعه عن

المسلمين . ولذلك قيل للعهد : إصر .

قال تعالى : وَأَخَذْتُمْ عَلى ذِلِكُمْ إِصْرِي [آل عمران : 81] أي عهدي ، لأن العهد ثقل ومنع من الأمر الذي أخذ له .

(199/777)

وَالْأَغْلالَ : تحريم اللّه عليهم كثيرا مما أطلقه لأمّة محمد ، صلّى اللّه عليه وسلم ، وجعله أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقبض الغلّ اليد ، فاستعير .

قال أبو ذؤيب "1" :

فليس كعهد الدّار يا أمّ مالك ولكن أحاطت بالرّقاب السّلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئا فاستراح العواذل

يقول : ليس الأمر كعهدك إذ كنا في الدّار ونحن نتبسّط في كل شيء ولا نتوقّى ، ولكن أسلمنا فصرنا من موانع الإسلام في مثل الأغلال المحيطة بالرّقاب القابضة للأيدي .

ومن هذا قوله : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا [يس : 8] ، أي قبضنا أيديهم عن الإنفاق في سبيل اللّه بموانع كالأغلال .

---

(1) البيتان من الطويل ، وهما لأبي خراش الهذلي في ديوان الهذليين القسم الثاني ص

150 ، وشرح أشعار الهذليين ص 1223 ، ولسان العرب (عهد) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 43 ، والأغاني 21/ 58 .

(200/777)

ومن ذلك قوله : صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً [البقرة : 138] ، يريد الختان ، فسماه صبغة ، لأن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء ويقولون : هذا طهرة لهم كالختان للحنفاء ، فقال اللّه تعالى ، صِبْغَةَ اللَّهِ أي الزموا صبغة اللّه لا صبغة النصارى أولادهم ، وأراد بها ملة إبراهيم عليه السلام .

ومنه قوله : ما لَها مِنْ فَواقٍ [ص : 15] أي ما لها من تنظّر وتمكّث إذا بدأت ، ولذلك سمّاها ساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة .

وأصل الفواق أن تحلب الناقة ثم تترك ساعة حتى يجتمع اللبن ثم تحلب فما بين الحلبتين فواق ، فاستعير الفواق في موضع الانتظار .

ومنه قوله : فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ [الذاريات : 59] ، أي حظّا ونصيبا .

وأصل الذّنوب : الدّلو ، وكانوا يستقون الماء ، فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب ، فاستعير في

موضع النّصيب ، وقال الشاعر "1" :

إنّا إذا نازعنا شريب لنا ذنوب وله ذنوب

والعرب تقول : (أخي وأخوك أيّنا أبطش ؟) يريدون : أنا وأنت نضطرع فنطر أيّنا أشدّ ؟

فيكنى عن نفسه بأخيه ، لأن أخاه كنفسه .

وقال العبديّ "2" :

أخي وأخوك ببطن النّسير ليس به من معدّ عريب

ويكنى عن أخيه بنفسه .

---

(1) يروى الرجز بلفظ :

لها ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

والرجز بلا نسبة في لسان العرب (ذنب) ، وتهذيب اللغة 14/ 439 ، والمخصص 17/ 18 ، وكتاب العين 8/ 190 ، وجمهرة اللغة ص 306 ، وتاج العروس (ذنب) .

(2) يروى البيت بلفظ :

فعردة فقفا حبرّ ليس به من أهله عريب

والبيت بهذا اللفظ من مخلع البسيط ، (وفي عجزه خلل بالوزن) ، وهو لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص 11 ، وجمهرة اللغة ص 275 ، 1164 ، وجمهرة أشعار العرب ص 461

، وأمالي القالي 1/ 250 ، وسمط اللآلي ص 565 ، ومعجم البلدان (حبر) ، وتاج العروس (عرد) . والبيت برواية المؤلف لثعلبة بن عمرو العبدي في المفضليات ص 254 .

(201/777)

قال اللّه تعالى : وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ [الحجرات : 11] ، أي لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين ، لأنهم كأنفسكم .

وقال : لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً [النور : 12] أي بأمثالهم من المسلمين .

وبعض المفسّرين يقول في قوله تعالى : فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً [النور : 61] ، أي على أهليكم ، جعلهم أنفسهم على التّشبيه .

وقال : ابن عباس في تفسير ذلك : البيوت : المساجد ، إذا دخلتها سلّمت على نفسك وعلى عباد اللّه الصالحين .

وقال تعالى : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ [الأنفال : 24] ، أي إلى الجهاد الذي يحيي دينكم ويعليكم .

وقال : وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ [النساء : 29] ، أي لا تقتلوا إخوانكم ، وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ

بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ [البقرة : 188] ، أي أموال إخوانكم .

وإن جعلته بمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض ، ولا يقتل بعضكم بعضا – فهو أيضا قريب المعنى من الأوّل .

وقال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ [الأعراف : 11] أراد : خلقنا آدم وصوّرناه ، فجعل الخلق لهم ، إذ كانوا منه .

ومنه قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ ، [ق : 37] أي عقل لأن القلب موضع العقل ، فكنى عنه به .

وقوله : أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا [الطور : 32] ، أي تدلهم عقولهم عليه لأن الحلم يكون من العقل ، فكنى عنه به .

ومنه قوله : فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13) [الفجر : 13] لأن التعذيب قد يكون بالسوط .

ومنه قوله : وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً [النساء : 157] يعني العلم ، لم يتحقّقوه ويستيقنوه .

وأصل ذلك أن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة . يقول : فلم يكن علمهم بقتل المسيح علما أحيط به ، إنما كان ظنّا .

ومنه قوله سبحانه : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ [الأنعام : 146] أي كلّ ذي مخلب من الطير ، وكلّ ذي حافر من الدّواب كذلك قال المفسّرون :

وسمّى الحافر ظفرا على الاستعارة، كما قال الآخر وذكر ضيفا طرقه "1" :

فما رقد الولدان حتّى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر

فجعل الحافر موضع القدم.

وقال آخر "2" :

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشقّق

يريد بالأظلاف: قدميه، وإنما الأظلاف للشاء والبقر.

والعرب تقول للرجل: (هو غليظ المشافر) تريد الشفتين، والمشافر للإبل.

وقال الحطيئة "3" :

قروا جارك العيمان لمّا جفوته وقلّص عن برد الشّراب مشافره

ومنه قوله تعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) [الحاقة: 44، 46].

قال ابن عباس: اليمين هاهنا: القوّة. وإنما أقام اليمين مقام القوّة، لأن قوة كل شيء في ميامنه.

ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر قد جرى الناس على اعتياده: أن كان اللّه عز وجل أراده في هذا الموضع، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده وافعل به كذا

---

(1) البيت من الطويل، وهو لجبيهاء الأسدي في لسان العرب (حفر)، والتنبيه والإيضاح

2/ 110 ، وتاج العروس (حفر) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 1313 ، والمخصص 6/ 134 ، وكتاب الصناعتين ص 233 ، والموازنة ص 36 ، والموشح ص 91 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لعقفان بن قيس بن عاصم في لسان العرب (ظلف) ، وسمط اللآلي ص 746 ، وتاج العروس (ظلف) ، وبلا نسبة في كتاب الصناعتين ص 234 ، والموازنة ص 36 ، وجمهرة اللغة ص 1312 ، وأمالي القالي 2/ 120 .

(3) يروى صدر البيت بلفظ :

سقوا جارك العيمان لما تركته والبيت من الطويل ، وهو في ديوان الحطيئة ص 25 ، وجمهرة اللغة ص 1312 ، والموشح ص 91 ، والموازنة ص 36 ، وكتاب الصناعتين ص 233 ، والبيت بلا نسبة في المخصص 4/ 136 ، 12/ 181 .

(202/777)

وكذا . وأكثر ما يقول السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم : خذ بيده واسفع بيده .

ونحوه قول اللّه : لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ [العلق : 15 ، 16] أي لنأخذنّ بها ، ثم لنقيمنّه ولنذلّنه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، كما قال تعالى : فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ [الرحمن : 41] أي يجرّون إلى النار بنواصيهم وأرجلهم . ثم قال :

ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) [العلق : 16] وإنما يعني صاحبها . والناس يقولون : هو مشؤوم الناصية . لا يريدونها دون غيرها من البدن . ويقولون : قد مرّ على رأسي كذا . أي مر عليّ .

فكأنه تعالى قال : لو كذب علينا في شيء مما يلقيه إليكم عنّا ، لأمرنا بالأخذ بيده ، ثمّ عاقبناه بقطع الوتين .

وإلى هذا المعنى ذهب الحسن فقال في قوله تعالى : لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) [الحاقة : 45] أي بالميامن ، ثم عاقبناه بقطع الوتين ، وهو : عرق يتعلق به القلب ، إذا انقطع مات صاحبه .

ولم يرد أنا نقطعه بعينه ، فيما يرى أهل النظر ، ولكنّه أراد : ولو كذّب علينا لأمتناه أو قتلناه ، فكان كمن قطع وتينه .

ومثله

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : "ما زالت أكلة خيبر تعادّني ، فهذا أوان قطعت أبهري" "1" .

والأبهر : عرق يتصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه . فكأنّه قال : فهذا أوان قتلني السّمّ ، فكنت كمن انقطع أبهره .

ومنه قوله سبحانه : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) [القلم : 16] ذهب بعض المفسّرين

فيه : إلى أنّ اللّه عزّ وجلّ يسم وجهه يوم القيامة بالسّواد .

وللعرب في مثل هذا اللفظ مذهب نخبر به ، واللّه أعلم بما أراد .

تقول العرب للرجل يسبّ الرجل سبّة قبيحة ، أو ينثو عليه فاحشة : وقد وسمه بميسم سوء . يريدون : ألصق به عارا لا يفارقه ، كما أنّ السّمة لا تنمحي ولا يعفو أثرها .

وقال جرير"

:

)

1) أخرجه بنحوه البخاري في المغازي باب 83 ، والدارمي في المقدمة باب 11 ، وأحمد في المسند 6/ 18 ، والقاضي عياض في الشفا 1/ 609 ، والخطابي في إصلاح خطأ المحدثين 33 ، والقرطبي في تفسيره 5/ 163 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 32189 ، والذهبي في ميزان الاعتدال 6263 ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء 3/ 1239 .

[.....]

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان جرير ص 443 .

لما وضعت الفرزدق ميسمي وعلى البعيث ، جدعت أنف الأخطل

يريد : أنه وسم الفرزدق وجدع أنف الأخطل بالهجاء ، أي أبقى عليه عارا كالجدع والوسم .

وقال أيضا "1" :

رفع المطيّ بما وسمت مجاشعا والزّنبريّ يعوم ذو الإجلال

يريد : أن هجاءه قد سارت به المطيّ ، وغنّي به في البر والبحر . وقال "2" :

وأوقدت ناري بالحديد فأصبحت لها وهج يصلي به اللّه من يصلي

شبّه شعره بالنّار ، وهجاءه بمواسم الحديد .

وقال الكميت بن زيد يذكر قصيدة له "3" :

تعلّط أقواما بميسم بارق وتقطم أوباشا زنيما ومسندا

والعلاط : سمة في العنق .

وربما استعاروا للهجاء غير الوسم ، كقول الهذليّ "4" :

---

(1) يروى البيت بلفظ :

رفع المطيّ بها وشمت مجاشعا كالزنبريّ يقاد بالأجلال

والبيت من الكامل ، وهو لجرير في ديوانه ص 955 (و رواية عجز البيت فيه كما في المتن) . ولسان العرب (جلل) ، وبلا نسبة في لسان العرب (زنبر) ، وكتاب العين 7/ 286

، وتاج العروس (زنبر) .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان جرير ص 462 .

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الكميت بن زيد 1/ 164 .

)

4) الأبيات من المتقارب ، والبيت الأول لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 306 ، وتاج العروس (حلأ) ، (حيض) ، (رهط) ، (زها) . ولسان العرب (رهط) ، (زها) ، وللهذلي في تهذيب اللغة 6/ 175 ، 371 ، 373 ، وبلا نسبة في كتاب العين 4/ 20 ، 74 ، ومقاييس اللغة 2/ 450 ، 3/ 29 ، ومجمل اللغة 2/ 429 ، 3/ 27 ، والمخصص 4/ 36 .

والبيت الثاني لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 307 ، وتاج العروس (أبأ) ، (حلأ) ، وللمتنخل الهذلي في لسان العرب (جلا) ، وتاج العروس (جلو) ، وللهذلي في جمهرة اللغة ص 1045 ، وأساس البلاغة (فقح) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 493 ، وتهذيب اللغة 11/ 176 ، والمخصص 15/ 122 ، ومقاييس اللغة 4/ 443 .

والبيت الثالث لأبي المثلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 307 ، وتاج العروس (أبأ) ، (خوض) ، وبلا نسبة في كتاب الجيم 2/ 42 ، وفيه : "المقرض" ، بدل : "بالمخوض" .

والبيت الرابع بلا نسبة في كتاب العين 1/ 80 .

متى ما أشأ غير زهو الملوك أجعلك رهطا على حيّض

وأكحلك بالصّاب أو بالجلا ففقّح لكحلك أو غمّض

وأسعطك في الأنف ماء الآباء ممّا يثمّل بالمخوض

جهلت سعوطك : حتى ظننت بأن قد أرضت ، ولم تؤرض

والرّهط : جلد تلبسه المرأة أيام الحيض .

والصاب : شجر له لبن يحرق العين .

والجلا : كحل يحكّ على حجر ثم يكتحل به .

والأباء : القصب ، وماؤه شرّ المياه .

ويقال : الأباء هاهنا : الماء الذي تشرب منه الأروى ، فتبول فيه وتدمّنه . ويثمّل : ينقع .

وهذه أمثال ضربها لما يهجوه به .

وقال آخر "1" :

سأكسوكما يا ابني يزيد بن جعشم رداءين من قار ومن قطران

في أشباه لهذا كثيرة.

وهذه الآية "2" نزلت في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن اللّه عزّ وجل وصف أحدا وصفه له، ولا بلغ من ذكر عيوبه ما بلغه من ذكرها منه لأنه وصفه بالخلف، والمهانة، والعيب للناس، والمشي بالنّمائم، والبخل، والظلم، والإثم، والجفاء، والدّعوة.

فألحق به عارا لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة، كالوسم على الخرطوم، وأبين ما يكون الوسم في الوجه.

ومما يشهد لهذا المذهب، ما رواه سفيان، عن زكريا، عن الشّعبي في قوله تعالى: عُتُلٍّ بَعْدَ ذِلِكَ زَنِيمٍ (13) [القلم: 13] أنه قال: العتلّ: الشديد. والزّنيم: الذي له زنمة من الشّرّ يعرف بها، كما تعرف الشاة بالزّنمة.

أراد الشّعبي: أنه قد لحقته سبّة من الدّعوة عرف بها كزنمة الشّاة.

---

(1) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في الشعر والشعراء 1/ 156، والمعاني الكبير 2/ 799، 1175.

(2) يشير إلى الآية: سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ.

ومنه قوله : وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) [المسد : 4 ، 5] ، قال ابن عباس : في رواية أبي صالح عنه : الحطب : النّميمة وكانت تنم وتوّرّش بين الناس .

ومن هذا قيل : (فلان يحطب عليّ) إذا أغرى به ، شبّهوا النّميمة بالحطب ، والعداوة والشحناء بالنار ، لأنهما يقعان بالنميمة ، كما تلتهب النار بالحطب . ويقال : نار الحقد لا تخبو فاستعاروا الحطب في موضع النميمة . وقال الشاعر وذكر امرأة "1" :

من البيض لم تصطد على حبل سوأة ولم تمش بين الحيّ بالحظر الرّطب

أي لم توجد على أمر قبيح ، ولم تمش بالنمائم والكذب .

والحظر : الشّجر ذو الشّوك يحظر به .

وقال آخر "2" :

فلسنا كمن تزجى المقالة شطره بقرف العضاه الرّطب والعبل اليبس وقال بعض المتقدمين : كانت تعيّر رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، بالفقر كثيرا ، وهي تحتطب على ظهرها بحبل من ليف في عنقها .

ولست أدري كيف هذا لأنّ اللّه عز وجل وصفه بالمال والولد ، فقال : ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) [المسد : 2] .

وأما المسد ، فهو عند كثير من الناس : اللّيف دون غيره . وليس كذلك ، إنما المسد : كلّ

ما ضفر وفتل من اللّيف وغيره ، يقال : مسدت الحبل مسدا إذا فتلته ، فهو مسد . كما تقول : نفضت الشّجرة نفضا وخبطتها خبطا . واسم ما يسقط من ثمرها وورقها : نفض وخبط ، ومنه قيل : رجل ممسود الخلق ، إذا كان مجدولا مفتولا .

---

(1) يروى البيت بلفظ :

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

والبيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (حطب) ، (حظر) ، (برعم) ، ومجمع الأمثال 1/ 179 ، ومقاييس اللغة 2/ 79 ، وأساس البلاغة (حظر) ، وتهذيب اللغة 4/ 394 ، 455 ، وجمهرة اللغة ص 1288 ، وتاج العروس (حطب) ، (حظر) .

(2) البيت من الطويل ، ولم أجده في المصادر والمراجع التي بين يدي .

ويدلّك على أن المسد قد يكون من غير الليف ، قول الرّاجز "1" :

يا مسد الخوص تعوّذ منّي إن تك لدنا ليّنا فإنّي

ما شئت من أشمط مقسئنّ فجعله هذا من خوص .

وقال آخر "2" :

ومسد أمرّ من أيانق لسن بأنياب ولا حقائق

فجعله هذا من جلود الإبل .

وأراد اللّه ، تبارك وتعالى ، بهذا الحبل السلسلة التي ذكرها ، فقال : فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ [الحاقة : 32] . كذلك قال ابن عباس .

فيجوز أن يكون سمّاها مسدا ، وإن كانت حديدا أو نارا أو ما شاء اللّه أن تكون ، بالضّفر والفتل .

ومنه قوله سبحانه : لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (17) [الأنبياء : 17] .

قال قتادة والحسن : اللهو : المرأة :

وقال ابن عباس : هو الولد .

والتفسيران متقاربان ، لأن امرأة الرجل لهوه ، وولده لهوه ولذلك يقال : امرأة الرجل وولده ريحانتاه .

وأصل اللهو : الجماع ، فكنّي عنه باللهو ، كما كني عنه بالسّرّ ، ثم قيل للمرأة لهو لأنها تجامع . قال : امرؤ القيس "3" :

---

(1) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (مسد) ، (قسن) ، وتاج العروس (مسد) ، (قسن) ، وجمهرة اللغة ص 1089 ، 1220 ، وكتاب العين 5/ 79 ، ومقاييس اللغة 5/ 87 ،

والمخصص 2/ 95 ، وتهذيب اللغة 8/ 409 ، 12/ 380 .

(2) الرجز لعمارة بن طارق في لسان العرب (حقق) ، وتاج العروس (مسد) ، (حقق) ، (نوق) ، ولعثمان بن طارق في لسان العرب (زهق) ، ولعمارة بن طارق أو لعقبة الهجيمي في التنبيه والإيضاح 2/ 53 ، ولسان العرب (مسد) ، وبلا نسبة في تهذيب اللغة 3/ 380 ، 12/ 380 ، وجمهرة اللغة ص 785 ، ومقاييس اللغة 5/ 323 ، ومجمل اللغة 4/ 328 ، وأساس البلاغة (مسد) .

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان امرئ القيس ص 28 ، وجمهرة اللغة ص 121 ، وبلا نسبة في

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّني كبرت وأ لا يحسن اللهو أمثالي

أي النكاح.

ويروى أيضا : (و ألا يحسن السر أمثالي) "1" : أي النكاح.

وتأويل الآية : أن النّصارى لما قالت في المسيح وأمّه ما قالت ، قال اللّه جل وعز :

لو أردنا أن نتّخذ لهوا ، أي صاحبة وولدا ، كما يقولون ، لاتخذنا ذلك من لدنّا ، أي من

عندنا ، ولم نتّخذه من عندكم لو كنّا فاعلين ذلك ، لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجه يكونان عنده وبحضرته لا عند غيره .

وقال اللّه في مثل هذا المعنى : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ [الأعراف : 206] ، يعني الملائكة .

ومنه قوله سبحانه : فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ [النحل : 112] .

وأصل الذّواق : بالفم ، ثم قد يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار ، تقول في الكلام : ناظر فلانا وذق ما عنده ، أي تعرّف واختبر ، واركب الفرس وذقه .

قال الشمّاخ في وصف قوس "2" :

فذاق فأعطته من اللّين جانبا كفى ولها أن تعرق السّهم حاجز

يريد : أنه ذاق القوس بالنّزع فيها ليعلم ألّينة هي أم صلبة ؟

وقال آخر "3" :

وإنّ اللّه ذاق حلوم قيس فلمّا راء خفّتها قلاها

لسان العرب (لها) ، وتاج العروس (لها) . ويروى عجز البيت :

كبرت وأن لا يحسن السرّ أمثالي والبيت بهذا اللفظ في ديوان الأدب 3/ 30 .

(1) انظر الحاشية السابقة . [. . . . .]

(2) يروى عجز البيت بلفظ :

لها ولها أن يغرق السهم حاجز والبيت من الطويل ، وهو في ديوان الشماخ ص 190 ، وأساس البلاغة (ذوق) ، وتهذيب اللغة 9/ 263 ، وجمهرة أشعار العرب ص 832 ، ولسان العرب (ذوق) ، وتاج العروس (ذوق) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 2/ 365 ، والمخصص 6/ 47 .

(3) البيت من الوافر ، وهو ليزيد بن الصعق في كتاب الحيوان 5/ 15 .

(208/777)

وهذه الآية نزلت في أهل مكة ، وكانوا آمنين بها لا يغار عليهم ، مطمئنين لا ينتجعون ولا يتنقّلون ، فأبدلهم اللّه بالأمن الخوف من سريا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وبعوثه ، وبالكفاية الجوع سبع سنين ، حتى أكلوا القدّ والعظام .

ولباس الجوع والخوف : ما ظهر عليهم من سوء آثارهما بالضّمر والشّحوب ونهكة البدن ، وتغيّر الحال ، وكسوف البال .

وقال في موضع آخر : وَلِباسُ التَّقْوى [الأعراف : 26] ، أي ما ظهر عنه من السّكينة والإخبات والعمل الصالح ، وكما تقول : تعرّفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان ، وذقت بمعنى : تعرفت واللّباس : بمعنى سوء الأثر - كذلك تقول : ذقت لباس الجوع والخوف ،

وأذاقني اللّه ذلك .

ومنه قوله : وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) [المرسلات : 1] يعني الملائكة ، يريد : أنها متتابعة يتلو بعضها بعضا بما ترسل به من أمر اللّه عز وجل .

وأصل هذا من عرف الفرس ، لأنه سطر مستو بعضه في إثر بعض . فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضا .

ومنه يقول الناس : هم إليه عرف واحد ، إذا كثروا وتتابعوا في توجّههم إليه .

(209/777)

ويقال : أرسلت بالعرف أي بالمعروف .

ومنه قوله سبحانه : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [الأعراف : 182] والاستدراج :

أن يدنيهم من بأسه قليلا قليلا من حيث لا يعلمون ، ولا يباغتهم ولا يجاهرهم . ومنه يقال : درجت فلانا إلى كذا وكذا ، واستدرج فلانا حتى تعرف ما عنده وما صنع . يراد لا تجاهره ولا تهجم عليه بالسؤال ، ولكن استخرج ما عنده قليلا قليلا .

وأصل هذا من الدّرجة ، وذلك أن الراقي فيها النازل منها ينزل مرقاة مرقاة ، فاستعير هذا

منها .

ومنه قوله سبحانه : وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ [التوبة : 67] أي يمسكون عن العطية .

وأصل هذا : أن المعطي بيده يمدّها ويبسطها بالعطاء ، فقيل لكل من بخل ومنع : قد قبض يده .

ومنه قوله : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا [المائدة : 64] أي : ممسكة .

ومنه قوله : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ [يونس : 22] : أي دنوا من الهلاك . وأصل هذا : أن العدوّ إذا أحاط بقوم أو بلد فحاصره فقد دنا أهله من الهلكة . وقال في موضع آخر : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ [الكهف : 42] .

ومنه قوله : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29) [الدخان : 29] تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عامّ النفع ، كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الرّيح والبرق والسماء والأرض .

يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمّت . وليس ذلك بكذب ، لأنّهم جميعا متواطئون عليه ، والسّامع له يعرف مذهب القائل فيه .

وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظّموه ويستقصوا صفته . ونيّتهم في قولهم :

أظلمت الشمس ، أي كادت تظلم ، وكسف القمر ، أي كاد يكسف .

ومعنى كاد : همّ أن يفعل ولم يفعل . وربما أظهروا كاد ، قال ابن مفرّغ الحميريّ يرثي رجلا "1" :

الرّيح تبكي شجوه والبرق يلمع في غمامه

وقال آخر "2" :

الشّمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك ، نجوم اللّيل والقمرا

أراد : الشمس طالعة تبكي عليك ، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر ، لأنّها مظلمة ، وإنما تكسف بضوئها ، فنجوم الليل بادية بالنهار .

وهذا كقوله النابغة وذكر يوم حرب "3" :

---

(1) يروى البيت بلفظ :

الريح تبكي شجوها والبرق يضحك في الغمامه

والبيت من مجزوء الكامل ، وهو لابن مفرغ في ديوانه ص 208 ، ولسان العرب (درك) ، وتفسير البحر المحيط 7/ 36 ، وأمالي المرتضى 1/ 39 ، 2/ 96 ، وشرح شواهد الشافية ص 36 ، والبيت بلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص 201 ، والأضداد لابن الأنباري ص 372 .

(2) البيت من البسيط ، وهو لجرير في ديوانه ص 736 ، والأشباه والنظائر 5/ 307 ،

وأمالي المرتضى 1/ 52 ، وشرح شواهد الشافية ص 26 ، والعقد الفريد 1/ 96 ، ولسان العرب (كسف) ، (بكى) ، وبلا نسبة في لسان العرب (شمس) .

(3) البيت من البسيط ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص 83 ، وخزانة الأدب 2/ 133 ، 134 ، والشعر والشعراء 1/ 125 ، والبيت بلا نسبة في رصف المباني ص 418 ، ولسان العرب (روح) .

(210/777)

تبدوا كواكبه والشمس طالعة لا النّور نور ولا الإظلام إظلام

ونحوه قول طرفة في وصف امرأة "1" :

إن تنوّله فقد تمنعه وتريه النّجم يجري بالظّهر

يقول : تشقّ عليه حتى يظلم نهاره فيرى الكواكب ظهرا .

والعامة تقول : أراني فلانّ الكواكب بالنّهار ، إذا برّح به .

وقال الأعشى "2" :

رجعت لما رمت مستحسرا ترى للكواكب ظهرا وبيصا

أي : رجعت كئيبا حسيرا ، قد أظلم عليك نهارك ، فأنت ترى الكواكب تعالي النّهار

بريقا .

وقد اختلف الناس في قول اللّه عز وجل : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ [الدخان : 29] .

فذهب به قوم مذاهب العرب في قولهم : بكته الريح والبرق . كأنه يريد أنّ اللّه عز وجل حين أهلك فرعون وقومه وغرّقهم وأورث منازلهم وجنّاتهم غيرهم – لم يبك عليهم باك ، ولم يجزع جازع ، ولم يوجد لهم فقد .

وقال آخرون : أراد : فما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض . فأقام السماء والأرض مقام أهلهما ، كما قال تعالى : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف : 82] ، أراد أهل القرية .

وقال : حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها [محمد : 4] ، أي يضع أهل الحرب السّلاح .

وقال ابن عباس : لكل مؤمن باب في السماء يصعد فيه عمله ، وينزل منه رزقه ، فإذا مات بكى عليه الباب ، وبكت عليه آثاره في الأرض ومصلّاه . والكافر لا يصعد له عمل ، ولا يبكي له باب في السماء ولا أثره في الأرض .

ومن هذا الباب قول اللّه عز وجل : وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ [القلم : 51] يريد أنهم ينظرون إليك بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقك من شدّته ، أي يسقطك .

---

(1) البيت من الرمل ، وهو في ديوان طرفة بن العبد ص 52 ، وتهذيب اللغة 10/ 403

، 15/ 371 ، ومجمل اللغة 8/ 332 ، وأساس البلاغة (نول) ، وتاج العروس (نول) ،

وفيه : "في الظهر" بدل :

"بالظهر" . والبيت بلا نسبة في لسان العرب (نول) .

(2) البيت من المتقارب ، وهو في ديوان الأعشى ص 255 .

(211/777)

ومثله قول الشاعر "1" :

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزيل مواطىء الأقدام

أي ينظر بعضهم إلى بعض نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء ، يزيل الأقدام عن مواطئها .

فتفهّم قول اللّه عز وجل : وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ أي يقاربون أن يفعلوا ذلك ، ولم يفعلوا . وتفهّم قول الشاعر : (نظرا يزيل) ولم يقل : يكاد يزيل ، لأنه نواها في نفسه .

وكذلك قول اللّه عز وجل : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (90) [مريم : 90] إعظاما لقولهم .

وقوله جل وعز : وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ [إبراهيم : 46] .

إكبارا لمكرهم . وقرأها بعضهم : وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ [إبراهيم : 46] .

وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد ففيه إضمارها ، كقوله : وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ [الأحزاب : 10] ، وأي كادت من شدّة الخوف تبلغ الحلوق : .

وقد يجوز أن يكون أراد : أنها ترجف من شدّة الفزع وتجف ويتصل وجيفها "2" بالحلوق ، فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب . وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنّزو عند المخافة والذّعر .

قال الشاعر في وصف مفازة تنزو من مخافتها قلوب الأدلّاء "3" :

كأنّ قلوب أدلّائها معلّقة بقرون الظّباء

وهذا مثل قوله امرئ القيس "4" :

---

(1) البيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (قرض) ، (زلق) ، وتاج العروس (قرض) ، (زلق) ، وتهذيب اللغة 8/ 342 ، 432 ، ومقاييس اللغة 3/ 21 ، وتفسير غريب القرآن ص 482 ، وكتاب الصناعتين ص 281 ، والبيان والتبيين 1/ 11 ، وتفسير القرطبي 2/ 256 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 317 .

(2) الوجيف : الاضطراب والخفق .

(3) البيت من المتقارب ، وهو للمرار الفقعسي في تأويل مختلف الحديث ص 448 ، والحماسة البصرية 2/ 362 ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 2/ 9 ، وأساس البلاغة (عفر) .

(4) يروى صدر البيت بلفظ :

ولا مثل يوم في قذاران ظللته والبيت من الطويل ، وهو في ديوان امرئ القيس ص 70 ، ولسان العرب (عفر) ، وتهذيب اللغة 2/ 354 ، وتاج العروس (عدد) ، وفيه : "عندرا" ، بدل : "أعفرا" ، (عفر) ، (قدر) ، (حمل) ، وأساس البلاغة (عفر) ، والبيت بلا نسبة في مجمل اللغة 3/ 385 .

(212/777)

ولا مثل يوم في قدار ظللته كأنّي وأصحابي على قرن أعفرا

أي كأنّا من القلق على قرن ظبي ، فنحن لا نستقر ولا نسكن .

وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفنّ ، وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار . وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيّنّاه من مذاهبهم . .

كقول النابغة في وصف سيوف "1" :

تقدّ السّلوقيّ المضاعف نسجه وتوقد بالصّفاح نار الحباحب

ذكر أنها تقطع الدّروع التي هذه حالها ، والفارس حتى تبلغ الأرض فتورى النار إذا أصابت الحجارة .

وقول النّمر بن تولب في صفة سيف "2" :

تظلّ تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والسّاقين والهادي

يقول : رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه ليستخرجه من الأرض .

ومثله قوله مهلهل "3" :

ولولا الرّيح أسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذّكور

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص 46 ، ولسان العرب (حجب) ، (صفح) ، (سلق) ، ومقاييس اللغة 2/ 28 ، 3/ 293 ، والتنبيه والإيضاح 1/ 58 ، ومجمل اللغة 2/ 28 ، وكتاب العين 5/ 77 ، وتهذيب اللغة 4/ 257 ، 8/ 404 ، وجمهرة اللغة ص 174 ، وبلا نسبة في كتاب العين 3/ 12 ، وجمهرة اللغة ص 851 ، وتاج العروس (حبب) ، (صفح) ، (سلق) .

(2) البيت من البسيط ، وهو للنمر بن تولب في الشعر والشعراء 1/ 270 ، والوساطة ص 435 ، ونقد الشعر ص 18 ، والعمدة 2/ 58 ، وكتاب الصناعتين ص 283 ، والموشح ص 78 ، والأغاني 19/ 162 ، وإعجاز القرآن ص 77 ، وديوان المعاني 2/ 51 . [. . . . .]

(3) البيت من الوافر ، وهو للمهلهل في أمالي القالي 2/ 134 ، وأمالي اليزيدي ص 12 ،

والكامل 1/ 350 ، والعمدة 2/ 59 ، والعقد الفريد 5/ 20 ، والوساطة ص 435 ، والشعر والشعراء 1/ 256 ، والحيوان 6/ 418 ، والأغاني 4/ 147 ، ومعجم الشعراء ص 331 ، والبيان والتبيين 1/ 124 ، والموشح ص 74 ، ونقد الشعر ص 84 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1/ 185 .

(213/777)

وقال قيس بن الخطيم يصف طعنة "1" :

ملكت بها كفّي فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

وقال أيضا "2" :

لو أنّك تلقي حنظلا فوق بيضنا تدحرج عن ذي سامة المتقارب

يقول : تراصّ القوم في القتال حتى لو أن ملقيا ألقى على بيضهم حنظلا لجرى عليها كما يجري على الأرض ولم يسقط لشدّة تراصفهم .

و(عن) بمعنى (على) .

وذو سامه : بيضه المذهب . والسّام : عروق الذّهب .

وقول عنترة "3" :

وأنا المنيّة في المواطن كلها والطّعن منّي سابق الآجال

وقال بشار "4" :

إذا ما غضبنا غضبة مضريّة هتكنا حجاب الشّمس أو قطرت دما

وقال طريح الثقفي "5" :

لو قلت للسّيل : دع طريقك وال موج عليه بالهضب يعتلج

)

1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان قيس بن الخطيم ص 46 ، وديوان الأدب 2/ 301 ، وتهذيب اللغة 6/ 277 ، 10/ 271 ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 184 ، وشرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي 1/ 95 ، ولباب الأدب ص 184 ، والأغاني 3/ 5 ، وتاج العروس (نهر) ، (ملك) ، والمعاني الكبير ص 978 ، 983 ، 1062 ، 1080 ، ولسان العرب (نهر) ، (ملك) ، والبيت بلا نسبة في المخصص 3/ 133 ، 4/ 19 ، 6/ 89 ، 10/ 30 ، 17/ 157 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لقيس بن الخطيم في ديوانه ص 86 ، وأدب الكاتب ص 513 ، ولسان العرب (سوم) ، وبلا نسبة في الاشتقاق ص 109 ، ومجالس ثعلب ص 184 .

(3) البيت من الكامل ، وهو في ديوان عنترة ص 106 (طبعة دار الكتب العلمية) ،

والوساطة ص 434 .

(4) البيت من الطويل ، وهو لبشار بن برد في ديوانه 4/ 163 ، والأغاني 3/ 156 ، والعمدة ص 253 ، والمختار من شعر بشار ص 163 ، والأزمنة والأمكنة 2/ 35 ، والشعر والشعراء 2/ 736 ، والموشح ص 248 ، والحيوان 6/ 112 ، وللغنوي في لسان العرب (حجب) ، وتهذيب اللغة 4/ 163 ، وللقحيف بن عمير العقيلي في لسان العرب (غشم) ، وتاج العروس (حجب) ، ويروى : "أو مطرت دما" ، بدل : "أو قطرت دما" .

(5) البيتان من المنسرح ، وهما لطريح بن إسماعيل الثقفي في ديوانه ص 406 ، ولسان العرب (ولج) ، والشعر والشعراء 2/ 660 ، والأغاني 4/ 80 ، 81 .

(214/777)

لارتدّ أوساخ أو لكان له في سائر الأرض عنك منعرج

وقال ابن ميّادة "1" :

ولو أنّ قيسا قيس عيلان أقسمت على الشّمس لم تطلع عليك حجابها

وقال الطرمّاح "2" :

ولو أنّ حرقوصا على ظهر قملة يكرّ على صفّي تميم لولّت

وقال آخر بذكر حديث امرأة "3" :

حديث لو أنّ اللّحم يصلى بجرّه غريضا أتى أصحابه وهو منضج

وقال أبو النجم يذكر سيلا "4" :

كأنّ فوق الأكم من غثائه قطائف الشّام على عبائه

والشّيح يهديه إلى طحمائه يقول : صار الجبل والسهل واحدا ، وصار الغثاء على رؤوس الأكم .

والطّحماء : شجر ينبت في الجبال .

والشّيح ينبت في السّهول ، فأراد أنّه حمل نبت السهل إلى الجبل .

وقال وذكر ظليما يعدو ويطير "5" :

هاو تضلّ الطّير في خوائه والخواء : ما بين قوائمه وبطنه ، وبين الأرض إذا عدا وطار . يريد أن الطير يطير بينه وبين الأرض حتى يضلّ .

وقد يروى "6" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لابن ميادة في ديوانه ص 78 ، والأغاني 2/ 117 .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الطرماح ص 132 - 133 ، والمعاني الكبير 2/ 680 ، والشعر والشعراء 2/ 568 ، وكتاب الصناعتين ص 284 ، وحماسة ابن

الشجري ص 126 ، وكتاب الحيوان 6/ 454 .

(3) البيت من الطويل ، وهو لجران العود في عيون الأخبار 4/ 82 ، وليس في ديوانه ، ولأم الضحاك المحاربية في أمالي القالي 2/ 76 ، وزهر الآداب 4/ 88 .

(4) الرجز في كتاب الحيوان 3/ 389 ، ورواية الشطر الأخير فيه :

والشيخ تهديه إلى طحمائه .

(5) انظر الحاشية السابقة .

(6) ويروى الرجز أيضا بلفظ :

يبدو خواء الأرض من خوائه وهو لأبي النجم العجلي في لسان العرب (خوا) ، وتهذيب اللغة 7/ 616 ، وأساس البلاغة (خوي) وتاج العروس (سلع) ، (خوي) ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 232 ، 363 ، 1057 .

(215/777)

تضلّ الرّيح في خوائه وقال الكميت وذكر الرّياح "1" :

ترامى بكذّان الإكام ومروها ترامي ولدان الأصارم بالخشل

أراد أن الرياح ترامى بالحجارة الكبار ، كما يترامى الصّبيان بنوى المقل .

وقال آخر "2" :

زعمت غدانة أنّ فيها سيّدا ضخما يوازنه جناح الجندب

يرويه ما يروي الذّباب فيتّشي سكرا وتشبعه كراع الأرنب

هذه الأبيات التي ذكرناها ومثلها في الشعر كثير .

والعرب تقول : له الطّمّ والرّمّ ، إذا أرادوا تكثير ماله .

والطمّ : البحر ، والرّم : الثرى . وهذا لا يملكه إلا اللّه تعالى .

ويقولون : (فلان دون نائله العيّوق) ويقولون : (له الضّحّ والرّيح) يريدون ما طلعت عليه الشمس ، وجرت عليه الرّيح .

ويقولون : (فلان يثير الكلاب عن مرابضها) يريدون أنه لشرهه ولؤمه – يثيرها عن مواضعها ، يطلب تحتها شيئا فاضلا من طعمها ليأكله . وهذا ما لا يفعله بشر .

وقال الشاعر "3" :

تركوا جارهم يأكله ضبع الوادي ويرميه الشّجر

والشجر لا يرمي أحدا .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الكميت 2/ 97 ، وفيه : "بالخشل" بسكون اللام ، بدل :

"بالخشل" بكسر اللام . ولسان العرب (كذذ) ، وتاج العروس (كذذ) . [. . . . .]

(2) يروى عجز البيت الأول بلفظ :

ضخما يواريه جناح جندب والبيتان من الكامل ، وهما للأبيرد الرياحي في ديوانه ص 273 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 10 ، والأغاني 13/ 142 ، والحيوان 6/ 351 ، وثمار القلوب ص 325 .

(3) البيت من الرمل ، وهو بلا نسبة في كتاب الحيوان 6/ 561 .

وهذا كله على المبالغة في الوصف ، وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد به .

وقال آخر "1" :

إذا رأيت أنجما من الأسد جبهته أو الخراة والكتد

بال سهيل في الفضيخ ففسد وطاب ألبان اللّقاح فبرد

وهذا وقت يذهب فيه الفضيخ ، لأنّه يكون من البسر ، والبسر يصير عند طلوع هذه الأنجم رطبا ، فلما كان فساده عن طلوع سهيل ، وكان الشراب يفسد بأن يبال فيه - جعل سهيلا كأنه بال فيه لمّا أفسده وقت طلوعه .

وقال دكين "2" :

وقد تعاللت ذميل العنس بالسّوط في ديمومة كالتّرس

إذ عرّج الليل بروح الشمس فجعل الشمس روحا عرّج بها الليل .

والأصل في هذا كله : أن كلّ حيوان يموت تقبض روحه ، فلما أبطل الليل الشمس جعله كأنه قبض لها روحا .

وقال ذو الرّمّة يصف إبلا في مسيرها "3" :

إذا اغتبطت نجما فغار تسخّرت علالة نجم آخر الليل طالع

يقول : تهتدي بكوكب طلع أوّل الليل ، حتى إذا غاب اهتدت بكوكب آخر طالع في السّحر ، ولم يردها ، وإنما أراد ركبانها فجعلها تغتبق النّجم ، وتتسحّر بالنّجم .

---

(1) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (خرت) ، (فضخ) ، (كتد) ، (بول) ، (جبه) ، وتهذيب اللغة 6/ 66 ، وتاج العروس (خرت) ، (فضخ) ، (كتد) ، (جبه) .

(2) الشطران الأولان من الرجز لمنظور بن مرثد في مقاييس اللغة 4/ 13 ، وبلا نسبة في تاج العروس (علل) ، وأساس البلاغة (علل) ، وديوان الأدب 3/ 190 ، ولسان العرب (علل) . ويروى الشطر الثالث مع شطر آخر بلفظ :

في أفق ورد كلون الورسي وعرّج الليل بروج الشمس

والرجز لمنظور بن مرثد الأسدي في المؤتلف والمختلف ص 104 ، ولدكين بن رجاء الفقيمي في الحيوان 3/ 74 ، وله أو لأبي محمد الفقعسي في الحيوان 3/ 363 ، وبلا

نسبة في مقاييس اللغة 4/ 304 ، وكتاب الجيم 1/ 263 ، 2/ 324 .

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 371 ، وفيه : "إذا اغتبقت" بدل : "إذا اغتبطت" .

(217/777)

وقال مزرّد "1" :

ولو أنّ شيخا ذا بنين كأنّما على رأسه من شامل الشّيب قونس

تبيّت فيه العنكبوت بناتها نواشىء حتّى شبن أو هنّ عنّس

وإنما أراد طول مكث العناكب في رأسه ، فجعلهنّ قد شبن وعنّسن .

وأصل هذا : أنّ المرأة إذا طال مكثها في بيت أبيها لا تزوّج عنّست وشابت ، فاستعار الشيب والتّعنيس مثلا لطول مكث العناكب .

وقال المسيّب بن علس "2" :

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره السّدر والأثأب

أراد أنه دعا عليهم الخلق يستنصرهم ، فضرب الشجر مثلا لكثرة الناس والعوام تقول : جاءنا بالشّوك والشجر . إذا جاء في جيش عظيم .

ومنه قوله سبحانه : وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً [يوسف : 31] أي طعاما ، يقال : اتّكأنا عند فلان ، أي طعمنا .

وقال جميل "3" :

فظللنا بنعمة واتّكأنا وشربنا الحلال من قلله

والأصل : أن من دعوته ليطعم أعددت له التكأة للمقام والطمأنينة فسمّى الطعام متّكئا على الاستعارة .

ومنه قوله تعالى : ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها [هود : 56] أي يقهرها ويذلّها بالملك والسّلطان . وأصل هذا : أن من أخذت بناصيته فقد قهرته وأذللته ، ومنه قيل في الدعاء : ناصيتي بيدك . أي أنت مالك لي وقاهر .

ومنه قوله عز وجل : إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً [آل عمران : 75] أي مواظبا بالاقتضاء والمطالبة . وأصله أن المطالب بالشيء يقوم فيه ويتصرّف ، والتارك له يقعد عنه .

---

(1) البيتان من الطويل ، وهما لمزرد بن ضرار في كتاب الحيوان 5/ 219 ، والمعاني الكبير ص 625 .

(2) البيت من المتقارب ، وهو في ديوان المسيب بن علس ص 602 ، والعمدة 1/ 280 .

(3) البيت من الخفيف ، وهو لجميل بن معمر (جميل بثينة) في ديوانه ص 189 ، ولسان

العرب (قلل) ، وأساس البلاغة (قلل) ، (وكأ) ، والأغاني 8/ 94 ، وخزانة الأدب 2/ 24 ، وشرح شواهد المغني 1/ 366 ، والمعاني الكبير ص 457 ، وتاج العروس (قلل) ، وبلا نسبة في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي 1/ 305 .

(218/777)

قال الأعشى "1" :

يقوم على الوغم في قومه فيعفو إذا شاء أو ينتقم

أي يطالب بالذّحل "2" ولا يقعد عنه .

وقال : لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ [آل عمران : 113] أي عاملة غير تاركة .

وقال : أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ [الرعد : 33] أي آخذ لها بما كسبت .

ومنه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ [التوبة : 61] أي يقبل كلّ ما بلغه .

والأصل : أن الأذن هي السامعة ، فقيل لكل من صدّق بكلّ خبر يسمعه :

أذن ، ومنه يقال : آذنتك بالأمر فأذنت ، كما تقول : أعلمتك فعلمت ، إنما هو أوقعته في أذنك . يقول اللّه عزّ وجلّ : فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [البقرة : 279] أي اعلموا ، ومن قرأها (فآذنوا) أراد فأعلموا .

ومنه ما قالت الشعراء "3" :

آذنتنا ببينها أسماء ومنه الأذان إنما هو إعلام الناس وقت الصلاة .

وقوله : وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [التوبة : 3] أي إعلام .

وكان المنافقون يقولون : إن محمدا أذن فقولوا ما شئتم ، فإنا متى أتيناه فاعتذرنا إليه صدّقنا . فأنزل اللّه تبارك وتعالى : قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ [التوبة : 61] أي كان الأمر

---

(1) البيت من المتقارب ، وهو في ديوان الأعشى ص 89 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 127 .

(2) الذّحل : الثأر ، أو طلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح أو نحو ذلك .

(3) عجزه : ربّ ثاو يملّ منه الثواء والبيت من الخفيف ، وهو للحارث بن حلزة في ديوانه ص 19 ، والأغاني 11/ 36 ، وإنباه الرواة 3/ 94 ، وتخليص الشواهد ص 472 ، وخزانة الأدب 3/ 181 ، 182 ، 415 ، وزهر الآداب 1/ 561 ، وشرح شواهد الشافية ص 244 ، وشرح القصائد السبع ص 432 ، 433 ، وشرح القصائد العشر ص 370 ، وشرح المعلقات السبع ص 216 ، وشرح المعلقات العشر ص 119 ، والشعر والشعراء 1/ 203 ، وطبقات فحول الشعراء 1/ 151 ، والعقد الفريد 5/ 270 ، والعمدة 1/ 114 ، ولسان العرب (أذن) ، (قفا) ، (قوا) ، ومعاهد التنصيص

310/1 ، والمقاصد النحوية 2/ 445 ، وبلا نسبة في الخصائص 1/ 341 ، وشرح شافية ابن الحاجب 2/ 317 .

(219/777)

كما تذكرون ، ولكنه إنّما يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ [التوبة : 61] أي يصدّق اللّه ويصدّق المؤمنين ، لا أنتم ، (والباء) و(اللام) زائدتان .

ومنه قوله : فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ [الأحزاب : 23] أي قتل والنّحب : النّذر .

وأصل هذا : أنّ رجالا من أصحاب رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، نذروا إن لقوا العدوّ ليصدقنّ القتال أو ليقتلنّ ، هذا أو نحوه ، فقتلوا ، فقيل لمن قتل : قضى نحبه .

واستعير النّحب مكان الأجل ، لأن الأجل وقع بالنّحب وكان النّحب له سببا .

ومنه قيل للعطية : المنّ ، لأنّ من أعطى فقد منّ . قال اللّه تعالى : وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) [المدثر : 6] أي لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت .

وقال : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ [ص : 39] ، أي فأعط أو أمسك .

وقوله : بِغَيْرِ حِسابٍ [ص : 39] مردود إلى قوله : هذا عَطاؤُنا بغير حساب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 88. 117 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والسبعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 48 ﴾ من سورة (القلم)

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ آخر السورة

(4/778)

قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتفى جميع ذلك فثبت أنهم على خطر عظيم ، وأنه سبحانه المختص بعلم الغيب ، وقد أخبر بإهلاكهم من أجله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأن كفر من كفر وإيمان من آمن بقضائه وتقديره ، فكان لا بد منهما ، كان ذلك سبباً حاملاً له على الصبر إلى الوقت الذي ضربه سبحانه للفرج ، فقال مسبباً عما تقديره : لم يكن له شيء مما ذكر ، وإنما هو القضاء

والقدر : ﴿ فاصبر ﴾ أي أوفر الصبر وأوجده على كل ما يقولون فيك وعلى غير ذلك من كل ما يقع منهم ومن غيره من مر القضاء والقدر ﴿ لحكم ربك ﴾ أي للقضاء الذي قضاه وقدره المحسن إليك الذي أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذلهم بالتكذيب ومد لهم على ذلك في الآجال وأوسع عليهم النعم وأخر ما وعدك به من النصر .

ولما كان حاصل قصة يونس - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - أنه استثقل الكرامة بالرسالة لما فيها من الأمور الشديدة من معالجة الخلق فامتحن ، كان سبباً لقبوله ذلك ، ثم كان سبب إسلام قومه إدناء العذاب منهم وتقريب غشيانه لهم ، أشار له بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه - صلى الله عليه وسلم - وعلى سائر الأنبياء - وإعلاء أمته على سائر الأمم بما يحتاج إلى صبر على ما يستثقل من ضر أو أمر شديد مر فقال : ﴿ ولا تكن ﴾ أي ولا يكن حالك في الضجر والعجلة إلى غير ذلك .

(5/778)

ولما كان قد افتتح السورة بالنون الذي من مدلولاته الحوت ، عبر به هنا تحقيقاً لإرادته فقال : ﴿ كصاحب ﴾ أي كحال صاحب ﴿ الحوت ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة

والسلام ﴿ إذ ﴾ أي حين ، والعامل في هذا الظرف المضاف المحذوف من الحال ونحوها ، أو يكون التقدير : لا يكن حالك كحاله يحصل لك مثل ما حصل له حين ﴿ نادى ﴾ أي ربه المربي له بإحاسنه في الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة لجج البحار ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه عند ندائه ﴿ مكظوم ﴾ أي مملوء كرباً وهماً وشدة وغماً محمول على السكوت ببطنه فهو لا ينطق من شدة حزنه ، ومحبوس عن جميع ما يريد من التصرف إلى أن ألجأه سبحانه بذلك إلى الدعاء والتضرع ، من الكظم ، وهو السكوت عن امتلاء وتجرع للمرارات ، ومن هذا كظمت السقاء أي شددته وملأته فكان مكظوماً ، والمكظوم : المكروب - كأنه قد أخذ بكظمه وهو مخرج نفسه .

(6/778)

ولما تشوف السامع إلى ما كان من أمره بعد هذا الأمر العجيب قال : ﴿ لولا أن ﴾ وعظم الإحسان بالتذكير وصيغة التفاعل فقال : ﴿ تداركه ﴾ أي أدركه إدراكاً عظيماً كان كلاًّ من النعمة والمنة يريد أن تدرك الآخر ﴿ نعمة ﴾ أي عظيمة جداً ﴿ من ربه ﴾ أي الذي أرسله وأحسن إليه بإرساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة له ﴿ لنبذ ﴾ أي لولا هذه الحالة السنية التي أنعم الله عليه بها لطرح طرحاً هيناً جداً ﴿ بالعراء ﴾ أي الأرض

القفر التي لا بناء فيها ولا نبات ، البعيدة من الإنس حين طرح فيها كما حكم بذلك من الأزل ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ مذموم ﴾ أي ملوم على الذنب ، ولما كان التقدير : ولكنه تداركه بالنعمة فلم يكن في نبذه ملوماً ، سبب عنه قوله : ﴿ فاجتباه ﴾ أي اختاره لرسالته ﴿ ربه ﴾ ثم سبب عن اجتبائه قوله : ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي الذين رسخوا في رتبة الصلاح فصلحوا في أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم ، فنبذ بالعراء وهو محمود ، ومن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجراً من أجره ، وأنت كذلك فأنت أشرف العاملين والعالمين .

ولما نهاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طاعة المكذبين وحذره إدهانهم وضرب لهم الأمثال ، وتوعدهم إلى أن قال : ﴿ ذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم ﴾ وختم بقصة يونس عليه السلام للتدريب على الصبر وعدم الضعف ولو بالصغو إلى المدهن ، فكان التقدير تسبيباً عما فيها من النهي : فإنهم إنما يبالغون في أذاك لتضجر فتترك ما أنت فيه ، قال عاطفاً على هذا المقدر مخبراً له بما في صدورهم من الإحن عليه وفي قلوبهم من الضغائن له ليشتد حذره من إدهانهم ، مؤكداً لأن من يرى إدهانهم يظن إذعانهم وينكر لمبالغتهم فيه طغيانهم : ﴿ وإن ﴾ أي وإنه ﴿ يكاد ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل .

ولما كانت " ن " مخففة ، أتى باللام التي هي علمها فقال : ﴿ ليزلقونك ﴾ أي من شدة عداوتهم وحسدهم وغيظ قلوبهم ﴿ بأبصارهم ﴾ أي يوجدون لك التنحية عما أنت فيه والزلل العظيم الذي صاحبه في موضع دحض لا مستمسك فيه بالهلاك فما دونه من الأذى حتى يرموك من قامتك إلى الأرض كما يزلق الإنسان فينطرح لما يتراءى في عيونهم حين تصويب النظر للفطن من الحنق والسخط الدال على أن صدورهم تغلي ، وهو من قولهم : نظر إليّ نظراً كاد يصرعني ، يعني لو أمكنه أن يصرعني به لصرعني كما قال تعالى ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : 72] وقيل : يهلكونك بإصابة العين ، قال القشيري : كانوا إذا أرادوا أن يصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام ثم نظروا إلى ذلك الشيء وقال : ما أحسنه من شيء ، فيسقط المنظور إليه في الوقت ، ففعلوا ذلك بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : ما أنصحه من رجل ، فحفظه الله منهم ، وللشيخين عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" العين حق " وفي رواية عند أحمد وابن ماجة : " يحضر بها الشيطان وحسد ابن آدم "

ولأحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ رفعه : " العين حق ولو أن شيئاً سابق القدر

سبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا " ولأبي نعيم في الحلية من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ رفعه : " العين حق تدخل الجمل القدر والرجل القبر " ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد ـ رضى الله عنه ـ ا : " وإنها لتدرك الفارس فتدعثره " .

ولما ذكر هذا الإزلاق العظيم ، ذكر ظرفه معبراً بالماضي تذكيراً بالحال الماضية فقال : ﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ أي القرآن الذي غلب عليه التذكير بأمور يعليها كل أحد من نفسه ، ومن الآفاق كان هواياه أول ما سمعوه حسداً على ما أوتيت من الشرف فكان سماعهم له باعثاً لما عندهم من البغض والحسد على أنه لم يزدهم تمادي الزمان إلا حنقاً بدلالة ﴿ ويقولون ﴾ أي قولاً لا يزالون يجددونه .

(8/778)

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غاية البعد عما يشين ، أكدوا قولهم : ﴿ إنه لمجنون ﴾ حيرة في أمرك وتنفيراً عنك لما يعلمون من أنه لا يسمعه أحد لا غرض له إلا كذبهم ومال بكليته إليك وكان معك وارتبط بك واغتبط بما جئت به ، وعن الحسن أن قراءة هذه الآية دواء للإصابة بالعين .

ولما كان معنى قولهم هذا أن ما يقوله تخاليط من يصرع بالجن ، أكد بقصر القلب قوله معجباً

منهم ﴿ وما ﴾ أي والحال أن هذا القرآن أو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ﴿ هو إلا ذكر ﴾ أي موعظة وشرف ﴿ للعالمين ﴾ أي كلهم عاليهم ودانيهم ليس منهم أحد إلا وهو يعلم أنه لا شيء يشبهه في جلالة معانيه وحلاوة ألفاظه وعظمة سبكه ودقة فهمه ورقة حواشيه وجزالة نظومه ، ويفهم منه على حسب ما هيأه الله له ليناسب عموم ذكريته عموم الرسالة للمرسل به ، وكل ما فيه من وعد ووعيد وأحكام ومواعظ شامل لهم كلهم ، فوجبت التفرقة بين مسلمهم ومجرمهم لتصدق أقواله فيكمل جلاله وجماله فقد رجعت خاتمتها – كما ترى – على فاتحتها بالنون والقلم وما يسطرون من هذا الذكر ، وسلب ما قالوا فيه من الجنون والإقسام على الخلق العظيم الذي هو هذا الذكر الحكيم ، ونبه كونه ذكراً لجميع الخلق بما فيه من الوعد والوعيد على أنه لا بد من الحاقة وهي القيامة ليظهر فيها تأويله وإجماله وتفصيله ، ويتضح غاية الاتضاح سبيله ، وتحق فيها حقائقه وتظهر جلائله ودقائقه بما يقع من الحساب ، ويتبين غاية البيان ويظهر الخطأ من الصواب – والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 115 . 118 ﴾

(9/778)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) ﴾

ثم إنه تعالى لما بالغ في تزييف طريقة الكفار وفي زجرهم عما هم عليه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وفيه وجهان الأول : فاصبر لحكم ربك في إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم والثاني : فاصبر لحكم ربك في أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة ، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن كصاحب الحوت إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ معنى قوله : ﴿ كصاحب الحوت ﴾ يريد لا تكن كصاحب الحوت حال ندائه وذلك لأنه في ذلك الوقت كان مكظوماً فكأنه قيل : لا تكن مكظوماً .

المسألة الثانية :

صاحب الحوت يونس عليه السلام ، إذ نادى في بطن الحوت بقوله : ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سبحانك إِنِّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] ، ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غيظاً من كظم السقاء إذا ملأه ، والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبلى ببلائه .

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

وقرىء (رحمة من ربه) ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم لم يقل : لولا أن تداركته نعمة من ربه ؟ الجواب : إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود تداركته ، وقرأ الحسن : تداركه ، أي تتداركه على حكاية الحال الماضية ، بمعنى لولا أن كان ، يقال : فيه تتداركه ، كما يقال : كان زيد سيقوم فمنعه فلان ، أي كان يقال فيه : سيقوم ، والمعنى كان متوقعاً منه القيام .

(10/778)

السؤال الثاني : ما المراد من قوله : ﴿ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ؟ الجواب : المراد من تلك النعمة ، هو أنه تعالى أنعم عليه بالتوفيق للتوبة ، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الصالحات والطاعات إلا بتوفيقه وهدايته .

السؤال الثالث : أين جواب لولا ؟ الجواب : من وجهين الأول : تقدير الآية : لولا هذه النعمة لنبذ بالعراء مع وصف المذمومية ، فلما حصلت هذه النعمة لا جرم لم يوجد النبذ بالعراء مع هذا الوصف ، لأنه لما فقد هذا الوصف : فقد فقد ذلك المجموع الثاني : لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نبذ بعراء القيامة مذموماً ، ويدل على هذا

قوله : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143 ، 144] وهذا كما يقال : عرصة القيامة ؛ وعراء القيامة .

السؤال الرابع : هل يدل قوله : ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ على كونه فاعلاً للذنب ؟ الجواب : من ثلاثة أوجه الأول : أن كلمة ﴿ لَوْلاَ ﴾ دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل الثاني : لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين الثالث : لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله : ﴿ فاجتباه رَبُّهُ ﴾ [القلم : 50] والفاء للتعقيب .

السؤال الخامس : ما سبب نزول هذه الآيات ؟ الجواب : يروى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله ما حل ، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا ، وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف .

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الآية وجهان أحدهما : قال ابن عباس : رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه والثاني : قال قوم : ولعله ما كان رسولاً صاحب وحي قبل هذه الواقعة ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولاً ، وهو المراد من قوله : ﴿ فاجتباه رَبُّهُ ﴾ والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا القول الأول .

لأن احتباسه في بطن الحوت وعدم موته هناك لما لم يكن إرهاصاً ولا كرامة فلا بد وأن يكون معجزة وذلك يقتضي أنه كان رسولاً في تلك الحالة .

المسألة الثانية :

احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله : ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ فالآية تدل على أن ذلك الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه ، قال الجبائي : يحتمل أن يكون معنى جعله أنه أخبر بذلك ، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني والجواب : أن هذين الوجهين اللذين ذكرتم مجاز ، والأصل في الكلام الحقيقة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

إن مخففة من الثقيلة واللام علمها .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ بضم الياء وفتحها ، وزلقه وأزلقه بمعنى ويقال : زلق الرأس وأزلقه حلقه ، وقرىء ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها ، ثم فيه وجوه أحدها : أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك من قولهم : نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني ، أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله ، قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا في موطن . . نظراً يزل مواطىء الأقدام

وأنشد ابن عباس لما مر بأقوام حددوا النظر إليه :

نظروا إلي بأعين محمرة . . نظر التيوس إلى شفار الجازر

وبين الله تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن وهو قوله : ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ الثاني : منهم من حمله على الإصابة بالعين ، وههنا مقامان أحدهما : الإصابة بالعين ، هل لها في الجملة حقيقة أم لا ؟ الثاني : أن بتقدير كونها صحيحة ، فهل الآية ههنا مفسرة بها أم لا ؟ .

المقام الأول : من الناس من أنكر ذلك ، وقال : تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة ، وههنا لا مماسة ، فامتنع حصول التأثير .

واعلم أن المقدمة الأولى ضعيفة ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن ، فإن كان الأول لم يمتنع اختلاف النفوس في جواهرها وماهياتها ، وإذا كان كذلك لم يمتنع أيضاً اختلافها في لوازمها وآثارها ، فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير ، وإن كان الثاني لم يمتنع أيضاً أن يكون مزاج إنسان واقعاً على وجه مخصوص يكون له أثر خاص ، وبالجملة فالاحتمال العقلي قائم ، وليس في بطلانه شبهة فضلاً عن حجة ، والدلائل السمعية ناطقة بذلك ، كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : " العين حق " وقال : " العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر "

والمقام الثاني : من الناس من فسر الآية بهذا المعنى قالوا : كانت العين في بني أسد ، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا عانه ، فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فعصمه الله تعالى ، وطعن الجبائي في هذا التأويل وقال : الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشيء ، والقوم ما كانوا ينظرون إلى الرسول عليه السلام على هذا الوجه ، بل كانوا يمقتونه ويبغضونه ، والنظر على هذا الوجه لا يقتضي الإصابة بالعين .

واعلم أن هذا السؤال ضعيف ، لأنهم وإن كانوا يبغضونه من حيث الدين لعلهم كانوا يستحسنون فصاحته ، وإيراده للدلائل .

وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ وهو على ما افتتح به السورة .

(13/778)

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ فإنه تذكير لهم ، وبيان لهم ، وأدلة لهم ، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد ، وفيه من الآداب والحكم ، وسائر العلوم مالا حد له ولا حصر ، فكيف يدعى من يتلوه مجنوناً ، ونظيره مما يذكرون ، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 86.89 ﴾

(14/778)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثم أخبر تعالى : ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ﴾ ،

فروي أنه لما نزلت هذه قالت قريش : إن كانت ثم جنات نعيم ، فلنا فيها أكبر الحظ ، فنزلت : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ . وقوله تعالى : ﴿ ما لكم ﴾ توبيخ آخر ابتداء وخبر جملة منحازة ، وقوله تعالى : ﴿ كيف تحكمون ﴾ جملة منحازة كذلك ، و ﴿ كيف ﴾ في موضع نصب ب ﴿ تحكمون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أم ﴾ هي المقدرة ببل وألف الاستفهام ، و: ﴿ كتاب ﴾ معناه : منزل من عند الله ، وقوله تعالى : ﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ . قال بعض المتأولين : هذا استئناف قول على معنى : إن كان لكم كتاب ، فلكم فيه متخير ، وقال آخرون : ﴿ إن ﴾ معمولة ل ﴿ تدرسون ﴾ ، أي تدرسون في الكتاب إن لكم ما تختارون من النعيم ، وكسرت الألف من ﴿ إن ﴾ لدخول اللام في الخبر ، وهي في معنى : " أن " بفتح الألف . وقرأ طلحة والضحاك : " أن لكم " بفتح الألف . وقرأ الأعرج " أأن لكم فيه " على الاستفهام .

(15/778)

قوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ﴾ مخاطبة للكفار ، كأنه يقول : هل أقسمنا لكم قسماً فهو عهد لكم بأنا ننعمكم في يوم القيامة وما بعده ؟ وقرأ جمهور الناس

بالرفع على الصفة لأيمان ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " بالغةً " بالنصب على الحال وهي حال من النكرة ، لأنها نكرة مخصصة بقوله ﴿ علينا ﴾ ، وقرأ الأعرج : " أإن لكم لما تحكمون " وكذلك في التي تقدمت في قوله : " أإن لكم فيه لما تخيرون " ، ثم أمر تعالى نبيه محمداً على وجه إقامة الحجة ، أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك من هو ؟ والزعيم : الضامن للأمر والقائم به ، ثم وقفهم على أمر الشركاء ، عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيء من هذا . وقرأ ابن أبي عبلة وابن مسعود : " أم لهم شركاء فليأتوا بشِركهم " بكسر الشين دون ألف ، والمراد بذلك على القراءتين الأصنام ، وقوله تعالى : ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ قيل هو استدعاء وتوقيف في الدنيا ، أي ليحضروهم حتى يرى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا ، وقيل هو استدعاء وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة ، ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ ، قال مجاهد : هي أول ساعة من يوم القيامة ، وهي أفظعها ، وتظاهر حديث من النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه ينادي مناد يوم القيامة ليتبع كل أحد ما كان يعبد " ، قال : " فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، وكذلك كل عابد لكل معبود ثم تبقى هذه الأمة وغبرات أهل الكتاب ، معهم منافقوهم وكثير من الكفرة ، فيقال لهم : ما شأنكم لم تقفون ، وقد ذهب الناس فيقولون ننتظر ربنا فيجيئهم الله تعالى في غير الصورة التي عرفوه بها ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، قال فيقول : أتعرفونه بعلامة ترونها فيقولون : نعم ،

فيكشف لهم عن ساق ، فيقولون : نعم أنت ربنا ، ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن وتصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً

(16/778)

واحداً ، فلا يستطيعون سجوداً " .

قال القاضي أبو محمد : هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه ألفاظ بزيادة ونقصان ، وعلى كل وجه فما ذكر فيه من كشف الساق وما في الآية من ذلك ، فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يرى الله تعالى ذلك اليوم حتى يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي لله تعالى وحده ، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب [جد طرفة] : [مجزوء الكامل]

كشفت لهم عن ساقها . . . وبدا عن الشر البواح

ومنه قول الراجز : [الرجز]

وشمرت عن ساقها فشدوا . . .

وقول الآخر : [الرجز]

في سنة قد كشفت عن ساقها . . . حمراء تبري اللحم عن عراقها

وأصل ذلك أنه من أراد الجد في أمر يحاوله فإنه يكشف عن ساقه تشميراً وجداً ، وقد مدح الشعراء بهذا المعنى فمنه قول دريد : [الطويل]

كميش الإزار خارج نصف ساقه . . . صبور على الضراء طلاع أنجدِ

(17/778)

وعلى هذا من إرادة الجد والتشمير في طاعة الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : " أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه " . وقرأ جمهور الناس : "يُكشَف عن ساق " بضم الياء على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ ابن مسعود : "يَكشِف " بفتح الياء وكسر الشين على معنى يكشف الله ، وقرأ ابن عباس : " تُكشف " بضم التاء على معنى تكشف القيامة والشدة والحال الحاضرة ، وقرأ ابن عباس أيضاً : " تَكشف " بفتح التاء على أن القيامة هي الكاشفة ، وحكى الأخفش عنه أنه قرأ : " نَكشِف " بالنون مفتوحة وكسر الشين ، ورويت عن ابن مسعود . وقوله تعالى : ﴿ ويدعون ﴾ ظاهره أن ثم دعاء إلى السجود ، وهذا يرده ما قد تقرر في الشرع من أن الآخرة ليست بدار عمل وأنها لا تكليف فيها ، فإذا كان هذا فإنما الداعي ما يرونه من سجود المؤمنين فيريدون هم أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعونه . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم يدعون إلى السجود على جهة التوبيخ ،

وخرج بعض الناس من قوله : ﴿ فلا يستطيعون ﴾ أنهم كانوا يستطيعونه قبل ذلك ، وذلك غير لازم . وعقيدة الأشعري : أن الاستطاعة إنما تكون مع التلبس بالفعل لما قبله ، وهذا القدر كاف من هذه المسألة هاهنا . و: ﴿ خاشعة ﴾ نصب على الحال وجوارحهم كلها خاشعة ، أي ذليلة ولكنه خص الأبصار بالذكر لأن الخشوع فيها أبين منه في كل جارحة . وقوله تعالى : ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم ، وقوله تعالى : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون مما نال عظام ظهورهم من الاتصال والعتو ، وقال بعض المتأولين : ﴿ السجود ﴾ هنا عبارة عن جميع الطاعات ، وخص ﴿ السجود ﴾ بالذكر من حيث هو عظم الطاعات ، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآخرة ، وقال إبراهيم التيمي والشعبي : أراد ب ﴿ السجود ﴾ الصلوات المكتوبة ، وقال ابن جبير : المعنى كانوا يسمعون النداء للصلاة : وحي على الفلاح فلا يجيبون ، وفلج الربيع بن خيثم :

(18/778)

فكان يهادي بين رجلين إلى المسجد ، فقيل له : إنك لمعذور ، فقال : من سمع حي على الفلاح ، فليجب ولو حبواً ، وقيل لابن المسيب : إن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك ،

فقال : أسمع حي على الفلاح فلا أجيب ؟ والله لا فعلت . وهذا كله قريب بعضه من بعض ، وقوله تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ وعيد ولم يكن ثم مانع ، ولكنه كما تقول : دعني مع فلان ، أي سأعاقبه ، ﴿ ومن ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في : ﴿ ذرني ﴾ أو نصباً على المفعول معه ، و﴿ الحديث ﴾ المشار إليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب ، والاستدراج هو : الحمل من رتبة إلى رتبة ، حتى يصير المحمول إلى شر وإنما يستعمل الاستدراج في الشر ، وهو مأخوذ من الدرج ، قال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعم ، ويمنعون الشكر ، وقال غيره : كلما زادوا ذنباً زادوا نعمة ، وفي معنى الاستدراج قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" إن الله تعالى يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ومغرور بالستر عليه . ﴿ وأملي لهم ﴾ معناه : أؤخرهم ملاوة من الزمن ، وهي البرهة والقطعة ، يقال : مُلاوة : بضم الميم وبفتحها وبكسرها ، والكيد : عبارة عن العقوبة التي تحل بالكفار من حيث هي : على كيد منهم ، فسمى العقوبة باسم الذنب ، والمتين : القوي الذي له متانة ، ومنه المتن الظهر .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

هذه ﴿ أم ﴾ التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول لا على جهة الرفض له ، لكن على جهة الترك والإقبال على سواه ، وهذا التوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد به توبيخ الكفار لأنه لو سألهم أجراً فأثقلهم غرم ذلك لكان لهم بعض العذر في إعراضهم وقرارهم ، وقوله تعالى : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ معناه : هل لهم علم بما يكون فيدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جار ، ثم أمر تعالى نبيه بالصبر لحكمه ، وأن يمضي لما أمر به من التبليغ واحتمال الأذى والمشقة ، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس صلى الله عليه وسلم ، ثم اقتضبت القصة ، وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الحوت ﴿ وهو مكظوم ﴾ ، أي غيظه في صدره . وحقيقة الكظم : هو الغيظ والحزن والندم فحمل المكظوم عليه تجوزاً ، وهو في الحقيقة كاظم ، ونحو هذا قول ذي الرمة : [البسيط]

وأنت من حب مني مضمر حزناً . . . عاني الفؤاد قريح القلب مكظوم

وقال النقاش : المكظوم ، الذي أخذ بكظمه وهو مجاري القلب ، ومنه سميت الكاظمة وهي القناة في جوف الأرض . وقرأ جمهور الناس : " لولا أن تداركه " أسند الفعل دون علامة تأنيث ، لأن تأنيث النعمة غير حقيقي وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس : " تداركته " على إظهار العلامة ، وقرأ ابن هرمز والحسن : " تدّاركه " بشد الدال على

معنى : تتداركه وهي حكاية حال تام ، فلذلك جاء الفعل مستقبلاً بمعنى : ﴿ لولا أن ﴾ ، يقال فيه تتداركه نعمة من ربه ونحوه ، قوله تعالى : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ فهذا وجه القراءة ، ثم أدغمت التاء في الدال ، والنعمة : هي الصفح والتوب ، والاجتباء : الذي سبق له عنده ، والعراء : الأرض الواسعة التي ليس فيها شيء يوارى من بناء ولا نبات ولا غيره من جبل ونحوه ، ومنه قول الشاعر [أبو الخراش الهذلي] : [الكامل]

رفعت رجلاً لا أخاف عثارها . . . ونبذت بالأرض العراء ثيابي

(20/778)

وقد نبذ يونس عليه السلام ﴿ بالعراء ﴾ ولكن غير مذموم ، و ﴿ واجتباه ﴾ معناه : اختاره واصطفاه . ثم أخبر تعالى نبيه بحال نظر الكفار إليهم ، وأنهم يكادون من الغيظ والعداوة ، يزلقونه فيذهبون قدمه من مكانها ويسقطونه . وقرأ جمهور القراء : "يُزلقونك" بضم الياء من أزلق ، وقرأ نافع وحده : "يَزلقونك" . بفتح الياء من زلقت الرجل ، يقال : زلِق الرجل بكسر اللام وزلَقته بفتحها مثل : حزن وحزنته وشترت العين بكسر التاء وشترتها ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : "ليزهقونك" بالهاء ، وروى النخعي أن في قراءة ابن مسعود : "لينفدونك" ، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول

الشاعر : [الكامل]

يتقارضون إذا التقوا في مجلس . . . نظراً يزيل مواطئ الأقدام

وذهب قوم من المفسرين إلى أن المعنى : يأخذونك بالعين ، وذكر أن الدفع بالعين كان في بني أسد ، قال ابن الكلبي : كان رجل يتجوع ثلاثة أيام لا يتكلم على شيء إلا أصابه بالعين ، فسأله الكفار أن يصيب النبي عليه السلام ، فأجابهم إلى ذلك ، ولكن عصم الله تعالى نبيه ، قال الزجاج : كانت العرب إذا أراد أحدهم أن يعتان شيئاً ، تجوع ثلاثة أيام ، وقال الحسن : دواء من أصابه العين أن يقرأ هذه الآية ، و﴿ الذكر ﴾ في الآية القرآن ، ثم قرر تعالى أن هذا القرآن العزيز ﴿ ذكر للعالمين ﴾ من الجن والإنس ، ووعظ لهم وحجة عليهم ، فالحمد لله الذي أنعم علينا به وجعلنا أهله وحماته لا رب غيره .

نجز تفسير سورة " ن والقلم " بحمد الله تعالى وعونه وصلى الله على محمد وآله وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(21/778)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فاصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾

أي لقضاء ربّك .

والحكم هنا القضاء .

وقيل : فاصبر على ما حكم به عليك ربُّك من تبليغ الرسالة .

وقال ابن بحر : فاصبر لنصر ربك .

قال قتادة : أي لا تعجل ولا تغاضب فلا بدّ من نصرك .

وقيل : إنه منسوخ بآية السيف .

﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ يعني يونس عليه السلام .

أي لا تكن مثله في الغضب والضَّجَر والعَجَلة .

وقال قتادة : إنّ الله تعالى يُعَزِّي نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ويأمره بالصبر ولا يعجَل كما عَجِل صاحب الحُوت ؛ وقد مضى خبره في سورة "يونس ، والأنبياء ، والصافات" والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة "يونس" فلا معنى للإعادة .

﴿ إِذْ نادى ﴾ أي حين دعا في بطن الحوت فقال : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] .

﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غمًّا .

وقيل : كرباً .

الأوّل قول ابن عباس ومجاهد .

والثاني قول عطاء وأبي مالك .

قال الماورديّ : والفرق بينهما أن الغمّ في القلب ، والكرب في الأنفاس .

وقيل : مكظوم محبوس .

والكظم الحبس ؛ ومنه قولهم : فلان كَظَم غيظَه ، أي حبس غضبه ؛ قاله ابن بحر .

وقيل : إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ؛ قاله المبرّد .

وقد مضى هذا وغيره في "يوسف" .

قوله تعالى : ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ قراءة العامة "تَدَارَكَهُ" .

وقرأ ابن هُرْمُز والحسن "تَدَّاركه" بتشديد الدال ؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه في الدال .

وهو على تقدير حكاية الحال ؛ كأنه قال : لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة .

ابن عباس وابن مسعود : "تداركته" وهو خلاف المرسوم .

و"تَدَارَكَهُ" فعلٌ ماضٍ مذكّر حُمل على معنى النعمة ؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي .

و"تداركته" على لفظها .

واختِلف في معنى النعمة هنا ؛ فقيل النُّبوّة ؛ قاله الضحاك .

وقيل عبادته التي سلفت ؛ قاله ابن جُبير .

وقيل : نداؤه ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت ؛ قاله ابن بحر .

وقيل : أي رحمة من ربه ؛ فَرحِمَه وتاب عليه .

﴿ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي لَنُبِذ مذموماً ولكنه نُبذ سقيماً غير مذموم .

ومعنى "مَذْمُومٌ" في قول ابن عباس : مُلِيم .

قال بكر بن عبد الله : مذنب .

وقيل : "مذموم" مُبْعَدٌ من كلّ خير .

والعَرَاء : الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر .

وقيل : ولولا فضل الله عليه لبقِيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نُبذ بعراء القيامة مذموماً .

يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143-144] .

﴿ فاجتباه رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه واختاره .

﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ قال ابن عباس : ردّ الله إليه الوَحْي ، وشفّعه في نفسه وفي قومه

، وقبِل توبته ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ ﴾ "إنْ" هي المخففة من الثقيلة .

﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ أي يعتانونك .

﴿ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ أخبر بشدّة عداوتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حُجَجِه .

وقيل : كانت العين في بني أسد ، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول : يا جارية ، خذي المِكَلّ والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة ، فما تبرح حتى تقع للموت فتُنْحر .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الخِباء فتمرّ به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة .

(23/778)

فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم ؛ فلما مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيّداً . . .

وإخال أنك سيّدٌ مَعْيُونُ

فعصَم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم ونزلت : ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ .

وذكر نحوه الماوردي .

وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً يعني في نفسه وماله تجوّع ثلاثة أيام ، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول : تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن ؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال القُشَيْرِي : وفي هذا نظر ؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

قلت : أقوال المفسرين واللغَوِيّين تدلّ على ما ذكرنا ، وأن مرادهم بالنظر إليه قَتْلُه .

ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك .

وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد "ليزهقونك" أي ليهلكونك .

وهذه قراءة على التفسير ؛ من زهقت نفسه وأزهقها .

وقرأ أهل المدينة "لَيَزْلِقُونَكَ" بفتح الياء .

وضمها الباقون ؛ وهما لغتان بمعنىً ؛ يقال : زلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقاً إذا نَحّاه وأبعده .

وزَلَق رأسه يَزْلقه زلقاً إذا حلقه .

وكذلك أزْلَقه وزلَّقه تزليقاً .

ورجل زِلَق وزُمَلِق مثال هُدَبِد وزَمَالق وزُمِّلق بتشديد الميم وهو الذي يُنزِل قبل أن يجامع ؛ حكاه الجوهري وغيره .

فمعنى الكلمة إذاً التنحية والإزالة ؛ وذلك لا يكون في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا بهلاكه وموته .

قال الهَرَوِيّ : أراد لَيعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوةً لك .

وقال ابن عباس : ينفذونك بأبصارِهم ؛ يقال : زلَق السهمُ وزَهَق إذا نفذ ؛ وهو قول مجاهد .

(24/778)

أي يَنْفذونك من شدّة نظرهم .

وقال الكلبي : يَصْرَعونك .

وعنه أيضاً والسُّدّي وسعيد ابن جُبَير : يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة .

وقال العَوْفِيّ : يَرْمُونك .

وقال المُؤَرّج : يُزيلونك .

وقال النَّضْر بن شُميل والأخفش : يفتنونك .

وقال عبد العزيز بن يحيى : ينظرون إليك نظراً شزْراً بتحديق شديد .

وقال ابن زيد : لَيَمَسُّونك .

وقال جعفر الصادق : ليأكلونك .

وقال الحسن وابن كَيْسان : ليقتلونك .

وهذا كما يقال : صرعني بطرفه ، وقتلني بعينه .

قال الشاعر :

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطرفها . . .

وتَكِلُّ عنك نصالُ نَبْلِ الرامي

وقال آخر :

يتقارضون إذا التقوا في مجلس . . .

نَظَراً يُزل مواطىء الأقدام

وقيل : المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك .

وهذا كله راجع إلى ما ذكرنا ، وأن المعنى الجامع : يصيبونك بالعين .

والله أعلم .

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

أي وما القرآن إلا ذكر للعالمين .

وقيل : أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكّرون به .

وقيل : معناه شَرَفٌ ؛ أي القرآن .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] والنبيّ صلى الله عليه وسلم شرف للعالمين أيضاً .

شَرُفوا باتباعه والإيمان به صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(25/778)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أي من الكفرِ والمَعَاصِي ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرةِ أو في جوارِ القُدسِ ﴿ جنات

النعيم ﴿ جناتٍ ليسَ فيها إلا التنعمُ الخالصُ عن شائبةِ ما يُنغّصهُ من الكدوراتِ وخوفِ الزوالِ كما عليهِ نعيمُ الدُّنيا . وقولُه تعالَى :

(26/778)

﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ تقريرٌ لما قبلَهُ من فوزِ المُتقينَ بجنَّاتِ النعيمِ ، وردٌّ لما يقولَهُ الكفرةُ عند سماعِهم بحديثِ الآخرةِ وما وعدَ اللهُ المسلمينَ فيهَا فإنهم كانُوا يقولونَ إنْ صحَّ أنا نُبعثُ كما يزعمُ محمدٌ ومَنْ معَهُ لم يكُنْ حالُنَا وحالُهم إلا مثلَ ما هيَ في الدّنيا وإلا لم يزيدُوا علينَا ولم يفضلونَا وأقصى أمرِهم أنْ يساوونَا . والهمزَةُ للإنكارِ والفاءُ للعطفِ على مقدرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أنحيفُ في الحكمِ فنجعلَ المسلمينَ كالكافرينَ ثم قيلَ لهُم بطريقِ الالتفاتِ لتأكيدِ الردّ وتشديدِه ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تعجيباً من حُكمِهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنَّه لا يصدرُ عن عاقلٍ ﴿ أَمْ لَكُمْ كتاب ﴾ نازلٌ من السماءِ ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرأونَ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ما تتخيرونَهُ وتشتهونَهُ ، وأصلُهُ أنَّ لكُم بالفتحِ لأنَّهُ مدروسٌ فلمَّا جيءَ باللامِ كُسرتْ ويجوزُ أنْ يكونَ حكايةً للمدروسِ كما هُو كقولِهِ تعالَى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين * سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ وتخيرُ الشيءِ واختيارُهُ أخذُ خيرِهِ ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ أي عهودٌ مؤكدةٌ بالأيمانِ ﴿ بالغة ﴾

متناهيةٌ في التوكيدِ . وقُرِئتْ بالنصبِ على الحالِ والعاملُ فيها أحدُ الظرفينِ ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ متعلقٌ بالمقدرِ في لكم أي ثابتةٌ لكُم إلى يومِ القيامةِ لا نخرجُ عن عُهدتِهَا حتى نحكمكم يومئذٍ ونعطيكُم ما تحكمونَ أو ببالغةٍ أي أيمانٌ تبلغُ ذلكَ اليومَ وتنتهي إليهِ وافرةً لم تبطُلْ منها يمينٌ . ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جوابُ القسمِ ، لأنَّ معنَى أمْ لكُم علينَا أيمانٌ أمْ أقسمنَا لكُم .

(27/778)

﴿ سَلْهُمْ ﴾ تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بإسقاطِهم عن رُتبةِ الخطابِ أي سلهُم مُبكتاً لهُمْ . ﴿ أَيُّهُم بذلك ﴾ الحكمِ الخارجِ عن العقولِ ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي قائمٌ يتصدَّى لتصحيحِه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ يشاركونهم في هَذا القولِ ويذهبونَ مذهبَهُم . ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في دعواهُم إذْ لا أقلَّ من التقليدِ ، وقد نبَّه في هذِه الآياتِ الكريمةِ على أنْ ليسَ لهُم شيءٌ يُتوهمُ أنْ يتشبثُوا بهِ حتَّى التقليدُ الذي لا يُفلِحُ من تشبثَ بذيلِه ، وقيلَ المَعْنَى أمْ لهُم شركاءُ يجعلونَهُم مثلَ المسلمينَ في الآخرةِ . ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ أي يومَ يشتدُّ الأمرُ ويصعبُ الخطبُ ، وكشفُ الساقِ مَثَلٌ في ذلكَ

وأصلُهُ تشميرُ المُخدَّراتِ عن سُوقهنَّ في الهربِ ، قالَ حاتمٌ

أخُو الحربِ إنْ عضَّتْ بِهِ الحربُ عَضَّها . . . وإنْ شمَّرتْ عنْ ساقِهَا الحربُ شَمَّرا

(28/778)

وقيلَ ساقُ الشيءِ أصلُهُ الذي بِهِ قوامُه كساقِ الشجرِ وساقِ الإنسانِ ، أيْ يومَ يُكشفُ عن أصلِ الأمرِ فتظهرُ حقائقُ الأمورِ وأصولُهَا بحيثُ تصيرُ عياناً ، وتنكيرُهُ للتهويلِ أو التعظيمِ . وقُرِئَ تَكْشِفُ بالتاءِ على البناءِ للفاعلِ والمفعولِ ، والفعلُ للساعةِ أو الحالِ ، وقُرِئَ نَكْشِفُ بالنونِ وتُكْشِفُ بالتاءِ المضمومةِ وكسرِ الشّينِ من أكشفَ الأمرُ أي دخلَ في الكشفِ . وناصبُ الظرفِ فليأتُوا ، أو مضمرٍ مقدمٍ أي اذْكُر يومَ الخ . أو مؤخرٍ أي يومَ يكشفُ عن ساقٍ الخ . يكونُ من الأهوالِ وعظائمِ الأحوالِ ما لا يبلغُه الوصفُ ﴿ ويُدْعَوْنَ إلى السجود ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركِهم إيَّاهُ في الدُّنيا وتحسيراً لهُم على تفريطِهم في ذلكَ ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوالِ القدرةِ عليهِ ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّهُم يقصدونَ السجودَ فلا يتأتَّى منهُم ذلكَ . عنِ ابنِ مسعُودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ تعقمُ أصلابُهُم أي تُردُّ عظاماً بلا تفاصلٍ لا تنثني عندَ الرَّفعِ والخفضِ . وفي الحديثِ وتبقَى أصلابُهُم طَبقاً واحِداً أي فَقارةٌ واحدةٌ ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حالٌ من مرفوعِ يُدعونَ ، على أنَّ أبصارَهُم مرتفعٌ بِهِ على

الفاعليةِ ، ونسبةُ الخشوعِ إلى الأبصارِ لظهورِ أثرِه فيهَا ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تلحقُهُم وتغشاهُم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ شديدةٌ ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ في الدُّنيا . والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ لزيادةِ التقريرِ ، أو لأنَّ المرادَ بهِ الصلاةُ أو ما فيها من السجودِ والدعوةُ دعوةُ التكليفِ . ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ متمكنُونَ منْهُ أقوَى تمكنٍ ، أي فلا يُجيبونَ إليهِ ويأبَونَهُ وإنَّما تُركَ ذكرُه ثقةً بظهورِه .

(29/778)

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذّبُ بهذا الحديث ﴾ أي كِلْهُ إليَّ فإنِّي أكفيكَ أمرَهُ ، أيْ حسبُكَ في الإيقاعِ بهِ والانتقام منهُ أنْ تَكِلَ امرَهُ إليَّ وتُخلِّي بيني وبينَهُ ، فإنِّي عالمٌ بمَا يستحقُّه من العذابِ ، ومطيقٌ لهُ . والفاءُ لترتيبِ الأمرِ على ما قبلَهَا من أحوالِهم المحكيةِ أيْ وإذا كان حالُهم في الآخرةِ كذلكَ فذرنِي ومن يكذّبُ بهذا القرآنِ ، وتوكلْ عليَّ في الانتقامِ منْهُ . وقولُه تعالَى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ كيفيةِ التعذيبِ المُستفادِ من الأمرِ السابقِ إجمالاً ، والضميرُ لمَنْ والجمعُ باعتبارِ معناهَا كما أنَّ الإفرادَ في يكذّبُ باعتبارِ لفظِهَا أي سنستنزلُهم إلى العذابِ درجةً فدرجةً بالإحسانِ وإدامةِ الصحةِ وازديادِ

النعمةِ . ﴿ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدراجٌ وهو الإنعامُ عليهِم بلْ يزعمونَ أنه إيثارٌ لهُم وتفضيلٌ على المؤمنينَ مع أنَّهُ سببٌ لهلاكِهم .

(30/778)

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وأُمْهِلُهُم ليزدادُوا إثماً وهم يزعمونَ أنَّ ذلكَ لإرادةِ الخيرِ بهِم . ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ لا يُوقفُ عليهِ ولا يُدفعُ بشيءٍ ، وتسميةُ ذلكَ كيداً لكونِهِ في صورةِ الكيدِ ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ ﴾ على الإبلاغِ والإرشادِ ﴿ أَجْراً ﴾ دنيوياً ﴿ فَهُمْ ﴾ لأجلِ ذلكَ ﴿ مّن مَّغْرَمٍ ﴾ أي غرامةٍ ماليةٍ ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ مكلفونَ حملاً ثقيلاً فيُعرضونَ عنْكَ ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي اللوحُ أو المغيباتُ ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منْهُ ما يحكمُون ويستغنُونَ بهِ عن علمِكَ ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبّكَ ﴾ وهو إمهالُهُم وتأخيرُ نصرتِكَ عليهِم ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ أي يونسُ عليهِ السَّلامُ ﴿ إِذْ نادى ﴾ في بطنِ الحوتِ ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوءٌ غيظاً ، والجملةُ حالٌ من ضميرِ نادَى وعليها يدورُ النَّهي على النداءِ فإنه أمرٌ مستحسنٌ ولذلكَ لمْ يُذكرِ المُنادَى وإذْ منصوبٌ بمضافٍ محذوفٍ أي لا يكُن حالُك كحالِه وقتَ ندائِهِ أي لا يُوجدُ منكَ ما وُجدَ منْهُ من الضجرِ والمُغاضبةِ فتبتلى ببلائِهِ .

(31/778)

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقُرِىءَ رحمةٌ وهُو توفيقُهُ للتوبةِ وقبولُهَا منْهُ ، وحسُنَ تذكيرُ الفعلِ للفصلِ بالضميرِ ، وقُرِىءَ تداركتْهُ وتَداركُهُ أي تتداركهُ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ بمَعْنَى لولا أنْ كانَ يقالُ فيهِ تتداركه . ﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ بالأرضِ الخاليةِ من الأشجارِ ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ مُليمٌ مطرودٌ من الرحمةِ والكرامةِ ، وهو حالٌ من مرفوعِ نُبذَ عليهَا يعتمدُ جوابُ لولا لأنَّها هي المنفيةُ لا النبذُ بالعراءِ كما مرَّ في الحالِ الأُولى ، والجملةُ الشرطيةُ استئنافٌ ، وإنْ لبيانِ كونِ المنهيِّ عنْهُ أمراً محذوراً مستتبعاً للغائلةِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ فاجتباه ربُّهُ ﴾ عطفٌ على مقدرٍ أي فتداركتْهُ نعمةٌ من ربّه فاجتباهُ بأنْ ردَّ إليهِ الوحيَ ، وأرسلَهُ إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدونَ ، وقيل استنبأَهُ إنْ صحَّ أنَّه لم يكُنْ نبياً قبلَ هذهِ الواقعةِ ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ من الكاملينَ في الصلاحِ بأنْ عصمَهُ منْ أنْ يفعلَ فعلاً يكونُ تركُهُ أَوْلَى . رُوِيَ أنَّها نزلتْ بأُحُدٍ حينَ همَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ على المنهزمينَ من المؤمنينَ ، وقيلَ حينَ أرادَ أنْ يدعوَ على ثقيفٍ .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾

(32/778)

وقُرِئَ لَيَزلقونَكَ بفتحِ الياءِ من زلَقه بمعنى أَزْلَقه ويُزهقونَكَ . وإنْ هيَ المخففةُ واللامُ دليلُهَا والمَعْنَى أَنَّهم من شدَّةِ عداوتِهم لكَ ينظرونَ إليكَ شَزْراً بحيثُ يكادونَ يُزلّونَ قدمكَ فيرمونكَ ، من قولِهم نظراً يكادُ يصرعُنِي ، أي لو أمكنَهُ بنظرِه الصرعُ لفعلَهُ أو أَنَّهُم يكادونَ يُصيبونَكَ بالعينِ إذ قَد رُوِي أَنَّهُ كانَ في بني أسدٍ عيَّانونَ فأرادَ بعضُهُم أن يعينَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فنزلتْ . وفي الحديثِ " إنَّ العينَ لتُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ " ولعله من خصائصِ بعضِ النفوسِ ، وعن الحسنِ . دواءُ الإصابةِ بالعينِ أنْ تقرأَ هَذِه الآية : ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ أي وقتَ سماعِهم بالقرآنِ على أنَّ لَمَّا ظرفيةٌ منصوبةٌ بيُزلقونَكَ وذلكَ لاشتدادِ بُغضِهم وحسدِهم عندَ سماعِهِ . ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لغايةِ حيرتِهم في أمرِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ونهايةِ جهلِهم بمَا في تضاعيفِ القرآنِ من تعاجيبِ الحِكَمِ وبدائعِ العلومِ المحجوبةِ عن العقولِ المُنغمسةِ بأحكامِ الطبائعِ ولتنفيرِ النَّاسِ عنْهُ ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ وحيثُ كانَ مدارُ حُكمِهم الباطلِ ما سمعُوه منهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ردَّ ذلكَ ببيانِ عُلوِّ شأنِهِ وسطوعِ بُرهانِهِ فقيلَ : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ على أَنَّه حالٌ من فاعلِ يقولونَ مفيدةٌ لغايةِ بُطلانِ قولِهم وتعجيبِ السامعينَ من جرأتِهم على تفوهِ تلكَ العظيمةِ أي يقولونَ ذلكَ والحالُ أَنَّه ذكرٌ للعالمينَ ، أي تذكيرٌ وبيانٌ لجميعِ ما يحتاجونَ إليهِ من أمورِ دينِهم فأينَ مَنْ أنزلَ عليهِ ذلكَ وهو مُطلعٌ على أسرارِه طُرّاً ومحيطٌ بجميعِ حقائِقِه خُبراً ممَّا قالُوا ، وقيلَ معناهُ شرفٌ وفضلٌ ، لقولِه تعالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وقيلَ الضميرُ لرسولِ الله

صلى الله عليه وسلم

وكونُه مذكِراً وشرفاً للعالمينَ لا ريبَ فيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 9 صـ ﴾

(33/778)

وقال الآلوسى :

﴿ فاصبرِ لحُكْمِ ربّكَ ﴾

وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم روي أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض عليه الصلاة والسلام نفسه على القبائل بمكة فنزلت وقيل أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو على الذين انهزموا بأحد حين اشتد بالمسلمين الأمر فنزلت وعليه تكون الآية مدنية ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ هو يونس عليه السلام كما أنه المراد من ذي النون إلا أنه فرق بين ذي وصاحب بأن أبلغ من صاحب قال ابن حجر لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلافه ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس عليه السلام ﴿ وذا النون ﴾ [الأنبياء : 87] والنهي عن اتباعه ولا تكن كصاحب الحوت إذ النون لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لفظ الحوت ونقل مثل

ذلك السرميني عن العلامة السهيلي وفرق بعضهم بغير ذلك مما هو مذكور في حواشينا على رسالة ابن عصام في علم البيان ﴿ إِذْ نادى ﴾ في بطن الحوت ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غيظاً على قومه إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان وهو من كظم السقاء إذا ملأه ومن استعماله بهذا المعنى قول ذي الرمة

: وأنت من حب مي مضمر حزنا . . .

عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهي لا على النداء فإنه أمر مستحسن ولذا لم يذكر المنادى وإذ منصوب بمضاف محذوف أي لا يكن حالك كحاله وقت ندائه أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى بنحو بلائه عليه السلام .

(34/778)

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وقرىء رحمة وتذكير الفعل على القراءتين لأن الفاعل مؤنث مجازي مع الفصل بالضمير وقرأ عبد الله وابن عباس تداركته بتاء التأنيث وقرأ ابن هرمز والحسن والأعمش تداركه بتشديد الدال وأصله تتداركه فأبدل التاء دالاً وأدغمت الدال في الدال والمراد حكاية الحال الماضية على معنى

لولا إن كان يقال فيه تداركه ﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ بالأرض الخالية من الأشجار أي في الدنيا وقيل بعراء القيامة لقوله تعالى ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : 143 ، 144] ولا يخفى بعده ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ في موضع الحال من مرفوع نبذ وعليها يعتمد جواب لولا لأن المقصود امتناع نبذه مذموماً وإلا فقد حصل النبذ فدل على أن حاله كانت على خلاف الذم والغرض أن حالة النبذ والانتهاء كانت مخالفة لحالة إلا لامة والابتداء لقوله سبحانه ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ [الصافات : 142] وفي "الإرشاد" أن الجملة الشرطية استئناف وارد لبيان كون المنهي عنه أمراً محذوراً مستتبعاً للغائلة وقوله سبحانه :

﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾

(35/778)

عطف على مقدر أي فتداركته نعمة من ربه فاجتباه أي اصطفاه بأن رد عز وجل إليه الوحي وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون وقيل استنبأه إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة وإنما كان رسولاً لبعض المرسلين في أرض الشام ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه سبحانه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى وظاهر كلام

بعضهم أن الجعل من الصالحين تفسير للاجتباء قيل وفسر الصالحين بالأنبياء وهو مبني على أنه لم يكن قبل الواقعة نبياً واستدل بالآية على خلق الأفعال لأن جعله صالحاً بجعل صلاحه وخلقه فيه وهو من جملة الأفعال ولا قائل بالفرق والمعتزلة يؤولون ذلك تارة بالإخبار بصلاحه وأخرى باللطف به حتى صلح على أنه يحتمل أن يراد بالصالحين الأنبياء كما قيل فلا تفيد الآية أكثر من كون النبوة مجعولة وهو مما اتفق عليه الفريقان فتدبر .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾

إن هي المخففة واللام دليلها لأنها لا تدخل بعد النافية ولذا تسمى الفارقة على عرف عند النحاة والمعنى أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظر إلي نظراً يكاد يصرعني أو يكاد يأكلني أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله وجعل مبالغة في عداوتهم حتى كأنها سرت من القلب والجوارح إلى النظر فعاد يعمل عمل الجوارح وأنشدوا قول الشاعر

: يتقارضون إذا التقوا في موطن . . .

نظراً يزل مواطىء الأقدام

أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فتسقط

طائفة منها وتهلك فاقترح الكفار منه أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم وأنشد

: قد كان قومك يحسبونك سيدا . . .

وأخال أنك سيد معيون

(36/778)

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه هذه الآية وقد قيل إن قراءتها تدفع ضرر العين وروي ذلك عن الحسن وفي كتاب الأحكام أنها أصل في أن العين حق والأولى الاستدلال على ذلك بما ورد وصح من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر وبما أخرجه أحمد بسند رجاله كما قال الهيثمي ثقات عن أبي ذر مرفوعاً أن العين لتولع بالرجل بإذن الله تعالى حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة وذلك من خصائص بعض النفوس ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء وإضافته إلى العين باعتبار أن النفس تؤثر بواسطتها غالباً وقد يكون التأثير بلا واسطتها بأن يوصف للعائن شيء فتتوجه إليه نفسه فتفسده ومن قال إن الله تعالى أجرى العادة بخلق ما شاء عند مقابلة عين العائن من غير تأثير أصلاً فقد سد على نفسه باب العلل

والتأثيرات والأسباب والمسببات وخالف جميع العقلاء قاله ابن القيم وقال بعض أصحاب الطبائع أنه ينبعث من العين قوة سمية تؤثر فيما نظره كما فصل في "شرح مسلم" وهذا لا يتم عندي فيما لم يره ولا في نحو ما تضمنه حديث أبي ذر المتقدم آنفاً ولا في إصابة الإنسان عين نفسه كما حكاه المناوي فإنه لا يقتل الصل سمه ومن ذلك ما حكاه الغساني قال نظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فأعجبته نفسه فقال كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقاً وعثمان حييا ومعاوية حليماً ويزيد صبوراً وعبد الملك سائساً والوليد جباراً وأنا الملك الشاب وأنا الملك الشاب فما دار عليه الشهر حتى مات ومثل ذلك ما قيل أنه من باب التأثير في القوة المعروفة اليوم بالقوة الكهربائية عند الطباعيين المحدثين فقد صح أن بعض الناس يكرر النظر إلى بعض الأشخاص من فوقه إلى قدمه فيصرعه كالمغشي عليه وربما يقف وراءه جاعلاً أصابعه حذاء نقرة رأسه ويوجه نفسه إليه حتى تضعف قواه فيغشاه نحو النوم ويتكلم إذ ذاك بما لا يتكلم به

(37/778)

في وقت آخر وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس ولا أكيف ذلك فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله عز وجل وكم طوى فيه أسرار وعجائب تتحير فيها

العقول ولا ينكرها إلا مجنون أو جهول ولا يسعني أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعصار ولا أخص ذلك بالنفوس الخبيثة كما قيل فقد يكون من النفوس الزكية والمشهور أن الإصابة لا تكون مع كراهة الشيء وبغضه وإنما تكون مع استحسانه وإلى ذلك ذهب القشيري وكأنه يشير بذلك إلى الطعن في صحة الرواية ههنا لأن الكفار كانوا يبغضونه عليه الصلاة والسلام فلا تتأتى لهم إصابته بالعين وفيه نظر وحكم العائن على ما قال القاضي عياض أن يجتنب وينبغي للإمام حبسه ومنعه عن مخالطة الناس كفاً لضرره ما أمكن ويرزقه حينئذٍ من بيت المال هذا وقرأ نافع ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى أزلقه وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وعيسى ليزهقونك بالهاء بدل اللام أي ليهلكونك ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ أي وقت سماعهم القرآن وذلك لاشتداد بغضهم وحسدهم عند سماعه ولما كما أشرنا إليه ظرفية متعلقة بيزلقونك ومن قال إنها حرف وجوب لوجوب ذهب إلى أن جوابها محذوف لدلالة ما قبل عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لغاية حيرتهم في أمره عليه الصلاة والسلام ونهاية جهلهم بما في تضاعيف القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس عنه ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقيل :

﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

على أنه حال من فاعل ﴿ يقولون ﴾ [القلم : 51] والرابط الواو فقط أو مع عموم العالمين كما قيل مفيد لغاية بطلان قولهم وتعجيب للسامعين من جراءتهم على التفوه بتلك العظيمة أي يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم فأين من أنزل عليه ذلك وهو مطلع على أسراره طراً ومحيط بجميع حقائقه خبراً مما قالوه وقيل معناه شرف وفضل لقوله تعالى ﴿ وأنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] وعموم العالمين لما فيه من الاعتناء بما ينفعهم وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكراً وشرفاً للعالمين لا ريب فيه ورجح بأن الجملة عليه تكون صريحة في رد دعواهم الباطلة وأنت تعلم أن الأول أولى والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ، ذكر حال المتقين وما أعدّه لهم من الخير ، فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جنات النعيم ﴾ أي : المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي عنده عزّ وجلّ في الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذي لا يشوبه كدر ، ولا ينغصه خوف زوال ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا : إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلاّ مثل ما هي في الدنيا ، فقال الله مكذباً لهم رادّاً عليهم : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين ﴾ الآية ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره .

ثم وبخهم الله ، فقال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿ أَمْ لَكُمْ كتاب فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي : تقرءون فيه ، فتجدون المطيع كالعاصي ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ سلطان مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بكتابكم ﴾ [الصافات : 56 57] ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون أي : تدرسون في الكتاب ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت إنك لعاقل بالكسر ، أو

على الحكاية للمدروس ، كما في قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الأخرين * سلام على نُوحٍ فِى العالمين ﴾ [الصافات : 78 ، 79] .

(40/778)

وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي : ليس لكم ذلك ، وقرأ طلحة بن مصرف ، والضحاك " أن لكم " بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد ، ومعنى ﴿ تَخَيَّرُونَ ﴾ : تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال : ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا بالغة ﴾ أي : عهود مؤكدة موثقة متناهية ، والمعنى أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة ، وقوله : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أي : ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذٍ ، وجواب القسم قوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ لأن معنى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان ﴾ أي : أم أقسمنا لكم .

قال الرازي : والمعنى أم ضمنا لكم ، وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد .

وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ ثم ابتدأ ، فقال : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا

تَحْكُمُونَ ﴾ أي : ليس الأمر كذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ بالغة ﴾ بالرفع على النعت لأيمان ، وقرأ الحسن ، وزيد بن عليّ بنصبها على الحال من أيمان ؛ لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير في لكم ؛ أو من الضمير في علينا ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ ﴾ أي : سل يا محمد الكفار موبخاً لهم ومقرّعاً ، أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها .

وقال ابن كيسان : الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى .

وقال الحسن : الزعيم الرسول .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ فيما يقولون ، وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف ، وقيل : المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة .

(41/778)

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يوم ظرف لقوله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ أي : فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقدّر أي : اذكر يوم يكشف .

قال الواحدي : قال المفسرون في قوله : ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ عن شدّة من الأمر .

قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدّة ، وأنشد لدريد بن الصمة :

كميش الإزار خارج نصف ساقه . . . صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق .

قال أبو عبيدة : إذا اشتدّ الحرب ، والأمر قيل : كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدّة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها . . . وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول آخر :

والخيل تعدو عند وقت الإشراق . . . وقامت الحرب بنا على ساق

وقول آخر أيضاً :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا . . . وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وقول آخر أيضاً في سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا . . . ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل : ساق الشيء : أصله وقوامه كساق الشجرة ، وساق الإنسان أي : يوم يكشف عن

ساق الأمر فتظهر حقائقه ، وقيل : يكشف عن ساق جهنم ، وقيل : عن ساق العرش ، وقيل : عبارة عن القرب ، وقيل : يكشف الربّ سبحانه عن نوره ، وسيأتي في آخر البحث ما هو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

(42/778)

قرأ الجمهور : ﴿ يكشف ﴾ بالتحية مبنياً للمفعول ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة " تكشف " بالفوقية مبنياً للفاعل أي : الشدّة أو الساعة ، وقرىء بالفوقية مبنياً للمفعول ، وقرىء بالنون ، وقرىء بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أي : دخل في الكشف ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ؛ لأن أصلابهم تيبست فلا تلين للسجود .

قال الربيع بن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا ، فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا ، وانتصاب ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار ، وهو الخضوع والذلة لظهور أثره فيها ﴿

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي : تغشاهم ذلة شديدة وحسرة وندامة ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ أي معافون عن العلل متمكنون من الفعل .

قال إبراهيم التيمي : يدعون بالأذان والإقامة فيأبون .

وقال سعيد بن جبير : يسمعون حيّ على الفلاح ، فلا يجيبون .

قال كعب الأحبار : والله ما نزلت هده الآية إلاّ في الذين يتخلفون عن الجماعات .

وقيل : يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ، وجملة : ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير يدعون .

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذّبُ بهذا الحديث ﴾ أي : خل بيني وبينه ، وكل أمره إليّ فأنا أكفيكه .

قال الزجاج : معناه لا يشتغل به قلبك ، كله إليّ فأنا أكفيك أمره .

والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها ، و"من" منصوب بالعطف على ضمير المتكلم ، أو على أنه مفعول معه ، والمراد بهذا الحديث القرآن ، قاله السديّ .

(43/778)

وقيل : يوم القيامة ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجملة ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله

: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بهذا الحديث ﴾ ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها ، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ، ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ؛ لأنهم يظنونه إنعاماً ، ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته .

قال سفيان الثوري : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر .

وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال : استدرج فلان فلاناً أي : استخرج ما عنده قليلاً قليلاً ، ويقال : درّجه إلى كذا واستدرجه يعني : أدناه إلى التدريج ، فتدرج هو .

(44/778)

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين ، فقال : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي : أمهلهم ليزدادوا إثماً ، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور ، وأصل الملاوة المدّة من الدهر ، يقال : أملى الله له أي : أطال له المدّة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به ، لامتدادها ﴿ إِنَّ

كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي : قويّ شديد ، فلا يفوتني شيء ، وسمى سبحانه إحسانه كيداً ، كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثره في التسبب للهلاك ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ المغرم : الغرامة أي : فهم من غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون أي : يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال ، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : اللوح المحفوظ ، أو كلّ ما غاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدلّ على قولهم ، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ، ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

(45/778)

﴿ فاصبر لِحُكْمِ رَبّكَ ﴾ أي : لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه ، قيل : والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وقيل : هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة ، قيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾

يعني : يونس عليه السلام ، أي : لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة ، والظرف في قوله : ﴿ إِذْ نادى ﴾ منصوب بمضاف محذوف أي : لا تكن حالك كحاله وقت ندائه ، وجملة ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم : المملوء غيظاً وكرباً .

قال قتادة : إن الله يعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويأمره بالصبر ، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدّم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿ لاَّ إِلهَ إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنِّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] وقيل : إن المكظوم : المأخوذ بكظمه ، وهو مجرى النفس .

قاله المبرّد ، وقيل : هو المحبوس ، والأوّل أولى ، ومنه قول ذي الرّمة :

وأنت من حبّ ميّ مضمر حزنا . . . عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله ، وهي توفيقه للتوبة ، فتاب الله عليه ﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ أي : لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي : يذمّ ويلام بالذنب الذي أذنبه ، ويطرد من الرحمة ، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير نبذ .

قال الضحاك : النعمة هنا النبوّة .

وقال سعيد بن جبير : عبادته التي سلفت .

وقال ابن زيد : هي نداؤه بقوله : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] وقيل : مذموم مبعد .

وقيل : مذنب .

(46/778)

قرأ الجمهور : ﴿ تداركه ﴾ على صيغة الماضي ، وقرأ الحسن ، وابن هرمز ، والأعمش بتشديد الدال ، والأصل : تتداركه بتاءين مضارعاً فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبيّ ، وابن مسعود ، وابن عباس " تداركته " بتاء التأنيث .

﴿ فاجتباه ربُّهُ ﴾ أي : استخلصه واصطفاه ، واختاره للنبوّة ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ أي : الكاملين في الصلاح ، وعصمه من الذنب .

وقيل : ردّ إليه النبوّة وشفعه في نفسه وفي قومه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، كما تقدّم .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ "إن" هي المخففة من الثقيلة .

قرأ الجمهور : ﴿ ليزلقونك ﴾ بضم الياء من أزلقه أي : أزلّ رجله ، يقال : أزلقه عن موضعه إذا نحاه ، وقرأ نافع ، وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى .

قال الهروي : أي : فيغتالونك بعيونهم ، فيزلقونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، والأعمش ، ومجاهد ، وأبو وائل " ليرهقونك " أي : يهلكونك .

وقال الكلبي : ﴿ يزلقونك ﴾ أي : يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السديّ ، وسعيد بن جبير .

وقال النضر بن شميل ، والأخفش : يفتنونك .

وقال الحسن ، وابن كيسان : ليقتلونك .

قال الزجاج : في الآية مذهب أهل اللغة ، والتأويل أنهم من شدّة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل في الكلام ، يقول القائل : نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني ، ونظراً يكاد يأكلني .

قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم ، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر :

يتعارضون إذا التقوا في مجلس . . . نظراً يزيل مواطىء الأقدام

﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ أي وقت سماعهم للقرآن ، لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة ، ولما ظرفية منصوبة بيزلقونك ، وقيل : هي حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه أي : لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ مَّجْنُونٌ ﴾ أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ والجملة مستأنفة ، أو في محل نصب على الحال من فاعل يقولون : أي : والحال أنه تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه ، أو شرف لهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

وقيل : الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه مذكر للعالمين ، أو شرف لهم .

وقد أخرج البخاري ، وغيره عن أبي سعيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً " وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين وغيرهما ، وله ألفاظ في بعضها طول ، وهو حديث مشهور معروف .

وأخرج ابن منده عن أبي هريرة في الآية قال : يكشف الله عزّ وجلّ عن ساقه .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن منده عن ابن مسعود في الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى .

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء ،

والصفات ، وضعفه ، وابن عساكر عن أبي موسى عن النبيّ في الآية قال :

" عن نور عظيم ، فيخرّون له سجداً " وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن منده ، والبيهقي عن إبراهيم النخعي عن ابن عباس في الآية قال : يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت الحرب على ساق .

قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كلّ مؤمن ، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً .

(48/778)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب ، أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق . . . قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد .

روي عنه نحو هذا من طرق أخرى ، وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ، كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً ، فليس كمثله شيء .

دعوا كل قول عند قول محمد . . . فما آمن في دينه كمخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سالمون ﴾ قال : هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون ، فاليوم يدعون وهم خائفون .

وأخرج البيهقي في الشعب عنه في الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ قال : ينفذونك بأبصارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 278.273 ﴾

(49/778)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ »

بهذه الآية ، والآيات التي بعدها تختم سورة « القلم » التي كانت معرضا لضلال المشركين ، وسفههم ، وتطاولهم على رسول اللّه ، كما كانت معرضا للدفاع عن القرآن الكريم ، وعن الرسول ، وتتويجه بهذا التاج الرباني الذي زينه به اللّه سبحانه وتعالى ، بثنائه عليه ، فى قوله سبحانه : « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

. ثم تتابعت آيات السورة ، تتوعد المشركين ، وتهددهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، إذا هم لم يستجيبوا للرسول ، ولم يتلقوا ما تمتد به إليهم يده ، من رزق اللّه الذي لا يسألهم عليه أجرا . .

ثم يجىء هذا الختام الذي يتلّقى فيه النبي من ربه سبحانه دعوة إلى الصبر على

ما يلقى من سفاهة السفهاء ، وحماقة المحمقين من قومه . . فهذا هو حكم اللّه ، الذي يدعوه إلى امتثاله : إنه الصبر ، ولا شىء غير الصّبر . .

وقوله تعالى : « وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ » . هو شدّ من عزم النبىّ على الصبر ، وتوكيد لالتزامه ، والتمسك به ، وألا يزايل موقفه الذي هو فيه ، كما فعل صاحب الحوت . وهو يونس عليه السلام . حين أخلى مكانه بين قومه ، وتركهم مغاضبا لهم ، بعد أن دعاهم إلى اللّه ، وتوقفوا عن إجابة دعوته . . ولو أنه صبر على عنادهم ، وعاود نصحهم يوما بعد يوم ، لاستجابوا له ، فقد كان فيهم . مع هذا العناد . بقيّة من خير ، يمكن أن تكون شرارة يتوهج منها نور الإيمان ، لو وجدت من ينفخ فيها برفق ، وأناة ، ويتلطف فى الإمساك بها من غير تعجل . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن موقف يونس

عليه السلام : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » (87 : الأنبياء) . . فيونس عليه السلام - هو الذي ذهب مغاضبا لقومه ، أي محدثا الغضب من قبل أن تجتمع لديه أسبابه القوّية الداعية إليه . .

وقوله تعالى : « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » بيان لحال يونس عليه السلام ، وهو فى بطن الحوت ، ثم بيان لحاله ، وهو ينادى فى جوف الحوت . .

فاللّه سبحانه وتعالى ينهى النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - عن أن يكون فى موقف كموقف يونس - عليه السلام - حين نادى ربه فى حال هو فيها مكظوم ، أي مغيظ ، محنق ، محتنق من الغيظ ، والضيق . .

والكظم : مخرج النفس من الصدر ، وكظم فلان : أي حبس نفسه . .

وكظم الغيظ : حبسه ، ومنه قوله تعالى : « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » .

(51/778)

ومن هنا يتبين أن المكظوم ، « غير الكاظم . . فالكاظم ، هو الذي غلب غيظه وقهره ، وأما المكظوم ، فهو الذي ملكه الغيظ ، وقهره ، وغلبه على أمره . .

وعلى هذا ، فإن الذي يحذّر النبي منه ، هو ألا يغلبه الغيظ ، كما غلب يونس عليه السلام ، بل المطلوب منه ، هو أن يكظم غيظه ، وأن يقهره ، وألا يجعل لهذا الغيظ سلطانا عليه ، يحمله على مفارقة قومه ، وإخلاء مكانه فيهم ، كما فعل يونس . .

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : « وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ . . وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (134 : آل عمران) فقوله تعالى : « وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ » أي لا تكن كيونس إذ نادى ربه ، وقد غلبه الغيظ ، وحمله على أن يترك قومه ، وينزل فى هذا المكان الضيق ، وهو بطن الحوت .

فالذى يحذّر منه النبي ، ليس هو مناداة ربه ، وإنما مناداته فى حال يكون قد غلبه فيها غيظه . . فإن دعاء اللّه ، واللّجأ إليه - وإن كان محمودا على كل حال وفى كل حال - إنما يكون فى أحمد أحواله ، وأعلى مقاماته ، حين يكون صاحبه متجملا بالصبر على ما أصابه ، ممسكا بزمام نفسه ، ثقة باللّه ، واطمئنانا إليه ، في أشد الأهوال ، وأعظم المحن ، فلا يضيق بمحنة ، ولا يكظم بشدة ، لأنه مسلم أمره إلى للّه ، لا جىء إلى حمى سلطانه . .

قوله تعالى : « لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أي أن يونس - عليه السلام - لولا أن أدركته نعمة

ربه ، وإحسانه إليه « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » أي لخرج من بطن الحوت وهو مذموم ملوم من ربّه . . ولكن اللّه سبحانه وتعالى ، استجاب له ، حين دعاه من بطن الحوت . . ثم اختاره ربّه من بعد أن خرج من بطن الحوت ، فخلع عليه لباس النبوة ، الذي عرّى منه أو كاد ، حين فارق قومه . .

فخروج يونس من بطن الحوت ، هو رحمة من رحمة اللّه به ، وإعادته إلى وضعه الأول فى مقام النبوة ، هو نعمة مجددة أنعم اللّه بها عليه ، إذ جعله بها من الصالحين ، الذين سلموا من الذم ، ونجوا من الملامة والعيب . . إنه بعث جديد له .

ففى قوله تعالى : « فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » . إشارة إلى حال جديدة ، أعقبت الحال التي خرج عليها يونس من بطن الحوت ، فهو - عليه السلام - خرج كما يخرج السجين من سجنه ، يحمل معه آثار الذنب الذي كان منه . . ولكن اللّه سبحانه تدارك عبده ، فأزال عنه هذا الأثر ، وخلع عليه خلعة النبوة التي كانت تنتظره ، على باب السجن الذي خرج منه ، وبهذا ردّ إليه اعتباره ، بعد هذا البلاء العظيم . .

والسؤال هنا : ماذا كان من النبي - عليه الصلاة والسلام - من موقف مشابه لموقف يونس - عليه السلام - حتى ينبّه إلى الحذر من أن يأخذ الطريق الذي أخذه صاحب الحوت ؟

نقول - واللّه أعلم - : كان النبي صلوات اللّه وسلامه عليه - قد بلغ به الحال بينه وبين قومه ،

ما ملأ صدره ضيقا بهم ، وحيرة فى أمرهم ، بعد أن لقيهم بكل طريق ، وجاءهم بكل حجة ، فلم يكن منهم إلا السفاعة ، والتطاول ، والإمعان فى المجافاة له ، والأذى لأصحابه الذين آمنوا به ، وإن الموقف ليبلغ غايته من التأزم والضيق ، حين يخرج النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه -

(53/778)

إلى « ثقيف » بالطائف ، ويعرض عليهم دين اللّه ، ويبلّغهم ما أرسل به إلى الناس ، ثم لا يلقى منهم إلا استهزاء وسخرية ، وإلا تطاولا بالألسنة ، ورجما بالأحجار ، فيتركهم وقد أيئسوه من أن يجد لدعوته أذنا تسمع ، أو عقلا يعى وهنا تنزل تلك الآيات على الرسول الكريم ، داعية إياه إلى الصبر ، محذرة إياه من أن يأخذ موقفا كموقف أخ له من أنبياء اللّه قبله ، هو يونس عليه السلام . .

وهذا على أن هذه الآيات مكية ، فى سورتها المكية . .

أما على الرأى الذي يقول إنها آيات مدنية فى السورة المكية ، فإنه يجعل نزول هذه الآيات فى أعقاب غزوة أحد ، بعد أن أصاب المشركون ما أصابوا من صحابة رسول اللّه ، ومنهم عمه حمزة . رضى اللّه عنه ، وبعد أن أصيب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، من

سهام المشركين حتى شجّ رأسه ، وكسرت رباعيته وسال دمه .

وعلى أىّ ، فإن نزول هذه الآيات ، كان فى حال اشتد فيها ضيق النبي ، وكاد يقع اليأس فى قلبه من إيمان هؤلاء المشركين ، الذين ركبوا رءوسهم ، وأسلموا للشيطان قيادهم . .

هذا ، وفى تلك الآيات إشارة إلى أن عاقبة هؤلاء المشركين ، هى الإيمان بالله ، والاستجابة للرسول ، كما آمن قوم يونس ، بعد أن عاد إليهم ، وجدّد دعوتهم إلى الإيمان بالله . . كما يقول سبحانه : « فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ » (98 : يونس) . وفى هذا إشارة من أنباء الغيب إلى مستقبل هذه القرية ، وهى مكة ، وأن أهلها سيؤمنون ، كما آمن قوم يونس .

(54/778)

فهؤلاء المشركون الذين يقفون هذا الموقف العنادىّ الضالّ من رسول الله ، سوف يدخلون فى دين الله ، وسوف يرى فيهم النبىّ القوم المؤمنين الذين تقوم بأيديهم دولة الإسلام . .

وغاية ما هناك أن يصبر النبىّ ، وأن يحتمل هذا الموقف المتأزم بينه وبين قومه ، فإن الضيق إلى فرج ، وإن العسر إلى يسر .

وهكذا كانت الآية من البشريات المسعدة ، التي بشّر بها النبىّ فى قومه ، الذين كان شديد الحرص على هدايتهم ونجاتهم من الهلاك الذي يتدافعون إليه . .

وفى قوله تعالى : « وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » .

هو حال من فاعل الفعل فى قوله تعالى : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » . .

والفاعل هو ضمير يعود إلى النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه ، المتلقّى لخطاب ربّه . . أي فاصبر لحكم ربك ، وإن كان قومك يرمونك بنظراتهم القاتلة .

فاللّه سبحانه وتعالى ، إذ يدعو النبىّ إلى الصبر على المكاره التي يحملها من قومه ، يدعوه إلى هذا فى حال بلغت فيه عداوة قومه غايتها ، حتى إنهم ليكادون يزلقونه أي يسقطونه فزعا من نظراتهم المصوّبة إليه بسهام الحنق والغيظ والانتقام . . فهم حين يستمعون إلى الذكر - وهو القرآن الكريم - تغلى مراجل غيظهم ، فتنطلق من أعينهم نظرات ملتهبة كأنها السهام ، فإذا رأى النبىّ صلى اللّه عليه وسلم هذه النظرات تنوشه من كل جانب ، فزع ، وكرب وكاد يسقط من هول ما يطلع عليه من عداوة القوم ! ! وللعين قدرتها الخارقة على إظهار مكنون الإنسان ، من حبّ أو بغض ، ومن وعد أو وعيد ، فهى المرآة التي تنعكس عليها مشاعر الإنسان ، ويتجلى

على صفحتها ما يعتمل فى كيانه من رضا أو سخط ، ومن سكينة أو فزع ، حتى ليبلغ الأمر أن تكون العين سلاحا قاتلا ، يصيب مقاتل من يرمى بها . . وفى هذا يقول الشاعر ، فى أعداء التقوا بنظراتهم المتوعدة بالشر ، قبل أن يلتقوا بسيوفهم المسلولة للقتال . . يقول :

يتقارضون « 1 » إذا التقوا فى موطن نظرا يزيل مواقع الأقدام

وفى النظرة الحاسدة شىء من هذا ، فإنها ترمى المحسود ، فى غفلة منه ، فتصيب منه مقتلا . . لأنها نظرة منطلقة من قلب يغلى كمدا ، وحسرة ، على ما بيد المحسود من نعمة اللّه .

وليس هذا ما لقدرة العين وسلطانها فى الإنسان وحده ، بل إنها عند كثير من الحيوانات تكون سلاحا عاملا فى الصراع الدائر بينها . .

فالحيّة ، كثيرا ما تجد فى نفسها القدرة على إصابة عدوّها بنظرة منها ، فإذا أرسلت إلى عدوها نظرة والتقت عينه بعينها ، شلت حركته وجمد فى مكانه ، وربّما مات قبل أن تصل إليه . . !

فالصبر الذي يدعى إليه النبىّ من ربه ، هو فى تلك الحال ، التي بلغت فيه عداوة القوم له غايتها ، بما يرمونه به من نظرات ملتهبة ، حين يسمعون آيات اللّه تتلى عليهم . . وليس هذا

النظر المشحون بسموم العداوة وحسب ، بل إنهم يرمونه مع هذا بسهام أخرى من أفواههم ، كقولهم : مجنون ، وساحر . .

---

(1) يتقارضون : أي يتبادلون ، كأنما يقرض أحدهما الآخر شيئا ، فيرد المقترض ما اقترض .

(56/778)

وقوله تعالى : « وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ » . .

هو رد على هذه التهمة الفاجرة الظالمة التي تنطلق بها أفواه هؤلاء المشركين ، وهو تثبيت للنبى فى موقفه ، وإلفات له إلى ما بين يديه من آيات القرآن الكريم ، الذي هو ذكر للعالمين ، وحياة مجددة للناس ، جيلا بعد جيل ، وإنه لا ذكر ، ولا قدر لمن فاته الاتصال بهذا الكتاب ، وتلقّى عنه ، وقطع مسيرة الحياة فى ظله ، وهذا مثل قوله سبحانه وتعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ » (44 : الزخرف) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1114 . 1121 ﴾

(57/778)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) ﴾

تفريع على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وما تبعه من تكفل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعاقبة النصر ، وذلك أن شدته على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من شأنها أن تُدخل عليه يَأْساً من حصول رغبته ونجاح سعيه ، ففرع عليه تثبيتهُ وحثه على المصابرة واستمراره على الهَدْي ، وتعريفه بأن ذلك التثبيت يرفع درجته في مقام الرسالة ليكون من أولي العزم ، فذكَّره بمثَل يونس عليه السلام إذْ استعجل عن أمر ربّه ، فأدبه الله ثم اجتباه وتاب عليه وجعله من الصالحين تذكيراً مراداً به التحذير .

والمراد بحكم الربّ هنا أمره وهو ما حُمله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة .

وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أولها ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ [المدثر : 17] فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضاً .

ولا جرم أن الصبر لذلك يستدعي انتظار الوعد بالنصر وعدم الضجر من تأخره إلى أمده المقدر في علم الله .

وصاحب الحوت : هو يونس بن متَّى ، وقد تقدم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له

إسحاق ﴾ إلي قوله : ﴿ ويونس ﴾ في سورة الأنعام (84 86) .

والصاحب : الذي يصحب غيره ، أي يكون معه في بعض الأحوال أو في معظمها ، وإطلاقه على يونس لأن الحوت التقمه ثم قذفه فصار (صاحبُ الحوت) ﴾ لقباً له لأن تلك الحالة معيَّة قوية .

وقد كانت مؤاخذةُ يونس عليه السلام على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نِينَوى كما تقدم في سورة الصافات .

و ﴿ إذْ ﴾ طرف زمان وهو وجملته متعلق باستقرار منصوب على الحال أي في حالة وقت ندائه ربّه ، فإنه ما نادى ربّه إلاّ لإِنقاذه من كربه الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه ، أي لا يكن منك ما يلجئك إلى مثل ندائه .

(58/778)

والمكظوم : المحبوس المسدود عليه يقال : كظم الباب أغلقَه وكظَم النهر إذا سده ، والمعنى : نادى في حال حبسه في بطن الحوت .

وجيء بهذه الحال جملة اسمية لدلالتها على الثبات ، أي هو في حبس لا يرجى لمثله سراح ، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس .

وقوله : ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربّه لَنُبذ بالعراء ﴾ إلخ استئناف بياني ناشىء عن مضمون النهي من قوله : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى ﴾ إلخ لأنه يتضمن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس ثم لا يدري كيف يكون انفراجه .

و ﴿ أنْ ﴾ يجوز أن تكون مخففة من (أنَّ) ، واسمها ضمير شأن محذوف ، وجملة ﴿ تداركه نعمة من ربّه ﴾ خبرها .

ويجوز أن تكون مصدرية ، أي لولا تدارك رحمة من ربّه .

والتدارك : تفاعل من الدرَك بالتحريك وهو اللحاق ، أي أن يلحق بعضُ السائرين بعضاً وهو يقتضي تسابقهم وهو هنا مستعمل في مبالغة إدراك نعمة الله إياه .

والنبذ : الطرح والترك .

والعراء ممدوداً : الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء .

والمعنى : لنبذهُ الحوت أو البحر بالفضاء الخالي لأن الحوت الذي ابتلعه من النوع الذي يُرضع فراخه فهو يقترب من السواحل الخالية المترامية الأَطراف خوفاً على نفسه وفراخه .

والمعنى : أن الله أنعم عليه بأن أنبت عليه شجرة اليقطين كما في سورة الصافات .

وأُدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله ، وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعدَ نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتاً فأخرجه الموج إلى الشاطىء فلكان مُثْلة للناظرين أو حيّاً منبوذاً بالعراء لا يجد إسْعافاً ، أو لَنجا بعد لأي والله غاضب عليه فهو

مذموم عند الله مسخوط عليه .

وهي نعم كثيرة عليه إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة .

وهذا المعنى طوي طياً بديعاً وأشير إليه إشارة بليغة بجملة ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم .

(59/778)

وطريقة المفسرين في نشر هذا المطوي أن جملة وهو مذموم ﴾ في موضع الحال وأن تلك الحال قيد في جواب ﴿ لَولا ﴾ ، فتقدير الكلام : لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء نبذاً ذميماً ، أي ولكن يونس نبذ بالعراء غيرَ مذموم .

والذي حملهم على هذا التأويل أن نبذه بالعراء واقع فلا يستقيم أن يكون جواباً للشرط لأن ﴿ لولا ﴾ تقتضي امتناعاً لوُجودٍ ، فلا يكون جوابها واقعاً فتعين اعتبار تقييد الجواب بجملة الحال ، أي انتفى ذمه عند نبذه بالعراء .

ويلوح لي في تفصيل النظم وجه آخر وهو أن يكون جواب ﴿ لولا ﴾ محذوفاً دل عليه قوله ﴿ وهو مكظوم ﴾ مع ما تفيده صيغة الجملة الاسمية من تمكن الكظم كما علمت آنفاً ، فتلك الحالة إذا استمرت لم يحصل نبذه بالعراء ، ويكون الشرط بـ ﴿ لولا ﴾ لاحقاً لجملة

﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ ، أي لبقي مكظوماً ، أي محبوساً في بطن الحوت أبداً ، وهو معنى قوله في سورة الصافات (143 144) ﴿ فلولا أنه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ، وتجعل جملة ﴿ لَنُبِذ بالعراء وهو مذموم ﴾ استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الإِجمال الحاصل من موقع ﴿ لَولا ﴾ .

واللام فيها لام القسم للتحقيق لأنه خارق للعادة فتأكيده لرفع احتمال المجاز .

والمعنى : لقد نبذ بالعراء وهو مذموم .

والمذموم : إمّا بمعنى المذنب لأن الذنب يقتضي الذمَّ في العاجل والعقاب في الآجل ، وهو معنى قوله في آية الصافات (142) ﴿ فالتقمه الحوت وهو مُليم ﴾ وإمّا بمعنى العيب وهو كونه عارياً جائعاً فيكون في معنى قوله : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ [الصافات : 145] فإن السقم عيب أيضاً .

وتنكير ﴿ نعمة ﴾ للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة .

وفرع على هذا النفي الإِخبار بأن الله اجتباه وجعله من الصالحين .

(60/778)

والمراد بـ ﴿ الصالحين ﴾ المفضلون من الأَنبياء ، وقد قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] وذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات ، وقد تقدم في قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ في سورة التحريم (10) .

قال ابن عباس : رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه .

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)

عطف على جملة ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ [القلم : 44] ، عرَّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبي صلى الله عليه وسلم من الحقد والغيظ وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن .

والزلَق : بفتحتين زلَل الرجل من مَلاَسَةِ الأرض من طين عليها أو دهن ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فتُصْبِحَ صعيداً زلَقاً ﴾ في سورة الكهف (40) .

ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالباً أُطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض على وجه الكناية ، ومنه قوله هنا ليَزْلقونك ، ﴿ أي يسقطونك ويصرعونك .

وعن مجاهد : أيْ ينفذونك بنظرهم .

وقال القرطبي : يقال زلق السهم وزهق ، إذا نفذ ، ولم أراه لغيره ، قال الراغب قال يونس : لم

يسمع الزلق والإِزلاق إلاّ في القرآن أ هـ .

قلت : وعلى جميع الوجوه فقد جعل الإِزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية ، شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو فعل (يزلقونك) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ [آل عمران : 155] .

وقرأ نافع وأبو جعفر (يزلقونك) بفتح المثناة مضارع زلَق بفتح اللام يزلق متعدياً ، إذا نحاه عن مكانه .

(61/778)

وجاء ﴿ يكاد ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل ، وجاء فعل ﴿ سمعوا ﴾ ماضياً لوقوعه مع ﴿ لَمَّا ﴾ وللإِشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك وليس مجرد فرض .

واللام في ﴿ ليزلقونك ﴾ لام الابتداء التي تدخل كثيراً في خبر ﴿ إن ﴾ المكسورة وهي أيضاً تفرق بين ﴿ إنْ ﴾ المخففة وبين (إنّ) النافية .

وضمير ﴿ إنه لمجنون ﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حكاية لكلامهم بينهم ، فمعاد الضمير كائن في كلام بعضهم ، أو ليسَ للضمير معاد في كلامهم لأنه منصرف إلى من

يتحدثون عنه في غالب مجالسهم .

والمعنى : يقولون ذلك اعتلالاً لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلاً للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه ، فلذلك أبطل الله قولهم : ﴿ إنه لمجنون ﴾ بقوله : ﴿ وما هو إلاّ ذكر للعالمين ، ﴾ أي ما القرآن إلاّ ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين ، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء .

والذكر : التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأن فيه صلاح الناس .

فضمير ﴿ هو ﴾ عائد إلى غير مذكور بل إلى معلوم من المقام ، وقرينةُ السياق تُرجع كلَّ ضمير من ضميري الغيبة إلى معاده ، كقول عباس بن مرداس:

عُدْنا ولولا نحن أحدقَ جمعُهم . . .

بالمسلمين وأحرَزوا ما جمَّعوا

أي لأحْرز الكفار ما جمَّعه المسلمون .

وفي قوله : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ مع قوله في أول السورة ﴿ ما أنت بنعمة ربّك بمجنون ﴾ [القلم : 2] محسن ردّ العجز على الصدر .

وقوله : ﴿ وما هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾ إبطال لقولهم : ﴿ إنه لمجنون ﴾ لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن فإذا ثبت أن القرآن ذكْر بطَلَ أن يكون مبلّغه مجنوناً .

(62/778)

وهذا من قبيل الاحتباك إذ التقدير : ويقولون إنه لمجنون وإن القرآن كلام مجنون ، وما القرآن إلاّ ذكر وما أنت إلاّ مُذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(63/778)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم ﴾ وها هنا سؤال نافع وهو أن يقال ما العامل في الظرف وهو قوله اذ نادى ولا يمكن أن يكون الفعل المنهى عنه اذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وفي الترمذى وغيره عن النبي أنه قال دعوة أخى ذى النون اذ دعا بها

في بطن الحوت ما دعا بها مكروب الا فرج الله عنه لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه وانما نهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه وانما ينهى عن التشبه به في السبب الذى أفضى به إلى هذه المناداة وهى مغاضبته التى أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم والكظيم والكاظم الذى قد امتلأ غيظا وغضبا وهما وحزنا وكظم عليه فلم يخرجه

فإن قيل وعلى ذلك فما العامل في الظرف قيل ما في صاحب الحوت من معنى الفعلفإن قيل فالسؤال بعد قائم فإنه إذا قيد المنهى بقيد أو زمن كان داخلا في حيز النهى فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهيا عن تلك الحالة

قيل لما كان نداؤه مسببا عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يشبه به في الحال التى أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبا فالتقمه الحوت فنادى بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر واكتفي بغايتها وما انتهت اليه

(64/778)

فان قيل فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهى عنه أى لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظا وهما وغما بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم قيل هذا المعنى وان كان صحيحا الا أن النهى لم يقع عن التشبه به في مجرده وانما نهى عن التشبه به في الحال التى حملته على ذهابه مغاضبا حتى سجن في بطن الحوت ويدل عليه قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ثم قال ولا تكن كصاحب الحوت أى في ضعف صبره لحكم ربه فان الحالة التى نهى عنها هى ضد الحالة التى أمر بها

فإن قيل فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكونى القدرى الذى يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته

قيل منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم اياه كشف ما بهم من الضر وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به وكذلك أثنى على أيوب بقوله مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين وعلى يعقوب بقوله انما أشكو بثى وحزنى إلى الله

وعلى موسى بقوله رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله اللهم أشكو اليك ضعف قوتى وقلة حيلتى الحديث فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل بل اعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وقد ذم سبحانه من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع اليه وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به اليه وقيل لبعضهم كيف تشتكى اليه ما ليس يخفي عليه فقال ربى يرضى ذل العبد اليه

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختيارا وهذا أكمل الصبر ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

فإن قيل أى انواع الصبر الثلاثة أكمل الصبر على المأمور أم الصبر عن المحظور أم الصبر على المقدور

قيل الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهى أفضل من الصبر على مجرد القدر فان هذا

الصبر يأتى به البر الفاجر والمؤمن والكافر فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارا أو اضطرارا

وأما الصبر على الاوامر والنواهى فصبر أتباع الرسل وأعظمهم اتباعا أصبرهم في ذلك وكل صبر في محله وموضعه أفضل فالصبر عن الحرام في محله أفضل وعلى الطاعة في محلها أفضل

فإن قيل أى الصبرين أحب إلى الله صبر من يصبر على أوامره أم صبر من يصبر عن محارمه قيل هذا موضع تنازع فيه الناس فقالت طائفة الصبر عن المخالفات أفضل

(66/778)

لأنه أشق وأصعب فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون قالوا ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس وهو أشق شىء وأفضله قالوا ولأن ترك المحبوب الذى تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب اليه من نفسه وهواه بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك قالوا وأيضا فالمروءة والفتوة كلها في هذا الصبر

قال الإمام أحمد الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر قالوا

وليس العجب ممن يصبر على الأوامر فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى والنفس موكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها

قالوا ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو اليها نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة وذلك أشق شيء على النفوس وأمره قالوا فالمناهى من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها والحمية مع قيام داعى التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه قالوا ولذلك كان باب قربان النهى مسدودا كله وباب الامر انما يفعل منه المستطاع كما قال النبي اذا أمرتكم بأمر فاءتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه فدل على ان باب المنهيات أضيق من باب المأمورات وانه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر قالوا ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حدا معينا فأعظم المأمورات الصلاة وقد اختلف العلماء هل على تاركها حد أم لا فصل

فهذا بعض ما احتجت به الطائفة وقالت طائفة أخرى بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك المحظور لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور والصبر على أحب الامرين أفضل وأعلى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ عدة الصابرين صـ 24.27 ﴾

(68/778)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات والخطيب في تاريخه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : إن أول شيء خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوي الكتاب وارتفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السموات ثم خلق النور فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون ، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، فإن الجبال

لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أول ما خلق الله القلم والحوت قال : اكتب قال : ما أكتب ؟ قال : كل شيء كائن إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ فالنون الحوت والقلم القلم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد " .

وأخرج ابن جرير عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال : لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون وهي الدواة ، وخلق القلم ، فقال : اكتب قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

وأخرج الرافعي في تاريخ قزوين من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النون اللوح المحفوظ والقلم من نور ساطع " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول شيء خلق الله القلم ، ثم خلق النون ، وهي الدواة ، ثم قال له : اكتب قال : وما أكتب ؟ قال : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، من عمل أو أثر أو رزق ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وذلك قوله : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ثم ختم على في القلم فلم ينطق ، ولا ينطق إلى يوم القيامة ، ثم خلق الله العقل ، فقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ن والقلم ﴾ قال : ن الدواة والقلم القلم .

وأخرج عن ابن عباس قوله : ﴿ ن ﴾ أشباه هذا قسم الله ، وهي من أسماء الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة والحسن في قوله : ﴿ ن ﴾ قالا : الدواة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ن ﴾ قال : هو الحوت الذي عليه الأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الحوت الذي تحت الأرض السابعة ، والقلم الذي كتب به الذكر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم فأخذه بيمينه

، وكلتا يديه يمين ، وخلق النون ، وهي الدواة ، وخلق اللوح ، فكتب فيه ، ثم خلق السموات ، فكتب ما يكون من حينئذ في الدنيا إلى أن تكون الساعة من خلق مخلوق أو عمل معمول بر أو فجور ، وكل رزق حلال أو حرام رطب أو يابس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : القلم نعمة من الله عظيمة لولا القلم ما قام دين ولم يصلح عيش ، والله أعلم بما يصلح خلقه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال : خلق الله القلم فقال : أجره فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم خلق الحوت وهو النون ، فكبس عليها الأرض ثم قال : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ .

(70/778)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ن والقلم ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النون السمكة التي عليها قرار الأرضين ، والقلم الذي خط به ربنا عز وجل القدر خيره وشره ونفعه وضره ﴿ وما يسطرون ﴾ قال : الكرام الكاتبون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما يسطرون ﴾ قال : وما يكتبون .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وقتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما يسطرون ﴾ قال : وما يعملون .

قوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إنه لمجنون به شيطان ، فنزلت ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾ قال : غير محسوب .

قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والواحدي عن عائشة قالت : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال لبيك ، فلذلك أنزل الله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين : أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال : سألت عائشة

عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال : أتيت عائشة فسألتها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان أحسن الناس خلقاً ، كان خلقه القرآن .

(71/778)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن مردويه عن أبي عبد الله الجدلي قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً ولا سخاباً في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

وأخرج ابن مردويه عن زينب بنت يزيد بن وسق قالت : كنت عند عائشة إذ جاءها نساء أهل الشام ، فقلن يا أم المؤمنين : أخبرينا عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان خلقه القرآن وكان أشد الناس حياء من العواتق في خدرها .

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عطية العوفي في قوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال : على أدب القرآن .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال : الدين .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال : الإِسلام .

واخرج عبد بن حميد عن ابن ابزى وسعيد بن جبير قالا : على دين عظيم .

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثابت عن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سنة ما قال لي قط ألا فعلت هذا أو لم فعلت هذا . قال ثابت : فقلت يا أبا حمزة إنه كما قال الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وأخرج الخرائطي عن أنس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثمان سنين فما لامني على شيء يوماً من الأيام فإن لامني لائم قال : دعوه فإنه لو قضى شيء لكان .

وأخرج ابن سعد عن ميمونة قالت : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من عندي فأغلقت دونه الباب ، فجاء يستفتح الباب ، فأبيت أن أفتح له ، فقال : " أقسمت عليك إلا فتحت لي " فقلت له : تذهب إلى أزواجك في ليلتي قال : " ما فعلت ، ولكن وجدت حقناً من بولي " " .

قوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ الآيات .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال : الشيطان كانوا يقولون : إنه شيطان إنه مجنون .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ يقول : يتبين لكم المفتون .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ يقول : بأيكم المجنون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير وابن أبزى ﴿ بأيكم المفتون ﴾ بأيكم المجنون .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال : بأيكم المجنون .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال : المجنون .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال : أيكم أولى بالشيطان .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن ﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ قال : أيكم أولى بالشيطان فكانوا أولى بالشيطان منه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال : لو ترخص لهم فيرخصون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ يقول : لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيما لئونك .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال : ودوا لو يدهن نبي الله عن هذا الأمر فيدهنوا عنه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال : لو تكفر فيكفرون .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10)

(73/778)

أخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال : قال مروان بن الحكم لما بايع الناس ليزيد سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر ، ولكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذي أنزلت فيه ﴿ والذي قال لوالديه أفٍّ لكما ﴾ قال : فسمعت ذلك عائشة ، فقالت : إنها لم تنزل في عبد الرحمن ، ولكن نزلت في أبيك

﴿ ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشاء بنميم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ الآية قال : يعني الأسود بن عبد يغوث .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي ﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ الآية قال : هو رجل من ثقيف يقال له : الأخنس بن شريق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ يقول : مكثار في الحلف ﴿ مهين ﴾ يقول : ضعيف .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ قال : ضعيف القلب ﴿ عتل ﴾ قال : شديد الأسر ﴿ زنيم ﴾ قال : ملحق في النسب زعم ابن عباس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ قال : المهين المكثار في الشر ﴿ هماز ﴾ قال : يأكل لحوم الناس ﴿ مناع للخير ﴾ قال : فلا يعطي خيراً ﴿ معتد ﴾ قال : معتد في قوله : متعمد في عمله ﴿ أثيم ﴾ بربه ﴿ عتل ﴾ هو الفاجر اللئيم الضريبة ، وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار وقطيعة الرحم " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي أمامة في قوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال : هو الفاحش

اللئيم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الحسن وأبي العالية مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عن عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ زنيم ﴾ قال : هو الدعيّ أما سمعت قول الشاعر :

زنيم تداعاه الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض الأديم أكارعه

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن عكرمة أنه سئل عن الزنيم قال : هو ولد الزنا ، وتمثل بقول الشاعر :

(74/778)

زنيم ليس يعرف من أبوه . . . بغيّ الأم ذو حسب لئيم

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : العتل الزنيم رجل ضخم شديد كانت له زنمة زائدة في يده ، وكانت علامته .

وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : العتل الصحيح الأكول الشروب ، والزنيم الفاجر .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال : يعرف الكافر

من المؤمن مثل الشاة الزنماء ، والزنماء التي في حلقها كالمتعلقتين في حلق الشاة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة الزنماء من التي لا زنمة لها .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال : هو الملزق في القوم ليس منهم .

وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : ستة لا يدخلون الجنة أبداً : العاق والمدمن والجعشل والجوّاظ والقتات والعتل الزنيم . فقلت يا ابن عباس : أما اثنتان فقد علمت ، فأخبرني بالأربع قال : أما الجعشل فالفظّ الغليظ وأما الجواظ فمن يجمع المال ويمنع ، وأما القتات فمن يأكل لحوم الناس ، وأما العتل الزنيم فمن يمشي بين الناس بالنميمة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن شهر بن حوشب قال : حدثني عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم ، فقال له رجل من المسلمين : ما الجوّاظ والجعظري والعتل الزنيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما الجوّاظ فالذي جمع ومنع ، تدعوه ﴿ لظى نزاعة للشوى ﴾ [المعارج : 16] وأما الجعظري فالفظّ الغليظ ، قال الله : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

[آل عمران : 159] ، وأما العتل الزنيم فشديد الخلق رحيب الجوف مصحح شروب واجد للطعام والشراب ظلوم للناس " .

(75/778)

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن عامر أنه سئل عن الزنيم قال : هو الرجل تكون له الزنمة من الشر يعرف بها ، وهو رجل من ثقيف يقال له : الأخنس بن شريق .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس قال : الزنيم الدعيّ الفاحش اللئيم الملزق ، ثم أنشد قول الشاعر :

زنيم تداعاه الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض اللئيم الأكارع

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ قال : نزلت في الأخنس بن شريق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ قال : هو الأسود بن عبد يغوث .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ﴾ فلم يعرف حتى نزل عليه بعد ذلك ﴿ زنيم ﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن حارثة بن وهب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا أخبركم بأهل الجنة ، كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جوّاظ جعظري متكبر " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا ، فكان للناس ظلوماً ، فذلك العتل الزنيم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم مولى معاوية وموسى بن عقبة قالا : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العتل الزنيم ، قال : " هو الفاحش اللئيم " " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ قال : " العتل كل رحيب الجوف وثيق الخلق أكول شروب جموع للمال منوع له " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مرودويه عن عبد الله بن عمر وأنه تلا ﴿ منّاع للخير ﴾ إلى ﴿ زنيم ﴾ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر مناع ، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العتل هو الدعيّ ، والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والخرائطي في مساوىء الأخلاق والحاكم ، وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال : هو الرجل يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الزنيم هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء .

وأخرج البخاري والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس في قوله : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال : رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : نعت فلم يعرف حتى قيل ﴿ زنيم ﴾ وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الزنيم الملحق النسب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ زنيم ﴾ قال : ظلوم .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ زنيم ﴾ قال : ولد الزنا . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

زنيم تداعته الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال : الزنيم هو الهجين الكافر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ مهين ﴾ قال : الكذاب ﴿ هماز ﴾ يعني الاغتياب ﴿ عتل ﴾ قال : الشديد الفاتك ﴿ زنيم ﴾ الدعيّ وفي قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ فقاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال : سيما على أنفه لا تفارقه .

(77/778)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال : سنسمه بسيما لا تفارقه آخر ما عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ بهمزتين يستفهم .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من مات هماز ًا لماز ًا ملقباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشدقين " .

قوله : تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ الآيات .

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : هؤلاء ناس قص الله عليكم حديثهم ، وبيّن لكم أمرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر : خذوهم أخذاً فاربطوهم في الجبال ، ولا تقتلوا منهم أحداً فنزل ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ يقول : في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : كانوا من أهل الكتاب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة ، وكان يطعم منها السائلين ، فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق يطعم المساكين ، فأقسموا ليصرمنّها مصبحين وأن لا يطعموا مسكيناً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : كانت الجنة لشيخ من بني إسرائيل ، وكان يمسك قوت سنته ، ويتصدق بالفضل ، وكان بنوه ينهونه عن الصدقة فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ يقول : على جد من أمرهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال : هي أرض باليمن يقال لها ضر ، وإن بينها وبين صنعاء ستة أميال .

(78/778)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح في قوله : ﴿ ولا يستثنون ﴾ قال : كان استثناؤهم سبحان الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فطاف عليها طائف من ربكْ ﴾ قال : هو أمر من الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ قال : عذاب : عنق من النار خرجت من وادي جهنم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ قال : أتاها أمر الله ليلاً ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ قال : كالليل المظلم .

وأخرج عبد بن حميد عن قطر بن ميمون مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالصريم ﴾ قال : مثل الليل الأسود .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ كالصريم ﴾ قال : الذهب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

غدوت عليه غدوة فوجدته . . . قعوداً لديه بالصريم عواذله

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : أن ﴿ اغدوا على حرثكم ﴾ قال : كان عنباً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وهم يتخافتون ﴾ قال : الإِسرار والكلام

الخفي .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وهم يتخافتون ﴾ قال : يسرون بينهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ قال : غدا القوم وهم محردون إلى جنتهم قادرون عليها في أنفسهم .

(79/778)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ على حرد قادرين ﴾ يقول : ذو قدرة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد قال : ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ قال : غدوا على أمر قد قدروا عليه ، وأجمعوا عليه في أنفسهم أن لا يدخل عليهم مسكين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ قال : غيظ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ يعني المساكين يجد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ قال :

أضللنا مكان جنتنا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ إنا لضالون ﴾ قال : أخطأنا الطريق ، ما هذه جنتنا ، وفي قوله : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قال : بل حورفنا فحرمناها ، وفي قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ قال : أعدل القوم وأحسن القوم فزعاً وأحسنهم رجعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ بل نحن مرومون ﴾ قال : لما تبينوا وعرفوا معالم جنتهم قالوا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ محارفون .

وأخرج ابن المنذر عن معمر قال : قلنا لقتادة أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار ؟ قال : لقد كلفتني تعباً .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ قال : أعدلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ يعني أعدلهم ، وكل شيء في كتاب الله أوسط فهو أعدل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قال أوسطهم ﴾ قال : أعدلهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السري في قوله : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ قال : كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ لولا تسبحون ﴾ قال : لولا تستثنون عند قولهم ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون عند ذلك وكان التسبيح استثناءهم كما نقول نحن إن شاء الله .

(80/778)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ كذلك العذاب ﴾ قال : عقوبة الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ قال : عقوبة الآخرة وفي قوله : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ قال : أيهم كفيل بهذا الأمر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ تدرسون ﴾ قال : تقرؤون ، وفي قوله : ﴿ أيمان علينا بالغة ﴾ قال : عهد علينا .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)

أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً " .

وأخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : يكشف الله عز وجل عن ساقه "

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن ساقيه تبارك وتعالى . قال ابن منده : لعله في قراءة ابن مسعود " يكشف " بفتح الياء وكسر الشين .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه وابن عساكر عن أبي موسى " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن نور عظيم فيخرون له سجداً " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن مصور وابن منده والبيهقي في الأسماء والصفات من من طريق إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : قال ابن عباس يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت الحرب على ساق ، قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ويعصو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً .

(81/778)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق

﴾ قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

أصبر عناق أنه شر باق . . . قد سن لي قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق . . . قال ابن عباس : هذا يوم كرب وشدة .

وأخرج الطستي في مسائلة عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴾ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن شدة الآخرة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

قد قامت الحرب بنا على ساق . . . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴾ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة .

وأخرج ابن مندة عن ابن عباس في قوله : ﴾ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن شدة الآخرة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن مجاهد في قوله : ﴾ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن شدة الأمر وجده قال : وكان ابن عباس يقول : هي أشد ساعة تكون يوم القيامة .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قرأ ﴾ يوم يكشف عن ساق ﴾

قال : يريد القيامة والساعة لشدتها .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن منده من طريق عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ " يوم تكشف عن ساق " بفتح التاء ، قال أبو حاتم السجستاني : أي تكشف الآخرة عن ساقها يستبين منها ما كان غائباً .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ بالياء ورفع الياء .

(82/778)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة أنه سئل عن قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : إن العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب ، وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ فغضب غضباً شديداً وقال : إن أقواماً يزعمون أن الله يكشف عن ساقه ،

وإنما يكشف عن الأمر الشديد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ قال : هم الكفار كانوا يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون ، ثم أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا ، فإنه قال : ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته ، وما كانوا يبصرون وأما الآخرة فإنه قال : لا يستطيعون خاشعة أبصارهم .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : أخبرنا أن بين كل مؤمنين منافقاً يوم القيامة ، فيسجد المؤمنان وتقسو ظهور المنافقين ، فلا يستطيعون السجود ويزدادون لسجود المؤمنين توبيخاً وحسرة وندامة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن بلاء عظيم .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم النخعي ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن أمر عظيم الشدة .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : عن الغطاء ، فيقع من كان آمن به في الدنيا ، فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ، لأنهم لم يكونوا آمنوا به في الدنيا ، ولا يبصرونه ولا يستطيعون السجود وهم سالمون في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال : أمر فظيع جليل ، ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ قال : ذلكم يوم القيامة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون ويبين كل مؤمنين منافق ، فيتعسر ظهر المنافق عن السجود ، ويجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخاً وصغاراً وذلاً وندامة وحسرة "

وفي قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ قال : في الصلوات .

وأخرج ابن مردويه عن كعب الحبر قال : والذي أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود والفرقان على محمد أنزلت هذه الآيات في الصلوات المكتوبات حيث ينادي بهن ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ إلى قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ الصلوات الخمس إذا نودي بها .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ قال : الصلوات في الجماعات .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة .

(84/778)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله الخلائق يوم القيامة ثم ينادي مناد : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون وأهل الكتاب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون الله وموسى ، فيقال لهم : لستم من موسى وليس موسى منكم ، فيصرف بهم ذات الشمال ، ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون الله وعيسى . فيقال لهم : لستم من عيسى وليس عيسى منكم ، ثم يصرف بهم ذات الشمال ، ويبقى المسلمون فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : الله ، فيقال لهم : هل تعرفونه ؟ فيقولون : إن عرّفنا نفسه عرفناه ، فعند ذلك يؤذن لهم في السجود بين كل مؤمنين منافق ، فتقصم ظهورهم عن السجود ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ " .

(85/778)

وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يجمع الله الناس يوم القيامة ، وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي منادٍ يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوّركم ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى أليس ذلك من ربكم عدلاً ؟ قالوا : بلى ، قال : فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يعبد في الدنيا ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا ، فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويتمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير ، حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جثوماً فيتمثل لهم الرب عز وجل ، فيقول لهم : ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس ؟ فيقولون : إن لنا ربّاً ما رأيناه بعد ، فيقول : فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه ؟ قالوا : بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه . قال : وما هي ؟ قال : ﴿ يكشف عن ساق ﴾ فيكشف عند ذلك عن ساق فيخر كل من كان يسجد طائعاً ساجداً ، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ، ثم يؤمرون فيرفعوا رؤوسهم ، فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر

ذلك من يعطى نوره على إبهام قدميه يضيء مرة ويطفأ مرة ، فإذا أضاء قدم قدمه ، وإذا طفىء قام ، فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحدّ السيف دحض مزلة ، فيقال لهم : انجوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الرجل ويرمل رملاً ، يمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يجر يداً ويعلق يداً ، ويجر رجلاً ويعلق

(86/778)

رجلاً ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أراناك . لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً ، فينطلقون إلى ضحضاح عند باب الجنة ، فيغتسلون فيعود إليهم ريح أهل الجنة ، وألوانهم ، ويرون من خلل باب الجنة وهو يصفق منزلاً في أدنى الجنة فيقولون : ربنا أعطنا ذلك المنزل ، فيقول لهم : أتسألون الجنة وقد نجيتكم من النار ، فيقولون : ربنا أعطنا ، حل بيننا وبين النار ، هذا الباب لا نسمع حسيسها ، فيقول لهم : لعلكم إن أُعْطِيتُمُوهُ أن تسألوا غيره ، فيقولون : لا وعزتك لا نسأل غيره ، وأي منزل يكون أحسن منه ؟ قال : فيدخلون الجنة ويرفع لهم منزل أمام ذلك كان الذي رأوا قبل ذلك حلم عنده فيقولون : ربنا أعطنا ذلك المنزل ، فيقول : لعلكم إن

أعطيتكموه أن تسألوا غيره ، فيقولون : لا وعزتك لا نسأل غيره ، وأي منزل أحسن منه ؟ فيعطونه ، ثم يرفع لهم أمام ذلك منزل آخر كان الذي رأوا قبل ذلك حلم عند هذا الذي رأوا فيقولون : ربنا أعطنا ذلك المنزل ، فيقول : لعلكم إن أعطيتكموه أن تسألوا غيره ، فيقولون : لا وعزتك لا نسأل غيره وأي منزل أحسن منه ؟ ثم يسكتون فيقولون لهم : ما لكم لا تسألون فيقولون : ربنا قد سألناك حتى استحينا ، فيقال لهم : ألم ترضوا أن أعطيكم مثل الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها ؟ فيقولون : أتستهزىء بنا وأنت رب العالمين ؟ "

(87/778)

قال مسروق : فما بلغ عبد الله هذا المكان من الحديث إلا ضحك ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثه مراراً فما بلغ هذا المكان من الحديث إلا ضحك حتى تبدو لهواته ، ويبدو آخر ضرس من أضراسه ، يقول : الأسنان . قال : " فيقول لا ولكني على ذلك قادر فاسألوني . قالوا : ربنا ألحقنا بالناس . فيقال لهم : الحقوا الناس ، فينطلقون يرملون في الجنة حتى يبدو الرجل منهم في الجنة قصر درة مجوّف فيخر ساجداً ، فيقال له : ارفع رأسك ، فيرفع رأسه فيقول : رأيت ربي ، فيقال له : إنما ذلك منزل من

منازلك فينطلق ويستقبله رجل فيتهيأ للسجود فيقال له : ما لك ؟ فيقول : رأيت ملكاً ، فيقال له : إنما ذلك قهرمان من قهارمتك عبد من عبيدك فيأتيه فيقول : إنما أنا قهرمان من قهارمتك على هذا القصر تحت يدي ألف قهرمان ، كلهم على ما أنا عليه ، فينطلق به عند ذلك حتى يفتح له القصر ، وهي درة مجوّفة سقائفها وأغلاقها وأبوابها ومفاتيحها منها . قال : فيفتح له القصر فتستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء سبعون ذراعاً فيها ستون باباً ، كل باب يفضي إلى جوهرة على غير لون صاحبتها ، في كل جوهرة سرر وأدراج ونصائف ، وقال : وصائف ، فيدخل ، فإذا هو بحوراء عيناء عليها سبعون حلةً يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفاً عما كانت قبل ذلك ، وإذا أعرضت عنه إعراضة ازداد في عينها سبعين ضعفاً عما كان قبل ذلك ، فتقول : لقد ازددت في عيني سبعين ضعفاً ويقول لها مثل ذلك . قال : فيشرف على ملكه مد بصره مسيرة مائة عام "

(88/778)

، قال : فقال عمر بن الخطاب عند ذلك : ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدنى أهل الجنة ما له ، فكيف بأعلاهم ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ، إن الله كان فوق العرش والماء فخلق لنفسه داراً بيده فزينها بما شاء وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب ، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها جبريل ولا غيره من الملائكة ، ثم قرأ كعب ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] الآية ، وخلق دون ذلك جنتين فزينهما بما شاء وجعل فيهما ما ذكر من الحرير والسندس والاستبرق ، وأراهما من شاء من خلقه من الملائكة ، فمن كان كتابه في عليين نزل تلك الدار ، فإذا ركب الرجل من أهل عليين في ملكه لم يبقِ خيمة من خيام الجنة إلاّ دخلها من ضوء وجهه حتى إنهم ليستنشقون ريحه ويقولون : واهاً وهذه الريح الطيبة ، ويقولون : لقد أشرف علينا اليوم رجل من أهل عليين ، فقال عمر : ويحك يا كعب إن هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن لجهنم زفرة ما من ملك ولا نبي إلاّ يخر لركبته حتى يقول إبراهيم خليل الله ؛ رب نفسي نفسي ، وحتى لو كان لك عمل سبعين نبياً إلى عملك لظننت أن لن تنجو منها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن ابن مسعود أنه ذكر عنده الدجال فقال : يفترق ثلاث فرق تتبعه فرقة تتبعه ، وفرقة تلحق بأرض آبائها منابت الشيخ ، وفرقة تأخذ شط الفرات فيقاتلها ويقاتلونه حتى يجتمع المؤمنون بقرى الشام ، فيبعثون إليه طليعة فيهم فارس على فرس

أشقر أو أبلق فيقتلون لا يرجع إليهم شيء ، ثم ن المسيح ينزل فيقتله ثم يخرج يأجوج ومأجوج فيموجون في الأرض ، فيفسدون فيها ، ثم قرأ عبد الله

(89/778)

﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ [الأنبياء : 96] ثم يبعث الله عليهم دابة مثل هذه النغفة ، فتدخل في أسماعهم ومناخرهم ، فيموتون منها ، فتنتن الأرض منهم ، فيجأر أهل الأرض إلى الله فيرسل الله ماء فيطهرها منهم ثم يبعث ريحاً فيها زمهرير باردة فلا تدع على وجه الأرض [7] إلا كفئت بتلك الريح ثم تقوم الساعة على شرار الناس ، ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه ، فلا يبقى خلق الله في السموات والأرض إلا مات إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون ، فليس من ابن آدم خلق إلا وفي الأرض منه شيء ثم يرسل الله ماء من تحت العرش منياً كمني الرجال ، فتنبت جسمانهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ عبد الله ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ [الروم : 48] ثم يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه ، فتنطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل فيه ، فيقومون فيجيئون مجيئة رجل واحد قياماً لرب العالمين ، ثم

يتمثل الله للخلق فيلقاهم ، فليس أحد من الخلق يعبد من دون الله شيئاً إلا هو متبع له يتبعه ، فيلقى اليهود فيقول : ما تعبدون ؟ فيقولون : نعبد عزيراً ، فيقول : هل يسركم الماء ؟ قالوا : نعم ، فيريهم جهنم كهيئة السراب ، ثم قرأ عبد الله ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ [الكهف : 100] ثم يلقى النصارى فيقولون ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : المسيح فيقول : هل يسركم الماء ؟ قالوا : نعم ، فيريهم جهنم كهيئة السراب ، وكذلك كل من يعبد من دون الله شيئاً ، ثم قرأ عبد الله ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات : 24] حتى يمر المسلمون فيلقاهم فيقول : من تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، فينتهرهم مرة أو مرتين من تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، فيقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : سبحان الله إذا تعرف

(90/778)

لنا عرفناه ، فعند ذلك ﴿ يكشف عن ساق ﴾ فلا يبقى مؤمن إلاّ خر لله ساجداً ، ويبقى المنافقون ظهورهم طبق واحد كأنما فيها السفافيد ، فيقولون : " ربنا فيقول : قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون " ثم يؤمر بالصراط فيضرب على جهنم ، فتمر الناس بأعمالهم يمر أوائلهم كلمح البصر أو كلمح البرق ، ثم كمر الريح ثم كمر الطير ثم كأسرع

البهائم ، ثم كذلك يجيء الرجل سعياً حتى يجيء الرجل مشياً حتى يجيء آخرهم رجل يتكفأ على بطنه ، فيقول : يا رب أبطأت بي ، فيقول : إنما أبطأ بك عملك ثم يأذن الله في الشفاعة فيكون أول شافع جبريل ، ثم إبراهيم خليل الله ، ثم موسى ، أو قال عيسى ، ثم يقوم نبيكم صلى الله عليه وسلم رابعاً لا يشفع أحد بعده فيما يشفع فيه ، وهو المقام المحمود الذي وعده الله

(91/778)

﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الاسراء : 79] فليس من نفس إلا تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار وهو يوم الحسرة ، فيرى أهل النار البيت الذي في الجنة ، فيقال : لو عملتم ، ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار فيقال : لولا أن منّ الله عليكم ثم يشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون والمؤمنون ، فيشفعهم الله ، ثم يقول : أنا أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أكثر مما أخرج من جميع الخلق برحمته ، حتى ما يترك فيها أحداً فيه خير ، ثم قرأ عبد الله يا أيها الكفار ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ [المدثر : 42] إلى قوله : ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ [المدثر : 46] قال : ترون في هؤلاء أحداً فيه خير لا وما يترك فيها أحداً فيه خير ، فإذا أراد الله أن لا يخرج منها أحداً

غير وجوههم وألوانهم فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع ، فيقال له : من عرف أحداً فيخرجه فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً ، فيقول الرجل للرجل : يا فلان أنا فلان ، فيقول : ما أعرفك ، فيقولون : ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ [المؤمنون : 107] فيقول : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 108] فإذا قال ذلك أطبقت عليهم ، فلم يخرج منهم بشر .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ قال : تغاضب كما غاضب يونس .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وابن المنذر عن قتادة ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ قال : لا تعجل كما عجل ، ولا تغاضب كما غاضب .

وأخرج الحاكم عن وهب قال : كان في خلق يونس ضيق فلما حملت عليه أثقال النبوة تفسخ منها تفسخ الربع ، فقذفها من يديه وهرب ، قال تعالى لنبيه ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وهو مكظوم ﴾ قال : مغموم وفي قوله : ﴿ وهو مذموم ﴾ قال : مليم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ وهو مكظوم ﴾ قال : مغموم .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال : ينفذونك بأبصارهم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ لينفذونك بأبصارهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال : لينفذونك بأبصارهم معاداة لكتاب الله ولذكر الله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء قال : كان ابن عباس يقرأ ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال : يقول : ينفذونك بأبصارهم من شدة النظر إليك ، قال ابن عباس : فكيف يقولون أزلق السهم أو زهق السهم .

وأخرج أبو عبيدة في فضائله وابن جرير عن ابن مسعود أنه قرأ " ليزهقونك بأبصارهم " .

وأخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العين حق " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر " .

وأخرج البزار عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 240 . 262 ﴾

(93/778)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ ن والقلم ﴾ .

قرأ الكسائي ، ونافع ، وعاصم في إحدى الروايتين بالإِدغام ، والباقون بإظهار النون ، وهما لغتان ومعناهما واحد .

قال ابن عباس : هي السمكة التي تحت الأرضين .

وروى الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس قال : أَوَّلُ مَا خَلَقَ الله تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ القَلَمَ فَقَالَ اكْتُبْ ، قَالَ بِمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبِ القَدَرَ فَيَجْرِي بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ .

ثم خلق النون يعني : السمكة ، فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ، ففتق منه السموات ، فاضطربت النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال .

وإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة .

وقال سعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة : النون : الدواة ، وقال قتادة : الدواة والقلم : ما قام لله وبه لإصلاح عيش خلقه ، والله يعلم ما يصلح خلقه .

ويقال : النون : افتتاح اسم الله تعالى ، وهو النون .

ويقال : هو آخر اسمه من الرحمن ، وهذا قسم أقسم الله تعالى بالنون والقلم ، وجواب القسم ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ، فذلك قوله : ﴿ نون ﴾ .

﴿ والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يكتُب الحفظة من أعمال بني آدم ؛ ويقال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني : تكتب الحفظة في اللوح المحفوظ .

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعني : ما أنت بحمد الله تعالى بمجنون ﴿ وَمَا أَنت بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما يزعمون ، وذلك أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذى خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 5] وعلمه جبريل الصلاة ، فقال أهل مكة : جن محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان النبي يفر من الشاعر والمجنون .

فلما نسبوه إلى الجنون ، شق ذلك عليه ، فنزل : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

ويقال : بل أنت رسول الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ يعني : غير مقطوع ، ويقال : غير محسوب ، ويقال : لا يمن عليك .

﴿ وَإِنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : على خلق حسن ؛ وقال مقاتل : يعني : على دين الإسلام ، وقال عطية : يعني : على آدب القرآن .

ثم قال : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ يعني : سترى ويرون ويقال فستعلم ويعلمون ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ يعني : إذا نزل بهم العذاب تعلمون أيكم المفتون ، يعني : بأيكم المجنون ويقال الباء زيادة ، ومعناه أيكم المفتون يعني أيكم المجنون ، وقال قتادة : يعني : أيكم أولى بالسلطة ، وقال أبو عبيدة : أيكم المجنون والباء زيادة ، واحتج بقول القائل : نضرب بالسيف ، ونرجو بالفرج يعني : نرجو الفرج .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ يعني : هو عالم بمن أخطأ الطريق عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ لدينه .

ثم قال : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ ، وذلك أنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فأمره الله تعالى أن يثبت على دينه ، فقال : ﴿ لاَ تطعا لمكذبين ﴾ بوحدانية الله تعالى .

﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال مجاهد : ودوا لو تركن إليهم ، وتترك ما أنت عليه من

الحق ، فيميلون إليك .

وقال السدي : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وقال القتبي : ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم .

وكانوا أرادوا أن يعبدوا آلهتهم مدة ، ويعبدون الله مدة .

ثم قال : ﴿ فَيُدْهِنُونَ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ يعني : كذاباً في دين الله والحلاف : مكثار الحلف ، ﴿ مَّهِينٍ ﴾ ضعيف فاجر .

نزلت في الوليد بن المغيرة .

وقال القتبي : المهين : الحقير الدنيء ، وقال الزجاج : وهو فعيل من المهانة ، وهي القلة .

ومعناه في هذا الموضع : القلة في الرأي والتمييز .

(95/778)

ثم قال : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ يعني : الوليد بن المغيرة ، طعّان ، لعّان ، مغتاب ، ﴿ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ يعني : يمشي بين الناس بالنميمة .

وقال القتبي : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ يعني : عياب ثم قال : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يعني : بخيلاً لا ينتفع بماله لنفسه ، وكان ينفق أمواله على غيره .

ويقال : معناه : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يعني : التوحيد ، ويمنع الناس عن التوحيد .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ يعني : ظلوماً لنفسه ﴿ أَثِيمٍ ﴾ يعني : فاجراً .

قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍ ﴾ يعني : شديد الخصومة بالباطل ، ويقال : ﴿ عُتُلٍ ﴾ يعني : أكول شروب صحيح الجسم رحيب البطن .

﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ يعني : مع ذلك ﴿ زَنِيمٍ ﴾ يعني : ملصق .

وقال ابن عباس : الزنيم : الدعي الملصق ، ويستدل بقول القائل

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً .

. . كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ

ويقال : الزنيم : الشديد الخلق .

وروى شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ جَوَّاظٌ وَلاَ جَعْظَرِيٌّ وَلاَ العُتُلُّ الزَّنِيمُ .

قَالَ : أَمَّا الجَوَّاظُ ، فَالَّذِي جَمَعَ وَمَنَعَ وَتَدْعُوهُ لَظَى نَزَاعَةً للشَّوَى " أَيْ الشَّدِيدَ الخُلُقِ رَحِيبَ الجَوْفِ .

وَأَمَّا الجَعْظَرِيُّ ، فَالفَظُّ .

الغَلِيظُ .

وَأَمَّا العُتُلُّ الزَّنِيمُ ، صَحِيحٌ أَكُولٌ شَرُوبٌ ظَلُومٌ لِلنَّاسِ .

وَيُقَالُ .

الزَّنِيمُ : الدَّعِيُّ وذكر أنه لما نزلت هذه الآية ، قال لأمه : إن محمداً لصادق ، وأنه قال كذا وكذا ، فأقرت والدته له بذلك .

ثم قال : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ يعني : فلا تطعه وإن كان ذا مال وبنين ، يعني : لا تطعه بسبب ماله .

ثم قال : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ يعني : القرآن ﴿ قَالَ أساطير الاولين ﴾ يعني : كذبهم وأباطيلهم .

وقال السدي : يعني : أساجيع الأولين .

(96/778)

ثم قال : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ يعني : سنضربه على الوجه ، ويقال : سنسود وجهه يوم القيامة ، ويقال : سنسمه على أنفه ؛ وقال القتبي : للعرب في هذا مذاهب ، يقولون للرجال إذا سبه سبة قبيحة ، أو يثني عليه فاحشة : قد وسم ميسم سوء ، يريد أنه ألصق به عاراً لا يفارقه ، كما أن السمة لا يعفو أثرها .

وقد وصف الله تعالى الوليد بالحلف ، والمهانة ، والمشي بالنميمة ، والبخل ، والظلم ،

والإثم ، والدعوى ، فألحق به العار لا يفارقه في الدنيا والآخرة .

قال : والذي يدل على هذا ، ما روي ، عن الشعبي في قوله : ﴿ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ يعني : القتل الشديد .

والزنيم : له زنمة من الشر ، يعرف بها كما تعرف الشاة .

ثم قال : ﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾ يعني : اختبرنا أهل مكة بترك الاستثناء ؛ ويقال : ابتليناهم بالجوع والشدة .

ثم قال : ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ يعني : أهل ضيروان ، وهي قبيلة باليمن .

وروى أسباط ، عن السدي قال : كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلاً صالحاً ، وكان إذا بلغ ثماره فأتاه المساكين ، فلم يمنعهم من دخولها ، وأن يأكلوا منها ، وأن يتزودوا فيها .

فلما مات أبوهم ، قال بنوه بعضهم لبعض : على ما نعطي أموالنا هؤلاء المساكين ؟ فقالوا : فلندع من يصرفها قبل أن يعلم المساكين .

ولم يستثنوا فانطلقوا وهم يتخافتون ، ويقول بعضهم لبعض خفياً : أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فذلك قوله : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ يعني : حلفوا فيما بينهم .

﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ يعني : ليُجدنَّها وقت الصبح ، أي : ليقطعنها قبل أن يخرج المساكين .

﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ يعني : لم يقولوا : إن شاء الله تعالى .

وروي في الخبر : أن أباهم كان إذا أراد أن يصرم النخل ، اجتمع هناك مساكين كثيرة .

وقد جعل له علامة ، فكل ثمرة تسقط وراء العلامات ، كانت للمساكين .

فكانوا يأخذون الثمر قدر ما يتزودون به أياماً كثيرة .

(97/778)

فلما مات الرجل ، قال بنوه فيما بينهم : إن أبانا كان عياله أقل ، وحاجته أقل فصار عيالنا أكثر .

وحاجتنا أكثر فخرجوا بالليل ، كي لا يشعر بهم المساكين ، فاحترقت نخيلهم في تلك الليلة ، فذلك قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ ﴾ يعني : بعث الله تعالى ناراً على حديقتهم بالليل .

والطائف : الذي أتاك ليلاً فأحرقها وهم نائمون .

﴿ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ يعني : صارت الحديقة كالليل المظلم .

وقال القتبي : الصريم : من أسماء الأضداد .

يسمى الليل صريماً ، والصبح صريماً ، لأن الليل ينصرم عن النهار ، والنهار ينصرم عن الليل .

ويقال : الصريم يعني : ذهب ما فيها ، فكأنه صرم أي قطع وجز .

ثم قال : ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ يعني : نادى بعضهم لبعض ﴿ أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ ﴾ يعني : اخرجوا بالغداة جذوا زروعكم وصرام نخيلكم .

﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ يعني : إن أردتم أن تصرموها قبل أن يحضرها المساكين .

﴿ فانطلقوا ﴾ يعني : ذهبوا إلى نخيلهم ، ﴿ وَهُمْ يتخافتون ﴾ يعني : يتشاورون فيما بينهم بكلام خفي : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ ﴾ قال مقاتل : يعني : على جد في أنفسهم .

﴿ قادرين ﴾ على جنتهم ؛ وقال الزجاج : معناه على قصد ، وقال القتبي : الحرد المنع ، ويقال : الحرد القصد قادرين واجدين ؛ ويقال : على قوة ونشاط ، ويقال : على طريق جنتهم ، ويقال : الحرد اسم تلك الجنة .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ يعني : أتوها ورأوها مسودة ، أنكروها .

﴿ قَالُواْ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ يعني : أخطأنا الطريق ، وليست هذه جنتنا .

فلما تفحصوا وعلموا أنها جنتهم وأنها عقوبة لهم ، فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ يعني : حُرِمْنا منفعتها .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ يعني : أعدلهم وأعقلهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ يعني : هلا تستثنون في أيمانكم .

ويقال : كان استثناؤهم التسبيح يعني : لولا قلتم سبحان الله .

فندموا على فعلهم .

﴿ قَالُواْ سبحان ربّنَا ﴾ يعني : نزهوه وعظموه تائبين عن ذنوبهم ، ويقال : نستغفر ربنا .

﴿ إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ يعني : ضارين بأنفسنا بمنعنا المساكين .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ يعني : جعل يلوم بعضهم بعضاً لصنيعهم ذلك ، ثم

﴿ قَالُواْ ﴾ بأجمعهم : ﴿ قَالُواْ ياويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ يعني : عاصين بمنعنا المساكين .

ثم قالوا : ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ﴾ يعني : يعوضنا خيراً منها في الجنة .

﴿ إِنَّا إلى ربّنَا راغبون ﴾ يعني : راجين مما عنده .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ يعني : هكذا عذاب الدنيا لمن منع حق الله تعالى .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ لمن لم يتب ولم يرجع عن ذنبه .

ويقال : هكذا العذاب في الدنيا لأهل مكة بالجوع ، ولعذاب الآخرة أعظم .

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو كانوا يفقهون .

ويقال : لو كانوا يصدقون ، ثم ذكر ما للمتقين من الثواب .

فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ جنات النعيم ﴾ .

فلما ذكر الله تعالى نعيم الجنة ، قال عتبة بن ربيعة : إن كان كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لنا في الآخرة أكثر ما للمسلمين ، لأن فضلنا وشرفنا أكثر ، فنزل : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ يعني : لا يكون حال المسلمين في الهوان والذل كالمشركين .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ يعني : ويْحكم كيف تقضون بالجَوْر ؟ ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ ؟ يعني : ألكم كتاب تقرؤون فيه ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يعني : في الكتاب مما تتمنون .

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بالغة ﴾ ؟ يعني : ألكم عهد عندنا وثيق ؟ ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ .

يعني : في يوم القيامة .

(99/778)

﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ يعني : ما تقضون لأنفسكم في الآخرة ؟ .

قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بذلك زَعِيمٌ ﴾ يعني : أيهم كفيل لهم بذلك ؟ ثم قال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ ؟ يعني : شهداء يشهدون أن الذي قالوا لهم حق .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ يعني : يشهدون أن لهم في الآخرة ما للمسلمين ،

فهذا كله لفظ الاستفهام ، والمراد به الزجر واليأس ، يعني : ليس لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يعني : اذكر ذلك اليوم .

ويقال : معناه إن الثواب والعقاب .

الذي ذكر ، في يوم يكشف عن ساق .

قال ابن عباس : يعني : يظهر قيام الساعة .

وروى سفيان ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن عباس قال : ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ يعني : عن أمر عظيم ، وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ عن بلاء عظيم ، وقال قتادة : يكشف الأمر عن شدة الأمر .

﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ قال الفقيه : حدثنا الخليل بن أحمد حدثنا ابن منيع : حدثنا هدبة حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن عمارة القرشي ، عن أبي بردة بن أبي موسى قال : حدثنا أبي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مُثِّلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَذَهَبَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَيَبْقَى أَهْلُ التَّوْحِيدِ فَيُقَالُ لَهُمْ : كَيْفَ بَقِيتُمْ ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ ؟ فَيَقُولُونَ : إِنَّ لَنَا رَبًّا كُنَّا نَعْبُدُهُ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ نَرَهُ قَالَ أَوَ تَعْرِفُونَهُ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ . فَيُقَالُ لَهُمْ : وَكَيْفَ تَعْرِفُونَه وَلَمْ تَرَوْهُ ؟ قَالُوا : لا شَبَهَ لَهُ .

فَيُكْشفُ لَهُمُ الحِجَابُ ، فَيَنْظُرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَيَخرُّونَ لَهُ سُجّداً ، وَيَبْقَى أَقْوَامٌ ظُهُورُهُمْ مِثْلَ صِيَاصِي البَقَرِ ، فَيُرِيدُونَ السُّجُودَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ .

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى عِبَادِي ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ ، قَدْ جَعَلْتُ بَدَلَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ رَجُلاً مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى فِي النَّارِ " .

قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز ، فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، أحدثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلفت له ثلاثة أيمان ، فقال عمر : ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إلي من هذا الحديث .

وقال القتبي : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ هذا من الاستعارة ، فسمى الشدة ساقاً ، لأن الرجل إذا وقع في الشدة ، شمَّر عن ساقه ، فاستعيرت في موضع الشدة .

ويقال : يكشف ما كان خفياً .

ويقال : يبدؤون عن أمر شديد ، وهو عذاب عظيم يوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ يعني : ذليلة أبصارهم ، ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يعني : تغشاهم وتعلوهم كآبة وكشوف وسواد ؛ وذلك أن المسلمين ، إذا رفعوا رؤوسهم من السجود ، صارت وجوههم بيضاء كالثلج .

فلما نظر اليهود والنصارى والمنافقون ، وهم عجزوا عن السجود ، حزنوا واغتموا

فسودت وجوههم .

ثم بَيَّنَ المعنى الذي عجزهم عن السجود ، فقال : ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سالمون ﴾ يعني : يدعون إلى السجود في الدنيا وهم أصحاء معافون ، فلم يسجدوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث ﴾ يعني : دع هؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن .

ويقال : فوض أمرهم إليَّ ، فإني قادر على أخذهم متى شئت .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ يعني : سنأخذهم وسنأتيهم بالعذاب .

﴿ مّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : نذيقهم من العذاب درجة ، من حيث لا يعلمون أن العذاب نازل بهم .

وأصله في اللغة من الارتقاء في الدرجة .

(101/778)

وقال السدي : كلما جددوا معصية ، جدد لهم نعمة وأنساهم شكرها ، فذلك الاستدراج .

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ يعني : أمهل لهم وأؤجل لهم إلى وقت .

﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ يعني : عقوبتي شديدة إذا نزلت بهم لا يقدرون على دفعها .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ ؟ يعني : أتسألهم على الإيمان جملاً ؟ ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ يعني : لأجل الغرم يمتنعون .

وهذا يرجع إلى قوله : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ ؟ يعني : اللوح المحفوظ .

﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يعني : ما يقولون .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يعني : على ما أمر ربك ولقضاء ربك .

﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ يعني : لا تكن في قلة الصبر والضجر مثل يونس عليه السلام ﴿ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ يعني : مكروباً في بطن الحوت ، وقال الزجاج : ﴿ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غماً .

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعني : لولا النعمة والرحمة التي أدركته من الله تعالى ، ﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ يعني : لطرح بالصحراء .

والصحراء هي الأرض التي لا يكون فيها نخل ولا شجر ، يوارى فيها ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ يعني : يذم ويلام .

ولكن كان رحمة من الله تعالى ، حيث نبذ بالعراء وهو سقيم وليس بمذموم .

قوله تعالى : ﴿ فاجتباه رَبُّهُ ﴾ يعني : اختاره ربه للنبوة ، ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ يعني

: من المرسلين ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : أراد الذين كفروا .

﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ يعني : ليرهقونك بأبصارهم إن قدروا على ذلك .

ويقال : معناه إذا قرأت القرآن ، فينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة ، يكاد يزلقك أي : بالعداوة يسقطك من شدة النظر .

(102/778)

وذكر عن الفراء أنه قال : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ يعني : يعتانونك يعني : يصيبونك بعيونهم .

وذلك أن رجلاً من العرب ، كان إذا أراد أن يعتان شيئاً ، يقبل على طريق الإبل إذا صدرت عن الماء ، فيصيب منها ما أراد بعينه ، فأرادوا أن يصيبوا النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الكلبي : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ يعني : ليصرعونك .

﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ يعني : قراءتك القرآن ، ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لّلْعَالَمِينَ ﴾ يعني : ما هذا القرآن إلاَّ عظة للجن والإنس ؛ ويقال : عز وشرف للعالمين .

قرأ حمزة ، وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بهمزتين ، والباقون

بهمزة واحدة ، إلا ابن عامر ، فإنه يقرأ ﴿ إِن كَانَ ﴾ بالمد .

فمن قرأ بهمزتين ، فالألف الأولى للاستفهام ، والثانية ألف إن .

ومن قرأ بهمزة واحدة معناه : لأن كان ذا مال أي : لا تطعه لماله وتحمل لأن كان ذا مال .

قال : أساطير الأولين .

قرأ نافع : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ بنصب الياء ، والباقون بالضم ؛ وهما لغتان ، ومعناهما واحد ؛ والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 458 . 465 ﴾

(103/778)

وقال الثعلبى :

سورة القلم

﴿ ن ﴾ اختلف القراء فيه ، فأظهر بعضهم نونه ، وأخفاها الآخرون ، وقرأ ابن عباس (ن) بكسر النون على إضمار حرف القسم ، وقرأ عيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعّل ، واختلف المفسّرون في معناه ، فقال مجاهد ومقاتل ومرة الهمداني وعطاء الخراساني والسدي والكلبي : هو الحوت الذي يحمل الأرض ، وهي رواية أبي طيسان عن ابن عباس قال : أوّل ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن ، ثمّ رفع فخلق الماء فخلق منه السماوات ،

ثمّ خلق النون فبسط الأرض على ظهر النون ، فتحرّكت النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنّ الجبال لتفخر على الأرض ، ثمّ قرأ ابن عباس : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

واختلفوا في اسمه :

فقال الكلبي ومقاتل : يهموت ، وقال أبو اليقظان والواقدي وأبو كعب : لوسا ، وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه : يلهوت ، وقال الراجز :

ما لي أراكم كلكم سكوتاً . . . والله ربي خالق اليلهوتا

(104/778)

قالت الرواة : لمّا خلق الله تعالى الأرض وفتقها بعث الله سبحانه من تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتّى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب باسطتين قابضتين على الأرضين السبع ، حتى ضبطها ولم يكن لقدمه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم يستقر قدماه ، فاحدر الله تعالى ياقوتة حمراء من أعلى درجة في الفردوس ، غلظها مسيرة خمس مائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ،

ومنخراه في البحر ، فهو يتنفس كلّ يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر ، وإذا مدّ نفسه جزر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله صخرة خضراء كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرّت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لأبنه : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ الآية [لقمان : 16] ، فلم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم ، فوضع الصخرة على ظهره وبسائر جانبه ، والحوت على البحر على متن الريح ، والريح على القدرة وثقل الدنيا كلّها بما عليها حرفان من كتاب الله تعالى قال لها الجبّار : كوني ، فكانت .

وقال كعب الأحبار : إنّ إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلّها فوسوس إليه ، وقال : أتدري ما على ظهرك يالوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتهم ألقيتهم من ظهرك أجمع ، قال : فهمّ لوتيا أن يفعل ذلك ، فبعث الله تعالى دابّة فدخلت منخره ووصلت إلى دماغه فضج الحوت إلى الله تعالى منها ، فأذن لها فخرجت ، قال كعب : والذي نفسي بيده لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت .

وقال بعضهم : هي آخر حروف الرحمن ، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : ألر وحم ونون ، حروف الرحمن تبارك وتعالى مقطعة .

وقال الحسن وقتادة والضحاك : النون : الدواة ، وهي رواية ثابت اليماني عن ابن عباس ، وقال فيه الشاعر :

إذا ما الشوق يرح بي إليهم . . . ألقت النون بالدمع السجوم

وقال معاوية بن قرة : هو لوح من نور ، ورفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله تعالى به ، ابن كيسان : فاتحة السورة ، عطاء : افتتاح اسمه نور وناصر ونصير [القرظي] : أقسم الله تعالى بنصرته المؤمنين بيانه قوله : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] ، جعفر الصادق : هو نهر في الجنّة .

﴿ والقلم ﴾ وهو الذي كتب به الذكر ، وهو قلم من نور ما بين السماء والأرض ويقال : لمّا خلق الله تعالى القلم وهو أوّل ما خلقه نظر إليه فانشقّ نصفين ، ثمّ قال : اجرِ ، فقال : يا ربّ بم أجري ، فقال : بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك .

قال عطا : سألت الوليد بن عبادة بن الصامت ، كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت ؟ قال : دعاني فقال : أي بني اتقِ الله واعلم أنّك لن تتقي الله ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده والقدر خيره وشره ، إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ أوّل ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، فقال : يا ربّ وما أكتب ؟ فقال : اكتب العلم وقال : فجرى القلم في تلك الساعة وما هو كائن إلى الأبد " .

وحكي أنّ ابن الزّيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموماً ، وقال له : روّح عني يا بن الزّيات ، فأنشأ يقول :

اللهم فضل والقضاء غالب . . . وكان الخطّ في اللوح

انتظر الروح وأسبابه . . . أيئس ما كنت في الروح

وهل أراد بالقلم الخطّ والكتابة الذي امتنّ الله تعالى على عباده بتعليمه إياهم ؟ ذلك كما قال : ﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 4] .

وقد أكثر الحكماء والبلغاء في وصف القلم ونفعه فلم أُراد إخلال هذا الكتاب عن تدبر فصوصه ؟

(106/778)

فقال ابن هيثم : من جلالة القلم أنّه لم يكتب لله تعالى كتاب إلاّ به لذلك أقسم الله تعالى به .

وقيل : الأقلام مطايا الفطن ورسل الكرام .

وقيل : القلم الظِلم الأكبر . وقيل : البيان اثنان : بيان لسان وبيان بنان ، وفضل بيان البنان أنّ ما تثبته الأقلام باق على الأَيام ، وبيان اللسان تدرسه الأعوام .

وقال بعض الحكماء : قوام أمور الدين والدنيا شيئان : القلم والسيف ، والسيف تحت

العلم وفيه يقول شاعرهم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت . . . له الرقاب ودانت دون حذره الأمم

فالموت والموت لا شيء يغالبه . . . ما زال يتبع ما يجرى به القلم

كذا قضى الله للأقلام مذ بُرئت . . . إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وللصنوبري :

قلم من القصب الضعيف الأجوف . . . أمضى من الرمح الطويل الأثيف

ومن النصال إذا بدت لقيتها . . . ومن المهنّد للصقال المرهفِ

وأشدّ إقداماً من الليث الذي . . . يكوي القلوب إذا بدا في الموقف

أنشد أبو القيّم السدوني ، قال : أنشدني عبد السميع الهاشمي ، قال : أنشدني ابن صفون لأبي تمّام في معناه :

ولضربة من كاتب في بيانه . . . أمضى وأبلغ من رقيق حُسام

قوم إذا عزموا عداوة حاسد . . . سفكوا الدماء بأسنّة الأقلام

وللبحتري :

قوم إذا أجدوا الأقلام عن غضب . . . ثمّ استمدّوا بها ماء المنيّاتِ

نالوا بها من أعاديهم وأن كثروا . . . ما لا ينالوا على المشرفيات

وقال آخر :

ما السيف غضباً يضيء رونقه . . . أمضى على النائبات من قلمه

ولأبن الرومي :

في كفّه قلم ناهيك من قلم . . . نبلاً وناهيك من كفّ به انتشحا

يمحو ويُثبت أرزاق العباد به . . . فما المقادير إلاّ ما وحى ومحا

قال : وأنشد بعضهم في وصفه :

وأخرس ينطق بالمحكمات . . . وجثمانه صامت أجوف

كلّه ينطق في جفنه . . . وبالثام منطقه يُعرف

والآخر في وصفه :

نحف الشوى بعد ما على أم رأسه . . . ويحفى ويقوى عدوه حين يقطع

لجّ ظلاماً في نهار لسانه . . . ويُفهم عمّن قال ما ليس يسمع

(107/778)

اخذه وما شجرات نابتات بفقره . . . إذا قطعت حارت مطايا الأصابع

لهن بكاء العاشقين ولونهم . . . سوى أنّها يبكن سود المدامع

آخر :

هذا هو البيت الأول للبيتين التاليين .

يناط نحدّه الأفراد طرّاً . . . يحي بعض خلق أو ممات

بمشيه حيّة وبلون جان . . . وجرم متيم وشيما الطيبات

قوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يكتبون ، ويجوز أن يكون معناه ويسطرهم يعني السفرة . وقيل : جمع الكتبة ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعني أنّك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوّة . وقيل : بعصمة ربّك .

وقيل : هو كما يُقال : ما أنت بمجنون والحمد لله . وقيل : معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربّك كقولهم : سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، أي والحمد لك . وقال لبيد :

وأُفردت في الدنيا بفقد عشيرتي . . . وفارقني جار بأربد نافع

أي : وهو أربد .

وقال النابغة :

لم يحرموا حسن الغداء وأمّهم . . . طفحت عليك بناتق مذكار

أي : وهو ناتق .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع ولا منقوص من قولهم : حبل منين إذا كان غير متين .

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : دين عظيم ، وقال الحسن : كان

خلقه آداب القرآن ، ونقلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنها فقالت : كان خلقه القرآن . وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله ، وقال جنيد : سمي خلقه عظيماً لأنّه لم يكن له همّة سوى الله .

وقال الواسطي : لأنّه جاد بالكونين عوضاً عن الحقّ . وقيل : لأنّه عاشرهم بخلقه وزايلهم بقلبه ، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق ، وأوصى بعض الحكماء رجلا فقال : عليك بالحقّ مع الخلق والصدق مع الحقّ . وقيل : لأنّه امتثل بالدنيا لله تعالى إياه بقوله : ﴿ خُذِ العفو ﴾ [الأعراف : 199] الآية . وقيل : عظم لَه خُلقه حيث صغّر الألوان في عينه ليعرف لهذه مكونها .

(108/778)

وقيل : سمّي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه تدلّ عليه ما أخبرنا أبو القيّم الحسن ابن محمد المفسّر ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الصفّار ، حدّثنا ابن أبي الرما حدّثنا الدراوردي ، عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق " .

وقال : " أدّبني ربّي فأحسن تأديبي " .

أخبرنا أبو عمر وأحمد بن أبي الفرابي جد أبو العباس الأصم ، حدّثنا ابن عبد الحكم أخبرنا أبي وشعيب ، وأخبرنا الليث عن عمر بن أبي عمرو عن المطّلب بن عبد الله عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار " .

قال : وأخبرنا أحمد بن أبي الفرابي ، أخبرنا منصور بن محمد السرخسي ، حدّثنا محمد بن أيوب الرازي حدّثنا أبو الوليد حدّثنا شعبة عن القاسم وأبي قرة قال : سمعت عطاء الكيخاراني عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء أثقل في الميزان من خُلق حسن " .

أخبرنا أحمد بن السري العروضي في درب الحاجب ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد ابن جعفر العماني ، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي ، حدثني أبي ، حدّثنا عليّ بن موسى الرضا حدّثنا أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب رضي اله عنه قال : قال رسول الله : " عليكم بحسن الخُلق فإنّ حُسن الخُلق في الجنّة لا محالة ، وإياكم وسوء الخُلق فإنّ سوء الخُلق في النار لا محالة " .

أخبرنا ابن فنجويّه حدّثنا عبيد الله بن محمد بن شِنبه ، حدّثنا سمعان عن ابن الجارود حدّثنا صالح عن سعيد بن جبير عن أبي عثمان اليهري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبّكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الذين يألفون ويُؤلفون ، وأبغضكم إلى الله المشّاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأخوان الملتمسون للبراء العنت " .

﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ فسترى يا محمد ﴿ وَيُبْصِرُونَ ﴾ ويرون يعني الذين رموه بالجنون . ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ اختلف المفسرون في معنى الآية ووجهها ، فقال قوم : معناه بأيكم المجنون ، وهو مصدر على وزن المفعول كما يقال : ما لفلان مجنون ومعقود ومعقول أي جلادة وعقد وعقل ، قال الشاعر :

حتّى إذا لم يتركوا لعظامه . . . لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي عقلا ، وهذا معنى قول الضحاك : ورواية العوفي عن ابن عباس .

وقيل : الباء بمعنى في مجازه : فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك يا محمد أو في فريقهم .

والمفتون : المجنون الذي فتنه الشيطان . وقيل : تأويله بأيكم المفتون وهو الشيطان ، وهذا معنى قول مجاهد .

وقال آخرون : معناه : أيكم المفتون والباء زائدة لقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] و ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] وهذا قول قتادة والأخفش [وأبي عبيد] .

وقال الراجز :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج . . . نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين * فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ فيما دعوك عليه من دينهم الخبيث ، نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه ، ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال عطية والضحاك : لو تكفر فيكفرون .

(110/778)

وقال ابن عباس : برواية الوالبي لو ترخص فيرخصون ، قال الكلبي : لو تلن لهم فيلينون ، الحسن : لو تصانعهم دينك فيصانعون في دينهم ، زيد بن مسلم : لو تنافق وترائي فينافقون ، أبان ابن تغلب : لو تحابهم فيحابوك ، وقال العوفي : لو تكذب فيكذّبون ، عوف عن الحسن : لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم ، ابن كيسان : لو تقاربهم فيقاربوك .

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ ﴾ كثير الحلف بالباطل يعني : الوليد بن المغيرة وقيل : الأسود بن

عبد يغوث ، وقيل : الأخفش بن شديق . ﴿ مَّهِينٍ ﴾ ضعيف حقير .

وقال ابن عباس : كذّاب وهو قرين منه ؛ لأنّ الرجل إنّما يكذّب لمهانة نفسه عليه . وقال قتادة : المكثار في الشر . ﴿ هَمَّازٍ ﴾ مغاتب يأكل لحوم الناس . وقال الحسن : هو الذي يعيب ناحية في المجلس لقوله : همزة . ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ قتادة : يسعى بالنميمة يفسد بين الناس .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس : يعني للإسلام يمنع ولده وعشيرته من الإسلام ويقول : لأن دخل واحد منكم في دين محمد لا انفعه بشيء أبداً . وقال الآخرون : يعني بخيل بالمال ضنين به عن الحقوق .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ غشوم ظلوم . ﴿ أَثِيمٍ ﴾ فاجر .

﴿ عُتُلٍّ ﴾ قال ابن عباس : العتل : الفاتك الشديد المنافق . وقال عبيد بن عمير : العتلّ الأكول الشروب القويّ الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعره ، يدفع الملك من أولئك سبعين ألف دفعة .

وقال عليّ والحسن : العتلّ : الفاحش الخلق السيّيء الخلق . وقال يمان : هو الجافي القاسي اللئيم العشرة . وقال مقاتل : الضخم . وقال الكلبي : هو الشديد في كفره ، وكلّ شديد عند العرب عتلّ وأصله من العَتل وهو الدفع بالعنف .

﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي مع ذلك ﴿ زَنِيمٍ ﴾ وهو الدعي الملحق النسب الملصق بالقوم وليس

منهم . قال الشاعر :

زنيم تداعاه الرجال زيادة . . . كما زيد في عرض الأديم الأكارعِ

وقال حسّان بن ثابت :

(111/778)

وأنت دعي نيط في آل هاشم . . . كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال آخر :

زنيم ليس يعرف مَنْ أبوه . . . بغي الام ذو حسب لئيم

فقال مرّة الهمداني : إنّما ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة ، هذا قول أكثر المفسرين .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الزنيم : الذي لا أصل له . وقيل : هو الذي له زنمة كزنمة الشاة .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : في هذه الآية الكريمة نعت فلم يعرف حتّى قيل زنيم فعرف ، وكانت له زنمه في عنقه يعرف بها . وقال عكرمة : الزنيم : المعروف [بلؤمه] كما تعرف الشاة بزنمتها . وقال الشعبي : هو الذي له علامة في [الشر] تعرف كما تعرف الشاه بزنمتها . وقال القرطبي وسعيد بن جبير و [عكرمة] : هو الكافر الهجين المعروف بالشرّ

المريب .

وقال الوالبي عن ابن عباس : الزنيم : الظلوم .

أخبرنا أبو عبد الله ابن فنجويه حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيفي حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل حدثني أبي حدّثنا وكيع حدّثنا عبد الحميد عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن عمر قال : " سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العتلّ الزنيم فقال : " هو الشديد الخُلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشروب الظلوم للناس رحيب الجوف " .

أخبرنا ابن فنجويه حدّثنا محمد بن الحسن بن عليّ القطيفي حدّثنا أحمد بن عبد الله بن رزين العقيلي حدّثنا صفوان بن صالح حدّثنا الوليد بن مسلم حدثني أبو شيّة إبراهيم بن عثمان عن عثمان بن عمير عن شهر بن حوشب عن سداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنّة جواظ ولا جعظري ولا عتل ولا زنيم " قال : قلت : فما الجواظ ؟

قال : "كلّ جمّاع منّاع " .

قلت : فما الجعظري ؟

قال : " الفظ الغليظ " .

قلت : فما العتل الزنيم ؟

قال : "كلّ رحب الجوف بئر الحلق أكول شروب غشوم ظلوم" .

(112/778)

أخبرنا ابن فنجويه حدّثنا ابن حبش المقري حدّثنا ابن زنجويه حدّثنا سلمة حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ زَنِيمٍ ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تبكي السماء من رجل أصحّ الله جسمه وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضماً في المصدر بعضاً فكان للناس ظلوماً ، فذلك العتل الزنيم ، قال : وتبكي السماء من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تقلّه " .

وروي الثمالي عن مجاهد في الزنيم قال : كانت له ست أصابع في يده في كل إبهام له أصبع زائدة . وأكثر العلماء على أن الزنيم الدعي الشرير ، وقد ورد في هذا الباب أخبار غرائب نذكر من بعضها وبالله التوفيق :

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين بن عبد الله المقري حدّثنا محمد بن الحسن بن بشير حدّثنا ابن خوصا ، أخبرنا ابن خنيق حدّثنا يوسف بن أسباط عن أبي إسرائيل الملائي ، عن فضيل ابن عمر والفقمي عن مجاهد عن ابن عمر عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله

عليه وسلم قال :

" لا يدخل الجنّة ولد زنى ولا ولده ولا ولد ولده " .

أخبرنا الحسين بن محمد حدّثنا محمد بن الحسن بن بشر ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد الطواسعي ، حدّثنا أبو بدر عباد بن الوليد حدّثنا حيّان بن هلاك حدّثنا حماد بن سلمة ، عن عليّ بن زيد بن عياض عن عيسى بن حطان عن عبد الله بن عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ أولاد الزنى يُحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير " .

(113/778)

أخبرنا الحسن بن محمد ، حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي ، حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدّثني أبي ، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي ، حدّثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبي رافع عن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تزال أمّتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنى فإذا فشا فيهم ولد الزنى فيوشك أن يعمّهم الله تعالى بعقاب " .

أخبرنا الحسن بن محمد حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي حدّثنا إبراهيم بن الحسن الآدمي

حدّثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي حدّثنا سعيد بن أوس حدّثنا أبو الأشهب هو العطاردي قال : سمعت عكرمة يقول : إذا كثر أولاد الزنى قلّ المطر .

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب ﴿ أَن ﴾ بالمد واختاره أبو حاتم وقرأ حمزة وعاصم برواية أبي بكر ﴿ أَن ﴾ بهمزتين ، وغيرهم بالجرّ .

فمن قرأ بالاستفهام فله وجهان : أحدهما : الآن كان ذا مال وبنين ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ ، والآخر : الآن كان ذا مال وبنين تطيعه . ومن قرأ على الخبر فمعناه : فلا تطع لأيّ كان .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ قال ابن عباس : سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه قال : فقاتل يوم بدر : فخطم بالسيف بالقتال ، وقال قتادة : سنخلق به شيئاً ، يقول العرب للرجل يسبّ الرجل سبّة قبيحة باقية : قد وسمه ميسم سوء ، يريدون الصق به عاراً لا يفارقه ، كما أنّ السمة لا تنمحي ولا يعفو أثرها . قال جرير :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي . . . وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

أراد به الهجاء .

(114/778)

وقال أبو العالية ومجاهد : سنسمه على أنفه ونسوّد وجهه فنجعل له علامة في الآخرة يعرف سواد وجهه ، الضحاك والكسائي : يشكونه على وجهه . وقال حريز بن محمد بن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ما يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم . قال الفرّاء : وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنّه في مذهب الوجه . لأنّ بعض الشيء يعبّر به عن كله ، وقد مرّ هذا الباب .

قال النضر بن شميل : معناه سنحدّه على شربه الخمر ، والخرطوم : الخمر وجمعه خراطيم . وقال الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي طرب . . . وأنت بالليل شرّاب الخراطيم

قوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يعني اختبرنا وامتحنّا أهل مكّة بالقحط والجوع . ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة ﴾ .

(115/778)

أخبرنا أبو عمرو الفرابي أخبرنا أبو موسى أخبرنا الحريري حدّثنا فارس بن عمر حدّثنا صالح بن محمد حدّثنا محمد بن مزوان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة ﴾ قال : بستان باليمن يقال لها القيروان

دون صنعاء بفرسخين ، يطأه أهل الطريق ، وكان غرسه قوم من أهل الصلاة ، وكانت لرجل فمات فورثه بنين له ، فكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل فلم تجدّه ، فإذا طرح من فوق المنجل أملى البساط ، فكل شيء يسقط على البساط فهو أيضاً للمساكين ، فإذا حصدوا زروعهم فكل شيء تعدّاه المنجل فهو للمساكين ، وإذا داسوا كان لهم كل شيء ينثر ، فلما مات الأب ورثها هؤلاء الأخوة عن أبيهم ، فقالوا : والله إنّ المال لقليل وإنّ العيال لكثير إنّما كان يفعل هذا الأمر إذا كان كثيراً والعيال قليلا ، فأمّا إذا قلّ المال وكثر العيال فإنّا لا نستطيع أن نفعل هذا ، فتحالفوا بينهم يوماً ليعدون عدوة قبل خروج الناس فليصرمن نخلهم ولم يستثنوا لم يقولوا إن شاء الله فغدا القوم بسدف من الليل إلى جنّتهم ليصرموها فرأوها مسودّة ، وقد طاف عليها من الليل طائف من عذاب أصابها فأحرقها فأصبحت كالصريم فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ حلفوا ، ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ لتجدّيها ولتقطيع ثمرها ، ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ إذ أصبحوا قبل أن يعلم المساكين ، ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ لا يقولون إن شاء الله ، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ ﴾ عذاب ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولا يكون الطائف إلاّ بالليل ، وكان ذلك الطائف ناراً أنزلت من السماء فأحرقتها .

﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ كالليل المظلم الأسود ، قال الشاعر :

تطاول ليلك الجون البهيم . . . فما ينجاب عن صبح صريم

وقال الحسن : صرم عنها الخير فليس فيها شيء ، ابن كيسان : كالجرة السوداء ، ابن زيد : كالأرض المصرومة ، الأخفش : كالصبح انصرم من الليل ، وقال المروّج : كالرملة انصرمت من معظم الرمل ، وأصل الصريم : المصروم ، وكلّ شيء قطع من شيء فهو صريم ، فالليل صريم والصبح صريم ، لأنّ كلّ واحد منهما ينصرم عن صاحبه . قال ابن عباس : كالرماد الأسود بلغة حذيم .

﴿ فَتَنَادَوْاْ ﴾ نادى بعضهم بعضاً ﴿ مُصْبِحِينَ * أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فانطلقوا ﴾ فمضوا إليها ﴿ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ يتشاورون يقول بعضهم لبعض : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : على قدرة قادرين في أنفسهم . وقال أبو العالية والحسن : على جد وجهد . وللنخعي والقرطبي ومجاهد وعكرمة : على أمر مجتمع قد أسّسوه بينهم . وروى معمر عن الحسن قال : على فاقة ، وقيل : على قوّة ، وقال السدي : الحرد : اسم الجنّة . وقال سفيان : على حنق وغضب ، ومنه قول الأشهب بن رملة :

أسود شرى لاقت أسود خفية . . . تساقوا على حرد دماء الأساود

وفيه لغتان حرّد وحَرَد ، مثل الدرّك والدرك ، وقال أبو عبيدة والقتيبي : على منع والحرد ، والمحاردة : المنع ، تقول العرب : حاردت السنة ، إذا لم يكن فيها مطر ، وحاردت الناقة إذا

لم يكن لها لبن .

قال الشاعر :

فإذا ما حاردت أو بكأت . . . فت عن حاجب أخرى طينها

وقيل : على قصد ، قال الراجز :

وجاء سيل كان من أمر الله . . . يحرد حرد الجنّة المغلة

وقال آخر :

إمّا إذا حردت حردي فمجرية . . . ضبطاء تسكن غيلا غير مقروب

(117/778)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قالوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ لمخطئوا الطريق فليس هذه بجنتنا . فقال بعضهم : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا خيرها ونفعها لمنعنا المساكين وتركنا الإستثناء ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم ، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ هلاّ تستثنون ، قال أبو صالح : إستثناءهم : سبحان الله . وقيل : هلا تسبحون الله وتقولون : سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم . وقيل : هلاّ تستغفرونه من فعلكم .

﴿ قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ ﴾ ننزهه على أن يكون ظالماً ، وأقرّوا على أنفسهم بالظلم فقالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ * قَالُواْ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ في منعنا حقّ الفقراء وتركنا الاستثناء ، وقال ابن كيسان : طغينا نعم الله فلم نشكرها .

﴿ عسى رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ ﴾ ، قرأ الحسن وعاصم والأخفش وابن محيص بالتخفيف ، وغيرهم بالتشديد ، وهما لغتان وفرق قوم بينهما ، فقال : التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم ، والابدال رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه . قال عبد الله بن مسعود : بلغني أنّ القوم أخلصوا وعرف الله تعالى منهم الصدق ، فأبدلهم بها جنّة يقال لها : الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً . وقال بكر بن سهل الدمياطي : حدّثني أبو خالد اليمامي أنه رأى تلك الجنّة ، وقال : رأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم .

﴿ إِنَّآ إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ العذاب ﴾ أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا وخالف أمرنا .

(118/778)

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النعيم أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ نزل من عند الله سبحانه

وتعالى . ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ تقرؤون ما فيه . ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ ﴾ في ذلك الكتاب ﴿ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارون وتشتهون ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ عهود ومواثيق ﴿ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾ كما عهدناكم علمه ووعدناكم فاستوثقتم بها منا ، فلا ينقطع عهدكم ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة إِنَّ لَكُمْ ﴾ كسر ﴿ أَن ﴾ لدخول اللام فيه في ذلك العهد . ﴿ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ تقضون وتريدون فيكون لكم حكمكم . ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ زَعِيمٌ ﴾ كفيل ، والزعيم : الرسول ها هنا قاله الحسن وابن كيسان قائم بالحجة والدعوى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ أرباب تفعل هذا . وقيل : شهداء يشهدون لهم بصدق ما يدّعونه .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ أي عن أمر شديد فظيع ، وهو إقبال الآخرة . قرأه العامة بياء مضمومة ، وقرأ ابن عباس بتاء مفتوحة ، أي يكشف القيامة عن ساقها . وقرأ الحسن بتاء مضمومة ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ أي عن أمر شديد فظيع ، وهو إقبال الآخرة وذهاب الدنيا وهذا من باب الإستعارة ، يقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى جد وجهد ومعاناة ومقاساة للشدة : شمّر عن ساقه ، فاستعير الساق في موضع الشدة .

قال دريد بن الصمّة يرثي رجلا :

كميش الازار خارج نصف ساقه . . . صبور على الجلاء طلاع أنجد

ويقال للأمر إذا اشتدّ وتفاقم وظهر وزالت عماه : كشف عن ساقه ، وهذا جائز في اللغة ، وإن لم يكن للأمر ساق وهو كما يقال : أسفر وجه الأمر ، واستقام صدر الرأي . قال الشاعر يصف حرباً :

كشفت لهم عن ساقها . . . وبدا من الشر الصراح

وأنشد ابن عباس :

(119/778)

اصبر عناق أنّه شرّ باق . . . قد سنّ لي قومك ضرب الأعناق

وقامت الحرب بنا على ساق . . . . وقال آخر :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا . . . وجدت الحرب بكم فجدّوا

والعرب تقول له : الحرب كشفت عن ساقها .

قال الشاعر :

عجبت من نفسي ومن إشفاقها . . . ومن طراد الطير عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها . . . حمراء تبري اللحم عن عراقها

ونحو ذلك قال أهل التأويل .

أخبرنا أبو بكر بن عبد أوس ، أخبرنا أبو الحسن محفوظ ، حدّثنا عبد الله بن هاشم ، حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفير عن عاصم ، عن سعيد بن جبير : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : عن شدّة الأمر . وقال ابن عباس : هي أشد ساعة في يوم القيامة .

وقال الربيع عن العطا : أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا أحمد بن جعفر بن سلم الجتلي ، حدّثنا محمد بن عمر وابن مسعدة البيروتي ، حدّثنا محمد بن الوزير السلمي ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، حدّثنا روح بن جناح عن مولى عمر بن عبد العزيز عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري ، " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : " نور عظيم يخرّون له سجّداً " .

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد الرومي يقرأ أبي عليه في مسجده يوم السبت لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، حدّثنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج ، حدّثنا زهير بن محمد ، حدّثنا عبد الرحمن بن المبارك ، حدّثنا قريش بن حيان العجلي ، حدّثنا بكر بن وائل عن الزهري عن أبي عبد الله الأغر " عن أبي هريرة قال : قلنا : يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة ؟

قال : " هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " .

قلنا : لا .

قال : " فهل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ " . قلنا : لا .

(120/778)

قال : " فإنّكم ترون كذلك ، إذا كان يوم القيامة جُمع الأوّلون والآخرون ، ونادى مناد : من كان يعبد شياً فليلزمه ، وترفع لهم آلهتهم التي كانوا يعبدون فتمضي ويتبعونها حتى يقذفهم في النار ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيقال لهم : ذهب الناس وبقيتم فيقولون : لنا ربّ لم نره بعد ، قال : يقول هل تعرفونه ؟ فيقولون : إن بيننا وبينه آية إذا رأيناه عرفناه ، فيكشف لهم عن ساق فيخرون له سجداً ، ويبقى أقوام ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون " .

أخبرنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم قراءة عليه في جمادي الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، أخبرنا أبو بكر الشافعي ، حدّثنا أبو قلابة الرقاشي ، حدّثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، حدّثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأخذ الله تعالى للمظلوم من الظالم ، حتى لا يبقى مظلمة عند أحد حتى أنه يكلف شائب

اللبن بالماء ثمّ يتبعه أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله فلا يبقى أحدٌ عبد شيئاً من دون الله إلاّ مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم ، فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ، ثمّ يلونهم ، وقيل : تلونهم آلهتهم إلى النار ، وهم الذين يقول الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 99] فإذا لم يبق إلاّ المؤمنون ، وفيهم المنافقون قال الله لهم : ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون .

(121/778)

فيقولون : ما لنا إله إلاّ الله وما كنا نعبد غيره ، فينصرف الله تعالى فيمكث ما شاء أن يمكث ، ثمّ يأتيهم فيقول : أيّها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون والله ما لنا إله إلاّ الله وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربّهم ، فيخرون سجّداً على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه يجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ، ثمّ يضرب الصراط بين ظهراني جهنم " .

أخبرنا عقيل بن محمد بن أحمد أن أبا الفرج البغدادي القاضي ، أخبرهم عن أبي جعفر

الطبري ، حدّثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدّثنا أبي وشعيب بن الليث عن الليث ، حدّثنا خالد بن يزيد بن أسلم عن أبي هلال ، قال أبو جعفر : وحدثني موسى بن عبد الرحمن بن المسروقي ، حدّثنا جعفر بن عون ، حدّثنا هشام بن سعيد ، حدّثنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ألا ليلحق كل أمة بما كانوا يعبدون (فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم وأصحاب الأوثان مع أوثانهم وأصحاب كلّ آلهة مع آلهتهم) فلا يبقى أحد كان يعبد صنماً ولا وثناً ولا صورة إلاّ ذهبوا حتى يتساقطون في النار ، ويبقى من كان يعبد الله وحده من بر وفاجر وغبرات من أهل الكتاب ، ثمّ يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب يحطم بعضها ، بعضاً ثمّ يدعى اليهود فيقال : ماذا كنتم تعبدون ؟ فيقولون : عزير بن الله فيقول : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا ظمئنا أسقنا فيقول : أفلا تردّون فيذهبون حتى يتساقطون في النار ، ثمّ يدعى النصارى فيقول : ماذا كنتم تعبدون ؟

(122/778)

فيقولون : المسيح ابن الله فيقول : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تريدون ؟ فيقولون : أي ربّنا ظمئنا اسقنا ، فيقول : أفلا تردّون فيذهبون فيتساقطون في النار ، فيبقى مَن كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر ، ثمّ يأتي الله تعالى جل جلاله لنا في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أوّل مرة ، فيقول : أيها الناس لحقت كل أمة بما تعبد ، ونحن ننظر ربنا الذي كنا نعبد ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيقول : هل بينكم وبين الله من آية تعرفونها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فيخرون سجداً لله تعالى أجمعون ، ولا يبقى من كان سجد في الدنيا سمعةً ورياءً ولا نفاقاً إلاّ صار ظهره طبقاً واحداً ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثمّ يدفع برّنا ومسيئنا وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أوّل مرّة ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعم أنت ربّنا ثلاث مرّات " .

(123/778)

وبه قال أبو جعفر بن جرير الطبري ، حدّثنا أبو لهب ، حدّثنا أبو بكر ، حدّثنا الأعمش ، عن المنهال عن قيس بن بكر ، قال : حدثني عبد الله وهو عند عمر قال : إذا كان يوم القيامة يقوم الناس بين يدي رب العالمين أربعين عاماً ، شاخصة أبصارهم إلى السماء ، حفاة عراة يلجمهم العرق ، ولا يُكلّمهم بشيء أربعين عاماً ، ثمّ ينادي مناد : يا أيها الناس

أليس عدلا من ربكم الذي خلقكم وصوّركم ورزقكم ثمّ عبدتم غيره أن يولي كل قوم ما تولوا ؟ قالوا : نعم ، قال : فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم في النار ، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال : ألا تذهبون قد ذهب الناس ؟ فيقولون : حتى يأتينا ربّنا ، قال : وتعرفونه ؟ قالوا : إن اعترف لنا ، قال : فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم فيخرّ من كان يعبده ساجداً ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأنّ في ظهورهم السفافيد فيذهب بهم إلى النار ويدخل هؤلاء الجنّة ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (*) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضاً من الثلج ، وتسوّد وجوه الكافرين والمنافقين .

﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ ﴾ في الدنيا . ﴿ إِلَى السجود وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ أصحاء فلا يأتونه ويأبونه .

قال إبراهيم : التيمي : يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة فيأبونه . وقال سعيد بن جبير : كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيئون . قال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلاّ في الذين يتخلّفون عن الجماعات .

ويروى أنّ ربيع بن الجثم عرض له الفالج فكان يتهادى بين رجلين إلى المسجد ، فقيل له : يا أبا يزيد لو جلست فإن لك رخصة ، قال : من سمع حي على الفلاح فليجب ولو حبواً . قيل لسعيد بن المسيب : إنّ طارقاً يريد قتلك فتغيّب ، فقال : أحيث لا يقدره عليّ الله ، فقيل له : فاجلس ، فقال : أسمع حيّ على الفلاح فلا أجيب .

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث ﴾ أي فدعني والمكذبين بهذا القرآن . ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ سنأخذهم ﴿ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيعذّبوا يوم بدر . وقيل : معناه سنزيدهم حزناً وخذلاناً فيزدادوا عصياناً وطغياناً .

وقال سفيان الثوري : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر . وقال [العباد] : لم نعاقبهم في وقت مخالفتهم فيستيقظوا بل أمهلناهم ومددنا لهم في النعم حتى زال عنهم خاطر التدبير ، فكانوا منعّمين في الظاهر مستدرجين في الحقيقة .

وقال الحسن : كم مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فاصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ في الضجر والغضب والعجلة وهو يونس (عليه السلام) .

﴿ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مغموم ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ ﴾ أدركه ، وفي مصحف عبد الله (تداركته) بالتاء . ﴿ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ حين رحمه وتاب عليه ﴿ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ مليم مجرم . ﴿ فاجتباه رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين * وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وذلك أنّ الكفار أرادوا أن يعيّنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصيبوه بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش ، وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حججه .

(125/778)

وقيل : كانت العين في بني أسد ، حتى أن كانت الناقة السمينة والبقرة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثمّ يقول : يا جارية خذي المكيل والدرهم فاتينا بلحم من لحم هذه البقرة ، فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ، ثمّ يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول : لم أرَ كاليوم إبلا ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلاّ قريباً حتى يسقط منها طائفة وعدة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ويفعل به مثل ذلك ، فأجابهم وأنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيداً . . . وأخال أنّك سيد معيون

فعصم الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم وأنزل ﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : ويكاد الذين كفروا . ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ دخلت اللام لمكان إن ، وقرأ الأعمش وعيسى " ليرهقونك " ، وهي قراءة ابن عباس وابن مسعود أي يهلكونك ، وقرأ أهل المدينة بفتح الياء " لَيَزْلِقُونَكَ " ، وقرأ غيرهم بضمه ، وهما لغتان ، يقال : زلّقه تزلقه زلقاً ، أزلقه تزلقه إزلاقاً بمعنى واحد ، واختلفت عبارات المفسرون في تأويله .

قال ابن عباس : يقذفونك بأبصارهم ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ .

ويقال : زهق السهم وزلق إذا نفذ ، وقال قتادة ، بمعنى يزهقونك ، معمر عن الكلبي : يصرعونك ، حيان عنه : يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، عطية : يرجونك ، المؤرخ : يزيلونك ، النضر بن شميل والأخفش : يعينونك ، قال عبد العزيز بن يحيى : ينظرون إليك نظراً شزراً بتحديق شديد يروّعنك به ويظهرون العداوة لك . السدي : يصيبونك بعيونهم ، ابن زيد : ليمسوك ، جعفر : ليأكلونك ، الحسن وابن كيسان : ليقتلونك ، وهذا كما يقال : صرعني بطرفه وقتلني بعينه ، وقال الشاعر :

ترميك مزلقة العيون بطرفها . . . وتكلّ عنك نصال نبل الرامي

وقال آخر :

يتقارضون إذا التقوا في موطن . . . نظراً يزيل مواطئ الأقدام

وقال الحسن : دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان هذه الآية . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العين حق ، وأن العين لتُدخل الرجل القبر ، والجمل القدر " .

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ ﴾ يعني محمداً ، وقيل : القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 5.24 ﴾

(127/778)

وقال الزمخشرى :

سورة ن

مكية ، وهي اثنان وخمسون آية [نزلت بعد العلق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القلم (68) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1)

قرئ : ن والقلم بالبيان والإدغام ، وبسكون النون وفتحها وكسرها ، كما في ص . والمراد هذا الحرف من حروف المعجم : وأمّا قولهم : هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى أم

شرعي ؟

ولا يخلو إذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما ، فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علما فأين الإعراب ، وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام .

فإن قلت :

هو مقسم به وجب إن كان جنسا أن تجرّه وتنوّنه ، ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة ، كأنه قيل : ودواة والقلم ، وإن كان علما أن تصرفه وتجرّه ، أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحوت : إما أن يراد نون من النينان . أو يجعل علما لليهموت « 1 » الذي يزعمون ، والتفسير باللوح من نور أو ذهب ، والنهر في الجنة نحو ذلك . وأقسم بالقلم : تعظيما له ، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف وَما يَسْطُرُونَ وما يكتب من كتب . وقيل : ما يستره الحفظة ، وما موصولة أو مصدرية . ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير في يَسْطُرُونَ لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم . أو وسطرهم ، ويراد بهم كل ما يسطر ، أو الحفظة .

[سورة القلم (68) : الآيات 2 إلى 3]

ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3)

فإن قلت : بم يتعلق الباء في بِنِعْمَةِ رَبِّكَ وما محله ؟ قلت : يتعلق بمجنون منفيا «2» ، كما

يتعلق بعاقل مثبتا في قولك : أنت بنعمة اللّه عاقل ، مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك : ضرب زيد عمرا ، وما ضرب زيد عمرا : تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا ،

---

(1) . قوله «أو يجعل علما اليهموت» لعله باليهموت بالموحدة كعبارة غيره ، فليحرر . (ع)

(2) . قوله «يتعلق بمجنون منفيا» في النسفي تتعلق بمحذوف ، ومحله النصب على الحال . والعامل فيهما بِمَجْنُونٍ . (ع)

(128/778)

ومحله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك «1» ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي . والمعنى ، استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسدا ، وأنه من إنعام اللّه عليه بحصافة العقل «2» والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة ، بمنزل وَإِنَّ لَكَ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه لَأَجْراً لثوابا غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مقطوع كقوله عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أو غير ممنون عليك به «3» ، لأنه ثواب تستوجبه «4» على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، وإنما تمنّ الفواضل لا الأجور على الأعمال .

[سورة القلم (68) : آية 4]

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات «5» من قومه وحسن مخالفته ومداراته لهم. وقيل: هو الخلق الذي أمره اللّه تعالى به في قوله تعالى خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ وعن عائشة رضى اللّه عنها: أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن: قد أفلح المؤمنون «6».

[سورة القلم (68) : الآيات 5 إلى 6]

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

الْمَفْتُونُ المجنون، لأنه فتن: أى محن بالجنون. أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن، وهم الفتان للفتاك منهم، والباء مزيدة. أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود، أى: بأيكم

---

(1). قوله «منعما عليك بذلك» كذا في النسفي بعد ما سبق فيه ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أى بانعامه عليك بالنبوة وغيرها. وهذا مرجع الاشارة. (ع)

(2). قوله «وإنه من إنعام اللّه بحصافة» لعله من إنعام اللّه عليه بحصافة العقل أى استحكامه. كما أفاده الصحاح. (ع)

(3). قال محمود: «معناه غير مقطوع، كقوله عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ . . . الخ» قال أحمد:

ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا . وهو صلى اللّه عليه وسلم يقول «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله قيل : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه بفضل منه ورحمة» ولقد بلغ بالزمخشرى سوء الأدب إلى حد يوجب الحد ، وحاصل قوله : أن اللّه لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة لأنه قام بواجب عليه ، نعوذ باللّه من الجرأة عليه .

(4) . قوله «لأنه ثواب تستوجبه على عملك» وجوب الثواب عليه تعالى مذهب المعتزلة ، ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة . (ع)

(5) . قوله «احتماله الممضات» أى : الموجعات . أفاده الصحاح . (ع)

(6) . أخرجه مسلم من رواية زرارة ابن أبى أوفي عن سعد بن هشام عنه ، وفيه قصة ، وأخرجه الحاكم مختصرا بلفظ المصنف .

(129/778)

الجنون . أو بأى الفريقين منكم الجنون «1» ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين ؟ أى : في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم : وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما ، وهذا كقوله تعالى سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ .

[سورة القلم (68) : الآيات 7 إلى 9]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8)
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله وَهُوَ أَعْلَمُ بالعقلاء وهم المهتدون . أو يكون وعيدا ووعدا ، وأنه أعلم بجزاء الفريقين فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد اللّه مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عنه غوائلهم لَوْ تُدْهِنُ لو تلين وتصانع فَيُدْهِنُونَ . فإن قلت : لم رفع فَيُدْهِنُونَ ولم ينصب بإضمار «أن» وهو جواب التمني ؟ قلت : قد عدل به إلى طريق آخر : وهو أن جعل خبر مبتدإ محذوف ، أى : فهم يدهنون ، كقوله تعالى فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ . أو ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون ، لطمعهم في إدهانك . قال سيبويه : وزعم هرون أنها في بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا .

[سورة القلم (68) : الآيات 10 إلى 16]

وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)
عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14)
إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

حَلَّافٍ كثير الحلف في الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف . ومثله قوله تعالى

وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ . مَهِينٍ من المهانة وهي القلة والحقارة ، يريد القلة في الرأى والتمييز . أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس هَمَّازٍ عياب طعان . وعن الحسن . يلوى شدقيه في أقفية الناس مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مضرب «2» نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم . والنميم والنميمة : السعاية ، وأنشدنى بعض العرب :

---

(1) . قوله «أو بأى الفريقين منكم الجنون» لعله المجنون . وفي النسفي . قال الزجاج : الباء بمعنى في . تقول :

كنت ببلد كذا ، أى : في بلد كذا ، وتقديره : في أيكم المفتون ، أى : في أى الفريقين منكم المجنون . (ع)

(2) . قوله «مضرب نقال» في الصحاح «التضريب بين القوم» : الإغراء . (ع) [. . . . .]

(130/778)

تشبّبى تشبّب النّميمه تمشى بها زهرا إلى تميمه «1»

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ بخيل . والخير : المال . أو مناع أهله الخير وهو الإسلام ، فذكر الممنوع منه دون الممنوع ، كأنه قال : مناع من الخير . قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي : كان موسرا ، وكان له عشرة من البنين ، فكان يقول لهم وللحمته : «2» من أسلم منكم منعته رفدي عن

ابن عباس . وعنه : أنه أبو جهل . وعن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث . وعن السدى : الأخنس ابن شريق ، أصله في ثقيف وعداده في زهرة ، ولذلك قيل : زنيم مُعْتَدٍ مجاوز في الظلم حده أَثِيمٍ كثير الآثام عُتُلٍّ غليظ جاف ، من عتله : إذا قاده بعنف وغلظة بَعْدَ ذِلكَ بعد ما عدّله من المثالب والنقائص زَنِيمٍ دعى «3» . قال حسان :

وأنت زنيم نيط في ءال هاشم كما نيط خلف الرّاكب القدح الفرد «4»

وكان الوليد دعيا في قريش ليس من سنخهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده . وقيل : بغت أمّه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية ، جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأنّ الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها . ومن ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده» «5» وبَعْدَ ذِلكَ نظير ثُمَّ في قوله ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وقرأ الحسن : عتل ،

---

(1) . لأعرابى يخاطب النار . والتشبب : التوقد . والتميمة : تزوير الكلام وتزويقه للافساد بين الناس . وثوب منمم ومنمنم : منقش محسن . وزهرا - بالفتح - : اسم امرأة نمامة . وتميمة : قبيلة تميم ، ونزل النار منزلة العاقل فأمرها وقال : اشتعلى كاشتعال النميمة حال كونها تمشى بها هذه المرأة إلى بنى تميم ، وكانت كثيرة الإفساد بين العرب ، حتى ضرب بها المثل ، وجعل اشتعال نميمتها أبلغ من اشتعال النار ، فأمرها أن تتوقد

كتوقدها ، وبين نميمة وتميمة الجناس اللاحق .

(2) . قوله «يقول لهم وللحمته» في الصحاح «اللحمة» بالضم : القرابة . (ع)

(3) . قال محمود : «العتل الجافي ، والزنيم الداعي ، وكذلك كان الوليد بن المخزومي استلحقه المغيرة بعد ثمان عشر من مولده . . . الخ» قال أحمد : وإنما أخذ كون هذين أشد معايبه من قوله بعد ذلك ، فانه يعطى تراخى المرتبة فيما بين المذكور أولا والمذكور بعده في الشر والخير . ونظيره في الخير قوله تعالى وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ومن ثم استعملت ثم لتراخى المراتب ، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودي .

(4) . لحسان بن ثابت يخاطب الوليد بن المغيرة ، يقول : إنه زنيم ، أى معلق في آل هاشم كالزنمة في الإهاب وهي قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه ، فشبهه بها وشبهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب .

(5) . أخرجه أبو نعيم في ترجمة مجاهد من رواية عبد اللّه بن حسن في ترجمة يوسف بن أسباط من رواية بركة بن محمد عن يوسف بن أسباط عن أبى إسرائيل الملائى عن إسماعيل بن إسحاق عن قبيصة بن عمرو عن مجاهد عن بنى عمر عن أبى هريرة . ثم رواه من طريق إسحاق بن منصور عن أبى إسرائيل به وأبو إسحاق ضعيف جدا . وقد ادعى ابن طاهر وابن الجوزي أن هذا الحديث موضوع . وقد خولف عن مجاهد . رواه النسائي من طريق إبراهيم بن مجاهد عن مجاهد عن محمد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة بلفظ «لا

يدخل الجنة ولد زنا . ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء» وإبراهيم فيه ضعف . ورواه أيضا من رواية يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن أبي سعيد نحو حديث منصور الآتي . ويزيد ضعيف وروى النسائي أيضا من رواية شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن عبد اللّه بن شريك عن جابان عن عبد اللّه بن عمر بلفظ «لا يدخل ولد زانية الجنة» ومن رواية سفيان عن منصور بإسقاط عبد اللّه بن شريك . وأخرجه ابن حبان من الوجهين . وقال الطريقان محفوظان . إلا أن الثوري أعرف بحديث ملو .

(131/778)

رفعا على الذم وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك . والزنيم : من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة في حلقها ، لأنه زيادة معلقة بغير أهله أَنْ كانَ ذا مالٍ متعلق بقوله وَلا تُطِعْ يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى : لكونه متمولا مستظهرا بالبنين كذب آياتنا «1» ولا يعمل فيه قالَ الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . وقرئ : أأن كان ؟ على الاستفهام على : إلا لأن كان ذا مال وبنين ، كذب . أو أتطيعه لأن كان ذا مال . وروى الزبيري عن نافع : إن كان ،

بالكسر والشرط للمخاطب ، أى : لا تطع كل حلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجي إليه في قوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ الوجه : أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة . وقالوا الأنف في الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، «2» فكيف بها على أكرم موضع منه ، ولقد وسم العباس أباعر «3» في وجوهها ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أكرموا الوجوه» «4» فوسمها في جواعرها «5» وفي لفظ الخرطوم : استخفاف به واستهانة . وقيل معناه : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما

---

(1) . قوله «كذب آياتنا» عبارة النسفي : كذب بآياتنا . (ع)

(2) . قوله «وإذالة» في القاموس «أذلته» أهنته اه . (ع)

(3) . قوله «أباعر» لعله أباعره بالاضافة إلى الضمير ، لأن الجمع أبعرة وأباعر ، كما في الصحاح . (ع)

(4) . لم أره هكذا . وفي ابن حبان من حديث ابن عباس «أن العباس وسم بعيرا له . ودابة في وجهها فرآه النبي صلى اللّه عليه وسلم فغضب : فقال العباس : لا أسمه إلا في

آخره فوسمه في جاعرتيه» وأصله في مسلم بلفظ «رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حمارا موسوم الوجه ، فأنكر ذلك فقال الرجل : واللّه لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه . فأمر بحمار له فكوى في جاعرتيه . فهو أول من كوى في الجاعرتين ، زاد الطبراني «وكان الرجل الذي كوى : العباس بن عبد المطلب»

(5) . قوله «فوسمها في جواعرها» الجاعرة : ما حول الدبر - أفاده الصحاح . (ع)

(132/778)

عادى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عداوة بان بها عنهم . وقيل : خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه . وقيل : سنشهره بهذه الشتيمة في الدارين جميعا ، فلا تخفى ، كما لا تخفى السمة على الخرطوم . وعن النضر بن شميل : أن الخرطوم الخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها وهو تعسف . وقيل للخمر : الخرطوم ، كما قيل لها : السلافة . وهي ما سلف من عصير العنب . أو لأنها تطير في الخياشيم .

[سورة القلم (68) : الآيات 17 إلى 33]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)

فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضالُّونَ (26)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (31)

عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (32) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

إنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليهم كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ، «1» فكان

---

(1) . قال محمود : «أصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين . . . الخ» قال أحمد : وفائدة التنكير الإبهام تعظيما لما أصابها ، ومعنى كالصريم : أى لهلاك ثمرها . وقيل الصريم الليل ، لأنها احترقت واسودت . وقيل : النهار ، أى خالية فارغة من قولهم : بيض الإناء ، إذا فرغه . قلت : ومنه البياض من

الأرض ، أى : الخالية من الشجر . ورد في الحديث ، ويستعمله الفقهاء في المساقاة ، ومعنى صارمين : حاصدين .

قال : وإنما عدل عن «إلى» في قوله عَلى حَرْثِكُمْ لأن غدوهم كان ليصرموه ، فهو غدو عليه ، ومعنى يَتَخافَتُونَ يسرون حديثهم خيفة من ظهور المساكين عليهم . وقوله أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ مثل : لا أرينك ها هنا ، والحرد من حاردت السنة إذا منعت خيرها والمعنى : وغدوا على نكد ومنع غير عاجزين عن النفع . وقيل : الحرة السرعة ، أى : غدوا مسارعين نشطين لما عزموا عليه من الحرمان . ومعنى قادِرِينَ على هذا التأويل : عند أنفسهم . وقيل : حرد اسم الجنة المذكورة ، وقولهم إِنَّا لَضَالُّونَ قالوه في بديهة أمرهم دهشا لما رأوا ما لم يعهدوه فاعتقدوا أنهم ضلوا عنها وأنها ليست هي ، ثم لما تبينوا وأيقنوا أنها هي أضربوا عن الأول إلى قولهم بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

(133/778)

يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي ، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل ، وما في أسفل الأكداس ، «1» وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير ، فلما مات قال بنوه : إن

فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ليصر منها مصبحين في السدف «2» خفية عن المساكين ، ولم يستثنوا في يمينهم ، فأحرق اللّه جنتهم . وقيل : كانوا من بنى إسرائيل مُصْبِحِينَ داخلين في الصبح مبكرين وَلا يَسْتَثْنُونَ ولا يقولون إن شاء اللّه . فإن قلت . لم سمى استثناء ، وإنما هو شرط ؟ قلت : لأنه يؤدى مؤدى الاستثناء ، من حيث أن معنى قولك : لأخرجنّ إن شاء اللّه ، ولا أخرج إلا أن يشاء اللّه . واحد فَطافَ عَلَيْها بلاء أو هلاك طائِفٌ كقوله تعالى وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ وقرئ : طيف فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ كالمصرومة لهلاك ثمرها . وقيل :

الصريم الليل ، أى . احترقت فاسودت . وقيل : النهار أى : يبست وذهبت خضرتها . أو لم يبق شيء فيها ، من قولهم : بيض الإناء ، إذا فرغه . وقيل الصريم الرمال صارِمِينَ حاصدين . فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى عَلى ؟ قلت : لما كان الغدوّ إليه ليصرموه ويقطعوه :

كان غدوّا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدوّ . ويجوز أن يضمن الغدوّ معنى الإقبال ، كقولهم :

يغدى عليه بالجفنة ويراح ، أى : فأقبلوا على حرثكم باكرين يَتَخافَتُونَ يتسارّون فيما بينهم .

وخفى ، وخفت ، وخفد : ثلاثتها في معنى الكتم ، ومنه : الخفدود للخفاش أَنْ لا

يَدْخُلَنَّهَا أن مفسرة . وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول ، أى يتخافتون يقولون لا يدخلنها ، والنهى عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه ، أى : لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل ، كقولك : لا أرينك ها هنا . الحرد : من حردت السنة إذا منعت خيرها ، وحاردت الإبل إذا منعت درّها . والمعنى : وغدوا قادرين على نكد ، لا غير عاجزين عن النفع ، يعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم ، فغدوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة . أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين ، بدل كونهم قادرين على إصابة

---

(1) . قوله «و ما أسفل الأكداس» في الصحاح «الكدس» بالضم : واحد الأكداس الطعام (ع) .

(2) . قوله «مصبحين في السدف خفية» في الصحاح «السدفة» في لغة نجد : الظلمة ، وفي لغة غيرهم الضوء . (ع)

خيرها ومنافعها ، أى : غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع ، أو لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم : عاقبهم اللّه بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها ، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد . وقادِرِينَ من عكس الكلام للتهكم ، أى : قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين ، وعلى حرد ليس بصلة قادرين ، وقيل : الحرد بمعنى الحرد .

وقرئ : على حرد ، أى لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض ، كقوله تعالى يَتَلاوَمُونَ وقيل : الحرد القصد والسرعة ، يقال : حردت حردك . وقال :

أقبل سيل جاء من أمر اللّه يحرد حرد الجنّة المغلّه «1»

وقطا حراد : سراع ، يعنى : وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط ، قادرين عند أنفسهم ، يقولون : نحن نقدر على صرامها وزى «2» منفعتها عن المساكين . وقيل حَرْدٍ علم للجنة ، أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم . أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان قالُوا في بديهة وصولهم إِنَّا لَضَالُّونَ أى ضللنا جنتنا ، وما هي بها لما رأوا من هلاكها ، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا أَوْسَطُهُمْ أعدلهم وخيرهم ، من قولهم : هو من سطة قومه ، وأعطنى من سطات مالك . ومنه قوله تعالى أُمَّةً وَسَطاً . لَوْلا تُسَبِّحُونَ لولا تذكرون اللّه وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا اللّه

وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فعيرهم . والدليل عليه قولهم سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ، ولكن بعد خراب البصرة . وقيل : المراد بالتسبيح . الاستثناء لالتقائهما في معنى التعظيم للّه ، لأنّ الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم . وعن الحسن : هو الصلاة ، كأنهم كانوا يتوانون في الصلاة ، وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر ، ولكانت لهم لطفا في أن يستثنوا ولا يحرموا سُبْحانَ رَبِّنا سبحوا اللّه ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء يَتَلاوَمُونَ يلوم بعضهم بعضا ، لأنّ منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف وعذر

---

(1) . يصف سيلا بالكثرة ، ولذلك قال : من عند اللّه . ويروى : من أمر اللّه ، وحذفت الألف قبل الهاء من لفظ الجلالة لأنه جائز في الوقف . وحرد يحرد من باب ضرب ، بمعنى قصد وأسرع ، أى : يسرع إسراع الجنة أى البستان المغلة كثير الغلة والخير ، ومعنى إسراع الجنة : ظهور خيرها قبل غيرها في زمن يسير ، واختارها لأنها تنشأ عن السيل .

[. . . . .]

(2) . قوله «وزى منفعتها» في الصحاح : تقول : زوى فلان المال عن وارثه زيا . (ع)

ومنهم من عصى الأمر ، ومنهم من سكت وهو راض أَنْ يُبْدِلَنا قرئ بالتشديد والتخفيف إِلى رَبِّنا راغِبُونَ طالبون منه الخير راجون لعفوه كَذلِكَ الْعَذابُ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ

أشد وأعظم منه ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعبا .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيرا منها . وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : بلغني أنهم أخلصوا وعرف اللّه منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان : فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا .

[سورة القلم (68) : آية 34]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

عِنْدَ رَبِّهِمْ أى في الآخرة جَنَّاتِ النَّعِيمِ ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنان الدنيا .

[سورة القلم (68) : الآيات 35 إلى 39]

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39)

كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد اللّه المسلمين قالوا : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فقيل : أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين . ثم قيل لهم على طريقة الالتفات «1» ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الأعوج ؟ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أَمْ لَكُمْ كِتابٌ من السماء تَدْرُسُونَ في ذلك الكتاب أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم ، كقوله تعالى أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ والأصل تدرسون أنّ لكم ما تخيرون ، بفتح أنّ ، لأنه مدروس ، فلما جاءت اللام كسرت . ويجوز أن تكون حكاية للمدروس ، كما هو ، كقوله وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ .

وتخير الشيء واختاره :

أخذ خيره ، ونحوه : تنخله وانتخله : إذا أخذ منخوله . لفلان عليّ يمين بكذا : إذا ضمنته منه وحلفت له «2» على الوفاء به ، يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد

---

(1) . قال محمود : «هذا خطاب على وجه الالتفات لأهل مكة إذا اعتقدوا أنهم في الآخرة أكثر نعيما من المؤمنين . . . الخ» قال أحمد : ولما كان الدرس قولا كسرها .

(2) . قوله «إذا ضمنته منه وحلفت له» لعله : عنه ، وكذا قوله «منكم» لعله «عنكم» وفي الصحاح : ضمنته الشيء تضمينا فتضمنه عنى . (ع)

(136/778)

فإن قلت : بم يتعلق إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ؟ قلت : المقدر في الظرف ، أى : هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون . ويجوز أن يتعلق ببالغة ، على أنها تبلغ ذلكم اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم . وقرأ الحسن : بالغة ، بالنصب على الحال من الضمير في الظرف إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ جواب القسم ، لأنّ معنى أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا أم أقسمنا لكم .

[سورة القلم (68) : الآيات 40 إلى 41]

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41)

أَيُّهُمْ بِذلِكَ الحكم زَعِيمٌ أى قائم به وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ أى ناس يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون

مذهبهم فيه فَلْيَأْتُوا بهم إِنْ كانُوا صادِقِينَ في دعواهم ، يعنى : أنّ أحدا لا يسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند اللّه ، ولا زعيم لهم يقوم به .

[سورة القلم (68) : الآيات 42 إلى 43]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43)

الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام «1» : مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب ، وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهنّ في الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك .

قال حاتم :

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا «2»

---

(1) . قوله «و الإبداء عن الخدام» جمع خدمة ، وهي الخلخال . أفاده الصحاح ، وذلك كرقاب جمع رقبة . (ع)

(2) . لجرير . ويروى بدل الشطر الأول :

ألا رب ساهى الطرف من آل مازن إذا شمرت . . . . . .

الخ وساهي الطرف : فاتر العين . وأخو الحرب : بمعنى أنه يألفها ويلازمها كالأخ . وشبه

الحرب بفرس عضوه على طريق الكناية ، فأثبت لها العضد . وعضها : أى بلغ منها مراده . أو غلب أهلها ، فالعض استعارة لذلك على طريق التصريح . ويجوز أنه ترشيح للأولى . وقوله «به» يدل على أن العض وقع بجزئه . وقوله «عضها» يفيد أنه وقع بها كلها ، يعنى : أنه يكافئ أعداء ، وزيادة . والتشمير عن الساق : كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته . وأصله : أن يسند للإنسان ، لأن تشمير الثوب عن الساق لخوض لجة أو جرى أو نحوه ، فأسند للحرب لتشبيهها بالإنسان على طريق الكناية . وقوله «شمر» أى عن ساعده لا عن ساقه ، لأن تشمير الساعد كناية عن ملاقاة الأمر ومباشرته بنشاط وقوة ، وهو المراد . أو شمر عن ساقه وساعده دليل الإطلاق ، فيكون أبلغ من تشميرها . فان قلت : كان ينبغي ذكر التشمير قبل العض لأنه من باب الاستعداد ، قلت : نعم لو بقي على معناه ، ولكن المراد به هنا شدة الأمر ، وصعوبة الحرب : زيادة على أصلها .

(137/778)

وقال ابن الرقيات :

تذهل الشّيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء «1»

فمعنى يَوْمٍ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ في معنى : يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ،

كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ، وإنما هو مثل في البخل .

وأما من شبه فلضيق عطنه «2» وقلة نظره في علم البيان ، والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه : «يكشف الرحمن عن ساقه ، فأمّا المؤمنون فيخرّون سجدا «3» ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأنّ فيها سفافيد» «4» ومعناه : يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة ، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن .

فإن قلت : فلم جاءت منكرة في التمثيل ؟ قلت :

للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف ، كقوله يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ، ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل : وعن أبى عبيدة : خرج من خراسان رجلان ، أحدهما : شبه حتى مثل ، وهو مقاتل بن سليمان ، والآخر نفى حتى عطل

---

(1) كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء

لعبيد بن قيس الرقيات . وكيف استفهام إنكارى ، بمعنى نفى النوم . ولما بمعنى لم ، إلا أن فيها استمرار النفي إلى زمن التكلم وتوقيع الوقوع بعده . وشبه الغارة وهي الحرب بماله إحاطة وشمول على طريق المكنية ، والشمول تخييل ، والشعواء الغاشية المنتشرة ،

وإذهالها للشيخ عن بنيه : كناية عن اشتدادها ، وكذلك كشفها عن خدام العقيلة ، والخدام : الخلخال . وعقيلة كل شيء : أكرمه . ومن النساء المخدرة التي عقلت في خدرها . والعذراء :

التي يتعذر نوالها ويشق وصالها . وفيه الاقواء ، وهي اختلاف الروى بالضم والكسر . ويروى برفع العقيلة العذراء على أنه فاعل تبدى ، وجعله ابن جرير شاهدا على جواز حذف التنوين إذا تلاه ساكن ، وإن كان الكثير تحريكه حينئذ ، وعلى هذا فتحتاج هذه الجملة إلى رابط يعود على المنعوت وهو غارة ، والتقدير : وتبدى فيها العقيلة عن خلخال .

(2) . «قوله وأما من شبه فلضيق عطنه» أى من قال بمذهب المشبهة على ما هو مقرر في علم الكلام ، كما سيشير إليه بعد . (ع)

(3) . أخرجه الحاكم من طريق سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود في أثناء حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه . ورواه للطبري مختصرا .

(4) . قوله «كأن فيها السفافيد» واحدها سفود بالتشديد ، وهي حديدة يشوى بها اللحم . أفاده الصحاح . (ع)

وهو جهم بن صفوان ، ومن أحس بعظم مضارّ فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه .

وقرئ : يوم نكشف بالنون . وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعا ، والفعل للساعة أو للحال ، أى : يوم تشتدّ الحال أو الساعة ، كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز . وقرئ :

تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين ، من أكشف : إذا دخل في الكشف . ومنه . أكشف الرجل فهو مكشف ، إذا انقلبت شفته العليا . وناصب الظرف : فليأتوا . أو إضمار «اذكر» أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت ، فحذف للتهويل البليغ ، وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه . عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : تعقم أصلابهم ، أى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض . وفي الحديث : وتبقى أصلابهم طبقا واحدا ، أى . فقارة واحدة . فإن قلت : لم يدعون إلى السجود ولا تكليف ؟ قلت : لا يدعون إليه تعبدا وتكليفا ، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا ، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرا لهم وتنديما على ما فرّطوا فيه حين دعوا إلى السجود ، وهم سالمون الأصلاب « 1 » والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به .

[سورة القلم (68) : الآيات 44 إلى 45]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ

كَيْدِي مَتِينٌ (45)

يقال : ذرني وإياه ، يريدون كله إلىّ ، فإنى أكفيكه ، كأنه يقول : حسبك إيقاعا به أن تكل أمره إلىّ وتخلى بيني وبينه ، فإنى عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له ، والمراد : حسبي مجازيا «2» لمن يكذب بالقرآن ، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علىّ في الانتقام منه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتهديدا للمكذبين . استدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه . واستدراج اللّه العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة ، فيجعلوا رزق اللّه ذريعة ومتسلقا إلى ازدياد الكفر والمعاصي مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أى : من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم ، لأنهم يحسبونه إيثارا لهم وتفضيلا على المؤمنين ، وهو سبب لهلاكهم وَأُمْلِي لَهُمْ وأمهلهم ، كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً والصحة والرزق والمدّ في العمر : إحسان من اللّه وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سببا في الكفر باختيارهم ، فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى

---

(1) . قوله «و هم سالمون الأصلاب» لعله سالمو الأصلاب بالاضافة . (ع)

(2) . قوله «و المراد حسبي مجازيا» الاستعمال المعروف : حسبك بى مجازيا . أو حسبك اللّه مجازيا . (ع)

إحسانه وتمكينه كيدا كما سماه استدراجا ، لكونه في صورة الكيد حيث كان سببا للتورّط في الهلكة ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

[سورة القلم (68) : الآيات 46 إلى 47]

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

المغرم : الغرامة ، أى لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجرا ، فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم ، فيثبطهم ذلك عن الإيمان أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أى اللوح فَهُمْ يَكْتُبُونَ منه ما يحكمون به .

[سورة القلم (68) : الآيات 48 إلى 50]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

لِحُكْمِ رَبِّكَ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ يعنى : يونس عليه السلام إِذْ نادى في بطن الحوت وَهُوَ مَكْظُومٌ مملوء غيظا ، من كظم السقاء إذا ملأه ، والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة ، فتبتلى ببلائه .

حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تداركه، أى تتداركه على حكاية الحال الماضية، بمعنى: لولا أن كان يقال فيه تتداركه، كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان، أى كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقعا منه القيام.

ونعمة ربه: أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه. وقد اعتمد في جواب «لولا» على الحال، أعنى قوله وَهُوَ مَذْمُومٌ يعنى أنّ حاله كانت على خلاف الذمّ حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذمّ. روى أنها نزلت بأحد حين حل برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما حل به، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف. وقرئ: رحمة من ربه فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فجمعه إليه، وقربه بالتوبة عليه، كما قال: ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى من الأنبياء. وعن ابن عباس: ردّ اللّه إليه الوحى وشفعه في نفسه وقومه.

[سورة القلم (68): الآيات 51 إلى 52]

وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (52)

إن مخففة من الثقيلة واللام علمها . وقرئ ، ليزلقونك بضم الياء وفتحها . وزلقه وأزلقه بمعنى : ويقال : زلق الرأس وأزلقه : حلقه : وقرئ : ليزهقونك ، من زهقت نفسه وأزهقها ، يعنى :

أنهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك ، من قولهم : نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله . قال :

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزلّ مواطئ الأقدام «1»

وقيل : كانت العين في بنى أسد ، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا عانه ، فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم رجلا فعصمه اللّه . وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ أى القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ حيرة في أمره وتنفيرا عنه ، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم .

والمعنى :

أنهم جننوه لأجل القرآن وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وموعظة لِلْعالَمِينَ فكيف يجنن من جاء بمثله .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القلم أعطاه اللّه ثواب الذين حسن

اللّه أخلاقهم» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 584. 597 ﴾

---

(1) . يقول : إذا للتقوا في مجلس - وروى موطن - : يتقارضون ، أى : يقرض بعضهم بعضا بنظره إليه ، كأن أحدهم يعطى خصمه النظر ، والثاني يكافئه بنظره إليه حسدا وغيظا ، وإزلال مواطئ الأقدام : كناية عن الإهلاك ، لأن من زلت قدمه سقط على الأرض وربما هلك . أى : ينظر بعضهم بعضا نظر الحسود المغتاظ ، فتسبب عن ذلك زلل الأقدام عن مواطئها ، وإيقاع الازلال على مواضع الأقدام : مجاز عقلى ، لأنه محله ، وفيه مبالغة في زلل القدم .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبى بن كعب .

(141/778)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ ن ﴾

فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أن النون الحوت الذي عليه الأرض ، قاله ابن عباس من رواية أبي الضحى عنه ، وقد رفعه .

الثاني : أن النون الدواة ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث : أنه حرف من حروف الرحمن ، قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه .

الرابع : هو لوح من نور ، رواه معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الخامس : أنه اسم من أسماء السورة ، وهو مأثور .

السادس : أنه قسم أقسم اللَّه به ، وللَّه تعالى أن يقسم بما يشاء ، قاله قتادة .

السابع : أنه حرف من حروف المعجم .

الثامن : أن نون بالفارسية أيذون كن ، قاله الضحاك .

ويحتمل تاسعاً : إن لم يثبت به نقل أن يكون معناه : تكوين الأفعال والقلم وما يسطرون ، فنزل الأقوال جميعاً في قسمه بين أفعاله وأقواله ، وهذا أعم قسمة .

ويحتمل عاشراً : أن يريد بالنون النفْس لأن الخطاب متوجه إليها بغير عينها بأول حروفها ، والمراد بالقلم ما قدره اللَّه لها وعليها من سعادة وشقاء ، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ .

أما ﴿ والقلم ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما : أنه القلم الذي يكتبون به لأنه نعمة عليهم ومنفعة لهم ، فأقسم بما أنعم ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه القلم الذي يكتب به الذكر على اللوح المحفوظ ، قال ابن جريج : هو من نور ، طوله كما بين السماء والأرض .

وفي قوله ﴿ وما يَسْطرون ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : وما يعلمون ، قاله ابن عباس .

الثاني : وما يكتبون ، يعني من الذكر ، قاله مجاهد والسدي .

الثالث : أنهم الملائكة الكاتبون يكتبون أعمال الناس من خير وشر .

(142/778)

﴿ ما أنت بنعمةِ ربّك بمجنونٍ ﴾ كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أنه مجنون به شيطان ، وهو قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] فأنزل اللَّه تعالى رداً عليها وتكذيباً لقولهم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ أي برحمة ربك ، والنعمة ها هنا الرحمة .

ويحتمل ثانياً : أن النعمة ها هنا قسم ، وتقديره : ما أنت ونعمة ربك بمجنون ، لأن الواو والباء من حروف القسم .

وتأوله الكلبي على غير ظاهره ، فقال : معناه ما أنت بنعمة ربك بمخفق .

﴿ وإنّ لك لأجْراً غيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : غير محسوب ، قاله مجاهد .

الثاني : أجراً بغير عمل ، قاله الضحاك .

الثالث : غير ممنون عليك من الأذى ، قاله الحسن .

الرابع : غير منقطع ، ومنه قول الشاعر :

ألا تكون كإسماعيلَ إنَّه . . . رأياً أصيلاً وأجْراً غيرَ ممنون

ويحتمل خامساً : غير مقدّر وهو الفضل ، لأن الجزاء مقدر ، والفضل غير مقدر .

﴿ وإنك لعلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أدب القرآن ، قاله عطية .

الثاني : دين الإسلام ، قاله ابن عباس وأبو مالك .

الثالث : على طبع كريم ، وهو الظاهر .

وحقيقة الخُلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب سمي خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه ، فأما ما طبع عليه من الآداب فهو الخيم فيكون الخلق الطبع المتكلف ، والخيم هو الطبع الغريزي ، وقد أوضح ذلك الأعشى في شعره فقال :

وإذا ذو الفضول ضنّ على المو . . . لى وعادتِ لخيمها الأخلاقُ

أي رجعت الأخلاق إلى طباعها .

﴿ فَسَتُبْصِرُ ويُبْصرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل .

الثاني : قاله ابن عباس معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة .

﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني المجنون ، قاله الضحاك .

الثاني : الضال ، قاله الحسن .

الثالث : الشيطان ، قاله مجاهد .

(143/778)

الرابع : المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يُفْتنون ﴾ [الذاريات : 13] أي يعذبون .

﴿ وَدُّوا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنونَ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : معناه ودوا لو تكفر فيكفرون ، قاله السدي والضحاك .

الثاني : ودوا لو تضعُف فيضعُفون ، قاله أبو جعفر .

الثالث : لو تلين فيلينون ، قاله الفراء .

الرابع : لو تكذب فيكذبون ، قاله الربيع بن أنس .

الخامس : لو ترخص لهم فيرخصون لك ، قاله ابن عباس .

السادس : أن تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك ، قاله قتادة .

وفي أصل المداهنة وجهان :

أحدهما : مجاملة العدو ومماثلته ، قال الشاعر :

لَبَعْضُ الغَشْم أحزْم أمورٍ . . . تَنوبُك مِن مداهنةِ العدُوّ .

الثاني : أنها النفاق وترك المناصحة ، قاله المفضل ، فهي على هذا الوجه مذمومة ، وعلى الوجه الأول غير مذمومة .

﴿ ولا تُطِعْ كلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه الكذاب ، قاله ابن عباس .

الثاني : الضعيف القلب ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه المكثار من الشر ، قاله قتادة .

الرابع : أنه الذليل بالباطل ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل خامساً : أنه الذي يهون عليه الحنث .

وفي من نزل ذلك فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، قاله السدي .

الثاني : الأسود بن عبد يغوث ، قاله مجاهد .

الثالث : الوليد بن المغيرة ، عرض على النبي صلى الله عليه وسلم مالاً وحلف أن يعطيه إن

رجع عن دينه ، قاله مقاتل .

﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الفتّان الطعان ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : أنه الذي يلوي شدقيه من وراء الناس ، قاله الحسن .

الثالث : أنه الذي يهمزهم بيده ويضربهم دون لسانه ، قاله ابن زيد ، والأول أشبه لقول الشاعر :

تُدْلِي بِوُدٍّ إذا لاقيتني كذباً . . . وإن أغيبُ فأنت الهامز اللُّمَزة .

﴿ مشّاءٍ بنميم ﴾ فيه وجهان :

(144/778)

أحدهما : الذي ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض ، قاله قتادة .

الثاني : هو الذي يسعى بالكذب ، ومنه قول الشاعر :

ومَوْلى كبيْتِ النمل لا خير عنده . . . لمولاه إلا سعية بنميم

وفي النميم والنميمة وجهان :

أحدهما : أنهما لغتان ، قاله الفراء .

الثاني : أن النميم جمع نميمة .

﴿ منّاعٍ للخيْرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : للحقوق من ظلم .

الثاني : الإسلام يمنع الناس منه .

﴿ عُتُلٍّ بَعْد ذلك زنيمٍ ﴾ يعني بعد كونه " منّاعٍ للخيرِ "

معتدٍ أثيم ، هو عتل زنيم ، وفيه تسعة أوجه :

أحدها : أن العُتُلّ الفاحش ، وهو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم :

الثاني : أنه القوي في كفره ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه الوفير الجسم ، قاله الحسن وأبو رزين .

الرابع : أنه الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، قاله الكلبي .

الخامس : أنه الشديد الأسر ، قاله مجاهد .

السادس : أنه الباغي ، قاله ابن عباس .

السابع : أنه الذي يعتِل الناس ، أي يجرهم إلى الحبس أو العذاب ، مأخوذ من العتل وهو الجر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ خذوه فاعتِلوه ﴾ [الحاقة : 30] .

الثامن : هو الفاحش اللئيم ، قاله معمر ، قال الشاعر :

يعتل من الرجال زنيم . . . غير ذي نجدةٍ وغير كريم .

التاسع : ما رواه شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غَنْم ، ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يدخل الجنةَ جواظٌ ولا جعظري ولا العتّل الزنيم " فقال رجل : ما الجواظ وما الجعظري وما العتل الزنيم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الجواظ الذي جمع ومنع ، والجعظري الغليظ ، والعتل الزنيم الشديد الخلق الرحيب الجوف ، المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام ، الظلوم للناس " .

وأما الزنيم ففيه ثماني تأويلات :

أحدها : أنه اللين ، رواه موسى بن عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أنه الظلوم ، قاله ابن عباس في رواية ابن طلحة عنه .

الثالث : أنه الفاحش ، قاله إبراهيم .

(145/778)

الرابع : أنه الذي له زنمة كزنمة الشاة ، قال الضحاك : لأن الوليد بن المغيرة كان له أسفل من أذنه زنمة مثل زنمة الشاة ، وفيه نزلت هذه الآية ، قال محمد بن إسحاق : نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق ولذلك سمي زنيماً .

الخامس : أنه ولد الزنى ، قاله عكرمة .

السادس : أنه الدعيّ ، قال الشاعر :

زنيمٌ تَداعاه الرجالُ زيادةً . . . كما زِيدَ في عَرْضِ الأديمِ الأكارعُ

السابع : أنه الذي يعرف بالأُبنة ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثامن : أنه علامة الكفر كما قال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، قاله أبو رزين .

﴿ أنْ كان ذا مالٍ وبنينَ ﴾ قيل إنه الوليد بن المغيرة ، كانت له حديقة بالطائف ، وكان له اثنا عشر ابناً ، حكاه الضحاك .

وقال عليّ بن أبي طالب : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة .

﴿ إذا تتْلى عليه آياتُنا ﴾ يعني القرآن .

﴿ قال أساطيرُ الأوّلين ﴾ يعني أحاديث الأولين وأباطيلهم .

﴿ سَنَسِمُهُ على الخُرطومِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنها سمة سوداء تكون على أنفه يوم القيامة يتميز بها الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] .

الثاني : أنه يضرب في النار على أنفه يوم القيامة ، قاله الكلبي .

الثالث : أنه إشهار ذكره بالقبائح ، فيصير موسوماً بالذكر لا بالأثر .

الرابع : هو ما يبتليه اللَّه به في الدنيا في نفسه وماله وولده من سوء وذل وصَغار ، قاله ابن

بحر واستشهد بقول الأعشى .

فدَعْها وما يَغنيك واعمد لغيرها . . . بشِعرك واغلب أنف من أنت واسم .

وقال المبرد : الخرطوم هو من الناس الأنف ، ومن البهائم الشفة .

﴿ إنا بَلَوناهم كما بَلَوْنا أَصْحابَ الجَنَّةِ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : إن الذين بلوناهم أهل مكة بلوناهم بالجوع كرتين ، كما بلونا أصحاب الجنة حتى عادت رماداً .

الثاني : أنهم قريش ببدر .

(146/778)

حكى ابن جريج أن أبا جهل قال يوم بدر خذوهم أخذاً واربطوهم في الحبال ، ولا تقتلوا منهم أحداً ، فضرب اللَّه بهم عند العدو مثلاً بأصحاب الجنة .

﴿ إذ أَقْسموا لَيَصرِمُنّها مُصْبِحينَ ﴾ قيل إن هذه الجنة حديقة كانت باليمن بقرية يقال لها ضَروان ، بينها وبين صنعاء اليمن اثنا عشر ميلاً ، وفيها قولان :

أحدهما : أنها كانت لقوم من الحبشة .

الثاني : قاله قتادة أنها كانت لشيخ من بني إسرائيل له بنون ، فكان يمسك منها قدر كفايته

وكفاية أهله ، ويتصدق بالباقي ، فجعل بنوه يلومونه ويقولون : لئن ولينا لنفعلن ، وهو لا يطيعهم حتى مات فورثوها ، فقالوا : نحن أحوج بكثرة عيالنا من الفقراء والمساكين " فأقسموا ليصرُمنّها مصبحين " أي حلفوا أن يقطعوا ثمرها حين يصبحون .

﴿ ولا يَسْتَثْنُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يستثنون من المساكين ، قاله عكرمة .

الثاني : استثناؤهم قول سبحان ربنا ، قاله أبو صالح .

الثالث : قول إن شاء اللَّه .

﴿ فطاف عليها طائفٌ مِن ربِّك وهم نائمونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أمر من ربك ، قاله ابن عباس .

الثاني : عذاب من ربك ، قاله قتادة .

الثالث : أنه عنق من النار خرج من وادي جنتهم ، قاله ابن جريج .

﴿ وهم نائمون ﴾ أي ليلاً وقت النوم ، قال الفراء : الطائف لا يكون إلا ليلاً .

﴿ فأصبحت كالصَريم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كالرماد الأسود ، قاله ابن عباس .

الثاني : كالليل المظلم ، قاله الفراء ، قال الشاعر :

تطاول لَيلُكَ الجَوْنُ البهيمُ . . . فما ينجاب عن صبحٍ ، صَريمُ

الثالث : كالمصروم الذي لم يبق فيه ثمر .

روى أسباط عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : " أياكم والمعاصي ، إن العبد ليذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له " ، ثم تلا : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك . . . ﴾ الآيتين قد حرموا خير جنتهم بذنبهم .

﴿ فتنادَوْا مُصبِحينَ ﴾ أي دعا بعضعهم بعضاً عند الصبح .

(147/778)

﴿ أنِ اغْدُوا على حَرْثكم ﴾ قال مجاهد : كان الحرث عنباً .

﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أي عازمين على صرم حرثكم في هذا اليوم .

﴿ فانْطَلَقُوا وهم يتخافتونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يتكلمون ، قاله عكرمة .

الثاني : يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد ، قاله عطاء وقتادة .

الثالث : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم .

الرابع : لا يتشاورون بينهم .

﴿ أن لا يدخُلَنّها اليومَ عليكم مِسكين ﴾ قاله يحيى بن سلام .

﴿ وَغَدَوْا على حَرْدٍ قادرين ﴾ فيه تسعة أوجه :

أحدها : على غيظ ، قاله عكرمة .

الثاني : على جَدٍّ ، قاله مجاهد .

الثالث : على منع ، قاله أبو عبيدة .

الرابع : على قصد ، ومنه قول الشاعر :

أَقْبَلَ سيلٌ جاء من عندِ اللّه . . . يحْرِدُ حَرْدَ الجَنّة المُغِلّة

أي يقصد قصد الجنة المغلة .

الخامس : على فقر ، قاله الحسن .

السادس : على حرص ، قاله سفيان .

السابع : على قدرة ، قاله ابن عباس .

الثامن : على غضب ، قاله السدي .

التاسع : أن القرية تسمى حرداً ، قاله السدي .

وفي قوله : " قادرين " ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني قادرين على المساكين ، قاله الشعبي .

الثاني : قادرين على جنتهم عند أنفسهم ، قاله قتادة .

الثالث : أن موافاتهم إلى جنتهم في الوقت الذي قدروه ، قاله ابن بحر .

ويحتمل رابعاً : أن القادر المطاع بالمال والأعوان ، فإذا ذهب ماله تفرق أعوانه فعُصيَ وعجز .

﴿ فلمّا رأوْها قالوا إنا لَضالُّون ﴾ أي أنهم لما رأوا أرض الجنة لا ثمرة فيها ولا شجر قالوا إنا ضالون الطريق وأخطأنا مكان جنتنا ، ثم استرجعوا فقالوا :

﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي حُرمنا خير جنتنا ، قال قتادة : معناه جوزينا فحُرمنا .

﴿ قال أَوْسَطُهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أعدلهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : خيرهم ، قاله قتادة .

الثالث : أعقلهم ، قاله ابن بحر .

﴿ أَلَمْ أقُل لكم لولا تُسَبِّحونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لولا تستثنون عند قولهم " ليصرمنها مصبحين " ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن التسبيح هو الاستثناء ، لأن المراد بالاستثناء ذكر اللَّه ، وهو موجود من التسبيح .

الثالث : أن تذكروا نعمة اللَّه عليكم فتؤدوا حقه من أموالكم .

﴿ أم لكم أيمانٌ علينا بالغةٌ ﴾ والبالغة المؤكدة باللَه .

﴿ إنّ لكم لما تحْكُمُون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أم لكم أيمان عيلنا بالغة أننا لا نعذبكم في الدنيا إلى يوم القيامة .

﴿ سَلْهم أيُّهم بذلك زعيمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الزعيم الكفيل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الرسول ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : أنه القيم بالأمر لتقدمه ورئاسته .

﴿ يومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : عن ساق الآخرة ، قاله الحسن .

الثاني : الساق الغطاء ، قاله الربيع بن أنس ، ومنه قول الراجز :

في سَنَةٍ قد كشفتْ عن ساقها . . . حمراءَ تبري اللحم عن عراقها

الثالث : أنه الكرب والشدة ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

كشفت لهم عن ساقها . . . وبدا من الشر الصُّراح

الرابع : هو إقبال الآخرة وذهاب الدنيا ، قال الضحاك : لأنه أول الشدائد ، كما قال الراجز

:

قد كشفت عن ساقها فشُدُّوا . . . وجدّت الحربُ بكم فجدوا

فأما ما روي أن اللَّه تعالى يكشف عن ساقه فإن اللَّه تعالى منزه عن التبعيض والأعضاء وأن ينكشف أو يتغطى ، ومعناه أنه يكشف عن العظيم من أمره ، وقيل يكشف عن نوره .

وفي هذا اليوم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يوم الكبر والهرم والعجز عن العمل .

الثاني : أنه يوم حضور المنية والمعاينة .

الثالث : أنه يوم القيامة .

﴿ ويُدْعَون إلى السجودِ فلا يستطيعون ﴾ فمن قال في هذا اليوم إنه يوم القيامة جعل الأمر بهذا السجود على وجه التكليف .

ومن جعله في الدنيا فلهم في الأمر بهذا السجود قولان :

أحدهما : أنه تكليف .

(149/778)

الثاني : تندم وتوبيخ للعجز عنه ، وكان ابن بحر يذهب إلى أن هذا الدعاء إلى السجود إنما كان في وقت الاستطاعة ، فلم يستطيعوا بعد العجز أن يستدركوا ما تركوا .

﴿ فذرْنِي ومَن يُكذّبُ بهذا الحديث ﴾

قال السدي : يعني القرآن .

ويحتمل آخر أي بيوم القيامة .

﴿ سنستدرجهم مِن حيثُ لا يَعْلمون ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون ، قاله السدي .

الثاني : نتبع النعمة السيئة وننسيهم التوبة ، قاله الحسن .

الثالث : نأخذهم من حيث درجوا ودبوا ، قاله ابن بحر .

الرابع : هو تدريجهم إلى العذاب بإدنائهم منه قليلاً بعد قليل حتى يلاقيهم من حيث لا يعلمون ، لأنهم لو علموا وقت أخذهم بالعذاب ما ارتكبوا المعاصي وأيقنوا بآمالهم .

الخامس : ما رواه إبراهيم بن حماد ، قال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مغبون بالثناء عيه ، وكم من مغرور بالستر عليه .

والاستدراج : النقل من حال إلى حال كالتدرج ، ومنه قيل درجة وهي منزلة بعد منزلة .

﴿ فاصْبِرْ لحُكمِ ربّك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لقضاء ربك .

الثاني : لنصر ربك ، قاله ابن بحر .

﴿ ولا تكُن كصاحِبِ الحُوتِ ﴾ قال قتادة : إن اللَّه تعالى يعزي نبيّه ويأمره بالصبر ، وأن لا

يعجل كما عجل صاحب الحوت وهو يونس بن متى .

﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أما نداؤه فقوله : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

وفي مكظوم أربعة أوجه :

أحدها : مغموم ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : مكروب ، قاله عطاء وأبو مالك ، والفرق بينهما أن الغم في القلب ، والكرب في الأنفاس .

الثالث : محبوس ، والكظم الحبس ، ومنه قولهم : فلان كظم غيظه أي حبس غضبه ، قاله ابن بحر .

الرابع : أنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرد .

﴿ لولا أن تَداركَه نِعْمةٌ مِن ربِّه ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : النبوة ، قاله الضحاك .

الثاني : عبادته التي سلفت ، قاله ابن جبير .

الثالث : نداؤه لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن نعمة اللَّه عليه إخراجه من بطن الحوت ، قاله ابن بحر .

﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لألقي بالأرض الفضاء ، قاله السدي ، قال قتادة : بأرض اليمن .

الثاني : أنه عراء يوم القيامة وأرض المحشر ، قاله ابن جرير .

﴿ وهو مذموم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بمعنى مليم .

الثاني : مذنب ، قاله بكر بن عبد الله ، ومعناه أن ندعه مذموماً .

﴿ وإن يكادُ الذين كَفَروا ليُزْلِقونك بأَبصارهم ﴾ الآية . فيه ستة أوجه :

أحدها : معناه ليصرعونك ، قاله الكلبي .

الثاني : ليرمقونك ، قاله قتادة .

الثالث : ليزهقونك ، قاله ابن عباس ، وكان يقرؤها كذلك .

الرابع : لينفذونك ، قاله مجاهد .

الخامس : ليمسونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك ، قاله السدي .

السادس : ليعتانونك ، أي لينظرونك بأعينهم ، قاله الفراء .

وحكي أنهم قالوا : ما رأينا مثل حجمه ونظروا إليه ليعينوه ، أي ليصيبوه بالعين ، وقد

كانت العرب إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً بعين في نفسه أو ماله تجوّع ثلاثاً ثم يتعرض لنفسه أو ماله فيقول : تاللَّه ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر مالاً منه ولا أحسن ، فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله ، فأنزل اللَّه هذه الآية .

﴿ لّما سَمِعوا الذكْرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : محمد .

الثاني : القرآن .

﴿ وما هو إلا ذِكْرٌ للعالمين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : شرف للعالمين ، كما قال تعالى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] .

الثاني : يذكرهم وعد الجنة ووعيد النار .

وفي العالمين وجهان :

أحدهما : الجن والإنس ، قاله ابن عباس .

الثاني : كل أمة من أمم الخلق ممن يُعرف ولا يُعرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 59.74 ﴾

(151/778)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ن ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وحفص : ﴿ نْ والقلم ﴾ النون في آخر الهجاء من نون ظاهرة عند الواو ، وهذا اختيار الفراء .

وروى أبو بكر عن عاصم أنه كان لا يُبين النون من ﴿ نون ﴾ .

وبها قرأ الكسائي ، وخلف ، ويعقوب ، وهو اختيار الزجاج .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وقتادة ، والأعمش : "نونِ والقلم" بكسر النون .

وقرأ الحسن ، وأبو عمران ، وأبو نهيك : "نُ والقلم" برفع النون .

وفي معنى نون سبعة أقوال .

أحدها : أنها الدواة .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول ما خلق الله القلم ، ثم خلق النون ، وهي الدواة " وهذا قول ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ، وبه قال الحسن وقتادة .

والثاني : أنه آخر حروف الرحمن ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه الحوت الذي على ظهر الأرض ، وهذا المعنى في رواية أبي ظبيان عن ابن

عباس ، وهو مذهب مجاهد ، والسدي ، وابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : أنه لَوْح من نور ، قاله معاوية بن قُرَّة .

والخامس : أنه افتتاح اسمه "نصير" ، و"ناصر" ، قاله عطاء .

والسادس : أنه قَسَم بِنُصْرَةِ الله للمؤمنين ، قاله القرظي .

والسابع : أنه نهر في الجنة ، قاله جعفر الصادق .

وفي القلم قولان .

أحدهما : أنه الذي كتب به في اللوح المحفوظ .

والثاني : أنه الذي يكتب به الناس .

وإنما أقسم به ، لأن كتبه إنما تكتب و ﴿ يسطرون ﴾ بمعنى : يكتبون .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة .

وفيما أرادوا بما يكتبونه قولان .

أحدهما : أنه الذّكر ، قاله مجاهد ، والسدي .

والثاني : أعمال بني آدم ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أنهم جميع الكَتَبة ، حكاه الثعلبي ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ أي : ما أنت بِإنْعامِ ربِّك عليك بالإيمان والنُّبوَّة بمجنون .

قال الزجاج : هذا جواب قولهم : إنك لمجنون .

وتأويله : فارقك الجنون بنعمة الله .

(152/778)

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ لك ﴾ بصبرك على افترائهم عليك ، ونسبتهم إيّاك إلى الجنون ﴿ لأجراً غير ممنون ﴾ أي : غير مقطوع ولا منقوص ، ﴿ وإِنك لعلى خلق عظيم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : دين الإسلام ، قاله ابن عباس .

والثاني : أدب القرآن ، قاله الحسن .

والثالث : الطبع الكريم .

وحقيقة "الخُلُق" : ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب ، فسمي خُلُقاً ، لأنه يصير كالخِلْقة في صاحبه .

فأما ما طبع عليه فيسمى : "الخِيم" فيكون الخِيم : الطبع الغريزي ، والخُلُق : الطبع المُتكلَّف .

هذا قول الماوردي .

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خُلُقُه القرآن .

تعني : كان على ما أمره الله به في القرآن .

قوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ يعني : أهل مكة .

وهذا وعيد لهم بالعذاب .

والمعنى : سترى ويرون إذا نزل بهم العذاب بِبَدْرٍ ﴿ بأيِّكم المفتون ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : الضالُّ ، قاله الحسن .

والثاني : الشيطان ، قاله مجاهد .

والثالث : المجنون ، قاله الضحاك .

والمعنى : الذي قد فتن بالجنون .

والرابع : المعذَّب ، حكاه الماوردي .

وفي الباء قولان .

أحدهما : أنها زائدة ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وأنشدوا :

[نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الفَلَجْ] . . .

نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ

والثاني : أنها أصلية ، وهذا قول الفراء ، والزجاج .

قال الزجاج : ليس كونها لغواً بجائز في العربية في قول أحد من أهلها .

وفي الكلام قولان للنحويين .

أحدهما : أن "المفتون" هاهنا : الفتون .

والمصادر تجيء على المفعول .

تقول العرب : ليس هذا معقود رأي ، أي : عقد رأي ، وتقول : دعه إلى ميسوره ، أي : يسره .

والمعنى : بأيكم الجنون .

والثاني : بأيكم المفتون بالفرقة التي أنت فيها ، أم بفرقة الكفار ؟ فيكون المعنى : في أي الفرقتين المجنون .

وقد ذكر الفراء نحو ما شرحه الزجاج .

(153/778)

وقد قرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : "في أي المفتون" .

ثم أخبر أنه عالم بالفريقين بما بعد هذا .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ وذلك أن رؤساء أهل مكة دَعَوْه إلى دين آبائه ، فنهاه الله أن يطيعهم ﴿ وَدُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهنون ﴾ فيه سبعة أقوال .

أحدها : لو ترخص فيرخصون ، قاله ابن عباس .

والثاني : لو تُصَانِعُهم في دِينك فَيَصانِعون في دينهم ، قاله الحسن .

والثالث : لو تكفر فيكفرون ، قاله عطية ، والضحاك ، ومقاتل .

والرابع : لو تَلِينُ فيلينون لك ، قاله ابن السائب .

والخامس : لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون ، قاله زيد بن أسلم .

والسادس : ودُّوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم .

وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مُدَّة ، ويعبدوا الله مدة ، قاله ابن قتيبة .

وقال أبو عبيدة : هو من المداهنة .

والسابع : لو تقاربهم فيقاربونك ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاَّف ﴾ وهو كثير الحلف بالباطل ﴿ مَهِينٍ ﴾ وهو الحقير الدنيء .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : المَهين : الكذَّاب .

واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : الأخنس بن شريق ، قاله عطاء ، والسدي .

والثالث : الأسود بن عبد يغوث ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ همّاز ﴾ قال ابن عباس : هو المغتاب .

وقال ابن قتيبة : هو العَيَّاب .

قوله تعالى : ﴿ مَشَّاءٍ بنميم ﴾ أي : يمشي بين الناس بالنميمة ، وهو نقل الكلام السيء من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم ﴿ مَنَّاعٍ للخير ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه منع ولده وعشيرته الإسلام ، قاله ابن عباس .

والثاني : مَنَّاعٍ للحقوق في ماله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ معتدٍ ﴾ أي : ظلوم ﴿ أثيم ﴾ فاجر ﴿ عُتُلٍّ بعد ذلك ﴾ أي : مع ما وصفناه به .

وفي "العُتُلِّ" سبعة أقوال .

أحدها : أنه العاتي الشديد المنافق ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه المتوفِّر الجسم ، قاله الحسن .

والثالث : الشديدُ الأَشِرُ ، قاله مجاهد .

والرابع : القويُّ في كفره ، قاله عكرمة .

والخامس : الأكول الشروب القوي الشديد ، قاله عبيد بن عمير .

والسادس : الشديد الخصومة بالباطل ، قاله الفراء .

والسابع : أنه الغليظ الجافي ، قاله ابن قتيبة .

وفي "الزنيم" أربعة أقوال .

أحدها : أنه الدَّعيُّ في قريش وليس منهم ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وهذا معروف في اللغة أن الزنيم : هو الملتصق في القوم وليس منهم ، وبه قال الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

قال حسان :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ . . .

كما نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

والثاني : أنه الذي يعرف بالشَّرِّ ، كما تعرف الشاة بِزَنَمتها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : أنه الذي له زَنَمة مثل زنمة الشاة .

وقال ابن عباس : نُعت فلم يعرف حتى قيل : زنيم ، فعرف ، وكانت له زنمة في عنقه يعرف

بها .

ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه من ذكر عيوب الوليد ، لأنه وصفه بالحلف ، والمهانة ، والعيب للناس ، والمشي بالنميمة ، والبخل ، والظلم ، والإثم ، والجفاء ، والدّعوة ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة .

والزَّنَمَتان : المعلقتان عند حلوق المعزى .

وقال ابن فارس : يعني التي تتعلق من أذنها .

والرابع : أنه الظلوم ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "أن كان" على الخبر ، أي : لأن كان .

والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه .

وقرأ ابن عباس بهمزتين ، الأولى : مخففة .

والثانية : ملينة ، وفصل بينهما بألف أبو جعفر .

وقرأ حمزة : "أأن كان" بهمزتين مخففتين على الاستفهام ، وله وجهان .

أحدهما : لأن كان ذا مال تطيعه ؟ ! .

والثاني : ألأن كان ذا مال وبنين ، ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ يكفر بها ؟ فيقول : ﴿ أساطير الأولين ﴾ ذكر القولين الفراء .

وقرأ ابن مسعود : "أن كان" بهمزة واحدة مقصورة .

ثم أوعده فقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ الخرطوم : الأنف .

وفي هذه السِّمة ثلاثة أقوال .

أحدها : سنسمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة على أنفه ما عاش ، فقاتل يوم بدر فخطم بالسيف ، قاله ابن عباس .

والثاني : سنُلْحق به شيئاً لا يفارقه ، قاله قتادة ، واختاره ابن قتيبة .

والثالث : أن المعنى : سَنُسَوِّد وجهه .

قال الفراء : و"الخرطوم" وإن كان قد خص بالسِّمة ، فإنه في مذهبِ الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدِّي عن البعض .

وقال الزجاج : سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم .

وجائز والله أعلم أن يفرد بسمة لمبالغته في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتبيَّن بها عن غيره .

قوله تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ يعني : أهل مكة ، أي : ابتليناهم بالجوع ، والقحط ﴿ كما

بَلَوْنا أصحاب الجنة ﴾ حين هلكت جَنَّتهم .

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان ، وكان مؤمناً .

وذلك بعد عيسى بن مريم عليهما السلام ، وكان يأخذ منه قدر قوته ، وكان يتصدّق بالباقي .

وقيل : كان يترك للمساكين ما تعدّاه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند الدِّراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير ، فمات الرجل عن ثلاث بنين ، فقالوا : والله إن المال لقليل ، وإن العيال لكثير ، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذْ كان المال كثيراً ، والعيال قليلاً ، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا .

فعزموا على حرمان المساكين ، وتحالفوا بينهم ليغدُنَّ قبل خروج الناس ، فليصرمُنَّ نخلهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إذْ أقسموا ﴾ أي : حلفوا ﴿ ليصرُمنّها ﴾ أي : ليقطعنّ نخلهم ﴿ مصبحين ﴾ أي : في أول الصباح .

وقد بقيت من الليل ظُلمة لئلا يبقى للمساكين شيء .

(156/778)

وفي قوله تعالى : ﴿ ولا يستثنون ﴾ قولان .

أحدهما : لا يقولون : إن شاء الله قاله الأكثرون .

والثاني : لا يستثنون حق المساكين ، قاله عكرمة ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أي : من أمر ربك .

قال الفراء : الطائف لا يكون إلا بالليل .

قال المفسرون : بعث الله عليها ناراً بالليل ، فاحترقت ، فصارت سوداء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كالرَّماد الأسود ، قاله ابن عباس .

والثاني : كالليل المسودّ ، قاله الفراء .

وكذلك قال ابن قتيبة : أصبحت سوداء كالليل محترقة .

والليل : هو الصريم ، والصبح أيضاً : صريم ، لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه .

والثالث : أصبحت وقد ذهب ما فيها من الثمر ، فكأنه قد صرم ، أي : قطع ، وجُذَّ حكاه ابن قتيبة أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ فتنادَوْا مصبحين ﴾ أي : نادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا ﴿ أن اغْدُوا على حرثكم ﴾ يعني : الثمار والزروع والأعناب ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أي : قاطعين للنخل ، ﴿ فانطلقوا ﴾ أي : ذهبوا إلى جنَّتهم ﴿ وهم يتخافتون ﴾ قال ابن قتيبة :

يتساررون ب ﴿ أن لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين وغَدَوُا على حرد ﴾ فيه ثمانية أقوال .

أحدهما : على قدرة ، قاله ابن عباس .

والثاني : على فاقة ، قاله الحسن في رواية .

والثالث : على جد ، قاله الحسن في رواية ، وقتادة ، وأبو العالية ، والفراء ، ومقاتل .

والرابع : على أمر مجمع قد أسَّسوه بينهم ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والخامس : أن الحرد : اسم الجنة ، قاله السدي .

والسادس : أنه الحنَق والغضب على المساكين ، قاله الشعبي ، وسفيان .

وأنشد أبو عبيدة :

أُسُودُ شَرَىً لاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ . . .

تَسَاقَوْا على حَرْدٍ دِمَاءَ الأَسَاوِدِ

والسابع : أنه المنع ، مأخوذ من حاردَتِ السَّنَة فليس فيها مطر ، وحاردت الناقة فليس لها لبن ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثامن : أنه القصد .

يقال : حَرَدْتُ حَرْدَكَ ، أي : قَصَدْتُ قَصْدَكَ ، حكاه الفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وأنشدوا :

قَدْ جَاءَ سَيْلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللهْ . . .

يَحْرُدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّةْ

أي : يقصد قصدها .

قال ابن قتيبة : وفيها لغتان : حَرَدٌ ، وحَرْدٌ ، كما يقال : الدَّرَك ، والدَّرْك .

وفي قوله تعالى : ﴿ قادرين ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : قادرين على جَنَّتهم عند أنفسهم ، قاله قتادة .

والثاني : قادرين على المساكين ، قاله الشعبي .

والثالث : أن المعنى : منعوا وهم قادرون ، أي : واجدون ، قاله ابن قتيبة .

قالوا : ﴿ فلما رَأَوْها ﴾ محترقة ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ أي : قد ضللنا طريق جَنَّتنا ، فليست هذه .

ثم علموا أنها عقوبة ، فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي : حرِمْنَا ثَمَرَ جَنَّتنَا بمنعنا المسكين ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي : أعدلهم ، وأفضلهم ﴿ لولا ﴾ أي : هلاَّ ﴿ تسبِّحون ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : هلا تَسْتَثْنُون عند قولكم : "ليصرُمنَّها مصبحين" قاله ابن جريج والجمهور .

والمعنى : هلاَّ قلتم : إن شاء الله .

قال الزجاج : وإنما قيل للاستثناء : تسبيح ، لأن التسبيح في اللغة : تنزيه الله عز وجل عن السوء .

والاستثناء تعظيم لله ، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئة الله .

والثاني : أنه كان استثناؤهم قول : "سبحان الله" ، قاله أبو صالح .

والثالث : هلا تسبِّحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم ، حكاه الثعلبي .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا سبحان ربنا ﴾ فنزَّهوه أن يكون ظالماً فيما صنع ، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم فقالوا : ﴿ إنَّا كنَّا ظالمين ﴾ بمنعنا المساكين ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم .

(158/778)

يقول هذا لهذا : أَنْتَ أَشَرْتَ علينا ، ويقول الآخر : أنت فَعَلْتَ ، ثم نادَوْا على أنفسهم بالويل فقالوا : ﴿ يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ حين لم نصنع ما صنع آباؤنا ، ثم رجعوا إلى الله تعالى فسألوه أن يبدِّلهم خيراً منها ، فذلك قوله : ﴿ عسى ربُّنا أن يبدِّلنا خيراً منها ﴾ .

وقرأ قوم : "يبدِلنا" بالتخفيف ، وهما لغتان .

وفرّق قوم بينهما ، فقالوا : التبديل : تغيير حال الشيء وصفته والعين باقية .

والإبدال : إزالة الشيء ووضع غيره مكانه .

ونقل أن القوم أخلصوا ، فبدّلهم الله جنّةً العنقودُ منها وِقْرُ بَغْلٍ .

قوله تعالى : ﴿ كذلك العذاب ﴾ ما فعلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا .

وها هنا انتهت قصة أهل الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ يعني : المشركين .

ثم ذكر ما للمتقين عنده بما بعد هذا ، فقال المشركون : إنا لنُعْطى في الآخرة أفضل مما تُعْطَوْنَ ، فقال تعالى مكذِّباً لهم ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ! ﴾ قال الزجاج : هذه ألف الاستفهام مجازها هاهنا مجاز التوبيخ ، والتقرير .

قوله تعالى : ﴿ كيف تحكمون ﴾ أي : كيف تقضون بالجَوْرِ ﴿ أم لكم كتاب ﴾ أُنْزِلَ من عند الله ﴿ فيه ﴾ هذا ﴿ تدرسون ﴾ أي : تقرؤون ما فيه ﴿ إن لكم ﴾ في ذلك الكتاب ﴿ لَمَا تَخَيَّرون ﴾ أي : ما تختارون وتشتهون .

وقرأ أبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري ، وأبو عمران : "أن لكم" بفتح الهمزة .

وهذا تقريع لهم ، وتوبيخ على ما يتمنَّوْن من الباطل "سَلْهم أيُّهم بذلك زعيم" ﴿ أم لكم أَيمانٌ علينا بالغةٌ ﴾ أي : ألكم عهود على الله تعالى حلف لك على ما تَدَّعُونَ بأَيمانٍ بالغةٍ

، أي : مُؤَكَّدةٍ .

وكل شيء متناهٍ في الجودة والصحة فهو بالغ .

ويجوز أن يكون المعنى : بالغة إلى يوم القيامة ، أي : تبلغ تلك الأَيمان إلى يوم القيامة في لزومها وتوكيدها ﴿ إن لكم لَمَا تحكمون ﴾ لأنفسكم به من الخير والكرامة عند الله تعالى .

(159/778)

قال الفراء : والقرَّاء على رفع "بالغةٌ" إلا الحسن فإنه نصبها على مذهب المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ حقاً ﴾ [الروم : 47] ومعنى الآية : هل لكم أيمان علينا بالغة بأن لكم ما تحكمون ؟ ! فلما كانت اللام في جواب "إن" كسرتَها .

قوله تعالى : ﴿ سلهم أيُّهم بذلك زعيم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه الكفيل ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والمعنى : أيُّهُمْ كفل بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين من الخير .

والثاني : أنه الرسول ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ يعني : الأصنام التي جعلوها شركاء لله تعالى ، والمعنى : ألهم أرباب يفعلون بهم هذا الذي زعموا .

وقيل : يشهدون لهم بصدق ما ادَّعَوْا ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ في أنها شركاء الله .

وإنما أضيف الشركاء إليهم لادِّعائهم أنهم شركاء الله .

﴿ يوم يُكْشَفُ ﴾ المعنى : فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق .

قرأ الجمهور : "يُكْشَفُ" بضم الياء ، وفتح الشين .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وعاصم الجحدري ، وأبو الجوزاء ، بفتح الياء ، وبكسر الشين .

وقرأ أبي بن كعب ، وابن عباس : "تَكْشِف" بتاءٍ مفتوحة ، وكسر الشين .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو مجلز ، وابن يعمر ، والضحاك : "نَكشف" بنون مفتوحة مع كسر الشين .

وهذا اليوم هو يوم القيامة .

وقد روى عكرمة عن ابن عباس : "يوم يُكْشَفُ عن ساق" قال : يُكْشَفُ عن شِدَّةٍ ، وأنشد :

وَقَامَتْ الحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقْ . . .

وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجدّ فيه ، شمّر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ،

واللغويين .

وقد أضيف هذا الأمر إلى الله تعالى .

فروي في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه " يكشف عن ساقه " ، وهذا إضافة إليه ، لأن الكل له وفعله .

(160/778)

وقال أبو عمر الزاهد : يراد بها النفس ، ومنه قول علي رضي الله عنه : أقاتلهم ولو تلفت ساقي ، أي : نفسي .

فعلى هذا يكون المعنى : يتجلّى لهم .

قوله تعالى : ﴿ ويُدْعَوْنَ إلى السجود ﴾ يعني : المنافقين ﴿ فلا يستطيعون ﴾ كأن في ظهورهم سفافيد الحديد .

قال النقاش : وليس ذلك بتكليف لهم أن يسجدوا ، وهم عجزة ، ولكنه توبيخ لهم بتركهم السجود ﴿ خاشعةً أبصارهم ﴾ أي : خاضعةً ﴿ ترهقهم ذِلَّة ﴾ أي : تغشاهم ﴿ وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود ﴾ يعني : بالأذان في دار الدنيا ، ويُؤْمَرون بالصلاة المكتوبة ﴿ وهم سالمون ﴾ أي : معافَوْن ليس في أصلابهم مثل سفافيد الحديد .

وفي هذا وعيد لمن ترك صلاة الجماعة .

وكان كعب يقول : والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلَّفون عن الجماعات ﴿ فَذَرْنِي ومن يكذِّب بهذا الحديث ﴾ يعني : القرآن .

والمعنى : خَلِّ بيني وبينه .

قال الزجاج : أي : لا تشغل قلبك به ، كِلْه إليَّ فأنا أكفيك أمره .

وذكر بعض المفسرين أن هذا القدر من الآية إلى قوله : "الحديث" منسوخ بآية السيف .

وما بعد هذا مفسر في [الأعراف : 183 ، 182] إلى قوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ فإنها مفسرة والتي قبلها في [الطور : 40 ، 39] .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي : اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آتٍ .

وقيل : معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ وهو يونس .

وفيما ذا نُهِيَ أن يكون مثله قولان :

أحدهما : أنه العجلة ، والغضب ، قاله قتادة .

والثاني : الضعف عن تبليغ الرسالة ، قاله ابن جرير .

قال ابن الأنباري : وهذا لا يُخْرِجُ يونس من أولي العزم ، لأنها خطيئة .

ولو قلنا : إن كل مخطىءٍ من الأنبياء ليس من أولي العزم ، خرجوا كلهم إلا يحيى .

ثم أخبر عن عقوبته إذْ لم يصبر ، فقال تعالى : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال الزجاج : مملوء غماً وكرباً .

(161/778)

قوله تعالى : ﴿ لولا أن تداركه ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن أبي عبلة : "لولا أن تَداركْتْه" بتاء خفيفة ، وبتاءٍ ساكنة بعد الكاف مع تخفيف الدال .

وقرأ أبو هريرة ، وأبو المتوكل : "تَدَّاركه" بتاء واحدة خفيفة مع تشديد الدال .

وقرأ أُبَيّ بن كعب : "تتداركه" بتاءين خفيفتين ﴿ نعمةٌ من ربه ﴾ فرحمه بها ، وتاب عليه من معاصيه ﴿ لَنُبذَ بالعَرَاءِ وهو مذموم ﴾ وقد بينا معنى "العَراء" في [الصافات : 145] ومعنى الآية : أنه نبذَ غيرَ مذموم لنعمة الله عليه بالتوبة والرحمة .

وقال ابن جريج : نُبذَ بالعراء ، وهي : أرض المحشر ، فالمعنى : أنه كان يبقى مكانه إلى يوم القيامة ﴿ فاجتباه ربه ﴾ أي : استخلصه واصطفاه ، وخلَّصه من الذم ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ فردَّ عليه الوحي ، وشفَّعه في قومه ونفسه ﴿ وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ قرأ الأكثرون بضم الياء من أزلقته ، وقرأ أهل المدينة ، وأبان بفتحها من زَلَقْتُه أزْلِقُهُ ، وهما لغتان مشهورتان في العرب .

قال الزجاج : يقال : زلق الرَّجُلُ رأسَه وأزلقه : إذا حلقه .

وفي معنى الآية للمفسرين قولان :

أحدهما : أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ، وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمرُّ به النَّعم ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها عدة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ، فعصم الله نبيَّه ، وأنزل هذه الآية ، هذا قول الكلبي ، وتابعه قوم من المفسرين تلقَّفوا ذلك من تفسيره ، منهم الفراء .

والثاني : أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يكاد يُزْلِقُه من شدته ، أي : يلقيه إلى الأرض .

وهذا مستعمل في كلام العرب .

يقول القائل : نظر إليَّ فلان نظراً كاد يصرعني .

وأنشدوا :

يَتَقَارَضُونَ إذا التَقَوْا في مَوْطِنٍ . . .

نَظَراً يُزِيلُ مَوَاطِنَ الأَقْدَامِ

أي : ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزيل الأقدام ، وإلى هذا ذهب المحققون ، منهم ابن قتيبة ، والزجاج .

ويدل على صحته أن الله تعالى قرن هذا النظر بسماع القرآن ، وهو قوله تعالى : ﴿ لما سمعوا الذِّكْرَ ﴾ والقوم كانوا يكرهون ذلك أَشَدَّ الكراهة ، فيُحِدُّون النظر إليه بالبغضاء ، وإصابةُ العين ، إنما تكون مع الإعجاب والاستحسان ، لا مع البغض ، فلا يُظن بالكلبي أنه فهم معنى الآية ﴿ وما هو ﴾ يعني : القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ أي : موعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 326 . 344 ﴾

(163/778)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ن ﴾

قال ابن عباس هو الحوت الذي على ظهره الأرض وعنه " إن أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت

الأرض فأثبتت الجبال فإن الجبال لتفخر على الأرض ثم قرأ ن والقلم وما يسطرون " قيل اسم النون بهموت وقيل لوثيا وعن علي بلهوث .

قال أصحاب السير والأخبار : لما خلق الله الأرض وفتقها سبع أرضين بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخلت تحت الأرضين السبع وضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدمه فأخذ الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقر عليها قدما الملك وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر البحر فلم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه فتكن في صخرة فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة قيل فكل الدنيا بما عليها حر فان قال لها الجبار سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس كوني فكانت .

قال كعب الأحبار : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهر الأرض فوسوس إليه فقال له أتدري ما على ظهرك يا ليوثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لألقيتهم على ظهرك فهم ليوثا أن يفعل ذلك فبعث له دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن لها فخرجت قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت وعن ابن عباس أيضاً أن النون هو الدواة ومنه قول الشاعر :

إذا ما الشوق برح بي إليهم . . .

ألقت النون بالدمع السجام

أراد بالنون الدواة وعن ابن عباس أيضاً أن نوناً حرف من حروف الرحمن إذا جمعت الرحمن وقيل هو مفتاح اسمه ناصر ونصير وقيل اسم للسورة ﴿ والقلم ﴾ هو القلم الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ويقال أول ما خلق الله القلم فنظر إليه فانشق نصفين ثم قال اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه ﴿ وما يسطرون ﴾ أي وما يكتب الحفظة من أعمال بني آدم وقيل إن حملنا القلم على ذلك القلم المعين فيحتمل أن يكون المراد وما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ ويكون الجمع في وما يسطرون للتعظيم لا للجمع .

(165/778)

﴿ ما أنت ﴾ يا محمد ﴿ بنعمة ربك بمجنون ﴾ هذا جواب القسم أقسم الله بنون والقلم وما يسطرون وما أنت بنعمة ربك بمجنون وهو رد لقولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ والمعنى إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة فنفى عنه الجنون وقيل معناه ما أنت بمجنون والنعمة لله وهو كما يقال ما أنت بمجنون والحمد لله وقيل إن نعمة الله كانت ظاهرة عليه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والأخلاق الحميدة والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينفي حصول الجنون فنبه الله تعالى بهذه الآية على كونهم كاذبين في قولهم إنك لمجنون ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع ومنه قول لبيد :

عبس كواسب ما يمن طعامها . . .

(166/778)

أي ما يقطع يصف بذلك كلاباً ضارية ، وقيل في معنى الآية إنه غير مكدر عليك بسبب المنة والقول هو الأول ومعناه إن لك على احتمالك الطعن وصبرك على هذا القول القبيح وافترائهم عليك أجراً عظيماً دائماً لا ينقطع ، وقيل إن لك على إظهار النبوة وتبليغ الرسالة ودعاء الخلق إلى الله تعالى والصبر على ذلك وبيان الشرائع لهم أجراً عظيماً فلا تمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا الأمر العظيم الذي قد حملته ثم وصفه بما يخالف حال المجنون فقال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وهذا كالتفسير لقوله ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة عليه ومن كان كذلك لم تجز إضافة الجنون إليه ولما كانت أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كاملة حميدة وأفعاله المرضية الجميلة وافرة وصفها الله تعالى بأنها عظيمة وحقيقة الخلق قوى نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة والآداب المرضية فيصير ذلك كالخلقة في صاحبه ويدخل في حسن الخلق التحرز من الشح والبخل والتشديد في المعاملات ويستعمل في حسن الخلق التحبب إلى الناس بالقول والفعل والبذل وحسن الأدب والمعاشرة بالمعروف مع الأقارب والأجانب والتساهل في جميع الأمور والتسامح بما يلزم من الحقوق وترك التقاطع والتهاجر واحتمال الأذى من الأعلى والأدنى مع طلاقة الوجه وإدامة البشر فهذه الخصال تجمع جميع محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ولقد كان جميع ذلك في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولهذا وصفه الله تعالى بقوله ﴿ وإنك لعلى

خلق عظيم ﴾ ، وقال ابن عباس معناه على دين عظيم لا دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام وقال الحسن هو آداب القرآن سئلت عائشة رضي الله عها عن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت كان خلقه القرآن وقال قتادة هو ما كان يأتمر من أوامر الله وينتهي عنه من مناهي الله تعالى والمعنى وإنك لعلى الخلق الذي أمرك

(167/778)

الله به في القرآن وقيل سمى الله خلقه عظيماً لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فصل : في فضل حسن الخلق وما كان عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم))

من ذلك ما روى جابر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال " (م) عن النواس بن سمعان قال " سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن البر والإثم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس " ، عن عائشة ا قالت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم

القائم " أخرجه أبو داود وعنها قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن من أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن .

(168/778)

عن أبي الدرداء أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وله عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن من أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً " ، (ق) عن البراء قال " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير " (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال " إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً " وكان يقول " خياركم أحاسنكم أخلاقاً " (ق) عن أنس قال " خدمت النبي (صلى الله عليه وسلم) عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا " زاد الترمذي " وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان

أطيب من عرق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ، (خ) عنه قال " إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتنطلق به حيث شاءت " زاد في رواية ﴿ فستبصر ﴾ أي يا محمد ﴿ ويبصرون ﴾ يعني أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال ابن عباس معناه بأيكم المجنون وقيل الباء بمعنى " في " معناه فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون في فريقك أو فريقهم وقيل المفتون هو الشيطان الذي فتن بالجنون ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ معناه إنهم رموه بالجنون والضلال ووصفوا أنفسهم بالعقل والهداية فأعلم الله تعالى أنه هو العالم بالفريقين الضال والمهتدي والمجنون والعاقل ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ يعني مشركي مكة وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم .

(169/778)

﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ أصل الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام وقيل أدهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما أبطن ومعنى الآية أنهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك وقيل معناه ودوا لو تكفر فيكفرون وهو أن تعبد آلهتهم

مدة ويعبدون الله مدة ﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ أي كثير الحلف بالباطل ﴿ مهين ﴾ أي ضعيف حقير ذليل وقيل هو من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز وقال ابن عباس كذاب وهو قريب من الأول لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل هو الأسود بن عبد يغوث وقيل هو الأخنس بن شريق .

(170/778)

﴿ هماز ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب وقيل هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ﴿ مشاء بنميم ﴾ أي فتان يسعى بالنميمة ليفسد بين الناس ﴿ مناع للخير ﴾ أي بخيل بالمال وقال ابن عباس مناع للخير أي يمنع ولده وعشيرته عن الإسلام يقول لئن دخل واحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً ، ﴿ معتد ﴾ أي ظلوم يتعدى الحق ﴿ أثيم ﴾ أي فاجر يتعاطى الإثم ﴿ عتل ﴾ أي غليظ جاف وقيل هو الفاحش السيىء الخلق وقيل هو الشديد في الخصومة بالباطل وقيل هو الشديد في كفره وقيل العتل الأكول الشروب القوي الشديد ولا يزن في الميزان شعيرة يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً في النار دفعة واحدة ﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ أي مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة زنيم وهو الدعي الملصق في القوم وليس منهم قال ابن عباس يريد مع هذا هو دعي في قريش

وليس منهم قيل إنما ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة وقيل الزنيم هو الذي له زنمة كزنمة الشاة وقال ابن عباس في هذه الآية نعت من لا يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها وعنه أيضاً قال يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها قال ابن قتيبة لا نعلم أن الله وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ قرىء على الخبر ومعناه فلا تطع كل حلاف مهين لأن كان ذا مال وبنين أي لا تطعه لماله وبنيه وقرىء أأن كان ذا مال وبنين بالاستفهام ومعناه ألأن كان ذا مال وبنين ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أي جعل مجازاة النعم التي خولها من المال والبنين الكفر بآياتنا وقيل لأن كان ذا مال وبنين تطيعه ثم أوعده .

(171/778)

﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ أي على الأنف والمعنى نسود وجهه فنجعل له علماً يعرف به في الآخرة وهو سواد الوجه فعبر بالأنف عن الوجه وقال ابن عباس سنسمه بالسيف وفعل به ذلك يوم بدر ، وقيل معناه سنلحق به شيئاً لا يفارقه أي سنسمه ميسم سوء يريد نلحق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا تمحى ولا يعفى أثرها .

وقد ألحق الله به بما ذكر من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى قط وقيل معناه سنكويه على وجهه .

(172/778)

وقوله تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أي اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ قال بستان باليمن يقال له الضروان دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق وكان غرسه قوم من أهل الصلاة وكان لرجل فمات فورثه ثلاث بنين له وكان يترك للمساكين إذا صرموا نخلهم كل شيء تعداه المنجل إذا طرح من فوق النخل إلى البساط وكل شيء يخرج من المنجل إلى البساط فهو أيضاً للمساكين وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثر أيضاً فلما مات الأب وورثه بنوه هؤلاء الإخوة الثلاثة قالوا والله إن المال قليل وإن العيال كثير وإنما كان هذا الأمر يفعل لما كان المال كثيراً والعيال قليلاً فأما إذا قل المال وكثر العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل فتحالفوا بينهم يوماً أن يغدوا غدوة قبل خروج الناس فليصرمن نخلهم فذلك قوله تعالى : ﴿ إذ أقسموا ﴾ أي تحالفوا ﴿ ليصرمنها ﴾ أي ليقطعن ثمرها ﴿ مصبحين ﴾ أي إذا أصبحوا قبل أن يخرج

إليهم المساكين وقبل أن يعلم بها المساكين ، ﴿ ولا يستثنون ﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله وقيل لا يستثنون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أي عذاب من ربك ولا يكون الطائف إلا بالليل وهو قوله تعالى : ﴿ وهم نائمون ﴾ وكان ذلك الطائف ناراً أنزلت من السماء فأحرقتها وهو قوله تعالى : ﴿ فأصبحت ﴾ أي الجنة ﴿ كالصريم ﴾ أي كالليل الأسود المظلم وقيل تصرم منها الخير فليس فيها شيء ينتفع به وقال ابن عباس كالرماد الأسود وهو بلغة خزيمة .

(173/778)

﴿ فتنادوا ﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً ﴿ مصبحين ﴾ يعني لما أصبحوا ﴿ أن اغدوا على حرثكم ﴾ يعني الثمار والزرع والأعناب ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أي قاطعين ثماركم ﴿ فانطلقوا ﴾ أي مشوا إليها ﴿ وهم يتخافتون ﴾ أي يتسارون يقول بعضهم لبعض سراً ﴿ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد ﴾ أي على قصد ومنع وقيل معناه على جد وجهد وقيل على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم وقيل على حنق وغضب من المساكين وقال ابن عباس على قدرة ﴿ قادرين ﴾ أي عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد ﴿ فلما رأوها ﴾ أي رأوا الجنة محترقة ﴿ قالوا

إنا لضالون ﴾ أي لمخطئون الطريق أضللنا عن مكان جنتنا وليست هذه جنتنا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي قال بعضهم قد حرمنا خيرها ونفعها بمنعنا المساكين وتركنا الاستثناء ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ أي هلا تستثنون أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ليصرمنها مصبحين سماه تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار بأنه لا يقدر أحد على شيء إلا بمشيئته ، وعلى التفسير الثاني أن الاستثناء بمعنى لا يتركون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم يكون معنى لولا تسبحون أي تتوبون وتستغفرون الله من ذنوبكم وتفريطكم ومنعكم حق المساكين وقيل كان استثناؤهم سبحان الله وقيل هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم من نعمه ﴿ قالوا سبحان ربنا ﴾ معناه أنهم نزهوه عن الظلم فيما فعل وأقروا على أنفسهم بالظلم فقالوا ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أي بمنعنا المساكين حقوقهم ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أي في منعنا حق الفقراء والمساكين وقيل معناه طغينا في نعم الله فلم نشكرها ولم نصنع ما كان يصنع آباؤنا من قبل ثم رجعوا إلى أنفسهم .

(174/778)

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ قال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً قال الله تعالى : ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا يخوف بذلك كفار مكة ثم قال تعالى : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ ثم أخبر بما أعد الله للمتقين فقال تعالى : ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ﴾ أي عند ربهم في الآخرة ولما نزلت هذه الآية قال المشركون إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون فقال الله تعالى تكذيباً للمشركين ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ يعني أن التسوية بين المسلم والمجرم غير جائزة فكيف يكون أفضل أو يعطى أفضل منه ولما قال تعالى ذلك على سبيل الاستبعاد والإنكار قال لهم على طريق الالتفات ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ يعني هذا الحكم المعوج ﴿ أم لكم كتاب ﴾ أي نزل من عند الله ﴿ فيه ﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿ تدرسون ﴾ أي تقرؤون ﴿ إن لكم فيه ﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿ لما تخيرون ﴾ أي تختارون وتشتهون ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة ﴾ معناه ألكم عهود ومواثيق مؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أي لا تنقطع تلك الأيمان والعهود إلى يوم القيامة ﴿ إن لكم ﴾ أي في ذلك العهد ﴿ لما تحكمون ﴾ أي لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى ثم قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ أي أيهم كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أي

بل لهم شركاء يعني ما كانوا يجعلونه لله شريكاً وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم جعلوها شركاء لله ، وقيل معنى شركاء شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ أي في دعواهم ﴿ يوم يكشف ﴾ أي فليأتوا بشركائهم في ذلك اليوم لتنفعهم وتشفع لهم ﴿ عن ساق ﴾ أي عن أمر فظيع شديد قال ابن عباس هو أشد ساعة في

(175/778)

القيامة تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج فيه إلى الجد ومقاساة الشدة شمر عن ساقك إذا قام في ذلك الأمر ويقال إذا اشتد الأمر في الحرب كشفت الحرب عن ساق وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

سن لنا قومك ضرب الأعناق . . .

وقامت الحرب بنا على ساق

ثم قال ابن عباس هو يوم كرب وشدة وأنشد أهل اللغة أبياتاً في هذا المعنى فمنها ما أنشده أبو عبيدة لقيس بن زهير :

فإن شمرت لك عن ساقها . . .

فدنها ربيع ولا تسأم

ومنها قول جرير :

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن . . .

إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا

(176/778)

وقد كثر مثل هذا في كلام العرب حتى صار كالمثل للأمر العظيم الشديد (ق) عن أبي سعيد الخدري " أن ناساً في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا يا محمد هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد

عزيراً ابن الله قال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فماذا تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيقولون يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية لتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما

(177/778)

أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم ، قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيام لإخوانهم الذين في النار فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ، ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً ، وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم : إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فيقول الله شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع

المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر أو أخضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض قال فيخرجون

(178/778)

كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم تعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم أبداً "

لفظ مسلم والبخاري نحوه بمعناه .

(فصل في شرح ألفاظ الحديث وما يتعلق به)

أما الرؤية وما يتعلق بها فسيأتي الكلام عليها في موضعها إن شاء الله تعالى .

قوله " حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها وفي رواية أبي هريرة فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا

ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه "

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله وغيره اعلم أن هذا الحديث من أكبر أحاديث الصفات وأعظمها وللعلماء فيه وفي أمثاله قولان :

أحدهما : وهو قول معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد أن لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوقين وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم وقال الخطابي هذا الحديث تهيب القول فيه شيوخنا فأجروه على ظاهر لفظه ولم يكشفوا عن باطن معناه على نحو مذهبهم في التوقف عن تفسير كل ما لا يحيط العلم بكنهه من هذا الباب .

(179/778)

والقول الثاني : وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله فعلى هذا المذهب يقال في قوله (صلى الله عليه

وسلم) فيأتيهم الله أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته بالإتيان فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً وقيل الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً وقيل المراد بيأتيهم الله يأتيهم بعض ملائكته قال القاضي عياض وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث قال ويكون هذا الملك هو الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سمات الحدوث الظاهرة على الملك والمخلوق قال أو يكون معناه يأتيهم الله في صورة أي يصور ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم وهذا آخر امتحان المؤمنين فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة أنا ربكم رأوا عليه علامة من علامات المخلوقات مما ينكرونه ويعلمون بذلك أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه .

وأما قوله (صلى الله عليه وسلم) فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فالمراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله تعالى لهم في الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم على هذه الصفة يرونه شيئاً من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته فيعلمون بذلك أنه ربهم فيقولون أنت ربنا وإنما عبر عن الصفة بالصورة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة .

وقوله في حديث أبي سعيد " أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها " معنى

رأوه فيها أي علموها وهي صفته المعلومة للمؤمنين وهي أنه لا يشبهه شيء وقولهم " نعوذ بالله منك لا نشرك بالله " إنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا عليه سمات المخلوق .

(180/778)

قوله " فيكشف عن ساق وفي رواية للبخاري يكشف ربنا عن ساقه " ذكر هذه الرواية البيهقي في كتاب الأسماء والصفات ، قال أبو سليمان الخطابي فيحتمل أن يكون معنى قوله فيكشف عن ساقه أي عن قدرته التي تكشف عن الشدة وضبط يكشف بفتح الياء وضمها وقد تقدم تفسير كشف الساق وقيل المراد بالساق في هذا الحديث نور عظيم .

(181/778)

وورد ذلك في حديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله يوم يكشف عن ساق قال نور عظيم يخرون له سجداً تفرد به روح بن حبان مولى عمر بن عبد العزيز وهو شامي يأتي بأحاديث منكرة لا يتابع عليها وموالي عمر بن عبد العزيز كثيرون ففي إسناده مجهول أيضاً وقال ابن

فورك ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمن عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف قال القاضي عياض وقيل قد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة وقد تكون ساقاً مخلوقة جعلها الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة ، قيل معناه كشف الحزن وإزالة للرعب عنهم وما كان غلب على عقولهم من الأهوال فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى الله لهم فيخرون سجداً قال الخطابي وهذه الرؤية في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي هي في الجنة لكرامة أولياء الله وإنما هذه الرؤية امتحان الله لعباده وقوله فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له في السجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة هذا السجود امتحان من الله تعالى لعباده ومعنى طبقة واحدة أي فقارة واحدة كالصحيفة فلا يقدر على السجود وقوله ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة معناه ثم يرفعون رؤوسهم وقد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم فيقولون أنت ربنا وقوله ثم يضرب الجسر على جهنم الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان وهو الصراط وتحل للشفاعة بكسر الحاء وقيل بضمها من حل ومعناه وتقع الشفاعة ويؤذن فيها قوله دحض مزلة أي تزلق فيه الأقدام ولا تثبت قوله فيه خطاطيف جمع خطاف وهو الذي يخطف الشيء وكلاليب جمع كلوب وهو الحديدة التي يعلق بها اللحم والحسك الذي يقال له السعدان نبت له شوك عظيم من كل جانب قوله فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس في نار جهنم معناه

أنهم ثلاثة أقسام قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص وقسم يكردس أي يلقى ويسقط في جهنم وفي هذا إثبات الصراط وهو مذهب أهل السنة وأهل الحق وهو جسر يجعل على متن جهنم وهو أرق من الشعر وأحد من السيف فيمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم وأعمالهم والآخرون يسقطون في جهنم أعاذنا الله منها ، ومعنى مناشدة المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار شفاعتهم لهم وقوله فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير ومثقال نصف دينار من خير ومثقال ذرة قال القاضي عياض قيل معنى الخير اليقين قال والصحيح أن معناه شيء زائد على مجرد الإيمان لأن الإيمان الذي هو التصديق لا يتجزأ وإنما يكون هذا الخير زائداً عليه من عمل صالح وذكر خفي وعمل من أعمال القلب من شفقة على مسكين أو خوف من الله تعالى أو نية صادقة ومثقال الذرة مثل لأقل الخير لأن ذلك أقل المقادير وقول المؤمنين لم نذر فيها خيراً أي صاحب خير وقوله تعالى :

﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أشد بياضاً من الثلج وقد علاها النور والبهاء وتسود وجوه الكفار والمنافقين

ويغشاهم ذل وخسران وندامة ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ يعني في دار الدنيا كانوا يدعون إلى الصلاة المكتوبة بالأذان والإقامة وذلك أنهم كانوا يسمعون حي على الصلاة حي على الفلاح فلا يجيبون ﴿ وهم سالمون ﴾ يعني أنهم كانوا يدعون إلى الصلاة وهم أصحاء فلا يأتونها قال كعب الأحبار والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعة .

قوله : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن وخل بيني وبينهم ولا تشغل قلبك بهم وكلهم إليّ فإني أكفيك إياهم ﴿ سنستدرجهم ﴾ أي سنأخذهم بالعذاب ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ فعذبوا يوم بدر بالقتل والأسر ، وقيل في معنى الآية كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار والتوبة .

(183/778)

وهذا هو الاستدراج لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر وإذا أذنب ذنباً أن يعاجله بالاستغفار والتوبة .

﴿ وأملي لهم ﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدة .

وقيل معناه أمهلهم إلى الموت فلا أعاجلهم بالعقوبة ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي عذابي شديد وقيل الكيد ضرب من الاحتيال فيكون بمعنى الاستدراج المؤدي إلى العذاب ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ المغرم الغرامة والمعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم ذلك عن الإيمان ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أي عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به وهو استفهام على سبيل الإنكار ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي اصبر على أذاهم لقضاء ربك قيل إنه منسوخ بآية السيف ﴿ ولا تكن ﴾ في الضجر والعجلة ﴿ كصاحب الحوت ﴾ يعني يونس بن متى ﴿ إذ نادى ﴾ ربه أي في بطن الحوت ﴿ وهو مكظوم ﴾ أي مملوء غماً ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه ﴾ أي حين رحمه وتاب عليه ، ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أي لطرح بالفضاء من بطن الحوت على الأرض ﴿ وهو مذموم ﴾ أي يذم ويلام بالذنب .

وقيل في معنى الآية لولا أن تداركته نعمة من ربه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم ينبذ بعراء القيامة أي بأرضها وفضائها فإن قلت هل يدل قوله وهو مذموم على كونه كان فاعلاً للذنب .

قلت الجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أن كلمة لولا دلت على أنه لم يحصل منه ما يوجب الذم الثاني لعل المراد منه ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين الثالث

لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه ﴾ والفاء للتعقيب أي اصطفاه ورد عليه الوحي وشفعه في قومه ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي النبيين .

(184/778)

قوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ وذلك أن الكفار أرادوا أن يصيبوا النبي (صلى الله عليه وسلم) بالعين فنظرت قريش إليه وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه ، وقيل كانت العين في بني أسد حتى أن كانت الناقة أو البقرة لتمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول لجاريته خذي المكتل والدراهم فائتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر .

وقيل كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط ما عناه فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالعين ويفعل به مثل ذلك فعصم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأنزل وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم قال ابن عباس : معناه ينفذونك وقيل يصيبونك بعيونهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه .

﴿ وما هو ﴾ يعني القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ قال ابن عباس موعظة للمؤمنين قال الحسن : دواء من أصابته العين أن تقرأ عليه هذه الآية (ق) ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " العين حق " زاد البخاري " ونهى عن الوشم " (م) عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا " وعن عبيد الله بن رفاعة الزرقي " أن أسماء بنت عميس كانت تقول يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم ؟ قال : نعم ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين " أخرجه الترمذي قوله العين حق أخذ بظاهر هذا الحديث جماهير العلماء وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم " أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول فإذا أخبر الشارع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه ومذهب أهل السنة أن العين إنما تفسد وتهلك عند مقابلة هذا الشخص الذي هو العائن لشخص آخر فتؤثر فيه بقدرة الله تعالى وفعله وقوله ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، فيه إثبات القدر وأنه حق والمعنى أن الأشياء كلها بقدر الله ولا يقع

شيء إلا على حسب ما قدر الله وسبق به علمه ولا يقع شرر العين وغيره من الخير والشر إلا بقدرة الله وفيه صحة إثبات العين وأنها قوية الضرر إذا وافقها القدر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 128.142 ﴾

(186/778)

وقال النسفى :

سورة القلم

مكية وهي اثنتان وخمسون

آية بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ن ﴾ الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم .

وأما قول الحسن : إنه الدواة ، وقول ابن عباس : إنه الحوت الذي عليه الأرض واسمه بهموت ، فمشكل لأنه لا بد له من الإعراب سواء كان اسم جنس أو اسم علم ، فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم ﴿ والقلم ﴾ أي ما كتب به اللوح ، أو قلم الملائكة ، أو الذي يكتب به الناس ، أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي ما يسطره الحفظة أو ما يكتب به من الخير من كتب .

و"ما" موصولة أو مصدرية ، وجواب القسم ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها ف ﴿ أَنتَ ﴾ اسم "ما" وخبرها ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ و ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ اعتراض بين الاسم والخبر ، والباء في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ تتعلق بمحذوف ومحله النصب على الحال والعامل فيها ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ وتقديره : ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك .

ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي وهو جواب قولهم ﴿ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿ لأَجْرًا ﴾ لثواباً ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع أو غير ممنون عليك به ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قيل : هو ما أمره الله تعالى به في قوله : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن أي ما فيه من مكارم الأخلاق .

وإنما استعظم خلقه لأنه جاد بالكونين وتوكل على خالقهما .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ أي عن قريب ترى ويرون وهذا وعد له ووعيد لهم ﴿ بِأَيِّيكُمُ المفتون ﴾ المجنون لأنه فتن أي محن بالجنون ، والباء مزيدة ، أو المفتون مصدر كالمعقول أي بأيكم الجنون .

وقال الزجاج: الباء بمعنى "في" تقول: كنت ببلد كذا أي في بلد كذا، وتقديره في أيكم المفتون أي في أي الفريقين منكم المجنون: فريق الإسلام أو فريق الكفر؟ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء هم والمهتدون ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم وقد أرادوه على أن يعبد الله مدة وآلهتهم مدة ويكفوا عنه غوائلهم ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ لو تلين لهم ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فيلينون لك.

ولم ينصب بإضمار "أن" وهو جواب التمني لأنه عدل به إلى طريق آخر، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون أي فهم الآن يدهنون لطمعهم في ادهانك.

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ﴿ مَّهِينٍ ﴾ حقير في الرأي والتمييز من المهانة وهي القلة والحقارة، أو كذاب لأنه حقير عند الناس ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب طعان مغتاب ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، والنميم والنميمة: السعاية ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيل، والخير: المال أو مناع أهله من الخير وهو الإسلام، والمراد الوليد بن المغيرة عند الجمهور وكان يقول لبنيه العشرة: من أسلم منكم منعته رفدي ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام ﴿ عُتُلٍ ﴾ غليظ جاف ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعدما عد له من

المثالب ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دعي .

وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده .

وقيل : بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية ، والنطفة إذا خبثت الناشىء منها .

رُوي أنه دخل على أمه وقال : إن محمداً وصفني بعشر صفات ، وجدت تسعاً فيّ ، فأما الزنيم فلا علم لي به ، فإن أخبرتني بحقيقته وإلا ضربت عنقك .

(188/778)

فقالت : إن أباك عنين وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده فدعوت راعياً إلى نفسي فأنت من ذلك الراعي .

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ ﴾ متعلق بقوله ﴿ وَلاَ تُطِعِ ﴾ أي ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي ليساره وحظه من الدنيا ، ويجوز أن يتعلق بما بعده أي لأن كان ذا مال ﴿ وَبَنِينَ ﴾ كذب بآياتنا يدل عليه ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ أي القرآن ﴿ قَالَ أساطير الأولين ﴾ ولا يعمل فيه ﴿ قَالَ ﴾ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله .

﴿ أأن ﴾ حمزة وأبو بكر أي ألأن كان ذا مال كذب ؟ ﴿ أأن ﴾ شامي ويزيد ويعقوب وسهل .

قالوا : لما عاب الوليد النبي صلى الله عليه وسلم كاذباً باسم واحد وهو المجنون سماه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً ، فإن كان من عد له أن يجزي المسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرة ، كان من فضله أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ سنكويه ﴿ عَلَى الخرطوم ﴾ على أنفه مهانة له وعلماً يعرف به ، وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع .

وقيل : خطم بالسيف يوم بدر فبقيت سمة على خرطومه .

﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف والرمم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف " ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ هم قوم من أهل الصلات كانت لأبيهم هذه الجنة بقرية يقال لها ضروان وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقي على الفقراء .

فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ليصرمنها مصبحين في السدف خيفة من المساكين ولم يستثنوا في يمينهم ، فأحرق الله جنتهم .

وقال الحسن : كانوا كفاراً .

والجمهور على الأول ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ ﴾ حلفوا ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ليقطعن ثمرها ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء ، حال من فاعل ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ ولا يقولون إن شاء الله .

وسمي استثناء وإن كان شرطاً صورة لأنه يؤدي مؤدي الاستثناء من حيث إن معنى قولك "لأخرجن إن شاء الله" و"لا أخرج إلا أن يشاء الله" واحد ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ نزل عليها بلاء .

قيل : أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي في حال نومهم ﴿ فَأَصْبَحَتْ ﴾ فصارت الجنة ﴿ كالصريم ﴾ كالليل المظلم أي احترقت فاسودت ، أو كالصبح أي صارت أرضاً بيضاء بلا شجر .

وقيل : كالمصرومة أي كأنها صرمت لهلاك ثمرها .

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ﴿ أَنِ اغدوا ﴾ باكروا ﴿ على حَرْثِكُمْ ﴾ ولم يقل "إلى حرثكم" لأن الغدوّ إليه ليصرموه كان غدوّاً عليه أو ضمن الغدوّ معنى الإقبال أي فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ مريدين صرامه ﴿ فانطلقوا ﴾ ذهبوا ﴿ وَهُمْ يتخافتون ﴾ يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمعوا المساكين ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ﴾ أي الجنة و"إن" مفسرة وقرىء بطرحها بإضمار القول أي

يتخافتون يقولون لا يدخلنها ﴿ اليوم عَلَيْكُمْ مّسْكِينٌ ﴾ والنهي عن دخول المساكين .

نهى عن التمكين أي لا تمكنوه من الدخول .

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ ﴾ على جد في المنع ﴿ قادرين ﴾ عند أنفسكم على المنع كذا عن نفطويه ، أو الحرد القصد والسرعة أي وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وزي منفعتها عن منفعتها عن المساكين ، أو هو علم للجنة أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم .

(190/778)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي جنتهم محترقة ﴿ قَالُواْ ﴾ في بديهة وصولهم ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أي ضللنا جنتنا وما هي بها لما رأوا من هلاكها ، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبّحُونَ ﴾ هلا تستثنون إذ الاستثناء التسبيح لالتقائهما في معنى التعظيم لله ، لأن الاستثناء تفويض إليه والتسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم .

أو لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ! كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على

ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة فعصوه فعيرهم ولهذا ﴿ قَالُواْ سبحان ربّنَا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ فتكلموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلم به أولاً ، وأقروا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف وترك الاستثناء ونزهوه عن أن يكون ظالماً ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ يلوم بعضهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين ، ويحيل كل واحد منهم اللائمة على الآخر .

ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد بقوله ﴿ قَالُواْ ياويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء ﴿ عسى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ وبالتشديد : مدني وأبو عمرو ﴿ خَيْراً مِّنْهَا ﴾ من هذه الجنة ﴿ إِنَّا إلى ربّنَا راغبون ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه .

عن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : بلغني أنهم أخلصوا فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه من عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ أعظم منه ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب .

ثم ذكر ما عنده للمؤمنين فقال :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ جنات النعيم ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص بخلاف جنات الدنيا ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ استفهام إنكار على قولهم لو كان ما يقول محمد حقاً فنحن نعطي في الآخرة خيراً مما يعطي هو ومن معه كما في الدنيا .

فقيل لهم : أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ؟ ثم قيل لهم على طريقة الالتفات ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الأعوج وهو التسوية بين المطيع والعاصي ، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم ﴿ أَمْ لَكُمْ كتاب ﴾ من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ تقرؤون في ذلك الكتاب ﴿ إنّ لكم فيه لما تخيّرون ﴾ أي إن ما تختارونه وتشتهونه لكم .

والأصل تدرسون أن لكم ما تخيرون بفتح "أن" لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لمجيء اللام ، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخرين * سلام على نُوحٍ ﴾ [الصافات : 78-79] .

وتخير الشيء واختاره أخذ خيره ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ بالغة ﴾ نعت ﴿ أيمان ﴾ ويتعلق ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ ببالغة أي أنها تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم ، أو بالمقدر في الظرف

أي هي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا تخرج من عهدتها إلا يومئذ إذا حكمنا كم وأعطينا كم ما تحكمون ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ به لأنفسكم وهو جواب القسم لأن معنى ﴿ أَمْ لَكُمْ أيمان عَلَيْنَا ﴾ أم أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد .

(192/778)

﴿ سَلْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ أَيُّهُم بذلك ﴾ الحكم ﴿ زَعِيمٌ ﴾ كفيل بأنه يكون ذلك ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي ناس يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم فيه ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في دعواهم يعني أن أحداً لا يسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ناصب الظرف ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ أو "اذكر" مضمراً .

والجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر وصعوبة الخطب ، فمعنى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب ولا كشف ثمة ولا ساق ، ولكن كنى به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق ، وهذا كما نقول : للأقطع الشحيح يده مغلولة ، ولا يد ثمة ولا غل ، وإنما هو كناية عن البخل .

وأما من شبه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان ، ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان

من حق الساق أن تعرف لأنها ساق معهودة عنده ﴿ وَيُدْعَوْنَ ﴾ أي الكفار ثمة ﴿ إِلَى السجود ﴾ لا تكليف ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك لأن ظهورهم تصير كصياصي البقر لا تنثني عند الخفض والرفع ﴿ خاشعة ﴾ ذليلة حال من الضمير في ﴿ يُدْعَونَ ﴾ ﴿ أبصارهم ﴾ أي يدعون في حال خشوع أبصارهم ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يغشاهم صغار ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى السجود ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ أي وهم أصحاء فلا يسجدون فلذلك منعوا عن السجود ثَمَّ .

﴿ فَذَرْنِى ﴾ .

(193/778)

يقال : ذرني وإياه أي كله إليّ فإني أكفيكه ﴿ وَمَن يُكَذِّبُ ﴾ معطوف على المفعول أو مفعول معه ﴿ بهذا الحديث ﴾ بالقرآن ، والمراد كل أمره إليَّ وخل بيني وبينه فإني عالم بما ينبغي أن يفعل به ، مطيق له ، ولا تشغل قلبك بشأنه وتوكل عليّ في الانتقام منه ، تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة .

يقال : استدرجه إلى كذا أي استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه ، واستدراج الله تعالى العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازياد المعاصي ﴿ مّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج .

قيل : كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها .

قال عليه السلام " إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج وتلا الآية " ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وأمهلهم ﴿ إِنّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ قوي شديد فسمى إحسانه وتمكينه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للهلاك .

والأصل أن معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن ، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً وماكراً ومستدرجاً .

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ أَجْراً فَهُم مّن مّغْرَمٍ ﴾ غرامة ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ فلا يؤمنون استفهام بمعنى النفي أي لست تطلب أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم ذلك فيمتنعوا لذلك ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي اللوح المحفوظ عند الجمهور ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يحكمون به ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبّكَ ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم لأنهم وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ كيونس عليه السلام في العجلة والغضب على القوم حتى لا تبتلى ببلائه .

والوقف على الحوت لأن "إذ" ليس بظرف لما تقدمه ، إذ النداء طاعة فلا ينهى عنه بل مفعول محذوف أي اذكر ﴿ إِذْ نادى ﴾ دعا ربه في بطن الحوت ب ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غيظاً من كظم السقاء إذا ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ ﴾ رحمة ﴿ مّن رَّبِّهِ ﴾ أي لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره ﴿ لَنُبِذَ ﴾ من بطن الحوت ﴿ بالعرآء ﴾ بالفضاء ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ معاتب بزلته لكنه رحم فنبذ غير مذموم ﴿ فاجتباه رَبُّهُ ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح ولم يبق له زلة .

وقيل : من الأنبياء .

وقيل : من المرسلين .

والوجه هو الأول لأنه كان مرسلاً ونبياً قبله لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين * إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون ﴾

[الصافات : 139-140] .

الآيات .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ وبفتح الياء : مدني .

"إن" مخففة من الثقيلة واللام علمها .

زلقة وأزلقة أزاله عن مكانه أي قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك ، أو يهلكوك لشدة حنقهم عليك .

وكانت العين في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا هلك .

فأريد بعض العيّانين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك فقال : لم أر كاليوم مثله رجلاً فعصمه الله من ذلك .

(195/778)

وفي الحديث : " العين حق وإن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر " وعن الحسن : رقية العين هذه الآية : ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ القرآن ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ إن محمداً لمجنون حيرة في أمره وتنفيراً عنه ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ وعظ ﴿ للعالمين ﴾ للجن والإنس يعني أنهم جننوه لأجل القرآن وما القرآن إلا موعظة للعالمين ، فكيف يجنن من جاء بمثله ؟ وقيل : لما سمعوا الذكر أي ذكره

عليه السلام وما هو أي محمد عليه السلام إلا ذكر شرف للعالمين فكيف ينسب إليه الجنون ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 279 . 285 ﴾

(196/778)

وقال ابن جزى :

سورة القلم

﴿ ن ﴾

حرف من حروف الهجاء وقد تقدم الكلام عليها في البقرة ، ويختص ﴿ ن ﴾ بأنه قيل : إنه حرف من الرحمن فإن حروف الرحمن ألف ولام وراء وحاء وميم ، ون وقيل : إن نون هنا يراد به الحوت ، ومنه ؛ ذو النون يونس ﴿ والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ اختلف فيه على قولين أحدهما : أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، فالضمير في يسطرون للملائكة ، والآخر : أنه القلم المعروف عند الناس ، أقسم الله به لما فيه من المنافع والحكم ، والضمير في ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ على هذا لبني آدم ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ هذا جوقاب القسم وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم معناه : نفي نسبة الكفار له من الجنون ، وبنعمة ربك اعتراض بين ما وخبرها كما تقول : أنت بحول الله أفضل ، والمجرور في موضع

الحال ، وقال الزمخشري : إن العامل فيه بمجنون ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ذكر في [فصلت : 8]

.

(197/778)

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ هذا ثناء على خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت عائشة رضي الله عنها : "كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن " تعني التأدب بآدابه وامتثال أوامره ، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق ، وتفصيل ذلك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة ، وحاز كل خصلة جميلة ، فمن ذلك شرف النسب ووفور العقل وصحة الفهم ، وكثرة العلم ، وشدّة الحياء ، وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة والتودد والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك ، حسبما ورد في أخباره وسيره صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، وقال الجنيد : سمى خلقه عظيماً ، لأنه لم تكن له همة سوى الله عز وجل : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ قيل : إن المفتون هنا بمعنى المجنون ،

ويحتمل غير ذلك من معاني الفتنة ، والخطاب في قوله : ﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ للنبي صلى الله وعليه وسلم وفي قوله ﴿ وَيُبْصِرُونَ ﴾ لكفار قريش ، واختلف في الباء التي في قوله ﴿ بِأَيِّكُمُ ﴾ على أربعة أقوال : الأول أنها زائدة ، الثاني أنها غير زائدة والمعنى بأيكم الفتنة ، فأوقع المفتون موقع الفتنة كقولهم : ماله معقول أي عقل ، الثالث أن الباء بمعنى في والمعنى في أي فريق منكم المفتون واستحسن ابن عطية هذا ، الرابع : أن المعنى بأيكم فتنة المفتون ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

(198/778)

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ المداهنة هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي ، ورُوي أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فنزلت الآية ولم ينتصب فيدهنون في جواب التمني ؛ بل رفعه بالعطف على تدهن قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم يدهنون ﴿ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ﴿ مَّهِينٍ ﴾ هو الضعيف الرأي والعقل قال ابن عطية : هو من مهن إذا ضعف ، فالميم فاء الفعل ، وقال الزمخشري : هو من المهانة وهي الذلة والحقارة وقال ابن عباس : المهين الكذاب ﴿ هَمَّازٍ ﴾ هو الذي يعيب الناس ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ أي كثير

المشي بالنميمة ، يقال : نميم ونميمة بمعنى واحد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة نمام " ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي شحيح ، لأن الخير هنا هو المال . وقيل : معناه مناع من الخير ، أي يمنع الناس من الإسلام ، والعمل الصالح ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ هو من العدوان وهو الظلم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ من الإثم وهو ارتكاب المحرمات ﴿ عُتُلٍّ ﴾ أي غليظ الجسم ، قاسي القلب بعيد الفهم ، كثير الجهل ﴿ زَنِيمٍ ﴾ أي ولد زنا ؛ وقيل : هو الذي في عنقه زنمة كزنمة الشاة التي تتعلق في حلقها ، وقيل : معناه مريب قبيح الأفعال . وقيل : ظلوم ، وقيل : لئيم وقوله : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد ما ذكرنا من عيوبه ، فهذا الترتيب في الوصف لا في الزمان ، واختلف في الموصوف بهذه الأوصاف الذميمة ، فقيل : لم يقصد بها شخص معين ، بل كل من اتصف بها ، وقيل : المقصود بها الوليد بن المغيرة ، لأنه وصفه بأنه ذو مال وبنين ، وكذلك كان ، وقيل : أبو جهل ، وقيل : الأخنس بن شريق ، ويؤيد هذا أنه كانت له زنمة في عنقه ، قال ابن عباس : عرفناه بزنمته وكان لقيطاً من ثقيف ، ويعدُّ في بني زهرة ، فيصح وصفه بزنيم على القولين ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ

وَبَنِينَ ﴾ في موضع مفعول من أجله يتعلق بقوله : ﴿ لاَ تُطِعْ ﴾ أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وبنيه ، ويجوز أن يتعلق بما بعده ، والمعنى على هذا أنه قال في القرآن أساطير الأولين ، لأنه ذو مال وبنين ، يتكبر بماله وبنيه ، والعامل في (أن كان) على هذا فعل من المعنى ، ولا يجوز أن يعمل فيه (قال) الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، والأول أظهر ، وقد تقدم معنى أساطير الأولين ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ أصل الخرطوم : أنف السبع ثم استعير للإنسان استخفافاً به ، وتقبيحاً له والمعنى نجعل له سمة . وهي العلامة على الخرطوم ، واختلف في هذه السمة قيل : هي الضربة بالسيف يوم بدر ، وقيل : علامة من نار تجعل على أنفه في جهنم . وقيل : علامة تجعل على أنفه يوم القيامة ليعرف بها .

(200/778)

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة ﴾ أي بلونا قريشاً كما بلونا أصحاب الجنة ، وكانوا إخوه من بني إسرائيل لهم جنة ، روي أنها بمقربة من صنعاء ، فحلفوا أن لا يعطوا مسكيناً منها شيئاً ، وباتوا عازمين على ذلك ، فأرسل الله على جنتهم طائفاً من نار فأحرقتها ، وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا ، فندموا وتابوا إلى الله ، ووجه تشبيه قريش بأصحاب

الجنة ؛ أن الله أنعم على قريش ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة ، فكفر هؤلاء بهذه النعمة كما فعل أولئك ، فعاقبهم الله كما عاقبهم ، وقيل : شبَّه قريشاً لما أصابهم الجوع بشدة القحط ، حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحاب الجنة لما هلكت جنتهم ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي حلفوا أن يقطعوا غلة جنتهم عند الصباح وكانت الغلة ثمراً ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ في معناه ثلاثة أقوال : أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها ، والآخر لا يستثنون شيئاً من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم ، والثالث لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهون عنه لا يرجعون عنه ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ ﴾ قال الفراء : الطائف الأمر الذي يأتي بالليل ﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول أصبحت كالليل لأنها اسودَّتْ لما أصابها ، والصريم في اللغة الليل ، الثاني أصبحت كالنهار لأنها ابيضت كالحصيد ويقال : صريم لليل والنهار . الثالث أن الصريم : الرماد الأسود بلغة بعض العرب ، الرابع أصبحت كالمصرومة أي المقطوعة ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا وقال بعضهم لبعض : ﴿ اغدوا على حَرْثِكُمْ ﴾ أي جنتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي حاصدين لثمرتها ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ يكلم بعضهم بعضاً في السر ويقولون : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ ﴾ وأن في قوله : أن اغدوا وأن لا

يدخلنها حرف عبارة وتفسير .

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ في الحرد أربعة أقوال : الأول أنه المنع ، الثاني أنه القصد ، الثالث أنه الغضب ، الرابع : أن الحرد اسم الجنة ، و ﴿ قَادِرِينَ ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة ، أي قادرين في زعمهم أو من التقدير : بمعنى التضييق أي ضيقوا على المساكين ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي أخطأنا طريق الجنة . قالوا ذلك لما لم يعرفوها ، فلما عرفوها ورأوا ما أصابها قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حرمنا الله خيرها ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي خيرهم وأفضلهم ومنه : أمة وسطاً ، أي خياراً : ﴿ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ أي تقولون : سبحان الله ، وقيل : هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه ، وقيل : أراد الاستثناء في اليمين كقولهم : إن شاء الله . والأول أظهر لقولهم بعد ذلك ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَآ ﴾ . والمعنى أن هذا الذي هو أفضلهم كان قد حضهم على التسبيح ﴿ يَتَلاَوَمُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا عزموا عليه من منع المساكين ، أو على غفلتهم عن التسبيح بدليل قوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ﴾ .

﴿ عسى رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ ﴾ يحتمل أنهم طلبوا البدل في الدنيا ، أو في الآخرة . والأول أرجح لأنه رُوي عن ابن مسعود أن الله أبدلهم جنة يحمل البغل منها عنقوداً ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي ينزل بأهل الجنة ينزل بقريش .

﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ الهمزة للإنكار أي كيف يُسوِّي الله بين المسلمين والمجرمين ؟ بل يجازي كل أحد بعمله ، والمراد بالمجرمين هنا الكفار ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ توبيخ للكفار و (م) ا مبتدأ و ﴿ لَكُمْ ﴾ خبره ، وتم الكلام هنا فينبغي أن يوقف عليه ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ توبيخ آخر ، أي كيف تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ هذه الجملة معمول ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ ، وكان أصل (إن) الفتح وكسرت لأجل اللام التي في خبرها . و ﴿ تَخَيَّرُونَ ﴾ معناه تختارون لأنفسكم ، ومعنى الآية : هل لكم كتاب ، من عند الله تدرسون فيه أن لكم ما تختارونه لأنفسكم .

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القيامة إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ المعنى هل حلفنا لكم إيماناً أن لكم ما تحكمون ؟ ومعنى بالغة ثابتة واصلة إلى يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ ﴾ هو جواب القسم الذي يقتضيه الأيمان ، ولذلك أكده بإن واللام و ﴿ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ هو اسم (إن) دخلت عليه اللام المؤكدة .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي يا محمد اسأل قريشاً أيهم زعيم بهذه الأمور ، والزعيم : هو الضامن للأمر القائم به .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ هذا تعجيز للكفار ، ومعناه : إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء فأتوا بهم ، واختلف هل قوله : (فليأتوا بهم) في الدنيا ، أي أحضروهم حتى يرى حالهم ، أو يقال لهم ذلك يوم القيامة ؟ والشركاء هم المعبودون من الأصنام وغيرها . وقال الزمخشري : معناه أم لكم ناس يشاركونكم في هذا القول ، ويوافقونكم عليه فأتوا بهم . يعني أنهم لا يوافقهم أحد عليه ، والأول أظهر .

(203/778)

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال المتأولون : ذلك عبارة عن هول يوم القيامة وشدّته ، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ينادي منادٍ يوم القيامة : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع الشمس من كان يعبد الشمس ، ويتبع القمر من كان يعبد القمر ، ويتبع كل أحد ما كان يعبد ، ثم تبقى هذه الأمة وغبرات من أهل الكتاب معهم منافقوهم فيقال لهم : ما شأنكم ؟ فيقولون : ننتظر ربنا . قال : فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، قال فيقول : أتعرفونه بعلامة ترونها . فيقولون : نعم . فيكشف لهم عن ساق ، فيقولون : نعم أنت ربنا ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن ، وترجع أصلاب المنافقين عظماً واحداً فلا يستطيعون

سجوداً " وتأويل الحديث كتأويل الآية ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ تفسير في الحديث الذي ذكرنا .

فإن قيل : كيف يُدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة دار تكليف ؟

فالجواب : أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا لا على وجه التكليف والعبادة .

﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ أي قد كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود فيمتنعون منه ، وهم سالمون في أعضائهم قادرون عليه .

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث ﴾ تهديد للمكذبين بالقرآن ، وإعراب من يكذب مفعول معه أو معطوف ، وقد ذكرنا في [الأعراف : 182] سنستدرجهم وما بعده .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ معناه أنت لا تسألهم أجرة على الإسلام فتثقل عليهم ، فلا عذر لهم في تركهم الإسلام ، وقد فسرنا هذا وما بعده في [الطور : 40] .

(204/778)

﴿ فاصبر ﴾ يقتضي مسالمة للكفار ، نسخت بالسيف ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ هو يونس عليه السلام وسماه صاحب الحوت ، لأن الحوت ابتلعه ، وهو أيضاً ذو النون ،

والنون هو الحوت ، وقد ذكرنا قصته في الأنبياء والصافات ، فنهى الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله في الضجر والاستجعال ، حين ذهب مغاضباً ، وروي أن هذه الآية نزلت لما همَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على الكفار ﴿ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ هذا آخر ما جرى ليونس و نداؤه هو قوله في بطن الحوت . لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت م الظالمين ، والمكظوم الشديد الحزن ﴿ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ هو جواب لولا ، والمنفي هو الذم لا نبذه بالعراء ، فإنه قد قال في الصافات ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعرآء ﴾ [الصافات : 145] فالمعنى لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم ، لكنه نبذ هو غير مذموم ، وقد ذكرنا العراء في الصافات .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ عبارة عن شدة عدواتهم ، وإن مخففة من الثقيلة بدليل دخول اللام و ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ معناه يهلكونك ، كقولك : نظر فلان إلى عدوه نظرة كان يصرعه ، وأصله من زلق القدم ، وقرأ نافع بفتح الياء والباقون بضمها وهما لغتان وقيل : إن المعنى : يأخذونه بالعين ، وكان ذلك في بني إسد كان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يتكلم على شيء إلا أصابه بالعين ، فأراد بعضهم أن يصيب النبي صلى الله عليه وسلم فعصمه الله من ذلك ، وقال الحسن : دواء من أصيب بالعين قراءة هذه الآية .

﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يعني القرآن أو هو موعظة وتذكير للخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 137 . 141 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة القلم

مكية وآيها ثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ن ﴾

من أسماء الحروف ، وقيل اسم الحوت والمراد به الجنس أو البهموت وهو الذي عليه الأرض ، أو الدواة فإن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سواداً من النفس يكتب به ، ويؤيد الأول سكونه وكتبه بصورة الحرف . ﴿ والقلم ﴾ وهو الذي خط اللوح ، أو الذي يخط به أقسم به تعالى لكثرة فوائده وأخفى ابن عامر والكسائي ويعقوب النون إجراء للواو المنفصل مجرى المتصل ، فإن النون الساكنة تخفى مع حروف الفم إذا اتصلت بها . وقد روي ذلك عن نافع وعاصم ، وقرئت بالفتح والكسر ك ﴿ ص ﴾ . ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وما يكتبون والضمير ل ﴿ القلم ﴾ بالمعنى الأول على التعظيم ، أو بالمعنى الثاني على إرادة الجنس وإسناد الفعل إلى الأدلة وإجراؤه مجرى أولي العلم لإقامته مقامهم ، أو

لأصحابه أو للحفظة و﴿ مَا ﴾ مصدرية أو موصولة .

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ جواب القسم والمعنى ما أنت بمجنون منعماً عليك بالنبوة وحصافة الرأي ، والعامل في الحال معنى النفي وقيل ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ الباء لا تمنع عمله فيما قبله لأنها مزيدة ، وفيه نظر من حيث المعنى .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً ﴾ على الاحتمال والإبلاغ . ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسط .

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ إذ تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ أيكم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة ، أو بأيكم الجنون على أن المفتون مصدر كالمعقول والمجلود ، أو بأي الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين ، أي في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وهم المجانين على الحقيقة. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ الفائزين بكمال العقل.

﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم.

﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ تلاينهم بأن تدع نهيهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً. ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فيلاينونك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف أي ودوا التداهن وتمنوه لكنهم أخروا ادهانهم حتى تدهن، أو للسببية أي ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ فهم يدهنون حينئذ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه، وفي بعض المصاحف "فيدهنوا" على أنه جواب التمني.

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل. ﴿ مَّهِينٍ ﴾ حقير الرأي من المهانة وهي الحقارة.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب. ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية. ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿ عُتُلٍ ﴾ جافٍ غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ بعدما عد من مثالبه. ﴿ زَنِيمٍ ﴾ دعي مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنها وحلقها،

قيل هو الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده . وقيل الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة .

(207/778)

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أَساطير الأولين ﴾ قال ذلك حينئذ لأنه كان متمولاً مستظهراً بالبنين من فرط غروره ، لكن العامل مدلول قال لانفسه ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ويجوز أن يكون علة ل ﴿ لاَ تطع ﴾ أي لا تطع من هذه مثاله لأن كان ذا مال . وقرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو بكر "أن كان" على الاستفهام ، غير أن ابن عامر جعل الهمزة الثانية بين بين أي "الأن كان ذا مال" كذب ، أو أتطيعه لأن كان ذا مال . وقرىء "أن كان" بالكسر على أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد ، أو ﴿ أن ﴾ شرطه للمخاطب أي لا تطعه شارطاً يساره لأنه إذا أطاع للغني فكأنه شرطه في الطاعة .

﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ بالكي . ﴿ عَلَى الخرطوم ﴾ على الأنف وقد أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقي أثره ، وقيل هو عبارة عن أن يذله غاية الإِذلال كقولهم : جدع أنفه ، رغم أنفه ، لأن السمة على الوجه سيما على الأنف شين ظاهر ، أو نسود وجهه يوم

القيامة .

﴿ إِنَّا بلوناهم ﴾ بلونا أهل مكة شرفها الله تعالى ، بالقحط . ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أصحاب الجنة ﴾ يريد البستان الذي كان دون صنعاء بفرسخين ، وكان لرجل صالح وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وألقته الريح ، أو بعد من البساط الذي يبسط تحت النخلة فيجتمع لهم شيء كثير ، فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعله أبونا ضاق علينا الأمر ، فحلفوا ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال : ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح .

(208/778)

﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ ولا يقولون إن شاء الله ، وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عينه ، أو لأن معنى لأخرج إن شاء الله ولا أخرج إلى أن يشاء الله واحد ، أو ﴿ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ على الجنة . ﴿ طَئِفٌ ﴾ بلاء طائف . ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ مبتدأ منه . ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ كالبستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء .

فعيل بمعنى مفعول ، أو كالليل باحتراقها واسودادها ، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس سميا بالصريم لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه أو كالرمل .

﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ ﴾ أن أخرجوا أو بأن أخرجوا إليه غدوة ، وتعدية الفعل بعلى إما لتضمنه معنى الاقبال أو لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن لمعنى الاستيلاء . ﴿ إِن كُنتُمْ صارمين ﴾ قاطعين له .

﴿ فانطلقوا وَهُمْ يتخافتون ﴾ يتشاورون فيما بينهم وخفى وخفت وخفد بمعنى الكتم ، ومنه الخفدود للخفاش .

﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ ﴾ ﴿ إن ﴾ مفسرة وقرىء بطرحها على إضمار القول ، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه من الدخول كقولهم : لا أرينك ها هنا .

﴿ وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قادرين ﴾ وغدوا قادرين على نكد لا غير ، من حاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر ، وحاردت الإبل إذا منعت درها . والمعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين فتنكد عليهم بحيث لا يقدرون إلا على النكد ، أو غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع . وقيل الحرد بمعنى الحرد وقد قرىء به أي لم يقدروا إلا على حنق بعضهم لبعض كقوله : ﴿ يتلاومون ﴾ وقيل الحرد والقصد

والسرعة قال :

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ . . . اللهِ يَحْرُدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّة

(209/778)

أي غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وقيل علم للجنة .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أول ما رأوها . ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ طريق جنتنا وما هي بها .

﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ أي بعد ما تأملوه وعرفوا أنها هي قالوا ﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ رأياً ، أو سناً . ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدل على هذا المعنى .

﴿ قَالُوا سبحان ربّنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ أي لولا تستثنون فسمي الاستثناء تسبيحاً لتشاركهما في التعظيم ، أو لأنه تنزيه على أن يجري في ملكه ما لا يريده .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يتلاومون ﴾ يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ، ومنهم من سكت راضياً ، ومنهم من أنكره .

﴿ قَالُوا يا ويلنا إِنَّا كُنَّا طاغين ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى .

﴿ عسى ربُّنا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. وقد روي أنهم أبدلوا خيراً منها وقرىء ﴿ يُبْدِلَنَا ﴾ بالتخفيف. ﴿ إِنَّا إلى ربّنَا راغبون ﴾ راجون العفو طالبون الخير و﴿ إلى ﴾ لانتهاء الرغبة، أو لتضمنها معنى الرجوع.

﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب في الدنيا. ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ أعظم منه. ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لاحترزوا عما يؤديهم إلى العذاب.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدس. ﴿ جنات النعيم ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص.

﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

(210/778)

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ التفات فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ من السماء . ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ تقرأون .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ إن لكم ما تختارونه وتشتهونه ، وأصله "أن لكم" بالفتح لأنه المدروس فلما جيء باللام كسرت ، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس أو استئنافاً وتخير الشيء واختاره أخذ خيره .

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ﴾ عهود مؤكدة بالإيمان . ﴿ بالغة ﴾ متناهية في التوكيد ، وقرئت بالنصب على الحال والعامل فيها أحد الظرفين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بالمقدر في ﴿ لَكُمْ ﴾ أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها حتى نحكمكم في ذلك اليوم ، أو ب ﴿ بالغة ﴾ أي أيمان تبلغ ذلك اليوم . ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم أيمان علينا أم أقسمنا لكم .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم إذ لا أقل من التقليد ، وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق أو وعد أو محض تقليد ، على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً لما لا سند له . وقيل المعنى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يعني الأصنام يجعلونهم مثل المؤمنين في الآخرة كأنه لما نفى أن تكون التسوية من الله تعالى نفى بهذا أن تكون مما يشاركون الله به .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل في ذلك ، وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب . قال حاتم .

أَخو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا . . . وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا

(211/778)

أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان ، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم . وقرىء "تكشف" و"تكشف" بالتاء على بناء الفاعل أو المفعول والفعل للساعة أو الحال . ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ توبيخاً على تركهم السجود إن كان اليوم يوم القيامة ، أو يدعون إلى الصلوات لأوقاتها إن كان وقت النزع . ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه .

﴿ خاشعة أبصارهم تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تلحقهم ذلة . ﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود ﴾ في الدنيا أو زمان الصحة . ﴿ وَهُمْ سالمون ﴾ متمكنون منه مزاحو العلل فيه .

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذّبُ بهذا الحديث ﴾ كله إليَّ فإني أكفيكه . ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة . ﴿ مّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين .

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وأمهلهم . ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ لا يدفع بشيء ، وإنما سمي إنعامه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته .

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ على الإرشاد . ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ ﴾ من غرامة . ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ يحملها فيعرضون عنك .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ اللوح أو المغيبات . ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يحكمون به ويستغنون به عن علمك .

﴿ فاصبر لِحُكْمِ رَبّكَ ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم . ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ يونس عليه الصلاة والسلام . ﴿ إِذْ نادى ﴾ في بطن الحوت . ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غيظاً من الضجر فتبتلي ببلائه .

(212/778)

﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مّن رَّبِّهِ ﴾ يعني التوفيق للتوبة وقبولها وحسن تذكير الفعل للفصل ، وقرىء "تداركته" و"تداركه" أي تتداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا كان يقال فيه تتداركه . ﴿ لَنُبِذَ بالعراء ﴾ بالأرض الخالية عن الأشجار . ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ مليم مطرود عن الرحمة والكرامة . وهو حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون النبذ .

﴿ فاجتباه ربُّهُ ﴾ بأن رد الوحي إليه ، أو استنبأه إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة . ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل ما تركه أولى ، وفيه دليل على خلق الأفعال والآية نزلت حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على ثقيف ، وقيل بأحد حين حل به ما حل فأراد أن يدعو على المنهزمين .

﴿ وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارهم ﴾ ﴿ إن ﴾ هي المخففة واللام دليلها والمعنى : إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك ، أو يهلكونك من قولهم نظر إليَّ نظراً يكاد يصرعني ، أي لو أمكنه بنظره الصرع لفعله ، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين . إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون ، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وفي الحديث " إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر " ولعله يكون من خصائص بعض النفوس . وقرأ نافع ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ من زلقته فزلق كحزنته فحزن ، وقرىء "ليزهقونك" أي ليهلكونك . ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ أي القرآن أي ينبعث عند سماعه بغضهم وحسدهم . ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ حيرة في أمره وتنفيراً عنه .

﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ لما جننوه لأجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأميزهم رأياً .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله

أخلاقهم" . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 368. 377 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(213/778)

وقال أبو حيان :

سورة القلم

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

﴿ ن ﴾ : حرف من حروف المعجم ، نحو ص وق ، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل والحكم على موضعها بالإعراب تخرص .

وما يروى عن ابن عباس ومجاهد : أنه اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع .

وعن ابن عباس أيضاً والحسن وقتادة والضحاك : أنه اسم الدواة .

وعن معاوية بن قرة : يرفعه أنه لوح من نور .

وعن ابن عباس أيضاً : أنه آخر حرف من حروف الرحمن .

وعن جعفر الصادق : أنه نهر من أنهار الجنة ، لعله لا يصح شيء من ذلك .

وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره : ن حرف من حروف المعجم ، فلو كان

كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم ، فهو إذن حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور .

انتهى .

ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت وزعم أنه مقسم به كالقلم ، فإن كان علماً فينبغي أن يجر ، فإن كان مؤنثاً منع الصرف ، أو مذكراً صرف ، وإن كان جنساً أعرب ، ونون وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به .

وقال ابن عطية : إذا كان اسماً للدواة ، فإما أن يكون لغة لبعض العرب ، أو لفظة أعجمية عربت ، قال الشاعر :

إذا ما الشوق برّح بي إليهم . . .

ألقت النون بالدمع السجوم

فمن جعله البهموت ، جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات ، وجعل الضمير في ﴿ يسطرون ﴾ للملائكة .

ومن قال : هو اسم ، جعله القلم المتعارف بأيدي الناس ؛ نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في ﴿ يسطرون ﴾ للناس ، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة ، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة . انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ن ﴾ بسكون النون وإدغامها في واو ﴿ والقلم ﴾ بغنة وقوم بغير غنة ، وأظهرها حمزة وأبو عمرو وابن كثير وقالون وحفص .

وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السمال : بكسر النون لالتقاء الساكنين ؛ وسعيد بن جبير وعيسى : بخلاف عنه بفتحها ، فاحتمل أن تكون حركة إعراب ، وهو اسم للسورة أقسم به وحذف حرف الجر ، فانتصب ومنع الصرف للعلمية والتأنيث ، ويكون ﴿ والقلم ﴾ معطوفاً عليه .

واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين ، وأوثر الفتح تخفيفاً كأين ، وما يحتمل أن تكون موصولة ومصدرية ، والضمير في ﴿ يسطرون ﴾ عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم ، فإما أن يراد بهم الحفظة ، وإما أن يراد كل كاتب .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير في ﴿ يسطرون ﴾ لهم ، كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وتسطيرهم . انتهى .

فيكون كقوله : ﴿ كظلمات في بحر لجي ﴾ أي وكذي ظلمات ، ولهذا عاد عليه الضمير في قوله : ﴿ يغشاه موج ﴾ وجواب القسم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ .

ويظهر أن ﴿ بنعمة ربك ﴾ قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عطية : ﴿ بنعمة ربك ﴾ اعتراض ، كما تقول للإنسان : أنت بحمد الله فاضل . انتهى .

ولم يبين ما تتعلق به الباء في ﴿ بنعمة ﴾ .

وقال الزمخشري : يتعلق ﴿ بمجنون ﴾ منفياً ، كما يتعلق بعاقل مثبتاً في قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، مستوياً في ذلك النفي والإثبات استواءهما في قولك : ضرب زيد عمراً ، وما ضرب زيد عمراً تعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً ، ومحله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي ، والمعنى : استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً ، وأنه من إنعام الله تعالى عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة . انتهى .

(215/778)

وما ذهب إليه الزمخشري من أن ﴿ بنعمة ربك ﴾ متعلق ﴿ بمجنون ﴾ ، وأنه في موضع الحال ، يحتاج إلى تأمل ، وذلك أنه إذا تسلط النفي على محكوم به ، وذلك له معمول ، ففي ذلك طريقان : أحدهما : أن النفي يتسلط على ذلك المعمول فقط ، والآخر : أن يتسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه بيان ذلك ، تقول : ما زيد قائم مسرعاً ،

فالمتبادر إلى الذهن أنه منتف إسراعه دون قيامه ، فيكون قد قام غير مسرع .

والوجه الآخر أنه انتفى قيامه فانتفى إسراعه ، أي لا قيام فلا إسراع ، وهذا الذي قررناه لا يتأتى معه قول الزمخشري بوجه ، بل يؤدي إلى ما لا يجوز أن ينطق به في حق المعصوم (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل معناه : ما أنت بمجنون والنعمة بربك لقولهم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أي والحمد لله ، ومنه قول لبيد :

وأفردت في الدنيا بفقد عشيرتي . . .

وفارقني جار بأربد نافع

أي : وهو أربد . انتهى .

وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب .

وفي المنتخب ما ملخصه المعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، أي حصول الصفة المحمودة ، وزال عنك الصفة المذمومة بواسطة إنعام ربك .

ثم قرر بهذه الدعوى ما هو كالدليل القاطع على صحتها ، لأن نعمه كانت ظاهرة في حقه من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة ، فحصول ذلك وظهوره جار مجرى اليقين في كونهم كاذبين في قولهم : إنه مجنون .

﴿ وإن لك لأجراً ﴾ في احتمال طعنهم وفي دعاء الخلق إلى الله ، فلا يمنعك ما قالوا عن

الدعاء إلى الله .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ : هذا كالتفسير لما تقدم من قوله : ﴿ بنعمة ربك ﴾ ، وتعريف لمن رماه بالجنون أنه كذب وأخطأ ، وأن من كان بتلك الأخلاق المرضية لا يضاف الجنون إليه ، ولفظه يدل على الاستعلاء والاستيلاء . انتهى .

(216/778)

﴿ وإن لك لأجراً ﴾ : أي على ما تحملت من أثقال النبوة ومن أذاهم مما ينسبون إليك مما أنت لا تلتبس به من المعائب ، ﴿ غير ممنون ﴾ : أي غير مقطوع ، مننت الحبل : قطعته ، وقال الشاعر :

عبساً كواسب لا يمن طعامها . . .

أي لا يقطع .

وقال مجاهد : غير محسوب .

وقال الحسن : غير مكدر بالمن .

وقال الضحاك : بغير عمل .

وقيل : غير مقدر ، وهو معنى قول مجاهد .

وقال الزمخشري : أو غير ممنون عليك ، لأن ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء ، وإنما تمن الفواصل لا الأجور على الأعمال .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : دين عظيم ليس دين أحب إلى الله تعالى منه .

وقالت عائشة : إن خلقه كان القرآن .

وقال علي : هو أدب القرآن .

وقال قتادة : ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى .

وقيل : سمي عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، من كرم السجية ، ونزاهة القريحة ، والملكة الجميلة ، وجودة الضرائب ؛ ما دعاه أحد إلا قال لبيك ، وقال : " إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق " ، ووصى أبا ذر فقال : " وخالق الناس بخلق حسن " وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن " وقال : " أحبكم إلى الله تعالى أحسنكم أخلاقاً " والظاهر تعلق ﴿ بأيكم المفتون ﴾ بما قبله .

وقال عثمان المازني : تم الكلام في قوله ﴿ ويبصرون ﴾ ، ثم استأنف قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ . انتهى .

فيكون قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ استفهاماً يراد به الترداد بين أمرين ، ومعلوم نفي الحكم

عن أحدهما ، ويعينه الوجود ، وهو المؤمن ، ليس بمفتون ولا به فتون .

وإذا كان متعلقاً بما قبله ، وهو قول الجمهور ، فقال قتادة وأبو عبيدة معمر : الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون ؟ وزيدت الباء في المبتدأ ، كما زيدت فيه في قوله : بحسبك درهم ، أي حسبك .

(217/778)

وقال الحسن والضحاك والأخفش : الباء ليست بزائدة ، والمفتون بمعنى الفتنة ، أي بأيكم هي الفتنة والفساد الذي سموه جنوناً ؟ وقال الأخفش أيضاً : بأيكم فتن المفتون ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

ففي قوله الأول جعل المفتون مصدراً ، وهنا أبقاه اسم مفعول وتأوله على حذف مضاف .

وقال مجاهد والفراء : الباء بمعنى في ، أي في أيّ فريق منكم النوع المفتون ؟ انتهى .

فالباء ظرفية ، نحو : زيد بالبصرة ، أي في البصرة ، فيظهر من هذا القول أن الباء في القول قبله ليست ظرفية ، بل هي سببية .

وقال الزمخشري : المفتون : المجنون لأنه فتن ، أي محن بالجنون ، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخييل الجن ، وهم الفتان للفتاك منهم . انتهى .

وقرأ ابن أبي عبلة : في أيكم المفتون .

﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ : وعيد للضال ، وهم المجانين على الحقيقة ، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها ، ولا استعملوها فيما جاءت به الرسل ، أو يكون أعلم كناية عن جزاء الفريقين .

﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ : أي الذين كذبوا بما أنزل الله عليك من الوحي ، وهذا نهي عن طواعيتهم في شيء مما دعوه إليه من تعظيم آلهتهم .

﴿ ودوا لو تدهن ﴾ : لو هنا على رأي البصريين مصدرية بمعنى أن ، أي ودوا ادهانكم ، وتقدم الكلام في ذلك في قوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومذهب الجمهور أن معمول ود محذوف ، أي ودوا ادهانكم ، وحذف لدلالة ما بعده عليه ، ولو باقية على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، وجوابها محذوف تقديره لسروا بذلك .

وقال ابن عباس والضحاك وعطية والسدي : لو تدهن : لو تكفر ، فيتمادون على كفرهم .

وعن ابن عباس أيضاً : لو ترخص لهم فيرخصون لك .

وقال قتادة : لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك .

وقال الحسن : لو تصانعهم في دينك فيصانعوك في دينهم .

وقال زيد بن أسلم : لو تنافق وترائي فينافقونك ويراؤونك .

وقال الربيع بن أنس : لو تكذب فيكذبون .

وقال أبو جعفر : لو تضعف فيضعفون .

(218/778)

وقال الكلبي والفراء : لو تلين فيلينون .

وقال أبان بن ثعلب : لو تحابي فيحابون ، وقالوا غير هذه الأقوال .

وقال الفراء : الدهان : التليين .

وقال المفضل : النفاق وترك المناصحة ، وهذا نقل أهل اللغة ، وما قالوه لا يخرج عن ذلك لأن ما خالف ذلك هو تفسير باللازم ، وفيدهنون عطف على تدهن .

وقال الزمخشري : عدل به إلى طريق آخر ، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف ، أي فهم يدهنون كقوله : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف ﴾ بمعنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في ادهانك . انتهى .

وجمهور المصاحف على إثبات النون .

وقال هارون : إنه في بعض المصاحف فيدهنوا ، ولنصبه وجهان : أحدهما أنه جواب

ودوا لتضمنه معنى ليت ؛ والثاني أنه على توهم أنه نطق بأن ، أي ودوا أن تدهن فيدهنوا ، فيكون عطفاً على التوهم ، ولا يجيء هذا الوجه إلا على قول من جعل لو مصدرية بمعنى أن .

﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ : تقدّم تفسير مهين وما بعده في المفردات ، وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ، ونوسب فيها فجاء ﴿ حلاف ﴾ وبعده ﴿ مهين ﴾ ، لأن النون فيها مع الميم تواخ .

ثم جاء : ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ بصفتي المبالغة ، ثم جاء : ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ ، فمناع وأثيم صفتا مبالغة ، والظاهر أن الخير هنا يراد به العموم فيما يطلق عليه خير .

وقيل : الخير هنا المال ، يريد مناع للمال عبر به عن الشح ، معناه : متجاوز الحد في الظلم .

وفي حديث شداد بن أوس قلت : يعني لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وما العتل الزنيم ؟ قال : الرحيب الجوف ، الوتير الخلق ، الأكول الشروب ، الغشوم الظلوم .

وقرأ الحسن : عتل برفع اللام ، والجمهور : بجرها بعد ذلك .

وقال الزمخشري : جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها ، ومن ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

" لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده " ، وبعد ذلك نظير ثم في قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ وقرأ الحسن : عتل رفعاً على الذم ، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك . انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ بعد ذلك ﴾ : أي بعد أن وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف ، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خبر يمنعه . انتهى .

والزنيم : الملصق في القوم وليس منهم ، قاله ابن عباس وغيره .

وقيل : الزنيم : المريب القبيح الأفعال ، وعن ابن عباس أيضاً : الزنيم : الذي له زنمة في عنقه كزنمة الشاة ، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بزنمته . انتهى .

وروي أن الأخفش بن شريف كان بهذه الصفة ، كان له زنمة .

وروى ابن جبير عن ابن عباس أن الزنيم هو الذي يعرف بالشر ، كما تعرف الشاة بالزنمة .

وعنه أيضاً : أنه المعروف بالابنة .

وعنه أيضاً : أنه الظلوم .

وعن عكرمة : هو اللئيم .

وعن مجاهد وعكرمة وابن المسيب : أنه ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم ، وكان الوليد

دعيا في قريش ليس من منحهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده .

وقال مجاهد : كانت له ستة أصابع في يده ، في كل إبهام أصبع زائدة ، والذي يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ كل حلاف ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ ؟ فإنما وقع النهي عن طواعية من هو بهذه الصفات .

قال ابن عطية ما ملخصه ، قرأ النحويان والحرميان وحفص وأهل المدينة : ﴿ إن كان ﴾ على الخبر ؛ وباقي السبعة والحسن وابن أبي إسحاق وأبو جعفر : على الاستفهام ؛ وحقق الهمزتين حمزة ، وسهل الثانية باقيهم .

فأما على الخبر ، فقال أبو علي الفارسي : يجوز أن يعمل فيها عتل وأن كان قد وصف .

انتهى ، وهذا قول كوفي ، ولا يجوز ذلك عند البصريين .

وقيل : ﴿ زنيم ﴾ لا سيما على قول من فسره بالقبيح الأفعال .

(220/778)

وقال الزمخشري : متعلق بقوله : ﴿ ولا تطع ﴾ ، يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب ، ل ﴿ أن كان ذا مال ﴾ : أي ليساره وحظه من الدنيا ، ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه

متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب آياتنا ولا يعمل فيه ، قال الذي هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . انتهى .

وأما على الاستفهام ، فيحتمل أن يفسر عامل يدل عليه ما قبله ، أي أيكون طواعية لأن كان ؟ وقدره الزمخشري : أتطيعه لأن كان ؟ أو عامل يدل عليه ما قبله ، أي أكذب أو جحد لأن كان ؟ وقرأ نافع في رواية اليزيدي عنه : إن كان بكسر الهمزة .

قال الزمخشري : والشرط للمخاطب ، أي لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه ، فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الرجاء إليه في قوله : " لعله يذكر " .

انتهى .

وأقوال : إن كان شرط ، وإذا تتلى شرط ، فهو مما اجتمع فيه شرطان ، وليسا من الشروط المترتبة الوقوع ، فالمتأخر لفظاً هو المتقدم ، والمتقدم لفظاً هو شرط في الثاني ، كقوله :

فإن عثرت بعدها إن والت . . .

نفسي من هاء تاء فقولا لها لها

لأن الحامل على ترك تدبر آيات الله كونه ذا مال وبنين ، فهو مشغول القلب ، فذلك غافل عن النظر والفكر ، قد استولت عليه الدنيا وأبطرته .

وقرأ الحسن : أئذا على الاستفهام ، وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله القرآن أساطير

الأولين لما تليت عليه آياته الله .

ولما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ، ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد فقال : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، والسمة : العلامة .

ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان ، والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة وقالوا : حميّ الأنف شامخ العرنين .

وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه .

(221/778)

وكان أيضاً مما تظهر السمات فيه لعلو ، قال : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبلاد ، إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف ، وإذا كان الوسم في الوجه شيناً ، فكيف به على أكرم عضو فيه ؟ وقد قيل : الجمال في الأنف ، وقال بعض الأدباء :

وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطل . . .

فكيف إذا ما الخال كان له حليا

وسنسمه فعل مستقبل لم يتعين زمانه .

وقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف ، أي يضرب به وجهه وعلى أنفه ، فيجيء ذلك كالوسم على الانف ، وحل به ذلك يوم بدر .

وقال المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنوفهم .

وقال آخرون : ذلك يوم القيامة ، أي نوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره .

وقال قتادة وغيره : معناه سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به ، فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً ، كما تقول : سأطوقك طوق الحمامة : أي أثبت لك الأمر بيناً فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي . . .

وفي الوسم على الأنف تشويه ، فجاءت استعارته في المذمات بليغة جدّاً .

قال ابن عطية : وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه ، وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأخروية ، رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم . انتهى .

وقال أبو العالية ومقاتل ، واختاره الفراء : يسود وجهه قبل دخول النار ، وذكر الخرطوم ، والمراد الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض .

وقال أبو عبد الله الرازي : إنما بالغ الكافر في عداوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسبب الأنفة والحمية ، فلما كان شاهد الإنكار هو الأنفة والحمية ، عبر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ .

انتهى كلامه .

وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف ، لأن حقيقة الخرطوم هو للسباع .

(222/778)

وتلخص من هذا أن قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، أهو حقيقة أم مجاز ؟ وإذا كان حقيقة ، فهل ذلك في الدنيا أو في الآخرة ؟ وأبعد النضر بن شميل في تفسيره الخرطوم بالخمر ، وأن معناه سنحده على شربها .

ولما ذكر المتصف بتلك الأوصاف الذميمة ، وهم كفار قريش ، أخبر تعالى بما حل بهم من الابتلاء بالقحط والجوع بدعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " الحديث ، كما بلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم .

كانت بأرض اليمين بالقرب منهم قريباً من صنعاء لرجل كان يؤدي حق الله منها ، فمات فصارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله تعالى ، فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بهم .

وقيل : كانت بصوران على فراسخ من صنعاء لناس بعد رفع عيسى عليه السلام ، وكان

صاحبها ينزل للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكراس وما أخطاه القطاف من العنب وما بقي على السباط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير .

فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ﴿ ليصرِمنها مصبحين ﴾ في السدف خفية من المساكين ، ولم يستثنوا في يمينهم ؛ والكاف في ﴿ كما بلونا ﴾ في موضع نصب ، وما مصدرية .

وقيل : بمعنى الذي ، وإذ معمول لبلونا هم ليصرمنها جواب القسم لا على منطوقهم ، إذ لو كان على منطوقهم لكان لنصرمنها بنون المتكلمين ، والمعنى : ليجدن ثمرها إذا دخلوا في الصباح قبل خروج المساكين إلى عادتهم مع أبيهم .

﴿ ولا يستثنون ﴾ : أي ولا ينثنون عن ما عزموا عليه من منع المساكين .

وقال مجاهد : معناه : لا يقولون إن شاء الله ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره .

وقال الزمخشري ، متبعاً قول مجاهد : ولا يقولون إن شاء الله .

(223/778)

فإن قلت : لم سمي استثناء ، وإنما هو شرط ؟ قلت : لأنه يؤدي مؤدّى الاستثناء من حيث أن معنى قولك : لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد . انتهى .

﴿ فطاف عليها طائف ﴾ ، قرأ النخعي : طيف .

قال الفراء : والطائف : الأمر الذي يأتي بالليل ، ورد عليه بقوله : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ فلم يتخصص بالليل ، وطائف مبهم .

فقيل : هو جبريل عليه السلام ، اقتلعها وطاف بها حول البيت ، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت بالطائف ، وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والأعناب غيرها .

وقال ابن عباس : طائف من أمر ربك .

وقال قتادة : عذاب من ربك .

وقال ابن جرير : عنق خرج من وادي جهنم .

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ ، قال ابن عباس : كالرماد الأسود ، والصريم : الرماد الأسود بلغة خزيمة ، وعنه أيضاً : الصريم رملة باليمن معروفة لا تنبت ، فشبه جنتهم بها .

وقال الحسن : صرم عنها الخير ، أي قطع .

فالصريم بمعنى مصروم .

وقال الثوري : كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود .

وقال مورج : كالرملة انصرمت من معظم الرمل ، والرملة لا تنبت شيئاً ينفع .

وقال الأخفش : كالصبح انصرم من الليل .

وقال المبرد : كالنهار فلا شيء فيها .

وقال شمر : الصريم : الليل ، والصريم : النهار ، أي ينصرم هذا عن ذاك ، وذاك عن هذا .

وقال الفراء والقاضي منذر بن سعيد وجماعة : الصريم : الليل من حيث اسودت جنتهم .

﴿ فتنادوا ﴾ : دعا بعضهم بعضاً إلى المضي إلى ميعادهم ، ﴿ أن اغدوا على حرثكم ﴾ .

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل ﴿ اغدوا إلى حرثكم ﴾ ، وما معنى على ؟ قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو .

ويجوز أن يضمن الغد ومعنى الإقبال ، كقولهم : يغدي عليه بالجفنة ويراح ، أي فاقبلوا على حرثكم باكرين . انتهى .

(224/778)

واستسلف الزمخشري أن غداً يتعدى بإلى ، ويحتاج ذلك إلى نقل بحيث يكثر ذلك فيصير أصلاً فيه ويتأول ما خالفه ، والذي في حفظي أنه معدى بعلى ، كقول الشاعر :

بكرت عليه غدوة فرأيته . . .

قعوداً عليه بالصريم عوادله

﴿ إن كنتم صارمين ﴾ : الظاهر أنه من صرام النحل .

قيل : ويحتمل أن يريد : إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم ، من قولك : سيف صارم .

﴿ يتخافتون ﴾ : يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين .

﴿ أن لا يدخلنها ﴾ : أي يتخافتون بهذا الكلام وهو لا يدخلنها ، وأن مصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية .

وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة : لا يدخلنها ، بإسقاط أن على إضمار يقولون ، أو على إجراء يتخافتون مجرى القول ، إذ معناه : يسارون القول والنهي عن الدخول .

نهى عن التمكين منه ، أي لا تمكنوهم من الدخول فيدخلوا .

﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ : أي على قصد وقدوة في أنفسهم ، يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم .

قال معناه ابن عباس ، أي قاصدين إلى جنتهم بسرعة ، قادرين عند أنفسهم على صرامها .

قال أبو عبيدة والقتبي : ﴿ على حرد ﴾ : على منع ، أي قادرين في أنفسهم على منع المساكين من خيرها ، فجزاهم الله بأن منعهم خيراً .

وقال الحسن : ﴿ على حرد ﴾ ، أي حاجة وفاقة .

وقال السدي وسفيان : ﴿ على حرد ﴾ : على غضب ، أي لم يقدروا إلا على حنق

وغضب بعضهم على بعض .

وقيل : ﴿ على حرد ﴾ : على انفراد ، أي انفردوا دون المساكين .

وقال الأزهري : حرد اسم قريتهم .

وقال السدي : اسم جنتهم ، أي غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام .

قيل : ويحتمل أن يكون من التقدير بمعنى التضييق لقوله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي مضيقين على المساكين ، إذ حرموهم ما كان أبوهم ينيلهم منها .

(225/778)

﴿ فلما رأوها ﴾ : أي على الحالة التي كانوا غدوها عليها ، من هلاكها وذهاب ما فيها من الخير ، ﴿ قَالوا إنا لضالون ﴾ : أي عن الطريق إليها ، قاله قتادة .

وذلك في أول وصولهم أنكروا أنها هي ، واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق إليها ، ثم وضح لهم أنها هي ، وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها .

وقيل : لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين ، فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ خيرها بخيانتنا على أنفسنا .

﴿ قال أوسطهم ﴾ : أي أفضلهم وأرجحهم عقلاً ، ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ : أنبهم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من تسبيح الله ، أي ذكره وتنزيهه عن السوء ، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين واقتفوا سنة أبيهم في ذلك . فلما غفلوا عن ذكر الله تعالى وعزموا على منع المساكين ، ابتلاهم الله ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان قد تقدم إليهم وحرضهم على ذكر الله تعالى .

وقال مجاهد وأبو صالح : كان استثناؤهم سبحان الله .

قال النحاس : جعل مجاهد التسبيح موضع إن شاء الله ، لأن المعنى تنزيه الله أن يكون شيء إلا بمشيئته .

وقال الزمخشري : لالتقائهما في معنى التعظيم لله ، لأن الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم له .

وقيل : ﴿ لولا تسبحون ﴾ : تستغفرون .

ولما انبهم ، رجعوا إلى ذكر الله تعالى ، واعترفوا على أنفسهم بالظلم ، وبادروا إلى تسبح الله تعالى فقالوا : ﴿ سبحان ربنا ﴾ .

قال ابن عباس : أي نستغفر الله من ذنبنا .

ولما أقروا بظلمهم ، لام بعضهم بعضاً ، وجعل اللوم في حيز غيره ، إذ كان منهم من زين ،

ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف ، ومنهم من عصى الأمر .

ومنهم من سكت على رضا منه .

(226/778)

ثم اعترفوا بأنهم طغوا ، وترجوا انتظار الفرج في أن يبدلهم خيراً من تلك الجنة ، ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا ﴾ : أي بهذه الجنة ، ﴿ خيرا منها ﴾ : وتقدم الكلام في الكهف ، والخلاف في تخفيف يبدلنا ، وتثقيلها منسوباً إلى القراء .

﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ : أي طالبون إيصال الخير إلينا منه .

والظاهر أن أصحاب هذه الجنة كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا .

وقيل : كانوا من أهل الكتاب .

وقال عبد الله بن مسعود : بلغني أن القوم دعوا الله وأخلصوا ، وعلم الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة ، وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم .

وعن مجاهد : تابوا فأبدوا خيراً منها .

وقال القشيري : المعظم يقولون أنهم تابوا وأخلصوا . انتهى .

وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال : أكان قولهم : ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ إيماناً ، أو

على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ؟ .

﴿ كذلك العذاب ﴾ : هذا خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) في أمر قريش .

قال ابن عطية : والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة ، أي ﴿ كذلك العذاب ﴾ : أي الذي نزل بقريش بغتة ، ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا .

وقال كثير من المفسرين : العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود . انتهى .

وقال الزمخشري : مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا .

﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أشد وأعظم منه . انتهى .

وتشبيه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بثمرها وحرمان المساكين ، فقلب الله تعالى عليهم وحرمهم .

وأن قريشاً حين خرجوا إلى بدر حلفوا على قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة وطافوا بالكعبة وشربوا الخمور ، فقلب الله عليهم بأن قتلوا وأسروا .

ولما عذبهم بذلك في الدنيا قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

لما ذكر تعالى أنه بلا كفار قريش وشبه بلاءهم ببلاء أصحاب الجنة ، أخبر بحال أضدادهم وهم المتقون ، فقال : ﴿ إن للمتقين ﴾ : أي الكفر ، ﴿ جنات النعيم ﴾ : أضافها إلى النعيم ، لأن النعيم لا يفارقها ، إذ ليس فيها إلا هو ، فلا يشوبه كدر كما يشوب جنات الدنيا .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش : إن كان ثم جنة فلنا فيها أكثر الحظ ، فنزلت : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ .

وقال مقاتل : قالوا فضلنا الله عليكم في الدنيا ، فهو يفضلنا عليكم في الآخرة ، وإلا فالمشاركة ، فأجاب تعالى : ﴿ أفنجعل ﴾ : أي لا يتساوى المطيع والعاصي ، هو استفهام فيه توقيف على خطأ ما قالوا وتوبيخ .

ثم التفت إليهم فقال : ﴿ ما لكم ﴾ ، أي : أي شيء لكم فيما تزعمون ؟ وهو استفهام إنكار عليهم .

ثم قال : ﴿ كيف تحكمون ﴾ ، وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم ، استفهم عن هيئة حكمهم .

ففي قوله : ﴿ ما لكم ﴾ استفهام عن كينونة مبهمة ، وفي ﴿ كيف تحكمون ﴾ استفهام

عن هيئة حكمهم .

ثم أضرب عن هذا إضراب انتقال لشيء آخر لا إبطال لما قبله فقال : ﴿ أم لكم ﴾ ، أي : بل ألكم ؟ ﴿ كتاب ﴾ ، أي من عند الله ، ﴿ تدرسون ﴾ أن ما تختارونه يكون لكم .

وقرأ الجمهور : ﴿ إن لكم ﴾ بكسر الهمزة ، فقيل هو استئناف قول على معنى : إن لكم كتاب فلكم فيه متخير .

وقيل : أن معمولة لتدرسون ، أي تدرسون في الكتاب أن لكم ، ﴿ لما تخيرون ﴾ : أي تختارون من النعيم ، وكسرت الهمزة من أن لدخول اللام في الخبر ، وهي بمعنى أن بفتح الهمزة ، قاله الزمخشري وبدأ به وقال : ويجوز أن تكون حكاية للمدروس كما هو ، كقوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح ﴾ انتهى .

وقرأ طلحة والضحاك : أن لكم بفتح الهمزة ، واللام في لما زائدة كهي في قراءة من قرأ الا أنهم ليأكلون الطعام بفتح همزة أنهم .

وقرأ الأعرج : أإن لكم على الاستفهام .

﴿ أم لكم أيمان ﴾ : أي أقسام علينا ، ﴿ بالغة ﴾ : أي متناهية في التوكيد .

يقال : لفلان عليّ يمين إذا حلفت له على الوفاء بما حلفت عليه ، وإلى يوم القيامة متعلق بما تعلق به الخبر وهو لكم ، أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، أو ببالغة : أي تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ بالغة ﴾ بالرفع على الصفة ، والحسن وزيد بن علي : بالنصب على الحال من الضمير المستكن في علينا .

وقال ابن عطية : حال من نكرة لأنها مخصصة تغليباً .

﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ : جواب القسم ، لأن معنى ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ : أم أقسمنا لكم ، قاله الزمخشري .

وقرأ الأعرج : أإن لكم عليّ ، كالتي قبلها على الاستفهام .

﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ : أي ضامن بما يقولونه ويدعون صحته ، وسل معلقة عن مطلوبها الثاني ، لما كان السؤال سبباً لحصول العلم جاز تعليقه كالعلم ، ومطلوبها الثاني أصله أن يعدى بعن أو بالباء ، كما قال تعالى :

﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام ﴾ وقال الشاعر :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

عليم بأدواء النساء طبيب

ولو كان غير اسم استفهام لتعدى إليه بعن أو بالباء ، كما تقول : سل زيداً عن من ينظر في كذا ، ولكنه علق سلهم ، فالجملة في موضع نصب .

وقرأ الجمهور : ﴿ أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ﴾ ؛ وعبد الله وابن أبي عبلة : فليأتوا بشركهم ، قيل : والمراد في القراءتين الأصنام أو ناس يشاركونهم في قولهم ويوافقونهم فيه ، أي لا أحد يقول بقولهم ، كما أنه لا كتاب لهم ، ولا عهد من الله ، ولا زعيم بذلك ، ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ : هذا استدعاء وتوقيف .

قيل : في الدنيا أي ليحضروهم حتى ترى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا .

وقيل : في الآخرة ، على أن يأتوا بهم .

﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ : وعلى هذا القول الناصب ليوم فليأتوا .

(229/778)

وقيل : اذكر ، وقيل التقدير : يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت ، وحذف للتهويل العظيم بما يكون فيه من الحوادث ؛ والظاهر وقول الجمهور : إن هذا اليوم هو يوم القيامة .

وقال أبو مسلم : هذا اليوم هو في الدنيا لأنه قال : ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ ، ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه إما آخر أيام الرجل في دنياه لقوله : ﴿ يوم

يرون الملائكة لا بشرى ﴾ ثم يرى الناس يدعون إلى الصلاة إذا حضرت أوقاتها ، فلا يستطيع الصلاة لأنه الوقت الذي لا ينفع فيه نفساً إيمانها ؛ وإما حال المرض والهرم والمعجزة .

﴿ وقد كانوا ﴾ قبل ذلك اليوم ، ﴿ يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ مما بهم الآن . فذلك إما لشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، وإما من العجز والهرم . وأجيب بأن الدعاء إلى السجود ليس على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل .

وعند ما يدعون إلى السجود ، سلبوا القدرة عليه ، وحيل بينهم وبين الاستطاعة حتى يزداد حزنهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه وهم سالمون الأطراف والمفاصل .

وقرأ الجمهور : ﴿ يكشف ﴾ بالياء مبنياً للمفعول .

وقرأ عبد الله بن أبي عبلة : بفتح الياء مبنياً للفاعل ؛ وابن عباس وابن مسعود أيضاً وابن هرمز : بالنون ؛ وابن عباس : يكشف بفتح الياء منبياً للفاعل ؛ وعنه أيضاً بالياء مضمومة مبنياً للمفعول .

وقرىء : يكشف بالياء المضمومة وكسر الشين ، من أكشف إذا دخل في الكشف ، ومنه أكشف الرجل : انقلبت شفته العليا ، وكشف الساق كناية عن شدة الأمر وتفاقمه .

قال مجاهد : هي أول ساعة من يوم القيامة وهي أفظعها .

ومما جاء في الحديث من قوله : " فيكشف لهم عن ساق " ، محمول أيضاً على الشدة في ذلك اليوم ، وهو مجاز شائع في لسان العرب .

قال حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها . . .

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال الراجز :

عجبت من نفسي ومن إشفاقها . . .

ومن طرادي الخيل عن أرزاقها

(230/778)

في سنة قد كشفت عن ساقها . . .

حمراء تبري اللحم عن عراقها

وقال الراجز :

قد شمرت عن ساقها فشدوا . . .

وجدّت الحرب بكم فجدوا

وقال آخر :

صبراً امام إن شرباق . . .

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال الشاعر :

كشفت لهم عن ساقها . . .

وبدا من الشر البوا

ويروى : الصداخ .

وقال ابن عباس : يوم يكشف عن شدة .

وقال أبو عبيدة : هذه كلمة تستعمل في الشدة ، يقال : كشف عن ساقه إذا تشمر .

قال : ومن هذا تقول العرب لسنة الجدب : كشفت ساقها ، ونكر ساق للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة ، خارج عن المألوف ، كقوله تعالى : ﴿ يوم يدعو الداع إلى شيء نكر ﴾ ، فكأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ : ظاهره أنهم يدعون ، وتقدم أن ذلك على سبيل التوبيخ لا على سبيل التكليف .

وقيل : الداعي ما يرونه من سجود المؤمنين ، فيريدون هم السجود فلا يستطيعونه ، كما

ورد في الحديث الذي حاورهم فيه الله تعالى أنهم يقولون : أنت ربنا ، ويخرون للسجود ، فيسجد كل مؤمن وتصير أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً ، فلا يستطيعون سجوداً . انتهى .

ونفي الاستطاعة للسجود في الآخرة لا يدل على أن لهم استطاعة في الدنيا ، كما ذهب إليه الجبائي .

و﴿ خاشعة ﴾ : حال ، وذو الحال الضمير في ﴿ يدعون ﴾ ، وخص الأبصار بالخشوع ، وإن كانت الجوارح كلها خاشعة ، لأنه أبين فيه منه في كل جارحة ، ﴿ ترهقهم ﴾ : تغشاهم ، ﴿ ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود ﴾ .

قيل : هو عبارة عن جميع الطاعات ، وخص بالذكر من حيث هو أعظم الطاعات ، ومن حيث امتحنوا به في الآخرة .

وقال النخعي والشعبي : أراد بالسجود : الصلوات المكتوبة .

وقال ابن جبير : كانوا يسمعون النداء للصلاة وحي على الفلاح فلا يجيبون .

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ ، المعنى : خل بيني وبينه ، فإني سأجازيه وليس ثم مانع .

وهذا وعيد شديد لمن يكذب بما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أمر الآخرة وغيره ، وكان تعالى قدم أشياء من أحوال السعداء والأشقياء .

ومن في موضع نصب ، إما عطفاً على الضمير في ذرني ، وإما على أنه مفعول معه .

﴿ سنستدرجهم ﴾ إلى قوله : ﴿ متين ﴾ : تكلم عليه في الأعراف .

﴿ أم تسئلهم أجراً ﴾ إلى : ﴿ يكتبون ﴾ : تكلم عليه في الطور .

روي أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يدعو على الذين انهزموا بأحُد حين اشتد بالمسلمين الأمر .

وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف ، فنزلت : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ : وهو إمهالهم وتأخير نصرك عليهم ، وامض لما أمرت به من التبليغ واحتمال الأذى ، ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ : هو يونس عليه السلام ، ﴿ إذ نادى ﴾ : أي في بطن الحوت ، وهو قوله :

﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ وليس النهي منصباً على الذوات ، إنما المعنى : لا يكن حالك مثل حاله .

﴿ إذ نادى ﴾ : فالعامل في إذ هو المحذوف المضاف ، أي كحال أو كقصة صاحب الحوت ، ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ : مملوء غيظاً على قومه ، إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى

الإيمان ، وأحوجوه إلى استعجال مفارقته إياهم .

وقال ذو الرمة :

وأنت من حب ميّ مضمر حزنا . . .

عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

وتقدمت مادة كظم في قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ تداركه ﴾ ماضياً ، ولم تلحقه علامة التأنيث لتحسين الفصل .

وقرأ عبد الله وابن عباس : تداركته بتاء التأنيث ؛ وابن هرمز والحسن والأعمش : بشد الدال .

قال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك ، والأصل في ذلك تتداركه ، لأنه مستقبل انتصب بأن الخفيفة قبله .

(232/778)

وقال بعض المتأخرين : هذا لا يجوز على حكاية الحال الماضية المقتضية ، أي لولا أن كان يقال تتداركه ، ومعناه : لولا هذه الحال الموجودة كانت له من نعم الله ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ ، ونحوه قوله : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ وجواب ﴿ لولا ﴾ قوله : ﴿ لنبذ بالعراء

وهو مذموم ﴾ ، أي لكنه نبذه وهو غير مذموم ، كما قال : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ والمعتمد فيه على الحال لا على النبذ مطلقاً ، بل بقيد الحال .

وقيل : لنبذ بعراء القيامة مذموماً ، ويدل عليه ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ثم أخبر تعالى أنه ﴿ اجتباه ﴾ : أي اصطفاه ، ﴿ ونبيا من الصالحين ﴾ : أي الأنبياء .

وعن ابن عباس : رد الله إليه الوحي وشفعة في قومه .

ولما أمره تعالى بالصبر لما أراده تعالى ونهاه عن ما نهاه ، أخبره بشدة عداوتهم ليتلقى ذلك بالصبر فقال : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ﴾ : أي ليزلقون قومك بنظرهم الحاد الدال على العداوة المفرطة ، أو ليهلكونك من قولهم : نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني ، أي لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله .

وقال الشاعر :

يتعارضون إذا التقوا في موطن . . .

نظراً يزل مواطن الأقدام

وقال الكلبي : ليزلقونك : ليصرفونك .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليزلقونك ﴾ بضم الياء من أزلق ؛ ونافع : بفتحها من زلقت الرجل ، عدى بالفتحة من زلق الرجل بالكسر ، نحو شترت عينه بالكسر ، وشترها الله بالفتح .

وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وعيسى : ليزهقونك .

وقيل : معنى ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ : ليأخذونك بالعين ، وذكر أن اللفع بالعين كان في بني أسد .

قال ابن الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً ثم تسقط طائفة أو عدة منها .

قال الكفار لهذا الرجل أن يصيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأجابهم ، وأنشد :

(233/778)

قد كان قومك يحسبونك سيداً . . .

وأخال أنك سيد معيون

أي : مصاب بالعين ، فعصم الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وأنزل عليه هذه الآية .

قال قتادة : نزلت لدفع العين حين أرادوا أن يعينوه عليه الصلاة والسلام .

وقال الحسن : دواء من أصابته العين أن يقرأ هذه الآية .

وقال القشيري : الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان ، لا مع الكراهة والبغض ، وقال : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ .

وقال القرطبي : ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة له حتى يهلك . انتهى .

وقد يكون في المعين ، وإن كان مبغضاً عند العائن صفة يستحسنها العائن ، فيعينه من تلك الصفة ، لا سيما من تكون فيه صفات كمال .

﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ : من يقول لما ظرف يكون العامل فيه ﴿ ليزلقونك ﴾ ، وإن كان حرف وجوب لوجوب ، وهو الصحيح ، كان الجواب محذوفاً لدلالة ما قبله عليه ، أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ، والذكر : القرآن .

﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ تنفيراً عنه ، وقد علموا أنه (صلى الله عليه وسلم) أتمهم فضلاً وأرجحهم عقلاً .

﴿ وما هو ﴾ : أي القرآن ، ﴿ إلا ذكر ﴾ : عظة وعبرة ، ﴿ للعالمين ﴾ : أي للجن والإنس ، فكيف ينسبون إلى الجن من جاء به ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(234/778)

وقال العلامة نظام الدين النيسا بورى :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ﴾

التفسير : الأقوال المشتركة في فواتح نحو هذه السورة مذكورة . أما المخصوصة بالمقام فعن ابن عباس ومجاهد ومقاتل والسدى أن النون السمكة أقسم بالحوت الذي على ظهره الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى ، أو بالحوت الذي احتبس يونس في بطنه ، أو بالحوت بالذي لطخ سهم نمرود بدمه ، اقوال . عن ابن عباس في رواية الضحاك والحسن وقتادة أن النون هو الدواة .

قال :

إذا ما الشوق برّح بي إليهم . . . ألقت النون بالدمع السجوم

(235/778)

فيكون قسماً بالدواة والقلم العظيم النفع فيهما فإن التفاهم يحصل بالكتابة كما يحصل بالعبارة . وعن بعض الثقات أن أصحاب السجر يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً أسود كالنقس أو أشد سواداً منه يكتبون منه فيكون النون . وهو الحوت عبارة عن الدواة ، ويعضده ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال " أول شيء خلقه الله القلم ثم خلق

النون وهو الدواة ثم قال اكتب ما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجل فكتب ما هو كائن وما كان إلى يوم القيامة ثم ختم على القلم فلم ينطق إلى يوم القيامة " وعن معاوية بن قرة مرفوعاً أن النون لوح من نور تكتب الملائكة فيه يأمرهم الله به . وقيل : نهر في الجنة .

اعترض النحويون على هذه الأقوال كلها أن اللفظ إن كان جنساً لزم الجر والتنوين وكذا إن كان علماً منصرفاً ، وإن كان علماً غير منصرف لزم الفتح بتقدير حرف القسم ، وقيل : النون آخر حرف من حروف الرحمن فإنه يجتمع من الروحمون هذا الإسم الخاص . أما القلم فالأكثرون على أنه جنس أقسم الله سبحانه بكل قلم يكتب به في السماء وفي الأرض وقال آخرون : هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر أن " أول ما خلق الله القلم " والجوهرة التي وردت في الحديث " أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وتسخنت فارتفع منها دخان وزبد فخلق من الدخان السماء ومن الزبد الأرض " كلها واحدة ولعلك قد وقفت على تحقيق هذه المعاني في هذا الكتاب . و " ما " في قوله ﴿ وما يسطرون ﴾ موصولة أو مصدرية والضمير لكل من يسطر أو للحفظة . وقيل : أراد أصحاب القلم فحذف المضاف قال الزجاج : " أنت " اسم " ما " والخبر ﴿ بمجنون ﴾ وقوله ﴿ بنعمة ربك ﴾ كلام وقع في البين والمعنى انتفى عنك الجنون بواسطة إنعام ربك عليك ، أو انتفى عنك الجنون متلبساً بنعمة الله كما لو قلت : أنت عاقل بحمد الله أي ثبت لك العقل حال كونك متلبساً بحمد الله ، أو أثبته لك حال كون التباسي بالحمد . وقال عطاء وابن عباس

(236/778)

: يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة وسائر الأخلاق الفاضلة . وفيه إشارة إلى أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة وكمال العقل والاتصاف بكل ملكة وإذا كانت هذه النعمة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون وكلام العدى ضرب من الهذيان . ﴿ وإن لك ﴾ على احتمال أعباء النبوة ومشاق تبليغ الرسالة ﴿ لأجراً غير ممنون ﴾ قال الأكثرون : أي غير مقطوع كقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ [هود : 108] وعن مجاهد ومقاتل والكلبي أنه غير مكدر عليك بسبب المنة .

(237/778)

وقالت المعتزلة : في تقرير هذا الوجه أن له ممنا لأنه ثواب يستوجبه على عمله وليس بتفضل ابتداء ، وضعف لأنه يلزم منه التكرار لأن الأجر عندهم شيء ينبىء عن كونه غير ممنون . الحاصل أنه لا يمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا الخطب الجسيم وهو دعاء الخلق إلى الدين القويم فإن لك بسببه ثواباً عظيماً . ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ والخلق

ملكة نفسانية يقدر معها على الإتيان بالفعل الجميل بمواتاة وسهولة ، فإذا وصفه مع ذلك بالعظم وهو كونه على الوجه الأجمل والنهج الأفضل لم يكن خلق أحسن منه . وفيه إشارة إلى أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة نفي الجنون عنه ودلالة على تكذيب الحساد لأن المجنون لا خلق له يحمد أو عليه يعتمد ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان من حسن الخلق المتشابه بحيث كان مجمع أخلاق سائر الأنبياء وكان يوجد فيه ما كان متفرقاً فيهم ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] أي اقتد بكل منهم فيما اختص به من الخلق الكريم وفي قوله ﴿ لعلى ﴾ إشارة إلى أنه مستول على أحسن الأخلاق الفاضلة لا يزعه عنها وازع . قال سعيد بن هشام : قلت لعائشة : أخبريني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القرآن . وفي رواية : قرأت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : لبيك ، وقال أنس : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته لمَ فعلته ولا في شيء لم أفعله هلا فعلت ، ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهدد أعداءه بقوله ﴿ فستبصر ﴾ يا محمد ما قدر لك من عز الدارين ﴿ ويبصرون ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي كما في بدر أو في الآخرة . قوله ﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال الأخفش وأبو عبيدة وابن قتيبة : الباء صلة والمعنى أيكم المفتون وهو الذي فتن بالجنون . وقال الفراء والمبرد

والحسن والضحاك عن ابن عباس : المفتون مصدر بمعنى المجنون كالمعقول والمجلود . وقيل : الباء بمعنى " في " وعل هذا يجوز أن يكون الفتون بمعنى المجنون أي في أي الفريقين من يستحق هذا الاسم أو في أيهما الشيطان لأن الشيطان مفتون في دينه . وكانت العرب تزعم أنه من يخبله الجن فقال الله تعالى سيعلمون غداً بأيهم الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون وإختلاط العقل ، وفيه تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما . ثم أحال كيفية الحال إلى كمال علمه فقال ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ أي بمن جن ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وهم العقلاء . والأظهر أن يراد الضلال في غوائلهم والاهتداء في الدين وفيه وعد ووعيد .

قال المفسرون : إن المشركين أرادوا من النبي أن يعبد الله مدة وآلهتهم مدة وهم يعبدون الله مدة وآلهتهم مدة فأنزل الله تعالى ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ وهو كالنتيجة لما تقدمه لأنه سبحانه حين وعده أنصار العز والرفعة في الدارين وأوعد أعداءه بضد ذلك وكان علمه شاملاً بحال الفريقين وجزائهما لم يبق لطاعة الأعداء وجه .

ثم ذكر تمنيهم فقال ﴿ ودوا لو تدهن ﴾ تلين وتصانع ﴿ فيدهنون ﴾ أي فهم يدهنون حينئذ لأن النفاق يجر النفاق أي ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون طمعاً في ادهانك . قال المبرد : أدهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر . ثم حض النبي قائلاً ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ لأن من أكثر الحلف بالله ولم يعرف قدر المعبود بالحق أذله الله . وفيه إشارة إلى أن عزة النفس منوطة بتصحيح نسبة العبودية ، ومهانة النفس مربوطة بالغفلة عن سر الربوبية . وأيضاً الحلاف يتفق له الكذب كثيراً والكذب حقير عند الناس . والهماز الذي يذكر الناس بالمكروه . وعن الحسن : يلوي شدقيه في أقفية الناس . ﴿ مشاء بنميم ﴾ أي لأجل سعاية . والنميم مصدر نم ينم ﴿ مناع للخير ﴾ أي للمال أو مناع أهل الخير وهو الإسلام فذكر الممنوع منه دون الممنوع فكأنه قال مناع من الخير ﴿ معتد ﴾ مجاوز في الظلم حده ﴿ أثيم ﴾ كثير الإثم ﴿ عتل ﴾ غليظ في الخلقة جاف في الخليقة . الزنيم الدعي ومعنى ﴿ بعد ذلك ﴾ التبعيد في الرتبة أي مع الأوصاف المعدودة له هذا الوصف الذي هو أشنعها لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث جميع أخلاق الولد . عن ابن عباس في رواية أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي كان موسراً وله عشر بنين يقول لهم : من أسلم منكم منعته رفدي وفي رواية أخرى ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده ويقال : بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت الآية .

وقوله ﴿ أن كان ﴾ بهمزة واحدة تقديره لأن كان أي لا تطع صاحب هذه المثالب لكثرة ماله وولده ومن قرأ بهمزتين فمعناه ألأن كان ﴿ ذا مال ﴾ كذب فمتعلق الجار مدلول . قوله ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال ﴾ وذلك أن قال لا يصلح أن يعمل فيه لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ولا قوله ﴿ يتلى ﴾ لأنه مضاف إليه . عن مجاهد أنه الأسود بن عبد يغوث وعن السدى : الأخنس بن شريق أصله في ثقيف وعداده في زهرة . وقيل : كان الوليد دعياً في قريش ﴾

(240/778)

سنسمه على الخرطوم ﴾ أي الأنف وفيه استخفاف به من جهة الوسم ومن جهة التعبير عن أنف الآدمي بالخرطوم الذي هو أنف الحيوانات المنكرة كالخنزير والفيل كما لو عبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر ، ثم الأنف أكرم موضع من الوجه ولهذا قيل : الجمال في الأنف وله التقدم ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة وقالوا : في الذليل " جدع أنفه ورغم أنفه " والوسم في الأنف إهانة فوق إهانة .

(241/778)

ومتى هذا الوسم ؟ منهم من قال في الدنيا فعن ابن عباس خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمته على خرطومه . وعن النضر بن شميل : الخرطوم الخمر أي سنسمه على شربها . وسمي الخمر خرطوماً كما قيل لها السلافة وهو ما سلف عن عصير العنب ، أو لأنها تطير في الخياشيم وتؤثر فيها . ومنها من قال في الآخرة نعلمه فعبر عن سواد الوجه كله بسواد الخرطوم . ومنهم من قال في الدارين أي سنشهره بهذه السمة وهي أنّه ﴿ حلاف ﴾ إلى ﴿ زنيم ﴾ فلا يخفى كما لا تخفى السمة على الخرطوم . ولا شك أن هذه الأوصاف الذميمة وتبعاتها بقيت في حق الوليد بن المغيرة في الدنيا والآخرة كالوسم على الأنف والوسم على الجبهة . ثم بين أنه إنما أعطى رؤساء مكة الآلاء ليواظبوا على شكر نعم الله وإلا صب عليهم بدل الآلاء البلاء ومكان السراء والضراء . وهذه صورة الابتلاء كما أنه كلف أصحاب الجنة ذات الثمار أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم ، يروى أن واحداً من ثقيف وكان مسلماً كان ملك ضيعة فيها نخل وزروع بقرب صنعاء ، وكان يجعل منها نصيباً وافراً للفقراء ، فلما مات ورثها منه بنوه ثم قالوا : عيالنا كثير والمال قليل فلو فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا ﴿ ليصرمنها ﴾ أي ليقطعن ثمر نخيلها في وقت الصباح ﴿ ولا يستثنون ﴾ أي لا يقولون " إن شاء الله " وأصله من الثني وهو الرد كأن الحالف يرد انعقاد اليمين بالثنيا . ولعلهم إنما لم يقولوا إن شاء الله لوثوقهم بالتمكن من صرامها . هذا قول

الأكثرين . وزعم الآخرون أن المراد يصرمون كل ذلك ولا يستثنون للمساكين من جملته ذلك القدر الذي كان يدفع أبوهم إليهم ﴿ فطاف عليها ﴾ عذاب ﴿ طائف من ﴾ حكم ﴿ ربك ﴾ أو بعض من عذاب ربك ، والطائف لا يكون إلا ليلاً . قال الكلبي : أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت ﴿ وهم نائمون فأصبحت ﴾ الجنة ﴿ كالصريم ﴾ " فعيل " بمعنى " فاعل " أو معنى " مفعول " والأول قول من قال إنها لما احترقت صارت سوداء كالليل المظلم ،

(242/778)

أو سمي الليل صريما لأنه يصرم نور البصر فيقطعه أو لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ، وقيل : النهار يسمى أيضاً صريماً لأن كل واحد من الملوين ينصرم بالآخر فالصريم بمعنى الصارم . ووجه التشبيه أنها يبست وذهبت خضرتها أو لم يبق منها شيء من قولهم " صرم الإناء " إذا أفرغه . والثاني وهو الأولى قول من قال إنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمرة وإن كان أثر الاحتراق مغايراً لأثر الصوم .

(243/778)

وقال الحسن : أي صوم عنها الخير : وقيل : الصريم من الرمل قطعة ضخمة تنصرم عن سائر الرمال وجمعه للصرائم شبهت الجنة وهي محترقة لا ثمر فيها ولا خير بالرملة المنقطعة عن الرمال وهي ما لا تنبت شيئاً ينتفع به . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ﴿ اغدوا على حرثكم ﴾ وعنوا بالحرث الزرع والثمار والأعناب ولذلك قالوا ﴿ صارمين ﴾ لأنهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار وضمن الغدو معنى الإقبال فلهذا عدي بعلى أي أقبلوا على حرثكم باكرين ، أو عبر عن الغدو لأجل الصرم بالغدو عليه كما قال : غدا عليهم العدو ﴿ يتخافتون ﴾ يتسارون فيما بينهم والنهي عن الدخول للمسكين نهي لأصحاب الجنة عن تمكين المسكين منه كأنهم قالوا فيما بينهم لا تمكنوه من الدخول . قوله ﴿ وغدوا على حرد ﴾ هو المنع ومنه حاردت السنة إذا منعت خيرها ، وحاردت الإبل إذا منعت درها ، أي قادرين على منع المساكين لا غير يعني أنهم عزموا على حرمان المساكين مع كونهم قادرين على نفعهم . وغدوا بحال فقر وذهاب ثمر لا يقدرون فيها إلا على النكد والمنع . وفيه أنهم طلبوا حرمان الفقراء فعورضوا بنقيض مقصودهم فتعجلوا الحرمان والمسكنة . ويجوز أن تكون المحاردة للجنة أي غدوا حاصلين على منع الجنة خيرها لا على إصابة النفع منها . ويجوز أن لا يكون قوله ﴿ على حرد ﴾ صلة ﴿ قادرين ﴾ ولكن الكل يعود إلى قوله ﴿ أن اغدوا على حرثكم ﴾ أي عاقبهم الله بأن

حاردت جنتهم فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرج وقوله ﴿ قادرين ﴾ يكون من باب عكس الكلام للتهكم أي قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين . وقيل : الحرد بالتسكين والتحريك وهو الأكثر بمعنى الغضب أي لم يقدروا إلا على غضب بعضهم على بعض كقوله ﴿ يتلاومون ﴾ وقيل : الحرد القصد والسرعة قطا حراد أي سراع يعني وغدوا على حالة سرعة ونشاط قادرين عند أنفسهم على صرامها ومنع خيرها من المساكين . وقيل : حرد علم للجنة بعينها والمعنى كما تقدم

(244/778)

لأن قوله ﴿ إنا لضالون ﴾ يحتمل أن يراد الضلال عن الطريق كأنهم لما رأوا جنتهم محترقة سبق إلى ذهنهم أنها ليست هي وأنهم ضلوا الطريق ، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ حرمنا خيرها لشؤم عزمنا على البخل ومنع المساكين . ويحتمل أن يراد الضلال عن الدين لأن منع حق الله نوع من الضلال . ومعنى بل أنهم اعتقدوا كونهم قادرين على الانتفاع به ومنع الغير منها فقالوا : بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين . ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أعدلهم وخيرهم كما مر في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] .

﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ قال الأكثرون : معنى التسبيح ههان الاستثناء لأنه تعالى وبخهم بقوله ﴿ ولا يستثنون ﴾ والاستثناء نوع من التنزيه لأنه لو دخل في الوجود شيء على خلاف مشيئته كان نقصاً في كمال القدرة .

(245/778)

وعن الحسن : هو الصلاة كأنهم يتكاسلون فيها وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر . وقال آخرون : إن أوسطهم كان يقول لهم عند عزمهم على منع حقوق الفقراء : لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من هذه العزيمة الخبيثة . لم يلتفتوا إلى قوله إلا بعد خراب الجنة قائلين ﴿ سبحان ربنا ﴾ عن أن يجري في ملكه شيء على خلاف مشيئته . قالت المعتزلة : سبحان الله عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ بمنع المعروف وترك الاستثناء . ومعنى ﴿ يتلاومون ﴾ يلوم بعضهم بعضاً يقول واحد لغيره : أنت أشرت علينا بهذا الرأي ويقول الآخر : أنت خوفتنا بالفقر . ويقول الثالث : أنت الذي رغبتني في جمع المال . ثم قالوا جميعاً ﴿ يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ اعترافاً بالذنب ثم قووا رجاءهم قائلين ﴿ عسى ربنا ﴾ الآية . سئل قتادة عنهم أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعباً كأنه توقف في المسألة . وعن مجاهد : إن هذه كانت توبة منهم فأبدلوا خيراً منها . وعن ابن

مسعود : بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً . ثم هدد المكلفين بقوله ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة من القحط والقتل وبلونا أصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أشد وأعظم . ثم مزج وعيد الأشقياء بوعد السعداء قائلاً ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ﴾ ليس فيها إلا النعيم الخالص لا يشوبه منغص كجنان الدنيا . قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله فضلنا عليكم في فنفى الله معتقدهم بقوله ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ قال القاضي : فيه دليل واضح على أن وصفي المسلم والمجرم متنافيان فلا يكون الفاسق مسلماً . وأجيب بأنه تعالى لم ينف المماثلة من كل الوجوه لتماثلهما في الجوهرية والجسمية وسائر الأوصاف التي لا تكاد تحصر ، فإذن المراد نفي التسوية في أثري الإسلام والإجرام ولا نزاع في

ذلك فإن أثر أحدهما وعد وأثر الآخر وعيد أو يكون ثواب المسلم غير المجرم أكثر من ثواب المسلم المجرم على أن المجرم في الآية يحتمل أن يراد به الكافر الذي ضرب مثل أصحابه الجنة فيه وفي أمثاله نظير الآية ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] وقد مر في " ص " .

ثم قال لهم على طريقة الالتفات ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم المعوج وتخير الشيء واختاره إذا أخذ خيره ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ يقال لفلان علي يمين بكذا إذا ضمنته منه وحلفت له على الوفاء به . ومعنى ﴿ بالغة ﴾ مؤكدة مغلظة وقوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ يجوز أن يتعلق ببالغة أي هذه الإيمان في قوتها وكمالها بحيث تنتهي إلى يوم القيامة لم تبطل منها يمين على أن يحصل المقسوم عليه وهو قوله ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم أو لكل من يستأهل الخطاب ﴿ سلهم أيهم بذلك ﴾ الحكم ﴿ زعيم ﴾ أي كفيل بالإستدلال على صحته ﴿ أم لهم ﴾ ناس ﴿ شركاء ﴾ في هذا القول .

(247/778)

والمراد من الآيات أنه ليس لهم دليل عقلي في إثبات مذهبهم ولا نقلي وهو كتاب يدرسون ولا عهد لهم به عند الله ولا زعيم لهم يقوم به ولا لهم من يوافقهم من العقلاء ، فدل ذلك على أنه باطل من كل الوجوه . قوله ﴿ يوم يكشف ﴾ قيل : منصوب بقوله ﴿ فليأتوا ﴾ أي إن كانوا صادقين في أنها شركاء فليأتوا بها يوم القيامة لتنفعهم وتشفع لهم . وقيل : بإضمار " اذكر " وقيل : التقدير يوم يكشف ﴿ عن ساق ﴾ كان كيت وكيت . احتجت المشبهة

على أن لله ساقاً وأيدوه بما يروى عن ابن مسعود مرفوعاً أنه يتمثل الحق يوم القيامة ثم يقول : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إذا عرفنا نفسه عرفناه فعند ذلك يكشف الرحمن عن ساقه ، فأما المؤمنون فيخرون سجداً ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم كالطبق الواحد وذلك قوله ﴿ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ حال كونهم ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ يعني يلحقهم ذل بسبب أنهم لم يكونوا مواظبين على خدمة مولاهم في حال السلامة ووجود الأصلاب والمفاصل على هيآتها المؤدية للركوع والسجود .

(248/778)

وقال أهل السنة : الدليل الدال على أنه تعالى منزه عن الجسمية وعن كل صفات الحدوث وسمات الإمكان دل على أن الساق لم يرد بها الجارحة ، فأولوه أنه عبارة عن شدة الأمر وعظم الخطب ، وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن ومثله . " وقامت الحرب بنا على ساق " . ومعناه يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثمة ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح " يده مغلولة " ولا يد ثمة ولا غل وإنما هو مثل في البخل ، وهكذا في الحديث ومعناه يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله . قال في الكشاف : ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق

الرحمن . وإنما جاءت منكرة في التمثيل للدلالة على أنه أمر فظيع هائل : قلت : الإنصاف أن هذا لا يرد على المشبه فإن له أن يقول إنما نكر الساق لأجل التعظيم أي ساق لا يكتنه كنة عظمتها كما يقول غيره . وقال أبو سعيد الضرير : ساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان ، فمعنى الآية يوم تظهر حقائق الأشياء ، وأصولها . وقيل : يكشف عن ساق جهنم أو عن ساق العرش أو عن ساق ملك مهيب . وقال أبو مسلم : هذا في الدنيا لأنه تعالى قال في وصف ذلك اليوم ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ ولا ريب أن يوم القيامة ليس فيه تعبد وتكليف فهو زمان العجز ، أو آخر أيام دنياه فإنه في وقت النزع ترى الناس يدعون إلى الصلاة بالجماعة إذا حضرت أوقاتها وهؤلاء لا يستطيعون الصلاة لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها .

(249/778)

والتحقيق أن الذي ذكره محتمل إلا أن في تعليله ضعفاً فإنا نوافقه أن يوم القيامة ليس وقت تعبد وتكليف . ولكن لا مانع من الدعاء إلى السجود للتوبيخ والتفضيح على رؤس الأشهاد . وقال الجبائي : لما خصص عدم الاستطاعة بالآخرة دل على أنهم كانوا يستطيعون فيبطل هذا قول من قال لا قدرة له على الإيمان ، والجمع بين المتنافيين محال

فالاستطاعة في الدنيا أيضاً غير حاصلة على قول الجبائي . والجواب الصحيح عندي أن عدم الاستطاعة في الدنيا لمانع آخر وهو أنه تعالى لم يرد منهم الإيمان وعلم منهم الكفر وقدر لهم ذلك ، وعدم الاستطاعة في الآخرة لمانع آخر له من السجود وهو لين المفاصل ومطاوعة الأعصاب وسلامة الفقر . ثم خوفهم بنوع آخر قائلاً ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كأنه قال : حسبي مجازياً لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه . وقوله ﴿ سنستدرجهم ﴾ إلى قوله ﴿ مبين ﴾ قد مر في آخر " الأعراف " . وقوله ﴿ أم تسألهم ﴾ إلى ﴿ يكتبون ﴾ قد مر في " الطور " . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الضجر في أمر التبليغ كحال يونس عليه السلام وقد تقدم مراراً . قال بعض العلماء : معنى قوله ﴿ كصاحب الحوت ﴾ أنه كان في ذلك الوقت مكظوماً أي مملوءاً من الغيظ فكأنه قيل : لا تكن مكظوماً أولا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة . وقال جمع من المفسرين : أن الآية نزلت بأحد حين حل بالمؤمنين ما حل فأراد أن يدعو على من انهزم . وقيل : نزلت حين أراد أن يدعو على ثقيف والنعمة التي تداركت يونس أي التحقت به وسدت خلته هي النبوة أو عبادته السابقة ، أو قوله في بطن الحوت " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " ، وهذه النعمة التوبة بالحقيقة . وقد اعتمد في جواب لولا على الحال أعني قوله ﴿ وهو مذوم ﴾

والمعنى أن حاله كانت على خلاف الصبر حين نبذ بالعراء أي الفضاء كما مر في " الصافات " . لولا تسبيحه لكانت حاله

(250/778)

على الذم . ويل : أراد لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نبذ بعراء القيامة أي بعرصتها مذموماً ﴿ فاجتباه ربّه ﴾ بقبول التوبة ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي من الأنبياء عن ابن عباس : رد الله إليه الوحي وشفعه في نفسه وقومه . ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم عن حسد قومه وحرصهم على إيقاع المكروه به بعد أن صبره وشجعه فقال ﴿ وإن يكاد ﴾ هي مخففة من الثقيلة واللام دليل عليها .

(251/778)

زلقه وأزلقه بمعنى . يقال زلق الرأس وأزلقه أي حلقه . قال جار الله : يعني أنهم من شدة تخوفهم ونظرهم إليك سراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك من قولهم " نظر إليّ نظرا يكاد يصرعني أو يكاد يأكلني " أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل

لفعله . ثم بين بقوله ﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي صلى الله عليه وسلم القرآن حسداً على ما أوتي من النبوة . ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ حيرة في أمره وتنفيراً عنه مع علمهم بأنه أعقلهم . ثم قال تعالى ﴿ وما هو ﴾ أي القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ وموعظة ﴿ للعالمين ﴾ وفيه استجهال أن يجنبن من جاء بمثله من الآداب والحكم وأصول كل العلوم والمعارف . واعلم أن للعقلاء خلافاً في أن الإصابة بالعين هل لها في الجملة حقيقة أم لا ؟ وبتقدير كونها حقيقة فهل الآية مفسر بها أم لا ؟ أما المقام الأول فقد شرحناه في أول " البقرة " في قوله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ [الآية : 102] وفي يوسف في قوله ﴿ يا بني لا تدخلوا من باب واحد ﴾ [الآية : 67] والذي نقوله ههنا : فمنهم من أنكر ذلك بناء على أن تأثير الجسم في الجسم لا يعقل إلا بواسطة المماسة وهو ضعيف لأن النفوس والأمزجة له تأثيرات خاصة . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال " العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر " وأما المقام الثاني فقد قال بعض المفسرين : كانت العين في بني أسد ، وكان الرجل منهم يتجوع ويرتاض وثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا عانه . فالتمس الكفار من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لم أر كاليوم رجلاً مثله . فعصمه الله تعالى . طعن الجبائي في هذا التأويل وقال : الإصابة بالعين مقرونة باستحسان الشيء ، والقوم كانوا

يبغضون النبي صلى الله عليه وسلم وأجيب بأنهم كانوا يبغضونه من حيث الدين إلا أنهم كانوا يستحسنون مصاحبته بإيراده

(252/778)

الأعاجيب من الحجج والبيان وأنواع المعجزات . وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 333 . 342 ﴾

(253/778)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة ن وتسمى القلم

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم : من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ مكي ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يعلمون ﴾ مدني ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مكي ، ومن بعد

ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ من الصالحين ﴾ مدني ، وباقيها مكي ، قاله الماوردي .

وهي اثنتان وخمسون آية ، وثلاثمائة كلمة ، وألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة فهو بكل شيء عليم ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت نعمة إيجاده لأهل معاده البريء منهم والسقيم ﴿ الرحيم ﴾ الذي أتم تلك النعمة على من وفقه لطاعته فألزمه صراطه المستقيم . وقوله تعالى:

﴿ ن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ص والقرآن ﴾ (ص :) وجواب القسم الجملة المنفية بعدها .

واختلفوا في تفسير ذلك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الحوت الذي على ظهره الأرض وهو قول مجاهد ومقاتل والسدّي والكلبي ، وروى أبو طيبان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "أول ما خلق الله تعالى القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ ن ﴾ الآية" .

واختلفوا في اسمه فقال الكلبي ومقاتل : يهموت ، وقال الواقدي : ليوثا ، وقال كعب : لوثا ، وقال علي : تلهوت ، وقال الرواة : لما خلق الله تعالى الأرض وفتقها بعث من تحت العرش

ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله عز وجل من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأخذ الله تعالى ياقوتة خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها خمسمائة عام ووضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس يمتد البحر وإذا ردّ نفسه جزر البحر ، فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه : فتكن في صخرة ولم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى نوناً وهو الحوت العظيم ووضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة ثقل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار : كوني فكانت .

قال كعب الأحبار : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه فقال له : أتدري ما على ظهرك يا لويثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك ، فهمّ لويثا أن يفعل فبعث الله تعالى دابة فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها ، فأذن الله تعالى لها فخرجت ، فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت إليه كما كانت .

وقال بعضهم : نون آخر حروف الرحمن وهي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : النون : الدواة ، وهو مروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال القرطبي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة" . ومنه قول الشاعر :

*إذا ما الشوق برح بي إليهم ** ألقت النون بالدمع السجام*

ويكون على هذا أقسم بالدواة والقلم ، فإن المنفعة بهما عظيمة بسبب الكتابة ، فإن التفاهم يحصل تارة بالنطق وتارة بالكتابة ، وقيل : النون : لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يؤمرون به ، رواه معاوية بن قرة مرفوعاً ، وقيل : النون : هو المداد الذي تكتب به الملائكة . وقال عطاء وأبو العالية : هو افتتاح اسمه تعالى نصير ونور وناصر ، وقال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصرة المؤمنين .

وقال الزمخشري : هذا الحرف من حروف المعجم ، وأما قولهم : هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من أن يكون جنساً أو علماً ، فإن كان

جنساً فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علماً فأين الإعراب وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام . فإن قلت : هو مقسم به وجب إن كان جنساً أن تجره وتنونه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كأنه قيل : ودواة ﴿ والقلم ﴾ وإن كان علماً أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحه للعملية والتأنيث .

وكذلك التفسير بالحوت إما أن يراد نون من النينان ، أو يجعل علماً لليهموت الذي يزعمون والتفسير باللوح من نور أو ذهب والنهر في الجنة نحو ذلك ا . ه .

(256/778)

تنبيه : في القلم المقسم به قولان : أحدهما : أن المراد به الجنس وهو واقع على كل قلم يكتب به في السماء والأرض ، قال تعالى : ﴿ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق : ـ) ولأنه ينتفع به كما ينتفع بالنطق ، قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ (الرحمن : ـ) ، فالقلم يبين كما يبين اللسان في المخاطبة بالكتابة للغائب والحاضر ، والثاني : أنه القلم الذي جاء في الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما : أول ما خلق الله تعالى القلم ، ثم قال له : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة قال : ثم ختم فم

القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ، قال : وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض .

وروى مجاهد أول ما خلق الله تعالى القلم فقال : اكتب المقدر ، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وإنما يجري في الناس على أمر قد فرغ منه ، قال ابن عادل : قال القاضي : هذا الخبر يجب حمله على المجاز ، لأن القلم آلة مخصوصة للكتابة لا يجوز أن يكون حياً عاقلاً فيؤمر وينهى ، فإن الجمع بين كونه حيواناً مكلفاً وبين كونه آلة للكتابة محال ، بل المراد منه إنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو قوله تعالى : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (آل عمران :) فإنه ليس هناك أمر ولا تكليف بل هو مجرد نفاذ القدرة في المقدور من غير منازعة ولا مدافعة ، اه .

وقوله : فإن الجمع إلى قوله : محال ، ممنوع فإن الله تعالى خلق فيه ذلك كما قال تعالى للسموات والأرض : ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ (فصلت :) وقال الزمخشري : أقسم بالقلم تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيطها الوصف .

وقيل : القلم المذكور ههنا هو العقل وإنه شيء كالأصل لجميع المخلوقات ، قالوا : والدليل عليه أنه روي في الأخبار : أول ما خلق الله تعالى القلم ، وفي خبر آخر : "أول ما خلق الله تعالى العقل ، فقال الجبار : ما خلقت خلقاً أعجب إليَّ منك وعزتي وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت ، قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلاً أطوعهم لله وأعلمهم بطاعته" . وفي خبر آخر : أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فذابت وسخنت فارتفع منها دخان وزبد ، فخلق من الدخان السموات ومن الزبد الأرض ، قالوا : وهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد وإلا حصل التناقض ، وقال البغوي : القلم هو الذي كتب الله به الذكر وهو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ، ويقال : أول ما خلق الله تعالى القلم ونظر إليه فانشق نصفين ثم قال : اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك .

وقرأ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وورش بخلاف عنه بإظهار النون عند الواو هنا والباقون بالإدغام .

(258/778)

﴿ وما يسطرون ﴾ أي : الملائكة من الخير والصلاح ، وقيل : وما تكتبه الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم ، وقيل : ما يكتبون ، أي : الناس ويتفاهمون به ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معنى ﴿ وما يسطرون ﴾ : وما يعملون ، وما موصولة أو مصدرية . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في يسطرون لهم ، كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو وسطرهم ، ويراد بهم كل من يسطر أو الحفظة ، وقال البقاعي : وما يسطرون ، أي : قلم القدرة وجمعه وأجراه مجرى أولى العلم للتعظيم لأنه فعل أفعالهم أو الأقلام على إرادة الجنس ، ويجوز أن يكون الإسناد إلى الكاتبين به لما دل عليهم من ذكره ، وأما الملائكة إن كان المراد ما كتب في الكتاب المبين واللوح المحفوظ وغيره مما يكتبونه ، وأما كل من يكتب منهم ومن غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ ما أنت ﴾ أي : يا أعلى المتأهلين لخطابنا ﴿ بنعمة ﴾ أي : بسبب إنعام ﴿ ربك ﴾ أي : المربي لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذي هو الجامع لكل علم وحكمة ﴿ بمجنون ﴾ جواب القسم ، وهو نفي ، قال الزجاج : أنت هو اسم ما وبمجنون الخبر . وقوله تعالى : ﴿ بنعمة ربك ﴾ كلام وقع في الوسط ، أي : انتفى ذلك الجنون بنعمة ربك كما يقال : أنت بحمد ربك عاقل بل الذي وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون ، وقال البغوي : ما أنت بنعمة ربك بنبوة ربك بمجنون ، أي : إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله تعالى عليك بالنبوة والحكمة ، وقيل : بعصمة ربك ، وقيل : هو

كما يقال : ما أنت بمجنون والحمد لله ، وقيل : معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربك كقولهم : سبحانك اللهمّ وبحمدك ، أي : والحمد لك .

(259/778)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أنه صلى الله عليه وسلم غاب عن خديجة إلى حراء فطلبته فلم تجده ، فإذا به ووجهه متغير امتلأ غباراً ، فقالت له : ما لك فذكر جبريل عليه السلام وأنه قال له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ (العلق :) فهو أول ما نزل من القرآن قال : ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ وتوضأت ثم صلى وصليت معه ركعتين وقال : هكذا الصلاة يا محمد ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لخديجة فذهبت به خديجة إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد خالف دين قومه ودخل في النصرانية ، فسألته فقال : أرسلي إلي محمداً فأرسلته ، فقال : هل أمرك جبريل عليه السلام أن تدعو أحداً ، قال : لا فقال : والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصراً عزيزاً ثم مات قبل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش فقالوا : إنه مجنون ، وأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون وهو خمس آيات من أول هذه السورة .

وقال ابن عباس : أول ما نزل قوله تعالى : "سبح اسم ربك الأعلى" (الأعلى :) وهذه الآية

هي الثانية نقله الرازي ، وذكر القرطبي أن المشركين كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم مجنون به شيطان وهو قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (الحجر :) فأنزل الله تعالى رداً عليهم وتكذيباً لقولهم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ (الطور :) ، أي : برحمة ربك والنعمة ههنا الرحمة ، وقال عطاء وابن عباس : يريد بنعمة ربك عليك بالإيمان والنبوة ، وقال القرطبي : يحتمل أن النعمة ههنا قسم تقديره ما أنت ونعمة ربك بمجنون لأن الواو والباء من حروف القسم .

وقال الرازي : إنه تعالى وصفه بصفات ثلاث:

(260/778)

الأولى : نفي الجنون عنه ، ثم قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها ، لأن قوله : ﴿ بنعمة ربك ﴾ يدل على أن نعم الله تعالى ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة ، وإذا كانت هذه النعم المحسوسة ظاهرة ووجودها ينافي حصول الجنون فالله تعالى نبه على أن هذه الدقيقة جارية مجرى الدلالة اليقينية على كذبهم في قولهم مجنون .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وإنّ لك ﴾ أي : على ما تحملت من أثقال النبوة وعلى

صبرك عليهم فيما يرمونك به وهو تسلية له صلى الله عليه وسلم ﴿ لأجر ﴾ ، أي : ثواباً ﴿ غير ممنون ﴾ أي : مقطوع ولا منقوص في دنيا ولا آخرة ، يقال : مان الشيء إذا ضعف . ويقال : مننت الحبل إذا قطعته ، وحبل منين إذا كان غير متين ، قال لبيد :

* * * عبساً كواسب لا يمنّ طعامها *

أي : لا يقطع ، يصف كلاباً ضارية . ونظيره قوله تعالى : ﴿ غير مجذوذ ﴾ (هود :) وقال مجاهد ومقاتل والكلبي : غير ممنون ، أي : غير محسوب عليك . قال الزمخشري : لأنه ثواب تستحقه على عملك وليس بتفضل ابتداء وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال ، انتهى . وهذا قول المعتزلة ، فإن الله تعالى لا يجب عليه شيء . وقال الحسن : غير مكدر بالمن . وقال الضحاك رضي الله تعالى عنه : أجراً بغير عمل . واختلفوا في هذا الأجر على أي شيء حصل ، فقيل : معناه ما مرّ وقيل : معناه أنّ لك على احتمال هذا الطعن والقول القبيح أجراً عظيماً دائماً ، وقيل : إن لك في إظهار النبوة والمعجزات وفي دعاء الخلق إلى الله تعالى ، وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم فلا تمنعنك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم ، فإن لك بسببه المنزلة العالية .

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ استعظم خلقه لفرط احتمال الممضات من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم ، قال ابن عباس ومجاهد : على دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى ، ولا أرضى عنده منه ، وروى مسلم عن عائشة : "أنّ خُلقه كان القرآن" . وقال علي : هو أدب القرآن ، وقيل : رفقه بأمته وإكرامه إياهم ، وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من الله وينتهي عنه بما نهى الله تعالى عنه ، وقيل : إنك على طبع كريم ، وقيل : هو الخلق الذي أمر الله تعالى به في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (الأعراف :)

وقال الماوردي : حقيقة الخلق في اللغة ما يأخذه الإنسان في نفسه من الأدب ، سمي خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه ، فأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم ، فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم الطبع الغريزي . ا

قال القرطبي : ما ذكره مسلم في صحيحه عن عائشة أصح الأقوال ، وسئلت أيضاً عن خلقه صلى الله عليه وسلم "فقرأت قد أفلح المؤمنون إلى عشر آيات" . قال الرازي : وهذا إشارة إلى أن نفسه القدسية الشريفة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب ، وإلى كل ما يتعلق به وكانت شديدة التعري عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع ، ومقتضى الفطرة وقالت : "ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال : لبيك ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى

خلق عظيم ﴾ ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر" .

(262/778)

وقال الجنيد : سمي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال" . وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير" . وعن أنس بن مالك قال : "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته : لم صنعته ، ولا لشيء تركته : لم تركته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكاً ولا عنبراً كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول : خياركم أحسنكم أخلاقاً" . وعن أنس "أن امرأة عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرق المدينة ، فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال : يا أم فلان

اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك قال : ففعلت فقعد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضيت حاجتها" . وعن أنس بن مالك قال : "كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت" . وعن أنس أيضاً : "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صافح رجلاً لم ينزع يده حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له" . وعن عائشة قالت : "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة" . وعنها قالت : "ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم" .

(263/778)

وعن أنس قال:

"كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه

وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك وأمر له بعطاء" .

وعنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له : أبو عمير وهو فطيم كان إذا جاءنا قال : يا أبا عمير ما فعل النغير لنغير كان يلعب به" .

والنغير طائر صغير يشبه العصفور إلا أنه أحمر المنقار . وعن الأسود قال : "سألت عائشة : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل في بيته ؟ قالت : كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة توضأ ويخرج إلى الصلاة" . والمهنة : الخدمة ، وعن عبد الله بن الحرث قال : "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء" .

وعن أبي هريرة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أتدرون أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان الفرج والفم ، أتدرون أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق" .

وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن المؤمن يدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار" .

﴿ فستبصر ﴾ أي : فستعلم عن قرب بوعد لا خلف فيه علماً أنت في تحققه كالمبصر بالحس الباصر ﴿ ويبصرون ﴾ أي : يعلم الذين رموك بالبهتان علماً هو كذلك . وقوله تعالى : ﴿ بأييكم المفتون ﴾ فيه أربعة أوجه:

(264/778)

أحدها : أن الباء مزيدة في المبتدأ ، والتقدير : أيكم المفتون فزيدت كزيادتها في نحو : بحسبك زيد ، وإلى هذا ذهب قتادة ، قال ابن عادل : إلا أنه ضعيف من حيث إن الباء لا تزاد في المبتدأ إلا في حسبك فقط .

الثاني : أن الباء بمعنى في فهي ظرفية كقولك : زيد بالبصرة ، أي : فيها ، والمعنى : في أي فرقة وطائفة منكم المفتون ، أي : المجنون أفي فرقة الإسلام ، أم في فرقة الكفر ؟ وإليه ذهب مجاهد والفراء .

الثالث : أنه على حذف مضاف ، أي : بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وإليه ذهب الأخفش وتكون الباء سببية .

الرابع : أن المفتون مصدر جاء على مفعول كالمقتول والميسور ، والتقدير : بأيكم الفتنة ، وقيل : المفتون المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار إذا أحميته قال تعالى : ﴿ يوم هم

على النار يفتنون ﴾ (الذاريات :) ، أي : يعذبون ، وقيل : الشيطان لأنه مفتون في دينه وكانوا يقولون : إنه به شيطان وعنوا بالمجنون هذا ، فقال تعالى : سيعلمون غداً بأيهم الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل .

فائدة : ﴿ بأييكم ﴾ رسمت ههنا بياءين .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَالِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾

(265/778)

﴿ إن ربك ﴾ أي : الذي رباك أحسن تربية وفضلك على سائر الخلائق ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ أعلم ﴾ أي : من كل أحد ﴿ بمن ضلّ ﴾ أي : حاد ﴿ عن سبيله ﴾ أي : دينه وسلك غير سبيل القصد وأخطأ موضع الرشد ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ أي : الثابتين على الهدى ، وهم أولوا الأحلام والنهى ، أي : لذو علم بمعنى عالم .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ وهو أعلم ﴾ ﴿ وهو مكظوم ﴾ ﴿ وهو مذموم ﴾ قرأه قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بضمها وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ أي : العريقين في التكذيب وهم مشركو مكة ، فإنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه أن يطيعهم ، ينتج التصميم على معاداتهم .

﴿ ودّوا ﴾ أي : تمنوا وأحبوا محبة واسعة متجاوزة للحدّ قديماً مع الاستمرار على ذلك ﴿ لو ﴾ مصدرية ﴿ تدهن فيدهنون ﴾ قال الضحاك : لو تكفر فيكفرون . وقال الكلبي : لو تلين لهم فيلينون لك . وقال الحسن : لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم . وقال زيد بن أسلم : لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون . وقال ابن قتيبة : أرادوا أن يعبد آلهتهم مدّة ويعبدون الله مدة . وقال ابن العربي : ذكر المفسرون في ذلك نحو عشرة أقوال كلها دعاوى على اللغة ، والمعنى وأمثلها : ودّوا لو تكذب فيكذبون ، ودّوا لو تكفر فيكفرون . وقال القرطبي : كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى .

تنبيه : في رفع فيدهنون وجهان : أحدهما : أنه عطف على تدهن فيكون داخلاً في حيّز لو ، والثاني : أنه خبر مبتدأ مضمر ، أي : فهم يدهنون . وقال الزمخشري : فإن قلت لم رفع فيدهنون ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمني ، قلت : قد عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف ، أي : فهم يدهنون ، كقوله تعالى : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف

بخساً ﴾ (الجن :) على معنى : ودّوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ أو ودّوا ادهانك ، فهم الآن يدهنون لطمعهم في ادهانك .

(266/778)

واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ ، أي : كثير الحلف بالباطل فقال مقاتل : يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي صلى الله عليه وسلم مالاً وحلف له أن يعطيه إن رجع عن دينه ، وقال ابن عباس : هو أبو جهل بن هشام . وقال عطاء : هو الأخنس بن شريق ؛ لأنه حليف ملحق في بني زهرة فلذلك سمة زنيماً ، وقال مجاهد : هو الأسود بن عبد يغوث . ﴿ مهين ﴾ ، أي : ضعيف حقير . قيل : هو فعيل من المهانة وهي قلة الرأي والتمييز . وقال ابن عباس : كذاب وهو قريب من الأول ، لأن الإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه . وقال الحسن وقتادة : هو المكار في الشر ، وقال الكلبي : المهين العاجز . ﴿ هماز ﴾ أي : كثير العيب للناس في غيبتهم . وقال الحسن : هو الذي يغمز بأخيه في المجلس . وقال ابن زيد : الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللماز باللسان . وقيل : الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم ، واللماز الذي يذكرهم في غيبتهم وقال مقاتل : بالعكس ، وقال مرّة : هما سواء ، ونحوه عن ابن عباس وقتادة . ﴿ مشاء ﴾ أي : كثير

المشي ﴿ بنميم ﴾ أي : فتان يلقي النميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل ما قاله الإنسان في آخر ، وإذاعة سر لا يريد صاحبه إظهاره على وجه الإفساد البين مبالغ في ذلك .

﴿ مناع ﴾ أي : كثير المنع شديده ﴿ للخير ﴾ أي : كل خير من المال والإيمان وغيرهما من نفسه وغيره من الدين والدنيا ، وقال ابن عباس : مناع للخير ، أي : الإسلام يمنع ولده وعشيرته من الإسلام وكان له عشرة من الولد يقول : لئن دخل أحد منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً . ﴿ معتد ﴾ أي : ثابت التجاوز للحدود في كل ذلك ﴿ أثيم ﴾ ، أي : مبالغ في ارتكاب ما يوجب الإثم فيترك الطيبات ويأخذ الخبائث يرغب في المعاصي ويتطلبها ويدع الطاعات ويزهد فيها .

(267/778)

﴿ عتلّ ﴾ العتلّ : الغليظ الجافي . وقال الحسن : هو الفاحش الخلق السيء الخلق . وقال الفراء : هو الشديد الخصومة في الباطل . وقال الكلبي : هو الشديد في كفره ، وكل شديد عند العرب عتلّ وأصله من العتل وهو الدفع بالعنف ، وقال أبو عبيدة بن عمير : العتل : الأكول الشروب القوي الشديد الذي لا يزن في الميزان شعيرة ، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفاً دفعة واحدة ﴿ بعد ذلك ﴾ أي : مع ذلك ، يريد مع ما وصفناه به . ﴿ زنيم ﴾ وهو

الدعي الملصق بالقوم وليس منهم ، وقال عطاء عن ابن عباس : يريد مع هذا هو دعي في قريش وقال مرّة الهمداني : إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشر سنة ، وقيل : الزنيم الذي له زنمة كزنمة الشاة . وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : في هذه الآية نعت ، فلم يعرف حتى قيل : زنيم فعرف وكانت زنمة في عنقه يعرف بها . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها . وقال مجاهد : زنيم كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام له إصبع زائدة ، وقال ابن قتيبة : لا نعلم أن الله تعالى وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة .

وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو يقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر" . وفي رواية : "كل جواظ زنيم متكبر" . الجواظ : الجموع المنوع ، وقيل : الكثير اللحم المختال في مشيته ، وقيل : القصير البطين ، وقال عكرمة : هو ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم ، وكان الوليد دعياً في قريش ، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده قال الشاعر فيه:

*زنيم ليس يعرف من أبوه ** بغي الأمّ ذو حسب لئيم*

قيل : بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت الآية ، وهذا لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة ولد زنا ولا ولده ولا ولد ولده" . وقال عبد الله بن عمر : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن أولاد الزنا يحشرون يوم القيامة في صور القردة والخنازير" . ولعل المراد به الدخول مع السابقين ، وإلا فمن مات مسلماً دخل الجنة ، وقالت ميمونة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا فإذا فشى فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعذابه" . وقال عكرمة : إذا كثر ولد الزنا قحط المطر . قال القرطبي : ومعظم المفسرين على أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام ، وينادي ألا لا يوقدنّ أحد تحت برمة ألا لا يزجين أحد بكراع ، ألا من أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة ، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر ، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً وقيل : مناع للخير وفيه نزل ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ (فصلت : ٦ - ٧) .

(269/778)

ولما كان حطام هذه الدنيا كله عرضاً فانياً وظلاً متقلصاً زائلاً لا يفتخر به ولا يلتفت إليه إلا من كان بهذه الأوصاف ، فإذا كان ذلك أكبر همه ومبلغ علمه أثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد ، قال الله تعالى : ﴿ أن ﴾ أي : لأجل أن ﴿ كان ﴾ أي : هذا الموصوف ﴿ ذا مال ﴾ أي : مذكور بالكثرة ﴿ وبنين ﴾ أنعمنا عليه بهما ، فصار يطاع لأجلهما ، فكان بحيث يجب عليه شكرنا بسببهما . ﴿ إذا تتلى ﴾ أي : تذكر على سبيل المتابعة ﴿ عليه ﴾ ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له ﴿ آياتنا ﴾ أي : العلامات الدالة دلالة هي في غاية الظهور على الملك الأعلى وعلى ماله من صفات العظمة ﴿ قال ﴾ أي : مفاجأة من غير تأمل ولا توقف عوضاً عن شكرنا ﴿ أساطير ﴾ جمع سطور جمع سطر ﴿ الأولين ﴾ أي : أشياء سطروها ودونوها وفرغوا منها ، فحمله دنيء طبعه على تكثره بالمال ، فورطه في التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه ، فجعل الكفر موضع الشكر ، ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من سمعه ، فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر ، فكان هذا دليلاً على جميع تلك الصفات السابقة ، مع التعليل بالاستناد إلى ما هو عند العاقل أوهى من بيت العنكبوت والاستناد إليه وحده كاف في الاتصاف بالرسوخ في الدناءة .

وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة بهمزتين مفتوحتين وابن عامر يسهل الثانية ، وشعبة وحمزة بتحقيقهما وهشام على أصله يدخل بينهما ألفاً والباقون بهمزة واحدة مفتوحة . قال القرطبي : فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين ، فهو استفهام والمراد به التوبيخ ، ويحسن له أن يقف على ﴿ زنيم ﴾ ويبتدىء ﴿ أن كان ﴾ على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه ؟ ويجوز أن يكون التقدير : ألأن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين ، ويجوز أن يكون التقدير : ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر ؟ ودل عليه ما تقدم من الكلام ، فصار كالمذكور بعد الاستفهام ، ومن قرأ أن كان بغير استفهام فهو مفعول من أجله ، والعامل فيه فعل مضمر ، والتقدير : يكفر لأن كان ذا مال وبنين ، ودل على هذا الفعل ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ ولا يعمل في إذا تتلى ولا قال ، لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها ؛ لأن إذا تضاف إلى الجمل التي بعدها ، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف . وقال : جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه ، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط ، فيصير مقدماً مؤخراً في حال واحد .

ويجوز أن يكون المعنى : لا تطعه لإن كان ذا يسار وعدد . قال ابن الأنباري : ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على زنيم ، لأن المعنى : لأن كان ذا مال كان ، فأن متعلقة بما

قبلها . وقال غيره : يجوز أن تتعلق بقوله تعالى : ﴿ مشاء بنميم ﴾ والتقدير : يمشي بنميم لإن كان ذا مال وبنين ، وأجاز أبو علي أن تتعلق بعتل . ومعنى ﴿ أساطير الأولين ﴾ أباطيلهم وترهاتهم .

(271/778)

﴿ سنسمه ﴾ أي : نجعل له سمة ، أي : علامة يعرف بها ﴿ على الخرطوم ﴾ أي : الأنف يعير بها ما عاش ، قال ابن عباس : سنسمه سنخطمه بالسيف ، قال : وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف ، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات ، والتعبير عن الأنف بهذا للاستهانة والاستخفاف . وقال قتادة : سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها . وقال الكسائي : سنكويه على وجهه وقال أبو العالية ومجاهد : سنسمه على الخرطوم ، أي : على أنفه ونسوّد وجهه في الآخرة فيعرف بسواد وجهه قال تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ (آل عمران :)

فهي علامة ظاهرة ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ (طه :)

وهذه علامة أخرى ظاهرة .

وأفادت هذه الآية علامة ثالثة : وهي الوسم على الأنف بالنار ، وهذا كقوله تعالى :

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (الرحمن :)

قال القرطبي : والخرطوم الأنف من الإنسان ، ومن السباع موضع الشفة ، وخراطيم القوم ساداتهم . قال الفراء : وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه في معنى الوجه ، لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل . وقال القرطبي : بين أمره تبياناً واضحاً فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم ، وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ، ولا شك أن المبالغة العظيمة في ذمه بقيت على وجه الدهر ، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة كالوسم على الخرطوم . وقيل : ما ابتلاه الله تعالى به في الدنيا في نفسه وأهله وماله من سوء وذل وصغار . وقال النضر بن شميل : المعنى : سنحده على شرب الخمر ، والخرطوم الخمر وجمعه خراطيم . قال : الرازي كالزمخشري وهذا تعسف ا . ه . وقيل للخمر : الخرطوم كما قيل لها : السلافة وهي ما سلف من عصير العنب أو لأنها تطير في الخياشيم .

(272/778)

تنبيه : الأنف أكرم موضع في الوجه لتقديمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : الأنف في الأنف وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين ، وقالوا في الذليل :

جدع أنفه ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذلال فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوهها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها" .

ولما ذكر تعالى في أول الملك أنه خلق الموت والحياة للابتلاء في الأعمال ، وختم هنا بعيب من يغتر بالمال والبنين وهو يعلم أن الموت وراءه أعاد ذكر الابتلاء وأكده بقوله تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من القهر والعظمة ﴿ بلوناهم ﴾ أي : عاملنا أهل مكة بما وسعنا عليهم به معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر والباطن ، فغرّهم ذلك وظنوا أنهم أحباب ، ومن قترنا عليهم من أوليائنا أعداء واستهانوا بهم ونسبوهم لأجل تقللهم من الدنيا إلى السفة والجنون وكان ابتلاؤنا لهم بالقحط الذي دعا عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف ﴿ كما بلونا ﴾ أي : اختبرنا ﴿ أصحاب الجنة ﴾ بأن عاملناهم معاملة المختبر مع علمنا بالظاهر .

(273/778)

وحاصله : أنه استخراج ما في البواطن ليعلمه العباد في عالم الشهادة كما يعلم الخالق في عالم الغيب ، أو أنه كناية عن الجزاء ، وعرف الجنة لأنها كانت شهيرة عندهم وهي بستان

عظيم كان دون صنعاء بفرسخين يقال له : الضروان يطؤه أهل الطريق ، كان صاحبه ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأ المنجل أو ألقته الريح أو بعد عن البساط الذي يبسط تحت النخلة ، وكان يجتمع لهم شيء كثير ، فلما مات شح بنوه بذلك وقالوا : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن ذوو عيال ، فحلفوا على أن يجذوها قبل الشمس حتى لا تأتي الفقراء إلا بعد فراغهم ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ أقسموا ﴾ ودل على تأكيد القسم بالتأكيد فقال : ﴿ ليصرمنها ﴾ عبر به عن الجذاذ لدلالته على القطع البائن المستأصل المانع للفقراء من الصريم الذي يعرض على فم الجدي لئلا يرضع ، أو من الصرماء للمفازة التي لا ماء بها والناقة القليلة اللبن

﴿ مصبحين ﴾ داخلين في أول وقت الصباح لئلا تشعر بهم المساكين فلا يعطوهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها .

﴿ ولا ﴾ أي : والحال أنهم لا ﴿ يستثنون ﴾ في يمينهم ، أي : ولا يقولون : إن شاء الله .

فإن قيل : لم سمي استثناء وإنما هو شرط ؟

أجيب : بأنه سمي استثناء لأنه إخراج لشيء يكون حكمه غير المذكور أولاً ، وكان الأصل فيه إلا أن يشاء الله فألحق به إن شاء الله لرجوعه إليه في اتحاد الحكم .

﴿ فطاف ﴾ أي : فتسبب عن فعلهم هذا أن طاف ﴿ عليها ﴾ أي : جنتهم

﴿ طائف ﴾ أي : عذاب مهلك محيط وهو نار أحرقتها ليلاً لم تدع منها شيئاً ، والطائف

غلب في الشر . وقال الفراء : هو الأمر الذي يأتي ليلاً ورد عليه بقوله : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ وذلك لا يختص بليل ولا نهار ، وقوله تعالى : ﴿ من ربك ﴾ يجوز أن يتعلق بطاف وأن يتعلق بمحذوف صفة لطائف ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أن أصحاب الجنة المقسمين ﴿ نائمون ﴾ وقت إرسال الطائف .

(274/778)

﴿ فأصبحت ﴾ أي : فتسبب عن هذا الطائف الذي أرسله القادر الذي لا يغفل ولا ينام على مال من لا يزال أسير العجز والنوم فعلاً أو قوة ﴿ كالصريم ﴾ أي : كالأشجار التي صرم عنها ثمرها ، أو كالليل المظلم الأسود لأنه يقال : الصريم لسواده والصريم أيضاً النهار ، وقيل : الصبح لأنه انصرم من الليل ، قاله الأخفش . ٧

وهو من الأضداد . وقيل : كالرماد الأسود ليس بها ثمرة بلغة خزيمة ، قاله ابن عباس ، لأن ذلك الطائف أتلفها لم يدع فيها شيئاً لأنهم طلبوا الكل فلم يزكوه بما يمنع عنه الطوارق لضدّ ما كان لأبيهم من ثمرة عمله الصالح من الدفع عن ماله والبركة في جميع أحواله . قال القرطبي : والآية دليل على أنّ العزم مما يؤاخذ به الإنسان لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ونظيره قوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ (الحج :)

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه" وهذا محمول على العزم المصمم ، أما ما كان يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي : في حال أول دخولهم في الإصباح وقوله تعالى : ﴿ أن اغدوا ﴾ ، أي : بكروا جداً مقبلين ومستولين وقادرين ، ويجوز أن تكون أن المفسرة لأنه تقدمها ما هو بمعنى القول ﴿ على حرثكم ﴾ ، أي : محل فائدتكم الذي أصلحتموه وتعبتم فيه فلا يستحقه غيركم ، قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم لبعض : اغدوا على حرثكم يعني بالحرث الثمار والزروع والأعناب ، ولذلك قال : صارمين لأنهم أرادوا قلع الثمار من الأشجار .

(275/778)

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قال : اغدوا إلى حرثكم وما معنى على ؟ قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول : غدا عليهم العدو . قال الزمخشري : ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، أي : فأقبلوا على حرثكم . ﴿ إن كنتم

صارمين ﴾ أي : مريدين القطع ، وجواب الشرط دل عليه ما قبله ، أي : فاغدوا ، ويجوز أن تكون أن المصدرية ، أي : تنادوا بهذا الكلام .

تنبيه : مقتضى كلام الزمخشري أن غدا متعدّ في الأصل بإلى فاحتاج إلى تأويل فقدره بعلى ، قال ابن عادل : وفيه نظر لورود تعديه بعلى في غير موضع كقوله:

* وقد أغدوا على ثبة كرامٍ ** نشاوى واجدين لما نشاء *

وإذا كانوا قد عدوا مرادفه بعلى فليعدوه ، وقرأ : أن اغدوا أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر النون والباقون بضمها واتفقوا على الابتداء بالهمزة بالضم .

﴿ فانطلقوا ﴾ أي : فتسبب عن هذا الحث عقبه كأنهم كانوا متهيئين ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ يتخافتون ﴾ أي : يقولون في حال انطلاقهم قولاً هو في غاية السر ، كأنهم ذاهبون إلى سرقة من دار هي في غاية الحراسة من الخفوت وهو الهمود وخفا وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم ، ومنه الخفدود للخفاش .

(276/778)

ثم فسر ما يتخافتون به بقوله تعالى : ﴿ أن لا يدخلنها ﴾ وأن لا ههنا مقطوعة كما ترى ، وأكدوه لأنه لا يصدق أن أحداً يصل إلى هذه الوقاحة وأن جذاذاً يخلو من سائل

﴿ اليوم ﴾ أي : في جميع النهار بما دل عليه نزع الخافض لتكروا عليه مراراً وتفتشوه فلا تدعوا به ثمرة واحدة ولا موضعاً يطمع فيه أحد في قصدكم ﴿ عليكم ﴾ وأنتم بها ﴿ مسكين ﴾ وهي نهي للمسكين في اللفظ للمبالغة في نهى أنفسهم أن لا يدعوه يدخل عليهم ، أي : لا يمكنوه من الدخول حتى يدخل كقولك : لا أرينك ههنا ، فقال لهم أوسطهم سناً وخيرهم نفساً وأعدلهم طبعاً بما يدل عليه ما يأتي : لا تقولوا هكذا واصنعوا من الإحسان ما كان يصنع أبوكم ، قال البقاعي : وكأنه طواه سبحانه لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شيئاً .

﴿ وغدوا ﴾ أي : ساروا إليها غدوة ﴿ على حرد ﴾ أي : منع للمساكين . قال أبو عبيدة : على حرد ، أي : منع من حاردت الإبل حراداً ، أي : قل لبنها ، والحرود من النوق القليلة الدر ، وحاردت السنة قل مطرها وخيرها . وقال الشعبي وسفيان : على حنق وغضب من المساكين ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : على قدرة ﴿ قادرين ﴾ عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد ، أي : بدليل عدم استثنائهم ، فإن الجزم على الفعل في المستقبل فضلاً عن أن يكون مع الحلف فعل من لا كفء له . وقال الحسن وقتادة : على جد وجهد . وقال القرطبي وعكرمة : على أمر مجتمع .

ودل على قربها من منزلتهم بالفاء فقال تعالى : ﴿ فلما رأوها ﴾ أي : بعد سير يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ عن طريق جنتنا لأنها صارت لسوء

حالها من ذلك الطائف بعيدة عن حال ما كانت عليه عند تواعدهم وتغيير نياتهم ، فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها ، وأكدوا لأن ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم وكثرة ملابستهم لها وقوة معرفتهم بها .

(277/778)

ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي : ثابت حرماننا ما كنا فيه من الخير الذي لم نغب عنه إلا سواد الليل ، فحرمنا الله تعالى إياه بما عزمنا عليه من حرمان المساكين ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد :)

وقرأ الكسائي بإدغام اللام في النون والباقون بالإظهار .

﴿ قال : أوسطهم ﴾ أي : رأياً وعقلاً وسناً وفضلاً منكراً عليهم ﴿ ألم أقل لكم ﴾ أي : ما فعلتموه لا ينبغي وإن الله تعالى بالمرصاد لمن غير ما في نفسه وحاد ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ تسبحون ﴾ أي : تستثنون ، فكان استثناؤهم تسبيحاً ، قال مجاهد وغيره : وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان يأمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه . قال أبو صالح : كان استثناؤهم سبحان الله ، فقال لهم : هلا تسبحون الله ، أي : تقولون سبحان الله

وتشكرونه على ما أعطاكم . وقال النحاس : أصل التسبيح التنزيه للّه عز وجل ، فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله لأن المعنى : تنزيه الله أن يكون شيء إلا بمشيئته . وقال الرازي : التسبيح عبارة عن تنزيهه عن كل سوء ، فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله تعالى لنسب النقص إلى قدرة الله تعالى ، فقولك : إن شاء الله يزيل هذا النقص فكان ذلك تسبيحاً ، وقيل : المعنى هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، قيل : إن القوم لما عزموا على منع الزكاة فاغتروا بالمال والقوة ، قال لهم أوسطهم : توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب ، فلما رأوا العذاب ذكرهم أوسطهم كلامه الأول وقال : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فحينئذ اشتغلوا بالتوبة بأن .

(278/778)

﴿ قالوا ﴾ أي : من غير تلعثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم ﴿ سبحان ربنا ﴾ أي : تنزه المحسن إلينا التنزيه الأعظم أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم ، وأكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وخضوعاً لربهم وتحقيقاً لتوبتهم بقولهم : ﴿ إنا كنا ﴾ أي : بما في جبلاتنا من الفساد ﴿ ظالمين ﴾ أي : مجاوزين الحدود فيما فعلنا من التقاسم على منع المساكين وعلى جذها في الصباح من غير استثناء .

﴿ فأقبل بعضهم ﴾ أي : في الحال مبادرة في الخضوع ﴿ على بعض يتلاومون ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا لهذا : أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذلك لهذا : أنت الذي خوفتنا بالفقر . ويقول الثالث لغيره : أنت رغبتني في جمع المال .

ثم نادوا على أنفسهم بالويل بأن ﴿ قالوا ﴾ منادين لما شغلهم قربه منهم وملازمته لهم عن كل شيء ﴿ يا ويلنا ﴾ أي : هذا وقت حضورك أيها الويل إيانا ومنادمتك لنا ، فإنه لا نديم لنا الآن غيرك ، والويل الهلاك والإشراف عليه ﴿ إنا كنا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ طاغين ﴾ أي : عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء . وقال ابن كيسان : طاغين نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل .

(279/778)

ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا ﴿ عسى ربنا ﴾ أي : الذي أحسن إلينا بتربية هذه الجنة وإهلاك ثمرها الآن تأديباً لنا ﴿ أن يبدلنا ﴾ من جنتنا شيئاً ﴿ خيراً منها ﴾ يقيم لنا أمر معايشنا فتنقلب أحوالنا هذه التي نحن فيها من الهموم والبذاذة بسرور ولذاذة ، وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون بسكون الموحدة وتخفيف الدال ﴿ إنا إلى ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا والمربي لنا بالإيجاد ، ثم الإبقاء خاصة لا إلى غيره

﴿ راغبون ﴾ أي : ثابتة رغبتنا ورجاؤنا الخير والإكرام . وقد قيل : إن الله تعالى قبل رجوعهم وأخلف عليهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، كان القطف الواحد منها يحمله وحده من كبره البغل ، رواه البغوي عن ابن مسعود ، وقال أبو خالد اليماني : دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم ، وقال الحسن : قول أهل الجنة ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة فتوقف في كونهم مؤمنين ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ قال : لقد كلفتني تعباً ، والأكثرون يقولون : إنهم تابوا وأخلصوا حكاه القشيري .

ولما كان المقام لترهيب من ركن إلى ماله واحتقر الضعفاء من عباد الله تعالى ولم يجلهم بجلاله طوى ذكر ما أنعم به عليهم وذكر ما يخوفهم ، فقال تعالى مرهباً :

(280/778)

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الذي بلونا به أصحاب الجنة من إهلاك ما كان عند أنفسهم في غاية القدرة عليه والثقة به مع الاستحسان لفعلهم والاستصواب ، وهددنا به أهل مكة فلم يبادروا إلى المتاب . ﴿ العذاب ﴾ أي : الذي نحذرهم منه ونخوفهم به في الدنيا ، فإذا تم

الأجل الذي قدرناه له أخذناهم به غير مستعجلين ولا مفرطين لأنه لا يعجل إلا ناقص يخاف الفوت ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي : الذي يكون فيها للعصاة ﴿ أكبر ﴾ أي : من كل ما يتوهمون ﴿ لو كانوا ﴾ أي : الكفار ﴿ يعلمون ﴾ أي : لو كان لهم علم بشيء من غرائزهم في وقت من الأوقات لرجعوا عما هم فيه .

ولما ذكر ما لأهل الجمود الذين لا يجوزون الممكنات ذكر تعالى أضدادهم ، فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم:

﴿ إن للمتقين ﴾ أي : العريقين في صفة التقوى ﴿ عند ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم في موضع دوم أولئك وجنة آمالهم ﴿ جنات ﴾ جمع جنة وهي لغة : البستان الجامع ، وفي عرف الشرع : مكان اجتمع فيه جميع السرور وانتفى عنه جميع الشرور ﴿ النعيم ﴾ أي : جنات ليس فيها إلا النعيم الخالص لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا .

قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا ، فلا بدّ وأن يفضلنا عليكم في الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه:

﴿ أفنجعل المسلمين ﴾ أي : الذين هم عريقون في الانقياد لأوامرنا والصلة لما أمرنا بوصله طلباً لمرضاتنا ، فلا اختيار لهم معنا في نفس ولا غيرها لحسن جبلاتهم ﴿ كالمجرمين ﴾ أي : الراسخين في قطع ما أمرنا به أن يوصل وأنتم لا تقرون بمثل هذا ، ففي ذلك إنكار لقول

الكفرة ، فإنهم كانوا يقولون أيضاً : إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا ، بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا .

(281/778)

وقوله تعالى : ﴿ ما لكم ﴾ أي : أيّ شيء يحصل لكم من هذه الأحكام الجائرة البعيدة عن الصواب ﴿ كيف تحكمون ﴾ أي : أيّ عقل دعاكم إلى هذا الحكم الذي يتضمن التسوية من السيد بين المحسن من عبيده والمسيء مع التفاوت ، فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له وإشعار بأنه صادر عن اختلال فكر واعوجاج رأي .

﴿ أم ﴾ أي : بل الله ﴿ لكم كتاب ﴾ أي : سماوي معروف أنه من عند الله خاص بكم ﴿ فيه ﴾ أي : لا في غيره من أساطير الأولين ﴿ تدرسون ﴾ أي : تقرؤون قراءة أيقنتكم .

﴿ إن لكم ﴾ أي : خاصة على وجه التأكيد الذي لا رخصة في تركه ﴿ لما تخيرون ﴾ أي : ما تختارونه وتشتهونه ، وكسرت وكان حقها الفتح لولا اللام لأن ما بعدها هو المدروس ، ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية .

﴿ أم لكم أيمان ﴾ أي : عهود ومواثيق ﴿ علينا ﴾ قد حملتمونا إياها ﴿ بالغة ﴾ أي : واثقة لأيمان ، وقوله تعالى : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ متعلق بما تعلق به لكم من الاستقرار ، أي :

ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، أي : مبالغة ، أي : تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه . وقوله تعالى : ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ جواب القسم لأن معنى ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ أي : أقسمنا لكم .

ولما عجب منهم وتهكم بهم ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف فقال تعالى : ﴿ سلهم ﴾ يا أشرف الرسل ﴿ أيهم بذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل من المؤمنين ﴿ زعيم ﴾ أي : كفيل وضامن أو سيد أو رئيس أو متكلم بحق أو باطل التزم في ادعائه صحة ذلك .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ موافقون لهم في هذا القول يكفلونه لهم فإن كانوا كذلك ﴿ فليأتوا بشركائهم ﴾ أي : الكافلين لهم به ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ أي : عريقين في هذا الوصف كما يدعونه .

(282/778)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ منصوب بقوله تعالى : ﴿ فليأتوا ﴾ أي : فليأتوا بشركائهم يوم ﴿ يكشف ﴾ أي : يحصل الكشف فيه ، بني للمفعول لأن المخيف وقوع الكشف الذي هو كناية عن تفاقم الأمر وخروجه عن حدّ الطوق لا كونه من معين ، مع أنه من المعلوم أنه لا

فاعل هناك غيره سبحانه وتعالى ﴿عن ساق﴾ أي: يشتدّ فيه الأمر غاية الاشتداد، لأنّ من اشتدّ عليه الأمر وجد في فصله شمر عن ساقه لأجله وشمرت حرمه عن سوقهنّ غير محتشمات فهو كناية عن هذا، ولذلك نكره تهويلاً له وتعظيماً، نقل هذا التأويل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما، وعن انكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الأهوال وغيرها، كما كشفت هذه الآيات جميع الشبه، فتركت السامع لها في مثل ضوء النهار، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار: اذكر فيكون على هذا مفعولاً به وعلى الأول لا يوقف على صادقين.

تنبيه: علم مما تقرر أن كشف الساق كناية عن الشدة، قال الراجز:

*عجبت من نفسي ومن إشفاقها ** ومن طرادي الطير عن أرزاقها*

*في سنة قد كشفت عن ساقها ** حمراء تبرى اللحم عن عراقها*

وقال: الطائي:

*أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ** وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا*

وقال: آخر:

*قد شمرت عن ساقها فشدوا ** وجدّت الحرب بكم فجدّوا*

وقال أبو عبيدة : إذا اشتد الأمر أو الحرب قيل : كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه : أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة ، وقال القرطبي : وأما ما روي أن الله تعالى يكشف عن ساقه ، فإنه تعالى متعال عن الأعضاء والأبعاض وأن ينكشف ويتغطى ، ومعناه : أن يكشف عن العظيم من أمره . وقيل : يكشف عن نوره عز وجل ، وروى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ عن ساق ﴾ قال : "يكشف عن نور عظيم يخرون له سجداً" وروى أبو بردة عن أبي موسى قال : حدثني أبو موسى قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون : إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا ولم نره قال : أو تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم فيقال : فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون الله تعالى فيخرون له سجداً ، ويبقى أقوام ظهورهم كصياصي البقر فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ " .

﴿ ويدعون ﴾ أي : من داعي الملك الديان ﴿ إلى السجود ﴾ توبيخاً على تركه الآن وتنديماً وتعنيفاً لا تعبداً وتكليفاً ، فيريدونه ليفدوا أنفسهم مما يرون من المخاوف ﴿ فلا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنهم لا ﴿ يستطيعون ﴾ لأنهم غير سالمين لا أعضاء لهم تنقاد به مع شدة معالجتهم لأنفسهم فيقول الله تعالى أي : للساجدين : عبادي ارفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار ، قال أبو بردة : فحدثت هذا الحديث عبر بن عمر العزيز ، فقال لي : والله الذي لا إله إلا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث ، فحلف له ثلاثة أيمان فقال : ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إلي من هذا الحديث ، وأما غير الساجدين فعن ابن مسعود تعقم أصلابهم ، أي : ترد عظامها بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض ، وفي الحديث وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً ، أي : فقارة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة ﴾ حال من مرفوع يدعون وقوله تعالى : ﴿ أبصارهم ﴾ فاعل به ونسب الخشوع للأبصار ، لأنّ ما في القلب يعرف في العين وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ووجوههم أضوأ من الشمس ، ووجوه الكافرين والمنافقين سود مظلمة . ﴿ ترهقهم ﴾ أي : تغشاهم ﴿ ذلة ﴾ أي : عظمية لأنهم استعملوا الأعضاء التي أعطاهموها الله سبحانه ليتقرّبوا بها إليه في دار العمل في غير طاعته ﴿ وقد ﴾ أي :

والحال أنهم قد ﴿كانوا يدعون إلى السجود﴾ أي: في الدنيا من كل داع يدعو إلينا، وقال إبراهيم التيمي: أي يدعون بالأذان والإقامة فيأبون. وقوله تعالى: ﴿وهم سالمون﴾ أي: معافون أصحاء، حال من مرفوع يدعون الثانية. وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون، وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات.

(285/778)

ولما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف بما عنده وفي قدرته فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فذرني﴾ أي: اتركني على أيّ حالة اتفقت ﴿ومن يكذب﴾ أي: يوقع التكذيب لمن يتلو ما جددت إنزاله من كلامي القديم على أيّ حالة كان إيقاعه، وأفرد الضمير نصاً على تهديد كل واحد من المكذبين ﴿بهذا الحديث﴾ أي: القرآن، أي: خل بيني وبينهم لا تشغل قلبك به، فإني أكفيك أمره لأنه لا مانع منه فلا تهتم به أصلاً. ﴿سنستدرجهم﴾ أي: سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرّة إلى عذاب لا شك فيه ﴿من حيث﴾ أي: من جهات ﴿لا يعلمون﴾ أي: لا يتجدد لهم علم ما في وقت من الأوقات فعذبوا يوم بدر، وقال أبو روق: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة

وأنسيناهم الاستغفار . وقال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر ، وقال الحسن : كم مستدرج بالإحسان إليه ، وكم مفتون بالثناء عليه ، وكم مغرور بالستر عليه ، وقال ابن عباس : سنمكر بهم ، وروي أن رجلاً من بني إسرائيل قال : يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني فأوحى الله إلى نبي زمانهم أن قل له : كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر أن جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت ، والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرج ، ومنه قيل : درجات وهي منزلة بعد منزلة واستدرج فلان فلاناً ، أي : استخرج ما عنده قليلاً قليلاً ، ويقال : درجه إلى كذا واستدرجه معناه : أدناه منه على التدريج فتدرج . ومعنى الآية : إنا لما أنعمنا عليهم اعتقدوا أن ذلك الإنعام تفضيل لهم على المؤمنين وهو في الحقيقة والواقع سبب لهلاكهم . ﴿ وأملي لهم ﴾ أي : أمهلهم وأطيل المدة كقوله تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ (آل عمران :)

(286/778)

والملاوة المدة من الدهر وأملى الله له ، أي : أطال له ، والملوان الليل والنهار . وقيل : لا أعاجلهم بالموت . والمعنى واحد ، والملا مقصوراً الأرض الواسعة سميت بها لامتدادها

﴿ إن كيدي ﴾ أي : ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه وإبدائي ذلك له في ملابس الإحسان ﴿ متين ﴾ أي : قويّ شديد فلا يفوتني أحد ، وسمي إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد ، ووصفه بالمتانة لقوة أثر استحسانه في التسبب للهلاك .

﴿ أم تسألهم ﴾ أي : أنت يا أعف الخلق وأعلاهم هِمماً ﴿ أجراً ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ فهم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك وتعقب أنهم ﴿ من مغرم ﴾ أي : غرامة كلفتهم بها ﴿ مثقلون ﴾ أي : ثقل حمل الغرامات عليهم في بذل المال فثبطهم ذلك عن الإيمان .

والمعنى : ليس عليهم كلفة في متابعتك بل يستولون بالإيمان على خزائن الأرض ويصلون إلى جنات النعيم .

﴿ أم عندهم ﴾ أي : خاصة ﴿ الغيب ﴾ أي : علمه عن اللوح المحفوظ أو غيره ﴿ فهم ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ يكتبون ﴾ أي : ما يريدون منه ليكونوا قد أطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند الله ، أو أنهم لا درك عليهم في التكذيب به فقد علم من هذا أنهم لا شهوة لهم في ذلك عادية ولا شبهة ، وإنما كيدهم مجرد خبث طباع وظلمة نفوس وأماني فارغة وأطماع .

﴿ فاصبر ﴾ أي : أوقع الصبر وأوجده على كل ما يقولونه فيك وعلى غير ذلك من كل ما يقع منهم ومن غيرهم من ممر القضاء ﴿ لحكم ربك ﴾ أي : القضاء الذي قضاه وقدره المحسن إليك الذي أكرمك بما أكرمك به من الرسالة وألزمك بما ألزمك من البلاغ وخذلهم

بالتكذيب ومدّ لهم على ذلك في الأجل ، وأسبغ عليهم النعم وأخر ما وعدك به من النصر . وقال ابن بحر : فاصبر لنصر ربك ، وقيل : إن ذلك منسوخ بآية السيف . وقال قتادة : إن الله تعالى يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر ولا يعجل . ﴿ ولا تكن ﴾ أي : ولا يكن حالك يا أشرف الخلق في الضجر والعجلة ﴿ كصاحب ﴾ أي : كحال صاحب ﴿ الحوت ﴾ وهو يونس عليه السلام .

(287/778)

وقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ منصوب بمضاف محذوف ، أي : ولا يكن حالك كحاله أو قصتك حين ﴿ نادى ﴾ أي : ربه في الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة اللجج ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ، ويدل على المحذوف أن الذوات لا ينصبّ عليها النهي إنما ينصب على أحوالها وصفاتها ، وقوله تعالى : ﴿ وهو مكظوم ﴾ جملة حالية من الضمير من نادى والمكظوم الممتلئ حزناً أو غيظاً ، ومنه كظم السقاء إذا ملأه ، قال ذو الرمة:

*وأنت من حب ميّ مضمر حزناً ** غالي الفؤاد قريح القلب مكظوم*

وقال القرطبي : ومعنى وهو مكظوم ، أي : مملوء غماً . وقيل : كرباً فالأول قول ابن عباس

ومجاهد ، والثاني : قول عطاء وأبي مالك . قال الماوردي : والفرق بينهما أن الغم في القلب والكرب في الأنفاس . وقيل : مكظوم : محبوس ، والكظم : الحبس . ومنه قولهم : كظم غيظه ، أي : حبس غضبه . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبلى ببلائه .

ولما تشوف السامع إلى ما كان من أمره بعد هذا الأمر العجيب قال تعالى : ﴿ لولا أن تداركه ﴾ أي : أدركه إدراكاً عظيماً ﴿ نعمة ﴾ أي : عظيمة جداً .

تنبيه : حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في تداركه .

﴿ من ربه ﴾ أي : الذي أحسن إليه بإرساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة . وقال الضحاك : النعمة هنا النبوة ، وقال ابن جبير : عبادته التي سلفت ، وقال ابن زيد : نداؤه بقوله:

(288/778)

﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ، وقال ابن بحر : إخراجه من بطن الحوت . وقوله تعالى : ﴿ لنبذ ﴾ أي : لولا هذه الحالة السنية التي أنعم الله تعالى عليه بها لطرح طرحاً هيناً جداً ﴿ بالعراء ﴾ أي : الأرض القفراء الواسعة التي لا بناء فيها ولا

جبال ولا نبات ، البعيدة عن الأنس جواب لولا . وقيل : جوابها مقدر ، أي : لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوت ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ مذموم ﴾ أي : ملوم على الذنب . وقيل : مبعد من كل خير . وقال الرازي : وهو مذموم على كونه فاعلاً للذنب ، قال : والجواب من ثلاثة أوجه : الأول : إن كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل . الثاني : لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . الثالث : لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى : ﴿ فاجتباه ﴾ أي : اختاره لرسالته ﴿ ربه ﴾ والفاء للتعقيب ، قيل : إن هذه الآية نزلت بأحد حين حلّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل ، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا ، وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف .

ثم سبب عن اجتبائه قوله تعالى : ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي : الذين رسخوا في رتبة الصلاح فصلحوا في أنفسهم للنبوة والرسالة ، وصلح بهم غيرهم فنبذ حينئذ بالعراء وهو محمود . قال ابن عباس : ردّ الله تعالى إليه الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه وقبل توبته وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره ، فمن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجراً من أجره وأنت كذلك فأنت أشرف العالمين .

تنبيه : استدل أهل السنة على أن فعل العبد خلق لله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ لأن الصلاح إنما حصل بجعل الله تعالى وخلقه ، وقال الجبائي : يحتمل أن يكون

معنى جعل أنه أخبر بذلك ، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح إذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني ، والجواب : أن ذلك مجاز والأصل في الكلام الحقيقة .

(289/778)

﴿ وإن ﴾ هي المخففة ، أي : وإنه ﴿ يكاد الذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما قدروا عليه مما جئت به من الدلائل ، وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف .

ولما كانت إن مخففة أتى باللام التي هي عَلَمها فقال : ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ أي : ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد أن يصرعك من قامتك إلى الأرض كما يزلق الإنسان فينطرح لما يتراءى في عيونهم ، أو يهلكونك من قولهم : نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني ، أي : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعل قال القائل:

*يتقارضون إذا التقوا في موطن ** نظرا يزل مواطئ الأقدام*

وقيل : أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش ، وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حجمه ، وقيل : كانت العين في بني إسرائيل فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول : لم أر كاليوم مثله إلا عانه حتى أن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ، ثم يقول : يا جارية خذي المكتل والدرهم ، فائتينا من لحم هذه الناقة

فما تبرح الناقة حتى تقع للموت فتنحر . وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فلا تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم ، فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم أنشد :

*قد كان قومك يحسبونك سيدا **وأخال أنك سيد معيون*

(290/778)

فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية ، وذكر الماوردي أن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً بعين في نفسه أو ماله يجوع ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول : تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكبر منه ولا أحسن ، فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروى أبو نعيم أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر" . وعن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال : "نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين" . وقال الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ، وقرأ نافع

بفتح الياء والباقون بضمها وهما لغتان يقال : زلقه يزلقه زلقاً ، وأزلقه يزلقه إزلاقاً .

وقال ابن قتيبة : ليس يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك . ﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ أي : القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، وقال الزجاج : يعني من شدة عداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ﴿ ويقولون ﴾ أي : قولاً لا يزالون يجددونه حسداً وبغضاً على أنهم لم يزدهم تمادي الزمان إلا حنقاً ﴿ إنه لمجنون ﴾ أي : ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن .

(291/778)

فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ وما هو ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ قال ابن عباس : موعظة للمؤمنين ، قال الجلال المحلي : الإنس والجن ، وظاهره : إخراج الملائكة ، وهو ما جرى عليه في شرحه على جمع الجوامع ، وظاهر الآية : أنه أرسل لجميع الخلائق ، وهو كما قال بعض المتأخرين : الظاهر ، ويدل له قول البيضاوي لما جننوه لأجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأثبتهم رأياً ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي عليه الصلاة والسلام : "من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين

حسن الله أخلاقهم" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 44.

71 ﴾

(292/778)

وقال القاسمي:

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ن ﴾ بالسكون على الوقف: اسم للحرف المعروف، قصد به التحدي. أو اسم للسورة، منصوب بـ: اذكر، أو مرفوع خبراً لمحذوف ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ أي: الذي يخط به ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي: يكتبون. و ﴿ مَا ﴾ مصدرية أو موصولة.

وقوله ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ جواب القسم، قصد به تكذيب المشركين في إفكهم المحدث عنه بآية:

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: 6].

قال الزجاج: ﴿ أَنتَ ﴾ هو اسم ﴿ مَا ﴾، و ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ الخبر. وقوله:

﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ كلام وقع في البين. والمعنى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال:

أنت بحمد الله عاقل ، وأنت بحمد الله فهِم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه ؛ فالباء في ﴿ بِنِعْمَةِ ﴾ متعلقة بمعنى النفي المدلول عليه بـ ﴿ مَا ﴾ والباء في ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ زائدة .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً ﴾ أي : ثواباً على أذى المشركين واحتمال هذا الطعن والصبر عليه ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير منقوص ولا مقطوع .

قال ابن جرير : من قولهم : حبل مَنين ، إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أي : قوته . أو غير ممنون به علي ، زيادة في العناية به صلى الله عليه وسلم ، والتنويه بمقامه .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : أدب عظيم ، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه . قالت عائشة : <كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن> ، أي : كما هو في القرآن .

(293/778)

قال الرازي : وهذا كالتفسير لقوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به ، لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه . وإذا كانت ظاهرة

محسوسة فوجودها ينافي حصول الجنون ؛ فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ أي : أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أي : المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهاباً ، إلى أن المصدر يجيء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى في . أي : من كوشف بأسرار العلوم وأوتي جوامع الكلم ، أم من حجب عما في نفسه من آيات الله والعبر وفتن بعبادة الصنم ؟ . !

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : عن طريق الحق الذي أمر به ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : بمن اتبع الحق وسلك سبيله ، فسيجزي الفريقين .

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [8- 16]

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : بآيات الله وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشري : تهييج وإلهاب على معاصاتهم .

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وتترك ما أنت عليه من الحق ، فيما لئونك ، رواه ابن جرير عن مجاهد ، ثم قال : أي : لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك في عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء : 74 – 75] ، وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين في القول بتليين الدهن .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ أي : كثير الحلف . قال الزمخشري : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ [البقرة : 224] .

﴿ مَّهِينٌ ﴾ أي : حقير الرأي والتمييز .

﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي : عيّاب طعان . قال ابن جرير : والهمز أصله الغمز . فقيل للمغتاب : همازلأنه يطعن في أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم .

﴿ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ أي : نقّال لحديث الناس بعضهم في بعض ، للإفساد بينهم .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ أي : بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صادّ عن الإسلام .

﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي : على الناس متجاوز في ظلمهم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام .

﴿ عُتُلٍّ ﴾ أي : جاف غليظ دَعيّ ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ أي : دعيّ ملصق في النسب ليس منهم ، أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير : ومعنى ﴿ بَعْدَ ﴾ في هذا الموضع معنى مع .

وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص لا للأخير فقط وهي للدلالة على أن ما بعده أعظم في القباحة . فـ ﴿ بَعْدَ ﴾ هنا كثم الدالة على التفاوت الرتبيّ ، كما مر في قوله :

(295/778)

﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ قال الزمخشري : متعلق بقوله ﴿ وَلَا تُطِعْ ﴾ يعني : ولا تطعه مع هذا المثالب ، لأن كان ذا مال ، أي : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب بآياتنا ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ أي : تقرأ عليه آيات كتابتا ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .

وقوله ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ عدةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تناهي كبره وعجبه وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء ، يريدون أنه ألصق به من العار مالا

يفارقه . قال جرير :

~لما وضعتُ عَلى الفَرَزدَقِ ميسَمي وعلى البعيث جَدَعْتُ أنفَ الأَخْطَلِ

قال الزمخشري : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه, لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه الأَنفَة ، وقالوا : الأنف في الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعَبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوهها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : <أكرموا الوجوه> ، فوسمها في جواعرها . وقيل : لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة ، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق ، قال ابن جرير : وأصله من ثقيف ، وعداده في بني زهرة ؛ أي : لأنه التحق بهم حتى كان منهم في الجاهلية ؛ ولذا سمي زنيماً للصوقه بالقوم ، وليس منهم ، وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ * إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [17 -18]

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي : بلونا مشركي مكة ، فاختبرنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة في امتحانهم الآتي ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببلية ، وهي القحط والجوع ، بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهم قوم من أهل الكتاب ، على ما روي عن ابن عباس ، أو ناس من الحبشة في قول عكرمة ، أي : كتابيون ، فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به تعيين أهله ، لولا محبة المأثور ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي : ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لا يعلم مسكين بذلك ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ قال المهايميّ : أي : ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه ، وحكاه الرازيّ والقاضيّ قولاً ثانياً ، والأول أن معناه : ولا يقولون : إن شاء الله ، واقتصر عليه ابن جرير والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسي ، والجملة معطوفة على ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا

﴿ ومقسم عليها .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [19 - 20]

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي : فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

(297/778)

قال ابن جرير : ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده :

~أَطَفْتَ بها نَهَاراً غيرَ ليلٍ وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ

والرخال : أولاد الضأن للإناث .

فقوله :

﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي : مستغرقون في سُباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثاني .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي : كالبستان الذي صرم ثمره بحيث لم يبق فيه شيء ، أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد في ذلك ابن جرير لأبي عمرو بن العلاء :

~ألا بَكَرَتْ وَعَاذِلَتِي تَلُومُ تهجّدني وما انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

وقال أيضاً :

~تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحٍ صَرِيمُ

﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [21 - 27]

﴿ فَتَنَادَوا ﴾ أي : فنادى بعضهم بعضاً ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي : وقت الصبح ، ولم يشعروا بما جرى عليهم بالليل ﴿ أَنِ اغْدُوا ﴾ أي : أخرجوا غدوة ﴿ عَلَى حَرْثِكُمْ ﴾ أي : زرعكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أي : قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها

.

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أي : يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم .

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي : فقير ، فالجملة مفسرة . أو ﴿ أَن ﴾ مصدرية ، أي : بأن .

قال الزمخشري : والنهي عن الدخول للمسكين ، نهي لهم عن تمكينه منه . أي لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل ، كقولك : لا أَرَيَنَّك ها هنا .

﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ ﴾ أي : غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجدّ من أمرهم ، أو على منع وغضب .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أي : في زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي : فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقاً حرثها .

﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : أنكروها وشكوا فيها : هل هي جنتهم أم لا ؛ فقال بعضهم لأصحابه : ظناً منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التي رأوها غيرها : إنا أيها القوم ، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق : بل نحن أيها القوم ، محرومون ، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [28 – 32]

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي : أعدلهم وخيرهم رأياً ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي : تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيّرهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي : في ترك استثناء حق المساكين ومنع المعروف

عنهم من تلك الجنة . ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي : متجاوزين حدود الله تعالى في تفريطنا وعزمنا السيء ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا ﴾ أي : بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العودة إلى مثله .

(299/778)

﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي : في العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [33]

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي : في الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد في الأرض .

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي : أعظم منه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لارتدعوا وتابوا وأنابوا ، فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم في كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : قال ابن الفَرَس : استدل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من

الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها ، ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم . وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهي عنه في الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتني تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأُبدلوا خيراً منها ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [34 - 43]

(300/778)

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : في الكرامة والمثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي : بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان في قضيته .

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي : من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴾ [فاطر : 40] ، وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ، ويتمنون من الأماني الكاذبة ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي : تقضون من أمانيكم ومزاعمكم .

قال الزمخشري : يقال : لفلان عليّ يمين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به . يعني : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جواب القسم ، لأن معنى ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ﴾ أم أقسمنا لكم . فـ ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ – كما قال الشهاب – معناه المراد منه ، متناهية في التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، فحذف منه اختصاراً ، وشاع في هذا المعنى ﴿ سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ ﴾ أي : الحكم ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي : كفيل به ، يدعيه ويصححه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء ﴾ أي : ناس

يشاركونهم في هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أي : في دعواهم .

(301/778)

قال الزمخشري : يعني أن أحداً لا يسلّم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل . ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال ابن عباس : أي : عن أمر شديد مفظع من هول يوم القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ رواه ابن جرير .

﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل .

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم .

﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ أي : لا مانع يمنعهم منه . والمراد من السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

تنبيه :

ما أثرنا عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ هو المعنى الظاهر

المناسب للتهويل المطرد في توصيف ذلك اليوم في أمثال هذه الآية ، وعليه اقتصر الزمخشريّ ، وعبارته :

الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ في شدة الأمر وصعوبة الخطب .

وأصله في الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقِهن في الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم :

~أخو الحرب إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَّرَتْ عن ساقِهَا الحربُ شَمَّرَا

وقال ابن الرقيات :

~تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدِي عن خِدَامِ العقيلة العذراءِ

وجاءت منكرة للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة ، منكر خارج عن المألوف كقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : 6] ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(302/778)

وقال أبو سعيد الضرير : أي : يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذي به قوامه ، كساق الشجر وساق الْإِنْسَانْ ، أي : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته استعارة من ساق الشجر ، وفي " الكشف " تجوّز

آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في " الفِصَل " : ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم عن يوم القيامة < أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً > ، فهذا كما قال الله عز وجل في القرآن :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير :

~ألا ربِّ سامي الطرفِ من آل مازنٍ إذا شمَّرَتْ عن ساقها الحربُ شَمَّرَا

والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح ، وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصاً ، ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به ، وقد عاب الله هذا فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ [يونس : 39] انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانيّ إلى أن الآية وعيد دنيويّ للمشركين ، لا أخرويّ . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال في وصف هذا اليوم :

﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ ، ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل في دنياه ، كقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى ﴾ [الفرقان : 22] ، ثم إنه يرى الناس يدعون إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة ؛ لأنه الوقت الذي لا ينفع نفساً إيمانها ، وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة : 83] انتهى .

قال الرازيّ : واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم ، فأما قوله : إنه لا يمكن حمله على القيامة ، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ها هنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة ، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟ ثم تأثر تعالى تخويفهم بعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفي قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [44]

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي : كِله إليّ فإني أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية ، كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إليّ ، وتخلّي بيني وبينه ، فإني عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ،

وزيادة النعم ، من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم ، يقال : استدرجه إلى كذا ، أي : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [45]

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أي : أمهلهم وأُنسئُ في آجالهم ملاوةً من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم .

﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي : كيدي بأهل الكفر شديد قويّ .

(304/778)

قال الزمخشريّ : الصحة والرزق والمدّ في العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً في الكفر باختيارهم ، فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه كيداً ، كما سماه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [46 – 47

[

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي : على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق .

﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي : من عزة ذلك الأجر مثقلون ، أي : أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [48 - 50]

(305/778)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم ، أي : لا يثنينك عن تبليغ ما أمرت به أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعني : يونس عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَى ﴾ أي : دعا ربه في بطن الحوت ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي :

مملوء غيظاً وغمّاً . والمعنى : لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه . ﴿ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ قال الزمخشريّ : يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي : برحمته . قال القاشاني : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعداده ، وعدم رسوخ الهيئة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : لمقام النبوة والرسالة .

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ قال الزمخشريّ : يعني أنهم من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك ، أو يهلكونك ، من قولهم : نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني ، أي : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال :

~يتقارضون إذا التقوا في موطن نظراً يُزِلّ مواطئ الأقدام

وأنشد ابن عباس – وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه –

:

~نظروا إليّ بأعين محمرةٍ نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازر

وبيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ،

وهو قوله : ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ أي : القرآن ، معاداة لحكمته . ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : من الهذيان الذي يهذي به في جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه .

(306/778)

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي : عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنّن من جاء بمثله ؟ وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 202.214 ﴾

(307/778)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة القلم

الدرس الأول: 1 – 13 القسم بالقلم على حقيقة النبوة

(ن , والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك

لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله , وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم) . .

يقسم الله – سبحانه – بنون , وبالقلم , وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف "نون" . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم , والكتابة . . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها , وتوجيه إليها , في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق , وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة , في الوقت الذي كان دورها المقدر لها فيعلم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها , وانتشارها بينها , لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله تعالى:(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . . وأن يكون هذا الخطاب موجها للنبي الأمي – الذي قدر الله أن يكون أميا لحكمة معينة – ولكنه بدأ الوحي إليها منوها بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ,

والقلم وما يسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون .

(308/778)

يقسم الله – سبحانه – بنون والقلم وما يسطرون , منوها بقيمة الكتابة معظما لشأنها كما أسلفنا لينفي عن رسوله (صلى الله عليه وسلم) تلك الفرية التي رماه بها المشركون , مستبعدا لها , ونعمته على رسوله ترفضها .

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . .

فيثبت في هذه الآية القصيرة وينفي . . يثبت نعمة الله على نبيه , في تعبير يوحي بالقربى والمودة: حين يضيفه سبحانه إلى ذاته: (ربك) . وينفي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله , على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه . .

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قومه , من قولتهم هذه عنه , وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين , وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته , بعد عدائهم العنيف له , فقد ثبت أن عليا – كرم الله وجهه – تخلف عن رسول

الله أياما في مكة , ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده ; حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته ? قال أبو سفيان – وهو عدوه قبل إسلامه – لا , فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم , المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحقد يعمي ويصم , والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقائلها يعرف قبل كل أحد , أنه كذاب أثيم !

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . . هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم , ردا على ذلك الحقد الكافر , وهذا الافتراء الذميم .

(وإن لك لأجرا غير ممنون) . .

(309/778)

وإن لك لأجرا دائما موصولا , لا ينقطع ولا ينتهي , أجرا عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم . . وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن

كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه: (وإن لك لأجرا غير ممنون) ؟ في عطف وفي مودة وفي تكريم ؟

من الاية 4 الى الاية 7

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

الدرس الثاني: 4 عظمة خلق الرسول عليه السلام

ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم:

(وإنك لعلى خلق عظيم) . .

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ; ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود ! ويعجز كل قلم , ويعجز كل تصور , عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود , وهي شهادة من الله , في ميزان الله , لعبد الله , يقول له فيها : (وإنك لعلى خلق عظيم) . ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد (صلى الله عليه وسلم) تبرز من نواح شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال , يسجلها ضمير الكون , وتثبت في كيانه , وتتردد

في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

وتبرز من جانب آخر , من جانب إطاقة محمد (صلى الله عليه وسلم) لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا , قائل هذه الكلمة . ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة , التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

(310/778)

إن إطاقة محمد (صلى الله عليه وسلم) لتلقي هذه الكلمة , من هذا المصدر , وهو ثابت , لا ينسحق تحت ضغطها الهائل – ولو أنها ثناء – ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب . . تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن . . هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة , وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر . أعظم بصدورها عن العلي الكبير . وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير , وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا . لا يتكبر على العباد , ولا ينتفخ ,

ولا يتعاظم , وهو الذى سمع ما سمع من العلى الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد (صلى الله عليه وسلم) بعظمة نفسه هذه – من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفئًا لها , كما يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال , والعظمة والشمول , والصدق والحق , بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء . في تماسك وفي توازن , وفي طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى – بعد ذلك – عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته , بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويعلن هذه كما يعلن تلك , لا يكتم من هذه شيئًا ولا تلك . . وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم . والعبد الطائع . والمبلغ الأمين .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة . وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر . وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها . وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسي مشدودا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهذه الكلمة من ربه , وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان . . لقد كان – وهو بشر – يثني على أحد أصحابه , فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم . . وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر . إنه نبي نعم . ولكن في الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه . ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير . . . إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير ! ! !

إنه محمد – وحده – هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة . . إنه محمد – وحده – هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني . إنه محمد – وحده – هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ; حتى لتتمثل في شخصه حية , تمشي على الأرض في إهاب إنسان . . إنه محمد – وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته – وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن في الأخرى أنه – جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته , يصلي عليه هو وملائكته (إن الله وملائكته يصلون على النبي) . وهو – جل شأنه – وحده القادر على أن يهب عبدا من

عباده ذلك الفضل العظيم . .

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ; وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

(312/778)

والناظر في هذه العقيدة , كالناظر في سيرة رسولها , يجد العنصر الأخلاقي بارزا أصيلا فيها , تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء . . الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد , ومطابقة القول للفعل , ومطابقتهما معا للنية والضمير ; والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل , والاعتداء على الحرمات والأعراض , وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور . . والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك , وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع . وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . . فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه تترى في الحض على كل خلق كريم . وتقوم سيرته

الشخصية مثالا حيا وصفحة نقية , وصورة رفيعة , تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد :(وإنك لعلى خلق عظيم) . . فيمجد بهذا الثناء نبيه (صلى الله عليه وسلم) كما يمجد به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم , ويشد به الأرض إلى السماء , ويعلق به قلوب الراغبين إليه – سبحانه – وهو يدلهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم .

(313/778)

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام . فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة , ولا من اعتبارات أرضية إطلاقا ; وهي لا تستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل . إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق . وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة , كي يحققوا إنسانيتهم العليا , وكي يصبحوا أهلا لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض ; وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى:(في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . . ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود من أي اعتبارات قائمة في الأرض ; إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر , لأنها تتطلع إلى

تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد .

ثم إنها ليست فضائل مفردة: صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر . . . . إنما هي منهج متكامل , تتعاونفيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ; وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعا , وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله . لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقيه الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها في محمد (صلى الله عليه وسلم) وتمثلت في ثناء الله العظيم , وقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم) . .

الدرس الثالث: 5 – 7 تهديد الكفار بفضحهم

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين , الذين رموه بذلك البهت اللئيم ; ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين:

(فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . .

والمفتون الذي يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . أو هو الممتحن الذي يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب . . وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين معه , بقدر ما فيه من التهديد للمناوئين له المفترين عليه . . أيا كان مدلول الجنون الذي رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له , وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع – كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطانا هو الذي يمده ببديع القول ! – وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبي (صلى الله عليه وسلم) وغريب عن طبيعة ما يوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه . ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ; أو أيهم الضال فيما يدعيه . ويطمئنه إلى أن ربه (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . . وربه هو الذي أوحى إليه , فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه . وفي هذا ما يطمئنه وما يقلق أعداءه , وما يبعث في قلوبهم التوجس والقلق لما سيجيء !

الدرس الرابع: 8 – 9 عدم طاعة الكفار وعدم الإستجابة لمداهنتهم

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم , وحقيقة مشاعرهم , وهم يخاصمونه ويجادلونه في الحق الذي معه , ويرمونه بما يرمونه , وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية

, التي يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا يحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكي يدهن هو لهم ويلين . . فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق , وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها :

(فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون) . .

(315/778)

فهي المساومة إذن , والالتقاء في منتصف الطريق . كما يفعلون في التجارة . وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها ; لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يطيع فيها صاحبها أحدا , ولا يتخلى عن شيء منها أبدا .

وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق , ولا أن يلتقيا في أي طريق . وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم , وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة

من الاية 8 الى الاية 9

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

بينها وبين الإسلام لا تعبر , ولا تقام عليها قنطرة , ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق !

وقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي (صلى الله عليه وسلم) ليدهن لهم ويلين ; ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم , أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه , وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب ! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان حاسما في موقفه من دينه , لا يدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه: (فلا تطع المكذبين) !

ولم يساوم (صلى الله عليه وسلم) في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين , تأليفا لقلوبهم , أو دفعا لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال:

" فلما بادى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قومه بالإسلام . وصدع به كما أمره الله , لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه – فيما بلغني – حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه , وأجمعوا خلافه وعداوته – إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون – وحدب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمه أبو طالب ومنعه , وقام دونه , ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمر الله مظهرا لأمره , لا يرده عنه شيء . "

" فلما رأت قريش أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم , ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم , مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب . . عتبة وشيبة ابنا ربيعة , وأبو سفيان بن حرب بن أمية . وأبو البختري واسمه العاص بن هشام . والأسود بن عبد المطلب بن أسد . وأبو جهل "واسمه عمرو بن هشام وكان يكنى ابا الحكم" والوليد بن المغيرة , ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر . . أو من مشى منهم . . فقالوا : يا أبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آلهتنا , وعاب ديننا , وسفه أحلامنا , وضلل آباءنا , فإما أن تكفه عنا وإما أن

تخلي بيننا وبينه , فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ; فنكفيكه ! فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا , وردهم ردا جميلا , فانصرفوا عنه .

(317/778)

" " ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ما هو عليه: يظهر دين الله , ويدعو إليه . ثم شري الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا , وأكثرت قريش ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتذامروا فيه . وحض بعضهم بعضا عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى . فقالوا له: يا أبا طالب , إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ; وإنا والله لا نصبر على هذا: من شتم آبائنا , وتسفيه أحلامنا , وعيب آلهتنا , حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا له . . ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم , ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهم ولا خذلانه . قال ابن إسحق: وحدثني يعقوب بن عقبة بن المغيرة بن الأخنس , أنه حدث , أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له: يا بن أخي . إن قومك قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا "للذي كانوا قالوا له" فأبق علي وعلى

نفسك , ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . قال:فظن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قد بدا لعمه فيه بداء , وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

قال:فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " . .

قال:واستعبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبكى . ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال:أقبل يا بن أخي . قال:فأقبل عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال:اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت , فوالله لا أسلمك لشيء أبدا " .

فهذه صورة من إصرار النبي (صلى الله عليه وسلم) على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه . حاميه وكافيه , وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المتربصين به المتذامرين فيه !

(318/778)

هذه هي صورة قوية رائعة جديدة في نوعها من حيث حقيقتها , ومن حيث صورها وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها . . . جديدة جدة هذه العقيدة , رائعة روعة هذه العقيدة , قوية قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم:(وإنك لعلى خلق

عظيم) .

وصورة أخرى رواها كذلك ابن إسحق , كانت في مساومة مباشرة من المشركين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد إذ أعياهم أمره , ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه .

(319/778)

قال ابن إسحق: وحدثني يزيد بن زياد , عن محمد بن كعب القرظي , قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا , قال يوما وهو جالس في نادي قريش , ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش . ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة , ورأوا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يزيدون ويكثرون . فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا بن أخي . إنك منا حيث علمت: من السطة في العشيرة والمكان في النسب , وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم , فرقت به جماعتهم , وسفهت به أحلامهم , وعبت به آلهتهم ودينهم , وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها , لعلك تقبل منها

بعضها . قال:فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" قل يا أبا الوليد أسمع " . . قال:يا بن أخي . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا , وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه , فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ! - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستمع منه قال:" أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ " قال:نعم . قال:" فاستمع مني " . قال:أفعل . فقال: بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن من الاية 10 الى الاية 15

(320/778)

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)

الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا

يسمعون . وقالوا :قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه , وفي آذاننا وقر , ومن بيننا وبينك حجاب , فاعمل إننا عاملون . قل :إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . .) ثم مضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها , وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى السجدة منها فسجد . ثم قال . " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك " . . فقام عتبة إلى أصحابه , فقال بعضهم لبعض :نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا :ما وراءك يا أبا الوليد ? قال :ورائي أنني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط , والله ما هو بالشعر , ولا بالسحر , ولا بالكهانة , يا معشر قريش أطيعوني , واجعلوها بي , وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه , فاعتزلوه , فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب فملكه ملككم , وعزه عزكم , وكنتم أسعد الناس به . قالوا :سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال :هذا رأيي فيه , فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . . فقام مذعورا فوضع يده على فم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: أنشدك الله والرحم يا محمد ! وذلك مخافة أن يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ما قال !

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور المساومة . وهي كذلك صورة من صور الخلق العظيم . تبدو في أدبه (صلى الله عليه وسلم) وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذي لا يستحق الانتباه من مثل محمد (صلى الله عليه وسلم) في تصوره لقيم هذا الكون , وفي ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يمسك به لا يقاطع ولا يتعجل ولا يغضب ولا يضجر , حتى يفرغ الرجل من مقالته , وهو مقبل عليه . ثم يقول في هدوء: " أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ " زيادة في الإملاء والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع في الاستماع والحديث . . وهما معا بعض دلالة الخلق العظيم .

وصورة ثالثة للمساومة فيما رواه ابن اسحق قال:

" واعترض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يطوف بالكعبة – فيما بلغني – الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى والوليد بن المغيرة , وأمية بن خلف , والعاص بن وائل السهمي . وكانوا ذوي أسنان في قومهم . فقالوا: يا محمد , هلم فلنعبد ما تعبد , وتعبد ما نعبد , فنشترك نحن وأنت في الأمر . فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد

أخذنا بحظنا منه , وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ! فأنزل الله تعالى فيهم:(قل:يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون):السورة كلها . .

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة . وقال لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما أمره ربه أن يقول . . .

الدرس الخامس:10 - 16 صفات مرذولة للكفار ممثلة في أحدهم وتهديده

(322/778)

ثم يبرز قيمة العنصر الأخلاقي مرة أخرى في نهي الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات , ويصفه بصفاته المزرية المنفرة , ويتوعده بالإذلال والمهانة:

(ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال)(وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم) . .

وقد قيل:إنه الوليد بن المغيرة , وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر:(ذرني ومن خلقت وحيدا , وجعلت له مالا ممدودا , وبنين شهودا , ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع

أن أزيد . كلا ! ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر) . .

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنذار أصحابه, والوقوف في وجه الدعوة, والصد عن سبيل الله . . كما قيل: إن آيات سورة القلم نزلت في الأخنس بن شريق . . وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولجوا في حربه والتأليب عليه أمدا طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة, والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى, وفي سواها, شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس والأول أرجح, في حرب الرسول والدعوة, كما هي شاهد على سوء طويته, وفساد نفسه, وخلوها من الخير .

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميم . . .

فهو حلاف . . كثير الحلف . ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق, يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به, فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه, ويستجلب ثقة الناس .

وهو مهين . . لا يحترم نفسه , ولا يحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف , وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطانا طاغية جبارا . والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هماز . . يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ; فهو يخالف المروءة , ويخالف أدب النفس , ويخالف الأدب في معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا . وقد تكرر ذم هذا الخلق في القرآن في غير موضع ; فقال: (ويل لكل همزة لمزة) . . وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنابزوا بالألقاب) وكلها أنواع من الهمز في صورة من الصور . .

وهو مشاء بنميم . يمشي بين الناس بما يفسد قلوبهم , ويقطع صلاتهم , ويذهب بمودتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين , لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراما عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام , ناقل الكلام , المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه في قرارة نفوسهم ولا يودونه .

ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه . وكان يقول: " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " .

وثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال: مر رسول الله – صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم – بقبرين , فقال: " إنهما ليعذبان , وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان لا يستتر من البول , وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة " .

(324/778)

وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن حذيفة قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " لا يدخل الجنة قتات " أي نمام [ورواه الجماعة إلا ابن ماجه] .

وروى الإمام أحمد كذلك – بإسناده – عن يزيد بن السكن . أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " ألا أخبركم بخياركم ؟ " قالوا: بلى يا رسول الله . قال: " الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل " ثم قال: " ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة , الباغون للبرآء العيب " .

ولم يكن بد للإسلام أن يشدد في النهي عن هذا الخلق الذميم الوضيع , الذي يفسد القلب ,

كما يفسد الصحب , ويتدنى بالقائل قبل أن يفسد بين الجماعة , ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع , ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض , ويجني على الأبرياء في معظم الأحايين !

وهو مناع للخير . . يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته , كلما آنس منهم ميلا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) :لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا . فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة (مناع للخير) فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد . . متجاوز للحق والعدل إطلاقا . ثم هو معتد على النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين . . والاعتداء صفة ذميمة تنال من عناية القرآن والحديث اهتماما كبيرا . . وينهى عنها الإسلام في كل صورة من صورها , حتى في الطعام والشراب: "كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه" . . لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل .

وهو أثيم . . يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت . (أثيم) . . بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها . فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة , وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم !

وهو بعد هذا كله(عتل) . . وهي لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات , لا تبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال:إن العتل هو الغليظ الجافي . وإنه الأكول الشروب . وإنه الشره المنوع . وإنه الفظ في طبعه , اللئيم في نفسه , السيء في معاملته . . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه:" العتل كل رغيب الجوف , وثيق الخلق , أكول شروب , جموع للمال , منوع له " . . ولكن تبقى كلمة(عتل) بذاتها أدل على كل هذا , وأبلغ تصويرا للشخصية الكريهة من جميع الوجوه .

وهو زنيم . . وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام – وما يعادي الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم – والزنيم من معانيه اللصيق في القوم لا نسب له فيهم , أو أن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه , الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا في القوم , وهو المختال الفخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتيه بموقفه من آيات الله , مع التشنيع بهذا الموقف الذي يجزي به نعمة الله عليه بالمال والبنين:

(أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين) . .

وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ; استهزاء بآياته , وسخرية من رسوله

, واعتداء على دينه . . وهذه وحدها تعدل كل ما مر من وصف ذميم .

من الاية 16 الى الاية 16

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار , يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ; كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه . . ويسمع وعد الله القاطع:

(سنسمه على الخرطوم) . .

(326/778)

ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البري . . ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف في لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال: أنف أشم للعزيز . وأنف في الرغام للذليل . أي في التراب ! ويقال ورم أنفه وحمي أنفه , إذا غضب معتزا . ومنه الأنفة . . والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير . . الأولى الوسم كما يوسم العبد . والثاني جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير !

وما من شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصما . فهو من أمة كانت تعد

هجاء شاعر – ولو بالباطل – مذمة يتوقاها الكريم ! فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذي لا يبارى . في هذا السجل الذي تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنبات الوجود . ثم يستقر في كيان الوجود . . في خلود . .

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم .

.

الدرس السادس: 17 قصة أصحاب الجنة

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين , والبطر الذي يبطره المكذبون , يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم , شائعة بينهم , ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة , ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ; ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين , إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلي أصحاب هذه القصة , وأن له ما بعده , وأنهم غير متروكين لما هم فيه:

إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين , ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون , فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين: أن اغدوا

على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون: ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا: إنا لضالون, بل نحن محرومون . قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون ! قالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون, قالوا: يا ويلنا إنا كنا طاغين, عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون . . كذلك العذاب, ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . .

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة, ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته, ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة, الذين كانوا يعاندون ويجحدون, ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد, إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة !

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني في القرآن; وفيه مفاجآت مشوقة كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارئ - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى . فلنحاول

أن نراها كما هي في سياقها القرآني:

من الاية 17 الى الاية 27

(328/778)

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27)

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة – جنة الدنيا لا جنة الآخرة – وها هم أولاء يبيتون في شأنها أمرا . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة – كما تقول الروايات – على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن , وأن يحرموا المساكين حظهم . . فلننظر كيف تجري الأحداث إذن !

(إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين , ولا يستثنون) .

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر , دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين

. وأقسموا على هذا , وعقدوا النية عليه , وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه . . فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي يبيتوه , ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون . فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون , وهو يدبر لهم غير ما يدبرون , جزاء على ما بيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير , وبخل بنصيب المساكين المعلوم . . إن هناك مفاجأة تتم في خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام . والناس نيام:

(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) . .

فلندع الجنة وما ألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون .

ها هم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا , وينادي بعضهم بعضا لينفذوا ما اعتزموا:

(فتنادوا مصبحين: أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) . . يذكر بعضهم بعضا ويوصي بعضهم بعضا ويحمس بعضم بعضا !

ثم يمضي السياق في السخرية منهم , فيصورهم منطلقين , يتحدثون في خفوت , زيادة في إحكام التدبير , ليحتجنوا الثمر كله لهم , ويحرموا منه المساكين !

فانطلقوا وهم يتخافتون: ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ! ! !

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها . . أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام , فتذهب بثمرها كله . ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن , لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين:

(وغدوا على حرد قادرين) !

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان . . حرمان أنفسهم على أقل تقدير ! !

وها هم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفجوئين:

(فلما رأوها قالوا: إنا لضالون) . .

ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضللنا إليها الطريق ! . . ولكنهم يعودون فيتأكدون:

(بل نحن محرومون) . .

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت , وعاقبة البطر والمنع , يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم –

من الاية 28 الى الاية 34

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

(330/778)

ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه , ولم يصر على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه:

(قال أوسطهم: ألم أقل لكم: لولا تسبحون) ؟ !

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان:

(قالوا: سبحان ربنا , إنا كنا ظالمين) . .

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة , ويتوجه باللوم إلى الآخرين . . ها هم أولاء يصنعون:

(فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) !

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم , ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير:

(قالوا: يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون) . .

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب:

(كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . .

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا:

(ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) !

الدرس السابع: 34 فوز المتقين بالجنة

وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة , ومما هو متداول بينهم من القصص , فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين ; ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين – من كبراء قريش – من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله , له عواقبه , وله نتائجه . وسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم , فذلك كان مثلا لعاقبتهم: (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم:

(إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) . .

وهو التقابل في العاقبة , كما أنه التقابل في المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق , فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

الدرس الثامن: 35 – 47 أسئلة اقناعية للكفار وتهديدهم بمشاهد العذاب يوم القيامة

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم في جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد يصعب المغالطة فيه ; ويهددهم في الآخرة بمشهد رهيب , وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوي الشديد :

أفنجعل المسلمين كالمجرمين ? مالكم ? كيف تحكمون ? أم لكم كتاب فيه تدرسون ? إن لكم فيه لما تخيرون ? أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ? سلهم أيهم بذلك زعيم ? أم لهم شركاء ?

من الاية 35 الى الاية 42

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)

فليأت بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين . أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ؟ !

(332/778)

والتهديد بعذاب الآخرة وحرب الدنيا يجيء - كما نرى - في خلال ذلك الجدل , وهذا التحدي . فيرفع من حرارة الجدل , ويزيد من ضغط التحدي .

والسؤال الاستنكاري الأول: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟) يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التي عرضها في الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد . . لا . لا يكون . فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم , لا يكونون أبدا كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسمهم بهذا الوصف الذميم ! وما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير .

ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر: مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ . . ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم

من يسلمون ومن يجرمون ؟ !

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم: (أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟) . . فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه , هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل ; وهو الذي يقول لهم: إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم , فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل , ولا إلى معقول أو معروف !

(أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟) . . فإن لا يكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم مواثيق على الله , سارية إلى يوم القيامة , مقتضاها أن لهم ما يحكمون , وما يختارون وفق ما يشتهون ! وليس من هذا شيء . فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟ ! وإلام إذن يستندون ؟ !

(سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) . . سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون , وأن لهم ميثاقا عليه ساري المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون ؟ !

وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدي السافر المكشوف !

(أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) . .

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين . . ولكن متى يدعونهم ؟

(يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) . .

فيقفهم وجها لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة , وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين . وهذا اليوم حقيقة حاضرة في علم الله لا تتقيد في علمه بزمن . واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقا حيا حاضرا في النفوس على طريقة القرآن الكريم .

والكشف عن الساق كناية – في تعبيرات اللغة العربية المأثورة – عن الشدة والكرب . فهو يوم القيامة الذي

من الاية 43 الى الاية 43

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43)

يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق , ويشتد الكرب والضيق . . ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود , إما لأن وقته قد فات , وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون: (مهطعين مقنعي رؤوسهم) وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف . .

ثم يكمل رسم هيئتهم: (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) . . هؤلاء المتكبرون المتبجحون . والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . وهي تذكر بالتهديد الذي جاء في أول السورة: (سنسمه على الخرطوم) . . فإيحاء الذلة والانكسار ظاهر عميق مقصود !

(334/778)

وبينما هم في هذا الموقف المرهق الذليل , يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار: (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) . . قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون . . كانوا . فهم الآن في ذلك المشهد المرهق الذليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !

وبينما هم في هذا الكرب , يجيئهم التهديد الرعيب الذي يهد القلوب:

(فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) . .

وهو تهديد مزلزل . . والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول (صلى الله عليه وسلم) :خلي بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل !

ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهباءة المنثورة . . بل هذا العدم الذي لا يعني شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم !

فيا محمد . خل بيني وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب معي لا معك ولا مع المؤمنين . الحرب معي . وهذا المخلوق عدوي , وأنا سأتولى أمره فدعه لي , وذرني معه , واذهب أنت ومن معك فاستريحوا !

أي هول مزلزل للمكذبين ! وأي طمأنينة للنبي والمؤمنين . . المستضعفين . . ؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف !

(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين) . .

وإن شأن المكذبين , وأهل الأرض أجمعين , لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير . . ولكنه – سبحانه – يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارون . وأن إمهالهم على

الظلم والبغي والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة , ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب , مستحقين للخزي والرهق والتعذيب . .

(335/778)

وليس أكبر من التحذير , وكشف الاستدراج والتدبير , عدلا ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم , فقد كشف القناع ووضحت الأمور !

إنه سبحانه يمهل ولا يهمل . ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته

من الاية 44 الى الاية 49

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (46) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

التي قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ذرني ومن يكذب بهذا الحديث , وخل بيني وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملي لهم , واجعل هذه النعمة فخهم ! فيطمئن رسوله , ويحذر أعداءه . . ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب !

وفي ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدي والتعجيب من موقفهم الغريب:

(أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟) . .

فثقل الغرامة التي تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذي يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب , ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع , على فداحة ما يؤدون ؟ !

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) . .

ومن ثم فهم على ثقة مما في الغيب , فلا يخيفهم ما ينتظرهم فيه , فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه . فكتبوه ضامنا لما يشتهون ؟

ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

الدرس التاسع: 48 – 50 توصية بالصبر ولقطة من قصة يونس

وبذلك التعبير العجيب الموحي الرعيب: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) . .

وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين . .

بهذا وذلك يخلي الله النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهي معركته – سبحانه – وهي حربه التي يتولاها بذاته .

والأمر كذلك في حقيقته , مهما بدا أن للنبي (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين دورا في هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله في حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو في الحالين فعال لما يريد . وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

وهذا النص نزل والنبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة , والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين , والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون في بدر: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم , وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى , وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا , إن الله سميع عليم) . .

وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه . وأن الحرب

حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها . . وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده !

(337/778)

وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع , وفي كل حال , وفي كل وضع . كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة الله وقدره , ولسنته ومشيئته , ولحقيقة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر الله . . أداة . . ولن تزيد على أن تكون أداة . .

وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن , في حالتي قوته وضعفه على السواء . ما دام يخلص قلبه لله , ويتوكل في جهاده على الله . فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر , إنما هو الله الذي يكفل له النصر . وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهي التي تتولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يملي ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته , ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو , سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة . فليس المؤمن هو الذي ينازله , إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذي يقول لنبيه (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) وخل بيني وبين هذا البائس المتعوس ! والله يملي ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف , ولو كان في أوج قوته وعدته . فهذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة . . (وأملي لهم إن كيدي متين) ! أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ? وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ?

الدرس التاسع: 48-50 توجيه للصبر ولقطة من قصة يونس

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف , فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم:

(فاصبر لحكم ربك , ولا تكن كصاحب الحوت . إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) . .

وصاحب الحوت هو يونس – عليه السلام – كما جاء في سورة الصافات . وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمدا (صلى الله عليه وسلم) لتكون له زادا ورصيدا , وهو خاتم النبيين , الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة , ليكون هو صاحب الحصاد الأخير , وصاحب الرصيد الأخير , وصاحب الزاد الأخير . فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتي بجديد . .

ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى – سلام الله عليه – أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل . فاستبطأ إيمانهم , وشق عليه تلكؤهم , فتركهم مغاضبا قائلا في نفسه: إن الله لن يضيق علي بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين , وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر , حيث ركب سفينته , فلما كانوا في وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه في اليم . فابتلعه

الحوت .

عندئذ نادى يونس – وهو كظيم – في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت , في وسط اللجة , نادى ربه: (لا إله إلا أنت سبحانك ! إني كنت من الظالمين) فتداركته نعمة من ربه , فنبذه الحوت على الشاطئ . . لحما بلا جلدا . . ذاب جلده في بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود !

من الاية 50 الى آخر السورة

(339/778)

اَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا وا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (52)

وهنا يقول: إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أي مذموم من ربه . . على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا , وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء . (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) . .

هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمدا (صلى الله عليه

وسلم) في موقف العنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة , وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقتما يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد , وفي مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله , حتى يأتي موعده , في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الالتواء والعناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون . ثم مشقات امساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق , لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق , مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق . . أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها , وقدر أنه هو الذي يتولاها , كما قدر أنه يملي ويستدرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم , فصدقه الوعد بعد حين .

الدرس العاشر : 51 - 52 صورة عن ضخامة حقد الكفار على الرسول ونظراتهم المسمومة له

وفي الختام يرسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم , في غيظ عنيف , وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه , ويصفها القرآن بما لا يزيد عليه:

(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون:إنه لمجنون) .

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن , وحمى وسم . . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح , والشتم البذيء , والافتراء الذميم: (ويقولون:إنه لمجنون) . .

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة . فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين , الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول:

(وما هو إلا ذكر للعالمين) .

والذكر لا يقوله مجنون , ولا يحمله مجنون . .

وصدق الله وكذب المفترون . .

ولا بد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة(للعالمين) . . هنا والدعوة في مكة تقابل بذلك

الجحود , ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة , ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون . . وهي في هذا الوقت المبكر , وفي هذا الضيق المستحكم , تعلن عن عالميتها . كما هي طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى . لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

(341/778)

كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذي أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيها . وهو المدافع عنها وحاميها . وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3654 . 3672 ﴾

(342/778)

وقال الشيخ الشنقيطى :

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)

قوله تعالى : ﴿ ن ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور عند الكلام على أول سورة هود : وذكر الأقوال كلها ، وهي خمسة أقوال .

فقيل : إنها مما استأثر الله بعلمه أو أنها من أسماء الله ، أو مركبة من عدة حروف كل حرف من اسم ، أو أسماء للسور ، أو أنها للأعجاز ، وبين رحمه الله وجه كل قول منها ، ورجح الأخير ، وأنها للإعجاز بدليل أنه يأتي بعدها دائماً الانتصار للقرآن ، وقد بسط البحث بما يكفي ويشفي .

وقال ابن كثير بأقوال أخرى ، منها أن ﴿ ن ﴾ [القلم : 1] بمعنى الدواة أي بمناسبة ذكر القلم ، وعزاه إلى الحسن وقتادة ، وقال إن فيه حديثاً مرفوعاً ، ولكن غريب جداً ، وهو عن ابن عباس : إن الله خلق النون وهي الدواة ، وخلق القلم ، فقال : أكتب الحديث .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خلق الله النون وهي الدواة "

وذكر ابن جرير كل هذه الأوجه وزاد أوجهاً أخرى : منها انها افتتاحيات لأوائل السور تسترعي انتباه المستمعين ، ثم يتلى عيهم ما بعدها . وقيل : هي من حساب الجمل وغير

ذلك .

وقد ذكر ابن جرير عند أول سورة الشورى : ﴿ حم عسق ﴾ [الشورى : 1 - 2] أثراً نقله عنه ابن كثير واستغربه واستنكره ، ولكن وقع ما يقرب من مصداقه ومطابقته مطابقة تامة .

ونصه من ابن جرير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرني عن تفسير قول الله : ﴿ حم عسق ﴾ ، قال فأطرق ثم أعرض عنه ، ثم كرر مقالته فأعرض فلم يجبه بشيء ، وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يجبه شيئاً .

(343/778)

فقال له حذيفة : أنا أنبئك بها ، وقد عرفت بم كرهها ، نزلت في رجل من أهل بيته يقال له : عبد الإله أو عبد الله ينزل على نهر من أنهار الشمرق تنبني عليه مدينتان فشق النهر بينهما شقاً ، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدنهم ، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم يتكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة كيف أفلتت ، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعاً ، فذلك قوله : ﴿ حماعاساقا ﴾ يعني عزيمة من الله وفتنة

وقضاء .

﴿ حماعاساقا ﴾ يعني عدلاً منه (سين) يعني سيكون ﴿ ق ﴾ يعني واقع بهاتين المدينتين اه .

ومع استغراب ابن كثير إياه واستنكاره له ، فقد وقع مثل ما يشير إليه الحديث على ثورة العراق على عبد الإله في بغداد ، حيث يشقها النهر شقين ، وأنه من آل البيت ، وقد وقع بها ما جاء وصفه في الأثر المذكور .

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الرد على مقالتهم تلك عند قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون : 70] الآية من سورة المؤمنون .

وساق النصوص ، وقال : إن في الآية ما يرد عليهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون : 70] اه .

وهكذا هنا في الآية ما يدل على بطلان دعواهم ، ويرد عليهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي على ما جئت به من الحق وقمت به من البلاغ عن الله والصبر عليه ، كما رد عليهم بقوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 22] .

وكذلك قوله تعالى في حق رسوله الكريم الأعظم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لأن المجنون سفيه لا يعني ما يقول ولا يحسن أي تصرف . والخلق العظيم أرقى منازل الكمال في عظماء الرجال .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ، المن : القطع . أي إن أجره صلى الله عليه وسلم عند الله غير منقطع .

قال الشاعر :

لمقفر قهر تنازع شلوه . . . عبس كواسب لا يمن طعامها

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي يا أيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 56] .

وصلوات الله تعالى عليه وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً وهي من الله تعالى رحمة ، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء .

وفي سورتي : الضحى وألم نشرحن بكاملها ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 3 – 5] .

وقوله ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 4] .

ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به ، فما من مسلم تكتب له حسنة

في صحيفته إلى وللرسول صلى الله عليه وسلم مثلها .

وقد قال صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " ، ومنها : " أو علم ينتفع به " وأي علم أعم نفع مما جاء به صلى الله عليه وسلم وتركه في الأمة حتى قال : " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي " إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره .

أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ تقدم أن هذه بمثابة الرد على ادعاء المشركين أولاً عليه صلى الله عليه وسلم ورميه بالجنون . لأن أخلاق المجانين مذمومة بل لا أخلاق لهم ، وهنا أقصى مراتب العلو في الخلق .

(345/778)

وقد أكد هذا السياق بعوامل المؤكدات باندراجه في جواب القسم الأول في أول السورة ، وبإن اللام في لعلى ، وجاء بعلى الدالة على الاستعلاء والتمكن بدل من ذو مثلاً (ذو خلق عظيم) لبيان قوة التمكن والاستعلاء ، وأنه صلى الله عليه وسلم فوق كل خلق عظيم متمكّن منه مستعل عليه .

وقد أجمل الخلق العظيم هنا وهو من أعم ما امتدح الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه ، وقد أرشدت عائشة رضي الله عنها إلى ما يبين هذا الإجمال حينما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم الذي امتدح به فقالت "كان خلقه القرآن" ، تعني والله تعالى أعلم : أنه صلى الله عليه وسلم يأتمر بأمره وينتهي بنواهيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وكما قال صلى الله عليه وسلم " لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " ، فكان هو صلى الله عليه وسلم ممتثلاً لتعاليم القرآن في سيرته كلها ، وقد أمرنا بالتأسي به صلوات الله وسلامه عليه ، فكان من أهم ما يجب على الأمة معرفة تفصيل هذا الإجمال ليتم التأسي المطلوب .

وقد أخذت قضية الأخلاق عامة ، وأخلاقه صلى الله عليه وسلم خاصة . محل الصدارة من مباحث الباحثين وتقرير المرشدين ، فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم ، وعامل الحفاظ على بقائها ، كما قيل :

إنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ . . . فإنْ هم ذهبتْ أخلاقهم ذَهبوا

وقد أجمل صلى الله عليه وسلم البعثة كلها في مكارم الأخلاق في قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "

وقد عنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله تعالى عليهم بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية ، فسألوا عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقالت : "كان خلقه القرآن " وعني بها العلماء بالتأليف ، كالشمائل للترمذي .

(346/778)

أما أقوال المفسرين في الخلق العظيم المعنى هنا فهي على قولين لا تعارض بينهما .

منها : أنه الدين ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم .

والآخر قول عائشة : "كان خلقه القرآن " والقرآن والدين مرتبطان . ولكن لم يزل الإجمال موجوداً . وإذا رجعنا إلى بعض الآيات في القرآن نجد بعض البيان لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من عظيم الخلق مثل قوله تعالى : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

وقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فاعف عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران : 159] .

وقوله : ﴿ ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

ومثل ذلك من الآيات التي فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم الأخلاق ، وإذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم .

والمتأمل للقرآن في هديه يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه حتى العبادات .

ففي الصلاة خشوع وخضوع وسكينة ووقار ، فأتوها وعليكم السكينة والوقار .

وفي الزكاة مروءة وكرم ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة : 264] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [الإنسان : 9] .

وفي الصيام " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه "

وقوله صلى الله عليه وسلم " الصيام جنة "

وفي الحج : ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة : 197] .

وفي الاجتماعيات : خوطب صلى الله عليه وسلم بأعلى درجات الأخلاق ، حتى ولو لم يكن داخلاً تحت الخطاب لأنه ليس خارجاً عن نطاق الطلب ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 24] ، ثم يأتي بعدها ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء : 23 – 24] ، مع أن والديه لم يكن أحدهما موجوداً عند نزولها ، إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن .

وقد عني صلى الله عليه وسلم بالأخلاق حتى كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان ، كما أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله : " اتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن "

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستح فاصنع ما تشاء " أي إن الحياء وهو نم أخص الأخلاق سياج من الرذائل ، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل ، ويمنع من الرذائل ، كما قيل في ذلك :

إن الكريم إذا تمكن من أذى . . . جاءته أخلاق الكرام فأقلعا

وترى اللَّئيم إذا تمكن من أذى . . . يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في قوله تعالى : ﴿ الذين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ والضرآء

والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

تنبيه

إن من أهم قضايا الأخلاق بيانه صلى الله عليه وسلم لها بقوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "

مع أن بعثته بالتوحيد والعبادات والمعاملات وغير ذلك مما يجعل الأخلاق هي البعثة .

(348/778)

وبيان ذلك في قضية منطقية قطعية حملية ، مقدمتها حديث صحيح ، وهو " الدين حسن الخلق " ، والكبرى آية كريمة . قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاة وَآتَى الزكاة والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُوآ وأولئك هُمُ المتقون ﴾ [البقرة : 177] .

ولمساواة طرفي الصغرى في الماصدق ، وهو الدين حسن الخلق ، يكون التركيب المنطقي بالقياس الاقتراني حسن الخلق هو البر ، والبر هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، إلى آخر ما جاء

في الآية الكريمة ، ينتج حسن الخلق هو الإيمان بالله واليوم الآخر وما عطف عليه .

وقد اشتملت هذه الآية الكرمية على الدين كله بأقسامه الثلاثة :

الإسلام من صلاة وزكاة . إلخ .

والإيمان بالله وملائكته . إلخ .

ومن إحسان في وفاء وصدق وصبر وتقوى الله تعالى ، إذ هي مراقبة الله سرّاً وعلناً ،

وقد ظهرت نتيجة عظم هذه الأخلاق في الرحمة العامة الشاملة في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] .

وكذلك للأمة يوم القيامة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " أقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً "

وهي قضية منطقية أخرى " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] .

فمكارم الأخلاق رحمة للعالمين في الدّنيا ، ومنزلة عليا للمؤمنين في الآخرة .

تنبيه آخر

اتفق علماء الاجتماع أن أسس الأخلاق أربعة :

هي : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة ، ويقابلها رذائل أربعة :

هي الجهل ، والشره ، والجبن ، والجور ، ويتفرع عن كل فضيلة فروعها :

الحكمة : الذكاء وسهولة الفهم ، وسعة العلم ، وعن العفة ، القناعة والورع والحياء والسخاء والدعة والصبر والحرِّيَة ، وعن الشجاعة النجدة وعظم الهمة ، وعن السماحة الكرم والإيثار والمواساة والمسامحة .

أما العدالة وهي أم الفضائل الأخلاقية ، فيتفرع عنها الصداقة والألفة وصلة الرحم وترك الحقد ومكافأة الشر بالخير واستعمال اللطف . فهذه أصول الأخلاق وفروعها فلم تبق خصلة منها إلا وهي مكتملة فيه صلى الله عليه وسلم .

وقد برأه الله من كل رذيلة ، فتحقق أنه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم فعلاً وعقلاً .

وقال الفخر الرازي : لقد كان صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم . والخلق ما تخلق به الإنسان ، لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] ، ولا بد لكل نبي من خصلة فاضلة . فاجتمع له صلى الله عليه وسلم جميع خصال الفضل عند جميع الأنبياء . وهذا وإن كان له وجه إلا أ واقع سيرته صلى الله عليه وسلم أعم من ذلك .

فقد كان قبل البعثة والوحي ملقباً عند القرشيين بالأمين ، كما في قصة وضع الحجر في

الكعبة إذ قالوا عنه الأمين ارتضيناه .

وجاء عن زيد بن حارثة لما أخذ أسيراً وأهدته خديجة رضي الله عنها لخدمته صلى الله عليه وسلم .

وجاء أهله بالفداء يفادونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : " ادعوه وأخبروه فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء " ، فقال زيد : والله لا أختار على صحبتك أحداً أبداً ، فقال له أهله : ويحك أتختار الرق على الحرية ؟ فقال : نعم ، والله لقد صحبته فلم يقل لي لشيء فعلته لم فعلته قط . ولا لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعله قط " ورجع قومه وبقي هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده وأعلن تنبيه على ما كان معهوداً قبل البعثة .

(350/778)

إننا لو قلنا : إن اختيار الله إياه قبل وجوده وتعهد الله إياه بعد وجوده من شق الصدر في طفولته ومن موت أبويه ورعاية الله له .

كما في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] إلى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا

السآئل فَلاَ تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : 6 - 11] .

إنها نعمة الله تعال عليه وعلى أمته معه صلوات الله وسلامه عليه ، ورزقنا التأسي به .

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

إذا كان في مجيء الآية قبل هذه ﴿ وَإِنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] رد على دعواهم الكاذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون .

ففي هذه الآية تنزيهه صلى الله عليه وسلم مما اشتملت عليه من رذائل ونقائص وافتضاح لهم . وبيان الفرق والبون الشاسع بينه وبينهم . ففي الوقت الذي وصفة بأنه على خلق عظيم وصفهم بعكس ذلك من كذب ومداهنة وكثرة حلف ومهانة وهمزة ومشي بنميمة ومنع للخير وعتل وتجبر واعتداء ، وظلم ، وانقطاع زنيم ، عشر خصال ذميمة ، ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغاراً لهم .

(351/778)

وقد جاءت آيات القرآن تبين مساوئ تلك الصفات وتحذر منها ، ولا يسعنا إيرادها كلها وتكفي الإشارة إلى بعضها تنبيهاً على جميعها في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون يا أيها الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ واتقوا الله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : 11 - 12] .

قوله تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

ذكر القرطبي لمعاني المداهنة فوق عشرة أقوال أرجحها الملاينة ، وقد ذكر هنا ودادتهم وتمنيهم المداهنة ، ولم يذكر لنا هل داهنهم صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ وهل يريدون بذلك مصلحة أم لا ؟

وقد جاء بيان ذلك مفصلاً بأنهم أرادوا التدرج من المداهنة وملاينته صلى الله عليه وسلم معهم إلى ما بعدها من تعطيل الدعوة .

وقد رجح ابن جرير ذلك بقوله : ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 74] اه .

ويشهد لما قاله ابن جرير هذا ما جاء في سبب نزول سورة الكافرون .

فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 1 – 3] السورة .

(352/778)

ومما هو صريح في قصدهم بالمداهنة والدافع عليها والجواب عليهم قد جاء موضحاً في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ [البقرة : 109] ، ثم قال تعالى مبيناً موقف الرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه المحاولة بقوله : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة : 109] .

وقد جاء الله بأمره حكماً بينه وبينهم ، وهنا يمكن أن يقال : إن كل مداهنة في الدين مع المشركين تدخل في هذا الموضوع .

وقد جاء بعد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ إشارة إلى أ ، هم لا يطاعون في مداهنتهم ، وأنهم سيبذلون كل ما في وسعهم لترويج مداهنتهم ولو بكثرة الحلف ، وفرق بين المداهنة في الدين ، والملاطفة في الدنيا أو التعاون وتبادل المنافع الدنيوية ، كما قدمنا عند

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] الآية ، والله تعالى أعلم .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

هذا استفهام إنكاري يدل على أنه لم يسألهم أجراً على دعوته إياهم .

وقال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23]

فالأجر المسؤول المستفهم عنه هو الأجر المادي بالمال ونحوه .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الأجر على الدعوة من جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومبحث أخذ الأجرة على الأعمال التي أصلها مزية الله بحثاً وافياً عند قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [هود : 29] من سورة هود .

(353/778)

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)

لم يبين هنا من هو صاحب الحوت ، ولا نداءه وهو مكظوم ، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله ، وقد بين تعالى صاحب الحوت في الصافات في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ

المرسلين إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون ﴾ [الصافات : 139] إلى قوله : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : 142] .

وأما النداء فقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : قد بينه تعالى في سورة الأنبياء عند قوله تعالى : ﴿ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 87 – 88] .

فصاحب الحوت هو يونس ، ونداؤه هو المذكور في الآية ، وحالة ندائه وهو مكظوم .

أما الوجه المنهي عن أن يكون مثله فهو الحال الذي كان عليه عند النداء ، وهو في حالة غضبه ، وهو مكظوم ، وهذا بيان لجانب من خلقه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ فاصبر ﴾ أي على إيذاء قومك ، ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات الله إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ [النحل : 126 – 127] إلى آخر الآية ، فقد بين تعالى خلقاً فاضلاً عاماً للأمة في حسن المعاملة والصفح .

ثم خص النَّبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ واصبر ﴾ أي لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر ، وقد كان منه صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاء جبريل عليه السلام ، ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أنه قال :

" لا ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون . . إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله " فقد صافح وصبر ورجى من الله إيمان من يخرج من أصلابهم .

وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم .

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

قوله تعالى : ﴿ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ .

بين تعالى أنه لم ينبذ بالعراء على صفة مذمومة ، بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظلّه وتستره ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافات : 146] .

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

بينه تعالى بقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصافات : 147 – 148] .

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

فيه عود آخر السورة على أولها . وأن الكفار إذا سمعوا الذكر شخصت أبصارهم نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرمونه بالجنون . والرد عليهم بأن هذا الذي سمعوه ليس بهذيان المجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين ، وفيه ترجيح القول بأن المراد بنعمة ربك في أول السورة ، إنما هي ما أوحاه إليه من الذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(355/778)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ نُونٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾

قِيلَ : " مَنْ يَحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا " ، وَسَمَّاهُ مَهِينًا لِاسْتِجَازَتِهِ الْكَذِبَ وَالْحَلِفَ عَلَيْهِ ، وَالْحَلَّافُ اسْمٌ لِمَنْ أَكْثَرَ الْحَلِفَ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، يَعْنِي : وَقَّاعًا فِي النَّاسِ عَائِبًا لَهُمْ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يَعْنِي يَنْقُلُ الْكَلَامَ مِنْ بَعْضٍ إلَى بَعْضٍ عَلَى وَجْهِ التَّضْرِيبِ بَيْنَهُمْ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ ﴾ يَعْنِي النَّمَّامَ .

(356/778)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قِيلَ فِي الْعُتُلِّ : إنَّهُ الْفَظُّ الْغَلِيظُ ، وَالزَّنِيمُ الدَّعِيُّ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إسْحَاقَ التُّسْتُرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو شَيْبَةَ إبْرَاهِيمُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عُمَيْرٍ البجلي عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَوَّاظٌ وَلَا جعظري وَلَا عُتُلٌّ زَنِيمٌ ﴾ ، قُلْت : وَمَا الْجَوَّاظُ ؟ قَالَ : "كُلُّ جَمَّاعٍ" ، قُلْت : وَمَا الجعظري ؟ قَالَ : "الْفَظُّ الْغَلِيظُ" ، قُلْت : وَمَا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ ؟ قَالَ : "رَحْبُ الْجَوْفِ" .

آخِرُ سُورَةِ نُونٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(357/778)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْقَلَمِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ سَمِيٍّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ﴿ : أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ ، وَهِيَ الدَّوَاةُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ ؛ ثُمَّ قَالَ : اُكْتُبْ .

قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلٍ ، أَوْ أَجَلٍ ، أَوْ رِزْقٍ ، أَوْ أَثَرٍ ؛ فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ خَتَمَ عَلَى الْقَلَمِ فَلَمْ يَنْطِقْ ، وَلَا يَنْطِقُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ الْجَبَّارُ : مَا خَلَقْت خَلْقًا أَعْجَبَ إلَيَّ مِنْك ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأُكَمِّلَنَّكَ فِيمَنْ أَحْبَبْت ، وَلَأُنْقِصَنَّكَ فِيمَنْ أَبْغَضْت ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلًا أَطْوَعُهُمْ لِلَّهِ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ ﴾ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ الْأَوَّلَ ، فَكَتَبَ مَا يَكُونُ فِي الذِّكْرِ ، وَوَضَعَهُ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ ، ثُمَّ خَلَقَ الْقَلَمَ الثَّانِيَ لِيُعَلِّمَ بِهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ ﴾ إنْ

شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

(358/778)

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا نَحْوَ عَشْرَةِ أَقْوَالٍ ، كُلُّهَا دَعَاوَى عَلَى اللُّغَةِ وَالْمَعْنَى ، أَمْثَلُهَا قَوْلُهُمْ : وَدُّوا لَوْ تَكْذِبُ فَيَكْذِبُونَ .

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُ فَيَكْفُرُونَ .

وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْإِدْهَانُ هُوَ التَّلْبِيسُ ، مَعْنَاهُ : وَدُّوا لَوْ تَلْبِسُ إلَيْهِمْ فِي عَمَلِهِمْ وَعَقْدِهِمْ فَيَمِيلُونَ إلَيْك .

وَحَقِيقَةُ الْإِدْهَانِ إظْهَارُ الْمُقَارَبَةِ مَعَ الِاعْتِقَادِ لِلْعَدَاوَةِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ الْمُقَارَبَةُ بِاللِّينِ فَهِيَ مُدَاهَنَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَ سَلَامَةِ الدِّينِ فَهِيَ مُدَارَاةٌ أَيْ مُدَافَعَةٌ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُ ﴿ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ : ائْذَنُوا لَهُ ، بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ هُوَ ، أَوْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ ؛ فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ ، فَقُلْت لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ قُلْت مَا قُلْت ، ثُمَّ أَلَنْت لَهُ فِي الْقَوْلِ ، فَقَالَ لِي : يَا عَائِشَةُ ؛ إنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ ﴾ .

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : مَثَلُ الْمُدَاهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْقَائِمِ عَلَيْهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَأَرَادَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا أَنْ يَسْتَقُوا الْمَاءَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَمَنَعُوهُمْ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَقُوا الْمَاءَ فِي أَسْفَلِ السَّفِينَةِ ، فَإِنْ مَنَعُوهُمْ نَجَوْا ، وَإِنْ تَرَكُوهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا ﴾ .

(359/778)

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ .

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : يَعْنِي مُكَذِّبُونَ ، وَحَقِيقَتُهُ مَا قَدَّمْنَاهُ أَيْ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُقَارِبُونَ فِي الظَّاهِرِ مَعَ إِضْمَارِ الْخِلَافِ فِي الْبَاطِنِ ، يَقُولُونَ : اللَّهُ ، اللَّهُ .

ثُمَّ يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا ،

وَنَوْءِ كَذَا ، وَلَا يُنَزِّلُ الْمَطَرَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِنَجْمٍ وَلَا مُقْتَرِنٍ بِنَوْءٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فَسَاقَهُ عَلَى الْعَطْفِ ، وَلَوْ جَاءَ بِهِ جَوَابُ التَّمَنِّي لَقَالَ فَيُدْهِنُوا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا لَوْ فَعَلْت فَيَفْعَلُونَ مِثْلَ فِعْلِك عَطْفًا ، لَا جَزَاءً عَلَيْهِ ، وَلَا مُكَافَأَةً لَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَمْثِيلٌ وَتَنْظِيرٌ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ : ذَكَرَ فِيهِ أَهْلُ التَّفْسِيرِ قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا سِمَةٌ سَوْدَاءُ تَكُونُ عَلَى أَنْفِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُمَيَّزُ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

وَقِيلَ : يُضْرَبُ بِالنَّارِ عَلَى أَنْفِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي وَسْمًا يَكُونُ عَلَامَةً [عَلَيْهِ] .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ؛ فَهَذِهِ عَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ .

(360/778)

وَقَالَ : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ وَهَذِهِ عَلَامَةٌ أُخْرَى ظَاهِرَةٌ ، فَأَفَادَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَامَةً ثَالِثَةً وَهِيَ الْوَسْمُ عَلَى الْخُرْطُومِ مِنْ جُمْلَةِ الْوَجْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ : كَانَ الْوَسْمُ فِي الْوَجْهِ لِذَوِي الْمَعْصِيَةِ قَدِيمًا عِنْدَ النَّاسِ حَتَّى أَنَّهُ رُوِيَ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا أَهْمَلُوا رَجْمَ الزَّانِي وَاعْتَاضُوا عَنْهُ بِالضَّرْبِ وَتَحْمِيمِ الْوَجْهِ ، وَهَذَا وَضْعٌ بَاطِلٌ .

وَمِنْ الْوَسْمِ الصَّحِيحِ فِي الْوَجْهِ مَا رَأَى الْعُلَمَاءُ مِنْ تَسْوِيدِ وَجْهِ شَاهِدِ الزُّورِ عَلَامَةً عَلَى

قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ ، وَتَشْدِيدًا لِمَنْ يَتَعَاطَاهَا لِغَيْرِهِ مِمَّنْ يُرْجَى تَجَنُّبُهُ بِمَا يُرْجَى مِنْ عُقُوبَةِ شَاهِدِ الزُّورِ وَشُهْرَتِهِ .

وَقَدْ كَانَ عَزِيزًا بِقَوْلِ الْحَقِّ ، وَقَدْ صَارَ مَهِينًا بِالْمَعْصِيَةِ ؛ وَأَعْظَمُ الْإِهَانَةِ إهَانَةُ الْوَجْهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الِاسْتِهَانَةُ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ سَبَبًا لِحَيَاةِ الْأَبَدِ ، وَالتَّحْرِيمِ لَهُ عَلَى النَّارِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ ، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(361/778)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة القلم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)

قوله : ﴿ ن ﴾ : كقوله : ﴿ ص والقرآن ﴾ [ص : 1] وجوابُ القسمِ الجملةُ المنفيةُ بعدَها . وزعم قومٌ أنه اسمٌ لحُوتٍ وأنه واحد النّينان . وقومٌ أنه اسمُ الدَّواةِ ، وقومٌ أنه اسمٌ لوحٍ مكتوبٍ فيه . قال الزمخشري : " وأمَّا قولُهم هو الدَّواةُ فما أدري : أهو وَضْعٌ لغويٌّ أم

شرعيٌّ ، ولا يَخْلو إذا كان اسماً للدَّواةِ مِنْ أنْ يكونَ جنساً أو عَلَماً ، فإن كان جنساً فأين الإعرابُ والتنوينُ ؟ وإن كان عَلَماً فأين الإعراب ؟ وأيهما كان فلا بُدَّ له مِنْ مَوْقِع في تأليفِ الكلامِ ؛ لأنَّك إذا جَعَلْتَه مُقْسَماً به وَجَبَ إنْ كان جنساً أَنْ تَجُرَّه وتُنَوِّنَه ، ويكونُ القَسَم بدَواة مُنكَّرةٍ مجهولةٍ ، كأنه قيل : ودَواةٍ والقلم ، وإنْ كان عَلَماً أَنْ تَصْرِفَه وتَجرَّه ، أو لا تصرِفه وتفتحَه للعلميّةِ والتأنيثِ ، وكذلك التفسيرُ بالحوتِ : إمَّا أَنْ يُرادَ به نونٌ من النينانِ ، أو يُجْعَلَ عَلَماً للبَهَموتِ الذي يَزْعُمون ، والتفسيرُ باللَّوْحِ مِنْ نورٍ أو ذَهَبٍ والنهر في الجنةِ نحوُ ذلكَ " . وهذا الذي أَوْرَده أبو القاسم مِنْ محاسِنِ علمِ الإعرابِ ، وقَلَّ مَنْ يُتْقِنُه .

(362/778)

وقرأ العامَّةُ : " ن " ساكنَ النونِ كنظائرِه . وأدغم ابنُ عامر والكسائيُّ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ بلا خلافٍ ، وورش بخلافٍ عنه النونَ في الواو ، وأظهرها الباقون ، ونُقِل عَمَّنْ أدغمَ الغُنَّةُ وعَدَمُها . وقرأ ابن عباس والحسن وأبو السَّمَّال وابنُ أبي إسحاق بكسرِ النونِ وسعيد بن جبير وعيسى بخلافٍ عنه بفتحِها ، فالأُولى على التقاءِ الساكنين . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ مجروراً على القَسَم ، حَذَفَ حرفَ الجرِّ وبقي علمُه كقولِهم : " اللَّهِ لأفعلَنَّ " لوجهَيْن ، أحدُهما : أنَّه مختصٌّ بالجلالةِ المعظَّمة ، نادرٌ فيما عداها . والثاني : أنه كان ينبغي أَنْ يُنَوِّنَ

. ولا يَحْسُنُ أَنْ يُقال : هو ممنوعُ الصَّرْفِ اعتباراً بتأنيث السورة ، لأنه كان ينبغي أَنْ لا يَظْهَرَ فيه الجرُّ بالكسرة البتةَ .

وأمَّا الفتحُ فيحتمل ثلاثةَ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ يكونَ بناءً ، وأُوْثِر على الأصلِ للخفَّةِ كأينَ وكيفَ . الثاني : أَنْ يكونَ مجروراً بحرف القسمِ المقدَّرِ / على لغةٍ ضعيفة . وقد تقدَّم ذلك في قراءةِ " فالحقّ والحقّ " [ص : 84] . بجرّ " الحقّ " ، ومُنِعَتِ الصَّرْفَ ، اعتبارٌ بالسورة ، والثالث : أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ محذوفٍ ، أي : اقرؤوا نونَ ، ثم ابتدأ قَسَماً بقولِه " والقلمِ " ، أو يكونَ منصوباً بعد حَذْفِ حرفِ القسم كقولِه :

4290 . . . . . فذاكَ أمانةَ اللَّهِ الثَّرِيدُ

ومُنعَ الصَّرْفَ لِما تقدَّم ، وهذا أحسنُ لعَطْفِ " والقلمِ " على مَحَلِّه .

(363/778)

قوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ " ما " موصولةٌ اسميةٌ أو حرفية ، أي : والذي يَسْطُرونه مِنَ الكُتُب ، وهم : الكُتَّابُ أو الحَفَظَةُ من الملائكة وسَطْرِهم . والضميرُ عائدٌ على مَنْ يُسَطِّرُ لدلالةِ السياقِ عليه . ولذِكْرِ الآلةِ المُكْتَتَبِ بها . وقال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يُرادَ بالقلمِ

أصحابُه ، فيكون الضميرُ في "يَسْطُرون" لهم "يعني فيصيرُ كقولِه : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ ﴾ [النور : 40] تقديرُه : أو كذي ظُلُماتٍ ، فالضميرُ في "يَغْشاه" يعود على "ذي" المحذوف .

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)

قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُ هذا في الطور في قولِه ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ [الطور : 29] وتقدَّم تحقيقُه . إلاَّ أن الزمخشريَّ قال هنا : "فإنْ قلتَ : بِمَ تتعلَّقُ الباءُ في "بنعمة ربك" وما محلُّه ؟ قلت : تتعلَّق بمجنون منفياً ، كما تتعلَّقُ بعاقل مثبتاً كقولك : "أنت بنعمةِ اللّهِ عاقلٌ" ، مستوياً في ذلك الإثباتُ والنفيُ استواءَهما في قولِك : "ضَرَبَ زيدٌ عَمْراً" و "ما ضَرَبَ زيدٌ عمراً" تُعْمِلُ الفعلَ منفياً ومثبتاً إعمالاً واحداً . ومحلُّه النصبُ على الحالِ ، كأنه قال : ما أنت مجنونٌ مُنْعِماً عليكَ بذلك ، ولم تَمْنَع الباءُ أَنْ يعملَ "مجنون" فيما قبلَه لأنها زائدةٌ لتأكيدِ النفي" .

(364/778)

قال الشيخ : "وما ذهب إليه الزمخشريُّ مِنْ أنَّ الباءَ تتعلَّقُ بمجنون ، وأنه في موضعِ الحالِ يحتاج إلى تأمُّلٍ ، وذلك أنَّه إذا تَسَلَّطُ النفي على محكوم به ، وذلك له معمولٌ ، ففي ذلك

طريقان ، أحدهما : أنَّ النفيَ تَسَلَّطَ على ذلك المعمولِ فقط ، والآخر : أَنْ يُسَلَّط النفيُ على المحكوم به ، فينتفيَ مَعمولُه لانتفائه . بيان ذلك : تقولُ : " ما زيدٌ قائمٌ مُسْرعاً " فالمتبادَرُ إلى الذهن أنَّه مُنْتَفٍ إسراعُه دونَ قيامِه فيكونُ قد قامَ غيرَ مُسْرِعٍ . والوجهُ الآخَرُ : أنَّه انتفَى قيامُه فانتفى إسراعُه ، أي : لا قيامَ فلا إسراعَ . وهذا الذي قَرَّرْناه لا يتأَتَّى معه قولُ الزمخشريِّ بوجهٍ ، بل يؤديّ إلى ما لا يجوزُ النطقُ به في حَقِّ المعصوم " انتهى . واختار الشيخ أنْ يكونَ " بنعمة " قَسَماً مُعْتَرِضاً به بين المحكوم عليه والحُكم على سبيلِ التأكيدِ والتشديدِ والمبالغةِ في انتفاءِ الوصفِ الذمِّيم . وقال ابن عطية : " بنعمةِ ربِّك " اعتراضٌ كما تقول للإنسان : " أنت بحمد اللَّهِ فاضلٌ " قال : " ولم يُبَيِّنْ ما تتعلَّقُ به الباءُ في " بنعمة " . قلت : والذي تتعلَّق به الباءُ في هذا النحو معنى مضمونِ الجملةِ نفياً وإثباتاً ، كأنه قيل : انتفى عنك ذلك بحمد اللَّهِ ، والباءُ سببيةٌ ، وثَبَتَ لك الفَضْلُ بحمدِ اللَّهِ تعالى ، وأمَّا المثالُ الذي ذكرَه فالباءُ تتعلَّق فيه بلفظ " فاضل " . وقد نحا صاحب " المنتخب " إلى هذا فقال : " المعنى : انتفى عنك الجنونُ بنعمةِ ربك . وقيل : معناه : ما أنت بمجنونٍ ، والنعمة لربِّك ، كقولِهم : " سبحانَك اللهمَّ وبحمدِك " ، أي : والحمدُ لله . ومنه قولُ لبيدٍ :

4291 وأُفْرِدْتُ في الدنيا بفَقْدِ عشيرتي . . . وفارقني جارٌ بأَرْبَدَ نافِعُ

أي : وهو أَرْبَدُ " . وهذا ليس بتفسيرِ إعرابٍ بل تفسيرُ معنى .

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

قوله: ﴿ بِأَيِّكُمُ المفتون ﴾ : فيه أربع أوجه، أحدُها : أنَّ الباءَ مزيدةٌ في المبتدأ، والتقديرُ : أيُّكم المَفْتون فزِيدَتْ كزيادتِها، في نحو : بحَسْبك زيدٌ، وإلى هذا ذهب قتادةُ وأبو عبيدة معمرُ بن المثنى، إلاَّ أنَّه ضعيفٌ مِنْ حيث إنَّ الباءَ لا تُزاد في المبتدأ إلاَّ في " حَسْبُك " فقط . الثاني : أنَّ الباءَ بمعنى " في "، فهي ظرفيةٌ، كقولك : " زيدٌ بالبصرة "، أي : فيها، والمعنى : في أيِّ فرقةٍ وطائفةٍ منكم المفتونُ . وإليه ذهب مجاهدٌ والفراء، وتؤيِّدُه قراءةُ ابن أبي عبلةَ " في أيِّكم " . الثالث : أنَّه على حَذْفِ مضافٍ، أي : بأيكم فَتْنُ المَفْتون فحُذِفَ المضافُ، وأقيم المضافُ إليه مُقامَه، وإليه ذهب الأخفش، وتكونُ الباءُ سببيَّةً، والرابع أنَّ " المفتون " مصدرٌ جاء على مَفْعول كالمَعْقول والمسيور والتقدير : بأيكم الفُتون . فعلى القول الأول يكونُ الكلامُ تامًّا عند قولِه " ويُبْصِرون " ويُبْتَدأُ قولُه " بأيِّكم المفْتون " وعلى الأوجهِ بعدَه/ تكونُ الباءُ متعلِّقةً بما قبلَها، ولا يُوْقَفُ على " يُبْصِرون " وعلى الأوجُهِ الأُوَلِ الثلاثةِ يكونُ " المفتون " اسمَ مفعولٍ على أصلِه، وعلى الوجهِ الرابعِ يكونُ مصدراً . وينبغي أَنْ يُقالَ : إنَّ الكلامَ إنما يَتِمُّ على قولِه " المفتون " سواءً قيل بأنَّ الباءَ مزيدةٌ أم لا ؛ لأنَّ قولَه " فَسَتُبْصِرُ ويُبْصرون " مُعَلَّقٌ بالاستفهامِ بعدَه ؛ لأنه فِعْلٌ بمعنى الرؤية، والرؤيةُ البصريةُ تُعَلَّقُ على الصحيح بدليلِ قولِهم : " أما ترى أيَّ بَرْقٍ ههنا "، فكذلك الإبصارُ لأنه هو الرؤيةُ

بالعينِ . فعلى القولِ بزيادةِ الباءِ تكونُ الجملةُ الاستفهاميةُ في محلِّ نَصْبٍ لأنها واقعةٌ موقعَ مفعولِ الإبصار .

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

(366/778)

قوله : ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ : المشهورُ في قراءةِ الناس ومصاحفِهم " فيُدْهِنون " بثبوتِ نونِ الرفع . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه عطفٌ على " تُدْهِنُ " فيكونُ داخلاً في حَيِّزِ " لو " . والثاني : انه خبرٌ مبتدأ مضمرٍ ، أي : فهم يُدْهِنون . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِم رُفِعَ " فَيُدْهِنون " ولم يُنْصَبْ بإضمارِ " أَنْ " وهو جوابُ التمني ؟ قلت : قد عُدِل به إلى طريقٍ آخر : وهو أنْ جُعِل خبرَ مبتدأ محذوف ، أي : فهم يُدْهِنون كقوله : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً ﴾ على معنى : وَدُّوا لو تُدْهِنُ فهم يُدْهنون حينئذٍ ، أو وَدُّوا إدهانَك فهم الآن يُدْهِنون لطَمَعِهم في إدْهانِك : قال سيبويه : " وزعم هارونُ أنها في بعضِ المصاحفِ : " وَدُّوا لو تُدْهِنُ فيُدِهنوا " انتهى .

وفي نصبه على ما وُجد في بعضِ المصاحفِ وجهان ، أحدهما : أنه عطفٌ على التوهُّمِ ، كأنه تَوَهَّم أَنْ نَطَقَ ب " أَنْ " فَنَصَبَ الفعلَ على هذا التوهُّم ، وهذا إنما يجيءُ على القولِ

بمصدرية " لو " وفيه خلافٌ مرَّ محققاً في البقرة . والثاني : أنه نُصِبَ على جواب التمني المفهومِ مِنْ " وَدَّ " والظاهرُ أنَّ " لو " هنا حرفٌ لِما كان سيقعُ لوقوعِ غيرِه ، وأن جوابَها محذوفٌ ، ومفعولُ الوَدادةِ أيضاً محذوفٌ تقديرُه : وَدُّوا إدهانَك ، فحُذِفَ " إدْهانَك " لدلالةِ " لو " وما بعدها عليه . وتقديرُ الجوابِ لسُرُّوا بذلك .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11)

(367/778)

قوله : ﴿ مَّهِينٍ هَمَّازٍ ﴾ : تقدَّم تفسيرُ مهين في الزخرف . والهمَّازُ : مثالُ مبالغةٍ مِنْ الهَمْزِ وهو في اللغةِ الضَرْبُ طعناً باليدِ والعَصا ونحوِها ، واسْتُعير للعَيَّاب الذي يَعيب على الناسِ كأنه يَضْرِبُهم . والنَّميم قيل : مصدرٌ كالنميمة . وقيل : هو جَمْعُها ، أي : اسمُ جنسٍ كتَمرة وتَمر . وهو نَقْلُ الكلامِ الذي يسوء سامعَه ويُحَرِّشُ بين الناس . وقال الزمخشري : " والنميمُ والنَّميمة السِّعايةُ وأنشدني بعضُ العرب :

4292 تَشَبَّبي تَشَبُّبَ النَّميمهْ . . . تَمشْي بها زَهْراً إلى تميمهْ

والمَشَّاء : مثالُ مبالغةٍ مِنْ المَشْيِ ، أي : يُكْثِرُ السِّعايةَ بين الناس . والعُتُلُّ : الذي يَعْتِلُ الناسَ ، أي : يَحْملهم ويَجُرُّهم إلى ما يَكْرهون مِنْ حبسٍ وضَرْبٍ . ومنه ﴿ خُذُوهُ

فاعتلوه ﴾ [الدخان : 47] . وقيل : العُتُلُّ : الشديد الخُصومة . وقال أبو عبيدة : " هو الفاحِشُ اللئيم ، وأنشد :

4293 بعُتُلٍّ مِنْ الرِّجالِ زَنِيمٍ . . . غيرِ ذي نَجْدةٍ وغيرِ كريمِ

وقيل " : الغليظُ الجافي . ويقال : عَتَلْتُه وعَتَنْتُه باللام والنونِ ، نَقَله يعقوب . والزنيم : الدَّعِيُّ يُنْسَبُ إلى قومٍ ليس منهم . قال حسان :

4294 زَنِيمٌ تَداعاه الرجالُ زيادةً . . . كما زِيْدَ في عَرْضِ الأديمِ الأكارِعُ

وقال أيضاً :

4295 وأنتَ زَنِيمٌ نِيْطَ في آلِ هاشمٍ . . . كما نِيْطَ خلفَ الرّاكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

(368/778)

وأصلُه مِنْ الزَّنَمَةِ : وهي ما بقي مِنْ جلْدِ الماعز مُعَلَّقاً في حِلَقِها يُتْرَكُ عند القَطْع فاستعير للدَّعِيِّ لأنه كالمُعَلَّقِ بما ليس منه . وقرأ الحسنُ " عُتُلٌّ " بالرفع على : هو عُتُلٌّ . وحقُّه أَنْ يُقْرَأَ ما بعدَه بالرفع أيضاً ، لأنهم قالوا في القَطْع : إنه يبدأ بالإتباع ثم بالقطع مِنْ غير عكسٍ . وقوله " بعد ذلك " ، أي : بعدما وَصَفْناه به . قال ابن عطية : " فهذا الترتيبُ إنما هو في قولِ الواصفِ لا في حصولِ تلك الصفاتِ في المصوفِ ، وإلاَّ فكونُ عُتُلاً هو قبل / كونِه

صاحبَ خيرٍ يمنعُه " . وقال الزمخشري : " بعد ذلك ، بعد ما عُدَّ له مِنْ المثالبِ والنقائصِ " ، ثم قال : " جَعَلَ جفاءَه ودَعْوَتَه أشدَّ مُعايَبةً ؛ لأنه إذا غَلُظَ وجفا طَبْعُه قسَا قلبُه واجْتَرَأَ على كلِّ معصيةٍ " .

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14)

قوله : ﴿ أَن كَانَ ﴾ : العامَّةُ على فتح همزةِ " أنْ " ثم اختلفوا بعدُ : فقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو بكر بالاستفهام ، وباقي السبعةِ بالخبر . والقارئون بالاستفهامِ على أصولِهم : مِنْ تحقيقٍ وتسهيلٍ وإدخالِ ألفٍ بين الهمزتَيْنِ وعدمِه . ولا بُدَّ مِنْ بيانِه لك تسهيلاً للأمر عليك فأقول وبالله التوفيق : قرأ حمزةُ وأبو بكرٍ بتحقيق الهمزتَيْن وعدم إدْخالِ ألفٍ بينهما ، وهذا وهو أصلُهما .

وقرأ ابنُ ذكوانَ بتسهيلِ الثانيةِ وعدمِ إدخال ألفٍ ، وهشامٌ بالتسهيلِ المذكور ، إلاَّ أنَّه أدخل ألفاً بينهما فقد خالَفَ كلٌّ منهما أصلَه : أمَّا ابنُ ذكوان فإنه يُحَقِّقُ الهمزتَيْنِ فقد سَهَّل الثانية هنا . وأمَّا هشامٌ : فإنَّ أصلَه أن يُجْري في الثانية مِنْ هذا النحوِ وجهَيْنِ : التحقيقَ كرفيقِه ، والتسهيلَ . وقد التَزَمَ التسهيلَ هنا . وأمَّا إدخالُ الألفِ فإنه فيه على أصلِه كما تقدَّم أول البقرة .

وقرأ نافع في رواية الزبيدي عنه : " إنْ كان " بكسر الهمزة على الشرط .

فأمَّا قراءةُ " أَنْ كان " بالفتحِ على الخبرِ ففيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها " أنْ " المصدريةُ في موضع المفعولِ له مجرورةٌ بلامٍ مقدرة . واللامُ متعلّقةٌ بفعلِ النهي ، أي : ولا تُطِعْ مَنْ هذه صفاتُه ؛ لأنْ كان مُتَموّلاً وصاحبَ بنين . الثاني : أنها متعلقةٌ ب " عُتُلّ " ، وإن كان قد وُصِفَ ، قاله الفارسي ، وهذا لا يجوزُ عند البصريين ، وكأن الفارسيَّ اغتفَره في الجارّ . الثالث : أنْ يتعلَّق ب " زنيم " ولا سيما عند مَنْ يُفَسّره بقبيح الأفعالِ . الرابع : أَنْ يتعلّقَ بمحذوف يَدُلُّ عليه ما بعدَه مِنْ الجملةِ الشرطيةِ ، تقديره : لكونِه متموّلاً مُسْتَظْهِراً بالبنين كَذَّب بآياتِنا ، قاله الزمخشري ، قال : " ولا يَعْمَلُ فيه " قال " الذي هو جوابُ " إذا " لأنَّ ما بعد الشرطِ لا يعملُ فيما قبلَه ، ولكن ما دَلَّتْ عليه الجملةُ مِنْ معنى التكذيب " . وقال مكي وتبعه أبو البقاء : " لا يجوزُ أَنْ يكونَ العاملُ " تُتْلى " لأنَّ ما بعد " إذا " لا يعملُ فيما قبلها ؛ لأنه " إذا تُضاف إلى الجمل ، ولا يعملُ المضافُ إليه فيما قبل المضاف " انتهى .

وهذا يُوهِمُ أنَّ المانعَ من ذلك ما ذكره فقط ، والمانعُ أمرٌ معنويٌّ ، حتى لو فُقِدَ هذا المانعُ الذي ذكره لامتنعَ مِنْ جهةِ المعنى : وهو أنه لا يَصْلُحُ أَنْ يُعَلِّلَ تلاوةَ آياتِ اللَّهِ عليه بكونِه ذا مالٍ وبنين .

وأمَّا قراءةُ " أَأَنْ كان " على الاستفهام ، ففيها وجهان ، أحدُهما : أَنْ يتعلَّقَ بمقدَّرٍ يَدُلُّ عليه

ما قبلَه ، أي : أَتُطيعه لأَنْ كان أو أتكونُ طواعيةً لأَنْ كان . والثاني : أنْ يتعلَّقَ بمقدَّرٍ عليه ما بعده أي : لأَنْ كان كذا كَذَّبَ وجَحَدَ .

(370/778)

وأمَّا قراءةُ إنْ بالكسر فعلى الشرطِ ، وجوابُه مقدرٌ . تقديرُه : إن كان كذا يَكْفُرْ ويَجْحَدْ . دَلَّ عليه ما بعده . وقال الزمخشري : " والشرطُ للمخاطبِ ، أي : لا تُطِعْ كلَّ حَلاَّفٍ شارطاً يسارَه ، لأنه إذا أطاع الكافرَ لِغناهُ فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحوُ صرفِ الشرطِ للمخاطب صَرْفُ الترجّي إليه في قولِه : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ [طه : 44] . وجَعَله الشيخُ مِنْ دخولِ شرطٍ على شرطٍ ، يعني إنْ وإذا ؛ إلاَّ أنه قال : " ليسا من الشروط المترتبةِ الوقوع ، وجعله نظيرَ قولِ ابنِ دريدٍ :

4296 فإنْ عَثَرْتُ بعدَها إنْ وَأَلَتْ . . . نفسيَ مِنْ هاتا فقولا لا لَعا

قال : " لأنَّ الحامِلَ على تدبُّرِ آياتِ الله كونُه ذا مالٍ وبنين ، وهو مشغولُ القلبِ بذلك غافلٌ عن النظرِ قد استولَتْ عليه الدنيا وأَبْطَرَتْه .

وقرأ الحسن بالاستفهام وهو استفهامُ تَقْريعٍ وتوبيخٍ على قولِه : " القرآنُ أساطيرُ الأوَّلين لَمَّا تُلِيَتْ عليه آياتُ الله .

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ : أي : نجعل له سِمَةً ، أي : علامةً يُعْرَفُ بها . قال جرير :

4297 لَمَّا وَضَعْتُ على الفرزدقِ مِيْسَمي . . . وعلى البَعيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الأخطلِ

/ والخُرْطُومُ : الأَنْفُ ، وهو هنا عبارةٌ عن الوجهِ كلِّه من [باب] التعبيرِ عن الكلِّ بالجزءِ ؛ لأنه أظهرُ ما فيه وأَعلاه . والخُرْطومِ أيضاً : الخمرُ وكأنه استعارةٌ لها ؛ لأنَّ الشنتمَريَّ قال : " هي الخمرُ أول ما تَخْرُجُ من الدِّنِّ " ، فجُعِلَتْ كالأَنفِ ؛ لأنه أولُ ما يَبْدُو مِنْ الوجهِ ، فليسَتْ الخرطومُ الخمرَ مطلقاً . ومِنْ مجيءِ الخُرْطومِ بمعنى الخمرِ قولُ علقمةَ ابنِ عبدة :

4298 قد أَشْهَدُ الشَّرْبَ ، فيهم مُزْهِرٌ زَئِمٌ . . . والقومُ تصرَعُهم صَهْباءُ خُرْطومُ

وأنشد النضر بن شميل :

(371/778)

4299 تَظَلُّ يومَك في لهو وفي لَعِبٍ . . . وأنتَ بالليل شَرَّابُ الخَراطيمِ

قال النَّضِرُ : " والخُرطومُ في الآية : هي الخَمْرُ ، والمرادُ : سَنَحُدُّه على شُربِها . وقد استبعدَ الناسُ هذا التفسيرَ .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17)

قوله : ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ : هذا حالٌ مِنْ فاعل " لَيَصْرِمُنَّها " وهو مِنْ " أصبح " التامَّةِ ، أي : داخلين في الصَّباح . كقولِ تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] وقولِهم : " إذا سَمِعْتَ بسُرَى القَيْنِ فاعلَمْ أنه مُصْبِحٌ " . والكاف في " كما " في موضع نصبٍ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : بَلَوْناهم ابتلاءً كما بَلَوْنا . و " ما " مصدريةٌ أو بمعنى الذين . و " إذ " منصوبةٌ ب " بَلَوْنا " و " لَيَصْرِمنُّها " جوابٌ للقسم ، وجاء على خلافِ مَنْطوقِهم ، ولو جاء عليه لقيل : لَنَصْرِمُنَّها بنونِ التكلم .

وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18)

قوله : ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ : هذه مستأنفةٌ . ويَضْعُفُ كونُها حالاً من حيث إنَّ المضارعَ المنفيَّ ب " لا " كالمثبتِ في عَدَمِ دخولِ الواوِ عليه ، وإضمارُ مبتدأ قبلَه ، كقولِهم : " قمتُ وأَصُكُّ عينَه " مُسْتغنى عنه . ومعنى " لا يَسْتَثْنُون " لا يَثنون عزمَهم على الحِرْمانِ ، وقيل : لا يقولون : إن شاءَ الله . وسُمِّي استثناءً ، وهو شرطٌ ؛ لأنَّ معنى " لأَخْرُجَنَّ إنْ شاءَ الله " " ولا أخرجُ إلا أَنْ يشاءَ اللهُ " واحدٌ ، قاله الزمخشري .

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19)

قوله : ﴿ طَآئِفٌ ﴾ : أي هَلاكٌ ، أو بلاءٌ ، طائفٌ . والطائفُ غَلَبَ في الشرّ . قال الفراء : " هو الأمرُ الذي يأتي ليلاً . ورُدَّ عليه بقولِه : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان ﴾ [الأعراف : 201] ، وذلك لا يختصُّ بلَيْلٍ ولا نهارٍ . وقرأ النخعي " طَيْفٌ " . وقد تقدَّم في الأعراف الكلامُ على هذينِ الوصفَيْن . و " منْ ربّك " يجوز أن يتعلَّقَ ب " طاف " ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ل طائف . والصِّرامُ : جُذاذُ النخلِ . وأصلُ المادةِ الدلالةُ على القَطْعِ ، ومنه الصُرْمُ والصَّرْمُ بالضم والفتح ، وهو القَطيعةُ . قال امرؤُ القيس :

4300 أفاطمُ مَهْلاً بعضَ هذا التدلُّلِ . . . وإن كُنْتِ قد أَزْمَعْتِ صَرْمي فأَجْملي

ومنه الصَّريمةُ ، وهي قطعةٌ مَنْصَرِمةٌ عن الرمل . قال :

4301 وبالصَّرِيْمَةِ منهم مَنْزِلٌ خَلِقٌ . . . عافٍ تَغَيَّرَ إلاَّ النؤيُ والوَتِدُ

والصَّارم : القاطِعُ الماضي ، وناقة مُصَرَّمَةٌ ، أي : انقطع لبنُها . وانْصَرَمَ الشهرُ والسَّنَةُ ، أي : قَرُبَ انفصالُهما . وأَصْرَمَ : ساءَتْ حالُه ، كأنه انقطعَ سَعْدُه . وقوله " كالصريم " قيل : هي الأشجارُ المُنْصَرِمُ حَمْلُها . وقيل : كالليلِ لأنه يُقال له الصَّريمُ لسَوادِه . والصَّريمُ أيضاً : النهارُ . وقيل : الصبحُ ، فهو من الأضدادِ . وقال شَمِر : الصَّريم الليلُ ، والصَّريم النهار ؛ لانصرامِ هذا عن ذاك وذاك عن هذا . وقيل : هو الرَّمادُ بلغة خُزَيْمَةَ ، قاله ابنُ عباس . وقيل : الصَّريمُ رَمْلَةٌ معروفةً باليمن لا تُنْبِتُ شيئاً . وفي التفسير : أنَّ جَنَّتَهم صارت كذلك . ويُرْوَى أنها اقْتُلِعَتْ ووُضِعتْ حيث الطائفُ اليوم ؛ ولذلك سُمِّي به " الطائفُ " الذي

هو بالحجازِ اليومَ .

أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22)

(373/778)

قوله : ﴿ أَنِ اغدوا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ المصدريَّةَ ، أي : تنادَوْا بهذا الكلامِ ، وأَنْ تكونَ المفسِّرة ؛ لأَنَّه تقدَّمها ما هو بمعنى القولِ . قال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : هلا قيل : اغْدُوا إلى حَرْثِكم وما معنى " على " ؟ قلت : لَمَّا كان الغُدُوُّ إليهِ ليَصْرِمُوه ويَقْطعوه كان غُدُوًّا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدوُّ . ويجوز أَنْ يُضَمَّنَ الغُدُوُّ معنى الإقبالِ كقولِهم : " يُغْدَى عليهم بالجَفْنَة ويُراحُ " انتهى . فجعل " غدا " متعدياً في الأصل ب " إلى " فاحتاج إلى تأويل تعدِّيه ب " على " . وفيه نظرٌ لورود تَعَدِّيه ب " على " في غير موضع كقولِه :

4302 وقد أَغْدُو على ثُبَةٍ كِرامٍ . . . نَشاوى واجدينِ لما نشاءُ

/ وإذا كانوا قد عَدَّوْا مرادِفَه ب " على " فَلْيُعَدُّوه بها ، ومرادِفُهُ " بَكَرَ " تقول : بَكَرْتُ عليه ، وغَدَوْتُ عليه بمعنىً واحدٍ . قال :

4303 بَكَرْتُ عليه غُدْوَةً فرَأَيْتُه . . . قُعُوداً لديهِ بالصَّريمِ عَواذِلُهْ

و ﴿ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ جوابُه محذوفٌ ، أي : فاغدُوْا . وصارمين : قاطعين جاذِّين .

وقيل : ماضِين في العَزْمِ ، مِنْ قولِك : سيفٌ صارِمٌ .

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23)

قوله : ﴿ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعلِ " انطَلَقُوا " .

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24)

قوله : ﴿ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ المصدريَّة ، أي : يتخافَتُون بهذا الكلامِ ، أي : يقولُه بعضُهم لبعضٍ ، وأَنْ تكونَ المفسِّرَةَ . وقرأ عبد الله وابنُ أبي عبلةَ " لا يَدْخُلُها " بإسقاطِ " أَنْ " إمَّا على إضمارِ القولِ ، كما هو مذهبُ البَصْريين ، وإمَّا على إجراءِ " يتخافتون " مُجراه كما هو قولُ الكوفيين .

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25)

(374/778)

قوله : ﴿ على حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ " قادرين " حالاً من فاعل " غَدَوْا " . و " على حَرْدٍ " متعلِّقٌ به ، وأَن يكونَ " على حَرْدٍ " هو الحالَ ، و " قادرين " : إمَّا حالٌ ثانيةٌ ، وإمَّا حالٌ مِنْ ضميرِ الحالِ الأولى .

والحَرْدُ فيه أقوال كثيرة ، قيل : الغضبُ والحَنَقُ . وأُنْشد للأشهب ابن رُمَيْلة :

4304 أُسُوْدُ شَرىً لاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ . . . تَساقَوْا على حَرْدٍ دماءَ الأساوِدِ

قيل : ومثلُه قولُ الآخرِ :

4305 إذا جِيادُ الخيل جاءتَ تَرْدي . . . مملوءةً مِنْ غَضَبٍ وحَرْد

عَطَفَ لَمَّا تغايرَ اللفظان كقولِه :

4306 . . . . . وأُلفى قولَها كَذِباً ومَيْنا

وقيل : المَنْعُ . مِنْ حارَدَتِ الإبلُ : قَلَّ لَبَنُها ، والسَّنَةُ : قَلَّ مَطَرُها ، قاله أبو عبيد والقُتَبِيُّ . ويقال : حَرِدَ بالكسر يَحْرَدُ حَرْداً ، وقد تُفْتح فيقال : حَرَداً ، فهو حَرْدانُ وحارِدٌ . يقال : أسدٌ حارِدٌ ، ولُيوث حَوارِدُ . وقيل : الحَرْدُ والحَرَدُ الانفرادُ . يُقال : حَرَدَ بالفتح ، يَحْرُد بالضم ، حُروداً وحَرْداً وحَرَداً : انعزل ، ومنه كوكبٌ حارِدٌ ، أي : منفردٌ . قال الأصمعي : " هي لغةُ هُذَيْل " . وقيل : الحَرْدُ القَصْدُ . يقال : حَرَدَ يَحْرِدُ حَرْدَك ، أي : قَصَدَ قَصْدَك ، ومنه :

4307 . . . . . يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّهْ

وقد فُسِّرت الآيةُ الكريمةُ بجميعِ ما ذَكَرَتْ . وقيل : الحَرْدُ اسمُ جنَّتِهم بعينِها ، قاله السُّدي . وقيل : اسم قَرْيتِهم ، قاله الأزهري . وفيهما بُعْدٌ بعيدٌ . و " قادرين " : إمَّا مِنْ القُدْرَةِ ،

وهو الظاهرُ ، وإمَّا مِن التقدير وهو التضييقُ ، أي : مُضيِّقين على المساكينِ . وفي التفسيرِ قصةٌ توضِّحُ ما ذكرْتُ " .

(375/778)

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ العذاب ﴾ : مبتدأٌ ، وخبرُه مقدم ، أي : مثلُ ذلك العذابِ عذابُ الدنيا ، وأمَّا عذابُ الآخرةِ فأكبرُ منها .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

قوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً بالاستقرار ، وأن يكون حالاً مِنْ " جَنَّات " .

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38)

قوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ الهمزة . وفيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها معمولةٌ لـ " تَدْرُسون " ، أي : تدرسون في الكتابِ أنَّ لكم ما تختارونه ، فلمَّا دخلت اللامُ كُسِرت الهمزةُ . والثاني : أَنْ تكونَ على الحكايةِ للمدروسِ كما هو ، كقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين ﴾ [الصافات : 78 – 79] قالهما

الزمخشري ، وفي الفرقِ بين الوجهين عُسْرٌ قال : " وتَخَيَّر الشيءَ واختاره : أَخَذَ خيرَه كتنخَّله وانتخَلَه أَخَذَ منخولَه " . والثالث : أنها على الاستئنافِ على معنى : إنْ كان لكم كتابٌ فلكم فيه مُتَخَيَّرٌ . وقرأ طلحةُ والضحاك " أنَّ لكم " بفتح الهمزة ، وهو منصوبٌ ب " تَدْرُسُون " ، إلاَّ أنَّ فيه زيادةَ لامِ التأكيدِ ، وهي نظيرُ قراءة ﴿ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ﴾ [الفرقان : 20] بالفتح . وقرأ الأعرج " أإنَّ لكم " في الموضعين بالاستفهام .

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39)

قوله : ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ : العامَّةُ على رفعِها نعتاً ل " أَيمانٌ " و " إلى يوم " متعلِّق بما تَعَلَّقَ به " لكم " . من الاستقرار ، أي : ثابتةٌ لكم إلى يومِ ، أو ببالغة ، أي : تَبْلُغُ إلى ذلك اليومِ وتنتهي إليه .

وقرأ زيد بن علي والحسن بنصبِها فقيل : على الحال من " أيمان " لأنها تخصَّصَتْ بالعملِ أو بالوصفِ . وقيل : من الضمير في " علينا " إنْ جَعَلْناه صفةً ل " أَيمان " .

وقوله : ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ جوابُ القسمِ في قوله : " أَيمان " لأنها بمعنى أقسام . و " أيُّهم " معلِّقٌ لِسَلْهُمْ و " بذلك " متعلق ب " زعيمٌ " ، أي : ضمينٌ وكفيل . وقد تقدَّم أنَّ " سأل " يُعَلَّقُ لكونِه سبباً في العِلم . وأصلُه أن يتعدَّى ب عن أو بالباء ، كقولِه : ﴿ فَسْئَلْ بِهِ

خَبِيراً ﴾ [الفرقان: 59] [وقوله:]

4308 فإنْ تَسْألوني بالنساء . . . . . .

. . . . . .

فالجملةُ في موضعِ نصبٍ بعد إسقاطِ الخافضِ، كما عَرَفْت تقريرَه غيرَ مرةٍ. وقرأ عبد الله: "أم لهم شِركٌ، فليَأْتوا بشِركِهم". بلفظِ المصدرِ.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42)

قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ ﴾: منصوبٌ بقولِه "فَلْيَأْتُوا" أو بإضمار اذْكُرْ، فيكونُ مفعولاً به أو بمحذوفٍ، وهو ظرفٌ، أي: يومَ يُكْشَف يكونُ كَيْتَ وكَيْتَ، أو بخاشعة، قاله أبو البقاء. وفيه بَعْدٌ و "عن ساقٍ" قائمٌ مَقامَ الفاعلِ، وابنُ مسعود وابن أبي عبلة "يَكْشِفُ" بالياءِ مِنْ تحتُ مبنياً للفاعلِ وهو اللهُ. وقرأ ابنُ عباس وعبد الله أيضاً "نكشِفُ" بكسر النون. وعن ابن عباس "تَكْشِفُ" بالتاء من فوق مبنياً للفاعل، أي: الشدَّةُ والساعةُ. وعنه كذلك أيضاً مبنياً للمفعول وهي/ مُشْكِلَةٌ؛ لأنَّ التأنيثَ لا معنى له هنا، إلاَّ أَنْ يُقالَ: إن المفعولَ مستترٌ، أي: تُكْشَفُ هي، أي: الشِّدَّةُ.

(377/778)

قوله : ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ ، أي : تَكْشِفُ عن ساقِها ؛ ولذلك قال الزمخشري : " وتكشِفُ بالتاء مبنياً للفاعلِ والمفعولِ جميعاً . والفعلُ للساعةِ ، أو للحال ، أي : تَشْتَدُّ الحالُ أو الساعةُ " . وقُرِىء "يُكْشِفُ" بضمِّ الياء أو التاء وكسرِ الشين ، مِنْ "أَكْشَفَ" إذا دَخَلَ في الكَشْفِ . وأَكْشَفَ الرجلُ : إذا انقلَبَتْ شَفَتُهُ العليا لانكشافِ ما تحتَها . وكَشْفُ الساقِ كنايةٌ عن الشِّدَّةِ ، لا يَمْتري في ذلك مَنْ ذاق طعم الكلامِ ، وسَمِعَ قولَ العربِ في نَظْمها ونثرها . قال الراجزُ :

4309 عَجِبْتُ مِنْ نفسي ومن إشفاقِها . . . ومِنْ طِرادي الطيرَ عن أَرْزاقِها

في سَنَةٍ قد كَشَفَتْ عن ساقِها . . . حمراءَ تَبْري اللحمَ عَنْ عُراقها

وقال حاتم الطائي :

4310 أخو الحربِ إنْ عَضَّتْ به الحربُ عَضَّها . . . وإن شَمَّرَتْ عن ساقِها الحربُ شَمَّرا

وقال آخر :

4311 كَشَفَتْ لهم عن ساقِها . . . وبدا من الشَّرِّ الصُّراحُ

وقال آخر :

4312 قد شَمَّرَتْ عن ساقِها فَشُدُّوا . . . وجَدَّت الحربُ بكم فَجُدُّوا

وقال آخر :

4313 صبراً أُمامُ إنَّه شرٌّ باقِ . . . وقامَتِ الحربُ بنا على ساقِ

قال الزمخشري : " الكَشْفُ عن الساق والإبداء عن الخِدام مَثَلٌ في شدةِ الأمرِ وصُعوبةِ الخَطْبِ . وأصلُه في الرَّوْعِ والهزيمةِ وتشميرِ المُخَدَّرات عن سُوْقِهنَّ في الحرب ، وإبداءِ خِدامِهنَّ عند ذلك .

وقال ابن قيس الرقياتِ :

4314 تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدي . . . عن خِدام العَقِلية العَذْراءُ

انتهى وما أحسنُ ما أَبْدَى أبو القاسمِ وجهَ علاقةِ هذا المجازِ فللَّه دَرُّه . وما أَوْرَدَه أهلُ التفسير فإنَّه مؤولٌ وكذلك حديثُ ابنِ مسعود ونحوه . قال الزمخشري : " ومَنْ أَحَسَّ بمضارِّ فَقْدِ هذا العِلْمِ عَلِمَ مقدارَ عِظَمِ منافعِه " انتهى . ويعني عِلْمَ البيان .

(378/778)

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43)

قوله : ﴿ خَاشِعَةً ﴾ : حالٌ مِنْ مرفوع "يُدْعَوْن " و " أبصارُهم " فاعلٌ به ونَسَب الخشوعَ للأبصارِ ، وإنْ كانت الأعضاءُ كلُّها كذلك لظهورِ أَثَرِه فيها .

وقوله : ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ حالٌ مِنْ مرفوع "يُدْعَوْن " الثانيةِ .

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44)

قوله : ﴿ وَمَن يُكَذِّبُ ﴾ : منصوب : إمَّا نَسَقاً على الياء ، وإمَّا على المفعولِ معه وهو مرجوحٌ لإمكانِ النَّسَقِ مِنْ غيرِ ضعفٍ . وما بعدها تقدَّم إعرابُ مِثْلِه .

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)

قوله : ﴿ إِذْ نادى ﴾ "إذا" منصوبٌ بمضافٍ محذوفٍ ، أي : ولا تكُنْ حالُك كحالِه ، أو قصتُك كقصتِه ، في وقتِ ندائِه . ويَدُلُّ على المحذوفِ أنَّ الذواتِ لا يَنْصَبُّ عليها النهيُ ، إنما ينصَبُّ على أحوالِها وصفاتِها .

قوله : ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من الضميرِ في "نادى" والمَكْظومُ : المُمْتَلِىءُ حُزْناً وغَيْظاً . قال ذو الرمة :

4315 وأنتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حُزْناً . . . عاني الفؤادِ قريحُ القلبِ مكظومُ

وتقدَّمت مادتُه في آل عمران .

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

قوله : ﴿ تَدَارَكَهُ ﴾ : قرأ أُبي وعبدُ الله وابنُ عباس " تدارَكَتْه " بتاء التأنيث لأجلِ اللفظِ به ، والحسنُ وابنُ هرمز والأعمش " تَدَّارَكُه " بتشديدِ الدالِ وخُرِّجَتْ على أنَّ الأصلَ " تَتَدارَكُه " بتاءَيْن مضارعاً فأدغم ، وهو شاذٌّ ؛ لأنَّ الساكنَ الأولَ غيرُ حرفِ لينٍ وهي كقراءةِ البزي ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ [النور : 15] ﴿ نَاراً تَلظَّى ﴾ [الليل : 14] وهذا على حكايةِ الحالِ ؛ لأنَّ القصةَ ماضيةٌ فإيقاعُ المضارعِ هنا للحكاية .

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)

قوله : ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ : قرأها نافعٌ بفتح الياءِ ، والباقون بضمّها . فأمَّا قراءةُ الجماعةِ فمِنْ أَزْلَقَه ، أي : أَزَلَّ رِجْلَه ، فالتعديةُ بالهمزةِ مِنْ زَلِقَ يَزْلَقُ . وأمَّا قراءةُ نافع فالتعديةُ بالحركةِ يقال : زَلِقَ بالكسر وزَلَّقْتُه بالفتح . ونظيرُه : شَتِرَتْ عَيْنُه بالكسرِ ، وشَتَرها اللَّهُ بالفتح ، وقد تقدَّم لذلك أخواتٌ . وقيل : زَلَّقه وأَزْلَقه بمعنى واحدٍ . ومعنى الآيةِ في الاصابةِ بالعينِ . وفي التفسير قصةٌ . والباءُ : إمَّا للتعديةِ كالداخلةِ على الآلةِ ، أي : جعلوا أبصارهم كالآلةِ المُزْلِقَةِ لك ، كعَمِلْتُ بالقَدوم ، وإمَّا للسببيةِ ، أي : بسبب عيونِهم . /

قوله : ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر ﴾ مَنْ جَعَلْها ظرفيةً جَعَلها منصوبةً ب "يُزْلِقُونك" ، ومَنْ جعلها حرفاً جَعَلَ جوابَها محذوفاً للدلالةِ ، أي : لَمَّا سَمِعوا الذِّكْرَ كادوا يُزْلِقونك ، ومَنْ جَوَّزَ تقديمَ الجوابِ قال : هو هنا متقدِّمٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 421.397 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة القلم

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم كريم من شهد لطفه لم يتلل بعدع لمخلوق ، ولم يستعن فيما نا به من ضر أصابه أو خير أراده بمحدث مرزوق .

إن أعطاه قابله بالشكر ، وإن منعه استجابه بجميل الحمد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

﴿ نٓ ﴾ قيل : الحوت الذي على ظهره الكون ، ويقال : هي الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين .

وأقسم بالقلم – وجوابُ القسم قولُه :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ .

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحققاً ذلك بالقَسَم عليه . . . وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه – سبحانه – عليهم بخطابه وعنه ينفيه .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ : أي غير منقوص . . . لَمَّا سَمَتْ هِمَّتُه صلى الله عليه وسلم عن طلب الأعواض أثبت اللَّهُ له الأجر ، فقال له : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ – وإنْ كُنْتَ لا تريده .

ومن ذلك الأَجْر العظيم هذا الخُلُق ، فأنت لستَ تريد الأجْرَ – وبِنَا لَسْتَ تريد ؛ فلولا أنْ خَصَصْناكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِك في أنهم في أسْرِ الأعواض .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

كما عرَّفَه اللَّهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قبْلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

(381/778)

ويقال : إنه عَرَضَ مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها ، ورقّاه ليلةَ المعراج ، وأراه جميع المملكة والجنة فلم يلتفت إليها ، قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : 17] فما التفت

يميناً ولا شمالاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . . . ويقال : ﴿ على خلق عظيم ﴾ : لا بالبلاءِ تنحرف ، ولا بالعطاءِ تنصِرف ؛ احتمل صلوات الله عليه في الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه ، وكان يقول :

" اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وغداً كلٌّ يقول : نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول : " أمتي أمتي "

ويقال : عَلّمه محاسنَ الأخلاق بقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

سأل صلواتُ الله عليه جبريل : " بماذا يأمرني ربي ؟ قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ؛ يقول لك : صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عَمَّن ظَلَمَك " فتأدَّبَ بهذا ؛ فأثنى عليه وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

المفتون : المجنون لأنه فُتِنَ أي مُحِنَ بالجنون .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُك واحداً . . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهوداً واحداً .

﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

مَنْ أصبح عليلاً تمنّى أَنْ يكونَ الناسُ كلُّهم مَرْضَى . . . وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أَنْ يُشاركه فيه مَنْ عاداه .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ .

وهو الذي سقط من عيننا ، وأقميناه بالبعد عنا .

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴾ .

محجوب عنَّا مُعذَّب بخذلان الوقيعة في أوليائنا .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ .

مُهانٍ بالشُّحِّ ، مسلوب التوفيق .

﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

(382/778)

ممنوعِ الحياءِ ، مُشَتَّتٍ في أودية الحرمان .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ .

لئيم الاصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة بباطله ، غير راجعٍ في شيءٍ منْ الخير إلى

حاصله .

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

أي : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين . . . ثم استأنف الكلام فقال : إذا تتلى . . . قابَلَها بالتكذيب ، وحَكَمَ أنَّ القرآن من الاساطير .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ .

أي سنجعل له في القيامة على أنفهِ تشويهاً لصورته كي يُعْرَفَ بها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ .

أي امتحنَّهم . . . حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فابتلاهم الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيَف – كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل : إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تَعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم ، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القطافُ من نخلة وكَرْمه يَدَعه للمساكين ، وكان يجتمع منه مال ، فلما هو قال وَرَثَتُه : إنَّ هذا المالَ تفرَّق فينا ، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يُعْطوا للفقراء شيئاً ، فأهلكَ اللَّهُ جَنَّتَهم ؛ فندموا وتابوا .

وقيل : أَبدلَهم اللَّهُ جنةً حسنة ، فأقسموا ليصرمُنَّ جنَّتهم وقت الصبح قبل أَنْ تفطِنَ

المساكينُ ، ولم يقولوا : إن شاء الله .

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)

(383/778)

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت ﴿ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي كالليل المسودِّ ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعَهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25)

﴿ عَلَى حَرْدٍ ﴾ أي : قادرين عند أنفسهم ، ويقال : على غضبٍ منهم على المساكين .

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصلَتْ قالوا : ليست هذه جنتنا ! !

ثم قالوا : بل هذه جَنّتُنا . . . ولكنّا حُرِمْنا خيرَها .

قال أوسطُهم : أي أعدلُهم طريقةَ وأحسنُهم قولاً :

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28)

أي : تستثنون وتقولون : ﴿ إِن شَآءَ اللَّهُ ﴾ [البقرة : 70] .

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29)

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون ، ويقولون .

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ كَذَالِكَ الْعَذَابُ ﴾ لأهل مكة ﴿ وَلَعَذَابُ الأَخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾

وهكذا تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالي ، ويجتنبُ المعاصي ، فيُعَوضه اللَّهُ في الوقتِ نشاطاً ، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ . . . فإذا بَدَرَ منه سوءٌ دعوى أو تَرْكَ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قرْةٍ من الإعمال فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ – انقلب حالُه ، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوتُه قسوةً . وإن كان له بعد ذلك توبة ، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة – فقد فات الأمُرُ من يده ، وقلَّما يصل إلى حاله .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ في بدايته من أحواله . . . فإنَّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده .

(384/778)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر ، ثم المعاصيَ والفِسُقَ ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ .

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ ؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفي ذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .

﴿ عَن سَاقٍ ﴾ : أي عن شِدَّةٍ يومَ القيامة .

ويقال في التفسير عن ساقِ العرش .

يُؤْمَرون بالسجود ؛ فأمَّا المؤمنون فيسجدون ، وأمَّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحني .

وقيل : يكشف المريضُ عن ساقه – وقت التوفّي – لِيُبْصِرَ ضعفَه – ويقول المؤذِّنُ : حيِّ على الصلاة – فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوَّفَهم بهذه القالة : إمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة .

﴿ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ . . . ﴾ .

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرةً ، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلغَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . سنُقَرِّبُهم من العقوبة بحيث لا يشعرون .

وبالاستدراجُ : أَنْ يريد الشيءَ ويَطْوِي عن صاحبه وَجْهُ القَصْدِ فيه ، ويُدْرِجُه إليه شيئاً

بعد شيء ، حتى يأخذه بغتةً .

ويقال : الاستدراج : التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر .

ويقال : الاستدراج : أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً .

ويقال : أَلاَّ يُعاقِبَه في حالِ الزَّلَّة ، وإنما يؤخِّر العقوبَة إلى ما بعدها . . .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغرارُ بطول الإمهال .

(385/778)

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشوَّش .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ .

أُمْهِلُهم . . . ثم إذا أَخَذْتُهم فأخْذِي أَليمٌ شديدٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ .

أي : ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه ، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك . . .

فأنت لا تسأل أجراً . . . فما موجباتُ التأخُّرِ وتركُ الاستجابة ؟

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟ ﴾ .

أم عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا ؟ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام : ﴿ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ : مملوء بالغيظ على قومه . فلا تستعجلْ – يا محمد – بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي ، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا ، ولا تُعارِضْ تقديرنا .

﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ . أي : لولا أَنَّ اللَّهَ رَحِمَه بفَضْلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم ولكن : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

فاصطفاه واختاره ، وجعله من الصالحين بأن أَرسله إلى مائة أَلف أَو يزيدون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ .

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أَيامٍ ، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين : ما أَحسنه من شيء ! فكان يسقط المنظور في الوقت . وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه ، فقالوا : ما أَفصحه من رجل ! ولكنَّ الله سبحانه حفظه ، ومَنَّ بذكره عليه . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 616.623 ﴾

---

(1) ننبه إلى نقطة هامة . . ورود اسم القشيري عند القرطبي لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيري صاحب هذا الكتاب ، بل ربما كان أحد أبنائه الستة . . فكلهم أئمة .

وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبي الجزء العشرين ص 54) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيري هنا وما جاء عند القرطبي في ح 18 ص 255 (قال القشيري : وفي هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه لمجنون) أي ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

(386/778)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْقَلَمِ

سُورَةُ (ن) هِيَ سُورَةُ " الْخُلُقِ " الَّذِي هُوَ جِمَاعُ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاس : عَلَى دِينٍ عَظِيمٍ . وَقَالَهُ ابْنُ عُيَيْنَة وَأَخَذَهُ أَحْمَد عَنْ ابْنِ عُيَيْنَة . فَإِنَّ الدِّينَ وَالْعَادَةَ وَالْخُلُقَ أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى فِي الذَّاتِ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ فِي الصِّفَاتِ كَمَا قِيلَ فِي لَفْظِ الدِّينِ : فَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي . وَجَمَعَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ :

مَا الْأَمْرُ إلَّا نَسَقٌ وَاحِدٌ * * * مَا فِيهِ مِنْ مَدْحٍ وَلَا ذَمِّ

وَإِنَّمَا الْعَادَةُ قَدْ خَصَّصَتْ * * * وَالطَّبْعُ وَالشَّارِعُ بِالْحُكْمِ

(387/778)

(ن) أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ بِهِ يَكُونُ الْكِتَابُ السَّاطِرُ لِلْكَلَامِ : الْمُتَضَمِّنِ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ فَالْإِقْسَامُ وَقَعَ بِقَلَمِ التَّقْدِيرِ وَمَسْطُورِهِ فَتَضَمَّنَ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ تَنَاسُبَ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ . " أَحَدُهُمَا " الْإِحَاطَةُ بِالْحَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ بِالشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ أَبْلَغُ مِمَّنْ عَلِمَهُ بَعْدَ كَوْنِهِ فَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَحْكَمُ وَأَصْدَقُ . " الثَّانِي " أَنَّ حُصُولَهُ فِي الْكِتَابَةِ وَالتَّقْدِيرِ يَتَضَمَّنُ حُصُولَهُ فِي الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَالْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ؛ فَإِقْسَامُهُ بِآخِرِ الْمَرَاتِبِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ أَوَّلَهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ؛ وَذَلِكَ غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ إذَا صَارَ مَكْتُوبًا . فَلَيْسَ كُلُّ مَعْلُومٍ مَقُولًا وَلَا كُلُّ مَقُولٍ مَكْتُوبًا وَهَذَا يُبَيِّنُ لَك حِكْمَةَ الْإِخْبَارِ عَنْ الْقَدْرِ السَّابِقِ بِالْكِتَابِ دُونَ الْكَلَامِ فَقَطْ أَوْ دُونَ الْعِلْمِ فَقَطْ . وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ثَلَاثُ جُمَلٍ : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ سَلَبَ عَنْهُ النَّقْصَ الَّذِي يَقْدَحُ فِيهِ وَأَثْبَتَ لَهُ الْكَمَالَ الْمَطْلُوبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي أَتَى بِهِ إمَّا أَنْ يَكُونَ

حَقًّا أَوْ بَاطِلًا وَإِذَا كَانَ بَاطِلًا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ الْعَقْلِ أَوْ عَدَمِهِ فَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الْمُمْكِنَةُ فِي نَظَائِرِ هَذَا .

(388/778)

" الْأَوَّلُ " أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا وَلَا عَقْلَ لَهُ . فَهَذَا مَجْنُونٌ لَا ذَمَّ عَلَيْهِ وَلَا يُتَّبَعُ . " الثَّانِي " أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا وَلَهُ عَقْلٌ فَهَذَا يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ . " الثَّالِثُ " أَنْ يَكُونَ حَقًّا مَعَ الْعَقْلِ فَنَفَى عَنْهُ الْجُنُونَ أَوَّلًا ثُمَّ أَثْبَتَ لَهُ الْأَجْرَ الدَّائِمَ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْعِقَابِ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ؛ وَذَلِكَ يُبَيِّنُ عِظَمَ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْهُ الْبُطْلَانَ . وَأَيْضًا : فَالنَّاسُ نَوْعَانِ : إمَّا مُعَذَّبٌ وَإِمَّا سَلِيمٌ مِنْهُ . وَالسَّلِيمُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : إمَّا غَيْرُ مُكَلَّفٍ وَإِمَّا مُكَلَّفٌ قَدْ عَمِلَ صَالِحًا : مُقْتَصِدًا وَإِمَّا سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ . فَجَعَلَ الْقَسَمَ مُرَتَّبًا عَلَى الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ أَفْضَلُ قَسْمِ السُّعَدَاءِ وَهَذَا غَايَةُ كَمَالِ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ بَدِيعٌ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ . ثُمَّ قَالَ ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الْآيَاتِ ؛ فَتَضَمَّنَ أَصْلَيْنِ : " أَحَدُهُمَا " أَنَّهُ نَهَاهُ عَنْ طَاعَةِ هَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ فَكَانَ فِيهِ فَوَائِدُ : " مِنْهَا " أَنَّ النَّهْيَ عَنْ طَاعَةِ الْمَرْءِ نَهْيٌ عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِ بِالْأَوْلَى ، فَلَا

(389/778)

يُطَاعُ الْمُكَذِّبُ وَالْحَلَّافُ وَلَا يُعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِمَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وَأَمْثَالِهِ فَإِنَّ النَّهْيَ عَنْ قَبُولِ قَوْلِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْخُلُقِ النَّاقِصِ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ مِنْ النَّهْيِ عَنْ التَّخَلُّقِ بِهِ . " وَمِنْهَا " أَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الْإِكْرَامِ . وَالِاحْتِرَامِ فَإِنَّ قَوْلَهُ : لَا تَكْذِبْ وَلَا تَحْلِفْ وَلَا تَشْتُمْ وَلَا تَهْمِزْ : لَيْسَ هُوَ مِثْلَ قَوْلِهِ لَا تُطِعْ مَنْ يَكُونُ مُتَلَبِّسًا بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَشْرِيفِهِ وَبَرَاءَتِهِ . " وَمِنْهَا " أَنَّ الْأَخْلَاقَ مُكْتَسَبَةٌ بِالْمُعَاشَرَةِ ؛ فَفِيهِ تَحْذِيرٌ عَنْ اكْتِسَابِ شَيْءٍ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ بِالْمُخَالَطَةِ لَهُمْ ؛ فَلْيَأْخُذْ حِذْرَهُ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى مُخَالَطَتِهِمْ لِأَجْلِ دَعْوَتِهِمْ إلَى اللَّهِ تَعَالَى . " وَمِنْهَا " أَنَّهُمْ يُبْدُونَ مَصَالِحَ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ فَلَا تُطِعْ مَنْ كَانَ هَكَذَا وَلَوْ أَبْدَاهَا فَإِنَّ الْبَاعِثَ لَهُمْ عَلَى مَا يَأْمُرُونَ بِهِ هُوَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَإِذَا كَانَ الْأَصْلُ الْمُقْتَضِي لِلْأَمْرِ فَاسِدًا لَمْ يُقْبَلْ مِنْ الْآمِرِ فَإِنَّ الْأَمْرَ مَدَارُهُ عَلَى الْعِلْمِ بِالْمَصْلَحَةِ وَإِرَادَتِهَا فَإِذَا كَانَ جَاهِلًا لَمْ يَعْلَمْ الْمَصْلَحَةَ وَإِذَا كَانَ الْخُلُقُ فَاسِدًا لَمْ يُرِدْهَا ؛ وَهَذَا مَعْنًى بَلِيغٌ . "

(390/778)

الْأَصْلُ الثَّانِي " أَنَّهُ ذَكَرَ قِسْمَيْنِ الْمُكَذِّبِينَ وَذَوِي الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ وَذَلِكَ لِوُجُوهٍ : " أَحَدُهَا " أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فَضِدُّهُ التَّكْذِيبُ وَالْعَمَلُ الْفَاسِدُ . و " الثَّانِي " أَنَّ

الْمُؤْمِنِينَ مَأْمُورُونَ بِالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ فَكَمَا أَنَّا مَأْمُورُونَ بِقَبُولِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَالْإِيصَاءِ بِهَا : فَقَدْ نُهِينَا عَنْ قَبُولِ ضِدِّهَا . وَهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ وَالتَّرْكُ لِلصَّبْرِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ إنَّمَا تَحْصُلُ لِعَدَمِ الصَّبْرِ وَالصَّبْرُ ضَابِطُ الْأَخْلَاقِ الْمَأْمُورِ بِهَا ؛ وَلِهَذَا خَتَمَ السُّورَةَ بِهِ وَقَالَ : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ فَكَانَ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ مَا بُيِّنَ هُنَا . فَنَهَاهُ عَنْ طَاعَةِ الَّذِي فِي خُسْرٍ ضِدَّ الَّذِي لِلْمُؤْمِنِينَ الْآمِرِينَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالَّذِي فِي خُسْرٍ هُوَ الْكَذَّابُ الْمَهِينُ فَهُوَ تَارِكٌ لِلْحَقِّ وَالصَّبْرِ .

" الْأَصْلُ الثَّالِثُ " (1) : أَنَّ صَلَاحَ الْإِنْسَانِ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ الَّذِي يَصْعَدُ إلَى اللَّهِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ جِمَاعُ الْعَدْلِ وَجِمَاعُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ : هُوَ الظُّلْمُ . كَمَا قَرَّرَ فِي غَيْرِ هَذَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ وَالتَّكْذِيبُ بِالْحَقِّ صَادِرٌ إمَّا عَنْ جَهْلٍ وَإِمَّا عَنْ ظُلْمٍ وَهُوَ الْجَاحِدُ

(391/778)

الْمُعَانِدُ وَصَاحِبُ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ إنَّمَا يُوقِعُهُ فِيهَا أَحَدُ أَمْرَيْنِ : إمَّا الْجَهْلُ بِمَا فِيهَا وَمَا فِي ضِدِّهَا فَهَذَا جَاهِلٌ وَإِمَّا الْمَيْلُ وَالْعُدْوَانُ وَهُوَ الظُّلْمُ فَلَا يَفْعَلُ السَّيِّئَاتِ إلَّا جَاهِلٌ بِهَا أَوْ مُحْتَاجٌ إلَيْهَا مُتَلَذِّذٌ بِهَا وَهُوَ الظَّالِمُ . فَنَهَاهُ عَنْ طَاعَةِ الْجَاهِلِينَ وَالظَّالِمِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ ﴾ الْآيَةَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ ادِّهَانَهُ لِيَدَّهِنُوا فَهُمْ لَا يَأْمُرُونَهُ نُصْحًا ؛ بَلْ يُرِيدُونَ مِنْهُ الِادِّهَانَ وَيَتَوَسَّلُونَ بِادِّهَانِهِ إلَى ادِّهَانِهِمْ وَيَسْتَعْمِلُونَهُ لِأَغْرَاضِهِمْ فِي صُورَةِ النَّاصِحِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا نَشَأَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي قُلُوبِهِمْ غَايَةٌ يَنْتَهُونَ إلَيْهَا مِنْ الْحَقِّ ؛ لَا فِي الْحَقِّ الْمَقْصُودِ وَلَا الْحَقِّ الْمَوْجُودِ لَا خَبَرًا عَنْهُ وَلَا أَمْرًا بِهِ وَلَا اعْتِقَادًا وَلَا اقْتِصَادًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ إلَخْ . ذَكَرَ أَرْبَعَ آيَاتٍ كُلُّ آيَتَيْنِ جَمَعَتْ نَوْعًا مِنْ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ الْمَذْمُومَةِ وَجَمَعَ فِي كُلِّ آيَةٍ بَيْنَ النَّوْعِ الْمُتَشَابِهِ خَبَرًا وَطَلَبًا فَالْحَلَّافُ مَقْرُونٌ بِالْمَهِينِ ؛ لِأَنَّ الْحَلَّافَ هُوَ كَثِيرُ الْحَلِفِ وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الطَّلَبِ فَهُوَ إمَّا تَصْدِيقٌ أَوْ تَكْذِيبٌ أَوْ حَضٌّ أَوْ مَنْعٌ ؛ وَإِنَّمَا يُكْثِرُ الرَّجُلُ ذَلِكَ فِي خَبَرِهِ إذَا احْتَاجَ أَنْ يُصَدَّقَ وَيُوثَقَ بِخَبَرِهِ . وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الْحَلِفِ كَانَ كَثِيرَ الْكَذِبِ فِي الْعَهْدِ مُحْتَاجًا إلَى النَّاسِ فَهُوَ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ ﴿ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ حَلَّافٌ فِي أَقْوَالِهِ . مَهِينٌ فِي أَفْعَالِهِ .

(392/778)

وَأَمَّا الْهَمَّازُ الْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ : فَالْهَمْزُ أَقْوَى مِنْ اللَّمْزِ وَأَشَدُّ - سَوَاءٌ كَانَ هَمْزَ الصَّوْتِ أَوْ هَمْزَ حَرَكَةٍ - وَمِنْهُ " الْهَمْزَةُ " وَهِيَ نَبْرَةٌ مِنْ الْحَلْقِ مِثْلُ التَّهَوُّعِ وَمِنْهُ الْهَمْزُ بِالْعَقِبِ كَمَا فِي حَدِيثِ زَمْزَمَ : ﴿ أَنَّهُ هَمْزُ جِبْرِيلَ بِعَقِبِهِ ﴾ وَالْفَعَّالُ : مُبَالَغَةٌ فِي الْفَاعِلِ . فَالْهَمَّازُ الْمُبَالِغُ فِي

الْعَيْبِ نَوْعًا وَقَدْرًا . الْقُدْرَةُ مِنْ صُورَةِ اللَّفْظِ وَهُوَ الْفَعَّالُ . وَالنَّوْعُ مِنْ مَادَّةِ اللَّفْظِ وَهُوَ الْهَمْزَةُ . وَالْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ هُوَ مِنْ الْعَيْبِ وَلَكِنَّهُ عَيْبٌ فِي الْقَفَا فَهُوَ عَيْبُ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ . فَذَكَرَ الْعَيَّابَ بِالْقُوَّةِ وَالْعَيَّابَ بِالضَّعْفِ وَالْعَيَّابَ فِي مَشْهَدٍ وَالْعَيَّابَ فِي مَغِيبٍ . وَأَمَّا ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ فَإِنَّ الظُّلْمَ نَوْعَانِ : تَرْكُ الْوَاجِبِ وَهُوَ مَنْعُ الْخَيْرِ وَتَعَدٍّ عَلَى الْغَيْرِ وَهُوَ الْمُعْتَدِي . وَأَمَّا الْأَثِيمُ مَعَ الْمُعْتَدِي فَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ . وَأَمَّا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ : فَهُوَ الْجَبَّارُ الْفَظُّ الْغَلِيظُ الَّذِي قَدْ صَارَ مِنْ شِدَّةِ تَجَبُّرِهِ وَغِلَظِهِ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ مَشْهُورًا بِهِ لَهُ زَنَمَةٌ كَزَنَمَةِ الشَّاةِ . وَيُشْبِهُ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ الْحَلَّافُ الْمَهِينُ الْهَمَّازُ الْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ فِي الْأَقْوَالِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ الْأَفْعَالِ وَالْمَنَّاعُ الْمُعْتَدِي الْأَثِيمُ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ مِنْ جِنْسٍ وَهُوَ فِي الْأَفْعَالِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ الْأَقْوَالِ . فَالْأَوَّلُ الْغَالِبُ عَلَى

جَانِبِ الْأَعْرَاضِ وَالثَّانِي الْغَالِبُ عَلَى جَانِبِ

(393/778)

الْحُقُوقِ فِي الْأَحْوَالِ وَالْمَنَافِعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَوَصَفَهُ بِالظُّلْمِ وَالْبُخْلِ وَالْكِبْرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ : ﴿

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ فِيهِ إطْلَاقٌ يَتَضَمَّنُ الْوَسْمَ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الدُّنْيَا أَيْضًا . فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلصَّالِحِينَ سيما وَجَعَلَ لِلْفَاجِرِينَ سيما . قَالَ تَعَالَى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ وَقَالَ يَظْهَرُ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ الْآيَةَ . فَجَعَلَ الْإِرَادَةَ وَالتَّعْرِيفَ بِالسِّيمَا الَّذِي يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ مُعَلَّقًا عَلَى الْمَشِيئَةِ وَأَقْسَمَ عَلَى التَّعْرِيفِ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا بُدَّ أَنْ يُعْرَفُوا فِي أَصْوَاتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ لَحْنُ قَوْلِهِمْ وَهَذَا ظَاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ فِي النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْفِرَاسَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَظْهَرُ فِيهَا مِنْ النَّوَاقِضِ وَالْفُحْشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَمَّا ظُهُورُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَقَدْ يَكُونُ وَقَدْ لَا يَكُونُ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ ظُهُورَ مَا فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ عَلَى فَلَتَاتِ لِسَانِهِ أَقْوَى مِنْ ظُهُورِهِ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ ؛ لِأَنَّ اللِّسَانَ تُرْجُمَانُ الْقَلْبِ فَإِظْهَارُهُ لِمَا أَكَنَّهُ أَوْكَدُ ؛ وَلِأَنَّ دَلَالَةَ اللِّسَانِ قَالِيَةٌ وَدَلَالَةَ الْوَجْهِ حَالِيَّةٌ . وَالْقَوْلُ أَجْمَعُ وَأَوْسَعُ لِلْمَعَانِي الَّتِي فِي الْقَلْبِ مِنْ الْحَالِ ؛ وَلِهَذَا فَضَّلَ مَنْ فَضَّلَ كَابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ السَّمْعَ عَلَى الْبَصَرِ .

وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ السَّمْعَ أَوْسَعُ وَالْبَصَرَ أَخَصُّ وَأَرْفَعُ وَإِنْ كَانَ إدْرَاكُ السَّمْعِ أَكْثَرَ فَإِدْرَاكُ الْبَصَرِ أَكْمَلُ ؛ وَلِهَذَا أَقْسَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمْ بِسَمْعِهِ وَأَمَّا إدْرَاكُهُ إيَّاهُمْ بِالْبَصَرِ بِسِيمَاهُمْ فَقَدْ يَكُونُ وَقَدْ لَا يَكُونُ . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسِمَ صَاحِبَ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْخَبِيثَةِ عَلَى خُرْطُومِهِ وَهُوَ أَنْفُهُ الَّذِي هُوَ عُضْوُهُ الْبَارِزُ الَّذِي يَسْبِقُ الْبَصَرَ إلَيْهِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِ ؛ لِتَكُونَ السِّيمَا ظَاهِرَةً مِنْ أَوَّلِ مَا يَرَى وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْفَجَرَةِ الظَّلَمَةِ الَّذِينَ وَدَعَهُمْ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ وَفُحْشِهِمْ فَإِنَّ لَهُمْ سِيمَا مِنْ شَرٍّ يُعْرَفُونَ بِهَا . وَكَذَلِكَ الْفَسَقَةُ وَأَهْلُ الرِّيَبِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ إلَخْ . فِيهِ بَيَانُ حَالِ الْبُخَلَاءِ وَمَا يُعَاقَبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مِنْ تَلَفِ الْأَمْوَالِ إمَّا إغْرَاقًا وَإِمَّا إحْرَاقًا وَإِمَّا نَهْبًا وَإِمَّا مُصَادَرَةً وَإِمَّا فِي شَهَوَاتِ الْغَيِّ وَإِمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُعَاقَبُ بِهِ الْبُخَلَاءُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ الْحَقَّ . وَلَيْسَ إقْدَامٌ فِي صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ وَهُوَ أَحَدُ نَوْعَيْ الظُّلْمِ كَمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ نُفُوسِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ وَكَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ ﴾ . وَتَضَمُّنُ عُقُوبَةِ الظَّالِمِ الْمَانِعِ لِلْحَقِّ أَوْ مُتَعَدِّي الْحَقِّ كَمَا يُعَاقِبُ اللَّهُ مَانِعَ الزَّكَاةِ وَهُوَ مَنَّاعٌ الْخَيْرَ وَآكِلَ الرِّبَا

(395/778)

وَالْمَيْسِرِ : الَّذِي هُوَ أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا أَخْبَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ يُعَاقِبُهُ بِنَقِيضِ

(396/778)

قَصْدِهِ فَهُنَا أَخْبَرَ بِعُقُوبَةِ تَارِكِ الْحُقُوقِ وَفِي الْبَقَرَةِ بِعُقُوبَةِ الْمُرَابِي وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ تَتَنَاوَلُ مَنْ يَتْرُكُ هَذَا الْوَاجِبَ وَفَعَلَ هَذَا الْمُحَرَّمَ مِنْ الْمُحْتَالِينَ كَمَا أَخْبَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَكَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي أَهْلِ مَنْعِ الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَالْحِيَلِ الرِّبَوِيَّةِ مِنْ الْعُقُوبَاتِ وَالْمَثُلَاتِ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِبَابٍ مِنْ الْخَيْرِ وَأَمَرَهُ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ فَبَخِلَ عَاقَبَهُ بِبَابٍ مِنْ الشَّرِّ يَذْهَبُ فِيهِ أَضْعَافُ مَا بَخِلَ بِهِ وَعُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ مُدَّخَرَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِعُقُوبَةِ الْمُتَكَبِّرِ الَّذِي هُوَ مِنْ نَوْعِ الْعُتُلِّ الزَّنِيمِ الَّذِي يُدْعَى إلَى السُّجُودِ وَالطَّاعَةِ فَيَأْبَى ؛ فَفِيهَا عُقُوبَةُ تَارِكِ الصَّلَاةِ وَتَارِكِ الزَّكَاةِ . فَتَارِكُ الصَّلَاةِ هُوَ الْمُعْتَدِي الْأَثِيمُ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ . وَتَارِكُ الزَّكَاةِ الظَّالِمُ الْبَخِيلُ .

وَخَتَمَهَا بِالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ الَّذِي هُوَ جِمَاعُ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وَذَلِكَ نَصٌّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا يَنَالُهُ مِنْ أَذَى الْخَلْقِ وَعَلَى الْمَصَائِبِ السَّمَاوِيَّةِ . وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَوَّلِ أَشَدُّ وَصَاحِبُ الْحُوتِ ذَهَبَ مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ لِأَجْلِ الْأَمْرِ السَّمَاوِيِّ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ إلَخْ فَآخِرُهَا مُنْعَطِفٌ عَلَى أَوَّلِ مَا فِي

قَوْلِهِ : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ وَالْإِزْلَاقُ بِالْبَصَرِ هُوَ الْغَايَةُ فِي الْبُغْضِ

(397/778)

وَالْغَضَبِ وَالْأَذَى . فَالصَّبْرُ

عَلَى ذَلِكَ نَوْعٌ مِنْ الْحِلْمِ وَهُوَ احْتِمَالُ أَذَى الْخَلْقِ وَفِي ذَلِكَ مَا يَدْفَعُ كَيْدَهُمْ وَشَرَّهُمْ . وَمَا ذَكَرَهُ فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَمْرِ السَّخَاءِ وَالْجُودِ وَمَا ذَكَرَهُ هُنَا مِنْ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ : هُوَ جِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ الْآيَةَ كَمَا قِيلَ :

بِحِلْمٍ وَبَذْلٍ سَادَ فِي قَوْمِهِ الْفَتَى * * * وَكَوْنُك إيَّاهُ عَلَيْك يَسِيرُ

فَالْإِحْسَانُ إلَى النَّاسِ بِالْمَالِ وَالْمَنْفَعَةِ وَاحْتِمَالُ أَذَاهُمْ كَالسَّخَاءِ الْمَحْمُودِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فَفِي أَخْذِهِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ احْتِمَالُ أَذَاهُمْ وَهُوَ نَوْعَانِ : تَرْكُ مَا لَك مِنْ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ فَأَخْذُ الْعَفْوِ أَنْ لَا تُطَالِبَ مَا تَرَكُوهُ مِنْ حَقِّك وَأَنْ لَا تَنْهَاهُمْ فِيمَا تَعَدَّوْا فِيهِ الْحَدَّ فِيك وَإِذَا لَمْ تَأْمُرْهُمْ وَلَمْ تَنْهَهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ (1) .

وَقَالَ : هَذِهِ تَفْسِيرُ آيَاتٍ أُشْكِلَتْ حَتَّى لَا يُوجَدُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ إلَّا مَا هُوَ خَطَأٌ فِيهَا .

(398/778)

مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ حَارَ فِيهَا كَثِيرٌ وَالصَّوَابُ الْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : الشَّيْطَانُ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هُمْ أَوْلَى بِالشَّيْطَانِ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ . فَبَيَّنَ الْمُرَادَ فَإِنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَى اللَّفْظِ كَعَادَةِ السَّلَفِ فِي الِاخْتِصَارِ مَعَ الْبَلَاغَةِ وَفَهْمِ الْمَعْنَى . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : الْمَجْنُونُ . فَإِنَّ مَنْ كَانَ بِهِ الشَّيْطَانُ فَفِيهِ الْجُنُونُ . وَعَنْ الْحَسَنِ : الضَّالُّ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِالْمَجْنُونِ الَّذِي يَخْرِقُ ثِيَابَهُ وَيَهْذِي ؛ بَلْ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالَفَ أَهْلَ الْعَقْلِ فِي نَظَرِهِمْ كَمَا يُقَالُ مَا لِفُلَانٍ عَقْلٌ . وَمِثْلُ هَذَا رَمَوْا بِهِ أَتْبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ وَمِثْلُهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَثِيرٌ يَسْخَرُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَيَرْمُونَهُمْ بِالْجُنُونِ وَالْعَظَائِمِ الَّتِي هُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْهُمْ . قَالَ الْحَسَنُ لَقَدْ رَأَيْت رِجَالًا لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقُلْتُمْ مَجَانِينَ وَلَوْ رَأَوْكُمْ لَقَالُوا هَؤُلَاءِ شَيَاطِينُ وَلَوْ رَأَوْا خِيَارَكُمْ لَقَالُوا هَؤُلَاءِ لَا خَلَاقَ لَهُمْ وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ لَقَالُوا هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ

(399/778)

بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ السَّلَفِ ؛ يَصِفُونَ أَهْلَ زَمَانِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ مَنْ تَقَدَّمَ فَمَا الظَّنُّ بِأَهْلِ زَمَانِنَا . وَالَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا هَذَا . قَالُوا الْبَاءُ زَائِدَةٌ قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرُهُ . وَهَذَا كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ الْآيَاتِ . ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ الْآيَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 61 . 73 ﴾

(400/778)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

الإعراب :

(والقلم) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما يسطرون) في محلّ جرّ معطوف على القلم .

جملة : " (أقسم) بالقلم . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يسطرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

2 – (ما) نافية عاملة عمل ليس (بنعمة) متعلّق بمعنى النفي في (ما) ،

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي يسطرونه ، وضمير الفاعل يعود على الملائكة الكتبة .

و (الباء) سببيّة " 1 " ، (مجنون) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . . .

وجملة : " ما أنت . . . بمجنون " لا محلّ لها جواب القسم 3 – (الواو) عاطفة (لك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد في موضع لام القسم (غير) نعت لـ (أجرا) منصوب .

وجملة : " إنّ لك لأجرا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

4 – (الواو) واو العطف (اللام) للتوكيد في موضع لام القسم عوضا من المزحلقة (على خلق) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " إنّك لعلى خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

البلاغة

فن المناسبة اللفظية : في قوله تعالى " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ " وما بعدها ، إلى قوله " غَيْرَ مَمْنُونٍ " . وهذا الفن هو عبارة عن الإتيان بلفظات متّزنات .

الاستعارة في الحروف : في قوله تعالى " وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ " .

على في حقيقتها تفيد الاستعلاء ، وهو غير مقصود في الآية ، إذ الرسول عليه السلام لا يستعلي فوق الخلق العظيم ويمتطيه ، كما يمتطي الرجل صهوة الجواد مثلا ، وإنما هو على المجاز والاستعارة ، أراد به تمكن الرسول عليه السلام من الخلق العظيم والسجايا الشريفة .

الفوائد

- حسن الخلق :

روى جابر أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : إن اللّه بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام

---

(1) أي انتفى كونك مجنونا بسبب نعمة ربّك عليك ، ولا يصحّ تعليقه بمجنون كيلا يفيد نفي جنون يكون نعمة من اللّه ، وليس في الوجود جنون هو نعمة .

محاسن الأفعال ، عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) عن البر والإثم فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس . عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول : إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم . أخرجه أبو داود .

و

عن أبي الدرداء ، أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن اللّه تعالى يبغض الفاحش البذيء . أخرجه الترمذي

وقال :

حديث حسن صحيح . و

عن جابر ، رضي اللّه عنه ، أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : إن من أحبكم إلى اللّه وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا .

عن أنس ، رضي اللّه عنه ، قال : خدمت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) عشر سنين ، واللّه ما قال لي أفّ قط ، ولا قال لشيء : لم فعلت كذا ، وهلا فعلت كذا .

[سورة القلم (68) : الآيات 5 إلى 6]

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)

الإعراب :

(403/778)

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بأيّكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (المفتون) " 1 " ، و(أيّ) اسم استفهام.

جملة : " ستبصر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جاء أمر اللّه فستبصر " 2 " .

وجملة : " يبصرون . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة ستبصر .

وجملة : " بأيّكم المفتون " في محلّ نصب مفعول به لفعل الإبصار المعلّق بأيّ " 3 " .

---

(1) بحذف مضاف أي فتن المفتون ، أو بغير حذف إن كان المفتون مصدرا .

(2) أمر اللّه هو يوم القيامة في قول ، أو نصر المؤمنين في الدنيا في قول آخر .

(3) الرؤية البصريّة تعلّق - بفتح اللام - عن العمل على الرأي الصحيح بدليل : أ ما ترى أيّ برق هاهنا . . . وتبصر بمعنى ترى .

الصرف :

(المفتون) ، اسم مفعول من (فتن) الثلاثيّ ، وزنه مفعول . .

ويجوز أن يكون مصدرا كالمعقول والميسور .

7 -

[سورة القلم (68) : آية 7]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره (أعلم) ، (بمن) متعلّق بـ (أعلم) ، (عن سبيله) متعلّق بـ (ضلّ) (الواو) عاطفة (بالمهتدين) متعلّق بـ (أعلم) الثاني .

وجملة : " إنّ ربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل لما قبله .

وجملة : " هو أعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو أعلم (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة هو أعلم (الأولى) .

[سورة القلم (68) : الآيات 8 إلى 16]

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

(405/778)

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة ، وحرّك الفعل بالكسر لالتقاء الساكنين .

جملة : "لا تطع . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أيّ : إن ضلّ المكذّبون فلا تطعهم .

9 - 13 (لو) حرف مصدريّ (الفاء) عاطفة (الواو) عاطفة (مهين ، همّاز ، مشّاء ، منّاع ، معتد ، أثيم ، عتّل ، زنيم) صفات ناعتة لـ (حلّاف) مجرورة مثله (بنميم) متعلّق بـ

(مشّاء) ، (للخير) متعلّق بـ (منّاع) " 1 " ، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (زنيم) ،

والإشارة في (ذلك) إلى المذكور من الصفات السابقة . . .

والمصدر المؤوّل (لو تدهن . . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل ودّوا . . .

وجملة : " ودّوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل للنهي – وجملة : " تدهن

. . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو) .

وجملة : " يدهنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تدهن .

وجملة : " لا تطع (الثانية) " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تطع (الأولى) .

14 – 16 (أن) حرف مصدريّ (عليه) متعلّق بـ (تتلى) ، (آياتنا) نائب الفاعل

(أساطير) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي .

والمصدر المؤوّل (أن كان . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو اللام أي لأنّ كان ذا

. . . متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه الشرط الآتي مع فعله وجوابه ، أي كذّب بآيات اللّه لأن

كان . .

وجملة : " كان . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) أو اللام زائدة للتقوية و(الخير) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لمنّاع .

وجملة : " تتلى عليه آياتنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(407/778)

وجملة : " سنسمه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(10) حلّاف : مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ حلف ، وزنه فعّال بفتح الفاء وتشديد العين المفتوحة .

(11) همّاز : مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ همز باب ضرب ، الذي يعيب غيره ويغتابه ، أو الذي يضرب الناس بيده ، وزنه فعّال .

(مشّاء) ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ مشى ، وزنه فعّال .

(نميم) ، قيل هو مصدر كالنميمة ، وقيل هو جمع النميمة ، أو اسم جمع لها من فعل نمّ باب نصر أو باب ضرب . . . وفي المصباح : النميمة اسم والنميم أيضا . . . وزنه فعيل .

(13) عتّل : بمعنى غليظ وجافّ ، وقيل الشديد الخصومة ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ

عتل باب ضرب وزنه فعلّ بضمّتين وتشديد اللام .

(زنيم) ، بمعنى دعيّ أو لئيم يعرف بلؤمه ، صفة مشبّهة ، وزنه فعيل بمعنى فاعل أي عالق بالقوم كزنمة البعير أو الشاة ، وهي القطعة من الأذن تقطع منها وتترك معلّقة للاستدلال بها .

(16) نسمه : فيه إعلال بالحذف فهو مضارع المعتلّ المثال وسم ، حذفت فاؤه في المضارع فهو معتلّ مثال مكسور العين في المضارع ، وزنه نعله بفتح النون وكسر العين .

(الخرطوم) ، اسم بمعنى الأنف ، وزنه فعلول بضمّ فسكون كزنبور .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ " .

وعبّر بذلك ، كناية عن غاية الإذلال ، لأن السمة على الوجه شين ، حتى إنه (صلّى اللّه عليه وسلّم)

نهى عنه في الحيوانات ، ولعن فاعله ، فكيف على أكرم موضع منه وهو الأنف لتقدمه .

وقد قيل : الجمال في الأنف وجعلوه مكان العزة والحمية ، واشتقوا منه الأنفة . وفي لفظ الخرطوم استهانة ، لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير ، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الاذلال . والمراد سنهينه في الدنيا ، ونذله غاية الإذلال .

[سورة القلم (68) : الآيات 17 إلى 33]

(408/778)

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ
(18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)
فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21)
أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا
يَدْخُلَنَّها الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا
لَضالُّونَ (26)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ
رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا
طاغِينَ (31)
عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (32) كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

الإعراب :

(ما) حرف مصدريّ (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (بلونا) ، (اللام) لام القسم (يصرمنّها) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وحذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد ، و(ها) ضمير مفعول به وهو يعود إلى الجنّة أي ثمرها (مصبحين) حال من فاعل يصرمنّ .

والمصدر المؤوّل (ما بلونا . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله بلوناهم .

جملة : "إنّا بلوناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بلوناهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " بلونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " أقسموا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يصرمنّها . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

18 - (الواو) اعتراضيّة " 1 " ، (لا) نافية . . .

وجملة : " لا يستثنون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 2 " .

19 - (الفاء) عاطفة (عليها) متعلّق بـ (طاف) ، (من ربّك) متعلّق بنعت لطائف (الواو) حاليّة . . .

وجملة : " طاف عليها طائف . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أقسموا .

وجملة : " هم نائمون . . . " في محلّ نصب حال .

20 - (الفاء) عاطفة (كالصريم) متعلّق بمحذوف خبر أصبحت . . .

---

(1) أو حاليّة .

(2) أو هي في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . والجملة الاسميّة حال .

(410/778)

وجملة : " أصبحت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة طاف . . .

21 - 22 (الفاء) عاطفة (مصبحين) مثل الأول (أن) حرف تفسير " 1 " ، (على حرثكم) متعلّق بـ (اغدوا) بمعنى أقبلوا (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . .

وجملة : " تنادوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أصبحت .

وجملة : " اغدوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " كنتم صارمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

23 – 24 (الفاء) عاطفة (الواو) حاليّة (أن) مثل الأول في الاحتمالين (لا) ناهية جازمة (يدخلنّها) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يدخلنّها) ، وكذلك (عليكم) . . .

وجملة : " انطلقوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تنادوا .

وجملة : " هم يتخافتون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يدخلنّها . . . مسكين " لا محلّ لها تفسيريّة .

25 – (الواو) عاطفة (على حرد) متعلّق بـ (قادرين) ، وهو خبر الفعل الناقص غدوا " 2 " . . .

وجملة : " غدوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هم يتخافتون " 3 "

---

(1) أو حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل (أن اغدوا . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة ، متعلّق بـ (تنادوا)

(2) يجوز أن يكون حالا من الضمير الغائب في غدوا إذا كان الفعل تاما بمعنى خرجوا في

الغدوة. [. . . . .]

(3) أو في محلّ نصب حال من فاعل يتخافتون بعد واو الحال بتقدير قد .

(411/778)

---

26 - 27 (رأوها) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (اللام) المزحلقة للتوكيد (بل) للإضراب . . .

وجملة : " رأوها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّا لضالّون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نحن محرومون " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

28 - (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (لكم) متعلّق بـ (أقل) ، (لولا) حرف تحضيض . .

وجملة : " قال أوسطهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم أقل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لولا تسبّحون " لا محلّ استئناف في حيزّ القول الاول " 1 " .

29 - (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب . .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا ظالمين " في محلّ رفع خبر إنّ .

30 - 32 (الفاء) استئنافيّة (على بعض) متعلّق بـ (أقبل) ، (يا) أداة نداء وتحسّر (ويلنا) منادى مضاف متحسّر به منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب (خيرا) مفعول به ثان (منها) متعلّق بـ (خيرا) ، (إلى ربّنا) متعلّق بـ (راغبون) بتضمينه معنى راجعون . .

وجملة : " أقبل بعضهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) ومقول القول الثاني محذوف تقديره : ابتعدوا عن المعصية .

(412/778)

وجملة : " يتلاومون . . . " في محلّ نصب حال من بعضهم وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " النداء والتحسّر " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنّا طاغين " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " عسى ربّنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يبدلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يبدلنا) في محلّ نصب خبر عسى .

وجملة : " إنّا . . . راغبون " لا محلّ لها تعليليّة .

33 – (كذلك) متعلّق بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ (العذاب) ، (الواو) عاطفة (اللام) لام الابتداء للتوكيد (لو) حرف شرط غير جازم . . .

وجملة : "كذلك العذاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عذاب الآخرة أكبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كانوا يعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف تقديره ما خالفوا أمرنا .

وجملة : " يعلمون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا . . .

الصرف :

(18) يستثنون : فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يستثنيون – بياء قبل الواو مضمومة – استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى النون – إعلال بالتسكين – فلمّا التقى ساكنان حذفت الياء – إعلال بالحذف – وزنه يستفعون .

(19) طاف : فيه إعلال بالقلب ، أصله طوف ، مضارعه يطوف ،

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

(413/778)

تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(نائمون) ، جمع نائم ، اسم فاعل من الثلاثيّ نام ، وزنه فاعل ، وقلب حرف العلّة همزة قلبا قياسيا .

(20) الصريم : اسم لليل الشديد الظلمة لانصرامه عن النهار ، أو اسم للبستان الذي صرمت ثماره ، فهو فعيل بمعنى مفعول . . . وقد يطلق الصريم على قطعة الرمل الكبيرة .

(22) اغدوا : فيه إعلال بالحذف بدءا من المضارع . . . أصله في المضارع يغدوون - بواو مضمومة بعد الدال ، ثمّ نقلت حركة الواو إلى الدال قبلها للثقل ، فلمّا التقى ساكنان حذفت الواو لام الكلمة . . . ثمّ انسحب الإعلال إلى الأمر اغدوا ، وزنه افعوا .

(414/778)

(صارمين) ، جمع صارم اسم فاعل من الثلاثيّ صرم وزنه فاعل .

(25) غدوا : فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الكلمة لالتقاء الساكنين ، وزنه فعوا .

(حرد) ، مصدر الثلاثيّ حرد بمعنى قصد باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وقيل معناه المنع وقيل الغضب والحنق ، وقد يكون من باب فرح ، وقيل هو الانفراد من باب نصر .

(32) راغبون : جمع راغب ، اسم فاعل من الثلاثيّ رغب ، وزنه فاعل .

البلاغة

العدول إلى المضارع : في قوله تعالى " وَلَا يَسْتَثْنُونَ " .

أي غير مستثنين . وفي العدول إلى المضارع نوع تعبير وتنبيه على مكان خطئهم .

التشبيه : في قوله تعالى " فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ " .

حيث شبهت بالبستان الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق فيها شيء وقيل : الصريم هو الليل ، أي أصبحت محترقة تشبه الليل في السواد . وقيل : كالصبح من حيث ابيضت كالزرع المحصود .

الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ " .

غدا عليه إذا أغار ، فيكون قد شبه غدوهم لقطع الثمار بغدو الجيش على شيء ، لأن

معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه ، وهو الصرم والقطع ، وهذا على طريق الاستعارة التبعية . ويجوز أن تعتبر الاستعارة تمثيلية .

الفوائد

- أصحاب الجنة :

(415/778)

عن ابن عباس قال : الجنة بستان باليمن ، يقال له " الضروان " ، دون صنعاء بفرسخين ، يطؤه أهل الطريق ، وكان غرسه قوم من أهل الصلاة ، وكان لرجل فمات فورثه ثلاثة أبناء له ، وكان يترك للمسكين - إذا صرموا نخلهم - كل شيء تعداه المنجل ، وكان يأخذ منها قوت سنة ، ويتصدق بالباقي على الفقراء . فلما مات الأب وورثه الأبناء الثلاثة قالوا : والله إن المال قليل ، وإن العيال كثير ، وإنما كان هذا الأمر يفعل لما كان المال كثيرا ، أو العيال قليلا أما الآن فلا مجال لأن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وائتمروا بينهم أن يذهبوا باكرا ، قيل استيقاظ الناس ، حتى لا يعطوا الفقراء شيئا . فانطلقوا وهم يتهامسون بينهم ، حتى لا يسمعهم أحد ، لكنهم وجدوا ذلك البستان قد استحال سوادا ويبسا ، فتلاوموا وندموا على فعلتهم .

34 -

[سورة القلم (68) : آية 34]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34)

الإعراب :

(للمتّقين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (جنّات) (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بالخبر المحذوف.

جملة : "إنّ للمتّقين . . . جنّات" لا محلّ لها استئنافيّة.

35 -

[سورة القلم (68) : آية 35]

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ - وللتوبيخ والتقريع - (الفاء) عاطفة (كالمجرمين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان.

جملة : "نجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالمجرمين.

البلاغة

التشبيه المقلوب : في قوله تعالى " أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ " .

وأصل الكلام : أ فنجعل المجرمين كالمسلمين ، ولكنه عكس ، مسايرة لاعتقادهم أنهم أفضل من المسلمين . أما إذا جعل المعنى ليس المصلحون كالمفسدين والمتقون كالفجار ، والمسلمون كالمجرمين ، في سوء الحال ، فلا عكس في التشبيه .

(416/778)

[سورة القلم (68) : آية 36]

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36)

الإعراب :

(ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لكم) متعلّق بخبر المبتدأ ما (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال عاملها تحكمون . . .

جملة : " ما لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تحكمون " لا محلّ لها بدل من جملة ما لكم " 1 " .

[سورة القلم (68) : الآيات 37 إلى 38]

أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38)

(1) وإذا تمّ الوقف عند (لكم) ، فالجملة استئنافيّة .

(417/778)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام المفيدة للتوبيخ والتقريع (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (كتاب) ، (فيه) متعلّق بـ (تدرسون) ، و(لكم) الثاني خبر إنّ ، (فيه) الثاني متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (ما) موصول في محلّ نصب اسم إنّ (تخيّرون) مضارع محذوف منه إحدى التاءين ، وحذف منه ضمير الغائب العائد أي تخيّرونه .

جملة : " لكم كتاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تدرسون . . . " في محلّ رفع نعت لكتاب " 1 " .

وجملة : " إنّ لكم فيه لما . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل الدراسة " 2 " .

وجملة : " تخيّرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الفوائد

- بعض ما يخفى من الجملة المحكية بالقول :

من الجمل المحكية ما قد يخفى ، فمن ذلك في المحكية بعد القول : (فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا

لَذائِقُونَ) . والأصل إنكم لذائقون عذابي ، ثم عدل إلى المتكلم ، لأنهم تكلموا عن ذلك بأنفسهم ، كما قال الفرزدق :

ألم تر أني يوم جوّ سويقة بكيت فنادتني هنيدة ماليا

---

(1) يجوز أن يكون الضمير في (فيه) يعود على حكمهم المفهوم من السؤال السابق لا على الكتاب ، فهو حينئذ متعلّق بالاستقرار المتقدّم الذي تعلّق به (لكم) . وجملة تدرسون على ذلك في محلّ نصب حال من الضمير في (فيه) . . . أو هي استئنافيّة .

(2) وهي جملة محكيّة أي هي المدروسة في الكتاب ، وكان من حقّ همزة (إنّ) الفتح ولكنّ اللام المؤكّدة في حيّزها جعلت الهمزة مكسورة .

(418/778)

والأصل : مالك . ومنه في المحكية ، بعد ما فيه معنى القول ، قوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ) أي تدرسون فيه هذا اللفظ ، أو تدرسون فيه قولنا هذا الكلام ، وذلك إما على أن يكونوا خوطبوا بذلك في الكتاب

على زعمهم ، أو الأصل إن لهم لما يتخيرون ، ثم عدل إلى الخطاب عند مواجهتهم ، وقد قيل في قوله تعالى : "يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ" إن يدعو في معنى يقول ، مثلها في قول

عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

فيمن رواه " عنتر " بالضم على النداء ، وإن (من) في الآية السابقة مبتدأ ، و(لبئس المولى) خبره ، وما بينهما جملة اسمية صلة ، وجملة (من) خبرها محكية بيدعو ، أي أن الكافر يقول ذلك يوم القيامة ، وقيل : من مبتدأ حذف خبره : أي إلهه ، وإن ذلك حكاية لما يقول في الدنيا ، وعلى هذا فالأصل يقول : الوثن إلهه ، ثم عبر عن الوثن بمن ضره أقرب من نفعه ، تشنيعا على الكافر

[سورة القلم (68) : آية 39]

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39)

الإعراب :

(أم لكم أيمان) مثل أم لكم كتاب " 1 " ، (علينا) متعلّق بـ (أيمان) " 2 " ، (إلى يوم) متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر " 3 " ، (إنّ لكم لما تحكمون) مثل إنّ لكم . . . لما تخيّرون " 4 " . . .

(1 ، 4) في الآية السابقة (37) من السورة .

(2) أو متعلّق بنعت لأيمان .

(3) أو متعلّق ببالغة .

جملة : " لكم أيمان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " إنّ لكم لما تحكمون . . . " لا محلّ لها جواب القسم المفهوم من سياق الآية لكم علينا أيمان . . .

وجملة : " تحكمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(بالغة) ، مؤنّث بالغ بمعنى ثابت وواثق . . . وانظر الآية (95) من سورة المائدة ،

[سورة القلم (68) : آية 40]

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40)

الإعراب :

(أيّهم) اسم استفهام مبتدأ مرفوع . . . و(هم) مضاف إليه ، (بذلك) متعلّق بـ (زعيم) ، والإشارة إلى الحكم الذي يحكم به الكافرون (زعيم) خبر المبتدأ أيّهم ، مرفوع . . .

جملة : " سلهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أيّهم . . . زعيم " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام أيّهم ، وذلك بتقدير حرف الجرّ .

الصرف :

(سلهم) ، حذفت عينه – الهمزة – تخفيفا جوازا ، واقتضى حذف الهمزة فيه حذف همزة الوصل في أوّله ، وزنه فلهم . . . ويجوز أن تبقى الهمزة – في هذا الفعل – وإرجاع همزة الوصل في غير الآية . . .

[سورة القلم (68) : آية 41]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41)

الإعراب :

(أم لهم شركاء) مثل أم لكم كتاب " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (بشركاء) متعلّق بـ (يأتوا) ، (كانوا) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . .

جملة : " لهم شركاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (37) من السورة .

وجملة : " ليأتوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان لهم شركاء فليأتوا . . . " 1 " .

وجملة : " إن كانوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

[سورة القلم (68) : الآيات 42 إلى 43]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43)

الإعراب :

(يوم) ظرف زمان متعلّق بـ (يأتوا) " 2 " ، (عن ساق) نائب الفاعل لفعل يكشف ، و(الواو) في (يدعون) نائب الفاعل (إلى السجود) متعلّق بـ (يدعون) ، (الفاء) عاطفة (لا) نافية . . .

جملة : " يكشف عن ساق . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يدعون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يكشف عن ساق .

وجملة : " لا يستطيعون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يدعون .

43 - (خاشعة) حال منصوبة من الضمير في (يدعون) ، (أبصارهم) فاعل لاسم الفاعل خاشعة ، مرفوع (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (إلى السجود) متعلّق بـ (يدعون) الثاني (الواو) حاليّة . . .

وجملة : " ترهقهم ذلّة . . . " في محلّ نصب حال مؤكّدة من نائب فاعل يدعون .

---

(1) أو إن كانوا صادقين في ما يقولون . . . وجملة إن كانوا صادقين المذكورة تفسيريّة .

(2) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . . .

(421/778)

وجملة : " قد كانوا . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " يدعون (الثانية) " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " هم سالمون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (يدعون) الثاني .

الصرف :

(سالمون) ، جمع سالم ، اسم فاعل من الثلاثيّ سلم باب فرح ، وزنه فاعل .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى "يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ" .

وكشفها والتشمير عنها مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب ، لأن من وقع في شيء يحتاج إلى الجدّ شمر عن ساقه .

التنكير : في قوله تعالى " ساق " .

حيث جاءت ساق منكّرة ، للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة ، منكر خارج عن المألوف .

---

(1) أو استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق .

السرّ في نسبة الخشوع إلى الأبصار : في قوله تعالى " خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ " .

وذلك لظهور أثره فيها ، فما في القلب يعرف من العين ، فهو مجاز عقلي .

[سورة القلم (68) : الآيات 44 إلى 45]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الواو) عاطفة (من) موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير المتكلّم في (ذرني) ، (بهذا) متعلّق

ب (يكذّب) ، (الحديث) بدل من اسم الإشارة مجرور - أو عطف بيان عليه - (السين) للاستقبال (حيث) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (نستدرجهم) ، (لا)

نافية.

جملة: "ذرني . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي: إذا كانت أحوالهم كذلك فذرني . . .

وجملة: "يكذّب . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "سنستدرجهم . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "لا يعلمون . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

45 - (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (أملي) . . .

وجملة: "أملي لهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة سنستدرجهم.

وجملة: "إنّ كيدي متين" . لا محلّ لها تعليليّة . . .

البلاغة

المجاز المرسل: في قوله تعالى "وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ" .

حيث سمى إمهاله إياهم، ومرادفة النعم والآلاء عليهم، كيدا لأنه سبب التورط والهلاك، لأن حقيقة الكيد ضرب من الاحتيال، لكونه في صورته، حيث أنه سبحانه يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهرا، ومراده عز وجل به الضرر، لما علم من خبث جبلتهم، وتماديهم في الكفر والكفران.

[سورة القلم (68): آية 46]

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46)

الإعراب :

(423/778)

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة (الفاء) تعليليّة (من مغرم) متعلّق بـ (مثقلون) . . .

جملة : " تسألهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم . . . مثقلون " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة القلم (68) : آية 47]

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

الإعراب :

(أم) مثل المتقدّمة " 1 " ، (عندهم) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الغيب)

(الفاء) عاطفة .

جملة : " عندهم الغيب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم يكتبون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يكتبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة القلم (68) : الآيات 48 إلى 50]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لحكم) متعلّق بـ (اصبر) بتضمينه معنى اخضع (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (كصاحب) متعلّق بخبر تكن ، بحذف مضاف " 2 " ، (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالمضاف المقدّر أي كحال صاحب الحوت وقت ندائه (الواو) حاليّة .

جملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وقعت في ضيق فاصبر . . .

---

(1) في الآية السابقة (46) . [. . . . .]

(2) أي لا يكن حالك كحال صاحب الحوت .

وجملة : " لا تكن . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هو مكظوم " في محلّ نصب حال .

49 – (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ (تداركه) مضارع منصوب ، حذفت منه إحدى التاءين " 1 " ، و(الهاء) مفعول به (من ربّه) متعلّق بنعت لـ (نعمة) ، (اللام) رابطة لجواب لولا (بالعراء) متعلّق بـ (نبذ) و(الباء) للظرف (الواو) حاليّة .

والمصدر المؤوّل (أن تداركه . . .) في محلّ رفع مبتدأ . . . والخبر محذوف .

جملة : " لولا (تدارك) نعمة ربّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تداركه نعمة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نبذ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هو مذموم . . . " في محلّ نصب حال .

50 – (الفاء) عاطفة في الموضعين (من الصالحين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

وجملة : " اجتباه ربّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لولا أن . . .

وجملة : " جعله من الصالحين " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتباه .

الصرف :

(48) مكظوم : اسم مفعول من الثلاثيّ كظم ، وزنه مفعول .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَهُوَ مَذْمُومٌ " .

مجاز مرسل ، لأن اللوم في الحقيقة سبب للذم ، فالعلاقة السببية .

---

(1) أو هو فعل ماض مبنيّ على الفتح ، وقد جاء الفعل مذكّرا - وهو جائز - لأن الفاعل مؤنث مجازيّ .

(425/778)

[سورة القلم (68) : الآيات 51 إلى 52]

وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (52)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) مخفّفة من الثقيلة واجبة الإهمال (اللام) هي الفارقة (بأبصارهم) متعلّق بـ (يزلقونك) ، (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق

بالجواب المقدّر (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوحيد . . .

جملة : "يكاد الذين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة . . .

(426/778)

وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : "يزلقونك . . . "في محلّ نصب خبر يكاد وجملة : "سمعوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي كادوا يزلقونك .

وجملة : "يقولون . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة يزلقونك وجملة : "إنّه لمجنون "في محلّ نصب مقول القول .

52 - (الواو) حاليّة (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر (للعالمين) متعلّق بـ (ذكر) " 1 " .

وجملة : "ما هو إلّا ذكر . . . "في محلّ نصب حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 29 صـ 33.55﴾

---

(1) أو متعلّق بنعت لذكر .

(427/778)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(68) سورة القلم

مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون

[سورة القلم (68) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

الإعراب :

(نٓ ، وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ) نٓ تقدم القول في إعراب فواتح السور ، ونضيف ما قاله الزمخشري في الرد على المتعسفين ، قال : هذا الحرف من حروف المعجم وأما قولهم هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي ولا يخلو إذا كان اسما للدواة من أن يكون جنسا أو علما فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين وإن كان علما فأين الإعراب وأيهما كان فلا بدّ له من موقع في تأليف الكلام فإن قلت هو مقسم به

وجب إن كان جنسا أن تجرّه وتنوّنه ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة كأنه قيل ودواة والقلم ، وإن كان علما أن تصرفه وتجرّه أو لا تصرفه وتفتحه للعملية والتأنيث وكذلك التفسير بالحوت إما أن يراد نون من النينان أو يجعل علما للبهموت الذي يزعمون والتفسير باللوح من نور أو ذهب والنهر في الجنة . وأكد أبو حيان أنه لا يصحّ شيء من ذلك .

(428/778)

و الواو حرف قسم وجر والقلم مقسم به والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وأقسم تعالى بالقلم تعظيما لأمره وتنويها بشأنه ولما فيه من الفوائد والمنافع التي لا يحيط بها الوصف أي فالمراد به جنس القلم الشامل للأقلام التي يكتب بها ، قال تعالى " وربك الأكرم الذي علّم بالقلم " وبأنه ينتفع به كما ينتفع بالمنطق ولهذا قيل : القلم أحد اللسانين . والواو حرف عطف وما موصولة أو مصدرية وعلى كل حال هي معطوفة على القلم فأقسم أولا بالقلم ثم بسطر الملائكة أو بمسطورهم فالمقسم به شيئان على ثلاثة أشياء نفي الجنون عنه وثبوت الأجر له وكونه على الملّة الحنيفية السمحاء (ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) جملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب القسم وما نافية حجازية وبنعمة ربك متعلقان بمعنى النفي المدلول عليه بما والباء للسبب والباء حرف جر زائد ومجنون

مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والمعنى انتفى عنك الجنون بسبب إنعام ربك عليك بالنبوّة وغيرها ، وسيأتي مزيد بيان لتعلق الجار والمجرور والظرف بمعنى النفي في باب الفوائد (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ) الواو حرف عطف والجملة وما بعدها عطف على جملة جواب القسم فهما من جملة المقسم عليه كما تقدم آنفا وإن حرف مشبه بالفعل ولك خبرها المقدم واللام المزحلقة وأجرا اسمها وغير ممنون نعت أي غير مقطوع (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) إن واسمها واللام المزحلقة وعلى خلق خبر وعظيم نعت (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ) الفاء استئنافية والسين حرف استقبال وتبصر فعل

(429/778)

مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت ويبصرون عطف على ستبصر (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) اختلف المعربون فيها اختلافا شديدا ونورد أرجح الأقوال وهي أربعة : 1- أن الباء مزيدة في المبتدأ والتقدير أيكم المفتون فزيدت الباء كزيادتها في نحو بحسبك زيد 2- أن الباء بمعنى في فهي ظرفية كقولك زيد بالبصرة أي فيها والمعنى في أيّ فرقة وطائفة منكم المفتون 3- أنه على حذف مضاف أي بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وتكون الباء سببية 4- أن المفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور

والتقدير بأيّكم الفتون والجملة على كل حال في محل نصب معمولة لما قبلها لأنه معلق بأداة الاستفهام وسيأتي مزيد بحث في هذا الصدد في باب الفوائد (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) الجملة لا محل لها لأنها تعليل لما تقدم لأن ما قبلها أنبأ بظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد ، وإن واسمها وهو مبتدأ وأعلم خبر والجملة خبر إن ، ولك أن تعرب هو ضمير فصل وأعلم خبر وبمن متعلقان بأعلم وجملة ضلّ صلة وعن سبيله متعلقان بضل وهو مبتدأ وأعلم خبر وبالمهتدين متعلقان بأعلم .

البلاغة :

في قوله " ن والقلم وما يسطرون " إلى قوله " غير ممنون " فن المناسبة اللفظية ، وهي عبارة عن الإتيان بلفظات متّزنات مقفّات .

الفوائد :

1 - منع جمهور النحاة تعليق الجار والمجرور والظرف بأحرف المعاني ، وأجازه بعضهم وفصّل بعضهم ، فقال إن كان نائبا عن فعل

حذف جاز ذلك على سبيل النيابة لا الأصالة وإلا فلا ، قال ابن هشام في المغني : ومن ذلك قوله تعالى : ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، الباء متعلقة بالنفي إذ لو علقت بمجنون لأفاد نفي جنون خاص وهو الذي يكون من نعمة اللّه وليس في الوجود جنون هو نعمة . هذا ما ذكره ابن الحاجب وغيره وهو كلام بديع إلا أن جمهور النحويين لا يوافقون على صحة التعلّق بالحرف فينبغي أن يقدّر على قولهم أن التعلق بفعل دلّ عليه النافي أي انتفى ذلك بنعمة ربك وقد ذكرت في شرحي لقصيدة كعب بن زهير عند الكلام على قوله :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إن المختار تعلق الظرف بمعنى التشبيه الذي تضمنه البيت وذلك على أن الأصل وما كسعاد إلا ظبي أغن على التشبيه المعكوس للمبالغة لئلا يكون الظرف متقدما في التقدير على اللفظ الحامل لمعنى التشبيه وإذا جاز لحرف التشبيه أن يعمل في الحال في نحو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

مع أن الحال شبيهة بالمفعول به فعمله في الظرف أجدر .

أما الزمخشري فقد سلك مسلكا غريبا في تعليق بنعمة قال : " فإن قلت : بم تتعلق الباء في بنعمة ربك وما محله ؟ قلت يتعلق بمجنون منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك : أنت بنعمة اللّه عاقل مستويا في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك ضرب زيد عمرا وما ضرب زيد عمرا تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا كأنه قال : ما أنت بمجنون منعما عليك

بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي " وقد تبع الزمخشري معظم المفسرين ، قال

النسفي : " الباء تتعلق بمحذوف ومحله النصب على الحال والعامل فيها بمجنون " .

(431/778)

و تعقب أبو حيان الزمخشري فيما ذهب إليه فقال : " وما ذهب إليه الزمخشري من أن بنعمة ربك متعلق بمجنون وأنه في موضع الحال يحتاج إلى تأمل وذلك أنه إذا تسلط النفي على محكوم به وذلك له معمول ففي ذلك طريقان أحدهما أن النفي يتسلط على ذلك المعمول فقط والآخر أن يتسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه بيان ذلك تقول ما زيد قائم مسرعا فيتبادر إلى الذهن أنه منتف إسراعه دون قيامه فيكون قد قام غير مسرع والوجه الآخر أنه انتفى قيامه فانتفى إسراعه أي لا قيام فلا إسراع وهذا الذي قررناه لا يتأتّى معه قول الزمخشري بوجه بل يؤدي إلى ما لا يجوز أن ينطق به في حق المعصوم صلّى اللّه عليه وسلم .

2- ذكر صاحب المغني أن الباء في " بأيّكم المفتون " زائدة ، قال في مواضع الباء الزائدة : " الثالث المبتدأ وذلك في قولهم بحسبك درهم وخرجت فإذا بزيد وكيف بك إذا كان كذا

وكذا ومنه عند سيبويه : بأيّكم المفتون وقال أبو الحسن بأيّكم متعلق باستقرار محذوف يخبر به عن المفتون ثم اختلف فقيل المفتون مصدر بمعنى الفتنة وقيل الباء ظرفية أي في أي طائفة منكم المفتون " .

هذا وقد قال أبو حيان : " لا ينبغي حمله عليه لقلته " فالمعروف أن الباء لا تزاد في المبتدأ إلا إذا كان لفظ " حسب " قياسا ، وقال ابن يعيش : " أما زيادتها في المبتدأ ففي موضع واحد وهو بحسبك " وذكر الكافيجي : " إن زيادتها في بحسبك زيادة في الخبر وجعل درهم مبتدأ مؤخرا وبحسبك هو الخبر لأنه هو محطّ الفائدة والمعنى درهم واحد كافيك " قال تلميذه السيوطي : " وهو من الحسن بمكان ولا أعلم في اختياراته في العربية أحسن منه " والمسوغ حينئذ هو تقدم الخبر وهو جار ومجرور .

[سورة القلم (68) : الآيات 8 إلى 16]

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ (14) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ

الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

اللغة :

(تُدْهِنُ) أصل الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام وجعله الزمخشري في أساس البلاغة من المجاز قال : " ومن المجاز أدهن في الأمر وداهن صانع ولاين " .

(هَمَّازٍ) عياب أي مغتاب وقيل الهمّاز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللمّاز باللسان وفي المختار : " اللمز العيب وأصله الإشارة بالعين ونحوها وبابه ضرب ونصر وقرئ بهما في قوله تعالى : ومنهم من يلمزك في الصدقات ورجل لمّاز ولمزة بوزن همزة أي عياب " وفيه أيضا : " الهمز كاللمز وزنا ومعنى وبابه ضرب والهامز والهمّاز العيّاب والهمزة مثله يقال رجل همزة وامرأة همزة أيضا وهمزات الشيطان خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان والمهماز حديدة تكون في مؤخر خفّ الرائض " .

(مَشَّاءٍ) صيغة مبالغة أي ساع بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم .

(بِنَمِيمٍ) النميم قيل هو مصدر كالنميمة وقيل هو اسم جنس لها كتمرة وتمر وهو نقل الكلام الذي يسوء سامعه ويحرش بين الناس لتأريث نار البغضاء في الصدور وفي المصباح : " نم الرجل الحديث نما من بابي قتل وضرب سعى به ليوقع فتنة أو وحشة فالرجل نم تسميته بالمصدر ونمّام مبالغة والاسم النميمة والنميم أيضا " وقال الزمخشري :

والنميم والنميمة السعاية ، وأنشدني بعض العرب :

تشبّبي تشبّب النميمة تمشي بها زهر إلى تميمه

(433/778)

و البيت الذي استشهد به الزمخشري لأعرابي يخاطب النار والتشبّب التوقد والنميمة تزوير الكلام وتزويقه للإفساد بين الناس وثوب منمنم ومنمّم أي منقّش محسّن وزهر اسم امرأة اشتهرت بالنميمة وتميمة قبيلة معروفة ، نزّل النار منزلة العاقل فأمرها وقال : اشتعلي كاشتعال التميمة حال كونها تمشي بها هذه المرأة إلى بني تميم وكانت كثيرة الإفساد بين العرب حتى ضرب بها المثل ، وبين نميمة وتميمة الجناس اللاحق .

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) أي بخيل بالمال والخير هنا يراد به عموم ما يطلق عليه .

(عُتُلٍّ) غليظ جاف قيل في الطبع وقيل في الجسم وقال أبو عبيدة : هو الفاحش اللئيم وقيل الغليظ الجافي ويقال عتلته وعتنته .

(زَنِيمٍ) دعي ، قال حسّان بن ثابت :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

يخاطب حسان بهذا البيت الوليد بن المغيرة فيقول إنه زنيم أي معلّق في آل هاشم كالزنمة في

الإهاب وهي قطعة جلد صغيرة تترك

معلقة بطرفه فشبهه بها وشبّهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب وكان الوليد

دعيا في قريش ليس من سنخهم ، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده وقيل بغت أمه ولم

يعرف حتى نزلت هذه الآية ، جعل جفاءه ودعوته أشدّ معايبه لأنه إذا جفا وغلظ قسا

قلبه واجترأ على كل معصية ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها ومن ثم

جاء في الحديث : " لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده " ويروى أنه لما نزلت قال

الوليد لأمه : إن محمدا وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها فإن لم تصدقيني الخبر

ضربت عنقك فقالت له :

إن أباك عنين فخفت على المال فمكنت الراعي من نفسي فأنت منه ، هذا ما قاله

المفسرون والذي نراه ورجحه أبو حيان أن هذه الأوصاف ليست لمعين ألا ترى إلى قوله كل

حلّاف فإنما وقع النهي عن طواعية من هو بهذه الصفات التي جاءت للمبالغة وسيأتي مزيد

بحث عنها في باب البلاغة .

(434/778)

(سَنَسِمُهُ) نضع العلامة على الوجه .

(الْخُرْطُومِ) أنف السباع وغالب ما يستعمل في أنف الفيل والخنزير ، وفي القاموس : " الخرطوم كزنبور الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين كالخرطم القنفذ " .

الإعراب :

(فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) الفاء الفصيحة لأنها عطفت على محذوف دلّ عليه السياق وينبىء عنه ما قبله والنهي بمنابه التهييج وإلهاب التصميم على معاصاتهم ، ولا ناهية وتطع فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والمكذبين مفعول به (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) ودّوا فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة ولو حرف مصدري للتمنّي على رأي البصريين لوقوعه بعد فعل الودادة وقد تقدم

القول فيه مفصّلا في قوله تعالى " يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة " وهي وما في حيّزها في تأويل مصدر مفعول ودّوا وقيل إن مفعول ودّوا محذوف أي ودّوا إدهانكم وحذف لدلالة ما بعده عليه ولو باقية على بابها من كونها حرفا لما كان سيقع لوقوع غيره وجوابها عندئذ محذوف تقديره لسرّوا بذلك والفاء حرف عطف ويدهنون فعل مضارع معطوف على

تدهن فهو في حيّز لو فهو من المتمنى ، والمتمنى شيئان ثانيهما متسبّب عن الأول أو هو خبر لمبتدأ مضمر أي فهم يدهنون ، وفي الكشاف : " فإن قلت لم رفع فيدهنون ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمنّي قلت قد عدل به إلى طريق آخر وهو أنه جعل خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون " (وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ) الواو عاطفة ولا ناهية وتطع فعل مضارع مجزوم بلا وكل حلّاف مفعول به ومهين نعت لحلّاف (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) صفات مسرودة سيأتي الحديث عنها في باب البلاغة وبنميم متعلق بمشاء وللخير متعلقان بمنّاع (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) الظرف متعلق بزنيم وهذه البعدية في الرتبة أي هذا الوصف وهو زنيم متأخر في الرتبة والشناعة عن الصفات السابقة فبعد هنا كثم التي للترتيب والتراخي في الرتبة (أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ) أن مصدرية وهي وما في حيّزها في موضع نصب بنزع الخافض أي لأن كان وهو متعلق بما دلّ عليه إذا تتلى أي كذب بها ولا يصحّ أن يكون معمولا لفعل الشرط لأن إذا تضاف إلى الجملة بعدها والمضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف ولا يصحّ أن يكون معمولا لقال الذي هو جواب الشرط لأن ما بعد أداة الشرط لا يعمل فيما قبلها وقال الزمخشري " متعلق بقوله ولا تطع يعني ولا تطعه مع هذه المثالب لأنه كان ذا مال أي ليساره وحظه من الدنيا " وقال أبو حيان : " ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متموّلا مستظهرا بالبنين كذب آياتنا " وكان فعل ماض

ناقص واسمها مستتر تقديره هو وذا مال خبرها وبنين

عطف على مال (إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه وجملة تتلى عليه في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وأساطير الأولين خبر لمبتدأ مضمر أي هي أساطير الأولين (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) جملة مستأنفة كأنه لما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد ، والسين حرف استقبال ونسمه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وعلى الخرطوم متعلقان بنسمه .

البلاغة :

1- في مجيء هذه الصفات مسرودة على نمط عجيب خلّاب فن المناسبة ، فجاء حلّاف وبعده مهين لأن النون فيها مع الميم تراخ ثم جاء همّاز مشّاء بنميم بصفتي المبالغة ثم جاء منّاع للخير معتد أثيم وبعد ما عدّله من المثالب والنقائص أتى بصفتين من أشدّ معايبه وقد دلّت البعدية لتدل على ذلك .

2- وفي قوله " سنسمه على الخرطوم " كناية عن المهانة وأحطّ دركات الذل إذ لما كان الوجه أشرف ما في الإنسان والأنف أكرم ما في الوجه جعلوه مكان العزّة والحمية واشتقوا منه الأنفة ومن أقوالهم :

حمي الأنف شامخ العرنين وقالوا في الذليل جدع أنفه ورغم أنفه وكان أيضا مما تظهر السمات فيه لعلوه ، قال سنسمه على الخرطوم وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبلاد إذ صار كالبهيمة لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف وإذا كان الوسم في الوجه شينا فكيف به في أكرم عضو فيه وقد قيل : الجمال في الأنف قال بعضهم :

وحسن الفتى في الأنف والأنف عاطل فكيف إذا ما الخال كان له حليا

(437/778)

وجعلها الرازي استعارة ، استعار الخرطوم للأنف ولا أرى له مناسبة . وتعسف النضر بن شميل فقال إن الخرطوم الخمر وإنه سيحد على شربها وهذا منتهى التعسف في التأويل وإن كان الخرطوم من أسماء الخمر وقيل للخمر الخرطوم لأنها تطير في الخياشيم .

[سورة القلم (68) : الآيات 17 إلى 33]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا

يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31)

عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

اللغة :

(بَلَوْنَاهُمْ) امتحناهم واختبرناهم .

(لَيَصْرِمُنَّهَا) الصرم القطع والمراد يقطعون ثمرتها يقال صرم العذق عن النخلة وأصرم النخل أي حان صرامه مثل اركب المهر وأحصد الزرع أي حان ركوبه وحصاده ، وفي المختار : " صرم النخل جذه وبابه ضرب وأصرم النخل حان له أن يصرم ، والانصرام الانقطاع والتصارم التقاطع والتصرّم التقطع " .

(طَائِفٌ) قال الفرّاء هو الأمر الذي يأتي ليلا وردّ عليه بقوله تعالى " إذا مسّهم طائف من الشيطان " وذلك لا يختصّ بليل ولا نهار ولكنه غلب في الشر .

(الصريم) قيل ، هو الليل الشديد الظلمة وسمى الليل صريما لانصرامه وانفصاله عن النهار وانقطاعه عنه كما يسمى النهار صريما أيضا لانصرامه عن الليل وله معان عديدة أيضا منها البستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء فهو فعيل بمعنى مفعول وقطعة ضخمة من الرمل منصرمة عن سائر الرمال .

(يَتَخافَتُونَ) يتسارّون فيما بينهم وخفي وخفت وخفد ثلاثتها في معنى الكتم .

(حَرْدٍ) منع أو قصد والحرد بالتحريك الغضب وفي المختار :

" حرد قصد وبابه خرب وقوله تعالى : " وغدوا على حرد قادرين " أي على قصد وقيل على منع والحرد بالتحريك الغضب وقال أبو نصر صاحب الأصمعي هو مخفّف فعلى هذا بابه فهم وقال ابن السكّيت وقد يحرّك فعلى هذا بابه طرب فهو حارد وحردان " وفي السمين : والحرد فيه أقوال كثيرة قيل الغضب والحنق وقيل المنع من حاردت الإبل قلّ لبنها والسنة

قلّ ماؤها قاله أبو عبيد ويقال حرد بالكسر يحرد حردا وقد يفتح فيقال حرد فهو حردان وحارد ويقال أسد حارد وليوث حوارد وقيل الحرد والحرد الانفراد يقال حرد بالفتح يحرد بالضم حرودا وحردا وحرد انعزل ومنه كوكب حارد أو منفرد وقيل الحرد القصد يقال

حرد حردك أي قصد قصدك .

الإعراب :

(439/778)

(إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ) إن واسمها وجملة بلوناهم خبرها وهو فعل وفاعل ومفعول به والهاء تعود على أهل مكة ، وكما الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف أي بلوناهم بلاء وما مصدرية وقيل بمعنى الذي وإذ ظرف ماض متعلق ببلونا وجملة أقسموا في محل جر بإضافة الظرف إليها واللام واقعة في جواب القسم ويصرمنّها فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل أي ليصرمونها ومصبحين حال من فاعل ليصرمنّها وهو اسم فاعل من أصبح التامة (وَلا يَسْتَثْنُونَ) الواو استئنافية أو حالية ولا نافية ويستثنون فعل مضارع مرفوع أي لا يستثنون في إيمانهم ويضعف كون الواو حالية من حيث أن المضارع المنفي بلا كالمثبت في عدم دخول الواو عليه وإلا فبإضمار مبتدأ قبله ومعنى لا يستثنون لا يثنون عزمهم عن الحرمان وقيل لا يقولون إن شاء اللّه تعالى وسمي استثناء وهو شرط لأن معنى لأخرجنّ إن شاء اللّه ولا أخرج إلا أن يشاء اللّه واحد (فَطافَ عَلَيْها

طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ) الفاء عاطفة وطاف فعل ماض وعليها متعلقان به وطائف فاعل ومن ربك نعت لطائف والواو حالية وهم مبتدأ ونائمون خبر (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) الفاء عاطفة وأصبحت فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هي وكالصريم خبر (فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ) الفاء عاطفة

(440/778)

و تنادوا فعل ماض وفاعل ومصبحين حال والجملة عطف على أقسموا (أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ) أن مفسّرة لأنها مسبوقة بما فيه معنى القول دون حروفه ولك أن تجعلها مصدرية فتكون هي وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن أغدو ، واغدوا فعل أمر ناقص والواو اسمها وعلى حرثكم خبر وعدّي بعلى لأنه متضمن معنى أقبلوا ، قال الزمخشري : " فإن قلت هلّا قيل اغدوا إلى حرثكم وما معنى على ؟ قلت لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليه كما تقول غدا عليهم العدو ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم يغدى عليهم بالجفنة ويراح أي فأقبلوا على حرثكم باكرين " وردّ أبو حيان قول الزمخشري الأول بقوله " واستسلف الزمخشري أن غدا يتعدى بإلى ويحتاج ذلك إلى نقل بحيث يكثر ذلك فيصير أصلا فيه ويتأول ما خالفه ، والذي في

حفظي أنه يتعدى بعلى كقول الشاعر :

بكرت عليه غدوة فرأيته قعودا عليه بالصريم عواذله

وإن شرطية وجوابها محذوف أي إن كنتم صادقين فاغدوا (فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ)

الفاء عاطفة وانطلقوا فعل ماض وفاعل والواو حالية وهم مبتدأ وجملة يتخافتون خبر

والجملة نصب على الحال (أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ) أن مفسرة أو مصدرية وقد

تقدمت نظيرتها ولا نافية ويدخلنها فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

الثقيلة والهاء مفعول به على السعة واليوم ظرف متعلق بيدخلنّها وعليكم متعلقان

بيدخلنّها أيضا ومسكين فاعل (وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ) الواو عاطفة وغدوا فعل ماض

ناقص والواو اسمها وعلى حرد متعلقان بقادرين وقادرين خبر غدوا ويجوز أن تكون غدوا

تامة وتكون قادرين حالا من فاعل غدوا وعلى حرد متعلقان به وأن يكون على حرد هو

الحال وقادرين حال ثانية أو حال من ضمير الحال الأولى فتكون حالا متداخلة (فَلَمَّا رَأَوْها

قالُوا إِنَّا لَضالُّونَ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وجملة رأوها في محل جر بإضافة

الظرف إليها ورأوها فعل وفاعل ومفعول به وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير

جازم وإن واسمها واللام المزحلقة وضالّون خبرها وإن واسمها وخبرها مقول القول (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) بل حرف إضراب وعطف ونحن مبتدأ ومحرومون خبر (قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ) قال فعل ماض وأوسطهم فاعل ، ومعنى أوسطهم أمثلهم وأعقلهم ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ولم حرف نفي وقلب وجزم وأقل فعل مضارع مجزوم بلم ولولا حرف تحضيض أي هلّا وتسبحون فعل مضارع وفاعل ومفعوله محذوف أي اللّه وذلك بالتوبة له (قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ) قالوا فعل ماض وفاعل وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف وربنا مضاف إليه وإن واسمها وجملة كنّا خبرها وظالمين خبر كنّا وجملة إنّا كنّا تعليل للتنزيه اعترفوا به بظلمهم في منع المعروف وترك الاستثناء (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ) الفاء عاطفة وأقبل بعضهم فعل ماض وفاعل وعلى بعض متعلقان بأقبل وجملة يتلاومون حال (قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ) يا حرف نداء وويلنا منادى مضاف ، نادوا على أنفسهم بالويل أي يا ويلنا هذا وقت حضورك إلينا فإنك الآن مثابتنا وعلالتنا وإن واسمها وجملة كنّا خبرها وطاغين خبر كنّا (عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ) عسى فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء وربنا اسمها وأن وما في حيّزها خبرها وخيرا مفعول به ثان وإن واسمها وإلى ربنا متعلقان براغبون وراغبون خبر إنّا ، رجوا أن يقبل اللّه توبتهم ويبدلهم خيرا من جنتهم (كَذلِكَ الْعَذابُ وَ

لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) كذلك خبر مقدّم والعذاب مبتدأ مؤخر والواو حالية أو استئنافية . واللام لام الابتداء وعذاب الآخرة مبتدأ وأكبر خبر ولو شرطية وكان واسمها وجملة يعلمون خبرها وجواب لو محذوف دل عليه سياق الكلام تقديره لما فرط منهم ما سلف من ظلم وإحجام عن الاستثناء .

البلاغة :

في قوله " فطاف عليها طائف من ربك " تنكير طائف والفائدة منه الإبهام تعظيما لما أصاب جنتهم ومعنى كالصريم أي لهلاك ثمرها وقيل الصريم الليل لأنها احترقت واسودّت وقيل النهار لأنها صارت خالية فارغة ومنه البياض من الأرض أي الخالية من الشجر ومعنى صارمين حاصدين ومعنى يتخافتون يسرّون حديثهم خيفة من ظهور المساكين عليهم والحرد من حاردت السنة إذا منعت خيرها المعنى وغدوا على نكد ومنع وقيل الحرد السرعة أي غدوا مسارعين نشيطين لما عزموا عليه من الحرمان قال :

أقبل سيل جاء من أمر اللّه يحرد حرد الجنة المغلة

يصف سيلا بالكثرة وحذفت الألف قبل الهاء من لفظ الجلالة لأنه جائز في الوقف ومعنى يحرد حرد الجنة المغلة : يسرع إسراع الجنة أي البستان المغلة أي كثيرة الغلّة والخير ومعنى إسراعها ظهور خيرها قبل غيرها في زمن يسير بسبب السيل الذي داهمها فأمرعها

وأخصبها .

[سورة القلم (68) : الآيات 34 إلى 43]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38)

(443/778)

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ (43)

الإعراب :

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) إن حرف مشبه بالفعل وللمتقين خبرها المقدّم وعند ربهم الظرف متعلق بمحذوف حال من جنات أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر وجنات النعيم اسم إن المؤخر والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما أعدّ اللّه للمتقين يوم القيامة وللرد على صناديد قريش الذين كانوا يقولون إن صحّ أنّا بنبعث لم تكن حالنا وحال المؤمنين

إلا مثل ما هي في الدنيا (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف عطف والجملة معطوفة على مقدّر يقتضيه السياق أي أنحيف في الحكم فجعل المسلمين كالكافرين ، ونجعل فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر والمسلمين مفعول به أول وكالمجرمين في موضع المفعول الثاني وهذا أول توبيخ وتقريع للكافرين وستتلوه خمسة توبيخات أخرى (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وهذا هو التقريع الثاني وما اسم استفهام مبتدأ ولكم خبر وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وتحكمون فعل مضارع وفاعل والجملة حالية وهي التقريع الثالث (أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) أم حرف عطف للإضراب الانتقالي والهمزة التي في ضمنها للاستفهام

(444/778)

الإنكاري التوبيخي وهو التقريع الرابع ولكم خبر مقدّم وكتاب مبتدأ مؤخر وفيه متعلقان بتدرسون وتدرسون فعل مضارع مرفوع وفاعل وجملة تدرسون حالية أو مستأنفة (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ) الجملة مفعول به لتدرسون لأنها هي المدروسة وكان الظاهر فتح همزة ان لكن لما جيء باللام المختصة بالمكسورة كسرت وعلقت الفعل عن العمل في لفظ الجملة ودخله التعليق وإن الدرس من أفعال القلوب لتضمنه معنى الحكم ، ولكم خبر إن

المقدم وفيه حال واللام المزحلقة جيء بها للتأكيد وما اسم إن المؤخر وجملة تخيرون صلة ، وأصل تخيرون تتخيرون بمعنى تختارون (أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) هذا هو التقريع الخامس ولكم خبر مقدم وأيمان مبتدأ مؤخر وعلينا صفة لأيمان وبالغة صفة ثانية وإلى يوم القيامة متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به الخبر وهو لكم أو ببالغة أي تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه وفي قوله أم لكم إلخ معنى القسم كأنه قيل أقسمنا لكم أيمانا موثقة (إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ) الجملة جواب القسم الملحوظ فلا محل لها وإن حرف مشبه بالفعل ولكم خبرها المقدم واللام المزحلقة للتأكيد وما اسم إن المؤخر وجملة تحكمون صلة (سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ) الجملة مستأنفة وسل فعل أمر وفاعله المستتر ومفعوله الأول وأيهم مبتدأ وبذلك متعلقان بزعيم وزعيم خبر أيهم والجملة في محل نصب مفعول ثان لسل لأنها تنصب مفعولين وعلقت عن العمل بالاستفهام الذي هو التقريع السادس (أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ) هذا هو التقريع السابع ولهم خبر مقدم وشركاء مبتدأ مؤخر وهذه الجملة معطوفة في المعنى على جملة أيهم بذلك زعيم ، والفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدّر والتقدير إن كان ذلك كذلك فليأتوا واللام لام الأمر ويأتوا فعل مضارع مجزوم

باللام والواو فاعل وبشركائهم متعلقان بيأتوا وإن شرطية وكانوا فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والواو

اسمها وصادقين خبرها والجواب محذوف دلّ عليه ما تقدم أي فليأتوا بشركائهم (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ) الظرف مفعول به لأذكر مقدرة أو هو متعلق بقوله فليأتوا وقال الزمخشري " وناصب الظرف فليأتوا أو إضمار اذكر أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف للتهويل البليغ " وجملة يكشف في محل جر بإضافة الظرف إليها ويكشف بالبناء للمجهول وعن ساق ناب مناب نائب الفاعل ، ويدعون الواو عاطفة ويدعون فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل وإلى السجود متعلقان بيدعون والفاء عاطفة ولا نافية ويستطيعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل (خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) خاشعة حال من ضمير يدعون أي ذليلة وأبصارهم فاعل خاشعة وجملة ترهقهم حال ثانية وترهقهم فعل مضارع ومفعول به مقدّم وذلّة فاعل مؤخر (وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ) الواو حالية وقد حرف تحقيق وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها وجملة يدعون خبر كانوا وإلى السجود متعلقان بيدعون والواو حالية وهم مبتدأ وسالمون خبر .

البلاغة :

1- الاستفهام الإنكاري التقريعي : تقدم في الإعراب أن الاستفهامات التي وردت في هذه الآيات سبعة وقد خرجت عن معناها الأصلي إلى الإنكار والتوبيخ والتقريع على ما أرجفوا به من زعمهم أن اللّه فضّلنا عليكم في الدنيا فلا بدّ من أن يفضّلنا عليكم في الآخرة أو على الأقل إن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ففند اللّه مزاعمهم الفائلة مقرّعا وموبّخا وجاءت متعاقبة : أولها أفنجعل ، والثاني ما لكم ، والثالث كيف تحكمون ، والرابع أم لكم كتاب ، والخامس أم

(446/778)

لكم أيمان ، والسادس أيّهم بذلك زعيم ، والسابع أم لهم شركاء ، وقد انتظمت في سلك من الفصاحة والبيان يعنو له كل بيان .

2- وفي قوله " يوم يكشف عن ساق " استعارة تمثيلية ، وأصل هذا الكلام يقال لمن شمّر عن ساقه عند العمل الشاق لأن من وقع في شيء يحتاج إلى الجدّ يشمّر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عنها لشدّة الأمر ، وعبارة الزمخشري : " الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهنّ في الهرب وإبداء خدامهنّ عند ذلك " .

وقول الزمخشري : والإبداء عن الخدام جمع خدمة وهي الخلخال وذلك كرقاب جمع رقبة

قال حاتم :

أخو الحرب إن غصّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا

وقال ابن الرقيات :

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء

والتشمير عن الساق كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته وأصله أن يسند للإنسان لأن تشمير الثوب عن الساق لخوض لجة أو جري أو نحوه فأسند للحرب لتشبيهها بالإنسان على طريق الاستعارة ، أما البيت الثاني فقبله :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة العذراء

والخدام الخلخال والعقيلة الكريمة وعقيلة كل شيء أكرمه ومن النساء المخدرة التي عقلت في خدرها .

3- وفي تنكير الساق إيهام للمبالغة في الدلالة على أنه أمر مبهم في الشدّة منكر خارج عن المألوف المعتاد .

4- وفي نسبة الخشوع إلى الأبصار مجاز عقلي لأن ما في القلب يعرف من العين .

[سورة القلم (68) : الآيات 44 إلى 52]

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

اللغة :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) نأخذهم قليلا قليلا ، يقال : استدرجه إلى كذا :

قرّبه إليه ورقّاه من درجة إلى درجة وجعله يدرج على الأرض قال الخطيب : "

سنستدرجهم أي سنأخذهم بعظمتنا على التدريج لا على غرّة في عذاب لا شك فيه " .

(مَكْظُومٌ) مملوء غمّا أو كربا ، قال الماوردي : " والفرق بينهما أن الغم في القلب والكرب في الأنفاس " وقيل مكظوم : محبوس والكظم الحبس وقال المبرد : " إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس " .

(لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ) أي ينظرون إليك نظرا شديدا يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك .

الإعراب :

)

(448/778)

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ) الفاء عاطفة لترتيب الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكية ولك أن تجعلها فصيحة لأنها جواب شرط مقدّر والتقدير إذا كانت أحوالهم كذلك فذرني ، وذر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت يعود على الرسول صلّى اللّه عليه وسلم والياء في محل نصب مفعول به والواو حرف عطف ومن عطف على الياء أو الواو للمعية ومن في محل نصب مفعول معه والأول أرجح وجملة يكذب صلة للموصول لا محل لها وبهذا متعلقان بيكذب والحديث بدل من اسم الإشارة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الأمر السابق إجمالا والضمير لمن ، والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد في يكذب باعتبار لفظها ، ونستدرجهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ومن حرف جر وحيث ظرف مبني على الضم في محل جر بمن

والجار والمجرور متعلقان بنستدرجهم وجملة لا يعلمون في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) الواو عاطفة وأملي فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا لأنه معطوف على سنستدرجهم ولهم متعلقان بأملي والإملاء الإمهال ومرادفة النعم والآلاء ليغترّوا ، وسيأتي إيضاح هذا المجاز في باب البلاغة ، وإن واسمها وخبرها والجملة بمثابة التعليل للإملاء

(449/778)

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) عطف على ما تقدم من قوله أم لهم شركاء أي أم أتلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الهداية والإيمان ، وتسألهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وأجرا مفعول به ثان والفاء عاطفة وهم مبتدأ ومن مغرم متعلقان بمثقلون ومثقلون خبر أي مكلفون حملا ثقيلا ينوءون تحته (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) عطف أيضا وعندهم ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم والغيب مبتدأ مؤخر والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يكتبون خبر (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ) الفاء الفصيحة واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولحكم ربك متعلقان باصبر والواو حرف عطف ولا ناهية وتكن فعل مضارع مجزوم بلا واسمها مستتر

تقديره أنت وكصاحب الحوت خبر يعني يونس عليه السلام وقد تقدم حديثه وإذ ظرف منصوب بمضاف محذوف أي ولا يكن حالك كحاله وقصتك كقصته في وقت ندائه والمعنى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى بلاءه وجملة نادى في محل جر بإضافة الظرف إليها والواو حالية وهو مبتدأ ومكظوم خبر والجملة حال من ضمير نادى (لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) لولا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط وأن حرف مصدري ونصب وتداركه فعل ماض والهاء مفعول به ونعمة فاعل وذكر الفعل لأن تأنيث النعمة غير حقيقي ومن ربه نعت لنعمة وأن وما في حيّزها في موضع رفع مبتدأ خبره محذوف وجوبا ، واللام واقعة في جواب لولا ونبذ فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وبالعراء متعلقان بنبذ أي بالأرض الفضاء الجرداء والواو حالية وهو مبتدأ ومذموم خبر والجملة حال من ضمير نبذ (فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) الفاء عاطفة على

(450/778)

مقدّر أي فأدركته نعمة من ربه فاجتباه ، واجتباره فعل ماض ومفعول به وربه فاعله أي فجمعه إليه وقرّبه بالتوبة عليه ، فجعله عطف على

فاجتباه والهاء مفعول به أول ومن الصالحين في موضع المفعول الثاني (وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) الواو استئنافية وإن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن أو هي مهملة على الأرجح ويكاد فعل مضارع من أفعال المقاربة والذين اسمها وجملة كفروا صلة واللام الفارقة ويزلقونك فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به وبأبصارهم متعلقان بيزلقونك ولما رابطة أو حينية ظرفية وسمعوا فعل وفاعل والذكر مفعول به والمعنى أنهم من شدّة تحديقهم وإرسال النظر الشزر إليك يكادون يزلّون قدمك أو يهلكونك قال :

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزل مواطىء الأقدام

وجواب لما محذوف للدلالة عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) الواو عاطفة ويقولون عطف على يزلقونك وإن واسمها واللام المزحلقة ومجنون خبرها والجملة مقول قولهم (وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) الواو حالية وما نافية مهملة لانتقاض النفي بإلا وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وذكر خبر هو وللعالمين نعت لذكر .

البلاغة :

1 – في قوله " وأملي لهم إن كيدي متين " مجاز مرسل فقد سمى إمهاله إياهم ومرادفة النعم والآلاء عليهم كيدا لأنه سبب التورط والهلاك لأن حقيقة الكيد ضرب من الاحتيال ، والاحتيال أن تفعل ما هو نفع وحسن في الظاهر وأنت تريد ضده وما حصل من سعة

أرزاقهم وبلهنية عيشهم وطول أعمارهم هو في الظاهر إحسان عليهم والمقصود به الضرر والهلكة.

(451/778)

2- وفي قوله " وهو مذموم " مجاز مرسل أيضا لأن اللوم في الحقيقة سبب للذم فالعلاقة السببية ، وجميل قول الرازي : " وهو مذموم على كونه فاعلا للذنب قال والجواب من ثلاثة أوجه : الأول أن كلمة لولا دالّة على أن هذه المذمومية لم تحصل ، الثاني لعل المراد من المذمومية ترك الأفضل فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، الثالث لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوّة " وحمل الآية على المجاز أولى من تكلف هذه الاحتمالات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 163. 187 ﴾

(452/778)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والسبعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحاقة)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحاقة)

(5/779)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الحاقة

مقصودها تنزيه الخالق ببعث الخلائق لإحقاق الحق وإزهاق الباطل بالكشف التام لشمول العلم للكليات والجزئيات وكمال القدرة على العلويات والسلفيات ، وإظهار العدل بين سائر المخلوقات ، ليميز المسلم من المجرم بالملذذ والمؤلم ، وتسميتها بالحاقة في غاية الوضوح في ذلك وهو أدل ما فيها عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 119 ﴾

(6/779)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الحاقة)

السّورة مكّيّة .

وآياتها إِحدى وخمسون فى عدّ البصرة والشام ، واثنتان فى عَدّ الباقين .

وكلماتها مائتان وخمس وخمسون .

وحروفها أَلف وأَربعمائة وثمانون .

والمختلف فيها آيتان : ﴿ الحَآقَّةُ ﴾ الأُولى ﴿ بِشِمَالِهِ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (نم له) على اللاّم منها آية واحدة : ﴿ بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ .

ولها اسمان : سورة الحاقة ؛ لمفتتحها ، وسورة السّلسلة ؛ لقوله : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : الخبر عن صعوبة القيامة ، والإِشارة بإِهلاك القرون الماضية ، وذكر نَفْخة الصُّور ، وانشقاق السّموات ، وحال السّعداءِ والأَشقياءِ وقت قراءة الكتب ، وذلّ الكفّار مقهورين فى أَيدى الزّبانية ، ووصف الكفّار القرآنَ بأَنه كِهانة وشعر ، وبيان أَنَّ القرآن تذكِرة للمؤمن ، وحسرة للكافر ، والأَمر بتسبيح الرّكوع فى قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

السّورة محكمة ، خالية عن النَّاسخ والمنسوخ .

المتشابهات

قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ بالفاءِ ، وبعده : (وأَمَّا) بالواو ؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بأَحوال القيامة وأَهوالها ، فاقتضى الفاءَ للتَّعقيب ، والثَّانى متَّصل بالأَوّل ، فأَدخل الواو ؛ لأَنَّه للجمع .

قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ خصّ ذكر الشّعر بقوله : ﴿ مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ لأَنَّ مَن قال : القرآن شعر ، ومحمّد صلَّى الله عليه وسلَّم شاعر – بعد ما علم اختلاف آيات القرآن فى الطُّول والقِصَر ، واختلافَ حروف مقاطعِه – فلكفره وقلَّة إيمانه ، فإِنَّ الشعر كلام موزون مقفَّى .

(7/779)

وخصّ ذكر الكِهانة بقوله : ﴿ مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ لأَنَّ مَن ذهب إلى أَنَّ القرآن كِهانة ، وأَنَّ محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهَّان ؛ فإِنَّه أَسجاع لا معانى تحتها ، وأَوضاع تنبو الطِّباع عنها ، ولا يكون فى كلامهم ذكرُ الله تعالى .

فضل السّورة

فيه الحديثان السّاقطان .

عن أُبيّ : مَنْ قرأَها حاسبه الله حساباً يسيراً ، وعن عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها ، ثم مات مِن يوم قرأَها إلى آخر السنة ، مات شهيداً ، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثواب صالح النبيّ عليه السّلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 478 . 479 ﴾

(8/779)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الحاقة

444 - مسألة :

قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) وفى سورة انشقت : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) ؟ .

جوابه :

قيل : تغل يداه إلى عنقه ، ويجعل شماله من وراء ظهره .

وقيل : يخرج شماله من صدره إلى ظهره فهو : من شماله

وراء ظهره.

445 - مسألة:

قوله تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42)

ختم الأولى: ب (مَا تُؤْمِنُونَ) والثانية: ب (مَا تَذَكَّرُونَ).

جوابه:

أن مخالفة نظم القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة فلا يخفى على أحد. فقول من قال: ، شعر كفر وعناد محض، فختمه بقوله تعالى: (مَا تُؤْمِنُونَ) وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظهم فيحتاج إلى تذكير وتدبر، لأن كلا منهما على أوزان الشعر ونظمه، ولكن يفترقان بما في القرآن من الفصاحة والبلاغة والبديع، وتبع بديعه لبيانه، وألفاظه لمعانيه، بخلاف ألفاظ الكهان لأنها بخلاف ذلك كله. والله أعلم. انتهى انتهى.

اهـ ﴿كشف المعاني صـ 362. 363﴾

(9/779)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الحاقة

سميت (سورة الحاقَّة) في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وروى أحمد بن حنبل أن عمر بن الخطاب قال : (خرجت يوماً بمكة أتعرض لرسول الله قبل أن أُسْلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجَب من تأليف القرآن فقلت : هذا والله شاعر ، (أي قلت في خاطري) ، فقرأ) ومَا هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ((الحاقة : 41) قلت : كاهن ، فقرأ) ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من ربّ العالمين ((الحاقة : 42 43) إلى آخر السورة ، فوقع الإِسلام في قلبي كلَّ موقع) . وباسم) الحاقة عنونت في المصاحف وكُتب السنة وكتب التفسير . وقال الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز (: إنها تسمى أيضاً (سورة السلسلة) لقوله : (ثم في سلسلة ((الحاقة : 32) وسماها الجعربي في منظومته في ترتيب نزول السور (الواعية) ولعله أخذه من وقوع قوله) وتَعِيَهَا أُذن وَاعية ((الحاقة : 12) ولم أرَ له سلفاً في هذه التسمية .

(10/779)

ووجه تسميتها (سورة الحاقة) وقوع هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور القرآن

.

وهي مكية بالاتفاق . ومقتضى الخبر المذكور عن عمر بن الخطاب أنها نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة فإن عمر أسلم بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة .

وقد عدت هذه السورة السابعة والسبعين في عداد ترتيب النزول . نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج .

واتفق العادون من أهل الأمصار على عد آيها إحدى وخمسين آية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 110 . 111 ﴾

(11/779)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الحاقة

تقديم السورة

هذه سورة هائلة رهيبة ; قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ; وهي منذ افتتاحها إلى

ختامها تقرع هذا الحس , وتطالعه بالهول القاصم , والجد الصارم , والمشهد تلو المشهد , كله إيقاع ملح على الحس , بالهول آنا وبالجلال آنا , وبالعذاب آنا , وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر , أمر الدين والعقيدة , جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة , وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم , وأخذه الحاسم . ولو كان الذي يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة , والذي سميت به السورة: "الحاقة" . . وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلا , ثم استقراره استقرارا مكينا . رفعه في مدة الحاء بالألف , وجده في تشديد القاف بعدها , واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة .

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم , وجماعة بعد جماعة , مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة: كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية , وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما , فترى القوم فيها صرعى , كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ? وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة , فعصوا رسول ربهم , فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية , لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية . . وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة , تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل , الذي لا يحتمل هزلا , ولا يحتمل لعبا , ولا يحتمل تلفتا عنه من هنا أو هناك !

ويبرز في مشهد القيامة المروع , وفي نهاية الكون الرهيبة , وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول: (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة , فيومئذ وقعت الواقعة ,وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . .

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها .

هو وما بعده من مقالة الناجين والمعذبين: فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه . . فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة . . (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه , ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه) . . بهذا التفجع الطويل , الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . .

(13/779)

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب الرعيب , في اليوم الهائل , وفي الموقف الجليل: (خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) . . وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض , وتنقض في جلال مذهل , وفي هول مروع , وفي جد ثقيل . .

ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل , من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة: إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون . .

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويح بقسم هائل , وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير: (فلا أقسم بما

تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون , ولا بقول كاهن , قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) .

وأخيرا يبرز الجد في الإيقاع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل . كائنا من كان , ولو كان هو محمدا الرسول: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) . . فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين . .

وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير: (وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . . فسبح باسم ربك العظيم) . . وهو الختام الذي يقطع كل قول , ويلقي بكلمة الفصل , وينتهي إلى الفراغ من كل لغو , والتسبيح باسم الله العظيم . .

ذلك المعنى الذي تتمحض السورة لإلقائه في الحس , يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب:

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية , المتناهية الحيوية , بحيث لا يملك منها فكاكا , ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة , تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط [المؤتفكات] حاضرة شاخصة , والهول المروع يجتاح مشاهدها لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوما في آيتين اثنتين سريعتين . . ومن ذا الذي يقرأ : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟) . . ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين (كأنهم أعجاز نخل خاوية !) .

وهو مشهد حي ماثل للعين , ماثل للقلب , ماثل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس , وتقرقع حوله , وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) . . ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ! ومن الذي يسمع : (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها) . . ولا يتمثل خاطره

هذه النهاية الحزينة , وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ؟ ! ثم من الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع : (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) . .

ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة , وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة : هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه !

(15/779)

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته : (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه) .

ومن ذا الذي لا يرتعش حسه , وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : خذوه , فغلوه , ثم الجحيم صلوه , ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . . الخ . . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير !

وحاله هناك : فليس له اليوم ها هنا حميم , ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون .

وأخيرا فمن ذا الذي لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة , وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد

الشديد :(ولو تقول علينا بعض الأقاويل , لأخذنا منه باليمين , ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين !) . .

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة , وهي تلح عليه , وتضغط , وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف !

ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة , برنته الخاصة وتنوع هذه الرنة , وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق . . فمن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة:

(16/779)

(الحاقة . ما الحاقة ? وما أدراك ما الحاقة ?) . . إلى الرنة المدوية في الياء والهاء الساكنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون , أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع , طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة , ومشاهد الفرحة والحسرة في موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة:(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . . .) . . ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم , وتقرير جدية الأمر , إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون: نه كان لا يؤمن بالله

العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين . . (وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) . .

(17/779)

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو , وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير . إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل , ومن كل تعليق ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3676.3674 ﴾

(18/779)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الحاقة

مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية

بين يدي السورة

* سورة الحاقة من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان ، وقد تناولت أمورا عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم ، مثل " قوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون ، وقوم نوح " وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض ، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو " إثبات صدق " القرآن ، وأنه كلام الحكيم العليم ، وبراءة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مما اتهمه به أهل الضلال من الافتراء على الله .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها ، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد [الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية] الآيات .

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور ، من خراب العالم ، واندكاك الجبال ، وانشقاق السموات إلخ [فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . .] الآيات .

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع ، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه ، ويلقى الإكرام والإنعام ، ويعطى الكافر كتابه بشماله ، ويلقى الذل والهوان [فأما

من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . . . وأما من أوتي كتابه بشماله . .] الآيات .

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار ، جاء القسم البليغ بصدق الرسول ، وصدق ما جاء به من الله ، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحرا وكهانة [فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم] الآيات .

(19/779)

---

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن ، وأمانة رسول الله في تبليغه الوحي كما نزل عليه ، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزا ويثير في النفس الخوف والفزع ، من هول الموضوع [ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . .] الآيات .

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين [وإنه لتذكرة للمتقين وإنه لحسرة على الكافرين " وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 433 . 434 ﴾

(20/779)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحاقة

الحاقة : من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب ، أي الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء وهى يوم القيامة ، ما الحاقة : أي أىّ شىء هى ؟ تفخيما لشأنها ، وتعظيما لهولها ، وما أدراك ما الحاقة : أي أىّ شىء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بحقيقتها ، إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين ، والقارعة : هى الحاقة التي تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال ، وتقرع الأجرام بالانفطار والانتشار ، وسميتقارعة لشدة هولها ، إذ القرع ضرب شىء بشىء ، والطاغية : هى الواقعة التي جاوزت الحد فى الشدة والقوة كما قال " إنّا لمّا طغى الماء " أي جاوز الحد ، والمراد بها الصاعقة ، والصرصر :

الشديدة الصوت التي لها صرصرة ، عانية : أي بالغة منتهى القوة والشدة ، سخرها عليهم : أي سلطها عليهم ، حسوما : أي متتابعة واحدها حاسم ، والحسم : القطع

والاستئصال وسمى السيف حساما لأنه يحسم العدو عما يريد من عداوته ، وصرعى : واحدهم صريع أي ميت ، وأعجاز : واحدها عجز ، وهو الأصل ، وخاوية : أي خالية الأجواف لا شىء فيها ، والباقية : البقاء ، والمؤتفكات : أي المنقلبات وهى قرى قوم لوط

، جعل اللّه عاليها سافلها بالزلزلة ، والخاطئة : الخطأ ، رابية : من ربا الشيء إذا زاد أي الزائدة فى الشدة ، وطغى الماء : تجاوز حده وارتفع ، حملناكم : أي حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم ، والجارية : السفينة التي تجرى فى الماء ، وتعيها : أي تحفظها ، وتقول لكل ما حفظته فى نفسك : وعيته ، وتقول لكل ما حفظته فى غير نفسك :

أوعيته فيقال أوعيت المتاع فى الوعاء قال : " والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد " .

(21/779)

نفخة واحدة : هى النفخة الأولى ، حملت الأرض والجبال : أي رفعت من أه كنها ، فد كتا دكة واحدة : أي ضرب بعضها ببعض حتى اندقت وصارت كثيبا مهيلا ، الواقعة : النازلة وهى يوم القيامة ، انشقت السماء : أي فتحت أبوابا ، واهية :

أي مسترخية ضعيفة القوة ، من قولهم : وهى السقاء إذا انخرق ، ومن أمثالهم قول الراجز :

خلّ سبيل من وهى سقاؤه ومن هريق بالفلاة ماؤه

أرجائها : أي جوانبها ، واحدها رجا ، ثمانية : أي ثمانية أشخاص ، خافية : أي سريرة .

هاؤم : أي خذوا ، ظننت : أي علمت ، ملاق : أي معاين ، راضية : أي يرضى بها

صاحبها ، عالية : أي مرتفعة المكان ، والقطوف : ما يجتنى من الثمر ، واحدها قطف (بكسر القاف وسكون الطاء) دانية : أي قريبة ، هنيئًا : أي بلا تنغيص ولا كدر ، أسلفتم : أي قدمتم ، الخالية : أي الماضية .

القاضية : أي القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها ، ما أغنى عنى ماليه : أي لم يغن عنى مالى الذي تركته فى الدنيا ، هلك : أي بطل ، والسلطان : الحجة ، غلّوه : أي شدّوه بالأغلال ، والغلّ : القيد الذي يجمع بين اليدين والعنق ، والجحيم : النار المتأججة المشتعلة ، وصليته النار وأصليته : أي أوردته إياها ، ذرعها : أي طولها ، فاسلكوه : أي فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك : أي الحبل الذي يدخل فى ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب ، إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلفّ عليه ، ويقال سلكته الطريق : إذا أدخلته فيه ، حميم : أي قريب مشفق ، والغسلين : الدم والماء والصديد الذي يسيل من لحوم أهل النار قاله ابن عباس ،

وعن أبى سعيد الخدري مرفوعا : " لو أن دلوا من غسلين يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا " أخرجه الحاكم وصححه ،

والخاطئون : أي الآثمون يقال خطئ الرجل : إذا تعمد الإثم والخطأ .

ما تبصرون : هى المشاهدات ، وما لا تبصرون : هى المغيبات .

التقوّل : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلّف ، والأقاويل : الأقوال المفتراة ، واحدها قول على غير قياس ، لأخذنا منه : أي لأمسكناه ، باليمين : أي بيمينه ، والوتين : عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، حاجزين : أي ما نعين ، حق اليقين : أي عين اليقين .

أهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 50ـ62 ﴾ . باختصار .

(23/779)

وقال الفراء :

سورة (الحاقة)

﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَآقَّةُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ الْحَاقَّةُ . . . مَا الْحَآقَّةُ . . . ﴾ .

والحاقة [/ب]: القيامة ، سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء ، والعرب تقول: لما عرفت الحقة منى هربت ، والحاقة . وهما فى معنى واحد .

وَالحاقة: مرفوعة بما تعجبت منه من ذكرها ، كقولك: الحاقة ما هى ؟ والثانية: راجعة على الأولى . وكذلك قوله: ﴿ وأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِين ﴾ و ﴿ القارِعَةُ ، مَا

الْقَارِعَةُ ﴾ معناه: أى شىء القارعة؟ فما فى موضع رفع بالقارعة الثانية، والأولى مرفوعة بجملتها، والقارعة: القيامة أيضاً.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً . . . ﴾.

والحسوم: التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره، قيل فيه: حسوم، وإنما أُخذ - والله أعلم - من حسم الداء إذا كُوى صاحبُه؛ لأنه يكوى بمكواةٍ، ثم يتابع ذلك عليه.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ . . . ﴾. من بقاءٍ، ويقال: هل ترى منهم باقياً؟، وكل ذلك فى العربية جائز حسن.

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴾

وقوله: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ . . . ﴾.

قرأها عاصم والأعمش وأهل المدينة: (ومن قَبله)، وقرأ طلحة بن مصرِّف والحسن، أو أبو عبد الرحمن - شكّ الفراء -: (ومن قِبَلهُ)، بكسر القاف. وهى فى قراءة أبىّ: (وجاءَ فِرْعَوْنُ ومَن معَه)، وفى قراءة أبى موسى الأشعرى: "ومن تِلْقَاءَه"، وهما شاهدان لمن

كسر القاف ؛ لأنهما كقولك: جاء فرعون وأصحابه . ومن قال: ومن قَبْلَهُ: أراد الأمم العاصين قبله .

(24/779)

وقوله: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . . . ﴾ .

الذين ائتفكوا بخطئهم .

﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾

وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً . . . ﴾ .

أخذة زائدة ، كما تقول: أربيتَ إذا أخذ أكثر مما أعطاه من الذهب والفضة ، فتقول: قد أربيت فَرَبا رباك .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً . . . ﴾ لنجعل السفينة لكم تذكرة: عظة .

وقوله: ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ . . . ﴾ .

يقول: لتحفظها كل أذن ؛ لتكون عظة لمن يأتي بعد .

﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾

وقوله: ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا . . . ﴾

ولم يقلْ: فدككن ؛ لأنه جعل الجبال كالواحد وكما قال: ﴿ أنّ السَّمَاواتِ والأَرْضَ كانَتَا رَتْقاً ﴾ ولم يقل: كنّ رتقا ، ولو قيل فى ذلك: وحملت الأرض والجبال فدكَّت لكان صوابا ؛ لأن الجبال والأرض كالشىء الواحد .

وقوله: ﴿ دَكَّةً وَاحِدَةً . . . ﴾ .

ودكُّها : زلزلتها .

﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . . . ﴾ وَهْيُهَا : تشققها .

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . . . ﴾ يقال: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ يَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ . . . ﴾ .

قرأها يحيى بن وثاب بالياء ، وقرأها الناس بعد ـ بالتاء ـ (لا تخفى) ، وكلٌّ صواب ، وهو مثل قوله: ﴿ وأَخذَ الذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ . وأخذت .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَؤُاْ كِتَابِيَهْ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . . . ﴾ .

نزلت فى أبى سلمة بن عبد الأسد ، كان مؤمنا ، وكان أخوه الأسود كافرا ، فنزل فيه:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ . . . ﴾ .

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾

وقوله: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . . . ﴾ أى: علمت ، وهو مِن علم مالا يعاَبن ، وقد فسّر ذلك فى غير موضع .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . . . ﴾

فيها الرضاء ، والعرب [/ا] تقول: هذا ليل نائم ، وسر كاتم ، وماء دافق ، فيجعلونه فاعلا ، وهو مفعول فى الأصل ، وذلك: أنهم يريدون وجه المدح أو الذم ، فيقولون ذلك لا على بناء الفعل ، ولو كان فعلا مصرحا لم يُقَل ذلك فيه ، لأنه لا يجوز أن تقول للضارب: مضروب ، ولا للمضروب: ضارب ؛ لأنه لا مدح فيه ولا ذم .

﴿ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾

وقوله: ﴿ يالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . . . ﴾ .

يقول: ليت الموتة الأولى التى منها لم أحيَ بعدها .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . . . ﴾ .

ذكر أنها تدخل فى دبر الكافر ، فتخرج من رأسه ، فذلك سَلْكُه فيها . والمعنى: ثم اسلكوا فيه سلسلة ، ولكن العرب تقول: أدخلت رأسى فى القلنسوة ، وأدخلتها فى رأسى ، والخاتَم يقال: الخاتم لا يدخل فى يدى ، واليد هى التى فيه تدخل من قول الفراء . قال أبو عبد الله [محمد بن الجهم]: والخف مثل ذلك ، فاستجازوا ذلك ؛ لأن معناه لا يُشكل على أحد ، فاستخفوا من ذلك ما جرى على ألسنتهم .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ . . . ﴾ يقال: إنه ما يسيل من صديد أهل النار .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . . . ﴾ يقول: لو أن محمدا صلى الله عليه تقوّل علينا ما لم يؤمر به ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . . . ﴾ ، بالقوة والقدرة.

﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . . . ﴾ .

أحد يكون للجميع وللواحد ، وذكر الأعمش فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه

قال: (ألم تَحل الغنائم لأحد سُودِ الرءوس إلاّ لنبيكم صلى الله عليه وسلم) ، فجعل: أحداً فى موضع جمع . وقال الله جل وعز: ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ فهذا جمع ؛ لأنّ بين لا يقع إلاّ على اثنين فما زاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 179 . 183 ﴾

(27/779)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحاقة

(الحاقة) [1] فاعلة من الحق ، وهي القيامة التي يحق فيها الوعد والوعيد . (وما أدراك ما

الحاقة) [3] [إذ] لم يكن هذا الاسم في لسانهم . أو معناه: إنك لا تدري ما يكون في الحاقة . (بالقارعة) [4] بالقيامة ، لأنها تقرع القلوب بالمخافة . (بالطاغية) [5] بالصيحة العظيمة ، كقوله تعالى: (طغا الماء) ، أي: عظم ارتفاعه ، وجاوز حده ، ومنه الطغيان في مجاوزة الحد .

(حسوماً) [7] متتابعة ، من حسم الكي: إذا تابعت عليه [بالمكواة] . وعن مقاتل: قاطعة أدبارهم ، فيكون التقدير: تحسمهم حسوماً . (خاوية) [7] ساقطة/ . خوى النجم سقط في المغرب . (من باقية) [8] مصدر ، أي: من بقاء .

وقيل: تقديره: من نفس باقية . (ومن قبله) [9] ومن يليه من أهل دينه . قال سيبويه: هو لما ولي الشيء . تقول: ذهب قبل السوق ، ولي قبله حق . ونصبه على ظرف المكان .

(والمؤتفكات) [9] المنقلبات بالخسف . (رابية) [10] زائدة . (وتعيها أذن واعية) [12] اي: حملناكم في السفينة ، لأن نجعلها لكم تذكرة ، ولأن تعيها .

فلما توالت الحركات ، اختلست حركة العين ، وجعلت بين الحركة والإسكان . (ثمانية) [17] أي: ثمانية صفوف ، أو ثمانية أصناف . (فأما من أوتي كتابه بيمينه) [19] العرب تجعل اليمين [للمحبات] والمسار ، والشمال بخلاف ذلك . قال: 1313- [أبيني] أفي يمنى يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني في شمالك

وقال ابن ميادة: 1314- ألم [تك] في يمنى يديك جعلتني فلا تجعلني بعدها في شمالكا .

(هاؤم اقرءوا كتابيه) [19] أي: خذوا ، تقول للمذكر: هاء بفتح الهمزة ، وفي التثنية: هاؤما ، وفي الجميع: هاؤم ، وللمرأة: هاء بكسر الهمزة ، وهاؤما كالمذكرين ، وللنسوة: هاؤن ، وفيه لغات أخر يلطف عنها هذا الكتاب . (ظننت أني ملاق حسابيه) [20] ظننت أن الله يؤاخذني بذنوبي فعفا عني . (عيشة راضية) [21] ذات رضى ، كقولهم: ليل دائم ، وماء دافق ، وامرأة طامث وطالق .

(28/779)

(يا ليتها كانت القاضية) [27] أي: موتة لا بعث بعدها . (هلك عني سلطانيه) [29] ما كان من تسليط على نفسه . [و]مثل هذه الهاءات لبيان الحركة ، قول عبد الله بن قيس الرقيات: 1315- إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن/مروتيه 1316- وجببنني جب السنام فلم يتركن ريشاً في مناكبيه . (حميم) [35] صديق ، وهو الذي إذا أصابك مكروه احترق لك . (غسلين) [36]

على وزن فعلين ، غسالة جروحهم وأجوافهم . وقيل: إنه العرق والصديد . وفي معناه قال الطرماح: 1317- [يبل] بمعصوم جناحي ضئيلة [أفاويق] منها هلة ونقوع . وقال آخر: 1318- وليس بها ريح ولكن وديقة يظل لها الساري يهل وينقع . (إنه لقول رسول)

[40] أي: تلاوته، أي: محمد صلى الله عليه. (لأخذنا منه باليمين) [45]

أي: لقطعنا منه يمينه. وقيل: لأخذنا منه بالقوة القاهرة. وقيل: لأخذنا منه بالحق،

وبذلك يفسر بيت الشماخ: 1319- إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين

1320- إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين. أي: بالاستحقاق. والوتين: عرق

بين العلباء والحلقوم، كما في شعر الشماخ.

[تمت سورة الحاقة]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1538.1545﴾

(29/779)

وقال الأخفش:

سورة (الحاقة)

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾

قال ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ لأنك تقول: "وَعَتْ ذاكَ أُذُنِي" و"وَعَاهُ سَمْعِي" و"أَوْعَيْتُ

الزادَ" و"أَوْعَيْتُ المَتاعَ" كما قال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الحادي والسبعون

بعد المئتين]:

[الخَيْرُ يَبْقَى وإِنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ] * والشَرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زادِ

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾

وقال ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ لأن الفعل وقع على النفخة اذا لم يكن قبلها اسمٌ مَرْفوع.

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾

وقال ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ وواحدها "الرَّجَا" وهو مقصور.

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾

وقال ﴿ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ جعله – والله أعلم – من "الغَسْل" وزاد الياء والنون [177 ب] بمنزلة "عُفْرِين" و"كُفْرِين".

﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

وقال ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ على المعنى لأن معنى "أَحَد" معنى جماعة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 548 ﴾

(30/779)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الحاقة

«1»

1 - الْحَاقَّةُ: القيامة، [لأنها] حقّت. فهي حاقة وحقّة.

قال الفراء: إنما قيل لها حاقة: لأن فيها حواق الأمور [والثواب. و«الحقة»: حقيقة الأمر. يقال: لما عرفت الحقة متى هربت. هي مثل الحاقة «2».

5 - فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ أي بالطغيان.

7 - حُسُوماً: تباعا. ويقال: هو من «حسم الداء» [إذا كوي صاحبه]: لأنه يكوي مرة بعد مرة، يتابع عليه الكيّ.

أَعْجازُ نَخْلٍ: أصول نخل «3»، خاوِيَةٍ: بالية.

8 - فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟! أي أثر.

ويقال: هل ترى لهم من بقاء؟.

9 - بِالْخاطِئَةِ أي بالذنوب.

10 - أَخْذَةً رابِيَةً: عالية مذكورة.

12 - وَتَعِيَها

من «وعت الأذن».

---

(1) هي مكية.

(2) قال ابن عباس : الحاقة من اسماء يوم القيامة عظمها اللّه وحذرها عباده .

(3) قاله الطبري . [. . . . .]

(31/779)

---

17 - وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أي على جوانبها [ونواحيها] .

19 - فَيَقُولُ : هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ . يقال : «بمعنى هاكم اقرؤوا كتابيه» ، أبدلت الهمزة من الكاف .

23 - قُطُوفُها دانِيَةٌ : ثمرها . واحدها : «قطف» .

27 - يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ أي المنية .

35 - إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ وهو «فعلين» من غسلت ، كأنه غسالة .

ويقال : «هو : ما يسيل من صديد أجسام المعذّبين» .

40 - إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . لم يرد انه قول الرسول ، وإنما أراد : أنه قول رسول عن اللّه جل وعز . وفي «الرسول» ما دل على ذلك ، فأكتفي به من ان يقول : عن اللّه .

45 - لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

46 - وَالْوَتِينَ : نياط القلب «1» ، وهو : عرق يتعلق به القلب ، إذا انقطع مات

صاحبه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 412. 413 ﴾

---

(1) قاله الطبري. والوثين عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(32/779)

وقال الغزنوى:

سورة الحاقة

1 الْحَاقَّةُ فاعلة من «الحق»، وهي القيامة التي يحقّ فيها الأمر.

3 وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ إذ لم تعاين أهوالها. أو لم يكن هذا الاسم في لسانهم.

4 بِالْقارِعَةِ: بالقيامة لأنها تقرع القلوب مخافة. وقوارع القرآن هي قوارع الشّيطان وزواجره.

5 بِالطَّاغِيَةِ: بالصّيحة العظيمة «1»، [كقوله] «2»: طَغَى الْماءُ،

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 29/ 49 عن قتادة، وهو اختيار الطبري.

(2) في الأصل و«ج»: «كقولك»، والمثبت في النص عن «ك».

(33/779)

أي : عظم ارتفاعه وجاوز حدّه .

7 حُسُوماً : متتابعة ، جمع «حاسم» ، من «حسم» الكي ، إذا تابعت عليه بالمكواة «1» .

وقيل «2» : قاطعة آثارهم ، فالتقدير : تحسمهم حسما .

خاوِيَةٍ : ساقطة «3» . خوى النّجم : سقط في المغرب «4» .

8 مِنْ باقِيَةٍ : «بقاء» مصدر «5» . أو من نفس باقية «6» .

9 وَمَنْ قَبْلَهُ : من يليه من أهل دينه «7» ، ونصبه على ظرف المكان .

وَالْمُؤْتَفِكاتُ : المنقلبات بالخسف «8» .

10 رابِيَةً : زائدة .

12 وَتَعِيَها

أي : حملناكم في السّفينة لأن نجعلها لكم تذكرة ولأن تعيها فلما توالت الحركات اختلست حركة العين «9» .

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 180 ، واختيار الطبري في تفسيره : 29/ 50 .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 267 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 483 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (29/ 51 ، 52) عن ابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 292 عن ابن زيد ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير :

8/ 347 ، والقرطبي في تفسيره : 18/ 259 .

(3) تفسير الماوردي : 4/ 292 عن السدي .

(4) في المفردات للراغب : 163 : «خوى النجم وأخوى إذا لم يكن منه عند سقوطه

مطر . . .» .

(5) في «ك» : مصدر بمعنى البقاء .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 180 ، وتفسير الطبري : 29/ 52 ، وتفسير القرطبي

:

18/ 261 ، والبحر المحيط : 8/ 321 .

(6) نص هذا القول في تفسير البغوي : 4/ 386 ، وذكره - أيضا - الزمخشري في

الكشاف :

4/ 150 ، والقرطبي في تفسيره : 18/ 261 .

(7) ورد هذا المعنى على قراءة أبي عمرو ، والكسائي بكسر القاف وفتح الباء .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 648 ، والتيسير للداني : 213 .

وزاد المسير : 8/ 347 ، وتفسير القرطبي : 18/ 261 ، والبحر المحيط : 8/

.321

(8) ينظر هذا المعنى فيما سبق ص : (775) .

(9) في وضح البرهان : 2/ 431 : «فلما توالت الحركات اختلست حركة العين ، وجعلت بين الحركة والإسكان» .

(34/779)

---

14 فَدَكًّا : بسطتا بسطة واحدة ، ومنه الدَّكّان ، واندكّ سنام البعير : إذا انفرش في ظهره «1» .

16 واهِيَةٌ : ضعيفة لا تستمسك فصار الملك في نواحيها ثمانية صفوف أو ثمانية أصناف «2» .

18 لا يخفى «3» منكم خافية لا يستر شيء مما تسرّون .

وفي خطبة عمر رضي اللّه عنه «4» : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا 101/ب] وزنوا أعمالكم/ قبل أن توزنوا ، وأعدّوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية» .

وفي خطبة الحجاج «5» : امرؤ زود نفسه ، امرؤ لم يأتمن نفسه على نفسه ، امرؤ يجد

نفسه عدوه ، امرؤ كان له من قلبه «6» مدّكر وزاجر يأخذ بعنان عمله فينظر حاله يوم يعرض على ربه ، امرؤ نظر إلى ميزانه وحاسب نفسه قبل أن يكون حسابه إلى غيره .

19 هاؤُمُ اقْرَؤُا : خذوا . تقول للمذكّر هاء بالفتح ، وهاؤما وهاؤم .

وللمرأة هاء - بالكسر - وهاؤما وهاؤنّ «7» .

---

(1) ينظر المفردات للراغب : 171 ، وتفسير القرطبي : 18/ 265 ، واللسان : 10/ 425 (دكك) .

(2) تفسير الطبري : (29/ 57 ، 58) ، وتفسير الماوردي : 4/ 295 ، وزاد المسير : 8/ 350 ، وتفسير القرطبي : (18/ 265 ، 266) .

(3) كذا في الأصل : (يخفى) بالياء ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي كما في السبعة لابن مجاهد :

648 ، والتبصرة لمكي : 358 ، والتيسير للداني : 213 . [. . . . .]

(4) وردت هذه الخطبة في أثر أخرجه ابن المبارك في الزهد : 103 رقم (306) .

وأخرجه - أيضا - أبو نعيم في الحلية : 1/ 52 .

وانظر هذه الخطبة في البداية والنهاية : 9/ 130 .

(5) ينظر هذه الخطبة في البداية والنهاية : 9/ 130 .

(6) في «ك» : «قبله» .

(7) قال الزجاج في معانيه : 5/ 217 : «هاؤم : أمر للجماعة بمنزلة هاكم ، تقول للواحد : هاء يا رجل ، وللاثنين : هاؤما يا رجلان ، وللثلاثة : هاؤم يا رجال ، وللمرأة : هاء يا امرأة – بكسر الهمزة – وللاثنين : هاؤما ، وللجماعة : النساء هاؤنّ» .

وانظر تفسير القرطبي : 18/ 269 ، واللسان : 12/ 625 (هوم) .

(35/779)

---

20 ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ : ظننت أنّ اللّه يؤاخذني فعفا عني .

21 عِيشَةٍ راضِيَةٍ : ذات رضا ، ك «ليل نائم» ، و«ماء دافق» ، و«امرأة طامث ، وحامل ، وطالق» «1» .

27 كانَتِ الْقاضِيَةَ : موتة لا بعث بعدها ، وفي الحديث «2» : «تمنّوا الموت ولم يكن في الدنيا شيء أكره منه عندهم» .

29 سُلْطانِيَهْ : ما كان من تسليط على نفسه «3» .

32 سَبْعُونَ ذِراعاً ابن عباس «4» : «العرب تفخّم من العدد السّبعة والسّبعين» .

35 حَمِيمٌ : صديق ، وهو من إذا أصابك مكروه احترق لك «5» .

36 غِسْلِينٍ : بوزن «فعلين» غسالة جروحهم «6» . والنار دركات فمن أهل النار من

ليس له طعام إلّا من ضريع ، ومنهم من طعامه غسلين ، وآخرون طعامهم الزّقوم .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 182 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 268 .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 62 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 298 ، والبغوي في تفسيره : 4/ 389 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 273 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن قتادة رحمه اللّه تعالى .

(3) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 4/ 298 عن قتادة ، ونص كلامه : «سلطانه الذي تسلط به على بدنه حتى أقدم على معصيته» .

(4) لم أقف على هذا القول المنسوب إلى ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(5) ينظر المفردات للراغب : 130 ، وتفسير القرطبي : 18/ 273 .

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 484 ، وتفسير الطبري : 29/ 65 ، ومعاني الزجاج :

5/ 218 ، والمفردات للراغب : 361 ، واللسان : 11/ 495 (غسل) .

(36/779)

40 إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ تلاوة محمد «1» عليه السّلام.

41 بِقَوْلِ شاعِرٍ إذ الغالب في الشعر أن يدعو [إلى الهوى] «2».

وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ وهو السّجع المتكلف باتّباع المعنى له ليشاكل المقاطع.

وموجب الحكمة أن يتّبع اللّفظ المعنى، وتشاكل المقاطع فواصل بلاغة وسجع كهانه وقوافي زنة.

45 لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ: لقطعنا يمينه «3». أو لأخذنا منه بالقوة «4»، أو لأخذنا منه بالحق «5».

46 والْوَتِينَ: عرق بين العلباء والحلقوم «6». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 832.836﴾

---

(1) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 474: «لم يرد أنه قول الرسول وإنما أراد: أنه قول رسول عن اللّه جلّ وعزّ، وفي «الرسول» ما دل على ذلك فاكتفى به من أن يقول: عن اللّه».

وانظر تفسير الطبري: 29/ 66، وتفسير الماوردي: 4/ 299، وتفسير القرطبي: 18/ 274.

(2) في الأصل: «أن يدعو إليه الهوى»، والمثبت في النص عن «ك» و«ج».

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 4/ 300 عن الحسن، وكذا القرطبي في تفسيره

:

18/ 276.

(4) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 183 ، والطبري في تفسيره : 29/ 66 ، ومكي في تفسير المشكل : 354 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 300 عن مجاهد .

[. . . . .]

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 299 عن السدي ، والحكم .

وذكره البغوي في تفسيره : 4/ 390 دون عزو .

(6) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 300 عن الكلبي ، وكذا القرطبي في تفسيره : 18/ 276 .

وقيل : (الوتين) : نياط القلب ، أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 67 عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

واختار الطبري هذا القول ، وأورده البغوي في تفسيره : 4/ 391 ، وقال : «وهو قول أكثر المفسرين» .

(37/779)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحاقة

عدد 28 و78 - 69

نزلت بمكة بعد سورة الملك ، وهي اثنتان وخمسون آية ، ومئتان وست وخمسون كلمة ، وألف وأربعة وثلاثون حرفا ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ومثلها في عدد الآي سورة القلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الْحَاقَّةُ" 1 "مَا الْحَاقَّةُ" 2 استفهام جار على التفخيم عن عظيم شأنها والتهويل عما يكون فيها "وَما أَدْراكَ" أيها السائل عنها "مَا الْحَاقَّةُ" 3 فإنك لا تعلمها إلا إذا عاينتها ، لأن فيها من الشدائد والأهوال ما لا يبلغه دراية أحد ، ولا يصل لكنهها الفكر ، فمهما صورتها وكيفها مثلتها فهي أكبر وأعظم من ذلك .

وإنما سميت القيامة حاقّة لأنها ثابتة الوقوع وتحق على القوم فتقع فيهم "كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ" 4 القيامة وسميت بها لأنها تقرع الناس فتدهشهم وتفرع القلوب فتفلجها ، ولها أسماء كثيرة بيناها في محالها فيما مضى ، وسنبين أيضا فيما يأتي .

قال تعالى "فَأَمَّا ثَمُودُ" قوم صالح "فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ" 5 الصيحة الشديدة المجاوزة للحد في القوة بسبب طغيانهم وبغيهم على عقر الناقة التي أظهرها اللّه معجزة لنبيهم على طلبهم

، "وَأَمَّا عادٌ" قوم هود "فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ" شديدة الصوت باردة تحرق بقوة بردها الزرع والضرع "عاتِيَةٍ" 6 عظيمة العصف قد عتت عليهم فلم يقدروا أن يقوا أنفسهم منها بعزم ولا حزم ولا حيلة ، وإن اللّه المنتقم الجبار القهار "سَخَّرَها عَلَيْهِمْ" أي العتاة المذكورين بمقتضى قضائه الأزلي "سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً" قاطعات متتابعات لم تفتر خلالها حتى حسمتهم على آخرهم .

وفي قوله تعالى سخرها رد لمن قال إن تلك الريح كانت باتصال الكواكب .

وردع لبعض المفسرين القائلين إنها عتت على الملائكة ، وهذه الأيام الثمانية تسمى العجوز

لأنها كانت في عجز الشتاء ، ولا يزال بردها يكرر في كل سنة ، أو لأن عجوزا من قوم عاد دخلت سربها لتقي نفسها منها فاتبعتها الريح فأهلكتها "فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ" لمن يراهم "أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ" 7 أجوافها ساقطة بالية ، شبههم بجذوع النخيل الساقطة ليس لها رءوس لما قالوا إن الريح كانت تدخل من أفواههم فتخرج من أدبارهم حتى صاروا كأعجاز النخل البالية "فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ" 8 أيها الرائي إذا كان إهلاكهم على هذه الصورة ؟ كلا ، قالوا إنها أهلكتهم جميعهم في سبعة أيام وفي الثامن القت جثثهم في البحر ،

فلم يبق لهم أثر فهذه كيفية تدميرهم أيها السائل عنهم ، راجع قصتهم في الآية 50 فما بعدها من سورة هود المارة ، ولهذا فإن عادا الأولى لا ينسب إليها أحد أن اللّه تعالى أخبر أن لا باقية لها ، وما جاء في بحث الخراج العشر بلفظ عادي الأرض فهو منسوب إليهم إذ بقيت ديارهم مهجورة ، قال تعالى (فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ) الآية 58 من سورة القصص المارة .

قال تعالى "وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ" من الأمم الكافرة بعد عاد وثمود "وَالْمُؤْتَفِكَاتُ" قرى قوم لوط وهي خمسة صبعه وصعوه وعمرة ودوما وسدوم ، وهي أعظم قراهم ، قلبها اللّه تعالى بأهلها فهن المنقلبات بالخسف ، والأمم الذين ائتفكوا بذنوبهم أي "بِالْخَاطِئَةِ" 9 وهي الفعلة ذات الخطأ الكبير "فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ" أولئك الأقوام "فَأَخَذَهُمْ" اللّه الذي أرسله رحمة بهم فكذبوه فصار بغيهم عليهم نقمة وصارت أخذتهم "أَخْذَةً رَابِيَةً" 10 نامية زائدة بالشدة على عقوبات غيرهم من الكفار بالنسبة لزيادة بغيهم .

(39/779)

قال تعالى "إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ" على قوم نوح بسبب تماديهم على الكفر "حَمَلْنَاكُمْ" أيها الناس أي حملنا أصلكم نوحا ومن معه وأنتم ذريتهم "فِي الْجَارِيَةِ" 21 السفينة ، وقد أضيف

الحمل إليهم لأنهم كانوا في أصلاب المحمولين فيها ، فكل هذا البشر من أولاد نوح عليه السلام

ولهذا سمي أبا البشر الثاني "لِنَجْعَلَهَا"

تلك الفعلة التي أغرقنا فيها من على وجه الأرض وأنجينا آباءكم المؤمنين "لَكُمْ"

أيها الناس "تَذْكِرَةً"

تذكرون بها "وَتَعِيَهَا"

من بعدكم "أُذُنٌ وَاعِيَةٌ"

12 عافلة حافظة تذكر ما جاء من عند اللّه فتعتبر به وتعظ غيرها فرب مبلّغ أوعى من سامع .

مطلب في اهوال القيامة ، وإعطاء الكتب ، وحال أهلها :

(40/779)

هذا ، وبعد أن صدّر اللّه تعالى هذه السورة بذكر القيامة وتفخيمها وأخبار وقصص بعض الأمم السالفة وأحوالها وكيفية إهلاكها وذكر نعمة إنجاء المؤمنين ، شرع يبين أحوال القيامة وما يكون فيها من أولها إلى آخرها على سبيل الإجمال فقال عز قوله "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ" 13 لا تثنّى في وقتها وإلا فهي نفختان معلومتان لكل منهما زمن معلوم ، وإنما

قال واحدة لعدم التثنية "وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ" فيها من أماكنها بعد أن مات في تلك النفخة الأولى من عليها أجمع "فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً" 14 بأن ضرب الجبال في الأرض بيد القدرة البالغة ، فصارت كثيبا مهيلا وهباء منثورا "فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ" 15 قامت القيامة ونشر من في الأرض "وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ" 16 رخوة مشققة مفطرة بعد ما كانت قوية محكمة لا فطور فيها "وَالْمَلَكُ" أعم من الملائكة "عَلى أَرْجائِها" جوانب السماء وأطرافها لأنها مسكنهم ، فإذا كورت لجأوا إلى جوانبها وحوافّها ، ثم يموتون أيضا لدخولهم في عموم قوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ) الآية 35 من سورة الأنبياء وهي مكررة في البقرة وغيرها "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ" فوق رءوسهم من فوق الملائكة الذين هم على أكتاف السموات "يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ" 17 أملاك عظام وهم من المستثنين من الموت كما مر في الآية 68 من سورة الزمر المارة ، "يَوْمَئِذٍ" يوم إذ كان ذلك كلّه ونفخت النفخة الثانية وقام الناس وغيرهم من مدافنهم أحياء "تُعْرَضُونَ" أيها الخلائق على خالقكم ليحاسبكم ويجازيكم "لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ" 18 عليه من كل ما وقع منكم سرا أو جهرا ، عمدا أو خطأ ، بقصد أو غير قصد .

(41/779)

ثم تعطى الكتب بالأعمال "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ" فيغلب عليه الفرح وينادى بأعلى صوته على رءوس الأشهاد "فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ" 19 خذوه فانظروه واقرءوه ، وذلك لأنه بلغ غاية السرور فأراد أن يطلع عليه معارفه وغيرهم ليعلموا أنه كان في الدنيا على الحق ، كما أن من ينجح بالفحص يعلن بالمذياع أو غيره نجاحه ويري شهادته لمن يراه فرحا بها

مع أنها قد لا توصله لشيء ولو أوصلته فإنه وما توصله إليه فان ، فكيف بتلك الشهادة الباقية المخلدة الموصلة إلى دار النعيم التي لمثلها يعمل العاملون وبها يتنافس المتنافسون ؟ ويقول لهم أيضا "إِنِّي ظَنَنْتُ" تيقنت في الدنيا "أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ" في الآخرة لأنه كان يعتقد ما جاء به الرسل من البعث والحساب والثواب والعقاب وكان حسن الظن بالله والله عند ظن عبده به

(42/779)

"فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ" 21 لأمنه مما كان يخافه وقد أعطي أمنينه "فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ" 22 مرتفعة مكانا ومكانة "قُطُوفُها" ثمارها التي تقطف منها للأكل "دانِيَةٌ" 23 للمتناول قائما وقاعدا ومضطجعا لا تحيجه لحركه أو آلة ولا لأمر بل بمجرد ما تخطر بباله تصير أمامه

وتقول لهم الملائكة "كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ" لهذا اليوم "فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ" 24 الماضية من أيام الدنيا ، وهذه الآية السادسة التي تدل على أن العمل دخل في دخول الجنة كما ذكرنا في مثلها في الآية 72 من سورة الزخرف والآية 32 من سورة النحل المارتين والآية 43 من سورة الأعراف في ج 1 "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ" بصوت منخفض ملؤه الحزن والأسى والأسف والحرقة والندم والتأوه لسوء ما يرى وخيبة ما يلقى "يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ 25 وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ" 26 كما كنت في الدنيا ، وإذا كان من يسقط بالفحص قد يؤدي به الحال إلى الانتحار لشدة استيائه ويتوارى عن الناس خجلا ، فلا لوم على من يسقط في الآخرة أن يقول ما قال ويقول "يا لَيْتَها" الموتة الأولى "كانَتِ الْقاضِيَةَ" 27 عليه القاطعة لهذه الحياة المشئومة يا ويلتا ويا حسرتا "ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ" 28 شيئا مما أنا به من العذاب ، وقد "هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ" 29 الذي كنت أحتمي به في الدنيا من قوة وسلطة وحجة وعقل وبقيت ذليلا حقيرا ،

فيقول الله تعالى لخزنة جهنم "خُذُوهُ فَغُلُّوهُ 30 ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ" 31 أحرقوه بها "ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً" بذراع يعلمه الله وليس مما نعرف من الذراع ويقال لهم "فَاسْلُكُوهُ" 32 بأن تلف على جسده مرات حتى تستغرقه ، فيكون كأنه أدخل فيها ، لأن معنى السلك الإدخال ، قال تعالى (أَنْزَلَ مِنَ

السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ)

الآية 22 من سورة الزمر المارة أو أنها تسلك فيه بأن تدخل من حلقه وتخرج من دبره كما يسلك الخيط بالإبرة ، وسبب هذا الإرهاق هو "إِنَّهُ" ذلك الخبيث في حالة الدنيا "كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ" 33 "وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ" 34 فلا يحث نفسه ولا أهله ولا غيره على التصدق غلبه في الدنيا ، فعلى المستطيع أن يتصدق ويحث أهله وغيره على التصدق قبل حلول هذا اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا جاه ولا رياسة قال بعضهم : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلا نخلع النصف الثاني بالإطعام لئلا يقال لي غدا "فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ" 35 صديق أو قريب ليشفع له أو ينفعه "وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ" 36 غسالة قروح أهل النار أو ما يسيل من صديدهم "لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ" 37 كبيرو الخطايا .

وبعد أن أنهى ما يتعلق بأحوال أهل النعمة والنقمة ، أقسم على صحة كتابه وصدق رسوله مبرئا لهما من طعن الكفرة وأضرابهم ، وهدد من يفتري عليه ويكذّب رسله بقوله جلّ قوله "فَلا أُقْسِمُ" ان الأمر واضح لا يحتاج للقسم ، وعليه تكون لا نافية ، وقدمنا ما فيها في أول سورة القيامة ج 1 فراجعها ، "بِما تُبْصِرُونَ" 38 مما في الأرض والسماء "وَما لا تُبْصِرُونَ" 39 من مخلوقات الدنيا والآخرة "إِنَّهُ" أي القرآن العظيم في معانيه ، الجليل في

مراميه "لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ" 40 هو رسولكم يا أهل مكة ومن حولها ، وقد أضاف القول له مع أنه تعالى هو المتكلم به لأنه هو الذي يتلوه عليهم ويبلغهم إياه ، وما قيل إن المراد بالرسول هنا هو جبريل عليه السلام ينفيه

(44/779)

قوله تعالى "وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ" 41 "وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ" 42 لأنهم لم يصموا جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة بل وصموا محمدا بن عبد اللّه بن عبد المطلب بهما ، وهو المبرأ عنهما ووصموا الحضرة الإلهية الجليلة ، راجع الآية 34 من سورة الأنعام المارة ، ثم أكد ذلك القول الذي نسبه لحضرته بقوله "تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ" 43 لم يختلقه محمد كما تقولون ولم يتعلمه من أحد وليس من أساطير الأولين بل هو وحي من اللّه منزل عليه .

واعلموا أيها الناس أن هذا هو الواقع "وَلَوْ تَقَوَّلَ" محمد أو افترى أو اختلق من نفسه شيئا ونسبه إلينا وبهت "عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ" 44 كما يقوله الكفار على فرض المحال وحاشا ساحته أن يفعل شيئا من ذلك أو يخطر بباله لأنه مشغول بنا ، ما فيه شيء من دنياكم ، فلا ينطق إلا عنّا ولا يتكلم إلا منّا ، إذ هو معصوم من كل

باطل بعصمتنا ، ولو وقع منه شيء ما يخالف إرادتنا "لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ" 45 وأهلكناه كما تفعل الملوك بمن يكذب عليها ، وذلك بأن يؤخذ بيده وتضرب عنقه صبرا ، وهذا على نوعين إذا كان أريد إيقاع القتل من قفاء وهو أهون لئلا يشاهد الفعل أخذه السياف بشماله ، وإذا أريد إيقاع القتل بوجهه وهو صعب عليه أخذه السياف عن يمينه وضرب عنقه ، وهذا التفسير هو المناسب للمقام .

وفسّر بعضهم اليمين بالقوة والقدرة ، أي لسلبناه القوة ، وعليه قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(45/779)

و هو كما ترى "ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" 46 هو نياط القلب وهو عرق غليظ تصادفه شفرة الذابح فإذا قطع مات الإنسان ، وهذا التصوير للإهلاك على أفظع صورة لما فيه من الإذلال والإهانة ، وعند ذلك "فَمَا مِنْكُمْ" أيها الناس "مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ" 47 بيننا وبينه لتمنعونا عن إجراء ذلك فيه إذ لا قدرة لكم ، والمعنى أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم لا يكذب علينا قط لأنه يعلم كيف نفعل بمن يفتري علينا ، ويعلم أننا لا تمكن أحدا أن يبهت علينا "وَإِنَّهُ" ذلك القرآن المصون "لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ" 48 من عقاب اللّه وعظة وعبرة لهم

لأنهم المنتفعون به "وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ" 49 به كثيرين لا يصغون لسماعه ولا يميلون لاتباعه "وَإِنَّهُ" ذلك القرآن المجيد الذي كذبتم به "لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ" 50 يوم القيامة لأنهم حين يرون ما صار إليه المؤمنون من الثواب والكرامة يندمون على تكذيبهم ، ولات حين مندم

"وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ" 51 الذي لا شك فيه ولا شبهة بأنه منزل من لدنا عين اليقين ومحض اليقين .

فيا سيد الرسل لا تلتفت إلى تكذيبهم ، ولا تتأثر مما يصمونك به ، ولا تترك دعوتهم ، وكلما فرغت من تبليغ ما يتلى عليك "فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ" 52 وداوم على التسبيح شكرا لما أولاك من النعم وتأهيلك لتلقي وحي ربك الكريم .

قال بعض الصوفية أعلى مراتب العلم حق اليقين كعلم العاقل بالموت إذا ذاقه ، ودونه عين اليقين كعلمه بالموت عند معاينة ملائكته ، ودونه علم اليقين كعلمه بالموت في سائر أوقاته ، وقدمنا ما يتعلق بهذا في الآية 95 من سورة الواقعة والآية 203 من سورة الأعراف في ج 1 .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 406.400 ﴾

(47/779)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحاقة

مكية

الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة تام بالقارعة كاف بالطاغية جائز عاتية حسن حسوما كاف باقية تام رابية حسن واعية تام الواقعة مفهوم وكذا على أرجائها خافية تام كتابيه صالح حسابيه وكذا كريم شاعر كاف وكذا تؤمنون وكاهن وتذكرون من رب العالمين حسن وكذا حاجزين للمتقين كاف وكذا مكذبين والكافرين لحق اليقين حسن آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(48/779)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الحاقَّة

مكية اثنتان وخمسون آية كلمها مائتان وست وخمسون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة وثمانون حرفاً

الحاقَّة ما الحاقَّة (كاف) ومثله ما الحاقَّة وكذا وعادٌ بالقارعة

بالطَّاغية (جائز)

عاتية (حسن)

حسوماً (كاف)

صرعى ليس بوقف لأنَّ بعده كاف التشبيه وهو صفة لصرعى كأنَّه قال فترى القوم فيها

صرعى مثل أعجاز نخل خاوية

وخاوية (حسن) وقيل تام على استئناف ما بعده

من باقية (تام)

بالخاطئة (جائز)

رسول ربهم ليس بوقف لمكن الفاء

رابية (تام)

في الجارية ليس بوقف لتعلق اللام

واعية (تام) نفخة واحدة ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله ومثله في عدم الوقف

على دكَّةٍ واحدة لأنَّ قوله فيومئذ جواب إذا

الواقعة (كاف) ومثله واهية

على أرجائها (جائز)

ثمانية (كاف) على استئناف ما بعده لأنَّ يومئذ ليس بدلاً من الأول لاختلاف عاملهما

وليس بوقف إن أبدل مما قبله لأن تعرضون جواب فإذا نفخ وقيل جوابها وقعت الواقعة

وتعرضون مستأنف

خافية (تام)

فيقول هاؤم (حسن) ثم تبتدئ اقرؤوا كتابيه ومعنى هاؤم تناولوا

كتابيه (كاف) ومثله حسابيه وكذا عالية و دانية

في الأيام الخالية (تام)

بشماله ليس بوقف لأنَّ جواب أمَّا ما بعده

كتابيه (جائز)

ما حسابيه (كاف)

القاضية (حسن) ومثله ماليه

سلطانيه (كاف) ولا وقف من قوله خذوه إلى فاسلكوه لاتساق الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على فغلوه ولا على صلوه ولا على ذراعاً قيل جميع أهل النار في تلك السلسلة وقال كعب الأحبار لو جمع حديد الدنيا ما عدل حلقة منها سبعون ذراعاً بذراع الملك

فاسلكوه (كاف) ولا يوقف على العظيم لعطف ما بعده على ما قبله

المسكين (كاف) ولا يوقف على قوله فليس له اليوم إلى الخاطئون فلا يوقف على حميم لعطف ما بعده على ما قبله

ولا على غسلين لأنَّ ما بعده صفة له فلا يفصل بين الصفة والموصوف بالوقف

(49/779)

الخاطئون (كاف) ووصله أولى ووقف بعضهم على فلا ردَّ الكلام المشركين ثم يبتدئ أقسم ووصله أولى وإن كان له معنى ولا يوقف على وما لا تبصرون لأنَّ جواب القسم لم يأت بعد وهو قوله إنَّه لقول رسول كريم

وكريم (كاف) ومثله بقول شاعر وكذا ما تؤمنون ومثله بقول كاهن وكذا ما تؤمنون ومثله بقول كاهن وكذا ما تذكرون وانتصب قليلاً فيهما بفعل مضمر أي إيمانكم وتذكركم معدومان أو انتصب قليلاً على أنَّه صفة لمصدر محذوف أو لزمان محذوف أي تؤمنون

إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً وكذا يقال في قليلاً ما تذكرون وما يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم بالكلية ويحتمل أن تكون مصدرية فيتصف بالقلة قرأ ابن كثير وابن عامر يؤمنون ويذكرون بالتحتية والباقون بالفوقية

العالمين (تام)

الأقاويل ليس بوقف لأنَّ جواب لو لم يأت وهو لأخذنا ومثله في عدم الوقف باليمين لاتساقه على ما قبله

الوتين (حسن) و الوتين نياط القلب إذا انقطع لم يعش صاحبه

حاجزين (كاف) ومثله للمتقين

مكذبين (جائز) وقيل لا يجوز لأنَّ المعنى وان التكذيب يوم القيامة لحسرة وندامة على الكافرين وهو (كاف) على الوجهين ومثله لحقُّ اليقين

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(50/779)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحاقة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال ابن مجاهد حدثنا الطبري 1 عن العباس بن الوليد 2 عن عبد الحميد بن بكار 3 عن أيوب عن يحيى 4 عن ابن عامر : "وَحُمِلَتِ الْأَرْض 5" ، مشددة الميم . قال ابن مجاهد : وما أدري ما هذا ؟ .

قال أبو الفتح : هذا الذي تبشع على ابن مجاهد حتى أنكره من هذه القراءة – صحيح وواضح . وذلك أنه أسند الفعل إلى المفعول الثاني ، حتى كأنه في الأصل : وحملنا قدرتنا ، أو ملكا من ملائكتنا ، أو نحو ذلك – الأرض ، ثم أسند الفعل إلى المفعول الثاني ، فبني له ، فقيل : فحملت [160و] الأرض . ولو جئت بالمفعول الأول لأسندت الفعل إليه ، فقلت :

---

1 هو محمد بن جرير بن يزيد الإمام أبو جعفر الطبري الآملي البغدادي ، أحد الأعلام ، وصاحب التفسير والتاريخ والتصانيف . ولد بآمل طبرستان سنة 224 ، وأخذ القراءة عن سليمان بن عبد الرحمن بن حامد بن خلاد ، وعن العباس بن الوليد بن مزيد ببيروت عن عبد الحميد بن بكار ، وروى الحروف سماعا عن العباس بن الوليد وغيره . قال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني صاحب ابن جرير : إن قوما من تلامذة ابن جرير حسبوا له منذ بلغ الحلم إلى أن مات ، ثم قسموا على تلك المدة أوراق مصنفاته ، فصار لكل يوم أربع

عشرة ورقة . وتوفي سنة 310 طبقات ابن الجزري : 2 : 106 وما بعدها .

2 هو العباس بن الوليد بن مزيد العدوي أبو الفضل البيروني الشامي ، روى الحروف عن عبد الحميد بن بكار عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر ، وروى عنه الحروف محمد بن جرير الطبري . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 355 .

3 هو عبد الحميد بن بكار أبو عبد الله الكلاعي الدمشقي نزيل بيروت ، أخذ القراءة عرضا عن أيوب بن تميم القارئ ، وهو أحد الذين خلفوه في القيام بالقراءة ، وروى القراءة عنه العباس بن الوليد البيروني . طبقات القراء لابن الجرزي : 1 : 360 .

4 هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى بن سليمان بن الحارث أبو عمرو ، ويقال : أبو عمر الغساني الذماري ثم الدمشقي ، إمام الجامع الأموي ، وشيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر ، يعد من التابعين ، أخذ القرءاة عرضا عن ابن عامر ، وعن نافع ، وروى عنه القراءة عرضا خلق كثير ، مات سنة 145 طبقات القراء لابن الجزري : 2 : 367 .

5 سورة الحاقة : 14 .

وحملت قدرتنا الأرض . وهذا كقولك : ألبست زيدا الجبة ، فإن أقمت المفعول الأول مقام الفاعل قلت : ألبس زيد الجبة ، وإن حذفت المفعول الأول أقمت الثاني مقامه ، فقلت : ألبست الجبة . نعم ، وقد كان أيضا يجوز مع استيفاء المفعول الأول أن يبنى الفعل للمفعول الثاني ، فتقول : ألسبت الجبة زيدا ، على طريق القلب ؛ للاتساع ، وارتفاع الشك . فإذا جاز على هذا أن تقول حملت الأرض الملك ، فتقيم الأرض مقام الفاعل مع ذكر المفعول الأول – فما ظنك بجواز ذلك وحسنه ، بل بوجوبه إذا حذف المفعول الأول ؟ وكذلك أطعمت زيدا الخبز ، وأطعم زيد الخبز ، وتتسع فتقول : أطعم الخبز زيدا ، ثم تحذف زيدا ، فلا تجد بدا من إقامة الخبز مقام الفاعل ، فتقول : أطعم الخبز . ومثله اركب الفرس وأبث الحديث ، وكسيت الجبة ، وأطعم الطعام ، وسقى الشراب ، ولقى الخير ، ووقى الشر . ورحم الله ابن مجاهد ! فلقد كان كبيرا في موضعه ، مسلما فيما لم يمهر به .

ومن ذلك قراءة الزهري والحسن وموسى بن طلحة : "الخاطيون1" ، بإثبات الياء ، ولا يهمز .

قال أبو الفتح : يحتمل هذا قولين :

أحدهما أن يكون تخفيفا للهمز ، لكن على مذهب أبي الحسن في قول الله تعالى : "يَسْتَهْزِيون2" ، بإخلاص الهمزة في اللفظ ياء ، لانكسار ما قبلها . وسيبويه يجعلها بين حين على مذهبه في مثل ذلك ، وقد ذكرناه ، وفيه بعض الطول ، ومثله أيضا يدق على القراء .

والآخر أن يكون قد بقى من الهمز جزء ما على مذهب سيبويه ، إلا أنه يلطف على القراء ، فيقولونه بإخلاص الياء ، ومعذورون فيه لغموضه .

ومن ذلك ذكر محمد بن ذكوان أنه سمع أباه يقرأ : "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ[3]" .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة تعريض بما صرحت به القراءة العامة التي هي : "وَلَوْ تَقَوَّلَ" ، وذلك أن "تقول" لا تستعمل إلا مع التكذب ، فهي مثل تخرص وتزيد . وأما "يقول" فليست مختصة بالباطل دون الحق ، وبالكذب دون الصدق ، لكن قوله "تعالى" : ﴿ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ فيه الكناية والتعريض بالقبيح ، كقولك : للرجل وأنت في ذكر التعتب عليه : لو ذكرني لاحتملته ، أي : لو ذكرني بغير الجميل ، ودل قولك : لاحتملته وما كنتما عليه من الأحوال – على ذلك ، فكذلك قوله : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ، لا سيما وهناك قوله : "علينا" ، فهذا أيضا مما يصحب الذكر غير الطيب ؛ لأنه عليه ، لا له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 327 . 328 ﴾

---

1 سورة الحاقة : 37 .

2 سورة الأنعام : 5 .

3 سورة الحاقة : 44 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الحاقة

مكية وآيها خمسون وآية بصرى ودمشقي وثنتان في الباقي خلافها ثلاث الحاقة الأول كوفي حسوما حمصي بشماله حجازي مشبه الفاصلة موضعان صرعى بيمينه القراآت أمال أدراك أبو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والإمالة لابن ذكوان من طريق الصوري وابن الأخرم عن الأخفش ولأبي بكر جميع رواة المغاربة وأدغم تاء كذبت ثمود أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وعن الأعمش تنوين ثمود المرفوع وأمال فترى القوم وصلا السوسي بخلفه وأمال صرعى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وأبو عمرو بخلفهما وأدغم لام فهل ترى أبو عمرو وهشام في المشهور عنه وحمزة والكسائي

واختلف في ( ) ومن قبله (الآية 9 فأبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف الموحدة أي جنادة وأهل طاعته وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بفتح القاف وسكون الباء ظرف زمان أي ومن تقدمه من الأمم وأبدل همز المؤتفكات قالون بخلفه وورش من طريقيه وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر وأبدل همز بالخاطئة ياء مفتوحة أبو جعفر وحده كوقف حمزة وأمال طغى وقفا حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه واتفقوا على كسر عين تعيها

مع فتح الياء مخففة مضارع وعى حفظ وهو منصوب بالعطف على لنجعلها وما ذكره في البحر من إسكانها لقنبل وإخفاء حركتها لحمزة فليس من طرقنا والمعنى وتحفظها أذن من شأنها أن تحفظ المواضع وتعتبرها

وقرأ (أذن) بسكون الذال نافع وحده وعن المطوعي ( ) وحملت الأرض (الآية 14 بتشديد الميم للتكثير

واختلف في (لا يخفى) الآية 18 فحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت لأن التأنيث مجازي وللفصل وأمالوا ألفها وافقهم الأعمش والباقون بالتاء للتأنيث اللفظي وقللها الأزرق بخلفه ويوقف لحمزة على هاؤم بالتسهيل كالواو على القياس وجها

(53/779)

واحدا لأنه ليس من قبيل المتوسط بزائد لأن هاؤم اسم فعل بمعنى خذ واوها فيه جزء ليست للتنبيه وقول مكي أصلها هاوموا بواو وكتبت على لفظ الوصل تعقبه الأستاذ أبو شامة كما بين في آخر وقف حمزة وهشام على الهمز

وقرأ (ماليه سلطانيه) الآية 28 - 29 بحذف الهاء منهما وصلا حمزة ويعقوب وأثبتاهما وقفا

وقرأ (كتابيه) الآية 19 25 كلاهما و (حسابيه) الآية 20 26 معا بحذف هاء السكت وصلا يعقوب والباقون بالإثبات في الحالين فلا خلاف في إثباتها وقفا ومر في باب النقل الخلف لورش في نقل همزة إني إلى هاء كتابيه وأن الجمهور على ترك النقل قال في النشر وترك النقل فيه هو المختار عندنا الخ واختلف أيضا في إدغام هاء مالية في هاء هلك فمنهم من أخذ بإظهارها لكونها هاء سكت أيضا وقد قال مكي في التبصرة له يلزم من ألقى الحركة في كتابيه إني أن يدغم ماليه هلك لأنه أجرها مجرى الأصلي حين ألقى الحركة عليها وقدر ثبوتها في الوصل قال وبالإظهار قرأت وعليه العمل وهو الصواب قال أبو شامة يعني بالإظهار أن يقف على ماليه وقفة لطيفه وأما إن وصل فلا يمكن غير الإدغام أو التحريك قال وإن خلا اللفظ من أحدهما كان القارىء واقفا وهو لا يدري لسرعة الوصل قال في النشر بعد نقله ما ذكر وغيره وما قاله أبو شامة أقرب إلى التحقيق وأحرى بالدراية والتدقيق وقد سبقه إلى النص عليه أستاذ هذه الصناعة أبو عمرو الداني قال في جامعه فمن روى التحقيق يعني في كتابيه لزمه أن يقف على الهاء في قوله ماليه هلك وقفة لطيفة في حال الوصل من غير قطع لأنه واصل بنية واقف فيمتنع بذلك من أن يدغم في الهاء التي بعدها قال ومن روى الإلقاء لزمه أن يصلها ويدغمها في الهاء التي بعدها لأنها عنده كالحرف اللازم الأصلي انتهى وهو الصواب انتهى كلام النشر وهذا ما تقدم الوعد به أول الإدغام الصغير

(54/779)

واختلف في ﴿ قليلا ما يؤمنون ﴾ و ﴿ قليلا ما يذكرون ﴾ الآية 41 42 فابن كثير وهشام ويعقوب وابن ذكوان من طريق الصوري ومن أكثر طرق الأخفش عند العراقيين بالياء من تحت فيهما وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بالتاء من فوق وهي رواية النقاش عن الأخفش وخفف ذال تذكرون حفص وحمزة والكسائي وخلف المرسوم اتفقوا على الألف في ﴿ طغا الماء) ﴾ الآية 11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(55/779)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحاقة "

" عليهم " نخل خاوية ، والمؤتفكات ، تذكرة ، فهي ، اقرءوا ، فهو ، فغلوه ، صلوه ، فاسلكوه ، من غسلين ، الخاطئون ، تبصرون ، لتذكرة جلي .

" ومن قبله " قرأ البصريان والكسائي بكسر القاف وفتح الباء وغيرهم بفتح القاف وإسكان الباء .

" بالخاطئة " أبدل أبو جعفر الهمزة ياء في الحالين وكذلك حمزة إن وقف .

" أذن " أسكن الذال نافع وضمها غيره .

" لا تخفى " قرأ الأخوان وخلف بياء التذكير وغيرهم بتاء التأنيث .

" هاؤم " كلمة واحدة وهي اسم فعل أمر بمعنى خذ فليست الهاء للتنبيه ، ولحمزة في الوقف عليه التسهيل مع المد والقصر .

" اقرءوا " فيه لورش ثلاثة البدل وفيه لحمزة وقفا التسهيل والحذف .

" كتابيه إني " لورش فيه وجهان : الأول إسكان الهاء وترك النقل كالجماعة . وهو الراجح القوي . والثاني النقل ، وليعقوب حذف الهاء وصلا ، ولا خلاف بين العشرة في إثباتها وقفا .

" حسابيه معا " حذف يعقوب الهاء وصلا وأثبتها غيره كذلك ولا خلاف بينهم في إثباتها في الوقف .

" كتابيه ولم " حذف يعقوب الهاء وصلا وأثبتها غيره كذلك وأجمع العشرة على إثباتها وقفا .

" ماليه هلك " قرأ حمزة ويعقوب بحذف هاء ماليه وصلا والباقون بإثباتها كذلك ، ولكل

من المثبتين للهاء وصلا وجهان: الأول إدغام الهاء في الهاء . والثاني الإظهار وهو لا يتأتى إلا بالسكت على ماليه سكتة لطيفة من غير تنفس غير أن هذين الوجهين بالنسبة لورش مفرعان على وجهيه في كتابيه إني . فإذا قرأت له بالنقل في كتابيه إني تعين عليك الإدغام في ماليه هلك ، وإذا قرأت له بترك النقل تعين الإظهار ، ولا خلاف بين العشرة في إثباتها في الوقف .

" سلطانيه " حذف حمزة ويعقوب الهاء وصلا وأثبتها غيرهما كذلك ، ولا خلاف بينهم في إثباتها حال الوقف .

(56/779)

" تؤمنون " تذكرون ، قرأ المكي ويعقوب والشامي بخلف عن ابن ذكوان بياء الغيبة فيهما ، والباقون بتاء الخطاب وهو الوجه الثاني لابن ذكوان ولا يخفى تخفيف ذال تذكرون لحفص والأخوين وخلف وتشديدها للباقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 333 ﴾

(57/779)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الحاقة

قوله تعالى ﴿ ومن قبله ﴾ يقرأ بكسر القاف وفتح الباء وبفتح القاف وسكون الباء فالحجة لمن كسر القاف أنه جعلها بمعنى عنده ومعه والحجة لمن فتحها انه أراد ومن تقدمه من أهل الكفر والضلال

قوله تعالى ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ يقرأ بالياء والتاء فأما قوله خافية فقيل أراد نفس خافية وقيل أراد فعلة خافية

قوله تعالى ﴿ فقليلا ما يؤمنون ﴾ و ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ يقرآن بالياء والتاء و ﴿ قليلا ﴾ منصوب بما بعده

فإن قيل ما هذا الإيمان القليل وهم في النار قيل إقرارهم بأن الله تعالى خلقهم فهذا إيمان وكفرهم بنبوة محمد عليه السلام أبطل إيمانهم بالله عز وجل وأوجب النار لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 351 ﴾

(58/779)

وقال ابن زنجلة :

69 – سورة الحاقة

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكت بالخاطئة 9

قرأ أبو عمرو والكسائي وجاء فرعون ومن قبله بكسر القاف أي وتباعه المعنى جاء فرعون وأصحابه

وقرأ الباقون ومن قبله بفتح القاف أي من تقدمه أراد من الأمم الماضية قبله يؤمئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية 18 د

قرأ حمزة والكسائي لا يخفى منك خافية بالياء وقرأ الباقون بالتاء لتانيث الخافية وسقط السؤال ومن قرأ بالياء فإنه يرده

إلى أمر خاف أي خفي يجوز أن يكون لما فصل بين اسم المؤنث وفعله بفاصل ذكر الفعل لأن الفاصل كان كالعوض و خافية تكون نعتا لمحذوف أي لا تخفى منكم على الله ولا تتوارى من الله نفس خافية كما قال جل وعز لا يخفى على الله منهم شيء فإن شئت جعلت التأنيث ل فعلة أي لا تخفى منكم فعلة خافية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه 28 و29

قرأ حمزة ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه بحذف الهاء فيهما في الوصل وقرأ الباقون بإثبات الهاء في الوصل وأجمعوا على إثبات الهاء في الوقف

واعلم أن هذه الهاء أدخلت لتبين بها حركة ما قبلها في الوقف إذ المسكوت عليه ساكن فكرهوا أن يسكتوا على الياء فلا يفرق بينها وهي متحركة في الوصل وبينها وهي ساكنة في الوصل فبينوا حركتها بهذه الهاء لأن المسكوت عليه إذا كان متحركا في الوصل مسكن في الوقف وإذا كان ساكنا في الوصل ساكن في الوقف وإنما يصلح إثبات هاء الوقف في الفواصل لأنها مسكوت عليها على أن دخول الهاء أمارة إذا وصل القارئ الآية بالآية وحجة من حذف الهاء في الإدراج فإنه يقول الهاء جلبتها لحفظ

حركة الياء في حال الوقف لأنه لو وقف على الياء المتحركة لكان الوقف بالسكون فكانت الياء تسكن لأجل الوقف فإذا لم يكن وقف لم يجب فيها السكون فلم يحتج إلى الهاء التي تحفظ حركتها الواجبة لها لأن الحال حال الإدراج الذي لا يقتضي السكون وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون 41 و42

(59/779)

قرأ ابن كثير قليلا ما يؤمنون و قليلا ما يذكرون بالياء فيهما خبر عن غائبين كأنه قال قليلا ما يؤمنون يا محمد

وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب وحجتهم قوله بعدها فما منكم من أحد عنه حاجزين

47 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 718 . 720 ﴾

(60/779)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الحاقة 69

مكية وقد ذكر نظيرتها في البصري وفي غير الشامي ولا نظير لها في الشامي

وكلمها مئتان وست وخمسون كلمة

وحروفها ألف وأربعة وثمانون حرفا

وهي إحدى وخمسون آية في البصري والشامي واثنتان في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ الحاقة ﴾) الأولى عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ كتابه بشماله ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون وكلهم لم يعد (﴿ ها هنا ﴾ كتابه بيمينه) من حيث لم يشاكل ما قبله ولا ما بعده في رؤوس الآي

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ وثمانية أيام حسوما ﴾) قيل إن

البصري يعدها وليس بصحيح لأنها غير مشاكلة لسائر آي السورة ورؤوس الآي

ما الحاقة

2 ما الحاقة

3 بالقارعة

4 بالطاغية

5 عاتية

6 خاوية

7 باقية

8 بالخاطئة

9 رابية

10 الجارية

11 واعية

12 واحدة

13 واحدة

14 الواقعة

15 واهية

16 ثمانية

17 خافية

18 كتابيه

19 حسابيه

20 راضية

21 عالية

22 دانية

23 الخالية

24 بشماله

*كتابيه

25 حسابيه

26 القاضية

27 ماليه

28 سلطانية

29 فغلوه

30 صلوه

31 فاسلكوه

32 العظيم

33 المسكين

34 حميم

35 غسلين

36 الخاطئون

37 تبصرون

38 لا تبصرون

39 كريم

40 تؤمنون

41 تذكرون

42 العالمين

43 الأقاويل

44 باليمين

45 الوتين

46 حاجزين

47 للمتقين

48 مكذبين

49 الكافرين

50 اليقين

51 العظيم

52 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 253﴾

(61/779)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (الحاقة) قيل هو خبر مبتدأ محذوف ، وقيل مبتدأ وما بعده الخبر على ما ذكر في الواقعة ، و (ما) الثانية مبتدأ ، و (أدراك) الخبر والجملة بعده في موضع نصب ، و (الطاغية) مصدر كالعافية ، وقيل اسم فاعل بمعنى الزائدة ، و (سخرها) مستأنف أو

صفة ، و (حسوما) مصدر : أي قطعا لهم ، وقيل هو جمع أي متتابعات ، و (صرعى) حال ، و (كأنهم) حال أخرى من الضمير في صرعى و (خاوية) على لغة من أنث النخل ، و (باقية) نعت: أي حالة باقية ، وقيل هو بمعنى بقية ، و (من قبله) أي من تقدمه بالكفر ، ومن قبله: أي من عنده ، وفي جملته ، و (بالخاطئة) أي جاءوا بالفعلة ذات الخطأ على النسب مثل تامر ولابن .

قوله تعالى (وتعيها) هو معطوف ، أي ولتعيها ، ومن سكن العين فر من الكسرة مثل فخذ ، و (واحدة) توكيد لأن النفخة لا تكون إلا واحدة ، (وحملت الأرض) بالتخفيف ، وقرئ مشددا : أي حملت الإهوال ، و (يومئذ) ظرف ل (وقعت) و (يومئذ) ظرف ل (واهية) و (هاؤم) اسم للفعل بمعنى خذوا ، و (كتابيه) منصوب باقرءوا لا بهاؤم عند البصريين ، وبهاؤم عند الكوفيين ، و (راضية) على

ثلاثة أوجه: أحدها هي بمعنى مرضية مثل دافق بمعنى مدفوق .

والثانى على النسب: أي ذات رضا مثل لابن وتامر .

والثالث هي على بابها ، وكأن العيشة رضيت بمحلها وحصولها في مستحقها أو أنها لاحال أكمل من حالها فهو مجاز .

قوله تعالى (ما أغنى عنى) يحتمل النفى والاستفهام ، والهاء في هذه المواضع لبيان الحركة لتتفق رءوس الآى ، و (الجحيم) منصوب بفعل محذوف ، و (ذرعها سبعون) صفة لسلسلة ، وفي تتعلق ب (اسلكوه) ولم تمنع الفاء من ذلك ، والتقدير ثم فاسلكوه ، فثم لترتيب الخبر عن المقول قريبا من غير تراخ ، والنون في (غسلين) زائدة لأنه غسالة أهل النار ، وقيل التقدير : ليس له حميم إلا من غسلين ولا طعام ، وقيل الاستثناء من الطعام والشراب ، لأن الجميع يطعم بدليل قوله تعالى " ومن لم يطعمه " وأما خبر ليس ها هنا أوله ، وأيهما كان خبرا فالآخر إما حال من حميم أو معمول الخبر ، ولا يكون اليوم خبرا لأنه زمان ، والاسم جثة ، و (قليلا) قد ذكر في الأعراف ، و (تنزيل) في يس ، و (باليمين) متعلق بأخذنا أو حال من الفاعل ، وقيل من المفعول .

قوله تعالى (فما منكم من أحد) من زائدة ، وأحد مبتدأ ، وفي الخبر وجهان : أحدهما (حاجزين) وجمع على معنى أحد ، وجر على لفظ أحد ، وقيل هو منصوب بما ، ولم يعتد بمنكم فصلا ، وأما منكم على هذا فحال من أحد ، وقيل تبيين .

والثانى

الخبر منكم ، وعن يتعلق بحاجزين ، والهاء في إنه للقرآن العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الحاقة

[سورة الحاقة (69) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1)

معناها القيامة .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 2 الى 3]

مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)

"الْحَاقَّةُ" مبتدأ أول "مَا" مبتدأ ثان "الْحَاقَّةُ" خبره والجملة الاسمية خبر المبتدأ الأول وجملة الحاقة . .

ابتدائية لا محل لها والواو حرف عطف "وَما أَدْراكَ" اسم استفهام مبتدأ وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة خبر ما والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "مَا الْحَاقَّةُ" مبتدأ وخبره والجملة في محل نصب مفعول أدراك الثاني .

[سورة الحاقة (69) : آية 4]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4)

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "وَعادٌ" معطوف على ثمود "بِالْقارِعَةِ" متعلقان بكذبت .

[سورة الحاقة (69) : آية 5]

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" أداة شرط وتفصيل "ثَمُودُ" مبتدأ "فَأُهْلِكُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ "بِالطَّاغِيَةِ" متعلقان بالفعل وجملة أما مستأنفة لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 6]

وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6)

"وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا" سبق إعراب مثيلها "بِرِيحٍ" متعلقان بالفعل "صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ" صفتان لريح .

[سورة الحاقة (69) : آية 7]

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7)

"سَخَّرَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "سَبْعَ لَيالٍ" ظرف زمان مضاف إلى ليال والجملة صفة ثالثة لريح "وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ" معطوف على سبع ليال "حُسُوماً" صفة لسبع ليال "فَتَرَى" الفاء حرف عطف "ترى الْقَوْمَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "فِيها" متعلقان بالفعل "صَرْعى" حال والجملة معطوفة على ما قبلها "كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ" كأن واسمها وخبرها "نَخْلٍ" مضاف إليه "خاوِيَةٍ" صفة أعجاز والجملة حال ثانية.

[سورة الحاقة (69) : آية 8]

فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

"فَهَلْ" الفاء حرف استئناف "هل" حرف استفهام معناه النفي "تَرى" مضارع فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "باقِيَةٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول ترى والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة الحاقة (69) : آية 9]

وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9)

"وَجاءَ فِرْعَوْنُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَنْ" معطوف على فرعون

"قَبْلَهُ" ظرف زمان "وَالْمُؤْتَفِكاتُ" معطوف على ما قبله "بِالْخاطِئَةِ" متعلقان بالفعل جاء .

[سورة الحاقة (69) : آية 10]

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10)

"فَعَصَوْا" ماض وفاعله "رَسُولَ" مفعوله "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَخَذَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "أَخْذَةً" مفعول مطلق "رابِيَةً" صفة أخذة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحاقة (69) : آية 11]

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11)

"إِنَّا" إن واسمها "لَمَّا" ظرفية حينية "طَغَى الْماءُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "حَمَلْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "فِي الْجارِيَةِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر إن وجملة إن . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 12]

لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)

"لِنَجْعَلَها"

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وها مفعوله الأول والفاعل مستتر "لَكُمْ"

متعلقان بتذكرة "تَذْكِرَةً"

مفعول به ثان والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان

بالفعل حملناكم "وَتَعِيَها"

معطوف على نجعلها "أُذُنٌ"

فاعل "واعِيَةٌ"

صفة.

[سورة الحاقة (69) : آية 13]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "نُفِخَ" ماض مبني للمجهول

"فِي الصُّورِ" متعلقان بالفعل "نَفْخَةٌ" نائب فاعل "واحِدَةٌ" صفة نفخة والجملة في محل جر

بالإضافة.

[سورة الحاقة (69) : آية 14]

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14)

"وَحُمِلَتِ" ماض مبني للمجهول "الْأَرْضُ" نائب فاعل "وَالْجِبالُ" معطوف على الأرض والجملة معطوفة على ما قبلها "فَدُكَّتا" ماض مبني للمجهول والألف نائب فاعل "دَكَّةً" مفعول مطلق "واحِدَةً" صفة دكة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 15 الى 16]

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16)

"فَيَوْمَئِذٍ" الفاء واقعة في جواب الشرط وظرف زمان مضاف إلى مثله "وَقَعَتِ الْواقِعَةُ" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَانْشَقَّتِ السَّماءُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهِيَ" الفاء حرف عطف "هي" مبتدأ "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "واهِيَةٌ" خبر .

[سورة الحاقة (69) : آية 17]

وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17)

"وَالْمَلَكُ" مبتدأ "عَلى أَرْجائِها" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة استئنافية لا محل لها "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ" مضارع ومفعوله المضاف إلى ربك "فَوْقَهُمْ" ظرف مكان "يَوْمَئِذٍ"

يوم ظرف زمان مضاف إلى مثله "ثَمانِيَةٌ" فاعل يحمل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 18]

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

"يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف زمان مضاف إلى مثله "تُعْرَضُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة استئنافية لا محل لها "لا تَخْفى" لا نافية ومضارع "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل "خافِيَةٌ" فاعل والجملة حال .

[سورة الحاقة (69) : آية 19]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" حرف شرط وتفصيل "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "كِتابَهُ" مفعول به ثان "بِيَمِينِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة من "فَيَقُولُ" الفاء واقعة في جواب الشرط ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ من "هاؤُمُ" اسم فعل أمر "اقْرَؤُا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "كِتابِيَهْ" مفعول به والياء مضاف إليه والهاء للسكت والجملة مقول القول .

[سورة الحاقة (69) : آية 20]

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20)

"إِنِّي" إن واسمها "ظَنَنْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر إني والجملة الاسمية مقول القول "أَنِّي

مُلاقٍ" أن واسمها وخبرها "حِسابِيَهْ" مفعول به لملاق والياء مضاف إليه والهاء للسكت والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي ظننت.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 21 الى 23]

(67/779)

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23)

"فَهُوَ" الفاء حرف استئناف "هو" مبتدأ "فِي عِيشَةٍ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "راضِيَةٍ" صفة عيشة والجملة استئنافية لا محل لها "فِي جَنَّةٍ" بدل من قوله في عيشة "عالِيَةٍ" صفة "قُطُوفُها دانِيَةٌ" مبتدأ وخبره والجملة صفة ثانية لجنة.

[سورة الحاقة (69) : آية 24]

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24)

"كُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف "وَاشْرَبُوا" معطوف على كلوا "هَنِيئاً" حال "بِما" متعلقان بهنيئا "أَسْلَفْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة ما "فِي الْأَيَّامِ" متعلقان بالفعل "الْخالِيَةِ" صفة الأيام.

[سورة الحاقة (69) : آية 25]

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25)

"وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ" انظر الآية 19 . "يا" حرف تنبيه "لَيْتَنِي" حرف مشبه بالفعل والنون للوقاية والياء اسمها "لَمْ أُوتَ" مضارع مبني للمجهول مجزوم بلم ونائب الفاعل مستتر "كِتابِيَهْ" مفعول به ثان والياء مضاف إليه والهاء للسكت والجملة الفعلية خبر ليت والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 26 الى 29]

وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29)

"وَلَمْ أَدْرِ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلم والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" اسم استفهام مبتدأ

"حِسابِيَهْ" خبر والياء مضاف إليه والهاء للسكت والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي أدري "يا" حرف تنبيه "لَيْتَها" ليت واسمها "كانَتِ" ماض ناقص اسمه مستتر "الْقاضِيَةَ" خبر كانت والجملة الفعلية خبر ليت والجملة الاسمية مقول القول "ما أَغْنى" ما نافية وماض

"عَنِّي" متعلقان بالفعل "مالِيَهْ" فاعل والجملة مقول القول "هَلَكَ" ماض "عَنِّي" متعلقان بالفعل "سُلْطانِيَهْ" فاعل والجملة مقول القول .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 30 الى 32]

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32)

"خُذُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول لقول مقدر "فَغُلُّوهُ" معطوف على خذوه . "ثُمَّ" حرف عطف "الْجَحِيمَ" منصوب بنزع الخافض "صَلُّوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "فِي سِلْسِلَةٍ" متعلقان باسلكوه "ذَرْعُها سَبْعُونَ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صفة سلسلة "ذِراعاً" تمييز "فَاسْلُكُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحاقة (69) : آية 33]

إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)

"إِنَّهُ كانَ" إن واسمها وماض ناقص اسمه مستتر "لا يُؤْمِنُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "الْعَظِيمِ" صفة والجملة خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 34]

وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34)

"وَ" الواو حرف عطف "لا يَحُضُّ" نافية ومضارع فاعله مستتر "عَلى طَعامِ" متعلقان بالفعل "الْمِسْكِينِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 35 الى 37]

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ ها هُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37)

(69/779)

غسلين : صديد أهل النار . "فَلَيْسَ" الفاء حرف استئناف وماض ناقص "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم "الْيَوْمَ" ظرف زمان "ها هُنا" ها للتنبيه "هنا" اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية "حَمِيمٌ" اسم ليس المؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "طَعامٌ" معطوف على حميم "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ غِسْلِينٍ" متعلقان بمحذوف صفة طعام "لا" نافية "يَأْكُلُهُ" مضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الْخاطِؤُنَ" فاعل والجملة صفة غسلين .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 38 الى 40]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

"فَلا" الفاء حرف استئناف "لا أُقْسِمُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "بِما تُبْصِرُونَ" متعلقان بالفعل ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "وَ" الواو حرف عطف "ما" معطوفة على ما قبلها "لا تُبْصِرُونَ" لا نافية ومضارع وفاعله والجملة صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "لَقَوْلُ" اللام المزحلقة "قول رَسُولٍ" خبر إن مضاف إلى رسول "كَرِيمٍ" صفة والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 41]

وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41)

"وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية تعمل عمل ليس "هُوَ" اسمها "بِقَوْلِ" مجرور لفظا بالباء الزائدة منصوب محلا خبر ما "شاعِرٍ" مضاف إليه "قَلِيلاً" صفة مفعول مطلق محذوف "ما" زائدة "تُؤْمِنُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : آية 42]

وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42)

"وَلا" الواو حرف عطف "لا" زائدة لتأكيد النفي "بِقَوْلِ كاهِنٍ" معطوف على بقول شاعر

وما بعده سبق إعراب مثيله .

[سورة الحاقة (69) : آية 43]

(70/779)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43)

"تَنْزِيلٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مِنْ رَبِّ" متعلقان بتنزيل "الْعالَمِينَ" مضاف إليه .

[سورة الحاقة (69) : آية 44]

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44)

"وَلَوْ" الواو حرف عطف "لَوْ" شرطية غير جازمة "تَقَوَّلَ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "بَعْضَ الْأَقاوِيلِ" مفعول به مضاف إلى الأقاويل والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 45 الى 46]

لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)

"لَأَخَذْنا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "بِالْيَمِينِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة جواب الشرط لا محل لها "ثُمَّ" حرف عطف وجملة "لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ" معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحاقة (69) : آية 47]

فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47)

"فَما" الفاء حرف عطف "ما" نافية "مِنْكُمْ" خبر مقدم "مِنْ أَحَدٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "عَنْهُ" متعلقان بما بعدهما "حاجِزِينَ" صفة أحد .

[سورة الحاقة (69) : آية 48]

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)

"وَإِنَّهُ" إن واسمها واللام المزحلقة "تذكرة" خبر إن "لِلْمُتَّقِينَ" متعلقان بتذكرة والجملة معطوفة على جواب القسم .

[سورة الحاقة (69) : آية 49]

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49)

"وَإِنَّا" إن واسمها "لَنَعْلَمُ" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "مِنْكُمْ" خبر أن المقدم "مُكَذِّبِينَ" اسمها المؤخر والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب سد مسد مفعولي نعلم .

[سورة الحاقة (69) : آية 50]

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50)

سبق إعراب مثيلها في الآية - 48 -

(71/779)

[سورة الحاقة (69) : الآيات 51 الى 52]

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

"وَإِنَّهُ" إن واسمها واللام المزحلقة "حق الْيَقِينِ" خبر إن المضاف إلى اليقين والجملة معطوفة على ما قبلها "فَسَبِّحْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِاسْمِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 374. 378 ﴾

(72/779)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الحاقة

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1396 - الحَدِيث الأول

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ مَا أرسل الله سفينة من رِيح إِلَّا بِمِكْيَال وَلَا قَطْرَة من مطر إِلَّا بِمِكْيَال إِلَّا يَوْم عَاد وَيَوْم نوح فَإِن المَاء يَوْم نوح طَغى عَلَى الْخزَّان فَلم يكن لَهُم عَلَيْهِ سَبِيل ثمَّ قَرَأَ إِنَّا لما طَغى المَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَة وَإِن الرِّيح يَوْم عَاد عَتَتْ عَلَى الْخزَّان فَلم يكن لَهُم عَلَيْهَا سَبِيل ثمَّ قَرَأَ بريح صَرْصَر عَاتِيَة

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة شهر بن حَوْشَب عَن الطَّبَرَانِيّ بِسَنَدِهِ إِلَى مُوسَى بن أعين عَن سُفْيَان عَن مُوسَى بن الْمسيب عَن شهر ابْن حَوْشَب عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أرسل سفينة من رِيح . . . فَذكره إِلَى آخِره سَوَاء ثمَّ قَالَ تفرد برَفْعِهِ مُوسَى بن أعين عَن سُفْيَان وَرَوَاهُ غير وَاحِد مَوْقُوفا انْتَهَى

قلت وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فَقَالَ حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا مهْرَان عَن سُفْيَان عَن مُوسَى بن الْمسيب عَن شهر بن حَوْشَب عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا أرسل الله سفينة من رِيح . . . فَذكره مَوْقُوفا

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث مُوسَى بن أعين بسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم مَرْفُوعا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن الطَّبَرَانِيّ ثَنَا سُلَيْمَان بن الْمعَافى ابْن سُلَيْمَان ثَنَا أبي مُوسَى بن أعين بِهِ

1397 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَال لعَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه عِنْد نزُول قَوْله تَعَالَى وَتَعيهَا أذن وَاعِيَة سَأَلت الله أَن يَجْعَلهَا أُذُنك يَا عَلّي قَال عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فَمَا نسيت شَيْئًا بعد وَمَا كَانَ لِي أَن أنسى

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا عَلّي بن سهل ثَنَا الْوَلِيد بن مُسلم عَن عَلّي بن حَوْشَب قَال سَمِعت مَكْحُولًا يَقُول لما نزلت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَتَعيهَا أذن وَاعِيَة قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَأَلت رَبِّي أَن يَجْعَلهَا أذن عَلّي قَال مَكْحُول فَكَانَ عَلّي يَقُول مَا سَمِعت من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَيْئًا قطّ فَنسيته انْتَهَى وَهُوَ مُرْسل

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ حَدثنَا ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا ابْن حبَان ثَنَا إِسْحَاق بن مُحَمَّد ثَنَا أبي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن عِيسَى ثَنَا عَلّي بن عَلّي ثَنَا أَبُو حَمْزَة الثمالِي حَدثنِي عبد الله ابْن حسن قَال حِين نزلت هَذِه الْآيَة وَتَعيهَا أذن وَاعِيَة قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَأَلت الله . . . إِلَى آخِره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث سعيد بن مَنْصُور ثَنَا الْوَلِيد بن مُسلم بِهِ بِلَفْظ الطَّبَرِيّ

1398 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى وَيحمل عرش رَبك فَوْقهم يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَة قَالَ الْيَوْم أَرْبَعَة فَإِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة أَيدهُم الله بأَرْبَعَة آخَرين انْتَهَى

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ أَيْضا ثَنَا ابْن حميد ثَنَا سَلمَة بن الْفضل عَن مُحَمَّد

(74/779)

ابْن إِسْحَاق قَالَ بلغنَا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ هم الْيَوْم أَرْبَعَة يَعْنِي حَملَة الْعَرْش فَإِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة أَيدهُم الله بأَرْبَعَة آخَرين فَكَانُوا ثَمَانِيَة وَقد قَالَ تَعَالَى وَيحمل عرش رَبك فَوْقهم يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَة انْتَهَى وَهُوَ معضل

وَذكره الثَّعْلَبِيّ من غير سَنَد

وَفِي حَدِيث الصُّور الطَّوِيل من رِوَايَة إِسْمَاعِيل بن رَافع الْمدنِي عَن يزِيد بن أَبي زِيَاد عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ عَن رجل عَن أَبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تُوقَفُونَ يَوْم الْقِيَامَة موقفا مِقْدَار سبعين عَاما لَا يُقْضَى بَيْنكُم . . . فَذكره بطُولِهِ إِلَى أَن قَالَ ثمَّ ينزل الْجَبَّار تَعَالَى فِي ظلل من الْغَمَام وَالْمَلَائِكَة تحمل عَرْشه يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَة وهم الْيَوْم أَرْبَعَة أَقْدَامهم عَلَى نُجُوم الأَرْض السُّفْلَى وَالسَّمَوَات إِلَى حُجَزهمْ وَالْعرش عَلَى مَنَاكِبهمْ . . .

الحَدِيث بِطُولِهِ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ وَالطَّبَرَانِيّ وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَغَيرهم وَقد اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَام عَلَيْهِ فِي غير هَذَا الْكتاب

1399 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الحاقة حَاسبه الله حسابا يَسِيرا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 83.85﴾

(75/779)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الحاقّة» (69)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» (5) بطغيانهم «1» وكفرهم . .

«سَخَّرَها عَلَيْهِمْ» (7) أدامها عليهم ليس فيها فتور . «حُسُوماً» (7) متتابعة «2» . .

«أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ» (7) أصولها ، مجازها لغة من أنّث النخل . .

«فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (8) من بقية ومجازها مجاز الطاغية مصدر «3» .

وقلّما ما جاء المصدر فى تقدير فاعل إلّا أربعة أحرف وكذلك جاءت مصادر فى مفعول أيضا فى حروف منها : اقبل ميسوره ، ودع معسوره ، ومعقوله . .

«أَخْذَةً رابِيَةً» (10) نامية زائدة شديدة من الرباء . .

«وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ»

(12) من وعيت . .

«فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ» (13) لما جاءت المصادر صفة جرى على مجرى الاسم الذي لم يذكر فاعله ولو جاء بغير صفة لقلت : ضرب ضربا .

---

(1) . - 3 «فاهلكوا . . . بطغيانهم» : هذا الكلام فى البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله :

هو قول أبى عبيدة وزاد وكفرهم (فتح الباري 8/ 509) .

(2) . - 4 «حسوما متتابعة» : كما فى البخاري وقال ابن حجر هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 509) .

(3) . - 7 «فهل . . . مصدر» : رواه الطبري (39/ 29) عن بعض أهل المعرفة بكلام العرب من البصريين لا بد من أنه أبو عبيدة .

(76/779)

«أَرْجائِها» (17) الأرجاء الجوانب والحروف يقال : رمى بفلان الرجوان ، فهذا من الجوانب أي لا يستطيع أن يستمسك «1» . .

«فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ» (21) مجاز مرضية فخرج مخرج لفظ صفتها ، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب فى شىء يقال : نام «2» ليله وإنما ينام هو فيه . .

«مِنْ غِسْلِينٍ» (36) كل جرح غسلته فخرج منه شىء فهو غسلين ، فعلين من الغسل من الجراح والوبر «3» . .

«الْوَتِينَ» (46) نياط القلب «4» قال الشّمّاخ :

إذا بلّغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

«5» [912] .

«مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (47) خرج صفته على صفة الجميع لأن أحدا يقع على الواحد وعلى الاثنين والجميع من الذكر والأنثى «6» . .

«وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (48) الهاء من «أنه» كناية القرآن وتذكرة مصدر وصفه «لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ» (50) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 268.267 ﴾

---

(1) . - 1 - 2 «يقال . . . يستمسك» : هذا الكلام فى اللسان (رجا) .

(2) . - 3 - 4 «معناه . . . نام» الذي فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 5/ 509) .

(3) . - 5 - 6 «كل . . . والدبر» : رواه الطبري (29/ 36) عن بعض أهل العربية من أهل البصرة .

(4) . - 7 «نياط القلب» : كما فى الطبري (29/ 36) ورواه البخاري عن ابن عباس وأشار إليه ابن حجر (فتح الباري 8/ 509) .

(5) . - 912 : ديوانه ص 92 ، والسمط ص 219 والخزانة 2/ 222 .

(6) . - 9 - 10 «من أحد . . . والأنثى» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 509 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السور التي يذكر فيها «الحاقة»

[سورة الحاقة (69) : آية 6]

وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6)

قوله تعالى: وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ [6] وهذه استعارة.

والمراد بالصّرصر: الباردة. وهو مأخوذ من الصّرّ، والعاتية: الشديدة الهبوب التي ترد بغير ترتيب، مشبّهة بالرجل العاتي، وهو المتمرد الذي لا يبالى على ما أقدم، ولا فيما ولج ووقع.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 10 الى 11]

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11)

وقوله سبحانه: فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً [10] وهذه استعارة. والمراد بالرابية هاهنا: العالية القاهرة. من قولهم: ربا الشيء إذا زاد. والرّبا مأخوذ من هذا. فكأن تلك الأخذة كانت قاهرة لهم، وغالبة عليهم.

وقوله سبحانه: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ [11] وهذه استعارة.

والمراد بها قريب من المراد بالاستعارتين الأوليين «1» ، وهو تشبيه للماء فى طموّ أمواجه ، وارتفاع أثباجه بحال الرجل الطاغي ، الذي علا متجبرا ، وشمخ متكبرا .

وقال بعضهم: معنى طغى الماء أي كثر على خزّانه ، فلم يضبطوا مقدار ما خرج منه كثرة ، لأن للماء خزنة ، وللرياح خزنة من الملائكة عليهم السلام ، يخرجون منهما على قدر ما يراه اللّه سبحانه من مصالح العباد ، ومنافع البلاد ، على ما وردت به الآثار .

[سورة الحاقة (69) : آية 21]

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21)

وقوله تعالى: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ [21] وهذه استعارة . وكان الوجه أن يقال: فى عيشة مرضيّة . ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم: شعر شاعر ، وليل ساهر .

إذا شعر فى ذلك الشعر وسهر فى ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيهما ، لا بما يكون منهما . فبان أنّ تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الإنسان فيها حاله جاز أن توصف هى بالرضا . فيقال راضية . على المعنى الذي أشرنا إليه . وعلى ذلك قول أوس بن حجر «2» .

جدلت على ليلة ساهرة بصحراء شرج إلى ناظره «3»

وصف الليلة بصفة الساهر فيها ، وظاهر الصفة أنها لها .

وقال بعضهم: إنما قال تعالى: فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ لأنها فى معنى: ذات رضى ، كما قيل:

لابن ، وتامر . أي ذو لبن ، وتمر .

وكما قالوا لذى الدّرع: دارع ، ولذى النّبل: نابل ، ولصاحب الفرس: فارس . وإنما

---

(1) فى الأصل «الأولتين» وهو تحريف شنيع من الناسخ .

(2) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي ، كان شاعر تميم فى الجاهلية ، وعمر طويلا ، ولم يدرك الإسلام . وفى شعره رقة وحكمة . وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

(3) البيت فى «الأغانى» ج 11 ص 72 . وفى مخطوطتنا هذه «حدلت» بالحاء المهملة ، وفى أصول «الأغانى» خذلت بالخاء والذال المعجمتين . وجدلت: صرعت . وشرج ، وناظرة: اسما مكان بأرض بنى أسد .

جاءوا به على النّسب ، ولم يجيئوا به على الفعل . وعلى ذلك قول النابغة الذّبيانى «1» :

كلينى لهمّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

أي : ذى نصب . قال فكأن العيشة أعطيت من النعيم حتى رضيت ، فحسن أن يقال : راضية ، لأنها بمنزلة الطالب للرضا ، كما أنّ الشهوة بمنزلة الطالب المشتهى .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 44 الى 45]

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45)

وقوله سبحانه : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [44 ، 45] وهذه استعارة على أحد التأويلات ، وهو أن يكون المراد باليمين ها هنا القوة والقدرة .

فيكون المعنى : أنه لو فعل ما نكره فعله لانتقمنا منه عن قدرة ، وعاقبناه عن قوة .

وقد يجوز أن تكون اليمين ها هنا راجعة على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فيكون المعنى : لو فعل ذلك لسلبناه قدرته ، وانتزعنا منه قوّته . ويكون ذلك كقوله سبحانه : تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «2» أي تنبت الدّهن على بعض التأويلات .

وكقول الشاعر «3» :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج أي نرجو الفرج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 345.343 ﴾

---

(1) هو أشهر من أن نعرف به هنا ، وهو من شعراء الجاهلية المقدمين ، وأخباره مع

النعمان بن المنذر واعتذاراته له معروفة متعالمة . [. . . . .]

(2) سورة المؤمنون . الآية رقم 20 .

(3) هو النابغة الجعدي كما فى «معجم ياقوت» و«تاج العروس» وقد نقل ذلك عنهما محقق «معجم ما استعجم» للبكرى ص 1029 . والبيت كاملا هو :

نحن بنو جعدة أرباب الفلج نضرب بالبيض ونرجو بالفرج والفلج بفتحتين : اسم مكان لبنى جعدة من قيس ببلاد نجد .

وفى «القرطين» لابن مطرف : نضرب بالسيف ، مثل رواية مخطوطتنا هذه . ج 2 ص 30 .

(80/779)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الحاقة

(81/779)

" الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة " . نحن نظن الدار الدنيا هى الواقع الذى لا ريب فيه . فهل يبقى هذا الظن بعد أن نغادرها بالموت ، ونستقبل عالما آخر هو الحقيقة الباقية ؟ ونسأل: هل بقى أحد على ظهر الأرض ممن عمروا هذه الدنيا ؟ أم أن الموت حصد الجميع ؟ إن . كل الذين جاءوا ذهبوا ، وأغلبهم بوغت بالموت دون أن يستعد لما بعده ! وأمام الجميع يوم آخر يلتقى فيه الأولون والآخرون ، ويعرف الناس الحق كله فيما قدموا وأخروا . . إن أمما شتى كذبت رسلها ، منها من عوقب ومنها من أرجئ عقابه ، وسوف ينكشف أمر الجميع حتما " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة . . " . لقد آن أوان الحساب الجامع والجزاء العام وميز المحسن والمسىء " فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه . . " " وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه . . " . إن الإيمان بالمحسوس وحده يسود العالم الآن . وهناك سباق مجنون لامتلاك المال وتحصيل اللذات ، وهناك زهد عام فى الصلاة والإيثار والحديث عن الله وحده . وبقايا الوحى فى الأمم التى ورثته لم تتحول إلى إيمان واضح وعمل صالح ، ويكاد حملة الحق يكونون صورة منفرة عنه مزهدة فيه . ومن المحزن أن تكون هدايات أولى العزم من الرسل فى أيدى أناس واهنى العزم ضعاف البصر . ربما وجدت

أحدهم ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ومع ذلك يشح بمواساة فقير . ذاك الذى يقال فيه: " خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين " . ثم إن هناك جماهير غفيرة ودولا ذات بأس تتوارث إن محمدا دعى وأن رسالته كاذبة . قلت: ماذا كسب محمد من رسالته ؟ الإلحاح على أن الله واحد وأن لقاءه حتم ؟ الإلحاح على أن التقوى

وحدها طريق النجاة ؟ الإلحاح على أنه عبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟ طول الركوع والسجود وحمل السلاح لهزيمة الطغيان ؟ إن محمدا أجدر الناس بالحديث عن الله ، وما نعرف أحدا تحمس لتنزيهه وتقديسه مثله ! ! وهذا سر القسم فى الآيات هنا " فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين " . ولو حدث أن محمدا افتعل هذا الوحى لكان عقابه صارما " ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين " . إن هذا القرآن

سيبقى ما بقى العالم دعما للإيمان الحق ، وبناء للنفوس الزاكية وبرهانا على صدق صاحبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 476.477 ﴾

(83/779)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(84/779)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الحاقة

أقول: لما وقع في (ن) ذكر يوم القيامة مجملاً في قوله: (يَومَ يَكشِفُ عن ساق) شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم ، وشأنه العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 142 ﴾

(85/779)

قوله تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الكمال كله ، نزاهة وحمدا (الرحمن) الذي عم جوده بالعدل كبرا ومجدا (الرحيم) الذي خص أهل وده بالوقوف عند حدوده لينالوا بطيب جواره علوا وجدا وفوزا بالأماني وسعدا .

(86/779)

لما قدم سبحانه في " نون " الإنكار الشديد لأن يسوي المسيء بالمحسن ، وذكر القيامة وبينها بيوم كشف الساق وزيادة المشاق ، وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج الذي لا يدفع بعلاج ، وختم بأن القرآن ذكر - أي شرف - وتذكير ، ومواعظ للعالمين في شمولهم

كلهم برحمته ، أما من بعد إنزاله فبوعيده ووعده ووعظه وقصه وأمره ونهيه ، وأما من قبل إنزاله فبالشهادة لهم وعليهم ، وكان تأويل ذلك وجميع آثاره إنما يظهر ظهوراً تاماً يوم الجمع الأكبر ، وكان ذلك اليوم أعظم مذكر للعالمين وواعظ لهم وزاجر ، تنبني جميع الخيرات على تذكره وتذكر العرض على الملك الديان ، والسر في إنزال القرآن هو التذكير بذلك اليوم الذي هو نظام الوجود ، قال واصفاً للقيامة واليوم الذي يكشف فيه عن ساق ، واعظاً بذكرها ومحذراً من أمرها : ﴿ الحاقة ﴾ أي الساعة التي يكذب بها هؤلاء وهي أثبت الأشياء وأجلاها فلا كاذبة لها ولا لشيء عنها ، فلا بد من حقوقها فهي ثابتة في نفسها ، ومن إحضار الأمور فيها بحقائقها ، والمجازاة عليها بالحق الذي لا مرية فيه لأحد من الخلق ، فهي فاعلة بمعنى مفعول فيها ، وهي فاعلة أيضاً لأنها غالبة لكل خصم ، من حاققته فحققته أحقه أي غالبته في الحق فغلبته فيه ، فهي تحق الحق ولا بد فتعلو الباطل فتدمغه وتزهقه فتحق العذاب للمجرمين والثواب للمسلمين ، وكل ما فيها داثر على الثبات والبيان ، لأن ذلك مقتضى الحكمة ولا يرضى لأحد من الحكام ترك رعيته بغير إنصاف بينهم على زعمه فكيف بالحكيم العليم ، وقصة صاحب الحوت عليه السلام أدل دليل على القدرة عليها .

(87/779)

ولما كان ذلك كله أمراً رائعاً للعقول ، هازاً للقلوب ، مزعجاً للنفوس ، وكان ربما توقف فيه الجلف الجافي ، أكد أمره وزاد في تهويله ، وأطنب في تفخيمه وتبجيله ، إشارة إلى أن هوله يفوت الوصف بقوله ، معلماً أنه مما يحق له أن يستفهم عنه سائقاً له بأداة الاستفهام مراداً بها التعظيم للشأن ، وأن الخبر ليس كالعيان : ﴿ ما الحاقة ﴾ فأداة الاستفهام مبتدأ أخبر عنه بالحاقة وهما خبر عن الأولى ، والرابط تكرير المبتدأ بلفظه نحو زيد أي ما هو ، وأكثر ما يكون ذلك إذا أريد معنى التعظيم والتهويل .

ولما كان السياق لترجمة المراد بكشف الساق ، عظم التهويل بقوله : ﴿ وما أدراك ﴾ أي في الزمن الماضي ، وقصره لتذهب النفس فيه كل مذهب ، أي وأي شيء أعلمك بشيء من الأشياء مع تعاطيك للبحث والمداورة ، ثم زاد التحذير منها بقوله على النهج الأول مستفهماً والمراد به التفخيم ومزيد التعظيم : ﴿ ما الحاقة ﴾ أي إنها بحيث لا يعلم كنهها أحد ولا يدركها ولا يبلغها درايته وكيف ما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ، فلا تعلم حق العلم إلا بالعيان .

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما بنيت سورة ﴿ ن والقلم ﴾ على تقريع مشركي قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم ، وبين حسدهم وعداوتهم ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ [القلم : 51] أتبعت بسورة الحاقة وعداً لهم وبياناً أن حالهم في سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ [الحاقة : 4] ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ [الحاقة : 8] ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ [الأنعام : 6] ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [يونس : 102] ، و ﴿ كم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : 98] فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .

ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبيح عنادهم ، أتبع ذلك بذكر الوعيد الأخراوي ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ [الحاقة : 18] ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة ﴿ ن والقلم ﴾ من تنزيهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكريمه مقسماً على ذلك ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر – ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [الحاقة : 41 ، 42] وانتهى نفي ما تقوله منصوصاً على نزاهته عن كل خلة منها في السورتين ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 2] وما الذي جئت به بقول

شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين ، وأنه لتذكرة للمتقين وإنه لحق اليقين ، فنزه ربك وقدسه من عظيم ما ارتكبوه - انتهى .

(89/779)

فلما بلغ التهويل حده ، وكان سبب الإنكار للساعة ظن عدم القدرة عليها مطلقاً أو لعدم العلم بالجزئيات ، قال دالاً على تمام القدرة والعلم بالكليات والجزئيات ، محذراً من أنكرها بأنه قادر على تعجيل الانتقام ولكنه لإكرامه لهذه الأمة أخر عذابها إلى الآخرة إلى لمن كان منهم من الخواص فإنه يظهرهم في الدنيا ليتم نعيمهم بعد الموت بادئاً بأشد القبائل تكذيباً بالبعث لكون ناقتهم أول دليل على القدرة عليه ، وقالوا مع ذلك ﴿ أبشر منا واحداً نتبعه ﴾ [القمر : 24] إلى أن قالوا : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ [القمر : 25] وقالوا في التكذيب بها ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ﴾ [المؤمنون : 35 ، 36 ، 37] - الآية ، فإن الامر فيهم دائر بين عاد وثمود : ﴿ كذبت ثمود ﴾ وتقديمهم أيضاً من حيث أن بلادهم أقرب إلى قريش ، وواعظ القرب أكبر وإهلاكهم بالصيحة وهي أشبه بصيحة النفخ في الصور المبعثر لما في القبور ﴿ وعاد ﴾ وكان الأصل أن يقال : بها ، ولكنه أظهرها بوصف

زادها عظماً وهولاً فقال : ﴿ بالقارعة ﴾ أي التي تقرع ، أي تضرب ضرباً قوياً وتدق دقاً عنيفاً شديداً للأسماع وجميع العالم بانفطار السماوات وتناثر النيرات ونسف الجبال الراسيات ، فلا يثبت لذلك الهول شيء .

ولما جمعهم في التكذيب ، فصلهم في التعذيب لأجل ذلك التكذيب فقال : ﴿ فأما ثمود ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام .

ولما كان الهائل لهم لتقيدهم بالمحسوسات إنما هو العذاب ، لا كونه من معين ، بنى للمجهول قوله : ﴿ فأهلكوا ﴾ أي بأيسر أمر من أوامرنا ﴿ بالطاغية ﴾ أي الصيحة التي جاوزت الحد في الشدة فرجفت منها الأرض والقلوب .

(90/779)

ولما ذكر المهلكين بالصيحة لأجل التكذيب بالقارعة تحذيراً لمن يكذب بها ، أتبعه المهلكين بما هو سبب لإنفاذ الصيحة وتقويتها دلالة على تمام القدرة على كل نوع من العذاب بالاختيار فقال تعالى : ﴿ وأما عاد ﴾ وهم قوم هود عليه السلام ﴿ فأهلكوا ﴾ أي بأشق ما يكون عليهم وأيسر ما يكون في قدرتنا ﴿ بريح صرصر ﴾ أي هي في غاية ما يكون من شدة البرد والصوت كأنه كرر فيها البرد حتى صار يحرق بشدته والصوت حتى

صار يصم بقوته ، وقال الملوي : أصله صر وهو البرد الشديد أو الحر الشديد ﴿ عاتية ﴾ أي مجاوزة للحد من شدة عصفها وعظمة قصفها تفعل أفعال المستكبر الذي لا يبالي بشيء فلم يستطع خزانها ضبطها ، ولم يملك المعذب بها ردها ولا ربطها ، بل كانت تنزعهم من مكامنهم التي احتفروها ومصانعهم التي أتقنوها واختاروها فتهلكهم ، قال الملوي : قال علي بن أبي طالب وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " لم ينزل قط ماء ولا ريح إلا بمكيال على يد ملك إلا يوم الطوفان فإن الله تعالى أذن للماء فطغى على الخزان ويوم عاد أذن للريح فعتت على خزانها " انتهى .

ولما وصفها بالعتو على الخلق والغلبة لهم بحيث كانت خارقة للعادة لم يأت مثلها قبل ولا بعد ، دل على صغارها بالنسبة إلى عظمته ، وأنه هو الذي أوجدها لا الطبيعة ولا غيرها ، بل إنما كانت بقدرته واختياره قهراً لمن طعن في ملكه وكذب رسله فيما أخبروا به من أمر الساعة التي هي موضع الحكمة وإظهار جميع العظمة ، فقال مستأنفاً دلالة على ذلك : ﴿ سخرها ﴾ أي قهرها على أن سلطها ، والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار ، ودل على أنه تسخير تعذيب لا رحمة وتأديب بأداة الاستعلاء ، فقال : ﴿ عليهم ﴾ وكلفها ذلك وذللها له فلم يمكنها مع عتوها إلا أن كانت طوع أمره وصنيعة عظمته وقهره .

ولما كانت هذه السورة لتحقيق الأمور ، وكشف المشكل وإيضاح الخفي ، حقق فيها زمن عذابهم تحقيقاً لم يتقدم مثله ، فذكر الأيام والليالي ، وقدم الليالي لأن المصايب فيها أفظع وأقبح وأشنع لقلة المغيث والجهل بالمأخذ والخفاء في المقاصد والمنافذ ، ولأن عددها مذكر في اللفظ ، وتذكير اللفظ أدل على قوة المعنى ولذلك جعل المميز جمع كثرة ، ولأنها سبع ، والسبع مبالغ فيه وهو أجمع العدد كما يأتي تحقيقه قريباً في حملة العرش ولا يمكن أن يظن بتقديمها أن ابتداء العذاب كان فيها لأنه يلزم حينئذ أن يكون بعدد الأيام فلذلك قال : ﴿ سبع ليال ﴾ أي لا تفتر فيها الريح لحظة لأنه بولغ في شدتها مبالغة لم يكن مثلها قط ولا يكون بعدها أبداً ﴿ وثمانية أيام ﴾ كذلك حال كونها ﴿ حسوماً ﴾ جمع حاسم أي بحس مانع من التصرف دائم متتابع لا فترة له ، من حسم الكي – إذا تابع فيه بالمكواة ، قاطع لكل خير ، مستأصل له ، فأتت عليهم من غير فترة أصلاً في جميع الوقت فاستأصلتهم لم تبق منهم أحد حتى أن عجوزاً منهم توارت في سرب فانتزعتها وأهلكتها ، وبها سميت أيام العجوز ، أو لأنها عجز الشتاء وهي ذات برد ورياح شديدة وهي من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر وهو آخر الشهر ، وقد لزم من زيادة عدد الأيام أن الابتداء كان بها قطعاً وإلا لم تكن الليالي سبعاً – فتأمل ذلك .

ولما كان الحاسم المهلك ، سبب عنه قوله مصوراً لحالهم الماضية : ﴿ فترى القوم ﴾ أي الذين هم في غاية القدرة على ما يحاولونه : ﴿ فيها ﴾ أي في تلك المدة من الأيام والليالي لم يتأخر أحد منهم عنها ﴿ صرعى ﴾ أي مجدلين على الأرض موتى معصورين مجهزة على كل منهم من شدة ضغطها باد عليهم الذل والصغار ، جمع صريع ﴿ كأنهم أعجاز ﴾ أي أصول ﴿ نخل ﴾ قد شاخت وهرمت فهي في غاية العجز والهرم ﴿ خاوية ﴾ أي متآكلة الأجواف ساقطة ، من خوي النجم - إذا سقط للغروب ، ومن خوي المنزل - إذا خلا من قطانه ، قالوا : كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم ، فالوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها لرؤوسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم .

ولما كان هذا أمراً رائعاً لمن له أدنى معقول ، وكان الاستفهام مما يزيد الروعة ، قال مسبباً عن استئصالهم ليكون الإخبار به المستلزم لغاية العلم بالجزئيات كالدعوى بدليلها : ﴿ فهل ترى ﴾ أي أيها المخاطب الخبير الناس في جميع الأقطار ﴿ لهم ﴾ أي خصوصاً ، وأعرق في النفي وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال : ﴿ من باقية ﴾ أي بقاء أو نفس

موصوفة بالبقاء ، وأنجى الله سبحانه وتعالى صالحاً عليه السلام ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرهم الطاغية وهوداً عليه السلام ومن آمن به من بين عاد لم يهلك منهم أحد ، فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات كما أن له كمال الإحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته ، فلا يجعل المسلم أصلاً كالمجرم ولا المسيء كالمحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 119 . 123 ﴾

(93/779)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وما أدراك ﴾ بالإمالة حيث كان : حمزة وخلف والخزاز عن هبيرة ، وأبو عمرو والنجاري عن ورش ، وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ﴿ فهل ترى ﴾ كما في الملك ﴿ ومن قبله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء : أبو عمرو وسهل ويعقوب الآخرون : بفتح القاف وسكون الباء ﴿ وتعيها ﴾ بسكون العين تشبيهاً بجاء " فخذ " : القواس عن حمزة عن خلف وخلف لنفسه والهاشمي عن قنبل والخزاعي عن ابن فليح وأبو ربيعة عن أصحابه ﴿ فهي يومئذ ﴾ بالإدغام : شجاع أبو شعيب ﴿ لا يخفى ﴾ على التذكير :

حمزة وعلي وخلف ﴿ كتابي ﴾ ﴿ وحسابي ﴾ بغير هاء السكت في الوصل : سهل ويعقوب ﴿ مالي ﴾ و ﴿ سلطاني ﴾ بدون الهاء في الوصل : حمزة وسهل ويعقوب ﴿ يؤمنون ﴾ و ﴿ يذكرون ﴾ على الغيبة : ابن كثير وسهل ويعقوب وابن عامر .

(94/779)

الوقوف : ﴿ الحاقة ﴾ ه لا لأن ما بعده خبرها ﴿ ما الحاقة ﴾ ه لا لاحتمال الواو بعده الحال والاستئناف ﴿ الحاقة ﴾ ه م ﴿ القارعة ﴾ ه ﴿ بالطاغية ﴾ ه ط ﴿ عاتية ﴾ ط ﴿ أيام ﴾ لا لأن ﴿ حسوماً ﴾ صفة الثمانية ﴿ صرعى ﴾ لا لأن ما بعده صفة ﴿ خاوية ﴾ ه ج للاستفهام مع الفاء ﴿ باقية ﴾ ط ﴿ بالخاطئة ﴾ ه ﴿ رابية ﴾ ه ﴿ الجارية ﴾ ه ج ﴿ واعية ﴾ ه ﴿ واحدة ﴾ ه لا ﴿ واحدة ﴾ ه ط ﴿ الواقعة ﴾ ه لا للعطف ﴿ واهية ﴾ ه لا لذلك ﴿ رجائها ﴾ ط لاختلاف النظم ﴿ ثمانية ﴾ ط ﴿ خافية ﴾ ه ﴿ كتابيه ﴾ ه ج ﴿ حسابيه ﴾ ه ج ﴿ راضية ﴾ ه لا ﴿ عالية ﴾ ه لا ﴿ دانية ﴾ ه ﴿ الخالية ﴾ ه ﴿ كتابيه ﴾ ه ج ﴿ حسابيه ﴾ ه ج ﴿ القاضية ﴾ ه ج ﴿ ماليه ﴾ ه كلها جائزات وتفصيلاً بين الندامات مع اتحاد المقولات ﴿ سلطانية ﴾ ه ﴿ فغلوه ﴾ ط للعطف ﴿ صلوه ﴾ ه لا لذلك ﴿ فاسلكوه ﴾ ه ط ﴿ العظيم ﴾ ه لا

﴿ المسكين ﴾ ه ط ﴿ حميم ﴾ ه لا ﴿ غسلين ﴾ ه لا ﴿ الخاطئون ﴾ ه ﴿ تبصرون ﴾ ه لا ﴿ وما لا تبصرون ﴾ ه لا ﴿ كريم ﴾ ه لا ﴿ شاعر ﴾ ط ﴿ تؤمنون ﴾ ه ﴿ كاهن ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ ه أي هو تنزيل ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ باليمين ﴾ ه لا ﴿ الوتين ﴾ ه والوصل أجوز لدخول الفاء واتحاد الكلام ﴿ حاجزين ﴾ ه ﴿ للمتقين ﴾ ه ﴿ مكذبين ﴾ ه لا ﴿ الكافرين ﴾ ه ﴿ اليقين ﴾ ه ﴿ العظيم ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 343. 344 ﴾

(95/779)

فصل

قال الفخر:

﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) ﴾

المسألة الأولى:

أجمعوا على أن الحاقة هي القيامة واختلفوا في معنى الحاقة على وجوه: أحدها: أن الحق هو الثابت الكائن، فالحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها وثانيها: أنها التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أي لا

أعرف حقيقته جعل الفعل لها وهو لأهلها وثالثها : أنها ذوات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق ، والثواب والعقاب وغيرهما من أحوال القيامة أمور واجبة الوقوع والوجود فهي كلها حواق ورابعها : أن الحاقة بمعنى الحقة والحقة أخص من الحق وأوجب تقول : هذه حقتي أي حقي ، وعلى هذا الحاقة بمعنى الحق ، وهذا الوجه قريب من الوجه الأول وخامسها : قال الليث : ﴿ الحاقة ﴾ النازلة التي حقت بالجارية فلا كاذبة لها وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : 2] ، وسادسها : ﴿ الحاقة ﴾ الساعة التي يحق فيها الجزاء على كل ضلال وهدى وهي القيامة وسابعها : ﴿ الحاقة ﴾ هو الوقت الذي يحق على القوم أن يقع بهم وثامنها : أنها الحق بأن يكون فيها جميع آثار أعمال المكلفين فإن في ذلك اليوم يحصل الثواب والعقاب ويخرج عن حد الانتظار وهو قول الزجاج وتاسعها : قال الأزهري : والذي عندي في الحاقة أنها سميت بذلك لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل أي تخاصم كل مخاصم وتغلبه من قولك : حاققته فحققته أي غالبته فغلبته وفلجت عليه وعاشرها : قال أبو مسلم : ﴿ الحاقة ﴾ الفاعلة من حقت كلمة ربك .

المسألة الثانية :

الحاقة مرفوعة بالابتداء وخبرها ﴿ مَا الحاقة ﴾ والأصل الحاقة ما هي أي أي شيء هي ؟ تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها ومثله قوله : ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 ، 2] وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أي وأي شيء أعلمك ﴿ مَا الحاقة ﴾ يعني إنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها ، يعني أنه في العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ﴿ وَمَا ﴾ في موضع الرفع على الابتداء و ﴿ أَدْرَاكَ ﴾ معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4)

القارعة هي التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار ، وإنما قال : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ ولم يقل : بها ، ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة ، فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها .

ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك بذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

اعلم أن في الطاغية أقوالاً : الأول : أن الطاغية هي الواقعة المجاوزة للحد في الشدة والقوة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ [الحاقة : 11] أي جاوز الحد ، وقال : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] فعلى هذا القول : الطاغية نعت محذوف ، واختلفوا في ذلك المحذوف ، فقال بعضهم : إنها الصيحة المجاوزة في القوة والشدة للصيحات ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحدة فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ [القمر : 31] وقال بعضهم : إنها الرجفة ، وقال آخرون : إنها الصاعقة والقول الثاني : أن الطاغية ههنا الطغيان ، فهي مصدر كالكاذبة والباقية والعاقبة والعافية ، أي أهلكوا بطغيانهم على الله إذ كذبوا رسله وكفروا به ، وهو منقول عن ابن عباس ، والمتأخرون طعنوا فيه من وجهين الأول : وهو الذي قاله الزجاج : أنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيء الذي وقع به العذاب ، وهو قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ [الحاقة : 6] وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تكون المناسبة حاصلة والثاني : وهو الذي قاله القاضي : وهو أنه لو كان المراد ما قالوه ، لكان من حق الكلام أن يقال : أهلكوا لها ولأجلها والقول الثالث : ﴿ بالطاغية ﴾ أي بالفرقة التي طغت من جملة ثمود ، فتآمروا بعقر الناقة فعقروها ، أي

أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية ، ويجوز أن يكون المراد بالطاغية ذلك الرجل الواحد الذي أقدم على عقر الناقة وأهلك الجميع ، لأنهم رضوا بفعله وقيل له طاغية ، كما يقول : فلان راوية الشعر ، وداهية وعلامة ونسابة .

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)

(98/779)

الصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل : الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ، وأما العاتية ففيها أقوال : الأول : قال الكلبي : عتت على خزنتها يومئذ ، فلم يحفظوا كم خرج منها ، ولم يخرج قبل ذلك ، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم ، قال عليه الصلاة والسلام : طغى الماء على خزانه يوم نوح ، وعتت الريح على خزانها يوم عاد ، فلم يكن لها عليها سبيل ، فعلى هذا القول : هي عاتية على الخزان الثاني : قال عطاء عن ابن عباس : يريد الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو (استناد إلى جبل) ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم القول الثالث : أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان ، إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ومنه قولهم : عتا النبت ، أي بلغ منتهاه وجف ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8

] فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة .

قوله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ قال مقاتل : سلطها عليهم .

وقال الزجاج : أقلعها عليهم ، وقال آخرون : أرسلها عليهم ، هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين ، وعندي أن فيه لطيفة ، وذلك لأن من الناس من قال : إن تلك الرياح إنما اشتدت ، لأن اتصالاً فلكياً نجومياً اقتضى ذلك ، فقوله : ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب ، وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته ، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب .

(99/779)

وقوله : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوماً ، فلما قال : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ ﴾ صار مقدار هذا الزمان معلوماً ، ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقاً في هذه المدة أزال هذا الظن ، بقوله : ﴿ حُسُوماً ﴾ أي متتابعة متوالية ، واختلفوا في الحسوم على وجوه أحدها : وهو قول الأكثرين (حسوماً) ، أي متتابعة ، أي هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح

المهلكة ، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع ، وعلى هذا القول : حسوم جمع حاسم .

كشهود وقعود ، ومعنى هذا الحسم في اللغة القطع بالاستئصال ، وسمي السيف حساماً ، لأنه يحسم العدو عما يريد ، من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي ، على الداء كرة بعد أخرى ، حتى ينحسم وثانيها : أن الرياح حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة ، فكانت حسوماً أو حسمتهم ، فلم يبق منهم أحد ، فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم وثالثها : أن يكون الحسوم مصدراً كالشكور والكفور ، وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمراً ، والتقدير : يحسم حسوماً ، يعني استأصل استئصالاً ، أو يكون صفة ، كقولك : ذات حسوم ، أو يكون مفعولاً له ، أي سخرها عليهم للاستئصال ، وقرأ السدي : ﴿ حُسُوماً ﴾ بالفتح حالاً من الريح ، أي سخرها عليهم مستأصلة ، وقيل : هي أيام العجوز ، وإنما سميت بأيام العجوز ، لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب ، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل : هي أيام العجز وهي آخر الشتاء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى ﴾ أي في مهابها ، وقال آخرون : أي في تلك الليالي والأيام : ﴿ صرعى ﴾ جمع صريع .

قال مقاتل : يعني موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم ، فهم مصرعون صرع الموت .

ثم قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها ، والنخل يؤنث ويذكر ، قال الله تعالى في موضع آخر : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] وقرىء : (أعجاز نخيل) ، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها ، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع ، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعاً ضخاماً كأصول النخل .

وأما وصف النخل بالخواء ، فيحتمل أن يكون وصفاً للقوم ، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف ، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية ثم قال :

فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الباقية ثلاثة أوجه أحدها : إنها البقية وثانيها : المراد من نفس باقية وثالثها : المراد بالباقية البقاء ، كالطاغية بمعنى الطغيان .

المسألة الثانية :

ذهب قوم إلى أن المراد أنه لم يبق من نسل أولئك القوم أحد ، واستدل بهذه الآية على قوله

قال ابن جريج : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عقاب الله من الريح ، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر ، فذاك هو قوله : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ [الأحقاف : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 90.93 ﴾

(101/779)

وقال ابن عطية :

﴿ الحاقة ﴾ اسم فاعل ، من حق الشيء يحق إذا كان صحيح الوجود ، ومنه ﴿ حقت كلمة العذاب ﴾ [الزمر : 71] ، والمراد به القيامة والبعث ، قاله ابن عباس وقتادة ، لأنها حقت لكل عامل عمله . وقال بعض المفسرين : ﴿ الحاقة ﴾ مصدر كالعاقبة والعافية ، فكأنه قال : ذات الحق . وقال ابن عباس وغيره : سميت القيامة حاقة ، لأنها تبدي حقائق الأشياء واللفظة رفع بالابتداء ، و﴿ ما ﴾ ، رفع بالابتداء أيضاً ، و﴿ الحاقة ﴾ الثانية : خبر ﴿ ما ﴾ ، والجملة خبر الأول ، وهذا كما تقول : زيد ما زيد ، على معنى التعظيم له والإبهام في التعظيم أيضاً ، ليتخيل السامع أقصى جهده . وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ مبالغة في هذا المعنى : أي أن فيها ما لم تدره من أهوالها ،

وتفصيل صفاتها . ﴿ وما ﴾ ، تقرير وتوبيخ . وقوله تعالى : ﴿ ما الحاقة ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب ب ﴿ أدراك ﴾ ، و ﴿ ما ﴾ الأولى ، ابتداء وخبرها ﴿ أدراك ما الحاقة ﴾ ، وفي ﴿ أدراك ﴾ ، ضمير عائد على ﴿ ما ﴾ هو ضمير الفاعل . ثم ذكر تعالى تكذيب ﴿ ثمود وعاد ﴾ بهذا الأمر الذي هو حق مشيراً إلى أن من كذب بذلك ينزل عليه مثل ما نزل بأولئك . و ﴿ القارعة ﴾ من أسماء القيامة أيضاً ، لأنها تقرع القلوب بصدمتها ، و ﴿ ثمود ﴾ اسم عربي معرفة ، فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف ، وإذا أريد به الحي انصرف ، وأما ﴿ عاد ﴾ : فكونه على ثلاثة أحرف ساكن الوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف . و ﴿ الطاغية ﴾ قال قتادة : معناه الصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة ، وقال قوم : المراد بسبب الفئة الطاغية ، وقال آخرون منهم مجاهد وابن زيد : المعنى بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها . وقال ابن زيد : ما معناه : ﴿ الطاغية ﴾ مصدر كالعاقبة فكأنه قال بطغيانهم ، وقاله أبو عبيدة ويقوي هذا ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس : 11] وأولى الأقوال وأصوبها الأول لأنه مناسب لما ذكر في عاد ، إذ ذكر فيها الوجه الذي وقع به الهلاك ، وعلى سائر

الأقوال لا يتناسب الأمران لأن طغيان ثمود سبب والريح لا يناسب ذلك لأنها ليست سبب الإهلاك ، بل هي آلة كما في الصيحة ، و: " الصرصر " يحتمل أن يكون من الصر أي البرد ، وهو قول قتادة ، ويحتمل أن يكون من صر الشيء إذا صوت ، فقال قوم : صوت الريح ﴿ صرصر ﴾ ، كأنه يحكي هذين الحرفين . و" العاتية " معناه : الشديدة المخالفة ، فكانت الريح عتت على الخزان بخلافها وعتت على قوم عاد بشدتها . وروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس أنهما قالا : إنه لم ينزل من السماء قطرة ماء إلا بمكيال على يد ملك ولا هبت ريح إلا كذلك إلا ما كان من طوفان نوح وريح عاد ، فإن الله أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان .

والتسخير : استعمال الشيء باقتدار عليه . وروي أن الريح بدأت بهم صبح يوم الأربعاء لثمان بقين لشوال ، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملة الشهر . و﴿ حسوماً ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وأبو عبيدة معناه : كاملة تباعاً لم يتخللها غير ذلك ، وهذه كما تقول العرب ما لقيته حولاً محرماً ، قال الشاعر [طفيل الغنوي] : [الطويل]

عوازب لم تسمع نبوح مقامة . . . ولم تر ناراً ثم حول محرم

وقال الخليل : ﴿ حسوماً ﴾ ، أي شؤماً ونحساً ، وقال ابن زيد : ﴿ حسوماً ﴾ جمع حاسم كجالس وقاعد ، ومعناه أن تلك الأيام قطعتهم بالإهلاك ، ومنه حسم العلل ومنه الحسام . والضمير في قوله ﴿ فيها صرعى ﴾ يحتمل أن يعود على دارهم وحلتهم لأن معنى الكلام يقتضيها وإن لم يلفظ بها . قال الثعلبي ، وقيل يعود على الريح ، وقد تقدم القول في التشبيه ب " أعجاز النخل " في سورة (اقتربت الساعة) . والخاوية : الساقطة التي قد خلت أعجازها بِلىً وفساداً . ثم وقف تعالى على أمرهم توقيف اعتبار ووعظ بقوله : ﴿ هل ترى لهم من باقية ﴾ اختلف المتأولون في : ﴿ باقية ﴾ ، فقال قوم منهم ابن الأنباري : هي هاء مبالغة كعلامة ونسابة والمعنى من باق . وقال ابن الأنباري أيضاً معناه : من فئة باقية وقال آخرون : ﴿ باقية ﴾ مصدر فالمعنى من بقاء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(104/779)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾

يريد القيامة ؛ سُميّت بذلك لأن الأمور تُحَقّ فيها ؛ قاله الطبري .

كأنه جعلها من باب "ليل نائم" .

وقيل : سُمِّيَت حاقة لأنها تكون من غير شك .

وقيل : سُمِّيت بذلك لأنها أحقّت لأقوام الجنة ، وأحقّت لأقوام النار .

وقيل : سُمِّيَت بذلك لأن فيها يصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله .

وقال الأزهريّ : يقال حاققته فَحَقَقْتُه أُحقّه ؛ أي غالبته فغلبته .

فالقيامة حاقّة لأنها تَحُقّ كلَّ محاقٍّ في دين الله بالباطل ؛ أي كل مخاصم .

وفي الصحاح : وحاقّه أي خاصمه وادّعى كل واحد منهما الحق ؛ فإذا غلبه قيل حَقّه .

ويقال للرجل إذا خاصم في صِغار الأشياء : إنه لَنَزِق الحِقاق .

ويقال : ما له فيه حق ولا حِقاق ؛ أي خصومة .

والتحاقّ التخاصم .

والاحتقاق : الاختصام .

والحاقة والحَقّة والحقّ ثلاث لغات بمعنًى .

وقال الكسائي والمؤَرِّج : الحاقّة يوم الحقّ .

وتقول العرب : لمّا عَرَف الحَقّة منّي هرب .

والحاقّة الأولى رفع بالابتداء ، والخبر المبتدأ الثاني وخبره وهو ﴿ مَا الحَآقة ﴾ لأن معناها ما هي .

واللفظ استفهام ، معناه التعظيم والتفخيم لشأنها ؛ كما تقول : زيد ما زيد ! على التعظيم لشأنه .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ استفهام أيضاً ؛ أي أيّ شيء أعلمك ما ذلك اليوم .

والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان عالماً بالقيامة ولكن بالصفة .

فقيل تفخيماً لشأنها : وما أدراك ما هي ؛ كأنك لستَ تعلمها إذ لم تعاينها .

وقال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن "وَمَا أَدْرَاكَ" فقد أدراه إياه وعلمه .

وكل شيء قال : "وَمَا يُدْرِيك" فهو مما لم يعلمه .

وقال سفيان بن عُيينة : كل شيء قال فيه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فإنه أُخبر به ، وكل شيء قال فيه : "وَمَا يُدْرِيكَ" فإنه لم يخبرَ به .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4)

ذكر من كذب بالقيامة .

والقارعة القيامة ؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها .

يقال : أصابتهم قوارع الدهر ؛ أي أهواله وشدائده .

ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارِص لسانه ؛ جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية .

وقوارع القرآن : الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فَزِع من الجن أو الإنس ، نحو آية الكرسيّ ؛ كأنها تقرع الشيطان .

وقيل : القارعة مأخوذة من القُرْعة في رفع قوم وحطّ آخرين ؛ قاله المبرد .

وقيل : عنى بالقارعة العذاب الذي نزل بهم في الدنيا ؛ وكان نبيّهم يخوّفهم بذلك فيكذبونه .

وثمود قوم صالح ؛ وكانت منازلهم بالْحِجر فيما بين الشام والحجاز .

قال محمد بن إسحاق : وهو وادي القُرَى ؛ وكانوا عُرْباً .

وأما عاد فقوم هود ؛ وكانت منازلهم بالأحقاف .

والأحقاف : الرمل بين عُمَان إلى حضرموت واليمن كله ؛ وكانوا عُرْباً ذوي خَلْق وبَسْطة ؛ ذكره محمد بن إسحاق .

وقد تقدم .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

فيه إضمار ؛ أي بالفعلة الطاغية .

وقال قتادة : أي بالصيحة الطاغية ؛ أي المجاوزة للحدّ ؛ أي لحدّ الصيحات من الهول .

كما قال : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ [القمر : 31]

والطغيان : مجاوزة الحدّ ؛ ومنه : "إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء" أي جاوز الحدّ .

وقال الكلبيّ : بالطاغية بالصاعقة .

وقال مجاهد : بالذنوب .

وقال الحسن : بالطغيان ؛ فهي مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية .

أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم .

وقيل : إن الطاغية عاقرُ الناقة ؛ قاله ابن زيد .

أي أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عَقْر الناقة ، وكان واحداً ، وإنما هلك الجميع لأنهم رَضُوا بفعله ومالئوه .

وقيل له طاغية كما يقال : فلان راوية الشعر ، وداهية وعلاّمة ونَسّابة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾

أي باردة تَحْرِق ببردها كإحراق النار ؛ مأخوذ من الصِّر وهو البرد ؛ قاله الضحاك .

وقيل : إنها الشديدة الصوت .

وقال مجاهد : الشديدة السَّموم .

﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي عَتت على خُزَّانها فلم تطعهم ، ولم يطيقوها من شدّة هبوبها ؛ غضبت لغضب الله .

وقيل : عَتَت على عاد فقهرتهم .

روى سفيان الثوري عن موسى بن المسيّب عن شَهْر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أرسل الله من نَسَمة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزَّان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ والريح لما كان يوم عاد عَتَت على الخُزَّان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ " ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أرسلها وسَلّطها عليهم .

والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار .

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ أي متتابعة لا تَفْتُرُ ولا تنقطع ؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما .

قال الفرّاء : الحُسُوم التِّباع ، من حَسْمِ الدّاء إذا كُوِيَ صاحبُه ، لأنه يُكْوَى بالمِكواة ثم يُتابَع ذلك عليه .

قال عبد العزيز بن زُرارة الكِلابيّ :

ففرّق بين بينهم زمان . . .

تتابع فيه أعوامٌ حسومُ

وقال المبرّد : هو من قولك حَسَمْتُ الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره .

وقيل : الحَسْم الاستئصال .

ويقال للسيف حُسام ؛ لأنه يَحْسِم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته .

وقال الشاعر :

حُسامٌ إذا قمتُ مُعْتَضِداً به . . .

كَفَى الْعَوْدَ منه البَدْءُ ليس بِمِعْضَدِ

والمعنى أنها حسمتهم ، أي قطعتهم وأذهبتهم .

فهي القاطعة بعذاب الاستئصال .

قال ابن زيد : حسمتهم فلم تُبق منهم أحداً .

وعنه أنها حَسَمت الليالي والأيام حتى استوعبتها ، لأنها بدأت طلوعَ الشمس من أوّل يومٍ

وانقطعت غروبَ الشمس من آخر يوم .

وقال اللّيث : الحسوم الشؤوم .

ويقال : هذه ليالي الحسوم ، أي تَحْسِم الخير عن أهلها ، وقاله في الصحاح .

وقال عكرمة والربيع بن أنس : مشائيم ، دليله قوله تعالى : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] عطِية العَوْفِي : "حُسُوماً" أي حَسَمت الخير عن أهلها .

واختلف في أوّلها ، فقيل : غداة يوم الأحد ، قاله السدّي .

وقيل : غداة يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس .

وقيل : غداة يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام ووهب بن مُنَبِّه .

قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسمّيها العرب أيام العجوز ، ذات برد وريح شديدة ، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء ؛ ونُسبت إلى العجوز لأن عجوزاً من عادٍ دخلت سَرَباً فتبعتها الريح فقتلتها في اليوم الثامن .

وقيل : سُمِّيت أيام العجوز لأنها وقعت في عجز الشتاء .

وهي في آذار من أشهر السُّرْيانيّين .

ولها أسامٍ مشهورةٌ ، وفيها يقول الشاعر وهو ابن أحمر :

كُسِع الشتاءُ بسبعة غُبْرٍ . . .

أيامِ شَهْلَتِنا من الشَّهْرِ

فإذا انقضت أيامها ومضت . . .

صِنٌّ وصِنَّبْرٌ مع الوَبْرِ

وبآمرٍ وأخيه مُؤْتَمِرٍ . . .

ومُعَلِّلٍ وبمُطْفِىءِ الجَمْرِ

ذهب الشتاء مُوَلِّياً عَجِلاً . . .

وأتتك واقدة من النَّجْرِ

و"حُسُوماً" نصب على الحال .

وقيل على المصدر .

قال الزجاج : أي تَحْسِمهم حسوماً ، أي تُفْنيهم ، وهو مصدر مؤكّد .

ويجوز أن يكون مفعولاً له ؛ أي سَخَّرها عليهم هذه المدّة للاستئصال ؛ أي لقطعهم واستئصالهم .

ويجوز أن يكون جمع حاسم .

وقرأ السّدي "حَسُوماً" بالفتح ، حالاً من الريح ؛ أي سَخَّرها عليهم مستأصلة .

قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى القومَ فِيهَا ﴾ أي في تلك الليالي والأيام .

﴿ صرعى ﴾ جمع صَرِيع ؛ يعني موتى .

وقيل : "فِيها" أي في الريح .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أي أصول .

﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي بالية ؛ قاله أبو الطفيل .

وقيل : خالية الأجواف لا شيء فيها .

والنخل يذكَّر ويؤنَّث .

(108/779)

وقد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] فيحتمل أنهم شُبِّهوا بالنخل التي صرعت من أصلها ، وهو إخبار عن عِظَم أجسامهم .

ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع ؛ أي إن الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية .

أي الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخلة الخاوية الجوف .

وقال ابن شجرة : كانت الريح تدخل في أفواههم فتُخرج ما في أجوافهم من الحَشْو من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية .

وقال يحيى بن سلام ؛ إنما قال "خاوية" لأن أبدانهم خَوَت من أرواحهم مثل النخل الخاوية .

ويحتمل أن يكون المعنى كأنهم أعجاز نخل خاوية عن أصولها من البقاع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل : 52] أي خَرِبة لا سُكَّان فيها .

ويحتمل الخاوية بمعنى البالية كما ذكرنا ؛ لأنها إذا بَلِيت خلت أجوافها .

فشُبِّهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية .

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8)

أي من فِرْقة باقية أو نفس باقية .

وقيل : من بقيّة .

وقيل : من بقاء .

فاعلةٍ بمعنى المصدر ؛ نحو العاقبة والعافية .

ويجوز أن يكون اسما ؛ أي هل تجد لهم أحداً باقياً .

وقال ابن جُريج : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح ، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(109/779)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحاقة ﴾

أي الساعة أو الحالة التي يحق ويجب وقوعها أو التي تحقق وتثبت فيها الأمور الحقة من الحساب والثواب والعقاب أو التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة من حقه يحقه إذا عرف حقيقته وروي هذا عن ابن عباس وغيره وإسناد الفعل لها على وجهين الأخيرين مجاز وهو حقيقة لما فيها من الأمور أو لمن فيها من أولي العلم وفي "الكشف" كون الإسناد مجازياً إنما هو على الوجه الأخير وأما على الوجه الثاني فيحتمل الإسناد المجازي أيضاً لأن الثبوت والوجوب لما فيها ويحتمل أن يراد ذو الحاقة من باب تسمية الشيء باسم ما يلابسه وهذا أرجح لأن الساعة وما فيها سواء في وجوب الثبوت فيضعف قرينة الإسناد المجازي والتجوز فيه تصوير ومبالغة انتهى وبحث فيه الجلبي بما فيه بحث فارجع إليه وتدبر وقال الأزهري الحاقة القيامة من حاقته فحققته أي غالبته فغلبته فهي حاقة لأنها تحق كل محاق في دين الله تعالى بالباطل أي كل مخاصم فتغلبه وظاهر كلامهم أنها على جميع ذلك وصف حذف موصوفه للإيذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانه مجرى الاسم وقيل أنها على ما روي عن ابن عباس من كونها من أسماء يوم القيامة اسم جامد لا يعتبر موصوف محذوف وقيل هي مصدر كالعاقبة والعافية وأياً ما كان فهي مبتدأ خبرها جملة .

﴿ مَا الحاقة ﴾ على أن مبتدأ والحاقة خبر أو بالعكس ورجح معنى والأول هو المشهور والرابط إعادة المبتدأ بلفظه والأصل ما هي أي أي شيء هي في حالها وصفتها فإن ما قد

يطلب بها الصفة والحال فوضع الظاهر موضع المضمر تعظيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها وقوله تعالى :

(110/779)

﴿ وَمَا الحاقة مَا الحاقة ﴾ أي أي شيء أعلمك ما هي تأكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى أن أعظم شأنها ومدى هولها وشدتها بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فهي وراء ذلك وأعظم وأعظم فلا يتسنى الإعلام ومنه يعلم أن الاستفهام كني به عن لازمه من أنها لا تعلم ولا يصل إليها دراية دار ولا تبلغها الأوهام والأفكار وما في موضع الرفع على الابتداء وإدراك خبره ولا مساغ ههنا للعكس وما الحاقة جملة محلها النصب على إسقاط الخافض لا أن أدرى يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء كما في قوله تعالى : ﴿ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 16] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني وتعليق هذا الفعل على ما قيل لما فيه من معنى العلم والجملة أعني ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ الخ معطوفة على ما قبلها من الجملة الصغرى .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ بالقيامة التي تقرع الناس بالإفزاع والأهوال والسماء

بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعها موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع وهو ضرب شيء بشيء فيها تشديداً لهولها والجملة استئناف مسوق لبيان بعض أحوال الحاقة له عليه الصلاة والسلام أثر تقريراته .

(111/779)

ما أدراه صلى الله عليه وسلم بها أحد والمبين كونها بحيث يحق إهلاك من يكذب بها كأنه قيل وما أدراك ما الحاقة كذبت بها ثمود وعاد فاهلكوا . ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ ﴾ أي أهلكهم الله تعالى وقرأ زيد بن علي فهلكوا بالبناء للفاعل ﴿ بالطاغية ﴾ أي الواقعة المجاوزة للحد وهي الصيحة لقوله تعالى في هود ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ [هود : 67] وبها فسرت الصاعقة في حم السجدة أو الرجفة لقوله سبحانه في الأعراف : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 78] وفي الزلزلة المسببة عن الصيحة فلا تعارض بين الآيات لأن الإسناد في بعض إلى السبب القريب وفي بعض آخر إلى البعيد والأول مروى عن قتادة قال أي بالصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة وقال ابن عباس وأبو عبيدة وابن

زيد ما معناه الطاغية مصدر فكأنه قيل بطغيانهم وأيد بقوله تعالى ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس : 11] والمعول عليه الأول لمكان قوله تعالى :

(112/779)

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ وإيضاح ذلك أن الآية فيها جمع وتفريق فلو قيل أهلك هؤلاء بالطغيان على أن ذلك سبب جالب وهؤلاء بالريح على أنه سبب آلي لم يكن طباق إذا جاز أن يكون هؤلاء أيضاً هلكوا بسبب الطغيان وهذا معنى قول الزمخشري في تضعيف الثاني لعدم الطباق بينها وبين بريح لا أن ذلك لأن أحدهما عين والآخر حدث وما ذكر من التأييد لا يخفى حاله وكذا يرجح الأول على قول مجاهد وابن زيد أيضاً أي بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها وهي عقر الناقة وعلى ما قيل الطاغية عاقر الناقة والهاء فيها للمبالغة كما في رجل راوية وأهلكوا كلهم بسببه لرضاهم بفعله وما قيل أيضاً بسبب الفئة الطاغية ووجه الرجحان يعلم مما ذكر ومر الكلام في الصرصر فتذكر وهو صفة ريح وكذا قوله تعالى : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي شديدة العصف أو عتت على عاد فما قدروا على ردها والخلاص منها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم والعتو عليهما استعارة وأصله تجاوز الحد وهو قد يكون بالنسبة إلى

الغير وقد لا يكون ومنه يعلم الفرق بين الوجهين وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال لم تنزل قطرة إلا بمكيال على يدي ملك إلا يوم نوح فإنه أذن للماء دون الخزان فطغى الماء على الخزان فخرج فذلك قوله تعالى ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ [الحاقة : 11] ولم ينزل شيء من الريح إلا بمكيال على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت فذلك قوله تعالى بريح صرصر عاتية عتت على الخزان وفي "صحيحي البخاري" ومسلم وغيرهما ما يوافقه فهو تفسير ما ثُور وقد حكى ذلك في "الكشاف" ثم قال ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها وخرج ذلك في "الكشف" على الاستعارة التمثيلية ثم قال إن المثل إذا صار بحيث يفهم منه المقصود من دون نظر إلى أصل القصة جاز أن يقال أنه كناية عنه كما فيما نحن فيه وجوز أن يكون

(113/779)

هناك تشبيه بليغ من العتو وهو الخروج عن الطاعة وقوله تعالى :

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ الخ

(114/779)

استئناف جيء به بياناً لكيفية إهلاكهم بالريح وجوز أن يكون صفة أخرى وأنه جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اقترانات بعض الكواكب ببعض ونزولها في بعض المنازل إذ لو وجدت الاقترانات المقتضية لبعض الحوادث كان ذلك بتقديره تعالى وتسببه عز وجل لا من ذاتها استقلالاً والسبب الذي يذكره الطبائعيون للريح تكاثف الهواء في الجهة التي يتوجه إليها وتراكم بعضه على بعض بانخفاض درجة حرارته فيقل تمدده ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذي كان مشغولاً به خالياً أو بتجمع فجائي يحصل في الأبخرة المنتشرة في الهواء فتخلو محالها وعلى التقديرين يجري إلى ذلك المحل الهواء المجاور بقوة ليشغله فيحدث ويستمر حتى يمتلىء ذلك الفضاء ويتعادل فيه الهواء فيسكن عند ذلك ويتفاوت سيرها سرعة وبطأ فتقطع الريح المعتدلة على ما قيل في الساعة الواحدة نحو فرسخ والمتوسط فيها نحو أربعة فراسخ والقوية نحو ثمانية فراسخ وما هي أقوى منها نحو ستة عشر فرسخاً وما هي أقوى ويسمى العاصف نحو سبعة عشر فرسخاً وما هي أقوى وتسمى المؤتفكة نحو تسعة وعشرين فرسخاً وقد تقطع في ساعة نحو ستة وثلاثين فرسخاً وهذا أكثر ما قيل في سرعة الريح وقد عملوا آلة يزعمون أنها مقياس يستعلم بها قوة هبوب الريح وضعفه وهذا غير بعيد من النوع الإنساني ويقال فيما ذكروه من السبب نحو ما سمعت آنفاً ومعنى سخرها عليهم سلطها عز وجل بقدرته عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ أي متتابعات

كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأبو عبيدة جمع حاسم كشهود جمع شاهد من حسمت الدابة إذا تابعت كيها على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم فهي مجاز مرسل من استعمال المقيد وهو الحسم الذي هو تتابع الكي في مطلق التتابع وفي الكشف هو مستعار من الحسم بمعنى الكي شبه الأيام بالحاسم والريح لملابستها بها وهبوبها فيها واستمرار وصفها أبو صفها في قولهم يوم بارد وحار إلى غير ذلك بفعل الأيام كل هبة

(115/779)

منها كية وتتابعها بتتابع الكيات حتى يحصل الانحسام أي استئصال الداء الذي هو المقصود والمعنى بعد التلخيص متتابعة هبوب الرياح حتى أتت عليهم واستأصلتهم أو نحسات مشؤمات كما قال الخليل قيل والمعنى قاطعات الخير بنحوستها وشؤمها فمعمول حسوماً محذوف أو قاطعات قطعت دابرهم وأهلكتهم عن آخرهم كما قال ابن زيد وقال الراغب الحسم أزال أثر الشيء يقال قطعه فحسمه أي أزال مادته وبه سمي السيف حساماً وحسم الداء إزالة أثره بالكي وقيل للشؤم المزيل لأثر ما ناله حسوم وحسوماً في الآية قيل حاسماً أثرهم وقيل حاسماً خبرهم وقيل قاطعاً لعمرهم وكل ذلك داخل في عمومه فلا تغفل وجوز أن يكون حسوماً مصدراً لا جمع حاسم وانتصابه إما بفعله المقدر حالاً أي

بحسمهم حسوماً بمعنى تستأصلهم استئصالاً أو على العلة أي سخرها عليهم لأجل الاستئصال أو على أنه صفة أي ذات حسوم وأيدت المصدرية بقراءة السدي حسوماً بفتح الحاء على أنه حال من الريح أي سخرها مستأصلة لتعين كونه مفرداً على ذلك وهي كانت أيام العجوز من صبح الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر وإنما سميت أيام العجوز لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن وأهلكتها أو لأنها عجز الشتاء فالعجوز بمعنى العجز وأسماؤها الصن والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفىء الجمر ومطفىء الظعن ولم يذكر هذا الثامن من قال إنها سبعة لا ثمانية كما هو المختار ﴿ فَتَرَى القوم ﴾ أي إن كنت حاضراً حينئذ فالخطاب فيه فرضي ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الأيام والليالي وقيل في مهاب الريح وقيل في ديارهم والأول أظهر ﴿ صرعى ﴾ أي هلكى جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أي أصول نخيل وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل كضبع وأضبع وحكى الأخفش أنه قرىء نخيل بالياء ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خلت أجوافها بلى وفساداً وقال ابن شجرة كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم فصاروا

(116/779)

كأعجاز النخل الخاوية وقال يحيى بن سلام خلت أبدانهم من أرواحهم فكانوا كذلك وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كانوا في سبعة أيام في عذاب ثم في الثامن ماتوا وألقتهم الريح في البحر فذلك قوله تعالى :

﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي بقية على أن الباقية اسم كالبقية لا وصف والتاء للنقل إلى الاسمية أو نفس باقية على أن الموصوف مقدر والتاء للتأنيث وقال ابن الأنباري أي باق والهاء للمبالغة وجوز أن يكون مصدراً كالطاغية والكاذبة أي بقاء والتاء للوحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(117/779)

وقال ابن عاشور :

﴿ الحاقة ﴾ صيغة فاعِل من : حقّ الشِيء إذا ثبت وقوعه ، والهاء فيها لا تخلو عن أن تكون هاء تأنيث فتكون ﴿ الحاقة ﴾ وصفاً لموصوف مقدر مؤنث اللفظ ، أو أن تكون هاء مصدر على وزن فاعلة مثل الكاذبة للكذب ، والخاتمة للختم ، والباقية للبقاء والطاغية للطغيان ، والنافلة ، والخاطئة ، وأصلها تاء المرة ، ولكنها لما أريد المصدر قُطع النظر عن المرة مثل كثير من المصادر التي على وزن فَعْلة غير مراد به المرة مثل قولهم ضَربة

لاَرِب .

فالحاقة إذْن بمعنى الحق كما يقال "مِن حاقِّ كذا" ، أي من حقه .

وعلى الوجهين فيجوز أن يكون المراد بالحاقّة المعنى الوصفي ، أي حادثة تحق أو حَقٌّ يحق .

ويجوز أن يكون المراد بها لَقباً ليوم القيامة ، وروي ذلك عن ابن عباس وأصحابه وهو الذي درج عليه المفسرون فلقب بذلك "يوم القيامة" لأنه يوم محقق وقوعُه ، كما قال تعالى : ﴿ وتنذِر يوم الجمع لا ريب فيه ﴾ الشورى : 7] ، أو لأنه تحق فيه الحقوق ولا يضاع الجزاء عليها ، ، قال تعالى ﴿ ولا تُظلمون فتيلاً ﴾ [النساء : 49] وقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يَره ﴾ [الزلزلة : 78] .

وإيثار هذه المادة وهذه الصيغة يسمح باندراج معان صالحة بهذا المقام فيكون ذلك من الإِيجاز البديع لتذهب نفوس السامعين كل مذهب ممكن من مذاهب الهول والتخويف بما يحق حلوله بهم .

(118/779)

فيجوز أيضاً أن تكون ﴿ الحاقة ﴾ وصفاً لموصوف محذوف تقديره : الساعة الحاقة ، أو الواقعة الحاقة ، فيكون تهديداً بيوم أو وقعة يكون فيها عقاب شديد للمعرَّض بهم مثل يوم بدر أو وقعتِه وأن ذلك حق لا ريب في وقوعه ؛ أو وصفاً للكلمة ، أي كلمة الله التي حقت على المشركين من أهل مكة ، قال تعالى : ﴿ كذلك حَقَّت كلمات ربّك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ [غافر : 6] ، أو التي حقّت للنبيء صلى الله عليه وسلم أنه ينصره الله ، قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتولّ عنهم حتى حين ﴾ [الصافات : 171174] .

ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى الحق ، فيصح أن يكون وصفاً ليوم القيامة بأنه حق كقوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ [الأنبياء : 97] ، أو وصفاً للقرآن كقوله : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ [آل عمران : 62] ، أو أريد به الحق كله مما جاء به القرآن من الحق قال تعالى : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] وقال : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق ﴾ [الأحقاف : 30] .

وافتتاح السورة بهذا اللفظ ترويع للمشركين .

و﴿ الحاقّة ﴾ مبتدأ و ﴿ مَا ﴾ مبتدأ ثان .

و﴿ الحاقّة ﴾ المذكورة ثانياً خبر المبتدأ الثاني والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر

المبتدأ الأول .

و﴿ ما ﴾ اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم كأنه قيل : أتدْري ما الحاقة ؟ أي ما هي الحاقة ، أيْ شيءٌ عظيم الحاقّةُ .

وإعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبراً عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها .

وهو من الإِظهار في مقام الإِضمار لقصد ما في الاسم من التهويل .

ونظيره في ذلك قوله تعالى : ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين ﴾ [الواقعة : 27] .

(119/779)

وجملة ﴿ ومَا أدراك ما الحاقّة ﴾ يجوز أن تكون معترضة بين جملة ﴿ ما الحاقّة ﴾ وجملة ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ [الحاقة : 4] ، والواو اعتراضية .

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ ما الحاقة .

ومَا ﴾ الثانية استفهامية ، والاستفهام بها مكنًّى به عن تعذر إحاطة علم الناس بكنه الحاقّة لأن الشيء الخارج عن الحد المألوف لا يتصور بسهولة فمن شأنه أن يُتساءل عن فهمه .

والخطابُ في قوله : ﴿ وما أدراك ﴾ لغير معيَّن .

والمعنى : الحاقة أمر عظيم لا تدركون كُنْهَهُ .

وتركيب "مَا أدراك كذا" مما جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا اللفظ وهو تركيب مركب من ﴿ ما ﴾ الاستفهامية وفعل (أدرى) الذي يتعدى بهمزة التعدية إلى ثلاثة مفاعيل من باب أعلمَ وأرى ، فصار فاعل فعله المجرد وهو (دَرى) مفعولاً أول بسبب التعدية .

وقد علق فعل ﴿ أدراك ﴾ عن نصب مفعولين بـ ﴿ ما ﴾ الاستفهامية الثانية في قوله : ﴿ مَا الحاقّة .

﴾ وأصل الكلام قبل التركيب بالاستفهام أن تقول : أدركْتُ الحاقّة أمراً عظيماً ، ثم صار أدْركني فلان الحاقّة أمراً عظيماً .

و﴿ ما ﴾ الأولى استفهامية مستعملة في التهويل والتعظيم على طريقة المجاز المرسل في الحرف ، لأن الأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه فصار التعظيم والاستفهام متلازمين .

ولك أن تجعل الاستفهام إنكارياً ، أي لا يدري أحد كنه هذا الأمر .

والمقصود من ذلك على كلا الاعتبارين هو التهويل .

هذا السؤال كما تقول : علمت هل يسافر فلان .

و﴿ مَا ﴾ الثالثة علقت فعل ﴿ أدراك ﴾ عن العمل في مفعولين .

وكاف الخطاب فيه خطاب لغير معين فلذلك لا يقترن بضمير تثنية أو جمع أو تأنيث إذا

خوطب به غير المفرد المذكر .

واستعمال ﴿ ما أدراك ﴾ غير استعمال ﴿ ما يدريك في قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ في سورة الشورى (17) .

(120/779)

روي عن ابن عباس : كل شيء من القرآن من قوله : ما أدراك ﴾ فقد أدرَاه وكل شيء من قوله : ﴿ وما يدريك ﴾ فقد طُوي عنه" .

وقد روي هذا أيضاً عن سفيان بن عيينة وعن يحيى بين سلاّم فإن صح هذا المروي فإن مرادهم أن مفعول ﴿ ما أدراك ﴾ محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للتهويل وأن مفعول ﴿ ما يدريك ﴾ غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإِنكار وهو في معنى نفي الدراية .

وقال الراغب : كل موضع ذُكر في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد عقب ببيانه نحو ﴿ وما أدراك ما هيه نار حامية ﴾ [القارعة : 10 11] ، ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ [القدر : 2 3] ، ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين يومَ لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ [الانفطار : 18 19] ، ﴿ وما أدراك ما الحاقّة كذبت ثمود وعاد

بالقارعة ﴾ [الحاقة : 3 4] ، وكأنه يريد تفسير ما نقل عن ابن عباس وغيره .

ولم أرَ من اللغويين من وفَّى هذا التركيب حقه من البيان وبعضهم لم يذكره أصلاً .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4)

إن جعلتَ قوله : ﴿ ومَا أدراك ما الحاقّة ﴾ [الحاقة : 3] نهايةَ كلام فموقع قوله : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ وما اتصل به استئناف ، وهو تذكير بما حل بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضاً بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليهم مثل ما حل بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث وعلى هذا يكون قوله ﴿ الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1] الخ توطئة له وتمهيداً لهذه الموعظة العظيمة استرهاباً لنفوس السامعين .

وإن جعلتَ الكلام متصلاً بجملة ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ وعيّنت لفظ ﴿ الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1] ليوم القيامة وكانت هذه الجملة خبراً ثالثاً عن ﴿ الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1] .

والمعنى : الحاقة كذبت بها ثمود وعاد ، فكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ﴿ الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1] فيقال : كذبت ثمودُ وعادٌ بها ، فعدل إلى إظهار اسم (القارعة) لأن (

القارعة) مرادفة الحاقة في أحد محملي لفظ ﴿ الحاقة ﴾ [الحاقة : 1] ، وهذا كالبيان للتهويل الذي في قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقّة ﴾ [الحاقة : 3] .

و(القارعة) مراد منها ما أريد بـ ﴿ الحاقّة ﴾ [الحاقة : 1] .

وابتدىء بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً .

والقارعة : اسم فاعل من قرعه ، إذا ضربه ضرباً قوياً ، يقال : قرع البعير .

وقالوا : العبد يقرع بالعصا ، وسميت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارعَ لما فيها من زجر الناس عن أعمال .

وفي المقامة الأولى "ويقْرَع الأسماعَ بزواجر وعِظه" ، ويقال للتوبيخ تقريع ، وفي المثل "لا تُقرع له العصا ولا يُقلقل له الحصا" ، ومورده في عامر بن الظرب العَدواني في قصة أشار إليها المتلمس في بيت .

ف (القارعة) هنا صفة لموصوف محذوف يقدر لفظه مؤنثاً ليوافق وصفَه المذكور نحو الساعة أو القيامة .

القارعةِ : أي التي تصيب الناس بالأهوال والأفزاع ، أو التي تصيب الموجودات بالقَرع مثل دك الجبال ، وخسف الأرض ، وطَمس النجوم ، وكسوف الشمس كسوفاً لا انجلاء له ، فشبه ذلك بالقرع .

ووصف ﴿ الساعة ﴾ [الأعراف : 187] أو ﴿ القيامة ﴾ [البقرة : 85] بذلك مجاز عقلي من إسناد الوصف إلى غير ما هو له بتأوُّلٍ لملابسته ما هو له إذ هي زمان القرع قال تعالى : ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 14] .

وهي ما سيأتي بيانها في قوله : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدة ﴾ الآيات [الحاقة : 13] .

(122/779)

وجيء في الخبر عن هاتين الأمتين بطريقة اللف والنشر لأنهما اجتمعتا في موجب العقوبة ثم فصل ذكر عذابهما .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

ابتدىء بذكر ثمود لأن العذاب الذي أصابهم من قبيل القرع إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة .

والطاغية : الصاعقة في قول ابن عباس وقتادة : نَزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم ، لأن منازل ثمود كانت في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها ، قال

تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [النمل : 52] ، ولأن الكلام على مهلك عاد أنسب فأخر لذلك أيضاً .

وإنما سميت الصاعقةُ أو الصيحة ﴿ بالطاغية ﴾ لأنها كانت متجاوزة الحال المتعارف في الشدة فشبه فعلها بفعل الطاغي المتجاوز الحد في العدوان والبطش .

والباء في قول ﴿ بالطاغية ﴾ للاستعانة .

و ﴿ ثمود ﴾ : أمة من العرب البائدة العاربة ، وهم أنساب عاد .

وثَمود : اسم جد تلك الأمة ولكن غلب على الأمة فلذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار الأمة أو القبيلة .

وتقدم ذكر ثمود عند قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ في سورة الأعراف (73) .

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)

الصرصر : الشديدة يكون لها صوت كالصرير وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ في سورة فصلت (16) .

والعاتية : الشديدة العَصف ، وأصل العُتُوّ والعُتِيّ : شدة التكبر فاستعير للشيء المتجاوزِ الحدَّ المعتادَ تشبيهاً بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد .

والتسخير : الغصْب على عمل واستعير لتكوين الريح الصرصر تكويناً متجاوزاً المتعارف

في قوة جنسها فكأنها مكرهة عليه .

وعلق به عليهم ﴾ لأنه ضمن معنى أرسلها .

و(حسوم) يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قُعود جمع قاعد ، وشهود جمع شاهد ، غُلِّب فيه الأيام على الليالي لأنها أكثر عدداً إذ هي ثمانية أيام وهذا له معان:

(123/779)

أحدها أن يكون المعنى : يتابع بعضها بعضاً ، أي لا فصل بينها كما يقال : صيام شهرين متتابعين ، وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

ففرَّق بينَ بينِهمُ زمانٌ . . .

تتابع فيه أعوام حُسُومٌ

قيل : والحسوم مشتق من حسْم الداءِ بالمكواة إذ يكوى ويُتابع الكي أياماً ، فيكون إطلاقه استعارة ، ولعلها من مبتكرات القرآن ، وبيت عبد العزيز الكلابي من الشعر الإِسلامي فهو متابع لاستعمال القرآن .

المعنى الثاني : أن يكون من الحَسم وهو القطع ، أي حاسمة مستأصلة .

ومنه سمي السيف حُساماً لأنه يقطع ، أي حَسَمَتْهم فلم تُبقِ منهم أحداً ، وعلى هذين

المعنيين فهو صفة ل ﴿ سبع ليال وثمانية أيّام ﴾ أو حال منها .

المعنى الثالث : أن يكون حسوم مصدراً كالشُكور والدخُول فينتصب على المفعول لأجله وعاملُه ﴿ سَخَّرها ، ﴾ أي سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم .

وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام ، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه .

وقد سمّى أصحاب المِيقات من المسلمين أياماً ثمانية منصّفة بين أواخر فبراير وأوائل مارس معروفة في عادة نظام الجو بأن تشتد فيها الرياح غالباً ، أيامَ الحُسوم على وجه التشبيه ، وزعموا أنها تقابل أمثالها من العام الذي أصيبت فيه عاد بالرياح ، وهو من الأوهام ، ومن ذا الذي رصد تلك الأيام .

ومن أهل اللغة من زعم أن أيام الحسوم هي الأيام التي يقال لها : أيامُ العَجُوز أو العَجُز ، وهي آخر فصل الشتاء ويُعدها العرب خمسة أو سبعة لها أسماء معروفة مجموعة في أبيات تذكر في كتب اللغة ، وشتان بينها وبين حُسوم عاد في العِدة والمُدة .

وفرع على ﴿ سخرها عليهم ﴾ أنهم صاروا صَرعى كلهم يراهم الرائي لو كان حاضراً تلك الحالة .

والخطاب في قوله : ﴿ فترى ﴾ خطاب لغير معين ، أي فيرى الرائي لو كان راءٍ ، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة ويُتخيل في المقام سامع حاضر شاهد مُهْلَكهم أو شَاهَدَهم بعدَه ، وكلا المشاهدتين منتف في هذه الآية ، فيعتبر خطاباً فرضياً فليس هو بالتفات ولا هو من خطاب غير المعين ، وقريب منه قوله تعالى:

﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ [الشورى : 45] ، وقوله : ﴿ وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ [الإنسان : 20] ، وعلى دقة هذا الاستعمال أهمل المفسرون التعرض له عدا كلمة للبيضاوي .

والتعريف في ﴿ القومَ ﴾ للعهد الذِّكري ، والقوم : القبيلة وهذا تصوير لهلاك جميع القبيلة .

وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى الليالي والأيام .

و﴿ صرعى ﴾ : جمع صريع وهو الملقى على الأرض ميتاً .

وشُبهوا بأعجاز نخل ، أي أصول النخل ، وعجز النخلة : هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة وهو أغلظ النخلة وأشدها .

ووجه التشبيه بها أن الذين يقطعون النخل إذا قطعوه للانتفاع بأعواده في إقامة البيوت للسُقُف والعضادات انتقوا منه أصوله لأنها أغلظ وأملأ وتركوها على الأرض حتى تيبس

وتزول رطوبتها ثم يجعلوها عَمَداً وأساطين .

والنخل : اسمُ جمعِ نخلة .

والخاوي : الخالي مما كان مالئاً له وحالاً فيه .

وقوله : ﴿ خاويةٍ ﴾ مجرور باتفاق القراء ، فتعين أن يكون صفة ﴿ نخل .

ووصفُ نخل ﴾ بأنها ﴿ خاوية ﴾ باعتبار إطلاق اسم "النخل" على مكانه بتأويل الجنة أو الحديقة ، ففيه استخدام .

والمعنى : خالية من الناس ، وهذا الوصف لتشويه المشبه به بتشويه مكانه ، ولا أثر له في المشابهة وأحسنه ما كان فيه مناسبة للغرض من التشبيه كما في الآية ، فإن لهذا الوصف وقعاً في التنفير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسبابها ، ومنه قول كعب بن زهير:

لَذاكَ أَهْيَبُ عندي إذْ أُكلمه . . .

وقيلَ إنَّك مَنسُوبٌ ومَسْؤول

(125/779)

مِن خادرٍ من لُيوثِ الأسْدِ مسكَنه . . .

من بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونَهُ غِيل

الأبيات الأربعة ، وقول عنترة:

فتركتُه جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَه . . .

يَقضِمْنَ حُسنَ بنانِه والمعصم

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8)

تفريع عَلى مجموع قصتي ثمود وعاد ، فهو فذلكة لما فصل من حال إهلاكهما ، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق ، فيكون في أول الآية جمع ثم تفريق ثم جمع وهو كقوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقى ﴾ [النجم : 5051] أي فما أبقاهما .

والخطاب لغير معين .

والباقية : إما اسم فاعل على بابه ، والهاء : إما للتأنيث بتأويل نفس ، أي فما ترى منهم نفس باقية أو بتأويل فرقة ، أي ما ترى فرقة منهم باقية .

ويجوز أن تكون ﴿ باقية ﴾ مصدراً على وزن فَاعلة مثل ما تقدم في الحاقة ، أي فما ترى لهم بقاء ، أي هلكوا عن بكرة أبيهم .

واللام في قوله : ﴿ لهم ﴾ يجوز أن تجعل لشبه الملك ، أي باقية لأجل النفع .

ويجوز أن يكون اللام بمعنى (مِن) مثل قولهم : سمعت له صراخاً ، وقول الأعشى:

تسمَع للحلي وسواساً إذا انصرفت . . .

كما استعانَ بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقول جرير :

ونحن لكم يومَ القيامة أفضل . . .

أي ونحن منكم أفضل .

ويجوز أن تكون اللام التي تنوى في الإِضافة إذا لم تكن الإِضافة على معنى (من) .

والأصل : فهل ترى باقيتَهم ، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب (مِن) الزائدة لزم تنكير مدخول (من) الزائدة فأعطي حقُّ معنى الإِضافة بإظهار اللام التي الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ [الإسراء : 5] فإن أصله : عبادنا .

وموقع المجرور باللام في موقع النعت ل ﴿ باقية ﴾ قُدم عليها فصار حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(126/779)

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى عمن أهلك بالريح ومن أهلك بما سببه الريح تسبيباً قريباً بغير واسطة ، وكان ذلك كله – لخروجه عن العادة – راداً على أهل الطبائع ، أخبر بمن أهلك مما سببته الريح من الماء بواسطة السحاب ، وكانت سبب تطابقه عليهم مع أن كفرهم بالتعطيل الذي هو أنحس أنواع الكفر للقول بالطبيعة التي تتضمن الإنكار للبعث ، وكان إغراقهم بما يكذب معتقدهم لخروجه عن العادة ، فقال منبهاً على قوة كفرهم بالمجيء : ﴿ وجاء ﴾ أي أتى إتياناً عالياً شديداً ﴿ فرعون ﴾ أي الذي ملكناه على طائفة من الأرض فعتى وتجبر وادعى الإلهية ناسياً هيبتنا وقدرتنا بنقمتنا وأنكر الصانع وقال بالطبائع ﴿ ومن قبله ﴾ أي في جهته وفي حيزه وما يليه وفي السير بسيرته من العلو في الأرض بغير الحق والعتو في الكفر ، وهو ظرف مكان ، هكذا على قراءة البصريين والكسائي بكسر الكاف وفتح الموحدة ، فعم ذلك كل من كان كافراً عاتياً من قبله ومن بعده ، وهو معنى قراءة الباقين بفتح القاف وإسكان الباء الموحدة على أنه ظرف يقابل " بعد " بزيادة .

ولما كان قوم لوط عليه السلام قد جمعوا أنواعاً من الفسوق لم يشاركهم فيها أحد ، فاشتمل عذابهم على ما لم يكن مثله عذاب ، فكان كل من فعلهم الذي لم يسبقهم به أحد من العالمين وعذابهم الذي ما كان مثله قبل ولا بعد ، راداً على أهل الطبائع ، نص عليهم من بين من دخل فيمن قبله على القراءتين فقال : ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي أهل المدائن المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلاً لما حصل لأهلها من الانقلاب حتى صاروا إياه واتبعت حجارة الكبريت وخسف بها وغمرت بما ليس في الأرض مثله وهي قرى قوم لوط عليه السلام ﴿ بالخاطئة ﴾ أي الخطأ أو الأفعال ذات الخطأ التي تتخطى منها إلى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق والعناد والطغيان .

(127/779)

ولما كان الرسل كلهم جميعاً كالفرد الواحد لاتفاق مقاصدهم في الدعاء إلى الله والحمل على طاعته ، قال مستأنفاً مسبباً عن مجيئهم بذلك موحداً في اللفظ ما هو صالح للكثير بإرادة الجنس : ﴿ فعصوا ﴾ أي خالفوا ونابذوا ﴿ رسول ربهم ﴾ أي خالفت كل أمة من أرسله المحسن إليها بإبداعها من العدم وإيداعها القوى وترزيقها وبعث رسولها لإرشادها اغتراراً بإحسانه ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع ، لأنه الضار

كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز نقل أحد الاسمين عن الآخر ، وسبب عن العصيان قوله : ﴿ فأخذهم ﴾ أي ربهم أخذ قهر وغضب ﴿ أخذة ﴾ لم يبق من أمة منهم أحداً ممن كذب الرسول فلم يكن كمن ينصر على عدو من الآدميين لا بد من أن يفوته كثير منهم وإن اجتهد في الطلب ، وما ذاك إلا لتمام علمه سبحانه وتعالى بالجزئيات والكليات ، وشمول قدرته ، وتلك الأخذة – مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة – جعلها سبحانه ﴿ رابية ﴾ أي عالية عليهم علية القدر في قوة البطش وشدة الفتك زائدة على الحد نامية بقدر زيادة أعمالهم في القبح ، والربا : النمو ، وأصله الزيادة ، فأغرق فرعون وجنوده ، وأغرق كل من كذب نوحاً عليه السلام ، وهم كل أهل الأرض غير من ركب معه في السفينة ، وحمل مدائن لوط عليه السلام بعد أن نتقها من الأرض على متن الريح بواسطة من أمره بذلك من الملائكة ثم قلبها وأتبعها الحجارة وخسف بها وغمرها بالماء المنتن الذي ليس في الأرض ما يشبهه .

(128/779)

ولما كان ربما وقع في وهم التعجب من وجود فرعون ومن بعده من الإخبار بأخذ من قبله على قراءة الجماعة مع أن " من " من صيغ العموم ، أشار إلى أنه أهلك جميع المخالفين وأنجى

جميع الموافقين ، قال جواباً لذلك السؤال مؤكداً لأجل من يتعنت ولأن ذلك كان مما يتعجب منه ويتلذذ بذكره : ﴿ إنا ﴾ أي على قدرتنا وعظمتنا وإحاطتنا ﴿ لما طغا الماء ﴾ أي فزاد عن الحد حتى علا على أعلى جبل في الأرض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه السلام به فلم يطيقوا ضبطه ولا قاووه بوجه من الوجوه ، ولا وفقوا لركوب السفينة ، فكان خروجه عن العادة راداً على أهل الطبائع .

ولما كان الإيجاد نعمة فكان إنجاء آبائهم من الغرق حتى كان ذلك سبباً لوجودهم نقمة عليهم قال تعالى : ﴿ حملناكم ﴾ أي في ظهور آبائكم بعظمتنا ومشيئتنا وقدرتنا ﴿ في الجارية ﴾ أي السفينة التي جعلناها بحكمتنا عريقة في الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذي جعلنا من شأنه الإغراق ، وهو تعبير بالصفة عن الموصوف ، ونوح عليه السلام أول من صنع السفينة ، وإنما صنعها بوحي الله تعالى وبحفظه له من أن يزل في صنعتها ، قال : اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون ما يجري في الماء مقارباً لما يجري في الهواء ، وأغرقنا سوى من في السفينة من جميع أهل الأرض من أدمي وغيره .

(129/779)

ولما بدأ سبحانه وتعالى بثمود الذين هم أقرب المهلكين إلى مكة المشرفة لأن التخويف بالأقرب أقعد ، وختم بقوم نوح عليه السلام لأنهم كانوا جميع أهل الأرض ولم يخف أمرهم على أحد ممن بعدهم ، علل اختيار إنجائهم بالسفينة دون غيرها فقال : ﴿ لنجعلها ﴾ أي هذه الفعلات العظيمة من إنجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بذلك العذاب أحد وإهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد ، وكذا السفينة التي حملنا فيها نوحاً عليه السلام ومن معه بإبقائها آية من آياته وأعجوبة من بدائع بيناته وغريبة في الدهر من أعجوباته ﴿ لكم ﴾ أي أيها الأناسي ﴿ تذكرة ﴾ أي سبباً عظيماً لذكر أول إنشائه والموعظة به لتستدلوا بذلك على كمال قدرته تعلى وتمام علمه وعظمة رحمته وقهره ، فيقودكم ذلك إليه وتقبلوا بقلوبكم عليه ﴿ وتعيها ﴾ أي ولتحفظ قصة السفينة وغيرها مما تقدم ، حفظاً ثابتاً مستقراً كأنه محوى في وعاء .

ولما كان المنتفع بما يسمع الحافظ له قليلاً جداً ، دل على ذلك بتوحيد الأذن فقال موحداً منكراً مع الدلالة على تعظيمها : ﴿ أذن ﴾ أي عظيمة النفع ﴿ واعية ﴾ أي من شأنها أن تحفظ ما ينبغي حفظه من الأقوال والأفعال الإلهية والأسرار الربانية لنفع عباد الله كما كان نوح عليه السلام ومن معه وهم قليل سبباً لإدامة النسل والبركة فيه حتى امتلأت منه الأرض .

والوعي : الحفظ في النفس ، والإيعاء : الحفظ في الوعاء ، وفي ذلك توبيخ للناس بقلة الواعي

منهم ، ودلالة على أن الأذن الواحدة إذا غفلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم ، وما سواها لا يبالي بهم الله بالة – قاله الأصبهاني والزمخشري وغيرهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 123.126 ﴾

(130/779)

فصل

قال الفخر :

القصة الثانية قصة فرعون

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9)

أي ومن كان قبله من الأمم التي كفرت كما كفر هو ، و (من) لفظ عام ومعناه خاص في الكفار دون المؤمنين ، قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ، ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ بكسر القاف وفتح الباء ، قال سيبويه : قبل لما ولي الشيء تقول : ذهب قبل السوق ، ولى قبلك حق ، أي فيما يليك ، واتسع فيه حتى صار بمنزلة لي عليك ، فمعنى ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من عنده من أتباعه وجنوده والذي يؤكد هذه القراءة ما روي أن ابن مسعود وأبياً وأبا موسى قرؤا : ﴿ وَمِنْ تلقاءه ﴾ روى عن أبي وحده أنه قرأ : ﴿ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أما قوله :

﴿ والمؤتفكات ﴾ فقد تقدم تفسيرها ، وهم الذين أهلكوا من قوم لوط ، على معنى والجماعات المؤتفكات ، وقوله : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ فيه وجهان الأول : أن الخاطئة مصدر كالخطأ والثاني : أن يكون المراد بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ العظيم .

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10)

الضمير إن كان عائداً إلى ﴿ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ [الحاقة : 9] ، فرسول ربهم هو موسى عليه السلام ، وإن كان عائداً إلى أهل المؤتفكات فرسول ربهم هو لوط ، قال الواحدي : والوجه أن يقال : المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الأمتين بعد ذكرهما بقوله ، ﴿ فَعَصَوْا ﴾ فيكون كقوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 16] وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ثم فيه وجهان الأول : أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار الثاني : أن عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة ، لقوله : ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ [نوح : 25] وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا ، فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو .

القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)

طغى الماء على خزانه فلم يدروا كم خرج وليس ينزل من السماء قطرة قبل تلك الواقعة ولا بعدها إلا بكيل معلوم ، وسائر المفسرين قالوا : ﴿ طغى الماء ﴾ أي تجاوز حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه ، و ﴿ حملناكم ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذا هم أولاد الذين كانوا في السفينة ، وقوله : ﴿ فِى الجارية ﴾ يعني في السفينة التي تجري في الماء ، وهي سفينة نوح عليه السلام ، والجارية من أسماء السفينة ، ومنه قوله : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ [الرحمن : 24] .

قوله تعالى : ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ الضمير في قوله : ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ إلى ماذا يرجع ؟ فيه وجهان : الأول : قال الزجاج إنه عائد إلى الواقعة التي هي معلومة ، وإن كانت ههنا غير مذكورة ، والتقدير لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة الثاني : قال الفراء : لنجعل السفينة ، وهذا ضعيف والأول هو الصواب ، ويدل على صحته قوله : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ فالضمير في قوله : ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه الضمير الأول ، لكن الضمير في قوله : ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ لا يمكن عوده إلى السفينة فكذا الضمير الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

يقال : لكل شيء حفظته في نفسك وعيته ووعيت العلم ، ووعيت ما قلت ويقال : لكل ما حفظته في غير نفسك : أوعيته يقال : أوعيت المتاع في الوعاء ، ومنه قول الشاعر :

(132/779)

والشر أخبث ما أوعيت من زاد . . واعلم أن وجه التذكير في هذا أن نجاة قوم من الغرق بالسفينة وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم ونفاذ مشيئته ، ونهاية حكمته ورحمته وشدة قهره وسطوته ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية : " سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي ، قال علي : فما نسيت شيئاً بعد ذلك ، وما كان لي أن أنسى " فإن قيل : لم قال ﴿ أُذُنٌ واعية ﴾ على التوحيد والتنكير ؟ قلنا : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يلتفت إليهم ، وإن امتلأ العالم منهم .

المسألة الثانية :

قراءة العامة : ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ بكسر العين ، وروى عن ابن كثير ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ ساكنة العين كأنه جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة فخذ ، فأسكن كما أسكن الحرف المتوسط

من فخذ وكبد وكتف ، وإنما فعل ذلك لأن حرف المضارعة لا ينفصل من الفعل ، فأشبه ما هو من نفس الكلمة ، وصار كقول من قال : وهو وهي ومثل ذلك قوله : ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ [النور : 52] في قراءة من سكن القاف .

واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة ، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 93.95 ﴾

(133/779)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾

قرأ أبو عمرو والكسائي "ومَن قِبَله" بكسر القاف وفتح الباء ؛ أي ومن معه وتبعه من جنوده .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتباراً بقراءة عبد الله وأُبَيّ "ومَن مَعَهُ" .

وقرأ أبو موسى الأشعرِيّ "ومَن تلقاءه" .

الباقون "قَبْلَه" بفتح القاف وسكون الباء ؛ أي ومن تقدّمه من القرون الخالية والأمم

الماضية .

﴿ والمؤتفكات ﴾ أي أهل قرى لوط .

وقراءة العامة بالألف .

وقرأ الحسن والجَحْدَرِيّ "وَالْمُؤْتَفِكَة" على التوحيد .

قال قتادة : إنما سُمِّيت قُرَى قوم لوط "مؤتفكات" لأنها ائتفكت بهم ، أي انقلبت .

وذكر الطبري عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال : خمس قَرْيات : صبعة وصعرة وعمرة

ودوما وسدوم ؛ وهي القرية العظمى .

﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي بالفعلة الخاطئة وهي المعصية والكفر .

وقال مجاهد : بالخطايا التي كانوا يفعلونها .

وقال الجرجانِيّ : أي بالخطأ العظيم ؛ فالخاطئة مصدر .

قوله تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ قال الكَلْبيّ : هو موسى .

وقيل : هو لوط لأنه أقرب .

وقيل : عنى موسى ولوطاً عليهما السلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين

﴾ [الشعراء : 16] وقيل : "رسول" بمعنى رسالة .

وقد يعبّر عن الرسالة بالرسول ؛ قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بُحْت عندهم . . .

بِسِرٍّ ولا أرسلتهم برسول

﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم .

ومنه الرّبَا إذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما أعطى .

يقال : ربا الشيء يربو أي زاد وتضاعف .

وقال مجاهد : شديدة .

كأنه أراد زائدة في الشدّة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ ﴾ أي ارتفع وعلاَ .

وقال عليّ رضي الله عنه : طغى على خُزّانه من الملائكة غضباً لربّه فلم يقدروا على حبسه .

قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً .

(134/779)

وقال ابن عباس : طغى الماء زمن نوح على خُزّانه فكثر عليهم فلم يَدْرُوا كم خرج .

وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم .

وقد مضى هذا مرفوعاً أوّل السورة .

والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب : زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول .

ثم مَنّ عليهم بأن جعلهم ذُرِّية من نجا من الغرق بقوله : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم .

﴿ فِي الجارية ﴾ أي في السفن الجارية .

والمحمول في الجارية نوح وأولاده ، وكلّ مَن على وجه الأرض من نسل أولئك .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ يعني سفينة نوح عليه الصلاة والسلام .

جعلها الله تذكرة وعِظَة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم ؛ في قول قتادة .

قال ابن جريج : كانت ألواحها على الجُودِيّ .

والمعنى : أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكروا ما حلّ بقوم نوح ، وإنجاء الله آباءكم ؛ وكم من سفينة هلكت وصارت تراباً ولم يبق منها شيء .

وقيل : لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي تحفظها وتسمعها أُذُنٌ حافظة لما جاء من عند الله .

والسفينة لا توصف بهذا .

قال الزجاج : ويقال وَعَيْتُ كذا أي حفِظته في نفسي ، أَعِيه وَعْياً .

ووَعَيْتُ العلم ، ووَعَيْت ما قلت ؛ كلُّه بمعنًى .

وأوعيت المتاع في الوِعاء .

قال الزجاج : يقال لكل ما حَفِظته في غير نفسك : "أوعيته" بالألف ، ولِمَا حفِظته في نفسك "وعيته" بغير ألف .

وقرأ طلحة وحُميد والأعرج "وتَعْيها" بإسكان العين ؛ تشبيها بقوله : ﴿ أَرْنَا ﴾ واختلف فيها عن عاصم وابن كثِير .

(135/779)

الباقون بكسر العين ؛ ونظير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] وقال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله تعالى ، وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجلّ .

وروي مكحول : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية : "سألت ربِّي أن يجعلها أذُنَ عليٍّ" " قال مكحول : فكان عليّ رضي الله عنه يقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قطّ فنسيته إلا وحفظته .

ذكره الماوردِيّ .

وعن الحسن نحوه ذكره الثعلبي قال : " لما نزلت ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "سألت ربّي أن يجعلها أذنَك يا عليّ"قال عليّ : فوالله ما نسيت شيئاً بعدُ ، وما كان لي أن أنسى " وقال أبو بَرْزة الأسْلَمِيّ : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : " يا عليّ إن الله أمرني أن أُدْنيك ولا أقصِيَك وأن أعلمك وأن تَعِي وحقٌّ على الله أن تَعِيَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(136/779)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾

ومن تقدمه من الأمم الكافرة كقوم نوح عليه السلام وفيه تعميم بعد التخصيص فإن منهم عاداً وثموداً وقرأ أبو رجاء وطلحة والجحدري والحسن بخلاف عنه وعاصم في رواية أبان والنحويان وأبان ومن قبله بكسر القاف وفتح الباء أي ومن في جهته وجانبه والمراد ومن عنده من اتباعه وأهل طاعته ويؤيده قراءة أبي وابن مسعود ومن معه ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي قرى قوم لوط عليه السلام والمراد أهلها مجازاً بإطلاق المحل على الحال أو بتقدير مضاف وعلى الإسناد المجازي والقرينة العطف على من يتصف بالمجيء وقرأ الحسن هنا

والمؤتفكة على الإفراد ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي بالخطأ على أنه مصدر على زنة فاعلة أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطا العظيم على أن الإسناد مجازي وهو حقيقة لأصحابها واعتبار العظم لأنه لا يجعل الفعل خاطئاً إلا إذا كان صاحبه بليغ الخطأ ويجوز أن تكون الصيغة للنسبة .

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي فعصى كل أمة رسولها حين نهاها عما كانت تتعاطاه من القبائح فإفراد الرسول على ظاهره وجوز أن يكون جمعاً أو مما يستوي فيه الواحد وغيره لأنه مصدر في الأصل وأريد منه التكثير لاقتضاء السياق له فهو من مقابلة الجمع المقتضى لانقسام الآحاد أو أطلق الفرد عليهم لاتحادهم معنى فيما أرسلوا به والظاهر أن هذا بيان لمجيئهم بالخاطئة ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ أي الله عز وجل ﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح من ربا الشيء إذا زاد .

(137/779)

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء ﴾ جاوز حده المعتاد حتى أنه علا على أعلى جبل خمس عشرة ذراعاً أو طغى على خزانه على ما سمعت قبيل هذا وذلك بسبب إصرار قوم نوح عليه السلام على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام فيما أوحي إليه من

الأحكام التي من جملتها أحوال القيامة ﴿ حملناكم ﴾ أي في أصلاب آبائكم أو حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم على أنه بتقدير مضاف وقيل على التجوز في المخاطبين بإرادة أبائهم المحمولين بعلاقة الحلول وهو بعيد ﴿ فِى الجارية ﴾ في سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان لا مجرد رفعهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة في فإنها ليست بصلة للحمل بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله أي رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته عز وجل وإنما السفينة سبب صوري وكثر استعمال الجارية في السفينة وعليه .

رية في بطن جارية . . .

(138/779)

﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ أي تحفظها والوعي أن تحفظ الشيء في نفسك والإيعاء أن تحفظه في غير نفسك من وعاء ﴿ أُذُنٌ واعية ﴾ أي من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر

فيه ولا تضيعه بترك العمل به وعن قتادة الواعية هي التي عقلت عن الله تعالى وانتفعت بما سمعت من كتاب الله تعالى وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله تعالى وجهه أني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي قال علي كرم الله تعالى وجهه فما سمعت شيئاً فنسيته وما كان لي أن أنسى وفي جعل الأذن واعية وكذا جعلها حافظة ومتذكرة ونحو ذلك تجوز والفاعل لذلك إنما هو صاحبها ولا ينسب لها حقيقة إلا السمع والتنكير للدلالة على قلتها وإن من هذا شأنه مع قلته بنسيب لنجاة الجم الغفير وإدامة نسلهم وقيل ضمير نجعلها للجارية وجعلها تذكرة لما أنه على ما قال قتادة أدركها أوائل هذه الأمة أي أدركوا ألواحها على الجودي كما قال ابن جريج بل قيل إن بعض الناس وجد شيئاً من أجزائها بعد الإسلام بكثير والله تعالى أعلم بصحته ولا يخفى أن المعول عليه ما قدمناه وقرأ ابن مصرف وأبو عمرو في رواية هرون وخارجة عنه وقنبل بخلاف عنه وتعيها بإسكان العين على التشبيه بكتف وكبد كما قيل وقرأ حمزة بإخفاء الكسرة وروى عن عاصم أنه قرأ بتشديد الياء قال في البحر قيل هو خطأ وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شد بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف ولا ينبغي أن يجعل ذلك من التضعيف في الوقف ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وإن كان قد ذهب إليه بعضهم وروى عن حمزة وموسى بن عبد الله العبسي وتعيها بإسكان الياء فاحتمل الاستئناف وهو الظاهر واحتمل أن يكون مثل قراءة ﴿ من أوسط ما تطعمون أهاليكم ﴾ [المائدة: 89

]

بسكون الياء وقرأ نافع أذن بإسكان الذال للتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(139/779)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) ﴾

عطف على جملة ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ [الحاقة : 4] .

وقد جُمع في الذكر هنا عدةُ أمم تقدمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالاً وتصريحاً ، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكراً عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم ، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم .

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربّهم ، فحصل في الكلام احتباك .

والمراد بفرعون فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه السلام وهو (مِنفطاح الثاني) .

وإنما أسند الخِطْء إليه لأن موسى أرسل إليه ليُطلق بني إسرائيل من العبودية قال تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ [النازعات : 17] فهو المؤاخذ بهذا العصيان وتبعه القبط امتثالاً لأمره وكذبوا موسى وأعرضوا عن دعوته .

وشمل قوله : ﴿ ومَن قبله ﴾ أمَماً كثيرة منها قوم نوح وقوم إبراهيم .

وقرأ الجمهور ﴿ ومن قَبله ﴾ بفتح القاف وسكون الباء .

وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء ، أي ومن كان من جهته ، أي قومه وأتباعه .

و﴿ المؤتفكات ﴾ : قُرى لوط الثلاثُ ، وأريد بالمؤتفكات سكانها وهم قوم لوط وخصوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب إذ كانت قُراهم في طريقهم إلى الشام ، قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرُّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] وقال : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أُمْطِرت مطَر السوء أفلم يكونوا يرونها ﴾ [الفرقان : 40] .

ووصفت قرى قوم لوط بـ ﴿ المؤتفكات ﴾ جمع مؤتفكة اسم فاعل ائتفك مُطاوع أفَكَه ، إذا قلَبَه ، فهي المنقلبات ، أي قلبها قالب ، أي خسف بها قال تعالى : ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ [هود : 82] .

والخاطئة : إمّا مصدر بوزن فاعلة وهاؤه هاء المرة الواحدة فلما استعمل مصدراً قطع النظر عن المرة ، كما تقدم في قوله : ﴿ الحاقة ﴾ [الحاقة : 1] فهو مصدر خَطِىءَ ، إذا أذنب .

والذنب : الخِطْء بكسر الخاء ، وإما اسم فاعل خَطِىءَ وتأنيثه بتأويل : الفعلة ذات الخِطْء فهاؤه هاء تأنيث .

والتعريف فيه تعريف الجنس على كلا الوجهين ، فالمعنى : جاء كل منهم بالذنب المستحق للعقاب .

وفرع عنه تفصيل ذنبهم المعبر عنه بالخَاطئة فقال ﴿ فعصوا رسول ربّهم ﴾ وهذا التفريع للتفصيل نظير التفريع في قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ [القمر : 9] في أنه تفريع بيان على المبيَّن .

وضمير (عصوا) يجوز أن يرجع إلى ﴿ فرعون ﴾ باعتباره رأس قومه ، فالضمير عائد إليه وإلى قومه ، والقرينة ظاهرة على قراءة الجمهور ، وإما على قراءة أبي عمرو والكسائي فالأمر أظهر وعلى هذا الاعتبار في محل ضمير (عصوا) يكون المراد بـ ﴿ رسول ربّهم ﴾ موسى عليه السلام .

وتعريفه بالإِضافة لما في لفظ المضاف إليه من الإِشارة إلى تخطئتهم في عبادة فرعون وجعلهم

إياه إلها لهم .

ويجُوز أن يرجع ضمير (عصوا) إلى ﴿ فرعون ومَن قبله والمؤتفكات .

ورسول ربّهم ﴾ هو الرسول المرسل إلى كل قوم من هؤلاء .

فإفراد ﴿ رسول ﴾ مراد به التوزيع على الجماعات ، أي رسول الله لكل جماعة منهم ، والقرينة ظاهرة ، وهو أجمل نظماً من أن يقال : فعصوا رسُل ربّهم ، لما في إفراد ﴿ رسول ﴾ من التفنن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفادياً من تتابع ثلاثة جموع لأن صيغ الجمع لا تخلو من ثقل لقلة استعمالها وعكسه قوله في سورة الفرقان (37) ﴿ وقومَ نوح لمّا كذَّبوا الرُسل أغرقناهم ﴾ ، وإنما كذبوا رسولاً واحداً ، وقوله : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ وما بعده في سورة الشعراء (105) ، وقد تقدم تأويل ذلك في موضعه .

(141/779)

والأخذ : مستعمل في الإِهلاك ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ في سورة الأنعام (44) وفي مواضع أخرى .

وأَخْذَةً : ﴾ واحدة من الأخذ ، فيراد بها أخذ فرعون وقومه بالغرق ، كما قال تعالى : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ [القمر : 42] ، وإذا أعيد ضمير الغائب إلى ﴿

فرعون ومن قبله والمؤتفكات ﴾ كان إفراد الأخذة كإفراد ﴿ رسول ربّهم ، ﴾ أي أخذنا كل أمة منهم أخذة .

والرابية : اسم فاعل من ربَا يَربو إذا زاد فلما صيغ منه وزن فاعلة ، قلبت الواو ياء لوقوعها متَحركة إثر كسرة .

واستعير الرُّبوّ هنا للشدة كما تستعار الكثرة للشدة في نحو قوله تعالى : ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ [الفرقان : 14] .

والمراد بالأخذة الرابية : إهلاك الاستئصال ، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم .

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)

إنَّ قوله تعالى : ﴿ ومَن قبله ﴾ [الحاقة : 9] لما شمل قومَ نوح وهم أول الأمم كذبوا الرسل حَسَّن اقتضاب التذكير بأخذهم لِمَا فيه من إدماج امتنان على جميع الناس الذين تناسلوا من الفئة الذين نجاهم الله من الغرق ليتخلص من كونه عِظة وعبرة إلى التذكير بأنه نعمة ، وهذا من قبيل الإدماج .

وقد بُني على شهرة مُهلك قوم نوح اعتبارُه كالمذكور في الكلام فجعل شرطاً ل ﴿ لَمَّا ﴾ في قوله : ﴿ إنا لمّا طغا الماء حملناكم في الجارية ﴾ ، أي في ذلك الوقت المعروف بطغيان الطوفان .

والطغيان : مستعار لشدته الخارقة للعادة تشبيهاً لها بطغيان الطاغي على الناس تشبيه

تقريب فإن الطوفان أقوى شدة من طغيان الطاغي .

و﴿ الجارية ﴾ : صفة لمحذوف وهو السفينة وقد شاع هذا الوصف حتى صار بمنزلة الاسم قال تعالى : ﴿ وله الجواري المنشآت في البحر ﴾ [الرحمن : 24] .

وأصل الحمل وضع جسم فوق جسم لنقله ، وأطلق هنا على الوضع في ظرف متنقل على وجه الاستعارة .

(142/779)

وإسناد الحمل إلى اسم الجلالة مجاز عقلي بناء على أنه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة ووضع المحمول قال تعالى : ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين ﴾ الآية [المؤمنون : 27] .

وذكر إحدى الحِكَم والعلل لهذا الحمل وهي حكمة تذكير البشر به على تعاقب الأعصار ليكون لهم باعثاً على الشكر ، وعظةً لهم من أسواء الكفر ، وليخبر بها من عَلِمها قوماً لم يعلموها فتعيهَا أسماعهم .

والمراد بـ ﴿ أذن ﴾ : آذَان واعية .

وعموم النكرة في سياق الإِثبات لا يستفاد إلا بقرينة التعميم كقوله تعالى : ﴿ ولْتنظُرْ نفسٌ

ما قدّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : 18] .

والوعي : العلم بالمسموعات ، أي ولتعلم خبرها أذن موصوفة بالوعي ، أي من شأنها أن تعي .

وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يتعظوا بخبر الطوفان والسفينة التي نجا بها المؤمنون فتلقوه كما يتلقون القصص الفكاهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(143/779)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ شَاهِدٌ لِأَنَّ الْمُفْرَدَ الْمُضَافَ لِلْعُمُومِ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّسُولِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُرْسَلُ إلَى فِرْعَوْنَ ، وَلَفْظُ الْمُرْسَلِ إلَى الْمُؤْتَفِكَاتِ وَيَدْخُلُ أَيْضًا هَارُونُ وَيُوسُفُ وَإِنْ كَانَ قَبْلَهُ انْتَهَى . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 120 ﴾

(144/779)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها ، ودل على قدرته عليها وعلى حكمته بقصص من ذكر على الوجه الذي مر إلى أن ختم بالذين كانت قصتهم أشبه تلك القصص بالقيامة من حيث أن أمر الله فيها عم أهل الأرض وفي زمن يسير ، وكان الناجون منها بالنسبة إلى المهلكين كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، سبب عن جميع ما مضى قوله شرحاً لأمرها : ﴿ فإذا نفخ ﴾ وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأنه ما تأثر عنه لا يتوقف على نافخ معين بل من أقامه من جنده لذلك تأثر عنه ما يريده وذكره وإن كان المسند إليه مؤنثاً للفصل ولكونه غير حقيقي التأنيث وللدلالة على قوة النفخ ﴿ في الصور ﴾ أي القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كأنه عبر عنه به دون القرن مثلاً لأنه يتأثر عنه تارة إعدام الصورة وتارة إيجادها وردها إلى أشكالها سعة فمه

كما بين السماء والأرض ، وأسند الفعل إلى المصدر ليفيده بادىء بدء لا ليؤكده وإن كان التأكيد يفهم منه وهو غير مقصود بالذات فقال : ﴿ نفخة ﴾ ولما دل بالفعلة على الواحدة ، أكده دلالة على عظيم قدرته وحقارة الأشياء عنده بقوله : ﴿ واحدة ﴾ أي فهلك الخلائق كلهم ، هكذا قالوا إن هذه النفخة هي الأولى ، قالوا : وعندها خراب العالم ، وظاهر السياق أنها الثانية التي بها البعث ، وخراب ما ذكر بعد قيامهم أنسب لأنه لهم أهيب ، وكونها الثانية إحدى الروايتين عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ما .

(145/779)

ولما ذكر التأثير في الإحياء ، أتبعه التأثير في الجمادات ، وبدأ بالسفليات لملابستها للإنسان فتكون عبرته بها أكثر فقال : ﴿ وحملت ﴾ أي بمجرد القدرة ﴿ الأرض ﴾ أي المنبسطة ورجت رجاً ﴿ والجبال ﴾ أي التي بها ثباتها فرفعت من أماكنها ، وبستا بساً فكانت هباء منبثاً ، لم يبق فيهما حجر ولا كدية .

ولما أريد قوة الدك والإبلاغ في تأثيره ، جعل الجبال شيئاً واحداً فقال : ﴿ فدكتا ﴾ أي مسحت الجملتان الأرض وأوتادها وبسطتا ودق بعضها ببعض ﴿ دكة واحدة ﴾ أي فصارتا كثيباً مهيلاً وسويتا بأيسر أمر فلم يميز شيء منهما من الآخر ، بل صارا في غاية

الاستواء ، من قولهم : ناقة دكاء ، أي لا سنام لها .

وأرض دكاء ، أي متسعة مستوية ، قالوا : والدك والدق – أخوان ، والدك أبلغ ، قال أبو حيان : والدك فيه تفرق الأجزاء ، والدق فيه اختلاط الأجزاء .

ولما ذكر نفخ الصور سبب عنه قوله : ﴿ فيومئذ ﴾ أي إذا دكتا وهي بدل من " إذ " كرر لطول الفصل وأفاد تهويلاً لها وتعظيماً ، ونصب الظرف بقوله : ﴿ وقعت الواقعة ﴾ أي التي وقع الوعد والوعيد بها ، فكانت كأنها شيء ثقيل جداً ليس له ممسك .

فما له من ذاته غير السقوط ، وهي القيامة والحاقة والقارعة ، نوع أسماءها تهويلاً لها أي قامت القيامة ، وكان المراد بها النفخة الثانية .

ولما ذكر تأثير العالم السفلي ذكر العلوي فقال : ﴿ وانشقت السماء ﴾ أي هذا الجنس لشدة ذلك اليوم ، ولما كان الشيء لا ينشق إلا لخلل فيه ، سبب عنه قوله تحقيقاً لذلك .

﴿ فهي يومئذ ﴾ أي إذا وقعت الواقعة ﴿ واهية ﴾ أي ضعيفة متساقطة خفيفة لا تتماسك .

ولما كانت العادة جارية فيما يعرف أن الملك يظهر أنواعاً من عظمته يوم عرض الجند ، قال معرفاً لنا بنحو ما ألفناه : ﴿ والملك ﴾ أي هذا النوع الذي يصدق على الواحد فما فوقه ، والجمع لا يصدق على ما دون الجمع فهذا أشمل ﴿ على أرجائها ﴾ أي نواحي السماء وأطرافها وحواشي ما لم يتشقق منها ، قال الضحاك : يكونون بها حتى يأمرهم الله فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها – انتهى .

وقيل : أرجاء الأرض واحدها رجا ، مقصور ، والاثنان رجوان ، فيحيطون بالجن والإنس فيحشرونهم حشر الصيد لإرادة أخذه .

ولما كان الملك يظهر يوم العرض سرير ملكه ومحل عزه قال : ﴿ ويحمل عرش ﴾ ولما كان هذا أمراً هائلاً مقطعاً للقلوب ، قال مؤنساً للمنزل عليه هذا الذكر مؤمناً له من كل ما يحذر : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بكل ما يريده لا سيما في ذلك اليوم بما يظهر من رفعتك .

ولما كان العرش عاماً لجهة الفوق كلها ، أسقط الجار فقال : ﴿ فوقهم ﴾ أي فوق رؤوسهم ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ وقعت الواقعة بعدد ما كان تحته من السماوات السبع والكرسي ﴿ ثمانية ﴾ أي من الملائكة أشخاص أو صفوف يؤيد حملته الأربعة في الدنيا بأربعة أخرى لشدة ذلك اليوم وثقله ، وهو في حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو يعلى والبغوي عن العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ ، فظاهره أنهم أشخاص ولفظه : " ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض " وظاهر ذلك أنهم في الدنيا ،

وكونهم في الدنيا أربعة فقط ذكره المفسرون ورواه الطبراني من طريق ابن إسحاق ، قال : بلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(147/779)

" هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم بأربعة آخرين " وهو مذكور في حديث الصور الطويل الذي يرويه أبو يعلى وغيره من طريق إسماعيل بن رافع عن يزيد بن زياد عن القرطبي عن رجل عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ وهذا العدد يحتمل أن يراد به أهل السماوات السبع والكرسي فتلك ثمانية ، وهم خلق لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو أوفق لإظهار العظمة ، ويمكن أن يراد بهم ثمانية أفراد ويكون حملهم له أظهر في العظمة ليعلم كل من يرى ذلك أن مثلهم لا يقدر على حمل مثله في عظمته وإحاطته ، وهذا هو أظهر المعاني من الأحاديث الواردة فيه ، واختيار هذا العدد أوفق للوجه الذي قبله لأنه يزيد على العدد الموضوع للمبالغة – وهو السبع – بواحدة إشارة إلى أنه أبلغ من عدة المبالغة لأنه إشارة إلى أنك كلما بالغت زاد الأمر على مبالغتك بما هو أول العدد ، وذلك إشارة إلى عدم الانتهاء والوقوف عند حد ، وإلى ذلك يشير أيضاً أن للثمانية من الكسور النصف والربع والثمن ، وذلك سبعة ، والسبعة عدد جامع لجميع أنواع العدد الفرد والزوج وزوج الزوج وزوج الفرد

، وكل ذلك إشارة إلى المبالغة في إظهار العظمة والكبرياء والعزة وتمثيل لنا بما نعرف من أحوال الملوك وإلا :

فالأمر أعظم من مقالة قائل . . .

إن رقق البلغاء أو إن فخموا

إعلاماً بعظمة ذلك اليوم ليخشى العباد فيلزموا أسباب الإسعاد ، وهذا الذي قلته من سر السبعة قد ذكره الإمام بدر الدين بن الدماميني قرين شيوخنا في الكلام على الواو من حاشيته على مغني ابن هشام عن تفسير العماد الكندي قاضي الإسكندرية المسمى الكفيل بمعاني التنزيل فقال : ونقل الأستاذ عبد الله الكفيف المالقي أنها لغة فصيحة لبعض العرب أن يقول : واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة – هكذا لغتهم ، ومتى جاء في كلامهم لفظ الثمانية أدخلوا الواو وقد نظم بعض أصحابنا في كون السبعة منتهى العدد أبياتاً وهي :

(148/779)

يا سائلي عن سر كون العدد . . .

غايته في سبعة لم تزد

ما سره إلا انحصار قسيمه . . .

في واحد فرد وشيء مسند

وذلك الشيء الذي تسنده . . .

منحصر في واحد وأزيد

فالفرد والفرد إذا ما اجتمعا . . .

زوج مع الفرد الذي لم يسند

واثنان واثنان إذا ما اجتمعت . . .

أربعة تضم مع في ء اليد

فتلك سبعة إذا تكاملت . . .

أربعة واثنان مع منفرد

وما أتى من بعد هذا فهو تك . . .

رار له لا زائد في العدد

ثلاثة مع مثلها فرد وفر . . .

د قد مضى وما مضى لا يعدد

وهكذا أربعة مع مثلها . . .

زوج وزوج قد مضى لا تزد

وقال الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتابه الملل والنحل : أكثر أصحاب العدد على أن الواحد لا يدخل في العدد ، فالعدد مصدره الأول الاثنان ، وهو ينقسم إلى زوج وفرد ، فالفرد الأول ثلاثة ، والزوج الأول أربعة ، وما وراء الأربعة مكرر كالخمسة فإنها مركبة من فرد وزوج ، ويسمى العدد الدائر ، والستة مركبة من فردين ، ويسمى العدد التام ، والسبعة مركبة من فرد وزوج ، وتسمى العدد الكامل ، والثمانية مركبة من زوجين وهي بداية الأخرى فصدر الحساب في مقابلة الواحد الذي هو علة العدد وليس يدخل فيه ، ولذلك هو فرد لا أخ له .

ولما كان العدد مصدره من اثنين صار منهما المحقق محصوراً في قسمين ، ولما كان العدد منقسماً إلى فرد وزوج ، صار من ذلك الأصل محصوراً في سبعة ، فإن الفرد الأول ثلاثة ، والزوج الأول أربعة ، وهي النهاية ، وما عداها مركب منها ، وكان البسائط عامة الكلية في العدد واحد واثنان وثلاثة وأربعة وهي الكمال ، وما زاد عليها من المركب الكلي فمركبات كلها ولا حصر لها ، وقال أبو الحكم ابن برجان في تفسير سورة القدر : انتهاء العدد ستة والسابع وترها .

ولما بلغ النهاية في تحذير العباد من يوم التناد ، وكان لهم حالتان : خاصة وعامة ، فالعامة العرض ، والخاصة التقسيم إلى محسن ومسيء ، زاده عظماً بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذا كان ما تقدم .

ولما كان المهول نفس العرض ، بنى فعله للمفعول ولأنه كلام القادرين فقال : ﴿ تعرضون ﴾ أي على الله سبحانه وتعالى للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للإكرام والتقريب والإثابة ، والمفسد للإبعاد والتعذيب والإصابة ، عبر عن الحساب بالعرض الذي هو جزؤه ، فالمحسن لا يكون له غير ذلك والمسيء يناقش ﴿ لا تخفى منكم ﴾ أي في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه ﴿ لا تخفى منكم ﴾ أي في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه ﴿ خافية ﴾ أي لا يقع أصلاً على حال من الأحوال شيء من خفاء لشيء كان من حقه الخفاء في الدنيا لا من الأعمال ولا من الأنفس وإن كان في غاية الدقة والغموض لأن ذلك يوم الظهور التام من القبور ومن الصدور ، وغير ذلك من الأمور ، ليكون ذلك أجل لسعادة من سعد ، وأقبح لشقاوة من شقي فأبعد ، قال أبو موسى ـ رضى الله عنه ـ : هي ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعندها تتطاير الصحف فأخذ بيمينه وأخذ بشماله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 126 . 130 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة فذكر أولاً مقدماتها .

فقال :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ نَفْخَةٌ ﴾ بالرفع والنصب ، وجه الرفع أسند الفعل إليها ، وإنما حسن تذكير الفعل للفصل ، ووجه النصب أن الفعل مسند إلى الجار والمجرور ثم نصب ﴿ نفخة ﴾ على المصدر .

المسألة الثانية :

المراد من هذه النفخة الواحدة هي النفخة الأولى لأن عندها يحصل خراب العالم ، فإن قيل : لم قال بعد ذلك ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة : 18] والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟ قلنا : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان ، والصعقة والنشور ، والوقوف والحساب ، فلذلك قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ كما تقول : جئته عام كذا ، وإنما

كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته .

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

رفعت الأرض والجبال ، إما بالزلزلة التي تكون في القيامة ، وإما بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو بملك من الملائكة أو بقدرة الله من غير سبب فدكتا ، أي فدكت الجملتان جملة الأرض وجملة الجبال ، فضرب بعضها ببعض ، حتى تندق وتصير كثيباً مهيلاً وهباء منبثاً والدك أبلغ من الدق ، وقيل : فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً من قولك : اندك السنام إذا انفرش ، وبعير أدك وناقة دكاء ومنه الدكان .

المسألة الثانية :

قال الفراء : لا يجوز في دكة ههنا إلا النصب لارتفاع الضمير في دكتا ، ولم يقل : فدككن لأنه جعل الجبال كالواحدة والأرض كالواحدة ، كما قال : ﴿ أن السموات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] ولم يقل : كن .

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16)

أي فيومئذ قامت القيامة الكبرى وانشقت السماء لنزول الملائكة : ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ أي مسترخية ساقطة القوة ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ بعد ما كانت محكمة شديدة .

ثم قال تعالى : ﴿ والملك على أَرْجَائِهَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ والملك ﴾ لم يرد به ملكاً واحداً ، بل أراد الجنس والجمع .

المسألة الثانية :

الأرجاء في اللغة النواحي يقال : رجا ورجوان والجمع الأرجاء ، ويقال ذلك لحرف البئر وحرف القبر وما أشبه ذلك ، والمعنى أن السماء إذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء ، فإن قيل : الملائكة يموتون في الصعقة الأولى ، لقوله : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [الزمر : 68] فكيف يقال : إنهم يقفون على أرجاء السماء ؟ قلنا : الجواب من وجهين : الأول : أنهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون الثاني : أن المراد الذين استثناهم الله في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا العرش هو الذي أراده الله بقوله ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾ [غافر : 7] وقوله : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان الأول : وهو الأقرب أن المراد فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش الثاني : قال مقاتل : يعني أن الحملة يحملون العرش فوق رؤوسهم .

و(مجيء) الضمير قبل الذكر جائز كقوله : في بيته يؤتي الحكم .

المسألة الثالثة :

نقل عن الحسن رحمه الله أنه قال : لا أدري ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف صف .

(152/779)

واعلم أن حمله على ثمانية أشخاص أولى لوجوه : أحدها : ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية " ويروى : " ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤوسهم وهم

مطرقون مسبحون " [وقيل : بعضهم على صورة الإنسان] وقيل : بعضهم على صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر ، وروي ثمانية أملاك في صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً ، وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك الوجه الثاني : في بيان أن الحمل على ثمانية أشخاص أولى من الحمل على ثمانية آلاف وذلك لأن الثمانية أشخاص لا بد منهم في صدق اللفظ ، ولا حاجة في صدق اللفظ إلى ثمانية آلاف ، فحينئذ يكون اللفظ دالاً على ثمانية أشخاص ، ولا دلالة فيه على ثمانية آلاف فوجب حمله على الأول الوجه الثالث : وهو أن الموضع موضع التعظيم والتهويل فلو كان المراد ثمانية آلاف ، أو ثمانية صفوف لوجب ذكره ليزداد التعظيم والتهويل ، فحيث لم يذكر ذلك علمنا أنه ليس المراد إلا ثمانية أشخاص .

المسألة الرابعة :

قالت المشبهة : لو لم يكن الله في العرش لكان حمل العرش عبثاً عديم الفائدة ، ولا سيما وقد تأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة : 18] والعرض إنما يكون لو كان الإله حاصلاً في العرش ، أجاب أهل التوحيد عنه بأنه لا يمكن أن يكون المراد منه أن الله جالس في العرش وذلك لأن كل من كان حاملاً للعرش كان حاملاً لكل ما كان في العرش ، فلو كان الإله في العرش للزم الملائكة أن يكونوا حاملين لله تعالى وذلك محال ، لأنه يقتضي احتياج الله إليهم ، وأن يكونوا أعظم قدرة من الله تعالى وكل ذلك كفر صريح ، فعلمنا أنه لا بد فيه من التأويل فنقول : السبب في هذا الكلام هو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه ، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه ، وليس أنه يسكنه ، تعالى الله عنه وجعل في ركن البيت حجراً هو يمينه في الأرض ، إذ كان من شأنهم أن يعظموا رؤساءهم بتقبيل أيمانهم ، وجعل على العباد حفظة ليس لأن النسيان يجوز عليه سبحانه ، لكن هذا هو المتعارف فكذلك لما كان من شأن الملك إذا أراد محاسبة عماله جلس إليهم على سرير ووقف الأعوان حوله أحضر الله يوم القيامة عرشاً وحضرت الملائكة وحفت به ، لا لأنه يقعد عليه أو يحتاج إليه بل لمثل ما قلناه في البيت والطواف .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة ، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله ، ونظيره قوله : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف : 48] وروى : " أن في القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار

واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنثر الكتب فيأخذ السعيد كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله " .

ثم قال : ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(154/779)

في الآية وجهان الأول : تقرير الآية : تعرضون لا يخفى أمركم فإنه عالم بكل شيء ، ولا يخفى عليه منكم خافية ، ونظيره قوله : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ [غافر : 16] فيكون الغرض منه المبالغة في التهديد ، يعني تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً الوجه الثاني : المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفياً منكم في الدنيا ، فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم ، وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم ، وهو المراد من قوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : 9 ، 10] وفي هذا أعظم الزجر والوعيد وهو خوف الفضيحة .

المسألة الثانية :

قراءة العامة ﴿ لاَ تخفى ﴾ بالتاء المنقطة من فوقها ، واختار أبو عبيدة الياء وهي قراءة

حمزة ، والكسائي قال : لأن الياء تجوز للذكر والأنثى والتاء لا تجوز إلا للأنثى ، وههنا يجوز إسناد الفعل إلى المذكر وهو أن يكون المراد بالخافية شيء ذو خفاء .

وأيضاً فقد وقع الفصل ههنا بين الاسم والفعل بقوله : منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 95. 97 ﴾

(155/779)

وقال القرطبى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) ﴾

قال ابن عباس : هي النفخة الأولى لقيام الساعة ، فلم يبق أحد إلا مات .

وجاز تذكير ﴿ نُفِخَ ﴾ لأن تأنيث النفخة غير حقيقي .

وقيل : إن هذه النفخة هي الأخيرة .

وقال : ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي لا تُثَنّى .

قال الأخفش : ووقع الفعل على النفخة إذ لم يكن قبلها اسم مرفوع فقيل : نفخة .

ويجوز "نفخةً" نصباً على المصدر .

وبها قرأ أبو السَّمال .

أو يقال : اقتصر على الإخبار عن الفعل كما تقول : ضرب ضرباً .

وقال الزجاج : "فِي الصُّورِ" يقوم مقام ما لم يسم فاعله .

قوله تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾

قراءة العامة بتخفيف الميم ؛ أي رفعت من أماكنها .

﴿ فَدُكَّتَا ﴾ أي فتتا وكسِرتا .

﴿ دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ لا يجوز في "دَكَّة" إلا النصب لارتفاع الضمير في "دُكَّتَا" .

وقال الفراء : لم يقل فَدُكِكْن لأنه جعل الجبال كلّها كالجملة الواحدة ، والأرض كالجملة الواحدة .

ومثله : ﴿ أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ﴾ [الأنبياء : 30] ولم يقل كنّ .

وهذا الدك كالزلزلة ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] وقيل : "دُكَّتَا" أي بُسِطَتا بسطةً واحدة ؛ ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره .

وقد مضى في سورة "الأعراف" القول فيه .

وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر "وَحُمِّلَتِ الأرض والجبال" بالتشديد على إسناد الفعل إلى المفعول الثاني .

كأنه في الأصل وَحَمّلْتُ قُدْرَتَنا أو مَلَكاً من ملائكتنا الأرضَ والجبال ؛ ثم أسنِد الفعل إلى المفعول الثاني فَبُنِيَ له .

ولَوْجِيء بالمفعول الأول لأسند الفعل إليه ؛ فكأنه قال : وَحُمّلت قُدْرتُنا الأرضَ .

وقد يجوز بناؤه للثاني على وجه القلب فيقال : حُمّلت الأرضُ المَلَك ؛ كقولك : أُلبِس زيدٌ الجُبّةَ ، وأُلبِست الجبةُ زيداً .

(156/779)

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قامت القيامة .

﴿ وانشقت السمآء ﴾ أي انصدعت وتفطّرت .

وقيل : تنشق لنزول ما فيها من الملائكة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] وقد تقدم .

﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ أي ضعيفة .

يقال : وَهَى البناء يَهِي وَهْياً فهو واهٍ إذا ضَعُف جدّاً .

ويقال : كلامٌ وَاهٍ ؛ أي ضعيف .

فقيل : إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوَهْي ؛ ويكون ذلك لنزول الملائكة كما ذكرنا .

وقيل : لهول يوم القيامة .

وقيل : ﴿ وَاهِيَةٌ ﴾ أي متخرّقة ؛ قاله ابن شجرة .

مأخوذ من قولهم : وهَى السقاء إذا تخرّق .

ومن أمثالهم :

خَلِّ سبيلَ من وَهَى سِقاؤه . . .

ومن هُرِيق بالفلاة ماؤه

أي من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه .

﴿ والملك ﴾ يعني الملائكة ؛ اسم للجنس .

﴿ على أَرْجَآئِهَآ ﴾ أي على أطرافها حين تنشق ؛ لأن السماء مكانهم ؛ عن ابن عباس .

الماوردِيّ : ولعله قول مجاهد وقتادة .

وحكاه الثعلبيّ عن الضحاك ، قال : على أطرافها مما لم ينشق منها .

يريد أن السماء مكان الملائكة فإذا انشقت صاروا في أطرافها .

وقال سعيد بن جُبَير : المعنى والمَلَكُ على حافات الدنيا ؛ أي ينزلون إلى الأرض ويحرسون أطرافها .

وقيل : إذا صارت السماء قِطَعاً تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها .

وقيل : إن الناس إذا رأوا جهنم هالتهم ؛ فَيَنِدُّوا كما تَنِدّ الإبل ، فلا يأتون قُطْراً من أقطار

الأرض إلا رأوا ملائكة فيرجعون من حيث جاءوا .

وقيل : ﴿ على أَرْجَآئِهَآ ﴾ ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النار من السَّوق إليها ، وفي أهل الجنة من التّحية والكرامة .

وهذا كله راجع إلى معنى قول ابن جُبير .

(157/779)

ويدل عليه : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض ﴾ [الرحمن : 33] على ما بيناه هناك .

والأرجاء النواحي والأقطار بلغة هذيل ، واحدها رَجاً مقصور ، وتثنيته رَجَوان ؛ مثل عَصاً وعَصَوان .

قال الشاعر :

فلا يُرْمَى بِيَ الرَّجَوَان أَنِّي . . .
أَقلُّ القومِ مَن يُغْنِي مكانِي

ويقال ذلك لحرف البئر والقبر .

قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ قال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله .

وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك .

وعن الحسن : الله أعلم كم هم ، ثمانية أم ثمانية آلاف .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية " ذكره الثعلبيّ .

وخَرّجه الماورديّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية " وقال العباس بن عبد الملك : هم ثمانية أملاك على صورة الأوعال .

ورواه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث :

" إن لكل مَلَك منهم أربعة أوجه وجه رجل ووجه أسد ووجه ثَوْر ووجه نَسْر وكلّ وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس " ولما أنشد بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم قول أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت :

رَجُلٌ وثَوْرٌ تحت رِجل يمينه . . .

والنَّسْرُ للآخرى ولَيْثٌ مُرْصَدُ

والشمس تطلع كلّ آخر ليلةٍ . . .

حمراء يُصبح لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ

ليست بطالعة لهم في رِسْلِها . . .

إلاّ مُعَذّبةً وإلاّ تُجْلَدُ

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " صَدَق " في الخبر "أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش" .

ذكره القشيريّ وخرّجه الترمذيّ من حديث العباس بن عبد المطلب .

(158/779)

وقد مضى في سورة "البقرة" بكماله .

وذكر نحوه الثعلبيّ ولَفْظه .

وفي حديث مرفوع : " أن حملة العرش ثمانية أملاك على صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً للطائر المسرع " وفي تفسير الكلبيّ : ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة .

وعنه : ثمانية أجزاء من عشرة أجزاء من الملائكة .

ثم ذكر عدّة الملائكة بما يطول ذكره .

حكى الأوّل عنه الثعلبيّ والثاني القشيريّ .

وقال الماورديّ عن ابن عباس : ثمانية أجزاء من تسعة وهم الكَرُوبِيّون .

والمعنى ينزل بالعرش .

ثم إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت ، وليس البيت للسكنى ، فكذلك العرش .

ومعنى : "فَوْقَهُمْ" أي فوق رؤوسهم .

قال السُّدّيّ : العرش تحمله الملائكة الحملة فوقهم ولا يحمل حملة العرش إلا الله .

وقيل : "فَوْقَهُمْ" أي إن حملة العرش فوق الملائكة الذين في السماء على أرجائها .

وقيل : "فَوْقَهُمْ" أي فوق أهل القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾

أي على الله ؛ دليله : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ [الكهف : 48] وليس ذلك عرضاً يعلم به ما لم يكن عالماً به ، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة .

وروى الحسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُعْرض الناس يومَ القيامة ثلاث عَرْضات فأما عَرْضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذٌ بيمينه وآخذ بشماله " خرجه الترمذيّ قال : ولا يصح مِن قِبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة .

﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي هو عالم بكل شيء من أعمالكم.

ف "خَافِيَةٌ" على هذا بمعنى خَفِيّة، كانوا يخفونها من أعمالهم؛ قاله ابن شجرة.

وقيل: لا يخفى عليه إنسان؛ أي لا يبقى إنسان لا يحاسَب.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا يخفى المؤمن من الكافر ولا البَرُّ من الفاجر.

وقيل: لا تستتر منكم عَوْرَةٌ.

(159/779)

كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يُحْشَر الناس حفاةً عُراةً" وقرأ الكوفيون إلا عاصماً "لاَ يَخْفَى" بالياء؛ لأن تأنيث الخافية غير حقيقي؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود: 67] واختاره أبو عبيد؛ لأنه قد حال بين الفعل وبين الاسم المؤنث الجارُّ والمجرور.

الباقون بالتاء.

واختاره أبو حاتم لتأنيث الخافية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(160/779)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ الحاقة ﴾

أي السَّاعةُ ، أو الحالةُ الثابتةُ الوقوعِ الواجبةُ المجيءِ لا محالةَ ، أو التي يحقُّ فيها الأمورُ الحقةُ من الحسابِ والثوابِ والعقابِ ، أو التي تُحقُّ فيها الأمورُ أي تُعرفُ على الحقيقةِ من حقَّهُ يحقُّه إذا عرفَ حقيقتَهُ ، جُعلَ الفعلُ لها مجازاً وهو لما فيها منَ الأمورِ أو لمَنْ فيها من أُولِي العلمِ وأيًا ما كانَ فحذفُ الموصوفِ للإيذانَ بكمالِ ظهورِ اتصافِهِ بهذِهِ الصفةِ وجريانِهَا مجرى الإسمِ ، وارتفاعُها على الابتداءِ ، خبرُهَا ﴿ مَا الحاقة ﴾ على أنَّ مَا مبتدأٌ ثانٍ ، والحاقَّةُ خبرُهُ ، والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأولِ . والأصلُ ما هيَ أيْ أيُّ شيءٍ هي في حالِهَا وصفَتِهَا فإنَّ مَا قدْ يُطلبُ بها الصفةُ والحالُ ، فوضعُ الظاهرِ موضعَ المضمرِ تأكيداً لهولها . هذا ما ذكرُوهُ في إعرابِ هذه الجملةِ ونظائرِهَا ، وقد سبقَ في سورةِ الواقعةِ أنَّ مُقتضَى التحقيقِ أنْ تكونَ ما الاستفهاميةُ خبراً لما بعدَهَا فإنَّ مناطَ الإفادةِ بيانُ أنَّ الحاقةَ أمرٌ بديعٌ وخَطْبٌ فظيعٌ كما يفيدُهُ كونُ مَا خبراً لا بيانُ أنَّ أمراً بديعاً الحاقةُ كما يفيدُهُ كونُها مبتدأً وكونُ الحاقَّةِ خبراً . وقولُه تعالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أي وأيُّ شيءٍ أعلمكَ ﴿ مَا الحاقة ﴾ تأكيدٌ لهولِهَا وفظاعتِهَا ببيانِ خروجِهَا عن دائرةِ علومِ المخلوقاتِ على مَعْنَى أنَّ عظمَ شأنِهَا ومَدَى هولِهَا وشدَّتِهَا بحيثُ لا تكادُ تبلغُهُ درايةُ أحدٍ ولا وهمُهُ وكيفَما قدرتَ حالَهَا

فهيَ أعظمُ من ذلكَ وأعظمُ فلا يتسنَّى الإعلامُ . ومَا في حيزِ الرفعِ على الابتداءِ ، وأدراكَ خبرُهُ . ولا مساغَ هَهُنَا للعكسِ . ومَا الحاقَّةُ جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ على الوجهِ الذي عرفتَهُ ، محلُّها النصبُ على إسقاطِ الخافضِ لأنَّ أَدْرَى يتعدَّى إلى المفعولِ الثَّانِي بالباءِ كَما في قولِهِ تعالَى : ﴿ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ فلمَّا وقعتْ

(161/779)

جملةُ الاستفهامِ معلّقةً لهُ كانَتْ في موضعِ المفعولِ الثانِي والجملةُ الكبيرةُ معطوفةٌ على ما قبلَهَا من الجملةِ الواقعةِ خبراً لقولِهِ تعالَى : ﴿ الحاقة ﴾ مؤكدةٌ لهولِها كما مرَّ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ أيْ بالحالةِ التي تقرعُ النَّاسَ بفنونِ الأفزاعِ والأهوالِ والسماءَ بالانشقاقِ والانفطارِ ، والأرضَ والجبالَ بالدكِّ والنسفِ ، والنجومَ بالطمسِ والانكدارِ . ووضعُهَا موضعَ ضميرِ الحَاقَّةِ للدلالةِ على مَعْنَى القرعِ فيها تشديداً لهولِهَا ، والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لإعلامِ بعضِ أحوالِ الحَاقَّةِ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إثرَ تقريرِ أنَّه ما أدراهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بها أحدٌ ، كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ ونظائرُهُ خَلا أنَّ المبيّنَ هناكَ نفسُ المسؤولِ عنْهَا وهَهُنَا حالٌ منْ أحوالِهَا ، كَما في قولِهِ تعالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فكمَا أنَّ المبيَّنَ هناكَ ليسَ

نفسَ ليلةِ القدرِ بل فضلَها وشرفَها ، كذلكَ المبيَّنُ ههنا هولُ الحاقةِ وعظمُ شأنِهَا وكونُها بحيثُ يحقُّ إهلاكُ منْ يكذبُ بها كأنَّه قيلَ وما أدراكَ ما الحاقةُ كذبتْ بها ثمودُ وعادٌ فأُهلِكُوا .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾

(162/779)

أي بالواقعةِ المجاوزةِ للحدّ ، وهيَ الصّيحةُ أو الرّاجفةُ ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي شديدةِ الصَّوتِ لها صرصرةٌ ، أو شديدةُ البردِ تحرقُ ببردِهَا ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شديدةِ العصفِ كأنَّها عتتْ على خُزَّانِهَا فلم يتمكنُوا من ضبطِهَا أو على عادٍ فلم يقدرُوا على ردّها . وقولُهُ تعالَى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ الخ استئنافٌ جيءَ بهِ بياناً ليكفيةِ إهلاكِهم بالريحِ أي سلَّطها اللهُ عليهم بقدرتِه القاهرةِ ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانيةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ أي متتابعاتٍ ، جمعُ حاسمٍ كشهودٍ جمعُ شاهدٍ من حسمتُ الدابةُ إذا تابعتُ بين كيّها أو نحساتٌ حسمتْ كلَّ خيرٍ واستأصلتهُ أو قاطعاتٌ قطعتْ دابرَهُم ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدراً منتصباً على العلةِ بمعنى قطعاً أو عَلى المصدرِ لفعلِهِ المقدرِ حالاً أي تحسمُهُم حُسوماً ، ويؤيدُه القراءةُ بالفتحِ . وهيَ كانتْ أيامَ العجوزِ من صبيحةِ أربعاءَ إلى غروبِ

الأربعاءِ الآخرِ ، وإنَّما سُمّيتْ عجُوزاً لأنَّ عجُوزاً من عادٍ توارتْ في سِرْبٍ فانتزعتْهَا الريحُ في اليومِ الثامنِ فأهلكَتْهَا ، وقيلَ هي أيامُ العجزِ وهيَ آخرُ الشتاءِ وأسماؤُها الصِنُّ والصِّنَّبرُ والوبرُ والآمرُ والمؤتمرُ والمعللُ ومطفىءُ الجَمْرِ وقيلَ ومُكفىءُ الظعنِ . ﴿ فَتَرَى القوم ﴾ إنْ كنتَ حاضراً حينئذٍ ﴿ فِيهَا ﴾ في مهابِّها أو في تلكَ الليالِي والأيامِ ﴿ صرعى ﴾ مَوْتَى جمعُ صريعٍ ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أي أصولُ نخلٍ ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ متآكلةِ الأجوافِ .

(163/779)

﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي بقيةٍ أو نفسٍ باقيةٍ أو بقاءٍ على أنَّها مصدرٌ كالكاذبةِ والطاغيةِ . ﴿ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ أيْ ومَنْ تقدَّمَهُ . وقُرِىءَ ومَنْ قبلَهُ أيْ ومَنْ عندَهُ من أتباعِهِ ، ويؤيدُهُ أنَّه قُرِىءَ ومَنْ مَعَهُ ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي قُرِىءَ قومِ لوطٍ أي أهلُهَا ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالخطإِ أو بالفعلةِ أو الأفعالِ ذاتِ الخطإِ التي من جُمْلتِهَا تكذيبُ البعثِ والقيامةِ .

(164/779)

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي فعَصَى كلُّ أُمَّةٍ رسولَهَا حينَ نَهَوهُم عمَّا كانُوا يتعاطونَهُ من القبائحِ ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ أي اللهُ عزَّ وجَلَّ ﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي زائدةً في الشدةِ كما زادتْ قبائحُهُم في القبحِ من ربَا الشيءُ إذا زادَ . ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء ﴾ بسببِ إصرارِ قومِ نوحٍ على فنونِ الكفرِ والمعاصِي ومبالغتِهم في تكذيبِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما أوحَى إليهِ من الأحكامِ التي من جُمْلَتِهَا أحوالُ القيامةِ . ﴿ حملناكم ﴾ أي في أصلابِ أبائِكُم ﴿ فِى الجارية ﴾ في سفينةِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ والمرادُ بحملِهم فيها رفعُهُم فوقَ الماءِ إلى انقضاءِ أيامِ الطُّوفانِ ، لا مجردُ رفعِهم إلى السفينةِ كما يُعربُ عنهُ كلمةُ في فإنَّها ليستْ بصلةٍ للحملِ بلْ متعلقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من مفعولِهِ أي رفعناكُم فوقَ الماءِ وحفظناكُم حالَ كونِكُم في السفينةِ الجاريةِ بأمرِنَا وحفظِنَا ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مدارَ نجاتِهم محضُ عصمتِهِ تعالى إنَّما السفينةُ سببٌ صُوريٌّ ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي لنجعلَ الفعلةَ التي هي عبارةٌ عن إنجاءِ المؤمنينَ وإغراقِ الكافرينَ . ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عبرةً ودلالةً على كمالِ قُدرةِ الصَّانعِ وحكمتِهِ وقوةِ قهرِهِ وسعةِ رحمتِهِ ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ أي تحفظُهَا والوعيُ أنْ تحفظَ الشيءَ في نفسِكَ والإيعاءُ أن تحفظَهُ في غيرِ نفسِكَ من وعاءٍ وقُرِىءَ تَعْيها بسكونِ العينِ تشبيهاً له بكتفٍ . ﴿ أُذُنٌ واعية ﴾ أي أذنٌ من شأنِهَا أنْ تحفظَ ما يجبُ حفظُهُ بتذكرِهِ وإشاعتِهِ والتفكرِ فيهِ ولا تضيعُهُ بتركِ العملِ بهِ . والتنكيرُ للدلالةِ على قلَّتِهَا وأنَّ مَن هَذا شأنُه مَع قلتِهِ يتسببُ لنجاةِ

الجمّ الغفيرِ وإدامةِ نسلِهم . وقُرِىءَ أُذْنٌ بالتخفيفِ . ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾ شروعٌ في بيانِ نفسِ الحاقَّةِ وكيفيةِ وقوعِهَا

(165/779)

إثرَ بيانِ عظمِ شأنِهَا بإهلاكِ مكذبيها ، وإنَّما حسُنَ إسنادُ الفعلِ إلى المصدرِ لتقييدِه وحسُنَ تذكيرُهُ للفصلِ . وقُرِىءَ نفخةً واحدةً بالنصبِ على إسنادِ الفعلِ إلى الجارِّ والمجرورِ ، والمرادُ بها النفخةُ الأُولى التي عندَهَا خرابُ العالمِ . ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ أي وقُلعتْ ورُفعتْ من أماكنِهَا بمجردِ القدرةِ الإلهيةِ أوبتوسطِ الزلزلةِ أو الريحِ العاصفةِ . ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ أيْ فضُربتْ الجملتانِ إثرَ رفعِهمَا بعضِهَا ببعضٍ ضربةً واحدةً حتى تندقَّ وترجعَ كثيباً مهيلاً وهباءً منبثاً ، وقيل فبُسطتا بسطةً واحدةً فصارتَا قاعاً صفصفاً لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً من قولِهم اندكَّ السنامُ إذا تفرشَ وبعيرٌ أدكُّ وناقةٌ دكاءُ ومنهُ الدكانُ . ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ فحينئذٍ ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قامتِ القيامةُ . ﴿ وانشقت السماء ﴾ لنزولِ الملائكةِ ﴿ فَهِىَ ﴾ أي السماءُ ﴿ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفةٌ مسترخيةٌ بعدَمَا كانَتْ محكمةً ﴿ والملك ﴾ أي الخلقُ المعروفُ بالملكِ ﴿ على

أَرْجَائِهَا ﴾ أي جوانِبِهَا جمعُ رَجَا بالقصرِ أي تنشقُّ السماءُ التي هيَ مساكنُهُم فيلجأونَ إلى أكنافِهَا وحافاتِهَا .

(166/779)

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ فوقَ الملائكةِ الذينَ هُم على الأرجاءِ أو فوقَ الثمانيةِ ﴿ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ من الملائكةِ عن النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هُم اليومَ أربعةٌ فإذا كانَ يومُ القيامةِ أيدهُم اللهُ تعالَى بأربعةٍ آخرينَ فيكونونَ ثمانيةً . ورُوِيَ ثمانيةُ أملاكٍ أرجلُهُم في تخومِ الأرضِ السابعةِ والعرشُ فوقَ رؤوسِهِم وهم مُطرقونَ مسبحونَ . وقيل : بعضُهُم على صورةِ الإنسانِ وبعضُهُم على صورةِ الثورِ وبعضُهُم على صورةِ النسرِ . ورُوِيَ ثمانيةُ أملاكٍ في خَلَقْ الأوعالِ ما بينَ أظلافِهَا إلى رُكبِهَا مسيرةُ سبعينَ عاماً . وعن شَهْرِ بنِ حَوشبٍ أربعةٌ منهُم يقولونَ : سبحانك اللهمَّ وبحمدِك لكَ الحمدُ على عفوِك بعد قدرَتِكَ ، وأربعة يقولونَ سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِك لكَ الحمدُ على حلمِك بعد علمِك . وعنِ الحسنِ اللهُ أعلمُ أثمانيةٌ أم ثمانيةُ آلافٍ وعن الضحَّاكِ ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلمُ عددَهُم إلا اللهُ تعالَى . ويجوزُ أنْ يكونَ الثمانيةُ من الروحِ أو من خلقٍ آخرَ . وقيلَ : هو تمثيلٌ لعظمتِهِ تعالَى بما يشاهدُ من أحوالِ السلاطينِ يومَ خروجِهِم على الناسِ للقضاءِ العامِ لكونِهَا أَقْصَى ما يتصورُ من العظمةِ

والجلالِ وإلا فشؤونُهُ سبحانَهُ أجلُّ من كلِّ ما يحيطُ بِهِ فَلَكُ العبارةِ والإشارةِ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أي تُسألونَ وتُحاسبونَ ، عبّر عنهُ بذلكَ تشبيهاً لهُ بعرضِ السلطانِ العسكرَ لتعرّفِ أحوالِهم . رُوِيَ أنَّ في يومِ القيامةِ ثلاثَ عرضاتٍ فأما عرضتانِ فاعتذارٌ واحتجاجٌ وتوبيخٌ وأما الثالثةُ ففيها تنشرُ الكتبُ فيأخذُ الفائزُ كتابَهُ بيمينِهِ والهالكُ بشمالِهِ ، وهذا وإنْ كانَ بعدَ النفخةِ الثانيةِ لكنْ لما كانَ اليومُ إسماً لزمانٍ متسعٍ . يقعُ فيهِ النفختانِ والصعقةُ والنشورُ والحسابُ وإدخالُ أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ . صحَّ جعلُهُ ظرفاً

(167/779)

للكُلِّ ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ حالٌ من مرفوعِ تُعرضونَ أي تُعرضونَ غيرَ خافٍ عليهِ تعالَى سرٌّ من أسرارِكُم قبلَ ذلكَ أيضاً وإنَّما العرضُ لإفشاءِ الحالِ والمبالغةِ في العدلِ ، أو غيرِ خافٍ يومئذٍ على الناسِ كقولِهِ تعالَى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ وقُرِئَ يَخْفى بالياءِ التحتانيةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(168/779)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾

شروع بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها والمراد بالنفخة الواحدة النفخة الأولى التي عندها خراب العالم كما قال ابن عباس وقال ابن المسيب ومقاتل هي النفخة الآخرة والأول أولى لأنه المناسب لما بعد وإن كانت الواو لا تدل على الترتيب لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة إليه والنفخة قال جار الله في حواشي كشافه المرة ودلالتها على النفخ اتفاقية غير مقصودة وحدوث الأمر العظيم بها وعلى عقبها إنما استعظم من حيث وقوع النفخ مرة واحدة لا من حيث أنه نفخ فنبه على ذلك بقوله سبحانه واحدة وعن ابن الحاجب أن نفخة لم يوضع للدلالة على الوحدة على حيالها وإنما وضع للدلالة على النفخ والدلالة على الوحدة اتفاقية غير مقصودة وتعقب بأن هذا بعد التسليم لا يضر لأن الكلام في مقتضى المقام لا أصل الوضع وقد تقرر أن الذي سيق له الكلام يجعل معتمداً حتى كان غيره مطروح فالمرة هي المعتمدة نظراً للمقام دون النفخ نفسه وإن كان النظر إلى ظاهر اللفظ يقتضي العكس فافهم وأياً ما كان فإسناد الفعل إلى نفخة ليس من إسناد الفعل إلى المصدر المؤكد كضرب ضرب وإن لم يلاحظ ما بعده من قوله سبحانه واحدة وحسن تذكير الفعل للفصل وكون المرفوع غير حقيقي التأنيث وكونه مصدراً فقد ذكر الجاربردي في "شرح الشافية" أن تأنيثه غير معتبر لتأويله بأن والفعل

والمشهور أن واحدة صفة مؤكدة وأطلق عليها بعضهم التوكيد وبعضهم البيان وذكر الطيبي أن التوابع كالبدل وعطف البيان والصفة بيان من وجه للمتبوع عند أرباب المعاني وتمام الكلام في ذلك في المطول وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بنصبهما على إقامة الجار والمجرور مقام الفاعل .

(169/779)

﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ رفعتا من أحيازهما بمجرد القدرة الإلهية من غير واسطة مخلوق أو بتوسط نحو ريح أو ملك قيل أو بتوسط الزلزلة أي بأن يكون لها مدخل في الرفع لا أنها رافعة لهما حاملة إياهما ليقال إنها ليس فيها حمل وإنما هي اضطراب وقيل يجوز أن يخلق الله تعالى من الأجرام العلوية ما فيه قوة جذب الجبال ورفعها عن أماكنها أو أن يكون في الأجرام الموجودة اليوم ما فيه قوة ذلك إلا أن في البين مانعاً من الجذب والرفع وأنه يزول بعد فيحصل الرفع وكذا يجوز أن يعتبر مثل ذلك بالنسبة إلى الأرض وأن تكون قوتا الجاذبين مختلفتين فإذا حصل رفع كل إلى غاية يريدها الله تعالى حدث في ذلك الجاذب ما لم يبق معه ذلك الجذب من زوال مسامته ونحوه وحصل بين الجبال والأرض ما يوجب التصادم ويجوز أيضاً أن يحدث في الأرض من القوى ما يوجب قذفها للجبال ويحدث للأرض نفسها ما

يوجب رفعها عن حيزها وكون القوى منها ما هو متنافر ومنها ما هو متحاب مما لا يكاد ينكر وقيل يمكن أن يكون رفعهما بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب على ما قيل فيها جديداً للأرض فتنفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة ورفع الأرض من حيزها ولا يخفى أن كل هذا على ما فيه لا يحتاج إليه ويكفينا القول بأن الرفع بالقدرة الإلهية التي لا يتعاصاها شيء وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم والأعمش وابن عامر في رواية يحيى وحملت بتشديد الميم وحمل على التكثير وجوز أن يكون تضعيفاً للنقل فيكون الأرض والجبال المفعول الأول أقيم مقام الفاعل والمفعول الثاني محذوف أي قدرة أو ريحاً أو ملائكة أو يكون المفعول الثاني أقيم مقام الفاعل والأول محذوف وهو أحد المذكورات ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ فضربت الجملتان إثر رفعهما بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تفتت وترجع كما قال سبحانه ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل : 14] وقيل تتفرق أجزاؤها كما قال سبحانه ﴿ هباء منبثاً ﴾ [الواقعة : 6] وفرقوا بين الدك والدق

(170/779)

بان في الأول تفرق الأجزاء وفي الثاني اختلافها وقال بعض الأجلة أصل الدك الضرب على ما ارتفع لينخفض ويلزمه التسوية غالباً فلذا شاع فيها حتى صار حقيقة ومنه أرض دكاء

للمتسعة المستوية وبعيراً دك وناقة دكاء إذا ضعفا فلم يرتفع سناماهما واستوت خدجتهما مع ظهريهما فالمراد ههنا فبسطتا بسطة واحدة وسويتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ولعل التفتت مقدمة للتسوية أيضاً وقال الراغب الدك الأرض اللينة السهلة وقوله تعالى فدكتا أي جعلتا بمنزلة الأرض اللينة وهذا أيضاً يرجع إلى التسوية كما لا يخفى وحكى في "مجمع البيان" أنهما إذا دكتا تتفتت الجبال وتنسفها الريح وتبقى الأرض مستوية وثنى الضمير لإرادة الجملتين كما أشرنا إليه .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي فحينئذ على أن المراد باليوم مطلق الوقت وهو ههنا متسع يقع فيه ما يقع والتنوين عوض عن المضاف إليه أي فيوم إذ نفخ في الصور وكان كيت وكيت ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قامت القيامة وتفسير الواقعة بصخرة بيت المقدس واقع عن درجة القبول .

﴿ وانشقت السماء ﴾ تفطرت وتميز بعضها عن بعض ولعله إشارة إلى ما تضمنه قوله تعالى ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان : 25] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال ذلك قوله تعالى : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] ولا منافاة بينهما وكذا لا منافاة بين كون الانشقاق لنزول الملائكة وكونه لهول يوم القيامة لأن الأمر قد يكون له علل شتى مثل هذه العلل والمراد بالسماء جنسها وقيل السموات السبع وأيما كان فلا يشترط لصحة الانشقاق كونها أجساماً صلبة إذ يتصف بنحو ذلك ما ليس بصلب أيضاً فقد وصف البحر بالانفلاق ﴿ فَهِيَ ﴾ أي السماء ﴿

يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة من وهي الشيء ضعف وتداعى للسقوط وقال ابن شجرة من قولهم وهي السقاء إذا انخرق ومن أمثالهم قول الراجز

: خل سبيل من وهي سقاؤه . . .

ومن هريق بالفلاة ماؤه

(171/779)

﴿ والملك ﴾ أي الجنس المتعارف بالملك وهو أعم من الملائكة عند الزمخشري وجماعة وقد ذكره الجوهري أيضاً وقال أبو حيان الملك اسم جنس يراد به الملائكة ولا يظهر أنه أعم من الملائكة وتحقيق هذا المقام بما لا مزيد عليه في "شرح التلخيص" للعلامة الثاني وحواشيه فارجع إن أردت إليه ﴿ على أَرْجَائِهَا ﴾ أي جوانبها جمع رجى بالقصر وهو من ذوات الواو ولذا برزت في التثنية قال الشاعر

: كأن لم ترى قبلي أسيراً مقيدا . . .

ولا رجلاً يرمى به الرجوان

(172/779)

والضمير للسماء والمراد بجوانبها أطرافها التي لم تنشق أخرج ابن المنذر عن ابن جبير والضحاك قال إنهما قالا والملك على أرجائها أي على ما لم ينشق منها ولعل ذلك التجاء منهم للأطراف مما داخلهم من ملاحظة عظمة الله عز وجل أو اجتماع هناك للنزول وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن الربيع بن أنس قال والملك على أرجائها أي الملائكة على شقها ينظرون إلى شق الأرض وما أتاهم من الفزع والأول أظهر ولعل هذا الانشقاق بعد موت الملائكة عند النفخة الأولى وإحيائهم وهم يحيون قبل الناس كما تقتضيه الأخبار ويجوز أن يكون ذلك بعد النفخة الثانية والناس في المحشر ففي بعض الآثار ما يشعر بانشقاق كل سماء يومئذ ونزول ملائكتها واليوم متسع كما أشرنا إليه وقال الإمام يحتمل أنهم يقفون على الأرجاء لحظة ثم يموتون ويحتمل أن يكون المراد بهم الذين استثناهم الله تعالى في قوله سبحانه ﴿ إلا من شاء الله ﴾ [الزمر : 68] وعلى الوجهين ينحل ما يقال الملائكة يموتون في الصعقة الأولى لقوله تعالى ﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ [الزمر : 68] فكيف يقال إنهم يقفون على أرجاء السماء وفي "أنوار التنزيل" لعل قوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء ﴾ [الحاقة : 16] الخ تمثيل لخراب العالم بخراب المبنيات وانضواء أهلها إلى أطرافها وإن كان على ظاهره فلعل موت الملائكة إثر ذلك انتهى وأنا لا أقول باحتمال التمثيل وفي "البحر" عن ابن جبير والضحاك أن ضمير أرجائها للأرض وإن بعد ذكرها قالا

إنهم ينزلون إليها يحفظون أطرافها كما روى أن الله تعالى يأمر ملائكة السماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ثم ملائكة الثانية فيصفون حولهم ثم ملائكة كل سماء فكلما ند أحد من الجن والإنس وجد الأرض أحيط بها ولعل ما نقلناه عنهما أولى بالاعتماد ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ أي فوق الملائكة الذين على الأرجاء المدلول عليهم بالملك وقيل فوق العالم كلهم وقيل الضمير يعود

(173/779)

على الملائكة الحاملين أي يحمل عرش ربك فوق ظهورهم أو رؤسهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ والمرجع وإن تأخر لفظاً لكنه متقدم رتبة وفائدة فوقهم الدلالة على أنه ليس محمولاً بأيديهم كالمعلق مثلاً وأيد هذا واعتبار الظهور بما أخرج الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن العباس بن عبد المطلب في حديث وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن ووركهن ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء والمراد بالأوعال فيه ملائكة على صورة الأوعال كما قال ابن الأثير وغيره وهي جمع وعل بكسر العين تيس الجبل واستدل به على أن المراد ثمانية أشخاص والأخبار الدالة على ذلك كثيرة إلا أن فيها تدافعاً من حيث دلالة بعضها على أن بعضهم على صورة الإنسان وبعضهم على

صورة الأسد وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر ودلالة بعض آخر على أن لكل واحد منهم أربعة أوجه وجه ثور ووجه نسر ووجه أسد ووجه إنسان وفيه لكل واحد منهم أربعة أجنحة أما جناحان فعلى وجهه مخافة من أن ينظر إلى العرش فيصعق وأما جناحان فيطير بهما وأبو حيان لم يقل بصحة شيء من ذلك حيث قال ذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً وأخرج عبد بن حميد عن ابن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية وأخرج عنه ابن أبي حاتم أنه لم يسم من حملة العرش إلا إسرافيل عليه السلام قال وميكائيل عليه السلام ليس من حملة العرش وعليه فمن زعم أنهما وجبرائيل وعزرائيل عليهم السلام من جملة حملته يلزمه إثبات ذلك بخبر يعول عليه وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وفي خبر عن وهب بن منبه ليس لهم كلام إلا قولهم قدسوا الله القوي الذي ملأت عظمته السموات وأكثر الأخبار في هذا الباب لا يعول عليه وأخرج

عبد بن حميد عن الضحاك أنه قال يقال ثمانية صفوف لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل وأخرج هذا القول ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس وقال الحسن الله تعالى أعلم كم هم أثمانية أصناف أم ثمانية أشخاص وأنت تعلم أن الظاهر المؤيد ببعض الأخبار المصححة أنهم ثمانية أشخاص وأياً كان فالظاهر أن هناك حملاً على الحقيقة وإليه ذهب محيي الدين قدس سره قال إن لله تعالى ملائكة يحملون العرش الذي هو السرير على كواهلهم هم اليوم أربعة وغداً يكونون ثمانية لأجل الحمل على أرض المحشر وله قدس سره في الباب الثالث عشر من فتوحاته كلام واسع في حملة العرش لا سيما إلى تفسيره بالملك فليرجع إليه من اتسع كرسي ذهنه لفهم كلامه وجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لعظمته عز وجل بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام فالمراد تجليه عز وجل بصفة العظمة وجعل العرض في قوله تعالى :

(175/779)

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ مجازاً عن الحساب والمراد يومئذ تحاسبون لكنه شبه ذلك بعرض السلطان العسكر ليعرف أحوالهم فعبر عنه به وأخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله والجملة المعوض عنها التنوين على ما يدل عليه كلامهم ﴿ نفخ في الصور ﴾ [الحاقة : 13] وجعل يومئذ تعرضون بدلاً من ﴿ فيومئذ ﴾ [الحاقة : 15] الخ وقد سمعت أن الزمان متسع لجميع ما ذكر وغيره وقوله تعالى : ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ حال من مرفوع تعرضون أي تعرضون غير خاف عليه عز وجل سر من أسراركم قبل ذلك أيضاً وإنما العرض لإفشاء الحال وإقامة الحجة والمبالغة في العدل أو غير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش وابن مقسم عن عاصم وغيرهم لا يخفى بالياء التحتانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(176/779)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ الحاقة ﴾

هي : القيامة ؛ لأن الأمر يحق فيها ، وهي تحق في نفسها من غير شك .

قال الأزهري : يقال : حاققته ، فحققته أحقه : غالبته فغلبته أغلبه .

فالقيامة حاقة ؛ لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل ، وتخصم كل مخاصم .

وقال في الصحاح : حاقه أي : خاصمه في صغار الأشياء ، ويقال : ماله فيها حقّ ولا حقاق ولا خصومة ، والتحاقّ : التخاصم ، والحاقة والحقة والحقّ ثلاث لغات بمعنى .

قال الواحدي : هي القيامة في قول كل المفسرين ، وسميت بذلك لأنها ذات الحواقّ من الأمور ، وهي الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

قال الكسائي ، والمؤرج : الحاقة يوم الحق ، وقيل : سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل : سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وهي مبتدأ ، وخبرها قوله : ﴿ مَا الحاقة ﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان ، وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والمعنى : أيّ شيء هي في حالها أو صفاتها ، وقيل : إن ما الاستفهامية خبر لما بعدها ، وهذه الجملة ، وإن كان لفظها لفظ الاستفهام ، فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقول : زيد ما زيد ، وقد قدّمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة .

ثم زاد سبحانه في تفخيم أمرها وتفظيع شأنها وتهويل حالها ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ أي : أيّ شيء أعلمك ما هي ؟ أي : كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وتشاهد

ما فيها من الأهوال ، فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين .

قال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن وما أدراك ، فقد أدراه إياه وعلمه ، وكلّ شيء قال فيه : وما يدريك ، فإنه أخبره به .

(177/779)

وما مبتدأ ، وخبره أدراك ، و ﴿ ما الحاقة ﴾ جملة من مبتدأ ، وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض ؛ لأن أدري يتعدّى إلى المفعول الثاني بالباء ، كما في قوله : ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 16] فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني ، وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا ، وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين ، وجملة ، وما أدراك معطوفة على جملة : ﴿ ما الحاقة ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ أي : بالقيامة ، وسميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها .

وقال المبرّد : عنى بالقارعة القرآن الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوّفونهم بذلك فيكذبونهم .

وقيل : القارعة مأخوذة من القرعة ؛ لأنها ترفع أقواماً وتحط آخرين ، والأوّل أولى ، ويكون

وضع القارعة موضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ ثمود : هم قوم صالح ، وقد تقدّم بيان هذا في غير موضع ، وبيان منازلهم ، وأين كانت ، والطاغية الصيحة التي جاوزت الحدّ ، وقيل : بطغيانهم وكفرهم ، واصل الطغيان مجاوزة الحدّ .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ عاد : هم قوم هود ، وقد تقدّم بيان هذا ، وذكر منازلهم ، وأين كانت في غير موضع ، والريح الصرصر هي الشديدة البرد ، مأخوذ من الصرّ ، وهو البرد .

وقيل : هي الشديدة الصوت .

وقال مجاهد : الشديدة السموم ، والعاتية التي عتت عن الطاعة ، فكأنها عتت على خزانها ، فلم تطعهم ولم يقدروا على ردّها لشدّة هبوبها ، أو عتت على عاد ، فلم يقدروا على ردّها بل أهلكتهم .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ومعنى ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ سلطها ، كذا قال مقاتل ، وقيل : أرسلها .

وقال الزجاج: أقامها عليهم كما شاء، والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة لريح، وأن تكون حالاً منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في عاتية ﴿ وثمانية أَيَّامٍ ﴾ معطوف على ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾، وانتصاب ﴿ حُسُوماً ﴾ على الحال أي: ذات حسوم، أو على المصدر بفعل مقدّر أي: تحسمهم حسوماً، أو على أنه مفعول به، والحسوم التتابع، فإذا تتابع الشيء ولم ينقطع أوّله عن آخره قيل له الحسوم.

قال الزجاج: الذي توجبه اللغة في معنى قوله ﴿ حُسُوماً ﴾ أي: تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم.

قال النضر بن شميل: حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم.

وقال الفراء: الحسوم الاتباع من حسم الداء، وهو الكيّ؛ لأن صاحبه يكوى بالمكواة ثم يتابع ذلك عليه، ومنه قول أبي دؤاد:

يفرق بينهم زمن طويل . . . تتابع فيه أعواماً حسوماً

وقال المبرّد: هو من قولك حسمت الشيء: إذا قطعته وفصلته عن غيره.

وقيل: الحسم الاستئصال، ويقال للسيف: حسام، لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته، والمعنى: أنها حسمتهم، أو قطعتهم وأذهبتهم، ومنه قول الشاعر:

فأرسلت ريحاً دبوراً عقيما . . . فدارت عليهم فكانت حسوما

قال ابن زيد : أي : حسمتهم فلم تبق منهم أحداً .

وروي عنه أنه قال : حسمت الأيام والليالي حتى استوفتها ؛ لأنها بدأت بطلوع الشمس من أوّل يوم ، وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم .

وقال الليث : الحسوم هي الشؤم أي : تحسم الخير عن أهلها ، كقوله : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] .

واختلف في أوّلها .

فقيل : غداة الأحد .

وقيل : غداة الجمعة .

وقيل : غداة الأربعاء .

(179/779)

قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز ، كان فيها برد شديد وريح شديدة ، وكان أوّلها يوم الأربعاء ، وآخرها يوم الأربعاء ﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى ﴾ الخطاب لكلّ من يصلح له على تقدير أنه لو كان حاضراً حينئذٍ لرأى ذلك ، والضمير في : ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الليالي والأيام .

وقيل : إلى مهاب الريح ، والأوّل أولى .

وصرعى جمع صريع يعني : موتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي : أصول نخل ساقطة أو بالية .

وقيل : خالية لا جوف فيها ، والنخل يذكر ويؤنث ، ومثله قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾

[القمر : 20] وقد تقدّم تفسيره ، وهو إخبار عن عظم أجسامهم .

قال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية ؛ لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي : من فرقة باقية ، أو من نفس باقية ، أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية .

قال ابن جريج : أقاموا سبع ليالٍ وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح ، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ أي : من الأمم الكافرة .

قرأ الجمهور : ﴿ قبله ﴾ بفتح القاف وسكون الباء أي : ومن تقدّمه من القرون الماضية والأمم الخالية ، وقرأ أبو عمرو ، والكسائي بكسر القاف وفتح الباء أي : ومن هو في جهته من أتباعه ، واختار أبو حاتم ، وأبو عبيد القراءة الثانية لقراءة ابن مسعود وأبيّ ومن معه ، ولقراءة أبي موسى ومن يلقاه ﴿ والمؤتفكات ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ المؤتفكات ﴾ بالجمع ،

وهي قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن ، والجحدري : " المؤتفكة " بالإفراد ، واللام للجنس ، فهي في معنى الجمع ، والمعنى : وجاءت المؤتفكات ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي : بالفعلة الخاطئة ، أو الخطأ على أنها مصدر .

والمراد : أنها جاءت بالشرك والمعاصي .

(180/779)

قال مجاهد : بالخطايا ، وقال الجرجاني : بالخطأ العظيم : ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : فعصت كلّ أمة رسولها المرسل إليها .

قال الكلبي : هو موسى ، وقيل : لوط لأنه أقرب ، قيل : ورسول هنا بمعنى رسالة ، ومنه قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم . . . بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أي : برسالة ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي : أخذهم الله أخذة نامية زائدة على أخذات الأمم ، والمعنى : أنها بالغة في الشدّة إلى الغاية ، يقال : ربى الشيء يربو : إذا زاد وتضاعف .

قال الزجاج : تزيد على الأخذات .

قال مجاهد : شديدة : ﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ أي : تجاوز حدّه في الارتفاع والعلوّ ، وذلك في زمن نوح لما أصرّ قومه على الكفر وكذبوه .

وقيل : طغى على خزانه من الملائكة غضباً لربه ، فلم يقدروا على حبسه .

قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً ﴿ حملناكم فِى الجارية ﴾ أي : في أصلاب آبائكم ، أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليباً للمخاطبين على الغائبين .

والجارية سفينة نوح ، وسميت جارية لأنها تجري في الماء ، ومحل ﴿ في الجارية ﴾ النصب على الحال أي : رفعناكم فوق الماء حال كونكم في السفينة ، ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم ، وذكر ما حلّ بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول قال : ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أي : لنجعل هذه الأمور المذكورة لكم يا أمة محمد عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه ، أو لنجعل هذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين لكم تذكرة ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ أي : تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت .

قال الزجاج : يقال : أوعيت كذا أي : حفظته في نفسي أعيه وعياً ، ووعيت العلم ، ووعيت ما قلته كله بمعنى ، وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك : أوعيته بالألف ، ولما حفظته في نفسك وعيته بغير ألف .

قال قتادة في تفسير الآية : أذن سمعت وعقلت ما سمعت .

قال الفراء : المعنى : لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد .

قرأ الجمهور : ﴿ تعيها ﴾ بكسر العين .

وقرأ طلحة بن مصرّف ، وحميد الأعرج ، وأبو عمرو في رواية عنه بإسكان العين تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك .

قال الرازي : وروي عن ابن كثير إسكان العين ، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة كلمة واحدة ، فخفف وأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من فخذ وكبد وكتف .

انتهى .

والأولى أن يكون هذا من باب إجراء الوصل مجرى الوقف ، كما في قراءة من قرأ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [الأنعام : 109] بسكون الراء .

قال القرطبي : واختلفت القراءة فيها عن عاصم ، وابن كثير : يعني : تعيها .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾ هذا شروع في بيان الحاقة ، وكيف وقوعها بعد بيان شأنها بإهلاك المكذبين .

قال عطاء : يريد النفخة الأولى .

وقال الكلبي ، ومقاتل يريد النفخة الأخيرة .

قرأ الجمهور : ﴿ نفخة واحدة ﴾ بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة ، وواحدة تأكيد لها ، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل .

وقرأ أبو السماك بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور .

قال الزجاج : قوله : ﴿ فِى الصور ﴾ يقوم مقام ما لم يسمّ فاعله ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ أي : رفعت من أماكنها وقلعت عن مقارّها بالقدرة الإلهية .

قرأ الجمهور : ﴿ حملت ﴾ بتخفيف الميم .

وقرأ الأعمش ، وابن أبي عبلة ، وابن مقسم ، وابن عامر في رواية عنه بتشديدها للتكثير أو للتعدية ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ أي : فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها ، أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيباً مهيلاً وهباءً منبثاً .

قال الفراء : ولم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ أَنَّ السموات والأرض كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : 30] .

(182/779)

وقيل : دكتا بسطتا بسطة واحدة ، ومنه اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي : قامت القيامة .

﴿ وانشقت السماء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ أي : انشقت بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية .

قال الزجاج : يقال لكل ما ضعف جدّاً : قد وهي فهو واهٍ ، وقال الفرّاء : وهيها تشققها .

﴿ والملك على أَرْجَائِهَا ﴾ أي : جنس الملك على أطرافها وجوانبها ، وهي جمع رجى مقصور ، وتثنيته رجوان مثل قفا وقفوان ، والمعنى : أنها لما تشققت السماء ، وهي مساكنهم لجئوا إلى أطرافها .

قال الضحاك : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض ويحيطون بالأرض ومن عليها .

وقال سعيد بن جبير : المعنى ، والملك على حافات الدنيا أي : ينزلون إلى الأرض ، وقيل : إذا صارت السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ أي : يحمله فوق رءوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك .

وقيل : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلاّ الله عزّ وجلّ .

وقيل : ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة ، قاله الكلبي وغيره .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أي : تعرض العباد على الله لحسابهم ، ومثله ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف : 48] وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالماً

به وإنما عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال ، وجملة : ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير تعرضون ، أي : تعرضون حال كونه لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم خافية كائنة ما كانت ، والتقدير : أيّ نفس خافية أو فعلة خافية .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ الحاقة ﴾ من أسماء القيامة .

(183/779)

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عنه قال : ما أرسل الله شيئًا من ريح إلاّ بمكيال ، ولا قطرة من ماء إلاّ بمكيال إلاّ يوم نوح ويوم عاد .

فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه ، فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثم قرأ : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن عليّ بن أبي طالب نحوه .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عباس ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال

: " نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر مرفوعاً : " قال ما أمر الخزّان على عاد إلاّ مثل موضع الخاتم من الريح ، فعتت على الخزّان ، فخرجت من نواحي الأبواب " ، فذلك قوله : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ قال : " عتوّها عتت على الخزّان " .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ قال : الغالبة .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ حُسُوماً ﴾ قال : متتابعات .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ حُسُوماً ﴾ قال : تباعاً ، وفي لفظ : متتابعات .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ قال : هي أصولها ، وفي قوله : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ قال : خربة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ قال : طغى على خزانه فنزل ، ولم ينزل من السماء ماء إلاّ بمكيال ، أو ميزان إلاّ زمن نوح ، فإنه طغى على خزانه فنزل بغير كيل ولا وزن .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ " فقال عليّ : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فنسيته .

قال ابن كثير : وهو حديث مرسل .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والواحدي ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، وابن النجار عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعي ، وحقّ لك أن تعي ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ فأنت أذن واعيةً ، يا عليّ " قال ابن كثير : ولا يصح .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عمر في قوله : ﴿ أُذُنٌ واعية ﴾ قال : أذن عقلت عن الله .

وأخرج الحاكم ، والبيهقي في البعث عن أبي بن كعب في قوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ قال : تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك

قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40 41] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ قال : متخرقة .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ والملك على أَرْجَائِهَا ﴾ قال : على حافاتها على ما لم يهيء منها .

وأخرج عبد بن حميد ، وعثمان بن سعيد الدارمي في الردّ على الجهمية ، وأبو يعلى ، وابن المنذر ، وابن خزيمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب في (تالي التلخيص) عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال .

(185/779)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً من طرق في الآية قال : يقال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلاّ الله ، ويقال : ثمانية أملاك رءوسهم عند العرش في السماء السابعة ، وأقدامهم في الأرض السفلى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ، ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه

عن أبي موسى قال : قال رسول الله : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " وأخرج ابن جرير ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 278 . 283 ﴾

(186/779)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) ﴾

الفاء لتفريع ما بعدها على التهويل الذي صُدرت به السورة من قوله : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقّة ﴾ [الحاقة : 13] فعلم أنه تهويل لأمر العذاب الذي هُدد به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا .

ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم ، فلما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد ، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعثِ وهي الواقعة .

و﴿ الصور ﴾ : قرن ثَوْر يقعر ويجعل في داخله سِداد يسُد بعض فراغه حتى إذا نفَخ فيه

نافخ انضغط الهواء فصوّت صوتاً قوياً ، وكانت الجنود تتخذه لنداء بعضهم بعضاً عند إرادة النفير أو الهجوم ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وله المُلْك يوم ينفخ في الصور ﴾ في سورة الأنعام (73) .

والنفخ في الصور : عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث مُثِّل الإِحياء بنداء طائفة الجند المكلفة بالأبواق لنداء بقية الجيش حيث لا يتأخر جندي عن الحضور إلى موضع المناداة ، وقد يكون للملك الموكَّل موجود يصوّت صوتاً مؤثّراً .

و﴿ نفخة : ﴾ مصدر نفخ مقترن بهاء دالة على المرة ، أي الوحدة فهو في الأصل مفعول مطلق ، أو تقع على النيابة عن الفاعل للعلم بأن فاعل النفخ الملك الموكّل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل .

ووصفت ﴿ نفخة بواحدة ﴾ تأكيد لإِفادة الوحدة من صيغة الفعلة تنصيصاً على الوحدة المفادة من التاء .

(187/779)

والتنصيص على هذا للتنبيه على التعجيب من تأثر جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة دون تكرير تعجيباً عن عظيم قدرة الله ونفوذ أمره لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل

يوم القيامة فتَعداد أهواله مقصود ، ولأجل القصد إليه هنا لم يذكر وصف واحد في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دَعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ في سورة الروم (25) .

فحصل من ذكر نفحة واحدة تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة ، وهذا يبين ما روي عن صاحب "الكشاف" في تقريره بلفظٍ مجمل نقله الطيبي ، فليس المراد بوصفها بـ ﴿ واحدة ﴾ أنها غير مُتَبعة بثانية فقد جاء في آيات أخرى أنهما نفختان ، بل المراد أنها غير محتاج حصولُ المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة ، أي يوم الواقعة .

وأما ذكر كلمة ﴿ نفخة ﴾ فليتأتى إجراء وصف الوحدة عليها فذِكر ﴿ نفخة ﴾ تبعٌ غير مسوق له الكلام فتكون هذه النفخة هي الأولى وهي المؤذنة بانقراض الدنيا ثم تقع النفخة الثانية التي تكون عند بعث الأموات .

وجملة ﴿ وحُملت الأرض والجبال ﴾ الخ في موضع الحال لأن دَكّ الأرضِ والجبال قد يحصل قبل النفخ في الصور لأن به فناء الدنيا .

ومعنى ﴿ حُملت : ﴾ أنها أُزيلت من أماكنها بأن أُبعدت الأرض بجبالها عن مدارها المعتاد فارتطمت بأجرام أُخرى في الفضاء ﴿ فدكَّتا ﴾ ، فشبهت هذه الحالة بحمل الحامل شيئاً ليلقيه على الأرض ، مثل حمل الكرة بين اللاعبين ، ويجوز أن يكون تصرف الملائكة الموكلين بنقض نظام العالم في الكرة الأرضية بإبعادها عن مدارها مشبهاً بالحمل

وذلك كله عند اختلال الجاذبية التي جعلها الله لحفظ نظام العالم إلى أمد معلوم لله تعالى .

والدك : دَقّ شديد يكسر الشيء المدقوق ، أي فإذا فرقت أجزاء الأرض وأجزاء جبالها .

(188/779)

وبنيت أفعال ﴿ نفخ ، وحُملت ، ودُكّتا ﴾ للمجهول لأن الغرض متعلق ببيان المفعول لا الفاعل وفاعل تلك الأفعال إما الملائكة أو ما أودعه الله من أسباب تلك الأفعال ، والكل بإذن الله وقدرته .

وجملة ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ مشتملة على جواب (إذَا) ، أعني قولَه ﴿ وقعت الواقعة ، ﴾ وأما قوله : ﴿ فيومئذٍ ﴾ فهو تأكيد لمعنى ﴿ فإذا نُفخ في الصور ﴾ إلخ لأن تنوين (يومئذٍ) عوض عن جملة تدل عليها جملة ﴿ نُفخ في الصور ﴾ إلى قوله ﴿ دكّة واحدة ، ﴾ أي فيوم إذ نفخ في الصور إلى آخره وقعت الواقعة وهو تأكيد لفظي بمرادف المؤكَّد ، فإن المراد بـ (يوم) من قوله ﴿ فيومئذٍ وقَعت الواقعة ، ﴾ مطلقُ الزمان كما هو الغالب في وقوعه مُضافاً إلى (إذا) .

ومعنى ﴿ وقعت الواقعة ﴾ تحقق ما كان متوقَّعاً وقوعُه لأنهم كانوا يُتوعَّدون بواقعة

عظيمة فيومئذٍ يتحقق ما كانوا يُتوعدون به .

فعبر عنه بفعل المضي تنبيهاً على تحقيق حصوله .

والمعنى : فحينئذٍ تقع الواقعة .

و﴿ الواقعة ﴾ : مرادفة للحاقة والقارعة ، فذكرها إظهار في مقام الإِضمار لزيادة التهويل وإفادة ما تحتوي عليه من الأحوال التي تنبىء عنها موارد اشتقاق أوصاف الحاقة والقارعة والواقعة .

و﴿ الواقعة ﴾ صار علماً بالغلبة في اصطلاح القرآن يوم البعث قال تعالى : ﴿ إذا وقَعت الواقعة ليس لوقْعَتِها كاذبة ﴾ [الواقعة : 12] .

وفعل ﴿ انشقت السماء ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على جملة ﴿ نفخ في الصور ﴾ فيكون ملحقاً بشرط (إذا) ، وتأخيرُ عطفه لأجل ما اتصل بهذا الانشقاق من وصف الملائكة المحيطين بها ، ومن ذكر العرش الذي يحيط بالسماوات وذكر حملته .

ويجوز أن يكون جملة في موضع الحال بتقدير : وقد انشقت السماء .

وانشقاق السماء : مطاوعتها لِفعل الشق ، والشقُّ : فتح منافذ في محيطها ، قال تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلاً المُلكُ يومئذٍ الحقُ للرحمان وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ [الفرقان : 25 ، 26] .

ثم يحتمل أنه غير الذي في قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] ويحتمل أنه عينه .

وحقيقة ﴿ واهية ﴾ ضعيفة ومتفرقة ، ويستعار الوهي للسهولة وعدم الممانعة ، يقال : وهَى عزمه ، إذا تسامح وتساهل ، وفي المثل "أوهى من بيت العنكبوت" يضرب لعدم نهوض الحجة .

وتقييده بـ ﴿ يومئذٍ ﴾ أن الوهي طرا عليها بعد أن كانت صلبة بتماسك أجزائها وهو المعبر عنه في القرآن بالرتق كما عبر عن الشق بالفتق ، أي فهي يومئذٍ مطروقة مسلوكة .

والوهي : قريب من الوهن ، والأكثر أن الوهْي يوصف به الأشياء غير العاقلة ، والوهن يوصف به الناس .

والمعنى : أن الملائكة يترددون إليها صعوداً ونزولاً خلافاً لحالها مِن قبلُ قال تعالى: ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] .

وجملة ﴿ والمَلَك على أرجائها ، ﴾ حال من ضمير ﴿ فهي ﴾ ، أي ويومئذٍ الملك على أرجائها .

و﴿ المَلك ﴾ : أصله الواحد من الملائكة ، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع ، أي جنس المَلَك ، أي جماعة من الملائكة أو جميع الملائكة إذا أريد الاستغراق ، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول ، ولذلك قال ابن عباس : الكتابُ أكْثَرُ من الكُتُب ، ومنه ﴿ ربّ إني وهَن العظمُ منّي ﴾ [مريم : 4] .

والأرجاء : النواحي بلُغة هذيل ، واحدُها رجَا مقصوراً وألفه منقلبة عن الواو .

وضمير ﴿ أرجائها ﴾ عائد إلى ﴿ السماء .

والمعنى : أن الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفّذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسَوق أهل النار إلى النار .

وعرش الرب : اسم لما يحيط بالسماوات وهو أعظم من السماوات .

(190/779)

والمراد بالثمانية الذين يحملون العرش : ثمانيةٌ من الملائكة ، فقيل : ثمانية شخوص ، وقيل : ثمانية صُفوف ، وقيل ثمانية أعشار ، أي نحو ثمانين من مجموع عدد الملائكة ، وقيل غير ذلك ، وهذا من أحوال الغيب التي لا يتعلق الغرض بتفصيلها ، إذ المقصود من الآية تمثيل عظمة الله تعالى وتقريب ذلك إلى الأفهام كما قال في غير آية .

ولعل المقصود بالإِشارة إلى ما زاد على الموعظة ، هو تعليم الله نبيئه شيئاً من تلك الأحوال بطريقة رمزية يفتح عليه بفهم تفصيلها ولم يُرد تشغيلنا بعلمها .

وكأنَّ الدَّاعي إلى ذكرهم إجمالاً هو الانتقال إلى الأخبار عن عرش الله لئلا يكون ذكره اقتضاباً بعد ذكر الملائكة .

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب عن النبي حديثاً ذكر فيه أبْعَادَ ما بين السماوات ، وفي ذكر حملة العرش رموز ساقها الترمذي مساق التفسير لهذه الآية ، وأحد رواتِه عبد الله بن عُميرة عن الأحْنف بن قيس قال البخاري : لا نعلم له سماعاً عن الأحنف .

وهنالك أخبار غير حديث العباس لا يعبأ بها ، وقال ابن العربي فيها : إنها متلفقات من أهل الكتاب أو من شعر لأمية بن أبي الصلت ، ولم يصح أن النبي أنشد بين يديه فصدّقه . اه .

وضمير فوقهم ﴾ يعود إلى ﴿ المَلك ﴾ .

ويتعلق ﴿ فوقَهم ﴾ بـ ﴿ يحمل عرش ربّك ﴾ وهو تأكيد لما دّل عليه يحمل من كون العرش عالياً فهو بمنزلة القيدين في قوله : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وإضافة عرش إلى الله إضافة تشريف مثل إضافة

الكعبة إليه في قوله : ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ الآية [الحج : 26] ، والله منزه عن الجلوس على العرش وعن السكنى في بيت .

والخطاب في قوله : ﴿ تُعرضون ﴾ لجميع الناس بقرينة المقام وما بعد ذلك من التفصيل .

(191/779)

والعرض : أصله إمْرار الأشياء على من يريد التأمل منها مثل عرض السلعة على المشتري وعرض الجيش على أميره ، وأطلق هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة معَ جواز إرادة المعنى الصريح .

ومعنى ﴿ لا تخفى منكم خافية : ﴾ لا تخفى على الله ولا على ملائكته .

وتأنيث ﴿ خافية ﴾ لأنه وصف لموصوف مؤنث يقدر بالفَعلة من أفعال العباد ، أو يقدر بنفْس ، أي لا تختبىء من الحساب نفس أي أحد ، ولا يلتبس كافر بمؤمن ، ولا بارٌّ بفاجر .

وجملة ﴿ يومئذٍ تعرضون ﴾ مستأنفة ، أو هي بيان لجملة ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ، ﴾ أو بدل اشتمال منها .

و ﴿ منكم ﴾ صفة ل ﴿ خافية ﴾ قدمت عليه فتكون حالاً .

وتكرير ﴿ يومئذٍ ﴾ أربعَ مرات لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور ثم يعقبه ما

بعده مما ذكر في الجُمل بعده ، فقد جرى ذكر ذلك اليوم خمس مرات لأن ﴿ فيومئذٍ وقَعَتْ الواقعة ﴾ تكرير ل (إذا) من قوله : ﴿ فإذا نفخ في الصور ﴾ إذ تقدير المضاف إليه في ﴿ يومئذٍ ﴾ هو مدلول جملة ﴿ فإذا نفخ في الصور ، ﴾ فقد ذكر زمان النفخ أولاً وتكرر ذكره بعد ذلك أربع مرات .

وقرأ الجمهور ﴿ لا تخفى ﴾ بمثناة فوقية .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالتحتية لأن تأنيث ﴿ خافية ﴾ غير حقيقي ، مع وقوع الفصل بين الفعل وفاعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(192/779)

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أنهم قسمان : محسن ومسيء ، وكان التقدير : فنعطي كلاًّ منكم

صحيفة أعماله من أفعاله وأقواله وجميع خلائقه وأحواله ، فمنكم من تدفع إليه في يمينه فتظهر له حسناته وتستر عنه سيئاته ، ومنكم من يعطاها في شمالها فتبدو له سيئاته ويمحي ما كان من حسناته ، لأنه أوتي ثوابه في الدنيا بما عجل له من طيباته ، عطف عليه مفصلاً له قوله : ﴿ فأما من أوتي ﴾ بناه للمفعول لأن دلالة السعادة الوقوع في اليمين لا من معط معين ﴿ كتابه ﴾ أي الذي أثبت فيه أعماله ﴿ بيمينه فيقول ﴾ لما رأى من سعادته تبجحاً بحاله وإظهاراً لنعمة ربه لأن الإنسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه من خير تكميلاً للذته بكبت أعدائه وتفريح أوليائه ، قيل : إنه تكتب سيئاته في باطن صحيفته وحسناته في ظاهرها ، فيقرأ الباطن ويقرأ الناس الظاهر ، فإذا أنهاه قيل له : قد غفرها الله ، اقلب الصحيفة ، فحينئذ يكون قوله : ﴿ هاؤم ﴾ أي خذوا أيها الحاضرون من الخلائق الملائكة وغيرهم ، فيها صوت يفهم منه معنى : خذوا ، ويوصل تارة بالكاف وتارة بالهمزة ، اسم فعل ، وإنما اختارها هنا ليعلم أن خطابها لجميع أهل الموقف من كان منهم باطناً من الملائكة والجن وغيرهم ، ومن كان منهم ظاهراً لأن الألف عند الربانيين غيب وإحاطة كما دل عليها مخرجها ، فهي عبارة عندهم عن القائم الأعلى المحيط ، وروي معنى ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، والهمزة بدء غيبه ولذا كان مخرجها أقصى الحروف الحلقية دلالة على ذلك ، وبدء غيب الله سبحانه وتعالى أفعاله وهي تشمل الظاهر والخفي أصلها الكاف فهي عندهم ظهور متكامل ذو استقلال ، وهو من يكون من شأنه

الظهور ، وأبناء الجنس أحق بهذا ، وقد دل على ذلك مخرج الكاف الذي بعد القاف من أصل اللسان الأقرب إلى وسطه ، ومفعول " ما " محذوف عند البصريين دل عليه "كتابيه" من قوله : ﴿ اقرءوا كتابيه ﴾ وهاؤه للسكت ، كأنها إشارة إلى شدة الكرب في ذلك اليوم للدلالة

(193/779)

على أنه إذا كان هذا السعيد بسكت في كل جملة للاستراحة لا يقدر في الكلام على المضي فما الظن بغيره ، وتشير أيضاً مع ذلك إلى فراغ الأمر ونجازة الجزم به والوثوق بأنه لا يغير . ولما كانت حقيقة الحساب ذكر الأعمال والمجازاة عليها ، وكان الآدمي - لأنه مجبول على النقص - لا يقدر أن يقدر الله حق قدره ، وكلما كان الإنسان أعلى كان الاستشعار والنقص من نفسه أكثر ، وكان من نوقش الحساب - كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - عذب ، قال مؤكداً لأن من يرى حاله وكتابه ينكر أن يكون له ذنب أو منه تقصير : ﴿ إني ظننت ﴾ أي في هذا اليوم خوفاً من من سوء أعمالي التي أعرفها من نفسي ﴿ أني ملاق ﴾ أي ثابت لي ثباتاً لا ينفك أني ألقى بين يدي الديان ﴿ حسابيه ﴾ لأني كنت جامعاً كما أمرت بين الخوف والرجاء ، فأخاف أن يقابل بين حسناتي وبين النعم فلا تقوم لي

أصغر نعمة فأعذب على سيئاتي وأرجو غفرانه ، فحقق سبحانه رجائي وأمن خوفي ، فعلمت الآن أني لا أناقش الحساب ، وإنما حسابي العرض وهو الحساب اليسير بأن تعرض أعمالي فلا أجازى على سيئها وأثاب على حسنها مناً ورحمة وفضلاً ونعمة ، ويجوز أن يكون الظن في الدنيا ، عبر به عن اليقين إشارة إلى أنه يكفي العاقل في الخوف الحامل له على العمل ظن الخطر ، وفيه إشعار بهضم النفس لأن الإنسان لا ينفك عن خطرات من الشبه تعرض له وتهجم عليه وإيذان بأن مثل ذلك لا يقدح في الجزم بالاعتقاد وتنبيه على أنه يكفي في إيجاب العمل الظن فيكون حينئذ تعليلاً لإعطاء الكتاب باليمين ، وفيه تبكيت للكفار ونداء عليهم بأنهم لم يصلوا في هذا الأمر المحقق إلى مرتبة الظن ، فكيف بالمحقق من العلم فأهملوا العمل له فخالفوا .

ولما كان تقدير هذا واضحاً ، سبب عند ما تأثر عن الحساب اليسير من إعطاء الثواب فقال : ﴿ فهو في عيشة ﴾ أي حالة من العيش .

(194/779)

ولما كان الرضى بالشيء لا يكون إلا إذا بلغ نهاية السؤل وغاية المأمول ، قال مسنداً الرضا إلى العيشة كناية عن رضا صاحبها على الوجه الأبلغ : ﴿ راضية ﴾ أي ثابت له الرضا

ودائم لها لأنها في غاية الحسن والكمال ، والعرب لا تعبر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية بمعنى أن أهلها راضون بها ، والمعتبر في كمال اللذة الرضى أو أنه لو كان للعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها .

ولما شوق سبحانه إلى حال صاحب هذه العيشة ، وكانت أمراً إجمالياً ، فصلها وبينها بالإبدال منها زيادة في التشويق فقال : ﴿ في جنة ﴾ أي بساتين جامعه لجميع ما يراد منها .

ولما كان شرف المسكن العلو قال : ﴿ عالية ﴾ أي في المكان والمكانة والأبنية والدرجات والأشجار وكل اعتبار .

ولما كان من شأن المعالي عسر الوصول إليه قال : ﴿ قطوفها ﴾ أي جمع كثرة لقطف - بالكسر وهو ما يجنى من الثمرات المجتمعة في عرق من عروقه ﴿ دانية ﴾ أي قريبة المأخذ سهلة التناول جداً ، لراكب والقائم والقاعد والمضطجع ، كل ذلك على حد سواء دائماً من غير انقطاع ولا كلفة على أحد من أهلها في تناول شيء من ذلك .

ولما كان كون الثمار بهذه الصفة دالاً على كثرة الري ، وكثرة الري دالة على المشرب ، وكانت من مفردات اللفظ عامة المعنى ، فكان قد أفرد الضمائر باعتبار لفظها تنصيصاً على كل فرد فرد جمع باعتبار المعنى إعلاماً باشتراك جميع أهلها في النعم حال الانفراد والاجتماع فقال : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي مولى لهم ذلك إشارة إلى أن ذلك لا مانع منه وإلى أنهم يؤمرون به صريحاً دلالة على رضا صاحب الجنة لئلا يتنغص عليهم عيشهم بنوع من

الأنواع الموهمة للخطر ، وحذف المفعول إيذاناً بالتعميم لئلا يظن أنه يستثني منها شيء فيكون سبب الفتنة كما وقع لآدم صلوات الله وسلامه عليه .

(195/779)

ولما كان المآكل والمشارب في هذه الدار تورث التخم والأمراض وفيها ما لا يلذ ، وكان ما وقع لأبينا آدم وأمنا حواء عليهما الصلاة والسلام على أكلة واحدة من وخامة العاقبة معروفاً ، قال مؤمناً من ذلك : ﴿ هنيئاً ﴾ أي أكلاً طيباً لذيذاً شهياً مع البعد عن كل أذى وسلامة العاقبة بكل اعتبار ولا فضلة هناك من بول ولا غائط ولا بصاق ولا مخاط ولا قرف ولا قذر ولا وهن ولا صداع ولا ثقل ولا شيء مؤذ .

ولما شوق إلى المسببات حملهم على أسبابهم وحضهم على المسابقة في تحصيلها والمثابرة والمداومة على الاستكثار منها ؛ فقال زيادة في لذتهم بأن ذلك على وجه العوض لا امتنان عليهم في شيء منه لأحد من الخلق ، فإن أحب ما إلى الإنسان أن يأكل مما أفادته يمينه وحصله بعمله مع ما في ذلك من الشرف : ﴿ بما أسلفتم ﴾ أي أعطيتم من أنفسكم لآخرتكم طوعاً من الأعمال الصالحة وبما تركتم من الدنيا مما هو سافل بالنسبة إلى ما عوضتم عنه من أعمال القلب والبدن والمال ﴿ في الأيام ﴾ ولما كان سبحانه قد ضمن كل

ما يشتغل به الإنسان من مصالح دنياه فهو واصل إليه لا محالة وإن فرغ أوقاته كلها لعبادة ربه قال : ﴿ الخالية ﴾ أي الماضية في الدنيا التي انقضت وذهبت واسترحتم من تعبها والتي لا شاغل فيها عن العبادة .

إما بترك الاشتغال بالمعاش للواصل إلى درجة التوكل ، وإما بالسعي على وجه الاقتصاد بقصد المساعدة للعباد في أمور هذه الدار والإفضال عليهم وإن لا يكون كلاًّ عليهم من غير اعتماد على السعي بل امتثالاً للأمر مع القناعة بالكفاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 130.133 ﴾

(196/779)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما ينتهي هذا العرض إليه قال :

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هاء صوت يصوت به ، فيفهم منه معنى خذ كأف وحس ، وقال أبو القاسم الزجاجي وفيه لغات وأجودها ما حكاه سيبويه عن العرب فقال : ومما يؤمر به من المبنيات قولهم : هاء يا فتى ، ومعناه تناول ويفتحون الهمزة ويجعلون فتحها علم المذكر كما قالوا : هاك يا فتى ، فتجعل فتحة الكاف علامة المذكر ويقال للإثنين : هاؤما ، وللجمع هاؤموا وهاؤم والميم في هذا الموضع كالميم في أنتما وأنتم وهذه الضمة التي تولدت في همزة هاؤم إنما هي ضمة ميم الجمع لأن الأصل فيه هاؤموا وأنتموا فاشبعوا الضمة وحكموا للإثنين بحكم الجمع لأن الإثنين عندهم في حكم الجمع في كثير من الأحكام .

المسألة الثانية :

(197/779)

إذا اجتمع عاملان على معمول واحد ، فإعمال الأقرب جائز بالاتفاق وإعمال الأبعد هل يجوز أم لا ؟ ذهب الكوفيون إلى جوازه والبصريون منعوه ، واحتج البصريون على قولهم : بهذه الآية ، لأن قوله : ﴿ هَاؤُمُ ﴾ ناصب ، وقوله : ﴿ اقرؤا ﴾ ناصب أيضاً ، فلو كان الناصب هو الأبعد ، لكان التقدير : هاؤم كتابيه ، فكان يجب أن يقول : اقرأوه ، ونظيره ﴿ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [الكهف : 96] واعلم : أن هذه الحجة ضعيفة لأن هذه

الآية دلت على أن الواقع ههنا إعمال الأقرب وذلك لا نزاع فيه إنما النزاع في أنه هل يجوز إعمال الأبعد أم لا ، وليس في الآية تعرض لذلك ، وأيضاً قد يحذف الضمير لأن ظهوره يغني عن التصريح به كما في قوله : ﴿ والذكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] فلم لا يجوز أن يكون ههنا كذلك ، ثم احتج الكوفيون بأن العامل الأول متقدم في الوجود على العامل الثاني ، والعامل الأول حين وجد اقتضى معمولاً لامتناع حصول العلة دون المعمول ، فصيرورة المعمول معمولاً للعامل الأول متقدم على وجود العامل الثاني ، والعامل الثاني إنما وجد بعد أن صار معمولاً للعامل الأول فيستحيل أن يصير أيضاً معمولاً للعامل الثاني ، لامتناع تعليل الحكم الواحد بعلتين ، ولامتناع تعليل ما وجد قبل بما يوجد بعد ، وهذه المسألة من لطائف النحو .

المسألة الثالثة :

الهاء للسكت ﴿ فِى كتابيه ﴾ وكذا في ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 20] و ﴿ مالية ﴾ [الحاقة : 28] و ﴿ سلطانية ﴾ [الحاقة : 29] وحق هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل ، ولما كانت هذه الهاءات مثبتة في المصحف والمثبتة في المصحف لا بد وأن تكون مثبتة في اللفظ ، ولم يحسن إثباتها في اللفظ إلا عند الوقف ، لا جرم استحبوا الوقف لهذا السبب .

وتجاسر بعضهم فأسقط هذه الهاءات عند الوصل ، وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء

بغيرها .

وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعاً لاتباع المصحف .

(198/779)

المسألة الرابعة :

اعلم أنه لما أوتي كتابيه بيمينه ، ثم إنه يقول : ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ دل ذلك على أنه بلغ الغاية في السرور لأنه لما أعطى كتابه بيمينه علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم ، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله .

وقيل : يقول ذلك لأهل بيته وقرابته .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه يقول :

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20)

وفيه وجوه الأول : المراد منه اليقين الاستدلالي وكل ما ثبت بالاستدلال فإنه لا ينفك من الخواطر المختلفة ، فكان ذلك شبيهاً بالظن الثاني : التقدير : إني كنت أظن أني ألاقي حسابي فيؤاخذني الله بسيئاتي ، فقد تفضل علي بالعفو ولم يؤاخذني بها فهاؤم اقرؤا كتابيه وثالثها : روي أبو هريرة أنه عليه السلام قال : " إن الرجل يؤتى به يوم القيامة ويؤتى

كتابه فتظهر حسناته في ظهر كفه وتكتب سيئاته في بطن كفه فينظر إلى سيئاته فيحزن ، فيقال له : اقلب كفك فينظر فيه فيرى حسناته فيفرح ، " ثم يقول : ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه إني ظَنَنتُ – عند النظرة الأولى – أَنِّي ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ على سبيل الشدة ، وأما الآن فقد فرَّج الله عني ذلك الغم ، وأما في حق الأشقياء فيكون ذلك على الضد مما ذكرنا

ورابعها : ظننت : أي علمت ، وإنما أجرى مجرى العلم .

لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام ، يقال : أظن ظناً كاليقين أن الأمر كيت وكيت وخامسها : المراد إني ظننت في الدنيا أن بسبب الأعمال التي كنت أعملها في الدنيا سأصل في القيامة إلى هذه الدرجات وقد حصلت الآن على اليقين فيكون الظن على ظاهره ، لأن أهل الدنيا لا يقطعون بذلك .

ثم بين تعالى عاقبة أمره فقال :

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

وصف العيشة بأنها راضية فيه وجهان الأول : المعنى أنها منسوبة إلى الرضا كالدارع والنابل ، والنسبة نسبتان نسبة بالحروف ونسبة بالصيغة والثاني : أنه جعل الرضا للعيشة مجازاً مع أنه صاحب العيشة .

المسألة الثانية :

ذكروا في حد الثواب أنه لا بد وأن يكون منفعة ، ولا بد وأن تكون خالصة عن الشوائب ، ولا بد وأن تتكون دائمة ولا بد وأن تكون مقرونة بالتعظيم ، فالمعنى إنما يكون مرضياً به من جميع الجهات لو كان مشتملاً على هذه الصفات فقوله : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ كلمة حاوية لمجموع هذه الشرائط التي ذكرناها .

ثم قال : ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ وهو أن من صار في ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي يعيش عيشاً مرضياً في جنة عالية ، والعلو إن أريد به العلو في المكان فهو حاصل ، لأن الجنة فوق السموات ، فإن قيل : أليس أن منازل البعض فوق منازل الآخرين ، فهؤلاء السافلون لا يكونون في الجنة العالية ، قلنا : إن كون بعضها دون بعض لا يقدح في كونها عالية وفوق السموات ، وإن أريد العلو في الدرجة والشرف فالأمر كذلك ، وإن أريد به كون تلك الأبنية عالية مشرفة فالأمر أيضاً كذلك .

ثم قال : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أي ثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إن أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً .

وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت ، والقطوف جمع قطف وهو المقطوف .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)

والمعنى يقال لهم ذلك وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

منهم من قال قوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ ليس بأمر إيجاب ولا ندب ، لأن الآخرة ليست دار تكليف ، ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون ندباً ، إذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الإنسان وإدخال السرور في قلبه .

المسألة الثانية :

إنما جمع الخطاب في قوله : ﴿ كلوا ﴾ بعد قوله ﴿ فهو في عيشة ﴾ [الحاقة : 21] لقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ ﴾ [الحاقة : 19] ومن مضمن معنى الجمع .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ مَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ أي قدمتم من أعمالكم الصالحة ، ومعنى الإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض .

ومنه يقال : أسلف في كذا إذا قدم فيه ماله ، والمعنى بما عملتم من الأعمال الصالحة : والأيام الخالية ، المراد منها أيام الدنيا والخالية الماضية ، ومنه قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القرون مِن قَبْلِى ﴾ [الأحقاف : 17] و ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة : 134] وقال الكلبي : ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ يعني الصوم ، وذلك أنهم لما أمروا بالأكل والشرب ، دل ذلك على أنه لمن امتنع في الدنيا عنه بالصوم ، طاعة لله تعالى .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بسبب عملهم ، وذلك يدل على أن العمل موجب للثواب ، وأيضاً لو كانت الطاعات فعلاً لله تعالى لكان قد أعطى الإنسان ثواباً لا على فعل فعله الإنسان ، وذلك محال وجوابه معلوم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 97.100 ﴾

(201/779)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) ﴾

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة وأبو جعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن والناس

: " من قَبْله " بفتح القاف وسكون الباء أي الأمم الكافرة التي كانت قبله ، ويؤيد ذلك ذكره قصة نوح في طغيان الماء لأن قوله : ﴿ من قبله ﴾ ، قد تضمنه فحسن اقتضاب أمرهم بعد ذلك دون تصريح . وقال أبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبان والحسن بخلاف عنه وأبو رجاء والجحدري وطلحة : " ومن قِبَله " ، بكسر القاف وفتح الباء أي أجناده وأهل طاعته ويؤيد ذلك أن في مصحف أبيّ بن كعب : " وجاء فرعون ومن معه " ، وفي حرف أبي موسى : " ومن تلقاءه " . وقرأ طلحة بن مصرف : " ومن حوله " . وقبل الإنسان : ما يليه في المكان وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة عندي وفي ذمتي وما يليني بأي وجه وليني . و: ﴿ المؤتفكات ﴾ قرى قوم لوط ، وكانت أربعاً فيما روي ، وائتفكت : قلبت وصرفت عاليها سافلها فائتفكت هي فهي مؤتفكة ، وقرأ الحسن هنا : " والمؤتفكة " على الإفراد ، و﴿ الخاطئة ﴾ : إما أن تكون صفة لمحذوف كأنه قال بالفعل الخاطئة ، وإما أن يريد المصدر ، أي بالخطأ في كفرهم وعصيانهم . وقوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ يحتمل أن يكون الرسول : اسم جنس كأنه قال : فعصا هؤلاء الأقوام والفرق أنبياء الله الذين أرسلهم إليهم ، ويحتمل أن يكون الرسول بمعنى : الرسالة ، وقال الكلبي : يعني موسى ، وقال غيره في كتاب الثعلبي : يعني لوطاً والرابية : النامية التي قد عظمت جداً ، ومنه ربا المال ، ومنه الربا ، ومنه اهتزت وربت . ثم عدد تعالى على الناس نعمته في قوله : ﴿ إنَّا لمّا طغا الماء ﴾ الآية ، والمراد : ﴿ طغا الماء ﴾ في وقت الطوفان

الذي كان على قوم نوح. والطغيان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأشياء، ومعناه طغا على خزانه في خروجه وعلى البشر في أن أغرقهم، قال قتادة: علا على كل شيء خمسة عشر ذراعاً، و﴿ الجارية ﴾: السفينة، والضمير في ﴿ لنجعلها ﴾ عائد على الفعلة أي من

(202/779)

يذكرها ازدجر، ويحتمل أن يعود على ﴿ الجارية ﴾، أي من سمعها اعتبر. و﴿ الجارية ﴾ يراد بها سفينة نوح قاله منذر، وقال المهدوي: المعنى في السفن الجارية، وقال قتادة: أبقى الله تعالى تلك السفينة حتى رأى بعض عيدانها أوائل هذه الأمة وغيرها من السفن التي صنعت بعدها قد صارت رموداً. وقوله تعالى: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ عبارة عن الرجل الفهم المنور القلب، الذي يسمع القول فيتلقاه بفهم وتدبر. قال أبو عمران الجوني: ﴿ واعية ﴾ عقلت عن الله عز وجل. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي". قال علي: فما سمعت بعد ذلك شيئاً فنسيته. وقرأ الجمهور: "تعِيها" بكسر العين على وزن تليها. وقرأ ابن كثير في رواية

الحلواني وقنبل وابن مصرف : " وتَعْيها " بسكون العين جعل التاء التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من كتف إذ حرف المضارع لا يفارق الفعل فسكن تخفيفاً كما يقال : كتف ونحو هذا قول الشاعر :

(203/779)

قالت سليمى اشترْلنا سويقا . . . على أن هذا البيت منفصل ، فهو أبعد لكن ضرورة الشعر تسامح به ، ثم ذكر تعالى أمر القيامة ، و﴿ الصور ﴾ : القرن الذي ينفخ فيه ، قال سليمان بن أرقم : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ﴿ الصور ﴾ فقال : " هو قرن من نور فمه أوسع من السماوات " ، والنفخة المشار إليها في هذه الآية ، نفخة القيامة التي للفزع ومعها يكون الصعق ، ثم نفخة البعث ، وقيل : هي نفخات ثلاثة : نفخة الفزع ونفخة الصعق ثم نفخة البعث ، والإشارة بآياتنا هذه إلى نفخة الفزع ، لأن حمل الجبال هو بعدها . وقرأ الجمهور : " نفخةٌ " بالرفع ، لما نعت صح رفعه ، وقرأ أبو السمال : " نفخةً واحدةً " بالنصب . وقرأ جمهور القراء : " وحمَلت " بتخفيف الميم بمعنى حملتها الرياح والقدرة ، وقرأ ابن عباس فيما روي عنه : " وحمّلت " بشد الميم ، وذلك يحتمل معنيين أحدهما أنها حاملة حملت قدرة وعنفاً وشدة نفثها فهي محملة حاملة . والآخر أن يكون

محمولة حملت ملائكة أو قدرة . وقوله تعالى : ﴿ فدكتا ﴾ وقد ذكر جمعاً ساغ ، ذلك لأن المذكور فرقتان وهذا كما قال الشاعر [القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

ومنه قوله تعالى : ﴿ كانتا رتقاً ﴾ [الأنبياء : 30] و ﴿ دكتا ﴾ معناه : سوى جميعها كما يقال : ناقة دكاً : إذا ضعفت فاستوت حدبتها مع ظهرها ، و ﴿ الواقعة ﴾ : القيامة والطامة الكبرى ، وقال بعض الناس : هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس وهذا ضعيف ، وانشقاق السماء هو تفطيرها وتمييز بعضها عن بعض وذلك هو الوهي الذي ينالها كما يقال في الجدارات البالية المتشققة واهية ، ﴿ والملك ﴾ اسم الجنس يريد به الملائكة ، وقال جمهور المفسرين : الضمير في ﴿ أرجائها ﴾ عائد على ﴿ السماء ﴾ أي الملائكة على نواحيها وما لم يَهِ منها والرجا : الجانب من الحائط والبئر ونحوه ومنه قول الشاعر [المرادي] : [الطويل]

كأن لم تري قبلي أسيراً مقيداً . . . ولا رجلاً يرعى به الرجوان

أي يلقى في بئر فهو لا يجد ما يتمسك به . وقال الضحاك أيضاً وابن جبير : الضمير في ﴿

أرجائها ﴾ عائد على الأرض وإن كان لم يتقدم لها ذكر قريب لأن القصة واللفظ يقتضي إفهام ذلك ، وفسر هذه الآية بما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيصفون خلفهم ثم كذلك ملائكة كل سماء ، فكلما فر أحد من الجن والإنس وجد الأرض قد أحيط بها ، قالوا فهذا تفسير هذه الآيات ، وهو أيضاً معنى قوله تعالى :

﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر : 22] وهو أيضاً تفسير قوله ﴿ يوم التناد يوم تولون مدبرين ﴾ [غافر : 32-33] على قراءة من شد الدال ، وهو تفسير قوله : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] ، واختلف الناس في الثمانية الحاملين للعرش ، فقال ابن عباس : هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحد عدتهم . وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك على هيئة الوعول ، وقال جماعة من المفسرين : هم على هيئة الناس ، أرجلهم تحت الأرض السفلى ورؤوسهم وكواهلهم فوق السماء السابعة . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة سواهم " . والضمير في قوله : ﴿ فوقهم ﴾ للملائكة الحملة ، وقيل للعالم كله وكل قدرة كيفما تصورت فإنما هي بحول الله وقوته .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)

الخطاب في قوله تعالى : ﴿ تعرضون ﴾ لجميع العالم ، وروي عن أبي موسى الأشعري وابن مسعود أن في القيامة عرضتين فيهما معاذير وتوقيف وخصومات وجدال ، ثم تكون عرضة ثالثة تتطاير فيها الصحف بالأيمان والشمائل . وقرأ حمزة والكسائي : " لا يخفى " ، بالياء وهي قراءة علي بن أبي طالب وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى ، وقرأ الباقون : بالتاء على مراعاة تأنيث ﴿ خافية ﴾ وهي قراءة الجمهور ، وقوله تعالى : ﴿ خافية ﴾ معناه ضمير ولا معتقد ، والذين يعطون كتبهم بأيمانهم هم المخلدون في الجنة أهل الإيمان . واختلف العلماء في الفرقة التي ينفذ فيها الوعيد من أهل المعاصي متى تأخذ كتبها ، فقال بعضهم الأظهر أنها تأخذها مع الناس ، وذلك يؤنسها مدة العذاب ، قال الحسن : فإذا أعطى كتابه بيمينه لم يقرأه حتى يأذن الله تعالى له ، فإذا أذن له قال : ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ ، وقال آخرون : الأظهر أنه إذا أخرجوا من النار والإيمان يؤنسهم وقت العذاب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ظاهر هذه الآية ، لأن من يسير إلى النار فكيف يقول ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ ؟ وأما قوله ﴿ هاؤم ﴾ ، فقال قوم : أصله هاوموا ، ثم نقله التخفيف والاستعمال ، وقرأ آخرون هذه الميم ضمير الجماعة ، وفي هذا كله نظر . والمعنى على كل تعالوا ، فهو استدعاء إلى الفعل المأمور به ، وقوله تعالى : ﴿ اقرؤوا كتابيه ﴾ هو استبشار وسرور ، وقوله : ﴿ ظننت ﴾ الآية ، عبارة عن إيمانه بالبعث وغيره ، قال قتادة : ظن هذا ظناً يقيناً فنفعه ، وقوم ظنوا ظن الشك فشقوا به ، و ﴿ ظننت ﴾ هنا واقعة موقع تيقنت وهي في متيقن لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس ، وهذا هو باب الظن الذي يوقع موقع اليقين ، وقرأ بعض القراء : "كتابيهْ" و"حسابيهْ" و"ماليهْ" و"سلطانيهْ" بالهاء في الوصل والوقف اقتداء بخط المصحف ، وهي في الوصل بينة الوقوف لأنها هاء السكت ، فلا معنى لها في الوصل ، وطرح الهاءات في الوصل لا في الوقف الأعمش وابن أبي إسحاق ، قال أبو حاتم : قراءتنا إثبات في الوقف وطرح في الوصل ، وبذلك قرأ ابن محيصن وسلام ، وقال الزهراوي في إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عنه أحد علمته ، و ﴿ راضية ﴾ معناه : ذات رضى فهو بمعنى مرضية ، وليست بناء اسم فاعل ، و ﴿ عالية ﴾ معناه في المكان والقدر وجميع وجوه العلو ، و"القطوف" : جمع قطف وهو يجتنى من الثمار ويقطف ، ودنوها : هو أنها تأتي طوع المتمنى فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها ، و ﴿ أسلفتم ﴾ معناه : قدمتم : و ﴿ الأيام ﴾ : هي أيام

الدنيا لأنها في الآخرة قد خلت وذهبت . وقال وكيع وابن جبير وعبد العزيز بن رفيع : المراد ﴿ بما أسلفتم ﴾ من الصوم وعمومها في كل الأعمال أولى وأحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(207/779)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾

تفصيل لأحكام العرض والمراد بكتابه ما كتب الملائكة فيه ما فعله في الدنيا وقد ذكروا أن أعمال كل يوم وليلة تكتب في صحيفة فتتعد صحف العبد الواحد فقيل توصل له فيؤتاها موصولة وقيل ينسخ ما في جميعها في صحيفة واحدة وهذا ما جزم به الغزالي عليه الرحمة وعلى القولين يصدق على ما يؤتاه العبد كتاب وقيل إن العبد يكتب في قبره أعماله في كتاب وهو الذي يؤتاه يوم القيامة وهذا قول ضعيف لا يعول عليه وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان كيف يؤتى العبد ذلك ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تبجحاً وافتخاراً ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ قال الرضي ها اسم لخذ وفيه ثمان لغات الأولى بالألف مفردة ساكنة للواحد والإثنين والجمع مذكراً كان أو مؤنثاً الثانية أن تلحق هذه الألف المفردة كاف الخطاب الحرفية كما في ذلك

وتصرفها نحو هاك هاكما هاكم هاكن الثالثة أن تلحق الألف همزة مكان الكاف وتصريفها تصريف الكاف نحوها هاؤما هاؤم هاء هاؤما هاؤن الرابعة أن تلحق الألف همزة مفتوحة قبل كاف الخطاب وتصرف الكاف الخامسة هأ بهمزة ساكنة بعد الهاء للكل السادسة أن تصرف هذه الجملة تصريف دع السابعة أن تصرفها تصريف خف ومن ذلك ما حكى الكسائي من قول من قيل له هاء بالفتح الام إهاء وإهاء بفتح همزة المتكلم وكسرها الثامنة أن تلحق الألف همزة وتصرفها تصريف ناد والثلاثة الأخيرة أفعال غير متصرفة لا مضي لها ولا مضارع وليست بأسماء أفعال قال الجوهري هاء بكسرة الهمزة بمعنى هات وبفتحها بمعنى خذ وإذا قيل لك هاء بالفتح قلت ما أهاء أي ما آخذ وما أهاء على ما لم يسم فاعله أي ما أعطى وهذا الذي قال مبني على السابعة نحو ما أخاف وما أخاف انتهى .

(208/779)

وقال أبو القاسم فيها لغات أجودها ما حكاه سيبويه في كتابه فقال العرب تقول هاء يا رجل بفتح الهمزة وهاء يا امرأة بكسرها وهاؤما يا رجلان أو امرأتان وهاؤم يا رجال وهاؤن يا نسوة فالميم في هاؤم كالميم في أنتم وضمها كضمها في بعض الأحيان وفسر ههنا بخذوا وهو متعد بنفسه إلى المفعول تعديته والمفعول محذوف دل عليه المذكور أعني كتابيه وهو مفعول

اقرؤا واختير هذا دون العكس لأنه لو كان مفعول هاؤم لقيل اقرؤه إذ الأولى إضمار الضمير إذا أمكن كما هنا وإنما لم يظهر في الأول لئلا يعود على متأخر لفظاً ورتبة وهو منصوب مع أن العامل على اللغة الجيدة اسم فعل فلا يتصل به الضمير وقيل هاؤم بمعنى تعالوا فيتعدى بإلى وزعم القتبي أن الهمزة بدل من الكاف قيل وهو ضعيف إلا إن كان قد عنى أنها تحل محلها في لغة كما سمعت فيمكن لا أنه بدل صناعي لأن الكاف لا تبدل من الهمزة ولا الهمزة منها وقيل هاؤم كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ناداه إعرابي بصوت عال فجاوبه صلى الله عليه وسلم هاؤم بصولة صوته وجوز إرادة هذا المعنى هنا فإنه يحتمل أن ينادي ذلك المؤتى كتابه بيمينه أقرباؤه وأصحابه مثلاً ليقرؤا كتابه فيجيبهم لمزيد فرحه ونشاطه بقوله هاؤم وزعم قوم أنها مركبة في الأصل ها أموا أي اقصدوا ثم نقله التخفيف والاستعمال إلى ما ذكر وزعم آخرون أن الميم ضمير جماعة الذكور والهاء في كتابيه وكذا في حسابيه وماليه وسلطانيه وكذا

(209/779)

﴿ ماهيه ﴾ [القارعة : 10] في القارعة للسكت لا ضمير غيبة فحقها أن تحذف وصلاً وتثبت وقفاً لتصان حركة الموقوف عليه فإذا وصل استغنى عنها ومنهم من أثبتها

في الوصل لإجرائه مجرى الوقف أو لأنه وصل بنية الوقف والقراآت مختلفة فقرأ الجمهور بإثباتها وصلاً ووقفاً قال الزمخشري اتباعاً للمصحف الإمام وتعقبه ابن المنير فقال تقليل القراءة باتباع المصحف عجيب مع أن المعتقد الحق أن القراآت بتفاصيلها منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأطال في التشنيع عليه وهو كما قال وقرأ ابن محيصن بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء فيما ذكر ولم ينقل ذلك في ماهيه فيما وقفت عليه وابن أبي إسحاق والأعمش بطرح الهاء فيهن في الوصل لا في الوقف وطرحها حمزة في مالي وسلطاني وما هي في الوصل لا في الوقف وفتح الياء فيهن وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عند أحد علمته ليس بشيء فإن ذلك متواتر فوجب قبوله .

(210/779)

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ أي علمت ذلك كما قاله الأكثرون بناء على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة كالحساب فالمنقول عنه ينبغي أن يكون كذلك لكن الأمور النظرية لكون تفاصيلها لا تخلو عن تردد ما في بعضها مما لا يفوت اليقين فيه كسهولة الحساب وشدته مثلاً عبر عن العلم بالظن مجازاً للإشعار بذلك وقيل لما كان الاعتقاد بأمور الآخرة مطلقاً مما لا ينفك عن الهواجس والخطرات النفسية كسائر العلوم

النظرية نزل منزلة الظن فعبر عنه به لذلك وفيه إشارة إلى أن ذلك غير قادح في الايمان وجوز أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ما حصل له من الحساب اليسير فإن ذلك مما لا يقين له به وإنما ظنه ورجحه لمزيد وثوقه برحمة الله تعالى عز وجل ولعل ذلك عند الموت فقد دلت الأخبار على أن اللائق بحال المؤمن حينئذ غلبة الرجاء وحسن الظن وأما قبله فاستواء الرجاء والخوف وعليه يظهر جداً وقوع هذه الجملة موقع التعليل لما تشعر به الجملة الأولى من حسن الحال فكأنه قيل إني على ما يحسن من الأحوال أو إني فرح مسرور لأني ظننت بربي سبحانه أن يحاسبني حساباً يسيراً وقد حاسبني كذلك فالله تعالى عند ظن عبده به وهذا أولى مما قيل يجوز أن يكون المراد أني ظننت أني ملاق حسابي على الشدة والمناقشة لما سلف مني من الهفوات والآن إزالة الله تعالى عني ذلك وفرج همي وقيل يطلق الظن على العلم حقيقة وهو ظاهر كلام الرضي في أفعال القلوب وفيه نظر .

(211/779)

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ قال أبو عبيدة والفراء أي مرضية وقال غير واحد أي ذات رضي على أنه من باب النسبة بالصيغة كلابن وتأمر ومعنى ذات رضى ملتبسة بالرضا

فيكون بمعنى مرضية أيضاً وأورد عليه أن ما أريد به النسبة لا يؤنث كما صرح به الرضي وغيره وهو هنا مؤنث فلا يصح هذا التأويل إلا أن يقال التاء فيه للمبالغة وفيه بحث وقال بعض المحققين الحق أن مرادهم أن ما قصد به النسبة لا يلزم تأنيثه وإن جاء فيه على خلاف الأصل الغالب أحياناً والمشهور حمل ما ذكر على أنه مجاز في الإسناد والأصل في عيشة راض صاحبها فأسند الرضا إليها لجعلها لخلوصها دائماً عن الشوائب كأنها نفسها راضية وجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية كما فصل في مطول كتب المعاني .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء فنسبة العلو إليها حقيقة ويجوز أن تكون مجازاً وهي حقيقة لدرجاتها وما فيها من بناء ونحوه أو يكون هناك مضاف محذوف أي عالية درجاتها أو بناؤها أو أشجارها وفي البحر عالية مكاناً وقدراً ولا يخفى ما في استعمال العلو فيهما من الكلام .

﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمع قطف بكسر القاف وهو ما يجتنى من الثمر زاد بعضهم بسرعة وكأن ذلك لأنها من شأن القطف بفتح القاف وهو مصدر قطف ولم يجعلوا قطوفها جمعاً له لأن المصدر لا يطرد جمعه ولقوله تعالى : ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة يتناول الرجل منها وهو قائم كما قال البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه وقال بعضهم يدركها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها وعليه يجوز أن يكون مراد البراء التمثيل وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال دنت فلا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك وفسر الدنو عليه بسهولة التناول .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ باضمار القول أي يقال فيها ذلك وجمع الضمير رعاية للمعنى ﴿ هَنِيئَاً ﴾ صفة لمحذوف وقع مفعولاً به والأصل أكلاً وشرباً هنيئاً أي غير منغصين فحذف المفعول به وأقيمت صفته مقامه وصح جعله صفة لذلك مع تعدده لأن فعيلاً يستوي فيه الواحد فما فوقه وجعل بعضهم المحذوف مصدراً وكذا صفته أعني هنيئاً ووجه عدم تثنيته بأن المصدر يتناول المثنى أيضاً فلا تغفل وجوز أن يكون نصباً على المصدرية لفعل من لفظه وفعيل من صيغ المصادر كما أنه من صيغ الصفات أي هنئتم هنيئاً والجملة في موضع الحال والكلام في مثلها مشهور ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فِى الايام الخالية ﴾ أي الماضية وهي أيام الدنيا وقيل أي الخالية من اللذائذ أي الحقيقية وهي أيام الدنيا أيضاً وقيل أي التي أخليتموها من الشهوات النفسانية وحمل عليه ما روى عن مجاهد وابن جبير ووكيع من تفسير هذه الأيام بأيام الصيام وأخرج ابن المنذر عن يعقوب الحنفي قال بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية والظاهر إن ما على

تفسير الأيام الخالية بأيام الصيام غير محمولة على العموم والعموم في الآية هو الظاهر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 29 صـ ﴾

(213/779)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) ﴾

الفاء تفصيل لما يتضمنه ﴿ تُعرضون ﴾ [الحاقة : 18] إذ العرض عرض للحساب والجزاء فإيتاء الكتاب هو إيقاف كل واحد على صحيفة أعمال .

و(أَمَّا) حرف تفصيل وشرطٍ وهو يفيد مفاد (مَهْمَا يكن من شيء) ، والمعنى : مهما يكن عَرْض ﴿ مَن أوتي كتابه بيمينه . . .

فهو في عيشة راضية ﴾ ، وشأن الفاء الرَّابطة لجوابها أن يفصل بينها وبين (أما) بجُزء من جملة الجواب أو بشيء من متعلقات الجواب مهتَم به لأنهم لما التزموا حذف فعل الشرط لاندماجه في مدلول (أما) كرهوا اتصال فاء الجواب بأداة الشرط ففصلوا بينهما بفاصل تحسيناً لصورة الكلام ، فقوله : ﴿ من أوتي كتابه بيمينه ﴾ أصله صدر جملة الجواب ، وهو مبتدأ خبره ﴿ فيَقول هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ كما سيأتي .

ودل قوله : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ على كلام محذوف للإيجاز تقديره فيؤتى كلٌّ أحد كتابَ أعماله ، فأما من أوتي كتابه إلخ على طريقة قوله تعالى : ﴿ أنْ اضربْ بعصاك البحرَ فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] .

والباء في قوله : ﴿ بيمينه ﴾ للمصاحبة أو بمعنى (في) .

وإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنه إيتاء كرامة وتبشير ، والعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ والاعتزاز به ، قال الشمَّاخ:

إذا مَا رايةٌ رُفِعَتْ لمجد . . .

تلقّاها عَرابة باليمين

وقال تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ﴾ الآية [الواقعة : 2728] ثم قال : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ﴾ الآية [الواقعة : 4142] .

(214/779)

وجملة ﴿ فيقول هَاؤُم اقروا كتابِيْه ﴾ جواب شرط (أمَّا) وهو مغن عن خبر المبتدأ ، وهذا القوْل قول ذي بهجة وحُبور يبعثان على إطْلاع الناس على ما في كتاب أعماله من

جزاء في مقام الاغتباط والفخار ، ففيه كناية عن كونه من حبور ونعيم فإن المعنى الكنائي هو الغرض الأهم من ذكر العَرْض .

و﴿ هاؤم ﴾ مركب من (هاء) ممدوداً ومقصوراً والممدود مبني على فتح الهمزة إذا تجرد عن علامات الخطاب ما عدا الموجَّه إلى امرأة فهو بكسر الهمزة دون ياء .

وإذا خوطب به أكثر من واحد التُزم مدُّه ليتأتى إلحاق علامة خطاب كالعلامة التي تلحق ضمير المخاطب وضمُّوا همزته ضمةً كضمةِ ضمير الخطاب إذ لحقتْه علامة التثنية والجمع ، فيقال : هاؤُما ، كما يقال : أنتما ، وهاؤُمُ كما يقال : أنتم ، وهاؤُنّ كما يقال : أنتن ، ومن أهل اللغة من ادعى أن ﴿ هاؤم ﴾ أصله : هَا أُمُّوا مركباً من كلمتين (هَا) وفعلِ أمر للجماعة من فعل أمَّ ، إذا قصد ، ثم خفف لكثرة الاستعمال ، ولا يصح لأنه لم يسمع هاؤمين في خطاب جماعة النساء ، وفيه لغات أخرى واستعمالات في اتصال كاف الخطاب به تقصاها الرضي في شرح "الكافية" وابن مكرم في "لسان العرب" .

و﴿ هاؤم ﴾ بتصاريفه معتبر اسم فعل أمر بمعنى : خذ ، كما في "الكشاف" وبمعنى تعال ، أيضاً كما في "النهاية" .

والخطاب في قوله : ﴿ هاؤم اقرأوا ﴾ للصالحين من أهل المحشر .

و﴿ كتابيَه ﴾ أصله : كتابِيَ بتحريك ياء المتكلم على أحد وجُوه في يَاء المتكلم إذا وقعت مضافاً إليها وهو تحريك أحسب أنه يقصد به إظهار إضافة المضاف إلى تلك الياء

للوقوف ، محافظة على حركة الياء المقصودِ اجتلابها .

و﴿ اقرأُوا ﴾ بيان للمقصود من اسم الفعل من قوله ﴿ هاؤم .

وقد تنازع كل من هاؤُم واقرأوا ﴾ قوله : ﴿ كتابيه ﴾ .

والتقدير : هاؤم كتابيه اقرأوا كتابيه .

والهاء في كتابيه ونظائرها للسْكتتِ حين الوقف .

وحق هذه الهاء أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل .

(215/779)

وقد أثبتت في هذه الآية في الحالين عند جمهور القراء وكتبت في المصاحف ، فعلم أنها للتعبير عن الكلام المحكي بلغة ذلك القائل بما يرادفه في الاستعمال العربي لأن الاستعمال أن يأتي القائل بهذه الهاء بالوقف على كلتا الجملتين .

ولأن هذه الكلمات وقعت فواصل والفواصل مثل الأسجاع تعتبر بحالة الوقف مثل القوافي ، فلو قيل : اقرأوا كتابيَ إني ظننت أني ملاقٍ حسابيَ ، سقطت فاصلتان وذلك تفريط في محسّنَيْن .

وقرأها يعقوب إذا وصلها بحذف الهاء والقراء يستحبون أن يقف عليها القارىء ليوافق

مشهور رسم المصحف ولئلا يذهب حسن السجع .

وأُطلق الظن في قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه ، ﴾ على معنى اليقين وهو أحد معنييه ، وعن الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك .

وحقيقة الظن : عِلم لم يتحقق ؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعدُ ولم يخرج إلى عالم الحس ، وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك .

وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقن إطلاقاً حقيقياً .

وعلى هذا جرى الأزهري في "التهذيب" وأبو عمرو واقتصر على هذا المعنى ابن عطية .

وكلام "الكشاف" يدل على أن أصْل الظن : علم غير متيقن ولكنه قد يُجرى مُجرى العِلْم لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام ، وقال : يقال : أظن ظناً كاليقين أن الأمر كَيت وكَيت ، فهو عنده إذا أطلق على اليقين كان مجازاً .

وهذا أيضاً رأي الجوهري وابن سيده والفيروزابادي ، وأما قوله تعالى : ﴿ إن نظن إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] فلا دلالة فيه لأن تنكير ﴿ ظناً أريد به التقليل ، وأكد ، بـ ما نحن بمستيقنين فاحتمل الاحتمالين ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ في سورة الأعراف (66) وقوله : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ﴾ في سورة براءة (118) .

والمعنى : إني علمت في الدنيا أني ألقى الحساب ، أي آمنت بالبعث .

وهذا الخبر مستعمل كناية عن استعداده للحساب بتقديم الإيمان والأعمال الصالحة مما كان سبب سعادته .

وجملة إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ في موقع التعليل للفرح والبهجة التي دل عليها قوله : ﴿ هاؤم اقرأُوا كتابيهْ ﴾ وبذلك يكون حرف (إنَّ) لمجرد الاهتمام وإفادة التسبب .

وموقع ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ موقع التفريع على ما تقدم من إيتائه كتابه بيمينه وما كان لذلك من أثر المسرة والكرامة في المحشر ، فتكون الفاء لتفريع ذكر هذه الجملة على ذكر ما قبلها .

ولك أن تجعلها بدل اشتمال من جملة ﴿ فيقول هاؤم اقرأُوا كتابيه ﴾ فإن ذلك القول اشتمل على أن قائله في نعيم كما تقدم وإعادة الفاء مع الجملة من إعادة العامل في المبدل منه مع البدل للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ [المائدة : 114] .

والعيشة : حالة العيش وهيئته .

ووصف ﴿ عيشة راضية ﴾ مجاز عقلي لملابسة العيشة حالةَ صاحبها وهو العائش ملابسة الصفةِ لموصوفها .

والراضي : هو صاحب العيشة لا العِيشة ، لأن ﴿ راضية ﴾ اسم فاعل رضيَت إذا حصل لها الرضى وهو الفرح والغبطة .

والعيشة ليست راضية ولكنها لحسنها رَضي صاحبها ، فوصفُها بـ ﴿ راضية ﴾ من إسناد الوصف إلى غير ما هو له وهو من المبالغة لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها ، ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي ما يسمى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية كما ذُكر في علم البيان .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية وهي الملابسة .

وجملة ﴿ في جنة عالية ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ فهو في عيشة راضية .

والعلوّ : الارتفاع وهو من محاسن الجنّات لأن صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر ولأنه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها أو وسطها مما لا يَلوح لنظره لو كانت جنته في أرض منبسطة ، وذلك من زيادة البهجة والمسرة ، لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم ، ووقع في شعر زهير :

كأن عينيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَة . . .

من النواضح تسقِي جَنَّة سُحُقاً

فقد قال أهل اللغة : يجوز أن يكون سُحُقاً ، نعتاً للجنة بدون تقدير كما قالوا : ناقةُ عُلُط وامرأة عُطُل .

ولم يعرجوا على معنى السَّحَق فيها وهو الارتفاع لأن المرتفع بعيد ، وقالوا : سَحُقت النخلة ككرم إذا طالت .

وفي القرآن ﴿ كمثَل جنة بربْوة ﴾ [البقرة : 265] .

وجوزوا أن يراد أيضاً بالعلو علوّ القدر مثل فلان ذو درجة رفيعة ، وبذلك كان للفظ ﴿ عالية ﴾ هنا ما ليس لقوله : ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ لأن المراد هنالك جنة من الدنيا .

والقُطوف : جمع قِطْف بكسر القاف وسكون الطاء ، وهو الثمر ، سمي بذلك لأنه يُقطف وأصله فِعل بمعنى مَفعول مثل ذِبْح .

ومعنى دُنوها : قربها من أيدي المتناولين لأن ذلك أهنأ إذ لا كلفة فيه ، قال تعالى : ﴿ وذُلِّلتْ قطوفُها تذليلاً ﴾ [الإنسان : 14] .

وجملة ﴿ كلوا واشربوا ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف وهو ومقوله في موضع صفة ل ﴿ جنة ﴾ إذ التقدير : يقال للفريق الذين يُؤتَون كتبهم بأيمانهم حين يستقرون في الجنة : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ الخ .

ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً عن الضمير في قوله : ﴿ فهو في عيشة راضية .

وإنما أفردت ضمائر الفريق الذي أوتي كتابه بيمينه فيما تقدم ثم جاء الضمير ضمير جمع عند حكاية خطابهم لأن هذه الضمائر السابقة حُكيت معها أفعال مما يتلبس بكل فرد من الفريق عند إتمام حسابه .

وأما ضمير كلوا واشربوا ﴾ فهو خطاب لجميع الفريق بعد حلولهم في الجنة ، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيُحيّي كل داخل منهم بكلام يخصه فإذا استقروا أقبل عليهم مضيِّفهم بعبارات الإِكرام .

و﴿ هنيئاً ﴾ يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل إذا ثبت له الهناء فيكون منصوباً على النيابة عن المفعول المطلق لأنه وصفه وإسناد الهناء للأكل والشرب مجاز عقلي لأنهما متلبسان بالهناء للآكِلِ والشارب .

ويجوز أن يكون اسم فاعل من غير الثلاثي بوزن ما للثلاثي .

(218/779)

والتقدير : مهنّئاً ، أي سبب هناء ، كما قال عَمرو بن معد يكرب:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الداعي السميع . . .

أي المسْمع ، وكما وصف الله تعالى بالحكيم بمعنى الحُكم المصنوعات ، ويجوز أن يكون فَعيلاً بمعنى مفعول ، أي مَهْنِيئاً به .

وعلى الاحتمالات كلها فإفراد ﴿ هنيئاً ﴾ في حال أنه وصف لشيئين بناءٌ على أن فَعيلاً بمعنى فاعل لا يطابق موصوفه أو على أنه إذا كان صفة لمصدر فهو نائب عن موصوفه ، والوصف بالمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث .

و ﴿ بما أسلفتم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ كلوا واشربوا .

والباء للسببية .

ومَا صْدَقُ (ما) الموصولة هو العمل ، أي الصالح .

والإِسلاف : جعل الشيء سلفاً ، أي سابقاً .

والمراد أنه مقدم سابق لإِبانه لينتفع به عند الحاجة إليه ، ومنه اشتق السلَف للقرض ، والإِسلاف للإِقراض ، والسُّلْفَة للسَّلَم .

والأيام الخالية ﴾ : الماضية البعيدة مشتق من الخلو وهو الشغور والبعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(219/779)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ظن)

الظَنّ : علم يحصل من مجرَّد أَمَارة ، ومتى قَوِيَتْ أَدّت إلى العِلم ، ومتى ضعُفت جدًّا لم يَتجاوز حَدّ التوهّم ، ومتى قَوِيَ أَو تُصوّر بصورة القوىّ استُعمل معه أَنَّ المثقَّلة وأَنِ المخففة منها ، ومَتى ضعف استُعمل معه أَنِ المتخصّة بالمعدوم من القول والفعل .

وجمع الظنّ : ظُنُونٌ وأَظانِينُ .

وفى الأَحاديث القُدسيّة : "أَنا عند ظنّ عبدى بى ، وأَنا معه إذا ذكرنى" .

وفى الحديث الصّحيح : "إيّاكم والظنّ ، فإِن الظنّ أَكذب الحديث" .

وقال : "لايموتَنّ أَحدكم إلاَّ وهو يحسن الظنّ بالله" .

قال الشاعر :

أَحسنتَ ظنَّك بالأَيام إذْ حَسُنت * ولم تخَفْ سُوءَ ما يأتى به القَدَرُ*

*وسالَمَتْكَ اللَّيالى فاغتررتَ بها * وعند صفْو الليالى يحدُث الكَدَرُ*

وقد ورد الظنّ فى القرآن مجملاً على أَربعة أَوجه :

بمعنى اليقين ، وبمعنى الشكّ ، وبمعنى التُهَمة ، وبمعنى الحُسْبَان .

فالذي بمعنى اليقين فى عشرة مواضع : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ

الْفِرَاقُ ﴾ ، ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَائِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ ، ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ ، ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ ، يعنى ركّاب السّفن فى البحر .

﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ ، يعنى المتخلّفين من غزوة تَبُوك .

﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ .

وأمّا الذى بمعنى الشكّ والتُهَمَة فعل وجوه مختلفة : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ : لن نضيّق عليه .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ

(220/779)

اللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ، يعنى فى حرْب الأَحزاب ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ يعنى اليهود .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ ، ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ يعنى المنافقين فى حقّ المؤمنين .

﴿ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ، ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً ﴾ ، يعنى فى حقّيّة البعث ، ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعنى بنى قُرَيْظَة وحصونهم .

﴿ إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى ﴾ يعنى أَبا جهل ظنّ أَن لا يعاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ يعنى أَنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم غيرُ متَّهم فيما يقول .

والظنّ فى كثير من الأُمور مذموم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

وفيه ظِنَّه ، أَى تُهَمة .

وهو ظِنَّتى ، أَى موضع تُهْمتى .

وبئر ظَنُونٌ : لا يُوثَقُ بمائها .

ورجل ظَنُونٌ : لا يوثق / بخبَره .

وهو مَظِنّة للخير ، وهو من مظانّه .

وظَنَنْت به الخير فكان عند ظنّى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 547.545 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت العادة جارية بأن أهل العرض ينقسمون إلى قسمين : مقبول ومردود ، وذكر سبحانه وتعالى المقبول بادئاً به تشويقاً إلى حاله وتغبيطاً بعاقبته وحسن مآله ، أتبعه المردود تنفيراً عن أعماله بما ذكر من قبائح أحواله فقال : ﴿ وأما من ﴾ ولما كان الدال على المساءة الإيتاء على وجه قبيح ، لا تعيين المؤتي ، قال بانياً للمفعول لذلك وللدلالة على ذل الأخذ وعدم قدرته على الامتناع عن شيء يسوءه : ﴿ أوتي كتابه ﴾ أي صحيفة

أعماله – أعاذنا الله من ذلك ﴿ بشماله فيقول ﴾ أي لما يرى من سوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء حتى لم يشك فيها لما يرى من قبائحه التي قدمها ، وكل ما يأتي مما يوهم سكتة في ذلك اليوم فمن باب المكابرة والمدافعة بالباطل على ما كان عليه في الدنيا ﴿ يا ليتني ﴾ تمنياً للمحال ، وجرى عن نسق ما مضى في البناء للمفعول الدال على ذله وعدم جبلته فقال : ﴿ لم أوت ﴾ أي من مؤت ما ﴿ كتابيه ﴾ أي هذا الذي ذكرني بخبائث أعمالي وعرفني جزاءها ﴿ ولم ﴾ أي ويا ليتني لم ﴿ أدر ﴾ ولو حاولت الدراية ﴿ ما ﴾ أي حقيقة ﴿ حسابيه ﴾ من ذكر العمل وذكر جزائه ، بل استمريت جاهلاً لذلك كما كنت في الدنيا .

(222/779)

ولما تمنى هذين الشيئين ، استأنف مراده بهما فقال لأنه رأى أن ما يستقبله شر مما كان فيه من البرزخ : ﴿ يا ليتها ﴾ أي الموتة التي منها ﴿ كانت القاضية ﴾ أي البائتة الجازمة الملزمة لدوام الموت الخاتمة عليها حتى لا يكون بعدها بعث ولا شيء غير الموت كما كنت أعتقد في الدنيا ؛ قال الإمام الرازي : وفي الحديث " تمنوا الموت " أي إذ ذاك ولم يكن في الدنيا شيء أكره منه عندهم .

ولما كان التمني مفهماً لأنه كان له ضد ما تمناه من البعث على ما كانت تخبره به الرسل ومن الحساب الذي هو سر البعث وخالصه ، وقد كان يقول : إنه يتخلص منه ، على تقدير كونه ، بماله وجاهه قال معللاً لتمنيه : ﴿ ما أغنى ﴾ نافياً تأسفاً على فوات ما كان يرجو من نفعه ، والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم ، أو مستفهماً استفهام إنكار على نفسه وتوبيخ حيث سولت له ما أثمر له كل سوء وكل محال منازعة للفطرة الأولى المؤيدة بما أخبرت به الرسل حتى أوقعه ذلك التسويل في الهلكة ﴿ عني ماليه ﴾ أي الذي منعت منه حق الله وتعظمت به على عباده .

وهذا النفي للإغناء سائغ مفهوم على كل من تقريري النفي والاستفهام .

ولما كان المال سبب الوصول إلى السلطان ، قال نافياً لما أوصله إليه ماله شارحاً لعدم إغنائه ، ﴿ هلك عني ﴾ أي مجاوزاً لي حتى كأني لم أكن فيه ساعة قط ﴿ سلطانيه ﴾ أي تسلطي على الدعاة إلى الله بالشبه الباطلة التي كان يطلق اللسان بها فأساعده عليها مع ظهور بطلانها الملك الذي أوصل إليه المال فعاد لأن ذلك الملك الأعظم هلك والمساعد أبعد مباعد .

ولما كان كأنه قيل : هذا ما قال ، فما يقال ؟ أجيب بأنه يقال للزبانية تعذيباً لروحه بالتوبيخ والأمر بالتعذيب على رؤس الأشهاد : ﴿ خذوه ﴾ أي أيها الزبانية الذين كان يستهين بهم عند سماع ذكرهم .

ولما كان الأخذ دالاً على الإهانة الناشئة عن الغضب ، سبب عنه قوله : ﴿ فغلوه ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه ورجليه من وراء قفاه إلى ناصيته .

(223/779)

ولما كان الغل لما بعده من العقاب ، قال معظماً رتبة عقابه في الشدة والهول بالتعبير بأداة التراخي : ﴿ ثم الجحيم ﴾ أي النار العظمى التي تجمح على من يريد دفاعاً وتحجم عنها من رآها لأنها في غاية الحمو والتوقد والتغيظ والتشدد ﴿ صلوه ﴾ أي بالغوا في تصليته إياها وكرروها لغمسه في النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى ولا تصلوه في أول أمره غيرها لأنه كان لا يألو جهداً أن يحرق قلوب النصحاء بأشد ما يقدر عليه من الكلام وغيره ، وكان يتعظم على الضعفاء ، فناسب أن يصلي أعظم النيران ، وعبر أيضاً بأداة التراخي لعلو رتبة مدخولها ، فقال مؤذناً بعدم الخلاص : ﴿ ثم في سلسلة ﴾ أي عظيمة جداً لا ما هو دونها .

ولما قدمها دلالة على الاهتمام بها وعلى تخصيصها لشدة مخافتها ، عرف بعظيم هولها وشدة فظاعتها ليجتمع المفهوم والمنطوق على تهويلها فقال : ﴿ ذرعها ﴾ أي في أيّ شيء فرضت من طول أو عرض ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ يحتمل أن يكون هذا العدد حقيقة ، وأن

يكون مبالغة ، والذي يدل على أنها للمبالغة ما رواه الترمذي – وقال : إسناده حسن – عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لو أن رصاصة مثل هذه – وأشار إلى مثل الجمجمة – وأرسلت من السماء إلى الأرض – وهي مسيرة خمسمائة سنة – لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها " وأشار سبحانه إلى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال : ﴿ فاسلكوه ﴾ أي أدخلوه بحث يكون كأنه السلك – أي الحبل – الذي يدخل في ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه فيصير في غاية الضنك والهوان لا يقدر على حركة أصلاً ، وهذا تعذيب القالب لأنه أفسد القلب بعدم الإيمان والقالب بعدم الأعمال .

(224/779)

ولما ذكر على الإجمال عقابه أتبعه أسبابه ، فقال بادئاً بأعظمها مؤكداً لأن كل كافر حتى المعطل يقر بالله تعالى نوع إقرار ويدعي الإيمان به نوع ادعاء ، لأنه لا يقدر على غير ذلك لما له سبحانه من غلبة الظهور وانتشار الضياء والنور : ﴿ إنه كان ﴾ أي جبلة وطبعاً وإن أظهر شيئاً يلبس به على الضعفاء ويدلس على الأغنياء ﴿ لا يؤمن ﴾ أي الآن ولا في

مستقبل الزمان ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي يعلم السر وأخفى .

ولما كانت عظمة الملك موجبة لزيادة النكال لمن يعانده على قدر علوها ، وكان الذي أورث هذا الشقي هذا الخزي هو تعظمه على أمر الله وعباده ، أشار إلى أنه لا يستحق العظمة غيره سبحانه فقال : ﴿ العظيم ﴾ أي الكامل العظم .

(225/779)

ولما بين عناده للملك الأعظم بإفساده القوة العلمية بين ما يوجبه الكفر من احتقاره للضعفاء إفساداً للقوة العملية إعلاماً بأنه مكلف بفروع الشريعة كما أنه مكلف بأصولها ، وبياناً لأن عناده لمن فوقه لرداءة طبعه لا لعلو همته ، فقال معظماً لهذا الذنب لجعله في سياق الكفر وبالتعبير بالحض مشيراً به إلى أن فاعل ذلك شديد الاستغراق في حب الدنيا لأنه لا يمنعه من حث غيره على الخير إلا ادخاره لنفسه : ﴿ ولا يحض ﴾ أي يحمل ويحث ﴿ على ﴾ بذل ﴿ طعام ﴾ أو إطعام ﴿ المسكين ﴾ أي تسهيله بإعانته عليه إن كان موجوداً ، والسؤال في بذله وما يقوم مقامه إن كان مفقوداً ، فكيف بالبذل من عنده ، فإن ذلك لا يحمل عليه إلا الإيمان لخلوه عن حظ ، والتقييد يفهم أنه يحث على خدمة الأكابر الجبابرة ويحب العكوف على أبوابهم والإضافة مع التعبير بالطعام دون الإطعام تشعر بأن الفقراء

يملكون كفايتهم من أموال الأغنياء ، فدل ذلك على أنه مع كفره هو أشنع صفات الباطن في غاية الشح والقساوة وعدم المروءة للإعراض عن أسباب التمدح وعن التنزه عن سوء القالة وقبيح الذكر ، وذلك أشنع الرذائل ، فلذلك خصص هذين الأمرين ، وكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يحض على طعامهم ويقول : خلعنا نصف السلسة بالإيمان أفلا نخلع الآخر – يعني بالحث على الإطعام ، وذمه على الاستهان بالمساكين يفهم الذم على الاستهانة بمن هم دونهم ممن هو أسوأ حالاً منهم بطريق الأولى .

ولما وصفه سبحانه وتعالى بأقبح العقائد وأشنع الرذائل ، سبب عنهما في مقابلة إفساد القوتين العلمية قوله : ﴿ فليس له اليوم ﴾ ولما ذكر الزمان المتعقب للبعث ، ذكر المكان الكائن فيه وهو الدار الآخرة فقال : ﴿ ههنا ﴾ أي في مجمع القيامة كله ﴿ حميم ﴾ أي صديق خالص يحترق له ويحميه من العذاب لأنهم كلهم له أعداء كما أنه هو كان لا يرق على الضعفاء فيما هم فيه من الإقلال من حطام الأموال .

(226/779)

ولما نفى عنه الجاه لانسلاخه من حزب الملك الولي الودود ، وتحيزه إلى حزب الشيطان العدو الجحود ، أتبعه المقصود بالمال الذي تنشأ عنه جميع الاستمتاعات ويقصد عنده

الاجتماع والأنس بالأصحاب لإخلاده إلى ماله وإعراضه عن عيال الملك لأجل ضعفهم الذي وهبه المال وأمره بمواساتهم فيه فقال : ﴿ ولا طعام ﴾ ولما كان الاستثناء معياراً للعموم قال : ﴿ إلا من غسلين ﴾ أي غسالة أهل النار من فيحهم وصديدهم ، فعلين من الغسل ، ويلزم من هذا الطعام أن يكون تحت غيره ليسيل ماء غسالته إليه .

ولما حصر طعامهم فيما لا يقربه أحد باختياره ، حصر من يتناوله معبراً عنهم بالوصف الذي أوجب لهم أكله فقال : ﴿ لا يأكله ﴾ وفرغ الاستثناء تنبيهاً على أن المستثنى هو المقصود حتى كأنه لا مستثنى منه فقال : ﴿ إلا الخاطئون ﴾ أي يأكله المتعمدون للخطايا لا غيرهم ، وهو من خطأ الرجل بوزن فرح مهموزاً - إذا تعمد الذنب ، وأما المخطىء فهو من قصد الخير فلم يصبه بغير تعمد ﴿ فليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي أردتم الصواب فلم تصيبوه ، وهذا الطعام يغسل ما في بطونهم من الأعيان والمعاني التي بها قوام صاحبها ، وهو بمنزلة ما كانوا يشحون به من أموالهم التي أبطنوها وادخروها في خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 133 .

137 ﴾

(227/779)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) ﴾

واعلم أنه تعالى بين أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار ، فقال : ليتهم عذبوني بالنار ، وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي حتى لا أقع في هذه الخجالة ، وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني ، وقوله : ﴿ وَلَمْ أَدْرِ ما حسابية ﴾ أي ولم أدر أي شيء حسابيه ، لأنه حاصل ولا طائل له في ذلك الحساب ، وإنما كله عليه .

يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27)

الضمير في ﴿ يا ليتها ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان الأول : إلى الموتة الأولى ، وهي وإن لم تكن مذكورة إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة والقاضية القاطعة عن الحياة .

وفيها إشارة إلى الإنتهاء والفراغ ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ﴾ [الجمعة : 10] ويقال : قضى على فلان ، أي مات فالمعنى يا ليت الموتة التي متها كانت القاطعة لأمري ، فلم أبعث بعدها ، ولم ألق ما وصلت إليه ، قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب له الموت ، قال الشاعر :

وشر من الموت الذي إن لقيته . . تمنيت منه الموت والموت أعظم

والثاني : أنه عائد إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت علي لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها .

مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28)

(228/779)

﴿ مَا أغنى ﴾ نفي أو استفهام على وجه الإنكار أي أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار ، ونظيره قوله : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ [مريم : 80] وقوله : ﴿ هَلَكَ عَنّي سلطانيه ﴾ في المراد بلسطانيه وجهان : أحدهما : قال ابن عباس : ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها على محمد في الدنيا ، وقال مقاتل : ضلت عني حجتي يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك والثاني : ذهب ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً ، وقيل معناه : إنني إنما كنت أنازع المحقين بسبب الملك والسلطان ، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوبال .

(229/779)

واعلم أنه تعالى ذكر سرور السعداء أولاً ، ثم ذكر أحوالهم في العيش الطيب وفي الأكل والشرب ، كذا ههنا ذكر غم الأشقياء وحزنهم ، ثم ذكر أحوالهم في الغل والقيد وطعام الغسلين ، فأولها أن تقول : خزنة جهنم خذوه فيبتدر إليه مائة ألف ملك ، وتجمع يده إلى عنقه ، فذاك قوله : ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ قال المبرد : أصليته النار إذا أوردته إياها وصليته أيضاً كما يقال : أكرمته وكرمته ، وقوله : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ معناه لا تصلوه إلى الجحيم ، وهي النار العظمى لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس ، ثم في سلسلة وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل ، وقوله : ﴿ ذَرْعُهَا ﴾ معنى الذرع في اللغة التقدير بالذراع من اليد ، يقال : ذرع الثوب يذرعه ذرعاً إذا قدره بذراعه ، وقوله : ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه ليس الغرض التقدير بهذا المقدار بل الوصف بالطول ، كما قال : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [التوبة : 80] يريد مرات كثيرة والثاني : أنه مقدر بهذا المقدار ثم قالوا : كل ذراع سبعون باعاً وكل باع أبعد مما بين مكة والكوفة ، وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هو ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال المبرد : يقال سلكه في الطريق ، وفي القيد وغير ذلك وأسلكته معناه أدخلته ولغة القرآن سلكته قال الله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سقر ﴾ [المدثر : 42] وقال : ﴿ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ [الشعراء : 200

] قال ابن عباس : تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه ، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه ، وقال الكلبي : كما يسلك الخيط في اللؤلؤ ثم يجعل في عنقه سائرها ، وههنا سؤالات :

(230/779)

السؤال الأول : ما الفائدة في تطويل هذه السلسلة ؟ الجواب : قال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، وإذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسلة الواحدة كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب أشد .

السؤال الثاني : سلك السلسلة فيهم معقول ، أما سلكهم في السلسلة فما معناه ؟ الجواب : سلكه في السلسلة أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أجزاؤها وهو فيما بينها مزهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ، وقالوا الفراء : المعنى ثم اسلكوا فيه السلسلة كما يقال : أدخلت رأسي في القلنسوة وأدخلتها في رأسي ، ويقال : الخاتم لا يدخل في إصبعي ، والإصبع هو الذي يدخل في الخاتم .

السؤال الثالث : لم قال في ﴿ سلسلة . . . فاسلكوه ﴾ ، ولم يقل : فاسلكوه في سلسلة ؟ الجواب : المعنى في تقديم السلسلة على السلك هو الذي ذكرناه في تقديم الجحيم على التصلية ، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة

لأنها أفظع من سائر السلاسل السؤال الرابع : ذكر الأغلال والتصلية بالفاء وذكر السلك في هذه السلسلة بلفظ ثم ، فما الفرق ؟ الجواب : ليس المراد من كلمة ثم تراخي المدة بل التفاوت في مراتب العذاب .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذا العذاب الشديد ذكر سببه فقال :

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34)

فالأول إشارة إلى فساد حال القوة العاقلة .

والثاني إشارة إلى فساد حال القوة العملية ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَلَا يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ فيه قولان : أحدهما : ولا يحض على بذل طعام المسكين والثاني : أن الطعام ههنا اسم أقيم مقام الإطعام كما وضع العطاء مقام الإعطاء في قوله :

وبعد عطائك المائة الرتاعا . . المسألة الثانية :

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ فيه دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المساكين أحدهما : عطفه على الكفر وجعله قرينة له والثاني : ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بمن يترك الفعلا .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن الكفار يعاقبون على ترك الصلاة والزكاة ، وهو المراد من قولنا : إنهم مخاطبون بفروع الشرائع ، وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الباقي ! وقيل : المراد منه منع الكفار وقولهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] .

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35)

أي ليس له في الآخرة حميم أي قريب يدفع عنه ويحزن عليه ، لأنهم يتحامون ويفرون منه كقوله : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] وكقوله : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] .

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

يروى أن ابن عباس سئل عن الغسلين ، فقال : لا أدري ما الغسلين .

وقال الكلبي : وهو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو غسلين فعلين من الغسل .

المسألة الثانية :

الطعام ما هيء للأكل ، فلما هيء الصديد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم ، ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم لهم مقام الطعام فسمى طعاماً ، كما قال :

تحية بينهم ضرب وجيع . . والتحية لا تكون ضرباً إلا أنه لما أقيم مقامه جاز أن يسمى به .

ثم إنه تعالى ذكر أن الغسلين أكل من هو ؟ فقال :

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)

(232/779)

الآثمون أصحاب الخطايا وخطىء الرجل إذا تعمد الذنب وهم المشركون ، وقرىء الخاطيون بإبدال الهمزة ياء والخاطون بطرحها ، وعن ابن عباس أنه طعن في هذه القراءة ، وقال ما الخاطيون كلنا نخطو إنما هو الخاطئون ، ما الصابون ، إنما هو الصابئون ، ويجوز أن يجاب عنه بأن المراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 100 . 103 ﴾

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾

إعطاء الكتاب باليمين دليلٌ على النجاة .

وقال ابن عباس : أوّلُ مَن يُعطَى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب ، وله شعاع كشعاع الشمس .

قيل له : فأين أبو بكر ؟ فقال هيهات هيهات زفَّته الملائكة إلى الجنة .

ذكره الثعلبي .

وقد ذكرناه مرفوعاً من حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب "التذكرة" .

والحمد لله .

﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَؤا كِتَابِيَهْ ﴾ أي يقول ذلك ثقةً بالإسلام وسروراً بنجاته ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشِّمال من دلائل الغَمّ .

قال الشاعر :

أبِيني أفي يُمْنَى يَدَيْكِ جعلتِني . . .

فأفرح أم صيَّرتِني في شمالِك

ومعنى : "هَاؤُمُ" تعالوا ؛ قاله ابن زيد .

وقال مقاتل : هَلُمَّ .

وقيل : أي خذوا ؛ ومنه الخبر في الربا "إلا هَاءَ وَهَاءَ" أي يقول كلّ واحد لصاحبه : خذ .

قال ابن السِّكّيت والكسائي : العرب تقول هاءَ يا رجُل اقرأ ، وللاثنين هاؤما يا رجلان ، وهاؤم يا رجال ، وللمرأة هاءِ (بكسر الهمزة) وهاؤما وهاؤُمْنَ .

والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف ؛ قاله القتيبي .

وقيل : إن "هاؤم" كلمةٌ وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح .

" روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداه أعرابي بصوت عالٍ فأجابه النبيّ صلى الله عليه وسلم "هاؤم" " يطوّل صوته .

"وَكِتَابِيَهْ" منصوب ب "هاؤم" عند الكوفيين .

وعند البصريين ب "اقرءوا" لأنه أقرب العاملين .

والأصل "كتابي" فأدخلت الهاء لتبيّن فتحة الياء ، وكان الهاء للوقف ، وكذلك في أخواته : "حِسَابِيَهْ ، وماليه ، وسلطانيه" وفي القارعة "ماهيه" .

وقراءة العامة بالهاء فيهن في الوقف والوصل معاً ؛ لأنهنّ وقعن في المصحف بالهاء فلا تترك .

واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة في إلحاق الهاء في السّكْت ويوافق الخط .

(234/779)

وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحميد ويعقوب بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف فيهن جُمَع .

ووافقهم حمزة في "ماليه وسلطانيه" ، و "ماهيه" في القارعة .

وجملة هذه الحروف سبعة .

واختار أبو حاتم قراءة يعقوب ومن معه اتباعاً للغة .

ومن قرأهن في الوصل بالهاء فهو على نية الوقف .

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ أي أيقنت وعلمت ، عن ابن عباس وغيره .

وقيل : أي إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي عذبني فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني بها .

قال الضحاك : كل ظَنٍّ في القرآن من المؤمن فهو يقين .

ومن الكافر فهو شكّ .

وقال مجاهد : ظَنُّ الآخرة يقين ، وظَنُّ الدنيا شكّ .

وقال الحسن في هذه الآية : إن المؤمن أحسنَ الظن بربّه فأحسن العمل ، وإن المنافق أساء الظن بربّه فأساء العمل .

﴿ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي في الآخرة ولم أنكر البعث ؛ يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب ، لأنه تيقّن أن الله يحاسبه فعمل للآخرة .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي في عَيش يرضاه لا مكروه فيه .

وقال أبو عبيدة والفرّاء : "رَاضِيَةٍ" أي مرضية ؛ كقولك : ماء دافق ؛ أي مدفوق .

وقيل : ذات رِضاً ؛ أي يرضى بها صاحبها .

مثل لابِن وتامِر ؛ أي صاحب اللبن والتمر .

وفي الصحيح : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ويصحّون فلا يَمْرَضون أبداً ويَنْعَمون فلا يَرَوْن بؤساً أبداً ويَشبّون فلا يَهْرَمُون أبداً " ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي عظيمة في النفوس .

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة التناول ، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع على ما يأتي بيانه في سورة "الإنسان" .

والقُطُوف جمعِ قطف (بكسر القاف) وهو ما يُقطف من الثمار .

والقَطْف (بالفتح المصدر) .

والْقِطَاف (بالفتح والكسر) وقت القطف .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي يقال لهم ذلك .

﴿ هَنِيئَاً ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص .

﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ ﴾ قدّمتم من الأعمال الصالحة .

(235/779)

﴿ فِي الأيام الخالية ﴾ أي في الدنيا .

وقال : "كُلُوا" بعد قوله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ لقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ ﴾ و "مَن" يتضمن معنى الجمع .

وذكر الضحاك أن هذه الآية نزلت في أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزوميّ ؛ وقاله مقاتل .

والآية التي تليها في أخيه الأسود بن عبد الأسد ؛ في قول ابن عباس والضحاك أيضاً ؛ قاله الثعلبيّ .

ويكون هذا الرجل وأخوه سبب نزول هذه الآيات .

ويعمّ المعنى جميع أهل الشقاوة وأهل السعادة ؛ يدل عليه قوله تعالى : "كُلُوا واشربوا" .

وقد قيل : إن المراد بذلك كلُّ من كان متبوعاً في الخير والشر .

فإذا كان الرجل رأساً في الخير ، يدعو إليه ويأمر به ويكثر تَبَعه عليه ، دُعيَ باسمه واسم أبيه فيتقدّم ، حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض ، في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات ؛ فيبدأ بالسيئات فيقرأها فيُشْفِق ويصفرّ وجهه ويتغيّر لونه ؛ فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه سيئاتك وقد غفرت لك" فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً ، ثم يقلب كتابَه فيقرأ حسناتِه فلا يزداد إلا فرحاً ؛ حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه حسناتك قد ضُوعفت لك" فيبيض وجهه ويُؤْتى بتاج فيوضع على رأسه ، ويُكْسَى حُلَّتين ، ويُحلّى كل مفصل منه ويطول ستين ذراعاً وهي قامة آدم عليه السلام ؛ ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم وبشّرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا .

فإذا أدبر قال : ﴿ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي مرضيّة قد رضيها ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ في السماء "قُطُوفُهَا" ثمارها وعناقيدها .

"دَانِيَةٌ" أدنيت منهم .

فيقول لأصحابه : هل تعرفوني ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة ، من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان أبشّر كلَّ رجلٍ منكم بمثل هذا .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ﴾ أي قدّمتم في أيام الدنيا .

وإذا كان الرجل رأساً في الشر ، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه ، نودي باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حسابه ، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات ، فيبدأ بالحسنات فيقرأها ويظن أنه سينجو ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه حسناتك وقد رُدّت عليك" فيسودّ وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير ، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً ، ولا يزداد وجهه إلاّ سواداً ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك" أي يضاعف عليه العذاب .

ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل قال فيعظم للنار وتزرقّ عيناه ويسودّ وجهه ، ويكسى سرابيل القَطِرَان ويقال له : انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا ؛ فينطلق وهو يقول : ﴿ يا ليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يا ليتها كَانَتِ القاضية ﴾ يتمنىّ الموت .

﴿ هَّلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ تفسير ابن عباس : هلكتْ عني حُجتي .

وهو قول مجاهد وعِكرمة والسدّي والضحاك .

وقال ابن زيد : يعني سلطانيه في الدنيا الذي هو المُلْك .

وكان هذا الرجل مطاعاً في أصحابه؛ قال الله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ قيل: يبتدره مائة ألف مَلَك ثم تجمع يده إلى عنقه وهو قوله عز وجل: "فَغُلُّوهُ" أي شدّوه بالأغلال ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أي اجعلوه يَصْلَى الجحيم ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ الله أعلم بأيّ ذراع، قاله الحسن.

وقال ابن عباس: سبعون ذراعاً بذراع المَلَك.

وقال نَوْف: كل ذراع سبعون باعاً، وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة.

وكان في رحبة الكوفة.

وقال مقاتل: لو أن حَلْقة منها وُضعت على ذُرْوة جبل لذاب كما يذوب الرّصاص.

وقال كعب: إن حَلْقة من السلسلة التي قال الله تعالى ذرعها سبعون ذراعاً أن حلقة منها مثل جميع حديدِ الدنيا.

(237/779)

﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه.

وقاله مقاتل.

والمعنى ثم اسلكوا فيه سلسلة.

وقيل : تدخل عنقه فيها ثم يجرّ بها .

وجاء في الخبر : أنها تدخل من دبره وتخرج من مَنْخِرَيْهِ .

وفي خبر آخر : تدخل مِن فيه وتخرج من دبره ، فينادي أصحابه هل تعرفوني ؟ فيقولون لا ، ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت ؟ فينادي أصحابه أنا فلان بن فلان ، لكل إنسان منكم مثل هذا .

قلت : وهذا التفسير أصح ما قيل في هذه الآية ، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : 71] وفي الباب حديث أبي هريرة بمعناه خَرّجه الترمذيّ .

وقد ذكرناه في سورة "سبحان" فتأمله هناك .

﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي على الإطعام ، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء .

قال الشاعر :

أَكُفْراً بعد رَدّ الموت عنّي . . .

وبعد عطائك المائةَ الرِّتَاعَا

أراد بعد إعطائك .

فبيّن أنه عُذّب على ترك الإطعام وعلى الأمر بالبخل ، كما عُذّب بسبب الكفر .

والحَضُّ : التحريض والحَثّ .

وأصل "طعام" أن يكون منصوباً بالمصدر المقدّر .

والطعام عبارة عن العين ، وأضيف للمسكين للملابسة التي بينهما .

ومن أعمل الطعام كما يعمل الإطعام فموضع المسكين نصب .

والتقدير على إطعام المطْعِم المسكين ؛ فحذف الفاعل وأضيف المصدر إلى المفعول .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ ﴾

خبر "ليس" قوله : "له" ولا يكون الخبر قوله : "هَا هُنَا" لأن المعنى يصير : ليس ها هنا طعام إلا من غِسْلِين ، ولا يصح ذلك ؛ لأن ثَمّ طعاماً غيره .

و"هَا هُنَا" متعلق بما في "له" من معنى الفعل .

والحميم ها هنا القريب .

أي ليس لي قريب يرقّ له ويدفع عنه .

وهو مأخوذ من الحميم وهو الماء الحارّ ؛ كأنه الصديق الذي يرقّ ويحترق قلبه له .

(238/779)

والغِسْلِين فِعْلين من الغَسل ؛ فكأنه ينغسل من أبدانهم ، وهو صَدِيدُ أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم ؛ عن ابن عباس .

وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار .

والغِسْل (بالكسر) : ما يغسل به الرأس من خِطْمِيّ وغيره .

الأخفش : ومنه الغسلين ، وهو ما نغسل من لحوم أهل النار ودمائهم .

وزيد فيه الياء (والنون) كما زيد في عِفِرّين .

وقال قتادة : هو شر الطعام وأبشعه .

ابن زيد : لا يُعلم ما هو ولا الزّقوم .

وقال في موضع آخر : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6] يجوز أن يكون الضّريع من الغسلين .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين ؛ ويكون الماء الحار .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ ﴾ أي وليس لهم طعام ينتفعون به .

﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ أي المذنبون .

وقال ابن عباس : يعني المشركين .

وقرىء "الخاطيون" بإبدال الهمزة ياء ، و "الخاطون" بطرحها .

وعن ابن عباس : ما الخاطون ! كلنا نخطو .

وروَى عنه أبو الأسود الدُّؤَلِيّ : ما الخاطون ؟ إنما هو الخاطئون .

ما الصابون ! إنما هو الصابئون .

ويجوز أن يراد الذين يتخطّون الحقّ إلى الباطل ويتعدَّون حدود الله عز وجل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(239/779)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَه بِيَمِينِهِ ﴾

تفصيلٌ لأحكامِ العرضِ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تبجّحاً وابتهاجاً . ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ هَا اسمٌ لخُذْ وفيهِ ثلاثُ لُغاتٍ أجودُهُنَّ هاءِ يا رجلُ وهاءِ يا امرأةُ وهاؤُا يا رجلانِ أو امرأتانِ وهاؤُونَ يا رجالُ وهاؤُنَّ يا نسوةُ . ومفعولُهُ محذوفٌ ، وكتابَيه مفعولُ اقرؤُوا لأنَّه أقربُ العاملَينِ ، ولأنَّه لو كانَ مفعولَ هاؤُمُ لقيلَ اقرؤُه إذِ الأَوْلَى إضمارُهُ حيثُ أمكنَ ، والهاءُ فيهِ وفي حسابَيه ومالَيه وسلطانَيه للسكتَ تُثبتُ في الوقفِ وتسقطُ في الوصلِ واستُحبَّ إثباتُهَا لثباتِهَا في الإمامِ .

(240/779)

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ أي علمتُ ، ولعلَّ التعبيرَ عنْهُ بالظنّ للإشعار بأَنَّهُ لا يقدحُ في الاعتقادِ ما يهجسُ في النفسِ من الخطراتِ التي لا ينفكُّ عنها العلومُ النظريةُ غالباً .

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رِضاً على النسبةِ بالصيغةِ كما يقالُ دارعٌ في النسبةِ بالحرفِ أو جُعل لها مجازاً وهو لصاحِبِهَا وذلكَ لكونِهَا صافيةً عن الشوائبِ دائمةً مقرونةً بالتعظيمِ . ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعةِ المكانِ لأَنَّها في السماءِ أو الدرجاتِ أو الأبنيةِ والأشجارِ ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمعُ قِطْفٍ وهُو ما يُجتَنَى بسرعةٍ والقَطْفُ بالفتحِ مصدرٌ .

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ يتناولُهَا القاعدُ . ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ بإضمارِ القولِ ، والجمعُ باعتبارِ المَعْنَى ﴿ هَنِيئاً ﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أو هنئتُم هنيئاً . ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بمقابلةِ ما قدَّمتُم من الأعمالِ الصالحةِ ﴿ فِى الأيام الخالية ﴾ أي الماضيةِ في الدُّنيا ، وعن مجاهدٍ أيامُ الصيامِ . ورُوِيَ يقولُ اللهُ تعالَى : " يا أوليائِي طالما نظرتُ إليكُم في الدُّنيا وقد قلصتْ شفاهُكُم عن الأشربةِ وغارتْ أعينُكُم وخَمُصتْ بطونُكُم فكونُوا اليومَ في نعيمِكُم وكُلُوا واشربُوا " الآيةَ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابه بِشِمَالِهِ ﴾ ورأَى ما فيهِ من قبائحِ الأعمالِ ﴿ فَيَقُولُ يالَيتنى لَمْ أُوتَ كِتَابيه وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ لما شاهدَ من سُوءِ العاقبةِ ﴿ يالَيتها ﴾ يا ليتَ الموتةَ التي مِتُّها ﴿ كَانَتِ القاضية ﴾ أي القاطعةَ لأمري ولم أُبعثْ بعدَها ، ولم ألقَ ما ألقَى فضميرُ ليتِهَا للموتةِ ، ويجوزُ أن يكونَ لِمَا شاهدَهُ من الحالةِ أي يا ليتَ هذه الحالةَ كانتِ الموتةَ

التي قضتْ عليَّ لما أنَّهُ وجدَها أمرَّ من الموتَ فتمنَّاهُ عندَها وقد جُوِّزَ أن يكونَ للحياةِ الدُّنيا أيْ يا ليتَ الحياةَ الدُّنيا كانتِ الموتةَ ولم

(241/779)

أُخلقْ حياً .

﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ ما لي من المالِ والأتباعِ على أنَّ ما نافيةٌ والمفعولُ محذوفٌ أو استفهاميةٌ للإنكارِ أيْ أيَّ شيءٍ أغْنَى عنّي ما كانَ لي من اليسارِ . ﴿ هَلَكَ عَنّى سلطانيه ﴾ أي مُلكِي وتسلُّطِي على الناسِ أو حُجتي التي كنتُ أحتجُّ بها في الدُّنيا أو تسلطي على القُوَى والآلاتِ فعجزتُ عن استعمالِهَا في العِبَاداتِ .

(242/779)

﴿ خُذُوهُ ﴾ حكايةٌ لما يقولُهُ اللهُ تعالَى يومئذٍ لخزنةِ النارِ ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ أي شُدوه بالأغلالِ ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أي لا تُصلُّوه إلا الجحيمَ وهي النارُ العظيمةُ ليكونَ الجزاءُ على وفقِ المعصيةِ حيثُ كانَ يتعاظمُ على الناسِ ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ أي طولُهَا ﴿

سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ فأدخلُوه فيها بأنْ تلفّوهَا على جسدِهِ فهو فيما بينَهَا مرهقٌ لا يستطيعُ حَراكاً ما وتقديمُ السلسلةِ كتقديمِ الجحيمِ للدلالةِ على الاختصاصِ والاهتمامِ بذكرِ ألوانِ ما يعذبُ بِهِ وثمَّ لتفاوتِ ما بينَ الغُلِّ والتصليةِ وما بينهُمَا وبينَ السلكِ في السلسلةِ في الشدَّةِ. ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ العظيم ﴾ تعليلٌ بطريقِ الاستئنافِ التحقيقيِّ ووصفُه تعالَى بالعِظَمِ للإيذانِ بأنَّه المُستحقُّ للعظمةِ فحسبُ، فمَنْ نسبَهَا إلى نفسِهِ استحقَّ أعظمَ العُقوباتِ ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ ولا يحثُّ على بذلِ طعامِهِ أوْ عَلَى إطعامِهِ فضلاً أنْ يبذلَ مِن مالِهِ، وقيلَ ذُكِرَ الحضُّ للتنبيهِ على أنَّ تاركَ الحضِّ بهذِهِ المنزلةِ فما ظنُّكَ بتاركِ الفعلِ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ الكفارَ مخاطبونَ بالفروعِ في حقِّ المُؤاخذةِ. قالُوا تخصيصُ الأمرينِ بالذكرِ لما أنَّ أقبحَ العقائدِ الكفرُ وأشنعَ الرذائلِ البخلُ وقَسوةُ القلبِ. ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هاهنا حَمِيمٌ ﴾ أي قريبٌ يَحميهِ ويدفعُ عنْهُ ويحزَنُ عليهِ لأنَّ أولياءَهُ يتحامونَهُ ويُفرُّونَ منْهُ ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ أي من غُسالةِ أهلِ النارِ وصديدِهِم فِعلين من الغُسْلِ.

﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾

أصحابُ الخَطَايَا ، منْ خَطِىءَ الرجلُ إذَا تعمَّدَ الذنبَ لا من الخطإِ المقابلِ للصوابِ دونَ المقابلِ للعمدِ ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا أنَّهم المشركونَ وقُرِىءَ الخَاطِئُونَ بإبدالِ الهمزةِ ياءً وقُرِىءَ بطرحِهَا وقدْ جُوِّزَ أنْ يرادَ بهِم الذينَ يتخطَّونَ الحقَّ إلى الباطلِ ويتعدّونَ حدودَ اللهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(244/779)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيتَنى لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيه وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ لما يرى من قبح العمل وانجلاء الحساب عما يسوءه .

﴿ يَا لَيْتَهَا ﴾ أي الموتة التي متها في الدنيا ﴿ حِسَابِيَهْ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ أي القاطعة لأمري ولم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقى فالضمير للموتة الدال عليها المقام وإن لم يسبق لها ذكر ويجوز أن يكون لما شاهده من الحالة أي ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علي لما أنه وجدها أمر من الموت فتمناه عندها وقد قيل أشد من الموت ما يتمنى الموت عنده وقد جوز أن يكون للحياة الدنيا المفهومة من السياق أيضاً والمراد بالقاضية الموتة فقد اشتهرت في ذلك أي يا ليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق حياً وبتفسير

القاضية بما ذكر اندفع ما قيل أنها تقتضي تجدد أمر ولا تجدد في الاستمرار على العدم نعم هذا الوجه لا يخلو عن بعد .

﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ أي ما أغنى عني شيئاً الذي كان لي في الدنيا من المال ونحوه كالاتباع على أن ما في ما أغنى نافية وما في ماليه موصولة فاعل أغنى ومفعوله محذوف وليه جار ومجرور في موضع الصلة ويجوز أن يجعل ماليه عبارة عن مال مضاف إلى ياء المتكلم والأول أظهر شمولاً للاتباع ونحوها إذ لا يتأتى اعتبار ذلك على الثاني إلا باعتبار اللزوم ويجوز أن تكون ما في ما أغنى استفهامية للإنكار وماليه على احتمالية أي أي شيء أغنى عني مالي .

(245/779)

﴿ هَلَكَ عَنّى سلطانيه ﴾ أي بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وبه فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وعكرمة والسدي وأكثر السلف أو ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً أو تسلطي على القوى والآلات التي خلقت لي فعجزت عن استعمالها في الطاعات يقول ذلك تحسراً وتأسفاً وإلى هذا ذهب قتادة مشيراً إلى وجه اختياره دون الثاني أخرج عبد بن حميد عنه أنه قال أما والله ما كل من دخل النار كان أمير

قرية ولكن الله تعالى خلقهم وسلطهم على أبدانهم وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته وبما أشار إليه رجح الأول على الثاني أيضاً لكن قيل ما بعد أشد مناسبة له وستطلع إن شاء الله تعالى على ذلك وعن ابن عباس أنها نزلت في الأسود بن عبد الأشد ويحكى عن فنا خسرة الملقب بعضد الدولة ابن بويه أنه لما أنشد قوله :

ليس شرب الكاس إلا في المطر . . .

وغناء من جوار في سحر

غانيات سالبات للنهى . . .

ناعمات في تضاعيف الوتر

مبرزات الكأس من مطلعها . . .

ساقيات الراح من فاق البشر

عضد الدولة وابن ركنها . . .

ملك الأملاك غلاب القدر

لم يفلح بعده وجن وكان لا ينطلق لسانه إلا بهذه الآية وفي يتيمة الثعالبي أنه لما احتضر لم ينطلق لسانه إلا بتلاوة ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه نسأل الله تعالى العفو والعافية وروي عن أبي عمرو أنه أدغم هاء السكت من ﴿ ماليه ﴾ [القارعة : 28] في هاء هلك وهو ضعيف قياساً لأن هاء السكت لا تدغم لكون الوقف عليها محققاً أو مقدراً

كما في شرح التوضيح وفيه رواية الإدغام فيما ذكر عن ورش وتعقب بأن المروى عنه إنما هو النقل في كتابيه إني والله تعالى أعلم .

﴿ خُذُوهُ ﴾ بتقدير القول أي فيقول الله تعالى للزبانية خذوه ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ أي شدوه بالأغلال .

(246/779)

﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أي لا نصلوه إلا الجحيم وهي النار العظيمة الشديدة التأجج لعظم ما أوتي به من المعصية وهي الكفر بالله تعالى العظيم وقيل حيث كان يتعظم على الناس وهو مبني على اختصاص ما قبل بالسلاطين بقرينة تعظيم أمره وتنصيص الله تعالى على تعذيبه وأجيب عما يخدشه مما يفهم من كلام قتادة بأنه لا ضير في كونه بياناً لحال بعض من أوتي كتابه بشماله ومثله ما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ [الحاقة : 34] الخ فكم من أهل الشمال من لا يكون كذلك وأيضاً قد ذكروا أن الجحيم اسم لطبقة من النار فتأمل .

(247/779)

﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ أي قياسها ومقدار طولها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ يجوز أن يراد ظاهره من العدد المعروف والله تعالى أعلم بحكمة كونها على هذا العدد ويجوز أن يراد به التكثير فقد كثر السبعة والسبعون في التكثير والمبالغة ورجح بأنه أبلغ من إبقائه على ظاهره والذراع مؤنث قال ابن الشحنة وقد ذكره بعض عكل فيقال الثوب خمس أذرع وخمسة أذرع والمراد بها المعروفة عند العرب وهي ذراع اليد لأن الله سبحانه إنما خاطبهم بما يعرفون وقال ابن عباس وابن جريج ومحمد بن المنكدر ذراع الملك وأخرج ابن المبارك وجماعة عن نوف البكالي أنه قال وهو يومئذٍ بالكوفة الذراع سبعون باعاً والباع ما بينك وبين مكة ويحتاج إلى نقل صحيح وقال الحسن الله تعالى أعلم بأي ذراع هي والسلسلة حلق تدخل في حلق على سبيل الطول كأنها من تسلسل الشيء اضطرب وتنوينها للتفخيم وروي عن ابن عباس أنه قال لو وضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي فادخلوه كما في قوله تعالى ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ [الزمر : 21] وإدخاله فيها بأن تلف على جسده وتلوى عليه من جميع جهاته فيبقى مرهقاً فيما بينها لا يستطيع حراكاً ما وعن ابن عباس أن أهل النار يكونون فيها كالثعلب في الجبة والثعلب طرف خشبة الرمح والجبة الزج وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال قال ابن عباس أن السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم

يشوى وفي رواية أخرج عنهم أنها تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه ومن هنا قيل أن في الآية قلباً والأصل فاسكلوها فيه والجمهور على الظاهر والفاء جزائية كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : 3] والتقدير مهما يكن من شيء فاسلكوه في سلسلة الخ فقدم الظرف وما معه عوضاً عن المحذوف ولتتوسط الفاء كما هو حقها وليدل على التخصيص كأنه قيل لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر

(248/779)

مواضع الإرهاق من الجحيم ويجوز أن يكون التقدير هكذا ثم مهما يكن من شيء ففي سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً اسلكوه ففيه تقديمان تقديم الظرف على الفعل للدلالة على التخصيص وتقديمه على الفاء بعد حذف حرف الشرط للتعويض وتوسيط الفاء وثم في الموضعين لتفاوت ما بين أنواع ما يعذبون به من الغل والتصلية والسلك على ما اختاره جمع وجوز بعضهم كونها على ظاهرها من الدلالة على المهلة ورجح الأول بأنه أنسب بمقام التهديد وزعم بعض أن ثم الثانية لعطف قول مضمر على ما أضمر قبل خذوه إشعاراً بتفاوت ما بين الأمرين وفاء فاسلكوه لعطف المقول على المقول لئلا يتوارد حرفا عطف على معطوف واحد ويلزمه أن يكون تقديم السلسلة على الفاء بعد حذف القول لئلا يلزم

التوارد المذكور ومبنى هذا التكلف البادر الغفلة عما ذكرناه فلا تغفل ويعلم منه وكل ما قيل أنه ليس في الآية ما يفيد التخصيص لأن في سلسلة ليس معمولاً لاسلكوه لئلا يلزم الجمع بين حرفي عطف بل هو معمول لمحذوف فيقدر مقدماً على الأصل على أن تقديم الجحيم كالقرينة على كون في سلسلة مقدماً على عامله .

﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة كأنه قيل لم أستحق هذا فقيل لأنه كان في الدنيا مستمراً على الكفر بالله تعالى العظيم وقيل أي كان في علم الله تعالى المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر أنه لا يتصف بالإيمان به عز وجل والأول هو الظاهر وذكر العظيم للإشارة إلى وجه عظم عذابه وقيل للإشعار بأنه عز وجل المستحق للعظمة فحسب فمن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات .

(249/779)

﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي ولا يحث على بذل طعامه الذي يستحقه في مال الموسر ففيه مضاف مقدر لأن الحث إنما يكون على الفعل والطعام ليس به ويجوز أن يكون الطعام بمعنى الإطعام بوضع الاسم موضع المصدر كالعطاء بمعنى الإعطاء أي ولا يحث على إطعام المسكين فضلاً عن أن يبذل ماله فليس هناك مضاف محذوف وقيل ذكر الحض

للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل وما أحسن قول زينب الطثرية ترثي أخاها يزيد

: إذا نزل الأضياف كان عذورا . . .

على الحي حتى تستقل مراجله

تريد حضهم على القرى واستعجالهم وتشاكس عليهم وفيه أوجه من المدح وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها اقتبس ذلك من الآية فإنه جعل استحقاق السلسلة معللاً بعدم الإيمان وعدم الحض وتخصيص الأمرين بالذكر قيل لما أن أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب وفي الآية دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع كالأحوال والألم يعاقبوا على ترك الحض على طعام المسكين .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم ها هنا حَمِيمٌ ﴾ قريب مشفق يحميه ويدفع عنه لأن أولياءه يتحامونه ويفرون منه .

(250/779)

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ قال اللغويون هو ما يجري من الجراح إذا غسلت فعلين من الغسل وقال ابن عباس في رواية ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق عكرمة عنه أنه الدم والماء الذي يسيل من لحوم أهل النار وفي معناه قوله في روايتهما من طريق علي بن أبي طلحة عنه هو صديد أهل النار وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عنه أنه قال ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم والأكثرون على الأول وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم لو أن دلواً من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا وجعله بعضهم متحداً مع الضريع وقال بعضهم هما متباينان وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى وله خبر ليس قال المهدوي ولا يصح أن يكون ههنا ولم يبين ما المانع من ذلك وتبعه القرطبي في ذلك وقال لأن المعنى يصير ليس ههنا طعام إلا من غسلين ولا يصح ذلك لأن ثم طعاماً غيره وههنا متعلق بما في له من معنى الفعل انتهى وتعقب ذلك أبو حيان فقال إذا كان ثم غيره من الطعام وكان الأكل أكلاً آخر صح الحصر بالنسبة إلى اختلاف الأكلين وأما إن كان الضريع هو الغسلين كما قال بعضهم فلا تناقض بين هذا الحصر والحصر في قوله تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : 6] إذ المحصور في الآيتين هو من شيء واحد وإنما يمتنع ذلك من وجه غير ما ذكره وهو أنه إذا جعلنا ههنا الخبر كان له واليوم متعلقين بما تعلق به الخبر وهو العامل في ههنا وهو عامل معنوي فلا يتقدم معموله عليه فلو كان العامل لفظياً جاز كقوله تعالى ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الغاشية : 6] فله

متعلق بكفوا وهو خبر لكن اه وفي إطلاق العامل المعنوي على متعلق الجار والمجرور المحذوف بحث .

(251/779)

﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ أصحاب الخطايا من خطىء الرجل إذا تعمد الذنب من الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعمد والمراد بهم على ما روي عن ابن عباس المشركون وقرأ الحسن والزهري والعتكي وطلحة في رواية الخاطيون بياء مضمومة بدلاً من الهمزة وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة في رواية أخرى ونافع بخلاف عنه الخاطون بطرح الهمزة بعد إبدالها تخفيفاً على أنه من خطىء كقراءة من همز وعن ابن عباس ما يشعر بإنكار ذلك أخرج الحاكم وصححه من طريق أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر عنه أنه قال ما الخاطون إنما هو الخاطؤن ما الصابون إنما هو الصائبون وفي رواية ما الخاطون كلنا نخطو كأنه يريد أن التخفيف هكذا ليس قياساً وهو ملبس مع ذلك فلا يرتكب وقيل هو من خطا يخطو فالمراد بهم الذين يتخطون من الطاعة إلى العصيان ومن الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله عز وجل فيكون كناية عن المذنبين أيضاً هذا وظواهر هذه الآيات أن المؤمن الطائع يؤتى كتابه بيمينه والكافر يؤتى كتابه بشماله ولم يعلم منها حال الفاسق الذي مات على فسقه من

غير توبة بل قيل ليس في القرآن بيان حاله صريحاً وقد اختلف في أمره فجزم الماوردي بأن المشهور أنه يؤتى كتابه بيمينه ثم حكى قولاً بالوقف وقال لا قائل بأنه يؤتاه بشماله وقال يوسف بن عمر اختلف في عصاة المؤمنين فقيل يأخذون كتبهم بأيمانهم وقيل بشمالهم واختلف الأولون فقيل يأخذونها قبل الدخول في النار ويكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها وقيل يأخذونها بعد الخروج منها ومن أهل العلم من توقف لتعارض النصوص ومن حفظ حجة على من لم يحفظ والمثبت مقدم على النافي ثم أنه ليس في هذه الآيات تصريح بقراءة العبد كتابه والوارد في ذلك مختلف والذي يجمع الآيات والأحاديث على ما قال اللقاني أن من الآخذين من لم يقرأ كتابه لاشتماله على المخازي والقبائح والجرائم والفضائح فيأخذه بسبب ذلك الدهش والرعب حتى لا يميز شيئاً كالكافر ومنهم من

يقرؤه بنفسه ومنهم من يدعو أهل حاضره لقراءته إعجاباً بما فيه وظواهر النصوص أن القراء حقيقية وقيل مجازية عبر بها عن العلم وليس بشيء ولفظ الحسن يقرأ كل إنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي وظواهر الآثار أن الحسنات تكتب متميزة من السيئات فقيل إن سيئات المؤمن أول كتابه وآخره هذه ذنوبك قد سترتها وغفرتها وأن حسنات الكافر أول

كتابه وآخره هذه حسناتك قد رددتها عليك وما قبلتها وقيل يقرأ المؤمن سيآت نفسه ويقرأ الناس حسناته حتى يقولوا ما لهذا العبد سيئة ويقول مالي حسنة وقيل كل يقرأ حسناته وسيآته وأول سطر من كتاب المؤمن أبيض فإذا قرأه ابيض وجهه والكافر على ضد ذلك وظواهر الآيات والأحاديث عدم اختصاص إيتاء الكتب بهذه الأمة وإن تردد فيه بعض العلماء لما في بعضها مما يشعر بالاختصاص ففي حديث رواه أحمد عن أبي الدرداء أنه عليه الصلاة والسلام قال وقد قال له رجل كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح عليه السلام إلى أمتك يا رسول الله هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأمانهم الحديث وقد تقدم فتذكر والحق أن الجن في هذه الأمور حكمهم حكم الإنس على ما بحثه القرطبي وصرح به غيره نعم الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام لا يأخذون كتاباً بل إن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه لا يأخذون أيضاً كتاباً وأول من يؤتى كتابه بيمينه فله شعاع كشعاع الشمس عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كما في الحديث وبعده أبو سلمة بن عبد الأشد وأول من يأخذ كتابه بشماله أخوه الأسود بن عبد الأشد الذي مر ذكره غير بعيد والآثار في كيفية وصول الكتب إلى أيدي أصحابها مختلفة فقد ورد أن الريح تطيرها من خزانة تحت العرش فلا تخطىء صحيفة عنق صاحبها وورد أن كل أحد يدعى فيعطي كتابه وجمع بأخذ الملائكة عليهم السلام إياها من أعناقهم ووضعهم لها في

أيديهم والله تعالى أعلم

وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ

﴾

(253/779)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) ﴾

هذا قَسِيم ﴿ من أُوتي كتابه بيمينه ﴾ [الحاقة : 19] ، فالقول في إيتائه كتابه بشماله قد عرف وجَهه مِمَّا تقدم .

وتمنِّي كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يُؤْت كتابه ، لأنه علم من الإطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب فيتمنى أن لا يكون عَلِم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمناً فإن ترقُّب السوء عذاب .

وجملة ﴿ ولم أدْرِ ما حسابيه ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ لَيتَني .

والمعنى : إنه كان مكذباً بالحساب وهو مقابل قول الذي أوتي كتابه بيمينه : ﴿ إِني ظننتُ أني ملاقٍ حسابيه ﴾ [الحاقة : 20] .

وجملة الحال معترضة بين جملتي التمني .

ويجوز أن يكون عطفاً على التمني ، أي يا ليتني لم أدر مَا حسابيَه ، أي لم أعرِف كنه حسابي ، أي نتيجته ، وهذا وإن كان في معنى التمني الذي قبله فإِعادته تكرير لأجْل التحسر والتحزن .

و﴿ ما ﴾ استفهامية ، والاستفهام بها هو الذي عَلَّق فعل ﴿ أدْرِ ﴾ عن العمل ، و ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ تمنَ آخر ولم يعطف على التمنّي الأول لأن المقصود التحسر والتندم .

وضمير ﴿ ليتها ﴾ عائد إلى معلوم من السياق ، أي ليت حالتي ، أو ليت مصيبتي كانت القاضية .

و﴿ القاضية ﴾ : الموت وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] ، أي مقبوراً في التراب .

وجملة ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ من الكلام الصالح لأن يكون مثلاً لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه عبر بها عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر بالعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يؤدي المعنى المقصود .

ونظيره ما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ دَعَوا هنالك ثبوراً ﴾ [الفرقان : 13] وقوله : ﴿ يا وَيْلَتَا ليتني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خليلاً ﴾ [الفرقان : 28] وقوله : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب الآية ﴾ [الكهف : 49] .

ثم أخذ يتحسر على ما فرط فيه من الخير في الدنيا بالإِقبال على ما لم يُجْدِهِ في العالم الأبدي فقال : ﴿ ما أغنى عني مَاليَه ﴾ ، أي يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق من جميع أهل الإشراك والكفر ، فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك ، وفي هذا تعريض بسادة مشركي العرب مثل أبي جهل وأمية بن خلف قال تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النَّعمة ﴾ [المزمل : 11] .

وفي ﴿ أغْنَى عَنّي ﴾ الجناس الخَطِّي ولو مَع اختلاف قليل كما في قولهم "غرّك عِزُّك فَصَار قصارى ذِلَك ذلُّك" .

ومعنى هلاك السلطان : عدم الانتفاع به يومئذٍ فهو هلاك مجازي .

وضمّن ﴿ هلك ﴾ معنى (غاب) فعدي بـ (عن) ، أي لم يحضرني سلطاني الذي عهدته .

والقول في هاءَات ﴿ كتابيهْ ، وحسابيهْ ، وماليهْ ، وسلطانيهْ ﴾ ، كالقول فيما تقدم إلاّ أن حمزة وخلفاً قرآ هنا ﴿ ما أغنى عني مالِيه هلك عني سلطانيه ﴾ بدون هاء في حالة

الوصل .

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)

﴿ خذوه ﴾ مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير ﴿ فيقول يا ليتني لم أُوْت كتابيه ﴾ [الحاقة : 25] ، والتقدير : يُقال : خذوه .

ومعلوم من المقام أن المأمورين بأن يأخذوه هم الملائكة الموكلون بسَوق أهلِ الحساب إلى ما أُعد لهم .

والأخذ : الإِمساك باليد .

(255/779)

وغُلُّوه : أمر من غلّه إذا وضعه في الغُل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني أو الأسير فهو فعل مشتق من اسم جامد ، ولم يسمع إلاّ ثلاثياً ولعل قياسه أن يقال : غَلَّله بلامين لأن الغُل مضاعف اللام ، فحقه أن يكون مثل عَمَّم ، إذا جعل له عمامة ، وأزَّر ، إذا ألبسه إزاراً ، ودرَّع الجاريةَ ، إذا ألبسها الدِرع ، فلعلهم قالوا : غَلَّه تخفيفاً .

وعطف بفاء التعقيب لإِفادة الإِسراع بوضعه في الأغلال عقب أخذه .

و﴿ ثم ﴾ في قوله : ﴿ ثم الجحيم صلُّوه ﴾ للتراخي الرتبي لأن مضمون الجملة المعطوفة

بها أشد في العقاب من أخذه ووضعه في الأغلال .

وصلَّى : مضاعف تضعيف تعدية لأن صَلِي النار معناه أصابه حرقها أو تدفَأ بها ، فإذا عدّي قيل : أصلاه ناراً ، وصلاَّه ناراً .

و﴿ ثم ﴾ من قوله : ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ للتراخي الرتبي بالنسبة لمضمون الجملتين قبلها لأن مضمون ﴿ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ أعظم من مضمون ﴿ فغلوه .

ومضمون فاسلكوه ﴾ دل على إدخاله الجحيم فكان إسلاكه في تلك السلسلة أعظم من مطلق إسلاكه الجحيم .

ومعنى ﴿ اسلكوه : ﴾ اجعلوه سالِكاً ، أي داخلاً في السلسلة وذلك بأن تَلف عليه السلسلة فيكون في وسطها ، ويقال : سلَكه ، إذا أدخله في شيء ، أي اجعلوه في الجحيم مكبّلاً في أغلاله .

وتقديم ﴿ الجحيمَ ﴾ على عامله لتعجيل المساءة مع الرعاية على الفاصلة وكذلك تقديم ﴿ في سلسلة ﴾ على عامله .

واقتران فعل ﴿ اسلكوه ﴾ بالفاء إمَّا لتأكيد الفاء التي اقترنت بفعل ﴿ فَغلّوه ، ﴾ وإما للايذان بأن الفعل منزل منزلة جزاء شرط محذوف ، وهذا الحذف يشعر به تقديم المعمول غالباً كأنه قيل : مهما فعلتم به شيئاً فاسلكوه في سلسلة ، أو مهما يكن شيء فاسلكوه .

والمقصود تأكيد وقوع ذلك والحثُّ على عدم التفريط في الفعل وأنه لا يرجى له تخفيف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وربَّك فكبّر وثيابَك فطهّر والرّجز فاهجر ﴾ [المدثر : 35] ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ في سورة [يونس : 58] .

والسلسلة : اسم لمجموع حَلَقٍ من حديد داخلٍ بعضُ تلك الحَلَق في بعض تجعل لوثاق شخص كي لا يزول من مكانه ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ في سورة غافر (71) .

وجملة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ صفة ﴿ سِلْسلة ﴾ وهذه الصفة وقعت معترضة بين المجرور ومتعلَّقِهِ للتهويل على المشركين المكذبين بالقارعة ، وليست الجملة مما خوطب الملائكة الموكلون بسوْق المجرمين إلى العذاب ، ولذلك فعَدَدُ السبعين مستعمل في معنى الكثرة على طريقة الكناية مثل قوله تعالى : ﴿ إنْ تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

[التوبة : 80] .

والذَّرع : كيلُ طولِ الجسم بالذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإِنسان ، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع ، والأصبَع ، والأنملة ، والقَدم ، وبالأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشِبْر ، والفِتْر ، والرتب (بفتح الراء والتاء) ، والعَتَب ، والبُصْم ، والخُطوة .

وجملة ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين ﴾ في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم .

ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفراناً بعظيم فكان جزاء وفاقاً .

والحض على الشيء : أن يَطْلُبَ من أحد فعل شيء ويُلحّ في ذلك الطلب .

ونفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يُطعم المسكين من ماله لأنه إذا كان لا يأمر غيره بإطعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله ، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه ، وقد كان أهل الجاهلية يطعمون في الولائم ، والميسر ، والأضيَاف ، والتحابُب ، رياء وسُمعة .

ولا يطعمون الفقير إلاّ قليلاً منهم ، وقد جُعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشحّ عنهم بماله ، كما جُعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم في قول زينب بنت الطَّثَرِيَّةِ ترثي أخاها يزيدَ :

إذا نَزل الأضياف كان عَذَوَّراً . . .

على الحَي حتى تَستقل مَراجِلُه

تريد أنه يحضر الحي ويستعجلهم على نصف القدور للأضياف حتى توضع قدور الحي على الأثافي ويَشرعوا في الطبخ ، والعَذوَّر بعين مهملة وذال معجمة كعملَّس : الشكِس الخُلق .

إلاّ أن كناية ما في الآية عن البخل أقوى من كناية ما في البيت عن الكرم لأن الملازمة في الآية حاصلة بطريق الأولوية بخلاف البيت .

وإذ قد جُعل عدم حضه على طعام المسكين جزء علة لشدة عذابه ، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم في الأموال وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها .

وقوله : ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ﴾ من تمام الكلام الذي ابتدىء بقوله ﴿ خذوه ، ﴾ وتفريع عليه .

والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فييأس من أن يجد مدافعاً يدفع عنه

بشفاعة ، وتنديمٌ له على ما أضاعه في حياته من التزلف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنه يجدهم عند الشدائد وإلمام المصائب .

وهذا وجه تقييد نفي الحميم بـ ﴿ اليوم ﴾ تعريضاً بأن أحِمَّاءهم في الدنيا لا ينفعونهم اليوم كما قال تعالى : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : 22] وقوله عنهم ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ [الأعراف : 53] وغير ذلك مما تفوق في آي القرآن .

فقوله ﴿ له ﴾ هو خبر ﴿ ليس ﴾ لأن المجرور بلام الاختصاص هو محط الأخبار دون ظرف المكان .

وقوله : ﴿ ههنا ﴾ ظرف متعلق بالكون المنوي في الخبر بحرف الجر .

وهذا أولى من جعل ﴿ ههنا ﴾ خبراً عن ﴿ ليس ﴾ وجعل ﴿ له ﴾ صفةً لـ ﴿ حميم ﴾ إذ لا حاجة لهذا الوصف .

(258/779)

والحَميم : القريب ، وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته .

﴿ ولا طعام ﴾ عطف على ﴿ حميم .

والغِسلين : بكسر الغين ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك مما يعلمه الله فهو عَلَم على ذلك مثل سِجين ، وسرقين ، وعِرنين ، فقيل إنه فِعْلِين من الغَسل لأنه سَالَ من الأبدان فكأنه غُسل عنها .

ولا مِوجب لبيان اشتقاقه .

والخاطئون : ﴿ أصحاب الخطايا يقال : خطِىء إذا أذنب .

والمعنى : لا يأكله إلاّ هو وأمثاله من الخاطئين .

وتعريف ﴿ الخاطئون ﴾ للدلالة على الكمال في الوصف ، أي المرتكبون أشدّ الخِطأ وهو الإشراك .

وقرأ الجمهور ﴿ الخاطئون ﴾ بإظهار الهمزة ، وقرأ أبو جعفر ﴿ الخاطُون ﴾ بضم الطاء بعدها واو على حذف الهمزة تخفيفاً بعد إبدالها ياء تخفيفاً .

وقال الطيبي : قرأ حمزة عند الوقف الخاطيُون بإبدال الهمزة ياء ولم يذكره عنه غير الطيبي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(259/779)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى هلك)

يقال : هَلَكَ يَهْلِكُ كضَرَبَ يَضْرِبُ ، وهَلَكَ يَهْلَكُ كجَعَلَ يَجْعَل هَلاكاً ، وهُلُوكاً وهُلَكاً بضمّها ، ومَهْلكاً ومَهْلِكاً ، وتُهْلوكاً ، وتَهْلُكَةً : مات .

وأَهْلَكَهُ ، وهَلَّكَهُ ، واسْتَهْلَكَه ، وهَلَكَهُ أَيضاً لازِمٌ ومُتَعَدّ ، فهو هالِكٌ ، والجمعُ : هَلْكَى وهُلَّكٌ ، وهُلاَّكٌ ، وهَوالِكُ شاذٌّ .

والهَلْكاءُ ، والهَلَكَة : [الهَلاَكُ] .

والهلاك على ثلاثة أَوجه :

افْتِقادُ الشيءِ عنك وهو عند غَيْرِك موجودٌ ، كقوله تعالى : ﴿ هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ .

الثانى : هَلاكٌ باستحالَة وفساد ، كقوله تعالَى : ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ .

الثالث : المَوْتُ ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ ، ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ .

الرّابعُ : بُطلانُ الشيءِ من العالَم وعَدَمُه رأساً ، ودلك المسمّى فناءً ، وقد أَشير إليه بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ .

ويُقالِ لِلعذاب والخَوْفِ والفقْرِ الهلاكُ ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ﴾ ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، هو الهَلاك الأَكبر الَّذى دَلّ عليه النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله : "لا شَرَّ كَشَرٍّ بعدَهُ النَّار" .

وقُرِئ : ﴿ لِمَهْلِكِهِم ﴾ ومُهْلَكِهِم ، فمَهْلَكهم من الهُلْك ، ومُهْلَكِهِم من الإِهْلاك .

والتَّهْلُكة ما يُؤَدّى إلى الهلاك ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ .

والمَهْلَكَةُ مثلثة اللام : المَفازَة .

(260/779)

والهَلَكُ : السُّنُون الجَدْبَة ، جمع : هَلَكَة بالتحريك .

والهَلُوكُ : الفاجِرَة المتساقِطة على الرّجال/ ، لأَنَّها تتهالَكُ فى مِشْيَتِها ، أَى تتمايل .

والاهْتِلاكُ والإِنْهِلاكُ : رَمْىُ الإِنسانِ فى تَهْلُكه .

والمُهْتَلِكُ مَنْ لاهَمَّ له الاَّ أَن يَتَضَيَّفَهُ الناسُ .

والهُلاَّكُ .

الَّذين يَنْتابُون النَّاسَ لابْتِغاءِ مَعْروفهم .

ووادى تُهُلّكَ بضمّتين وكسر اللام المشدّدة ممنوعاً : الباطِلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 338.340 ﴾

(261/779)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

(سورة الحاقة)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾

ظاهر هذا الحصر أنه لا طعام لأهل النار إلا الغسلين وهو ما يسيل من صديد أهل النار على أصح التفسيرات كأنه فعلين من الغسل لأن الصديد كأنه غسالة قروح أهل النار أعاذنا الله والمسلمين منها .

وقد جاءت آية أخرى تدل على حصر طعامهم في غير الغسلين وهي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ وهو الشبرق اليابس على أصح التفسيرات ويدل لهذا قوله أبي ذؤيب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى

وصار ضريعا بان عنه النحائص

والجواب ظاهر وأن الأخير ناسخ للأول والعلم عند الله تعالى .

وللعلماء عن هذا أجوبة كثيرة أحسنها عندي اثنان منها ولذلك اقتصرت عليهما الأول- أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات فمنهم من لا طعام له إلا من غسلين ومنهم من لا طعام له إلا من ضريع ، ومنهم من لا طعام له إلا الزقوم ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ .

الثاني - أن المعنى في جميع الآيات أنهم لا طعام لهم أصلا لأن الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام ولا تأكله البهائم فأحرى الآدميون ، وكذلك الغسلين ليس من الطعام فمن طعامه الضريع لا طعام له ومن طعامه الغسلين كذلك .

ومنه قولهم فلان لا ظل له إلا الشمس ولا دابة له إلا دابة ثوبه يعنون القمل ومرادهم لا ظل له أصلا ولا دابة له أصلا وعليه فلا اشكال والعلم عند الله تعالى .

(262/779)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 38 ﴾ من سورة (الحاقة)

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ آخر السورة

قوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه وتعالى الحاقة التي جعلها دار الحساب للمحسن والمسيء اللذين قسمتهما القدرة واقتضتهما الحكمة ، وصوب إليهما القرآن الذي هو ذكر للعالمين بالوعد والوعيد والبشارة والتهديد ، ومن المعلوم ببديهة العقل أنه لا يصح أصلاً في حكمة أحد أن يترك من تحت يده هملاً لا سيما إن كان تقدم إليهم بالأمر والنهي ، وأقام الدليل على قدرته عليها بتعذيب من استأصلهم لأجل تكذيب رسله ليكون عذابهم وتنجية المحسنين منهم مثلاً محسوساً تشهد فيه الحاقة ، لأن من قدر على ذلك كانت له القدرة التامة على كل ممكن ، وذكر ما دلت الحكمة عليه من تنعيم الطائع وتعذيب العاصي بما هو أنسب الأشياء لعمل كل منهما في هذه الأساليب المعجزة مفردات وتراكيب ومعاني ، فدل ذلك على آخر سورة " ن " عاد إلى تقريره بوجه آخر ، وهو أنه لتمام علمه وكمال قدرته لا يقرر من كذب عليه على كذبه فضلاً عن أن يؤيده ، فقال مسبباً عن ذلك حين بلغ الأمر في الوضوح إلى

النهاية ، ذاكراً ما هو أبلغ من القسم لأن بعض أهل الجدل إذا حجه خصمه يقول : إنما غلبتني بأنك أتقن مني في الجدل بالحق ، فإن الحق معي ، فيحلف له صاحبه أنه ما غالطه ولا تعمد في جدله إلا الحق ، ﴿ فلا أقسم ﴾ أي لا يقع مني إقسام ﴿ بما ﴾ أي بمجموع ما ﴿ تبصرون ﴾ أي لكم أهلية إبصاره من كل ما دخل في عالم الشهادة ﴿ وما لا تبصرون ﴾ أي ما ليس لكم في هذا الدار أهلية إبصاره ، وذلك جميع الموجودات واجبها وجائزها معقولها ومحسوسها ، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إقسام وإن كنت أقسم في غير هذا الموضع بما شئت من أفراد هذا المجموع .

(5/780)

ولما أكد غاية التأكيد بما قال من أن الأمر وصل في الوضوح إلى حد لا يحتمل التأكيد ، فكان ذلك تأكيداً بعدم التأكيد ، استأنف الخبر عما أخبر أنه لا يحتاج إلى إقسام بإثبات أداة التأكيد لأجل إنكارهم ليكون الكلام جامعاً بين التأكيد بالنفي وبين التأكيد بالإثبات فقال : ﴿ إنه ﴾ أي هذا الذي ختمت به سورة " ن " ودل على الساعة بما أتى به من هذه الأساليب التي هي مع كونها حكيمة معجزة ﴿ لقول ﴾ أي تلاوة ﴿ رسول ﴾ أي أنا أرسلته وعني أخذه ، وليس فيه شيء من تلقاء نفسه إنما هو كله رسالة واضحة جداً ، أنا

شاهد بها بما له من الإعجاز الذي يشهد أنه كلامي .

ولما كان من شأن الرسول أن لا يبلغ إلا ما أرسله به مرسله ، وكان بعض الرسل ربما زاد أو نقص تعمداً أو سهواً ، أخبر أن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوصف ما يحفظه فقال : ﴿ كريم ﴾ أي هو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوىء الأخلاق بإظهار معاليها لشرف النفس وشرف الآباء فهو لا يزيد ولا ينقص ، وكرم الشيء اجتماع الكمالات اللائقة به فيه .

(6/780)

ولما أثبت أنه قوله سبحانه وتعالى لأنه قول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنا وهو لا ينطق عن الهوى ، نفى عنه ما يتقولونه عليه ، فبدأ بالشعر وهو ما يقوله الإنسان من تلقاء نفسه على وزن مقصود صدقاً كان أو كذباً ، ولا بد فيه للتقيد بالوزن والقافية من التكلف الذي القرآن بعيد عنه ، وهو مع مشاركته للسجع في التكلف الناقص للمعنى أعلى منه بالوزن الذي يكسبه الرونق والحلاوة فقال : ﴿ وما هو ﴾ أي هذا الذكر في باطن أمره ولا ظاهره ، وأكد النفي فقال : ﴿ بقول شاعر ﴾ أي يأتي بكلام مقفى موزون بقصد الوزن ، وإنما قيل أنه ليس بقول من هو كذلك لأنه ، لا يوافق الوزن فيه إلا أماكن نادرة بالنسبة إلى مجموع

القرآن ، ومن المقطوع به أن ذلك لا يرضى به شاعر وهو أنه ينصب نفسه منصب النظم والارتهان بعهدة الوزن ، ثم يأتي بكلام أكثره غير موزون ، فعلم قطعاً أن الذي وافق الوزن فيه غير مقصود فليس بشعر .

(7/780)

ولما كانت مخالفة القرآن للشعر خفية من حيث أنه لا يعرف ذلك إلا الشعراء وهم قليل في الناس ، والأغلب لا يعرفون ذلك ، ختم الآية بالإيمان الذي هو التصديق بالغيب فقال تعالى : ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ أي ما توجدون التصديق الذي هو الإيمان إلا إيجاداً أو زماناً قليلاً ، وذلك لأني قد أخبرتكم بذلك في غير موضع فلم تصدقوا وفيكم شعراء كثير يعرفون معرفة تامة أنه مخالف للشعر ، وقد أخبركم بعضهم بذلك كالوليد بن المغير وعتبة ابن ربيعة وغيرهما ثم لا تتبعون ذلك ثمرته ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، وإيمانهم القليل إقرار من أقر من شعرائهم أنه ليس بشعر ، وإخلاصهم بالوحدانية عند الاضطرار وإفرادهم الخالق بالخلق والربوبية ، وهو إيمان لغوي لا شرعي ، ولما كان من يعرف الشعر يعرف النثر فهو أعلى فقدمه ، أتبعه النثر فقال : ﴿ ولا بقول كاهن ﴾ وهو المنجم الذي يخبر عن أشياء

يوهمها لرئي يخبره بذلك ، وأغلبها ليس لها صحة ، وعبارته عن ذلك بالسجع المتكلف المقصود كونه سجعاً الذي يكون المعنى فيه تابعاً للفظ للتحلية بمشاكلة المقاطع .

(8/780)

ولما كانت مباينة القرآن للسجع خفية جداً لما فيه من الفواصل في الأغلب وتركها في البعث فارق لأن الساجعين لا يرضون أن يأتوا بقرينة لا أخت لها ويعدون ذلك وعياً عيباً رديئاً ، وكذا تطويل السجعة عن قرينتها وتضعيفها على عديلتها لا يرضى به ساجع ولو أنه هاجع ، ومباينة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للكهنة ظاهرة جداً ، فإن الكاهن من ينصب نفسه للدلال على الضوائع والإخبار بالمغيبات يصدق فيها تارة ويكذب كثيراً ، ويأخذ الجعل على ذلك ، ويقتصر على من يسأله ، فعبر لذلك ب "كاهن" دون "ساجع" أدار أمره على التفكر فقال : ﴿ قليلاً ما ﴾ وأكد أمر القلة والخفاء بإدغام تاء التفعل فقال تعالى : ﴿ تذكرون ﴾ فلذلك يلتبس عليكم الأمر أو على من تلبسون عليه بذلك ، فعلم أن الذي يفرق بينهما موجود فيهم لأنه يرى أن الكتاب تابع للمعنى الصحيح الثابت ، فإن صح غاية الصحة مع وجود القرائن المتوافقة في الروي كان وإلا انتقل عن ذلك إلى قرائن غير متوافقة في روي ولا ما يقاربه ، أو قريبة مفردة مع إمكان جعلها كما قبلها لكن مع نقصان المقصور

وطول الكلام ونحو ذلك ، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يدّع يوماً من الأيام علم الغيب ولا نصيب نفسه الشريفة لشيء مما الكهان فيه ولا نقل في ساعة من الدهر عن الجن خبراً ذكر أنه استفاده منهم ولا مدحهم لذلك كما تفعل الكهان ، بل ذم الفاسقين منهم غاية الذم وقال : إن أكثر ما يأتون به الكذب ، ولا سأل جعلاً عما يدعو إليه ولا اقتصر على من يأتيه للسؤال ، بل هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتبع الناس في مجامعهم يدعوهم إلى الله بإنقاذهم من الضلال فمباينته للكهان لا يحتاج إلى غير تذكر قليل – كما أشار إليه إدغام تاء التفعل – فثبت أن القول ليس بكهانة ، وقائله والمؤدي له ليس بكاهن ، ونسبة القول إلى المبلغ لكونه مبلغاً واضحة الصحة .

(9/780)

ولما أثبت أنه قول الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ، ونفى عنه ما قد يلبس من الشعر والكهانة ، ولم يذكر ما كانوا يرمونه به من السحر والأضغاث لأنه عتاد محض لا يرتاب أحد فيه ، وكانت السورة مقصوداً فيه إثبات الحقائق التي قد تخفى ، وصفه بما يحقق ما أريد من نسبته إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ تنزيل ﴾ أي على وجه التنجيم وأشار إلى إرساله إلى جميع الخلق من أهل السماوات والأرض بقوله : ﴿ من رب

العالمين ﴾ أي موجدهم ومدبرهم بالإحسان إليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به ، ورتب سبحانه نظمه على وجه سهله على كل منهم شيئاً يكفي في هدايته البيانية بخلاف الشعر والكهانة فإنه لا يفهمهما إلا قليل من الناس لا جميع العالمين ، بل كثير من أكابر العلماء وحذاقهم ربما قرىء على أحد منهم الآن القصيدة من قصائد العرب فلا يفهم المراد منها ولا يتضح له بوجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 137 . 139 ﴾

(10/780)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

منهم من قال : المراد أقسم و (لا) صلة ، أو يكون رد الكلام سبق ، ومنهم من قال : لا ههنا نافية للقسم ، كأنه قال : لا أقسم ، على أن هذا القرآن قول رسول كريم يعني أنه لوضوحه يستغني عن القسم ، والاستقصاء في هذه المسألة سنذكره في أول سورة ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ وما لا تُبْصِرُونَ ﴾ يوم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والنعم الظاهرة والباطنة .

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

واعلم أنه تعالى ذكر في سورة ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] مثل هذا الكلام ، والأكثرون هناك على أن المراد منه جبريل عليه السلام ، والأكثرون ههنا على أن المراد منه محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا على الفرق بأن ههنا لما قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ، ولا كاهن ، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة ، بل كانوا يصفون محمداً بهذين الوصفين .

وأما في سورة : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ لما قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ثم قال بعده : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : 25] كان المعنى : إنه قول ملك كريم ، لا قول شيطان رجيم ، فصح أن المراد من الرسول الكريم ههنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي تلك السورة هو جبريل عليه السلام ، وعند هذا يتوجه السؤال : أن الأمة مجمعة على أن القرآن كلام الله تعالى ، وحينئذ يلزم أن يكون الكلام الواحد كلاماً لله تعالى ، ولجبريل ولمحمد ، وهذا غير معقول والجواب : أنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب ، فهو كلام الله تعالى ، بمعنى أنه تعالى هو الذي أظهره في اللوح المحفوظ ، وهو الذي رتبه ونظمه ، وهو كلام جبريل عليه السلام ، بمعنى أنه هو الذي أنزله من السموات إلى الأرض ، وهو كلام محمد ، بمعنى أنه هو الذي أظهره للخلق ، ودعا الناس إلى الإيمان به ، وجعله حجة لنبوته .

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42)

وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الجمهور : تؤمنون وتذكرون بالتاء المنقوطة من فوق على الخطاب إلا ابن كثير ، فإنه قرأهما بالياء على المغايبة ، فمن قرأ على الخطاب ، فهو عطف على قوله : ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ

وما لا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38 ، 39] ومن قرأ على المغايبة سلك فيه مسلك الالتفات .

المسألة الثانية :

قالوا : لفظة ما في قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . . .

(12/780)

قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ لغو وهي مؤكدة ، وفي قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ وجهان الأول : قال مقاتل : يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله ، والمعنى لا يؤمنون أصلاً ، والعرب يقولون : قلما يأتينا يريدون لا يأتينا الثاني : أنهم قد يؤمنون في قلوبهم ، إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً ولا يتمون الاستدلال ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ إلا أنه في آخر الأمر قال : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : 24] .

المسألة الثالثة :

ذكر في نفي الشاعرية ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ وفي نفي الكاهنية ﴿ مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ والسبب فيه كأنه تعالى قال : ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر ، لأن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها إلا أنكم لا تؤمنون ، أي لا تقصدون الإيمان ، فلذلك تعرضون عن

التدبر ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم : إنه شاعر ، لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر ، ولا أيضاً بقول كاهن ، لأنه وارد بسبب الشياطين وشتمهم ، فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام الشياطين ، إلا أنكم لا تتذكرون كيفية نظم القرآن ، واشتماله على شتم الشياطين ، فلهذا السبب تقولون : إنه من باب الكهانة .

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43)

اعلم أن نظير هذه الآية قوله في الشعراء : ﴿ أَنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين * نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 192 194] فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله ، وهو قول جبريل لأنه نزل به ، وهو قول محمد لأنه أنذر الخلق به ، فههنا أيضاً لما قال فيما تقدم : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : 40] أتبعه بقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ حتى يزول الإشكال ، وقرأ أبو السمال : تنزيلاً ، أي نزل تنزيلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 103 . 104 ﴾

(13/780)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾

المعنى أقسم بالأشياء كلّها ما ترون منها وما لاترون .

و"لا" صلة .

وقيل : هو رَد لكلام سبق ؛ أي ليس الأمر كما يقوله المشركون .

وقال مقاتل : سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمداً ساحر .

وقال أبو جهل : شاعر .

وقال عقبة : كاهن ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ أي أقسم .

وقيل : "لا" ها هنا نفي للقَسَم ، أي لا يحتاج في هذا إلى قسم لوضوح الحق في ذلك ، وعلى هذا فجوابه كجواب القسم .

﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يريد جبريل ، قال الحسن والكلبيّ ومقاتل .

دليله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .

ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش ﴾ [التكوير : 19-20] .

وقال الكلبيّ أيضاً والقُتَبِي : الرسول ها هنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ وليس القرآن قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما هو من قول الله عز وجل ونسب القول إلى الرسول لأنه تاليه ومبلّغُه والعاملُ به ، كقولنا : هذا قول مالك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ لأنه مباين لصنوف الشعر كلها .

﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ لأنه ورد بسبّ الشياطين وشتمهم فلا ينزلون شيئاً على من يسبّهم .

و"ما" زائدة في قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ والمعنى : قليلاً تؤمنون وقَلِيلاً تَذَكَّرُون .

وذلك القليل من إيمانهم هو أنهم إذا سئلوا مَن خلقهم قالوا : الله .

ولا يجوز أن تكون "ما" مع الفعل مصدراً وتنصب "قليلاً" بما بعد "ما" ، لما فيه من تقديم الصلة على الموصول ؛ لأن ما عمل فيه المصدر من صلة المصدر .

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثِير وابن عامر ويعقوب "مَا يُؤْمِنُونَ" ، و "يذكرون" بالياء .

الباقون بالتاء لأن الخطاب قبله وبعده .

(14/780)

أما قبله فقوله : "تُبْصِرُونَ" وأما بعده : "فَمَا مِنْكُمْ" الآية .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي هو تنزيل .

﴿ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ وهو عطف على قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، أي إنه لقوله رسول كريم ، وهو تنزيل من رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(15/780)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) ﴾

قد تقدم الكلام في ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : 75] لا أقسم بمواقع النجوم وما تبصرون وما لا تبصرون المشاهدات والمغيبات وإليه يرجع قول قتادة هو عام في جميع مخلوقاته عز وجل وقال عطاء ما تبصرون من آثار القدرة وما لا تبصرون من أسرار القدرة وقيل الأجسام والأرواح وقيل الدنيا والآخرة وقيل الإنس والجن والملائكة وقيل الخلق والخالق وقيل النعم الظاهرة والباطنة والأول شامل لجميع ما ذكر وسبب النزول على ما قال مقاتل : إن الوليد قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ساحر وقال أبو جهل شاعر وقال عتبة كاهن فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ الخ .

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه ﴿ كَرِيمٌ ﴾ على الله عز وجل وهو النبي صلى الله عليه وسلم في قول الأكثرين وقال ابن السائب ومقاتل وابن قتيبة هو جبريل عليه السلام وقوله تعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ الخ قيل دليل لما قاله الأكثرون لأن المعنى على إثبات أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا شاعر ولا كاهن كما يشعر بذلك سبب النزول وتوضيح ذلك أنهم ما كانوا يقولون في جبريل عليه السلام أنه كذا وكذا وإنما كانوا يقولونه في النبي صلى الله عليه وسلم فلو أريد برسول كريم جبريل عليه السلام لفات التقابل ولم يحسن العطف كما تقول أنه لقول عالم وما هو بقول جاهل ولو قلت وما هو بقول شجاع نسبت إلى ما تكره وتعقبه بعض الأئمة بأن هذا صحيح إن سلم أن المعنى على إثبات رسول لا شاعر ويكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ لا قَوْلَ شَاعِرٍ ﴾ إثباتاً للرسالة على طريق الكناية أما إذا جعل المقصود من السياق إثبات حقية المنزل وأنه من الله عز وجل فإنه تذكرة لهؤلاء وحسرة لمقابليهم وهو في نفسه صدق ويقين لا يحوم حوله شك كما يدل عليه ما بعد فللقول الثاني أيضاً موقع حسن وكأنه قيل إن هذا القرآن لقول جبريل الرسول الكريم وما هو من تلقاء محمد صلى الله عليه وسلم كما تزعمون وتدعون أنه شاعر وكاهن ويكون قد نفى عنه صلى الله عليه وسلم الشعر والكهانة على سبيل الإدماج انتهى وهو تحقيق حسن ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً على أن قليلاً صفة للمفعول المطلق لتؤمنون وما مزيدة للتأكيد والقلة بمعناها الظاهر لأنهم لظهور صدقه صلى الله عليه وسلم لزم تصديقهم له عليه الصلاة والسلام في الجملة وإن أظهروا خلافه عناداً وأبوه تمرداً بألسنتهم

وحمل الزمخشري القلة على العدم والنفي أي لا تؤمنون البتة ولا كلام فيه سوى أنه دون الأول في الظهور وقال أبو حيان لا يراد بقليلاً هنا النفي المحض كما زعم فذلك لا يكون إلا في أقل نحو أقل رجل يقول كذا إلا زيد وفي قل نحو قل رجل يقول كذا إلا زيد وقد يكون في قليل وقليلة إذا كانا مرفوعين نحو ما جوزوا في قوله

: أنيخت فالقت بلدة فوق بلدة . . .

(17/780)

قليل بها الأصوات الا بغامها

أما إذا كان منصوباً نحو قليلاً ضربت أو قليلاً ما ضربت على أن تكون ما مصدرية فإن ذلك لا يجوز لأنه في قليلاً ضربت منصوب بضربت ولم تستعمل العرب قليلاً إذا انتصب بالفعل نفياً بل مقابلاً للكثير وأما في قليلاً ما ضربت على أن تكون ما مصدرية فيحتاج إلى رفع قليل لأن ما المصدرية في موضع رفع على الابتداء اه .

وأنت تعلم أن مثل ذلك لا يسمع على مثل الزمخشري بغير دليل فإن الظاهر أنه ما قال ما قال إلا عن وقوف وهو فارس ميدان العربية وجوز كونه صفة لزمان محذوف أي زماناً قليلاً تؤمنون وذلك على ما قيل إذا سألوا من خلقهم أو من خلق السموات والأرض فإنهم يقولون

حينئذٍ الله تعالى وقال ابن عطية نصب قليلاً بفعل مضمر يدل عليه تؤمنون ويحتمل أن تكون ما نافية فينتفي إيمانهم البتة ويحتمل أن تكون مصدرية وما يتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي وقد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً ككون الصلة والعفاف اللذين كانا يأمر بهما عليه الصلاة والسلام حقاً وصواباً اه .

وتعقب بأنه لا يصح نصب قليلاً بفعل مضمر دال عليه تؤمنون لأنه إما أن تكون ما المقدرة معه نافية فالفعل المنفي بما لا يجوز حذفه وكذا حذف ما فلا يجوز زيداً ما أضربه على تقدير ما أضرب زيداً ما أضربه وإن كانت مصدرية كانت إما في موضع رفع على الفاعلية بقليلاً أي قليلاً إيمانكم ويرد عليه لزوم عمله من غير تقدم ما يعتمد عليه ونصبه لا ناصب له وإما في موضع رفع على الابتداء ويرد عليه لزوم كونه مبتدأ بلا خبر لأن ما قبله منصوب لا مرفوع فتأمل وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بخلاف عنهما والحسن والجحدري يؤمنون بالياء التحتية على الالتفات .

(18/780)

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تدعون مرة أخرى ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكرون تذكراً قليلاً فلذلك يلتبس الأمر عليكم وتمام الكلام فيه إعراباً كالكلام فيما قبله وكذا القراءة

وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع نفي الكاهنية قيل لما أن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند فلا عذر لمدعيها في ترك الإيمان وهو أكفر من حمار بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله صلى الله عليه وسلم ومعاني القرآن المنافية لطريق الكهانة ومعاني أقوالهم وتعقب بأن ذلك أيضاً مما يتوقف على تأمل قطعاً وأجيب بأنه يكفي في الغرض الفرق بينهما أن توقف الأول دون توقف الثاني .

﴿ تَنزِيلَ ﴾ أي هو تنزيل ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ نزله سبحانه على لسان جبريل عليه السلام وقرأ أبو السمال تنزيلاً بالنصب بتقدير نزله تنزيلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(19/780)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) ﴾

الفاء هنا لتفريع إثبات أن القرآن منزل من عند الله ونفي ما نسبه المشركون إليه ، تفريعاً على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من التعريض بتكذيب القرآن الذي أخبَر بوقوعه ، وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم القائل إنه موحى به إليه من الله تعالى .

وابتدىء الكلام بالقَسَم تحقيقاً لمضمونه على طريقة الأقسام الواردة في القرآن ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ والصافات صفاً ﴾ [الصافات : 1] .

وضمير ﴿ أُقسم ﴾ عائد إلى الله تعالى .

*

جمع الله في هذا القَسَم كل ما الشأن أن يُقسَم به من الأمور العظيمة من صفات الله تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصِلَتان ﴿ بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ ، فمما يبصرون : الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب ، وما لا يبصرون : الأرواح والملائكة وأمور الآخرة .

و ﴿ لا أقسم ﴾ صيغة تحقيقِ قَسَم ، وأصلها أنها امتناع من القسَم امتناع تحرّج من أن يحلف بالمُقْسمِ به خشية الحنث ، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه ، واعتبر حرف (لا) كالمزيد كما تقدم عند قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ في سورة الواقعة (75) ، ومن المفسرين من جعل حرف (لا) في هذا القسم إبطالاً لكلام سابق وأنّ فعل أُقْسِم ﴾ بعدها مستأنف ، ونُقض هذا النوع بوقوع مثله في أوائل السور مثل : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : 1] و ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] .

وضمير ﴿ إنه ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من ذكر الحشر والبعث ، فإن ذلك مما جاء به القرآن ومجيئه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم به ، على أن إرادة القرآن من ضمائر الغيبة

التي لا معاد لها قد تكرر غير مرة فيه .

وتأكيد الخبر بحرف (إنَّ) واللامِ للرد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك .

(20/780)

والمراد بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كما يقتضيه عطف قوله : ﴿ ولو تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل ﴾ [الحاقة : 44] ، وهذا كما وصف موسى بـ ﴿ رسول كريم في قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءَهم رسول كريم ﴾ [الدخان : 17] وإضافة ﴿ قول ﴾ إلى ﴿ رسول ﴾ لأنه الذي بلّغه فهو قائله ، والإِضافة لأدنى ملابسة وإلاّ فالقرآن جَعَله الله تعالى وأجَراه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته قال تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ [مريم : 97] .

رَوي مقاتل أن سبب نزولها : أن أبا جهل قال : إن محمداً شاعر ، وأن عقبة بن أَبي مُعيط قال : هو كاهن ، فقال الله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ الآية .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ رسول كريم ﴾ جبريل عليه السلام كما أريد به في سورة التكوير إذ الظاهر أن المراد به هنالك جبريل كما يأتي .

وفي لفظ ﴿ رسول ﴾ إيذان بأن القول قول مُرسله ، أي الله تعالى ، وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبه ﴿ تنزيل من رب العالمين .

ووصف الرسول بـ كريم ﴾ لأنه الكريم في صنفه ، أي النفيس الأفضل مثل قوله : ﴿ إني أُلقي إليّ كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29) .

وقد أثبت للرسول الفضل على غيره من الرسل بوصف كريم ﴾ ، ونفي أن يكون شاعراً أو كاهناً بطريق الكناية عند قصد رد أقوالهم .

وعطف ﴿ ولا بقول كاهن ﴾ على جملة الخبر في قوله : ﴿ بقول شاعر ، ﴾ و ﴿ لا ﴾ النافية تأكيد لنفي ﴿ ما ﴾ .

وكني بنفي أن يكون قولَ شاعر ، أو قول كاهن عن تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعراً أو كاهناً ، رد لقولهم : هو شاعر أو هو كاهن .

وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم : افتراه ، أو هو مجنون ، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم ، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف .

(21/780)

والمعنى : ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبَه إلى الله تعالى .

و﴿ قليلاً ﴾ في قوله : ﴿ قليلاً ما تؤمنون قليلاً ما تذكَّرون ﴾ مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التمليح القريب من التهكم كقوله : ﴿ فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾ [النساء : 46] ، وهو أسلوب عربي ، قال ذو الرمة:

أُنيحَتْ أُلْقَتْ بَلْدَةً فوق بَلْدةٍ . . .

قَلِيلٍ بها الأصواتُ إلاّ بُغَامُها

فإن استثناء بُغام راحلته دل على أنه أراد من (قليل) عدم الأصوات .

والمعنى : لا تؤمنون ولا تذكرون ، أي عندما تقولون هو شاعر وهو مجنون ، ولا نظر إلى إيمان من آمن منهم من بعدُ .

وقد تقدم في سورة البقرة (88) قوله : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾

وانتصب قليلاً في الموضعين على الصفة لمصدر محذوف يدل عليه ﴿ تؤمنون ﴾ و ﴿ تذكَّرون ﴾ أي تؤمنون إيماناً قليلاً ، وتذكَّرون تذكراً قليلاً .

و﴿ ما ﴾ مزيدة للتأكيد كقول حاتم الطائي:

قليلاً به ما يَحْمَدَنَّك وَارث . . .

إذَا نال مما كنتَ تَجمع مَغْنَمَا

وجملتَا ﴿ قليلاً ما تؤمنون قليلاً ما تذَّكَّرون ﴾ معترضتان ، أي انتفى أن يكون قول شاعر

، وانتفى أن يكون قول كاهن ، وهذا الانتفاء لا يحصِّل إيمانكم ولا تذكركم لأنكم أهل عناد .

وقرأ الجمهور ﴿ ما تؤمنون ، وما تذكرون ﴾ كليهما بالمثناة الفوقية ، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر (واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر) ويعقوبُ بالياء التحتية على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، وحسَّن ذلك كونُهما معترضتين .

(22/780)

وأوثر نفي الإِيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر ، ونفي التذكُّر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن ، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزائه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخرِ الأجزاء ، فادعاؤهم أنه قول شاعر بهتان متعمَّد ينادي على أنهم لا يُرجى إيمانهم ، وأما انتفاء كون القرآن قولَ كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل إذ قد يشبَّه في بادىء الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين ، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه عَلم أنه ليس بقول كاهن ، فنظمُه مخالف لنظم كلام الكهان إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع ، ومعانيه

ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإِخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث ، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها ، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفياً عنهم التذكر والتدبر ، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم .

وقوله : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ خبر ثان عن اسم (إنّ) وهو تصريح بعد الكناية .

ولك أن تجعل ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ خبر مبتدأ محذوف جرى حذفه على النوع الذي سماه السكاكي بمتابعة الاستعمال في أمثاله وهو كثير في الكلام البليغ ، وتجعلَ الجملة استئنافاً بيانياً لأن القرآن لمَّا وصف بأنه ﴿ قول رسول كريم ﴾ ونفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن ، ترقَّب السامع معرفة كنهه ، فبُين بأنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم ليقوله للناس ويتلوه عليهم .

و﴿ تنزيل ﴾ وصف بالمصدر للمبالغة .

والمعنى : إنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم .

(23/780)

وعبر عن الجلالة بوصف ﴿ ربّ العالمين ﴾ دون اسمِه العلَم للتنبيه على أنه رب المخاطَبين وربُ الشعراءِ والكهانِ الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ [الشعراء : 26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(24/780)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد بقي من الأقسام التي كانوا يتقولونها عليه الافتراء في الرسالة بمعنى أنه عثر على بعض كتب الله تعالى التي نزلت على من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانتحلها من غير أن يوحى إليه ، وكان الدليل على أن ذلك ليس كذلك أن العادة تحيل أن يطلع شخص

من الناس على شيء لم يطلع أحد منهم ولا سيما إن كان ذلك الشخص قليل المخالطة للعلماء فكيف إذا كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال عاطفاً على ما تقديره : فلو لم يكن تنزيل رب العالمين عليه لم يعجزوا عنه : ﴿ ولو تقوّل ﴾ أي كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذباً ﴿ علينا ﴾ على ما لنا من صفات العظمة والجلال والبهاء والكمال والكبرياء ﴿ بعض الأقاويل ﴾ التي لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها ، وهو جمع أفعولة من القول كالأضاحيك جمع أضحوكة ، لا جمع أقوال ، ليكون جمع الجمع ، لأنه يلزم عليه أن لا يعاقب بما دون ثلاثة أقوال ﴿ لأخذنا ﴾ أي بعظمتنا أخذ قوة وغضب وقهر وإهلاك ، وأكده للإعلام بشدة الغضب من الكذب وشدة قبحه .

(25/780)

ولما كان أخذه أخذاً يتلاشى عنده كل أخذ لأن من افترى على الملوك لا يفعل به إلا ذلك قال : ﴿ منه ﴾ أي خاصة ﴿ باليمين ﴾ أي التي هي العضو الأقوى منه فيها يكون بطشه فنذهبه بشدة بطشنا ، أو اليمين منا ، فيكون كناية عن أخذنا له بغاية القوة ، فإن قوة كل شيء في ميامنه ، وقيل : إذا أراد الملك إهانة شخص قال : خذه يا فلان ، فيأخذه بيمينه ، فهو كناية عن الإذلال ، وقيل : هذا تصوير قتل الصبر بأشنع صورة ، فإن الملك إذا أراد

التخفيف على من يقتله أمر السياف فأخذ يساره بيساره ، وضرب بالسيف من ورائه لأن العنق من خلف أوسع فيكون أسرع قطعاً ولا يرى المقتول لمع السيف ، وإن أراد التعذيب والمبالغة في الإهانة أخذ يده اليمنى بيده اليسرى وضربه وهو مستقبل له يرى لمع السيف ، وربما وقعت الضربة لضيق المجال من قدام في حنكه فيحتاج إلى ثانية وثالثة فهو أفحش .

ولما صور مبدأ الإهلاك بأفظع صورة ، أتمه مشيراً إلى شدة بشاعته بحرف التراخي فقال : ﴿ ثم لقطعنا ﴾ حتماً بلا مثنوية بما لنا من العظمة قطعاً يتلاشى عنده كل قطع ﴿ منه الوتين ﴾ أي العرق الأعظم في العنق الثابت الدائم المتين الذي يسمى الوريد ، وهو بين العلباء والحلقوم ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه نياط القلب ، وفي القاموس : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه – انتهى .

(26/780)

واختير التعبير به لأن مادته بهذا الترتيب تدور على المتانة والدوام ، فلذا كان يفوت صاحبه بفواته ، وقال ابن برجان : عرق متصل بنياط القلب مستبطن للصلب يملأ الجسد كله تسقيه الكبد وهي بيت الدم وهو يجري منها الدم في البدن يأخذ منه ستون عرقاً هي أنهار الدم في الجسد كله ، من هذه الأنهار تأخذ الجسد ثمانية عشر تسقي الصدر ،

وسبعة تسقي العين ، وأربعة تسقي الدماغ ، والوتين من مجمع الوركين إلى مجمع الصدر بين الترقوتين ، ثم ينقسم عنه سائر العروق إلى سائر الجسد ، ولا يمكن في العادة الحياة بعد قطعه ، وفي المائدة عند قوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] ما ينفع هنا .

ولما أتم تصوير ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه من أن يأخذ السيئات أو أعوانه بيمينه ويكبحه كالسيف فيضربه عنقه ، سبب عنه قوله إتماماً لعظمته بقوله : ﴿ فما منكم ﴾ أي أيها الناس ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من أحد عنه ﴾ أي القتل أو المقتول المنقول ، ولما كان " أحد " عاماً حقق عمومه واصفاً له ، وأخبر عن " ما " على لغة الحجاز بقوله : ﴿ حاجزين ﴾ أي يكون حاجزاً جزماً كثيفاً مانعاً من الوصول إليه فلا غرض يتعلق من عاقل أن ينصح لأحد بنصيحة تعود إلى المنصوح وحده بالنفع ولاحظ للقائل فيها بكذب يكلف نفسه تقوله على ملك لا يقدر ذلك المنضوح أن يحميه من عقوبته على ذلك الكذب ، واختار الإخبار بالجمع لأنه يدل على عدم حجز الفرد من باب الأولى و " منكم " حال لتقدمه ، وهذا كله كناية على أبلغ الوجوه عن أن هذا الذكر كلام الله لا شبهة فيه بوجه ، مضموماً ذلك إلى وجوه إعجازه ، فإن " لو " لامتناع الثاني لأجل امتناع الأول ، فالتقدير كما يقال في القياس الاستثنائي : لكنا لم نأخذه هذا الأخذ فثبت أنه ما تقول علينا شيئاً ، فثبت أن ما قال كلامنا ثبوتاً تاماً بالبرهان على وجه لا يرام نقضه .

ولما كان هذا كناية عن هذا من غير نظر إلى حقائق مفرداته ولا معنى شيء منها على انفراده ، فكان كأنه قيل : تنزيل من رب العالمين غير متخيل فيه الكذب بوجه ، عطف على ذلك قوله : ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن بعد أن كان ذكراً لجميع العالمين ﴿ لتذكرة ﴾ أي مذكر عظيم جداً ﴿ للمتقين ﴾ أي من العالمين لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد .

ولما علم من هذا أنه سبحانه عالم بقسمي المسيء والحسن ظواهرهم وبواطنهم ، صرح بالقسم الآخر ، فقال مؤكداً لأجل إنكار الضلال : ﴿ وإنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لنعلم ﴾ أي علماً عظيماً محيطاً ﴿ أن منكم ﴾ أيها الأرضيون السفليون الذين ليس لهم أهلية العلو إلى تجريد الأرواح عن علائق الجسد الكثيفة ﴿ مكذبين ﴾ أي عريقين في التكذيب فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل ليظهر منكم إلى عالم الشهادة منها ما كنا نعمله في الأزل غيباً من تكذيب وإيمان فتستحقون بذلك العقاب أو الثواب ، فلذلك وجب في الحكمة التي لا يكذب بها أحد ولا يشك في أنها خاصة الملك المظهرة للكمال أن يعيد الخلق إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازي كلاًّ بما يليق به إظهاراً للعدل .

ولما كان سبب التكذيب ستر ما تجليه مرائي العقول من الدلائل ، وكان التقدير : فإنه بشرى للمؤمنين ، ولكنه طواه لأن السيق للتهديد بالحاقة ، عطف عليه قوله مؤكداً لما لهم

من التكذيب به ، ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ لحسرة ﴾ أي بما يرى من تأويله في الدنيا والآخرة ﴿ على الكافرين ﴾ أي العريقين في الكفر لكونهم كذبوا به لما يظهر لهم من جزائهم وجزاء المؤمنين .

ولما كان كل من الفريقين يذوق جزاءه في الآخرة ، ه وكان كل أحد سمع القرآن ذاق أنه لا يقدر على الإتيان بشيء يماثله ولا يدانيه ، قال مؤكداً تنزيلاً لهم في عداد الجاهلين :

﴿ وإنه ﴾ أي القرآن أو الجزاء في يوم الجزاء ﴿ لحق اليقين ﴾ أي الأمر الثابت الذي يذاق فيصير لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق .

(28/780)

من إضافة الصفة إلى الموصوف ، وهو فوق علم اليقين ، وفي ذلك إشارة إلى أن العبد ينبغي له أن يتحقق لذلك معرفة الحق فيكون مشاهداً للغيوب كمشاهدة المرئيات لما يشاهد من أمثالها ، فأمر البعث يشاهد كل يوم في الليل والنهار وفي العام في النبات وغير ذلك .

ولما كان البعث لهذا المقصد من أعظم الكمال ، وكان عدمه موجباً للنقص ، سبب عن كلا الأمرين إشارة وعبارة قوله آمراً بعد الإخبار في أول المسبحات : ﴿ فسبح ﴾ أي أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص ﴿ باسم ﴾ أي بسبب علمك بصفات ﴿ ربك ﴾ أي

الموجد والمربي لك والمحسن إليك بأنواع الإحسان ﴿ العظيم ﴾ الذي ملأت الأقطار كلها عظمته ، وزادت على ذلك بما شاءه سبحانه مما لا تسعه العقول لا سيما عن قولهم : لن يعيدنا ، فإنه سبحانه وتعالى قادر على ذلك لا يعجزه شيء ، وقد وعد بذلك وهو صادق الوعد ، وعدم البعث مخل بالحكمة لظلم أكثر الناس ، وفيه إشارة إلى المتاركة ، وتعجيب من حالهم في تصميمهم على الكذب والعناد ، والجلد على الجدل والفساد ، فقد رجع آخر السورة على أولها بإحقاق الحاقة لنفي ما وقع الخبط فيه في دار الاحتجاب بالأسباب من مواقع النقص ومظنات اللبس ، فيثبت الحق وينفي الباطل فيفرق بين المحسن والمسيء والسعيد والشقي ، فيحق السلام لحزب الرحمن ، ويثبت الهلاك لأصحاب الشيطان ، ويظهر اسمه الظاهر لكل مؤمن وكافر ، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب والله الهادي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 139 . 142 ﴾

(29/780)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) ﴾

قرىء : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ على البناء للمفعول ، التقول افتعال القول ، لأن فيه تكلفاً من المفتعل ، وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحقيراً لها ، كقولك الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول ، والمعنى ولو نسب إلينا قولاً لم نقله .

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الآية وجوه الأول : معناه لأخذنا بيده ، ثم لضربنا رقبته ، وهذا ذكره على سبيل التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم ، فإنهم لا يمهلونه ، بل يضربون رقبته في الحال ، وإنما خص اليمين بالذكر ، لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحقه بالسيف ، وهو أشد على المعمول به ذلك العمل لنظره إلى السيف أخذ بيمينه ، ومعناه : لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله : ﴿ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ لقطعنا وتينه وهذا تفسير بين وهو منقول عن الحسن البصري القول الثاني : أن اليمين بمعنى القوة والقدرة وهو قول الفراء والمبرد والزجاج ، وأنشدوا قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد . . تلقاها عرابة باليمين

والمعنى لأخذ منه اليمين ، أي سلبنا عنه القوة ، والباء على هذا التقدير صلة زائدة ، قال ابن قتيبة : وإنما قام اليمين مقام القوة ، لأن قوة كل شيء في ميامنه والقول الثالث : قال مقاتل

: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ يعني انتقمنا منه بالحق ، واليمين على هذا القول بمعنى الحق ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ [الصافات : 28] أي من قبل الحق .

(30/780)

اعلم أن حاصل هذه الوجوه أنه لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك إما بواسطة إقامة الحجة فإنا كنا نقيض له من يعارضه فيه ، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه ، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدماً لكلامه ، وإما بأن نسلب عنده القدرة على التكلم بذلك القول ، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب .

المسألة الثانية :

الوتين هو العرق المتصل من القلب بالرأس الذي إذا قطع مات الحيوان قال أبو زيد : وجمعه الوتن و (يقال) ثلاثة أوتنة والموتون الذي قطع وتينه ، قال ابن قتيبة : ولم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لأمتناه ، فكان كمن قطع وتينه ، ونظيره قوله عليه السلام : " ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع ابهرى " والأبهر عرق يتصل بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال : هذا أوأن يقتلني السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره .

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)

قال مقاتل والكلبي معناه ليس منكم أحد يحجزنا عن ذلك الفعل ، قال الفراء والزجاج : إنما قال حاجزين في صفة أحد لأن أحداً هنا في معنى الجمع ، لأنه اسم يقع في النفي العام مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] وقوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النساء ﴾ [الأحزاب : 32] واعلم أن الخطاب في قوله : ﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ للناس .

واعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن تنزيل من الله الحق بواسطة جبريل على محمد الذي من صفته أنه ليس بشاعر ولا كاهن ، بين بعد ذلك أن القرآن ما هو ؟

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (48)

وقد بينا في أول سورة البقرة [2] في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ما فيه من البحث .

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (49)

له بسبب حب الدنيا ، فكأنه تعالى قال : أما من اتقى حب الدنيا فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع .

(31/780)

وأما من مال إليها فإنه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه .

وأقول : للمعتزلة أن يتمسكوا بهذه الآية على أن الكفر ليس من الله ، وذلك لأنه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين ، ولم يقل : بأنه إضلال للمكذبين ، بل ذلك الضلال نسبه إليهم ، فقال : وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، ونظيره قوله في سورة النحل : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جائر ﴾ [النحل : 9] واعلم أن الجواب عنه ما تقدم .

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50)

الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان : الأول : أنه عائد إلى القرآن ، فكأنه قيل : وإن القرآن لحسرة على الكافرين .

إما يوم القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين به ، أو في دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين والثاني : قال مقاتل : وإن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم ، ودل عليه قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ [الحاقة : 49] .

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

معناه أنه حق يقين ، أي حق لا بطلان فيه ، ويقين لا ريب فيه ، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

إما شكراً على ما جعلك أهلاً لإيحائه إليك ، وإما تنزيهاً له عن الرضا بأن ينسب إليه

الكاذب من الوحي ما هو بريء عنه .

وأما تفسير قوله : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ فمذكور في أول سورة : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وفي تفسير قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم ،

وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 104 . 106 ﴾

(32/780)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يا ليتنى لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابيه ﴾

والذين يؤتون كتابهم بشمائلهم : هم المخلدون في النار أهل الكفر فيتمنون أن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيء ، وقوله تعالى : ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ إشارة إلى موتة الدنيا ، أي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة ، وقوله تعالى : ﴿ ما أغنى ﴾ يحتمل أن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ ، ويحتمل أن يريد النفي المحض ، و" السلطان " في الآية : الحجة على قول عكرمة ومجاهد ، قال بعضهم ونحا إليه ابن زيد ينطق

بذلك ملوك الدنيا الكفرة ، والظاهرة عندي أن سلطان كل أحد حاله في الدنيا من عدد وعدد ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن الرجل في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه " .

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)

(33/780)

المعنى يقول الله تعالى : أو الملك بأمره للزبانية ، خذوه واجعلوا على عنقه غلاً ، قال ابن جرير : نزلت في أبي جهل ، و ﴿ ذرعها ﴾ معناه مبلغ أذرع كيلها ، وقد جعل الله تعالى السبعمائة والسبعين والسبعة مواقف ونهايات لأشياء عظام ، فذلك مشي البشر : العرب وغيرهم على أن يجعلوها نهايات ، وهذه السلسلة من الأشياء التي جعل فيها السبعين نهاية . وقرأ السدي : " ذرعها سبعين " بالياء ، وهذا على حذف خبر الابتداء ، واختلف الناس في قدر هذا الذرع ، فقال محمد بن المنكدر وابن جرير وابن عباس : هو بذراع الملك ، وقال نوف البكالي وغيره : الذراع سبعون باعاً في كل باع كما بين الكوفة ومكة ، وهذا يحتاج إلى سند ، وقال حذاق من المفسرين : هي بالذراع المعروفة هنا ، وإنما خوطبنا بما نعرفه ونحصله ، وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هي : وقال السويد بن

نجيح في كتاب الثعلبي : إن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، وقال ابن عباس : لو وضع حلقة منها على جبل لذاب كالرصاص ، وقوله تعالى : ﴿ فاسلكوه ﴾ معناه : ادخلوه ، ومنه قول أبي وجزة السعدي يصف حمر وحش : [البسيط]

حتى سلكن الشوى منهن في مسك . . . من نسل جوابة الآفاق مهداج

(34/780)

وروي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره فهي في الحقيقة التي سلك فيها لكن الكلام جرى مجرى قولهم : أدخلت فمي في الحجر والقلنسوة في رأسي ، وروي أن هذه السلسلة تلوى حول الكافر حتى تغمه وتضغطه ، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ المراد به : ﴿ ولا يحض على ﴾ إطعام ﴿ طعام المسكين ﴾ ، وأضاف " الطعام " إلى ﴿ المسكين ﴾ من حيث له إليه نسبة ما وخصت هذه الخلة من خلال الكافر بالذكر لأنها من أضر الخلال في البشر إذا كثرت في قوم هلك مساكنهم ، واختلف المتأولون في قوله : ﴿ حميم ﴾ ، فقال جمهور من المفسرين : هو الصديق اللطيف المودة ، فنفى الله تعالى أن يكون للكافر هنالك من يواليه ، ونفى أن يكون له طعام ﴿ إلا من غسلين ﴾ ، وقال محمد بن المستنير : " الحميم " الماء

السخن ، فكأنه تعالى أخبر أن الكافر ليس له ماء ولا شيء مائع ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ ، و" الغسلين " فيما قال اللغويون : ما يجري من الجراح إذا غسلت ، وقال ابن عباس : هو صديد أهل النار . وقال قتادة وابن زيد : الغسلين والزقوم أخبث شيء وأبشعه ، وقال الضحاك والربيع : هو شجر يأكله أهل النار ، وقال بعض المفسرين : هو شيء من ضريع النار ، لأن الله تعالى قد أخبر أنهم ليس لهم طعام ﴿ إلا من غسلين ﴾ ، وقال في أخرى :

﴿ من ضريع ﴾ [الغاشية : 6] فهما شيء واحد أو اثنان متداخلان ، ويحتمل أن يكون الإخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ، ويكون الغسلين والضريع متباينين على ما يفهم منهما في لسان العرب وخبر ليس في به ، قال المهدوي : ولا يصح أن يكون ها هنا .

(35/780)

قال القاضي أبو محمد : وقد يصح أن يكون هنا ذلك إن شاء الله ، والخاطئ : الذي يفعل ضد الصواب متعمداً والمخطئ الذي يفعله غير متعمد ، وقرأ الحسن والزهري " الخاطيون " بالياء دون همز ، وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه : " الخاطُون " بضم الطاء دون همز ، وقوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ ، قال بعض النحاة " لا " زائدة والمعنى :

فأقسم ، وقال آخرون منهم : " لا " رد لما تقدم من أقوال الكفار ، والبداءة ﴿ أقسم ﴾ وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " فلأقسم " ، لام القسم معها ألف أقسم ، وقوله تعالى : ﴿ بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ . قال قتادة بن دعامة : أراد الله تعالى أن يعمم في هذا القسم جميع مخلوقاته . وقال غيره : أراد الأجساد والأرواح . وهذا قول حسن عام ، وقال ابن عطاء : " ما تبصرون " ، من آثار القدرة ﴿ وما لا تبصرون ﴾ من أسرار القدرة ، وقال قوم : أراد بقوله : ﴿ وما لا تبصرون ﴾ الملائكة والرسول الكريم جبريل في تأويل جماعة من العلماء ، ومحمد صلى الله عليه وسلم في قول آخرين وأضيف القول إليه من حيث تلاه وبلغه .

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41)

(36/780)

نفى الله تعالى أن يكون القرآن من " قول شاعر " كما زعمت قريش ، ونصب ﴿ قليلاً ﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿ تؤمنون ﴾ ، و ﴿ ما ﴾ يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم البتة ، ويحتمل أن تكون مصدرية ويتصف بالقلة ، إما الإيمان وإما العدد الذي يؤمنون ، فعلى اتصاف إيمانهم بالقلة فهم الإيمان اللغوي لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم

شيئاً إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حق صواب ، ثم نفى تعالى أن يكون " قول كاهن " كما زعم بعضهم ، وقرأ ابن كثير وابن عامر والحسن والجحدري : " قليلاً ما يؤمنون وقليلاً ما يذكرون " بالياء جميعاً . وقرأ الباقون : بالتاء من فوق ، ورجح أبو عامر قراءة التاء بقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحد ﴾ وفي مصحف أبيّ بن كعب " ما تتذكرون " بتاءين ، و ﴿ تنزيل ﴾ رفع بالابتداء ، أي هو ﴿ تنزيل ﴾ ، ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول عليه شيئاً لعاقبه بما ذكر ، والتقول : أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئاً لم يقله . وقرأ ذكوان وابنه محمد : " ولو يقُول " بالياء وضم القاف ، وهذه القراءة معرضة بما صرحت به قراءة الجمهور ، ويبين التعريض قوله ﴿ علينا بعض الأقاويل ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ اختلف في معناه ، فقال ابن عباس : ﴿ باليمين ﴾ ، بالقوة ومعناه : لنلنا منه عقابه بقوة منا ، أو يكون المعنى : لنزعنا قوته ، وقال آخرون : هي عبارة عن الهوان ، كما يقال لمن يسجن أو يقام لعقوبة قد أخذ بيده وبيمينه ، و ﴿ الوتين ﴾ : نياط القلب ، قاله ابن عباس وهو عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ، ومنه قول الشماخ : [الوافر]

إذا بلغتني وحملت رحلي . . . عرادة فاشرقي بدم الوتين

فمعنى الآية لأذهبنا حياته معجلاً ، والحاجز : المانع ، وجمع ﴿ حاجزين ﴾ على معنى ﴿ أحد ﴾ لأنه يقع على الجميع ، ونحوه قوله عليه السلام : " ولم تحل الغنائم لأحد سوى الرؤوس قبلكم " . والضمير في قوله تعالى : ﴿ وإنه لتذكرة ﴾ عائد على القرآن ، وقيل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي قوله تعالى : ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ وعيد وكونه ﴿ لحسرة على الكافرين ﴾ هو من حيث كفروا ويرون من آمن به ينعم وهم يعذبون ، وقوله تعالى : ﴿ لحق اليقين ﴾ ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه كدار الآخرة ومسجد الجامع . وذهب البصريون والحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه ، وقال المبرد : إنما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين . ثم أمر تعالى نبيه بالتسبيح باسمه العظيم . وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته والمضي لأدائها وإبلاغها ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : " اجعلوها في ركوعكم " واستحب التزام ذلك جماعة من العلماء ، وكره مالك لزوم ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(38/780)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾

"تقوّل" أي تكلف وأتى بقول من قِبَل نفسه .

وقرىء "وَلَوْ تُقُوِّلَ" على البناء للمفعول .

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة ، أي لأخذناه بالقوّة .

و"من" صلة زائدة .

وعبر عن القوّة والقدرة باليمين لأن قوّة كل شيء في ميامنه ، قال القُتَبيّ .

وهو معنى قول ابن عباس ومجاهد .

ومنه قول الشماخ :

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لِمَجْدٍ . . .

تلقّاها عَرَابة باليمين

أي بالقوّة .

عرابة اسم رجل من الأنصار من الأوس .

وقال آخر :

ولَمَّا رأيتُ الشمس أشرق نورُها . . .

تناولتُ منها حاجتي بيميني

وقال السّديّ والحكم : "باليمين" بالحق .

وقال :

تلقّاها عَرَابةُ باليمين . . .

أي بالاستحقاق .

وقال الحسن : لقطعنا يده اليمين .

وقيل : المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف ؛ قاله نَفْطَوَيْه .

وقال أبو جعفر الطبري : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقَب .

كما يقول السلطان لمن يريد هَوَانَه : خذوا يديه .

أي لأمرنا بالأخذ بيده وبالغنا في عقابه .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ يعني نياط القلب ؛ أي لأهلكناه .

وهو عِرْقٌ يتعلّق به القلب إذا انقطع مات صاحبه ؛ قاله ابن عباس وأكثر الناس .

قال :

إذا بَلّغْتِنِي وحَمَلْتِ رحْلِي . . .

عَرَابةَ فاشْرَقي بدَمِ الوَتِين

وقال مجاهد : هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع ؛ فإذا انقطع بطلت القوى ومات

صاحبه .

والمَوْتون الذي قُطع وَتينه .

وقال محمد بن كعب : إنه القلب ومَرَاقّه وما يليه .

قال الكلبيّ : إنه عرق بين العِلباء والحلقوم .

والعلباء : عصب العنق .

وهما علباوان بينهما ينبت العرق .

وقال عكرمة : إن الوتين إذا قُطع لا ان جاع عَرَف ، ولا إن شَبِع عَرَف .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

(39/780)

"ما" نفي و "أَحدٍ" في معنى الجمع ، فلذلك نعته بالجمع ؛ أي فما منكم قوم يحجزون عنه ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] هذا جمع ، لأن "بين" لا تقع إلا على اثنين فما زاد .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لم تحِلّ الغنائم لأحد سُودِ الرءوس قبلكم " لفظه واحد ومعناه الجمع .

و"مِن" زائدة.

والحجز: المنع.

و"حَاجِزِينَ" يجوز أن يكون صفة لأحد على المعنى كما ذكرنا؛ فيكون في موضع جَرّ.

والخبر "مِنْكُمْ" ويجوز أن يكون منصوباً على أنه خبر و "مِنْكُمْ" مُلْغىً، ويكون متعلقاً ب "حَاجِزِينَ".

ولا يمنع الفصل به من انتصاب الخبر في هذا؛ كما لم يمتنع الفصل به في "إن فيك زيداً راغب".

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي للخائفين الذين يخشون الله.

ونظيره: ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ على ما بيّناه أوّل سورة البقرة.

وقيل: المراد محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي هو تذكرة ورحمة ونجاة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴾

قال الربيع: بالقرآن.

﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ ﴾ يعني التكذيب.

والحسرة: الندامة.

وقيل: أي وإن القرآن لحسرة على الكافرين يوم القيامة إذا رأوا ثواب من آمن به.

وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تَحَدِّيهم أن يأتوا بسورة

مثله .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ يعني أن القرآن العظيم تنزيل من الله عز وجل ؛ فهو لحق اليقين .

وقيل : أي حَقّاً يقيناً ليكونن ذلك حسرة عليهم يوم القيامة .

فعلى هذا ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ ﴾ أي لَتَحَسُّر ؛ فهو مصدر بمعنى التحسر ، فيجوز تذكيره .

وقال ابن عباس : إنما هو كقولك : لعَيْن اليقين ومحض اليقين .

ولو كان اليقين نعتاً لم يجز أن يضاف إليه ؛ كما لا تقول : هذا رجل الظريف .

وقيل : أضافة إلى نفسه لاختلاف اللفظين .

(40/780)

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ أي فَصلّ لربّك ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : أي نزه الله عن السوء والنقائص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ

﴾

(41/780)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾

أيْ فأُقسِمُ على أنَّ لاَ مزيدةٌ للتأكيدِ وأمَّا حملُهُ على مَعْنَى نفيِ الإقسامِ لظهورِ الأمرِ واستغنائِهِ عن التحقيقِ فيردُّه تعيينُ المقسمِ بِهِ بقولِهِ تعالَى : ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ كما مرَّ في سورةِ الواقعةِ أي أقسمُ بالمُشاهداتِ والمغيباتِ وقيلَ بالدُّنيا والآخرةِ وقيلَ بالأجسامِ والأرواحِ والإنسِ والجنِّ والخلقِ والخالقِ والنعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والأولُ منتظمٌ للكلِّ ﴿ أَنَّهُ ﴾ أيِ القرآنَ ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغُهُ عن اللهِ تعالَى فإنَّ الرسولَ لا يقولُ عن نفسِهِ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ على اللهِ تعالَى وهو النبيُّ أو جبريلُ عليهما السَّلامُ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تزعمونَ تارةً ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً قليلاً تؤمنونَ ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تدَّعُونَ ذلكَ تارةً أُخرى ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرونَ على أنَّ القلةَ بمَعْنَى النَّفي أيْ لا تؤمنونَ ولا تتذكرونَ أصْلاً ، قيلَ ذُكِرَ الإيمانُ معَ نَفي الشاعريةِ والتذكرُ مع نَفي الكاهنيةِ لما أنَّ عدمَ مشابهةِ القرآنِ الشعرَ أمرٌ بيِّنٌ لا يُنكرُهُ إلا معاندٌ بخلافِ مباينتِهِ للكهانةِ فإنَّها تتوقفُ على تذكرِ أحوالِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ومعانِي القرآنِ المنافيةِ لطريقةِ الكَهَنَةِ ومعانِي أقوالِهم ، وأنتُ خبيرٌ بأنَّ ذلكَ أيضاً مما لا يتوقفُ على تأملٍ قطعاً وقُرِئَ بالياءِ فيهما ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ نزلَهُ على لسانِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويل ﴾ سُمِّي الافتراءُ تقوُّلاً لأنَّه قولٌ

متكلفٌ والأقوالُ المُفتراةُ أقاويلُ تحقيراً لها كأنَّها جمعُ أُفْعُولةٍ من القولِ كالأضاحيكِ، جمعُ أُضْحوكَةٍ.

(42/780)

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾

أي بيمينِهِ ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ أي نياطَ قلبِهِ بضربِ عنقِهِ وهو تصويرٌ لإهلاكِهِ بأفظعِ ما يفعلُهُ الملوكُ بمن يغضبونَ عليهِ وهو أنْ يأخذَ القتَّالُ بيمينه ويكفَحُه بالسيفِ ويضربَ عُنقَهُ وقيلَ اليمينُ بمعنى القوةِ قال قائلُهم

إذا مَا رَايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْد . . . تلقَّاها عُرابةُ باليمينِ

﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ أيُّها الناسُ ﴿ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ عن القتلِ أو المقتولِ ﴿ حاجزين ﴾ دافعينَ وصفٌ لأحدٍ فإنَّهُ عامٌّ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي وإنَّ القرآنَ ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم المنتفعونَ بهِ ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ فنجازيهم على تكذيبِهم ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ عند مشاهداتِهم لثوابِ المؤمنينَ ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ الذي لا يحومُ حولَهُ ريبٌ مَا ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ أي فسبحْ بذكرِ اسمِهِ العظيمِ تنزيهاً لهُ عن

الرِّضا بالتقولِ عليهِ وشكراً على ما أُوحِيَ إليكَ . " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(43/780)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾

التقول الافتراء وسمي تقولاً لأنه قول متكلف والأقاويل الأقوال المفتراة وهي جمع قول على غير القياس أو جمع أقوال فهو جمع الجمع كأناعيم جمع أنعام وأبابيت جمع أبيات وفي "الكشاف" سمى الأقوال المتقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أفعولة من القول وتعقبه ابن المنير بأن أفعولة من القول غريب عن القياس التصريفي وأجيب بأنه غير وارد لأن مراده أنه جمع لمفرد غير مستعمل لأنه لا وجه لاختصاصه بالافتراء غير ما ذكر والأحسن أن يقال بمنع اختصاصه وضعاً وأنه جمع على ما سمعت والتحقير جاء من السياق والمراد لو ادعى علينا شيئاً لم نقله .

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ ﴾ أي لأمسكناه وقوله تعالى : ﴿ باليمين ﴾ أي بيان بيمينه بعد الإبهام كما في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ أي وتينه وهو كما قال ابن عباس نياط القلب الذي إذا انقطع مات صاحبه وعن مجاهد أنه الحبل الذي في الظهر وهو النخاع وقال الكلبي هو عرق بين العلباء وهي عصب العنق والحلقوم وقيل عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ومنه قول الشماخ بن ضرار :

إذا بلغتني وحملت رحلي

عرابة فأشرقي بدم الوتين . . .

وهذا تصوير للإهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه وعن الحسن أن المعنى لقطعنا يمينه ثم لقطعنا وتينه عبرة ونكالاً والباء عليه زائدة وعن ابن عباس أن اليمين بمعنى القوة والمراد أخذ بعنف وشدة وضعف بأن فيه ارتكاب مجاز من غير فائدة وأنه يفوت فيه التصوير والتفصيل والإجمال ويصير منه زائداً لا فائدة فيه وقرأ ذكوان وابنه محمد ﴿ ولو يقول ﴾ [الحاقة : 44] مضارع قال وقرىء ﴿ ولو تقول ﴾ مبنياً للمفعول فنائب الفاعل بعض أن كان قد قرىء مرفوعاً وإن كان قد قرىء منصوباً فهو علينا .

﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ أيها الناس ﴿ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ أي عن هذا الفعل وهو القتل ﴿ حاجزين ﴾ أي مانعين يعني فما يمنع أحد عن قتله واستظهر عود ضمير عنه لمن عاد عليه ضمير تقول والمعنى فما يحول أحد بيننا وبينه والظاهر في حاجزين أن يكون خبراً لما على لغة الحجازيين لأنه هو محط الفائدة ومن زائدة واحد اسمها ومنكم قيل في موضع الحال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له فلما تقدم أعرب حالاً كما هو الشائع في نعت النكرة إذا تقدم عليها ونظر في ذلك وقيل للبيان أو متعلق بحاجزين كما تقول ما فيك زيد راغباً ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر ما وقال الحوفي وغيره : إن حاجزين نعت لأحد وجمع على المعنى لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ومنه ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : 285] و﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ [الأحزاب : 32] فأحد مبتدأ والخبر منكم وضعف هذا القول بأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم فلا يتسلط على الحجز مع أنه الحقيق بتسلطه عليه .

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (48)

﴿ وإنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم وقيل الخطاب للمسلمين والمعنى أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن .

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50)

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَسْرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين وقال مقاتل وأن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم فأعاد الضمير للمصدر المفهوم من قوله تعالى ﴿ مكذبين ﴾ والأول أظهر .

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

(45/780)

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَقُّ اليقين ﴾ أي لليقين حق اليقين والمعنى لعين اليقين فهو على نحو عين الشيء ونفسه والإضافة بمعنى اللام على ما صرح به في "الكشف" وجوز أن تكون الإضافة فيه على معنى من أي الحق الثابت من اليقين وقد تقدم في الواقعة ما ينفعك هنا فتذكره وذكر بعض الصوفية قدست أسرارهم أن أعلى مراتب العلم حق اليقين ودونه عين اليقين ودونه علم اليقين فالأول كعلم العاقل بالموت إذا ذاقه والثاني كعلمه به عند معاينة ملائكته عليهم السلام والثالث كعلمه به في سائر أوقاته وتمام الكلام في ذلك يطلب من كتبهم .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ أي فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وشكراً على ما أوحي إليك من هذا القرآن الجليل الشأن وقد مر نحو هذا في

الواقعة أيضاً فارجع إليه إن أردت والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(46/780)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) ﴾

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه ، فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ أي : أعطي كتابه الذي كتبته الحفظة عليه من أعماله ﴿ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً .

قال ابن السكيت ، والكسائي : العرب تقول : ها يا رجل ، وللاثنين هاؤما يا رجلان ، وللجمع هاؤم يا رجال .

قيل : والأصل هاؤكم ، فأبدلت الهمزة من الكاف ، قال ابن زيد : ومعنى ﴿ هاؤم ﴾ : تعالوا .

وقال مقاتل : هلم .

وقيل : خذوا ؛ والذي صرح به النحاة أنها بمعنى خذ ، يقول : ها بمعنى خذ ، وهاؤما

بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا ، فهي اسم فعل ، وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات ، كما هو معروف في علم الإعراب ، وقوله : ﴿ كتابيه ﴾ معمول لقوله : ﴿ اقرءوا ﴾ لأنه أقرب الفعلين ، ومعمول ﴿ هَاؤُمُ ﴾ محذوف يدل عليه معمول ﴿ اقرءوا ﴾ والتقدير : هاؤم كتابيه اقرءوا كتابيه ، والهاء في كتابيه وحسابيه وسلطانيه وماليه ، هي هاء السكت .

قرأ الجمهور في هذه بإثبات الهاء وقفاً ووصلاً مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت في الوصل ، كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة في إلحاق الهاء في السكت ، ويوافق الخط ، يعني : خط المصحف .

قرأ ابن محيصن ، وابن أبي إسحاق ، وحميد ، ومجاهد ، والأعمش ، ويعقوب بحذفها وصلاً ، وإثباتها وقفاً في جميع هذه الألفاظ .

ورويت هذه القراءة عن حمزة ، واختار أبو حاتم هذه القراءة اتباعاً للغة .

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ بحذفها وصلاً ووقفاً .

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ أي : علمت وأيقنت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة .

وقيل المعنى : إني ظننت أن يأخذني الله بسيئاتي ، فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني .

قال الضحاك : كل ظنّ في القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك .

قال مجاهد : ظن الآخرة يقين وظنّ الدنيا شك .

قال الحسن في هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظنّ بربه فأحسن العمل للآخرة ، وإن الكافر أساء الظنّ بربه فأساء العمل .

قيل : والتعبير بالظنّ هنا للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي : في عيشة مرضية لا مكروهة ، أو ذات رضى أي : يرضى بها صاحبها .

قال أبو عبيدة ، والفراء : راضية أي : مرضية كقوله : ﴿ مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] أي : مدفوق ، فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها ، فكان ذلك من المجاز في الإسناد ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي : مرتفعة المكان لأنها في السماء ، أو مرتفعة المنازل ، أو عظيمة في النفوس .

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ القطوف : جمع قطف بكسر القاف ، ما يقطف من الثمار ، والقطف بالفتح المصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى : أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي : يقال لهم : كلوا واشربوا في الجنة ﴿ هَنِيئاً ﴾ أي : أكلاً وشرباً هنيئاً لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأيام الخالية ﴾ أي : بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا .

وقال مجاهد : هي أيام الصيام .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ﴾ حزناً وكرباً لما رأى فيه من سيئاته ﴿ فَيَقُولُ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ أي : لم أعط كتابيه ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ أي : لم أدر أيّ شيء حسابي .

لأن كله عليه .

(48/780)

﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ أي : ليت الموتة التي متّها كانت القاضية ، ولم أحي بعدها ، ومعنى القاضية : القاطعة للحياة ، والمعنى : أنه تمنى دوام الموت ، وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب ، فالضمير في ليتها يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها ، وإن لم تكن مذكورة ؛ لأنها لظهورها كانت كالمذكورة .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره منه ، وشرّ من الموت ما يطلب منه

الموت .

وقيل : الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى : يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ .

﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ أي : لم يدفع عني من عذاب الله شيئًا على أن ما نافية ، أو استفهامية ، والمعنى : أيّ شيء أغنى عني مالي .

﴿ هَلَكَ عَنّى سلطانيه ﴾ أي : هلكت عني حجتي وضلت عني ، كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والسديّ ، والضحاك .

وقال ابن زيد : يعني : سلطاني الذي في الدنيا ، وهو الملك ، وقيل : تسلطي على جوارحي .

قال مقاتل : يعني : حين شهدت عليه الجوارح بالشرك ، وحينئذٍ يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي : اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال .

﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أي : أدخلوه الجحيم ، والمعنى : لا تصلوه إلاّ الجحيم ، وهي النار العظيمة ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ السلسلة حلق منتظمة ، وذرعها طولها .

قال الحسن : الله أعلم بأيّ ذراع هو .

قال نوف الشامي : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف في

رحبة الكوفة .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، ومعنى ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ : فاجعلوه فيها ، يقال : سلكته الطريق إذا أدخلته فيه .

قال سفيان : بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه .

قال الكلبي : تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ .

(49/780)

وقال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، وتقديم السلسلة للدلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ العظيم ﴾ تعليل لما قبلها .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي : لا يحث على إطعام المسكين من ماله ، أو لا يحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام ، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء ، كما قال الشاعر :

أكفراً بعد ردّ موتي عني . . . وبعد عطائك المال الرعابا

أي : بعد إعطائك ، ويجوز أن يكون الطعام على معناه غير موضوع موضع المصدر ،

والمعنى : أنه لا يحث نفسه أو غيره على بذل نفس طعام المسكين ، وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في التصدّق على المساكين وسدّ فاقتهم ، وحثّ النفس والناس على ذلك ما يدلّ أبلغ دلالة ، ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشدّ المآثم .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم ها هنا حَمِيمٍ ﴾ أي : ليس له يوم القيامة في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ؛ لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ أي : وليس له طعام يأكله إلاّ من صديد أهل النار ، وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل .

وقال الضحاك ، والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار .

وقال قتادة : هو شرّ الطعام .

وقال ابن زيد : لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلاّ الله تعالى .

وقال سبحانه في موضع آخر ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6] ، فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فليس له اليوم ها هنا حميم إلاّ من غسلين على أن الحميم هو الماء الحار .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ ﴾ أي : ليس لهم طعام يأكلونه ، ولا ملجىء لهذا التقديم والتأخير ، وجملة : ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ صفة لغسلين ، والمراد أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب .

قال الكلبي : المراد الشرك .

قرأ الجمهور : ﴿ الخاطئون ﴾ مهموزاً ، وهو اسم فاعل من خطىء إذا فعل غير الصواب متعمداً ، والمخطىء من يفعله غير متعمد .

وقرأ الزهري ، وطلحة بن مصرف ، والحسن : " الخاطيون " بياء مضمومة بدل الهمزة .

وقرأ نافع في رواية عنه بضم الطاء بدون همزة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ هذا ردّ لكلام المشركين كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون ، ولا زائدة ، والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه .

قال قتادة : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل في هذا جميع المخلوقات .

وقيل : إن "لا" ليست زائدة ، بل هي لنفي القسم ، أي : لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحقّ في ذلك ، والأوّل أولى .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : إن القرآن لتلاوة رسول كريم ، على أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إنه لقول يبلغه رسول كريم .

قال الحسن ، والكلبي ، ومقاتل : يريد به جبريل ، دليله قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾

[التكوير : 19 20] وعلى كل حال ، فالقرآن ليس من قول محمد ، ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو قول الله ، فلا بدّ من تقدير التلاوة أو التبليغ .

(51/780)

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تزعمون ؛ لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إيماناً قليلاً تؤمنون ، وتصديقاً يسيراً تصدقون ، و " ما " زائدة ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تزعمون ، فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تذكراً قليلاً ، أو زماناً قليلاً تتذكرون ، وما زائدة ، والقلة في الموضعين بمعنى النفي أي : لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلاً ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو تنزيل .

وقرأ أبو السماك بالنصب على المصدرية بإضمار فعل أي : نزل تنزيلاً ، والمعنى : إنه لقول رسول كريم ، وهو تنزيل من ربّ العالمين على لسانه .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾ أي : ولو تقوّل ذلك الرسول ، وهو محمد أو جبريل

على ما تقدّم ، والتقوّل تكلف القول ، والمعنى : أو تكلف ذلك وجاء به من جهة نفسه ، وسمي الافتراء تقوّلاً لأنه قول متكلف ، وكلّ كاذب يتكلف ما يكذب به .

قرأ الجمهور : ﴿ تقوّل ﴾ مبنياً للفاعل .

وقرىء مبنياً للمفعول مع رفع بعض .

وقرأ ابن ذكوان " ولو يقول " على صيغة المضارع ، والأقاويل جمع أقوال ، والأقوال جمع قول .

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ أي : بيده اليمين .

قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب .

وقال الفراء ، والمبرد ، والزجاج ، وابن قتيبة : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ أي : بالقوّة والقدرة .

قال ابن قتيبة : وإنما أقام اليمين مقام القوّة ؛ لأن قوّة كل شيء في ميامنه ، ومن هذا قول الشاعر :

إذا ما راية نصبت لمجد . . . تلقاها عرابة باليمين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها . . . تناولت منها حاجتي بيميني

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ الوتين عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه .

قال الواحدي : والمفسرون يقولون : إنه نياط القلب .

انتهى .

ومن هذا قول الشاعر :

إذا بلغتني وحملت رحلي . . . عرابة فاشرقي بدم الوتين

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ أي : ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه ، فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم ، مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ، ولا تقدرون على الدفع منه ، والحجز : المنع ﴿ وحاجزين ﴾ صفة لأحد ، أو خبر لما الحجازية .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي : أن بعضكم يكذب بالقرآن ، فنحن نجازيهم على ذلك ، وفي هذا وعيد شديد ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ أي : وإن القرآن لحسرة

وندامة على الكافرين يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين ، وقيل : هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ أي : وإن القرآن لكونه من عند الله حقّ ، فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّق إليه شك .

﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ أي : نزهه عما لا يليق به .

وقيل : فصلّ لربك ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ ﴾ قال : أيقنت .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال : قريبة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن البراء في الآية قال : يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال : السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ، ثم يشوى .

وأخرج أبو عبيد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن أبي الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلي منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضي على طعام المسكين يا أمّ الدرداء .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين الدّم والماء والصديد الذي يسيل من لحومهم .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري : عن النبيّ قال : " لو أن دلواً من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : بما ترون وما لا ترون .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ قال : بقدرة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه قال : ﴿ الوتين ﴾ عرق القلب .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً قال : ﴿ الوتين ﴾ نياط القلب .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم ، وصححه عنه أيضاً قال : هو حبل القلب الذي في الظهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 284. 287 ﴾

(54/780)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) ﴾

هذه الجملة عطف على جملة ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ [الحاقة : 3839] فهي مشمولة لما أفادته الفاء من التفريع على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من تكذيبهم القرآن ومَن جاء به وقال : إنه وحي من الله تعالى .

فمفاد هذه الجملة استدلال ثان على أن القرآن منزل من عند الله تعالى على طريقة المذهب الكلامي ، بعد الاستدلال الأول المستند إلى القَسم والمؤكدات على طريقة الاستدلال الخَطابي .

وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع القدرة ، وأنه عليم فلا يقرر أحداً على أن يقول عنه كلاماً لم يقله ، أي لو لم يكن القرآن منزلاً من عندنا ومحمد ادعى أنه منزَّل مِنا ، لما أقررناه على ذلك ، ولعجّلنا بإهلاكه .

فعدَم هلاكه صلى الله عليه وسلم دال على أنه لم يتقوله على الله ، فإن ﴿ لو ﴾ تقتضي انتفاء مضمون شرطها لانتفاءِ مضمون جوابها .

فحصل من هذا الكلام غرضان مهمان:

أحدهما : يعود إلى ما تقدم أي زيادة إبطال لمزاعم المشركين أن القرآن شعر أو كهانة إبطالاً جامعاً لإِبطال النوعين ، أي ويوضح مخالفة القرآن لهذين النوعين من الكلام أن الآتي به ينسبه إلى وحي الله وما عَلِمْتُم شاعراً ولا كاهناً يزعم أن كلامَه من عند الله .

وثانيهما : إبطال زعم لهم لم يسبق التصريح بإبطاله وهو قول فريق منهم ﴿ افتراه ﴾ [يونس : 38] ، أي نسبه إلى الله افتراء وتقوّله على الله قال تعالى ﴿ أم يقولون تقوّله بَلْ لا يؤمنون ﴾ [الطور : 33] فبين لهم أنه لو افترَى على الله لما أقرّه على ذلك .

ثم إن هذا الغرض يستتبع غرضاً آخر وهو تأييسهم من أن يأتي بقرآن لا يخالف دينَهم ولا يسفه أحلامهم وأصنامهم ، قال تعالى : ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءَنا إئْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْه ﴾ [يونس : 15] .

وهذه الجملة معطوفة عطف اعتراض فلك أن تجعل الواو اعتراضية فإنه لا معنى للواو الاعتراضية إلاّ ذلك .

والتقول : نسبة قول لمن لم يقله ، وهو تفعُّل من القول صيغت هذه الصيغةَ الدالة على التكلف لأن الذي ينسب إلى غيره قولاً لم يقله يتكلف ويختلق ذلك الكلام ، ولكونه في معنى كذب عُدي بـ (على) .

والمعنى : لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولاً لم نقله إلخ .

و ﴿ بعضَ ﴾ اسم يدل على مقدار من نوع ما يضاف هو إليه ، وهو هنا منصوب على المفعول به ل ﴿ تقوّل .

والأقاويل ﴾ : جمع أقوال الذي هو جمع قول ، أي بعضاً من جنس الأقوال التي هي كثيرة فلكثرتها جيء لها بجمع الجمع الدال على الكثرة ، أي ولو نسب إلينا قليلاً من أقوالٍ كثيرة صادقةٍ يعني لو نسب إلينا شيئاً قليلاً من القرآن لم ننزله لأخذنا منه باليمين ، إلى آخره .

ومعنى ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ لأخذناه بقوة ، أي دون إمهال فالباء للسببية .

واليمين : اليد اليمنى كني بها عن الاهتمام بالتمكن من المأخوذ ، لأن اليمين أقوى عملاً من الشِمال لكثرة استخدامها فنسبة التصرف إليها شهيرة .

وتقدم ذلك في مواضع منها قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم ﴾ في سورة البقرة (224) وقوله : ﴿ وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ في سورة الأعراف (17)

وقوله : ﴿ ولا تخطُّه بيمينك ﴾ في سورة العنكبوت (48) .

وقال أبو الغُول الطَهَوِي :

فدَت نفسي وما ملكتْ يميني

فوارسَ صدَّقوا فيهم ظنوني . . .

والمعنى : لأخذناه أخذاً عاجلاً فقطعنا وتينه ، وفي هذا تهويل لصورة الأخذ فلذلك لم يقتَصَرْ على نحو : لأهْلكناه .

ومنه ﴿ متعلق بـ (أخذنا) تعلق المفعول بعامله .

و(مِن) زائدة في الإثبات على رأي الأخفش والكوفيين وهو الراجح .

(56/780)

وقد بينته عند قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا منه خَضِراً نُخرج منه حباً متراكباً ومن النخل ﴾ [الأنعام : 99] ، فإن ﴿ النخل معطوف على خَضِرا بزيادة مِن ﴾ ولولا اعتبار الزيادة لما استقام الإعراب إلاّ بكلفة ، وفائدة ﴿ من ﴾ الزائدة في الكلام أن أصلها التبعيض المجازي على وجه التمليح كأنه يقول : نأخذ بعضَه .

و﴿ الوتين ﴾ : عِرق معلَّق به القلب ويسمى النياط ، وهو الذي يسقي الجسد بالدم

ولذلك يقال له : نَهرُ الجسد ، وهو إذا قطع مات صاحبه وهو يقطع عند نحر الجزور .

فقطع الوتين من أحوَال الجزور ونحرها ، فشبه عقاب من يُفرض تَقوُّله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها .

ولم أقف على أن العرب كانوا يكنّون عن الإِهلاك بقطع الوتين ، فهذا من مبتكرات القرآن .

و﴿ منه ﴾ صفة للوتين ، أو متعلق بـ (قطعنا) ، أي أزلناه منه .

وبينَ ﴿ منه ﴾ الأولى و ﴿ منه ﴾ الثانية محسّن الجناس .

وأما موقع تفريع قوله : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ فهو شديد الاتصال بما استتبعه فرض التقوُّل من تأييسهم من أن يتقول على الله كلاماً لا يسوءَهم ، ففي تلك الحالة من أحوال التَقوُّل لو أخذنَا منه باليمين فقطعنا منه الوتين ، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب ، وبدون هذا الاتصال لا يَظهر معنى تعجيزهم عن نصره إذ ليسوا من الولاء له بمظنة نصره ، فمعنى هذه الآية يحوم حول معنى قوله : ﴿ وإن كادُوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً إذنْ لأذقناك ضِعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ [الإسراء : 73 75] .

والخطاب في قوله : ﴿ منكم ﴾ للمشركين .

وإنما أخبر عن ﴿ أحد ﴾ وهو مفرد بـ ﴿ حاجزين ﴾ جمعاً لأن ﴿ أحد ﴾ هنا وإن كان لفظه مفرداً فهو في معنى الجمع لأن ﴿ أحد ﴾ إذا كان بمعنى ذات أو شخص لا يقع إلاّ في سياق النفي مثل عَرِيب ، ودّيار ونحوهما من النكرات التي لا تستعمل إلاّ منفية فيفيد العموم ، أي كل واحد لا يستطيع الحجز عنه ويستوي في لفظه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى : ﴿ لا نُفرق بين أحد من رسله ﴾

[البقرة : 285] وقال : ﴿ لَسْتُنّ كأحدٍ من النساء ﴾ [الأحزاب : 32] .

والمعنى : ما منكم أناس يستطيعون الحجز عنه .

والحجز : الدفع والحيلولة ، أي لا أحد منكم يحجزنا عنه .

والضمير عائد إلى ﴿ رسول كريم ﴾ [الحاقة : 40] .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن أحد ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم .

وذِكر ﴿ منكم ﴾ مع ﴿ عنه ﴾ تجنيس محرّف .

وهذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يُبقي أحداً يدعي أن الله أوحى إليه كلاماً يبلغه إلى الناس ، وأنه يعجل بهلاكه .

فأما من يدعي النبوءة دون ادعاء قولٍ أُوحي إليه ، فإن الله قد يهلكه بعد حين كما كان في أمر الأسود العنسي الذي ادعى النبوءة باليَمن ، ومُسيلمة الحنفي الذي ادعى النبوءة في

اليَمامة ، فإنهما لم يأتيا بكلام ينسبانه إلى الله تعالى ، فكان إهلاكهما بعد مدة ، ومثْلهما من ادعَوا النبوءة في الإِسلام مثل (بَابك ومازيّار) .

وقال الفخر : "قيل : اليمين بمعنى القُوة والقدرة ، والمعنى : لأخذنا منه اليمينَ ، أي سلبنا عنه القوة ، والباء على هذا التقدير صلة زائدة .

واعلم أن حاصل هذا أنه لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك : إما بواسطة إقامة الحجة فإنا نقيض له من يعارضه فيه وحينئذٍ يظهر للناس كذبه فيه فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدْماً لكلامه ، وإما بأن نسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول ، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب" أ هـ .

(58/780)

فركّب من تفسير اليمين بمعنى القوة ، أن المراد قوة المتقوّل لا قوة الله وانتزع من ذلك تأويل الباء على معنى الزيادة ولم يسبقه بهذا التأويل أحد من المفسرين ولا تَبعه فيه مَن بعده فيما رأينا .

وفيه نظر ، وقد تبين بما فسرنا به الآية عدم الاحتجاج إلى تأويل الفخر .

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)

عطف على ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [الحاقة : 40] ، والضمير عائد إلى القرآن الذي تقدم ضميره في قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، فلما أبطل طعنهم في القرآن بأنه قول شاعر ، أو قول كاهن أعقب ببيان شرفه ونفعه ، إمعاناً في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البيّن بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان ، إذ هو تذكرة وليس ما ألحقوه به من أقوال أولئك من التذكير في شيء .

والتذكرة : اسم مصدر التذكير وهو التنبيه إلى مغفول عنه .

والإِخبار بـ وإنه لتذكرة ﴾ إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف .

والمعنى : أنه مذكِّر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوة التمادي في الغفلة حتى يفوت الفوات ، فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكَّر أم لم يتذكر ، وقد تقدم تسمية القرآن بالذِكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى في سورة طه (3) ﴿ إلاّ تذكرة لمن يخشى ﴾ وقوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في سورة [الحجر : 6] .

والمراد بالمتقين المؤمنون فإنهم المتصفون بتقوى الله لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين .

فالقرآن كان هادياً إياهم للإيمان كما قال تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] وكلما نزل منه شيء أو تلوا منه شيئاً ذكرهم بما علموا لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان فالقرآن تذكرة

للمتقين في الماضي والحال والمستقبل ، فإن الإِخبار عنه باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه .

(59/780)

وإنما علق ﴿ للمتقين ﴾ بكونه (تذكرة) لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته .

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49)

هاتان جملتان مرتبطتان ، وأولاهما تمهيد وتوطئة للثانية ، وهي معترضة بين التي قبلها والتي بعدها ، والثانية منهما معطوفة على جملة ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ [الحاقة : 48] ، فكان تقديم الجملة الأولى على الثانية اهتماماً بتنبيه المكذبين إلى حالهم وكانت أيضاً بمنزلة التتميم لجملة ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ [الحاقة : 48] .

والمعنى : إنا بعثنا إليكم الرسول بهذا القرآن ونحن نعلم أنه سيكون منكم مكذبون له وبه ، وعلمنا بذلك لم يصرفنا عن توجيه التذكير إليكم وإعادته عليكم ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة ﴾ [الأنفال : 42] ، فقوبلت صفة القرآن التي تنفع المتقين بصفته التي تُضر بالكافرين على طريقة التضاد ، فبين الجملتين المتعاطفتين مُحسّن الطباق .

والحَسرة : الندَم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه ، ويقال لها : التلهف ،

اشتقت من الحَسْر وهو الكشف لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده ، فالقرآن حسرة على الكافرين أي سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة ، فهو حسرة عليهم في الدنيا لأنه فَضح تُرَّهَاتِهم ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم ، وهو حسرة عليهم في الآخرة لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم ، ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتبعوه لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدّقوا به .

والمكذبون : هم الكافرون .

وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذٍ والذين سيكفرون به من بعد .

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

(60/780)

عطف على ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ [الحاقة : 50] فيحتمل أن يكون الضمير عائداً على القرآن لأن هذه من صفات القرآن ، ويحتمل أن يكون مراداً به المذكور وهو كون القرآن حسرة على الكافرين ، أي إن ذلك حق لا محالة أي هو جالب لحسرتهم في الدنيا

والآخرة .

وإضافة حق إلى يقين يجوز أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي إنه لليقينُ الحق الموصوف بأنه يقين لا يَشك في كونه حقاً إلاّ من غشي على بصيرته وهذا أولى من جعل الإِضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي لليقين الحق ، أي الذي لا تعتريه شبهة .

واعلم أن حق اليقين ، وعين اليقين ، وعلم اليقين ، وقعت في القرآن .

فحق اليقين وقع في هذه السورة وفي آخر سورة الواقعة ، وعلم اليقين وعين اليقين وقعا في سورة التكاثر ، وهذه الثلاثة إضافتها من إضافة الصفة إلى الموصوف أو من إضافة الموصوف إلى الصفة كما ذكرنا .

ومعنى كل مركب منها هو محصل ما تدل عليه كلمتاه وإضافةُ إحداهما إلى الأخرى .

(61/780)

وقد اصطلح العلماء على جعل كلمة (عِلم اليقين) اسما اصطلاحياً لما أعطاه الدليل بتصوّر الأمور على ما هي عليه حسب كلام السيد الجرجاني في كتاب "التعريفات" ، ووقع في كلام أبي البقاء في "الكليات" ما يدل على أن بعض هذه المركبات نقلت في بعض الاصطلاحات العلمية فصارت ألقاباً لمعان ، وقال : علم اليقين لأصحاب البرهان ، وعين

اليقين وحق اليقين أيضاً لأصحاب الكشف والعيان كالأنبياء والأولياء على حسب تفاوتهم في المراتب ، قال : وقد حقق المحققون من الحكماء بأن بعد المراتب الأربع للنفس (يعني مراتب تحصيل العلم للنفس المذكورة في المنطق الأوليات ، والمشاهدات الباطنية ، والتجريبات ، والمتواترات) مرتبتين : إحداهما مرتبة عين اليقين وهي أن تصير النفس بحيث تشاهد المعقولات في المعارف التي تفيضها النفس كما هي ، والثانية مرتبة حق اليقين وهي أن تصير النفس بحيث تتصل بالمعقولات اتصالاً عقلياً وتلاقي ذاتها تلاقياً روحانياً .

واصطلح علماء التصوف على جعل كل مركب من هذه الثلاثة لقباً لمعنى من الانكشاف العقلي وجرت في كتاب "الفتوحات المكية" للشيخ محيي الدين بن عربي .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

تفريع على جميع ما تقدم من وصف القرآن وتنزيهه على المطاعن وتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عما افتراه عليه المشركون ، وعلى ما أيده الله به من ضرب المثل للمكذبين به بالأمم التي كذبت الرسل ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح الله تسبيح ثناء وتعظيم شكراً له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه .

واسم الله هو العَلَم الدال على الذات .

والباء للمصاحبة ، أي سبح الله تسبيحاً بالقول لأنه يجمع اعتقاد التنزيه والإقرارَ به

وإشاعته .

والتسبيح : التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادةِ والقول ، فتعين أن يجري في التسبيح القولي اسم المنزِّه فلذلك قال ﴿ فسبح باسم ربك ﴾ ولم يقل فسبح ربَّك العظيم .

(62/780)

وقد تقدم في الكلام على البسملة وجه إقحام اسم في قوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 1] .

وتسبيح المُنعم بالاعتقاد والقول وهما مستطاع شكر الشاكرين إذ لا يُبلغ إلى شكره بأقصى من ذلك ، قال ابن عطية : وفي ضمن ذلك استمرار النبي صلى الله عليه وسلم على أداء رسالته وإبلاغها .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمّا نزلت هذه الآية " اجعلوها في ركوعكم " واستحَب التزامَ ذلك جماعة من العلماء ، وكره مالك التزام ذلك لئلا يعد واجباً فرضاً أ هـ .

وتقدم نظير هذه الآية في آخر سورة الواقعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الحاقة ﴾ قال : من أسماء يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ الحاقة ﴾ يعني الساعة أحقت لكل عامل عمله ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ قال : تعظيماً ليوم القيامة ، كما تسمعون ، وفي قوله : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ قال : بالساعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ الحاقة ﴾ قال : حققت لكل عامل عمله للمؤمن إيمانه وللمنافق نفاقه ، وفي قوله : ﴿ بالقارعة ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ قال : بالذنوب ، وكان ابن عباس يقول : الصيحة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ قال : أرسل الله عليهم صيحة واحدة فأهمدتهم فأهلكوا في قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال : عتت عليهم حتى نقبت أفئدتهم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا بمكيال ، ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد ، فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بمكيال على يدي ملك إلا يوم نوح ، فإنه أذن للماء دون الخزان ، فطغى الماء على الخزان ، فخرج فذلك قوله : ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ عتت على الخزان .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ، قال : ما أمر الخزان أن يرسلوا على عاد إلا مثل موضع الخاتم ، من الريح ، فعتت على الخزان فخرجت من نواحي الأبواب ، فذلك قوله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال : عتوها عتت على الخزان فبدأت بأهل البادية منهم فحملتهم بمواشيهم وبيوتهم فأقبلت بهم إلى الحاضرة ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ [الأحقاف : 24] فلما دنت الريح وأظلتهم استبق الناس والمواشي فيها فألقت البادية على أهل الحاضرة تقصفهم فهلكوا جميعاً " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والدارقطني في الأفراد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما أنزل الله من السماء كفاً من ماء إلا بمكيال ولا كفاً من ريح إلا بمكيال إلا يوم نوح ، فإن الماء طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سلطان ، قال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ ويوم عاد فإن الريح عتت على الخزان قال الله : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال : الغالبة " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : الصرصر الباردة ﴿ عاتية ﴾ قال : حيث عتت على خزانها .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ عاتية ﴾ قال :

شديدة وفي قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : متتابعة .

وأخرج ابن عساكر من طريق ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب قال : ما يخرج من الريح شيء إلا عليها خزان يعلمون قدرها وعددها ووزنها وكيلها حتى كانت الريح التي أرسلت على عاد فاندفق منها شيء لا يعلمون وزنه ولا قدره ولا كيله غضباً لله ، ولذلك سميت عاتية ، والماء كذلك حين كان أمر نوح فلذلك سمي طاغياً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام ﴾ قال : كان أولها الجمعة .

(65/780)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : متتابعات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : تبعاً ، وفي لفظ متتابعات .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : دائمة شديدة يعني محسومة بالبلاء ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم .

أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول :

وكم كنا بها من فرط عام . . . وهذا الدهر مقتبل حسوم

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ قال : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح ، فلما أمسوا اليوم الثامن ماتوا ، فاحتملتهم الريح ، فألقتهم في البحر ، فذلك قوله : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ وقوله : ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ قال : وأخبرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عذبهم بكرة وكشف عنهم في اليوم الثاني حتى كان الليل " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة رضي الله عنهما في قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : متتابعة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ حسوماً ﴾ قال : دائمات ، وفي قوله : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ قال : هي أصول النخل قد بقيت أصولها وذهبت أعاليها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ قال : أصولها وفي قوله : ﴿ خاوية ﴾ قال : خربة .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ بنصب القاف .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ قال : ومن معه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ والمؤتفكات ﴾ قال : هم قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم .

(66/780)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ بالخاطئة ﴾ قال : بالخطايا وفي قوله : ﴿ أخذة رابية ﴾ قال : شديدة وفي قوله : ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ قال : كثر وفي قوله : ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ قال : السفينة ، وفي قوله : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال : حافظة ، وفي لفظ : سامعة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ قال : طغى على خزانه ، فنزل ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح ، فإنه طغى على خزانه فنزل من غير كيل ولا وزن .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : لم ينزل من السماء قطرة قط إلا بعلم الخزان إلا حيث طغى الماء ، فإنه غضب لغضب الله فطغى على الخزان فخرج ما لا يعلمون ما هو .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ طغى الماء ﴾ قال : بلغني أنه طغى فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن السدي في قوله : ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ قال : السفينة وفي قوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أي تذكرون ما صنع بهم حيث عصوا نوحاً ﴿ وتعيها ﴾ يقول : وتحصيها ﴿ أذن واعية ﴾ يقول : أذن حافظة ، يعني حديث السفينة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن مكحول قال : " لما نزلت ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت ربي أن يجعلها أذن عليَّ " قال مكحول : فكان عليّ يقول : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فنسيته .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر والبخاري عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ، وأن تعي ، وحق لك أن تعي " فنزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " يا عليّ إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي " فأنزل هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ " فأنت أذن واعية لعلمي " " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ قال : لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكم من سفينة قد هلكت وأثر قد ذهب يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد فرأوه كانت ألواحها ترى على الجودي .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ قال : عبرة وآية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة ، وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عمران في قوله : ﴿ أذن واعية ﴾ قال : أذن عقلت عن الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال سمعت وعقلت ما سمعت وأوعت .

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14)

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن أبيّ بن كعب في قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ قال : يصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ﴾ [عبس : 40] .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ قال : زلزلة شديدة عند النفحة الآخرة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت عدي بن زيد وهو يقول :

ملك ينفق الخزائن والذم . . . ة قد دكها وكادت تبور

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله : ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : لمن الملك أين ملوك الأرض " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وانشقت السماء ﴾ قال : ذلك قوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] .

(68/780)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فهي يومئذ واهية ﴾ قال : متخرقة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ قال : الملائكة على أطرافها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾

قال : الملائكة على شقها ينظرون إلى أهل الأرض ، وما أتاهم من الفزع .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير والضحاك في قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ قال : على ما لم ينشق منها .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك وقتادة وسعيد بن جبير في قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ قالوا : على حافات السماء .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ قال : على حافاتها على ما لم يه منها .

وأخرج عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية وأبو يعلى وابن المنذر وابن خزيمة وابن مردويه والحاكم وصححه والخطيب في تالي التلخيص عن العباس بن عبد المطلب في قوله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال : يقال ثمانية صفوف لا يعلم عدتهم إلا الله ، يقال ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة وأقدامهم في الأرض السفلى ، ولهم قرون كقرون الوعلة ما بين أصل قرن أحدهم

إلى منتهاه مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال : ثمانية من الملائكة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية " .

(69/780)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لم يسم من حملة العرش إلا إسرافيل قال : وميكائيل ليس من حملة العرش .

وأخرج ابن أبي حاتم وتمام الرازي في فوائده وابن عساكر عن أبي الزاهرية قال : أنبئت أن لبنان أحد حملة العرش الثمانية يوم القيامة .

وأخرج ابن عساكر عن كعب قال : لبنان أحد الثمانية تحمل العرش يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ميسرة في قوله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال : أرجلهم في التخوم ورؤوسهم عند العرش ، لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : أربعة أملاك يحملون العرش على أكتافهم لكل واحد منهم أربعة وجوه : وجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه نسر ، ووجه إنسان ، لكل واحد منهم أربعة أجنحة : أما جناحان فعلى وجهه من أن ينظر إلى العرش فيصعق ، وأما جناحان فيصفق بهما ، وفي لفظ : فيطير بهما أقدامهم في الثرى . والعرش على أكتافهم ليس لهم كلام إلا أن يقولوا : قدسوا الله القوي ، ملأت عظمته السموات والأرض .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ قال : تعرضون ثلاث عرضات ، فأما عرضتان ففيهما الخصومات والمعاذير ، وأما الثالثة ، فتطاير الصحف في الأيدي .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " تعرض الناس ثلاث عرضات يوم القيامة ، فأما عرضتان ففيهما خصومات ومعاذير وجدال ، وأما العرضة الثالثة فتطير الصحف في الأيدي ، اللهم اجعلنا ممن تؤتيه كتابه بيمينه " قال : وكان بعض أهل العلم يقول : إني وجدت أكيس الناس من قال : ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابية ﴾ قال : ظن ظناً يقيناً فنفعه الله بظنه . قال : وذكر أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " من استطاع أن يموت وهو يحسن الظن بالله فليفعل " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في أيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن أبي موسى قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : في قوله : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ قال : " عرضتان فيهما الخصومة والجدال ، والعرضة الثالثة تطير الصحف في أيدي الرجال " .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في البعث عن ابن مسعد قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فتطاير الكتب بالأيمان والشمائل .

وأخرج ابن المبارك عن عمر قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنه أيسر لحسابكم ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال : إن الله يقف عبده يوم القيامة فيبدي سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول عند ذلك ﴿ هاؤم اقرءُوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ حين نجا من فضيحته يوم القيامة .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب عن أبي عثمان النهدي قال : إن المؤمن ليعطى كتابه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ، ثم يقرأ حسناته فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات ، فعند ذلك يقول : ﴿ هاؤم اقرءُوا كتابية ﴾ .

(71/780)

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك ، فقال رجل : يا رسول الله : كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : هم غر محجلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم

بأيمانهم ، وأعرفهم يسعى نورهم بين أيديهم ذريتهم " .

وأخرج جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إني ظننت ﴾ قال : أيقنت .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب في قوله : ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : قريبة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : دنت فلا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء في قوله : ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : دنت فلا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن البراء في قوله : ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال : يتناول الرجل منها من فواكهها وهو قائم .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ قطوفها ﴾ قال : ثمرها .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن سلمان الفارسي : لا يدخل الجنة أحد إلا بجوار بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان أدخلوه جنة عالية ﴿ قطوفها دانية ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ قال :

أيامكم هذه أيام خالية فانية تؤدي إلى أيام باقية فاعملوا في هذه الأيام وقدموا خيراً إن استطعتم ولا قوّة إلا بالله .

(72/780)

وأخرج ابن المنذر عن يوسف بن يعقوب الحنفي قال : بلغني أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى : يا أوليائي طال ما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت عينكم وجفت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا ﴿ هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الله بن رفيع في قوله : ﴿ بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ قال : الصوم .

وأخرج البيهقي عن نافع قال : خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له ووضعوا سفرة لهم فمر بهم راعي غنم ، فسلم فقال ابن عمر : هلم يا راعي ، هلم فأصب من هذه السفرة ، فقال له : إني صائم ، فقال ابن عمر : أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد سمومه وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم ؟ فقال له : إني والله أبادر أيامي الخالية ، فقال له ابن عمر ، وهو يريد أن يختبر ورعه : فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه

فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها فتفطر عليه ؟ فقال : إنها ليست لي بغنم ، إنها غنم سيدي . فقال له ابن عمر : فما عسى سيدك فاعلاً إذا فقدها فقلت أكلها الذئب ؟ فولى الراعي عنه ، وهو رافع إصبعه إلى السماء ، وهو يقول : فأين الله ؟ قال : فجعل ابن عمر يردد قول الراعي ، وهو يقول : قال الراعي : فأين الله ؟ فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه فاشترى منه الغنم والراعي ، فأعتق الراعي ووهب منه الغنم .

يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ قال : تمنوا الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره عندهم من الموت ، وفي قوله : ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ قال : أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قرية ، ولكن الله خلقهم وسلطهم على أبدانهم وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته .

وأخرج هناد عن الضحاك في قوله : ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ قال : يا ليتها كانت موتة لا حياة بعدها .

(73/780)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ قال : حجتي .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ قال : يعني حجته .

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ قال : حجتي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ قال : ضلت عني كل بينة فلم تغن عني شيئاً .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ قال : أخبرت أنه أبو جهل .

وأخرج ابن المبارك وهناد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن نوف الشامي في قوله : ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ قال : الذراع سبعون باعاً ، والباع ما بينك وبين مكة ، وهو يومئذ بالكوفة .

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن كعب قال : إن حلقه من السلسلة التي ذكر الله في كتابه مثل جميع حديد الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس في قوله : ﴿ فاسلكوه ﴾ قال : تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ فاسلكوه ﴾ قال : قال ابن عباس : السلسلة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود

ثم يشوى .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد قال : بلغني أن السلسلة تدخل من مقعده حتى تخرج من فيه ، يوثق بها بعد أو من فيه حتى تخرج من معدته .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي الدرداء قال : إن لله سلسلة لم تزل تغلي فيها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم القيامة تلقى في أعناق الناس وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم فحضّي على طعام المسكين يا أم الدرداء .

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35)

أخرج ابن أبي حاتم وأبو القاسم الزجاجي النحوي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم .

(74/780)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الغسلين الدم والماء الذي يسيل من لحومهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : الغسلين صديد أهل النار .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن دلواً من غسلين يراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا " .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : الغسلين اسم طعام من أطعمه النار .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : غسلين شجرة في النار .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي إلى عليّ بن أبي طالب فقال : كيف هذا الحرف لا يأكله ألا الخاطون كل والله يخطو فتبسم عليّ وقال : يا أعرابي ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده ، ثم التفت عليّ إلى أبي الأسود فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم ، فرسم له الرفع والنصب والخفض .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في تاريخه من طريق أبي الدهقان عن عبد الله أنه قرأ ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ مهموزة .

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد أنه كان يقرأ " لا يأكله إلا الخاطون " لا يهمز .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر عن ابن عباس قال : ما الخاطون ؟ إنما هو الخاطئون ، ما الصابون ؟ إنما هو الصابئون .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ يقول

: بما ترون وما لا ترون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ قال : طهره الله وعصمه ﴿ ولا بقول كاهن ﴾ قال : طهره من الكهانة وعصمه منها .

(75/780)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن يزيد بن عامر السوائي أنهم بينما هم يطوفون بالطاغية إذ سمعوا متكلماً وهو يقول : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ففزعنا لذلك وقلنا ما هذا الكلام الذي لا نعرفه ، فنظرنا فإذا النبي صلى الله عليه وسلم منطلق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ قال : بقدرة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحكم في قوله : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ قال : بالحق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الوتين عرق القلب .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ قال : هو حبل

القلب الذي في الظهر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ قال : كنا نحدث أنه حبل القلب .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : الوتين الحبل الذي في الظهر .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : الوتين نياط القلب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حصين بن عبد الرحمن قال : قال ابن عباس : إذا احتضر الإِنسان أتاه ملك الموت فغمز وتينه ، فإذا انقطع الوتين خرج روحه فهناك حين يشخص بصره ويتبعه روحه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : إذا انقطع الوتين لا إن جاع عرق ، ولا إن شبع عرق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وإنه لتذكرة ﴾ لك ﴿ وإنه لحسرة ﴾ ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ قال : يعني هذا القرآن وفي قوله : ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ قال : ذاكم يوم القيامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 263 . 276 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الحاقة مَا الحاقة ﴾

وهو اسم من أسماء القيامة ، ومعناه القيامة ما القيامة ؟ تعظيماً لأمرها .

وقال قتادة في قوله : ﴿ الحاقة ﴾ يعني : حقت لكل قوم أعمالهم يعني : حقت للمؤمنين أعمالهم وللكافرين أعمالهم من حق يحق ، إذا صح .

وذكر عن الفراء أنه قال : إنما قيل لها الحاقة ، لأن فيها حواق الأمور .

يقال : لقد حق عليك الشيء ، أي وجب .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ يعني : ما تدري أي يوم هو ، تعظيماً لأمرها .

ثم وصف القيامة في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور ﴾ .

ثم ذكر من كذب بالساعة والقيامة ، وما نزل بهم ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ يعني : كذبت قوم صالح وقوم هود بالقيامة .

وإنما سميت قارعة ، لأنها تقرع قلوب الخلق .

ثم أخبر عن عقوبتهم في الدنيا ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ يعني : بطغيانهم ، ومعناه وطغيانهم حملهم على التكذيب ، فأهلكوا .

ويقال : أهلكوا بالرجفة الطاغية ، كما قال في قصته ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ يعني : عتت على خزانها ، فذلك قوله : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ يعني : باردة يعني : شديدة البرد ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ يعني : دائمة متتابعة .

ويقال : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ يعني : شديدة ﴿ حُسُوماً ﴾ يعني : كاملة دائمة لا يفتر عنهم .

وقال القتبي : ﴿ حُسُوماً ﴾ أي : متتابعة .

وأصله من حسم الداء ، لأنه يكون مرة بعد مرة .

﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى ﴾ يعني : في الريح ؛ ويقال : في الأيام ؛ ويقال : في القرية .

﴿ صرعى ﴾ يعني : موتى ؛ ويقال : هلكى ؛ ويقال : قلعى مطروحين .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ يعني : منقلعة ساقطة .

(77/780)

وروى شهر بن حوشب ، عن ابن عباس قال : ما أنزل الله تعالى قطرة من ماء إلا بمثقال ، ولا شعرة من الريح إلا بمكيال ، إلا يوم عاد ونوح .

وأما الريح فعتت على خزائنها يوم عاد ، فلم يكن لهم عليها سبيل .

وأما الماء ، طغى على خزانة يوم نوح ، فلم يكن لهم عليه سبيلاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ [الحاقة : 11] الآية .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ يعني : لم يبق أحداً منهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ .

قرأ أبو عمرو ، والكسائي ، ومن قبله بكسر القاف ونصب الياء الموحدة ، يعني : ظهر فرعون وأتباعه وأشياعه ؛ والباقون بنصب القاف وجزم الباء يعني : من تقدمه من عتاب الكفار .

ثم قال : ﴿ والمؤتفكات بِالْخَاطِئَةِ ﴾ يعني : قريات قوم لوط ، يعني : جاء فرعون وقوم لوط بالخاطئة يعني : بالشرك وبأعمالهم الخبيثة .

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : كذبوا رسلهم ، ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ يعني : عاقبهم الله عقوبة شديدة .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ يعني : طغى على خزانة يوم نوح ، كما روي عن ابن عباس .

ويقال : طغى الماء ، أي ارتفع ؛ ويقال في اللغة : طغى الشيء ، إذا ارتفع جداً .

وقال قتادة : إنه طغى فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً .

﴿ حملناكم فِى الجارية ﴾ يعني : السفينة ، ومعناه : حين غرق الله تعالى قوم نوح ،

حملناكم يا محمد في السفينة في أصلاب آبائكم .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ يعني : لنجعل هلاك قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها .

﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية ﴾ يعني : يسمع هذا الخبر أذن سامعة ، ويحفظها قلب حافظ على معنى الإضمار .

ثم رجع إلى أول السورة فقال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾ يعني : نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة .

(78/780)

ثم قال : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ يعني : قلعت ما على الأرض من نباتها وشجرها ، وحملت الجبال عن أماكنها .

﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ يعني : فضربت على الأرض مرة واحدة ؛ وهذا قول مقاتل ، وقال الكلبي : يعني : رفعت الأرض والجبال فزلزلتا زلزلة واحدة .

ويقال : فدكتا دكة واحدة أي : كسرتا كسرة واحدة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ يعني : في ذلك اليوم قامت القيامة .

﴿ وانشقت السماء ﴾ يعني : انفرجت السماء بنزول الملائكة .

﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ يعني : ضعيفة منشقة متمزقة من الخوف .

﴿ والملك على أَرْجَائِهَا ﴾ يعني : الملائكة على نواحيها وأطرافها ، يعني : صفوف الملائكة حول العرش ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ يعني : فوق الخلائق .

﴿ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ يعني : ثمانية أجزاء من المقربين ، لا يعلم كثرة عددهم إلا الله .

وروى عطاء بن السائب ، عن ميسرة في قوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ يعني : ثمانية من الملائكة ، أرجلهم في تخوم الأرض السابعة وقال وهب بن منبه : أربعة من الملائكة يحملون العرش على أكتافهم ، لكل واحد منهم أربعة وجوه : وجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه إنسان .

روى الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب في قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أي : تساقون إلى الحساب والقصاص وقراءة الكتب ؛ ويقال : ﴿ تُعْرَضُونَ ﴾ على الله تعالى ، كقوله : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : 48] ثم قال : ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ يعني : لا يخفى على الله منكم ولا من أعمالكم شيء .

قرأ حمزة ، والكسائي ﴿ لاَ يخفى ﴾ ، والباقون بالتاء بلفظ التأنيث ، لأن لفظ خافية مؤنث .

ومن قرأ بالياء ، انصرف إلى المعنى يعني : لا يخفى منكم خاف ، والهاء ألحقت للمبالغة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ يعني : كتابه الذي عمله ، فرأى فيه الحسنات فسر بذلك ، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لأصحابه : ﴿ هَاؤُمُ ﴾ يعني : تعالوا ﴿ اقرؤا كتابيه ﴾ .

قال القتبي : ﴿ هَاؤُمُ ﴾ في اللغة بمنزلة خذ وتناول ؛ ويقال للاثنين : هاؤما ، وللجماعة هاؤموا .

والأصل هاكم ، فحذفوا الكاف وأبدلوها همزة .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة قال : بلغني أنهم يعرضون ثلاث عرضات .

فأما عرضتان ، فهما الخصومات والمعاذير .

وأما الثالثة ، فتطاير الصحف في الأيدي .

وروى عبد الله بن مسعود نحو هذا .

ثم قال : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ يعني : أيقنت وعلمت أني أحاسب .

قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يعني : في عيش مرضي ، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

﴿ يعني : مرتفعة .

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ يعني : اجتناء ثمارها قريب ، يعني : شجرها قريب يتناوله القائم والقاعد ، فيقال لهم : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ يعني : كلوا من ثمار الجنة واشربوا من شرابها هينئاً يعني : طيباً بلا داء ، ويقال : حلال لا إثم فيه .

﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ يعني : بما عملتم وقدمتم ﴿ فِى الايام الخالية ﴾ يعني : في الدنيا .

ويقال : بما عملتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية ، يعني : في الدنيا .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِشِمَالِهِ ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال : الآية الأولى نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد ، وهذه الآية في الأسود بن عبد الأسد ، ويقال : في جميع المؤمنين وفي جميع الكفار .

﴿ فَيَقُولُ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ يعني : لم أعط كتابيه ، ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ يعني : لم أعلم ما حسابي .

(80/780)

قوله تعالى : ﴿ حِسَابِيَهْ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ ، يا ليتني تركت على الموتة الأولى بين النفختين ، ويقال : ﴿ حِسَابِيَهْ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ يعني : المنية .

قال مقاتل : يتمنى الموت .

﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ يعني : ما أرى ينفعني مالي الذي جمعت في الدنيا .

﴿ هَلَكَ عَنّى سلطانيه ﴾ يعني : بطل عني عذري وحجتي .

يقول الله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ يعني : بالأغلال الثّقال .

﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ يعني : أدخلوه .

﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ يعني : أدخلوه في تلك السلسلة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ يعني : لا يصدق بالله العظيم .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ يعني : لا يحث نفسه ولا غيره ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ يعني : لا يطعم المسكين في الدنيا .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم ها هنا حَمِيمٌ ﴾ يعني : قريب يمنع منه شيئاً ، يعني : أحداً يمنع من العذاب .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ يعني : ليس له فيها طعام إلا من غسلين .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس قال : لا أدري ما الغسلين .

وروي عنه أنه قال : الغسلين : ما يسقط عن عروقهم ، وذاب من أجسادهم .

وقال القتبي : هو فعلين من غسلت فكأنه غسالة .

﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ يعني : المشركين .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلاً قرأ عنده : ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ وقال ابن عباس : كلنا نخطىء ، ولكن ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ يعني : العاصين الكافرين .

ثم قال : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعني : أقسم بما تبصرون من شيء ومن الخلق .

﴿ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ من الخلق .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني : هذا القرآن قول رسول كريم على الله تعالى يعني : جبريل ، وهذا قول مقاتل .

(81/780)

ويقال : قول رسول كريم ، يعني : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم .

قال أبو العالية : إنه يعني : القرآن ، لقول : رسول كريم يقرأ عليك يا محمد .

ويقال : معناه إن الذي ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، ويقرؤه عليه جبريل الكريم على الله تعالى ، ليس الشياطين كما يقولون ؛ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ يعني : القرآن ليس هو بقول شاعر .

﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : قليلاً ما تؤمنون .

"وما" صلة.

قرأ ابن كثير، وابن عامر في رواية هشام ﴿ قَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء ﴿ الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ بالياء، والباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

ثم قال: ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ يعني: ليس بقول كاهن، ليس بقول شيطان أي: عراف كاذب.

﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني: قليلاً ما تتعظون.

ثم قال عز وجل: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ يعني القرآن هو كلام رب العالمين أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويل ﴾ يعني: أن محمد صلى الله عليه وسلم لو قال من ذات نفسه، ﴿ لاخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ يعني: لعاقبناه. فأعلم الله تعالى أنه لا محاباة لأحد، إذا عصاه بالقرآن، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قوله: ﴿ باليمين ﴾ يعني: بالقوة.

وقال القتبي: إنما قام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في يمينه.

ولأهل اللغة في هذا مذاهب أخر، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة أحد، فيقولون: خذ بيده، وافعل به كذا وكذا.

قال الله تعالى: لو كذب علينا لأمرنا بالأخذ بيده ثم عاقبناه.

ويقال : ﴿ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويل ﴾ معناه : لو زاد حرفاً واحداً على ما أوحيته إليه أو نقص ، لعاقبته .

وكان هو أكرم الناس عليَّ .

(82/780)

وفي الآية تنبيه لغيره ، لكيلا يغيروا شيئاً من كتاب الله تعالى ، ولا يتقولوا فيه شيئاً من ذات أنفسهم .

ويقال : ﴿ باليمين ﴾ يعني : بالحق .

ويقال : بالحجة .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ وهو عرق يتعلق به القلب ، إذا انقطع مات صاحبه ، يعني : لأهلكناه .

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ يعني : ليس أحد منكم يمنعنا من عذابه .

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني : عظة للذين يتقون الشرك والفواحش .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ يعني : وإنا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبون بالقرآن

، يعني : المنافقين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ يعني : إن هذا القرآن ندامة على الكفارين يوم القيامة ، لأنه يقال لهم : ألم يقرأ عليكم القرآن ؟ فيكون لهم حسرة وندامة بترك الإيمان .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ يعني : إن تلك الندامة لحق اليقين .

ويقال : إن القرآن من الله تعالى حقاً يقيناً .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ يعني : صل لله تعالى .

ويقال : سبحه باللسان ؛ والله تعالى أعلم والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 466.470 ﴾

(83/780)

وقال الثعلبى :

سورة الحاقة

﴿ الحاقة * مَا الحآقة ﴾

أي القيامة ، وسمّيت حاقّة لأنها حقّت فلا كاذبة لها . ولأن فيها حواق الأمور وحقائقها

. ولأنّ فيها يحق الجزاء على الأعمال أي يجب ، فيقال : حق عليه الشيء إذا وجب بحق حقوقاً ، قال الله سبحانه : ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] وقال الكسائي والمؤرخ : الحاقة : يوم الحق ، يقول العرب : لما عرفت الحق مني .

والحاقة والحقّة هي ثلاث لغات بمعنى واحد ، والحاقّة الأولى رفع بالإبتداء وخبره فيما بعده ، وقيل : الحاقّة الأولى مرفوعة بالثانية ؛ لأنّ الثانية بمنزلة الكناية عنها كأنه عجب منها وقال : الحاقة ما هي ؟ كما تقول : زيد ما زيد ، والحاقّة الثانية مرفوعة بما ، وما بمعنى أي شيء ، وهو رفع بالحاقة الثانية ، ومثله ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1-2] ، ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين ﴾ [الواقعة : 27] ، ونحوهما .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ أي بالعذاب الذي نزل بهم حين وعدهم نبيّهم حتى هجم عليهم فقرع قلوبهم . وقال ابن عباس وقتادة : بالقيامة .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ أي بطغيانهم وعصيانهم ، وهي مصدر كالحاقة ، وقيل : هي نعت مجازه : بفعلتهم الطاغية ، وهذا معنى قول مجاهد وابن زيد ، ودليل هذا التأويل قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ [الشمس : 11] وقال قتادة : يعني بالصيحة الطاغية التي جاوزت مقادير الصياح فاهمدتهم .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ عتت على خزآنها فلم تطعهم وجاوزت المقدار .

أخبرني الحسن قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا محمد بن حمدان بن سعد قال : حدّثنا أبو زرعة الرازي قال : حدّثنا المعافى بن سلمان البحراني قال : حدّثنا موسى بن عمر عن سعيد عن موسى بن المسيب عن شهر بن خوشب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أرسل الله سبحانه من ريح إلاّ بمكيال ، ولا قطرة من ماء إلاّ بمكيال ، إلاّ يوم عاد ويوم نوح ، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزائن فلم يكن لهم عليها سبيل ، ثمّ قرأ : بريح صرصر عاتية " .

﴿ سَخَّرَهَا ﴾ أرسلها وسلطها . ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ والتسخير استعمال الشيء بالاقتدار . ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ قال وهب : هي الأيام التي سمّاها العرب : أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة وإنما نسبت هذه الأيام الى العجوز ؛ لأن عجوزاً دخلت سرباً فتبعتها الريح فقتلها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب في اليوم الثامن .

وقيل : سمّيت أيام العجوز ؛ لأنها في عجز الشتاء ولها أسامي مشهورة . أنشدني أحمد بن محمد بن يوسف ، قال : أنشدنا محمد بن طاهر الوزير قال : أنشدنا أبو الحسين محمد بن محمد ابن يحيى الصفار قال : أنشدنا محمد بن القيّم بن بشار قال : أنشدنا أحمد بن يحيى

ثعلب الشاعر في وصف أيام العجوز :

كُسِع الشتاء بسبعة غُبر . . . أيام شهلتنا من الشهر

فبآمر وأخيه مؤتمر . . . ومعلّل وبمطفئ الجمر

ذهب الشتاء مولّياً عجلاً . . . وأتتك وأقدة من النجر

واسم اليوم الثامن : مكفي الظعن .

(85/780)

﴿ حُسُوماً ﴾ قال ابن عباس : تباعاً ، ومجاهد وقتادة : متابعة ليس فيها فترة ، وعلى هذا القول هو من جسم الكي وهو أن تتابع عليه بالمكواة ، وقال مقاتل والكلبي : دائمة ، والضحاك : كاملة لم تفتر عنهم حتى أفنتهم ، عطيّة : شؤما كأنّها حسمت الخير عن أهلها ، الخليل : قطعاً لدابرهم ، والحسم : القطع والمنع ومنه حسم الداء وحسم الدفاع ، قال يمان والنظر بن شميل : حسمهم فقطعهم وأهلكهم وهو نصب على الحال والقطع .

﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا ﴾ أي في تلك الليالي والأيام ، ﴿ صرعى ﴾ هلكى جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ساقطة ، وقيل : خالية الأجواف . ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ بقاء .

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ قرأ أبو عمرو والحسن والسلمي والحجري والكسائي ويقعوب : بكسر القاف وفتح الباء أي ومن معه من جنوده وأتباعه وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم اعتبار : بقراءة عبد الله وأبيّ ومن معه ، وقرأ أبو موسى الأشعري : ومن تلقاه ، وقرأ الآخرون : ومن قبله بفتح القاف وجزم الباء ، أي ومن تقدّمه من القرون الخالية .

﴿ والمؤتفكات ﴾ قراءة العامّة بالألف ، وقرأ الحسن والمؤتفكة : بغير ألف ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالخطيئة والمعصية وهي الكفر ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ نامية عالية غالية . قال ابن عباس : شديدة ، وقيل : زائدة على عذاب الأمم .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ ﴾ أي عتا فخرج بلا وزن ولا كيل . قال قتادة : طغى الماء فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ السفينة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عبرة وموعظة ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ قرأ طلحة بإسكان على العين تشبها بقوله : ﴿ وارنا ﴾ ، واختلف فيه عن عاصم وابن بكر وهي قراءة رديئة غير قويّة ، الباقون : مشبع .

﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ عقلت عن الله ما سمعت .

الفاريي بن فنجويه ، قال : حدّثنا ابن حيان قال : حدّثنا إسحاق بن محمد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا عليّ بن عليّ قال : حدّثنا أبو حمزة الثمالي قال : حدثني عبد الله بن الحسن قال : حين نزلت هذه الآية ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ " قال علي : فما نسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنساه " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثني ابن حسن قال : حدّثنا أبو القيّم بن الفضل قال : حدّثنا محمد بن غالب بن الحرب قال : حدثني بشر بن آدم قال : حدثني عبد الله بن الزبير الأسدي قال : حدّثنا صالح بن ميثم قال : سمعت بريرة الأسلمي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : " إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلّمك وأن تعي وأن حقّاً على الله سبحانه أن تعي "

قال : ونزلت ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهي النفخة الأولى ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض ﴾ وما عليها ﴿ والجبال ﴾ وما فيها ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ فكسّر ودقّتا دقة واحدة فصارتا هباءاً منبثّاً ، وإنّما قال : فدكّتا ولم يقل : دككن ؛ لأنّه جعل الأرض كالشيء الواحد ، وجعل الجبال كالشيء الواحد .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ قامت القيامة ﴿ وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

ضعيفة ﴿ والملك ﴾ يعني الملائكة ﴿ على أَرْجَآئِهَآ ﴾ نواحيها وأقطارها ، بلغة هذيل واحدها رجاء وتثنيته رجوان ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ .

قال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة ، لا يعلم عددهم إلاّ الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين ، فكانوا ثمانية " .

(87/780)

وأخبرنا الإمام أبو منصور الحمادي قال : حدّثنا الإمام أبو الوليد قال : حدّثنا جعفر قال : حدّثنا عليّ بن حجر قال : حدّثنا شريك عن سماك عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب في قوله سبحانه : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ قال : ثمانية أملاك على صورة الأوعال . وفي الحديث : " إن لكلّ ملك منهم أربعة أوجه : وجه رجل ، ووجه أسد ، ووجه ثور ، ووجه نسر " .

وقيل : أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قول أمية بن أبي الصلت :

رجل وثور تحت رجل يمينه . . . والنسر للأُخرى وليث مرصد

والشمس تصبح كل آخر ليلة . . . حمراء تصبح لونها يتورّد

تأبى فما تطلع لنا في رسلها . . . إلاّ معذّبة وإلاّ تجلّد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدق " .

وروى عن عليّ بن الحسن أنه قال : إنّ الله سبحانه خلق العرش رابعاً لم يخلق قبله إلاّ ثلاثة أشياء : الهواء ، والقلم ، والنور ، ثمّ خلق من ألوان أنوار مختلفة ، من ذلك نور أخضر منه اخضرت الخضرة ، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة ، ونور أحمر منه احمرت الحمرة ، ونور أبيض فهو نور الأنوار ، ومنه ضوء النهار ثمّ جعله سبعين ألف ألف ألف طبق ليس من ذلك طبق إلاّ يسبّح بحمده ويقدّسه بأصوات مختلفة لو أذن للسان منها أن تسمع لهدم الجبال والقصور ولخسف البحار .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تخفى ﴾ بالياء كوفي غير عاصم والباقون بالتاء ﴿ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ في الحديث قال : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأمّا عرضتان فجدال وخصومات ومعاذير ، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ﴾ أي تعالوا ﴿ اقرؤا كِتَابِيَهْ ﴾ ها الوقف وأخواته مثله ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ علمت وأيقنت ﴿ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ .

أخبرنا الحسن قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا أبو القيّم عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال : حدّثنا عمر بن إبراهيم بن خالد عن عبد الرحمن قال : حدّثنا مرحوم بن أبي أرطبان ابن عم عبد الله بن عون قال : حدّثنا عاصم الأحول عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل مَنْ يُعطى كتابه بيمينه من هذه الأمّة عمر بن الخطّاب ، وله شعاع كشعاع الشمس " فقيل له : فأين أبو بكر ؟

قال : " هيهات هيهات زفّته الملائكة إلى الجنّة " .

أخبرنا الحسن ، حدّثنا منصور بن جعفر بن محمد النهاوندي ، قال : حدّثنا أبو صالح أحمد ابن محمد بن أسعد البروجردي ، قال : حدّثنا أسد بن عاصم ، قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد ، قال : حدّثنا أبو عمر الضرير عن حماد عن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة كلّ الناس يحاسبون يوم القيامة إلاّ أبو بكر " .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ مرضية كقوله : ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] وقيل : ذات رضا مثل لابن وتامر ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ رفيعة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ثمارها قريبة ينالها القائم والقاعد والمضطجع ، يقال لهم ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ

الخالية ﴾ قدّمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية وهي الدنيا .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله قال : أخبرت عن عبد الله بن أبي بكر بن عليّ المقدمي قال : حدّثنا عبد الله بن جعفر قال : سمعت يوسف بن يعقوب الخيفي يقول : بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة : يا أوليائي طال ما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية .

(89/780)

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ قال ابن الثابت : تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثمّ يعطى كتابه . وقيل : تنزع من صدره إلى خلف ظهره ﴿ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ يقول : يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاضية الفارغة من كل ما بعدها ، فلم أُبعث بعده ، والقاضية موت الأحياء بعدها .

وقيل : معناه يا ليتني متُّ فاسترحت . قال قتادة : تمنّى الموت ولم يكن عنده في الدنيا شيء أكره من الموت .

﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ ذهبت عنّي حجّتي عن أكثر المفسّرين

، وقال ابن زيد : زال عنّي ملكي وقولي فيقول الله لخزنة جهنّم : ﴿ خُذُوهُ ﴾ ، ويروى أنّه يجتمع على شخص واحد من أهل النار مائة ألف من الزبانية ، فيقطع في أيديهم قال : فلا يرى على أيديهم منه إلاّ الودك ، ثمّ يعاد خلقاً جديداً .

﴿ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أدخلوه ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ فأدخلوه في ذراع الملك ، فيدخل دبره ويخرج من منخريه . وقيل : يدخل من فيه ويخرج من دبره .

روى سفيان عن بسر بن دعلوق عن نوف البكالي قال : كلّ ذراع سبعون باعاً والباع أبعد ممّا بينك وبين مكّة ، وكان في رحبة الكوفة .

وقال سفيان الثوري : كلّ ذراع من سبعين ذراعاً سبعون ذراعاً وقال : بأي ذراع هو ؟ ، وقال عبد الله بن عمر وابن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن رصاصة مثل هذه وأشار إلى جمجمة أُرسلت من السماء إلى الأرض فهي مسيرة خمسمائة سنة بلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنّها أُرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها " .

(90/780)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبش قال : حدّثنا ابن زنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن عليّ قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : حدّثنا بكار ابن عبد الله عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن حنظلة عن كعب في قوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال : لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن علويه قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا المسيب قال : حدّثنا سويد بن يحيى قال : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب من حرّها .

﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم * وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين * فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ ﴾ صديق ، وقيل : قريب يعينه ، وقيل : هو مأخوذ من الحميم ، وهو الماء الحار كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له . ﴿ وَلاَ طَعَامٌ ﴾ وليس له اليوم طعام . ﴿ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ وهو صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم ، وقال الضحاك والربيع : هو شجر يأكله أهل النار . ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ المذنبون وهم الكافرون .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ترون وما لا ترون ، وأراد جميع المكونات

والموجودات ، وقيل : الدنيا والآخرة .

وقيل : ما في ظهر السماء والأرض وما في بطنها . وقيل : الأجسام والأرواح.

وقيل : النعم الظاهرة والباطنة .

وقال جعفر الصادق : بما تبصرون من صنعي في ملكي وما لا تبصرون من برّي بأوليائي .

وقال الجنيد : ما تبصرون من آثار الرسالة والوحي على حسن محمد وما لا تبصرون من السر معه ليلة الإسراء . وقيل : ما أظهر الله للملائكة واللوح والقلم ، وما استأثر بعلمه فلم يطلع عليه أحداً .

(91/780)

وقيل : ما تُبصرون : الإنس وما لا تبصرون : الجن والملائكة . وقال ابن عطا : ما تبصرون من آثار القدرة وما لا تبصرون من أسرار القرية .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي تلاوة محمد وتبليغه ، وقيل : لقول مرسل رسول كريم فحذف كقوله ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب أبو حاتم : يؤمنون ويذكرون بالياء ، وغيرهم بالتاء فيهما ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

العالمين وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ تخرّص واختلق ﴿ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ قيل : من صلة مجازه : لعاقبناه وانتقمنا منه بالحق كقوله : ﴿ قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ﴾ [الصافات : 28] أي من قبل الحق .

وقال ابن عباس : لأخذناه بالقوة والقدرة ، كقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد . . . تلقّاها غرابة باليمن

وقيل : معناه لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه ، وهو مثل معناه لأذللناه وأهناه ، وهذا كقوله : ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه ، واهانته لبعض أعوانه ، خذ بيده فاقمه ، واعتمد ابن جرير هذا التأويل .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ نياط القلب ، عن ابن عباس وأكثر الناس ، وقال قتادة : حبل القلب ، وقال مجاهد : الحبل الذي في الظهر . وقيل : هو عرق بين العلباء والحلقوم .

﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ مانعين يحجزوننا عن عقوبته وما نفعله به وإنّما جمع وهو فعل واحد رداً على معناه كقوله : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] ، وقال (عليه السلام) : " لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس [ممّن] قبلكم " لفظه واحد ومعناه الجميع .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ إذا رأوا ثواب متبابعيه وقد خالفوه . ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ إضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ الذي كلّ شيء في جنب عظمته صغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 25.33 ﴾

(93/780)

وقال الزمخشرى :

سورة الحاقة

مكية ، وآياتها 52 [نزلت بعد الملك] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحاقة (69) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7)

فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

الْحَاقَّةُ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، التي هي آتية لا ريب فيها . أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب . أو التي تحق فيها الأمور ، أى : تعرف على الحقيقة ، من قولك لا أحق هذا ، أى : لا أعرف حقيقته . جعل الفعل لها وهو لأهلها وارتفاعها على الابتداء وخبرها مَا الْحَاقَّةُ والأصل : الحاقة ما هي ، أى أىّ شيء هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، لأنه أهول لها وَما أَدْراكَ وأىّ شيء أعلمك ما الحاقة ، يعنى : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها ، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ، وما في موضع الرفع على الابتداء . وأَدْراكَ معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام . بِالْقارِعَةِ التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار . ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع . في الحاقة : زيادة في وصف شدتها ، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيرا لأهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم بِالطَّاغِيَةِ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة . واختلف فيها ،

فقيل : الرجفة . وعن ابن عباس : الصاعقة . وعن قتادة : بعث اللّه عليهم صيحة فأهمدتهم .

وقيل : الطاغية مصدر كالعافية ، أى : بطغيانهم ، وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله بِرِيحٍ صَرْصَرٍ والصرصر : الشديدة الصوت لها صرصرة . وقيل : الباردة من الصر ، كأنها التي كرر فيها البرد وكثر : فهي تحرق لشدة بردها عاتِيَةٍ شديدة العصف والعتوّ استعارة . أو عتت على عاد ، فما قدروا على ردّها بحيلة ، من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء في حفرة ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم . وقيل : عتت على خزانها ، فخرجت بلا كيل ولا وزن : وروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما أرسل اللّه سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح ، فإنّ الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل ، ثم قرأ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ «1» ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها . الحسوم : لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود . أو مصدرا كالشكور والكفور ، فإن كان جمعا فمعنى قوله حُسُوماً نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة .

أو متتابعة هبوب الرياح : ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل

الحاسم في إعادة الكي على الداء ، كرة بعد أخرى حتى ينحسم . وإن كان مصدرا : فإما أن ينتصب بفعله مضمرا ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا . أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم .

أو يكون مفعولا له ، أى : سخرها عليهم للاستئصال . وقال عبد العزيز ابن زرارة الكلابي :

ففرّق بين بينهم زمان تتابع فيه أعوام حسوم «2»

وقرأ السدى : حسوما ، بالفتح حالا من الريح ، أى : سخرها عليهم مستأصلة . وقيل : هي أيام العجوز ، وذلك أن عجوزا من عاد توارت في سرب ، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها .

وقيل : هي أيام العجز ، وهي آخر الشتاء وأسماؤها : الصن والصنبر ، والوبر . والآمر ،

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية موسى بن أعين عن الثوري عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعا . وأخرجه الطبري من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان موقوفا . [. . . . .]

(2) . لعبد العزيز بن زرارة الكلابي ، وأصل الكلام : ففرق بينهم زمان ، فبينهم ظرف للتفريق ، إلا أنه أراد المبالغة بجعل التفريق بين أجزاء هذا الظرف أيضا ، فقال : ففرق بين بينهم زمان ، وإذا فرق بين الظرف فقد فرق بين أصحابه بالضرورة ، فهو من باب الكناية .

ويمكن أن بين الثاني كناية عن الوصلة التي بينهم ، ولعل أصله : ففرق بين ذات بينهم ، وبين سبب تفريق الزمان بينهم بوصفه بأنه تتابع فيه أعوام حسوم ، من الحسم :

وهو القطع ، والكي بالنار مرة بعد أخرى حتى ينقطع الدم . وظاهر كلام الجوهري أنه مفرد ، لأنه قال : أيام حسوم ، أى : مستأصلة . والحسوم : الشؤم . ويجوز أنه جمع حاسم كراكع وركوع ، وساجد وسجود ، أى : حاسمات وقاطعات لأبواب الخيرات .

(95/780)

والمؤتمر ، والمعلل ، ومطفئ الجمر . وقيل : مكفئ الظعن «1» ومعنى سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سلطها عليهم كما شاء فِيها في مهابها . أو في الليالي والأيام . وقرئ : أعجاز نخيل مِنْ باقِيَةٍ من بقية أو من نفس باقية . أو من بقاء ، كالطاغية : بمعنى الطغيان .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 9 إلى 10]

وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10)

وَمَنْ قَبْلَهُ يريد : ومن عنده من تباعه . وقرئ : ومن قبله ، أى : ومن تقدمه . وتعضد الأولى قراءة عبد اللّه وأبى : ومن معه . وقراءة أبى موسى : ومن تلقاءه وَالْمُؤْتَفِكاتُ قرى

قوم لوط بِالْخاطِئَةِ بالخطإ ، أو بالفعلة ، أو الأفعال ذات الخطإ العظيم رابِيَةً شديدة زائدة في الشدة ، كما زادت قبائحهم في القبح . يقال : ربا الشيء يربو : إذا زاد لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 11 إلى 12]

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)

حَمَلْناكُمْ حملنا آباءكم فِي الْجارِيَةِ في سفينة ، لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم لِنَجْعَلَها الضمير للفعلة : وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة تَذْكِرَةً

عظة وعبرة أُذُنٌ واعِيَةٌ

من شأنها أن تعى وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل ، وكل ما حفظته في نفسك فقد وعيته «2» وما حفظته في غير نفسك فقد أوعيته كقولك : وعيت الشيء في الظرف . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لعليّ رضى اللّه عنه عند نزول هذه الآية «سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا عليّ» قال عليّ رضى اللّه عنه : فما نسيت شيئا بعد وما كان لي أن أنسى «3» . فإن قلت : لم قيل : أذن واعية ، على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن

الواحدة إذا وعت وعقلت عن اللّه فهي السواد الأعظم عند اللّه ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين . وقرئ : وتعيها بسكون العين للتخفيف : شبه تعى بكبد .

---

(1) . قوله «و قيل مكفئ الظعن» جمع ظعينة وهي الهودج ، أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «يقال وعيته أى حفظته في نفسك . . . الخ» قال أحمد : هو مثل قوله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وقد ذكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الاشعار قلة الناظرين .

(3) . أخرجه سعيد بن منصور والطبري من رواية مكحول به مرسلا بتمامه نحوه . وأخرجه الثعلبي من طريق أبى حمزة الثمالي حدثني عبد اللّه بن حسن قال : حين نزلت فذكره بلفظ المصنف .

(96/780)

[سورة الحاقة (69) : الآيات 13 إلى 18]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ

عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17)

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

أسند الفعل إلى المصدر ، وحسن تذكيره للفصل . وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بالنصب مسندا للفعل إلى الجار والمجرور . فإن قلت : هما نفختان ، فلم قيل : واحدة « 1 » ؟ قلت معناه أنها لا تثنى في وقتها . فإن قلت : فأى النفختين هي ؟ قلت الأولى لأن عندها فساد العالم ، وهكذا الرواية عن ابن عباس . وقد روى عنه أنها الثانية . فإن قلت : أما قال بعد يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ والعرض إنما هو عند النفخة الثانية ؟ قلت : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قيل يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ كما تقول :

جئته عام كذا ، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته وَحُمِلَتِ ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوّة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال . أو بخلق من الملائكة . أو بقدرة اللّه من غير سبب . وقرئ : وحملت ، بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة فَدُكَّتا فدكت الجملتان :

جملة الأرضين وجملة الجبال ، فضرب بعضها ببعض حتى تندقّ وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا . والدك أبلغ من الدق . وقيل : فبسطتا بسطة واحدة ، فصارتا أرضا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، من قولك : اندكّ السنام إذا انفرش . وبعير أدك وناقة دكاء . ومنه : الدكان

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ فحينئذ نزلت النازلة وهي القيامة واهِيَةٌ مسترخية ساقطة القوّة جدّا بعد ما كانت محكمة مستمسكة. يريد: والخلق الذي يقال له الملك، وردّ إليه الضمير مجموعا في قوله فَوْقَهُمْ على المعنى: فإن قلت: ما الفرق بين قوله وَالْمَلَكُ، وبين أن يقال والملائكة؟

قلت: الملك أعمّ من الملائكة، ألا ترى أن قولك: ما من ملك إلا وهو شاهد، أعم من قولك: ما من ملائكة عَلى أَرْجائِها على جوانبها: الواحد رجا مقصور، يعنى: أنها تنشق، وهي مسكن الملائكة، فينضوون «2» إلى أطرافها وما حولها من حافاتها «3» ثَمانِيَةٌ أى: ثمانية

---

(1). قال محمود: «إن قلت: لم قال واحدة وهما نفختان... الخ»؟ قال أحمد: وأما فائدة الاشعار بعظم هذه للنفخة: أن المؤثر لدك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى أخرى.

(2). قوله «فينضوون إلى أطرافها» في الصحاح ضويت إليه: أويت إليه وانضممت.

(ع)

(3). قال محمود: «أى على حافتها لأنها تنشق تنضوى الملائكة الذين هي سكانها إلى أذيالها... الخ» قال أحمد: كلاهما معرف تعريف الجنس، فالواحد والجمع سواء في العموم.

منهم . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم اللّه بأربعة آخرين فيكونون ثمانية « 1 »» وروى : ثمانية أملاك : أرجلهم في تخوم الأرض السابعة ، والعرش فوق رؤسهم ، وهم مطرقون مسبحون . وقيل : بعضهم على صورة الإنسان ، وبعضهم على صورة الأسد ، وبعضهم على صورة الثور ، وبعضهم على صورة النسر . وروى : ثمانية أملاك في خلق الأوعال ، ما بين أظلافها إلى ركبها : مسيرة سبعين عاما . وعن شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، وأربعة يقولون :

سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وعن الحسن : اللّه أعلم كم هم ، أثمانية أم ثمانية آلاف ؟ وعن الضحاك : ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا اللّه . ويجوز أن تكون الثمانية من الروح ، أو من خلق آخر ، فهو القادر على كل خلق ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . العرض : عبارة عن المحاسبة والمساءلة .

شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله . وروى أنّ في يوم القيامة ثلاثة عرضات

، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله خافِيَةٌ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا بستر اللّه عليكم.

[سورة الحاقة (69) : الآيات 19 إلى 24]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24)

فَأَمَّا تفصيل للعرض. ها : صوت يصوت به فيفهم منه معنى «خذ» كأف وحس ، وما أشبه ذلك «2» . وكِتابِيَهْ منصوب بهاؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين باقرءوا ، لأنه أقرب العاملين. وأصله : هاؤم كتابي اقرؤا كتابي ، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. ونظيره آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً قالوا : ولو كان العامل الأوّل لقيل : اقرؤه وأفرغه. والهاء للسكت في كِتابِيَهْ ، وكذلك في حِسابِيَهْ ومالِيَهْ وسُلْطانِيَهْ وحق هذه الهاءات أن

---

(1) . أخرجه الطبري من طريق أبى إسحاق. قال : بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال - فذكره. وهو مذكور في الحديث الطويل الذي يرويه إسماعيل بن رافع عن زيد بن أبى زياد عن القرظي عن رجل عن أبى هريرة.

رواه أبو يعلى وغيره وقد تقدم.

(2) . قوله «كأف وحس ، وما أشبه ذلك» يفهم من كل منهما معنى التضجر والتألم ، كما يفيده الصحاح . (ع)

(98/780)

تثبت في الوقف وتسقط في الوصل ، «1» وقد استحب إيثار الوقف إيثارا لثباتها لثباتها في المصحف .

وقيل : لا بأس بالوصل والإسقاط . وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء . وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعا لاتباع المصحف ظَنَنْتُ علمت . وإنما أجرى الظن مجرى العلم ، لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام . ويقال : أظن ظنا كاليقين أنّ الأمر كيت وكيت راضِيَةٍ منسوبة إلى الرضا ، كالدارع والنابل . والنسبة نسبتان :

نسبة بالحرف ، ونسبة بالصيغة . أو جعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها عالِيَةٍ مرتفعة المكان في السماء . أو رفيعة الدرجات . أو رفيعة المباني والقصور والأشجار دانِيَةٌ ينالها القاعد والنائم . يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً «2» أكلا وشربا هنيئا . أو هنيتم هنيئا على المصدر بِما أَسْلَفْتُمْ بما قدمتم من الأعمال الصالحة فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ الماضية من أيام الدنيا .

وعن مجاهد : أيام الصيام ، أى : كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه اللّه .

وروى . يقول اللّه عز وجل : يا أوليائى طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 25 إلى 29]

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29)

الضمير في يا لَيْتَها للموتة : يقول : يا ليت الموتة التي متها كانَتِ الْقاضِيَةَ أى القاطعة

---

(1) . قال محمود : «وحق هذه الهاءات يعنى في كتابيه وحسابيه وماليه وسلطانيه . . . الخ» قال أحمد : تعليل القراءة باتباع المصحف عجيب مع أن المعتقد الحق أن القراآت السبع بتفاصيلها منقولة تواترا عن النبي صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتها من التواتر عن قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : آيها كذلك قبل أن تكتب في المصحف ، وما نفس هؤلاء إلا إدخال الاجتهاد في القراآت المستفيضة ، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري وهذا خطأ لا ينبغي فتح بابه ، فانه ذريعة إلى ما هو أكبر منه ، ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبى عمرو رحمه اللّه مفاوضة

في قوله وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ على قراءة حفص ، انتهت إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة . لأنى حججته بإثبات القراء المشاهير لها كذلك ، ففهمت من رده لذلك ما فهمه من كلام الزمخشري هاهنا ولم أقبله منه رحمه اللّه ، فتراجع عنه ، وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه ، وهي آخر ما كتب من العلوم على ما أخبرنى به خاصته ، وذلك صحيح لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه اللّه ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «كلوا واشربوا هنيئًا» في الصحاح : هنؤ الطعام وهنيء ، أى : صار هنيئًا . وهنأنى الطعام يهنئني ويهنؤنى ، ولا نظير له في المهموز هنأ وهناء . وهنئت الطعام ، أى : تهنأت به ، وكلوه هنيئًا مريئًا . (ع)

(99/780)

لأمرى ، فلم أبعث بعدها ، ولم ألق ما ألقى . أو للحالة ، أى : ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علىّ ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته ، فتمناه عندها ما أَغْنى نفى أو استفهام على وجه الإنكار ، أى : أىّ شيء أغنى عنى ما كان لي من اليسار هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا . وعن

ابن عباس :

أنها نزلت في الأسود بن عبد الأشد . وعن فنا خسرة الملقب بالعضد ، أنه لما قال :

عضد الدّولة وابن ركنها ملك الأملاك غلّاب القدر «1»

لم يفلح بعده وجنّ فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية . وقال ابن عباس : ضلت عنى حجتي .

ومعناه : بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 30 إلى 37]

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37)

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس . يقال : صلى النار وصلاه النار . سلكه في السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف

---

(1) ليس شرب الكأس إلا في المطر وغناء من جوار في سحر

غانيات سالبات النهى ناعمات في تضاعيف الوتر

مبردات الكأس من مطلعها ساقيات الكأس من فاق البشر

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

الحسن بن على الطوسي . وقيل لعضد الدولة نفسه ، يقول : ليس شرب الخمر الكامل اللذة إلا في حال المطر ، وفي حال غناء الجواري في السحر ، غانيات : جميلات مقيمات في العيون عذرات ، سالبات : ناهبات للنهى : جمع نهية وهي العقل ، ناعمات : أى متنعمات . وفي تضاعيف الوتر : متعلق بغناء . ويروى : ناغمات ، بالمعجمة ، أى : محسنات لأصواتهن في أثناء صوت الوتر ، وهو الخيط المشدود في آلة اللهو . والراح : الخمر . وعضد الدولة :

بدل من الموصول المفعول بساقيات . والعضد في الأصل : استعارة للممدوح لأن به قوتها . كالعضد للإنسان .

والركن كذلك استعارة لأبيه يجامع التقوية أيضا ، وهو أقرب من تشبيه الدولة بالإنسان تارة وبالبناء أخرى ، على طريق المكنية ، ولكنهما الآن لقبان للممدوح وأبيه ، وذكر الضمير وإعادته على الدولة مع أنها جزء العلم في المحلين للمح الأصل كالاستعارة . والقدر : ما قدره اللّه وقضاه . وفي وصف ممدوحه بأنه غلاب القدر من فجور النساء ما لا يخفى ، ولذلك روى أنه جن وحبس لسانه حتى مات : وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أغيظ الناس رجلا على اللّه يوم القيامة وأخبثهم : رجل تسمى ملك الأملاك ، ولا ملك إلا اللّه» .

عليه أثناؤها ، وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ، وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول ، كما قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة ، يريد : مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد . والمعنى في تقديم السلسلة على السلك : مثله في تقديم الجحيم على النصلية . أى : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم . ومعنى ثُمَّ الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخى المدة إِنَّهُ تعليل على طريق الاستئناف ، وهو أبلغ ، كأنه قيل :

ما له يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب بذلك . وفي قوله وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين ، أحدهما : عطفه على الكفر ، وجعله قرينة له . والثاني : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الفعل ، وما أحسن قول القائل :

إذا نزل الأضياف كان عذوّرا على الحىّ حتّى تستقلّ مراجله «1»

يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم «2» . وعن أبى الدرداء أنه كان

يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ وقيل : هو منع الكفار . وقولهم : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ والمعنى على بذل طعام المسكين حَمِيمٌ قريب يدفع عنه ويحزن عليه ، لأنهم يتحامونه ويفرون منه ،

---

(1)

تركنا فتى قد أيقن الجوع أنه إذا ما ثوى في أرحل القوم قاتله

فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأباجله

إذا نزل الأضياف كان عذورا على الحي حتى تستقل مراجله

قيل : إنه للعجير السلولي . وقيل : لزينب بنت الطثرية ترثى أخاها يزيد . واللبن الطائر والخاثر : بمعنى . شبه الجوع بإنسان عدو للقوم على سبيل المكنية ، وإثبات الإيقان له تخييل ، وكذلك قتله ، وهذا مبالغة في وصف يزيد بالكرم ، وأنه مانع للجوع من دخوله بيوت القوم ولحوقه بهم ، حتى كأن الجوع يخافه ويتيقن أنه إذا دخل بيوت القوم قتله يزيد . ويجوز أن فاعل ثوى : ضمير يزيد ، لكن الأول أبلغ ، لأنه يفيد أن الجوع لم يدخل على القوم لخوفه من يزيد ، وقد : فعل مبنى للمجهول ، وقد السيف : مفعول مطلق ، أى خلق على شكل السيف في المضي في المكان وتنفيذ العزائم . والمتضائل المتضاعف المتخاشع ، والرهل – كتعب – : الاسترخاء . والرهل – كحذر – : وصف منه ، وجمع اللبة باعتبار

ما حولها . والأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق غليظ في الفخذ والساق وفرس وهن الأباجل سريع الجري ، والعذور - بالعين المهملة وتشديد الواو - : سيئ الخلق قليل الصبر عن مطلوبه ، كأنه يحتاج إلى الاعتذار عن سوء خلقه . والمراجل : القدور العظام يقول : تركنا في المعركة فتى كريما جوادا سريعا في قرى الضيفان ، إذا نزلوا به كان سيئ الخلق على أهله ، حتى ترتفع قدوره الأثافى ، فيحسن خلقه كما كان .

(2) . قوله «و تشاكس عليهم» في الصحاح : رجل شكس ، أى : صعب الخلق . (ع)

[. . . . .]

(101/780)

كقوله وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . والغسلين : غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ، فعلين من الغسل الْخاطِؤُنَ الآثمون أصحاب الخطايا . وخطئ الرجل : إذا تعمد الذنب «1» ، وهم المشركون : عن ابن عباس : وقرئ : الخاطيون ، بإبدال الهمزة ياء ، والخاطون بطرحها . وعن ابن عباس : ما الخاطون ؟ كلنا نخطو . وروى عنه أبو الأسود الدؤلي :

ما الخاطون ؟ إنما هو الخاطئون ، ما الصابون ؟ إنما هو الصابئون : ويجوز أن يراد : الذين

يتخطون الحق إلى الباطل ، ويتعدّون حدود اللّه .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 38 إلى 43]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43)

هو إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر . وقيل : الدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجنّ ، والخلق والخالق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، إن هذا القرآن لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ أى يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند اللّه وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ ولا كاهن كما تدعون والقلة في معنى العدم . أى : لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة . والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم تَنْزِيلٌ هو تنزيل ، بيانا لأنه قول رسول نزل عليه مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ وقرأ أبو السمال : تنزيلا ، أى : نزل تنزيلا . وقيل «الرسول الكريم» جبريل عليه السلام ، وقوله وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ دليل على أنه محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنّ المعنى على إثبات أنه رسول ، لا شاعر ولا كاهن .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 44 إلى 52]

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

---

(1) . قوله «وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب» في الصحاح: قال الأموى، المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره. والخاطئ: من تعمد لما لا ينبغي. (ع)

(102/780)

التقوّل: افتعال القول «1»، كأن فيه تكلفا من المفتعل. وسمى الأقوال المتقولة «أقاويل» تصغيرا بها وتحقيرا، كقولك: الأعاجيب والأضاحيك، كأنها جمع أفعولة من القول.

والمعنى:

ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته.

وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه.

ومعنى لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ لقطعنا وتينه ، وهذا بين . والوتين : نياط القلب وهو حبل الوريد : إذا قطع مات صاحبه . وقرئ : ولو تقول على البناء للمفعول . قيل حاجِزِينَ في وصف أحد ، لأنه في معنى الجماعة ، وهو اسم يقع في النفي العام مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ومنه قوله تعالى لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ والضمير في عنه للقتل ، أى : لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه . أو لرسول اللّه ، أى : لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه ، والخطاب للناس ، وكذلك في قوله تعالى وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وهو إيعاد على التكذيب . وقيل الخطاب للمسلمين . والمعنى : أن منهم ناسا سيكفرون بالقرآن وَإِنَّهُ الضمير للقرآن لَحَسْرَةٌ على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به . أو للتكذيب ، وأن القرآن اليقين حق اليقين ، كقولك : هو العالم حق العالم ، وجدّ العالم . والمعنى :

لعين اليقين ، ومحض اليقين فَسَبِّحْ اللّه بذكر اسمه العظيم وهو قوله : سبحان اللّه ، واعبده شكرا على ما أهلك له من إيحائه إليك .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحاقة حاسبه اللّه حسابا يسيرا» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 598. 607﴾

---

(1) . قال محمود : «التقول : افتعال من القول ، لأن فيه تكلفا . . . الخ» قال أحمد : وبناء

أقعولة من القول ، وهو معتل ، كما ترى غيب عن القياس التصريفى . ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع ، كالأناعيم : جمع أقوال وأنعام ، وهو الظاهر ، والله أعلم .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(103/780)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ الحاقّةُ ما الحاقّةُ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه ما حقّ من الوعد والوعيد بحلوله ، وهو معنى قول ابن بحر .

الثاني : أنه القيامة التي يستحق فيها الوعد والوعيد ، قاله الجمهور وفي تسميتها بالحاقة ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما ذكرنا من استحقاق الوعد والوعيد بالجزاء على الطاعات والمعاصي ، وهو معنى قول قتادة ويحيى بن سلام .

الثاني : لأن فيها حقائق الأمور ، قاله الكلبي .

الثالث : لأن حقاً على المؤمن أن يخافها .

وقوله " ما الحاقة " تفخيماً لأمرها وتعظيماً لشأنها .

﴿ وما أدْراكَ ما الحاقّة ﴾ قال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن فيه " وما أدراك " فقد أدراه إياه وعلّمه إياه ، وكل شيء قال فيه " وما يدريك " فهو ما لم يعلمه إياه .

وفيه وجهان :

أحدهما : وما أدراك ما هذا الاسم ، لأنه لم يكن في كلامه ولا كلام قومه ، قاله الأصم .

الثاني : وما أدراك ما يكون في الحاقة .

﴿ كذّبَتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ ﴾ أما ثمود فقوم صالح كانت منازلهم في الحجر فيما بين الشام والحجاز ، قاله محمد بن إسحاق : وهو وادي القرى ، وكانوا عرباً .

وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف ، والأحقاف الرمل بين عُمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوي خَلق وبَسطة ، ذكره محمد بن إسحاق .

وأما " القارعة " ففيها قولان :

أحدهما : أنها قرعت بصوت كالصيحة ، وبضرب كالعذاب ، ويجوز أن يكون في الدنيا ، ويجوز أن يكون في الآخرة .

الثاني : أن القارعة هي القيامة كالحاقة ، وهما اسمان لما كذبت بها ثمود وعاد .

وفي تسميتها بالقارعة قولان :

أحدهما : لأنها تقرع بهولها وشدائدها .

الثاني : أنها مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين ، قاله المبرد .

﴿ فأمّا ثمودُ فأهلِكوا بالطاغية ﴾ فيها خمسة أقاويل :

أحدها : بالصيحة ، قاله قتادة .

الثاني : بالصاعقة ، قاله الكلبي .

الثالث : بالذنوب ، قاله مجاهد .

الرابع : بطغيانهم ، قاله الحسن .

(104/780)

الخامس : أن الطاغية عاقر الناقة ، قاله ابن زيد .

﴿ وأمّا عادٌ فأهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ ﴾ روى مجاهد عن ابن عباس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلِكتْ عاد بالدَّبور " .

فأما صرصر ففيها قولان :

أحدهما : أنها الريح الباردة ، قاله الضحاك والحسن ، مأخوذ من الصر وهو البرد .

الثاني : أنها الشديدة الصوت ، قاله مجاهد .

وأما العاتية ففيها ثلاثة أوجه :

أحدها : القاهرة ، قاله ابن زيد .

الثاني : المجاوزة لحدها .

الثالث : التي لا تبقى ولا ترقب .

وفي تسميتها عاتية وجهان :

أحدهما : لأنها عتت على القوم بلا رحمة ولا رأفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأنها عتت على خزانها بإذن اللَّه .

﴿ سَخّرها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حُسوماً ﴾ اختلف في أولها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنّ أولها غداة يوم الأحد ، قاله السدي .

الثاني : غداة يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : غداة يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس .

وفي قوله ﴿ حُسُوماً ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : متتابعات ، قاله ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والفراء ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

وكم يحيى بها من فرط عام . . . وهذا الدهر مقتبل حسوم .

الثاني : مشائيم ، قاله عكرمة والربيع .

الثالث : أنها حسمت الليالي والأيام حتى استوفتها ، لأنها بدأت طلوع الشمس من أول يوم

، وانقطعت مع غروب الشمس من آخر يوم ، قاله الضحاك .

الرابع : لأنها حسمتهم ولم تبق منهم أحداً ، قاله ابن زيد ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ومن مؤمن قوم هود . . . فأرسل ريحاً دَبوراً عقيماً

توالتْ عليهم فكانت حُسوماً . . . ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ

﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : البالية ، قاله أبو الطفيل .

الثاني : الخالية الأجواف ، قاله ابن كامل .

الثالث : ساقطة الأبدان ، خاوية الأصول ، قاله السدي .

وفي تشبيههم بالنخل الخاوية ثلاثة أوجه :

أحدها : أن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أن الريح كانت تدخل في أجوافهم من الخيشوم ، وتخرج من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية ، حكاه ابن شجرة .

الثالث : لأن الريح قطعت رؤوسهم عن أجسادهم ، فصاروا بقطعها كالنخل الخاوية .

﴿ وجاءَ فرعونُ ومَن قَبْلَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ومن معه من قومه وهو تأويل من قرأ " ومن قِبلَهُ " بكسر القاف وفتح الباء .

والثاني : ومن تقدمه ، وهو تأويل من قرأ " ومن قَبْلَهُ " بفتح القاف وتسكين الباء .

﴿ والمؤتفِكاتُ بالخاطئة ﴾ في المؤتفكات قولان :

أحدهما : أنها المقلوبات بالخسف .

الثاني : أنها الأفكات وهي الاسم من الآفكة ، أي الكاذبة .

والخاطئة : هي ذات الذنوب والخطايا ، وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم قوم لوط .

الثاني : قارون وقومه ، لأن اللَّه خسف بهم .

﴿ فعصَوْا رسولَ ربِّهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فعصوا رسول الله إليهم بالتكذيب .

الثاني : فعصوا رسالة اللَّه إليهم بالمخالفة ، وقد يعبر عن الرسالة بالرسول ، قال الشاعر :

لقد كذَبَ الواشون ما بُحْت عندهم . . . بسرٍّ ولا أرسلتهم برسول .

﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخذةً رابيةً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : شديدة ، قاله مجاهد .

الثاني : مُهلكة ، قاله السدي .

الثالث : تربوبهم في عذاب اللَّه أبداً ، قاله أبو عمران الجوني .

الرابع : مرتفعة ، قاله الضحاك .

الخامس : رابية للشر ، قاله ابن زيد .

﴿ إنا لما طَغَى الماءُ حَمَلْناكم في الجاريةِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ظَهَر ، رواه ابن أبي نجيح .

الثاني : زادَ وكثر ، قاله عطاء .

الثالث : أنه طغى على خزانه من الملائكة ، غضباً لربه فلم يقدروا على حبسه ، قاله عليّ رضي الله عنه .

قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ما أرسل من ريح قط إلا بمكيال .

(106/780)

وما أنزل الله من قطرة قط إلا بمثقال ، إلا يوم نوح وعاد ، فإن الماء يوم نوح طغى على خزانه فلم يكن لهم عيله سبيل ، ثم قرأ : " إنا لما طغى الماء " الآية . وإن الريح طغت على خزانها يوم عاد فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ . " بريح صرصر عاتية سخرها عليهم " الآية .

﴿ حملناكم في الجارية ﴾ يعني سفينة نوح ، سميت بذلك لأنها جارية على الماء .

وفي قوله حملناكم وجهان :

أحدهما : حملنا آباءكم الذين أنتم من ذريتهم .

الثاني : أنهم في ظهور آبائهم المحمولين ، فصاروا معهم ، وقد قال العباس بن عبد المطلب ما يدل على هذا الوجه وهو قوله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

من قبلها طِبتَ في الظلال وفي . . . مُستودع حيث يُخْصَفُ الورقُ .

ثم هبطتَ البلادَ لا بشرٌ . . . أنت ولا مُضْغةٌ ولا عَلَقُ .

بل نطفةٌ تركب السَّفينَ وقد . . . ألجَمَ نَسراً وأهلَه الغرقُ .

﴿ لنجْعلهَا لكم تذكِرةً ﴾ يعني سفينة نوح جعلها اللَّه لكم تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم في قول قتادة ، وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي .

﴿ وتَعِيَها أُذُنٌ واعِيةٌ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : سامعة ، قاله ابن عباس .

الثاني : مؤمنة ، قاله ابن جريج .

الثالث : حافظة ، وهذا قول ابن عباس أيضاً .

قال الزجاج : يقال وعيت لما حفظته في نفسك ، وأوعيت لما حفظته في غيرك .

وروى مكحول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية : " سألت ربي أن

يجلعها أُذُنَ عليٍّ " قال مكحول : فكان عليٌّ رضي اللَّه عنه يقول : ما سمعت من رسول الله شيئاً قط نسيته إلا وحفظته .

الرابع : [أنا الأذن الواعية] أُذن عقلت عن اللَّه وانتفعت بما سمعت من كتاب اللَّه ، قاله قتادة .

﴿ فيومئذٍ وقَعَتِ الواقعةُ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : القيامة .

الثاني : الصيحة .

الثالث : أنها الساعة التي يفنى فيها الخلق .

﴿ وانْشَقّت السماءُ فهِي يومئذٍ واهيةٌ ﴾ في انشقاقها وجهان :

أحدهما : أنها فتحت أبوابها ، قاله ابن جريج .

الثاني : أنها تنشق من المجرة ، قاله عليّ رضي الله عنه .

وفي قوله " واهية " وجهان :

أحدهما : متخرقة ، قاله ابن شجرة ، مأخوذ من قولهم وَهَى السقاءُ إذا انخرق ، ومن

أمثالهم :

خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤه . . . ومَن هُريق بالفلاةِ ماؤهُ

أي من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه .

الثاني : ضعيفه ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ والملَكُ على أَرجائها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على أرجاء السماء ، ولعله قول مجاهد وقتادة .

الثاني : على أرجاء الدنيا ، قاله سعيد بن جبير .

وفي " أرجائها " أربعة أوجه :

أحدها : على جوانبها ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : على نواحيها ، قاله الضحاك .

الثالث : أبوابها ، قاله الحسن .

الرابع : ما استدق منها ، قاله الربيع بن أنس .

ووقوف الملائكة على أرجائها لما يؤمرون به فيهم من جنة أو نار .

﴿ ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّك فوقهم يَومئذٍ ثمانيةُ ﴾ يعني أن العرش فوق الثمانية وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : ثمانية أملاك من الملائكة ، قاله العباس بن عبد المطلب .

الثاني : ثمانية صفوف من الملائكة ، قاله ابن جبير .

الثالث : ثمانية أجزاء من تسعة ، وهم الكروبيون ، قاله ابن عباس ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : " يحمله اليوم أربعة ، وهم يوم القيامة ثمانية " .

وفي قوله ﴿ فوقهم ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم يحملون العرش فوق رؤوسهم .

الثاني : أن حملة العرش فوق الملائكة الذين على أرجائها .

الثالث : أنهم فوق أهل القيامة .

﴿ يومئذٍ تُعْرَضونَ ﴾ يعني يوم القيامة ، روى الحسن عن أبي موسى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، أما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف من الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله "

﴿ لا تَخْفَى منكم خافيةٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا يخفى المؤمن من الكافر ، ولا البر من الفاجر ، قاله عبد اللَّه بن عمرو بن العاص .

الثاني : لا تستتر منكم عورة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس حفاة عراة "

الثالث : أن خافية بمعنى خفيّة كانوا يخفونها من أعمالهم حكاه ابن شجرة .

﴿ فأمّا مَنْ أُوتي كتابَه بيمينه ﴾ لأن إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة .

﴿ فيقول هاؤم اقْرَؤوا كِتابيهْ ﴾ ثقة بسلامته وسروراً بنجاته ، لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشمال من دلائل الغم ، قال الشاعر :

أبيني أفي يُمْنَى يديكِ جَعَلْتِني . . . فأفرح أم صيرتني من شِمالِك

وفي قوله " هاؤمُ " ثلاثة أوجه :

أحدها : بمعنى هاكم اقرؤوا كتابيه فأبدلت الهمزة من الكاف ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : أنه بمعنى هلموا اقرؤوا كتابيه ، قال الكسائي : العرب تقول للواحد هاءَ وللاثنين هاؤما وللثلاثة هاؤم .

الثالث : أنها كلمة وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح روي أن أعرابياً نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت عالٍ فأجابه هاؤم بطول صوته .

والهاء من " كتابيه " ونظائرها موضوعة للمبالغة ، وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد .

﴿ إني ظننتُ أني مُلاقٍ حِسابِيَهْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي علمت ، قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك ، وقال مجاهد : ظن الآخرة يقين ، وظن الدنيا شك .

الثاني : ما قاله الحسن في هذه الآية ، أن المؤمن أحْسن بربه الظن ، فأحسن العمل ، وأن المنافق أساء بربه الظن فأساء العمل .

وفي الحساب ها هنا وجهان :

أحدهما : في البعث .

الثاني : في الجزاء .

﴿ فهو في عِيشَةٍ راضيةٍ ﴾ بمعنى مَرْضيّة ، قال أبو هريرة وأبو سعيد الخدري يرفعانه : إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحّون فلا يمرضون أبداً ، ويتنعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبّون فلا يهرمون أبداً .

﴿ في جنة عالية ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : رفيعة المكان .

الثاني : عظيمة في النفوس .

﴿ قطوفها دانيةٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : دانية من الأيدي يتناولها القائم والقاعد .

الثاني : دانية الإدراك لا يتأخر حملها ولا نضجها .

﴿ وأمّا من أُوتي كتابه بشماله ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه كان يقول ذلك راجياً .

الثاني : أنه كان مستوراً فافتضح ، ومن عادة العرب أن تفرق بين القبول والرد وبين الكرامة والهوان ، باليمين والشمال ، فتجعل اليمين بشيراً بالقبول والكرامة ، وتجعل الشمال نذيراً بالرد والهوان .

﴿ ولم أَدْرِ ما حِسابِيَهْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لما شاهد من كثرة سيئاته وكان يظنها قليلة ، لأنه أحصاه اللَّه ونسوه .

الثاني : لما رأى فيه من عظيم عذابه وأليم عقابه .

﴿ يَا لَيْتَها كانت القاضيةَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني موتاً لا حياة فيه بعدها ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه تمنى أن يموت في الحال ، ولم يكن في الدنيا أكره إليه من الموت ، قاله قتادة .

﴿ ما أَغْنَى عَنِّي مالِيَهْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن كثرة ماله في الدنيا لم يمنع عنه في الآخرة .

الثاني : لأن رغبته في زينة الدنيا وكثرة المال هو الذي ألهاه عن الآخرة . ﴿ هَلَكَ عني سُلْطانِيَهْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه ضللت عن حُجّتي ، قاله مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك .

الثاني : سلطانه الذي تسلط به على بدنه حتى أقدم به على معصيته ، وهذا معنى قول قتادة .

الثالث : أنه كان في الدنيا مطاعاً في أتباعه ، عزيزاً في امتناعه ، وهذا معنى قول الربيع بن أنس .

وحكي أن هذا في أبي جهل بن هشام ، وذكر الضحاك أنها نزلت في الأسود ابن عبد الأسد .

﴿ فليس له اليومَ ها هنا حَميمٌ ﴾ الحميم : القريب ، ومعناه ليس له قريب ينفعه ويدفع عنه كما كان يفعل معه في الدنيا .

﴿ ولا طعامٌ إلا مِنْ غِسْلين ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه غسالة أطرافهم ، قاله يحيى بن سلام ، قال الأخفش :

هو فعلين من الغسل .

الثاني : أنه صديد أهل النار ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه شجرة في النار هي أخبث طعامهم ، قاله الربيع بن أنس .

الرابع : أنه الحار الذي قد اشتد نضجه ، بلغة أزد شنوءة .

﴿ فلا أُقْسِمُ بما تُبصِرون ﴾ قال مقاتل : سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : إنه شاعر ، وقال عقبة بن معيط : إنه كاهن فقال اللَّه تعالى قسماً على كذبهم " فلا أُقْسِم " أي أقسم ، و " لا " صلة زائدة .

﴿ وَما لا تُبْصِرونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون من الخلق ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه رد لكلام سبق أي ليس الأمر كما يقوله المشركون .

ويحتمل ثالثاً : بما تعلمون وما لا تعلمون ، مبالغة في عموم القسم .

﴿ إنه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جبريل ، قاله الكلبي ومقاتل .

الثاني : رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، قال ابن قتيبة : وليس القرآن من قول الرسول ، إنما هو من قول اللَّه وإبلاغ الرسول ، فاكتفى بفحوى الكلام عن ذكره .

﴿ ولو تَقوَّلَ علينا بَعْضَ الأقاويل ﴾ أي تكلّف علينا بعض الأكاذيب ، حكاه عن كفار

قريش أنهم قالوا ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ لأخَذْنا منه باليمين ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : لأخذنا منه قوّته كلها ، قاله الربيع .

الثاني : لأخذنا منه بالحق ، قاله السدي والحكم ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ . . . تَلَقّاها عَرابةُ باليَمينِ

أي بالاستحقاق .

الثالث : لأخذنا منه بالقدرة ، قاله مجاهد .

الرابع : لقطعنا يده اليمنى ، قاله الحسن .

الخامس : معناه لأخذنا بيمينه إذلالاً له واستخفافاً به ، كما يقال لما يراد به الهوان ، خذوا بيده ، حكاه أبو جعفر الطبري .

﴿ ثم لَقَطَعْنا مِنه الوَتِينَ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه نياط القلب ويسمى حبل القلب ، وهو الذي القلب معلق به ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه القلب ومراقّه وما يليه ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه الحبل الذي في الظهر ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه عرق بين العلباء والحلقوم ، قاله الكلبي .

وفي الإشارة إلى قطع ذلك وجهان :

أحدهما : إرادة لقتله وتلفه ، كما قال الشاعر :

إذا بَلَّغْتِني وَحَمَلْتِ رحْلي . . . عرابة فاشربي بدَمِ الوَتِينِ

الثاني : ما قاله عكرمة أن الوَتين إذا قطع لا إن جاع عَرَق ، ولا إن شبع عَرَقَ .

﴿ وإنه لتَذْكرةٌ للمُتّقِينَ ﴾ يعني القرآن ، وفي التذكرة أربعة أوجه :

أحدها : رحمة .

الثاني : ثَبات .

الثالث : موعظة .

الرابع : نجاة .

﴿ وإنّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مُكذِّبينَ ﴾ قال الربيع : يعني بالقرآن .

﴿ وإنّه ﴾ يعني القرآن .

﴿ لَحسْرةٌ على الكافرين ﴾ يعني ندامة يوم القيامة .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن يزيد حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم

أن يأتوا بمثله .

﴿ وإنّه لَحقُّ اليقينِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي حقاً ويقيناً ليكونن الكفر حسرة على الكافرين يوم القيامة ، قاله الكلبي .

الثاني : يعني القرآن عند جميع الخلق أنه حق ، قال قتادة : إلا أن المؤمن أيقن به في الدنيا فنفعه ، والكافر أيقن به في الآخرة فلم ينفعه .

﴿ فَسَبِّحْ باسْمِ ربِّكَ العظيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فصلِّ لربك ، قاله ابن عباس .

الثاني : فنزهه بلسانك عن كل قبيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 75 ـ 88 ﴾.

(112/780)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الحاقة ﴾ : القيامة .

قال الفراء : إنما قيل لها : حاقة ، لأن فيها حواق الأمور .

وقال الزجاج : إنما سميت الحاقة ، لأنها تحق كل إنسان بعمله من خير وشر .

قوله تعالى : ﴿ ما الحاقة ؟ ﴾ هذا استفهام ، معناه التفخيم لشأنها ، كما تقول : زيد ، وما زيد ؟ على التعظيم لشأنه .

ثم زاد في التهويل بأمرها ، فقال تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ أي : لأنك لم تعاينها ، ولم تدر ما فيها من الأهوال .

ثم أخبر عن المكذِّبين بها ، فقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة ﴾ قال ابن عباس : القارعة : اسم من أسماء يوم القيامة .

قال مقاتل : وإنما سميت بالقارعة ، لأن الله تعالى يقرع أعداءه بالعذاب .

وقال ابن قتيبة : القارعة : القيامة لأنها تقرع ، يقال : أصابتهم قوارع الدهر .

وقال الزجاج : لأنها تقرع بالأهوال .

وقال غيرهم : لأنها تقرع القلوب بالفزع .

فأما ﴿ الطاغية ﴾ ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها طغيانهم وكفرهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، قال الزجاج : ومعنى الطاغية عند أهل اللغة : طغيانهم و"فاعلة" قد يأتي بمعنى المصادر ، نحو عاقبة ، وعافية .

والثاني : بالصيحة الطاغية ، قاله قتادة .

وذلك أنها جاوزت مقدار الصياح فأهلكتهم .

والثالث : أن الطاغية : عاقر الناقة ، قاله ابن زيد .

والريح الصرصر قد فسرناها في [حم السجدة : 16] والعاتية : التي جاوزت المقدار .

وجاء في التفسير أنها عَتَتْ على خُزَّانها يومئذ ، فلم يكن لهم عليها سبيل .

قوله تعالى : ﴿ سخَّرها عليهم ﴾ أرسلها وسلَّطها .

والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار .

وفي قوله تعالى : ﴿ حسوماً ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : تباعاً ، قاله ابن عباس .

قال الفراء : الحسوم : التِّباع ، يقال في الشيء إذا تتابع ، فلم ينقطع أوله عن آخره : حسوم .

(113/780)

وإنما أُخِذَ والله أعلم من حَسْمِ الدَّاءِ : إذا كُوي صاحبُه ، لأنه يحمى ثم يكوى ، ثم يتابع الكي عليه .

والثاني : كاملة ، قاله الضحاك .

فيكون المعنى : أنها حسمت الليالي والأيام فاستوفتها على الكمال ، لأنها ظهرت مع طلوع الشمس ، وذهبت مع غروبها .

قال مقاتل : هاجت الريح غُدْوَةً ، وسكنت بالعَشِيِّ في اليوم الثامن ، وقبضت أرواحهم في ذلك اليوم ، ثم بعث الله طيراً أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البحر .

والثالث : أنها حسمتهم ، فلم تبق منهم أحداً ، أي : أذهبتهم وأفنتهم ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أي : في تلك الليالي والأيام ﴿ صرعى ﴾ وهو جمع صريع ، لأنهم صرعوا بموتهم ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ أي : أصول نخل ﴿ خاوية ﴾ أي : بالية .

وقد بيَّنَّا هذا في سورة [القمر : 20] .

قوله تعالى : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من بقاءٍ ، قاله الفراء .

والثاني : من بقية ، قاله أبو عبيدة .

قال : وهو مصدر كالطاغية .

والثالث : هل ترى لهم من أثر ؟ قاله ابن قتيبة ﴿ وجاء فرعون ومَن قبله ﴾ قرأ أبو عمرو ، ويعقوب ، والكسائي ، وأبان : بكسر القاف ، وفتح الباء .

والباقون : بفتح القاف ، وإسكان الباء .

فمن كسر القاف أراد : من يليه ويَحفّ به من جنوده وأتباعه .

ومن فتحها أراد : من كان قبله من الأمم الكافرة .

وفي "المؤتفكات" ثلاثة أقوال.

أحدها: قرى قوم لوط.

والمعنى: وأهل المؤتفكات، قاله الأكثرون.

والثاني: أنهم الذين ائتفكوا بذنوبهم، أي: هلكوا بالذنوب التي معظمها الإفك.

وهو الكذب، قاله الزجاج.

والثالث: أنه قارون وقومه، حكاه الماوردي.

(114/780)

قوله تعالى: ﴿ بالخاطئة ﴾ قال ابن قتيبة: أي: بالذنوب، وقال الزجاج: الخاطئة: الخطأ العظيم ﴿ فعصَوْا رسول ربهم ﴾ أي: كذَّبوا رسلهم ﴿ فأخذهم أخذةً رابيةً ﴾ أي: زائدة على الأحداث ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي: تجاوز حدَّه حتى علا على كل شيء في زمن نوح ﴿ حملناكم ﴾ يعني: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿ في الجارية ﴾ وهي: السفينة التي تجري في الماء ﴿ لنجعلها ﴾ أي: لنجعل تلك الفَعْلَةَ التي فعلنا من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملنا معه ﴿ تذكرةً ﴾ أي: عبرةً، وموعظةً ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي: أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتعمل به.

وقال الفراء : لتحفظها كل أُذُن ، فتكون عظة لمن يأتي بعده .

قوله تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : أنها النفخة الأولى ، قاله عطاء .

والثاني : الأخيرة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

﴿ وحُمِلَت الأرضُ والجبالُ ﴾ أي : حملت الأرض والجبال وما فيها ﴿ فَدُكَّتا دكةً واحدةً ﴾ أي : كسرتا ، ودقَّتا دقَّةً واحدة ، لا يثنى عليها حتى تستوي بما عليها من شيءٍ ، فتصير كالأديم الممدود .

وقد أشرنا إلى هذا المعنى في (الأعراف) عند قوله تعالى : ﴿ جعله دكاً ﴾ [آية : 143] .

قال الفراء : وإنما قال : فدكتا ، ولم يَقُل فَدُكِكْنَ ، لأنه جعل الجبال كالشيء الواحد ، كقوله تعالى : ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ [الأنبياء : 30] ، وانشدوا :

هُمَا سَيِّدَانَا يَزْعُمانِ وإنَّما . . .

يَسُودَانِنَا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَماهُما

والعرب تقول : قد يسرت الغنم : إذا ولدت ، أو تهيأت للولادة .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أي : قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء ﴾

لنزول من فيها من الملائكة ﴿ فهي يومئذ واهية ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن وَهْيَها : ضَعْفُها وتمزُّقها من الخوف ، قاله مقاتل .

(115/780)

والثاني : أنه تشققها ، قاله الفراء ﴿ والملك ﴾ يعني : الملائكة ، فهو اسم جنس ﴿ على أرجائها ﴾ أي : على جوانبها .

قال الزجاج : ورجاء كل شيء : ناحيته ، مقصور .

والتثنية : رجوان ، والجمع : أرجاء .

وأكثر المفسرين على أن المشار إليها السماء .

قال الضحاك : إذ انشقت السماء كانت الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الله تعالى ، فينزلون إلى الأرض ، فيحيطون بها ، ومن عليها .

وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : على أرجاء الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فوق رؤوسهم ، أي : العرش على رؤوس الحَمَلة ، قاله مقاتل .

والثاني : فوق الذين على أرجائها ، أي : أن حملة العرش فوق الملائكة الذين هم على

أرجائها .

والثالث : أنهم فوق أهل القيامة ، حكاهما الماوردي ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ثمانية ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ثمانية أملاك .

وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين ، هذا قول الجمهور .

والثاني : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وعكرمة .

والثالث : ثمانية أجزاء من الكروبيين لا يعلم عددهم إلا الله ، قاله مقاتل .

وقد روى أبو داود في "سننه" من حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ، أن ما بين شحمة أُذُنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ تُعْرَضُون ﴾ على الله لحسابكم ﴿ لا تخفى ﴾ عليه .

قرأ حمزة ، والكسائي : "لا يخفى" بالياء .

وقرأ الباقون بالتاء .

والمعنى : لا يخفى عليه ﴿ منكم خافية ﴾ أي : نفس خافية ، أو فَعْلَة خافية .

وفي حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ، ومعاذير ، وأما الثالثة ، فعندها تتطاير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله ، وكان عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ، يومئذ لا تخفى منكم خافية .

﴿ فيقول : هاؤم ﴾ قال الزجاج : "هاؤم" أمر من الجماعة .

بمنزلة هاكم .

تقول للواحد : ها يا رجل ، وللاثنين : هاؤما يا رجلان .

وللثلاثة : هاؤم يا رجال .

قال المفسرون : إنما يقول هذا ثقة بسلامته وسروراً بنجاته .

وذكر مقاتل أنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد .

قوله تعالى : ﴿ إني ظننت ﴾ أي : علمت وأيقنت في الدنيا ﴿ أني ملاقٍ حسابِيَهْ ﴾ أي : أبعث ، وأحاسب في الآخرة ﴿ فهو في عيشة ﴾ أي : حالة من العيش ﴿ راضية

﴿ قال الفراء : أي : فيها الرضى .

وقال الزجاج : أي : ذات رضىً يرضاها من يعيش فيها .

وقال أبو عبيدة : مجازها مجاز مرضية ﴿ في جنَّةٍ عاليةٍ ﴾ أي : عالية المنازل ﴿ قطوفها ﴾ أي : ثمارها ﴿ دانيةٌ ﴾ أي : قريبة ممن يتناولها ، وهي جمع قطف .

والقطف : ما يقطف من الثمار .

قال البراء بن عازب : يتناول الثمرة وهو نائم .

قوله تعالى : ﴿ كلوا ﴾ أي : يقال لهم : كلوا ﴿ واشربوا هنيئاً بما أسلفتم ﴾ أي : قَدَّمتم من الأعمال الصالحة ﴿ في الأيام الخالية ﴾ الماضية ، وهي أيام الدنيا .

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قال مقاتل : نزلت في الأسود بن عبد الأسود ، قتله حمزة ببدر ، وهو أخو أبي سلمة .

وقيل : نزلت في أبي جهل .

قوله تعالى : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ وذلك لما يرى فيه من القبائح ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ لأنه لا حاصل له في ذلك الحساب ، إنما كلُّه عليه .

وكان ابن مسعود .

وقتادة ، ويعقوب ، يحذفون الهاء من "كتابيه" ، و"حسابيه" في الوصل .

قال الزجاج: والوجه أن يوقف على هذه الهاآت، ولا توصل، لأنها أدخلت للوقف.

وقد حذفها قوم في الوصل، ولا أُحبُّ مخالفة المصحف، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ [القارعة: 10].

قوله تعالى: ﴿ يا ليتها ﴾ يعني: الموتة التي ماتها في الدنيا ﴿ كانت القاضية ﴾ أي القاطعة للحياة، فكأنه تمنَّى دوام الموت، وأنه لم يُبْعَثْ للحساب ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ فيه قولان.

أحدهما: ضلَّت عني حجتي، قاله مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والسدي.

والثاني: زال عني ملكي، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿ خذوه ﴾ أي: يقول الله تعالى: ﴿ خذوه فغلُّوه ﴾ أي: اجمعوا يده إلى عنقه ﴿ ثم الجحيم صلُّوه ﴾ أي: أدخلوه النار.

وقال الزجاج: اجعلوه يَصْلَى النَّارَ ﴿ ثم في سِلْسِلَةٍ ﴾ وهي: حَلَقٌ منتظمة ﴿ ذَرْعُها سبعون ذراعاً ﴾ قال ابن عباس: بذراع المَلَك.

وقال نوفٌ الشامي: كل ذراع سبعون باعاً.

الباع أبعد مما بينك وبين مكة، وكان في رحبة الكوفة.

وقال سفيان: كل ذراع سبعون ذراعاً.

وقال مقاتل : ذرعها سبعون ذراعاً بالذراع الأول .

ويقال : إن جميع أهل النار في تلك السلسلة .

قوله تعالى : ﴿ فاسلكوه ﴾ أي : أدخلوه .

قال الفراء : وذكر أنها تدخل في دبر الكافر فتخرج من رأسه ، فذلك سلكه فيها .

والمعنى : ثم اسكلوا فيه السلسلة ، ولكن العرب تقول : أدخلت رأسي في القلنسوة ، وأدخلتها في رأسي .

ويقال : الخاتم لا يدخل في يدي ، وإنما اليد تدخل في الخاتم ، وإنما استجازوا ذلك ، لأن معناه معروف .

قوله تعالى : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أي : لا يصدِّق بوحدانيته وعظمته ﴿ ولا يَحُضُّ على طعام المسكين ﴾ أي : لا يطعمه ، ولا يأمر بإطعامه ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم ﴾ أي : قريب ينفعه ، أي : يشفع له ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه صديد أهل النار ، قاله ابن عباس .

(118/780)

قال مقاتل : إِذا سال القيح ، والدم ، بادروا أكله قبل أن تأكله النار .

والثاني : شجر يأكله أهل النار ، قاله الضحاك ، والربيع :

والثالث : أنه غُسَالَةُ أجوافهم ، قاله يحيى بن سلام .

قال ابن قتيبة : وهو "فِعْلِين" من "غسلت" كأنه غسالة .

قوله تعالى : ﴿ إلا الخاطئون ﴾ يعني : الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ "لا" ردٌّ لكلام المشركين ، كأنه قيل : ليس الأمر كما يقول المشركون ﴿ أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ وقال قوم : "لا" زائدة مؤكدة .

والمعنى : أقسم بما ترون ، وما لا ترون ، فأراد جميع الموجودات .

وقيل : الأجسام والأرواح ﴿ إنه ﴾ يعني : القرآن ﴿ لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الأكثرون .

والثاني : جبريل ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

قال ابن قتيبة : لم يرد أنه قول الرسول ، وإِنما أراد أنه قول الرسول عن الله تعالى ، وفي الرسول ما يدل على ذلك ، فاكتفى به من أن يقول عن الله ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ وقرأ ابن كثير .

"يؤمنون" و"يَذَّكَّرون" بالياء فيهما .

قال الزجاج : "ما" مؤكدة ، وهي لغو في باب الإعراب .

والمعنى : قليلاً تؤمنون .

وقال غيره : أراد نفي إيمانهم أصلاً .

وقد بيَّنَّا معنى "الكاهن" في [الطور : 29] قال الزجاج : وقوله تعالى : "تنزيل" مرفوع ب "هو" مضمرة يدل عليها قوله تعالى : "وما هو بقول شاعر" هو تنزيل .

قوله تعالى : ﴿ ولو تَقَوَّلَ علينا ﴾ أي : لو تكلَّف محمد أن يقول علينا ما لم نقله ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي : لأخذناه بالقوة والقدرة ، قاله الفراء ، والمبرد ، والزجاج .

قال ابن قتيبة : إنما أقام اليمين مقام القوة ، لأن قوة كل شيء في ميامنه .

قوله تعالى : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، فإذا انقطع بطلت القوى : ومات صاحبه .

قال أبو عبيدة : الوتين : نياط القلب ، وأنشد الشَّمَّاخ :

(119/780)

إِذَا بَلَّغَتْنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي . . .

عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الوَتِينِ

وقال الزجاج : الوتين : عرق أبيض غليظ كأنه قصبة .

قوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي : ليس منكم أحد يحجزنا عنه ، وإنما قال تعالى : ﴿ حاجزين ﴾ لأن أحداً يقع على الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ لا نُفَرِّق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة : 285] ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، والزجاج.

ومعنى الكلام : أنه لا يتكلَّف الكذب لأجلكم مع علمه أنه لو تكلَّف ذلك لعاقبناه ، ثم لم يقدر على دفع عقوبتنا عنه ﴿ وإنه ﴾ يعني : القرآن ﴿ لحسرة على الكافرين ﴾ في يوم القيامة.

يندمون إذ لم يؤمنوا به ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ إضافة إلى نفسه لاختلاف اللفظين ، كقوله تعالى : ﴿ ولدار الآخرة ﴾ [يوسف : 109].

وقال الزجاج : المعنى : وإنه لليقين حق اليقين ، وقد شرحنا هذا المعنى ، وما بعده في [الواقعة : 95 ، 96] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 345 . 356 ﴾

(120/780)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الحاقة ﴾

يعني القيامة سميت حاقة من الحق الثابت يعني أنها ثابتة الوقوع لا ريب فيها .

وقيل لأن فيها تحقيق الأمور فتعرف على الحقيقة وفيها يحق الجزاء على الأعمال أي يجب .

وقيل الحاقة النازلة التي حقت فلا كاذبة لها .

وقيل الحاقة هي التي تحق على القوم أي تقع بهم ، ﴿ ما الحاقة ﴾ استفهام ومعناه التفخيم لشأنها والتهويل لها والمعنى أي شيء هي الحاقة ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ أي إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها ولم تر ما فيها من الأهوال على أنه من العظم والشدة أمر لا تبلغه دراية أحد ولا فكره وكيف قدرت حالها فهي أعظم من ذلك .

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ قال ابن عباس بالقيامة سميت قارعة لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة .

وقيل كذبت بالعذاب أي الذي أوعدهم نبيهم حتى نزل بهم فقرع قلوبهم ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ أي طغيانهم وكفرهم .

وقيل الطاغية الصيحة الشديدة المجاوزة الحد في القوة .

وقيل الطاغية الفرقة التي عقروا الناقة فأهلك قوم ثمود بسببهم ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي شديدة الصوت في الهبوب لها صرصرة .

وقيل هي الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿ عاتية ﴾ أي عتت على خزنتها فلم تطعهم ولم يكن لهم عليهم سبيل وجاوزت الحد والمقدار فلم يعرفوا مقدار ما خرج منها .

وقيل عتت على عاد فلم يقدروا على دفعها عنهم بقوة ولا حيلة ﴿ سخرها عليهم ﴾ أي أرسلها وسلطها عليهم وفيه رد على من قال إن سبب ذلك كان باتصال الكواكب فنفى هذا المذهب بقوله سخرها عليهم وبين الله تعالى أن ذلك بقضائه وقدره وبمشيئته لا باتصال الكواكب ، ﴿ سبع ليال وثمانية أيام ﴾ ذات برد ورياح شديدة .

قال وهب هي الأيام التي سماها العرب العجوز لأنها أيام ذات برد ورياح شديدة .

(121/780)

وسميت عجوزاً لأنها تأتي في عجز الشتاء وقيل لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سربها فاتبعتها الريح حتى قتلتها ﴿ حسوماً ﴾ أي متتابعة دائمة ليس فيها فتور ، وذلك أن الريح المهلكة تتابعت عليهم في هذه الأيام فلم يكن لها فتور ولا انقطاع حتى أهلكتهم ، وقيل حسوماً شؤماً وقيل لهذه الأيام حسوماً لأنها تحسم الخير عن أهلها والحسم القطع .

والمعنى أنها حسمتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحداً ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أي في تلك الليالي والأيام ﴿ صرعى ﴾ أي هلكى جمع صريع قد صرعهم الموت ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أي ساقطة وقيل خالية الأجواف شبههم بجذوع نخل ساقطة ليس لها رؤوس ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي من نفس باقية ، قيل إنهم لما أصبحوا موتى في

اليوم الثامن كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ حملتهم الريح فألقتهم في البحر فلم يبق منهم أحد .

قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ قرىء بكسر القاف وفتح الباء أي ومن معه من جنوده وأتباعه وقرىء بفتح القاف وسكون الباء أي ومن قبله من الأمم الكافرة ﴿ المؤتفكات ﴾ يعني قرى قوم لوط يريد أهل المؤتفكات ، وقيل يريد الأمم الذين ائتفكوا بخطيئتهم وهو قوله ﴿ بالخاطئة ﴾ أي بالخطيئة والمعصية وهو الشرك ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ ، قيل يعني موسى بن عمران وقيل لوطاً والأولى أن يقال المراد بالرسول كلاهما لتقدم ذكر الأمتين جميعاً ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ يعني نامية وقال ابن عباس شديدة وقيل زائدة على عذاب الأمم .

(122/780)

﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي عتا وجاوز حده حتى علا على كل شيء وارتفع فوقه وذلك في زمن نوح وهو الطوفان ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ يعني حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم فصح خطاب الحاضرين في الجارية أي السفينة التي تجري في الماء ﴿ لنجعلها ﴾ أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه ، ﴿ لكم تذكرة ﴾

أي عبرة وموعظة ﴿ وتعيها ﴾ أي تحفظها ﴿ أذن واعية ﴾ أي حافظة لما جاء من عند الله .

وقيل أذن سمعت وعقلت ما سمعت وقيل لتحفظها كل أذن فتكون عظة وعبرة لمن يأتي بعد والمراد صاحب الإذن والمعنى ليعتبر ويعمل بالموعظة .

قوله : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ يعني النفخة الأولى ﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أي رفعت من أماكنها ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أي كسرتا وفتتتا حتى صارتا هباء منبثاً والضمير عائد إلى الأرض والجبال فعبر عنهما بلفظ الاثنين ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ أي ضعيفة لتشققها ﴿ والملك ﴾ يعني الملائكة ﴿ على أرجائها ﴾ يعني نواحيها وأقطارها وهو الذي لم ينشق منها قال الضحاك تكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ أي فوق رؤوسهم يعني الحملة ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثمانية ﴾ يعني ثمانية أملاك ، وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية على صورة الأوعال بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء .

الأوعال تيوس الجبل وروى السدي عن أبي مالك قال إن الصخرة التي تحت الأرض السابعة ومنتهى علم الخلائق على أرجائها يحملها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر فهم قيام عليها قد أحاطوا بالسموات والأرض ورؤوسهم تحت العرش ، وعن عروة بن الزبير قال حملة العرش منهم من صورته على صورة الإنسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الأسد .

وعن ابن عباس قال صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) أمية بن أبي الصلت في شيء من الشعر فقال :

رجل وثور تحت رجل يمينه . . .

والنسر للأخرى وليث يرصد

عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " أخرجه أبو داود بإسناد صحيح غريب عن العباس بن عبد المطلب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أي على الله تعالى للحساب ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ أي فعلة خافية .

والمعنى أنه تعالى عالم بأحوالكم لا يخفى عليه شيء منها وأن عرضكم يوم القيامة عليه ففيه المبالغة والتهديد ، وقيل معناه لا يخفى منكم يوم القيامة ما كان مخفياً في الدنيا فإنه يظهر أحوال الخلائق فالمحسنون يسرون بإحسانهم والمسيئون يحزنون بإساءتهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " أخرجه الترمذي وقال ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(124/780)

قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي ﴾ أي أعطي ﴿ كتابه بيمينه فيقول هاؤم ﴾ أي تعالوا ﴿ اقرؤوا كتابيه ﴾ والمعنى له لما بلغ الغاية في السرور وعلم أنه من الناجين بإعطاء كتابه بيمينه أحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا له ، وقيل يقول ذلك لأهله وأقربائه ﴿ إني ظننت ﴾ أي عملت وأيقنت وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن في الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام ﴿ أني ملاق حسابيه ﴾ أي في الآخرة والمعنى أني كنت في

الدنيا أستيقن أني أحاسب في الآخرة ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي في حالة من لعيش مرضية وذلك بأنه لقي الثواب وأمن من العقاب ﴿ في جنة عالية ﴾ رفيعة ﴿ قطوفها دانية ﴾ أي ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطفونها كيف شاؤوا ﴿ كلوا ﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿ واشربوا هنيئاً بما أسلفتم ﴾ أي بما قدمتم لآخرتكم من الأعمال الصالحة ﴿ في الأيام الخالية ﴾ أي الماضية يريد أيام الدنيا .

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ ، قيل تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها .

(125/780)

وقيل تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها ﴿ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ وذلك لما نظر في كتابه ورأى قبائح أعماله مثبتة عليه تمنى أنه لم يؤت كتابه لما حصل له من الخجل والافتضاح ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ أي لم أدر أي شيء حسابي لأنه لا طائل ولا حاصل له وإنما كله عليه لا له ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ تمنى أنه لم يبعث للحساب والمعنى يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية عن كل ما بعدها والقاطعة للحياة أي ما أحيا بعدها قال قتادة تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره منه إليه أي من

الموت في الدنيا لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر مما ذاقه من الموت ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أي لم يدفع عني يساري ومالي من العذاب شيئاً ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ أي ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وقيل ضلت عنه حجته حين شهدت عليه الجوارح بالشرك وقيل معناه زال عني ملكي وقوتي وتسلطي على الناس وبقيت ذليلاً حقيراً فقيراً ﴿ خذوه ﴾ أي يقول الله تعالى لخزنة جهنم خذوه ﴿ فغلوه ﴾ أي أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أي أدخلوه معظم النار لأنه كان يتعاظم في الدنيا ﴿ ثم في سلسلة ﴾ وهي حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿ ذرعها ﴾ أي مقدارها والذرع التقدير بالذراع من اليد أو غيرها ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ قال ابن عباس بذرع الملك .

وقال نوفر البكالي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة .

وقال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً ، وقال الحسن الله أعلم أي ذراع هو عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لو أن رضاضة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت في رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن .

الرضاض : الحصباء الصغار ، وقوله مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة .

الجمجمة قدح من خشب وجمعه جماجم والجمجمة الرأس وهو أشرف الأعضاء وقال وهب لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها وقوله تعالى : ﴿ فاسلكوه ﴾ أي أدخلوه فيها قال ابن عباس تدخل في دبره وتخرج من منخره .

وقيل تدخل في فيه وتخرج من دبره ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أي لا يصدق بوحدانية الله وعظمته ، ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي ولا يحث نفسه على إطعام المسكين ولا يأمر أهله بذلك وفيه دليل على تعظيم الجرم في حرمان المساكين لأن الله تعالى عطفه على الكفر وجعله قرينه .

قال الحسن في هذه الآية أدركت أقواماً يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلاً وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بكثير المرقة لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام .

﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم ﴾ أي ليس له في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ يعني صديد أهل النار مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقروحهم وقيل هو شجر يأكله أهل النار ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أي الكافرون .

قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ قيل إن لا صلة والمعنى أقسم .

وقيل لا رد لكلام المشركين كأنه قال ليس الأمر كما يقول المشركون ثم قال تعالى أقسم وقيل لا هنا نافية للقسم على معنى أنه لا يحتاج إليه لوضوح الحق فيه كأنه قال لا أقسم على أن القرآن قول رسول كريم فكأنه لوضوحه استغنى عن القسم .

وقوله ﴿ بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ يعني بما ترون وتشاهدون وبما لا ترون وما لا تشاهدون أقسم بالأشياء كلها فيدخل فيه جميع المكونات والموجودات ، وقيل أقسم بالدنيا والآخرة .

وقيل بما تبصرون يعني على ظهر الأرض وما لا تبصرون أي ما في بطنها .

وقيل بما تبصرون يعني الأجسام وما لا تبصرون يعني الأرواح .

وقيل بما تبصرون يعني الإنس وما لا تبصرون يعني الملائكة والجن .

(127/780)

وقيل بما تبصرون من النعم الظاهرة وما لا تبصرون من النعم الباطنة .

وقيل بما تبصرون هو ما أظهره الله من مكنون غيبه لملائكته واللوح والقلم وجميع خلقه وما لا تبصرون هو ما استأثر الله بنعمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى ﴿ إنه ﴾ يعني للقرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ يعني تلاوة رسول كريم وهو محمد

(صلى الله عليه وسلم) وقيل : الرسول هو جبريل عليه السلام فعلى هذا يكون المعنى إنه لرسالة رسول كريم والقول الأول أصح لأنهم لم يصفوا جبريل بالشعر والكهانة وإنما وصفوا بهما محمداً (صلى الله عليه وسلم) .

فإن قلت قد توجه هنا سؤال وهو أن جمهور الأمة وهم أهل السنة مجمعون على أن القرآن كلام الله فكيف يصح إضافته إلى الرسول .

قلت أما إضافته إلى الله تعالى فلأنه هو المتكلم به وأما إضافته إلى الرسول فلأنه هو المبلغ عن الله تعالى ما أوحي إليه ولهذا أكده بقوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ ليزول هذا الإشكال .

قال ابن قتيبة لم يرد أنه قول الرسول وإنما أراد أنه قول الرسول المبلغ عن الله تعالى .

وفي الرسول ما يدل على ذلك فاكتفى به عن أن يقول عن الله تعالى وقوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ يعني أن هذا القرآن ليس بقول رجل شاعر ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ أراد بالقليل عدم إيمانهم أصلاً .

والمعنى أنكم لا تصدقون بأن القرآن من عند الله تعالى : ﴿ ولا بقول كاهن ﴾ أي وليس هو بقول رجل كاهن ولا هو من جنس الكهانة ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ يعني لا تتذكرون البتة ﴿ تنزيل ﴾ أي هو تنزيل يعني القرآن ، ﴿ من رب العالمين ﴾ وذلك أنه لما قال إنه لقول رسول كريم أتبعه بقوله تنزيل من رب العالمين ليزول هذا الإشكال .

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ قال ابن عباس يعني نياط القلب ، وقيل هو حبل الظهر .

وقيل هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه .

(128/780)

وقيل هو عرق يتصل من القلب بالرأس ، قال ابن قتيبة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه والمعنى أنه لو كذب علينا وتقول علينا قولاً لم نقله لمنعناه من ذلك إما بواسطة إقامة الحجة عليه بأن نقيض له من يعارضه ويظهر للناس كذبه فيكون ذلك إبطالاً لدعواه ، وإما أن نسلب عنه قوة التكلم بذلك القول الكذب حتى لا يشتبه الصادق بالكاذب ، وإما أن نميته ، ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي مانعين يحجزوننا عن عقوبته والمعنى أن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم مع علمه أنه لو تكلمه لعاقبناه ولا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه وإنما قال حاجزين بلفظ الجمع وهو وصف أحد رداً على معناه ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن وذلك أنه لما وصفه بأنه تنزيل من رب العالمين بواسطة جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بين ما هو فقال تعالى : ﴿ لتذكرة ﴾ أي لعظة ﴿ للمتقين ﴾ أي لمن اتقى عقاب الله ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ فيه وعيد لمن كذب بالقرآن ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لحسرة على الكافرين ﴾ يعني يوم

القيامة والمعنى أنهم يندمون على ترك الإيمان به لما يرون من ثواب من آمن به ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ معناه أنه حق معين لا بطلان فيه ويقين لا شك ولا ريب فيه ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي نزه ربك العظيم واشكره على أن جعلك أهلاً لإيحائه إليك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 142.148 ﴾

(129/780)

وقال النسفى :

﴿ الحاقة ﴾

الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها ، من حق يحق بالكسر أي وجب ﴿ مَا الحاقة ﴾ مبتدأ وخبر وهما خبر ﴿ الحاقة ﴾ والأصل الحاقة ما هي أي أيّ شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها أي حقها أن يستفهم عنها لعظمها ، فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ وأي شيء أعلمك ﴿ مَا الحاقة ﴾ يعني أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها ، لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين .

و"ما" رفع بالابتداء و ﴿ أَدْرَاكَ ﴾ الخبر ، والجملة بعده في موضع نصب لأنها مفعول ثانٍ

ل "أدرى" ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ أي بالحاقة فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة ، وسميت بها لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال .

ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة .

(130/780)

واختلف فيها فقيل الرجفة ، وقيل الصيحة ، وقيل الطاغية مصدر كالعافية أي بطغيانهم ، ولكن هذا لا يطابق قوله ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ ﴾ أي بالدبور لقوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ شديدة الصوت من الصرة الصيحة ، أو باردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شديد العصف أو عتت على خزانها فلم يضبطوها بإذن الله غضباً على أعداء الله ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ سلطها ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ ﴾ وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿ حُسُوماً ﴾ أي متتابعة لا تنقطع جمع حاسم كشهود تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء بعد أخرى

حتى ينحسم ، وجاز أن يكون مصدراً أي تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً ﴿ فَتَرَى ﴾ أيها المخاطب ﴿ القوم فِيهَا ﴾ في مهابها أو في الليالي والأيام ﴿ صرعى ﴾ حال جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ حال أخرى ﴿ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ ﴾ جمع نخلة ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ ساقطة أو بالية ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ من نفس باقية أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان .

(131/780)

﴿ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ ومن تقدمه من الأمم ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ بصري وعلي أي ومن عنده من أتباعه ﴿ والمؤتفكات ﴾ قرى قوم لوط فهي ائتفكت أي انقلبت بهم ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالخطأ أو بالفعلة أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم ﴿ فَعَصَوْاْ ﴾ أي قوم لوط ﴿ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ لوطاً ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿ حملناكم ﴾ أي آباءكم ﴿ فِى الجارية ﴾ في سفينة نوح عليه السلام ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي الفعلة وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عبرة وعظة ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ وتحفظها ﴿ أُذُنٌ ﴾ بضم الذال : غير نافع ﴿ واعية ﴾

حافظة لما تسمع .

قال قتادة : وهي أذن عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾ هي النفخة الأولى ويموت عندها الناس ، والثانية يبعثون عندها ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ دقتا وكسرتا أي ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلاً وهباء منبثاً ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ فحينئذ ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ نزلت النازلة وهي القيامة ، وجواب "إذا" ﴿ وَقَعَتِ ﴾ و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من "إذا" ﴿ وانشقت السماء ﴾ فتّحت أبواباً ﴿ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ مسترخية ساقطة القوة بعد ما كانت محكمة ﴿ والملك ﴾ للجنس بمعنى الجمع وهو أعم من الملائكة ﴿ على أَرْجَائِهَا ﴾ جوانبها واحدها رجا مقصور لأنها إذا انشقت وهي مسكن الملائكة فيلجؤن إلى أطرافها ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ منهم ، واليوم تحمله أربعة وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة .

وعن الضحاك : ثمانية صفوف .

وقيل : ثمانية أصناف .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ للحساب ، والسؤال شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحواله ﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا .

وبالياء : كوفي غير عاصم .

وفي الحديث : " يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعندها تطير الصحف فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله " ﴿ فَأَمَّا ﴾ تفصيل للعرض ﴿ مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات خطاباً لجماعته ﴿ هَاؤُمُ ﴾ اسم للفعل أي خذوا ﴿ اقرؤا كتابيه ﴾ تقديره هاؤم كتابي اقرؤا كتابيه فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، والعامل في ﴿ كتابيه ﴾ ﴿ اقرءوا ﴾ عند البصريين لأنهم يعملون الأقرب .

والهاء في ﴿ كتابيه ﴾ و ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ و ﴿ مَالِيَهْ ﴾ و ﴿ سلطانيه ﴾ للسكت ، وحقها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل ، وقد استحب إيثار الوقف إيثاراً لثباتها لثبوتها في المصحف ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ ﴾ علمت .

وإنما أجرى الظن مجرى العلم ، لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام ، ولأن ما يدرك بالاجتهاد فلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون ، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه ﴿ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ معاين حسابي ﴿ فَهُوَ

فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها كلابن ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ رفيعة المكان أو رفيعة الدرجات أو رفيعة المباني والقصور وهو خبر بعد خبر ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ثمارها قريبة من مريدها ينالها القائم والقاعد والمتكىء يقال لهم :

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ أكلاً هنيئاً لا مكروه فيهما ولا أذى أو هنئتم هنيئاً على المصدر ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فِى الأيام الخالية ﴾ الماضية من أيام الدنيا .

وعن ابن عباس : هي في الصائمين أي كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله .

(133/780)

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يالَيتنى لَمْ أُوتَ كِتَابيه ﴾ لما يرى فيها من الفضائح ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي ﴿ ياليتها ﴾ يا ليت الموتة التي متها ﴿ كَانَتِ القاضية ﴾ أي القاطعة لأمري فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقي ﴿ مَا أغنى عَنِّى مَالِيَهْ ﴾ أي لم ينفعني ما جمعته في الدنيا ، ف "ما" نفي والمفعول محذوف أي شيئاً ﴿ هَلَكَ عَنّى سلطانيه ﴾ ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ضلت عني حجتي أي بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا فيقول الله تعالى لخزنة جهنم ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ أي أدخلوه يعني ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى ، أو نصب ﴿ الجحيم ﴾ بفعل يفسره ﴿ صَلُّوهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ طولها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ بذراع الملك .

عن ابن جريج : وقيل لا يعرف قدرها إلا الله ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ فأدخلوه .

والمعنى في تقدم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية .

﴿ إِنَّهُ ﴾ تعليل كأنه قيل : ما له يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب بأنه ﴿ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم * وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ على بذل طعام المسكين ، وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث لأن الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب في الآخرة ، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم أي أنه مع كفره لا يحرّض غيره على إطعام المحتاجين ، وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين لأنه عطفه على الكفر وجعله دليلاً عليه وقرينة له ، ولأنه ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق .

وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا .

وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعاً ، والكافرين لا يرحمون لأنه قسّم الخلق نصفين فجعل صنفاً منهم أهل اليمين ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ وصنفاً منهم أهل الشمال ووصفهم بالكفر بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ وجاز أن الذي يعاقب من المؤمنين إنما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هاهنا حَمِيمٌ ﴾ قريب يرفع عنه ويحترق له قلبه ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ غسالة أهل النار ، فعلين من الغسل ، والنون زائدة وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا وخطىء الرجل إذا تعمد الذنب .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ من الأجسام والأرض والسماء .

﴿ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ من الملائكة والأرواح فالحاصل أنه أقسم بجميع الأشياء ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم أو جبريل عليه السلام أي بقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تدعون ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تقولون ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وبالياء

فيهما : مكي وشامي ويعقوب وسهل .

وبتخفيف الذال : كوفي غير أبي بكر .

(135/780)

والقلة في معنى العدم يقال : هذه أرض قلما تنبت أي لا تنبت أصلاً ، والمعنى لا تؤمنون ولا تذكرون البتة ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ هو تنزيل بياناً لأنه قول رسول نزل عليه ﴿ مّن رّبّ العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ﴾ ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معالجة بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته ، وخص اليمين لأن القتّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه ، ومعنى لأخذنا منه باليمين لأخذنا بيمينه ، وكذا ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ لقطعنا وتينه وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه ﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ الخطاب للناس أو للمسلمين ﴿ مّنْ أَحَدٍ ﴾ "من" زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ عن قتل محمد وجمع ﴿ حاجزين ﴾ وإن كان وصف ﴿ أَحَدٍ ﴾ لأنه في معنى الجماعة ومنه قوله تعالى ﴿ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] ﴿ وَإِنَّهُ ﴾

وإن القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ لعظة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ ﴾ وإن القرآن ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن القرآن ﴿ لَحَقُّ اليقين ﴾ لعين اليقين ومحض اليقين ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله سبحان الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 285.289 ﴾

(136/780)

وقال ابن جزى :

سورة الحاقة

﴿ الحاقة ﴾

(137/780)

هي القيامة ووزنها فاعلة وسميت الحاقة لأنها تحق ، أي يصح وجودها ، ولا ريب في وقوعها ولأنها حقت لكل أحد جزاء عمله ، أو لأنها تبدئ حقائق الأمور ﴿ مَا الحآقة

﴿ ما استفهامية يراد بها التعظيم ، وهي مبتدأ وخبرها ما بعده والجملة خبر الحاقة ، وكان الأصل الحاقة ما هي ، ثم وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم والتهويل ، وكذلك ، ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ لفظه استفهام والمراد به التعظيم والتهويل ﴿ بالقارعة ﴾ هي القيامة سميت بذلك ؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها ﴿ بالطاغية ﴾ يعني الصيحة التي أخذت ثمود ، وسميت بذلك لأنها جاوزت الحدّ في الشدة ، وقيل : الطاغية مصدر فكأنه قال : أهلكوا بطغيانهم ، فهو كقوله : كذبت ثمود بطغواها ، وقيل : هي صفة لمحذوف تقديره أهلكوا بسبب الفعلة الطاغية ، أو الفئة الطاغية والباء ، على هذين القولين سببية ، وعلى القول الأول كقولك : قتلت زيداً بالسيف ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ذكر في [فصلت : 16] ، وعاتية أي شديدة . وسميت بذلك لأنها عتت على عاد ، وقيل : عتت على خزانها ، فخرجت بغير إذنهم ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ﴾ رُوي أنا بدت صبيحة يوم الأربعاء لثمان بقيت من شوال ، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكلمة الشهر ﴿ حُسُوماً ﴾ قال ابن عباس : معناه كاملة متتابعة لم يتخللها غير ذلك ، وقيل : معناه شؤماً ، وقيل : هو جمع حاسم من الحسم . وهو القطع أي قطعتهم بالإهلاك ، فحسوماً على القول الأول والثاني مصدر في موضع الحال ، وعلى الثالث حال أو مفعول من أجله ﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى ﴾ جمع صريع وهو المطروح ، والضمير المجرور يعود على منازلهم ، لأن المعنى يقتضيها وإن لم يتقدم ذكرها ، أو على الأيام والليالي ، أو على الريح ﴿

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ تقدم في القمر معنى تشبيههم بأعجاز النخل ، والخاوية هي التي خلت من طول بلائها وفسادها ﴿ مِّن

(138/780)

بَاقِيَةٍ ﴾ أي من بقية ، وقيل : من فئة باقية وقيل : إنه مصدر بمعنى البقاء .

﴿ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ يريد من تقدم قبله من الأمم الكافرة ، وأقربهم إليه قوم شعيب ، والظاهر أنهم المراد لأن عاداً وثمود قد ذكرا ، وقوم لوط هم المؤتفكات ، وقوم نوح قد أشير إليهم في قوله : ﴿ لَمَّا طَغَا الماآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ ، وقرأ بكسر القاف وفتح الباء ومعناه : جنده وأبتاعه ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ إما أن يكون مصدراً بمعنى الخطيئة أو صفة لمحذوف تقديره : بالفعلة الخاطئة ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ إن عاد الضمير على فرعون وقومه ، فالرسول موسى عليه السلام ، وإن عاد على المؤتفكات : فالرسول لوط عليه السلام ، وإن عاد على الجميع : فالرسول اسم جنس أو بمعنى الرسالة ﴿ رَّابِيَةً ﴾ أي عظيمة وهي من قولك : ربا الشيء إذا كثر ﴿ طَغَا الماآء ﴾ عبارة عن كثرته ، فيحتمل أن يريد أنه طغى على أهل الأرض ، أو على خزانه يعني وقت طوفان نوح عليه السلام ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ هي السفينة ، فإن أراد سفينة نوح فمعنى ﴿ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ حملنا آباءكم

لأن كل من على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في السفينة ، وإن أراد جنس السفن فالخطاب على حقيقته .

(139/780)

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ الضمير للفعلة وهي الحمل في السفينة وقيل : للسفينة ، فإن أراد جنس السفن : فالمعنى أنها تذكرة بقدرة الله ونعمته لمن ركب أو سمع بها ، وإن إراد سفينة نوح فقد قيل : إن الله أبقاها حتى رأى بعض عيدانها أو هذه الأمة ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ الضمير يعود على ما عاد عليه ضمير : لنجعلها ، وهذا يقوي أن يكون للفعلة ، والأذن الواعية : هي التي تفهم ما تسمع وتحفظه ، يقال : وعيت العلم إذا حصلته ، ولذلك عبّر بعضهم عنها بأنها التي عقلت عن الله ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب : إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ ، قال عليّ : فما نسيت بعد ذلك شيئاً سمعته ، قال الزمخشري : إنما قال : أذن واعية ، بالتوحيد والتنكير ، للدلالة على قلة الوعاة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عقلت عن الله تعالى فهي المعتبرة عند الله دون غيرها ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ يعني نفخة الصور وهي الأولى ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ الضمير للأرض والجبال ، ومعنى دكتا بعضها ببعض حتى تندق

، وقال الزمخشري : الدك أبلغ من الدق ، وقيل ؛ معناه بسطت حتى تستوي الأرض والجبال .

(140/780)

﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ، وقيل : صخرة بيت المقدس وهذا ضعيف ﴿ وَاهِيَةٌ ﴾ أي مسترخية ساقطة القوة ، ومنه قولهم : دار واهية أي ضعيفة الجدران ﴿ والملك على أَرْجَآئِهَآ ﴾ الملك هنا اسم جنس والأرجاء الجوانب واحدها رجى مقصور ، والضمير يعود على السماء ، والمعنى إن الملائكة يكونون يوم القيامة على جوانب السماء ، لأنها إذا وهيت وقفوا على أطرافها ، وقيل : يعود على الأرض لأن المعنى يقتضيه ، وإن لم يتقدم ذكرها ، ورُوي في ذلك أن الله يأمر الملائكة فتقف صفوفاً على جوانب الأرض . والأول أظهر وأشهر ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ قال ابن عباس : هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحد عدّتهم . وقيل : ثمانية أملاك رؤوسهم تحت العرش وأرجلهم تحت الأرض السابعة ، ويؤيد هذا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة قوّاهم الله بأربعة سواهم .

(141/780)

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ خطاب لجميع العالم ، والعرض : البعث أو الحساب ﴿ خَافِيَةٌ ﴾ أي حال خافية من الأَمال والسرائر ، ويحتمل المعنى لا يخفى من أجسادهم لأنهم يحشرون حفاة عراة ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ الكتاب هنا صحائف الأعمال ﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ﴾ هاؤم أسم فعل ، قال ابن عطية : معناه تعالوا وقال الزمخشري : هو صوت يفهم منه معنى خذ ، وكتابيه مفعول يطلبه هاؤم واقرؤوا من ضمير المعنى ، تقديره هاؤم كتاب اقرؤا كتابي ثم حذف لدلالة الآخر عليه وعمل فيه العامل ، الثاني : وهو اقرأوا عند البصريين ، والعامل الأول هو هاؤم عند الكوفيين ، والدليل على صحة قول البصريين أنه لو عمل الأول لقال اقرؤوه ، والهاء على كتابيه للوقف ، وكذلك في حسابية وماليه وسلطانية ، وكان الأصل أن تسقط في الوصل لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف وقد أسقطها في الوصف [حمزة] ، ومعنى الآية : أن العبد الذي يعطى كتابه بيمينه يقول للناس : اقرأوا كتابيه على وجه الاستبشار والسرور بكتابه ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي ذات رضا كقولهم : تامر لصاحب التمر . قال ابن عطية : ليست بياء اسم فاعل ، وقال الزمخشري : يجوز أن يكون اسم فاعل نسب الفعل إليها مجازاً وهو لصاحبها حقيقة ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة ، وروي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها ، على أي

حال كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع ﴿ أَسْلَفْتُمْ ﴾ أي قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فِي الأيام الخالية ﴾ أي الماضية يعني أيام الدنيا .

(142/780)

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ هم الكفار بدليل قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ [الحاقة : 33] فجعل علة إعطائهم كتبهم بشمالهم عدم إيمانهم ، وأما المؤمنون فيعطون كتبهم بأيمانهم ، لكن اختلف فيمن يدخل النار منهم ، هل يعطى كتابه قبل دخول النار أو بعد خروجه منها ؟ وهذا أرجح لقوله : ﴿ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 19] ، لأن هذا كلام سرور فيبعد أن يقوله من يحمل إلى النار ﴿ فَيَقُولُ يالَيتَني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ أي يتمنى أنه لم يعط كتابه ، وقال ابن عطية : يتمنى أن يكون معدوماً لا يجري عليه شيء والأول أظهر ﴿ يالَيتَها كَانَتِ القاضية ﴾ أي ليت الموتة الأولى كانت القاضية بحيث لا يكون بعدها بعث ولا إحياء ﴿ مَآ أغنى عَنّي مَالِيَهْ ﴾ يحتمل أن يكون نفياً ، أو استفهاماً يراد به النفي ﴿ هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ أي زال عني ملكي وقدرتي وقيل : ذهبت عني حجتي .

(143/780)

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ خطاب للزبانية يقوله لهم الله تعالى أو الملائكة بأمر الله ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ أي اجعلوا غلاً في عنقه ؛ وروي أنها نزلت في أبي جهل ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ معنى ذرعها أي طولها ، واختلف في هذا الذراع فقيل : إنه الذراع المعروف ، وقيل : بذراع الملك ، وقيل : في الذراع سبعون باعاً ، كل باع ما بين مكة والكوفة ، ولله در الحسن البصري في قوله : الله أعلم بأي ذراع هي ، وجعلها سبعين ذراعاً لإرادة وصفها بالطول ، فإن السبعين من الأعداد التي تقصد بها العرب التكثير ، ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار ، أو تكون بين جميعهم وقد حكى الثعلبي ذلك ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي أدخلوه ، روي أنها تلتوي عليه حتى تعمه وتضغطه ، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك فيها ، وإنما قدم قوله : في سلسلة ، على اسلكوه ، لإرادة الحصر ، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة وكذلك قدّم الحميم ، على صلّوه ، لإرادة الحصر أيضاً ﴿ طَعَامِ المسكين ﴾ يحتمل أنه أراد إطعام مسكين ، فوضع الاسم موضع المضمر ، أو يقدر : لا يحض على بذل طعام المسكين ، وأضاف الطعام إلى المسكين ؛ لأن له إليه نسبة ، ووصفه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى ، وهذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها ، لأنه قرن من طعام المسكين بالكفر بالله ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ ﴾ فيه قولان : أحدهما ليس له صديق ، والآخر : ليس له شراب ﴿ وَلاَ

طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ فإن الحميم الماء الحار ، والغسلين صديد أهل النار عند ابن عباس . وقيل : شجر يأكله أهل النار ، وقال اللغويون : هو ما يجري من الجراح إذا غسلت وهو فِعْلين من الغسل ﴿ الخاطئون ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمّداً ، والمخطئ الذي يفعله بغير تعمد .

(144/780)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ لا زائدة غير نافية ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يعني جميع الأشياء لأنها تنقسم إلى ما يبصر وما لا يبصر ، كالدنيا والآخرة والإنس والجن والأجسام والأرواح وغير ذلك ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هذا جواب القسم ، والضمير للقرآن ، والرسول الكريم جبريل ، وقيل : لمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال ابن عطية : يحتمل أن تكون ما نافية ، فنفى إيمانهم بالجملة أو تكون مصدرية فوصف إيمانهم بالقلة ، وقال الزمخشري : القلة هنا بمعنى العدم ، أي لا تؤمنون ولا تذكرون البتة .

(145/780)

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ التقوّل هو أن ينسب إلى أحد ما لم يقل ، ومعنى الآية : لو تقوّل علينا محمد لعاقبناه ، ففي ذلك برهان على أن القرآن من عند الله ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس : هنا القوة ومعناه : لو تقوّل علينا لأخذناه بقوتنا وقيل : هي عبارة عن الهوان كما يقال لمن يسجن : أخذ بيده وبيمينه ، قال الزمخشري : معناه لو تقوّل علينا لقتلناه ، ثم صور صورة القتل ليكون أهول ، وعبر عن ذلك بقوله : لأخذنا منه باليمين ، لأن السيَّاف إذا أراد أن يضرب المقتول في جسده أخذ بيده اليمنى ليكون ذلك أشد عليه لنظره إلى السيف ﴿ الوتين ﴾ نياط القلب ، وهو عرق إذا قطع مات صاحبه ، فالمعنى لقتلناه ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ الحاجز المانع ، والمعنى : لو عاقبنا لم يمنعه أحد منكم ولم يدفع عنه وإنما جمع (حاجزين) ، لأن (أحد) في معنى الجماعة ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ الضمير للقرآن ، وقيل : لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والأولى أظهر ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ أي حسرة عليهم في الآخرة ، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثوب المؤمنين ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ قال الكوفيون هذا من إضافة الشيء إلى نفسه ، كقولك : مسجد الجامع ، وقال الزمخشري : المعنى : عين اليقين ومحض اليقين ، وقال ابن عطية : ذهب الحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 141.145 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الحاقة

مكية ، وآيها اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الحاقة ﴾

أي الساعة أو الحالة التي يحق وقوعها ، أو التي تحق فيها الأمور أي تعرف حقيقتها ، أو تقع فيها حواق الأمور من الحساب والجزاء على الإِسناد المجازي ، وهي مبتدأ خبرها .

﴿ مَا الحاقة ﴾ وأصله ما هي أي : أي شيء هي على التعظيم لشأنها والتهويل لها ، فوضع الظاهر موضع الضمير لأنه أهول لها .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ وأي شيء أعلمك ما هي ، أي أنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن تبلغها دراية أحد ، و﴿ مَا ﴾ مبتدأ و﴿ أَدْرَاكَ ﴾ خبره .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ بالحالة التي تقرع فيها الناس بالإِفزاع والأجرام بالانفطار والانتشار ، وإنما وضعت موضع ضمير ﴿ الحاقة ﴾ زيادة في وصف شدتها .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة وهي الصيحة ، أو الرجفة لتكذيبهم ﴿ بالقارعة ﴾ ، أو بسبب طغيانهم بالتكذيب وغيره على أنها مصدر

كالعاقبة وهو لا يطابق قوله :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي شديدة الصوت أو البرد من الصر أو الصر .

﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شديدة العصف كأنها عتت على خزانها فلم يستطيعوا ضبطها ، أو على

﴿ عَادٍ ﴾ فلم يقدروا على ردها .

(147/780)

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ سلطها عليهم بقدرته ، وهو استئناف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية ، إذ لو كانت لكان هو المقدر لها والمسبب . ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ متتابعات جمع حاسم من حسمت الدابة إذا تابعت بين كيها ، أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته ، أو قاطعات قطعت دابرهم ، ويجوز أن يكون مصدراً منتصباً على العلة بمعنى قطعاً ، أو المصدر لفعله المقدر حالاً أي تحسمهم ﴿ حُسُوماً ﴾ ويؤيده القراءة بالفتح ، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وإنما سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء ، أو لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعها الريح في الثامن فأهلكتها . ﴿ فَتَرَى القوم ﴾ إن كنت حاضرهم ﴿ فِيهَا ﴾ في مهابها أو في الليالي والأيام . ﴿ صرعى ﴾ موتى جمع صريع . ﴿ كَأَنَّهُمْ

أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أصول نخل . ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ متأكلة الأجواف .

﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ من بقية أو نفس باقية ، أو بقاء .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ ومن تقدمه ، وقرأ البصريان والكسائي ﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي ومن عنده من أتباعهِ ، ويدل عليه أنه قرىء "ومن معه" . ﴿ والمؤتفكات ﴾ قرى قوم لوط والمراد أهلها . ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالخطأ أو بالفعلة ، أو الأفعال ذات الخطأ .

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها . ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ زائدة في الشدة زيادة أعمالهم في القبح .

﴿ إِنَّا لَمَّا طغى الماء ﴾ جاوز حده المعتاد ، أو طغى على خزانه وذلك في الطوفان وهو يؤيد من قبله . ﴿ حملناكم ﴾ أي آباءكم وأنتم في أصلابهم . ﴿ فِى الجارية ﴾ في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام .

(148/780)

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ ﴾ لنجعل الفعلة وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين . ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ عبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته . ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ وتحفظها ، وعن ابن كثير "تَعْيَهَا" بسكون العين تشبيهاً بكتف ، والوعي أن تحفظ الشيء في نفسك

والإِيعاء أن تحفظه في غيرك . "وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية" من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بموجبه ، والتنكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلته تسبب لانجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم . وقرأ نافع "أَذِنَ" بالتخفيف .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصور نَفْخَةٌ واحدة ﴾ لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تفخيماً لشأنها وتنبيهاً على مكانها عاد إلى شرحها ، وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيده وحسن تذكيره للفصل ، وقرىء ﴿ نَفْخَةً ﴾ بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم .

﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ رفعت من أماكنها بمجرد القدرة الكاملة ، أو بتوسط زلزلة أو ريح عاصفة . ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ فضربت الجملتان بعضها ببعض ضربة واحدة فيصير الكل هباء ، أو فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا عوج فيها ولا أمتا لأن الدك سبب للتسوية ، ولذلك قيل ناقة دكاء للتي لا سنام لها ، وأرض دكاء للمتسعة المستوية .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ فحينئذ . ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ قامت القيامة .

﴿ وانشقت السماء ﴾ لنزول الملائكة . ﴿ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة مسترخية .

﴿ والملك ﴾ والجنس المتعارف بالملك . ﴿ على أَرْجَائِهَا ﴾ جوانبها جمع رجا بالقصر ، ولعله تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهلها إلى أطرافها وحواليها ، وإن كان على ظاهره فلعل هلاك الملائكة أثر ذلك . ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء ، أو فوق الثمانية لأنها في نية التقديم . ﴿ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ ثمانية أملاك ، لما روي مرفوعاً " أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين " وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله ، ولعله أيضاً تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام وعلى هذا قال :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم ، وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسماً لزمان متسع تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صح ظرفاً للكل .

﴿ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ سريرة على الله تعالى حتى يكون العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد منه إفشاء الحال والمبالغة في العدل ، أو على الناس كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء للفصل .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ تفصيل للعرض . ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تبجحاً . ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ هاء اسم لخذ ، وفيه لغات أجودها هاء يا رجل وهاء يا امرأة وهاؤما يا

رجلان أو امرأتان ، وهاؤم يا رجال وهاؤن يا نسوة ، ومفعوله محذوف و ﴿ كتابيه ﴾ مفعول ﴿ اقرؤوا ﴾ لأنه أقرب العاملين ، ولأنه لو كان مفعول ﴿ هَاؤُمُ ﴾ لقيل اقرؤوه إذ الأولى اضماره حيث أمكن ، والهاء فيه وفي ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ و ﴿ مَالِيَهْ ﴾ و ﴿ سلطانيه ﴾ للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الإِمام ولذلك قرىء بإثباتها في الوصل .

(150/780)

﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى ملاق حِسَابِيَهْ ﴾ أي علمت ، ولعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً .

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا على النسبة بالصيغة . أو جعل الفعل لها مجازاً وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء ، أو الدرجات أو الأبنية والأشجار .

﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح المصدر . ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ يتناولها القاعد .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ بإضمار القول وجمع الضمير للمعنى . ﴿ هَنِيئاً ﴾ أكلاً وشرباً ﴿ هَنِيئاً ﴾ أو هنئتم ﴿ هَنِيئاً ﴾ . ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة .

﴿ فِى الأيام الخالية ﴾ الماضية من أيام الدنيا .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ﴾ لما يرى من قبح العمل وسوء العاقبة . ﴿ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ .

﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا ﴾ يا ليت الموتة التي متها . ﴿ كَانَتِ القاضية ﴾ القاطعة لأمري فلم أبعث بعدها ، أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علي لأنه صادفها أمر من الموت فتمناه عندها ، أو يا ليت حياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق فيها حياً .

﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ مالي من المال والتبع وما نفى والمفعول محذوف ، أو استفهام إنكار مفعول لأغنى .

﴿ هَلَكَ عَنّى سُلْطَانِيهْ ﴾ ملكي وتسلطي على الناس ، أو حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا ، وقرأ حمزة "عني" "مالي" "عني سلطاني" بحذف الهاءين في الوصل والباقون بإثباتها في الحالين .

﴿ خُذُوهُ ﴾ يقوله الله تعالى لخزنة النار . ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ .

﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى لأنه كان يتعظم على الناس .

﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ أي طويلة . ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة ، وتقديم ال ﴿ سِلْسِلَةٍ ﴾ كتقديم ﴿ الجحيم ﴾ للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ لتفاوت ما بينها في الشدة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة ، وذكر ﴿ العظيم ﴾ للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ ولا يحث على بذل طعامه أو على إطعامه فضلاً عن أن يبذل من ماله ، ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل . وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع ، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم ها هنا حَمِيمٌ ﴾ قريب يحميه .

﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ غسالة أهل النار وصديدهم فعلين من الغسل .

﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ أصحاب الخطايا من خطىء الرجل إذا تعمد الذنب لا من

الخطأ المضاد للصواب ، وقرىء "الخاطيون" بقلب الهمزة ياء و"الخاطون" بطرحها .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم ، أو ف ﴿ أُقْسِمُ ﴾ و ﴿ لا ﴾ مزيدة أو فلا رد لإنكارهم البعث و ﴿ أُقْسِمُ ﴾ مستأنف . ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ بالمشاهدات والمغيبات وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها .

﴿ إِنَّهُ ﴾ إن القرآن . ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه . ﴿ كَرِيمٌ ﴾ على الله تعالى وهو محمد أو جبريل عليهما الصلاة والسلام .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تزعمون تارة . ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ تصدقون لما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلاً لفرط عنادكم .

(152/780)

﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تدعون أخرى . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ تذكرون تذكراً قليلاً ، فلذلك يلتبس الأمر عليكم وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية وللتذكر مع نفي الكاهنية ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مباينته للكهانة ، فإنها تتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم . وقرأ ابن كثير ويعقوب بالياء فيهما .

﴿ تَنزِيلٌ ﴾ هو تنزيل . ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾ سمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها كأنه جمع أفعولة من القول كالأضاحيك .

﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ بيمينه .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه ، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وهو أن يأخذ المقتول بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب به جيده ، وقيل اليمين بمعنى القوة .

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ عن القتل أو المقتول . ﴿ حاجزين ﴾ دافعين وصف لأحد فإنه عام والخطاب للناس . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن القرآن . ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ﴾ إذا رأوا ثواب المؤمنين به .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ﴾ لليقين الذي لا ريب فيه .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وشكراً على ما أوحى إليك .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 378 . 385 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(153/780)

وقال أبو حيان :

سورة الحاقة

﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) ﴾

﴿ الحاقة ﴾ : المراد بها القيامة والبعث ، قاله ابن عباس وغيره ، لأنها حقت لكل عامل عمله .

وقال ابن عباس وغيره : لأنها تبدي حقائق الأشياء .

وقيل : سميت بذلك لأن الأمر يحق فيها ، فهي من باب ليل نائم .

والحاقة اسم فاعل من حق الشيء إذا ثبت ولم يشك في صحته .

وقال الأزهري : حاققته فحققته أحقه : أي غالبته فغلبته .

فالقيامة حاقة لأنها تحقق كل محاق في دين الله بالباطل ، أي كل مخاصم فتغلبه .

وقيل : الحاقة مصدر كالعاقبة والعافية ، والحاقة مبتدأ ، وما مبتدأ ثان ، والحاقة خبره ،

والجملة خبر عن الحاقة ، والرابط تكرار المبتدأ بلفظه نحو : زيد ما زيد ، وما استفهام لا يراد حقيقته بل التعظيم ، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد ، يعني التعظيم والتهويل .

﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ : مبالغة في التهويل ، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة وتفصيل أوصافها .

وما استفهام أيضاً مبتدأ ، و﴿ أدراك ﴾ الخبر ، والعائد على ما ضمير الرفع في ﴿ وما أدراك ﴾ ، وما مبتدأ ، والحاقة خبر ، والجملة في موضع نصب بأدراك ، وأدراك معلقة .

وأصل درى أن يعدى بالباء ، وقد تحذف على قلة ، فإذا دخلت همزة النقل تعدى إلى واحد بنفسه وإلى الآخر بحرف الجر ، فقوله : ﴿ ما الحاقة ﴾ بعد أدراك في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر .

والقارعة من أسماء القيامة ، لأنها تقرع القلوب بصدمتها .

وقال الزمخشري : تقرع الناس بالأقراع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار ؛ فوضع الضمير ليدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدّتها .

ولما ذكرها وفخمها ، أتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم . انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ فأهلكوا ﴾ : رباعياً مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن عليّ : فهلكوا مبنياً للفاعل .

قال قتادة : بالطاغية : بالصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة .

وقال مجاهد وابن زيد : بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها .

وقال ابن عباس وابن زيد أيضاً وأبو عبيدة ما معناه : الطاغية مصدر كالعاقبة ، فكأنه قال : بطغيانهم ، ويدل عليه ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ وقيل : الطاغية : عاقر الناقة ، والهاء فيه للمبالغة ، كرجل راوية ، وأهلكوا كلهم لرضاهم بفعله .

وقيل : بسبب الفئة الطاغية .

واختار الطبري وغيره أن الطاغية هي الصيحة ، وترجيح ذلك مقابله سبب الهلاك في ثمود بسبب الهلاك في عاد ، وهو قوله : ﴿ بريح صرصر ﴾ ، وتقدّم القول في ﴿ صرصر ﴾ في سورة القمر ، ﴿ عاتية ﴾ : عتت على خزانها فخرجت بغير مقدار ، أو على عاد فما قدروا على أن يتستروا منها ، أو وصفت بذلك استعارة لشدّة عصفها ، والتسخير هو استعمال الشيء باقتدار عليه .

فمعنى ﴿ سخرها عليهم ﴾ : أي أقامها وأدامها ، ﴿ سبع ليال ﴾ : بدت عليهم صبح الأربعاء لثمان بقين من شوّال إلى آخر الأربعاء تمام الشهر ، ﴿ حسوماً ﴾ ، قال ابن

عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأبو عبيدة : تباعاً لم يتخللها انقطاع .

وقال الخليل : شؤماً ونحساً .

وقال ابن زيد : ﴿ حسوماً ﴾ جمع حاسم ، أي تلك الأيام قطعتهم بالإهلاك ، ومنه حسم العلل والحسام .

وقال الزمخشري : وإن كان مصدراً ، فإما أن ينتصب بفعل مضمر ، أي تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً ، أو تكون صفة ، كقولك : ذات حسوم ، أو تكون مفعولاً له ، أي سخرها عليهم للاستئصال .

وقرأ السدّي : حسوماً بالفتح : حالاً من الريح ، أي سخرها عليهم مستأصلة .

وقيل : هي أيام العجز ، وهي آخر الشتاء .

وأسماؤها : الصين والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومصفى الجمر .

وقيل : مكفى الطعن .

(155/780)

﴿ فترى القوم فيها ﴾ : أي في الليالي والأيام ، أو في ديارهم ، أو في مهاب الريح ؛ احتمالات أظهرها الأول لأنه أقرب ومصرح به .

وقرأ أبو نهيك : أعجز ، على وزن أفعل ، كضبع وأضبع .

وحكى الأخفش أنه قرىء : نخيل خاوية خلت أعجازها بلى وفساداً .

وقال ابن شجرة : كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحسو من أدبارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية .

وقال يحيى بن سلام : خلت أبدانهم من أرواحهم .

وقال ابن جريج : كانوا في سبعة أيام في عذاب ، ثم في الثامن ماتوا وألقتهم الريح في البحر ، فذلك قوله : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

وقال ابن الأنباري : ﴿ من باقية ﴾ : أي من باق ، والهاء للمبالغة .

وقال أيضاً : من فئة باقية .

وقيل : ﴿ من باقية ﴾ : من بقاء مصدر جاء على فاعلة كالعاقبة .

وقرأ أبو رجاء وطلحة والجحدري والحسن بخلاف عنه ؛ وعاصم في رواية أبان ، والنحويان : ومن قبله ، بكسر القاف وفتح الباء : أي أجناده وأهل طاعته ، وتقول : زيد قبلك : أي فيما يليك من المكان .

وكثر استعمال قبلك حتى صار بمنزلة عندك وفي جهتك وما يليك بأي وجه ولي .

وقرأ باقي السبعة وأبو جعفر وشيبة والسلمي : ﴿ ومن قبله ﴾ ، ظرف زمان : أي الأمم الكافرة التي كانت قبله ، كقوم نوح ، وقد أشار إلى شيء من حديثه بعد هذا .

﴿ والمؤتفكات ﴾ : قرى قوم لوط .

وقرأ الحسن هنا : والمؤتفكة على الإفراد ، ﴿ بالخاطئة ﴾ : أي بالفعلة أو الفعلات الخاطئة ، قاله مجاهد ؛ أو بالخطأ ، فيكون مصدراً جاء على فاعلة كالعاقبة ، قاله الجرجاني .

﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ : رسول جنس ، وهو من جاءهم من عند الله تعالى ، كموسى ولوط عليهما السلام .

وقيل : لوط عليه السلام ، أعاده على أقرب مذكور ، وهو رسول المؤتفكات .

وقال الكلبي : موسى عليه السلام ، أعاده على الأسبق وهو رسول فرعون .

وقيل : رسول بمعنى رسالة ، ﴿ رابية ﴾ : أي نامية .

(156/780)

قال مجاهد : شديدة ، يريد أنها زادت على غيرها من الأخذات ، وهي الغرق وقلب المدائن .

﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ : أي زاد وعلا على أعلى جبل في الدنيا خمس عشرة ذراعاً .

قال ابن جبير : طغى على الخزان ، كما طغت الريح على خزانها ، ﴿ حملناكم ﴾ : أي في

أصلاب آبائكم ، ﴿ في الجارية ﴾ : هي سفينة نوح عليه السلام ، وكثر استعمال الجارية في السفينة ، ومنه قوله تعالى :

﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ وقال الشاعر :

تسعون جارية في بطن جارية . . .

وقال المهدوي : المعنى في السفن الجارية يعني أن ذلك هو على سبيل الامتنان ، والمحمولون هم المخاطبون .

﴿ لنجعلها ﴾ : أي سفينة نوح عليه السلام ، ﴿ لكم تذكرة ﴾ بما جرى لقومه الهالكين وقومه الناجين فيها وعظة .

قال قتادة : أدركها أوائل هذه الأمة .

وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي .

وقيل : لنجعل تلك الجملة في سفينة نوح عليه السلام لكم موعظة تذكرون بها نجاة آبائكم وإغراق مكذبي نوح عليه السلام ، ﴿ وتعيها ﴾ : أي تحفظ قصتها ، ﴿ أذن ﴾ من شأنها أن تعي المواعظ ، يقال : وعيت لما حفظ في النفس ، وأوعيت لما حفظ في غير النفس من الأوعية .

وقال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ؛ وفي الحديث ، أنه (صلى الله عليه وسلم) قال لعلي : " إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا

علي " قال علي رضي الله تعالى عنه : فما سمعت بعد ذلك شيئاً فنسيته ، وقرأها : وتعيها ، بكسر العين وتخفيف الياء العامة ؛ وابن مصرف وأبو عمرو في رواية هارون وخارجة عنه ؛ وقنبل بخلاف عنه : بإسكانها ؛ وحمزة : بإخفاء الحركة ، ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل .

نحو : كبد وعلم .

وتعي ليس على وزن فعل ، بل هو مضارع وعي ، فصار إلى فعل وأصله حذفت واوه .

(157/780)

وروي عن عاصم عصمة وحمزة الأزرق : وتعيها بتشديد الياء ، قيل : وهو خطأ وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شدة بيان الياء إحترازاً ممن سكنها ، لا إدغام حرف في حرف ، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم .

وروي عن حمزة وعن موسى بن عبد الله العنسي : وتعيها بإسكان الياء ، فاحتمل الاستئناف وهو الظاهر ، واحتمل أن يكون مثل قراءة من أوسط ما تطعمون أهاليكم بسكون الياء .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل ﴿ أذن واعية ﴾ على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم عند الله تعالى ، وأن ما سواها لا يبالي بالة وإن ملأوا ما بين الخافقين .

انتهى ، وفيه تكثير .

ولما ذكر تعالى ما فعل بمكذبي الرسل من العذاب في الدنيا ، ذكر أمر الآخرة وما يعرض فيها لأهل السعادة وأهل الشقاوة ، وبدأ بإعلام يوم القيامة فقال : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ ، وهذه النفخة نفخة الفزع .

قال ابن عباس : وهي النفخة الأولى التي حصل عنها خراب العالم ، ويؤيد ذلك قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ .

وقال ابن المسيب ومقاتل : هي النفخة الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ ، والواو لا ترتب .

وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً ، ولما كانت مرة أكدت بقوله : ﴿ واحدة ﴾ .

وقرأ الجمهور : نفخة واحدة ، برفعهما ، ولم تلحق التاء نفخ ، لأن تأنيث النفخة مجازى ووقع الفصل .

وقال ابن عطية : لما نعت صح رفعه . انتهى .

ولو لم ينعت لصح ، لأن نفخة مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد .

وقرأ أبو السمال : بنصبهما ، أقام الجار والمجرور مقام الفاعل .

(158/780)

وقرأ الجمهور : ﴿ وحملت ﴾ بتخفيف الميم ؛ وابن أبي عبلة وابن مقسم والأعمش وابن عامر في رواية يحيى : بتشديدها ، فالتخفيف على أن تكون ﴿ الأرض والجبال ﴾ حملتها الريح العاصف أو الملائكة أو القدرة من غير واسطة مخلوق .

ويبعد قوله من قال : إنها الزلزلة ، لأن الزلزلة ليس فيها حمل ، إنما هي اضطراب .

والتشديد على أن تكون للتكثير ، أو يكون التضعيف للنقل ، فجاز أن تكون ﴿ الأرض والجبال ﴾ المفعول الأول أقيم مقام الفاعل ، والثاني محذوف ، أي ريحاً تفتتها أو ملائكة أو قدرة .

وجاز أن يكون الثاني أقيم مقام الفاعل ، والأول محذوف ، وهو واحد من الثلاثة المقدرة .

وثني الضمير في ﴿ فدكتا ﴾ ، وإن كان قد تقدمه ما يعود عليه ضمير الجمع ، لأن المراد جملة الأرض وجملة الجبال ، أي ضرب بعضها ببعض حتى تفتتت ، وترجع كما قال تعالى :

﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ والدك فيه تفرق الأجزاء لقوله : ﴿ هباء ﴾ والدق فيه اختلاف الأجزاء .

وقيل : تبسط فتصير أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، وهو من قولهم : بعير أدك وناقة دكاء إذا ضعفا ، فلم يرتفع سنامهما واستوت عراجينهما مع ظهريهما .

﴿ فيومئذ ﴾ معطوف على ﴿ فإذا نفخ في الصور ﴾ ، وهو منصوب بوقعت ، كما أن إذا منصوب بنفخ على ما اخترناه وقررناه واستدللنا له في أن العامل في إذا هو الفعل الذي يليهما لا الجواب ، وإن كان مخالفاً لقول الجمهور .

والتنوين في إذ للعوض من الجملة المحذوفة ، وهي في التقدير : فيوم إذ نفخ في الصور وجرى كيت وكيت ، والواقعة هي القيامة ، وقد تقدم في ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أن بعضهم قال : هي صخرة بيت المقدس .

﴿ وانشقت السماء ﴾ : أي انفطرت وتميز بعضها من بعض ، ﴿ فهي يومئذ إذٍ ﴾ انشقت ، ﴿ واهية ﴾ : ضعيفة لتشققها بعد أن كانت شديدة ، ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ أو منخرقة ، كما يقال : وهي السقاء انخرق .

وقيل انشقاقها لنزول الملائكة ، قال تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ وقيل : انشقاقها لهول يوم القيامة .

﴿ والملك على أرجائها ﴾ ، قال ابن عباس : على حافاتها حين تنشق ، والظاهر أن الضمير في حافاتها عائد على السماء .

وقال ابن جبير والضحاك : على حافات الأرض ، ينزلون إليها يحفظون أطرافها ، وإن لم يجر لها ذكر قريب .

كما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم ملائكة الثانية فيصفون حولهم ، ثم ملائكة كل سماء ، فكلما ندّ أحد من الجن والإنس وجد الأرض أحيط بها .

﴿ والملك ﴾ : اسم جنس يراد به الملائكة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما الفرق بين قولك : ﴿ والملك ﴾ ، وبين أن يقال : والملائكة ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة .

ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد ، أعم من قولك : ما من ملائكة ؟ انتهى .

ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة ، لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاراه أن يراد به الجمع المحلى بهما ، ولذلك صح الاستثناء منه ، فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما .

وأما دعواه أنه أعم منه بقوله : ألا ترى الخ ، فليس دليلاً على دعواه ، لأن من ملك نكرة

مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها من المخلصة للاستغراق ، فشملت كل ملك فاندرج تحتها الجمع لوجود الفرد فيه فانتفى كل فرد فرد ، بخلاف من ملائكة ، فإن من دخلت على جمع منكر ، فعم كل جمع جمع من الملائكة ، ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة .

لو قلت : ما في الدار من رجال ، جاز أن يكون فيها واحد ، لأن النفي إنما انسحب على جمع ، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد .

(160/780)

والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه من فيكون أعم من جمع دخلت عليه من ، وإنما جيء به مفرداً لأنه أخف ، ولأن قوله : ﴿ على أرجائها ﴾ يدل على الجمع ، لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد ، بل في أوقات .

والمراد ، والله تعالى أعلم ، أن الملائكة على أرجائها ، لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات .

وقال الزمخشري : يعني أنها تنشق ، وهي مسكن الملائكة ، فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافاتها . انتهى .

والضمير في فوقهم عائد على الملك ضمير جمع على المعنى ، لأنه يراد به الجنس ، قال معناه الزمخشري .

وقيل : يعود على الملائكة الحاملين ، أي فوق رؤوسهم .

وقيل : على العالم كلهم .

والظاهر أن التمييز المحذوف في قوله : ﴿ ثمانية ﴾ أملاك ، أي ثمانية أشخاص من الملائكة ؛ وعن الضحاك : ثمانية صفوف ؛ وعن الحسن ، الله أعلم كم هم ، أثمانية صفوف أم ثمانية أشخاص ؟ وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً .

﴿ يومئذ ﴾ : أي يوم إذٍ كان ما ذكر ، ﴿ تعرضون ﴾ : أي للحساب ، وتعرضون هو جواب قوله : ﴿ فإذا نفخ ﴾ .

فإن كانت النفخة هي الأولى ، فجاز ذلك لأنه اتسع في اليوم فجعل ظرفاً للنفخ ووقوع الواقعة وجميع الكائنات بعدها ؛ وإن كانت النفخة هي الثانية ، فلا يحتاج إلى اتساع لأن قوله : ﴿ فيومئذ ﴾ معطوف على فإذا ، و ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ بدل من ﴿ فيومئذ ﴾ ، وما بعد هذه الظروف واقع في يوم القيامة .

والخطاب في ﴿ تعرضون ﴾ لجميع العالم المحاسبين .

وعن عبد الله : رأى موسى في القيامة عرضتان فيهما معاذير وتوقيف وخصومات ،

وثالثة تتطاير فيها الصحف للإيمان والشمائل .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا تخفى ﴾ بتاء التأنيث ؛ وعلي وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وابن مقسم عن عاصم وابن سعدان : بالياء ، ﴿ خافية ﴾ : سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا .

(161/780)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19)

أما : حرف تفصيل فصل بها ما وقع في يوم العرض .

ويظهر أن من قضى عليه دخول النار من الموحدين ، أنه في يوم العرض يأخذ كتابه بيمينه مع الناجين من النار ، ويكون ذلك يأنس به مدة العذاب .

وقيل : لا يأخذه حتى يخرج من النار ، وإيمانه أنيسه مدة العذاب .

قيل : وهذا يظهر لأن من يسار به إلى النار كيف يقول : ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ ؟ وهل هذا إلا استبشار وسرور ؟ فلا يناسب دخول النار .

وهاؤم إن كان مدلولها خذ ، فهي متسلطة على كتابيه بغير واسطة ، وإن كان مدلولها تعالوا ، فهي متعدية إليه بواسطة إلى ، وكتابيه يطلبه هاؤم واقرؤا .

فالبصريون يعملون اقرؤا ، والكوفيون يعملون هاؤم ، وفي ذلك دليل على جواز التنازع بين اسم الفعل والقسم .

وقرأ الجمهور : ﴿ كتابيه ﴾ ، و ﴿ حسابيه ﴾ في موضعيهما و ﴿ ماليه ﴾ و ﴿ سلطانيه ﴾ ، وفي القارعة : ﴿ ماهيه ﴾ بإثبات هاء السكت وقفاً ووصلاً لمراعاة خط المصحف .

وقرأ ابن محيصن : بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء ، وذلك كتابي وحسابي ومالي وسلطاني ، ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه في ﴿ ماهيه ﴾ في القارعة ؛ وابن أبي إسحاق والأعمش : بطرح الهاء فيهما في الوصل لا في الوقف ، وطرحهما حمزة في مالي وسلطاني وما هي في الوصل لا في الوقف ، وفتح الياء فيهن .

وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عند أحد علمته ليس كما قال ، بل ذلك منقول نقل التواتر فوجب قبوله .

﴿ إني ظننت ﴾ : أي أيقنت ، ولو كان ظناً فيه تجويز لكان كفراً .

﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ : ذات رضا .

وقال أبو عبيدة والفراء : راضية مرضية كقوله : ﴿ من ماء دافق ﴾ أي مدفوق .

﴿ في جنة عالية ﴾ : أي مكاناً وقدراً .

﴿ قطوفها ﴾ : أي ما يجني منها ، ﴿ دانية ﴾ : أي قريبة التناول يدركها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها .

(162/780)

﴿ كلوا واشربوا ﴾ : أي يقال ، و ﴿ هنيئاً ﴾ ، تقدم الكلام عليه في أول النساء .

وقال الزمخشري : هنيئاً أكلاً وشرباً هنيئاً ، أو هنيتم هنيئاً على المصدر .

انتهى فقوله : أكلاً وشرباً هنيئاً يظهر منه جعل هنيئاً صفة لمصدرين ، ولا يجوز ذلك إلا على تقدير الإضمار عند من يجيز ذلك ، أي أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً .

﴿ بما أسلفتم ﴾ : أي قدمتم من العمل الصالح ، ﴿ في الأيام الخالية ﴾ : يعني أيام الدنيا .

وقال مجاهد وابن جبير ووكيع وعبد العزيز بن رفيع : أيام الصوم ، أي بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى .

والظاهر العموم في قوله : ﴿ بما أسلفتم ﴾ : أي من الأعمال الصالحة .

﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ : لما رأى فيه قبائح أفعاله وما يصير أمره إليه ، تمنى أنه لم يعطه ، وتمنى أنه لم يدر حسابه ، فإنه انجلى عنه حسابه عن ما يسوءه فيه ، إذ كان عليه لا له .

﴿ يا ليتها ﴾ : أي الموتة التي متها في الدنيا ، ﴿ كانت القاضية ﴾ : أي القاطعة لأمري ،

فلم أبعث ولم أعذب ؛ أو يا ليت الحالة التي انتهيت إليها الآن كانت الموتة التي منها في الدنيا ، حيث رأى أن حالته التي هو فيها أمر مما ذاقه من الموتة ، وكيف لا وأمره آل إلى عذاب لا ينقطع ؟ ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ : يجوز أمن يكون نفياً محضاً ، أخبر بذلك متأسفاً على ماله حيث لم ينفعه ؛ ويجوز أن يكون استفهاماً وبخ به نفسه وقررها عليه .

﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ : أي حجتي ، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعكرمة والسدي .

وقال ابن زيد : يقول ذلك ملوك الدنيا .

وكان عضد الدولة ابن نوية لما تسمى بملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح وجن ، فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله : ﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ .

﴿ خذوه ﴾ : أي يقال للزبانية ﴿ خذوه فغلوه ﴾ : أي اجعلوا في عنقه غلاً ، ﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ ، قال الزمخشري : ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس .

(163/780)

يقال : صلى النار وصلاه النار .

انتهى ، وإنما قدره لا تصلوه إلا الجحيم ، لأنه يزعم أن تقديم المفعول يدل على الحصر .

وقد تكلمنا معه في ذلك عند قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ وليس ما قاله مذهباً لسيبويه ولا لحذاق النحاة .

وأما قوله : لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس ، فهذا قول ابن زيد وهو مرجوح ، والراجح قول ابن عباس ومن ذكر معه : أن السلطان هنا هو الحجة التي كان يحتج بها في الدنيا ، لأن من أوتي كتابه بشماله ليس مختصاً بالملوك ، بل هو عام في جميع أهل الشقاوة .

﴿ ثم في سلسلة ذرعها ﴾ : أي قياسها ومقدار طولها ، ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ : يجوز أن يراد ظاهره من العدد ، ويجوز أن يراد المبالغة في طولها وإن لم يبلغ هذا العدد .

قال ابن عباس وابن جريج ومحمد بن المنكدر : بذراع الملك .

وقال نوف البكالي وغيره : الذراع سبعون باعاً ، في كل باع كما بين مكة والكوفة ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هي .

وقيل : بالذراع المعروف ، وإنما خاطبنا تعالى بما نعرفه ونحصله .

وقال ابن عباس : لو وضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص .

﴿ فاسلكوه ﴾ : أي ادخلوه ، كقوله : ﴿ فسلكه ينابيع ﴾ والظاهر أنه يدخله في

السلسلة ، ولطولها تلتوي عليه من جميع جهاته فيبقى داخلاً فيها مضغوطاً حتى تعمه .

وقيل : في الكلام قلب ، والسلسلة تدخل في فمه وتخرج من دبره ، فهي في الحقيقة التي تسلك فيه ، ولا ضرورة تدعو إلى إخراج الكلام عن ظاهره ، إلا إن دل الدليل الصحيح على خلافه .

وقال الزمخشري : والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية ، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم .

ومعنى ثم : الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخي المدة . انتهى .

(164/780)

وقد تقدم أن من مذهبه الحصر في تقديم المعمول ، وأما ثم فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية ، وأنه أولاً يؤخذ فيغل .

ولما لم يعذب بالعجلة ، صارت له استراحة ، ثم جاء تصلية الجحيم ، فكان ذلك أبلغ في عذابه ، إذ جاءه ذلك وقد سكنت نفسه قليلاً ، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً

معذباً في النار ، لكنه كان له انتقال من مكان إلى مكان ، فيجد بذلك بعض تنفس .

فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب ، حيث صار لا حراك له ولا انتقال ، وأنه يضيق عليه غاية ، فهذا يصح فيه أن تكون ثم على موضوعها من المهلة الزمانية .

﴿ إنه كان لا يؤمن ﴾ : بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله ، وإنه تعليل مستأنف ، كأن قائلاً قال : لم يعذب هذا العذاب البليغ .

وقيل : ﴿ إنه كان لا يؤمن ﴾ ، وعطف ﴿ ولا يحض ﴾ على ﴿ لا يؤمن ﴾ داخل في العلة ، وذلك يدل على عظم ذنب من لا يحض على إطعام المسكين ، إذ جعل قرين الكفر ، وهذا حكم ترك الحض ، فكيف يكون ترك الإطعام ؟ والتقدير على إطعام طعام المسكين .

وأضاف الطعام إلى المسكين من حيث لم ينسبه إليه ، إذ يستحق المسكين حقاً في مال الغني الموسر ولو بأدنى يسار ؛ وللعرب في مكارمهم وإيثارهم آثار عجيبة غريبة بحيث لا توجد في غيرهم ، وما أحسن ما قيل فيهم :

على مكثريهم رزق من يعتريهم . . .

وعند المقلين السماحة والبذل

وكان أبو الدرداء يحض امرأته على تكثير الرزق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف

السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ وقيل : هو منع الكفار .

وقولهم : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ يعني أنه إذا نفي الحض انتفى الإطعام بجهة الأولى ، كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم ﴾ : أي صديق ملاطف وادّ ، ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ وقيل : قريب يدفع عنه .

﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ ، قال ابن عباس : هو صديد أهل النار .

(165/780)

وقال قتادة وابن زيد : هو والزقوم أخبث شيء وأبشعه .

وقال الضحاك والربيع : هو شجر يأكله أهل النار .

وقيل : هو شيء يجري من أهل النار ، يدل على هذا قوله في الغاشية : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ فهما شيء واحد أو متداخلان .

قيل : ويجوز أن يكونا متباينين ، وأخبر بكل واحد منهما عن طائفة غير الطائفة التي الآخر طعامها ، وله خبر ليس .

وقال المهدوي : ولا يصح أن يكون ها هنا ، ولم يبين ما المانع من ذلك .

وتبعه القرطبي في ذلك وقال : لأن المعنى يصير ليس ها هنا طعام إلا من غسلين ، ولا يصح ذلك لأن ثم طعاماً غيره ، وها هنا متعلق بما في له من معنى الفعل .

انتهى .

وإذا كان ثم غيره من الطعام ، وكان الأكل غير أكل آخر ، صح الحصر بالنسبة إلى اختلاف الأكلين .

وأما إن كان الضريع هو الغسلين ، كما قال بعضهم ، فلا تناقض ، إذ المحصور في الآيتين هو شيء واحد ، وإنما يمتنع ذلك من وجه غير ما ذكره ، وهو أنه إذا جعلنا الخبر ها هنا ، كان له واليوم متعلقين بما تعلق به الخبر ، وهو العامل في ههنا ، وهو عامل معنوي ، فلا يتقدم معموله عليه .

فلو كان العامل لفظياً جاز ، كقوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فله متعلق بكفواً وهو خبر ليكن .

وقرأ الجمهور : ﴿ الخاطئون ﴾ ، اسم فاعل من خطىء ، وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك ، والمخطىء الذي يفعله غير متعمد .

وقرأ الحسن والزهري والعتكي وطلحة في نقل : بياء مضمومة بدلاً من الهمزة .

وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع : بخلاف عنه ، بضم الطاء دون همز ، فالظاهر اسم فاعل من خطىء كقراءة من همز .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد : الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله .

انتهى .

فيكون اسم فاعل من خطا يخطو ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾ خطا إلى المعاصي .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

(166/780)

تقدم الكلام في لا قبل القسم في قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ وقراءة الحسن : لأقسم بجعلها لا ما دخلت على أقسم .

وقيل : لا هنا نفي للقسم ، أي لا يحتاج في هذا إلى قسم لوضوح الحق في ذلك ، وعلى هذا فجوابه جواب القسم .

قال مقاتل : سبب ذلك أن الوليد قال : إن محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال : كاهن .

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ ، عام في جميع مخلوقاته .

وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

وقيل : ﴿ وما لا تبصرون ﴾ : الملائكة .

وقيل : الأجساد والأرواح .

﴿ أنه ﴾ : أي إن القرآن ، ﴿ لقول رسول كريم ﴾ : هو محمد (صلى الله عليه وسلم) في قول الأكثرين ، ويؤيده : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ وما بعده ، ونسب القول إليه لأنه هو مبلغه والعامل به .

وقال ابن السائب ومقاتل وابن قتيبة : هو جبريل عليه السلام ، إذ هو الرسول عن الله .

ونفى تعالى أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر ؛ ولا قول كاهن لأنه ورد بسبب الشياطين .

وانتصب ﴿ قليلاً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف أو لزمان محذوف ، أي تؤمنون إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً .

وكذا التقدير في : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ، والقلة هو إقرارهم إذا سئلوا من خلقهم قالوا الله .

وقال ابن عطية : ونصب ﴿ قليلاً ﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿ تؤمنون ﴾ ، وما تحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم البتة .

ويحتمل أن تكون ما مصدرية ، والمتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي ، لأنهم قد صدقوا

بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً ، إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو حق صواب . انتهى .

أمّا قوله : ونصب قليلاً بفعل مضمر يدل عليه تؤمنون فلا يصح ، لأن ذلك الفعل الدال عليه ﴿ تؤمنون ﴾ إما أن تكون ما نافية أو مصدرية ، كما ذهب إليه .

(167/780)

فإن كانت نافية ، فذلك الفعل المضمر الدال عليه تؤمنون المنفي بما يكون منفياً ، فيكون التقدير : ما تؤمنون قليلاً ما تؤمنون ، والفعل المنفي بما لا يجوز حذفه ولا حذف ما لا يجوز زيداً ما أضربه ، على تقدير ما أضرب زيداً ما أضربه ، وإن كانت مصدرية كانت ما في موضع رفع على الفاعلية بقليلاً ، أي قليلاً إيمانكم ، ويبقى قليلاً لا يتقدمه ما يعتمد عليه حتى يعمل ولا ناصب له ؛ وإما في موضع رفع على الابتداء ، فيكون مبتدأ لا خبر له ، لأن ما قبله منصوب لا مرفوع .

وقال الزمخشري : والقلة في معنى العدم ، أي لا تؤمنون ولا تذكرون البتة ، والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم . انتهى .

ولا يراد بقليلاً هنا النفي المحض ، كما زعم ، وذلك لا يكون إلا في أقل نحو : أقل رجل يقول

ذلك إلا زيد ، وفي قل نحو : قلّ رجل يقول ذلك إلا زيد .

وقد تستعمل في قليل وقليلة إذا كانا مرفوعين ، نحو ما جوزوا في قوله :

قليل بها الأصوات إلا بغاتها . . .

أما إذا كان منصوباً نحو : قليلا ضربت ، أو قليلاً ما ضربت ، على أن تكون ما مصدرية ، فإن ذلك لا يجور ، لأنه في : قليلاً ضربت منصوب بضربت ، ولم تستعمل العرب قليلاً إذا انتصب بالفعل نفياً ، بل مقابلاً لكثير .

وأمّا في قليلاً ما ضربت على أن تكون ما مصدرية ، فتحتاج إلى رفع قليل ، لأن ما المصدرية في موضع رفع على الابتداء .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بخلاف عنهما ؛ والجحدري والحسن : يؤمنون ، يذكرون : بالياء فيهما ؛ وباقي السبعة : بتاء الخطاب ؛ وأبيّ : بياءين .

وقرأ الجمهور : ﴿ تنزيل ﴾ بالرفع ؛ وأبو السمال : تنزيلاً بالنصب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولو تقول ﴾ ، والتقول أن يقول الإنسان عن آخر إنه قال شيئاً لو يقله .

وقرأ ذكوان وابنه محمد : يقول مضارع قال ، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور .

وقرىء : ولو تقول مبنياً للمفعول ، وحذف الفاعل وقام المفعول مقامه ، وهو بعض ، إن كان قرىء مرفوعاً ؛ وإن كان قرىء منصوباً بعلينا قام مقام الفاعل ، والمعنى : ولو تقول علينا متقول .

ولا يكون الضمير في تقول عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) لاستحالة وقوع ذلك منه ، فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه عليه الصلاة والسلام .

والأقاويل جمع الجمع ، وهو أقوال كبيت وأبيات ، قال الزمخشري : وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول .

والظاهر أن قوله : ﴿ باليمين ﴾ المراد به الجارحة .

فقال الحسن : المعنى قطعناه عبرة ونكالاً ، والباء على هذا زائدة .

وقيل : الأخذ على ظاهرة .

قال الزمخشري : والمعنى : ولو ادعى مدع علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما تفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته ، وخص اليمين على اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحفه بالسيف ، وهو أشد

على المصبور لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه .

ومعنى ﴿ لاخذنا منه باليمين ﴾ : لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله تعالى ﴿ لقَطعنا منه الوتين ﴾ : لقطعنا وتينة .

انتهى ، وهو قول للمتقدّمين حسنه الزمخشري بتكثير ألفاظه ومصاغها قالوا : المعنى لأخذنا بيده التي هي اليمين على جهة الإذلال والصغار ، كما يقول السلطان إذا أراد عقوبة رجل : يا غلام خذ بيده وافعل كذا ، قاله أو قريباً منه الطبري .

وقيل : اليمين هنا مجاز .

فقال ابن عباس : باليمين : بالقوّة ، معناه لنلنا منه عقابه بقوّة منا .

وقال مجاهد : بالقدرة .

وقال السدّي : عاقبناه بالحق ومن على هذا صلة .

وقال نفطويه : لقبضنا بيمينه عن التصرّف .

وقيل : لنزعنا منه قوّته .

وقيل : لأذللناه وأعجزناه .

(169/780)

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، قال ابن عباس : وهو نياط القلب .

وقال مجاهد : حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع .

والموتون الذي قطع وتينه ، والمعنى : لو تقول علينا لأذهبنا حياته معجلاً ، والضمير في عنه الظاهر أنه يعود على الذي تقول ، ويجوز أن يعود على القتل ، أي لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه ، والخطاب في منكم للناس ، والظاهر في ﴿ حاجزين ﴾ أن يكون خبراً لما على لغة الحجاز ، لأن حاجزين هو محط الفائدة ، ويكون منكم لو تأخر لكان صفة لأحد ، فلما تقدّم صار حالاً ، وفي جواز هذا نظر .

أو يكون للبيان ، أو تتعلق بحاجزين ، كما تقول : ما فيك زيد راغباً ، ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر ما .

وقال الحوفي والزمخشري : حاجزين نعت لأحد على اللفظ ، وجمع على المعنى لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومنه : ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ وقوله : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ مثل بهما الزمخشري ، وقد تكلمنا على ذينك في موضعيهما .

وفي الحديث : " لم تحل لأحد سود الرؤوس قبلكم " وإذا كان حاجزين نعتاً فمن أحد مبتدأ والخبر منكم ، ويضعف هذا القول ، لأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم ، فلا يتسلط على الحجز .

وإذا كان حاجزين خبراً .

تسلط النفي عليه وصار المعنى : ما أحد منكم يحجزه عن ما يريد به من ذلك .

﴿ وإنه لتذكرة ﴾ : أي وإن القرآن أو الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ : وعيد ، أي مكذبين بالقرآن أو بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ وإنه لحسرة ﴾ : أي القرآن من حيث كفروا به ، ويرون من آمن به ينعم وهم معذبون .

وقال مقاتل : وإن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم ، عاد الضمير على المصدر المفهوم من قوله : ﴿ مكذبين ﴾ ، كقوله :

إذا نهى السفيه جرى إليه . . .

أي للسفه .

(170/780)

﴿ وأنه ﴾ : أي وإن القرآن ، ﴿ لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ : وسبق الكلام على إضافة حق إلى اليقين في آخر الواقعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) ﴾

التفسير : ﴿ الحاقة ﴾ وهي القيامة بالاتفاق إلا أنهم اختلفوا في سبب التسمية فقال أبو مسلم : هي الفاعلة من حقت كلمة ربك أي الساعة واجبة الوقوع لا ريب في مجيئها ، وقريب منه قول الليث أنها النازلة التي حقت فلا كاذبة لها . وقيل : إنها التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة من قولك لا أحق هذا أي لا أعرف حقيقته ، جعل الفعل لها وهو لأهلها ، وقيل : هي التي يوجد فيها حواق الأمور وهي الواجبة الحصول من الثواب والعقاب وغيرهما من أحوال القيامة . وهذا الوجه والذي تقدمه يشتركان في الإسناد المجازي إلا أن الفاعل في الأول بمعنى المفعول والثاني على أصله ، وقريب منه قول الزجاج أنها تحق أي يكون فيها جميع آثار أعمال المكلفين ويخرج عن حد الانتظار .

قال الأزهري : سميت بذلك أنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل أي تخاصم كل مخاصم وتغلبه . وأورد في التفسير الكبير وجوهاً أخر إلى تمام العشرة فهي في التحقيق مكررة فلذلك حذفناها . قوله ﴿ ما الحاقة ﴾ مبتدأ وخبره والمجموع خبر الحاقة . والأصل ما هي يعني وأي شيء هي ؟ وفي هذا الاستفهام تعظيم وتفخيم لشأنها ، وفي وضع الظاهر موضع المضمر تهويل فوق تهويل وفي قوله ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ مبالغة أخرى والمعنى أي شيء أعلمك ما الحاقة ؟ وفيه أن مدى عظمها بحيث لا يبلغه وصف واصف ولا نعت مخبر . قال جار الله : ما يعني في ما الحاقة الثانية في موضع الرفع على الابتداء . ﴿ وأدراك ﴾ معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام . قلت : ولولا ذلك لنصب الجزأين على أنهما مفعول ثان وثالث كقولك " أعلمتك زيداً فاضلاً " . وحين ذكر الحاقة على أبلغ وجوه التعظيم أتبعها ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تخويفاً لأهل مكة فقال ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ والأصل بها أي بالحاقة إلا أنه وضع القارعة موضع الضمير ليدل بذلك على معنى الروع في الحاقة زيادة في وصف شدتها . ولا ريب أنها تفزع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق ، والأرض بالدك ، والنجوم بالطمس إلى غير ذلك . وكانت عادة القرآن جارية بتقديم قصة عاد على ثمود إلا أنه قلب ههنا لأن قصة ثمود بنيت على غاية الاختصار ومن عادتهم تقديم ما هو أخصر . قوله ﴿ بالطاغية ﴾ أي بالواقعة المجاوزة للحد وهي الرجفة أو الصاعقة أو الصحية ، وقيل : الطاغية مصدر

أي بسبب طغيانهم . واعترض بأنه لا يطابق قصة عاد فأهلكوا بريح . ويمكن أن يجاب بأن السبب الفاعلي والسبب الآلي كلاهما يشتركان في مطلق السببية ، وهذا القدر من المناسبة كافٍ في الطباق وعلى هذا القول يحتمل أن تكون الطاغية صفة موصوف أي بشؤم الفرقة الطاغية التي تواطأت على عقر الناقة . ويجوز أن يراد بها عاقر الناقة وحده والتاء للمبالغة . الصرصر الشديد الصوت أو

(173/780)

الكثير سميت عاتية بشدة عصوفها . قال جار الله : العتو استعارة قلت : لأنه مستعمل في مجاوزة الإنسان حد الطاعة والانقياد . قال عطاء عن ابن عباس : يريد أن الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببيت واستناد إلى جبل ، فإنها كانت تزعجهم من مكانهم . قال الكلبي : عتت على خزانها كما جاء في الحديث " ما أرسل الله من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم نوح ويوم عاد ، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان والريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل "

(174/780)

وقيل : العاتية من عتا النبت أي بلغ منتهاه وجف قال تعالى ﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ [مريم : 8] أي ريح بالغة منتهاها في الشدة والقوة ﴿ سخرها ﴾ أي سلطها بدليل ﴿ عليهم ﴾ وقال الزجاج : أقامها وقيل : أرسلها . قوله ﴿ حسوماً ﴾ جمع حاسم كشهود جمع شاهد . والتركيب يدور على القطع والاستئصال ومنه الحسام لأنه يحسم العدو عما يريد من بلوغ أمله ، وذلك أن تلك الريح حسمت كل خير واستأصلت كل بركة . وقيل : إنها تتابعت من غير فتور ولا انقطاع حتى أتت عليهم ، فمثل تتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء مرة بعد أخرى إلى أن ينحسم . ويجوز أن يكون ﴿ حسوماً ﴾ مصدراً كالدخول والخروج وعلى هذا انتصب بفعل مضمر أي يستأصل استئصالاً ، أو يكون وصفاً بالمصدر أي ذات حسوم ، أو مفعولاً له ، وقيل : هي أيام العجوز وذلك أن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها . والصحيح أنها أيام العجز وهي آخر الشتاء وأساميها . الصن والصنبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفىء الجمر . وقيل : ومكفىء الظعن . والضمير في ﴿ فيها ﴾ للجهات أو الليالي والأيام الخاوية الساقطة . وقيل : الخاوية لأن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم ، وعلى هذا يحتمل أن تكون الخاوية بمعنى البالية لأن النخل إذا بليت خلت أجوافها والباقية مصدر . وقيل : من نفس باقية : قال ابن جريج : كانوا سبع ليال وثمانية

أيام أحياء في عذاب الله ، فلما كان اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر فذلك قوله ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ وقوله ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ [الأحقاف : 25] ومن قرأ ﴿ ومن قبله ﴾ بالفتح والسكون فظاهر أي ومن تقدمه من رؤساء الكفر والضلال كنمرود ونحوه . ومن قرأ بالسكر والفتح أراد ومن عنده من أتباعه وجنوده . والخاطئة مصدر أي بالخطأ أو صفة أي بالفعلة أو الأفعال ذوات الخطأ العظيم ﴿ رابية ﴾ من ربا الشيء يربو إذا زاد أي زائدة

(175/780)

في الشدة كما كانت فعلاتهم زائدة في القبح . وقيل : معنى الزيادة اتصال عذابهم في الدنيا بعذاب الآخرة . ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ . ولا ريب أن عذاب الآخرة أشد وكان عقابهم ينمو ويزيد إلى حد ليس فوقه عذاب . قال الوحدي : الوجه في قوله ﴿ رسول ربهم ﴾ أن يكون رسول الأمم الماضية كلهم أعني موسى ولوطاً وغيرهما من رسل من تقدم فرعون كقوله ﴿ أنا رسول رب العالمين ﴾ [الشعراء : 16] ولو جعل عبارة عن موسى عليه السلام لزم التخصيص من غير مخصص . ثم ذكر قصة بعض من تقدم فرعون فقال ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وطغيان الماء كعتو الريح وقد سبق في عدة سور . ومعنى ﴿ حملناكم

﴿ حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴾ في الجارية ﴾ في السفينة وهي سفينة نوح ﴾ لنجعلها ﴾ قال الفراء : أي الجارية لأنها المذكور .

والأظهر عودة إلى الواقعة والحالة وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين فإنها هي التذكرة والعبرة ولقوله ﴾ وتعيها أذن واعية ﴾ من شأنها حفظ كل ما تسمع لتعمل به . قال أهل اللغة : كل ما حفظته في نفسك فقد وعيته وما تعيه في غير نفسك فقد أوعيته . يقال : أوعيت المتاع في البيت .

(176/780)

والشر أخبث ما أوعيت من زاد . . . قال جار الله : إنما قيل ﴾ أذن واعية ﴾ على التوحيد والتنكير للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، للدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت فهي عند الله بمكان وما سواها لا يلتفت إليه وإن ملأ العالم . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي رضي الله عنه عند نزول هذه الآية : سألت الله يجعلها أذنك يا علي . قال علي رضي الله عنه : فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى . وحين فرغ من بيان القدرة والحكمة عاد إلى ما انجر منه الكلام وهو حديث الحاقة ، والنفخة الواحدة عن ابن عباس أنها الأولى التي عندها خراب العالم ، وفي

رواية عنه أنها الثانية لقوله بعد ذلك ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ والعرض عند الثانية . ولناصر الرواية الأولى أن يقول : اليوم اسم للحين الواسع الذي يقع فيه النفخات والصعقة والنشور والوقوف والحساب كما تقول " جئته عام كذا " وإنما جئت في وقت واحد من أوقاتها .

قوله ﴿ واحدة ﴾ صفة مؤكدة قوله ﴿ وحملت ﴾ أي رفعت من جهاتها بريح شديدة أو بملك أو بقدرة الله من غير واسطة . والضمير في ﴿ دكتا ﴾ لجماعتي الأرض والجبال والمراد أن هاتين الجملتين يضرب بعضها ببعض حتى يندك ويرجع كثيباً مهيلاً منثوراً .

والدك أبلغ من الدق . وقيل : فبسطتا بسطة واحدة فصارتا قاعاً صفصفاً من قولك " اندك السنام " إذا انقرش " وبعير أدك " " وناقة دكاء " قوله ﴿ فيومئذ ﴾ جواب ﴿ فإذا نفخ ﴾ والواقعة النازلة وهي القيامة ﴿ واهية ﴾ مسترخية بعد أن كانت مستمسكة ﴿ والملك ﴾ جنس ولهذا كان أعم من الملائكة لشموله الواحد والاثنين دونها .

والأرجاء الجوانب جمع رجا مقصوراً . والمعنى أن السماء إذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء .

(177/780)

سؤال : الملائكة يموتون في الصعقة الأولى فكيف يقفون على أرجاء السماء ؟ الجواب أنهم يقفون لحظة ثم يموتون أو هم المستثنون بقوله إلا ما شاء الله ، والضمير في ﴿ فوقهم ﴾ عائد إلى الملك على المعنى لأن التقدير الخلق الذي يقال له الملك ، والمقصود التمييز بينهم وبين الملائكة الذين هم حملة العرش ، وقال مقاتل : الضمير للحملة أي فوق رؤسهم والإضمار قبل الذكر جائز لأنه بعده حكماً كقوله " في بيته يؤتى الحكم " وعن الحسن : لا أدري ثمانية أشخاص أو ثمانية آلاف أو ثمانية صفوف . وعن الضحاك : ثمانية صفوف ولا يعلم عددهم إلا الله .

(178/780)

قال المفسرون : الحمل على الأشخاص أولى لأن هذا أقل ما يصدق اللفظ عليه والزائد لا دليل له ، وكيف لا والمقام مقام تهويل وتعظيم ؟ فلو كان المراد ثمانية آلاف لوجب ذكره ليزداد التعظيم والتهويل ويؤيده ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى " وروي " ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون يسبحون " وقيل : بعضهم على صورة الإنسان ، وبعضهم على صورة الأسد ، وبعضهم على صورة الثور ، وبعضهم على صورة النسر ،

وروي " ثمانية أملاك في خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً " وعن شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك . ولولا هذه الروايات لجاز أن يكون الثمانية من الروح أو من خلق آخر . قالت المشبهة : لو لم يكن الله على العرش لم يكن لحمله فائدة وأكدوا شبهتهم بقوله ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ للمحاسبة والمساءلة فلو لم يكن الإله حاضراً لم يكن للعرض معنى . وأجيب بأن الدليل على أن حمل الإله محال ثابت فلا بد من التأويل وهو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه فخلق نفسه بيتاً يزورونه ليس ليسكن فيه ، وجعل في ذلك البيت حجراً هو يمينه في الأرض إذ كان من شأنهم أن يعظموا رؤساءهم بتقبيل أيمانهم ، وجعل على العباد حفظة لا لأن النسيان يجوز عليه بل لأنه المتعارف . فكذلك لما كان من شأن الملك إذا أراد محاسبة عماله أن يجلس لهم على سرير ويقف الأعوان حواليه صور الله تعالى تلك الصورة المهيبة لا لأنّه يقعد على السرير . روي أن في القيامة ثلاث عرضات . فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب . قوله ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ أي تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلاً وقيل : أراد لا يخفى منكم يوم القيامة ما كان مخفياً في

الدنيا على غير الله وذلك ليتكامل سرور المؤمنين ويعظم توبيخ المذنبين . ثم أخذ في تفصيل عرض الكتب . " وهاء " صوت بصوت به فيفهم منه " خذ " وله لغات واستعمالات مذكورة في اللغة منها ما ورد به الكتاب الكريم وهو " هاء " مثل باع للواحد المذكور " وهاؤما " بضم الهمزة وإلحاق الميم بعدها ألف للتثنية ﴿ هاؤم ﴾ بضم الهمة بعده ميم ساكنة لجمع المذكر . " هاء " بالكسر للمؤنثة " هاؤن " لجمعها ﴿ كتابيه ﴾ مفعول ﴿ هاؤم ﴾ عند الكوفيين و ﴿ اقرؤا ﴾ عند البصريين لأنه أقرب أصله هاؤم كتابي اقرأوا كتابي فحذف لدلالة الثاني عليه . قال البصريون : ولو كان العامل الأول لقيل اقرأه إذ المختار إضمار المفعول ليكون دليلاً على المحذوف .

وأجاب الكوفيون بأن الظاهر قد أغنى عن الضمير كما في قوله ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] والهاء في ﴿ كتابيه ﴾ وغيره هاء السكت ومن ههنا تثبت في الوقف وتسقط في الوصل لكنه استحب التلفظ بها في الوصل عند جماعة اتباعاً لوجودها في المصحف ، وإنما قال ﴿ من أوتي كتابه ﴾ ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ ابتهاجاً وفرحاً . وقيل : يقول ذلك لأهل بيته وقرابته .

وفي قوله ﴿ إني ظننت ﴾ وجوه كما مر في قوله ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ [البقرة : 46] ومما يختص بالمقام قول بعضهم أنه أراد الن في الدنيا لأن أهل الدنيا لا يوقنون بنيل الدرجات ، وفي هذا الوجه نظر لأنهم كانوا غير قاطعين بالجنة إلا أنهم يجب أن يقطعوا بالحساب الجزاء . وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال " إن الرجل يؤتى به يوم القيامة ويؤتى بكتابه فتكتب حسناته في ظهر كفه وتكتب سيئاته في بطن فينظر إلى سيئاته فيحزن فيقال له : اقلب كفك فيرى حسناته فيفرح ثم يقول ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت ﴾ " عند النظر الأولى ﴿ أني ملاق حسابيه ﴾ على سبيل الشدة ، وأما الآن فقد فرج الله عني ذلك الغم ، وأما في حق الأشقياء فيكون ذلك على الضد مما ذكرنا . ثم بين عاقبة أمره قائلاً ﴿ فهو في عيشة ﴾ فعلة من العيش للنوع ﴿ راضية ﴾ منسوبة إلى الرضا كالدارع والنابل للمنسوب إلى الدرع والنبل ، وهذا من النسبة بالصيغة كما أن قولك " بصري " أو " هاشمي " من النسبة بالحروف ، ويجوز أن يكون من الإسناد المجازي كقولك " نهاره صائم " جعل الصوم للنهار وهو لصاحبه كذلك ههنا جعل الرضا للعيشة وهو لصاحبها ﴿ في جنة عالية ﴾ درجاتها لأنها فوق السموات على تفاوت الطبقات أو في جنة رفعية المباني والقصور والأشجار ﴿ قطوفها دانية ﴾ ثمارها قريبة التناول . والقطوف جمع قطف بالكسر وهو المقطوف كالطحن بمعنى المطحون . يروى أن ثمارها

يقرب تناولها للقائم والجالس والمضطجع وإن أحب أن تدنو دنت ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول و ﴿ هنيئاً ﴾ مصدر أو صفة كما مر في " الطور " جمع الخطاب في ﴿ كلوا ﴾ مع أنه وحد الضمير في قوله ﴿ أوتي ﴾ وغيره حملاً على لفظ من ثم على معناه . والغرض من هذا الأمر التوقير والعرض لا التكليف . ومن قال بالإباحة ليس بتكليف فلا إشكال .

وقوله ﴿ بما أسلفتم ﴾ كقوله في " الطور " ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ [الآية : 19]

والإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو

(181/780)

أن يعود عليك بخير فهو كالافتراض ومنه يقال " أسلف في كذا " إذا قدم فيه ماله . والمعنى بسبب ما عملتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية . وعن مجاهد والكلبي : هي أيام الصيام فيكون الأكل والشرب في الجنة بدل الإمساك عنهما في الدنيا . ثم أخذ في قصة الأشقياء .

(182/780)

وإنما تمنى أنه لم يدر أي شيء حسابه لأنه عليه لا يعود منه إليه سوى الضر . والضمير في ﴿ يا ليتها ﴾ عائد إلى الموتة الأولى يدل عليها سياق الكلام . ولعل في قوله ﴿ ولم أدر ﴾ إشارة إليها لأنها حالة العدم المستلزمة لعدم الإدراك أي الموتة التي متها يا ليتها ﴿ كانت القاضية ﴾ لأمري أو للحياة فلم أبعث بعدها . وقيل : هاء الضمير للحال أي ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليّ . قال القفال : تمنى الموت حين رأى من الخجل وسوى المنقلب ما هو أشد وأشنع من الموت . قوله ﴿ ما أغني ﴾ نفي . ويجوز أن يكون استفهاماً على سبيل الإنكار ومعناه أي شيء أغنى ﴿ عني ﴾ ما كان لي من اليسار فإنه لم يبق منه إلا الوبال ﴿ هلك عني ﴾ تسلطي على الناس وزال عني ما كنت أتصوره حجة وبرهاناً . قال ابن عباس : ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها على محمد في الدنيا . وقال مقاتل : إنما يقول هذا حين شهدت عليه الجوارح بالشرك . يحكى عن عضد الدولة أنه قال قصيدة مطلعها هذا البيت :

ليس شرب الكاس إلا في المطر . . . وغناء من جوار في السحر

غانيات سالبات للنهى . . . ناعمات في تضاعيف الوتر

مبرزات الكأس من مطلعها . . . ساقيات الراح من فاق البشر عضد الدولة وابن ركنها

ملك الأملاك غلاب القدر . . . يروى بضم القاف جمع القدرة وبفتحها وهو ما قدر الله على عباده وقضى . ولا ريب أن المصراع الأخير فيه سوء الأدب والجراءة على الله من وجهين : أحدهما أنه سمى نفسه ملك الأملاك ولا يصلح هذا الاسم إلا لله سبحانه ولهذا جاء في الحديث " أفظع الأسماء عند الله رجل تسمى ملك الأملاك " ويقال لها بالفارسية شاهنشاه والثاني أنه زعم الغلبة على القدر وهذا أيضاً من أوصاف الله جل وعلا لا يصلح لغيره . وإن زعم أنه قال ذلك بالنسبة إلى ملوك دونه فذلك قيد لا يدل عليه الإطلاق فسوء الأدب باقٍ فمن ههنا روي أن الله تعالى ابتلاه عقيب ذلك بالجهل وفساد الذهن وخور القوى ، وكان لا ينطلق لسانه إلا بتلاوة ﴿ ما أغني عني ماليه هلك عني سلطانيه ﴾ ﴿ خذوه ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم خذوه أيها الخزنة يروى أنهم مائة ألف ملك تجمع يده إلى عنقه . والتصلية في الجحيم وفي النار العظمى ، إشارة إلى أنه كان سلطاناً يتعظم على الناس . والسلسلة حق منتظمة كل حلقة منها في حلقة . وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل . والذرع في اللغة التقدير بالذراع من اليد .

وقوله ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ يجوز أن يكون محمولاً على الظاهر وأن يراد المبالغة على عادة العرب . وتقديم الجحيم على التصلية والسلسلة على السلك للحصر أي لا تصلوه إلا في الجحيم ولا تسلكوه إلا في هذه السلسلة الطويلة لأنها إذا طالت كانت الكلفة أشد .

قالوا : كل ذراع سبعون باعاً أبعد مما بين مكة والكوفة . قال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هو قال ابن عباس : تدخل السلسة في دبره وتخرج من حلقه ثم يجمع بين ناصيته وقدميه قال الكلبي : كما يسلك الخيط في اللؤلؤ يجعل في عنقه سلوكها . عن بعضهم أن جمعاً من الكفار يقرن في هذه السلسلة الطويلة ليكون العذاب عليهم أشد وإنما لم يقل فاسلكوا السلسلة فيه لأنه أراد أن السلسلة تكون ملتفة على جسده بحيث لا يقدر على حركة . وقيل : هو كقولهم " أدخلت القلنسوة في رأسي " او " الخاتم في أصبعي " . ومعنى " ثم " التراخي في الرتبة . ثم ذكر سبب هذا الوعيد الشديد وهو عدم الإيمان بالله العظيم وعدم بذل المال للمساكين ولعل الأول إشارة إلى فساد القوة النظرية ، والثاني إلى فساد القوة العملية . قال جار الله : وعطف حرمان المساكين على الكفر تغليظ ، وفي ذكر الحض دون الفعل تغليظ دون تغليظ ليعلم أن ترك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ؟ وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلا نخلع نصفها الآخر إلا بالإطعام . والطعام اسم بمعنى الإطعام كالعطاء اسم بمعنى الإعطاء . وفي الآية دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع . والحميم القريب النافع وقوله

﴿ ههنا ﴾ إشارة إلى مكان عذابهم أو إلى مقام الوصول إلى هذا الحد من العذاب . يروى أن ابن عباس سئل عن الغسلين فقال : لا أدري . وقال الكلبي : هو ما يسال من أهل النار . فغسلين من الغسالة والطعام ما يهيأ للأكل . ويجوز أن يكون إطلاق الطعام عليه من باب التهكم أو مثل عقابك السيف . قال ابن عباس : الخاطئون في الآية هم المشركون . ثم عظم شأن القرآن بالإقسام بكل الأشياء لأنها إما مصبر أو غير مبصر . وقيل : الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجن والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة . والأكثرون على أن الرسول الكريم ههنا هو محمد صلى الله عليه

(185/780)

وسلم لأنه ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن ، والقوم ما كانوا يصفون جبرائيل بالعشر والكهانة وإنما يصفون محمداً صلى الله عليه وسلم وأما في سورة التكوير فالأكثرون على أنه جبرائيل عليه السلام لأن الأوصاف التي بعده تناسبه كما يجيء . وفي ذكر الرسول إشارة إلى أن هذا القرآن ليس قوله من تلقاء نفسه وإنما هو قول المؤدي عن الله بطريق الرسالة ، وهكذا لو كان المراد جبرائيل . وفي وصفه بالكرم إشارة إلى أمانته وأنه ليس ممن يغير الرسالة طمعاً في أغراض الدنيا الخسيسة . وأيضاً من كرمه أنه أتى بأفضل أنواع المزايا

والعطايا وهو المعرفة والإرشاد والهداية . وإنما قال عند نفي الشعر عنه ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ وعند نفي الكهانة ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ لأن انتفاء الشعرية عن القرآن أمر كالبين المحسوس .

(186/780)

أما من حيث اللفظ فظاهر لأن الشعر كلام موزون مقفى وألفاظ القرآن ليست كذلك إلا ما هو في غاية الندرة بطريق الاتفاق من غير تعمد ، وأما من جهة التخيل فلأن القرآن فيه أصول كل المعارف والحقائق البراهين والدلائل المفيدة للتصديق إذا كان المكلف ممن يصدق ولا يعاند . وانتفاء الكهانة عنه أمر يفتقر إلى أدنى تأمل يوقف . على أن كلام الكهان أسجاع لا معاني تحتها وأوضاع تنبو الطباع عنها . وأيضاً في القرآن سب الشياطين وذم سيرتهم والكهان إخوان الشياطين فكيف رضوا بإظهار قبائحهم . ثم صرح بالمقصود فقال ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هو تنزيل ثم بين أن المفتري لا يفلح وإن فرض أنه نبي فقال ﴿ ولو تقول ﴾ وهو تكلف القول من غير أن يكون له حقيقة و ﴿ الأقاويل ﴾ جمع أقوال . وقال جار الله : في اللفظ تصغير وتحقير كالأعاجيب والأضاحيك كأنه جمع " أفعولة " من القول . ومعنى الآية لو نسب إلينا قولاً لم نقله لقتلناه أشنع قتل وهو أن يؤخذ

بيمينه وتضرب رقبته وهو ينظر إلى السيف ، وهذه فائدة تخصيص اليمين لأن القتال إذا أخذ بيسار المقتول وقع الضرب في قفاه . ومعنى ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ لأخذنا بيمينه ، وكذا قوله ﴿ لقطعنا منه الوتين ﴾ لقطعنا وتينه وهذا تفسير منقول عن الحسن البصري . والوتين العرق المتصل من القلب بالرأس فإذا انقطع مات الحيوان : قال ابن قتيبة : لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لأمتناه كما يفعل الملوك فكان كمن أخذ بيمينه فقطع وتينه ونظيره " ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان اقطع أبهري " . والأبهر عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال : هذا أوان يقتلني السم . وعن الفراء والمبرد والزجاج أن اليمين القوة وقوة كل شيء في ميامنه والباء زائدة ومعنى الأخذ السلب أي سلبنا عنه القدرة على التكلم بذلك القول وهذا كالواجب في حكمة الله تعالى كيلا يشتبه الصادق بالكاذب وقال مقاتل : اليمين الحق كقوله ﴿ إنكم كنتم

(187/780)

تأتوننا عن اليمين ﴾ [الصافات : 28] أي من قبل الحق . والمعنى منعناه بواسطة إقامة الحجة وقضينا له من يعارضه فيه فيظهر للناس كذبه ﴿ فما منكم من أحد عنه ﴾ أي عن الرسول أو عن القتل ، والخطاب للناس وأحد في معنى الجمع لأنه في سياق النفي فلذلك

قال ﴿ حاجزين ﴾ أي مانعين . وحين بين أن القرآن تنزيل من عند الله بواسطة جبرائيل على محمد الذي صفته أنه ليس بشاعر ولا كذاب ، بين أن القرآن ما هو وإلى أي صنف يعود نفعه فقال ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ ثم أوعد على التكذيب . قائلاً ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ ثم بين أن تكذيب القرآن سبب حسرة الكافرين في القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين أو في الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين ، لأن القرآن حق اليقين أي حق يقين لا ريب فيه ، فأضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد كقوله " هو حق العالم " . ثم أمر بالتسبيح شكراً له على الإيحاء إليه ، أو على أن عصمه من الافتراء عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 344 . 353 ﴾

(188/780)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحاقة

مكية وهي اثنان وخمسون آية وألف وأربعة وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم العالمين جوده

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل وده بالوقوف عند حدوده . وقوله تعالى:

﴿ الحاقة ﴾ مبتدأ وقوله تعالى:

﴿ ما الحاقة ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر الأول ، والأصل الحاقة ما هي ، أي : أي شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها . والحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها ، أو التي فيها حواق الأمور من البعث والحساب والثواب والعقاب ، أو التي تحق فيها الأمور ، أي : تعرف على الحقيقة من قولك : لا أحق هذا ، أي : لا أعرف حقيقته ، جعل الفعل لها وهو لأهلها ، وقيل : سميت القيامة بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة ولأقوام النار . وقوله تعالى:

﴿ وما أدراك ﴾ أي : أيّ شيء أعلمك ﴿ ما الحاقة ﴾ زيادة تعظيم لشأنها ، فما الأولى مبتدأ وما بعدها خبره ، وما الثانية خبرها في محل المفعول الثاني لأدري يعني : إنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها على أنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية أحد ولا وهمه ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالماً بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها ، فقيل له ذلك تفخيماً لشأنها ، كأنك لست تعلمها إذ لم تعاينها . وقال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد دراه وعلمه ، وكل شيء قال : ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه مما لم يعلمه . وقال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه : ﴿ وما أدراك ﴾ فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه : ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه لم يخبر به ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بالإمالة ، وورش بين اللفظين ، والباقون بالفتح .

ولما ذكر الساعة وفخمها أتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم فقال تعالى : ﴿كذبت ثمود﴾ قدمهم لأن بلادهم أقرب إلى قريش وواعظ القرب أكبر وإهلاكهم بالصيحة وهي أشبه بصيحة النفخ في الصورة المبعثرة لما في القبور ﴿وعاد بالقارعة﴾ أي : القيامة سميت بذلك لأنها تقرع قلوب العباد بالمحاقة أو لأنها تقرع الناس بأهوالها يقال : أصابتهم قوارع الدهر ، أي : أهواله وشدائده . وقوارع القرآن : الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الإنس أو الجن نحو : آية الكرسي ، كأنه يقرع الشيطان بها . وقال المبرَّد : القارعة مأخوذة من القرعة من رفع قوم وحط آخرين وقوارع القيامة انفطار السماء بانشقاقها ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار ، ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها ، وقيل : عنى بالقارعة العذاب الذي نزل بهم في الدنيا ، وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه .

وثمود قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز ، قال ابن إسحاق : وهو وادي القرى وكانوا عرباً ، وأما عاد فقوم هود وكانت منازلهم بالأحقاف رمل بين عمان إلى

حضرموت واليمن كله وكانوا عرباً ذوي بسطة في الخلق .

﴿ فأمّا ثمود فأهلكوا ﴾ أي : بأيسر أمر من أوامرنا ﴿ بالطاغية ﴾ أي : الواقعة التي جاوزت الحدّ في الشدة فرجفت منها القلوب ، واختلف فيها فقيل : الرجفة ، وعن ابن عباس : الصاعقة ، وعن قتادة : بعث الله تعالى عليهم صيحة فأهمدتهم . وقال مجاهد : بالذنوب ، وقال الحسن : بالطغيان فهو مصدر كالكاذبة والعاقبة ، أي : أهلكوا بطغيانهم وكفرهم قال الزمخشري : وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله تعالى : ﴿ بريح صرصر ﴾ لكن قال ابن عادل : ويوضحه ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ (الشمس :) أهلكوا بها ولأجلها . قال : والباء سببية على الأقوال كلها إلا على قول قتادة ، فإنها فيه للاستعانة كعملت بالقدّوم .

(190/780)

﴿ وأمّا عاد فأهلكوا ﴾ أي : بأشق ما يكون عليهم وبأيسر ما يكون علينا ﴿ بريح صرصر ﴾ أي : شديدة الصوت لها صرصرة ، وقيل : هي الباردة من الصرّ كأنها التي كرر فيها البرد وكثر ، فهي تحرق بشدة بردها . وقال مجاهد : هي الشديدة السموم ﴿ عاتية ﴾ أي : مجاوزة للحدّ في شدة عصفها ، والعتو استعارة ، أو عتت على عاد فما

قدروا على ردها بحيلة ، من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء في حفرة ، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكم ، وقيل : عتت على خزانها فخرجت بلا كيل ولا وزن ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما أرسل الله تعالى سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال ، إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ (الحاقة :)

وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ : ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ . ﴿ سخرها ﴾ أرسلها ﴿ عليهم ﴾ وقال مقاتل رضي الله عنه : سلطها عليهم ﴿ سبع ليال ﴾ أي : لا تفتر فيها الريح لحظة ﴿ وثمانية أيام ﴾ كذلك . قال وهب : هي الأيام التي تسميها العرب العجوز ذات برد وريح شديدة قيل : سميت عجوزاً لأنها في عجز الشتاء ، وقيل : سميت بذلك لأنّ عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب ﴿ حسوماً ﴾ قال مجاهد وقتادة رضي الله عنهما : متتابعة ليس فيها فترة ، فعلى هذا هو من حسم الكي ، وهو أن يتابع على موضع الداء المكواة حتى يبرأ ، ثم قيل لكل شيء يقطع : حاسم وجمعه حسوم مثل شاهد وشهود . وقال الكلبي : حسوماً دائماً ، وقال النضر بن شميل : حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم ، والحسم القطع والمنع ومنه : حسم الداء ، وقال عطية : حسوماً شؤماً كأنها حسمت الخير عن أهلها .

تنبيه : في إعراب حسوماً أوجه : أحدها : أن ينتصب نعتاً لما قبله . ثانيها : أن ينتصب على الحال ، أي : ذات حسوم . ثالثها : أن ينتصب على المصدر بفعل من لفظها ، أي : تحسمهم حسوماً .

واختلفوا في أولها فقال السدي : غداة يوم الأحد ، وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه : غداة يوم الجمعة ، وقال يحيى بن سلام ووهب بن منبه رضي الله عنهم : غداة يوم الأربعاء وهو اليوم النحس المستمر قيل : كان آخر أربعاء في السنة وآخرها يوم الأربعاء . وقال البقاعي : وهي من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوال غروب الأربعاء الآخر وهو آخر الشهر وقد لزم من زيادة عدد الأيام أن الابتداء كان بها قطعاً وإلا لم تكن الليالي سبعاً فتأمل ذلك ا .ه. وهو ظاهر .

ولما كان الحاسم المهلك تسبب عنه قوله تعالى مصوراً لحالهم الماضية : ﴿ فترى القوم ﴾ أي : الذين هم غاية في القدرة على ما يحاولونه ﴿ فيها ﴾ أي : تلك المدة من الأيام والليالي لم يتأخر أحد منهم عنهم ﴿ صرعى ﴾ أي : مجندلين على الأرض موتى جمع صريع وهي حال نحو قتيل وقتلى وجريح وجرحى ، والضمير فيها للأيام والليالي كما مر أو للبيوت أو

للريح قال ابن عادل : والأول أظهر لقربه .

﴿ كأنهم أعجاز ﴾ أي : أصول ﴿ نخل ﴾ قد شاخت وهرمت فهي في غاية العجز ﴿ خاوية ﴾ أي : متأكلة الأجواف ساقطة من خوى النجم إذا سقط للغروب ، ومن خوى المنزل إذا خلا من قطّانه . قالوا : كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم ، والوصف بذلك لعظم أجسامهم وتقطيع الريح لهم وقطعها لرؤوسهم وخلوهم من الحياة وتسويدها لهم .

(192/780)

﴿ فهل ترى ﴾ أي : أيها المخاطب الخبير بالناس في جميع الأقطار ﴿ لهم ﴾ أي : خصوصاً . وأغرق في النفي وعبر بالمصدر الملحق بالهاء مبالغة فقال تعالى : ﴿ من باقية ﴾ فيكون المراد بالباقية البقاء كالطاغية بمعنى الطغيان ، أي : من باق ، والأحسن أن تكون صفة لفرقة أو لطائفة أو نفس أو بقية أو نحو ذلك . وقيل : فاعلة بمعنى المصدر كالعافية والباقية . قال المفسرون : والمعنى هل ترى لهم أحداً باقياً ، قال ابن جريج : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله تعالى من الريح ، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ . وقوله

تعالى : ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ (الأحقاف :)

. ونجى الله تعالى صالحاً عليه السلام ومن آمن به من بين ثمود ولم تضرّهم الصاعقة ، وهوداً عليه السلام ومن آمن به من عاد ولم يهلك منهم أحد ، فدل ذلك دلالة واضحة على أن له تعالى تمام العلم بالجزئيات ، كما أن له تمام الإحاطة بالكليات وعلى قدرته واختياره وحكمته ، فلا يجعل المسلم كالمجرم ولا المسيء كالمحسن ، وجواب هل لم يبق منهم أحد .

﴿ وجاء فرعون ﴾ أي : الذي ملكناه طائفة من الأرض وتجبر وادعى الإلهية ناسياً نعمتنا وقدرتنا . وقوله تعالى : ﴿ ومن قبله ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء الموحدة ، أي : ومن عنده من أتباعه ، وقرأه الباقون بفتح القاف وسكون الباء الموحدة على أنه ظرف ، أي : ومن تقدمه من الأمم الكافرة ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي : أهلكها وهي قرى قوم لوط ، أي : المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلها لما حصل لأهلها من الانقلاب ﴿ بالخاطئة ﴾ ، أي : بالفعلات ذات الخطأ الذي يتخطى منها إلى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق .

(193/780)

ولما كانت الرسل كالفرد الواحد لاتفاقهم وتعاضدهم في الدعاء إلى الله تعالى والحمل على طاعته قال مسبباً عن مجيئهم بذلك موحداً في اللفظ ما هو صالح لكثير بإرادة الجنس : ﴿ فعصوا ﴾ أي : خالفوا ﴿ رسول ربهم ﴾ أي : خالفت كل أمة من أرسله المحسن إليها بإبداعها من العدم وإبداعها القوى وترزيقها وبعث رسولها لإرشادها اغتراراً بإحسانه ، ولم يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع لأنه الضار كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز فصل أحد الاسمين عن الآخر ، وسبب عن العصيان قوله تعالى : ﴿ فأخذهم ﴾ أي : ربهم ، أخذ قهر وغضب ﴿ أخذة ﴾ لم تبق من أمة منهم أحداً ممن كذب الرسول فلم يكن كمن ينصر على عدو من المؤمنين لابدّ أن يفوته كثير منهم وإن اجتهد في الطلب ، وما ذاك إلا لتمام علمه سبحانه بالجزئيات والكليات وشمول قدرته وتلك الأخذة مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة جعلها سبحانه ﴿ رابية ﴾ أي : عالية عليهم زائدة في الشدة على غيرها وعلى عذاب الأمم ، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد . ومنه : الربا إذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما أعطى ، والمعنى أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار ، كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار ، وقيل لأن عقوبة آل فرعون متعلقة بعذاب الآخرة لقوله تعالى : ﴿ اغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ (نوح :)

وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا فتلك العقوبة كانت كأنها تنمو وتربو .

ثم ذكر تعالى قصة نوح عليه السلام وهي قوله تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : على عظمتنا ﴿ لما طغى الماء ﴾ أي : زاد على الحد حتى علا على أعلى جبل في الأرض بقدر ما يغرق من كان عليه حين أغرقنا قوم نوح عليه السلام به ، فلم يطيقوا ضبطه ولا فوره بوجه من الوجوه . وقال صلى الله عليه وسلم "طغى على خزانه من الملائكة غضباً لربه تعالى فلم يقدروا على حبسه" . قال المفسرون : زاد على كل شيء خمسمائة ذراع وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "طغى الماء زمن نوح عليه السلام على خزانه فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج ، وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم" . والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول . ثم منّ الله عليهم بأن جعلهم ذرية من نجى من الغرق بقوله تعالى : ﴿ حملناكم ﴾ أي : في ظهور آبائكم ﴿ في الجارية ﴾ أي : السفينة التي جعلناها بحكمتنا عريقة في الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذي جعلنا من شأنه الإغراق ، والمحمول في الجارية إنما هو نوح عليه السلام وأولاده وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك ، والجارية من أسماء السفينة ومنه قوله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر

كالأعلام ﴾ (الرحمن :)

وغلب استعمال الجارية في السفينة كقولهم في بعض الألغاز:

*رأيت جارية في بطن جارية ** في بطنها رجل في بطنها جمل*

(195/780)

ونوح عليه السلام أول من صنع السفينة ، وإنما صنعها بوحي من الله تعالى وبحفظه له قال : اجعلها كهيئة صدر الطائر ليكون ما يجري في الماء مقارباً لما يجري في الهواء وأغرقنا سوى من كان في تلك السفينة من جميع أهل الأرض من آدمي وغيره ﴿ لنجعلها ﴾ أي : هذه الفعلة العظيمة وهي إنجاء المؤمنين بحيث لا يهلك منهم بهذا العذاب أحد ، وإهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد ، وكذا السفينة التي حملنا فيها نوحاً عليه السلام ومن معه ﴿ لكم ﴾ أيها الناس ﴿ تذكرة ﴾ أي : عبرة ودلالة على قدرته تعالى وعظمته ورحمته وقهره فيقودكم ذلك إليه وتقبلوا بقلوبكم عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وتعيها ﴾ عطف منصوب على لنجعلها ، أي : ولتحفظ قصة السفينة وغيرها مما تقدم حفظاً ثابتاً مستقراً كأنه محوي في وعاء ﴿ أذن ﴾ أي : عظيمة النفع ﴿ واعية ﴾ أي : من شأنها أن تحفظ ما ينبغي حفظه من الأقوال والأفعال الإلهية

والأسرار الربانية لنفع عباد الله تعالى كما كان نوح عليه السلام ومن معه وهم قليل سبباً لإدامة النسل والبركة فيه حتى امتلأت منه الأرض ، والوعي : الحفظ في النفس ، والإيعاء : الحفظ في الوعاء .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل : أذن واعية على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت عقلت عن الله تعالى فهو السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملؤوا ما بين الخافقين ا . هـ . وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها .

(196/780)

ولما ذكر تعالى القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع سبحانه وتعالى في تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها بقوله تعالى : ﴿ فإذا نفخ ﴾ وبنى الفعل للمجهول دلالة على هوان ذلك عليه وأن ما يتأثر عنه لا يتوقف على نافخ معين بل من أقامه لذلك من جنده تأثر عنه ما يريده ﴿ في الصور ﴾ أي : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال البقاعي : كأنه عبر عنه به دون القرن مثلاً ؛ لأنه يتأثر عنه تارة إعدام الصورة ، وتارة إيجادها وردها إلى أشكالها وسعته كما بين السماء والأرض ﴿ نفخة واحدة ﴾ للفصل

بين الخلائق .

قال الزمخشري : فإن قلت : هما نفختان ، فلم قيل : واحدة ؟ قلت : معناه أنها لا تثنى في وقتها . ثم قال : فإن قلت : فأي النفختين هي ؟ قلت : الأولى لأن عندها فساد العالم ، وهكذا الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد روي عنه أنها الثانية ا .ه .

قال البقاعي : وظاهر السياق أنها الثانية التي بها البعث وخراب ما ذكر بعد قيامهم أنسب لأنه أهيب وكونها الثانية إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما ا .ه . واقتصر البيضاوي على أنها الأولى والجلال المحلي على أنها الثانية وهو الأنسب كما قاله البقاعي .

ثم إن الزمخشري سأل سؤالاً على أنها النفخة الأولى بقوله : فإن قلت : أما قال بعد : ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ والعرض إنما هو عند النفخة الثانية ، قلت : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان ، والصعقة والنشور والوقوف للحساب ، فلذلك قيل : ﴿ يومئذ تعرضون ﴾ كما تقول : جئتك عام كذا ، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته ا .ه .

(197/780)

ولما ذكر التأثير في الأحياء أتبعه التأثير في الجمادات وبدأ منها بالسفليات لملابستها للإنسان فتكون عبرته بها أكثر ، فقال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أي : التي بها ثباتها حملتهما الريح أو الملائكة أو القدرة من أماكنهما ﴿ فدكتا ﴾ أي : مسحت الجملتان الأرض وأوتادها وبسطت ودق بعضها ببعض ﴿ دكة واحدة ﴾ أي : فصارتا كثيباً مهيلاً بأيسر أمر ، فلم يميز شيء منهما عن الآخر بل صارتا في غاية الاستواء ، ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره ، وقال الفراء : لم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والأرض كالجملة الواحدة ، ومثله ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ (الأنبياء :)

ولم يقل كن وهذا الدك كالزلزلة لقوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ (الزلزلة :)

وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ ﴾ منصوب بوقعت وقوله تعالى : ﴿ وقعت الواقعة ﴾ لابد فيه من تأويل ، وهو أن تكون الواقعة صارت علماً بالغلبة على القيامة أو الواقعة العظيمة وإلا فقام القائم لا يجوز إذ لا فائدة فيه ، والتنوين في يومئذ للعوض من الجملة تقديره : يوم إذ نفخ في الصور ، ونوع تعالى أسماء القيامة بالحاقة والواقعة والقارعة تهويلاً لها .

ولما ذكر تأثير العالم السفلي ذكر العلوي بقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء ﴾ أي : ذلك الجنس لشدة هول ذلك اليوم ، أي : انصدعت وتفطرت ، وقيل : انشقت لنزول الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ (الفرقان :)

. ﴿ فهي يومئذ واهية ﴾ أي : ضعيفة متساقطة خفيفة لا تتماسك كالعهن المنفوش بعد ما كانت محكمة يقال : وهي البناء يهي وهياً فهو واه إذا ضعف جداً ويقال : كلام واه ، أي : ضعيف وقيل : واهية ، أي : متخرّقة مأخوذ من قولهم : وهى السقاء إذا تخرّق ومن أمثالهم:

*خل سبيل من وهى سقاؤه ** ومن هريق بالفلاة ماؤه*

(198/780)

أي : من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه ، وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بكسرها ﴿ والملك ﴾ أي : هذا النوع ﴿ على أرجائها ﴾ أي : نواحي السماء وأطرافها وحواشي ما لم ينشق منها قال الضحاك : يكونون بها حتى يأمرهم الله تعالى فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : المعنى والملك على حافات الدنيا ، أي : ينزلون إلى الأرض ويحرسون أطرافها ، وقيل : إذا صارت السماء قطعاً تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها ، والأرجاء في اللغة : النواحي والأقطار بلغة هذيل واحدها رجا مقصور وتثنيته رجوان ، مثل عصا وعصوان قال القائل:

*فلا ترمي بي الرجوان إني **أقل القوم من يعني مكاني*

قال ابن عادل : ورجا هنا يكتب بالألف عكس رحى لأنه من ذوات الواو .

فإن قيل : الملائكة يموتون في الصعقة الأولى لقوله تعالى : ﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ (الزمر :)

. فكيف يقال لهم : إنهم يقفون على أرجاء السماء ؟

أجيب : من وجهين : الأول : إنهم يقفون لحظة على أرجاء السماء ثم يموتون ، والثاني : المراد الذين استثنوا في قوله تعالى : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ (الزمر :)

. وقيل : إن الناس إذا رأوا جهنم هالهم أمرها فيندّوا كما تندو الإبل فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا رأوا الملائكة فيرجعوا من حيث جاؤوا . وقيل : على أرجائها ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النار من السوق إليها . وفي أهل الجنة من التحية والكرامة ، وهذا كله يرجع إلى قول ابن جبير رضي الله عنه ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ (الفرقان :)

قال الزمخشري : فإن قلت ما الفرق بين قوله : ﴿ والملك ﴾ وبين أن يقال : والملائكة ؟ قلت : الملك أعمّ من الملائكة ألا ترى أنّ قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد أعمّ من قولك : ما من ملائكة ا .ه . قال أبو حيان : ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لأن المفرد المحلى بالألف واللام قصاراه أن يكون مراداً به الجمع المحلى ولذلك صح الاستثناء منه ، ثم قال : ولأن قوله : ﴿ على أرجائها ﴾ يدل على الجمع ، لأن الواحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد بل في أوقات ، والمراد والله أعلم أن الملائكة على أرجائها لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات .

ولما كان الملك يظهر في يوم العرض سرير ملكه ومحل عزه قال تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك ﴾ أي : المحسن إليك بكل ما تريد لا سيما في ذلك اليوم بما يقع من رفعتك على سائر الخلق ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ فوقهم يومئذ ﴾ أي : في يوم وقعت الواقعة يجوز أن يعود على الملك لأنه بمعنى الجمع كما تقدم ، وأن يعود على الحاملين في قوله تعالى : ﴿ ثمانية ﴾ ، وقيل : يعود على جميع العالم ، أي : إن الملائكة تحمل عرش الله تعالى فوق العالم كله .

واختلف في هذه الثمانية فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك ، وعن الحسن رضي الله عنه : الله أعلم كم هم أثمانية أم ثمانية آلاف أم ثمانية صفوف ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدّهم الله تعالى بأربعة أخرى

فكانوا ثمانية على صورة الأوعال" . وفي رواية : ثمانية أوعال من أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء ، وفي حديث آخر : "لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس" .

فإن قيل : إذا لم يكن فيهم صورة الوعل فكيف سموا أوعالاً ؟

(200/780)

أجيب : بأن وجه الثور إذا كانت له قرون أشبه الوعل . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش : إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام" . أخرجه أبو داود بإسناد صحيح ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : حملة العرش ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن كعبه إلى ركبته خمسمائة ، ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : الذين يحملون العرش ما بين سوق أحدهم إلى مؤخر عينه خمسمائة عام . وفي الخبر أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش ، وفي حديث مرفوع أن حملة العرش ثمانية أملاك على صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاماً للطائر المسرع ،

وروي أن أرجلهن في الأرض السابعة ، وإضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت إليه وليس البيت للسكنى فكذلك العرش ليس للجلوس تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، فإنه الخالق للعرش ولحملة العرش ولا تحيط به جهة وهو العلي العظيم .

وعن شهر بن حوشب قال حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهمّ وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك .

ولما بلغ تعالى النهاية في تحذير العباد من يوم التناد وكان لهم حالتان عامة وخاصة ، فالعامة العرض والخاصة التقسيم إلى محسن ومسيء زاده عظماً بقوله تعالى : ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ كان جميع ما تقدم ﴿ تعرضون ﴾ على الله للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للتقريب والإكرام ، والمفسد للإبعاد والتعذيب ، عبر بالعرض عن الحساب الذي هو جزؤه ، والمحسن لا يكون له غير ذلك والمسيء يناقش .

(201/780)

﴿ لا تخفى منكم ﴾ أي : في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية ؛ لأن التأنيث مجازي والباقون بالتاء وهو ظاهر ، ﴿ خافية ﴾ أي : من

السرائر التي كان من حقها أن تخفى في دار الدنيا ، فإنه عالم بكل شيء من أعمالكم .

ونظيرة قوله تعالى : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ (غافر :)

. قال الرازي : والعرض للمبالغة في التهديد يعني تعرضون على من لا تخفى عليه خافية ،

قال القرطبي : هذا هو العرض على الله تعالى ودليله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾

(الكهف :)

وليس ذلك عرضاً ليعلم ما لم يكن عالماً به ، بل ذلك العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة

وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة قال صلى الله عليه وسلم "يعرض الناس يوم القيامة ثلاث

عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في

الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله" .

قال تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ أي : الذي أثبتت فيه أعماله ﴿ فيقول ﴾ لما

رأى من سعادته تبجحاً بحاله وإظهاراً لنعمة ربه ؛ لأن الإنسان مطبوع على أن يظهر ما آتاه

الله تعالى من خير تكميلاً للذته قيل : إنه تكتب سيئاته في باطن صحيفته وحسناته في

ظاهرها فيقرأ الباطن ويقرأ الناس الظاهر ، فإذا أنهاه قيل له : قد غفرها الله تعالى اقلب

الصحيفة ، فحينئذ يكون قوله : ﴿ هاؤم اقرؤوا ﴾ أي : خذوا اقرؤوا ﴿ كتابيه ﴾ يقول

ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح قال الشاعر :

*إذا ما راية رفعت لمجد ** تلقاها عرابة باليمين*

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله شعاع كشعاع الشمس قيل : فأين أبو بكر ؟ قال : هيهات زفته الملائكة إلى الجنة ، وقال ابن زيد : معنى هاؤم : تعالوا ، فيتعدى بإلى . وقال مقاتل : هلمّ ، وقال غيره : خذوا ، ومنه الحديث في الربا "إلا هاء وهاء" ، أي : يقول كل لصاحبه : خذ ، وهذا هو المشهور ، ولذلك فسرت به الآية الكريمة . وقيل : هي كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط ، وفي الحديث "أنه صلى الله عليه وسلم ناداه أعرابي بصوت عال فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم هاؤم بصولة صوته" . وقيل : معناها اقصروا وزعم هؤلاء أنها مركبة من ها التنبيه وأموا أمر من الأمّ وهو القصد فصيّره التخفيف والاستعمال إلى هاؤم ، وقيل : الميم ضمير جماعة الذكور وزعم العتبي أن الهمزة بدل من الكاف ، قال ابن عادل : فإن عنى أنها تحل محلها فصحيح ، وإن عني البدل الصناعي فليس بصحيح .

تنبيه : كتابيه منصوب بهاؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين باقرؤوا لأنه أقرب العاملين ، والأصل : كتابي فأدخل الهاء لتبين صحة الياء والهاء في ﴿كتابيه﴾ و ﴿حسابيه﴾

و ﴿ سلطانيه ﴾ و ﴿ ماليه ﴾ للسكت وكان حقها أن تحذف وصلاً وتثبت وقفاً ، وإنما أجري الوصل مجرى الوقف أو وصل بنية الوقف في كتابيه وحسابيه اتفاقاً ، فأثبت الهاء وكذا في ﴿ ماليه ﴾ (الحاقة :)

و ﴿ سلطانيه ﴾ (الحاقة :)

و ﴿ ماهيه ﴾ (القارعة :)

في القارعة عند القراء كلهم إلا حمزة ، فإنه حذف الهاء من هذه الكلم الثلاثة وصلاً وأثبتها وقفاً ؛ لأنها في الوقف محتاج إليها لتحصين حركة الموقوف عليه ، وفي الوصل مستغنى عنها .

فإن قيل : فلم لم يفعل ذلك في ﴿ كتابيه ﴾ و ﴿ حسابيه ﴾ ؟

أجيب : بأنه جمع بين اللغتين .

(203/780)

﴿ إني ظننت ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : أيقنت وعلمت . وقيل : ظننت بأن يؤاخذني الله بسيئاتي فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني بها . وقال الضحاك : كل ظن من المؤمن في القرآن فهو يقين ومن الكافر فهو شك . وقال مجاهد رضي الله عنه : ظن

الآخرة يقين وظن الدنيا شك . وقال الحسن رضي الله عنه في هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن المنافق أساء بربه الظن فأساء العمل .

﴿ أني ملاق ﴾ ، أي : ثابت لي ثباتاً لا ينفك أني ألقى ﴿ حسابيه ﴾ ، أي : في الآخرة ولم ينكر البعث يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب لأنه تيقن أن الله تعالى يحاسبه فعمل للآخرة فحقق الله تعالى رجاءه وأمن خوفه فعلم الآن أنه لا يناقش الحساب ، وإنما حسابه بالعرض وهو الحساب اليسير فضلاً من الله تعالى ونعمة .

﴿ فهو في عيشة ﴾ أي : حالة من العيش ، وقوله تعالى : ﴿ راضية ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه على النسب ، أي : ذات رضا نحو لابن وتامر لصاحب اللبن والتمر ، أي : ثابت لها الرضا ودائم لها ؛ لأنها في غاية الحسن والكمال ، والعرب لا تعبر عن أكبر السعادات بأكثر من العيشة لراضية بمعنى أن أهلها راضون بها ، والمعتبر في كمال اللذة الرضا .

الثاني : أنه على إظهار جعل العيشة راضية لمحلها وحصولها في مستحقها ، وأنه لو كان للعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها .

الثالث : قال أبو عبيدة والفراء : إن هذا مما جاء فيه فاعل بمعنى : مفعول نحو : ماء دافق بمعنى : مدفوق ، كما جاء مفعول بمعنى : فاعل كما في قوله تعالى : ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ (الإسراى :) ، أي : ساتراً وقال صلى الله عليه وسلم "إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً

ويصحون فلا يمرضون أبداً وينعمون فلا يرون بأساً أبداً ويشبون فلا يهرمون أبداً" . ﴿ في جنة ﴾ أي : بساتين جامعة لجميع ما يراد منها ﴿ عالية ﴾ أي : مرتفعة في المكان والمكانة والأبنية والدرجات والأشجار وكل اعتبار .

(204/780)

وقوله تعالى : ﴿ قطوفها ﴾ جمع كثرة لقطف بالكسر وهو فعل بمعنى مفعول كالذبح وهو ما يجنيه الجاني من الثمار ، وأما القطف بالفتح فالمصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ﴿ دانية ﴾ ، أي : قريبة المأخذ سهلة التناول جداً للراكب والقائم والقاعد والمضطجع كل ذلك على حدّ سواء دائماً من غير انقطاع لا كلفة على أحد في تناوله شيئاً من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إضمار القول ، أي : يقال لهم ذلك وجمع الضمير للمعنى ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ . يتضمن معنى الجمع وهذا أمر امتنان لا أمر تكليف ، ﴿ هنيئاً ﴾ أي : أكلاً طيباً لذيذاً شهياً مع البعد عن كل أذى وسلامة العاقبة بكل اعتبار ولا فضلة هناك من بول ولا غائط ولا بصاق ولا مخاط ولا قرف ولا وهن ولا صداع ولا ثقل ، والباء في قوله تعالى : ﴿ بما أسلفتم ﴾ سببية وما مصدرية أو

اسمية ، أي : بما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿ في الأيام الخالية ﴾ أي : الماضية في الدنيا التي انقضت وذهبت واسترحتم من تعبها وعن مجاهد رضي الله عنه : أيام الصيام ، أي : كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى . وروي : يقول الله تعالى : يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم ، وخمصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية .

(205/780)

ولما كانت العادة جارية بأن أهل العرض ينقسمون إلى مقبول ومردود وذكر سبحانه المقبول بإدنائه تشويقاً إلى حاله ، وتغبيطاً بعاقبته وحسن حاله أتبعه المردود تنفيراً عن أعماله بما ذكر من قبائح أحواله فقال تعالى : ﴿ وأما من أوتي كتابه ﴾ أي : صحيفة حسابه ﴿ بشماله فيقول ﴾ أي : لما يرى من سوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء حتى لم يشك فيها لما رأى من قبائحه التي قدمها ﴿ يا ليتني ﴾ تمنياً للمحال ﴿ لم أوت ﴾ أي : من أي مؤت ما . ﴿ كتابيه ﴾ أي : هذا الذي ذكرني خبائث أعمالي وعرفني جزاءها .

﴿ ولم ﴾ أي : ويا ليتني لم ﴿ أدر ما ﴾ حقيقة ﴿ حسابيه ﴾ من ذكر العمل وذكر جزائه ،

بل استمريت جاهلاً لذلك كما كنت في الدنيا .

ثم يتمنى الموت ويقول : ﴿ يا ليتها ﴾ أي : الموتة الأولى وإن لم تكن مذكورة إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة ﴿ كانت القاضية ﴾ أي : القاطعة لحياتي بأن لا أبعث بعدها ، ولم ألق ما وصلت إليه . قال قتادة رضي الله عنه : يتمنى الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب منه الموت ، قال الشاعر :

*وشر من الموت الذي إن لقيته ** تمنيت منه الموت والموت أعظم*

والمعنى : يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت علي . وقوله : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ يجوز أن يكون نفياً تأسفاً على فوات ما كان يرجو من نفعه ، والمفعول على هذا التقدير محذوف للتعميم ويجوز أن يكون استفهام توبيخ لنفسه حيث سولت له ما أثر له كل سوء وكل محال ، أي : أيّ شيء أغنى ما كان لي من اليسار الذي منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله تعالى .

﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ أي : ملكي وتسلطي على الناس ، وبقيت فقيراً ذليلاً . وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن هذه الآية نزلت في الأسود بن عبد الأشد ، وعن فنا خسرة الملقب بالعضد ، إنه لما قال:

*عضد الدولة وابن ركنها ** ملك الأملاك غلاب القدر*

لم يفلح بعده وجنّ ، فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضلت عني حجتي ، ومعناه : بطلت حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا ، وذكر الضحاك أن الآية الأولى في أخي الأسود عبد الله بن عبد الأسد المخزومي .

ولما كان كأنه قيل : هذا ما قال فما يقال له ؟

أجيب : بأنه يقال للزبانية على رؤوس الأشهاد ﴿ خذوه ﴾ أي : أيتها الزبانية الذين كان يستهزئ بهم عند سماع ذكرهم ﴿ فغلوه ﴾ أي : اجمعوا يديه إلى عنقه ورجليه إلى وراء قفاه إلى ناصيته .

﴿ ثم الجحيم ﴾ أي : النار العظمى التي تحجم على من يريد دفاعها ويحجم عنها من رآها ، لأنها في غاية الحمو والتوقد والتغيظ والتشدد ﴿ صلوه ﴾ أي : بالغوا في تصليته إياها وكرروها بغمسة في النار كالشاة المصلية مرة بعد أخرى ؛ لأنه كان يتعاظم على الناس فناسب أن يصلى أعظم النيران ، وعبر أيضاً بأداة التراخي لعلو رتبة مدخولها فقال مؤذناً بعدم الخلاص ، وتقديم المفعول يفيد الاختصاص عند بعضهم ولذلك قال الزمخشري : ثم لا يصلوه إلا الجحيم . قال أبو حيان : وليس ما قاله مذهباً لسيبويه ولا لحذاق النحاة ، اه . لكن كلام النحاة لا يأبى ما قاله .

﴿ ثم في سلسلة ﴾ أي : عظيمة جداً ، وقوله تعالى : ﴿ ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ يحتمل

أن يكون هذا العدد حقيقة وعلى هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك ، فتدخل في دبره وتخرج من منخره ، وقيل : تدخل من فيه وتخرج من دبره . وقال نوف البكالي : سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . وقال الحسن رضي الله عنه : الله أعلم أيّ ذراع هو ، ويحتمل أن يكون مبالغة كما قال تعالى : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ (التوبة :)

يريد مرات كثيرة ؛ لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد .

(207/780)

والذي يدل على هذا ما رواه الترمذي ـ وقال : إسناده حسن ـ عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن رصاصة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها" . وعن كعب رضي الله عنه أنه قال : "لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها" .

أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وجميع المسلمين ، فأشار سبحانه إلى ضيقها على ما تحيط به من بدنه بتعبيره بالسلك فقال تعالى : ﴿ فاسلكوه ﴾ أي : أدخلوه بحيث يكون كأنه السلك ، أي : الحبل الذي يدخل في ثقب الخرزة بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأنه تلف ، قال الزمخشري : والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية ، أي : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم ، ومعنى ثم الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية وما بينهما وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدة ا . ه .

ولما ذكر سبحانه على الإجمال عقابه أتبعه أسبابه فقال تعالى:

﴿ إنه كان ﴾ أي : جبلة وطبعاً وأن أظهر شيئاً يلبس به على الضعفاء ويدلس على الأغبياء ﴿ لا يؤمن ﴾ أي : الآن ولا في مستقبل الزمان ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي يعلم السر وأخفى ﴿ العظيم ﴾ أي : الكامل العظم ، وهذا تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل : ماله يعذب هذا العذاب الشديد ؟

أجيب بذلك وفي قوله تعالى : ﴿ ولا يحض ﴾ أي : يحث ﴿ على ﴾ بذل ﴿ طعام المسكين ﴾ دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين : أحدهما : عطفه على الكفر وجعله قرينة له . والثاني : ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة

فكيف بتارك الفعل ، وما أحسن قول القائل:

*إذا نزل الأضياف كان عذوّرا **على الحيّ حتى تستقل مراجله*

(208/780)

يريد حضهم على القرى واستعجالهم ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الثاني بالطعام . وقيل : هو منع الكفار وقولهم : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ (يس :)

والمعنى على بذل طعام المسكين .

ولما وصفه سبحانه بأقبح العقائد وأشنع الرذائل تسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم ههنا ﴾ أي : في مجمع القيامة كله ﴿ حميم ﴾ أي : صديق خالص يحميه من العذاب ، لأنهم كلهم له أعداء كما أنه كان لا يرق على الضعفاء لما هم فيه من الإقلال من حطام الأموال ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ أي : غسالة أهل النار وصديدهم وقيحهم ، فعلين من الغسل ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أي : أصحاب الخطايا ، من خطئ الرجل : إذا تعمد الذنب وهم المشركون ، لا من الخطأ المضاد للصواب ، وهذا الطعام يغسل ما في بطونهم من

الأعيان والمعاني التي بها قوام صاحبها وهي بمنزلة ما كانوا يشحون من أموالهم التي أبطنوها وادّخروها في خزائنهم واستأثروا بها على الضعفاء .

﴿ فلا أقسم ﴾ أي : لا يقع مني إقسام ﴿ بما تبصرون ﴾ من المخلوقات ﴿ وما لا تبصرون ﴾ منها ، أي : بكل الموجودات واجبها وجائزها ؛ معقولها ومحسوسها ، لأنها لا تخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر ، وقيل : الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة ، لأنّ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إقسام وإن كنت أقسم في غير هذا الموضع بما شئت ، ولو قيل بهذا في الواقعة لكان حسناً ، وقيل : لا زائدة وجرى على ذلك الجلال المحلي .

(209/780)

﴿ إنه ﴾ أي : القرآن ﴿ لقول ﴾ أي : تلاوة ﴿ رسول ﴾ أي : أنا أرسلته به وعني أخذه وليس فيه شيء من تلقاء نفسه إنما هو كله رسالة واضحة جداً أنا شاهد بها بما له من الإعجاز الذي يشهد أنه كلامي ﴿ كريم ﴾ أي : على الله تعالى فهو في غاية الكرم الذي هو البعد من مساوئ الأخلاق بإظهار معاليها لشرف النفس وشرف الآباء وهو محمد صلى الله عليه وسلم وكرم الشيء اجتماع الكمالات فيه اللائقة به . وقيل : هو جبريل عليه

السلام ، قاله الحسن والكلبي رضي الله عنهما لقوله تعالى : ﴿ رسول كريم ذي قوة ﴾ (التكوير : ـ)

واستدل للأول بقوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ أي : يأتي بكلام مقفى موزون بقصد الوزن .

قال مقاتل رضي الله عنه : سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال عقبة : كاهن ، فردّ الله تعالى عليهم بذلك .

فإن قيل : كيف يكون كلاماً لله تعالى ولجبريل عليه السلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم أجيب : بأن الإضافة يكفي فيها أدنى ملابسة ، فالله سبحانه وتعالى أظهره في اللوح المحفوظ وجبريل عليه السلام بلغه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بلغه للأمّة .

﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ منصوب نعتاً لمصدر أو زمان محذوف ، أي : إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً والناصب يؤمنون وما مزيدة للتأكيد ، وقال ابن عطية : ونصب قليلاً بفعل مضمر يدل عليه يؤمنون وما يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم البتة ، ويحتمل أن تكون مصدرية وتتصف بالقلة فهو الإيمان اللغوي لا الشرعي ، لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً وهو إخلاصهم بالوحدانية عند الاضطرار ، وإفرادهم الخالق بالخلق والربوبية .

﴿ ولا بقول كاهن ﴾ وهو المنجم الذي يخبر عن الأشياء وأغلبها ليس له صحة ، وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ يأتي فيه ما تقدم في ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ وقال البغوي : أراد بالقليل نفي إسلامهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك : قلما تأتينا وأنت تريد ما تأتينا أصلاً ، وقرأ : ﴿ قليلاً ما يؤمنون ﴾ ﴿ قليلاً ما يذكرون ﴾ ابن كثير وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالياء التحتية فيهما ، والباقون بالفوقية ، وخفف الذال حمزة والكسائي وحفص وشددها الباقون .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل ﴾ خبر لمبتدأ مضمر ، أي : هو تنزيل على وجه التنجيم ، قال البقاعي : وأشار إلى الرسالة إلى جميع الخلق من أهل السموات والأرض بقوله تعالى : ﴿ من رب العالمين ﴾ أي : موجدهم ومدبرهم بالإحسان إليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به ورتب سبحانه نظمه على وجه سهل على كل منهم يكفي في هدايته ا . هـ . وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أرسل للملائكة وهو الذي ينبغي وإن لم يكونوا مكلفين تشريفاً لهم زيادة في شرفه بإرساله صلى الله عليه وسلم إليهم .

﴿ ولو تقوّل ﴾ ، أي : كلف نفسه أن يقول مرة من الدهر كذباً ﴿ علينا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ بعض الأقاويل ﴾ أي : التي لم نقلها أو قلناها ولم نأذن له فيها قال الزمخشري : التقوّل افتعال القول لأن فيه تكلفاً من المفتعل وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها

وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول . والمعنى : لو نسب إلينا قولاً لم نقله أو لم نأذن له في قوله : ﴿ لأخذنا ﴾ أي : لنلنا ﴿ منه ﴾ أي : عقاباً ﴿ باليمين ﴾ أي : بالقوة والقدرة .

تنبيه : الباء على أصلها غير مزيدة ، والمعنى : لأخذناه بقوة منا ، فالباء حالية والحال من الفاعل وتكون منه في حكم الزائدة ، واليمين هنا مجاز عن القوة والغلبة ، فإن قوة كل شيء في ميامنه ، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم ، ومنه قول الشماخ:

(211/780)

---

*إذا ما راية رفعت لمجد ** تلقاها عرابة باليمين*

وقال أبو جعفر الطبري : هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب ، ويجوز أن تكون الباء مزيدة ، والمعنى : لأخذنا منه يمينه ، والمراد باليمين الجارحة كما يفعل بالمقتول صبراً يؤخذ بيمينه ويضرب بالسيف في جيده مواجهة وهو أشد عليه ، وقال الحسن رضي الله عنه : لقطعنا يده اليمنى . وقال الزمخشري : المعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده فتضرب رقبته

وخص اليمين عن اليسار ، لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذه بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه ا .ه . وقال نفطويه : المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف ، وقال السّدي ومقاتل رضي الله عنهما : المعنى انتقمنا منه بالحق واليمين على هذا بمعنى الحق كقوله تعالى : ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ (الصافات :) ، أي : من قبل الحق .

﴿ ثم لقطعنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة قطعاً يتلاشى عنده كل قطع ﴿ منه الوتين ﴾ أي : نياط القلب وهو يتصل من الرأس إذا انقطع مات صاحبه ، قال أبو زيد : وجمعه الوتن وثلاثة أوتنة والموتون الذي قطع وتينه . وقال الكلبي : هو عرق بين العلباء والحلقوم وهما علباوان بينهما العرق والعلباء عصب العنق ، وقيل : عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ، وقال مجاهد رضي الله عنه : هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع ، فإذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه .

(212/780)

وقال محمد بن كعب رضي الله عنه : إنه القلب ومراقه وما يليه ، وقال عكرمة رضي الله عنه : إن الوتين إذا قطع ، لا إن جاع عرف ولا إن شبع عرف ، وقيل : الوتين من مجمع

الوركين إلى مجمع الصدر بين الترقوتين ، ثم تنقسم منه سائر العروق إلى سائر الجسد ، ولا يمكن في العادة الحياة بعد قطعه . وقال ابن قتيبة : لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب لأمتناه ، فكان كمن قطع وتينه . ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم "ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري" . والأبهر : عرق متصل بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه فكأنه قال : هذا أوان يقتلني السم وحينئذ صرت كمن انقطع أبهره ﴿ فما منكم ﴾ أي : أيها الناس ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من أحد عنه ﴾ أي : القتل ﴿ حاجزين ﴾ أي : لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه ، أي : الرسول صلى الله عليه وسلم أي : لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه .

تنبيه : ﴿ من أحد ﴾ اسم ما ومن زائدة لتأكيد النفي ، ومنكم حال من أحد وعنه حاجزين خبر ما وجمع لأن أحداً في سياق النفي بمعنى الجمع وضمير عنه للقتل أو النبي كما مرّ ﴿ وإنه ﴾ أي : القرآن ﴿ لتذكرة للمتقين ﴾ أي : لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد ﴿ وإنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ لنعلم ﴾ أي : علماً عظيماً محيطاً ﴿ أن منكم ﴾ أي : أيها الناس ﴿ مكذبين ﴾ بالقرآن ومصدقين ، فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل لنظهر منكم إلى عالم الشهادة ما كنا نعلم في الأزل غيباً من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب ، فلذلك وجب في الحكمة أن نعيد الخلق إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازي كلاً بما يليق به إظهاراً للعدل .

﴿ وإنه ﴾ أي : القرآن ﴿ لحسرة ﴾ أي : ندامة ﴿ على الكافرين ﴾ أي : إذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين به ﴿ وإنه ﴾ أي : القرآن أو الجزاء يوم الجزاء ﴿ لحق اليقين ﴾ أي : الأمر الثابت الذي لا يقبل الشك فهو يقين مؤكد بالحق من إضافة الصفة إلى الموصوف وهو فوق علم اليقين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين .

﴿ فسبح ﴾ أي : أوقع التنزيه الكامل عن كل شائبة نقص ﴿ باسم ﴾ أي : بسبب عملك بصفات ﴿ ربك ﴾ أي : الموجد والمربي لك والمحسن إليك بأنواع الإحسان ﴿ العظيم ﴾ أي : الذي ملأت الأقطار كلها عظمته وزادت على ذلك بما شاءه سبحانه مما لا تسعه العقول ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : فصلّ لربك العظيم . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 72 .

﴿ 91

وقال القاسمى :

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ أي : الساعة الحاقة التي تحقُّ فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشيء ، إذا وجب .

وقوله : ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ قال بعضهم : من عوائد العرب في محاوراتهم اللطيفة ، إذا أرادوا تشويق المخاطب في معرفة شيء ودرايته ، أَتَوْا بإجمال وتفصيل ، أي : أي : شيء أعلم المخاطب ما هي ؟ تأكيداً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت من دائرة علم المخاطب على معنى : أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه ، من الأوصاف ، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين ، ولا أدركه وهمه ، وكيفما قدر حالها ، فهي وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه ، من أنها لا تعلم ، ولا يصل إليها دراية دارٍ ، ولا تبلغها الأفكار .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ أي : بالساعة التي تقرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم .

قال الزمخشريّ : ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة ، زيادة في وصف شدتها . ولمّا ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة ، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم . ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ أي : بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة ، أو بطغيانهم ، و الطاغية مصدر كالعافية . ﴿ وَأَمَّا عَادٌ ﴾ وهم قوم هود عليه السلام ﴿ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي : شديدة العصوف والبرد ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي : متجاوزة الحد المعروف في الهبوب والبرودة . ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ أي : سلطها ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ أي : متتابعات من حسمت الدابة ، إذا تابعت بين كيّها . شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكيّ القاطع للداء . أو معناه : نحسات ، حسمت كل خير واستأصلته ، أو قاطعات ، قطعت دابرهم . هذا على أن ﴿ حُسُوماً ﴾ جمع حاسم ، كشهود وقعود . فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر ، أي : تحسم حسوماً ، أو بأنه مفعول له ، أي : سخرها عليهم للحسوم ، أي : الاستئصال ، وقد قيل : إن تلك الأيام هي أيام العجز . والعامة تقول : العجوز وهي التي تكون في عجز الشتاء ، أي : آخره .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ أي : هلكى ، جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أي : ساقطة مجتثة من أصولها كآية :

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] , ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ أي : بقاء ، أو نفس باقية ، أو بقية .

(216/780)

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ أي : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهي قرى قوم لوط ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أي : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجاز في النسبة . ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي : زائدة في الشدة .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ أي : كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصي ، وتكذيبه ، عليه السلام ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ أي : السفينة التي تجري في الماء .

قال ابن جرير : خاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حُملوا في الجارية ، فكان حمل الذين حملوا فيها من

الأجداد ، حملاً لذريتهم, ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي : تلك الفعلة التي هي إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أي : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده في نصر رسله ، وتدمير أعدائه .

﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ أي : تحفظها ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أي : حافظة لما سمعت عن الله ، متفكرة فيه .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع في بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : رفعتا وضربتا ببعضهما من شدة الزلازل . وفي توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم ، هي وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى . ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي : نزلت النازلة ، وهي القيامة .

﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ أي : انصدعت ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ متمزقة ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ أي : جوانبها وأطرافها حين تشقق .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ أي : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها ﴿ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أي : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، والله أعلم ، انتهى .

ومثله من الغيوب التي يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهها . وتقدم في سورة الأعراف ، في تفسير آية : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54] كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية ، فتذكره . وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكه تعالى للسماوات والأرض ، وب : الثمانية السماوات السبع والأرض . وعبارته :

﴿ وَيَحْمِلُ ﴾ بالجذب ﴿ عَرْشَ رَبِّكَ ﴾ أي : ملك ربك للأرض والسماوات ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة ، ﴿ ثَمَانِيَةَ ﴾ أي : السماوات السبع والأرض .

قال : وهذا يدل على أن السبع ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية يحملون العرش ، أي : ملك الأرض والسماوات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم ، ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جداً .

ثم قال : ولا وجه لمعترض يقول : إن حملة العرش مسبحة ، لقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر : 7] ، فكيف تسبح السماوات والأرض ؟ لأنه يجاب بقوله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : 44] .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أي : على ربكم للحساب والمجازاة ﴿ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي : سريرة كانت تخفى في الدنيا بستر الله .

(218/780)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ أي : علامة لفوزه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ﴾ أي : تعالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : فحقها أن تحذف وصلاً ، وتثبت وقفاً لتصان حركة الموقوف عليه ، فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها في الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل بنيّة الوقف . وإثباتها وصلاً قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن . ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ أي : علمت ﴿ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ﴾ أي : جزائي يوم القيامة ، أي : فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى مرضية ، أو

الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها نفسها راضية مجازاً ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية ، كما فصل في " المطول"

.

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ جمع قطف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي : قريبة سهلة التناول .

﴿ كُلُواْ ﴾ أي : يقال لهم : كلوا ﴿ وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أي : الماضية في الحياة الدنيا .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ﴾ أي : عندما يلاقي العذاب ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ *

وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ﴾ أي : أي : شيء حسابي .

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ قال ابن جرير : أي : يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الفراغ من كل ما بعدها ، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث . والقضاء هو الفراغ . وقيل : إنه تمنى الموت الذي يقضي عليه ، فتخرج منه نفسه .

﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ﴾ أي : ما دفع من عذاب الله شيئاً .

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ﴾ أي : ملكي وتسلطي على الناس . أو حجتي ، فلا حجة لي أحتج بها .

﴿ خُذُوهُ ﴾ أي : يقال لخزنة النار : خذوه بالقهر والشدة ﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ أي : ضموا يده إلى عنقه ؛ إذ لم يشكر ما ملكته .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي : أدخلوه ليصلى فيها ؛ لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ أي : حلقة منتظمة بأخرى ، وهي بثالثة ، وهلم جرّاً .

﴿ ذَرْعُهَا ﴾ أي : مقدارها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ فأدخلوه فيها . أي : لفُّوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً ، لا يقدر على حركة . قال القاشانيّ : والسبعون في العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعين .

ثم علل استحقاقه ذلك ، على طريقة الاستئناف ، بقوله :

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجماد المهيمن .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي : إطعامه ، فضلاً عن بذله ، لتناهي شحّه .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ أي : قريب تأخذه الحمية له .

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ أي : من غسالة أهل النار وصديدهم .

قال ابن جرير : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو غسلين – فعلين – من الغسل من الجراح والدَّبَر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين .

﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ ﴾ أي : الآثمون أصحاب الخطايا ، يقال : خطئ الرجل ، إذا تعمد الخطأ . قال الرازيّ : الطعام ما هُيِّءَ الصديد ليأكله أهل النار طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمي طعاماً . كما قال :

~تَحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضرب وجيعُ

(220/780)

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي : بالمشاهدات والمغيَّبات . وهذا القسم – كما قال الرازيّ – يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلويّ والسفليّ ، وهكذا . وتقدم في الواقعة الكلام على كلمة لا أقسم ، فتذكر .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، يبلغه

عن الله تعالى ، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ أي : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعلة وخيالاته ، بعد المشرقين .

﴿ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه ، عناداً وعتواً . والقلة كناية عن النفي والعدم . ونصب ﴿ قَلِيلاً ﴾ على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر ، أي : إيماناً وزماناً . والناصب ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ أو ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ و ﴿ مَا ﴾ زائدة ، هذا ما قاله ابن عادل ، وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ أي : كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان في الأول ، والذكرى في الثاني ؛ لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن ، لا ينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله في ترك الإيمان ، وهو أكفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكر ما ؛ لأن الكاهن يأخذ جُعلاً ، ويجيب عما سئل عنه ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحمقى لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور ، فتأمل .

﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي : هو تنزيل ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : ممن رباهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة ، ومناهج الفلاح .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [44 - 47]

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ أي : افترى علينا . وسمى الكذب تقولاً ؛ لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعل . و ﴿ الْأَقَاوِيلِ ﴾ إما جمع قول على غير القياس ، أو جمع الجمع كالأناعيم ، جمع أقوال وأنعام . قيل : تسمية الأقوال المفتراة : أقاويل تحقيراً لها ، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قال ابن جرير : أي : لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب ؛ وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخّره بها . وقد قيل : إن معنى قوله : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده فأقمه ، وافعل به كذا وكذا ، قالوا : وكذلك معنى قوله : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أي : لأهنّاه ، كالذي يفعل بالذي وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشري : المعنى لو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معالجة بالسخط والانتقام . فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته ؛ وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع

الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه ، فمعنى ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله : ﴿ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ لقطعنا وتينه ، وهذا بيّن . انتهى .

(222/780)

وما قرره الزمخشري أبلغ في المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ؛ لأن قوله : ﴿ بِالْيَمِينِ ﴾ بعد ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ ﴾ بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله : ﴿ مِنْهَ ﴾ زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً ، كما في " العناية " .

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أي : ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تَقَوَّل علينا .

﴿ وَإِنَّهَ ﴾ أي : القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : عظة لمن يتقي عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي : له ، إيثاراً للدنيا والهوى ، أي : فنجازيكم على إعراضكم .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به .

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي : للحق اليقين الذي لا ريب فيه .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي : دُم على ذكر اسمه ، وادأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالعاقبة لك ، ولمن اتبعك من المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 216.223 ﴾

(223/780)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الحاقة

الدرس الأول: 1 – 3 الحاقة والهول في إفتتاح السورة

(الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟) . .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة . ومن ثم تبدأ السورة باسمها , وتسمى به , وهو اسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا . فالحاقة هي التي تحق فتقع . أو تحق فتنزل بحكمها على الناس . أو تحق فيكون فيها الحق . . وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هي بجرسها كما بينا من قبل تلقي إيقاعا معينا

يساوق هذا المعنى الكامن فيها , ويشارك في إطلاق الجو المراد بها ; ويمهد لما حق على المكذبين بها . في الدنيا وفي الآخرة جميعا .

والجو كله في السورة جو جد وجزم , كما أنه جو هول وروع . وهو يوقع في الحس إلى جانب ما أسلفنا في التقديم , شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة , وبضآلة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ; وأخذها له أخذا شديدا في الدنيا والآخرة , عندما يحيد أو يتلفت عن هذا النهج الذي يريده الله للبشرية , ممثلا فيما يجيء به الرسل من الحق والعقيدة والشريعة ; فهو لا يجيء ليهمل , ولا ليبدل , إنما يجيء ليطاع ويحترم , ويقابل بالتحرج والتقوى . وإلا فهناك الأخذ والقصم , وهناك الهول والروع .

والألفاظ في السورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها في التركيب , وبدلالة التركيب كله . . تشترك في إطلاق هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة , لا خبر لها في ظاهر اللفظ: (الحاقة) . . ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم: (ما الحاقة ؟) . . ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل , وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك: (وما أدراك ما الحاقة ؟) . . ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . ويدعك واقفا أمام هذا الأمر المستهول المستعظم , الذي لا تدريه , ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !

الدرس الثاني: 4 – 12 لقطات من مصارع الكفار السابقين

ويبدأ الحديث عن المكذبين به , وما نالهم من الهول , وما أخذوا به من القصم , فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب , ولا يذهب ناجيا من يصر فيه على التكذيب:

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟) .

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق إنها تحق . . فهي تقرع . . والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله . والقارعة تقرع القلوب بالهول والرعب , وتقرع الكون بالدمار والحطم . وها هي ذي بجرسها تقعقع وتقرقع , وتقرع وتفزع . . وقد كذبت بها ثمود وعاد . فلننظر كيف كانت عاقبة التكذيب . . (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) . .

من الاية 6 الى الاية 12

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (8) وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً

(10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12)

(225/780)

وثمود - كما جاء في مواضع أخرى - كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع . أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها . . (بالطاغية) . . لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها . ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طيا , وتغمرهم غمرا , وتعصف بهم عصفا , وتطغى عليهم فلا تبقي لهم ظلا !

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطيل , فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوما . على حين كانت وقعة ثمود خاطفة . . صيحة واحدة . طاغية . . (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) . والريح الصرصر: الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها (عاتية) . . لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن , وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا

أشداء بطاشين جبارين . هذه الريح الصرصر العاتية: (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) . . والحسوم القاطعة المستمرة في القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة: (سبع ليال وثمانية أيام) . ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا : (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) . . فترى . . فالمنظر معروض تراه , والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه !(صرعى) . . مصروعين مجدلين متناثرين (كأنهم أعجاز نخل) بأصولها وجذوعها (خاوية) فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة . . (فهل ترى لهم من باقية ؟) . . لا ! فليس لهم من باقية ! ! !

ذلك شأن عاد وثمود . . وهو شأن غيرهما من المكذبين . وفي آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى:

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتكفات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية . .

وفرعون كان في مصر – وهو فرعون موسى – ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل .

والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التي اتبعت الإفك أو التي انقلبت , فاللفظ يعني هذا وهذا .

ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا , فيقول عنهم انهم جاءوا (بالخاطئة) أي بالفعلة الخاطئة . . من الخطيئة . . (فعصوا رسول ربهم) . . وهم عصوا رسلا متعددين ; ولكن حقيقتهم واحدة , ورسالتهم في صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد , يمثل حقيقة واحدة – وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية – وفي إجمال يذكر مصيرهم في تعبير يلقي الهول والحسم حسب جو السورة: (فأخذهم أخذة رابية) . . والرابية العالية الغامرة الطامرة . لتناسب (الطاغية) التي أخذت ثمود (والعاتية) التي أخذت عادا , وتناسب جو الهول والرعب في السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية , مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها , ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى:

إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية , لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية . .

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي , كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة , التي

تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر , وكل ما سبق من الآيات , وكل ما سبق من العظات , وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين !

من الاية 13 الى الاية 16

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16)

(227/780)

الدرس الثالث: 13 - 18 صورة لهول الصعق والحشر والموقف وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون , وقد شهدوا مصارع المكذبين . .

إن الهول في هذه المصارع - على ضخامتها - محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض , ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى:

(فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش

ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . .

ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث . ولا نزيد في تفصيلها شيئا . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ; وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئا , والجري وراءه عبث لا طائل تحته , إلا اتباع الظن المنهي عنه أصلا .

فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة , فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة: (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) . . ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها . . مشهد مروع حقا . هذه الأرض التي يجوس الإنسان خلالها آمنا مطمئنا , وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها . . هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد . . إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة , في ذلك اليوم العظيم . .

فإذا وقع هذا . إذا نفخ في الصور نفخة واحدة , وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . . فهو حينئذ الأمر الذي تتحدث عنه السورة: (فيومئذ وقعت الواقعة) . . والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة . كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحاء مقصود في صدد الارتياب فيها والتكذيب !

ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة , فالسماء في هذا اليوم الهائل ليست بناجية:

(وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) . .

ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن . ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور , واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق , وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس . .

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم , استنباطا من ملاحظتهم العلمية البحتة , وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا الكون وقصته كما افترضوها . .

فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة , من خلال النصوص القرآنية الجازمة ; وهي

نصوص مجملة توحي بشيء عام ; ونحن نقف عند إيحاء هذه النصوص , فهي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن , لأنها صادرة من صاحب الشأن , الذي خلق , والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلتها هذه , الضخمة بالقياس إلينا , الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون , فتدك دكة واحدة ; ونكاد نشهد السماء وهي مشققة واهية والكواكب وهي متناثرة منكدرة . . كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية , المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة . .

من الاية 17 الى الاية 18

(229/780)

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ (18)

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه , وتسكن الضجة التي تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار . يسكن هذا كله ويظهر في المشهد عرش الواحد القهار :

(والملك على أرجائها , ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . .

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها , والعرش فوقهم يحمله ثمانية . .

ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منها , أو ثمانية طبقات من طبقاتهم , أو ثمانية مما يعلم الله . لا ندري نحن من هم ولا ما هم . كما لا ندري نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات التي لا علم لنا بها , ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذي تخلعه على الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا . وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع , في ذلك اليوم العظيم , وفي ذلك الموقف الجليل:

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) . .

(230/780)

فالكل مكشوف . مكشوف الجسد , مكشوف النفس , مكشوف الضمير , مكشوف العمل , مكشوف المصير . وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار , وتتعرى النفوس تعري الأجساد , وتبرز الغيوب بروز الشهود . . ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره , ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أقسى الفضيحة على الملأ . وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور , وهو مخدوع

بستور الأرض . فها هو ذا يشعر به كاملا وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء بارز في الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئا وراء نتوء ولا بروز . والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئا , والأجسام معراة لا يسترها شيء , والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصيب . أعصب من دك الأرض والجبال , وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد , عريان النفس , عريان المشاعر , عريان التاريخ , عريان العمل ما ظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله , من الإنس والجن والملائكة , وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع . .

وأن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ; ففي نفسه منحنيات شتى ودروب , تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة , فتنطوي سريعا , وتنكمش داخل القوقعة , وتغلق على نفسها تماما . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينا تدسست عليه فكشفت منه شيئا مما يخفيه , وأن لمحة أصابت منه دربا خفيا أو منحنى سريا ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية . .

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقا . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . . . كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار , وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟ !

ألا إنه لأمر , أمر من كل أمر ! ! !

وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين , كأنه حاضر تراه العيون . .

من الاية 19 الى الاية 24

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ (19) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)

الدرس الرابع: 19 – 37 من أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه , إني ظننت أني ملاق حسابيه . . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية , وقد يكون تمثيلا لغويا جاريا على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة

الشر بالشمال أو من وراء الظهر . . وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد , وهو لا يستدعي جدلا يضيع فيه جلال الموقف !

(232/780)

والمشهد المعروض هو مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب , وهو ينطلق في فرحة غامرة , بين الجموع الحاشدة , تملأ الفرحة جوانحه , وتغلبه على لسانه , فيهتف: هاؤم اقرؤوا كتابيه . . ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج , بل كان يتوقع أن يناقش الحساب . . " ومن نوقش الحساب عذب " كما جاء في الأثر: عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من نوقش الحساب عذب " فقلت: أليس يقول الله تعالى: (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) فقال: " إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك " .

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مطر الواسطي , حدثنا يزيد بن هارون , أخبرنا عاصم , عن الأحول , عن أبي عثمان , قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله , فيقرأ سيئاته , فكلما قرأ سيئة تغير لونه , حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه , ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال: فعند ذلك يقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه .

وروى عن عبد الله بن حنظلة – غسيل الملائكة – قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي – أي يظهر – سيئاته في ظهر صحيفته , فيقول له: أنت عملت هذا ؟ فيقول: نعم أي رب ! فيقول له: إني لم أفضحك به , وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك: هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه .

وفي الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى , فقال: " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " يدني الله العبد يوم القيامة , فيقرره بذنوبه كلها , حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم , ألا لعنة الله على الظالمين " . .

(233/780)

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم , الذي تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسي , تناسب حال المخاطبين إذ ذاك , وهم حديثو عهد بجاهلية , ولم يسر من آمن منهم شوطا طويلا في الإيمان , ينطبع به حسه , ويعرف به من النعيم ما هو أرق وأعلى من كل متاع:

(فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) . .

وهذا اللون من النعيم , مع هذا اللون من التكريم في الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله: (كلوا واشربوا

من الاية 25 الى الاية 32

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32)

هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) . . فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله , قبل أن تسمو المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع . . فوق هذا فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعيم ألوان غير هذا وألوان . .

(وأما من أوتي كتابه بشماله) وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته , وأن إلى العذاب مصيره , فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد , وقفة المتحسر الكسير الكئيب . . (فيقول: يا ليتني لم

أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابيه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عني ماليه ! هلك عني سلطانيه !) . .

(234/780)

وهي وقفة طويلة , وحسرة مديدة , ونغمة يائسة , ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لاتنتهي إلى نهاية , وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف , وتقصير بعضها , وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول , في تنغيم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف , ولم يؤت كتابه , ولم يدر ما حسابه ; كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية , التي تنهي وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا . . ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه: (ما أغنى عني ماليه) . . (هلك عني سلطانيه) . . فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقي أو دفع . . والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف , في تحزن وتحسر . . هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقا بليغا . .

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم , بجلاله وهوله وروعته:

(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) . .

يا للهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل !

(خذوه) . .

كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل .

ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب , كما يقول ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو: "إذا قال الله تعالى: خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفا في النار" . . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !

(فغلوه) . .

فأي السبعين ألفا بلغه جعل الغل في عنقه . . !

(ثم الجحيم صلوه) . .

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . .

(ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) . .

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها .

من الاية 33 الى الاية 37

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)

ولعل هذا الإيحاء هو المقصود ! .

فإذا انتهى الأمر , نشرت أسبابه على الحشود :

(إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين) . .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله , والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب .

خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات , وهو خرب , وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد . فكل شيء مؤمن , يسبح بحمد ربه , موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد . والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين . ولم يحض على طعامه وهي خطوة وراء إطعامه

. توحي بأن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه المؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان .

يليه في النص ويليه في الميزان !

فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون . .

وهي تكملة الإعلان العلوي عن مصير ذلك الشقي . فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم , وكان لا يحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع (فليس له اليوم ها هنا حميم) . . وهو ممنوع: (ولا طعام إلا من غسلين) . . والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد ! وهو يناسب قلبه النكد الخاوي من الرحمة بالعبيد ! طعام (لا يأكله إلا الخاطئون) . . المذنبون المتصفون بالخطيئة . . وهو منهم في الصميم !

(236/780)

وبعد , فذلك هو الذي يجعله الله مستحقا للأخذ والغل والتصلية والسلسلة التي ذرعها سبعون ذراعا في الجحيم . وهو أشد دركات جهنم عذابا . . فكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجيع الأطفال والنساء والشيوخ , ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والكساء في برد الشتاء ? أين ترى يذهب هؤلاء , وهم يوجدون في الأرض بين الحين والحين ? وما الذي أعده الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام المسكين , ذلك

العذاب في الجحيم ؟

وينتهي هذا المشهد العنيف المثير . الذي لعله جاء في هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة كي تؤثر فيها وتهزها وتستحييها . ومثل هذه البيئة يتكرر في الجاهليات التي تمر بها البشرية , كما أنه يوجد في الوقت الواحد مع أرق البيئات وأشدها تأثرا واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها , وبما تستجيب له حين يدعوها . والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلوبا أقسى , وطبائع أجسى , وجبلات لا يؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات .

ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة . .

الدرس الخامس: 38 – 43 القسم على حقيقة مصدر القرآن ورد شبهات الكفار عليه

وفي ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة , المتوالية منذ أول السورة , مشاهد الأخذ في الدنيا والآخرة , ومشاهد التدمير الكونية الشاملة , ومشاهد النفوس المكشوفة العارية , ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة . .

في ظل هذه المشاهد العميقة الأثر في المشاعر يجيء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذي جاءهم به

من الاية 38 الى الاية 40

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

الرسول الكريم , فتلقوه بالشك والسخرية والتكذيب:

(237/780)

(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر , قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن , قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) . .

إن الأمر لا يحتاج إلى قسم وهو واضح هذا الوضوح , ثابت هذا الثبوت , واقع هذا الوقوع . لا يحتاج إلى قسم أنه حق , صادر عن الحق , وليس شعر شاعر , ولا كهانة كاهن , ولا افتراء مفتر ! لا . فما هو بحاجة إلى توكيد بيمين:

(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . .

بهذه الفخامة وبهذه الضخامة , وبهذا التهويل بالغيب المكنون , إلى جانب الحاضر المشهود . . والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة , تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها - كما شاء الله لهم - والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكاد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير . والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا

الملك العريض , ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود . .

(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . .

(238/780)

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعي إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارا أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنساني للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه , ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنساني المزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته في هذا الكون . ووظيفته في الحياة الدنيا هي الخلافة في هذه الأرض . . ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آماد وآفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومداركه محدودة , وأن هناك وراء ما تدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر - بما لا يقاس - مما وصل إليه . . عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه , ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التي تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور !

إن الذين يحصرون أنفسهم في حدود ما ترى العين , ويدرك الوعي , بأدواته الميسرة له . . مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على سعته ,

صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير . .

وفي فترات مختلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أو قليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود , والحاضر المشهود ; ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور , والاتصال بالحق الكبير , عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ما أغلقوها على أنفسهم بأيديهم . . تارة باسم الجاهلية . وتارة باسم العلمانية ! وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير . وانقطاع عن ينابيع المعرفة والنور !

(239/780)

والعلم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها – بحمق وغرور – حول نفسه في القرنين الماضيين . . يتخلص من تلك القضبان , ويتصل بالنور – عن طريق تجاربه ذاتها – بعد ما أفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوربا ; وعرف حدوده , وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته المكنونة . وعاد "العلم يدعو إلى الإيمان" في تواضع تبشر أوائله بالفرج ! أي نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان المادة الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

ولقد رأينا عالما مثل ألكسيس كاريل الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والمشتغل بالطب علما وجراحة وإشرافا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية , وصاحب جائزة نوبل سنة 1912 ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى:

"أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا , وأن العقل الإنساني هاد قاصد بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته . وإن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا , وبالعقل الأبدي المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة , فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا في طي الخفاء" .

"وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة , لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح" . .

ورأينا طبيبا آخر مثل "دي نوي" الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعي , وعمل مع الأستاذ كوري وقرينته , واستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح . . يقول:

"كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب . فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهرب قابلا للتصور في كيانه المادي ! وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب" . . .

ورأينا عالما طبيعيا مثل سير أرثر طومسون المؤلف الاسكتلندي الشهير يقول: "إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلبة , وفقد فيه الأثير كيانه المادي , فهو أقل الأزمنة صلاحا للغلو في التأويلات المادية" .

ويقول في مجموعة "العلم والدين":

"ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعي لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة . إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جدا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم , حيث لم يكن ذلك يسيرا في أيام آبائنا وأجدادنا . . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا في الله – كما زعم مستر لانجدون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه – فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم , أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى , ولا نجاوز المعنى الحرفي حين

نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضا جديدة , وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلي , فإذا به , في كثير من الأحيان , لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم , وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله" .

ورأينا عالما مثل "ا . كريسي موريسون" رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة سابقا يقول في كتابه: "الإنسان لا يقوم وحده":

(241/780)

"إننا نقترب فعلا من عالم المجهول الشاسع , إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية . ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل في تكوين الكون , لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون" .

"إن ارتقاء الإنساني الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده , هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي , ودون قصد ابتداعي .

"وإذا قبلت واقعية القصد , فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازا . ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ? لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه . والعلم لا يعلل من يتولى إدارته , وكذلك

لا يزعم أنه مادي . "

"لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره . . . "

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرانها بوسائله الذاتية , فيتصل بالجو الطليق الذي يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة: (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . ونظائره المتعددة . وإن يكن بيننا نحن من أقزام التفكير والشعور من لا يزال يغلق بكلتا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ! في تخلف عقلي عن العلم , وفي تخلف روحي عن الدين , وفي تخلف شعوري عن الحرية الطليقة في معرفة الحقيقة ! وفي تخلف إنساني عما يليق بالكائن الإنساني الكريم !

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . . (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون , ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) . .

(242/780)

ولقد كان مما تقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قولهم: إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين في هذا بشبهة سطحية , منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر في وهمهم له رئي من الجن يأتيه بالقول الفائق

, وأن الكاهن كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ! وهي شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة , وطبيعة الشعر أو الكهانة . .

فالشعر قد يكون موسيقي الإيقاع , رائع الأخيلة , جميل الصور والظلال ; ولكنه لا يختلط أبدا ولا يشتبه بهذا القرآن إن هنالك فارقا أساسيا فاصلا بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت , ونظرة موحدة , ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت , وللكون والحياة كذلك . والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة , قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب , والانطلاق والانكماش , والحب والكره , والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذي جاء به القرآن قد أنشأه القرآن من الأساس , في كلياته وجزئياته , مع تعين مصدره الإلهي . فكل ما في هذا التصور يوحي بأنه ليس من عمل البشر , فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور . . لم يسبق لهم هذا ولم يلحق . . وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقوة المنشئة له المدبرة لنظامه . . هذا هو معروضا مسجلا في الفلسفة وفي الشعر وفي غيرها من المذاهب الفكرية ; فإذا قرن إلى التصور القرآني وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر .

كذلك الأمر في الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهنا أنشأ

منهجا متكاملا ثابتا كالمنهج الذي جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة , أو إشارة ملغزة !

(243/780)

وهناك لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها , وقد وقفنا عند بعضها في هذه الظلال أحيانا . فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف , فاتجه إلى مثل هذه الصورة التي جاءت في القرآن:

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما في البر والبحر , وما تسقط من ورقة إلا يعلمها , ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . . أو إلى مثل هذه الصورة: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها , وهو معكم أينما كنتم , والله بما تعملون بصير أو إلى مثل هذه الصورة: وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التي تمسك هذا الكون وتدبره: إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . . أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة في الكون من يد القدرة المبدعة وما يحيط بالحياة

من موافقات كونية مدبرة مقدرة:

(إن الله فالق الحب والنوى , يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله . فأنى تؤفكون . فالق الإصباح . وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا , ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر , قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع , قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا , نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية , وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . .

(244/780)

وهذه اللفتات الكونية كثيرة في القرآن كثرة ملحوظة , ولا نظير لها فيما تتجه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعاني التي يعبر عنها القرآن . . وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب . . بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من الملابسات المصاحبة له على السواء .

فالشبهة واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل , ولم تتنزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهي الخاص , وفيها ذلك القبس الموحي بمصدرها الفريد .

وكبراء قريش كانوا يراجعون أنفسهم , ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن الغرض يعمي ويصم . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم . كما يقول القرآن الكريم !

وقد حكت كتب السيرة مواقف متعددة لزعماء قريش , وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها فيما بينهم .

من ذلك ما رواه ابن اسحق عن الوليد بن المغيرة , وعن النضر بن الحارث , وعن عتبة بن ربيعة وقد جاء في روايته عن الأول:

"ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سن فيهم ; وقد حضر الموسم . فقال لهم: يا معشر قريش , إنه قد حضر هذا الموسم , وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه , وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ; فأجمعوا فيه رأيا واحدا , ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا , ويرد قولكم بعضه بعضا , فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل , وأقم لنا رأيا نقل به .

قال: بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا: نقول: كاهن . قال: لا والله, ما هو بكاهن, لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا: فنقول: مجنون . قال: ما هو بمجنون, لقد رأينا الجنون وعرفناه, فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا: فنقول: شاعر . قال: ما هو بشاعر, لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا: فنقول: ساحر . قال: ما هو بساحر; لقد رأينا السحار وسحرهم, فما هو بنفثهم ولا عقدهم . . قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ? قال: والله إن لقوله لحلاوة, وإن أصله لعذق, وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل, وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه, وبين المرء وأخيه, وبين المرء وزوجه, وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك, فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه, وذكروا لهم أمره . . ".

وحكى عن الثاني [النضر بن الحارث] قال:

" فقال يا معشر قريش . إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا , أرضاكم فيكم , وأصدقكم حديثا , وأعظمكم أمانة , حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب , وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر ! لا والله , ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ! لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم , وسمعنا سجعهم . وقلتم: شاعر ! لا والله ما هو بشاعر . قد رأينا الشعر , وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . وقلتم: مجنون ! لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يا معشر قريش , فانظروا في شأنكم , فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . . . " .

والمطابقة تكاد تكون تامة – بين قوله وقول عتبة . وقد يكون هو حادثا واحدا نسب مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لا نستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار قريش في موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !

وأما موقف عتبة فقد سبقت حكايته في استعراضنا لسورة القلم في هذا الجزء . . وهو قريب من موقف الوليد والنضر تجاه محمد وتجاه القول الذي جاء به . .

فما كان قولهم: ساحر أو كاهن , إلا حيلة ماكرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا . والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لا يحتاج إلى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون: إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن . . إنما هو تنزيل

من رب العالمين .

وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعني أنه من إنشائه , ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر . لا يقوله شاعر , ولا يقوله كاهن , إنما يقوله رسول , يرسل به من عند الله , فيحمله من هناك , من ذلك المصدر الذي أرسله .

من الاية 41 الى الاية 50

(247/780)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50)

والذي يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أي مرسل به من عند ربه , وليس شاعرا ولا كاهنا يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رئي أو شيطان . . إنما هو رسول يقول ما يحمله عمن أرسله . ويقرر هذا تقريرا حاسما ما جاء بعده: (تنزيل من رب العالمين) . .

والتعقيب: (قليلا ما تؤمنون) . . (قليلا ما تذكرون) . . مدلولة نفي الإيمان , ونفي التذكر

. وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفي الحديث في وصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إنه كان يقل اللغو" . أي لا يلغو أصلا . . فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر . وإلا فما يقول مؤمن عن الرسول: إنه شاعر , ولا يقول متذكر متدبر: إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير !

الدرس السادس: 44 – 47 تهديد من كذب على الله بالعذاب

وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرعيب , لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه . يجيء لتقرير الإحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره , وهو صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ:

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) . .

(248/780)

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه , لأخذه الله فقتله على هذا النحو

الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق .

هذه هي القضية من الناحية التقريرية . . ولكن المشهد المتحرك الذي ورد فيه هذا التقرير شيء آخر , يلقي ظلالا بعيدة وراء المعنى التقريري . ظلالا فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة . ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين . وهي حركة عنيفة هائلة مروعة حية في الوقت ذاته . ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضعفه . . البشر أجمعين . . كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !

الدرس السابع: 48 – 52 حقائق يقينية حول القرآن

وأخيرا تجيء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية:

(وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين) .

فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تتفتح ولا تتذكر , ولا تفيد من هذا الكتاب شيئا . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور

والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

(وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) . . ولكن هذا لا يؤثر في حقيقة هذا الأمر , ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمركم أهون من أن يؤثر في حقائق الأمور .

(249/780)

(وإنه لحسرة على الكافرين) . . بما يرفع من شأن المؤمنين , ويحط من قدر المكذبين وبما ينتهي إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذي يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله في اليوم الآخر , يعذبون

من الاية 51 الى آخر السورة

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

به , ويتحسرون لما يصيبهم بسببه . فهو حسرة على الكافرين في الدنيا والآخرة .

(وإنه لحق اليقين) . . مع تكذيب المكذبين . حق اليقين . فليس مجرد اليقين , ولكنه الحق في هذا اليقين . وهو تعبير خاص يضاعف المعنى ويضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن لعميق في الحق , عميق في اليقين . وإنه ليكشف عن الحق الخالص في كل آية ما يشي بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل . .

فهذه هي طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة . لا هو قول شاعر . ولا هو قول كاهن . ولا هو تقول على الله . إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكرة للمتقين . وهو حق اليقين .

هنا يجيء التلقين العلوي للرسول الكريم , في أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين:

(فسبح باسم ربك العظيم) . .

والتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع . . . هو الشعور الذي يخالج القلب , بعد هذا التقرير الأخير , وبعد ذلك الاستعراض الطويل , لقدرة الله العظيم , وعظمة الرب الكريم . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3676 . 3690 ﴾

(250/780)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) ﴾

الحاقة من أسماءِ القيامة وجاء بعدها ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ [الحاقة : 4]

وهي من أسماء القيامة أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة يَوْمَ يَكُونُ الناس

كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة: 3 – 4] الآية.

سميت بالحاقة لأنه يحق فيها وعد الله بالبعث والجزاء، وسميت بالقارعة، لأنها تقرع القلوب بهولها ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج: 2].

كما سميت الواقعة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة: 2].

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

والطَّاغية فاعلة من الطُّغيان، وهو مجاوزة الحد مطلقاً، كقوله: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ [الحاقة: 11].

وقوله: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ [العلق: 6].

وقد اختلف في معنى الطغيان هنا، فقال قوم: طاغية عاقر الناقة، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس: 11 – 12] فتكون الباء سببية أي بسبب طاغيتها، وقيل: الطاغية الصيحة الباء آلية، كقولك: كتبت بالقلم وقطعت بالسكين.

ولاذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: 43 – 44]، ولو قيل: لا مانع من إرادة المعنيين لأنهما متلازمان تلازم المسبب للسبب، لأن الأول سبب الثاني لما كانوا بعيداً، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾

[الذاريات : 44] .

فالعتو هو الطغيان في الفعل ، والصاعقة هي الصيحة الشديدة ، وقد ربط بينهما بالفاء .

(251/780)

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

تقدم للشيخ رحمة تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] المتقدم في فصلت ، وفي هذا التفصيل لكيفية إهلاك عاد وثمود بيان لما أجمل في سورة الفجر ، في قوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 13] .

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9)

المؤتفكات : المنقلبات ، وهي قرى قوم لوط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفصيل ذلك عند قوله تعالى في هود ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود : 82] الآية .

وفي النجم عند قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : 53] .

تنبيه

نص تعالى هنا أن فرعون ومن قبله ، والمؤتفكات جاءوا بالخاطئة وهي : ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ [الحاقة : 10] ، وكذلك عاد وثمود كذبوا بالقارعة . فالجميع اشترك في الخاطئة ، وهي عصيان الرسول ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 16] ، ولكنه قد أخذهم أخذة رابية .

ونوع في أخذهم ذلك : فأغرق فرعون وقوم نوح ، وأخذ ثمود بالصيحة ، وعاداً بريح ، وقوم لوط بقلب قراهم ، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل ، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها ، أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله .

الواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلاً ، ولعل مما يشير إليه القرآن إشارة خفيفة هو الآتي :

(252/780)

أما فرعون فقد كان يقول : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتيا ﴾ [الزخرف : 51] ، فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها أي في جنسها .

وأما قوم نوح فلما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجراً

كفاراً ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان .

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ، لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سبباً في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية .

وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم ، كما قال تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العماد التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 6 – 8] ، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم ، فهو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم ، فأخذوا بالريح وهو أرق وألف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة .

وكذلك جيش أبرهة لما جاء مدل بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيونات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل : 3 – 4] .

أما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل ، قلب عليهم قراهم . والعلم عند الله تعالى .

ولا شك أن في ذلك كله تخويف لقريش .

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14)

تقدم بيانه للشيخ رحمه الله في سورة الكهف عند قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ [الكهف : 47] .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله عند قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19)

(253/780)

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله بيان قضية أخذ الكتب وحقيقتها ، عند قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ [الكهف : 49] في سورة الكهف .

وكذلك بحثها في كتابه دفع إيهام الاضطراب ، وبيان القسم الثالث من وراء ظهره ، وفي هذا التفصيل في حق الكتاب والكتابة وتسجيل الأعمال وإيتائها بنصوص صريحة واضحة ، كقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] .

وقولهم صراحة : ﴿ يا ويلتنا مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] .

وقوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .

وقوله : ﴿ اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] ، فهو كتاب مكتوب ينشر يوم القيامة يقرؤه كل إنسان بنفسه مما يرد قول من يجعل أخذ الكتاب باليمين أو الشمال كناية عن اليمن والشؤم . وهذا في الواقع إنما هو من شؤم التأويل الفاسد وبدون دليل عليه ، والمسمى عند الأصوليين باللعب . نسأل الله السلامة والعافية .

مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28)

قيل : فيما إنها استفهامية بمعنى أي شيء أغنى عني ماليه ، والجواب لا شيء ، وقيل : نافية ، أي لم يغن عني ماليه شيئاً في هذا اليوم ، ويشهد لهذا المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء : 88] .

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29)

أي لا سلطان ولا جاه ولا سلطة لأحد في ذلك اليوم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : 48] حفاة عراة .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] .

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34)

فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين ، على عدم الإيمان بالله العظيم ، مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث هذه المسألة في أول سورة فصلت عند قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت : 6] ، وكنت سمعت منه رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : كما أن الإيمان يزيد بالطاعة ، والمؤمن يثاب على إيمانه وعلى طاعته ، فكذلك الكفر يزداد بالمعاصي . ويجازى الكافر على كفره وعلى عصيانه ، كما في قوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

فعذاب على الكفر وعذاب على الإفساد ، ومما يدل لزيادة الكفر ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ [آل عمران : 90] ، وتقدم للشيخ رحمه الله مبحث زيادة العذاب عند آية النحل .

(255/780)

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

إضافة القول إلى الرسول الكريم على سبيل التبليغ ، كما جاء بعدها ، قوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الحاقة : 43] والرسول يحتمل النَّبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل جبريل ، وقد جاء في حق جبريل . قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 19 - 21] .

وهنا المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم بقرينة . قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة : 41] وما عطف عليه لأن من اتهم بذلك هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فنفاه ذلك عنه ، فيكون في ذلك كله غثبات الصفة الكريمة لسند القرآن من محمد عن جبريل عن الله ، وقد أشار لذلك في الآية الأولى في قوله ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 21 - 22] .

فأثبت السلامة والعدالة لرسل الله في تبليغ كلام الله ، وفي هذا رد على قريش ما اتهمت به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفيه أيضاً الرد على الرافضة دعواهم التغيير أو النقص في القرآن .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وبيان هذا المعنى وهو على ظاهره عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ [

الأحقاف : 8] الآية ، وهو على سبيل الافتراض بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقد استبعد أبو حيان أن يكون الضمير في تقول راجع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم لاستحالة وقوع ذلك منه صلى الله عليه وسلم .

(256/780)

وقال : إنها قرئت بالمبني للمجهول ورفع بعض ، وقال : وعلى قراءة الجمهور يكون فاعل تقول مقدر تقديره : ولو تقول علينا متقول ، وقد ذكر تلك القراءة كل من القرطبي والكشفي ، ولكن لم يذكرها ابن كثير ولا الطبري ولا النيسابوري ممن يعنون بالقراءات ، مما يجعل في صحتها نظراً ، فلو صحت لكانت موجهة ولكن ما استبعده أبو حيان ومنعه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم هو الواقع صحيحن ولكن على سبيل الافتراض فليس ممنوعاً ، وقد جاء الافتراض في القرآن فيما هو أعظم من ذلك .

كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81]

وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] والنص الصريح في الموضوع ما قاله الشيخ : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ﴾ [الأحقاف : 8] .

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

في هذا نفي كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها ، ولكل نقص أو زيادة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان إضافة الحق لليقين ، ومعنى التسبيح باسم ربك عند آخر سورة الواقعة ، وحق اليقين هو منتهى العلم ، إذ اليقين ثلاثة درجات .

الأولى : علم اليقين .

والثانية : عين اليقين .

والثالثة : حق اليقين كما في التكاثر ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 5 – 7] فهاتان درجتان ، والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين ، ومثله في الدنيا العلم بوجود الكعبة والتوجه إليها في الصلاة ثم رؤيتها عين اليقين ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين ، وكما نسبح الله وهو تنزيهه ، فكذلك ننزه كلامه ، لأنه صفة من صفاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(257/780)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الحاقة

الْحَاقَّةُ (1)

قوله : ﴿ الحاقة ﴾ : مبتدأٌ و " ما " مبتدأٌ ثانٍ ، و " الحاقَّةُ " خبرُه ، والجملةُ خبرُ الأولِ ، وقد تَقَدَّم تحريرُ هذا في الواقعة . وهناك سؤالٌ حسنٌ وجوابٌ مثلُه فعليك باعتبارِه .

والحاقَّةُ فيها وجهان ، أحدهما : أنَّه وصفٌ اسمُ فاعلٍ بمعنى : أنها تُبْدِي حقائق الأشياءِ . وقيل : لأنَّ الأمرَ يَحِقُّ فيها فهي من باب : ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ . وقيل : مِنْ حَقَّ الشيءُ : ثَبَتَ فهي ثابتةٌ كائنةٌ . وقيل : لأنها تَحُقُّ كلَّ مُحاقٍّ في دينِ اللَّهِ ، أي : تَغْلِبُه . مِنْ حاقَقْتُه فحقَقْتُه أحُقُّه ، أي : غَلَبْتُه . والثاني : أنها مصدرٌ كالعاقبةِ والعافيةِ .

مَا الْحَاقَّةُ (2)

قوله : ﴿ مَا الحاقة ﴾ : في موضعِ نصبٍ على إسقاطِ الخافض ؛ لأنَّ أَدْرَى بالهمزةِ ، ويتعدَّى لاثنينِ ، الأَولُ بنفسه . والثاني : بالباءِ ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 16] فلَمَّا وَقَعَتْ جملةُ الاستفهامِ مُعَلِّقَةً لها كانَتْ في موضوعِ المفعولِ الثاني ، ودونَ الهمزة تَتَعَدَّى لواحدٍ بالباء نحو : دَرَيْتُ بكذا ، ويكونَ بمعنى عَلِمَ فيتعدَّى لاثنين .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5)

قوله : ﴿ فَأُهْلِكُواْ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ . وقرأ زيدُ ابن علي " فَهَلَكوا " مبنياً للفاعلِ مِنْ هَلَكَ ثلاثياً .

قوله : ﴿ بالطاغية ﴾ ، أي : بالصيحةِ المتجاوزةِ للحدّ . وقيل : بالفَعْلةِ الطاغيةِ . وقيل : بالرجلِ الطاغيةِ ، وهو عاقِرُ الناقةِ ، والهاء للمبالغةِ ، فالطاغيةُ على هذه الأوجه صفةٌ . وقيل : الطاغيةُ مصدرٌ ويُوَضِّحُه ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ [الشمس : 11] والباءُ للسببيةِ على الأقوالِ كلِّها ، إلاَّ القولَ الأولَ فإنها للاستعانةِ كـ " عَمِلْتُ بالقَدُوم " .

(258/780)

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

قوله : ﴿ حُسُوماً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أَنْ ينتصِبَ نعتاً لِما قبلها . والثاني : أَنْ ينتصِبَ على المصدرِ بفعلٍ مِنْ لفظِها ، أي : تَحْسِمُهم حُسوماً . الثالث : أَنْ ينتصِبَ على الحالِ ، أي : ذاتَ حُسوم . الرابع : أَنْ يكونَ مفعولاً له ، ويَتَّضِحُ ذلك بقول الزمخشري : " الحُسوم : لا يَخْلو مِنْ أَنْ يكونَ جمعَ حاسِم كشاهِد وشُهود ، أو مصدراً كالشُّكور والكُفور . فإنْ كانَتْ جمعاً فمعنى قولِه " حُسوماً " : نَحِسات حَسَمَتْ كلَّ خيرٍ ، واستأصَلَتْ كلَّ بركةٍ ، أو متتابعةً هبوبَ الريح ، ما خَفَتَتْ ساعةً ، تمثيلاً لتتابُعِها بتتابُعِ فِعْلِ الحاسمِ في إعادةِ الكيِّ على الدّاء كرَّةً بعد أخرى حتى يَنْحَسِمَ . وإن كان مصدراً : فإمَّا أَنْ ينتصِبَ

بفعِله مضمراً ، أي : تَحْسِم حُسوماً ، بمعنى : تَسْتأصِلُ استئصالاً ، أو يكونُ صفةً كقولِ :

ذاتَ حُسومٍ ، أو يكونُ مفعولاً له ، أي : سَخَّرها عليهم للاستئصالِ . وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي :

4316 ففرَّق بين بَيْنِهُمُ زمانٌ . . . تتابَعَ فيه أعوامٌ حُسومُ

انتهى . قال المبرد : الحُسوم : الفَصْلُ حَسَمْتُ الشيء من الشيء فَصَلْتُه منه ومنه الحُسام . وقال الشاعر :

4317 فأرسَلْتَ ريحاً دَبُوراً عقيماً . . . فدارَتْ عليهمْ فكانَتْ حُسُوماً

(259/780)

وقال الليث : " هي الشُّؤْمُ : يقال : هذه ليالي الحُسومِ ، أي : تَحْسِم الخيرَ عن أهلِها .

وعندي أنَّ هذين القولَيْن يَرْجِعان إلى القول الأول ؛ لأنَّ الفصل قَطْعٌ ، وكذلك الشُّؤْمُ لأَنَّه يقطعُ الخيرَ . والجملةُ مِنْ قولِه " سَخَّرها " يجوز أَنْ تكونَ صفةً لـ " ريح " ، وأَنْ تكونَ حالاً منها لتخصُّصها بالصفةِ ، أو من الضميرِ في " عاتية " ، وأَنْ تكون مستأنفةً .

قوله : ﴿ فِيهَا صرعى ﴾ صَرْعَى حالٌ ، جمعُ صَرِيع نحو : قتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى ، والضمير في " فيها " للأيام والليالي ، أو للبيوت ، أو للرِيح ، أظهرُها الأولُ لقُرْبِه ، ولأَنَّه

مذكورٌ .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ حالٌ من القوم ، أو مستأنفةٌ . وقرأ أبو نهيك " أَعْجُزُ " على أَفْعُل نحو : ضَبُع وأَضْبُع . وقُرِىء " نخيل " حكاه الأخفشُ ، وقد تقدَّم أنَّ اسم الجنس يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ ، واختير هنا تأنيثُهُ للفواصلِ ، كما اخْتِير تذكيرُه لها في سورةِ القمر كما تقدَّم التنبيهُ عليه .

فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8)

قوله : ﴿ فَهَلْ ترى ﴾ : أدغم اللامَ في التاءِ أبو عمرو وحَده ، وتقدم في الملك . و " مِنْ باقية " مفعولُه و " مِنْ " مزيدةٌ ، والتاءُ في " باقية " قيل : للمبالغةِ ، أي : مِنْ باقٍ ، والأحسنُ أَنْ تكونَ صفةً لفرقةٍ أو طائفة ونحو ذلك .

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9)

قوله : ﴿ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ : قرأ بكسر القاف وفتح الباء أبو عمرو والكسائي ، أي : ومَنْ هو في جهتِه ، ويؤيِّدُه قراءةُ أبي موسى و " مَنْ تِلْقَاءَه " وقرأه أُبَيٌّ " ومَنْ تبعه " ، والباقون بالفتحِ والسكونِ على أَنَّه ظرفٌ ، أي : ومَنْ تقدَّمه .

قوله : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ إمَّا أَنْ يكونَ صفةً/ ، أي : بالفَعْلَةِ أو الفَعَلات الخاطئة ، وإمَّا أن يكون مصدراً كالخَطَأ فيكون كالعافية والكاذبة .

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)

قوله : ﴿ فِي الجارية ﴾ : غَلَبَ استعمالُ " الجارية " في السفينة كقوله :

4318 تِسْعُونَ جاريةً في بطنِ جاريةٍ . . . . . .

. . . . . .

هو من الألغاز ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار ﴾ [الشورى : 32] .

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12)

قوله : ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ : العامَّة على كسرِ العينِ وتخفيفِ الياءِ ، وهو مضارعٌ وَعى منصوبٌ عطفاً على " لِنَجْعَلَها " . وابن مصرف وأبو عمرو في رواية هارونَ عنه وقنبل بإسكانها تشبيهاً له ب " رَحْم " و " شَهْد " ، وإنْ لم يكُنْ منه ، ولكنْ صارَ في اللفظِ بمنزلة فَعِل الحلقيِّ العينِ . ورُوِيَ عن حمزةَ إخفاءُ الكسرة . ورُوِي عن عاصمٍ وحمزةَ أيضاً تشديدُ الياءِ . وهو غَلَطٌ عليها ، وإنما سَمِعهما الراوي يُبَيِّنان حركةَ الياءِ فظنَّها شَدَّةً . وقيل : أَجْرَيا الوصلَ مُجْرى الوقفِ فَضَعَّفا الحرفَ وهذا لا ينبغي أَنْ يُلْتَفَتَ إليه . ورُوِيَ عن حمزةَ أيضاً وموسى بن عبد الله العبسيِّ " وتَعِيْها " بسكونِ الياءِ ، وفيها وجهان : الاستئنافُ والعطفُ على المنصوبِ ، وإنما سَكَّنا الياءَ استثقالاً للحركةِ على حرفِ العلةِ كقراءةِ ﴿

تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة: 89] وقد مَرَّ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13)

(261/780)

قوله: ﴿ وَاحِدَةٌ ﴾ : تأكيدٌ ونَفْخَةٌ مصدرٌ قام مقامَ الفاعلِ . وقال ابن عطية: "لَمَّا نُعِتَ صَحَّ رَفْعُهُ" انتهى . ولو لم يُنْعَت لصَحَّ رفعُه لأنه مصدرٌ مختصٌ لدلالتِه على الوَحْدة ، والممنوعُ عند البصريين إنما هو إقامةُ المبهمِ نحو: ضُرِب ضَرْبٌ . والعامَّةُ على الرفعِ فيهما ، وقرأ أبو السَّمَّال بنصبِهما كأنه أقام الجارَّ مُقامَ الفاعلِ ، فترك المصدرَ على أصله ، ولم يؤنِّثِ الفعلَ وهو "نُفِخَ" لأنَّ التأنيثَ مجازيٌ ، وحَسَّنه الفَصْلُ .

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14)

[قوله:] ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض ﴾ : قرأه العامَّةُ بتخفيف الميمِ ، أي: وحَمَلَتْها الريحُ أو الملائكةُ أو القُدرة ثم بُني . وقرأ ابنُ عامرٍ في روايةٍ والأعمش وابن أبي عبلة وابن مقسم بتشديدِها ، فجاز أَنْ يكونَ التشديدُ للتكثير ، فلم يُكْسِبِ الفعلَ مفعولاً آخرَ ، وجاز أَنْ يكونَ للتعدية ، فيُكْسِبَه مفعولاً آخرَ ، فيُحْتمل أَنْ يكونَ الثاني محذوفاً ، والأولُ هو القائمُ مقامَ الفاعلِ تقديرُه: وحُمِّلَتِ الأرضُ والجبالُ ريحاً تفتِّتُها ؛ لقوله ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً

﴿ [طه: 105] . وقيل: التقدير حُمِّلَتا ملائكةً . ويُحْتَمَل أَنْ يكونَ الأولُ هو المحذوفَ، والثاني هو القائمُ مقامَ الفاعلِ .

قوله: ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ : أي: الأرضُ والجبالُ؛ لأنَّ المرادَ الشيئان المتقدّمان كقوله: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات: 9] .

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15)

(262/780)

قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ : منصوبٌ ب "وَقَعَتْ" . و "وقعتِ الواقعةُ" لا بُدَّ فيه مِنْ تأويلٍ: وهو أَنْ تكونَ "الواقعةُ" صارَتْ عَلَماً بالغَلَبة على القيامة أو الواقعةِ العظيمة، وإلاَّ فـ "قام القائم" لا يجوزُ؛ إذ لا فائدةَ فيه، وتقدَّم هذا في قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [الواقعة: 1] . والتنوين في "يومئذٍ" للعوضِ مِنْ الجملةِ، تقديره: يوم إذ نُفِخَ في الصُّور .

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17)

(263/780)

قوله : ﴿ على أَرْجَآئِهَآ ﴾ : خبرُ المبتدأ . والضميرُ للسماء . وقيل : للأرض . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما الفرقُ بين قولِه " والمَلَكُ " وبين أنْ يقال : والملائكة ؟ قلت : المَلَكُ أعَمُّ مِنْ الملائكةِ ؛ ألا ترى أنَّ قولَك " ما مِنْ مَلَكٍ إلاَّ وهو شاهِدٌ " أعمُّ من قولِك : " ما مِنْ ملائكة " انتهى . قال الشيخ : " ولا يَظْهر أنَّ المَلَكَ أعَمُّ مِنْ الملائكةِ ؛ لأنَّ المفردَ المحلَّى بالألف واللام [الجنسية] قُصارِه أَنْ يكونَ مُراداً به الجمعُ المُحلَّى [بهما] ولذلك صَحَّ الاستثناءُ منه ، فقصاراه أن يكونَ كالجمعِ المُحَلَّى بهما ، وأمَّا دَعْواه أنه أعَمُّ منه بقوله : " ألا ترى إلى آخره " فليس دليلاً على دَعْواه ؛ لأنَّ " مِنْ مَلَكٍ " نكرةٌ مفردةٌ في سياقِ النفيِ قد دَخَلَتْ عليها " مِنْ " المُخَلِّصةُ للاستغفارق . فَشَمَلَتْ كلَّ مَلَكٍ ، فاندرج تحتها الجمعُ لوجود الفردِ فيه ، فانتفى كلُّ فردٍ بخلافِ " مِنْ ملائكة " فإنَّ " مِنْ " دَخَلَتْ على جمع مُنكَّرٍ ، فَعَمَّ في كلِّ جمعٍ جمعٍ من الملائكة ، ولا يلزَمُ مِنْ ذلك انتفاءُ كلِّ فردٍ مَنْ الملائكة . لو قلت : " ما في الدارِ مِنْ رجال " جاز أَنْ يكونَ فيها واحدٌ ؛ لأنَّ النفيَ إنما انسحب على جمعٍ ، ولا يَلْزَمُ مِنْ انتفاءِ الجمعِ أَنْ ينتفيَ المفرد ، والمَلَكُ في الآية ليس في سياقِ نفيٍ دَخَلَتْ عليه " مِنْ " وإنما جيء به مفرداً لأنه أَخفُّ ، ولأنَّ قولَه " على أَرْجائِها " يَدُلُّ على الجَمْعِ ؛ لأنَّ الواحدَ بما هو واحدٌ لا يمكنُ أَنْ يكونَ " على أرجائها " في وقتٍ واحدٍ ، بل في أوقاتٍ . والمرادُ واللَّهُ أعلَمُ أنَّ الملائكةَ على أرجائها ، لا أنه مَلَكٌ/ واحدٌ ينتقِلُ على أرجائها في أوقات " .

قلت : الزمخشريُّ مَنْزَعُه في هذا ما قدَّمْتُه عنه في أواخرِ سورةِ البقرة عند قوله ﴿ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فليُراجَعْ ثمة . وأمَّا قولُ الشيخ : " ما [في الدار] مِنْ رجال ، إنَّ النفي مَنسَحِبٌ على رُتَبِ الجمعِ " ففيه خلافٌ للناسِ ونَظَرٌ . والتحقيقُ ما ذكره . والضمير في " فوقهم " يجوز أَنْ يعودَ على المَلَك ؛ لأنه بمعنى الجمع كما تقدَّم ، وأَنْ يعودَ على الحامِلينَ الثمانيةِ . وقيل : يعود على جمع العالَمِ ، أي : إن الملائكةَ تحملُ عَرْشَ اللَّهِ تعالى فوق العالَمِ كلِّه .

قوله : ﴿ ثمانيةٌ ﴾ أَبهم اللهُ تعالى هذا العددَ ، فلم يَذْكُرْ له تمييزاً فقيل : تقديرُه ثمانية أشخاص . وقيل : ثمانيةُ صُنوفٍ .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ : " تُعْرَضُون " هو جوابُ " إذا " مِنْ قولِه " فإذا نُفِخَ " ، قاله الشيخ . وفيه نظرٌ ، بل جوابُها ما تقدَّم مِنْ قولِه " وقَعَتِ الواقعة " و " تُعْرَضُون " على هذا مستأنفٌ .

قوله : ﴿ لاَ تخفى ﴾ قرأ الأخَوان بالياءِ مِنْ تحتُ ؛ لأن التأنيثَ مجازيٌّ ، وللفصل أيضاً ، وهما على أصلِهما في إمالةِ الألفِ . والباقون " لا تَخْفَى " بالتاءِ مِنْ فوقُ للتأنيثِ اللفظيِّ ، والفتحُ وهو الأصلُ .

قوله : ﴿ وَاهِيَةٌ ﴾ ، أي : ضعيفة . يقال : وَهَى الشيءُ يَهِي وَهْياً ، أي : ضَعُف ووهَى السِّقاءُ : انخرق . قال :

4319 خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤُهُ . . . ومَنْ هُرِيْقَ بالفَلاةِ ماؤُه

وقوله : ﴿ أَرْجَآئِهَآ ﴾ ، أي : جوانبُها ونواحيها . واحِدُها : رَجا بالقصر ، يُكتب الألف عكسَ رمى ، لقولهم رَجَوان قال :

4320 فلا يُرْمَى بِيَ الرَّجَوانِ أني . . . أقَلُّ القومِ ، مَنْ يُغْني مكاني

وقال الآخر :

4321 كأَنْ لم تَرَيْ قبلي أسيراً مُقَيَّداً . . . ولا رجلاً يُرْمى به الرَّجَوانِ

(265/780)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19)

قوله : ﴿ هَآؤُمُ ﴾ : أي : خُذُوا . وفيها لغاتٌ ، وذلك أنَّها تكونُ فِعْلاً صريحاً ، وتكونُ اسمَ فعلٍ ، ومعناها في الحالَيْنِ خُذْ . فإن كانَتْ اسمَ فعلٍ وهي المذكورةُ في الآيةِ الكريمةِ ففيها لغتان : المدُّ والقَصْرُ تقول : ها درهماً يا زيدُ ، وهاءَ درهماً . ويكونان كذلك في الأحوالِ كلِّها مِنْ إفرادٍ وتثنيةٍ وجمعٍ وتذكيرٍ وتأنيثٍ ، وتتصلُ بهما كافُ الخطابِ اتصالَها

باسمِ الإِشارةِ ، فَتُطابِقُ مخاطبَك بحسب الواقع ، مطابَقَتَها وهي ضميرُهُ ، نحو : هاكَ هاءكَ ، هاكِ هاءَكِ إلى آخرِه ، وتَخْلُفُ كافَ الخطابِ همزةُ " هاء " مُصَرَّفَةً تَصَرُّفَ كافِ الخطابِ ، فتقول : هاءَ يا زيدُ ، وهاءِ يا هندُ ، هاؤُما ، هاؤُم ، هاؤُنَّ ، وهي لغةُ القرآن .

وإذا كانت فِعْلاً صريحاً لاتصالِ الضمائرِ البارزةِ المرفوعةِ بها كان فيها ثلاثُ لغاتٍ ، إحداها : أَنْ تكونَ مثلَ : عاطى يُعاطي . فيُقال : هاءِ يا زيدُ ، هائِي يا هندُ ، هائِيا يا زيدان ، أو يا هندان ، هاؤُوا يا زيدون ، هائِيْنَ يا هنداتُ . الثانية : أَنْ تكونَ مثلَ " هَبْ " فتقول : هَأْ ، هَئِي ، هَآ ، هَؤُوا ، هَأْنَ . مثلَ : هَبْ ، هَبِي ، هَبا ، هَبُوا ، هَبْنَ .

الثالثة : أَنْ يكونَ مثلَ : خَفْ أمراً مِنَ الخوفِ فيقال : هَأْ ، هائي ، هاءا ، هاؤوا ، هَأْنَ ، مثلَ : خَفْ ، خافِي ، خافا ، خافُوا ، خَفْنَ .

(266/780)

واختُلِفَ في مَدْلولِها : فالمشهورُ أَنَّها بمعنى خُذوا . وقيل : معناها تعالوا ، فيتعدَّى ب " إلى " . وقيل : هي كلمةٌ وُضِعَتْ لإجابةِ الداعي عند الفرحِ والنشاطِ . وفي الحديث : " أنه ناداه أعرابيٌّ بصوتٍ عالٍ ، فجاوبَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : هاؤُم بصَوْلةِ صَوْتِه " ومِنْ كوْنِها بمعنى " خُذْ " الحديث في الرِّبا : " إلاَّ هاءَ وهاء " أي : يقول كلُّ واحدٍ من المتبايعَيْن .

خذ . وقيل معناها اقصِدوا . وزعم هؤلاء أنها مركبةٌ مِنْ ها التنبيه وأمُوا من الأَمِّ ، وهو القَصْدُ فصَيَّره التخفيفُ والاستعمالُ إلى هاؤم . وقيل الميم ضميرُ جماعةِ الذكورِ . وزَعَم القُتَبِيُّ أنَّ الهمزةَ بدلٌ من الكافِ ، فإنْ عَنَى أنَّها تَحُلُّ مَحَلَّها فصحيحٌ . وإنْ عَنَى البدَل الصناعيَّ فليس بصحيح .

وقوله : ﴿ هَآؤُمُ ﴾ يطلبُ مفعولاً يتعدَّى إليه بنفسِه ، إنْ كان بمعنى خُذْ أو اقْصِدْ ، وب " إلى " إنْ كان بمعنى تعالَوا . و " اقْرؤُوا " يَطْلُبُه أيضاً فقد تنازَعا في " كتابِيَهْ " وأعملَ الثاني للحَذْفِ من الأولِ . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في سورة الكهفِ وفي غيرِها . والهاءُ في " كتابِيَهْ وحِسابِيَهْ وسُلْطانِيَهْ ومالِيَهْ " للسَّكْت ، وكان حقُّها أَنْ تُحْذَفَ وَصْلاً ، وتَثْبُتَ وَقْفاً ، وإنما أُجْرِيَ الوَصْلُ مُجْرَى الوقفِ ، أو وُصِلَ بنيَّة الوقفِ في " كتابِيَهْ وحِسابِيَهْ " اتفاقاً فأَثْبَتَ الهاء ، وكذلك في " مالِيه وسُلْطانِيَهْ " ، و " ما هِيَهْ " في ﴿ القارعة ﴾ [القارعة : 10] عند القُرَّاءِ كلِّهم إلاَّ حمزةَ رحمه الله فإنه حَذَفَ الهاءَ مِنْ هذه الكَلِمِ الثلاثِ وَصْلاً وأَثْبَتَها وقفاً ؛ لأنَّها في الوقفِ يُحْتاج إليها لتحصينِ حركةِ الموقوفِ عليه ، وفي الوصلِ يُسْتَغْنَى عنها .

فإنْ قيل : فلِمَ لَمْ يَفْعَلْ ذلك في "كِتَابِيَهْ/ وحسابِيَهْ" فالجوابُ : أنه جَمْعٌ بني اللغتين ، هذا في القراءاتِ السبعِ . وقرأ ابنُ محيصن بحَذْفِها في الكَلِم كلِّها وَصْلاً ووَقْفاً ، إلاَّ في "القارعة" ، فإنه لم يَتَحَقَّقْ عنه فيها نَقْلٌ . وقرأ الأعمشُ وابنُ أبي إسحاق بحَذْفِها فيهنَّ وَصْلاً ، وإثباتِها وَقْفاً . وابن محيصن يُسَكِّنُ الياءَ في الكَلِمِ المذكورةِ وَصْلاً . والحقُّ أنها قراءةٌ صحيحةٌ أعني ثبوتَ هاءِ السكتِ وَصْلاً ، لثبوتِها في خَطِّ المصحفِ الكريمِ ، فلا يُلْتَفَتُ إلى قولِ الزهراوي : "إنَّ إثباتَها في الوصلِ لَحْنٌ ، لا أعلَمُ أحداً يُجيزه" . وقد تقدَّم الكلامُ على هاءِ السكتِ في البقرة . والأنعام بأشبعَ مِنْ هذا فعليك باعتبارِه .

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21)

قوله : ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ : فيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه على المجازِ ، جُعِلَتِ العِيشةُ راضيةً لمَحَلِّها وحُصولِها في مُسْتَحِقِّيها ، أو أنها لا حالَ أكملُ مِنْ حالِها . الثاني : أنَّه على النَّسَبِ أي : ذاتِ رِضا نحو : لابِن وتامِر . الثالث : أنها ممَّا جاء فيه فاعِل بمعنى مَفْعول نحو : ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] أي : مَدْفوق ، كما جاء مَفْعول بمعنى فاعِل كقولِه : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] أي : ساتِراً ، وقد تقدَّم ذلك .

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23)

والقُطوف : جمعُ قِطْفٍ ، وهو فِعْل بمعنى مَفْعول كالرِّعْي والذِّبْح وهو ما يَجْتَنيه الجاني مِن

الثمار .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)

(268/780)

قوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ : أي : يُقال لهم : كُلوا : و " هَنيئاً " قد تقدَّم في أولِ النساء . وجَوَّز الزمخشريُّ فيه هنا أن ينتصِبَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ أي : أَكْلاً هَنيئاً ، وشُرْباً هنيئاً ، وأَنْ ينتصِبَ على المصدرِ بعاملٍ مِنْ لفظِه مقدرٍ أي : هَنِئْتُمْ بذلك هَنيئاً . و " بما أَسْلَفْتُم " الباءُ سببيةٌ ، و " ما " مصدريةٌ أو اسميةٌ .

مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28)

قوله : ﴿ مَآ أغنى ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ نفياً ، وأَنْ يكونَ استفهامَ توبيخٍ لنفسِه .

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)

وقوله : ﴿ خُذُوهُ ﴾ كقولِه : ﴿ كُلُواْ ﴾ [الحاقة : 24] في إضمار القولِ . وقوله : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ تقديمُ المفعولِ يُفيد الاختصاصَ عند بعضهم ؛ ولذلك قال الزمخشري : " ثم لا تَصْلُوه إلاَّ الجحيمَ " . قال الشيخ : " وليس ما قاله مَذْهَباً لسيبويه ولا لحُذَّاقِ النحاة " . قلت : قد تقدَّمَتْ هذه المسألةُ مُتْقَنَةً ، وأنَّ كلامَ النحاةِ لا يأبى ما قاله .

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32)

قوله : ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ﴾ : في محلِّ جر صفةً ل " سِلْسِلَةٍ " و " في سِلْسِلَة " متعلّقٌ ب " اسْلُكوه " والفاءُ لا تَمْنع من ذلك . والذِّراعُ مؤنثٌ ، ولذلك يُجْمَعُ على أفْعُل وسَقَطَتْ التاءُ مِنْ عددِه قال :

4322- أَرْمي عليها وهي فَرْعٌ أَجْمَعُ . . . وهي ثلاثُ أَذْرُعٍ وإصبعُ

وزعم بعضُ أنَّ في قولِه : " في سِلْسلة " " فاسلكوه " قلباً ، قال : لأنه نُقِلَ في التفسير أنَّ السِّلسلةَ تَدْخُل مِنْ فيه ، وتخرجُ مِنْ دُبُرِه ، فهي المَسْلُوكة فيه ، لا هو مَسْلوكٌ فيها . والظاهرُ أنه لا يُحتاج إلى ذلك لأنه رُوي أنَّها لطولِها تُجْعَلُ في عنقِه وتَلْتَوي عليه ، حتى تُحيطَ به مِنْ جميعِ جهاتِه ، فهو المَسْلوكُ فيها لإحاطتِها به .

(269/780)

وقال الزمخشري : " والمعنى في تقديم السِّلسلةِ على السَّلْك مثلُه في تقديمِ الجحيمِ على التَّصْليةِ أي : لا تَسْلُكوه إلاَّ في هذه السلسلةِ و " ثُمَّ " للدلالةِ على التفاوُتِ لما بين الغَلِّ والتَّصْليةِ بالجَحيم ، وما قبلَها ، وبينَ السَّلْكِ في السِّلسلة لا على تراخي المُدَّة " . ونازعه الشيخُ في إفادةِ التقديم الاختصاصَ كعادتِه ، وجوابُه ما تقدَّم ، ونازَعه أيضاً في أنَّ " ثُمَّ "

للدلالة على تراخي الرتبة . وقال : " يمكنُ التراخي الزماني : بأَنْ يَصْلَى بعد أن يُسْلَكَ ، ويُسْلَكَ بعد أَنْ يُؤْخَذَ ويُغَلَّ بمهلةٍ بين هذه الأشياءِ " . انتهى . وفيه نظرٌ : من حيث إن التوعُّدَ بتوالي العذابِ آكَدُ وأقطعُ مِنْ التوعُّدِ بتَفْريقه .

وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34)

وقله : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ : الحضُّ : البَعْثُ على الفعلِ والحِرْصُ على وقوعِه ، ومنه حروفُ التحضيض المُبَوَّبُ لها في النحوِ ؛ لأنه يُطْلَبُ بها وقوعُ الفعلِ وإيجادُه .

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35)

(270/780)

قوله : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ ﴾ : في خبرِ " ليس " وجهان ، أحدهما : " له " ، والثاني : " ههنا " ، وأيُّهما كان خبراً تعلَّق به الآخَرُ ، أو كان حالاً مِنْ " حميمٌ " . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ " اليومَ " خبراً البتة لأنه زمانٌ ، والمُخْبَرُ عنه جثةٌ . ومنع المهدويُّ أَنْ يكونَ " ههنا " خبراً ، ولم يَذْكُرِ المانعَ . وقد ذكره القرطبي فقال : " لأنه يَصيرُ المعنى : ليس ههنا طعامٌ إلاَّ مِنْ غسْلين / ولا يَصِحُّ ذلك لأنَّ ثَمَّ طعاماً غيرَه " . انتهى . وفي هذا نظرٍ ؛ لأَنَّا لا نُسَلِّم أولاً أنَّ ثَمَّ طعاماً غيرَه . فإنْ أُرِدَ قوله : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6]

فهذا طعامٌ آخرُ غيرُ الغِسْلين . فالجوابُ : أنَّ بعضَهم ذهب إلى أن الغِسْلينَ هو الضَّريعُ بعينِه فسمَّاه في آيةٍ غِسْلِيناً ، وفي أخرى ضَريعاً . ولَئِنْ سَلَّمْنا أنهما طعامان فالحَصْرُ باعتبارِ الآكلين . يعني أنَّ هذا الآكلَ انحصَر طعامُه في الغِسْلِيْنِ ، فلا يُنافي أَنْ يكونَ في النار طعامٌ آخر . وإذا قُلْنا : إنَّ " له " الخبر ، وإن " اليوم " و " ههنا " متعلّقان بما تعلَّقَ هو به فلا إشكال . وكذاك إذا جَعَلْنا " ههنا " هو الخبرَ ، وعَلَّقْنا به الجارَّ والظرفَ ولا يَضُرُّ كونُ العاملِ معنوياً للاتساع في الظروفِ وحروف الجرِّ .

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36)

(271/780)

قوله : ﴿ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ : صفةٌ لـ " طعامٌ " دَخَلَ الحصرُ على الصفةِ ، كقولك : " ليس عندي رجلٌ إلاَّ من بني تميمٍ " والمرادُ بالحميم الصديقُ ، فعلى هذا الصفةُ مختصَّةٌ بالطعامِ أي : ليس له صديق ينفعُه ولا طعامٌ إلاَّ مِنْ كذا . وقيل : التقديرُ : ليس له حميمٌ إلاَّ مِنْ غِسْلين ولا طعامٌ ، قاله أبو البقاء ، فجعل " مِنْ غِسْلين " صفةً للحميم ، كأنَّه أرادَ به الشيءَ الذي يُحَمُّ به البدنُ مِن صديدِ النارِ . ثم قال : " وقيل : من الطعامِ والشرابِ ؛ لأنَّ الجميعَ يُطْعَمُ بدليله قولِه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ [البقرة : 249] فعلى هذا يكونُ ﴿ إِلَّا مِنْ

غِسْلِينٍ ﴾ صفةً ل "حميم" ول "طعام" ، والمرادُ بالحَميم ما يُشْرَبُ . والظاهرُ أنَّ خبرَ "ليس" هو قوله : "مِنْ غِسْلين" إذا أُرِيد بالحميم ما يُشْرَبُ أي : ليس له شرابٌ ولا طعامٌ إلاَّ غِسْلِيناً . أمَّا إذا أُريد بالحميمِ الصديقُ فلا يتأتَّى ذلك . وعلى هذا الذي ذكَرْتُه فيُسْأَلُ عمَّا يُعَلَّقُ به الجارُّ والظرفان ؟ والجوابُ : أنها تتعلَّقُ بما تعلَّقَ به الخبرُ ، أو يُجْعَلُ "له" أو "ههنا" حالاً مِنْ "حميم" ، ويتعلَّقُ "اليوم" بما تَعَلَّق به الحالُ . ولا يجوز أَنْ يكونَ "اليومَ" حالاً مِنْ "حميم" ، و "له" و "ههنا" متعلِّقان بما تعلَّق به الحالُ ؛ لأنه ظرفُ زمانٍ ، وصاحبُ الحالِ جثةٌ . وهذا الموضِعُ موضِعٌ حَسَنٌ مفيدٌ فتأمَّلْه .

والغِسْلِين : فِعْلِيْن مِن الغُسالةِ ، فنونُه وياؤُه زائدتان . قال أهلُ اللغة : هو ما يَجْري من الجِراحِ إذا غُسِلَتْ . وفي التفسير : هو صَديدُ أهلِ النار . وقيل : شجرٌ يأكلونه .

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)

(272/780)

قوله : ﴿ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ : صفةٌ ل "غِسْلين" . والعامَّةُ يَهْمِزُون "الخاطِئُون" وهو اسمُ فاعلٍ مِنْ خَطِىءَ يَخْطأ ، إذا فَعَلَ غيرَ الصوابِ متعمِّداً ، والمُخْطِىءُ مَنْ يفعلُه غيرَ متعمِّدٍ .

وقرأ الزُّهريُّ والعَتَكِيُّ وطلحة والحسن " الخاطِيُون " بياءٍ مضمومةٍ بدلَ الهمزة . وقد تقدَّم مثلُه في " مُسْتَهْزِيُون " أولَ هذا الموضوع . وقرأ نافعٌ في روايةٍ ، وشيخُه وشَيْبَةُ بطاءٍ مضمومةٍ دونَ همزٍ . وفيها وجهان ، أحدُهما : أنَّه كقراءةِ الجماعةِ ، إلاَّ أنه خُفِّفَ بالحَذْفِ . والثاني : أنه اسمُ فاعلٍ مِن خطا يخطو إذا اتَّبع خطواتِ غيرِه . فيكونُ مِنْ قولِه : ﴿ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان ﴾ [النور : 21] قاله الزمخشري ، وقد مَرَّ في أول هذا الموضوع أنَّ نافعاً يَقْرأ " الصابيْنَ " بدونِ همزٍ ، وتقدَّم ما نَقَلَ الناسُ فيها ، وعن ابن عباس : ما الخاطُون كلُّنا نَخْطُو . ورَوى عنه أبو الأسودِ الدؤليُّ : " ما الخاطُون ، إنما هو الخاطئُون وما الصابُون ، إنما هو الصابِئُون " .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38)

وقوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ : قد تقدَّم مثلُه في آخرِ الواقعة ، وأَشْبَعْتُ القول ثَمَّةَ إلاَّ أنَّه قيل ههنا : إنَّ " لا " نافيةٌ لفعلِ القسم ، وكأنَّه قيل : لا أَحْتاجُ أَنْ أُقْسِمَ على هذا ؛ لأنه حقٌّ ظاهرٌ مُسْتَغْنٍ عن القسمِ ، ولو قيل به في الواقعة لكان حَسَناً .

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)

قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ ﴾ : هو جواب القسمِ .

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41)

قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ ﴾ : معطوفٌ على الجوابِ فهو جواب . أَقْسَمَ على شيئين ، أحدُهما مُثْبَتٌ ، والآخرُ منفيٌّ وهو من البلاغةِ الرائعة .

(273/780)

قوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ انتصبَ " قليلاً " في الموضعَيْنِ نعتاً لمصدرٍ أو زمانٍ محذوفٍ أي : إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً . والناصب تُؤْمِنون وتَذَكَّرون ، و " ما " مزيدةٌ/ للتوكيدِ . وقال ابنُ عطيةَ : " ونُصِبَ " قليلاً " بفعلٍ مضمرٍ ، يَدُلُّ عليه " تُؤْمِنون " . وما يُحتمل أَنْ تكونَ نافيةً فيَنْتَفِي إيمانُهم البتةَ ، ويُحتمل أَنْ تكونَ مصدريةً ، ويتصفَ بالقلَّةِ ، فهو الإيمانُ اللغويُّ ؛ لأَنَّهم قد صَدَّقوا بأشياءَ يسيرةٍ ، لا تُغْني عنهم شيئاً ؛ إذ كانوا يُصَدِّقون بأنَّ الخيرَ والصِّلةَ والعفافَ الذي يأمرُ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو حقٌّ وصوابٌ " . قال الشيخ : " أمَّا قولُه : " قليلاً " نُصِبَ بفعلٍ إلى آخره فلا يَصِحُّ ؛ لأن ذلك الفعلَ الدالَّ عليه " تُؤْمنون " : إمَّا أن تكونَ " ما " نافيةً [أو مصدريةً] كما ذَهَبَ إليه . فإنْ كانَتْ نافيةً فذلك الفعلُ المضمرُ الدالُّ عليه " تُؤْمِنون " المنفيُّ ب " ما " يكونُ منفيّاً ، فيكون التقدير : ما تُؤْمِنون قليلاً ما تؤمنون ، والفعلُ المنفيُّ ب " ما " لا يجوزُ حَذْفُه ولا حَذْفُ " ما " ، لا يجوز : " زيداً ما أَضْرِبُه " على تقدير : ما أضربُ زيداً ما أَضْرِبُه . وإنْ

كانَتْ مصدريةً كانَتْ : إمَّا في موضع رفعٍ ب " قليلاً " على الفاعلية ، أي : قليلاً إيمانُكم ، ويبقى " قليلاً " لا يتقدَّمه مَا يَعْتمد عليه حتى يعملَ ، ولا ناصبَ له ، وإمَّا في موضعِ رفعٍ على الابتداءِ فيكونُ مبتدأً لا خبرَ له ، لأنَّ ما قبلَه منصوبٌ " .

(274/780)

قلت : لا يريدُ ابنُ عطيةَ بدلالةِ " تُؤْمنون " على الفعلِ المحذوفِ الدلالةَ المذكورةَ في بابِ الاشتغالِ ، حتى يكونَ العاملُ الظاهر مفسِّراً للعاملِ المضمرِ ، بل يريدُ مجرَّدَ الدلالةِ اللفظيةِ ، فليس ما أوردَه الشيخُ عليه مِنْ تمثيلِه بقولِه : " زيداً ما أَضْرِبُه " أي : ما أضربُ زيداً ما أضربه بواردٍ .

وأمَّا الردُّ الثاني فظاهرٌ . وقد تقدَّم لابنِ عطيةَ هذا القولُ في أول سورةِ الأعراف وتكلَّمْتُ معه ثَمَّة . وقال الزمشخريُّ : " والقلَّةُ في معنى العَدَمِ أي : لا تُؤْمنون ولا تَذَكَّرون البتة " .

قال الشيخ : " ولا يُرادُ ب " قليلاً " هنا النفيُ المَحْض ، كما زعم ، وذلك لا يكونُ إلاَّ في " أَقَلَّ " نحو : " أَقَلُّ رجلٍ يقولُ ذلك إلاَّ زيدٌ " وفي " قَلَّ " نحو : " قَلَّ رجلٌ يقولُ ذلك إلاَّ زيدٌ " وقد يُستعمل في قليل وقليلة ، أمَّا إذا كانا مرفوعَيْنِ ، نحوُ ما جَوَّزوا في قولِه :

4323 . . . . . قليلٌ

بها الأصواتُ إلاَّ بُغامُها

أمَّا إذا كان منصوباً نحو: "قليلاً ضَرَبْتُ" أو "قليلاً ما ضَرَبْتُ" على أَنْ تكونَ "ما" مصدريةً فإنَّ ذلك لا يجوزُ؛ لأنَّه في "قليلاً ضربْتُ" منصوبٌ ب "ضربْتُ". ولم تَستعمل العربُ "قليلاً" إذا انتصَبَ بالفعلِ نفياً، بل مقابلاً لكثير، وأمَّا في "قليلاً ما ضربْتُ" على أَنْ تكونَ "ما" مصدريةً فتحتاج إلى رفع "قليل" لأنَّ "ما" المصدريةَ في موضعِ رفع على الابتداء" انتهى ما رَدَّ به، وهو مجردُ دَعْوى.

وقرأ ابن كثير وابن عامر بخلافٍ عن ابن ذكوان بالغَيْبة في "يؤمنون" و "يَذَّكَّرون" حَمْلاً على قولِه: "الخاطِئون"، والباقون بالخطاب حَمْلاً على "بما تُبْصِرون وما لا تُبْصرون". وأُبَيٌّ "تتذكَّرون" بتاءين.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43)

قوله: ﴿ تَنزِيلٌ ﴾: هذه قراءةُ العامَّة، أعني الرفعَ على إضمارِ مبتدأ، أي: هو تنزيلٌ، وتقدَّم مثلُه. وأبو السَّمَّال "تَنْزيلاً" بالنصبِ على إضمارِ فعل أي: نَزَّل تنزيلاً.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44)

قوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ . تَفَعَّل من القولِ مبنيّاً للفاعلِ . وقال الزمخشري : " التقوُّلُ افعتالُ القولِ ؛ لأن فيه تكلُّفاً من المُفْتَعِل " . وقرأ بعضُهم " تُقُوِّل " مبنياً للمفعول . فإن كان هذا القارئُ رفع " بعضُ الأقاويل " فذاك ، وإلاَّ فالقائمُ مَقامَ الفاعلِ الجارُّ ، وهذا عند مَنْ يرى قيامَ غيرِ المفعول به مع وجودِه . وقرأ ذكوان وابنه محمد " يقولُ " مضارعُ " قال " . والأقاويلُ : جمعُ أقوالٍ ، وأقوالٌ جمع قَوْل ، فهو نظير " أبابيت " جمعُ أَبْيات جمعُ بَيْت . وقال الزمخشري : " وسَمَّى الأقوالَ المتقوَّلَةَ أقاويلَ تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : أعاجيب ، وأضاحيك ، كأنها جمع أُفْعُولة من القَوْل " .

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45)

قوله : ﴿ باليمين ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الباءُ على أصلِها غيرَ مزيدةٍ والمعنى : لأَخَذْناه بقوةٍ مِنَّا ، فالباءُ حاليةٌ ، والحالُ من الفاعلِ ، وتكون في حكم الزائدةِ . واليمينُ هنا مَجازٌ عن القوةِ والغَلَبة ، وأَنْ تكونَ مزيدةً ، والمعنى : لأَخَذْنا منه يمينَه ، والمرادُ باليمين الجارحَةُ ، كما يُفْعَلُ بالمقتول صَبْراً يُؤْخَذُ بيمينه ، ويُضرب بالسيفِ في جيده مواجهةً ، وهو أشَدُّ عليه . والوتينُ نياطُ القلب ، إذا انقطعَ ماتَ صاحبُه . وقال الكلبي : " هو عِرْقٌ بين العِلْباء والحُلْقوم ، وهما عِلْباوان ، بينهما العِرْقُ ، والعِلْباءُ : / عَصَبُ العُنُق " . وقيل : عِرْقٌ غليظٌ تصادِفُه شَفْرةُ الناحِرِ . قال الشمّاخ :

4324 إذا بَلَّغْتِني وحَمَلْتِ رَحْلِي . . . عَرابةَ فاشْرَقي بدمِ الوتينِ

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)

قوله : ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه نعتٌ ل " أحد " على اللفظِ ، وإنما جُمع على المعنى ؛ لأنَّ " أحداً " يَعُمُّ في سياقِ النفي كسائرِ النكراتِ الواقعة في سياقِ النفي ، قاله الزمخشريُّ والحوفيُّ ، وعلى هذا فيكون " منكم " خبراً للمبتدأ ، والمبتدأ " مِنْ أحدٍ " زِيْدَتْ فيه " مِنْ " لوجود شرطَيْها . وضَعَّفه الشيخُ : بأنَّ النفيَ يتسلَّطُ على كَيْنونتِه منكم ، والمعنى إنما هو على نفي الحَجْزِ عَمَّا يُراد به . والثاني : أَنْ يكونَ خبراً ل " ما " الحجازية و " مِنْ أحد " اسمُها ، وإنما جُمعَ الخبرُ لما تقدَّم ، و " منكم " على هذا حالٌ ؛ لأنه في الأصلِ صفةٌ ل " أحد " أو يتعلَّقُ ب " حاجِزين " . ولا يَضُرُّ ذلك ؛ لكونِ معمولِ الخبرِ جارّاً ، ولو كان مفعولاً صريحاً لامتنع . لا يجوز : " ما طعامَك زيدٌ آكلاً " أو يتعلَّقُ بمحذوفٍ على سبيل البيان . و " عنه " متعلِّقٌ ب " حاجزين " على القولَيْن ، والضميرُ للمتقوّل أو للقَتْل المدلولِ عليه بقولِه : " لأَخَذْنا " ، " لَقَطَعْنا " .

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48)

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ : أي : القرآن ، وكذلك " إنه لحَسْرة " . وقيل : إنَّ التكذيبَ به ، لدلالةِ " مكذِّبين " على المصدرِ دلالةَ السَّفيه عليه في قولِه :

4325 إذا نُهِي السَّفيهُ جرى إليه . . . وحالفَ والسَّفيهُ إلى خِلافِ

أي إلى السَّفَهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 423 . 444 ﴾

(277/780)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قول)

القَوْل : كل لفظ مَذَل به اللسان ، تامًّا كان أَو ناقصاً ، والجمع : أَقوال ، وجمع الجمع : أَقاويل ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ .

والقول والقال والقيل واحد .

وقيل : القول فى الخير ، والقال والقيل فى الشر ، قال :

*أَبكى إِلى الشرق إِن كانت منازلهم *مِمَّا يلى الغرب خوفَ القِيل والقال*

وقيل يقال : قال يقول قِيلا وقَوْلاً وقَوْلة ومقالاً ومَقَالة فيهما ، فهو قائل وقالٌ وقَوُول وقَؤُول .

والجمع : قُوَّل وقَيِّلٌ وقالة وقُوُول وقُؤُول .

ونهى صلَّى الله عليه وسلَّم عن قيل وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإِضافة المال .

وقال أَبو القاسم الأَصفهانى : القول يستعمل على أَوجه :

أَظهرها : أَن يكون للمركَّب من الحروف المبرَز بالنّطق ، مفردًا كان أَو جملة .

وقد يسمّى الواحد من الاسم والفعل والأَداة قولا ؛ كما قد تسمّى القصيدة والخطبة قولاً .

والثَّانى : يقال للمتصوَّر فى النفس قبل الإِبراز باللفظ قول ، فيقال : فى نفسى قول لم أُظهره ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴾ فجعل ما فى اعتقادهم قولاً .

الثالث للاعتقاد (كقولك : يقول الشافعى) رحمه الله .

الرابع : يقال للدّلالة على شىء ، كقولك للجدار المائل يقول : إِنّى ساقط .

وقال الشاعر : امتلأَ الحوض وقال قَطْنى .

الخامس : يقال للعناية الصَّادقة بالشىء ؛ كقولك : فلان يقول بكذا .

السَّادس : فى الإِلهام ؛ نحو : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ ﴾ فإِنَّ ذلك لم يكن بخطاب ورد عليه فيما رُوى وذكر ، بل كان إِلهاماً فسمَّاه قولاً .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ إِن ذلك كان بتسخير من الله تعالى لا بخطاب ظاهر ورد عليهما .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فذكر أفواههم تنبيهاً على أن ذلك كذب مقول لا عن صحّة اعتقاد ؛ كما ذكر الكتابة باليد فى قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى علم الله تعالى بهم وحكمه عليهم ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ، وإنما سمّاه قول الحقّ تنبيهاً على ما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وتسميته قولاً كتسميته كلمة فى قوله : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ .

وأمّا قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ فمعناه : فى أمر البعث ، فسمّاه قولا ، فإن المقول فيه يسمّى قولا ، كما أنّ المذكور يسمّى ذِكرا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ نسب القول إلى الرّسول ، وذلك لأنّ القول الصّادر إليك عن رسول يبلّغه إليك عن مرسِل له يصحّ أن تنسبه إليه تارة ، وإلى رسوله تارة .

وكلاهما صحيح .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ لم يُرد به القول النطقى فقط ، بل أراد ذلك إذا كان معه اعتقاد وعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، وقوله : ﴿ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾

المراد بهما القرآن ولهما نظائر .

وقوله : ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ أمر بوعظهم وتذكيرهم ، والمبالغة فى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

يعنى كلمة التوحيد .

(279/780)

وقال لموسى وهارون : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ .

وأمر بملاطفة الأقارب وبرّهم ورضخهم فقال : ﴿ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 303 . 306 ﴾

(280/780)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الحاقة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سمع عزيز لم يستعمل في سماع الغيبة ، وتحتاج في معرفتها إلى قلب عزيز لم يتبدل في الغفلة والغيبة ، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رتبة ، ولم تتبع نفسه اللبس والطبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَآقَّةُ ﴾ .

" الحاقة " : اسمٌ للقيامة لأنها تَحُقُّ كلَّ إنسانٍ بعملِهِ خَيْرِه وشَرِّه .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَآقَّةُ ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها ، والتفخيمَ لشأنها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ .

ذَكَرَ في هذه السورة : الذين كَذَّبوا رُسُلَهم من الأمم ، وأصرُّوا على كُفْرِهم ، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم ، فأهلكهم ، وانتقم لأنبيائه منهم .

والفائدةُ في ذِكْرِهم : الاعتبارُ بهم ، والتحرُّرُ عمَّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم . وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤَجَّلةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة ، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتُهم مُعجَّلة ؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا ، أو أضاعوا أدباً يعاقبهم برياح الحجبة ، فلا يَبْقى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين ، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا بالاعتراض على التقدير والقِسْمة .

وأمَّا فرعون وقومُه فكان عذابُهم بالغَرَقِ . . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربّه مشتغِلٌ ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ – فإذا لم يشكرْ النعمةَ ، وأساءَ أدبَه ، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللَّهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مَشْرَبُه ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقّ وغضبُه .

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11)

(281/780)

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية ، والكون يتلاطم في امواجِ بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلام ، لا مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد ، ولا تَوَقَّعَ شيءٍ من أحدٍ ؛ سالمون من الناسِ ، والناسُ منهم سالمون .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13)

بدأ في وصف القيامة والحساب . . .

قوله جلّ ذكره : ﴿ . . . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ وفي كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم محاسبَةٌ ومطالَبةٌ ، منهم مَنْ يستحق المعاتبة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ إِنِّ

مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ .

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

القومُ – غداً – في عيشةٍ راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت مآرِبُهم ، وحصلت حاجاتُهم ، وهم – اليومَ – في عيشةٍ راضية إذ كَفُّوا مآرِبَهم فَدَفَعَ عن قلوبهم حوائجَهم ؛ فليس لهم إرادةُ شيءٍ ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ . وإنما هم في رَوْحِ الرضا . . . فعَيْشُ أولئك في العطاء ، وعَيْشُ هؤلاء في الرضاء ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . . اسمعوا منَّا . . . وانظروا إلينا ، واستأنِسوا بقُرْبنا ، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا . . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : يَالَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ .

هناك – اليومَ – أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسارتُهم ، ويتضاعف أنينُهم – ليلَهم ونهارَهم – فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد ؛ تكدَّرتْ مشاربُهم ، وخربت أوطانُ أُنسِهم ، ولا بكاؤهم يُرْحَم ، ولا أنينُهم يُسْمَع . . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون . . . وهم في الحقيقة من اللَّهِ مرحومون ، أسبلَ عليهم الستر فَصَغَّرَهم في أعينهم – وهم أكرمُ أهل القصة ! كما قالوا :

لا تُنْكِرنْ جحدي هواكَ فإنما . . . ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

" لا " صلة والمعنى : أُقْسِم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون . وجوابُ القَسَم .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ . .

أي وجيهٍ عند الله . وقولُ الرسولِ الكريم هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن .

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أَن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ .

أي لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمَّد لعذَّبناه . والقول بعصمة الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء .

وعلوم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلائه ، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسيباً ، ثم ما يكون مع الإدراكات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 624. 627 ﴾

(283/780)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7)

فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

الإعراب :

(ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ ثان خبره (الحاقّة) الثاني . .

جملة : " الحاقّة ما الحاقّة " لا محلّ لها ابتدائيّة . .

وجملة : " ما الحاقّة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الحاقّة) الأول .

3 – (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول خبره جملة أدراك (ما الحاقّة) مثل الأولى كرّرت للتفخيم والتعظيم .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) الثاني .

وجملة : " ما الحاقّة . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

4 – (الواو) عاطفة (بالقارعة) متعلّق بـ (كذّبت) .

وجملة : " كذّبت ثمود . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ لتقرير أحوال الحاقّة .

5 – 6 (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الفاء) الثانية رابطة لجواب أمّا ، و(الواو) في (أهلكوا) نائب الفاعل (بالطاغية) متعلّق بـ (أهلكوا) و(الباء) سببيّة . . . (بريح) متعلّق بـ (أهلكوا) الثاني . . .

وجملة : " ثمود . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبت ثمود . . .

وجملة : " أهلكوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ثمود) " 1 " .

وجملة : " أمّا عاد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمّا ثمود . . .

وجملة : " أهلكوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (عاد) .

7 - (عليهم) متعلّق بـ (سخّرها) . (سبع) ظرف منصوب متعلّق بـ (سخّرها) ، (حسوما) نعت لسبع ، وثمانية " 2 " (الفاء) استئنافيّة (فيها) متعلّق بـ (ترى) ، (صرعى) حال منصوبة وعلامة النصب الفتحة المقدّرة .

وجملة : " سخّرها . . . " في محلّ جرّ نعت لريح " 3 " .

---

(1) الأصل في هذه الجملة : مهما يكن من أمر فثمود أهلكوا بالطاغية .

(2) يجوز أن يكون حالا من مفعول سخّرها . . وإذا قدّر الحسوم مصدرا - كالشكور بضمّ الشين - كان مفعولا مطلقا .

(3) أو في محلّ نصب حال من ريح لأنه تخصّص بالوصف . . . كما يجوز أن تكون استئنافيّة .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كأنّهم أعجاز . . . " في محلّ نصب حال من القوم .

8 – (الفاء) عاطفة (هل) حرف استفهام – وقد يفيد النفي – (لهم) متعلّق بحال من باقية (باقية) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به " 1 " . . .

وجملة : " هل ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى القوم .

الصرف :

(1) الحاقّة : اسم فاعل من الثلاثيّ حقّ أضيفت إليه تاء التأنيث لأنه وصف به مؤنّث أي القيامة الحاقّة أو الساعة الحاقّة أو الحالة التي تجب فيها الأمور وتعرف حقيقتها ، وزنه فاعلة .

(3) أدراك : فيه إعلال بالقلب ، أصله أدري – بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(5) الطاغية : اسم فاعل من الثلاثيّ طغى الشيء أي جاوز حدّه ، وهو صفة نابت عن الموصوف أي الصيحة الطاغية أو الفعلة الطاغية ، وزنه فاعلة . . . وقيل هو مصدر و(التاء) للمبالغة كالداهية ، وقد يراد به عاقر الناقة وقيل له طاغية كما يقال فلان راوية أو داهية . .

(6) عاتية : مؤنّث عات ، اسم فاعل من الثلاثيّ عتا يعتو ، وزنه فاع ، حذفت لامه لأنه

منقوص . . .

(7) سبع : جاء مذكّرا لأنّ المعدود مؤنّث وهو ليال . . . وانظر الآية (23) من سورة الكهف .

---

(1) وهو نعت لمنعوت محذوف . . . ويجوز أن تكون التاء للمبالغة .

(285/780)

(ثمانية) ، جاء مؤنّثا لأنّ المعدود مذكّر وهو أيام . . . اسم للعدد وزنه فعالة .

(حسوما) ، جمع حاسم ، اسم فاعل من حسم بمعنى تابع العمل كرّة بعد أخرى وخصوصا تتابع الكليّ ، جعله بعضهم مصدرا بمعنى الفصل أو

الاستئصال ، وزنه فعول بضمّتين .

(صرعى) ، جمع صريع صفة مشبّهة من صرع المبنيّ للمجهول ، فهو فعيل بمعنى مفعول كقتيل وقتلى ، وزن صرعى فعلى بفتح فسكون .

البلاغة

(1) معنى الاستفهام : في قوله تعالى " مَا الْحَاقَّةُ " .

أي : أي شيء أعلمك ما هي تأكيدا لهولها وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم

المخلوقات ، على معنى أن أعظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا دهمه . وكيفما قدرت حالها فهي وراء ذلك وأعظم وأعظم .

وقد وضع الظاهر موضع المضمر ، فلم يقل : ما هي . والفائدة منه زيادة التهويل والتفخيم لشأنها .

2 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً " .

حسوما جمع حاسم ، كشهود جمع شاهد ، من حسمت الدابة إذا تابعت كيها على الداء ، كرة بعد أخرى ، حتى ينحسم فهي مجاز مرسل ، من استعمال المقيد - وهو الحسم الذي هو تتابع الكي - في مطلق التتابع . وقيل : مستعار من الحسم بمعنى الكي ، شبه الأيام بالحاسم والريح لملابستها بها وهبوبها فيها .

3 - التشبيه المرسل : في قوله تعالى " كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ " .

حيث شبههم بالجذوع . لطول قاماتهم ، فقد كانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رؤوس النخل المتطاولة خلال تلك الأيام الثمانية .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 9 إلى 10]

وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة والأخريان عاطفتان (من) اسم موصول في

محلّ رفع معطوف على فرعون (قبله) ظرف زمان منصوب متعلّق بمحذوف صلة من

(المؤتفكات) معطوف على فرعون مرفوع " 1 " ، (بالخاطئة) متعلّق بحال من فاعل جاء

ومن عطف عليه .

جملة : " جاء فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

10 - (الفاء) عاطفة (عصوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء

الساكنين (أخذة) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " عصوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أخذهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عصوا .

الصرف :

(الخاطئة) ، صيغة للنسب أي ذات الخطأ كتامر ولابن ، وزنه فاعلة .

(أخذة) ، مصدر مرّة من الثلاثيّ أخذ ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 11 إلى 12]

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)

الإعراب:

(لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب حملناكم (في الجارية) متعلّق بـ (حملناكم) " 2 " .

جملة: "إنّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: " طغا الماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه

---

(1) هو على المجاز، أو بحذف مضاف أي أهل المؤتفكات.

(2) أي حملنا آباءكم . . . فالكلام بحذف مضاف.

وجملة: " حملناكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

12 - (اللام) للتعليل (نجعلها) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان.

والمصدر المؤوّل (أن نجعلها . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (حملناكم) .

وجملة : " نجعلها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تعيها أذن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعلها .

الصرف :

(12) تعيها : فيه إعلال بالحذف ، حذفت الفاء في المضارع لأنّه معتلّ لفيف مفروق يعامل معاملة المثال في الإعلال ، كما يعامل معاملة الناقص في الأمر ، وزنه تعلها .

(واعية) ، مؤنّث واع ، اسم فاعل من الثلاثيّ وعى ، وزنه فاع فيه إعلال بالحذف ، حذفت اللام لأنّه منقوص ، ووزن واعية فاعلة .

البلاغة

1 – الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ " .

وهذه الاستعارة من باب استعارة المعقول للمحسوس ، للاشتراك في أمر معقول ، وهي الاستعارة المركبة من الكثيف واللطيف ، فالمستعار الطغي وهو الاستعلاء المنكر ، والمستعار منه كل مستعل ومتكبر متجبر مضر ، والمستعار له الماء ، والطغي معقول ، والماء محسوس ، والمستعار منه محسوس .

2 – التنكير : في قوله تعالى " أُذُنٌ واعِيَةٌ "

.

فقد قال: أذن واعية، على التوحيد والتنكير، للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن اللّه فهي السواد الأعظم عند اللّه، وأن ما سواها لا يبالي بهم، وإن ملؤوا ما بين الخافقين

[سورة الحاقة (69): الآيات 13 إلى 18]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (في الصور) متعلّق بـ (نفخ)، (نفخة) مصدر قام مقام نائب الفاعل لأنّه موصوف.

جملة: "نفخ... نفخة" في محلّ جرّ مضاف إليه.

14 – 15 (الواو) عاطفة في الموضعين وكذلك (الفاء) ، (دكّة) مفعول مطلق منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يومئذ) ظرف أضيف إلى ظرف ، مبنيّ على الفتح – لأنه أضيف إلى مبنيّ – أو منصوب بدل من إذا ، أي متعلّق بـ (وقعت) ، والتنوين فيه عوض من جملة محذوفة أي : يوم إذ نفخ في الصور . . .

وجملة : " حملت الأرض . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نفخ .

وجملة : " دكّتا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة حملت الأرض .

وجملة : " وقعت الواقعة . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

16 – (الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) ، (يومئذ) الثاني متعلّق بـ (واهية) .

وجملة : " انشقّت السماء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " هي . . . واهية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انشقت السماء .

17 – 18 (الواو) عاطفة – أو حاليّة – والثانية عاطفة (فوقهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من ثمانية " 1 " ، (يومئذ) مثل الأول متعلّق بـ (يحمل) ، والتالي متعلّق بـ (تعرضون) ، والضمير فيه هو نائب الفاعل (لا) نافية (منكم) متعلّق بحال من خافية – نعت تقدّم على المنعوت – .

وجملة : " الملك على أرجائها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انشقّت السماء " 2 "

.

وجملة : " يحمل ثمانية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الملك على أرجائها .

وجملة : " تعرضون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " .

وجملة : " لا تخفى منكم خافية " في محلّ نصب حال من الضمير في (تعرضون) .

الصرف :

(13) نفخة : مصدر مرّة من الثلاثيّ نفخ ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(14) دكّة : مصدر مرّة من الثلاثيّ دكّ ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(16) واهية : مؤنّث الواهي ، اسم فاعل من الثلاثيّ وهي ، وزنه فاعلة بمعنى ضعيفة .

---

(1) نعت تقدّم على المنعوت ، واختلف في معدود ثمانية فقيل ثمانية صفوف وقيل ثمانية أملاك وقيل ثمانية آلاف . . . أو هو متعلّق بحال من عرش ربّك .

(2) أو في محلّ نصب حال من السماء .

(3) أو هي بدل من جواب الشرط .

---

(17) أرجاء : جمع رجا بمعنى طرف وجانب ، وفيه قلبت الواو إلى همزة لمجيئها متطرّفة بعد ألف ساكنة ، أصله أرجاو . . . وزنه أفعال .

(18) خافية : مؤنّث الخافي ، اسم فاعل من الثلاثيّ خفي ، وزنه فاعلة . . أو هو اسم بمعنى الشيء المخفيّ ضدّ المعلن . . أو هو مصدر بمعنى الخفاء ضدّ العلانية كالعافية .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 19 إلى 37]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28)

هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ (37)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة والثانية رابطة لجواب أمّا (أمّا) حرف شرط وتفصيل (بيمينه) متعلّق بـ (أوتي) و(الباء) للاستعانة (هاؤم) اسم فعل أمر بمعنى خذوا ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتم (كتابيه) مفعول به عامله اقرؤوا " 1 " منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه ، و(الهاء) هاء السكت لا محلّ لها . . .

جملة : " أمّا من أوتي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . .

وجملة : " أوتي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هاؤم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اقرؤوا . . . " في محلّ نصب بدل من جملة هاؤم " 2 " .

20 – (ملاق) خبر أنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (حسابيه) مفعول به لاسم الفاعل ملاق ، وهو مثل كتابيه . . .

وجملة : " إنّي ظننت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ظننت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّي ملاق . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّ .

21 – 23 (الفاء) استئنافيّة (في عيشة) متعلّق بخبر المبتدأ (هو) ، (في جنّة) متعلّق بالخبر المحذوف " 3 " . . .

وجملة : " هو في عيشة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قطوفها دانية . . . " في محلّ جرّ نعت لجنّة .

---

(1) وهو أيضا مفعول (هاؤم) على التنازع ، وقد أضمر فيه ضمير الكتاب .

(2) أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بعيشة .

(291/780)

---

24 - (هنيئًا) حال منصوبة من فاعل كلوا واشربوا (ما) حرف مصدريّ " 1 " (في الأيام) متعلّق بـ (أسلفتم) .

وجملة : " كلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " اشربوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كلوا .

وجملة : " أسلفتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما أسفلتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (كلوا واشربوا) .

25 - (الواو) عاطفة (أمّا من . . . فيقول) مثل الأولى (يا) أداة تنبيه (كتابيه) مثل الأول " 2 " . . .

وجملة : " أمّا من أوتي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من أوتي (الأولى) .

وجملة : " أوتي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " ليتني لم أوت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم أوت . . . " في محلّ رفع خبر ليتني .

26 - 27 (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (حسابيه) ، مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم ، و(الياء) مضاف إليه ، و(الهاء) للسكت لا محلّ لها (يا) للتنبيه ، والضمير الغائب في (ليتها) يعود على الميتة الأولى .

وجملة : " لم أدر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لم أوت .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف .

(2) في الآية (19) من هذه السورة .

وجملة : " ما حسابيه " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي أدر المعلّق بالاستفهام (ما) .

وجملة : " ليتها كانت القاضية " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : "كانت القاضية" في محلّ رفع خبر ليتها .

28 – 29 (ما) نافية " 1 " ، (عنّي) متعلّق بـ (أغنى) ، والثاني متعلّق بـ (هلك) بتضمينه معنى غاب . . .

وجملة : " ما أغنى عنّي ماليه " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " هلك عنّي سلطانية " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر – أو تعليل آخر .

30 – 31 (الفاء) عاطفة وكذلك (ثمّ) ، (الجحيم) مفعول به ثان مقدّم . . .

وجملة : " خذوه . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " غلّوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذوه .

وجملة : " صلّوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذوه .

32 – (ثمّ) عاطفة (في سلسلة) متعلّق بـ (أسلكوه) ، (ذراعا) تمييز منصوب (الفاء) عاطفة " 2 " . . .

وجملة : " ذرعها سبعون . . . " في محلّ جرّ نعت لسلسلة .

وجملة : " أسلكوه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقدّرة بعد ثمّ " 3 " .

33 – 34 (لا) نافية (باللّه) متعلّق بـ (يؤمن) المنفيّ (الواو) عاطفة (لا) نافية (على

---

(1) أو استفهام مفعول به مقدّم .

(2) لعطف الجمل المقولة في إعراب الجمل .

(3) والجملة المقدّرة معطوفة على جملة (صلّوه) بـ (ثمّ) . أي ثمّ زيدوا في عذابه فاسلكوه في سلسلة . . .

(293/780)

طعام) متعلّق بـ (يحضّ) .

وجملة : "إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – .

وجملة : "كان لا يؤمن . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "لا يؤمن بالله . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : "لا يحضّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يؤمن .

35 – 37 (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (له) متعلّق بمحذوف خبر ليس " 1 " ، (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بحال من حميم ، وكذلك (ها هنا) " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (طعام) معطوف على حميم مرفوع (إلّا) للحصر (من غسلين) متعلّق بنعت لطعام " 3 " ، (لا) نافية (إلّا) الثانية للحصر أيضا . .

وجملة : "ليس له . . . حميم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانت هذه حاله في الدنيا فليس له . . . " 4 " .

وجملة : " لا يأكله إلّا الخاطئون " في محلّ جرّ نعت لغسلين .

الصرف :

(21) عيشة : مصدر سماعيّ للثلاثيّ عاش باب ضرب ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، فهو على وزن مصدر الهيئة . . . ثمّة مصادر أخرى للفعل هي العيش زنة فعل بفتح فسكون ، ومعاش زنة مفعل بفتح الميم والعين ومعيشة زنة مفعلة بفتح الميم وكسر العين ، وعيشوشة زنة فعلولة بفتح فسكون . .

---

(1) أو متعلّق بحال من حميم ، والظرف (هاهنا) هو خبر ليس .

(2) أو (هاهنا) خبر ليس .

(3) وإذا كان الحميم هو ما يشرب أو ما يحمّ البدن من صديد النار فإن (من غسلين) هو خبر ليس بحسب الظاهر .

(4) أو الجملة معطوفة على التعليليّة (إنّه كان لا يؤمن . . .) بالفاء وفيها معنى السببيّة .

(294/780)

(راضية) ، مؤنّث الراضي ، اسم فاعل من الثلاثيّ رضي ، وزنه فاعلة " 1 " .

(23) قطوف : جمع قطف بكسر فسكون وزنه فعل بمعنى مفعول كالذّبح بمعنى المذبوح

أي ما يجنى من الثمار ، ووزن قطوف فعول بضمّتين .

(24) الخالية : مؤنّث الخالي ، اسم فاعل من الثلاثيّ خلا يخلو باب نصر وزنه فاعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله الخالو ، جاء ما قبل الواو مكسورا فقلبت ياء فأصبح الخالي ، ووزن الخالية الفاعلة .

(25) أوت : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه أفع بضمّ فسكون ففتح .

(26) أدر : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه أفع بفتح فسكون فكسر .

(31) صلّوه : فيه إعلال بالحذف بدءا من المضارع يصلّون – بضمّ الياء وفتح اللام المشدّدة – أصله يصلّيون – بياء مضمومة قبل الواو – استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى اللام قبلها – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح يصلّون . . . ثمّ انسحب الإعلال إلى الأمر صلّوه ، وزنه فعّوه .

(32) ذرعها : مصدر ذرع بمعنى قاس ، أو اسم بمعنى الطول ، وزنه فعل فتح فسكون .

(سبعون) ، اسم عدد من ألفاظ العقود ، ملحق بجمع المذكّر السالم ، وزنه فعلون بفتح فسكون .

(ذراعا) ، اسم للطول أو للعضو المعروف ، وزنه فعال بكسر الفاء .

---

(1) هو مجاز إن كان على بابه . أي إن كان بمعنى مفعول ، وعلى الحقيقة إن كان بمعنى النسبة كتامر ولابن .

(295/780)

---

(34) طعام : قد يكون اسم مصدر لفعل أطعم الرباعيّ ، بمعنى الإطعام ، وزنه فعال بفتح الفاء . . . وانظر الآية (259) من سورة البقرة .

(36) غسلين : اسم لما يجري من الجراح إذا غسلت ، وفي التفسير هو صديد أهل النار أو شجر يأكلونه ، وزنه فعلين بكسر فسكون فكسر .

البلاغة

التخصيص : في قوله تعالى " ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ " .

تقديم السلسلة على السلك ، كتقديم الجحيم على التصلية للدلالة على الاختصاص والاهتمام ، بذكر ألوان ما يعذب به ، كأنه قيل لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق من الجحيم .

الفوائد

- القلب :

وأكثر وقوعه في الشعر . ومنه قول رؤبة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه ، فعكس التشبيه مبالغة ، وحذف المضاف .

وقال عروة بن الورد

فديت بنفسه نفسي ومالي وما آلوك إلا ما أطيق

والأصل : فديت بنفسي ومالي نفسه . ومعنى ما آلوك ما أمنعك ، ثم ضمن في البيت معنى المنح ، أي ما أمنحك إلا ما أقدر عليه .

ومن القلب في الكلام " أدخلت القلنسوة في رأسي " و " عرضت الناقة على الحوض " و " عرضتها على الماء " . ومنه قوله تعالى : " وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ " وقال ثعلب في قوله تعالى : (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ) : إن المعنى اسلكوا فيه سلسلة ، ومنه قوله تعالى (ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى) أصله قابي قوس ، فقلبت التثنية بالإفراد ، وهو حسن إن فسر القاب بما بين مقبض القوس وسيتها (أي طرفها) ، ولها طرفان ، فله قابان ونظير ما مر في الآية الكريمة قول ابن الأعرابي :

إذا أحسن ابن العم بعد إساءة فلست لشرّي فعله بجمول

أي فلست لشر فعليه ومن القلب قوله تعالى : (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ) ، الأصل : فعميتم عنها .

ومنه قوله تعالى (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) إن المعنى لتنوء العصبة بها ، أي لتنهض بها متثاقلة والحاصل أن هذا الأسلوب وارد عند العرب وفي أساليبهم ، وقد جاء به القرآن الكريم ، وهو يمنح المعنى قوة وجمالا .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 38 إلى 52]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47)

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا) زائدة " 1 " ، (بما) متعلّق بـ (أقسم) ، والعائد محذوف (الواو) عاطفة (ما) الثاني في محلّ جرّ معطوف على ما الأوّل (لا) نافية (اللام) في موضع لام القسم (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (قول) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (قليلا)

مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته (ما) زائدة لتأكيد القلّة . . .

جملة : "لا أقسم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " تبصرون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الأول.

وجملة : "لا تبصرون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

---

(1) أو هي لا النافية للجنس ، والمنفي بها مقدّر أي لا ردّ لإنكارهم البعث. ثمّ يستأنف بالقسم.

(297/780)

وجملة : "إنّه لقول . . . "لا محلّ لها جواب القسم وجملة : "ما هو بقول . . . "لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم وجملة : " تؤمنون . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة.

42 - 43 (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (بقول) مثل الأول ومعطوف عليه (قليلا ما) مثل الأول (تذكّرون) مضارع محذوف منه إحدى التاءين (تنزيل) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (من ربّ) متعلّق بـ (تنزيل) . . .

وجملة : " تذكّرون "لا محلّ لها اعتراض ثان.

وجملة : " (هو) تنزيل . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

44 - 47 (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (علينا) متعلّق بـ (تقوّل) ، (بعض) مفعول به منصوب (اللام) واقعة في جواب لو (منه) متعلّق بـ (أخذنا) بتضمينه معنى نلنا (باليمين) متعلّق بحال من فاعل

أخذنا " 1 " ، (ثمّ) حرف عطف (لقطعنا) مثل لأخذنا (منه) متعلّق بـ (قطعنا) " 2 " ، (الفاء) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (منكم) متعلّق بحال من أحد (أحد) مجرور لفظا مرفوع محلّا اسم ما (عنه) متعلّق بـ (حاجزين) خبر ما ، وهو بحذف مضاف أي عن عقابه " 3 " . . .

وجملة : " تقوّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم " 4 " .

وجملة : " أخذنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : " قطعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة : " ما منكم من أحد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

48 - 51 (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة " 5 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد في المواضع الأربعة (للمتّقين) متعلّق بـ (تذكرة) (منكم) متعلّق بخبر أنّ (على الكافرين) متعلّق بنعت لـ (حسرة) . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ منكم مكذّبين) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي نعلم.

وجملة : " إنّه لتذكرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 6 " .

وجملة : " إنّا لنعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لتذكرة .

وجملة : " نعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

---

(1) أي أخذنا منه حالة كوننا أقوياء ، فاليمين مستعار للقوة .

(2) أو متعلّق بحال من الوتين . [. . . . .]

(3) والضمير في (عنه) يعود على النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم .

(4) أو هي استئنافيّة .

(5) أو الأولى استئنافيّة والثلاثة الأخرى عاطفة .

(6) أو هي استئنافيّة ، والجمل التالية معطوفة عليها .

وجملة : " إنّه لحسرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لتذكرة .

وجملة : " إنّه لحق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لتذكرة .

52 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (باسم) متعلّق بـ (سبّح) " 1 " . . .

وجملة : " سبّح . . . " في محلّ جواب شرط مقدّر

الصرف :

(الوتين) ، اسم لعرق في القلب يجري فيه الدم إلى كل الجسم ، وزنه فعيل بفتح الفاء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 29 صـ 57.76 ﴾

---

(1) أو الباء زائدة واسم منصوب محلّا مفعول به عامله سبّح .

(300/780)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(69) سورة الحاقة

مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون

[سورة الحاقة (69) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ (4)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها

عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8)

اللغة :

(الْحَاقَّةُ) القيامة والساعة الواجبة الوقوع وهو اسم فاعل من حق الشيء وجب ، وسيأتي مزيد حديث عنها في باب البلاغة .

(القارعة) القيامة والساعة أيضا لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، والقرع في اللغة نوع من الضرب وهو إمساس جسم لجسم بعنف وفي المصباح : " وقرعت الباب من باب نفع طرقته ونقرت عليه " .

(بِالطَّاغِيَةِ) بالواقعة المجاوزة للحدّ والمراد بها الصيحة .

(صَرْصَرٍ) الصرصر : الشديدة الصوت وقيل الباردة وتكرير الصاد والراء إشعار بتكريرهما .

(عاتِيَةٍ) قوية شديدة وسيأتي مزيد بحث عنها .

(حُسُوماً) سيأتي ذكرها في الإعراب والفوائد .

الإعراب :

)

الْحَاقَّةُ ، مَا الْحَاقَّةُ) الحاقة مبتدأ أو هي نعت لمنعوت وما اسم استفهام تعظيمي في محل رفع مبتدأ والحاقة خبرهما والجملة الاسمية خبر الحاقة والرابط هو إعادة المبتدأ بلفظه (وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ) الواو عاطفة وما اسم استفهام للتعظيم في محل رفع مبتدأ وجملة أدراك خبر ما وما الثانية اسم استفهام للتعظيم أيضا في محل رفع مبتدأ والحاقة خبر والجملة الاسمية في محل نصب مفعول أدراك الثاني والثالث لأن أدرى ينصب ثلاثة مفاعيل ومعناه أعلم ، وقد علقت أدراكم عن العمل بالاستفهام وعبارة أبي حيان : " وما استفهام أيضا مبتدأ وأدراك الخبر والعائد على ما ضمير الرفع في أدراك وما مبتدأ والحاقة خبر والجملة في موضع نصب بأدراك وأدراك معلقة وأصل درى يتعدى بالباء وقد تحذف على قلة فإذا دخلت همزة النقل تعدى إلى واحد بنفسه وإلى الآخر بحرف الجر فقوله ما الحاقة بعد أدراك في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر " (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعادٌ بِالْقارِعَةِ) كلام مستأنف مسوق لبسط بعض أحوال الحاقة وكذبت ثمود فعل ماض وفاعل وعاد عطف على ثمود وبالقارعة متعلقان بكذبت (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) الفاء عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل وثمود مبتدأ والفاء رابطة لجواب أما وأهلكوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل ، وبالطاغية متعلقان بأهلكوا والجملة خبر ثمود (وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ)

عطف على الجملة السابقة وصرصر وعاتية صفتان لريح (سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً) الجملة صفة ثالثة لريح وسخرها فعل ماض ومفعول به والفاعل يعود على اللّه وعليهم متعلقان بسخرها وسبع ليال نصب على الظرفية الزمانية وثمانية أيام عطف على سبع ليال وحسوما نعت لسبع ليال وثمانية أيام أو مصدر منصوب بفعل من لفظه أي تحسمهم حسوما أو حال من مفعول سخرها أي ذات حسوم أو مفعول لأجله ، وعبارة الزمخشري في هذا الصدد جيدة ننقلها فيما يلي لنفاستها : الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود أو مصدر كالشكور والكفور ، فإن كان جمعا فمعنى قوله حسوما نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة أو متتابعة هبوب الرياح ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرّة بعد أخرى حتى ينحسم ، وإن كان مصدرا فإما أن ينتصب بفعله مضمرا أي تحسم حسوما بمعنى تستأصل استئصالا ، أو يكون صفة كقولك ذات حسوم ، أو يكون مفعولا له أي سخرها عليهم للاستئصال ، وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي :

ففرّق بين بينهم زمان تتابه فيه أعوام حسوم

أقول : فبينهم ظرف للتفريق إلا أنه أراد المبالغة بجعل التفرق بين أجزاء هذا الظرف أيضا فقال ففرّق بين بينهم زمان وإذا فرق بين الظرف فقد فرّق بين أصحابه بالضرورة فهو من باب الكناية (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) الفاء عاطفة وترى القوم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وفيها متعلقان بتري والضمير يعود على الأيام والليالي أو على الريح وأعاده الزمخشري على مهابها وصرعى حال لأن الرؤية هنا بصرية ، وكأنهم كأن واسمها وأعجاز نخل خبرها وخاوية نعت لنخل أي ساقطة وجملة كأنهم حال من القوم ولك أن تجعلها مستأنفة

(303/780)

)

فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ) الفاء عاطفة وهل حرف استفهام معناه النفي أي لا ترى لهم وجعله بعضهم للإنكار ولا مساغ للإنكار هنا وترى فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت ولهم متعلقان بتري ومن حرف جر زائد وباقية مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول ترى أي من بقية أو من نفس باقية أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان .

البلاغة :

1- في قوله " الحاقة ما الحاقة " فنان رفيعان أولهما الإسناد المجازي للزمان على حد ليل قائم فالمراد بها الزمان الذي يحق أن يتحقق فيه ما أنكر في الدنيا من البعث فيصير فيها محسوسا مشاهدا بالعيان ، وقيل سمّيت حاقة لأنها تكون من غير شك وقيل سمّيت بذلك لأن كل إنسان يصير فيها حقيقا بجزاء عمله فلا يكون في الكلام مجاز على هذين الوجهين ، وقال الأزهري : " يقال حاققته فحققته أحقه أي غالبته فغلبته فالقيامة تحقّ كل محاق في دين اللّه بالباطل أي كل مخاصم " وفي الصحاح : " وحاقه أي خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق فإذا غلبه قيل حقه والتحاق التخاصم والاحتقاق الاختصام والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات " وفي الاستفهام تعظيم لشأن الحاقة وتهويل لأمرها وهناك فن ثالث وهو وضع الظاهر موضع المضمر فلم يقل ما هي والفائدة منه زيادة التهويل والتفخيم لشأنها .

2- وفي قوله " حسوما " مجاز مرسل من استعمال المقيد وهو الحسم الذي هو تتابع الكي لمطلق التتابع وقيل هو استعارة تصريحية تبعية فقد شبّه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكي القاطع للداء .

3- وفي قوله "كأنهم أعجاز نخل خاوية " تشبيه مرسل ، فقد شبّههم بالجذوع لطول قاماتهم وكانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع

رءوس النخل المتطاولة خلال تلك الأيام الثمانية أو الليالي السبع قيل هي أيام العجوز وذلك أن عجوزا من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها وقيل هي أيام العجز وهي آخر الشتاء وأسماؤها : الصّن والضبر والوبر والآمر والمؤتمر والمعلل ومطفىء الجمر ومكفىء الظعن .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 9 إلى 18]

وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13)

وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15)

وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

اللغة :

(وَالْمُؤْتَفِكاتُ) هي قرى قوم لوط وقد تقدم الحديث عنها .

(بِالْخاطِئَةِ) أي بالفعلة أو الفعلات الخاطئة أو بالخطأ فيكون مصدرا جاء على فاعلة كالعاقبة أو أنها صيغة نسب كتامر وباقل ، قال في الخلاصة :

ومع فاعل وفعال فعل في نسب أغنى عن اليا فقل

(رابِيَةً) زائدة في شدّتها على غيرها يقال ربا الشيء يربو إذا زاد .

(واعِيَةٌ)

حافظة لما تسمع .

(فَدُكَّتا) الدك فيه تفرق الأجزاء والدق فيه اختلاط الأجزاء .

)

(305/780)

أَرْجائِها) جوانبها جمع رجا ويكتب بالألف لأنه من ذوات الواو لقولهم في التثنية رجوان ومن غريب أمر هذه اللفظة أنها تعذب في الجمع وتسمج في المفرد ولعلك لا تجدها في كلام شاعر فصيح ولم تستعمل إلا مجموعة لأن الجمع يلبسها ثوبا من الحسن لم يكن لها في حال كونها موحدة وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة وهي بهذا تخالف الأرض فإنها تعذب مفردة وتجمع مجموعة ولهذا لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : " ومن الأرض مثلهنّ " في قوله تعالى " اللّه الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ " وهذا مردّه

إلى الذوق السليم لأنه الحاكم في الفرق بين الألفاظ .

الإعراب :

(وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ) كلام مستأنف أو معطوف على سابقه ، وجاء فرعون فعل ماض وفاعله ومن عطف على فرعون وقبله ظرف زمان متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة من وقرىء قبله بكسر القاف وفتح الباء أي ومن هو في جهته والمؤتفكات عطف أيضا وبالخاطئة متعلقان بجاء (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً) الفاء حرف عطف وعصوا فعل ماض وفاعل ورسول ربهم مفعول به ، فأخذهم عطف على فعصوا وأخذة مفعول مطلق ورابية نعت وفتح

همزة أخذة لأنها مصدر مرة وليست مصدر هيئة وإنما معنى الهيئة مستفاد من النعت (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ) إن واسمها ولما ظرفية حينية أو رابطة وطغى الماء فعل وفاعل وجملة حملناكم خبر إنّا والمراد آباؤكم وفي الجارية متعلقان بحملناكم (لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ)

اللام للتعليل ونجعلها فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بجملناكم والهاء مفعول أول لنجعلها ولكن حال وتذكرة مفعول به ثان وتعيها منصوب بالعطف على نجعل ولكم حال وتذكرة مفعول به ثان وتعيها منصوب بالعطف على نجعل وأذن فاعل وواعية نعت لأذن والضمير في لنجعلها عائد للفعلة وهي نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين (فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ) الفاء استئنافية والكلام مستأنف مسوق للشروع في ذكر تفاصيل أحوال القيامة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة نفخ في محل جر بإضافة الظرف إليها ونفخة نائب الفاعل وهو مصدر متصرف لكونه مرفوعا ومختص لكونه موصوفا بواحدة ، وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث ، وواحدة نعت (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً) وحملت فعل ماض مبني للمجهول معطوف على نفخ والأرض نائب فاعل والجبال عطف على الأرض ، فدكّت عطف أيضا ودك فعل ماض مبني للمجهول والتاء تاء التأنيث الساكنة والألف نائب فاعل ودكة مفعول مطلق وواحدة نعت ولم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة والأرض كالجملة الواحدة (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ) الفاء رابطة للجواب ويوم ظرف أضيف إلى مثله والتنوين عوض عن جملة مكوّنة من جملتي نفخ وحملت والظرف متعلق بوقعت ووقعت الواقعة فعل وفاعل (وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ) الواو عاطفة وانشقت السماء فعل وفاعل والفاء عاطفة وهي مبتدأ ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بواهية والتنوين عوض عن جملة

وقد تقدم ذلك وواهية خبر هي (وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ) والملك

(307/780)

مبتدأ وعلى أرجائها خبر ويحمل فعل مضارع مرفوع وعرش ربك مفعول به وفوقهم ظرف متعلق بمحذوف حال من العرش أي حال كونه فوق الملائكة ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بيحمل وثمانية فاعل أي يحمله فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا اللّه عزّ وجلّ (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ) يومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بتعرضون وتعرضون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ولا نافية وتخفى فعل مضارع مرفوع ومنكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لخافية وخافية فاعل والجملة حال من الواو في تعرضون.

البلاغة:

1- في قوله "إنّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية" استعارة تمثيلية وهي من باب استعارة المعقول للمحسوس للاشتراك في أمر معقول وهي الاستعارة المركبة من الكثيف واللطيف، فالمستعار الطغي وهو الاستعلاء المنكر، والمستعار منه كل مستعل متكبر متجبر مضر،

والمستعار له الماء ، والطغي معقول والماء محسوس والمستعار منه محسوس .

2- في قوله " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة " تكرر حذف الفاعل في هذه الآيات ، ومن الظواهر الأسلوبية اللافتة في البيان المعجز ظاهرة الاستغناء عن الفاعل التي توزعت في دراساتنا وكتبنا بين أبواب شتى متباعدة لا تعطي سر هذا الاستغناء ، فأنت تقرأ في الصرف كيفية بناء الفعل للمجهول وصيغ المطاوعة وفي النحو أحكام نائب الفاعل أما لما ذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي انفصلت عن الإعراب فعاد هذا الإعراب صنعة

و هو في الأصل من صميم المعنى كما ندرس في علم البيان إسناد الفعل إلى فاعله على سبيل المجاز دون أن نحاول جمع هذا الشتات المنتشر للظاهرة الأسلوبية لاجتلاء سرّها الذي من أجله تستغني العربية عن الفاعل فتسنده إلى غير فاعله بالبناء للمجهول أو بالمطاوعة أو بالإسناد المجازي ، ومما يلفت النظر اطّراد هذه الظاهرة في البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة وفي الآيات المكيّة بنوع خاص كما سترى وغاية ما يقوله البلاغيون أنه قد يحذف الفاعل للخوف منه أو عليه وللعلم أو للجهل به وقد مضى

المفسرون على تقدير فاعل محذوف لأحداث القيامة هو اللّه سبحانه أو ملك من ملائكته مع وضوح العمد في البيان القرآني إلى صرف النظر عن الفاعل والاستغناء عن ذكره وأكثر ما قالوه في تأويل ذلك أن الفاعل محذوف للعلم به فما سرّ ظاهرة الاستغناء عنه في أحداث القيامة.

الفوائد :

يشترط في نيابة المصدر عن الفاعل أن يكون متصرفا مختصا بصفة أو غيرها نحو فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وغير المتصرف من المصادر ما لزم النصب على المصدرية نحو سبحان اللّه ، وغير المختص المبهم نحو سير سير فيمتنع سبحان اللّه بالضم على أن يكون نائب فاعل فعله المقدر على أن الأصل يسبّح سبحان اللّه لعدم تصرفه ويمتنع سير سير لعدم الفائدة إذ المصدر المبهم مستفاد من الفعل فيتحد معنى المسند والمسند إليه ولا بدّ من تغايرهما بخلاف ما إذا كان مختصّا فإن الفعل مطلق ومدلول المصدر مقيد فيتغايران فتحصل الفائدة وإذا امتنع سير سير مع إظهار المصدر فامتناع سير بالبناء للمفعول على إضمار ضمير المصدر أحقّ بالمنع لأن ضمير المصدر المؤكد أكثر إيهاما

من ظاهره خلافا لمن أجازه كالكسائي وهشام فيما نقل ابن السيد أنهما أجازا جلس بالبناء للمفعول وفيه ضمير مجهول ، قال ثعلب : أراد أن فيه ضمير المصدر وتبعهما أبو حيان في النكت الحسان فقال ومضمر المصدر يجري مجرى مظهره فيجوز أن تقول : قيم وقعد فتضمر المصدر كأنك قلت قيم القيام وقعد القعود انتهى ، والصحيح المنع ، وأما قول امرئ القيس :

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل يسؤك وإن يكشف غرامك تدرب

فالنائب عن الفاعل بيتعلل ضمير مصدر مختص بلام العهد أو بصفة محذوفة والمعنى ويعتلل الاعتلال المعهود أو اعتلال ثم خصّصه أخرى محذوفة للدليل الدّال عليها وهو عليك المذكورة قبل الفعل وحذفت كما تحذف الصفات المخصصة للموصوفات للدليل كقوله تعالى : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، أي نافعا لأن أعمالهم توزن بدليل ومن خفّت موازينه الآية قاله في المغني وإضمار ضمير المصدر النوعي أجازه سيبويه لأن الفعل لا يدل عليه قاله ابن خروف في شرح كتاب سيبويه ويسؤك من الإساءة جواب الشرط الأول وتدرب بالدال المهملة من الدربة وهي العادة جواب الشرط الثاني والاعتلال الاعتذار يقال اعتلّ عليه بعلة اعتذر له عن قضاء غرضه بعذر وبذلك التوجيه يوجّه وحيل بينهم بالنصب فيكون المعنى وحيل هو أي الحول المعهود أو حول بينهم إلا أن الصفة هنا مذكورة وبذلك يوجه أيضا قول طرفة بن العبد :

فيا لك من ذي حاجة حيل دونها وما كل ما يهوى امرؤ هو نائله

فيكون المعنى حيل هو أي الحول المعهود أو حول دونها وليس النائب الظرف فيهما لأنه غير متصرف عند جمهور البصريين ، وعن

الأخفش أنه أجاز في لقد تقطع بينكم ومنا دون ذلك أن يكون الظرف في موضع رفع مع فتحه ثم قال أبو علي وتلميذه ابن جنّي فتحة إعراب واستشكل وقال غيرهما فتحة بناء وهو المشهور .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 19 إلى 37]

(310/780)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (28)

هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ

ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)
وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ
غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37)

الإعراب :

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ) الفاء استئنافية وأما حرف شرط أو تفصيل ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة أوتي صلة وأوتي

فعل ماض مبني للمجهول وكتابه مفعول به ثان والأول نائب الفاعل المستتر وبيمينه متعلق بأوتي (فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ) الفاء رابطة لجواب أما وجملة يقول خبر من وهاؤم فيها استعمالان :

1- أنها تكون فعلا صريحا .

2- أنها تكون اسم فعل ومعناها في الحالين خذوا .

(311/780)

فإن كانت اسم فعل وهي المذكورة ففيها لغتان المدّ والقصر تقول هاء درهما يا زيد وها درهما يا زيد ويكونان كذلك في الأحوال كلها من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث وتتصل

بهما كاف الخطاب اتصالها باسم الإشارة فتطابق مخاطبك بحسب الواقع مطابقتها وهي أن الكاف ضمير المخاطب تقول : هاك هاءك هاك هاءك إلى آخره ويخلف كاف الخطاب همزة متصرفة تصرف كاف الخطاب فتقول هاء يا زيد ، هاء يا هند ، هاؤما ، هاؤم ، هاؤن ، وهي لغة القرآن . وإذا كانت فعلا صريحا لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها كان فيها ثلاث لغات إحداها أنها تكون مثل عاطى يعاطي فيقال : هاء يا زيد هائي يا هند هائيا يا زيدان أو يا هندان هاءوا يا زيدون ، هائين يا هندات ، الثانية أن تكون مثل هب فيقال هأهيء هآهئوا هئن مثل هب هبي هبا هبوا هبن ، الثالثة أن تكون مثل خف أمرا من الخوف فيقال هأهائي هاءا هاءوا هأن مثل خف خافي خافا خافوا خفن ، واختلف في مدلولها والمشهور أنها بمعنى خذوا وقيل معناها تعالوا فتتعدى بإلى وقيل معناها القصد . وعبارة البحر : " هاء بمعنى خذ وقال الكسائي وابن السكيت : والعرب تقول : هاء يا رجل وللاثنين رجلين وامرأتين هاؤما وللرجال هاؤم وللمرأة هاء بهمزة مكسورة من غير ياء وللنساء هاين ، وقيل : هاؤم كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ناداه أعرابي بصوت عال فجاوبه عليه الصلاة والسلام هاؤم

بصولة صوته ، وزعم قوم أنها مركبة في الأصل والأصل هاء أموا ثم نقله التخفيف والاستعمال وزعم قوم أن هذه الميم ضمير جماعة الذكور " .

و اقتصر في الكشاف على قوله : " هاء صوت يصوّت به فيفهم منه معنى خذ كأفّ وحس وما أشبه ذلك " وهذا هو المشهور فيها . واقرءوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وكتابيه تنازع فيه هاؤم واقرءوا فأعمل الأول عند الكوفيين والثاني عند البصريين وأضمر في الآخر أي هاؤموه اقرءوا كتابيه أو هاؤم اقرءوه كتابيه وأصله كتابي فأدخلت عليه هاء السكت لتظهر فتحة الياء وقد تقدم بحث هاء السكت والجملة مقول القول (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ) إن واسمها وجملة ظننت خبرها وأن واسمها سدّ مسدّ مفعولي ظننت وملاق بخبر أني وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين وحسابيه مفعول به لملاق لأنه اسم الفاعل والياء مضاف إليه والهاء للسكت (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ) الفاء الفصيحة وهو مبتدأ وفي عيشة خبر وراضية نعت لعيشة وفيها ثلاثة أقوال : 1 - أنها على النسب أي ذات رضا نحو لابن وتامر لصاحب اللبن والتمر أي ثابت لها الرضا ودائم لها لأنها في غاية الحسن والكمال ، والعرب لا تعبّر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية بمعنى أن أهلها راضون بها والمعتبر في كمال اللذة الرضا .

2- أنها على إظهار جعل المعيشة راضية لمحلها وحصولها في مستحقها وأنه لو كان للمعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها فهي من باب المجاز . 3- وقال أبو عبيدة والفرّاء إن هذا مما جاء فيه فاعل بمعنى مفعول نحو ماء دافق بمعنى مدفوق بمعنى أن صاحبها يرضى بها ولا يسخطها كما جاء مفعول بمعنى فاعل كما في قوله تعالى : حجابا مستورا أي ساترا ، وعبارة أبي عبيدة في كتابه " مجاز القرآن " ومن مجاز ما يقع المفعول إلى الفاعل إن العرب وصفوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل والمعنى أنه مفعول وفي القرآن : في عيشة راضية وإنما

يرضى بها الذي يعيش فيها . (فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ) الجار والمجرور بدل من قوله في عيشة وعالية صفة أي مرتفعة المكان والدرجات (قُطُوفُها دانِيَةٌ) مبتدأ وخبر والجملة صفة ثانية لجنة والقطوف جمع قطف بكسر القاف بمعنى مفعول كالذبح بمعنى المذبوح وهو ما يقطفه القاطف من الثمار وأما القطف بفتح القاف فهو المصدر (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ) الجملة مقول قول محذوف أي يقال لهم ذلك وهنيئا حال أي مهنئين وقال الزمخشري : " هنيئا أكلا وشربا هنيئا أو هنيتم هنيئا على المصدر " ولا يجوز ذلك إلا

على تقدير الإضمار عند من يجيز ذلك أي أكلا هنيئا وشربا هنيئا وقد تقدم القول مفصلا في هنيئا ، وبما الباء حرف جر للسببية وما مصدرية أو موصولة والجار والمجرور متعلقان بهنيئا وجملة أسلفتم لا محل لها على كل حال وفي الأيام متعلقان بأسلفتم والخالية نعت للأيام (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ) الجملة معطوفة على الجملة السابقة ، ويا حرف نداء والمنادى محذوف أو لمجرد التنبيه وليت حرف مشبّه بالفعل للتمنّي والنون للوقاية والياء اسمها وجملة لم أوت خبر وكتابيه مفعول به ثان والأول نائب الفاعل المستتر (وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ) الواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم وأدر فعل مضارع مجزوم بلم وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وحسابيه خبرها والهاء للسكت والجملة سدّت مسدّ مفعولي أدر المعلقة عن العمل بالاستفهام ومعنى الاستفهام التعظيم والتهويل (يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ) الياء للنداء أو للتنبيه وقد تقدمت وليت واسمها والضمير يعود على الموتة في الدنيا وجملة كانت خبر ليت واسم كان ضمير مستتر يعود على الموتة والقاضية خبر كانت (ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ) ما نافية وأغنى فعل ماض وعنّي متعلقان

(314/780)

بأغنى وماليه فاعل أغنى ومفعول أغنى محذوف للتعميم ، ولك أن تعرب ما استفهامية في محل نصب مفعول مطلق لأغنى فيكون الاستفهام للتوبيخ وبّخ نفسه أي أيّ

إغناء أغنى ما كان لي من اليسار في الدنيا الذي ضننت به على الفقراء ، وبعضهم يعربها مفعولا به مقدما لأغني أي أيّ شيء ، فيهمل المصدر والعودة إليه والأول أرجح ويجوز في ماليه أن تكون ما اسم موصول هي فاعل أغنى واللام حرف جر والياء في محل جر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول أي الذي ثبت واستقر لي والأول أرجح (هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ) هلك فعل ماض وعني متعلقان به وسلطانيه فاعل هلك والياء في محل جر بالإضافة والهاء للسكت (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) الجملة مقول قول مقدّر وجملة القول مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدّر كأنه قيل : وما يفعل به بعد هذا التحسّر الصادر عنه فقيل يقال خذوه ، وخذوه فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به ، فغلّوه عطف على خذوه والخطاب للزبانية الموكلين بالعذاب (ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي والجحيم مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده وصلوه فعل أمر وفاعل ومفعول به (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وفي سلسلة متعلقان باسلكوه ولم تمنع الفاء من ذلك لأنه قدّم للاهتمام والتخصيص ، وذرعها مبتدأ وسبعون خبره وذراعا تمييز والفاء عاطفة أيضا واسلكوه فعل أمر وفاعل ومفعول به ، ثم إن كلمتي ثم والفاء الواقعتين في الجملة الأخيرة إن كانتا

لعطف جملة فاسلكوه لزم اجتماع حرفي العطف على معطوف واحد فينبغي أن تكون كلمة ثم لعطف قول مضمر على ما أضمر قبل

(315/780)

قوله خذوه أي قيل لخزنة جهنم خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ثم قيل لهم في سلسلة إلخ وتكون الفاء لعطف المقول على المقول وثم لعطف القول على القول وعبارة الزمخشري : " ومعنى ثم الدلالة على تفاوت ما بين الغلّ والتصلية بالجحيم وما بينها وبين السلك في السلسلة لا على تراخي المدة " (إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) الجملة تعليلة مسوقة لتعليل هذا العذاب

الشديد الذي يلقاه وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر يعود عليه وجملة لا يؤمن خبر كان وبالله متعلقان بيؤمن والعظيم نعت لله وعبارة الزمخشري " أنه تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ كأنه قيل :

(316/780)

ما له يعذب هذا العذاب الشديد فأجيب بذلك " (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) الواو عاطفة لتجمع بين الأمرين المستوبلين وهما الكفر والبخل وهما أقبح العقائد والرذائل ، ولا نافية ويحضّ فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو وعلى طعام المسكين متعلق بيحضّ (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ) الفاء الفصيحة كأنه قيل إن شئت أن تعرف مصيره بعد الحالة الدينية التي ارتطم فيها فليس . وليس فعل ماض ناقص وله خبر مقدّم واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال أو متعلق بما في الخبر من معنى الاستقرار وها للتنبيه وهنا اسم إشارة في محل نصب على الظرفية متعلق بما تعلق به اليوم أيضا وحميم اسم ليس ولا يصحّ أن يكون اليوم خبر ليس لأنه زمان والمخبر عنه جثة وحميم اسم ليس (وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) الواو حرف عطف ولا نافية وطعام عطف على حميم وإلا أداة حصر ومن غسلين نعت لطعام فدخل الحصر على الصفة كقولك ليس عندي رجل إلا من بني تميم إذ المراد بالحميم الصديق فعلى هذا الصفة مختصة بالطعام أي ليس له صديق ينفعه ولا طعام إلا من كذا ، ونون غسلين وياؤه زائدتان وهو ما يجري من الجراح إذا غسلت ، ومن الغريب أن يجيز أبو البقاء جعل من غسلين صفة للحميم كأنه أراد به الشيء الذي يحم البدن من صديد النار على أنه عاد فذكر قوله " وقيل من الطعام والشراب لأن الجميع يطعم بدليل قوله ومن لم يطعمه فعلى هذا يكون قوله إلا من غسلين صفة لحميم ولطعام " وما أكثر ما للنقل من آفات (لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ) الجملة صفة لغسلين ولا نافية ويأكله فعل مضارع

ومفعول به مقدم وإلا أداة حصر والخاطئون فاعل ليأكله .

البلاغة :

(317/780)

في تقديم السلسلة على السلك نكتة بلاغية هامة وهي التخصيص وكذلك تقديم الجحيم على التصلية أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم ، وفي تخصيص الطول بسبعين ذراعا مبالغة في إرادة الوصف بالطول كما قال إن تستغفر لهم سبعين مرة يريد مرات كثيرة لأن السلسلة كلما طالت كان الإرهاق أشد والعذاب أمضّ . والعدد عند الجاحظ لا يحمل في القرآن معنى التحديد الكمّي ، إنما المقصود التعدّد والكثرة .

[سورة الحاقة (69) : الآيات 38 إلى 52]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47)

وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

اللغة :

(تَقَوَّلَ) التقوّل : افتعال القول لأن فيه تكلفا من المفتعل ، وقال

أبو حيان : " التقوّل : أن يقول الإنسان عن آخر إنه قال شيئا لم يقله " .

(الْأَقَاوِيلِ) جمع الجمع وهو أقوال كبيت وأبيات وأبابيت ، وقال الزمخشري وسمى الأقوال المتقولة أقاويل تصغيرا لها وتحقيرا كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أفعولة من القول .

(الْوَتِينَ) عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها ويجمع على وتن وأوتنة .

الإعراب :

)

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ) الفاء استئنافية ولا زائدة وقد تقدم الكلام في لا قبل القسم في قوله فلا أقسم بمواقع النجوم ، وأقسم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وبما متعلقان بأقسم

وتبصرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة وفي البيضاوي " فلا أقسم لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم أو فأقسم ولا مزيدة أو فلا رد لإنكارهم البعث وأقسم مستأنف " ويرد قول البيضاوي الأول أي جعلها نافية للقسم تعيين المقسم به بقوله بما تبصرون وما لا تبصرون (وَما لا تُبْصِرُونَ) عطف على ما تبصرون (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) إن واسمها واللام المزحلقة وقول رسول خبرها وكريم صفة لرسول والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم فهو المحلوف عليه والضمير يعود على القرآن أي قاله الرسول تبليغا عن اللّه (وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة وما نافية حجازية وهو اسمها والباء حرف جر زائد وقول مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما الحجازية وشاعر مضاف إليه وقليلا صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق أو صفة لزمان محذوف فهو ظرف زمان أي تؤمنون إيمانا قليلا أو زمانا قليلا ، وما يحتمل أن تكون نافية فينتفي أيمانهم البتة ويحتمل أن تكون مصدرية

(319/780)

و المتّصف بالقلّة هو الإيمان اللغوي ويكون المصدر المؤول في موضع رفع على الفاعلية بقليلا أي قليلا إيمانكم ويحتمل أن تكون زائدة مؤكدة ولعل هذا الوجه أصوب الوجوه لأنه

المناسب لتأكيد القلّة والمعنى أنهم آمنوا بأشياء يسيرة مما أتى به النبي صلّى اللّه عليه وسلم من الخير كالصلة والعفاف وإنما آمنوا بهذه الأشياء لأنها جارية وفق طباعهم منسجمة مع مقتضيات مروءاتهم (وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) خبر لمبتدأ محذوف أي هو تنزيل ومن رب العالمين متعلقان بتنزيل (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ) الواو عاطفة ولو شرطية وتقوّل فعل ماض وفاعله يعود على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وتأدب أبو حيان فقال أنه يعود على المتقوّل المضمر وليس عائدا على الرسول الكريم صلّى اللّه عليه وسلم لاستحالة وقوع ذلك منه قال أبو حيان " فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه عليه الصلاة والسلام " وعلينا متعلقان بتقول وبعض الأقاويل نائب مفعول مطلق (لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) اللام واقعة في جواب لو وأخذنا فعل وفاعل ومنه متعلقان بأخذنا وباليمين يجوز أن تكون الباء على أصلها غير مزيدة والمعنى لأخذناه بقوة منّا فالباء حالية والحال من الفاعل وتكون منه في حكم الزائدة ويجوز أن تكون الباء زائدة والمعنى لأخذنا منه يمينه (ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ولقطعنا عطف على لأخذنا ومنه متعلقان بقطعنا أو بمحذوف حال والوتين مفعول به (فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ) الفاء عاطفة وما نافية حجازية ومنكم حال لأنه كان في الأصل صفة لأحد فلما تقدم صار حالا ومن حرف جر

زائد وأحد مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه اسم ما وعنه متعلقان بحاجزين وحاجزين خبر ما

(320/780)

لأنه هو محطّ الفائدة وقال الحوفي والزمخشري حاجزين نعت لأحد على اللفظ وجمع على المعنى لأنه

في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع والمذكر والمؤنث وعلى هذا الإعراب يكون أحد مبتدأ والخبر منكم وقد ضعف أبو حيان هذا الإعراب قال : " ويضعف هذا القول لأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم فلا يتسلط على الحجز وإذا كان حاجزين خبرا تسلط النفي عليه وصار المعنى ما أحد منكم يحجزه عمّا يريد به من ذلك والضمير في عنه للقتل أي لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه أو لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أي لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه والخطاب للناس " وعبارة الجلال " حاجزين مانعين خبر ما وجمع لأن أحدا في سياق النفي بمعنى الجمع وضمير عنه للنبي صلّى اللّه عليه وسلم أي لا مانع لنا عنه من حيث العقاب " وعبارة أبي البقاء : " من زائدة وأحد مبتدأ وفي الخبر وجهان أحدهما حاجزين وجمع على معنى

أحد وجر على لفظ أحد وقيل هو منصوب بما ولم يعتد بمنكم فصلا وأما منكم على هذا فحال من أحد وقيل تبيين والثاني الخبر منكم وعن يتعلق بحاجزين " (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) الواو عاطفة والكلام معطوف على جواب القسم السابق فهو من جملة المقسم به وما بينهما اعتراض وإن واسمها والضمير يعود على القرآن واللام المزحلقة وتذكرة خبر وللمتقين متعلقان بتذكرة (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) عطف أيضا وإن واسمها واللام المزحلقة وجملة نعلم خبر وأن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولي نعلم ومنكم خبر أن المقدم ومكذبين اسمها المؤخر (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ) عطف أيضا وإن واسمها وخبرها وعلى الكافرين نعت لحسرة أو متعلق به (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) عطف أيضا وإن واسمها وخبرها (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) الفاء الفصيحة وسبّح فعل أمر وباسم ربك متعلقان بسبّح أو الباء زائدة وقد تقدم إعراب نظيره والعظيم نعت لربك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 188. 107﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/781)

الجزء الحادى والثمانون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المعارج)

(4/781)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المعارج)

(5/781)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة المعارج)

وتسمى سأل .

مقصودها إثبات القيامة وأنذار من كفر بها وتصوير عظمتها بعظمة ملكها وطول يومهت

وتسلية المنذر بها بما لمن كذبه بما له من الصغار والذل والتبار ، ودل على وجوب وقوعها سابقا بما ختمه بتسميتها في السورة الماضية بالحاقة تنبيها على أنه لا بد منها ولا محيد عنها ، ودل على ذلك بالقدرة في أ ، لها والعلم في اثنائها والتنزه عما في إهمالها من النقص في آخرها ولا خفاء بما أخبر من أنه أرسل جميع رسله بالتحذير منها فأرسل نوحا عليه السلام يفي الزمان الأقدم كما ذكر في سورته عند ما اختلف الناس بعد ما كانوا عليه يفي زمان أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام من الاتفاق على الدين الحق فافترقوا إلى مصدق ومكذب ، فعلم منه أ ، من بعده أولى بذلك لقربهم منها وأتبع ذلك الإعلام أنه دعا إلى ذلك الجن الذين كان سبيلهم فيها سبيل الآدميين ، وأتبع ذلك بعد إرسال أول الرسل بها زمانا – آخرهم زمانات وأولهم نبوة حين كان نبيا وآدم بين الروح والجسد ، فبدا بسورة المزمل بنبوته ومزيد ترزكيته وتقديسه ورفعته والإخبار عن رسالته والتحذي من مخالفته ، وأتبع ذلك الإنذار بها بالصدع بالرسالة بمحو كل ضلالة ، فلما تقررت نبوته وثبتت رسالته على أجمل الوجوه وأجلاها وأبينها وأعلاها ، اشرفها وأولاها ، جعل سبحانه سورة القيامة كلها لها إعلاما بأن الأمر عظيم جدا يجب الاعتناء به والتأهب له والاجتهاد بغاية القوة وإفراغ الجهد ، ثم اتبع ذلك الإنسان دلالة على أنه المقصود بالذات من الأكوان ، فاليسوغ في الحكمة أن يجعله سبحانه سدى وبين كثيرا من أحوالها ثم أقسم في المرسلات أن أملاها حق لا بد منه ولا مندوحة عنه ، ثم عجب في " عم " منهم في تساؤلهم عنها وتعجيبهم

منها ثم أقسم على زقزعها في النازعات وصور من أمرها وهزاهزها ما أراد ، ثم أولى ذلك الدلالة في سورة عبس على أن من الناس من طبع على قلبه فلا حيله في تصديقه بها مع ما تبين بالسورة الماضية وغيرها من أمرها ، ثم

(6/781)

صورها في "كورت" تصوير صارت من رأي عين لو كشف الغطاء ما ازداد الموقنون بها يقينا ، ثم بين في الانفطار أن الأمور فيها ليست على منهاج الأمور هنأ ، بل الأسباب كلها منقطعة والأنساب مرتفعة ، والكل خاضعون مخبتون خاشعون ، أعظمهم في الدنيا تجبرا أشدهم هنالك صغارا وتحسرا ، ثم أتبع ذلك من يستحق هنالك النكال والسلاسل والأغلال ، ثم أولاه رفعة أهل الإيمان الذين طبعهم على الإقرار بها والعرفان ، واستمر على هذا إلى آخر القرآن قل أن تأتي سورة إلا وهي معرفة بها غاية المعرفة إلى أن ختمك بالدين إشارة بذلك إلى أن معرفتها هي الدين وأشار في " تبت " إليها وأتبعها الإخلاص إشارة إلى أنه لا يسلم فيها إلا الموحدون المعاذون من الفتن الظاهرة والباطنة ، المتصفون بالمحامد المتعاظمة المتكاثرة ، فآذن ذلك أن أكثر غاية القرآن في أمرها العظيم الشأن لأنه لا كتاب بعد هذا الكتاب ينتظر ولا أمة أشرف من هذه تخص ببيان أعظم من بيانها وهو أحد

الأوجه التي فاق بها القرآن على الكتب الماضية والصحف الكائنة في القرون الخالية ، وآذن ذلك بأن الأمر قد قرب والهول قد دهم والخوف قد قدح ، ليشمر أهل الاختصاص في النجاة من عذابها والخلاص حين لا مفر ولا ملجأ ولات حين مناص ، نسأل الله العافية في يومها والعيشة الراضية ، وعلى هذا المقصد دل اسمها " سأل " وكذا المعارج وهما أنسب ما فيها للدلالة على ذلك ، وقانا الله سبحانه وتعالى من آفاتها والمهالك آمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 143.144 ﴾

(7/781)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سأل سائل)

السّورة مكّيّة .

وآياتها ثلاث وأَربعون فى عدّ السام ، وأَربع فى عدّ الباقين .

كلماتها مائتان وثلاث عشرة .

وحروفها سبعمائة وسبع وخمسون .

المختلف فيها آية : ﴿ أَلْفُ سَنَةٍ ﴾ فواصل آياتها (جعلناهم) على الميم [﴿ مَعْلُومٌ ﴾ و ﴿ الْمَحْرُومُ ﴾] وعلى الجيم ﴿ الْمَعَارِجِ ﴾ وعلى اللاّم ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ .

وللسّورة ثلاثة أَسماء : الأَول سأَل ؛ لمفتتحها .

والثَّانى الواقع ؛ لقوله : ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٌ ﴾ .

الثالث ﴿ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ .

مقصود السّورة : بيان جُرْأَة الكافر فى استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشُغْل الخلائق فى ذلك اليوم المضهيب ، واختلاف حال الناس فى الخير والشرّ ومحافظة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفَّار فى غير مَطْمَع ، وذُلّ الكافرين فى يوم القيامة فى قوله : ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ

فيها من المنسوخ آيتان : م ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً ﴾ م ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ ن آية السّيف .

المتشابهات

قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ عَدّ عقيب ذكرهم الخصالَ المذكورة أَوّل سورة المؤمنين ، وزاد فيها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ﴾ ؛ لأَنَّه وقع عقيب قوله : ﴿ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ وإِقامة الشهادة أَمانة ، يؤدّيها إِذا احتاج إليها صاحبُها ، لإِحياءِ حقّ .

فهى إِذاً من جملة الأَمانة ، وقد ذكرت الأَمانة فى سورة المؤمنين ، وخصّت هذه السّورة

بزيادة بيانها ؛ كما خصّت بإعادة ذكر الصلاة حيث قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُم عَلَى صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ .

فضل السّورة

(8/781)

فيه حديث أُبيّ الضَّعيف : مَنْ قرأَها أَعطاه الله تعالى ثواب الَّذين هم لأَماناتهم وعهدهم راعون ، والَّذين هم على صلاتهم يحافظون ، وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأَها كتب الله له بكلّ كافر وكافرة ، من الأَحياءِ والأَموات ستّين حسنة ، ورَفَع له (ستّين درجة وله) بكلّ آية قرأَها مثل ثُواب يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 480 .

481 ﴾

(9/781)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المعارج

446 – مسألة :

قوله تعالى : (فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

تقدم جوابه في سورة " الم السجدة"

447 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) الآية وقال

تعالى : (أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) ؟

جوابه :

أن الإنسان طبع على ذلك عند تأهله لذلك وقدرته عليه .

448 . مسألة :

قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

وقال بعد ذلك : (عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) ؟ .

جوابه :

أنه إما توكيد لأمر الصلاة والمحافظة عليها ، أو أن المراد بالدوام إدامتها وبالمحافظة القيام

بشروطها وفروضها وسننها

مسألة :

قوله تعالي : (حَقٌّ مَعْلُومٌ) وفى الذاريات : (حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) بإسقاط " معلوم " .

قيل المراد بآية الذاريات : الصدقات النوافل لقرينة تقدم النوافل ، وبهذه الآية الزكاة لتقدم ذكر الصلاة لأنها معلومة

مقدرة .

450 - مسألة :

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33)

لم تذكر الثلاثة فى سورة المؤمنين ؟

جوابه :

لما تقدم فى هذه السورة ذكر النقائص الثلاثة في الإنسان في

قوله تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، جَزُوعًا ، مَنُوعًا) : ناسب ذلك جبر المؤمنين بذكر أوصافهم الثلاثة الجميلة حين استثناهم من عموم الإنسان ، وأيضا لما تقدم (لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) وتحمل الشهادة من جملة الأمانة ناسب ذكر الشهادة بعد الأمانة . انتهى انتهى . اهـ ﴿كشف المعاني صـ 363. 365﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المعارج

سميت هذه السورة في كتب السنّة وفي (صحيح البخاري) و (جامع الترمذي) وفي (تفسير الطبري) وابن عطيَّة وابن كثير (سورة سَالَ سائل) . وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس .

وسميت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير (سورة المعارج) .

وذكر في (الإِتقان) أنها تسمى (سورة الواقع) .

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها ، وأخصُّها بها جملة) سال سائل ((المعارج : 1) لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن إلاّ أنها غلب عليها اسم (سورة المعارج) لأنه أخف .

وهي مكية بالاتفاق . وشذ من ذكر أن آية) والذين في أموالهم حق معلوم ((المعارج : 24) مدنية .

وهي السورة الثامنة والسبعون في عداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النبأ .

وعَدّ جمهور الأمصار آيها أربعاً وأربعين . وعدّها أهل الشام ثلاثاً وأربعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 29 صـ 152. 153﴾

(11/781)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة المعارج

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطيء , المديد , العميق , الدقيق , لعقابيل الجاهلية في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة ; وكما يمكن أن يواجهها في أية جاهلية أخرى مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق ! وفي الظواهر لا في الحقائق !

أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس , وفي خلال دروبها ومنحنياتها , ورواسبها وركامها . وهي أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون – فيما بعد – كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هي أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي ما تزال مرصودة لها في الجاهليات القديمة والحديثة !

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ;

وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين , كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم – في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة – بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء . وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك , واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر , واختلاف الموازين . . .

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقابيل الجاهلية وتصوراتها , أو جولة من جولات المعركة الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحنياتها . تلك المعركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجردا من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية – ابتداء – قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلا على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له !

(12/781)

والذي يقرأ هذا القرآن – وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة – يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس

قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعا عجيبا . . تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة ! وتارة يواجهها بما يشبه الهراسة الساحقة التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيانها من التصورات والرواسب ! وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها ! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة , والمسارة الودود , التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المرعب , والصرخة المفزعة , التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة لا تدع مجالا للتلفت عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي الذي يهتف لها ويناجيها . وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها فترى ما يجري في داخلها رأي العين , وتخجل من بعضه , وتكره بعضه , وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها ! . . ومئات من اللمسات , ومئات من اللفتات , ومئات من الهتافات , ومئات من المؤثرات . . يطلع عليها قارئ القرآن , وهو يتبع تلك المعركة الطويلة , وذلك العلاج البطيء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة في إقرار حقيقة الآخرة , والحقائق الأخرى التي ألمت بها في الطريق إليها .

وحقيقة الآخرة هي ذاتها التي تصدت لها سورة الحاقة , ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى , وتعرض لها من زاوية جديدة , وصور وظلال جديدة . .

(13/781)

في سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم , ممثلين في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة:(فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة , وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة , وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) . . وفي الجلال المهيب في ذلك المشهد المرهوب:(والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . . وفي التكشف الذي ترتج له وتستهوله المشاعر:(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) . .

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان في مشاهد العذاب , حتى في النطق بالحكم بهذا العذاب:(خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) . . كما يتجلى في صراخ المعذبين وتأوهاتهم وحسراتهم: (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . .)

فأما هنا في هذه السورة فالهول يتجلى في ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها ,

أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسيا ! وهو على كل حال ليس أبرز ما في الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن في النفس يتجلى مداه في مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة: (يوم تكون السماء كالمهل , وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه , وصاحبته وأخيه , وفصيلته التي تؤويه , ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) . .

وجهنم هنا "نفس" ذات مشاعر وذات وعي تشارك مشاركة الأحياء في سمة الهول الحي: إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى . .

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسيا : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون , خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة , ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) . .

(14/781)

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة المعارج عنها في سورة الحاقة , باختلاف طابعي السورتين في عمومه . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان

في هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج – فيما تناولت – تصوير النفس البشرية في الضراء والسراء , في حالتي الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقا مع طابعها "النفسي" الخاص: فجاء في صفة الإنسان (إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا , وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين , الذين هم على صلاتهم دائمون . . الخ . .

واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة والمضمرة تمشيا مع طبيعة السورة وأسلوبها : (إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . .) . .

ولقد كان الاتجاه الرئيسي في سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم في شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى في السورة , كحقيقة أخذ المكذبين أخذا صارما في الأرض ; وأخذ كل من يبدل في العقيدة بلا تسامح . . فأما الاتجاه

الرئيسي في سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء , وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسية فيها .

(15/781)

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها .

من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله في أيامه وحساب البشر , وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة , فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . . . الخ وهو متعلق باليوم الآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية في الضراء والسراء في حالتي الإيمان والخلو من الإيمان . وهما مؤهلان للجزاء في يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنات نعيم , مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلت من عقابه . وهو متصل اتصالا وثيقا بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهي الحقيقة الكبيرة التي تتصدى لإقرارها في النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة ! للموضوع الأصيل

.

ظاهرة أخرى في هذا الإيقاع الموسيقي للسورة , الناشئ من بنائها التعبيري . . فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئا من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيه . . فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا , لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففي هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية منوعة – مع اتحاد الإيقاع في نهاياتها – من حيث الطول ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالي:

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا) . . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس .

(إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا) . . حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .

(يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما) . . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع في الداخل .

(17/781)

(يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى) . . حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس كالأول .

(نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا) . . حيث يتكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان في النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع في باقي السورة على الميم والنون وقبلهما واو أو ياء . .

والتنويع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنويع المعقد الراقي - موسيقيا - من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطوعه ويمنحه

اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه , وإن كان فنا إبداعيا عميقا جديدا على مألوفها الموسيقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3692 . 3695 ﴾

(18/781)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المعارج

مكية وآياتها أربع وأربعون آية

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة ، وراحة ونصب ، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين ، في دار الجزاء والخلود ، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور ، واستهزاؤهم بدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة ، وعن تمردهم على طاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خوفوا به ، وذكرت

مثلا لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو " النضر بن الحارث " حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك مكابرة في الجحود والعناد [سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج . .] الآيات

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات ، وتتطاير فيه الجبال ، فتصير كالصوف الملون ألوانا غريبة [يوم تكون السماء كالمهل " وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تئويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه] .

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان ، فإنه يجزع عند الشدة ، ويبطر عند النعمة فيمنع حق الفقير والمسكين [إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا] .

* ثم تحدثت عن المؤمنين ، وما اتصفوا به من جلائل الصفات ، وفضائل الأخلاق ، وبينت ما أعد الله لهم من عظيم الأجر ، في جنات الخلد والنعيم [إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم] الايأت .

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول ، الطامعين في دخول جنات النعيم [فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا إنا خلقناهم مما يعلمون] .

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين ، على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه ، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيرا منهم [فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين . .] إلى قوله تعالى [خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون] نهاية السورة الكريمة ، وهو ختم يناسب موضوع السورة ، في عقاب الكفرة المجرمين ، المكذبين بالبعث والنشور .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 441.442 ﴾

(20/781)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المعارج

سأل سائل : أي دعا داع ، من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، كما جاء فى قوله :

« يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ » ليس له دافع : أي إنه واقع لا محالة ، والمعارج : واحدها

معرج ، وهو المصعد (أسّنسير) كما قال : « وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ »

والمراد بها النعم التي تكون درجات متفاضلة ، تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، والروح

: هو جبريل عليه السلام ، والمهل : دردىء الزيت ، وهو ما يكون فى قعر الإناء منه ،

والعهن : الصوف المصبوغ ألوانا ، والحميم : القريب ، يبصرونهم : أي يبصر الأحماء الأحماء

ويرونهم ، يود : أي يتمنى ، والمجرم : المذنب ، وصاحبته : زوجته ، وفصيلته : هى

عشيرته ، تؤويه : أي تضمه ويأوى إليها ، كلّا : هى كلمة تفيد الزجر عما يطلب ، لظى :

هى النار ، والشوى : واحدها شواة ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعا فتفرقها ثم

تعود إلى ما كانت عليه ، تدعو : أي تجذب وتحضر ، تولى :

أي أعرض عن الطاعة ، جمع فأوعى : أي جمع المال فجعله فى وعاء .

الهلع : سرعة الحزن عند مسّ المكروه ، وسرعة المنع عند مسّ الخير ، من قولهم :

ناقة هلوع : إذا كانت سريعة السير . وسأل محمد بن طاهر ثعلبا عن الهلع فقال :

قد فسره اللّه ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه – يعنى قوله :

« إِذا مَسَّهُ » الآية . والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ،

والخير : المال والغنى ، حق معلوم : أي نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقرّبا إلى اللّه

وإشفاقا على المحتاجين ، المحروم : الفقير الذي لا يسأل الناس فيظن أنه غنىّ ، يصدقون بيوم الدين : أي يصدقون به تصديقا يكون له الأثر فى نفوسهم ، فيسخرونها ويسخرون أموالهم فى طاعة اللّه ومنفعة الناس ، مشفقون : أي خائفون ، حافظون : أي كافّون لها عن الحرام ، راعون : أي لا يخلّون بشىء من حقوقها

(21/781)

قِبَلَكَ : أي فى الجهة التي تليك ، مهطعين : أي مسرعين نحوك ، مادّى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هزوا ، وأنشدوا :

بمكة أهلها ولقد أراهم إليه مهطعين إلى السماع

عزين : أي فرقا شتى حلقا حلقا ، قال عبيد بن الأبرص .

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

واحدهم عزة ، وأصلها عزوة ، لأن كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى إليه الأخرى ، بمسبوقين : أي بمغلوبين ، والأجداث : القبور ، واحدها جدث ، والسّراع : واحدهم سريع ، والنصب (بضمتين) كل شىء منصوب كالعلم والراية وكذا ما ينصب للعبادة ، وهو المراد هنا ، ويوفضون : أي يسرعون ، خاشعة أبصارهم :

أي ذليلة ، ترهقهم : أي تغشاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 65. 74 ﴾ . باختصار .

(22/781)

وقال الفراء :

سورة (المعارج)

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

قوله: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ . . . ﴾ .

دعا داعٍ بعذاب واقع ، وهو: النضر [بن الحارث] بن كَلدةَ ، قال: اللهم إن كان ما يقول محمد هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، فأُسر يوم بدر ، فقتل صبرا هو وعقبة .

وقوله: ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . . . ﴾ .

يريد : للكافرين ، والواقع من نعت العذاب . واللام التى فى الكافرين دخلت للعذاب لا للواقع .

﴿ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾

وقوله: ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ . . . ﴾ .

من صفة الله عز وجل ؛ لأن الملائكة تعرُج إلى الله عز وجل ، فوصف نفسه بذلك .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . . . ﴾ .

يقول: لو صعد غير الملائكة لصعدوا فى قدر خسمين ألف سنة ، وأما (يعرج) ، فالقراء مجتمعون على التاء ، وذكر بعض المشيخه عن زهير عن أبى إسحق الهمدانى قال: قرأ عبدالله "يعرج" بالياء وقال الأعمش: ما سمعت أحداً يقرؤها إلا بالتاء . وكلٌّ صواب .

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . . . ﴾ .

يريد : البعث ، ونراه نحن قريباً ؛ لأن كلّ ما هو آت: قريب .

﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾

وقوله: ﴿ ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . . . ﴾ .

لا يَسْأَل ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يُعَرَّفُونهم [بالبناء للمجهول] ساعة ، ثم لا تعارف بعد تلك الساعة ، وقد قرأ بعضهم: (ولا يُسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً) لا يقال لحميم: أين حميمك ؟ ولست أشتهى ذلك ؛ لأنه مخالف للتفسير ، ولأن القراء مجتمعون على (يَسأَل) .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾

وقوله: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ . . . ﴾ هى أصغر آبائه الذى إليه ينتمى .

﴿ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴾

(23/781)

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ . . . ﴾ أى: ينجيه الافتداء من عذاب الله .

قال الله عز وجل: ﴿ كَلاَّ ﴾ أى: لا ينجيه ذلك ، ثم ابتدأ ، فقال: ﴿ إِنَّهَا لَظَى . . . ﴾

ولظى: اسم من أسماء جهنم ؛ فلذلك لم يُجرِهْ .

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾

وقوله: ﴿ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَى . . . ﴾ .

مرفوع على قولك: إنها لظى ، إنها نزاعة للشوى ، وإن شئت جعلت الهاء عمادا ، فرفعت لظى بنزاعة ، ونزّاعة بلظى ؛ كما تقول فى الكلام: إِنَّه جاريتُك فارهة ، وإنها جاريتُك فارهة . والهاء فى الوجهين عماد . والشَّوَى: اليدان ، والرجلان ، وجلدة الرأس يقال لها : شواة ، وما كان غير مقتَل فهو شوًى .

﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾

وقوله: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . . . ﴾ .

تقول للكافر: يا كافر إلىّ، يا منافق إلىّ، فتدعو كل واحد باسمه.

﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾

وقوله: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى . . . ﴾ .

يقول: جمع فأوعى، جعله فى وعاء، فلم يؤد منه زكاة، ولم يصل رحما.

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . . . ﴾ .

والهلوع: الضجور وصفته كما قال الله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . . . ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . . . ﴾ فهذه صفة الهلوع، ويقال منه: هلِع يهلَع هلَعاً مثل: جزِع يجزَع جزعا، ثم قال: ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ . . . ﴾ فاستثنى المصلين من الإنسان، لأن الإنسان فى مذهب جمع، كما قال الله جل وعز: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾

وقوله: ﴿ حَقٌّ مَعْلُومٌ . . . ﴾ .

الزكاة؛ وقال بعضهم: لا، بل سوى الزكاة.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ . . . ﴾ .

يقول القائل: هل يجوز فى الكلام أن تقول: مررت بالقوم إلاَّ بزيد ، تريد : إلاَّ أنى لم أمرر بزيد ؟

قلت: لا يجوز هذا ، والذى فى كتاب الله صواب جيد ؛ لأن أول الكلام فيه كالنهى إذ ذُكِر: ﴿ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون . . . ﴾ يقول: فلا يلامون إلاّ على غير أزواجهم ، فجرى الكلام على ملومين التى فى آخره . ومثله أن تقول للرجل: اصنع ما شئت إلا [على] قتل النفس ، فإنك معذب ، أو فى قتل النفس ، فمعناه إلا أنك معذب فى قتل النفس .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ . . . ﴾ .

والعزون: الحلق ، الجماعات كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه فيقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة ـ كما يقول محمد صلى الله عليه ـ لندخلنها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم ، فأنزل الله: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ . . . ﴾ .

قرأ الناس: "أن يُدخَل" لا يسمّى فاعُله [/١] وقرأ الحسن: "أن يَدخُلَ" ، جعل له الفعل ، ثم بيّن الله عز وجل فقال: ولم يحتقرونهم ، وقد خَلَقْنَاهم جميعاً "مما يعلمون" من تراب .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ . . . ﴾ . الإيفاض: الإسراع. وقال الشاعر:

لأُنعتنْ نعامةً ميفاضا * خَرْجاءَ ظلت تطلبُ الإضاضَا

قال: الخرجاء فى اللون، فإذا رُقِّعَ القميص الأبيض برقعةٍ حمراء فهو أخرج، تطلب الإضاضا: أى تطلب موضعا تدخل فيه، وتلجأ إليه. قرأ الأعمش وعاصم: "إلى نَصْبٍ" إلى شىء منصوب يستبقون إليه، وقرأ زيد بن ثابت: "إلى نُصُب يوفضون" فكأنّ النُّصبَ الآلهة التى كانت تعبد [من دون الله]، وكلٌّ صواب، وهو واحد، والجمع: أنصاب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 183.186 ﴾

(25/781)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة المعارج

(سأل سائل) [1] دعا داعٍ، وهو النبي عليه السلام، دعا عليهم. وقيل: النضر بن الحارث، قال: (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء)، فقتل يوم بدر. (ذي المعارج) [3] ذي المعالي والدرجات لأوليائه.

وقيل: إنها معارج السماء للملائكة. (تعرج الملائكة والروح إليه) [4] هو روح المؤمن حين يقبض، رواه قبيصة بن ذؤيب عن النبي عليه السلام. (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) [4] أي: لو صعده غير الملائكة، وقد مر ذكره. (كالمهل) [8]

كذائب الصفر، ويكون أحمر. وقيل: إنه دردي الزيت. والعهن: الصوف المصبوغ، والمراد: لين الجبال بعد شدتها واجتماعها. (وفصيلته) [13] عشيرته، وتكون من العشيرة/كالفخذ. (تئويه) [13] يلجأ إليها فتلجئه، ويشكو فتشكيه. وقيل: إن الفصيلة هي أمه التي أرضعته وفصلته، فعيلة بمعنى فاعلة، وفي معنى الآية قال الشاعر:

1321- سائل مجاور [جرم] هل جنيت لهم حرباً تزيل بين [الجيرة] الخلط. (كلا) [15] ليس كذلك، أي: لا [ينجيه] شيء. (إنها لظى) [15] لا ينصرف [للتأنيث والتعريف]، وهي من الالتظاء، أي: الاتقاد: 1322- هم ردوا النقائد يوم حسي يقودون الجياد على وجاها 1323- وبيضة طيء نضواً وكانت قديماً تلتظي [بـ]من اصطلاها.

(نزاعة للشوى) [16] لجلدة الرأس. والضمير في (إنها) اسم "إن"، و(لظى) خبره، و(نزاعة) خبر بعد خبر، من باب [إنه] حلو حامض. (تدعوا من أدبر) [17] لما كان مصيره إليها، كانت كأنها دعته. (وجمع فأوعى) [18] أي: جعله في وعاء، فلم يفعل زكاة، ولم يصل [رحماً].

(خلق هلوعاً) [19] سأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً: عن الهلوع؟ فقال: ما فسره الله، ولا يكون تفسيراً أحسن منه: (إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً) [20، 21]. (والذين هم على صلاتهم يحافظون) [34] أي: النافلة، لتقدم قوله: (على صلاتهم دائمون) [23] وهي: الفريضة. (مهطعين) [36] مسرعين، ذم إسراعهم، لأن قصدهم تسمع الحديث، ليتفرقوا بالتكذيب. (عزين) [37] جماعات في تفاريق، واحدها عزة. قال الشاعر: 1324- ترانا عنده والليل داج على أبوابه حلقاً عزينا. (إلى نصب) [43] إلى شيء منصوب، مصدر بمعنى المفعول، مثل نسج بغداد، وضرب الأمير. (يوفضون) [43] يسرعون.

[تمت سورة المعارج]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1546.1552﴾

وقال الأخفش :

سورة (المعارج)

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾

قال ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴾ ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ نصب على البدل من الهاء ** وخبر "إنَّ" ﴿ نزَاعةٌ ﴾ وان شئت جعلت ﴿ لَظَى ﴾ رفعا على خبر ﴿ إِنَّ ﴾ ورفعت "النزّاعة" على الابتداء .

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾

وقال ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ ثم قال ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ [22] فجعل ﴿ الإِنْسانَ ﴾ جميعا ويدلك على ذلك انه قد استثنى منه جميعا .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾

وقال ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ كما تقول "ما لَكَ قَائِماً" وواحدةُ "العِزِينَ": العِزَةُ. مثل "ثُبَة" و"ثُبِين" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 549 ﴾

(28/781)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المعارج

مكية

1 - و2 - و3 - سَأَلَ سائِلٌ : سأل سائل . أي دعا داع «1» ، بِعَذابٍ واقِعٍ ، لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ ، مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ يريد : معارج الملائكة .

وأصل «المعارج» : الدّرج ، وهو من «عرج» : إذا صعد .

8 - (المهل) : ما أذيب من الفضة والنّحاس .

9 - وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ أي كالصوف . وذلك : أنها تبسّ .

10 - و11 - وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً أي لا يسأل ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يُبَصَّرُونَهُمْ أي يعرفونهم .

13 - وفَصِيلَتِهِ : عشيرته الأدنون .

16 - نَزّاعَةً لِلشَّوى يريد : جلود الرءوس . واحدها : «شواة» .

19 - (الهلوع) : الشديد الجزع . والاسم «الهلاع» . ومنه يقال : ناقة هلواع ، إذا كانت ذكية حديدة النفس .

---

(1) والسائل هو نضر بن الحارث كان من صناديد قريش وطواغيتها .

ويقال: «الهلوع»: الضّجور «1».

37 - عِزِينَ جمعات.

43 - كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ و«النّصب»: حجر ينصب ويذبح عنده، أو صنم يقال له: نصب ونصب ونصب. يُوفِضُونَ: يسرعون.

و«الإيفاض»: الإسراع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 415.414﴾

---

(1) وهو قول عكرمة وابن عباس.

وقال الغزنوى:

سورة المعارج

1 سَأَلَ سائِلٌ: دعا داع وهو النّبيّ عليه السلام، دعا عليهم «1».

وقيل «2»: النّضر بن الحارث قال: إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ [مِنْ عِنْدِكَ] «3» فَأَمْطِرْ

عَلَيْنا حِجارَةً «4» فقتل يوم بدر هو وعقبة «5» .

3 ذِي الْمَعارِجِ : ذي المعالي والدّرجات لأوليائه ، أو هي معارج السّماء للملائكة»

.

4 وَ/ الرُّوحُ إِلَيْهِ : هو روح المؤمن حين يقبض . رواه قبيصة «7» بن [102/أ] ذؤيب عن النبي «8» صلى اللّه عليه وسلم .

---

(1) هذا من غريب الأقوال ، وقد ذكره الكرماني في غريب التفسير : 2/ 1249 ، والزمخشري في الكشاف : 4/ 156 ، والفخر الرازي في تفسيره : 30/ 121 ، والقرطبي في تفسيره :

18/ 279 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 332 ، والسيوطي في مفحمات الأقران : 201 .

(2) أخرجه النسائي في التفسير : 2/ 463 ، حديث رقم (640) عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما ، وكذا الحاكم في المستدرك : 2/ 502 ، كتاب التفسير (سورة المعارج) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، وذكر الذهبي أنه على شرط البخاري .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 277 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورد ابن الجوزي هذا القول في زاد المسير : 8/ 357 ، وقال : «وهذا مذهب الجمهور منهم ابن عباس ومجاهد» .

وينظر أسباب النزول للواحدي : 512 ، وتفسير البغوي : 4/ 392 .

(3) ما بين معقوفين عن «ك» و«ج» .

(4) سورة الأنفال ، آية : 32 .

(5) هو عقبة بن أبي معيط .

(6) ينظر تفسير الطبري : 29/ 70 ، وتفسير الماوردي : 4/ 302 ، وتفسير البغوي : 4/ 392 .

(7) هو قبيصة بن ذؤيب الخزاعي ، ولد يوم الفتح ، وقيل : يوم حنين ، وأتى به إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فدعا له .

توفي سنة ست وثمانين ، وقيل قبل ذلك .

ترجمته في الاستيعاب : 3/ 1272 ، والإصابة : 5/ 517 .

(8) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 303 عن قبيصة مرفوعا .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 359 موقوفا عليه ، وكذا القرطبي في تفسيره : 18/ 281 .

فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ [خَمْسِينَ] «1» أَلْفَ سَنَةٍ: لو صعده غير الملائكة «2».

8 كَالْمُهْلِ: كذائب الصفر «3».

والعهن «4»: الصّوف المصبوغ «5»، والمعنى: لين الجبال وتفتتها بعد شدّتها واجتماعها.

و«الفصيلة» من العشيرة كالفخذ من القبيلة.

13 تُؤْوِيهِ: يلجأ إليه فتلجئه. وقيل «6»: الفصيلة الأمّ التي أرضعته وفصلته.

15 كَلَّا: ليس كذا، أي: لا ينجيه شيء.

إِنَّها لَظى: لا تنصرف لَظى للتأنيث والتعريف، والالتظاء: الاتقاد «7».

16 نَزّاعَةً لِلشَّوى: لجلدة الرأس «8».

---

(1) في الأصل: «خمسون».

(2) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 184، وتفسير الطبري: 29/ 70، ومعاني الزجاج:

5/ 219، وتفسير البغوي: 4/ 392، وزاد المسير: 8/ 360.

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 485 ، وتفسير الطبري : 29/ 73 ، وتفسير المشكل لمكي :

355 ، وتفسير الماوردي : 4/ 304 .

(4) من قوله تعالى : وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ [آية : 9] . [. . . . .]

(5) المفردات للراغب : 351 ، وتفسير القرطبي : (18/ 284 ، 285) ، واللسان : 13/ 297 (عهن) .

(6) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 304 عن مالك ، ونقله القرطبي في تفسيره : 18/ 286 عن مجاهد .

(7) اللسان : 15/ 248 (لظي) .

(8) معاني القرآن للفراء : 3/ 185 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 270 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 486 ، وتفسير الطبري : 29/ 76 .

(32/781)

---

17 تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ : لما كان مصيره إليها كانت كأنها دعته «1» .

18 فَأَوْعى : جعله في وعاء فلم يفعل زكاة ولم يصل رحما «2» .

19 هَلُوعاً : سأله محمد «3» بن عبد اللّه ثعلبا «4» فقال : ما فسّره اللّه به إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ . . . [الآيتان] «5» .

34 عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ : النّافلة ، والأولى «6» الفريضة .

36 مُهْطِعِينَ : مسرعين «7» لتسمّع الحديث .

37 عِزِينَ : جماعات في تفاريق «8» . جمع «عزة» . وجلس رجل خلف

---

(1) ذكر الماوردي هذا المعنى في تفسيره : 4/ 305 .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للفراء : 3/ 185 ، وانظر تفسير الطبري : 29/ 78 ، وتفسير الماوردي : 4/ 306 .

(3) هو محمد بن عبد اللّه بن طاهر الخزاعي ، كان أميرا لبغداد في عهد المتوكل .

وصفه ابن خلكان في وفيات الأعيان : 5/ 92 بقوله : كان شيخا فاضلا وأديبا شاعرا ، وهو أمير بن أمير بن أمير . . . وكان مألفا لأهل العلم والأدب .

وكان ثعلب مقربا لدى الأمير ، وصحبه ثلاث عشرة سنة ، أي حتى وفاة الأمير .

وذكر الزجاجي في مجالس العلماء : (79 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 ، 91) عدة مجالس جمعت الأمير محمد بن عبد اللّه بن طاهر وثعلب وغيره من العلماء .

وانظر أخبار الأمير محمد بن عبد اللّه في تاريخ بغداد : 5/ 418 ، وإنباه الرواة : (1/ 140 ، 141 ، 147) .

(4) ثعلب : (200 - 291 هـ -) .

هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني ، أبو العباس ، الإمام العلامة ، المحدث ، اللغوي ، النحوي .

من مصنفاته : الفصيح ، وقواعد الشعر ، ومعاني القرآن .

أخباره في طبقات النحويين للزبيدي : 141 ، وتاريخ بغداد : 5/ 204 ، وبغية الوعاة : 1/ 396 .

(5) ما بين معقوفين عن نسخة «ك» .

(6) يريد قوله تعالى : الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ [آية : 23] .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 270 ، وتفسير الطبري : 29/ 85 .

(8) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 186 ، ومجاز القرآن : 2/ 270 ، ومعاني الزجاج : 5/ 223 ، والمفردات للراغب : 334 .

(33/781)

أخيه فقال عليه السّلام «1» : «لا تكونوا عزين كخلق الجاهليّة» .

43 إِلى نُصُبٍ «2» ، ونصب معا ، شيء منصوب مصدر بمعنى المفعول ك «نسج

بغداد» «3» .

يُوفِضُونَ : يسرعون «4» . وفض يفض وأوفض يوفض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 837.840 ﴾

---

(1) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وأخرج الإمام مسلم في صحيحه : 1/ 322 حديث رقم (430) كتاب الصلاة ، باب «الأمر بالسكون في الصلاة ، والنهي عن الإشارة باليد . . .» عن جابر بن سمرة رضي اللّه عنه مرفوعا بلفظ : «ما لي أراكم عزين . . .» .

(2) بفتح النون وإسكان الصاد قراءة أبي عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وعاصم في رواية شعبة .

وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم بضم النون والصاد .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 651 ، والتبصرة لمكي : 359 ، والتيسير للداني : 214 .

[. . . . .]

(3) ينظر توجيه القراءتين في الكشف لمكي : 3/ 336 ، وتفسير القرطبي : (18/ 296 ، 297) .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 270 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 486 ، وتفسير الطبري : 29/ 89 ، والمفردات للراغب : 528 ، واللسان : 7/ 251 (وفض) .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المعارج

عدد 29 و79 و70

نزلت بمكة بعد الحاقة ، وهي أربع وأربعون آية ، ومئتان وأربع وعشرون كلمة ، وتسعمئة وتسعة وعشرون حرفا .

وتسمى سورة المواقع .

ولا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ" 1 لما خوف حضرة الرسول قومه بعذاب اللّه وعظمه أمامهم إذا هم لم يؤمنوا ويكفوا عما يصمونه به من الشعر والكهانة المشار إليهما في السورة المارة ، ولهذه المناسبة قد نزلت هذه بعدها ، لأن ما بين كل سورة وأخرى لا بد من وجود مناسبة .

مطلب اليوم مقداره خمسين ألف سنة ما هو وما هي :

قال بعضهم لبعض ما هو العذاب الذي يهددنا به ولمن يكون يا ترى ، وهل يمكن الاتقاء منه أم لا ؟ فأنزل اللّه هذه السورة معلنا أنه "لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ" 2 إذا وقع لأنه "مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ" 3 المصاعد والمراقي التي تصعد عليها الملائكة إلى السماء ، فلو كان من غيره لأمكن أن يكون له دافع ، أما هو فلا ، كيف وهو الذي "تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ" جبريل عليه السلام وخصه بالذكر مع أنه داخل مع الملائكة لشرفه وفضله عليهم أجمع "إِلَيْهِ" جل شأنه على تلك المعارج "فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" 4 من سني الدنيا بحيث لو صعد غير الملك من منتهى أسفل الأرض إلى غاية علو تلقي أمر اللّه تعالى لما وصل

(35/781)

إلا بتلك المدة ، أما الملك فإنه يقطعها بيوم زماني بإقدار اللّه تعالى إياه ، قالوا وتحديد هذه المسافة هو أن ثخن الأرض الواحدة خمسمائة عام ، وبين كل أرضين مثلها ، وبين الأرض العليا والسماء كذلك ، وثخن كل سماء وما بينهما كذلك ، وما بين السماء العليا ومقعر الكرسي كذلك ، فيكون المجموع أربعة عشر ألف سنة ، ومن مقعر الكرسي إلى العرش مسيرة أحد عشر ألف سنة ، فبلغت مدة العروج خمسة وعشرين ألف سنة ، ومثلها في النزول ، فيكون خمسين ألف سنة ، ومما يدل على أن المراد صعود وهبوط ما قدمناه في

الآية 5 من سورة السجدة المارة ، وقيل إن المواطن في القيامة خمسون موطنا ، وكل موطن ألف سنة من سني الدنيا ، قال تعالى (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) الآية 47 من سورة الحج في ج 3 ، وهذه مظهر من مظاهر (النون) في قوله تعالى (كُنْ فَيَكُونُ) فإنه بحروف الجمل خمسون ، فهذه المواطن كلها بالنسبة إلى اللّه تعالى لحظة واحدة أقل من لفظكم أيها الناس بحرف النون ، وهذا التقدير بالنسبة إلينا ، لأن يوم الآخرة لا نهاية له ، ولا يقدر بزمان ، إذ لا شمس ولا قمر ، وللصوفية فيه أقوال كثيرة وتفصيلات بديعة ضربنا عنها صفحا لطولها وكثرتها ، لأن كلّا منهم رضي اللّه عنهم ذكر مما أودعه اللّه في قلبه المخلّى عن غيره المحلّى به ، وبين ما أفاض اللّه عليه فيه اكتفاء بما أخرجه الإمام أحمد وابن شعبان وأبو يعلى وابن جرير والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنهم قال : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى (فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ما أطول هذا اليوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من مكتوبة يصليها في الدنيا .

(36/781)

وما روي عن عبد اللّه بن عمر يوضع للمؤمنين يومئذ كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام ويقصر عليهم ذلك ويهون حتى يكون كيوم من أيامكم هذه .

فيفهم منه أن طول المدة تكون على الكافرين المعذبين لشدة ما يلاقونه وهول ما يعانون ، ولا بدع بأن يكون طويلا على أناس قصيرا على آخرين ، قال الشاعر في هذا المعنى :

من قصر الليل إذا زرتني أشكو وتشكين من الطول

وقال آخر :

ليلي وليلى نفى نومي اختلافهما بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطول ليلي كلما بخلت بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

الألف فيه للإطلاق والروى ، وإلا فهو مفرد يعود على الليل ، وقول الآخر في هذا أيضا :

ويوم كظل الرمح قصّر طوله دم الزقّ عنا واصطفاق المزاهر

قال تعالى "فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا" 5 لا جزع فيه ، راجع الآية 83 من سورة يوسف المارة "إِنَّهُمْ" كفرة قومك "يَرَوْنَهُ" أي العذاب الذي أوعدتهم به "بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً" 6 7 لأنه آتيهم حتما وكل آت قريب لا سيما وأن إنزاله بيدنا لا يمنعنا من صبه عليهم مانع ، وليعلموا أن علامته نزول العذاب الأكبر الذي لا بد من وقوعه ، لأن عذاب الدنيا قد يكون وقد لا يكون لأسباب نعلمها ، أما عذاب الآخرة فيكون "يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ" 8 مثل عكر الزيت أو الفضة المذابة "وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ" 9 الصوف المصبوغ ألوانا كثيرة لأن الجبال ذات

ألوان منها الأحمر والأسود والأصفر والأبيض ، فتكون هباء منثورا كالصوف المندوف إذا طيرته الرياح ، إنما شبهها بالصوف لأنها إذا لبست بعضها ببعض بأن خلطت وسيرت أشبهته بألوانه المذكورة وما بينها "وَلا يَسْئَلُ" حينذاك "حَمِيمٌ حَمِيماً" 10 عن حاله وما حل به ، لا لأنهم لا يرى بعضهم بعضا ، ولكن لشدة الهول ، إذ يشتغل كل بنفسه ، ولهذا

(37/781)

قال تعالى "يُبَصَّرُونَهُمْ" يشاهدونهم ويعرفونهم ، ولكن لا يتكلمون معهم ، ولشدة الفزع "يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصاحِبَتِهِ" 11 زوجته التي لا يمكن أن يفتدي بها في الدنيا إلا أن يطلقها ، أما في الآخرة فإنها تهون عليه وينسى الغيرة والمروءة "وَأَخِيهِ" 12 أيضا لو قدر أن يفدي نفسه به لفداها "وَفَصِيلَتِهِ" عشيرته "الَّتِي تُؤْوِيهِ" 13 بالدنيا مما يخاف ويأوي إليها عند الشدائد لو أمكن لفداها كلها بنفسه ، بل "وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" لو كان في ملكه وأمكنه قبول الفداء بهم "ثُمَّ يُنْجِيهِ" 14 من عذاب اللّه لفعل ، ولكن لا ينجيه شيء

أبدا إلا رحمة اللّه وهي بعيدة منه ، راجع الآية 34 من سورة عبس في ج 1 ، قال تعالى "كَلَّا" لا ينجيه أحد أصلا "إِنَّها" المخصصة لعذاب المجرم هي "لَظى" 15 أحد طبقات

جهنم المعدة لمن يثبت عليه الجرم العظيم في الموقف بعد الحساب ويحكم عليه بفصل القضاء بأن يعذب فيها ، ولا يسمى مجرما إلا بعد ذلك ، وهكذا في الدنيا يكون مدعى عليه بمجرد الدعوى عليه ، وعند وجود امارة على اقترافه الجرم يسمى ظنينا ، وعند تواتر الأدلة يسمى متهما ، وعند الثبوت يسمى مجرما ، ثم محكوما .

ومن أوصاف هذه النار أنها "نَزَّاعَةً لِلشَّوَى " 16 أطراف الجسد كاليدين والرجلين بمجرد طرحهم فيها ، والنزع الجذب بقوة ، أي أنها مفرقة لأعضاء الإنسان "تَدْعُوا" إليها كل "مَنْ أَدْبَرَ" عن الإيمان "وَتَوَلَّى" 17 عن الحق "وَجَمَعَ" مالا من غير حله "فَأَوْعَى " 18 خزنه في الأوعية ولم ينفقه في وجوه البر ولم يؤد حق اللّه منه لعياله .

وقال بعضهم معنى أوعى تعذّب يقول الأعرابي : وهاك اللّه أي عذّبك .

ومن ورع عبد اللّه بن حكيم أنه كان لا يربط كيسه ، فقيل له في ذلك فقال سمعت اللّه يقول جمع فأوعى ، ومتى ما ربطته فقد أوعيته .

(38/781)

"إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً" 19 جنسا وجبلة طبع على الهلع الذي فسره اللّه بقوله "إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً" 20 21 وإذا أعطي المال لم ينفق ، وإذا

أصابه الفقر لم يصبر ، ثم استثنى اللّه عز وجل من ذلك الجنس نوعا مخصوصا بقوله "إِلَّا الْمُصَلِّينَ" 22 وهذا استثناء اجمع من الواحد الذي فيه معنى الجمع كالإنسان ، ثم وصف المصلين بقوله "الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ" 23 مواظبون على إقامتها "وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ" 24 عندهم فرضوه على أنفسهم بحسب ما تجود به أنفسهم وأريحيتهم وخصصوه "لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" 25 المتعفف عن السؤال الذي يظن به عدم الحاجة "وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ" 26 يوم القضاء والجزاء "وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ" 27 خائفون وجلون "إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ" 28 فلا يقدر أحد مهما كان على درجة عالية في الإخلاص أن يقطع بأمنه من عذاب اللّه ، إذ لا يخلو من التقصير بحقه ، والأعمال الصالحة مهما كثرت

لا توازي نعمة جارحة واحدة من الإنسان "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ" 29 صائنون لها عن كل ما حرم اللّه "إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ" يشمل الرجال والنساء والعبيد والإماء "أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" خاص بالذكور فقط ، إذ لا يحل للنساء إلا الاستفادة من خدمتهم فقط "فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ" 30 بذلك وإن كثروا من الزوجات والإماء ضمن حدود الشرع

"فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذِلكَ" من الزوجات والإماء للرجال ومن الأزواج فقط للنساء "فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ" 31 المتجاوزن ما أحلّ اللّه لهم إلى ما حرم عليهم ، وقد فصلنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 6 من سورة المؤمنين المارة ، وذكرنا أيضا بأنها ليست بناسخة لآية المتعة المزعومة الواردة في سورة النساء ج 3 فراجعها ، "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ" 32 محافظون لا يخونون الأمانة ولا ينقضون العهد ولا يخلفون الوعد ولا يغدرون ولا ينكثون ، راجع الآية 8 من سورة المؤمنين المارة والآية 34 من الإسراء في ج 1 ، "وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ" 33 بها أمام الحكام لإظهار الحقوق بلا ميل ولا ترجيح بين القوي والضعيف والوضيع والشريف ، راجع الآية 32 من سورة الفرقان ج 1 ، وله صلة في الآية 283 من سورة البقرة ج 3 ، "وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ" 34 على أوقاتها وشروطها وأركانها على أكمل وجه ، راجع الآية 8 من سورة المؤمنين المارة ، ولها صلة في الآية 238 من البقرة في ج 3 أيضا ، "أُولئِكَ" الجامعون لهذه الصفات الكريمة "فِي جَنّاتٍ مُكْرَمُونَ" 35 عند ربهم ، ويؤذن وصف المصلّين بما ذكر أن الصلاة وحدها ما لم تكن تلك الصفات منضمة إليها لا تكفي للخلاص من اللّه ولا تؤهل صاحبها دخول الجنة بانفرادها ، وهو كذلك واللّه أعلم " فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا " أي شيء جرى لهم ما بالهم "قِبَلَكَ" يا سيد الرسل "مُهْطِعِينَ" 36 مادي أعناقهم نحوك وهم مديمو النظر إليك متطلعون لحهتك "عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ" 37 جماعات وفرقا محلّقين بأطرافك ،

يستهزئون بك وبما أنزل عليك ، نزلت هذه الآية في جماعة من قريش كانوا يحيطون بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم ويسمعون كلامه ولا يتأثرون منه ، ويقولون إن دخل أصحاب محمد الجنة التي يذكرها ويصفها بقوله لندخلنها

قبلهم ،

(40/781)

فرد اللّه عليهم بقوله "أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ" 38 مثل أصحابك "كَلَّا" يا سيد الرسل لا يدخلونها أبدا ماداموا على كفرهم ، لأن أمثالهم ليسوا من أهل الجنة ، إذ لا يدخلها إلا الطاهرون من الشرك والكفر "إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ" 39 من نطفة قذرة ، وهذه الجملة جارية مجرى المثل تعريضا عما يستقبح ذكره ، لأن النطفة من مصب يتحاشى عن التصريح به ، ولذلك أبهمه تعالى وتنزه .

وهذا من آداب القرآن العظيم الواجب على الناس التأدب بآدابه ، وأن يجتنبوا التصريح في كل ما من شأنه كتمه بل يومئون إليه إيماء ويعرضون تعريضا ، والمعنى أن هؤلاء الكفار يدعون الشرف والفضل على أصحاب محمد ، وهم وإن كانوا جميعا خلقوا من أصل واحد وشيء واحد كما ذكروا ، إلا أن البشر يتفاضل بالأعمال والمعارف ، والجنة لا

تكون إلا للصالحين من البشر المخلصين ، لا للأكابر والأغنياء وأهل الأنساب غير المتصفين بالصلاح .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بشر بن جحاش قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم - وبصق يوما في كفه ووضع عليها إصبعه - فقال يقول اللّه عز وجل : يا ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وآن أوان الصدقة .

"فَلا" ليس الأمر كذلك "أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ" مشرق كل يوم من السنة ومغربها "إِنَّا لَقادِرُونَ" 40 على إهلاكهم جميعا بلحظة واحدة و

(41/781)

"عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ" فتخلق خلقا أحسن منهم طاعة وتصديقا كما أهلكنا القرون الأولى واستبدلنا بهم غيرهم وهو أهون علينا "وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" 41 ولا عاجزين عن ذلك ولا مغلوبين عليه ولا يفوتنا أحد بذلك "فَذَرْهُمْ" يا سيد الرسل "يَخُوضُوا" في أباطيلهم "وَيَلْعَبُوا" في لهوهم "حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ" 42 وهو "يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ

الْأَجْداثِ" القبور "سِراعاً" لإجابة الداعي يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية "كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ" شيء منصوب كالعلم والراية وشبهها "يُوفِضُونَ" 43 يستبقون إليه أيهم يصله قبل كما كانوا يتسابقون إلى أصنامهم في الدنيا ولكنهم

"خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ" لما لحقهم من الخوف والفزع والهوان خاضعين "تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ" وتعشاهم مذلّة وحقار بخلاف حالتهم في الدنيا ، إذ كانوا ضاحكين بهيجين لأنهم لم يحسبوا لهذا اليوم حسابه "ذلِكَ" اليوم الموصوف بما ذكر الذي ظهر لهم عيانا واعترفوا به "الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ" 44 به على لسان رسلهم في الدنيا والذي كانوا يكذبون به .

وقد ختمت هذه السورة بمثل ما ختمت به سورة الذاريات فقط .

هذا والله أعلم ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 406 .

412 ﴾

(42/781)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المعارج

مكية

للكافرين صالح المعارج حسن خمسين ألف سنة تام وكذا جميلا وقريبا ويبصرونهم وينجيه وكلا لكن لا يجمع بين الآخرين والوقف على الأخير أولي من ينجيه لظى كاف لمن رفع نزاعة أو نصبها بأعنى وليس بوقف لمن نصبها حالا فأوعي تام دائمون كاف وكذا والمحروم ويم الدين مشفقون حسن وكذا عير مأمون وغير ملومين العادون كاف وكذا راعون وقائمون ويحافظون مكرمون تام عزين حسن جنة نعيم كلا تام وقيل كلا بمعنى حقا وقيل بمعنى إلا فالوقف فيهما على حنة نعيم مما يعلمون حسن وكذا بمسبوقين ويعودون صالح وكذا يوفضون ترهقهم ذلة تام وكذا آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(43/781)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة المعارج

مكية أربع وأربعون آية وكلمها مائتان وسبع عشرة كلمة وحروفها ثمانمائة واحد وستون حرفاً

واقع للكافرين (حسن) وقيل الوقف بعذاب واقع وهو رأس آية ثم قال للكافرين ليس له دافع أي ليس له دافع من الكافرين في الآخرة ويجوز أن يجعل للكافرين جواباً بعد سؤال كأنَّه قال قل يا محمد لهذا السائل يقع العذاب للكافرين أي بعذاب كائن للكافرين أو هو للكافرين فقوله للكافرين صفة لعذاب وقال الأخفش الوقف الجيد ذي المعارج وقوله تعرج الملائكة مستأنف وقيل لا يوقف من أول السورة إلى ألف سنة وهو (تام) ومثله جميلاً وكذا قريباً إن نصب يوم بمقدَّر أي احذر ويوم تكون السماء كالمهل وليس بوقف إن أبدل من ضمير نراه إذا كان عائداً على يوم القيامة

كالعهن (حسن) ومثله حميماً وما بعده استئناف كلام قرأ العامة يسأل مبنياً للفاعل وقرأ أبو جعفر وغيره مبنياً للمفعول يبصرونهم (حسن)

ثم ينجيه كلا (حسن) عند الأخفش والفراء وأبي حاتم السجستاني وكلا بمعنى لا فكأنَّه قال لا ينجيه أحد من عذاب الله ثم ابتدأ أنَّها لظى

ولظى (كاف) لمن رفع نزاعة خبر مبتدأ محذوف أي هي نزاعة وكذا من نصبها بتقدير أعني أو نصبها على الاختصاص وليس بوقف لمن رفعها على أنَّها خبر لظى وجعل الهاء في أنَّها للقصة كأنَّه قال كلا إنَّ القصة لظى نزاعة للشوى ومثل ذلك من جعل نزاعة بدلاً من لظى أو جعلها خبراً ثانياً لأن وقرأ حفص نزاعة بالنصب حالاً من الضمير المستكن في لظى لأنَّها وإن كانت علماً فلا تتحمل الضمير فهي جارية مجرى المشتقات كالحرث والعباس

للشوى (حسن) على استئناف ما بعده والشوى الأطراف اليدان والرجلان وجلدة الرأس وكل شيء لا يكون مقتلاً

(44/781)

فأوعى (تام) ولا وقف من قوله إنَّ الإنسان إلى دائمون فلا يوقف على هلوعاً لأنَّ ما بعده تفسير له لأنَّ الإنسان لما كان الجزع والمنع متمكنين فيه جعل كأنَّه خلق مجبولاً عليهما ولا يوقف على منوعاً للاستثناء ولا على المصلين لأنَّ ما بعده من صفتهم

دائمون (كاف) ومثله والمحروم وكذا بيوم الدين

مشفقون (حسن) ومثله غير مأمون ولا يوقف على حافظون للاستثناء

غير ملومين (حسن) والوقف على العادون وراعون وقائمون ويحافظون كلها وقوف حسان

في جنات مكرمون (تام) وتقدم أن رسم فمال هؤلاء القوم في النساء ومال هذا الكتاب في الكهف ومال هذا الرسول في الفرقان و فمال الذين كفروا هنا كلمتان ما كلمة ول كلمة وقف أبو عمرو على ما والكسائي بخلاف عنه والباقون على اللام وقال ابن الجوزي اختار الوقف على مال كل القراء فمن وقف على ما ابتدأ بما بعدها ومن وقف على اللام ابتدأ بما

بعدها واتفقوا على كتابة اللام منفصلة وتقدم ما يغني عن إعادته وإنَّما أعدته للإيضاح

عزين (كاف)

جنة نعيم كلا (تام) عند نافع رداً لما قبلها ويجوز الوقف على نعيم والابتداء بما بعدها على

معنى إلا

مما يعلمون (كاف)

لقادرون ليس بوقف لتعلق الجار

خيراً منهم ليس بوقف لأنَّ الواو للحال

بمسبوقين (كاف)

يوعدون (جائز) لأنَّ يوم بدل من يومهم

يوفضون (كاف) إن نصب خاشعة بترهقهم وليس بوقف إن نصب على الحال

ذلة (تام) على قراءة الجمهور ذلةً منوناً

ذلك اليوم برفع الميم مبتدأ وخبر وليس بوقف على قراءة يعقوب بإضافة ذلة إلى ذلك وجر

الميم لأنَّه صفة لذلك والذي نعت لليوم

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المعارج :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "سَالَ سَيلٌ1" – ابن عباس .

قال أبو الفتح : السيل هنا : الماء السائل ، وأصله المصدر من قولك : سال الماء سيلا ، إلا أنه أوقع على الفاعل2 كقوله : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا3 ﴾ ، أي : غائرا . يؤكد ذلك عندك ما أنشدناه أبو علي من قوله :

فلينك حال البحر دونك كله فكنت لقى تجري عليك السوائل4

قال أبو علي [160ظ] فتكسيره سيلا على ما يكسر عليه سائل ، وهو قولك ؛ السوائل – يشهد بما ذكرناه .

ومثل ذلك مما كسر من المصادر تكسير اسم الفاعل لكونه في معناه ما أنشدناه أيضا من قوله :

وإنك يا عام بن فارس قرزل معيد على قيل الخنا والهواجر5

فكسر الهجر ، وهو الفحش على الهواجر ، حتى كأنه إنما كسر هاجرا ، ولا هجر .

فاعرف ذلك إلى غيره ، مما يدل على مشابهة المصدر لاسم الفاعل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 329 ﴾

(46/781)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة سأل

وتسمى المعارج والواقعة مكية وآيها أربعون وثلاث دمشقي وأربع في الباقي خلافها آية ( )

ألف سنة (تركها دمشقي

القراآت اختلف في (سأل) الآية 1 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بألف بلا همز بوزن قال

وهي لغة قريش فهو من السؤال أبدلت همزته على غير قياس عند سيبويه والقياس بين بين

أو من السيلان فألفه عن ياء كباع والمعنى سال وادي بعذاب والباقون بالهمز من السؤال

فقط وهي اللغة الفاشية ويوقف عليه لحمزة بالتسهيل فقط واختلف في (تعرج) الآية 4

فالكسائي بالياء من تحت والباقون بالتاء من فوق

واختلف في ﴿ ولا يسئل) ﴾ الآية 10 فالبزي من طريق ابن الحباب وأبو جعفر بضم

الياء مبنيا للمفعول ونائبه حميم وحميما نصب بنزع الخافض عن وكذا رواه الزينبي عن

أصحابه عن أبي ربيعة والباقون بفتح الياء مبنيا للفاعل أي لا يسأل قريب قريبا عن حاله أو لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده وهي رواية أبي ربيعة عن البزي وقرأ (يومئذ) الآية 11 بفتح الميم نافع والكسائي وأبو جعفر كما في هود وأبدل أبو جعفر همزة تؤويه واوا ساكنة فجمع بين الواوين الأصشلية والمبدلة بلا إدغام والباقون بالإظهار ويوقف عليه لحمزة بالإبدال بلا إدغام وبالإدغام وهما في الشاطبية وغيرها وأمال رؤوس آي هذه السورة وهي أربعة لظى وللشوى وتولى فأوعى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأبو عمرو بخلفه غير أن التقليل عنه أكثر من الفتح كما مر واختلف في (نزاعة) الآية 16 فحفص بالنصب على الحال من الضمير المستكين في لظى لأنها وإن كانت علما جارية مجرى المشتقات بمعنى المتلظي أو على الاختصاص والباقون بالرفع خبر ثان وأمال ابتغى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وقرأ (لأماناتهم) الآية 32 بالتوحيد ابن كثير وافقه ابن محيصن ومر بالمؤمنين

(47/781)

واختلف فيبشهاداتهم) الآية 33 فحفص ويعقوب بألف بعد الدال على الجمع اعتبارا بتعدد الأنواع والباقون بلا ألف على التوحيد على إرادة الجنس وتقدم في الوقف على

المرسوم حكم الوقف على فمال والابتداء بها وفي محالها الثلاثة وعن ابن محيصن رب المشرق والمغرب بالتوحيد فيها

وقرأ ﴿ حتى يلقوا) ﴾ الآية 42 بفتح الياء وسكون اللام بلا ألف أبو جعفر كما في الزخرف ومر اتفاقهم على فتح حتى واختلف في ( ) إلى نصب (الآية 43 فابن عامر وحفص بضم النون والصاد جمع نصب كسقف وسقف أو جمع نصاب ككتب وكتاب وعن الحسن بفتح النون والصاد فعل بمعنى مفعول والباقون بفتح النون وإسكان الصاد اسم مفرد بمعنى المنصوب للعبادة أو العلم وقال أبو عمرو وهي شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها خوف انقلابه

المرسوم نافع عن المدني ﴿ المشرق والمغرب ﴾ بحذف ألفهما وقيل ثابتتان في العراقية واتفقوا على فصل لام (فمال) كالنساء والكهف والفرقان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(48/781)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المعارج "

" سأل " قرأ المدنيان والشامي بألف بعد السين بدلا من الهمزة مثل قال ، وعبرهم بهمزة مفتوحة بعد السين ويقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

" تعرج " قرأ الكسائي بياء التذكير وغيره بتاء التأنيث .

" ولا يسأل " قرأ أبو جعفر بضم الياء وغيره بفتحها .

" يومئذ " قرأ المدنيان والكسائي بفتح الميم والباقون بكسرها .

" تؤويه " لا يبدله ورش ولا السوسي إنما يبدله أبو جعفر في الحالين وكذلك حمزة عند الوقف غير أن له وجهين بعد الإبدال الإظهار كأبي لجعفر وإدغام الواو المبدلة من الهمزة في الواو التي بعدها .

" نزاعة " نصب حفص التاء ورفعها غيره .

" فأوعى " آخر الربع .

الممال

سورة المعارج من السور الإحدى عشرة

" رءوس الآي الممالة " :

" لظى ، للشوى ، وتولى ، فأوعى " وهي معدودة إجماعا ، وقد أمالها الأخوان وخلف ، وقللها البصري وورش بلا خلاف عنهما .

" ما ليس برأس آية " :

" أدراك " بالإمالة للأصحاب والبصري وشعبة وابن ذكوان بخلف عنه . والوجه الثاني له الفتح وبالتقليل لورش ، فترى وترى ونراه لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، وعند وصل فترى بالقوم يميله السوسي بخلف عنه ، صرعى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة طغا لدى الوقف عليه ، ولا تخفى وأغنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه الكافرين وللكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " كذبت ثمود للبصري والشامي والأخوين ، فهل نرى للبصري وهشام والأخوين .

" الكبير " فهي يومئذ ، أقسم بما ، لقول رسول ، الأقاويل لأخذنا المعارج تعرج ، ولا إدغام في رسول ربهم لأن اللام مفتوحة بعد ساكن .

" الخير " صلاتهم ، غير ، مأمون ، لقادرون ، خيرا ، سراعا . كله جلي .

" لأماناتهم " قرأ ابن كثير بغير ألف بعد النون على التوحيد وغيره بالألف على الجمع

" بشهاداتهم " قرأ حفص ويعقوب بألف بعد الدال على الجمع وغيرهما بغير ألف على الإفراد .

" على صلاتهم " أجمعوا على قراءته بالإفراد .

" فمال الذين كفروا " حكمه حكم فمال هؤلاء القوم بالنساء .

" يلاقوا " قرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان اللام وفتح القاف وغيره بضم الياء وفتح اللام وألف بعدها مع ضم القاف .

" نصب " قرأ حفص والشامي بضم النون والصاد والباقون بفتح النون وإسكان الصاد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 334 . 336 ﴾

(49/781)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة السائل المعارج

قوله تعالى ﴿ سأل سائل ﴾ يقرآن بإثبات الهمز وطرحه فالحجة لمن همز أنه أتى به على الأصل والحجة لمن ترك الهمز أنه أراد التخفيف ويحتمل أن يكون أراد الفعل الماضي من السيل فلم يهمزه وهمز الإسم لأنه جعله إسم الفاعل أو إسم واد في جهنم كما قال تعالى ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ فيكون الباء في القراءة الأولى بمعنى عن وفي الثانية بمعنى الباء لأيصال الفعل فأما همز سائل فواجب من الوجهين

قوله تعالى ﴿ نزاعة للشوى ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه جعله بدلا من

لظى أو أضمر لها ما يرفعها به والحجة لمن نصب انه نصب على الحال أو القطع ومعناه أن لظى معرفة و نزاعة نكرة وهما جنسان فلما لم تتبع النكرة المعرفة في النعت قطعت منها فنصبت ومعنى الحال أنها وصف هيئة الفاعل والمفعول في حال اتصال الفعل طال أو قصر ودليلها إدخال كيف على الفعل والفاعل فيكون في الحال الجواب كقولك كيف أقبل زيد فتقول ماشيا أو راكبا وما اشبه ذلك فأما الشوى فالأطراف وجلدة الرأس

قوله تعالى ﴿ لأماناتهم ﴾ و ﴿ بشهاداتهم ﴾ يقرآن بالتوحيد والجمع وقد ذكرت علله في المؤمنين

قوله تعالى ﴿ يوم يخرجون ﴾ يقرأ بضم الياء وفتحها وقد ذكرت علله في غير موضع

قوله تعالى ﴿ إلى نصب ﴾ يقرا بضم النون وفتحها وإسكان الصاد وضمها فالحجة لمن قرأه بضمتين أنه أراد جمع نصب ونصب كرهن ورهن والحجة لمن فتح وأسكن أنه جعله ما نصب لهم كالعلم أو الغاية المطلوبة ومعنى يوفضون يسرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 352. 353 ﴾

(50/781)

وقال ابن زنجلة :

70 - سورة المعارج

سأل سائل بعذاب بواقع 1

قرأ نافع وابن عامر سال غير مهموز أراد سأل بالهمز فترك الهمز للتخفيف قال محمد بن يزيد المبرد من لم يهمز فعلى أحد وجهين إما أن يأخذها من سال يسيل من السيل والوجه الثاني أن يكون من سلت أسال كما تقول خفت أخاف ونمت أنام و سلت أسال في معنى سألت أسأل وهي لغة معروفة والعرب تقول سألت أسأل ويقوي الوجه الأول ما روي عن ابن عباس أنه قال

من قرأها بلا همز فإنه واد في جهنم ومن قرأها مهموزة يريد النضر فعلى هذا القول سائل واد في جهنم كما قال فسوف يلقون غيا والغي واد

وقرأ الباقون سأل بالهمز أي دعا داع وهو النضر ابن الحارث بن كلدة وأجمع القراء على همز سائل لأنه إن كان من سأل بالهمز فعين الفعل همزة وإن كان من سال بغير همز فالهمزة بدل من الياء كما تقول سار فهو سائر تعرج الملئكة والروح إليه 4

قرأ الكسائي يعرج الملائكة بالياء وقرأ الباقون بالتاء الجموع تذكر إذا قدرت بها الجمع وتؤنث إذا أريد بها الجماعة نحو قال الرجال وقالت الرجال قال الله كذبت قوم نوح المرسلين وقال إذ قالت الملائكة فمن قرأ تعرج بالتاء فإنه ذهب إلى جماعة الملائكة ومن قرأ بالياء

فإنه ذهب إلى جمع الملائكة ولا يسئل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه 10 و 11

قرأ البرجمي عن أبي بكر ولا يسأل حميم حميما بضم الياء أي لا يقال لحميم أين حميمك أي لا يطالب قريبا بأن يحضر قريبه كما يفعل أهل الدنيا بأن يؤخذ الجار بالجار والحميم بالحميم لأنه لا جور هناك

أعلم أنك إذا بنيت الفعل للفاعل قلت سألت زيدا عن حميمه فإذا بنيت الفعل للمفعول به قلت سئل زيد عن حميمه وقد يحذف الجار فيصل الفعل إلى الاسم الذي كان مجرورا قبل حذف الجار فينتصب الاسم فعلى هذا انتصاب قوله حميما

(51/781)

وقرأ الباقون ولا يسأل بفتح الياء لأنهم في شغل في أنفسهم عن أن يلقى قريب قريبه فكيف أن يسأل ألم تسمع قوله تعالى يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت قال أبو عبيد والشاهد عليها قوله يوم يفر المرء من أخيه فكيف يسألهم عن شيء وهو يفر منهم

والفعل قبل تضعيف العين منه بصرت به كما جاء

بصرت بما لم يبصروا به فإذا ضعفت عين الفعل صار الفاعل مفعولا تقول بصرني زيد بكذا

فإذ حذفت الجار قلت بصرني زيد كذا فإذا بنيت الفعل للمفعول به وقد حذفت الجار قلت بصرت كذا فعلى هذا قوله يبصرونهم لأن الحميم وإن كان مفردا في اللفظ فالمراد به الكثرة والجمع

قرأ نافع والكسائي من عذاب يومئذ بفتح الميم وقرأ الباقون بكسر الميم على أصل الإضافة

ومن فتح يوم فلأنه مضاف إلى غير متمكن مضاف إلى إذ وإذ مبهمة ومعناه يوم يكون كذا فلما كانت مبهمة أضيف إليها بني المضاف إليها على الفتح كلا إنها لظى نزاعة للشوى 16 15,

قرأ حفص نزاعة للشوى بالنصب وقرأ الباقون بالرفع

قال الزجاج من نصب فعلى أنها حال مؤكدة كما قال هو الحق مصدقا وكما تقول أنا زيد معروفا فتكون نزاعة منصوبة مؤكدة لأمر النار ومن رفعها جعلها بدلا من لظى على تقدير كلا إنها لظى وكلا إنها نزاعة للشوى كذا كر الفراء وقال الزجاج والرفع على أن تكون لظى و نزاعة خبرا عن الهاء

والألف كما تقول إنه حلو حامض تريد أنه قد جمع الطعمين وتكون الهاء والألف إضمارا للقصة المعنى أن القصة نزاعة للشوى والذين لأمنتهم وعهدهم رعون والذين هم بشهداتهم قائمون 32و 33

قرأ ابن كثير والذين هم لأمانتهم واحدة وحجته قوله وعهدهم راعون ولم يقل وعهودهم قال بعض أهل النحو وجه الإفراد أنه مصدر واسم جنس فيقع على الكثرة وإن كان مفردا في اللفظ ومن هذا قوله كذلك زينا لكل أمة عملهم فأفرد

(52/781)

وقرأ الباقون لأماناتهم جماعة وحجتهم قوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات والأمانات جمع امانة وأمانة مصدر ويجوز جمع المصدر إذا اختلفت أنواعه فمن جمع فلاختلاف الأمانات وكثرة ضروبها يحسن الجمع من اجل الاختلاف

قرأ حفص والذين هم بشهاداتهم جماعة وقرأ الباقون بشهادتهم على التوحيد والقول في الشهادة والشهادات كما تقدم من القول في الأمانة والأمانات كأنهم إلى نصب يوفضون 43

قرأ ابن عامر وحفص كأنهم إلى نصب بضم النون والصاد جعلاه جمع نصاب كما تقول حمار وحمر ونصاب ونصب والنصب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان فقوله كأنهم إلى نصب أي إلى أصنام لهم وحجتهما قوله وما ذبح على النصب قال الفراء النصب واحد وجمعه أنصاب قال الله تعالى والأنصاب والأزلام فهو واحد الأنصاب قال الحسن كأنهم يبدرون إلى نصبهم أيهم يستلمها وقال أبو عبيدة من قرأ بضمتين جعله جمع نصب كرهن

ورهن وسقف وسقف والنصب العلم يعني الصنم الذي نصبوه

وقرأ الباقون إلى نصب بفتح النون وسكون الصاد أي كأنهم إلى علم منصوب يستبقون

والنصب بمعنى المنصوب كما تقول هذا ضرب الأمير أي مضروب الأمير وروي عن أبي

العالية أنه قرأ إلى نصب بضم النون وسكون الصاد أي غاية يستبقون والنصب والنصب

لغتان كالضعف والضعف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 720 . 725 ﴾

(53/781)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الواقع (المعارج) 70

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدنيين والمكي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها مئتان وست عشرة كلمة

وحروفها ثماني مئة وأحد وستون حرفا

وهي أربعون وثلاث آيات في الشامي وأربع في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ خمسين ألف سنة ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون وليس فيها مما

يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

واقع

1 دافع

2 المعارج

3 ألف سنة

4 جميلا

5 بعيدا

6 قريبا

7 كالمهل

8 كالعهن

9 حميما

10 ببنيه

11 وأخيه

12 تؤويه

13 ينجيه

14 لظى

15 للشوى

16 وتولى

17 فأوعى

18 هلوعا

19 جزوعا

20 منوعا

21 المصلين

22 دائمون

23 معلوم

24 والمحروم

25 الدين

26 مشفقون

27 مأمون

28 حافظون

29 ملومين

30 العادون

31 راعون

32 قائمون

33 يحافظون

34 مكرمون

35 مهطعين

36 عزين

37 نعيم

38 يعلمون

39 لقادرون

40 بمسبوقين

41 يوعدون

42 يوفضون

43 يوعدون

44 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 254﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (سأل) يقرأ بالهمزة وبالألف وفيه ثلاثة أوجه: أحدها هي بدل من الهمزة على التخفيف .

والثانى هي بدل من الواو على لغة من قال: هما يتساولان .

والثالث هي من الياء من السيل ، والسائل يبنى على الأوجه الثلاثة ، والباء بمعنى عن وقيل هي على بابها : أي سال بالعذاب كما يسيل الوادي بالماء واللام تتعلق بواقع ، وقيل هي صفة أخرى للعذاب ، وقيل يسأل ؟ ؟ ، وقيل التقدير ، هو للكافرين ، و (من) تتعلق بدافع: أي لا يدفع من جهة الله ، وقيل تتعلق بواقع ، ولم يمنع النفى ذلك لأنه ليس فعل ، و (ذى) صفة لله تعالى ، و (تعرج) مستأنف ، و (يوم تكون) بدل من قريب (ولا يسأل) بفتح الياء : أي حميما عن حاله ، ويقرأ

بضمها والتقدير: عن حميم ، و (يبصرونهم) مستأنف ، وقيل حال وجمع الضمير على معنى الحميم ، و (يود) مستأنف أو حال من ضمير المفعول أو المرفوع ، و (لو) بمعنى أن .

قوله تعالى (نزاعة) أي هي نزاعة ، وقيل هي بدل من لظى ، وقيل كلاهما خبر ، وقيل خبر إن ، وقيل لظى بدل من اسم إن ، ونزاعة خبرها ، وأما النصب فقيل هو حال من الضمير في (تدعو) مقدمة ، وقيل هي حال مما دلت عليه لظى أي تتلظى نزاعة ، وقيل هو حال من الضمير في لظى على أن تجعلها صفة غالبة مثل الحارث والعباس ، وقيل التقدير : أعنى .

وتدعو يجوز أن يكون حالا من الضمير في نزاعة إذا لم تعمله فيها ، و (هلوعا) حال مقدرة ، و (جزوعا) حال أخرى والعامل فيها هلوعا ، وإذا ظرف لجزوعا ، وكذلك (منوعا) .

قوله تعالى (إلا المصلين) هو استثناء من الجنس ، والمستثنى منه الإنسان وهو جنس ، فلذلك ساغ الاستثناء منه .

(55/781)

قوله تعالى (في جنات) هو ظرف ل (مكرمون) ويجوز أن يكونا خبرين ، و (مهطعين) حال من الذين كفروا ، وكذلك (عزين) وقبلك معمول مهطعين وعزين جمع عزة ، والمحذوف منه الواو ، وقيل الياء ، وهو من عزوته إلى أبيه وعزيته لأن العزة الجماعة ، وبعضهم منضم إلى بعض ، كما أن المنسوب مضموم إلى المنسوب إليه .

وعن يتعلق بعزين : أي متفرقين عنهما ، ويجوز أن يكون حالا .

قوله تعالى (يوم يخرجون) هو بدل من يومهم ، أو على إضمار أعنى ، و (سراعا) و (كأنهم) حالان ، والنصب قد ذكر في المائدة (خاشعة) حال من يخرجون ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(56/781)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المعارج

[سورة المعارج (70) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3)

"سَأَلَ سائِلٌ" ماض وفاعله "بِعَذابٍ" متعلقان بالفعل "واقِعٍ" صفة عذاب والجملة ابتدائية لا محل لها "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بسأل "لَيْسَ" ماض ناقص "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم "دافِعٌ" اسم ليس المؤخر والجملة صفة ثانية لعذاب "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بواقع "ذِي" صفة لفظ الجلالة "الْمَعارِجِ" مضاف إليه .

[سورة المعارج (70) : آية 4]

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

"تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ" مضارع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "وَالرُّوحُ" معطوف على ما قبله "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "فِي يَوْمٍ" متعلقان بمحذوف تقديره يقع "كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ" كان واسمها وخبرها "أَلْفَ سَنَةٍ" تمييز مضاف إلى سنة والجملة صفة يوم.

[سورة المعارج (70) : الآيات 5 الى 7]

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7)

"فَاصْبِرْ صَبْراً" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر ومفعول مطلق "جَمِيلاً" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "يَرَوْنَهُ" مضارع وفاعله والهاء مفعوله الأول "بَعِيداً" مفعوله الثاني والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "وَنَراهُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "قَرِيباً" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة المعارج (70) : الآيات 8 الى 10]

يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10)

"يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ" ظرف زمان ومضارع ناقص واسمه "كَالْمُهْلِ" متعلقان بمحذوف خبر تكون والمهل :

ذائب الفضة والجملة في محل جر بالإضافة "وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ" الجملة معطوفة والعهن الصوف "وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً" لا نافية ومضارع وفاعله ومفعوله الأول والمفعول الثاني محذوف تقديره شفاعته والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المعارج (70) : آية 11]

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11)

"يُبَصَّرُونَهُمْ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والهاء مفعول به ثان والجملة صفة حميما "يَوَدُّ الْمُجْرِمُ" مضارع وفاعله والجملة حال "لَوْ يَفْتَدِي" لو مصدرية ومضارع فاعله مستتر والمصدر المؤول من لو والفعل مفعول يود "مِنْ عَذابِ" متعلقان بالفعل "يَوْمِئِذٍ" يوم ظرف زمان مضاف إلى مثله "بِبَنِيهِ" متعلقان بيفتدي .

[سورة المعارج (70) : الآيات 12 الى 14]

وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14)

"وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ" معطوفان على ما قبلهما "وَفَصِيلَتِهِ" معطوف على ما قبله "الَّتِي" اسم موصول صفة فصيلته "تُؤْوِيهِ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الموصول

"وَمَنْ" معطوف على بنيه "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "جَمِيعاً" حال "ثُمَّ يُنْجِيهِ" ثم حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المعارج(70) : الآيات 15 الى 18]

كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18)

(58/781)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّها" إن واسمها "لَظى" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها "نَزَّاعَةً" حال "لِلشَّوى" متعلقان بنزاعة والشوى جمع شواة جلدة الرأس "تَدْعُوا" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة حال "أَدْبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَتَوَلَّى" معطوف على أدبر وما بعده معطوف عليه .

[سورة المعارج(70) : الآيات 19 الى 21]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21)

"إِنَّ الْإِنْسانَ" إن واسمها "خُلِقَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "هَلُوعاً" حال والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "إِذا مَسَّهُ" ظرفية شرطية غير جازمة وماض ومفعوله "الشَّرُّ" فاعله "جَزُوعاً" خبر لكان المحذوفة مع اسمها والجملة المحذوفة جواب الشرط لا محل لها وجملة مسه في محل جر بالإضافة "وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً" الآية معطوفة.

[سورة المعارج (70) : الآيات 22 الى 23]

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23)

"إِلَّا" أداة استثناء "الْمُصَلِّينَ" مستثنى منصوب بالياء "الَّذِينَ" بدل من المصلين "هُمْ" مبتدأ "عَلى صَلاتِهِمْ" متعلقان بالخبر "دائِمُونَ" خبر والجملة الاسمية صلة الذين.

[سورة المعارج (70) : الآيات 24 الى 25]

وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)

"وَالَّذِينَ" معطوف على الذين السابقة "فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "مَعْلُومٌ" صفة والجملة صلة الذين "لِلسَّائِلِ" متعلقان بمعلوم "وَالْمَحْرُومِ" معطوف على السائل

[سورة المعارج (70) : الآيات 26 الى 28]

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)

"وَالَّذِينَ" معطوف على الذين السابقة "يُصَدِّقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة الذين "بِيَوْمِ" متعلقان بالفعل "الدِّينِ" مضاف إليه "وَالَّذِينَ" معطوف على ما قبله أيضا "هُمْ" مبتدأ "مِنْ عَذابِ" متعلقان بمشفقون "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "مُشْفِقُونَ" خبر والجملة صلة الذين "إِنَّ عَذابَ" إن واسمها "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "غَيْرُ" خبر إن "مَأْمُونٍ" مضاف إليه والجملة الاسمية تعليل.

[سورة المعارج (70) : آية 29]

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29)

سبق إعراب مثيلها في الآية - 27 -

[سورة المعارج (70) : آية 30]

إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30)

"إِلَّا" حرف حصر "عَلى أَزْواجِهِمْ" متعلقان بحافظون "أَوْ" حرف عطف "ما" معطوف على أزواجهم "مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ" الفاء حرف تعليل وإن واسمها وخبرها المضاف إلى ملومين والجملة الاسمية تعليل.

[سورة المعارج(70) : آية 31]

فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذِلكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31)

"فَمَنِ" الفاء حرف استئناف "من" اسم شرط مبتدأ "ابْتَغى" ماض في محل جزم فعل الشرط "وَراءَ ذِلكَ" ظرف مكان واسم الإشارة مضاف إليه "فَأُولئِكَ" الفاء واقعة في جواب الشرط "أولئك" اسم إشارة مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "العادُونَ" خبر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط خبر المبتدأ من .

[سورة المعارج(70) : آية 32]

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32)

"وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على ما قبله "هُمْ" مبتدأ "لِأَماناتِهِمْ" متعلقان براعون "وَعَهْدِهِمْ" معطوف على أماناتهم "راعُونَ" خبر والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها .

[سورة المعارج(70) : آية 33]

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33)

"وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على ما قبله أيضا "هُمْ" مبتدأ "بِشَهَادَاتِهِمْ" متعلقان بما بعدهما "قَائِمُونَ" خبر والجملة الاسمية صلة لا محل لها .

[سورة المعارج (70) : آية 34]

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34)

"وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على مثيله في الآيات السابقة "هُمْ" مبتدأ "عَلَى صَلَاتِهِمْ" متعلقان بما بعدهما "يُحَافِظُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية صلة الموصول لا محل لها .

[سورة المعارج (70) : آية 35]

أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

"أُولَئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ "فِي جَنَّاتٍ" متعلقان بخبر المبتدأ "مُكْرَمُونَ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها

[سورة المعارج (70) : الآيات 36 الى 37]

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37)

"فَمَا" الفاء حرف استئناف "ما" اسم استفهام مبتدأ "لِ الَّذِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة

الاسمية استئنافية لا محل لها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "قِبَلَكَ" ظرف مكان "مُهْطِعِينَ" حال مهطعين أي مديمي النظر "عَنِ الْيَمِينِ" متعلقان بمحذوف حال "وَعَنِ الشِّمالِ" معطوفان على ما قبلهما "عِزِينَ" حال عزين أي جماعات حلقا حلقا .

[سورة المعارج (70) : آية 38]

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)

(61/781)

"أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي ومضارع وفاعله المضاف إلى امرئ "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة امرئ "أَنْ يُدْخَلَ" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن ونائب الفاعل مستتر "جَنَّةَ" مفعول به ثان "نَعِيمٍ" مضاف إليه والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بالفعل يطمع وجملة أيطمع . . استئنافية لا محل لها .

[سورة المعارج (70) : آية 39]

كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّا" إن واسمها "خَلَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن

والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "مِمَّا" متعلقان بخلقناهم "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما .

[سورة المعارج (70) : آية 40]

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40)

"فَلا" الفاء حرف استئناف "لا أُقْسِمُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "بِرَبِّ" متعلقان بالفعل "الْمَشارِقِ" مضاف إليه "وَالْمَغارِبِ" معطوف عليه "إِنَّا" إن واسمها "لَقادِرُونَ" اللام المزحلقة "قادرون" خبر والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها .

[سورة المعارج (70) : آية 41]

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41)

"عَلى أَنْ نُبَدِّلَ" حرف جر ومضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادرون "خَيْراً" مفعول به "مِنْهُمْ" متعلقان بخيرا "وَما" الواو حالية "ما" نافية حجازية "نَحْنُ" اسمها "بِمَسْبُوقِينَ" مجرور لفظا بالباء الزائدة منصوب محلا خبر ما والجملة الاسمية حال .

[سورة المعارج (70) : آية 42]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42)

"فَذَرْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "يَخُوضُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والواو فاعله "وَيَلْعَبُوا" معطوف على يخوضوا "حَتَّى يُلاقُوا" حتى حرف غاية وجر ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعله "يَوْمَهُمُ" مفعول به "الَّذِي" صفة والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بيلعبوا

"يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة.

[سورة المعارج (70) : آية 43]

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43)

"يَوْمَ يَخْرُجُونَ" بدل من يومهم ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنَ الْأَجْداثِ" متعلقان بالفعل "سِراعاً" حال "كَأَنَّهُمْ" كأن واسمها "إِلى نُصُبٍ" متعلقان بما بعدهما "يُوفِضُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله ويوفضون: يسرعون والجملة الفعلية خبر كأن والجملة الاسمية حال ثانية.

[سورة المعارج (70) : آية 44]

خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

"خاشِعَةً" حال "أَبْصارُهُمْ" فاعل خاشعة "تَرْهَقُهُمْ" مضارع ومفعوله "ذِلَّةٌ" فاعل مؤخر والجملة الفعلية حال ثانية "ذلِكَ" اسم الإشارة مبتدأ "الْيَوْمُ" خبره والجملة مستأنفة لا محل لها "الَّذِي" صفة اليوم "كانُوا" كان واسمها "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة موصول. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 379. 383﴾

(63/781)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة المعارج

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1400 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ شَرّ مَا أعطي ابْن أَدَم شح هَالِع وَجبن خَالع

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْجِهَاد من حَدِيث عبد الْعَزِيز بن مَرْوَان بن الحكم

قَالَ سَمِعت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول قَالَ رَسُول اله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَرّ مَا فِي الرجل شح هَالِع وَجبن خَالع انْتَهَى

قَالَ ابْن طَاهِر إِسْنَاده مُتَّصِل وَهُوَ من شَرط أبي دَاوُد وَقد احْتج مُسلم بِمُوسَى بن عَلّي عَن أَبِيه عَن جمَاعَة من الصَّحَابَة انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس وَالسبْعين من الْقسم الثَّانِي

وَرَوَاهُ احْمَد وَعبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْأَدَب وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالسبْعين وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عبد الرَّحْمَن بن مهْدي

وَالْهَالِع ذُو الْهَلَع وَهُوَ الْجزع والخالع الَّذِي يخلع الْفُؤَاد لشِدَّته وَاخْتلف فِي الشُّح وَالْبخل فَقيل هما مُتَرَادِفَان وَهُوَ شدَّة الْحِرْص وَقيل الشُّح الْحِرْص عَلَى مَا لَيْسَ لَك وَالْبخل بِمَا عنْدك وَهَذَا رَوَاهُ الطَّبَرِيّ عَن طَاوس

1401 - الْحَدِيث الثَّانِي

وَعنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ أفضل الْعَمَل أَدْوَمه وَإِن قل

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الصَّلَاة من حَدِيث سعد بن إِبْرَاهِيم أَنه سمع أَبَا سَلمَة يحدث عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُئِل أَي عمل أحب إِلَى الله قَالَ أَدْوَمه وَإِن قل انْتَهَى

1402 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَت كَانَ عمله عَلَيْهِ السَّلَام دِيمَة

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الصَّوْم وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث عَلْقَمَة قَالَ سَأَلت أم الْمُؤمنِينَ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها فَقَالَت يَا أم الْمُؤمنِينَ كَيف كَانَ عمل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَل كَانَ يخص شَيْئًا من الْأَيَّام قَالَت لَا كَانَ عمله دِيمَة وَأَيكُمْ يُطيق مَا كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُطيق انْتَهَى

1403 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة سَأَلَ سَائل أعطَاهُ الله ثَوَاب الَّذين هم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدهمْ رَاعُونَ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ اخبرني مُحَمَّد بن الْقَاسِم ثَنَا إِسْمَاعِيل بن نجيد ثَنَا مُحَمَّد ابْن إِبْرَاهِيم بن سعيد ثَنَا سعيد بن حَفْص قَالَ قَرَأت عَلَى معقل بن عبيد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة سَأَلَ سَائل أعطَاهُ الله ثَوَاب الَّذين هم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدهمْ رَاعُونَ وَالَّذين هم

عَلَى صلَاتهم يُحَافِظُونَ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان وَلَفظ الثَّعْلَبِيّ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس وَمتْن الثَّعْلَبِيّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 89.90 ﴾

(65/781)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة سأل سائل» (70)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً» (10) قريب قريبا . .

«مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ» (11) فمن جرّ الميم أضاف العذاب إلى اليوم إلى إذ ومن فتح الميم جعل الميم حرفا من وسطه كلمة لا يستعنى بالإضافة إلى إذ فيجرّها وينوّن فيها . .

«وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ» (13) دون القبيلة ، الشعوب أكثر من القبائل ثم الفصيلة ، فخذه الّتى تؤويه «1» . .

«كَلَّا إِنَّها لَظى نَزَّاعَةً لِلشَّوى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى» (15 - 17) واحدتها شواة وهى اليدان والرجلان والرأس من الآدميين «2» قال الأعشى :

قالت قتيلة ماله قد جلّلت شيبا شواته «3»

«4» [913] أنشدها أبو الخطّاب الأخفش أبا عمرو بن العلاء فقال له : صحّفت إنما هى سراته قال أبو عبيدة : وسمعت رجلا من أهل المدينة يقول اقشعرّت شواتى «5» ،

---

(1) . - 7 «وفصيلته . . . فخذه التي تؤويه» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 508 .

(2) . - 10 «واحدتها . . . الآدميين» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 508 .

(3) . - 12 «أنشدها . . . شواته» : مروى فى الصحاح واللسان ، والتاج والقرطبي (18/ 288) عنه .

(4) . - 913 : البيت فى مجموعة ما أنشدوا للأعشى ميمون من شعر غير موجود فى ديوانه ص 238 وهو فى الطبري 29/ 42 والصحاح واللسان والتاج (شوى) والقرطبي 18/ 288 .

(5) . - 13 «وسمعت . . . شواتى» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 288 . [. . . . .]

وشوى الفرس قوائمه ، يقال عبل الشّوى ولا يكون هذا للرأس لأنهم وصفوا الخيل بأسالة الخدّين وعتق الوجه ورقّته «1» . .

«إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً» (19) قد فسّرها اللّه : لا يصبر .

«إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» (21) والهلاع مصدره وهو أسوأ الجزع . .

«مُهْطِعِينَ» (36) مسرعين . .

«عِزِينَ» (37) جماع عزة مثل ثبة وثبين وهى جماعات فى تفرقة «2» قال الراعىّ :

أمسى سوامهم عزين فلولا

«3» [914] .

«فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا» (42) مجازه : الوعيد . .

«كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» (43) النصب الواحد ، يوفضون يسرعون قال رؤبة :

يمشى [بنا] الجدّ على أوفاض

«4» [915] أي عجلة والنصب العلم والصنم الذي نصبوه ومن قال «نصب» فهى

جماعة، مثل رهن ورهن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 269. 270﴾

---

(1). - 1 - 2 «وشوى . . . ورقته» مروى عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 288.

«هو . . . يصير»: الذي ورد فى الفروق: حكاه القرطبي (18/ 291) عن أبى عبيدة.

(2). - 6 «عزين . . . تفرقه»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 510).

(3). - 914: من قصيدته التي فى آخر ديوان جرير (مصر 1313) 2/ 202 - 205 وجمهرة الأشعار 172 - 6، وهو فى الطبري 29/ 47 والقرطبي 18/ 293.

(4). - 915: ديوانه ص 81 والطبري 29/ 49.

(67/781)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «سأل سائل»

[سورة المعارج (70) : الآيات 15 الى 17]

كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17)

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّها لَظى ، نَزَّاعَةً لِلشَّوى ، تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى [17] وهذه استعارة .

والمراد بدعائها من أدبر وتولّى - والله أعلم - أنه لما استحقها بإدباره عن الحق صارت كأنها تدعوه إليها ، وتسوقه نحوها . وعلى ذلك قول ذى الرّمة «1» فى صفة الثور :

غدا بوهنين مجتازا لمرتعه بذي الفوارس تدعو أنفه الرّبب

والرّبب جمع ربّة ، وهى نبت من نبات الصيف .

يقول لما وجد رائحة الربب مضى نحوها فكأنها دعته إلى أكلها . وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أنها لا يفوتها ذاهب ، ولا يعجزها هارب . فكأنها تدعو الهارب منها فيجيبها ، مدّا له بأسبابها ، وردّا له إلى عذابها .

وقال بعض المفسرين : إنه تخرج عنق من النار ، فتتناول الكافر حتى تقحمه فيها ، فكأنها بذلك الفعل داعية له إلى دخولها .

وقد يجوز أن يكون المراد أنها تدعو من أدبر عن الحق . بمعنى أنها تخوّفه بفظاعة الخبر عنها ، وتغليظ الوعيد بها ، فكأنها تستعطفه إلى الرشد «2» ، وتستصرفه عن الغى .

وحكى عن المبرّد أنه قال : تدعو من أدبر وتولّى . أي تعذّبه . وحكى عن الخليل أن

أعرابيا قال لآخر : دعاك اللّه . أي عذبك اللّه . وقال ثعلب : معنى دعاك اللّه . أي أماتك اللّه . فعلى هذا القول يدخل الكلام فى باب الحقيقة ، ويخرج عن حيز الاستعارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 346 ﴾

---

(1) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة . شاعر فحل اشتهر بالتشبيب وبكاء الأطلال ذاهبا مذهب الجاهلين . توفى بأصبهان سنة 117 ه .

(2) كانت بالأصل : (الرتبة) وهى تحريف . فصوبناها على طريق المقابلة مع الغى .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المعارج

فى أول هذه السورة وصف الحق نفسه بأنه ذو المعارج. وذلك كقوله فى سورة أخرى " رفيع الدرجات ذو العرش " . والملكوت الإلهى من الفرش إلى العرش أو من الأرض السفلى إلى سدرة المنتهى قد يقطعه البشر فى خمسين ألف سنة ، أما الروح الأمين وجمهرة الملائكة فتقطعه فى زمن محدود وقد رأينا كيف انتقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام فى لمح البصر ! والمراد هنا أن الذى دعا بعذاب واقع من الله ذى المعارج لم يدع بشئ صعب . إن إهلاكه ليس أصعب من إهلاك بعوضة ، لكن هذا الداعى لا يصدق بعذاب قريب أو بعيد ، إنه أحمق أو كافر ! وسيرى هذا العذاب حتما " يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما " . إن الله خلق البشر على غرائز تشدهم إلى تحت ، وطلب منهم أن يقاوموها صاعدين إلى أعلى فمن أخلد إلى الأرض هلك ، ومن اتبع الوحى نجا . . والإيمان فى حقيقته قوة صاعدة طاهرة تتلمس الطريق إلى مرضاة الله " إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين . . " . وإن المسلم ليأسى عندما يرى أمته لم تألف طريق الكمال ، ولم تحصل الشمائل التى تفتح لها أبواب السماء ، مع أنها أحصيت إحصاء فى هذا الكتاب الكريم . لقد بين الله سبحانه أن فى طريق الجنة عقبات يجب اقتحامها ومشقات يجب التغلب عليها ، وما تعرف معادن الناس إلا بهذا الاختبار الجاد . يقول أبو

الطيب: لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال وفى هذه السورة نتلو هذا التساؤل " فمال الذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين * أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم * كلا إنا خلقناهم مما يعلمون " . والإهطاع إمالة الرأس والعين لتدقيق النظر . وقد تحول المشركون إلى جماعات تلتف بالرسول تريد استكشاف أمره ، إنهم يقتربون منه ولا

(70/781)

يصدقونه ولا يتبعونه ! هل يحقق هذا أملا ؟ كلا لابد من

الاتباع والإخلاص والجهاد ، إن الله خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا . والجيل الذى يعييه الحق ويعجزه السباق ، سوف يطويه الردى ويهال عليه التراب ، ويجىء القدر بأنشط منه وأزكى . " فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين " ذاك فى الدنيا حيث تتخلف الأمم الكسول ، أما فى الآخرة فالتفاوت بين الأفراد والشعوب يجعل أمما فى الحضيض وأخرى فى الثريا . . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 478 . 479 ﴾

(71/781)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(72/781)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة سأل

أقول: هذه السورة كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار وقال إبن عباس:

إنها نزلت عقب سورة الحاقة ، وذلك أيضاً من وجوه المناسبة في الوضع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 142 ﴾

(73/781)

قوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا

جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي تنقطع الأعناق والآمال دون عليائه (الرحيم) الذي أوضح نعمة البيان وعم بها وشهرها حتى صارت في الوضوح إلى حد لا مطمع لأحد في ادعاء خفائه (الرحيم) الذي اصطفى من عباده من وفقهم للفهم عنه والطاعة له ، فكان من أوليائه .

لما ختم أمر الطامة الكبرى في الحاقة حتى ثبت أمره ، وتساوى سره وجهره ، ودل عليها حتى لم يبق هناك نوع لبس في وجوب التفرقة في الحكمة بين المحسن والمسيء ، وختم بأن ترك ذلك مناف للكمال فيما تتعارقه من أمور العمال بعد أن أخبر أنه يعلم أن منهم مكذبين ، وكان السائل عن شيء يدل على أن السائل ما فهمه حق فهمه ، ولا اتصف بحقيقة علمه ، عجب في أول هذه ممن سأل عنها فقال : ﴿ سأل ﴾ ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد لكان جديراً بالتعجب منه والإنكار عليه بالإفراد في قوله : ﴿ سائل ﴾ وهو من السؤال في قراءتي من خفف بإبدال الهمزة ألفاً ومن همز .

ولما كان سؤالهم من وقت مجيء الساعة والعذاب وطلبهم تعجيل ذلك إنما هو استهزاء ، ضمن " سأل " استهزاء ثم حذفه ودل عليه بحال انتزعها منه وحذفها ودل عليها بما تعدى به فقال ، أو أنه حذف مفعول السؤال المتعدي " بعن " ليعم كل مسؤول عنه إشارة إلى أن من تأمل الفطرة الأولى وما تدعو إليه من الكمال فأطاعها فكان مسلماً فاضت عليه العلوم ، وبرقت له متجليه أشعة الفهوم ، فبين المراد من دلالة النص بقوله : ﴿ بعذاب ﴾ أي عن يوم القيامة بسبب عذاب أو مستهزئاً بعذاب عظيم جداً ﴿ واقع ﴾ وعبر باللام تهكماً منهم مثل ﴿ فبشرهم بعذاب ﴾ فقال : ﴿ للكافرين ﴾ أي الراسخين في هذا الوصف بمعنى : إن كان لهم في الآخرة شيء فهو العذاب ، وقراءة نافع وابن عامر بتخفيف الهمزة أكثر تعجيباً أي اندفع فمه بالكلام وتحركت به شفتاه لأنه مع كونه يقال : سال يسأل مثل خاف يخاف لغة في المهموز يحتمل أن يكون من سأل يسأل ، قال البغوي : وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعذاب قالوا : من أهل هذا العذاب ولمن هو ؟ سلوا عنه ، فأنزلت .

ولما أخبر بتحتم وقوعه علله بقوله : ﴿ ليس له ﴾ أي بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل ﴿ دافع ﴾ مبتدىء ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفؤ له فلا أمر لأحد معه ،

وإذا لم يكن له دافع منه لم يكن دافع من غيره وقد تقدم الوعد به ، ودلت الحكمة عليه فتحتم وقوعه وامتنع رجوعه .

(75/781)

ولما كان القادر يوصف بالعلو ، والعاجز يوصف بالسفول والدنو ، وكان ما يصعد فيه إلى العالي يسمى درجاً ، وما يهبط فيه إلى السافل يسمى دركاً ، وكانت الأماكن كلها بالنسبة إليه سبحانه على حد سواء ، اختير التعبير بما يدل على العلو الذي يكنى به عن القدرة والعظمة ، فقال واصفاً بما يصلح كونه مشيراً إلى التعليل : ﴿ ذي المعارج ﴾ أي الدرج التي لا انتهاء لها أصلاً - بما دلت عليه صيغة منتهى الجموع وهي كناية عن العلو ، وسميت بذلك لأن الصاعد في الدرج يشبه مشية الأعرج ، وروي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها السماوات ، ودل على ما دلت عليه الكثرة مع الدلالة على عجيب القدرة في تخفيفها على الملائكة بقوله : ﴿ تعرج الملائكة ﴾ أي وهم أشد الخلق وأقدره على اختراق الطباق ، والإسراع في النفوذ حتى يكونوا أعظم من لمح البرق الخفاق ﴿ والروح ﴾ أي جبريل عليه السلام ، خصه تعظيماً له ، أو هو خلق هو أعظم من الملائكة ، وقيل : روح العبد المؤمن إذا قبض ﴿ إليه ﴾ أي محل مناجاته ومنتهى ما يمكن من العلو لمخلوقاته ، وعلق بالعروج أو

بواقع قوله : ﴿ في يوم ﴾ أي من أيامكم ، فيه آدمياً ﴿ خمسين ألف ﴾ وبين المشقة في صعوده أو الكون فيه إن أريد القيامة بأن قال : ﴿ سنة ﴾ ولم يقل : عاماً - مثلاً ، ويجوز أن يكون هذا اليوم ظرفاً للعذاب فيكون المراد به يوم القيامة ، وأن يكون طوله على الكافر باعتبار ما يلحقه من الغم لشدة المخاوف عليه لأنه ورد أنه يخفف على المؤمن حتى يكون بمقدار صلاة واحدة - انتهى .

وروي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المعنى أنه لو ولي الحساب غير الله لم يفرغ منه إلا في هذا المقدار ، ويفرغ منه هو سبحانه في نصف يوم من أيام الدنيا ، وقال مجاهد والحكم وعكرمة : هو عمر الدنيا من أولها إلى آخرها خمسون ألف سنة لا يدري أحدكم مضى وكم بقي إلا الله ، وقد مضى في سورة ﴿ ألم السجدة ﴾ ما ينفع ههنا .

(76/781)

ولما كان هذا كله تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - عن استعجالهم إياه بالعذاب استهزاء وتكذيباً سواء أريد تصوير العظمة أو العذاب ، سبب عنه قوله : ﴿ فاصبر ﴾ أي على أذاهم ولا ينفك ذلك عن تبليغهم فإنك شارفت وقت الانتقام منهم أيها الفاتح الخاتم الذي لم أبين لأحد ما بينت على لسانه ، والصبر : حبس النفس على المكروه من الإقدام أو

الإحجام ، وجماله بسكون الظاهر بالتثبت والباطن بالعرفان ﴿ صبراً جميلاً ﴾ أي لا يشوبه شيء من اضطراب ولا استثقال ، ولا شكوى ولا استعجال ، فإن عذابهم ونصرك عليهم لعظمة من أرسلك ، فلا بد من وقوعه لأن القدح فيه والتكذيب به قدح فيها ، وهذا قبل الأمر بالقتال .

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه أتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن ، فقال تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : 1] إلى قوله ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ [المعارج : 6 و 7] ثم ذكر حالهم إذ ذاك ﴿ يوم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ [المعارج : 11] الآية ، ثم أتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيده ﴿ إنها لظى ﴾ [المعارج : 15] ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ [المعارج : 42] إلى قوله ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ [المعارج : 44] ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة – انتهى .

(77/781)

ولما كان كونه تعالى ، بما تقدم في العظمة ، أمراً معلوماً بما له من الآثار من هذا الكون وما فيه ، وكان استبعادهم لما أخبر به أمراً واهياً ضعيفاً سفسافاً لا يكاد يصدق أن أحداً يحاول أن يرد به هذه الأمور التي هي في وضوحها كالشمس لا خفاء بها أصلاً ولا لبس قال مؤكداً : ﴿ إنهم ﴾ أي الكفار المكذبين المستعجلين ﴿ يرونه ﴾ أي ذلك اليوم الطويل أو عذابه ﴿ بعيداً ﴾ أي زمن وقوعه ، لأنهم يرونه غير ممكن أو يفعلون أفعال من يستبعده ﴿ ونراه ﴾ لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده وهو علينا هين ﴿ قريباً ﴾ سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان ، فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة ، وكل آت قريب والبعيد والقريب عندنا على حد سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 147.144 ﴾

(78/781)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سأل ﴾ بغير همز مثل باع : أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة في الوقف وإن شاء لين الهمزة على التذكير : علي ﴿ ولا يسأل ﴾ بضم الياء : البزي من طريق الهاشمي

والبرجمي ﴿ يومئذ ﴾ بالفتح على البناء : أبو جعفر ونافع غير إسماعيل وعباس وعلي والشموني والبرجمي ﴿ تؤويه ﴾ بغير همز : يزيد والأعشى وحمزة في الوقف ﴿ نزاعة ﴾ بالنصب : حفص والمفضل ﴿ يخرجون ﴾ من الإخراج : الأعشى وحمزة في الوقف ﴿ إلى نصب ﴾ بضمتين : ابن عامر وسهل وحفص ﴿ نصب ﴾ بالضم فالسكون : المفضل الباقون : بالفتح والسكون .

(79/781)

الوقوف : ﴿ واقع ﴾ ه لا ﴿ دافع ﴾ ه لا ﴿ المعارج ﴾ ه لا ﴿ سنة ﴾ ج ﴿ جميلاً ﴾ ه ﴿ بعيداً ﴾ ه لا ﴿ قريباً ﴾ ه ط ﴿ كالمهل ﴾ ه لا ﴿ كالعهن ﴾ ه لا ﴿ حميماً ﴾ ه ج لأن ما بعده منقطع عنه مستأنف ولكن أصلحوا الوقف على ﴿ يبصرونهم ﴾ ﴿ ببنيه ﴾ ه لا ﴿ وأخيه ﴾ ه ﴿ تؤويه ﴾ ه لا ﴿ جميعاً ﴾ ه لا للعطف ﴿ ينجيه ﴾ ه لا ﴿ كلا ﴾ ط ﴿ لظى ﴾ ه ج لأن من قرأ ﴿ نزاعة ﴾ بالرفع جاز أن يكون بدلاً أو خبر ﴿ لظى ﴾ والضمير في ﴿ أنها ﴾ للقصة أو خبر مبتدأ محذوف . ومن نصب فعلى الحال المؤكدة أو على الإختصاص . ﴿ للشوى ﴾ ه ص لأن ﴿ يدعو ﴾ يصلح مستأنفاً وبدلاً من ﴿ نزاعة ﴾ ﴿ وتولى ﴾ ه لا ﴿ فأوعى ﴾ ه ﴿ هلوعاً ﴾ ه لا ﴿

جزوعاً ﴾ ه‌لا ﴿ منوعاً ﴾ ه‌لا ﴿ المصلين ﴾ ه‌لا ﴿ دائمون ﴾ ه‌لا ﴿ معلوم ﴾ ه‌لا ﴿ والمحروم ﴾ ه‌ص ﴿ الدين ﴾ ه ﴿ مشفقون ﴾ ه‌ج ﴿ مأمون ﴾ ه ﴿ حافظون ﴾ ه‌لا ﴿ ملومين ﴾ ه‌ج ﴿ العادون ﴾ ه‌ج ﴿ راعون ﴾ ه‌لا ﴿ قائمون ﴾ ه‌ك ﴿ يحافظون ﴾ ه‌لا ﴿ مكرمون ﴾ ه‌ط لانقطاع المعنى ﴿ مهطعين ﴾ ه‌لا ﴿ عزين ﴾ ه ﴿ نعيم ﴾ ه ﴿ كلا ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ لقادرون ﴾ ه‌ج ﴿ منهم ﴾ ج بناء على أن الواو للحال ﴿ بمسبوقين ﴾ ه ﴿ يوعدون ﴾ ه‌لأن ما بعد ب ء دل ﴿ يوقضون ﴾ ه‌ج لأن ما بعد حال من الضمير ﴿ ذلة ﴾ ط ﴿ يوعدون ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 354.355 ﴾

(80/781)

فصل

قال الفخر:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ ﴾ فيه قراءتان منهم من قرأه بالهمزة، ومنهم من قرأه بغير همزة، أما الأولون وهم الجمهور فهذه القراءة تحتمل وجوهاً من التفسير: الأول: أن النضر

بن الحرث لما قال : ﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعنى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ أي دعا داع بعذاب واقع من قولك دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ءامِنِينَ ﴾ [الدخان : 55] قال ابن الأنباري : وعلى هذا القول تقدير الباء الإسقاط ، وتأويل الآية : سأل سائل عذاباً واقعاً ، فأكد بالباء كقوله تعالى : ﴿ وَهُزّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] وقال صاحب الكشاف لما كان ﴿ سَأَلَ ﴾ معناه ههنا دعا لا جرم عدى تعديته كأنه قال دعا داع بعذاب من الله الثاني : قال الحسن وقتادة لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون : بعضهم لبعض سلوا محمداً لمن هذا العذاب وبمن يقع فأخبره الله عنه بقوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال ابن الأنباري : والتأويل على هذا القول : سأل سائل عن عذاب والباء بمعنى عن ، كقوله :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . بصير بأدواء النساء طبيب

(81/781)

وقال تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] وقال صاحب "الكشاف" : ﴿ سَأَلَ ﴾ على هذا الوجه في تقدير عنى واهتم كأنه قيل : اهتم مهتم بعذاب واقع الثالث : قال بعضهم : هذا السائل هو رسول الله استعجل بعذاب الكافرين ، فبين الله أن هذا العذاب واقع بهم ، فلا دافع له قالوا : والذي يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ [المعارج : 5] وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذي أمره بالصبر الجميل ، أما القراءة الثانية وهي (سال) بغير همز فلها وجهان : أحدهما : أنه أراد ﴿ سَأَلَ ﴾ بالهمزة فخفف وقلب قال :

سألت قريش رسول الله فاحشة . . ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

والوجه الثاني : أن يكون ذلك من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل والسيل مصدر في معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر ، والمعنى اندفع عليهم واد بعذاب ، وهذا قول زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد قالا : سال واد من أودية جهنم بعذاب واقع .

(82/781)

أما ﴿ سَائِلٌ ﴾ ، فقد اتفقوا على أنه لا يجوز فيه غير الهمز لأنه إن كان من سأل المهموز فهو بالهمز ، وإن لم يكن من المهموز كان بالهمز أيضاً نحو قائل وخائف إلا أنك إن شئت خففت

الهمزة فجعلتها بين بين ، وقوله تعالى : ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فيه وجهان ، وذلك لأنا إن فسرنا قوله : ﴿ سَأَلَ ﴾ بما ذكرنا من أن النضر طلب العذاب ، كان المعنى أنه طلب طالب عذاباً هو واقع لا محالة سواء طلب أو لم يطلب ، وذلك لأن ذلك العذاب نازل للكافرين في الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد ، وقد وقع بالنضر في الدنيا لأنه قتل يوم بدر ، وهو المراد من قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ وأما إذا فسرناه بالوجه الثاني وهو أنهم سألوا الرسول عليه السلام ، أن هذا العذاب بمن ينزل فأجاب الله تعالى عنه بأنه واقع للكافرين ، والقول الأول وهو السديد ، وقوله : ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان الأول : أن يكون تقدير الآية بعذاب واقع من الله للكافرين الثاني : أن يكون التقدير ليس له دافع من الله ، أي ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع من جهته ، فإنه إذا أوجبت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله الله وقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ المعارج جمع معرج وهو المصعد ، ومنه قوله تعالى :

(83/781)

﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً أحدها : قال ابن عباس في رواية الكلبي : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ ، أي ذي السموات ، وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها وثانيها : قال قتادة : ذي الفواضل والنعم وذلك لأن لأياديه ووجوه

إنعامه مراتب ، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة وثالثها : أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة ، وعندي فيه وجه رابع : وهو أن هذه السموات كما أنها متفاوتة في الارتفاع والانخفاض والكبر والصغر ، فكذا الأرواح الملكية مختلفة في القوة والضعف والكمال والنقص وكثرة المعارف الإلهية وقوتها وشدة القوة على تدبير هذا العالم وضعف تلك القوة ، ولعل نور إنعام الله وأثر فيض رحمته لا يصل إلى هذا العالم إلا بواسطة تلك الأرواح ، إما على سبيل العادة أولا كذلك على ما قال : ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ [الذاريات : 4] ، ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5] فالمراد بقوله : ﴿ مِّنَ اللهِ ذِي المعارج ﴾ الإشارة إلى تلك الأرواح .

المختلفة التي هي كالمصاعد لارتفاع مراتب الحاجات من هذا العالم إليها وكالمنازل لنزول أثر الرحمة من ذلك العالم إلى ما ههنا .

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض التهويل والتخويف أفرد الروح بعدهم بالذكر ، كما في هذه الآية ، وكما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] وهذا يقتضي أن الروح أعظم (من) الملائكة قدراً ، ثم ههنا دقيقة وهي أنه تعالى ذكر عند العروج الملائكة أولاً والروح ثانياً ، كما في هذه الآية ، وذكر عند القيام الروح أولاً والملائكة ثانياً ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ وهذا يقتضي كون الروح أولاً في درجة النزول وآخراً في درجة الصعود ، وعند هذا قال بعض المكاشفين : إن الروح نور عظيم هو أقرب الأنوار إلى جلال الله ، ومنه تتشعب أرواح سائر الملائكة والبشر في آخر درجات منازل الأرواح ، وبين الطرفين معارج مراتب الأرواح الملكية ومدارج منازل الأنوار القدسية ، ولا يعلم كميتها إلا الله ، وأما ظاهر قول المتكلمين وهو أن الروح هو جبريل عليه السلام فقد قررنا هذه المسألة في تفسير قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] .

المسألة الثانية :

احتج القائلون بأن الله في مكان ، إما في العرش أو فوقه بهذه الآية من وجهين : الأول : أن الآية دلت على أن الله تعالى موصوف بأنه ذو المعارج وهو إنما يكون كذلك لو كان في جهة فوق والثاني : قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملئكة والروح إِلَيْهِ ﴾ فبين أن عروج الملائكة وصعودهم إليه ، وذلك يقتضي كونه تعالى في جهة فوق والجواب : لما دلت الدلائل على امتناع كونه في المكان والجهة ثبت أنه لا بد من التأويل ، فأما وصف الله بأنه ذو المعارج فقد ذكرنا الوجوه فيه ، وأما حرف (إلى) في قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملئكة والروح إِلَيْهِ ﴾ فليس المراد منه المكان بل المراد انتهاء الأمور إلى مراده كقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ ﴾ [هود : 123] المراد الانتهاء إلى موضع العز والكرامة كقوله : ﴿ إِنّى ذَاهِبٌ إلى رَبّى ﴾ [الصافات : 99] ويكون هذا إشارة إلى أن دار الثواب أعلى الأمكنة وأرفعها .

المسألة الثالثة :

الأكثرون على أن قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ من صلة قوله ﴿ تَعْرُجُ ﴾ ، أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم ، وقال مقاتل : بل هذا من صلة قوله : ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير والتقدير : سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وعلى التقدير الأول ، فذلك اليوم ، إما أن يكون في الآخرة أو في الدنيا ، وعلى تقدير أن يكون في الآخرة ، فذلك الطول إما أن يكون واقعاً ، وإما أن يكون مقدراً فهذه هي الوجوه التي تحملها هذه الآية ، ونحن نذكر تفصيلها القول الأول : هو أن معنى الآية

أن ذلك العروج يقع في يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنة ، وهو يوم القيامة ، وهذا قول الحسن : قال وليس يعني أن مقدار طوله هذا فقط ، إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار عند تلك الغاية وهذا غير جائز ، بل المراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا .

(86/781)

ثم بعد ذلك يستقر أهل النار في دركات النيران نعوذ بالله منها .

(87/781)

واعلم أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر ، أما في حق المؤمن فلا ، والدليل عليه الآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ أَصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] واتفقوا على (أن) ذلك (المقيل والمستقر) هو الجنة وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما طول هذا اليوم ؟ فقال : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة

مكتوبة يصليها في الدنيا " ومن الناس من قال : إن ذلك الموقف وإن طال فهو يكون سبباً لمزيد السرور والراحة لأهل الجنة ، ويكون سبباً لمزيد الحزن والغم لأهل النار الجواب : عنه أن الآخرة دار جزاء فلا بد من أن يعجل للمثابين ثوابهم ، ودار الثواب هي الجنة لا الموقف ، فإذن لا بد من تخصيص طول الموقف بالكفار القول الثاني : هو أن هذه المدة واقعة في الآخرة ، لكن على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق ، والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، وأيضاً الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة قليلة ، وهذا قول وهب وجماعة من المفسرين القول الثالث : وهو قول أبي مسلم : إن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء ، فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة ، ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوماً ، لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي القول الرابع : تقدير الآية : سأل سائل بعذاب واقع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار ، ويحتمل أن يكون المراد

تقدير مدته ، وعلى هذا فليس المراد تقدير العذاب بهذا المقدار ، بل المراد التنبيه على طول مدة العذاب ، ويحتمل أيضاً أن العذاب الذي سأله ذلك السائل يكون مقدراً بهذه المدة ، ثم إنه تعالى ينقله إلى نوع آخر من العذاب بعد ذلك ، فإن قيل : روى ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية ، وعن قوله :

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة : 5] فقال : أيام سماها الله تعالى هو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها مالا أعلم ، فإن قيل : فما قولكم في التوفيق بين هاتين الآيتين ؟ قلنا : قال وهب في الجواب عن هذا ما بين أسفل العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة ، لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى ، فقوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ يريد من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا ، ومقدار ألف سنة لو صعدوا إلى أعالي العرش .

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا متعلق بسأل سائل ، لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه

الاستهزاء برسول الله والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر عليه ، وكذلك من يسأل عن العذاب لمن هو فإنما يسأل على طريق التعنت من كفار مكة ، ومن قرأ : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر فقد جاء وقت الانتقام .

المسألة الثانية :

قال الكلبي : هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر الرسول بالقتال .

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)

(89/781)

الضمير في ﴿ يَرَوْنَهُ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان الأول : أنه عائد إلى العذاب الواقع والثاني : أنه عائد إلى : ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] أي يستبعدونه على جهة الإحالة ﴿ و ﴾ نحن ﴿ نراه قَرِيبًا ﴾ هيناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر .

فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان ، وبالقريب القريب منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 107 . 111 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

قرأ نافع وابن عامر "سَالَ سَايِل" بغير همزة .

الباقون بالهمز .

فمن همز فهو من السؤال .

والباء يجوز أن تكون زائدة ، ويجوز أن تكون بمعنى عن .

والسؤال بمعنى الدعاء ؛ أي دعا داع بعذاب ؛ عن ابن عباس وغيره .

يقال : دعا على فلان بالويل ، ودعا عليه بالعذاب .

ويقال : دعوت زيداً ؛ أي التمست إحضاره .

أي التَمَسَ ملتمِسٌ عذاباً للكافرين ؛ وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامة .

وعلى هذا فالباء زائدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، وقوله .

﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] فهي تأكيد .

أي سأل سائل عذاباً واقعاً .

﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي على الكافرين .

وهو النضر بن الحارث حيث قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] فنزل سؤاله ، وقُتل يوم بدرٍ صبراً هو وعقبة بن أبي مُعيط ؛ لم يُقْتل صبراً غيرُهما ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

وقيل : إن السائل هنا هو الحارث بن النعمان والفِهْرِيّ .

وذلك أنه لما بلغه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في عليّ رضي الله عنه : " مَنْ كنتُ مَوْلاَه فعليٌّ مولاه " ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال : يا محمد ، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك ، وأن نصلّي خمساً فقبلناه منك ، ونزكي أموالنا فقبلناه منك ، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك ، وأن نَحُجّ فقبلناه منك ، ثم لم ترض بهذا حتى فَضَّلْتَ ابن عمك علينا أفهذا شيء منك أم من الله ؟ ا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " والله الذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله " فولّى الحارث وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

(91/781)

فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله ؛

فنزلت : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ الآية .

وقيل : إن السائل هنا أبو جهل وهو القائل لذلك ، قاله الربيع .

وقيل : إنه قول جماعة من كفار قريش .

وقيل : هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين .

وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أي دعا عليه السلام بالعقاب وطلب أن يوقعه الله بالكفار ؛ وهو واقع بهم لا محالة .

وامتدّ الكلام إلى قوله تعالى : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ أي لا تستعجل فإنه قريب .

وإذا كانت الباء بمعنى عن وهو قول قتادة فكأن سائلاً سأل عن العذاب بمن يقع أو متى يقع .

قال الله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] أي سل عنه .

وقال علقمة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

بصير بأدواء النساء طبِيب

أي عن النساء .

ويقال : خرجنا نسأل عن فلان وبفلان .

فالمعنى سألوا بمن يقع العذاب ولمن يكون فقال الله : ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

قال أبو علي وغيره : وإذا كان السؤال فأصله أن يتعدَّى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما .

وإذا اقتصر على أحدهما جاز أن يتعدّى إليه بحرف جَرّ ؛ فيكون التقدير سأل سائل النبيّ صلى الله عليه وسلم أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب .

ومن قرأ بغير همز فله وجهان : أحدهما أنه لغة في السؤال وهي لغة قريش ؛ تقول العرب : سال يسال ؛ مثل نال ينال وخاف يخاف .

والثاني أن يكون من السيلان ؛ ويؤيده قراءة ابن عباس "سال سَيْل" .

قال عبد الرحمن بن زيد : سال وادٍ من أودية جهنم يقال له : سائل ؛ وهو قول زيد بن ثابت .

قال الثعلبي : والأوّل أحسن ؛ كقول الأعشى في تخفيف الهمزة :

سالتاني الطلاق إذ رأتاني . . .

قَلّ مالي قد جئتماني بنُكْر

وفي الصحاح : قال الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان .

وقد تخفف همزته فيقال سال يسال وقال :

ومُرْهقٍ سال إمتاعاً بأُصْدَتِه . . .

لمَ يَسْتَعن وحَوامِي المَوْتِ تغشاه

المرهق : الذي أدرك ليقتل .

والأُصدة بالضم : قميص صغير يلبس تحت الثوب .

المهدويّ : من قرأ "سال" جاز أن يكون خفّف الهمزة بإبدالها ألفاً ، وهو البدل على غير قياس .

وجاز أن تكون الألف منقلبة عن واو على لغة من قال : سِلت أسال ؛ كخفت أخاف .

النحاس : حكى سيبويه سِلت أسال ؛ مثل خفت أخاف ؛ بمعنى سألت .

وأنشد :

سالَتْ هُذَيلٌ رسولَ الله فاحشةً . . .

ضَلّتْ هذيلٌ بما سالتْ ولم تُصِبِ

ويقال : هما يتساولان .

المهدوي : وجاز أن تكون مبدلة من ياء ، من سال يسيل .

ويكون سايل وادياً في جهنم ؛ فهمزة سايل على القول الأوّل أصلية ، وعلى الثاني بدل من

واو ، وعلى الثالث بدل من ياء .

القشيري : وسائل مهموز ؛ لأنه إن كان من سأل بالهمز فهو مهموز ، وإن كان من غير الهمز كان مهموزاً أيضاً ؛ نحو قائل وخائف ؛ لأن العين اعتلّ في الفعل واعتل في اسم الفاعل أيضا . ولم يكن الاعتلال بالحذف لخوف الالتباس ، فكان بالقلب إلى الهمزة ، ولك تخفيف الهمزة حتى تكون بين بين .

﴿ وَاقِعٍ ﴾ أي يقع بالكفار ، بيّن أنه من الله ذي المعارج .

وقال الحسن : أنزل الله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فقال لمن هو ؟ فقال للكافرين ؛ فاللام في الكافرين متعلقة ب "واقع" .

وقال الفرّاء : التقدير بعذاب للكافرين واقع ؛ فالواقع من نعت العذاب ، واللام دخلت للعذاب لا للواقع ، أي هذا العذاب للكافرين في الآخرة لا يدفعه عنهم أحد .

وقيل إن اللام بمعنى على ، والمعنى : واقع على الكافرين .

ورُوي أنها في قراءة أُبيّ كذلك .

وقيل : بمعنى عن ؛ أي ليس له دافع عن الكافرين من الله .

أي ذلك العذاب من الله ذي المعارج ؛ أي ذي العلوّ والدرجات الفواضل والنِعم ؛ قاله ابن عباس وقتادة .

فالمعارج مراتب إنعامه على الخلق .

وقيل ذي العظمة والعلاء .

وقال مجاهد : هي معارج السماء .

(93/781)

وقيل : هي معارج الملائكة ؛ لأن الملائكة تعرج إلى السماء فوصف نفسه بذلك .

وقيل : المعارج الغرف ؛ أي إنه ذو الغُرف ، أي جعل لأوليائه في الجنة غرفاً .

وقرأ عبد الله "ذي المعاريج" بالياء .

يقال : معرج ومعراج ومعارج ومعاريج ؛ مثل مفتاح ومفاتيح .

والمعارج الدرجات ؛ ومنه : ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] .

﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح ﴾ أي تَصْعَد في المعارج التي جعلها الله لهم .

وقرأ ابن مسعود وأصحابه والسُّلَمِيّ والكسائي "يَعْرُجُ" بالياء على إرادة الجمع ؛ ولقوله : ذكّروا الملائكة ولا تؤنثوهم .

وقرأ الباقون بالتاء على إرادة الجماعة .

"وَالرُّوحُ" جبريل عليه السلام ؛ قاله ابن عباس .

دليله قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

وقيل : هو مَلَك آخر عظيم الخِلقة .

وقال أبو صالح : إنه خَلْقٌ من خَلْق الله كهيئة الناس وليس بالناس .

قال قَبيصة بن ذُؤَيْب : إنه روح الميت حين يقُبض .

﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى المكان الذي هو محلهم وهو في السماء ؛ لأنها محل برّه وكرامته .

وقيل : هو كقول إبراهيم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [الصافات : 99] .

أي إلى الموضع الذي أمرني به .

وقيل : "إِلَيْهِ" أي إلى عرشه .

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال وهب والكلبي ومحمد بن إسحاق : أي عروج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صَعِد خمسين ألف سنة .

وقال وهب أيضاً : ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة .

وهو قول مجاهد .

وجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة : 5] في سورة السجدة ، فقال : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة .

وقوله تعالى في : (الام تنزيل) : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام .

وعن مجاهد أيضاً والحَكَم وعِكْرمة : هو مدّة عمر الدنيا من أوّل ما خلقت إلى آخر ما بقي خمسون ألف سنة .

لا يدري أحدٌ كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل .

وقيل : المراد يوم القيامة ، أي مقدار الحُكْم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة ، قاله عكرمة أيضا والكلبي ومحمد بن كعب .

يقول سبحانه وتعالى وأنا أفرغ منه في ساعة .

وقال الحسن : هو يوم القيامة ، ولكن يوم القيامة لا نفاد له .

فالمراد ذكر موقفهم للحساب فهو في خمسين ألف سنة من سِني الدنيا ، ثم حينئذ يستقر أهل الدارين في الدارين .

وقال يَمَان : هو يوم القيامة ، فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة .

وقال ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار .

قلت : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله ، بدليل ما رواه قاسم بن أَصْبَغ " من حديث أبي سعيد الخُدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" .

فقلت : ما أطول هذا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا" " واستدّل النحاس على صحة هذا القول بما رواه سُهيل عن أبيه عن أبي هريرة : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من رجل لم يؤدّ زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوي به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقدراه خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس " قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة .

وقال إبراهيم التيمي : ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا قدر ما بين الظهر والعصر .

(95/781)

وروي هذا المعنى مرفوعاً من حديث معاذ : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين ولذلك سَمّى نفسه سريع الحساب وأسرع الحاسبين " ذكره الماورديّ .

وقيل : بل يكون الفراغ لنصف يوم ، كقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] .

وهذا على قدر فَهم الخلائق ، وإلا فلا يشغله شأن عن شأن .

وكما يرزقهم في ساعة كذا يحاسبهم في لحظة ، قال الله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] .

وعن ابن عباس أيضاً أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال : أيام سَمّاها الله عز وجل هو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم .

وقيل : معنى ذكر خمسين ألف سنة تمثيل ، وهو تعريف طول مدّة القيامة في الموقف ، وما يلقى الناس فيه من الشدائد .

والعرب تصف أيام الشدّة بالطول ، وأيام الفرح بالقِصر ؛ قال الشاعر :

ويومٍ كظِلّ الرُّمْح قَصَّرَ طولَه . . .

دَمُ الزِّق عنّا واصطفاق المزاهر

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له من الله دافع ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه .

وهذا القول هو معنى ما اخترناه ، والموفق الإله .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾

أي على أذى قومك .

والصبر الجميل : هو الذي لا جزع فيه ولا شَكْوَى لغير الله .

وقيل : هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى من هو .

والمعنى متقارب .

وقال ابن زيد : هي منسوخة بآية السيف .

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيداً ؛ أي غير كائن .

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ لأن ما هو آت فهو قريب .

(96/781)

وقال الأعمش : يرون البعث بعيداً لأنهم لا يؤمنون به ؛ كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة .

كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد لا يكون ! وقيل : يرون هذا اليوم بعيداً "وَنَرَاهُ" أي نعلمه ؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود .

وهو كقولك : الشافعيّ يرى في هذه المسألة كذا وكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(97/781)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ ﴾

قرأ جمهور السبعة : ﴿ سَأَلَ ﴾ بهمزة محقَّقةٍ ، قالوا : والمعنى دَعَا داعٍ ، والإشارةُ إلى مَنْ قال من قريشٍ : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ ، [الأنفال : 32] الآية ، وقولهم : ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] ونحو ذلك ، وقال بعضهم : المعنى بَحَثَ بَاحِثٌ واسْتَفْهَمَ مُسْتَفْهِم ، قالوا : والإشارةُ إلى قول قريشٍ : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [الملك : 25] وَمَا جَرى مَجْراه ؛ قاله الحسن وقتادة ، والباء على هذا التأويل في قوله : ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ بمعنى «عن» وقرأ نافع وابن عامر : «سَال سَائِلٌ» ساكنَةَ الأَلِفِ ، واختلفَ القراء بها فقال بعضهم : هي «سأل» المهموزةُ إلاَّ أَنَّ الهمزةَ سُهِّلَتْ ، وقال بعضهم هي لغة من يقول : سَلْتُ أَسَالُ وَيَتَسَاوَلاَنِ ، وهي لغةٌ مشهورة ، وقال بعضهم في الآية : هي من سَالَ يَسِيلُ إذا جَرَى ، وليست من معنى السؤال ، قال زيد

بن ثابت وغيره : في جهنمَ وادٍ يسمَّى سَائِلاً ؛ والإخبارُ هنا عنه ، وقرأ ابن عباس : «سَال سيل» بسكون الياءِ وسؤَال الكفارِ عن العذابِ حَسَبَ قراءة الجماعة إنما كانَ على أنه كَذِبٌ ، فوصفَه اللَّه تعالى بأنهُ وَاقِعٌ وعيداً لهم .

(98/781)

وقوله : ﴿ للكافرين ﴾ قال بعض النحاة : اللامُ بمعنى «على» ، ورُويَ : أنه كذلِكَ في مصحف أُبيٍّ : «على الكافرين» والمعارجُ في اللُّغةِ الدَّرَجُ في الأجْرَام ، وهي هنا مستَعارَةٌ في الرُّتَبِ والفضائِل ، والصفاتِ الحميدة ؛ قاله ابن عباس وقتادة ، وقال الحسن : هي المَرَاقي في السماء ، قال عياض ، في «مشارق الأنوار» : قوله صلى الله عليه وسلم " فَعَرَجَ بي إلى السَّماء " ، أي : ارْتَقَى بي ، والمعراجُ الدَّرَجُ وقيل : سُلَّمٌ تَعْرُجُ فيه الأرواحُ ، وقيل : هو أحْسَنُ شيءٍ لا تتمالكُ النفسُ إذا رأته أنْ تَخْرُجَ ، وإليه يَشْخَصُ بَصَرُ الميْتِ مِنْ حُسْنِهِ ، وقيل : هو الذي تَصْعَدُ فيه الأَعْمَالُ ، وقيل : قوله : ﴿ ذِي المعارج ﴾ مَعَارِجِ الملائكةِ ، وقيل : ذي الفواضِلِ ، انتهى .

(99/781)

وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة ﴾ معناه تَصْعَدُ ، والرُّوحُ عِنْدَ الجمهورِ هو جبريلُ عليه السلام وقال مجاهد : الرُّوحُ ملائِكَةٌ حَفَظَةٌ للملائِكَةِ الحافظين لبني آدم لا تَراهم الملائكةُ ؛ كَمَا لا نرى نحن الملائكة ، وقال بعض المفسرين : هو اسم جنسٍ لأرواحِ الحيوان .

(100/781)

وقوله سبحانه : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو يومُ القيامةِ ، ثم اختلفُوا ؛ فقال بعضُهم : قُدْرُه في الطولِ قَدْرَ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ ، وقال بعضهم : بل قَدْرُه في الشدّة ، والأولُ هو الظاهر ، وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : " ما مِنْ رجلٍ لا يؤَدّي زكاةَ مالِه إلا جُعِلَ له صفائحُ مِن نارٍ يوم القيامةِ تكْوَى بها جَبْهَتُه وظهرُه وجَنْبَاه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ " قال أبو سعيدِ الخدريُّ : " قيل : يا رسولَ اللَّه ! مَا أَطْوَلَ يَوْماً مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة ! فقالَ : والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّهُ لَيَخِفُّ عَلَى المُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ " ، قال ابن المبارك : أَخبرنا معمر عن قتادة عن زُرَارَةَ بْنِ أوفى عن أبي هريرةَ قال : يَقْصُرُ يومئذٍ على المؤْمِنِ حتى يكونَ كوقتِ الصَّلاَةِ ، انتهى ، قال *ع* : وَقَدْ ورد في يوم القيامةِ أنه كأَلْفِ سنةٍ ، وهذا يشبه أن يكونَ

في طوائفَ دونَ طوائفَ ، * ت * : قال عبد الحق في «العاقبة» له : اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ ؛ أن يومَ القيامةِ لَيْسَ طولُه كما عَهِدْتَ من طول الأيامْ ، بَلْ هو آلافٌ من الأعوامْ ، يَتَصَرَّفُ فيه هذا الأنامْ ، على الوُجُوهِ والأَقْدَامْ ، حَتَّى يَنْفُذَ فيهم مَا كُتِبَ لَهُمْ وعليهم من الأَحْكَامِ ، وليس يكونُ خَلاَصُه دفعةً وَاحِدَةً ، ولا فراغُهم في مرةٍ واحدةٍ ؛ بل يَتَخَلَّصُونَ ويَفْرُغُونَ شَيْئاً بعد شيءٍ ، لَكِنَّ طولَ ذلك اليومِ خمسون ألفَ سنة ، فَيَفْرَغُونَ بِفَرَاغِ اليومِ ، ويفرغُ اليومُ بِفَرَاغِهِم ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يطولُ مقامُه وحبْسُه إلى آخر اليومِ ، ومنهم من يكونُ انفصَالُه في ذلك اليوم في مقدار يَوْمٍ من أيام الدنيا ، أو في ساعةٍ من ساعاتِه ، أو في أَقَلَّ من ذلك ، ويكون

(101/781)

رائحاً في ظلِّ كَسْبِهِ وعَرْشِ ربه ، ومنهم من يُؤْمَرُ به إلى الجنةِ بغير حسابٍ ولا عذاب ، كما أنَّ منهم مَنْ يُؤمَرُ به إلى النارِ في أول الأمْر من غير وقوفٍ ولا انتظار ، أو بعدَ يسير من ذلك ، انتهى .

(102/781)

وقوله سبحانه : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ أمرٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبرِ على أذَى قومِه ، والصبرُ الجميلُ الذي لا يَلْحَقُه عَيْبٌ ولا شَكٌّ ولا قِلَّةُ رِضًى ، ولا غيرُ ذلك ، والأمْرُ بالصبرِ الجميلِ مُحْكَمٌ في كل حالة ، أعني : لا نَسْخَ فيه ، وقيل : إن الآيةَ نزلتْ قبل الأمْرِ بالقِتَالِ ؛ فهي منسوخة ، * ت * : ولو قيلَ : هذا خطابٌ لجنسِ الإنْسَانِ في شَأْنِ هَوْلِ ذلكَ اليومِ ؛ مَا بَعُدَ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ يعني يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(103/781)

وقال الآلوسى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

أي دعا داع به فالسؤال بمعنى الدعاء ولذا عدى بالباء تعديته بها في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلّ فاكهة ﴾ [الدخان : 55] والمراد استدعاء العذاب وطلبه وليس من التضمين في شيء وقيل الفعل مضمن معنى الاهتمام والاعتناء أو هو مجاز عن ذلك فلذا

عدى بالباء وقيل إن الباء زائدة وقيل إنها بمعنى عن كما في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] والسائل هو النضر بن الحرث كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس وروي ذلك عن ابن جريج والسدي والجمهور حيث قال إنكاراً واستهزاءً ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] وقيل هو أبو جهل حيث قال ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ [الشعراء : 187] وقيل هو الحرث بن النعمان الفهري وذلك أنه لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي كرم الله تعالى وجهه من كنت مولاه فعلى مولاه قال اللهم إن كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم حقاً فامطر علينا حجارة من السماء فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من أسفله فهلك من ساعته وأنت تعلم أن ذلك القول منه عليه الصلاة والسلام في أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه كان في غدير خم وذلك في أواخر سني الهجرة فلا يكون ما نزل مكياً على المشهور في تفسيره وقد سمعت ما قيل في مكية هذه السورة وقيل هو الرسول صلى الله عليه وسلم استعجل عذابهم وقيل هو نوح عليه السلام سأل عذاب قومه وقرأ نافع وابن عامر سال بألف كقال سايل بياء بعد الألف فقيل يجوز أن يكون قد أبدلت همزة الفعل ألفاً وهو بدل على غير قياس وإنما قياس هذا بين بين ويجوز أن يكون على لغة من قال سلت أسال حكاها سيبويه وفي "الكشاف" هو من السؤال وهو لغة قريش يقولون سلت تسال وهم

يتسايلان وأراد أنه من السؤال المهموز معنى لاشتقاقاً بدليل وهما يتسايلان وفيه دلالة على أنه أجوف

(104/781)

يائي وليس من تخفيف الهمزة في شيء وقيل السوال بالواو الصريحة مع ضم السين وكسرها وقوله يتسايلان صوابه يتساولان فتكون ألفه منقلبة عن واو كما في قال وخاف وهو الذي ذهب إليه أبو علي في الحجة وذكر فيها أن أبا عثمان حكى عن أبي زيد أنه سمع من العرب من يقول هما يتساولان ثم إن في دعوى كون سلت تسال لغة قريش تردداً والظاهر خلاف ذلك وأنشدوا لورود سال قول حسان يهجو هذيلاً لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيح لهم الزنا

.

سالت هذيل رسول الله فاحشة . . .

ضلت هذيل بما قالت ولم تصب

وقول آخر

: سالتاني الطلاق أن رأتاني . . .

قل مالي قد جئتماني بنكر

وجوز أن يكون سال من السيلان وأيد بقراءة ابن عباس سال سيل فقد قال ابن جني السيل ههنا الماء السائل وأصله المصدر من قولك سال الماء سيلاً إلا أنه أوقع على الفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ [الملك : 30] أي غائراً وقد تسومح في التعبير عن ذلك بالوادي فقيل المعنى اندفع واد بعذاب واقع والتعبير بالماضي قيل للدلالة على تحقق وقوع العذاب إما في الدنيا وهو عذاب يوم بدر وقد قتل يومئذٍ النضر وأبو جهل وأما في الآخرة وهو عذاب النار وعن زيد بن ثابت أن سائلاً اسم واد في جهنم وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن ابن عباس ما يحتمله .

﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أي كائن للكافرين أو صلة لواقع واللام للتعليل أو بمعنى على ويؤيده قراءة أبي على الكافرين وإن صح ما روي عن الحسن وقتادة أن أهل مكة لما خوفهم النبي صلى الله عليه وسلم بعذاب سألوا عنه على من ينزل وبمن يقع فنزلت كان هذا ابتداء كلام جواباً للسائل أي هو للكافرين وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ صفة أخرى لعذاب أو حال منه لتخصيصه بالصفة أو بالعمل أو من الضمير في للكافرين على تقدير كونه صفة لعذاب على ما قيل أو استئناف أو جملة مؤكدة لهو للكافرين على ما سمعت آنفاً فلا تغفل وقوله سبحانه :

﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بدافع ومن ابتدائية أي ليس له دافع يرده من جهته عز وجل لتعلق إرادته سبحانه به وقيل متعلق بواقع فقيل إنما يصح على غير قول الحسن وقتادة وعليه يلزم الفصل بالأجنبي لأن ﴿ للكافرين ﴾ [المعارج : 2] على ذلك جواب سؤال ثم إن التعلق بواقع على ما عدا قولهما أن جعل للكافرين من صلته أيضاً كان أظهر وإلا لزم الفصل بين المعمول وعامله بما ليس من تتمته لكن ليس أجنبياً من كل وجه ﴿ ذِي المعارج ﴾ هي لغة الدرجات والمراد بها على ما روي عن ابن عباس السموات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء ولم يعينها بعضهم فقال أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة بالأوامر والنواهي وقيل هي مقامات معنوية تكون فيها الأعمال والاذكار أو مراتب في السلوك كذلك يترقى فيها المؤمنون السالكون أو مراتب الملائكة عليهم السلام وأخرج عبد بن حميد عن قتادة تفسيرها بالفضائل والنعم وروى نحوه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وقيل هي الغرف التي جعلها الله تعالى لأوليائه في الجنة والأنسب بما يقتضيه المقام من التهويل ما هو أدل على عزه عز وجل وعظم ملكوته تعالى شأنه .

(106/781)

﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح ﴾ أي جبريل عليه السلام كما ذهب إليه الجمهور أفرد بالذكر لتميزه وفضله بناء على المشهور من أنه عليه السلام أفضل الملائكة وقيل لمجرد التشريف وإن لم يكن عليه السلام أفضلهم بناءً على ما قيل من أن إسرافيل عليه السلام أفضل منه وقال مجاهد الروح ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا وقيل خلق هم حفظة الملائكة مطلقاً كما أن الملائكة حفظة الناس وقيل ملك عظيم الخلقة يقوم وحده يوم القيامة صفاً ويقوم الملائكة كلهم صفاً وقال أبو صالح خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس وقال قبيصة بن ذؤيب روح الميت حين تقبض ولعله أراد الميت المؤمن وقرأ عبد الله والكسائي وابن مقسم وزائدة عن الأعمش يعرج بالياء التحتية ﴿ إِلَيْهِ ﴾ قيل أي إلى عرشه تعالى وحيث يهبط منه أوامره سبحانه وقيل هو من قبيل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] أي إلى حيث أمرني عز وجل به وقيل المراد إلى محل بره وكرامته جل وعلا على أن الكلام على حذف مضاف وقيل إلى المكان المنتهى إليه الدال عليه السياق وفسر بمحل الملائكة عليهم السلام من السماء ومعظم السلف يعدون ذلك من المتشابه مع تنزيهه عز وجل عن المكان والجسمية واللوازم التي لا تليق بشأن الألوهية وقوله تعالى : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي من سنينكم الظاهر تعلقه بتعرج واليوم بمعنى الوقت والمراد به مقدار ما يقوم الناس فيه لرب العالمين إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار من اليوم الآخر والذي لا

نهاية له ويشير إلى هذا ما أخرج الإمام أحمد وابن حبان وأبو يعلى وابن جرير والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده أنه ليخفف على

(107/781)

المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا واختلف في المراد بهذا التقدير على هذا الوجه فقيل الإشارة إلى استطالة ذلك اليوم لشدته لا أنه بهذا المقدار من العدد حقيقة وروى هذا عن ابن عباس والعرب تصف أوقات الشدة والحزن بالطول وأوقات الرخاء والفرح بالقصر ومن ذلك قول الشاعر :

من قصر الليل إذا زرتني . . .

أشكو وتشكين من الطول

وقوله :

ليلى وليلى نفي نومي اختلافهما . . .

بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطول ليلى كلما بخلت . . .

بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

وقوله :

ويوم كظل الرمح قصر طوله . . .

دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

(108/781)

إلى ما لا يكاد يحصى وفي قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر السابق أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة إشارة إلى هذا وكذا ما روي عن عبد الله بن عمر من قول يوضع للمؤمنين يومئذ كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام ويقصر عليهم ذلك اليوم ويهون حتى يكون كيوم من أيامكم هذه ولينظر على هذا القول ما حكمة التنصيص على العدد المذكور وقيل هو على ظاهره وحقيقته وإن في ذلك اليوم خمسين موطناً كل موطن ألف سنة من سني الدنيا أي حقيقة وقيل الخمسون على حقيقتها إلا أن المعنى مقدار ما يقضي فيه من الحساب قدر ما يقضي بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وهو مروي عن عكرمة وأشار بعضهم إلى أن المقدار المذكور عليه مجاز عما يلزمه من كثرة ما يقع فيه

من المحاسبات أو كناية فكأنه قيل في يوم يكثر فيه الحساب ويطول بحيث لو وقع من غير أسرع الحاسبين وفي الدنيا طال إلى خمسين ألف سنة وتخصيص عروج الملائكة والروح بذلك اليوم مع أن عروجهم متحقق في غيره أيضاً للإشارة إلى عظم هوله وانقطاع الخلق فيه إلى الله عز وجل وانتظارهم أمره سبحانه فيهم أو للإشارة إلى عظم الهول على وجه آخر وأياً ما كان فالجملة استئناف مؤكد لما سيق له الكلام وقيل هو متعلق بواقع وقيل بدافع وقيل بسال إذا جعل من السيلان لا به من السؤال لأنه لم يقع فيه والمراد باليوم على هذه الأقوال ما أريد به فيما سبق وتعرج الملائكة والروح إليه مستطرد عند وصفه عز وجل بذي المعارج وقيل هو متعلق بتعرج كما هو الظاهر إلا أن العروج في الدنيا والمعنى تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى ويقطعون في يوم من أيامكم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة لو فرض سيره فيه وروى عن ابن إسحاق ومنذر بن سعيد ومجاهد وجماعة وهو رواية عن ابن عباس أيضاً واختلف في تحديد المسافة فقيل هي من وجه الأرض إلى منتهى العرش وقيل من قعر الأرض السابعة السفلى إلى العرش وفصل بأن ثخن كل أرض خمسمائة

(109/781)

عام وبين كل أرضين خمسمائة عام وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام وثخن كل سماء كذلك وما بين كل سماءين كذلك وما بين السماء العليا ومقعر الكرسي كذلك ومجموع ذلك أربعة عشر ألف عام ومن مقعر الكرسي إلى العرش مسيرة ست وثلاثين ألف عام فالمجموع خمسون ألف سنة وفي خبر أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه ولعله لا يصح وإن لم تبعد هذه السرعة من الملائكة عليهم السلام عند من وقف على سرعة حركة الأضواء وعلم أن الله عز وجل على كل شيء قدير ومن الناس من اعتبر هذه المدة من الأرض إلى العرش عروجاً وهبوطاً واعتبرها كذلك من الأرض إلى مقعر السماء الدنيا في قوله سبحانه

(110/781)

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ [السجدة : 50] ومن يعتبر أحد الأمرين يعتبر هنا محدب السماء الدنيا والأرض وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للمتصوفة في ذلك وقيل الكلام بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على سبيل التمثيل والتخييل والمراد أنها في غاية البعد والارتفاع المعنوي على بعض الأوجه في المعارج أو الحسي كما في بعض آخر وليس المراد التحديد وعن عكرمة أن تلك

المدة هي مدة الدنيا منذ خلقت إلى أن تقوم الساعة إلا أنه لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي أي تعرج الملائكة إليه في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية وهذا يحتاج إلى نقل صحيح والظاهر أنه أراد بالدنيا ما يقابل الأخرى ويشمل العرش ونحوه ويرد عليه أن ما ورد عن علي كرم الله تعالى وجهه جواباً لمن سأله متى خلق الله تعالى العرش يكذبه فإنه يدل على أن ما مضى من أول زمن خلقه إلى اليوم يزيد على خمسين ألف سنة بألوف ألوف سنين لا يحصيها إلا الله عز وجل ولعله أولى بالقبول مما قاله عكرمة والحق أنه لا يعلم مبدأ الخلق ولا مدة بقاء هذه البنية إلا الله عز وجل بيد أنا نعلم بتوفيق الله تعالى أن هذا العالم حادث حدوثاً زمانياً وأنه ستبدل الأرض غير الأرض والسموات وتبرز الخلائق لله تعالى الواحد القهار .

(111/781)

﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ متفرع على قوله تعالى ﴿ سأل سائل ﴾ [المعارج: 1] ومتعلق به تعلقاً معنوياً لأن السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بناء على أن السائل النضر وأضرابه وذلك مما يضجره عليه الصلاة والسلام أو كان عن تضجر واستبطاء للنصر بناء على أنه صلى الله عليه وسلم هو السائل فكأنه قيل فاصبر ولا تستعجل فإن

الموعود كائن لا محالة والمعنى على هذا أيضاً على قراءة من قرأ سأل سائل من السيلان كقراءة سال سيل ولا يظهر تفرعه على سأل من السؤال إن كان السائل نوحاً عليه السلام والصبر الجميل على ما أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن ابن عباس ما لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى وأخرج عن عبد الأعلى بن الحجاج أنه ما يكون معه صاحب المصيبة في القوم بحيث لا يدري من هو .

(112/781)

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ أي العذاب الواقع أو اليوم المذكور في قوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره ﴾ [المعارج : 4] الخ بناء على أن المراد به يوم الحساب متعلقاً بتعرج على ما سمعت أولاً أو بدافع أو بواقع أو بسال من السيلان أو يوم القيامة المدلول عليه بواقع على وجه فما يدل عليه كلام الكشاف من تخصيص عود الضمير إلى يوم القيامة بما إذا كان ﴿ في يوم ﴾ [المعارج : 4] متعلقاً بواقع فيه بحث ومعنى يرونه يعتقدونه ﴿ بَعِيداً ﴾ أي من الإمكان والمراد أنهم يعتقدون أنه محال أو من الوقوع والمراد أنهم يعتقدون أنه لا يقع أصلاً وإن كان ممكناً ذاتاً وكلام كفار أهل مكة بالنسبة إلى يوم القيامة والحساب محتمل للأمرين بل ربما تسمعهم يتكلمون بما يكاد يشعر بوقوعه حيث يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم فهم متلونون في أمره تلون

الحرباء والعذاب إن أريد به عذاب يوم القيامة فهو كيوم القيامة عندهم أوانه لا يقع بالنسبة إليهم مطقلاً لزعمهم دفع آلهتهم إياه عنهم وإن أريد به عذاب الدنيا فالظاهر أنهم لا ينفون إمكانه وإنما ينفون وقوعه ولا تكاد تتم دعوى أنهم ينفون إمكانه الذاتي .

(113/781)

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ أي من الإمكان والتعبير به للمشاكلة كما قيل بها في نراه إذ هو ممكن ولا معنى لوصف الممكن بالقرب من الإمكان لدخوله في حيزه والمراد وصفه بالإمكان أي ونراه ممكناً وهذا على التقدير الأول في ﴿ يرونه بعيدا ﴾ [المعارج : 6] أو نراه قريباً من الوقوع وهذا على التقدير الثاني فيه وقد يقال كذلك على الأول أيضاً على معنى أنهم يرونه بعيداً من الإمكان ونحن نراه قريباً من الوقوع فضلاً عن الإمكان ولعله أولى من تقدير الإمكان في الجملتين وجملة أنهم الخ تعليل للأمر بالصبر وقيل إن كان المستعجل هو النضر وأضرابه فهي مستأنفة بياناً لشبهة استهزائهم وجواباً عنه وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم فهي تعليل لما ضمن الأمر بالصبر من ترك الاستعجال بأن رؤيتنا ذلك قريباً توجب الوثوق وترك الاستعجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(114/781)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

كان كفار قريش يستهزئون فيسألون النبي صلى الله عليه وسلم متى هذا العذاب الذي تتوعدنا به ، ويسألونه تعجيله ، قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [الحج : 47] وكانوا أيضاً يسألون الله أن يوقع عليهم عذاباً إن كان القرآن حقاً من عنده قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] .

وقيل : إن السائل شخص معين هو النضر بن الحارث قال : ﴿ إن كان هذا (أي القرآن) هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله أن يعينه على المشركين بالقحط فأشارت الآية إلى ذلك كله ، ولذلك فالمراد بـ ﴿ سائل ﴾ فريقٌ أو شخص .

والسؤال مستعمل في معنيي الاستفهام عن شيء والدعاء ، على أن استفهامهم مستعمل في التهكم والتعجيز .

ويجوز أن يكون ﴿ سأل سائل ﴾ بمعنى استعجل وألَحّ .

وقرأ الجمهور ﴿ سأل ﴾ بإظهار الهمزة .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ سال ﴾ بتخفيف الهمزة ألفاً .

قال في "الكشاف" : وهي لغة قريش وهو يريد أن قريشاً قد يخففون المهموز في مقام الثقل وليس ذلك قياساً في لغتهم بل لغتهم تحقيق الهمز ولذلك قال سيبويه : وليس ذا بقياس مُتْلَئِبَ (أي مطرد مستقيم) وإنما يحفظ عن العرب قال : ويكون قياساً متلئباً ، إذا اضطُر الشاعر ، قال الفرزدق:

راحتْ بمسلمةَ البغال عشية . . .

فارْعَيْ فَزارةُ لا هَنَاكِ المَرتَع

يريد لا هَنَأكِ بالهمز .

وقال حسان:

سَالتْ هُذَيْلٌ رسولَ الله فاحشةً . . .

ضلتْ هُذَيلٌ بمَا سَالت ولم تُصِبِ

يريد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إباحَةَ الزنا .

وقال القرشي زيدُ بن عمرو بن نفيل (يذكر زَوجيه) :

سَألَتَانِي الطلاقَ أنْ رَأَتَاني

قَلَّ مَالي قد جيتُمانِي بنُكْرِ . . .

فهؤلاء ليس لغتهم سَال ولا يَسَالُ وبلغنا أن سَلْتَ تَسَال لغة ا ه .

فجعل إبدال الهمز ألفاً للضرورة مطرداً ولغير الضرورة يُسمع ولا يقاس عليه فتكون قراءة التخفيف سماعاً .

وذكر الطيبي عن أبي علي في الحجة : أن من قرأ ﴿ سَالَ ﴾ غير مهموز جعل الألف منقلبة عن الواو التي هي عين الكلمة مثل : قَال وخاف .

وحكى أبو عثمان عن أبي زيد أنه سمع من يقول : هما متساوِلان .

وقال في "الكشاف" : يقولون (أي أهل الحجاز) : سَلْتَ تَسَالُ وهما يتسَايلان ، أي فهو أجوف يائي مثل هاب يهاب .

وكل هذه تلتقي في أن نطق أهل الحجاز ﴿ سال ﴾ غيرَ مهموز سماعي ، وليس بقياس عندهم وأنه إمّا تخفيف للهمزة على غير قياس مطرد وهو رأي سيبويه ، وإما لغة لهم في هذا الفعل وأفعال أخرى جاء هذا الفعل أجوف واوياً كما هو رأي أبي علي أو أجوف يائياً كما هو رأي الزمخشري .

وبذلك يندحض تردد أبي حيان جعل الزمخشري قراءة ﴿ سال ﴾ لغة أهل الحجاز إذ قد يكون لبعض القبائل لغتان في فعل واحد .

وإنما اجتلب هنا لغة المخفف لثقل الهمز المفتوح بتوالي حركات قبله وبعده وهي أربع فتحات ، ولذلك لم يرد في القرآن مخففاً في بعض القراءات إلاّ في هذا الموضع إذ لا نظير له في توالي حركات ، وإلاّ فإنه لم يقرأ أحد بالتخفيف في قوله : ﴿ وإذا سَألك عبادي ﴾ [البقرة : 186] وهو يساوي ﴿ سال سائل بعذاب ﴾ بله قوله : سالتهم وتسالهم ولا يسالون .

وقوله : ﴿ سال سائل ﴾ بمنزلة سُئل لأن مجيء فاعل الفعل اسمَ فاعل من لفظ فعله لا يفيد زيادة علم بفاعل الفعل ما هو ، فالعدول عن أن يقول : سُئِل بعذاب إلى قوله ﴿ سال سائل بعذاب ﴾ ، لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب ، ومثله قول يزيد بن عمرو بن خويلد يهاجي النابغة :

وإن الغدْر قد عَلِمت معدٌّ

بنَاه في بني ذُبيان بَانِي . . .

(116/781)

ومن بلاغة القرآن تعدية ﴿ سال ﴾ بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال ، لأن الباء تأتي بمعنى (عن) وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال نحو ﴿ فاسال به خبيراً ﴾ [الفرقان : 59] ، وقول علقمة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . .

خبير بأدواء النساء طبيب

أي إن تسألوني عن النساء ، وقال الجوهري عن الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان .

وجعل في "الكشاف" تعدية فعل سأل بالباء لتضمينه معنى عُني واهتمّ .

وقد علمت احتمال أن يكون سال بمعنى استعجل ، فتكون تعديته بالباء كما في قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [الحج : 47] وقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى : 18] .

وقوله : ﴿ للكافرين ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً لغواً متعلقاً بـ ﴿ واقع ، ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هو للكافرين .

واللام لشبه الملك ، أي عذاب من خصائصهم كما قال تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : 24] .

ووصف العذاب بأنه واقع ، وما بعده من أوصافه إلى قوله : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ [

المعارج : 6] إدماج معترض ليفيد تعجيل الإِجابة عما سأل عنه سائل بكلا معنيي السؤال لأن السؤال لم يحك فيه عذاب معين وإنما كان مُجْملاً لأن السائل سأل عن عذاب غير موصوف ، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف ، فحكي السؤال مجملاً ليرتب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلقات ، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحفّ به من الأهوال .

وقد طويت في مطاوي هذه التعلقات جمل كثيرة كان الكلام بذلك إيجازاً إذ حصل خلالها ما يفهم منه جواب السائل ، واستجابة الداعي ، والإِنباء بأنه عذاب واقع عليهم من الله لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يغرهم تأخره .

(117/781)

وهذه الأوصاف من قبيل الأسلوب الحكيم لأن ما عدد فيه من أوصاف العذاب وهَوْله ووقته هو الأولى لهم أن يعلموه ليحذروه ، دون أن يخوضوا في تعيين وقته ، فحصل من هذا كله معنى : أنهم سألوا عن العذاب الذي هُددوا به عن وقته ووصفه سؤال استهزاء ، ودعوا الله أن يرسل عليهم عذاباً إن كان القرآن حقاً ، إظهاراً لقلة اكتراثهم بالإِنذار بالعذاب .

فأعلمهم أن العذاب الذي استهزأوا به واقع لا يدفعه عنهم تأخر وقته ، فإن أرادوا النجاة فليحذروه .

وقوله : ﴿ من الله ﴾ يتنازع تعلقه وصفا ﴿ واقع ودافع .

﴿ و ﴿ مِن ﴾ للابتداء المجازي على كلا التعلقين مع اختلاف العلاقة بحسب ما يقتضيه الوصف المتعلَّق به .

فابتداء الواقع استعارة لإذن الله بتسليط العذاب على الكافرين وهي استعارة شائعة تساوي الحقيقة .

وأما ابتداء الدافع فاستعارة لتجاوزه مع المدفوع عنه من مكان مَجازي تتناوله قدرة القادر مثل ﴿ من ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ﴾ [التوبة : 118] وقوله : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ [النساء : 108] .

وبهذا يكون حرف ﴿ مِن ﴾ مستعملاً في تعيين مجازين متقاربين .

وإجراء وصف ﴿ ذي المعارج ﴾ على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلالة ولإِدماج الإِشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه ، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء قال تعالى : ﴿ لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ [الزخرف : 33] .

ولكل درجة المعارج قوم عملوا لنوالها قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : 11] ، وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم

الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين .

و﴿ المعارج ﴾ : جمع مِعْرَج بكسر الميم وفتح الراء وهو ما يعرج به ، أي يصعد من سلم ومدرج.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

(118/781)

اعتراض لبيان أن المعارج منازل من الرفعة الاعتبارية ترتقي فيها الملائكة وليست معارج يعرج إليه فيها ، أي فهي معارج جعلها الله للملائكة فقرب بها من منازل التشريف ، فالله معرج إليه بإذنه لا عارج ، وبذلك الجعل وصف الله بأنه صاحبها ، أي جاعلها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ذو العرش ﴾ [غافر : 15] .

و﴿ الروح ﴾ : هو جبريل عليه السلام الموكل بإبلاغ إرادة الله تعالى وإذنه وتخصيصه بالذكر لتمييزه بالفضل على الملائكة .

ونظير هذا قوله : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ [القدر : 4] أي في ليلة القدر .

و﴿ الروح ﴾ : يطلق على ما به حياة الإنسان وتصريفُ أعماله وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] .

فيجوز أن يكون مما شمله قوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ، أي أرواح أهل الجنة على اختلاف درجاتها في المعارج .

وهذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة .

وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها .

وضمير ﴿ إليه ﴾ عائد إلى الله على تأويل مضاف على طريقة تعلق بعض الأفعال بالذوات ، والمراد أحوالها مثل ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي أكلها .

و ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ يتنازع تعلقه كل من قوله : ﴿ واقع ﴾ [المعارج : 1] وقوله : ﴿ تعرج ﴾ .

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5)

اعتراض مفرع : إما على ما يومىء إليه ﴿ سأَل سائل ﴾ [المعارج : 1] من أنه سؤال استهزاء ، فهذا تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم وإما على ﴿ سأل سائل ﴾ بمعنى : دعا داع .

فالفاء لتفريع الأمر بالصبر على جملة ﴿ سال سائل إذا كان ذلك السؤال بمعنييه استهزاء وتعريضاً بالتكذيب فشأنه أن لا تصبر عليه النفوس في العرف .

والصبر الجميل : الصبر الحسن في نوعه وهو الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر ، أي اصبر صبراً محضاً ، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعَكر معناها من بقايا أضدادها ، وقد مضى قوله تعالى عن يعقوب فصبْرٌ جميل في سورة يوسف (18) وسيجيء قوله تعالى : ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ في المزمل (10) .

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)

تعليل لجملتي ﴿ سال سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : 1] ولجملة ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ [المعارج : 5] ، أي سألوا استهزاء لأنهم يرونه مُحالاً وعليك بالصبر لأنا نعلم تحققهُ ، أي وأنت تثق بأنه قريب ، أي محقق الوقوع ، وأيضاً هو تجهيل لهم إذ اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيداً ، إن كان في الدنيا فلأمنهم ، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث ، والمعنى : وأنت لا تشبه حالهم وذلك يهوّن الصبر عليك فهو من باب ﴿ ولا تتبع أهواءَهم ﴾ [المائدة : 48] ، ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبَع هواه ﴾ [الكهف : 28] .

و ﴿ بعيداً ﴾ هنا كناية عن معنى الإحالة لأنهم لا يؤمنون بوقوع العذاب الموعود به ، ولكنهم عبروا عنه ببعيد تشكيكاً للمؤمنين فقد حكى الله عنهم أنهم قالوا ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ [ق : 3] .

واستعمل ﴿ قريباً ﴾ كناية عن تحقق الوقوع على طريق المشاكلة التقديرية والمبالغة في التحقق.

وبين ﴿ بعيداً ﴾ و ﴿ قريباً ﴾ محسن الطباق. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(120/781)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى السؤال)

وهو ما يَسأَله الإِنسان.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى ﴾.

والسّؤال: استدعاء معرفة أَو ما يؤدّى إِلى المعرفة، واستدعاءُ مال، أَو ما يؤدّى إِلى المال.

فاستدعاءُ المعرفة جوابُه باللسان، واليدُ خليفة له بالكتابة، أَو الإِشارة.

واستدعاءُ المال جوابه باليد، واللسانُ خليفة لها إِمّا بوعد، أَو بردٍّ.

تقول : سألته عن الشيء سؤالا ، ومسألة .

وقال الأخفش : يقال : خرجنا نسأل عن فلان وبفلان .

وقد تخفّف همزته فيقال سال يسال .

وقرأ أبو جعفر : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ بتخفيف الهمزة .

قال :

*ومُرهَق سال إمتاعا بأُصْدته * لم يستعِنْ وحَوامِي الموت تغشاه*

والأمر منه سَلْ بحركة الحرف الثانى من المستقبل ، ومن الأوّل اسْأَل .

وقوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ ، يقال : إنّه خوطب به ليلة أُسرى به ، فجُمع بينه وبين الأنبياءِ – صولات الله عليهم – فأمّهم ، وصلّى بهم ، فقيل له : فسَلْهُمْ .

وقيل : معناه : سل أُمَم مَنْ أرسلنا ، فيكون السّؤال ههنا على جهة التقرير .

وقيل : الخطاب للنبىّ صلّى الله عليه وسلم والمراد به الأُمَة ، أى وسلوا ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ أى لا يسأل سؤال استعلام ، لكن سؤال تقرير وإيجاب للحجّة عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ هو قول الملائكة : / ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي

وَعَدْتَّهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أَى دعا داعٍ ، يعنى قول نَضْر بن الحارث ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية .

والباءُ فى (بعَذَاب) بمعنى عن ، أَى عن عذاب .

ورجل سُؤَلة – مثال تُؤَدَة – : كثير السّؤال .

(121/781)

وأَسأَلته سؤْلته ومسأَلته : أَى قضيت حاجته .

وتساءَلوا ، أَى سأَل بعضهم بعضاً .

وقرأَ الكوفيون

﴿ تَسَآءَلُونَ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتَّشديد أَى تتساءَلون ، أَى الَّذى تطلبون به حقوقكم ، وهو كقولك ، نَشَدتك بالله أَى سأَلتك بالله .

فإِن قلت : كيف يصحّ أَن يقال : السّؤال استدعاء المعرفة ، وملعوم أَنَّ الله تعالى يَسأَل عبادهُ ؟ .

قيل : إِنَّ ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيتهم ، لا لتعريف الله تعالى ؛ فإِنَّهُ علاَّم الغيوب ، فليس يخرج من كونه سؤال المعرفة ، والسؤال للمعرفة قد يكون تارة للاستعلام ، وتارة

للتبكيت ، وتارة لتعريف المسئول وتنبيهه ، لا ليخبر ويُعلم ، وهذا ظاهر .

وعلى التبكيت قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ .

والسّؤال إذا كان للتعريف تعدّى إلى المفعول الثّانى تارة بنفسه ، وتارة بالجارّ ، نحو [سألته كذا ، و] سألته عن كذا ، وبكذا ، ويعن أكثر نحو : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ .

وأمّا إذا كان السّؤال لاستدعاء مال فإنّهُ يتعدّى بنفسه ، وبمن ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعياً لشيىء بالسّائل ، نحو قوله : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .

والسّؤال ورد فى القرآن على عشرين وجهاً :

الأوّل : سؤال التعجّب : ﴿ قَالُواْ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ .

الثانى : سؤال الاسترشاد : ﴿ فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ ، ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ .

الثّالث : سؤال الاقتباس : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ﴾ .

الرّابع : سؤال الانبساط : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ .

الخامس : سؤال العطاءِ والهِبَة : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ .

السّادس : سؤال العَوْن والنُّصْرة : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ .

السابع : سؤال الاستغاثة : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ .

(122/781)

الثامن : سؤال الشفاءِ والنَّجاة : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

التَّاسع : سؤال الاستعانة : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ .

العاشر : سؤال القُرْبَة : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ﴾ .

الحادى عشر : سؤال العذاب والهلاك : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ ﴾ .

الثانى عشر : سؤال المغفرة : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ﴾ .

الثالث عشر : سؤال الاستماع للسائل والمحروم : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .

الرابع عشر : سؤال المعاودة والمراجعة لنوح : ﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، ولمحمّد صلَّى اللهُ عليه وسلم : ﴿ لاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ، وللصّحابة : ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

الخامس عشر : سؤال الطَّلب وعَرْض الحاجة : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، ﴿ وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

السادس عشر : سؤال المحاسبة والمناقشة : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ ﴾ ، ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

السّابع عشر : سؤال المخاصمة : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أَي يتخاصمون .

الثامن عشر : سؤال الإِجابة والاستجابة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ .

التَّاسع عشر : سؤال التعنُّت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ .

العشرون : سؤال ا لاستفتاءِ والمصلحة ، وذلك على وجوه/ مختلفة :

تارة من حَيْض العيال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ .

وتارةً من نفقة الأَموال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ .

وتارة عن حكم الهلال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ .

وتارة عن القيامة وما فيها من الأَهوال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ .

وتارة عن حال الجبال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ .

وتارة عن الحرب والقتال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ .

وتارة عن الحرام والحلال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ .

وتارة عن اليتيم وإصلاح ما لَهُ من المال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ .

وتارة عن الغنائم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾ .

وتارة عن العذاب والنكال : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ .

وتارة عن العاقبة والمآل : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

وتارة عن المبالغة فى الجدال ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ .

وتارة عن كرم ذى الجلال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ .

قال الشاعر :

*إذا كنت فى بلد قاطناً * وللعلم مقتبساً فسأَل*

*فإن السّؤال شفاءُ العباد * كما قيل فى الزّمن الأَوّل* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 162.168 ﴾

(124/781)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر عن هذا اليوم ما يبعث على السؤال عنه ، استأنف بيانه مبيناً عظمته فقال :

﴿ يوم ﴾ أي يقع حين ﴿ تكون السماء ﴾ أي التي هي أوثق ما تراه وأصلبه من عظم ما يقع فيه من الأهوال ﴿ كالمهل ﴾ أي الشيء المذاب من المعادن في مهل أو دردي الزيت

﴿ وتكون الجبال ﴾ التي هي أشد الأرض وأثقل ما فيها ﴿ كالعهن ﴾ أي الصوف المصبوغ ألواناً المنقوش ، تطيره الريح كالهباء ، وذلك لأن الجبال في أصلها متلونة كما قال تعالى ﴿ ومن الجبال جدد وبيض وحمر ﴾ [فاطر : 27] الآية ، قال البغوي : ولا يقال عهن إلا للمصبوغ ، قال : وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم هباء منثوراً – انتهى .

﴿ ولا يسأل ﴾ من شدة الأهوال ﴿ حميم حميماً ﴾ أي قريب في غاية القرب والصداقة قريباً مثله عن شيء من الأشياء لفرط الشواغل ولأنه قد كشف لهم أنه لا تغني نفس عن

نفس شيئاً ، وأنه قد تقطعت الأسباب وتلاشت الأنساب لما كشف الابتلاء عن أنه لا عز إلا بالتقوى – هذا على قراءة الجماعة بفتح الياء وعلى قراءة ابن كثير بالبناء للمفعول المعنى أنه لا يطالب أحد بأحد كما بعض الحكام في الدنيا من أنه يلزم أقارب من قربه لأنه لا حاجة له بذلك ، لأن القدرة محيطة بالكل على حد سواء .

(125/781)

ولما كان عدم السؤال قد يكون لعدم رؤية بعضهم بعضاً لكثرة الجمع وشدة الزحام وتفرق الناس فيه على حسب مراتب أعمالهم ، استأنف الجواب لمن كأنه يقول : لعل ذلك يترك لعدم رؤيتهم لهم ؟ فقال دالاً بالمجهول والتفعيل على عظمة ذلك التبصير وخروجه عن العادة جامعاً لأن المقصود من الحميم الجنس والجمع أدل على عموم التبصير ، قال البغوي : وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس – انتهى ، وكان حكمة ذلك أنه أدل على تقطع الأسباب فلا يسأل أحد منهم الآخر عن شيء من أمره لاشتغال كل بنفسه ، فعدم السؤال لا للخفاء بل للاشتغال وهم كل إنسان بما عنده : ﴿ يبصرونهم ﴾ أي يبصرهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وإن بعد مكانه ويفر كل من الآخر لشغله بنفسه ، ولما تناهى الإخبار بعظمة ذلك اليوم إلى حد لا تحتمله القلوب ، ذكر

نتيجة ذلك فقال مستأنفاً : ﴿ يود ﴾ أي يتمنى ويشتهي ﴿ المجرم ﴾ أي هذا النوع سواء كان كافراً أو مسلماً عاصياً علم أنه يعذب بعصيانه ، وقيد به لأن المسلم الطائع يشفع فيمن أذن له فيه ولا يهمه شيء من ذلك ، ودل على أن هذه الودادة مجرد تمن بقوله : ﴿ لو يفتدي ﴾ أي نفسه ﴿ من عذاب يومئذ ﴾ أي يوم إذ كانت هذه المخاوف بأعلق الناس بقلبه وأقربهم منه فضلاً عن أن يسأل عن أحواله .

ولما كان السياق للافتداء ، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما يأتي في عبس فقال :

﴿ ببنيه ﴾ لشدة ما يرى .

ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه ، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة وما الافتداء به لا سيما عند العرب من أقبح العار فقال : ﴿ وصاحبته ﴾ أي زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائماً معها لكونها عديلة روحه في الدنيا .

ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة ، أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم وربما كان مبايناً ، فقال : ﴿ وأخيه ﴾ .

(126/781)

ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم فقال : ﴿ وفصيلته ﴾ أي عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه ﴿ التي تؤويه ﴾ أي تضمه إليها عند الشدائد وتحميه ، لأنه أقرب الناس إليها وأعزهم عليها فهم أعظم الناس حقاً عليه وأعزهم لديه .

ولما كانت هذه الآية في الفدية ، قدم الأبعد عن ذلك فالأبعد من جهة النفع والمعرة .

ولما كانت آية عبس في الفرار والنفرة ، قدم الألصق فالألصق ، والأعلق في الأنس فالأعلق .

ولما خص هنا عم فقال : ﴿ ومن في الأرض ﴾ أي من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بد في كل حال منه أو لا .

ولما كان ربما خص ذلك بغيره ، قال محققاً لإرادة الحقيقة في معنى " من " : ﴿ جميعاً ﴾ .

ولما كان الإنسان تكشف له الأمور هناك أي كشف ، وتظهر له أتم ظهور ، قال تعالى ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ فيعلم أنه لا ينجيه من الخطايا المحيطة المحبطة شيء ، دل على الاستبعاد بأداة البعد فقال عاطفاً على " يفتدي " : ﴿ ثم ينجيه ﴾ أي ثم يود لو يكون له بذلك نجاة تتجدد له في وقت من الأوقات .

ولما كان هذا مما قد يطمع في النجاة ، فإن بعض الناس يطبع على قلبه فيستغويه الأطماع حتى يعد المحال ممكناً ، قال معبراً بمجمع الروادع والزواجر الصوادع : ﴿ كلا ﴾ أي ليكن للمجرم ردع أيّ ردع عن وداده هذا وترتب أثره عليه ، فإن ذلك لا يكون أبداً بوجه من الوجوه .

ولما كان الإضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر في المهيع الذي هو فيه ، لأن ذلك إشارة إلى أنه مستحضر في الذهن لا يغيب أصلاً لما للمقام عليه من عظيم الدلالة ، قال بعد هذا الردع العظيم عن النجاة بل عن ودادة تمنيها : ﴿ إنها ﴾ أي النار التي هي سوط الملك المعد لمن عصاه ، المهدد في هذا السياق بعذابها ، المستولية عليه لتكونه سجنه : ﴿ لظى ﴾ أي ذات اللهب الخالص المتناهي في الحر يتلظى أي يتوقد فيأكل بسببه بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله وتأكل ما وجدته كائناً ما كان ﴿ نزاعة للشوى ﴾ أي هي شديدة النزع لجلود الرؤوس بليغته فما الظن بغيره من الجلد ، وقال في القاموس : الشوى : اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل – انتهى ، وقيل : والجلد كله واللحم تنزع ذلك ثم يعود كما كان في الحال ليروا التعب الذي كانوا ينكرونه في أنفسهم في كل لحظة .

ولما كان الخلاص غير ممكن من الداعي القادر على الإحضار كنى عن إحضارها إياهم وجذبها لهم بقوله : ﴿ تدعوا ﴾ ويجوز أن يكون ذلك حقيقة فتقول في الدعاء في نفسها : إليّ يا مشرك إليّ يا منافق ، ونحو ذلك ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب ﴿ من ﴾ أي كل

شخص ﴿أدبر﴾ أي من الجن والإنس أي من وقع منه إدبارهما من حقه الإقبال عليه سواء كان ذلك الإدبار عنها أو عن الأعمال التي من شأنها التنجية منها ، ولما كان الإدبار قد يكون عن طبع غالب فيكون صاحبه في عداد من يعذر ، بين أن الأمر ليس كذلك فقال : ﴿وتولى﴾ أي كلف فطرته الأول المستقيمة الإعراض عن أسباب النجاة .

ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين ، فكان الإقبال على إحداهما دالاً على الإعراض عن الأخرى ، قال دالاً على إدباره بقلبه : ﴿وجمع﴾ أي كل ما كان منسوباً إلى الدنيا .

(128/781)

ولما كانت العادة جارية بأن من كانت الدنيا أكبر همه كان همه بجمعه الاكتناز لا الإنفاق ، سبب عن جمعه قوله : ﴿فأوعى﴾ أي جعل ما جمعه في وعاء وكنزه حرصاً وطول أمل ولم يعط حق الله فيه ، فكان همه الإيعاء لا إعطاء ما وجب من الحق إقبالاً على الدنيا وإعراضاً عن الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 147 . 150﴾

(129/781)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ﴾ منصوب بماذا ؟ فيه وجوه أحدها : بقريباً ، والتقدير : ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، أي يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم وثانيها : التقدير : سأل سائل بعذاب واقع يوم تكون السماء كالمهل والثالث : التقدير يوم تكون السماء كالمهل كان كذا وكذا والرابع : أن يكون بدلاً من ﴿ يوم ﴾ ، والتقدير سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يوم تكون السماء كالمهل .

المسألة الثانية :

أنه ذكر لذلك اليوم صفات :

الصفة الأولى : أن السماء تكون فيه كالمهل وذكرنا تفسير المهل عند قوله : ﴿ بِمَاء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] قال ابن عباس : كدردى الزيت ، وروى عنه عطاء : كعكر القطران ، وقال الحسن : مثل الفضة إذا أذيبت ، وهو قول ابن مسعود .

الصفة الثانية : أن تكون الجبال فيه كالعهن ، ومعنى العهن في اللغة : الصوف المصبوغ ألواناً ،

وإنما وقع التشبيه به ، لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس الحميم القريب الذي يعصب له ، وعدم السؤال إنما كان لاشتغال كل أحد بنفسه ، وهو كقوله : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس : 34] إلى قوله ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] ثم في الآية وجوه أحدها : أن يكون التقدير : لا يسأل حميم عن حميمه فحذف الجار وأوصل الفعل الثاني : لا يسأل حميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه ، لأن لكل أحد ما يشغله عن هذا الكلام الثالث : لا يسأل حميم حميماً شفاعة ، ولا يسأل حميم حميماً إحساناً إليه ولا رفقاً به .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ ﴾ بضم الياء ، والمعنى لا يسأل حميم عن حميمه ليتعرف شأنه من جهته ، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه ، وهذا أيضاً على حذف الجار قال الفراء : أي لا يقال لحميم أين حميمك ولست أحب هذه القراءة لأنها مخالفة لما أجمع عليه القراء .

قوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يقال : بصرت به أبصر ، قال تعالى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ [طه : 96] ويقال : بصرت زيد بكذا فإذا حذفت الجار قلت : بصرني زيد كذا فإذا أثبت الفعل للمفعول به وقد حذفت الجار قلت : بصرني زيداً ، فهذا هو معنى يبصرونهم ، وإنما جمع فقيل : يبصرونهم لأن الحميم وإن كان مفرداً في اللفظ فالمراد به الكثرة والجميع والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ [الشعراء : 100] ومعنى يبصرونهم يعرفونهم ، أي يعرف الحميم الحميم حتى يعرفه ، وهو مع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه ، فإن قيل : ما موضع يبصرونهم ؟ قلنا : فيه وجهان الأول : أنه متعلق بما قبله كأنه لما قال : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] قيل : لعله لا يبصره فقيل يبصرونهم ولكنهم لاشتغالهم بأنفسهم لا يتمكنون من تساؤلهم الثاني : أنه متعلق بما بعده ، والمعنى أن المجرمين يبصرون المؤمنين حال ما يود أحدهم أن يفدي نفسه لكل ما يملكه ، فإن الإنسان إذا كان في البلاد الشديد ثم رآه عدوه على تلك الحالة كان ذلك في نهاية الشدة عليه .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ يَوَدُّ المجرم لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وصاحبته وَأَخِيهِ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المجرم هو الكافر ، وقيل : يتناول كل مذنب .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالجر والفتح على البناء لسبب الإضافة إلى غير متمكن ، وقرىء أيضاً : ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ بتنوين ﴿ عَذَابِ ﴾ ونصب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب .

(131/781)

وقوله تعالى : ﴿ وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ﴾

فصيلة الرجل ، أقاربه الأقربون الذين فصل عنهم وينتهي إليهم ، لأن المراد من الفصيلة المفصولة ، لأن الولد يكون منفصلاً من الأبوين .

قال عليه السلام : " فاطمة بضعة مني " فلما كان هو مفصولاً منهما ، كانا أيضاً مفصولين منه ، فسميا فصيلة لهذا السبب ، وكان يقال للعباس : فصيلة النبي صلى الله عليه وسلم ،

لأن العم قائم مقام الأب ، وأما قوله : ﴿ تؤويه ﴾ فالمعنى تضمه انتماء إليها في النسب أو تمسكاً بها في النوائب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ فيه وجهان الأول : أنه معطوف على ﴿ يَفْتَدِي ﴾ [المعارج : 11] والمعنى : يود المجرم لو يفتدي بهذه الأشياء ثم ينجيه والثاني : أنه متعلق بقوله : ﴿ وَمَن فِي الأرض ﴾ والتقدير : يود لو يفتدي بمن في الأرض ثم ينجيه ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإنجاء ، يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ويبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك ، وهيهات أن ينجيه .

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمجرم عن كونه بحيث يود الافتداء ببنيه ، وعلى أنه لا ينفعه ذلك الافتداء ، ولا ينجيه من العذاب ، ثم قال : ﴿ إِنَّهَا ﴾ وفيه وجهان الأول : أن هذا الضمير للنار ، ولم يجر لها ذكر إلا أن ذكر العذاب دل عليها والثاني : يجوز أن يكون ضمير القصة ، ولظى من أسماء النار .

(132/781)

قال الليث : اللظى ، اللهب الخالص ، يقال : لظت النار تلظى لظى ، وتلظت تلظياً ، ومنه قوله : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] ولظى علم للنار منقول من اللظى ، وهو معرفة لا ينصرف ، فلذلك لم ينون ، وقوله : ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ مرفوعة ، وفي سبب هذا الارتفاع وجوه الأول : أن تجعل الهاء في أنها عماد ، أو تجعل لظى اسم إن ، ونزاعة خبر إن ، كأنه قيل : إن لظى نزاعة والثاني : أن تجعل الهاء ضمير القصة ، ولظى مبتدأ ، ونزاعة خبراً ، وتجعل الجملة خبراً عن ضمير القصة ، والتقدير : إن القصة لظى نزاعة للشوى والثالث : أن ترتفع على الذم ، والتقدير : إنها لظى وهي نزاعة للشوى ، وهذا قول الأخفش والفراء والزجاج.

وأما قراءة النصب ففيها ثلاثة أوجه أحدها : قال الزجاج : إنها حال مؤكدة ، كما قال : ﴿ هُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [فاطر : 31] وكما يقول : أنا زيد معروفاً ، اعترض أبو علي الفارسي على هذا وقال : حمله على الحال بعيد ، لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال ، فإن قلت في قوله : ﴿ لظى ﴾ معنى التلظي والتلهب ، فهذا لا يستقيم ، لأن لظى اسم علم لماهية مخصوصة ، والماهية لا يمكن تقييدها بالأحوال ، إنما الذي يمكن تقييده بالأحوال هو الأفعال ، فلا يمكن أن يقال : رجلاً حال كونه عالماً ، ويمكن أن يقال : رأيت رجلاً حال كونه عالماً وثانيها : أن تكون لظى اسماً لنار تتلظى تلظياً شديداً ، فيكون هذا الفعل ناصباً ، لقوله : ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ وثالثها : أن تكون منصوبة على الاختصاص ، والتقدير : إنها لظى

أعنيها نزاعة للشوى ، ولم تمنع .

المسألة الثالثة :

﴿ الشوى ﴾ الأطراف ، وهي اليدان والرجلان ، ويقال للرامي : إذا لم يصب المقتل أشوى ، أي أصاب الشوى ، والشوى أيضاً جلد الرأس ، واحدتها شواة ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ماله . . قد جللت شيباً شواته

(133/781)

هذا قول أهل اللغة ، قال مقاتل : تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحماً ولا جلداً إلا أحرقته ، وقال سعيد بن جبير : العصب والعقب ولحم الساقين واليدين ، وقال ثابت البناني : لمكارم وجه بني آدم .

واعلم أن النار إذا أفنت هذه الأعضاء ، فالله تعالى يعيدها مرة أخرى ، كما قال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] .

تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن لظى كيف تدعو الكافر ، فذكروا وجوهاً أحدها : أنها تدعوهم بلسان الحال كما قيل : سل الأرض من أشق أنهارك ، وغرس أشجارك ؟ فإن لم تجبك جؤاراً ، أجابتك اعتباراً فههنا لما كان مرجع كل واحد من الكفار إلى زاوية من زوايا جهنم ، كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم وثانيها : أن الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحاً : إلي يا كافر ، إلي يا منافق ، ثم تلتقطهم التقاط الحب وثالثها : المراد أن زبانية النار يدعون فأضيف ذلك الدعاء إلى النار بحذف المضاف ورابعها : تدعو تهلك من قول العرب دعاك الله أي أهلكك ، وقوله : ﴿ مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ يعني من أدبر عن الطاعة وتولى عن الإيمان ﴿ وَجُمِعَ ﴾ المال ﴿ فَأَوْعَى ﴾ أي جعله في وعاء وكنزه ، ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيها فقوله : ﴿ أَدْبَرَ وتولى ﴾ إشارة إلى الإعراض عن معرفة الله وطاعته ، وقوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ إشارة إلى حب الدنيا ، فجمع إشارة إلى الحرص ، وأوعى إشارة إلى الأمل ، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 111.113 ﴾

(134/781)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

قرأ جمهور السبعة : " سأل " بهمزة مخففة ، قالوا والمعنى : دعا داع ، والإشارة إلى من قال من قريش ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] . وروي أن قائل ذلك النضر بن الحارث ، وإلى من قال : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ [ص : 16] ، ونحو هذا ، وقال بعضهم المعنى : بحث باحث ، واستفهم مستفهم ، قالوا والإشارة إلى قول قريش : متى هذا الوعد ؟ وما جرى مجراه قاله الحسن وقتادة ، فأما من قال استفهم مستفهم فالباء توصل توصيل عن ، كأنه قال عن عذاب ، وهذا كقول علقمة بن عبدة : [الطويل]

فإن تسألوني بالنساء فإنني . . . بصير بأدواء النساء طبيب

وقرأ نافع بن عامر : " سال سائل " ساكنة الألف ، واختلفت القراءة بها ، فقال بعضهم : هي " سأل " المهموزة ، إلا أن الهمزة سهلت كما قال لا هناك المرتع ونحو ذلك . وقال بعض هي لغة من يقول سلت أسأل ، ويتساولون ، وهي بلغة مشهورة حكاها سيبويه ، فتجيء الألف منقلبة من الواو التي هي عين كقال وحاق ، وأما قول الشاعر [حسان بن ثابت] : [البسيط]

سالت هذيل رسول الله فاحشة . . . ضلّت هذيل بما سالت ولم تصب

فإن سيبويه قال : هو على لغة تسهيل الهمزة . وقال غيره : هو على لغة من قال : سلت ، وقال بعضهم في الآية : هو من سال يسيل : إذا جرى وليست من معنى السؤال ، قال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى سايلاً ، والاخبار هاهنا عنه .

(135/781)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له لفظ السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه ، وقرأ ابن عباس : " سال سيْل " بسكون الياء ، وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود : " سال سال " مثل قال قال ، ألقيت الياء من الخط تخفيفاً ، والمراد " سائل " . وسؤال الكفار عن العذاب حسب قراءة الجماعة إنما كان على أنه كذب . فوصفه الله تعالى بأنه ﴿ واقع ﴾ وعيداً لهم . وقوله تعالى : ﴿ للكافرين ﴾ . قال بعض النحويين : اللام توصل المعنى توصيل " على " . وروي أنه في مصحف أبي بن كعب : " على الكافرين " ، وقال قتادة والحسن المعنى : كأن قائلاً قال لمن هذا العذاب الواقع ؟ فقيل ﴿ للكافرين ﴾ . و ﴿ المعارج ﴾ في اللغة الدرج في الأجرام ، وهي هنا مستعارة في الرتب والفواضل والصفات الحميدة ، قاله قتادة وابن عباس . وقال ابن عباس : ﴿ المعارج ﴾ السماوات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى

سماء . وقال الحسن : هي المراقي إلى السماء ، وقوله : ﴿ تعرج الملائكة ﴾ معناه : تصعد على أصل اللفظة في اللغة . ﴿ والروح ﴾ عند جمهور العلماء : هو جبريل عليه السلام خصصه بالذكر تشريفاً .

(136/781)

وقال مجاهد : ﴿ الروح ﴾ ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة . وقال بعض المفسرين : هو اسم الجنس في أرواح الحيوان . واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ . فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحذاق : المعنى ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم ﴾ من أيامكم هذه مقدار المسافة أن لو عرجها آدمي خمسون ألف سنة ، وقاله ابن إسحاق فمن جعل ﴿ الروح ﴾ جبريل أو نوعاً من الملائكة قال : المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش ، قاله مجاهد . ومن جعل ﴿ الروح ﴾ جنس الحيوان قال المسافة من وجه هذه الأرض إلى منتهى العرش علواً ، قاله وهب بن منبه . وقال قوم المعنى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره ﴾ في نفسه ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ من أيامكم ، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم ، فقال عكرمة والحكم : أراد مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة

، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي ، فالمعنى ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ في مدة الدنيا ، وبقاء هذه البنية ويتمكن على هذا في ﴿ الروح ﴾ أن يكون جنس أرواح الحيوان ، وقال ابن عباس وغيره : بل اليوم المشار إليه يوم القيامة ثم اختلفوا ، فقال بعضهم قدره في الطول قدر خمسين ألف سنة ، وهذا هو ظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له صفائح من نار يوم القيامة ، تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره ألف سنة " . وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري : بل قدره في هوله وشدته ورزاياه للكفار قدر ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ . وهذا كما تقول في اليوم العصيب ، إنه كسنة ونحو هذا قال أبو سعيد ، قيل يا رسول الله ما أطول يوماً مقداره خمسون ألف سنة ، فقال : " والذي نفسي بيده ليخف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة " ، وقال عكرمة : المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي

(137/781)

بالعدل في ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ من أيام الدنيا . وقد ورد في يوم القيامة أنه كألف سنة وهذا يشبه أن يكون في طوائف دون طوائف . والعامل في قوله ﴿ في يوم ﴾ على قول من

قال إنه يوم القيامة قوله ﴿ دافع ﴾ وعلى سائر الأقوال ﴿ تعرج ﴾ ، وقرأ جمهور القراء : " تعرج " بالتاء من فوق ، وقرأ الكسائي وحده : " يعرج " بالياء لأن التأنيث بالياء غير حقيقي ، وبالياء من تحت قرأ ابن مسعود لأنه كان يذكر الملائكة وهي قراءة الأعمش ، ثم أمر تعالى نبيه بالصبر الجميل ، وهو الذي لا يلحقه عيب من فشل ولا تشكك ولا قلة رضى ولا غير ذلك .

والأمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة ، وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال . وقوله تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ يعني يوم القيامة لأنهم يكذبون به ، فهو في غاية البعد عندهم ، والله تعالى يراه ﴿ قريباً ﴾ من حيث هو واقع وآت وكل آت قريب . وقال بعض المفسرين : الضمير في ﴿ يرونه ﴾ عائد على العذاب . وقوله تعالى : ﴿ يوم تكون ﴾ نصب بإضمار فعل أو على البدل من الضمير المنصوب . و" المهل " : عكر الزيت قاله ابن عباس وغيره ، فهي لسوادها وانكدار أنوارها تشبه ذلك . والمهل أيضاً : ماء أذيب من فضة ونحوها قاله ابن مسعود وغيره : فيجيء له ألوان وتميع مختلط ، والسماء أيضاً – للأهوال التي تدركها – تصير مثل ذلك ، و" العهن " : الصوف دون تقييد . وقد قال بعض اللغويين : هو الصوف المصبوغ ألواناً ، وقيل المصبوغ أي لون كان ، وقال الحسن : هو الأحمر ، واستدل من قال إنه المصبوغ ألواناً بقول زهير : [الطويل]

كأن فتات العهن في كل منزل . . . نزلن به حب الفنا لم يحطم

وحب الفنا هو عنب الثعلب ، وكذلك هو عند طيبه ، وقبل تحطمه ألوان بعضه أخضر ، وبعضه أصفر ، وبعضه أحمر ، لاختلافه في النضج ، وتشبه ﴿ الجبال ﴾ به على هذا القول لأنها جدد بيض وحمر وسود فيجيء التشبيه من وجهين في الألوان وفي الانتفاش . ومن قال إن العهن : الصوف دون تقييد ، وجعل التشبيه في الانتفاش وتخلخل الأجزاء فقط . قال الحسن : والجبال يوم القيامة تسير بالرياح ثم يشتد الأمر فتنهد ثم يشتد الأمر بها فتصير هباء منبثاً . وقرأ السبعة والحسن والمدنيون وطلحة والناس : " ولا يسأل " على بناء الفعل للفاعل ، والحميم في هذا الموضع : القريب والوالي ، والمعنى لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجدها عنده ، قال قتادة : المعنى لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة قد بصر كل أحد حالة الجميع ، وشغل بنفسه . وقرأ ابن كثير من طريق البزي وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهما وأبو حيوة " لا يُسأل " على بناء الفعل للمفعول . فالمعنى : ولا يسأل إحضاره لأن كل مجرم له سيما يعرف بها ، وكذلك كل مؤمن له سيما خير . وقيل المعنى : لا يسأل عن ذنبه وأعماله ليؤخذ بها وليزر وزره . و ﴿ يبصرونهم ﴾ على هذه القراءة قيل معناه في النار . وقال ابن عباس في المحشر يبصر بالحميم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه . وتقول :

بصر فلان بالشيء ، وبصرته به أريته إياه ومنه قول الشاعر : [الوافر]

إذا بصَّرتك البيداء فاسري . . . وأما الآن فاقتصدي وقيلي

وقرأ قتادة بسكون الباء وكسر الصاد خفيفة ، فقال مجاهد : ﴿ يبصرونهم ﴾ معناه يبصر المؤمنون الكفار في النار ، وقال ابن زيد : يبصر الكفار من أضلهم في النار عبرة وانتقاماً عليهم وخزياً لهم .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11)

(139/781)

﴿ المجرم ﴾ في هذه الآية الكافر بدليل شدة الوعد وذكر ﴿ لظى ﴾ وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الافتداء ، وقرأ جمهور الناس : " يومئذ " بكسر الميم ، وقرأ الأعرج بفتحها ، ومن حيث أضيف إلى غير متمكن جاز فيه الوجهان . وقرأ أبو حيوة " من عذابٍ " منوناً " يومَئذ " مفتوح الميم ، والصاحبة : هنا الزوجة ، والفصيلة في هذه الآية قرابة الرجل الأدنون ، مثال ذلك بنو هاشم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، والفصيلة في كلام العرب : أيضاً الزوجة ، ولكن ذكر الصاحبة في هذه الآية لم يبق في معنى الفصيلة إلا الوجه الذي ذكرناه . وقوله ﴿ ثم ينجيه ﴾ الفاعل هو الفداء الذي تضمنه قوله ﴿ لو

يفتدي ﴾ فهو المتقدم الذكر . وقرأ الزهري " تؤويهُ " و " تنجيهُ " برفع الهاءين ، وقوله تعالى : ﴿ كلا إنها لظى ﴾ رد لقولهم وما ودوه أي ليس الأمر كذلك ، ثم ابتدأ الإخبار عن ﴿ لظى ﴾ وهي طبقة من طبقات جهنم ، وفي هذا اللفظ تعظيم لأمرها وهولها . وقرأ السبعة والحسن وأبو جعفر والناس : " نزاعةٌ " بالرفع ، وقرأ حفص عن عاصم : " نزاعةً " بالنصب ، فالرفع على أن تكون ﴿ لظى ﴾ بدلاً من الضمير المنصوب ، " ونزاعةُ " خبر " إن " أو على إضمار مبتدأ ، أي هي نزاعة او على أن يكون الضمير في ﴿ إنها ﴾ للقصة ، و ﴿ لظى ﴾ ابتداء و " نزاعةٌ " خبره ، أو على أن تكون ﴿ لظى ﴾ خبر و " نزاعةٌ " بدل من ﴿ لظى ﴾ ، أو على أن تكون ﴿ لظى ﴾ خبراً و " نزاعةٌ " خبراً بعد خبر . وقال الزجاج : " نزاعةٌ " ، رفع بمعنى المدح .

(140/781)

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو القول بأنها خبر ابتداء تقديره هي نزاعة ، لأنه إذا تضمن الكلام معنى المدح أو الذم جاز لك القطع رفعاً بإضمار مبتدأ أو نصباً بإضمار فعل . ومن قرأ بالنصب فذلك إما على مدح ﴿ لظى ﴾ كما قلنا ، وإما على الحال من ﴿ لظى ﴾ لما فيها من معنى التلظي ، كأنه قال : كلا إنها النار التي تتلظى نزاعةً ، قال الزجاج : فهي

حال مؤكدة و: "الشوى" جلد الإنسان، وقيل جلد الرأس الهامة، قاله الحسن. ومنه قول الأعشى: [مجزوء الكامل]

قالت قتيلة ما له . . . قد جللت شيباً شواته

ورواه أبو عمرو بن العلاء سراته فلا شاهد في البيت على هذه الرواية. قال أبو عبيدة: سمعت أعرابياً يقول اقشعرت شواتي، و"الشوى" أيضاً: قوائم الحيوان، ومنه عبل الشوى، و"الشوى" أيضاً: كل عضو ليس بمقتل، ومنه رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل، وقال ابن جرير: "الشوى" العصب والعقب، فنار لظى تذهب هذا من ابن آدم وتنزعه. وقوله تعالى: ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها، فقال ابن عباس وغيره: هو حقيقة تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقال الخليل بن أحمد هي عبارة عن حرصها عليهم واستدنائها لهم، وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: ﴿ تدعو ﴾، معناه: تهلك، تقول العرب: دعاك الله أي أهلكك، وحكاه الخليل عن العرب، و﴿ أوعى ﴾ معناه: جعلها في الأوعية تقول: وعيت العلم وأوعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر [عبيد بن الأبرص]: [البسيط]

الخير يبقى وإن طال الزمان به . . . والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وهذه إشارة إلى كفار أغنياء جعلوا جمع المال أوكد أمرهم، ومعنى حياتهم فجمعوه من

غير حل ومنعوه من حقوق الله ، وكان عبد الله بن عكيم لا يربط كيسه ، ويقول : سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(141/781)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾

العامل في "يَوْمَ" "واقع" ؛ تقديره يقع بهم العذاب يوم .

وقيل : "نَرَاهُ" أو "يُبَصَّرونهم" أو يكون بدلاً من قريب .

والْمُهْلُ : دُرْدِيّ الزيت وَعَكَرُه ؛ في قول ابن عباس وغيره .

وقال ابن مسعود : ما أذيب من الرَّصاص والنُّحاص والفضّة .

وقال مجاهد : "كَالْمُهْلِ" كقيح من دم وصديد .

وقد مضى في سورة "الدخان" ، و "الكهف" القول فيه .

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ أي كالصُّوف المصبوغ .

ولا يقال للصوف عِهْن إلا أن يكون مصبوغاً .

وقال الحسن : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف .

ومنه قول زُهير :

كأن فُتات العِهنِ في كل منزل . . .

نزلن به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ

الفُتاتُ القِطَع .

والعِهْنُ الصوفُ الأحمر ؛ واحده عِهْنة .

وقيل : العِهْنُ الصوف ذو الألوان ؛ فشبّه الجبال به في تَلَوُّنها ألواناً .

والمعنى : أنها تلين بعد الشدّة ، وتتفرق بعد الاجتماع .

وقيل : أوّل ما تتغير الجبال تصير رَمْلاً مَهيلاً ، ثم عِهْناً منفوشاً ، ثم هَباءً مُنْبثاً .

﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ أي عن شأنه لشغل كل إنسان بنفسه ، قاله قتادة .

كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] .

وقيل : لا يسأل حميم عن حميم ، فحذف الجار ووصل الفعل .

وقراءة العامة "يسأل" بفتح الياء .

وقرأ شيبة والبَزّي عن عاصم "ولا يُسأل" بالضم على ما لم يسم فاعله ، أي لا يُسأل حميم عن حميمه ولا ذو قرابة عن قرابته ، بل كل إنسان يسأل عن عمله .

نظيره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : 38] .

قوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يرونهم .

وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس .

فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه ؛ لاشتغالهم بأنفسهم .

(142/781)

وقال ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة .

وفي بعض الأخبار : أن أهل القيامة يفِرّون من المعارف مخافة المظالم .

وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يبصر بعضهم بعضاً فيتعارفون ثم يفرّ بعضهم من بعض .

فالضمير في ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ على هذا للكفار ، والميم للأقرباء .

وقال مجاهد : المعنى يبصّر الله المؤمنين الكفار في يوم القيامة ؛ فالضمير في يبصرونهم للمؤمنين ، والهاء والميم للكفار .

ابن زيد : المعنى يبصر الله الكفار في النار الذين أضلّوهم في الدنيا ؛ فالضمير في "يُبَصَّرُونَهُمْ" للتابعين ، والهاء والميم للمتبوعين .

وقيل : إنه يبصر المظلوم ظالمه والمقتول قاتله وقيل "يبصرونهم" يرجع إلى الملائكة ؛ أي يعرفون أحوال الناس فيسوقون كلّ فريق إلى ما يليق بهم .

وتم الكلام عند قوله : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ أي يتمنى الكافر .

﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ يعني من عذاب جهنم بأعزّ من كان عليه في الدنيا من أقاربه فلا يقدر .

ثم ذكرهم فقال : ﴿ بِبَنِيهِ .

وَصَاحِبَتِهِ ﴾ وزوجته .

﴿ وَأَخِيهِ .

وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي عشيرته .

﴿ التي تُؤْوِيهِ ﴾ تنصره ؛ قاله مجاهد وابن زيد .

وقال مالك : أمّه التي تُرَبِّيه .

حكاه الماورديّ ورواه عنه أشهب .

وقال أبو عبيدة : الفصِيلة دون القبيلة .

وقال ثعلب : هم آباؤه الأدنون .

وقال المبرد : الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد ، وهي دون القبِيلة .

وسُمِّيت عتْرة الرجل فصيلتَه تشبيهاً بالبعض منه .

وقد مضى في سورة "الحجرات" القول في القبيلة وغيرها .

وهنا مسألة ، وهي : إذا حبس على فصيلته أو أوصى لها فمن ادعى العموم حمله على العشِيرة ، ومن ادعى الخصوص حمله على الآباء ؛ الأدنى فالأدنى .

والأوّل أكثر في النطق .

والله أعلم .

ومعنى : "تُؤْويه" تضمه وتؤمّنه من خوف إن كان به .

(143/781)

﴿ وَمَن فِي الأَرضِ جَمِيعاً ﴾ أي ويَوَدّ لوفُدِي بهم لافتدى ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ أي يخلصه ذلك الفداء .

فلا بد من هذا الاضمار ، كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أي وإن أكله لَفِسق .

وقيل : "يَوَدُّ الْمُجرِمُ" يقتضي جواباً بالفاء ؛ كقوله : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

والجواب في هذه الآية "ثُمَّ يُنْجِيهِ" لأنها من حروف العطف ؛ أي يَوّد المجرم لو يفتدى فينجيه الافتداء .

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15)

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ تقدّم القول في "كَلاَّ" وأنها تكون بمعنى حَقّاً ، وبمعنى لا .

وهي هنا تحتمل الأمرين ؛ فإذا كانت بمعنى حقاً كان تمام الكلام "يُنجيهِ" .

وإذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها ؛ أي ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء ثم قال : ﴿ إِنَّهَا لظى ﴾ أي هي جهنم ؛ أي تتلَظّى نيرانها ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] واشتقاق لظي من التلظيِّ .

والِتظَاءُ النار التهابها ، وتلظّيها تلهُّبها .

وقيل : كان أصلها "لظظ" أي ما دامت لدوام عذابها ؛ فقلبت إحدى الظائين ألفاً فبقيت لظى .

وقيل : هي الدركة الثانية من طبقات جهنم .

وهي اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف .

﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ "نَزَّاعَةٌ" بالرفع .

وروى أبو عمرو عن عاصم "نَزَّاعَةً" بالنصب .

فمن رفع فله خمسة أوجه : أحدها أن تجعل "لظى" خبر "إنّ" وترفع "نزاعة" بإضمار هي ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على "لظى" .

والوجه الثاني أن تكون "لظى" و "نزاعة" خبران لإن .

كما تقول إنه خلق مخاصم .

والوجه الثالث أن تكون "نزاعة" بدلاً من "لظى" و "لظى" خبر "إن" .

والوجه الرابع أن تكون "لظى" بدلاً من اسم "إنّ" و "نزاعة" خبر "إن" .

والوجه الخامس أن يكون الضمير في "إنها" للقصة ، و "لظى" مبتدأ و "نزاعة" خبر الابتداء والجملة خبر "إن" .

(144/781)

والمعنى : أن القصة والخبر لظى نزاعة للشَّوَى .

ومن نصب "نزاعة" حسن له أن يقف على "لظى" وينصب "نزاعة" على القطع من "لظى" إذ كانت نكرة متصلة بمعرفة .

ويجوز نصبها على الحال المؤكدة ؛ كما قال : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقاً ﴾ [البقرة : 19] .

ويجوز أن تنصب على معنى أنها تتلظى نزاعة ؛ أي في حال نزعها للشَّوَى .

والعامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظي .

ويجوز أن يكون حالاً ؛ على أنه حال للمكذبين بخبرها .

ويجوز نصبها على القطع ؛ كما تقول : مررت بزيد العاقلَ الفاضلَ .

فهذه خمسة أوجه للنصب أيضاً .

والشَّوَى : جمعَ شواة وهي جلدة الرأس .

قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ مالَهُ . . .

قد جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُهُ

وقال آخر :

لأصبحت هدّتك الحوادث هَدَّةً . . .

لها فشواة الرأس بادٍ قَتِيرُها

القتير : الشّيب .

وفي الصّحاح : "والشوى : جمع شواة وهي جلدة الرأس" .

والشَّوَى : اليدان والرجلان والرأس من الآدميين ، وكل ما ليس مقتلاً .

يقال : رماه فأشواه إذا لم يصب المقتل .

قال الهُذَلِيّ :

فإن من القول التي لا شَوَىَ لها . . .

إذا زَلّ عن ظهر اللّسان انفلاتها

يقول : إن من القول كلمة لا تشوِي ولكن تقتل .

قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ ماله . . .

قد جُلِّلت شَيْباً شَواته

قال أبو عبيد : أنشدها أبو الخطاب الأخفش أبا عمرو بن العلاء فقال له : "صَحّفت ! إنما هو سَرَاتُه ؛ أي نواحيه فسكت أبو الخطاب ثم قال لنا : بل هو صَحَّف ، إنما هو شواته" .

وشَوَى الفرس : قوائمه ؛ لأنه يقال : عَبْل الشَّوى ، ولا يكون هذا للرأس ؛ لأنهم وصفوا الخيل بإسالة الخدين وعِتقِ الوجه وهو رِقّته .

والشَّوَى : رُذال المال .

والشَّوَى : هو الشيء الهيّن اليسير .

وقال ثابت البُنَانيّ والحسن : ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ أي لمكارم وجهه .

أبو العالية : لمحاسن وجهه .

قتادة : لمكارم خلقته وأطرافه .

وقال الضّحاك : تَفْرِي اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً .

(145/781)

وقال الكسائي : هي المفاصل .

وقال بعض الأئمة : هي القوائم والجلود .

قال آمرؤ القيس :

سَلِيم الشَّظَى عَبْل الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا . . .

له حَجَبات مُشْرِفاتٌ على الفالِ

وقال أبو صالح : أطراف اليدين والرجلين .

قال الشاعر :

إذا نظرتْ عرفت الفخر منها . . .

وعينيها ولم تعرف شَواها

يعنى أطرافها .

وقال الحسن أيضاً : الشَّوَى الهام .

﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ أي تدعو لَظَى من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولّى عن الإيمان .

ودعاؤها أن تقول : إليّ يا مشرك ، إليّ يا كافر .

وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إليّ يا كافر ، إليَّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحبّ .

وقال ثعلب : "تَدْعُو" أي تهلك .

تقول العرب : دعاك الله ؛ أي أهلكك الله .

وقال الخليل : إنه ليس كالدعاء "تعالوا" ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم .

وقيل : الداعي خزنة جهنم ؛ أضيف دعاؤهم إليها .

وقيل هو ضرب مَثَل ؛ أي إن مصير من أدبر وتولّى إليها ؛ فكأنها الداعية لهم .

ومثله قول الشاعر :

ولقد هبطنا الوادِيَيْن فوادياً . . .

يدعو الأنيس به العضيض الأبكمُ

العضيض الأبكم : الذباب .

وهو لا يدعو وإنما طنينه نبّه عليه فدعا إليه .

قلت : القول الأول هو الحقيقة ؛ حسب ما تقدّم بيانه بآي القرآن والأخبار الصحيحة .

القشيريّ : ودعاء لَظى بخلق الحياة فيها حين تدعو ، وخوارق العادة غداً كثيرة .

﴿ وَجَمَعَ فأوعى ﴾ أي جمع المال فجعله في وعائه ومنع منه حق الله تعالى ؛ فكان جَموعاً منوعاً .

قال الحكم : كان عبد الله بن عُكَيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ فأوعى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾

أي دَعَا داعٍ ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي استدعاهُ وطلبَهُ وهُو النَّضرُ بنُ الحارثِ حيثُ قالَ إنكاراً واستهزاءً : "إنْ كانَ هَذا هُو الحقَّ من عندِكَ فأمطرْ علينا حجارةً من السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ" ، وقيلَ أبو جهلٍ حيثُ قالَ أسقطْ علينا كسفاً من السماءِ ، وقيلَ هو الحارثُ بنِ النعمانِ الفهريُّ وذلكَ أنَّه لما بلغَهُ قولُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في عليَ رضيَ اللهُ عنهُ من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ قالَ اللهمَّ إنْ كانَ ما يقولُ محمدٌ حقاً فأمطرْ علينا حجارةً من السماءِ ، فما لبثَ حتَّى رماهُ اللهُ تعالَى بحجرٍ فوقعَ على دماغِهِ فخرجَ من أسفلِهِ فهلكَ من ساعتِهِ ، وقيلَ هُو الرسولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ استعجلَ عذابَهُمْ .

وقُرِئَ سَأَلَ ، وهو إمَّا من السؤالِ على لُغةِ قُريشٍ فالمَعْنَى ما مرَّ أو من السَّيلانِ ، ويؤيدُهُ أنَّهُ قُرِئَ سالَ سيلٌ أي اندفعَ وادٍ بعذابٍ واقعٍ . وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على تحققِ وقوعِهِ إمَّا في الدُّنيا وهو عذابُ يومِ بدرٍ فإنَّ النضرَ قُتِلَ يومئذٍ صَبْراً ، وقد مرَّ حالُ الفهريِّ ، وإمَّا في الآخرةِ فهو عذابُ النارِ واللهُ أعلمُ . ﴿ للكافرين ﴾ صفةٌ أُخرى لعذابٍ أي كائنٍ

للكافرينَ ، أو صلةٌ لواقعٍ ، أو متعلقٌ بسألَ أي دَعَا للكافرينَ بعذابٍ واقعٍ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ صفةٌ أُخرى لعذابٍ ، أو حالٌ منهُ لتخصصِهِ بالصفةِ أو بالعملِ أو من الضميرِ في للكافرينَ على تقديرِ كونِهِ صفةً لعذابٍ أو استئنافٌ ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ متعلقٌ بواقعٍ أو بدافعٌ أي ليسَ له دافعٌ من جهتِهِ تعالَى : ﴿ ذِي المعارج ﴾ ذِي المصاعدِ التي يصعدُ فيها الملائكةُ بالأوامرِ والنَّواهِي أو هي عبارةٌ عن السمواتِ المترتبةِ بعضِهَا فوقَ بعضٍ ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح ﴾ أي جبريلُ عليهِ السَّلامُ ، أفردَ بالذكرِ لتميزِهِ وفضلِهِ وقيلَ الروحُ خلقٌ هم حفظة

(147/781)

على الملائكةِ كما أنَّ الملائكةَ حفظةٌ على الناسِ . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشِهِ تعالَى وإلى حيثُ تهبطُ منهُ أوامرُهُ تعالَى وقيلَ هو من قبيلِ قولِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّى ﴾ أي إلى حيثُ أمرني بهِ .

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ مما يعدُّه الناسُ وهو بيانٌ لغايةِ ارتفاعِ تلكَ المعارجِ وبُعدِ مَداها على منهاجِ التمثيلِ والتخييلِ ، والمَعْنَى أنَّها من الارتفاعِ بحيثُ لو قُدِّرَ قطعُها في زمانٍ لكانَ ذلكَ الزمانُ مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ من سِنِي الدُّنيا ، وقيلَ معناهُ

تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إلى عرشِهِ تعالَى في يومٍ كان مقدارُهُ كمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ أي يقطعونَ في يومٍ ما يقطعُهُ الإنسانُ في خمسينَ ألفَ سنةٍ لو فُرِضَ ذلكَ ، وقيلَ في يومٍ متعلقٌ بواقعٍ ، وقيل بسال على تقديرِ كونِهِ من السَّيلانِ ، فالمرادُ به يومُ القيامةِ ، واستطالتُهُ إمَّا لأنَّه كذلكَ في الحقيقةِ أو لشدتِهِ على الكفارِ أوْ لكثرةِ ما فيهِ من الحالاتِ والمحاسباتِ ، وأيّاً ما كانَ فذلكَ في حقِّ الكافرِ وأمَّا في حقِّ المؤمنِ فلاَ ، لِمَا رَوَى أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ما أطولَ هذا اليومَ ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " والذي نفسِي بيدِهِ أنَّهُ ليخِفُّ على المؤمنِ حتى إنَّهُ يكونُ أخفَّ من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيها في الدُّنيا " . وقولُه تعالَى :

﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾

(148/781)

متعلقٌ بسألَ لأنَّ السؤالَ كانَ عن استهزاءٍ وتعنتٍ وتكذيبٍ بالوحيِ ، وذلكَ مِمَّا يُضجره عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أو كانَ عن تضجرٍ واستبطاءٍ للنصرِ ، أو بسألَ سائلٌ أو سالَ سيلٌ فمعناهُ جاءَ العذابُ لقُربِ وقوعِهِ فقد شارفتَ الانتقامَ . ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ أي العذابَ الواقعَ أو يومَ القيامةِ على تقديرِ تعلقِ "في يومٍ" بواقعٍ ﴿ بَعِيداً ﴾ أي يستبعدونَهُ بطريقِ

الإحالةِ فلذلكَ يسألونَ بهِ ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ هيناً في قُدرتِنَا غيرَ بعيدٍ علينا ولا متعذرٍ على أنَّ البُعدَ والقُربَ معتبرانِ بالنسبةِ إلى الإمكانِ . والجملةُ تعليلٌ للأمرِ بالصبرِ . وقولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ متعلقٌ بقريباً أيْ يمكنُ ولا يتعذرُ في ذلكَ اليومِ أو بمضمرٍ دلَّ عليهِ واقعٍ أو بمضمرٍ مؤخرٍ ، أي يومَ تكونُ السماءُ كالمهلِ الخ يكونُ من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُوصفُ ، أو بدلٌ منْ في يومٍ على تقديرِ تعلقِهِ بواقعٍ . هذا ما قالُوا ولعلَّ الأقربَ أنَّ قولَهُ تعالَى سأل سائلٌ حكايةٌ لسؤالِهم المعهودِ على طريقةِ قولِهِ تعالَى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة ﴾ وقولِهِ تعالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ ونحوِهما إذْ هُو المعهودُ بالوقوعِ على الكافرينَ لا ما دَعَا بِهِ النضرُ أو أبُو جهلٍ أو الفهريُّ فالسؤالُ بمعناهُ والباءُ بمَعْنَى عنْ كَما في قولِهِ تعالَى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ وقوعِ المسؤولِ عنهُ لا محالةَ وقولُهُ تعالَى : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ مترتبٌ عليهِ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصبرِ كما ذُكِرَ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ﴾ الخ متعلقٌ بليسَ له دافعٌ أو بما يدلُّ هو عليهِ أي يقعُ يومَ تكونُ السماءُ كالمهلِ ، وهو ما أُذيبَ على

(149/781)

مَهَلٍ من الفلزاتِ وقيلَ دُرْدِيُّ الزيتِ .

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوفِ المصبوغِ ألواناً لاختلافِ ألوانِ الجبالِ منها ﴿ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابيبُ سُودٌ ﴾ فإذا بُسَّتْ وطيّرتْ في الجوّ أشبهتِ العهنَ المنفوشَ إذا طيرته الريحُ ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ أي لا يسألُ قريبٌ قريباً عن أحوالِهِ ولا يُكلمه لابتلاءِ كلَ منهُم بما يشغلُهُ عن ذلكَ . وقُرِىءَ على البناءِ للمفعولِ ، أيْ لا يُطلبُ منْ حميمٍ حميمٌ أو لا يسألُ منْهُ حالةٌ . ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يُبصِرُ الأحماءُ الأحماءَ فلا يخفَونَ عليهم وما يمنعُهُم من التساؤلِ إلا تشاغلُهُم بحالِ أنفسِهِم ، وقيلَ ما يُغني عنهُ من مشاهدةِ الحالِ كبياضِ الوجهِ وسوادِهِ ، والأولُ أُدخلُ في التهويلِ . وجمعَ الضميرينِ لعمومِ الحميمِ . وقُرِىءَ يُبْصِرُونَهُمْ ، والجملةُ استئنافٌ ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ أي يتمنَّى الكافرُ وقيلَ كلُّ مذنبٍ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي العذابَ الذي ابتلُوا بِهِ يومئذٍ ﴿ بِبَنِيهِ * وصاحبته وَأَخِيهِ ﴾ حكايةٌ لودادتِهِم . ولوُ في مَعْنَى التمنّي ، وقيلَ هي بمنزلةِ أنِ الناصبةِ فلا يكونُ لها جوابٌ وينسبكُ منهَا وممَّا بعدَها مصدرٌ يقعُ مفعولاً ليودُّ والتقديرُ يودُّ افتداءَهُ ببنيهِ الخ . والجملةُ استئنافٌ لبيانِ أنَّ اشتغالَ كلِّ مجرمٍ بنفسِهِ بلغَ إلى حيثُ يتمنَّى أن يفتدي بأقربِ الناسِ إليهِ وأعلقِهِم بقلبِهِ فضلاً أن يهتمَّ بحالِهِ ويسألَ عَنْهَا . وقُرِىءَ يومَئذٍ بالفتحِ على البناءِ للإضافةِ إلى غيرِ متمكنٍ ، وبتنوينِ عذابٍ ونصبِ يومئذٍ وانتصابُهُ بعذابٍ لأنَّه في مَعْنَى تعذيبٍ .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي عشيرتِهِ التي فُصِلَ عنهُم ﴿ وَفَصِيلَتِهِ التى ﴾ أي تَضمنُهُ في النسبِ أو عندَ الشدائدِ ﴿ وَمَن فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ من الثقلينِ والخلائقِ ومَنْ للتغليبِ ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ عطفٌ على يفتدِي أو يودُّ لو يفتدِي ثم لو ينجيهِ الافتداءُ ، وثمَّ لاستبعادِ الإنجاءِ ، يعني يتمنَّى لو كانَ هؤلاءِ جميعاً تحتَ يدِه وبذلَهُم في فداءِ نفسِهِ ثمَّ ينجيهِ ذلكَ وهيهاتَ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ للمجرمِ عن الودادةِ وتصريحٌ بامتناعِ إنجاءِ الافتداءِ ، وضميرُ ﴿ أَنَّهَا ﴾ إما للنارِ المدلولِ عليها بذكرِ العذابِ أو هو مبهمٌ تُرجَمَ عند الخبرِ الذي هُو قولُهُ تعالَى : ﴿ لظى ﴾ وهي علمٌ للنارِ منقولٌ منَ اللَّظى بمَعْنَى اللهبِ .

﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ نُصب على الاختصاصِ ، أو حالٌ مؤكدةٌ والشَّوى الأطرافُ أو جمعُ شواةٍ وهي جلدةُ الرأسِ . وقُرِىءَ نزاعةٌ بالرفعِ على أنَّهُ خبرٌ ثانٍ لأنَّ أو هُو الخبرُ ولَظَى بدلٌ من الضميرِ ، أو الضميرُ للقصةِ ولَظَى مبتدأٌ ونزّاعةٌ خبرُهُ ﴿ تَدْعُواْ ﴾ أي تجذبُ وتُحضر وقيلَ تدعُو وتقولُ لهم إليَّ إليَّ يا كافرُ يا منافقُ وقيل تدعُو المنافقينَ والكافرينَ بلسانٍ فصيحٍ ثم تلتقطُهُم التقاطَ الحبِّ ، وقيلَ تدعُو تُهلكُ ، وقيلَ تدعُو زبانيتَهَا ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ أي عنِ الحقِّ ﴿ وتولى ﴾ أعرضَ عن الطاعةِ ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أي جمعَ المالَ فجعلَهُ في وعاءٍ

وكنزَهُ ولم يؤدِ زكاتَهُ وحقوقَهُ وتشاغلَ بِهِ عن الدينِ وزَهَى باقتنائِهِ حرصاً وتأميلاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(151/781)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾

قيل متعلق بقريباً أو بمضمر يدل عليهي ﴿ واقع ﴾ [المعارج : 1] وهو يقع أو بدل عن ﴿ في يوم ﴾ [المعارج : 4] إن علل به دون تعرج والنصب باعتبار أن محل الجار والمجرور ذلك إذ ليس بدلاً عن المجرور وحده فاشتراط أبي حيان لمراعاة المحل كون الجار زائداً أو شبهه كرب غير صحيح ولا يحتاج تصحيح البدلية إلى التزام كون حركة يوم بنائية بناء على مذهب الكوفيين المجوزين لذلك وإن أضيف لمعرب وذكر أنه على هذه التقادير الثلاث المراد بالعذاب عذاب القيامة وأما إذا أريد عذاب الدنيا فيتعين أن يكون التقدير يوم تكون السماء يكون كيت وكيت وكأنهم لما استعجلوا العذاب أجيبوا بازف الوقوع ثم قيل ليهن ذلك في جنب ما أعد لكم يوم تكون السماء كالمهل فحينئذ يكون العذاب الذي هو العذاب ثم لا يخفى أن البدلية ممكنة على تقدير تعلق في يوم بتعرج أيضاً بناء على أن المراد به يوم

القيامة أيضاً كما قدمنا وأن الأولى عند تعلقه بقريباً أن لا يراد من القرب من الإمكان الإمكان الذاتي لما في تقييده باليوم نوع إيهام وأن ضميري يرونه ونراه إذا كانا ليوم القيامة يلزم وقوع الزمان في الزمان في قولنا يقع يوم القيامة يوم تكون كالمهل ويجاب بما لا يخفى وجوز في البحر كونه بدلاً من ضمير نراه إذا كان عائداً على يوم القيامة وفي الارشاد كونه متعلقاً بليس له دافع وبعضهم كونه مفعولاً به لا ذكر محذوفاً وتعلقه بنراه كما قاله مكي لا نراه وكذا تعلقه بيبصرونهم كما حكاه ومثله ما عسى أن يقال متعلقه بيود الآتي بعد فتأمل والمهل أخرج أحمد والضياء في المختارة وغيرهما عن ابن عباس أنه دردي الزيت وهو ما يكون في قعره وقال غير واحد المهل ما أذيب على مهل من الفلزات والمراد يوم تكون السماء واهية وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية أن السماء الآن خضراء وأنها تحول يوم القيامة لوناً آخر إلى الحمرة.

(152/781)

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوف دون تقييد أو الأحمر أو المصبوغ ألواناً أقوال واختار جمع الأخير وذلك لاختلاف ألوان الجبال فمنها جدد بيض وحمر وغرابيب سود فإذا بست وطيرت في الجو اشبهت العهن أي المنفوش كما في القارعة إذا طيرته الريح وعن

الحسن تسير الجبال مع الرياح ثم ينهد ثم تصير كالعهن ثم تنسف فتصير هباء .

﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ أي لا يسأل قريب مشفق قريباً مشفقاً عن حاله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد عن قتادة وفي رواية أخرى عنه لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة وقيل لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك وقيل لا يسأله شفاعة وفي البحر لا يسأله نصره ولا منفعته لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده ولعل الأول أبلغ في التهويل وأياً ما كان فمفعول يسأل الثاني محذوف وقيل حميماً منصوب بنزع الخافض أي لا يسأل حميم عن حميم وقرأ أبو حيوة وشيبة وأبو جعفر والبزي بخلاف عن ثلاثتهم ولا يسأل مبنياً للمفعول أي لا يطلب من حميم حميم ولا يكلف إحضاره أو لا يسأل منه حاله وقيل لا يسأل ذنوب حميمه ليؤخذ بها .

(153/781)

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يبصر الإحماء الاحماء فلا يخفون عليهم وما يمنعهم من التساؤل إلا اشتغالهم بحال أنفسهم وقيل ما يغني عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده ولا يخفى حاله ويبصرونهم قيل من بصرته بالشيء إذا أوضحته له حتى يبصره ثم ضمن معنى التعريف أو حذف الصلة أيضاً لا وجمع الضميرين لعموم الحميم والجملة استئناف كأنه لما

قيل لا يسأل الخ قيل لعله لا يبصره فقيل يبصرونهم وجوز أن تكون صفة أي حميماً مبصرين معرفين إياهم وأن تكون حالاً أما من الفاعل أو من المفعول أو من كليهما ولا يضر التنكير لمكان العموم وهو مسوغ للحالية ورجحت على الوصفية بأن التقييد بالوصف في مقام الإطلاق والتعميم غير مناسب وليس فيها ذلك فلا تغفل وقرأ قتادة يبصرونهم مخففاً مع كسر الصاد أي يشاهدونهم ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ أي يتمنى الكافر وقيل كل مذنب وقوله تعالى : ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي العذاب الذي ابتلى به يومئذ ﴿ بِبَنِيهِ ﴾ .

﴿ وصاحبته وَأَخِيهِ ﴾ حكاية لوداداتهم ولو في معنى التمني وقيل هي بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولاً ليود والتقدير يود افتداءه ببنيه الخ والجملة استئناف لبيان أن إشغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها وجوز أن تكون حالاً من ضمير الفاعل على فرض أن يكون هو السائل فإن فرض أن السائل المفعول فهي حال من ضميره وقيل الظاهر جعلها حالاً من ضمير الفاعل لأنه المتمني وأياً ما كان فالمراد يود المجرم منهم وقرأ نافع والكسائي كما في أنوار التنزيل والأعرج يومئذ بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن وقرأ أبو حيوة كذلك وبتنوين عذاب فيومئذ حينئذ منصوب بعذاب لأنه في معنى تعذيب .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كما ذكره غير واحد ولعله أولى من قول الراغب عشيرته المنفصلة عنه وقال ثعلب فصيلته آباؤه الأدنون وفسر أبو عبيدة الفصيلة بالفخذ ﴿ التى ﴾ أي تضمه انتماء إليها أو لياذاً بها في النوائب .

﴿ تُوِيهِ وَمَن فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ من الثقلين الإنس والجن أو الخلائق الشاملة لهم ولغيرهم ومن للتغليب ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ عطف على يفتدي والضمير المرفوع للمصدر الذي في ضمن الفعل أي يود لو ﴿ يفتدي ﴾ ثم لو ينجيه الافتداء وجوز أبو حيان عود الضمير إلى المذكور والزمخشري عوده إلى من في الأرض ثم الاستبعاد الانجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك وهيهات وقرأ الزهري تؤويه وينجيه بضم الهائين .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع الانجاء وضمير ﴿ أَنَّهَا ﴾ للنار المدلول عليها بذكر العذاب وقوله تعالى : ﴿ لظى ﴾ خبر إن وهي علم لجهنم أو للدركة الثانية من دركاتها منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص ومنع الصرف للعلمية والتأنيث وجوز أن يراد اللهب على المبالغة كان كلها لهب خالص وحذف التنوين إما لإجراء الوصل مجرى الوقف أو لأنه علم جنس معدول عما فيه اللام كسحر إذا أردت سحراً بعينه وقوله تعالى :

﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ أي الأطراف كاليد والرجل كما أخرجه ابن المنذر وابن حميد عن مجاهد وأبي صالح وقاله الراغب وغيره وقيل الأعضاء التي ليست بمقتل ولذا يقال رمى فاشوى إذا لم يقتل أو جمع شواة وهي جلدة الرأس وأنشدوا قول الأعشى

قتيلة ماله . . .

قد جللت شيباً شواته

(155/781)

وروى هذا عن ابن عباس وقتادة وقرة بن خالد وابن جبير وأخرجه ابن أبي شيبة عن مجاهد وأخرج هو عن أبي صالح والسدي تفسيرها بلحم الساقين وعن ابن جبير العصب والعقب وعن أبي العالية محاسن الوجه وفسر نزعها لذلك بأكلها له فتأكله ثم يعود وهكذا نصب بتقدير أعني أو أخص وهو مراد من قال نصب على الاختصاص للتهويل وجوز أن يكون حالاً والعامل فيها لظى وإن كان علماً لما فيه من معنى التلظي كما عمل العلم في الظرف في قوله :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان . . .

أي المشهور بعض الأحيان قاله أبو حبان وإليه يشير كلام الكشف وقال الخفاجي لظى

بمعنى متلظية والحال من الضمير المستتر فيها لا منها بالمعنى السابق لأنها نكرة أو خبر وفي مجيء الحال من مثله ما فيه وقيل هو حال مؤكدة كما في قوله :

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبى . . .

وهل بدارة يا للناس من عار

والعامل أحقه أو الخبر لتأويله بمسمى أو المبتدأ لتضمنه معنى التنبيه أو معنى الجملة وارتضاء الرضى وقيل حال من ضمير ﴿ تدعوا ﴾ قدم عليه وجوز الزمخشري أن يكون ضمير أنها مبهماً ترجم عنه الخبر أعني ﴿ لظى ﴾ وبحث فيه بما رده المحققون وقرأ الأكثرون ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ بالرفع على أنه خبر ثان ﴿ لِإِنْ ﴾ أو صفة ل ﴿ لظى ﴾ وهو ظاهر على اعتبار كونها نكرة وكذا على كونها علم جنس لأنه كالمعرف بلام الجنس في إجرائه مجرى النكرة أو هو الخبر و ﴿ لظى ﴾ بدل من الضمير وإن اعتبرت نكرة بناء على أن إبدال النكرة غير منعوتة من المعرفة قد أجازه أبو علي وغيره من النحاة إذا تضمن فائدة كما هنا وجوز على هذه القراءة أن يكون ضمير أنها للقصة و ﴿ لظى ﴾ مبتدأ بناء على أنه معرفة و ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ خبره وقوله تعالى :

﴿ تَدْعُواْ ﴾ خبر مبتدأ مقدر أو حال متداخلة أو مترادفة أو مفردة أو خبر بعد خبر على قراءة الرفع فلا تغفل والدعاء على حقيقته وذلك كما روى عن ابن عباس وغيره يخلق الله تعالى فيها القدرة على الكلام كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم فتناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وروى أنها تقول لهم إلي إلي يا كافر يا منافق وجوز أن يراد به الجذب والإحضار كما في قول ذي الرمة يصف الثور الوحشي

: أمسى بوهبين مجتازاً لمرتعة . . .

من ذي الفوارس تدعو أنفه الربب

ونحوه قوله أيضاً

: ليالي اللهو يطيبني فأتبعه . . .

كأنني ضارب في غمرة لعب

ولا يبعد أن يقال شبه لياقتها لهم أو استحقاقهم لها على ما قيل بدعائها لهم فعبر عن ذلك بالدعاء على سبيل الاستعارة وقال ثعلب تدعو تهلك من قول العرب دعاك الله تعالى أي أهلكك وحكاه الخليل عنهم وفي الأساس دعاه الله تعالى بما يكره أنزله به وأصابتهم دواعي الدهر صروفه ومن ذلك قوله

دعاك الله من رجل بافعى . . .

إذا ناما العيون سرت عليكا

واستظهر أنه معنى حقيقي للدعاء لكنه غير مشهور وفيه تردد وجوز أن يكون الدعاء لزبانيتها وأسند إليها مجازاً أو الكلام على تقدير مضاف أي تدعو زبانيتها ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ في الدنيا عن الحق ﴿ وتولى ﴾ أعرض عن الطاعة.

﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أي جمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد حقوقه وتشاغل به عن الدين زها باقتنائه حرصاً وتأميلاً وهذا إشارة إلى كفار أغنياء وما أخوف عبد الله بن عكيم فقد أخرج ابن سعيد عن الحكم أنه قال كان عبد الله بن عكيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله تعالى يقول وجمع فأوعى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(157/781)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ سأل ﴾ بالهمزة ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، بغير همزة ، فمن همز ، فهو من السؤال وهي اللغة الفاشية ، وهو إما مضمن معنى الدعاء ، فلذلك عدّي بالباء ، كما تقول دعوت كذا ، والمعنى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع ، ويجوز أن يكون على أصله ، والباء بمعنى عن كقوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] ومن لم يهمز ، فهو إما من

باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً ، فيكون معناها معنى قراءة من همز ، أو يكون من السيلان ، والمعنى : سال وادٍ في جهنم ، يقال له : سائل ، كما قال زيد بن ثابت .

ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل) وقيل : إن سال بمعنى التمس ، والمعنى : التمس ملتمس عذاباً للكفار ، فتكون الباء زائدة كقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] والوجه الأوّل هو الظاهر .

وقال الأخفش : يقال : خرجنا نسأل عن فلان وبفلان .

قال أبو عليّ الفارسي : وإذا كان من السؤال ، فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر ، وهذا السائل هو النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] وهو ممن قتل يوم بدر صبراً .

وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو الحارث بن النعمان الفهري ، والأوّل أولى لما سيأتي .

وقرأ أبيّ ، وابن مسعود " سال سال " مثل مال مال على أن الأصل سائل ، فحذفت العين تخفيفاً ، كما قيل : شاك في شائك السلاح .

وقيل : السائل هو نوح عليه السلام ، سأل العذاب للكافرين ، وقيل : هو رسول الله دعا بالعقاب عليهم ، وقوله : ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ يعني : إما في الدنيا كيوم بدر ، أو في الآخرة .

وقوله : ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أي : كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع ، واللام للعلة ، أو يسأل على تضمينه معنى دعا ، أو في محل رفع على تقدير : هو للكافرين ، أو تكون اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبيّ : " بعذاب واقع على الكافرين " .

قال الفرّاء : التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ صفة أخرى لعذاب ، أو حال منه ، أو مستأنفة ، والمعنى : أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد ، وقوله : ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق بواقع أي : واقع من جهته سبحانه ، أو بدافع ، أي : ليس له دافع من جهته تعالى ﴿ ذِي المعارج ﴾ أي : ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة ، وقال الكلبي : هي السموات ، وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها .

وقيل : المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق .

وقيل : المعارج العظمة .

وقيل : هي الغرف .

وقرأ ابن مسعود " ذي المعاريج " بزيادة الياء ، يقال : معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح .

﴿ تَعْرُجُ الملئكة والروح إِلَيْهِ ﴾ أي : تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم ، وقرأ الجمهور : ﴿ تعرج ﴾ بالفوقية .

وقرأ ابن مسعود ، وأصحابه ، والكسائي ، والسلمي بالتحتية ، والروح جبريل ، أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] ، وقيل : الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل .

وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس ، وليسوا من الناس .

وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين تقبض ، والأوّل أولى .

ومعنى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ : أي : إلى المكان الذي ينتهون إليه .

وقيل : إلى عرشه .

(159/781)

وقيل : هو كقول إبراهيم : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّى ﴾ [الصافات : 99] أي : إلى حيث أمرني ربي ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال ابن إسحاق ، والكلبي ، ووهب بن منبه : أي عرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد .

وقال عكرمة : وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدٌ كم مضى ، ولا كم بقي ، ولا يعلم ذلك إلاّ الله .

وقال قتادة ، والكلبي ، ومحمد بن كعب : إن المراد يوم القيامة ، يعني : أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه في ساعة ، وقيل : إن مدّة موقف العباد للحساب ، هي هذا المقدار ، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

وقيل : إن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون ألف سنة ، وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر ، وقيل : ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره ، كما تصف العرب أيام الشدّة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، ويشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة والطويل بظل الرمح ، ومنه قول الشاعر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله . . . دم الزق عنا واصطفاف المزاهر

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقد قدّمنا الجمع بين هذه الآية وبين قوله في سورة السجدة ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة : 5] فارجع إليه .

(160/781)

وقد قيل في الجمع : إن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة ؛ لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام ، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام ، فالمعنى : أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة ، وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة ، وسيأتي في آخر البحث ما يؤيد هذا عن ابن عباس .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر فقال : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ ، أي : اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله ، وهذا معنى الصبر الجميل .

وقيل : هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب .

قال ابن زيد ، وغيره : هي منسوخة بآية السيف ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ أي : يرون العذاب الواقع بهم ، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي : غير كائن لأنهم لا يؤمنون به ، فمعنى ﴿ بَعِيداً ﴾ أي : مستبعداً محالاً ، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب .

قال الأعمش : يرون البعث بعيداً ؛ لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة ، كما تقول لمن تناظره هذا بعيد ، أي : لا يكون ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ أي : نعلمه كائناً قريباً ؛ لأن ما هو آت قريب .

وقيل المعنى : ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر .

ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ والظرف متعلق بمضمر دلّ عليه واقع ، أو بدل من قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ على تقدير تعلقه بواقع ، أو متعلق بقريباً ، أو مقدّر بعده ، أي : يوم تكون إلخ ، كان كيت وكيت ، أو بدل من الضمير في نراه ، والأوّل أولى .

والتقدير يقع بهم العذاب ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ والمهل : ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة .

(161/781)

وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم .

وقال عكرمة ، وغيره : هو دردي الزيت ، وقد تقدّم تفسيره في سورة الكهف والدخان .

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ أي : كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن إلاّ إذا كان مصبوغاً .

قال الحسن : تكون الجبال كالعهن ، وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف .

وقيل : العهن الصوف ذو الألوان ، فشبّه الجبال به في تكوّنها ألواناً ، كما في قوله : ﴿ جُدَدٌ

بِيضٌ وَحُمْرٌ .

. .

وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : 27] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ أي : لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] .

وقيل المعنى : لا يسأل حميم عن حميم ، فحذف الحرف ووصل الفعل .

قرأ الجمهور : ﴿ لا يسأل ﴾ مبنياً للفاعل .

قيل : والمفعول الثاني محذوف ، والتقدير : لا يسأله نصره ولا شفاعته ، وقرأ أبو جعفر ، وأبو حيوة ، وشيبة ، وابن كثير في رواية عنه على البناء للمفعول .

وروى هذه القراءة البزّي عن عاصم .

والمعنى : لا يسأل حميم إحضار حميمه .

وقيل : هذه القراءة على إسقاط حرف الجرّ ، أي : لا يسأل حميم عن حميم ، بل كلّ إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وجملة : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ مستأنفة ، أو صفة لقوله : ﴿ حَمِيماً ﴾ أي : يبصر كلّ حميم حميمه ، لا يخفى منهم أحد عن أحد .

وليس في القيامة مخلوق وإلاّ وهو نصب عين صاحبه ، ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل أحد منهم بنفسه ، وقال ابن زيد : يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا ، وهم الرؤساء المتبوعون .

(162/781)

وقيل : إن قوله : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يرجع إلى الملائكة أي : يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضمير في يبصرونهم ، وهما للحميمين حملاً على معنى العموم ؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي ، قرأ الجمهور : ﴿ يبصرونهم ﴾ بالتشديد ، وقرأ قتادة بالتخفيف .

ثم ابتدأ سبحانه الكلام فقال : ﴿ يَوَدُّ المجرم لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ المراد بالمجرم : الكافر ، أو كلّ مذنب ذنباً يستحق به النار لو يفتدي من عذاب يوم القيامة الذي نزل به .

﴿ بِبَنِيهِ وصاحبته وَأَخِيهِ ﴾ فإن هؤلاء أعزّ الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه ، وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حدّ يودّ الافتداء من العذاب بمن ذكر .

قرأ الجمهور : ﴿ من عذاب يومئذٍ ﴾ بإضافة عذاب إلى يومئذٍ .

وقرأ أبو حيوة بتنوين " عذاب " وقطع الإضافة .

وقرأ الجمهور : " يومئذ " بكسر الميم .

وقرأ نافع ، والكسائي ، والأعرج ، وأبو حيوة بفتحها ﴿ وَفَصِيلَتِهِ التى تُوِيهِ ﴾ أي : عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب ، أو عند الشدائد ، ويأوي إليهم .

قال أبو عبيد : الفصيلة دون القبيلة .

وقال ثعلب : هم آباؤهم الأدنون .

قال المبرّد : الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد .

وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيهاً لها بالبعض منه .

وقال مالك : إن الفصيلة هي التي تربيه ﴿ وَمَن فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ أي : ويودّ المجرم لو افتدى بمن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ معطوف على يفتدي ، أي : يودّ لو يفتدي ، ثم ينجيه الافتداء ، وكان العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة .

وقيل : إن يودّ تقتضي جواباً ، كما في قوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] والجواب .

﴿ ثم ينجيه ﴾ ، والأوّل أولى .

وقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة ، وبيان امتناع ما ودّه من الافتداء ، و "كلا" يأتي بمعنى حقاً ، وبمعنى لا مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، والضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَا لظى ﴾ عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب ، أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده ، ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التلظي في النار ، وهو التلهب .

وقيل : أصله لظظ بمعنى دوام العذاب ، فقلبت إحدى الظاءين ألفاً .

وقيل لظى : هي الدركة الثانية من طباق جهنم ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نزاعة ﴾ بالرفع على أنه خبر ثانٍ لإنّ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو تكون لظى بدلاً من الضمير المنصوب ، ونزاعة خبر إنّ ، أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علماً ، أو يكون الضمير في إنها للقصة ، ويكون لظى مبتدأ ، ونزاعة خبره ، والجملة خبر إنّ ، وقرأ حفص عن عاصم ، وأبو عمر ، وفي رواية عنه ، وأبو حيوة ، والزعفراني ، والترمذي ، وابن مقسم (نزاعة) بالنصب على الحال .

وقال أبو علي الفارسي : حمله على الحال بعيد ؛ لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال .

وقيل : العامل فيها ما دلّ عليه الكلام من معنى التلظي ، أو النصب على الاختصاص ، والشوى : الأطراف ، أو جمع شواة ، وهي جلدة الرأس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما له . . . قد جللت شيباً شواته

وقال الحسن ، وثابت البناني : ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ : أي : لمكارم الوجه وحسنه ، وكذا قال أبو العالية ، وقتادة .

وقال قتادة : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً .

وقال الكسائي : هي المفاصل .

وقال أبو صالح : هي أطراف اليدين والرجلين ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ أي : تدعو لظى من أدبر عن الحقّ في الدنيا ﴿ وتولى ﴾ أي : أعرض عنه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أي : جمع المال فجعله في وعائه .

(164/781)

وقيل : إنها تقول : إليّ يا مشرك ، إلي يا منافق ، وقيل : معنى تدعو تهلك ، تقول العرب : دعاك الله أي : أهلكك ، وقيل : ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم .

وقيل : المراد أن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين ، فأسند الدعاء إلى النار ، من باب إسناد ما هو للحال إلى المحلّ .

وقيل : هو تمثيل وتخييل ، ولا دعاء في الحقيقة ، والمعنى : أن مصيرهم إليها ، كما قال

الشاعر :

ولقد هبطنا الواد بين قوادنا . . . ندعو الأنيس به الغصيص الأبكم

والغصيص الأبكم : الذباب ، وهي لا تدعو ، وفي هذا ذمّ لمن جمع المال فأوعاه ، وكنزه ولم ينفقه في سبل الخير ، أو لم يؤدّ زكاته .

وقد أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ قال : هو النضر بن الحارث قال : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] .

وفي قوله : ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : كائن ﴿ للكافرين لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مّنَ الله ذِي المعارج ﴾ قال : ذي الدرجات .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ قال : سال : وادٍ في جهنم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ ذِي المعارج ﴾ قال : ذي العلوّ والفواضل .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سماوات مقدار

خمسين ألف سنة ، ﴿ وَيَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : يعني بذلك ، ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقدار ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام .

(165/781)

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ، وفي قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقي عنه أيضاً في قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة : 5] قال : لو قدّرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم .

قال : يعني يوم القيامة .

وقد قدّمنا عن ابن عباس الوقف في الجمع بين الآيتين في سورة السجدة .

وأخرج أحمد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال : قيل يا رسول الله يَوْمٍ كَانَ يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا " وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم ، وهما ضعيفان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعاً قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلاّ كقدر ما بين الظهر إلى العصر .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس في قوله : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ قال : لا تشكو إلى أحد غيري .

(166/781)

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والخطيب في المتفق والمفترق ، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ قال : كدرديّ الزيت .

وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون ، ثم يفرّ

بعضهم من بعض .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ قال : تنزع أمّ الرأس . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 287 . 291 ﴾

(167/781)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) ﴾

يجوز أن يتعلق ﴿ يوم تكون السماء ﴾ بفعل ﴿ تعرج ﴾ [المعارج : 4] ، أو أن يتعلق بـ ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ قدم عليه للاهتمام بذكر اليوم فيكون قوله : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ ابتداء كلام ، والجملة المجعولة مبدأ كلام تجعل بدل اشتمال من جملة ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ لأن عدم المساءلة مسبب عن شدة الهَول ، ومما يشتمل عليه ذلك أن يود المَوَل لو يفتدي من ذلك العذاب .

و ﴿ المُهل ﴾ : دُرديّ الزيتِ .

والمعنى : تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت ، وهذا كقوله في سورة الرحمان (37) ﴿ فكانت وردة كالدِهان ﴾

والعِهن : الصوف المصبوغ ، قيل المصبوغ مطلقاً ، وقيل المصبوغ ألواناً مختلفة وهو الذي درج عليه الراغب والزمخشري ، قال زهير :

كان فُتات العِهن في كل منزلٍ
نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّم . . .

والفنا بالقصر : حب في البادية ، يقال له : عنب الثعلب ، وله ألوان بعضه أخضر وبعضه أصفر وبعضه أحمر .

والعهنة : شجر بالبادية لها ورد أحمر .

ووجه الشبه بالعهن تفرق الأجزاء كما جاءت في آية القارعة (5) ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوشِ ﴾ فإيثار العهن بالذكر لإكمال المشابهة لأن الجبال ذات ألوان قال تعالى : ﴿ ومن الجبال جُدد بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها ﴾ [فاطر : 27] .

وإنما تكون السماء والجبال بهاته الحالة حين ينحلّ تماسك أجزائهما عند انقراض هذا العالم والمصيرِ إلى عالم الآخرة .

ومعنى ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ لشدة ما يعتري الناس من الهول فمن شدة ذلك أن يرى الحميم حميمه في كرب وعناء فلا يتفرغ لسؤاله عن حاله لأنه في شاغل عنه ، فحذف متعلق ﴿ يسأل ﴾ لظهوره من المقام ومن قوله : ﴿ يبصرونهم ﴾ أي يبصر الأخلاء أحوال أخلائهم من الكرب فلا يسأل حميم حميماً ، قال كعب بن زهير :

وقال كل خليل كنتُ ءآمُله . . .

لا أُلهِيَنَّك إني عنك مشغول

والحميم : الخليل الصديق .

(168/781)

وقرأ الجمهور بفتح ياء ﴿ يسأل ﴾ على البناء للفاعل .

وقرأه أبو جعفر والبزي عن ابن كثير بضم الياء على البناء للمجهول .

فالمعنى : لا يسأل حميم عن حميم بحذف حرف الجر .

وموقع ﴿ يبصّرونهم ﴾ الاستئناف البياني لدفع احتمال أن يقع في نفس السامع أن الأحِمَّاء لا يرى بعضهم بعضاً يومئذٍ لأن كل أحد في شاغل ، فأجيب بأنهم يكشف لهم عنهم ليروا ما هم فيه من العذاب فيزدادوا عذاباً فوق العذاب .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ يبصرونهم ﴾ في موضع الحال ، أي لا يسأل حميم حميماً في حال أن كل حميم يبصر حميمه يقال له : انظر مَاذا يقاسي فلان .

و ﴿ يبصرونهم ﴾ مضارع بَصَّره بالأمر إذا جعله مبصراً له ، أي ناظراً فأصله : يبصَّرون بهم فوقع فيه حذف الجار وتعدية الفعل .

والضميران راجعان إلى ﴿ حميم ﴾ المرفوع وإلى ﴿ حميماً ﴾ المنصوب ، أي يبصر كل حميم حميمه فجمع الضميران نظراً إلى عموم ﴿ حَمِيمٌ ﴾ و ﴿ حميماً ﴾ في سياق النفي .

و ﴿ يودّ ﴾ : يحب ، أي يتمنى ، وذلك إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب .

وإما بكلام يصدر منه نظير قوله : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] ، وهذا هو الظاهر ، أي يصرخ الكافر يومئذٍ فيقول : أفتدي من العذاب ببني وصاحبتي وفصيلتي فيكون ذلك فضيحة له يومئذٍ بين أهله .

و ﴿ المجرم ﴾ : الذي أتى الجُرم ، وهو الذنب العظيم ، أي الكفر لأن الناس في صدر البعثة صنفان كافر ومؤمن مطيع .

و ﴿ يومئذٍ ﴾ هو ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ فإن كان قوله : ﴿ يوم تكون السماء ﴾ متعلقاً بـ ﴿ يودّ ﴾ فقوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ تأكيد ل ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ، ﴾ وإن كان متعلقاً بقوله : ﴿ تعرج الملائكة ﴾ [المعارج : 4] فقوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ إفادة لكون ذلك اليوم هو يوم يود المجرم لو يفتدي من العذاب بمن ذكر بعده .

و ﴿ لو ﴾ مصدرية فما بعدها في حكم المفعول ل ﴿ يود ﴾ ، أي يود الافتداء من العذاب ببنيه إلى آخره .

وقرأ الجمهور ﴿ يومئذٍ ﴾ بكسر ميم (يوم) مجروراً بإضافة (عذاب الله) .

وقرأه نافع والكسائي بفتح الميم على بنائه لإِضافة (يوم) إلى (إذ) ، وهي اسم غير متمكن والوجهان جائزان .

والافتداء : إعطاء الفِداء ، وهو ما يعطى عوضاً لإِنقاذٍ من تبعةٍ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ في البقرة (85) وقوله : ولو افتدى به في آل عمران (91) ، والمعنى : لو يفتدي نفسه ، والباء بعد مادة الفداء تدخل على العوض المبذول فمعنى الباء التعويض .

ومعنى مِن ﴾ الابتداء المجازي لتضمين فعل يفتدي معنى يَتخلص و ﴿ صاحبِته ﴾ : زوجِهِ .

والفصيلة : الأقرباء الأدْنَوْن من القبيلة ، وهم الأقرباء المفصول مِنهم ، أي المستخرج منهم ، فشملت الآباء والأمهاتِ قال ابن العربي : قال أشهب : سألتُ مالكاً عن قول الله تعالى : ﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ فقال هي أمه انتهى انتهى . ا هـ ، أي ويفهم منها الأب بطريق لحن الخطاب فيكون قد استوفى ذكر أقرب القرابة بالصراحة والمفهوم ، وأمّا على التفسير المشهور فالفصيلة دلت على الآباء باللفظ وتستفاد الأمهات بدلالة لحن الخطاب .

وقد رتبت الأقرباء على حسب شدة الميْل الطبيعي إليهم في العرف الغالب لأن الميل

الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة .

ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة قصداً للإيجاز .

والايواء : الضم والانحياز .

قال تعالى : ﴿ ءاوَى إليه أخاه ﴾ [يوسف : 69] وقال : ﴿ سآوي إلى جبل ﴾ [هود : 43] .

و﴿ التي تؤويه : ﴾ إن كانت القبيلةَ ، فالإيواء مجاز في الحماية والنصر ، أي ومع ذلك يفتدي بها لعلمه بأنها لا تغني عنه شيئاً يومئذٍ .

(170/781)

وإن كانت الأمَّ فالإيواء على حقيقته باعتبار الماضي ، وصيغة المضارع لاستحضار الحالة كقوله : ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] أي يودّ لو يفتدي بأمه ، مع شدة تعلق نفسه بها إذ كانت تؤويه ، فإيثار لفظ فصيلته وفعل تؤويه هنا من إيجاز القرآن وإعجازه ليشمل هذه المعاني .

﴿ ومن في الأرض جميعاً ﴾ عطف على ﴿ بنيه ﴾ ، أي ويفتدي بمن في الأرض ، أي ومن له في الأرض مما يعزّ عليه من أخلاء وقرابة ونفائس الأموال مما شأن الناس الشح ببذله

والرغبة في استبقائه على نحو قوله تعالى:

﴿ فلن يقبل من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ [آل عمران : 91] .

و﴿ مَن ﴾ الموصولة لتغليب العاقل على غيره لأن منهم الأخلاء .

و﴿ ثم ﴾ في قوله : ﴿ ثم ينجيه ﴾ للتراخي الرتبي ، أي يودّ بذل ذلك وأن ينجيه الفداء من العذاب ، فالإِنجاء من العذاب هو الأهم عند المجرم في ودادته والضمير البارز في قوله : ﴿ ينجيه ﴾ عائد إلى الافتداء المفهوم من ﴿ يفتدي ﴾ على نحو قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

والمعطوف بـ ﴿ ثم ﴾ هو المسبب عن الودادة فلذلك كان الظاهر أن يعطف بالفاء وهو الأكثر في مثله كقوله تعالى : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكُونون سواء ﴾ [النساء : 89] وقوله : ﴿ ودُّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [القلم : 9] ، فعدل عن عطفه بالفاء هنا إلى عطفه بـ ﴿ ثم ﴾ للدلالة على شدة اهتمام المجرم بالنجاة بأية وسيلة .

ومتعلق ﴿ ينجيه ﴾ محذوف يدل عليه قوله : ﴿ من عذاب يومئذٍ .

وكَلاَّ ﴾ حرف ردع وإبطال لكلام سابق ، ولا يخلو من أن يذكر بعده كلام ، وهو هنا لإِبطال ما يخامر نفوس المجرم من الودادة ، نزل منزلة الكلام لأن الله مطلع عليه أو لإِبطال ما يتفوه به من تمنّي ذلك .

قال تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] ، ألا ترى أنه عبر عن قوله ذلك بالودادة ، في قوله تعالى : ﴿ يومئذٍ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ﴾ [النساء : 42] أي يصيرون من ترابها .

فالتقدير : يقال له كلا ، أي لا افتداء ولا إنجاء .

وجملة ﴿ إنها لظَى ﴾ استئناف بياني ناشىء عما أفاده حرف ﴿ كلا ﴾ من الإِبطال .

وضمير ﴿ إنها ﴾ عائد إلى ما يشاهده المجرم قبالته من مرأى جهنم فأخبر بأن ذلك لظى .

ولما كان ﴿ لظى ﴾ مقترناً بألف التأنيث أُنّث الضمير باعتبار تأنيث الخبر واتبع اسمها بأوصاف .

والمقصود التعريض بأنها أعدت له ، أي أنها تحرقك وتنزع شَواك ، وقد صرح بما وقع التعريض به في قوله : ﴿ تدعو من أدبر وتولى وجَمع فأوعى ، ﴾ أي تدعوك يا من أدبر عن دعوة التوحيد وتولى عنها ولم يعبأ إلاّ بجمع المال .

فحرف (إنَّ) للتوكيد للمعنى التعريضي من الخبر ، لا إلى الإِخبار بأن ما يشاهده لظى إذ ليس ذلك بمحل التردد .

و﴿ لظى ﴾ خبر (إن) .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ إنها ﴾ ضمير القصة وهو ضمير الشأن ، أي إن قصتك وشأنك لَظى ، فتكون ﴿ لظى ﴾ مبتدأ .

وقرأ الجمهور ﴿ نزّاعةٌ ﴾ بالرفع فهو خبر ثان عن (إنَّ) إن جعل الضمير ضميراً عائداً إلى النار المشاهدة ، أو هو خبر عن ﴿ لظى ﴾ إن جعل الضمير ضمير القصة وجُعل ﴿ لظى ﴾ مبتدأ .

وقرأه حفص بالنصب على الحال فيتعين على قراءة حفص أن الضمير ليس ضمير قصة .

والتعريض هو هو ، وحرف (إنّ) إما للتوكيد متوجهاً إلى المعنى التعريضي كما تقدم ، وإما لمجرد الاهتمام بالجملة التي بعده لأن الجمل المفتتحة بضمير الشأن من الأَخبار المهتم بها .

و ﴿ لَظى ﴾ : علَم منقول من اسم اللهب ، جعل علَماً ل "جهنم" ، وألفه ألف تأنيث ، وأصله : لظى بوزن فتًى منوناً اسم جنس للهب النار .

(172/781)

فنقل اسم الجنس إلى جعله عَلَماً على واحد من جنسه ، فقرن بألف تأنيث تنبيهاً بذلك التغيير على نقله إلى العلمية .

والعرب قد يدخلون تغييراً على الاسم غير العلم إذا نقلوه إلى العلمية كما سموا شُمْس بضم

الشين منقولاً من شَمْس بفتح الشين .

كما قال ابن جني في شرح قول تأبط شراً :

إني لمهد من ثنائي فقاصدٌ . . .

به لابنِ عمِّ الصِدِق شُمْسسِ بننِ مالك

وليس من العلَم بالغلبة إذ ليس معرفاً ولا مضافاً ، ولاجتماع العلمية والتأنيث فيه كان ممنوعاً من الصرف فلا تقول : لظًى بالتنوين إلاّ إذا أردت جنس اللهب ، ولا تقول : اللَّظَى إلاّ إذا أردت لهباً معيناً ، فأما إذا أردت اسم جهنم فتقول لظى بألف التأنيث دون تنوين ودون تعريف .

والنّزاعة : مبالغة في النزع وهو الفصل والقطع .

والشوى : اسم جمع شواة بفتح الشين وتخفيف الواو ، وهي العضو غيرُ الرأس مثل اليد والرجل فالجمع باعتبار ما لكل أحد من شوى ، وقيل الشواة : جلْدة الرأس فالجمع باعتبار كثرة الناس .

وجملة ﴿ تدعو ﴾ إما خبر ثان حسب قراءة ﴿ نزّاعة ﴾ بالرفع وإمّا حال على القراءتين .

والدعاء في قوله : ﴿ تدعو ﴾ يجوز أن يكون غير حقيقة بأن يعتبر استعارة مكنية ، شبهت لظّى في انهيال الناس إليها بضائف لمأدُبة ، ورُمز إلى ذلك بـ ﴿ تدعو ﴾ وذلك

على طريقة التهكم .

ويكون ﴿ من أدبر وتولى وجمع فأوعى ﴾ قرينةً ، أو تجريداً ، أي من أدبر وتولى عن الإِيمان بالله .

وفيه الطباق لأن الإِدبار والتولي يضادّانِ الدعوة في الجملة إذ الشأن أن المدعو يقبل ولا يدبر ، ويكون (يدعوا) مشتقاً من الدُعوة المضمومة الدال ، أو أن يشبه إحضار الكفار عندها بدعوتها إياهم للحضور على طريقة التبعية ، لأن التشبيه بدعوة المنادي ، كقول ذي الرمة يصف الثور الوحشي :

أمسى بوَهْبَيْنِ مُخْتَاراً لِمَرْتَعه . . .

من ذي الفوارس تدعُو أنفَه الرِّبَبُ

(173/781)

الرِّبَب بكسر الراء وبموحدتين : جمع رِبَّة بكسر الراء وتشديد الموحدة : نبات ينبت في الصيف أخضرُ .

ويجوز أن يكون ﴿ تدعو ﴾ مستعملاً حقيقة ، و"الذين يَدْعون" : هم الملائكة الموكلون بجهنم ، وإسنادُ الدعاء إلى جهنم إسناداً مجازياً لأنها مكان الداعين أو لأنها سبب الدعاء

، أو جهنم تدعو حقيقة بأن يخلُق الله فيها أصواتاً تنادي الذين تولوا أن يَرِدوا عليها فتلتهمهم .

و ﴿ من أدبر وتولى وجمع فأوعى ﴾ جنس الموصوفين بأنهم أدبروا وتولوا وجمعوا وهم المجرمون الذين يودون أن يفتَدوا من عذاب يومئذٍ .

وهذه الصفات خصائص المشركين ، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث لهم على إعراضهم عن دعوة الإِسلام .

وهي ثلاثة : الإِدبار والإِعراض ، وجمع المال ، أي الخشية على أموالهم .

والإِدبار : ترك شيء في جهة الوراء لأن الدّبر هو الظهر ، فأدبر : جعل شيئاً وراءه بأن لا يعرج عليه أصلاً أو بأن يقبل عليه ثم يفارقَه .

والتولّي : الإِدبار عن شيء والبعد عنه ، وأصله مشتق من الوَلاية وهي الملازمة قال تعالى: ﴿ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] ، ثم قالوا : ولَّى عنه ، أرادوا اتخذ غيره ولياً ، أي ترك وَلايته إلى ولاية غيره مثل ما قالوا : رَغب فيه ورغب عنه ، فصار "ولي" بمعنى : أدبر وأعرض ، قال تعالى : ﴿ فأعْرض عمن تولَّى عن ذِكرنا ﴾ [النجم : 29] أي عامِلْه بالإِعراض عنه .

ففي التولي معنى إيثار غير المتولَّى عنه ، ولذلك يكون بين التولّي والإِدبار فرق ، وباعتبار

ذلك الفرق عُطف و ﴿ تولَّى ﴾ على ﴿ أدبر ﴾ أي تدعو من ترك الحق وتولى عنه إلى الباطل .

(174/781)

وهذه دقيقة من إعجاز القرآن بأن يكون الإِدبار مراداً به إدبارَ غير تَول ، أي إدباراً من أول وهلة ، ويكون التولي مراداً به الإِعراض بعد ملابسة ، ولذلك يكون الإِدبار مستعاراً لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حال الذين قال الله فيهم : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] ، والتولي مستعار للإِعراض عن القرآن بعد سماعه وللنفور عن دعوة الرسول كما قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ [الأنفال : 31] وكلا الحالين حال كفر ومحقة للعقاب وهما مجتمعتان في جميع المشركين .

والمقصود من ذكرهما معاً تفظيع أصحابهما ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون متعلِّق ﴿ أدبر وتولى ﴾ متّحداً يتنازعه كلا الفعلين ، ويقدر بنحو : عن الحق ، وفي "الكشاف" : أدبر عن الحق وتولى عنه ، إذ العبرة باختلاف معنيي الفعلين وإن كان متعلقهما متحداً .

ويجوز أن يقدر لكل فعل متعلِّقٌ هو أشد مناسبة لمعناه ، فقدر البيضاوي : أدبر عن الحق

وتولى عن الطاعة ، أي لم يقبل الحق وهو الإِيمان من أصله ، وأعرض عن طاعة الرسول بعد سماع دعوته .

وعن قتادة عكسه : أدبر عن طاعة الله وتولى عن كتاب الله وتبعه الفخر والنيسابوري .

والجمع والإِيعاء في قوله : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ مرتب ثانيهما على أولهما ، فيدل ترتب الثاني على الأول أن مفعول ﴿ جمع ﴾ المحذوف هو شيء مما يوعى ، أي يُجعل في وعاء .

والوعاء : الظرف ، أي جمع المال فكنزه ولم ينفع به المحَاويج ، ومنه جاء فعل ﴿ أوعى ﴾ إذا شحّ .

وفي الحديث : " ولا تُوعي فيُوعَى عليك "

وفي قوله : ﴿ جمَع ﴾ إشارة إلى الحرص ، وفي قوله : ﴿ فأوعى ﴾ إشارة إلى طول الأمل .

وعن قتادة ﴿ جمع فأوعى ﴾ كان جَمُوعاً للخبيث ، وهذا تفسير حسن ، أي بأن يُقدَّر ل ﴿ جمع ﴾ مفعول يدل عليه السياق ، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث .

(175/781)

وعليه يكون ﴿ فأوعى ﴾ مستعاراً لملازمته مَا فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنها مختزَنة لا يفرط فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(176/781)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب القول في المجاز

وأما (المجاز) فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل ، وتشعّبت بهم الطرق ، واختلفت النّحل : فالنصارى تذهب في قول المسيح عليه السّلام في الإنجيل : (أدعوا أبي ، وأذهب إلى أبي) وأشباه هذا ، إلى أبوّة الولادة .

ولو كان المسيح قال هذا في نفسه خاصة دون غيره ، ما جاز لهم أن يتأوّلوه هذا التأويل في اللّه – تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبيرا – مع سعة المجاز ، فكيف وهو يقوله في كثير من المواضع لغيره ؟ كقوله حين فتح فاه بالوحي : إذا تصدّقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك ، فإنّ أباك الذي يرى الخفيّات يجزيك به علانية ، وإذا صلّيتم فقولوا : يا أبانا الذي في السماء ليتقدّس اسمك ، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير

أبيك .

وقد قرؤوا في (الزّبور) أن اللّه تبارك وتعالى قال لداود عليه السّلام : سيولد لك غلام يسمّى لي ابنا وأسمّى له أبا .

وفي (التّوراة) أنه قال ليعقوب عليه السلام : أنت بكري .

وتأويل هذا أنه في رحمته وبرّه وعطفه على عباده الصالحين ، كالأب الرحيم لولده .

وكذلك قال المسيح للماء : (هذا أبي) ، وللخبز : (هذا أمي) ، لأنّ قوام الأبدان بهما ، وبقاء الروح عليهما ، فهما كالأبوين اللّذين منهما النّشأة ، وبحضانتهما النّماء .

وكانت العرب تسمّي الأرض أمّا ، لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم .

وقال أميّة بن أبي الصّلت "1" :

---

(1) البيت من الكامل ، وهو في ديوان أمية بن أبي الصلت ص 23 ، والمخصص 13/ 180 ، والحيوان 5/ 437 ، وتفسير القرطبي 1/ 112 ، والبيت بلا نسبة في المذكر والمؤنّث للأنباري ص 187 .

والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وقال يذكرها "1" :

منها خلقنا وكانت أمّنا خلقت ونحن أبناؤها لو أننا شكر

هي القرار فما نبغي بها بدلا ما أرحم الأرض إلا أنّنا كفر

وقال اللّه تعالى في الكافر : فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9) [القارعة : 9] لمّا كانت الأمّ كافلة الولد وغاذيته ، ومأواه ومربّيته ، وكانت النار للكافر كذلك – جعلها أمّه .

وقال في أزواج النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم : وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ [الأحزاب : 6] ، أي : كأمهاتهم في الحرمات .

وفي (التوراة) (إنّ اللّه برّك اليوم السابع وطهّره ، من أجل أنه استراح فيه من خليقته التي خلق) .

وأصل الاستراحة : أن تكون في معاناة شيء ينصبك ويتعبك ، فتستريح .

ثم ينتقل ذلك فتصير الاستراحة بمعنى : الفراغ . تقول في الكلام : استرحنا من حاجتك وأمرنا بها . تريد فرغنا ، والفراغ ، أيضا يكون من الناس بعد شغل .

ثم قد ينتقل ذلك فيصير في معنى القصد للشيء ، تقول : لئن فرغت لك ، أي قصدت قصدك .

وقال اللّه تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) [الرحمن : 31] . واللّه تبارك وتعالى لا

يشغله شأن عن شأن . ومجازه : سنقصد لكم بعد طول التّرك والإمهال .

وقال قتادة : قد دنا من اللّه فراغ لخلقه . يريد : أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها .

وتأوّل قوم في قوله تعالى : فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8) [الانفطار : 8] معنى (التناسخ) . ولم يرد اللّه في هذا الخطاب إنسانا بعينه ، وإنما خاطب به جميع الناس كما قال : يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً [الانشقاق : 6] كما يقول القائل : يا أيها الرجل ، وكلّكم ذلك الرجل .

فأراد أنه صوّرهم وعدّلهم ، في أيّ صورة شاء ركّبهم : من حسن وقبح ، وبياض

---

(1) البيتان من البسيط ، وهما في ديوان أمية بن أبي الصلت ص 32 .

وسواد ، وأدمة وحمرة .

ونحوه قوله : وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ [الروم : 22] .

وذهب قوم في قول اللّه وكلامه : إلى أنه ليس قولا ولا كلاما على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني . وصرفوه في كثير من القرآن إلى المجاز ، كقول القائل : قال الحائط فمال ، وقل

برأسك إليّ ، يريد بذلك الميل خاصة ، والقول فضل .

وقال بعضهم في قوله للملائكة : اسْجُدُوا لِآدَمَ [البقرة : 34] : هو إلهام منه للملائكة ، كقوله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [النحل : 68] أي ألهمها . وكقوله : وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ، ما يَشاءُ [الشورى : 51] وذهبوا في الوحي هاهنا : إلى الإلهام .

وقالوا في قوله للنساء والأرض : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ [فصلت : 11] : لم يقل اللّه ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنما هذا عبارة : لكوّناهما فكانتا .

قال الشاعر حكاية عن ناقته "1" :

تقول إذا درأت لها وضيني : أهذا دينه أبدا وديني

أكلّ الدّهر حلّ وارتحال ؟ أما يبقي عليّ ولا يقيني ؟

وهي لم تقل شيئا من هذا ، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال ، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذي ذكر .

وكقول الآخر "2" :

شكا إليّ جملي طول السّرى

---

(1) البيتان من الوافر ، وهما للمثقب العبدي في ديوانه ص 195 ، 198 ، والبيت الأول في لسان العرب (درأ) ، (دين) ، (وضن) ، وتهذيب اللغة 14/ 159 ، وتاج العروس

(درأ) ، (دين) ، (وضن) ، وشرح اختيارات المفضل ص 1263 ، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص 688 ، 913 ، 1266 ، ومجمل اللغة 2/ 266 ، ومقاييس اللغة 2/ 273 ، والمخصص 17/ 155 ، وديوان الأدب 3/ 327 .

ويروى عجز البيت الثاني بلفظ : أما تبقي عليّ ولا تقيني وهو في لسان العرب (حلل) ، وتهذيب اللغة 3/ 436 ، وشرح اختيارات المفضل ص 1263 .

(2) يروى الرجز بتمامه :

يشكو إليّ جملي طول السّرى صبر جميل فكلانا مبتلى

والرجز للمبلد بن حرملة في شرح أبيات سيبويه 1/ 317 ، وبلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 107 ، وشرح الأشموني 1/ 106 ، والكتاب 1/ 321 ، ولسان العرب (شكا) ، وتهذيب اللغة 10/ 299 ، وتاج العروس (شكا) .

(179/781)

والجمل لم يشك ، ولكنه خبّر عن كثرة أسفاره ، وإتعابه جمله ، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى ما به .

وكقول عنترة في فرسه "1" :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم .

لما كان الذي أصابه يشتكي مثله ويستعبر منه ، جعله مشتكيا مستعبرا ، وليس هناك شكوى ولا عبرة .

قالوا : ونحو هذا قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) [ق : 30] وليس يومئذ قول منه لجهنم ، ولا قول من جهنم ، وإنما هي عبارة عن سعتها .

وفي قوله : تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) [المعارج : 17] يريد : أن مصير من أدبر وتولى إليها ، فكأنها الداعية لهم ، كما قال ذو الرّمة "2" :

دعت ميّة الأعداد واستبدلت بها خناطيل آجال من العين خذّل

والأعداد : المياه ، لما انتقلت ميّة إليها ورغبت عن مائها ، كانت كأنها دعتها .

وكقول الآخر "3" :

ولقد هبطت الواديين ووادياً يدعو الأنيس به الغضيض الأبكم

والغضيض الأبكم : الذّباب ، يريد : أنه يطنّ فيدل بطنينه على النبات والماء ، فكأنه دعاء منه .

وقال أبو النجم يذكر نبتا "4" :

---

(1) البيت من الكامل ، وهو في ديوان عنترة ص 126 (طبعة دار الكتب العلمية) .

[.....]

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 1455 ، ولسان العرب (عدد) ، (خنطل) ، وتهذيب اللغة 1/ 88 ، ومقاييس اللغة 2/ 252 ، وتاج العروس (عدد) ، (خنطل) ، وكتاب العين 1/ 79 ، والبيت بلا نسبة في المخصص 8/ 42 .

(3) البيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (عدد) ، وتاج العروس (عدد) ، وكتاب الجيم 3/ 17 .

(4) الرجز لأبي النجم في لسان العرب (عشب) ، (أسد) ، وتهذيب اللغة 1/ 441 ، 13/ 43 ، وتاج العروس (عشب) ، (أسد) ، (مرع) ، وكتاب العين 1/ 262 ، 7/ 286 ، ومقاييس اللغة 4/ 323 ، وأساس البلاغة (عشب) ، (أسد) ، والطرائق الأدبية ص 58 ، ولرؤبة في كتاب العين 1/ 128 ، وليس في ديوانه .

(180/781)

مستأسدا ذبّانه في غيطل يقلن للرّائد : أعشبت انزل

ولم يقل الذباب شيئًا من هذا ، ولكنه دل على نفسه بطنينه ، ودل مكانه على المرعى ، لأنه لا يجتمع إلا في عشب ، فكأنه قال للرائد : هذا عشب فأنزل .

وقال آخر يصف ذئبا "1" :

يستخبر الرّيح إذا لم يسمع بمثل مقراع الصّفا الموقّع

يريد : أنه يشتمم ثم يتّبع الرائحة بخطم كأنه الفأس التي يكسر بها الصخر ، فجعل تشممه استخبارا .

قال أبو محمد :

وقد تبين لمن قد عرف اللغة ، أن القول يقع فيه المجاز ، فيقال : قال الحائط فمال ، وقل برأسك إليّ ، أي أمله ، وقالت الناقة ، وقال البعير .

ولا يقال في مثل هذا المعنى : تكلم ، ولا يعقل الكلام إلا بالنطق بعينه ، خلا موضع واحد وهو أن تتبين في شيء من الموات عبرة وموعظة فتقول خبّر وتكلم وذكّر ، لأنه دلّك معنى فيه ، فكأنه كلمك ، وقال الشاعر "2" :

وعظتك أجداث صمت ونعتك ألسنة خفت

وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سبت

وأرتك قبرك في القبور وأنت حيّ لم تمت

وقال الكميت يمدح رجلا "3" :

أخبرت عن فعاله الأرض واستن طق منها اليباب والمعمورا

---

(1) يروى الشطر الأول من الرجز :

يستمخر الريح إذا لم يسمع والرجز بلا نسبة في لسان العرب (مخر) ، (قرع) ، وتاج العروس

(مخر) ، (قرع) ، وديوان الأدب 1/ 311 .

(2) الأبيات من المتقارب ، وهي لأبي العتاهية في ديوانه ص 52 ، وعيون الأخبار 2/ 306 .

(3) البيت من الخفيف ، وهو في ديوان الكميت 1/ 203 ، وأساس البلاغة (يبب) ، والبيت بلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 151 .

أراد أنه حفر فيها الأنهار ، وغرس الأشجار ، وأثّر الآثار ، فلما تبيّنت للناظر صارت كأنها مخبرة .

وقال عوف بن الخرع يذكر الدار "1" :

وقفت بها ما تبين الكلام لسائلها القول إلا سرارا

يقول : ليست تبين الكلام لمخاطبها ، إلا أنّ ظاهر ما يرى دليل على الحال ، فكأنه سرار من القول ، ولهذا قالت الحكماء : كل صامت ناطق . يريدون أنّ أثر الصنعة فيه يدل على محدثه ومدبّره .

ومن هذا قول اللّه عز وجل : أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35)

[الروم : 35] أي أنزلنا عليهم برهانا يستدلون به ، فهو يدلهم .

ونبيّن له أيضا أن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر ولا توكّد بالتكرار ، فتقول :

أراد الحائط أن يسقط ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : قالت الشجرة فمالت قولا شديدا . والله تعالى يقول : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً [النساء : 164] فوكّد بالمصدر معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز .

وقال : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) [النحل : 40] فوكّد القول بالتكرار ، ووكّد المعنى بإنما .

وأما قول من قال منهم : إن قوله للملائكة : اسْجُدُوا لِآدَمَ [البقرة : 34 ، والأعراف : 11 ، والإسراء : 61 ، والكهف : 50 ، وطه : 116] إلهام ، وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ [الشورى : 51] أي إلهاما – فما ننكر أنّ القول قد يسمى وحيا ، والإيماء وحيا ، والرمز بالشفتين والحاجبين وحيا ، والإلهام وحيا . وكل شيء دللت به فقد أوحيت به ، غير أنّ إلهام النّحل تسخيرها لاتخاذ البيوت ، وسلوك السّبل والأكل من كل الثمرات .

وقال العجّاج وذكر الأرض "2" :

وحي لها القرار فاستقرّت أي : سخّرها لأن تستقر ، فاستقرت :

---

(1) البيت من المتقارب ، وهو لعوف بن عطية بن الخرع في المفضليات ص . 413

(2) يليه : وشدّها بالراسيات الثّبت والرجز في ديوان العجاج 2/ 408 ، 409 ، ولسان العرب (وحي) ، وتهذيب اللغة 5/ 296 ، 297 ، وجمهرة اللغة ص 576 ، وكتاب العين 3/ 320 ، وتاج العروس (وحي) ، والرجز بلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 93 ، ومجمل اللغة 4/ 512 .

(182/781)

وأما قوله : وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ [الشورى : 51] فالوحي الأول : ما أراه اللّه تعالى الأنبياء في منامهم .

والكلام من وراء الحجاب : تكليمه موسى .

والكلام بالرسالة : إرساله الروح الأمين بالرّوح من أمره إلى من يشاء من عباده .

ولا يقال لمن ألهمه اللّه : كلّمه اللّه ، لما أعلمتك من الفرق بين (الكلام) (و القول) .

ولا يجوز أن يكون قوله للملائكة وإبليس ، وطول مراجعته إياه في السّجود ، والخروج من الجنة ، والنّظرة إلى يوم البعث - إلهاما . هذا ما لا يعقل . وإن كان ذلك تسخيرا فكيف يسخّر لشيء يمتنع منه ؟ .

وأما تأويلهم في قوله جل وعزّ للسّماء والأرض : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ [فصلت : 11] : إنه عبارة عن تكوينه لهما . وقوله لجهنم : هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ [ق : 30] إنه إخبار عن سعتها - فما يحوج إلى التّعسّف والتماس المخارج بالحيل الضعيفة ؟ وما ينفع من وجود ذلك في الآية والآيتين والمعنى والمعنيين - وسائر ما جاء في كتاب اللّه عزّ وجلّ من هذا الجنس ، وفي حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم - ممتنع عن مثل هذه التأويلات ؟ .

(183/781)

وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب ؟ واللّه تبارك وتعالى ينطق الجلود ، والأيدي ، والأرجل ، ويسخّر الجبال والطير ، بالتّسبيح . فقال : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) [ص : 19] وقال :

يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ [سبأ : 10] أي سبّحن معه . وقال : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً [الإسراء : 44] .

وقال في جهنم : تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك : 8] أي تنقطع غيظا عليهم كما تقول : فلان

يكاد ينقدّ غيظا عليك ، أي ينشق .

وقال : إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (12) [الفرقان : 12] .

وروي في الحديث أنها تقول : (قط قط) "1" أي حسبي .

---

(1) لفظ الحديث بتمامه :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : "لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك وجلالك ، ويزوي بعضها إلى بعض" . أخرجه البخاري في الأيمان 8/ 168 ، ومسلم في الجنة حديث 37 ، 38 ، والترمذي حديث 3272 ، وأحمد في المسند 3/ 134 ، 141 ، 230 ، 234 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 1171 ، 1173 ، 39479 ، والتبريزي في مشكاة المصابيح 5695 ، والسيوطي في الدر المنثور 6/ 107 ، وابن حجر في فتح الباري 8/ 595 ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 5/ 127 .

وهذا سليمان عليه السلام يفهم منطق الطّير وقول النّمل ، والنمل من الحكل ، والحكل ما لا يسمع له صوت . قال رؤية "1" :

لو كنت قد أوتيت علم الحكل علم سليمان كلام النّمل

وقال العمانيّ يمدح رجلا "2" :

ويفهم قول الحكل لو أنّ ذرّة تساود أخرى لم يفته سوادها

والسّواد : السّرار ، جعل قولها سرارا ، لأنها لا تصوّت .

وهذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، تخبره الذّراع المسمومة "3" ويخبره البعير أنّ أهله يجيعونه ويدئبونه "4" .

---

(1) الرجز في ديوان رؤبة بن العجاج ص 131 ، ولسان العرب (حكل) ، (فطحل) ، وتهذيب اللغة 4/ 101 ، وجمهرة اللغة ص 562 ، ومجمل اللغة 2/ 94 ، وتاج العروس (حكل) ، (فطحل) ، والرجز بلا نسبة في المخصص 2/ 122 ، وديوان الأدب 1/ 158 ، ومقاييس اللغة 2/ 91 .

)

2) البيت من الطويل ، وهو للعثماني في أساس البلاغة (حكل) ، وللعماني في البيان والتبيين 1/ 40 ، والحيوان 4/ 23 ، والمعاني الكبير 2/ 636 ، وبلا نسبة في لسان العرب (حكل) .

(3)

لفظ الحديث بتمامه : عن جابر بن عبد اللّه : أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاة مصلية ثم

أهدتها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه معه ، ثم قال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : "ارفعوا أيديكم" وأرسل إلى اليهودية فدعا بها ، فقال لها : "أسممت هذه الشاة ؟ " قالت : نعم ، قال : "فما أردت إلى ذلك ؟ " قالت : قلت إن كان نبيا فلن يضره ، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه ، فعفا عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ولم يعاقبها .

وقد روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة . أنظر : البخاري في الهبة باب 28 ، ومسلم في السلام حديث 42 ، وأبو داود في الديات باب 6 ، وابن ماجة في الطب باب 45 ، والدارمي في المقدمة باب 11 .

(4) لفظ الحديث بتمامه :

عن عبد اللّه بن جعفر قال : أردفني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خلفه ذات يوم ، فأسرّ إليّ حديثا لا أحدّث به أحدا من الناس ، وكان أحب ما استتر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لحاجته هدفا أو حائش نخل . قال : فدخل حائطا لرجل من الأنصار ، فإذا جمل ، فلما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فمسح ذفراه فسكت ، فقال : "من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ " فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول اللّه . فقال : "أ فلا تتقي اللّه في هذه البهيمة التي ملكك اللّه إياها ؟

فإنه شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه" . أخرجه أبو داود في الجهاد باب 44 ، وأحمد في المسند 1/ 204 ، 205 .

[. . . . .]

(185/781)

في أشباه لهذا كثيرة .

وأنكروا مع هذا (السّحر) إلا من جهة الحيلة .

وقالوا : منه رقاة التّميمة يفرّق بها بين المرء وزوجه ، والكذب تصرف به القلوب عن المحبة إلى البغضة ، وعن البغضة إلى المحبة .

وقالوا : منه السّموم يسحر بها فتقطع عن النساء ، وتحتّ الشّعر وتغيّر الخلق .

واللّه تعالى يقول : وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5) [الفلق : 4 ، 5] فأعلمنا أنهن ينفثن - والنّفث كالتّفل - كما ينفث الرّاقي في عقد يعقدها .

قال الشاعر "1" :

يعقّد سحر البابليين طرفها مرارا ويسقينا سلافا من الخمر

فأراد أن طرفها يذهب بعقولنا كما يذهب السّحر والراح بالعقل .

وقد سحر رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، وجعل سحره في بئر ذي أروان ، واستخرجه (عليّ) منها ، وجعل يحلّه عقدة عقدة ، فكلما حل عقدة وجد النبي ، صلّى اللّه عليه وسلّم راحة وخفّا ، فلما فرغ من حلّه قام النبي ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، كأنما أنشط من عقال "2" .

وقال اللّه تعالى : يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ [البقرة : 102] .

أفتراهما كانا يعلّمان التّمائم ، والكذب وسقي السّموم ؟ ! .

وبمثل هذا النظر أنكروا عذاب القبر ، ومساءلة الملكين ، وحياة الشهداء عند ربهم يرزقون ، وأنكروا إصابة العين ونفع الرّقي والعوذ ، وعزيف الجنان ، وتخبّط الشيطان ، وتعوّل الغيلان .

فلما رأوا تواطؤ العرب على ذلك ، وإكثار الشعراء فيه ، كقول : ذي الرّمة "3" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لذي الرمة في ملحق ديوانه ص 1877 ، وأساس البلاغة (عقد) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 4/ 89 .

(2) انظر الحديث عند البخاري في الطب باب 39 ، وأبو داود في الطب باب 19 .

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 296 ، ولسان العرب (ادلهم) ، والحيوان 6/ 248 .

(186/781)

إذا حثّهنّ الرّكب في مدلهمّة أحاديثها مثل اصطخاب الضّرائر

وكقول زهير "1" :

تسمع للجنّ عازفين بها تضبح عن رهبة ثعالبها

في أشباه لهذا كثيرة – طلبوا الحيلة فقالوا : علّة ما يسمعون من هذا ويرون – انفراد القوم وتوحّشهم في الفلوات والقفار ، ومن انفرد فكّر وتوهّم واستوحش وتخيّل ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، كما قال حميد بن ثور "2" :

مفزّعة تستحيل الشّخوص من الخوف تسمع ما لا ترى

وقالوا : ومن أحناش الأرض ، وأحناش الطير في المهامة والرمال – ما لا يظهر ولا يصوّت إلا بالليل كالصّدى والضّوع والبوم واليراع ، فإذا سمع أحدهم حسيس هامة ، أو زقاء بوم ، أو رأى لمع يراعة من بعد – وجب قلبه ، وقفّ شعره ، وذهبت به الظّنون .

وقالوا : في النهار ساعات تتغيّر فيها مناظر الأشباح ، وتتضاعف أعدادها ، وفربما رئي

الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، والواحد اثنين ، وقد يسمع لأصوات الفلا والحرار ، مثل الدّويّ ، ولذلك قال ذو الرّمة "3" :

إذا قال حادينا لتشبيه نبأة صه ، لم يكن إلا دويّ المسامع

وبهذا سمّيت الفلاة : دوّية ، كأن الدّوّ حكاية ما يسمعون ، ثم نسب المكان إليه ، قال الأعشى "4" :

فوق ديمومة تخيّل بالسّفر قفارا إلا من الآجال

يريد بقوله : تخيّل بالسفر ، أنهم يرونها مرّة على هيئة ، ومرة على هيئة ، قال كعب ابن زهير "5" :

وصرماء مذكار كأنّ دويّها بعيد جنان اللّيل مما يخيّل

حديث أناسيّ فلمّا سمعته إذا ليس فيه ما أبين فأعقل

---

(1) البيت من المنسرح ، وهو في ديوان زهير بن أبي سلمى ص 265 .

(2) البيت من المتقارب ، وهو بلا نسبة في المعاني الكبير 2/ 702 .

)

3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 791 ، وتهذيب اللغة 5/ 349 ، وجمهرة اللغة ص 145 ، والبيت بلا نسبة في لسان العرب (صهصه) ، وتاج العروس (صهصه) .

(4) البيت من الخفيف ، وهو في ديوان الأعشى ص 7 ، وبلا نسبة في المخصص 8/ 41 .

(5) البيتان من الطويل ، وهما في ديوان كعب بن زهير ص 45 .

وقال الأخطل يذكر فلاة رأى الصغير فيها كبيرا "1" :

ترى الثّعلب الحوليّ فيها كأنّه إذا ما علا نشزا حصان مجلّل

وقال النابغة "2" :

وحلّت بيوتي في يفاع ممنّع تخال به راعي الحمولة طائرا

هذا رأى الكبير صغيرا لأنه في شرف .

وقال ابن أحمر أيضا في تضاعف الأعداد :

وازدادت الأشباح أخيلة وتعلّل الحرباء بالنّقر

وأخشى أن يكون معتقدا هذا والقائل به ، يرفّق عن صبوح "3" ، ويسرّ حسوا في ارتغاء "4" .

وما على من آمن بالبعث من الممات : أن يؤمن بعذاب البرزخ ، وقد خبّر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقوله قاض على الكتاب ، وبمسائلة اللّه يوم القيامة : أن يؤمن بمسائلة الملكين في القبر ؟ ! .

وما على من آمن بإنّيّة الشيطان : أن يؤمن بتخبّطه ؟ ومن صدّق بخلق الجن والغيلان : أن يصدّق بعزيفها وتغوّلها ؟ ! .

وما أخرجه إلى تجهيل العرب قاطبة وتكذيبها : وشاهدها على صدق ما تقول كتاب اللّه تعالى ، ورسوله ، وكتب اللّه المتقدمة ، وأنبياؤه ، وأمم العجم كلها ؟ ! .

قد جعل اللّه الجن أحد الثّقلين ، وخاطبهم في الكتاب كما خاطبنا ، وسمّاهم رجالا كما سمّانا فقال : وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ [الجن : 6] .

وقال في الحور العين : لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) [الرحمن : 74] ، فدل على أن الجن تطمث الإنس .

وأخبرنا عن طائفة منهم سمعوا القرآن فولّوا إلى قومهم منذرين ، وقال :

)

1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الأخطل ص 7 .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص 69 ، وتخليص الشواهد ص 437 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 30 ، وشرح المفصل 2/ 54 ، والكتاب 1/ 368 ، والبيت بلا نسبة في شرح قطر الندى ص 172 ، ولسان العرب (حمل) .

(3) يرقق عن صبوح : مثل يضرب لمن يجمجم ولا يصرح . انظر لسان العرب (رقق) .

(4) يسر حسوا في ارتغاء : مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره . انظر لسان العرب (رغو) .

(189/781)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ [البقرة : 275] ، والمسّ : الجنون ، سمّي مسّا ، لأنه عن إلمام الشيطان ومسّه ، يكون .

هذا مع أخبار كثيرة صحاح تؤثر عن الرّسول ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعن السلف في الرّئيّ والنّجيّ .

وما ننكر مع هذا الفلوات قد يعرض فيها ما يذكرون ، ولكنّ ذلك لا يدفع به حقائق ما يسمعون ويبصرون .

ولم تكن العرب طرّا - مع أفهامها وألبابها - لتتواطأ على تخيّل وظنون ، ولا كلّها أسمعه

الخوف ، وأراه الجبن ، فهذا أبو البلاد الطّهويّ ، وتأبّط شرّا – : وهما من مردة العرب ، وشياطين الإنس . – يصفان الغول ، ويحلّيانها ويساورانها .

وهذا أبو أيوب الأنصاري يأسرها .

وهذا عمر رضي اللّه عنه ، يصارع الجنّيّ .

وما جاء في هذا أكثر من أن تحيط به .

فمن آمن بمحمد ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبأنّ ما جاء به الحقّ ، آمن بجميع هذا ، وشرح صدره به .

ومن أنكره – : لأنه لا يؤمن إلّا بما أوجبه النظر والقياس على ما شاهد ورأى في الموات والحيوان – فما ذا بقي على المسلمين ؟ وأيّ شيء ترك للملحدين ؟ .

وذهب (أهل القدر) في قول اللّه عزّ وجل : يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ [النحل : 93 ، وفاطر : 8] إلى أنه على جهة التسمية والحكم عليهم بالضلالة ، ولهم بالهداية .

وقال فريق منهم : يضلّهم : ينسبهم إلى الضلالة ، ويهديهم : يبيّن لهم ويرشدهم .

فخالفوا بين الحكمين ، ونحن لا نعرف في اللغة أفعلت الرجل : نسبته . وإنما يقال إذا أردت هذا المعنى : فعّلت : تقول : شجّعت الرجل وجنبّنته وسرّقته وخطّأته ، وكفّرته وضلّلته وفسّقته وفجّرته ولحنته . وقرىء : إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ [يوسف : 81] ، وأي نسب إلى السّرق .

ولا يقال في شيء من هذا كله : أفعلته ، وأنت تريد نسبته إلى ذلك .

وقد احتجرجل من النحويين كان يذهب إلى (القدر) – لقول العرب : كذّبت

(190/781)

الرجل وأكذبته – بقول اللّه تعالى : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ [الأنعام : 33] ولا يكذبونك ، وذكر أنّ أكذبت وكذّبت جميعا ، بمعنى : نسبت إلى الكذب .

وليس ذاك كما تأوّل ، وإنما معنى أكذبت الرجل : ألفيته كاذبا . وقول اللّه تبارك وتعالى : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ بالتخفيف أي : لا يجدونك كاذبا فيما جئت به ، كما تقول : أبخلت الرجل وأجبنته وأحمقته ، أي وجدته جبانا بخيلا أحمق .

وقال عمرو بن معد يكرب لبني سليم : قاتلناكم فما أجبنّاكم ، وسألناكم فما أبخلناكم ، وهجوناكم فما أفحمناكم أي : لم نجدكم جبناء ، ولا بخلاء ، ولا مفحمين .

وقال الكسائي "1" : العرب تقول : أكذبت الرجل : إذا أخبرت أنه رواية للكذب : وكذّبته : إذا أخبرت أنه كاذب . ففرق بين المعنيين .

واحتج أيضا لأفعلت في معنى نسبت ، بقول ذي الرّمة يصف ربعا "2" :

وأسقيه حتّى كاد ممّا أبثّه تكلّمني أحجاره وملاعبه

وتأوّل في أسقيه معنى أسقّيه من طريق النّسبة .

ولا أعلم (له) في هذا حجّة ، لأنا نقول : قد أرعى اللّه هذه الماشية ، أي : أنبت لها ما ترعاه ، فكذلك تقول : أسقى اللّه الربع ، أي أنزل عليه مطرا يسقيه ، وأنا أرعى الماشية ، وأسقي الربع ، أي أدعو لها بالمرعى ، وله بالسّقيا .

واحتج آخر ببيت ذكر أنه لطرفة "3" :

)

1) الكسائي : هو علي بن حمزة بن عبد اللّه بن عثمان ، مولى بني أسد ، أبو الحسن المعروف بالكسائي ، ثم البغدادي الكوفي ، أحد أئمة النحو ، توفي بالري سنة 189 ه ، تقدمت ترجمته الوافية مع ذكر مؤلفاته .

(2) قبله :

وقفت على ربع لميّة ناقتي فما زلت أبكي حوله وأخاطبه

والبيتان من الطويل ، وهما في ديوان ذي الرمة ص 821 ، وأدب الكاتب ص 462 ، والدرر 2/ 155 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 364 ، وشرح التصريح 1/ 204 ، وشرح شافية ابن الحاجب 1/ 91 ، 92 ، وشرح شواهد الشافية ص 41 ، والكتاب 4/ 59 ، ولسان العرب (سقى) ، (شكا) ، والمقاصد النحوية 2/ 176 ، والممتع في التصريف ص 187 ، والبيتان بلا نسبة في أوضح المسالك 1/ 307 ، وشرح الأشموني

130/1 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 226 ، وهمع الهوامع 1/ 131 . [. . . . .]

(3) البيت من الطويل ، وهو في ديوان طرفة بن العبد ص 157 (طبعة مكس سلغسون) ، ومقاييس اللغة 3/ 181 ، ولسان العرب (شرر) ، وفيه "ذلكا" بدل "ذلك" ، وتاج العروس (شرر) ، والبيت بلا نسبة في ديوان الأدب 3/ 157 .

(191/781)

وما زال شربي الرّاح حتّى أشرّني صديقي وحتّى ساءني بعض ذلك

وتوهّم أن قوله : أشرّني ، نسبني إلى الشرّ .

وليس ذاك كما تأوّل ، وإنما أراد شهرني وأذاع خبري ، من قولك : أشررت الأقط وشرّرته ، إذا بسطته على شيء ليجف . وقال الشاعر وذكر يوم صفّين "1" :

وحتى أشرّت بالأكف المصاحف يريد : شهرت وأظهرت .

وروى عبد اللّه بن محمد بن أسماء ، عن جويرية ، قال : كنت عند قتادة فسئل عن القدر ، فقال : ما زالت العرب تثبت القدر في الجاهلية والإسلام .

وحدثني أبو حاتم "2" : سهل بن محمد ، عن الأصمعي "3" قال : قلت لدرواس الأعرابيّ : ما جعل بني فلان أشرف من بني فلان ؟ قال : الكتاب . يعني (القدر) ، ولم يقل : المكارم

والفعال .

وكان الأصمعي ينشد من الشعر أبياتا في القدر ذكرتها وغيرها :

قال : أنشدني عيسى بن عمر لبدويّ "4" :

كلّ شيء حتى أخيك متاع وبقدر تفرّق واجتماع

وقال المرّار بن سعيد الأسديّ "5" :

ومن سابق الأقدار إذ دأبت به ومن نائل شيئًا إذا لم يقدّر ؟

---

(1) صدر البيت :

فما برحوا حتى رأى اللّه صبرهم والبيت من الطويل ، وهو لكعب بن جعيل في لسان العرب (شرر) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 139 ، وديوان الأدب 3/ 157 ، وجمهرة اللغة ص 736 ، ولكعب بن جعيل أو للحصين بن حمام المري في تاج العروس (شرر) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 181 ، والمخصص 13/ 56 ، وتهذيب اللغة 11/ 274 .

(2) أبو حاتم : هو أبو حاتم السجستاني ، سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي الإمام ، توفي سنة 250 ه ، وقيل : سنة 248 ه ، تقدمت ترجمته الوافية مع ذكر مؤلفاته .

(3) الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب ، تقدمت ترجمته .

(4) البيت من الخفيف ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (قدر) ، وتاج العروس (قدر) .

(5) البيت من الطويل ، وهو في ديوان المرار بن سعيد الفقعسي ص 452 .

وقال جميل "1" :

أقدّر أمرا لست أدري : أناله ؟ وما يقدر الإنسان ؟ فاللّه قادر

وقال ابن الدّمينة "2" :

زوروا بنا اليوم سلمى أيّها النّفر ونحن لمّا يفرّق بيننا القدر

وقال الفرزدق "3" :

ندمت ندامة الكسعيّ لمّا غدت مني مطلّقة نوار

ولو ضنّت بها كفّي ونفسي لكان عليّ للقدر الخيار

وقال القسّ "4" :

قد كنت أعذل في السّفاهة أهلها فاعجب لما تأتي به الأيام

فاليوم أعذرهم ، وأعلم أنّما سبل الغواية والهدى أقسام

وقال ابن أحمر حين سقي بطنه "5" :

شربنا وداوينا ، وما كان ضرّنا إذا اللّه حمّ القدر – ألّا نداويا

وقال الشّمّاخ "6" :

وإنّي عداني عنكما غير ماقت نواران مكتوب عليّ بغاهما

أي حاجتان عسيرتان . والنّوار : النّفور . مكتوب عليّ أي مقدور عليّ طلبهما .

وقال الأعشى "7" :

)

1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان جميل بن معمر (جميل بثينة) ص 82 .

(2) البيت من البسيط ، وهو في ديوان ابن الدمينة ص 48 .

(3) البيتان من الوافر ، وهما في ديوان الفرزدق 1/ 294 . والبيت الأول في لسان العرب (كسع) ، وتاج العروس (كسع) ، وتهذيب اللغة 1/ 299 .

ويروى صدر البيت الثاني : ولو رضيت يداي بها وضنّت والبيت بهذا اللفظ في الخصائص 1/ 258 ، والمحتسب 2/ 181 ، والمقرب 1/ 252 .

(4) البيتان من الكامل ، ولم أجدهما في المصادر والمراجع التي بين يدي .

(5) البيت من الطويل ، وهو لعبد اللّه بن أحمر في ديوانه ص 172 ، والشعر والشعراء 1/ 316 ، وعيون الأخبار 3/ 274 .

(6) البيت من الطويل ، وهو في ديوان الشماخ ص 88 ، والمعاني الكبير 2/ 871 .

(7) يروى البيت بلفظ :

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كلّ من يحفى وينتعل

والبيت من البسيط ، وهو للأعشى في ديوانه ص 109 ، والأزهية ص 64 ، والإنصاف ص 199 ، وتخليص الشواهد ص 382 ، وخزانة الأدب 5/ 426 ، 8/ 390 ، 10/ 393 ، 11/ 353 ، 354 ، والدرر 2/ 194 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 76 ، والكتاب 2/ 137 ، 3/ 74 ، 164 ، 454 ، والمحتسب 1/ 308 ، ومغني اللبيب 1/ 314 ، والمقاصد النحوية 2/ 287 ، والمنصف 3/ 129 ، وبلا نسبة في خزانة الأدب 10/ 391 ، ورصف المباني ص 115 ، وشرح المفصل 8/ 71 ، والمقتضب 3/ 9 ، وهمع الهوامع 1/ 142 .

(193/781)

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

يعني : هم موقنون بأن ما قدّر وحتم لا يدفع بالحيلة ، فهم موطّنون أنفسهم عليه .

وقال أبو زبيد "1" :

فلا تك كالموقوص عن ظهر رحله تردّت به أسبابه وهو ينظر

أسبابه : المقادير ، تردّت به وهو ينظر لا يقدر أن يدفع ذلك . والموقوص : الذي قد اندقّت عنقه .

وقال الراعي "2" :

وهنّ يحاذرن الرّدى أن يصيبني ومن قبل خلقي خطّ ما كنت لاقيا

وكائن ترى من مسعف بمنيّة يجنّبها أو معصم ليس ناجيا

وقال أفنون التّغلبي "3" :

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتّقي إذا هو لم يجعل له اللّه واقيا

وقال لبيد بن ربيعة العامري "4" :

إنّ تقوى ربّنا خير نفل وبإذن اللّه ريثي وعجل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ، ومن شاء أضل

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان أبي زبيد الطائي ص 64 . [. . . . .]

(2) البيتان من الطويل ، وهما في ديوان الراعي النميري ص 285 ، والبيت الثاني في لسان العرب (سعف) ، وتاج العروس (سعف) ، وتهذيب اللغة 2/ 111 .

(3) البيت من الطويل ، وهو لأفنون التغلبي في تاج العروس (وقتي) ، ومعجم البلدان (الآلاهة) ، ولسان العرب (أله) ، (وقي) ، والمفضليات ص 261 ، والشعر والشعراء 1/ 382 ، والمؤتلف والمختلف ص 151 ، وكتاب الصناعتين ص 164 .

(4) البيتان من الرمل ، وهما في ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص 174 ، والبيت الأول في

لسان العرب (نفل) ، ومقاييس اللغة 2/ 464 ، وتاج العروس (نفل) ، والبيت الثاني في لسان العرب (ضلل) ، وتهذيب اللغة 11/ 465 ، وتاج العروس (ضلل) .

(194/781)

أفترى لبيدا أراد بقوله : من شاء أضل ، أي سمّي ضالا ؟ لا لعمر اللّه ما عرف هذا لبيد ولا وجده في شيء من اللغات . والمعنى في ضلّلت ، وأضللت ، ويشرح صدره للإسلام ، ويجعل صدره ضيّقا حرجا - يمتنع على التأويل المطلوب بالحيلة عند من عرف اللغة .

وربما جعلت العرب (الإضلال) في معنى الإبطال والإهلاك ، لأنه يؤدّي إلى الهلكة ، ومنه قوله تعالى : وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [السجدة : 10] ، أي بطلنا ولحقنا بالتراب وصرنا منه . والعرب تقول : ضلّ الماء في اللبن : إذا غلب اللبن عليه فلم يتبيّن .

وقال النابغة الذبياني يرثي بعض الملوك "1" :

وآب مضلّوه بعين جليّة وغودر بالجولان حزم ونائل

أي قابروه ، سمّاهم مضلّين لأنهم غيّبوه وأفقدوه فأبطلوه .

هذا مذهب العرب في (القدر) ، وهو مذهب كل أمة من العجم ، وأنّ اللّه في السماء ، ما

تركت على الجبلّة والفطرة ، ولم تنقل عن ذلك بالمقاييس والتّلبيس .

وقد أعلمتك في كتاب (غريب الحديث) أن فريقا منهم يقولون : لا يلزمنا اسم (القدر) من طريق اللغة ، لأنه يتأوّل علينا أنا نقول : لا قدر ، فكيف ننسب إلى ما نجحد ؟ .

وأن هذا تمويه ، وإنما نسبوا إلى (القدر) لأنهم يضيفونه إلى أنفسهم ، وغيرهم يجعله للّه دون نفسه ، ومدّعي الشيء لنفسه أولى بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره .

وأما الطاعنون على القرآن (بالمجاز) فإنهم زعموا أنه كذب . لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل .

وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلّها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم .

ولو كان المجاز كذبا ، وكلّ فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا - كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشّجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السّعر .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص 121 ، ولسان العرب (ضلل) ، (جلا) ، وتاج العروس (ضلل) ، (جلا) ، وتهذيب اللغة 11/ 187 ، 465 ، وجمهرة اللغة ص 1044 ، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص 1077 ، ومقاييس اللغة 1/ 496 ، 3/ 356 ، ومجمل اللغة 3/ 277 .

وتقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا والفعل لم يكن وإنما كوّن .

وتقول : كان اللّه . وكان بمعنى حدث ، واللّه ، جل وعز : قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث : فيكون بعد أن لم يكن .

واللّه تعالى يقول : فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ [محمد : 21] وإنما يعزم عليه .

ويقول تعالى : فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ [البقرة : 16] وإنما يربح فيها .

ويقول : وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [يوسف : 18] وإنما كذّب به .

(196/781)

ولو قلنا للمنكر لقوله : جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ [الكهف : 77] كيف كنت أنت قائلا في جدار رأيته على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدّا من أن يقول : جدارا يهمّ أن ينقضّ ، أو يكاد أن ينقضّ ، أو يقارب أن ينقضّ . وأيّا ما قال فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم ، إلا بمثل هذه الألفاظ .

وأنشدني السّجستاني "1" عن أبي عبيدة "2" في مثل قول اللّه : يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ "3" :

يريد الرّمح صدر أبي براء ويرغب عن دماء بني عقيل

وأنشد الفرّاء "4" :

إنّ دهرا يلفّ شملي بجمل لزمان يهمّ بالإحسان

والعرب تقول : بأرض فلان شجر قد صاح. أي طال ، لمّا تبيّن الشّجر للنّاظر بطوله ، ودلّ على نفسه – جعله كأنه صائح : لأن الصائح يدلّ على نفسه بصوته .

---

(1) السجستاني : هو أبو حاتم السجستاني ، تقدمت ترجمته .

(2) أبو عبيدة : هو الحافظ أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري المنشأ ، بغدادي الدار والوفاة ، الفقيه اللغوي الأخباري ، ولد سنة 110 ه ، وتوفي سنة 203 ه ، تقدمت ترجمته الوافية ، مع ذكر مؤلفاته .

(3) البيت من الوافر ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (رود) ، وكتاب الصناعتين ص 212 ، وتفسير الطبري 16/ 186 ، ومجاز القرآن 1/ 410 .

(4) يروى صدر البيت بلفظ :

إن دهرا يلفّ حبلي بجمل والبيت من الخفيف ، وهو لحسان بن ثابت في أساس البلاغة (لفف) ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في لسان العرب (دهر) ، وتهذيب اللغة 6/ 192 ، وديوان الأدب 1/ 107 ، وتاج العروس (دهر) .

ومثل قول العجاج "1" :

كالكرم إذ نادى من الكافور ويقال : هذا شجر واعد ، إذا نوّر ، كأنّه نوّر لمّا وعد أن يثمر .

ونبات واعد ، إذا أقبل بماء ونضرة .

قال سويد بن كراع "2" :

رعى غير مذعور بهنّ وراقه لماع تهاداه الدّكادك واعد

في أشباه لهذا كثيرة ، سنذكر ما نحفظ منها في كتابنا هذا مما أتى في كتاب اللّه ، عز وجل ، وأمثاله من الشعر ، ولغات العرب ، وما استعمله الناس في كلامهم .

ونبدأ بباب الاستعارة ، لأن أكثر المجاز يقع فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 69 . 87 ﴾

---

(1) قبله :

غراء تسبي نظر النظور بفاحم يعكف أو منشور

كالكرم إذا نادى من الكافور والرجز للعجاج في ديوانه 1/ 338 - 339 ، ولسان العرب (كفر) ، وتاج العروس (كفر) ، وتهذيب اللغة 10/ 201 ، والمخصص 10/ 216 ، وجمهرة اللغة ص 786 ، ولرؤبة في لسان العرب (صيح) ، (عرق) ، وتاج العروس

(صيح) ، وليس في ديوانه ، وبلا نسبة في لسان العرب (ندى) ، ومقاييس اللغة 5/ 192 ، وجمهرة اللغة ص 1061 ، 1205 ، وكتاب العين 5/ 358 ، وتاج العروس (ندا) ، وتهذيب اللغة 14/ 190 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لسويد بن كراع في لسان العرب (وعد) ، (لعع) ، وأساس البلاغة (وعد) ، وتهذيب اللغة 3/ 135 ، وتاج العروس (وعد) ، (لعع) ، وبلا نسبة في المخصص 10/ 183 .

فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاورا لها ، أو مشاكلا . فيقولون للنبات : نوء لأنه يكون عن النوء عندهم .

(198/781)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30)

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من أعجب العجب أن يقبل على الدنيا أحد يسمع هذا التهديد بالعرض بين يدي الله والعقاب لمن لم يقبل على عبادته سبحانه ، بين أن ذلك لما جبله عليه سبحانه وأن الإنسان مقهور مع جبلته إلا من حفظه الله ، وذلك دال من كلا الطرفين على عظيم قدرته سبحانه ، قال مؤكداً لاقتضاء المقام للتأكيد لأن الإنسان لو خوف بالعرض على بعض الأمراء ما لابس ما يغضبه فكيف بالعزيز الحكيم القدير العليم : ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا الجنس ، عبر به لما له من الأنس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولذنبه .

ولما دعا الحال إلى بيان الجبلة الداعية إلى ما يقتضيه باختيار صاحبها على وجه كأنه إلجاء بياناً لسهولة الأمور عليه سبحانه بنى للمفعول قوله : ﴿ خلق هلوعاً ﴾ أي جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر والشح على المال والرغبة فيما لا ينبغي ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه الحريص على ما لا يحل له ، وروي عنه أن تفسيره ما بعده .

ولما كان الهلع شدة الحرص وقلة الصبر ، نشر معناه فقال مقدماً المعمول الذي هو الظرف على العامل بياناً لإسراعه في ذلك : ﴿ إذا مسه ﴾ أي أدنى مس ﴿ الشر ﴾ أي هذا الجنس وهو ما تطاير شرره من الضر ﴿ جزوعاً ﴾ أي عظيم الجزع ، وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت ﴿ وإذا مسه ﴾ أي كذلك ﴿ الخير ﴾ أي هذا الجنس وهو ما يلائمة فيعينه من السعة في المال وغيره من أنواع الرزق ﴿ منوعاً ﴾ أي مبالغاً في الإمساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفاً مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة ، وهذا الوصف ضد الإيمان ، لأنه نصفان : صبر وشكر .

(199/781)

ولما كان التقدير : فهو يسارع في آثار ما جبل عليه ما يترتب على الجزع مما لا يجوز في الشرع ومما يترتب على المنع من ذلك أيضاً فيكون من أهل النار ، وكان من القدرة البالغة أن يحفظ سبحانه من أراد من الخزي مع جبلته ويحمله على كسر نفسه مرة بعد أخرى حتى يتلاشى ما عنده من جبلة الشر وتبقى الروح على حالها عند الفطرة الأولى ، فلا تزال تحثه على المبادرة إلى طاعته سبحانه وتعالى وحفظ حدوده ، فكان لا كرامة أعظم من حفظ

المكلف لحدود الشرع مع المنافاة لطبعه ، فيكون جامعاً للإيمان بنصفيه : الصبر والشكر ، لما جمع من هذه الأوصاف الثمان المعادة لأبواب الجنة الثمان ، فكان أسباباً لها ، استثنى من هذا النوع الهلوع ولذلك جمع فقال : ﴿ إلا المصلين ﴾ أي المحافظين على الصلاة التي هي مواطن الافتقار ، العريقين في هذا الوصف ، فإنه لا يشتد هلعهم فلا يشتد جزعهم ولا منعهم ، فيكونوا في أحسن تقويم معتدلين مسارعين فيما يرضي الرب ، لأنه سبحانه قرن بما جبلهم عليه من الهلع من طهارة الجسد لطهارة طينته وزكاء روحه ما هيأه لتهذيب نفسه مما يسره له من أصدقاء الخير وأولياء المعروف وسماع المواعظ الحسان والإبعاد عن معادن الدنس من البقاع والأقران والكلام والأفعال وغير ذلك من سائر الأحوال ، والملابسة بكل ما يحمل على المعالي من صالح الخلال حتى كانوا من أهل الكمال ، ولذلك وصفهم بما يبين عراقتهم في الوصف لها فقال : ﴿ الذين هم ﴾ أي بكلية ضمائرهم وظواهرهم ﴿ على صلاتهم ﴾ أي التي هي معظم دينهم وهي النافعة لهم لا لغيرهم - بما أفادته الإضافة ، والمراد الجنس الشامل لجميع الأنواع إلا أن معظم المقصود الفرض ، ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات في قوله : ﴿ دائمون ﴾ أي لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها بل يلازمونها ملازمة يحكم بسببها أنها في حال الفراغ منه نصب أعينهم بدوام الذكر لها والتهيؤ لأدائها لأنها صلتهم بمعبودهم الذي لا خير عندهم إلا منه ،

فلم يكونوا ناسين لمساوئهم ولا آسين بمحاسنهم ، وكفى بالصلاة بركة في دلالتها على النجاة من هذا الوصف الموجب لأسباب النار ، وهي عبادة ذات شروط وأركان وأبعاض وهيئات وسنن وآداب مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، وهي منقسمة إلى ذات ركوع وسجود ، وإلى ذات سجود بلا ركوع كسجدة الشكر والتلاوة ، وإلى ما لا ركوع فيها ولا سجود كصلاة الجنازة .

ولما ذكر زكاة الروح ، أتبعه زكاة عديلها المال ، فقال مبيناً للرسوخ في الوصف بالعطف بالواو : ﴿ والذين في أموالهم ﴾ أي التي منَّ سبحانه بها عليهم ﴿ حق ﴾ ولما كان السياق هنا لأعم من المحسنين الذين تقدموا في الذاريات اقتصر على الفرض فقال : ﴿ معلوم ﴾ أي من الزكوات وجميع النفقات الواجبة .

ولما كان في السؤال من بذل الوجه وكسر النفس ما يوجب الرقة مع وقاية النفس مع المذمة ، قدم قوله : ﴿ للسائل ﴾ أي المتكلف لسؤال الإنفاق المتكفف .

(201/781)

ولما كان في الناس من شرفت همته وعلت رتبته على مهاوي الابتذال بذل السؤال من الإقلال بذب المقبل على الله للتفطن والتوسم لأولئك فقال : ﴿ والمحروم ﴾ أي المتعفف الذي لا يسأل فيظن غنياً ولا مال له يغنيه فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره ، ولا مفزع له بعد ربه المالك لعلانيته وإسراره إلا إلى إفاضة مدامعه بذله وانكساره ، وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى ، وقد كان للسلف الصالح في هذا وأشباهه قصب السبق ، حكي عن زين العابدين أنه لما مات وجد في ظهره آثار سود عند غسله كأنها السيور ، فعجبوا منها ، فلما كان بعد أيام قال نسوة أرامل : كان شخص يأتي إلينا ليلاً بقرب الماء وأجربة الدقيق على ظهره ففقدناه واحتجنا ، فعلموا أنه هو وأن تلك السيور من ذلك ، وحي عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن شخصاً رآه ماشياً في زمن خلافته في الليل فتبعه حتى يعلم إلى أين يقصد ، فلم يزل ـ رضى الله عنه ـ حتى جاء إلى بيت نسوة أرامل فقال : أعندكن ماء وإلا أملأ لكن ، فأعطينه جرة فأخذها وذهب فملأها على كتفه وأتى بها إليهن ، والحكايات عنهم في هذا الباب كثيرة شهيرة جداً .

ولما كان المال قد يصرف لإصلاح الدنيا ، بين أن النافع منه إنما هو المصدق للإيمان فقال : ﴿ والذين يصدقون ﴾ أي يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجدد دونه كل وقت ﴿ بيوم ﴾

ولما كان المقصود الحث على العمل لأجل العرض على الملك الأعلى عبر بقوله :

﴿ الدين ﴾ أي الجزاء الذي ما مثله وهو يوم القيامة الذي يقع الحساب فيه والدينونة على النقير والقطمير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالأعمال الصالحة ، فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال ، وأما المصدقون بمجرد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال .

(202/781)

ولما كان الدين معناه الجزاء من الثواب والعقاب ، وكان ربما صرفه صارف إلى الثواب فقط للعلم بعموم رحمته سبحانه ، وأن رحمته غلبت غضبه ، صرح بالعقاب فقال : ﴿ والذين هم ﴾ أي بجميع ضمائرهم ﴿ من عذاب ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ، لا من عذاب غيره ، فإن المحسن أولى بأن يخشى ولو من قطع إحسانه ، وإذا خيف مع تجليه في مقام الإحسان كان الخوف أولى عند اعتلائه في نعوت الجلال من الكبر والقهر والانتقام ﴿ مشفقون ﴾ أي خائفون في هذه الدار خوفاً عظيماً هو في غاية الثبات من أن يعذبهم في الآخرة أو الدنيا أو فيهما ، فهم لذلك لا يغفلون ولا يفعلون إلا ما يرضيه سبحانه .

ولما كان المقام للترهيب ، ولذلك عبر عن الرجاء على فعل الطاعات بالدين ، فصار العذاب مذكوراً مرتين تلويحاً وتصريحاً ، زاده تأكيداً بقوله اعتراضاً مؤكداً لما لهم من إنكاره

: ﴿ إن عذاب ربهم ﴾ أي الذي رباهم وهم مغمورون بإحسانه وهم عارفون بأنه قادر على الانتقام ولو بقطع الإحسان ﴿ غير مأمون ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يأمنه ، بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة لأن الملك مالك وهو تام الملك ، له أن يفعل ما يشاء – ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية الإبعاد ولم يزل مترجحاً بين الخوف والرجاء .

ولما ذكر التحلي بتطهير النفس بالصلاة وتزكية المال بالصدقة ، ندب إلى التخلي عن أمر جامع بين تدنيس المال والنفس وهو الزنا الحامل عليه شهوة الفرج التي هي أعظم الشهوات حملاً للنفس على المهلكات ، فقال بعد ذكر التخويف بالعذاب إعلاماً بأنه أسرع إلى صاحب هذه القادورة وقوعاً من الذباب في أحلى الشراب فقال : ﴿ والذين هم ﴾ أي ببواطنهم الغالبة على ظواهرهم ﴿ لفروجهم ﴾ أي سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ﴿ حافظون ﴾ أي حفظاً ثابتاً دائماً عن كل ما نهى الله عنه .

(203/781)

ولما ذكر هذا الحفظ على هذا الوجه ، ذكر ما أذن فيه في أسلوب الاستثناء إشعاراً بأنه كأنه لم يذكر فيخرج إلا بعد تقرير عموم الحفظ لا أنه مقصود ابتداء بقصد الصفة فقال : ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ أي بعقد النكاح .

ولما قدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن أتبعه قوله : ﴿ أو ما ﴾ عبر بما هو الإغلب لغير العقلاء ندباً إلى إيساع البطان في احتمالهن ﴿ ملكت أيمانهم ﴾ أي من السراري اللاتي هن محل الحرث والنسل اللاتي هن أقل عقلاً من الرجال .

ولما كان الناكح عبادة نادراً جداً ، وكان الأصل في العبادة الخروج عن العادة ، وإن لم يتجرد للعبادة كن ملوماً ، اكتفى في مدحه بنفي اللوم عنه ، وأكده لأن الأصل كان استحقاقه للملام لإقباله على تحصيل ما له من المرام فقال مسبباً عن المستثنى : ﴿ فإنهم ﴾ أي بسبب إقبالهم بالفروج عليهن وإزالة الحجاب من أجل ذلك ﴿ غير ملومين ﴾ أي في الاستمتاع بهن من لائم ما – كما نبه عليه بالبناء للمفعول – فهم يصحبونهن قصداً للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله .

ولما أفهم ذلك تحريم غير المستثنى ووجب الحفظ للفروج عنه ، صرح به على وجه يشمل المقدمات فقال مسبباً عنه : ﴿ فمن ابتغى ﴾ أي طلب ، وعبر بصيغة الافتعال لأن ذلك لا يقع إلا عن إقبال عظيم من النفس واجتهاد في الطلب ﴿ وراء ذلك ﴾ أي شيئاً من هذا خارجاً عن هذا الأمر الذي أحله الله تعالى ، والذي هو أعلى المراتب في أمر النكاح وقضاء اللذة أحسنها وأجملها .

ولما كان الوصول إلى ذلك لا يكون إلا بتسبب من الفاعل ربط بالفاء قوله : ﴿ فأولئك ﴾ أي الذين هم في الحضيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة ﴿ هم ﴾ أي

بضمائرهم وظواهرهم ﴿ العادون ﴾ أي المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه .

ولما ذكر العادي أتبعه الواقف عند الحدود فقال : ﴿ والذين هم ﴾ أي ببذل الجهد من توجيه الضمائر ﴿ لأماناتهم ﴾ أي كل ما ائتمنهم الله عليه من حقه وحق غيره .

(204/781)

ولما كان ذلك قد يكون من غير عهد ، قال مخصصاً : ﴿ وعهدهم ﴾ أي ما كان من الأمانات بربط بالكلام وتوثيق ﴿ راعون ﴾ أي حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار .

ولما كان أجل العهود والأمانات ما كان بإشهاد قال مبيناً لفضل الشهادة : ﴿ والذين هم ﴾ أي بغاية ما يكون من توجيه القلوب ﴿ بشهاداتهم ﴾ التي شهدوا بها أو يستشهدون بها لطلب أو غيره ، وتقديم المعمول إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها ﴿ قائمون ﴾ أي يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيىء لها واقف في انتظارها .

(205/781)

ولما كانت أضداد هذه المذكورات نقائص مهلكات ، وكانت الأنفس – لما لها من النقص – نزاعة إلى النقائص ميالة إلى الدسائس ، ذكر سبحانه بالدواء المبرىء من كل داء ، فقال مشيراً إلى حفظ أحوال الصلاة وأوصافها بعد ذكر الحفظ لذواتها وأعيانها تنبيهاً على شدة الاهتمام بها : ﴿ والذين هم ﴾ ولما وسط الضمير إشارة إلى الإقبال بجميع القلب قدم الصلة كما فعل بما قيل تأكيداً وإبلاغاً في المراد إلى أقصى ما يمكن كما لا يخفى على ذي ذوق فقال : ﴿ على صلاتهم ﴾ من الفرض والنفل ﴿ يحافظون ﴾ أي يبالغون في حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها لتحفظهم أو يسابقون غيرهم في حفظها لأوقاتها وشروطها وأركانها ومتمماتها في ظواهرها وبواطنها من الخضوع والمراقبة ، وغير ذلك من خلال الإحسان التي إذا فعلوها كانت ولا بد ناهية لفاعلها " أن الصلاة " الكاملة " تنهى عن الفحشاء والمنكر " فتحمل على جميع هذه الأوامر وتبعد عن أضدادها ، ولكون السياق هذا للتخلي عن الأوصاف الجارة إلى الكفر وحد الصلاة إشارة إلى أنه يكفي في ذلك الفرائض وإن كان الجاس يشمل ، وفي المؤمنون السياق لأهل الرسوخ في المحاسن ، فلذلك جمع بين النوعين : الإفراد في الأول لينصب بادىء بدىء إلى الفرائض ، والجمع في بعض القراءات ليفهم مع ذلك النوافل بأنواعها ، وفي فتح الأوصاف بالصلاة وختمها بها من بيان جلالتها وعظمتها أمر باهر .

ولما ذكر حلاهم أتبعه ما أعطاهم فقال مستأنفاً ومستنتجاً من غير فاء إشارة إلى أن رحمته هي التي أوصلتهم إلى ذلك من غير سبب منهم في الحقيقة : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين هم في غاية العلو لما لهم من هذه الأوصاف العالية ، وعبر بما يدل على أنه عجل جزاءهم سبحانه فقال : ﴿ في جنات ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الآخرة فواضح ، وأما في الدنيا فلأنهم لما جاهدوا فيه بإتعاب أنفسهم في هذه الأوصاف حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشرتها لذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لا يساويها شيء أصلاً ، والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمستلذات والسرور ، وانتفى عنه جميع المكروهات والشرور ، وضدها النار ، وزادهم على ذلك بقوله : ﴿ مكرمون ﴾ معبراً باسم المفعول إشارة إلى عموم الإكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره لأنه سبحانه قضى بأن يعلو مقدارهم حتى يكونوا أعظم مشخص ؟ لهم في الغيب مبالغاً في إكرامهم عند المواجهة ليكون لهم نصيب من خلق نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، " لقيه يوم بني قريظة علي ـ رضى الله عنه ـ وكان قد سبقه إليهم فقال : يا رسول الله ، ما عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث ؟ فقال : ولم ، لعلك سمعت بي منهم أذى ، لو قد دنوت منهم لم يقولوا من ذلك شيئاً ، ثم دنا منهم فقال : هل

أخزاكم الله يا إخوان القردة والخنازير ، فقالوا : مه يا أبا القاسم ما كنت جهولاً " وكلموه بأحسن ما يمكنهم ، وكذا كانت معه قريش قبل الهجرة في أكثر أحوالهم ، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فيتلقاهم الملائكة بالبشرى حين الموت وفي قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم إلى حين دخولهم إلى قصورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 150 . 156 ﴾

(207/781)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم : المراد بالإنسان ههنا الكافر ، وقال آخرون : بل هو على عمومه ، بدليل أنه استثنى منه ﴿ إلا المصلين ﴾ .

المسألة الثانية :

يقال : هلع الرجل يهلع هلعاً وهلاعاً فهو هالع وهلوع ، وهو شدة الحرص وقلة الصبر ، يقال : جاع فهلع ، وقال الفراء : الهلوع الضجور ، وقال المبرد : الهلع الضجر ، يقال : نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الأقران ، وعن أحمد بن يحيى ، قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت : قد فسره الله ، ولا تفسير أبين من تفسيره ، هو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس .

المسألة الثالثة :

قال القاضي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ نظير لقوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] وليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف ، والدليل عليه أن الله تعالى ذمه عليه والله تعالى لا يذم فعله ، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة ، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها .

واعلم أن الهلع لفظ واقع على أمرين : أحدهما : الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم الإنسان على إظهار الجزع والتضرع والثاني : تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية ، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى ، لأن من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه ، ومن خلق شجاعاً بطلاً لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام

عليها فهي أمور اختيارية ، أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار .

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)

(208/781)

المراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة ، فالمعنى أنه إذا صار فقيراً أو مريضاً أخذ في الجزع والشكاية ، وإذا صار غنياً أو صحيحاً أخذ في منع المعروف وشح بماله ولم يلتفت إلى الناس ، فإن قيل : حاصل هذا الكلام أنه نفور عن المضار طالب للراحة ، وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله عليه ؟ قلنا : إنما ذمه عليه لأنه قاصر النظر على الأحوال الجسمانية العاجلة ، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة ، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل الله تعالى كان راضياً به ، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية ، واعلم أنه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفاً بثمانية أشياء :

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)

(209/781)

أولها قوله : ﴿ إِلاَّ المصلين * الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ فإن قيل : قال : ﴿ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ ثم : ﴿ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج : 34] قلنا : معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه ، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها ، وتارة بأمور متراخية عنها ، أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها ، ومتعلق بالوضوء ، وستر العورة وطلب القبلة ، ووجدان الثوب والمكان الطاهرين ، والإتيان بالصلاة في الجماعة ، وفي المساجد المباركة ، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات إلى ما سوى الله تعالى ، وأن يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة ، وأما الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة ، فاهماً للأذكار ، مطلعاً على حكم الصلاة ، وأما الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب ، وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي .

وثانيها قوله تعالى :

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)

اختلفوا في الحق المعلوم : فقال ابن عباس والحسن وابن سيرين ، إنه الزكاة المفروضة ، قال ابن عباس : من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق قالوا : والدليل على أن المراد به الزكاة المفروضة وجهان : الأول : أن الحق المعلوم المقدر هو الزكاة ، أما الصدقة فهي غير مقدرة الثاني : وهو أنه تعالى ذكر هذا على سبيل الاستثناء ممن ذمه ، فدل على أن الذي لا يعطى هذا الحق يكون مذموماً ، ولا حق على هذه الصفة إلا الزكاة ، وقال آخرون : هذا الحق سوى الزكاة ، وهو يكون على طريق الندب والاستحباب ، وهذا قول مجاهد وعطاء والنخعي .

وقوله : ﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ يعني الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم .

وثالثها قوله :

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26)

أي يؤمنون بالبعث والحشر .

ورابعها قوله تعالى :

وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)

والإشفاق يكون من أمرين ، إما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام على المحظورات ، وهذا كقوله : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : 60] وكقوله سبحانه : ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 35] ومن يدوم به الخوف والإشفاق فيما كلف يكون حذراً من التقصير حريصاً على القيام بما كلف به من علم وعمل .

ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف فقال :

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)

والمراد أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ، واحترز عن المحظورات بالكلية ، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك ، فلا جرم يكون خائفاً أبداً .

وخامسها قوله تعالى :

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30)

وقد مر تفسيره في سورة المؤمنين .

وسادسها قوله :

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32)

وقد تقدم تفسيره أيضاً .

وسابعها قوله :

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33)

قرىء بشهادتهم وبشهاداتهم ، قال الواحدي : والإفراد أولى لأنه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وإن أضيف لجمع كقوله ﴿ لصوت الحمير ﴾ [لقمان : 19] .

ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات ، وكثرت ضروبها فحسن الجمع من جهة الاختلاف ، وأكثر المفسرين قالوا : يعني الشهادات عند الحكام يقومون بها بالحق ، ولا يكتمونها وهذه الشهادات من جملة الأمانات إلا أنه تعالى خصها من بينها إبانة لفضلها لأن في إقامتها إحياء الحقوق وفي تركها إبطالها وتضييعها ، وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد الشهادة بأن الله واحد لا شريك له .

وثامنها قوله :

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34)

وقد تقدم تفسيره .

ثم وعد هؤلاء وقال :

﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 116.113 ﴾

(212/781)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾

يعني الكافر ، عن الضحاك .

والهلعَ في اللغة : أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه .

وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما .

وقد هَلِع (بالكسر) يَهْلَع فهو هَلِع وهَلُوع ، على التكثير .

والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شرّ حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي .

عِكرمة : هو الضَّجور .

الضحاك : هو الذي لا يشبع .

والمنوع : هو الذي إذا أصاب المال منع منه حقّ الله تعالى .

وقال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يسرّه ويرضيه ، ويهرب مما يكرهه ويسخطه ، ثم تَعَبّده الله بإنفاق ما يحبّ والصبر على ما يكره .

وقال أبو عبيدة : الهَلُوع هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر ، وإذا مسّه الضر لم يصبر ، قاله ثعلب .

وقال ثعلب أيضاً : قد فسّر الله الهَلُوع ، وهو الذي إذا ناله الشر أظهر شدّة الجزع ، وإذا ناله الخير بَخِل به ومنعه الناس .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " شَرُّ ما أعطي العبدُ شحٌّ هالع وجُبْن خالع " والعرب تقول : ناقة هِلواعة وهِلواع ؛ إذا كانت سريعة السير خفيفة .

قال :

صكّاء ذِعْلِبَة إذا استدبرتَها . . .

حَرَج إذا استقبلتها هِلواع

الذِّعْلِب والذِّعْلِبة الناقة السريعة .

و "جَزُوعاً" و "مَنُوعاً" نعتان لهلوع .

على أن ينوي بهما التقديم قبل "إذا" .

وقيل : هو خبر كان مضمرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المصلين ﴾

دلّ على أن ما قبله في الكفار ، فالإنسان اسم جنس بدليل الاستثناء الذي يعقبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ .

إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [العصر : 2-3] قال النخعيّ : المراد بالمصلّين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة .

ابن مسعود : الذين يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر .

وقيل : هم الصحابة .

وقيل : هم المؤمنون عامة ، فإنهم يغلبون فَرْطَ الجزع بثقتهم بربهم ويقينهم .

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ أي على مواقيتها .

(213/781)

وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلَّوْا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً .

والدائم الساكن ، ومنه : نهي عن البول في الماء الدائم ، أي الساكن .

وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع منها .

﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ يريد الزكاة المفروضة ، قاله قتادة وابن سيرين .

وقال مجاهد : سوى الزكاة .

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : صلة رَحِم وحَمْل كَلٍّ .

والأوّل أصح ، لأنه وصف الحق بأنه معلوم ، وسوى الزكاة ليس بمعلوم ، إنما هو على قدر الحاجة ، وذلك يقِلّ ويكثر .

﴿ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ تقدّم في "الذاريات" .

﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بيوم الجزاء وهو يوم القيامة .

وقد مضى في سورة "الفاتحة" القول فيه .

﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ قال ابن عباس : لمن أشرك أو كَذّب أنبياءه .

وقيل : لا يأمنه أحد ، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ تقدم القول فيه في سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

﴿ والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ تقدم أيضاً .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ﴾ على من كانت عليه من قريب أو بعيد ، يقومون بها عند الحاكم ولا يكتمونها ولا يغيّرونها .

وقد مضى القول في الشهادة وأحكامها في سورة "البقرة" .

وقال ابن عباس : ﴿ بِشَهَادَاتِهِم ﴾ أن الله واحدٌ لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

وقرىء "لأَمَانَتِهِمْ" على التوحيد .

وهي قراءة ابن كثير وابن مُحَيْصن .

فالأمانة اسم جنس ، فيدخل فيها أمانات الدِّين ، فإن الشرائع أمانات ائتمن الله عليها عباده .

(214/781)

ويدخل فيها أمانات الناس من الودائع ، وقد مضى هذا كله مستوفًى في سورة "النساء" .

وقرأ عباس الدُّوري عن أبي عمرو ويعقوب ﴿ بِشَهَادَاتِهِم ﴾ جمعاً .

الباقون ﴿ بِشَهَادَتِهِم ﴾ على التوحيد ، لأنها تؤدّي عن الجمع .

والمصدر قد يفرد وإن أضيف إلى جمع ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] .

وقال الفراء : ويدلّ على أنها ﴿ بِشَهَادَتِهِم ﴾ توحيداً قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة لِلَّهِ ﴾ [الطلاق : 2] .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها .

وقال ابن جُرَيج : التطوع .

وقد مضى في سورة "المؤمنون" .

فالدوام خلاف المحافظة .

فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخِلُّون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراب المأثم .

فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها .

﴿ أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(215/781)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾

الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير من قولهم ناقة هلوع سريعة السير وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وغيرهما عن عكرمة قال سئل ابن عباس عن الهلوع فقال هو كما قال الله تعالى :

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ الخ وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه سئل عن ذلك أيضاً فقرأ الآية وحكى نحوه عن ثعلب قال قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر ما الهلع فقلت قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه يعني قوله تعالى إذا مسه الآية ونظير ذلك قوله : إلا لمعي الذي يظن بك الظ . . .

ن كأن قد رأى وقد سمعا

والجملة مؤكدة في موضع التعليل لما قبلها والإنسان الجنس أو الكافر قولان أيد ثانيهما بما روى الطستي عن ابن عباس أن الآية في أبي جهل بن هشام ولا يأبى ذلك إرادة الجنس والشر الفقر والمرض ونحوها وأل للجنس أي إذا مسه جنس الشر ﴿ جَزُوعاً ﴾ أي مبالغاً في الجزع مكثراً منه والجزع قال الراغب أبلغ من الحزن فإن الحزن عام والجزع حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه وأصله قطع الحبل من نصفه يقال جزعه فانجزع ولتصور الانقطاع فيه قيل جزع الوادي لمنقطعه والانقطاع اللون بتغيره قيل للخرز المتلون جزع وعنه استعير قولهم لحم مجزع إذ كان ذا لونين وقيل للبسرة إذا بلغ الارطاب نصفها مجزعة .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير ﴾ المال والغنى أو الصحة ﴿ مَنُوعاً ﴾ مبالغاً في المنع والإمساك وإذا الأولى ظرف لجزوعاً والثانية ظرف لمنوعاً والوصفان على ما اختاره بعض الأجلة صفتان كاشفتان لهلوعاً الواقع حالاً كما هو الأنسب بما سمعت عن ابن عباس وغيره وقال غير واحد الأوصاف الثلاثة أحوال فقيل مقدرة إن أريد اتصاف الإنسان بذلك بالفعل فإنه في حال الخلق لم يكن كذلك وإنما حصل له ذلك بعد تمام عقله ودخوله تحت التكليف ومحققه إن أريد اتصافه بمبدأ هذه الأمور من الأمور الجلية والطبائع الكلية المندرجة فيها تلك الصفات بالقوة ولا مانع عند أهل الحق من خلقه تعالى الإنسان وطبعه سبحانه إياه على ذلك وفي زوالها بعد خلاف فقيل إنها تزول بالمعالجة ولولاه لم يكن للمنع منها والنهي عنها فائدة وهي ليست من لوازم الماهية فالله تعالى كما خلقها يزيلها وقيل إنها لا تزول وإنما تستر ويمنع المرء عن آثارها الظاهرة كما قيل

: والطبع في الإنسان لا يتغير . . .

وهذا الخلاف جار في جميع الأمور الطبيعية وقال بعضهم الأمور التابعة منها لأصل المزاج لا تتغير والتابعة لعرضه قد تتغير وذهب الزمخشري إلى أن في الكلام استعارة فقال المعنى إن الإنسان لا يثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه كأنه مجبول عليهما مطبوع وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري كقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه في البطن والمهد لم يكن به هلع ولأنه ذم والله تعالى لا يذم فعله سبحانه والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وطلقوها من الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين وتعقب بأنه في المهد أهلع وأهلع فيسرع إلى الثدي ويحرص على الرضاع وإن مسه ألم جزع وبكى وإن تمسك بشيء فزوحم عليه منع بما في قدرته من اضطراب وبكاء وفي البطن لا يعلم حاله وأيضاً الاسم يقع عليه بعد الوضع فما بعده هو المعتبر وإن الذم من حيث القيام بالعبد كما حقق في موضعه وإن الاستثناء إما منقطع لأنه لما وصف سبحانه من أدبر وتولى معللاً بهلعه وجزعه قال تعالى لكن المصلين في مقابلتهم أولئك في جنات ثم كر على السابق وقال ﴿ فمال الذين كفروا ﴾ [المعارج : 36] بالفاء تخصيصاً بعد تعميم ورجعاً إلى بدء لأنهم من المستهزئين الذين افتتح السورة بذكر سؤالهم أو متصل على أنهم لم يستمر خلقهم على الهلع فإن الأول لما كان تعليلاً كان معناه خلقاً مستمراً على الهلع والجزع إلا المصلين فإنهم لم يستمر خلقهم على ذلك فلا يرد أن الهلع الذي في المهد لو كان مراداً لما صح استثناء المصلين لأنهم كغيرهم في حال الطفولية انتهى وهذا

الاستثناء هو ما تضمنه قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ الخ وقد وصفهم سبحانه بما ينبىء عن كمال تنزههم عن الهلع من الاستغراق في طاعة الحق عز وجل والإشفاق على الخلق والايمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل فقال عز من قائل :

(218/781)

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ أي مواظبون على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل وفيه إشارة إلى فضل المداومة على العبادة وقد أخرج ابن حبان عن أبي سلمة قال حدثتني عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا قالت فكان أحب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دام عليه وإن قل وكان إذا صلى صلاة دام عليها " وقرأ أبو سلمة الذين هم على صلاتهم دائمون وأخرج أحمد في مسنده عنها أنها قالت كان عمله صلى الله عليه وسلم ديمة قال جار الله أي ما فعل من أفعال الخير إلا وقد اعتاد ذلك ويفعله كلما جاء وقته ووجه بأن الفعلة للحالة التي يستمر عليها الشخص ثم في جعله نفس الحالة ما لا يخفى من المبالغة والدلالة على أنه كان ملكة له عليه الصلاة والسلام وقيل دائمون أي لا

يلتفتون فيها ومنه الماء الدائم وروى ذلك عن عمران بن حصين وكذا عن عقبة بن عامر أخرج ابن المنذر عن أبي الخير أن عقبة قال لهم من الذين هم على صلاتهم دائمون قال قلنا الذين لا يزالون يصلون فقال لا ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال وإليه ذهب الزجاج فتشعر الآية بذم الالتفات في الصلاة وقد نطقت الأخبار بذلك واستدل بعضهم بها على أنه كبيرة وتحقيقه في "الزواجر" وعن ابن مسعود ومسروق أن دوامها أداؤها في مواقيتها وهو كما ترى ولعل ترك الالتفات والأداء في الوقت يتضمنه ما يأتي من المحافظة إن شاء الله تعالى والمراد بالصلاة على ما أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي الصلاة المكتوبة وعن الإمام أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أن المراد بها النافلة وقيل ما أمروا به مطلقاً منها وقرأ الحسن صلواتهم بالجمع .

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24)

(219/781)

أي نصيب معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على الناس وهو على ما روى عن الإمام أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ما يوظفه الرجل على نفسه يؤديه في كل جمعة أو كل شهر مثلاً وقيل هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة وتعقب بأن السورة مكية والزكاة

إنما فرضت وعين مقدارها في المدينة وقبل ذلك كانت مفروضة من غير تعيين .

﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ الذي لا يسأل فيظن أنه غني فيحرم واستعماله في ذلك على سبيل الكناية ولا يصح أن تراد به من يحرمونه بأنفسهم للزوم التناقض كما لا يخفى

﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ المراد التصديق به بالأعمال حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية طمعاً في المثوبة الأخروية لأن التصديق القلبي عام لجميع المسلمين لا امتياز فيه لأحد منهم وفي التعبير بالمضارع دلالة على أن التصديق والأعمال تتجدد منهم آناً فآناً .

﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها واستعظاماً لجنابه عز وجل كقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون : 60] وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه عز وجل وإن بالغ في الطاعة كهؤلاء ولذا كان السلف الصالح وهم هم خائفين وجلين حتى قال بعضهم يا ليتني كنت شجرة تعضد وآخر ليت أمي لم تلدني إلى غير ذلك .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ سبق تفسيره في سورة المؤمنين على وجه

مستوفي فتذكره .

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾

(220/781)

لا يخلون بشيء من حقوقها وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ولم يجمع العهد قبل إيذاناً بأنه ليس كالأمانة كثرة وقيل لأنه مصدر ويدل على كثرة الأمانة ما روى الكلبي كل أحد مؤتمن على ما اقترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والمملوكين والجار وسائر المسلمين وقال السدي أن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤمن وضمن أداءها بقبول الايمان وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن سبحانه له به فقد خان الأمانة والخيانة فيها وكذا الغدر بالعهد من الكبائر على ما نص غير واحد وقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وأخرج البيهقي في "شعب الايمان" عن أنس قال ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال لا إيمان لمن لا أمانة له ولا

دين لمن لا عهد له وقرأ ابن كثير لأمانتهم بالإفراد على إرادة الجنس .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بشهاداتهم قَائِمُونَ ﴾ مقيمون لها بالعدل غير منكرين لها أو لشيء منها ولا مخفين إحياء لحقوق الناس فيما يتعلق بها وتعظيماً لأمر الله عز وجل فيما يتعلق بحقوقه سبحانه وخص بعضهم الشهادة بما يتعلق بحقوق العباد وذكر أنها مندرجة في الأمانات إلا أنها خصت بالذكر لإبانة فضلها وجمعها لاختلاف الأنواع ولو لم يعتبر ذلك أفرد على ما قيل لأنها مصدر شامل للقليل والكثير وقرأ الجمهور بالإفراد على ما سمعت آنفاً .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

(221/781)

أي يراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها باستعارة الحفظ من الضياع للاتمام والتكميل وهذا غير الدوام فإنه يرجع إلى أنفس الصلوات وهذا يرجع إلى أحوالها فلا يتكرر مع ما سبق من قوله تعالى ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج : 23] وكأنه لما كان ما يراعى في إتمام الصلاة وتكميلها مما يتفاوت بحسب الأوقات جيء بالمضارع الدال على التجدد كذا قيل وقيل : إن الإتيان به مع تقديم هم لمزيد الاعتناء بهذا الحكم لما أن أمر التقوى في مثل ذلك أقوى منه في مثل هم محافظون واعتبر هذا هنا دون ما في

الصدر لأن المراعاة المذكورة كثيراً ما يغفل عنها وفي افتتاح الأوصاف بما يتعلق بالصلاة واختتامها به دلالة على شرفها وعلو قدرها لأنها معراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ولذا جعلت قرة عين سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء منها تتمة للآخر .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد لبعد المشار إليهم إما في الفضل أو في الذكر باعتبار مبدأ الأوصاف المذكورة وهو مبتدأ خبره ﴿ فِي جنات ﴾ أي مستقرون في جنات لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها وقوله تعالى : ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ خبر آخر أو هو الخبر وفي جنات متعلق به قدم عليه للاهتمام مع مراعاة الفواصل أو بمضمر هو حال من الضمير في الخبر أي مكرمون كائنين في جنات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(222/781)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) ﴾

معترضة بين ﴿ من أدبر وتولّى وجمع فأوعى ﴾ [المعارج : 1718] وبين الاستثناء ﴿ إلاّ المصلّين ﴾ [المعارج : 22] الخ .

وهي تذييل لجملةِ ﴿ وجمع فأوعى ﴾ تنبيهاً على خصلةٍ تخامر نفوس البشر فتحملهم على الحرص لنيل النافع وعلى الاحتفاظ به خشية نفاده لما فيهم من خلق الهلع .

وهذا تذييل لَوْم وليس في مَساقه عُذر لمن جمَع فأوعى ، ولا هو تعليل لفعله .

وموقع حرف التوكيد ما تتضمنه الجملة من التعجيب من هذه الخصلة البشرية ، فالتأكيد لمجرد الاهتمام بالخبر ولفت الأنظار إليه والتعريضِ بالحذر منه .

والمقصود من التذييل هو قوله : ﴿ وإذا مسَّه الخير منوعاً ﴾ وأما قوله : ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً ﴾ فتمهيد وتتميم لحالتيه .

فالمراد بالإِنسان : جنس الإِنسان لا فرد معيّن كقوله تعالى : ﴿ إن الإِنسان ليطْغَى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 67] وقوله : ﴿ خلق الإِنسان من عَجَل ﴾ [الأنبياء : 37] ، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن .

وهلوع : فعول مثال مبالغة للاتصاف بالهلَع .

والهلع لفظ غامض من غوامض اللّغة قد تساءل العلماء عنه ، قال "الكشاف" : "وعن

أحمد بن يحيى (هو ثعلب) قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت : قد فسره الله ولا يكون تفسير أبْيَنَ من تفسيره وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس" ا ه .

فسارت كلمة ثعلب مسيراً أقنع كثيراً من اللغويين عن زيادة الضبط لمعنى الهلع .

(223/781)

وهي كلمة لا تخلو عن تسامح وقلة تحديد للمعنى لأنه إذا كان قول الله تعالى : ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ تفسيراً لمدلول الجزوع ، تعيّن أن يكون مدلول الكلمة معنًى مركباً من معنيي الجملتين لتكون الجملتان تفسيراً له ، وظاهر أن المعنيين ليس بينهما تلازم ، وكثيراً من أئمة اللغة فسر الهلع بالجزع ، أو بشدة الجزع ، أو بأفحش الجزع ، والجزع : أثر من آثار الهلع وليس عينه ، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معد يكرب:

ما إن جَزِعْتُ ولا هَلِعْتُ . . .

ولا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْدَا

إذ عَطف نفي الهلع على نفي الجزع ، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف ، ولو كان الهلع أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشواً .

ولذلك تكلّف المرزوقي في "شرح الحماسة" لمعنى البيت تكلفاً لم يُغن عنه شيئاً قال :

فكأنه قال : ما حَزنت عليه حزناً هَيّناً قريباً ولا فظيعاً شديداً ، وهذا نفي للحزن رأساً كقولك : ما رأيت صغيرهم ولا كبيرهم ا ه .

والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يُحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاقِ منه .

وأما الجزع فمن آثار الهلع ، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشره ، وبعضهم بالضجر ، وبعضهم بالشح ، وبعضهم بالجوع ، وبعضهم بالجبن عند اللقاء .

وما ذكرناه في ضبطه يَجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع .

(224/781)

ومعنى ﴿ خُلق هلوعاً : ﴾ أن الهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقه تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والمضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعه البشرية ، إذ ليس في تَعلُّق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها ، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها ، وقد تكون للشيء الحالةَ وضدها باختلاف الأزمان والدواعي ، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حالٍ مع تَحقق تمكن ضدها من المنهي لأن عليه أن يروض نفسه

على مقاومة النقائص وإزالتها عنه ، وإذْ ذَكَر الله الهلع هنا عقب مَذَمَّة الجمع والإيعاء ، فقد أشعر بأن الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب فيكون في قوله : ﴿ خُلق هلوعاً ﴾ كناية بالخَلْق عن تمكن ذلك الخُلق منه وغلبته على نفسه .

والمعنى : أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع .

بيان ذلك أن تركيب المدارك البشرية رُكّز بحكمة دقيقة تجعلها قادرة على الفعل والكف ، وساعية إلى المُلائم ومعرضة عن المنافر .

وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يُجب في حدود المقدرة البدنية التي أُعطها النوع والتي أعطيها أفراد النوع ، كل ذلك ليَصلُح الإنسانُ لإعمار هذا العالم الأرضي الذي جعله الله خليفة فيه ليصلحه إصلاحاً يشمله ويشمل من معه في هذا العالم إعداداً لصلاحيته لإعمار عالم الخلود ، ثم جعل له إدراكاً يميز الفرق بين آثار الموجودات وآثار أفعالها بين النافع منها والضار والذي لا نفع فيه ولا ضر .

(225/781)

وخلق فيه إلهاماً يُحِب النافع ويكرهَ الضار ، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يُريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضارّ فيبْتغي ما يظنه نافعاً غير

شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل ، أو شاعراً بذلك ولكن شَغَفَه بحصول النفع العاجل يرجّح عنده تناوله الآن لعدم صبره على تركه مقدّراً معاذيرَ أو حِيَلاً يقتحم بها ما فيه من ضر آجل .

وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنْه ضُرَّ الضار ونفعَ النافع فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه ، وقد لا تستر عنه ذلك ولكنها تُحدث فيه إيثاراً لاتباع الضار لملاءمة فيه ولو في وقت أو عند عارض ، إعراضاً عن اتباع النافع لكلفةٍ في فعله أو منافرة لوجدانه ، وذلك من اشتمال تركيب قُواه الباعثة والصارفة وآلاتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها ، فحدثت من هذا التركيب والبديع صلاحية للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهدة الإنسان ، وصلاحيةً لإفساد ذلك أو بعثرته .

غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمة إن هو أحسن استعمالهما نَخَلَتْ صفاته ، وثقَّفت من قناتِه ، ولم يُخْلِه من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يَريض جامح نفْسه ، وكيف يُوفق بين إدراكه وحِسّه ، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء .

فإذا أُخبر عن الإنسان بشدة تلبسه ببعض النقائص وجُعل ذلك في قالب أنه جبل عليه فالمقصود من ذلك : إلقاء تَبِعة ذلك عليه لأنه فرط في إراضة نفسه على ما فيها من جبلة الخير ، وأرخى لها العنان إلى غاية الشر ، وفرط في نصائح الشرائع والحكماء .

وإذا أُسند ما يأتيه الإِنسان من الخير إلى الله تعالى فالمقصود : التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوة الجالبة للخير فيه ، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحق ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : 79] عقب قوله : ﴿ قلْ كلٌّ من عند الله فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 78] .

وفي هذا المجال زلت أفهام المعتزلة ، وحَلِكَتْ عليهم الأجواء ، ففكروا وقدَّروا ، وما استطاعوا مخلصاً وما قدَروا .

واعلم أن كلمة (خُلق الإنسان) إذا تعلق بها ما ليس من المواد مثل ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمْشاج ﴾ [الإنسان : 2] بل كان من الأخلاق والغرائز قد يُعنى بها التنبيه على جبلة الإِنسان وأنها تسرع إلى الاعتلاق بمشاعره عند تصرفاته تعريضاً بذلك لوجوب الحذر من غوائلها نحو ﴿ خلق الإنسان من عَجل ﴾ [الأنبياء : 37] ﴿ إن الإِنسان خلق هلوعاً ﴾ ، وقد ترد للعذر والرفق نحو قوله : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإِنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : 28] ، وقد ترد لبيان أصل ما فُطر عليه الإِنسان ومَا طرأ عليه من سوء تصرفه في أفعاله كما في قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 45] ففعل الخلق من كذا مستعار لكثرة الملابسة .

قال عروة بن أُذَيْنَة:

إن التي زَعَمَتْ فؤادَكَ ملّها . . .

خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

أراد إبطال أن يكون ملَّها بحجة أنها خُلقت حبيبة له كما خُلق محبوبها ، أي إن محبته إياها لا تنفك عنه .

والهلع : صفة غير محمودة ، فوصف الإِنسان هنا بها لوْم عليه في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها ، ولذلك ذيل به قوله : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ [المعارج : 18] على كلا معنييه .

وانتصب ﴿ جزوعاً ﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿ هلوعاً ، ﴾ أو على البدل بدل اشتمال لأن حال الهلع يشتمل على الجزع عند مس الشر .

(227/781)

وقوله : ﴿ منوعاً ﴾ عطف على ﴿ جزوعاً ، ﴾ أي خلق هلوعاً في حال كونه جزوعاً إذا مسه الشر ، ومنوعاً إذا مسه الخير .

و ﴿ الشر ﴾ : الأذى مثل المرض والفقر .

و ﴿ الخير ﴾ : ما ينفع الإنسان ويلائم رغباته مثل الصحة والغنى .

والجزوع : الشديد الجزع ، والجزع : ضد الصبر .

والمنوع : الكثير المنع ، أي شديد المنع لبذل شيء مما عنده من الخير .

و﴿ إذا ﴾ في الموضعين ظرفان يتعلقان كل واحد بما اتصل به من وصفي ﴿ جزوعاً ومنوعاً .

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)

استثناء منقطع ناشىء عن الوعيد المبتدأ به من قوله : ﴿ يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ﴾ [المعارج : 11] الآية .

فالمعنى على الاستدراك .

والتقدير : لكن المصلين الموصوفين بكَيْت وكَيْتِ أولئك في جنات مكرمون .

فجملة ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ حيث وقعت بعد ﴿ إلاَّ ﴾ المنقطعة وهي بمعنى (لكنَّ) فلها حكم الجملة المخبر بها عن اسم (لكنَّ) المشددة أو عن المبتدأ الواقع بعد (لكنْ) المخففة وهو ما حققه الدماميني ، وإن كان ابن هشام رأى عدّ الجملة بعد الاستثناء المنقطع في عداد الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب .

والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين ، ووعدهم بوعيدهم على عادة القرآن في أمثال هذه المقابلة .

وهذه صفات ثمان هي من شعار المسلمين ، فعدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى

تعداد خصال من خصالهم إطناباً في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب ، وتنبيهاً على أن كلّ صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات .

(228/781)

وهذه الصفات لا يشاركهم المشركون في معظمها بالمرة ، وبعضها قد يتصف به المشركون ولكنهم لا يراعونه حق مراعاته باطراد ، وذلك حفظ الأمانات والعهد ، فالمشرك يحفظ الأمانة والعهد اتقاء مذمة الخيانة والغدْر ، ومع أحلافه دون أعدائِه ، والمشرك يشهد بالصدق إذا لم يكن له هوى في الكذب ، وإذا خشي أن يوصم بالكذب .

وقد غدر المشركون بالمسلمين في عدة حوادث ، وغدر بعضهم بعضاً ، فلو علم المشرك أنه لا يطلع على كذبه وكان له هوى لم يؤد الشهادة .

ولما كان وصف ﴿ المصلين ﴾ غلب على المسلمين كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ما سلككم في سقَر قالوا لم نك من المصلين ﴾ الآية [المدثر : 42 ، 43] ، أتبع وصف المصلين في الآية هذه بوصف ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ أي مواظبون على صلاتهم لا يتخلفون عن أدائها ولا يتركونها .

والدوام على الشيء : عدم تركه ، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً فيه ، كما تقرر

في أصول الفقه في مسألة إفادة الأمر التكرار .

وفي إضافة (صلاة) إلى ضمير ﴿ المصلين ﴾ تنويه باختصاصها بهم ، وهذا الوصف للمسلمين مُقابل وصف الكافرين في قوله : ﴿ بعذاب واقع للكافرين ﴾ [المعارج : 1 ، 2] .

ومجيء الصلة جملةً اسمية دون أن يقال : الذين يدومون ، لقصد إفادتها الثبات تقوية كمفاد الدوام .

وإعادة اسم الموصول مع الصِّلات المعطوفة على قوله ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ لمزيد العناية بأصحاب تلك الصِّلات .

وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم ﴿ حق ﴾ للإِشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم في مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذٍ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت .

ومعنى كون الحق معلوماً أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه ، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم .

ومجيء الصلة جملة اسمية لإِفادة ثبات هذه الخصلة فيهم وتمكنها منهم دفعاً لتوهم الشح في بعض الأحيان لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشحّ للنفوس .

والسائل : هو المستعطي ، و ﴿ المحروم ﴾ : الذي لا يَسأل الناس تعففاً مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم .

وأصل المحروم : الممنوع من مرغوبه ، وتقدم في سورة الذاريات (19) في قوله : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم .

وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة في قوله : وجمَع فأوعَى ﴾ [المعارج : 18] .

والتصديق بيوم الدين هو الإِيمان بوقوع البعث والجزاءِ ، و ﴿ الدينُ ﴾ : الجزاء .

وهذا الوصف مقابل وصف الكافرين بقوله : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ [المعارج : 6] .

ولما كان التصديق من عمل القلب لم يتصور أن يكون فيه تفاوت أُتي بالجملة الفعلية على الأصل في صلة الموصول ، وأوثر فيها الفعل المضارع لدلالته على الاستمرار .

ووصفهم بأنهم ﴿ من عذاب ربهم مشفقون ﴾ مقابل قوله في حق الكافرين ﴿ سال سائل بعذاب واقع للكافرين ﴾ [المعارج : 1 ، 2] لأن سؤالهم سؤال مستخف بذلك ومحيله .

والإِشفاق : توقع حصول المكروه وأخذُ الحذر منه .

وصوغ الصلة بالجملة الاسمية لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإِشفاق لأنه من المغيبات ، فمن شأن كثير من الناس التردد فيه .

وجملة ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ معترضة ، أي غير مأمون لهم ، وهذا تعريض بزعم المشركين الأَمْنَ منه إذ قالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ [الشعراء : 138] .

(230/781)

ووصفُهم بأنهم ﴿ لفروجهم حافظون ﴾ مقابل قوله في تهويل حال المشركين يوم الجزاء بقوله : ﴿ ولا يَسْأل حميم حميماً ﴾ [المعارج : 10] إذ أخص الأَحِمَّاء بالرجل زوجه ، فقصد التعريض بالمشركين بأن هذا الهول خاص بهم بخلاف المسلمين فإنهم هم وأزواجهم يحبرون لأنهم اتقوا الله في العفة عن غير الأزواج ، قال تعالى : ﴿ الأخلاَّءُ يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ إلاّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

وتقدم نظير هذا في سورة المؤمنين ، أي ليس في المسلمين سفاح ولا زنا ولا مخالّة ولا بغاء ، ولذلك عقب بالتفريع بقوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .

والعادي : المفسد ، أي هم الذين أفسدوا فاختلطت أنسابهم وتطرقت الشكوك إلى حصانة نسائهم ، ودخلت الفوضى في نظم عائلاتهم ، ونشأت بينهم الإِحن من الغيرة .

وذكرُ رعي الأمانات والعهد لمناسبة وصف ما يودّ الكافر يوم الجزاء أن يفتديه من العذاب بفصيلته التي تؤويه فيذهب منه رعي العهود التي يجب الوفاء بها للقبيلة .

وحسبك من تشويه حاله أنه قد نكث العهود التي كانت عليه لقومه من الدفاع عن حقيقتهم بنفسه وكان يفديهم بنفسه ، والمسلم لما كان يرعى العهد بما يمليه عليه دينه جازاه الله بأن دفع عنه خزي ودادة فدائه نفسه بمواليه وأهل عهده .

والقول في اسمية الصلة كالقول في الذي قبله .

والرعي : الحفظ والحراسة .

وأصله رعي الغنم والإِبل .

وقرأ الجمهور لأماناتهم ﴾ بصيغة الجمع .

وقرأه ابن كثير ﴿ لأمانتهم ﴾ بالإِفراد والمراد الجنس .

وقوله : ﴿ والذين هم بشهادتهم قائمون ﴾ ذكر لمناسبة ذكر رعي الأمانات إذ الشهادة من جملة الأمانات لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له كانت في حفظ الشاهد .

ولذلك كان أداء الشهادة إذا طولب به الشاهد واجباً عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ [البقرة : 282] .

والقيام بالشهادة : الاهتمام بها وحفظها إلى أن تؤدى ، وهذا قيام مجازي كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في سورة البقرة (3) .

وباء بشهادتهم ﴾ للمصاحبة ، أي يقومون مصاحبين للشهادة ويصير معنى الباء في الاستعارة معنى التعدية .

فذكر القيام بالشهادة إتمام لخصال أهل الإِسلام فلا يتطلب له مقابل من خصال أهل الشرك المذكورة فيما تقدم .

والقول في اسمية جملة الصلة للغرض الذي تقدم لأن أداء الشهادة يشق على الناس إذ قد يكون المشهود عليه قريباً أو صديقاً ، وقد تثير الشهادة على المرء إِحْنَة منه وعداوة .

وقرأ الجمهور ﴿ بشهادتهم ﴾ بصيغة الإِفراد ، وهو اسم جنس يعم جميع الشهادات التي تحملوها .

وقرأ حفص ويعقوب ﴿ بشهاداتهم ﴾ بصيغة الجمع .

وذلك على اعتبار جمع المضاف إليه .

وقوله : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها ، لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ مثل : عافاه الله ، وقاتله الله ، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها .

وإيثار الفعل المضارع لإِفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به ، وبذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين .

وفي الأخبار النبوية أخبار كثيرة عن فضيلة الصلاة ، وأن الصلوات تكفر الذنوب كحديث " مَا يُدريكم ما بَلَغتْ به صلاته "

وقد حصل بين أخرى هذه الصلات وبين أولاها محسن رد العجز على الصدر .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ يفيد تقوية الخبر مع إفادة التجدد من الفعل المضارع .

ولما أُجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أخبر عن جزائهم عليها بأنهم مُكرمون في الجنة .

(232/781)

وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة من أجْل ما سبَق قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) .

والإِكرام : التعظيم وحسن اللقاء ، أي هم مع جزائهم بنعيم الجنات يكرمون بحسن اللقاء

والثناء ، قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وقال ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] .

وهذا يقتضي أن يكون قوله : ﴿ في جنات ﴾ خبراً عن اسم الإشارة وقوله ﴿ مكرمون ﴾ خبراً ثانياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(233/781)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/782)

الجزء الثانى والثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من (سورة المعارج)

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من السورة

(4/782)

قوله تعالى ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تحرر بهذا الكلام الإلهي الذي يشك عاقل في أن مخلوقاً لا يقدر عليه ، وأنه لا يقدر عليه إلا الله الواحد الذي لا شريك له ، العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، أنه لا يتقصى عن نقائص الإنسان حتى يتخلص من ظلمات النقصان إلى نور الإحسان إلا من لازم هذه الأوصاف وزكى نفسه بها ليصير كاملاً مع العلم القطعي عند المسلم والكافر أن الكمال سبب السعادة ، وأن الإنسان مطبوع على ما صدر به سبحانه من النقائص ، علم أن المتصفين بهذه الأوصاف هم المختصون بالسعادة الأخروية ، وكان الكفار يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - ويجلسون حوله بالقرب منه ليسمعوا كلامه ويكذبوه ويهزؤوا به ، وكان العاقل لا ينبغي له أن يأتي شيئاً لا سيما إن كان إتيانه إليه على هيئة الإسراع إلا لتحصيل السعادة ، سبب عن ذلك قوله معبراً عن عظمة القرآن بما حاصله أنهم حين يسمعونه يصيرون لشدة ما يفزعهم أمره لا يتمالكون فيفعلون أفعال من لا وعي له : ﴿ فمال الذين كفروا ﴾ أي أي شيء من السعادة للذين ستروا مرائي عقولهم عن الإقرار بمضمون هذا الكلام الذي هو أوضح من الشمس ، حال كونهم ﴿ قبلك ﴾ أي نحوك أيها الرسول

الكريم وفيما أقبل عليك ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين مع مد الأعناق وإدامة النظر إليك في غاية العجب من مقالك هيبة من يسعى إلى أمر لا حياة له بدونه .

ولما كان الذي يتطير فيراعي الأيامن والأشائم على ما تقدم في الصافات ، لا يترك ذلك إلا في أمر أدهش عقله وأطار لبه ، فلم يدعه يتأمل ، قال مشيراً إلى شدة اعتنائهم بهذا الإهطاع مع عدم التحفظ من شيء : ﴿ عن ﴾ أي متجاوزين إليك كل مكان كان عن جهة ﴿ اليمين ﴾ أي منك حيث يتمنون به ﴿ وعن الشمال ﴾ أي منك وإن كانوا يتشاءمون به ﴿ عزين ﴾ أي حال كونهم جماعات جماعات وخلقاً خلقاً متفرقين فرقاً شتى أفواجاً يتمهلون ليأتوا جميعاً جمع عزة ، وأصلها عزوة لأن كل فرقة تعتزي إلى غير ما تعتزي إليه الأخرى ، جمع جمع سلامة شذوذاً .

(5/782)

ولما كان هذا الإسراع على هذا الوجه لا ينبغي أن يكون إلا فيما يتحقق أنه مسعد ، ومع تحقق أنه مسعد لا ينبغي أن يكون إلا فيما تحصل به السعادة الأبدية ؛ قال منبهاً على ذلك منكراً أن يكون لهم ما كان ينبغي ألا يكون فعلهم ذلك إلا له مع أنه كان من جملة استهزائهم إذا تحلقوا لسماع ما يقرأ أن يقولوا : إن كان ما يقول حقاً من أمر البعث والجنة لنكونن أسعد

بها منهم كما أنا أسعد منهم في هذه الدار كما قال تعالى حاكياً عنهم في قوله : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت : 50] وذلك أنه كثيراً ما يأتي الغلط من أن الإنسان يكون في خير في الدنيا فيظن أن ذلك مانع له من النار لأنه خير في نفس الأمر ، أو يظن أن إمهاله وهو على الباطل رضي به ، ولا يدري أنه لا يضجر ويقلق ويعجل إلا من يخاف الفوت ، أو يكون شيء بغير إرادته : ﴿ أيطمع ﴾ أي بهذا الإتيان ، وعبر بالطمع إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في السفه لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له .

ولما كان إتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال : ﴿ كل امرىء منهم ﴾ أي على انفراده ، ولما كان المحبوب دخول الجنة لا كونه من مدخل معين ، قال بانياً للمفعول : ﴿ أن يدخل ﴾ أي بالإهطاع وهو كافر من غير إيمان يزكيه كما يدخل المسلم فيستوي المسيء والمحسن ﴿ جنة نعيم ﴾ أي لا شيء فيها غير النعيم في كل ما فيها على تقدير ضبطه .

ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري المفيد للنفي : لا يدخل ، أكد ذلك مع إفهام الضجر والاستصغار بالإتيان بأم الزواجر والروادع فقال : ﴿ كلا ﴾ أي لا يكون ما طمعوا فيه أصلاً لأن ذلك تمن فارغ لا سبب له – بما دل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء .

ولما كان الإنسان إذا أكثر من شيء وجعله ديدنه فساغ عندهم أن يقال : فلان خلق من كذا ، علل ذلك بقوله مؤكداً ، عدّاً لهم منكرين لأنهم مع علمهم بنقصانهم يدعون الكمال : ﴿ إنا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ خلقناهم ﴾ بالعظمة التي لا يقدر أحد أن يقاويها فيصرف شيئاً من إرادته عن تلك الوجهة التي وجهته إليها إلى غيرها ﴿ مما يعلمون ﴾ أي مما يستحي من ذكره ذاتاً ومعنى ، أما الذات فهو نطفة مذرة أخرجت من مخرج البول وغذيناها بدم الحيض ، فهي يتحلب منها البول والعذرة ، وأما المعنى فالهلع والجزع والمنع اللاتي هم موافقون على عدها نقائص ، فلا يصلحون لدار الكمال إلا بتزكية أنفسهم بما تقدم من هذه الخلال التي حض عليها الملك المتعال ، روى البغوي بسنده عن بشر بن جحاش ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال : " يقول عز وجل : ابن آدم ! أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين والأرض منك وئيد وجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنّى أوان الصدقة " " انتهى .

(7/782)

ولما كان في ذكر هذا الخلق مع ما تقدم إشارة عظيمة إلى ما كانوا يقولون : إنه إن كان الأمر كما يقولون من الحشر والجنة لنكونن آثر عند الله منكم ولندخلنها كما نحن الآن آثر منكم عنده بما لنا من الأموال ، والبسطة في الدنيا والوجاهة والإقبال ، وتنبيه على أن الكل متساوون في أنهم من نطفة فما فضلهم في هذه الدنيا بهذه النعم الظاهرة إلا هو سبحانه ، وقد فضل المؤمنين بالنعم الباطنة التي زادتهم في التمكن فيها التزكية بهذه الأوصاف العملية الناشئة عن الصفة العلمية ، وهو قادر على أن يضم إلى النعم الباطنة النعم الظاهرة ، ولذلك سبب عنه قوله : وأكد بنفي القسم المشير إلى عدم الحاجة إليه لكثرة الأدلة المغنية عنه لما لذلك المقسم عليه من الغرابة في ذلك الوقت لكثرة الكفار وقوة شوكتهم : ﴿ فلا ﴾ أي فتسبب عن خلقنا لهم من ذلك المنبه على أنا نقدر على كل شيء نريده وأنه لا يعجزنا شيء أي لا ﴿ أقسم ﴾ فلفت القول إلى أفراد الضمير معرى عن مظهر العظمة لئلا يتعنت متعنت في أمر الواحدانية ﴿ برب ﴾ أي مربي وسيد ومبدع ومدبر ﴿ المشارق ﴾ التي تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة كل يوم في موضع منها على المنهاج الذي دبره ، والقانون القويم الذي أتقنه وسخره ، ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة ﴿ والمغارب ﴾ كذلك على هذا الترتيب المحكم الذي لا يعتريه اختلال ، وهي التي ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الأربعة ، فكان بها صلاح العالم بمعرفة الحساب وإصلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب ، فيوجد كل من الملوين بعد أن لم يكن والنبات من النجم

والشجر كذلك عادة مستمرة دالة على أنه قادر على الإيجاد والإعدام لكل ما يريده كما يريده من غير كلفة ما .

(8/782)

ولما كان المعنى : لا أقسم بذلك وإن كان عظيماً لأن الأمر في وضوحه لا يحتاج إلى قسم ، كما لو قال خصم لخصمه : احلف ، فيقول له : الأمر غني عن حلفي إذ يحتاج إلى اليمين من لا بينة له ، ثم يأتي من البينات بما لا يكون معه شبهة ، وكانوا في تفضيل أنفسهم – مع الاعتراف لله بالقدرة – كالمنكرين للقدرة على قلب الأمر ، أكد قوله عائداً إلى مظهر العظمة بعد دفع اللبس بما هو في وضوحه أجلى من الشمس : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لقادرون ﴾ بأنواع التأكيد بالأداة والأسمية والالتفات إلى مظهر العظمة في كل من الاسم والخبر ، فكان في إخباره بعد الإقسام مع التأكيد إشارة إلى أعلى مراتب التأكيد ﴿ على أن نبدل ﴾ أي تبديلاً عظيماً بما لنا من الجلالة عوضاً عنهم ﴿ خيراً منهم ﴾ أي بالخلق أو تحويل الوصف فيكونوا أشد بسطة في الدنيا وأكثر أموالاً وأولاداً وأعلى قدراً وأكثر حشماً ووجاهة وحزماً وخدماً ، فيكونوا عندك خلقاً على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء

والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك ، وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان بالسعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر ، والتمكن في الأرض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ، فرجوا الكرب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال .

ولما كان الإنسان قد يفعل شيئاً ثم ينقض عليه ، أخبر أنه سبحانه على غير ذلك فقال : ﴿ وما ﴾ وأكد الأمر بالأسمية الكائنة في مظهر العظمة فقال : ﴿ نحن ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ بمسبوقين ﴾ أي من سابق ما يغلب على شيء لم نرده بوجه من الوجوه ، ولذلك أتى باسم المفعول .

(9/782)

ولما ثبت أن له سبحانه العظمة البالغة الباهرة من شمول العلم وتمام القدرة ، فأنتج اعتماد أهل حزبه عليه وإعراضهم عن كل ما سواه ، سبب عن ذلك قوله تهديداً للمخالفين وتسلية للمؤالفين : ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم ﴿ يخوضوا ﴾ أي يفعلوا في مقالهم وفعالهم الذي لا شيء منه على إتقان بل هو كفعل الخائض في الماء الذي لا يضع رجله في موضع يعلم أنه يرضيه ، فهو بصدد أن يقع أو يغرق ﴿ ويلعبوا ﴾ أي يفعل فعل

اللاعب الذي لا فائدة لفعله إلا ضياع الزمان والتعطل عما يهم من عظيم الشأن .

ولما كان ما توعد الله من أحوال الآخرة لا بد من وقوعه كان كأنه قادم على الإنسان والإنسان ساع بجهده إليه ، فلذلك عبر بالمفاعلة فقال : ﴿ حتى يلاقوا ﴾ ولما كان ما يقع للكفار منه أعظم ، كان ذلك اليوم كأنه خاص بهم فقال : ﴿ يومهم الذي ﴾ ولما كان الوعيد – وهو ما كان من الخبر تخويفاً للمتوعد – صادعاً للقلوب إذا كان من القادر من غير حاجة إلى ذكر المتوعد ، بني المفعول قوله : ﴿ يوعدون ﴾ وهو يوم كشف الغطاء الذي أول تجليته عند الغرغرة ونهايته النفخة الثانية إلى دخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره ، والآية منسوخة بآية السيف .

ولما كان ما بعد النفخة الثانية أعظمه وأهوله ، أبدل منه قوله : ﴿ يوم يخرجون ﴾ أي هؤلاء الذين يسألون عنه سؤال استهزاء ويستبعدونه ، وقراءة أبي بكر عن عاصم بالبناء للمفعول على طريقة كلام القادرين تدل على أنه مما هو في غاية السهولة ﴿ من الأجداث ﴾ أي القبور التي صاروا بتغييبهم فيها تحت وقع الحافر والخف ، فهم بحيث لا يدفعون شيئاً يفعل بهم بل هم كلحم في فم ماضغ ، فإن الجدث القبر والجدثة صوت الحافر والخف ومضغ اللحم ﴿ سراعاً ﴾ أي نحو صوت الداعي .

ولما كانت عادة الإنسان الإسراع إلى ما يقصده من الأعلام المنصوبة ، وعادتهم – هم بالخصوص – المبادرة إلى الأنصاب التي يبعدونها ما هي عليه من الخساسة خفة منهم في العلوم وطيشاً في الحلوم قال : ﴿ كأنهم إلى نصب ﴾ أي علم منصوب مصدر بمعنى المفعول كما تقول : هذا نصب عيني وضرب الأمير – هذا على قراءة الجماعة بالفتح ، وعلى قراءة ابن عامر وحفص بالضم : إلى علم أو شيء يعبدونه من دون الله على ما فيه من الداء القاتل والبلاء ، أو حجر يذبحون عليه ، قال في الجمع بين العباب والمحكم : النَصْب والنُصْب والنُصُب : الداء والبلاء : والنُصُب كل ما نصب فجعل علماً ، والنَصْب والنَصَب : العلم المنصوب ، والنُصْب والنُصُب : كل ما عبد من دون الله ، والجمع أنصاب ، والأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح عليها لغير الله ، وانصاب الحرم : حدوده ، وقال أبو حيان : والنصب ما نصب للإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم ، وغلب في الأصنام حتى قيل : الأنصاب ﴿ يوفضون ﴾ أي يعجلون عجلة من هو ذاهب إلى ما يسره حتى كأنه يطرد إليه كما كانوا يسرعون إلى أنصابهم .

ولما كان إيفاضهم إلى الأنصاب على حال السرور ، أخبر أن هذا على خلاف ذلك ، وأن ذكر النصب وتصوير حالة الإتيان إليه ما كان إلا تهكماً بهم فقال : ﴿ خاشعة ﴾ أي

منكسرة متواضعة لما حل بها من الذل والصغار ، وألحقها علامة التأنيث زيادة في هذا المعنى ومبالغة فيه بقوله : ﴿ أبصارهم ﴾ .

ولما كان خشوعها دائماً فعبر بالاسم ، وكان ذلهم يتزايد في كل لحظة ، عبر بالفعل المضارع المفيد للتجدد والاستمرار فقال : ﴿ ترهقهم ﴾ أي تغشاهم فتعمهم ، وتحمل عليم فتكلفهم كل عسر وضيق على وجه الإسراع إليهم ﴿ ذلة ﴾ ضد ما كانوا عليه في الدنيا لأن من تعزز في الدنيا على الحق ذل في الآخرة ، ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة .

(11/782)

ولما صوره بهذه الصورة أشار إلى أن هذا ما تدركه العقول من وصفه وأنه أعظم من ذلك فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الذي هو في غاية ما يكون من علو الرتبة في العظمة ﴿ اليوم الذي كانوا ﴾ أي في حال الدنيا على غاية ما يكون من المكنة في الوعيد .

ولما كان الوعيد لا يتحقق إلا إذا كان من القادر ، وإذا كان كذلك كان مخيفاً موجعاً من غير ذكر من صدر عنه ، بني للمفعول قوله : ﴿ يوعدون ﴾ أي يجدد لهم الإيعاد به في الدنيا في كل وقت لعلهم يتعظون فترق قلوبهم فيرجعون عما هم فيه من الجبروت ، وهذا هو زمان العذاب الذي سألوا عنه أول السورة ، فقد رجع كما ترى آخرها على أولها أي رجوع ،

وانضم مفصلها إلى موصلها انضمام المفرد إلى المجموع - والله الهادي إلى الصواب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 156 . 161 ﴾

(12/782)

فصل

قال الفخر :

ثم ذكر بعده ما يتعلق بالكفار فقال :

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36)

المهطع المسرع وقيل : الماد عنقه ، وأنشدوا فيه :

بمكة أهلها ولقد أراهم . . بمكة مهطعين إلى السماع

والوجهان متقاربان ، روى أن المشركين كانوا يحتفون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه ، ويقولون : إذا دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد : فلندخلنها قبلهم ، فنزلت هذه الآية فقوله : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين نحوك مادين أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ، وقال أبو مسلم : ظاهر الآية يدل على أنهم هم المنافقون ، فهم الذين كانوا عنده وإسراعهم المذكور هو الإسراع في الكفر كقوله : ﴿ لاَ

يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ فِى الكفر ﴾ [المائدة : 41] .

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37)

وذلك لأنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين ، ومعنى : عزين جماعات في تفرقة ، واحدها عزة ، وهي العصبة من الناس ، قال الأزهري : وأصلها من قولهم : عزا فلان نفسه إلى بني فلان يعزوها عزواً إذا انتهى إليهم ، والاسم العزوة وكان العزة كل جماعة اعتزوها إلى أمر واحد ، واعلم أن هذا من المنقوص الذي جاز جمعه بالواو والنون عوضاً من المحذوف وأصلها عزوة ، والكلام في هذه كالكلام في ﴿ عِضِينَ ﴾ [الحجر : 91] وقد تقدم ، وقيل : كان المستهزئون خمسة أرهط .

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)

والنعيم ضد البؤس ، والمعنى أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون .

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

ثم قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع لهم عن ذلك الطمع الفاسد .

ثم قال : ﴿ إِنَّا خلقناهم مّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الغرض من هذا الاستدلال على صحة البعث ، كأنه قال : لما قدرت على أن أخلقكم من النطفة ، وجب أن أكون قادراً على بعثكم .

المسألة الثانية :

ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً أحدها : أنه لما احتج على صحة البعث دل على أنهم كانوا منكرين للبعث ، فكأنه قيل لهم كلا إنكم منكرون للبعث ، فمن أين تطمعون في دخول الجنة وثانيها : أن المستهزئين كانوا يستحقرون المؤمنين ، فقال تعالى : هؤلاء المستهزئون مخلوقون مما خلقوا ، فكيف يليق بهم هذا الاحتقار وثالثها : أنهم مخلوقون من هذه الأشياء المستقذرة ، فلو لم يتصفوا بالإيمان والمعرفة ، فكيف يليق بالحكيم إدخالهم الجنة .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41)

يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبي وبالمغرب موته أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات ﴿ إِنَّا لقادرون على أَن نُّبَدّلَ خَيْراً مّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ وهو مفسر في قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ [الواقعة : 60 ، 61] وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ مفسر في آخر

سورة والطور ، واختلفوا في أن ما وصف الله بالقدرة عليه من ذلك هل خرج إلى الفعل أم لا ؟ فقال بعضهم : بدل الله بهم الأنصار والمهاجرين فإن حالتهم في نصرة الرسول مشهورة ، وقال آخرون بل بدل الله كفر بعضهم بالإيمان ، وقال بعضهم : لم يقع هذا التبديل ، فإنهم أو أكثرهم بقوا على جملة كفرهم إلى أن ماتوا ، وإنما كان يصح وقوع التبديل بهم لو أهلكوا ، لأن مراده تعالى بقوله : ﴿ إِنَّا لقادرون على أَن نُّبَدّلَ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ بطريق الإهلاك ، فإذا لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع ، وإنما هدد تعالى القوم بذلك لكي يؤمنوا .

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43)

(14/782)

ثم ذكر تعالى ذلك اليوم الذي تقدم ذكره فقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداثِ سِرَاعاً ﴾ وهو كقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مّنَ الأجداث إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خاشعة أبصارهم تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

اعلم أن في ﴿ نَصَبٌ ﴾ ثلاث قراءات أحدها : وهي قراءة الجمهور ﴿ نَصَبٌ ﴾ بفتح النون والنصب كل شيء نصب والمعنى كأنهم إلى علم لهم يستبقون والقراءة الثانية :

﴿ نَصَبٌ ﴾ بضم النون وسكون الصاد وفيه وجهان أحدهما : النصب والنصب لغتان مثل الضعف والضعف وثانيهما : أن يكون جمع نصب كشقف جمع شقف والقراءة الثالثة : ﴿ نَصَبٌ ﴾ بضم النون والصاد ، وفيه وجهان أحدهما : أن يكون النصب والنصب كلاهما يكونان جمع نصب كأسد وأسد جمع أسد وثانيهما : أن يكون المراد من النصب الأنصاب وهي الأشياء التي تنصب فتعبد من دون الله كقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ [المائدة : 3] وقوله : ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون ، ومعنى الآية على هذا الوجه أنهم يوم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصارهم ، وبقية السورة معلومة ، والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 116.118 ﴾

(15/782)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان ﴾

عموم لاسم الجنس ، لكن الإشارة هنا إلى الكفار ، لأن الأمر فيهم وكيد كثير ، والهلع جزع

واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع ونحوه قوله عليه السلام : " شر ما في الإنسان شح هالع " . وقوله ﴿ إذا مسه ﴾ ، الآية ، مفسر للهلع ، وقوله تعالى : ﴿ إلا المصلين ﴾ أي إلا المؤمنين الذين أمر الآخرة أوكد عليهم من أمر الدنيا ، والمعنى أن هذا المعنى فيهم يقل لأنهم يجاهدون بالتقوى ، وقرأ الجمهور : " على صلاتهم " بالإفراد ، وقرأ الحسن : " صلواتهم " بالجمع . وقوله تعالى : ﴿ دائمون ﴾ قال الجمهور المعنى : مواظبون قائمون لا يملون في وقت من الأوقات فيتركونها وهذا في المكتوب ، وأما النافلة فالدوام عليها الإكثار منها بحسب الطاقة ، وقد قال عليه السلام : " أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه " . وقال ابن مسعود : الدوام صلاتها لوقتها ، وتركها كفر ، وقال عقبة بن عامر : ﴿ دائمون ﴾ يقرؤون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً . ومنه الماء الدائم .

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24)

(16/782)

قال قتادة والضحاك : " الحق المعلوم " هي الزكاة المفروضة ، وقال الحسن ومجاهد وابن عباس : هذه الآية في الحقوق التي في المال سوى الزكاة وهي ما ندبت الشريعة إليه من المواساة ، وقد قال ابن عمر ومجاهد والشعبي وكثير من أهل العلم : إن في المال حقاً سوى

الزكاة وهذا هو الأصح في هذه الآية لأن السورة مكية ، وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة . و" السائل " : المتكفف ، ﴿ والمحروم ﴾ المحارف الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعاياته لدنياه ، قالت عائشة : هو الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه . وقال بعض أهل العلم ، ﴿ المحروم ﴾ : من احترق زرعه ، وقال بعضهم ﴿ المحروم ﴾ : من ماتت ماشيته ، وهذه أنواع الحرمان لأن الاسم يستلزم هذا خاصة ، وقال عمر بن عبد العزيز ﴿ المحروم ﴾ : الكلب أراد ، والله أعلم أن يعطي مثالاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأجر حسب الحديث المأثور ، وقال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم . وحكى عنه النقاش أنه قال : وهو ابن سبعين سنة سألت عنه وأنا غلام فما وجدت شفاء .

قال القاضي أبو محمد : يرحم الله الشعبي فإنه في هذه المسألة محروم ، ولو أخذه اسم جنس فيمن عسرت مطالبه بان له ، وإنما كان يطلبه نوعاً مخصوصاً كالسائل ، و ﴿ يوم الدين ﴾ هو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يوم المجازاة ، و ﴿ الدين ﴾ : الجزاء كما تقول العرب : كما تدين تدان . . . ومنه قول الفند الزماني : [الهزج]

ولم يبق سوى العدوا . . . ن دنّاهم كما دانوا

(17/782)

والإشفاق من أمر يتوقع ، لأن نيل عذاب الله للمؤمنين متوقع ، والأكثر ناج بحمد الله ، لكن عذاب الله لا يأمنه إلا من لا بصيرة له ، والفروج في هذه الآية : هي الفروج المعروفة ، والمعنى من الزنى ، وقال الحسن بن أبي الحسن أراد فروج الثياب وإلى معنى الوطء يعود . ثم استثنى تعالى الوطء الذي أباحه الشرع في الزوجة والمملوكات . وقوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ وحسن دخول ﴿ على ﴾ في هذا الموضوع قوله : ﴿ غير ملومين ﴾ ، فكأنه قال : إلا أنهم غير ملومين على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم . وقوله تعالى : ﴿ ابتغى ﴾ معناه : طلب ، وقوله : ﴿ وراء ذلك ﴾ معناه : سوى ما ذكر ، كأنه أمر قد حد فيه حد ، فمن طلب بغيته وراء الحد فهو كمستقبل حد في الأجرام وهو يتعدى ، وراءه : أي خلفه ، و ﴿ العادون ﴾ : الذين يتجاوزون حدود الأشياء التي لها حدود كان ذلك في الأجرام أو في المعنى .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32)

(18/782)

الأمانات : جمع أمانة ، وجمعها لأنها تكون متنوعة من حيث هي في الأموال وفي الأسرار فيما بين العبد وربه فيما أمره ونهاه عنه ، قال الحسن : الدين كله أمانة . وقرأ ابن كثير

وحده من السبعة : " لأماناتهم " بالإفراد ، والعهد : كل ما تقلده الإنسان من قول أو فعل أو مودة ، إذا كانت هذه الأشياء على طريق البر ، فهو عهد ينبغي رعيه وحفظه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " حسن العهد من الإيمان " و: ﴿ راعون ﴾ جمع راع أي حافظ ، وقوله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ معناه في قول جماعة من المفسرين : أنهم يحفظون ما يشهدون فيه ، ويتيقنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكون لهم فيه تقصير ، وهذا هو وصف من تمثيل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " على مثل الشمس فاشهد " . وقال آخرون معناه الذين إذا كانت عندهم شهادة ورأوا حقاً يدرس أو حرمة لله تنتهك قاموا بشهادتهم ، وقال ابن عباس : شهادتهم في هذه الآية : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها " ، واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذين ذكرت في الآية ، إحداهما : أن يكون يحفظهما متقنة فيأتي بها ولا يحتاج أن يستفهم عن شيء منها ولا أن يعارض . والثاني : إذا رأى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إحياء الحق شهادة . وروي أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيأتي قوم يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السمن " . واختلف الناس في معنى هذا الحديث ، فقال بعض العلماء : هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أسمائهم في

وثائق الناس ، وينصبون لذلك الحبائل من زي وهيئة وهم غير عدول في أنفسهم فيغرون بذلك ويضرون .

(19/782)

قال القاضي أبو محمد : فهذا في ابتداء الشهادة لا في أدائها ، ويجيء قوله عليه السلام : " ولا يستشهدون " ، أي وهم غير أهل لذلك ، وقال آخرون من العلماء : هم شهود الزور ، لأنهم يؤدونها والحال لم تشهدهم ولا المشهود عليه ، وقرأ حفص عن عاصم : " بشهاداتهم " على الجمع وهي قراءة عبد الرحمن ، والباقون " بشهادتهم " على الإفراد الذي هو اسم الجنس . والمحافظة على الصلاة إقامتها في أوقاتها بشروط صحتها وكمالها ، وقال ابن جريج : يدخل في هذه الآية التطوع . وقوله تعالى : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ الآية نزلت بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة أحياناً ويقرأ القرآن ، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته ويقول بعضهم لبعض : شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك .

و ﴿ قبلك ﴾ معناه فيما يليك ، و: " المهطع " الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره . وقال ابن زيد : لا يطرف ، و: ﴿ عزين ﴾ جمع عزة ، قال بعض النحاة أصلها

عزوة ، وقال آخرون منهم : أصلها عزهة ، وجمعت بالواو والنون عوضاً مما انحذف منها نحو سنة وسنون ، ومعنى العزة : الجمع اليسير فكأنهم كانوا ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ومنه قول الراعي : [الكامل]

أخليفة الرحمن إن عشيرتي . . . أمس سوامهمُ عزين فلولا

(20/782)

وقال أبو هريرة : خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم حلق متفرقون فقال : " ما لي أراكم عزين " وقوله تعالى : ﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ نزلت لأن بعض الكفار قال : إن كانت ثم آخرة وجنة فنحن أهلها وفيها ، لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا . وقرأ السبعة والحسن وطلحة : " يُدخَل " بضم الياء وفتح الخاء على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ المفضل عن عاصم وابن يعمر والحسن وأبو رجاء وطلحة : "يَدخُل " ، بفتحها وضم الخاء على بناء الفعل للفاعل . وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ رد لقولهم وطمعهم : أي ليس الأمر كذلك ، ثم أخبر عن خلقهم من نطفة قذرة ، فأحال في العبارة عنها إلى علم الناس أي فمن خلق من ذلك فليس بنفس خلقه يعطى الجنة ، بل بالأعمال الصالحة إن كانت . وقال قتادة في تفسيرها : إنما خلقت

من قذر يا ابن آدم فاتق الله ، وقال أنس كان أبو بكر إذا خطبنا ذكر مناتي ابن آدم ومروره من مجرى البول مرتين وكونه نطفة في الرحم ثم علقة ثم مضغة إلى أن يخرج فيتلوث في نجساته طفلاً فلا يقلع أبو بكر حتى يقذر أحدنا نفسه .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40)

(21/782)

قرأ الجمهور : " فلا أقسم " وذلك على أن تكون " لا " زائدة ، أو تكون رداً لفعل الكفار وقولهم ثم يقع الابتداء بالقسم . وقرأ قوم من القراء " فلأقسم " دون ألف مفردة ، و ﴿ المشارق والمغارب ﴾ هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيث تغرب ، لأنها مختلفة عند التفضيل فلذلك جمع ، وقرأ عبد الله بن مسلم وابن محيصن : " برب المشرق والمغرب " على الإفراد ، ومتى ورد " المشرق والمغرب " ، وهي عبارة عن موضع الشروق وموضع الغروب بجملته وإن كان يتفصل بالصاد ، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن طرفي مواضع الشروق وطرفي موضع الغروب . وأقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن يبدل خيراً من ذلك العالم ، وأنه لا يسبقه شيء إلى إرادته .

وقوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ الآية وعيد وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية

السيف . وروي عن ابن كثير أنه قرأ : " يلقوا " بغير ألف ، وهي قراءة أبي جعفر وابن محيصن . و ﴿ يوم يخرجون ﴾ بدل من قولهم ﴿ يومهم ﴾ . وقرأ الجمهور : " يَخرُجون " بفتح الياء وضم الراء . وروى أبو بكر عن عاصم : ضم الياء وفتح الراء . و: ﴿ الأجداث ﴾ القبور ، والنصب : ما نصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم لأهل الأصنام . وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها الأنصاب ، ويقال لشبكة الصائد نصب . وقال أبو العالية ﴿ إلى نصب يوفضون ﴾ معناه : إلى غايات يستبقون . وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم " نَصب " بفتح النون ، وهي قراءة أبي جعفر ومجاهد وشيبة وابن وثاب والأعرج ، وقرأ الحسن وقتادة بخلاف عنهما : " نُصب " بضم النون . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم : " نُصُب " بضم النون والصاد وهي قراءة الحسن أيضاً وأبي العالية وزيد بن ثابت وأبي رجاء وقرأ مجاهد وأبو عمران الجوني " إلى نَصَب " بفتح النون والصاد و ﴿ يوفضون ﴾ معناه : يسرعون ومنه قول الراجز : [الرجز]

(22/782)

لأنعتنّ نعامة ميفاضا . . . خرجاء ظلت تطلب الاضاضا

و﴿ خاشعة ﴾ نصب على الحال ، ومعناه ذليلة منكسرة ، و﴿ ترهقهم ﴾ معناه : تظهر عليهم وتلح وتضيق نفوسهم ، ومن هذه اللفظة المرهق من السادة بحوائج الناس ، والمرهق بالدين ، وخلق فيها رهق أي إسراع إلى الناس وسيف فلان فيه رهق ، ومنه مراهقة الاحتلام ، وإرهاق الصلاة أي مزاحمة وقتها .

نجز تفسير "سورة المعارج" والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(23/782)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾

قال الأخفش : مسرعين .

قال :

بمكّةَ أهلُها ولقد أراهم . . .

إليه مهطعين إلى السماع

والمعنى : ما بالهم يُسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم .

وقيل : أي ما بالهم مسرعين في التكذيب لك .

وقيل : أي ما بال الذين كفروا يُسْرِعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزئوا بك .

وقال عطيّة : مهطعين : معرضين .

الكلبيّ : ناظرين إليك تعجّباً .

وقال قتادة : عامدين .

والمعنى متقارب ؛ أي ما بالهم مسرعين عليك ، مادّين أعناقهم ، مدمني النظر إليك .

وذلك من نظر العدوّ .

وهو منصوب على الحال .

نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه عليه السلام ولا يؤمنون به .

و"قِبَلَكَ" أي نحوك .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ أي عن يمين النبيّ صلى الله عليه وسلم وشماله حِلَقاً حِلَقاً وجماعات .

والعِزِين : جماعات في تفرقة ، قاله أبو عبيدة .

ومنه حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنه خرج على أصحابه فرآهم حِلَقاً فقال : "مالي أراكم عزين ألاَ تَصُفّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربّها قالوا : وكيف تَصُفّ الملائكة عند

ربّها ؟ قال : يُتمُّون الصفوفَ الأولَ ويتراصُّونَ في الصّف" " خرّجه مسلم وغيره .

وقال الشاعر :

تَرَانا عندَهُ واللَّيْلُ داجٍ . . .

على أبوابه حِلَقاً عِزِينا

أي متفرقين .

وقال الراعي :

أخليفةَ الرحمن إنّ عشيرتي . . .

أمسى سَرَاتُهُم إليك عِزِينا

أي متفرقين .

وقال آخر :

كأن الجماجم من وقعها . . .

خناطيل يهوين شَتَّى عِزِينا

أي متفرقين .

وقال آخر :

فلما أن أَتَيْن على أُضَاخٍ . . .

ضَرَحْنَ حَصَاهُ أَشْتَاتاً عِزِينا

وقال الكُمَيْت :

ونحنُ وجَنْدَلٌ باغٍ تَرَكْنَا . . .

كَتَائب جَنْدَلٍ شَتَّى عِزِينا

وقال عنترة :

وقِرْنٍ قد تركتُ لِذِي وَلِيٍّ . . .

عليه الطير كالعُصَبِ العِزِين

(24/782)

وواحد عِزين عِزة ، جُمع بالواو والنون ليكون ذلك عِوَضاً مما حُذِف منها .

وأصلها عِزْهة ، فاعتلّت كما اعتلّت سَنَة فيمن جعل أصلها سَنْهة .

وقيل : أصلها عِزْوة ، من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره .

فكل واحد من الجماعات مضافة إلى الأخرى ، والمحذوف منها الواو .

وفي الصحاح : "والعِزة الفِرْقة من الناس ، والهاء عوض من الياء ، والجمع عِزًى على فِعَل

وعزون وعُزون أيضاً بالضم ، ولم يقولوا عِزات كما قالوا ثبات .

قال الأصمعيّ : يقال في الدار عِزون ، أي أصناف من الناس .

و﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال ﴾ متعلق ب ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ ويجوز أن يتعلق ب ﴿ عِزِينَ ﴾ على حد قولك : أخذته عن زيد .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه فيكذّبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت : "أَيَطْمَعُ" الآية .

وقيل : كان المستهزئون خمسة أرهط .

وقرأ الحسن وطلحة بن مُصَرِّف والأعرج "أَنْ يَدْخُلَ" بفتح الياء وضم الخاء مسمّى الفاعل .

ورواه المفضّل عن عاصم .

الباقون "أَنْ يُدْخَلَ" على الفعل المجهول .

﴿ كَلاَّ ﴾ لا يدخلونها .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم .

فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تُستوجَب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى .

وقيل : كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبّرون عليهم .

فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ من القَذَر ، فلا يليق بهم هذا التكبر .

وقال قتادة في هذه الآية : إنما خُلِقْتَ يا ابن آدم من قذر فاتّق الله .

(25/782)

وروي أن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رأى المُهَلّب بن أبي صُفْرة يتبختر في مُطرَف خَزٍّ وجُبّة خزّ فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المِشْية التي يبغضها الله ؟ ! فقال له : أتعرفني ؟ قال نعم ، أوّلك نطفةٌ مِذرة ، وآخرك جيفةٌ قذِرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العَذِرة ، فمضى المهلّب وترك مشيته .

نظم الكلام محمود الورّاق فقال :

عَجِبتُ من مُعْجَبٍ بصورته . . .

وكان في الأصل نطفةً مَذِرهْ

وهو غَداً بعد حُسْن صورته . . .

يصيرُ في اللحد جيفةً قَذَرهْ

وهو على تيهه ونَخْوته . . .

ما بين ثوبيه يحمل العذرهْ

وقال آخر :

هل في ابن آدم غيرَ الرأس مَكْرُمةٌ . . .

وهو بخمسٍ من الأوساخ مضروب

أُنْفٌ يسيل وأُذْنٌ ريحها سَهِكٌ . . .

والعين مُرْمَصَة والثغْر ملهوب

يا بن التراب وماكول التراب غداً . . .

قصِّر فإنك ماكول ومشروب

وقيل : معناه من أجل ما يعلمون ، وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب .

كقول الشاعر وهو الأعشى :

أأَزْمَعْتَ من آل لَيْلى ابْتِكَارَا . . .

وشَطَّتْ علَى ذِي هَوًى أن تُزَارَا

أي من أجل لَيْلَى .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ أي أقسم .

و "لا" صلة .

﴿ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ هي مشارق الشمس ومغاربها .

وقد مضى الكلام فيها .

وقرأ أبو حَيْوَة وابن مُحَيْصِن وحُميد "بِربّ المشرِقِ والمغرِب" على التوحيد .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ .

على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ يقول : نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم ، والمجيء بخير منهم في الفضل والطوع والمال .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده .

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42)

أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ، على جهة الوعيد .

واشتغل أنت بما أُمِرت به ولا يعظمنّ عليك شركهم ، فإن لهم يوماً يَلقون فيه ما وُعِدوا .

(26/782)

وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد "حتّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ" .

وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43)

"يَوْمَ" بدل من "يَوْمَهُمُ" الذي قبله ، وقراءة العامة ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الراء

على أنه مسمّى الفاعل .

وقرأ السُّلَمِيّ والمغيرة والأعشى عن عاصم "يُخْرَجون" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول .

والأجداث : القبور ، واحدها جدث .

وقد مضى في سورة "يس" .

﴿ سِرَاعاً ﴾ حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي ، وهو نصب على الحال

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قراءة العامة بفتح النون وجزم الصاد .

وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد .

وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهما بضم النون وإسكان الصاد .

والنَّصْب والنُّصْب لغتان مثل الضَّعْف والضُّعْف .

الجوهريّ : والنَّصْب ما نُصِب فعُبِد من دون الله ، وكذلك النُّصْب بالضم ، وقد يحرّك .

قال الأعشى :

وذَا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه . . .

لعافِيةٍ والله ربّك فاعْبُدَا

أراد "فاعبدن" فوقف بالألف ، كما تقول : رأيت زيدا .

والجمع الأنصاب .

وقوله : "وذا النُّصُبَ" بمعنى إيّاك وذا النُّصُبَ .

والنُّصُبَ الشر والبلاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] .

وقال الأخفش والفرّاء : النُّصُب جمع النَّصْب مثل رَهْن ورُهُن ، والأنصاب جمع نُصُب ، فهو جمع الجمع .

وقيل : النّصُب والأنصاب واحد .

وقيل : النُصب جمع نصاب ، وهو حجر أو صنم يُذبح عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ [المائدة : 3] وقد قيل : نَصْب ونُصْب ونُصُب بمعنًى واحد ، كما قيل عَمْر وعُمْر وعُمُر .

ذكره النحاس .

قال ابن عباس : "إلى نَصْب" إلى غاية ، وهي التي تنصب إليها بصرك .

وقال الكلبيّ : إلى شيء منصوب ، عَلَم أو راية .

وقال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله

لا يلوى أوّلهم على آخرهم .

﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يُسرعون .

والإيفاض الإسراع .

قال الشاعر :

فوارس ذُبْيانَ تحت الحدي . . .

د كالجنّ يُوفضن من عَبْقَرِ

عبْقَرٌ : موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن .

قال لبيد :

* كهول وشبان كجِنّة عبقرِ . . .

وقال الليث : وفضت الإبل تَفِض وفضاً ، وأوفضها صاحبها .

فالإيفاض متعدّ ، والذي في الآية لازم .

يقال : وفض وأوفض واستوفض بمعنى أسرع .

قوله تعالى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾

أي ذليلة خاضعة ، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله .

﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي يغشاهم الهوان .

قال قتادة : هو سواد الوجوه .

والرهَقُ : الغشيان ، ومنه غلام مراهق إذا غشى الاحتلام .

رهِقه (بالكسر) يرهَقه رَهَقاً أي غَشِيَه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] .

﴿ ذَلِكَ اليوم الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب .

وأخرج الخبر بلفظ الماضي لأن ما وعد الله به يكون ولا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(28/782)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾

الهَلَعَ سرعةُ الجزعِ عند مسِّ المكروهِ وسرعةُ المنعِ عند مسِّ الخيرِ وقد فسَّرَهُ أحسنَ تفسيرٍ قولُهُ تعالَى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ أي الفقرُ والمرضُ ونحوهُما ﴿ جَزُوعاً ﴾ أي مبالغاً في الجزعِ مُكثراً منْهُ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير ﴾ أي السَّعةُ والصحةُ ﴿ مَنُوعاً ﴾ مبالغاً في المنعِ والإمساكِ . والأوصافُ الثلاثةُ أحوالٌ مقدرةٌ أو محققةٌ لأنها طبائعُ جُبلَ الإنسانُ عليها .

وإذَا الأولى ظرفٌ لجزوعَا والثانيةُ لمنوعَا ﴿ إلاَّ المصلين ﴾ استثناءٌ للمتصفينَ بالنعوتِ الجليلةِ الآتيةِ من المطبوعينَ على القبائحِ الماضيةِ لأنباءِ نعوتِهم عن الاستغراقِ في طاعةِ الحقّ والإشفاقِ على الخلقِ والإيمانِ بالجزاءِ والخوفِ من العقوبةِ وكسرِ الشهوةِ وإيثارِ الآجلِ على العاجلِ على خلافِ القبائحِ المذكورةِ الناشئةِ من الانهماكِ في حبِّ العاجلةِ وقصرِ النظرِ عليهِ .

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ لا يشغلُهم عنها شاغلٌ ﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ أي نصيبٌ معينٌ يستوجبونَهُ على أنفسِهم تقرباً إلى الله تعالَى وإشفاقاً على النَّاسِ من الزكاةِ المفروضةِ والصدقاتِ الموظفةِ .

(29/782)

﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ للذي يسألَهُ ﴿ والمحروم ﴾ الذي لا يسألَهُ فيظُنُّ أنه غنيٌّ فيحرمُ ﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بأعمالِهم حيثُ يتعبونَ أنفسَهُم في الطاعاتِ البدنيةِ والماليةِ طمعاً في المثوبةِ الأخرويةِ بحيثُ يُستدلُّ بذلكَ على تصديقِهم بيومِ الجزاءِ ﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفونَ على أنفسِهم مع ما لَهُم منَ الأعمالِ الفاضلةِ استقصاراً لها واستعظاماً لجنابِهِ عزَّ وجلَّ كقوله تعالَى : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ

إلى ربِّهِمْ راجعون ﴾ وقولِهِ تعالَى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ اعتراضٌ مؤذنٌ بأنه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يأمنَ عذابَهُ تعالَى وإنْ بالغَ في الطاعةِ ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون * إلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ سلفَ تفسيرُهُ في سورةِ المؤمنينَ ﴿ فَمَنِ ابتغى ﴾ أي طلبَ لنفسِهِ ﴿ وَرَاء ذلك ﴾ وراءَ ما ذُكِرَ من الأزواجِ والمملوكاتِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ المبتغونَ ﴿ هُمُ العادون ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى ﴿ والذين هُمْ لاماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ لا يُخلُّونَ بشيءٍ من حقوقِهَا ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بشهاداتهم قَائِمُونَ ﴾ أي مقيمونَ لها بالعدلِ إحياءً لحقوقِ الناسِ وتخصيصُهَا بالذكرِ مع اندراجِهَا في الأماناتِ لإبانةِ فضلِهَا وقُرِىءَ لأماناتِهم وبشهادَتِهم ، على إرادةِ الجنسِ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعونَ شرائطَهَا ويكملونَ فرائضَهَا وسننَهَا ومستحباتِهَا وآدابِهَا ، وتكريرُ ذكرِ الصَّلاةِ ووصفِهم بهَا أولاً وآخراً باعتبارينِ للدلالةِ على فضلِهَا وإنافتِهَا على سائرِ الطاعاتِ . وتكريرُ الموصولاتِ لتنزيلِ اختلافِ الصفاتِ منزلةَ اختلافِ الذواتِ ، كما في قولِ من قالَ :

(30/782)

إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابنِ الهُمَامِ . . . وَلَيْثِ الكَتَائِبِ فِي المُزْدَحَمْ

إيذاناً بأنّ كلَّ واحدٍ من الأوصافِ المذكورةِ نعتٌ جليلٌ على حيالِهِ له شأنٌ خطيرٌ مستتبعٌ لأحكامٍ جَمةٍ حقيقٌ بأنْ يُفردَ له موصوفٌ مستقلٌّ ولا يجعلُ شيءٌ منها تتمةً للآخرِ .

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصوفينَ بما ذُكِرَ من الصفاتِ ، وما فيهِ من مَعْنَى البعد مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهم للإيذانِ بعلوّ شأنِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ وهو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ فِي جنات ﴾ أي مستقرونَ في جناتٍ لا يُقادَرُ قَدرُهَا ولا يُدرَكُ كُنْهُهَا . وقوله تعالَى : ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ خبرٌ آخرُ ، أو هُو الخبرُ وفي جناتٍ متعلقٌ بِهِ قُدِّمَ عليهِ لمراعاةِ الفواصلِ ، أو بمضمرٍ هو حالٌ من الضميرِ في الخبرِ أي مكرمونَ كائنينَ في جنَّاتٍ .

﴿ فَمَالِ الذين كَفَرُواْ قَبْلَكَ ﴾ حولَكَ ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مُسرعينَ نحوكَ مادّي أعناقِهم إليكَ مقبلينَ بأبصارِهم عليكَ ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ أي فِرَقاً شتَّى جمعُ عِزَةٍ ، وأصلُهَا عِزْوَةٌ من العِزِّ ، وكأنّ كلَّ فرقةٍ تعتزي إلى غيرِ من تعتزي إليهِ الأُخرى ، كانَ المُشركونَ يحلّقونَ حولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حِلقاً حِلقاً وفِرقاً فِرقاً ويستهزئونَ بكلامِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ويقولونَ إنْ دخلَ هؤلاءِ الجنَّةَ كما يقولُ محمدٌ فلندخلنَّها قبلَهُم فنزلتْ ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمانٍ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لهم عن ذلكَ الطمعِ الفارغِ ﴿ إِنَّا خلقناهم مّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ قيلَ هو تعليلٌ للردعِ والمَعْنَى إنا خلقناهُم

من أجلِ ما يعلمونَ كما في قولِ الأَعْشَى

أَأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابتكارَا . . . وَشَطَّتْ عَلَى ذِي هَوَى أَنْ تَزَارَا

(31/782)

وهو تكميلُ النفسِ بالإيمانِ والطاعةِ فمنْ لَمْ يستكملْهَا بذلكَ فهو بمعزلٍ من أنْ يُبوأ مبوأَ الكاملينَ فمن أينَ لهُم أن يطمعُوا في دخولِ الجنةِ وهم مكبونَ على الكفرِ والفسوقِ وإنكارِ البعثِ ، وقيل معناهُ إنَّا خلقناهُم مما يعلمونَ من نطفةٍ مذِرةٍ فمن أينَ يتشرفونَ ويدّعُونَ التقدمَ ويقولونَ لندخلنَّ الجنةَ قبلَهُم ، وقيلَ إنهم مخلوقونَ من نطفةٍ قذرةٍ لا تناسبُ عالمَ القدسِ فمتَى لم تستكملِ الإيمانَ والطاعةَ ولم تتخلقْ بالأخلاقِ الملكيةِ لم تستعدَّ لدخولِهَا ولا يَخْفَى ما في الكلِّ من التمحلِ والأقربُ أنَّه كلامٌ مستأنفٌ قد سبقَ تمهيداً لما بعدَهُ من بيانِ قدرتِهِ تعالَى على أنْ يُهلكهم لكُفرِهِم بالبعثِ والجزاءِ واستهزائِهم برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وبما نزلَ عليهِ منَ الوحيِ وادعائِهم دخولَ الجنةِ بطريقِ السخريةِ وينشىءَ بدلَهُم قوماً آخرينَ فإن قدرَتَهُ تعالَى على ما يعلمونَ من النشأةِ الأُولى حجةٌ بينةٌ على قدرتِهِ تعالَى على ذَلكَ كما يفصحُ عنهُ الفاءُ الفصيحةُ في قولِهِ تعالَى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارقِ والمغاربِ ﴾ والمَعْنَى إذَا كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ من أنَّا خلقناهُم مما يعلمونَ فأقسمُ بربِّ المشارقِ

والمغاربِ . ﴿ إِنَّا لقادرون * على أَن نُّبَدّلَ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ أيْ نُهلكهُم بالمرةِ حسبَما تقتضيهِ جناياتُهم ونأتي بدلَهُم بخلقٍ آخرينَ ليسُوا على صفتِهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمغلوبينَ إنْ أرَدْنَا ذلكَ لكنْ مشيئتُنَا المبنيةُ على الحكمِ البالغةِ اقتضتْ تأخيرَ عقوباتِهم .

(32/782)

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فخلِّهم وشأنَهُم ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ في باطِلِهم الذي من جُمْلَتِهِ ما حُكِيَ عنهُم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دُنياهُم ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يومُ البعثِ عند النفخةِ الثانيةِ لا يومُ النفخةِ الأُولى كما توهمَ فإنَّ قولَهُ تعالَى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ بدلٌ منْ يومِهم . وقُرِىءَ يُخرجونَ على البناءِ للمفعولِ من الإخراجِ ﴿ سِرَاعاً ﴾ حالٌ من مرفوعِ يخرجونَ أي مسرعينَ ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ ﴾ وهو كلُّ ما نُصِبَ فعبدَ من دونِ اللهِ تعالَى . وقُرِىءَ بسكونِ الصَّادِ ، وبفتحِ النونِ وسكونِ الصادِ أيضاً . ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يُسرعونَ ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ وصفتْ أبصارُهُم بالخشوعِ معَ أنه وصفُ الكلِّ لغايةِ ظهورِ آثارِهِ فيها ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهُم ذِلةٌ شديدةٌ ﴿ ذلك ﴾ الذي ذُكِرَ ما سيقعُ فيهِ من الأحوالِ الهائلةِ ﴿ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدُّنيا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ ﴾

أي في الجهة التي تليك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ليظفروا بما يجعلونه هزؤا .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ جماعات في تفرقة كما قال أبو عبيدة وأنشدوا قول عبيد بن الأبرص :

فجاؤا يهرعون إليه حتى . . .

يكونوا حول منبره عزينا

وخص بعضهم كل جماعة بنحو ثلاثة أشخاص أو أربعة جمع عزة وأصلها عزوة من العز ولأن كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فلامها واو وقيل لامها هاء والأصل عزهة وجمعت بالواو والنون كما جمعت سنة وأخواتها وتكسر العين في الجمع وتضم وقالوا عزى على فعل ولم يقولوا عزات ونصب عزين على أنه حال من ﴿ الذين كفروا ﴾ [المعارج : 36] أو من الضمير في ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ [المعارج : 36] على

التداخل وعن اليمين إما متعلق به لأنه بمعنى متفرقين أو ب ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين عن الجهتين أو هو حال أي كائنين عن اليمين روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً يستمعون ويستهزؤن بكلامه عليه الصلاة والسلام ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلها قبلهم فنزلت وفي بعض الآثار ما يشعر بأن الأولى أن لا يجلس المؤمنون عزين لأنه من عادة الجاهلية .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أي بلا إيمان وهو إنكار لقولهم ان دخل هؤلاء الجنة الخ وقرأ ابن يعمر والحسن وأبو رجاء وزيد بن علي وطلحة والمفضل عن عاصم يدخل بالبناء للفاعل .

(34/782)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ ﴿ إِنَّا خلقناهم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ قيل هو تعليل للردع ومن أجلية والمعنى أنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة فمن لم يستكملها بذلك فهو بمعزل من أن يتبوأ متبوأ الكاملين فمن أين لهم أن يطعموا في دخول الجنة وهم مكبون على الكفر والفسوق وإنكار البعث وكون ذلك معلوماً لهم

باعتبار سماعهم إياه من النبي صلى الله عليه وسلم وقيل من ابتدائية والمعنى أنهم مخلوقون من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس فمتى لم تستكمل بالإيمان والطاعة ولم تتخلق باخلاق الملائكة عليهم السلام لم تستعد لدخولها وكلا القولين كما ترى وقال مفتى الديار الرومية ان الأقرب كونه كلاماً مستأنفاً قد سيق تمهيداً لما بعده من بيان قدرته عز وجل على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما نزل عليه عليه الصلاة والسلام من الوحي وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية وينشىء بدلهم قوماً آخرين فإن قدرته سبحانه على ما يعلمون من النشأة الأولى حجة بينة على قدرته عز وجل على ذلك كما يفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ أي إذا كان الأمر كما ذكرنا من أن خلقهم مما يعلمون وهو النطفة القذرة فلا أقسم برب المشَارق والمغارب ﴿ إِنَّا لقادرون ﴾ .

﴿ على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ أي نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم وناتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم .

(35/782)

﴿ وَمَا نَحْنُ ﴾ أي بمغلوبين ان أردنا ذلك لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم وفيه نوع بعد ولعل الأقرب كونه في معنى التعليل لكن على وجه قرر به صاحب الكشف كلام الكشاف فقال أراد أنه ردع عن الطمع معلل بإنكارهم البعث من حيث أن ذكر دليله إنما يكون مع المنكر فأقيم علة العلة مقام العلة مبالغة لما حكى عنهم طمع دخول الجنة ومن البديهي أنه ينافي حال من لا يثبتها فكأنه قيل إنه ينكر البعث فأنى يتجه طمعه واحتج عليهم بخلقهم أولا وبقدرته سبحانه على خلق مثلهم ثانياً وفيه تهكم بهم وتنبيه على مكان مناقضتهم فإن الاستهزاء بالساعة والطمع في دخول الجنة مما يتنافيان ووجه أقربيته قوة الارتباط بما سبق عليه وهو في الحقيقة أبعد مغزى ومنه يعلم أن ما قيل في قوله سبحانه إنا لقادرون على أن نبدل الخ أن معناه إنا لقادرون على أن نعطي محمد صلى الله عليه وسلم من هو خير منهم وهم الأنصار ليس بذاك وفي التعبير عن مادة خلقهم بما يعلمون مما يكسر سورة المتكبرين ما لا يخفى والمراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس المائة والثمانون ومغاربها كذلك أو مشارق ومغارب الشمس والقمر على ما روي عن عكرمة أو مشارق الكواكب ومغاربها مطلقاً كما قيل وذهب بعضهم إلى أن المراد رب المخلوقات بأسرها والكلام في فلا أقسم قد تقدم وقرأ قوم فلا قسم بلاء دون ألف وعبد الله بن مسلم وابن محيصن والجحدري المشرق والمغرب مفردين .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فخلهم غير مكترث بهم ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم الذي من جملته ما

حكى عنهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية لقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾

(36/782)

أي القبور فإنه بدل من ﴿ يومهم ﴾ وهو مفعول به ليلاقوا وتفسيره بيوم موتهم أو يوم بدر أو يوم النفخة الأولى وجعل يوم مفعولا به لمحذوف كاذكر أو متعلقاً بترهقهم ذلة مما لا ينبغي أن يذهب إليه وما في الآية من معنى المهادنة منسوخ بآية السيف وقرأ أبو جعفر وابن محيصن يلقوا مضارع لقي وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ يخرجون على البناء للمفعول من الاخراج ﴿ سِرَاعاً ﴾ أي مسرعين وهو حال من مرفوع يخرجون وهو جمع سريع كظريف وظراف ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ ﴾ وهو ما نصب فعبد من دون الله عز وجل وعده غير واحد مفردا وأنشد قول الأعشى

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه . . .

لعاقبة والله ربك فاعبدا

وقال بعضهم هو جمع نصاب ككتاب وكتب وقال الأخفش جمع نصب كرهن ورهن

والانصاب جمع الجمع وقرأ الجمهور نصب بفتح النون وسكون الصاد وهو اسم مفرد فقيل الصنم المنصوب للعبادة أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدي به السالك وقال أبو عمر وهو شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها مخافة أن يتفلت الصيد وقيل ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره وقرأ أبو عمران الحوفي ومجاهد نصب بفتح النون والصاد فعل بمعنى مفعول وقرأ الحسن وقتادة نصب بضم النون وسكون الصاد على أنه تخفيف نصب بضمتين أو جمع نصب بفتحتين كولد وولد ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ أي يسرعون وأصل الايفاض كما قال الراغب أن يعد ومن عليه الوفضة وهي الكنانة فتخشخش عليه ثم استعمل في الإسراع وقيل هو مطلق الانطلاق وروي عن الضحاك والأكثرون على الأول والمراد أنهم يخرجون مسارعين إلى الداعي يسبق بعضهم بعضاً والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة للمشركين وقد رأينا كثيراً من إخوانهم الذين يعبدون توابيت الأئمة ونحوهم رضي الله تعالى عنهم كذلك وكذا عادة من ضل الطريق أن يسرع إلى أعلامها وعادة الجند أن يسرعوا نحو منزل الملك .

(37/782)

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ لعظم ما تحققوه ووصفت أبصارهم بالخشوع مع أنه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ شديدة ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة ﴿ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي في الدنيا واسم الإشارة مبتدأ واليوم خبر والموصول صفته والجملة بعده صلته والعائد محذوف أي يوعدونه وقرأ عبد الرحمن بن خلاذ عن داود بن سالم عن يعقوب والحسن بن عبد الرحمن عن التمار ذلة بغير تنوين مضافاً إلى ذلك اليوم بالجر هذا واعلم أن بعض المتصوفة في هذا الزمان ذكر في شأن هذا اليوم الذي أخبر الله تعالى ان مقداره خمسون ألف سنة أن المراتب أربع الملك والملكوت والجبروت واللاهوت وكل مرتبة عليا محيطة بالسفلى وأعلى منها بعشر درجات لأنها تمام المرتبة لأن الله تعالى خلق الأشياء من عشر قبضات يعني من سر عشر مراتب الافلاك التسعة والعناصر في كل عالم بحسبه ولذا ترتبت مراتب الاعداد على الأربع والألف منتهى المراتب وأقصى الغايات ولما كانت النسبة إلى الرب أي إلى وجهة الحق هي الغاية القصوى بالنسبة إلى ما عداها ﴿ أن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] كان اليوم الواحد المنسوب إليه ألفا ولذا كان اليوم الربوبي ألف سنة كما قال سبحانه ﴿ وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : 47] فإذا ترقى الكون واقتضت الحكمة ظهور النشأة الأخرى وبروز آثار الاسم الأعظم في مقام الألوهية في رتبة الجامع ظهر الكون والأكوان والمكونات في محشر واحد على مراتبها في الأعيان فظهر سر النون من كلمة

﴿ كن ﴾ لظهور فيكون فظهر الخمسون في العود كما نزل في البدء وهو قوله سبحانه ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ [الأعراف : 69] فكان اليوم الواحد عند ظهور الاسم الأعظم في الجهة الجامعة خمسين ألف سنة فالألف لترقي الواحد ولما كانت المراتب خمسين كان خمسين ألفا والخمسون تفاصيل ظهور اسم الرب عند ظهور اسم الله في عالم الأمر الذي هو أول

(38/782)

مراتب التفصيل في قوله تعالى كن وكان أول ظهور التفصيل خمسين لأن التوحيد الظاهر في النقطة والألف والحروف والكلمة التامة والدلالة التي هي تمام الخمسة إنما كانت في عشرة عوالم المراتب التعينات أو لأن الطبائع الأربعة مع حصول المزاج بظهور طبيعة خامسة وبها تمام الخمسة إنما كانت في عشرة عوالم بحسبها فكان المجموع خمسين والعوالم العشرة هي عالم الامكان وعالم الفؤاد وعالم القلب وعالم العقل وعالم الورح وعالم النفس وعالم الطبيعة وعالم المادة وعالم المثال وعالم الأجسام والخمسون في وجه الرب ووجهة الحق في العالم الأول الذي هو الآخر تكون خمسين ألف سنة انتهى فإن فهمت منه معنى صحيحاً تقبله ذوو العقول ولا يأباه المقول فذلك وإلا فاحمد الله تعالى على العافية واسأله عز وجل التوفيق للوصول إلى

معالم التحقيق وللشيخ الأكبر قدس سره أيضاً كلام في هذا المقام فمن أراده فليتتبع كتبه وليسأل الله تعالى الفتوحات وهو سبحانه ولي الهبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(39/782)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾

قال في الصحاح : الهلع في اللغة : أشدّ الحرص ، وأسوأ الجزع وأفحشه .

يقال : هلع بالكسر ، فهو هلع وهلوع على التكثير .

وقال عكرمة : هو الضجور .

قال : الواحدي ، والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ أي : إذا أصابه الفقر والحاجة ، أو المرض ، أو نحو ذلك ، فهو جزوع ، أي : كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ، ونحو ذلك ، فهو كثير المنع والإمساك .

وقال أبو عبيدة : الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشرّ لم يصبر .

قال ثعلب : قد فسّر الله الهلوع : هو الذي إذا أصابه الشرّ أظهر شدّة الجزع ، وإذا أصابه الخير بخل به ومنعه الناس ، والعرب تقول : ناقة هلوع ، وهلواع : إذا كانت سريعة السير خفيفته ، ومنه قول الشاعر :

شكاء ذعلبة إذا استدبرتها . . . جرح إذا استقبلتها هلواع

والذعلبة : الناقة السريعة ، وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقدّرة ، أو محققة ؛ لكونها طبائع جبل الإنسان عليها ، والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً .

﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ أي : المقيمين للصلاة وقيل : المراد بهم أهل التوحيد يعني : أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع ؛ وأنهم على صفات محمودة وخلال مرضية ؛ لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير .

ثم بيّنهم سبحانه فقال : ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ أي : لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً .

قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة ، وقال الحسن ، وابن جريج : هو التطوع منها .

قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة .

وقيل : الذين يصلونها لوقتها ، والمراد بالآية جميع المؤمنين ، وقيل : الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين .

﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة ، ومحمد بن سيرين : المراد الزكاة المفروضة .

وقال مجاهد : سوى الزكاة .

وقيل : صلة الرحم ، والظاهر أنه الزكاة لوصفه بكونه معلوماً ، ولجعله قريناً للصلاة ، وقد تقدّم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات مستوفى .

﴿ والذين يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي : بيوم الجزاء ، وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه .

وقيل : يصدّقونه بأعمالهم ، فيتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿ والذين هُم مّنْ عَذَابِ رَبّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي : خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاراً لأعمالهم ، واعترافاً بما يجب لله سبحانه عليهم .

وجملة : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ مقرّرة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد ، وأن حق كل أحد أن يخافه .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ قد تقدم

تفسيره في سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ والذين هُمْ لاماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ أي : لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها ، ولا ينقضون شيئًا من العهود التي يعقدونها على أنفسهم .

قرأ الجمهور : ﴿ لأماناتهم ﴾ بالجمع ، وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن " لأمانتهم " بالإفراد ، والمراد : الجنس : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بشهاداتهم قَائِمُونَ ﴾ أي : يقيمونها على من كانت عليه من قريب أو بعيد ، أو رفيع أو وضيع ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، وقد تقدّم القول في الشهادة في سورة البقرة ، قرأ الجمهور : " بشهادتهم " بالإفراد .

وقرأ حفص ، ويعقوب وهي رواية عن ابن كثير بالجمع .

قال الواحدي : والإفراد أولى لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات .

(41/782)

قال الفرّاء : ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادةِلِلَّهِ ﴾ [الطلاق : 2] .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : على أذكارها وأركانها وشرائطها ، لا يخلون بشيء من ذلك .

قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها .

وقال ابن جريج : المراد التطوّع ، وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أوّلاً ، وما وصفهم به ثانياً ، فإن معنى الدوام : هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل ، كما سلف ؛ ومعنى المحافظة : أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها وقيل : المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها ، وكرّر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحقّ أن يستقلّ بموصوف منفرد ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿ فِى جنات مُّكْرَمُونَ ﴾ أي : مستقرّون فيها ، مكرمون بأنواع الكرامات ، وخبر المبتدأ قوله : ﴿ فِي جنات ﴾ ، وقوله : ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ خبر آخر ، ويجوز أن يكون الخبر مكرمون ، وفي جنات متعلق به .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي : أيّ شيء لهم حواليك مسرعين ، قال الأخفش : مهطعين مسرعين ، ومنه قول الشاعر :

بمكة أهلها ولقد أراهم . . . إليهم مهطعين إلى السماع

وقيل : المعنى : ما بالهم يسرعون إليك يجلسون حواليك ، ولا يعملون بما تأمرهم ؟ وقيل : ما بالهم مسرعين إلى التكذيب .

وقيل : ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك ، فيكذبونك ويستهزئون بك .

وقال الكلبي : إن معنى ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : ناظرين إليك .

وقال قتادة : عامدين .

وقيل : مسرعين إليك مادّي أعناقهم مديمي النظر إليك .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ أي : عن يمين النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن شماله جماعات متفرقة ، وعزين جمع عزة ، وهي العصبة من الناس ، ومنه قول الشاعر :

ترانا عنده والليل داج . . . على أبوابه حلقاً عزينا

وقال الراعي :

(42/782)

أخليفة الرحمن إن عشيرتي . . . أمسى سراتهم إليك عزينا

وقال عنترة :

وقرن قد تركت لدي ولي . . . عليه الطير كالعصب العزينا

وقيل : أصلها عزوة من العزو ؛ كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى .

قال في الصحاح : والعزة : الفرقة من الناس ، والهاء عوض من التاء ، والجمع عزى وعزون ،

وقوله : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال ﴾ متعلق بعزين ، أو بمهطعين .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يقولون :

لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّ قبلهم ، فنزلت الآية .

قرأ الجمهور : ﴿ أن يدخل ﴾ مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن ، وزيد بن عليّ ، وطلحة بن مصرف ، والأعرج ، ويحيى بن يعمر ، وأبو رجاء ، وعاصم في رواية عنه على البناء للفاعل .

ثم ردّ الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّا خلقناهم مّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من القذر الذين يعلمون به ، فلا ينبغي لهم هذا التكبر .

وقيل المعنى : إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو امتثال الأمر والنهي ، وتعريضهم للثواب والعقاب ، كما في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 59] ، ومنه قول الأعشى :

وأزمعت من آل ليلى ابتكارا . . . وشطت على ذي هوى أن يزارا

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن الهلوع ، فقال : هو كما قال الله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ هَلُوعاً ﴾ قال : الشره .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود : ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قال : على مواقيتها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن عمران بن حصين : ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قال : الذي لا يلتفت في صلاته .

(43/782)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عقبة بن عامر ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا .

وأخرج ابن المنذر من طريق أخرى عنه نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : ينظرون ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ قال : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به .

وأخرج مسلم ، وغيره عن جابر قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، ونحن حلق متفرقون فقال : " ما لي أراكم عزين " وأخرج أحمد ، وابن ماجه ، وابن سعد ، وابن أبي عاصم ، والباوردي ، وابن قانع ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب ، والضياء عن بشر بن جحاش قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّا خلقناهم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ثم بزق رسول الله

صلى الله عليه وسلم على كفه ، ووضع عليها أصبعه ، وقال : " يقول الله : ابن آدم ، أنى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدّلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أو أتى أوان الصدقة ".

(44/782)

قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾

"لا" زائدة كما تقدّم قريباً ، والمعنى : فأقسم ﴿ بِرَبّ المشارق والمغارب ﴾ يعني : مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه .

قرأ الجمهور : ﴿ المشارق والمغارب ﴾ بالجمع ، وقرأ أبو حيوة ، وابن محيصن ، وحميد بالإفراد .

﴿ إِنَّا لقادرون * على أَن نُّبَدّلَ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ أي : على أن نخلق أمثل منهم ، وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر ؛ ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء ، وعدم تبديلهم

بخلق آخر .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ أي : اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ، واشتغل بما أمرت به ولا يعظمنّ عليك ما هم فيه ، فليس عليك إلاّ البلاغ ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

قرأ الجمهور : ﴿ يلاقوا ﴾ .

وقرأ أبو جعفر ، وابن محيصن ، وحميد ، ومجاهد : " حتى يلقوا " ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ يوم بدل من يومهم ، وسراعاً منتصب على الحال من ضمير يخرجون ، قرأ الجمهور ﴿ يخرجون ﴾ على البناء للفاعل .

وقرأ السلمي ، والأعمش ، والمغيرة ، وعاصم في رواية على البناء للمفعول ، والأجداث جمع جدث ، وهو القبر ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نصب ﴾ بفتح النون وسكون الصاد .

وقرأ ابن عامر ، وحفص بضم النون والصاد ، وقرأ عمرو بن ميمون ، وأبو رجاء بضم النون وإسكان الصاد .

قال في الصحاح : والنصب ما نصب فعبد من دون الله ، وكذا النصب بالضم ، وقد يحرّك .

قال الأعشى :

وذا النصب المنصوب لا تعبدنه . . . ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

والجمع الأنصاب .

وقال الأخفش ، والفراء : النصب جمع النصب ، مثل رهن ورهن ، والأنصاب جمع النصب فهو جمع الجمع .

(45/782)

وقيل : النصب جمع نصاب ، وهو حجر أو صنم يذبح عليه ، ومنه قوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ [المائدة : 3] .

وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد .

وقيل : معنى ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ : إلى غاية ، وهي التي تنصب إليها بصرك ، وقال الكلبي : إلى شيء منصوب علم أو راية أي : كأنهم إلى علم يدعون إليه ، أو راية تنصب لهم يوفضون ، قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أوّلهم على آخرهم .

وقال أبو عمرو : النصب شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته .

ومعنى يوفضون : يسرعون ، والإيفاض الإسراع .

يقال : أوفض إيفاضاً ، أي : أسرع إسراعاً ، ومنه قول الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد . . . كالجنّ يوفض من عبقر

وعبقر : قرية من قرى الجن ، كما تزعم العرب ، ومنه قول لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر . . . وانتصاب ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ على الحال من ضمير يوفضون ، وأبصارهم مرتفعة به ، والخشوع الذلة والخضوع ، أي : لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي : تغشاهم ذلة شديدة .

قال قتادة هي : سواد الوجوه ، ومنه غلام مراهق : إذا غشيه الاحتلام ، يقال : رهقه بالكسر يرهقه رهقاً ، أي : غشيه ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره .

وهو مبتدأ وخبره : ﴿ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي : الذي كانوا يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق بهم وحضر ، ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به ، وإن كان مستقبلاً ، فهو في حكم الذي قد وقع لتحقق وقوعه .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبّ المشارق والمغارب ﴾ قال : للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه ، ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس .

وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قال : إلى علم يستبقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 292 . 295 ﴾

(46/782)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) ﴾

تفهام إنكاري وتعجيبي من تجمع المشركين إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستهزئين بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعيد المشركين بعذاب جهنم .

فرع ذلك على ما أفاده في قوله : ﴿ أولئك جنات مكرمون ﴾ [المعارج : 35] .

والمعنى : أن الذين كفروا لا مطمع لهم في دخول الجنة فماذا يحاولون بتجمعهم حولك بملامح استهزائهم .

وهذا وإن كان خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم فالمقصود به إبلاغه إليهم فيما يتلو عليهم من القرآن فهو موجه إليهم في المعنى كما يدل عليه تنهيته بحرف الردع فهو لا يناسب أن يكون إعلاماً للنبيء صلى الله عليه وسلم لذلك لأنه شيء مقرر في علمه .

ومعنى ﴿ فما للذين كفروا ﴾ : أيُّ شيء ثبت للذين كفروا في حال كونهم عندك ، أو في

حال إهطاعهم إليك .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا ﴾ في سورة البقرة (246) .

وتركيب ما لَه لا يخلو من حال مفردة ، أو جملة بعد الاستفهام تكون هي مصبَّ الاستفهام . فيجوز أن تكون الحال المتوجه إليها الاستفهام هنا الظرف ، أي قِبَلَك ﴾ فيكون ظرفاً مستقراً وصاحب الحال هو ﴿ للذين كفروا ﴾ .

ويجوز أن تكون ﴿ مهطعين ، ﴾ فيكون ﴿ قِبَلَك ﴾ ظرفاً لغْواً متعلقاً بـ ﴿ مهطعين . ﴾ وعلى كلا الوجهين هما مثار التعجيب من حالهم فأيهما جعل محل التعجيب أجري الآخَر المُجرى اللائق به في التركيب .

وكتب في المصحف اللام الداخلة على ﴿ الذين ﴾ مفصولة عن مدخولها وهو رسم نادر .

والإِهطاع : مد العنق عند السير كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ في سورة القمر (8) .

قال الواحدي والبغوي وابن عطية وصاحب الكشاف ﴾ : كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ويكذبونه ويستهزئون بالمؤمنين ، ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم .

فأنزل الله هذه الآية .

وقِبَل : اسم بمعنى (عند) .

وتقديم الظرف على ﴿ مهطعين ﴾ للاهتمام به لأن التعجيب من حالهم في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم أقوى لما فيهم من الوقاحة .

وموقع قوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ مثل موقع ﴿ قبلك ﴾ وموقع ﴿ مهطعين . ﴾ والمقصود : كثرة الجهات ، أي واردين إليك .

والتعريف في ﴿ اليمين ﴾ و ﴿ الشمال ﴾ تعريف الجنس أو الألف واللام عوض عن المضاف إليه .

والمقصود من ذكر اليمين والشمال : الإِحاطة بالجهات فاكتفي بذكر اليمين والشمال ، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما ، ومثله قول قَطَرِيّ بن الفُجَاءَةِ:

فلقد أراني للرماح دَرِيئَةً . . .

مِن عَنْ يميني مَرّة وأَمامي

يريد : من كل جهة .

و﴿ عزِين ﴾ حال من ﴿ الذين كفروا ﴾ .

و﴿ عزين ﴾ : جمع عِزَة بتخفيف الزاي ، وهي الفِرقة من النّاس ، اسم بوزن فِعْلَة .

وأصله عِزوة بوزن كِسوة ، وليست بوزن عِدَة .

وجرى جمع عِزة على الإلحاق بجمع المذكر السالم على غير قياس وهو من باب سَنَة من كل اسم ثلاثي حذفت لامه وعُوض عنها هاء التأنيث ولم يكسّر مثل عِضَة (للقطعة) .

وهذا التركيب في قوله تعالى : ﴿ فما للذين كفروا قِبَلك مهطعين ﴾ إلى قوله ﴿ جنة نعيم ﴾ يجوز أن يكون استعارة تمثيلية شبه حالهم في إسراعهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحال من يُظن بهم الاجتماع لطلب الهدى والتحصيل على المغفرة ليدخلوا الجنة لأن الشأن أن لا يلتف حول النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ طالبوا الاهتداء بهديه .

والاستفهام على هذا مستعمل في أصل معناه لأن التمثيلية تجري في مجموع الكلام مع بقاء كلماته على حقائقها .

(48/782)

ويجوز أن يكون الكلام استفهاماً مستعملاً في التعجيب من حال إسراعهم ثم تكذيبهم واستهزائهم .

وجملة ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يُدخل جنة نعيم ﴾ بدل اشتمال عن جملة ﴿ فما للذين كفروا قِبلك مهطعين ﴾ الآية ، لأنّ التفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم شأنه أن يكون لطلب الهدى والنجاة فشبه حالهم بحال طالبي النجاة والهدى فأُورد استفهام عليه .

وحكى المفسرون أن المشركين قالوا مستهزئين : نحن ندخل الجنة قبل المسلمين ، فجاز أن يكون الاستفهام إنكاراً لتظاهرهم بالطمع في الجنة بحمل استهزائهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم ، أو بالتعبير بفعل ﴿ يَطمع ﴾ عن التظاهر بالطمع كما في قوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سُورة تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ [التوبة : 64] أي يتظاهرون بأنهم يحذرون .

وأُسند الطمع إلى ﴿ كل امرىء منهم ﴾ دون أن يقال : أيطمعون أن يدخلوا الجنة ، تصويراً لحالهم بأنها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم ، يرون أنفسهم سواء في ذلك ، ففي قوله : ﴿ كل امرىء منهم ﴾ تقوية التهكم بهم .

ثم بني على التهكم ما يبطل ما فرض لحالهم بما بني عليه التمثيل التهكمي بكلمة الردع وهي ﴿ كلا ﴾ أي لا يكون ذلك .

وذلك انتقال من المجاز إلى الحقيقة ومن التهكم بهم إلى توبيخهم دفعاً لتوهم من يتوهم أن الكلام السابق لم يكن تهكماً .

وهُنا تمّ الكلام على إثبات الجزاء .

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

(49/782)

كلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً للانتقال من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث إبطالاً لشبهتهم الباعثة على إنكاره ، وهو الإنكار الذي ذكر إجمالاً بقوله المتقدم آنفاً ﴿ إنهم يَرونه بعيداً ونَراه قريباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] فاحتج عليهم بالنشأة الأولى ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [الواقعة : 62] فالخبر بقوله : ﴿ إنّا خلقناهم مما يعلمون ﴾ مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلْقهم بعد فنائهم .

فهذا من تمام الخطاب الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمقصود منه أن يبلغ إلى أسماع المشركين كما تقدم آنفاً .

والمعنى : أنا خلقنا الإنسان من نطفة حتى صارت إنساناً عاقلاً مناظراً فكذلك نعيد خلقه بكيفية لا يعلمونها .

فما صُدَقُ (ما يعلمون) هو ما يعلمه كل أحد من أنه كون في بطن أمه من نطفة وعلقة ، ولكنهم علموا هذه النشاة الأولى فألهاهم التعوّد بها عن التدبر في دلالتها على إمكان إعادة

المكوَّن منها بتكوين آخر .

وعُدِل عن أن يقال : إنا خلقناهم من نطفة ، كما قال في آيات أخرى ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ [الإنسان : 2] وقال : ﴿ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ [يس : 77 ، 78] وغيرها من آيات كثيرة ، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله : ﴿ مما يعلمون ﴾ توجيهاً للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا ، وعِلْمُ ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكَّرون ﴾ [الواقعة : 62] .

(50/782)

وكان في قوله تعالى : ﴿ مما يعلمون ﴾ إيماء إلى أنهم يُخْلَقون الخلقَ الثاني ﴿ مما لا يعلمون كما قال في الآية الأخرى سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : 36] وقال : ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 61] فكان في الخَلْق الأول سِرٌّ لا يعلمونه .

ومجيء ﴿ إنا خلقناهم ﴾ موكداً بحرف التأكيد لتنزيلهم فيما صدر منهم من الشبهة الباطلة منزلة من لا يعلمون أنهم خُلقوا من نطفة وكانوا معدومين ، فكيف أحالوا إعادة

خلقهم بعد أن عدم بعض أجزائهم وبقي بعضها ثم أتبع هذه الكناية عن إمكان إعادة الخلق بالتصريح بذلك بقوله : ﴿ فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم ﴾ مفرعاً على قوله : ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ والتقدير : فإنا لقادرون الآية .

وجملة (لا أقسم برب المشارق) الخ معترضة بين الفاء وما عطفته .

والقَسَم بالله بعنوان ربوبيته المشارقَ والمغارب معناه : ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها .

وجمع ﴿ المشارق والمغارب ﴾ باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمةِ الربانية لدلالته على عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات ، ولذلك لم يذكر في القرآن قسَم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب ، أقسم الله به على سُنة أقسام القرآن .

وفي إيثار ﴿ المشارق والمغارب ﴾ بالقسم بربها رَعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياءِ بعد الموت .

وتقدم القول في دخول حرف النفي مع (لا أقسم) عند قوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما

لا تبصرون ﴾ في سورة الحاقة (38 ، 39) ، وقوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ في سورة الواقعة (75) .

(51/782)

وقوله : على أن نبدل خيراً منهم ﴾ يحتمل معنيين : أولهما وهو المناسب للسياق أن يكون المعنى على أن نبدلهم خيراً منهم ، أي نبدل ذواتهم خلقاً خيراً من خلْقهم الذي هم عليه اليوم .

والخيرية في الإِتقان والسرعة ونحوهما وإنما كان خلقاً أتقن من النشأة الأولى لأنه خلق مناسب لعالم الخلود ، وكان الخلْق الأول مناسباً لعالم التغير والفناء ، وعلى هذا الوجه يكون ﴿ نُبدّلَ ﴾ مضمناً معنى : نعوّض ، ويكون المفعول الأول ل ﴿ نبدل ﴾ ضميراً مثل ضمير ﴿ منهم ﴾ أي نبدلهم والمفعولُ الثاني ﴿ خيراً منهم ﴾ .

و(مِن) تفضيلية ، أي خيراً في الخلقة ، والتفضيلُ باعتبار اختلاف زمانَي الخلْق الأول والخلق الثاني ، أو اختلافِ عالميهما .

والمعنى الثاني : أنْ نبدل هؤلاء بخير منهم ، أي بأمّة خير منهم ، والخيرية في الإيمان ، فيكون ﴿ نبدل ﴾ على أصل معناه ، ويكون مفعوله محذوفاً مثل ما في المعنى الأول ، ويكون ﴿

خيراً ﴾ منصوباً على نزع الخافض وهو باء البدلية كقوله تعالى : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ [البقرة : 61] ، ويكون هذا تهديداً لهم بأنْ سيستأصلهم ويأتيَ بقوم آخرين كما قال تعالى : ﴿ إن يشا يذهبكم ويأتِ بخلق جديد ﴾ [فاطر : 16] وقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد : 38] .

وفي هذا تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم وتذكير بأن الله عالم بحالهم .

وذيل بقوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ، ﴾ والمسبوق مستعار للمغلوب عن أمره ، شبه بالمسبوق في الحلبة ، أو بالمسبوق في السير ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ [العنكبوت : 4] ، ومنه قول مرة بن عَدَّاء الفقعسي :

كأنكَ لم تُسبَق من الدهر مرة . . .

إذا أنت أدركتَ الذي كنتَ تطلُب

يريد : كأنك لم تُغلب إذا تداركت أمرك وأدركت طلبتك .

(52/782)

و ﴿ على أن نبدل خيراً منهم ﴾ مُتعلق بـ ﴿ مسبوقين ، ﴾ أي ما نحن بعاجزين على ذلك التبديل بأمثالكم كما قال في سورة الواقعة (61) إنا لقادرون ﴿ على أن نبدل أمثالكم .

﴾

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42)

تفريع على ما تضمنه قوله : ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ [المعارج : 36] من إرادتهم بفعلهم ذلك وقولهم : إننا ندخل الجنة ، الاستهزاءَ بالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وبعدَ إبطاله إجمالاً وتفصيلاً فرع عن ذلك أمر الله رسوله بتركهم للعِلم بأنهم لم يُجْدِ فيهم الهَديُ والاستدلال وأنهم مصرون على العناد والمناواة .

ومعنى الأمر بالترك في قوله : ﴿ فذرهم ﴾ أنه أمر بترك ما أهمّ النبي صلى الله عليه وسلم من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث ولما كان أكبر أسباب إعراضهم وإصرارهم على كفرهم هو خوضهم ولعبهم كني به عن الإِعراض بقوله : ﴿ يخوضوا ويلعبوا .

فجملة يخوضوا ﴾ وجملة ﴿ ويلعبوا ﴾ حالان من الضمير الظاهر في قوله : ﴿ فذرهم ﴾ .

وتلك الحال قيد للأمر في قوله : ﴿ فذرهم ﴾ .

والتقدير : فذر خوضهم ولعبهم ولا تحزن لعنادهم وإصرارهم .

وتعدية فعل (ذَرْ) إلى ضميرهم من قبيل توجه الفعل إلى الذات .

(53/782)

والمراد توجهه إلى بعض أحوالها التي لها اختصاص بذلك الفعل ، مثل قوله تعالى : ﴿ حُرّمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي حرم عليكم أكلُها ، وقوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ [النساء : 23] أي أن تجمعُوهما معاً في عصمة نكاحٍ والاعتماد في هذا على قرينة السياق كما في الآيتين المذكورتين وقوله تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ في سورة الطور (45) ، أو على ذكر ما يدل على حالة خاصة مثل قوله : يخوضوا ويلعبوا ﴾ في هذه الآية ، فقد يكون المقدر مختلفاً كما في قوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] إذ التقدير : فاجتنبوا شرب الخمر والتقامر بالميسر وعبادة الأَنصاب والاستقسام بالأزلام .

﴾

وهذا الاستعمال هو المعنون في أصول الفقه بإضافة التحليل والتحريم إلى الأعيان ، أو

إسناد التحريم والتحليل إلى الأعيان ، ولوضوح دلالة ذلك على المراد لم يَعُدّه جمهور علماء الأصول من قبيل المجمل خلافاً للكرخي وبعض الشافعية .

وقد يتوسل من الأمر بالترك إلى الكناية عن التحقير وقلة الاكتراث كقول كَبْشَةَ أختِ عَمرو بن معديكرب تُلْهَب أخاها عمراً للأخذ بثأر أخيه عبد الله وكان قد قتل:

ودَعْ عنك عَمْراً إنَّ عَمْراً مُسالم . . .

وهل بَطْنُ عَمرو غَيْرُ شِبْرٍ لمَطْعَم

وما في هذه الآية من ذلك الأسلوب أي لا تكترث بهم فإنهم دون أن تصرف همتك في شأنهم مثل قوله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] .

وبهذا تعلم أن قوله تعالى : ﴿ فذرهم ﴾ لا علاقة له بحكم القتال ، ولا هو من الموادعة ولا هو منسوخ بآيات السيف كما توهمه بعض المفسرين .

والخوض : الكلام الكثير ، والمراد خوضهم في القرآن وشأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

(54/782)

واللعب : الهزل والهُزْء وهو لعبهم في تلقي الدعوة الإسلامية وخروجهم عن حدود التعقل والجِدّ في الأَمر لاستطارة رشدهم حسداً وغيظاً وحنقاً .

وجزم ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ في جواب الأمر للمبالغة في ارتباط خوضهم ولعبهم بقلة الاكتراث بهم إذ مقتضى جزمه في الجواب أن يقدر : أن تذرهم يَخوضوا ويلعبوا ، أي يستمروا في خوضهم ولعبهم وذلك لا يضيرك ، ومثل هذا الجزم كثير نحو ﴿ قُل للذين ءامنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليَجْزِيَ قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ [الجاثية : 14] ونحو ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [الإسراء : 53] .

وبعض المفسرين والنحويين يجعل أمثاله مجزوماً بلام الأمر مقدرة على أن ذلك مقول القول وهو يفيت نكتة المبالغة .

و ﴿ حتى ﴾ متعلقة بـ (ذرهم) لما فيه من معنى ، أمهلهم وانتظرهم ، فإن اليوم الذي وعدوه هو يوم النشور حين يجازَوْن على استهزائهم وكفرهم ، فلا يكون غاية ل ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ والغاية هنا كناية عن دوام تركهم .

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم لأدنى ملابسة .

وقرأ الجمهور ﴿ يلاقوا ﴾ بألف بعد اللام من الملاقاة .

وقرأه أبو جعفر بدون ألف من اللقاء .

واللقاء : مجاز على كل تقدير : فعلى قراءة الجمهور هو مجاز من جهتين لأن اليوم لا يَلقى ولا

يُلقى .

وعلى قراءة أبي جعفر هو مجاز من جهة واحدة لأن اللقاء إنما يقع بين الذَّوات .

و ﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ بدل من ﴿ يومَهم ﴾ ليس ظرفاً .

والخروج : بروز أجسادهم من الأرض .

وقرأ الجمهور ﴿ يخرجون ﴾ بفتح التحتية على البناء للفاعل .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمها على البناء للمفعول .

و ﴿ الأجداث ﴾ : جمع جدث بفتحتين وهو القبر ، والقبر : حفير يجعل لمواراة الميت .

وضمير ﴿ يخرجون ﴾ عائد إلى المشركين المخبر عنه بالأخبار السابقة .

وجميعهم قد دفنوا في قبور أو وضعوا في قليب بدر .

(55/782)

والنَّصْب بفتح فسكون : الصنم ، ويقال : نُصُب بضمتين ، ووجه تسميته نصباً أنه ينصب للعبادة ، قال الأعشى :

وذا النُصُبَ المنصوبَ لا تنسكنه . . .

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

و ﴿ يوفِضون ﴾ مضارع أوفض ، إذا أسرع وعدا في سيره ، أي كأنهم ذاهبون إلى صنم ، شُبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإِسراع اختصاصاً بهم ، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دعَ ، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام .

وقرأ الجمهور ﴿ نَصْب ﴾ بفتح النون وسكون الصاد .

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم بضم النون والصاد .

وخشوع الأبصار استعارة للنظر إلى أسفل من الذل ، كما قال تعالى : ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ [الشورى : 45] وقال : ﴿ خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : 7] .

وأصل الخشوع : ظهور الطاعة أو المخافة على الإِنسان .

والرهق : الغشيان ، أي التغطية بساتر ، وهو استعارة هنا لأن الذلة لا تغشى .

وجملة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ فذلكة لما تضمنته السورة في أول أغراضها من قوله : ﴿ بعذاب واقع إلى قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ﴾ الآيات [المعارج : 41] ، وهي مفيدة مع ذلك تأكيد جملة ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

﴿ وفيها مُحسِّن رد العجز على الصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سأل سائل ﴾ قال : هو النضر بن الحارث ، قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، وفي قوله : ﴿ بعذاب واقع ﴾ قال : كائن ﴿ للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج ﴾ قال : ذي الدرجات .

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ سأل سائل ﴾ قال : نزلت بمكة في النضر بن الحارث ، وقد قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، الآية ، وكان عذابه يوم بدر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ بعذاب واقع ﴾ قال : يقع في الآخرة قولهم في الدنيا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك هو النضر بن الحارث .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ فقال الناس : على من

يقع العذاب ؟ فأنزل الله ﴿ على الكافرين ليس له دافع ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ سأل سائل ﴾ قال : دعا داع ، وفي قوله : ﴿ بعذاب واقع ﴾ قال : يقع في الآخرة ، وهو قولهم : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : رجل من عبد نزار ويقال له الحارث بن علقمة : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فقال الله ؛ ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ [ص : 86] وقال الله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام : 94] وقال الله : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ هو الذي قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر ، وهو الذي قال : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ وهو الذي سأل عذاباً هو واقع به .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ سأل سائل ﴾ قال : سأل وادٍ في جهنم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذي المعارج ﴾ قال : ذي العلو والفواضل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله : ﴿ ذي المعارج ﴾ قال : معارج السماء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ذي المعارج ﴾ قال : ذي الفضائل والنعم .

وأخرج أحمد وابن خزيمة عن سعد بن أبي وقاص أنه سمع رجلاً يقول : لبيك ذي المعارج ، فقال : إنه لذو المعارج ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ تعرج الملائكة ﴾ بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحق رضي الله عنه قال : كان عبد الله يقرأ " يعرج الملائكة " بالياء .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ،

فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ قال : هذا في الدنيا ﴿ تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وفي قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

(58/782)

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم ، قال : يعني يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال : سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما ما هؤلاء الآيات ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال : يوم القيامة

حساب خمسين ألف سنة وخلق السموات والأرض في ستة أيام كل يوم ألف سنة ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ قال : ذلك مقدار المسير .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قالا : هي الدنيا أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسون ألف سنة يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : هو ما بين أسفل الأرض إلى العرش .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : ذلك يوم القيامة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

" سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ﴿ يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ما أطول هذا اليوم ، فقال : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قال : قدر يوم القيامة على المؤمن قدر ما بين الظهر إلى العصر .

(59/782)

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : يشتد كرب يوم القيامة حتى يلجم الكافر العرق ، قيل : فأين المؤمنون يومئذ ؟ قال : يوضع لهم كراسي من ذهب ، ويظلل عليهم الغمام ، ويقصر ذلك اليوم عليهم ، ويهون حتى يكون كيوم من أيامكم هذه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : يكون عليهم كصلاة المكتوبة .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في البعث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال : ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر .

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ صبراً جميلاً ﴾ قال : لا تشكو إلى أحد غيري .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الأعلى بن الحجاج في قوله : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو .

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6)

أخرج عبد بن حميد عن الأعمش رضي الله عنه ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ قال : الساعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ قال : بتكذيبهم ﴿ ونراه قريباً ﴾ قال : صدقاً كائناً .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والخطيب في المتفق والمفترق والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ قال : إنها الآن خضراء ، وإنها تحول يوم القيامة لوناً آخر إلى الحمرة .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ قال : كدرديّ الزيت وسواد العرق من خوف يوم القيامة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

تنادى به القسم السموم كأنها . . . تبطنت الأقراب من عرق مهلاً

(60/782)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ قال : عكر الزيت ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ قال : كالصوف ، وفي قوله : ﴿ يبصرونهم ﴾ قال : المؤمنون يبصرون الكافرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ قال : شغل كل إنسان بنفسه عن الناس ﴿ يبصرونهم ﴾ قال : تعلمن والله ليعرفن يوم القيامة قوم قوماً ، والناس أناس ﴿ يود المجرم لو يفتدي ﴾ الآية قال : يتمنى يوم القيامة لو يفتدي بالأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لتشديد ذلك اليوم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يبصرونهم ﴾ قال : يعرف بعضهم بعضاً ، وتعارفون ، ثم يفر بعضهم من بعض .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وفصيلته ﴾ قال : عشيرته .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب رضي الله عنه ﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ قال : قبيلته التي ينتسب إليها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وفصيلته ﴾ قال : قبيلته ، وفي قوله : ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : لجلود الرأس ﴿ تدعوا من أدبر وتولى ﴾ قال : عن الحق ﴿ وجمع فأوعى ﴾ قال : جمع المال .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : تنزع أم الرأس .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى

﴿ قال : لهامته ومكارم وجهه ﴿ تدعوا من أدبر ﴾ قال : عن طاعة الله تعالى ﴿ وتولى ﴾ قال : عن كتاب الله وعن حقه ﴿ وجمع فأوعى ﴾ قال : كان جموعاً للخبيث .

وأخرج عبد بن حميد عن قرة بن خالد رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : نزاعة للهام تحرق كل شيء منه ، ويبقى فؤاده نضجاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ الشوى الأطراف .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : فروة الرأس .

(61/782)

وأخرج ابن المنذر عن ثابت رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : لمكارم وجه ابن آدم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : للحم الساقين .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ نزاعة للشوى ﴾ قال : الأطراف .

وأخرج ابن سعد عن الحكم رضي الله عنه قال : كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه قال

: سمعت الله يقول : ﴿ جمع فأوعى ﴾ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلوع فقال : هو كما قال الله : ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ فهو الهلوع .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ قال : ضجوراً جزوعاً نزلت في أبي جهل بن هشام ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت بشر بن أبي حازم وهو يقول :

لا مانعاً لليتيم بخلقه . . . ولا مكباً بخلقه هلعاً

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه سئل عن قوله : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ قال : اقرأ ما بعدها ، فقرأ ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ قال : هكذا خلق .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ هلوعاً ﴾ قال : شحيحاً جزوعاً .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ هلوعاً ﴾ قال : الضجر .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ هلوعاً ﴾ قال : جزوعاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ هلوعاً ﴾ قال : الشره .

وأخرج ابن المنذر عن حصين بن عبد الرحمن ﴿ هلوعاً ﴾ قال : الحريص .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ هلوعاً ﴾ قال : الذي لا يشبع من جمع المال .

وأخرج الديلمي عن عليّ مرفوعاً يكتب أنين المريض ، فإن كان صابراً كان أنينه حسنات ، وإن كان جزوعاً كتب هلوعاً لا أجر له .

(62/782)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال : ذكر لنا أن دانيال نعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما أغرقوا ، أو عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة . قال قتادة : فعليكم بالصلاة فإنها خلق من خلق المؤمنين حسن .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه في قوله : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال : الصلاة المكتوبة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال : على مواقيتها .

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عمران بن حصين رضي الله عنه ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال : الذي لا يلتفت في صلاته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه في قوله : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا .

وأخرج ابن المنذر عن أبي الخير أن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال لهم : من الذين هم على صلاتهم دائمون ؟ قلنا الذين لا يزالون يصلون ، فقال : لا ، ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال .

وأخرج ابن حبان عن أبي سلمة رضي الله عنه قال : حدثتني عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا " قالت : وكان أحب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دووم عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة دام عليها . قال أبو سلمة رضي الله عنه : قال الله : ﴿ والذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم رضي الله عنه في قوله : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ قال : كانوا إذا خرجت الأعطية أعطوا منها .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ قال : ينظرون ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ قال : الغضب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ قال : عامدين ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ قال : فرقاً حول نبي الله لا يرغبون في كتاب الله ولا ذكره .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ قال : منطلقين ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ قال : متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما يقول هذا الرجل ؟

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ قال : الحلق الرفاق . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عبيد بن الأحوص وهو يقول :

فجاؤوا مهرعين إليه حتى . . . يكونوا حول منبره عزين

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ قال : عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله ﴿ عزين ﴾ قال : مجالس محتبين نفر قليل

قليل .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ عزين ﴾ قال : الحلق المجالس .

وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فقال : ما لي أراكم ﴿ عزين ﴾ حلقاً حلق الجاهلية ، قعد رجل خلف أخيه " .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن جابر بن سمرة قال : " دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون فقال : " ما لي أراكم ﴿ عزين ﴾ " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه جلوس حلقاً حلقاً فقال : " ما لي أراكم ﴿ عزين ﴾ " " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة ﴾ برفع الياء .

(64/782)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي معمر أنه قرأ ﴿ أن يدخل ﴾ بنصب الياء ورفع الخاء .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾

قال : كلا لست فاعلاً ، ثم ذكر خلقهم فقال : ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ يعني النطفة التي خلق منها البشر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ قال : إنما خلقت من قذر يا ابن آدم فاتق الله .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن بشير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ إلى قوله : ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ ثم بزق رسول الله صلى الله عليه وسلم على كفه ، ووضع عليها إصبعه ، وقال : " يقول الله ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا ، حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ قال : للشمس كل يوم مطلع . تطلع فيه ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس ، وغير مغربها بالأمس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾ قال : المنازل التي تجري فيها الشمس والقمر .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قال : إلى علم

يسعون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إلى نصب ﴾ قال : غاية ﴿ يوفضون ﴾ قال : يستبقون .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قال : يبتدرون نصيبهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ قال : القبور ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قال : إلى علم يسعون ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ قال : ذلك يوم القيامة .

(65/782)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية أنه قرأ ﴿ إلى نصب يوفضون ﴾ على معنى الواحد .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إلى نصب ﴾ خفيفة منصوبة النون على معنى واحدة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الأشهب عن الحسن أنه كان يقرأها " خاشعاً أبصارهم "

قال : وكان أبو رجاء يقرأها ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 277 . 287 ﴾

(66/782)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ .

قرأ نافع بغير همزة ، والباقون بالهمزة .

فمن قرأ بغير همزة ، فهو من سال يسال يعني : جرى واد بعذاب الله تعالى .

ومن قرأ بالهمزة ، فهو من سأل يسأل بمعنى دعا داع .

﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ ، وهو النضر بن الحارث ، فوقع به العذاب ، فقتل يوم بدر في الدنيا .

وقال مجاهد : دعا داع بعذاب يقع في الآخرة ، وهو قولهم : إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء .

ويقال : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ عن عذاب واقع والجواب : ﴿ للكافرين لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ يعني :

أن ذلك العذاب من الله واقع للكافرين .

﴿ مِنَ الله ﴾ الذي هو ﴿ ذِي المعارج ﴾ .

قال مقاتل : يعني : ذي الدرجات ، يعني : السموات السبع .

وقال القتبي : يعني : معارج الملائكة أي تصعد .

﴿ تَعْرُجُ الملئكة والروح إِلَيْهِ ﴾ يعني : جبريل .

﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني : ذلك العذاب واقع في يوم القيامة ، مقداره خمسين ألف سنة .

ويقال : يعني : يعرج جبريل والملائكة في يوم واحد كان مقداره لو صعد غيرهم خمسين ألف سنة .

وقال محمد بن كعب : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ يعني : اصبر صبراً حسناً لا جزع فيه .

ثم أخبر متى يقع العذاب فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ يعني : يوم القيامة غير كائن عندهم .

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ لا خلف فيه .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ يعني : اليوم الذي تكون السماء كالمهل أي : كدردي الزيت

من الخوف .

ويقال : ما أذيب من الفضة أو النحاس .

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ يعني : كالصوف المندوف .

قرأ الكسائي : ﴿ يَعْرُجُ الملائكة ﴾ بالياء ، والباقون بالتاء بلفظ التأنيث ، لأنها جمع الملائكة .

ومن قرأ بالياء ، فلتقديم الفعل .

(67/782)

وروي عن ابن كثير أنه قرأ : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ ﴾ بضم الياء ، والباقون بالنصب .

ومن قرأ بالضم ، فمعناه أنه لا يسأل قريب عن ذي قرابته ، لأن كل إنسان يعرف بعضهم بعضاً قوله تعالى ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يعني : يعرفونهم ملائكة الله تعالى .

ومن قرأ بالنصب ، معناه لا يسأل قريب عن قريبه ، لأنه يعرف بعضهم بعضاً ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يعني : يعرفونهم ويقال : مرة يعرفونهم ، ويقال : ومرة لا يعرفونهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ أي : يتمنى الكافر .

﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾ يعني : ينادي نفسه بولده ، ﴿ وصاحبته ﴾ يعني

: وزوجته ، ﴿ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ التى تُوِيهِ ﴾ يعني : عشيرته التي يأوى إليهم .

وقال مجاهد : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي : قبيلته ، هكذا روي عن قتادة .

وقال الضحاك : يعني : عشيرته .

﴿ وَمَن فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ يعني : يفادي نفسه بجميع من في الأرض .

﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ يعني : ينجي نفسه من العذاب .

قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي حقاً لا ينجيه ، وإن فادى جميع الخلق ، ولا يفادي نفسه

وقال أهل اللغة : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه يعني : لا يكون كما تمنى .

ثم استأنف الكلام ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لظى ﴾ يعني : النار والعقوبة ﴿ لظى ﴾ اسم من أسماء النار .

﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ يعني : قلاعة للأعضاء ؛ ويقال : حراقة للأعضاء والجسد .

وقال القتبي الشوى : جلود الرأس وأحدها شواة ، ويعني : أن النار تنزع جلود الرأس .

وعن أبي صالح قال : ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ أطراف اليدين والرجلين ؛ وقال مقاتل : يعني : تنزع النار الهامة والأطراف .

قرأ عاصم في رواية حفص : ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ نصباً على الحال ، والباقون بالضم يعني : إنها نزاعة للشوى .

﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ يعني : لظى تدعو إلى نفسه ، تنادي من أعرض عن التوحيد وأعرض عن الإيمان ؛ ويقال : إن لظى تنادي وتقول : أيها الكافر تعال إلي ، فإن مستقرك فيّ .

وتقول : أيها المنافق تعال إلي ، فإن مستقرك فيّ .

فذلك قوله : ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ ثم قال : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ يعني : جمع المال ومنع حق الله تعالى .

قال مقاتل : ﴿ فَأَوْعَى ﴾ يعني : فأمسكه ، فلم يؤد حق الله تعالى .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ يعني : حريصاً ضجوراً بخيلاً ممسكاً فخوراً ،

وقال القتبي : ﴿ هَلُوعاً ﴾ يعني : شديد الجزع .

يقال : ناقة هلوع ، إذا كانت شديدة النفس .

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ يعني : الفقر .

﴿ جَزُوعاً ﴾ يعني : لا يصبر على الشدة .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ يعني : إذا أصابه الغنى يمنع حق الله تعالى .

﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ ، فإنهم ليسوا هكذا ، وهم يؤدون حق الله تعالى .

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ يعني : يحافظون على الصلوات .

﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني : معروفاً ﴿ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ يعني : للسائل الذي يسأل الناس ، والمحروم الذي لا يشهد الغنيمة ولا يسهم له .

وروى وكيع ، عن سفيان ، عن قيس ، عن محمد بن الحسن قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية ، ففتحت ، فجاء آخرون بعد ذلك ، فنزل ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ .

وقال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ يعني : بيوم الحساب .

﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ يعني : خائفين .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ يعني : لم يأت لأحد الأمان من عذاب الله تعالى ؛ ويقال : لا ينبغي لأحد أن يأمن من عذاب الله تعالى .

(69/782)

ثم قال : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ وقد ذكرناه .

﴿ والذين هُمْ لاماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ يعني : الأمانات التي فيما بينهم وبين الله تعالى

، والعهد الذي بينهم وبين الله تعالى .

والأمانات والعهد التي بينهم وبين الناس حافظون .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بشهاداتهم قَائِمُونَ ﴾ يعني : يؤدون الشهادة عند الحاكم ، ولا يكتمونها إذا دعوا إليها ، فيؤدون الشهادة على الوجه الذي علموها وحملوها .

قرأ عاصم في رواية حفص ، وأبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ بشهاداتهم ﴾ وهو جمع الشهادة ، والباقون ﴿ بشهادتهم ﴾ وهي شهادة واحدة ؛ وإنما تقع على الجنس .

ثم قال : ﴿ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يعني : يداومون عليها ويحافظون عليها في مواقيتها .

﴿ أُوْلَئِكَ فِى جنات مُّكْرَمُونَ ﴾ يعني : أهل هذه الصفة ، في جنات مكرمون بثواب من الله تعالى بالتحف والهدايا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ يعني : حولك ؛ ويقال : عندك ناظرين .

والمهطع : المقبل ببصره على الشيء .

كانوا ينظرون إليه نظرة عداوة يعني : كفار مكة .

وإنما قولهم ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ نصباً على الحال .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ يعني : حلقاً حلقاً جلوساً لا يدنون منه ، فينتفعون

بمجلسه .

ويقال : ﴿ عِزِينَ ﴾ يعني : متفرقين .

وروى تميم ، عن طرفة ، عن جابر بن سمرة قال : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن جلوس متفرقين ، فقال : " مَا لِي أرَاكُمْ عِزِينَ ؟ " يعني : متفرقين ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ يعني : يتمنى كل واحد منهم أن يدخل الجنة ، كما يدخل المسلمون .

قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : لا يدخلون ما داموا على كفرهم .

(70/782)

ثم قال : ﴿ إِنَّا خلقناهم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : من النطفة ؛ وقال الزجاج : معناه أنهم خلقوا من تراب ، ثم من نطفة .

فأي شيء لهم يدخلون به الجنة ؟ ويقال : إنا خلقناهم مما يعلمون ، فبماذا يتكبرون ويتجبرون ؟ ثم قال عز وجل : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق ﴾ يعني : أقسم برب المشارق وقال في آية : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ .

وإنما أراد به الناحية التي تطلع الشمس ، والناحية التي تغرب الشمس منها .

وقال في آية أخرى : ﴿ رَبُّ المشرقين ﴾ يعني : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، ورب المغربين لذلك ؛ وقال في هذا الموضع : ﴿ رَبّ المشارق ﴾ يعني : مشرق كل يوم ؛ وهي ثمانون ومائة مشرق في الشتاء ومشرق مثلها في الصيف .

﴿ والمغارب ﴾ يعني : مغرب كل يوم .

﴿ إِنَّا لقادرون على أَن نُّبَدّلَ خَيْراً مّنْهُمْ ﴾ يعني : على أن نهلكهم ونخلق خلقاً خيراً منهم

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ يعني : عاجزين .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يعني : اتركهم وأعرض عنهم .

﴿ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ يعني : حتى يخوضوا ويلعبوا في الباطل ويستهزئوا .

﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ ﴾ يعني : يعاينوا يومهم ﴿ الذى يُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ يعني : في اليوم الذي يوعدون وفي اليوم الذي يخرجون من القبور سراعاً يعني : يسرعون إلى الصوت ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ يعني : كأنهم إلى علم منصوب يمضون .

(71/782)

قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد يعني : أصناماً لهم ، كقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَا أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بالازلام ذلكم فِسْقٌ اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشون اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً فَمَنِ اضطر فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 3] ، والباقون ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ يعني : إلى علم يستبقون .

وقال أهل اللغة : الإيفاض : الإسراع .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ يعني : ذليلة أبصارهم .

﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يعني : تغشاهم مذلة .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ يعني : يوعدون فيه العذاب ، وهم له منكرون ؛ وصلى الله على سيدنا محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 471 ـ 475 ﴾.

وقال الثعلبي :

سورة المعارج

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

قرأ أهل المدينة والشام سأل بغير همز ، وقرأ الباقون بالهمز واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، فمن قرأه بالهمز فهو من السؤال لا غير وله وجهان : أحدهما أن تكون الباء في قوله ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ بمعنى عن كقوله سبحانه : ﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] أي عنه ، وقال علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فانّي . . . بصير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء .

ومعنى الآية : سأل سائل عن عذاب واقع نازل : على من ينزل ؟ ولمن هو ؟ فقال الله سبحانه مجيباً له :

﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة قالا : كان هذا بمكّة ، لما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إليهم وخوّفهم بالعذاب والنكال ، قال المشركون بعضهم لبعض : من أهل هذا العذاب اسألوا محمداً لمن هو وعلى مَنْ ينزل وبمَنْ يقع ، فبيّن الله سبحانه وأنزل سأل سائل عذاباً واقعاً للكافرين أي على الكافرين ، اللام بمعنى على ، وهو النضر بن الحرث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب فقال : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ لأنّه نزل به ما

سأل يوم بدر ، فقتل صبراً ولم يقتل من الأسرى يومئذ غيره وغير عقبه بن أبي معيط ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ، وسئل سفيان بن عيينة عن قول الله سبحانه : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ فيمن نزلت ، فقال : لقد سألتني عن مسألة ما سألني أحد قبلك .

حدّثني أبي عن جعفر بن محمد عن آبائه ، فقال : " لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير خم ، نادى بالناس فاجتمعوا ، فأخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال : " مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه " .

(73/782)

فشاع ذلك وطار في البلاد ، فبلغ ذلك الحرث بن النعمان القهري فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة له حتّى أتى الأبطح ، فنزل عن ناقته وأناخها وعقلها ، ثمّ أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في ملأ من أصحابه فقال : يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلناه منك ، وأمرتنا أن نصلّي خمساً فقبلناه منك ، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا ، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا ، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا ، ثمّ لم ترض بهذا حتّى رفعت بضبعي ابن عمّك ففضلته علينا وقلت : من كنت مولاه فعلي مولاه ، فهذا شيء منك أم من الله تعالى ؟

فقال : " والّذي لا إله إلاّ هو هذا من الله " فولّى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول : اللهمّ إن كان ما يقوله حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، فما وصل إليها حتّى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله ، وأنزل الله سبحانه : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ " .

ومَنْ قرأ بغير همز فله وجهان : أحدهما أنّه لغة في السؤال ، تقول العرب : سأل سائل وسأل سال مثل نال ينال ، وخاف يخاف ، والثاني : أن يكون من السيل ، قال زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، سال واد من أودية جهنم يقال له سائل .

﴿ مِّنَ اللهِ ذِي المعارج ﴾ . قال ابن عباس : يعني ذي السماوات ، وقال ابن كيسان : المعارج الفتق الذي بين سمائين وأرضين ، قتادة : ذي الفواصل والنعم ، سعد بن جبير : ذي الدرجات ، القرطبي : ذي الفضائل العالية ، مجاهد : معارج الملائكة .

(74/782)

﴿ تَعْرُجُ ﴾ بالياء الكسائي وهي قراءة ابن مسعود واختيار أبي عبيد ، وغيرهم بالتاء ﴿ الملائكة والروح ﴾ هو جبريل ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله عزّوجلّ ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ من سنين الدنيا ، لو صعد غير الملائكة وذلك أنّها تصعد من منتهى

أمر الله من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السماء السابعة .

وروى ليث عن مجاهد ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة و ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة ؛ لأنّ ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة قبل أن يقطعوه .

وقال الحكم بن عكرمة : هو مدة عمر الدنيا من أولها إلى آخرها ، خمسون ألف سنة لا يدري أحد كم مضى وكم بقي إلاّ الله . وقال قتادة : هو يوم القيامة .

وقال الحسن : هو يوم القيامة وليس يعني أن مقدار طوله هو دون عمره ، ولو كان ذلك لكانت له غاية نعني فيها الجنة والنار ، ولكنّه يوم موقفهم للحساب ، حتّى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، وذلك أنّ ليوم القيامة أولا وليس له آخر . لأنّه يوم ممدود ولو كان له آخر كان منقطعاً .

وقيل : معناه لو ولى محاسبة العباد في ذلك غير الله لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة ، وهي رواية محمد بن الفضيل عن الكلبي قال : يقول : لقد لو وليت حساب ذلك اليوم الملائكة

والجن والإنس وطالت محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة ، وأنا أفرغ منه في ساعة من النهار .

(75/782)

وقال يمان : هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً ، كل موطن ألف سنة ، وفيه تقديم وتأخير ، كأنه قال : ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يعرج الملائكة والروح إليه .

وروى أبو الجوزاء وابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة فأراد أن أهل الموقف يستطيلون ذلك اليوم .

وأخبرنا ابن فنجويه ، قال : حدّثنا القطيعي ، قال : حدّثنا عبد الله قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا حسن قال : حدّثنا ابن لهيعة قال : حدّثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنّه ليخفف على المؤمنين حتّى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة تصليها في الدنيا " .

وقال إبراهيم التيمي : ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلاّ كما بين الظهر والعصر .

﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ يعني العذاب ﴿ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ ؛ لأنّ ما هو آت قريب ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ كعكر الزيت ، وقيل : كالفلز المذاب وقد مرّ تفسيره . ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوف المصبوغ ، ولا يقال عهن إلاّ للمصبوغ . وقال مقاتل : كالصوف المنفوش . قال الحسن : كالصوف الأحمر وهو أضعف الصوف ، وأوّل ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ، ثمّ عهناً منفوشاً ، ثمّ تصير هباءً منثوراً .

﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ قريب قريباً لشغله بشأن نفسه ، وقرأ : ولا يُسئل بضم الياء ، أي لا يسأل حميم عن حميم .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يرونهم وليس في القيامة مخلوق إلاّ وهو نصب عن صاحبه من الجن والإنس فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ، ويبصر الرجل حميمه فلا يكلمه لاشتغالهم بأنفسهم .

(76/782)

قال ابن عباس : يتعارفون مدة ساعة من النهار ثمّ لا يتعارفون بعد ذلك ، وقال السدي : يبصرونهم يعرفونهم ، أمّا المؤمن فلبياض وجهه ، وأما الكافر فلسواد وجهه .

﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ يتمنّى المشرك ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ ﴾

زوجته ﴿ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ﴾ عشيرته التي فصل منهم ، أبو عبيدة : فخذه ، ثعلب : آبائه الأدنين . غيره : أقربائه الأقربين ﴿ التي تُؤْوِيهِ ﴾ مجاهد قبيلته ﴿ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ ذلك الفداء من عذاب الله سبحانه ﴿ كَلاَّ ﴾ ليس كذلك لا يُنجيه من عذاب الله شيء .

ثمّ ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّهَا لظى ﴾ وقيل : معناه حقّا إنّها لظى ، فيكون متّصلا ولظى اسم من أسماء جهنّم ، ولذلك لم يجر ، وقيل : هي الدركة الثانية سمّيت بذلك لأنّها تتلظى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] .

﴿ نَزَّاعَةً ﴾ قراءة العامة بالرفع على نعت اللظى ، وروى حفص عن عاصم بالنصب على الحال والقطع ﴿ للشوى ﴾ قال الكلبي : لأمر الرأس بأكل الدماغ ، ثمّ يعود الدماغ كما كان ، ثمّ يعود لأكله فذلك دائها ، وهي رواية أبي ظبيان عن ابن عباس ، عطيّة عنه : يعني الجلود والهام ، سعيد بن جبير عنه : للعصب والعقب ، مجاهد : لجلود الرأس ، ودليل هذا التأويل قول كثير عزّة :

لأصبحت هدتك الحوادث هذه . . . لها فشواة الرأس باد قتيرها

إبراهيم بن مهاجر : اللحم دون العظم ، الهام يحرق كل شيء منه ويبقى فؤاده نصيحاً ، أبو صالح : للحم الساق ، ثابت البناني : لمكارم وجهه ، قتادة : لمكارم خلقه وأطرافه ، أبو العالية : لمحاسن وجهه ، يمان : خلاّعة للأطراف ، مرة : للأعضاء ، ابن زيد : لأذاب العظام ، الضحّاك : تبري اللحم والجلد عن العظم حتّى لا تترك منه شيئاً ، الكسائي : للمفاصل ، ابن جرير : الشوى جمع شواة وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلا يقال : رمى فاشوى إذا لم يصب مقتلا ، وقال بعض الأئمة : هي القوائم والجلود ، قال امرؤ القيس :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا . . . وقال الأعشى :

قالت قتيلة ماله قد جلّلت شيباً شواته . . . ﴿ تَدْعُواْ ﴾ إلى نفسها ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الإيمان ﴿ وتولى ﴾ عن الحق فتقول إليّ إليّ .

قال ابن عباس : تدعوا الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ، ثمّ تلتقطهم كما تلتقط الطير الحب ، وقال تغلب : تدعوا أي تهلك يقول العرف : دعاك الله أي أهلكك الله ، وقال الخليل : إنه ليس كالدعاء تعالوا ولكن دعوتها إياهم تمكّنها من تعذيبهم وفعلها بهم ما تفعل .

﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال ﴿ فأوعى ﴾ أمسك ولم يود حقّ الله منه .

أخبرني وقيل : إنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثنا محمد بن منصور قال : حدّثنا أبو فطن قال : حدّثنا المسعودي عن الحكم قال : كان عبد الله بن حكيم لا يربط

كيسه ويقول : سمعت الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَمَعَ فأوعى ﴾ .

﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ .

أخبرنا عبد الخالق قال : حدّثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن يزداد الرازي ، قال : حدّثنا أبو الحسن طاهر الخثعمي ، قال : حدّثنا إسماعيل بن موسى ، قال : أخبرنا الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَلُوعاً ﴾ قال : الحريص على ما لا يحلّ له .

(78/782)

وروى عطية عنه قال : هو الذي قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ وقال سعيد بن جبير : شحيحاً ، عكرمة : ضجوراً ، الضحاك والحسن : بخيلا ، حصين : حريصاً ، قتادة وابن زيد : حزوناً ، مجاهد : شرهاً ، وعن الضحاك أيضاً : الهلوع الذي لا يشبع ، مقاتل : ضيق القلب ، ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يُسره ويرضيه ويهرب مما يكرهه ويسخطه ثمّ تعبّده بإنفاق ما يحب ويلذ والصبر على ما يكره ، عطا : عجولا وقيل : جهولا ، سهل : متقلّباً في شهواته وهواه ، وسمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القيّم

البزاز يقول : قال ابن عطاء : الهلوع : الذي يرضى عند الموجود ويسخط عند المفقود ، أبو الحسن الوراق : نسّاء عند النعمة دعّاء عند المحنة ، وعن سهل أيضاً : إذا افتقر جزع وإذا أيسر منع ، أبو عبيدة وثعلب : هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر وإذا مسّه الشرّ لم يصبر ، وقيل : طموعاً يرضيه القليل من الدنيا ويسخطه مثلها ، والهلع في اللغة : أشد الحرص وأسوأ الجزع .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " شرّ ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع " .

وتقول العرب : ناقة هلواع إذا كانت سريعة السير خفيفة . قال الشاعر :

صكاء علبة إذا استدبرتها . . . حرج إذا استقبلتها هلواع

ثمّ استثنى سبحانه وتعالى ﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ قيل : هم الصحابة خاصّة وهم المؤمنون عامّة فإنّهم يغلبون فرط الهلع بحكم الشرع لثقتهم بربّهم ويقينهم بقدرته ، واستثنى الجمع من الواحد . لأنّ الإنسان اسم الجنس فهو في معنى الجمع .

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ .

(79/782)

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا بشر بن موسى قال : حدّثنا أبو عبد الرحمن المقري عن حيوة قال : حدثني يزيد بن أبي حسب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله اليزني : أن عقبة بن عامر قال لهم : الذين هم على صلواتهم دائمون .

قال : قلنا : الذين لا يزالون يصلون ؟ فقال : لا ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالا

﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم * والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين * والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العادون * والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ﴾ يعني يقيمونها ولا يكتمونها ولا يغيرونها .

وقال سهل : قائمون بحفظ ما شهدوا به من شهادة لا إله إلاّ الله ، فلا يشركون به في شيء من الأفعال والأقوال والأحوال . وقرأ ابن عامر ويعقوب وحفص بشهاداتهم بالألف على الجمع ، الباقون بشهادتهم .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فما بالهم كقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ ﴾ [النساء : 88] وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] .

﴿ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ مقبلين مسرعين عليك مادّي أعناقهم مديمي النظر إليك متطلّعين نحوك . وقد مرّ تفسير الإهطاع وهو نصب على الحال ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ حلقاً وفرقاً عصبة عصبة وجماعة جماعة متفرقين ، والعزين : جماعات في تفرقة ، واحدتها عزة ونظيرها في الكلام ثبته وثبتين وكره وكرين وقله وقلين ، قال عنترة :

وقرن قد تركت لذي ولي . . . عليه الطير كالعضب العزين

وقال الراعي :

أخليفة الرحمن إنّ عشيرتي . . . أمسى سوائمهم عزين فلولا

وقال آخر :

كأن الجماجم من وقعها . . . خناطيل يهون شتى عزينا

وأخبرني عقيل أن المعافى أخبرهم عن ابن جرير ، قال : حدّثنا بكار قال : حدّثنا مؤمل قال : حدّثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم حلق حلق فقال : " ما لي أراكم عزين " .

قال المفسّرون : كان المشركون يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وسلم ويتسمعون كلامه ولا ينتفعون به ، بل يكذبونه ويكذبون عليه ويستهزؤون به وبأصحابه ، ويقولون : دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد ، فلندخلها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم فأنزل الله سبحانه

: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ قرأ الحسن وطلحة بفتح الياء وضم الخاء ، ومثله روى المفضل عن عاصم ، الباقون ضده ﴿ كَلاَّ ﴾ لايدخلونها ثمّ ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة فلا يستوجب الجنّة أحد منهم بكونه شريفاً ؛ لأنّ مادة الخلق واحدة بل يستوجبونها بالطاعة ، قال قتادة في هذه : إنّما خلقت يا بن آدم من قذر فاتق إلى الله .

(81/782)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن برزة قال : حدّثنا محمد بن سليمان ابن الحرث الباغندي قال : حدّثنا عارم أبو النعمين السدوسي ، قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك ، قال : كان أبو بكر الصديق إذا خطبنا ذكر مناتن ابن آدم فذكر بدء خلقه أنّه يخرج من مخرج البول مرتين ، ثمّ يقع في الرحم نطفة ، ثمّ علقة ، ثمّ مضغة ، ثمّ يخرج من بطن أمه فيتلوث في بوله وخراه حتّى يقذر أحدنا نفسه .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا موسى بن محمد بن عليّ ، قال : حدّثنا جعفر بن محمد الفريابي ، قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثنا جرير بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش قال : " قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال : " يقول عزّوجلّ بني آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتّى إذا سوّيتك وعدّلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتّى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدّق وأنى أوان الصدقة " .

وقيل : إنّا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب فحذف أجل ، كقول الشاعر :

أأزمعت من آل ليلى احتكاراً . . . وشطّت على ذي هوى أن تزارا

أي من أجل آل ليلى .

وقيل : ﴿ مَآ ﴾ بمعنى من ، مجازه : إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون لا كلبهائم . ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ قرأ أبو حيوة برب المشرق والمغرب ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ * على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ نظيره في سورة الواقعة .

(82/782)

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ ويلهوا في دنياهم ﴿ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ نسختها آية القتال ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ ﴾ قراءة العامّة بفتح الياء وضم

الراء ، وروى الأعشى عن أبي بكر عن عاصم بضم الياء وفتح الراء ﴿ مِنَ الأجداث ﴾ القبور ﴿ سِرَاعاً ﴾ إلى إجابة الداعي ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ ﴾ قراءة العامّة بفتح النون وجزم الصاد يعنون إلى شيء منصوب ، يقال : فلان نصب عيني .

قال ابن عباس : يعني إلى غاية وذلك حين سمعوا الصيحة الأخيرة . الكلبي : إلى علم وزواية ، وقال أبو العلاء : سمعت بعض العرب يقول : النصب الشبكة التي يقع فيها الصيد فيتسارع إليها صاحبها مخافة أن يفلت الصيد منها ، وقرأ زيد بن ثابت وأبو رجاء وأبو العالية ومسلم البطين والحسن وأشهب العقيلي وابن عامر ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، وهي رواية حفص عن عاصم واختيار أبي حاتم .

قال مقاتل والكسائي : يعني إلى أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . وقال الفراء والأخفش : النُصُب جمع النُصْب مثل رُهُن ، والأنصاب جمع النُصُب فهي جمع الجمع . وقيل : النُصُب والأنصاب واحد .

﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون . قال الشاعر :

فوارس ذبيان تحت الحديد . . . كالجن يوفضن من عبقر

وقال ابن عباس وقتادة : يسعون ، وقال أبو العالية ومجاهد : يستبقون ، ضحاك : يطلعون . الحسن يبتدرون . القرظي يشتدون ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ذليلة خاضعة ﴿ أَبْصَارُهُمْ ﴾ بالعذاب ، قال قتادة : سواد الوجوه ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يغشاهم هوان ، ومنه غلام مراهق

إذا غشى الإحتلام ﴿ ذَلِكَ اليوم الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 34.42 ﴾

(83/782)

وقال الزمخشرى:

سورة المعارج

مكية، وآياتها 44 [نزلت بعد الحاقة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المعارج (70): الآيات 1 إلى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9)

وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ

يُنْجِيهِ (14)

كَلَّا إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18)

ضمن سَأَلَ معنى دعا ، فعدّى تعديته ، كأنه قيل : دعا داعٍ بعَذابٍ واقِعٍ من قولك : دعا بكذا . إذا استدعى وطلبه . ومنه قوله تعالى يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو النضر بن الحرث : قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وقيل : هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، استعجل بعذاب للكافرين . وقرئ . سال سائل ، وهو على وجهين : إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش ، يقولون : سلت تسأل ، وهما يتسايلان ، وأن يكون من السيلان . ويؤيده قراءة ابن عباس : سال سيل ، والسيل : مصدر في معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر . والمعنى : اندفع عليهم وادى عذاب فذهب بهم وأهلكهم . وعن قتادة : سأل سائل عن عذاب اللّه على من ينزل وبمن يقع ؟ فنزلت ، وسأل على هذا الوجه مضمن معنى : عنى واهتم . فإن قلت : بم يتصل

قوله لِلْكافِرِينَ؟ قلت: هو على القول الأوّل متصل بعذاب صفة له، أى: بعذاب واقع كائن للكافرين، أو بالفعل، أى: دعا للكافرين بعذاب واقع. أو بواقع، أى: بعذاب نازل لأجلهم، وعلى الثاني: هو كلام مبتدأ جواب للسائل، أى: هو للكافرين. فإن قلت: فقوله مِنَ اللَّهِ بم يتصل؟ قلت: يتصل بواقع، أى واقع من عنده، أو بدافع، بمعنى: ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه ذِي الْمَعارِجِ ذى المصاعد جمع معرج، ثم وصف المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع فقال: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ كمقدار مدة خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مما يعد الناس. والروح. جبريل عليه السلام، أفرده لتميزه بفضله. وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة، كما أنّ الملائكة حفظة على الناس. فإن قلت. بم يتعلق قوله فَاصْبِرْ؟ قلت: بسأل سائل، لأنّ استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والتكذيب بالوحي، وكان ذلك مما يضجر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فأمر بالصبر عليه، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو، فإنما سأل على طريق التعنت، وكان من كفار مكة. ومن قرأ: سال سائل، أو سيل، فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعه، فاصبر فقد شارفت الانتقام، وقد جعل فِي يَوْمٍ من صلة واقِعٍ أى: يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم، وهو يوم القيامة: إما أن يكون استطالة له لشدّته على الكفار، وإما لأنه على الحقيقة كذلك. قيل: فيه خمسون

موطنا كل موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر . الضمير في يَرَوْنَهُ للعذاب الواقع ، أو ليوم القيامة فيمن علق فِي يَوْمٍ بواقع ، أى : يستبعدونه على جهة الإحالة وَنحن نَراهُ قَرِيباً هينا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، فالمراد بالبعيد : البعيد من الإمكان ، وبالقريب :

القريب منه . نصب يَوْمَ تَكُونُ بقريبا ، أى : يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم . أو بإضمار يقع ، لدلالة واقِعٍ عليه . أو يوم تكون السماء كالمهل . كان كيت وكيت . أو هو بدل عن فِي يَوْمٍ فيمن علقه بواقع كَالْمُهْلِ كدردىّ الزيت . وعن ابن مسعود : كالفضة المذابة في تلوّنها كَالْعِهْنِ كالصوف المصبوغ ألوانا ، لأنّ الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بست وطيرت في الجو : أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً أى لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه ، لأن بكل أحد ما يشغله عن المساءلة يُبَصَّرُونَهُمْ أى يبصر الأحماء الأحماء ، فلا يخفون عليهم ، «1» فما يمنعهم من المساءلة أنّ

---

(1) . قال محمود : «معناه يبصر الأصدقاء أصدقاءهم فيعرفونهم . . . الخ» قال أحمد : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعم ، كما التزم في : والله لا أشرب ماء من إداوة : أنه عام في المياه والأدوات ، خلافا لبعضهم في الأدوات .

بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل : وقرئ : يبصرونهم . وقرئ : ولا يسئل ، على البناء للمفعول ، أى : لا يقال الحميم أين حميمك ولا يطلب منه ، لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب . فإن قلت : ما موقع يبصرونهم ؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لما قال وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً قيل : لعله لا يبصره ، فقيل : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم . فإن قلت : لم جمع الضميران في يُبَصَّرُونَهُمْ وهما للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين . ويجوز أن يكون يُبَصَّرُونَهُمْ صفة ، أى : حميما مبصرين معرّفين إياهم . قرئ : يومئذ ، بالجرّ والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن ، ومن عذاب يومئذ ، بتنوين عَذابِ ونصب يَوْمِئِذٍ وانتصابه بعذاب ، لأنه في معنى تعذيب وَفَصِيلَتِهِ عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم تُؤْوِيهِ تضمه انتماء إليها ، أو لياذا بها في النوائب يُنْجِيهِ عطف على يفتدى ، أى : يودّ لو يفتدى ، ثم لو ينجيه الافتداء . أو من في الأرض . وثم : لاستبعاد الإنجاء ، يعنى : تمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه كَلَّا ردّ للمجرم عن الودادة ، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب ، ثم قال إِنَّها والضمير للنار ، ولم يجر لها ذكر ، لأنّ ذكر العذاب دل عليها . ويجوز أن يكون ضميرا مبهما ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصة .

ولَظى علم للنار ، منقول من اللظى : بمعنى اللهب . ويجوز أن يراد اللهب . ونَزَّاعَةً خبر بعد خبر لأنّ ، أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة ، أو صفة له إن أردت اللهب ، والتأنيث لأنه في معنى النار . أو رفع على التهويل ، أى : هي نزاعة . وقرئ نزاعة ، بالنصب على الحال المؤكدة ، أو على أنها متلظية نزاعة ، أو على الاختصاص للتهويل . والشوى : الأطراف . أو جمع شواة :

وهي جلدة الرأس تنزعها نزعا فتبتكها «1» ثم تعاد تَدْعُوا مجاز عن إحضارهم ، كأنها تدعوهم فتحضرهم . ونحوه قول ذى الرمّة :

. . . . . تدعو أنفه الرّبب «2»

---

(1) . قوله «فتبتكها» أى : تقطعها . (ع)

(2) أمسى بوهبين مجتازا لمرتعه من ذى الفوارس تدعو أنفه الربب

لدى الرمة يصف ثورا وحشيا . ووهبين : اسم موضع ، وكذلك ذو الفوارس . والربب – بموحدتين – : جمع ربة وهي أول ما ينبت من الكلا . والدعاء : الطلب ، وهو هنا مجاز عن التسبب في الأمر ، لأن النبات الصغير سبب في وصول أنفه للأرض ، ليرعاه . ويجوز تشبيه الربب بالداعي ، والدعاء تخييل ، ثم يحتمل أن مرتعه من ذى الفوارس ويحتمل أنه سار من ذى الفوارس إلى وهبين . ويروى : مختارا ، أى : متخيرا ومتطلبا خير المراتع .

وقوله :

ليالي اللّهو يطبيني فأتبعه «1»

وقول أبي النجم :

تقول للرّائد أعشبت أنزل «2»

وقيل : تقول لهم : إليّ إليّ يا كافر يا منافق . وقيل : تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح .

ثم تلتقطهم التقاط الحب ، فيجوز أن يخلق اللّه فيها كلاما كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم ، وكما خلقه في الشجرة «3» ويجوز أن يكون دعاء الزبانية . وقيل : تدعو تهلك ، من قول العرب :

دعاك اللّه ، أي : أهلكك . قال

دعاك اللّه من رجل بأفعى «4»

مَنْ أَدْبَرَ عن الحق وَتَوَلَّى عنه وَجَمَعَ المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤدّ الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدين ، وزهى باقتنائه وتكبر .

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 191 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 168 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «وكما خلقه في الشجرة» على زعم المعتزلة أنه تكليم اللّه موسى ، كأنه كذلك . وعند أهل السنة أنه أطلعه على كلامه القديم القائم بذاته تعالى . (ع)

(4) دعاك اللّه من رجل بأفعي ضئيل تنفث السم الذعافا

دعاك ، أى : أهلك اللّه بأفعى يقال : دعاه اللّه بالمكروه : أنزله به ، ومن رجل : بيان واقع موقع الحال ، أو تمييز مقترن بمن . لأن ما قبله فيه معنى التعجب ، فيحتاج لتمييز جهة التعجب . وقال بعض النحاة :

قد يجيء التمييز لمجرد التوكيد ، فيكون هذا منه ، بأفعى بالتنوين : اسم للحية . وقيل ممنوع من الصرف ، لأنه صفة للحية الشديدة السم ، والذعاف : أى الشديد القاتل ، ضئيل : ضعيفة مهزولة . والنفث : إخراج النفس مع بلل ، وهو هنا إخراج السم الذعاف كغراب : المسرع القتل . ويحتمل أن «دعاك اللّه» من باب المجاز ، كأن اللّه دعاه ؟ ؟ ؟ لقتله بالأفعى . أو طلبه بأفعى أرسلها إليه لتحضره بإهلاكه . وخص المهزولة لأنها أشد

إيذاء من غيرها ، وقال ضئيل ، مع أن موصوفه مؤنث على حد : إن رحمة اللّه قريب ، والمذكر : أفعوان . ويروى «ينفث» على أن الأفعى واحد من الجنس فهو مذكر .

(87/782)

[سورة المعارج (70) : الآيات 19 إلى 35]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

أريد بالإنسان الناس ، فلذلك استثنى منه إلا المصلين . والهلع : سرعة الجزع عند مسّ المكروه وسرعة المنع عند مسّ الخير ، من قولهم : ناقة هلواع سريعة السير . وعن أحمد بن

يحيى قال لي محمد بن عبد اللّه بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت : قد فسره اللّه ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدّة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس .

والخير : المال والغنى ، والشرّ : الفقر . أو الصحة والمرض : إذا صحّ الغنى منع المعروف وشحّ بماله ، وإذا مرض جزع وأخذ يوصى . والمعنى : إن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه ، كأنه مجبول عليهما مطبوع «1» ، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختيارى ، كقوله تعالى خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع ، ولأنه ذمّ واللّه لا يذمّ فعله ، والدليل عليه : استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وظلّفوها عن الشهوات ، «2» حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «شرّ ما أعطى ابن آدم شحّ هالع وجبن «3» خالع» فإن قلت : كيف قال عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ثم على صلاتهم يحافظون ؟ قلت : معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، كما روى عن النبي صلى اللّه عليه

---

(1) . قال محمود : «المعنى أن الإنسان لايثاره الجزع والمنع ورسوبهما فيه كأنه . . . الخ» قال أحمد : هو يشرك باطنا وينزه ظاهرا ، فينفى كون الهلع الذي هو موجود للآدمي مخلوقا للّه تعالى تنزيها له عن ذلك ، ويثبت خالقا مع اللّه ، ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية لذلك ،

فإنك إذا قلت : بريت القلم رقيقا ، فقد نسبت إليك الحال وهو ترقيقه ، كما نسب إليك البرى ، وكذلك الآية . وأما قوله : واللّه لا يذم خلقه ، فاللّه تعالى له الحمد على كل حال ، وإنما المذموم العبد بحجة أنه جعل فيه اختيارا يفرق بالضرورة بين الاختياريات والقسريات ألا للّه الحجة البالغة واللّه أعلم .

(2) . قوله : «و ظلفوها عن الشهوات» في الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء ، أى : منعها من أن تفعله أو تأتيه . (ع)

(3) . أخرجه أبو داود وابن حبان وأحمد وإسحاق والبزار كلهم من طريق عبد العزيز بن مروان : سمعت أبا هريرة بهذا ، لكن قال «شر ما في الرجل»

وسلم «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» «1» وقول عائشة : كان عمله ديمة «2» .

ومحافظتهم عليها :

أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط «3» باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها حَقٌّ مَعْلُومٌ هو الزكاة ، لأنها مقدرة معلومة ، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه

يؤديها في أوقات معلومة . السائل : الذي يسأل وَالْمَحْرُومِ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ تصديقا بأعمالهم واستعدادهم له ، ويشفقون من عذاب ربهم .

واعترض بقوله إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ أى لا ينبغي لأحد وان بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه . وينبغي أن يكون مترجحا بين الخوف والرجاء . قرئ : بشهادتهم وبشهاداتهم . والشهادة من جملة الأمانات . وخصها من بينها إبانة لفضلها ، لأنّ في إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها . وفي زيها : تضييعها وإبطالها .

[سورة المعارج (70) : الآيات 36 إلى 44]

فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40)

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

كان المشركون يحتفون حول النبي صلى اللّه عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ، يستمعون ويستهزءون بكلامه ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم ،

فنزلت مُهْطِعِينَ مسرعين نحوك ، مادّى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك عِزِينَ فرقا

---

(1) . متفق عليه من حديث عائشة . [. . . . .]

(2) . متفق عليه من حديثها رضى اللّه عنها .

(3) . قال محمود : «أى لا يتركونها في وقت ولا يحبطونها . . . الخ» قال أحمد : حفظها من الإحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة ، فلا يحبط ما سواء خلافا للقدرية ، وقد تقدمت أمثاله واللّه أعلم .

(89/782)

شتى جمع عزة ، وأصلها عزوة ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون . قال الكميت :

ونحن وجندل باغ تركنا كتائب جندل شتّى عزينا «1»

وقيل : كان المستهزءون خمسة أرهط كلّا ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ، ثم علل ذلك بقوله إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ إلى آخر السورة ، وهو كلام دال على إنكارهم البعث ، فكأنه قال : كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء ، فمن أين يطمعون في دخول الجنة ؟ فإن قلت :

من أى وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث ؟ قلت : من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل ، وذلك قوله خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ أى من النطف ، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناسا خيرا منهم ، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة . ويجوز أن يراد :

إنا خلقناهم مما يعلمون ، أى : من النطفة المذرة ، وهي منصبهم الذي لا منصب أوضع منه .

ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم . وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل . وقرئ : برب المشرق والمغرب . ويخرجون ، ويخرجون . ومن الأجداث سراعا ، بالإظهار والإدغام . ونصب ، ونصب : وهو كل ما نصب فعبد من دون اللّه يُوفِضُونَ يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة سأل سائل أعطاه اللّه ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» «2» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 608.

﴿614﴾

(1) . الكميت . والكتائب : جمع كتيبة وهي الجماعة . وشتى : جمع شتيت ، كمرضى ومريض ، وعزين : جمع عزة ، أصلها عزو ، فعوضت التاء عن الواو ، من عزاه إلى كذا ، أى : نسبه إليه ، لأن بعضها ينتسب إلى بعض .

أو لأنها تنتسب إلى رئيسها . أو إلى أصلها الأعلى ، وهذا كناية عن قتله مع كثرة جيشه .

(2) . أخرجه الثعلبي والراحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب ،

(90/782)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ سأَل سائلٌ ﴾

قرأه الجمهور بهذين الحرفين في سأل سائل ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه استخبر مستخبر عن العذاب متى يقع ، على التكذيب .

الثاني : دعا داع أن يقع البلاء بهم على وجه الاستهزاء ، قاله مجاهد .

الثالث : طلب طالب .

﴿ بعذابٍ واقعٍ ﴾ وفي هذا الطالب ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها لنضر بن الحارث ، وكان صاحب لواء المشركين يوم بدر ، وقد سأل ذلك في

قوله ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنه أبو جهل : وهو القائل لذلك ، قاله ربيع بن أبي حمزة .

الثالث : أنه قول جماعة من قريش .

وفي هذا العذاب قولان :

أحدهما : أنه العذاب في الآخرة ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها نزلت بمكة وعذابه يوم بدر بالقتل والأسر ، قاله السدي .

وقرأ نافع وزيد بن أسلم وابنه " سأل سايل " غير مهموز ، وسايل واد في جهنم ، وسمي بذلك لأنه يسيل بالعذاب .

﴿ مِن اللَّهِ ذي المعارج ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : ذي الدرجات ، قاله ابن عباس .

الثاني : ذي الفواضل والنعم ، قاله قتادة .

الثالث : ذي العظمة والعلاء .

الرابع : ذي الملائكة ، لأنهم كانوا يعرجون إليه ، قاله قتيبة .

الخامس : أنها معارج السماء ، قاله مجاهد .

﴿ تَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه ﴾ أي تصعد ، وفي الروح ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه روح الميت حين يقبض ، قاله قَبيصة بن ذؤيب ، يرفعه .

الثاني : أنه جبريل ، كما قال تعالى : " نزل به الروح الأمين " .

الثالث : أنه خلق من خلق اللَّه كهيئة الناس وليس بالناس ، قاله أبو صالح .

﴿ في يوم كان مِقدارُه خمسينَ أَلْفَ سنةٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله محمد بن كعب والحسن .

الثاني : أنها مدة الدنيا ، مقدار خمسين ألف سنة ، لا يدري أحد كم مضى وكم بقي إلا اللَّه ، قاله عكرمة .

(91/782)

الثالث : أنه مقدار مدة الحساب في عرف الخلق أنه لو تولى بعضهم محاسبة بعض لكان مدة حسابهم خمسين ألف سنة ، إلا أن اللَّه تعالى يتولاه في أسرع مدة .

وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحاسبهم اللَّه بمقدار ما بين الصلاتين ولذلك سمى نفسه سريع الحساب ، وأسرع الحاسبين " .

﴿ فاصْبِرْ صَبْراً جَميلاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أنه الصبر الذي ليس فيه جزع ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه الصبر الذي لا بث فيه ولا شكوى .

الثالث : أنه الانتظار من غير استعجال ، قاله ابن بحر .

الرابع : أنه المجاملة في الظاهر ، قاله الحسن .

وفيما أُمر بالصبر عليه قولان :

أحدهما : أُمر بالصبر على ما قذفه المشركون من أنه مجنون وأنه ساحر وأنه شاعر ، قاله الحسن .

الثاني : أنه أُمر بالصبر على كفرهم ، وذلك قبل أن يفرض جهادهم ، قاله ابن زيد .

﴿ إنهم يَرَوْنه بعيداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه البعث في القيامة .

الثاني : عذاب النار .

وفي المراد بالبعيد وجهان :

أحدهما : مستحيل غير كائن .

الثاني : استبعاد منهم للآخرة .

﴿ ونراه قريباً ﴾ أي كائناً ، لأن ما هو كائن قريب .

﴿ يومَ تكونُ السّماءُ كالمُهْلِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كدرديّ الزيت ، قاله ابن عباس .

الثاني : كمذاب الرصاص والنحاس والفضلة ، قاله ابن مسعود .

الثالث : كقيح من دم ، قاله مجاهد .

﴿ وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ ﴾ يعني كالصوف المصبوغ ، والمعنى أنها تلين بعد الشدة ، وتتفرق بعد الاجتماع .

﴿ يُبْصّرُونَهم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه يبصر بعضهم بعضاً فيتعارفون ، قاله قتادة .

الثاني : أن المؤمنين يبصرون الكافرين ، قاله مجاهد .

الثالث : أن الكافرين يبصرون الذين أضلوهم في النار ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه يبصر المظلوم ظالمه ، والمقتول قاتله .

﴿ يَوَدّ المجْرِمُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يحب .

الثاني : يتمنى ، والمجرم هو الكافر .

﴿ لو يَفْتَدِي مِن عَذابِ يومِئذ ﴾ يعني يفتدي من عذاب جهنم بأعز من كان عليه في الدنيا من أقاربه ، فلا يقدر .

ثم ذكرهم فقال : ﴿ ببنيه ﴾ .

﴿ وصاحبته ﴾ يعني زوجته : ﴿ وأخيه ﴾ .

﴿ وفصيلته ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عشيرته التي تنصره ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنها أمه التي تربيه ، قاله مالك ، وقال أبو عبيدة : الفصيلة دون القبيلة .

﴿ التي تؤويه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : التي يأوي إليها في نسبه ، قاله الضحاك .

الثاني : يأوي إليها في خوفه .

﴿ كلا إنها لَظَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها اسم من أسماء جهنم ، سميت بذلك لأنها التي تتلظى ، وهو اشتداد حرها .

الثاني : أنه اسم الدرك الثامن في جهنم ، قاله الضحاك .

﴿ نَزّاعة للشّوَى ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنها أطراف اليدين والرجلين ، قاله أبو صالح ، قال الشاعر :

إذا نَظَرْتَ عَرَفْت الفخر منها . . . وعَيْنيها ولم تعْرِفْ شَواها .

الثاني : قال الضحاك : هي جهنم تفري اللحم والجلد عن العظم ، وقال مجاهد : جلدة الرأس ومنه قول الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ ما لَه . . . قد جُلِّلَتْ شيْباً شَواتهُ .

الثالث : أنه العصب والعقب ، قاله ابن جبير .

الرابع : أنه مكارم وجهه ، قاله الحسن .

الخامس : أنه اللحم والجلد الذي على العظم ، لأن النار تشويه ، قاله الضحاك .

﴿ تَدْعو مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلّى ﴾ وفي دعائها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها تدعوهم بأسمائهم فتقول للكافر : يا كافر إليّ ، وللمنافق : يا منافق إليّ ، قاله الفراء .

الثاني : أن مصير من أدبر وتولى إليها ، فكأنها الداعية لهم ، ومثله قول الشاعر :

ولقد هَبَطْنا الوادِيَيْن فوادياً . . . يَدْعو الأنيسَ به العَضيضُ الأبكمُ .

العضيض الأبكم : الذباب ، وهو لا يدعو وإنما طنينه ينبه عليه ، فدعا إليه .

الثالث : الداعي خزنة جهنم أضيف دعاؤهم إليها ، لأنهم يدعون إليها .

وفي ما ﴿ أدبر وتولى ﴾ عنه أربعة أوجه :

أحدها : أدبر عن الطاعة وتولى عن الحق ، قاله مجاهد .

الثاني : أدبر عن الإيمان وتولى إلى الكفر ، قاله مقاتل .

الثالث : أدبر عن أمر اللَّه وتولى عن كتاب اللَّه ، قاله قتادة .

الرابع : أدبر عن القبول وتولى عن العمل .

﴿ وجَمَع فأَوْعَى ﴾ يعني الذي أدبر وتولى جمع المال فأوعى ، بأن جعله في وعاء حفظاً له ومنعاً لحق اللَّه منه ، قال قتادة : فكان جموعاً منوعاً .

﴿ إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ قال الضحاك والكلبي : يعني الكافر . وفي الهلوع ستة أوجه :

أحدها : أنه البخيل ، قاله الحسن .

الثاني : الحريص ، قاله عكرمة .

الثالث : الضجور ، قاله قتادة .

الرابع : الضعيف ، رواه أبو الغياث .

الخامس : أنه الشديد الجزع ، قاله مجاهد .

السادس : أنه الذي قاله الله تعالى فيه : ﴿ إذا مسّه الشرُّ . . . ﴾ الآية ، قاله ابن ابن عباس .

وفيه وجهان :

أحدهما : إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشر لم يصبر ، وهو معنى قول عطية .

الثاني : إذا استغنى منع حق اللَّه وشح ، وإذا افتقر سأل وألح ، وهو معنى قول يحيى بن سلام .

﴿ الذين هُمْ على صَلاتِهم دائمونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يحافظون على مواقيت الفرض منها ، قاله ابن مسعود .

الثاني : يكثرون فعل التطوع منها ، قاله ابن جريج .

الثالث : لا يلتفتون فيها ، قاله عقبة بن عامر .

﴿ والذين هم لأماناتِهم وعَهْدِهم راعُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الأمانة ما ائتمنه الناس عليه أن يؤديه إليهم ، والعهد : ما عاهد الناس عليه أن يَفيَ لهم به ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أن الأمانة الزكاة أن يؤديها ، والعهد : الجنابة أن يغتسل منها وهو معنى قول الكلبي .

ويحتمل ثالثاً : أن الأمانة ما نهي عنه من المحظورات ، والعهد ما أمر به من المفروضات .

﴿ والذين هُم بشهاداتِهم قائمونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها شهادتهم على أنبيائهم بالبلاغ ، وعلى أممهم بالقبول أو الامتناع .

الثاني : أنها الشهادات في حفظ الحقوق بالدخول فيها عند التحمل ، والقيام بها عند الأداء .

ويحتمل ثالثاً : أنهم إذا شاهدوا أمراً أقاموا الحق للَّه تعالى فيه ، من معروف يفعلونه ويأمرون به ، ومنكر يجتنبونه وينهون عنه .

﴿ فما للذين كَفَروا قِبلَكَ مُهْطِعينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مسرعين ، قاله الأخفش ، قال الشاعر :

بمكةَ دارُهم ولقد أراهم . . . بمكةَ مُهطِعين إلى السماع

الثاني : معرضين ، قاله عطية العوفي .

الثالث : ناظرين إليك تعجباً ، قاله الكلبي .

﴿ عن اليمين وعن الشِّمال عِزِينَ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : متفرقين ، قاله الحسن ، قال الراعي :

أخليفةَ الرحمنِ إن عشيرتي . . . أمسى سَراتُهُمُ إليك عِزينا .

الثاني : محتبين ، قال مجاهد .

الثالث : أنهم الرفقاء والخلطاء ، قاله الضحاك .

الرابع : أنهم الجماعة القليلة ، قاله ابن أسلم .

الخامس : أن يكونوا حِلقاً وفرقاً .

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم حِلَق فقال : " ما لي أراكم عزين " قال الشاعر :

ترانا عنده والليل داج . . . على أبوابه حِلقاً عِزينا .

﴿ يوم يَخْرجون من الأجداثِ سِراعاً ﴾ يعني من القبور .

﴿ كأنهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ في " نصب " قراءتان : إحداهما بتسكين الصاد ، والأخرى بضمها .

وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : معناهما واحد ، قاله المفضل وطائفة ، فعلى هذا في تأويله أربعة أوجه :

أحدها : معناه إلى علم يستبقون ، قاله قتادة .

الثاني : إلى غايات يستبقون ، قاله أبو العالية .

الثالث : إلى أصنامهم يسرعون ، قاله ابن زيد ، وقيل إنها حجارة طوال كانوا يعبدونها .

الرابع : إلى صخرة بيت المقدس يسرعون .

والوجه الثاني من الأصل أن معنى القراءتين مختلف ، فعلى هذا في اختلافهما وجهان :

أحدهما : أن النُّصْب بالتسكين الغاية التي تنصب إليها بصرك ، والنُّصُب بالضم واحد الأنصاب ، وهي الأصنام ، قاله أبو عبيدة ومعنى "يوفضون" يسرعون ، والإيفاض الإسراع ، ومنه قول رؤبة :

يمشين بنا الجد على الإيفاض . . . بقطع أجواز الفلا انفضاض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 89 ـ 97 ﴾

(96/782)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾

قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] وهذا مذهب الجمهور ، منهم ابن عباس ، ومجاهد .

وقال الربيع بن أنس : هو أبو جهل .

قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر : "سال" بغير همز .

والباقون بالهمز .

فمن قرأ "سأل" بالهمز ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : دَعَا دَاعٍ على نفسه بعذابٍ واقعٍ .

والثاني : سأل سائل عن عذابٍ واقعٍ لمن هو ؟ وعلى من يَنْزِل ؟ ومتى يكون ؟ وذلك على سبيل الاستهزاء ، فتكون الباء بمعنى "عن" وأنشدوا :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بالنِّساءِ فَإِنَّنِي . . .

خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّساءِ طَبِيبُ

والثالث : سأل سائل عذاباً واقعاً ، والباء زائدة .

ومن قرأ بلا همز ففيه قولان .

أحدهما : أنه من السؤال أيضاً ، وإنما لَيَّن الهمزة ، يقال سأل ، وسال ، وأنشد الفراء :

تَعَالَوْا فَسَالُوا يَعْلَمِ النَّاسُ أَيُّنَا . . .

لِصَاحِبِهِ فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ تَابِع

والثاني : المعنى سال وادٍ في جهنم بالعذاب للكافرين ، وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن ، وكان ابن عباس في آخرين يقرؤون "سَالَ سَيْلٌ" بفتح السين ، وسكون الياء من غير ألف ولا همز .

وإذا قلنا إنه من السؤال فقوله تعالى : "للكافرين" جواب للسؤال ، كأنه لما سأل : لمن هذا

العذاب ؟ قيل : للكافرين .

والواقع : الكائن .

والمعنى : أن العذاب للذي سأله هذا الكافر كائن لا محالة في الآخرة ﴿ للكافرين ليس له دافع من الله ﴾ قال الزجاج : المعنى : ذلك العذاب واقع من الله للكافرين .

قوله تعالى : ﴿ ذي المعارج ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنها السموات ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد : هي معارج الملائكة .

قال ابن قتيبة : وأصل المعارج الدَّرَج ، وهي من عَرَجَ : إذا صَعِدَ قال الفراء : لما كانت الملائكة تَعْرُجُ إليه ، وصف نفسه بذلك .

(97/782)

قال الخطابي : المعارج : الدَّرَج ، واحدها : مَعْرَجٌ ، وهو المَصْعَدُ ، فهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد ، وبأرواح المؤمنين .

فالمعارج : الطرائق التي يُصْعَدُ فيها .

والثاني : أن المَعَارِجَ : الفَوَاضِلُ والنِّعم .

قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة ﴾ قرأ الكسائي : "يَعْرُج" بالياء .

﴿ والروحُ ﴾ في "الروح" قولان .

أحدهما : جبريل ، قاله الأكثرون .

والثاني : روُح الميّت حين تُقْبَضُ ، قاله قبيصة بن ذُؤَيْب .

قوله تعالى : ﴿ إليه ﴾ أي : إلى الله عز وجل ﴿ في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والقرظي ، وهذا هو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق .

وفي الحديث " إنه لَيُخفَّفُ على المؤمِن حتى يكون أَخَفَّ عليه من صلاة مكتوبة " وقيل : بل لو ولي حساب الخلق سوى الله عز وجل لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة ، والحقُّ يفرغ منه في ساعة من نهار .

وقال عطاء : يفرغ الله من حساب الخلق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، فعلى هذا يكون المعنى : ليس دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقيل : المعنى : سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير .

والثاني : أن مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش لو صعِده غيرهم قطعه في

خمسين ألف سنة ، وهذا معنى قول مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر ﴾ أي : اصبر على تكذيبهم إياك ﴿ صبراً جميلاً ﴾ لا جزع فيه ، وهذا قبل أن يُؤْمَرَ بقتالهم ، ثم نسخ بآية السيف ﴿ إنهم يَرَوْنَهُ ﴾ يعني العذاب ﴿ بعيداً ﴾ غير كائن ﴿ ونراه قريباً ﴾ كائناً ، لأن كل ما هو آتٍ قريبٌ .

ثم أخبر متى يكون فقال تعالى ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ وقد شرحناه في [الكهف 29] ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي : كالصوف .

فَشَبَّهها في ضَعْفها ولِينِها بالصوف .

(98/782)

وقيل : شبَّهها به في خِفَّتِها وسَيْرِها ، لأنه قد نقل أنها تسير على صورها ، وهي كالهباء :

قال الزجاج : "العهن" الصوف .

واحدته : عِهْنَةٌ ، ويقال : عُهْنَةٌ ، وعُهْنٌ ، مثل : صُوفَةٍ ، وصُوفٍ .

وقال ابن قتيبة : "العِهْنُ" الصوفُ المصبوغ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً ﴾ قرأ الأكثرون : "سأل" بفتح الياء .

والمعنى : لا يسأل قريب عن قرابته ، لاشتغاله بنفسه .

وقال مقاتل : لا يسأل الرجل قرابته ، ولا يكلِّمه من شدة الأهوال .

وقرأ معاوية ، وأبو رزين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة ، وأبو جعفر : بضم الياء .

والمعنى : لا يقال للحميم : أين حَمِيمُكَ ؟ .

قوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهم ﴾ أي : يُعَرَّفُ الحميم حميمَه حتى يَعْرِفَه ، وهو مع ذلك لا يسأل عن شأنه .

ولا يكلِّمه اشتغالاً بنفسه .

يقال : بَصَّرْتُ زيداً كذا : إذا عَرَّفْتَهُ إيَّاه .

قال ابن قتيبة : معنى الآية لا يَسْأَلُ ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يُبَصَّرُونَهم ، أي : يُعَرَّفُونَهم .

وقرأ قتادة ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران : "يُبْصِرُونَهم" بإسكان الباء ، وتخفيف الصاد ، وكسرها .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ يعني : يتمنَّى المشرك لو قُبِلَ منه الفداءُ ﴿ يومئذٍ ببنيه ، وصاحبته ﴾ وهي الزوجة ﴿ وفصيلته ﴾ قال ابن قتيبة : أي : عشيرته .

وقال الزجاج : هي أدنى قبيلته منه ، ومعنى ﴿ تُؤويه ﴾ تضمه ، فيودُّ أن يفتديَ بهذه المذكورات ﴿ ثم ينجيه ﴾ ذلك الفداء ﴿ كَلاَّ ﴾ لا ينجيه ذلك ﴿ إنها لَظَى ﴾ قال الفراء : هو اسم من أسماء جهنم ، فلذلك لم يُجْرَ ، وقال غيره : معناها في اللغة : اللهب

الخالص ، وقال ابن الأنباري : سميت لظى لشدة تَوَقُّدِها وتلهُّبِها ، يقال : هو يتلظَّى ، أي : يتلهَّب ويتوقَّد .

وكذلك النار تتلظَّى يراد بها هذا المعنى .

وأنشدوا :

جَحِيماً تَلَظَّى لا تَفْتُرُ سَاعَةً . . .

(99/782)

ولا الحَرُّ مِنْها غَابِرَ الدَّهْرِ يَبْرُدُ

﴿ نَزَّاعةً لِلشَّوَى ﴾ قرأ الجمهور "نَزَّاعةٌ للشوى" بالرفع على معنى : هي نزَّاعة .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن أبي عبلة ، وحفص عن عاصم "نَزَّاعةً" بالنصب .

قال الزجاج : وهذا على أنها حال مؤكدة ، كما قال تعالى : ﴿ هو الحق مصدقاً ﴾ [فاطر : 31] ويجوز أن ينصب على معنى "إنها تتلظى نزاعة" .

وفي المراد ب "الشَّوَى" أربعة أقوال .

أحدها : جلدة الرأس ، قاله مجاهد .

والثاني : محاسن الوجه ، قاله الحسن ، وأبو العالية .

والثالث : العصب ، والعقب ، قاله ابن جبير .

والرابع : الأطراف اليدان ، والرجلان ، والرأس ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ تَدْعُو من أدبر ﴾ عن الإيمان ﴿ وتولَّى ﴾ عن الحق .

قال المفسرون : تقول : إليّ يا مشرك ، إليّ يا منافق ﴿ وجمع فأوعى ﴾ قال الفراء : أي : جمع المال في وعاءٍ فلم يؤدِّ منه زكاةً ، ولم يصل منه رحماً .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ قال مقاتل : عنى به أُميَّة بن خلف الجُمَحي .

وفي الهَلوع سبعة أقوال .

أحدها : أنه الموصوف بما يلي هذه الآية ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة ، والزجاج .

والثاني : أنه الحريص على ما لا يحلُّ له ، رواه أبو صالح ، عن ابن عباس .

والثالث : البخيل ، قاله الحسن ، والضحاك .

والرابع : الشحيح ، قاله ابن جبير .

والخامس : الشَّرِه ، قاله مجاهد .

والسادس : الضَّجُور ، قاله عكرمه ، وقتادة ، ومقاتل ، والفراء .

والسابع : الشديد الجزع ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ إذا مسه الشر ﴾ أي : أصابه الفقر ﴿ جزوعاً ﴾ لا يصبر .

ولا يحتسب ﴿ وإذا مسه الخير ﴾ أصابه المال ﴿ منوعاً ﴾ بمنعه من حق الله عز وجل

﴿ إلا المصلين ﴾ وهم أهل الإيمان بالله .

وإنما استثنى الجمع من الإنسان ، لأنه اسم جنس ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾

وفيهم ثلاثة أقوال .

(100/782)

أحدها : أنهم الذين يحافظون على المكتوبات ، وهو معنى قول ابن مسعود .

والثاني : أنهم لا يلتفتون عن أيمانهم وشمائلهم في الصلاة ، قاله عقبة بن عامر .

واختاره الزجاج قال : ويكون اشتقاقه من الدائم ، وهو الساكن ، كما جاء في الحديث أنه

نهى عن البول في الماء الدائم .

والثالث : أنهم الذين يكثرون فعل التطوع ، قاله ابن جريج .

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ قد سبق شرح هذه الآية والتي بعدها في [الذاريات :

19] وبينا معنى "يوم الدين" في "الفاتحة" .

وما بعد هذا قد شرحناه في [المؤمنين 7 ، 8] إلى قوله تعالى "لأماناتهم" قرأ ابن كثير

وحده : "لأماناتهم" ﴿ والذين هم بشهاداتهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "بشهادتهم" على التوحيد .

وقرأ حفص عن عاصم : "بشهاداتهم" جمعاً ﴿ قائمون ﴾ أي : يقومون فيها بالحق ، ولا يكتمونها ﴿ فمالِ الذين كفروا قِبلَكَ مُهْطِعين ﴾ نزلت في جماعة من الكفار جلسوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يستهزؤون بالقرآن ، ويكذّبون به .

قال الزجاج : والمُهْطِع : المُقْبِل ببَصَره على الشيء لا يُزَايِلُه ، وكانوا ينظرون إلى النبي نظر عداوة .

وقد سبق الخلاف في قوله تعالى : ﴿ مهطعين ﴾ [إبراهيم 43 ، والقمر : 8] .

قوله : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عِزين ﴾ .

قال الفراء : العِزُون : الحِلَق ، الجماعات ، واحدتها : عِزَةٌ ، وكانوا يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : إن دخل هؤلاء الجنة ، كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلنَّها قبلهم ، فنزل قوله تعالى ﴿ أيطمع كل امرىءٍ منهم أن يُدَخل جنة نعيم ﴾ وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، والمفضل عن عاصم : "أن يَدْخُلَ" بفتح الياء ، وضم الخاء .

وقال أبو عبيدة : عِزِين : جمع عِزَة ، مثل ثُبَة ، وثُبِين ، فهي جماعات في تفرقة .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا يكون ذلك ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فالمعنى : لا يستوجب الجنة أحد بما يَدَّعيه من الشرف على غيره ، إذ الأصل واحد ، وإنما يستوجبها بالطاعة .

والثاني : إنا خلقناهم من أقذار .

فبماذا يستحقون الجنة ولم يؤمنوا ؟ وقد روى بشر بن جَحَّاش عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ ثم بَزَق ، قال : يقول الله عز وجل : أَنَّى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه ؟ ! حتى إذا سَوَّيتُك ، وعَدَّلتُك ، مَشَيْتَ بين بُرْدَيْنِ ، وللأرض منك وئيد ، فجمعتَ ، ومنعتَ ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أَتصدَّقُ ، وأَنَّى أوان الصدقة ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ قد تكلمنا عليه في [الحاقة : 38] والمراد بالمشارق ، والمغارب : شرق كل يوم ومغربُه ﴿ إنَّا لقادرون على أن نُبَدِّل خيراً منهم ﴾ أي : نَخْلُقَ أَمْثَلَ منهم ، وأَطْوَعَ لله حين عَصَوْا ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ مفسر في [الواقعة : 60] ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ أي : يلهوا في دنياهم ﴿ حتى يُلاقوا ﴾ وقرأ ابن محيصن "يَلْقَوْا يومَهم الذي يوعدون" وهو يوم القيامة .

وهذا لفظ أمر ، معناه : الوعيد .

وذكر المفسرون أنه منسوخ بآية السيف .

وإذا قلنا : إنه وعيد بلقاء يوم القيامة ، فلا وجه للنسخ ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ أي : يخرجون بسرعة كأنهم يَسْتَبِقُون .

قوله تعالى : ﴿ كأنهم إلى نُصُبٍ ﴾ قرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم بضم النون والصاد .

وقال ابن جرير : وهو واحد الأنصاب ، وهي آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، فعلى هذا يكون المعنى : كأنهم إلى آلهتهم التي كانوا يعبدونها يُسرعون .

وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بفتح النون وسكون الصاد ، وهي في معنى القراءة الأولى ، إلا أنه مصدر .

كقول القائل : نصبت الشيء أنصبه نصباً .

(102/782)

قال قتادة : معناه : كأنهم إلى شيء منصوب يسرعون .

وقال ابن جرير : تأويله ، كأنهم إلى صنم منصوب يُسْرِعُون .

وقرأ ابن عباس ، وأبو مجلز ، والنخعي "نُصْب" برفع النون ، وإسكان الصاد ، وقرأ الحسن

، وأبو عثمان النَّهدي ، وعاصم الجحدري "إلى نَصَبٍ" بفتح النون والصاد جميعاً .

قال ابن قتيبة : النصب : حجر يُنْصَبُ أو صنم ، يقال : نَصْب ، ونُصْب ، ونُصُب ، وقال الفراء : النَّصْب والنُّصْبُ واحد ، وهو مصدر ، والجمع : الأنصاب .

وقال الزجاج : النَّصْب ، والنُّصُب : العلم المنصوب .

قال الفراء : والإيفاض : الإسراع .

قوله تعالى : ﴿ ترهقهم ذِلَّةٌ ﴾ قرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعمرو ابن دينار "ذِلَّةُ ذلك اليومِ" بغير تنوين ، وبخفض الميم .

وباقي السورة قد تقدم بيانه [المعارج : 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 367.357 ﴾

(103/782)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ سأل سائل ﴾

قرىء بغير همزة وفيه وجهان الأول أنه لغة في السؤال والثاني أنه من السيل .

ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب وقيل سال واد من أودية جهنم .

وقرىء سأل سائل بالهمز من السؤال ﴿ بعذاب ﴾ قيل الباء بمعنى عن أي عذاب ﴿ واقع ﴾ أي نازل وكائن وعلى من ينزل ولمن ينزل ولمن ذلك العذاب فقال الله تعالى مجيباً لذلك السؤال .

﴿ للكافرين ﴾ وذلك أن أهل مكة لما خوفهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بالعذاب قال بعضهم لبعض : من أهل هذا العذاب ولمن هو سلوا عنه محمداً فسألوه فأنزل الله تعالى سأل سائل بعذاب واقع للكافرين أي هو للكافرين .

والباء صلة ومعنى الآية دعا داع وطلب طالب عذاباً واقعاً للكافرين .

وهذا السائل هو النضر بن الحارث حيث دعا على نفسه وسأل العذاب فقال ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ الآية فنزل به ما سأل فقتل يوم بدر صبراً وهذا قول ابن عباس ، ﴿ ليس له دافع ﴾ أي أن العذاب واقع بهم لا محالة سواء طلبوه أو لم يطلبوه إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة ، لأن العذاب واقع بهم في الآخرة لا يدفعه دافع ﴿ من الله ﴾ أي بعذاب من الله ، والمعنى ليس لذلك العذاب الصادر من الله للكافرين دافع يدفعه عنهم ﴿ ذي المعارج ﴾ قال ابن عباس ذي السموات سماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها .

وقيل ذي الدرجات وهي المصاعد التي تعرج الملائكة فيها .

وقيل ذي الفواضل والنعم وذلك لأن أفضاله وأنعامه مراتب وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، ﴿ تعرج الملائكة والروح ﴾ يعني جبريل وإنما أفرده بالذكر وإن كان من

جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته .

وقيل إن الله تعالى إذا ذكر الملائكة في معرض التخويف والتهويل أفرد الروح بالذكر وهذا يقتضي أن الروح أعظم الملائكة ﴿ إليه ﴾ أي إلى الله ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ أي من سني الدنيا .

(104/782)

والمعنى أنه لو صعد غير الملك من بني آدم من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة والملك يقطع ذلك كله في ساعة واحدة وأقل من ذلك وذكر أن مقدار ما بين الأرض السابعة السفلى إلى منتهى العرش مسافة خمسين ألف سنة .

وقيل إن ذلك اليوم هو يوم القيامة قال الحسن هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس في مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا وليس يعني أن مقدار طول ذلك اليوم خمسون ألف سنة دون غيره من الأيام لأن يوم القيامة له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود لا آخر له .

ولو كان له آخر لكان منقطعاً وهذا الطول في حق الكفار دون المؤمنين .

قال ابن عباس يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري قال " قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

﴿ فاصبر ﴾ أي يا محمد على تكذيبهم إياك ﴿ صبراً جميلاً ﴾ أي لا جزع فيه وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية السيف ، ﴿ إنهم يرونه ﴾ أي العذاب ﴿ بعيداً ﴾ أي غير كائن ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي كائناً لا محالة لأن كل ما هو آت قريب ، وقيل الضمير في يرونه بعيداً يعود إلى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة والمعنى أنهم يستبعدونه على جهة الانكسار والإحالة ونحن نراه قريباً في قدرتنا غير بعيد علينا فلا يتعذر علينا إمكانه ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ أي كعكر الزيت وقال الحسن كالفضة المذابة ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي الصوف المصبوغ .

وإنما شبه الجبال بالمصبوغ من الصوف لأنها ذات ألوان أحمر وأبيض وغرابيب سود ونحو ذلك فإذا بست الجبال وسيرت أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

(105/782)

وقيل العهن الصوف الأحمر وهو أضعف الصوف وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم تصير هباء منثوراً ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ أي لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه والمعنى لا يسأل الحميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته .

وقيل لا يسأله الشفاعة ولا يسأله الإحسان إليه ولا الرفق به كما كان يسأله في الدنيا وذلك لشدة الأمر وهول يوم القيامة ﴿ يبصرونهم ﴾ أي يرونهم وليس في القيامة مخلوق من جن أو إنس إلا وهو نصف عين صاحبه فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه .

وقال ابن عباس يتعارفون ساعة من النهار ثم لا يتعارفون بعد ذلك ، وقيل يعرف الحميم حميمه ومع ذلك لا يسأله عن حاله لشغله بنفسه .

وقيل يبصرونهم أي يعرفونهم أما المؤمن فيعرف ببياض وجهه وأما الكافر فيعرف بسواد وجهه ﴿ يود المجرم ﴾ أي يتمنى المشرك ﴿ لو يفتدي من عذاب يومئذ ﴾ أي عذاب يوم القيامة ﴿ ببنيه وصاحبته ﴾ أي زوجته ﴿ وأخيه وفصيلته ﴾ أي عشيرته وقيل قبيلته وقيل أقربائه الأقربين ﴿ التي تؤويه ﴾ أي تضمه ويأوي إليها ﴿ ومن في الأرض جميعاً ﴾ يعني أنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ثم إنه يفتدي بهم جميعاً ﴿ ثم ينجيه ﴾ أي ذلك الفداء من عذاب الله .

﴿ كلا ﴾ أي لا ينجيه من عذاب الله شيء ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ إنها لظى ﴾ يعني النار ولظى اسم من أسمائها وقيل : الدركة الثانية من النار سميت لظى لأنها تتلظى أي تلتهب ، ﴿ نزاعة للشوى ﴾ يعني الأطراف كاليدين والرجلين مما ليس بمقتل .

والمعنى أن النار تنزع الأطراف فلا تترك عليها لحماً ولا جلداً .

وقال ابن عباس : تنزع العصب والعقب وقيل تنزع اللحم دون العظام وقيل تأكل الدماغ كله ثم يعود كما كان ثم تأكله فذلك دأبها .

(106/782)

وقيل لمكارم خلقه ومحاسن وجهه وأطرافه ، ﴿ تدعوا ﴾ يعني النار إلى نفسها ﴿ من أدبر ﴾ أي عن الإيمان ﴿ وتولى ﴾ أي عن الحق فتقول له إليّ يا مشرك إليّ يا منافق إليّ إليّ .

قال ابن عباس تدعو الكافر والمنافق بأسمائهم بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب .

وقيل تدعو أي تعذب قال أعرابي لآخر دعاك الله أي عذبك الله ﴿ وجمع فأوعى ﴾ يعني وتدعو من جمع المال في الوعاء ولم يؤد حق الله منه ، ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾

قال ابن عباس الهلوع الحريص على ما لا يحل .

وقيل شحيحاً بخيلاً .

وقيل ضجوراً وقيل جزوعاً ، وقيل ضيق القلب والهلع شدة الحرص وقلة الصبر وقال ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ يعني إذا أصابه الفقر لم يصبر وإذا أصابه المال لم ينفق .

وقال ابن كيسان خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره .

قيل أراد بالإنسان هنا الكافر وقيل هو على عمومه ثم استثنى الله فقال تعالى : ﴿ إلا المصلين ﴾ وهذا استثناء الجمع من الواحد لأن الإنسان واحد وفيه معنى الجمع ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ يعني يقيموها في أوقاتها وهي الفرائض .

فإن قلت كيف قال على صلاتهم دائمون ثم قال بعده على صلاتهم يحافظون ؟

قلت معنى إدامتهم عليها أن يواظبوا على أدائها ، وأن لا يتركوها في شيء من الأوقات وأن لا يشتغلوا عنها بغيرها إذا دخل وقتها ، والمحافظة عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها وهو أن يأتي بها العبد على أكمل الوجوه .

وهذا إنما يحصل بأمور ثلاثة منها ما هو سابق للصلاة كاشتغاله بالوضوء وستر العورة

وإرصاد المكان الطاهر للصلاة ، وقصد الجماعة وتعلق القلب بدخول وقتها وتفريغه عن الوسواس والالتفات إلى ما سوى الله .

(107/782)

وأما الأمور المقارنة للصلاة فهي أن لا يلتفت في الصلاة يميناً ولا شمالاً وأن يكون حاضر القلب في جميعها بالخشوع والخوف وإتمام ركوعها وسجودها .

وأما الأمور الخارجة عن الصلاة فهو أن يحترز عن الرياء والسمعة خوف أن لا تقبل منه مع الابتهال والتضرع إلى الله تعالى في سؤال قبولها وطلب الثواب فالمداومة على الصلاة ترجع إلى نفسها والمحافظة عليها ترجع إلى أحوالها وهيئاتها .

وروى البغوي بسنده عن أبي الخير قال سألنا عقبة بن عامر عن قوله الذين هم على صلاتهم دائمون أهم الذين يصلون أبداً ؟ قال لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه .

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ يعني الزكاة المفروضة لأنها مقدرة معلومة .

وقيل هي صدقة التطوع وذلك بأن يوظف الرجل على نفسه شيئاً من الصدقة يخرجه على سبيل الندب في أوقات معلومة ﴿ للسائل ﴾ يعني الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ يعني الفقير

المتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يؤمنون بالبعث بعد الموت والحشر والنشر والجزاء يوم القيامة ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون ثم أكد ذلك الخوف فقال تعالى : ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ يعني أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ولا اجتنب المحظورات بالكلية كما ينبغي بل قد يكون وقع منه تقصير من الجانبين فلا جرم ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ تقدم تفسيره في سورة المؤمنين .

(108/782)

قوله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي يقومون فيها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها وهذه الشهادة من جملة الأمانات إلا أنه خصها بالذكر لفضلها لأن بها تحيا الحقوق وتظهر وفي تركها تموت وتضيع ، وقيل أراد بالشهادة الشهادة له بأن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ولهذا عطف عليها ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم ذكر

ما أعده لهم فقال تعالى : ﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفته ﴿ في جنات مكرمون ﴾ قوله تعالى : ﴿ فمال الذين كفروا ﴾ أي فما بالهم ﴿ قبلك مهطعين ﴾ أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك ، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي (صلى الله عليه وسلم) يسمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه فقال الله تعالى ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك وهم لا ينتفعون بما يسمعون منك ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ يعني أنهم كانوا عن يمينه وعن شماله مجتمعين حلقاً وفرقاً ، والعزون جماعات في تفرقة ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ قال ابن عباس : معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي نعيم كما يدخلها المسلمون ويتنعمون فيها وقد كذبوا نبيي ، ﴿ كلا ﴾ أي لا يدخلها ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أي من الأشياء المستقذرة من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة نبه الله على أنهم خلقوا من أصل واحد وشيء واحد وإنما يتفاضلون بالمعرفة ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بشر بن جحاش قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال " يقول الله يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد

فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة " ، وأخرجه ابن الجوزي في تفسيره بلا إسناد .

(109/782)

وقيل في معنى الآية إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب .

وقيل معناه إنا خلقناهم ممن يعلمون ويعقلون ولم نخلقهم كالبهائم بلا علم ولا عقل .

﴿ فلا أقسم ﴾ يعني وأقسم وقد تقدم بيانه ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾ يعني مشرق كل يوم من السنة ومغربه .

وقيل يعني مشرق كل نجم ومغربه ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ معناه إنا لقادرون على إهلاكهم وعلى أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بمن هو خير منكم ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في أباطيلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ نسختها آية القتال ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث ﴾ يعني القبور ﴿ سراعاً ﴾ أي إلى إجابة الداعي ﴿ كأنهم إلى نصب ﴾ يعني إلى شيء منصوب كالعلم والراية ونحوه .

وقرىء بضم النون والصاد وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ يوفضون ﴾ أي يسرعون ومعنى الآية أنهم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين إليه كما كانوا يستبقون إلى نصبهم ليستلموها ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أي ذليلة خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي يغشاهم هوان ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 148.153 ﴾

(110/782)

وقال النسفى :

سورة المعارج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ هو النضر بن الحرث قال : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] أو هو النبي صلى الله عليه وسلم دعا بنزول العذاب عليهم .

ولما ضمن سأل معنى دعا عدى تعديته كأنه قيل : دعا داع ﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ومنه قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ [الدخان : 55] .

و ﴿ سال ﴾ بغير همز : مدني وشامي وهو من السؤال أيضاً إلا أنه خفف بالتليين و ﴿ سَائِلٌ ﴾ مهموز إجماعاً ﴿ للكافرين ﴾ صفة ل ﴿ عَذَابٍ ﴾ أي بعذاب واقع كائن للكافرين ﴿ لَيْسَ لَهُ ﴾ لذلك العذاب ﴿ دَافِعٌ ﴾ راد ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ متصل بواقع أي واقع من عنده أو بدافع أي ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ ذِي المعارج ﴾ أي مصاعد السماء للملائكة جمع معرج وهو موضع العروج .

ثم وصف المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع فقال ﴿ تَعْرُجُ ﴾ تصعد .

وبالياء : علي ﴿ الملائكة والروح ﴾ أي جبريل عليه السلام خصه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه ، أو خلق هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة علينا ، أو أرواح المؤمنين عند الموت ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ من صلة تعرج ﴿ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ من سني الدنيا لو صعد فيه غير الملك ، أو "من" صلة ﴿ وَاقِعٍ ﴾ أي يقع في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة ، فإما أن يكون استطالة له لشدته على الكفار ، أو لأنه على الحقيقة كذلك فقد قيل فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر .

﴿ فاصبر ﴾ متعلق ب ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ لأن استعجال النضر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالصبر عليه ﴿ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ بلا جزع ولا شكوى ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ إن الكفار ﴿ يَرَوْنَهُ ﴾ أي العذاب أو يوم القيامة ﴿ بَعِيداً ﴾ مستحيلاً ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ كائناً لا محالة ، فالمراد بالبعيد من الإمكان وبالقريب القريب منه .

نصب ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء ﴾ ب ﴿ قَرِيبًا ﴾ أي يمكن في ذلك اليوم أو هو بدل عن ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ فيمن علقه ب ﴿ وَاقِعٍ ﴾ ﴿ كالمهل ﴾ كدردي الزيت أو كالفضة المذابة في تلونها ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بست وطيرت في الجو اشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ لا يسأل قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه . وعن البزي والبرجمي : بضم الياء أي ولا يسأل قريب عن قريب أي لا يطالب به ولا يؤخذ بذنبه .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ صفة أي حميماً مبصرين معرفين إياهم ، أو مستأنف كأنه لما قال ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ قيل : لعله لا يبصره .

فقيل : يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم .

والواو ضمير الحميم الأول و "هم" ضمير الحميم الثاني أي يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم .

وإنما جمع الضميران وهما للحميمين لأن فعيلاً يقع موقع الجمع ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ يتمنى المشرك وهو مستأنف ، أو حال من الضمير المرفوع ، أو المنصوب من ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ وبالفتح : مدني وعلي على البناء للإضافة إلى غير متمكن ﴿ بِبَنِيهِ * وصاحبته ﴾ وزوجته ﴿ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ﴾ وعشيرته الأدنين ﴿ التى تُؤْوِيهِ ﴾ تضمه انتماء إليها .

وبغير همز : يزيد .

(112/782)

﴿ وَمَن فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ من الناس ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ الافتداء عطف على ﴿ يفتدى ﴾ .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب ﴿ إِنَّهَا ﴾ إن النار ، ودل ذكر العذاب عليها ، أو هو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر أو ضمير القصة ﴿ لظى ﴾ علم للنار ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ حفص والمفضل على الحال المؤكدة ، أو على الاختصاص للتهويل .

وغيرهما بالرفع خبر بعد خبر ل "إن" أو على "هي نزاعة" ﴿ للشوى ﴾ لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين ، أو جمع شواة وهي جلدة الرأس تنزعها نزعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت ﴿ تَدْعُواْ ﴾ بأسمائهم يا كافر يا منافق إليّ إليّ ، أو تهلك من قولهم دعاك الله أي أهلكك ، أو لما كان مصيره إليها جعلت كأنها دعته ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وتولى ﴾ عن الطاعة ﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال ﴿ فَأَوْعَى ﴾ فجعله في وعاء ولم يؤد حق الله منه .

﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ أريد به الجنس ليصح استثناء المصلين منه ﴿ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : تفسيره ما بعده ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ والهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير .

وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع فقال : قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس ، وهذا طبعه وهو مأمور بمخالفة طبعه وموافقة شرعه .

والشر : الضر والفقر .

والخير : السعة والغنى أو المرض والصحة ﴿ إِلاَّ المصلين * الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ ﴾ أي صلواتهم الخمس ﴿ دَائِمُونَ ﴾ أي يحافظون عليها في مواقيتها .

(113/782)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها في أوقات معلومة ﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم ﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفون .

واعترض بقوله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ بالهمز : سوى أبي عمرو أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنه وينبغي أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون * إِلاَّ على أزواجهم ﴾ نسائهم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ أي إمائهم ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ على ترك الحفظ ﴿ فَمَنِ ابتغى ﴾ طلب منكحاً ﴿ وَرَآءَ ذلك ﴾ أي غير الزوجات والمملوكات ﴿ فأولئك هُمُ العادون ﴾ المتجاوزون

عن الحلال والحرام .

وهذه الآية تدل على حرمة المتعة ووطء الذكران والبهائم والاستمناء بالكف ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم ﴾ ﴿ لأماناتهم ﴾ مكي ، وهي تتناول أمانات الشرع وأمانات العباد ﴿ وَعَهْدِهِمْ ﴾ أي عهودهم ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والأيمان ﴿ راعون ﴾ حافظون غير خائنين ولا ناقضين .

وقيل : الأمانات ما تدل عليه العقول والعهد ما أتى به الرسول .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بشهاداتهم ﴾ ﴿ بشهادتهم ﴾ سهل .

وبالألف : حفص وسهل ويعقوب .

﴿ قَائِمُونَ ﴾ يقيمونها عند الحكام بلا ميل إلى قريب وشريف وترجيح للقوي على الضعيف إظهاراً للصلابة في الدين ورغبة في إحياء حقوق المسلمين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ كرر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم ، أو لأن إحداهما للفرائض والأخرى للنوافل .

(114/782)

وقيل : الدوام عليها الاستكثار منها والمحافظة عليها أن لا تضيع عن مواقيتها ، أو الدوام عليها أداؤها في أوقاتها والمحافظة عليها حفظ أركانها وواجباتها وسننها وآدابها ﴿ أولئك ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿ فِى جنات مُّكْرَمُونَ ﴾ هما خبران .

﴿ فَمَالِ ﴾ كتب مفصولاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ ﴾ نحوك معمول ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين حال من ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال ﴾ عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله ﴿ عِزِينَ ﴾ حال أي فرقاً شتى جمع عزة وأصلها عزوة كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون .

كان المشركون يحتفّون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء : سوى المفضل ﴿ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ كالمؤمنين ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ﴿ إِنَّا خلقناهم مّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي من النطفة المذرة ولذلك أبهم إشعاراً بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ، ويقولون لندخلن الجنة قبلهم ؟ أو معناه : إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان فلم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق ﴾ مطالع الشمس ﴿ والمغارب ﴾

ومغاربها ﴿ إِنَّا لقادرون * على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ على أن نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بعاجزين.

(115/782)

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدع المكذبين ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُواْ ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ فيه العذاب ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَهُمُ ﴾ ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الراء: سوى الأعشى ﴿ مِّنَ الأجداث ﴾ القبور ﴿ سِرَاعاً ﴾ جمع سريع حال أي إلى الداعي ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ حال ﴿ إِلَى نُصُبٍ ﴾ شامي وحفص وسهل ﴿ نُصُبٍ ﴾ المفضل.

﴿ نَصَبٌ ﴾ غيرهم وهو كل ما نصب وعبد من دون الله ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون ﴿ خاشعة ﴾ حال من ضمير ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ أي ذليلة ﴿ أبصارهم ﴾ يعني لا يرفعونها لذلتهم ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ يغشاهم هوان ﴿ ذَلِكَ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا وهم يكذبون به. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 290. 293 ﴾

(116/782)

وقال ابن جزى :

سورة المعارج

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

من قرأ سأل بالهمز احتمل معنيين ؛ أحدها : أن يكون بمعنى الدعاء ، أي دعا داع بعذاب واقع ، وقد تكون الإشارة إلى قول الكفار : (أمطر علينا حجارة من السماء) ، وكان الذي قالها النضر بن الحارث ، والآخر أن يكون بمعنى الاستخبار ، أي سأل سائل عن عذاب واقع ، والباء على هذا بمعنى عن ، وتكون الإشارة إلى قوله : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] ؟ وغير ذلك ، وأما من قرأ سال بغير همز فيحتمل وجهين ؛ أحدهما : أن يكون مخففاً من المهموز ، فيكون فيه المعنيان المذكوران ، والثاني أن يكون من سال السيل إذا جرى ، ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس : سال سيل ، وتكون الباء على هذا كقولك ذهبت بزيد ، وإذا كان من السيل احتمل وجهين : أحدهما أن يكون شبَّه العذاب في شدته وسرعة وقوعه بالسيل ، وثانيهما : أن تكون حقيقة ، قال زيد بن ثابت : في جهنم واد يقال له سائل ، فتلخص من هذا أن في القراءة بالهمز يحتمل معنيين وفي القراءة بغير همز أربعة معان ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ يحتمل أن يتعلق بواقع وتكون اللام بمعنى على ، أو تكون صفة للعذاب ، أو يتعلق بسأل إذا كانت بمعنى دعا ، أي دعا للكافرين بعذاب ، أو تكون

مستأنفاً كأنه قال : هو للكافرين ﴿ مِّنَ الله ﴾ يحتمل أن يتعلق بواقع أي واقع من عند الله ، أو بدافع أي ليس له دافع من عند الله ، أو يكون صفة للعذاب أو متسأنفاً ﴿ ذِي المعارج ﴾ جمع معرج وهو المصعد إلى علو كالسلم ، والمدارج التي يُرتقى بها ، قال ابن عطية : هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة ، وقيل : هي المراقي إلى السماء ، وهذا أظهر لأنه فسرها بما بعدها من عروج الملائكة .

(117/782)

﴿ والروح إِلَيْهِ ﴾ إي إلى عرشه ، ومن حيث تهبط أوامره وقضاياه ، فالعروج هو من الأرض إلى العرش ، والروح هنا جبريل عليه السلام بدليل قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193-194] وقيل : الروح الملائكة حفظة على الملائكة ، وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقل . وقيل : الروح جنس أرواح الناس وغيرهم ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ اختلف في هذا اليوم على قولين : أحدهما أنه يوم القيامة ، والآخر : أنه في الدنيا . والصحيح أنه يوم القيامة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مانع الزكاة : " ما ممن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صفحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى

يقضي بين العباد " يعني يوم القيامة ، ثم اختلف : هل مقداره خمسون ألف سنة حقيقة ؟ وهذا هو الأظهر ، أو هل وصف بذلك لشدة أهواله ؟ كما يقال : يوم طويل إذا كان فيه مصائب وهموم ، وإذا قلنا إنه في الدنيا فالمعنى أن الملائكة والروح يعرجون في يوم لو عرج فيه الناس لعرجوا في خمسين ألف سنة ، وقيل : الخمسون ألف سنة هي مدة الدنيا ، والملائكة تعرج وتنزل في هذه المدة ، وهذا كله على أن يكون قوله : في يوم يتعلق بتعرج ويحتمل أن يكون (في يوم) صفة للعذاب ، فيتعين أن يكون اليوم يوم القيامة والمعنى على هذا مستقيم .

(118/782)

﴿ فاصبر ﴾ هذا متصل بما قبله من العذاب وغيره ، أي : اصبر على أقوال الكافرين حتى يأتيهم العذاب ، ولذلك وصفه بالقرب مبالغة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على العذاب ، أو على اليوم الذي مقداره خمسن ألف سنة ، والبعيد يحتمل أن يراد به بعد الزمان أو بعد الإمكان ، وكذلك القرب يحتمل أن يراد به قرب الزمان لأن كل آت قريب ، ولأن الساعة قد قربت ، وقرب الإمكان لقدرة الله عليه ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ يوم هنا بدل من ؛ يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ،

أو بدل من الضمير المنصوب في (نراه) أو منصوب بقوله : قريباً ، أو بقوله : ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ [المعارج : 11] ، أو بفعل مضمر تقديره : أذكر . والمهل : هو دُردي الزيت شبه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة ، وقيل : هو ما أذيب من الفضة ونحوها ، شبَّه السماء به في تلوُّنه ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ العِهن هو الصوف ، شبّه الجبال به في انتفاشه وتخلخل أجزائه وقيل : هو الصوف المصبوغ ألواناً فكيون التشبيه في الانتفاش ، وفي اختلاف الألوان ، لأن الجبال منها بيض وسود وحمر ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ الحميم هنا الصديق والمعنى لا يسأل أحد من حميمه نصرة ولا إعانة ؛ لعلمه أنه لا يقدر له على شيء ، وقيل : لا يسأله عن حاله لأن كل أحد مشغول بنفسه .

(119/782)

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يقال : بصر الرجل بالرجل إذا رآه ، وبصَّرته إياه بالتشديد إذا أريته إياه ، والضميران يعودان على الحميمين لأنهما في معنى الجمع ، والمعنى أن كل حميم يبصر حميمه يوم القيامة فيراه ولكنه لا يسأله ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ يعني امرأته ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ يعني القرابة الأقربين ﴿ تُؤْوِيهِ ﴾ أي تضمه ، فيحتمل أن يريد تضمه في الانتماء إليها أو في نصرته وحفظه من المضرات ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ الفاعل الافتداء الذي يقتضيه لو يفتدي ، وهذا

الفعل معطوف على ﴿ لَوْيَفْتَدِي ﴾ وإنما عطفه بثم إشعاراً ببعد النجاة وامتناعها ، ولذلك زجره عن ذلك بقوله ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لظى ﴾ الضمير للنار لأن العذاب يدل عليها ، ويحتمل أن يكون ضمير القصة وفسره بالخبر ولظي علم لجهنم مشتق من اللظى بمعنى اللهب ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ الشوى أطراف الجسد ، وقيل : جلد الرأس ، فالمعنى أن النار تنزعها ثم تعود ، ونزاعة بالرفع بدل من لظى ، أو خبر ابتداء مضمر ، أوخبر لإنها إن جعلنا لظى منصوباً على التخصيص ، أو بدل من الضمير ، أو خبر ثاني لإنها إن جعلنا لظى خبر لها ، ونزاعةً بالنصب حال ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ يعني الكفار الذين تولوا عن الإسلام ، ودعاؤها لهم عبارة عن أخذها لهم ، وقال ابن عباس : تدعوهم حقيقة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وقيل : معناه تهلك ، حكاه الخليل عن العرب ﴿ وَجَمَعَ فأوعى ﴾ يقال : أوعيت المال وغيره إذا جمعته في وعاء ، فالمعنى جمع المال وجعله في وعاء ، وهذه إشارة إلى قوم من إغنياء الكفار جمعوا المال من غير حله ومنعوه من حقه .

(120/782)

﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ الإنسان هنا اسم جنس بدليل الاستثناء منه ، سئل أحمد بن يحيى مؤلف الفصيح ، عن الهلوع فقال : قد فسره الله فلا تفسيراً أَبْيَنَ من تفسيره وهو

قوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ وذكره الله على وجه الذم لهذه الخلائق ، ولذلك استثنى منه المصلين ، لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا ، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ الدوام عليها هو المواظبة بطول العمر ، والمحافظة عليها المذكورة بعد ذلك هي أداؤها في أوقاتها وتوفية الطهارة لها ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ قد ذكرنا في [الذاريات : 19] معنى حق والسائل والمحروم ، ووصفه هنا بالملعوم ؛ إن أراد الزكاة فهي معلومة المقدار شرعاً ، وإن أراد غيرها فمعنى المعلوم ؛ أن العبد يجعل على نفسه وظيفة معلومة عنده .

﴿ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا يكون أحد آمناً منه فإن الأمن من عذا الله حرام ، فلا ينبغي للعبد أن يزيل عنه الخوف حتى يدخل الجنة .

(121/782)

﴿ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ﴾ ذكر في [المؤمنين : 8] وكذلك لفروجهم حافظون ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقال الجمهور : يعني الشهادة عند الحكام ، ثم اختلف على هذا في معنى القيام بها ؟ فقيل : هو التحقيق لها كقوله صلى الله عليه وسلم : " على مثل الشمس فاشهدوا " . وقيل :

هو المبادرة إلى أدائها من غير امتناع ، فأما إن دعي الشاهد إلى الأداء فهو واجب عليه ، وأما إذا لم يدع إلى الأداء فالشهادة على ثلاثة أقسام : أحدها : حقوق الناس ، فلا يجوز أداؤها حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك ، والثاني : حقوق الله التي يستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق والأحباس ، فيجب أداء الشهادة بذلك دعي أو لم يدع ، الثالث : حقوق الله لا يستدام فيها التحريم كالحدود ، فهذا ينبغي ستره ، حتى يدعى إليه .

(122/782)

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين مقبلين إليك بأبصارهم ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل ، الكفار ينظرون إليه ويستمعون قراءته ، ومعنى قبلك في جهتك وما يليك ﴿ عِزِينَ ﴾ أي جماعات شتى وهو جمع عزة بتخفيف الزاي وأصل عزوة ، وقيل عزهة ثم حذفت لامها وجمعت بالواو والنون عوضاً من اللام المحذوفة ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ كانوا يقولون إن كان ثم جنة فنحن أهلها ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عما طمعوا فيه من دخول الجنة ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ كناية عن المنيّ الذي خلق الإنسان منه ، وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه ؛ أحدها : تحقير الإنسان والردّ على المتكبرين . الثاني : الردّ على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة كأنه

يقول : إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس ، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح ؛ لأنكم سواء في الخلقة ، الثالث : الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين ، فهو قادر على أن يعيدهم كقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 37] إلى آخر السورة .

(123/782)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ معناه أقسم ، ولا زائدة ﴿ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ ذكر في [الصافات : 5] ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ * على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ تهديد الكفار بإهلاكهم ، وإبدال خير منهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي مغلوبين ، والمعنى : إنا لا نعجز عن التبديل المذكور أو عن البعث ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ وعيد لهم ، وفيه مهادنة منسوخة بالسيف ﴿ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة ، بدليل أنه أبدل منه ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ وهي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ النَصْب الأصنام ، وأصله كل ما نصب إلى الإنسان ، فهو يقصد إليه مسرعاً من عَلَم أو بناء أو غير ذلك ، وفي لغات فتح النون وإسكان الصاد ، وضم النون وإسكان الصاد وضمها ، ويوفضون معناه : يسرعون ،

والمعنى أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر ، كما يسرعون المشي إلى أصنامهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 145.148 ﴾

(124/782)

وقال البيضاوى :

سورة المعارج

﴿ مكية وآيها أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾

أي دعا داع به بمعنى استدعاه ولذلك عدى الفعل بالباء والسائل هو النضر بن الحارث فإنه قال ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ الآية أو أبو جهل فإنه قال ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مّنَ السماء ﴾ ساله استهزاء أو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل بعذابهم وقرأ نافع وابن عامر " سال" وهو إما من السؤال على لغة قريش قال :

سالت هذيل رسول الله فاحشة . . . ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

أو من السيلان ويؤيده أنه قرىء "سال سيل" على أن السيل مصدر بمعنى السائل كالغور والمعنى سال واد بعذاب ومضى الفعل لتحقق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار .

﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة ل ﴿ وَاقِعٍ ﴾ وإن صح أن السؤال كان عمن يقع به العذاب كان جواباً والباء على هذا لتضمن ﴿ سَأَلَ ﴾ معنى اهتم ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ يرده .

﴿ مِنَ الله ﴾ من جهته لتعلق إرادته ﴿ ذِي المعارج ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب العمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم أو مراتب الملائكة أو في السموات فإن الملائكة يعرجون فيها .

(125/782)

﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على التمثيل والتخيل والمعنى أنها بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا وقيل تعرج الملائكة والروح إلى عرشه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من حيث إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان

فيها لو فرض لا أن ما بين أسفل العالم وأعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة لأن ما بين مركز الأرض ومقعر السماء الدنيا على ما قيل مسيرة خمسمائة عام وثخن كل واحدة من السموات السبع والكرسي والعرش كذلك وحيث قال ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يريد زمان عروجهم من الأرض إلى محدب السماء الدنيا وقيل ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ متعلق ب ﴿ وَاقِعٍ ﴾ أو ﴿ سَالَ ﴾ إذا جعل من السيلان والمراد به يوم القيامة واستطالته إما لشدته على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات أو لأنه على الحقيقة كذلك والروح جبريل عليه السلام وإفراده لفضله أو خلق أعظم من الملائكة.

﴿ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً ﴾ لا يشوبه استعجال واضطراب قلب وهو متعلق ب ﴿ سَأَلَ ﴾ لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنت وذلك مما يضجره أو عن تضجر واستبطاء للنصر أو ب ﴿ سَأَلَ ﴾ لأن المعنى قرب وقوع العذاب ﴿ فاصبر ﴾ فقد شارفت الانتقام.

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ الضمير للعذاب أو يوم القيامة ﴿ بَعِيداً ﴾ من الإِمكان.

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ منه أو من الوقوع.

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ ظرف ل ﴿ قَرِيبًا ﴾ أي يمكن ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ﴾ أو لمضمر دل عليه ﴿ وَاقِعٍ ﴾ أو بدل من ﴿ فِى يَوْمٍ ﴾ إن علق به والمهل المذاب في "مهل" كالفلزات أو دردي الزيت.

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

(126/782)

﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ ولا يسأل قريب قريباً عن حاله وعن ابن كثير "وَلاَ يُسْئَلَ" على بناء المفعول أي لا يطلب من حميم حميم أو لا يسأل منه حاله .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ استئناف أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده وجمع الضميرين لعموم الحميم . ﴿ يَوَدُّ المجرم ﴾ .

﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وصاحبته وَأَخِيهِ ﴾ حال من أحد الضميرين أو استئناف يدل على أن اشتغال كل مجرم بنفسه بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وقرىء بتنوين "عَذَابٍ" ونصب ﴿ يَوْمَئِذ ﴾ به لأنه بمعنى تعذيب .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ وعشيرته الذين فصل عنهم ﴿ التى تُؤْوِيهِ ﴾ تضمه في النسب أو عند الشدائد .

﴿ وَمَن فِى الأَرض جَمِيعاً ﴾ من الثقلين أو الخلائق ﴿ ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ عطف على ﴿ يفتدى ﴾ أي ثم ينجيه الافتداء و ﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمجرم عن الودادة ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿ إِنَّهَا ﴾ الضمير للنار أو مبهم يفسره ﴿ لظى ﴾ وهو خبر أو بدل أو للقصة و ﴿ لظى ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ نَزَّاعَةً للشوى ﴾ وهو اللهب الخالص وقيل علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب وقرأ حفص عن عاصم ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة أو المتنقلة على أن ﴿ لظى ﴾ بمعنى متلظية والشوى والأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس .

﴿ تَدْعُواْ ﴾ تجذب وتحضر كقول ذي الرمة :

تدعو أنفه الريب . . . مجاز عن جذبها وإحضارها لمن فرَّ عنها وقيل تدعو زبانيتها وقيل تدعو تهلك من قولهم دعاه الله إذا أهلكه ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وتولى ﴾ عن الطاعة .

﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأميلاً .

(127/782)

﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ شديد الحرص قليل الصبر .

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر ﴾ الضر ﴿ جَزُوعاً ﴾ يكثر الجزع .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير ﴾ السعة ﴿ مَنُوعاً ﴾ يبالغ بالإمساك والأوصاف الثلاثة أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها و ﴿ إِذَا ﴾ الأولى ظرف ل ﴿ جَزُوعاً ﴾ والأخرى ل ﴿ مَنُوعاً ﴾ .

﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ استثناء للموصوفين بالصفات المذكورة بعد من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليها .

﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل .

﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ كالزكوات والصدقات الموظفة .

﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ الذي لا يسأل فيحسب نفسه غنياً فيحرم .

﴿ والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ تصديقاً بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعاً في المثوبة الأخروية ولذلك ذكر ﴿ الدين ﴾ .

﴿ والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفون على أنفسهم .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ اعتراض يدل على أنه لا ينبغي لأحد يأمن عذاب الله

وإن بالغ في طاعته .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ سبق تفسيره في سورة "المؤمنين" .

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ حافظون وقرأ ابن كثير ﴿ لأماناتهم ﴾ يعني لا يخونون ولا ينكرون ولا يخفون ما علموه من حقوق الله وحقوق العباد .

﴿ والذين هُم بشهاداتهم قَائِمُونَ ﴾ وقرأ يعقوب وحفص "بشهاداتهم" لاختلاف الأنواع .

(128/782)

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ فيراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتهما على غيرها وفي نظم هذه الصلاة مبالغات لا تخفى .

﴿ أُوْلَئِكَ فِى جنات مُّكْرَمُونَ ﴾ بثواب الله تعالى .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ ﴾ حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين .

﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال عِزِينَ ﴾ فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة من العزو وكأن كل

فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى وكان المشركون يحتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقاً ويستهزئون بكلامه .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمان وهو إنكار لقولهم لو صح ما يقوله لنكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿ إِنَّا خلقناهم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ تعليل له والمعنى أنهم مخلوقون من نطفة مذرة لا تناسب عالم القدس فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق الملكية لم يستعد لدخولها أو إنكم مخلوقون من أجل ما تعلمون وهو تكميل النفس بالعلم والعمل فمن لم يستكملها لم يتبوأ في منازل الكاملين أو الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردعهم عنه .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب إِنَّا لقادرون على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً صلى الله عليه وسلم بدلكم من هو خير منكم وهم الأنصار . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ مر في آخر سورة "الطور" .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ مسرعين جمع سريع ﴿ كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ ﴾ منصوب للعبادة أو علم ﴿ يُوفِضُونَ ﴾ يسرعون وقرأ ابن عامر وحفص ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد والباقون من السبعة "نَصَبٌ" بفتح النون وسكون الصاد وقرىء بالضم على أنه تخفيف ﴿ نُصَبٌ ﴾ أو جمع .

﴿ خاشعة أبصارهم تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ مر تفسيره ﴿ ذَلِكَ اليوم الذى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا .

عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ أعطاه الله ثواب الذين هم ﴿ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ ". (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 386.392 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال أبو حيان :

سورة المعارج

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ سأل ﴾ بالهمز : أي دعا داع ، من قولهم : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، فالباء على أصلها .

وقيل : المعنى بحث باحث واستفهم .

قيل : فالباء بمعنى عن .

وقرأ نافع وابن عامر : سال بألف ، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفاً ، وهو بدل على غير قياس ، وإنما قياس هذا بين بين ، ويجوز أن يكون على لغة من قال : سلت أسأل ، حكاها سيبويه .

وقال الزمخشري : هي لغة قريش ، يقولون : سلت تسال وهما يتسايلان . انتهى .

وينبغي أن يتثبت في قوله إنها لغة قريش .

لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز أو أصله الهمز ، كقراءة من قرأ : وسلوا الله من فضله ، إذ لا يجوز أن يكون من سال التي عينها واو ، إذ كان يكون ذلك وسلوا الله مثل خافوا الأمر ، فيبعد أن يجيء ذلك كله على لغة غير قريش ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيراً فيه لغة غيرهم .

ثم جاء في كلام الزمخشري : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ ، وإنما هو يتساولان بالواو .

فإن توافقت النسخ بالياء ، فيكون التحريف من الزمخشري ؛ وعلى تقدير أنه من السؤال ، فسائل اسم فاعل منه ، وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو .

وقيل : سال من السيلان ، ويؤيده قراءة ابن عباس : سال سايل .

وقال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى سايلاً وأخبر هنا عنه .

قال ابن عطية : ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه .

وقال الزمخشري : والسيل مصدر في معنى السايل ، كالغور بمعنى الغاير ، والمعنى : اندفع عليهم وادي عذاب ، فذهب بهم وأهلكهم . انتهى .

وإذا كان السائل هم الكفار ، فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم ، فأخبر تعالى أنه واقع وعيداً لهم .

وقرأ أبي وعبد الله : سال سال مثل مال بإلقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفاً .

قيل : والمراد سائل . انتهى .

ولم يحك هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة .

فإن قرأ بالهمز فظاهر ، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شايك ، حذفت عينه واللام جرى فيها الإعراب ، والظاهر تعلق بعذاب بسال .

وقال أبو عبد الله الرازي : يتعلق بمصدر دل عليه فعله ، كأنه قيل : ما سؤاله ؟ فقيل : سؤاله بعذاب ، والظاهر اتصال الكافرين بواقع فيكون متعلقاً به ، واللام للعلة ، أي نازل بهم لأجلهم ، أي لأجل كفرهم ، أو على أن اللام بمعنى على ، قاله بعض النحاة ، ويؤيده قراءة أبيّ : على الكافرين ، أو على أنه في موضع ، أي واقع كائن للكافرين .

وقال قتادة والحسن : المعنى : كأن قائلاً قال : لمن هذا العذاب الواقع ؟ فقيل : للكافرين .

وقال الزمخشري : أو بالفعل ، أي دعاء للكافرين ، ثم قال : وعلى الثاني ، وهو ثاني ما ذكر من توجيهه في الكافرين .

قال هو كلام مبتدأ جواب للسائل ، أي هو للكافرين ، وكان قد قرر أن سال ضمن معنى دعا ، فعدى تعديته كأنه قال : دعا داع بعذاب من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ انتهى .

فعلى ما قرره أنه متعلق بدعا ، يعني بسال ، فكيف يكون كلاماً مبتدأ جواباً للسائل أي هو للكافرين ؟ هذا لا يصح .

فقد أخذ قول قتادة والحسن وأفسده ، والأجود أن يكون من الله متعلقاً بقوله : ﴿ واقع ﴾ .

و ﴿ ليس له دافع ﴾ : جملة اعتراض بين العامل والمعمول .

وقيل : يتعلق بدافع ، أي من جهته إذا جاء وقته .

﴿ ذي المعارج ﴾ : المعارج لغة الدرج وهنا استعارة ، قال ابن عباس وقتادة : في الرتب والفواضل والصفات الحميدة .

وقال ابن عباس أيضاً : المعارج : السموات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء .

وقال الحسن : هي المراقي إلى السماء ، وقيل : المعارج : الغرف ، أي جعلها لأوليائه في الجنة تعرج ، قراءة الجمهور بالتاء على التأنيث ، وعبد الله والكسائي وابن مقسم وزائدة عن الأعمش بالياء .

(132/782)

﴿ والروح ﴾ ، قال الجمهور ؛ هو جبريل ، خص بالذكر تشريفاً ، وأخر هنا بعد الملائكة ، وقدم في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ وقال مجاهد : ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم ، لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا .

وقيل : الروح ملك غير جبريل عظيم الخلقة .

وقال أبو صالح : خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس .

وقال قبيصة بن ذؤيب : روح الميت حين تقبض إليه ، الضمير عائد على الله تعالى ، أي إلى عرشه وحيث يهبط منه أمره تعالى .

وقيل : إليه ، أي إلى المكان الذي هو محلهم وهو في السماء لأنها محل بره وكرامته ، والظاهر أن المعنى : أنها تعرج في يوم من أيامكم هذه ، ومقدار المسافة أن لو عرجها آدمي خمسون ألف سنة ، قاله ابن عباس وابن إسحاق وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد .

فإن كان العارج ملكاً ، فقال مجاهد : المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش ؛ ومن جعل الروح جنس أنواع الحيوان ، قال وهب : المسافة من وجه الأرض إلى منتهى العرش .

وقال عكرمة والحكم : أراد مدة الدنيا ، فإنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي ، أي تعرج في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية .

وقال ابن عباس أيضاً : هو يوم القيامة .

وقيل : طوله ذلك العدد ، وهذا ظاهر ما جاء في الحديث في مانع الزكاة فإنه قال : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري : قدره في رزاياه وهوله وشدته للكفار ذلك العدد .

وفي الحديث : " يخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة " وقال عكرمة مقدار : ما ينقضي فيه من الحساب قدر ما يقضي بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا .

وقال الحسن : نحوه .

وقيل : لا يراد حقيقة العدد ، إنما أريد به طول الموقف يوم القيامة وما فيه من الشدائد ، والعرب تصف أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر .

قال الشاعر يصف أيام الفرح والسرور :

ويوم كظل الرمح قصر طوله . . .

(133/782)

دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

والظاهر أن قوله : ﴿ في يوم ﴾ متعلق بتعرج .

وقيل : بدافع ، والجملة من قوله : ﴿ تعرج ﴾ اعتراض .

ولما كانوا قد سألوا استعجال العذاب ، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب ، وكانوا قد وعدوا به ، أمره تعالى بالصبر ، ومن جعله من السيلان فالمعنى : أنه أشرف على

الوقوع ، والضمير في ﴿ يرونه ﴾ عائد على العذاب أو على اليوم ، إذا أريد به يوم القيامة ، وهذا الاستبعاد هو على سبيل الإحالة منهم .

﴿ ونراه قريباً ﴾ : أي هيناً في قدرتنا ، غير بعيد علينا ولا متعذر ، وكل ما هو آت قريب ، والبعد والقرب في الإمكان لا في المسافة .

﴿ يوم تكون ﴾ : منصوب بإضمار فعل ، أي يقع يوم تكون ، أو ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ كان كيت وكيت ، أو بقريباً ، أو بدل من ضمير نراه إذا كان عائداً على يوم القيامة .

وقال الزمخشري : أو هو بدل من ﴿ في يوم ﴾ فيمن علقه بواقع . انتهى .

ولا يجوز هذا ، لأن ﴿ في يوم ﴾ وإن كان في موضع نصب لا يبدل منه منصوب لأن مثل هذا ليس من المواضع التي تراعي في التوابع ، لأن حرف الجر فيها ليس بزائد ولا محكوم له بحكم الزائد كرب ، وإنما يجوز مراعاة المواضع في حرف الجر الزائد كقوله :

يا بني لبينى لستما بيد . . .

إلا يداً ليست لها عضد

ولذلك لا يجوز : مررت بزيد الخياط ، على مراعاة موضع بزيد ، ولا مررت بزيد وعمراً ، ولا غضبت على زيد وجعفراً ، ولا مررت بعمرو أخاك على مراعاة الموضع .

فإن قلت : الحركة في يوم تكون حركة بناء لا حركة إعراب ، فهو مجرور مثل ﴿ في يوم ﴾ .

قلت : لا يجوز بناؤه على مذهب البصريين لأنه أضيف إلى معرب ، لكنه يجوز على مذهب الكوفيين ، فيتمشى كلام الزمخشري على مذهبهم إن كان استحضره وقصده .

﴿ كالمهل ﴾ : تقدم الكلام عليه في سورة الدخان ، ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ ، كما في القارعة ، لما نسفت طارت في الجو كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح .

(134/782)

قال الحسن : تسير الجبال مع الرياح ، ثم تنهد ، ثم تصير كالعهن ، ثم تنسف فتصير هباء .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يسئل ﴾ مبيناً للفاعل ، أي لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده .

وقال قتادة : لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة .

وقيل : لا يسأله أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً ليأسه عن ذلك .

وقيل : شفاعة .

وقيل : حميماً منصوب على إسقاط عن ، أي عن حميم ، لشغله بما هو فيه .

وقرأ أبو حيوة وشيبة وأبو جعفر والبزي : بخلاف عن ثلاثتهم مبنياً للمفعول ، أي لا يسأل إحضاره كل من المؤمن والكافر له سيما يعرف بها .

وقيل : عن ذنوب حميمه ليؤخذ بها .

﴿ يبصرونهم ﴾ : استئناف كلام .

قال ابن عباس : في المحشر يبصر الحميم حميمه ، ثم يفرّ عنه لشغله بنفسه .

وقيل : يبصرونهم في النار .

وقيل : يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون يبصرونهم صفة ، أي حميماً مبصرين مصرفين إياهم . انتهى .

و ﴿ حميم حميماً ﴾ : نكرتان في سياق النفي فيعمان ، ولذلك جمع الضمير .

وقرأ قتادة : يبصرونهم مخففاً مع كسر الصاد ، أي يبصر المؤمن الكافر في النار ، قاله مجاهد .

وقال ابن زيد : يبصر الكافر من أضله في النار عبرة وانتقاماً وحزناً .

﴿ يود المجرم ﴾ : أي الكافر ، وقد يندرج فيه المؤمن العاصي الذي يعذب .

وقرأ الجمهور : ﴿ من عذاب ﴾ مضافاً ؛ وأبو حيوة بفتحها .

﴿ وصاحبته ﴾ : زوجته ، ﴿ وفصيلته ﴾ : أقرباؤه الأدنون ، ﴿ تؤويه ﴾ : تضمه انتماء إليها ، أو لياذاً بها في النوائب .

﴿ ثم ينجيه ﴾ : عطف على ﴿ يفتدي ﴾ : أي ينجيه بالافتداء ، أو من تقدم ذكرهم .

وقرأ الزهري : تؤويه وتنجيه بضم الهاءين .

﴿ كلا ﴾ : ردع لوداد تهم الاقتداء وتنبيه على أنه لا ينفع .

(135/782)

﴿ أنها ﴾ : الضمير للقصة ، و ﴿ لظى نزاعة ﴾ : تفسير لها أو للنار الدال عليها ، ﴿ عذاب يومئذ ﴾ و ﴿ لظى ﴾ بدل من الضمير ، و ﴿ نزاعة ﴾ خبر إن أو خبر مبتدأ ، و ﴿ لظى ﴾ خبر إن : أي هي نزاعة ، أو بدل من ﴿ لظى ﴾ ، أو خبر بعد خبر .

كل هذا ذكروه ، وذلك على قراءة الجمهور برفع نزاعة .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر . انتهى .

ولا أدري ما هذا المضمر الذي ترجم عنه الخبر وليس هذا من المواضع التي يفسر فيها المفرد الضمير ، ولولا أنه ذكر بعد هذا أو ضمير القصة ، لحملت كلامه عليه .

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم وحفص واليزيدي : في اختياره نزاعة بالنصب ، فتعين أن يكون لظى خبراً لأن ، والضمير في إنها عائد على النار الدال عليها عذاب ، وانتصب نزاعة على الحال المؤكدة أو المبينة ، والعامل فيها لظى ، وإن كان عاملاً لما فيه من معنى التلظي ، كما عمل العلم في الظرف في قوله :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان . . .

أي : المشهور بعض الاحيان ، أو على الاختصاص للتهويل ، قاله الزمخشري ، وكأنه يعني القطع .

فالنصب فيها كالرفع فيها ، إذا أضمرت هو فتضمر هنا ، أعني تدعو ، أي حقيقة يخلق الله فيها الكلام كما يخلقه في الأعضاء ، قاله ابن عباس وغيره ، تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم .

وقال الزمخشري : وكما خلقه في الشجرة .

انتهى ، فلم يترك مذهب الاعتزال .

وقال الخليل : مجاز عن استدنائها منهم وما توقعه بهم من عذابها .

وقال ثعلب : يهلك ، تقول العرب : دعا الله ، أي أهلكك ، وحكاه الخليل عن العرب ، قال الشاعر :

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه . . .

وأعين من أهوى إليّ رواني

وقال آخر :

ترفع للعيان وكل فج . . .

طباه الدعى منه والخلاء

يصف ظليماً وطباه : أي دعاه والهوى ، والدعى لا يدعوان حقيقة ، ولكنه لما كان فيهما ما يجذب صاراً داعيين مجازاً .

(136/782)

وقيل : تدعو ، أي خزنة جهنم ، أضيف دعاؤهم إليها ، ﴿ من أدبر ﴾ عن الحق ، ﴿ وتولى وجمع فأوعى ﴾ : أي وجمع المال ، فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد حق الله فيه ، وهذه إشارة إلى كفار أغنياء .

وقال الحكيم : كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وجمع فأوعى إن الإنسان ﴾ جنس ، ولذلك استثنى منه ﴿ إلا المصلين ﴾ .

وقيل : الإشارة إلى الكفار .

وقال ثعلب : قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت : قد فسره الله تعالى ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس . انتهى .

ولما كان شدة الجزع والمنع متمكنة في الإنسان ، جعل كأنه خلق محمولاً عليهما كقوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ والخير المال .

﴿ إلا المصلين ﴾ : استثناء كما قلنا من الإنسان ، ولذلك وصفهم بما وصفهم به من الصبر على المكاره والصفات الجميلة التي حاوروها .

وقرأ الجمهور : ﴿ على صلاتهم ﴾ بالإفراد ؛ والحسن جمعاً ؛ وديمومتها ، قال الجمهور : المواظبة عليها .

وقال ابن مسعود : صلاتها لوقتها .

وقال عقبة بن عامر : يقرون فيها ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، ومنه المال الدائم .

وقال الزمخشري : دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ولا يشتغلون عنها بشيء ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وأدائها ويحفظونها من الإحباط باقتران المآثم ، والدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة على أحوالها .

انتهى ، وهو جوابه لسؤاله : فإن قلت : كيف قال : ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ ، ثم قال : ﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾ .

(137/782)

وأقول : إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد ، لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها ، فذكرت أول خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها ، والصفات التي بعد هذه تقدم تفسيرها ، ومعظمها في سورة قد أفلح المؤمنون .

وقرأ الجمهور : بشهادتهم على الإفراد ؛ والسلمي وأبو عمر وحفص : على الجمع .

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36)

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن ، فكانوا يحتفون به حلقاً حلقاً يسمعون ويستهزؤون بكلامه ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة ، كما يقول محمد ، فلندخلنها قبلهم ، فنزلت .

وتقدم شرح ﴿ مهطعين ﴾ في سورة إبراهيم عليه السلام ، ومعنى ﴿ قبلك ﴾ : أي في الجهة التي تليك ، ﴿ عن اليمين وعن الشمال ﴾ : أي عن يمينك وشمالك .

وقيل : نزلت في المستهزئين الخمسة .

وقرأ الجمهور : ﴿ أن يدخل ﴾ مبنياً للمفعول ؛ وابن يعمر والحسن وأبو رجاء وزيد بن عليّ وطلحة والمفضل عن عاصم : مبنياً للفاعل .

﴿ كلا ﴾ : ردّ وردع لطماعيتهم ، إذ أظهروا ذلك ، وإن كانوا لا يعتقدون صحة البعث ، ولا أن ثم جنة ولا ناراً .

﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ : أي أنشأناهم من نطفة مذرة ، فنحن قادرون على إعادتهم وبعثهم يوم القيامة ، وعلى الاستبدال بهم خيراً منهم ، قيل : بنفس الخلق ؛ ومنته عليهم بذلك يعطي الجنة ، بل بالإيمان والعمل الصالح .

وقال قتادة في تفسيرها : إنما خلقت من قذر يا ابن آدم .

وقال أنس : كان أبو بكر إذا خطبنا ذكر مناتن ابن آدم ومروره في مجرى البول مرتين ، وكذلك نطفة في الرحم ، ثم علقة ، ثم مضغة إلى أن يخرج فيتلوث في نجاسته طفلاً .

(138/782)

فلا يقلع أبو بكر حتى يقذر أحدنا نفسه ، فكأنه قيل : إذا كان خلقكم من نطفة مذرة ، فمن أين تتشرّفون وتدعون دخول الجنة قبل المؤمنين ؟ وأبهم في قوله : ﴿ مما يعلمون ﴾ ، وإن كان قد صرّح به في عدّة مواضع إحالة على تلك المواضع .

ورأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز ، فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ؟ فقال له : أتعرفني ؟ قال : نعم ، أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت تحمل عذرة .

فمضى المهلب وترك مشيته .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ ، لا نفياً وجمعهما وقوم بلام دون ألف ؛ وعبد الله بن مسلم وابن محيصن والجحدري : المشرق والمغرب مفردين .

أقسم تعالى بمخلوقاته على إيجاب قدرته ، على أن يبدل خيراً منهم ، وأنه لا يسبقه شيء إلى ما يريد .

﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ : وعيد ، وما فيه من معنى المهادنة هو منسوخ بآية السيف .

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن : يلقوا مضارع لقى ، والجمهور : ﴿ يلاقوا ﴾ مضارع لاقى ؛ والجمهور : ﴿ يخرجون ﴾ مبنياً للفاعل .

قال ابن عطية : وروى أبو بكر عن عاصم مبنياً للمفعول ، و ﴿ يوم ﴾ بدل من ﴿ يومهم ﴾ .

وقرأ الجمهور : نصب بفتح النون وسكون الصاد ؛ وأبو عمران الجوني ومجاهد : بفتحهما ؛ وابن عامر وحفص : بضمهما ؛ والحسن وقتادة : بضم النون وسكون الصاد .

والنصب : ما نصب للإنسان ، فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم ، وغلب في الأصنام حتى قيل الأنصاب .

وقال أبو عمرو : هو شبكة يقع فيها الصيد ، فيسارع إليها صاحبها مخافة أن يتفلت الصيد منها .

وقال مجاهد : نصب علم ، ومن قرأ بضمهما ، قال ابن زيد : أي أصنام منصوبة كانوا يعبدونها .

وقال الأخفش : هو جمع نصب ، كرهن ورهن ، والأنصاب جمع الجمع .

يوفضون : يسرعون .

وقال أبو العالية : يستبقون إلى غايات .

قال الشاعر :

فوارس ذنيان تحت الحديد . . .

كالجن يوفضن من عبقر

(139/782)

وقال آخر في معنى الإسراع :

لأنعتنّ نعامة ميفاضا . . .

حرجاء ظلت تطلب الاضاضا

وقال ابن عباس وقتادة : يسعون ، وقال الضحاك : ينطلقون ، وقال الحسن : يبتدرون .

وقرأ الجمهور : ﴿ ذلة ﴾ منوناً .

﴿ ذلك اليوم ﴾ : برفع الميم مبتدأ وخبر .

وقرأ عبد الرحمن بن خلاد ، عن داود بن سالم ، عن يعقوب والحسن بن عبد الرحمن ، عن التمار : ذلة بغير تنوين مضافاً إلى ذلك ، واليوم بخفض الميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(140/782)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

التفسير : من قرأ ﴿ سأل ﴾ بالهمزة ففيه وجهان : الأول عن ابن عباس أن النضر بن الحرث قال ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ﴾ [الأنفال : 32] الآية فأنزل الله تعالى ﴿ سأل سائل ﴾ أي دعا داع ولهذا عدي بالباء . يقال : دعاه بكذا إذا استدعاه وطلبه . وقال ابن الأنباري : الباء للتأكيد والتقدير : سأل سائل عذاباً لا دافع له البتة . إما في الآخرة وإما في الدنيا كيوم بدر . الثاني قال الحسن وقتادة : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل بعذاب الكافرين ، أو سأل عن عذاب . والباء

بمعنى " عن " . قال ابن الأنباري : أو عنى واهتم بعذاب أنه على من ينزل وبمن يقع ، فبين الله تعالى أن هذا واقع بهم فلا دافع له .

(141/782)

والذي يدل على صحة هذا الوجه قوله في آخر الآية ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ ومن قرأ بغير همز فله وجهان أيضاً : الأول أنه مخفف " سأل " وهي لغة قريش والمعاني كما مرت ، والآخر أن يكون من السيلان ويعضده قراءة ابن عباس " سال سيل " وهو مصدر في معنى سائل كالفوز بمعنى الفائز . والمعنى اندفع وأدى عذاب فذهب بهم وأهلكهم أما ﴿ سائل ﴾ فلا يجوز فيه إلا الهمز وفاقاً لأنه إن كان من سأل المهموز فظاهر ، وإن كان من غير المهموز انقلبت الياء همزة كما في بائع . وقوله ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى للعذاب أي بعذاب واقع ، لا محالة كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع أي نازل لأجلهم ، أو كلام مستأنف جواب للسائل الذي سأل : إن العذاب على من ينزل أي هو للكافرين . والظاهر أن قوله ﴿ من الله ﴾ يتعلق ﴿ بدافع ﴾ أي لا دافع له من جهة الله لأنه قضاء مبرم . وجوز أن يتصل بواقع أي نازل من عند ﴿ ذي المعارج ﴾ المصاعد . روى الكلبي عن ابن عباس أنها السموات لأن الملائكة يعرجون فيها . وقال قتادة : ذي الفواضل والنعم بحسب الأرواح

ومراتب الاستحقاق والاستعداد . وقيل : هي الجنة لأنها درجات . وقال في التفسير الكبير . وهي مراتب أرواح الملكية المختلفة بالشدة والضعف وبسببها يصل آثار فيض الله إلى العالم السفلي عادة ، أو غير عادة فتلك الأرواح كالمصاعد لمراتب الحاجات التي ترفع إليها ، كالمنازل لآثار الرحمة من ذلك العالم إلينا . قوله ﴿ تعرج الملائكة والروح ﴾ وفي مواضع أخرى يوم يقوم الروح والملائكة . قيل : إن الروح أعظم الملائكة قدراً وهو أول في درجة نزول الأنوار من جلال الله ، ومنه تتشعب إلى أرواح سائر الملائكة والبشر في آخر درجات منازل الأرواح . وبين الطرفين معارج مراتب أرواح الملائكة ومدارج منازل الأنوار القدسية ولا يعلم تفصيلها إلا الله . وأما المتكلمون فالجمهور منهم قالوا : إن الروح هو جبريل عليه السلام . ولا استدلال لأهل التشبيه في لفظ ﴿ المعارج ﴾ فإنا بينا

أنها المراتب . قووله ﴿ إليه ﴾ إلى عرشه أو حكمه أو إلى حيث تهبط أوامره أو إلى مواضع العز والكرامة . والأكثرون على أن قوله ﴿ في يوم ﴾ من صلة ﴿ تعرج ﴾ . أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم وهو يوم القيامة . قال الحسن : يعني من موقفهم للحساب إلى حين يقضي بين العباد خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، ثم بعد ذلك يستقر أهل الجنة في

الجنة إلى آخر الآية . والأصح أن هذا الطول إنما يكون للكافر لما " روي عن أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسوله صلى الله عليه وسلم : ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : والذي نفسي بيه إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة في الدنيا " ومنهم من قال : إن ذلك الموقف وإن طال فقد يكون سبباً لمزيد السرور والراحة للمؤمن .

(143/782)

ومنهم من قال : إن هذه المدة على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق . والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الناس وأدهاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة . ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . وأيضاً الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة . قاله وهب وجماعة من أهل التفسير . وقال أبو مسلم : إن هذا اليوم الدنيا كلها من أول ما خلق العالم إلى القيامة وفيه يقع عروج الملائكة . ثم لا يلزم من هذا أن يصير وقت القيامة معلوماً لأنا لا ندري كم مضى وكم بقى . ومر في " ألم السجدة " . وقال جمع من المفسرين قوله ﴿ في يوم ﴾ من صلة ﴿ واقع ﴾ أي يقع ذلك العذاب في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة . وثم

يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار ، ويحتمل أن العذاب الذي سأله السائل يكون مقدراً بهذه المدة ثم ينقله الله تعالى إلى نوع آخر من العذاب . يروى عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية وعن قوله ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ فقال : أيام سماها الله هو أعلم بها كيف تكون وأكره أن أقول فيها ما لا علم لي به . وقال وهب في الجواب : من أسفل العالم إلى أعلى شرف العرش مسيرة خمسين ألف سنة ، ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة ، لأن عرض كل سماء من السموات السبع مسيرة خمسمائة سنة ، وبين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى ، فالمراد مقدار ألف سنة لو صعدوا إلى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا إلى العرش . وفي قوله ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كأنه قيل له : إن العذاب قرب وقوعه فاصبر فقد شارفت الانتقام قال الكلبي : هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر الرسول بالقتال إنهم يرون العذاب أو يوم القيامة بعيد الأمد بعيداً عن

الإمكان ﴿ ونراه قريب ﴾ منه ثم قال ﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ تكون السماء كالمهل ﴾ كدرديّ الزيت . عن ابن مسعود : كالفضة المذابة . ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي

الصوف المصبوغ ألواناً لقوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ [فاطر : 27] وجوز جار الله أن ينتصب ﴿ يوم ﴾ ب ﴿ قريباً ﴾ أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه ، أو يراد به يوم تكون السماء كالمهل كان كيت وكيت ، أو هو بدل من يوم القيامة فيمن علقه ﴿ بواقع ﴾ قوله ﴿ ولا يسأل حميم ﴾ من قرأ بفتح الياء فظاهر أي لا يسأله بكيف حالك لاشتغال كل بنفسه ، ومن قرأ بالضم فالمعنى لا يسأل حميم عن حميم ليعرف شأنه من جهته كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه فيكون على حذف الجار .

(145/782)

وقال الفراء : لا يقال الحميم أين حميمك . ثم كان لسائل أن يقول : لعله لا يبصره فلهذا لا يسأل فقال ﴿ يبصرونهم ﴾ ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تسائلهم ويجوز أن يكون صفة أي حميماً مبصرين معرفين إياهم وإنما جمع ضمير الحميم لأنه في معنى الجمع حيث رفع في سياق النفي . وقيل : إن الملة تتعلق بما بعده والمعنى إن المجرمين يبصرون المؤمنين حال ما يود أحدهم أن يفدي نفسه بكل ما يمكنه فإن الإنسان إذا كان في البلاء ثم رأى عدوه في الرخاء كان ذلك أشد عليه ﴿ وفصيلته ﴾ عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم ﴿ تؤويه

﴿ تضمه إليها للانتماء في النسب أو في إعداد النوائب . ومعنى ﴿ ثم ﴾ استبعاد الإنجاء عن الافتداء ثم أكد الإستبعاد بقوله ﴿ كلا ﴾ وهو ردع للمجرم عن كونه بحيث يود افتداءه وتنبيه على أنه لا ينفعه ذلك . والضمير في ﴿ أنها ﴾ للقصة كما ذكرنا أو للنار وإن لم يجر لها ذكر لدلالة العذاب عليها ، ويجوز أن يعود إلى العذاب والتأنيث باعتبار الخبر لأن ﴿ لظى ﴾ علم لنار جهنم . واللظى اللهب الخالص . والشوى الأطراف وهي اليدان والرجلان ، والشوى أيضاً جلد الرأس ، الواحدة شواة ، قال سعيد بن جبير : العصب والعقب ولحم الساقين اليدين تنزعها نزعاً فتهلكها ثم يعيدها الله سبحانه . وفي قوله ﴿ تدعو ﴾ وجوه منها : أنها تدعوهم بلسان الحال كما قيل : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك فإن لم تجبك جؤاراً أجابتك اعتباراً . فههنا لما كان مرجع كل من الكفرة إلى دركة من دركات جنهم كأنها تدعوهم إلى نفسها . ومنها أن الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحاً فصيحاً : لي يا كافة الكفرة ثم تلتقطهم التقاط الحب . ومنها أن يكون على حذف المضاف أي تدعو زبانيتها . ومنها أن الدعاء بمعنى الإهلاك كقول العرب " دعاه الله " أي أهلكه ﴿ من أدبر ﴾ أي عن الطاعة ﴿ وتولى ﴾ عن الإيمان ﴿ وجمع ﴾ المال حرصاً عليه ﴿ فأوعى ﴾ جعله في وعاء وكنزه فلم يؤد حقوق الله فيه

أصلاً وهذه مجامع آفات النفس . ثم بين أن الإنسان بالطبع مائل إلى الأخلاق الذميمة فقال ﴿ إن الإنسان ﴾ وهو الكافر عند بعضهم والأظهر العموم بدليل الاستثناء عقيبه ﴿ خلق هلوعاً ﴾ والهلع قلة الصبر وشدة الحرص كما فسره الله تعالى بقوله ﴿ إذا مسه الشر ﴾ أي الفقر والمرض ونحوه من المضار ﴿ كان جزوعاً وإذا مسه الخير ﴾ أضداد ذلك ﴿ كان منوعاً ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم " شر ما أعطي ابن آدم شح هالع وجبن خالع " قال أهل السنة : الحالة النفسانية التي هي مصدر الأفعال الاختيارية كالجزع والمنع لا شك أنها بخلق الله تعالى .

(147/782)

بل الجزع والمنع أيضاً من خلقه ولا اعتراض لأحد عليه خلق بعض الناس هلوعاً وخلق المستثنين منهم غير هلوع بل مشغولي القلب بأحوال الآخرة ، وكل ذلك تصرف منه في ملكه ، وقالت المعتزلة : ليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف لأنه تعالى ذكره في معرض الذم والله تعالى لا يذم فعله . ولأنه تعالى استثنى منهم جماعة جاهدوا أنفسهم وظلفوها عن الشهوات . ولو كانت ضرورية لم يقدروا على تركها . والجواب أن الذين خلقهم كلذلك لم

يقدروا على الترك والذين تركوها هم الذين خلقوا على هذا الوصف وهم أصناف ثمانية :

الأول الذين يداومون على الصلوات والمراد منها أداؤها في أوقاتها ، وأما المحافظة عليها فترجع إلى الاهتمام بشأنها وذلك يحصل برعاية أمور سابقة على الصلاة كالوضوء وستر العورة وطلب القبلة وغيرها ، حتى إذا جاء وقت الصلاة لم يكن يتعلق القلب بشرائطها وأمور مقارنة للصلاة كالخشوع والاحتراز عن الرياء والإتيان بالنوافل والمكملات ، وأمور لاحقة بالصلاة كالاحتراز عن اللغو وما يضاد الطاعة لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فارتكابه المعصية بعد الصلاة دليل على أن تلك الصلاة لم تقع في حيز القبول .

الثاني ﴿ والذين في أموالهم حق ﴾ قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : هو الزكاة المفروضة . قلت : الدليل عليه وصفه بأنه معلوم واقترانه بإدامة الصلاة ، وقال مجاهد وعطاء والنخعي : هو ما سوى الزكاة وإنه على طريق الندب والاستحباب . قلت : هذا التفسير بما في " الذاريات " أشبه لأنه لم يصف الحق هناك بأنه معلوم ولأنه مدح هناك قوماً بالتزام ما لا يلزمهم كقلة الهجوع والإستغفار بالأسحار . الثالث ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يؤمنون بالغيب والجزاء . الرابع ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ خائفون والمؤمن خائف من التقصير في الطاعة وبعض الفسقة لا يخافون من إرتكاب أنواع الظلم وأصناف المعصية . ثم أكد ذلك الخوف بقوله ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ لأن الأمور

بخواتيمها والخاتمة غير مقطوع بها . الخامس ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ إلى قوله ﴿ العادون ﴾ وقد مر في "المؤمنين" . والسادس ﴿ والذين هم لأماناتم وعهدهم راعون ﴾ وقد مر أيضاً . السابع ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ من أفرد فلانها مصدر ، ومن جمع فللنظر إلى اختلاف الشهادات وكثرة أنواعها . وأكثر المفسرين قالوا : هي الشهادات عند الحكام يقومون بها بالحق ولا يكتمونها ، وهذه من جملة الأمانات خصها بالذكر تنبيهاً على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق وفي تركها تضييع لها . وروى عطاء عن ابن عباس أنها الشهادة بالله أنه واحد لا شريك له . الثامن ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ وقد ذكرناه . ثم عين مكان هؤلاء بقوله تعالى ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يحتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقاً يستهزؤن به وبالمؤمنين ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزلت .

﴿ فما للذين كفروا قبلك ﴾ أي نحوك وفي مقابلتك ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين مادين أعناقهم إليك ﴿ عزين ﴾ فرقاً شتى جمع عزة محذوفة العجز وأصلها عزوة لأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى فهم مفترقون . وجمع بالواو والنون عوضاً عن المحذوف كما مر في ﴿ عضين ﴾ قوله ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن الطمع الفاسد وذلك من وجهين : أحدهما أنهم ينكرون البعث فمن أين لهم هذا الطمع . والثاني أنهم لم يعدوا لها زاداً من الإيمان والعمل الصالح . وفي قوله ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ رد عليهم من الوجهين فإن من علم أن أوله نطفة لم ينكر البعث ، أو من علم أن أوله نطفة مذرة كسائر بني آدم لم يدع التقدم والشرف بلا توسل من الإيمان والعمل الصالح . ثم بين كمال قدرته على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالأقسام وأنه لا يفوته شيء من الممكنات . ومعنى ﴿ المشارق والمغارب ﴾ قد تقدم في أول " الصافات " و " الرحمن " وإن للشمس في كل يوم من نصف السنة مغرباً ومشرقاً . وقيل : مشرق كل كوكب ومغربه . وقيل : المراد أنواع الهدايات والخذلانات . واختلف فيما وصف الله نفسه بالقدرة لعيه هل خرج إلى الفعل أم لا ؟ قال بعضهم : بدل الله بهم الانصار والمهاجرين . وقال آخرون : بدل الله كفرهم بالإيمان . وقيل : التبديل بمعنى الإهلاك الكلي لهم وإيجاد آخرين مكانهم ولكنه هددهم بذلك لكي يؤمنوا ، ثم زاد في التهديد بأن يخلوا وشأنهم إلى أوان لقاء الجزاء والأجداث القبور كما في " يس " . ثم شبه إسراعهم إلى الداعي مستبقين بإسراعهم إلى أنصابهم وهي كل ما ينصب

فيبعد من دون الله وقد مر في قوله ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ [المائدة : 3] ومعنى ﴿ يوفضون ﴾ يسرعون . ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ تغشاهم والباقي ظاهر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 355.360 ﴾

(150/782)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة المعارج

مكية وهي أربع وأربعون آية ، ومائتان وست عشرة كلمة ، وألف وأحد وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ ، أي : الذي تنقطع الأعناق والآمال دون عليائه ﴿ الرحمن ﴾ الذي لا مطمع لأحد في حصر أوصافه ﴿ الرحيم ﴾ الذي اصطفى من عباده من وفقه فكان من أوليائه .

﴿ سأل سائل ﴾ أي : دعا داع ﴿ بعذاب واقع ﴾ فضمن سأل معنى دعا ، فلذلك عدى تعديته ، وقيل : الباء بمعنى عن كقوله تعالى : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ (الفرقان :) ، أي : عنه ، أي : سأل سائل عن عذاب واقع ، والأول أولى لأن التجوز في الفعل أولى منه في الحرف لقوّته .

واختلف في هذا الداعي فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو النضر بن الحارث حيث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل سؤاله وقتل يوم بدر صبراً هو وعتبة بن أبي معيط لم يقتل صبراً غيرهما ، وقيل : هو الحارث بن النعمان ، وذلك "أنه لما بلغه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عليّ : من كنت مولاه فعليّ مولاه ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالإبطح ، ثم قال : يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه وأن نصلي خمساً ونزكي أموالنا فقبلناه منك ، وأن نصوم شهر رمضان في عام فقبلناه منك وأن نحج فقبلناه منك ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا ، أفهذا شيء منك أم من الله تعالى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم "والذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله" فولى الحارث وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت .

(151/782)

وقال الربيع : هو أبو جهل ، وقيل : إنه قول جماعة من كفار قريش ، وقيل : هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين ، وقيل : هو نبينا صلى الله عليه وسلم استعجل

بعذاب الكافرين ويدل عليه قوله تعالى بعد ذلك ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أي : لا تستعجل فإنه قريب ، وقرأ نافع وابن عامر بغير همز بعد السين ، والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين .

تنبيه : ما تقدم من الوجهين في كون سأل ضمن أو أن الباء بمعنى عن هو على القراءة بالهمز ، وأما على عدمه ففيه وجهان : أحدهما : أنه لغة في السؤال يقال : سأل يسأل كخاف يخاف وعين الكلمة واو ، قال الزمخشري : وهي من لغة قريش .

والثاني : أنه من السيل ومعناه اندفع عليهم واد بعذاب ، وقيل : سال واد من أودية جهنم وقوله تعالى : ﴿ للكافرين ﴾ فيه أوجه : أحدها : أنه يتعلق بسأل مضمناً معنى دعا كما مر ، أي : دعا لهم بعذاب واقع . الثاني : أنه يتعلق بواقع واللام للعلة ، أي : نازل لأجلهم . الثالث : أن يتعلق بمحذوف صفة ثانية للعذاب ، أي : كائن للكافرين . الرابع : أن يكون جواباً للسائل فيكون خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو للكافرين . الخامس : أن تكون اللام بمعنى على ، أي : واقع على الكافرين .

﴿ ليس له ﴾ أي : بوجه من الوجوه ولا حيلة من الحيل ﴿ دافع ﴾ يردّه .

وقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي لا كفء له يجوز أن يتعلق بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته لتعلق إرادته به وأن يتعلق بواقع ، وبه بدأ الزمخشري ، أي : واقع من عنده ﴿ ذي المعارج ﴾ أي : المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم ، أو مراتب الملائكة أو السموات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : ذي السموات ، سماها معارج الملائكة لأن الملائكة يعرجون فيها فوصف نفسه بذلك ، أو ذي العلوّ والدرجات الفواضل والنعم ، لأنها تصل إلى الناس على مراتب مختلفة ، قاله ابن عباس وقتادة رضي الله عنهم ، فالمعارج مراتب إنعامه على الخلق . وقيل : ذي العظمة والعلا ، وقيل : المعارج الغرف ، أي : إنه ذو الغرف ، أي : جعل لأوليائه الجنة غرفاً .

وقرأ : ﴿ تعرج الملائكة ﴾ الكسائي بالياء التحتية ، والباقون بالتاء الفوقية ، وأدغم جيم المعارج في تاء تعرج هنا السوسي ، واستضعف بعضهم ذلك من حيث إن مخرج الجيم بعيد من مخرج التاء . وأجيب عن ذلك بأن الإدغام يكون لمجرد الصفات وإن لم يتقاربا في المخرج والجيم تشارك التاء في الاستفال والانفتاح والشدة والجملة من تعرج مستأنفة .

وقوله تعالى : ﴿ والروح ﴾ من عطف الخاص على العام إن أريد بالروح جبريل عليه السلام كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (الشعراء :)

أو ملك آخر من جنسهم عظيم الخلقة : وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس . وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين يقبض ، ﴿ إليه ﴾ أي : مهبط أمره من السماء . وقيل : هو كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ (الصافات :) ، أي : إلى الموضع الذي أمرني به ، وقيل : إلى عرشه ، وعلق بالعروج أو بواقع قوله تعالى : ﴿ في يوم ﴾ أي : من أيامكم ، وبين عظمه بقوله تعالى : ﴿ كان ﴾ أي : كوناً هو في غاية الثبات ﴿ مقداره ﴾ أي : لو كان الصاعد فيه آدمياً ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ أي : من سني الدنيا وذلك أن تصعد من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة ، روي عن مجاهد رضي الله عنه أن مقدار هذا خمسين ألف سنة . وقال محمد بن إسحاق : لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة . وقال عكرمة وقتادة رضي الله عنهما : هو يوم القيامة وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، ليس يعني به أن مقدار طوله هكذا دون غيره ؛ لأن يوم القيامة ليس له أول وليس له آخر لأنه يوم ممدود ، ولو كان له آخر لكان منقطعاً . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يوم القيامة يكون على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : "قيل : لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا" .

وقيل : معناه لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله تعالى لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة قال عطاء رضي الله عنه : ويفرغ الله تعالى في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا ، وقيل : فيه خمسون موطناً على الكافر ، كل موطن ألف سنة وما ورد ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر .

(154/782)

وروي عن الكلبي أنه قال : يقول الله تعالى : لو وليت حساب ذلك الملائكةُ والإنس والجن وطوقتهم محاسبتهم لم يفرغوا منه في خمسين ألف سنة وأنا أفرغ منه في ساعة من النهار .

وقال بيان : هو يوم القيامة فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، وفيه تقديم وتأخير كأنه قال : ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ (السجدة :)

؟

أجيب : بأنه يحتمل أن من أسفل العالم إلى أعلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة لأن عرض كل سماء خمسمائة وما بين أسفل إلى قرار الأرض خمسمائة ، فقوله في يوم من أيام الدنيا وهو مقدار ألف سنة لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا ، ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا إلى أعلى العرش .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ متعلق كما قال الرازي : بسأل سائل ، لأن استعجالهم بالعذاب كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصبر ، والمعنى : جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر على أذى قومك ، والصبر الجميل : هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله تعالى .

وقيل : أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري من هو ، وقال ابن زيد والكلبي رضي الله عنهم : هذه الآية منسوخة بالأمر بالقتال .

﴿ إنهم ﴾ أي : الكفار ﴿ يرونه ﴾ أي : ذلك اليوم الطويل أو عذابه ﴿ بعيداً ﴾ أي : زمن وقوعه لأنهم يرونه غير ممكن ، أو يفعلون أفعال من يستبعده ﴿ ونراه ﴾ أي : لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده وهو علينا هين ﴿ قريباً ﴾ سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة ، وكل آت قريب ، والقريب والبعيد

عندنا على حدٍ سواء ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بين بين ، والباقون بالفتح .

(155/782)

وقوله تعالى : ﴿ يوم تكون السماء ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : يقع فيه من الأهوال ﴿ كالمهل ﴾ أي : كدردي الزيت ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كالفضة البيضاء في تلونها ﴿ وتكون الجبال ﴾ أي : التي هي أشد الأرض وأثقل ما فيها ﴿ كالعهن ﴾ أي : كالصوف في الخفة والطيران بالريح . وقيل : أول ما تتفرق الجبال تصير رملاً ثم عهناً منفوشاً ثم هباء منثوراً منبثاً .

﴿ ولا يسأل ﴾ أي : من شدة الأهوال ﴿ حميم حميماً ﴾ أي : قريب في غاية القرب والصداقة قريباً مثله عن شيء من الأشياء لفرط الشواغل ولأنه قد كشفت لهم أنه لا تغني نفس عن نفس شيئاً وأنه قد تقطعت الأسباب وتلاشت الأنساب وعلم أنه لا عز إلا بالتقوى .

﴿ يبصرونهم ﴾ أي : يبصرهم بهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وإن بعد مكانه ﴿ يودّ المجرم ﴾ أي : يتمنى الكافر أو هذا النوع سواء كان كافراً أم مسلماً عاصياً علم أنه يعذب

بعصيانه ﴿ لو ﴾ بمعنى أن ﴿ يفتدى ﴾ أي : يفدي نفسه ﴿ من عذاب يومئذ ﴾ أي : يوم إذ كانت هذه المخاوف . وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم والباقون بكسرها ، ﴿ ببنيه ﴾ أي : بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه لشدة ما يرى .

ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه نصره والذب عنه أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة بقوله تعالى : ﴿ وصاحبته ﴾ أي : زوجه التي يلزمه الذب عنها لا سيما عند العرب من أقبح العار ولكونه دائماً معها . ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذي هو عليه شفيق بقوله تعالى : ﴿ وأخيه ﴾ أي : الذي له به النصرة على من يريد ، قال الشاعر :

*أخاك أخاك إن من لا أخا له ** كنازل الهيجاء بغير سلاح*

(156/782)

ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم بقوله تعالى : ﴿ وفصيلته ﴾ أي : عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه ، وقال ثعلب : الفصيلة الآباء الأدنون ، وقال أبو عبيدة رضي الله عنه : الفخذ ، وقال مجاهد وابن زيد رضي الله عنهم : عشيرته الأقربون ، ﴿ التي تؤويه ﴾ أي : تضمه إليها عند الشدائد وتحميه لأنه أقرب

الناس إليها وأعزهم عليها .

ولما خصص عمم بقوله تعالى : ﴿ ومن في الأرض ﴾ أي : من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بدّ في كل حال منه أم لا ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ جميعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم ينجيه ﴾ أي : ذلك الافتداء عطف على يفتدى ، وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردّ وردع وزجر لما يودّه ، وقال القرطبي : وإنها تكون بمعنى حقاً وبمعنى لا وهي هنا تحتمل الأمرين فإذا كانت بمعنى حقاً كان تمام الكلام ينجيه ، وإذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها إذ ليس من عذاب الله افتداء .

ولما كان الإضمار قبل الذكر لتعظيم ذلك المضمر أشار إلى أنه مستحضر في الذهن لا يغيب قال تعالى : ﴿ إنها ﴾ أي : النار وإن لم يجر لها ذكر لدلالة لفظ عذاب عليها ، وقيل : الضمير للقصة . وقيل : مبهم يفسره قوله تعالى : ﴿ لظى ﴾ أي : ذات اللهب الخالص المتناهي في الحرّ اسم لجهنم تتلظى ، أي : تتوقد فتأكل بسببه بعضها بعضاً إن لم تجد ما تأكله وتأكل كل ما وجدته كائناً ما كان ، وقوله تعالى : ﴿ نزاعة للشوى ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس ، أي : شديدة النزع لجلود الرؤوس . وقال في "القاموس" : اليدان والرجلان والأطراف ومخ الرأس وما كان غير مقتل ا . ه . وقرأ حفص بالنصب على الاختصاص والحال المؤكدة والمستقلة على أن لظى متلظية ، والباقون بالرفع على أنها خبر إن .

﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ عن الإيمان ، تقول : إليّ يا مشرك ، إليّ يا فاسق ونحو هذا ، ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب .

(157/782)

ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين ، فكان الإقبال على أحدهما دالاً على الإعراض عن الأخرى قال تعالى دالاً على إدباره بقلبه : ﴿ وجمع ﴾ أي : كل ما كان منسوباً إلى الدنيا ﴿ فأوعى ﴾ أي : جعل ما جمعه في وعاء وكنزه حرصاً وطول أمل ولم يعط حق الله تعالى منه فكان همه الإعطاء لا إيطاء ما وجب من الحق إقبالاً على الدنيا وإعراضاً عن الآخرة ، وقرأ : ﴿ لظى ﴾ و ﴿ للشوى ﴾ و ﴿ تولى ﴾ ﴿ فأوعى ﴾ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش وأبو عمرو بين بين ، والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح .

﴿ إن الإنسان ﴾ أي : الجنس عبر به لما له من الأنس بنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه ﴿ خلق هلوعاً ﴾ أي : جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع وهو أفحش الجزع مع شدة الحرص وقلة الصبر والشح على المال والسرعة فيما لا ينبغي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إنه الحريص على ما لا يحل له .

وروي عنه أن تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ إذا مسه ﴾ أي : أدنى مس ﴿ الشر ﴾

أي : هذا الجنس ، وهو ما تطاير شرره من الضرر ﴿ جزوعاً ﴾ أي : عظيم الجزع وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقدّ نصفين ويتفتت ﴿ وإذا مسه ﴾ كذلك ﴿ الخير ﴾ هذا الجنس وهو ما يلائمه فيجمعه من السعة في المال وغيره من أنواع الرزق ﴿ منوعاً ﴾ أي : مبالغاً في الإمساك عما يلزمه من الحقوق للانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليه وقوفاً مع المحسوس لغلبة الجمود والبلادة ، وهذا الوصف ضد الإيمان لأنه نصفان شكر وصبر .

فإن قيل : حاصل هذا الكلام أنه نفور عن المضارّ طالب للراحة ، وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه الله تعالى عليه ؟

أجيب : بأنه إنما ذمه عليه لقصور نظره على الأمور العاجلة ، والواجب عليه أن يكون شاكراً راضياً في كل حال .

(158/782)

وقوله تعالى : ﴿ إلا المصلين ﴾ استثناء للموصوفين بالصفات الآتية من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل مضادّة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق ، والإشفاق على الخلق ، والإيمان بالجزاء ، والخوف من العقوبة ، وكسر الشهوة

، وإيثار العاجل على الآجل ، وتلك ناشئة عن الانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليها ﴿ الذين هم ﴾ أي : بكلية ضمائرهم وظواهرهم ﴿ على صلاتهم ﴾ أي : التي هي معظم دينهم وهي النافعة لهم لا لغيرهم بما أفادته الإضافة ، والمراد الجنس الشامل لجميع الأنواع إلا أن معظم المقصود الفرض ، ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات في قوله تعالى : ﴿ دائمون ﴾ أي : لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها ، وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً ، والدائم : الساكن ، ومنه نهي عن البول في الماء الدائم ، أي : الساكن . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع منها .

فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ على صلواتهم يحافظون ﴾ (الأنعام :)

؟

أجيب : بأن دوامهم عليها أن لا يتركوها في وقت ، ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى تأتي على أكمل الوجوه من المحافظة على شرائطها ، والإتيان بها في الجماعة وفي المساجد الشريفة ، وفي تفريغ القلب عن الوسواس والرياء والسمعة ، وأن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، وأن يكون حاضر القلب فاهماً للأذكار ، مطلعاً على حكم الصلاة متعلق القلب بدخول أوقات الصلاة .

ولما ذكر تعالى زكاة الروح أتبعه زكاة عديلها ، فقال تعالى مبينا للرسوخ في الوصف بالعطف بالواو : ﴿ والذين في أموالهم ﴾ التي منّ الله سبحانه بها عليهم ﴿ حق معلوم ﴾ أي : من الزكوات وجميع النفقات الواجبة . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق ﴿ للسائل ﴾ أي : الذي يسأل ﴿ والمحروم ﴾ أي : الذي لا يسأل ، فيحسب غنياً فيحرم فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره ، ولا مفزع له بعد ربه المالك لعلانيته وسره إلا إلى إفاضة مدامعه بذلة وانكسار ، وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى ، وقد كان للسلف الصالح في هذا قصب السبق ، حكي عن زين العابدين أنه لما مات وجد في ظهره آثار سواد كأنها السيور ، فعجبوا منها فقال بعد موته نسوة أرامل : كان شخص يأتي إلينا ليلاً بقرب الماء على ظهره وأجربة الدقيق ففقدناه واحتجنا ، فعلموا أنه هو وأن تلك السيور من ذلك ، وحكي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما أن شخصاً رآه ماشياً في زمن خلافته في الليل فتبعه ، فجاء إلى بيت نسوة أرامل فقال : أعندكن ماء وإلا املأ لكنّ ، فأعطينه جرة فأخذها وذهب فملأها على كتفه وأتى بها إليهنّ . والحكايات عنهم في هذا كثيرة .

﴿ والذين يصدّقون ﴾ أي : يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجدّدونه كل وقت ﴿ بيوم الدين ﴾ أي : الجزاء الذي ما مثله يوم وهو يوم القيامة الذي يقع الحساب فيه على النقير

والقمطير والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالأعمال الصالحة ، فالذين يعلمون لذلك اليوم هم العمال ، وأما المصدّقون بمجرّد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال .

(160/782)

﴿ والذين هم ﴾ أي : بجميع ضمائرهم وظواهرهم ﴿ من عذاب ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم لا من عذاب غيره فإن المحسن أولى بأن يخشى ولو من قطع إحسانه ﴿ مشفقون ﴾ أي : خائفون في هذه الدار خوفاً عظيماً هو في غاية الثبات من أن يعذبهم في الآخرة أو في الدنيا أو فيهما ، فهم لذلك لا يفعلون إلا ما يرضيه سبحانه .

﴿ إن عذاب ربهم ﴾ أي : الذي هم مغمورون بإحسانه وهم عارفون بأنه قادر على الانتقام ولو بقطع الإحسان ﴿ غير مأمون ﴾ أي : لا ينبغي لأحد أن يأمنه بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة ؛ لأن الملك مالك وهو تام الملك ، له أن يفعل ما شاء ، ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية الإبعاد ولم يزل مترجحاً بين الخوف والرجاء .

﴿ والذين هم ﴾ أي : ببواطنهم الغالبة على ظواهرهم ﴿ لفروجهم ﴾ أي : سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً ﴿ حافظون ﴾ أي : حفظاً ثابتاً دائماً عن كل ما نهى الله تعالى عنه ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ أي : من الحرائر بعقد النكاح ، وقدمهنّ لشرفهنّ وشرف الولد بهنّ ، ثم

أتبعه قوله تعالى : ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أي : من السراري التي هي محل الحرث والنسل واللاتي هن أقل عقلاً من الرجال ، ولهذا عبر بما التي هي في الأغلب لغير العقلاء ، وفي ذلك إشارة إلى اتساع النطاق في احتمالهن .

﴿ فإنهم ﴾ أي : بسبب إقبالهم بالفروج عليهن وإزالة الحجاب من أجل ذلك ﴿ غير ملومين ﴾ أي : في الاستمتاع بهن من لائم ما ، كما نبه عليه البناء للمفعول ، فهم يصحبونهن للتعفف وصون النفس وابتغاء الولد للتعاون على طاعة الله تعالى ، واكتفى في مدحهم بنفي اللوم لإقباله عن تحصيل ما له من المرام .

(161/782)

﴿ فمن ابتغى ﴾ أي : طلب وعبر بصيغة الافتعال لأن ذلك لا يقع إلا عن إقبال عظيم من النفس واجتهاد في الطلب . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح . ﴿ وراء ذلك ﴾ أي : شيئاً من هذا خارجاً عن هذا الأمر الذي أحله الله تعالى له ، والذي هو أعلى المراتب في أمر النكاح وقضاء اللذة وأحسنها وأجملها ﴿ فأولئك ﴾ أي : الذين هم في الحضيض من الدناءة وغاية البعد عن مواطن الرحمة ﴿ هم ﴾ أي : بضمائرهم وظواهرهم ﴿ العادون ﴾ أي : المختصون بالخروج عن

الحدّ المأذون فيه . ﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾ أي : من كل ما ائتمنهم الله تعالى عليه من حقه وحق غيره ، وقرأ ابن كثير بغير ألف بعد النون على التوحيد ، والباقون بالألف على الجمع ﴿ وعهدهم ﴾ أي : ما كان من الأمانات بربط وتوثيق ﴿ راعون ﴾ أي : حافظون لها معترفون بها على وجه نافع غير ضار .

﴿ والذين هم ﴾ أي : بغاية ما يكون من توجه القلوب ﴿ بشهادتهم ﴾ التي شهدوا بها أو يستشهدون بها بطلب أو غيره ، وتقديم المعمول إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها ﴿ قائمون ﴾ أي : يتحملونها ويؤدّونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيىء لها واقف في انتظارها ، وقرأ حفص بألف بعد الدال على الجمع اعتباراً بتعدد الأنواع والباقون بغير ألف على التوحيد إذ المراد الجنس . قال الواحديّ : والإفراد أولى لأنه مصدر فيفرد كما تفرد المصادر وإنّ أضيف إلى الجمع كصوت الحمير . قال أكثر المفسرين : يقومون بالشهادة على من كانت عليه من قريب وبعيد ، يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بشهادتهم أنّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

﴿ والذين هم على صلاتهم ﴾ أي : من الفرض والنفل ﴿ يحافظون ﴾ أي : يبالغون في حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها لتحفظهم ويسابقون غيرهم في حفظها ، وتقدم أنّ المداومة غير المحافظة ، فدوامهم عليها محافظتهم على أوقاتها وشروطها وأركانها ومستحباتها في ظواهرها وبواطنها من الخشوع والمراقبة وغير ذلك من خلال الإحسان التي إذا فعلوها كانت ناهية لفاعلها ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (العنكبوت :)

فتحمل على جميع هذه الأوامر وتبعد عن أضدادها ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة والمحافظة إلى أحوالها ذكره القرطبي .

ولما ذكر تعالى خلالهم أتبعه ما أعطاهم ، فقال عز من قائل مستأنفاً أو منتجاً من غير فاء إشارة إلى أن رحمته هي التي أوصلتهم إلى ذلك من غير سبب منهم في الحقيقة :

﴿ أولئك ﴾ أي : الذين في غاية العلوّ لما لهم من الأوصاف العالية ﴿ في جنات ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الآخرة فواضح ، وأما في الدنيا فلأنهم لما جاهدوا فيه بإتعاب أنفسهم في هذه الأوصاف حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشرتها لذاذات من أنس القرب وحلاوة المناجاة لا يساويها شيء أصلاً ، والجنة محل اجتمع فيه جميع الراحات والمستلذات والسرور وانتفى عنه جميع المكروهات والشرور ، وضدها النار . وزادهم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ مكرمون ﴾ معبراً باسم المفعول إشارة إلى عموم الإكرام من

الخالق والخلق الناطق وغيره ، لأنه سبحانه قضى بأن يعلي مقدارهم فيكرمهم بأنواع الكرامات فيتلقاهم بالبشرى حين الموت وفي قبورهم ومن حين قيامهم من قبورهم إلى دخولهم إلى قصورهم هذا حال المؤمنين .

وأما حال الكافرين فقال الله تعالى في حقهم:

(163/782)

﴿ فما للذين كفروا ﴾ وقف أبو عمرو على الألف بعد الميم والكسائي يقف على الألف وعلى اللام ، ووقف الباقون على اللام ، وأما الابتداء فالجميع يبتدؤون أوّل الكلمة أي : أيّ شيء من السعادات للذين ستروا مرائي عقولهم عن الإقرار بمضمون هذا الكلام الذي هو أوضح من الشمس حال كونهم ﴿ قبلك ﴾ أي : نحوك أيها الرسول الكريم وفيما أقبل عليك ﴿ مهطعين ﴾ أي : مسرعين مع مد الأعناق وإدامة النظر إليك في غاية العجب من مقالك ، هيئة من يسعى إلى أمر لا حياة له بدونه ﴿ عن ﴾ أي : متجاوزين إليك مكاناً عن جهة ﴿ اليمين ﴾ أي : منك حيث يتيمنون به ﴿ وعن الشمال ﴾ أي : منك وإن كانوا يتشاءمون به ، وقوله تعالى : ﴿ عزين ﴾ حال من الذين كفروا ، وقيل : من الضمير في مهطعين فتكون حالاً متداخلة ، أي : جماعات جماعات وحلقاً حلقاً متفرقين فرقاً شتى

أفواجاً لا يتمهلون ليأتوا جميعاً . جمع عزة وأصلها عزوة لأنّ كل فرقة تعتزي إلى غير ما تعتزي إليه الأخرى فهم متفرقون قال الكميت:

*ونحن وجندل باغ تركنا **كتائب جندل شتى عزينا*

وجمع عزة جمع سلامة شذوذاً .

وقيل : كان المستهزؤون خمسة أرهط روي أنّ المشركين كانوا يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ويستهزؤون به ويكذبونه ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فندخلها قبلهم ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل : ﴿أيطمع﴾ أي : هؤلاء البعداء البغضاء ، وعبر بالطمع إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في السفه لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له .

ولما كان إتيانهم على هيئة التفرق من غير انتظار جماعة لجماعة قال تعالى : ﴿كل امرئ منهم﴾ أي : على انفراده ﴿أن يدخل﴾ أي : وهو كافر من غير إيمان يزكيه كما يدخل المسلم ، فيستوي المسيء والمحسن ﴿جنة نعيم﴾ أي : لا شيء فيها عير النعيم .

(164/782)

وقوله تعالى : ﴿كلا﴾ ردع لهم عن طمعهم ودخولهم الجنة ، أي : لا يكون ما طمعوا فيه أصلاً ؛ لأنّ ذلك ثمن فارغ لا سبب له بما دل عليه التعبير بالطمع دون الرجاء . ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿إنا خلقناهم﴾ أي : بالقدرة التي لا يقدر أحد أن يقاومها ﴿مما يعلمون﴾ أي : أنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة كما خلق سائر جنسهم ، فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى . وقيل : كانوا يستهزؤون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى : ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي : من القذر وهو منصبهم الذي لا منصب أوضع منه ولذلك أبهم وأخفى إشعاراً بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فلا يليق بهم هذا التكبر ويدعون التقدم ويقولون : ندخل الجنة قبلهم .

قال قتادة في هذه الآية إنما خلقت يا ابن آدم من قذر ، فاتّقِ الله . وروي أنّ مطرّق بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز ، فقال له : يا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ؟ فقال له : أتعرفني ؟ قال : نعم ، أوّلك نطفة مزرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته .

فائدة : قال ابن عربي في "الفتوحات" : خلق الله الناس على أربعة أقسام : قسم لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام ، وقسم من ذكر فقط وهو حوّاء ، وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام ، وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس .

﴿ فلا ﴾ زيدت فيه لا ﴿ أقسم برب ﴾ أي : سيد ومبدع ومدبر ﴿ المشارق ﴾ أي : التي تشرق الشمس والقمر والكواكب السيارة ، كل يوم في موضع منها على المنهاج الذي دبره والطريق والقانون الذي أتقنه وسخره ستة أشهر صاعدة وستة أشهر هابطة ﴿ والمغارب ﴾ كذلك وهي التي ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الأربعة ، فكان بها صلاح العالم بمعرفة الحساب وإصلاح المآكل والمشارب وغير ذلك من المآرب ، فيوجد كل من الملوين بعد أن لم يكن والنبات من النجم والشجر كذلك عادة مستمرة دالة على أنه تعالى قادر على الإيجاد والإعدام لكل ما يريده من غير كلفة ما . كما قال تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظيمة ﴿ لقادرون ﴾ .

﴿ على أن نبدل ﴾ أي : تبديلاً عظيماً بما لنا من الجلالة عوضاً عنهم ﴿ خيراً منهم ﴾ أي : بالخلق أو بتحويل الوصف فيكونون أشدّ بطشاً في الدنيا وأكثر أموالاً وأولاداً وأعلى قدراً وأكثر حشماً وجاهاً وخدماً ، فيكونون عندك على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير وكل ما يضيق به صدرك ، وقد فعل ذلك سبحانه بالمهاجرين

والأنصار والتابعين لهم بإحسان بالسعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر والتمكين في الأرض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ، ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي : لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده بوجه من الوجوه .

(166/782)

﴿ فذرهم ﴾ أي : اتركهم ولو على أسوأ أحوالهم ﴿ يخوضوا ﴾ أي : في باطلهم من مقالهم وفعالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ أي : يفعلوا في دنياهم فعل اللاعب الذي لا فائدة لفعله إلا ضياع الزمان واشتغل أنت بما أمرت به ﴿ حتى يلاقوا ﴾ أي : يلقوا ﴿ يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم كشف الغطاء الذي أوّل مجيئه عند الغرغرة ، وتناهيه النفخة الثانية ، ودخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قاله البقاعيّ وابن عادل .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يخرجون ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من يومهم أو منصوباً بإضمار أعني ﴿ من الأجداث ﴾ أي : القبور التي صاروا بتغييبهم فيها تحت وقع الحوافر والخف ، فهم بحيث لا يدفعون شيئاً يفعل بهم بل هم كلحم في فم ماضغ ، فإنّ الجدث : القبر والجدثة

صوت الحافر والخف ومضغ اللحم .

وقوله تعالى : ﴿ سراعاً ﴾ أي : نحو صوت الداعي ذاهبين إلى المحشر ، حال من فاعل يخرجون جمع سريع كظراف في ظريف ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ كأنهم إلى نصب ﴾ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد ، والباقون بفتح النون وإسكان الصاد على أنه مصدر بمعنى المفعول كما تقول هذا نصب عيني وضرب الأمير ، والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله ﴿ يوفضون ﴾ أي : يسرعون إلى الداعي مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إلى نصب ، أي : إلى غاية وهي التي ينتصب إليها بصرك ، وقال الكلبي : هو شيء منصوب علم أو راية . وقال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى لا يلوي أوّلهم على آخرهم .

(167/782)

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة ﴾ حال إما من فاعل يوفضون وهو أقرب ، أو من فاعل يخرجون وفيه بعد منه ، وفيه تعدد الحال لذي حال واحدة وفيه الخلاف المشهور . وقوله تعالى : ﴿ أبصارهم ﴾ فاعل ، والمعنى ذليلة خاضعة لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله تعالى

﴿ ترهقهم ﴾ أي : تغشاهم فتعمهم وتحمل عليهم ، فتكلفهم كل عسر وضيق على وجه الإسراع عليهم ﴿ ذلة ﴾ أي : ضد ما كانوا عليه في الدنيا ؛ لأن من تعزز في الدنيا على الحق ذل في الآخرة ، ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الذي هو في غاية ما يكون من علوّ الرتبة في العظمة ﴿ اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ أي : يوعدون في الدنيا أنّ لهم فيه العذاب ، وأخرج الخبر بلفظ الماضي ؛ لأنّ ما وعد الله تعالى به فهو حق كائن لا محالة ، وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه أوّل السورة ، فقد رجع آخرها على أوّلها .

وما قاله البيضاويّ تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون" . حديث موضوع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير جـ 8 صـ 92.104 ﴾

(168/782)

وقال القاسمى :

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ ﴾

قال مجاهد : أي : دعا داع بعذاب يقع في الآخرة ، وهو قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة – فيما رواه النسائي عن ابن عباس – وقد قيل : إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر ، ففي الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه .

و ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ صفة ثانية لـ عذاب ، أو صلة لـ ﴿ وَاقِعٍ ﴾ واللام للتعليل ، أو بمعنى على .

﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي : رادّ يرده من جهته ، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج : 47] .

وقوله تعالى ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال الرازيّ : المعارج جمع معرج ، وهو المصعد ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] .

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : قال ابن عباس في رواية : أي : هي السماوات ؛ وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

وثانيها : قال قتادة : ذي الفواضل والنعم ؛ وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب ، وهي

تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها : أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، في يوم كان مقدار صعودهم ذلك ، في يوم لغيرهم من الخلق : خمسين ألف سنة ؛ وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع .

(169/782)

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذي فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ متعلق بـ ﴿ وَاقِعٍ ﴾ والمراد به يوم القيامة .

فعن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .

والمقدار المذكور إما حقيقي ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تمتع بأيام السرورِ فإنها قِصَارٌ وأيامُ الغُمُومِ طوَالُ

ونقل الرازي عن أبي مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ما خلق الله إلى آخر الفناء ، فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدَّر بخمسين ألف سنة . ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوماً ، لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] ، ولا منافاة في التقدير ؛ لأن المعنيّ به الاستطالة ، لشدته على الكفار ، أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، والله أعلم .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ أي : على ما يقولون ، ولا يضيق صدرك ، فقد قرب الانتقام منهم .

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﴾ أي : العذاب الدنيوي أو الأخروي ﴿ بَعِيداً ﴾ أي : وقوعه ، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى .

﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ أي : قريب الحضور .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ أي : كالشيء المذاب ، أو دردي الزيت . و ﴿ يَوْمَ ﴾ إما ظرف لـ ﴿ قَرِيباً ﴾ ، أو لمحذوف .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أي : كالصوف .

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ أي : قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي : يعرّفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ أي : يتمنى الكافر ﴿ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾ أي : الذين هم محل شفقته .

﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أي : التي هي أحب إليه ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ أي : الذي يستعين به في النوائب .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي : عشيرته ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ أي : تضمه إليها عند الشدائد .

﴿ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ أي : الافتداء ، أو المذكور ، أو من في الأرض . عطف على ﴿ يَفْتَدِي ﴾ و ﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد .

﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [15 - 18]

﴿ كَلَّا ﴾ أي : لا يكون ذلك ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي : النار الموعود بها المجرم ﴿ لَظَى ﴾ أي : لهب خالص .

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ أي : الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع شواة ، وهي جلدة الرأس .

﴿ تَدْعُواْ ﴾ أي : على صليّها ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ أي : عن الحق ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي : عن الطاعة .

﴿ وَجَمَعَ ﴾ أي : المال ﴿ فَأَوْعَى ﴾ أي : جعله في وعاء وكنزه ، ومنع حق الله منه ، فلم يزكّ ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ أي : قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بينه بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي : الضرّ والبلاء ﴿ جَزُوعاً ﴾ أي : كثير الجزع من قلة صبره .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ أي : كثر ماله وناله الغنى ﴿ مَنُوعاً ﴾ أي : لِما في يده ، بخيل به ، لشدة حرصه .

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ أي : مقيمون ، لا يضيّعون منها شيئاً .

(171/782)

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي : المتعفّف الذي أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذي لا ينمي له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من

قوله أصحاب الجنة في السورة قبل : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : 27] . واللفظ أعمّ من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقاً سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحِماً ، أو يُقري بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلاًّ ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبيّ : أن في المال حقاً سوى الزكاة .

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : الجزاء .

﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : وَجِلون أن يعذبهم في الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيّعون له فرضاً ، ولا يتعدون له حداً .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي : أن ينال من عصاه ، وخالف أمره .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أي : لغلبة ملكة الصبر ، وامتلاك ناصيته .

﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . .

﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي : الذين عدوا ما أحل الله لهم ، إلى ما حرّمه عليهم .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها ، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التي أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه .

(172/782)

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أي : لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيّرة ولا مبدّلة .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أ : ي لا يضيّعون لها ميقاتاً ولا حَدّاً . قيل : الحفظ عن الضياع ، استعير للإتمام والتكميل للأركان والهيئات ؛ ولذا قال القاضي : وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها .

﴿ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي : بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أي : مسرعين للحضور ، ليظفروا بما يتخذونه هزؤاً .

وعن ابن زيد : المهطع الذي لا يطرف .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أي : متفرقين حِلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك وعن كتاب الله .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أي : ولم يتّصف بصفات أهلها المنوّه بها قبل .

﴿ كَلاَّ ﴾ أي : لا يكون ذلك ، لأنه طمع في غير مطمع .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من النطف . يعني : ومن قدر على ذلك فلا يعجزه إهلاكهم ، فليحذروا عاقبة البغي والفساد ؛ ولذا قال :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ يعني مشرق كل يوم من السَّنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التي تشرق فيها الشمس وتغرب .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : بمغلوبين ، إن أردنا ذلك .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أي : أخذهم فيه وهلاكهم .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ أي : يسرعون .

و النصب : الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلَم المنصوب على الطريق ليهتدي به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها ، أو إسراع الجند إلى راية الأمير .

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي : من الخزي والهوان .

﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أي : تغشاهم ذلة من هول ما حاق بهم .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أي : بأنهم ملاقوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 225.230 ﴾

(174/782)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المعارج

الدرس الأول: 1 - 18 قرب وقوع يوم القيامة والهول في مشاهده

سأل سائل بعذاب واقع , للكافرين ليس له دافع , من الله ذي المعارج , تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة , فاصبر صبرا جميلا , إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا

, يوم تكون السماء كالمهل , وتكون الجبال كالعهن , ولا يسأل حميم حميما , يبصرونهم , يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه , وصاحبته وأخيه , وفصيلته التي تؤويه , ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا ! إنها لظى , نزاعة للشوى , تدعو من أدبر وتولى , وجمع فأوعى . .

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب ; ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة , وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ; وينكرونها أشد الإنكار , ويتحدون الرسول (صلى الله عليه وسلم) في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود , أو أن يقول لهم: متى يكون .

وفي رواية عن ابن عباس أن الذي سأل عن العذاب هو النضر بن الحارث . وفي رواية أخرى عنه: قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا , لأنه كائن في تقدير الله من جهة , ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحدا لا يمكنه دفعه ولا منعه . فالسؤال عنه واستعجاله – وهو واقع ليس له من دافع – يبدو تعاسة من السائل المستعجل ; فردا كان أو مجموعة !

وهذا العذاب للكافرين . . إطلاقا . . فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما

يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله (ذي المعارج) . . وهو تعبير عن الرفعة والتعالي , كما قال في السورة الأخرى: (رفيع الدرجات ذو العرش) . .

(175/782)

وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلمة الفصل في موضوع العذاب , ووقوعه , ومستحقيه , ومصدره , وعلو هذا المصدر ورفعته , مما يجعل قضاءه أمرا علويا نافذا لا مرد له ولا دافع . . بعد هذا أخذ في وصف ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا العذاب , والذي يستعجلون به وهو منهم قريب . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر , ومقاييسه غير مقاييسهم:

من الاية 4 الى الاية 5

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5)

(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة , فاصبر صبرا جميلا , إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة , لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى . وفي هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله . والروح: الأرجح أنه جبريل عليه السلام , كما

سمي بهذا الاسم في مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لما له من شأن خاص . وعروج الملائكة والروح في هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر , إيحاء بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته , وهم يعرجون في شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندري نحن – ولم نكلف أن ندري – طبيعة هذه المهام , ولا كيف يصعد الملائكة , ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات في شأن الغيب لا تزيد شيئًا من حكمة النص , وليس لنا إليها من سبيل , وليس لنا عليها من دليل . فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم , الذي ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

(176/782)

وأما (كان مقداره خمسين ألف سنة) . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف في التعبير العربي . وقد تعني حقيقة معينة , ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة من سني أهل الأرض فعلا وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جدا الآن . فإن يومنا الأرضي هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق ما يعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعني هذا أنه المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن

تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة , فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيدا , وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعو الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

(فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) . .

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة , وتكررت لكل رسول , ولكل مؤمن يتبع الرسول . وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق , ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية , موصولة بالهدف البعيد , متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن , الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة , الراضي بقدر الله , الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء , الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهي دعوة الله , وهي دعوة إلى الله . ليس له هو منها شيء . وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله , وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقا مع هذه الحقيقة , ومع الشعور بها في أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون , وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون , يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله . ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ; فيستعجلون . وإذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم , وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود . . عندئذ يجيء مثل هذا التثبيت وهذا التوجيه من الله الخبير:

من الاية 6 الى الاية 14

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَرَاهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ (14)

(فاصبر صبرا جميلا) . .

والخطاب هنا للرسول (صلى الله عليه وسلم) تثبيتا لقلبه على ما يلقى من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريرا للحقيقة الأخرى: وهي أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر ; ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة:

(إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذي يقع فيه ذلك العذاب الواقع , الذي يرونه بعيدا ويراه الله قريبا .

يرسم مشاهده في مجالي الكون وأغوار النفس . وهي مشاهد تشي بالهول المذهل المزلزل في الكون وفي النفس سواء :

(يوم تكون السماء كالمهل , وتكون الجبال كالعهن) . .

(178/782)

والمهل ذوب المعادن الكدر كدردي الزيت . والعهن هو الصوف المنتفش . والقرآن يقرر في مواضع مختلفة أن أحداثا كونية كبرى ستقع في هذا اليوم , تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فمن المرجح عندهم أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية – وهي بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل – فلعلها في يوم القيامة ستنطفئ كما قال: (وإذا النجوم انكدرت) وستبرد حتى تصير معادن سائلة ! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهي الطبيعة الغازية !

على أية حال هذا مجرد احتمال ينفع الباحثين في هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص نتملى ذلك المشهد المرهوب , الذي تكون فيه السماء كذوب المعادن الكدر , وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المنتفش . ونتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذي ينطبع في النفوس , فيعبر عنه القرآن أعمق تعبير:

(ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) .

إن الناس في هم شاغل , لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه , ولا يجد فسحة في شعوره لغيره: (ولا يسأل حميم حميما) . فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج , وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض (يبصرونهم) كأنما عمدا وقصدا ! ولكن لكل منهم همه , ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهجس في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله , ولا أن يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع , والهول يغشى الجميع . .

فما بال(المجرم) ؟ إن الهول ليأخذ بجسه , وإن الرعب ليذهب بنفسه , وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه , ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة , ويناضل عنهم , ويعيش لهم . . ببنيه . وزوجه . وأخيه , وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق , فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعا ثم ينجيه . . وهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات !

صورة مبطنة بالهول , مغمورة بالكرب , موشاة بالفزع , ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحي .

وبينما المجرم في هذه الحال , يتمنى ذلك المحال , يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل , أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملأ جميعا حقيقة الموقف وما يجري فيه:

كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى . .

إنه مشهد تطير له النفس شعاعا , بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله . . (كلا !) في ردع عن تلك الأماني

من الاية 15 الى الاية 18

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18)

المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعا . . (كلا ! إنها

لظى) نار تتلظى وتتحرق (نزاعة للشوى) تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا . . وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد : تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى . . تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها !

(180/782)

والتوكيد في هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفي سورة القلم كذلك على منع الخير , وعدم الحض على طعام المسكين , وجمع المال في الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية . . هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجه في مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر , والتخويف من عاقبته , بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفي هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذا المعنى , وتؤكد ملامح البيئة المكية التي كانت

تواجهها الدعوة . فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا . وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر , وأصحاب القوافل في رحلتي الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء , وشح النفوس يجعل الفقراء محرومون , واليتامى مضيعين . ومن ثم تكرر الأمر في هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص ; ويخوض هذه المعركة مع الجشع والحرص في أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن يتتبع التحذير من الربا , ومن أكل أموال الناس بالباطل , ومن أكل أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا ! ومن الجور على اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة في أموالهن ! ومن نهر السائل , وقهر اليتيم , ومن حرمان المساكين . . . إلى آخر هذه الحملات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلا على أنها توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية في كل بيئة . وحب المال , والحرص عليه , وشح النفس به , والرغبة في احتجانه , آفة تساور النفوس مساورة عنيفة , وتحتاج للانطلاق من إسارها والتخلص من أوهاقها , والتحرر من ربقتها , إلى معارك متلاحقة , وإلى علاج طويل !

الدرس الثاني: 19 - 35 من طبيعة النفس الإنسانية التي يهذبها الإسلام وصفات الصالحين

والآن وقد انتهى من تصوير الهول في مشاهد ذلك اليوم , وفي صورة ذلك العذاب ; فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الشر والخير , في حالتي إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين:

(إن الإنسان خلق هلوعا :إذا مسه الشر جزوعا , وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون) .

وصورة الإنسان – عند خواء قلبه من الإيمان – كما يرسمها القرآن صورة عجيبة في صدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة في هذا المخلوق ; والتي لا يعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيماني , الذي

من الاية 19 الى الاية 25

إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً

(21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)

يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر , ومن الشح عند امتلاك الخير .

(إن الإنسان خلق هلوعا :إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا) . .

(182/782)

لكأنما كل كلمة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطا في ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة . هلوعا . . جزوعا عند مس الشر , يتألم للذعته , ويجزع لوقعه , ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمدا مضروبا عليه ; ويحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجا ; ولا يتوقع من الله تغييرا . ومن ثم يأكله الجزع , ويمزقه الهلع . ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه , ويعلق به رجاءه وأمله . . منوعا للخير إذا قدر عليه . يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره , ويحتجنه لشخصه

, ويصبح أسير ما ملك منه , مستعبدا للحرص عليه ! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه . ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به . . فهو هلوع في الحالتين . . هلوع من الشر . هلوع على الخير . . وهي صورة بائسة للإنسان , حين يخلو قلبه من الإيمان .

(183/782)

ومن ثم يبدو الإيمان بالله مسألة ضخمة في حياة الإنسان . لا كلمة تقال باللسان , ولا شعائر تعبدية تقام . إنه حالة نفس ومنهج حياة , وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال . وحين يصبح القلب خاويا من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشة ! ويبيت في قلق وخوف دائم , سواء أصابه الشر فجزع , أم أصابه الخير فمنع . فأما حين يعمره الإيمان فهو منه في طمأنينة وعافية , لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدبر الأحوال ; مطمئن إلى قدره شاعر برحمته , مقدر لابتلائه , متطلع دائما إلى فرجه من الضيق , ويسره من العسر . متجه إليه بالخير , عالم أنه ينفق مما رزقه , وأنه مجزي على ما أنفق في سبيله , معوض عنه في الدنيا والآخرة . . فالإيمان كسب في الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة , يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع , تلك السمة العامة للإنسان , يفصلها السياق هنا ويحددها :

(إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون) . .

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان , هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة . وصفة الدوام التي يخصصها بها هنا :(الذين هم على صلاتهم دائمون) . . تعطي صورة الاستقرار والاستطراد , فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة . . وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا عمل شيئا من العبادة أثبته – أي داوم عليه – وكان يقول: " وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قل " . . لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله , كما ينبغي من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هو لعبة توصل أو تقطع , حسب المزاج !

(والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . .

وهي الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر . . وهي حق في أموال المؤمنين . . أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون في أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفي هذا

من الاية 26 الى الاية 38

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (35) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)

تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ! كما أن فيه شعورا بواجب الواجد تجاه المحروم , في هذه الأمة المتضامنة المتكافلة . . والسائل الذي يسأل ; والمحروم الذي لا يسأل ولا يعبر عن حاجته فيحرم . أو لعله الذي نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال . والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة , وبآصرة الإنسانية من جهة , فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربقة الحرص والشح . وهو في الوقت ذاته ضمانة

اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهي فريضة ذات دلالات شتى , في عالم الضمير وعالم الواقع سواء . . وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطا في ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص في السورة .

(والذين يصدقون بيوم الدين) . .

(185/782)

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسي . وهي في الوقت ذاته ترسم خطا أساسيا في ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شطر الإيمان . وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعورا وسلوكا . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث . . المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض , ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك , فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها . . والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة , ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه , وينتهي إلى نتائج

خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة . . وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته , قد لا يكون مطمئنا ولا مريحا ولا عادلا ولا معقولا , ما لم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحا . .

ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام .

(والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون) . .

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة , والرقابة اليقظة , والشعور بالتقصير في جناب الله على كثرة العبادة , والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة , والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

(186/782)

ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه: " لن يدخل الجنة أحدا

عمله " قالوا :ولا أنت يا رسول الله ؟ قال:" ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته "

وفي قوله هنا :(إن عذاب ربهم غير مأمون) . . إيحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة , فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب . والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية , فإذا غلبهم ضعفهم معها , فرحمته واسعة , ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ! وهذا قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو , ويخاف ويطمع , وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

(والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . .

وهذه تعني طهارة النفس والجماعة , فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا , وفي الوقت ذاته ناصعا صريحا . مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية , وتلبي فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل , وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعا يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم . وعلى البيت العلني الواضح المعالم . مجتمعا يعرف فيه كل طفل أباه , ولا يخجل من مولده . لا لأن الحياء منزوع من الوجوه والنفوس . ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح , طويل الأمد واضح

الأهداف , يرمي إلى النهوض بواجب إنساني واجتماعي , لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

(187/782)

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين(والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين , فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . .

فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان – من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع – والسبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الإسلام هو السبي في قتال في سبيل الله . وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام – والأصل في حكم هذا السبي هو ما ذكرته آية سورة محمد : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق , فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)ولكن قد يتخلف بعض السبي بلا من ولا فداء لملابسات واقعية ; فهذا يظل رقيقا إذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين في أية صورة من صور الرق – ولو سماه بغير اسمه ! – ويجوز الإسلام وطء الإماء عندئذ من صاحبهن وحده , ويجعل عتقهن موكولا إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام

لتجفيف هذا المورد . ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ! ولا يتدسس ويلتوي فيسميهن حرات وهن إماء في الحقيقة !

(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . . وبذلك يغلق الباب في وجه كل قذارة جنسية , في أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين . . فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ; ولكن القذارة في الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم . .

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) .

(188/782)

وهذه من القوائم الأخلاقية التي يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع . ورعاية الأمانات والعهود في الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لا اضطرارا . . ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب أن الله ربهم الواحد , وهم بخلقتهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض وقد شدد

الإسلام في الأمانة والعهد وكرر وأكد , ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة . وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفسا لمؤمنة , كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة . ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة لا تدع مجالا للشك في أهمية هذا الأمر البالغة في عرف الإسلام .

(والذين هم بشهاداتهم قائمون) . .

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقا كثيرة , بل ناط بها حدود الله , التي تقام بقيام الشهادة . فلم يكن بد أن يشدد الله في القيام بالشهادة , وعدم التخلف عنها ابتداء , وعدم كتمانها عند التقاضي , ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته , فقال: (وأقيموا الشهادة لله) . . وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهي أمانة من الأمانات , أفردها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها . .

وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة , ختمها كذلك بالصلاة:

(والذين هم على صلاتهم يحافظون) . .

وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها , وفي فرائضها , وفي سننها , وفي هيئتها , وفي الروح التي تؤدى بها . فلا يضيعونها إهمالا وكسلا . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها . . وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحي بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تختم سمات المؤمنين . .

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر:

(أولئك في جنات مكرمون) . .

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسي ولون من النعيم الروحي . فهم في جنات . وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم , جزاء على هذا الخلق الكريم , الذي يتميز به المؤمنون . .

الدرس الثالث: 36 – 41 من أفعال الكفار ضد الرسول وتيئيسهم من الجنة والقدرة على البعث

ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الدعوة في مكة , والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذي يكون فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتلو القرآن . ثم يتفرقون حواليه جماعات . ويستنكر إسراعهم هذا وتجمعهم في غير ما رغبة في الاهتداء بما يسمعون:

فما للذين كفروا قبلك مهطعين ? عن اليمين وعن الشمال عزين ? . .

المهطع هو الذي يسرع الخطى ما دا عنقه كالمقود . وعزين جمع عزة كفئة وزنا ومعنى . .

وفي التعبير تهكم خفي بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تتم بها .

وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول

ليسمعوا ويهتدوا , ولكن فقط ليستطلعوا في دهشة ثم يتفرقوا كي يتحلقوا حلقات يتناجون

في الكيد والرد على ما يسمعون !

ما لهم ?(أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ?) . .

وهم على هذه الحال التي لا تؤدي إلى جنة نعيم , إنما تؤدي إلى لظى مأوى المجرمين !

(190/782)

ألعلهم يحسبون أنفسهم شيئا عظيما عند الله ; فهم يكفرون ويؤذون الرسول , ويسمعون

القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم في ميزان الله شيء عظيم

?! .

من الاية 39 الى آخر السورة

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40)
عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ

(43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)

(كلا !)في ردع وفي تحقير . . (إنا خلقناهم مما يعلمون) !

وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهين الذي يعرفون ! والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته ; فيمسح بها كبرياءهم مسحا , وينكس بها خيلاءهم تنكيسا , دون لفظة واحدة نابية , أو تعبير واحد جارح . بينما هذه الإِشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ? وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه , وخرق لسنته في الجزاء العادل باللظى وبالنعيم .

واستطرادا في تهوين أمرهم , وتصغير شأنهم , وتنكيس كبريائهم , يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم , وأنهم لا يعجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء أليم:

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون , على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) .

(191/782)

والأمر ليس في حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب , يوحي بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهي تتوالى في كل لحظة . ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب . . .

وأيا كان مدلول المشارق والمغارب , فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود , وبعظمة الخالق لهذا الوجود . فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب , على أنه – سبحانه – قادر على أن يخلق خيرا منهم , وأنهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ ! .

الدرس الرابع: 42 – 44 تهديد الكفار وصورة لهول البعث

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع , بعد تصوير هول العذاب في ذلك اليوم المشهود ; وكرامة النعيم للمؤمنين , وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب , ويرسم مشهدهم فيه , وهو مشهد مكروب ذليل:

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون , خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة , ذلك اليوم الذي كانوا

يوعدون) . .

وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم , ومن التهديد لهم , ما يثير الخوف والترقب . وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن في التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم . .

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه . . وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا . لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ويتجمعون حولها . فها هم أولاء يسارعون اليوم , ولكن شتان بين يوم ويوم !

(192/782)

ثم تتم سماتهم بقوله: (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة , وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية . . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون . .

(ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) .

فكانوا يستريبون فيه ويكذبون ويستعجلون !

بهذا يلتئم المطلع والختام , وتتم هذه الحلقة من حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء

, وتنتهي هذه الجولة من جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلي والتصور الإسلامي للحياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3695 . 3704 ﴾

(193/782)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) ﴾

المعلوم أن مادة سأل لا تتعدى بالباء ، كتعديها هنا . ولذا قال ابن كثير : إن الفعل ضمن معنى فعل آخر يتعدى بالباء وهو مقدر ما استعجل ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [الحج : 47] ، وذكر عن مجاهد أن سأل بمعنى دعا .

واستدل له بقوله تعالى عنهم : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ، وذكر هذا القول ابن جرير أيضاً عن مجاهد .

وقرئ سال بدون همزة من السيل ، ذكرها ابن كثير وابن جرير ، وقالوا : هو واد في جهنَّم ، وقيل : مخفف سأل اه .

ولعل مما يرجح قول ابن جرير أن الفعل ضمن معنى مثل آخر قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا

الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : 18] الآية .

وقتدم للشّيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ;للَّهُمَّ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] وأحال على سورة سأل وقال وسيأتي زيادة إيضاح إن شاء الله .

وقد بين هناك أن قولهم يدل على جهالتهم حيث لم يطلبوا الهداية إليه إن كان هو الحق .

وحيث انه رحمه الله أحال على هذه السورة لزيادة الإيضاح فإن المناسب إنما هو هذه الآية : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُ ﴾ بمعنى استعجل أو دعا لوجود الارتباط بين آية سأل ، وآية ﴿ ;للَّهُمَّ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق ﴾ . المذكورة . فإنَّهما مرتبطان بسبب النزول .

كما قال ابن جير وغيره عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُ ﴾ قال : دعا داع بعذاب واقع . قال : هو قولهم ﴿ ;للَّهُمَّ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ﴾ الآية . والقائل هو النضر بن الحارث بن كلدة .

(194/782)

والإيضاح المووه عنه يمكن استنتاجه من هذا الربط ومن قوله رحمه الله : إنه يدل على جهالتهم وبيان ما إذا كان هذا العذاب الواقع هل وقوعه في الدنيا أم يوم القيامة .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن جهالة قريش دل عليها العقل والنقل ، لأن العقل يقضي بطلب النفع ودفع الضر كما قيل :

لما نفع يسعى اللبيب فلا تكن ساعياً .

وأما النقل فلأن ما قص الله علينا أن سحرة فرعون وقد جاءوا متحدين غاية التحدي لموسى عليه السلام ولكنهم لما عاينوا الحق قالوا آمنا وخروا سجداً ولم يكابروا كما قضى الله علينا من نبئهم في كتابه قال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] ولما اعترض عليهم فرعون وقال : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه : 71] إلى آخر كلامه ، قالوا وهو محل الشاهد هنا ، لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ولم يبالوا بوعيده ولا بتهديده .

وقال في استخفاف : فاقض ما أنت قاض ، فهم لما عاينوا البينات خروا سجداً أعلنوا إيمانهم وهؤلاء كفار قريش يقولون مقالتهم تلك .

أما وقوع العذاب المسؤول عنه فإنه واقع بهم يوم القيامة ، وإنَّما عبَّر بالمضارع الدال على الحال للتأكيد على وقوعه ، وكأنه مشاهد وقال الفخر الرازي وقال هو نظير قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1 ﴾ .

وفي قوله تعالى ﴿ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللهِ ذِي المعارج ﴾ [المعارج: 2 – 3] دليل على تأكيد وقوعه لأن ما ليس له دافع لا بد من وقوعه. أما متى يكون فقد دلّت آية الطور نظيره هذه أن ذلك سيكون يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: 7 – 8] ثم بين ظرف وقوعه ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور: 9 – 10] وفي سياق هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: 9 – 11] إلى قوله تعالى ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى وَجَمَعَ فأوعى ﴾ [المعارج: 17 – 18] فإنها كلها من أحوال يوم القيامة، فدل بذلك على زمن وقوعه. ولعل في قوله تعالى ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى وَجَمَعَ فأوعى ﴾ رد على أولئك المستخفين بالعذاب المستعجلين به مجازاة لهم بالمثل، كما دعوا وطلبوا لأنفسهم العذاب استخفافاً فهي تدعوهم إليها زجراً وتخويفاً مقابلة دعاء بدعاء، أي إن كنتم في الدنيا دعوتم بالعذاب فهذا هو العذاب يدوعكم إليه ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن سماع الدعوة وأعرض عنها وتولى وهذا الرد بهذه الصفات التي قبله من تغيير السماء كالمهل وتسيير الجبال كالعهن، وتقطع أواصر القرابة من الفزع والهول مما يخلع القلوب كام وقع بالفعل في الدنيا، كما ذكر القرطبي قصة جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فسمعته يقرأ ﴿ والطور وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ [الطور

: 1 – 2] إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : 7 – 8] فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع العذاب .

(196/782)

وذكر القرطبي أيضاً عن هشام بن حسان قال : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ والطور حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه .

وذكر ابن كثير عن عمر رضي الله عنه أنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع رجل يقرأ بالطور قربا لها أعيد منها عشرين ليلة ، فكان هذا الوصف المفزع رداً على ذاك الطلب المستخف والله تعالى أعلم . ونأمل أن نكون قد وفينا الإيضاح الذي أراده رحمه الله تعالى .

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

في هذه الآية الكريمة مقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة ، وجاءت آيات أخر بأنه ألف سنة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] وقوله :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمرَ مِنَ السمآءِ إِلَى الأَرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السجدة : 5] فكان بينهما مغايرة في المقدار بخمسين مرة .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة في كتاب دفع إيهام الاضطراب ، وفي الأضواء في سورة الحج عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [الحج : 47] الآية .

ومما ينبغي أن يلاحظ أن الإيام مختلفة . ففي سأل هو يوم عروج الروح والملائكة ، وفي سورة السجدة هو يوم عروج الأمر فلا منافاة .

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8)

المهل دريدي الزيت ، وقيل غير ذلك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الرحمن عند الكلام على قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا انشقت السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9)

العهن : الصوف ، وجاء في آية أخرى وصف العهن بالمنفوش في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 4 – 5] ، وجاءت لها عدة حالات أخرى كالكثيب المهيل والكسحاب .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بين كل ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ [الكهف : 47] في سورة الكهف .

وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10)

الحميم : القريب والصديق والولي الموالي كما في قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

وفي هذه الآية الكريمة أنه في يوم القيامة لا يسأل حميم حميماً مع أنهم يبصرونهم بأبصارهم .

وقد بين تعالى موجب ذلك وهو اشتغال كل إنسان بنفسه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] ، وكل يفر من الآخر يقول نفس نفسي ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهُ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34 – 37] .

وقد جاء ما هو أعظم من ذلك في حديث الشفاعة كل نبي يقول : نفسي نفسي ، وجاء قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] ، وليس بعد ذلك من فزع إلا المؤمنون ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل : 89] جعلنا الله تعالى منهم

آمين .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)

الهلوع : فعلو من الهلع صيغة مبالغة ، والهلع ، قال في الكشاف : شدة سرعة الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، وقد فسره الله في الآية ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20 - 21] .

(198/782)

وفلظ الإنسان هنا مفرد ، ولكن أريد به الجنس أي جنس الإنسان في الجملة بدليل استثناء المصلين بعده في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ المصلين ﴾ [المعارج : 22] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1 - 3] ونظيره كثير .

وقد قال ابن جرير : إن هذا الوصف بالهلع في الكفار ويدل لما قال أمران :

الأول تفسيره في الآية واستثناء المصلين وما بعده منه ، لأن تلك الصفات كلها من خصائص المؤمنين ، ولذا عقَّب عليهم بقوله :

﴿ أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج : 35] ، ومفهومه أن المستثنى منه على

خلاف ذلك .

والثاني الحديث الصحيح : " عجباً لأمر المؤمن شأنه كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن " ، فمفهومه أن غير المؤمنين بخلاف ذلك ، وهو الذي ينطبق عليه الوصف المذكور في الآية أنه هلوع .

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23)

وصف الله تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات .

اثنتان منها تختص بالصلاة ، وهما الأولى والأخيرة مما يدل على أهمية الصلاة ، ووجوب شدة الاهتمام بها . وهذا من المسلمات في الدين لمكانتها من الإسلام ، وفي وصفهم هنا بأنهم على صلاتهم دائمون ، وفي الأخير ، على صلاتهم يحافظون .

قال في الكشاف : الدوام عليها المواظبة على أدائها لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل .

وذكر حديث عائشة مرفوعاً " أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو قل " .

(199/782)

ويشهد لهذا الذي قاله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة يَخَافُونَ يَوْماً ﴾ [النور : 36 – 37] وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُواْ البيع ﴾ [الجمعة : 9] .

قال : والمحافظة عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ، وهذا يشهد له قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 1 – 2] .

وحديث المسيء صلاته ، حيث قال له صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصل فإنك لم تصل " ، فنفى عنه أنه صلى الله مع إيقاعه الصلاة أمامه ، وذلك لعدم الحفاظ عليها بتوفيتها حقها .

وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير ، ومبدأ لهذا المذكور كله لقوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] فهي عون على كل خير .

ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ، فهي سياج من كل منكر ، فجمعت طرفي المقصد شرعاً ، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر أي جلب المصالح ودرء المفاسد ، ولذا فقد عني بها النَّبي صلى الله عليه وسلم كل

عنايتها ، كما هو معلوم ، إلى الحد الذي جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر في قوله صلى الله عليه وسلم " العهد الذي بيننا وبنيهم الصلاة ، من ترك الصلاة فقد كفر " واتفق الأئمة رحمهم الله على قتل تاركها . وكلام العلماء على أثر الصلاة على قلب المؤمن وروحه وشعوره وما تكسبه من طمأنينة وارتياح كلام كثير جداً توحي به كله معاني سورة الفاتحة .

(200/782)

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)

هذا هو الوصف الثاني ، ويساوي إيتاء الزكاة لأن الحق المعلوم لا يكون إلا في المفروض ، وهو قول أكثر المفسرين ولا يمنع أن السورة مكية ، فقد يكون أصل المشروعية بمكة ، ويأتي التفصيل بالمدينة ، وهو في السنة الثانية من الهجرة ، وهنا إجمالاً في هذه الآية .

الأول : في الأموال .

والثاني : في الحق المعلوم . أي القدر المخرج ، ولم تأت آية تفصل هذا الإجمال إلا آية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوه ﴾ [الحشر : 7] ، وقد بينت السنة هذا الإجمال .

أما الأموال ، فهي لإضافتها نعم كل أموالهم ، وليس الأمر كذلك ، فالأموال الزكوية بعض من

الجميع وأصولها عند جميع المسلمين هي :

أولاً : النّقدان : الذهب والفضة .

ثانياً : ما يخرج من الأرض من حبوب وثمار .

ثالثاً : عروض التجارة .

رابعاً : الحيوان ، ولها شروط وأنصباء . وفي كل من هذه الأربعة تفصيل ، وفي الثلاثة الأولى بعض الخلاف .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان كل ما يتعلق بأحكامها جملة تفصيلاً عن آيتي ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة : 34] وقوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ الأنعام : 141] ، ولم يتقدم ذكر لزكاة الحيوان ولا زكاة الفطر ، وعليه نسوق طرفاً من ذلك لتفصيل النصاب في كل منها ، وما يجب في النصاب ، وما تدعو الحاجة لذكره من مباحث في ذلك كالخلطة مثلاً ، والصفات في المزكّى ، والراجح فيهما اختلف فيه ، ثم نتبع ذلك بمقارنة بين هذه الأنصباء في بهيمة الأنعام وأنصاب الذهب والفضة لبيان قوة الترابط بين الجميع ودقة الشارع في التقدير .

أولاً : ببيان النوع الزكوي من الحيوان .

اعلم رحمنا الله وإياك : إن مذهب الجمهور أنه لا زكاة في الحيوان إلا في بهيمة الأنعام الثلاثة : الإبل ، والبقر ، والغنم الضأن والمعز سواء . وألحق بالبقر الجوامس ، والإبل تشمل العراب والبخاتي ، والخلاف في الخيل .

ولأبي حنيفة رحمه الله تعالى دليل أبي حنيفة رحمه الله استدل لوجوب الزكاة في الخيل بالقياس في حملها على الأصناف الثلاثة الأخرى ، إذا كانت للنسل أي كانت ذكوراً وإناثاً ، بخلاف ما إذا كانت كلها ذكوراً يجامع التناسل في كل واشترط لها السوم أيضاً .

وبحديث : " ما من صاحب ذهب لا يؤدي زكاته إلا إذا كان يوم القيامة صفح له صفائح من نار فتكوى بها جبينه وجنبه وظهره " الحديث . وفيه ذكر الأموال الزكوية كلها والإبل والبقر والغنم . فقالوا : والخيل يا رسول الله ؟ فقال : " الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر ، ولرجل وزر . أما التي لرجل أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال لها في مرج أو روضة " – إلى آخر ما جاء في هذا القسم – " ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر . ورجل ربطها رياء وفواء لأهل الإسلام ، فهي على ذلك وزر "

فقال رحمه الله : إن حق الله في رقابها وظهورها هو الزكاة . وقد خالفه في ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد ووافقه زفر ، وبما رواه الدار قطني والبيهقي والخطيب من حديث جابر

مرفوعاً : " في كل فرس سائمة دينار او عشرة دراهم " .

أدلة الجمهور على عدم وجوب الزكاة فيها والرد على أدلة أبي حنيفة رحمه الله :

واستدل الجمهور بقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة "

والفرس اسم جنس يعم ويعدم ذكرها مع بقية الأجناس الأخرى حتى سئل عنها صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت مثلها في الحكم لما تركها في الذكر .

وحديث : " قد عفوت عن الخيل فهاتوا زكاة الرقة " رواه أبو داود .

(202/782)

وأجابوا على استدلال أبي حنيفة ، بأن حق الله في رقابها ، وظهورها إعارتها وطرقها إذا طلب ذلك منه .

كما أجابوا على حديث جابر بما نقله الشوكاني والدار قطني من أنه لا تقوم به حجة .

ورد أبو حنيفة على دليل الجمهور بأن فرسه مجمل وهو يقول بالحديث إذا كان الفرس للخدمة .

أما إذا كانت الخيل للتناسل ، فقد خصها القياس ، وعلى حديث عفوت عن الخيل بأنه لم

يثبت ، وهذه دعوى تحتاج إلى إثبات ، فقد ذكر الشوكاني أنه حسن .

ولعل مما يرد استدلال أبي حنيفة نفس الحديث الذي استدل به من قرينة التقسيم ، إذا أناط الأجر فيها بالجهاد عليها ، ولم يذكر الزكاة مع أن الزكاة قد تكون ألزم من الأجر أو أعم من الجهاد لأنها تكون لمن لا يستطيع الجهاد كالمرأة مثلاً فتزكي فلو كانت فيها الزكاة لما خرجت عن قسم الأجر .

ثانياً : لو كان حق الله في المذكور هو الزكاة لما ترك لمجرد تذكرها وخيف تعرض للنسيان ، لأن زكاة الأصناف الثلاثة الأخرى لم تترك لذلك بل يطالب بها صاحبها ، ويأتي العامل فيأخذها ، وإن امتنع صاحبها أخذت جبراً عليه ، وبهذا يظهر رجحان مذهب الجمهور في عدم الوجوب .

ومن ناحية أخرى ، فقد اختلف القول عن أبي حنيفة رحمه الله فيما تعامل به ، وفيما يخرج في زكاتها ، فقيل : إنه مخير بين أن يخرج عن كل فرس ديناراً أو عشرة دراهم ، وبن أن يقومها ويدفع عن كل مائتي درهم خمسة دراهم .

(203/782)

وقد جعل الأحناف زكاتها لصاحبها ولا دخل للعامل فيها ولا يجبر الإمام عليها ، وقد أطال في الهداية الكلام عليها ، ولعل أحسن ما يقال في ذلك ما جاء عن عمر رضي الله عنه في سنن الدار قطني ، قال : جاء ناس من أهل الشام إلى عمر رضي الله عنه ، فقالاو : إنا قد أصبنا أموالاً وخيلاً ورقيقاً ، وإنا نحب أن نزكيه ، فقال : ما فعله صاحباي قبلي فأفعله أنا ، ثم استشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حسن ، وسكت عَلِيّ ، فسأله ، فقال : هو حسن لو لم تكن جزية راتبة يؤخذون بها بعدك . فأخذ من الفرس عشرة دراهم ، وفيه : فوضع على الفرس ديناراً .

وفي المنتقى عن أحمد رحمه الله أنهم قالوا : نحب أن يكون لنا فيها زكاة وطهور ، فهي إذا دائرة بين الاستحباب والترك .

وقد جاء في نفس الحديث الطويل المتقدم أنهم قالوا : والحمر يا رسول الله فقال : " ما أُنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ " [الزلزلة : 7] رواه الستة إلا الترمذي .

وعليه فإن الأحاديث التي هي نص في الوجوب أو للترك لم تصلح للاحتجاج ، والحديث الذي فيه الاحتمال في معنى حق الله في ظهورها ورقابها ، قال ابن عبد البر : إنه مجمل ، فلم يكن في النصوص المرفوعة متمسك للأحناف في قولهم بوجوب زكاة الخيل ، وبقي مفهوم الحديث .

وقول عمر رضي الله عنه . أما مفهوم الحديث فقد أشرنا إلى القرائن التي فيه على عدم الوجوب .

وأما فعل عمر رضي الله عنه ففيه قرائن أيضاً ، بل أدلة على عدم الوجوب وهي أولاً لأنهم هم الذين طلبوا منه أن يزكياه ويطهرها بالمزكاة وإيجاب الزكاة لا يتوقف على رغبة المالك .

ثانياً : توقف عمر وعدم أخذها منهم لأول مرة ، ولو كانت معلومة له مزكاة لما خفيت عليه ولما توقف .

ثالثاً : تصريحه بأنه لم يفعله صاحباه من قبله ، فكيف يفعله هو ؟

(204/782)

رابعاً : قول علي : ما لم تكن جزية من بعدك . أي : إن أخذها عمر استجابة لرغبة أولئك فلا بأس لتبرعهم بها ، ما لم يكن ذلك سبباً لجعلها لازمة على غيرهم فتكون كالجزية على المسلمين .

ومما يستدل به للجمهور حديث " قد عفوت عن الخيل والرقيق فأدوا زكاة أموالكم " رواه أبو داود .

قال الشوكاني بإسناد حسن : وهذا ما يتفق مع حديث " ليس على المسلم في فرسه ولا في

عبده " رواه الجماعة .

وقد أجاب الأحناف على تردد عمر بأن الخيل لم تكن تعرف سائمة للنسل عند العرب ، ولكنها ظهرت بعد الفتوحات في عهد عمر وفي هذا القول نظر . وعليه فلا دليل على وجوب الزكاة في الخيل فتبقى على البراءة الأصلية ، ولهذا لم يأت للخيل ذكر في كتاب أنصباء بهيمة الأنعام ، ولا يرد عليه أن البقر لم يأت ذكرها أيضاً فيه ، لأن زكاة البقر جاءت فيها نصوص متعددة لأصحاب السنن .

وللبخاري وغيره بيان أنصباء الزكاة وما يؤخذ فيها : معلوم أنه لم يأت نص من كتاب الله يفصل ذلك ، ولكن تقدم في مقدمة الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان بيان القرآن بالسنة ، وهو نوع من بيان القرآن لقوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوه ﴾ [الحشر : 7] .

وقد بينت السنة أركان الإسلام كعدد الركعات وأوقات الصلوات مفصلة ومناسك الحج . فكذلك بينت السنة مجمل هذا الحق ، وفي أي أنواع الأموال ، وإن أجمع نص في ذلك هو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه وقرنه بسيفه ، وقد عمل به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومضى عليه العمل فيما بعد .

وقد رواه الجماعة عن أنس رضي الله عنه ، قال أرسل إليّ أبو بكر كتاباً ، وكان نقش الخاتم عليه " محمد " سطر ، و " رسول " ، و " الله " سطر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتي أمر بها رسوله ، فمن سألها من المسلمين على وجهها فلعيطها ، ومن سأل قومها فلا يعط ، في أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض ، فإن لم تكن بنت مخاص فابن لبون ، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون ، فإذا بلغت ستاً وربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل ، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل ، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين ابنة لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، فإذا بلغت خمساً ففيها شاة .

وصدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين فيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاث مائة ففيها ثلاث شياه ، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة .

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلاَّ أن يشاء ربها ، فلا يجتمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية . الحديث .

فقد بين صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب أنصباء الإبل والغنم وما يجب في كل منهما ، ولم يتعرض لأنصباء البقر ، ولكن بين أنصباء البقر حديث معاذ عند أصحاب السنن ، قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثني إلى اليمين ألا آخذ من البقر شيئاً حتى تبلغ ثلاثين : فإذا بلغت ففيها عجل تبيع جذع أو جذعة حتى تبلغ أربعين ، فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة .

(206/782)

ولهذين النصين الصحيحين يكتمل بيان أنصباء بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وهو الذي عليه الجمهور وعليه العمل .

وما روي عن سعيد بن المسيب : في كل عشر من البقر شاة إلى ثلاثين ، ففيها تبيع فلم يعمل به أحد .

تنبيه

وليس في الوقص في بهيمة الأنعام زكاة ، والوقص هو ما بين كل نصاب والذي يليه ، كما بين الخمسة والتسعة من الإبل ، وما بين الأربعين والشعرين ومائة من الغنم ، وما بين الثلاثين والأربعين من البقر ، وهذا باتفاق إلاّ خلاف للأحناف في وقص البقر فقط ، والصحيح هو مذهب الجمهور في الجميع . لحديث معاذ لقوله صلى الله عليه وسلم " حتى تبلغ أربعين فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة " ، فمفهومه أنه لا زكاة بعد الثلاثين حتى تبلغ أربعين ، فما بين الثلاثين والأربعين لا زكاة فيه .

وأبو حنيفة يقول فيه بنسبة من التبيع ، وقد اشترط لزكاة بهيمة الأنعام النسل والسوم ، وأنه لا زكاة في المعلوفة ، ولا التي للعمل كالإبل للحمل عليها ، والبقر للحرث ونحو ذلك .

وقال مالك في المعلوفة ، وفي العوامل الزكاة قال في الموطإ ما نصه : في الإبل النواضح والبقر السواقي وبقر الحرث إني أرى أن يؤخذ من ذلك كله إذا وجبت فيه الصدقة . واستدلوا لمالك في ذلك بأمرين :

الأول : من جهة النصوص .

والثاني : من جهة المعنى .

أما النصوص ، فما جاء عاماً في حديث أبي بكر رضي الله عنه في أنصباء الزكاة في أربع وعشرين من الإبل فما دونه الغنم في كل خمس شاة لعمومه في السائمة والمعلوفة ، هذا في الإبل وكذلك في الغنم في كل أربعين شاة شاة أي بدون قيد السوم .

وأما من جهة المعنى : فقال الباجي : إن كثرة النفقات وقلتها إذا أثرت في الزكاة فإنها تؤثر في تخفيفها وتثقيلها ولا تؤثر في إسقاطها ولا إثباتها ، كالخلطة والتفرقة والسقي بالنضح والسبح ، ولا فرق بين السائمة والمعلوفة إلا تخفيف النفقة وتثقيلها .

(207/782)

وأما التمكن من الانتفاع بها فعلى حد واحد لا يمنع علفها من الدر والنسل ، ورد الجمهور على أدلة مالك أيضاً بأمرين :

الأول : من جهة النصوص .

والثاني : من جهة المعنى .

أما النصوص : فما جاء في الإبل في حديث بهز بن حكيم ، وفيه : " طفي كل أربعين من الإبل سائمة ابنة لبون " رواه أبو داود والنسائي وغيرهما .

وفي الغنم حديث " في سائمة الغنم والزكاة " وهو حديث صحيح .

وفي كتاب أبي بكر وعمر فقالوا : جاء قيد السوم في الحديثين ، وأدلة مالك مطلقة ويحمل المطلق على المقيد كما هو معلوم .

ومما يدل على رجحان أدلة الجمهور أن في حديث الغنم جاء المطلق في بيان العدد في كل

أربعين شاة شاة ، فهو لبيان النصاب أكثر منه لبيان الوصف .

وحديث : " في سائمة الغنم الزكاة " لبيان محل الوجوب أكثر منه لبيان العدد ، ومن جهة أخرى يعتبر الحديثان مترابطان ، وأن كلاً منهما عام من وجه خاص من وجه آخر ، فحديث

" في سائمة الغنم الزكاة " ، عام في الغنم بدون عدد خاص في السائمة .

وحديث : " في كل أربعين شاة شاة " عام في الشياه خاص بالأربعين . فيخصص عموم كل منهما بخصوص الآخر ، فيقال : في سائمة لاغنم الزكاة إذا بلغت أربعين ، ويقال : في كل أربعين شاة شاة إذا كانت سائمة ، وبهذا تلتئم الأدلة في الإبل والغنم لاشتراط السوم وتحديد العدد .

أما البقر فقد حكي الإجماع على اعتبار السوم ، ومن أدلة الجمهور من جهة المعنى أن السوم والنسل للنماء ، فيحتمل المواساة ، أما المعلوفة والعوامل فليست تحتمل المواساة . ومما تقدم يترجح قول الجمهور في اشتراط السوم والنسل . والله تعالى أعلم .

ما جاء في الخلطة ، وهي اختلاط المالين معاً لرجلين أو أكثر ، وهي على قسمين :

أولاً : خلطة أعيان .

ثانياً : خلطة أوصاف .

فخلطة الأعيان : أن يكون المال مشتركاً بين الخلطاء على سبيل المشاع ، كمن ورثوا غنماً أو بقراً مثلاً ولم يقتسموه أو أهدي إليهم ولم يقتسموه . وهذه الخلطة يكون حكم المال فيها ، كحكمه لو كان لشخص واحد ، أو خلطة الأوصاف ، فهي أن يكون المال متميزاً ، وكل منهم يعرف حصته وماله بعدد وأوصاف سواء بألوانها بوسمها أو نحو ذلك . ولكنهم خلطوا المال ليسهل القيام عليه كاختلاطهم في الراعي والمرعي والمسرح والمراح والفحل والدلو والمحلب .

ونحو ذلك مام هو منصوص عليه لما فيه نم الرفق والأكتفاء بواحد من كل ذلك ، لجميع المال ولو فرق لاحتاج كل مال منه إلى واحد من ذلك كله ، فهذه الخلطة لها تأثير في الزكاة عند الأئمة الثلاثة مالك والشافعي .

وأحمد رحمهم الله ، ولا تأثير لها عند أبي حنيفة رحمه الله ، وإنما التأثير عنده في خلطة المشاع .

واختلف القائلون بتأثيرها في الزكاة على من تؤثر :

فقال أحمد والشافعي : تؤثر على جميع الخلطاء ، من يملكون نصاباً ، ومن لا يملك .

وقال مالك : لا تؤثر إلا على من ملك نصاباً فأكثر ، ومن لا يملك نصاباً فلا تأثير لها عليه .

ودليل الجمهور على أبي نيفة في تأثيرها هو قوله صلى الله عليه وسلم في كتاب بيان أنصباء

الصدقة . ولا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مفترق خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهم يتراجعان بالسوية .

فقال الجمهور : النهي عن تفريق المجتمع لا يتأتى إلا في اجتماع الأوصاف لأن اجتماع المشاع لا يتأتَّى تفريقه خشية الصدقة ، وكذلك التراجع بالسوية لا يقال إلا في خلطة الأوصاف ، لأن خلطة المشاع ما يؤخذ منها مأخوذ من المجموع وعلى المشاع أيضاً ، لأن كل شريك على المشاع له حصته من كل شاة على المشاع .

(209/782)

مثال ذلك عند الجميع ، وإليك المثال للجميع ، لو أن ثلاثة أشخاص يملك كل واحد منهم أربعين شاة ، فإن كان كل منهم على حدة ، فعلى كل واحد منهم شاة فإن اختلطوا كانت عيلهم جميعاً شاة واحدة بالسوية ، بينهم لأن مجموعهم مائة وعشرون ، وهو حد الشاة .

وهذا عند الأئمة الثلاثة القائلين بتأثير الخلطة : مالك والشافعي وأحمد ، ولو أن للأول عشرين شاة وللثاني أربعين وللثالث ستين ففيها أيضاً شاة .

ولكن عند أحمد والشافعي كل بحصته فلو كانت الشاة بستين درهماً ، لكان على الأول عشرة دراهم بنسبة غنمه من المجموع ، وعلى الثاني عشرون وعلى الثالث ثلاثون كل

بنسبة غنمه من المجموع .

وعند مالك : لا شيء على الأول لأنه لم يملك نصاباً ، والشاة على الثاني والثالث فقط ، وبنسبة غنمهما من المجموع ، فعلى الثاني خُمسا القيمة أربعة وعشرون . وعلى الثالث ثلاثة أخماسها ستة وثلاثون درهماً وهكذا .

والدليل قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يفرق بين مجتمع ولا يجمع بين مفترق خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنما يتراجعان بالسوية "

فقال الجمهور : النيه عن تفريق المجتمع وتقاسمهما بالسوية دليل على تأثير الخلطة في الزكاة لما فيه من إرفاق .

قال الباجي : كما في الإرفاق في سقي الحرث ما سقي بالنضح وما سُقي بغير النضح .

وقال أبو حنيفة : ما كان من خليطين يعني الشريكين ولكن يرده قوله صلى الله عليه وسلم : " يتراجعان بالسوية " لأن التراجع لا يتحقق إلا في خلطة الجوار والأوصاف .

وقال مالك : لا تأثير للخلطة على من لم يملك النصاب لقوله صلى الله عليه وسلم : " في كل أربعين شاة شاة " ، فمن لم يملك أربعين فلا زكاة عليه ولا تأثير للخلطة عليه . ولعل من النصوص المقدمة يكون الراجح مذهب أحمد والشافعي في قضية الخلطة . والله تعالى أعلم .

الشروط المؤثرة في الخلطة عند القائلين بها كالآتي : عند أحمد رحمه الله تعالى خمسة أوصاف ، وهي اتحاد المالين في الآنى المرعى . المسرح . المبيت . المحلب . الفحل .

وعند الشافعي رحمه الله ذكر النووي عشرة أوصاف الخمسة الأولى . وزاد أن يكون الشريكان من أهل الزكاة : أن يكون المال المختلط نصاباً ، أن يمضي عليهم حول كامل ، اتحاد المشرب : اتحاد الراعي .

وعند مالك : الراعي ، والفحل ، والمراح ، والمراد بالدلو المشرب ، عند الشافعي وعليه : يكون الجميع متفقين تقريباً في الأوصاف ، وما زاده الشافعي معلوم شرعاً ، لأنها شروط في أصل وجوب الزكاة . ولكن اختلفوا في المراد من هذه الأوصاف هل تشترط جميعها أو يكفي وجود بعضها .

الواقع أنه لا نص في ذلك ولكن يرجع إلى تحقيق المناط فيما يكون به الإرفاق ، فمالك اكتفى ببعضها كالفحل والمرعى ، والراعي . والشافعي . اشترط توفر جميع تلك الأوصاف ، وإلا فلا تكون الخلطة مؤثرة ، ولكل في مذهبه خلاف في تلك الأوصاف لا نطيل الكلام بتتبعه ، وإنما يهمنا بيان الراجح فيما فيه الخلاف في أصل المسألة ، وقد ظهر أن الراجح هو الآتي :

أولاً : صحة تأثير الخلطة .

ثانياً : اشتراط الأوصاف التي تتحقق بها الخلطة عرفاً .

ملحوظة

لقد عرفنا أنصباء بهيمة الأنعام جملة وتفصيلاً ، وبقي علينا الإجابة عن سؤال طال ما جال تفكر كل دارس فيه ، وهو ما يقوله جميع الفقهاء : إن المقادير توقيفية ، ومنها أنصباء الزكاة . ومعنى توقيفية : أنه لا اجتهاد فيها ، ولكن هل هي جاءت لغوية ، أو أن بين هذه الأنصباء ارتباط ونسبة مطردة .

الواقع : أنه ، وإن كان الواجب على كل مسلم والذي عليه المسلمون قديماً وحديثاً هو الامتثال والطاعة ، إلا أننا لما كنا في عصر مادي والنظام الاقتصادي هو الأصل في سياسة العالم اليوم ، فإن البعض قد يتطلع إلى الإجابة عن هذا السؤال .

وقد حاولت الإجابة عليه بعمل مقارنة عامة توجد بها نسبة مطردة كالآتي :

(211/782)

أولاً : في النقدين معلوم أن نصاب الذهب عشرون مثقالاً ، والفضة مائتا درهم وفي كل منهم ربع العشر ، وكان صرف الدينار عشر دراهم ، فيكون نصاب الذهب من ضرب عشرين في عشرة فيساوي مائتين ، فهي نسبة مطردة كما ترى .

وإذا جئنا للنسبة بين الذهب والفضة وهي أصل الأثمان ، وبين الغنم نجد الآتي :

أولاً : في حديث عروة البارقي أن النّبي صلى الله عليه وسلم أعطاه ديناراً ليشتري لهم شاة فذهب وأتاهم بشاة ودينار ، فقال له صلى الله عليه وسلم " ماذا فعلت " ؟ فقال اشتريت شاتين بالدنيار ، ثم لقيني رجل فقال : أبتيعني شاة فبعته شاة بدينار ، فقال له صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك في صفقة يمينك "

معنى هذا أن الدنيار قيمته الشرائية تعادل شاتين ، من ضرب عشرين ديناراً في اثنيتين فيساوي أربعين شاة ، وهذا هو نصاب الغنم ، وفي الأربعين شاة شاة ، وقيمتها الشرائية نصف الدينار ، وهي خمسة دراهم وهي ما يؤخذ في العشرين مثقالاً فاطردت النسبة أيضاً بين الذهب والفضة وبين الغنم .

أما بين الغنم والإبل فقد وجدنا أن البدنة عن سبع شياه في الهدي ، ونصاب الإبل خمسة وتضربها في سبع فيساوي خمسة وثلاثي ، ولو جعلت ستاً لكانت تعادل اثنين وأربعين فأخذنا بالأقل احتياطاً لحق المسكين ، فكان بين نصاب الإبل ونصاب الغنم نسبة مطردة . وكذلك نصاب الغنم ، ونصاب النقدين نسبة مطردة . فظهرت الدقة واطراد النسبة في الأنصباء .

ما يجوز أخذه وما لا يجوز أخذه في الزكاة

اتفقوا على أنه لا تؤخذ الذكور في الزكاة اللهم إلاّ ابن لبون لمن لم تكن عنده بنت مخاض .

واختلف فيما لو كان النصاب كله ذكوراً ، والواقع أن هذا نادر ، ولكن اتفقوا على أنه لا تؤخذ السخال مع وجوب الاعتداد بها على صاحبها .

(212/782)

كما جاء عن عمر رضي الله عنه : اعتد عليهم بالسخلة يأتي بها الراعي ، ولا تأخذها منهم ، ولا يجوز أخذ فحل الإبل ولا تيس الغنم ولا الربى ، ولا الحلوبة . لما في ذلك من المضرة على صاحب المال .

كما لا تؤخذ السخلة ولا العجفاء لما فيه من مضرة المسكين ، والأصل في ذلك ما رواه مالك رحمه الله في الموطأ ، قال : اعتد عليهم بالسخلة يحملها اراعي ، ولا تأخذها ولا تأخذ الأكولة ولا الربى ، ولا الماخض ، ولا فحل الغنم ، وتأخذ الجذعة والثنية ، وذلك عدل بين غذاء الغنم وخيارها ، وغذاء الغنم صغارها وخيارها كبارها وأسمنها فهي عدل أي وسط .

وهنا تتحتم كلمة ، يعتبر كل نظام مالي في العالم نظاماً مادياً بحتاً يقوم على مباني الأرقام والإحصاء ، فهو جاف في شكله ، كالجسم بدون روح إلا نظام الزكاة ، فهو نظام حي له روحه وعاطفته .

ففي الوقت الذي يلزم الغني بدفع قسط للفقير ، يحظر على العامل أن يأخذ فوق ما وجب ، أو أحسن ما وجد .

كما قال صلى الله عليه وسلم : " وإياكم وكرائم الأموال "

وفي الوقت الذي يدفع الغني فيه جزءاً من ماله يستشعر أنه يدفعه لوجه الله وينتظر أجره جل وعلا ، فأصحبت الزكاة بين عامل متحفظ ، وبين مالك متطوع عامل يخشى قوله صلى الله عليه وسلم : " واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " ، ومالك يرجو في الحسنة عشرا أمثالها وسبعمائة ، وزيادة مضاعفة .

(213/782)

وقد وقعت قضية مذهلة لم يشهد نظام مالي في العالم مثلها ، وهي أنه : ذهب عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم للصدقة فمر برجل في قرية قريبة من المدينة بصاحب إبل فحسبها . فقال لصاحبها : أخرج بنت لبون . فقال صاحب الإبل : كيف أخرخج بنت لبون في الزكاة ، وهي لا ظهر يركب ولا ضرع يحلب ، ولكن هذه ناقة كوماء ، فخذها في سبيل الله . فقال العامل : وكيف آخذ شيئاً لم يجب عليك ؟ فتلاحيا معاً ، العامل وصاحب المال وأخذا ، قال له العامل : إن كنت ولا بد مصرّاً فها هو رسول الله صلى الله

عليه وسلم منك قريب بالمدينة : اذهب بها إليه فإن قبلها منك أخذتها ، فذهب بها ، فقال له صلى الله عليه وسلم : " أعن طيب نفس " ؟ قال نعم يا رسول الله . فأمر العامل بأخذها ، فدعا له صلى الله عليه وسلم بالبركة فعاش حتى عهد معاوية . فكانت زكاة إبله هذه هي روح الزكاة في الإسلام لا ما يفعله أصحاب الأموال في النظم الأخرى .

أما نظام الضرائب حيث يتهربون ، ويقللون ويتخذون دفاتر متعددة بعضها لمصلحة الضرائب يقلل فيها دخله كسبه لتخف الضريبة عليها ، لأنه يراها مغرماً كالجزية ، وبعضها لنفسه ليعرف حقيقة ماله .

أما الزكاة فإن مالكها يقدم زكاتها لوجه الله ليطهر ماله لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] .

وكما قال صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم ليتصدق بالصدقة وإنها لتقع أول ما تقع في كف الرَّحمن فينميها له كما ينمي أحدكم فلوه "

- أي ولد فرسه - " حتى تكون مثل جبل أُحد "

وكما قال صلى الله عليه وسلم : " ما نقصت صدقة من مال "

زكاة الفطر

إن أهم مباحث زكاة الفطر هي الآتي :

أولاً : حكمها صدر تشريعها .

ثانياً : على من تكون .

ثالثاً : مم تكون .

رابعاً : كم تكون .

خامساً : متى تكون .

سادساً : هل تجزئ فيها القيمة أم لا ؟

وكذلك القيمة في غيرها من الزكوات .

(214/782)

أم حكمها فهي فرض عين عند أحمد والشافعين وعند أبي حنيفة هي واجب على اصطلاحه ، أي ما وجب بالسنة . د

وعند المالكية واجبة ، وقيل : سنة .

قال في مختصر خليل بن إسحاق : يجب بالسنة صاع . إلخ .

والسبب في اختلافهم هذا هل هي داخلة في عموم ﴿ وَآتُواْ الزكاة ﴾ [البقرة : 43] أي شرعت بأصل مشروعية الزكاة في الكتاب والسنة أم أنها شرعت بنص مستقل عنها .

فمن قال بفرضيتها قال : إنها داخلة في عموم إيجاب الزكاة ، ومن قال بوجوبها ، فهذا

اصطلاح للأحناف . ولا يختلف الأمر في نتيجة التكليف إلا أن عندهم لا يكفر بجحودها .

وقال المالكية : يجب بالسنة صاع من بر إلخ . أي أن وجوبها بالسنة لا بالكتاب .

وعندهم : لا يقاتل أهل بلد على منعها ، ويقتل من جحد مشروعيتها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الأحناف .

ولكن في عبارة مالك في الموطأ إطلاق الوجوب أنه قال : أحسن ما سمعت فيها يجب على الرجل من زكاة الفطر أن الرجل يؤدي ذلك عن كل من يضمن نفقته . إلخ .

ومن أسباب الخلاف بين الأئمة رحمهم الله نصوص السنة منها قولهم : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير . الحديث .

فلفظة فرض : أخذ منها من قال بالفرضية ، وأخذ منها الآخرون ، بمعنى قدر ، لأن الفرض القدر والقطع .

وحديث قيس بن سعد بن عبادة عند النسائي قال :

" أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله " .

فمن قال بالوجوب والفرض . قال : الأمر للأول للوجوب ، وفرضية زكاة المال شملتها بعمومها . فلم يحتج معها لتجديد أمر ولم تنسخ فنهى عنها ، وبقيت على الوجوب . الأول وحديث : " فرض رسول صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، وهمن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات " فمن لم يقل بفرضيتها قال : إنها طهرة للصائم وطعمة للمساكين ، فهي لعلة مربوطة بها وتفوت بفوات وقتها ، ولو كانت فرضاً لما فاتت بفوات الوقت .

وأجاب الآخرون بأن ذلك على سبيل الحث على المابدرة لأدائها ، ولا مانع من أن تكون فرضاً وأن تكون طهرة .

ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ [التوبة : 103] ، فهي فريضة وهي طهرة .

والراجح من ذلك كله أنها فرض للفظ الحديث : " فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من بر " لأن لفظ فرض إن كان ابتداء فهو للوجوب وإن كان بمعنى قدر ، فيكون الوجوب بعموم آيات الزكاة ، وهو أقوى .

وحديث خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بصدقة الفطر صاعاً من تمر الحديث رواه أبو داود . والأمر للوجوب ولا صارف له هنا .

وقد قال النووي : إن القول بالوجوب هو قول جمهور العلماء ، وهذا هو القول الذي تبرأ به الذمة ويخرج به العبد من العهدة ، والله تعالى أعلم .

أما مم تكون : فالأصل في ذلك أثر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ورواه مالك في الموطأ عنه .

قال : كنا نخرج صاعاً من طعام أو صاعاً من أقط أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من زبيب .

وجاء لفظ السلت ، وجاء لفظ الدقيق وجاء لفظ السويق . فوقف قوم عند المنصوص عليه فقط وهم الظاهرية . ونظر الجمهور إلى عموم الطعام والغرض من مشروعيتها على خلاف في التفصيل عند الأئمة رحمهم الله كالآتي :

(216/782)

أولاً : عند الشافعية يجوز إخراجها من كل قوت لأثر أبي سعيد ، وفيه لفظ الطعام .

ثانياً : من غالب قوت المكلف بها ، لأنها الفضل عن قوته .

ثالثاً : من غالب قوت البلد ، لأنها حق يجب في الذمة تعلق بالطعام كالكفارة .

وقال النووي : تجوز من كل حب معشر ، وفي الأقط خلاف عن الشافعي والمالكية .

روى مالك في الموطأ حديث أبي سعيد المتقدم . وقال الباجي في شرحه : تخرج من القوت ، ونقل عن مالك في المختصر : يؤديها من كل ما تجب فيه الزكاة إذا كان ذلك من قوته . وهو مثل قول النووي من كل حب معشر . وناقش الباجي مسألة إجزائها من الأرز والذرة والدخن . فقال : لا تجوز منها عند أشهب ويجوز عند مالك . وناقش القطاني ، الحمص ، والترمس ، والجلبان ، فقال مالك : يجوزها إذا كانت قوته ، وابن حبيب : لا يجوزها لأنها ليست من المنصوص .

واتفق مذهب المالكية أن المطعوم الذي يضاف إلى غيره كالأبازير : كزبرة وكمون ونحوه أنها لا تجزئ ، الحنابلة قال في المغني : من كل حبة وتمرة تقتات .

وقال في الشرح : أي عند عدم الأجناس المنصوص عليها ، فيجزئ كل مقتات من الحبوب والثمار .

قال : وظاهر هذا أنه لا يجزئه المقتات من غيرها كاللحم واللبن ، وعند انعدام هذه أيضاً يعطي ما قام مقام الأجناس المنصوم عليها .

وعن ابن حامد عندهم : حتى لحم الحيتان والأنعام ، ولا يردون إلى أقرب قوت الأمصار ، ويجزئ الأقط لأهل البادية إن كان قوتهم . وعندهم من قدر على المنصوص عليه فأخرج غيره لم يجزه .

الأحناف : تجوز من البر والتمر والشعير والزبيب والسويف والدقيق . ومن الخبز مع

مراعاة القيمة ، وتجوز القيمة عندهم عوضاً عن الجميع مع الاختلاف عندهم في مقدار الواجب من هذه الأصناف بين الصاع أو نصف الصاع على ما يأتي إن شاء الله .

وقد ناقشهم ابن قدامة في المغني عند قوله :

(217/782)

ومن أعطى القيمة لم تجزئه ، ونقل عن أحمد أخاف ألا تجزئه خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا العرض نجد الأئمة رحمهم الله اتفقوا على المنصوص عليه في أثر أبي سعيد ، وزاد بعضهم من غير المنصوص عليه غير المنصوص :

إما بعموم لفظ الطعام ، وإن كان يراد به عرافاً القمح ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ وهو العرف اللغوي .

وإما بعموم مدلول المعنى العام ، والخلاف في الأقط . والنص يقضى به .

وانفرد الأحناف بالقول بالقيمة وبالنظر إلى المعنى العام لمعنى الزكاة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم " طعمة للمسكين وطهرة للصائم "

وقوله : اغنوهم بها عن السؤال . لوجدنا إشارة إلى جواز إخراجها من كل ما هو طعمة للمساكين ولا نحده بحد أو نقيده بصنف ، فإلحاق غير المنصوص بالمنصوص بجامع العلة

متجه ، أما القيمة ، فقد ناقش مسألتها صاحب فتح القدير شرح الهداية في باب زكاة الأموال ، وعمدة أدلتهم الآتي .

أولاً : بين الجذعة والمسنة في الإبل بشاتين .

ثانياً : قول معاذ لأهل اليمن : " ائتوني بخميس أو لبيس مكان الذرة والشعير ؟ أهون عليكم ، وخير لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " رواه البخاري .

ثالثاً : رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم ناقة حسنة في إبل الصدقة ، فقال " ما هذه " ؟ قال صاحب الصدقة : إني ارتجعتها ببعيرين من حواشي الإبل ؟ . قال " نعم "

رابعاً : مثلها مثل الجزية يؤخذ فيها قدر الواجب كام تؤخذ عينه . والجواب عن هذا كله كالآتي :

(218/782)

أما التعويض بين الجذعة والمسنة أو الحقة إلى آخره في الإبل بشاتين أو عشرين درهماً ، وهو المنصوص في حديث أنس في كتاب الأنصباء المتقدم ، ونصه : ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده ، وعنده حقة ، فإنه تقبل منه الحقة ، ويجعل معها شاتين أو عشرين درهماً ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده ، وعنده الجذعة ، فإنها

تقبل منه ويعطيع المصدق عشرين درهماً أو شاتين ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون فإناه تقبل منه ابنة لبون ويعطي شاتين أو عشرين درهماً . إلى آخر الحديث .

فليس في هذا دليل على قبول القيمة في زكاة الفطر . لأن نص الحديث فمن وجبت عليه سن معينة وليست عنده ، وعنده أعلى أو أنزل منها فللعدالة بين المالك والمسكين جعل الفرق لعدم الحيف ، ولم يخرج عن الأصل وليس فيه أخذ القيمة مستقلة ، بل فيه أخذ الموجود ثم جبر الناقص .

فلو كانت القيمة بذاتها وحدها تجزئ لصرح بها صلى الله عليه وسلم .

ولا يجوز هذا العمل إلا عند افتقاد المطلوب ، والأصناف المطلوبة في زكاة الفطر إذا عدمت أمكن الانتقال إلى الموجود مما هو من جنسه لا إلى القيمة ، وهذا واضح .

وقال ابن حجر رحمه الله في الفتح : لو كانت القيمة مقصودة لاختلفت حسب الزمان والمكان ، ولكنه تقدير شرعي .

أما قول معاذ لأهل اليمن : " ائتوني بخميس أو لبيس مكان الذرة والشعير " . فقد ناقشه ابن حجر في الفتح من حيث السند والمعنى . ولكن السند ثابت ، أما المعنى ، فقيل : إنه في الجزية .

ورد هذا بأن فيه مكان الذرة والشعير ، والجزية ليست منها .

وقيل : إنه بعد أن يستلم الزكاة الواجبة من أجناسها يستبدلها من باب البيع والمعارضة عملاً بما في المصلحة للطرفين .

وقيل : إنه اجتهاد منه رضي الله عنه ، ولكنه اجتهاد أعرفهم بالحلال والحرام إلى غير ذلك .

(219/782)

والصحيح الثاني : إنه تصرف بعد الاستلام وبلوغها محلها ولا سيما مع نقلها إلى المدينة بخلاف زكاة الفطر فليست تنقل ابتداء ، ولأن مهمة زكاة المال أعم من مهمة زكاة الفطر ، ففيها النقدان والحيوان .

أما زكاة الفطر فطعمة للمسكين في يوم الفطر فلا تقاس عليها .

أما الناقة الحسنة التي رآها صلى الله عليه وسلم ، وأنها بدل من بعيرين ، فهو من جنس الاستبدال بالجنس عملاً للمصلحة لم تخرج عن جنس الواجب .

وأما الجزية يؤخذ منها قدر الواجب فلا دليل فيه ، إذ زكاة الفطر فيها جانب تعبد وارتباط بركن في الإسلام .

وأما الجزية فهي عقوبة على أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ، فأيما أخذ منهم فهو واف

بالغرض ، فلم يبق للقائلين بالقيمة في زكاة الفطر مستند صالح فضلاً عن عدم النص عليها .

وختاماً : إن القول بالقيمة فيه مخالفة للأصول من جهتين :

الجهة الأولى : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر تلك الأصناف لم يذكر معها القيمة ولو كانت جائزة لذكرها مع ما ذكر ، كما ذكر العوض في زكاة الإبل ، وهو صلى الله عليه وسلم أشفق وأرحم بالمسكين من كل إنسان .

الجهة الثانية : وهي القاعدة العامة ، أنه لا ينتقل إلى البدل إلا عند فقد المبدل عنه ، وأن الفرع إذا كان يعود على الأصل بالبطلان فهو باطل .

كما رد ابن دقيق العيد ت على الحنابلة قولهم : إن الاشنان يجزئ عن التراب في الولوغ . أي لأنه ليس من جنسه ويسقط العمل به .

وكذلك لو أن كل الناس أخذوا بإخراج القيمة لتعطل العمل بالأجناس المنصوصة ، فكأن الفرع الذي هو القيمة سيعود على الأصل الذي هو الطعام الإبطال ، فيبطل .

ومثل ما يقوله بعض الناس اليوم في الهدي بمنى مثلاً بمثل ، علماً بأن الأحناف لا يجيزون القيمة في الهدي ، لأن الهدي فيه جانب تعبد ، وهو النسك .

ويمكن أن يقال لهم أيضاً : إن زكاة الفطر فيها جانب تعبد طهرة للصائم وطعمة للمساكين ، كما أن عملية شرائها ومكيلتها وتقديمها فيه إشعار بهذه العبادة .

أما تقديمها نقداً فلا يكون فيها فرق عن أي صدقة من الصدقات ، من حيث الإحساس بالواجب والشعور بالإطعام .

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة ، لأن القول بالقيمة فيها جزء الناس على ما هو أعظم ، وهو القول بالقيمة في الهدي وهو ما لم يقله أحد على الإطلاق حتى ولا الأحناف .

بيان القدر الواجب في زكاة الفطر

اتفق الجميع على أن الواجب في زكاة الفطر على كل شخص عن نفسه ، إنما هو صاع بصاع النَّبي صلى الله عليه وسلم من جميع الأصناف المتقدم ذكرها .

وخالف أبو حنيفة في القمح ، فقال : نصف الصاع فقط منها يكفي . وسيأتي بيان الراجح في ذلك إن شاء الله .

ثم اختلفوا بعد ذلك في مقدار الصاع الواجب من حيث الوزن . فقال الجمهور : هو خمسة أرطال وثلث .

وقال أبو حنيفة : هو ثمانية أرطال ، وخالفه أبو يوسف ، ووافق الجمهور .

ما مقدار الصاع ، فهو في العرف الكيل ، وهو أربع حفنات بكفي رجل معتدل الكفين ، ولتفاوت الناس في ذلك عمد العلماء إلى بيان مقداره بالوزن .

وقد نبه النووي أن المقدار بالوزن تقريبي ، لأن المكيلات تختلف في الوزن ثقلاً وخفة ،

باختلاف أجناسها كالعدس والشعير مثلاً ، وما كان عرفه الكيل لا يمكن ضبطه بالوزن ، ولكنه على سبيل التقريب .

ولهذا المعنى قال صاحب المغني : إن من أخرج الزكاة بالوزن عليه أن يزيد ابالقدر الذي يعلم أنه يساوي الكيل ولا سيما إذا كان الموزون ثقيلاً .

ونقل عن أحمد أن من أخرج وزن الثقيل من الخفيف يكون قد أخرج الواجب بالتأكيد .

أقوال العلماء في وزن الصاع

قال الجمهور : هو خمسة أرضال وثلث الرطل بالعراقي .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : هو ثمانية أرطال ، وخالفه أبو يوسف كما تقدم ، وسبب الخلاف هو أن أبا حنيفة أخذ بقول أنس : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ بمد " ، وهو رطلان ، ومعلوم أن الصاع أربعة أمداد ، فعليه يكون ثمانية أرطال .

(221/782)

ودليل الجمهور : هو أن الأصل في الكيل هو عرف المدينة ، كما أن الأصل في الوزن هو عرف مكة ، وعرف المدينة في صاع النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه خمسة أرطال وثلث .

كما جاء عن أحمد رحمه الله قال : أخذت الصاع من أبي النضر .

وقال أبو النضر : أخذته عن أبي ذؤيب ، وقال : هذا صاع النَّبي صلى الله عليه وسلم الذي يعرف بالمدينة .

قال أبو عبد الله : فأخذنا العدس فعبرنا به ، وهو أصلح ما وقفنا عليه يكال به ، لأنه لا يتجافى عن موضعه ، فكلنا به ، ثم وزناه ، فإذا هو خمسة أرطال وثلث ، وقال : هذا أصلح ما وقفنا عليه ، وما تبين لنا من صاع النَّبي صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الصاع خمسة أرطال وثلثاً من البر والعدس وهما أثقل الحبوب ، فما عداهما من أجناس الفطرة أخف منهما فإذا أخرج منها خمسة أرطال وثلث فهي أكثر من صاع .

وقال النووي : نقل الحافظ عبد الحق في كتاب الأحكام عن أبي محمد بن علي بن حزم أنه قال : وجدنا أهل المدينة لا يختلف منهم اثنان في أن مد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يؤدي به الصدقات ليس بأكثر من رطل ونصف ولا دون رطل وربع .

وقال بعضهم : هو رطل وثلث ، وقال : ليس هذا اختلافاً ، ولكنه على حسب رزنه بالراء أي رزانته ، وثقله من البر والتمر والشعير قال : وصاع ابن أبي ذؤيب خمسة أرطال وثلث وهو صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أدلة الجمهور وسبب رجوع أبي يوسف عن قول أبي حنيفة ما جاء في المغني وغيره أن أبا يوسف لما قدم المدينة وسألهم عن الصاع فقالوا : خمسة أرطال وثلث ، فطالبهم بالحجة فقالوا : غداص ، فجاء من الغد سبعون شيخاً كل واحد منهم أخذ صاعاً تحت ردائه ،

فقال : صاعي ورثته عن أبي وورثه أبي عن جدي ، حتى انتهوا به إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ أبو يوسف يقارناه فوجدها كلها سواء ، فأخذوا واحداً منها وعايره بالماش وهو العدس غير المدشوش ، فكان خمسة أرطال وثلثاً ، فرجع إلى قول أهل المدينة .

(222/782)

وفي تلك القسة أنه رجع إلى العراق فقال لهم : أتيتكم بعلم جديد الصاع خمسة أرطال وثلث فقالوا له : خالفت شيخ القوم فقال : وجدت أمراً لم أجد له مدفعاً .

الأول : أنه مائة وثلاثون درهماً بدراهم الإسلام .

والثاني : أنه مائة وثمانية وعشرون .

والثالث : أنه مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسباع درهم وهي تسعون مثقالاً .

وقال في المغني : وقد زادوه مثقالاً فصار واحداً وتسعين مثقالاً ، وكمل به مائة وثلاثون درهماً ، وقصدوا بهذه الزيادة إزالة كسر الدرهم .

ثم قال : والعمل الأول .

أما بالنسبة لبقية الأرطال في الأمصار الأخرى ، فكالآتي نقلاً من كشاف القناع :

الرطل البعلي تسعمائة درهم .

والقدسي ثمانمائة .

والحلبي سبعمائة وعشرون .

والدمشقي ستمائة .

والمصري مائة وأربعة وأربعون . وكل رطل اثنا عشر أوقية في سائر البلاد ، مقسوم عليها الدراهم .

وعليه فالصاع يساوي ستمائة وخمسة وثمانين وخمسة أسبع الدرهم . وأربعمائة وثمانين مثقالاً .

وعليه أيضاً يكون الصاع بالأرطال الأخرى . هو المصري أربعة أرطال وتِسع أواق وسُبع أوقية ، وبالدمشقي رطل وخمسة أسباع أوقية . وبالحلبي أحد عشر رطلاً وثلاثة أسباع أوقية ، بوالقدسي عشر أواق وسُبعا أوقية .

وإذا كانت موازين العالم اليوم قد تحلوت إلى موازين فرنسية ، وهو بالكيلوا غرام ، والكيلو ألف جرام ، فلزم بيان النسبة بالجرام ، وهي أن :

المكيلات تتفاوت ثقلاً وكثافة ، فأخذت الصاع الذي عندي وعايرته أولاً على صاع آخر قديماً فوجدت أمراً ملتفتاً للنظر عند المقارنة ، وهو أن الصاع الذي عندي يزيد عن الصاع الآخر قدر ملء الكف ، فنظرت فإذا القدر الذي فوق فتحة الصاعين مختلفة ، لأن أحد الصاعين فتحته أوسع .

فكان الجزء المعلى فوق فتحته يشكل مثلثاً قاعدته أطول من قاعدة المثلث فوق الصاع الآخر فعايرتهما مرة أخرى على حد الفتحة فقط بدون زيادة فكانا سواء . فعايرتهما بالماء حيث أن الماء لا يختلف وزنه غالباً ما دام صالحاً للشرب وليس مالحاً ، وأنه لا يسمح بوجود قدر زائد فوق الحافة ، فكان زن الصاع بعد هذا التأكيد هو بالعدس المجروش 2 . 600 كيلوين وستمائة جرام .

وبالماء 3 . 100 ثلاثة كيلوات ومائة جرام .

وأرجوا أن يكون هذا العمل كافياً لبيان الوزن التقريبي للصاع النبوي في الزكاة .

زكاة الورق المتداول

من المعلوم أن التعامل بالورق بدلاً عن الذهب والفضة أمر قد حدث بعد عصور الأئمة الأربعة وعصور تدوين الفقه الإسلامي ، وما انتشرت إلا في القرن الثامن عشر ميلادياً فقط ، ولهذا لم يكن لأحد الأئمة رحمهم الله رأي فيها ، ومنذ أن وجدت وعلماء المسلمين مختلفون في تقييمها وفي تحقيق ماهيتها ما بين كونها سنداتُ عن ذهب أو فضة أو عروض تجارة أو نقد بذاتها .

والخلاف في ذلك مشهور ، وإن كان الذي يظهر والله تعالى أعلم : أنها وثائق ضمان من السلطان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إبداء وجهة نظره فيها في الربا ، وهل يباع بها الذهب والفضة نسيئة أم لا ؟

ومهما يكن من نظريات في ماهيتها ، فإنها باتفاق الجميع تعتبر مالاً ، وهي داخلة في عموم قوله تعالى : ﴿ وفِي أَمْوَالِهِمْ ﴾ [الذاريات : 19] لأنها أصبحت ثمن المبيعات وعوض السلع .

فعلية تكون الزكاة فيها واجبة . والنصاب بالنسبة إليها يعتبر بما يُشترى بها من ذهب وفضة في أي عملة كانت هي .

ففي السعودية مثلاً ينظركم يُشترى بها عشرون مثقالاً ذهباً أو مائتا درهم فضة ، فيعتبر هذا القدر هو النصاب ، وفيه الزكاة وهو ربع العشر سواء بسواء .

(224/782)

وهكذا مثل الاسترليني ، والروبية والدولار ، لأن كل عملة من ذلك وثيقة ضمان من السطان الذي أصدرها أي الدولة التي أصدرتها . سواء قيل إن الزكاة فيما ضمنته تلك

الوثيقة ، أو فيها بعينها ، أو في قيمتها كعرض ، فهي لن تخرج بحال من الأحوال عن دائرة التمول والاستبدال ، وإن تحصيل الفقير لشيء منها أياً كانت فإنه بها سيحصل على مطلوبه من مأكل وملبس وما شاء من مصالح وفق ما يحصل عليه بعين الذهب ولافضة .

وفي هذا رد على من يقول . لا زكاة فيها ، لأنها ليست بنقد ذهب ولا فضة ، ولا يخفى أن إسقاط الزكاة عنها إسقاط للزكاة من أغلبية العالم ، إن لم يكن من جميعه .

تنبيه

سبق أن سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في موضع زكاة العروف في قول المالكية :

يشترط أن ينض في يد التاجر المدير ولو درهماً أثناء الحول وإلا لما وجبت عليه زكاة في عروض تجارته .

فقال رحمة الله تعالى علينا وعليه . لو كان مالك رحمه الله موجوداً اليوم لم يقل ذلك ، لأن العالم اليوم كله لا يكاد يعرف إلا هذه الأوراق ، وقد لا ينص في يده درهم واحد فضة .

ويترتب على ذلك إسقاط الزكاة عن عروض التجارة وهي غالب أموال الناس اليوم .

فكذلك يقال لمن لا يرى الزكاة في الأوراق النقدية أنه يترتب عليه باطل خطير ، وهو تعطيل ركن الزكاة وحرمان المسكين من حقه المعلوم في أموال الأغنياء ، وما ترتب عليه باطل ، فهو باطل .

ولعلنا بهذا العرض الموجز ، نكون قد أوردنا عجالة ما بقي من مبحث الزكاة ، وإن لم يكن على سبيل التفصيل المعهود من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وفقد قدمنا أنه لا يُجارى في تفصيله ، وأن تتبع الجزئيات في هذا المبحث سيطيل الكتابة ، وهو بحمد الله مبسوط في كتب الفقه ، وإنما قصدنا بيان أهم المسائل ، وبيان ما هو الراجح فيما اختلف فيه ، وبالله تعالى التوفيق .

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26)

(225/782)

يوم الدين هو يوم الحساب . كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الفاتحة .

وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27)

أي خائفون : كما بينه تعالى بقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وقوله : ﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 26 - 27] .

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] ، وما بعدها ، فوي سورة النساء ، وبين أن كل مبتغ وراء الزوجة وملك الميمين فهو داخل تحت قوله : ﴿ فأولئك هُمُ العادون ﴾ [المؤمنون : 7] ، وخاصة من قال : بنكاح المتعة . لأن المستمتع بها ليست زوجة وليست أمة مملوكة .

تنبيه

والجدير بالذكر أنه لم يبف فمن يقول بنكاح المتعة كمذهب لطائف ما ، إلا الشيعة بصرف النظر عمن خالف الإجماع من غيرها ، ولكن الشيعة أنفسهم شبه متناقضين في كتبهم ، إذ ينص الحللي وهو من أئمتهم ، في باب النكاح : أن للحر وللعبد على السواء أن ينكح نكاحاً زؤقتاً ، وهو نكاح المتعة بأي عدد شاء من النساء وبدون حد ، فجعل هذا العقد كملك اليمين ، والحال أن المعقود عليها حرة ، وهذا متناقض .

وفي كتاب الطلاق ، قال : إن المطلقة ثلاثاً لا يحلها لزوجها الأول إلا أن تنكح زوجاً غيره في نكاح دائم وليس مؤقتاً .

(226/782)

وهنا يقال لهم : إما أن تعتدُّوا بنكاحها الثاني المؤقت فيلزم أن يحلها للأول لأنه تعالى قال : ﴿ حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ [البقرة : 230] فإن اعتبرتموه نكاحاً لزم إحلالها به للزوج الأول . وإن لم تعتبروه نكاحاً لزمكم القول ببطلانه وهو المطلوب .

وبهذا يظهر أن مبتغى وراء ذلك ، أي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم هو العادون .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في أول سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

وفي المسألة السادسة من مسائل مبحث : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ [الأنبياء : 78] .

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33)

قرئ بشهاداتهم بالجمع وقرئ بشهاداتهم بالإفراد ، فقيل : إن الإفراد يؤدي معنى الجمع للمصدر كما في قوله : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] . فأفرد في الصوت مراداً به الأصوات .

وقيل : الإفراد لشهادة التوحيد مقيمون عليها . والجمع لتنوع الشهادات بحسب متعقلها ، ولا تعارض بين الأمرين فما يشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أي داموا على ذلك حتى ماتوا عليه .

وبدل للثاني عمومات آية الشهادة المتنوعة في البيع والطلاق والكتابة في الدين وغير ذلك ، والله تعالى أعلم .

وفي هذه الآية عدة مسائل :

المسألة الأولى : أطلق القيام بالشهادة هنا وبين أن قيامهم بها إنما هو لله في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق : 2] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَآءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء : 135] .

(227/782)

المسألة الثانية : قوله ﴿ بِشَهَادَاتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ في معرض المدح ، وإخراجهم من وصف ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [المعارج : 19] يدل بمفهومه أن غير القائمين بشهاداتهم غير خارجين من ذلك الوصف الذميم .

وقد دلت آيات صريحة على هذا المفهوم ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] ، وقوله : ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآثمين ﴾ [المائدة : 106] .

وكذلك في معرض المدح في وصف عباد الرحمن في قوله : ﴿ والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان : 72] .

وفي الحديث من عظم جرم شهادة الزور ، وكان صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس ، فقال : ﴿ ألا وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت ﴾

تنبيه

قوله : ﴿ والذين هُم بِشَهَادَتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ يفيد القيام بالشهادة مطلقاً ، وجاء قوله : ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ [البقرة : 282] فقيد القيام بالشهادة بالدعوة إليها .

وفي الحديث : " خير الشهود من يأتي بالشهادة قبل أن يسألها "

وفي حديث آخر في ذم المبادرة بها ، ويشهدون قبل أن يستشهدوا . وقد جمع العلماء بين الحديثين بأن الأول في حالة عدم معرفة المشهود له بما عنده له من شهادة ، أو يتوقف على شهادته حق شرعي كرضاع وطلاق ونحوه ، والثاني بعكس ذلك .

وقد نص ابن فرحون أن الشهادة في حق الله على قسمين ، قسم تستديم فيه الحرمة كالنكاح والطلاق ، فلا يتركها ، وتركها جرحة في عدالته ، وقسم لا تستديم فيه الحرمة كالزنى والشرب ، فإن تركها أفضل ما لم يدع لأدائها . لحديث هزال في قصة ماعز حيث قال له صلى الله عليه وسلم : " هلا سترته بردائك "

المسألة الثالثة : موطان الشهادة الواردة في القرآن ، والتي يجب القيام فيها ، نسوقها على سبيل الإجمال .

(228/782)

الأول : الإشهاد في البيع في قوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة : 282] .

الثاني : الطلاق ، والرجعة لقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾

[الطلاق : 2] .

الثالث : كتابة الدَّين لقوله تعالى : ﴿ فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ [البقرة : 282] الآية .

الرابع : الوصية عند الموت لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ [المائدة : 106] الآية .

الخامس : دفع مال اليتيم إليه إذ رشد ن قوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾ [النساء : 6] .

السادس : إقامة الحدود لقوله تعالى : ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور :

2] السابع : في السنة عقد النكاح لقوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل ﴾ ، وهذه كلها مواطن هامة تتعلق بحقّ الله وحق العبادة من حفظ للمال والعرض والنسب ، وفي حق الحي والميت واليتيم والكبير ، فهي في شتى مصالح الأمة استوجبت الحث على القيام بها ﴿ والذين هُم بِشَهَادَتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ والتحذير من كتمانها ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ الله ﴾ [البقرة : 140] .

وقوله : ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ [البقرة : 282] .

(229/782)

المسألة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ﴾ [المعارج : 33] كلها صيغ الجمع ، والشهادة قد تكون من فرد ، وقد تكون من اثنين ، وقد تكون من ثلاثة ، وقد تكون من أربعة ، وقد تكون من جماعة .

وجملة ذلك أن الشهادة في الجملة من حيث الشاهد تكون على النحو الآتي : إجمالاً رجل واحد ، ورجل ويمين ، ورجل وامرأتان ، ورجلان ، وثلاثة رجال ، وأربعة ، وطائفة من المؤمنين ، وامرأة ، وامرأتان ، وجماعة الصبيان .

وقد جاءت النصوص بذلك صريحة . أما الواحد ، فقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [يوسف : 26] .

فهو ، وإن كان ملفت النظر إلى القرنية في شق القميص ، إلا أنه شاهد واحد .

وجاء في السنة : شهادة خزيمة رضي الله عنه ، لما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشراء الفرس من الأعرابي ، وجعلها صلى الله عليه وسلم بشهادة رجلين .

وجاءت السنة بثبوت شهادة الطبيب والقائف والخارص ونحوهم .

وجاء في ثبوت رمضان ، فقد قبل صلى الله عليه وسلم شهادة أعرابي ، وقبل شهادة عبد الله بن عمر سواء كان قبولها اكتفاء بها أو احتياطاً لرمضان .

وأما شهادة الرجل الواحد ويمين المدعي ، فلحديث ابن عباس " قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاهد واليمين " وتكلم عليه ابن عبد البر ، وأطال في تصحيحه وتوجيهه .

وعند مالك ومذهب لأحمد شهادة امرأتين ، ويمين المدعي ، وخالفها الجمهور .

وأما شهادة رجل وامرأتين ، فلقوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] وبين تعالى توجيه ذلك بقوله : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ [البقرة : 282] .

وبهذا النص رد الجمهور مذهب مالك ، والمذهب المحكي عن أحمد لأنه لم ينقل إلا أربع نسوة ولم تستقل النسوية بالشهادة .

(230/782)

وأما شهادة الرجلين فلقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُم ﴾ [البقرة : 282] .

وأما ثلاثة رجال ، فلقوله صلى الله عليه وسلم في إثبات الفاقة والإعسار . " حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه ، فيقولون ، لقد أصابت فلانة فاقة " الحديث ، وهو حديث قبيصة عند مسلم وأحمد .

وأما الأربعة ففي إثبات الزنا خاصة ، وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك في أول سورة النور .

وأما الطائفة ففي إقامة الحدود لقوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

وأما شهادة المرأة ففي أحوال النساء خاصة ، كما في حديث عقبة بن الحارث : " جاءت امرأة إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أرضعتهما ، فقال له صلى الله عليه وسلم

" فارقها " ، فقال : كيف أفارقها لقول امرأة ؟ فقال له : "كيف وقد قيل "

؟ وقد وقع الخلاف في قبول شهادتها وحدها ولكن الصحيح ما قدمنا .

وأما المرأتان فعند من لم يقبل شهادة المرأة ، وقيل عند استهلال الصبي ، لأن الغالب حضور أكثر من واحدة .

وأما جماعة الصبيان ففي جناياتهم على بعض ، وقبل أن يتفرقوا ولم يدخل فيهم كبير . وفيه خلاف .

ورجح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعيله العمل بها في مذكرة أصول الفقه ، في مبحث رواية الصغار .

المسألة الخامسة : اتفقوا أنه لا دخل للنساء في الشهادة في الحدود ، وإنما تكون في المال أو ما يؤول إلى المال ، فيما يتعلق بما تحت الثياب من النساء .

وفي الشهادة مباحث عديدة مبسوطة في كتب الفقه وكتب القضاء ، كتبصرة الحكام لابن فرحون وغيره .

(231/782)

وقد بسط ابن القيم الكلام عليها في الطرق الحكمية وابن فرحون في تبصرة الحكام لمن أحب الرجوع إليه ، ولكن مما لا بد منه هو شروط الشاهد المعتبرة ، وكلها تدور على ما تحصل به الطمأنينة إلى الحق المشهود به لأمرين أساسيين هما الضبط ، كما في قوله تعالى في حق النسوة ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ [البقرة : 282] .

والثاني العدالة والصدق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فتبينوا ﴾ [الحجرات : 6] وهنا مبحث مشهور ، وهو : هل الأصل في المسلمين العدالة حتى تظهر جرحه أم العكس ؟

والصحيح الأول .

وقد كان العمل على ذلك إلى أن جاء رجل من العراق لعمر رضي الله عنه فقال له : أدرك الناس لقد تفشت شهادة الزور . فقال عمر : بتزكية الشهود وإثبات عدالتهم .

قد أورد ابن فرحون في مراتب الشهود إحدى عشرة مرتبة وهي :

الأولى : الشاهد المبرز في العدالة العالم بما تصح به الشهادة ، فتجوز شهادته في كل شيء ، وتجريحه ولا يسأل عن كيفية علمه بما شهد به من ذلك كله إذا أبهمه ، ولا يقبل فيه التجريح إلا بالعداوة .

الثانية : المبرز في العدالة غير العالم بما تصح به الشهادة ، فحكمه كالأول ، إلا أنه يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الثالثة : الشاهد المعروف بالعدالة العالم بما تصح به الشهادة ، فتجوز شهادته إلا في ستة مواضع على اختلاف في بعضها ، وهي التزكية ، شهادته لأخيه ولمولاه ولصديقه الملاطف ولشريكه في غير التجارة ، وإذا زاد في شهادته أو نقص فيها ، ويقبل فيها التجريح بالعداوة وغيرها ، ولا يسأل عن كيفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الرابعة : المعروف بالعدالة غير العالم بما تصح به الشهادة ، حكمه كذلك إلا أنه يسأل عن كفية علمه بما شهد به إذا أبهم ذلك .

الخامس : الشاهد المعروف بالعدالة إذا قذف قبل أن يحد فاختلف في قبول شهادته ، وأجازها ابن القاسم ، وهو مذهب مالك .

(232/782)

السادسة : الذي يتوسم فيه العدالة تجوز دون تزكية فيما يقع بين المسافرين في السفر من المعاملات ، وفيما عدا ذلك لا بد من تزكيته ، لأنه هو المعروف بمجهول الحال .

والصحيح أن مثله لا بد من التحري عنه حتى ينكشف أمره .

السابعة : الذي لا يتوسم فيه العدالة ولا الجرحة فلا تجوز شهادته في موضع من المواضع دون تزكية ، إلا أن شهادته تكون شبيهة في بعض الماوضع عند بعض العلماء ، فتوجب

اليمين وتوجب الحميل وتوقيف الشيء على المدعى عليه .

الثامنة : الذي ستوسم فيه الجرحة فلا تجوز شهادته دون تزكية ، ولا تكون شهادته شبهة توجب حكماً .

التاسعة : الشاهد الذي ثبت عليه جرحة قديمة أو يعلمها الحاكم فيه ، فلا تجوز شهادته دون تزكية ولا تقبل فيه التزكية على الإطلاق ، وإنما تقبل ممن علم بجرحته إذا شهد على توبته منها ، ونزوعه منها ، والمحدود في القذف بمنزلته على مذهب مالك ، لأن تزكيته لا تجوز على الإطلاق ، وإنما تجوز بمعرفة تزيده في الخير .

العاشرة : المقيم على الجرحة المشهود بها ، فلا تجوز شهادته ولا تقبل التزكية فيه ، وإن زكى ، وإنما تقبل تزكيته فيما يستقبل إذا تاب .

الحادية عشر : شاهد الزور ، فلا تصح شهادته وإن تاب وحسنت حاله ، وروى أبو زيد عن ابن القاسم : أن شهادته تجوز إذا تاب وعرفت توبته بتزيد حاله في الصلاح .

قال : ولا أعلمه إلا في قول مالك ، فقيل : إن ذلك اختلاف من القول .

وقيل : معنى رواية أبي زيد إذا جاء تائباً مقراً على نفسه بشهادة الزور قبل أن تظهر عليه ، وهو الأظهر والله سبحانه وتعالى اعلم اه .

وقد أوردنا هذه المراتب لأنها شملت أنواع الشهود قوة وضعفاً ، وفيما تقبل شهاداتهم .

تنبيه

وقد قيل في تفريق الشهود : إن هذا في الزنا خاصة ، وقيل : للقاضي أن يفرقهم متى ما رأى ذلك ، وأن أول من فرقهم عليّ رضي الله عنه ، وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تفريق الشهود في قصة سليمان ، وهو كلام في قضية المرأة التي رُميت بالزنا ، واختلف في تحليف الشاهد .

فالجمهور : لا يحلف ، ورجح ابن القيم جوازه فيما تقبل شهادته للضرورة كالمرأة الواحدة ، والكافر في السفر ، ومدار قبول الشهادة على الطمأنينة لصدق الشاهد ، وذلك يدور على أصلين :

الأول : هو الضابط كما في قوله تعالى :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخرى ﴾ [البقرة : 282] .

والثانية : العدالة كما في قوله تعالى ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فتبينوا ﴾ [الحجرات : 6]

والعلم عند الله تعالى .

وللشهادة مباحث عديدة اكتفينا بما أوردنا .

وقد بحث ابن القيم رحمه الله مباحث الشهادة من حيث العدد والموضوع في كتاب الطرق

الحكمية .

تنبيه

للشهادة علاقة باليمين في الحكم ، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم " شاهدان أو يمينه ".

فما هي تلك العلاقة ، وبين هذه العلاقة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] ، وقوله : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] ، وقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : 8] ونحو ذلك من الآيات ، لأنه تعالى : شاهد ومطلع على أحوال العباد لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، فإذا اعوز المدعي شاهداً حلف مع الشاهد كأنه قال : أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي .

(234/782)

وكذلك المدعي عليه إذا عجز المدعي عن البنة كانت الدعو متوجهة ، ومما يشبه ، كما يقول المالكية : فإن المدعى عليه يقول لدى البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به

على ألا ، وهو خير الشاهدين .

تنبيه

ومن هنا يعلم حقيقة قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ من حلف بغير الله فقد أشرك ﴾ أي لأن الحالف يقيم المحلوف به مقام الشهود الذين رأوا أو سمعوا ، والمحلوف إذا كان غائباً لا يرى ولا يسمع ، فإذا حلف به كان قد أعطاه صفات من يرى ويسمع ، والحال أنه بخلاف ذلك ، ومن ناحية أخرى الحالف والمستحلف بالله يعلمان أن الله تعالى قادر على أن ينتقم من صاحب اليمين الغموس ، وغير الله إذا ما حلف به لا يقوى ولا قدر على شيء من ذلك والعلم عند الله تعالى .

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37)

مهطعين : أي مسرعين نافرين ، وعزين جمع عزة ، وهم الجماعة ، أي ما بال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين ، وعليه قول الكميت :

ونحن وجندل باغ تركنا . . . كتائب جندل شتى عزين

وكذلك هنا فهم متفرقون عنه صلى الله عليه وسلم جماعات من كل جهة عن اليمين وعن الشمال . تفرقت بهم الأهواء وأخذتهم الحيرة كقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : 49 – 51] .

ونقل ابن كثير عن أحمد رحمه الله في أهل الأهواء ، فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون في

الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب .

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

(235/782)

أجمل ما يعلمون في ما الموصولة مما ، وقد بينه تعالى في عدة مراحل من تراب أولاً ثم من نطفة . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في أكثر من موضع ، وأصرح نص في ذلك قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المراسلات : 20] وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 5 – 7] أي ماء الرجل وماء المرأة يختلطان معاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُورا إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : 1 – 2] .

وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس لمجرد الإخبار ، لأنهم يعلمون ، والعالم ليس في حاجة إلى إخبار ، ولكن يراد بذلك لازم الخبر ، وهو إفهامهم بأن من خلقهم من هذا الذي يعلمون قادر على إعادتهم وبعثهم ومجازاتهم ، كما في سورة الدهر ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعَا بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] . ثم قال

: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] . ثم بين المصير ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 4 – 5] .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40)

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ .

(236/782)

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ ظاهر النفي ، والحال أنه أقسم بدليل جواب القسم بعده ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب إِنَّا لَقَادِرُونَ على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ [المعارج : 40 – 41] ، وللعلماء في مجيء لا هذه ، كلام كثير ، وقد فصله الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب في سورة البلد ، وسيطبع إن شاء الله في نهاية هذه التتمة .

وقوله : ﴿ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ فهو الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وقد نص على نظيره في سورة الرحمن ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 17 – 18] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ .

بين هنا حالة الخروج من الأجداث وهي القبور ، وهي أنهم يخرجون سراعاص ، وبين في موضع آخر أنهم يخرجون مبعثرين هنا وهناك . في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور ﴾ [العاديات : 9] ، وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة : 6] .

قوله تعالى : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ .

حالة ثانية ، وقد جمع الحالات في سورة اقتربت الساعة في قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 6 – 8] نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

وفي ختام السورة الكريمة لهذا الوصف والوعيد الشديد تأييد للقول بأن سؤالهم في أولها بعذا واقع ، إنما هو استخفاف واستبعاد . فبين لهم تعالى بعد عرض السورة نهاية ما يستقبلون به ليأخذوا حذرهم ويرجعوا إلى ربهم ، فارتبط آخر السورة بأولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ سَأَلَ سَائِلٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق

وَلْه تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾

رَوَى أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ كَانَ أَحَبُّ الصَّلَاةِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا دِيمَ عَلَيْهِ ﴾ وَقَرَأْت : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : " دَائِمُونَ عَلَى مَوَاقِيتِهَا " وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي الْآيَةِ قَالَ : " الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ " .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " الَّذِي يَسْأَلُ ، وَالْمَحْرُومُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ تِجَارَةٌ " وَقَالَ أَبُو قلابة : " الْمَحْرُومُ مَنْ ذَهَبَ مَالُهُ " وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ : ﴿ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَغَنِمَتْ ، فَجَاءَ آخَرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴾ وَعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الْمَحْرُومَ مَنْ حُرِمَ وَصِيَّتَهُ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ مَعْنَى الْمَحْرُومِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِيهِ آخِرُ سُورَةِ سَأَلَ سَائِلٌ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْفَصِيلَةُ فِي اللُّغَةِ عِنْدَهُمْ أَقْرَبُ مِنْ الْقَبِيلَةِ ، وَأَصْلُ الْفَصِيلَةِ الْقِطْعَةُ مِنْ اللَّحْمِ .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الْفَصِيلَةَ مِنْ فَصَلَ ، أَيْ قَطَعَ ، أَيْ مَفْصُولَةٌ كَالْأَكِيلَةِ مِنْ أَكَلَ ، وَالْأَخِيذَةِ مِنْ أَخَذَ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْتَهُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ فَصِيلَةٌ ؛ فَهَذَا حَقِيقَةٌ فِيهِ يَشْهَدُ لَهُ الِاشْتِقَاقُ .

وَأَدْنَى الْفَصِيلَةِ الْأَبَوَانِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ؛ فَهَذَا هُوَ أَدْنَى الْأَدْنَى ، وَلِهَذَا التَّحْقِيقِ تَفَطَّنَ إِمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ وَحَبْرُ الْمِلَّةِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ أَشْهَبُ : سَأَلْت مَالِكًا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ قَالَ : هِيَ أُمُّهُ ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بِالْأَصْلِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : هِيَ عَشِيرَتُهُ ، وَالْعَشِيرَةُ وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا فَصِيلَةً فَإِنَّ الْفَصِيلَةَ الدَّانِيَةَ هِيَ الْأُمُّ ، وَهِيَ أَيْضًا الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ فَذَكَرَ لِلْقَرَابَةِ مَعْنَيَيْنِ ، وَخَتَمَهَا بِالْفَصِيلَةِ الْمُخْتَصَّةِ مِنْهُمْ ، وَهِيَ الْأُمُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ إِذَا حَبَسَ عَلَى فَصِيلَتِهِ أَوْ أَوْصَى لَهَا فَمَنْ رَاعَى الْعُمُومَ حَمَلَهُ عَلَى الْعَشِيرَةِ ، وَمَنْ ادَّعَى الْخُصُوصَ حَمَلَهُ عَلَى الْأُمِّ ، وَالْأُولَى أَكْثَرُ فِي النُّطْقِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَاللَّيْثُ : هِيَ الْمَوَاقِيتُ .

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : هِيَ النَّوَافِلُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ .

فَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ إِنَّهُ النَّفَلُ فَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ فَإِنَّهُ لَا فَرْضَ لِمَنْ لَا نَفْلَ لَهُ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ تُكْمَلُ صَلَاةُ الْفَرِيضَةِ لِلْعَبْدِ مِنْ تَطَوُّعِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﴿ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مُعَاهَدَةً مِنْهُ عَلَى رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مَنْ صَلَّى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قَالَ : هُمْ الَّذِينَ إذَا صَلُّوا لَا يَلْتَفِتُونَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وَلَا خَلْفَ ، وَيَنْظُرُ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ؛ فَإِنَّ الْمُلْتَفِتَ سَاهٍ عَنْ صَلَاتِهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ ، فَكَانَ عَلَيْهَا دَائِمًا وَلَهَا مُرَاعِيًا ؛ وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا ، وَعَلَى مَوَاقِيتِهَا ، عَلَى فَرْضِهَا وَنَفْلِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ وَهِيَ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المعارج

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1)

قوله : ﴿ سَأَلَ ﴾ : قرأ نافع وابنُ عامر بألفٍ مَحْضَةٍ . والباقون بهمزةٍ مُحَقَّقةٍ ، وهي الأصلُ ، وهي اللغةُ الفاشيةُ . ثم لك في " سأل " وجهان أحدُهما : أنْ يكونَ قد ضُمِّنَ معنى دعا ؛ فلذلك تعدَّى بالباء ، كما تقول : دعوت بكذا . والمعنى : دعا داعٍ بعذابٍ . والثاني : أَنْ يكونَ على أصلِه . والباءُ بمعنى عن ، كقوله :

4326 فإن تَسْألوني بالنساء . . . . . .

. . . . . .

" فأسْأل بن خبيرا " ، وقد تقدَّم تحقيقُه . والأولُ أَوْلَى ؛ لأن التجوُّزَ في الفعل أَوْلَى منه في الحرف لقوته .

وأمَّا القراءةُ بالألفِ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها بمعنى قراءةِ الهمزة ، وإنما خُفِّفَتْ بقَلْبِها ألفاً ، وليس بقياسِ تخفيفِ مِثلها ، بل قياسُ تخفيفِها جَعْلُها بينَ بينَ . والباءُ على هذا الوجهِ كما في الوجهِ الذي تقدَّم . الثاني : أنها مِنْ سال يَسال مثلُ خاف يَخاف . وعينُ الكلمةِ واوٌ . قال الزمخشري : " وهي لغةُ قريش يقولون : سِلْتَ تَسالُ ، وهما يتسايلان " . قال الشيخ : " وينبغي أَنْ يُتَثَبَّتَ في قوله : " إنها لغةُ قريشٍ ، لأنَّ ما جاء في القرآنِ من باب السؤالِ هو مهموزٌ ، أو أصلُه الهمزُ ، كقراءةِ مَنْ قرأ " وسَلُوا اللهُ مِنْ فضلِه " [النساء : 32] إذ لا جائزٌ أَنْ يكونَ مِنْ " سال " التي عينُها واوٌ ، إذ كان يكون ذلك " وسَالوا اللهَ " مثلَ " خافوا " ، فيَبْعُدُ أن يجيءَ ذلك كلُّه على لغةِ غيرِ قريشٍ ، وهم الذين نَزَل القرآنُ بلغتِهم إلاَّ يسيراً ، فيه لغةُ غيرِهم . ثم في كلامِ الزمخشريِّ " وهما يتسايَلان " بالياء ، وهو وهمٌ من النسَّاخ ، إنما الصوابُ : يتساوَلان بالواو ، لأنه صرَّحَ أولاً أنه من السُوال يعني بالواو الصريحةِ ، وقد حكى أبو زيدٍ عن العربِ : " هما يتساولان " . الثالث : أنَّها مِنْ السَّيَلان . والمعنى : سالَ وادٍ في جهنم بعذابٍ ، فالعينُ ياءٌ ، ويؤيِّدُه قراءةُ ابن عباس " سالَ سَيْلٌ " . قال الزمخشريُّ : " والسَّيْلُ مصدرٌ في معنى السائلِ كالغَوْر بمعنى الغائر . والمعنى : اندفع عليهم وادي عذابٍ " انتهى . والظاهرُ الوجهُ الأولُ لثبوتِ ذلك لغةً مشهورةً قال :

4327 سالَتْ هُذَيْلٌ رسولَ اللهِ فاحشةً . . . ضَلَّتْ هُذَيلٌ بما سالَتْ ولم تُصِبِ

وقرأ أُبَيٌّ وعبد الله " سال سالٌ " مثلَ " مال " وتخريجُها : أنَّ الأصلَ " سائلٌ " فحُذِفَتْ عينُ الكلمةِ وهي الهمزةُ ، واللامُ محلُّ الإعرابِ وهذا كما قيل : " هذا شاكٌ " في شائِكِ السِّلاح وقد تقدَّم الكلامُ على مادةِ السؤالِ في أول البقرة ، / فعليك باعتباره .

والباءُ تتعلَّق ب " سال " من السَّيَلان تعلُّقَها ب " سال الماءُ بزيدٍ " . وجَعَلَ بعضُهم الباءَ متعلقةً بمصدرٍ دَلَّ عليه فِعْلُ السؤال ، كأنه قيل : ما سؤالُهم ؟ فقيل : سؤالُهم بعذابٍ ، كذا حكاهُ الشيخ عن الإمام فخر الدين ، ولم يَعْتَرِضْه . وهذا عَجَبٌ ؛ فإنَّ قولَه أولاً " إنه متعلِّقٌ بمصدرٍ دَلَّ عليه فِعْلُ السؤال " يُنافي تقديرَه بقولِه : " سؤالُهم بعذاب " ؛ لأنَّ الباءَ في هذا التركيبِ المقدَّرِ تتعلَّق بمحذوفٍ لأنها خبرُ المبتدأ ، لا بالسؤال .

وقال الزمخشري : " وعن قتادةَ : سأل سائلٌ عن عذابِ الله بمَنْ يَنْزِلُ وعلى مَنْ يقعُ ؟ فنَزَلَتْ ، و " سأَل " على هذا الوجهِ مُضَمَّنٌ معنى عُنِيَ واهتمَّ " .

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2)

قوله : ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ يتعلَّقَ ب " سأل " مضمَّناً معنى " دَعا " كما تقدَّم ، أي : دعا لهم بعذابٍ واقع . الثاني : أَنْ يتعلَّقَ ب " واقعٍ " واللامُ للعلةِ ، أي : نازلٌ لأجلِهم . الثالث : أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ثانيةً ل " عذابٍ " ، أي : كائنٍ للكافرين . الرابع : أَنْ يكونَ جواباً للسائلِ ، فيكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو للكافرين . الخامس :

أَنْ تكونَ اللامُ بمعنى على ، أي : واقعٍ على الكافرين ، ويؤيِّده قراءةُ أُبَيّ " على الكافرين " ، وعلى هذا فهي متعلِّقةٌ ب " واقعٍ " لا على الوجهِ الذي تقدَّم قبلَه .

(244/782)

وقال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : بم يتصِلُ قولُه " للكافرين " ؟ قلت : هو على القولِ الأولِ متصلٌ بعذاب صفةً له ، أي : بعذابٍ واقعٍ كائنٍ للكافرين ، أو بالفعل ، أي : دعا للكافرين بعذابٍ واقعٍ ، أو بواقع ، أي : بعذابٍ نازلٍ لأَجْلِهم . وعلى الثاني : هو كلامٌ مبتدأٌ ، جواباً للسائل ، أي : هو للكافرين " انتهى .

قال الشيخ : " وقال الزمشخريُّ : " أو بالفعلِ ، أي : دعا للكافرين ، ثم قال : وعلى الثاني وهو ثاني ما ذَكَرَ في توجيهِه للكافرين قال : هو كلامٌ مبتدأٌ جواباً للسائلِ ، أي : هو للكافرين . وكان قد قَرَّر أنَّ " سَأَلَ " ضُمِّن معنى " دعا " فعُدِّيَ تعديتَه ، كأنه قال : دعا داعٍ بعذابٍ ، مِنْ قولِك : دعا بكذا إذا استدعاه وطَلَبه ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ [الدخان : 55] انتهى . فعلى ما قَرَّره أنه متعلِّقٌ ب " دعا " يعني ب " سأل " ، فكيف يكونُ كلاماً مبتدأ جواباً للسائلِ ، أي : هو للكافرين ؟ هذا لا يَصِحُّ " .

هذا كلامُ الشيخِ برُمَّتِه ، وقد غَلِط على أبي القاسم في فَهْمِه عنه قولَه : " وعلى الثاني إلى

آخره " فمِنْ ثَمَّ جاء التَّخْبيطُ الذي ذكرَه . والزمخشريُّ إنما عنى بالثاني قولَه : " وعن قتادةَ سأل سائلٌ عن عذابِ الله على مَنْ يَنْزِلُ وبمَنْ يقع ، فنزلَتْ ، وسأَلَ على هذا الوجهِ مُضَمَّنٌ معنى عُنِيَ واهتم " فهذا هو الوجهُ الثاني المقابِلُ للوجهِ الأولِ : وهو أنَّ " سأَلَ " مضمَّنٌ معنى " دعا " ، ولا أدري كيف تَخَبَّط على الشيخِ حتى وقع فيما وَقَعَ ، ونَسَبَ الزمخشريَّ إلى الغَلَطِ ، وأنه أخذ قولَ قتادةَ والحسنِ وأفسَده ؟ والترتيبُ الذي رتَّبه الزمخشريُّ في تعلُّقِ اللامِ مِنْ أحسنِ ما يكونُ صناعةً ومعنى .

(245/782)

قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً آخر ل " عذابٍ " ، وأَنْ يكونَ مستأنفاً ، والأولُ أظهرُ ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ " عذاب " لتخصُّصه : إمَّا بالعملِ ، وإمَّا بالصفة ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في " للكافرين " إنْ جَعَلْناه نعتاً ل " عذابٍ " .

مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3)

قوله : ﴿ مِّنَ اللهِ ﴾ : يجوزُ أَنْ يتعلَّق ب " دافعٌ " بمعنى : ليس له دافعٌ مِنْ جهته إذا جاء وقتُه ، وأَنْ يتعلَّقَ ب " واقع " وبه بَدَأَ الزمخشريُّ ، أي : واقعٌ من عندِه . وقال أبو البقاء : " ولم يَمْنَعِ النفيُ من ذلك ؛ لأنَّ " ليس " فعلٌ " ، كأنه استشعرَ أنَّ ما قبلَ النفيِ لا يعملُ فيما

بعدَه ، فأجاب : بأنَّ النفيَ لَمَّا كان فِعْلاً ساغ ذلك .

وقال الشيخ : " والأجودُ أَنْ يكونَ " من الله " متعلقاً ب " واقعٍ " ، و " ليس له دافعٌ " جملةُ اعتراضٍ بين العاملِ ومعمولِه " انتهى . وهذا إنما يأتي على القولِ بأنَّ الجملةَ مستأنفةٌ ، لا صفةٌ ل " عذاب " وهو غيرُ الظاهرِ ، كما تقدَّم لأَخْذِ الكلامِ بعضِه بحُجْزَةِ بعضٍ .

(246/782)

قوله : ﴿ ذِي ﴾ صفةٌ ل " الله " . والعامَّةُ " تَعْرُج " بالتاء " منْ فوقُ . والكسائيُّ بالياءِ مِنْ تحتُ وهما كقراءتَيْ " فناداه الملائكةُ " ، التاءِ ، واسْتَضْعَفَها بعضُهم : من حيث إنَّ مَخْرَجَ الجيمَ بعيدٌ / مِنْ مَخْرَجِ التاءِ . وأُجيب عن ذلك : بأنَّها قريبةٌ من الشينِ ؛ لأنَّ النَّفَس الذي في الشينِ يُقَرِّبُها مِنْ مَخْرَجِ التاءِ ، الجيمُ تُدْغَمُ في الشينِ لما بينهما من التقاربِ في المَخْرَجِ والصفةِ ، كما تقدَّم في ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ [الفتح : 29] فَحُمِل الإدغامُ في التاءِ على الإدغامِ في الشينِ ؛ لِما بينَ الشينِ والتاءِ من التقاربِ . وأُجيب أيضاً : بأنَّ الإدغامَ يكونُ لمجرَّدِ الصفاتِ ، وإنْ لم يتقاربَا في المَخْرَجِ ، والجيمُ تُشارِكُ التاءَ في الاستفالِ والانفتاحِ والشِّدَّةِ . وتقدَّم الكلامُ على المعارجِ في الزخرف .

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

قوله : ﴿ والروح ﴾ : مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ ، إنْ أُريد بالروح جبريلُ عليه السلام ، أَو مَلَكٌ آخرُ مِنْ جنسِهم ، وأُخِّر هنا ، وقُدِّم في قولِه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] لأنَّ المَقَامَ هنا يَقْتَضي تَقَدُّمَ الجمع على الواحدِ من حيث إنه مَقامُ تَخْويفٍ وتهويلٍ . و " وكان مِقْدارُه " صفةٌ لـ " يومَ " ، والجملةُ مِنْ " تَعْرُجُ " مستأنفةٌ .

(247/782)

قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ ﴾ فيه وجهان ، أظهرُهما : تَعلُّقُه بـ " تَعْرُجُ " . والثاني : أنه يتعلَّقُ بـ " دافعٌ " وعلى هذا فالجملةُ مِنْ قولِه " تَعْرُجُ الملائكةُ " معترضةٌ ، والضميرُ في " إليه " الظاهرُ عَوْدُه على الله تعالى . قيل : يعودُ على المكانِ لدلالةِ الحالِ والسياقِ عليه . والضميرُ في " يَرَوْنه " و " نَراه " لليومِ إنْ أُريد به يومُ القيامة . وقيل : للعذاب .

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنَّه متعلِّقٌ بـ " قريباً " ، وهذا إذا كان الضميرُ في " نراه " للعذاب ظاهرٌ . الثاني : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه " واقع " ، أي : يقعُ يومَ يكونُ . الثالث : [أن يتعلَّقَ] بمحذوفٍ مقدَّرٍ بعده ، أي : يومَ يكونُ كان كيتَ وكيتَ . الرابع : أنه بدلٌ من الضميرِ في " نَراه " إذا كان عائداً على يومِ القيامة . الخامس : أنه بدلٌ مِنْ

"في يومٍ" فيمَنْ عَلَّق ب "واقع" . قاله الزمخشريُّ . وإنما قال فيمَنْ عَلَّقَهُ ب "واقع" لأنه إذا عُلِّق ب "تَعْرُج" كما تقدَّم في أحدِ الوجهَيْن استحال أَنْ يُبْدَلَ عنه هذا ؛ لأنَّ عُروجَ الملائكةِ ليس هو في هذا اليومِ الذي تكونُ السماءُ فيه كالمُهْلِ والجبالُ كالعِهْنِ ، ويَشْتَغِلُ كلُّ حميمٍ عن حميمِه . قال الشيخ : "ولا يجوزُ هذا" يعني إبداله مِنْ "في يوم" . قال : "لأنَّ في يوم" وإنْ كان في موضعِ نصبٍ لا يُبْدَلُ منه منصوبٌ ؛ لأنَّ مثلَ هذا ليس بزائدٍ ولا محكومٍ له بحكمِ الزائدِ كـ "رُبَّ" ، وإنما يجوزُ مراعاةُ الموضعِ في حرفِ الجرِّ الزائدِ كقولِه :

4328 أَبَني لُبَيْنَى لَسْتُما بِيَدٍ . . . إلاَّ يَداً ليسَتْ لها عَضُدُ

(248/782)

وكذلك لا يجوزُ "مَرَرْتُ بزيدٍ الخياطَ" على موضع "بزيدٍ" ولا "مَرَرْتُ بزيدٍ وعمراً" ولا "غَضِبْتُ على زيد وجعفراً" ولا "مَرَرْتُ بعمرو أخاك" على مراعاةِ الموضع" . قلت : قد تقدَّم أنَّ قراءةَ ﴿ وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : 4] من هذا البابِ فيمَنْ نصبَ الأرجل فيكُنْ هذا مثلَه ، وقد تقدَّم فلا نُعيده .

ثم قال الشيخ : "فإنْ قلتَ : الحركةُ في "يومَ تكون" حركةُ بناءٍ لا حركةُ إعرابٍ فهو مجرورٌ مثلُ "في يومٍ" قلت : لا يجوزُ بناؤُه على مذهبِ البَصْريين ؛ لأنه أُضيفَ إلى مُعْرَبٍ ، لكنه

يجوزُ على مذهب الكوفيين ، فيتمشَّى كلامُ الزمخشريِّ على مذهبِهم إنْ كان استَحْضَره وقَصَده " . انتهى . قولُه : " إنْ كان استَحْضره " فيه تحامُلٌ على الرجلِ . وأيُّ كبيرِ أَمرٍ في هذا حتى لا يَسْتَحْضِرَ مثلَ هذا ؟ والتبجُّحُ بمثلِ هذا لا يليق ببعضِ الطلبةِ ، فإنها من الخلافِيَّاتِ المشهورة شُهْرَةَ :

قِفا نَبْكِ . . . . . .

. . . . . .

وتقدَّم الكلامُ على المُهْل في الدخان . وأمَّا العِهْنُ فقيل : الصوفُ مطلقاً . وقيل : بقَيْدِ كونِه أحمر . وقيل : بقَيْدِ كونِه مَصْبوغاً . وقيل : بقَيْدِ كونِه مَصْبوغاً ألواناً ، وهذا أَلْيَقُ بالتشبيه ؛ لأنَّ الجبالَ متلوِّنةٌ ، كما قال تعالى : ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ [فاطر : 27] .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9)

(249/782)

قوله : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ ﴾ : قرأ العامَّةُ " يَسْأَلُ " مبنياً للفاعل . والمفعولُ الثاني محذوفٌ فقيل : تقديرُه لا يَسْأَلُه نَصْرَهُ ولا شفاعتَه لِعلْمِه أنَّ ذلك مفقودٌ . وقيل : لا يَسْأله شيئاً مِنْ حَمْلِ أَوْزارِه . وقيل : " حميماً " منصوبٌ على إسقاطِ الخافض ، أي : عن حميمٍ

لشُغْلِهِ عنه . وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وشيبةُ وابنُ كثير في روايةٍ "يُسْأَل" مبنياً للمفعول . فقيل : "حميماً" مفعولٌ ثانٍ ، لا على إسقاطِ حرفٍ ، والمعنى : لا يُسأل إحضارَه . وقيل : بل هو على إسقاطِ "عن" ، أي : عن حميم .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11)

قوله : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ : عُدّي بالتضعيفِ إلى ثانٍ وقام الأول مَقامَ الفاعلِ . وفي محلِّ هذه الجملةِ وجهان ، / أحدُهما : أنَّها في موضعِ الصفةِ لحَميم . والثاني : أنها مستأنفةٌ . قال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : ما موقعُ "يُبَصَّرُونَهم" ؟ قلت : هو كلامٌ مستأنفٌ ، كأنَّه لمَّا قال : لا يَسْأَل حَميمٌ حَميماً قيل : لعلَّه لا يُبَصَّرُه . فقيل : يُبَصَّرُونهم" . ثم قال : "ويجوز أَنْ يكونَ "يُبَصَّرُونهم" صفةً ، أي : حميماً مُبَصَّرين مُعَرِّفين إياهم" انتهى . وإنما جُمِع الضميران في "يُبَصَّرُونهم" وهما للحميمَيْن حَمْلاً على معنى العموم لأنهما نكرتان في سياقِ نَفْي . وقرأ قتادةُ "يُبْصِرُونهم" مبنياً للفاعل مِنْ أَبْصَرَ ، أي : يُبْصِرُ المؤمنُ الكافرَ في النار . وتقدَّمَتْ القراءةُ في "يومئذٍ" فتحاً وجرّاً في هود . والعامَّةُ على إضافة "عذاب" لـ "يَوْمِئذ" ، وأبو حيوةَ بتنوينِ العذاب ، ونَصْبِ "يَوْمئذٍ" على الظرف . وقال الشيخ هنا : "الجمهورُ بكسرِها ، أي : ميم يومِئذ ، والأعرج وأبو حيوة بفتحِها" انتهى . وقد تقدَّم أنَّ الفتح قراءةُ نافعٍ والكسائيِّ .

وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14)

قوله: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾: قال ثعلب: "الفَصيلةُ: الآباء الأَدْنَوْن". وقال أبو عبيدة: "الفَخِذُ". وقيل: عشيرتُه الأقربون. وقد تقدَّم ذِكْر ذلك عند قوله: ﴿ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ ﴾ [الحجرات: 13]. و"تُؤْويه" لم يُبْدِلْه السوسيُّ عن أبي عمرو قالوا: لأنَّه يُؤَدِّي إلى لفظٍ هو أثقلُ منه، والإبدالُ للتخفيفِ. وقرأ الزُّهريُّ "تُؤْوِيْهُ" و"تُنْجِيْهُ" بضمِّ هاءِ الكنايةِ، وهو الأصلُ و"ثم يُنْجيه" عطفٌ على "يَفْتدي" فهو داخِلٌ في حَيِّز "لو" وتقدَّمَ الكلامُ فيها: هل هي مصدريةٌ أم شرطيةٌ في الماضي؟ ومفعولُ "يَوَدُّ" محذوفٌ، أي: يَوَدُّ النجاةَ. وقيل: إنها هنا بمعنى "إنْ"، وليس بشيءٍ. وفاعلُ "يُنْجيه": إمَّا ضميرُ الافتداءِ الدالُّ عليه "يَفْتدي"، أو ضميرُ مَنْ تقدَّمَ ذِكْرُهم، وهو قوله ﴿ وَمَن فِي الأرض ﴾. و"مَنْ [في الأرض]" مجرورٌ عطفاً على "بنيه" وما بعدَه، أي: يَوَدُّ الافتداءَ بـ ﴿ مَن فِي الأرض ﴾ أيضاً. و"جميعاً" إمَّا حالٌ، وإمَّا تأكيدٌ، ووُحِّد باعتبارِ اللفظِ. و"كَلاَّ" رَدْعٌ وزَجْرٌ عن اعتقادِ ذلك.

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15)

قوله : ﴿ إِنَّهَا لظى نَزَّاعَةً ﴾ : في الضميرِ ثلاثةُ أوجُهٍ ، أحدُها : أنه ضميرُ النار ، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لدلالةِ لفظِ " عذاب " عليها . والثاني : أنه ضميرُ القصةِ . الثالث : أنه ضميرٌ مبهمٌ يُتَرْجِمُ عنه الخبرُ ، قاله الزمخشري . وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ . فعلى الأولِ يجوزُ في ﴿ لظى نَزَّاعَةً ﴾ أوجهٌ : أَنْ يكونَ " لَظى " خبرَ " إنَّ " ، أي : إنَّ النارَ لَظى ، و " نَزَّاعةٌ " خبرٌ ثانٍ ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي نَزَّاعةٌ ، أو يكونُ " لَظَى " بدلاً من الضميرِ المنصوبِ ، و " نَزَّاعةٌ " خبرُ إنَّ ، وعلى الثاني يكونُ " لَظى نَزَّاعةٌ " جملةً من مبتدأ وخبرٍ ، في محلِّ الرفعِ خبراً ل " إنَّ " مفسِّرةً لضمير القصة ، وكذا على الوجهِ الثالثِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ " نَزَّاعةٌ " صفةً ل " لَظى " إذا لم تجعَلْها عَلَماً ؛ بل بمعنى اللَّهَبِ ، وإنما أُنِّث النعتُ فقيل : " نَزَّاعةٌ " لأنَّ اللهَبَ بمعنى النار ، قاله الزمخشريُّ وفيه نظرٌ لأنَّ " لظى " ممنوعةٌ من الصَّرْفِ اتفاقاً .

(252/782)

قال الشيخ بعد حكايته الثالثَ عن الزمخشري : " ولا أدري ما هذا المضمرُ الذي تَرْجَمَ عنه الخبرُ ؟ وليس هذا من المواضعِ التي يُفَسِّرُ فيها المفردُ الضميرَ ، ولولا أنه ذَكَرَ بعد هذا "

أو ضمير القصة " لَحَمَلْتُ كلامَه عليه " . قلت : متى جعله ضميراً مُبْهماً لَزِمَ أَنْ يكونَ مفسَّراً بمفرد ، وهو إمَّا " لظى " ، على أَنْ يكونَ " نزاعةٌ " خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، وإمَّا " نزاعةٌ " على أَنْ يكونَ " لظى " بدلاً من الضميرِ ، وهذا أقربُ . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ " لظى نَزَّاعةٌ " مبتدأ وخبراً ، والجملةُ خبرٌ لـ " إنَّ " على أَنْ يكونَ الضميرُ مبهماً لئلا يَتَّحِدَ القولان ، أعني هذا القولَ وقولَ إنها ضميرُ القصة ، ولم يُعْهَدْ ضميرٌ مُفَسَّرٌ بجملةٍ إلاَّ ضميرُ الشأنِ والقصةِ .

وقراءةُ الرفعِ في " نَزَّاعَةٌ " هي قراءةُ العامَّةِ . وقرأ حفص وأبو حيوة والزعفرانيُّ واليزيديُّ وابنُ مقسم " نَزَّاعَةً " بالنصب . وفيها وجهان ، أحدُهما : أَنْ ينتصبَ على الحالِ . وفي صاحبها أوجهٌ ، أحدُها : أنه الضميرُ المُسْتَكِنُّ في " لَظَى " لأَنَّها ، وإنْ كانَتْ عَلَماً ، فهي جاريَةٌ مَجْرَى المشتقات كالحارثِ والعبَّاس ، وذلك لأنها بمعنى التَّلَظِّي " ، وإذا عَمِلَ العَلَمُ الصريحُ والكُنْيَةُ في الظروف فلأَنْ يعملَ العَلَمُ الجاري مَجْرى المشتقاتِ في الأحوالِ أَوْلَى وأَحْرى . ومِنْ مجيء ذلك قولُه :

4330 أنا أبو المِنْهالِ بعضَ الأَحْيانْ . . . ضَمَّنه معنى " أنا المشهورُ في بعض الأحيان " . الثاني : أنه فاعلُ " تَدْعو " وقُدِّمَتْ حالُه عليه ، أي : تدعو/ حالَ كونِها نَزَّاعةً .

ويجوز أَنْ تكونَ هذه الحالُ مؤكِّدةً ، لأنَّ " لظى " هذا شأنُها ، وهو معروفٌ مِنْ أمرِها ، وأَنْ

تكونَ منتقِلَةً ؛ لأنه أمرٌ توقيفيٌّ . الثالث : أنه محذوفٌ هو والعاملُ ، تقديرُه : تتلَظَّى نَزَّاعَةً . ودَلَّ عليه " لَظَى " .

(253/782)

الثاني من الوجهَيْن الأَوَّلَيْن : أَنَّها منصوبةٌ على الاختصاصِ . وعَبَّر عنه الزمخشريُّ بالتَّهْويل ، كما عَبَّر عن وجهِ رَفْعِها على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ ، والتقدير : أعني نَزَّاعةً ، وأخصُّها . وقد مَنَعَ المبّردُ نصبَ " نَزَّاعة " قال : " لأنَّ الحالَ إنما يكونُ فيما يجوزُ أَنْ يكونَ وأَنْ لا يكونَ ، و " لَظى " لا تكونُ إلاَّ نَزَّاعةً ، قاله عند مكي ، ورَدَّ عليه بقولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدِّقاً ﴾ [البقرة : 91] ، ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾ [الأنعام : 126] قال : " فالحقُّ لا يكونُ إلاّ مصدِّقاً ، وصراطُ رَبِّكَ لا يكونُ إلاَّ مُسْتقيماً " . قلت : المبردُ بنى الأمرَ على الحالِ المبيِّنة ، وليس ذلك بلازم ؛ إذ قد وَرَدَتِ الحالُ مؤكِّدةً ، كما أورده مكيٌّ وإنْ كان خلافَ الأصلِ .

واللَّظى في الأصلِ : اللَّهَبُ . ونُقل عَلَماً لجهنمَ ، ولذلك مُنِعَ من الصَّرْفِ . والشَّوَى : الأطرافُ جمع شَوَاة كنَوى ونَواة . وقيل : الشَّوَى : الأعضاءُ التي ليستْ بمَقْتَل ، ومنه : رماه فأَشْواه ، أي : لم يُصِبْ مَقْتَلَه . وقيل : الشَّوَى : جمعُ شَوَاة ، وهي جِلْدَةُ الرأسِ ، وأُنْشد

للأعشى :

4331- قالت قُتَيْلَةُ مالَهُ . . . قد جُلِّلَتْ شَيْباً شَواتُهْ

وقيل : هو جِلْدُ الإنسانِ . والشَّوى أيضاً : رُذالُ المالِ ، والشيءُ اليسيرُ . و " تَدْعُو " يجوزُ أَنْ يكونَ خبراً لإِنَّ ، أو خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، أو حالٌ من " لَظى " ، أو مِنْ " نَزَّاعة " على القراءَتَيْن فيها ؛ لأنها تتحمَّلُ ضميراً .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19)

(254/782)

قوله : ﴿ هَلُوعاً ﴾ : حالٌ مقدرةٌ . والهَلَعُ مُفَسَّر بما بعده ، وهو قولُه : " إذا " و " إذا " قال ثعلب : " سألني محمد بنُ عبد الله ابن طاهر ما الهَلَعُ ؟ فقلت : قد فسَّره اللهُ ، ولا يكون أَبْيَنَ مِنْ تفسيرِه ، وهو الذي إذا نالَه شرٌّ أظهرَ شِدَّةَ الجَزَعِ ، وإذا ناله خيرٌ بَخِلَ به ومَنَعَه الناس " انتهى . وأصلُه في اللغةِ على ما قال أبو عبيد أَشَدُّ الحِرْصِ وأَسْوَأُ الجَزَعِ . وقيل : هو الفَزَعُ والاضطرابُ السريعُ عند مَسِّ المكروهِ ، والمَنعُ السريعُ عند مَسِّ الخيرِ ، مِنْ قولِهم : ناقةٌ هِلْواع ، أي : سريعةُ السَّيْرِ .

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)

قوله : ﴿ جَزُوعاً ﴾ : و " مَنوعاً " فيهما ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنهما منصوبان على الحال من الضمير في " هلُوعا " وهو العاملُ فيهما ، والتقدير : هَلُوعاً حال كَونِه جَزُوعاً وقتَ مَسِّ الشرِّ ، ومنوعاً وقتَ مسِّ الخيرِ . والظرفان معمولان لهاتَيْنِ الحالَيْن . وعَبَّر أبو البقاء عن هذا الوجهِ بعبارةٍ مُوْهِمَةٍ . وهو يريدُ ما ذكَرْتُه فقال : " جَزوعاً حالٌ أُخرى ، والعاملُ فيها هَلُوعا " . فقولُه : " أخرى " يُوهم أنها حالٌ ثانية وليسَتْ متداخِلَةً ، لولا قولُه : " والعاملُ فيها هَلُوعا " . الثاني : أَنْ يكونا خبَرَيْن لكان أو صار مضمرةً ، أي : إذا مَسَّه الشرُّ كان أو صار جزوعا ، وإذا مَسَّه الخيرُ كان أو صار منوعاً قاله مكي . وعلى هذا فإذا شرطيةٌ ، وعلى الأولِ ظرفٌ مَحْضٌ ، العاملُ فيه ما بعدَه ، كما تقدَّم . الثالث : أنهما نعتٌ لـ " هَلُوعا " قاله مكي . إلاَّ أنَّه قال : " وفيه بُعْدٌ ؛ لأنك تَنْوي به التقديمَ قبل " إذا " انتهى . وهذا الاستبعادُ ليس بشيءٍ ، فإنه غايةُ ما فيه تقديمُ الظرفِ على عامِلِه ، وإنما المحذورُ تقديمُ معمولِ النعتِ على المنعوتِ .

(255/782)

إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22)

قوله : ﴿ إلاَّ المصلين ﴾ : استثناءٌ من " الإنسان " إذ المرادُ به الجنسُ . ومثلُه : ﴿ إِنَّ

الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [العصر : 2-3] .

وقرأ حفص : " بشهاداتِهم " جمعاً ، اعتباراً بتعدُّدِ الأنواعِ . والباقون بالإفرادِ ، إذ المرادُ الجنسُ .

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37)

قوله : ﴿ عِزِينَ ﴾ : حالٌ من " للذين كفروا " وقيل : حالٌ من الضمير في " مُهْطِعين " ، فتكون حالاً متداخلةً . و " عن اليمين " يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " عِزين " لأنه بمعنى متفرِّقين ، قاله أبو البقاء ، وأَنْ يتعلَّقُ بمُهْطِعين ، أي : مُسْرِعِين عن هاتَيْن الجهتَين ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أَنَّه حالٌ ، أي : كائنين عن اليمين ، قاله أبو البقاء . وعِزْين جمعُ " عِزَة " والعِزَةُ : الجماعة ، قال مكي : " وإنما جُمِع بالواوِ / والنونِ لأنه مؤنثٌ لا يَعْقِلُ ؛ لكونَ ذلك عِوَضاً مِمَّا حُذِفَ منه . قيل : إنَّ أصلَه عِزْهَة ، كما أنَّ أصلَ سَنَة سَنْهَة ثم حُذِفَتِ الهاءُ " انتهى .

قوله : " لا يَعْقِلُ " سهوٌ لأنَّ الاعتبارَ بالمدلولِ ، ومدلولُه بلا شك عقلاءُ .

واختلفوا في لام " عِزَة " على ثلاثةِ أقوالٍ ، أحدُها : أَنَّها واوٌ مِنْ عَزَوْتُه أَعْزُوْه ، أي : نَسَبْتُه ؛ وذلك أنَّ المنسوبَ مضمومٌ إلى المنسوبِ إليه ، كما أنَّ كلَّ جماعةٍ مضمومٌ بعضُها إلى بعضٍ . الثاني : أَنَّها ياءٌ ، إذ يُقال : عَزَيْتُه بالياء ، أَعْزِيْه بمعنى : عَزَوْته ، فعلى هذا في لامِها لغتان ، الثالث : أنها هاءٌ ، ويُجْمَعُ تكسيراً على عِزَىً نحو : كِسْرة وكِسَر ، واسْتُغْنِي بهذا

التكسيرِ عن جمعِها بالألفِ والتاءِ ، فلم يقولوا : عِزات كما لم يقولوا في شَفَة وأَمَة : شِفات ولا إمات استغناءً بشِفاهٍ وإماءٍ ، وقد كَثُرَ ورودُه مجموعاً بالواوِ والنون . قال الراعي :

(256/782)

4332 أخليفةَ الرحمنِ إنَّ عَشيرتي . . . أَمسَوْا سَوامُهُمُ عِزِيْنَ فُلُوْلا

وقال الكميت :

4333 ونحن وجَنْدَلٌ باغٍ تَرَكْنا . . . كتائبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عِزِيْنا

وقال عنترة :

4334 وقِرنٍ قد تَرَكْتُ لِذي وَلِيٍّ . . . عليه الطيرُ كالعُصَبِ العِزِيْن

وقال آخر :

4335 ترانا عنده والليلُ داجٍ . . . على أبوابِه حِلَقاً عِزِيْنا

وقال آخر :

4336 فلما أَنْ أَتَيْنَ على أُضاخٍ . . . تَرَكْنَ حَصاه أَشْتاتاً عِزينا

والعِزَةُ لغةً : الجماعةُ في تَفْرِقَةٍ . هذا قولُ أبي عبيدة . وقال الأصمعيُّ : " العِزُون : الأصناف . يقال : في الدار عِزُون ، أي : أصناف " وقال غيرُه : الجماعةُ اليسيرةُ كالثلاثةِ

والأربعةِ . وقال الراغب : " وقيل : هو مِنْ قولِهم : عَزِيَ عَزاءً فهو عَزٍ إذا صَبَرَ ، وتَعَزَّى : تَصَبَّر ، فكأنها اسمٌ للجماعة التي يتأسَّى بعضُهم ببعض .

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)

قوله : ﴿ أَنْ يُدْخَلَ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للمفعول . وزيدُ بن علي والحسن وابن يعمر وأبو رجاء وعاصمٌ في روايةٍ على بنائِه للفاعلِ .

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40)

قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ : قد تقدَّم غيرَ مرةٍ . وقرأ جماعة " فلأُقْسِمُ " دون ألفٍ . والعامَّةُ على جمعِ المَشارق والمغارب . والجحدريُّ وابنُ محيصن بإفرادِهما .

و " إنَّا لَقادِرون " جوابُ القسمِ . وقرأ العامَّةُ " يُلاقُوا " ، وأبو جعفر وابن محيصن " يَلْقَوْا " مضارعَ لَقِيَ .

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " يَوْمَهم " أو منصوباً بإضمار أَعني .

ويجوزُ على رَأْيِ الكوفيين أن يكون خبرَ ابتداءٍ مضمرٍ ، ويُبنى على الفتحِ ، وإنْ أُضيفَ إلى

مُعْرب ، أي : هو يومَ يَخْرُجون ، كقولِه : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ وقد مَرَّ الكلامُ فيه مُشْبعاً .

والعامَّةُ على بناءِ "يَخْرُجون" للفاعلِ ، ورُوي عن عاصمٍ بناؤُه للمفعول .

قوله : ﴿ سِرَاعاً ﴾ حالٌ مِنْ فاعل "يَخْرُجون" جمعَ سريع كظِراف في ظَريف . و "كأَنَّهم" حالٌ مِنْ ضميرِ الحالِ فتكونُ متداخلةً .

قوله : ﴿ إلى نُصُبٍ ﴾ متعلِّقٌ بالخبرِ . والعامَّةُ على "نَصْبٍ" بالفتح والإِسكان ، وابنُ عامر وحفصٌ بضمتين ، وأبو عمران الجوني ومجاهد بفتحتَيْن ، والحسنُ وقتادةُ بضمةٍ وسكون . فالأُولى هو اسمٌ مفردٌ بمعنى العَلَم المنصوبِ الذي يُسْرِع الشخصُ نحوَه . وقال أبو عمرو : "هو شَبَكَةُ الصائدِ يُسْرِع إليها عند وقوعِ الصيدِ فيها مخافةَ انفلاتِه" . وأمَّا الثانيةُ فتحتمل ثلاثةَ أوجهٍ . أحدها : / أنه اسمٌ مفردٌ بمعنى الصَّنَمِ المنصوبِ للعبادة ، وأنشد للأعشى :

4337 وذا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تَعْبُدَنَّه . . . لعاقبةٍ واللَّهَ ربَّك فاعْبُدَا

الثاني : أنه جمعُ نصاب ككُتُب في كِتاب . الثالث : أنه جمعُ نَصْبٍ نحو : رَهْن في رُهُن ، وسَقْف في سُقُف ، وهذا قولُ أبي الحسن . وجَمْعُ الجمعِ أَنْصاب . وأمَّا الثالثةُ فَفَعَل بمعنى مَفْعول ، أي : مَنْصوب كالقَبَضِ والنَّقَضِ . والرابعةُ تخفيفٌ من الثانية

ويُوْفِضونَ ، أي : يُسْرعون . وقيل : يَسْتَبْقون . وقيل : يَسْعَوْن . وقيل : يَنْطَلقون . وهي متقاربَةٌ . وأنشد :

4338 فوارِسُ ذُبْيانَ تحت الحَدِيْ . . . دِ كالجِنِّ تُوْفِضُ مِنْ عَبْقَرِ

وقال آخر :

4339 لأَنعتَنْ نَعامةً مِيفاضا . . . خَرْجاءَ [تَعْدُو] تَطْلُبُ الإِضاضا

أي مُسْرِعة .

(258/782)

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)

قوله : ﴿ خَاشِعَةً ﴾ : حالٌ : إمَّا مِنْ فاعلِ "يُوْفِضون" ، وهو أقربُ أو مِنْ فاعل " يَخْرجُون " ، وفيه بُعْدٌ منه ، وفيه تعدُّدُ الحالِ لذي حالٍ واحدة وفيه الخلافُ . و " أبْصارُهم " فاعلٌ . وقراءةُ العامَّةِ على تنوينِ " ذِلَّةٌ " والابتداءُ ب " ذلك اليومُ " ، وخبرُه " الذي كانوا " . وقرأ يعقوب والتمار بإضافة " ذِلَّةُ " إلى " ذلك " وجَرِّ " اليوم " لأنه صفةٌ ل " ذلك " . و " الذي " نعتٌ ل " اليوم " . و " تَرْهَقُهُم " : يجوز أَنْ يكونَ استئنافاً ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعل "يُوْفِضون" ، أو "يَخْرُجون" ، ولم يَذْكُرْ مكيٌّ غيرَه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 445.465 ﴾

(259/782)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المعارج

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من قالها وجد جمالها ، ومن شهدها شهد جلالها .

وليس كل من قالها نالها ، ولا كل من احتالها عرف جلالها .

كلمة رفيعة عن إدراك الألباب منيعة ، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة ، كلمة لا بد للعبد من ذكرها في كل حالة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ .

الباء في ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ بمعنى عن ، أي سأل سائلٌ عن هذا العذاب لِمَنْ هو ؟ فقال تعالى : ﴿ لِّلْكَفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿ مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ ؛ فهذا العذابُ من الله .

ومعنى ﴿ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلِغُ إليها أولياءَه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

﴿ وَالرُّوحُ ﴾ أي جبريل ، في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسِبُ الخَلْقَ في يوم قصيرٍ ووقتٍ يسير ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللَّهُ يُجْرِي ذلك ويُمضيه في يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس ؛ فالملائكة تعرج فيه من أَسفله إلى أعلاه في يومٍ واحد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ .

فاصبرْ – يا محمد – على مقاساةِ أذاهم صبراً جميلاً . والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجميل ما لا ينْتَظِرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكناً راضياً .

ويقال : الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلِي .

ويقال : الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى .

(260/782)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ .

إنَّما هو آتٍ فقريبٌ ، وما اسْتَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلاَّ لأنه مُرْتَابٌ ؛ فأمّا الواثِقُ بالشيءِ فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ .

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمُوّ نخوته ونُبُوّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ ، ويَذَلُّ مَنْ كان يُذِلُّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ .

لا يَتفرّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه .

ولا يَتعَهَّدُ المساكينَ – في ذلك اليوم – إلا الله .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ .

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يعرفون أقاربهم ، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض .

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أَنْ يُفتدىَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه في الدنيا من قريبٍ ونسيب وحميم وولدٍ ، وبكلِّ من الأرض حتى يخلص من العذاب .

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴾ .

اسم من اسماء جهنم .

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ .

قَلاَّعَةٌ للأطراف . تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ .

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ : يا فلان . . إليَّ إليَّ .

والإشارة فيه : أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرءِ فتدعوه بكلابِ الحِرْصِ إلى نَفْسِه وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نَفْسه وكلِّ أحد له ؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأَعِزَّتِه . . . وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ .

وتفسيره ما يتلوه :

(261/782)

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ .

والهَلَعُ شِدَّةُ الْحِرصِ مع الجزع . ويقال هلوعاً : متقلّباً في غمرات الشهوات .

ويقال : يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير .

ويقال : عند المحنه يدعو ، وعند النعمة ينسى ويسهو .

﴿ إِلاَّ الْمُصلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ .

استثنى منهم المصلين – وهم الذين يُلازمون ابداً مواطنَ الافتقار ؛ مِنْ صَلِيَ بالمكان .

﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

وهم المُتَكَفّف والمُتَعَفّف .

وهم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْثر بجميع مالِه ؛ فأموالُهم لكلِّ مَنْ قَصَدَ ، لا يخصُّون سائلاً من عائل . ومنهم مَن يعطي ويمسك – وهئلاء منهم – ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانه فلا يتكلّف باختياره ، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر ؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذْل الكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت . . . وهؤلاءِ أَتَمُّهُم .

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

وأما راتهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله ، وأن يكونوا كما قيل :

مستوفزون على رِجْل كأَنهمو . . . فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ .

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتَّعَفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله . وشَرْطُ هذه الصحبة : أن يعيش معها على ما يهون ، وألا يجرَّها إلى هَوَى نَفسِه ويحملها على مرادِه وهواه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

يحفظون الأمانات التي عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها . وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة- فلا يُدنِّسُونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم . والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ . . . كل ذلك أماناتٌ .

ويقال : من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذرِّ . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها اللَّهُ في قلبه .

وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33)

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض - يقومون بحقوق ذلك كله .

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37)

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشيءِ فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عِزِينَ ﴾ : أي خَلْقاً خَلْقاً ، وجماعةً جماعة .

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38)

كلا . . . إنك لا تدعو عن هذا ! وليس هذا بصوابٍ ؛ فإنهم - اليوم - كفار ، وغداً يعاملون بما يستوجبون .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ لا - هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى

القولُ في المشارق والْمغارب - ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ على ذلك .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ - اليومَ - كي يقوموا بعبادتهم إياها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 628. 633 ﴾

(263/782)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(70) فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون *

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذ الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة المعارج , وهي سورة مكية , وعدد آياتها أربع

وأربعون بعد البسملة , وقد سميت بهذا الاسم لورود وصف من أوصاف الله (تعالي) فيها يصف به ربنا (تبارك اسمه) ذاته العلية بوصف (ذي المعارج) أي ذي العلو والرفعة , لأن المعارج هي المصاعد والمدارج التي يرتقي بها إلي الأعلي , جمع معرج (بفتح الميم وكسرها) ; والقرآن الكريم يسمي الحركة في السماء دوما بالعروج , ومنها معراج رسول الله (صلي الله عليه وسلم) .

وعن أسباب نزول هذه السورة المباركة يروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قوله بأن أحد كفار قريش (وكان اسمه النضر بن الحارث) حين سمع تحذير رسول الله (صلي الله عليه وسلم) من عذاب الله (تعالي) قال مستكبرا قولته الخبيثة التي سجلها عليه القرآن الكريم في سورة الأنفال , بقول الحق (تبارك وتعالي) :

وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم *(الأنفال :32)

فأنزل الله (تعالي) رده الحق في مطلع سورة المعارج التي استهلها بقوله العزيز :

سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة *(المعارج : 1 ـ 4) .

ويدور المحور الرئيسي لسورة المعارج حول حقيقة الآخرة , ومايصاحبها من بعث , وحساب , وجزاء , يعقبه الخلود في حياة أبدية قادمة إما في الجنة أو في النار كما يدور حول

صعوبة استيعاب الكفار والمشركين لإمكانية البعث انطلاقا من إنكارهم لوجود الله , أو من تشويه مفهوم الألوهية لديهم في عدد من المعتقدات الفاسدة والرائجة عندهم . . . ! !

(264/782)

وتبدأ السورة الكريمة باستنكار هذا الموقف المستهتر الذي وقفه أحد كفار قريش مستهينا بالآخرة وعذابها , فدعا بنزول العذاب علي نفسه وعلي قومه , فنزل عذاب الله فورا به وبهم , فقد هلك هذا الكافر في يوم بدر , ونزلت الهزيمة المنكرة بقومه يومها .

وتأكيدا علي طلاقة القدرة الإلهية تصف الآيات بعد ذلك حركة كل من الروح والملائكة في السماء بالعروج إلي الله ذي المعارج , وإن كانت طبيعة كل من الملائكة والروح من الأمور الغائبة عن علم الإنسان وإدراكه غيبة مطلقة , إلا أن الآيات تشير إلي أن مثل هذا العروج يتم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

وبعد ذلك توصي الآيات رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالصبر الجميل أمام إنكار الكافرين - في زمانه - لبعثته الشريفة , ولما جاء به من الحق , والوصية مستمرة إلي زماننا وحتي قيام الساعة - توصي أتباع هذا النبي والرسول الخاتم بالصبر الجميل أمام كفر الكافرين

, وشرك المشركين , وإصرارهم علي إنكار بعثة خاتم المرسلين (صلي الله عليه وسلم) , وإنكار ما بعث به من دين خاتم .

وتؤكد الآيات في سورة المعارج أن الكافرين يرون يوم القيامة بعيدا , ويراه ربنا قريبا لأن يوما عنده بخمسين ألف سنة مما نعد نحن أهل الأرض ; والزمن من خلق الله , والمخلوق لايحد الخالق أبدا . . . ! !

وبعد ذلك تبدأ الآيات في استعراض جانب من أهوال يوم القيامة التي يصفها ربنا (تبارك وتعالي) بقوله :

يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولايسأل حميم حميما *

(المعارج :8 . . 1)

أي يوم تنهار السماء فتكون كالرصاص المصهور ; وتتطاير الجبال فتكون كالصوف المندوف المنفوش , أو المصبوغ بالألوان , إشارة إلي احتفاظ مكونات الجبال بألوان صخورها رغم نسفها وتدميرها . . . ! ! وساعتها لايملك الإنسان

السؤال عن أقرب الناس إليه , وأحبهم إلي قلبه , وذلك من هول الفزع , علي الرغم من رؤية بعضهم بعضا , وتعرف بعضهم علي بعض , وذلك لانشغال كل واحد منهم بنفسه , وتمنيه لو يستطيع أن يفديها من عذاب يومئذ ببنيه , وصاحبته وأخيه , وعشيرته التي ينتمي إليها , وبجميع من في الأرض من الخلق , ولكن هيهات أن يكون له ذلك . . . ! ! وهنا يأتي رد الحق (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) : كلا إنها لظي * نزاعة للشوي * تدعو من أدبر وتولي * وجمع فأوعي *

(المعارج :15.18) .

و(كلا) في العربية أداة زجر وردع , ولذلك تأتي الآيات من بعدها بشيء من أوصاف جهنم (أعاذنا الله تعالي منها) , ومن ذلك أن نيرانها تشتعل بلهب خالص (وهو اللظي) , وأنها تنزع بشدة حرها جوارح المعذبين فيها , ثم تعاد تلك الجوارح إلي مواضعها ليتكرر العذاب , وذلك من قبيل الزيادة في التنكيل بكل كافر ومشرك وظالم , أعرض عن الحق , وأدار ظهره له , وأفسد في الأرض , وتجبر علي الخلق , ونسي الآخرة ومافيها من حساب , وركز علي جمع المال وكنزه , وإمساكه في أوعيته , ولم يؤد حق الله فيه . و (الشوي) جمع (شواة) وهي من جوارح الإنسان مالم يكن مقتلا .

ثم تعرض سورة المعارج لشيء من طبائع النفس البشرية التي تجزع عند الشدة , وتبخل وتبطر عند النعمة , فتميل إلي منع حقوق الفقراء والمساكين ; ومن هذا الحكم العام تستثني

سورة المعارج المصلين ,(الذين هم علي صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون *(المعارج:23.27)

فكل عاقل حصيف يسعي جاهدا في هذه الحياة , وهو حريص كل الحرص علي اجتناب كل عمل يستوجب غضب الله وعذابه , وكل إنسان عفيف يستعف نفسه عن محارم الله , لأن الخوض فيها اعتداء علي أوامر الله , وتجاوز لحدوده .

وعقبت السورة

(266/782)

الكريمة بشيء من صفات المؤمنين ومنها مراعاة الأمانات وحفظ العهود , والقيام بشهادة الحق مهما كلفهم ذلك من ثمن , والمحافظة علي الصلاة مهما كانت الظروف والملابسات , وتؤكد سورة المعارج أن هؤلاء هم الذين سوف يكرمهم الله (تعالي) بإدخالهم إلي جنات النعيم , خالدين فيها أبدا , وفيها ما لا عين رأت , ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر . . . ! !

ثم تنتقل السورة بسؤال استنكاري عن الكفار والمشركين الذين كانوا يتسارعون إلي

التجمهر حول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عن اليمين وعن الشمال يستمعون إليه دون أن يؤمنوا به , ويدفعهم الغرور والتطاول إلي الادعاء الباطل بأنهم أولي بالجنة من أصحابه الذين آمنوا به , وأيدوه . . , ونصروه , ويأتي الرد إلالهي عليهم بهذا الاستفهام التوبيخي الاستنكاري الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) : أيطمع كل امريء منهم أن يدخل جنة نعيم *(المعارج :38)

ويزيدهم (سبحانه وتعالي) تقريعا بقوله (عز من قائل) كلا أي ليس الأمر أبدا كما يطمعون , فليس لهم إيمان أو عمل صالح يؤهلهم لدخول الجنة , وهو (تعالي) عليم بخلقهم , ولذلك يقسم بذاته العلية أنه قادر علي إهلاكهم وعلي استبدالهم بمن هم خير منهم فيقول (سبحانه وتعالي) : فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * علي أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين *

(المعارج :40 . 41)

وتختتم السورة الكريمة بأمر من الله (تعالي) إلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) أن يدع هؤلاء الكافرين والمشركين يخوضون في باطلهم , يلهون ويلعبون حتي يلاقوا يومهم الذي وعدهم الله إياه وتوعدهم به فيقول (سبحانه) : فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتي يلاقوا يومهم الذي يوعدون * يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلي نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون *

(المعارج:44.42)

الآيات

الكونية

التي استشهدت بها سورة المعارج

(267/782)

استشهدت سورة المعارج علي صدق ما جاء بها من أمور الغيب المطلق بالعديد من الآيات الكونية الشاهدة لله (تعالي) بطلاقة القدرة علي إبداع الخلق , وعلي إفنائه وإعادة خلقه من جديد , ومن هذه الآيات مايلي :

(1) وصف الحركة في السماء بالعروج , وأن كلا من الملائكة والروح تعرج إلي الله (تعالي) الذي وصف ذاته بالوصف (ذي المعارج) . والعروج بمعني ارتفاع وتحرك كل شيء في صفحة السماء في خطوط متعرجة هو حقيقة علمية لم تدرك إلا في أواخر القرن العشرين .

(2) التعبير القرآني المعجز الذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فيه إشارة إلي سرعات

فائقة في الكون , وتأكيد علي تواصل كل من المكان والزمان , وعلي تعاظم أبعاد الكون , وإلي نسبية كل شيء في العلم الكسبي للإنسان بحكم نسبية مكانه من الكون , وزمانه (أي عمره) ونسبية كل حواسه وقدرات عقله (أي محدوديتها) , والنسبية لم تدركها معارف الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين .

(3) وصف السماء بأنها سوف تكون يوم القيامة كالمهل .

(4) وصف الجبال بأنها سوف تكون يوم القيامة كالعهن .

(5) وصف طبيعة النفس البشرية عامة بالهلع والجزع عند وقوع الشر , وبالبطر والشح عند نزول النعمة , إلا المصلين .

(6) القسم بالمشارق والمغارب , وفيه إشارة ضمنية رقيقة إلي كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس , وإلي كروية كل أجرام السماء ودورانها حول محاورها , وجريها في مداراتها , فلولا ذلك ما تعددت المشارق والمغارب أبدا .

(7) الإشارة إلي خلق الإنسان من ماء مهين .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة خاصة , ولذا فسوف اقصر حديثي هنا علي النقطة السادسة في القائمة السابقة والمتعلقة بتعدد المشارق والمغارب , ودلالاتها العلمية , وقبل

مناقشة ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين من القدامي والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * علي أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين *(المعارج :40 . 41)

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : . . . ثم قال تعالي :(فلا أقسم برب المشارق والمغارب) أي الذي خلق السماوات والأرض , وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها (إنا لقادرون علي أن نبدل خيرا منهم) أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك ,(وما نحن بمسبوقين) أي بعاجزين . . . . واختار ابن جرير (علي أن نبدل خيرا منهم) أي أمة تطيعنا ولا تعصينا . . . والمعني الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه , والله سبحانه وتعالي أعلم . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه :(فلا) لا زائدة [لتأكيد القسم](اقسم برب المشارق والمغارب) للشمس والقمر , وسائر الكواكب (إنا لقادرون) (علي أن نبدل) نأتي بدلهم (خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) بعاجزين عن ذلك .

* وجاء في الظلال (رحم الله كاتبه) مانصه : والامر ليس في حاجة إلي قسم , ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب يوحي بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح كما انها تعني المشارق والمغارب المتوالية علي بقاع الارض , وهي تتوالي في كل لحظة , ففي كل لحظة اثناء دوران الارض حول نفسها امام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب . . . وايا كان مدلول المشارق والمغارب فهو يوحي إلي القلب بضخامة هذا الوجود , وبعظمة الخالق لهذا الوجود . فهل يحتاج امر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلي قسم برب المشارق والمغارب علي انه سبحانه قادر علي أن يخلق خيرا منهم وانهم لايسبقونه ولايفوتونه
ولايهربون من مصيرهم المحتوم ؟ .

(269/782)

---

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه :
أقسم , و (لا) مزيدة . . . والمشارق والمغارب : مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . (وما نحن بمسبوقين) أي بمغلوبين , أو عاجزين عن ان نأتي بقوم آخرين خير منهم

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) مانصه :

فلا أقسم برب المشارق والمغارب من الأيام والكواكب والهدايات , إنا لقادرون علي أن نهلكهم ونأتي بمن هو أطوع منهم لله , ومانحن بعاجزين عن هذا التبديل .

وجاء في الهامش مايلي : قد يكون المراد بالمشارق والمغارب أقطار ملك الله علي سعته التي لاتحد كما أشير في الآية 127 من سورة الاعراف .

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها , للدلالة علي أرجاء الأرض المشار إليها .

وقد يكون المراد أيضا مشارق الشمس والقمر وكافة النجوم والكواكب ومغاربها جميعا للدلالة أيضا علي ملك الله كله . وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلي دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق ومن ثم تبدو لنا تلك الأجرام متحركة في قبة السماء علي عكس ذلك الاتجاه مشرقة علي الأفق الشرقي وغاربة من الأفق الغربي , أو علي الأقل دائرة من المشرق إلي المغرب حول النجم القطبي .في نصف الكرة الشمالي مثلا .وإذا كان البعد القطبي للنجم اصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لايشرق ولايغرب بل يرسم دائرة صغيرة وهمية حول القطب الشمالي , وبذلك تشير الآية كذلك إلي ساعات الليل .راجع قوله تعالي :

وعلامات وبالنجم هم يهتدون .

وظاهرة الشروق والغروب إشارة إذن إلي دوران كرة الأرض , وهي نعمة كبري من نعم الله علي أحياء هذا الكوكب , فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة وحرم من الضوء تماما النصف الآخر , وهذا مالا تستقيم معه الحياة كما نعهدها .

(270/782)

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب علي تدبير الشمس وحدها دون سائر النجوم والكواكب , كانت هذه إشارة إلي التعدد اللانهائي لمشارق الأرض ومغاربها يوما بعد يوم في كل موضع علي سطح الأرض , أو حتي في لحظة من لحظات الزمان تمر علي الكرة الأرضية , فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة في نقطة أخري تقابلها . وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته . . . .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خيرا) مانصه : أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها .

المشارق والمغارب في القرآن الكريم

جاء ذكر المشرق والمغرب في القرآن الكريم بالإفراد , والتثنية والجمع في أحد عشر موضعا

علي النحو التالي :

أولا : بالإفراد : جاء ذكر المشرق والمغرب في ست آيات قرآنية كريمة هي كما يلي :

1 . ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم *(البقرة :115)

2 . سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم *

(البقرة :142)

3 . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . . *(البقرة 177)

4 . . . . قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين *(البقرة :258)

5 . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون *(الشعراء :28)

6 . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا *(المزمل :9)

ثانيا : وجاء ذكر المشرقين أو ذكر المشرقين والمغربين مرتين في كتاب الله علي النحو التالي :

1 . حتي إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين *(الزخرف :38)

2 . رب المشرقين ورب المغربين *

(الرحمن :17)

ثالثا : وجاء ذكر المشارق وحدها مرة وذكر

المشارق والمغارب مرتين في كتاب الله علي النحو التالي :

(271/782)

---

1 ـ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق *(الصافات 5)

2 ـ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها

. . . . *(الأعراف :137)

3 ـ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (المعارج 40)

وهنا ثار تساؤل المفسرين عن سبب ذكر المشرق والمغرب بالإفراد , والمشرقين والمغربين بالتثنية , والمشارق والمغارب بالجمع وتعددت إجاباتهم , ومن هنا كانت ضرورة توظيف الحقائق العلمية التي توفرت في زماننا حتي يمكن فهم دلالة هذه الآيات الكريمة بشكل أعمق

.

المدلول العلمي للآية الكريمة

بما أن المخاطبين بالقرآن الكريم هم أهل الأرض جميعا , فمن المنطقي أن يكون المقصود

بالتعبير القرآني رب المشارق والمغارب هو مشارق الأرض ومغاربها ; ولكن بما أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما , فإن دلالة الآية الكريمة تتسع لتشمل مشارق ومغارب كل أجرام السماء , وعلي ذلك فلابد من فهم دلالة الآية الكريمة في هذين الإطارين علي النحو التالي :

أولها : المشارق والمغارب بالنسبة إلي الأرض :

(1) مشرق الأرض ومغربها :

علي الرغم من أن كل ما في صفحة السماء من أجرام يدور حول محوره , ويسبح جاريا في مداره إلا أن النجم القطبي يبدو ثابتا في مكانه بالنسبة للأرض , ولايشترك في الدوران الظاهري لقبة السماء وما بها من نجوم , والناتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق دورة كاملة في كل أربع وعشرين ساعة (في زماننا الراهن) . والسبب في ذلك هو أن النجم القطبي يقع علي امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تماما , وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي (والمعروف باسم الشمالي الجغرافي) ; ويتعامد علي هذا الاتجاه يمينا شرق الأرض . ويسارا غربها

أي اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي بالنسبة للأرض

ككوكب , ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتي يبقي النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا لارشاد أهل الأرض إلي الاتجاهات الأربعة الأصلية , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

وعلامات وبالنجم هم يهتدون ❊

(النحل :16)

ويقول : رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ❊(المزمل :9)

(2) مشارق الأرض ومغاربها :

بدوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة (في زماننا الراهن) يتحدد يوم الأرض الذي يتقاسمه الليل والنهار . وبدوران القمر دورة كاملة حول محوره , وحول الأرض في مدة تقدر بحوالي 29,5 يوما يتحدد شهر الأرض القمري الذي يمكن تقسيمه إلي أيام وأسابيع بتتابع مراحل شكل القمر من الميلاد إلي المحاق . ويتم القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض في كل دورة كاملة للأرض حول الشمس تقريبا وبذلك يتحدد طول السنة القمرية بحوالي 354 يوما , وتقسم إلي اثني عشر شهرا قمريا محددا . وسبح كل من الأرض وقمرها حول الشمس في مدار محدد ليتما دورة كاملة في مدة تقدر بحوالي (365,25) يوما تتحدد السنة الشمسية للأرض , وهي تزيد علي السنة القمرية

بحوالي 11 يوما .

وبسبب ميل محور دوران الأرض علي الخط الواصل بين مركزي الأرض والشمس تتبادل السنة الشمسية فصول أربعة هي الربيع والصيف والخريف والشتاء . وبواسطة تتابع بروج السماء التي تمر بها الأرض في أثناء سبحها في مدارها حول الشمس يمكن تقسيم السنة الشمسية إلي شهورها الاثني عشر .

وكان قدماء المصريين قد قدروا السنة الشمسية بحوالي 365 يوما , وتلاهم البابليون في الربط بين محيط الدائرة الذي يبلغ 360 درجة , وبين عدد أيام السنة الشمسية , وشكل هذا الربط أساس تقسيمات الساعة إلي 60 دقيقة , والدقيقة إلي 60 ثانية .

وكانت ملاحظة تغير المواقع الظاهرية للشمس بالنهار

بين شروقها

وغروبها وسيلة من وسائل إدراك مرور الزمن وتتبع حركته .

وبفعل دوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة , فإن مساحة نصف الكرة الأرضية المغمور بنور النهار تتناقص من أحد طرفيها بولوجه في ظلمة الليل ,

وتتزايد بنفس القدر من الطرف الآخر الذي يخرج من ظلمة الليل إلي نور النهار , ويستمر الحال كذلك في تبادل بطيء حتي يعم نور النهار نصف الأرض الذي كان مظلما , ويعم ظلام الليل نصفها الذي كان منيرا , ومن هنا تتعدد المشارق والمغارب علي خط العرض الواحد , ويتأخر شروق الشمس كلما اتجهنا إلي الغرب . ولما كانت الأرض تدور حول محورها دورة كاملة أي (360) درجة كل 24 ساعة , فإن ضوء الشمس ينتقل 15 درجة من درجات خطوط الطول في الساعة الواحدة من الشرق إلي الغرب , أي بمعدل 4 دقائق لخط الطول الواحد ; ومعني ذلك أن الفرق الزمني الناشيء عن اختلاف خطوط الطول علي خط العرض الواحد يقدر بأربع دقائق لكل درجة من درجات خطوط الطول , ويضاف هذا الفرق إذا كان الموقع في نصف الأرض الشرقي , ويطرح إذا كان في نصفها الغربي .

ويعتبر خط الطول (180) هو الخط العالمي للتاريخ , وباجتيازه من الشرق إلي الغرب يتأخر الزمن يوما كاملا ; ويتعرج الخط العالمي للتاريخ شرقا وغربا عبر خط طول (180) وذلك بتأثير خطوط العرض , ويمر من مضيق بيرنج شمالا إلي شرق جزيرة نيوزيلندا جنوبا

.

ويتغير الزمن من موقع لآخر علي طول خط الاستواء بسبب الانتقال من خط طول إلي خط طول آخر بعد أربع دقائق ,

أما الاختلاف في الزمن - وبالتالي في لحظتي شروق الشمس وغروبها - عند الانتقال من خط

الاستواء إلي خطوط العرض شمالا وجنوبا فهو أكبر من الانتقال علي خط العرض الواحد وذلك لأن الانتقال عبر خطوط العرض له أبلغ الأثر علي زمني شروق وغروب الشمس , وهذا الأثر ليس ثابتا علي مر الأيام بسبب ميل محور دوران الأرض , كما أنه لايتناسب تناسبا طرديا مع

(274/782)

فروق خطوط العرض , ويتضح ذلك من أن مقدار الفرق الزمني لكل من شروق وغروب الشمس بين خطي العرض 50 و 60 درجة شمالا أكبر بأضعاف كثيرة من مقدار الفرق الزمني بين خطي عرض 10 و 20 شمالا .

أضف إلي ذلك أن هذه الفروق غير ثابتة علي مدار السنة مما يعدد مشارق الأرض ومغاربها إلي أرقام لاتكاد تدرك .

والفروق بين أزمنة الشروق والغروب في نفس اليوم عند موقعين علي خط طول واحد . ولكنهما علي خطي عرض مختلفين . هي أقل من الفروق بين موقعين بينهما نفس القيمة في مقدار خطي العرض , بينما يقعان علي خطي طول مختلفين .

كذلك إذا حسبنا زمني شروق وغروب الشمس في المكان الواحد من سطح الأرض علي

مدار السنة , فإننا نجدهما يتغيران تغيرا كبيرا خاصة عند خطوط العرض العليا .

فالمكان الواحد علي سطح الأرض له مشارق ومغارب عديدة علي مدار السنة .

والحركة الظاهرية للشمس في مستوي دائرة البروج تؤثر في مقدار الميل الاستوائي لها , وتجعله يتغير من يوم إلي يوم آخر ; والميل الاستوائي له تأثير كبير في تحديد مكان وزمان لحظتي الشروق والغروب للشمس , ويزداد ذلك بزيادة قيم خطوط العرض .

وقد تتحد نقاط علي خطوط طول وعرض مختلفة في لحظتي الشروق والغروب , والخطوط الواصلة بينها تعرف باسم خطوط اتحاد المطالع أو خطوط اتحاد المغارب , وهذه الخطوط يختلف شكلها من يوم إلي آخر : وهي في اليوم الواحد تكون موازية لبعضها البعض .

في 21/3 من كل عام يقع الاعتدال الربيعي , وفي 23/9 يقع الاعتدال الخريفي في نصف الكرة الشمالي فيتساوي الليل والنهار لتعامد أشعة الشمس علي خط الاستواء .

وفي 21/6 من كل عام يقع الانقلاب الصيفي في نصف الكرة الشمالي لتعامد أشعة الشمس علي مدار السرطان , ويكون النهار أطول نهار في السنة وتتمتع المنطقة الواقعة حول القطب الشمالي بنهار يدوم 24 ساعة , ويحل ليل مدته 24 ساعة علي المناطق الواقعة حول القطب

الجنوبي .

ويكون النهار أقصر مايكون في نصف الكرة الجنوبي في 21/6 أما عند خط الاستواء فيتساوي طول كل من الليل والنهار علي مدار السنة .

في 22/12 من كل عام يقع الانقلاب الشتوي في نصف الكرة الشمالي حيث تتعامد أشعة الشمس علي مدار الجدي , وتتمتع المنطقة حول القطب الجنوبي بنهار يدوم 24 ساعة بينما تتمتع المنطقة حول القطب الشمالي بليل يدوم 24 ساعة كاملة .

من هذا الاستعراض يتضح تعدد المشارق والمغارب بتبادل الأيام والفصول علي الموقع الواحد في كل سنة , وبتعدد المواقع علي خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول , وعلي خط الطول الواحد يتعدد خطوط العرض وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعددا مذهلا فسبحان القائل رب المشارق والمغارب .

3 . مشرقا الأرض ومغرباها :

نتيجة لدوران الأرض حول محورها انبعجت قليلا عند خط الاستواء , وتفلطحت قليلا عند القطبين , ونتيجة لذلك اصبح لكل من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان اقصي زمانين ومكانين لكل من شروق الشمس وغروبها علي أقصي بقعتين من بقاع الأرض تمثل كل منهما مرة أقصي الشروق , ومرة أقصي الغروب , ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان وسبحان القائل ' رب المشرقين ورب المغربين

ثانيا : المشارق والمغارب بالنسبة لباقي أجرام السماء :

من الواضح ان المؤثرات السابقة كلها علي زمني ومكاني شروق وغروب الشمس تشترك في التأثير علي زمني ومكاني شروق وغروب القمر , ويزيد عليهما بالنسبة للقمر عامل آخر هو مقدار خط عرض القمر السماوي , وهو يتغير في حدود 5 درجات تقريبا إيجابا وسلبا , وعندما يكون خط العرض السماوي للقمر صفرا فإنه يتحد في غروبه مع الشمس , وبذلك يكون للقمر العديد من المشارق والمغارب كما يكون له مشرق ومغرب , ونهايتان لكل من شروقه وغروبه , وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء والتي نتيجة لتكورها ولدورانها حول محاورها , ولسبحها حول أجرام أكبر فإن

مشارقها ومغاربها تتعدد تعددا كبيرا , مع وجود نهايتين عظميين لكل من الشروق والغروب , ووجود اتجاهات أصلية لكل جرم سماوي تحدد له شرقه وغربه .

من هنا جاءت الإشارة في كتاب الله إلي كل من المشرق والمغرب بالإفراد وبالمثني وبالجمع تأكيدا علي العديد من حقائق الأرض وحقائق أجرام السماء , وهي حقائق لم تدرك إلا في زمن العلم الذي نعيشه , فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه , علي خاتم أنبيائه ورسله

, وتعهد لنا بحفظه فحفظه لنا بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) , وحفظه حفظا كاملا : كلمة كلمة وحرفا حرفا بكل إشراقاته الربانية , وحقائقه النورانية في كل قضية عرض لها حتي يبقي حجة علي أهل عصرنا من المسلمين وغير المسلمين , وشاهدا علي طبيعته الربانية , وعلي صدق نبوة الرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقاه فالحمد لله علي نعمة الإسلام , والحمد لله علي نعمة القرآن والحمد لله إلي آخر الزمان , والصلاة والسلام علي أنبياء الله ورسله أجمعين , وعلي خاتمهم وإمامهم : سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾

(277/782)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ

الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

الإعراب :

(بعذاب) متعلّق بـ (سأل) " 1 " ، (للكافرين) متعلّق بـ (واقع) " 2 " ، (له) متعلّق بمحذوف خبر ليس (من اللّه) متعلّق بـ (واقع) " 3 " (إليه) متعلّق بـ (تعرج) ، (في يوم) متعلّق بـ (تعرج) " 4 " ، (ألف) تمييز العدد خمسين (سنة) مضاف إليه - تمييز العدد ألف - مجرور .

---

(1) إمّا أن الباء بمعنى عن ، أو بتضمين فعل سأل معنى دعا .

(2) واللام للعلّة أي لأجل الكافرين أو بمعنى على ، ويجوز تعليق الجار بـ (سأل) بتضمينه معنى دعا .

(3) أو متعلّق بدافع .

(4) أو متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه واقع أي : يقع العذاب يوم . .

جملة : " سأل سائل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " ليس له دافع " في محلّ جرّ نعت لعذاب وجملة : " تعرج الملائكة . . . " لا محلّ لها

استئنافيّة.

وجملة: "كان مقداره خمسين . . . " في محلّ جرّ نعت ليوم.

الصرف:

(خمسين) ، اسم للعدد من ألفاظ العقود ، ملحق بجمع المذكّر ، وزنه فعلين بفتح فسكون.

البلاغة

فن التمثيل: في قوله تعالى " تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " . إشارة إلى استطالة ذلك اليوم لشدته ، لا أنه بهذا المقدار من العدد حقيقة. والعرب تصف أوقات الشدة والحزن بالطول ، وأوقات الرخاء والفرج بالقصر. وقيل: الكلام بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها ، على سبيل التمثيل والتخييل.

[سورة المعارج (70) : الآيات 5 إلى 10]

(279/782)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9)

وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بعيدا) مفعول به ثان منصوب عامله يرونه (قريبا) مفعول به ثان منصوب عامله نراه (يوم) ظرف زمان منصوب بدل من (قريبا) " 1 " ، (المهل) متعلّق بخبر تكون الأول (كالعهن)

---

(1) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره يقع العذاب . . . وإذا كان الضمير في (نراه) يعود على يوم القيامة كان الظرف بدلا من الضمير .

متعلّق بخبر تكون الثاني (الواو) عاطفة (حميما) مفعول به منصوب " 1 " ، والمفعول الثاني مقدّر أي نصره أو عونه .

جملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سأل سائل فاصبر . . .

وجملة : " إنّهم يرونه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يرونه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نراه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم يرونه وجملة : " تكون السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تكون الجبال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تكون السماء .

وجملة : " يسأل حميم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تكون السماء . . .

الصرف :

(العهن) ، اسم للصوف أو للأحمر منه ، وزنه فعل بكسر فسكون .

البلاغة

التشبيه المرسل : في قوله تعالى "يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ" .

هذا من التشبيه المرسل ، ووجه الشبه التلوّن ، أي كالفضة المذابة في تلوّنها .

ثم جاء في الآية التي تليها " وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ " ووجه الشبه التطاير والتناثر .

والمراد : أنها كالصوف المصبوغ ألوانا ، لأنّ الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها

وغرابيب سود . فإذا بست وطيرت في الجو : أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

---

(1) أو منصوب على نزع الخافض أي عن حميم .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12)
وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14)

الإعراب :

(الواو) في يبصّرونهم نائب الفاعل ، (لو) حرف مصدريّ (من عذاب) متعلّق بـ (يفتدي) . . .

والمصدر المؤوّل (لو يفتدي . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يودّ .

(يومئذ) ظرف مضاف إلى ظرف ، والأول مضاف إليه مجرور (ببنيه) متعلّق بـ (يفتدي) ، (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (التي) موصول في محلّ جرّ نعت لفصيلته (في الأرض) متعلّق بمحذوف صلة من (جميعا) حال منصوبة من العائد المقدّر في الصلة (ثمّ) حرف عطف . . .

جملة : " يبصّرونهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يودّ المجرم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر " 1 " .

وجملة : " يفتدي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو) .

وجملة : " تؤويه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " ينجيه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

الصرف :

(13) فصيلة : اسم للعشيرة ، وزنه فعيلة بمعنى مفعولة ، مشتق من الفصل .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من نائب فاعل (يبصّرونهم) أو من مفعوله بتقدير الرابط أي يودّ المجرم منهم .

(282/782)

(تؤويه) ، مضارع آوى ، فيه حذف الهمزة المزيدة تخفيفا قياسا على (يؤمن) - انظر الآية (3) من سورة البقرة - وزنه تفعله . . . وقد أعلّت الياء بالتسكين لثقل الحركة .

(14) ينجيه : مضارع أنجى ، فيه حذف الهمزة المزيدة ، شأنه شأن تؤويه السابق وكذلك الإعلال .

[سورة المعارج (70) : الآيات 15 إلى 18]

(283/782)

كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر لما يودّ المجرم (نزّاعة) حال منصوبة من الضمير في لظى (للشوى) متعلّق بـ (نزّاعة) " 1 " ، (الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) . .

جملة : " إنّها لظى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تدعو . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) " 2 " .

وجملة : " أدبر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " تولّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدبر .

وجملة : " جمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدبر .

وجملة : " أوعى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جمع .

الصرف :

(لظى) ، اسم للهب ، ثمّ استعمل علما لجهنّم فمنع من التنوين للعلميّة والتأنيث ، وزنه فعل بفتحتين .

---

(1) أو اللام زائدة للتقوية ، والشوى مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به لنزّاعة .

(2) أو حال من الضمير في نزّاعة . [. . . . .]

(نزّاعة) ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ المتعدّي نزع ، وزنه فعّالة بفتح الفاء وتشديد العين .

(الشوى) ، جمع شواة ، وهي جلدة الرأس أو الطرف أو العضو الذي ليس بمقتل أو هو جلد الإنسان ووزن شواة فعلة بفتحتين ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله شوي – بياء في آخره ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا وكذلك في شواة ، أصله شوية بثلاثة فتحات .

(أوعى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أوعي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، ووزنه أفعل .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى " .

حيث شبه لياقتها لهم ، أو استحقاقهم لها على ما قيل – بدعانها لهم . فعبّر عن ذلك بالدعاء ، على سبيل الاستعارة . وقد قيل : تدعو تهلك ، من قول العرب : دعاك اللّه ، أي : أهلكك . ومن ذلك قوله :

دعاك اللّه من رجل بأفعى إذا نام العيون سرت عليكا

]

سورة المعارج (70) : الآيات 19 إلى 35]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23)

وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33)

وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

الإعراب :

(هلوعا) حال منصوبة من نائب الفاعل " 1 " ، (إذا) ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشرط " 2 " في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب المقدّر (جزوعا) خبر كان - أو صار - مقدّرا (الواو) عاطفة (إذا مسّه الخير منوعا) مثل إذا مسّه الشرّ جزوعا (إلّا) للاستثناء

(المصلّين) مستثنى بإلّا من الإنسان الدال على الجنس ، منصوب . . .

وجملة : " إنّ الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق هلوعا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " مسّه الشرّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " (كان) جزوعا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " مسّه الخير . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " (كان) منوعا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) وهي حال مقدّرة لعدم اتصاف الإنسان بها حال خلقه .

(2) أو غير متضمّن معنى الشرط فهو متعلّق بـ (جزوعا) ، وكذلك يقال في (إذا) الثاني ويتعلّق بـ (منوعا) .

(286/782)

---

23 - 28 (الذين) موصول في محلّ نصب نعت للمصلّين (على صلاتهم) متعلّق بـ (دائمون) الخبر ، (في أموالهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (حقّ) ، (للسائل) متعلّق بنعت ثان لـ (حقّ) ، (بيوم) متعلّق بـ (يصدّقون) ، (من عذاب) متعلّق بالخبر (مشفقون) . . .

وجملة : " هم . . . دائمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " في أموالهم حقّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يصدّقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " هم . . . مشفقون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الرابع .

وجملة : " إنّ عذاب . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

29 – 30 (الواو) عاطفة (الذين) معطوف على الموصول السابق في محلّ نصب (لفروجهم) متعلّق بـ (حافظون) ، (إلّا) للاستثناء (على أزواجهم) متعلّق بمحذوف وهو المستثنى " 1 " ، (أو) حرف عطف (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على أزواجهم (الفاء) تعليليّة " 2 " . . .

وجملة : " هم . . . حافظون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الخامس .

وجملة : " ملكت أيمانهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّهم غير ملومين . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 3 " .

31 – (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (وراء) ظرف مكان منصوب متعلّق بنعت لمفعول ابتغى المقدّر أي ابتغى أمرا كائنا وراء ذلك (الفاء) رابطة لجواب الشرط المذكور (هم) ضمير فصل " 4 " .

---

(1) أي إلّا حفظها على أزواجهم .

(2) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

(3) أو هي جواب شرط مقدّر أي إن لم يحفظوها على أزواجهم فإنّهم . . .

(4) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره العادون ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

(287/782)

وجملة : " من ابتغى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ابتغى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " أولئك . . . العادون " في محلّ جزم جواب الشرط المذكور مقترنة بالفاء .

32 - 35 (الواو) عاطفة (الذين) معطوف على الموصول الأول في محلّ نصب (لأماناتهم) متعلّق بـ (راعون) ، (بشهادتهم) متعلّق بـ (قائمون) ، (على صلاتهم) متعلّق بـ (يحافظون) ، (في جنّات) متعلّق بخبر المبتدأ (أولئك) " 2 " (مكرمون) خبر ثان مرفوع للمبتدأ (أولئك) . . .

وجملة : " هم . . . راعون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) السادس .

وجملة : " هم . . . قائمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) السابع .

وجملة : " يحافظون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " هم . . . يحافظون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثامن .

وجملة : " أولئك في جنّات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(19) هلوعا : صفة مشبّهة من الثلاثيّ هلع باب فرح بمعنى شدّة الجزع وعدم الصبر على المصائب وقد يكون مبالغة اسم الفاعل .

(20) جزوعا : صفة مشبّهة من الثلاثيّ جزع باب فرح بمعنى يفزع من الشيء ، وزنه فعول وقد يكون مبالغة اسم الفاعل .

(21) منوعا : صيغة مبالغة من الثلاثيّ منع باب فتح ، وزنه فعول بفتح الفاء .

(22) المصلّين : جمع المصلّي ، اسم فاعل من الرباعيّ صلّى ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة . . . وفي المصلّين إعلال بالحذف بسبب التقاء

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو متعلّق بـ (مكرمون) .

الساكنين وأصله المصلّيين بياءين .

(28) مأمون : اسم مفعول من الثلاثيّ أمن ، وزنه مفعول .

(31) ملومين : جمع ملوم ، اسم مفعول من الثلاثيّ لام ، فهو على وزن مقول بحذف واو مفعول ، أصله ملووم ، سكّنت الواو عين الكلمة ونقلت حركتها إلى الحرف قبلها ، ثمّ حذفت واو مفعول لالتقاء الساكنين .

(32) ابتغى : فيه إعلال بالقلب ، أصله ابتغي – بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى " وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ " .

تكرير الصلاة ووصفهم بها أولا وآخرا باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وتقديمها على سائر الطاعات ، وتكرير الموصولات : لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات .

وقيل : المراد يراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها ، باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل .

الفوائد

المحافظة على الصلاة :

وصف اللّه المؤمنين بالدوام على الصلاة والمواظبة – في آية سابقة – ووصفهم – في هذه

الآية – بالمحافظة عليها ، أي تأديتها كاملة ، بأركانها وشروطها . وقد وردت أحاديث وآيات كثيرة بصدد الصلاة :

عن جابر – رضي اللّه عنه – قال : سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول : " إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة " رواه مسلم .

و

عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر فإن نتقص من فريضته شي ء قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوّع ، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا . رواه الترمذي

وقال : حديث حسن .

وعن عثمان بن عفان – رضي اللّه عنه – قال : سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول : " ما من امرئ مسلم ، تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله " . رواه مسلم .

[سورة المعارج (70) : الآيات 36 إلى 39]

فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (للذين) متعلّق بخبر المبتدأ ما (قبلك) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من الموصول (مهطعين) حال ثانية من الموصول منصوبة (عن اليمين) متعلّق بـ (عزين) " 1 " ، وكذلك (عن الشمال) " 2 " ، (عزين) حال أخرى من الموصول " 3 " .

جملة : " ما للذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

38 - (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (منهم) متعلّق بنعت لكلّ امرئ (أن) حرف مصدريّ ونصب . . .

والمصدر المؤوّل (أن يدخل) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (يطمع) ، أي في أن يدخل .

(1 ، 2) أو متعلّق بمحذوف حال من الموصول . . . ويجوز أن يكون متعلّقا بمهطعين .

(3) أو حال من الضمير في (مهطعين) ، فهي حال متداخلة .

(290/782)

وجملة : "يطمع كلّ امرئ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يدخل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

39 - (كلّا) حرف ردع وزجر (ممّا) متعلّق بـ (خلقناهم) . .

وجملة : "إنّا خلقناهم . . . "لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "خلقناهم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "يعلمون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(36) قبلك : اسم ظرفيّ بمعنى الجهة ، وزنه فعل بكسر ففتح . . . وقد يأتي بمعنى الطاقة " 1 " .

(37) عزين : جمع عزة بمعنى الجماعة وهو اسم جمع ، وقيل محذوف منه الهاء وأصله عزهة . . . وقيل لامه واو من عزوته أعزوه أي نسبته . وقيل لامه ياء أي عزيته أعزيه

بمعنى عزوته . . وقد ألحق بجمع المذكّر بسبب حذف لامه ، وقد يجمع جمع التكسير على عزى زنة فعل بكسر ففتح . . . وقال الأصمعيّ : العزون الأصناف .

[سورة المعارج (70) : الآيات 40 إلى 41]

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا أقسم) مرّ إعرابها " 2 " ، (بربّ) متعلّق بـ (أقسم) ، (اللام) للتوكيد في موضع لام القسم (أن) حرف مصدريّ ونصب (خيرا) مفعول به منصوب ، وهو صفة لموصوف محذوف ، (منهم)

---

(1) وانظر الآية (37) من سورة النمل .

(2) في الآية (38) من سورة الحاقّة السابقة .

متعلّق بـ (خيرا) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (مسبوقين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . . .

والمصدر المؤوّل (أن نبدّل . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (قادرون) .

جملة : " أقسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّا لقادرون " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " نبدّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ما نحن بمسبوقين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

[سورة المعارج (70) : الآيات 42 إلى 44]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (يخوضوا) مضارع مجزوم جواب الأمر (حتّى) حرف غاية وجرّ (يلاقوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (يومهم) مفعول به منصوب (الذي) موصول في محلّ نصب نعت لـ (يومهم) ، و(الواو) في (يوعدون) نائب الفاعل . .

والمصدر المؤوّل (أن يلاقوا . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (يخوضوا ، ويلعبوا) .

جملة : " ذرهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي : إذا تبيّن أنّنا قادرون عليهم فذرهم . . .

وجملة : " . . . " يخوضوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر آخر غير مقترنة بالفاء أي : إن تدعهم يخوضوه .

وجملة : " يلعبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخوضوا .

وجملة : " يلاقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يوعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

43 – (يوم) بدل من يومهم منصوب (من الأجداث) متعلّق بـ (يخرجون) ، (سراعا) حال منصوبة من فاعل يخرجون (إلى نصب) متعلّق بـ (يوفضون) . .

وجملة : " يخرجون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كأنّهم . . . يوفضون " في محلّ نصب حال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير في (سراعا) .

وجملة : " يوفضون " في محلّ رفع خبر كأنّ .

44 – (خاشعة) حال من فاعل يوفضون (أبصارهم) فاعل لاسم الفاعل خاشعة مرفوع ، والإشارة إلى العذاب الذي سألوا عنه في أوّل السورة ، (اليوم) خبر المبتدأ " 1 " ، وهو

بحذف مضاف أي عذاب اليوم الذي . . . (الذي) موصول في محلّ رفع نعت لليوم ،

و(الواو) في (يوعدون) نائب الفاعل .

وجملة : " ترهقهم ذلّة . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يوفضون " 2 " .

وجملة : " ذلك اليوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانوا يوعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يوعدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) يجوز أن يكون (اليوم) بدلا من اسم الإشارة – أو عطف بيان عليه – و(الذي) خبر المبتدأ . . . فالإشارة هي إلى اليوم المتقدّم في قوله : (يومهم الذي يوعدون) .

(2) يجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف فلا محلّ لها . [. . . . .]

(293/782)

الفوائد

– حتى الداخلة على المضارع المنصوب ، ولها ثلاثة معان :

1 – مرادفة (إلى) ، كقوله تعالى : " قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى " .

2 – مرادفة (كي) التعليلية ، كقوله تعالى : " وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ "

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) .

3 – ومرادفة إلا في الاستثناء ، وهذا المعنى ظاهر من قول سيبويه في تفسير قولهم :

" والله لا أفعل إلا أن تفعل " المعنى حتى أن تفعل . . . ونقله أبو البقاء عن بعضهم في قوله تعالى " وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ " وهذا المعنى ظاهر فيما أنشده ابن مالك للمقنع الكندي :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

ولا ينتصب الفعل بعد حتى إلا إذا كان مستقبلا ، ثم إن كان استقباله بالنظر إلى زمن التكلم فالنصب واجب ، وإن كان بالنسبة إلى ما قبلها خاصة فالوجهان جائزان ، كقوله تعالى " وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ " فقولهم مستقبل بالنظر إلى الزلزال لا بالنظر إلى زمن قص ذلك علينا .

وكذلك لا يرتفع الفعل بعد حتى إلا إذا كان حالا ، ثم إن كانت حاليته بالنسبة إلى زمن التكلم فالرفع واجب ، كقولك " سرت حتى أدخلها " إذا قلت ذلك وأنت في حالة الدخول ، واعلم أنه لا يرتفع الفعل بعد حتى إلا بثلاثة شروط :

1 – أن يكون حالا أو مؤولا بالحال كما مر .

2 - أن يكون مسببا عما قبلها ، فلا يجوز سرت حتى تطلع الشمس ، لأن طلوع الشمس ليس مسببا عن المسير .

3 - أن يكون فضلة ، فلا يصح " سيري حتى أدخلها " لئلا يبقى المبتدأ بلا خبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 29 صـ 77 . 91 ﴾

(295/782)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(70) سورة المعارج

مكيّة وآياتها أربع وأربعون

[سورة المعارج (70) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَنَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ

(8) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9)

وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10)

اللغة :

(الْمَعارِجِ) المصاعد جمع معرج.

(المهل) : دردي الزيت أو ذائب الفضة وقد تقدم ذكره في سورة الدخان .

(العهن) الصوف على الإطلاق دون تقييد أو المصبوغ بالأحمر أو بشتى الألوان أقوال .

الإعراب :

(سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ) سأل فعل ماض مبني على الفتح متضمن معنى دعا ولذلك عدّي تعديته وسائل فاعله وبعذاب متعلقان بسأل وواقع نعت وقيل هو على با به والباء بمعنى عن واختاره أبو البقاء ، وقال أبو علي الفارسي : " وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما وإذا اقتصر على أحدهما جاز أن يتعدى إليه بحرف جر فيكون التقدير سأل سائل اللّه أو النبي صلّى اللّه عليه وسلم أو المسلمين بعذاب أي عن عذاب " والسائل هو النضر بن الحارث حين قال : اللّهمّ إن كان هذا هو الحق

من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وهو ممّن قتل يوم بدر وقال الواحدي : " الباء في بعذاب للتوكيد كقوله : وهزي إليك بجذع النخلة والمعنى سأل سائل عذابا واقعا " (لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ) في الجار والمجرور أقوال أحدها أنه متعلق بسأل مضمنا معنى دعا أي دعا لهم ، والثاني أن يتعلق بواقع واللام للعلّة أي نازل لأجلهم ، والثالث أن تكون اللام بمعنى على أي واقع على الكافرين وعلى هذا فهي متعلقة بواقع أيضا وجملة ليس له دافع نعت ثان لعذاب أو حال من عذاب لأنه وصف .

وليس فعل ماض ناقص وله خبرها المقدّم ودافع اسمها المؤخر (مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ) متعلق بواقع أي واقع من عنده ومن جهته أو متعلق بدافع بمعنى ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وذي المعارج نعت لله (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد العلو البعيد ، وتعرج الملائكة فعل مضارع وفاعل والروح عطف على الملائكة وأراد به جبريل فهو من عطف الخاص على العام وإليه متعلقان بتعرج وفي يوم متعلقان بمحذوف دلّ عليه واقع أي يقع العذاب بهم في يوم القيامة

وكان واسمها وخمسين خبرها وألف سنة تمييز خمسين أو متعلق بتعرج أيضا (فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا وتدبرت فحواه فاصبر ، واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وصبرا مفعول مطلق وجميلا نعت (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً) إن واسمها وجملة يرونه خبرها والضمير للعذاب وبعيدا مفعول به ثان لأن الرؤية علمية والجملة تعليلية لا محل لها (وَنَراهُ قَرِيباً) عطف على الجملة السابقة داخلة في حيّز الخبر (يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ) الظرف متعلق بقريبا أو بمحذوف يدل عليه واقع أي يقع يوم تكون وجملة تكون في محل جر بإضافة الظرف إليها والسماء اسمها وكالمهل خبرها (وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها (وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً) الواو عاطفة ولا نافية ويسأل حميم فعل مضارع وفاعله وحميما مفعول يسأل الأول والمفعول الثاني محذوف والتقدير شفاعته ونصره وقيل حميما منصوب بنزع الخافض ويسأل لا حاجة لها إلى مفعول .

البلاغة :

1 – في قوله " يوم تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فن التمثيل فليس المراد حقيقة ذلك العدد بل المراد الإشارة إلى أنه يبدو للكافر طويلا لما يلقاه خلاله من الهول والشدائد فلا تنافي مع آية السجدة " في يوم كان مقداره ألف سنة " والعرب تصف أيام الشدّة بالطول وأيام الفرح بالقصر قال :

فقصار هنّ مع الهموم طويلة وطوالهنّ مع السرور قصار

وقال آخر :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

2- وفي قوله " يوم تكون السماء كالمهل " تشبيه مرسل ووجه الشبه التلوّن وكذلك قوله " وتكون الجبال كالعهن " ووجه الشبه التطاير والتناثر وقد رمق أبو العلاء هذه السماء العالية من البلاغة إذ قال في رثاء أبيه :

فيا ليت شعري هل يخفّ وقاره إذا صار أحد في القيامة كالعهن

(298/782)

[سورة المعارج (70) : الآيات 11 إلى 23]

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلاَّ إِنَّها لَظى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعى (18) إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20)

وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23)

اللغة :

" وفصيلته " الفصيلة العشيرة وقال ثعلب الآباء الأدنون فهي فعيلة بمعنى مفعولة أي مفعول منها .

(لَظى) اسم جهنم لأنها تتلظى أي تتلهب على من يصلاها .

(لِلشَّوى) الشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس .

الإعراب :

)

(299/782)

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ) الجملة مستأنفة أو حالية ، وأجاز الزمخشري أن تكون صفة أي حميما مبصرين ، ويبصرونهم فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والهاء مفعول به ثان ، وعدّي بالتضعيف إلى مفعول ثان وقام الأول مقام الفاعل وإنما جمع الضميران في يبصرونهم وهما للحميمين حملا على معنى العموم لأنهما نكرتان في سياق النفي وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعمّان كما التزم في قوله والله لا أشرب ماء من أداوة إنه يعمّ المياه والأداوي خلافا لبعضهم في

الإداوة أي يبصر الأصحّاء بعضهم بعضا ويتعارفون ولكنهم لا يتبادلون الكلام لتشاغلهم بأنفسهم ، ويودّ المجرم فعل مضارع وفاعل والجملة حالية ولو مصدرية بمعنى أن لأنها وقعت بعد فعل الودادة وهي مع ما في حيّزها في تأويل مصدر مفعول يودّ أي يودّ افتداء ومن عذاب متعلقان بيفتدي ويومئذ ظرفان مضافان والتنوين عوض عن جمل محذوفة والتقدير يوم إذ تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما ، وببنيه متعلقان بيفتدي أيضا (وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ) عطف على بنيه وجملة تؤويه صلة أي تضمه في النسب (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ) عطف أيضا وفي الأرض صلة الموصول وجميعا حال وثم حرف عطف للتراخي لشدة الهول وينجيه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أي يودّ لو يفتدي ثم لو ينجيه الافتداء ، وثم لاستبعاد الإنجاء يعني تمنى لو كان هؤلاء جميعا في متناول يده وبذلهم في فداء نفسه وهيهات (كَلَّا إِنَّها لَظى) كلا حرف ردع وزجر لودادتهم الافتداء وتنبيه على أن ذلك التمنّي غير وارد وليس بذي طائل وإن واسمها ولظى خبرها والضمير للنار الدّال عليها العذاب (نَزَّاعَةً لِلشَّوى) حال مؤكدة أو

إعراب القرآن وبيانه ، ج

10 ، ص : 213

مبينة أو نصبت على الاختصاص للتهويل وعلى الحال يكون العامل فيها ما دلّت عليه لظى من معنى الفعل أي تتلظى نزّاعة وقرىء بالرفع فهو خبر ثان أي خبر لمبتدأ محذوف أي هي نزّاعة وقيل هي بدل من لظى وقيل كلاهما خبر وقيل لظى بدل من اسم إن ونزّاعة خبرها (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) الجملة حالية من الضمير في نزّاعة وفاعل تدعو مستتر يعود على لظى ومن موصول مفعول به وجملة أدبر لا محل لها لأنها صلة وتولى عطف على أدبر ، وسيأتي مزيد بيان لهذه الدعوة في باب البلاغة (وَجَمَعَ فَأَوْعى) عطف على أدبر وتولى ومعنى أوعى جمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد به حق اللّه تعالى (إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً) الجملة بمثابة التعليل لما تقدم وإن واسمها وأل في الإنسان جنسية وجملة خلق خبر إن ونائب الفاعل مستتر يعود على الإنسان وهلوعا حال مقدّرة لأنه ليس متصفا بهذه الصفات قبل ولادته ووقت خلقه (إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً) إذا ظرف متعلق بجزوعا وجملة مسّه في محل جر بإضافة الظرف إليها والشر فاعل وجزوعا حال من الضمير في هلوعا ولك أن تجعله نعتا لهلوعا (وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) استثناء من الإنسان المراد به الجنس فهو استثناء متصل (الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) الذين نعت للمصلين وهم مبتدأ وعلى صلاتهم متعلقان بدائمون ودائمون خبرهم والجملة الاسمية صلة الذين .

البلاغة :

في قوله " تدعو من أدبر وتولى " مجاز عقلي عن إحضارهم كأنها تدعوهم فتحضرهم ، وقد تقدم بحث المجاز العقلي في هذا الكتاب ، أو استعارة مكنية ، ومنه قول ذي الرمة يصف ثورا وحشيا :

أمسى بوهبين مجتازا لمرتعه من ذي الفوارس تدعو أنفه الربب

(301/782)

و وهبين اسم موضع وكذلك ذو الفوارس والربب بموحدتين جمع ربة وهي أول ما ينبت من الكلأ والدعاء الطلب وهو هنا مجاز عن التسبّب في الأمر لأن النبات الصغير سبب في وصول أنفه للأرض ليرعاه . ويجوز أن يكون الدعاء من باب الاستعارة ، شبّه الربب بالداعي وحذف المشبّه به وأخذ شيئا من خصائصه .

ومنه أيضا قول ذي الرمة :

ليالي اللهو يطبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

وليالي منصوب على الظرفية واللهو مبتدأ وطباه يطبوه ويطبيه إذا دعاه وجذبه أي اللهو يدعوني في ليال كثيرة فأتبعه كأني سابح في لجّة من الماء تغمر القامة . ولعب خبر ثان

والظرف متعلق بيطبيني وقيل هو متعلق بما قبلها والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها .

[سورة المعارج (70) : الآيات 24 إلى 35]

وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

الإعراب :

(302/782)

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) والذين عطف على الذين الأولى وفي أموالهم خبر مقدّم وحق مبتدأ مؤخر ومعلوم نعت والمراد به الزكاة المفروضة والجملة الاسمية صلة الموصول (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) نعت لحق (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) عطف أيضا وجملة يصدقون صلة الموصول وبيوم الدين متعلقان بيصدقون أي يوم الجزاء (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ

مُشْفِقُونَ) عطف أيضا وهم مبتدأ ومشفقون خبره ومن عذاب ربهم متعلقان بقوله مشفقون والجملة صلة (إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) الجملة تعليل للإشفاق وإن واسمها وغير مأمون خبرها (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ) عطف أيضا وهم مبتدأ وحافظون خبره ولفروجهم متعلقان بحافظون أي عن المحرمات والمحظورات (إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) إلا أداة استثناء وعلى أزواجهم استثناء من أعمّ الأحوال واو حرف عطف وما عطف على أزواجهم وجملة ملكت صلة وأيمانهم فاعل والمراد بما ملكت أيمانهم الإماء ، فإنهم الفاء عاطفة وإن واسمها وغير ملومين خبرها (فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ وابتغى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر يعود على من ووراء مفعول به لابتغى فقد خرجت وراء عن الظرفية أي طلب وراء ذلك أي الاستمتاع بالنكاح وملك اليمين ولك أن تبقيها على الظرفية وتعلقها بمحذوف صفة للمفعول به المحذوف أي فمن طلب أمرا كائنا وراء ذلك والفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ وهم ضمير فصل والعادون خبر أولئك والجملة في محل

جزم جواب الشرط ، ولك أن تجعل هم مبتدأ ثانيا والعادون خبره والجملة خبر أولئك (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ) عطف على ما تقدم وهم مبتدأ وراعون خبره ولأماناتهم متعلقان براعون والجملة الاسمية صلة الموصول (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ) عطف أيضا وفي قراءة بالإفراد (وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) عطف أيضا (أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) أولئك مبتدأ وفي جنات خبر ومكرمون خبر ثان ولك أن تعلّق في جنات بمكرمون .

البلاغة :

في تكرير الصلاة مبالغة لا تخفى اهتماما بشأنها وتنويها بفضلها ، ويضاف إلى التكرير تصدير الجملة بالضمير وبناء الجملة عليه وتقديم الجار والمجرور على الفعل وفعلية الخبر فتفيد الجملة الاسمية الدوام والاستمرار وتفيد الجملة الفعلية التجدّد مع الاستمرار ، وهذا نمط عجيب انفرد به كتاب اللّه .

[سورة المعارج (70) : الآيات 36 إلى 44]

فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40)

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

اللغة :

(مُهْطِعِينَ) مسرعين نحوك مادّي أعناقهم مقبلين بأبصارهم عليك فهي من الكلمات التي يحتاج تفسيرها إلى جمل ، وفي القاموس :

(304/782)

" هطع كمنع هطعا وهطوعا أسرع مقبلا خائفا وأقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه وهطع مدّ عنقه وصوّب رأسه كاستهطع ، وكأمير : الطريق الواسع ، وكمحسن : من ينظر في ذل وخضوع لا يقلع بصره أو الساكت المنطلق إلى من هتف به ، وبعير مهطع في عنقه تصويب خلقة " وقد تقدم شرح هذه المادة في سورة إبراهيم .

(عِزِينَ) جمع عزة ، قال أبو عبيدة : جماعات في تفرقة وقيل الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة وقال الأصمعي : في الدار عزون أي أصناف من الناس وقال الكميت :

ونحن وجندل باغ تركنا كتائب جندل شتّى عزينا

وعزة مما حذفت لامه فقيل هي واو وأصله عزوة كأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه

الأخرى فهم متفرقون ويقال عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره وقيل لامها هاء والأصل عزهة وجمعت عزة بالواو والنون كما جمعت سنّة وأخواتها بذلك وقيل هي ياء إذ يقال عزيته بالياء أعزيه بمعنى عزوته وقد تقدم بحث ما ألحق بجمع المذكر السالم.

(نُصُبٍ) تقدم القول فيه مفصلا ونضيف إليه هنا أنه قرىء نصب بالفتح والإسكان وقراءتنا بضمتين وقرىء بفتحتين وقرىء بضم فسكون، فالأول اسم مفرد بمعنى العلم المنصوب الذي يسرع الشخص نحوه وقال أبو عمرو: هو شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته، وأما الثانية فتحتمل ثلاثة أوجه: أحدها أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة والثاني أنه جمع نصاب ككتب جمع كتاب والثالث أنه جمع نصب كرهن في رهن وسقف في سقف وجمع الجمع أنصاب، وأما الثالثة ففعل بمعنى مفعول أي منصوب كالقبض بمعنى المقبوض والرابعة تخفيف من الثانية.

(يُوفِضُونَ) يسرعون إلى الداعي مستبقين.

الإعراب:

(فَمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ) الفاء استئنافية وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وللذين خبر ما أي فأي شيء ثبت لهم وحملهم على النظر إليك والتفرّق ، كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يصلّي عند الكعبة ويقرأ القرآن فكانوا يحتفون به حلقا حلقا يسمعون ويستهزئون بكلامه ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلند خلنّها قبلهم فنزلت . وقبلك ظرف مكان متعلق بمحذوف حال أو بمهطعين أي كائنين في الجهة التي تليك عن اليمين وعن الشمال ومهطعين حال من الذين (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ) الجار والمجرور حال من الموصول أيضا وقيل متعلق بمهطعين وعزين حال من الموصول أيضا فالأربعة أحوال من الموصول وقيل حال من الضمير في مهطعين فتكون حالا متداخلة ، وعلّق أبو البقاء عن اليمين وعن الشمال بعزين وأعرب بعضهم عزين صفة لمهطعين (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ويطمع فعل مضارع وكل امرئ فاعله

(306/782)

و منهم صفة لامرىء وأن وما في حيّزها في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بيطمع أي أيطمع في الدخول ونائب فاعل يدخل مستتر تقديره هو وجنة نعيم مفعول به ثان على السعة (كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ) كلا حرف ردع وزجر عن طمعهم

الأشعبي بدخول الجنة وجملة إنّا خلقناهم تعليل للردع وإن واسمها وجملة خلقناهم خبرها ومما متعلقان بخلقناهم وجملة يعلمون صلة والمعنى أنهم مخلوقون من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس فمن لم يتحلّ بالإيمان ويرحض عنه الأقذار بالعمل الصالح وأضاف الكمالات لم يكن أهلا لدخول الجنان أو هو استدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية وإن من قدر على الخلق الأول لم تعجزه الإعادة (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ) الفاء استئنافية ولا زائدة وأقسم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وبرب المشارق والمغارب متعلقان بأقسم وجملة إنّا لقادرون لا محل لها لأنها جواب القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وقادرون خبرها (عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أن وما في حيّزها في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادرون وخيرا مفعول نبدل ومنهم متعلقان بخيرا والواو حرف عطف وما حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد ومسبوقين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبرها والجملة معطوفة على جواب القسم داخلة في ضمن المقسم عليه (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) الفاء الفصيحة أي إذا تبين أنه لا يفوتنا ولا يعجزنا إنزال ما نريده بهم فذرهم ، وذرهم فعل أمر مات ماضيه وفاعل مستتر ومفعول به ويخوضوا فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ويلعبوا عطف على يخوضوا وحتى حرف غاية وجر ويلاقوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعل ويومهم مفعول به

والذي نعت ليومهم وجملة يوعدون صلة الموصول وهو فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل (يَوْمَ

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ)

يوم بدل من يومهم وجملة يخرجون في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن الأجداث متعلقان بيخرجون وسراعا حال من الواو وجملة كأنهم حال ثانية من الواو أيضا فتكون مترادفة أو من الضمير في سراعا فتكون متداخلة وكأن واسمها وإلى نصب متعلقان بيوفضون وجملة يوفضون خبر كأنهم (خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ) خاشعة حال من فاعل يوفضون أو من فاعل يخرجون والأول أقرب وأبصارهم فاعل بخاشعة وجملة ترهقهم ذلة حال ثانية ولك أن تجعلها مستأنفة وذلك مبتدأ واليوم خبره والذي صفة وكان واسمها وجملة يوعدون خبرها والجملة صلة وجملة ذلك اليوم مستأنفة أو مفسرة وعلى كل حال لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 208. 220﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والثمانون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة نوح عليه السلام)

(4/783)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة نوح عليه السلام)

(5/783)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة نوح

مقصودها الدلالة على تمام القدرة على ما أنذر به آخر " سأل " من إهلاك المنذرين وتبديل خير منهم ، ومن القدرة على إيجاد يوم القيامة الذي طال إنذارهم به وهم عنه معرضون

وبه مكذبون وبه لا هون ، وتسميتها بنوح عليه السلام أدل ما فيها على ذلك ، فإن أمره في إهلاك قومه بسبب تكذيبهم له في قصته في هذه السورة مقرر ومسطور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 162 ﴾

(6/783)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إنا أرسلنا نوحا)

السّورة مكّيّة .

وآياتها ثمان وعشرون فى عدّ الكوفة ، وتسع فى عدّ البصرة والشام ، وثلاثون عند الباقين .

وكلماتها مائتان وأَربع وعشرون .

وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون .

والمختلف فيها أَربع : سُوَاعاً ، ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ ﴿ وَنَسْرًا ﴾ ، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ .

فواصل آياتها (منا) على الميم آية : أَليم .

سمّيت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

معظم مقصود السّورة : أَمر نوح بالدعوة ، وشكاية نوح مِن قومه ، والاستغفار لسعة النعمة ، وتحويل حال الخَلْق من حال إلى حال ، وإظهار العجائب على سقف السّماءِ ، وظهور دلائل القدرة على بسيط الأَرض ، وغَرَق قوم نوح ، ودعاؤه عليهم بالهلاك ، وللمؤمنين بالرّحمة ، وللظَّالمين بالتَبَار والخسارة ، فى قوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ .

السّورة محكمة : لا ناسخ ولا منسوخ .

المتشابه

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾ بغير واو ، ثم قال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ ﴾ بزيادة الواو ؛ لأَنَّ الأَوّل ابتداء دعاء والثانى عطف عليه .

قوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ﴾ وبعده : ﴿ إِلَّا تَبَاراً ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوّل وقع بعد قوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ ، والثَّانى بعد قوله ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ ﴾ فذكر فى كلّ مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث الواهية حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها كان من المؤمنين الَّذين تدركهم دعوة نوح (وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها كان فى الجنّة رفيق نوح وله ثواب نوح) وله بكلّ آية قرأَها

مثل ثواب سام ابن نوح. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 482.

483﴾

(7/783)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة نوح عليه السلام

451 - مسألة:

قوله تعالى: (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

ثم قال: (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ) فالأول: مجوز

للتأخير، والثاني: يمنع منه؟.

جوابه:

قيل: الأول: أجل الموت بالنسبة إلى كل واحد. والثاني:

أجلهم جميعا بالاستئصال.

452 - مسألة:

قوله تعالى : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) وقال تعالى

في آخر السورة (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) ما وجه التخصيص ؟ .

جوابه :

لما قال قبل الأولى : (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا)

ناسب قوله : (إِلَّا ضَلَالًا) وقال في آخر السورة : (لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

وهو دعاء بالهلاك ، ناسب

قوله : (إِلَّا تَبَارًا) أي هلاكا .

453 - مسألة :

كيف دعا بزيادة الضلال والتبار ولم يدع بالهداية وهو نبي

كبير ، وكذلك دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملإه في سورة يونس عليه السلام ؟

.

جوابه :

أن ذلك كان بعد تققه عدم إيمانهم بقوله تعالى : (لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) فدعاؤه

بذلك عند يأسه

منهم .

وكذلك موسى عليه السلام ، لعله بعد أن أعلمه الله تعالى بعدم إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 366. 367 ﴾

(8/783)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة نوح عليه السلام

بهذا الاسم سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير ، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) بترجمة (سورة إنا أرسلنا نوحاً) . ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف ولم يترجم لها الترمذي في (جامعه) .

وهي مكية بالاتفاق .

وقد عُدت الثالثة والسبعين في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد نزول أربعين آيةً من سورة النحل وقبل سورة الطور .

وعدّ العادّون بالمدينة ومكة آيها ثلاثين آية ، وعدّها أهل البصرة والشام تسعاً وعشرين آية ، وعدها أهل الكوفة ثماناً وعشرين آية .

أغراضها

أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين

الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا ، وهو أعظم عقاب أعني الطوفان . وفي ذلك تمثيل لحال

النبي (صلى الله عليه وسلم) مع قومه بحالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ

29 صـ 185.186 ﴾

(9/783)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف لسورة نوح عليه السلام

هذه السورة كلها تقص قصة نوح – عليه السلام – مع قومه ; وتصف تجربة من تجارب

الدعوة في الأرض ; وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية , وشوطا

من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر , والهدى والضلال , والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة , الضالة , الذاهبة وراء

القيادات المضللة , المستكبرة عن الحق , المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ,

المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق , المرقومة في كتاب الكون المفتوح , وكتاب النفس

المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني , وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني , والعناء المرهق , والصبر الجميل , والإصرار الكريم من جانب الرسل – صلوات الله عليهم – لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية , ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون , في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التي يعرضها نوح – عليه السلام – على ربه , وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها في هذا الجهد المضني , والعناء المرهق , مع قومه المعاندين , الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول:

رب . إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم , وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت:استغفروا ربكم , إنه كان غفارا , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويمدكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا . . . !

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر:

(رب إنهم عصوني , واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم , ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . .) . .

وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان , واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل , لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع

منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ; وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام .

(11/783)

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة , وعلى الأمة المسلمة بعامة , وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض , وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة , القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك , وفي وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة , وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين ; ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيما بهم , لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ; وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح , بعدما استنفد كل الوسائل , وألهم الدعاء على القوم بما ألهم:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . .

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) . .

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها , وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره , وأحداث الحقيقة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه: (قال: يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى , إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . . وفي حكاية قوله لهم: ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا , والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا . .

(12/783)

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم , وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة

والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب , كما تغمره الروعة والخشوع , وهو يستعرض – بهذه المناسبة – ذلك الجهد الموصول من الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه – لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل: ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل , وتلك التضحيات النبيلة , من لدن نوح – عليه السلام – إلى محمد – عليه الصلاة والسلام – ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن , وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول , لم يكتف قومه فيه بالإعراض , بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاهما بالصبر والحسنى , والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ , وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم , أو يحرقون بالنار , أو ينشرون بالمنشار , أو يهجرون الأهل والديار . . حتى تجيء الرسالة الأخيرة , فيجهد فيها محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك الجهد المشهود المعروف , هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ؟ ؟

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود , وكل هذه التضحيات , وكل هذا الجهاد المرير الشاق ? ثم . . ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله , المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار , من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ? !

والجواب بعد التدبر : أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد , وكل هذا الصبر , وكل هذه المشقة , وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ; بل أكبر من الأرض وما عليها ; بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة , تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنساني ذاته , بعون الله وتوفيقه .

ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته ; ولم يجبله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة , أو يمحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص !

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض , لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية مريرة , وتضحيات شاقة نبيلة .

(14/783)

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله ; وأن يكون مستودعا لسر من أسراره ; وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود . . وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب . . وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه , ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر – أو جماعة منهم – معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية , وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الإتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود الناقص بالكمال المطلق . . . وهي حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل , لأن تحققها – ولو في هذه الصورة – يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية , تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

(15/783)

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض , وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة , بل كانت حلما أكبر من الخيال , ولكنه متمثل في واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام , إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة

الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل , سواء جاءت مجملة كما هي في الرسالات الأولى , أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

(16/783)

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله ; هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر: لا علم , ولا فلسفة , ولا فن , ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ; بل انحدرت قيمها وموازينها وانسانيتها , كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية , على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين , وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي , وأسباب السعادة المادية بجملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية , ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة , ولم تشعر بكرامة "النفس الإنسانية" قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الإسلامي

لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق – بدون تردد – كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية , ومن تضحيات نبيلة , لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوي على قبس من نور الله , وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم , كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع , الذي شهدته البشرية واقعا في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعنة في الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعا مختلفة من العذاب , وتنكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم في النار , ونشرت غيره بالمنشار , وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

(17/783)

ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة , ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قبس من

نور الله , ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح – عليه السلام – إلى عهد محمد – عليه أزكى السلام – لينبئ عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة , وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون منجواذبها , ويتحررون من ربقتها . وهذا وحده كسب كبير , أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة . وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يسجد الله الملائكة لهذا الكائن , الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتهيأ – بجهده هو ومحاولته وتضحيته – لاستقبال قبس من نور الله . كما يتهيأ لأن ينهض – وهو الضعيف العاجز – بتحقيق قدر الله في الأرض , وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة , ويتحمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة , لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين , وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع .

وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق , يهون الجهد , وتهون المشقة , وتهون التضحية , ويتوارى هذا كله , لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله . . .

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة , وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة ! . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3706 . 3710 ﴾

(18/783)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة نوح عليه السلام

مكية وآياتها ثمانى وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلا قصة شيخ الأنبياء (نوح عليه السلام) من بدء دعوته حتى نهاية (حادثة الطوفان) التى أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت " سورة نوح " ، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتى العصور والأزمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بارسال الله تعالى لنوح عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة ، وإنذار قومه من عذاب الله [إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم

عذاب أليم] الآيات .

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح عليه السلام ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانا في الضلال والعصيان [قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا] . الآيات

* ثم تتابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وأفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدوا فى طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون الفسيح [ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا] ! ! . ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه فى الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم (نوح) عليه السلام ، حتى أهلكهم الله بالطوفان [قال نوح رب أنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا . .] الآيات .

(19/783)

---

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة ، يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت

بالتذكير والإنذار [وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 449 ﴾

(20/783)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة نوح

ليلا ونهارا : أي دائما ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم : أي سدوا مسامعهم ، استغشوا ثيابهم : أي تغطوا بها لئلا يرونى كراهة النظر إلىّ ، السماء : أي المطر كما جاء فى قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلّوا حيثما نزل السماء

مدرارا : أي متتابعا ، جنات : أي بساتين ، ترجون : أي تخافون ، وقارا :

أي عظمة وإجلالا ، أطوارا : واحدها طور وهو الحال والهيئة ، فطورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا عظاما ، ثم تكسى العظام لحما ، ثم تنشأ خلقا آخر ، طباقا : أي بعضها

فوق بعض ، بساطا : أي منبسطة تتقلبون فيها ، فجاجا : أي واسعة ، واحدها فج ، وهو الطريق الواسع قاله الفراء وغيره .

الخسار : الخسران ، كبارا : أي كبيرا عظيما ، لا تذرنّ : أي لا تتركنّ ، ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر : أسماء أصنام كانوا يعبدونها

مما خطيئاتهم : أي من أجل ذنوبهم وآثامهم ، أغرقوا : أي بالطوفان ، نارا :

أي عذابا فى القبر ، ديّارا : أي أحدا ، تبارا . أي هلاكا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 81.89 ﴾ . باختصار .

(21/783)

وقال الفراء :

سُورَة نوح عَلَيْهِ السَّلَام

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ . . . ﴾ .

أى: أرسلناه بالإنذار . (أن) : فى موضع نصب ؛ لأنك أسقطت منها الخافض . ولو كانت إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أنذر قومك ـ بغير أن ؛ لأن الإرسال قول فى الأصل ، وهى ، فى

قراءة عبد الله كذلك بغير أن .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ .

سمّى عندكم تعرفونه لا يميتكم غرقا ولا حرقا ولا قتلا ، وليس فى هذا حجة لأهل القدر لأنه إنما أراد مسمّى عندكم ، ومثله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عليه ﴾ عندكم فى معرفتكم .

وقوله: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ . . . ﴾ .

من قد تكون لجميع ما وقعت عليه ، ولبعضه . فأما البعض فقولك: اشتريت من عبيدك ، وأما الجميع فقولك: رَوِيت من مائك ، فإذا كانت فى موضع جمع فكأنّ مِنْ: عن ؛ كما تقول: اشتكيت من ماء شربته ، وعن ماء شربته كأنه فى الكلام: يغفر لكم عن أذنابكم ، ومن أذنابكم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾

وقوله: ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً . . . ﴾ .

أى: دعوتهم بكل جهة سرًّا وعلانية .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ

وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ﴾

وقوله: ﴿ وَأَصَرُّواْ . . . ﴾ .

أي: سكتوا على شركهم ، ﴿ وَاسْتَكْبَرُواْ . . . ﴾ عن الإيمان .

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾

(22/783)

وقوله: ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ . . . ﴾ .

كانت السنون الشدائد قد ألحّت عليهم ، وذهبت بأموالهم لانقطاع المطر عنهم ، وانقطع الولد من نسائهم ، فقال: ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ .

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾

وقوله: ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . . . ﴾ . أي: لا تخافون لله عظمة .

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً . . . ﴾ .

نطفةً ، ثم علقةً ، ثم مضغةً ، ثم عظماً .

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾

وقوله: ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . . . ﴾ .

إن شئت نصبت الطباق [/ب] على الفعل أى: خلقهن مطابِقاتٍ ، وإن شئت جعلته من نعت السّبع لا على الفعل ، ولو كان سبع سمواتٍ طباقٍ بالخفض كان وجهاً جيداً كما تقرأ: "ثِيابُ سُنْدس خُضْرٍ" ، و "خضرٌ" .

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً . . . ﴾ .

ذكر: أن الشمس يضىء ظهرُها لما يليها من السموات ، ووجهها يضىء لأهل الأرض .

وكذلك القمر ، والمعنى: جعلَ الشمس والقمر نوراً فى السماوات والأرض .

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً * قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾

وقوله: ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً . . . ﴾ .

طرقاً ، واحدها: فج ، وهى الطرق الواسعة .

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] حدثنا الفراء قال: حدثنى هشيم عن مغيرة عن إبراهيم أنه قرأ: ﴿ مَالُهُ وَوَلَدُهُ . . . ﴾ .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾

وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً . . . ﴾ .

الكُبَّار: الكبير، والعرب تقول كُبَار.

ويقولون: رجل حُسَّان جُمَّال بالتشديد. وحُسَان جُمَال بالتخفيف فى كثير من أشباهه.

(23/783)

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾

وقوله: ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً . . . ﴾.

هذه آلهة كان إبليس جعلها لهم. وقد اختلف القراء فى وَدَّ، فقرأ أهل المدينة: (وُدًّا) بالضم، وقرأ الأعمش وعاصم: (وَدًّا) بالفتح.

ولم يجروا: (يَغُوثَ، ويَعُوقَ)؛ لأن فيها ياء زائدة. وما كان من الاسماء معرفة فيه ياء أو تاء أو ألف فلا يُجرى. من ذلك: يَمِلك، ويزيد، ويعمَر، وتغلب، وأحمد. هذه لا تُجرى لما زاد فيه. ولو أجريت لكثرة التسمية كان صوابا، ولو أجريت أيضا كأنه يُنْوَى به النكرةُ كان أيضا صوابا.

وهى فى قراءة عبد الله: "ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ويَغوثاً ويَعوقاً ونَسْراً" بالألف، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرا ﴾ يقول: هذه الأصنام قد ضلّ بها قوم كثير. ولو قيل: وقد أضلّت كثيرا، أو

أضللن: كان صوابا .

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴾

وقوله: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ . . . ﴾ .

العرب تجعل (ما) صلة فيما ينوى به مذهب الجزاء ، كأنك قلت: إن خطيئاتهم ما أغرقوا وكذلك رأيتُها فى مصحف عبد الله ، فتأخرها دليل على مذهب الجزاء ، ومثلها فى مصحف عبد الله: ﴿ أيَّ الأجَلَيْنِ ما قضيتُ فلا عُدْوانَ عَلَىّ ﴾ ألا ترى أنك تقول: حيثما تكن أكن ، ومهما تقل أقلْ . ومن ذلك: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُو فَلَه الأَسْماءُ الحسنى ﴾ وصل الجزاء بما ، فإذا كان استفهاماً لم يصلوه بما ؛ يقولون: كيف تصنع ؟ وأين تذهب ؟ إذا كان استفهاماً لم يوصل بما ، وإذا كان جزاء وُصِل وتُرِك الوصل .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾

وقوله: ﴿ دَيَّاراً . . . ﴾ .

(24/783)

وهو من دُرت ، ولكنه فيْعال من الدوران ، كما قرأ عمر بن الخطاب ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيَّامُ ﴾ ، وهو من قمتُ .

﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ تَبَاراً . . . ﴾ : ضلالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 190.187 ﴾

(25/783)

وقال بيان الحق الغزنوى :

[سورة نوح]

(يغفر لكم من ذنوبكم) [4] ما سلف منها ، أو ما استغفرتموه عنها . (ويؤخركم إلى أجل مسمى) [4] في الدنيا . (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) [4] أي: يوم القيامة . وقيل: إن الأجل الأول الموت/ ، والثاني: العذاب . (واستغشوا ثيابهم) [7] تغطوا بها ، وقالوا لا ننظر إليك ولا نسمع منك . (ثم إني دعوتهم جهاراً) [8]

دعاهم على ضروب من الدعاء ، دعاهم فوضى متفرقين بدداً ، ودعاهم سراً فرادى ، ودعاهم جهراً مجتمعين في المحافل ، والمقامات المشهودة . (أطواراً) [14] تارات: نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم رضيعاً ، ثم طفلاً ، ثم يافعاً مترعرعاً ، ثم شاباً ، ثم سوياً قوياً ، ثم

شيخاً كبيراً ، ثم هماً فانياً ، ثم هدماً بالياً .

(وجعل القمر فيهن نوراً) [16] قال ابن عباس: أحد وجهيه يضيء لأهل الأرض ، والثاني لأهل السماء .

(وجعل الشمس سراجاً) [16] فيه إشارة إلى أن نور القمر من الشمس مكتسب ، حيث جعل الشمس بمنزلة نفس السراج ، والقمر بمنزلة ضوئه ونوره . (والله أنبتكم من الأرض) [17] جعل أصلكم من الطين ، وغذاكم بما ينبته الأرض .

(ديارا) [26] أي: أحداً يدور في الأرض ، فيعال من الدوران .

[تمت سورة نوح] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1553.1557 ﴾

(26/783)

وقال الأخفش :

سُورَة نوح عَلَيْهِ السَّلَام

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾

قال ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ أيْ: لا تَخَافُونَ للهِ عَظَمَةً . و"الرَّجاءُ" ها هنا خَوْفٌ و"الوَقارُ" عَظَمَةٌ . وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الثاني والسبعون بعد المئتين]:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا * [وخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نوبٍ عَوَاسِلِ]

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾

وقال ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ طوراً عَلَقَةً وطوراً مُضّغَة.

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾

وقال ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ وانما هو – والله أعلم – على كلام العرب، وانما القمر في السماء الدنيا فيما ذكر [178] كما تقول: "أَتَيْتُ بني تَمِيم" وانما اتيت بعضهم.

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾

وقال ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ فجعل النَّبَاتَ" المصدر، والمصدر "الإِنْبات" لأن هذا يدل على المعنى.

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾

وقال ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ واحدها "الفَجُّ" وهو الطريق.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾

وقال ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ لأن ذا من قول نوح دعاء عليهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 550 ﴾

(27/783)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة نوح

«1»

13 - ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً ؟ ! أي لا تخافون له عظمة .

14 - وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً أي ضروبا ، يقال : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما .

ويقال : بل أراد اختلاف الأخلاق والمناظر .

22 - وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً أي كبيرا . يقال : كبير وكبار وكبّار ، كما يقال : طويل وطوال وطوّال .

23 - و(ود) صنم . ومنه كانت تسمى : العرب عبد ود .

وكذلك : يَغُوثَ . ومنه سمي : عبد يغوث .

و(سواع) ويَعُوقَ و(نسر) كلها : أصنام كانت لقوم نوح عليه السلام ، ثم صارت في قبائل العرب «2» .

---

(1) هي مكية .

(2) هي اسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح وهي اسماء لأناس صالحين لما ماتوا نحتوا لهم

تماثيل ليتذكروا أعمالهم الصالحة ثم جاء من بعدهم فعبدوها من دون اللّه .

وأخرج البخاري عن عطاء عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ودّ كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمذان وأما نسر فكانت لحمير .

(28/783)

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أي من خطيئاتهم ، و«ما» زائدة .

26 - دَيَّاراً أي أحدا . ويقال : ما بالمنازل ديار ، أي ما بها أحد . وهو من «الدار» ، أي ليس بها نازل دار .

28 - إِلَّا تَباراً أي إلا هلاكا . ومنه قوله : وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً [سورة الفرقان آية : 39] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 416. 417 ﴾

(29/783)

وقال الغزنوى :

ومن سورة نوح عليه السلام

4 وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : في الدنيا «1» .

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ : أي : يوم القيامة «2» .

7 وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ : تغطّوا بها لا ننظر إليك «3» ولا نسمع منك .

8 ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ : دعاهم فوضى وفرادى وجهرا وسرا .

10 فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا : قحط النّاس على عهد عمر ، فصعد المنبر

---

(1) قال الماوردي في تفسيره : 4/ 309 : «يعني إلى موتكم وأجلكم الذي خط لكم . . . » .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 397 ، وزاد المسير : 8/ 369 .

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 310 ، عن الحسن .

(3) في «ج» : لا ينظرون إليك ولا يسمعون منك .

ليستسقي فلم يزد على الاستغفار ، فلمّا نزل ، قيل : يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت ، فقال : لقد طلبت الغيث بمجاديح «1» السماء التي بها يستنزل القطر ، ثم قرأ هذه الآية «2» .

14 أَطْواراً : تارات وأحوالا «3» نطفة ، ثم علقة ، ثمّ مضغة ، ثمّ رضيعا ، ثمّ طفلا ، ثمّ يافعا ، ثم شابا ، ثمّ شيخا ، ثمّ همّا «4» ، ثم فانيا .

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً : أحد وجهيه يضيء الأرض ، والثّاني السّماء «5» .

16 وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً : فيه إشارة إلى أنّ نور القمر/ من الشّمس ، [102/ ب] فالشّمس سراج والقمر نور .

17 أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ : جعل أصلكم من الطّين وغذّاكم بنباتها «6» .

26 دَيَّاراً : أحدا يدور في الأرض ، «فيعال» من «الدّوران» «7» .

---

(1) جمع «مجدح» بكسر الميم وسكون الجيم ، ومجاديح السماء : نجومها .

النهاية لابن الأثير : 1/ 243 ، واللسان : 2/ 421 (جدح) .

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف : 3/ 87 حديث رقم (4902) كتاب الصلاة ، باب الاستسقاء ، وأخرجه - أيضا - ابن أبي شيبة في المصنف : 2/ 474 ، كتاب الصلوات ، باب : «من قال لا يصلي في الاستسقاء» ، والطبراني في الدعاء : 2/ 1252 حديث رقم (964) ، باب «ما يستحب من كثرة الاستغفار عند الاستقساء» ، وأورده

الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف : 177 ، وعزا إخراجه إلى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والطبراني في «الدعاء» وغيرهم من رواية الشعبي ثم قال : ورجاله ثقات إلا أنه منقطع . وقال فضيلة الدكتور محمد سعيد البخاري محقق كتاب الدعاء : إسناده حسن لغيره . لضعف شيخ الطبراني ومتابعة غيره له .

(3) تفسير الطبري : 29/ 95 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 229 ، وتفسير الماوردي : 4/ 312 ، والمفردات للراغب : . 309

(4) في «ك» : هرما ، والهمّ : الشيخ الكبير البالي ، كما في اللسان : 12/ 621 (همم) .

(5) ينظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 3/ 188 ، ومعاني الزجاج : 5/ 230 ، وتفسير القرطبي : 18/ 305 .

(6) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 4/ 313 ، والبغوي في تفسيره : 4/ 398 .

(7) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 190 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 488 ، وتفسير الطبري : 29/ 100 ، ومعاني الزجاج : 5/ 231 ، واللسان : 4/ 298 (دور) .

28 وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ : سفينتي «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 840.842 ﴾

(1) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 400 دون عزو ، وكذا الفخر الرازي في تفسيره : 30/ 147 ، والقرطبي في تفسيره : 18/ 314 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 343 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 375 ، وقال : «حكاه الثعلبي» ، وذكره الكرماني في غرائب التفسير : 2/ 1258 دون عزو .

(32/783)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة نوح

عدد 21 - 71 - 77

نزلت بمكة بعد سورة النحل ، وهي ثمان وعشرون آية ، ومثلها في الآي سورة التحريم فقط

، ومئتان وأربع وعشرون كلمة ، وتسعة وتسعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(33/783)

قال تعالى : "إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ" وقلنا له "أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 1 وهو الغرق العام في الدنيا والعذاب الفظيع في الآخرة وهو أخزى وآلم من عذاب الدنيا ، وتقدم نسب سيدنا نوح مع قصته وقومه في الآية 37 من سورة هود المارة ، "قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ" من الله "نَذِيرٌ مُبِينٌ" 2 لا أخفي عليكم شيئا مما أرسلني به إليكم وأول ما آمركم به هو "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ" 3 فيما أرشدكم إليه فإن فعلتم ما أنصح به إليكم "يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ" السابقة التي بينكم وبينه ، أما الحقوق التي بينكم فعليكم أن تؤدوها لمستحقيها ، لأن الإيمان لا يسقطها ، إلا أن تسامحوا بينكم ، وإلا فتعاقبوا عليها وتؤاخذوا بها ، ولهذا المغزى قال تعالى (مِنْ ذُنُوبِكُمْ) أي بعضها ولم يقل ذنوبكم ، لما فيه من الشمول بحقوق الناس ، على أنه إذا شاء فإنه يرضي خصومكم ويتوب عليكم "وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده لم يطلع أحدا عليه ومن رحمته بكم أن أمهلكم ولم يجعل عقوبتكم كي ترجعوا إليه قبل حلوله "إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ" أبدا عن وقته ، لأن العذاب والموت

لهما أجلان عند اللّه لا ينزلهما بعباده إلا بانقضائهما "لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 4 حقيقة ما أقوله لكم وعاقبته لسارعتم لما آمركم به ولقبلتموه نوا ، ولكنكم لستم من أهل العلم لتفقهوا نفع ما جئتكم به ، ولا يقال كيف يقول يؤخركم ، ثم قال إذا جاء لا يؤخر ، لأن اللّه تعالى قضى في سابق علمه أن قوم نوح إذا آمنوا يعمرون ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكوا قبل ذلك ، فقال لهم رسولهم آمنوا يؤخركم إلى وقت سماه لكم تنتهون إليه ، وهو الأطول ، ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت الأقل

(34/783)

لأنه بني على سبب وهو معلق على وجوده ، وذلك مبرم ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية الثانية من سورة الأنعام المارة فراجعه .

ولا شك أنهم لو أطاعوه لعمرهم اللّه كما عمر أهل السفينة الذي يشير إليه قوله (يؤخركم) ولكنهم لمّا أصروا على كفرهم عجل لهم العذاب "قالَ" نوح عليه السلام على طريق الاعتذار والتقدم بأنه قام بواجبه لحضرة ربه أمام قومه بعد أن رأى نفرتهم عن الإيمان وعدم قبولهم النصح ، صار يشكوهم إلى ربه "رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا" 5 دائما مستمرا دائبا في دعوتهم إليك "فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا" 6 مني وإدبارا عني ونفارا من الإيمان بك

"وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ" منذ أمرتني حتى الآن "لِتَغْفِرَ لَهُمْ" ذنوبهم في المدة التي أمهلتهم بها "جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ" لئلا يسمعوا دعوتي وتذكيري بك "وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ" لئلا يروني "وَأَصَرُّوا" على كفرهم "وَاسْتَكْبَرُوا" عن الإيمان وأنفوا من الطاعة "اسْتِكْباراً" 7 تعاظما وتطاولا علي وهوانا بي واستخفافا بما جئتهم به من لدنك ، حتى انهم كرهوا رؤيتي "ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً" 8 بأعلى صوتي في محافلهم وطرقهم ومجتمعاتهم وحدانا وجماعة "ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ" بدعوتي هذه على ملأ منهم "وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً" 8 فيما بيني وبينهم إذ لم أترك طريقا من طرق الإرشاد والنصح إلا سلكته معهم ودعوتهم به "فَقُلْتُ" في تلك الحالات كلها "اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ" من كفركم ومن ظلم بعضكم "إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً" 10 عظيم المغفرة كبير العفو لا يؤاخذ على ما سبق ، لأن الإيمان به يجبّ ما قبله فإن أجبتم فإنه بمحض كرمه وفيض جوده

(35/783)

"يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً" 11 كثيرا يزيل ما حلّ بكم من الجدب ، ومفعال يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وذلك أنه حبس عنهم الغيث وأعقم أرحام نسائهم مدة أربعين سنة لعدم إجابتهم دعوة نبيهم ، ولهذا قال لهم ذلك بإلهام من اللّه تعالى وثقة به أن يفعل لهم ما

يقوله ، والمراد بالسماء السحاب أو المطر ، قال الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال لهم أيضا "وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً"

12 فيها بأن يعطيكم من الخيرات أكثر مما كنتم عليه قبلا ، وقال لهم هذا ليحركهم على الإيمان ويرغبهم بما يحدث عنه ، لأنهم كانوا يحبون الأموال والأولاد فأتاهم من حيث تميل إليه نفوسهم وطبعهم ، روي عن الربيع بن صبيح أن رجلا أتى الحسن البصري (واعلم أنه كلما أطلق لفظ الحسن فقط فالمراد به هذا) فشكا إليه الجدب ، فقال استغفر اللّه ، وشكا إليه آخر الفقر ، فقال استغفر اللّه ، وشكا إليه آخر قلة النسل فقال استغفر اللّه ، وشكا له آخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع أتاك رجال يشكون أمورا متباينة فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فيكون دواء واحد لعلل مختلفة ، فقال ما قلت من نفسي إنما اعتبرت قول اللّه عز وجل حكاية عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه استغفروا ربكم) الآية .

(36/783)

ولما رآهم عليه السلام لا يلتفتون إليه ولا يصغون لهديه هددهم بما حكاه اللّه عنه بقوله "ما لَكُمْ" يا قوم أي شيء جرى لكم وما شأنكم ولم "لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً" 13 فلا تعتقدون عظمته ولا تقدرون هيبته ؟ والوقار معنى السكون والحلم ، وجاء هنا بمعنى العظمة والجبروت ، لأنه يتسبب عنها في الأغلب ، وعليه يكون المعنى لما ذا لا تأملون للّه تعظيما موجبا للإيمان به والطاعة إليه ، ومن قال إن رجا بمعنى خاف واستدل بقول الهذلي : إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ، غير سديد ، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة والقول به يوجب ترجيح رواية الآحاد على التواتر ، وهو غير جائز لإمكان التوسع بالألفاظ وجعل المثبت منفيا وبالعكس ، وهذه الطريقة لا تسلك في الألفاظ القرآنية قطعا .

مطلب أطوار الإنسان رباني عبدة الأوثان وعذاب القبر :

قال تعالى "وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً" 14 من حيث الجنسية كالطير في الضعف والاحتياج عند خروجه من البيضة فلا أضعف ولا أخرج للمداراة منه ، وفي الصفة في كمال الخلق ، فمنكم العالم والجاهل ، والجليل والحقير ، والغني والفقير ، والكريم والبخيل ، والسهل والصعب ، والمريض والصحيح ، وفي الكيفية في الصور من تمام الخلقة وناقصها ، وحسن الخلق وسيئه ، وحسن الخلق وقبحه ، والدميم والقبيح ، وفي ابتداء خلقكم أيضا طورا بعد طور ، وتارة بعد تارة ، وكرة بعد كرة بصورة

تدريجية ، من النطفة إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى لحم وعظام ، إلى قوام بديع ، وبعد تمام

خلقكم جعلكم أصنافا مختلفين أيضا في اللون والشكل واللغة والطبع ، راجع الآيتين 64/ 67 من سورة المؤمن المارة ، والأطوار هي الأحوال المختلفة قال :

فإن أفاق فقد طارت عمايته والمرء يخلق طورا بعد أطوار

(37/783)

و في نقصانه أيضا ضعف في القوى والجوارح إلى أضعف تدريجا إلى حالة الهرم والخرف ، فسبحان المبدئ المعيد الفعال لما يريد القائل "أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً" 15 بعضها فوق بعض "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً" يضيء ليلا "وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً" 16 تضيء نهارا ، وإنما سمى الأول نورا والآخر سراجا ، لأن نور القمر منعكس عليه من الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد عنها مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها ونور الشمس ، لا بطريق الانعكاس من كوكب آخر ، والله أعلم ، راجع الآية 9 من سورة القيامة في ج 1 وما ترشدك إليه تجد ما يتعلق بالكسوف والخسوف .

(38/783)

"وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً" 17 بدأ خلق أصلكم آدم عليه السلام من الأرض والناس كلهم من صلبه ولم يأت المصدر من لفظ الفعل ليكون المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كما هو مشاهد لكم ، لأن الإنبات من لفظ الفعل من صفات للّه تعالى وصفاته غير محسوسه لنا ، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب إلا بإخبار اللّه تعالى ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة اللّه تعالى "ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً" 18 بديعا للحشر والحساب ، أي يحييكم بعد إماتتكم بصورة لا يعرفها البشر ، لأن الإحياء والإماتة من خصائصه جل شأنه ، ثم طفق يعدد عليهم بعض نعمه فقال "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً" 19 لتمكنوا من التقلب فيها كيفما شئتم ، وهذه الآية أيضا لا تنافي كروية الأرض لأنها مبسوطة بالنسبة لما نراه منها ، وقد تكون بخلافه ، وبسبب عظمها لا تظهر كرويتها للناظرين إلا بأدلة ، ثم بين علّة البسط فقال "لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا" طرقا "فِجاجاً" 20 واسعة وضيقة ومختلفة ، والطرق تكون في السهل والجبل ، والفجاج في الجبل فقط ، وبعد أن ذكرهم بذلك كله وعدد عليهم نعم ربه وخوفهم عقابه ، علم بإعلام اللّه إياه عدم إيمانهم ، راجع

الاية 36 من سورة هود المارة

"قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا" سفلتهم وفقراءهم "مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً" 21 في الآخرة يعني رؤساءهم وأغنياءهم لأن مالهم وولدهم وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما بسبب الكفر صارا سببا للخسارة في الآخرة ، وقرىء وولده بضم الواو لغة بالولد بفتحها ويجوز أن يكون جمعا كالفلك فيصدق على الواحد والمتعدّد ، ثم شرع يعدد سيئاتهم فقال "وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً" 22 مبالغة كبير يقرأ بالتخفيف والتشديد ، وذلك لأنهم صدّوا الناس عن اتباعه بشتى الوسائل وسلطوا عليه السفهاء والعيد "وَقَالُوا" رؤساؤهم وقادتهم لأتباعهم وسوقتهم وفقرائهم وسفلتهم "لا تَذَرُنَّ" لا تتركوا "آلِهَتَكُمْ" وداوموا على عبادتها ، ثم أكدوا النهي وصرحوا بأسمائها فقالوا "وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً" 23 كما يقول لكم نوح ، فهذه هي آهتكم فتمكوا بها ولا تنظروا إلى ما يقوله لكم ، أفردوا هذه الأصنام الخمسة بالذكر مع أنها داخلة في آلهتهم ، لأنها عندهم أعظمها ، قالوا كانت ودّ بصورة رجل ، وسواع بصورة أنثى ، ويغوث بصورة أسد ، ويعوق بصورة فرس ، ونسر بصورة نسر ، وكان لكل منها خدم وحشم وجماعة يعظمونها ويرجونها ويخافونها ، ومنهم انتقلت عبادة الأوثان لما بعدهم من الخلق .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : صارت هذه الأوثان التي كانت تعبد قوم نوح في العرب تعبد ، أما ود فكانت لكلب دومة الجندل ، وسواع فكانت

لهذيل ، ويغوث لمراد ، ثم صارت لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، ويعوق لهمدان ، ونسر لحمير لآل ذي الكلاع ، وهذه غير اللات التي كانت تعبدها ثقيف ، والعزّى لسليم ، وغطفان وجشم ومناة لخزاعة بقديد ، وأساف ونائلة وهبل لأهل مكة ، ولذلك سمت العرب أنفسها بعبد يغوث وعبد ودّ وعبد العزّى وغير ذلك (وكبّارا) لغة أهل اليمن ، قال قائلهم :

(40/783)

والمرء يلحقه بفتيان الندى خلق الكريم وليس بالوضّاء

وقال الآخر :

بيضاء تصطاد القلوب وتسمّي بالحسن قلب المسلم القرّاء

بتشديد الضاء في الأول والراء في الثاني ، قال نوح عليه السلام "وَقَدْ أَضَلُّوا" كبراؤهم "كَثِيراً" من الناس "وَلا تَزِدِ" هذه الأصنام "الظَّالِمِينَ" أنفسهم بعبادتها "إِلَّا ضَلالًا" 24 فوق ضلالهم "مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ" العظيمة "أُغْرِقُوا" بسببها "فَأُدْخِلُوا ناراً" عقب إغراقهم بلا فاصلة بدليل العطف بالفاء ، وهذه الآية تدل على عذاب القبر قبل البعث ويبعد حمله على عذاب الآخرة لإبطال دلالة الفاء ، ولوجوب تفسير ادخلوا بفعل الاستقبال الصرف

إلى سيد خلون وهو خلاف الظاهر ، وتدل أيضا على أن من مات غرقا أو حرقا أو أكلته السباع أو الطير أو الحوت مثلا ، أصابه ما أصاب المقبور من عذاب القبر ، قال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من آخر ، وأنشد ابن الأنباري :

الخلق مجتمع طورا ومفترق والحادثات فنون ذات أطوار

لا تعجبن لأضداد إذا اجتمعت فاللّه يجمع بين الماء والنار

"فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً" 25 يخلصونهم من الغرق لا من قادتهم ولا من أوثانهم ، وفي الآية تعريض بتفنيد زعمهم بأن آلهتهم تنصرهم وتهكم في اعتقادهم بها وتوبيخ لهم لأن أصنامهم وزعماءهم أغرقوا معهم .

وقدمنا ما يتعلق بعذاب القبر في الآية 46 من سورة المؤمن وله صلة في الآية 27 من سورة إبراهيم الآتية .

(41/783)

وبعد أن عدد مساوئهم وتحقق إياسه منهم وقد توغر صدره عليه السلام طيلة عشرة قرون تقريبا وهو يدعوهم إلى الإيمان باللّه وترك لأوثان ولم يصغوا له وأصروا على تكذيبهم له وازدادت إهانتهم له ، دعا عليهم كما ذكر اللّه "وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

الْكافِرِينَ دَيَّاراً" 26 يدور عليها أو يسكن فيها ، وهذه الكلمة لا تستعمل إلا بالنفي العام ولم تكرر في القرآن ، يقال ما بالدار ديار أو ديّور ، أي ما بها أحد ، وأصله ديوارا اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في مثلها .

وإشراك غير قومه بالدعاء يثبت عموم بعثته عليه السلام من حيث آخرها كما أشرنا إليه في الآية 73 من سورة يونس المارة ، واستدل بعضهم في هذه الآية على عموم الطوفان ، على أن لفظ الأرض يطلق على قطعة منها ، قال تعالى (فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ) الآية 103

من سورة الإسراء ج 1 ، إذ المراد بها أرض مصر فقط ، وقال تعالى (وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ) الآية 71 منها ، والمراد بها مكة ، لأنه لا قدرة لهم على غيرها ، كما أن سلطان مصر لا حكم له على غيرها لقوله تعالى (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الآية 25 من القصص في ج 1 أيضا ، إذ لو كان لسلطان مصر سلطان على أرض مدين التي فيها شعيب لما قال هذا الكلام لموسى وفي هذه الآية دليل أيضا على أن البلاء يعم لأن الله تعالى أغرق معهم أطفالهم وحيواناتهم ، قال تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الآية 25 من الأنفال في ج 3 ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 44 من سورة يونس فراجعه .

ثم بين السبب في طلب إهلاكهم جميعا بقوله "إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ" يا سيدي على ما هم عليه من الكفر "يُضِلُّوا عِبادَكَ" بسوقهم إلى الضلال ، قال ابن عباس :

(42/783)

كان الرجل منهم يأخذ ابنه إلى نوح عليه السلام ويحذره من اتباعه ويقول له إن أبي حذرني اتباعه وها أبي أحذرك منه فاحذره ، فأوص ولدك من بعدك بعدم اتباعه ، ولهذا قال عليه السلام "وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً" 27 عريقا في الكفر ، إذ تلقاه عن أبيه كما تلقاه أبوه عن جده ، ولشدة إصراره عليه بوصي به ولده من بعده .

ثم انه عليه السلام لما رأى دعوته هذه قد أجيبت بإلهام من اللّه تعالى له وظن أن ذلك ناشىء من عدم قيامه بالدعوة الإلهية كما ينبغي من إدمان الصبر وتحمل الأذى استغفر ربه عز وجل وقال "رَبِّ اغْفِرْ لِي" ما وقع مني من التقصير في خدمتك ودعوة عبادك واستعجالي عليهم بالدعاء ، وهذا على الاحتمال وهضما للنفس ، وإلا فهو عليه السلام مبرا من التقصير وحاشاه أن يوصف بالاستعجال بعد صبره عليهم ألف سنة تقريبا ، ولكن الأنبياء يخافون ربهم بقدر قربهم منه ، والعبد كلما قرب من ربه عظمت هيبته في صدره وازداد خوفا منه وبدأ بطلب المغفرة لنفسه أولا ، لأنها أولى بالتقديم ، وهكذا كان

محمدا صلى اللّه عليه وسلم يبدأ بنفسه بالدعاء ثم يثني بالمتصلين به لأنهم أحق من غيرهم ، فقال "وَلِوالِدَيَّ" أبيه لمك بن متوشلح وأمه شمناء بنت انوش ، قالوا وكان بينه وبين آدم عليه السلام عشرة آباء كلهم مؤمنون ، ثم عمم بدعائه فقال "وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً" قيد بالمؤمن

(43/783)

لإخراج الكافر لأنهم من جملة من دخلوا بيته "وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" عامة فتشتمل دعوته هذه كل مؤمن ومؤمنة من آدم إلى آخر الدوران "وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً" 28 هلاكا ودمارا وخرابا ، فاستجاب اللّه تعالى دعاءه فأغرقهم جميعا على الصورة المارة في قصته في سورة هود المذكورة ، أما وقد أجاب اللّه دعاءه بإهلاك قومه ومن على أرضه في زمنه ، فهو أكرم من أن لا يجيب دعاءه بالمغفرة له وللمؤمنين قبله وبعده بمنه وكرمه وعسى أن تكون ممن شملته دعوته بالمغفرة لعموم لفظها بلطفه وعطفه ومنّه .

ولا توجد سورة مختومة بما ختمت به ، ولم تكرر في القرآن أيضا ، ومثل ما بدئت به مر في سورة القدر في ج 1 .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم ، وصلى اللّه وسلم على

سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، آمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 264 . 271 ﴾

(44/783)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة نوح عليه السلام

مكية

اليم كاف إلى أجل مسمى حسن وكذا تعلمون فرارا كاف وكذا استكبار جهارا صالح وكذا أنهارا أطوارا تام سراجا حسن إخراجا تام وكذا فجاجا كبارا كاف ونسرا تام وكذا كثيرا وضلالا وأنصارا ديارا حسن كفارا أحسن منه والمؤمنات تام وكذا آخر السورة تام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(45/783)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة نوح عليه السَّلام

مكية ثلاثون آية كلمها مائتان وأربع وعشرون كلمة وحروفها تسعمائة وعشرون حرفاً

أليم (كاف)

مبين (حسن) إن جعلت أن تفسيرية بمعنى أي اعبدوا الله وليس بوقف إن جعلت

مصدرية أي أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار

واتقوه (جائز) ولا يوقف على و أطيعون لأن يغفر بعده مجزوم لأَنَّه جواب الأمر

مسمى (كاف)

لا يؤخر (جائز) لأنَّ لو جوابها محذوف تقديره لو كنتم تعلمون لبادرتم إلى طاعته وتقواه

تعلمون (حسن) ومثله ونهاراً

إلاَّ فراراً (كاف) ومثله استكباراً

جهاراً (جائز)

إسراراً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله ومثله في عدم الوقف غفاراً وكذا مدراراً و

بنين لعطفهما على الجواب

أنهاراً (كاف) للابتداء بالاستفهام

وقاراً (جائز) على استئناف ما بعده

أطواراً (تام)

طباقاً (حسن) ومثله نوراً وكذا سراجاً ومثله نباتاً

إخراجاً (تام)

بساطاً ليس بوقف

فجاجاً (تام)

عصوني (جائز)

إلا خساراً (حسن)

كُبَّاراً (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله

آلهتكم (جائز)

ونسراً (تام) عند الأخفش ونافع لأنَّ ما بعده ليس معطوفاً على المقول

كثيراً (حسن) ومثله إلاَّ ضلالاً

ناراً (جائز) على القراءتين قرء خطيآتهم جمع تصحيح مجرور بالكسرة الظاهرة وقرأ أبو

عمرو خطاياهم جمع تكسير مجرور بالكسرة المقدرة على الألف وهو بدلٌ من ما

أنصاراً (حسن) ومثله دياراً

كفاراً (أحسن) مما قبله لأنَّ الله أخبر نوحاً أنَّهم لا يلدون مؤمناً . كان الرجل منهم ينطلق إلى

نوحٍ بابنه فيقول له احذر هذا فإنَّ أبي حذَّرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك قاله

النكزاوي

والمؤمنات (تام) ومثله آخر السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(46/783)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة نوح عليه الصلاة والسلام

مكية وآيها عشرون وثمان كوفي وتسع بصري ودمشقي وثلاثون حجازي وحمصي خلافها

خمس فيهن نورا حمصي وسواعا غيره فادخلوا نارا ونسرا كوفي وحمصي ومدني أخيرا

ضلوا كثيرا مكي ومدني أول القراآت قرأ أن اعبدوا الله بكسر النون أبو عمرو وعاصم

وحمزة ويعقوب وأثبت الياء في وأطيعون في الحالين يعقوب وأبدل الهمزة واوا مفتوحة في (

ويؤخركم ولا يؤخر) ورش من طريقيه وأبو جعفر كوقف حمزة وفتح ياء دعائي إلا نافع وابن

كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وكذا إني أعلنت لهم غير ابن عامر فسكنها كالباقين

وعن الحسن فتح ياء قومي ومر للأزرق تفخيم الراء من فرارا كالجماعة لأجل تكرارها

وضم يعقوب الهاء من فيهن نورا بلا خلاف ووقف عليها بهاء السكت بخلفه

واختلف في (وولده) الآية 21 فنافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح الواو واللام وعن الحسن بكسر الواو وسكون اللام والباقون بضم الواو وسكون اللام قيل الفتح والضم لغتان كالبخل والبخل وقيل المضموم جمع المفتوح كأسد وأسد وعن ابن محيصن كبارا بكسر الكاف وتخفيف الباء جمع كبير واختلف في (ودا) الآية 23 فنافع وأبو جعفر بضم الواو والباقون بفتحها لغتان في اسم صنم في عهد نوح وعن المطوعي يغوثا ويعوقا بالتنوين مصروفين للتناسب نحو سلاسل

وقرأ ﴿ خطاياهم ﴾ الآية 25 بوزن قضاياهم أبو عمرو والباقون (خطيئاتهم) بالألف والتاء المكسورة جرا ووقف يعقوب بخلفه على ولوالدي بهاء السكت وفتح ياء بيتي هشام وحفص وسكنها الباقون ياءات الإضافة أربعة (قومي) الآية 2 للحسن ( ) دعائي إلا (الآية 6 ( ) إني أعلنت لهم ( ) الآية 9 ( ) بيتي مؤمنا (الآية 28 وفيها زائدة (وأطيعون) الآية 3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(47/783)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة نوح عليه السلام "

نذير ، أن اعبدوا ، لتغفر ، استغفروا ، سراجا ، إخراجا ، كثيرا ، فاجرا ، واضح

" وأطيعون " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها غيره كذلك .

" ويؤخركم لا يؤخر " أبدل ورش وأبو جعفر الهمزة واوا خالصة مطلقا ، وكذلك حمزة عند الوقف .

" دعائي إلا " أسكن الياء الكوفيون ويعقوب وفتحها غيرهم .

" فرارا ، إسرارا ، مدرارا " يفخم ورش الراء فيها كالباقين للتكرار .

" إني أعلنت " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" فيهن " ضم الهاء يعقوب ووقف بهاء السكت .

" وولده " قرأ المكي والبصريان والأخوان وخلف بضم الواو الثانية وإسكان اللام والباقون بفتح الواو واللام .

" ودا " قرأ المدنيان بضم الواو وغيرهما بفتحها .

" خطيئاتهم " قرأ أبو عمرو خطاياهم بفتح الخاء والطاء وألف بعدها وبعد الألف ياء بعدها ألف مع ضم الهاء بوزن قضاياهم ، والباقون بفتح الخاء وكسر الطاء ، وبعدها ياء ساكنة مدية ، وبعدها همزة مفتوحة ممدودة ، وبعدها تاء مكسورة مع كسر الهاء .

" بيتي " فتح الياء هشام وحفص واسكنها غيرهما .

" تبارا " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

ابتغى مسمى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، آذانهم لدوري الكسائي ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " يغفر لكم ، اغفر لي للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " أقسم برب ، الأجداث سراعا ، لا يؤخر لو ، قال رب ، لتغفر لهم ، خلقكم ، الشمس سراجا ، جعل لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 336 ﴾

(48/783)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة نوح عليه السلام

قوله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ يقرأ بضم النون وكسرها وقد ذكر فيما تقدم قوله تعالى ﴿ ماله وولده ﴾ يقرأ بضم الواو وإسكان اللام وبفتحهما معا فالمفتوح واحد والضم جمع

كما قالوا أسد وأسد وقيل هما لغتان في الواحد كما قالوا عدم وعدم ومنه المثل ولدك من دمي عقبيك أي من ولدته

قوله تعالى ﴿ ودا ﴾ يقرأ بفتح الواو والضم وهما لغتان في إسم الصنم وقيل الضم في المحبة والفتح في اسم الصنم

قوله تعالى ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ إجماع القراء على جمع السلامة إلا أبا عمرو فإنه قرأه خطاياهم على جمع التكسير وقال إن قوما كفروا ألف سنة لم يكن لهم إلا خطيات بل خطايا واحتج أصحاب القراءة الأولى بأن الألف والتاء قد تأتي على الجمع القليل والكثير ودليله قوله تعالى ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ ولا يقال هذا جمع قليل

قوله تعالى ﴿ دعائي إلا ﴾ يقرا بالمد وفتح الياء وإسكانها ومثله الياء في ﴿ بيتي ﴾ وقد ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 353 ﴾

(49/783)

وقال ابن زنجلة :

71 - سورة نوح عليه السلام

واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا 21

قرأ نافع وابن عامر وعاصم ماله وولده بفتح الواو واللام وقرأ الباقون بضم الواو وسكون اللام

قال الفراء هما لغتان مثل الحزن والحزن والرشد والرشد والبخل والبخل ويدل على أن الولد يكون واحدا ما أنشده

فليت فلانا كان في بطن أمه . . . وليت فلانا كان ولد حمار . . .

وقال الزجاج الولد واحد والولد بالضم جمع مثل أسد وأسد وقال ابن أبي حماد الولد بالضم ولد الولد والولد بالفتح ولد الصلب والولد بالضم يصلح للواحد وللجمع والولد لا يصلح إلا للواحد فلهذا قرأ أبو عمرو ها هنا بالضم ولا تذرن ودا ولا سواعا 23

قرأ نافع ولا تذرن ودا بضم الواو وقرأ الباقون بفتح الواو وهما لغتان وهو اسم صنم كانوا يقولون عبد ود وود مما خطيئتهم أغرقوا 25

قرأ أبو عمرو مما خطاياهم مثل قضاياهم وحجته أن الخطايا أكثر من الخطيئات لأن جمع المؤنث بالتاء في الأغلب من كلام العرب أن يكون للقليل مثل نخلة ونخلات وبقرة وبقرات قال الأصمعي كان أبو عمرو يقرأ خطاياهم ويقول إن قوما كفروا ألف سنة كانت لهم خطيئات لا بل خطايا يذهب أبو عمرو إلى أن التاء والألف للجمع القليل و خطايا جمع التكسير وهو للتكثير وحجته إجماع الجميع في سورة البقرة نغفر لكم خطاياكم

وكان الأصل خطاءا على وزن خطاعى ثم لينت الهمزة فقيل خطايا وقد بينت في سورة

الأعراف

وقرأ الباقون خطيئاتهم بالتاء وحجتهم مرسوم المصاحف بالتاء وهو جمع السلامة في المؤنث قالوا إن الألف والتاء تكون للقليل والكثير وإليه ذهب الكسائي لأن الله قال ما نفدت كلمات الله فليست كلمات الله قليلة وقال وهم في الغرفات آمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 725 . 727﴾

(50/783)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة نوح عليه السلام 71

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي ونظيرتها فيه الجن

وكلمها مئتان وأربع وعشرون كلمة

وحروفها تسع مئة وتسعة وعشرون حرفا

وهي عشرون وثماني آيات في الكوفي وتسع في البصري والشامي وثلاثون آية في المدنيين والمكي

اختلافها أربع آيات (﴿ ولا سواعا ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ ويعوق ونسرا ﴾) عدها المدني الأخير والكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾) عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ فأدخلوا نارا ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ فيهن نورا ﴾) ورؤوس الآي

أليم

1 مبين

2 وأطيعون

3 تعلمون

4 ونهارا

5 فرارا

6 استكبارا

7 جهارا

8 إسرارا

9 غفارا

10 مدرارا

11 أنهارا

12 وقارا

13 أطوارا

14 طباقا

15 سراجا

16 نباتا

17 إخراجا

18 بساطا

19 فجاجا

20 خسارا

21 كبارا

22 سواعا

أنصارا

25 ديارا

26 كفارا

27 تبارا

28 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 255﴾

(51/783)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة نوح عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أن أنذر) يجوز أن تكون بمعنى أي ، وأن تكون مصدرية ، وقد ذكرت نظائره ، و (طباقا) قد ذكر في الملك ، و (نباتا) اسم للمصدر فيقع موقع إتبات ؟ ؟ ؟ ونبت وتنبيت ، وقيل التقدير : فنبتم نباتا ، و (منها) يجوز أن يتعلق بتسلكوا ، وأن يكون حالا ، و (كبارا) بالتشديد والتخفيف بمعنى كبير ، و (ودا) بالضم

والفتح لغتان ، وأما (يغوث ويعوق) فلا ينصرفان لوزن الفعل والتعريف .

وقد صرفهما قوم على أنهما نكرتان .

قوله تعالى (مما خطاياهم) " ما " زائدة .

أي من أجل خطاياهم (أغرقوا) وأصل (ديارا) ديوار لأنه فيعال من دار يدور ثم أدغم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(52/783)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة نوح

[سورة نوح (71): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1)

"إِنَّا أَرْسَلْنا" إن واسمها وماض وفاعله "نُوحاً" مفعوله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "إِلى قَوْمِهِ" متعلقان بالفعل. "أَنْ أَنْذِرْ" حرف تفسير وأمر فاعله مستتر. "قَوْمَكَ" مفعول به والجملة الفعلية مفسرة لا محل لها. "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بالفعل "أَنْ يَأْتِيَهُمْ" مضارع منصوب بأن ومفعوله "عَذابٌ" فاعل "أَلِيمٌ" صفة والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة.

[سورة نوح (71): آية 2]

قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "يا" حرف نداء "قَوْمِ إِنِّي" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وجملة النداء مقول القول وإن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بالخبر "نَذِيرٌ" خبر إنّ "مُبِينٌ" صفة والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة نوح (71) : آية 3]

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3)

"أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ" أن حرف تفسير وأمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مفسرة لا محل لها "وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ" معطوفان على اعبدوا .

[سورة نوح (71) : آية 4]

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

(53/783)

"يَغْفِرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر والجملة جواب الطلب لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ ذُنُوبِكُمْ" متعلقان بالفعل أيضا وهما بمثابة المفعول به "وَيُؤَخِّرْكُمْ"

معطوف على ما قبله "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بالفعل "مُسَمًّى" صفة "إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ" إن واسمها المضاف إلى لفظ الجلالة "إِذا جاءَ" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "لا يُؤَخَّرُ" نافية ومضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها وإذا مع شرطها وجوابها خبر إن والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . ابتدائية لا محل لها .

[سورة نوح (71) : الآيات 5 الى 6]

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف وجملة النداء مقول القول "إِنِّي دَعَوْتُ" إن واسمها وماض وفاعله "قَوْمِي" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن "لَيْلاً" ظرف زمان "وَنَهاراً" معطوف على ليلا "فَلَمْ يَزِدْهُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع مجزوم بلم والهاء مفعوله الأول "دُعائِي" فاعل مؤخر "إِلَّا" حرف حصر "فِراراً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة نوح (71) : آية 7]

وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7)

"وَإِنِّي" الواو حرف عطف وإن واسمها "كُلَّما دَعَوْتُهُمْ" كلما أداة شرط غير جازمة وماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "لِتَغْفِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بالفعل تغفر "جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "فِي آذانِهِمْ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول الثاني والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها "وَاسْتَغْشَوْا" معطوف على جعلوا "ثِيابَهُمْ" مفعول به "وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا" معطوف على استغشوا "اسْتِكْباراً" مفعول مطلق.

[سورة نوح (71) : الآيات 8 الى 9]

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9)

"ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ" ثم حرف عطف وإن واسمها وماض وفاعله ومفعوله "جِهاراً" مفعول مطلق والجملة خبر إن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "إِنِّي أَعْلَنْتُ" إن واسمها وماض وفاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ" معطوف على أعلنت لهم "إِسْراراً" مفعول مطلق.

[سورة نوح (71) : الآيات 10 الى 11]

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11)

(55/783)

"فَقُلْتُ" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "اسْتَغْفِرُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "رَبَّكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول "إِنَّهُ" إن اسمها "كانَ" ماض ناقص واسمها مستتر "غَفَّاراً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "يُرْسِلِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "السَّماءَ" مفعول به "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "مِدْراراً" حال والجملة جواب الطلب لا محل لها .

[سورة نوح (71) : آية 12]

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12)

"وَيُمْدِدْكُمْ" معطوف على يرسل والكاف مفعول به "بِأَمْوالٍ" متعلقان بالفعل "وَبَنِينَ" معطوف على أموال "وَيَجْعَلْ" معطوف على ما قبله "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "جَنَّاتٍ" مفعول به "وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً" كإعراب سابقه .

[سورة نوح (71) : الآيات 13 الى 14]

ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

"ما" اسم استفهام مبتدأ "لَكُمْ" خبر والجملة مقول القول "لا تَرْجُونَ" لا نافية ومضارع وفاعله "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل "وَقاراً" مفعول به والجملة الفعلية حال "وَ" الواو حالية "قَدْ خَلَقَكُمْ" حرف تحقيق وماض ومفعوله والفاعل مستتر "أَطْواراً" حال والجملة حالية.

[سورة نوح (71) : آية 15]

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15)

"أَلَمْ تَرَوْا" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله "كَيْفَ" اسم استفهام حال "خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ" ماض وفاعله ومفعوله "سَماواتٍ" مضاف إليه "طِباقاً" صفة سبع وجملة خلق سدت مسد مفعولي تروا.

[سورة نوح (71) : آية 16]

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16)

"وَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر "الْقَمَرَ" مفعول به أول "فِيهِنَّ" حال "نُوراً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها وما بعده معطوف عليه .

[سورة نوح (71) : الآيات 17 الى 18]

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (18)

"وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ" الواو حرف عطف ولفظ الجلالة مبتدأ وماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "نَباتاً" مفعول مطلق "ثُمَّ يُعِيدُكُمْ" ثم حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "فِيها" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَيُخْرِجُكُمْ" معطوف على يعيدكم "إِخْراجاً" مفعول مطلق .

[سورة نوح (71) : الآيات 19 الى 20]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

"وَاللَّهُ جَعَلَ" لفظ الجلالة مبتدأ وماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به أول "بِساطاً" مفعول به ثان والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "لِتَسْلُكُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بجعل "مِنْها" متعلقان بالفعل "سُبُلاً" مفعول به "فِجاجاً" صفة وتعني فجاجا واسعا .

[سورة نوح(71) : آية 21]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21)

(57/783)

"قالَ نُوحٌ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "إِنَّهُمْ عَصَوْنِي" إن واسمها وماض وفاعله والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة خبر إن وجملة النداء وما بعدها مقول القول "وَاتَّبَعُوا" ماض وفاعله "مَنْ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "لَمْ يَزِدْهُ" مضارع مجزوم بلم والهاء مفعول به "مالُهُ" فاعل "وَوَلَدُهُ" معطوف على ماله "إِلَّا" حرف حصر "خَساراً" مفعول به ثان والجملة صلة من .

[سورة نوح(71) : آية 22]

وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22)

"وَمَكَرُوا" ماض وفاعله "مَكْراً" مفعول مطلق "كُبَّاراً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة نوح(71) : آية 23]

وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23)

"وَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لا تَذَرُنَّ" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون للتوكيد "آلِهَتَكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول "وَلا تَذَرُنَّ" معطوف على ما قبله "وَدًّا" مفعول به وما بعده معطوف عليه.

[سورة نوح (71) : آية 24]

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24)

"وَقَدْ" الواو حالية "وَقَدْ أَضَلُّوا" قد حرف تحقيق وماض وفاعله "كَثِيراً" مفعول به والجملة حال "وَلا تَزِدِ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به أول "إِلَّا" حرف حصر "ضَلالًا" مفعول به ثان.

[سورة نوح (71) : آية 25]

مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25)

"مِمَّا" من حرف جر "ما" زائدة "خَطِيئاتِهِمْ" مجرور بمن والجار والمجرور متعلقان بما بعدهما "أُغْرِقُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها

"فَأُدْخِلُوا" معطوف على أغرقوا "ناراً" مفعول به ثان "فَلَمْ يَجِدُوا" الفاء حرف عطف ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ دُونِ اللَّهِ" من دون حال ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَنْصاراً" مفعول به.

[سورة نوح (71) : آية 26]

وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26)

"وَقالَ نُوحٌ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "رَبِّ لا تَذَرْ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف ومضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر "عَلَى الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْكافِرِينَ" حال "دَيَّاراً" مفعول به وجملة النداء والجملة الفعلية مقول القول.

[سورة نوح (71) : آية 27]

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (27)

"إِنَّكَ" إن واسمها "إِنْ تَذَرْهُمْ" إن شرطية جازمة ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "يُضِلُّوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والواو فاعله "عِبادَكَ" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها والشرط وجوابه خبر إنك والجملة الاسمية مقول القول "وَلا يَلِدُوا" لا نافية ومضارع وفاعله "إِلَّا" حرف حصر "فاجِراً" مفعول به "كَفَّاراً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة نوح (71) : آية 28]

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28)

(59/783)

"رَبِّ اغْفِرْ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف وفعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بالفعل "وَلِوالِدَيَّ" معطوف على لي "وَلِمَنْ" معطوفان على أيضا "دَخَلَ" ماض فاعله مستتر "بَيْتِيَ" مفعول به "مُؤْمِناً" حال والجملة صلة "وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" عطف على ما قبله "وَلا تَزِدِ" مضارع مجزوم بلا فاعله مستتر "الظَّالِمِينَ" مفعول به أول "إِلَّا" حرف حصر "تَباراً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 384. 387 ﴾

(60/783)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة نوح عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1404 - قَوْله

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه انه خرج يَسْتَسْقِي فَمَا زَاد عَلَى الاسْتِغْفَار فَقيل لَهُ مَا رَأَيْنَاك اسْتَسْقَيْت فَقَالَ لقد اسْتَسْقَيْت بِمَجَادِيح السَّمَاء الَّتِي يسْتَنْزل بهَا الْمَطَر

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق وَابْن أبي شيبَة فِي مصنفيهما فِي الاسْتِسْقَاء وَالطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء لَهُ وَالْبَيْهَقِيّ فِي سننه والطبري والثعلبي فِي تفسيريهما كلهم من حَدِيث سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن مطرف عَن الشّعبيّ أَن عمر خرج يَسْتَسْقِي . . . إِلَى آخِره وَزَادُوا ثمّ قَرَأَ اسْتَغْفرُوا ربكُم . . . إِلَى آخر الْآيَة

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط

قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة إِسْنَاده صَحِيح لكنه مُرْسل فَإِن الشّعبيّ لم يدْرك عمر انْتَهَى

1405 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس وَابْن عمر إِن الشَّمْس وَالْقَمَر وُجُوههمَا مِمَّا يَلِي السَّمَاء وَظُهُورهمَا مِمَّا يَلِي الْأَرْض

قلت غَرِيب رَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي أول سُورَة يُونُس من حَدِيث حَمَّاد بن سَلَمَة عَن عَلّي بن زيد عَن يُوسُف بن مهْرَان عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى هُوَ الَّذِي جعل الشَّمْس

ضِيَاء وَالْقَمَر نورا قَالَ وُجُوههمَا إِلَى السَّمَاء وَأَقْفِيَتهمَا إِلَى الأَرْض

وَرُوِيَ أَيضا من حَدِيث حَمَّاد بن سَلمَة عَن عبد الْجَلِيل عَن شهر بن حَوْشَب عَن عبد الله بن عَمْرو نَحوه

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر عَن قَتَادَة قَالَ قَالَ عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ إِن الشَّمْس وَالْقَمَر وُجُوههمَا قبل السَّمَاء وَأَقْفِيَتهمَا قبل الأَرْض انْتَهَى

(61/783)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره اُخْبُرْنَا يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا ابْن ثَوْر عَن معمر بِهِ

حَدثنَا مُحَمَّد بن يسَار ثَنَا معَاذ بن هِشَام الدستوَائي ثَنَا أبي عَن قَتَادَة عَن شهر بن حَوْشَب عَن عبد الله بن عَمْرو . . . فَذكره

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث يُوسُف بن مهْرَان عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله وَجعل الْقَمَر فِيهِنَّ نورا قَالَ وَجهه إِلَى الْعَرْش وَقَفاهُ إِلَى الأَرْض انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

1406 - الْحَدِيث الأول

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام من قتل قَتِيلا فَلَهُ سلبه

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم وَتقدم أول الْبَقَرَة

1407 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ النَّبِي عَلَيْهِ السَّلَام يهْلكُونَ مهْلكا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مصَادر شَتَّى

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفِتَن فِي بَاب فتح ردم يَأْجُوج وَمَأْجُوج من حَدِيث عبد الله بن الزُّبَيْر عَن عَائِشَة قَالَت عَبث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي مَنَامه فَقُلْنَا لَهُ يَا رَسُول الله صنعت فِي مَنَامك شَيْئًا لم تكن تَفْعَلهُ قَالَ الْعجب أَن أُنَاسًا من أمتِي يؤمُّونَ هَذَا الْبَيْت لرجل من قُرَيْش قد لَجأ بِالْبَيْتِ حَتَّى إِذا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خسف بهم فَقُلْنَا يَا رَسُول الله إِن الطَّرِيق قد يجمع النَّاس فَقَالَ نعم فيهم الْمُسْتَنْصر وَالْمَجْبُور وَابْن السَّبِيل وَيهْلكُونَ مهْلكا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مصَادر شَتَّى يَبْعَثهُم الله عَلَى نياتهم انْتَهَى

وَعَزاهُ الْمزي فِي أَطْرَافه لمُسلم فِي الْحَج وَمَا وجدته إِلَّا فِي الْفِتَن

1408 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة نوح كَانَ من الْمُؤمنِينَ الَّذين تُدْرِكهُمْ دَعْوَة نوح

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ اخبرني مُحَمَّد بن الْقَاسِم ثَنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن شَادَّة ثَنَا احْمَد بن مُحَمَّد بن الْحسن ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا سلم بن قُتَيْبَة عَن سعيد عَن عَاصِم بن بَهْدَلَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَد يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 93.95﴾

(63/783)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة نوح» عليه السلام (71)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«أَصَرُّوا» (7) أقاموا عليه . .

«ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً» (13) لا تخافون للّه وقارا . .

«وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً» (14) طورا كذا وطورا كذا «1» . .

«مَكْراً كُبَّاراً» (22) مجازها : كبيرا ، والعرب قد تحوّل لفظ «كبير» إلى فعال مخففة ويثقلون ليكون أشدّ فالكبّار أشدّ من الكبار وكذلك جمّال جميل لأنه أشد مبالغة «2» . .

«لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً» (23) أسماء آلهة أصنام لبعض العرب فى الجاهلية . .

«مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ» (25) من خطيئاتهم . .

«دَيَّاراً» (26) أحدا «3» ، يقولون : ليس بها ديّار وليس بها عريب . .

«إِلَّا تَباراً» (28) إلّا هلاكا «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 271 ﴾

---

(1) . - 5 «أطوارا . . . وطورا كذا» : هذا الكلام فى البخاري (انظر فتح الباري 8/ 510)

(2) . - 6 - 7 «كبارا . . . مبالغة» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 510) .

(3) . - 11 «ديارا أحدا» : هو فى البخاري قال ابن حجر عن أبى عبيدة وزاد يقولون . . .

غريب (فتح الباري 8/ 510) .

(4) . - 12 «تبارا هلاكا» : هو فى البخاري وأشار إليه ابن حجر بأنه قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 510) .

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة نوح عليه السلام

تسع وعشرون أو ثمان وعشرون آية

مكيّة ، قاله عبد اللّه بن [عباس] «1» وأخرجه عنه ابن [الضريس] «2» والنحاس وابن مردويه .

[الآيات : الأولى والثانية والثالثة]

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) .

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) : أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص النية ، إنه كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل : معنى استغفروا : توبوا عن الكفر إنه كان غفارا للتّائبين عنه «3» .

يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) : المراد بالسماء : المطر .

والمدرار الدّرور : وهو التحلب بالمطر ، أي إرسالا مدرارا .

وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال :

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) : جارية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 460 ﴾

---

(1) حرّفت في «المطبوعة» إلى (عبد اللّه بن الزبير) وهو خطأ ، وما أثبتت هو الصواب كما في «الدر المنثور» (8/ 288) ، وفتح القدير (5/ 296) .

(2) صحّفت إلى (الفريس) وهو خطأ واضح والتصويب أيضا من فتح القدير (5/ 296) .

(3) انظر : الطبري (29/ 57) ، والنكت (4/ 309) ، زاد المسير (8/ 368) ، القرطبي (18/ 299) . [. . . . .]

(65/783)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «نوح» عليه السلام

[سورة نوح (71) : آية 13]

ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13)

قوله سبحانه : ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً [13] وهذه استعارة . لأن الوقار ها هنا وضع وضع الحلم مجازا . يقال : رجل وقور . بمعنى حليم .

فأما حقيقة الوقار الذي هو الرزانة والثقل فلا يجوز أن يوصف بها القديم سبحانه ، لأنها من صفات الأجسام ، وإنما يجوز وصفه تعالى بالوقار ، على معنى الحلم كما ذكرنا .

والمعنى أنه يؤخر عقاب المذنبين مع الاستحقاق ، إمهالا للتوبة ، وإنظارا للفيئة والرجعة . لأن الحليم فى الشاهد اسم لمن يترك الانتقام عن قدرة . ولا يسمى غير القادر إذا ترك الانتقام حليما ، للعلّة التي ذكرناها . وقوله تعالى : لا تَرْجُونَ ها هنا أي لا تخافون . فكأنه سبحانه قال : ما لكم لا تخافون للّه حلما ؟ وإنما أخّر عقوبتكم ، إمهالا لكم ، وإيجابا للحجة عليكم .

وإلّا فعقابه من ورائكم ، وانتقامه قريب منكم .

وقد جاء فى شعر العرب لفظ الرجاء ، والمراد به الخوف . ولا يرد ذلك إلا وفى الكلام حرف نفى . لا يقال : فلان لا يرجو فلانا بمعنى يخافه ، بل يقال : فلان لا يرجو فلانا . أي لا يخافه . وقال الهذلي أبو ذؤيب «1» :

إذا لسعته الدّبر «2» لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عواسل «3»

أراد : لم يخف لسعها .

---

(1) أبو ذؤيب الهذلي : تقدمت الإشارة إليه والترجمة له فى الحديث عن مجازات سورة الزمر .

(2) الدبر : جماعة النحل والواحدة دبرة .

(3) فى الأصل «عوامل» والتصويب عن «ديوان الهذليين» ورواية ابن قتيبة فى «تأويل مشكل القرآن» عوامل بالميم كما فى الأصل . ص 147 .

وقال الآخر «1» :

لا ترتجى حين تلاقى الذائدا أخمسة لاقت معا أو واحدا

أي لا تخاف . وقال بعض العلماء : إنما كنوا عن الخوف بالرجاء فى هذه المواضع ، لأن الراجي ليس يستيقن ، فمعه طرف من المخافة . وقال بعضهم : الوقار ها هنا بمعنى العظمة وسعة المقدرة . وأصل الوقار ثبوت ما به يكون الشيء عظيما من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل .

ومن ذلك قول القائل : قد وقر قول فلان فى قلبى . أي ثبت واستقرّ ، أو خدش وأثر .

[سورة نوح (71) : آية 17]

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17)

وقوله سبحانه : وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً [17] وهذه استعارة . لأن حقيقة الإنبات إنما تجرى على ما تطلعه الأرض من نباتها ، وتخرجه عند ازدراعها . ولما كان سبحانه يخرج البرّية من مضايق الأحشاء ، إلى مفاسح الهواء ، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر ، وينقلهم من الهيئات والصور ، كل ذلك على وجه الأرض ، جاز أن يقول سبحانه : وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ .

وقال بعضهم قد يجوز أن يكون المراد بذلك خلق آدم عليه السلام من الطين ، وهو أصل الخليقة . فإذا خلقه سبحانه من طين الأرض كان نسله مخلوقين منها ، لرجوعهم إلى الأصل المخلوق من طينها . فحسن أن يقول سبحانه : وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أي استخرجكم من طين الأرض . ونباتا هاهنا مصدر وقع مخالفا لما يوجبه بناء فعله . وكان الوجه أن يكون : إنباتا . لأنه فى الظاهر مصدر أنبتكم . وقد قيل إن هناك فعلا محذوفا

---

(1) لم ينسب فى «أساس البلاغة» لقائله . وروى فى الأساس هكذا :

لا ترتجى حين تلاقى الذائدا أسبعة لاقت معا أم واحدا

جرى المصدر عليه ، فكأنه تعالى قال : والله أنبتكم من الأرض فنبتّم نباتا . لأن أنبت يدل على نبت من جهة أنه مضمن به .

[سورة نوح (71) : الآيات 19 الى 20]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

وقوله سبحانه : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً [19 ، 20]

وهذه استعارة . والمراد بالبساط هاهنا : المكان الواسع المستوي .

مشبّه بالبساط ، وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه .

وقال الأصمعى «1» : وبنو تميم خاصة يقولون بساط ، بفتح الباء . وقال الشاعر : «2»

ودون يد الحجّاج من أن ينالنى بساط لأيدى الناعجات «3» عريض

وتصيير الأرض بساطا ، كتصييرها فراشا ومهادا .

وهذه الألفاظ الثلاثة ترجع إلى معنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 349.347 ﴾

(1) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الراوية المشهور وأحد علماء اللغة الأثبات .

ونسب إلى جده «أصمع» وكان يتلقى الأخبار مشافهة من البوادي ويتحف بها الخلفاء فيكافأ عليها بأجزل الهبات. قال فيه الأخفش: ما رأينا أحدا أعلم بالشعر من الأصمعى. وقد انفرد برواية قصائد جمعها المستشرق الألمانى وليم أهلورت. وتوفى بالبصرة سنة 216.

(2) هو العديل بن الفرخ، ولقبه العباب: والعباب اسم كلب له فلقب باسم كلبه. وكان هجا الحجاج ابن يوسف فطلبه فهرب منه إلى قيصر ملك الروم، فقال أبياتا منها هذا البيت. وأخباره فى «الشعر والشعراء» ص 375، و«الأغانى» ج 20 و«الخزانة» ج 2.

(3) فى «الشعر والشعراء» «اليعملات» والناعجات هى النياق البيض. واليعملات: جمع يعملة وهى الناقة المطبوعة على العمل.

(68/783)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة نوح

من عجائب سيرة نوح أنه ظل تسعة قرون ونصف يدعو قومه ، وهم لا يستجيبون ! إن هذا الزمان الطويل يتسع لازدهار دول ! وانهيارها ، ونضارة مبادئ وذبولها ، بيد أن قوم نوح ظلوا على ضلالهم لا يتوبون ولا يفكرون فى توبة ! إن الرجل الوثيق العزم الواسع الحلم عاد إلى ربه يشكو سوء اللقاء وعناد الكفر " قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي إلا فرارا * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا " . هل للكفر شبهة عقلية تجعل إنسانا ما يعبد حجرا ، ويذر عبادة رب العالمين ؟ لقد راقبت مسالك كفار ، فوجدت العلل النفسية لا الفكرية هى التى تغرى بالجحود ، وتصرف الناس عن ربهم العظيم ! وكيف تفسر سلوك امرئ يرفض التدين ويبطن الولاء لبشر تافه ؟ إن مئات الكتب ألفت فى تمجيد " ستالين " ونسيان الله ! ! والأدلة على وجود الله ليست معادلات رياضية عسرة ، إنها تنبيهات للعقل النائم كى يصحو ويرى " ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا " . إننا ما نزال نأكل نبات الأرض فيتحول فى أجسامنا إلى عضلات ودماء ، أنحن الذين نقوم بهذا التحويل ؟ أم اللطيف الخبير ؟ من الذى يدير الأفلاك ؟ أهو الله أم ود أم سواع ؟ من آلهة قوم نوح ! إن غباء الكفر عجيب وليس أعجب منه إلا كبرياؤه وصلفه ، ولذلك دعا نوح ربه بعد القرون الطوال التى أنفقها فى البلاغ

والتذكير " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " . إن الكفر على مر الأيام يتحول إلى تقاليد معوجة ، وإلى جيل من الناس " لم يزده ماله وولده إلا خسارا " ، أو إلى أسر تقول للمصلحين

(69/783)

" نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين " والأخطر من هذا البلاء أن يضن الكفار على المؤمنين بحق الحياة والاستقرار " وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا " . إن طبيعة الضلال لا تلزم طورا واحدا . والمؤمنون فى هذا العصر يعالجون الدواهى من الإلحاد والإحراج والفتنة ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 480 . 481 ﴾

(70/783)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(71/783)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة نوح

أقول: أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال في سأل: (إِنّا لقادرون على أَن نبدل خيراً مِنهُم) عقبه بقصة قوم نوح ، المشتملة على إبادتهم عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار وبدل خيراً منهم ، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك هذا مع تآخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 142.143 ﴾

(72/783)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الكمال كله من الجلال والإكرام (الرحمن) الذي عم بما أفاضه من ظاهر الإنعام (الرحيم) الذي خص أولياءه بلزوم الطاعة في الابتداء وإتمام النعمة في الختام .

ولما ختمت " سأل " بالإنذار للكفار ، وكانوا عباد أوثان ، بعذاب الدنيا والآخرة ، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا في تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام ، وكان قومه عباد أوثان ، وكانوا يستهزئون به وكانوا أشد تمرداً من قريش وأجلف وأقوى وأكثر ، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم ، وابتدأها بالإنذار تخويفاً من عواقب التكذيب به ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم أن يكون الرسول بشراً أو لتنزيلهم منزلة المنكرين من حيث أقروا برسالته وطعنوا في رسالة غيره مع المساواة في البشرية : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة الباهرة البالغة ﴿ أرسلنا نوحاً ﴾ وهو أول رسول أتى بعد اختلاف أولاد آدم عليه السلام في دين أبيهم الأقوم ﴿ إلى قومه ﴾ أي الذين كانوا في غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان ، وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين .

ولما بان مضى المرسِل والرسول والمرسَل إليهم ، وكان الإرسال متضمناً معنى القول ، أخذ في تفسيره بياناً للمرسل به فقال : ﴿ أن أنذر ﴾ أي حذر تحذيراً بليغاً عظيماً ﴿ قومك ﴾ من الاستمرار على الكفر .

ولما كان المقصود " إعلامهم بذلك " في بعض الأوقات لأن الإنسان لا بد له من أوقات شغل بنفسه من نوم وأكل وغيره ، أتى بالجار تخفيفاً عليه ورفقاً به عليه السلام فقال : ﴿ من قبل أن يأتيهم ﴾ أي على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة ﴿ عذاب أليم ﴾ .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر على قومه في قوله : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ [المعارج : 5] وجليل الإغضاء في قوله : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ [المعارج : 42] أتبع ذلك بقصة نوح عليه السلام وتكرر دعائه قومه إلى الإيمان ، وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء لأنه المقصود في الموضع تسلية لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وليتأسى به في الصبر والرفق والدعاء كما قيل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غير هذا الموضع ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف : 35] ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] فقد دام دعاء نوح عليه السلام مع قومه أدوم من مدتك ، ومع ذلك فلم يزدهم إلا فراراً ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً وإني كلما

دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾ [نوح : 5- 7] ثم مضت آي السورة على هذا المنهج من تجديد الإخبار بطول مكابدته عليه السلام وتكرير دعائه ، فلم يزدهم ذلك إلا بعداً وتصميماً على كفرهم حتى أخذهم الله ، وأجاب فيهم دعاء نبيه نوح عليه السلام

(74/783)

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] وذلك ليأسه من فلاحهم ، وانجر في هذا حض نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصبر على قومه والتحمل منهم كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] وكما قيل له قبل ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ [هود : 120] انتهى .

ولما أخبر عن رسالته ومضمونها بما أعلم من أن الفساد كان غالباً عليهم ، استأنف قوله بياناً لامتثاله : ﴿ قال ﴾ أي نوح عليه السلام : ﴿ يا قوم ﴾ فاستعطفهم بتذكيرهم أنه أحدهم يهمه ما يهمهم .

ولما كان من طبع البشر إنكار ما لم يعلم إلا من عصم الله فجعله منقاداً للإيمان بالغيب ، أكد

قوله : ﴿ إني لكم نذير ﴾ أي مبالغ في النذارة ﴿ مبين ﴾ أي أمري بين في نفسه بحيث أنه صار من شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه ، مناد بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي .

ولما كان ترك ما أنذرهم بسببه من الكفر لا يغنيهم إلا أن آمنوا ، وكان الإيمان مخلصاً عن عواقب الإنذار لأنه لا يصح إلا مع ترك جميع أنواع الكفر ، فسر الإنذار بقوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له جميع الكمال ، وذلك بأن تخلصوا التوجه إليه فإن غناه يمنع من أن يقبل عبادة فيه شرك وهذا هو الإيمان ﴿ واتقوه ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه ، فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته ، وهذا هو العمل الواقي من كل سوء .

(75/783)

ولما كان لا سبيل إلى معرفة ما يرضي الملك ليلزم وما يسخطه ليترك إلا منه ، ولا وصول إلى ذلك إلا من خاصته ، ولا خاصة مثل رسوله الذي ائتمنه على سره قال : ﴿ وأطيعون ﴾ أي لأعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم ، وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم ، واجتناب شبهة ترديكم ، ففي طاعتي ، فلا حكم

يرضي الملك عنكم ، وهذا هو الإسلام ، فقد جمع هذا الدعاء الإيمان والإسلام والعمل ، وهي الأثافي التي تدور عليها أسباب الفلاح .

ولما كان الإنسان محل النقصان ، فلا ينفك عن ذنب فلا ينفعه إلا فناء الكرم ، أشار إلى ذلك مرغباً مستعطفاً لهم لئلا ييأسوا فيهلكوا بقوله جواباً للأمر : ﴿ يغفر لكم ﴾ أي كرماً منه وإحساناً ولطفاً .

ولما كان من الذنوب ما لا يتحتم غفرانه وهو ما بعد الإسلام قال : ﴿ من ذنوبكم ﴾ أي ما تقدم الإيمان من الشرك والعصيان وما تأخر عن الإيمان من الصغائر التي تفضل الله بالوعد بتكفيرها باجتناب الكبائر – هذا مما أوجبه سبحانه على نفسه المقدس بالوعد الذي لا يبدل ، وأما غيره مما عدا الشرك فإلى مشيئته سبحانه .

(76/783)

ولما كان الإنسان ، لما يغلب عليه من النسيان ، والاشتغال بالآمال ، يعرض عن الموت إعراض الشاك فيه بل المكذب به ذكرهم ترهيباً لهم لطفاً بهم ليستحضروا أنهم في القبضة فينزعوا مما يغضبه سبحانه ، فقال مشيراً إلى أن طول العمر في المعصية – وإن كان مع رغد العيش – عدم ، مهدداً بأنه قادر على الإهلاك في كل حين : ﴿ ويؤخركم ﴾ أي تأخيراً

ينفعكم ، واعلم أن الأمور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها لإحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص ، ليعلم أن الإرسال إنما هو مظهر لما في الكيان ولا يظن أنه قالب للأعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة أو العصيان فقال : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي قد سماه الله وعلمه قبل إيجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه ، فيكون موتكم على العادة متفرقاً وإلا أخذكم جميعاً بعذاب الاستئصال ، فهذا من علم ما لا يكون لو كان كيف يكون ، وذلك أنه علم أنهم إن أطاعوا نوحاً عليه السلام كان موتهم على العادة وإلا هلكوا هلاك نفسه واحدة ، وعلم أنهم لا يطيعونه ، وأن موتهم إنما يكون بعذاب الاستئصال .

ولما كان الإنسان مجبولاً على الأطماع الفارغة ، فكان ربما قال للتعنت أو غيره : لم لا يخلدنا ؟ قال قطعاً عن ذلك مؤكداً لاقتضاء المقام له : ﴿ إن أجل الله ﴾ أي الذي له الكمال كله فلا راد لأمره ﴿ إذا جاء لا يؤخر ﴾ وأما قبل مجيئه فربما يقع الدعاء والطاعات والبر في البركة فيه يمنع الشواغل وإطابة الحياة ، فبادروا مجيء الأجل بالإيمان لأنه إذا جاء لم يمكنكم التدارك ، ولا ينفعكم بعد العيان الإيمان .

(77/783)

ولما كان من يعلم هذا يقيناً ، ويعلم أنه إذا كشف له عند الغرغرة أحب أن يؤخر ليتوب حين لا تأخير ، أحسن العمل خوفاً من فوات وقته وتحتم مقته ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أي لو كان العلم أو تجدده وقتاً ما في غرائزكم لعلمتم تنبيه رسولكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله يفعل ما يشاء ، وأن الأجل آت لا محالة فعملتم للنجاة ، ولكنكم تعملون في الانهماك في الشهوات عمل الشاك في الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 165.162 ﴾

(78/783)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ دعائي إلا ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ﴿ أني أعلنت ﴾ بالفتح . أبو عمرو وأبو جعفر ونافع وابن كثير ﴿ وولده ﴾ بالضم والسكون : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بفتحتين ﴿ ودا ﴾ بالضم : أبو جعفر ونافع الآخرون : بالفتح ﴿ خطاياهم ﴾ بالتكسير : أبو عمرو ﴿ بيتي ﴾ بالفتح : حفص وهشام .

الوقوف: ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ وأطيعون ﴾ ه ﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ لا يؤخر ﴾ م ﴿ تعلمون ﴾ ه ﴿ ونهاراً ﴾ ه ﴿ فراراً ﴾ ه ﴿ إستكباراً ﴾ ه ج لأن "ثم" لترتيب الأخبار مع اتحاد القائل ﴿ جهاراً ﴾ ه لا ﴿ أسراراً ﴾ ه لا لعطف مقصود الكلام ﴿ غفاراً ﴾ ه لا لجواب الأمر ﴿ مدراراً ﴾ ه ﴿ أنهاراً ﴾ ه ط لابتداء الإستفهام ﴿ وقاراً ﴾ ه ج لأن ما بعده يحتمل الحال والإستئناف ﴿ أطواراً ﴾ ه ﴿ طباقاً ﴾ ه لا ﴿ سراجاً ﴾ ه لا ﴿ نباتاً ﴾ ه ﴿ إخراجاً ﴾ ه ﴿ بساطاً ﴾ ه ﴿ فجاجاً ﴾ ه ﴿ خساراً ﴾ ه ج للآية مع العطف واتحاد الكلام ﴿ كباراً ﴾ ه لذلك ﴿ ونسراً ﴾ ه ك لأن ما بعده ليس بمعطوف ولكنه حال من فاعل ﴿ قالوا ﴾ وذكر السجاوندي أنه حال من مفعول ﴿ لا تذرن ﴾ وفيه نظر ﴿ كثيراً ﴾ ه ز لأن قوله ﴿ ولا تزد ﴾ لا يصح عطفه ظاهراً ولكنه متصل بما قبله بطريق الحكاية أي قال نوح رب إنهم عصوني وقال لا تزد ﴿ ضلالاً ﴾ ه ﴿ أنصاراً ﴾ ه ﴿ دياراً ﴾ ه ﴿ كفاراً ﴾ ه ﴿ تباراً ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 361.362 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾

في قوله : ﴿ أن ﴾ وجهان أحدهما : أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل ، والمعنى أرسلناه بأن قلنا له : أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار الثاني قال الزجاج : يجوز أن تكون مفسرة والتقدير : إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أي أنذر قومك وقرأ ابن مسعود ، ﴿ أُنذِرَ ﴾ بغير أن على إرادة القول .

ثم قال : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مقاتل يعني الغرق بالطوفان .

واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امتثل ذلك الأمر .

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2)

﴿ أَنِ اعبدوا ﴾ هو نظير ﴿ أَنْ أَنذِرِ ﴾ [نوح : 1] في الوجهين ، ثم إنه أمر القوم بثلاثة أشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه ، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح ، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات ، وقوله : ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات ، وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه ، إلا أنه خصه بالذكر تأكيداً في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره ، ثم إنه تعالى لما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها

بشيئين أحدهما : أن يزيل مضار الآخرة عنهم ، وهو قوله : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ .

الثاني : يزيل عنهم مضار الدنيا بقدر الإمكان ، وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان .

وههنا سؤالات :

(80/783)

السؤال الأول : ما فائدة ﴿مِنْ﴾ في قوله : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ؟

والجواب من وجوه :

أحدها : أنها صلة زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم والثاني : أن غفران الذنب هو أن لا يؤاخذ به ، فلو قال : يغفر لكم ذنوبكم ، لكان معناه أن لا يؤاخذكم بمجموع ذنوبكم ، وعدم المؤاخذة بالمجموع لا يوجب عدم المؤاخذة بكل واحد من آحاد المجموع ، فله أن يقول : لا أطالبك بمجموع ذنوبك ، ولكني أطالبك بهذا الذنب الواحد فقط ، أما لما قال : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم ، وهذا يقتضي عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة أيضاً على كل فرد من أفراد المجموع الثالث : أن قوله : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما

تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفوراً ، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفوراً ، فثبت أنه لا بد ههنا من حرف التبعيض .

السؤال الثاني : كيف قال : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض ؟ الجواب : قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر ، وهو تمام الألف ، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول ، لا بد من الموت .

السؤال الثالث : ما الفائدة في قوله ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الجواب : الغرض الزجر عن حب الدنيا ، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها ، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 119 . 120 ﴾

(81/783)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

قد مضى القول في "الأعراف" أن نُوحاً عليه السلام أوّل رسول أرسِل .

ورواه قتادة عن ابن عباس : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل رسول أرسِل نوح وأرسِل إلى جميع أهل الأرض " فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً .

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام .

قال وهب : كلهم مؤمنون .

أُرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة .

وقال ابن عباس : ابن أربعين سنة .

وقال عبد الله بن شدّاد : بُعث وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة .

وقد مضى في سورة "العنكبوت" القول فيه .

والحمد لله .

﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن أنذر قومك ، فموضع "أن" نصب بإسقاط الخافض .

وقيل : موضعها جَرٌّ لقوّة خِدْمتها مع "أن" .

ويجوز "أن" بمعنى المفسّرة فلا يكون لها موضع من الإعراب ، لأن في الإرسال معنى الأمر ، فلا حاجة إلى إضمار الباء .

وقراءة عبد الله "أُنْذِرْ قَوْمَكَ" بغير "أن" بمعنى قلنا له أنذر قومك .

وقد تقدم معنى الإنذار في أوّل "سورة البقرة" .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : يعني عذاب النار في الآخرة .

وقال الكلبيّ : هو ما نزل عليهم من الطوفان .

وقيل : أي أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا .

فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيباً ، وكانوا يضربونه حتى يُغشى عليه فيقول ،

"ربّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

.

وقد مضى هذا مستوفًى في سورة "العنكبوت" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي مخوّف .

﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي مظهر لكم بلسانكم الذي تعرفونه .

﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه ﴾ و"أن" المفسرة على ما تقدم في "أَنْ أَنْذِرْ" .

"اعْبُدُوا" أي وحّدوا .

واتقوا : خافوا .

﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي فيما آمركم به ، فإني رسول الله اليكم .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ جُزِم "يغفِر" بجواب الأمر .

و"مِن" صلة زائدة .

ومعنى الكلام يغفر لكم ذنوبكم ، قاله السدّي .

وقيل : لا يصح كونها زائدة ، لأن "مِن" لا تزاد في الواجب ، وإنما هي هنا للتبعيض ، وهو بعض الذنوب ، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين .

وقيل : هي لبيان الجنس .

وفيه بُعْدٌ ، إذ لم يتقدم جنس يليق به .

وقال زيد بن أسلم : "المعنى يخرجكم من ذنوبكم .

ابن شجرة : المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال ابن عباس : أي ينسىء في أعماركم .

ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم ، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب .

وقال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية ، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره .

فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم .

وقال : الزجاج أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب .

وعلى هذا قيل : "أجل مُسَمىً" عندكم تعرفونه ، لا يميتكم غَرَقاً ولا حَرَقاً ولا قَتْلاً ، ذكره الفرّاء .

وعلى القول الأول "أجَلٍ مُسَمّى" عند الله .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ أي إذا جاء الموت لا يؤخّر بعذاب كان أو بغير عذاب .

وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته .

وقد يضاف إلى القوم ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ لأنه مضروب لهم .

و"لَوْ" بمعنى "إن" أي إن كنتم تعلمون .

وقال الحسن : معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(83/783)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾

هو اسم أعجمي زاد الجوالِقي معرب والكرماني معناه بالسريانية الساكن وصرف لعدم

زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه وليس بعربي أصلا وقول الحاكم في المستدرك إنما سمي نوحاً لكثرة نوحه وبكائه على نفسه واسمه عبد الغفار لا أظنه يصح وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قذراً فبصق عليه فأنطقه الله تعالى فقال أتعيبني أم تعيب خالقي فندم وناح لذلك والمشهور أنه عليه السلام ابن لمك بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ابن متوشلخ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة ابن خنوخ بفتح الخاء المعجمة وضم النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة وشاع اخنوخ بهمزة أوله وهو ادريس عليه السلام بن يرد بمثناة من تحت مفتوحة ثم راء ساكنة مهملة ابن مهلاييل بن قينان بن أنوش بالنون والشين المعجمة ابن شيث بن آدم عليه السلام وهذا يدل على أنه عليه السلام بعد ادريس عليه السلام وفي المستدرك أن أكثر الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أنه قبل ادريس وفيه عن ابن عباس كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون وفيه أيضاً مرفوعاً بعث الله تعالى نوحاً لأربعين سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وذكر ابن جرير أن مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بمائة وستة وعشرين عاماً وفي التهذيب للنووي رحمه الله تعالى أنه أطول الأنبياء عليهم السلام عمراً وقيل إنه أطول الناس مطلقاً عمراً فقد عاش على ما قال شداد الفا وأربعمائة وثمانين سنة ولم يسمع عن أحد أنه عاش كذلك يعني بالاتفاق لئلا يرد

الخضر عليه السلام وقد يجاب بغير ذلك وهو على ما قيل أول من شرعت له الشرائع وسنت له السنن وأول رسول أنذر على الشرك وأهلكت أمته والحق أن آدم عليه السلام كان رسولاً قبله أرسل إلى زوجته حواء ثم إلى بنيه وكان في شريعته وما نسخ بشريعة

(84/783)

نوح في قول وفي آخر لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان ويقال لنوح عليه السلام شيخ المرسلين وآدم الثاني وكان دقيق الوجه في رأسه طول عظيم العينين غليظ العضدين كثير لحم الفخذين ضخم السرة طويل اللحية والقامة جسيماً واختلف في مكان قبره فقيل بمسجد الكوفة وقيل بالجبل الأحمر وقيل بذيل جبل لبنان بمدينة الكرك وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يخفى من الاعتناء بأمر ارساله عليه السلام ﴿ إِلَى قَوْمِهِ ﴾ قيل هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم لا أهل الأرض كافة لاختصاص نبينا صلى الله عليه وسلم بعموم البعثة من بين المرسلين عليهم السلام وما كان لنوح بعد قصة الغرق على القول بعمومه أمر اتفاقي واشتهر أنه عليه الصلاة والسلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي أي أنذر قومك على أن أن تفسيرية لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه فلا محل للجملة من الإعراب أو بأن أنذرهم أي

بإنذارهم أو لانذارهم على أن أن مصدرية وقبلها حرف جر مقدر هو الباء أو اللام وفي المحل بعد الحذف من الجر والنصب قولان مشهوران ونص أبو حيان على جواز هذا الوجه في بحره هنا ومنعه في موضع آخر وحكى المنع عنه ابن هشام في المغنى وقال زعم أبو حيان أنها لا توصل بالأمر وان كل شيء سمع من ذلك فأن فيه تفسيرية واستدل بدليلين أحدهما أنهما إذا قدّرا بالمصدر فات معنى الأمر الثاني أنهما لم يقعا فاعلاً ولا مفعولاً لا يصح أعجبني أن قم ولا كرهت أن قم كما يصح ذلك مع الماضي والمضارع والجواب عن الأول أن فوات معنى الأمرية عند التقدير بالمصدر كفوات معنى المضي والاستقبال في الموصولة بالمضارع والماضي عند التقدير المذكور ثم أنه يسلم مصدرية المخففة مع لزوم نحو ذلك فيها في نحو قوله تعالى

(85/783)

﴿ والخامسة أن غضب الله عليها ﴾ [النور : 9] إذ لا يفهم الدعاء من المصدر إلا إذا كان مفعولاً مطلقاً نحو سقيا ورعيا وعن الثاني أنه إنما منع ما ذكره لأنه لا معنى لتعليق الاعجاب والكراهية بالإنشاء لا لما ذكره ثم ينبغي له أن لا يسلم مصدرية كي لأنها لا تقع فاعلا ولا مفعولاً وإنما تقع مخفوضة بلام التعليل ثم مما يقطع به على قوله بالبطلان حكاية

سيبويه كتبت إليه بأن قم واحتمال زيادة الباء كما يقول وهم فاحش لأن حروف الجر مطلقاً لا تدخل إلا على الإسم أو ما في في تأويله انتهى وأجاب بعضهم عن الأول أيضاً بأنه عند التقدير يقدر الأمر فيقال فيما نحن فيه مثلاً أنا أرسلنا نوحاً إلى قومه بالأمر بانذارهم وتعقب بأنه ليس هناك فعل يكون الأمر مصدره كامرنا أو نأمر ثم أنه يكون المعنى في نحو امرته بأن قم أمرته بالأمر بالقيام وأشار الزمخشري إلى جواب ذلك هو أنه إذا لم يسبق لفظ الأمر أو ما في معناه من نحو رسمت فلا بد من تقدير القول لئلا يبطل الطلب فيقال هنا أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي بالأمر بالإنذار وإذا سبقه ذلك لا يحتاج إلا تقديره لأن مآل العبارات أعنى أمرته بالقيام وأمرته بأنه قم وإن قم بدون الباء على أنها مفسرة إلى واحد وفي الكشف لو قيل أن التقدير وأرسلناه بالأمر بالإنذار من دون اضمار القول لأن الأمرية ليست مدلول جوهر الكلمة بل من متعلق الاداة فيقدر بالمصدر تبعاً وفي أمر المخاطب اكتفى بالصيغة تحقيقاً لكان حسناً وهذا كما أن التقدير في أن لا يزني خير له عدم الزنا فيقدر النفي بالمصدر على سبيل التبعية وإما إذا صرح بالأمر فلا يحتاج إلى تقدير مصدر للطلب أيضاً هذا ولو قدر أمرته بالأمر بالقيام أي بأن يأمر نفسه به مبالغة في الطلب لم يبعد عن الصواب ولما فهم منه ما فهم من الأول وأبلغ استعمل استعماله من غير ملاحظة الأصل وأوعى بعضهم أن تقدير القول هنا ليس لئلا يفوت معنى الطلب بل لأن الباء المحذوفة للملابسة

وارسال نوح عليه السلام لم يكن ملتبساً بإنذاره لتأخره عنه وإنما هو ملتبس بقول الله تعالى له عليه السلام أنذر ولما كان هذا القول منه تعالى لطلب الإنذار قيل المعنى أرسلناه بالأمر بالإنذار وكان هذا القائل لا يبالي بفوات معنى الطلب كما يقتضيه كلام ابن هشام المتقدم آنفاً وبحث الخفاجي فيما ذكروه من الفوات فقال كيف يفوت معنى الطلب وهو مذكور صريحاً في أنذر ونحوه وتأويله بالمصدر المسبوك تأويل لا ينافيه لأنه مفهوم أخذوه من موارد استعماله فكيف يبطل صريح منطوقه فما ذكروه مما لا وجه له وان اتفقوا عليه فاعرفه انتهى ﴿ وأقول ﴾ لعلهم أرادوا بفوات معنى الطلب فواته عند ذكر المصدر الحاصل من التأويل بالفعل على معنى أنه إذا ذكر بالفعل لا يتحقق معنى الطلب ولا يتحد الكلامان ولم يريدوا أنه يفوت مطلقاً كيف وتحققه في المنطوق الصريح كنار على علم ويؤيد هذا منعهم بطلان اللازم المشار إليه بقول ابن هشام ان فوات معنى الأمرية عند التقدير بالمصدر كفوات المضي والاستقبال الخ فكأنه قيل لا نسلم أن هذا الفوات باطل لم لا يجوز أن يكون كفوات معنى المضي والاستقبال وفوات معنى الدعاء في نحو

﴿ أن غضب ﴾ [النور : 9] وقد أجمعوا أن ذلك ليس بباطل لأنه فوات عند الذكر

بالفعل وليس بلازم وليس بفوات مطلقاً لظهور أن المنطوق الصريح متكفل به فتدبر وقرأ ابن مسعود أنذر بغير أن على إرادة القول أي قائلين أنذر ﴿ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عاجل وهو ما حل بهم من الطوفان كما قال الكلبي أو آجل وهو عذاب النار كما قال ابن عباس والمراد أنذرهم من قبل ذلك لئلا يبقى لهم عذر ما أصلا .

(87/783)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل فما فعل عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال فقيل قال لهم ﴿ إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ منذر موضح لحقيقة الأمر واللام في لكم للتقوية أو للتعليل أي لأجل نفعكم من غير أن أسألكم أجراً وقوله تعالى :

﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ ﴾ متعلق بنذير على مصدرية أن وتفسيريتها ومر نظيره في الشعراء وقوله سبحانه :

(88/783)

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ مجزوم في جواب الأمر واختلف في من فقيل ابتدائية وان لم تصلح هنا لمقارنة إلى وابتداء الفعل من جانبه تعالى على معنى أنه سبحانه يبتدئهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم احساناً منه عز وجل وتفضلاً وجوز أن يكون من جانبهم على معنى أول ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرة ذنوبهم وليس بذاك وقيل بيانية ورجوعها إلى معنى الابتدائية استبعده الرضى ويقدر قبلها مبهم يفسر بمدخولها أي يغفر لكم أفعالكم التي هي الذنوب وقيل زائدة على رأي الأخفش المجوز لزيادتها مطلقاً وجزم بذلك هنا وقيل تبعيضية أي يغفر لكم بعض ذنوبكم واختاره بعض واختلف في البعض المغفور فذهب قوم إلى أنه حقوق الله تعالى فقط السابقة على الإيمان وآخرون إلى أنه ما اقترفوه قبل الإيمان مطلقاً الظاهر ما ورد من أن الإيمان يجب ما قبله واستشكل ذلك العز بن عبد السلام في الفوائد المنتشرة وأجاب عنه فقال كيف يصح هذا على رأي سيبويه الذي لا يرى كالأخفش زيادتها في الموجب بل يقول إنها للتبعيض مع أن الإسلام يجب ما قبله بحيث لا يبقى منه شيء والجواب ان إضافة الذنوب إليهم إنما تصدق حقيقة فيما وقع إذ ما لم يقع لا يكون ذنباً لهم وإضافة ما لم يقع على طريق التجوز كما في ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ [المائدة : 89] إذا المراد بها الأيمان المستقبلة وإذا كانت الإضافة تارة تكون حقيقة وتارة تكون مجازاً فسيبويه يجمع بين الحقيقة والمجاز فيها وهو جائز يعني عند أصحابه الشافعية ويكون المراد من بعض ذنوبكم البعض الذي وقع انتهى ولا يحتاج إلى حديث الجمع من خص الذنوب

المغفورة بحقوق الله عز وجل وههنا بحث وهو ان الحمل على التبعيض يا أباه ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ [الصف : 12] ﴿ وإن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : 53] وقد نص البعلي في شرح الجمل على أن ذلك هو الذي دعا الأخفش للجزم بالزيادة هنا وجعله ابن الحاجب حجة له ورده بعض الأجلة بأن الموجبة الجزئية من

(89/783)

لوازم الموجبة الكلية ولا تناقض بين اللازم والملزوم ومبناه الغفلة عن كون مدلول من التبعيضية هي البعضية المجردة عن الكلية المنافية لها لا الشاملة لما في ضمنها المجتمعة معها وإلا لما تحقق الفرق بينها وبين من البيانية من جهة الحكم ولما تيسر تمشية الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه فيما إذا قال طلقي نفسك من ثلاث ما شئت بناء على أن من للتبعيض عنده وللبيان عندهما قال في الهداية وان قال لها طلقي نفسك من ثلاث ما شئت فلها ان تطلق نفسها واحدة وثنتين ولا تطلق ثلاثاً عند أبي حنيفة وقالا تطلق ثلاثا ان شاءت لأن كلمة ما محكمة في التعميم وكلمة من قد تستعمل للتمييز فتحمل على تمييز الجنس ولأبي حنيفة إن كلمة من حقيقة في التبعيض وما للتعميم فيعمل بهما انتهى .

(90/783)

ولا خفاء في أن بناء الجواب المذكور على كون من للتبعيض إنما يصح إذا كان مدلولها حينئذ البعضية المجردة المنافية للكلية ومن هنا تعجب من صاحب التوضيح في تقرير الخلاف المذكور حيث استدل على أولوية التبعيض بتيقنه ولم يدر أن البعض المراد قطعاً على تقدير البيان البعض العام الشامل لما في ضمن الكل لا البعض المجرد المراد هنا فبالتعليل على الوجه المذكور لا يتم التقريب بل لا انطباق بين التعليل والمعلل على ما قيل وصوب العلامة التفتازاني حيث قال فيما علقه على التلويح مستدلاً على أن البعضية التي تدل عليها من التبعيضية هي البعضية المجردة المنافية للكيلة لا البعضية التي هي أعم من أن تكون في ضمن الكل أو بدونه لاتفاق النحاة على ذلك حيث احتاجوا إلى التوفيق بين قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم وقوله تعالى ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : 53] فقالوا لا يبعد أن يغفر سبحانه الذنوب لقوم وبعضها لآخرين أو خطاب البعض لقوم نوح عليه السلام وخطاب الكل لهذه الأمة ولم يذهب أحد إلى أن التبعيض لا ينافي الكلية ولم يصوب الشريف في رده عليه قائلاً وفيه بحث إذ الرضي صرح بعدم المنافاة بينهما حيث قال ولو كان أيضاً خطاباً لأمة واحدة فغفران بعض الذنوب لا يناقض غفران كلها بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها لأن قول الرضى غير مرتضى لما عرفت من أن مدلول التبعيضية البعضية المجردة واعترض قول النحاة أو خطاب البعض لقوم نوح عليه السلام وخطاب الكل

لهذه الأمة بأن الأخبار عن مغفرة البعض ورد في مواضع منها قوله تعالى في سروة إبراهيم ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ [الأحقاف : 10] ومنها في سورة الأحقاف ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ [الأحقاف : 31] ومنها ما هنا وهو الذي ورد في قوم نوح عليه السلام وأما ما ذكر في الأحقاف فقد ورد في الجن وما ورد في إبراهيم فقد ورد في قوم نوح وعاد ، وثمود على ما أفصح

(91/783)

به السياق فكيف يصح ما ذكروه وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين ووجه بأن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج عن المظالم واعترض بأن التفرقة المذكورة إنما تتم لو لم يجيء الخطاب للكفرة على العموم وقد جاء كذلك كما في سورة الأنفال ﴿ قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [الأنفال : 38] وقد أسلفنا ما يتعلق بهذا المقام أيضاً فتذكر وتأمل ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدره عز وجل لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان فإن وصف

الأجل بالمسمى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أن لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه ان لم يؤمنوا وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ ﴾ أي ما قدره عز وجل لكم على تقدير بقائكم على ما أنتم عليه ﴿ إِذَا جَاء ﴾ وأنتم على ما أنتم ﴿ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر والعصيان فلا يجيء ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى فتؤخروا إليه وجوز أن يراد به وقت اتيان العذاب المذكور في قوله سبحانه من

(92/783)

﴿ قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ [نوح : 1] فإنه أجل مؤقت له حتماً وأياً كان لا تناقض بين يؤخركم وان أجل الله إذا جاء لا يؤخر كما يتوهم وقال الزمخشري في ذلك ما حاصله إن الأجل أجلان وأجل الله حكمه حكم المعهود والمراد منه الأجل المسمى الذي هو آخر الآجال والجملة عنده تعليل لما فهم من تعليقه سبحانه التأخير بالأجل المسمى وهو عدم تجاوز التأخير عنه والأول هو المعول عليه فإن الظاهر أن الجملة تعليل للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمى فلا بد أن يكون المنفى عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود فكيف يتصور أن يكون ما فرض مجيئه هو الأجل المسمى الذي هو آخر

الآجال ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما أمركم به لكنكم لستم من أهله في شيء فلذا لم تسارعوا فجواب لو مما يتعلق بأول الكلام ويجوز أن يكون مما يتعلق بآخره أي لو كنتم من أهل العلم لعلمتم ذلك أي عدم تأخير الأجل إذا جاء وقته المقدر له والفعل في الوجهين منزل منزلة اللازم ويجوز أن يكون محذوفا لقصد التعميم أي لو كنتم تعلمون شيئاً ورجح الأول بعدم احتياجه للتقدير والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على استمرار النفي المفهوم من لو وجعل العلم المنفى هو العلم النظري لا الضروري ولا ما يعمه فإنه مما لا ينفى اللهم إلا على سبيل المبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(93/783)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

افتتاح الكلام بالتوكيد للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لرد إنكار منكر ، ولا دفع شك عن متردد في هذا الكلام .

وكثيراً ما يَفتتح بلغاء العرب أول الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض وربما جعلوا (إن)

دَاخلةً على ضمير الشأن في نحو قوله تعالى : ﴿ إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمان الرحيم * أن لا تعلوا علي ﴾ الآية [النمل : 30 ، 31] .

وذكْر نوح عليه السلام مضى في سورة آل عمران .

وتقدم أن هذا الاسم غير عربي ، وأنه غير مشتق من مادة النّوح .

و ﴿ أن أنذر قومك ﴾ إلى آخره هو مضمون ما أرسل به نوح إلى قومه ، ف ﴿ أنْ ﴾ تفسيرية لأنها وقعت بعد ﴿ أرسلنا ﴾ .

وفيه معنى القول دون حروفه .

ومعنى ﴿ من قِبْل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ أنه يخوفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله ، فأمره الله أن ينذرهم عذاباً يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدّماً على حلول العذاب .

وهذا يقتضي أنه أُمر بأن يعلمهم بهذا العذاب ، وأن الله وقَّته بمدة بقائهم على الشرك بعد إبلاغ نوح إليهم ما أُرسل به في مدة يقع الإبلاغ في مثلها ، فحذف متعلّق فعل ﴿ أنذر ﴾ لدلالة ما يأتي بعده من قوله : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ [نوح : 3] .

وحرف ﴿ مِنْ ﴾ زائد للتوكيد ، أي قبل أن يأتيهم عذاب فهي قبليّة مؤكدة وتأكيدها باعتبار تحقيق ما أضيف إليه ﴿ قبل ﴾ .

و "قوم نوح" هم الناس الذين كانوا عامرين الأرضَ يومئذٍ ، إذ لا يوجد غيرهم على الأرض

كما هو ظاهر حديث الشفاعة وذلك صريح ما في التوراة .

والقوم : الجماعة من الناس الذين يجمعهم موطن واحد أو نسب واحد برجالهم ونسائهم وأطفالهم .

(94/783)

وإضافة (قوم) إلى ضمير ﴿ نوح ﴾ لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به ، ولأنه واحد منهم وهم بيَن أبناءٍ لَه وأنسباءٍ فإضافتهم إلى ضميره تعريف لهم إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد .

وعُدل عن أن يقال له : أنذر الناس إلى قوله : ﴿ أنذر قومك ﴾ إلهاباً لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب ، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته ، وهم عدد تكوّن بالتوالد في بني آدم في مدة ستمائة سنة من حلول جنس الإنسان على الأرض .

ولعل عددهم يوم أرسل إليهم نوح لا يتجاوز بضعة آلاف .

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2)

لم تعطف جملة ﴿ قال يا قوم ﴾ بالفاء التفريعية على جملة ﴿ أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [نوح : 1] لأنها في معنى البيان لجملة ﴿ أنذر قومك ﴾ [نوح : 1] لدلالتها على أنه أنذر

قومه بما أمره الله أن يقوله لهم ، وإنما أُدمج فيه فعل قول نوح للدلالة على أنه أُمر أن يقول فقال ، تنبيهاً على مبادرة نوح لإنذار قومه في حين يلوغ الوحي إليه من الله بأن ينذر قومه .

ولك أن تجعلها استئنافاً بيانياً لجواب سؤال السامع أن يسأل ماذا فعل نوح حين أرسل الله إليه ﴿ أن أنذر قومك ، وهما متقاربان .

وافتتاح دعوته قومَه بالنداء لطلب إقبال أذهانهم ونداؤهم بعنوان : أنهم قومه ، تمهيد لقبول نصحه إذ لا يريد الرجل لقومه إلاّ ما يريد لنفسه .

وتصدير دعوته بحرف التوكيد لأن المخاطبين يترددون في الخبر .

والنذير : المنذر غير جار على القياس ، وهو مثل بشير ، ومثل حكيم بمعنى محكم ، وأليم بمعنى مؤلم ، وسميع بمعنى مسمع ، في قول عَمرو بن معديكرب:

أَمِنْ رَيْحانةَ الداعي السميع . . .

وقد تقدم في أول سورة البقرة (10) عند قوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ وحذف متعلق ﴿ نذير ﴾ لدلالة قوله : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ عليه .

والتقدير : إنّي لكم نذير بعذاب أليم إن لم تعبدوا الله ولم تتقُوه ولم تطيعوني .

(95/783)

والمبين : يجوز أن يكون من أبان المتعدّي الذي مجرده بَانَ ، أي مُوَضِّح أو مِن أبان القاصر ، الذي هو مرادف بَان المجردِ ، أي نذير وَاضح لكم أني نذير ، لأني لا أجتني من دعوتكم فائدة من متاع الدنيا وإنما فائدة ذلك لكم ، وهذا مثل قوله في سورة الشعراء (109 ، 110) ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على ربّ العالمين فاتقوا الله وأطيعون .

﴿ وتقديم ﴿ لكم ﴾ على عامله وهو ﴿ نذير ﴾ للاهتمام بتقديم ما دلت عليه اللام من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته .

فجمع في صدر دعوته خمسة مؤكدات ، وهي : النداءُ وجعلُ المنادَى لفظ ﴿ يا قوم ﴾ المضاف إلى ضميره ، وافتتاحُ كلامه بحرف التأكيد ، واجتلابُ لام التعليل ، وتقديمُ مجرورها .

و﴿ أن ﴾ في ﴿ أن اعبدوا ﴾ تفسيرية لأن وصف ﴿ نذير ﴾ فيه معنى القول دون حروفه ، وأمرهم بعبادة الله لأنهم أعرضوا عنها ونسوها بالتمحض لأصنامهم ، وكان قوم نوح مشركين كما دل عليه قوله تعالى في سورة يونس (71) ﴿ فأجمِعوا أمركم وشركاءكم ﴾ وبذلك كان تمثيل حال المشركين من العرب بحال قوم نوح تمثيلاً تاماً .

واتقاء الله اتقاء غضبه ، فهذا من تعليق الحكم باسم الذات .

والمراد : حال من أحوال الذات من باب ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي

أكلها ، أي بأن يعلموا أنه لا يرضى لعباده الكفر به .

وطاعتهم لنوح هي امتثالهم لما دعاهم إليه من التوحيد وقد قال المفسرون : لم يكن في شريعة نوح إلاّ الدعوةُ إلى التوحيد فليس في شريعته أعمال تُطلب الطاعة فيها ، لكن لم تخل شريعة إلهية من تحريم الفواحش مثل قتل الأنفس وسلب الأموال ، فقوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ينصرف بادىء ذي بدء إلى ذنوب الإِشراك اعتقاداً وسجوداً .

وجَزْمُ ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ في جواب الأوامر الثلاثة ﴿ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ ، أي إن تفعلوا ذلك يغفر الله لكم من ذنوبكم .

وهذا وعد بخير الآخرة .

(96/783)

وحرف ﴿ مِن ﴾ زائد للتوكيد ، وهذا من زيادة ﴿ مِن ﴾ في الإيجاب على رأي كثير من أئمة النحو مثل الأخفش وأبي علي الفارسي وابن جنيّ من البصريين وهو قول الكسائي وجميعِ نحاة الكوفة .

فيفيد أن الإيمان يَجُبُّ ما قبله في شريعة نوح مثل شريعة الإِسلام .

ويجوز أن تكون ﴿ مِن ﴾ للتبعيض ، عند من أثبت ذلك وهو اختيار التفتازاني ، أي يغفر

لكم بعض ذنوبكم ، أي ذنوب الإِشراك وما معه ، فيكون الإيمان في شرع نوح لا يقتضي مغفرة جميع الذنوب السابقة ، وليس يلزم تماثل الشرائع في جميع الأحكام الفرعية ، ومغفرةُ الذنوب من تفاريع الدين وليست من أصوله .

وقال ابن عطية : معنى التبعيض : مغفرة الذنوب السابقة دون ما يذنبون من بعد .

وهذا يتم ويحسن إذا قدرنا أن شريعة نوح تشتمل على أوامر ومنهيات عملية فيكون ذكر ﴿ مِن ﴾ التبعيضية اقتصاداً في الكلام بالقدر المحقق .

وأما قوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ فهو وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته ، وهو طول البقاء فإنه من النعم العظيمة لأن في جبلة الإِنسان حُب البقاء في الحياة على ما في الحياة من عوارضَ ومكدرات .

وهذا ناموس جعله الله تعالى في جبلة الإِنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع .

قال المعري:

وكلّ يريدُ العيشَ والعيشُ حَتفُه ويستعْذِبُ اللذاتتِ وهي سِمَام . . .

والتأخيرُ : ضد التعجيل ، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع في أجل الشيء .

وقد أشعر وعدُه إياهم بالتأخير أنه تأخير مجموعهم ، أي مجموع قومه لأنه جُعل جزاءً لكل من عَبدَ الله منهم واتقاه وأطاع الرسول ، فدل على أنه أنذرهم في خلال ذلك باستئصال القوم كلهم ، وأنهم كانوا على علم بذلك كما أشار إليه قوله : ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ [نوح : 1] كما تقدم آنفاً ، وكما يفسره قوله تعالى في سورة هود (38) ﴿ ويصنَعُ الفلك وكلَّما مرّ عليه ملأ من قومه سَخِروا منه ﴾ أي سخروا من الأمر الذي يصنع الفلك للوقاية منه وهو أمر الطوفان ، فتعين أن التأخير المراد هنا هو عدم استئصالهم .

والمعنى : ويؤخر القوم كلهم إلى أجل مسمى وهو آجال إشخاصهم وهي متفاوتة .

والأجل المسمى : هو الأجل المعين بتقدير الله عند خلقةِ كل أحد منهم ، فالتنوين في ﴿ أجل ﴾ للنوعية ، أي الجنس ، وهو صادق على آجال متعددة بعدد أصحابها كما قال تعالى:

﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدّ إلى أرذل العمر ﴾ [الحج : 5] .

ومعنى ﴿ مسمى ﴾ أنه محدد معيّن وهو ما في قوله تعالى : ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ في سورة الأنعام (2) .

فالأجل المسمى : هو عمر كل واحد ، المعيّنُ له في سَاعةِ خلْقه المشار إليه في الحديث أن

المَلَك يؤمر بكتب أجل المخلوق عندما يَنفُخ فيه الروحَ ، واستعيرت التسمية للتعيين لشَبه عدم الاختلاط بين أصحاب الآجال .

والمعنى : ويؤخركم فلا يعجل بإهلاككم جميعاً فيؤخر كل أحد إلى أجله المعيّن له على تفاوت آجالهم .

فمعنى هذه الآية نظير معنى آية سورة هود (3) ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتّعْكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمّى ﴾ وهي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ ﴾ .

(98/783)

يحتمل أن تكون هذه الجملة تعليلاً لقوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ، ﴾ أي تعليلاً للربط الذي بين الأمر وجزائه من قوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ إلى قوله : ﴿ ويؤخِّركم ﴾ الخ لأن الربط بين الأمْر وجوابِه يعطي بمفهومه معنى : إنْ لا تعبدوا الله ولا تتقوه ولا تطيعوني لا يغفر لكم ولا يؤخركم إلى أجل مسمى ، فعُلل هذا الربط والتلازم بين هذا الشرط المقدر وبين جزائه بجملة ﴿ إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ ، أي أن الوقت الذي عيّنه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه ولم تطيعون إذا جاء إبَّانه باستمراركم على الشرك لا ينفعكم

الإِيمان ساعتئذٍ ، كما قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لما ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : 98] ، فيكون هذا حثاً على التعجيل بعبادة الله وتقواه .

فالأجَل الذي في قوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ غير الأجل الذي في قوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى ﴾ ويُناسِب ذلك قولُه عقبه ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ المقتضي أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعيَّنة لاستئصالهم ، وأما عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين .

وفي إضافة ﴿ أجل ﴾ إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ إيماء إلى أنه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عيّنه الله للقوم إنذاراً لهم ليؤمنوا بالله .

ويحتمل أن تكون الجملة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمى ، أي دون تأخيرهم تأخيراً مستمراً فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ .

ويحتمل أن تكون الجملة تعليلاً لكلا الأجلين : الأجل المفاد من قوله : ﴿ من قبل أن يَأتيهُم عذابٌ أليم ﴾ [نوح : 1] فإن لفظ ﴿ قبل ﴾ يؤذن بأن العذاب موقت بوقت غير بعيد فله أجل مُبْهم غير بعيد ، والأجَل المذكورِ بقوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ فيكون أجل الله صادقاً على الأجل المسمى وهو أجل كل نفس من القوم .

وإضافته إلى الله إضافة كشف ، أي الأجل الذي عينه الله وقدره لكل أحد .

وبهذا تعلم أنه لا تعارض بين قوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ وبين قوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ إما لاختلاف المراد بلفظيّ (الأجل) في قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وقوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ﴾ وإما لاختلاف معنيي المجيء ومعنيي التأخير في قوله : ﴿ إذا جاءَ لا يؤخر ﴾ فانفكت جهة التعارض .

أما مسألة تأخير الآجال والزيادة في الأعمار والنقص منها وتوحيد الأجل عندنا واضطراب أقوال المعتزلة في هل للإنسان أجل واحد أو أجلان فتلك قضية أخرى ترتبط بأصلين : أصل العلم الإلهي بما سيكون ، وأصل تقدير الله للأسباب وترتُّب مسبباتها عليها .

فأما ما في علم الله فلا يتغير قال تعالى : ﴿ وما يعمَّر من معمَّر ولا يُنقص من عمره إلاّ في كتاب ﴾ [فاطر : 11] أي في علم الله ، والناس لا يطلعون على ما في علم الله .

وأما وجودُ الأسباب كلها كأسباب الحياة ، وترتبُ مسبباتها عليها فيتغير بإيجاد الله

مغيِّراتٍ لم تكن موجودة إكراماً لبعض عباده أو إهانة لبعض آخر .

وفي الحديث صدقة المرء المُسلم تزيد في العُمر .

وهو حديث حسن مقبول .

وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يُمد في عمره فليتق الله وليصِل رحمه .

وسنده جيد .

فآجال الأعمار المحددة بالزمان أو بمقدار قوة الأعضاء وتناسب حركاتها قابلة للزيادة والنقص .

(100/783)

وآجال العقوبات الإلهية المحددة بحصول الأعمال المعاقب عليها بوقت قصير أو فيه مُهلة غير قابلة للتأخير وهي ما صْدَقُ قوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد : 39] على أظهر التأويلات فيه وما في علم الله من ذلك لا يخالف ما يحصل في الخارج .

فالذي رغَّب نوحٌ قومَه فيه هو سبب تأخير آجالهم عند الله فلو فعلوه تأخرتْ آجالهم

وبتأخيرها يتبين أن قد تقرر في علم الله أنهم يعملون ما يدعوهم إليه نوح وأن آجالهم تطول ، وإذ لم يفعلوه فقد كُشف للناس أن الله علم إنهم لا يفعلون ما دعاهم إليه نوح وأن الله قاطع آجالهم ، وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " اعملُوا فكل مُيسَّر إلى ما خُلق له " وقد استعصى فهم هذا على كثير من الناس فخلطوا بين ما هو مقرر في علم الله وما أظهره قدر الله في الخارج الوجودي .

وفي إقحام فعل ﴿ كنتم ﴾ قبل ﴿ تعلمون ﴾ إيذان بأن علمهم بذلك المنتفيَ لوقوعه شرطاً لحرف ﴿ لو ﴾ محقق انتفاؤه كما بيناه في قوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ في سورة يونس (2) .

وجواب لو ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ لا يؤخَّر ﴾ .

والتقدير : لأيقنتم أنه لا يؤخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(101/783)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ

إِسْرَارًا (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أطول الأنبياء عمراً ، وكان قد طال نصحه لهم وبلاؤه بهم ، نبه على ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ منادياً لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره ، وأسقط أداة النداء كما هي عادة أهل القرب فقال : ﴿ رب ﴾ ولما كانت العادة جارية بأن التكرار لا بد أن يؤثر ولو قليلاً ، فكانت مخالفتهم لذلك مما هو أهل لأن يشك فيه ، قال مؤكداً إظهاراً لتحسره وحرقته عليه الصلاة والسلام منهم في تماديهم في إصرارهم على على التكذيب شكاية لحاله إلى الله تعالى واستنصاراً به واستمطاراً للتنبيه على ما يفعل به بذله الجهد وتنبيهاً لمن يقص به عليهم هذا وإن كان المخاطب سبحانه عالماً بالسر وأخفى : ﴿ إني دعوت ﴾ أي أوقعت الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ قومي ﴾ أي الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم من وفيهم قوة المحاولة لما يريدون .

(102/783)

ولما كان قد عم جميع الأوقات بالدعاء قال : ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ فعبر بهذا عن المداومة .

ولما تسبب عن ذلك ضد المراد قال : ﴿ فلم يزدهم دعاءي ﴾ أي شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿ إلا فراراً ﴾ أي بعداً عنك ونفوراً وبغضاً وإعراضاً حتى كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، وأسند الزيادة إلى الدعاء لأنه سببها .

ولما كان الفرار مجازاً عن رد كلامه ، عطف عليه ما يبينه ، فقال مؤكداً لأن إعراضهم مع هذا الدعاء الطويل مما لا يكاد يصدق : ﴿ وإني كلما ﴾ على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات ﴿ دعوتهم ﴾ أي إلى الإقبال عليك بالإيمان بك والإخلاص لك .

(103/783)

ولما كان إعراضهم عما ينفعهم أقبح ، ذكر ما يتسبب عن الإجابة بالإيمان فقال : ﴿ لتغفر لهم ﴾ أي ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا لأجله في التجاوز في الحدود محواً بالغاً فلا يبقى لشيء من ذلك عيناً ولا أثراً حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم ﴿ جعلوا ﴾ أي في كل دعاء ، ودل على مبالغتهم في التصامم بالتعبير بالكل عن البعض فقال :

﴿ أصابعهم ﴾ كراهة له واحتقاراً للداعي ﴿ في آذانهم ﴾ حقيقة لئلا يسمعون الدعاء إشارة إلى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك ، فإن أبيت إلا الدعاء فإنا لا نسمع لسد أسماعنا ،

ودلوا على الإفراط في كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي أوجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم إيجاد من هو طالب لذلك شديد الرغبة فيه حتى يجمعوا بين ما يمنع السماع لكلامه والنظر إليه إظهاراً لكراهته وكراهة كلامه ، وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائماً ﴿ وأصروا ﴾ أي داموا على سوء أعمالهم دواماً هم في غاية الإقبال عليه ، من أصر الحمار على العانة – إذا صر أذنيه وأقبل عليها يطردها ويكدمها ، استعير للإقبال على المعاصي وملازمتها لأنه يكون بغاية الرغبة كأن فاعله حمار وحش قد ثارت شهوته ﴿ واستكبروا ﴾ أي أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ استكباراً ﴾ تنبيهاً على أن فعلهم منابذ للحكمة ، فكان مما ينبغي أن لا يفعلوه فهو مما لا يكاد يصدق لذلك ، وقد نادت هذه الآيات بالتصريح في غير موضع بأنهم عصوا نوحاً عليه الصلاة والسلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار ، وباطناً بالإصرار والاستكبار ولم يوافقوه بقول ولا فعل ، فلعنة الله عليهم وعلى من يقول : إنهم وافقوه بالفعل ، لأنه دعاهم للمغفرة وقد غطوا وجوههم ، والتغطية هي الغفر ونحو ذلك من الخرافات التي لو سمعها أسخف عباد الحجارة الذين لا أسخف منهم لهزؤوا بقائلها ، وما قال هذا القائل ذلك إلا تحريفاً لكتاب الله بنحو تحريف

الباطنية الذين أجمعت الأمة على تكفيرهم لذلك التحريف ، ولعنة الله على من يشك في كفر من يحرف هذا التحريف أو يتوقف في لعنه ، وهم الاتحادية الذين مرقوا من الدين في آخر الزمان ، ومن أكابرهم الحلاج وابن عربي وابن الفارض ، وتبعهم على مثل الهذيان أسخف الناس عقولاً

(105/783)

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان : 44] ولقد أخبرني الإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف القدسي الشافعي الثبت النحرير عن بعض من يتعصب لهم في هذا الزمان ، وهو من أعيان المدرسين بالقاهرة ، أنه قال له : ما حملني على انتقادي لابن الفارض إلا أني رأيت كلام التائية له متناقضاً ، فتارة يفهم منها الحلول وتارة الاتحاد ، وهو عندي يحاشى عن ذلك ، فعلمت أن لهؤلاء القوم اصطلاحاً نسبتنا منه نسبة التباين إذا سمعوا النحوي يقول : الفاعل مرفوع ، فإنهم يضحكون منه ، ولو فهمنا اصطلاحهم لم نعترض – هذا معنى ما نقل عنه وهو ما لا يرضاه ذو مسكة ، وهو شبيه بما نقل المسعودي في أوائل مروج الذهب عن بعض من اتهم بعقل وعلم من النصارى في زمن

أحمد بن طولون ، فاختبره فوجده في العلم كما وصف ، فسأله عن سبب ثباته على النصرانية مع علمه فقال : السبب تناقضها مع أنه دان بها ملوك متكبرون وعلماء متبحرون ورهبان عن الدنيا معرضون ومدبرون ، فعلمت أنه ما جمع هؤلاء الأصناف على الدينونة بها مع تناقضها إلا أمر عظيم اضطرهم لذلك ، فدنت بها ، فقال له : اذهب في لعنة الله فلقد ضيعت كل عقل وصفت ، ولقد والله صدق في الأمر العظيم الذي حملهم على ذلك ، وهو القضاء والقدرة الذي حمل كل أحد منهم على إلقاء نفسه في نار جهنم باختياره بل برغبته في ذلك ومقاتلة من يصده عن ذلك ، وذلك أدل دليل على تمام علم الله وقدرته وأنه واحد لا شريك له ولا معقب لحكمه ، وفي هذا تصديق قوله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع " وهم أهل الكتاب ، وقد أشبعت القول في هذا في كتابي " القارض في تكفير ابن الفارض " الذي بينت فيه عوارهم ، وأظهرت عارهم ، وكذا كتابي " صواب الجواب للسائل المرتاب " و " تدمير المعارض في تكفير ابن الفارض " ولم أبق على شيء من ذلك شيئاً من لبس – ولله الحمد .

(106/783)

ولما ذكر دعاءه في جميع الأوقات مع إعراضهم ، وكان هذا مؤيساً وموجباً للإقلاع عن الدعاء ، وإن وجد الدعاء بعده في غاية البعد منه على إيجاده مع الاستغراق به لجميع الحالات كما استغرق جميع الأوقات ، فعبر بأداة التراخي للدلالة على تباعد الأحوال فقال : ﴿ ثم ﴾ وأكد لنحو ما مضى من أن تجرد إقبالهم على دعائهم بعد ذلك لا يكاد يصدق فضلاً عن الإكثار منه فقال : ﴿ إني دعوتهم ﴾ أي إلى الإيمان ومنابذة الشيطان .

ولما كان الجهر أحد نوعي الدعاء ، نصبه به نصب المصدر فقال : ﴿ جهاراً ﴾ أي مكاشفة في فخامة الصوت والتعميم لجماعتهم جليلهم وحقيرهم والإخلاص في ذلك والمداومة له حتى كاد بصري يكل من شدة التحديث إليهم والإقبال عليهم من غير احتجاب عنهم ولا ارتقاب منهم بل مباغتة ، وكررت ذلك عليهم حتى أخرجت ما عندهم من الجواب ، ولم أكف عند سد آذانهم واستغشائهم ثيابهم .

(107/783)

ولما كان الجهر قد لا يشيع ولا ينشر في جماعاتهم ، قال مشيراً إلى أنه أذاع ذلك ، وأكد للإشارة إلى ما فيه من الشدة فقال : ﴿ ثم إني أعلنت ﴾ أي أظهرت وأشعت وشهرت ليعلموا أنه الحق من ربهم لكوني لست مستحيياً منه ولا مستهجناً له ﴿ لهم ﴾ أي

خصصتهم بذلك ، لم يكن فيه حظ نفس بوجه فإني كررت ذلك عليهم بعد أن سقط الوجوب عني ، ولما قدم الجهر لأنه أقرب إلى عدم الاتهام ، وكان السر أجدر بمعرفة الضمائر وأقرب إلى الاستمالة ، أتبعه به فقال : ﴿ وأسررت لهم ﴾ أي دعوت كل واحد منهم على انفراده ليكون أدعى له وأجدر بقبوله النصيحة ، وأدل على الإخلاص ، وكل ذلك ما فعلته إلا لأجل نصيحتهم ، لا حظ لي أنا في ذلك ، ولما كان تحين الإنسان ليكون وحده ليس عنده أحد ولا هو مشتغل بصارف مما يعسر جداً فلا يكاد يصدق أكده فقال : ﴿ إسراراً ﴾ وليدل بتأكيده على تأكيد ما قبله من الأفعال ، والظاهر من حاله ومن هذا الترتيب مما صرح به من الاجتهاد أنه سار فيه على مقتضى الحكمة ، فدعا أولاً أقرب الناس إليه وأشدهم به إلفاً ، ثم انتقل إلى من بعدهم حتى عمهم الدعاء ، وكانت هذه الدعوة سراً كل واحد منهم على حدته ليعلموا نصحه ولا يحمل أحد منهم ذلك على تبكيت ولا تقريع ، جهر ليعلموا أنه ملجأ من الله إلى ذلك ، وأنها عزمة إن قصروا فيها عن الأجابة عوقبوا ، فلما أصروا جمع بين السر والعلن ، فلما تمادوا وطال الأذى شكى ، وعلى هذا فثم لبعد الرتب لا للترتيب في الزمان ، ويمكن كونها للترتيب لأن الجهر أبعد عن الاتهام ثم الإعلان بعده أزيد بعداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 165 . 168 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) ﴾

اعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره ، وذلك لأنا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد ، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سبباً لحصول الهداية ، والميل والرغبة ، وفي حق الثاني سبباً لمزيد العتو والتكبر ، ونهاية النفرة ، وليس لأحد أن يقول : إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف ، فإن هذا مكابرة في المحسوس ، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة ، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقيبه التمرد والإعراض ، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقيبه الانقياد والطاعة ، فعلمنا أن إفضاء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره ، فإن قيل : هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره ، لكن حصول العصيان عند النفرة يكون باختياره ، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع ، قلنا : إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب

الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل ، وذلك لأنه عندما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل ألبتة ، فعند حصول النفرة انضم إلى عدم المقتضي وجود المانع ، فبأن يصير الفعل ممتنعاً أولى ، فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ .

(109/783)

اعلم أن نوحاً عليه السلام إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة لأجل أن يغفر لهم ، فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة ، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة ، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح : 4] فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾

واعلم أنه عليه السلام لما دعاهم عاملوه بأشياء :

أولها : قوله : ﴿ جَعَلُواْ أَصابعهم فِى ءاذانهم ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة .

وثانيها : قوله : ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي تغطوا بها ، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه ، ولا أن يروا وجهه .

وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا ، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم ، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك ، صار المانع من السماع أقوى .

وثالثها : قوله : ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم ، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق .

ورابعها : قوله : ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ أي عظيماً بالغاً إلى النهاية القصوى .

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8)

(110/783)

واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة ، فبدأ بالمناصحة في السر ، فعاملوه بالأمور الأربعة ، ثم ثنى بالمجاهرة ، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار ، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان ، أو بحسب الرتبة ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده ، فإن قيل : بم انتصب ﴿ جهارا ﴾ ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : أنه منصوب بدعوتهم نصب المصدر ، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود وثانيها : أنه أريد بدعوتهم جاهرتهم وثالثها : أن يكون صفة لمصدر دعا

بمعنى دعاء جهاراً ، أي مجاهراً به ورابعها : أن يكون مصدراً في موضع الحال أي مجاهراً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 120 . 121 ﴾

(111/783)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾

أي سِرًّا وجهراً .

وقيل : أي واصلت الدعاء .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ أي تباعداً من الإيمان .

وقراءة العامة بفتح الياء من "دعائي" وأسكنها الكوفيون ويعقوب والدّورِي عن أبي عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾

أي إلى سبب المغفرة ، وهي الإيمان بك والطاعة لك .

﴿ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لئلا يسمعوا دعائي ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي غطّوا بها وجوههم لئلا يروه .

وقال ابن عباس : جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه .

فاستغشاءُ الثياب إذاً زيادة في سدّ الآذان حتى لا يسمعوا ، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت ، أو ليعرّفوه إعراضهم عنه .

وقيل : هو كناية عن العداوة .

يقال : لبس لي فلان ثياب العداوة .

﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي على الكفر فلم يتوبوا .

﴿ واستكبروا ﴾ عن قبول الحق ، لأنهم قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] .

﴿ استكبارا ﴾ تفخيم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ﴾

أي مُظْهراً لهم الدعوة .

وهو منصوب ب "دعوتهم" نصب المصدر ، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود ، أو لأنه أراد ب "دَعَوْتُهُمْ" جاهرتهم .

ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعاء ، أي دعاء جهاراً ، أي مجاهراً به .

ويكون مصدراً في موضع الحال ، أي دعوتهم مجاهراً لهم بالدعوة .

﴿ ثُمَّ إِني أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي لم أبق مجهوداً .

وقال مجاهد : معنى أعلنت : صحت ، "وأسررت لهم إسراراً" .

بالدعاء عن بعضهم من بعض .

وقيل : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ ﴾ أتيتهم في منازلهم .

وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم ، وتلطُّف في الاستدعاء .

وفتح الياء من ﴿ إني أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ الحرميّون وأبو عمرو .

وأسكن الباقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(112/783)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾

أي بأنْ أنذرْهُم ، على أنَّ أنْ مصدريةٌ حُذِفَ منها الجارُّ وأُوصلَ إليها الفعلُ ، فإنَّ حذفَهُ معَ أنَّ وأنْ مطردٌ ، وجُعلتْ صلتُهَا أمراً كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ لأنَّ مدارَ وصلِهَا بصيغِ الأفعالِ دلالتُهَا على المصدرِ وذلكَ لا يختلفُ بالخبريةِ والإنشائيةِ ، ووجوبُ كونِ الصلةِ خبريةً في الموصولِ الإسميِّ إنَّما هُو للتوصلِ إلى وصفِ المعارفِ بالجملِ وهي لا توصفُ إلا بالجملِ الخبريةِ ، وليسَ الموصولُ الحرفيُّ كذلكَ وحيثُ استوى الخبرُ والإنشاءُ في

الدلالةِ على المصدرِ استويا في صحةِ الوصلِ بهما فيتجردُ عند ذلكَ كلٌّ منهُمَا عن المَعْنَى الخاصّ بصيغتِهِ فيبقَى الحدثُ المجردُ عن مَعْنَى الأمرِ والنَّهيِ والمُضيّ والاستقبالِ ، كأنَّه قيلَ أرسلنَاهُ بالإنذارِ ، وقيلَ المَعْنَى أرسلناهُ بأنْ قُلْنَا لهُ أنذرْ أي أرسلناهُ بالأمرِ بالإنذارِ ، ويجوزُ أن تكونَ أنْ مفسرةً لما في الإرسالِ من معنى القولِ فلا يكونُ للجملةِ محلٌّ من الإعرابِ ، وعلى الأولِ محلُّها النصبُ عند سيبويهِ والفرَّاءِ ، والجرُّ عند الخليلِ والكِسَائيّ كما هُو المعروفُ . وقُرِىءَ أنذرْ بغيرِ أنْ على إرادةِ القولِ . ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عاجلٌ أو آجلٌ لئلا يبقَى لهُم عذرٌ مَا أصلاً . ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ إرسالِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوجهِ المذكورِ كأنَّه قيلَ ما فعلَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فقيلَ قالَ لهُم : ﴿ يا قومِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ منذرٌ موضحٌ لحقيقةِ الأمرِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ أَنِ اعبدوا اللهَ واتقوه وَأَطِيعُونِ ﴾ متعلقٌ بنذيرٌ على الوجهينِ المذكورينِ ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضَ ذنوبِكُم وهو ما سلفَ في الجاهليةِ فإنَّ الإسلامَ يجبُّه ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الأمدُ

(113/783)

الأقصَى الذي قدَّرَهُ الله تعالَى لهم بشرطِ الإيمانِ والطاعةِ وراءَ ما قدَّرَهُ لهُم على تقديرِ بقائِهم على الكفرِ والعصيانِ فإنَّ وصفَ الأجلِ بالمسمَّى ، وتعليقَ تأخيرِهم إليهِ بالإيمانِ والطاعةِ صريحٌ في أنَّ لهم أجلاً آخرَ لا يجاوزونَهُ إنْ لم يؤمنُوا وهو المرادُ بقولِهِ تعالَى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ ﴾ أي ما قدَّرَ لكُم على تقديرِ بقائِكُم على الكفرِ ﴿ إِذَا جَاء ﴾ وأنتُم على ما أنتُم عليهِ من الكُفرِ ﴿ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ فبادِرُوا إلى الإيمانِ والطاعةِ قبلَ مجيئِهِ حَتَّى لا يتحققَ شرطُهُ الذي هو بقاؤُكُم على الكفرِ فلا يجيءَ ، ويتحققَ شرطُ التأخيرِ إلى الأجلِ المسمَّى فتؤخرُوا إليهِ ويجوزُ أن يرادَ بِهِ وقتُ إتيانِ العذابِ المذكورِ في قولِهِ تعالَى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإنَّه أجلٌ موقتٌ له حَتْماً وحملُهُ على الأجلِ الأطولِ مما لا يساعدُهُ المقامُ كيفَ لاَ والجملةُ تعليلٌ للأمرِ بالعبادةِ المستتبعةِ للمغفرةِ والتأخيرِ إلى الأجلِ المسمَّى فلا بُدَّ أنْ يكونَ المنفيُّ عند مجيءِ الأجلِ هو التأخيرَ الموعودَ فكيفَ يتصورُ أن يكونَ ما فُرِضَ مجيئُهُ هو الأجلُ المسمَّى . ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كنتُم تعلمونَ شيئاً لسارعتُم إلى ما أمرتُكُم بِهِ .

(114/783)

﴿ قَالَ ﴾ أي نوحٌ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مناجياً ربَّهُ وحاكياً له تعالَى وهو أعلمُ بحالِهِ ما جرَى بينَهُ وبينَ قومه من القيلِ والقالِ في تلكَ المددِ الطوالِ بعدَ ما بذلَ في الدعوةِ غايةَ المجهودِ وجاوزَ في الإنذارِ كلَّ حدَ معهودٍ وضاقتْ عليهِ الحيلُ وعيت بهِ العللُ . ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى ﴾ إلى الإيمانِ والطَّاعةِ ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي دائماً من غيرِ فتورٍ ولا توانٍ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ ممَّا دعوتُهم إليهِ وإسنادُ الزيادةِ إلى الدعاءِ لسببيتِهِ لها كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانا ﴾ ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ أي إلى الإيمانِ ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ بسببِهِ ﴿ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ ﴾ أيْ سدُّوا مسامِعَهُم من استماعِ الدعوةِ ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي بالغُوا في التغطِّي بهَا كأنَّهُم طلبُوا أنْ تغشاهُم ثيابُهُم أو تُغشّيهم لئلا يُبصروه كراهةَ النظرِ إليهِ أو لئلا يعرفَهُم فيدعُوَهُم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي أكبُّوا على الكفرِ والمعاصِي مستعارٌ منْ أصرَّ الحمارُ على العانةِ إذَا أصرَّ أذنيهِ وأقبلَ عليهَا ﴿ واستكبروا ﴾ عن اتّباعي وطاعتي ﴿ استكبارا ﴾ شديداً ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي دعوتُهم تارةً جهراً ومرةً غبَ مرةٍ على وجوهٍ مُتخالفةٍ وأساليبَ متفاوتةٍ ، وثُمَّ لتفاوتِ الوجوهِ فإنَّ الجهارَ أشدُّ من الإسرارِ ، والجمعُ بينَهُمَا أغلظُ من الإفرادِ أو لتراخِي بعضِهَا عن بعضٍ ، وجهاراً منصوبٌ بدعوتُهم على المصدرِ لأنَّه أحدُ نوْعَيْ الدعاءِ أو أُريدَ بدعوتُهم جاهرتُهم أو هو صفةٌ لمصدرٍ أي دعوتُهم

دعاءً جهاراً أي مُجاهِراً به أو مصدرٌ في موقعِ الحالِ أي مُجاهراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(115/783)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي نوح عليه السلام مناجياً ربه عز وجل وحاكياً له سبحانه بقصد الشكوى وهو سبحانه أعلم بحاله ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال في تلك المدد الأطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاز في الإنذار كل حد معهود وضاقت عليه الحيل وعيت به العلل ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي دائماً من غير فتور ولا توان .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ مما دعوتهم إليه وإسناد الزيادة إلى الدعاء من باب الإسناد إلى السبب على حد الإسناد في سرتني رؤيتك وفراراً قيل تمييز وقيل مفعول ثان بناء على تعدي الزيادة والنقص إلى مفعولين وقد قيل أنه لم يثبت وان ذكره بعضهم وفي الآية مبالغات بليغة وكان الأصل فلم يجيبوني ونحوه فعبر عن ذلك بزيادة الفرار المسندة للدعاء وأوقعت عليهم من الإتيان بالنفي والإثبات .

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ أي إلى الإيمان فمتعلق الفعل محذوف وجوز جعله منزلاً منزلة اللازم والجملة عطف على ما قبلها وليس ذلك من عطف المفصل على المجمل كما توهم حتى يقال إن الواو من الحكاية لا من المحكى ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي بسبب الإيمان ﴿ جَعَلُواْ أصابعهم فِى ءاذانهم ﴾ أي سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة فهو كناية عما ذكر ولا منع من الحمل على الحقيقة وفي نسبة الجعل إلى الأصابع وهو منسوب إلى بعضها وإيثار الجعل على الادخال ما لا يخفى ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي بالغوا في التغطي بها كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم لئلا يروه كراهة النظر إليه من فرط كرهة الدعوة ففي التعبير بصيغة الاستفعال ما لا يخفى من المبالغة وكذا في تعميم آلة الإبصار وغيرها من البدن بالستر مبالغة في إظهار الكراهة ففي الآية مبالغة بحسب الكيف والكم وقيل بالغوا في ذلك لئلا يعرفهم عليه السلام فيدعوهم وفيه ضعف فإنه قيل عليه إنه يأباه ترتبه على قوله كلما دعوتهم اللهم إلا أن يجعل مجازاً عن إرادة الدعوة وهو تعكيس للأمر وتخريب للنظم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي اكبوا على الكفر والمعاصي وانهمكوا وجدوا فيها مستعار من أصر الحمار على العانة إذا أصر أذنيه أي رفعهما ونصبهما مستويين وأقبل عليها يكدمها

ويطردها وفي ذلك غاية الذم لهم وعن جار الله لو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار لكفى به مزجرة كيف والتشبيه في أسوا أحواله وهو حال الكدم والسفاد وما ذكر من الاستعار قيل في أصل اللغة وقد صار الإصرار حقيقة عرفية في الملازمة والانهماك في الأمر وقال الراغب الإصرار التعقد في الذنب والتشديد فيه والإمتناع من الإقلاع عنه وأصله من الصر أي الشد ولعله لا يأبى ما تقدم بناء على أن الأصل الأول الشد والأصل الثاني ما سمعت أولا ﴿ واستكبروا ﴾ من اتباعي وطاعتي ﴿ استكبارا ﴾ عظيماً وقيل نوعاً من الاستكبار غير معهود والاستكبار طلب الكبر من

(117/783)

غير استحقاق له .

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي دعوتهم مرة بعد مرة وكرة غب كرة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة وهو تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم الأوقات وقوله ثم إني دعوتهم جهاراً يشعر بمسبوقية الجهر بالسر وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو فثم لتفاوت الوجوه وإن الجهار أشد من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفراد وقال بعض الأجلة ليس في النظم الجليل ما يقتضي

أن الدعوة الأولى كانت سراً فقط فكأنه أخذ ذلك من المقابلة ومن تقديم قوله ﴿ ليلا ﴾ وذكرهم بعنوان قومه وقوله ﴿ فراراً ﴾ فإن القرب ملائم له .

وجوز كون ثم على معناها الحقيقي وهو التراخي الزماني لكنه باعتبار مبدأ كل من الأسرار والجهار ومنتهاه وباعتبار منتهى الجمع بينهما لئلا ينافي عموم الأوقات السابق ويحسن اعتبار ذلك وإن اعتبر عمومها عرفيا كما في لا يضع العصا عن عاتقه وجهاراً منصوب بدعوتهم على المصدرية لأنه أحد نوعي الدعاء كما نصب القرفصاء في قعدت القرفصاء عليها لأنها أحد أنواع القعود أو أريد بدعوتهم جاهرتهم أو صفة لمصدر محذوف أي دعوتهم دعاء جهاراً أي مجاهراً بفتح الهاء به أو مصدر في موقع الحال أي مجاهراً بزنة اسم الفاعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(118/783)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) ﴾

جرد فعل ﴿ قال ﴾ هنا ، من العاطف لأنه حكاية جواب نوح عن قول الله له ﴿ أَنْذِرْ قومك ﴾ [نوح : 1] عومل معاملة الجواب الذي يُتلقى به الأمر على الفور على طريقة

المحاورات التي تقدمت في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة (30) ، تنبيهاً على مبادرة نوح بإبلاغ الرسالة إلى قومه وتمام حرصه في ذلك كما أفاده قوله : ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ وحصول يأسه منهم ، فجعل مراجعته ربه بعد مهلة مستفادة من قوله : ﴿ لَيْلاً ونهاراً ﴾ بمنزلة المراجعة في المقام الواحد بين المتحاورَيْن .

ولك أن تجعل جملة ﴿ قال رب ﴾ الخ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن السامع يترقب معرفة ماذا أجاب قوم نوح دعوته فكان في هذه الجملة بيان ما يترقبه السامع مع زيادة مراجعة نوح ربه تعالى .

وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه وهو الشكاية والتمهيد لطلب النصر عليهم لأن المخاطب به عالم بمدلول الخبر .

وذلك ما سيفضي إليه بقوله : ﴿ وقال نوح رب لا تذَرْ على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ الآيات [نوح : 26] .

وفائدة حكاية ما ناجى به نوح ربه إظهارُ توكله على الله ، وانتصار الله له ، والإِتيانُ على مهمات من العبرة بقصته ، بتلوين لحكاية أقواله وأقوال قومه وقول الله له .

وتلك ثمان مقالات هي :

﴿ أن أنذر قومك ﴾ الخ [نوح : 1] .

﴿ قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴾ الخ [نوح : 2] .

3 ﴿ قال رب إني دعوت قومي ﴾ الخ [نوح : 5] .

﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ الخ [نوح : 10] .

﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ الخ [نوح : 21] .

﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ الخ [نوح : 24] .

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض ﴾ الخ [نوح : 26] .

﴿ رب اغفر لي ﴾ الخ [نوح : 28] .

(119/783)

وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم ، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط وهي أوقات النهار ، ومن أوقات الهدوّ وراحة البال وهي أوقات الليل .

ومعنى ﴿ لم يَزدهم دعائيَ إلاّ فراراً ﴾ أن دعائي لهم بأن يعبدوا الله وبطاعتهم لي لم يزدهم ما دعوتهم إليه إلاّ بعداً منه ، فالفرار مستعار لقوة الإِعْراض ، أي فلم يزدهم دعائي إياهم قرباً مما أدعوهم إليه .

واستثناء الفرار من عموم الزيادات استثناء منقطع .

والتقدير : فلم يزدهم دعائي قرباً من الهدى لكن زادهم فراراً كما في قوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام ﴿ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ [هود : 63] .

وإسناد زيادة الفرار إلى الدعاء مجاز لأن دعاءه إياهم كان سبباً في تزايد إعراضهم وقوة تمسكهم بشركهم .

وهذا من الأسلوب المسمى في علم البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أو تأكيدَ الشيء بما يشبه ضده ، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورةٍ تشبه ضد الإعراض .

ولما كان فرارهم من التوحيد ثابتاً لهم من قبل كان قوله : ﴿ لم يزدهم دعائي إلاّ فراراً ﴾ من تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

وتصدير كلام نوح بالتأكيد لإرادة الاهتمام بالخبر .

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7)

﴿ كلما ﴾ مركبة من كلمتين كلمةِ (كل) وهي اسم يدل على استغراق أفراد ما تضاف هي إليه ، وكلمة (ما) المصدرية وهي حرف يفيد أن الجملة بعده في تأويل مصدر .

وقد يراد بذلك المصدر زمَانُ حصوله فيقولون (مَا) ظرفية مصدرية لأنها نائبة عن اسم الزمان .

والمعنى : أنهم لم يظهروا مخِيلةً من الإِصغاء إلى دعوته ولم يتخلفوا عن الإِعراض والصدود عن دعوته طَرفة عَيْن ، فلذلك جاء بكلمة ﴿ كلما ﴾ الدالة على شمول كلّ دعوة من دعواته مقترنةً بدلائل الصد عنها ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ [البقرة : 20] .

وحُذف متعلق ﴿ دَعَوْتُهم ﴾ لدلالة ما تقدم عليه من قوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ [نوح : 3] .

والتقدير : كلما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتي فيما أمرتهم به .

واللام في قوله : ﴿ لتغفر ﴾ لام التعليل ، أي دعوتهم بدعوة التوحيد فهو سبب المغفرة ، فالدعوة إليه معللة بالغفران .

ويتعلق قوله : ﴿ كلما دعوتهم ﴾ بفعل ﴿ جعلوا أصابعهم ﴾ على أنه ظرف زمان .

وجملة ﴿ جعلوا أصابعهم ﴾ خبر (إن) والرابط ضمير ﴿ دعوتهم ﴾ .

وجَعْل الأصابع في الآذَان يمنع بلوغ أصوات الكلام إلى المسامع .

وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية فإن الذي يُجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كلّه فعُبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم

من الصواعق ﴾ في سورة البقرة (19) .

واستغشاء الثياب : جَعْلُها غِشاء ، أي غِطاء على أعينهم ، تعْضيداً لسد آذانهم بالأصابع لئلا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إشاراته .

وأكثر ما يطلق الغشاء على غطاء العينين ، قال تعالى : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة : 7] .

والسين والتاء في ﴿ استغشوا ﴾ للمبالغة .

فيجوز أن يكون جعل الأصابع في الآذان واستغشاءُ الثياب هنا حقيقة بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح إذا أراد أحد أن يظهر كراهية لكلام من يتكلم معه أن يجعل أصبعيه في أذنيه ويجعل من ثوبه ساتراً لعينيه .

ويجوز أن يكون تمثيلاً لحالهم في الإِعراض عن قبول كلامه ورؤية مقامه بحال من يَسُكُّ سمعه بأنملتيْه ويحجب عينيه بطرف ثوبه .

(121/783)

وجعلت الدعوة معللة بمغفرة الله لهم لأنها دعوة إلى سبب المغفرة وهو الإِيمان بالله وحده وطاعةُ أمره على لسان رسوله .

وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتعجب من خُلُقهم إذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبروها .

والإِصرار : تحقيق العزم على فعلٍ ، وهو مشتق من الصَّر وهو الشد على شيء والعقدُ عليه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولم يصرّوا على ما فعلوا ﴾ في سورة آل عمران (135) .

وحذف متعلق أصَروا ﴾ لظهوره ، أي أصروا على ما هم عليه من الشرك .

﴿ واستكبروا ﴾ مبالغة في تكبروا ، أي جعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذِلُنا بادىء الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ [هود : 27] .

وتأكيد ﴿ استكبروا ﴾ بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار .

وتنوين ﴿ استكباراً ﴾ للتعظيم ، أي استكباراً شديداً لا يَفله حدُّ الدعوة .

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8)

ارتقى في شكواه واعتذاره بأنَّ دعوته كانت مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار ، فعَطْف الكلام بـ ﴿ ثم ﴾ التي تفيد في عطفها الجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها ، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من أوقات إلقائها لأن الحالة أشد ملابسة بصاحبها مِن ملابسة زمانه .

فذَكَر أنه دعاهم جهاراً ، أي علناً .

وجِهار : اسم مصدر جهر ، وهو هنا وصف لمصدر ﴿ دَعَوْتُهم ﴾ ، أي دعوةً جهاراً .

وارتقى فذكر أنه جمع بين الجهر والإِسرار لأن الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة وأغلظ من إفراد إحداهما .

فقوله : ﴿ أعلنت لهم ﴾ تأكيد لقوله : ﴿ دعوتهم جهاراً ﴾ ذكر ليبنى عليه عطف ﴿ وأسررت لهم إسراراً .

(122/783)

والمعنى : أنه توخى ما يظنه أوْغَل إلى قلوبهم من صفات الدعوة ، فجهر حين يكون الجهر أجدى مثلُ مجامع العامة ، وأسَرَّ للذين يظنهم متجنبين لَوْم قومهم عليهم في التصدّي لسماع دعوته وبذلك تكون ضمائر الغيبة في قوله دعوتهم ﴾ ، وقوله : ﴿ أعلنت لهم وأسررت لهم ﴾ موزعة على مختلفِ الناس .

وانتصب ﴿ جهاراً ﴾ بالنيابة عن المفعول المطلق المبيّن لنوع الدعوة .

وانتصب ﴿ إسراراً ﴾ على أنه مفعول مطلق مفيد للتوكيد ، أي إسراراً خفياً .

ووجه توكيد الإسرار أن إسرار الدعوة كان في حال دعوته سادتهم وقادتهم لأنهم

يمتعضون من إعلان دعوتهم بمسمع من أتباعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(123/783)

قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بأنه بالغ في الدعوة إلى حد لا مزيد عليه ، فلم يدع من الأوقات ولا من الأحوال شيئاً ، سبب عنه بيان ما قال في دعوته وهو التسبب في السعادة كلها بدفع المضار وجلب المسار ، فقال مقدماً لطلب الغفران بالتوبة عن الكفر ليظهروا فيكونوا قابلين للتحلية بالمحاسن الدينية بعد التخلية عن الأخلاق الدنية : ﴿ فقلت ﴾ أي في دعائي لهم : ﴿ استغفروا ربكم ﴾ أي اطلبوا من المحسن إليكم ، المبدع لكم ، المدبر لأموركم ، أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها ، بالرجوع عن عبادة غيره إلى الإخلاص في عبادته .

ولما ذكر أنه استعطفهم أولاً ببيان أن رجوعهم ممكن ، لئلا يقولوا : إنا قد بالغنا في المعاصي فلا نقبل ، وأعلمهم أن الاستغفار باب الدخول إلى طاعة الجبار ، أكد ذلك الاستعطاف بقوله معللاً للأمر ولجوابه بنحو : يغفر لكم ، مؤكداً لأجل توقفهم : ﴿ إنه كان ﴾ أي أزلاً وأبداً ودائماً سرمداً ﴿ غفاراً ﴾ أي متصفاً بصفة الستر على من رجع إليه على أبلغ الوجوه وأعلاها ، وإذا وقع الغفران دفع المضار كلها .

(124/783)

ولما قرر أمر التوبة وبين قبولها وقدمه اهتماماً به لأنه أصل ما يبتنى عليه ، ولأن التخلي قبل التحلي ، ودرء المفاسد قبل جلب المصالح والفوائد ، رغب فيها بما يكون عنها من الزيادة في الإحسان على أصل القبول ، وينشأ عن الاستغفار من الآثار الكبار من الأفضال بجلب المسار بما هو مثال للجنة التي كان سبب الإخراج منها النسيان لأنهم أحب شيء في الأرباح الحاضرة والفوائد العاجلة لا سيما بما يبهج النفوس ويشرح الصدور لإذهابه البؤس ، فقال مجيباً لفعل الأمر : ﴿ يرسل السماء ﴾ أي المظلة الخضراء أو السحاب أو المطر ﴿ عليكم ﴾ أي بالمطر وأنواع البركات ﴿ مدراراً ﴾ أي حال كونها كثيرة الدورة متكررته ، وهذا البناء يستوي فيه المذكر والمؤنث ﴿ ويمددكم ﴾ أظهر لأن الموضع لإرادة

المبالغة والبسط والسعة ﴿ بأموال وبنين ﴾ وذلك يفهم أن من اكثر الاستغفار حباه الله ما يسره ، وحماه ما يضره ﴿ ويجعل لكم ﴾ أي في الدارين ﴿ جنات ﴾ أي بساتين عظيمة ، وأعاد العامل للتأكيد والبسط لأن المقام له فقال : ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك ، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ استسقى فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل : يا أمير المؤمنين ! ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي بها يستنزل القطر ، ثم قرأ هذه الآية ، وقال القشيري : من وقعت له إلى الله حاجة فلن يصل إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار ، وقال : إن عمل قوم نوح كان بضد ذلك ، كلما ازداد نوح في الضمان ووجوه الخير والإحسان ازدادوا في الكفر والنسيان .

ولما كان من رجا ملكاً عمل بما يرضيه .

(125/783)

ومن خافة تجنب ما يسخطه ، نبههم على ذلك بالإشارة إلى الجلال الموجب للتوقير والجمال بالإحسان إلى الخلق ، مصرحاً لهم بالترغيب ملوحاً إلى الترهيب ، فقال مستأنفاً في جواب من يقول منهم : هل بقي شيء من قولك ؟ : ﴿ ما ﴾ أي أيّ شيء يحصل ﴿ لكم ﴾ حال

كونكم ﴿ لا ترجون ﴾ أي تكونون في وقت من الأوقات على حال تؤملون بها ، وبين فاعل الوقار ومبدعه بتقديمه ، فإنه لو أخره لكان ل " وقاراً " فقال : ﴿ لله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ﴿ وقاراً ﴾ أي ثواباً يوقركم فيه ولو قل ، فإن قليله أكثر من كثير غيره ، ولا تخافون له إهانة بالعقاب بأن تعلموا أنه لا بد من أن يحاسبكم بعد البعث فيثيب الطائع ويعاقب العاصي ، كما هي عادة كل أحد مع من تحت يده ، فتوقروا رسله بتصديقهم فتؤمنوا وتعملوا ، فإن من أراد من أحد أنه يوقره وقره وعظمه ليجازيه على ذلك ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وذلك إنما يكون بمعرفة الله بما له من الجلال والجمال ، والخلق إنما تفاضلوا بالمعرفة بالله ، لا بالأعمال ، إنما سبق أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ الناس بشيء وقر في صدره ، فإن بالمعرفة تزكو الأعمال وتصلح الأقوال ، وإنما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقاً ، ولا تنازع له اختياراً ، وتعظم أمره ونهيه ، بعدم المعارضة بترخيص جاف أو تشديد غال أو حمل على توهم الانقياد ، وتعظم حكمه بأن لا تبغي له عوجاً ولا تدافعه بعلم ، ولا ينبغي له غرض وعلة ، ولأجل أن المطلوب تحصيل الأعمال التي هي أسباب ظاهرية ، عبر بالرجاء ليسرهم بأن أعمالهم مؤثرة ، وعبر بالطمع في غير هذه الآية تنبيهاً على أنه لا سبب في الحقيقة إلا رحمة الله لحال دعاء إلى ذلك .

ولما كان هذا إشارة إلى الاستدلال على البعث بما يعلمونه من أنفسهم صرح بعد ما لوح، فقال آتياً بحرف التوقع لأنه مقامه: ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد أحسن إليكم مرة بعد مرة بما لا يقدر عليه غيره، فدل ذلك على تمام قدرته، ثم لم يقطع إحسانه عنكم فاستحق أن تؤمنوا به لأنه ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن: 60] ورجاء لدوام إحسانه وخوفاً من قطعه لأنه ﴿ خلقكم ﴾ أي أوجدكم من العدم مقدرين ﴿ أطواراً ﴾ أي تارات عناصر أولاً ثم مركبات تغذي الحيوان ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً وأعصاباً ودماء، ثم خلقاً آخر تاماً ناطقاً ذكراناً وإناثاً طوالاً وقصاراً بيضاً وسوداً وبين ذلك - إلى غير ذلك من الأمور الدالة على قدرته على كل مقدور، ومن قدر على هذا الابتداء كان على الإعادة أعظم قدرة، وقد ثبتت حكمته وأنه لم يخلق الخلق الخلق سدى بما بان من هذا التطوير على هذه الهيئات العجيبة التي لا قدرة لغيره عليها بوجه، وهم يتهارجون في هذه الدار تهارج الحمر، ويموت المظلوم على حاله، والظالم يبلغ آماله، فلا بد أن يعيدهم ليفصل بينهم فيظهر حكمته وعدله وإكرامه وفضله، ولو ترك ذلك لكان نقصاً في ملكه، ومن قدر على ذلك كان قادراً على الجزاء بالثواب والعقاب، فهو أهل لأن يخشى ويرجى. انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 169. 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) ﴾

قال مقاتل : إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فرجعوا فيه إلى نوح ، فقال نوح : استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه .

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، ويدل عليه وجوه أحدها : أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 90 ، 91] فلما كان الكفر سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون الإيمان سبباً لعمارة العالم وثانيها : الآيات منها هذه الآية ومنها قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات ﴾ [الأعراف : 96] ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [المائدة : 66] ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ [الجن

: 16] ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 32] ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ [طه : 132] وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية ورابعها : أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ، فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء .

(128/783)

المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة ، ونوءه يكون عزيزاً شبه عمر (الاستغفار) بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء ، وعن بكر بن عبد الله : أن أكثر الناس ذنوباً أقلهم استغفاراً ، وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً ، وعن الحسن : أن رجلاً شكا إليه الجدب ، فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له بعض القوم : أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا له الآية ، وههنا سؤالات :

الأول : أن نوحاً عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى والطاعة ، فأي

فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار ؟ الجواب : أنه لما أمرهم بالعبادة قالوا له : إن كان الدين القديم الذي كنا عليه حقاً فلم تأمرنا بتركه ، وإن كان باطلاً فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه ، فقال نوح عليه السلام : إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب ، فإنه سبحانه كان غفاراً .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ ولم يقل : إنه غفار ؟ قلنا المراد : إنه كان غفاراً في حق كل من استغفروه كأنه يقول : لا تظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن ، بل هو أبداً هكذا كان ، فكأن هذا هو حرفته وصنعته .

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11)

واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : 13] فلا جرم أعلمهم الله تعالى ههنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا .

والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآية خمسة أولها : قوله : ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مُّدْرَاراً ﴾ وفي السماء وجوه : أحدها : (أن) المطر منها ينزل إلى السحاب وثانيها : أن يراد بالسماء السحاب وثالثها : أن يراد بالسماء المطر من قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . (رعيناه وإن كانوا غضابا)

والمدرار الكثير الدرور ، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم : رجل أو امرأة معطار ومتفال وثانيها : قوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوال ﴾ وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل وثالثها : قوله : ﴿ وَبَنِينَ ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه .

ورابعها : قوله : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ أي بساتين وخامسها : قوله : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13)

وفيه قولان : الأول : أن الرجاء ههنا بمعنى الخوف ومنه قول الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . والوقار العظمة والتوقير التعظيم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح : 9] بمعنى ما بالكم لا تخافون لله عظمة .

وهذا القول عندي غير جائز ، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة ، فلو قلنا : إن لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحاً للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر وهذا يفضي إلى القدح في القرآن ، فإنه لا لفظ فيه إلا ويمكن جعل نفيه إثباتاً وإثباته نفياً بهذا الطريق الوجه الثاني : ما ذكره صاحب "الكشاف" وهو أن المعنى : مالكم لا تأملون لله توقيراً أي تعظيماً ، والمعنى مالكم لا تكونوا على حال

تأملون فيها تعظيم الله إياكم و ﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صلة للوقار .

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)

(130/783)

في موضع الحال كأنه قال : مالكم لا تؤمنون بالله ، والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أي تارات خلقكم أولاً تراباً ، ثم خلقكم نطفاً ، ثم خلقكم علقاً ، ثم خلقكم مضغاً ، ثم خلقكم عظاماً ولحماً ، ثم أنشأكم خلقاً آخر ، وعندي فيه وجه ثالث : وهو أن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به ، فكأنه قال لهم : إنكم إذا وقرتم نوحاً وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لأجل الله ، فما لكم لا ترجون وقاراً وتأتون به لأجل الله ولأجل أمره وطاعته ، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله ، فإنه لا بد وأن يرجوا منه خيراً ووجه رابع : وهو أن الوقار وهو الثبات من وقر إذا ثبت واستقر ، فكأنه قال : ﴿ مَالَكُمْ ﴾ وعند هذا تم الكلام ، ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار ﴿ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [الجن : 13] أي لا ترجون لله ثباتاً وبقاء ، فإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لخفتموه ، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره ، والمراد من قوله : ﴿ تَرْجُونَ ﴾ أي تعتقدون لأن الراجي

للشيء معتقد له .

واعلم أنه لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل :

الأول : قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ وفيه وجهان : الأول : قال الليث : الطورة التارة يعني حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة ، ثم علقة إلى آخر التارات الثاني : قال ابن الأنباري : الطور الحال ، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضكم بعضاً ، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد ، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 122.124 ﴾

(131/783)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

" نوح " عليه السلام هو نوح بن لامك ، وقد مر ذكره وذكر عمره صلى الله عليه وسلم ، وصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفته وسكون الوسط من حروفه ، وقوله : ﴿ أن أنذر قومك ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ : مفسرة لا موضع لها من الإعراب ، ويحتمل أن يكون التقدير " بأن أنذر قومك " وهي على هذا في موضع نصب عند قوم من النحاة ، وفي موضع

خفض عند آخرين ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " إلى قومه أنذر قومك " دون ﴿ أن ﴾ ، والعذاب الذي توعدوا به : يحتمل أن يكون عذاب الدنيا وهو الأظهر والأليق بما يأتي بعد ، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة . وقرأ جمهور السبعة : " أنُ اعبدوا " ، بضم النون من " أن " إتباعاً لضمة الباء وتركاً لمراعاة الحائل لخفة السكون ، فهو كأن ليس ثم حائل . وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو ، وفي رواية عبد الوارث " أنِ اعبدوا " ، بكسر النون وهذا هو الأصل في التقاء الساكنين من كلمتين . و﴿ يغفر ﴾ جواب الأمر وقوله تعالى : ﴿ من ذنوبكم ﴾ قال قوم ﴿ من ﴾ زائدة ، وهذا نحو كوفي ، وأما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهم زيادتها في الواجب ، وقال قوم : هي لبيان الجنس ، وهذا ضعيف لأنه ليس هنا جنس يبين ، وقال آخرون هي بمعنى " عن " . وهذا غير معروف في أحكام " من " ، وقال آخرون : هي لابتداء الغاية وهذا قول يتجه كأنه يقول يبتدئ الغفران من هذه الذنوب العظام التي لهم . وقال آخرون : هي للتبعيض ، وهذا عندي أبين الأقوال ، وذلك أنه لو قال : " يغفر لكم ذنوبكم " لعم هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم ، والإسلام إنما يجبُّ ما قبله ، فهي بعض من ذنوبهم ، فالمعنى يغفر لكم ذنوبكم ، وقال بعض المفسرين : أراد ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ المهم الموبق الكبير لأنه أهم عليهم ، وبه ربما كان اليأس عن الله قد وقع لهم وهذا قول مضمنه أن ﴿ من ﴾ للتبعيض والله تعالى الموفق . وقرأ أبو عمرو : ﴿ يغفر لكم ﴾ بالإدغام ، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه ، لأن الراء حرف

مكرر ، فإذا أدغم في اللام ذهب التكرير واختل المسموع . وقوله تعالى : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ مما تعلق المعتزلة به في قولهم : إن للإنسان أجلين ، وذلك أنهم قالوا : لو كان واحداً محدوداً لما صح التأخير ، إن كان الحد قد بلغ ولا المعاجلة إن كان الحد لم يبلغ .

قال القاضي أبو محمد : وليس لهم في الآية تعلق ، لأن المعنى أن نوحاً عليه السلام ، لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ؟ ولا قال لهم : إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى لهم بالإيمان والتأخير وإما ممن قضي عليه بالكفر والمعاجلة ، فكأن نوحاً عليه السلام قال لهم : آمنوا يبين لكم أنكم ممن قضي لهم بالإيمان والتأخير ، وإن بقيتم فسيبين لكم أنكم ممن قضي عليه بالكفر والمعاجلة ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ . وقد حكى مكي القول بالأجلين ولم يقدره قدره ، وجواب ﴿ لم ﴾ ، مقدر يقتضيه اللفظ كأنه قال : فما كان أحزمكم أو أسرعكم إلى التوبة ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5)

هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس عن قومه ، وقوله : ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ عبارة عن استمرار دعائه ، وأنه لم ين فيه قط ، ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول : احذر هذا الرجل فإن أبي حذرني إياه ، ويقول له إنه مجنون . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : " دعائيَ إلا " بالهمز وفتح الياء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : " دعايْ " بسكون الياء دون همز ، وروى شبل عن ابن كثير : بنصب الياء دون همز مثل هداي ، وقرأ عاصم أيضاً وسلام ويعقوب : بهمز وياء ساكنة . وقوله : ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ﴾ معناه : ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران . وقوله تعالى : ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة ، ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم ، وشدة رفضهم لأقواله ، وكذلك قوله : ﴿ استغشوا ثيابهم ﴾ معناه : جعلوها أغشية على رؤوسهم ، والإصرار الثبوت على معتقد ما ، وأكثر استعماله في الذنوب ، ثم كرر عليه السلام صفة دعائه لهم بياناً وتأكيداً وجهاراً يريد علانية في المحافل ، والإسرار ما كان من دعاء الأفراد بينه وبينهم على انفراد ، وهذا غاية الجد . وقوله تعالى : ﴿ استغفروا ربكم يرسل السماء ﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمة . وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعة ثم انصرف فقال له قوم : ما رأيناك

استسقيت يا أمير المؤمنين ، فقال : والله لقد استنزلت المطر بمجادح السماء ، ثم قرأ الآية ، وسقى رضي الله عنه ، وشكى رجل إلى الحسن الجرب فقال له : استغفر الله ، وشكى إليه آخر الفقر ، فقال : استغفر إليه ، وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له استغفر الله ، فقيل له في ذلك ، فنزع بهذه الآية .

(134/783)

قال القاضي أبو محمد : والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظ الاستغفار فقط ، بل الإخلاص والصدق في الأعمال والأقوال ، فكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه ، وروي أن قوم نوح كانوا قد أصابهم قحوط وأزمة ، فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم ثنى بالأموال والبنين . قال قتادة : لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها ، و" مدرار " : مفعال من الدر ، كمذكار ومئناث ، وهذا البناء لا تلحقه التأنيث .

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا (12)

وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ فقال أبو عبيدة

وغيره : ﴿ ترجون ﴾ معناه تخافون ، ومنه قول الشاعر [أبو ذؤيب الهذلي] : [الطويل]

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وحالفها في بيت نوب عواسل

قالوا والوقار : العظمة والسلطان ، فكأن الكلام على هذا وعيد وتخويف ، وقال بعض العلماء ﴿ ترجون ﴾ على بابها في الرجاء وكأنه قال : ما لكم لا تعجلون رجاءكم لله وتلقاءه وقاراً ، ويكون على هذا التاويل منهم كأنه يقول : تؤدة منكم وتمكناً في النظر لأن الكفر مضمنه الخفة والطيش وركوب الرأس ، وقوله تعالى : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هي إشارة إلى التدريج الذي للإنسان في بطن أمه من النطفة والعلقة والمضغة ، وقال جماعة من أهل التأويل هي إشارة إلى العبرة في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم ومللهم ، والأطوار : الأحوال المختلفة . ومنه قول النابغة : [البسيط]

فإن أفاق فقد طارت عمايته . . . والمرء يخلق طوراً بعد أطوار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(135/783)

وقال القرطبى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا ربَّكُمْ ﴾ أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ وهذا منه ترغيب في التوبة .

وقد روى حُذَيفة بن اليمان : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الاستغفار ممحاة للذنوب " وقال الفُضيل : يقول العبد أستغفر الله ، وتفسيرها أَقِلْنِي .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أي يرسل ماء السماء ، ففيه إضمار .

وقيل : السماء المطر ، أي يرسل المطر .

قال الشاعر :

إذا سقط السماءُ بأرضِ قوم . . .

عيناه وإن كانوا غِضاباً

و"مِدْراراً" ذَا غَيْث كثير .

وجزم "يُرْسِل" جواباً للأمر .

وقال مقاتل : لما كذَّبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فهلكت مواشيهم وزروعهم ، فصاروا إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به .

فقال : ﴿ استغفروا ربّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ أي لم يزل كذلك لمن أناب إليه .

ثم قال ترغيباً في الإيمان : ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مّدْرَاراً .

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

قال قتادة : علم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنهم أهل حرص على الدنيا فقال : " هَلُمّوا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة " .

الثالثة : في هذه الآية والتي في "هود" دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار .

قال الشعبيّ : خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا : ما رأيناك استسقيتَ ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ، ثم قرأ : "اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ إنه كَانَ غَفَّاراً .

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً" .

(136/783)

وقال الأوزاعيّ : خرج الناس يستسقون ، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : اللهم إنا سمعناك تقول : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] وقد أقررنا بالإساءة ، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؟ ! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا ! فرفع

يديه ورفعوا أيديهم فسُقُوا .

وقال ابن صبيح : شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له : استغفر الله .

وشكا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله .

وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله .

وشكا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال له : استغفر الله .

فقلنا له في ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندي شيئاً ، إن الله تعالى يقول في سورة "نوح" : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

وقد مضى في سورة "آل عمران" كيفية الاستغفار ، وأن ذلك يكون عن إخلاص وإقلاع من الذنوب .

وهو الأصل في الإجابة .

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13)

قيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف ، أي ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة .

أي أيّ عذر لكم في ترك الخوف من الله .

وقال سعيد بن جُبَير وأبو العالية وعطاء بن أبي رَبَاح : ما لكم لا ترجون لله ثواباً ولا تخافون

له عقاباً .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ما لكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً .

وقال الوالبي والعَوْفي عنه : ما لكم لا تعلمون لله عظمة .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد : ما لكم لا تَرون لله عظمة .

وعن مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة .

قال قُطْرُب : هذه لغة حجازية .

وهُذيل وخزاعة ومُضَر يقولون : لم أرْجُ : لم أبال .

والوقار : العظمة .

والتوقير : التعظيم .

وقال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة ، كأن المعنى ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان .

(137/783)

وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً .

وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدون لله طاعة .

وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة .

وقيل : ما لكم لا توحّدون الله ، لأن من عظّمه فقد وحّده .

وقيل : إن الوقار الثباتُ لله عزّ وجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] أي اثبتن .

ومعناه ما لكم لا تُثبتون وحدانية الله تعالى وأنه إلهكم لا إله لكم سواه ، قاله ابن بحر .

ثم دلهم على ذلك فقال : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أي جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده .

قال ابن عباس : "أطواراً" يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة ، أي طَوْراً بعد طور إلى تمام الخلق ، كما ذكر في سورة "المؤمنون" .

والطَّوْر في اللغة : المرة ، أي من فَعل هذا وقدَر عليه فهو أحق أن تعظّموه .

وقيل : "أطْوَاراً" صبياناً ، ثم شباباً ، ثم شيوخاً وضعفاء ، ثم أقوياء .

وقيل : أطواراً أي أنواعاً : صحيحاً وسقيماً ، وبصيراً وضريراً ، وغنياً وفقيراً .

وقيل : إن "أطواراً" اختلافهم في الأخلاق والأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(138/783)

وقال الآلوسى :

﴿ فَقُلْتُ استغفروا ربَّكُمْ ﴾

بالتوبة عن الكفر والمعاصي فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به وقال ربكم تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ دائم المغفرة كثيرها للتائبين كإنهم تعللوا وقالوا ان كنا على الحق فكيف نتركه وان كنا على الباطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا جل وعلا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصي ويجلب إليهم المنافع ولذلك وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحب إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية أعني ما تضمنه ﴿ يرسل السماء ﴾ [نوح : 11] الخ وأحبيتهم لذلك لما جبلوا عليه من محبة الأمور الدنيوية

والنفس مولعة بحب العاجل . . .

قال قتادة كانوا أهل حب للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها وقيل لما كذبوه عليه الصلاة والسلام بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدهم أنهم ان آمنوا يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما هم فيه وهو قوله :

﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أي كثير الدر ورأى السيلان والسماء السحاب أو المطر ومن اطلاقها على المطر وكذا على النبات أيضاً قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وان كانوا غضابا

وجوز أن يراد بها المظلة على ما سمعت غير مرة وهي تذكر وتؤنث ولا يأبى تأنيثها وصفها بمدرار إلا أن صيغ المبالغة كلها كما صرح به سيبويه يشترك فيها المذكر والمؤنث وفي "البحر" أن مفعالاً لا تلحقه التاء إلا نادراً .

(139/783)

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ أي بساتين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ فيها أو مطلقاً ﴿ أَنْهَاراً ﴾ جارية وأعاد فعل الجعل دون أن يقول يجعل لكم جنات وأنهاراً لتغايرهما فإن الأول مما لفعلهم مدخل فيه بخلاف الثاني ولذا قال يمددكم بأموال وبنين ولم يعد العامل كذا قيل وهو كما ترى ولعل الأولى أن يقال أن الإعادة للاعتناء بأمر الأنهار لما أن لها مدخلاً عادياً أكثرياً في وجود الجنات وفي بقائها مع منافع أخر لا تخفى ورعاية لمدخليتها في بقائها الذي هو أهم من أصل وجودها مع قوة هذه المدخلية أخرت عنها وإن ترك إعادة العامل مع البنين لأنه الأصل أو لأنه لما كان الإمداد أكثر ما جاء في المحبوب ولا تكمل محبوبية كل من الأموال والبنين بدون الآخر ترك إعادة العامل بينهما للإشارة إلى أن

التفضل بكل غير منغص بفقد الآخر وتأخير البنين قيل لأن بقاء الأموال غالباً بهم لا سيما عند أهل البادية مع رمز إلى أن الأموال تصل إليهم آخر الأمر وهو مما يسر المتمول كما لا يخفى فتأمل وقال البقاعي المراد بالجنات والأنهار ما في الآخرة والجمهور على الأول وروي عن الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجدب فقال له استغفر الله تعالى وأتاه آخر فشكا إليه الفقر فقال له استغفر الله تعالى وأتاه آخر فقال ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً فقال له استغفر الله تعالى وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه فقال له استغفر الله تعالى فقلنا أتاك رجال يشكون ألواناً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار فقال ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله عز وجل حكاية عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه ﴿ استغفروا ربكم ﴾ [نوح : 10] الآية .

(140/783)

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً على أن الرجاء بمعنى الخوف كما أخرجه الطستي عن ابن عباس مجيباً به سؤال نافع بن الأزرق منشداً قول أبي ذؤيب

: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . .

وحالفها في بيت نوب عواسل

أو على أنه بمعنى الاعتقاد كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وجماعة وعبر به بالرجاء التابع لأدنى الظن مبالغة ولا ترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار في لكم على أن الإنكار متوجه إلى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لا إليهما معاً ولله متعلق بمضمر وقع حالاً من وقاراً ولو تأخر لكان صفة له والوقار كما رواه جماعة عن الحبر بمعنى العظمة لأنه على ما نقل الخفاجي عن الانتصاف ورد في صفاته تعالى بهذا المعنى ابتداء أو لأنه بمعنى التؤدة لكنها غير مناسبة له سبحانه فأطلقت باعتبار غايتها وما يتسبب عنها من العظمة في نفس الأمر أو في نفوس الناس أي أي سبب حصل لكم حال كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه سبحانه بالإيمان به جل شأنه والطاعة له تعالى :

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ ﴾ أي والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكلية وهو أنكم تعلمون أنه عز وجل خلقكم مدرجاً لكم في حالات عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر فإن التقصير في توقير من هذا شأنه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل فالجملة حال من فاعل ﴿ لا ترجون ﴾ [نوح : 13] مقررة للإنكار والأطوار الأحوال المختلفة وأنشدوا قوله

: فإن أفاق فقد طارت عمايته . . .

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

(141/783)

وحملها على ما سمعت من الأحوال مما ذهب إليه جمع وعن ابن عباس ومجاهد ما يقتضيه وإن اقتصرا على ذكر النطفة والعلقة والمضغة وقيل المراد بها الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من الصبا والشباب والكهولة والشيوخة والقوة والضعف وقيل من الألوان والهيآت والأخلاق والملل المختلفة وقيل من الصحة والسقم وكمال الأعضاء ونقصانها والغنى والفقر ونحوها هذا وقيل الرجاء بمعنى الأمل كما هو الأصل المعروف فيه والوقار بمعنى التوقير كالسلام بمعنى التسليم وأريد به التعظيم و ﴿ لله ﴾ بيان للموقر المعظم فهو خبر مبتدأ محذوف أي إرادتي لله أو متعلق بمحذوف يفسره المذكور أي وقاراً لله ولم يعلق بالمذكور بناءً على ما صحح على ما فيه من أن معمول المصدر مطلقاً لا يتقدم عليه ولو تأخر لكان صلة له على ما في "الكشاف" وفيه أن المعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى إياكم في دار الثواب وحاصله ما لكم لا ترجون إن توقروا وتعظموا على البناء للمفعول فكأنه قيل لمن التوقير أي من الذي يعظمنا ويختص به إعظامه

إيانا فقيل لله وفسره بقوله على حال الخ إشارة إلى أنه ينعي عليهم اغترارهم كأنه قيل ما لكم مغترين غير راجين .

(142/783)

وجعل الحث على الرجاء كناية عن الحث على الإيمان والعمل الصالح لاقتضائه انعقاد الأسباب بخلاف الغرور وهي كناية إيمائية إذ لا واسطة ولو جعلت رمزية لخفاء الفرق بين الرجاء والغرور على الأكثر لكان وجهاً قاله في "الكشف" وتعقب ذلك مفتي الديار الرومية عليه الرحمة بأن عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى إياهم في دار الثواب ليس في حيز الاستبعاد والإنكار مع أن في جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسف وفي جعل ﴿ لله ﴾ بياناً للموقر ودعوى أنه لو تأخر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى فإن كونه بياناً للموقر يقتضي أن يكون التوقير صادراً عنه تعالى والوقار وصفاً للمخاطبين وكونه صلة للوقار يوجب كون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له عز وجل انتهى وأجيب عن أمر التناقض بأنك إذا قلت ضرب لزيد جاز أن يكون زيد فاعلاً وأن يكون مفعولاً وكفى شاهداً صحة الإضافتين فعند التأخر يحتمل أن يكون الوقار بمعنى التوقير صادراً منه تعالى فيكون الوقار وصفاً للمخاطبين ويحتمل أن يكون متعلقاً به فيكون التوقير صادراً

عنهم والوقار وصفاً له تعالى غاية ما في الباب أنه لما قدم لله وامتنع تعلقه بالمصدر المتأخر صار بياناً وعينت القرينة إرادة صدور التوقير عنه عز وجل وأين هذا من التناقض نعم يبقى الكلام في القرينة ولعلها السياق بناءً على أن القوم استبعدوا أن يقبلوا ويلطف الله تعالى بهم إن هم تركوا باطلهم فيكون هذا من تتمة إزالة الشبهة فيما سمعت من قولهم كيف يقبلنا ويلطف بنا الخ ويعلم من هذا الجواب عن قوله إن عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى ليس في حيز الاستبعاد كما لا يخفى وعليه قيل يكون قوله تعالى وقد خلقكم إلى قوله سبحانه : ﴿ فِجَاجاً ﴾ للدلالة على أنه جل شأنه لا يزال ينعم عليكم مع كفركم فكيف لا يلطف بكم ويوقركم إذا آمنتم وتفسر الأطوار بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة كالصبا والشباب والكهولة وغيرها مما يكون بعضه

(143/783)

في حال الكفر ويصلح لأن يمتن به ويلتزم كون الإعادة في الأرض من النعم عندهم بناءً على أن فيها ستر فظاعة الأبدان على أسهل وجه بعد حلول الموت الضروري في هذه النشأة والإنصاف بعد هذا كله تم أم لم يتم أن الوجه المذكور متكلف بعيد عن الظاهر بمراحل وقيل المعنى ما لكم لا تخافوا الله تعالى حلماً وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا فالرجاء بمعنى

الخوف والوقار بمعنى الحلم حقيقة كما هو ظاهر كلام الراغب أو استعارة له لاشتراكهما في الثاني أو مجازاً إذ لا يتخلف الحلم عن الوقار عادة وفي رواية عن ابن عباس تفسيره بالعاقبة حيث قال أي لا تخافون لله عاقبة وهو من الكناية حينئذٍ أخذاً من الوقار بمعنى الثبات وعن مجاهد والضحاك أن المعنى ما لكم لا تبالون لله تعالى عظمة قال قطرب هذه لغة أهل الحجاز وهذيل وخزاعة ومضر يقولون لم أرج أي لم أبال وأظهر المعاني ما ذكرناه أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(144/783)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) ﴾

وفصَّل دعوته بفاء التفريع فقال ﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ فهذا القول هو الذي قاله لهم ليلاً ونهاراً وجهاراً وإسراراً .

ومعنى ﴿ استغفروا ربكم ﴾ ، ءامنوا إيماناً يكون استغفاراً لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم .

وعلّل ذلك لهم بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين ، فأفاد

التعليل بحرف (إنَّ) وأفاد ثبوت الصفة لله بذكر فعل ﴿ كان ﴾ وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة بقوله ﴿ غفّاراً ﴾ .

وهذا وعد بخير الآخرة ورتب عليه وعداً بخير الدنيا بطريق جواب الأمر ، وهو ﴿ يُرسل السماء عليكم ﴾ الآية .

وكانوا أهل فلاحة فوعدهم بنزول المطر الذي به السلامة من القحط وبالزيادة في الأموال .

و﴿ السماء ﴾ : هنا المطر ، ومن أسماء المطر السماء .

وفي حديث "الموطأ" و"الصحيحين" عن زيد بن خالد الجهني : أنه قال : " صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَة على إِثْر سَمَاءٍ كانت من الليْل " الحديث .

وقال معاوية بن مالك بن جعفر :

إذا نزل السماءُ بأرض قوم . . .

رَعَيْنَاهُ وإن كانوا غِضابا

والمدرار : الكثيرة الدُّر والدُّرور ، وهو السيلان ، يُقال : درت السماء بالمطر ، وسماء مدرار .

ومعنى ذلك : أن يَتْبع بعض الأمطار بعضاً .

ومِدرار ، زنة مبالغة ، وهذا الوزن لا تلحقه علامة التأنيث إلاّ نادراً كما في قول سهل بن

مالك الفزاري:

أصبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَة . . .

فلذلك لم تلحق التاء هنا مع أن اسم السماء مؤنث .

والإِرسال : مستعار للإِيصال والإِعطاء ، وتعديته بـ ﴿ عليكم ﴾ لأنه إيصال من علوّ كقوله:

﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ [الفيل : 3] .

و(أموال) : جمع مال وهو يشمل كل مكسب يبذله المرء في اقتناء ما يحتاج إليه .

(145/783)

والمراد بالجنات في قوله : ﴿ ويجعل لكم جنات ﴾ النخيل والأعناب ، لأن الجنات تحتاج إلى السقي .

وإعادة فعل يَجْعل بعد واو العطف في قوله : ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ للتوكيد اهتماماً بشأن المعطوف لأن الأنهار قوام الجنات وتسقي المزارع والأنعام .

وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش قال تعالى : ﴿ مَن عمِل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياة طيبة ﴾ [النحل : 97] وقال ﴿ ولو

أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] وقال : ﴿ وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ [الجنّ : 16].

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)

بَدَّلَ خطابه مع قومه من طريقة النصح والأمر إلى طريقة التوبيخ بقوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً .

وهو استفهام صورته صورة السؤال عن أمر ثبت لهم في حال انتفاء رجائهم توقيرَ الله .

والمقصود أنه لا شيء يثبت لهم صارف عن توقير الله فلا عذر لكم في عدم توقيره .

وجملة لا تَرجُون ﴾ في موضع الحال من ضمير المخاطبين ، وكلمة (مَا لَك) ونحوها تلازمها حال بعدها نحو ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ [المدثر : 49] .

وقد اختلف في معنى قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ وفي تعلق معمولاته بعوامله على أقوال : بعضُها يرجع إلى إبقاء معنى الرجاء على معناه المعروف وهو ترقب الأمر ، وكذلك معنى الوقار على المتعارف وهو العظمة المقتضية للإِجلال ، وبعضها يرجع إلى تأويل معنى الرجاء ، وبعضها إلى تأويل معنى الوقار ، ويتركب من الحمل على الظاهر ومن التأويل أن يكون التأويل في كليهما ، أو أن يكون التأويل في أحدهما مع إبقاء الآخر على ظاهر معناه .

فعلى حمل الرجاء على المعنى المتعارف الظاهر وحمل الوقار كذلك قال ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية وعَطاء ابن أبي رباح وابن كيسان : ما لكم لا ترجون ثواباً من الله ولا تخافون عقاباً ، أي فتعبدوه راجين أن يثيبكم على عبادتكم وتوقيرِكم إياه .

وهذا التفسير ينحو إلى أن يكون في الكلام اكتفاء ، أي ولا تخافون عقاباً ، وإن نكتة الاكتفاء بالتعجب من عدم رجاء الثواب : أن ذلك هو الذي ينبغي أن يقصده أهل الرشاد والتقوى .

وإلى هذا المعنى قال صاحب "الكشاف" : إذ صدر بقوله : ما لكم لا تكونون على حال تأمُلون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب .

وهذا يقتضي أن يكون الكلام كنايةً تلويحية عن حثهم على الإِيمان بالله الذي يستلزم رجاء ثوابه وخوفَ عقابه لأن من رجا تعظيم الله إياه آمن به وعبده وعمل الصالحات .

وعلى تأويل معنى الرجاء قال مجاهد والضحاك : معنى ﴿ لا ترجون ﴾ لا تبالون لله عظمة ، قال قطرب : هذه لغة حجازية لمضر وهُذيل وخزاعة يقولون : لم أرجُ أي لم أُبال ، وقال الوالبي والعَوفي عن ابن عباس : معنى ﴿ لا ترجون ﴾ لا تعلمون ، وقال مجاهد أيضاً

: لا ترون ، وعن ابن عباس أنه سأَله عنها نافعُ بنُ الأزرق ، فأجابه أن الرجاء بمعنى الخوف ، وأنشد قول أبي ذؤيب:

إذا لسَعَتْه النحلُ لم يرجَ لَسْعها . . .

وحَالفها في بيت نُوبٍ عواسل

أي لم يَخَفْ لسعها واستمرّ على اشتيار العسل .

قال الفراء : إنما يوضع الرجاء موضع الخوف لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف من الناس ومن ثم استعمل الخوف بمعنى العِلم كقوله تعالى : ﴿ فإن خِفتم أن لا يُقيما حدود الله الآية ﴾ [البقرة : 229] ، والمعنى : لا تخافون عظمة الله وقدرته بالعقوبة .

(147/783)

وعلى تأويل الوقار قال قتادة : الوقار : العاقبة ، أي ما لكم لا ترجون لله عاقبة ، أي عاقبة الإيمان ، أي أن الكلام كناية عن التوبيخ على تركهم الإيمان بالله ، وجعل أبو مسلم الأصفهاني : الوقار بمعنى الثبات ، قال : ومنه قوله تعالى : ﴿ وقَرْن في بيوتكن ﴾ [الأحزاب : 33] أي اثبُتن ، ومعناه ما لكم لا تُثبتون وحدانية الله .

وتتركب من هذين التأويلين معان أخرى من كون الوقار مسنداً في التقدير إلى فاعله أو إلى

مفعوله ، وهي لا تخفى .

وأما قوله ﴿ لله ﴾ فالأظهر أنه متعلق بـ ﴿ ترجون ، ﴾ ويجوز في بعض التأويلات الماضية أن يكون متعلقاً بـ ﴿ وقاراً ﴾ : إمَّا تعلّق فاعل المصدر بمصدره فتكون اللام في قوله ﴿ لله ﴾ لشبه الملك ، أي الوقارَ الذي هو تصرف الله في خلقه إن شاء أن يوقركم ، أي يكرمكم بالنعيم ، وإمّا تعلقَ مفعولِ المصدر ، أي أن توقروا الله وتخشوه ولا تتهاونوا بشأنه تهاون من لا يخافه فتكون اللام لام التقوية .

وجملة ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ حال من ضمير ﴿ لكم ﴾ أو ضمير ﴿ تَرْجُون ﴾ ، أي في حال تحققكم أنه خلقكم أطواراً .

فأما أنه خلقهم فمُوجِب للاعتراف بعظمته لأنه مكونهم وصانعهم فحق عليهم الاعتراف بجلاله .

(148/783)

وأما كون خلقهم أطواراً فلأن الأطوار التي يعلمونها دالّة على رفقه بهم في ذلك التطور ، فهذا تعريض بكفرهم النعمة ، ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته ، فإن تطور الخلق من طور النطفة إلى طور الجنين إلى طور خروجه طفلاً إلى طور الصبا إلى طور

بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة وطُروّ الموت على الحياة وطروّ البِلى على الأجساد بعد الموت ، كل ذلك والذاتُ واحدة ، فهو دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار ، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن ، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه لأن الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم وهل التصرف فيهم بالعقاب والإِثابة إلاّ دون التصرف فيهم بالكَون والفساد .

والأطوار : جمع طَور بفتح فسكون ، والطور : التارة ، وهي المرة من الأفعال أو من الزمان ، فأريد من الأطوار هُنا ما يحصل في المرات والأزمان من أحوال مختلفة ، لأنه لا يقصد من تعدد المرات والأزمان إلاّ تعدد ما يحصل فيها ، فهو تعدد بالنوع لا بالتكرار كقول النابغة:

فإنْ أفاقَ لقَد طالت عَمايته

والمرءُ يُخْلَق طوراً بعدَ أطوار

وانتصب ﴿ أطواراً ﴾ على الحال من ضمير المخاطبين ، أي تطور خلقهم لأن ﴿ أطواراً ﴾ صار في تأويل أحوالاً في أطوار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(149/783)

فصل فى منزلة التعظيم

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة التعظيم

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيما وإجلالا وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته ولا عرفه حق معرفته ولا وصفه حق صفته وأقوالهم تدور على هذا فقال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح: 13] قال ابن عباس ومجاهد : لا ترجون لله عظمة وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة قال البغوي: والرجاء بمعنى المخوف والوقار العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم وقال الحسن: لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيرا وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد والله سبحانه أعلم

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: التعظيم: معرفة العظمة مع التذلل

لها وهو على ثلاث درجات الأولى: تعظيم الأمر والنهي وهو أن لا يعارضا بترخص جاف ولا يعرضا لتشدد غال ولا يحملا على علة توهن الانقياد ههنا ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي فالأول: تفريط والثاني إفراط وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة وإما إلى إفراط وغلو ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي فيهمضيع له هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 77] والغلو نوعان نوع يخرجه عن كونه مطيعا كمن زاد في الصلاة ركعة أو صام الدهر مع أيام النهي أو رمي الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق أو سعى بين الصفا والمروة عشرا أو نحو ذلك عمدا وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار كقيام الليل كله وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي والجور على النفوس في العبادات والأوراد الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من

الدلجة يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها وقال: ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد رواهما البخاري وفي صحيح مسلم عنه أنه قال: هلك المتنطعون قالها ثلاثا وهم المتعمقون المتشددون وفي صحيح البخاري عنه: عليكم من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا وفي السنن عنه أنه قال: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله أو كما قال وقوله: ولا يحملا على علة توهن الانقياد يريد: أن لا يتأول في الأمر والنهي علة تعود عليهما بالإبطال كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه معلل بإيقاع العداوة والبغضاء والتعرض للفساد فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه كما قيل:

أدرها فما التحريم فيها لذاتها . . . ولكن لأسباب تضمنها السكر

إذا لم يكن سكر يضل عن الهدى . . . فسيان ماء في الزجاجة أو خمر

وقد بلغ هذا بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملة وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معللا بالإسكار فله أن يشرب منه ما شاء ما لم يسكر ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر

فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم ولهذا كانت طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور وفي بعض الآثار القديمة: يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا ولكن قولوا: بم أمر ربنا

(152/783)

وأيضا فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتى تظهر له علته لم يكن منقادا للأمر وأقل درجاته: أن يضعف انقياده له وأيضا فإنه إذا نظر إلى حكم العبادات والتكاليف مثلا وجعل العلة فيها هي جمعية القلب والإقبال به على الله فقال: أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد العبادات فعطلها وترك الانقياد بجمله الأمر على العلة التي أذهبت انقياده وكل هذا من ترك تعظم الأمر والنهي وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله فكم عطلت لله من أمر وأباحت من نهى وحرمت من مباح ! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها

فصل قال: الدرجة الثانية: تعظيم الحكم: أن يبغي له عوج أو

يدافع بعلم أو يرضى بعوض الدرجة الأولى: تتضمن تعظيم الحكم الديني الشرعي وهذه

الدرجة تتضمن تعظيم الحكم الكوني القدري وهو الذي يخصه المصنف باسم الحكم وكما يجب على العبد أن يرعى حكم الله الديني بالتعظيم فكذلك يرعى حكمه الكوني به فذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء: أحدها: أن لا يبغي له عوج أي يطلب له عوج أو يرى فيه عوج بل يراه كله مستقيما لأنه صادر عن عين الحكمة فلا عوج فيه وهذا موضع أشكل على الناس جدا فقال نفاة القدر: ما في خلق الرحمن من تفاوت ولا عوج والكفر والمعاصي مشتملة على أعظم التفاوت والعوج فليست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره

(153/783)

وقالت: فرقة تقابلهم: بل هي من خلق الرحمن وقدره فلا عوج فيها وكل ما في الوجود مستقيم والطائفتان ضالتان منحرفتان عن الهدى وهذه الثانية أشد انحرافا لأنها جعلت الكفر والمعاصي طريقا مستقيما لا عوج فيه وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي والحكم والمحكوم به: هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه وقول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه وهو المشتمل على الخير والشر والعوج والاستقامة فقضاؤه كله حق والمقضي: منه حق ومنه باطل وقضاؤه كله عدل والمقضي: منه عدل ومنه جور وقضاؤه كله مرضي

والمقضي: منه مرضي ومنه مسخوط وقضاؤه كله مسالم والمقضي: منه ما يسالم ومنه ما يحارب وهذا أصل عظيم تجب مراعاته وهو موضع مزلة أقدام كما رأيت والمنحرف عنه: إما جاهل للحكمة أو القدرة أو للأمر والشرع ولابد وعلى هذا يحمل كلام صاحب المنازل رحمه الله: أن لا يبتغي للحكم عوج وأما قوله: أو يدفع بعلم فأشكل من الأول فإن العلم مقدم على القدر وحاكم عليه ولا يجوز دفع العلم بالحكم فأحسن ما يحمل عليه كلامه أن يقال: قضاء الله وقدره وحكمه الكوني لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني بحيث تقع المدافعة بينهما لأن هذا مشيئته الكونية وهذا إرادته الدينية وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان لكن من تعظيم كل منهما: أن لا يدافع بالآخر ولا يعارض فإنهما وصفان للرب تعالى وأوصافه لا يدافع بعضها ببعض وإن استعيذ ببعضها من بعض فالكل منه سبحانه وهو المعيذ من نفسه بنفسه كما قال أعلم الخلق به: أعوذ برضاك

(154/783)

من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك فرضاه وإن أعاذ من سخطه فإنه لا يبطله ولا يدفعه وإنما يدفع تعلقه بالمستعيذ وتعلقه بأعدائه باق غير زائل فهكذا أمره وقدره سواء فإن أمره لا يبطل قدره ولا قدره يبطل أمره ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر

به وأحبه وهو أيضا من قضائه فما دفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قدر دفعه وأمر به فتأمل هذا فإنه محض العبودية والمعرفة والإيمان بالقدر والاستسلام له والقيام بالأمر والتنفيذ له بالقدر فما نفذ المطيع أمر الله إلا بقدر الله ولا دفع مقدور الله بقدر الله وأمره وأما قوله: ولا يرضى بعوض أي إن صاحب مشهد الحكم قد وصل إلى حد لا يطلب معه عوضا ولا يكون ممن يعبد الله بالعوض فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه وعدم تصرفه في نفسه وأن المتصرف فيه حقا هو مالكه الحق فهو الذي يقيمه ويقعده ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال وإنما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه وذلك مناف لتعظيمه فمن تعظيمه: أن لا يرضى العبد بعوض يطلبه بعمله لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه أن يرى لنفسه ما يعاوض عليه فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر والله سبحانه أعلم

فصل قال: الدرجة الثالثة: تعظيم الحق سبحانه وهو أن لا يجعل دونه

سببا ولا يرى عليه حقا أو ينازع له اختيارا هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه صاحب الخلق والأمر والتي قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيه والأولى: تتضمن تعظيم أمره وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء:

إحداها : أن لاتجعل دونه سببا أي لاتجعل للوصلة إليه سببا غيره بل هو الذي يوصل عبده إليه فلا يوصل إلى الله إلا الله ولا يقرب إليه سواه ولا يدنى إليه غيره ولا يتوصل إلى رضاه إلا به فما دل على الله إلا الله ولا هدى إليه سواه ولا أدنى إليه غيره فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سببا فالسبب وسببيته وإيصاله: كله خلقه وفعله الثاني: أن لايرى عليه حقا أي لا ترى لأحد من الخلق لا لك ولا لغيرك حقا على الله بل الحق لله على خلقه وفي أثر إسرائيلي: أن داود عليه السلام قال: يا رب بحق آبائي عليك فأوحى الله إليه: يا داود أي حق لآبائك علي ألست أنا الذي هديتهم ومننت عليهم واصطفيتهم ولي الحق عليهم وأما حقوق العبيد على الله تعالى: من اثباته لمطيعهم وتوبته على تائبهم وإجابته لسائلهم: فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه بحكم وعده وإحسانه لاأنها حقوق أحقوها هم عليه فالحق فى الحقيقة لله على عبده وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه هذا قول أهل التوفيق والبصائر وهو وسط بين قولين منحرفين قد تقدم ذكرهما مرارا والله سبحانه أعلم وأما قوله: ولا ينازع له اختيارا أى إذا رأيت الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئا إما بأمره ودينه وإما بقضائه وقدره فلا تنازع اختياره بل ارض باختيار ما اختاره لك فإن ذلك من تعظيمه سبحانه ولا يرد عليه قدره عليه من المعاصي فإنه سبحانه وإن قدرها لكنه لم يخترها له فمنازعتها غير اختياره من عبده

وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه والله أعلم انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 495. 501 ﴾

(156/783)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الرجاء)

رَجَا البئْرِ والسّماءِ وغيرهما : جانبهما .

والجمع / أَرْجاءٌ .

والرجاءُ : الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالى ، والارتياحُ لمطالعة كرمه ، وقيل : هو الثِّقة بوجود الربّ .

وقيل : الرّجاءُ ظن يقتضى حصول ما فيه مسرّة .

وهو من أَجلِّ منازل السّالكين وأَعلاها وأَشرفها ، وقد مدح الله تعالى أَهله وأَثنى عليهم فقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ .

وأَخبر تعالى عن خواصّ عباده الذين كان المشركون يزعمون أَنهم يتقربون بهم إِلى الله أَنهم

كانوا راجين له خائفين منه فقال : ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُوْلَائِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ ، وفى الحديث الصَّحيح فيما يروى عن ربِّه تعالى : "ابنَ آدمَ إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالى" .

فالرّجاءُ عبوديّة وتعلق بالله من حيث اسمه البَرّ المحسن .

فذلك التعبد والتعلق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الَّذِى أَوجب للعبد الرّجاءَ من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى .

فقوّة الرّجاءِ على حسب قوّة المعرفة بالله وأَسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه .

ولولا رُوح الرّجاءِ لعطّلت عبوديّة القلب والجوارح ، وهُدّمت صوامِعُ وبيَعٌ وصَلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .

بل لولا روح الرّجاءِ لما تحرّكت الجوارح بالطَّاعة ، ولولا رِيحه الطِّيبة لما جرت سُفُن الأَعمال فى بحر الإرادات ، قال بعض مشايخنا :

*لولا التعلُّق بالرجاءِ تقطَّعت * نفسُ المحبّ تحسُّرًا وتمزُّقا *

*وكذلك لولا بَرْدُهُ لحرارة الْـ * أكباد ذابت بالحجاب تحرّقا *

*أَيكون قطُّ حليفُ لا يُرى * برجائه لحبيبه متعلّقا *

*أَم كلَّما قويت محبَّته له * قوى الرّجاءُ فزاد فيه تشوّقا *

*لولا الرّجا يحدو المطىّ لما سرت * بحُمولها لديارهم ترجو اللّقا *

وعلى حسب المحبّة وقوّتها يكون الرّجاءُ .

وكلُّ محبٍّ راجٍ وخائف بالضرورة ، فهو أَرجى ما يكون بحبيبه أَحبَّ ما كان إليه .

وكذلك خوفه فإنَّه يخاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له وإبعاده واحتجابه عنه .

فخوفه أَشدّ خوف .

فكلّ محبّة مصحوبة بالخوف والرّجاء ، وعلى قدر تمكُّنها من قلب المحبِّ يشتدّ خوفه ورجاؤه .

ولكن خوف المحب لا يصحبه خشية بخلاف خوف المسيء ، ورجاءُ المحبِّ لا يصحبه غاية بخلاف رجاء الأجير .

فأَين رجاءُ المحبِّ من رجاء الأَجير ؟ ! بينهما كما بين حاليهما .

وبالجملة فالرّجاءُ ضرورى للسّالك والعارف ، ولو فارقه لحْظه لتلف أَو كاد ، فإنَّه دائر بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو

حصولها أَو دوامها ، وقربٍ من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها .

ولا ينفكُّ أَحد من السَّالكين من هذه الأُمور أَو من بعضها .

والفرق بين الرّجاءِ والتَّمنّى أَن التمنى يكون مع الكسل ، ولا يسلك بصاحبه طُرُق / الجدّ والاجتهاد ، والرّجاءُ يكون مع بذل الجهد وحسن التَّوكُّل ، ولهذا أَجمع العارفون على أَنَّ الرّجاءَ لا يصحُّ إلاَّ مع العمل .

والرّجاءُ ثلاثة أَنواع : نوعان محمودان ، ونوعُ غُرورٍ مذموم .

فالأَولان رجاءُ رجل عمل بطاعة الله على نور الله ، فهو راجٍ لثوابه ، ورجل أَذنب ذنباً ثم تاب منه ، فهو راج لمغفرته .

والثالث رجل متماد فى التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغُرور والتَّمنّى والرّجاءُ الكاذب .

(158/783)

وللسّالك نظران : نظرٍ إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه بابَ الخوف ، ونظرٍ إلى سعة فضل ربّه وكرمه وبرّه يفتح عليه بابَ الرّجاءِ ، "وهما كجناحى الطائرِ إذا استويا استوى الطَّائر وتمَّ طيرانه" .

واختلفوا أَىّ الرّجاءَين أَكمل ، رجاء

المحسن ثواب إِحسانه ، أَو رجاء المذنب التائب عفو ربّه وعظيم غفرانه ؟ فطائفة

رَجَّحت رجاءَ المحسن لقوّة أَسباب الرّجاء معه .

وطائفة رجَّحت رجاءَ المذنب ، لأَنَّ رجاءَه مجرّد عن علَّة رؤية العمل ، مقرون برؤية ذِلَّة

الذَّنب .

قال يحيى بن مُعاذ : "إِلهى أَحلى العطايا فى قلبى رجاؤُك ، وأَعذب الكلام على لسانى

ثناؤُك ، وأَحبُّ السّاعات إِلىَّ ساعةٌ يكون فيها لقاؤُك" .

وقال أَيضاً : "يكاد رجائى لك مع الذُّنوب يغلب على رجائى لك مع الأعمال ، لأَنى أَجدنى

أَعتمد فى الأَعمال على الإِخلاص ، وكيف أُحرزها وأَنا بالآفات معروف .

وأَجدنى في الذنب أَعتمد على عفوك .

وكيف لا تغفرها وأَنت بالجود موصوف" .

فإِن قلت : ما تقول فى قول من جعل الرّجاء من أَضعف [منازل] المريدين ؟ قلت : إِنما

أَرادوا بالنسبة إِلى ما فوقه من المنازل ، كمنزلة المحبَّة والمعرفة والإِخلاص والصِّدق والتَّوكُّل

والرِّضا ، لا أَن مرادهم ضَعف هذه المنزلة فى نفسها وأَنها منزلة ناقصة .

فافهم ، فقد أَوضحنا لك أَنَّها من أَجلِّ المنازل وأَعلاها وأَشرفها .

والله أَعلم .

وقال بعض المفسّرين : ورد الرّجاءُ في القرآن على ستّة أَوجه :

أَوّلها : بمعنى الخوف : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً ﴾ ، أَى ما لكم لا تخافون .

قال :

*إذا لسعته النّحل لم يَرْجُ لسعها * وخالفها فى بيت نُوب عوامل*

ومنه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ ، وقوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللَّهِ ﴾ .

الثانى : بمعنى الطمع : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ .

﴿ أُوْلَائِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ .

(159/783)

الثالث : بمعنى توقُّع الثواب : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

الرَّابع : الرّجا المقصور بمعنى الطَّرَف : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَآئِهَآ ﴾ .

الخامس : الرّجاء المهموز : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أَى احبسه .

السَّادس : بمعنى التَّرك والتأْخير : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ : تؤَخّره ،

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 46ـ50 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا واضحاً ولكنهم قوم لد ، لا يردهم إلا الشمس المنيرة في وقت الظهيرة ، ذكرهم - بعد التذكير بما في أنفسهم - بما هو أكبر من ذلك من آيات الآفاق وقسمها إلى علوي وسفلي ، وبدأ بالأنفس لأنها مع شرفها أقرب منظور إليه لهم ، وثنى بالعلوي لأنه يليها في الشرف ووضوح الآيات ، فقال : دالاًّ على القدرة على البعث والجزاء بالثواب والعقاب : ﴿ ألم تروا ﴾ أي أيها القوم .

ولما كان تأمل الكيفيات يحتاج إلى دقة وتوقف على عجائب ولطائف تؤذن قطعاً بأن فاعلها لا يعجزه شيء ، وقال منكراً عليهم عدم التأمل : ﴿ كيف خلق الله ﴾ أي الذي له

العلم التام والقدرة البالغة والعظمة الكاملة ﴿ سبع سماوات ﴾ هي في غاية العلو والسعة والإحكام والزينة ، يعرف كونها سبعاً بما فيها من الزينة .

ولما كانت المطابقة بين المتقابلات في غاية الصعوبة لا يكاد يقدر عليها من جميع الوجوه أحد ، قال : ﴿ طباقاً ﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض وكل واحدة في التي تليها محيطة بها " ما لها من فروج " لا يكون تمام المطابقة إلا كذلك بالإحاطة من كل جانب .

ولما كان المحيط لا يتوصل إلى داخله إلى محيط العلم والقدرة ، قال دالاًّ على كمال قدرته وتصرفه معبراً بالجعل الذي يكون عن تصيير وتسبيب : ﴿ وجعل القمر ﴾ أي الذي ترونه وهو في السماء الدنيا ، وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج في كل شهر مرة وغيبته في ليالي السرار ثم ظهوره ، وذلك أعجب في القدرة .

(161/783)

ولما كانت السماء شفافات قال : ﴿ فيهن ﴾ أي السماوات جميعهن ﴿ نوراً ﴾ أي لامعاً منتشراً كاشفاً للمرئيات ، أحد وجهيه يضيء لأهل الأرض والثاني لأهل السماوات ، ولما كان نوره مستفاداً من نور الشمس قال : ﴿ وجعل ﴾ معظماً لها بإعادة العامل ﴿ الشمس ﴾ أي في السماء الرابعة ﴿ سراجاً ﴾ أي نوراً عظيماً كاشفاً لظلمه الليل عن

وجه الأرض وهي في السماء الرابعة ، وروى ابن مردويه وعبد الرزاق والطبري عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ م : " إن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء ، وأقفيتهما إلى الأرض " ؛ وروى الحاكم منه ذكر القمر وجعلهما سبحانه آية على رؤية عباده المحسنين له في الجنة فإنه يرى كل أحد كلاًّ من مكانه مخلياً به ، وكذلك يرونه سبحانه عياناً جهاراً كما رأوه في الدنيا بالإيمان نظراً واعتباراً ، ولما دل على كمال علمه وتمام قدرته بخلق الإنسان ثم بخلق ما هو أكبر منه أعاد الدلالة بخلق الإنسان لأنه أعظم المحدثات وأدلها على الله سبحانه وتعالى على وجه آخر مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل مصرحاً بالبعث فقال مستعيراً الإنبات للإنشاء : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله ﴿ أنبتكم ﴾ أي بخلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ من الأرض ﴾ أي كما ينبت الزرع ، وعبر بذلك تذكيراً لنا لما كان من خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض ، وأشار إلى أنه جعل غذاءنا من الأرض التي خلقنا منها ، وبذلك الغذاء نمونا .

ولما كان إنكارهم للبعث كأنه إنكار للابتداء أكده بالمصدر وأجراه على غير فعله بتجريده من الزيادة ، إشارة إلى هوانه عليه سبحانه وتعالى وسهولته مع أنه إبداع وابتداء واختراع فقال : ﴿ نباتاً ﴾ ومع ذلك فالآية صالحة للاحتباك : ذكر " أنبت " أولاً دال على حذف

مصدره ثانياً ، وذكر " النبات " ثانياً دال على حذف فعله أولاً ، ليكون التقدير : أنبتكم إنباتاً فنبتم نباتاً .

(162/783)

ولما كان في الموت أيضاً دليل على تمام العلم والقدرة غير أنه ليس كدلالة الابتداء بالابتداع ، وكان مسلماً ليس فيه نزاع ، ذكره من غير تأكيد بالمصدر فقال دالاًّ على البعث والنشور : ﴿ ثم يعيدكم ﴾ على التدريج ﴿ فيها ﴾ أي الأرض بالموت والإقبار وإن طالت الآجال ﴿ ويخرجكم ﴾ أي فيها بالإعادة ، وأكد بالمصدر الجاري على الفعل إشارة إلى شدة العناية به وتحتيم وقوعه لإنكارهم له فقل : ﴿ إخراجاً ﴾ أي غريباً ليس هو كما تعلمون بل تكونون به في غاية ما يكون من الحياة الباقية ، تلابس أرواحكم بها أجسامكم ملابسة لا انفكاك بعدها لأحدهما عن الآخر .

ولما كان النابت من الشيء لا يتصرف في ذلك الشيء ، دل على كمال قدرته بخرق تلك العادة لهم على وجه الإنعام عليهم ، فقال مظهراً للاسم الشريف مرة بعد أخرى تعظيماً للأدلة لئلا تقيد القدرة بما يقترن به الاسم دالاًّ بالعالم السفلي بعد الإرشاد بالعلوي وآخر السفلي لأن آياته على ظهورها خفيت بكثرة الإلف لها : ﴿ والله ﴾ أي المستجمع لجميع

الجلال والإكرام ﴿ جعل لكم ﴾ أي نعمة عليكم اهتماماً بأمركم ﴿ الأرض بساطاً ﴾ أي سهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها سهولة التصرف في البساط ، ثم علل ذلك فقال : ﴿ لتسلكوا ﴾ أي منجدين ﴿ منها ﴾ أي الأرض مجددين لذلك ﴿ سبلاً ﴾ أي طرقاً واضحة مسلوكة بكثرة ﴿ فجاجاً ﴾ أي ذوات اتساع لتتوصلوا إلى البلاد الشاسعة براً وبحراً ، فيعم الانتفاع بجميع البقاع ، فالذي قدر على إحداثكم وأقدركم على التصرف في أصلكم مع ضعفكم قادر على إخراجكم من أجداثكم التي لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 171.173 ﴾

(163/783)

فصل

قال الفخر :

الدليل الثاني : على التوحيد قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15)

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس ، وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية ، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، فلا جرم بدأ بالأقرب ، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ، ثم

بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم ، فوقعت البداية بها لهذا السبب ، أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة ، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها ، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق ، لأن الشبه فيها أكثر ، فلا جرم تقع البداية بها ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : قوله : ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ يقتضي كون بعضها منطبقاً على البعض ، وهذا يقتضي أن لا يكون بينها فرج ، فالملائكة كيف يسكنون فيها ؟ الجواب : الملائكة أرواح فلعل المراد من كونها طباقاً كونها متوازية لا أنها متماسة .

السؤال الثاني : كيف قال : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ والقمر ليس فيها بأسرها بل في السماء الدنيا ؟ والجواب : هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيز من جملة أحياز العراق فكذا ههنا .

السؤال الثالث : السراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به الجواب : الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سبباً لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج ، وأيضاً فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] .

الدليل الثالث : على التوحيد قوله تعالى :

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)

واعلم أنه تعالى رجع ههنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 14] فإنه بين أنه تعالى خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى ، أما قوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في هذه الآية وجهان أحدهما : معنى قوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ ﴾ أي أنبت أباكم من الأرض كما قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] .

والثاني : أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض .

المسألة الثانية :

كان ينبغي أن يقال : أنبتكم إنباتاً إلا أنه لم يقل ذلك بل قال : أنبتكم نباتاً ، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتاً ، وفيه دقيقة لطيفة : وهي أنه لو قال : أنبتكم إنباتاً كان المعنى أنبتكم إنباتاً عجيباً غريباً ، ولما قال : أنبتكم نباتاً كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً ، وهذا الثاني

أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا ، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى ، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع ، أما لما قال : ﴿ أَنبَتَكُمْ . . .

(165/783)

نَبَاتاً ﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتاً عجيباً كاملاً كان ذلك وصفاً للنبات بكونه عجيباً كاملاً ، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس ، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى ، فكان هذا موافقاً لهذا المقام فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف ، أما قوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادراً على الابتداء كان قادراً على الإعادة ، وقوله :

﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ أكده بالمصدر كأنه قال : يخرجكم حقاً لا محالة .

الدليل الرابع : قوله تعالى :

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)

أي طرقاً واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 30 صـ 124 . 125 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾

ذكر لهم دليلاًآخر ، أي ألم تعلموا أن الذي قدر على هذا ، فهو الذي يجب أن يُعْبَد ! ومعنى "طِبَاقاً" بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ، قاله ابن عباس والسدّي .

وقال الحسن : خلق الله سبع سموات طباقاً على سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض ، وسماء وسماء خلق وأمر .

وقوله : "أَلَمْ تَرَوْا" على جهة الإخبار لا المعاينة ، كما تقول : ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا .

و"طِبَاقاً" نصب على أنه مصدر ، أي مطابقة طباقاً .

أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طِباقاً مقامه .

﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ أي في سماء الدنيا ، كما يقال : أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم والمراد بعضهم ، قاله الأخفش .

قال ابن كَيْسان : إذا كان في إحداهن فهو فيهنّ .

وقال قُطْرُب : "فِيهِنّ" بمعنى معهنّ ، وقاله الكلبيّ .

أي خلق الشمس والقمر مع خلق السموات والأرض .

وقال جِلّة أهل اللغة في قول امرىء القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده . . .

ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال

"في" بمعنى مع .

النحاس : وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية فقال : جواب النحويين أنه إذا جعله في إحداهن فقد جعله فيهن ، كما تقول : أعطني الثياب المُعْلمة وإن كنت إنما أعلمت أحدها .

وجواب آخر : أنه يروي أن وجه القمر إلى السماء ، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسموات .

ومعنى "نُوراً" أي لأهل الأرض ، قاله السديّ .

وقال عطاء : نوراً لأهل السماء والأرض .

وقال ابن عباس وابن عمر : وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء .

﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ يعني مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف

لمعايشهم .

وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأوّلان ، حكاه الماورديّ .

وحكى القشيريّ عن ابن عباس أن الشمس وجهها في السموات وقفاها في الأرض .

وقيل : على العكس .

(167/783)

وقيل لعبد الله بن عمر : ما بال الشمس تَقْلِينا أحياناً وتَبْرُد علينا أحياناً ؟ فقال : إنها في الصيف في السماء الرابعة ، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن ، ولو كانت في السماء الدنيا لما قام لها شيء .

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلها ، قاله ابن جريج .

وقد مضى في سورة "الأنعام والبقرة" بيان ذلك .

وقال خالد بن مَعْدان : خلق الإنسان من طين ، فإنما تلين القلوب في الشتاء .

و"نَبَاتاً" مصدر على غير المصدر ، لأن مصدره أنبت إنباتاً ، فجعل الإسم الذي هو النّبات في موضع المصدر .

وقد مضى بيانه في سورة "آل عمران" وغيرها .

وقيل : هو مصدر محمول على المعنى ، لأن معنى : "أَنْبَتَكُمْ" جعلكم تنبتون نباتاً ، قاله الخليل والزجاج.

وقيل : أي أنبت لكم من الأرض النبات .

ف"نَبَاتاً" على هذا نصب على المصدر الصريح .

والأوّل أظهر .

وقال ابن جريج : أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصِّغَر وبالطول بعد القِصَر .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أي عند موتكم بالدفن .

﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً ﴾

أي مبسوطة .

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ السُّبُل : الطرق .

والفجاج جمع فَجّ ، وهو الطريق الواسعة ، قاله الفرّاء .

وقيل : الفجّ المسلك بين الجبلين .

وقد مضى في سورتي "الأنبياء والحج" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ

﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾

بالتوبةِ عن الكفرِ والمَعَاصِي ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ للتائبينَ كأنَّهُم تعللُوا وقالُوا إنْ كُنَّا على الحقِّ فكيفَ نتركهُ وإنْ كُنَّا على الباطلِ فكيفَ يقبلنا بعدَ ما عكفنَا عليهِ دَهْراً طويلاً فأمرهم بما يمحقُ ما سلفَ منهم من المَعَاصِي ويجلبُ إليهم المنافعَ ولذلكَ وعدهُم بما هُو أوقعُ في قلوبِهم وأحبُّ إليهم من الفوائدِ العاجلةِ ، وقيل لما كذَّبُوه بعدَ تكريرِ الدعوةِ حبسَ الله تعالَى عنهم القطرَ وأعقمَ أرحامَ نسائِهم أربعينَ سنةً وقيلَ سبعينَ سنةً فوعدَهُم أنَّهم إنْ آمنُوا أنْ يرزقَهُم الله تعالَى الخِصْبَ ويدفعَ عنْهُم ما كانُوا فيهِ ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أي كثيرَ الدرورِ ، والمرادُ بالسماءِ المظلةُ أو السحابُ ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ بساتينَ ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ فيهَا ﴿ أَنْهَاراً ﴾ جاريةً ﴿ مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ إنكارٌ لأنْ يكونَ لهُم سببٌ ما في عدمِ رجائِهم لله تعالَى وقاراً على أنَّ الرجاءَ بمَعْنَى الاعتقادِ ، ولا ترجونَ حالٌ من ضميرِ المخاطبينَ والعاملُ فيهَا مَعْنَى الاستقرارِ في لكُم على أنَّ الإنكارَ متوجهٌ إلى السببِ فقَطْ مع تحققِ مضمونِ الجملةِ الحاليةِ

لا إليهما معاً كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى ﴾ ولله متعلقٌ بمضمرٍ وقعَ حالاً مِنْ وقاراً ولو تأخرَ لكانَ صفةً لهُ أيْ أيُّ سببٍ حصلَ لكُم حالَ كونِكُم غيرَ معتقدينَ لله تعالَى عظمةً موجبةً لتعظيمِهِ بالإيمانِ بهِ والطاعةِ لهُ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أي والحالُ أنكم على حالٍ منافيةٍ لما أنتُم عليهِ بالكليةِ وهيَ أنكم تعلمونَ أنَّه تعالَى خلقَكُم تاراتٍ عناصرَ ثم أغذيةً ثم أخلاطاً ثم نُطفاً ثم علَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخرَ فإن التقصيرَ في توقيرِ

(169/783)

مَنْ هذهِ شؤونُهُ في القدرةِ القاهرةِ والإحسانِ التامِّ مع العلمِ بها مِمَّا لا يكادُ يصدرُ عن العاقلِ . هَذا وقد قيلَ الرجاءُ بمعنى الأملِ أي ما لكُم لا تؤمّلُونَ لهُ تعالَى توقيراً أي تعظيماً لمن عبدَهُ وأطاعَهُ ولا تكونونَ على حالٍ تؤمّلُونَ فيها تعظيمَ الله تعالَى إيَّاكُم في دارِ الثوابِ ، ولله بيانٌ للموقّرِ ولو تأخرَ لكانَ صلةً للوقارِ والأولُ هو الذي تستدعيهِ الجزالةُ التنزيليةُ فإن اللائقَ بحالِ الكفرةِ استبعادُ أنْ لا يعتقدُوا وقاراً لله تعالَى وعظمتِهِ مع مشاهدتِهِم لآثارِهَا وأحكامِهَا الموجبةِ للاعتقادِ حَتْماً ، وأمَّا عدمُ رجائِهِم لتعظيمِ الله إيَّاهُم في دارِ الثوابِ فليسَ في حيزِ الاستبعادِ والإنكارِ معَ أنَّ في جعلِ الوقارِ بمَعْنَى التوقيرِ من التعسفِ ، وفي

قولِهِ ولله بيانٌ للموقَّرِ ولو تأخرَ لكانَ صلةً للوقارِ من التناقضِ ما لا يَخْفى فإنّ كونَهُ بياناً للموقّرِ يقتضِي أنْ يكونَ التوقيرُ صادراً عنْهُ تعالَى والوقارَ وصفاً للمخاطبينَ وكونُهُ صلةً للوقارِ يوجبُ كونَ الوقارِ وصفاً لهُ تعالَى وقيلَ ما لكُم لا تخافونَ لله عظمةً وقدرةً على أخذِكُم بالعقوبةِ أيْ أيُّ عُذرٍ لكُم في تركِ الخوفِ منهُ تعالَى . وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا ما لكُم لا تخشُونَ لله عقاباً ولا ترجونَ منْهُ ثَواباً ، وعن مجاهدٍ والضحَّاكِ ما لكُم لا تُبالونَ لله عظمةً ، قال قُطْربٌ هي لغةٌ حجازيةٌ يقولونَ لم أَرْجُ أيْ لم أبالِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾

(170/783)

أي متطابقةً بعضُها فوقَ بعضٍ ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ أي مُنوّراً لوجهِ الأرضِ في ظُلمةِ الليلِ ، ونسبتُهُ إلى الكُلِّ مع أنَّهُ في السماءِ الدُّنيا لما أنَّها محاطةٌ بسائرِ السمواتِ فما فيهَا يكونُ في الكُلِّ أو لأنَّ كُلَّ واحدةٍ منهَا شفافةٌ لا تحجبُ ما وراءَها فيُرى الكلُّ كأنَّها سماءٌ واحدةٌ ومن ضرورةِ ذلكَ أن يكونَ ما في واحدةٍ منهَا كأنَّه في الكُلِّ ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ يزيلُ ظلمةَ الليلِ ويبصرُ أهلُ الدُّنيا في ضوئِهَا وجهَ الأرضِ ويشاهدونَ الآفاقَ كما يبصرُ أهلُ البيتِ في ضوءِ السراجِ ما يحتاجونَ إلى إبصارِهِ وليسَ القمرُ بهذه المثابةِ إنما

هو نورٌ في الجُملةِ ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ أي أنشأكُم منها فاستعيرَ الإنباتُ للإنشاءِ لكونِهِ أدلَّ على الحدوثِ والتكونِ من الأرضِ ، ونباتاً إما مصدر مؤكدٌ لأنبتكُم بحذفِ الزوائدِ ويسمَّى اسمَ مصدرٍ أو لما يترتبُ عليهِ من فعلِهِ أي أنبتكُم من الأرضِ فنبتُّم نباتاً ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ أُنبتكُم من الأرضِ إنباتاً فنبتُم نباتاً فيُحذفُ من الجملةِ الأُولى المصدرُ ومن الثانيةِ الفعلُ اكتفاءً في كلٍ منهُمَا بما ذُكِرَ في الأُخْرَى كَمَا مرَّ في قولِهِ تعالَى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْئَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى ﴾ وقولِهِ تعالَى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بالدفنِ عندَ موتِكُم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ منها عند البعثِ والحشرِ ﴿ إِخْرَاجاً ﴾ محققاً لا ريبَ فيهِ ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ تتقلبونَ عليها تقلبَكُم على بُسُطِكُم في بيوتِكُم ، وتوسيطُ لكُم بينَ الجعلِ ومفعوليهِ مع أنَّ حقَّهُ التأخيرُ لما مرَّ مراراً من الاهتمامِ ببيانِ كونِ المجعولِ من منافعِهم والتشويقِ

(171/783)

إلى المؤخرِ فإنَّ النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ لا سيَّما عند كونَ المقدمِ ملوّحاً بكونِهِ من المنافعِ تبقَى مترقبةً لهُ فيتمكنُ عندَ ورودِهِ لها فضلُ تمكنٍ .

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾

أي طرقاً واسعةً جمعُ فجَ وهو الطريقُ الواسعُ وقيلُ هو المسلكُ بينَ الجبلينِ ، ومِنْ متعلقةٌ بما قبلَهَا لما فيهِ من مَعْنَى الاتخاذِ أو بمضمرٍ هو حالٌ من سبلاً أي كائنةً من الأرضِ ولو تأخرَ لكان صفةً لهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(172/783)

وقال الآلوسى :

ولما ذكر من آيات الأنفس ما ذكر اتبعه بشيء من آيات الآفاق ولبعد أحد الأمرين عن الآخر رتبة لم يأت بالعطف بل قطع فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾

أي متطابقة بعضها فوق بعض وتفسير التطابق بالتوافق في الحسن والاشتمال على الحكم وجودة الصنع ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ [الملك : 3] عدول عن الظاهر الذي تطابقت عليه الأخبار من غير داع إليه .

(173/783)

﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ منور الوجه الأرض في ظلمة الليل وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا كما يقال زيد في بغداد وهو في بقعة منها والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقاً شفافة ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ يزيل ظلمة الليل ويبصر أهل الدنيا في ضوئها وجه الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره وتنوينه للتعظيم وفي الكلام تشبيه بليغ ولكون السراج أعرف وأقرب جعل مشبهاً به ولاعتبار التعدي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور كان أبلغ منه ولعل في تشبيهها بالسراج القائم ضياءه لا بطريق الانعكاس رمزاً إلى أن ضياءها ليس منعكساً إليها من كوكب آخر كما أن نور القمر منعكس عليه من الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها وجزم أهل الهيئة القديمة بذلك وفي رواية لأظنها تصح أن ضياء الشمس مفاض عليها من العرش وأظن أن من يقول إنها تدور على كوكب آخر من أهل الهيئة الجديدة يقول باستفادتها النور من غيرها ثم الظاهر أن المراد وجعل الشمس فيهن فقيل هي في السماء الدنيا في فلك في ثخنها وقيل في السماء الرابعة وهو المشهور عند متقدمي أهل الهيئة واستدلوا عليه بما هو مذكور في كتبهم وفي "البحر" حكاية قول إنها في الخامسة ولا يكاد يصح ومما يضحك الصبيان فضلاً عن فحول ذوي العرفان ما حكي فيه أيضاً أنها في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة

وذهب متأخرو أهل الهيئة إلى أنها مركز للسيارات وعدوا الأرض منها ولم يعدوا القمر لدورانه على الأرض وهو بينها وبين الشمس عندهم وسنعمل إن شاء الله تعالى رسالة في تحقيق الحق والحق عند ذويه أظهر من الشمس .

(174/783)

﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ أي أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكون من الأرض لكونه محسوساً وقد تكرر إحساسه وهم وإن لم ينكروا الحدوث جعلوا بإنكار البعث كمن أنكره ففي الكلام استعارة مصرحة تبعية ومن ابتدائية داخلة على المبدأ البعيد ونباتاً قال أبو حيان وجماعة مصدر مؤكد لأنبتكم بحذف الزوائد والأصل إنباتاً أو نصب بإضمار فعل أي فنبتم نباتاً وفي "الكشف" أن الإنبات والنبات من الفعل والانفعال وهما واحد في الحقيقة والاختلاف بالنسبة إلى القيام بالفاعل والقابل فلا حاجة إلى تضمين فعل آخر ولا تقديره ثم إن الإنبات إن حمل على معناه الوضعي فلا احتياج إلى التقدير إذ هو في نفسه متضمن للنبات كما أشرنا إليه فيكون نباتاً نصباً بأنبتكم لهذا التضمن وإن حمل على المتعارف من إطلاقه على مقدمة الإنبات من إخفاء الحب في الأرض مثلاً فالوجه الحمل على أن المراد أنبتكم فنبتم نباتاً ليكون فيه إشعار بنحو النكتة

التي جرت في قوله تعالى ﴿ فانبجست ﴾ من الدلالة على القدرة وسرعة نفاذ حكمها وجوز أن يكون الأصل أنبتكم من الأرض إنباتاً فنبتم نباتاً فحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل اكتفاء بما ذكر في الأخرى على أنه من الاحتباك وقال القاضي اختصر اكتفاءً بالدلالة الالتزامية وفيه على ما قال الخفاجي الأشعار المذكورة فتأمل

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الأرض بالدفن عند موتكم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿ إِخْرَاجاً ﴾ محققاً لا ريب فيه وعطف يعيدكم بثم لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المتراخي الواقع فيه التكليف الذي به استحقوا الجزاء بعد الإعادة وعطف يخرجكم بالواو دون ثم مع أن الإخراج كذلك لأن أحوال البرزخ والآخرة في حكم شيء واحد فكأنه قضية واحدة ولا يجوز أن يكون بعضها محقق الوقوع دون بعض بل لابد ان تقع الجملة لا محالة وإن تأخرت عن الإبداء .

(175/783)

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ تتقلبون عليها كالبساط وليس فيه دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كرية كما في "البحر" وغيره لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بأمر لازم في الشريعة لكن كريتها كالأمر اليقيني

وإن لم تكن حقيقية ووجه توسيط لكم بين الجعل ومفعوله الصريح يعلم مما مر غير مرة .

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً ﴾ طرقاً ﴿ فِجَاجاً ﴾ واسعات جمع فج فهو صفة مشبهة نعت لسبلاً وقال غير واحد هو اسم للطريق الواسعة وقيل اسم للمسلك بين الجبلين فيكون بدلاً أو عطف بيان ومن متعلقة بما قبلها لتضمنه معنى الاتخاذ وإلا فهو يتعدى بفي أو بمضمر هو حال من سبلاً أي سبلاً كائنة من الأرض ولو تأخر لكان صفة لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(176/783)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

قد تقدّم أن نوحاً أوّل رسول أرسله الله ، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم ، وقد تقدّم مدّة لبثه في قومه ، وبيان جميع عمره ، وبيان السنّ التي أرسل وهو فيها في سورة العنكبوت .

﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي : بأن أنذر على أنها مصدرية .

ويجوز أن تكون هي المفسرة ؛ لأن في الإرسال معنى القول .

وقرأ ابن مسعود ﴿ أنذر ﴾ بدون أن ، وذلك على تقدير القول ، أي فقلنا له : أنذر ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : عذاب شديد الألم ، وهو عذاب النار .

وقال الكلبي : هو ما نزل بهم من الطوفان .

وجملة : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال نوح ؟ فقال : قال لهم إلخ .

والمعنى : إني لكم منذر من عقاب الله ومخوّف لكم ، ومبين لما فيه نجاتكم .

﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ ﴾ "أن" هي التفسيرية لنذير ، أو هي المصدرية أي : بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره ، ﴿ واتقوه ﴾ أي : اجتنبوا ما يوقعكم في عذابه ، ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به فإني رسول إليكم من عند الله .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ هذا جواب الأمر ، و"من" للتبعيض ، أي : بعض ذنوبكم ، وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته .

وقال السديّ : المعنى يغفر لكم ذنوبكم ، فتكون "من" على هذا زائدة .

وقيل : المراد بالبعض : ما لا يتعلق بحقوق العباد .

وقيل : هي لبيان الجنس .

وقيل : يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي :

يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدّره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدّره لكم ، على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان .

(177/783)

وقيل : التأخير بمعنى البركة في أعمارهم أن آمنوا ، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا .

قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم .

وقال الزجاج : أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب .

وقال الفراء : المعنى لا يميتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ أي : ما قدّره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء ، وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر بل يقع لا محالة ، فبادروا إلى الإيمان والطاعة .

وقيل المعنى : إن أجل الله ، وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان .

وقيل المعنى : إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : شيئًا من العلم لسارعتم إلى ما أمرتكم به ، أو لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي : قال نوح منادياً لربه ، وحاكياً له ما جرى

بينه وبين قومه ، وهو أعلم به منه إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان دعاء دائماً في الليل والنهار من غير تقصير .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ عما دعوتهم إليه وبعداً عنه .

قال مقاتل : يعني تباعداً من الإيمان ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء ؛ لكونه سببها ، كما في قوله : ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانا ﴾ [الأنفال : 2] .

قرأ الجمهور : " دعائي " بفتح الياء ، وقرأ الكوفيون ، ويعقوب ، والدوري عن أبي عمرو بإسكانها ، والاستثناء مفرّغ .

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي : كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة ، وهو الإيمان بك ، والطاعة لك ﴿ جَعَلُواْ أَصابعهم فِى ءاذانهم ﴾ لئلا يسمعوا صوتي ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : غطوا بها وجوههم لئلا يروني .

وقيل : جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي ، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان .

وقيل : هو كناية عن العداوة .

(178/783)

يقال : لبس فلان ثياب العداوة .

وقيل : استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي : استمروا على الكفر ، ولم يقلعوا عنه ولا تابوا منه ﴿ واستكبروا ﴾ عن قبول الحق ، وعن امتثال ما أمرهم به ﴿ استكبارا ﴾ شديداً .

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا ﴾ أي : مظهراً لهم الدعوة مجاهراً لهم بها .

﴿ ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ أي : دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي : وأسررت لهم الدعوة إسراراً كثيراً .

قيل المعنى : أن يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه ، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجع ذلك فيهم .

قال مجاهد : معنى أعلنت صحت .

وقيل : معنى ﴿ أسررت ﴾ : أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها .

وانتصاب ﴿ جهاراً ﴾ على المصدرية ؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار ، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم : قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، أي : دعاء جهاراً ، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي : مجاهراً ، ومعنى " ثم " : الدلالة على تباعد الأحوال ؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما .

قرأ الجمهور : ﴿ إني ﴾ بسكون الياء ، وقرأ أبو عمرو والحرميون بفتحها .

﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ أي : سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ أي : كثير المغفرة للمذنبين .

وقيل : معنى ﴿ استغفروا ﴾ : توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين ﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ أي : يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار .

وقيل : المراد بالسماء المطر ، كما في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

(179/783)

والمدرار : الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ، ولم يؤنث ، لأن مفعالاً لا يؤنث ؛ تقول امرأة مئناث ومذكار ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : إرسالاً مدراراً ، وقد تقدّم الكلام عليه في سورة الأنعام ، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر .

وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق ، ولهذا قال : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ يعني : بساتين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ جارية .

قال عطاء : المعنى يكثر أموالكم وأولادكم .

أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ أي : أيّ عذر لكم في ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف ، أي : ما لكم لا تخافون الله ، والوقار العظمة من التوقير ، وهو التعظيم ، والمعنى لا تخافون حقّ عظمته ، فتوحدونه وتطيعونه ، و ﴿ لاَ تَرْجُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين ، والعامل فيه معنى الاستقرار في لكم ، ومن إطلاق الرجاء على الخوف قول الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وقال سعيد بن جبير ، وأبو العالية ، وعطاء بن أبي رباح : ما لكم لا ترجون لله ثواباً ، ولا تخافون منه عقاباً .

وقال مجاهد ، والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة .

قال قطرب : هذه لغة حجازية .

وهذيل ، وخزاعة ، ومضر يقولون : لم أرج : لم أبل .

وقال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان .

وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً .

وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدّون لله طاعة .

وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ، ولا تشكرون له نعمة ، وجملة : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة : نطفة ، ثم مضغة ، ثم علقة إلى تمام الخلق ، كما تقدّم بيانه في سورة المؤمنين ، والطور في اللغة المرّة ، وقال ابن الأنباري : الطور الحال ، وجمعه أطوار .

وقيل : أطواراً صبياناً ، ثم شباناً ، ثم شيوخاً .

وقيل : الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى : كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة ؟ ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ الخطاب لمن يصلح له ، والمراد : الاستدلال بخلق السموات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة ، والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب قال الحسن : خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء ، وأرض وأرض خلق وأمر ، وقد تقدّم تحقيق هذا في قوله : ﴿ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] وانتصاب ﴿ طباقاً ﴾ على المصدرية ، تقول : طابقه مطابقة ، وطباقاً ، أو حال بمعنى ذات طباق ، فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه ، وأجاز الفراء في غير القرآن جرّ ﴿ طباقاً ﴾ على النعت ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ أي : منوّراً لوجه الأرض ، وجعل القمر في السموات مع كونها في سماء الدنيا ؛ لأنها إذا كانت في إحداهنّ فهي فيهنّ ،

كذا قال ابن كيسان .

قال الأخفش : كما تقول : أتاني بنو تميم ، والمراد بعضهم .

وقال قطرب : فيهنّ بمعنى معهنّ ، أي : خلق القمر والشمس مع خلق السموات والأرض ، كما في قول امرىء القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده . . . ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال

أي : مع ثلاثة أحوال ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ أي : كالمصباح لأهل الأرض ؛ ليتوصلوا بذلك إلى التصرّف فيما يحتاجون إليه من المعاش .

(181/783)

﴿ والله أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ يعني : آدم خلقه الله من أديم الأرض ، والمعنى : أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين ، و ﴿ نباتاً ﴾ إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، أو مصدر لفعل محذوف ، أي : أنبتكم من الأرض ، فنبتم نباتاً .

وقال الخليل ، والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى ؛ لأن معنى ﴿ أنبتكم ﴾ : جعلكم تنبتون نباتاً .

وقيل المعنى : والله أنبت لكم من الأرض النبات ، فنباتاً على هذا مفعول به .

قال ابن بحر : أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر ، وبالطول بعد القصر .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أي : في الأرض ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ يعني : يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ أي : فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم .

﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ أي : طرقاً واسعة ، والفجاج جمع فج ، وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء ، وغيره .

وقيل الفج : المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء وفي سورة الحج مستوفى .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ جَعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ قال : لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال : ليتنكروا ، فلا يعرفهم ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ قال : تركوا التوبة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عنه ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَّا

لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ قال : لا تعلمون لله عظمة .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقي عنه أيضاً : ﴿ وَقَاراً ﴾ قال : عظمة .

وفي قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ قال : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة .

(182/783)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : لا تخافون لله عظمة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عليّ بن أبي طالب : "أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف ، فنادى بأعلى صوته ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : الشمس والقمر ، وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم أنه من كتاب الله : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمر قال :

تضيء لأهل السموات ، كما تضيء لأهل الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار وقد كان بينهما بعض العتب ، فتعاتبا فذهب ذلك ، فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سلني عما شئت ، فلا تسألني عن شيء إلاّ أخبرتك بتصديق قولي من القرآن ، فقال له : أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات السبع ، كما هو في الأرض ؟ قال : نعم ألم تروا إلى قول الله ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سموات طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ قال : وجهه في السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ قال : خلق فيهنّ حين خلقهنّ ضياء لأهل الأرض ، وليس في السماء من ضوئه شيء ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ قال : طرقاً مختلفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 296 . 299 ﴾

(183/783)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) ﴾

إن كان هذا من حكاية كلام نوح عليه السلام لقومه كما جرى عليه كلام المفسرين ، كان تخلصاً من التوبيخ والتعريض إلى الاستدلال عليهم بآثار وجود الله ووحدانيته وقدرته ، مما في أنفسهم من الدلائل ، إلى ما في العالم منها ، لِما علمتَ من إيذان قوله : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ [نوح : 14] من تذكير بالنعمة وإقامة للحجة ، فتخلص منه لذكر حجة أخرى ، فكان قد نبههم على النظر في أنفسهم أولاً لأنها أقرب ما يحسونه ويشعرون به ثم على النظر في العالم وما سُوّي فيه من العجائب الشاهدة على الخالق العليم القدير .

وإن كان من خطاب الله تعالى للأمة وهو ما يسمح به سياق السورة من الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المساوية لأحوال المشركين كان هذا الكلام اعتراضاً للمناسبة .

والهمزة في ﴿ ألم تروا ﴾ للاستفهام التقريري مكنى به عن الإِنكار عن عدم العلم بدلائل ما يرونه .

والرؤية بصرية .

ويجوز أن تكون علمية أي ألم تعلموا فيدخل فيه المرئي من ذلك .

وانتصب ﴿ كيف ﴾ على المفعول به ل ﴿ تروا ﴾ ، ف ﴿ كيف ﴾ هنا مجردة عن الاستفهام متمحضة للدلالة على الكيفية ، أي الحالة .

والمعنى : ألستم ترون هيئة وحالةَ خلقِ الله السماوات .

والسماوات : هنا هي مدارات بمعنى الكواكب فإن لكل كوكب مداراً قد يكون هو سماءَه .

وقوله : ﴿ سبع سموات ﴾ يجوز أن يكون وصف ﴿ سبع ﴾ معلوماً للمخاطبين من قوم نوح ، أو من أمة الدعوة الإسلامية بأن يكونوا علموا ذلك من قبل ؛ فيكون مما شمله فعل ﴿ ألم تروا ﴾ .

ويجوز أن يكون تعليماً للمخاطبين على طريقة الإِدماج ، ولعلهم كانوا سلفاً للكلدانيين في ذلك .

و ﴿ طباقاً ﴾ : بعضها أعلى من بعض ، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض سواء كانت متماسَّة أو كان بينها ما يسمى بالخلاء .

(184/783)

وقوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ صالح لاعتبار القمر من السماوات ، أي الكواكب على الاصطلاح القديم المبني على المشاهدة ، لأن ظرفية (في) تكون لوقوع المحوي في حاويه مثل الوعاء ، وتكون لوقوع الشيء بين جماعته ، كما في حديث الشفاعة " وتبقى

هذه الأمة فيها منافقوها " ، وقول النميري:

تَضوَّعَ مسكاً بطن نَعْمَانَ أنْ مشتْ

به زينب في نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ

و﴿ القمر ﴾ كائن في السماء المماسة للأرض وهي المسماة بالسماء الدنيا ، والله أعلم بأبعادها .

وقوله : ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ هو بتقدير : وجعل الشمس فيهن سراجاً ، والشمس من الكواكب .

والإِخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإِنارة بمنزلة الوصف بالمصدر .

والقمر ينير ضوؤُه الأرضَ إنارة مفيدة بخلاف غيره من نجوم الليل فإن إنارتها لا تجدي البشر .

والسراج : المصباح الزاهر نورُه الذي يوقد بفتيلة في الزيت يُضيء التهابُها المعدَّلُ بمقدار بقاء مادة الزيت تغمرها .

والإِخبار به عن الشمس من التشبيه البليغ وهو تشبيه ، والقصد منه تقريب المشبه من إدراك السامع ، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل وقلّ من العرب من يتخذه وإنما كانوا يرونه في أديرة الرُهبان أو قصور الملوك وأضرابهم ، قال امرؤ القيس

يضي سناه أو مصابيح راهبٍ . . .

أمال الذُّبَال بالسليط المفتل

ووصفوا قصر غُمْدان بالإِضاءة على الطريق ليلاً .

ولم يخبر عن الشمس بالضياء كما في آية سورة يونس (5) ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ ، والمعنى واحد وهو الإضاءة ، فلعل إيثار السراج هنا لمقاربة تعبير نوح في لغته ، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة ، لأن الفواصل التي قبلها جاءت على حروف صحيحة ولو قيل : ضياء لصارت الفاصلة همزة والهمزة قريبة من حروف العلة فيثقل الوقف عليها .

(185/783)

وفي جعل القمر نوراً إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعُّض وتمام هو أثر ظهوره هلالاً ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدراً ، ثم ارتجاع ذلك ، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق .

وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجاً لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتُلمع أوانيَ الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة .

وقد اجتمع في قوله : وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ استدلال وامتنان .

وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)

أنشأ الاستدلال بخلق السماوات حضورَ الأرض في الخيال فأعقَبَ نوح به دليلَهُ السابقَ ، استدلالاً بأعجب ما يرونه من أحوال ما على الأرض وهو حال الموت والإقبار ، ومهَّد لذلك ما يتقدمه من إنشاء الناس .

وأدمج في ذلك تعليمهم بأن الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات وإعلامهم بأن بعد الموت حياة أخرى .

وأُطلق على معنى : أنشأكم ، فعلُ ﴿ أنبتكم ﴾ للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى : ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ [آل عمران : 37] ، أي أنشأها وكما يقولون : زرَعك الله للخير ، ويزيد وجه الشبه هنا قرباً من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض ، وقيل التقدير : أنبتَ أصلكم ، أي آدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ [آل عمران : 59] .

(186/783)

و ﴿ نباتاً ﴾ : اسم من أنبت ، عومل معاملة المصدر فوقع مفعولاً مطلقاً ل ﴿ أنبتكم ﴾ للتوكيد ، ولم يجر على قياس فعله فيقال : إنباتاً ، لأن نباتاً أخف فلما تسَنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يُعدل عنه إلى الثقيل كمالاً في الفصاحة ، بخلاف قوله بعده ﴿ إخراجاً ﴾ فإنه لم يعدل عنه إلى : خروجاً ، لعدم ملاءمته لألفاظ الفواصل قبلَه المبنية على ألف مثل ألف التأسيس فكما تعدّ مخالفتها في القافية عيباً كذلك تُعدّ المحافظة عليها في الأسجاع والفواصل كمالاً .

وقد أدمج الإنذار بالبعث في خلال الاستدلال ، ولكونه أهم رتبة من الاستدلال عليهم بأصل الإنشاء عطفت الجملة بـ ﴿ ثم ﴾ الدالة على التراخي الرتبي في قوله : ﴿ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ لأن المقصود من الجملة هو فعل ﴿ يخرجكم ﴾ ، وأما قوله : ﴿ ثم يعيدكم ﴾ فهو تمهيد له .

وأكد ﴿ يخرجكم ﴾ بالمفعول المطلق لردّ إنكارهم البعث .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)

هذا استدلال وامتنان ، ولذلك عُلق بفعل ﴿ جعل ﴾ مجرورٌ بلام التعليل وهو ﴿ لكم ﴾ أي لأجلكم .

والبساط : ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو زربية فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ ، أي كالبساط ، ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزائه بحيث لا

يوجع أرجل الماشين ولا يُقِضُّ جنوب المضطجعين ، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجم الأرض كُرَوي ، وقد نبه على ذلك بالعلةِ الباعثة في قوله : ﴿ لكم ﴾ ، والعلةِ الغائبة في قوله : ﴿ لتسلكوا منها سبلاً ﴾ وحصل من مجموع العلتين الإِشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع ، وإلى نعمة خاصة وهي السير في الأرض ، وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها .

والسبُل : جمع سبيل وهو الطريق ، أي لتتخذوا لأنفسكم سُبلاً من الأرض تهتدونَ بها في أسفاركم .

(187/783)

والفِجاج : جمع فجٍّ ، والفَجّ : الطريق الواسع ، وأكثر ما يطلق على الطريق بين جبلين لأنه يكون أوسعَ من الطريق المعتاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(188/783)

قوله تعالى ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا جادلوه عليه الصلاة والسلام بعد هذا البيان الذي لا يشك في دلالته على المراد من تحقق لصفاء الإيقان ، فأكثروا الجدال ونسبوه إلى الضلال وعصوه أقبح العصيان وقابلوه بأشنع الأقوال والأفعال ، طوى ذلك مشيراً إليه بقوله مستأنفاً : ﴿ قال نوح ﴾ أي بعد رفقه بهم ولينه لهم شاكياً منهم : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ المدبر لي المتولي لجميع أموري .

ولما كان الضعفاء أكثر الناس بحيث إذا اجتمعوا دل الرؤوس الأقوياء بالأموال والأولاد وكانوا كأنهم الكل ، فقال مؤكداً لأن عصيانهم له بعد ذلك مما يبعد وقوعه : ﴿ إنهم ﴾ أي قومي الذين دعوتهم إليك مع صبري عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ عصوني ﴾ أي فيما أمرتهم به ودعوتهم إليه فأبوا أن يجيبوا دعوتي وشردوا عني أشد شراد وخالفوني أقبح مخالفة ﴿ واتبعوا ﴾ أي بغاية جهدهم نظراً إلى المظنون العاجل بعد ترك المحقق

عاجلاً وآجلاً ﴿ من ﴾ أي من رؤسائهم البطرين بأموالهم المغترين بولدانهم ، وفسرهم بقوله : ﴿ لم يزده ﴾ أي شيئاً من الأشياء .

(189/783)

ولما كان المال يكون للإنسان الولد ، وكان ينبغي أن يشكر الله الذي آتاه إياه ليكون له خيراً في الدارين وكذا الولد قال : ﴿ ماله ﴾ أي بكثرته ﴿ وولده ﴾ كذلك ، وهو الجنس في قراءة التحريك - وكذا في قراءة ابن كثير والبصريين وحمزة والكسائي بالضم والسكون على أنه لغة في المفرد كالحزن والحزن والرشد والرشد ، أو يكون على هذه جمعاً كالأسد والأسد ، ويكون اختيار أبي عمرو لهذه القراءة في هذا الحرف وحده للإشارة بجمع الكثرة المبني على الضمة التي هي أشد الحركات إلى أنهم - وإن زادت كثرتهم وعظمت قوتهم - لا يزيدونهم شيئاً ﴿ إلا خساراً ﴾ بالبعد عن الله والعمى عن محجة الطريق ، فإن البسط لهم في الدنيا بذلك كان سبباً لطغيانهم وبطرهم واتباعهم لأهوائهم حتى كفروا واستغووا غيرهم فغلبوا عليهم فكانوا سبباً في شقائهم وخسارتهم بخسارتهم ، وكان عندهم أنها زادتهم رفعة ، وفي السياق دليل على أنهم ما حصلت لهم الوجاهة إلا بها .

ولما كانت كثرة الرؤساء قوة أخرى إلى قوتهم بمتاع الدنيا ، وكان التقدير : فأمرتهم بالإيمان

فأبوا وأمروهم بالكفر فانقادوا لهم ، عطف عليه مبيناً لكثرتهم بضمير الجمع العائد على " من " عاطفاً على " لم يزده " المفردة الضمير للفظ جامعاً له للمعنى لتجمع العبارة الحكم على المفرد والجمع ، فيكون أدل شيء على المراد منها فقال : ﴿ ومكروا ﴾ أي هؤلاء الرؤساء في تنفير الناس عني - وأكد الفعل بالمصدر دلالة على قوته فقال : ﴿ مكراً ﴾ وزاده تأكيداً بصيغة هي النهاية في المبالغة فقال : ﴿ كباراً ﴾ فإنه أبلغ من كبار المخفف الأبلغ من كبير ، فلم يدعوا أحداً منهم بذلك المكر يتبعني ﴿ وقالوا ﴾ أي لهم في أداني المكر الذي حصل منهم .

(190/783)

ولما كان دعاء الرسل عليهم الصلاة والسلام جديراً بالقبول لما لهم من الجلالة والحلاوة والبيان والرونق والظهور في الفلاح ، أكدوا قولهم : ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ أي لا تتركنها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة ، وأضافوها إليهم تحسباً فيها ، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحاً بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيداً : ﴿ ولا تذرن ﴾ ولعلهم كانوا يوافقون العرب في أن الود هو الحب الكثير ، فناسب المقام بذاتهم بقوله : ﴿ وداً ﴾ وأعادوا النافي تأكيداً فقالوا : ﴿ ولا سواعاً ﴾ وأكدوا هذا التأكيد

وأبلغوا فيه فقالوا : ﴿ ولا يغوث ﴾ ولما بلغ التأكيد نهاية وعلم أن المقصود النهي عن كل فرد فرد لا عن المجموع بقيد الجمع أعروا فقالوا : ﴿ ويعوق ونسراً ﴾ معرى عن التأكيد للعلم بإرادته ، وكان هؤلاء ناساً صالحين ، فلما ماتوا حزن عليهم الناس ثم زين لهم إبليس تصويرهم تشويقاً إلى العمل بطرائقهم الحسنة فصوروهم ، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم لتحصيل المنافع الدنيوية ببركاتهم ثم نسي القوم الصالحون ، وجعلوا أصناماً آلهة من دون الله ، وكانت عبادة هؤلاء أول عبادة الأوثان فأرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام للنهي عن ذلك إلى أن كان من أمره وأمر قومه ما هو معلوم ، ثم أخرج إبليس هذه الأصنام بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب ، فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير لآل ذي الكلاع ، وقيل غير ذلك - والله أعلم قال البغوي : سواع لهذيل ويغوث لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عن سبأ ويعوق لهمذان .

(191/783)

قال أبو حيان : قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ، يسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي

لكم المنزل ، فينزلون حوله ويضربون عليه بناء ، وروي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في سبب وصول شر تلك الأوثان إلى العرب أنها دفنها الطوفان ثم أخرجها الشيطان لمشركي العرب ، وكانت للعرب أصنام أخر فاللات لثقيف ، والعزى لسليم وغطفان وجشيم ، ومنات بديد لهذيل ، وإساف ونايلة وهبل لأهل مكة ، وكان إساف حيال الحجر الأسود ، ونايلة حيال الركن اليماني ، وكان هبل في جوف الكعبة - انتهى ، وقال الواقدي : ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر - انتهى .

ولا يعارض هذا أنهم صور لناس صالحين لأن تصويرهم لهم يمكن أن يكون منتزعاً من معانيهم ، فكأن وداً كان أكملهم في الرجولية ، وكانت سواع امرأة كاملة في العبادة ، وكان يغوث شجاعاً ، ويعوق كان سباقاً قوياً ، وكان نسر عظيماً طويل العمر - والله تعالى أعلم .

ولما ذكر مكرهم وما أظهروا من قولهم ، عطف عليه ما توقع السامع من أمره فقال : ﴿ وقد أضلوا ﴾ أي الأصنام وعابدوها بهذه العبادة ﴿ كثيراً ﴾ من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم وممن أتى بعدهم فإنهم أول من سن هذه السنة السيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ولما كان التقدير : فلا تزد الظالمين إلا خساراً ، عطف عليه قوله مظهراً في موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أي الراسخين في الوصف الموجب لأن تكون آثار المتصف به كآثار الماشي في في الظلام في وقوعها مختلة ، شيئاً من الأشياء التي هي فيهم ﴿ إلا ضلالاً ﴾ أي طبعاً على عقولهم وقلوبهم حتى يعموا عن الحق وعن جميع مقاصدهم الفاسدة الضالة الراسخة في الضلال فلا يكون منها شيء على وجه يكون فيه شيء من سداد ، وكان هذا بعد أن أعلمه الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، والكلام عليه على كل حال كالكلام على دعاء موسى هارون عليهما وعلى محمد أفضل الصلاة والسلام في الشد على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه كما مضى في سورة يونس عليه السلام ، وقد بالغ ابن عربي في المروق من الدين فقال في فصوصة : إن هذا الدعاء حسن في حقهم ، وقال : إن الضلال أهدى من الهدى ، وإن الضال أحسن حالاً من المهتدي ، لأن الضال لا يزال قريباً من القطب المقصود دائراً حوله ، والمهتدي صاحب طريقة مستطيلة ، فهو يبعد عن المقصود ، فأبان أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أسفه منه إلا من اتبعه عليه وعلى من ينحو نحوه من الضلال الذي لا يرضاه عاقل من عباد الأصنام الذين لا أسفه منهم ولا غيره ، فعليهم أشد الخزي واللعنة .

ولما فرغ من أمرهم في ضلالهم ، ودعا رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلم يبق إلا

إهلاكهم .

وكان من مفهومات الضلال المحق وإذهاب العين كما يضل الماء في اللبن ، قال مبيناً ، إجابته لدعائه ذاكراً الجهة التي أهلكوا بسببها : وأكد ب " ما " النافية في الصورة لضد مضمون الكلام لاعتقاد الكفار أن الإنجاء والإهلاك عادة الدهر : ﴿مما ﴾ .

(193/783)

ولما كان الكافر قد أخطأ ثلاث مرات : يكفره في الإيمان بالطاغوت ، وتكذيب ربه ، وتكذيب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان ذلك كافياً في استحقاقه للأخذ قال : ﴿ خطيئاتهم ﴾ جامعاً له جمع السلامة – في قراءة الجماعة ، وأفهمت قراءة أبي عمرو بجمع التكسير أن لهم مع هذه الأمهات الكافية في الأخذ من الذنوب ما يفوت الحصر يوجب تغليظ ذلك الأخذ ، فهي مشيرة إلى أنه ينبغي الاحتراز من كل الذنب .

ولما كان الموجع إغراقهم لا كونه من معين ، قال مخبراً عما فعل بهم في الدنيا : ﴿ أغرقوا ﴾ أي بالطوفان بانياً له للمفعول لذلك وللإعلام بأنه في غاية السهولة على الفاعل المختار الواحد القهار ، فطاف الماء عليهم جميع الأرض السهل والجبل ، فلم يبق منهم أحداً ، وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه من قوله : ﴿ فأدخلوا ﴾ أي بقهر القهار في الآخرة التي أولها

البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشياً ﴿ ناراً ﴾ أي عظيمة جداً أخفها ما يكون من مبادئها في البرزخ ، قال الشيخ ولي الدين الملوي : فعذبوا في الدنيا بالغرق ، وفي الآخرة بالحرق ، والإياس من الرحمة ، وأيّ عذاب أشد من ذلك ، وقال الضحاك : في حالة واحدة كانوا يغرقون في الماء من جانب ويحترقون في الماء من جانب آخر بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وفيها دلالة على قول غيره على عذاب القبر .

ولما كانوا قد استندوا إلى آلهتهم لتنصرهم من أخذ الله تعالى ، قال مسبباً عن هذا الإغراق والإدخال من الرحمة ليكون ذلك أشد في العذاب ، فإن الإنسان – كما قال الملوي : – إذا كان في العذاب ويرجو الخلاص يهون عليه الأمر بخلاف ما إذا يئس من الخلاص ، معلماً بأن آلهتهم عاجزة فإنهم لم تغن عنهم شيئاً ، توبيخاً لمن يعبد مثلها : ﴿ فلم يجدوا ﴾ وحقق الأمر فيهم بقوله : ﴿ لهم ﴾ أي عندما أناخ الله بهم سطوته وأحل بهم نقمته .

(194/783)

ولما كانت الرتب كلها دون رتبته تعالى ، وكان ليس لأحد أن يستغرق جميع ما تحت رتبته سبحانه من المراتب ، قال مثبتاً الجار : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي تتضاءل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته ﴿ أنصاراً ﴾ ينصرونهم على من

أراد بهم ذلك ليمنعوه مما فعل بهم أو يقتصوا منه لهم بما شهد به شاهد الوجود الذي هو أعدل الشهود من أنه تم ما أراده سبحانه وتعالى من إغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوتهم لكونهم أعداءه وإنجاء نبيه نوح عليه الصلاة والسلام ومن معه رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد لكونهم أولياءه ، فكما لم يهلك ممن أراد إنجاءه أحد فكذلك لم يسلم منهم ، فمن قال عن عوج ما يقوله القصاص فهو أيضاً ضال أشد ضلال ، فلعنة الله على من يقول : إن الله تعالى كان غير ناصرهم ، مع هذه الدلالات التي هي نص في أنه عدوهم ، وأن نصرهم إنما يكون على نبيه نوح عليه الصلاة والسلام ، واعتقاد ذلك أو شيء منه كفر ظاهر لا محيد عنه بوجه ، وقائل ذلك هو ابن عربي صاحب الفصوص الذي لم يرد بتصنيفه إلا هدم الشريعة المطهرة ، ونظمه أياً ابن الفارض في تائيته التي سماها بنظم السلوك ، فلعنة الله عليه وعلى من تبعه أو شك في كفره أو توقف في لعنه بعد ما نصب من الضلال الذي سعر به البلاد ، وأردى كثيراً من العباد .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 173 . 177 ﴾

(195/783)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن نوحاً عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم

فالأول قوله : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة ﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح : 3] فكأنه قال : قلت لهم أطيعون فهم عصوني .

الثاني قوله : ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر ، وقوله : ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سبباً للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت المنافع الدنيوية أسباباً للخسار في الآخرة صار ذلك جارياً مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت ، واستدل بهذه الآية من قال : إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم ، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية : ﴿ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ وَوَلَدُهُ ﴾ بضم الواو واعلم أن الولد بالضم لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعاً إما جمع ولد كالفلك ، وههنا يجوز أن يكون واحداً وجمعاً .

النوع الثالث : من قبائح أفعالهم قوله تعالى :

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ معطوف على ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ ﴾ [نوح : 21] لأن المتبوعين هم الذين مكروا وقالوا للأتباع : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ ﴾ ، وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ ، لأنه في معنى الجمع .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ كُبَّاراً ﴾ و ﴿ كُبَّاراً ﴾ بالتخفيف والتثقيل ، وهو مبالغة في الكبير ، فأول المراتب الكبير ، والأوسط الكبار بالتخفيف ، والنهاية الكبار بالتثقيل ، ونظيره : جميل

وجمال وجمال ، وعظيم وعظام وعظام ، وطويل وطوال وطوال .

المسألة الثالثة :

المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم : ﴿ لَا تَذَرُنَّ وُدًّا ﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد ، وأمروهم بالشرك ، ولما كان التوحيد أعظم المراتب ، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار ، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم ، فقال : الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي ، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كباراً في الخير والدين .

المسألة الرابعة :

أنه تعالى إنما سماه مكرًا لوجهين الأول : لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها ، كأنهم قالوا : هذه الأصنام آلهة لكم ، وكانت آلهة لآبائكم ، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين ، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك ، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه ، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقاً شديداً ، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفاً لهم عن الدين ، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرًا

الثاني : أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد ، فلعلهم قالوا لأتباعهم : إن آلهتكم خير من إله نوح ، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد ، وإله نوح لا يعطيه شيئاً لأنه

فقير ، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح ، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : 51] وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هذا الذى هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلاَ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف : 52 ، 53] .

المسألة الخامسة :

(197/783)

ذكر أبو زيد البلخي في كتابه في الرد على عبدة الأصنام أن العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة في هذه الساعة ليست خالقة للسموات والأرض ، والنبات والحيوان علم ضروري ، والعلوم الضرورية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء ، وعبادة الأوثان دين كان موجوداً قبل مجيء نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية ، وقد استمر ذلك الدين إلى هذا الزمان ، وأكثر سكان أطراف المعمورة على هذا الدين ، فوجب حمل هذا الدين على وجه لا يعرف فساده بضرورة العقل ، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم ، فإذاً لا بد وأن يكون للذاهبين إلى ذلك المذهب تأويلات أحدها : قال أبو معشر جعفر بن محمد المنجم : هذه المقالة إنما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفي مكان ، وذلك لأنهم قالوا : إن الله نور هو أعظم الأنوار ، والملائكة الذين هم حافون حول العرش الذي هو

مكانه ، هم أنوار صغيرة بالنسبة إلى ذلك النور الأعظم ، فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنماً هو أعظم الأصنام على صورة إلههم الذي اعتقدوه ، واتخذوا أصناماً متفاوتة ، بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين ، واشتغلوا بعبادة تلك الأصنام على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة ، فدين عبادة الأوثان إنما ظهر من اعتقاد التجسيم الوجه الثاني : وهو أن جماعة الصابئة كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة ، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها ، فالبشر عبيد هذه الكواكب ، والكواكب عبيد الإله الأعظم ، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب ، ثم إن هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب أخرى ، فاتخذوا أصناماً على صورها واشتغلوا بعبادتها ، وغرضهم عبادة الكواكب الوجه الثالث : أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر ، كانوا منجمين على مذهب أصحاب الأحكام ، في إضافات سعادات هذا العالم ونحوساتها إلى الكواكب ، فإذا اتفق في الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب ،

(198/783)

فكانوا يتخذون ذلك الطلسم ، وكان يظهر منه أحوال عجيبة وآثار عظيمة ، وكانوا يعظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتغلون بعبادته ، وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل

موافق لكوكب خاص ولبرج خاص ، فقيل : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر الوجه الرابع : أنه كان يموت أقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتغلون بتعظيمها ، وغرضهم تعظيم أولئك الأقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم :

(199/783)

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] الوجه الخامس : أنه ربما مات ملك عظيم ، أو شخص عظيم ، فكانوا يتخذون تمثالاً على صورته وينظرون إليه ، فالذين جاؤا بعد ذلك ظنوا أن آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء ، أو لعل هذه الأسماء الخمسة وهي : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، أسماء خمسة من أولاد آدم ، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم ، فكنتم تنظرون إليهم ، ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم ، ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام عن زيارة القبور أولاً ، ثم أذن فيها على ما يروى أنه عليه السلام قال : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة السادس : الذين يقولون إنه تعالى

جسم ، وإنه يجوز عليه الانتقال والحلول ، لا يستبعدون أن يحل تعالى في شخص إنسان ، أو في شخص صنم ، فإذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة ، خطر ببالهم أن الإله حصل في ذلك الصنم ولذلك فإن جمعاً من قدماء الروافض لما رأوا أن علياً عليه السلام قلع باب خيبر ، وكان ذلك على خلاف المعتاد قالوا : إن الإله حل في بدنه وإنه هو الإله الوجه السابع : لعلهم اتخذوا تلك الأصنام كالمحراب ومقصودهم بالعبادة هو الله ، فهذا جملة ما في هذا الباب ، وبعضها باطلة بدليل العقل ، فإنه لما ثبت أنه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الإله ، وبطل القول أيضاً بالحلول والنزول ، ولما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسايط والطلسمات ، ولما جاء الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم ، بطل القول باتخاذها محاريب وشفعاء .

المسألة السادسة :

(200/783)

هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم ، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب ، فكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود ، وعبد يغوث ، هكذا قيل في الكتب ، وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت

في زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب ، ولا يمكن أن يقال : إن نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها في السفينة سعياً منه في حفظها .

المسألة السابعة :

قرىء : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ وُدّاً ﴾ بفتح الواو وبضم الواو ، قال الليث : ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح ، ود بالضم صنم لقريش ، وبه سمي عمرو بن عبد ود ، وأقول : على قول الليث وجب أن لا يجوز ههنا قراءة ود بالضم لأن هذه الآيات في قصة نوح لا في أحوال قريش وقرأ الأعمش : ﴿ ولا يغوثا ويعوقا ﴾ بالصرف وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف ، إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، فلعله صرفهما لأجل أنه وجد أخواتهما منصرفة ودا وسواعا ونسرا .

واعلم أن نوحاً لما حكى عنهم أنهم قالوا لأتباعهم : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ قال : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ فيه وجهان : الأول : أولئك الرؤساء قد أضلوا كثيراً قبل هؤلاء الموصين (بأن يتمسكوا) بعبادة الأصنام وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال الثاني : يجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الأصنام ، كقوله : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 36] وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ ﴾ [الأعراف : 195] ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ ففيه سؤالان :

الأول : كيف موقع قوله : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين ﴾ ؟ الجواب : كأن نوحاً عليه السلام لما أطنب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة امتلأ قلبه غيظاً وغضباً عليهم فختم كلامه بأن دعا عليهم .

السؤال الثاني : إنما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم ؟ الجواب : من وجهين : الأول : لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين ، بل الضلال في أمر دنياهم ، وفي ترويج مكرهم وحيلهم الثاني : الضلال العذاب لقوله : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] .

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25)

ثم إنه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام قال بعده : ﴿ مِّمَّا خطاياهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(ما) صلة كقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾ [النساء : 155] ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ [النساء : 159] والمعنى من خطاياهم أي من أجلها وبسببها ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ من خطيآتهم

ما أغرقوا ﴾ فأخر كلمة ما ، وعلى هذه القراءة لا تكون ما صلة زائدة لأن ما مع ما بعده في تقرير المصدر .

واعلم أن تقديم قوله : ﴿ مّمَّا خطاياهم ﴾ لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان (فإدخالهم النار) إلا من أجل خطياآتهم ، فمن قال من المنجمين : إن ذلك إنما كان بسبب أنه انقضى في ذلك الوقت نصف الدور الأعظم ، وما يجري مجرى هذه الكلمات كان مكذباً لصريح هذه الآية فيجب تكفيره .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ خطيئاتهم ﴾ بالهمزة وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها و ﴿ خطاياهم ﴾ و ﴿ خطيئاتهم ﴾ بالتوحيد على إرادة الجنس ، ويجوز أن يراد به الكفر .

(202/783)

واعلم أن الخطايا والخطيئآت كلاهما جمع خطيئة ، إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة ، وقد تقدم الكلام فيها في [البقرة : 58] عند قوله : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خطاياكم ﴾ وفي [الأعراف : 161] عند قوله : ﴿ خطيئاتكم ﴾ المسألة الثالثة :

تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ وذلك من وجهين

الأول : أن الفاء في قوله : ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة ، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء الثاني : أنه قال : ﴿ فادخلوا ﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي .

وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك ، قال مقاتل والكلبي : معناه أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله : ﴿ ونادى أصحاب النار ﴾ [الأعراف : 50] ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 44] واعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل .

فإن قيل : إنما تركنا هذا الظاهر لدليل ، وهو أن من مات في الماء فإنا نشاهده هناك فكيف يمكن أن يقال : إنهم في تلك الساعة أدخلوا ناراً ؟ والجواب : هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل ، وهذا خطأ لما بينا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول عمره ، مع أنه كان صغير الجثة في أول عمره ، ثم إن أجزاءه دائماً في التحلل والذوبان ، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل ، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن ، فلم لا يجوز أن يقال : إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللّهِ أَنصَاراً ﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم ، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام ، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم ، وهو كقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : 43] واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 125.129 ﴾

(204/783)

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) ﴾

شكاهم إلى الله تعالى ، وأنهم عصَوْه ولم يتّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان .

وقال أهل التفسير : لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم .

قال ابن عباس : رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء ، فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى

بلغوا سبع قرون ، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم ، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفَشوْا .

قال الحسن : كان قوم نوح يزرعون في الشهر مرتين ، حكاه الماورديّ .

﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة .

وقرأ أهل المدينة والشام وعاصم "وَلَدَهُ" بفتح الواو واللام .

الباقون "وُلْده" بضم الواو وسكون اللام وهي لغة في الولد .

ويجوز أن يكون جمعاً للولد ، كالفُلْك فإنه واحد وجمع .

وقد تقدّم .

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22)

أي كبيراً عظيماً .

يقال : كَبير وكُبَار وكُبَّار ، مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنًى ، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال .

يقال : رجل حسن وحُسَّان ، وجميل وجُمَّال ، وقُرّاء للقارىء ، ووَضّاء للوضيء .

وأنشد ابن السِّكيت :

بَيْضاء تَصْطادُ القلوب وتَسْتَبِي . . .

بالحسن قَلْبَ المُسْلِم القُرّاء

وقال آخر :

والمَرءُ يُلحِقُه بِفِتْيانِ النَّدَى . . .

خُلُقُ الكريم وليس بالوُضَّاءِ

وقال المبرد : "كُبَّارًا" (بالتشديد) للمبالغة وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد "كُبَارا" بالتخفيف .

واختلف في مكرهم ما هو ؟ فقيل : تحريشهم سفلتهم على قتل نوح .

وقيل : هو تعزيرهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد ، حتى قالت الضَّعَفة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم .

(205/783)

وقال الكلبيّ : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد .

وقيل : مكرهم كفرهم .

وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ .

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23)

قال ابن عباس وغيره : هي أصنام وصُوَر ، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور .

وقيل : إنها للعرب لم يعبدها غيرهم .

وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ .

ويكون معنى الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ قالت العرب لأولادهم وقومهم : لا تذرُنّ ودًّا ولاَ سُوَاعاً ولاَ يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً ، ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام .

وعلى القول الأول ، الكلام كلّه منسوق في قوم نوح .

وقال عُروة بن الزبير وغيره : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه : وَدٌّ ، وسُواعٌ ، ويغوثُ ، ويعوقُ ، ونسرٌ .

وكان وَدّ أكبرَهم وأبرَّهم به .

قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمس بنين : وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا عُبَّاداً فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان : أنا أصوّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه .

قالوا : افعل .

فصوّره في المسجد من صُفْر ورصاص .

ثم مات آخر ، فصوّره حتى ماتوا كلهم فصوّرهم .

وتنقّصت الأشياء كما تتنقّص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين .

فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ؟ قالوا : وما نعبد ؟ قال : آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون في مُصَلاّكم .

فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحاً فقالوا : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً ﴾ الآية .

(206/783)

وقال محمد بن كعب أيضاً ومحمد بن قيس : بل كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم تَبَع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زيّن لهم إبليس أن يصوّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم ، وليتسلّوا بالنظر إليها ، فصوّرهم .

فلما ماتوا هُم وجاء آخرون قالوا : لَيْتَ شِعْرَنَا ! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها ! ؟

فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر .

فعبدوها فابتدىء عبادة الأوثان من ذلك الوقت .

قلت : وبهذا المعنى فسّر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة : أن أمّ حبيبة وأمّ سَلَمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شِرار الخلق عند الله يوم القيامة " وذكر الثعلبيّ عن ابن عباس قال : هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت من دون الله .

وذُكر أيضاً عن ابن عباس : أن نوحاً عليه السلام ، كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل بالهند ، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره ، فقال لهم الشيطان : إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم ، وإنما هو جسد ، وأنا أصوّر لكم مثله تطوفون به ، فصوّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها .

فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء ، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب .

قال الماوَرْدِيّ : فأما وَدٌّ فهو أوّل صنم معبود ، سُمي ودًّا لودّهم له ، وكان بعد قوم نوح

لكَلْب بدومة الجَنْدَل ، في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل .

وفيه يقول شاعرهم :

حَيّاك ودٌّ فإنّا لا يحلّ لنا . . .

(207/783)

لَهْوُ النساء وإن الدين قد عَزَمَا

وأما سُواعٌ فكان لهذيل بساحل البحر ، في قولهم .

وأما يَغُوثُ فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف من سبأ ، في قول قتادة .

وقال المهدَوِيّ .

لمُراد ثم لغطَفان .

الثعلبيّ : وأخذت أعلى وأنعم وهما من طيء وأهل جُرَش من مَذحج يغوث فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زماناً .

ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من أعلى وأنعم ، ففرّوا به إلى الحُصين أخي بني الحارث بن كعب من خُزاعة .

وقال أبو عثمان النَّهْدِيّ : رأيت يغوث وكان من رَصاص ، وكانوا يحملونه على جمل أحْرَد ،

ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك ، فإذا بَرَك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل ، فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله .

وأما يَعُوق فكان لهَمْدان ببَلْخَع ، في قول عكرمة وقتادة وعطاء .

ذكره الماورديّ .

وقال الثعلبيّ : وأما يَعُوق فكان لكَهْلان من سَبَأ ، ثم توارثه بنوه ، الأكبر فالأكبر حتى صار إلى هَمْدان .

وفيه يقول مالك ابن نمط الهمداني :

يَريشُ الله في الدنيا ويَبْرى . . .

ولا يَبْرِي يعوقُ ولا يَرِيشُ

وأما نسرٌ فكان لذي الكَلاَع من حِمْير ، في قول قتادة ونحوه عن مقاتل .

وقال الواقديّ : كان وَدٌّ على صورة رجل ، وسُواعٌ على صورة امرأة ، ويغوثُ على صورة أسد ، ويعوقُ على صورة فرس ، ونسرٌ على صورة نَسْر من الطير ، فالله أعلم .

وقرأ نافع "وَلاَ تَذَرُنَّ وُدًّا" بضم الواو .

وفتحها الباقون .

قال الليث : وَدٌّ (بفتح الواو) صنم كان لقوم نوح .

ووُدٌّ (بالضم) صنم لقريش ، وبه سُمّي عمرو بن وُدّ .

وفي الصحاح: والودّ (بالفتح) الوَتدُ في لغة أهل نجد ، كأنهم سكّنوا التاء وأدغموها في الدال .

والوَدّ في قول امرىء القيس :

تُظهِرُ الوَدَّ إذا ما أشْجَذَتْ . . .

وتُواريهِ إذا ما تَعْتَكِرْ

(208/783)

قال ابن دُريد : هو اسم جبل : ووَدٌّ صنم كان لقوم نوح عليه السلام ثم صار لكلب وكان بدُومة الجَنْدَل ، ومنه سمّوه عبد ودٍ وقال : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً ﴾ الآية .

خصّهَا بالذكر ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ هذا من قول نوح ، أي أضل كبراؤهم كثيراً من أتباعهم ، فهو عطف على قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ .

وقيل : إن الأصنام "أَضَلُّوا كَثِيراً" أي ضلّ بسببها كثير ، نظيره قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 36] فأجرى عليهم وصف ما يعقل ، لاعتقاد

الكفار فيهم ذلك .

﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ أي عذاباً ، قاله ابن بحر .

واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] وقيل إلا خسراناً .

وقيل إلا فتنةً بالمال والولد .

وهو محتمل .

قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطَايَاهُمْ أُغْرِقُواْ ﴾

"ما" صلة مؤكدة ، والمعنى من خطاياهم .

وقال الفرّاء : المعنى من أجل خطاياهم ، فأدّت "ما" هذا المعنى .

قال : و"ما" تدل على المجازاة .

وقراءة أبي عمرو "خَطَايَاهُمْ" على جمع التكسير ، الواحدة خطيّة .

وكان الأصل في الجمع خطائيّ على فعائل ، فلما اجتمعت الهمزتان قلبت الثانية ياء ، لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمع ثقيل ، وهو معتلّ مع ذلك ، فقلبت الياء ألفاً ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين .

الباقون "خَطِيئَاتِهِمْ" على جمع السلامة .

قال أبو عمرو : قوم كفروا ألف سنة فلم يكن لهم إلا خطيّات ، يريد أن الخطايا أكثر من الخطيّات .

(209/783)

وقال قوم : خطايا وخطيّات واحد ، جمعان مستعملان في الكثرة والقلّة ، واستدلّوا بقوله تعالى : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ [لقمان : 71] وقال الشاعر :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضّحَى . . .

وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَمَا

وقرىء "خطيئاتهم" و"خطِيّاتِهم" بقلب الهمزة ياء وإدغامها .

وعن الجَحْدَرِيّ وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حَيْوة وأشهب العقيلي "خطيئَتِهم" على التوحيد ، والمراد الشرك .

﴿ فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ أي بعد إغراقهم .

قال القشيريّ : وهذا يدلّ على عذاب القبر .

ومنكروه يقولون : صاروا مستحقين دخول النار ، أو عرض عليهم أماكنهم من النار ، كما قال تعالى : ﴿ النارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] وقيل : أشاروا إلى

ما في الخبر من قوله : "البحر نار في نار" .

وروى أبو رَوْق عن الضحاك في قوله تعالى : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ قال : يعني عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة ، كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب .

ذكره الثعلبيّ (قال) : أنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رُمَيح قال أنشدني أبو بكر بن الأنباريّ :

الخلق مجتمع طَوْراً ومفْترِق . . .

والحادِثَات فُنُونٌ ذاتُ أطوارِ

لا تعجبنَّ لأضداد إن اجتمعتْ . . .

فالله يجمع بين الماءِ والنارِ

﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللّهِ أَنصَاراً ﴾ أي من يدفع عنهم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(210/783)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾

أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه عز وجل أي قال عليه السلام مناجياً له تعالى شاكياً إليه عز وجل ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ أي داموا على عصياني فيما أمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أي واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوة لهم في الخسار والظاهر أن اتباع عامتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة وقرأ ابن الزبير والحسن والنخعي والأعرج ومجاهد والأخوان وابن كثير أبو عمرو ونافع في رواية خارجة عنه وولده بضم الواو وسكون اللام فقيل هو مفرد لغة في ولد بفتحهما كالحزن والحزن وقيل جمع له كالأسد والأسد وفي "القاموس" الولد محركة بالضم والكسر والفتح واحد وجمع وقد يجمع على أولاد وولدة والدة بكسرها وولد بالضم انتهى وقرأ بالكسر والسكون الحسن أيضاً والجحدري وقتادة وذر وطلحة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو في رواية .

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ عطف على صلة ﴿ من ﴾ والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد في

الضمائر الأول باعتبار لفظها وكان فيه إشارة إلى اجتماعهم في المكر ليكون أشد وأعظم

وقيل عطف على ﴿ عصوني ﴾ والأول أنسب لدلالته على أن المتبوعين ضموا إلى

الضلال الإضلال وهو الأوفق بالسياق فإن المتبادر أن ما بعده من صفة الرؤساء أيضاً

واعتبار ذلك العطف على أن المعنى مكر بعضهم ببعض وقال بعضهم لبعض خلاف

المتبادر ﴿ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ أي كبيراً في الغاية فهو من صيغ المبالغة قال عيسى بن عمر هي

لغة يمانية وعليها قول الشاعر

: بيضاء تصطاد القلوب وتستبي . . .

بالحسن قلب المسلم القراء

وقوله

(211/783)

: والمرء يلحقه بفتيان الندى . . .

خلق الكريم وليس بالوضاء

(212/783)

وقد سمع بعض الأعراب الجفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية فقال ما أفصح ربك يا محمد وإذا اعتبر التنوين في مكراً للتفخيم زاد أمر المبالغة في مكرهم أي كبيراً في الغاية وذلك احتيالهم في الدين وصدهم للناس عنه وإغراءهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام وقرأ عيسى وابن محيصن وأبو السمال كباراً بتخفيف الباء وهو بناء مبالغة أيضاً إلا أنها دون المبالغة في المشدد ومثل كبار في ذلك حسان وطوال وعجاب وجمال إلى ألفاظ كثيرة وقرأ زيد بن علي وابن محيصن فيما روى عنه وهب بن واضح كباراً بكسر الكاف وفتح الباء قال ابن الأنباري : هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل يعني فلذلك وصف بالجمع ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة رب نوح عليه السلام ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ أي ولا تتركوا عبادة هؤلاء خصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق لأنها كانت أكبر أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة وأعظمها عندهم وإن كانت متفاوتة في العظم فيما بينها بزعمهم كما يومىء إليه إعادة لا مع بعض وتركها مع آخر وقيل أفرد يعوق ونسر عن النفي لكثرة تكرار لا وعدم اللبس وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح عليه السلام في العرب بعد أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث

فكانت لمراد ثم لبني غطيف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع وكانت هذه الأسماء أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إليهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فعلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ودرس العلم عبدت وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن محمد بن كعب القرظي أنه قال كان لآدم عليه

(213/783)

السلام خمسة بنين ود وسواع الخ فكانوا عباداً فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً فجاءهم الشيطان فقال حزنتم على صاحبكم هذا قالوا نعم قال هل لكم أن أصور لكم مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه قالوا نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئاً نصلي عليه قال فاجعله في مؤخر المسجد قالوا نعم فصوره لهم حتى مات خمستهم فصور صورهم في مؤخر المسجد فنقصت الأشياء حتى تركوا عبادة الله تعالى وعبدوا هؤلاء فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادتها فقالوا ما قالوا وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أن وداً كان أكبرهم وأبرهم وكانوا كلهم أبناء آدم عليه السلام وروي أن وداً أول معبود من دون الله سبحانه وتعالى أخرج عبد بن حميد عن

أبي مطهر قال ذكروا عند أبي جعفر رضي الله تعالى عنه يزيد بن المهلب فقال أما أنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى ثم ذكر وداً وقال كان رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى إبليس جزعهم تشبه في صورة إنسان ثم قال أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به قالوا نعم فصور لهم مثله فوضعوه في ناديهم فجعلوا يذكرونه به فلما رأى ما بهم من ذكره قال هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله فيكون في بيته فيذكر به فقالوا نعم ففعل فأقبلوا يذكرونه به وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى فكان أول من عبد غير الله تعالى في الأرض وداً وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا قد رضي لكم المنزل فينزلون حوله ويضربون عليه بناءً وقيل يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى

(214/783)

العرب فالظاهر أنه لم يبق إلا الأسماء فاتخذت العرب أصناماً وسموها بها وقالوا أيضاً عبد ود وعبد يغوث يعنون أصنامهم وما رآه أبو عثمان منها مسمى باسم ما سلف ويحكى أن وداً كان على صورة رجل وسواعاً كان على صورة امرأة ويغوث كان على صورة أسد ويعوق كان على صورة فرس ونسراً كان على صورة نسر وهو مناف لما تقدم أنهم كانوا على صور أناس صالحين وهو الأصح وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم وداً بضم الواو وقرأ الأشهب العقيلي ولا يغوثاً ويعوقاً بتنوينهما قال صاحب اللوامح جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما وهما في قراءة الجمهور صفتان من الغوث والعوق يفعل منهما وهما معرفتان فلذلك منعا الصرف لاجتماع الثقيلين اللذين هما التعريف ومشابهة الفعل المستقبل وتعقبه أبو حيان فقال هذا تخبيط أما أولاً فلا يمكن أن يكونا فعولاً لأن مادة يغث مفقودة وكذلك يعق وأما ثانياً فليسا بصفتين لأن يفعلا لم يجيء اسماً ولا صفة وإنما امتنعا من الصرف للعلمية ووزن الفعل إن كانا عربيين وللعلمية والعجمة إن كانا عجميين وقال ابن عطية قرأ الأعمش ولا يغوثا ويعوقا بالصرف وهو وهم لأن التعريف لازم وكذا وزن الفعل وأنت تعلم أن الأعمش لم ينفرد بذلك وليس بوهم فقد خرجوه على أحد وجهين أحدهما : أن الصرف للتناسب كما قالوا في ﴿ سلاسلاً وأغلالاً ﴾ [الانسان : 4] وهو نوع من المشاكلة ومعدود من المحسنات وثانيهما : أنه جاء على لغة من صرف جميع ما لا ينصرف

عند عامة العرب وذلك لغة حكاها الكسائي وغيره لكن يرد على هذا أنها لغة غير فصيحة لا ينبغي التخريج عليها .

(215/783)

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ ﴾ أي الرؤساء ﴿ كَثِيراً ﴾ خلقاً كثيراً أي قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام فهم ليسوا بأول من أضلوهم ويشعر بذلك المضي والاقتران بقد حيث أشعر ذلك بأن الإضلال استمر منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة وجوز أن يراد بالكثير هؤلاء الموصين وكان الظاهر وقد أضل الرؤساء إياهم أي الموصين المخاطبين بقوله لا تذرن آلهتكم فوضع كثيراً موضع ذلك على سبيل التجريد وقال الحسن وقد أضلوا أي الأصنام فهو كقوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [ابراهيم : 36] وضمير العقلاء لتنزيلها منزلتهم عندهم وعلى زعمهم ويحسنه على ما في "البحر" عود الضمير على أقرب مذكور ولا يخفى أن عوده على الرؤساء أظهر إذ هم المحدث عنهم والمعنى فيهم أمكن والجملة قيل حالية أو معطوفة على ما قبلها وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ قيل عطف على ﴿ رب أنهم عصوني ﴾ [نوح : 21] على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال والواو النائبة عنه ومعناه قال : رب إنهم عصوني وقال

لا تزد الخ أي قال هذين القولين على أن الواو من كلام الله تعالى لأنها داخلة في الحكاية وما بعدها هو المحكي وإليه ذهب الزمخشري وإنما ارتكب ذلك فراراً من عطف الإنشاء على الخبر وقيل عطف عليه والواو من المحكي والتناسب إنشائية وخبرية غير لازم في العطف كما قاله أبو حيان وغيره وفيه خلاف وفي "الكشف" لك أن تجعله من باب ﴿ واهجرني ملياً ﴾ [مريم : 46] أي فاخذلهم ولا تزدهم وفي العدول إلى الظالمين إشعار باستحقاقهم الدعاء عليهم وإبداء لعذره عليه السلام وتحذير ولطف لغيرهم وفيه أنه بعض ما يتسبب من ساويهم وهو معنى حسن فعنده العطف على محذوف إنشائي ولعل الأولى أن يقال إن العطف على رب إنهم عصوني والواو من المحكي والتناسب حاصل وقال الخفاجي الظاهر أن الغرض من قول : رب إنهم الخ الشكاية وإبداء العجز واليأس

(216/783)

منهم فهو طلب للنصرة عليهم كقوله ﴿ رب انصرني بما كذبون ﴾ [المؤمنون : 26] ولو لم يقصد ذلك تكرر مع ما مر منه عليه السلام فحينئذٍ يكون كناية عن قوله اخذلهم أو انصرني أو اظهر دينك أو نحوه فهو من عطف الإنشاء على الإنشاء من غير تقدير ويشهد له أن الله تعالى سمى مثله دعاء حيث قال سبحانه ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ [

الدخان : 22] فتدبر وهو حسن خال عن التكلف وارتكاب المختلف فيه إلا أن في الشهادة دغدغة والمراد بالضلال المدعو بزيادته أما الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم فيكون ذلك دعاء عليهم بعدم تيسير أمورهم وأما الضلال بمعنى الهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] وهو مأخوذ من الضلال في الطريق لأن من ضل فيها هلك فيكون المعنى أهلكهم وفسره ابن بحر بالعذاب وهو قريب مما ذكر وقيل هو على ظاهره أعني الضلال في الدين والدعاء بزيادته إنما كان بعد ما أوحي إليه عليه السلام أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ومآله الدعاء عليهم بزيادة عذابهم ويحتاج إلى دليل وبما سمعت ينحل ما يقال أن طلب الضلال ونحوه إما غير جائز مطلقاً أو إذا دعى به على وجه الاستحسان وبدونه وإن كان جائزاً لكنه غير ممدوح ولا مرضي فكيف دعا بذلك نوح عليه السلام عليهم .

(217/783)

﴿ مّمَّا ﴾ أي من أجل خطياآتهم ﴿ خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ بالطوفان لا من أجل أمر آخر فمن تعليلية وما زائدة بين الجار والمجرور لتعظيم الخطايا في كونها من كبائر ما ينهى عنه ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة وجعل خطياآتهم بدلاً منها وزعم ابن عطية أن من لابتداء الغاية

وهو كما ترى وقرأ أبو رجاء خطياتهم بإبدال الهمزة ياء وإدغامها في الياء وقرأ الجحدري وعبيد عن أبي عمرو خطيئتهم على الإفراد مهموزاً وقرأ الحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم وأبو عمرو خطاياهم جمع تكسير وقرأ عبد الله من خطيآتهم ما أغرقوا بزيادة ما بين خطيآتهم وأغرقوا وخرج على أنها مصدرية أي بسبب خطيآتهم إغراقهم وقرأ زيد بن علي غرقوا بالتشديد بدل الهمزة وكلاهما للنقل ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ هي نار البرزخ والمراد عذاب القبر ومن مات في ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبور من العذاب وقال الضحاك كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب وأنشد ابن الأنباري :

الخلق مجتمع طوراً ومفترق . . .

والحادثان فنون ذات أطوار

لا تعجبن لأضداد إذا اجتمعت . . .

فالله يجمع بين الماء والنار

ويجوز أن يراد بها نار الآخرة والتعقيب على الأول ظاهر وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال فكأنه شبه تخلل ما لا يعتد به بعدم تخلل شيء أصلاً وجوز أن تكون فاء التعقيب مستعارة للسببية لأن المسبب كالمتعقب للسبب وإن تراخى عنه لفقد شرط أو وجود مانع وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه عز وجل أعد لهم على حسب

خطياآتهم نوعاً من النار ولا يخفى ما في أغرقوا فادخلوا ناراً من الحسن الذي لا يجارى ولله تعالى در التنزيل ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً ﴾ أي فلم يجد أحدهم واحداً من الأنصار وفيه تعريض لاتخاذهم آلهة من دونه سبحانه وتعالى وبأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(218/783)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) ﴾

هذه الجملة بدل من جملة ﴿ قال رب إني دَعوت قومي ﴾ [نوح : 5] بدل اشتمال لأن حكاية عصيان قومه إياه مما اشتملت عليه حكاية أنه دعاهم فيحتمل أن تكون المقالتان في وقت واحد جاء فيه نوح إلى مناجاة ربه بالجواب عن أمره له بقوله : ﴿ أَنْذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ [نوح : 1] فتكون إعادة فعل ﴿ قال ﴾ من قبيل ذكر عامل المبدل منه في البدل كقوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ [المائدة : 114] ، للربط بين كلاميه لطول الفصل بينهما .

ويحتمل أن تكون المقالتان في وقتين جمعها القرآن حكاية لجوابيه لربه ، فتكون إعادة فعل ﴿

قال ﴿ لما ذكرنا مع الإِشارة إلى تباعد ما بين القولين .

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما سبقها من قوله : ﴿ قال رب إني دعوت قومي إلى هنا مما يثير عجباً من حال قومه المحكي بحيث يتساءل السامع عن آخر أمرهم ، فابتدىء ذكر ذلك بهذه الجملة وما بعدها إلى قوله : أنصاراً ﴾ [نوح : 25] .

وتأخير هذا بعد عن قوله ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ [نوح : 5] ارتقاء في التذمر منهم لأن هذا حكاية حصول عصيانهم بعد تقديم الموعظة إليهم بقوله : ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً إلى قوله : سُبُلاً فجاجاً ﴾ [نوح : 1120]

وإظهار اسم ﴿ نوح ﴾ مع القول الثاني دون إضمارٍ لبعد معاد الضمير لو تحمَّله الفعل ، وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه ، كما تقدم في قوله : ﴿ قال رب الخ .

وتأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار .

ثم ذكر أنهم أخذوا بقول الذين يصدونهم عن قبول دعوة نوح ، أي اتبعوا سادتهم وقادتهم .

(219/783)

وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد ، فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال .

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم : فأموالهم إذ أنفقوها لتأليف أتباعهم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ﴾ [الأنفال : 36] ، وأولادُهم أرهبوا بهم من يقاومهم . والمعنى : واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلاّ خساراً لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خساراً إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكاباً للفساد قال تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 11] .

والخسار : مستعار لحصول الشر من وسائلَ شأنُها أن تكون سبب خير كخسارة التاجر من حيث أراد الربح ، فإذا كان هؤلاء خاسرين فالذين يتبعونهم يكونون مثلهم في الخسارة وهم يحسبون أنهم أرشد وهم إلى النجاح .

ومَا صْدَق ﴿ مَنْ ﴾ فريقٌ من القوم أهل مال وأولاد ازدادوا بذلك بطَراً دون الشكر وهم سادتهم ، ولذلك أعيد عليه ضمير الجمع في قوله : ﴿ ومكَروا ، ﴾ وقوله : ﴿ وقالوا ، ﴾ وقوله:

﴿ وقد أضلُّوا كثيراً ﴾ [نوح : 24] .

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿ وَولَده ﴾ بفتح الواو وفتح اللام ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ وَوُلْدُه ﴾ بضم الواو وسكون اللام

، فأما الولد بفتح الواو وفتح اللام فاسم يطلق على الواحد من الأولاد وعلى الجمع فيكون اسم جنس ، وأما وُلْد بضم فسكون فقيل : هو لغة في وَلَد فيستوي فيه الواحد والجمع مثل الفُلْك .

وقيل : هو جمع وَلَد مثل أُسُد جمع أَسَد .

والمكر : إخفاء العمل ، أو الرأي الذي يراد به ضر الغير ، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر .

(220/783)

قيل : كانوا يدبِّرون الحيلة على قتل نوح وتحْريش الناس على أذاه وأذى أتْبَاعه .

و﴿ كُبَّارا ﴾ : مبالغة ، أي كبيراً جداً وهو وارد بهذه الصِّيغة في ألفاظ قليلة مثل طُوَّال أي طويل جداً ، وعُجَّاب ، أي عجيب ، وحُسَّان ، وجُمَّال ، أي جَميل ، وقُرَّاء لكثير القراءة ، ووُضَّاء ، أي وضِيء ، قال عيسى بن عمر : هي لغة يمانية .

﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرنّ وُداً ولا سواعاً ﴾ الخ ، أي قال بعضهم لبعض : ودّ ، وسُوّاع ، ويَغُوث ، ويَعُوق ، ونَسْر ، هذه أصنام قوم نوح ، وبهذا تَعْلَم أن أسماءها غيرُ جارية على اشتقاق الكلمات العربية ، وفي واو (وُدّ) لغتان للعرب منهم من يضم الواو ، وبه قرأ

نافع وأبو جعفر .

ومنهم من يفتح الواو وكذلك قرأ الباقون .

روى البخاري عن ابن عباس : "ودٌّ وسُواع ويغوث ويَعُوق ونَسْرٌ : أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت" ،

وعن محمد بن كعب : هي أسماء أبناء خمسة لآدم عليه السلام وكانوا عُبّاداً .

وعن الماوردي أن ﴿ ودّاً ﴾ أول صنم معبود .

والآية تقتضي أن هذه الأنصاب عُبدت قبل الطوفان وقد قال بعض المفسرين : إن هذه الأصنام أقيمت لبعض الصلحاء من أولاد آدم .

وقال بعضهم : كانوا أصناماً بين زمن آدم وزمن نوح .

ولا يلتئم هذا مع حدوث الطوفان إذ لا بد أن يكون جرفها وخلص البشرُ من الإِشراك بعد الطوفان ، ومع وجود هذه الأسماء في قبائل العرب إلى زمن البعثة المحمدية ، فقد كان في دومة الجندل بلاد كلب صنم اسمه (وُدّ) .

(221/783)

قيل كان على صورة رجل وكان من صُفر ورصاص وكان على صورة امرأة ، وكان لهذيل صنم اسمه (سواع) وكان لمُراد وغُطيفٍ (بغين معجمة وطاء مهملة) بطنٍ من مراد بالجوف عندَ سبأ صنم اسمه ﴿ يغوث ﴾ ، وكان أيضاً لغطفان وأخذته (أنعمُ وأعلَى) وهما من طيء وأهلُ جرش من مذحج فذهبوا به إلى مُراد فعبدوه ، ثم إن بني ناجية راموا نزعه من أعلى وأنعُم ففروا به إلى الحُصين أخي بني الحارث من خزاعة .

قال أبو عثمان النهدي : رأيت يَغوث من رَصاص وكانوا يحملونه على جَمَل أحْرَد (بالحاء المهملة ، أي يخبط بيديه إذا مشى) ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله .

وكان يغوث على صورة أسد .

وكان لهْمدان صنم اسمه ﴿ يعوق ﴾ وهو على صورة فَرَس ، وكان لكهلان من سبأ ثم توارثه بنوه حتى صار إلى همدان .

وكان لِحمير ولذي الكلاع منهم صنم اسمه (نَسْر) على صورة النسر من الطير .

وهذا مروي في "صحيح البخاري" عن ابن عباس .

وقال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح إلى العرب أ هـ .

فيجوز أن تكون انتقلت بأعيانها ويجوز أن يكون العرب سموا عليها ووضعوا لها صوراً .

ولقد اضطرَّ هذا بعضَ المفسرين إلى تأويل نظم الآية بأن معاد ضمير ﴿ قالوا ﴾ إلى

مشركي العرب ، وأن ذكر ذلك في أثناء قصة نوح بقصد التنظير ، أي قال العرب بعضهم لبعض : لا تذرنَّ ءالهتكم وُدّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كما قال قوم نوح لأتباعهم ﴿ لا تَذرُنَّ ءالهتكم ، ﴾ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح ، وهو تكلف بيّن وتفكيك لأجزاء نظم الكلام .

(222/783)

فالأحسن ما رآه بعض المفسرين وما نريده بياناً : أن أصنام قوم نوح قد دثرت وغَمرها الطوفان وأن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجَوا مع نوح من المؤمنين فكانوا يذكرونها ويعظون ناشئتهم بما حلّ بأسلافهم من جراء عبادة تلك الأصنام ، فبقيت تلك الأسماء يتحدث بها العرب الأقدمون في أثارات علمهم وأخبارهم ، فجاء عمرو بن لُحَيّ الخزاعي الذي أعاد للعرب عبادةَ الأصنام فسمى لهم الأصنام بتلك الأسماء وغيرها فلا حاجة بالمفسر إلى التطوح إلى صفات الأصنام التي كانت لها هذه الأسماء عند العرب ولا إلى ذكر تعيين القبائل التي عبدت مسميات هذه الأسماء .

ثم يحتمل أن يكون لقوم نوح أصنام كثيرة جمعها قول كبرائهم : ﴿ لا تذرُنّ آلهتكم ﴾ ، ثم خصوا بالذكر أعظمها وهي هذه الخمسة ، فيكون ذكرها من عطف الخاص على العام

للاهتمام به كقوله تعالى : ﴿ مَن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريلَ وميكائيل ﴾ [البقرة : 98] .

ويحتمل أن لا يكون لهم غير تلك الأصنام الخمسة فيكون ذكرها مفصلة بعد الإِجمال للاهتمام بها ويكون العطف من قبيل عطف المرادف .

ولقصد التوكيد أعيد فعل النهي ﴿ ولا تذرُن ﴾ ولم يسلك طريق الإِبدال ، والتوكيدُ اللفظي قد يقرن بالعاطف كقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ [الانفطار : 17 ، 18] .

ونقل عن الآلوسي في طرة تفسيره لهذه الآية هذه الفقرة : "قد أخرج الإِفرنج في حدود الألف والمائتين والستين أصناماً وتَمَاثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة" .

وتكرير ﴿ لا ﴾ النافية في قوله : ﴿ ولا سواعاً ولا يغوث ﴾ لتأكيد النفي الذي في قوله : ﴿ لا تذرُن آلهتكم ﴾ وعدم إعادة ﴿ لا ﴾ مع قوله ﴿ ويعوق ونسراً ﴾ لأن الاستعمال جارٍ على أن لا يزاد في التأكيد على ثلاث مرات .

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ وُدّاً ﴾ بضم الواو .

وقرأها غيرهما بفتح الواو ، وهو اسم عجمي يَتصرف فيه لسان العرب كيفَ شاؤا .

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)

عطف على ﴿ وقالوا لا تذرن ءالهتكم ﴾ [نوح : 23] ، أي أضلوا بقولهم هذا وبغيره من تقاليد الشرك كثيراً من الأمة بحيث ما آمن مع نوح إلاّ قليل .

﴿ كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ﴾ .

يجوز أن تكون هذه الجملة تتمة كلام نوح متصلةً بحكاية كلامه السابق ، فتكون الواو عاطفة جزء جملة مقولةٍ لفعل ﴿ قال ﴾ [نوح : 21] على جزئها الذي قبلها عطف المفاعيل بعضِها على بعض كما تقول قال امرؤ القيس قفا نبْك .

ختم نوح شكواه إلى الله بالدعاء على الضالّين المتحدث عنهم بأن يزيدهم الله ضلالاً .

ولا يريبك عطف الإِنشاء على الخبر لأن منع عطف الإِنشاء على الخبر على الإِطلاق غير وجيه والقرآن طافح به .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ غير متصلة بحكاية كلامه في قوله : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ [نوح : 21] بل هو حكاية كلام آخرَ له صدر في موقف آخر ، فتكون الواو عاطفة جملة مقولة قول على جملة مقولة قول آخر ، أي نائبةٍ عن فعل قال كما تقول : قال امرؤ القيس:

قِفَا نَبْكِ . . .

و:

أَلاَ عمْ صباحاً أيها الطلل البالي . . .

وقد نحا هذا المعنى من يأبون عطف الإِنشاء على الخبر .

والمراد بـ ﴿ الظالمين ﴾ : قومه الذين عصوه فكان مقتضى الظاهر التعبير عنهم بالضمير عائداً على ﴿ قومي ﴾ من قوله : ﴿ دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً ﴾ [نوح : 5] فعدل عن الإِضمار إلى الإِظهار على خلاف مقتضى الظاهر لما يؤذن به وصف ﴿ الظالمين ﴾ من استحقاقهم الحرمان من عناية الله بهم لظلمهم ، أي إشراكهم بالله ، فالظلم هنا الشرك ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

(224/783)

والضلال ، مستعار لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوح غائلته في قوله : ﴿ ومكروا مكراً كُباراً ﴾ [نوح : 22] ، أي حُلْ بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالاً في طغيانهم علينا إلاّ أن تضللهم عن وسائله ، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام ﴿ ربَّنا اطمِسْ على أموالهم واشْدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا

العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

وليس المراد بالضلال الضلال عن طريق الحق والتوحيد لظهور أنه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإِيمان بالبعث فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه .

ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبب عن الضلال ، أي في عذاب يوم القيامة وهو عذاب الإِهانة والآلام .

ويجوز أن تكون جملةً معترضة وهي من كلام الله تعالى لنوح فتكون الواو اعتراضية ويقدر قول محذوف : وقلنا لا تزد الظالمين .

والمعنى : ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلاّ ضلالاً ، فالزيادة منه تزيدهم كفراً وعناداً .

وبهذا يبقى الضلال مستعملاً في معناه المشهور في اصطلاح القرآن ، فصيغة النهي مستعملة في التأييس من نفع دعوته إياهم .

وأعلَمَ الله نوحاً أنه مهلكهم بقوله : ﴿ أُغْرقوا فأُدْخلوا ناراً ﴾ الآية [نوح : 25] وهذا في معنى قوله : ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد ءامن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [هود : 36 ، 37] .

ألا ترى أن ختام كلتا الآيتين متحد المعنى من قوله هنا ﴿ أغرقوا وقوله في الآية الأخرى إنهم

مغرقون .

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25)

(225/783)

جملة معترضة بين مقالات نوح عليه السلام وليست من حكاية قول نوح فهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه قدر النصر لنوح والعقابَ لمن عَصوْه من قومه قبل أن يسأله نوح استئصالهم فإغراق قوم نوح معلوم للنبيء صلى الله عليه وسلم وإنما قصد إعلامه بسببه .

والغرض من الاعتراض بها التعجيل بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من قومه مما يماثل ما لاقاه نوح من قومه على نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [إبراهيم : 42] .

ويجوز أن تكون متصلة بجملة ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ [نوح : 24] على الوجه الثاني المتقدم فيها من أن تكون من كلام الله تعالى الموجه إلى نوح بتقدير : وقلنا لا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ، وتكون صيغة المضي في قوله : ﴿ أغرقوا ﴾ مستعملة في تحقق الوَعد لنوح بإغراقهم ، وكذلك قوله : ﴿ فأُدخلوا ناراً .

وقُدم مما خطيئاتهم ﴾ على عامله لإفادة القصر ، أي أغرقوا فأدخلوا ناراً من أجل مجموع خطيئاتهم لا لمجرد استجابة دعوة نوح التي ستذكر عقب هذا ليعلم أن الله لا يُقر عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولاً وإنما تأخر عذابهم إلى ما بعدَ دعوة نوح لإظهار كرامته عند ربه بين قومه ومسرة له وللمؤمنين معه وتعجيلاً لما يجوز تأخيره .

و(مِن) تعليلية ، و (ما) مؤكدة لمعنى التعليل .

وجمع الخطيئات مراد بها الإشراك ، وتكذيب الرسول ، وأذاه ، وأذى المؤمنين معه ، والسخرية منه حين توعدهم بالطوفان ، وما ينطوي عليه ذلك كله من الجرائم والفواحش .

وقرأ الجمهور ﴿ خطيئاتهم ﴾ بصيغة جمع خطيئة بالهمز .

وقرأه أبو عمرو وحده ﴿ خطاياهم ﴾ جمع خَطيَّة بالياء المشددة مدغمة فيها الياء المنقلبة عن همزةٍ للتخفيف .

وفي قوله : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ محسن الطباق لأن بين النار والغرق المشعر بالماء تضاداً .

وتفريع ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ تعريض بالمشركين من العرب الذين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الكوارث يعني في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، أي كما لم تَنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح كذلك لا تنصركم أصنامكم .

وضمير ﴿ يجدوا ﴾ عائد إلى ﴿ الظالمين ﴾ من قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ [نوح : 24] وكذلك ضمير ﴿ لهم ﴾ .

والمعنى : فلم يجدوا لأنفسهم أنصاراً دون عذاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(227/783)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/784)

الجزء الرابع والثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من (سورة نوح عليه السلام)

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ آخر السورة

(4/784)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم الخبر عن إغراقهم ، وقدمه للاهتمام بتعظيم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إجابة دعوته تحذيراً للعرب أن يخرجوا رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيخرجوه إلى مثل ذلك ، عطف على قول نوح عليه السلام من أوله قوله عندما أخبره تعالى أنهم مغرقون وأنه لا يؤمن منهم إلا من قد آمن بعدما طال بلاؤه بهم حتى أن كان الرجل ليأتي بابنه إليه فيقول له : احذر هذا أن يضلك ، وإن أبي حذر به ، وكانت صيغة العموم ليست بنص في أفرادها أبداً ، استنجازاً لوعده وتصريحاً بمراده : ﴿ وقال نوح ﴾ وأسقط الأداة كما هي عادة أهل الحضرة فقال : ﴿ رب لا تذر ﴾ أي تترك بوجه من الوجوه أصلاً ولو على أدنى الوجوه ﴿ على الأرض ﴾ أي كلها من مشرقها إلى مغربها وسهلها وجبلها ووهدها ﴿ من الكافرين ﴾ أي الراسخين في الكفر الذي هو كان لهم جبلة وطبعاً ﴿ دياراً ﴾ أي أحداً يدور فيها ، وهو من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي العام فيقال من الدور أو الدار لا فعّال ، وإلا لكان دواراً ، ويجوز – وهو أقرب – أن يكون هذا الدعاء عند ركوبه السفينة وابتداء الإغراق فيهم ، يريد به العموم كراهية أن يبقى أحد منهم على ذروة جبل أو نحوه ، لا أصل الإغراق ، وأن يكون معنى ما قبله الحكم بإغراقهم وتحتم القضاء به أو الشروع

فيه .

ولما كان الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما فيه مصلحة الدين ، علل دعاءه بقوله وأكده إظهاراً لجزمه باعتقاد ما أنزل عليه من مضمون قوله تعالى : ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : 36] وإن كان ذلك خارجاً عن العادة : ﴿ إنك ﴾ أي يا رب ﴿ إن تذرهم ﴾ أي تتركهم على أي حالة كانت في إبقائهم سالمين على وجه الأرض على ما هم عليه من الكفر والضلال والإضلال ولو كانت حالة دنية ﴿ يضلوا عبادك ﴾ أي الذين آمنوا بي والذين يولدون على الفطرة السليمة .

(5/784)

ولما كان ربما كان الإنسان ضاراً ووجد له ولد نافع ؛ نفى ذلك بقوله : ﴿ ولا يلدوا ﴾ أي إن قدرت بقاءهم في الدنيا ﴿ إلا فاجراً ﴾ أي مارقاً من كل ما ينبغي الاعتصام به ، واكتفى فيه بأصل الفاعل إشارة إلى أن من جاوز الحد أو شرع في شيء بعده من التمادي في الغي صار ذلك له ديدناً فبالغ ، فلذلك قال : ﴿ كفاراً ﴾ أي بليغ الستر لما يجب إظهاره من آيات الله لأن قولك يا رب لا يتخلف أصلاً ، والظاهر أن هذا الكلام لا يقوله إلا عن وحي كما في سورة هود عليه السلام من قوله تعالى : ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد

آمن ﴾ [هود : 36] فيكون على هذا حتى صغارهم معذبين بما يعلم الله منهم لو بلغوا لا بما عملوه كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أولاد الكفار " الله أعلم بما كانوا عاملين " .

ولما دل هذا كله على أنه دعا على أعداء الله ، دعا أيضاً لأوليائه وبدأ بنفسه لأنه رأس تلك الأمة ، فقال مسقطاً على عادة أهل الخصوص : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني ، فإن من كانت طبيعته طبعت على شيء لا تحول عنه .

ولما كان المقام الأعلى أجل من أن يقدره أحد حق قدره قال : ﴿ اغفر لي ﴾ أي فإنه لا يسعني وإن كنت معصوماً إلا حلمك وعفوك ورحمتك .

ولما أظهر بتواضعه عظمة الله سبحانه وتعالى رتب المدعو لهم على الأحق فالأحق فقال : ﴿ ولوالديّ ﴾ وكانا مؤمنين وهما لمك بن متوشلخ وشمخاء بنت أنوش ، قال أبو حيان : وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليهم الصلاة والسلام .

وأعاد الجار إظهاراً للاهتمام فقال : ﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ لأن المتحرم بالإنسان له حق أكيد لا سيما إن كان مخلصاً في حبه ، ولذا قال : ﴿ مؤمناً ﴾ ولما خص عم وأعاد الجار أيضاً اهتماماً فقال : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أي العريقين في هذا الوصف في كل أمة إلى آخر الدهر ولا تزدهم في حال من الأحوال شيئاً من الأشياء إلا مفازاً .

ولما كان التقدير بما أرشد إليه الاحتباك : ولا تكرم المارقين ، عطف عليه قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أي العريقين في الظلم في حال من الأحوال ﴿ إلا تباراً ﴾ أي إلا هلاكاً مدمراً مفتتاً لصورهم قاطعاً لأعقابهم مخبراً لديارهم وكما استجاب الله سبحانه وتعالى له في أهل الإيمان والكفران من أهل ذلك الزمان فكذلك يستجيب له في أهل الإيمان وأهل الخسران بالسعادة والتبار في جميع الأعصار إلى أن يقفوا بين يدي العزيز الجبار ، والأية من الاحتباك : إثبات الدعاء المقتضي لأصل إكرام المؤمنين أولاً مرشد إلى حذف الدعاء المفهم لأصل إهانة الكافرين ثانياً ، وإثبات الدعاء بزيادة التبار ثانياً مفهم لحذف الدعاء الموجب لزيادة المفاز أولاً ، وهذا الآخر المفصح بالتبار هو ما أرشد إليه الابتداء بالإنذار ، فقد انطبق الآخر على الأول على أصرح وجه وأكمل ، وأحسن حال وأجمل منال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله تعالى على كل حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 177.179 ﴾

(7/784)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) ﴾

قال المبرد : ﴿ دَيَّاراً ﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام ، يقال : ما بالدار ديار ولا تستعمل في جانب الإثبات ، قال أهل العربية : هو فيعال من الدور ، وأصله ديوار فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى ، قال الفراء والزجاج : وقال ابن قتيبة : ما بها ديار أي نازل دار .

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)

فإن قيل : كيف عرف نوح عليه السلام ذلك ؟ قلنا : للنص والاستقراء ، أما النص فقوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا من قد آمن ﴾ [هود : 35] وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم وجربهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، وقوله : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنهم يكونون في علمك كذلك والثاني : أنهم سيصيرون كذلك .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28) ﴾

واعلم أنه عليه السلام لما دعا على الكفار قال بعده : ﴿ رَبِّ اغفِرلِى ﴾ أي فيما صدر عني من ترك الأفضل ، ويحتمل أنه حين دعا على الكفار إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم ، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك لما فيه من طلب حظ النفس . (1)

ثم قال : ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين ، وقال عطاء : لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر ، وكان بينه وبين آدم عشرة آباء .

وقرأ الحسن بن علي (ولولدَيَّ) يريد ساما وحاما .

---

(1) يعكر عليه قوله تعالى فى عجز الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

ومن الممكن أن يقال إن نوحا عليه السلام بعد استغفر ربه لدعوته على قومه قال له ربه ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) ﴾ فختم نوح ـ عليه السلام ـ دعاءه بقوله ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

والأولى ـ والله أعلم ـ أن استغفاره ـ عليه السلام ـ لم يكن مقيدا بهذه الواقعة . والله أعلم .

(8/784)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ قيل : مسجدي ، وقيل : سفينتي ، وقيل : لمن دخل في ديني ، فإن قيل : فعلى هذا التفسير يصير قوله : ﴿ مُؤْمِناً ﴾ مكرراً ، قلنا : إن من

دخل في دينه ظاهراً قد يكون مؤمناً بقلبه وقد لا يكون ، والمعنى ولمن دخل في ديني دخولاً مع تصديق القلب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ إنما خص نفسه أولاً بالدعاء ثم المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات .

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ أي هلاكاً ودماراً وكل شيء أهلك فقد تبر ومنه قوله : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ [الأعراف : 139] وقوله : ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 7] فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية ،

فإن قيل : ما جرم الصبيان حين أغرقوا ؟

والجواب من وجوه

الأول : أن الله تعالى أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو (تسعين) فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا ، ويدل عليه قوله : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 10 12] وهذا يدل بحسب المفهوم على أنهم إذا لم يستغفروا فإنه تعالى لا يمددهم بالبنين

الثاني : قال الحسن : علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب

الثالث : غرقوا معهم لا على وجه العقاب بل كما يموتون بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في

عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 129 . 130 ﴾

(9/784)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾

وقرأ " ألم تروا " وقرأ " ألم يروا " على فعل الغائب و ﴿ طباقاً ﴾ قيل هو مصدر أي مطابقة أي جعل كل واحدة طبقاً للأخرى ونحو قول امرئ القيس : [الرمل]

طبق الأرض تجري وتدر . . . وقيل هو جمع طبق ، وهو نعت لسبع ، وقرأ ابن أبي عبلة ، " طباقٍ " بالخفض على النعت ل ﴿ سموات ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وجعل القمر فيهن ﴾ ساغ ذلك لأن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع ، ويروى أن القمر في السماء الدنيا ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن العباس : إن الشمس والقمر أقفارهما إلى الأرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماء ، وهو الذي تقتضيه لفظة السراج ، وقيل إن الشمس في السماء الخامسة ، وقيل في الرابعة ، وقال عبد الله بن عمر : هي في

الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة . وقوله تعالى : ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ استعارة من حيث أخذ آدم عليه السلام من الأرض ثم صار الجميع ﴿ نباتاً ﴾ منه ، وقوله تعالى : ﴿ نباتاً ﴾ مصدر جار على غير المصدر ، التقدير فنبتم ﴿ نباتاً ﴾ ، والإعادة فيها : هي بالدفن فيها الذي هو عرف البشر ، والإخراج : هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء ، وقوله تعالى : ﴿ بساطاً ﴾ يقتضي ظاهره أن الأرض بسيطة كروية واعتقاد أحد الأمرين غير قادح في نفسه اللهم إلا أن يتركب على القول بالكروية نظر فاسد ، وأما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالى ، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البتة . واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماء البحر المحيط بالمعمور ، فقال : لو كانت الأرض كروية لما استقر الماء عليها . والسبل : الطرق والفجاج : الواسعة .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21)

(10/784)

المعنى فلما لم يطيعوا ويئس نوح من إيمانهم قال نوح : ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ واتبعوا أشرافهم وغواتهم ، فعبر عنهم بأن أموالهم وأولادهم زادتهم ﴿ خساراً ﴾ أي خسراناً ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ونافع في رواية خارجة عنه " ووُلْده " بضم الواو

وسكون اللام ، وهي قراءة ابن الزبير والحسن والأعرج والنخعي ومجاهد ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر " ووَلَده " بفتح اللام والواو وهما بمعنى واحد كبُخْل وبَخَل وهي قراءة أبي عبد الرحمن والحسن وأبي رجاء وابن وثاب وأبي جعفر وشيبة ، وقرأ " ووِلده " بكسر الواو والجحدري وزر والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق وطلحة ، وقال أبو عمرو : " وُلْد " بضم الواو وسكون اللام العشيرة والقوم ، وقال أبو حاتم يمكن أن يكون الوُلد بضم الواو جمع الولد وذلك كخشب وخشب ، وقد قال حسان بن ثابت : [الكامل]

ما بكر آمنة المبارك بكرها . . . من ولد محصنة بسعد الأسعد

وقرأ جمهور الناس : "كبّاراً " بشد الباء وهو بناء مبالغة ، نحو حسان . قال عيسى : وهي لغة يمانية وعليها قول الشاعر [أبو صدقة الديبري] : [الكامل]

والمرء يلحقه بفتيان الندى . . . خلق الكريم وليس بالوضّاء

(11/784)

بضم الواو ، وقرأ ابن محيصن وعيسى ابن عمر "كبار " بتخفيف الباء وهو بناء مبالغة إلا أنه دون الأول ، وقرأ ابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخريط وهب بن واضح بكسر الكاف ، وقال ابن الأنباري جمع كبير فكأنه جعل المكر مكان ذنوب أفاعل ونحوه . وقوله

تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ﴾ إخبار عن توصيهم بأصنامهم على العموم ، وما كان منها مشهور المكانة ، وما كان منها يختص بواحد واحد من الناس ، ثم أخذوا ينصون على المشهور من الأصنام ، وهذه الأصنام روي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا ، فلما ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من الحجر ، وقالوا : ننظر إليها فنذكر أفعالهم فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم الآخر لتلك الحجارة ، ثم كذلك حتى عبدت ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها ، وقيل بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب ، فكانت " ودّ " في كلب بدومة الجندل ، وكانت " سواع " في هذيل ، وكانت ﴿ يغوث ﴾ في مراد ، وكانت ﴿ يعوق ﴾ في همذان ، وكانت " نسر " في ذي الكلاع من حمير . وقرأ نافع وحده ورويت عن عاصم بضم الواو . وقرأ الباقون والأعمش والحسن وطلحة وشيبة وأبو جعفر : بخلاف عن الثلاثة " وَداً " بفتح الواو ، وقال الشاعر : [البسيط]

حياك ود فإنا لا يحل لنا . . . لهو النساء وإن الدين قد عزما

فيقال إنه أراد بذلك الصنم ، وقال آخر [الحطيئة] : [الطويل]

فحياك ود ما هداك لفتية . . . وخوص بأعلى ذي فضالة هجد

(12/784)

يروى البيتان بضم الواو ، وقرأ الأعمش : " ولا يغوثاً ويعوقاً " بالصرف ، وذلك وهم ، لأن التعريف لازم ووزن الفعل . وقوله : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ هو إخبار نوح عنهم وهو منقطع مما حكاه عنهم . والمعنى وقد أضل هؤلاء القائلون كثيراً من الناس الأتباع والعوام ، ثم دعا عليهم إلى الله تعالى بأن لا يزيدهم إلا ضلالاً ، وذكر ﴿ الظالمين ﴾ لتعم الدعوة الدعوة كل من جرى مجراهم . وقال الحسن في كتاب النقاش : أراد بقوله ﴿ وقد أضلوا ﴾ ، الأصنام المذكورة وعبر عنها بضمير من يعقل من حيث يعاملها جمهور أهلها معاملة من يعقل ، ويسند إليها أفعال العقل . وقوله تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى لمحمد عليه السلام ، أي أن دعوة نوح أجيبت فآل أمرهم إلى هذا ، و" ما " الظاهرة : في قوله ﴿ مما ﴾ زائدة فكأنه قال : من خطيئاتهم أغرقوا وهي لابتداء الغاية ، وقرأ "مما خطيئتهم " على الإفراد الجحدري والحسن ، وقرأ أبو عمرو وحده والحسن وعيسى والأعرج وقتادة بخلاف عنهم "مما خطاياهم " على تكسير الجمع . وقال : ﴿ فأدخلوا ناراً ﴾ يعني جهنم ، وعبر عن ذلك بفعل الماضي من حيث الأمر متحقق . وقيل أراد عرضهم على النار غدواً وعشياً عبر عنهم بالإدخال . وقوله : ﴿ فلم يجدوا ﴾ أي لم يجد المغرقون أحداً سوى الله ينصرهم ويصرف عنهم بأس الله تعالى .

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)

روى محمد بن كعب والربيع وابن زيد ، أن نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إلا بعد أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة ، قال قتادة : وبعد أن أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . وقد كان قبل ذلك طامعاً حدباً عليهم . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم " أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " . و ﴿ ديَّاراً ﴾ أصله ديواراً وهو فِيعَال من الدوران أي من يجيء ويذهب يقال منه دوار وزنه فيعال أصله ديوار ، وهذا كالقوام والقيام . وقرأ جمهور الناس : " ولوالدَي " وقرأ أبي بن كعب " ولأبوي " ، وقرأ سعيد بن جبير " ولوالدِي " بكسر الدال يخص أباه بالدعوة . وقال ابن عباس : لم يكفر بنوح ما بينه وبين آدم عليه السلام ، وقرأ يحيى بن يعمر والجحدري : " ولولَديَّ " بفتح اللام وشد الياء المفتوحة وهي قراءة النخعي يخص بالدعاء ابنيه ، وبيته : المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين . وقال ابن عباس أيضاً : بيته : شريعته ودينه استعار لها بيتاً كما يقال : قبة الإسلام ، وفسطاط الدين . وقيل أراد سفينته ، وقيل داره . وقوله : ﴿ للمؤمنين والمؤمنات ﴾ تعميم بالدعاء لمؤمني كل أمة ، وقال بعض العلماء : إن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته أهل الأرض الكفار لجدير أن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين . و: " التبار " الهلاك وذهاب الرسم ، وقرأ حفص

عن عاصم وهشام وأبو قرة عن نافع : " بيتيَ " بتحريك الياء ، وقرأ الباقون بسكونها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(14/784)

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : دعا عليهم حين يئس من اتباعهم إياه .

وقال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] فأجاب الله دعوته وأغرق أمته ، وهذا : كقول النبي صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمّ منزل الكتاب سريع الحساب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم " وقيل : سبب دعائه أن رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه فمرّ بنوح فقال : احذر هذا فإنه يضلك .

فقال : يا أبت أنزلني ، فأنزله فرماه فشجّه ، فحينئذٍ غضِب ودعا عليهم .

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد : إنما قال هذا حينما أخرج الله كل

مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم .

وأعقم أرحام النساء وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين سنة .

وقيل : بأربعين .

قال قتادة : ولم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب .

وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم ، ولكنّ الله أهلك أطفالهم وذرّيتهم بغير عذاب ، ثم أهلكهم بالعذاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان : 37] .

الثانية : قال ابن العربيّ : "دعا نوح على الكافرين أجمعين ، ودعا النبيّ صلى الله عليه وسلم على من تحزّب على المؤمنين وألّب عليهم .

وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة ، فأما كافر معيَّن لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ، لأن مآله عندنا مجهول ، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة .

وإنما خصّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالدعاء عُتبةَ وشَيْبةَ وأصحابهما ، لعلمه بمآلهم وما كُشف له من الغطاء عن حالهم .

والله أعلم" .

قلت : قد مضت هذه المسألة مجوّدة في سورة "البقرة" والحمد لله .

الثالثة : قال ابن العربي : "إن قيل لم جَعَل نوحٌ دعوتَه على قومه سبباً لتَوقّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة ؟ قلنا قال الناس في ذلك وجهان : أحدهما أن تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة ، والشفاعة تكون عن رِضاً ورِقّة ، فخاف أن يعاتب بها ويقال : دعوتَ على الكفار بالأمس وتشفع لهم اليوم .

الثاني : أنه دعا غضباً بغير نص ولا إذن صريح في ذلك ، فخاف الدَّرْكَ فيه يوم القيامة ، كما قال موسى عليه السلام : إنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لم أُومر بقتلها .

قال : وبهذا أقول" .

قلت : وإن كان لم يؤمر بالدعاء نَصًّا فقد قيل له : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] .

فأعلم عواقبهم فدعا عليهم بالهلاك .

كما " دعا نبيّنا صلى الله عليه وسلم على شَيْبة وعتبة ونظرائهم فقال : "اللهم عليك بهم" " لما أعلم عواقبهم ، وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء .

والله أعلم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ دَيَّاراً .

إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ أي من يسكن الديار ، قاله

السدّي .

وأصله دَيوار على فَيعال من دار يدور ، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الآخرى .

مثل القيّام ، أصله قيوام .

ولو كان فعّالاً لكان دوّاراً .

وقال القُتَبيّ : أصله من الدار ، أي نازل بالدار .

يقال : ما بالدار ديّار ، أي أحد .

وقيل : الديّار صاحبُ الدار .

قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ اغفِرلِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين .

وهما : لمك بن مُتَوَشْلِخ وشَمْخَى بنت أنوش ، ذكره القشيريّ والثعلبيّ .

وحكى الماورديّ في اسم أمّه منجل .

وقال سعيد بن جُبَيْر : أراد بوالديه أباه وجدّه .

وقرأ سعيد بن جُبَير "لِوَالِدِي" بكسر الدال على الواحد .

قال الكلبيّ : كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون .

وقال ابن عباس : لم يكفر لنوح والد فيما بينه وبين آدم عليهما السلام .

﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ أي مسجدي ومصلاّي مصلّياً مصدّقاً بالله .

وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سبباً للدعاء بالغفرة .

وقد : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه ما لم يُحْدِث فيه تقول اللهم اغفر له اللَّهُمّ ارحمه " الحديث .

وقد تقدم .

وهذا قول ابن عباس : "بيتي" مسجدي ، حكاه الثعلبيّ وقاله الضحاك .

وعن ابن عباس أيضاً : أي ولمن دخل ديني ، فالبيت بمعنى الدِّين ، حكاه القشيريّ وقاله جُوَيْبِر .

وعن ابن عباس أيضاً : يعني صديقي الداخل إلى منزلي ، حكاه الماورديّ .

وقيل : أراد داري .

وقيل سفينتي .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ عامّة إلى يوم القيامة ، قاله الضحاك .

وقال الكلبيّ : من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : من قومه ، والأول أظهر .

﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين ﴾ أي الكافرين .

﴿ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ إلا هلاكاً ، فهي عامّة في كل كافر ومشرك .

وقيل : أراد مشركي قومه .

والتَّبَار : الهلاك .

وقيل : الخسران ، حكاهما السُّدّي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ [الأعراف : 139] وقيل : التّبار الدّمار ، والمعنى واحد .

والله أعلم بذلك .

وهو الموفّق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(17/784)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾

أعيدَ لفظُ الحكايةِ لطولِ العهدِ بحكايةِ مناجاتِهِ لربّهِ ، أي قالَ مناجياً لهُ تعالَى : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ أيْ تمُّوا على عصيانِي فيما أمرتُهُم بهِ مع ما بالغتُ في إرشادِهِم بالعظةِ والتذكيرِ . ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أيْ واستمرُّوا على اتّباعِ

رؤسائِهم الذينَ أبطرَتْهُم أموالُهم وغرتْهُم أولادُهُم وصارَ ذلكَ سبباً لزيادةِ خسارِهم في الآخرةِ فصَارُوا أسوةً لهم في الخسارِ ، وفي وصفِهم بذلكَ إشعارٌ بأنَّهُم إنَّما اتَّبَعُوهُم لوجاهَتِهم الحاصلةِ لهم بسببِ الأموالِ والأولادِ لما شاهدُوا فيهم من شُبهةٍ مُصححةٍ للاتباعِ في الجُملةِ . وقُرِئَ وولده بالضمِّ والسكونِ على أنَّهُ لغةٌ كالحُزْنِ أو جمعٌ كالأُسْدِ . ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ عطفٌ على صلةِ من والجمعُ باعتبارِ مَعناهَا كما أنَّ الإفرادَ في الضمائرِ الأُولِ باعتبارِ لفظِهَا ﴿ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ أي كبيراً في الغايةِ وقُرِئَ بالتخفيفِ والأولُ أبلغُ منْهُ وهُوَ أبلغُ من الكبيرِ وذلكَ احتيالُهُم في الدِّينِ وصدُّهم للنَّاسِ عنْهُ وتحريشُهُم على أذيةِ نوحٍ عليهِ السَّلامُ ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءالِهَتَكُمْ ﴾ أي لا تتركُوا عبادتَهَا على الإطلاقِ إلى عبادةِ ربِّ نوحٍ ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ أي ولا تذرُنَّ عبادةَ هؤلاءِ ، خصُّوها بالذكرِ مع اندراجِهَا فيمَا سبقَ لأنَّها كانتْ أكبرَ أصنامِهم وأعظَمَهَا قدراً عندهُم وقد انتقلتْ هذه الأصنامُ عنهُم إلى العربِ فكانَ ودٌّ لكلبٍ وسواعٌ لهمدانَ ويغوثُ لمذحجَ ويعوقُ لمرادٍ ونسرٌ لحِميْرٍ . وقيلَ هي أسماءُ رجالٍ صالحينَ وكانُوا بينَ أدمَ ونوحٍ ، وقيلَ من أولادِ آدمَ عليهِ السَّلامُ ماتُوا فقالَ إبليسُ لمن بعدَهُم لو صوَّرتُم صُورَهُم فكنتُم تنظرونَ إليهِم وتتبركُونَ بهم ففعلُوا فلمَّا

ماتَ أولئكَ قالَ لِمَنْ بعدَهُم إنَّهم كانُوا يعبدُونَهُم فعبدُوهُم ، وقيلَ كانَ ودٌّ على صورةِ رجلٍ ، وسواعٌ على صورةِ امرأةٍ ، ويغوثُ على صورةِ أسدٍ ، ويعوقُ على صورةِ فرسٍ ، ونسرٌ على صورةِ نسرٍ . وقُرِئَ وُداً بضمِّ الواوِ ويغوثاً ويعوقاً للتناسبِ ، ومنعُ صرفِهما للعُجْمةِ والعلميةِ . ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ ﴾ أي الرؤساءُ ﴿ كَثِيراً ﴾ خلقاً كثيراً ، أو الأصنامُ كقولِهِ تعالَى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ الناس ﴾ ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ عطفٌ على قولِهِ تعالَى : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ على حكايةِ كلامِ نوحٍ بعدَ قالَ وبعدَ الواوِ النائبةِ عنهُ أيْ قالَ ربِّ إنَّهُم عصَوني ، وقالَ لا تزدِ الظالمينَ إلا ضلالاً . ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ ضميرِهِم للتسجيلِ عليهِم بالظلمِ المفرطِ وتعليلِ الدعاءِ عليهِم بهِ . والمطلوبُ هو الضَّلالُ في تمشيةِ مكرِهِم ومصالحِ دُنياهُم أو الضياعُ والهلاكُ كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ ويؤيدُهُ ما سيأتي من دعائِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

(19/784)

﴿ مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ أي من أجلِ خطيئاتِهِم ، ومَا مزيدةٌ بينَ الجارِّ والمجرورِ للتوكيدِ والتفخيمِ ، ومَنْ لم يرَ زيادَتَهَا جعلَهَا نكرةً وجعلَ خطيئاتِهِم بدلاً منهَا . وقُرِئَ مِمَّا

خَطَايَاهُم ، ومِمَّا خطيئاتِهم أي بسببِ خطيئاتِهم المعدودةِ وغيرِهَا من خطاياهُم ﴿ أُغْرِقُواْ ﴾ بالطوفانِ لا بسببٍ آخرَ ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ المرادُ إمَّا عذابُ القبرِ فهو عَقيبَ الإغراقِ ، وإنْ كانُوا في الماءِ . عنِ الضحَّاكِ أنَّهم كانُوا يُغرقونَ من جانبٍ ويُحرقُونَ من جانبٍ أو عذابُ جهنَم والتعقيبُ لتنزيلِه منزلةَ المتعقبِ لإغراقِهم لاقترابِه وتحقِقِه لا محالةَ وتنكيرُ النَّارِ إمَّا لتعظيمِهَا وتهويلِهَا ، أو لأنَّهُ تعالَى أعدَّ لهُم على حسبِ خطيئاتِهم نوعاً من النَّارِ . ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً ﴾ أي لم يجدْ أحدٌ منهُم واحداً منَ الأنصارِ ، وفيه تعريضٌ باتّخاذِهم آلهةً من دونِ اللهِ تعالَى وبأنَّها غيرُ قادرةٍ على نَصرِهِم ، وتهكُّمٌ بهِمْ . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ عطفٌ على نظيرِهِ السابقِ . وقولُهُ تعالَى : ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ الخ . اعتراضٌ وسطٌ بين دعائِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للإيذانِ من أولِ الأمرِ ، بأنَّ ما أصابَهُم من الإغراقِ والإحراقِ لم يُصبهُم إلا لأجلِ خطيئاتِهم التي عددَهَا نوحٌ عليهِ السَّلامُ وأشارَ إلى استحقاقِهم للإهلاكِ لأجلِها لا أنَّها حكايةٌ لنفسِ الإغراقِ والإحراقِ على طريقةِ حكايةِ ما جَرَى بينَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وبينُهُم من الأحوالِ والأقوالِ وإلا لأُخّرَ عن حكايةِ دُعَائِهِ هَذا . ودَيَّاراً من الأسماءِ المستعملةِ في النَّفيِ العامِّ يقالُ ما بالدارِ دَيَّارٌ أو دَيُّورٌ كقَيَّامٍ وقَيُّومٍ ، أيْ أحدٌ وهو فَيعالٌ من الدُّورِ أو من الدَّارِ أصلُهُ دَيْوَارٌ قدْ فُعِلَ

بِهِ ما فُعِلَ بأصلِ سيّدٍ ، لا فعّالٌ وإلا لكانَ دوّاراً .

﴿ إنَّكَ إن تذرْهُمْ ﴾ عليها كلاًّ أو بعضاً ﴿ يُضِلُّوا عِبادَكَ ﴾ عن طريقِ الحقّ ﴿ ولاَ يَلدُوا إلاَّ فاجراً كفّاراً ﴾ أي إلا من سيفجُر ويكفرُ فوصفهم بما يصيرونَ إليهِ وكأنَّه اعتذارٌ ممَّا عسَى يردُ عليه مِنْ أنَّ الدعاءَ بالاستئصال معَ احتمال أنْ يكونَ من أخلافِهم مَنْ يؤمنَ منكرٌ وإنَّما قالَهُ لاستحكام علمِه بما يكونُ منهم ومن أعقابِهم بعد ما جرَّبهم واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنةٍ ﴿ ربِّ اغفر لي ولوالدي ﴾ أبوه لمَك بنُ متُّوشلِحَ وأمُّه سمحاء بنتُ إنُوشَ كانَا مؤمنينِ ، وقيل : هما آدمُ وحواءُ وقُرِئَ ولولديَّ يريدُ ساماً وحاماً ﴿ ولِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ أي منزلي وقيلَ : مسجدِي وقيل : سَفينتي ﴿ مُؤْمناً ﴾ بهذا القيدِ خرجتْ امرأتُه وابنُه كنعانُ ولكنْ لم يجزمْ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بخروجه إلا بعدَ ما قيلَ له : إنَّه ليسَ من أهلِك وقد مرَّ تفصيلُه في سورةِ هودٍ ﴿ وللمُؤْمِنينَ والمؤمنات ﴾ عمَّهم بالدُّعاءَ إثرَ ما خصَّ بهِ مَنْ يتصلُ به نسباً ودِيناً ﴿ ولاَ تزِدِ الظالمينَ إلاَّ تَباراً ﴾ أي هلاكاً قيلَ : غرقَ معُهم صبيانُهم أيضاً لكنْ لا على وجهِ العقابِ لهم بل لتشديد عذابِ آبائِهم وأمَّهاتِهم بإراءةِ هلاكِ أطفالِهم الذينَ كانُوا أعزَّ عليهم من أنفسهم .

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " يهلكونَ مهلكاً واحداً ويصدرونَ مصادرَ شتَّى " وعنِ الحسنِ أنَّه سُئلَ عنْ ذلكَ فقالَ علمَ الله براءتَهم فأهلكَهم بغيرِ عذابٍ ، وقيلَ : أعقمَ الله تعالى

أرحامَ نسائِهم وأيبسَ أصلابَ آبائِهم قبلَ الطُّوفانِ بأربعينَ أو سبعينَ سنةً فلم يكُنْ معهُم صبيٌّ حينَ غَرِقُوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(21/784)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾

عطف على نظيره السابق وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيآتهم ﴾ [نوح : 25] الخ اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيآتهم التي عدها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للهلاك لأجلها لا أنه حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأحوال والأقوال وإلا لأخر عن حكاية دعائه هذا قاله مفتي الديار الرومية عليه الرحمة وما قيل أنه عطف على ﴿ لم يجدوا ﴾ [نوح : 25] أو على جملة ﴿ مِّمَّا ﴾ الخ وليس المراد حقيقة الدعاء بل التشفي وإظهار الرضا بما كان من هلاكهم بعيد غاية البعد والمعروف أن هذا الدعاء كان قبل هلاكهم والديار من الأسماء التي لا تستعمل إلا في النفي العام يقال ما بالدار ديار أو ديور كقيام وقيوم أي ما بها أحد وهو فيعال من الدار أو من

الدور كأنه قيل لا تذر على الأرض من الكافرين من يسكن داراً أو لا تذر عليها منهم من يدور ويتحرك وأصله ديوار اجتمعت الواو والياء وسبقت أحدهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وليس بفعال وإلا لكان دواراً إذ لا داعي للقلب حينئذٍ ومن الكافرين حال منه ولو أخر كان صفة له والمراد بالكافرين قومه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا فإن كان الناس منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها نحو انتشارهم اليوم وكانت بعثته لبعض منهم كسكان جزيرة العرب ومن يقرب منهم فذاك وإن كانوا غير منتشرين كذلك بل كانوا في الجزيرة وقريباً منها فإن كانت البعثة لبعضهم أيضاً فكذلك وإن كانت لكلهم فقد استشكل بأنه يلزم عموم البعثة وقد قالوا بأنه مخصوص بنبينا صلى الله عليه وسلم وأجيب بأن ذلك العموم ليس كعموم بعثته صلى الله عليه وسلم بل لانحصار أهل الأرض في قطعة منها فهو انحصار ضروري وليس عموماً من كل وجه وهذا نحو ما يقال في بعثة آدم عليه السلام إلى زوجته وأولاده فإنهم حينئذٍ

(22/784)

ليسوا إلا كأهل بيت واحد على أنه قيل لا إشكال ولو قلنا بانتشار الناس إذ ذاك كانتشارهم اليوم وإرساله إليهم جميعاً لأن العموم المخصوص بنبينا عليه الصلاة والسلام هو

العموم المندرج فيه الإنس والجن إلى يوم القيامة بل الملائكة عليهم السلام بل وبل والمشهور أنه عليه السلام كان مبعوثاً لجميع أهل الأرض وأنه ما آمن منهم إلا قليل واستدل عليه بهذا الدعاء وعموم الطوفان وتعقب بأن الأرض كثيراً ما تطلق على قطعة منها فيحتمل أن تكون هنا كذلك سلمنا إرادة الجميع لكن الدعاء على الكافرين وهم من بعث إليهم فدعاهم ولم يجيبوه وكونهم من عدا أهل السفينة أول المسألة والطوفان لا نسلم عمومه وإن سلم لا يقتضي أن يكون كل من غرق به مكلفاً بالإيمان به عليه السلام عاصياً بتركه فالبلاء قد يعم الصالح والطالح لكن يصدرون مصادر شتى كما ورد في حديث خسف البيداء ويرشد إلى هذا أن أولادهم قد أغرقوا على ما قيل معهم وقد سئل الحسن عن ذلك فقال علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب نعم الحكمة في إهلاك هؤلاء زيادة عذاب في آبائهم وأمهاتهم إذا أبصروا أطفالهم يغرقون وزعم بعضهم أن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا ويحتاج إلى نقل صحيح وحكم الله عز وجل لا تحصى فافهم .

(23/784)

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ أي على الأرض كلاًّ أو بعضاً ﴿ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ عن طريق الحق ولعل المراد بهم من آمن به عليه السلام وبإضلالهم إياهم ردهم إلى الكفر بنوع من المكر أو المراد بهم من ولد منهم ولم يبلغ زمن التكليف أو من يولد من أولئك المؤمنين ويدعى إلى الإيمان وبإضلالهم إياهم صدهم عن الإيمان وفي بعض الأخبار أن الرجل منهم كان يأتي بابنه إليه عليه السلام ويقول احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك قيل ومن هنا قال عليه السلام : ﴿ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ أي من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه لاستحكام علمه بذلك بما حصل له من التجربة ألف سنة إلا خمسين عاماً ومثله قوله عليه السلام إن تذرهم يضلوا عبادك وقيل أراد من جبل على الفجور والكفر وقد علم كل ذلك بوحي كقوله سبحانه : ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ [هود : 36] وعن قتادة ومحمد بن كعب والربيع وابن زيد أنه عليه السلام ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله تعالى كل مؤمن من الأصلاب وأعقم أرحام نسائهم وأياً ما كان فقوله : ﴿ إِنَّكَ ﴾ الخ اعتذار مما عسى أن يقال من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن مما لا يليق بشأن الأنبياء عليهم السلام .

﴿ رَّبّ اغفر لى ولوالدى ﴾ أراد أباه لمك بن متوشلخ وقد تقدم ضبط ذلك وأمه شمخى بالشين والخاء المعجمتين بوزن سكرى بنت أنوش بالإعجام بوزن أصول وكانا مؤمنين ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة وقيل أراد بهما آدم وحواء وقرأ ابن جبير والجحدري ولوالدي بكسر الدال وإسكان الياء فإما أن يكون قد خص أباه الأقرب أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام ولم يكفر كما قال ابن عباس لنوح أب ما بينه وبين آدم عليه السلام وقرأ الحسين بن علي كرم الله تعالى وجههما ورضي عنهما وزيد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم ويحيى بن يعمر والنخعي والزهري ولولدي تثنية ولد يعني ساما وحاما على ما قيل وفي رواية أن ساما كان نبياً ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ﴾ قيل أراد منزله وقيل سفينته وقال الجمهور وابن عباس أراد مسجده وفي رواية عن الحبر أنه أراد شريعته استعار لها اسم البيت كما قالوا قبة الإسلام وفسطاط الدين والمتبادر المنزل وتخرج امرأته وابنه كنعان بقوله : ﴿ مُؤْمِناً ﴾ وقيل يمكن أنه لم يجزم بخروج كنعان إلا بعد ما قيل له ﴿ أنه ليس من أهلك ﴾ [هود : 46] ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ أي من كل أمة إلى يوم القيامة وهو تعميم بعد التخصيص واستغفر ربه عز وجل إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحباً للمستغفر لهم من والديه والمؤمنين وقيل إنه استغفر لما دعا على الكافرين لأنه انتقام منهم ولا يخفى أن السياق يأباه وكذا قوله : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ أي

هلاكاً وقال مجاهد خساراً والأول أظهر وقد دعا عليه السلام دعوتين دعوة على الكافرين ودعوة للمؤمنين وحيث استجيبت له الأولى فلا يبعد أن تستجاب له الثانية والله تعالى أكرم الأكرمين ومعظم آيات هذه السورة الكريمة وغيرها نص في أن القوم كفرة هالكون يوم القيامة فالحكم بنجاتهم كما يقتضيه كلام الشيخ الأكبر قدس سره في فصوصه مما يبرأ إلى الله تعالى منهم كزعم أن نوحاً

(25/784)

عليه السلام لم يدعهم على وجه يقتضي إيمانهم مع قوله سبحانه ﴿ الله أعلم حيث جعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] وقصارى ما أقول رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(26/784)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾

أي : استمرّوا على عصياني ولم يجيبوا دعوتي ، شكاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه ، وهو أعلم بذلك ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أي : اتبع الأصاغر رؤساءهم ؛ وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلاّ ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة .

قرأ أهل المدينة ، والشام ، وعاصم ، وولده بفتح الواو واللام .

وقرأ الباقون بسكون اللام ، وهي لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعاً ، وقد تقدّم تحقيقه ، ومعنى ﴿ واتبعوا ﴾ : أنهم استمرّوا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ أي : مكراً كبيراً عظيماً ، يقال : كبير وكبار ، وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وجميل وجمال وجمال .

قال المبرد : كباراً بالتشديد للمبالغة ، ومثل ﴿ كباراً ﴾ قرّاء لكثير القراءة ، وأنشد ابن السكيت :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي . . . بالحسن قلب المسلم القرّاء

قرأ الجمهور : ﴿ كباراً ﴾ بالتشديد .

وقرأ ابن محيصن ، وحميد ، ومجاهد بالتخفيف .

قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل ، فلذلك وصفه بالجمع .

وقال عيسى بن عمر : هي لغة يمانية .

واختلف في مكرهم هذا ما هو؟ فقيل: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح، وقيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم.

وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد.

وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم لا تذرنّ إلهتكم وقيل: مكرهم كفرهم.

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي: لا تتركوا عبادة إلهتكم، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم، وبهذا قال الجمهور.

(27/784)

﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ أي: لا تتركوا عبادة هذه.

قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوّرتم صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء، لأنهم صوّروها على صورة أولئك القوم.

وقال عروة بن الزبير وغيره : إن هذه كانت أسماء لأولاد آدم ، وكان ودّ أكبرهم .

قال الماوردي : فأما ودّ ، فهو أوّل صنم معبود ، سمي ودّاً لودّهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل في قول ابن عباس ، وعطاء ، ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ودّ فإنا لا يحل لنا . . . لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة .

وقال المهدوي : لمراد ثم لغطفان ؛ وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة ، وعكرمة ، وعطاء .

وقال الثعلبي : كان لكهلان بن سبأ ، ثم توارثوه حتى صار في همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يريش الله في الدنيا ويبري . . . ولا يبري يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة ، ومقاتل .

قرأ الجمهور : ﴿ ودّاً ﴾ بفتح الواو .

وقرأ نافع بضمها .

قال الليث : ودّ بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح ، وبه سمي عمرو بن ودّ .

قال في الصحاح.

والودّ بالفتح : الوتد في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يغوث ويعقوق ﴾ بغير تنوين ، فإن كانا عربيين ، فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين ، فللعجمة والعلمية .

وقرأ الأعمش : ﴿ ولا يغوثا ويعوقا ﴾ بالصرف .

قال ابن عطية : وذلك وهم .

(28/784)

ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الإلهة ؛ لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ أي : أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس .

وقيل : الضمير راجع إلى الأصنام : أي : ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : 36] وأجرى عليهم ضمير من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل .

﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ معطوف على ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم .

وقال أبو حيان : إنه معطوف على قد أضلوا ، ومعنى : ﴿ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ إلاّ عذاباً : كذا قال ابن بحر ، واستدلّ على ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] .

وقيل : إلاّ خسراناً .

وقيل : إلاّ فتنة بالمال والولد .

وقيل : الضياع .

وقيل : ضلالاً في مكرهم .

﴿ مّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ "ما" مزيدة للتأكيد ، والمعنى : من خطيئاتهم ، أي من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ عقب ذلك ، وهي نار الآخرة .

وقيل : عذاب القبر .

قرأ الجمهور : ﴿ خطيئاتهم ﴾ على جمع السلامة ، وقرأ أبو عمرو : "خطاياهم" على جمع التكسير ، وقرأ الجحدري ، وعمرو بن عبيد ، والأعمش ، وأبو حيوة ، وأشهب العقيلي : " خطيئتهم " على الإفراد ، قال الضحاك عذبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في حالة واحدة كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في جانب .

قرأ الجمهور : ﴿ أغرقوا ﴾ من أغرق ، وقرأ زيد بن عليّ : " غرقوا " بالتشديد .

﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مّن دُونِ الله أَنصَاراً ﴾ أي : لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله

ويدفعه عنهم .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ معطوف على ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر دعا عليهم بالهلاك .

(29/784)

قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحي إليه :

﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : 36] فأجاب الله دعوته وأغرقهم .

وقال محمد بن كعب ، ومقاتل ، والربيع بن أنس ، وابن زيد ، وعطية : إنما قال هذا حين أخرج الله كلّ مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة .

وقيل : بأربعين .

قال قتادة : لم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب .

وقال الحسن ، وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم ، وعدلاً فيهم ، ولكن أهلك ذرّيتهم وأطفالهم بغير عذاب ، ثم أهلكهم بالعذاب ، ومعنى ﴿ دَيَّاراً ﴾ :

من يسكن الديار ، وأصله ديوار على فيعال ، من دار يدور ، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى ، مثل القيام أصله قيوام ، وقال القتيبي : أصله من الدار أي : نازل بالدار .

يقال : ما بالدار ديار أي : أحد .

وقيل الديار : صاحب الديار ، والمعنى : لا تدع أحداً منهم إلاّ أهلكته ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ أي : إن تتركهم على الأرض يضلوا عبادك عن طريق الحقّ ﴿ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ أي : إلاّ فاجراً بترك طاعتك كفاراً لنعمتك أي : كثير الكفران لها ، والمعنى : إلاّ من سيفجر ويكفر .

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين ، فقال : ﴿ رَّبِّ اغفِرلِي ولوالدي ﴾ وكانا مؤمنين ، وأبوه لامك بن متوشلخ ، كما تقدّم ، وأمه سمحاء بنت أنوش ، وقيل : أراد آدم وحواء .

وقال سعيد بن جبير : أراد بوالديه أباه وجدّه .

وقرأ سعيد بن جبير : " ولوالدي " بكسر الدال على الإفراد .

﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ قال الضحاك ، والكلبي : يعني مسجده ، وقيل : منزله الذي هو ساكن فيه ، وقيل : سفينته .

وقيل : لمن دخل في دينه ، وانتصاب ﴿ مُؤْمِناً ﴾ على الحال ، أي : لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان ، فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذي قال : ﴿ سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماء ﴾ [هود : 43] ثم عمم الدعوة ، فقال : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ أي : واغفر لكل متصف بالإيمان من الذكور والإناث .

ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين ، فقال : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ أي : لا تزد المتصفين بالظلم إلاّ هلاكاً ، وخسراناً ودماراً وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة ، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ قال : هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح .

وأخرج البخاري ، وابن المنذر ، وابن مردويه عنه قال : صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد

حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 300. 302 ﴾

(31/784)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) ﴾

عطف على ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ [نوح : 21] أعقبه بالدعاء عليهم بالإِهلاك والاستئصال بأن لا يبقى منهم أحداً ، أي لا تبق منهم أحداً على الأرض .

وأعيد فعل ﴿ قال ﴾ لوقوع الفصل بين أقوال نوح بجملة ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ [نوح : 25] الخ ، أو بها وبجملة ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ [نوح : 24] .

وقرنت بواو العطف لتكون مستقلة فلا تتبع جملة ﴿ إنهم عصوني للإِشارة إلى أن دَعوة نوح حصلت بعد شكايته بقوله : إنهم عصوني .

وديَّاراً ﴾ : اسم مخصوص بالوقوع في النفي يعمّ كل إنسان ، وهو اسم بوزن فَيْعَال مشتق من اسم الدار فعينه واو لأن عين دَار مقدرة واواً ، فأصل ديّار : دَيوار فلما اجتمعت الواو والياء واتصلتا وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء ثم أدغمت في الياء الزائدة كما

فُعل بسيّد وميّت ، ومعنى ديّار : من يحلّ بدار القوم كناية عن إنسان .

ونظير (ديّار) في العموم والوقوع في النفي أسماء كثيرة في كلام العرب أبلغها ابن السكيت في "إصلاح المنطق" إلى خمسةٍ وعشرين ، وزاد كُراع النمل سبعة فبلغت اثنين وثلاثين اسماً ، وزاد ابن مالك في "التسهيل" ستة فصارت ثمانية وثلاثين .

ومن أشهرها : آحَد ، وديَّار ، وعَريب ، وكلها بمعنى الإِنسان ، ولفظ (بُدّ) بضم الموحدة وتشديد الدال المهملة وهو المفارقة .

وجملة ﴿ إنك إن تذرهم يُضِلُّوا عبادك ﴾ تعليل لسؤاله أن لا يترك الله على الأرض أحداً من الكافرين يريد أنه خشي أن يضلوا بعض المؤمنين وأن يلدوا أبناء ينشأون على كفرهم .

والأرض يجوز أن يراد بها جميع الكُرة الدنيوية ، وأن يراد أرض معهودة للمتكلم والمخاطَبِ كما في قوله تعالى : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض يعني أرض مصر ﴾ في سورة يوسف (55) .

(32/784)

ويحتمل أن يكون البشر يومئذٍ منحصرين في قوم نوح ، ويجوز خلافه ، وعلى هذه الاحتمالات ينشأ احتمال أن يكون الطوفان قد غمر جميع الكرة الأرضية ، واحتمال أن

يكون طوفاناً قاصراً على ناحية كبيرة من عموم الأرض ، والله أعلم .

وقد تقدم ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ في سورة الأعراف (64) .

وخبر إنك ﴾ مجموع الشرط مع جوابه الواقع بعد (إنّ) لأنه إذا اجتمع مبتدأ وشرط رجح الشرط على المبتدأ فأعطي الشرطُ الجوابَ ولم يعط المبتدأ خبراً لدلالة جملة الشرط وجوابه عليه .

وعَلِم نوح أنهم لا يلدون إلاّ فاجراً كفّاراً بأن أولادهم ينشأون فيهم فيلقنونهم دينهم ويصدون نوحاً عن أن يرشدهم فحصل له علم بهذه القضية بدليل التجربة .

والمعنى : ولا يلدوا إلاّ من يصير فاجراً كفَّاراً عند بلوغه سن العقل .

والفاجر : المتصف بالفجور ، وهو العمل الشديد الفساد .

والكَفَّار : مبالغة في الموصوف بالكفر ، أي إلاّ من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد ، قال تعالى : ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 42] .

وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإِصلاحي .

وقد انتزع عمر بن الخطاب من قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ [الحشر : 10] دليلاً على إبقاء أرض سواد العراق غير مقسومة بين الجيش الذي فَتَح العراق

وجعلها خراجاً لأهلها قصداً لدوام الرزق منها لمن سيجيء من المسلمين .

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

(33/784)

جعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والده ، ثم عمّم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوهم والمؤمنات من أزواجهم وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه ، فالمراد بقوله ﴿ دخل بيتي ﴾ دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم .

ومنه سميت بطانة المرء دَخيلته ودُخْلَته ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح وهو على حد قوله المتقدم ﴿ ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً ﴾ [نوح : 24] .

والتبَار : الهلاك والخسار ، فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله : ﴿ لا تَذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح : 26] حرصاً على سلامة المجتمع الإِنساني من شوائب المفاسد وتطهيره من العناصر الخبيثة .

ووالداه : أبوه وأمه ، وقد ورد اسم أبيه في التوراة (لَمَك) وأما أمه فقد ذكر الثعلبي أنّ

اسمها شَمْخَى بنتُ أَنُوش .

وقرأ الجمهور ﴿ بيتي ﴾ بسكون ياء المتكلم .

وقرأه حفص عن عاصم بتحريكها .

واستثناء ﴿ إلاّ تباراً ﴾ منقطع لأن التبار ليس من الزيادة المدعو بنفيها فإنه أراد لا تزدهم من الأموال والأولاد لأن في زيادة ذلك لهم قوةً لهم على أذى المؤمنين .

وهذا كقول موسى عليه السلام : ﴿ ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأَه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ [يونس : 88] الآية .

وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده كقوله : ﴿ فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً ﴾ [نوح : 6] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(34/784)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

(سورة نوح)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على أن نوحا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عالم بما يصير إليه الأولاد من الفجور والكفر قبل ولادتهم وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله كقوله: ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وكقول نوح نفسه فيما ذكره الله عنه في سورة هود: ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ .

الآية .

والجواب عن هذا ظاهر وهو أنه علم بوحي من الله أن قومه لا يؤمن منهم أحد إلا من آمن كما بينه بقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ . الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 302 ﴾

(35/784)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت سورة ﴿ إنا أرسلنا نوحاً ﴾ بمكة .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يدعو نوحاً وقومه يوم القيامة أول الناس ، فيقول : ماذا أجبتم نوحاً فيقولون : ما دعانا وما بلغنا وما نصحنا ولا أمرنا ولا نهانا ، فيقول نوح : دعوتهم يا رب دعاء فاشياً في الأولين والآخرين ، أمة بعد أمة ، حتى انتهى إلى خاتم النبيين أحمد فانتسخه وقرأه وآمن به وصدقه ، فيقول للملائكة : ادعوا أحمد وأمته ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته يسعى نورهم بين أيديهم ، فيقول نوح لمحمد وأمته : هل تعلمون أني بلغت قومي الرسالة ، واجتهدت لهم بالنصيحة ، وجهدت أن استنقذهم من النار سراً وجهراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته : فإنا نشهد بما نشدتنا أنك في جميع ما قلت من الصادقين ، فيقول نوح : وأنى علمت هذا أنت وأمتك ونحن أول الأمم وأنتم آخر الأمم ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ حتى ختم السورة ، فإذا ختمها قالت أمته : نشهد أن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ، فيقول الله عند ذلك : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [يس : 59] " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ قال : بها أرسل الله المرسلين أن يعبد الله وحده ، وأن تتقى محارمه ، وأن يطاع أمره .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾

قال : الشرك ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ قال : بغير عقوبة ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ قال : الموت .

(36/784)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ قال : بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح ، فيقول لابنه : احذر هذا لا يغرنك فإن أبي قد ذهب بي ، وأنا مثلك فحذرني كما حذرتك .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ قال : لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ قال : لأن يتنكروا له فلا يعرفهم ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ قال : تركوا التوبة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ قال : غطوا بها وجوههم لكي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ قال : تسجوا بها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ قال :

الكلام المعلن به ، وفي قوله : ﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ قال : صحت ﴿ وأسررت لهم إسراراً ﴾ قال : النجاء نجاء لرجل .

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10)

أخرج ابن مردويه عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا من الاستغفار ، فإن الله لم يعلمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ قال : رأى نوح عليه السلام قوماً تجزعت أعناقهم حرصاً على الدنيا فقال : هلموا إلى طاعة الله فإن فيها درك الدنيا والآخرة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تعلمون لله عظمة .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : عظمة ، وفي قوله : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة .

(37/784)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ لا تعرفون لله حق عظمته .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تخافون لله عظمة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تخشون له عقاباً ولا ترجون له ثواباً .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تخشون لله عظمة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول أبي ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . . . وخالفها في بيت نوب عوامل

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عليّ بن أبي طالب " أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر ، فوقف فنادى بأعلى صوته ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن الحسن في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة .

وأخرج ابن المنذر عن مطر في قوله : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم

مضغة ثم عظاماً طوراً بعد طور وخلقاً بعد خلق .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقي عن مجاهد في قوله : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال : لا تبالون لله عظمة ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ قال : من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم ما ذكر حتى يتم خلقه .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن يحيى بن رافع في قوله : ﴿ خلقكم أطواراً ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة .

(38/784)

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن الحسن في قوله : ﴿ خلق سبع سماوات طباقاً ﴾ قال : بعضهن فوق بعض ، بين كل أرض وسماء خلق وأمر ، وفي قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ قال : وجوههما في السماء وظهورهما إليكم .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ قال : إنه يضيء نور القمر فيهن كلهن كما لو كان سبع زجاجات أسفل منها شهاب أضاءت كلهن فكذلك نور القمر في السموات كلهن لصفائهن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن عبد الله بن عمرو قال : إن الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب الله ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء في قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ قال : يضيء لأهل السموات كما يضيء لأهل الأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ قال : وجهه يضيء السموات ، وظهره يضيء الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار ، وكان بينهما بعض العتب ، فتعاتبا ، فذهب ذلك ، فقال عبد الله بن عمرو لكعب : سلني عما شئت ، ولا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن ، فقال له : أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات السبع كما هو في الأرض ؟ قال : نعم ألم تروا إلى قول الله : ﴿ خلق سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ قال : وجهه في السماء إلى العرش وقفاه إلى الأرض .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ وجعل القمر فيهن

نوراً ﴾ قال : خلق فيهن حين خلقهن ضياء كأهل الأرض وليس في السماء من ضوئه شيء .

(39/784)

وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ قال : خلق آدم من أديم الأرض كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ قال : طرقاً مختلفة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ قال : طرقاً مختلفة وأعلاماً .

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعي أنه كان يقرأ ﴿ ماله وولده ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن وأبي رجاء أنهما كانا يقرآن ﴿ ماله وولده ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه كان يقرأها في نوح والزخرف وما بعد السجدة من مريم ولد وقال : الولد الكبير والولد الواحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ قال عظيماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ قال : هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح .

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن مرديه عن ابن عباس قال : صارت الأصنام والأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، وكانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذ هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه ود ويغوث ويعوق وسراع ونسر ، وكان ود أكبرهم وأبرّهم به .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي عثمان قال : رأيت يغوث صنماً من رصاص يحمل على جمل أجرد ، فإذا برك قالوا : قد رضي ربكم هذا المنزل .

وأخرج الفاكهي عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال : أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح وكانت الأبناء تبرّ الآباء فمات رجل منهم فجزع عليه فجعل لا يصبر عنه فاتخذ مثالاً على صورته ، فكلما اشتاق إليه نظره ، ثم مات ففعل به كما فعل ، ثم تتابعوا على ذلك ، فمات الآباء ، فقال الأبناء : ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح فنشأ قوم بعدهم يأخذون كأخذهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ، فصوروا ثم ماتوا فنشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدوها .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن محمد بن كعب القرظي قال : كان لآدم خمسة بنين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فكانوا عبّاداً فمات رجل منهم ، فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان ، فقال : حزنتم على صاحبكم هذا ؟ قالوا : نعم ، قال : هل لكم أن أصوّر لكم مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه ؟ قالوا : لا نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئاً نصلي إليه . قال : فأجعله في مؤخر المسجد . قالوا : نعم فصوّره لهم حتى مات خمستهم فصوّر صورهم في مؤخر المسجد وأخرج الأشياء حتى تركوا عبادة الله وعبدوا هؤلاء ، فبعث الله نوحاً فقالوا : ﴿ لا تذرن وداً ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر يزيد بن المهلب فقال : إما أنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله ، ثم ذكر وداً قال : وكان ود رجلاً مسلماً وكان محبباً في قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم ، فصوّر لهم مثله ، فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه ، فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله فيكون في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ، فصوّر لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله . قال : وكان أول ما عبد غير الله في الأرض ود الصنم الذي سموه بود .

وخرج عبد بن حميد عن السدي سمع مرة يقول في قول الله : ﴿ ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ قال : أسماء آلهتهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وولده ﴾ بنصب الواو ﴿ ولا تذرن وداً ﴾

بنصب الواو ﴿ ولا سواعاً ﴾ برفع السين .

وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة قال : لم ينحسر أحد من الخلائق كحسرة آدم ونوح ، فأما حسرة آدم فحين أخرج من الجنة ، وأما حسرة نوح فحين دعا على قومه فلم يبق شيء إلا غرق إلا ما كان معه في السفينة ، فلما رأى الله حزنه أوحى إليه يا نوح لا تتحسر فإن دعوتك وافقت قدري .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ قال : واحداً .

(42/784)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ قال : أما والله ما دعا عليهم نوح حتى أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فعند ذلك دعا عليهم ، ثم دعا دعوة عامة ، فقال : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ قال : يعني أباه وجده .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ قال : مسجدي .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ قال : خساراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 288 . 295 ﴾

(43/784)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾

يعني : جعله الله رسولاً إلى قومه .

﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ يعني : أن خوف قومك بالنار لكي يؤمنوا بالله .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : الطوفان والغرق .

﴿ قَالَ ﴾ لهم نوح عليه السلام : ﴿ إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : قال نوح لقومه أنبئكم بلغة تعرفونها ؟ ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ يعني : أنذركم وأقول لكم اعبدوا الله ، يعني : وحدوا الله .

﴿ واتقوه ﴾ يعني : واخشوه واجتنبوا معاصيه .

﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم ، ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ يعني : ذنوبكم .

و"من" صلة .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ يعني : يؤجلكم ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : إلى منتهى آجالكم .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ يعني : إن عذاب الله ، ﴿ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ يعني : لا يستطيع أن يؤخره أحد .

﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو كان لكم علم تنتفعون به .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ يعني : دعا نوح بعد ما كذبوه في طول المدة ، قال : رب يعني : يا رب ، ﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ إلى التوحيد ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ يعني : في كل وقت سراً وعلانية .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ يعني : إلى التوحيد تباعداً من الإيمان .

قال عز وجل : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى التوحيد ، ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصابعهم فِي ءاذانهم ﴾ يعني : لا يسمعون دعائي ، ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ يعني : غطوا رؤوسهم بثيابهم لكي لا يسمعوا كلامي .

﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ يعني : أقاموا على الكفر والشرك ، ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ يعني : تكبروا عن الإيمان تكبراً .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا ﴾ يعني : دعوتهم إلى الإيمان علانية من غير خفية ، ﴿ ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ يعني : صحت لهم ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ يعني : خلطت دعاءهم بالعلانية بدعائهم في السر .

﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ يعني : توبوا وارجعوا من ذنوبكم ، يعني : الشرك والفواحش .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ يعني : غفاراً لمن تاب من الشرك .

﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ يعني : المطر دائماً كلما احتاجوا إليه .

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ يعني : يعطيكم أموالاً وأولاداً ، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ يعني : البساتين ، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ يعني : في الجنات .

قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ ؟ ما لكم لا تخافون لله عظمة في التوحيد ؟ وهو قول الكلبي ومقاتل ؛ وقال قتادة : مالكم لا ترجون لله عاقبة ؟ ويقال : ما لكم لا ترجون عاقبة الإيمان ؟ يعني : في الجنة .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ما لكم لا تعلمون حق عظمته ؟ وقال مجاهد : ما لكم لا ترجون لله عظمة ؟ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ يعني : خلقاً بعد خلق وحالاً بعد حال ، نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة .

فمعناه : ما لكم لا توحدون ، وقد خلقكم ضروباً ؟ ويقال : أراد به اختلاف الأخلاق والمنطق ، ويقال أراد به المناظرة .

ثم وعظهم ليعتبروا ، فقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله ﴾ ؟ يعني : ألم تنظروا فتعتبروا ، كيف خلق الله تعالى ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ ؟ يعني : مطبقاً بعضها فوق بعض .

﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ يعني : ضياءً لبني آدم .

وإنما قال : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أراد به سماء الدنيا ، لأنها إحداهن .

(45/784)

﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ يعني : نوراً للخلق ؛ ويقال : ﴿ جَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ يعني : في جميع السموات ، لأن إحداهن مضيء لأهل السموات وظهره لأهل الأرض ؛ ويقال : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ يعني : معهن نوراً .

ثم قال عز وجل : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ يعني : خلقكم في الأرض خلقاً .

ويقال : يعني : خلقكم من الأرض وهو آدم عليه السلام وأنتم من ذريته .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ يعني : بعد الموت .

﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ يعني : يخرجكم من الأرض يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ يعني : فراشاً ، ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا ﴾ يعني : فتمضوا فيها وتأخذوا فيها ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ يعني : طرقاً بين الجبال والرمال ؛ ويقال : طرقاً واسعة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ فيما أمرتهم من توحيد الله تعالى ، ﴿ واتبعوا ﴾ يعني : أطاعوا ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ ﴾ يعني : أطاعوا من لم يزده ماله يعني : كثرة أمواله ﴿ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ أي : خسراناً في الآخرة .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ يعني : مكراً عظيماً ؛ ويقال : مكروا مكراً كبيراً يعني : قالوا كلمة الشرك .

والكبير والكبار بمعنى واحد .

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ يعني : قال بعضهم لبعض : ويقال : قال الرؤساء للسفلة : لا تذرن ، يعني : لا تتركوا عبادة آلهتكم .

﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ ، فهذه أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها يعني : لا تتركوا عبادة هذه الأصنام قرأ نافع ﴿ وُدّاً ﴾ بضم الواو ، والباقون بالنصب ، ومعناهما واحد .

وهو اسم الصنم ، وقال قتادة : هذه الآلهة كان يعبدها قوم نوح ، ثم عبدها العرب بعد

ذلك .

وقال القتبي ﴿ الود ﴾ صنم ، ومنه كانت العرب تسمى "عبد ود" ، وكذلك تسمي "عبد يغوث" .

(46/784)

ثم قال : ﴿ وَنَسْراً وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ يعني : هذه الأصنام أضلوا كثيراً من الناس ، يعني : ضلوا بهن كثيراً من الناس ، كقوله : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ ﴾ كثيراً من الناس .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ يعني : خساراً وغبناً .

ثم قال عز وجل : ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ يعني : بشركهم بالله تعالى أُغرقوا في الدنيا .

﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ في الآخرة .

قال مقاتل : ﴿ بِمَا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ بخطياتهم ؛ وقال القتبي : (بما خطياتهم أغرقوا) يعني : من خطيئاتهم أغرقوا ، والميم زيادة .

ثم قال : ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ الله أَنصَاراً ﴾ يعني : أعواناً يمنعونهم من العذاب .

قرأ أبو عمرو ﴿ خطاياهم ﴾ ، والباقون ﴿ خطيئاتهم ﴾ ومعناهما واحد ، وهو جمع

خطيئة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ يعني : لا تدع على ظهر الأرض من الكافرين دياراً ، يعني : أحداً منهم ؛ ويقال : أصله من الدار يعني : نازلاً بها ، ويقال : في الدار أحد وما بها ديار ؛ وأصله ديوار ، فقلبت الواو ياء ثم شددت وأدغمت الياء في الياء .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ يعني : إنك إن تتركهم ولم تهلكهم ، يدعوا الموحدين إلى الكفر .

﴿ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ يعني : يكون منهم الأولاد ، يكفرون ويفجرون بعد البلوغ ؛ ويقال : يعني : ولا يلدوا إلا أن يكونوا فجاراً كفاراً .

وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ " .

ثم قال عز وجل : ﴿ رَّبِّ اغفر لِى ولوالدى وِلَمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً ﴾ يعني : سفينتي وديني .

وقال الكلبي : ﴿ وِلَمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً ﴾ يعني : مسجدي .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ يعني : لا تزد الكافرين إلا هلاكاً ، كقوله : ﴿ عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنه كان إذا قرأ القرآن في الليل ، فمر بآية فيقول لي : يا عكرمة ذكرني عند هذه الآية غداً .

فقرأ ذات ليلة هذه الآية ، فقال : يا عكرمة ، ذكرني غداً .

فذكرته ذلك ، فقال : إن نوحاً دعا بهلاك الكافرين ، ودعا للمؤمنين بالمغفرة ، وقد استجيب دعاؤه في المؤمنين ، فيغفر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات بدعائه ، وبهلاك الكافرين فأهلكوا .

وروي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نَجَاةُ المُؤْمِنِينَ فِي ثَلاَثَةِ أَشْيَاءٍ : بِدُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَبِدُعَاءِ إِسْحَاقَ عليه السلام وَبِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم " يعني : للمؤمنين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 476 . 479 ﴾

(48/784)

وقال الثعلبي :

سورة نوح عليه السلام

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يا قوم إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾

﴿ مِّن ﴾ صلة ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو الموت فلا يهلككم بالعذاب ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ نفاراً وإدباراً عنه ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لئلاّ يسمعوا دعوتي ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ غطوا بها وجوههم لئلاّ يروني ولا يسمعوا صوتي ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ على الكفر ﴿ واستكبروا استكباراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ الدعوة ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا عبد الله بن إبراهيم بن عليّ قال : حدّثنا محمد بن عمران بن هارون قال : حدّثنا أبو عبيد الله المخزومي قال : حدّثنا سفيان عن مطرف عن الشعبي : أن عمر خرج يستسقي بالناس ، فلم يزد على الاستغفار حتّى رجع ، فقالوا له : ما رأيناك استسقيت ، فقال عمر : لقد طلبت المطر لمحاويج السماء التي يستنزل منها المطر ، ثمّ قرأ : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ .

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ جارية ، وذلك أن قوم نوح لما كذّبوه زماناً طويلا حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فهلكت أموالهم ومواشيهم ، فوعدهم الله إن آمنوا أن يرد عليهم .

وروى الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن فشكا إليه الجدوبة ، فقال له الحسن : استغفر الله ، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر ، فقال له : استغفر الله ، وأتاه آخر فقال : ادع الله أن يرزقني ابناً ، فقال له : استغفر الله ، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه فقال له : استغفر الله فقلنا أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من ذات نفسي في ذلك شيئاً إنّما أعتبرت فيه قول الله سبحانه حكاية عن نبيّه نوح (عليه السلام) إنّه قال لقومه : ﴿ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد : ما لكم لا ترون لله عظمة ، سعيد بن جبير : ما لكم لا تعظمون لله حقّ عظمته . منصور عن مجاهد : لا تبالون لله عظمته . العوفي عن ابن عباس : لا تعلمون لله عظمة . قتادة : لا ترجون لله عاقبة ، ابن

زيد : لا ترون لله طاعة .

الكلبي : لا تخافون لله عظمة . ابن كيسان : ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثبكم على توقيركم إياه خير ، الحسن : لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة . سعيد بن جبير أيضاً : لا يرجون لله ثواباً ولا يخافون عقاباً ، والرجاء من الأضداد يكون أملا وخوفاً .

(50/784)

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ تارات ومرات حالا بعد حال ، نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ، إلى تمام الخلقة ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ . ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ قال الحسن : يعني في السماء الدنيا . وهذا جائز في كلام العرب ، كما يقال : أتيت بني تميم وأتاني بعضهم ، ويقول : فلان متوار في دور بني فلان ، وإنّما هو في دار واحدة . وقال مقاتل : هو معناه وجعل القمر معهن نوراً لأهل الأرض ، ﴿ فِي ﴾ بمعنى مع . وقال عبد الله بن محمد : وإن الشمس والقمر وجوههما قبل السموات وضوء الشمس ونور القمر منها وأقفيتها قبل الأرض ، وأنا أقرأ بذلك آية من كتاب الله سبحانه ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ مصباحاً مضيئاً .

وقيل لعبد الله بن عمر : ما بال الشمس تُصلينا أحياناً وتبرد علينا أحياناً ، فقال : إنّها في

الصيف في السماء الرابعة وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن ، ولو كانت في السماء الدنيا لما قام لها شيء .

﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ وكان حقّه إنباتاً ولكنّه مصدر مخالف للصدر ، وقال الخليل : مجازه : فنبتم نباتاً ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أمواتاً ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ منها أحياءً ﴿ إِخْرَاجاً * واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ مهاداً يحملكم ويستركم أمواتا ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ طرقاً مختلفة . ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ وهم القادة والأشراف ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ عظيماً يقال : كبر كبار بالتخفيف وكبّار بالتشديد ، كلها بمعنى واحد ونظيره في كلام العرب ، أمر عجيب وعجاب وعجّاب ، ورجل حسان وحسّان ، وكمال وكمّال ، وقرّاء للقاريوو ضّاء للوضي ، وأنشد ابن السكيت :

(51/784)

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي . . . وبالحُسن قلب المسلم القراء

وقال آخر :

والمرء يلحقه بقيتان الندى . . . خُلق الكريم وليس بالوضاء

وقرأ ابن محيص وعيسى : كبارا بالتخفيف ، واختلفوا في معنى مكرهم .

فقال ابن عباس : قالوا قولا عظيماً . الحسن : مكروا في دين الله وأهله مكراً عظيماً .

الضحاك : افتروا على الله وكذّبوا رسله . وقيل : حرّشوا أسفلتهم على قتل نوح .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ لهم ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً ﴾ قرأ أهل المدينة بضم الواو ، وغيرهم بفتحها وهما لغتان ﴿ وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ ﴾ قراءة العامة غير مجرى فيهما ، قال أبو حاتم : لأنهما على بناء فعل مضارع وهما مع ذلك أعجميان . وقرأ الأعمش وأشهب العقيلي : ولا يغوثاً ويعوقاً مصروفين ﴿ وَنَسْراً ﴾ .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، قال : حدّثنا محمد بن بكار بن المرقان ، قال : حدّثنا أبو معشر عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب ، قال : كان لآدم (عليه السلام) خمس بنين : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا عباداً فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان ، فقال : هل لكم أن أصور لكم في قبلتكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه ، قالوا : نكره أن يجعل في قبلتنا شيئاً نصلي إليه ، قال : فأجعله في مؤخّر المسجد .

قالوا : نعم فصوره لهم من صفر ورصاص ، ثمّ مات آخر فصوّره لهم ، ثمّ مات آخر فصوّره لهم ، قال : فنقصت الأشياء كما ينقصون اليوم وأقاموا على ذلك ما شاء الله ، ثمّ تركوا عبادة الله سبحانه فأتاهم الشيطان فقال : ما لكم لا تعبدون شيئاً ، قالوا : من نعبد ؟ قال : هذه آلهتكم وآلهة آبائكم لا ترونها مصوّرة في مصلاّكم ، قال : فعبدوها من دون الله عزّوجل ، حتّى بعث الله عزّوجلّ نوحاً فدعاهم إلى عبادة الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَسْراً ﴾ .

وروى سفيان عن موسى عن محمد بن قيس ، ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح (عليهما السلام) ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا ، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنّما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

(53/784)

قال ابن عباس : كان نوح يحرس جسد آدم على جبل بالهند ، يحول بين الكافرين وبين أن يطوفوا بقبره ، فقال لهم الشيطان : إنّ هؤلاء يفخرون عليكم فيزعمون أنّهم بنو آدم دونكم

وإنّما هو جسد وأنا أصور لكم مثله تطوفون به ، فنحت خمسة أصنام وحملهم على عبادتها وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فلما كان أيام الغرق دفن الطوفان تلك الأوثان وطمّها التراب ، فلم تزل مدفونة حتّى أخرجها الشيطان لمشركي العرب ، فاتخذت قضاعة ودّاً فعبدوها بدومة الجندل ، ثمّ توارثه بنوه الأكابر فالأكابر حتّى صارت إلى كلب فجاء الإسلام وهو عندهم ، وأخذ أعلى وأنعم وهما من طي يغوث فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زماناً ، ثمّ إن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه من أعلى وأنعم ، ففروا به إلى الحصين أخي بني الحرث بن كعب ، وأما يعوق فكان لكهلان ، ثمّ توارثه بنوه الأكبر فالأكبر ، حتّى صار إلى همدان ، وأما نسر فكان لخثعم يعبدونه ، وأما سواع فكان لآل ذي الكلاع يعبدونه .

وقال عطاء وقتادة والثمالي والمسيب : صارت أوثان قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب بدومة الجندل ، وكان سواع برهاط لهذيل ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجوف ، وكان يعوق لهمدان ، وكان نسر لآل ذي الكلاع من حمير ، وأما اللات فلثقيف ، وأما العزى فلسليم وغطفان وخثعم ونصر وسعيد بن بكر ، وأما مناة فكانت لقديد ، وأما أساف ونائلة وهبل فلأهل مكّة ، وكان أساف حيال الحجر الأسود ، وكانت نائلة حيال الركن اليماني ، وكان هبل في جوف الكعبة ثمانية عشر ذراعاً .

وقال الواقدي : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير .

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ أي ضل بعبادتها وبسببها كثيراً من الناس نظيره ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 36] ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً * مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ أي من خطاياهم و (ما) صلة وقرأ أبو عمروا خطاياهم ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ الله أَنصَاراً ﴾ وقرأ أبو حيوة والأعمش : مما خطتهم على الواحد ، وروى أبو روق عن الضحاك في قوله سبحانه : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ قال : يعني في الدنيا في حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون في الماء من جانب .

أنشدنا أبو القيّم الحسن قال : أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رمح ، قال : أنشدنا أبو بكر بن الأنبازي :

الخلق مجتمع طوراً ومفترق . . . والحادثات فنون ذات أطوار

لا تعجبنّ لأضداد إن اجتمعت . . . فالله يجمع بين الماء والنار

﴿ وَقَالَ نُوحٌ ﴾ قال مقاتل : نوح بالسريانية الساكن ، وإنّما سمّي نوحاً ؛ لأنّ الأرض سكنت إليه ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ . أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيى ، وهو فيعال من الدوران مثل القيام أصله قيوام وديّوار .

وقال القتيبي : أصله من الدار أي نازل داراً ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ قال ابن عباس : كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول : احذر هذا فإنّه كذّاب وإن أبي حذّرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير عليه .

(55/784)

﴿ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ يعني : من سيكفر ويفجر . قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد : إنّما قال نوح (عليه السلام) هذا حين أخرج الله تعالى كلّ مؤمن أصلابهم وأرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة ، وقيل : سبعين سنة وأخبر الله سبحانه وتعالى نوحاً أنّهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً ، فحينئذ دعا عليهم نوح ، فأجاب الله سبحانه دعاءه فأهلكهم كلّهم ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب . وقال أبو العالية والحسن : لو أهلك أطفالهم معهم لكان عذاباً من الله لهم ، ولكن الله تعالى أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم ، والدليل عليه قوله سبحانه : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان : 37] وقد علمنا أن الأطفال لم يكذّبوا الرسل وإنّما وقع العذاب على المكذّبين .

﴿ رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ أي داري ، وقال الضحاك : مسجدي

، وقيل : سفينتي ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ عامة وقال الكلبي : من أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلا تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ هلاكاً ودماراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 43. 48 ﴾

(56/784)

وقال الزمخشرى :

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وهي ثمان وعشرون آية [نزلت بعد النحل] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة نوح (71) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

أَنْ أَنْذِرْ أصله : بأن أنذر ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وهي أن الناصبة للفعل ، والمعنى : أرسلناه بأن قلنا له أنذر ، أى : أرسلناه بالأمر بالإنظار . ويجوز أن تكون مفسّرة ، لأنّ

الإرسال فيه معنى القول . وقرأ ابن مسعود : أنذر بغير «أن» على إرادة القول . وأَنِ اعْبُدُوا نحو أَنْ أَنْذِرْ في الوجهين . فإن قلت : كيف قال ويُؤَخِّرْكُمْ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى اللّه مثلا أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى ، أى : إلى وقت سماه اللّه وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف . ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير .

[سورة نوح (71) : الآيات 5 إلى 20]

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً

(18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

(57/784)

لَيْلًا وَنَهارًا دائبا من غير فتور مستغرقا به الأوقات كلها فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار. والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فرارا، لأنه سبب الزيادة. ونحوه فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ، فَزادَتْهُمْ إِيماناً لِتَغْفِرَ لَهُمْ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم، فذكر المسبب الذي هو حظهم خالصا ليكون أقبح لإعراضهم عنه. سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وتغطوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين اللّه. وقيل: لئلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ. الإصرار: من أصر الحمار على العانة «1» إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها: استعير للإقبال على المعاصي والإكباب عليها وَاسْتَكْبَرُوا وأخذتهم العزة من «2» اتباع نوح وطاعته، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استقبالهم وعتوهم. فإن قلت: ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا، ثم دعاهم جهارا، ثم دعاهم في السر والعلن، فيجب أن تكون ثلاث

دعوات مختلفات حتى يصح العطف . قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر :

في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى ثُمَّ الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين ، أغلظ من إفراد أحدهما .

وجِهاراً

---

(1) . قوله «من أصر الحمار على العانة» هي القطيع من حمر الوحش ، والكدم : العض بأدنى الفم . أفاده الصحاح . وفيه : صر الفرس أذنيه ضمها إلى رأسه ، فإذا لم يوقعوا قالوا : أصر الفرس بالألف اه ، يعنى : إذا لم يجعلوا الفعل متعديا إلى مفعول . (ع)

(2) . قوله «وأخذتهم العزة من اتباع نوح» لعله : عن . (ع)

منصوب بدعوتهم ، نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود . أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم . ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعاء جهارا ، أى : مجاهرا به . أو مصدرا في موضع الحال

، أى : مجاهرا .

أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي ، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة ، ترغيبا في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين ، كما قال وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة : حبس اللّه عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة . وروى : سبعين .

فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم اللّه تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه . وعن عمر رضى اللّه عنه : أنه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر «1» . شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ .

وعن الحسن : أنّ رجلا شكا إليه الجدب فقال . استغفر اللّه ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ! فتلا له هذه الآية .

والسماء :

المظلة لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب ، ويجوز أن يراد السحاب أو المطر ، من قوله .

إذا نزل السّماء بأرض قوم «2»

والمدرار : الكثير الدرور ، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم : رجل أو امرأة معطار ومتفال جَنَّاتٍ بساتين لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً لا تأملون له توقيرا أى تعظيما .

والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم اللّه إياكم في دار الثواب «3» ، لِلَّهِ بيان للموقر ، _____

(1) . أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والطبراني في الدعاء والطبري وغيرهم من رواية الشعبي : أن عمر . . .

بهذا وزاد : ثم قرأ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً ورجاله ثقات ، إلا أنه منقطع .

(2) إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

تطلق السماء على المظلة ، وعلى السحاب ، وعلى المطر كما هنا ، لما فيه من السمو والارتفاع ، وتطلق على النبات مجازا ، لأن المطر سببه ، فلذلك قال : رعيناه ، ففي الكلام استخدام ، حيث أطلق السماء بمعنى ، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر ، والغضاب : جمع غضبان والمعنى : أننا شجعان دون غيرنا .

(3) . قال محمود : «ما لكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم اللّه تعالى . . . الخ»

قال أحمد : وهذا التفسير يبقى الرجاء على بابه الخ .

ولو تأخر لكان صلة للوقار . وقوله وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوارًا في موضع الحال ، كأنه قال : ما لكم لا تؤمنون باللّه والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ، لأنه خلقكم أطوارا : أى تارات : خلقكم أوّلا ترابا ، ثم خلقكم نطفا ، ثم خلقكم علقا ، ثم خلقكم مضغا ، ثم خلقكم عظاما ولحما ، ثم أنشأكم خلقا آخر . أو لا تخافون للّه حلما وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا ؟ وقيل : ما لكم لا تخافون للّه عظمة ؟ وعن ابن عباس : لا تخافون للّه عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب ، من «وقر» إذا ثبت واستقرّ . نبههم على النظر في أنفسهم أوّلا ، لأنها أقرب منظور فيه منهم ، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السماوات والأرض والشمس والقمر فِيهِنَّ في السماوات ، وهو في السماء الدنيا ، لأنّ بين السماوات ملابسة من حيث أنها طباق «1» فجاز أن يقال : فيهنّ كذا ، وإن لم يكن في جميعهنّ ، كما يقال : في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها . وعن ابن عباس وابن عمر رضى اللّه عنهما : أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وظهورهما مما يلي الأرض «2» وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى

إبصاره ، والقمر ليس كذلك ، إنما هو نور لم يبلغ قوّة ضياء الشمس . ومثله قوله تعالى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً والضياء : أقوى من النور .

استعير الإنبات للإنشاء ، كما يقال : زرعك اللّه للخير ، وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث «3» ، لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات : ومنه قيل للحشوية : النابتة والنوابت ، لحدوث مذهبهم في الإسلام من غير أوّلية لهم فيه «4» . ومنه قولهم : نجم فلان لبعض المارقة . والمعنى :

أنبتكم فنبتم نباتا . أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها مقبورين ثم يُخْرِجُكُمْ يوم القيامة ، وأكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقا ولا محالة . جعلها بساطا مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه فِجاجاً واسعة منفجة .

---

(1) . قال محمود : «وإنما هو في السماء الدنيا لأن بين السماوات وبين السماء الدنيا مناسبة» قال أحمد : ويلاحظ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ .

(2) . حديث ابن عباس موقوف ، أخرجه ابن مردويه في يونس من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عنه بهذا . بلفظ «وأقفيتهما إلى الأرض» وروى الحاكم منه ذكر القمر حسب . وحديث ابن عمر رضى اللّه عنهما مثله» أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال عبد اللّه بن عمر : فذكره موقوفا . وروى الطبري من طريق هشام الدستوائى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد اللّه بن عمر . «تنبيه»

وقع في الأصل ابن عمر مصحف . وإنما هو عمر ورضى اللّه عنهما .

(3) . قوله «أدل على الحدوث» لعله : أدل دليل على الحدوث . (ع)

(4) . قوله «من غير أولية لهم فيه» إن كان مراده بالحشوية أهل السنة ، فأوليتهم في مذهبهم : الكتاب والسنة . (ع)

(60/784)

[سورة نوح (71) : الآيات 21 إلى 24]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24)

وَاتَّبَعُوا رؤسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد ، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام ، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة في الدنيا زائدة خَساراً في الآخرة ، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها ، تحقيقا له وتثبيتا ، وإبطالا لما سواه . وقرئ : وولده بضم الواو وكسرها وَمَكَرُوا معطوف على لم يزده ، وجمع الضمير وهو راجع إلى من ، لأنه في معنى الجمع والماكرون : هم الرؤساء .

ومكرهم : احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح ، وتحريش الناس على أذاه ، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه . وقولهم لهم : لا تذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح مَكْراً كُبَّاراً قرئ بالتخفيف والتثقيل . والكبار : أكبر من الكبير . والكبار : أكبر من الكبار ، ونحوه : طوال وطوّال وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم ، فخصوها بعد قولهم لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب ، فكان ودّ لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير ، ولذلك سمت العرب بعبد ودّ وعبد يغوث . وقيل هي أسماء رجال صالحين . وقيل : من أولاد آدم ماتوا ، فقال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ، ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم :

إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم . وقيل : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر .

وقرئ : ودّا ، بضم الواو . وقرأ الأعمش : ولا يغوثا ويعوقا ، بالصرف ، وهذه قراءة مشكلة ، لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف : إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما ، لمصادفته أخواتهما منصرفات ودا وسواعا ونسرا ، كما قرئ :

وضحاها بالإمالة ، لوقوعه مع الممالات للازدواج وَقَدْ أَضَلُّوا الضمير للرؤساء . ومعناه :

وقد أضلوا كَثِيراً قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ليسوا بأوّل من أضلوهم. أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرا، يعنى أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة. ويجوز أن يكون للأصنام، كقوله تعالى إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ. فإن قلت: علام عطف قوله

(61/784)

وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ؟ قلت: على قوله رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائبة عنه: ومعناه: قال رب إنهم عصوني، وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالا، أى: قال هذين القولين وهما في محل النصب، لأنهما مفعولا «قال» كقولك: قال زيد نودي للصلاة وصل في المسجد، تحكى قوليه معطوفا أحدهما على صاحبه. فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو اللّه بزيادته؟ قلت: المراد بالضلال: أن يخذلوا «1» ويمنعوا الألطاف «2»، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به، بل لا يحسن الدعاء بخلافه. ويجوز أن يريد بالضلال: الضياع والهلاك، لقوله تعالى وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً.

[سورة نوح (71): الآيات 25 إلى 27]

مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25) وَقالَ نُوحٌ رَبِّ

لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27)

تقديم مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان ، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم ، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وفي قراءة ابن مسعود : من خطيئاتهم ما أغرقوا ، بتأخير الصلة ، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا ، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهنّ . وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ، ولم يفرق بينه وبينهن في استيجاب العذاب ، لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ، ويعلم أنّ معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى . وقرئ : خطيئاتهم بالهمزة . وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها . وخطاياهم . وخطيئتهم . بالتوحيد على إرادة الجنس . ويجوز أن يراد الكفر فَأُدْخِلُوا ناراً جعل دخولهم النار في الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم ، لاقترابه ، ولأنه كائن لا محالة ، فكأنه قد كان . أو أريد عذاب القبر . ومن مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع والطير : أصابه ما يصيب المقبور من العذاب . وعن الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب . وتنكير النار إما لتعظيمها ، أو لأن اللّه أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً تعريض باتخاذهم آلهة من دون اللّه وأنها غير قادرة

---

(1) . قوله «يخذلوا ويمنعوا مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر ولا يفعله ،

وأجيب : بأنه إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعلمه اللّه تعالى أنهم لا يؤمنون ، حيث قال له : إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل الشر كخلق الضلال في القلب ، لأن فعله لا يخلو عن حكمة . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «كيف جاز أن يريد الضلال ، وأجاب بأن المراد به منع الألطاف»

قلت : هذا على قاعدته .

(62/784)

على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال : فلم يجدوا لهم من دون اللّه آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب اللّه ، كقوله تعالى أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا . ديّارا من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال : ما بالدار ديار وديور ، كقيام وقيوم ، وهو فيعال من الدور . أو من الدار ، أصله ديوار ، ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ، ولو كان فعالا لكان دوّارا . فإن قلت : بم علم أن أولادهم يكفرون ، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟ قلت : لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ، ويقول : احذر هذا ، فإنه كذاب ، وإن أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ

الصغير على ذلك ، وقد أخبره اللّه عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، ومعنى لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه» «1»

[سورة نوح (71) : آية 28]

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً (28)

وَلِوالِدَيَّ أبوه لمك بن متوشلخ ، وأمه شمخا بنت أنوش : كانا مؤمنين . وقيل . هما آدم وحواء . وقرأ الحسين بن على : ولولدي ، يريد : ساما وحاما بَيْتِيَ منزلي . وقيل : مسجدى . وقيل : سفينتي ، خص أوّلا من يتصل به ، لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عم المؤمنين والمؤمنات تَباراً هلاكا . فإن قلت : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا ؟ قلت : غرقوا معهم لا على وجه العقاب «2» ، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت ، وكم منهم من يموت بالغرق والحرق ، وكأن ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمّهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون .

---

(1) . متفق عليه ، وقد تقدم .

(2) . قال محمود : «ما موجب إغراقهم حين أغرقوا ، وأجاب بأنهم ما أغرقوا لا على وجه العقاب . . . الخ» قال أحمد : هذا السؤال مفصح عما في باطنه من وجوب تعليل

أفعال اللّه تعالى ، وعليه يبنى أنه لا يجوز الألم من اللّه تعالى إلا باستحقاق سابق ، أو لأعواض مترقبة ، أو لغير ذلك من المصالح ، بناء على القاعدة لهم في الصلاح والأصلح والصبيان لا جناية سبقت منهم ولا عوض يترقب فيهم . فبرد السؤال على ذلك . وأما أهل السنة فاللّه تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح ، وينجر الكلام منها إلى حكم اللّه علينا في العدو إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم أن ذلك لا يوجب الاكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية ، ويستدل برمي النبي صلى اللّه عليه وسلم على أهل الطائف بالمجانيق . وقيل له فيهم الذرية ، فقال : هم من آبائهم ، وأما رميهم بالنار وفيهم الذرية : فمنعه مالك رحمه اللّه ، إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها ، واللّه تعالى أعلم .

(63/784)

ومنه قوله عليه السلام «يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى» «1» وعن الحسن :

أنه سئل عن ذلك فقال : علم اللّه براءتهم فأهلكهم بغير عذاب . وقيل : أعقم اللّه أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة ، فلم يكن معهم صبى

حين أغرقوا .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 615.

622 ﴾

---

(1) . أخرجه مسلم من طريق ابن الزبير عن عائشة رضى اللّه عنها .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(64/784)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِه ﴾

روى قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول نبي أُرسل نوح " قال قتادة : بعث من الجزيرة .

واختلف في سنه حين بعث :

قال ابن عباس : بعث وهو ابن أربعين سنة .

وقال عبد اللَّه بن شداد : بعث وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة .

وقال إبراهيم بن زيد : إنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه في الدنيا .

﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يأتيَهم عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني عذاب النار في الآخرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : عذاب الدنيا ، وهو ما ينزل عليهم بعد ذلك من الطوفان ، قاله الكلبي ، وكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيباً ، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، فيقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

﴿ يَغْفِرْ لكم مِن ذُنوبكم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن " من " صلة زائدة ، ومعنى الكلام يغفر ذنوبكم ، قاله السدي .

الثاني : أنها ليست صلة ، ومعناه يخرجكم من ذنوبكم ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : معناه يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها ، قاله ابن شجرة .

﴿ ويُؤَخِّرْكم إلى أجَلٍ مُسمى ﴾ يعني إلى موتكم وأجلكم الذي خط لكم ، فيكون موتكم بغير عذاب إن آمنتم .

﴿ إنّ أَجَلَ اللَّه إذا جاءَ لا يُؤخَّرُ لو كنتم تَعْلَمونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني بأجل اللَّه الذي لا يؤخر يوم القيامة ، جعله اللَّه أجلاً للبعث ، قاله الحسن .

الثاني : يعني أجل الموت إذا جاء لم يؤخر ، قاله مجاهد .

الثالث : يعني أجل العذاب إذا جاء لا يؤخر ، قاله السدي .

وفي قوله : " لو كنتم تعلمون " وجهان :

أحدهما : أن ذلك بمعنى إن كنتم تعلمون .

الثاني : لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل اللَّه إذا جاء لا يؤخر ، قاله الحسن .

﴿ قال رَبِّ إنّي دَعَوْتُ قَوْمي ليلاً ونهاراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : دعوتهم ليعبدوك ليلاً ونهاراً .

(65/784)

الثاني : دعوتهم ليلاً ونهاراً إلى عبادتك .

﴿ فلم يَزِدْهم دُعائي إلاّ فِراراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إلا فراراً من طاعتك .

الثاني : فراراً من إجابتي إلى عبادتك .

قال قتادة : بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح ، فيقول لابنه : احذر هذا لا يغرنك فإن أبي قد ذهب بي غليه وأنا مثلك ، فحذرني كما حذرتك .

﴿ وإنّي كلما دَعَوْتُهم لِتَغفِرَ لهم ﴾ يعني كلما دعوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم ما تقدم من الشرك .

﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ لئلا يسمعوا دعاءه ليؤيسوه من إجابة ما لم يسمعوه ، قال محمد بن إسحاق : كان حليماً صبوراً .

﴿ واستغْشَوا ثيابَهم ﴾ أي عطوا رؤسهم وتنكروا لئلا يعرفهم .

﴿ وأَصَرُّوا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه إقامتهم على الكفر ، قال قتادة : قدماً قدماً في معاصي اللَّه لالتهائهم عن مخافة اللَّه حتى جاءهم أمر اللَّه .

الثاني : الإصرار : أن يأتي الذنب عمداً ، قاله الحسن .

الثالث : معناه أنهم سكتوا على ذنوبهم فلم يستغفروا قاله السدي .

﴿ واستكْبَروا استكباراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن ذلك كفرهم باللَّه وتكذيبهم لنوح ، قاله الضحاك .

الثاني : أن ذلك تركهم التوبة ، قاله ابن عباس ، وقوله " استبكارا " تفخيم .

﴿ ثم إنّي دَعْوتُهم جِهاراً ﴾ أي مجاهرة يرى بعضهم بعضاً .

﴿ ثم إني أعْلَنْتُ لهم ﴾ يعني الدعاء ، قال مجاهد : معناه صِحْتُ .

﴿ وأَسَرَرْتُ لهم إسْراراً ﴾ الدعاء عن بعضهم من بعض ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه دعاهم في وقت سراً ، وفي وقت جهراً .

الثاني : دعا بعضهم سراً وبعضهم جهراً ، وكل هذا من نوح مبالغة في الدعاء وتلطفاً في

الاستدعاء .

﴿ فقلتُ استغْفِروا ربّكم إنّه كان غفّاراً ﴾ وهذا فيه ترغيب في التوبة ، وقد روى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الاستغفار ممحاة للذنوب " .

وقال : الفضيل : يقول العبد استغفر اللَّه ، قال : وتفسيرها أقلني .

(66/784)

﴿ يُرْسِلِ السماءَ عليكم مِدْراراً ﴾ يعني غيثاً متتابعاً ، وقيل إنهم كانوا قد أجدبوا أربعين سنة ، حتى أذهب الجدب أموالهم وانقطع الولد عن نسائهم ، فقال ترغيباً في الإيمان .

﴿ ويُمْدِدْكم بأموالٍ وبنينَ ويَجْعَل لكم جنّاتٍ ويَجْعَل لكم أنهاراً ﴾ قال قتادة : علم نبي اللَّه نوح أنهم أهل حرص على الدنيا ، فقال هلموا إلى طاعة اللَّه فإن من طاعته درك الدنيا والآخرة .

﴿ ما لكم لا ترجون للَّه وقاراً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : ما لكم لا تعرفون للَّه عظمة ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

الثاني : لا تخشون للَّه عقاباً وترجون منه ثواباً ، قاله ابن عباس في رواية ابن جبير .

الثالث : لا تعرفون للَّه حقه ولا تشكرون له نعمه ، قاله الحسن .

الرابع : لا تؤدون للَّه طاعة ، قاله ابن زيد .

الخامس : أن الوقار الثبات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ [الأحزاب : 33] أي اثبتن ، ومعناه لا تثبتون وحدانية اللَّه وأنه إلهكم الذي لا إله لكم سواه ، قال ابن بحر : دلهم على ذلك فقال : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ في وجهان :

أحدهما : يعني طوراً نطفة ، ثم طوراً علقة ، ثم طوراً مضغة ، ثم طوراً عظماً ، ثم كسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر أنبتنا له الشعر وكملت له الصورة ، قاله قتادة .

الثاني : أن الأطوار اختلافهم في الطول والقصر ، والقوة والضعف والهم والتصرف ، والغنى والفقر .

ويحتمل ثالثاً : أن الأطوار اختلافهم في الأخلاق والأفعال .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كيف خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سمواتٍ طِباقاً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنهن سبع سموات على سبع أرضين ، بين كل سماء وأرض خلق ، وهذا قول الحسن .

والثاني : أنهن سبع سموات طباقاً بعضهن فوق بعض ، كالقباب ، وهذا قول السدي .

﴿ وجَعَلَ القَمَرَ فيهنّ نُوراً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه وجعل القمر فيهن نوراً لأهل الأرض ، قاله السدي .

الثاني : أنه جعل القمر فيهن نوراً لأهل السماء والأرض ، قاله عطاء .

وقال ابن عباس : وجهه يضيء لأهل الأرض ، وظهره يضيء لأهل السماء .

﴿ وجَعَل الشّمْسَ سِراجاً ﴾ يعني مصباحاً لأهل الأرض ، وفي إضافته لأهل السماء القولان الأولان .

﴿ واللَّه أَنْبَتكُم مِنَ الأرضِ نَباتاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني آدم خلقه من أديم الأرض كلها ، قاله ابن جريج ، وقال خالد بن معدان : خلق الإنسان من طين ، فإنما تلين القلوب في الشتاء .

الثاني : أنبتهم من الأرض بالكبر بعد الصغر ، وبالطول بعد القصر ، قاله ابن بحر .

الثالث : أن جميع الخلق أنشأهم باغتذاء ما تنبته الأرض وبما فيها ، وهو محتمل .

﴿ ثم يُعيدكم فيها ﴾ يعني أمواتاً في القبور .

﴿ ويُخْرِجُكم إخراجاً ﴾ لنشور بالبعث .

﴿ واللَّهُ جَعَل لكم الأرضَ بِساطاً ﴾ أي مبسوطة ، وفيه دليل على أنها مبسوطة .

﴿ لِتَسْلُكوا منها سُبُلاً فجاجاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : طرقاً مختلفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : طرقاً واسعة ، قاله ابن كامل .

الثالث : طرقاً أعلاماً ، قاله قتادة .

﴿ قال نوحٌ ربِّ إنهم عَصَوْني ﴾ قال أهل التفسير : لبث فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم ، وهم على كفرهم وعصيانهم ، قال ابن عباس :

رجا نوح الأبناء بعد الآباء ، فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبعة قرون ، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، حتى كثر الناس وفشوا .

قال الحسن : كان قوم نوح يزرعون في الشهر مرتين .

﴿ واتّبَعوا مَنْ لم يَزِدْه مالُه وولَدُه إلاّ خَساراً ﴾ قرىء ولده بفتح الواو وضمها ، وفيهما قولان :

أحدهما : أن الولد بالضم الجماعة من الأولاد ، والولد بالفتح واحد منهم ، قاله الأعمش ، قال الربيع بن زياد :

وإن تكَ حَرْبُكم أمست عواناً . . . فإني لم أكُنْ مّمن جَناها

ولكن وُلْدُ سَوْدةَ أرّثوها . . . وحَشّوا نارها لمن اصطلاها

﴿ ومَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً ﴾ أي عظيماً ، والكبّار أشد مبالغة من كبير .

وفيه وجهان ، أحدهما : ما جعلوه للَّه من الصاحبة والولد ، قاله الكلبي .

الثاني : هو قول كبرائهم لأتباعهم : ﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ﴾ الآية ، قاله مقاتل .

وفي هذه الأصنام قولان :

أحدهما : أنها كانت للعرب لم يعبدها غيرهم ويكون معنى الكلام : كما قال قوم نوح لأتباعهم لا تذرن آلهتكم ، قالت العرب مثلهم لأولادهم وقومهم لا تذرنّ وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، ثم عاد الذكر بعد ذلك إلى قوم نوح .

واختلف في هذه الأسماء ، فقال عروة بن الزبير : اشتكى آدم وعنده بنوه ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكان ود أكبرهم وأبرهم به ، وقال غيره : إن هذه الأسماء كانت لرجال قبل قوم نوح ، فماتوا فحزن عليهم أبناؤهم حزناً شديداً ، فزين لهم الشيطان أن يصورهم لينظروا إليهم ففعلوا ، ثم عبدها أبناؤهم من بعدهم . وقال محمد بن كعب : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح فحدث بعدهم من أخذ في العبادة مأخذهم ، فزين لهم إبليس أن يتصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم ، ثم عبدها من بعدهم قوم نوح ، ثم انتقلت بعدهم إلى العرب فعبدها ولد إسماعيل .

فأما ود فهو أول صنم معبود ، سمي بذلك لودهم له ، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة

الجندل من قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حيّاك ودٌّ فإنا لا يحل لنا . . . لهْوُ النساءِ وإنّ الدينَ قد عزمَا .

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، في قولهم ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ ، في قول قتادة ، وقال مقاتل : حي من نجران .

قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص وكانوا يحملونه على جمل أجرد ، ويسيرون معه لا يهيجونه ، حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل ، فيضربون عليه بناء وينزلون حوله .

وأما يعوق فكان لهمدان ببلخع ، في قول قتادة وعكرمة وعطاء .

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول عطاء ونحوه عن مقاتل .

(69/784)

﴿ وقد أَضَلّوُا كثيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريد أن هذه الأصنام قد ضل بها كثير من قومه .

الثاني : أن أكابر قومه قد أضلوا كثيراً من أصاغرهم وأتباعهم .

﴿ ولا تَزِدِ الظّالمينّ إلاَّ ضَلالاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا عذاباً ، قاله ابن بحر واستشهد بقوله تعالى :

﴿ إن المجرمين في ضَلالٍ وسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] .

الثاني : إلا فتنة بالمال والولد ، وهو محتمل .

﴿ وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافرين ديّارا ﴾ اختلفوا في سبب دعاء نوح على قومه بهذا على قولين :

أحدهما : أنه لما نزلت عليه قوله تعالى : ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : 36] دعا عليهم بهذا الدعاء ، قاله قتادة .

الثاني : أن رجلاً من قومه حمل ولده صغيراً على كتفه ، فمر بنوح ، فقال لابنه : إحذر هذا فإنه يضلك فقال : يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجّهُ ، فحينئذٍ غضب نوح ودعا عليهم .

وفي قوله ﴿ ديّاراً ﴾ وجهان :

أحدهما : أحداً ، قاله الضحاك .

الثاني : من يسكن الديار ، قاله السدي .

﴿ ربِّ اغْفِرْ لي ولوالدَيّ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد أباه ، واسمه لمك ، وأمه واسمها منجل ، وكانا مؤمنين ، قاله الحسن .

الثاني : أنه أراد أباه وجده ، قاله سعيد بن جبير .

﴿ ولمن دَخَل بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني صديقي الداخل إلى منزلي ، قاله ابن عباس .

الثاني : من دخل مسجدي ، قاله الضحاك .

الثالث : من دخل في ديني ، قاله جويبر .

﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد من قومه .

الثاني : من جميع الخلق إلى قيام الساعة ، قاله الضحاك .

﴿ ولا تَزِدِ الظالمينَ ﴾ يعني الكافرين .

﴿ إلا تباراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هلاكاً .

الثاني : خساراً ، حكاهما السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 98 .

106 ﴾

(70/784)

وقال ابن الجوزى :

سورة نوح عليه السلام

قوله تعالى : ﴿ أن أنذر قومك ﴾

أي : بأن أنذر قومك .

و"العذاب الأليم" ، الغَرَق .

قوله تعالى : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وعلي بن نصر عن أبي عمرو "أنُ اعبدوا الله" بضم النون .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، وعبد الوارث عن أبي عمرو "أنِ اعبدوا الله" بكسر النون .

قال أبو علي : من ضم كره الكسر .

قوله تعالى : ﴿ وأطيعونِ ﴾ أثبت الياء في الحالين يعقوب .

قوله تعالى : ﴿ من ذنوبكم ﴾ "مِن" هاهنا صلة .

والمعنى : يغفر لكم ذنوبَكم ، قاله السدي ، ومقاتل .

وقال الزجاج : إنما دخلت "من" هاهنا لتختص الذنوب من سائر الأشياء ، ولم تدخل لتبعيض الذنوب ، ومثله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : 30] وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها للتبعيض .

والمعنى : يغفر لكم من ذنوبكم إلى وقت الإيمان ﴿ ويؤخركم ﴾ أي : عن العذاب ﴿ إلى

أجل مسمى ﴾ وهو منتهى آجالهم .

والمعنى : فتموتوا عند منتهى آجالكم غير مِيتة المعذَّبين ﴿ إنَّ أجلَ الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أجل الموت ، قاله مجاهد .

فيكون المعنى : إن أجل الله الذي أَجَّلكم إليه ، لا يُؤَخَّرُ إذا جاءَ ، فلا يمكنكم حينئذ الإيمان .

والثاني : أنه أجل البعث ، قاله الحسن .

والثالث : أجل العذاب ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي : تباعداً من الإيمان ﴿ وإني كلما دعوتهم ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ لئلا يسمعوا صوتي ﴿ واستغْشَوْا ثيابهم ﴾ أي : غطوا بها وجوههم لئلا يَرَوْني ﴿ وأصَرُّوا ﴾ على كفرهم ﴿ واستكبروا ﴾ عن الإيمان بك واتِّباعي ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي : معلناً لهم بالدعاء .

قال ابن عباس : بأعلى صوتي ﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي : كرَّرت الدعاء معلناً ﴿ وأسررت لهم إِسراراً ﴾ قال ابن عباس : يريد أكلِّم الرجل بعد الرجل في السِّرِّ ، وأدعوه إلى توحيدك وعبادتك ﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ قال المفسرون : منع الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة ، فقال لهم نوح ﴿ استغفروا ربكم ﴾ من الشرك ، أي : استدعوا مغفرته بالتوحيد ﴿ يرسلِ السماء عليكم مدراراً ﴾ قد شرحناه في أول [الأنعام : 6] ومعنى الكلام أنه أخبرهم أن الإيمان يجمع لهم خير الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا تَرَوْن لله عظمة ، قال الفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : لا تخافون عظمة الله ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : لا تَرَوْن لله طاعة ، قاله ابن زيد .

والرابع : لا ترجون عاقبة الإيمان والتوحيد ، قاله الزجاج ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أي : وقد جعل لكم في أنفسكم آيةً تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة ، ثم من علقة شيئاً بعد شيء إلى آخر الخلق .

قال ابن الأنباري : الطَّوْر : الحال ، وجمعه : أطوار .

وقال ابن فارس : الطَّوْر : التارة ، طوراً بعد طور ، أي : تارةً بعد تارة .

وقيل أراد بالأطوار : اختلاف المناظر والأخلاق ، من طويل ، وقصير ، وغير ذلك ، ثم

قَرَّرَهم ، فقال تعالى : ﴿ ألم تَرَوْا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : "طباقٍ" بتنوين القاف ، وكسرها من غير ألف .

وقد بيَّنَّا هذا في سورة [الملك : 3] .

قوله تعالى : ﴿ وجعل القمر فيهنَّ نوراً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن وجهَ القمر قِبَل السموات ، وظهرَه قِبَل الأرض ، يضيء ، لأهل السموات ، كما يضيء لأهل الأرض ، وكذلك الشمس ، هذا قول عبد الله ابن عمرو .

والثاني : أن القمر في السماء الدنيا ، وإنما قال "فيهن" لأنهن كالشيء الواحد ، ذكره الأخفش والزجاج ، وغيرهما .

(72/784)

وهذا كما تقول : أتيت بني تميم ، وإنما أتيتَ بعضهم ، وركبتُ السفن ، ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ يستضيء بها العالم ﴿ والله أنبتكم من الأرض ﴾ يعني : أن مبتدأ خلقكم من الأرض ، وهو آدم ﴿ نباتاً ﴾ قال الخليل : معناه : فنبتُّم نباتاً .

وقال الزجاج : "نباتاً" محمول في المصدر على المعنى ، لأن معنى أنبتكم : جعلكم تنبتون نباتاً .

قال ابن قتيبة : هذا مما جاء فيه المصدر على غير المصدر ، لأنه جاء على نبت .

ومثله : ﴿ وتبتَّل إليه تبتيلاً ﴾ [المزمل : 8] فجاء على "بَتَّل" .

قال الشاعر :

وَخَيْرُ الأَمْرِ ما استقبلتَ من . . .

ه وليس بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتّباعاً

فجاء على اتَّبَعْتُ .

وقال الآخر :

وإن شئتم تعاودنا عواداً . . .

فجاء على "عوادنا" وإنما تجيء المصادر مخالفة الأفعال ، لأن الأفعال وإن اختلفت أبنيتها ، واحدة في المعنى .

قوله تعالى : ﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ قال الفراء : هي الطرق الواسعة .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبعوا مَنْ لم يزده ماله وولدُه ﴾ قرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وعاصم ، "ووَلَده" بفتح اللام والواو .

وقرأ الباقون "وُلْده" بضم الواو ، وسكون اللام .

قال الزجاج : وهما بمعنى واحد ، مثل العَرَب ، والعُرْب ، والعَجَم ، والعُجْم ، وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، والجحدري ، "وَوِلْده" بكسر الواو ، وإسكان اللام .

قال المفسرون : المعنى : أن الأتباع ، والفقراء اتَّبَعوا رَأْيَ الرؤساء والكبراء .

قوله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً كُبَّاراً ﴾ قرأ أبو رجاء ، وأبو عمران : "كُبَارا" برفع الكاف ، وتخفيف الباء .

وقرأ ابن يعمر ، وأبو الجوزاء ، وابن محيصن : "كِبَارا" بكسر الكاف مع تخفيف الباء .

والمعنى : "كبيراً" يقال : كبير ، وكبار ، وقد شرحنا هذا في أول ﴿ ص ﴾ ومعنى "المكر" : السعي في الفساد .

(73/784)

وذلك أن الرؤساء منعوا أتباعهم من الإيمان بنوح ﴿ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتَكم ﴾ أي : لا تَدَعُنَّ عبادتها ﴿ ولا تَذَرُنَّ وداً ﴾ قرأ أبو جعفر ، ونافع بضم الواو .

والباقون بفتحها .

وهذا الاسم وما بعده أسماء آلهتهم .

وجاء في التفسير أن هذه أسماء قوم صالحين ، كانوا بين آدم ونوح .

ونشأ قوم بعدهم يأخذون بأخذهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صُوَرَهُمْ كان أنشط لكم ، وأشوق للعبادة ، ففعلوا .

ثم نشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم ، وكان ابتداء عبادة الأوثان من ذلك الوقت .

وسميت تلك الصور بهذه الأسماء ، لأنهم صوروها على صور أولئك القوم المسمّين بهذه الأسماء .

وقيل : إنما هي أسماء لأولاد آدم ، مات ، منهم واحد ، فجاء الشيطان فقال : هل لكم أن أصور لكم صورته ، فتذكرونه بها ؟ فصورها .

ثم مات آخر ، فصور لهم صورته ، إلى أن صور صوراً خمسة .

ثم طال الزمان .

وتركوا عبادة الله ، فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ؟ فقالوا : لمن نعبد ؟ قال هذه آلهتكم ، وآلهة آبائكم ، ألا ترونها مصوَّرة في مصلاكم ؟ ! فعبدوها .

وقال الزجاج : هذه الأصنام كانت لقوم نوح ، ثم صارت إلى العرب ، فكان "ود" لكلب ، و "سواع" لهمدان ، و"يغوث" لبني غطيف ، وهم حي من مراد .

وقيل : لما جاء الطوفان غطى على هذه الأصنام وطمَّها التراب ، فلما ظهرت بعد الطوفان صارت إلى هؤلاء المذكورين ، قال الواقدي : كان "ود" على صورة رجل ، "وسواع" على صورة امرأة ، "ويغوث" على صورة أسد ، و "يعوق" على صورة فرس ، و "نسر" على صورة النسر من الطير .

قوله تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : وقد أضلت الأصنام كثيراً من الناس ، أي : ضلوا بسببها .

والثاني : وقد أضلَّ الكبراء كثيراً من الناس ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ يعني : الكافرين ﴿ إلا ضلالاً ﴾ وهذا دعاء من نوح عليهم ، لما أعلمه الله أنهم لا يؤمنون .

(74/784)

قوله تعالى : ﴿ مما خطيآتهم ﴾ "ما" : صلة .

والمعنى : من خطيآتهم : أي : من أجلها ، وسببها ، وقرأ أبو عمرو "مما خطاياهم" وقرأ أبو الجوزاء ، والجحدري "خطيئتهم" من غير ألف ﴿ أُغرقوا فأُدخلوا ناراً ﴾ قال ابن السائب : المعنى : سيدخلون في الآخرة ناراً ، فجاء لفظ الماضي بمعنى الاستقبال ، لأن الوعد حق ، هذا قول الأكثرين .

وقال الضحاك : فأُدخلوا ناراً في الدنيا ، وذلك أنهم كانوا يغرقون من جانب ، ويحترقون في الماء من جانب .

قوله تعالى : ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي : لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله .

قوله تعالى : ﴿ دَيَّاراً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : أحداً .

يقال : ما بالمنازل دَيَّارٌ ، أي : ما بها أحد ، وهو من الدار ، أي : ليس بها نازل داراً .

وقال الزجاج : أصلها "دَيْوار" فَيْعَال ، فقلبت الواو ياءً ، وأدغمت إحداهما في الأخرى .

وإنما دعا عليهم نوح لأن الله تعالى أوحى إليه ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : 36] .

قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّوا عبادك ﴾ وذلك أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إلى نوح ، فيحذِّره تصديقه .

قوله تعالى : ﴿ ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ قال المفسرون : إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً ، فلذلك علم الفاجر الخارج عن الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ رب اغفر لي ولوالديَّ ﴾ قال الحسن : وذلك أنهما كانا مؤمنَين .

وقرأ أبو بكر الصديق ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، والجحدري ، والجوني "ولوالدِي" ساكنة الياء على التوحيد .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، والزهري ، والنخعي "ولولَدَيَّ" من غير ألف على التثنية ﴿ ولمن دخلَ بيتي ﴾ وقرا حفص عن عاصم "بيتيَ" بفتح الياء .

وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : منزله ، قاله ابن عباس .

والثاني : مسجده ، قاله الضحاك .

والثالث : سفينته ، حكاه الثعلبي .

(75/784)

قوله تعالى : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ هذا عام في كل من آمن ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ يعني : الكافرين ﴿ إلا تَبَاراً ﴾ أي : هلاكاً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الفرقان : 39] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 368.375 ﴾

(76/784)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك ﴾

أي بأن خوف قومك وحذرهم ﴿ من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ يعني الغرق بالطوفان والمعنى إنا أرسلناه لينذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ﴿ قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴾ أي

أنذركم وأبين لكم ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿ واتقوه ﴾ أي وخافوه بأن تحفظوا أنفسكم مما يؤثمكم ﴿ وأطيعون ﴾ أي فيما آمركم به من عبادة الله وتقواه ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي يغفر لكم ذنوبكم .

ومن صلة وقيل يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم إلى وقت الإيمان وذلك بعض الذنوب ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ ، معناه يقول آمنوا قبل الموت تسلموا من العذاب فإن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يؤخر ، قال الزمخشري إن قلت كيف قال ويؤخركم مع الإخبار بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلى تناقض قلت قضى مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف .

ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن حيلة فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير عنكم وحيث يمكنكم الإيمان ، ﴿ قال ﴾ يعني نوحاً ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي نفاراً وإدباراً عن الإيمان ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ﴾ أي ليؤمنوا بك فتغفر لهم ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ لئلا يسمعوا دعوتي ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي غطوا وجوههم بثيابهم لئلا يرون ﴿

وأصروا ﴿ على كفرهم ﴿ واستكبروا ﴾ عن الإيمان بك ﴿ استكباراً ﴾ أي تكبراً عظيماً ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي معلناً قال ابن عباس : بأعلى صوتي .

(77/784)

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي كررت لهم الدعاء معلناً ﴿ وأسررت لهم إسراراً ﴾ قال ابن عباس يريد الرجل بعد الرجل أكلمه سراً بيني وبينه أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وذلك أن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم فقال لهم استغفروا ربكم أي من الشرك واطلبوا المغفرة بالتوحيد حتى يفتح عليكم أبواب نعمه وذلك لأن الاشتغال بالطاعة يكون سبباً لاتساع الخير والرزق .

وأن الكفر سبب لهلاك الدنيا فإذا اشتغلوا بالإيمان والطاعة حصل ما يحتاجون إليه في الدنيا .

وروى الشعبي أن عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع فقيل له ما سمعناك استسقيت فقال طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها القطر ثم قرأ ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ الآية قوله بمجاديح السماء واحدها

مجدح وهو نجم من النجوم .

وقيل هو الدبران وقيل هي ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيهاً بالمجدح الذي له شعب وهي عند العرب من الأنواء الدالة على المطر فجعل عمر الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون وكانوا يزعمون أن من شأنها المطر لا أنه يقول بالأنواء .

وعن بكر بن عبد الله أن أكثر الناس ذنوباً أقلهم استغفاراً وأكثرهم استغفاراً أقلهم ذنوباً .

وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال له استغفر الله وشكا آخر إليه الفقر وقلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح أتاك رجال يشكون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ؟ فتلا هذه الآية وقوله يرسل السماء عليكم أي يرسل ماء السماء وذلك لأن ماء المطر ينزل من السماء إلى السحاب ثم ينزل من السحاب إلى الأرض .

وقيل أراد بالسماء السحاب ، وقيل أراد بالسماء المطر من قول الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

فحلوا حيثما نزل السماء

يعني المطر مدراراً أي كثير الدر وهو حلب الشاة حالاً بعد حال .

وقيل مدراراً أي متتابعاً ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿ ويجعل لكم جنات ﴾ أي البساتين ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ وهذا كله مما يميل طبع البشرية إليه ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ قال ابن عباس أي لا ترون لله عظمة .

وقيل معناه لا تخافون عظمته فالرجاء بمعنى الخوف ، والوقار العظمة من التوقير وهو التعظيم .

وقيل التعظيم وقيل معناه ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة وقيل معناه ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ يعني تارة بعد تارة وحالاً بعد حال نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى تمام الخلق .

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ أي في الأرض بعد الموت ﴿ ويخرجكم ﴾ أي منها يوم البعث ﴿ إخراجاً ﴾ يعني إخراجاً حقاً لا محالة ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي فرشها لكم مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي طرقاً واسعة .

قوله تعالى : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ أي لم يجيبوا دعوتي ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾ يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم تزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ يعني كبيراً عظيماً

يقال كبيراً وكباراً بالتشديد والتخفيف والتشديد أشد وأعظم في المبالغة والماكرون هم الرؤساء والقادة ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح وتحريش السفلة على أذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل إليه والاستماع منه .

وقيل مكرهم هو قولهم لا تذرن آلهتكم وتعبدوا إله نوح ، وقال ابن عباس في مكرهم قالوا قولاً عظيماً .

(79/784)

وقيل افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله ﴿ وقالوا ﴾ يعني القادة للأتباع ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ أي لا تتركن عبادتها ﴿ ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ هذه أسماء آلهتهم وإنما أفرد بالذكر وإن كانت داخلة في جملة قوله لا تذرن آلهتكم لأنهم كانت لهم أصنام هذه الخمسة المذكورة هي أعظمها عندهم .

قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم : لو صورتم صورهم كان ذلك أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا ذلك ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم .

فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم الصالحين من المسلمين ، (خ) عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي كانت تعبد قوم نوح في العرب بعد .

أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم صارت لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

وروى سفيان عن موسى عن محمد بن قيس في قوله ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، قال كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت الأوثان ، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب ، وكانت للعرب أصنام أخر فاللات كانت لثقيف والعزى لسليم وغطفان وجشم ، ومناة كانت لخزاعة بقديد وإساف ونائلة وهبل كانت لأهل مكة .

ولذلك سمت العرب أنفسهم بعبد ود وعبد يغوث وعبد العزى ونحو ذلك من الأسماء .

﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس .

وقيل أضل كبراء قوم نوح كثيراً من الناس ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ يعني ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا ضلالاً وهذا دعاء عليهم وذلك أن نوحاً عليه السلام كان قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم فدعا عليهم .

فإن قلت كيف يليق بمنصب النبوة أن يدعو بمزيد الضلال وإنما بعث ليصرفهم عنه .

قلت إنما دعا عليهم بعد أن أعلمه الله أنهم لا يؤمنون وهو قوله تعالى : ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ وقيل إنما أراد بالضلال في أمر الدنيا وما يتعلق بها لا في أمر الآخرة ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ أي بالطوفان ﴿ فأدخلوا ناراً ﴾ أي في حالة واحدة وذلك في الدنيا كانوا يغرقون من جانب ويحترقون من جانب .

واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة عذاب القبر وذلك لأن الفاء تقتضي التعقيب في قوله تعالى أغرقوا فأدخلوا ناراً ، وهذا يدل على أنه إنما حصل دخول النار عقيب الإغراق ولا يمكن حمله على عذاب الآخرة لأنه يبطل دلالة الفاء ، وقيل معناه أنهم سيدخلون ناراً في الآخرة فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصدق الوعد في ذلك والأول أصح ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ يعني تنصرهم وتمنعهم من العذاب الذي نزل بهم ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ يعني أحد يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران .

وقيل أصله من الدار أي نازل دار ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ قال ابن عباس وغيره كان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح فيقول له احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذرنيه ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم بعد ذلك أرحام النساء وأيبس أصلاب الرجال وذلك قبل نزول العذاب بأربعين سنة .

(81/784)

وقيل بسبعين سنة وأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله دعوته فأهلكهم جميعاً ولم يكن معهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى أعقمهم قبل العذاب ﴿ رب اغفر لي ﴾ وذلك أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل ، وقيل يحتمل أنه لما دعا على الكفار قال رب اغفر لي يعني ما صدر مني من ترك الأفضل .

وقيل يحتمل أنه حين دعا على الكفار أنه إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام منهم فاستغفر من ذلك لما فيه من طلب حظ النفس أو لأنه ترك الاحتمال .

﴿ ولوالديَّ ﴾ وكان اسم أبيه ملك بن متوشلخ واسم أمه سمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين وقيل لم يكن بين آدم ونوح عليهما السلام من آبائه كافر وكان بينهما عشرة آباء ﴿ ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ أي داري وقيل مسجدي وقيل سفينتي ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وهذا عام في كل مؤمن آمن بالله وصدق الرسل ، وإنما بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به لأنهم أحق بدعائه من غيرهم ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء ، ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ أي هلاكاً ودماراً فاستجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم جميعاً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 157.153 ﴾

(82/784)

وقال النسفى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾

قيل : معناه بالسريانية الساكن ﴿ إلى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ ﴾ خوّف أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل .

ومحله عند الخليل جر ، وعند غيره نصب ، أو "أن" مفسرة بمعنى "أي" لأن في الإرسال

معنى القول ﴿ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عذاب الآخرة أو الطوفان ﴿ قَالَ يا قوم ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ مخوف ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ وحدوه و "أن" هذه نحو ﴿ أَنْ أَنذِرِ ﴾ في الوجهين ﴿ واتقوه ﴾ واحذروا عصيانه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وإنما اضافه إلى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ جواب الأمر ﴿ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ للبيان كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

أو للتبعيض لأن ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام كالقصاص وغيره كذا في شرح التأويلات .

﴿ وَيُؤَخّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت موتكم ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله ﴾ أي الموت ﴿ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كنتم تعلمون ما يحل بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم .

قيل : إن الله تعالى قضى مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي تبلغوا ألف سنة ، ثم أخبر أن الأجل إذا جاء لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت .

وقيل : إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه

السلام ، فكأنه عليه السلام أمّنهم من ذلك ووعدهم أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا أي أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمى آمنين من عدوكم .

(83/784)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ دائباً بلا فتور ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ عن طاعتك ، ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة وهو كقوله : ﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] .

والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجس وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول : احذر هذا فلا يغرنك فإن أبي قد وصاني به ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان بك ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي ليؤمنوا فتغفر لهم فاكتفى بذكر المسبب ﴿ جَعَلُواْ أصابعهم فِى * ءاذَانِهِمْ ﴾ سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ وتغطوا بثيابهم لئلا يبصرون كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ وتعظموا عن إجابتي ، وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم .

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا ﴾ مصدر في موضع الحال أي مجاهراً ، أو مصدر دعوتهم كـ "قعد القرفصاء" لأن الجهار أحد نوعي الدعاء يعني أظهرت لهم الدعوة في المحافل ﴿ ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر ، فالحاصل أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر ، ثم دعاهم جهاراً ، ثم دعاهم في السر والعلن ، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف يبتدىء بالأهون ثم بالأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

و"ثُم" تدل على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما .

(84/784)

﴿ فَقُلْتُ استغفروا ربَّكُمْ ﴾ من الشرك لأن الاستغفار طلب المغفرة ، فإن كان المستغفر كافراً فهو من الكفر ، وإن كان عاصياً مؤمناً فهو من الذنوب ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ لم يزل غفاراً لذنوب من ينيب إليه ﴿ يُرْسِلِ السماء ﴾ المطر ﴿ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ كثيرة الدرور ومفعال يستوي فيه المذكر والمؤنث ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ يزدكم أموالاً وبنين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات ﴾ بساتين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ جارية لمزارعكم

وبساتينكم ، وكانوا يحبون الأموال والأولاد فحرّكوا بهذا على الإيمان .

وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين ، فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب ورفع عنهم ما كانوا فيه .

وعن عمر رضي الله عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار فقيل له : ما رأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر .

شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء وقرأ الآيات .

وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال : استغفر الله .

وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار .

فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآيات .

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ لا تخافون لله عظمة .

عن الأخفش قال : والرجاء هنا الخوف لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس والوقار العظمة ، أو لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً .

(85/784)

والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ في موضع الحال أي ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه ، وهي حال موجبة للإيمان به لأنه خلقكم أطواراً أي تارات وكرّاتٍ خلقكم أولاً نطفاً ثم خلقكم علقاً ثم خلقكم مضغاً ثم خلقكم عظاماً ولحماً ، نبههم أولاً على النظر في أنفسكم لأنها أقرب ، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الدالة على الصانع بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سماوات طِبَاقاً ﴾ بعضاً على بعض ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ أي في السماوات وهو في السماء الدنيا ، لأن بين السماوات ملابسة من حيث إنها طباق وجاز أن يقال فيهن كذا وإن لم يكن في جميعهن كما يقال : في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها .

وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم .

أن الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماوات ، وظهورهما مما يلي الأرض ، فيكون نور القمر محيطاً بجميع السماوات لأنها لطيفة لا تحجب نوره ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ مصباحاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره ، وضوء الشمس أقوى من نور القمر ، وأجمعوا على أن الشمس في السماء الرابعة ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض ﴾ أنشأكم استعير الإنبات للإنشاء ﴿ نَبَاتاً ﴾ فنبتم نباتاً ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بعد الموت ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِخْرَاجاً ﴾ أكده بالمصدر أي أيّ إخراج ﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ مبسوطة ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا

﴿ لتتقلبوا عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿ سُبُلاً ﴾ طرقاً ﴿ فِجَاجاً ﴾ واسعة أو مختلفة.

(86/784)

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿ واتبعوا ﴾ أي السفلة والفقراء ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ ﴾ أي الرؤساء وأصحاب الأموال والأولاد ﴿ وَوُلْده ﴾ مكي وعراقي غير عاصم وهو جمع ولد كأسد وأسد ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ في الآخرة.

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ معطوف على ﴿ لَّمْ يَزِدْهُ ﴾ وجمع الضمير وهو راجع إلى "من" لأنه في معنى الجمع.

والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدنيا وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل إليه ﴿ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ عظيماً وهو أكبر من الكبار وقرىء به وهو أكبر من الكبير ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ على العموم أي عبادتها ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً ﴾ بفتح الواو وضمها وهو قراءة نافع، لغتان: صنم على صورة رجل ﴿ وَلاَ سُوَاعاً ﴾ هو على صورة امرأة ﴿ وَلاَ يَغُوثَ ﴾ هو على صورة

أسد ﴿ وَيَعُوقَ ﴾ هو على صورة فرس وهما لا ينصرفان للتعريف ووزن الفعل إن كانا عربيين ، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميين ﴿ وَنَسْراً ﴾ هو على صورة نسر أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص ، وكأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فخصوها بعد العموم ، وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب ؛ فكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير .

وقيل : هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح ، فلما ماتوا صوروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة ، فلما طال الزمان قال لهم إبليس : إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ ﴾ أي الأصنام كقوله

(87/784)

﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ ﴾ [ابراهيم : 36] ﴿ كَثِيراً ﴾ من الناس أو الرؤساء ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين ﴾ عطف على ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿ قَالَ ﴾ وبعد الواو النائبة عنه ، ومعناه قال رب إنهم عصوني وقال لا تزد الظالمين أي قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولاً ﴿ قَالَ ﴾ ﴿ إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ هلاكاً كقوله ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ ﴿ خطاياهم ﴾ أبو عمرو

أي ذنوبهم ﴿ أُغْرِقُواْ ﴾ بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ عظيمة وتقديم ﴿ مّمَّا خطيئاتهم ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم.

وأكد هذا المعنى بزيادة "ما" وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا ، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهن والفاء في ﴿ فادخلوا ﴾ للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مّن دُونِ الله أَنصَاراً ﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله.

(88/784)

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ أي أحداً يدور في الأرض وهو فيعال من الدور وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ ولا تهلكهم ﴿ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ إلا من إذا بلغ فجر وكفر وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أخبره بقوله : ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءامَنَ ﴾ [هود : 36] ﴿ رَّبّ اغفر لى ولوالدى ﴾ وكانا مسلمين واسم أبيه لمك ، واسم أمه شمخاء ، وقيل : هما آدم وحواء وقرىء ﴿ ولولَدَيّ ﴾ يريد ساماً وحاماً ﴾

وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿ مُؤْمِناً ﴾ لأنه علم أن من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ إلى يوم القيامة .

خص أولاً من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عم المؤمنين والمؤمنات ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين ﴾ أي الكافرين ﴿ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ هلاكاً فأهلكوا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : دعا نوح عليه السلام بدعوتين : إحداهما للمؤمنين بالمغفرة ، وأخرى على الكافرين بالتبار ، وقد أجيبت دعوته في حق الكفار بالتبار فاستحال أن لا تستجاب دعوته في حق المؤمنين .

واختلف في صبيانهم حين أغرقوا فقيل : أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا .

وقيل : علم الله براءتهم فأهلكوا بغير عذاب والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 293 . 298 ﴾

(89/784)

وقال ابن جزى :

سورة نوح عليه السلام

﴿ أَنْ أَنذِرْ ﴾ و ﴿ أَنِ اعبدوا ﴾ يحتمل أن تكون أن مفسرة أو مصدرية على تقدير بأن أنذر وبأن اعبدوا والأول أظهر ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يريد عذاب الآخرة أو الغرق الذي أصابهم ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ من هنا للتبعيض أي يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم ، لأن ذلك في مشيئة الله تعالى ، وقيل : إن من هنا زائدة ذلك وباطل لأن من لا تزاد عنه سيبويه إلا في غير الواجب . وقيل : هي لبيان الجنس ، وقيل : لابتداء الغاية ، وهذان قولان ضعيفان في المعنى ، والأول هو الصحيح لأن التبعيض فيه متجه ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ظاهر هذا يقتضي أنهم إن فعلوا ما أمروا به أخروا إلى أجل مسمى ؛ وإن لم يفعلوا لم يؤخروا ، وذلك يقتضي القول بالأجلين . وهو مذهب المعتزلة ، وعلى هذا حملها الزمخشري ، وأما على مذهب أهل السنة ، فهي من المشكلات ، وتأولها ابن عطية فقال : ليس للمعتزلة في الآية مجال لأن المعنى أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ؟ ولا قال لهم : إنكم تؤخرون عن أن أجل قد حان . لكن قد سبق في الأزل إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير أو ممن قضى له بالكفر والمعالجة . وكان نوحاً عليه السلام قال لهم : آمنوا يظهر في الوجود أنكم ممن قضى له بالإيمان والتأخير . وإن بقيتم على كفركم يظهر في الوجود أنكم ممن قضى عليه بالكفر والمعالجة ، فكان الاحتمال الذي يقتضيه ظاهر الآية إنما هو فيما يبرزه الغيب من حالهم ؛ إذ يمكن أن يبرز إما الإيمان والتأخير ، وإما الكفر

والمعالجة ، وأما عند الله فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدر محتوم ، وأجلهم كذلك معلوم قدر محتوم .

(90/784)

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ هذا يقتضي أن الأجل محتوم كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : 49] وفي هذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا ، وفيه أيضاً رد على المعتزلة في قولهم بالأجلين ، ولما كان كذلك قال الزمخشري : إن ظاهر مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا ، وتأول ذلك على مقتضى مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخر هو الأجل الثاني . وذلك أن قوم نوح قضى الله أنهم إن آمنوا عمرهم الله مثلاً ألف عام ، وإن لم يؤمنوا عمرهم تسعمائة عام فالألف عام هي التي تؤخر إذا جاءت والتسعمائة عام هي التي وعدوا بالتأخير عنها إلى الألف عام إن آمنوا .

﴿ دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم ، فذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان ؛ ليظهر قبح إعراضهم عنه ؛ فإنهم أعرضوا عن سعادتهم ﴿ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ فعلوا ذلك لئلا يسمعوا كلامه ، فيحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة أو يكون عبارة

عن إفراط إعراضهم حتى كأنهم فعلوا ذلك ﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي جعلوها غشاوة عليهم لئلا يسمعوا كلامه ، أو لئلا يراهم ، ويحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة ، أو يكون عبارة عن إعراضهم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي داوموا على كفرهم ﴿ دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ﴾ إعراب جهاراً مصدر من المعنى كقولك : قعد القرفصاء ، أو صفة لمصدر محذوف تقديره : دعا جهاراً ، أو مصدر في موضع الحال أي مجاهراً ﴿ ثُمَّ إِنِي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ ذكر أولاً أنه دعاهم بالليل والنهار ، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً ، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار ، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلى الله عليهم وسلم ، قال ابن عطية : الجهاد دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم ، والإسرار دعاء كل واحد على حدته .

(91/784)

﴿ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ مفعول من الدرّ وهو كثرة الماء ، وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار ، ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أستغفر ثم انصرف ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء ، ثم نزل المطر ، وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له : استغفر الله .

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ فيه أربع تأويلات : أحدها أن الوقار بمعنى التوقير والكرامة ، فالمعنى : مالكم لا ترجون أن يوقركم الله في دار ثوابه . قال ذلك الزمخشري . وقوله : (لله) على هذا بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صفة لوقاراً . الثاني أن الوقار بمعنى التؤدة والتثبت ، والمعنى : مالكم لا ترجون لله وقاراً ، متثبتين حتى تتمكنوا من النظر بوقاركم وقوله : (لله) على هذا مفعول دخلت عليه اللام اللام كقولك : ضربت لزيد ، وإعراب وقاراً على هذا مصدر في موضع الحال . الثالث أن الرجاء هنا بمعنى الخوف ، والوقار بمعنى العظمة والسطان ، فالمعنى : مالكم لا تخافون عظمة الله وسلطانه ولله على هذا صفة للوقار في المعنى ، الرابع : أن الرجاء بمعنى الخوف ، والوقار بمعنى الاستقرار ، من قولك : وقر بالمكان إذا استقر فيه ، والمعنى : ما لكم لا تخافون الاستقرار في دار القرار إما في الجنة أو النار ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أي طوراً بعد طور ، يعني أن الإنسان كان نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى سائر أحواله ، وقيل : الأطوار الأنواع المختلفة ، فالمعنى أن الناس على أنواع في ألوانهم وأخلاقهم وألسنتهم وغير ذلك ﴿ طِبَاقاً ﴾ ذكر في [الملك : 3] ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ القمر إنما هو في السماء الدنيا ، وساغ أن يقول فيهن لما

كان في إحداهن فهو في الجميع كقولك : فلان في الأندلس ، إذا كان في بعضها ، وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً ، لأن ضوء السراج أقوى من النور ، فإن السراج هو الذي يضيء فيبصر به والنور قد يكون أقل من ذلك .

(93/784)

﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ هذا عبارة عن إنشائهم من تراب الأرض ، ونباتاً مصدر على غير المصدر أو يكون تقديره : أنبتكم فنبتم إنباتاً ، ويحتمل أن يكون منصوباً على الحال ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ يعني بالبعث من القبور ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها ، وأخذ بعضهم في لفظ البساط أن الأرض بسيطة غير كروية ، خلافاً لما ذهب إليه أهل التعديل ، وفي ذلك نظر ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ ذكر في [الأنبياء : 31] ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ يعني اتبعوا أغنيائهم وكبراءهم ، وقرئ وَلَدُه بفتحتين وَوُلْد بضم الواو وسكون اللام وهما بمعنى واحد ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ الكبّار بالتشديد أبلغ من الكبار بالتخفيف ، والكبار بالتخفيف أبلغ من الكبير .

(94/784)

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ أي وصى بعضهم بعضاً بذلك ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً ﴾ هذه أسماء أصنامهم ، كان قوم نوح يعبدونها ، وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا ، فلما ماتوا صوَّرهم أهل ذلك العصر من حجارة ، وقالوا : ننظر إليها لنتذكر أعمالهم الصالحة ، فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيمهم من بعدهم لتلك الصور ، حتى عبدوها من دون الله ، ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها ؛ وقيل : بل الأسماء فقط ، إلى قبائل العرب ، فكان وَدّاً لكلب بدومة الجندل ، وكان سواع لهذيل ، وكان يغوث لمراد ، وكان يعوق لهمدان ، وكان نسراً لذي الكلام من حمير . وقرئ وَداً بفتح الواو وضمها ووُدّاً وهما لغتان ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ الضمير للرؤساء من قوم نوح ، والمعنى أضلوا كثيراً من أتباعهم ، وهذا من كلام نوح عليه السلام ، وكذلك ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ من كلامه ، وهو دعاء عليهم . وقال الزمخشري : إنه معطوف على قوله : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ [نوح : 21] والتقدير : قال : رب إنهم عصوني ، وقال : " لا تزد الضالمين إلا ضلالاً " ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ هذا من كلام الله إخباراً عن أمرهم ، وما زائدة للتأكيد وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضاً ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار ، إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر الكفر وسائر المعاصي ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ يعني جهنم .

وعبَّر عن ذلك بالفعل الماضي لأن الأمر محقق ، وقيل : أراد عرضهم على النار وعبر عنه بالإدخال .

(95/784)

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ ديّاراً من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال : ما في الدار ديار ، أي ما فيها أحد ، ووزنه فيعال وكان أصله ديوار ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، وليس وزنه فعال لأنه لو كان كذلك لقيل : دوار ، لأنه مشتق من الدور أو من الدار ، وروي أن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه بهذا الدعاء إلا بعد أن يئس من إيمانهم ، وبعد أن أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم .

﴿ رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره ، وكان والدا نوح عليه السلام مؤمنين قال ابن عباس : لم يكن لنوح أب كافر ما بينه وبين آدم عليهما السلام واسم والد نوح لمك بن متوشلخ وأمه شمخا بيت أنوش ، حكاه الزمخشري ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ قيل : بيته المسجد ، وقيل : السفينة . وقيل : شريعته ، سماها بيتاً استعارة وهذا بعيد ، وقيل : داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم

، وفيه دليل على جواز ذلك خلافاً لمن قال من المتأخرين : إنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة ،

وفيه دليل على جواز ذلك خلافاً لمن قال من المتأخرين : إنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم ، وهذا خطأ وتضييق لرحمة الله الواسعة ، قال بعض العلماء : إن الإله الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار حقيق أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات ﴿ تَبَاراً ﴾ أي هلاكاً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 149.152 ﴾

(96/784)

وقال البيضاوى :

سورة نوح عليه السلام

مكية وآيها تسع أو ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ ﴾

أي بأن أي بالإنذار ، أو بأن قلنا له ﴿ أَنذِرَ ﴾ ، ويجوز أن تكون مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول ، وقرىء بغير ﴿ أن ﴾ على إرادة القول . ﴿ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴾ عذاب الآخرة أو الطوفان.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ ﴾ مر في "الشعراء" نظيره وفي ﴿ أن ﴾ يحتمل الوجهان.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ يغفر لكم بعض ذنوبكم وهو ما سبق فإن الإسلام يجبه فلا يؤاخذكم به في الآخرة ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لكم بشرط الإيمان والطاعة. ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله ﴾ إن الأجل الذي قدره. ﴿ إِذَا جَاء ﴾ على الوجه المقدر به آجلاً وقيل إذا جاء الأجل الأطول. ﴿ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير. ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك، وفيه أنهم لانهماكهم في حب الحياة كأنهم شاكون في الموت.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي دائماً.

(97/784)

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ عن الإيمان والطاعة، وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله: ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانا ﴾ ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان. ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ بسببه. ﴿ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءاذانهم ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة.

﴿ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلي من فرط كراهة دعوتي أو لئلا أعرفهم فأدعوهم ، والتعبير بصيغة الطلب للمبالغة . ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ وأكبوا على الكفر والمعاصي مستعار من أصر الحمار على العانة إذا صر أذنيه وأقبل عليها . ﴿ واستكبروا ﴾ عن اتباعي . ﴿ استكبارا ﴾ عظيماً .

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جهارا ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي دعوتهم مرة بعد أخرى وكرة بعد أولى على أي وجه أمكنني ، و﴿ ثُمَّ ﴾ لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإِسرار والجمع بينهما أغلظ من الإِفراد لتراخي بعضها عن بعض ، و﴿ جهارا ﴾ نصب على المصدر لأنه أحد نوعي الدعاء ، أو صفة مصدر محذوف بمعنى دعاء ﴿ جهارا ﴾ أي مجاهراً به أو الحال فيكون بمعنى مجاهراً .

﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ بالتوبة عن الكفر . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ للتائبين وكأنهم لما أمرهم بالعبادة قالوا : إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا من عصيناه ، فأمرهم بما يجب معاصيهم ويجلب إليهم المنح ولذلك وعدهم عليه ما هو أوقع في قلوبهم . وقيل لما طالت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبس الله عنهم القطر أربعين سنة ، وأعقم أرحام نسائهم فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه بقوله :

﴿ يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مُّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جنات وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء . و﴿ السماء ﴾ تحتمل المظلة والسحاب ، والمدرار كثير الدرور ويستوي في هذا البناء المذكر والمؤنث ، والمراد بال ﴿ جنات ﴾ البساتين .

﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبده وأطاعه فتكونوا على حال تأملون فيها تعظيمها إياكم ، و﴿ لِلَّهِ ﴾ بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة ل ﴿ وَقَاراً ﴾ ، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه ، وإنما عبر عن الاعتقاد بالرجاء التابع لأدنى الظن مبالغة .

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ حال مقررة للإنكار من حيث إنها موجبة للرجاء فإنه خلقهم ﴿ أَطْوَاراً ﴾ أي تارات ، إذ خلقهم أولاً عناصر ، ثم مركبات تغذي الإنسان ، ثم أخلاطاً ، ثم نطفاً ، ثم علقاً ، ثم مضغاً ، ثم عظاماً ولحوماً ، ثم أنشأهم خلقاً آخر ، فإنه يدل على أنه يمكن أن يعيدهم تارة أخرى فيعظمهم بالثواب وعلى أنه تعالى عظيم القدرة تام الحكمة ، ثم أتبع ذلك ما يؤيده من آيات الآفاق فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سموات طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ أي في السموات وهو في السماء الدنيا وإنما نسب إليهن لما بينهن من الملابسة . ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً

﴿ مثلها به لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله .

﴿ والله أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض ، وأصله ﴿ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأرض ﴾ إنباتاً فنبتم نباتاً ، فاختصره اكتفاء بالدلالة الالتزامية .

(99/784)

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ مقبورين . ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ بالحشر ، وأكده بالمصدر كما أكد به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالابداء ، وأنها تكون لا محالة .

﴿ والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً ﴾ . تتقلبون عليها .

﴿ لّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ واسعة جمع فج ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ فيما أمرتهم به . ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة ، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهة حصلت لهم بالأموال والأولاد وأدت بهم إلى الخسار ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي والبصريان "وَوَلَدُهُ" بالضم والسكون على أنه لغة كالحزن والحزن أو جمع كالأسد .

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ عطف على ﴿ لَّمْ يَزِدْهُ ﴾ والضمير لمن وجمعه للمعنى . ﴿ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ كبيراً في الغاية فإنه أبلغ من كبار وهو من كبير ، وذلك احتيالهم في الدين وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام .

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي عبادتها . ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ ﴿ وَلاَ تَذَرُنَّ ﴾ هؤلاء خصوصاً ، قيل هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا صوروا تبركاً بهم ، فلما طال الزمان عبدوا . وقد انتقلت إلى العرب فكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير . وقرأ نافع "وُدّاً" بالضم وقرىء "يغوثاً" و"يعوقاً" للتناسب ، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة .

(100/784)

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ الضمير للرؤساء أو للأصنام كقوله : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ﴾ عطف على ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ ، ولعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم ، أو الضياع والهلاك كقوله : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ من أجل خطيئاتهم ، و"ما" مزيدة للتأكيد والتفخيم ، وقرأ أبو عمرو "مما خطاياهم" . ﴿ أُغْرِقُواْ ﴾ بالطوفان . ﴿

فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ المراد عذاب القبر أو عذاب الآخرة ، والتعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال ، أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وإن تراخى عنه لفقد شرط أو وجود مانع ، وتنكير النار للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران . ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً ﴾ تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ أي أحداً وهو مما يستعمل في النفي العام فيعال من الدار ، أو الدور وأصله ديوار ففعل به ما بأصل سيد الأفعال وإلا لكان دواراً .

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ قال ذلك لما جربهم واستقرى أحوالهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف شيمهم وطباعهم .

﴿ رَّبِّ اغفر لِى ولوالدى ﴾ لملك بن متوشلخ وشمخا بنت أنوش وكانا مؤمنين . ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي . ﴿ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ إلى يوم القيامة . ﴿ وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ﴾ هلاكاً .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح " . (1) انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 392 . 396 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة نوح عليه السلام

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

﴿ أن أنذر قومك ﴾ : يجوز أن تكون أن مصدرية وأن تكون تفسيرية .

﴿ عذاب أليم ﴾ ، قال أبو عباس : عذاب النار في الآخرة .

وقال الكلبي : ما حل بهم من الطوفان .

﴿ من ذنوبكم ﴾ : من للتبعيض ، لأن الإيمان إنما يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده .

وقيل : لابتداء الغاية .

وقيل : زائدة ، وهو مذهب ، قال ابن عطية : كوفي ، وأقول : أخفشي لا كوفي ، لأنهم يشترطون أن تكون بعد من نكرة ، ولا يبالون بما قبلها من واجب أو غيره ، والأخفش يجيز مع الواجب وغيره .

وقيل : النكرة والمعرفة .

وقيل : لبيان الجنس ، ورد بأنه ليس قبلها ما تبينه .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قال : ﴿ ويؤخركم ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ؟ وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى : أي إلى وقت سماه الله تعالى وضربه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف .

ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد ، لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير . انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ مما تعلقت المعتزلة به في قولهم أن للإنسان أجلين ، قالوا : لو كان واحداً محدداً لما صح التأخير ، إن كان الحد قد بلغ ، ولا المعاجلة إن كان لم يبلغ ، قال : وليس لهم في الآية تعلق ، لأن المعنى : أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم ، إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير ، وإما ممن قضى له بالكفر والمعاجلة .

(102/784)

ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ ، وجواب لو محذوف تقديره : لو كنتم تعلمون ، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتي فيما جئتكم به منه تعالى .

ولما لم يجيبوه وآذوه ، شكا إلى ربه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحالة مع قومه لما أمر بالإنذار فلم يجد فيهم .

﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ : أي جميع الأوقات من غير فتور ولا تعطيل في وقت .

ولما ازدادوا إعراضاً ونفاراً عن الحق ، جعل الدعاء هو الذي زادهم ، إذ كان سبب الزيادة ، ومثله : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ﴾ : أي ليتوبوا فتغفر لهم ، ذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح في إعراضهم عنه ، ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ : الظاهر أنه حقيقة ، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه ، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهة وبغضاً من سماع النصح ورؤية الناصح .

ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره ، ثم كرر صفة دعائه بياناً وتوكيداً .

لما ذكر دعاءه عموم الأوقات ، ذكر عموم حالات الدعاء .

و﴿ كلما دعوتهم ﴾ : يدل على تكرر الدعوات ، فلم يبين حالة دعائه أولاً ، وظاهرة أن يكون دعاؤه إسراراً ، لأنه يكون ألطف بهم .

ولعلهم يقبلون منه كحال من ينصح في السر فإنه جدير أن يقبل منه ، فلما لم يجد له الإسرار ، انتقل إلى أشد منه وهو دعاؤهم جهاراً صلتاً بالدعاء إلى الله لا يحاشي أحداً ، فلما لم يجد عاد إلى الإعلان وإلى الأسرار .

قال الزمخشري : ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما . انتهى .

وكثيراً كرر الزمخشري أن ثم للاستبعاد ، ولا نعلمه من كلام غيره ، وانتصب جهاراً بدعوتهم ، وهو أحد نوعي الدعاء ، ويجيء فيه من الخلاف ما جاء في نصب هو يمشي الخوزلى .

(103/784)

قال الزمخشري : أو لأنه أراد بدعوتهم : جاهرتهم ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهاراً : أي مجاهراً به ، أو مصدراً في موضع الحال ، أي مجاهراً .

ثم أخبر أنه أمرهم بالاستغفار ، وأنهم إذا استغفروا در لهم الرزق في الدنيا ، فقدم ما

يسرهم وما هو أحب إليهم ، إذ النفس متشوفة إلى الحصول على العاجل ، كما قال تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ﴾ قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها .

وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرار الدعاء قحطوا وأعقم نساؤهم ، فبدأهم في وعده بالمطر ، ثم ثنى بالأموال والبنين .

و﴿ مدراراً ﴾ : من الدر ، وهو صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث ، ومفعال لا تلحقه التاء إلا نادراً ، فيشترك فيه المذكر والمؤنث .

تقول : رجل محدامة ومطرابة ، وامرأة محدابة ومطرابة ، والسماء المطلة ، قيل : لأن المطر ينزل منها إلى السحاب ، ويجوز أن يراد السحاب والمطر كقوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

البيت ، الرجاء بمعنى الخوف ، وبمعنى الأمل .

فقال أبو عبيدة وغيره : ﴿ لا ترجون ﴾ : لا تخافون ، قالوا : والوقار بمعنى العظمة والسلطان ، والكلام على هذا وعيد وتخويف .

وقيل : لا تأملون له توقيراً : أي تعظيماً .

قال الزمخشري : والمعنى : ما لكم لا تكونون على حال ما يكون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ، ولله بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صلة ، أو لا تخافون الله حلماً وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا .

وقيل : ما لكم لا تخافون لله عظمة .

وعن ابن عباس : لا تخافون لله عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب منه وقر إذا ثبت واستقر .

انتهى .

(104/784)

وقيل : ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله وتلقاءه وقاراً ، ويكون على هذا منهم كأنه يقول : توّده منكم وتمكناً في النظر ، لأن الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأس . انتهى .

وفي التحرير قال سعيد بن جبير : ما لكم لا ترجون لله ثواباً ولا تخافون عقاباً ، وقاله ابن جبير عن ابن عباس .

وقال العوفي عنه : ما لكم لا تعلمون لله عظمة ؛ وعن مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة .

قال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج : لم أبال . انتهى .

﴿ لا ترجون ﴾ : حال ، ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ : جملة حالية تحمل على الإيمان بالله وإفراده بالعبادة ، إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى .

قال ابن عباس ومجاهد من : النطفة والعلقة والمضغة .

وقيل : في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم ومللهم .

وقيل : صبياناً ثم شباباً ثم شيوخاً وضعفاء ثم أقوياء .

وقيل : معنى ﴿ أطواراً ﴾ : أنواعاً صحيحاً وسقيماً وبصيراً وضريراً وغنياً وفقيراً .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15)

لما نبههم نوح عليه السلام على الفكر في أنفسهم ، وكيف انتقلوا من حال إلى حال ، وكانت الأنفس أقرب ما يفكرون فيه منهم ، أرشدهم إلى الفكر في العالم علوه وسفله ، وما أودع تعالى فيه ، أي في العالم العلوي من هذين النيرين اللذين بهما قوام الوجود .

وتقدم شرح ﴿ طباقاً ﴾ في سورة الملك ، والضمير في فيهن عائد على السموات ، ويقال : القمر في السماء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفاً للقمر ، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف .

تقول : زيد في المدينة ، وهو في جزء منها ، ولم تقيد الشمس بظرف ، فقيل : هي في الرابعة ،

وقيل : في الخامسة ، وقيل : في الشتاء في الرابعة ، وفي الصيف في السابعة ، وهذا شيء لا يوقف على معرفته إلا من علم الهيئة .

(105/784)

ويذكر أصحاب هذا العلم أنه يقوم عندهم البراهين القاطعة على صحة ما يدعونه ، وأن في معرفة ذلك دلالة واضحة على عظمة الله وقدرته وباهر مصنوعاته .

﴿ سراجاً ﴾ يستضيء به أهل الدنيا ، كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم ، ولم يبلغ القمر مبلغ الشمس في الإضاءة ، ولذلك ؛ جاء ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ والضياء أقوى من النور .

والإنبات استعارة في الإنشاء ، أنشأ آدم من الأرض وصارت ذريته منه ، فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أنبتوا منها .

وانتصاب نباتاً بأنبتكم مصدراً على حذف الزائد ، أي إنباتاً ، أو على إضمار فعل ، أي فنبتم نباتاً .

وقال الزمخشري : المعنى أنبتكم فنبتم ، أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم . انتهى .

ولا أعقل معنى هذا الوجه الثاني الذي ذكره .

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ : أي يصيركم فيها مقبورين ، ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ : أي يوم القيامة ، وأكده بالمصدر ، أي ذلك واقع لا محالة .

﴿ بساطاً ﴾ تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه .

وظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة ، ﴿ سبلاً ﴾ : ظرفاً ، ﴿ فجاجاً ﴾ : متسعة ، وتقدم الكلام على الفج في سورة الحج .

ولما أصروا على العصيان وعاملوه بأقبح الأقوال والأفعال ، ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ : الضمير للجميع ، وكان قد قال لهم : ﴿ وأطيعون ﴾ ، وكان قد أقام فيهم ما نص الله تعالى عليه ﴿ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ وكانوا قد وسع عليهم في الرزق بحيث كانوا يزرعون في الشهر مرتين .

﴿ واتبعوا ﴾ : أي عامتهم وسفلتهم ، إذ لا يصح عوده على الجميع في عبادة الأصنام .

﴿ من لم يزده ﴾ : أي رؤساؤهم وكبراؤهم ، وهم الذين كان ما تأثلوه من المال وما تكثروا به من الولد سبباً في خسارتهم في الآخرة ، وكان سبب هلاكهم في الدنيا .

(106/784)

وقرأ ابن الزبير والحسن والنخعي والأعرج ومجاهد والأخوان وابن كثير وأبو عمرو ونافع ، في رواية خارجة : وولده بضم الواو وسكون اللام ؛ والسلميّ والحسن أيضاً وأبو رجاء وابن وثاب وأبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر : بفتحهما ، وهما لغتان ، كبخل وبخل ؛ والحسن أيضاً والجحدري وقتادة وزر وطلحة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو ، في رواية : كسر الواو وسكون اللام .

وقال أبو حاتم : يمكن أن يكون الولد بالضم جمع الولد ، كخشب وخشب ، وقد قال حسان بن ثابت :

يا بكر آمنة المبارك بكرها . . .

من ولد محصنة بسعد الأسعد

﴿ ومكروا ﴾ : يظهر أنه معطوف على صلة من ، وجمع الضمير في ﴿ ومكروا ﴾ ، ﴿ وقالوا ﴾ على المعنى ؛ ومكرهم : احتيالهم في الدين وتحريش الناس على نوح عليه السلام .

وقرأ الجمهور : ﴿ كباراً ﴾ بتشديد الباء ، وهو بناء فيه مبالغة كثير .

قال عيسى بن عمر : هي لغة يمانية ، وعليها قول الشاعر :

والمرء يلحقه بقنان الندى . . .

خلق الكريم وليس بالوضاء

وقول الآخر :

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي . . .

بالحسن قلب المسلم القراء

ويقال : حسان وطوال وجمال .

وقرأ عيسى وابن محيصن وأبو السمال : بخف الباء ، وهو بناء مبالغة .

وقرأ زيد بن علي وابن محيصن ، فيما روي عنه أبو الأخيرط وهب بن واضح : كباراً ، بكسر الكاف وفتح الباء .

وقال ابن الأنباري : هو جمع كبير ، كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل .

انتهى ، يعني فلذلك وصفه بالجمع .

﴿ وقالوا ﴾ : أي كبراؤهم لأتباعهم ، أو قالوا ، أي جميعهم بعضهم لبعض ، ﴿ لا تذرن ﴾ : لا تتركن ، ﴿ آلهتكم ﴾ : أي أصنامكم ، وهو عام في جميع أصنامهم ، ثم خصبوا بعد أكابر أصنامهم ، وهو ودّ وما عطف عليه ؛ وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الزمان .

قال عروة بن الزبير : كانوا بني آدم ، وكان ودّاً أكبرهم وأبرهم به .

وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : كانوا بني آدم ونوح عليهما السلام ، ماتوا فصورت أشكالهم لتذكر أفعالهم الصالحة ، ثم هلك من صورهم وخلف من يعظمها ، ثم كذلك حتى عبدت .

قيل : ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها .

وقيل : بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب .

فكان ودّ لكلب بدومة الجندل ؛ وسواع لهذيل ، وقيل : لهمدان ؛ ويغوث لمراد ، وقيل : لمذحج ؛ ويعوق لهمدان ، وقيل : لمراد ؛ ونسر لحمير ، وقيل : لذي الكلاع من حمير ؛ ولذلك سمت العرب بعبد ودّ وعبد يغوث ؛ وما وقع من هذا الخلاف في سواع ويغوث ويعوق يمكن أن يكون لكل واحد منهما صنم يسمى بهذا الاسم ، إذ يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام ، فإنما بقيت الأسماء فسموا أصنامهم بها .

قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث ، وكان من رصاص ، يحمل على جمل أجرد يسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المنزل ، فينزلون حوله ويضربون له بناء . انتهى .

وقال الثعلبي : كان يغوث لكهلان من سبأ ، يتوارثونه حتى صار في همدان ، وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يريش الله في الدنيا ويبري . . .

ولا يبري يغوث ولا يريش

وقال الماوردي : ود اسم صنم معبود .

سمي وداً لودهم له . انتهى .

وقيل : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر ، وهذا مناف لما تقدم من أنهم صوروا صور ناس صالحين .

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة ، بخلاف عنهم : وداً ، بضم الواو ؛ والحسن والأعمش وطلحة وباقي السبعة : بفتحها ، قال الشاعر :

حياك ودّ فإنا لا يحل لنا . . .

لهو النساء وأن الدين قد عزما

وقال آخر :

فحياك ودّ من هداك لعسه . . .

وخوص باعلا ذي فضالة هجه

قيل : أراد ذلك الصنم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يغوث ويعوق ﴾ بغير تنوين ، فإن كانا عربيين ، فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين ، فللعجمة والعلمية .

(108/784)

وقرأ الأشهب : ولا يغوثا ويعوقا بتنوينهما .

قال صاحب اللوامح : جعلهما فعولاً ، فلذلك صرفهما .

فأما في العامة فإنهما صفتان من الغوث والعوق بفعل منهما ، وهما معرفتان ، فلذلك منع الصرف لاجتماع الفعلين اللذين هما تعريف ومشابهة الفعل المستقبل .

انتهى ، وهذا تخبيط .

أما أولاً ، فلا يمكن أن يكونا فعولاً ، لأن مادة يغث مفقودة وكذلك يعق ؛ وأما ثانياً ، فليسا بصفتين من الغوث والعوق ، لأن يفعلا لم يجيء اسماً ولا صفة ، وإنما امتنعا من الصرف لما ذكرناه .

وقال ابن عطية : وقرأ الأعمش : ولا يغوثا ويعوقا بالصرف ، وذلك وهم لأن التعريف لازم ووزن الفعل . انتهى .

وليس ذلك بوهم ، ولم ينفرد الأعمش بذلك ، بل قد وافقه الأشهب العقيلي على ذلك ،

وتخريجه على أحد الوجهين ، أحدهما : أنه جاء على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف عند عامة العرب ، وذلك لغة وقد حكاها الكسائي وغيره ؛ والثاني : أنه صرف لمناسبة ما قبله وما بعده من المنون ، إذ قبله ﴿ وداً ولا سواعاً ﴾ ، وبعده ﴿ ونسراً ﴾ ، كما قالوا في صرف ﴿ سلاسلاً ﴾ و ﴿ قواريرا قواريرا ﴾ لمن صرف ذلك للمناسبة .

وقال الزمخشري : وهذه قراءة مشكلة ، لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما منع الصرف ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات ﴿ وداً ويعوق ونسراً ﴾ ، كما قرئ : ﴿ وضحاها ﴾ بالإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج . انتهى .

وكان الزمخشري لو يدر أن ثم لغة لبعض العرب تصرف كل ما لا ينصرف عند عامتهم ، فلذلك استشكلها .

﴿ وقد أضلوا ﴾ : أي الرؤساء المتبوعون ، ﴿ كثيراً ﴾ : من أتباعهم وعامتهم ، وهذا إخبار من نوح عليه السلام عنهم بما جرى على أيديهم من الضلال .

(109/784)

وقال الحسن : ﴿ وقد أضلوا ﴾ : أي الأصنام ، عاد الضمير عليها كما يعود على العقلاء ، كقوله تعالى : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ ويحسنه عوده على أقرب مذكور ،

ولكن عوده على الرؤساء أظهر ، إذ هم المحدث عنهم والمعنى فيهم أمكن .

ولما أخبر أنهم قد ضلوا كثيراً ، دعا عليهم بالضلال ، فقال : ﴿ ولا تزد ﴾ : وهي معطوفة على ﴿ وقد أضلوا ﴾ ، إذ تقديره : وقال وقد أضلوا كثيراً ، فهي معمولة لقال المضمرة المحكي بها قوله : ﴿ وقد أضلوا ﴾ ، ولا يشترط التناسب في عطف الجمل ، بل قد يعطف ، جملة الإنشاء على جملة الخبر والعكس ، خلافاً لمن يدعي التناسب .

وقال الزمخشري ما ملخصه : عطف ﴿ ولا تزد ﴾ على ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ ، أي قال هذين القولين .

﴿ إلا ضلالاً ﴾ ، قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته ؟ قلت : المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم ، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به ، بل لا يحسن الدعاء بخلافه .

انتهى ، وذلك على مذهب الاعتزال .

قال : ويجوز أن يراد بالضلال الضياع والهلاك ، كما قال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ .

وقال ابن بحر : ﴿ إلا ضلالاً ﴾ : إلا عذاباً ، قال كقوله : ﴿ إن المجرمين في ضلالٍ وسعرٍ ﴾ .

وقيل : إلا خسراناً .

وقيل : إلا ضلالاً في أمر دنياهم وترويج مكرهم وحيلهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ جمعاً بالألف والتاء مهموزاً ؛ وأبو رجاء كذلك ، إلا أنه أبدل الهمزة ياء وأدغم فيها ياء المد ؛ والجحدري وعبيد ، عن أبي عمرو : على الإفراد مهموزاً ؛ والحسن وعيسى والأعرج : بخلاف عنهم ؛ وأبو عمرو : خطاياهم جمع تكسير ، وهذا إخبار من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأن دعوة نوح عليه السلام قد أجيبت .

وما زائدة للتوكيد ؛ ومن ، قال ابن عطية : لابتداء الغاية ، ولا يظهر إلا أنها للسبب .

(110/784)

وقرأ عبد الله : من خطيئاتهم ما أغرقوا ، بزيادة ما بين أغرقوا وخطيئاتهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ أغرقوا ﴾ بالهمزة ؛ وزيد بن عليّ : غرقوا بالتشديد وكلاهما للنقل وخطيئاتهم الشرك وما انجر معه من الكبائر ، ﴿ فأدخلوا ناراً ﴾ : أي جهنم ، وعبر عن المستقبل بالماضي لتحققه ، وعطف بالفاء على إرادة الحكم ، أو عبر بالدخول عن عرضهم على النار غدوّاً وعشياً ، كما قال : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ قال الزمخشري : أو أريد عذاب القبر . انتهى .

وقال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب .

﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ : تعريض بانتفاء قدرة آلهتهم عن نصرهم ، ودعاء نوح عليه السلام بعد أن أوحى إليه أنه ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ قاله قتادة .

وعنه أيضاً : ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب ، وأعقم أرحام نسائهم ، وهذا لا يظهر لأنه قال : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ الآية ، فقوله : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم ، وقاله أيضاً محمد بن كعب والربيع وابن زيد ، ولا يظهر كما قلنا ، وقد كان قبل ذلك طامعاً في إيمانهم عاطفاً عليهم . وفي الحديث : " أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وديارا : من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه ، ووزنه فيعال ، أصله ديوار ، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت ؛ ويقال : منه دوّار ووزنه فعال ، وكلاهما من الدوران ، كما قالوا : قيام وقوام ، والمعنى معنى أحد .

وعن السدّي : من سكن داراً .

وقال الزمخشري : وهو فيعال من الدور أو من الدار . انتهى .

والدار أيضاً من الدور ، وألفها منقلبة عن واو .

﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ : وصفهم وهم حالة الولادة بما يصيرون إليه من الفجور والكفر .

(111/784)

ولما دعا على الكفار ، استغفر للمؤمنين ، فبدأ بنفسه ثم بمن وجب برّه عليه ، ثم للمؤمنين ، فكأن هو ووالداه اندرجوا في المؤمنين والمؤمنات .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولوالديّ ﴾ ، والظاهر أنهما أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش .

وقيل : هما آدم وحوّاء .

وقرأ ابن جبير والجحدري : ولوالدي بكسر الدال ، فأما أن يكون خص أباه الأقرب ، أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام .

وقال ابن عباس : لم يكن لنوح عليه السلام أب ما بينه وبين آدم عليه السلام .

وقرأ الحسن بن عليّ ويحيى بن يعمر والنخعي والزهري وزيد بن عليّ : ولولداي تثنية ولد ، يعني ساماً وحاماً .

﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ ، قال ابن عباس والجمهور : مسجدي ؛ وعن ابن عباس أيضاً :

شريعتي ، استعار لها بيتاً ، كما قالوا : قبة الإسلام وفسطاطه .

وقيل : سفينته .

وقيل : داره .

﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ : دعا لكل مؤمن ومؤمنة في كل أمّة .

والتبار : الهلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(112/784)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

التفسير : لما حذر الناس أهوال يوم القيامة ذكرهم قصة نوح وما جرى على قومه من الإغراق قبل الأطراف حين عصوا رسولهم و " أن " في ﴿ أن أنذر ﴾ و ﴿ أن اعبدوا ﴾ مفسرة لما في ألإرسال والإنذار من معنى القول . أو ناصبة والجار محذوف أي أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإندار . ثم حكى أنه امتثل الأمر فأمر قومه بعبادة الله قبل الأطراف ويتناول جميع الواجبات والمندوبات ﴿ واتقوه ﴾ ويشتمل على الزجر عن جميع المحظورات وبطاعة نفسه تنبيهاً على أن طاعة الله هي طاعة نبيه ، والإلهيات لا

تكمل معرفتها إلا بمعرفة النبوات . ثم وعدهم على العبادة والتقوى والطاعة شيئين : أحدهما دفع مضار الآخرة وهو غفران الذنوب ، والثاني وصول منافع الدنيا وهو بتأخير الأجل إلى أقصى الإمكان . وقد مر في سورة إبراهيم إستدلال من جوز زيادة " من " في الإثبات بنظير هذه الآية . وما أجيب عنه . والذي نزيده ههنا ما قيل : إنه لم لا يجوز أن يراد يغفر لكم كل ما كان من ذنوبكم فتكون فائدته عدم المؤاخذة بمجموع الذنوب لا بكل فرد من أفراده لصدق قول القائل لا أطالبك بمجموع ذنوبك لكني أطالبك بهذا الذنب الواحد . وفي قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ معنى لا يؤاخذكم قاله الإمام فخر الدين الرازي وهو شبه مغالطة لأنه يوجب استعمال مقتضى النفي مكان مقتضى الإثبات وبالعكس بتأويل تقدير الإثبات وبالعكس مثلاً اتفقوا على وجوب النصب في قولك " جاءني القوم إلا زيداً " وعلى قوله يمكن رفعه على البدل بتأويل يتخلف القوم إلا زيد وهكذا قولك " جاءني رجل " لا يشمل المجيء سواه .

(113/784)

ولو قلت " ما تخلف رجل " عمّ المجيء كل أحد . ثم قال : هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حق لأن من آمن فإنه يغفر ما تقدم من ذنوبه على إيمانه ، أما المتأخر عنه فإنه لا يصير بذلك

السبب مغفوراً فثبت أنه لا بد ههنا من حرف التبعيض . قلت : هذا التأويل جائز في حق هذه الأمة أيضاً فوجب أن يذكر من في سورة الصف أيضاً . قوله ﴿ إن أجل الله ﴾ إشارة إلى الأجل المسمى وفيه تنبيه على أن الأجل الاختراعي قد يؤخر بتقدير الإيمان والعبادة ، وفيه أن وقت الفرصة والإمهال يجب أن يغتنم قبل حلول مالا حيلة فيه ، وفي قوله ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ توبيخ على أن إمهالهم في أمور الدنيا بلغ إلى حيث صيرهم شاكين في وقوع الموت . ثم حكى شكوى نوح إلى ربه بعد أن لم ينجع في قومه طول دعوته . ومعنى ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ دائباً دائماً من غير توان وفتور . قوله ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ كقوله ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ [فاطر : 42] قوله ﴿ لتغفر لهم ﴾ ذكر ما هو المقصود وترك ما هو الوسيلة ، وأصل الكلام ليؤمنوا فتغفر لهم ذنوبهم السالفة هذا قول جار الله . ويمكن أن يقال : إنه وعدهم المغفرة على العبادة والتقوى والطاعة فكأنه قال : دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتي لتغفر لهم ، وهذا كلام متسق مبني على الأول كما ترى . ثم ذكر أنهم عاملوه بأشياء منها : جعل الأصابع في الآذان لئلا يسمعوا قوله . ومنها تغطيهم بثيابهم تأكيداً لعدم سماع الحجة أو لئلا يبصروا وجهه . ومنها إصرارهم على مذهبهم واستكبارهم عن قبول الحق إستكباراً بالغاً نهايته . ثم حكى نوح أنه كان لدعوته ثلاث مراتب بدأ تقريع وتغليظ فلم يؤثر . وانتصب ﴿ جهاراً ﴾ على المصدر لأنه نوع من الدعوة أو على أنه صفة دعاء محذوف . والوصف بالمصدر مبالغة على أنه في موضع

الحال . ثم إنه جمع بين الأمرين كما يفعل المجتهد المتحير في التدبير فلم ينفع . ثم فسر الدعوة بقوله ﴿ فقلت استغفروا ﴾ إلى آخره وفيه أن الاستغفار يوجب زيادة البركة

(114/784)

والنماء . وله وجه معقول وهو أن الله سبحانه مفيض الخيرات والبركات بالذات كما قال " سبقت رحمتي غضبي " فكل ما يصل إلى العباد مما يضاد ذلك كالفقر والقحط والآلام والمخاوف فإنها بشؤم معاصيهم ، فإذا تابوا واستغفروا زال الشؤم والبلاء وعاد الخير والنماء . يروى أنهم لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين .

(115/784)

فوعدهم نوح أنهم إن آمنوا دفع الله عنهم البلاء . والمدرار الكثير الدر يستوي فيه الذكر والمؤنث . ثم إنه وبخهم بقوله ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أصل الرجاء الأمل . والوقار التوقير " فعال " بمعنى " تفعيل " مثل " سراح " بمعنى " تسريح " وقد يستعمل الرجاء بمعنى

الخوف فمعناه على هذا مالكم لا تخافون عظمة الله . وعلى الأول قال جار الله : معناه أي شيء لكم وما بالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ﴿ ولله ﴾ بيان أو حال ولو تأخر لكان صلة للوقار أو صفة ، ويحتمل أن يكون الوقار فعلاً للقوم وذلك أنهم كانوا يستخفون برسول الله صلى الله عليه وسلم فحثهم على تعظيمه لأجل الله راجين ثوابه . وعن ابن عباس أن الوقار هو الثواب من وقر إذا ثبت واستقر قال جار الله : في تقريره أي لا تخافون لله عاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب . وقال غيره : تم الكلام عند قوله ﴿ مالكم ﴾ ثم استفهم منكراً ﴿ لا ترجون ﴾ أي لا تعتقدون لله ثباتاً وبقاء فإنكم لو رجوتم ذلك لما أقدمتم على الإستخفاف برسوله . قال الليث : الطور التارة أي خلقكم مرة بع مرة نطفة ثم علقة إلى آخرها . وقال ابن الإنباري : والطور الحال فيجوز أن يراد الأوصاف المختلفة التي لا شبه بعضها بعضاً ، وهذا دليل للتوحيد المأخوذ من الأنفس ، ثم أشار إلى دليل الآفاق بقوله ﴿ ألم تروا ﴾ الآية . ومعنى ﴿ طباقاً ﴾ قد مر في أول " الملك " فلا يلزم منه أن لا يبقى للملائكة مساكن فيها فلعلها متوازية لا متماسة . وأما على قول من يزعم أن الملائكة روحانية فلا إشكال ، قوله ﴿ فيهن ﴾ في حيزه من السموات وشبه الشمس بالسراج لأن نوره ذاتي كهي ، أو لأن الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس سبب لزواله . ثم عاد إلى دليل الأنفس بقوله ﴿ والله

أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ يحتمل أن يكون من باب التفعيل فيكون مصدراً متعدياً قريباً من لفظ الفعل وأن يكون ثلاثياً لازماً فيكون أبعد ،

(116/784)

ويجوز أن يراد أنبتكم فنبتم نباتاً . قال جار الله : استعير الإنبات للإنشاء ليكون أدل على الحدوث . وفي قوله ﴿ إخراجاً ﴾ تأكيداً أي يخرجكم حقاً ولا محالة . ثم ذكر دليلاً آخراً فاقياً من حال الأرض . والفج الطريق الواسع .

ثم إن سائلاً كأنه سأل : ماذا قال نوح بعد هذه الشكوى ؟ فبين سبحانه أنه تعالى ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني ﴾ مكان قوله وأطيعون ﴿ واتبعوا ﴾ رؤساءهم ولم يزدهم ما لهم وولدهم ﴿ إلا خساراً ﴾ في الآخرة كأن التمتع القليل في الدنيا كالعدم . وولده بالضم لغة في الولد ويجوز أن يكون جمعاً كفلك ﴿ ومكروا ﴾ معطوف على ﴿ لم يزده ﴾ لأن المتبوعين هم الذين مكروا ﴿ وقالوا ﴾ للأتباع ﴿ لا تذرن ﴾ وجمع حملاً على المعنى .

(117/784)

والكبار بالتشديد أكبر من الكبار بالتخفيف ولهذا لم يقرأ مخففاً إلا في الشاذ فكلاهما مبالغة في الكبير . ولا ريب أن رأس الخيرات هو الإرشاد إلى التوحيد فنقيضه وهو الدعاء إلى الشرك يكون أعظم الكبائر وأفظع أنواع المكر . وإنما سمي مكراً لأنهم دلسوا عليهم بأنه دين آبائكم والآباء أعرف من الأبناء . وبأن هذه الأصنام تعطيكم الخيرات والمنافع وأنها شفعاؤكم . ثم خصوا الأصنام الخمسة بالذكر لأنها كانت عندهم أكبر قالوا : وقد انتقلت من قوم نوح إلى العرب لأسباب لا يعلمها إلا الله ، ولأنها لم تكن مما تعرف بالطوفان ، فكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير ، وصورته أيضاً كصورة النسر ، وأما ود فعلى صورة الرجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، وإنما دعا نوح عليهم بالضلال غضباً عليهم حين عرف بالقرائن المفيدة للجزم أنهم لا يكادون يؤمنون ، أو المراد ضلال طريق الجنة ، أو ضلال مكرهم المذكور وعدم ترويجه ، أو المراد العذاب كقوله ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر : 47] وقالت المعتزلة : أراد الخذلان ومنع الألطاف وخص هذا بالضلال دون التبار لموافقة قوله ﴿ وقد أضلوا ﴾ قوله ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ " من " للتعليل كقولك " جئتك لأجل كذا " و " ما " صلة للتوكيد . وسبب تقديم الجار بيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان فإدخالهم النار إلا من أجل خطاياهم وهي كفرهم المضموم إلى أنواع إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقد يستدل

بفاء التعقيب لا سيما وقد دخل على ماضٍ معطوف على مثله على إثبات عذاب القبر .

عن الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب هكذا حال من مات من المجرمين في ماء أو في نار أو في جوف سبع أصابه ما يصيب المقبور من العذاب العقلي وهو ظاهر ، والعذاب الجسمي وهو غير بعيد في قدرة الله تعالى . وتنكير النار للتعظيم أو لأنها نوع نم

(118/784)

النار مختص بهم . وفي قوله ﴿ فلم يجدوا ﴾ تهكم بهم وبآلهتهم قوله ﴿ وقال ﴾ معطوف على مثله ولهذا دخل العاطف كأنه جمع نوح بين ذلك القول وبين هذا . وإنما وقع مما خطيئاتهم إلى الآية اعتراضاً في البين تنبيهاً على أن خطيئاتهم هي المذكورات في الآية المتقدمة من عصيان رول الله واتباع غيره . والمكر الكبار والحث على التقليد والإشراك بالله خصوصاً الأصنام الخمسة ﴿ دياراً ﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام . يقال : ما بالدار ديار وهو " فيعال " من الدور أو من الدار أي نازل دار قاله ابن قتيبة . فعل به ما فعل بنحو أيام لو كان فعالاً لقيل دواراً ، قوله ﴿ إنك إن تذرهم ﴾ إلى آخره .

قال العلماء : عرف ذلك بالوحي كما قال ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [

هود : 36] وبالتجربة في المدة إليه حالهم واتفق الجمهور على أن صبيانهم لم يغرقوا على وجه العذاب . قال الحسن : علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب ولكن كما يموت أكثر الناس بآجال إختراعية ، ومنه الحديث " يهلكون مهلكاً واحداً يصدرون مصادر شتى " ومن روى أن الله سبحانه أعقم أرحام نسائهم أربعين أو سبعين سنة فلا إشكال . ثم إن نوحاً كأنه تنبه أن دعاءه عليهم كان بسبب الانتقام وبعض حظ النفس فاستغفر الله من ترك الأولى ، ثم عقبه بذكر والديه . وكان إسم أبيه لمك بن متوشلخ . وإسم أمه شمخا بنت أنوش . قال عطاء : لم يكن بين نوح وآدم عليه السلام من آبائه كافر وكان بينه وبين أدم عشرة آباء . وقيل : أراد بالوالدين آدم وحواء ﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ أي منزلي . وقيل : مسجدي . وقيل : سفينتي . وقيل : ديني . على هذا يكون قوله ﴿ مؤمناً ﴾ احترازاً من المنافق أي دخولاً مع تصديق القلب ، ثم عمم دعاء الخير للمؤمنين والمؤمنات ودعاء الشر لأهل الظلم والشرك إلى يوم القيامة . والتبار الهلاك ويجوز أن يريد بالظالمين قومه فقط والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 362 . 366 ﴾

(119/784)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة نوح عليه السلام

مكية وهي سبع وعشرون آية ، ومائتان وأربعوعشرون كلمة ، وتسعمائة وتسعة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ ذي الجلال والإكرام ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بما أفاضه من ظاهر الإنعام ﴿ الرحيم ﴾ الذي حفظ أولياءه من الابتداء إلى الختام .

ولما ختمت سأل بالإنذار للكفار وكانوا عباد أوثان بعذاب الدنيا والآخرة أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا على تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام فقال تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة البالغة ﴿ أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ أي : الذين كانوا في غاية القوّة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان ، وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين ، روى قتادة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أول نبي أرسل نوح عليه السلام" وأرسل إلى جميع أهل الأرض ولذلك لما كفروا أغرق الله تعالى أهل الأرض جميعاً ، وهو نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ ، وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام . قال وهب : وكل مؤمنون أرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة . وقال ابن

عباس رضي الله تعالى عنهما : وهو ابن أربعين سنة . وقال عبد الله بن شداد : بعث وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة .

(120/784)

ويجوز في قوله تعالى : ﴿ أن أنذر ﴾ أي : حذر تحذيراً عظيماً ﴿ قومك ﴾ أي : الاستمرار على الكفر أن تكون أن مفسرة فلا يكون لها من الإعراب لأن في الإرسال معنى الأمر فلا حاجة إلى إضمار ، ويجوز أن تكون المصدرية أي : أرسلناه بالإنذار . قال الزمخشري : والمعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر قومك أي : أرسلناه بالأمر بالإنذار ا . ه . وهذا الذي قدره جواب عن سؤال وهو أنّ قولهم إنّ أن المصدرية يجوز أن توصل بالأمر مشكل ؛ لأنه ينسبك منها ومما بعدها مصدر وحينئذ فتفوت الدلالة على الأمر ألا ترى أنك إذا قدرت كتبت إليه بأن قم : كتبت إليه القيام تفوت الدلالة على الأمر حال التصريح بالمصدر فينبغي أن يقدر كما قاله الزمخشري أي : كتبت إليه بأن قلت له : قم ، أي : كتبت إليه بالأمر بالقيام .

(121/784)

وقال القرطبي : أي بأن أنذر قومك ﴿ من قبل أن يأتيهم ﴾ أي : على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة ﴿ عذاب أليم ﴾ أي : عذاب الآخرة أو الطوفان ﴿ قال ﴾ أي : نوح عليه السلام ﴿ يا قوم ﴾ فاستعطفهم بتذكيرهم أنه أحدهم يهمه ما يهمهم ﴿ إني لكم نذير ﴾ أي : مبالغ في إنذاركم ﴿ مبين ﴾ أي : أمري بين في نفسه بحيث إنه صار في شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه مناد بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي ، ويجوز في قوله تعالى : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له جميع الكمال ، أن تكون أن تفسيرية لنذير ، وأن تكون مصدرية والكلام فيها كما تقدّم في أختها . وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة في الوصل بكسر النون والباقون بالضم ، والمعنى وحدوا الله ﴿ واتقوه ﴾ أي : اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية تمنعكم من عذابه بالانتهاء عن كل ما يكرهه فلا تتحركوا حركة ولا تسكنوا سكنة إلا في طاعته ، وهذا هو العمل الواقي من كل سوء ﴿ وأطيعون ﴾ أي : لأعرفكم ما تقصر عنه عقولكم من صفات معبودكم ودينكم ودنياكم ومعادكم ، وأدلكم على اجتلاب آداب تهديكم واجتناب شبه ترديكم ، ففي طاعتي فلأحكم برضا الملك عنكم . وقوله : ﴿ يغفر لكم ﴾ جواب الأمر ، وفي من في قوله : ﴿ من ذنوبكم ﴾ أوجه أحدها : أنها تبعيضية ، الثاني : أنها لابتداء الغاية ، الثالث : أنها مزيدة . قال ابن عطية : وهو مذهب كوفي ، وردّ بأنّ مذهبهم ليس ذلك لأنهم

يشترطون تنكير مجرورها ولا يشترطون غيره ، والأخفش لا يشترط شيئاً ، فالقول بزيادتها هنا ماش على قوله لا على قولهم ، قاله القرطبيّ ، وقيل : لا يصح كونها زائدة لأنّ من لا تزاد في الموجب وإنما هي هنا للتبعيض وهو بعض الذنوب وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين .

(122/784)

﴿ ويؤخركم ﴾ أي : بلا عذاب تأخيراً ينفعكم ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي : قد سماه الله تعالى وعلمه قبل إيجادكم فلا يزاد فيه ولا ينقص منه فيكون موتكم على العادة أو يأخذكم جميعاً ، فالأمور كلها قد قدرت وفرغ من ضبطها لإحاطة العلم والقدرة فلا يزاد فيها ولا ينقص ليعلم أنّ الإرسال إنما هو مظهر لما قدره في الأزل ، ولا يظن أنه قالب للأعيان بتغيير ما سبق به القضاء من الطاعة والعصيان ، وقرأ : ويوخركم ولا يوخر ورش بإبدال الهمزة واواً وقفاً ووصلاً ، وحمزة في الوقف دون الوصل ، والباقون بالهمز .

﴿ إنّ أجل الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله فلا رادّ لأمره ﴿ إذا جاء لا يؤخر ﴾ أي : إذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب ، وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته ، وقد يضاف إلى القوم كقوله تعالى : ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ (يونس :)

لأنه مضروب لهم . ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أي : لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك ولكنهم لانهماكهم في حبّ الدنيا كأنهم شاكّون في الموت .

ولما كان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً وكان قد طال نصحه لهم ولم يزدادوا إلا طغياناً وكفراً ﴿ قال ﴾ منادياً لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره : ﴿ رب ﴾ أي : يا سيدي وخالقي ﴿ إني دعوت ﴾ أي : أوقعت الدعاء إلى الله بالحكمة والمواعظة الحسنة ﴿ قومي ﴾ أي : الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني ، وفيهم قوّة المحاولة لما يريدون ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ أي : دائماً متصلاً لا أفتر عن ذلك . وقيل : معناه سراً وجهراً . ﴿ فلم يزدهم دعائي ﴾ أي : شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿ إلا فراراً ﴾ أي : بعداً وإعراضاً عن الإيمان كأنهم حمر مستنفرة استثناء مفرغ وهو مفعول ثان ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء ، والباقون بفتحها وهم على مراتبهم في المد .

(123/784)

﴿ وإني كلما ﴾ أي : على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات ﴿ دعوتهم ﴾ أي : إلى الإقبال إليك بالإيمان بك والإخلاص لك ﴿ لتغفر لهم ﴾ أي : ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا لأجله في التجاوز في الحد محواً بالغاً ، فلا يبقى لشيء من ذلك عين ولا

أثر حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم ﴿ جعلوا أصابعهم ﴾ كراهة منهم واحتقاراً للداعي ﴿ في آذانهم ﴾ حقيقة لئلا يسمعوا الدعاء ، إشارة إلى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك ، فإن أبيت إلا الدعاء فإنا لا نسمع لسد أسماعنا ودل على الإفراط في كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي : أوجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم لئلا يبصروه كراهة للنظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله تعالى ، وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائماً . ﴿ وأصروا ﴾ أي : أكبوا على الكفر وعلى المعاصي من أصر الحمار على العانة ، وهي القطيع من الوحش إذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها ﴿ واستكبروا ﴾ أي : أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه وأكد ذلك بقوله : ﴿ استكباراً ﴾ تنبيهاً على أن فعلهم منابذ للحكمة ، وقد أفادت هذه الآيات بالصريح في غير موضع أنهم عصوا نوحاً عليه السلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار وباطناً بالإصرار والاستكبار .

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي : معلناً بالدعاء ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بأعلى صوتي .

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي : كررت لهم الدعاء معلناً ، وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿ وأسررت لهم إسراراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يريد الرجل بعد الرجل ، أكلمه سراً بيني وبينه ، أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك .

لأنه مضروب لهم . ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ أي : لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك ولكنهم لانهماكهم في حبّ الدنيا كأنهم شاكّون في الموت .

(124/784)

ولما كان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً وكان قد طال نصحه لهم ولم يزدادوا إلا طغياناً وكفراً ﴿ قال ﴾ منادياً لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره : ﴿ رب ﴾ أي : يا سيدي وخالقي ﴿ إني دعوت ﴾ أي : أوقعت الدعاء إلى الله بالحكمة والمواعظة الحسنة ﴿ قومي ﴾ أي : الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني ، وفيهم قوّة المحاولة لما يريدون ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ أي : دائماً متصلاً لا أفتر عن ذلك . وقيل : معناه سراً وجهراً . ﴿ فلم يزدهم دعائي ﴾ أي : شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿ إلا فراراً ﴾ أي : بعداً وإعراضاً عن الإيمان كأنهم حمر مستنفرة استثناء مفرغ وهو مفعول ثان ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بسكون الياء ، والباقون بفتحها وهم على مراتبهم في المد .

(125/784)

﴿ وإني كلما ﴾ أي : على تكرار الأوقات وتعاقب الساعات ﴿ دعوتهم ﴾ أي : إلى الإقبال إليك بالإيمان بك والإخلاص لك ﴿ لتغفر لهم ﴾ أي : ليؤمنوا فتمحو ما فرطوا فيه في حقك فأفرطوا لأجله في التجاوز في الحد محواً بالغاً ، فلا يبقى لشيء من ذلك عين ولا أثر حتى لا تعاقبهم عليه ولا تعاتبهم ﴿ جعلوا أصابعهم ﴾ كراهة منهم واحتقاراً للداعي ﴿ في آذانهم ﴾ حقيقة لئلا يسمعوا الدعاء ، إشارة إلى أنا لا نريد أن نسمع ذلك منك ، فإن أبيت إلا الدعاء فإنا لا نسمع لسد أسماعنا ودل على الإفراط في كراهة الدعاء بما ترجم عنه قوله : ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي : أوجدوا التغطية لرؤوسهم بثيابهم لئلا يبصروه كراهة للنظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله تعالى ، وهكذا حال النصحاء مع من ينصحونه دائماً . ﴿ وأصروا ﴾ أي : أكبوا على الكفر وعلى المعاصي من أصر الحمار على العانة ، وهي القطيع من الوحش إذا صر أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها ﴿ واستكبروا ﴾ أي : أوجدوا الكبر طالبين له راغبين فيه وأكد ذلك بقوله : ﴿ استكباراً ﴾ تنبيهاً على أن فعلهم منابذ للحكمة ، وقد أفادت هذه الآيات بالصريح في غير موضع أنهم عصوا نوحاً عليه السلام وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار وباطناً بالإصرار والاستكبار .

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي : معلناً بالدعاء ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بأعلى صوتي .

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي : كررت لهم الدعاء معلناً ، وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿ وأسررت لهم إسراراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يريد الرجل بعد الرجل ، أكلمه سراً بيني وبينه ، أدعوه إلى عبادتك وتوحيدك .

(126/784)

﴿ فقلت ﴾ أي : في دعائي لهم ﴿ استغفروا ربكم ﴾ أي : اطلبوا من المحسن إليكم المبدع لكم المدبر لأموركم أن يمحو ذنوبكم أعيانها وآثارها بأن تؤمنوا بالله وتتقوه ﴿ إنه كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ودائماً سرمداً ﴿ غفاراً ﴾ أي : متصفاً بصفة الستر على من رجع إليه .

﴿ يرسل السماء ﴾ أي : المظلة لأن المطر منها ، ويجوز أن يراد السحاب والمطر ﴿ عليكم مدراراً ﴾ .

﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ أي : ويكثر أموالكم وأولادكم ، وذلك أن قوم نوح عليه السلام لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله تعالى عنهم المطر وعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أموالهم ومواشيهم ، فقال لهم نوح : استغفروا ربكم من الشرك ، أي : استدعوه المغفرة بالتوحيد ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ . روى الشعبي : أن عمر بن الخطاب رضي

الله عنهما خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار ، فلما نزل قيل : يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت الغيث بمخاريج السماء التي بها يستنزل القطر ، ثم قرأ هذه الآية ، شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء . وعن الحسن أن رجلاً شكا إليه الجدب ، فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا الآية . وقال القشيري : من وقعت له حاجة إلى الله تعالى فلن يصل إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار . وقال : إن عمل قوم نوح كان بضد ذلك ، كلما ازداد نوح عليه السلام في الضمان ووجوه الخير والإحسان ازدادوا في الكفر والنسيان .

(127/784)

﴿ ويجعل لكم ﴾ أي : في الدارين ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين عظيمة وأعاد العامل للتأكيد ، فقال ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ أي : يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك ، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً . وقال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (الأعراف :)

وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾ (الجن :)

﴿ ما لكم لاترجون الله ﴾ أي : الملك الذي له الأمر كله ﴿ وقاراً ﴾ أي : ما لكم لا تأملون له توقيراً ، أي : تعظيماً ، والمعنى : ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب . ولله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة الوقار ، فإنّ بالمعرفة تزكو الأعمال وتصلح الأقوال ، إنما سبق أبو بكر رضي الله عنه بشيء وقر في صدره ، وإنما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقاً ولا تنازع له اختياراً ، وتعظم أمره ونهيه بعدم المعارضة .

﴿ وقد ﴾ أي : والحال أنه قد أحسن إليكم مرّة بعد مرّة بما لا يقدر عليه غيره ، فدل ذلك على تمام قدرته ثم لم يقطع إحسانه عنكم ، فاستحق أن تؤمنوا به لأنه ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (الرحمن :)

ورجاء لدوام إحسانه وخوفاً من قطعه لأنه ﴿ خلقكم ﴾ أي : أوجدكم من العدم مقدّرين ﴿ أطواراً ﴾ أي : تارات عناصر أولاً ثم مركبات تغذي الحيوانات ، ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً وأعصاباً ودماء ، ثم خلقاً آخر تاماً ناطقاً

ذكراناً وإناثاً إلى غير ذلك من الأمور الدالة على قدرته على كل مقدور ، ومن قدر على هذا ابتداء كان على الإعادة أعظم قدرة .

(128/784)

﴿ ألم تروا ﴾ أي : أيها القوم ﴿ كيف خلق الله ﴾ أي : الذي له العلم التامّ والقدرة البالغة والعظمة الكاملة ﴿ سبع سموات ﴾ هنّ في غاية العلو والسعة والإحكام والزينة

﴿ طباقاً ﴾ أي : متطابقة بعضها فوق بعض ، وكل واحدة في التي تليها محيطة بها ما لها من فروج ، ولا يكون تمام المطابقة كذلك إلا بالإحاطة من كل جانب .

﴿ وجعل القمر ﴾ أي : الذي ترونه ﴿ فيهنّ نوراً ﴾ أي : لامعاً منتشراً كاشفاً للمرئيات ، أحد وجهيه يضيء لأهل الأرض ؛ والثاني لأهل السماوات . قال الحسن : يعني في السماء الدنيا ، كما تقول : أتيت بني فلان ، وإنما أتيت بعضهم وفلان متوار في دور بني فلان ، وهو في دار واحدة ، وبدأ به لقربه وسرعة حركته وقطعه جميع البروج في كل شهر وغيبوبته في بعض الليالي ، ثم ظهوره وذلك أعجب في القدرة .

ولما كان نوره مستفاداً من نور الشمس قال تعالى : ﴿ وجعل ﴾ أي : فيها ﴿ الشمس ﴾ أي : في السماء الرابعة ﴿ سراجاً ﴾ أي : نوراً عظيماً كاشفاً لظلمة الليل عن وجه الأرض

وهي في السماء الرابعة كما مرّ . وقيل : في الخامسة ، وقيل : في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة . روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن عمر : أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السماء وأقفيتهما إلى الأرض ، وجعلهما سبحانه آية على رؤية عباده المؤمنين له في الجنة .

﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له الأمر كله ﴿ أنبتكم ﴾ أي : بخلق أبيكم آدم عليه السلام ﴿ من الأرض ﴾ أي : كما ينبت ، وعبر بذلك تذكيراً لنا بما كان من خلق أبينا آدم عليه السلام لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض ﴿ نباتاً ﴾ أي : أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات له لأنه أدل على الحدوث والتكوّن ، وأصله أنبتكم فنبتم نباتاً فاختصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية .

(129/784)

﴿ ثم يعيدكم ﴾ على التدريج ﴿ فيها ﴾ أي : الأرض بالموت والإقبار وإن طالت الآجال ﴿ ويخرجكم ﴾ أي : منها بالإعادة ، وأكد بالمصدر الجاري على الفعل إشارة إلى شدّة العناية به وتحتم وقوعه لإنكارهم له فقال تعالى : ﴿ إخراجاً ﴾ أي : غريباً ليس هو كما تعلمون بل تكونون به في غاية ما يكون من الحياة الباقية تلابس أرواحكم بها أجسامكم

ملابسة لا انفكاك بعدها لا حكماً عن الآخر .

﴿ والله ﴾ أي : المستجمع لجميع الجلال والإكرام ﴿ جعل لكم ﴾ أي : نعمة عليكم اهتماماً بأمركم ﴿ الأرض بساطاً ﴾ أي : سهل عليكم التصرّف فيها والتقلب عليها سهولة التصرّف في البساط .

ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ لتسلكوا ﴾ أي : متخذين ﴿ منها ﴾ أي : الأرض مجددين ذلك ﴿ سبلاً ﴾ أي : طرقاً واضحة مسلوكة بكثرة ﴿ فجاجاً ﴾ أي : ذوات اتساع لتتوصلوا إلى البلاد الشاسعة براً وبحراً ، فيعم الانتفاع بجميع البقاع فالذي قدر على إحداثكم وأقدركم على التصرّف في أصلكم مع ضعفكم قادر على إخراجكم من أجداثكم التي لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره .

ولما أكثروا مع نوح عليه السلام الجدال ونسبوه إلى الضلال وقابلوه بأشنع الأقوال والأفعال .

﴿ قال نوح ﴾ أي : بعد رفقه بهم ولينه لهم : ﴿ رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ المدبر لي المتولي لجميع أمري ﴿ إنهم ﴾ أي : قومي الذين دعوتهم إليك مع صبري عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ عصوني ﴾ أي : فيما أمرتهم به ودعوتهم إليه ، فأبوا أن يجيبوا دعوتي وشردوا عني أشدّ شراد ، وخالفوني أقبح مخالفة .

﴿ واتبعوا ﴾ أي : بغاية جهدهم نظراً إلى المظنون العاجل ﴿ من ﴾ أي : رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بولدانهم ، وفسرهم بقوله تعالى : ﴿ لم يزده ﴾ أي : شيئاً من

الأشياء ﴿ ماله ﴾ أي : كثرته ﴿ وولده ﴾ كذلك ﴿ إلا خساراً ﴾ أي : بالبعد من الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح الواوين واللام ، والباقون بضم الواو الثانية وإسكان اللام .

(130/784)

﴿ ومكروا ﴾ أي : هؤلاء الرؤساء في تنفير الناس عني ﴿ مكراً ﴾ وزاده تأكيداً بصيغة هي النهاية في المبالغة بقوله : ﴿ كباراً ﴾ فإنه أبلغ من كبار المخفف الأبلغ من كبير ، واختلفوا في معنى مكرهم فقال ابن عباس : قالوا قولاً عظيماً . وقال الضحاك : افتروا على الله تعالى وكذبوا رسله . وقيل : منع الرؤساء أتباعهم عن الإيمان بنوح عليه السلام ، فلم يدعوا أحداً منهم بذلك المكر يتبعه وحرشوهم على قتله .

﴿ وقالوا ﴾ أي : لهم ﴿ لا تذرن ﴾ أي : تتركن ﴿ آلهتكم ﴾ أي : عبادتها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة ، وأضافوها إليهم تحبيباً فيها ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحاً بالمقصود ، فقالوا مكرّرين اليمين والعامل تأكيداً : ﴿ ولا تذرنّ ودّاً ﴾ قرأ نافع بضم الواو والباقون بفتحها ، وأنشدوا بالوجهين قول الشاعر :

*حيال وودّ من هداك لقيته ** وحرض بأعلى ذي فضالة مسجد *

وقال القرطبي : قال الليث : وَدًّا بفتح الواو : صنم كان لقوم نوح ، ووُدًّا بالضم : صنم لقريش وبه سمي عمرو بن وُد . وفي الصحاح والوَدّ بالفتح : الوتد في لغة أهل نجد ، كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال ا .ه . ثم أعادوا النفي تأكيداً فقالوا : ﴿ ولا سواعاً ﴾ وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا : ﴿ ولا يغوث ﴾ . ولما بلغ التأكيد نهايته وعلم أنّ القصد النهي عن كل فرد فرد لا عن المجموع تركوا التأكيد في قولهم : ﴿ ويعوق ونسرا ﴾ للعلم بإرادته .

واختلف المفسرون في هذه الأسماء فقال ابن عباس وغيره : هي أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب ، وهذا قول الجمهور ، وقيل : إنها للعرب لم يعبدها غيرهم ، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فلذلك خصوها بالذكر بعد قولهم : ﴿ لا تذرنّ آلهتكم ﴾ وقال عروة بن الزبير : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكان ودّ أكبرهم وأبرّهم به .

(131/784)

قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمسة بنين : ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وكانوا عباداً ، فمات رجل منهم فحزنوا عليه فقال الشيطان : أنا أصوّر لكم مثله إذا نظرتم

إليه ذكرتموه ، قالوا : افعل ، فصوّره في المسجد من صفر ورصاص ، ثم مات آخر فصوّره حتى ماتوا كلهم وصوّرهم وتناقصت الأشياء كما تناقصت اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين ، فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ؟ قالوا : وما نعبد ؟ قال : آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون أنها في مصلاكم فعبدوها من دون الله تعالى حتى بعث الله نوحاً عليه السلام ، فقالوا : ﴿ لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودًّا ولا سواعاً ﴾ الآية .

وقال محمد بن كعب أيضاً ومحمد بن قيس : بل كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم وليتسلوا بالنظر إليها فصوّروهم ، فلما ماتوا جاء آخرون فقالوا : ليت شعري ما هذه الصور التي كان يعبدها آباؤنا ، فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت ، وبهذا المعنى فسر ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة : "أنّ أمّ حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ أولئك كانوا إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوّروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة" . ٧

وروي عن ابن عباس أنّ نوحاً عليه السلام كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل الهند فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره ، فقال لهم الشيطان : إنّ هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم وإنما هو جسد وأنا أصوّر لكم مثله تطوفون به ، فصوّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها ، فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب ، وكان للعرب أصنام أخر ، فاللات كانت لقديد وإساف ونائلة ، وهبل كانت لأهل مكة ، وكان إساف حيال الحجر الأسود ، ونائلة حيال الركن اليماني ، وكان هبل في جوف الكعبة .

وقال الماوردي : أما ودّ فهو أوّل صنم معبود فسمي ودًّا لودّهم له وكان بعد قوم نوح لكليب بدومة الجندل في قول ابن عباس وعطاء ، وأمّا سواع فكان لهذيل بساحل البحر في قولهم .

وقال الرازي : وسواع لهمدان وأمّا يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة . وقال المهدوي : لمراد ثم لغطفان . وقال أبو عثمان الهندي : رأيت يغوث وكان من رصاص ، وكانوا يحملونه على جمل أجرد ويسيرونه معهم ولا ينيخونه حتى يبرك بنفسه فإذا برك نزلوا ، وقالوا : قد رضي لكم المنزل ، وأمّا يعوق فكان لهمدان ، وقيل : لمراد ، وأمّا نسر فكان لذي الكلاع من حمير في قول قتادة ومقاتل .

وقال الواقدي : كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة

أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر من الطير . قال البقاعي : ولا يعارض هذا أنهم صور لناس صالحين لأنّ تصويرهم لهم يمكن أن يكون منتزعاً من معانيهم ، فكان ودّ للكامل في الرجولية ، وكان سواع امرأة كاملة في العبادة ، وكان يغوث شجاعاً ، وكان يعوق سابقاً قوياً ، وكان نسر عظيماً طويل العمر ا .ه .

(133/784)

ولما ذكرهم مكرهم وما أظهروا من قولهم عطف عليه ما توقع السامع من أمرهم فقال تعالى : ﴿ وقد أضلوا ﴾ أي : الرؤساء أو الأصنام وجمعهم جمع العقلاء معاملة لهم معاملة العقلاء كقوله : ﴿ رب إنهنّ أضللن ﴾ (إبراهيم :)

﴿ كثيراً ﴾ من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم وممن أتى بعدهم ، فإنهم أوّل من سنّ هذه السنة السيئة ، فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وقول نوح عليه السلام : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أي : الراسخين في الوصف الموجب للنار ﴿ إلا ضلالاً ﴾ أي : طبعاً على قلوبهم حتى يعموا عن الحق .

(134/784)

عطف على قد أضلوا دعاء عليهم بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون بقوله تعالى : ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ ، وكذلك دعا موسى وهارون عليهما السلام في الشدّ على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه وما في قوله تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ أي : من أجل خطيئاتهم مزيدة للتأكيد والتفخيم ، وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء وبعدها ألف وبعد الألف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم ، والباقون بكسر الطاء وبعدها ياء تحتية ساكنة ، وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الألف تاء فوقية مكسورة وكسر الهاء على وزن قضياتهم ﴿ أغرقوا ﴾ أي : بالطوفان طاف عليهم جميع الأرض السهل والجبل فلم يبق منهم أحد ، وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه في قوله : ﴿ فأدخلوا ﴾ في الآخرة التي أوّلها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشياً ﴿ ناراً ﴾ أي : عظيمة جداً أخفها ما يكون من مباديها في البرزخ. قال الملوي : عذبوا في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق . وقال الضحاك : في حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون في الماء من جانب بقدرة الله تعالى ﴿ فلم يجدوا لهم ﴾ أي : عندما أناخ الله بهم سطوته ، وأحل بهم نقمته ﴿ من دون الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي تضمحل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته ﴿ أنصاراً ﴾ تنصرهم على من أراد بهم ذلك ليمنعوه مما أراده سبحانه من إغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوّتهم

لكونهم أعداءه وإنجاء نبيه عليه السلام ومن آمن معه على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد لكونهم أولياءه كما أنه لم يسلم ممن أراد إغراقهم أحد على كثرتهم وقوّتهم . قال البقاعي : فمن قال عن عوج ما تقوله القصّاص فهو ضلال أشدّ ضلال ، قال : وقائل ذلك هو ابن عربي صاحب الفصوص الذي لم يرد بتصنيفه إلا هدم الشريعة ، وزاد في الحط عليه وعلى ابن الفارض وعلى الحلاج وعلى من شابههم ، وأمر هؤلاء إلى الله تعالى ، فإنه العالم بحقائق الأمور

(135/784)

وما تخفي

الصدور .

﴿ وقال نوح ﴾ وأسقط الأداة كما هو عادة أهل الحضرة فقال : ﴿ رب لا تذر ﴾ أي : لا تترك ﴿ على الأرض ﴾ أي : كلها ﴿ من الكافرين ﴾ أي : الراسخين في الكفر ﴿ دياراً ﴾ أي : أحداً يدور فيها وهو من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي فيعال من الدور أو الدار لا فعال وإلا لكان دواراً . قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأجاب الله تعالى دعوته وأغرق أمّته وهذا كقول

النبيّ صلى الله عليه وسلم "اللهمّ منزل الكتاب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم" . وقيل : سبب دعائه أنّ رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه فمرّ بنوح عليه السلام فقال : احذر هذا فإنه يضلك ، فقال : يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجه فحينئذ غضب ودعا عليهم .

فإن قيل : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا ؟

أجيب : بأنهم أغرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمّهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى" .

وعن الحسن أنه سئل عن ذلك ؟ فقال : علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب . وقال محمد بن كعب ومقاتل : إنما قال هذا حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم أرحام أمّهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة ، وقيل : بسبعين سنة فأخبر الله تعالى نوحاً عليه السلام أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ (هود :)

فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم كلهم ، ولم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب لأنّ الله تعالى قال : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ (الفرقان :)

ولم يوجد التكذيب من الأطفال . وقال ابن عربي : دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين ، ودعا النبيّ صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين وكفى بهذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة ، وأمّا كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ، لأنّ مآله عندنا مجهول ، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وإنما خص النبيّ صلى الله عليه وسلم عتبة وشيبة وأصحابه لعلمه بما لهم وما كشف الله له من الغطاء عن حالهم .

ولما كان الرسل عليهم السلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما كان فيه مصلحة الدين علل دعاءه بقوله : ﴿ إنك ﴾ أي : يا رب ﴿ إن تذرهم ﴾ أي : تتركهم على أيّ حالة كانت في إبقائهم سالمين على وجه الأرض ولو كانت حالة دنيئة ﴿ يضلوا عبادك ﴾ أي : الذين آمنوا بك وبي والذين يولدون على الفطرة السليمة ﴿ ولا يلدوا ﴾ أي : إن قدرت بقاءهم ﴿ إلا فاجراً ﴾ أي : مارقاً عن كل ما ينبغي الاعتصام به ﴿ كفاراً ﴾ أي : بليغ الستر لما يجب إظهاره من آيات الله .

فإن قيل : بم علم أنّ أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟

أجيب : بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل

ينطلق بابنه إليه ويقول : احذر من هذا فإنه كذاب ، وإنّ أبي حذرنيه ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، وقد أخبر الله تعالى : ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ . ومعنى : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ : لم يلدوا إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه كقوله صلى الله عليه وسلم "من قتل قتيلاً فله سلبه" .

(137/784)

ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا لأوليائه وبدأ بنفسه فقال مسقط الأداة على عادة أهل الخصوص : ﴿ ربّ ﴾ أي : أيها المحسن إليّ باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني ﴿ اغفر لي ﴾ أي : فإنه لا يسعني - وإن كنت معصوماً - إلا حلمك وعفوك ومغفرتك ،

﴿ ولوالديّ ﴾ وكانا مؤمنين يريد أبويه اسم أبيه لمك بن متوشلخ ، وأمّه شمخا بنت أنوش .

وعن ابن عباس : لم يكفر لنوح عليه السلام أب فيما بينه وبين آدم عليه السلام ، وقيل : هما آدم وحوّاء وأعاد الجار إظهاراً للاهتمام فقال : ﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ أي : منزلي ، وقيل : مسجدي ، وقيل : سفينتي ﴿ مؤمناً ﴾ أي : مصدّقاً بالله تعالى فمؤمناً حال ، وعن ابن عباس : أي : دخل في ديني .

فإن قيل : على هذا يصير قوله : ﴿ مؤمناً ﴾ تكراراً ؟

أجيب : بأنّ من دخل في دينه ظاهراً قد يكون مؤمناً وقد لا يكون ، فالمعنى ولمن دخل دخولاً مع تصديق القلب . ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ خص نفسه أوّلاً بالدعاء ، ثم من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة ، قاله الضحاك . وقال الكلبي : من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : من قومه والأوّل أولى وأظهر .

ثم ختم الكلام مرّة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أي : العريقين في الظلم في حال من الأحوال ﴿ إلا تباراً ﴾ أي : هلاكاً مدمراً والمراد بالظالمين الكافرون ، فهي عامة في كل كافر ومشرك . وقيل : أراد مشركي قومه . وتباراً مفعول ثان والاستثناء مفرغ . وقيل : الهلاك الخسران .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 105 . 117 ﴾

(138/784)

وقال القاسمي :

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يعني عذاب الطوفان .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي : يعفو عنها . و ﴿ مَنِ ﴾ إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أي : فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ أي : الذي كتبه على من كذب وتولى ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : من أهل العلم والنظر لأنبتم .

﴿ قَالَ ﴾ أي : نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، في تلك المدد الطوال ، ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ أي : إلى التوحيد والعمل الصالح ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي : دائماً بلا فتور ولا توان

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ﴾ أي : من الحق الذي أرسلتني به .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ أي : إلى الإيمان ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي : بسببه ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ أي : سدوا مسامعهم من استماع الدعوة ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في الدين ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أي : على الشر والكفر ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ أي : تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة

(139/784)

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي : دعوتهم مرة بعد مرة ، على وجوه متنوعة ، ما بين مجاهرة وإظهار بلا خفاء ، وما بين إعلان وصياح بهم ، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم في خفاء . وهذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي : سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ أي : لذنوب من تاب وأناب .

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاء ﴾ أي : المطر ﴿ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴾ أي : متتابعاً .

﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي : فيكثرها عندكم ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ

أَنْهَاراً ﴾ أي : لسقيا جناتكم ومزارعكم .

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ أي : لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه مالا يسمع ولا يبصر ، فنفي الرجاء مراد به نفي لازمه ، وهو الاعتقاد ، مبالغة . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أي : مالكم لا تخافون عظمة الله . ومنه قوله :

~إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا

قال الشهاب : وهو أظهر .

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أي : تارات ترابا ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة ، وهكذا طوراً بعد طور . أي : ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته . هذا في أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ أي : يزيل ظلمه الليل ، وينير وجه الأرض .

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ أي : أنشأكم منها .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ أي : للحساب والجزاء .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً ﴾ أي : تستقرون عليها وتمتهدونها .

﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ أي : طرقاً مختلفة .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي : خالفوا أمري وردّوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ، ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ﴾ أي : رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ﴾ أي : متناهياً كبره ، فإن الكبّار أكبر من الكبير .

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان ود لكلب بدومة الجندل ، وكانت سواع لهزيل ، وكان يغوث لبني غطيف من مراد بالجرف ، وكان يعوق لهمذان ، وكان نسر لذي الكلاع من حمير .

وقال في رواية : والله ما عدا – أي : كل منها – خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير : كان خبرهم – فيما بلغنا – من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو

صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ؛ فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

(141/784)

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب ، بعدُ : أما ود ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطَيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمذان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكَلاع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخَ العلمُ ، عُبدت .

تنبيهات :

الأول : قال الرازيّ : في انتقالها عن قوم نوح إلى العرب إشكال ، لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال : إن نوحاً عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال : إنه وضعها في السفينة سعياً منه في حفظها ؟ انتهى

كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهي ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم في العصر المتأخر ، وسنّة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلي أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذ زين له المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخاري : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازيّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُمَامِ .

(142/784)

الثاني : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : حكى الواقدي قال : كان وُد على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة الأسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة طائر . وهذا شاذ ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها . انتهى .

الثالث : قال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " : أول ما كاد به الشيطان عبَّاد الأصنام ، من

جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال :

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا < لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد السرج > ، و < نهى عن الصلاة إلى القبور > ، و < سأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد > ، و < نهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً > ، وقال : < اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد > ، و < أمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل > ، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً . . . إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا ﴾ أي : الرؤساء ﴿ كَثِيراً ﴾ أي : خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : 36] . ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ﴾ أي : خذلاناً واستدراجاً . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ أي : من أجلها ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أي : بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ أي : أذيقوا به عذاب النار ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴾

قال الزمخشريّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : 43] .

وقال الرازيّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ أي : أحداً .

قال ابن جرير : يعني بـ : الديَّار من يدور في الأرض فيذهب ويجيء فيها ، وهو فَيْعال من الدوران ، ديواراً اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهي ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول : ما بها ديّار ولا عريب ولا دَوِيّ ولا صافر ولا نافخ ضَرَمة .

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ عن طريق الحق .

﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ قال أبو السعود : أي : إلا من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما

يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

(144/784)

وقال بعضهم : ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم ، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذي غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التي تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيئاتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذي لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ قال ابن جرير : أي : ربِّ اعفُ عني ، واستر عليّ ذنوبي وعلى والديّ ، ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ قال ابن جرير : أي : لمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل : بيتي منزلي .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ أي : هلاكاً وخساراً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 232 . 237 ﴾

(145/784)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة نوح

الدرس الأول: 1 – 4 خلاصة دعوة نوح لقومه

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه:أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال:يا قوم:إني لكم نذير مبين:أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم , ويؤخركم إلى أجل مسمى , إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده: (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) . . فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف , كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله , وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده , فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله , يردونهم إليه . ونوح – عليه السلام – كان أول هؤلاء الرسل – بعد آدم عليه السلام . وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض , وممارسته لهذه الحياة ; لعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد , واتخذوا لهم أصناما آلهة . اتخذوها في أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد

ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحا يردهم إلى التوحيد , ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس – عليه السلام – سابقا لنوح . ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم , لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب .

(146/784)

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن , أن نوحا كان في فجر البشرية ; وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما في دعوته لقومه , ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحي بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية . وذلك قياسا على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قل العدد , كأن ذلك للتعويض والتعادل . . والله أعلم بذلك . . إنما هي نظرة في سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده , ثم تذكر فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار : (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) . .

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها , من إعراض واستكبار وعناد وضلال – كما تبرز

من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه – تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته , وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه , الإنذار بعذاب أليم , في الدنيا أو في الآخرة , أو فيهما جميعا .

من الاية 2 الى الاية 4

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار , البارز فيه هو الإنذار , مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ; وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب ; وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها :

(قال:يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله , واتقوه , وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) . .

(147/784)

يا قوم إني لكم نذير مبين . . مفصح عن نذارته , مبين عن حجته , لا يتمتم ولا يجمجم , ولا يتلعثم في دعوته , ولا يدع لبسا ولا غموضا في حقيقة ما يدعو إليه , وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم: (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) . . عبادة لله وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع . وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله , وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحدة منهج كامل للحياة , يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ; ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق , ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس . . ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور , فيقوم منهج للحياة خاص . منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية , وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله . . هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج , وعدم التلفت عنه هنا أو هناك , وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه . كما أنها هي مبعث الخلق

الفاضل المنظور فيه إلى الله , بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة .

وطاعة الرسول . . هي الوسيلة للاستقامة على الطريق , وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية , وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة !

فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده , وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين الثائبين:

(يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) . .

(148/784)

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت ; وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال [وسيرد في الحساب الذي قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة] .

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده , ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى:

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر , لو كنتم تعلمون) . .

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريرا لكل أجل يضربه الله ; ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام .

من الاية 5 الى الاية 9

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (9)

بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم - لو أطاعوا وأنابوا - إلى يوم الحساب .

الدرس الثاني: 5 - 24 نوح يقدم خلاصة ما جرى بينه وبين قومه

(149/784)

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه , بلا مصلحة له , ولا منفعة ; ويحتمل في سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء . . ألف سنة إلا خمسين عاما . . وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ; ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه

الذي كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ما صنع وما لاقى . . وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف , إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان . . إلى الله . .

قال: رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا , فلم يزدهم دعائي إلا فرارا ; وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم , واستغشوا ثيابهم , وأصروا , واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا , ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارا , يرسل السماء عليكم مدرارا , ويمددكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ? ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ? وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ? والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا . .

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ; عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: (إني دعوت قومي ليلا ونهارا) .

.

ولا يمل ولا يفتر ولا ييئس أمام الإعراض والإصرار: (فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) . . فرارا من الداعي إلى الله . مصدر الوجود والحياة, ومصدر النعم والآلاء, ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار, لأن الداعي واجههم مواجهة, وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته, كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم, وأصروا على الضلال, واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى: (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم, واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) . .

وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ; وإصرارهم هم على الضلال . وتبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز في وضع الأصابع في الآذان, وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل, وهو يقول: إنهم (جعلوا أصابعهم في آذانهم) وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة, إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها في عنف بالغ, كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد, كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة , وتحين كل فرصة , والإصرار على المواجهة . . اتبع نوح – عليه السلام – كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة , ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة: (ثم إني دعوتهم جهارا , ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) . .

من الاية 10 الى الاية 14

(151/784)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً (12) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14)

وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخره . أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو – سبحانه – غفار للذنوب: (فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارا) . . وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير , الذي تنبت به الزروع , وتسيل به الأنهار , كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها – وهي البنين – والأموال التي يطلبونها ويعزونها : يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين , ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . .

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله , وبين تيسير الأرزاق , وعموم الرخاء . . . جاء في موضع (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض , ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . . وجاء في موضع (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . . . . وجاء في موضع (ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير , وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله . . .

(152/784)

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة , قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله , ومن سنة الحياة ; كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله , واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله . . ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته , فحققت العدل والأمن للناس جميعا , إلا فاضت فيها

الخيرات , ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد في بعض الفترات أمما لا تتقي الله ولا تقيم شريعته ; وهي – مع هذا – موسع عليها في الرزق , ممكن لها في الأرض . . ولكن هذا إنما هو الإبتلاء : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف , تأكله آفات الاختلال الإجتماعي والانحدار الأخلاقي , أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان . . وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق , ممكن لهما في الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط المستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية , ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار ! ! وفي الثانية تهدر قيمة "الإنسان" إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ; ويبيت كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في تهمة تحاك في الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونمضي مع نوح في جهاده النبيل الطويل . فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم , وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله , وينكر عليهم ذلك الإستهتار :

(ما لكم لا ترجون لله وقارا ? وقد خلقكم أطوارا ?) . .

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمرا يدركونه , أو أن يكون

أحد مدلولاتها

من الاية 15 الى الاية 18

(153/784)

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (16) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (18)

مما يملك اولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه , ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر , يقودهم إلى الاستجابة . والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل . . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار . وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة . من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة , ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائي . ثم شكل حيوان ثديي . ثم شكل المخلوق الإنساني . . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا

حديثا جدا . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين: ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . . كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد . . ولا نقيدهما . .

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم , وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا , ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيرا للجليل الذي خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق !

(154/784)

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟) . . والسماوات السبع لا يمكن حصرها في مدلول مما تقول به الفروض العلميه في التعريف بالكون . فهي كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم – كما علمه الله – أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس , ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ما هو ؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن . . وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر

فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة . . وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه .

ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: (والله أنبتكم من الأرض نباتا , ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) . .

(155/784)

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) . وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة: ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة , لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا , ثم لتبلغوا أشدكم , ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة , فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) . . وفي سورة "المؤمنين" يذكر أطوار النشأة

الجنينية قريبا مما ذكرت في سورة الحج ويجيء بعدها : (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) . . وهكذا .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض , وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو , فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج

من الاية 19 الى الاية 20

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً (20)

الأرض , وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشىء الإيمان في المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء . تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رفاتهم بتربتها , وتندمج ذراتهم في ذراتها , كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ! ثم يخرجهم الذي أخرجهم أول مرة ; وينبتهم كما أنبتهم أول مرة . . مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة , حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها !

ونوح – عليه السلام – وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتا , وهي تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها , وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البداهة التي لا تقبل جدلا !

وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: (والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا) . .

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة , ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة – حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروبا وفجاجا , كما جعل في سهولها من باب أولى . وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ; ويبتغون من فضل الله , ويتعايشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة , يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علما أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاق بعيدة .

(157/784)

هكذا سلك نوح – أو حاول أن يسلك – إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب , ومتنوع الوسائل في دأب طويل , وفي صبر جميل , وفي جهد نبيل , ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم , يقدم حسابه , ويبث شكواه , في هذا البيان المفصل , وفي هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة , وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية ! فماذا كان بعد كل هذا البيان ؟

(قال نوح: رب إنهم عصوني , واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم , ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . .

رب إنهم عصوني ! بعد كل هذا الجهاد , وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه .

وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة , التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد , ومظاهر الجاه والسلطان . ممن

من الاية 21 الى الاية 25

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (25)

(لم يزده ماله وولده إلا خسارا) فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال , فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

(158/784)

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال . . (ومكروا مكرا كبارا) . مكرا متناهيا في الكبر . مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم . وكان من مكرهم تحريض الناس على

الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة: (وقالوا: لا تذرن آلهتكم) . . بهذه الإضافة: (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز . . (ولا تذرن ودا , ولا سواعا , ولا يغوث , ويعوق , ونسرا) . . وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناما , تختلف أسماؤها وأشكالها , وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ; وتجمع حواليها الأتباع , وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام , كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء , وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد : (وقد أضلوا كثيرا) ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء ! ! للصد عن دعوة الله , وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة , بالمكر الكبار , والكيد والإصرار !

الدرس الثالث: 24 – 28 نوح يدعو على قومه وغرقهم ويدعو لوالديه وللمؤمنين

هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح – عليه السلام – ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين , الماكرين الكائدين:

(ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . .

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا , وعانى كثيرا , وانتهى – بعد كل وسيلة –

إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية ; وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

(159/784)

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح – عليه السلام – يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله , وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه:

(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالفاء مقصود هنا , لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ; والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود , لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة . وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة . . (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) . .

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفي آيتين اثنتين قصيرتين ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة , ويطوي ذكرهم من الحياة ! وذلك

قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء . . ولا يفصل هنا قصة غرقهم , ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه في هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع , حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الفاء ! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن في ظلال

من الاية 26 الى الاية 27

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)

السياق لا تتعداها إلى تفصيل قصة الإغراق . . ولا الإحراق . . !

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ; وابتهاله إلى ربه في نهاية المطاف:

(160/784)

(وقال نوح: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لي ولوالدي , ولمن دخل بيتي مؤمنا , وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) . .

فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي

انتهى إليه القوم في زمانه . وأحيانا لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين , لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا , ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح , وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لا يبقي منهم ديارا – أي صاحب ديار – فقال: (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) . . ولفظة(عبادك) توحي بأنهم المؤمنون . فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة , أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار , وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار , بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون , فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور , من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها . وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السلام , وحكاها عنه القرآن: (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) . . فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل , وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد , ينشأ معها المواليد فجارا كفارا , كما قال نوح . .

من أجل هذا دعا نوح – عليه السلام – دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته , فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ; وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول: (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) - أي هلاكا ودمارا - إلى جانب هذا كان الإبتهال الخاشع الودود:

(161/784)

(رب اغفر لي ولوالدي, ولمن دخل بيتي مؤمنا , وللمؤمنين والمؤمنات . . .) . .

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له . . هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم . . أدب العبد في حضرة الرب . العبد الذي لا ينسى أنه بشر , وأنه يخطئ , وأنه يقصر , مهما يطع ويعبد , وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله , كما قال أخوه النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه , فاستكبروا عليه . . وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين [كما جاء في سورة هود] .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا . . هو بر المؤمن بالمؤمن ; وحب الخير لأخيه كما

يحبه لنفسه , وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمنا , لأن هذه كانت علامة النجاة , وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة .

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان . وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها

من الاية 28 الى آخر السورة

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (28)

برباط الحب الوثيق , والشوق العميق , على تباعد الزمان والمكان . السر الذي أودعه الله هذه العقيدة , وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين , كان الكره للظالمين .

(ولا تزد الظالمين إلا تبارا) .

وتختم السورة , وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام . وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك في القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل , وزادا للسير في هذا الطريق الصاعد , أيا كانت المشاق والمتاعب . وأيا كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . حين ينتهي بها إلى الله , العلي الأعلى , الجليل العظيم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3710 . 3718 ﴾

(163/784)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) ﴾

فيه بيان أن الله تعالى أرسل رسوله نوحاً لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب فالنذارة أولاً وهي عامة في جميع الأمم والرسل .

كقوله تعالى : ﴿ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وذلك لإقامة الحجة أولاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ،

بيان هذه المسألة في سورة بني إسرائيل على قوله تعالى : ﴿ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ الآية .

جعل الطاعة هنا لنبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وعلق عليها مغفرة الله لذنوبهم .

وقد بين تعالى أن طاعة النَّبي هي طاعة الله ، فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن الله كما في قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وكفى بالله شَهِيداً مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تولى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [النساء : 79 – 80] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ .

أي على الدوام كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ [نوح : 8 – 9] .

(164/784)

أي أن نبي الله نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . بذل كل ما يمكنه في سبيل الدعوة إلى الله ، وقد بين تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة في قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ

إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 14] .

قوله تعالى : ﴿ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ﴾ .

بين تعالى الغرض من جعل الأصابع في الآذان لعدم السماع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] وإصرارهم واستكبارهم إنما هو عن اتباع ما دعاهم إليه نوح عليه السلام .

كما قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود : 27] ، وقريب منه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يجتبي إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : 13] .

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11)

رتب إرسال السماء عليهم مدراراً على استغفارهم ، وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكون سبباً في تيسير الرزق .

وقد أشار النَّبي صلى اله عليه وسلم إلى ذلك في الحديث : " من أراد أن ينسأ له في عمره ويوسع له في رزقه فليصل رحمه "

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على هذه المسألة في سورة هود عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً ﴾ [هود : 3] الآية .

كما دلت الآية الأخرى في هذه السورة على أن المعصية سبب للهلاك في قوله : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] .

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)

(165/784)

هي المبينة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 12 - 14] .

وهذا مروي معناه عن ابن عباس . قاله ابن كثير والقرطبي .

وقيل أطواراً : شباباً وشيوخاً وضعفاء .

وقيل أطواراً : أي أنواعاً صحيحاً وسقيماً وبصيراً وضريراً وغنياً وفقيراً .

وقيل أطواراً : اختلافهم في الأخلاق والأفعال . قاله القرطبي .

ولكن كما قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه . أنه إذا تعددت الأقوال في الآية وكان فيها قرينة دالة على أحد الأقوال لإنه يبينه ، وهنا قرينة في الآية على أن المراد هو الأول وإن

كان الجميع صحيحاً ، والقرينة هي أن الآية في قضية الخلق وهو الإيجاد الأول ، لأن ما بعد الإيجاد صفات عارضة .

وقد جاء نظير الآية في سورة المؤمنون كما قدمنا ، وقد ذيلت بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

ومنها أن الآية سِيقت في الدلالة على قدرة الله على لبعثهم بعد موتهم لمجازاتهم ، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد .

والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين ، ثم تطويرها إلى علقة ، ثم تطيور العلقة مضغة ، ثم خلق المضغة عظاماً ، ثم كسوا العظام لحماً ، ثم نشأته نشأة أخرى .

إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة .

ومثله في الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58 – 59] .

وفي الطور في أصل الخلقة : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] .

إن أصل الخلقة والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة ، وهو الذي يجاب به على الكفرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] ثم قال : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : 17 - 19] ذلك كله دليل على أن المراد بالأطوار في الآية ، هو ما جاء عن ابن عباس المشتملة عليه سورة المؤمنون .

تنبيه

إن بان أطوار خلقة الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبد ، من يحيي المخلوق جملة ، لأنه يوقف على عدة مراحل من حياته وإيجاده ، وكل طور منها آية مستقلة ، وهذا التوجيه موجود في الظواهر الكونية أيضاً من سماء وأرض ، فالسماء كانت دخاناً وكانت رتقا ففتقهما ، والأرض كانت على غير ما هي عليه الآن ، وبن الجميع في قوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : 27 - 32] وأجمع من ذلك كله في قوله تعالى في فصلت

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ [فصلت : 9 – 12] ، ثم ختم تعالى هذا التفصيل الكامل بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [فصلت : 12] ، ففيه بيان أن تلك الأطوار في المخلوقات بتقدير معين ، وأنه بعلم ، ومن العزيز سبحانه ، فكان من الممكن خلقها دفعة واحدة ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ولكن العرض على هذا التفصيل أبعد أثراً في نفس السامع وأشد تأثيراً عليه . والعلم عند الله تعالى .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (15)

في هذه الآية مع ما قبلها ثلاثة براهين من براهين البعث الأربعة التي كثر مجيئها في القرآن .

الأولى : خلق الإنسان ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ ﴾ [يس : 79] .

والثانية : خلق السماوات والأرض : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

والثالثة : إحياء الأرض بعد موتها ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [الحج : 5] ، ﴿ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى ﴾ [فصلت : 39] .

والرابع : الذي لم تذكر هنا هو إحياء الموتى بالفعل ، كقتيل بني إسرائيل ، ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى ﴾ [البقرة : 73] .

(168/784)

وقد تقدم تفصيل ذلك في أكثر من موضع للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، وهنا سياق هذه البراهين للرد على المكذبين بالبعث ، ولكن في هذا السياق إشكال فيما يبدو كبير وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ [نوح : 15] .

وإذا كان السياق للاستدلال بالمعلوم المشاهد على المجهول الغيبين فإن خلق الإنسان أطواراً محسوس مشاهد ومسلم به ، وإنبات الإنسان من الارض بإطعامه من نباتها وإحيائها بعد موتها واهتزاها وإنباتها النبات أمر محسوس .

ويمكن أن يقال للمخاطب : كما شاهدت خلق الإنسان من عدم وتطوره أطواراً ، وشاهدت إحياء الأرض الميتة ، فإن الله الذي خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أن يعيدك ويخرجك منها إخراجاً .

ولكن كيف تقول : وكما شاهدت خلق السماوات سبعاً طباقاً فإن القادر على ذلك قادر على بعثك . والحال أن الإنسان لم يشاهد خلق السموات سبعاً طباقاً ، ولا رأى كيف خلقها الله سبعاً طباقاً ، والإشكال هنا هو كيف قيل لهم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ ﴾ .

والكيف للحال والهيئة ، وهم لم يشاهدوها كما قال تعالى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] .

وكيف يستدلون بالمجهور عندهم على المغيب عنهم ؟

وهنا تساءل ابن كثير تساؤلاً وارداً ، وهو قوله : ﴿ طِبَاقاً ﴾ أي واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات . وأظنه يعني التسيير من السير ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضاً ، فأدناها القمر في السَّماء الدنيا وذكر الكواكب السبعة في السموات السبع ، وكلام أهل الهيئة ولم يتعرض للإشكال بحل يركن إليه .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ ﴾ كيف على جهة الاخبار لا المعاينة .

كما تقول : ألم تر كيف فعلت بفلان كذا ؟

(169/784)

وعلى كلام القرطبي يرد السؤال الأول ، إذا كان ذلك على جهة الإخبار ، فكيف يجعل الخبر دليلاً على خبر آخل لا يدرك إلا بالسمع ؟

والجواب عن ذلك مجملاً مما تشير إليه آيات القرآن الكريم كالآتي :

أولاص : أن تساؤل ابن كثير هل يتلقى ذلك من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، لا محل له لأنه لا طريق إلا النقل فقط ، كما قال تعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : 51] أي آدم . فلم نعلم كيف خلق ولا كيف سارت الروح في جسم جماد صلصال ، فتحول إلى جسم حساس نام ناطق .

وأما قول القرطبي : إنه على جهة الإخبار لا المعاينة ، فهو الذي يشهد له القرآن .

ويجيب القرآن على السؤال الوارد عليه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وِلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 9 – 13] .

لأن الله تعالى خاطب هنا الكفار قطعاً لقوله : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] .

وخاطبهم بأمور مفصلة لم يشهدوها قطعاً من خلق الأرض في يومين ، ومن تقدير أقواتها في أربعة أيام ومن استوائه إلى السَّماء وهي دخان .

(170/784)

ومن قوله لها وللأرض : ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [فصلت : 11] .

ومن قولهما : ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِين ﴾ [فصلت : 11] .

ومن قضائهن سبع سماوات في يومين .

ومن وحيه في كل سماء أمرها .

كل ذلك تفصيل لأمور لم يشهدوها ولم يعلموا عنها بشيء ، ومن ضمنها قضاؤه سبع سماوات ، فكان كله علت سبيل الإخبار لجماعة الكفار .

وعقبه بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [فصلت : 12] فكان مقتضى هذا الإخبار وموجب هذا التقدير من العزيز العليم ، أن يصدقوا أو أن يؤمنوا . وهذا من خصائص كل إخبار يكون مقطوعاً بصدقه من كل من هو واثق بقوله : يقول الخبر ، وكان

لقوة صدقه ملزم لسامعه ، ولا يبالي قائله بقبول السامع له أو إعراضه عنه .

ولذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ أي بعد إعلامهم بذلك كله ، فلا عليك منهم : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] .

وحيث إن الله خاطبهم هنا ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ ﴾ فكان هذا أمر لفرط صدق الإخبار به ، كالمشاهد المحسوس الملزم لهم ؟

وقد جاءت السنة وبينت تلك الكيفية أنها سبع طباق بين كل سماء ، والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وشمل كل سماء وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام .

وقد يقال : إن الرؤية هنا في الكيفية حاصلة بالعين محسوسة ، ولكن في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج حيث عرج به ورأى السبع الطباق ، وكان يستأذن لكل سماء . ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع ، فكأننا شاهدناها كلنا لإيماننا بصدقه صلى الله عليه وسلم ، ولحقيقة معرفتهم إياه صلى الله عليه وسلم في الصدق من قبل . والعلم عند الله تعالى .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21)

لى : ﴿ واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ .

ينص تعالى هنا أن قوم نوح اتبعوا من هذا وصفه مع أن المال يزيد الإنسان نفعاً . وقد بين تعالى أن المال فعلاً قد يورث خسارة ، وهلاكاً كما في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 – 7] أي بالطغيان يكون إهلاكاً .

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)

في هذه نص على أن نبي الله نوحاً طلب من الله إهلاك من على الأرض جميعاً ، مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم ، وفيه إخبار نبي الله نوح عمن سيولد من بعد ، وأنهم لم يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، فكيف دعا على قومه هذا الدعاء وكيف حكم على المواليد فيما بعد ؟

والقرآن الكريم بين هذين الأمرين :

أما الأول : فإنه لم يدع عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحدوه ويئس منهم ، أما تحديهم ففي قولهم : ﴿ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ هود : 32] .

وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وازدجر فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ [القمر : 9 – 10] .

وأما يأسه منهم فلقوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] .

وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار ، فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفاً ،

لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فسواء في الحاضر أو المستقبل .

وكذلك بدليل الاستقراء ، وهو دليل معتبر شرعاً وعقلاً ، وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن معه إلا قليل كانوا هم ومن معهم غيرهم حمل سفينة فقط ، فكان دليلاً على قومه أنه فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له ، وهو دليل نبي الله موسى عليه السلام أيضاً على قومه .

(172/784)

كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

فأُخبر نبي الله موسى عن قومه أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، وذلك من استقراء حالهم في مصر لما أراهم الآية الكبرى ﴿ فَكَذَّبَ وعصى ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى فَحَشَرَ فنادى فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 21 - 24] .

وبعد ان ابتلاهم الله بما قص علينا في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مّفَصَّلاَتٍ فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : 133

].

وقوله تعالى بعدها : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز قَالُواْ يا موسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إِسْرَآئِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف : 134 - 135] .

فمن كانت هذه حالته وموسى يعاين ذلك منهم ، لا شك أنه يحكم عليهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

وكذلك كان دليل الاستقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه استدل به على عكس الأقوام الآخرين ، حينما رجع من الطائف وفعلت معه ثقيف ما فعلت فأدموا قدميه ، وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال واستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين ، فقال : " لا ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، إني لأرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله " وذلك أنه صلى الله عليه وسلم علم باستقراء حالهم أنهم لا يعلمون فهم يمتنعون عن الإيمان لقلة تعلمهم وأنهم في حاجة إلى التعليم .

(173/784)

فإذا علموا تعلّموا ، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كغيرهم في إصرارهم ، لأنه شاهد من كبارهم إذا عرض عليهم القرآن وخوطبوا بخطاب العقل ووعوا ما يخاطبون به وسلموا من العصبية والنوازع الأخرى فإنهم يستجيبون حالاً كما حدث لعمر وغيره رضي الله عنهم إلا من أعلمه الله بحاله مثل الوليد بن المغيرة ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ [المدثر : 11 – 14] – إلى قوله – ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر : 16 – 17] – إلى قوله – ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر : 26] فعلم صلى الله عليه وسلم حاله ومآله ، ولذا فقد دعا عليه يوم بدر .

ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالى : ﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب ﴾ [المسد : 3 – 4] فلكون العرب أهل فطرة ، ولكون الإسلام دين الفطرة أيضاً كانت الاستجابة إليه أقرب .

انظر مدة مكثه صلى الله عليه وسلم من البعثة إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثاً وعشرين سنة ، كما عدد من أسلم فيها بينما نوح عليه السلام يمكث ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل .

ولذا كان قول نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] ، كان بدليل الاستقراء من قومه ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] ، لم بين هنا هل استجيب له أم لا ؟ وبينه في مواضع أخر منها قوله : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 76] .

(174/784)

وفي هذه السورة نفسها وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ الله أَنصَاراً ﴾ [نوح : 25] فجمع الله لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق ، مقابل أعظم الذنبين الضلال والإضلال .

وكذلك بين تعالى كيفية إهلاك قومه ونجاته هو وأهله ومن معه في قوله : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السماء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : 10 - 14] الآية .

قال ابن كثير : لقد أغرق الله كل من على وجه الأرض من الكفار ، حتى ولد نوح من صلبه . وهنا تنبيه على قضية ولد نوح في قوله : ﴿ يا بني اركب مَّعَنَا ﴾ [هود : 42] إلى قوله : ﴿ فَكَانَ مِنَ المغرقين ﴾ [هود : 43] لما أخذت نوحاً العاطفة على ولده قال

: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود : 45] إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] أثار بعض الناس تساؤلاً حول ذلك في قراءة

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] ، إنه عمل ماضي يعمل أي بكفره .

وتساءلوا حول صحة نسبه ، والحق أن الله تعالى قد عصم نساء الأنبياء إكراماً لهم ، وأنه ابنه حقاً ، لأنه لما قال ﴿ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود : 45] تضمن هذا القول أمرين نسبته إليه في بنوته .

ثانياً : نسبته إليه في أهله ، فكان الجواب عليه من الله بنفي النسبة الثانية لا الأولى ، إنه ليس من أهلك . ولم يقل : إنه ليس ابنك ، والأهل أعم من الابن ، ومعلوم أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، والعكس بالعكس ، فلما نفى نسبته إلى أهله علمنا أن نسبته إليه بالبنة باقية ، ولو لم يكن ابنه لصلبه لكان النفي ينصب عليها .

(175/784)

ويقال : إنه ليس ابنك ، وإذا نفى عنه البنة انتفت عنه نسبته إلى أهله ، وكذلك قوله تعالى بعدها : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا ﴾ [هود : 37] أي لأن الظالمين ليسوا من

الأهل بالنسبة للدين ، لأن الدين يربط البعيدين ، والظلم الذي هو بمعنى الكفر يفرق القريبين . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(176/784)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ نُوحٍ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ يَعْنِي لَا تَخْشَوْنَ لِلَّهِ عِقَابًا . وَعَبَّرَ عَنْ الْعِقَابِ بِالْوَقَارِ ؛ لِأَنَّ مَنْ عَظَّمَهُ فَقَدْ عَرَفَهُ ، وَعَنْ الْخَشْيَةِ بِالرَّجَاءِ ؛ لِأَنَّهَا نَظِيرَتُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ يَعْنِي فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ ، وَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ، وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَكُلِّ صِفَةٍ وَنَعْتٍ تَكُونُ لَهُمْ ، وَكَذَلِكَ تَدْبِيرُهُ فِي النَّشْأَةِ مِنْ تُرَابٍ إلَى نُطْفَةٍ إلَى عَلَقَةٍ ، إلَى مُضْغَةٍ ، إلَى لَحْمٍ وَدَمٍ ،

وَخَلْقٍ سَوِيٍّ .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ : مَا لَكُمْ لَا تُؤَمِّلُونَ تَوْقِيرَكُمْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ وَنِعْمَتِهِ .

أَدْخَلَهَا الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ فِي الْأَحْكَامِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لَمَّا قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِك إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ حِينَ اسْتَنْفَدَ مَا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَمَا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ، دَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ فَأَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ .

(177/784)

وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، هَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ دَعَا نُوحٌ عَلَى الْكَافِرِينَ أَجْمَعِينَ ، وَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَنْ تَحَزَّبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّبَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ هَذَا أَصْلًا فِي الدُّعَاءِ عَلَى الْكُفَّارِ فِي الْجُمْلَةِ ، فَأَمَّا كَافِرٌ مُعَيَّنٌ لَمْ تُعْلَمْ خَاتِمَتُهُ فَلَا يُدْعَى عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ مَآلَهُ عِنْدَنَا مَجْهُولٌ ، وَرُبَّمَا كَانَ عِنْدَ

اللَّهِ مَعْلُومَ الْخَاتِمَةِ لِلسَّعَادَةِ ؛ وَإِنَّمَا خَصَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدُّعَاءَ عَلَى عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَأَصْحَابِهِ لِعِلْمِهِ بِمَآلِهِمْ ، وَمَا كُشِفَ لَهُ مِنْ الْغِطَاءِ عَنْ حَالِهِمْ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إنْ قِيلَ : لِمَ جَعَلَ نُوحٌ دَعْوَتَهُ عَلَى قَوْمِهِ سَبَبًا لِتَوَقُّفِهِ عَنْ طَلَبِ الشَّفَاعَةِ لِلْخَلْقِ مِنْ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

قُلْنَا : قَالَ النَّاسُ : فِي ذَلِكَ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ نَشَأَتْ عَنْ غَضَبٍ وَقَسْوَةٍ ؛ وَالشَّفَاعَةُ تَكُونُ عَنْ رِضًا وَرِقَّةٍ ، فَخَافَ أَنْ يُعَاتَبَ بِهَا ، فَيُقَالُ : دَعَوْت عَلَى الْكُفَّارِ بِالْأَمْسِ وَتَشْفَعُ لَهُمْ الْيَوْمَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ دَعَا غَضَبًا بِغَيْرِ نَصٍّ وَلَا إذْنٍ صَرِيحٍ فِي ذَلِكَ ؛ فَخَافَ الدَّرْكَ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ مُوسَى : إنِّي قَتَلْت نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا .

وَبِهَذَا أَقُولُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ، وَتَمَامُهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي .

(178/784)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إلَّا تَبَارًا ﴾ .

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : مَعْنَاهُ مَسْجِدِي ؛ فَجَعَلَ دُخُولَ الْمَسْجِدِ سَبَبًا لِلدُّعَاءِ بِالْمَغْفِرَةِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ ، تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ﴾ ، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الرِّوَايَةِ .

وَفَضْلُ الْمَسَاجِدِ كَثِيرٌ ، قَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ وَشَرْحِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(179/784)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة نوح عليه السلام

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1)

قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرْ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ المفسِّرَةَ ، وأَنْ تكونَ المصدريةَ أي : أَرْسَلْناه بالإِنذار . وقال الزمخشري : " والمعنى : أَرْسَلْناه بأَنْ قُلْنا له : أَنْذِرْ أي : أَرْسَلْناه بالأمرِ بالإِنذار " انتهى . وهذا الذي قَدَّره حسنٌ جداً ، وهو جوابٌ عن سؤالٍ قدَّمْتُه في هذا

الموضوع: وهو أنَّ قولَهم: "إنَّ" أَنْ" المصدرية يجوز أَنْ تتوصَّلَ بالأمرِ" مُشْكِلٌ؛ لأنه يَنْسَبِكُ منها ومِمَّا بعدَها مصدرٌ، وحينئذٍ فتفوتُ الدلالةُ على الأمرِ. ألا ترى أنك إذا قَدَّرْت [في] كَتَبْتُ إليه بأَنْ قُمْ: كَتَبْتُ إليه القيامَ، تفوتُ الدلالةُ على الأمرِ حالَ التصريحِ بالأمر، فينبغي أَنْ يُقَدَّرَ كما قاله الزمخشريُّ أي: كتبتُ إليه بأَنْ قلتُ له: قُمْ، أي: كتبتُ إليه بالأمرِ بالقيام.

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3)

قوله: ﴿ أَنِ اعبدوا ﴾: إمَّا أَنْ تكونَ تفسيريةً لـ "نذير"، أو مصدريةً، والكلامُ فيها كما تقدَّم في أختها.

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

(180/784)

قوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾: في "مِنْ" هذه أوجهٌ، أحدُها: أنَّها تبعيضيةٌ. والثاني: أنها لابتداءِ الغايةِ. والثالث: أنها لبيانِ الجنسِ وهو مردودٌ لعَدَمِ تَقَدُّمِ ما تبيِّنُه. الرابع: أنها مزيدةٌ. قال ابن عطية: "وهو مذهبٌ كوفيٌّ" قلت: ليس مذهبُهم ذلك؛ لأنهم يَشْتَرطون

تنكيرَ مَجْرورِها ولا يَشْترطون غيرَه . والأخفشُ لا يَشْترط شيئاً ، فزيادتُها هنا ماشٍ على قولِه ، لا على قولِهم .

قوله : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ ﴾ قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف قال : " ويُؤَخِّرْكم " مع إخبارِه بامتناعِ تأخيرِه ؟ قلت : قضى اللَّهُ أنَّ قومَ نوحٍ إنْ آمنوا عَمَّرَهم ألفَ سنةٍ ، وإن بَقُوا على كُفْرِهم أَهْلكهم على رأس تسعمِئة . فقيل لهم : إن آمنتم أُخِّرْتم إلى الأجلِ الأطولِ ، ثم أخبرهم أنَّه إذا جاء ذلك الأجلُ الأَمَدُّ لا يُؤَخَّرُ " انتهى . وقد تَعَلَّق بهذه الآيةِ مَنْ يقولُ بالأَجَلَيْنِ . وتقدَّم جوابُه . وقوله : ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جوابُها محذوفٌ أي : لبادَرْتُمْ إلى ما أَمَرَكم به .

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7)

قوله : ﴿ لِتَغْفِرَ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ للتعليل ، والمدعُوُّ إليه محذوفٌ أي : دَعَوْتُهم للإيمان بك لأجلِ مغفرتِك لهم ، وأَنْ تكونَ لامُ التعديةِ ويكونُ قد عبَّر عن السببِ بالمُسَبَّبِ الذين هو جَعْلُهم . والأصلُ : دَعَوْتُهم للتَّوْبةِ التي هي سببٌ في الغُفْران . و " جعلوا " هو العاملُ في " كلما " وهو خبر " إنِّي " .

قوله : ﴿ لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ ظرفان ل " دَعَوْت " والمرادُ الإخبارُ باتصالِ الدعاءِ ، وأنه/ لا يَفْتُرُ عن ذلك . و " إلاَّ فِراراً " مفعولٌ ثانٍ وهو استثناءٌ مُفَرَّغٌ .

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8)

قوله : ﴿ جِهَاراً ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مصدراً من المعنى ؛ لأنَّ الدعاءَ يكونُ جهاراً وغيرَه ، فهو من باب : قَعَدَ القُرْفُصاءَ ، وأَنْ يكونَ المرادُ ب " دَعَوْتُهم " : جاهَرْتُهم ، وأَنْ يكونَ نعتَ مصدرٍ محذوفٍ أي : دعاءً جِهاراً ، وأَنْ يكونَ مصدراً في موضعِ الحالِ أي : مُجاهِراً ، أو ذا جِهارٍ ، أو جُعِل نفسَ المصدرِ مبالغةً . قال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : ذَكَرَ أَنَّه دعاهم ليلاً ونهاراً ، ثم دعاهم جِهاراً ، ثم دعاهم في السِّرِّ والعَلَنِ فيجب أَنْ تكونَ ثلاثَ دَعَوات مختلفات حتى يَصِحَّ العطفُ " قلت : قد فَعَلَ عليه السلام كما يَفْعَلُ الذي يَأْمُرُ بالمعروفِ ويَنْهى عن المنكرِ في الابتداءِ بالأَهْوَنِ ، والترقِّي في الأَشَدِّ فالأَشَدِّ ، فافتتح في المناصحةِ بالسِّرِّ ، فلمَّا لم يَقْبلوا ثَنَّى بالمجاهرة ، فلمَّا لم يَقْبلوا ثَلَّثَ بالجَمْعِ بين الإسرار والإعلان .

ومعنى " ثم " الدلالةُ على تباعُدِ الأحوالِ ، لأنَ الجِهارَ أغلظُ من الإسرار ، والجمعُ بين الأمرَيْن أغلظُ مِنْ إفرادِ أحدِهما " . قال الشيخ : " وتكرَّرَ كثيراً له أنَّ " ثُمَّ " للاستبعادِ ولا نَعْلَمُه لغيرِه " . قلت : هذا القول بعد ما سَمِعْتَ من ألفاظِ الزمخشريِّ تحامُلٌ عليه .

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11)

قوله : ﴿ مِّدْرَاراً ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من " السماء " ، ولم يؤنَّثْ لأنَّ مِفْعالاً لا يُؤَنَّثُ . تقول : امرأةٌ مِئْناثٌ ومِذْكار ، ولا يُؤَنَّثُ بالتاءِ إلاَّ نادراً ، وحينئذٍ يَستوي فيه المذكرُ والمؤنثُ فتقول : رجلٌ مِجْذامَةٌ ومِطْرابَةٌ ، وامرأة مِجْذامَةٌ ومِطْرابَةٌ ، وأَنْ تكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ أي : إرسالاً مِدْراراً . وتقدَّم الكلامُ عليه في الأنعام .

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13)

(182/784)

قوله : ﴿ وَقَاراً ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مفعولاً به على معانٍ ، منها : ما لكم لا تَأْمُلُوْنَ له تَوْقيراً أي : تعظيماً . قال الزمخشري : " والمعنى : ما لكم لا تكونون على حال تأمُلون فيها تعظيمَ اللَّهِ إياكم في دارِ الثواب ؟ و " لله " بيانٌ للموقَّرِ ، ولو تأخَّر لكان صلةً " انتهى . أي : لو تأخَّرِ " لله " عن " وَقارا " لكان متعلّقاً به ، فيكونُ التوقيرُ منهم للَّهِ تعالى ، وهو عكسُ المعنى الذي قصده . ومنها : لا تخافون للَّهِ حِلْماً وتَرْكَ معاجلةٍ بالعقابِ فتؤمنوا . ومنها : لا تخافون لله عظمةً . وعلى الأولِ يكون الرجاءُ على بابه ، وقد تقدَّم أنَّ استعمالَه بمعنى الخوفِ مجازٌ أو مشتركٌ . وأن يكونَ حالاً مِنْ فاعل " تَرْجُون " أي : موقِّرين اللَّهَ تعالى ، أي تُعَظِّمونه ، ف " للَّهِ " متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " وَقارا " ، أو تكون اللامُ زائدةً في

المفعول به ، وحَسَّنه هنا أمران : كَوْنُ العاملِ فَرْعاً ، وكونُ المعمولِ مقدَّماً ، و " لا تَرْجُون " حالٌ وتقدَّم نظيرُه في المائدة .

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)

قوله : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعلِ " تَرْجُون " . والأَطْوارُ : الأحوالُ المختلفةُ . قال الشاعر :

4340 فإنْ أفاقَ قد طارَتْ عَمَايَتُه . . . والمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْراً بعد أطوارِ

وانتصابُه على الحالِ أي : مُتَنَقِّلين من حالٍ إلى حالٍ ، أو مختلِفين مِنْ بينِ مُسِيْءٍ ومُحْسِنٍ ، وصالحٍ وطالحٍ .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15)

قوله : ﴿ طِبَاقاً ﴾ : تقدَّم الكلامُ عليه في سورة المُلك . وقال مكي : " وأجاز الفراء في غيرِ القرآنِ جَرَّ " طباق " على النعت ل " سماوات " ، يعني أنه يجوز أَنْ يكونَ صفةً للعددِ تارةً وللمعدودِ أخرى .

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16)

قوله : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ : أي : في السماواتِ ، والقمرُ إنما هو في سماءٍ واحدةٍ منهنَّ . قيل : هو في السماءِ الدنيا ، وإنَّما جازَ ذلك ؛ لأن بين السماواتِ ملابَسةً فصَحَّ ذلك . وتقولُ : " زيدٌ في المدينةِ " وإنما هو في زاويةٍ من زواياها .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ يُحتمل أَنْ يكونَ التقديرُ : وجعل الشمسَ فيهِنَّ ، كما تقدَّم . والشمس قيل : في الرابعةِ . وقيل : في الخامسةِ . وقيل : في الشتاءِ في الرابعة ، وفي الصيف في السابعةِ . واللَّهُ أعلمُ : أيُّ ذلك صحيحٌ .

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)

قوله : ﴿ نَبَاتاً ﴾ : إمَّا أَنْ يكونَ مصدراً لـ أَنْبَتَ على حَذْفِ الزوائد ، ويُسَمَّى اسمَ/ مصدرٍ ، وإمَّا بـ " نَبَتَّمْ " مقدَّراً : أي : فَنَبَتَّمْ نباتاً فيكونُ منصوباً بالمُطاوِعِ المقدَّرِ . قال الزمخشري : " أو نُصِبَ بـ " أَنْبَتكم " لتضمُّنِه معنى نَبَتَّمْ " قال الشيخ : " ولا أَعْقِلُ معنى هذا الوجهِ الثاني " . قلت : هذا الوجهُ هو الذي قدَّمْتُه . وهو أنه منصوبٌ بـ " أَنْبَتكم " على حَذْفِ الزوائد . ومعنى قولِه : " لتضمُّنِه معنى نَبَتَّمْ " أي : إنه مُشتملٌ عليه ، غايةُ ما فيه أنه حُذِفت زوائدُه ، والإنباتُ هنا استعارةٌ بليغةٌ .

لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)

قوله : ﴿ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ وفي الأنبياء تقدَّم الفِجاجُ لتَناسُبِ الفواصِلِ هنا . وقد تقدَّم نَحْوٌ مِنْ هذا .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21)

قوله : ﴿ وَوَلَدُهُ ﴾ : قد تقدَّم خِلافُ القُراء في " وَلَدِه " وتقدَّم أنهما لغتان كبُخْل وبَخَل .

قال أبو حاتم : يمكن أَنْ يكونَ المضمومُ جمعَ المفتوحِ كخَشَبٍ وخُشْبٍ . وأنشد لحسَّانَ رضي الله عنه :

(184/784)

4341 يا بكرَ آمنةَ المبارك وِلْدُها . . . مِنْ وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بسَعْدٍ الأَسْعُدِ

وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22)

قوله : ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ : عطفٌ على صلةِ " مَنْ " وإنما جُمِعَ الضميرُ حَمْلاً على المعنى ، بعد حَمْلِه على لفظِها في ﴿ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ ﴾ ، ويجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً إخباراً عن الكفارِ .

قوله : ﴿ كُبَّاراً ﴾ العامَّةُ على ضَمِّ الكافِ وتشديدِ الباء ، وهو بناءُ مبالغةٍ أبلغُ مِنْ " كُبار " بالضمِّ والتخفيف ، قال عيسى : هي لغةٌ يمانيةٌ ، وأنشد :

4342 والمرءُ يُلْحِقُه بِفِتيان النَّدى . . . خُلُقُ الكريمِ وليس بالوُضَّاء

وقول الآخر :

4343 بَيْضاءُ تصطادُ القلوبَ وتَسْتَبي . . . بالحسنِ قلبَ المسلمِ القُرَّاءِ

يقال : رجلٌ طُوَّالٌ وحُمَّالٌ وحُسَّانٌ . وقرأ عيسى وأبو السمال وابن محيصن بالضمّ والتخفيف ، وهو بناءُ مبالغةٍ أيضاً دونَ الأولِ ، وقرأ زيدُ بنُ علي وابن محيصن أيضاً بكسر الكاف وتخفيفِ الباء . قال أبو بكر : وهو جمعُ "كبير" ، كأنه جعل "مَكْراً" مكانَ "ذنوب" أو "أفاعيل" يعني فلذلك وصفَه بالجمع .

وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23)

قوله : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مِنْ عَطْفِ الخاص على العام إنْ قيل : إنَّ هذه الأسماءَ لأصنامٍ ، وأن لا يكونَ إنْ قيل : إنها أسماءُ رجالٍ صالحينَ على ما ذُكر في التفسير . وقرأ نافع "وُدّاً" بضم الواوِ ، والباقون بفتحها ، وأُنْشِدَ بالوَجْهَيْن قولُ الشاعر :

4344 حَيَّاكَ وَدٌّ فإنَّا لا يَحِلُّ لنا . . . لَهْوُ النساءِ وإنَّ الدين قد عزما

وقول الآخر :

4345 فحيَّاكِ وَدٌّ مِنْ هُداكِ لِفِتْيَةٍ . . . وخُوْصٍ بأعلى ذي فُضالةَ مُنْجِدِ

(185/784)

قوله : ﴿ وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ ﴾ قرأهما العامَّةُ بغير تنوين . فإن كانا عربيَّيْن فالمنعُ من الصَرْف للعلميَّةِ والوزن ، وإن كانا أعجميَّيْن فللعلميَّةِ والعُجْمة . وقرأ الأعمش : " ولا يَغُوْثاً ويَعُوْقاً " مصورفَيْن . قال ابن عطية : " وذلك وهمٌ : لأنَّ التعريفَ لازمٌ ووزنَ الفعل " انتهى . وليس بوهمٍ لأمرَيْن ، أحدهما : أنه صَرَفَهما للتناسُبِ ، إذ قبله اسمان منصرفان ، وبعده اسمٌ منصرفٌ ، كما صُرِفَ " سلاسل " . والثاني : أنه جاء على لغةِ مَنْ يَصْرِفُ غيرَ المنصرِف مطلقاً . وهي لغةٌ حكاها الكسائيُّ .

ونقل أبو الفضل الصَّرْفَ فيهما عن الأشهبِ العُقَيْليِّ ثم قال : " جَعَلهما فَعُولاً ؛ فلذلك صرفهما ، فأمَّا في العامَّة فإنهما صفتان من الغَوْث والعَوْق " . قلت : وهذا كلامٌ مُشْكِلٌ . أمَّا قولُه : " فَعُولاً " فليس بصحيحٍ ، إذ مادةُ " يغث " و " يعق " مفقودةٌ . وأمَّا قولُه : " صفتان من الغَوْث والعَوْق " فليس في الصفاتِ ولا في الأسماءِ " يَفْعُل " والصحيحُ ما قَدَّمْتُه . وقال الزمخشري : " وهذه قراءةٌ مُشْكِلة ؛ لأنهما إنْ كانا عربيَّيْنِ أو أعجميَّيْنِ ففيهما مَنْعُ الصَّرْفِ ، ولعله قَصَدَ الازدواجَ فصرَفهما . لمصادفتِه أخواتِهما منصرفاتٍ : وَدّاً وسُوعاً ونَسْراً " . قال الشيخ : " كأنه لم يَطَّلِعْ على أنَّ صَرْفَ ما لا ينصرفُ لغةٌ " .

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)

قوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا ﴾ : أي الرؤساءُ أو الأصنامُ ، / وجَمَعَهم جَمْعَ العقلاءِ معاملةً لهم معاملةَ العقلاء .

قوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ﴾ عطفٌ على قولِه : ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ [نوح : 21] على حكايةِ كلامِ نوحٍ بعدَ " قال " وبعد الواوِ النائبةِ عنه ، أي : قال : إنهم عَصَوْني ، وقال : لا تَزِدْ ، أي : قال هذَيْن القولَيْن ، فهما في محلِّ النصب ، قاله الزمخشريُّ . قال : "كقولك : قال زيدٌ : نوديَ للصلاة وصَلِّ في المسجدِ ، تحكي قولَيْه معطوفاً أحدُهما على صاحبه " .

وقال الشيخ : " ولا تَزِدْ " معطوفٌ على " قد أَضَلُّوا " لأنها محكيَّةٌ ب " قال " مضمرةً ، ولا يُشْترط التناسُبُ في الجملِ المتعاطفةِ ، بل تَعْطِفُ خبراً على طلبٍ ، وبالعكس ، خلافاً لمَنْ اشترطه .

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25)

قوله : ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم ﴾ : " ما " مزيدةٌ بين الجارِّ ومجرورِه توكيداً . ومَنْ لم يَرَ زيادتَها جَعَلها نكرةً ، وجَعَلَ " خطيئاتِهم " بدلاً ، وفيه تعسُّفٌ . وتقدَّم الخلافُ في قراءةِ " خَطِيْئَاتِهم " في الأعراف . وقرأ أبو رجاء " خَطِيَّاتهم " جمعَ سلامةٍ ، إلاَّ أنه أَدْغَمَ الياءَ في الياءِ المنقلبةِ عن الهمزة . والجحدريُّ وتُرْوى عن أُبَيّ " خطيئِتهم " بالإفراد والهمز . وقرأ عبد الله " مِنْ خطيئاتِهم ما أُغْرِقوا " فجعلَ " ما " المزيدةَ بين الفعلِ وما يتعلَّق به . و " مِنْ "

للسببيَّةِ تتعلَّقُ ب " أُغْرِقوا " . قال ابن عطية : " لابتداء الغاية " ، وليس بواضح . وقرأ العامَّةُ " أُغرِقوا " مِنْ أَغْرق . وزيد بن علي " غرِّقوا " بالتشديدِ ، وكلاهما للنَّقْلِ . تقول : أغرَقْتُ زيداً في الماء ، وغرَّقْتُه فيه .

(187/784)

قوله : ﴿ فَأُدْخِلُواْ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ من التعبيرِ عن المستقبلِ بالماضي ، لتحقُّقِ وقوعِه ، نحو : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] وأَنْ يكونَ على بابه ، والمرادُ عَرْضُهم على النار في قبورِهم ، كقولِه في آلِ فرعونَ : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] .

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)

قوله : ﴿ دَيَّاراً ﴾ : قال الزمخشري : " دَيَّار من الأسماءِ المستعملةِ في النفيِ العامِّ . يقال : " ما بالدار دَيَّارٌ ودَيُّورٌ " ، كقَيَّام وقَيُّوم . وهو فَيْعال من الدُّور أو مِنْ الدار . أصلُه دَيْوار ففُعِل به ما يُفْعَل بأصلِ سَيِّد ومَيِّت ، ولو كان فَعَّالاً لكان دَوَّاراً " انتهى . يعني أنه كان ينبغي أَنْ تَصِحَّ واوُه ولا تُقْلَبَ ياءً . وهذا نظيرُ ما تقدَّم له من البحثِ في " متحيِّز " ، وأنَّ

أصلَه مُتَحَيْوِز مُتَفَيْعِل ، لا مُتَفَعّل ، إذ كان يلزمُ أَنْ يكونَ مُتَحَوّزاً ، لأنه من الحَوْز . ويقال أيضاً . فيه دَوّار نحو : قَيّام وقَوّام .

(188/784)

وقال مكي : " وأصلُه دَيْوار ، ثم أَدْغَموا الواوَ في الياءِ مثلَ " مَيّت " أصلُه مَيْوِت ، ثم أَدْغموا الثاني في الأولِ . ويجوز أَنْ يكونَ أَبْدلوا من الواوِ ياءً ، ثم أدغموا الياءَ الأولى في الثانية " . قلت : قولُه : " أدغموا الثاني في الأول " هذا لا يجوزُ ؛ إذ القاعدةُ المستقرةُ في المتقارَبَيْنِ قَلْبُ الأولِ للثاني ، ولا يجوزُ العكسُ إلاَّ شذوذاً ، أو لضرورةٍ صناعيةٍ . أمَّا الشذوذُ فكقراءةِ : " واذكر " [يوسف : 45] بالذالِ المعجمةِ و " فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ " [القمر : 15] بالمعجمةِ أيضاً . وقد مَضَى تحقيقُه . وأمَّا الضرورةُ الصناعيةُ فنحو : " امدحْ هِلالاً " بقَلْبِ الهاءِ حاءً ؛ لئلا يُدْغَمَ الأقوى في الأضعفِ ، وهذا يَعْرِفُه مَنْ عانى التصريفَ .

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

قوله : ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ الدال على أنه تثنيةُ " والِد " يريد

أبوَيْه . وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما ويحيى بن يعمر والنخعي " ولوَلَدَيَّ " تثنيةَ " وَلَد " يعني ابنَيْه ساماً وحاماً . وقرأ ابن جبير والجحدريُّ " ولوالِدِيْ " بكسر الدال يعني أباه ، فيجوز أن يكونَ أرادَ أباه الأقربَ الذي وَلَدَه ، وخصَّه بالذِّكْر لأنه أشرفُ من الأم ، وأَنْ يريدَ جميعَ مَنْ وَلَدَه مِنْ لَدُنْ آدمَ عليه السلام إلى مَنْ وَلَده . و " مؤمناً " حالٌ و " تَباراً " مفعولٌ ثانٍ ، والاستثناءُ مفرغٌ . والتبار : الهَلاكُ ، وأصلُه من التكسُّر والتفتُّتِ . وقد تقدَّم تحقيق ذلك وللَّهِ الحمدُ والمِنَّةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 466 . 478 ﴾

(189/784)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البيت)

وقد ورد فى القرآن على خمسة عشرة وجهاً .

الأَوّل : بمعنى المنازل والمساكن : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ وقال ﴿ مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ .

الثانى : بمعنى الخانات ومنازل الرفاق ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ .

الثالث : بمعنى المساجد ، ومواضع العبادة : ﴿ وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ .

الرّابع : بمعنى سفينة نوحٍ : ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ .

الخامس : بمعنى الكَعْبَة : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ﴾ .

السّادس : بمعنى غُرف الكرامة ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ﴾ .

السابع : بمعنى حُجُرات النبوّة : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ .

الثَّامن : بمعنى المحابس : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ أَى فى السّجون .

التَّاسع : بمعنى أَعشاش الزنابير ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ .

العاشر : بمعنى الخيام من الجلود : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً ﴾ .

الحادى عشر : بمعنى الغِيران فى الجبال : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ .

الثانى عشر : بمعنى الدُّور المعروفة : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً ﴾ .

الثالث عشر : بمعنى المِلْك : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أَى فى مِلكها قاله

الضحّاك عن ابن عباس .

الرّابع عشر : بمعنى الضُراح فى السّماءِ : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ .

(190/784)

الخامس عشر : بمعنى بيت النبوّة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾

قال :

*كل بيت أَنت ساكنه * غير محتاج إلى السُرُج*

*وجهك المأْمول حُجّتنا * يوم يأْتى الناس بالحُجج*

والبيت أَيضا : الشرف .

والبيت : الشريف .

والبيت : القبر .

وجمع البيت أَبيات وبيوت .

وجمع الجمع أَبابيت ، وبيوتات ، وأَبياوات ، وتصغيره بُيَيْتٌ ، وبِيَيْت .

ولا تقُل : بُوَيت .

وامرأَةٌ مُتَبَيِّتَةٌ : أَصابت بيتاً وبعلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 497.196 ﴾

(191/784)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة نوح عليه السلام

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم لمن قامت السموات والأرض بقدرته واستقامت الأسرار والقلوب بنصرته ، دلت الأفعال على جلال شأنه ، وذلت الرقاب عند شهود سلطانه .

أشرقت الأقطار بنوره في العقبى ، وأشرقت الأسرار بظهوره في الدنيا ، فهو المقدس بالوصف الأعلى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أرسلنا نوحاً بالنبوّةِ والرسالة . ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُل من

الله فضلٌ ، وله بحق مُلْكه ان يفعل ما أراد ، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب .

وإرسالُ الرسلِ إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز ، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز فنوحٌ – عَلِمَ منهم أَنهم لا يقبلون . . ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج : 30] .

ويقال : ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراءً لهم . . وذلك لا يجوز . فأبوا أن يَقْبَلوا منه ، فقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِى إِلاَّ فِرَاراً ﴾ .

بَيّنَ أَنّ الهداية ليست إليه ، وقال : إنْ أَرَدْتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك – سبحانك .

(192/784)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ﴾ .

وإنّي ما ازدَدْتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً .

ويقال : لمَّا دام بينهم إصرارُهم تَولَّدَ من الإصرار استكبارُهم ، قال تعالى :

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : 16] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدرَاراً وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

ليعلمَ العالِمون : أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى اللَّهِ حاجةٌ فلن يَصِلَ إلى مرادِه إلاّ بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أراد التَّفَضُّل فعليه بالعُذْرِ والتنصُّل .

قوله : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ ﴾ : كان نوح عليه السلام كلّما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ .

ما لَكُم لا تخافون للَّهِ عَظَمَةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمّلون على توقيركم للأمرِ من اللَّهِ لُطْفاً ونعمة ؟ .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ

سِرَاجًا (16)

ثم نَبَّهَهُم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أنَّ خالقَها يستحقُّ صفاتِ العُلُوّ والعِزَّة .

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22)

(193/784)

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ يعني كبراءَهم وأغنياءَهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة .

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26)

وذلك بتعريفِ اللَّهِ تعالى إيَّاه أنَّه لن يؤمِنَ من قومك إلاّ من قد آمن . فاستجاب الله فيهم دعاءَه وأهلكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 634.636 ﴾

(194/784)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1)

الإعراب :

(إلى قومه) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (أن) حرف تفسير " 1 " ، (من قبل) متعلّق بـ (أنذر) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب .

وجملة : " إنّا أرسلنا . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أنذر . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " يأتيهم عذاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يأتيهم . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أرسلنا) في الآية الأولى ، ومتعلّق بنذير في الآية الثانية والثالثة .

(195/784)

[سورة نوح (71) : الآيات 2 إلى 4]

قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

الإعراب :

(196/784)

(قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل (الياء) المحذوفة للتخفيف وهي مضاف إليه (لكم) متعلّق بالخبر (نذير) (أن) حرف تفسير " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين ، و(النون) في (أطيعون) هي نون الوقاية قبل (ياء) المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة ، وهي مفعول به (يغفر) مضارع مجزوم جواب الأمر في الأفعال المتقدّمة (لكم) متعلّق بـ (يغفر) ، (من ذنوبكم) متعلّق بـ (يغفر) و(من) تبعيضيّة ، (الواو) عاطفة (يؤخّركم) مضارع مجزوم معطوف على (يغفر) ، (إلى أجل) متعلّق بـ (يؤخّركم) ،

(إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب لا يؤخّر "

2 " ، (لو) حرف شرط غير جازم . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي . . . نذير " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " اتّقوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

---

(1) أو حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ

(أرسلنا) في الآية الأولى ، ومتعلّق بنذير في الآية الثانية والثالثة .

(2) أو ظرف مجرّد من الشرط متعلّق بخبر إنّ (لا يؤخّر) .

وجملة : " أطيعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء " 1 " .

وجملة : " يؤخّركم . . . " لا محلّ لها . معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " إنّ أجل اللّه " لا محلّ لها فيها معنى التعليل . . .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " جاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا يؤخّر . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم " 2 " .

وجملة : " كنتم تعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب لو محذوف تقديره لآمنتم .

---

(1) أي إن تعبدوا اللّه . . . يغفر لكم .

(2) أو هي خبر (إنّ) في حال كون (إذا) مجردا من الشرط .

وجملة : " تعلمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الفوائد :

- هل يؤخر الأجل إذا جاء ؟

ورد في هذه الآية قوله تعالى " وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى " ثم قال تعالى " إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " معنى ذلك أن اللّه عز وجل يقول :

آمنوا قبل الموت تسلموا من العذاب ، فإن أجل اللّه - وهو الموت - إذا جاء لا يؤخر ، قال الزمخشري : فإن قلت كيف قال : ويؤخركم مع الإخبار بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض ؟ ! قلت : قضى - مثلا - أن قوم نوح ، إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى ، أي وقت سماه اللّه وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول ، تمام الألف ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل ، لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير عنكم وحيث يمكنكم الإيمان .

وقيل : إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه الصلاة والسلام ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أمنهم من ذلك ، ووعدهم أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا ، أي أنكم بإسلامكم تبقون آمنين من عدوكم إلى الأجل الذي كتبه اللّه عز وجل لكم .

[سورة نوح (71) : الآيات 5 إلى 9]

(199/784)

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل (ياء) المتكلّم المحذوفة للتخفيف ، وهي مضاف إليه (ليلا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (دعوت) ، (الفاء) عاطفة (إلّا) للحصر (فرارا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة للاسترحام .

وجملة : " إنّي دعوت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " دعوت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لم يزدهم دعائي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

7 - (الواو) عاطفة (كلّما) ظرف شرطيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب جعلوا " 1 " ، (اللام) للتعليل (تغفر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (لهم) متعلّق بـ (تغفر) ، (في آذانهم) متعلّق بـ (جعلوا) أي وضعوا (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (استكبارا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " إنّي كلّما . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّي دعوت . . .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " دعوتهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " تغفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن تغفر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (دعوتهم) .

وجملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " استغشوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " أصرّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " استكبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

8 - 9 (ثمّ) حرف عطف (جهارا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 2 " ، (لهم) متعلّق بـ (أعلنت) ، والثاني متعلّق بـ (أسررت) ، (إسرارا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " إنّي دعوتهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " دعوتهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثالث) .

وجملة : " إنّي أعلنت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّي دعوتهم .

---

(1) يجوز أن يكون (كلّ) ظرفا مضافا إلى المصدر المؤوّل من (ما) والفعل .

(2) لأنه نوعه أي دعاء الجهار ، أو لأنه صفته أي دعاء جهارا . . . أو هو مصدر في موضع الحال أي مجاهرا .

(200/784)

وجملة : " أعلنت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الرابع) .

وجملة : " أسررت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أعلنت .

الصرف :

(6) يزدهم : فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين الداعي له الجزم بـ (لم) ، وأصله يزيدهم . . . وزنه يفهم .

(7) استغشوا : فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الكلمة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة ، وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة ، وزنه استفعوا – بفتح العين – (8) جهارا : مصدر سماعيّ لفعل جهر باب فتح وزنه فعال بكسر الفاء ، وهو أيضا مصدر سماعيّ للرباعيّ جاهر لأنّ المصدر القياسي له هو مجاهرة .

البلاغة

المبالغة : في قوله تعالى " وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ " .

أي بالغوا في التغطي بها ، كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم ، لئلا يروه ، كراهة النظر إليه ، من فرط كراهة الدعوة . ففي التعبير بصيغة الاستفعال ما لا يخفى من المبالغة .

التكرير : في قوله تعالى " ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً " .

(201/784)

ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا . ثم دعاهم جهارا ، ثم دعاهم في السرّ والعلن . وكان يجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف ، والسبب في ذلك أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) فعل كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : في الابتداء بالأهون ، والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث الجمع بين الإسرار والإعلان .

الفوائد :

- كلّما :

كلما : منصوبة على الظرفية باتفاق ، متعلقة بالجواب . ففي قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها (وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ) فهي متعلقة بالفعل (جعلوا) ، وجاءتها الظرفية في جهة (ما) ، ولا يليها إلا الماضي : شرطا وجوابا ، كقوله

تعالى (كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ) (كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) (كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) .

وإذا قلت : (كلما استدعيتك فإن زرتني فعبدي حر) (فكلما) منصوبة أيضا على الظرفية ، ولكن ناصبها محذوف مدلول عليه بـ (حرّ) المذكور في الجواب وليس العامل المذكور لوقوعه بعد الفاء ، وإنّ والجملة الواقعة بعد (كلما) في محل جر بالإضافة ، أما جواب الشرط فلا محل له لأنه جواب شرط غير جازم .

[سورة نوح (71) : الآيات 10 إلى 14]

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (يرسل) مضارع مجزوم جواب الأمر ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (السماء) مفعول به منصوب " 1 " ، (عليكم) متعلّق بـ (يرسل) ، (مدرارا) حال من

السماء " 2 " منصوبة (الواو) عاطفة (يمددكم)

---

(1) بحذف مضاف أي مطر السماء . . . أو استعمل السماء مجازا مرسلا ، والعلاقة مكانيّة .

(2) لم يؤنّث لأنّ الوزن مفعال يستوي فيه التذكير والتأنيث .

(203/784)

مضارع مجزوم معطوف على (يرسل) ، (بأموال) متعلّق بـ (يمددكم) ، (يجعل) مجزوم معطوف على (يرسل) ، (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (يجعل لكم أنهارا) مثل يجعل لكم جنّات . . .

جملة : " قلت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أسررت " 1 " .

وجملة : " استغفروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان غفّارا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يمددكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

وجملة : " يجعل (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

وجملة : " يجعل (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

13 - 14 (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لكم) متعلّق بخبر المبتدأ ما (لا) نافية (للّه) متعلّق بحال من (وقارا) ، (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (أطوارا) حال منصوبة أي متقلّبين . . .

وجملة : " ما لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

وجملة : " لا ترجون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " خلقكم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ترجون .

الصرف :

(13) وقارا : مصدر وقر باب كرم أي أصبح رزينا ، وزنه فعال بفتح الفاء . . . أو اسم بمعنى الرزانة .

(14) أطوارا : جمع طور ، اسم بمعنى الحال والشكل والتارة ، وزنه فعل بفتح فسكون والجمع أفعال .

---

(1) في الآية السابقة (9) .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى "يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً " .

علاقة هذا المجاز المحلية ، فقد أراد بالسماء المطر ، لأن المطر ينزل من السماء .

[سورة نوح (71) : الآيات 15 إلى 20]

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال (طباقا) حال منصوبة من سبع سموات (الواو) عاطفة في الموضعين (فيهنّ) متعلّق بـ (جعل) " 1 " .

جملة : " لم تروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق اللّه . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل الرؤية المعلّق بالاستفهام كيف .

وجملة : " جعل (الأولى) . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خلق اللّه .

وجملة : " جعل (الثاني) . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خلق اللّه .

---

(1) والضمير المجرور يعود على السموات بحسب الظاهر لا في الحقيقة .

(205/784)

---

17 – 18 (الواو) استئنافيّة (من الأرض) متعلّق بـ (أنبتكم) أي أنشأكم (نباتا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في الاشتقاق (ثم) حرف عطف (فيها) متعلّق بـ (يعيدكم) ، (إخراجا) مفعول مطلق منصوب . . .

وجملة : " اللّه أنبتكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنبتكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " يعيدكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنبتكم .

وجملة : " يخرجكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يعيدكم .

(206/784)

---

19 – 20 (الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بـ (جعل) " 1 " ، (اللام) للتعليل (تسلكوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (منها) متعلّق بـ (تسلكوا) بتضمينه معنى تتّخذوا " 2 " . . . (فجاجا) نعت لـ (سبلا) – أو بدل منه – .

والمصدر المؤوّل (أن تسلكوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) " 3 " .

وجملة : " اللّه جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه أنبتكم .

وجملة : " جعل (الثالثة) . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " تسلكوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الصرف :

(19) بساطا : اسم لما يبسط في أرض الغرفة ، وجاء في الآية على سبيل التشبيه .

البلاغة

الاستعارة التصريحية التبعية : في قوله تعالى " وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً " .

أي أنشأكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء ، لكونه أدل على الحدوث والتكون من

---

(1) أو متعلّق بحال من (بساطا) .

(2) أو متعلّق بحال من (سبلا) .

(3) أو متعلّق بـ (بساطا) لأنه بمعنى مبسوطة . [. . . . .]

الأرض ، لكونه محسوسا . وقد تكرر إحساسه ، وهم وإن لم ينكروا الحدوث جعلوا

بإنكار البعث كمن أنكره ، ففي الكلام استعارة مصرحة تبعية .

[سورة نوح (71) : الآيات 21 إلى 25]

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً

كُبَّاراً (22) وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً

(23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا

ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25)

الإعراب :

(ربّ) مر إعرابها " 1 " ، (عصوني) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة

لالتقاء الساكنين ، و(الواو) فاعل ، و(النون) للوقاية ، و(الياء) مفعول به (الواو) عاطفة في

الموضعين (إلّا) للحصر (خسارا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " قال نوح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّهم عصوني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " عصوني . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اتّبعوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عصوني .

وجملة : " لم يزده ماله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من)

---

(1) في الآية (5) من هذه السورة .

وجملة : " مكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

23 - (الواو) عاطفة في المواضع الستّة (لا) ناهية جازمة (تذرنّ) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (لا) مثل الأول والثالث والرابع زائدان لتأكيد النهي " 2 " .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 3 " .

وجملة : " لا تذرنّ . . . (الأولى) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تذرنّ . . . (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

24 - (الواو) عاطفة في الموضعين (قد) حرف تحقيق (لا) ناهية جازمة - دعائيّة - (إلّا) للحصر (ضلالا) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " قد أضلّوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قال نوح " 4 " .

وجملة : " لا تزد . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قد أضلّوا .

25 - (ما) زائدة (من خطيئاتهم) متعلّق بـ (أغرقوا) ، و(من) سببيّة ، و(الواو) في (أغرقوا) نائب الفاعل ، وكذلك الواو في (أدخلوا) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (من دون) متعلّق بحال من (أنصارا) ، (لهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

---

(1) أي اتّبعوا من مكروا مكرا كبّارا . ويجوز أن تكون معطوفة على جملة عصوني فهي في محلّ رفع .

(2) منع (يغوث ويعوق) من التنوين للعلميّة والعجمة ، أو للعلميّة ووزن الفعل .

(3) أو معطوفة على جملة عصوني في محلّ رفع .

(4) وهذا القول المقدّر لا محلّ له معطوف على قوله : قال نوح ربّ إنّهم عصوني .

وجملة : " أغرقوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أدخلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أغرقوا .

وجملة : " لم يجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدخلوا .

الصرف :

(22) كبّارا : صيغة مبالغة من الثلاثيّ كبر ، وزنه فعّال بضمّ الفاء وتشديد العين المفتوحة .

(23) ودّا : اسم صنم وقيل هو ابن من أبناء آدم صنع له تمثال بعد موته باسمه ، وزنه فعل بفتح فسكون – أو بضمّ فسكون على قراءة نافع – (سواعا) اسم صنم من أصنام الجاهلية وزنه فعال بضم الفاء .

(يغوث) ، هو مثل ودّ . . . وزنه يفعل بضمّ العين ، ثمّ أعلّ بتسكين الواو ونقل حركتها إلى الغين .

(يعوق) ، مثل يغوث معنى وتصريفا .

(نسرا) ، مثل ودّ وزنا ومعنى .

الفوائد :

– (ما) الزائدة :

من المواضيع التي تزاد بها (ما) بعد الخافض (أي الجار) ، كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ) و(فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) و(عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ) .

وقول الشاعر :

وننصر مولانا ونعلم أنه كما الناس مجروم عليه وجارم

وتزاد بعد الجار الذي هو اسم ، كقوله تعالى (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ) .

وتزاد بعد الجازم كقوله تعالى : " إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ " (أيا ما تدعو)

وقول الأعشى :

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله ندى

(211/784)

و ابن هاشم هو الرسول محمد (صلّى اللّه عليه وسلّم) .

وتزاد بعد أداة الشرط ، جازمة كانت ، كقوله تعالى : (أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ) ، أو غير جازمة ، كقوله تعالى (حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ) .

وتزاد بين المتبوع وتابعه ، كقوله تعالى : " مَثَلًا ما بَعُوضَةً " . وزادها الأعشى مرتين في قوله :

إما ترينا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى وننتعل

[سورة نوح (71) : الآيات 26 إلى 28]

وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً (28)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (على الأرض) متعلّق بـ (تذر) ، (من الكافرين) متعلّق بحال من (ديّارا) جملة : " قال نوح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال نوح " 1 " .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " لا تذر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

27 - (الواو) عاطفة (لا) نافية (يلدوا) مضارع مجزوم معطوف على (يضلّوا) جواب الشرط (إلّا) للحصر (فاجرا) مفعول به منصوب " 3 " .

---

(1) في الآية (21) من هذه السورة .

(2) أو جملة النداء اعتراضيّة ، وجملة لا تذر مقول القول .

(3) في الكلام مجاز مرسل على اعتبار ما سيكون ، قال نوح ذلك بعد الإيحاء إليه بمصير هؤلاء .

وجملة : " إنّك إن تذرهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " إن تذرهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يضلّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا يلدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّوا .

28 - (لي) متعلّق بـ (اغفر) ، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (لوالديّ ، لمن) متعلّقان بـ (اغفر) فهما معطوفان على (لي) ، (مؤمنا) حال منصوبة من فاعل دخل (للمؤمنين) متعلّق بـ (اغفر) معطوف على (لي) ، (المؤمنات) معطوف على المؤمنين مجرور (لا تزد الظالمين إلّا تبارا) مثل لا تزد الظالمين إلّا ضلالا " 1 " .

وجملة : " ربّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " اغفر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " دخل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا تزد الظالمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة اغفر .

الصرف :

(26) ديّارا : اسم بمعنى أحد ، قيل هو مأخوذ من الدار أي نازل دارا ، وقيل هو مأخوذ من الدوران وهو التحرّك ، فيه إعلال بالقلب أصله ديوار ، اجتمعت الياء والواو والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الياء الأولى ، وزنه فيعال .

(27) يلدوا : فيه إعلال بالحذف ، حذفت منه فاء الكلمة في المضارع فهو معتلّ مثال مكسور العين في المضارع وزنه يعلوا .

(فاجرا) ، اسم فاعل من الثلاثيّ فجر باب نصر ، وزنه فاعل .

---

(1) في الآية (24) من هذه السورة .

---

(28) تبارا : الاسم من تبر يتبر باب نصر أو باب فرح بمعنى هلك . . .

أو هو اسم مصدر من الرباعيّ تبرّ وزنه فعال بفتح الفاء .

البلاغة

مجاز مرسل : في قوله تعالى " وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا " .

وعلاقة هذا المجاز ما يؤول إليه ، لأنهم لم يفجروا وقت الولادة ، بل بعدها بزمن طويل على

كل حال . أي لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 29 صـ 93.108 ﴾

(214/784)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(71) سورة نوح عليه السلام

مكيّة وآياتها ثمان وعشرون

[سورة نوح (71) : الآيات 1 إلى 9]

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً (6) وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9)

اللغة :

(وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ) وتغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى من ينصحهم في دين اللّه .

الإعراب :

)

(215/784)

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ) إن واسمها وجملة أرسلنا خبرها ونوحا مفعول به وإلى قومه متعلقان بأرسلنا (أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) يجوز أن تكون أن مصدرية فتكون مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بأرسلنا والمعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر ويجوز أن تكون مفسّرة لأن الإرسال فيه معنى القول وأنذر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وقومك مفعول به ومن قبل متعلقان بأنذر وأن وما في حيّزها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة ويأتيهم فعل مضارع منصوب بأن والهاء مفعول به وعذاب فاعل وأليم نعت (قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ويا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وقد

تقدم بحث المنادى المضاف إلى ياء المتكلم وإن واسمها ولكم متعلقان بنذير ونذير خبر ومبين نعت (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) أن مصدرية أو مفسّرة وقد تقدم القول فيها آنفا واعبدوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والله مفعول به واتقوه وأطيعون معطوفان على اعبدوا وحذفت ياء المتكلم لمناسبة رءوس الآي أي وأطيعوني (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) يغفر فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ولكم متعلقان بيغفر ومن ذنوبكم في موضع نصب مفعول يغفر لأن من للتبعيض أي بعض ذنوبكم لأن الإيمان يجبّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده وقيل لابتداء الغاية وقيل زائدة وهو مذهب الأخفش لأنه يجيز زيادتها في الموجب وغيره والبصريون ومعظم الكوفيين يشترطون لزيادتها أن يسبقها نفي أو نهي أو

استفهام وأن تدخل على النكرة ، ويؤخركم عطف على يغفر والكاف مفعول به وإلى أجل متعلقان بيؤخركم ومسمى نعت لأجل ، وسنورد مناقشة طريفة حول هذا التأخير للعذاب في باب الفوائد (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الجملة تعليل لما تقدم وإن واسمها وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه متعلق بجوابه وجملة جاء في

محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة لا يؤخر لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ولو شرطية وكنتم كان واسمها وجملة تعلمون خبرها وجواب لو محذوف كما حذف مفعول تعلمون أي لو كنتم تعلمون ذلك لآمنتم (قالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً) ربّ منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وحذف حرف النداء وإن واسمها وجملة دعوت خبرها وقومي مفعول به وليلا ونهارا ظرفان متعلقان بدعوت والجملة مقول القول (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً) الفاء عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم ويزدهم فعل مضارع مجزوم بلم والهاء مفعول به أول ودعائي فاعل وإلا أداة حصر وفرارا مفعول به ثان والاستثناء مفرغ (وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ) الواو عاطفة وإن واسمها وكلما ظرف متعلق بجعلوا أو ما مصدرية أو نكرة ودعوتهم فعل وفاعل ومفعول به واللام للتعليل وتغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام للتعليل والجار والمجرور متعلقان بدعوتهم وجملة جعلوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو كلما وأصابعهم مفعول جعلوا الأول وفي آذانهم في موضع المفعول الثاني (وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً) واستغشوا عطف على جعلوا وثيابهم مفعول به وأصرّوا واستكبروا معطوفان أيضا واستكبارا مفعول مطلق (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي و

إن واسمها وجملة دعوتهم خبرها وجهارا مفعول مطلق على أنه مصدر من المعنى لأن الدعاء يكون جهارا وغيره

فهو من باب رجع القهقرى وقعد القرفصاء ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي مجاهرا وذا جهار وجعل نفس المصدر مبالغة (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) عطف على ما تقدم وإسرارا مفعول مطلق .

البلاغة :

في قوله " واستغشوا ثيابهم "كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه فمنهم بمثابة من سدّ سمعه وغشى بصره كيلا يسمع ويرى ، يقال لبس فلان ثياب العداوة ، وقيل الكلام حقيقي ومعنى استغشوا ثيابهم غطّوا بها وجوههم لئلا يروني أو جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان .

وفي التراخي وتكرير الدعوة بيان وتوكيد ، وننقل بهذا الصدد عبارة الزمخشري لنفاستها قال : " فإن قلت ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ثم دعاهم جهارا ثم دعاهم في السر والعلن فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصحّ العطف قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة فلما لم تؤثر ثلث بالجمع

بين الإسرار والإعلان ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما " وهذا كلام بديع قلّما يكتنه غوره أحد فإنه يعلم من قوله : ثم إني دعوتهم جهارا أن الدعوة السابقة بالإسرار فأفادت ثم التفاوت بين الجهار والإسرار السابق وأفادت ثم الثانية أن الجمع بينهما أغلظ من إفراد كلّ منهما .

الفوائد :

(218/784)

هذا وقد وعدناك بإيراد مناقشة ممتعة شجرت بين أكابر المفسّرين حول قوله : ويؤخركم إلى أجل مسمى فقد قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف قال ويؤخركم مع إخباره بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى اللّه مثلا أن قوم نوح إن آمنوا عمّرهم ألف سنة وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة فقيل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سمّاه اللّه وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الألف ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ولم تكن لكم حيلة فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير " .

وقال ابن عطية : " ويؤخركم إلى أجل مسمى مما تعلقت المعتزلة به في قولهم إن للإنسان

أجلين قالوا : لو كان واحدا محددا لما صحّ التأخير إن كان الحدّ قد بلغ ولا المعالجة إن كان لم يبلغ " قال : " وليس لهم في الآية تعلق لأن المعنى أن نوحا عليه السّلام لم يعلم هل هم ممّن يؤخر أو ممّن يعاجل ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم لكن سبق في الأزل أنهم إما ممّن قضي له بالإيمان والتأخير وإما ممّن قضي له بالكفر والمعالجة ثم تشدّد هذا المعنى ولاح بقوله : إن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر " .

وقد جلا السيوطي الغموض الذي تحيف هذا التعبير بقوله في تفسيره الممتع " ويؤخركم بلا عذاب " أي في الدنيا فلا يخالف قوله إن أجل اللّه إذا جاء لا يؤخر لأن المنفي تأخيره فيه هو الأجل نفسه فلا تخالف بين هذين المحلين .

وعبارة الكرخي في حاشيته على الجلالين : " قوله ويؤخركم بلا

عذاب جواب كيف ، قال ويؤخركم إلى أجل مسمى خطابا لقوم نوح لأنه إن كان المراد تأخيرهم عن الأجل المقدّر أزلا فهو محال لقوله تعالى : ولن يؤخّر اللّه نفسا إذا جاء أجلها ، أو تأخيرهم إلى مجيء أجلهم المقدّر منهم كغيرهم سواء آمنوا أم لا ، وإيضاحه أن معناه يؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان فلا يعذبكم في الدنيا إن وقع

منكم ذنب كما عذب غيركم من الأمم الكافرة فيها " .

[سورة نوح (71) : الآيات 10 إلى 20]

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11)

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ

وَقاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ

سِراجاً (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً

(18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20)

اللغة :

(مِدْراراً) كثير الدرور ويستوي فيه المذكر والمؤنث ويطّرد هذا الاستواء في وزن مفعال

صيغة للمبالغة .

(أَطْواراً) جمع طور وهو الحال والتارة ، وفي المصباح : " والطور

بالفتح التارة وفعل ذلك طورا بعد طور أي مرة بعد مرة والطور الحال والهيئة والجمع أطوار

مثل ثوب وأثواب وتعدى طوره أي حاله التي تليق به " .

(فِجاجاً) واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع وقيل هو المسلك بين الجبلين .

الإعراب :

)

(220/784)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً) الفاء عاطفة وقلت فعل وفاعل واستغفروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وربكم مفعول به وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وغفارا خبرها وجملة استغفروا مقول القول وجملة إنه كان غفارا لا محل لها لأنها تعليل للاستغفار ، وفي الشهاب : " وليس المراد بالاستغفار مجرد قول استغفر اللّه بل الرجوع عن الذنوب وتطهير الألسنة والقلوب " (يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً) يرسل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى والسماء مفعول به وعليكم متعلقان بيرسل ومدرارا حال من السماء (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً) ويمددكم عطف على يرسل والكاف مفعول به وبأموال متعلقان بيمددكم وبنين عطف على أموال ويجعل فعل مضارع مجزوم عطف على ويمددكم ولكم في موضع المفعول الثاني وجنات مفعول به ويجعل لكم أنهارا عطف على الجملة السابقة والمراد بجنّات الدنيا البساتين (ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً) ما اسم

استفهام في محل رفع مبتدأ ولكم خبر ولا نافية وترجون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وجملة لا ترجون حال من الكاف في لكم ولله حال لأن اللام للتبيين ولو تأخرت لكانت صفة للوقار ، ووقارا مفعول به لترجون أي توقيرا وتعظيما ، وسيأتي مزيد بيان لهذا التعبير في

(221/784)

باب الفوائد (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوارًا) الواو للحال وقد حرف تحقيق وخلقكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به والجملة حالية من فاعل ترجون وأطوارا حال مؤولة بالمشتق أي متنقلين من حال إلى حال (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً) الهمزة للاستفهام الإنكاري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتروا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والرؤية علمية أي لم تعتبروا وتتفكروا ، وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال والعامل فيها خلق ، وخلق اللّه فعل ماض وفاعل والجملة سدّت مسدّ مفعولي تروا المعلقة عن العمل بالاستفهام وسبع سموات مفعول به وطباقا نعت لسبع أي بعضها فوق بعض أو منصوب بفعل محذوف أي طبقت طباقا فيكون مصدر طابقت مطابقة وطباقا وقد ذكر ذلك في سورة الملك (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ

سِراجاً) الواو عاطفة وجعل القمر فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وفيهن حال ونورا مفعول به ثان وجعل الشمس سراجا عطف على الجملة السابقة (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً) الواو عاطفة والله مبتدأ وجملة أنبتكم خبر ومن الأرض متعلقان بأنبتكم ونباتا مفعول مطلق ويجوز أن يكون مصدرا لأنبت على حذف الزوائد ويسمى اسم مصدر ويجوز أن يكون مصدرا لنبتم مقدرا أي فنبتم نباتا فيكون منصوبا بالمطاوع المقدّر ، وعبارة الزمخشري " والمعنى أنبتكم فنبتم نباتا أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم " (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً) عطف على ما تقدم (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً) الواو حرف عطف والله مبتدأ وجملة جعل خبر ولكم حال والأرض مفعول به أول وبساطا مفعول به ثان (لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً) اللام لام التعليل وتسلكوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بجعل و

(222/784)

منها حال من سبلا أي كائنة من الأرض ولو تأخر لكان صفة لها وسبلا مفعول به وفجاجا نعت .

البلاغة :

1- في قوله " يرسل السماء عليكم مدرارا " مجاز مرسل علاقته المحلية ، فقد أراد بالسماء المطر لأن المطر ينزل منها قال :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد بالبيت وصف شجاعتهم لأنهم إذا اجترءوا على رعي نبات القوم الغضاب فهم أحرى بأن يجترئوا على غيرهم ، وفي البيت أيضا استخدام فقد أطلق السماء وأعاد عليها الضمير بمعنى النبات لأنها سببه .

2- وفي قوله " واللّه أنبتكم من الأرض نباتا " استعارة تصريحية لأنه شبّههم بالنبات ، فقد استعار الإنبات للإنشاء كما يقال زرعك اللّه للخير ، وكانت هذه الاستعارة ذات فائدة لأنها دلّت على الحدوث فإنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات وفيه قيل للحشوية النباتية والنوابت لحدوث مذهبهم في الإسلام .

الفوائد :

اختلفت أقاويل المفسرين في قوله : " ما لكم لا ترجون للّه وقارا " ونحن نورد هنا مقتطفات من أقوالهم ثم نعقب عليها بما يجلو غامضها ، فالرجاء معناه الأمل والخوف ، فقال أبو عبيدة : " لا ترجون : لا تخافون " قالوا والوقار بمعنى العظمة والسلطان فالكلام وعيد وتخويف ، وعبارة الزمخشري " والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم اللّه إياكم في دار الثواب ، وللّه بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار . . . أو لا تخافون للّه

حلما وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا وقيل ما لكم لا تخافون للّه عظمة ، وعن ابن عباس لا تخافون للّه عاقبة لأن العاقبة حال استقرار

(223/784)

الأمور وثبات الثواب والعقاب من وقر إذا ثبت واستقر " وعبارة أبي حيان : " وقيل ما لكم لا تجعلون رجاءكم للّه وتلقاءه وقارا ويكون على هذا منهم كأنه يقول تؤدة منكم وتمكنا في النظر لأن الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأس " وقال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج لم أبال .

وعبارة أبي السعود : " ما لكم لا ترجون للّه وقارا إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم للّه تعالى وقارا على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد ولا ترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار في لكم وللّه متعلقان بمضمر وقع حالا من وقارا ولو تأخر لكان صفة له أي أيّ سبب حصل لكم حال كونكم غير معتقدين للّه تعالى عظمة موجبة لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له وقد خلقكم أطوارا أي والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكلية وهي أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم تارة عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم أنشأكم خلقا آخر فإن التقصير في

توقير من هذه شئونه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن العاقل " .

والذي يتحصل معنا من هذا كله : هو أن القوم كانوا يبالغون في احتقاره عليه السلام والاستهزاء به والتندّر عليه فأمرهم اللّه بالتزام الجدّ في توقيره واحترامه والصدوف عن هذه المعاملة غير اللائقة ، أي أنكم إذا وقرتم نوحا وتركتم الاستخفاف به والتندّر عليه كان ذلك طاعة للّه وتقربا إليه وامتثالا لأوامره فما لكم لا تهتبلون هذه الفرصة فتفوزوا برضا اللّه بتوقيره واحترامه ؟

[سورة نوح (71) : الآيات 21 إلى 28]

(224/784)

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25)

وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ

وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28)

اللغة :

(كُبَّاراً) بضم الكاف وتشديد الباء وهو بناء مبالغة أبلغ من كبار بالضم والتخفيف . (ود ، سواع ، يَغُوثَ ، يَعُوقَ ، نسر) أسماء أصنام كانوا يعبدونها .

(دَيَّاراً) قال الزمخشري : من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال ما بالدار ديار وديور كقيام وقيوم وهو فيعال من الدوار أو من الدار وأصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد وميت ولو كان فعالا لكان دوارا " وعبارة أبي حيان : " ديارا من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه ووزنه فيعال أصله ديوار اجتمعت الياء والواو وسبقت أحداهما بالسكون فأدغمت " وفي القاموس : " وما به داريّ وديّار ودوريّ وديّور : أحد " .

(تَباراً) هلاكا .

الإعراب :

(قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) قال نوح فعل ماض وفاعل ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وإن واسمها وجملة عصوني خبرها والجملة مقول القول (وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً) واتبعوا عطف على عصوني ومن مفعول به ولم حرف نفي وقلب وجزم ويزده فعل مضارع مجزوم بلم والهاء مفعول به وماله فاعل وولده عطف على ماله وإلا أداة حصر وخسارا مفعول به ثان ليزده (وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً) الواو عاطفة ومكروا فعل ماض وفاعل ومكرا مفعول مطلق وكبارا نعت لمكرا أي عظيما جدا (وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) الواو عاطفة وقالوا فعل ماض وفاعل ولا ناهية وتذرن فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة وآلهتكم مفعول به ، ولا تذرن عطف على لا تذرن الأولى وودّا وما عطف عليه مفعول تذرن ويغوث ويعوق ممنوعان من الصرف للعلمية ووزن الفعل إن كانا عربيين والعلمية والعجمة إن كانا أعجميين ، وقرىء ولا يغوثا ويعوقا مصروفين لأمرين أحدهما أن صرفهما للتناسب إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصرف والثاني أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقا وهي لغة حكاها الكسائي . (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً) الواو عاطفة وجملة قد أضلّوا مقول قول محذوف معطوف على قال السابقة أي قال إنهم عصوني وقال قد أضلّوا .

وأضلّوا فعل وفاعل وكثيرا مفعول به والواو عاطفة على القول المحذوف قال الزمخشري : " فإن قلت علام عطف قوله ولا تزد

(226/784)

الظالمين قلت على قوله رب إنهم عصوني على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد قال وبعد الواو النائبة عنه ومعناه قال رب إنهم عصوني وقال لا تزد الظالمين إلا ضلالا أي قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا قال " ولا ناهية وتزد فعل مضارع مجزوم بلا والظالمين مفعول وإلا أداة حصر وضلالا مفعول به وعبارة أبي حيان : " ولا تزد عطف على قد أضلّوا لأنها محكية بقال مضمرة ولا يشترط التناسب في الجمل المتعاطفة بل يعطف خبر على طلب وبالعكس خلافا لمن اشترطه " وعبارة الشهاب الخفاجي : " يعني لا تزد مقول ثان لنوح عليه السلام ، عطف اللّه أحد مقوليه على الآخر والواو فيه من كلامه تعالى لا من كلام نوح لاستلزامه عطف الإنشاء على الإخبار فحكى اللّه أحد مقوليه بتصديره بلفظ قال وحكى قوله الآخر بعطفه على قوله الأول بالواو النائبة عن لفظ قال " (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نارًا) من حرف جر وما زائدة وخطيئاتهم مجرور بمن التعليلية والجار والمجرور متعلقان بأغرقوا وأغرقوا فعل ماض مبني للمجهول ، فأدخلوا

عطف على أغرقوا وجعل دخولهم النار متعقبا لإغراقهم نظرا لاقترابه ولأنه كائن لا محالة فكأنه قد كان ونارا مفعول به ثان على السعة (فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً) عطف متعقب أيضا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويجدوا فعل مضارع مجزوم بلم ولهم في موضع المفعول الثاني ليجدوا ومن دون اللّه حال وأنصارا مفعول يجدوا الأول (وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً) الواو عاطفة وقال نوح فعل ماض وفاعل ورب منادى محذوف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ولا ناهية وتذر فعل مضارع مجزوم بلا وعلى الأرض متعلقان بتذر ومن الكافرين حال لأنه كان في الأصل صفة لديارا وديارا مفعول تذر (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً)

(227/784)

إن واسمها والجملة تعليل لطلب نوح عليه السّلام ، فإن قيل كيف علم أن أولادهم يكونون مثلهم أجيب بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فاكتنه دخائلهم وسبر أغوارهم فقد كان الرجل منهم ينطلق بابنه ويقول له :

احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي قد حذرني منه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ما كان والده قد لقنه وعلمه من قبل . وإن شرطية وتذرهم فعل الشرط والهاء مفعول به ويضلّوا

جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر إنك وعبادك مفعول به والواو حرف عطف ولا نافية ويلدوا فعل مضارع معطوف على يضلوا والواو فاعل وإلا أداة حصر وفاجرا مفعول يضلّوا وكفّارا نعت (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ) رب منادى مضاف وقد تقدمت له نظائر ، واغفر فعل دعاء ولي متعلقان باغفر ولوالدي عطف على لي ولمن عطف أيضا وجملة دخل بيتي صلة الموصول ومؤمنا حال وللمؤمنين والمؤمنات عطف أيضا (وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً) الواو عاطفة ولا ناهية دعائية وتزد فعل مضارع مجزوم بلا والظالمين مفعول به أول وإلا أداة حصر وتبارا مفعول به ثان والاستثناء مفرغ وفي المصباح " وتبر يتبر من بابي قتل وتعب إذ هلك ويتعدى بالتضعيف فيقال تبره والاسم التبار ، والفعال بالفتح يأتي كثيرا من فعّل نحو كلم كلاما وسلّم سلاما وودّع وداعا "

.

البلاغة :

في قوله " ولا يلدوا إلا فاجرا كفّارا " مجاز مرسل علاقته ما يئول إليه لأنهم لم يفجروا وقت الولادة بل بعدها بزمن طويل على كل حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 221.234﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والثمانون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الجن)

(4/785)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الجن)

(5/785)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الجن

وتسمى " قل أوحى "

مقصودها إظهار الشرف لهذا النبي الكريم الفاتح (صلى الله عليه وسلم) وعلى أنه

وأصحابه وذريته ، أهل بيته حيث لين له قلوب الإنس والجن وغيرهما ، فصار مالكا لقلوب الجانس وغيره ، وذلك لعظمة هذا القرآن ، ولطف ما له من غريب الشأن ، هذا والزمان في آخره وزمان لبثه في قومه دون ربع العشر من زمن نوح عليه السلام أول نبي بعثه الله تعالى إلى المخالفين وما آمن معه من قومه إلا قليل ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالجن ويقل أوحي ، وبتأمل الآية المشتملة على ذلك وما فيها من لطيف المسالك ، أعاذنا الله بمنه وكرمه من الوقوع في المهالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 180 ﴾

(6/785)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قل أوحى)

السّورة مكّيّة .

آياتها ثمان وعشرون عند الكلّ ، إلاَّ مكة ؛ فإنَّها فى عدّهم سبع .

عدّوا ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ ، وأَسقطوا ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ فى غير رواية البَزّىّ .

وفى رواية البَزّى : لم يعدّ ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ ، ولم يعد ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ فصار فى

روايته سبعاً وعشرين .

وفى الرواية الأُخرى : ثمانياً وعشرين .

وكلماتها مائتان وخمس وثمانون .

وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون .

فواصل آياتها على الأَلف .

سمّيت سورة الجنّ ، لاشتمالها على الجنّ فى قوله : ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، وقوله : ﴿ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : عجائب علوم القرآن ، وعظمة سلطان المَلِك الدّيان ، وتعدّى الجنّ على الإنسان ، ومنعهم عن الوصول إلى السّماءِ بالطَّيران ، والرّشد والصّلاح لأَهل الإيمان ، وتهديدُ الكفَّار بالجحيم والنيران ، وعِلْم الله تعالى بالإِسرار والإِعلان ، وكيفية تبليغ الوحى من الملائكة إلى الأَنبياءِ بالإِتقان ، وحَصْر المعلومات فى علم خالق الخَلْق فى قوله : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

السّورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

المتشابه

قوله : ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ (كرّرت مراتٍ أَن وأَنه) .

واختلف القرّاءُ فى اثنتى عشرة منها وهى من قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّا

مِنَّا الْمُسْلِمُوْنَ﴾ : ففتحها بعضهم عطفاً على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ وكسرها بعضهم؛ عطفاً على قوله: ﴿فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ ، وبعضهم فتح ﴿أَنَّهُ﴾ ؛ عطفاً على ﴿أَنَّهُ﴾ وكسر ﴿إِنَّا﴾ عطفاً على ﴿إِنَّا﴾ .

وهو شاذّ .

فضل السّورة

(7/785)

عن أُبيّ : مَنْ قرأَها أُعطِيَ بعدد كلّ جنّ وشيطان صدّق بمحمّد وكذَّب به ، عِتقَ رقبة ، وعن علي : يا عليّ مَنْ قرأَها لا يخرج من الدّنيا حتى يرى مكانه من الجنَّة ، وله بكل آية قرأَها ثوابُ الزاهدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوي التمييز حـ 1 صـ 484.

485﴾

(8/785)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الجن

سميت في كتب التفسير وفي المصاحف التي رأيناها ومنها الكوفي المكتوب بالقيروان في القرن الخامس (سورة الجن) . وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من (جامعه) ، وترجمها البخاري في كتاب التفسير (سورة قل أوحي إليَّ) .

واشتهرت على ألسنة المُكَتِّبين والمتعلمين في الكتَاتيب القرآنية باسم) قل أوحي ((الجن : 1) .

ولم يذكرها في (الإِتقان) في عداد السور التي لها أكثر من اسم ووجه التسميتين ظاهر .

وهي مكية بالاتفاق .

ويظهر أنها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة . ففي (الصحيحين) و (جامع الترمذي) من حديث ابن عباس أنه قال : انطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عكاظ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاةَ الفجر وأنه استمع فريق من الجن إلى قراءته فرجعوا إلى طائفتهم فقالوا : (إنا سمعنا قرآناً عجَباً ((الجن : 1) وأنزل الله على نبيئه) قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن ((الجن : 1) .

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد سفر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف ، أي وذلك يكون في سنة عشر بعد البعثة وسنة ثلاث قبل الهجرة .

وقد عُدّت السورة الأربعين في نزول السور نزلتْ بعد الأعراف وقبل يس .

واتفق أهل العدد على عد آيها ثماناً وعشرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 29 صـ 216.217﴾

(9/785)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الجن

هذه السورة تبده الحس – قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها – بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع , قوية التنغيم , ظاهرة الرنين ; مع صبغة من الحزن في إيقاعها , ومسحة من الأسى في تنغيمها , وطائف من الشجى في رنينها , يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها , ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن , والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا الخطاب الذي يثير العطف على

شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة , عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ , والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ: (قل: إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . . قل: إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . . قل: إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا , إلا بلاغا من الله ورسالاته , ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا , حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . . قل: إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا , عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا , إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا , ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم , وأحاط بما لديهم , وأحصى كل شيء عددا) . .

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسي للحقائق التي وردت في حكاية قول الجن , وبيانهم الطويل المديد . وهي حقائق ذات ثقل ووزن في الحس والتصور ; والاستجابة لها تغشى الحس بجاله من التدبر والتفكير , تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية في إيقاع السورة الموسيقي !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ , توقع في الحس هذا الذي وصفناه من المسحة الغالبة عليها . .

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التي تبده الحس ; إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل , ويرجمون في أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة , ويزعمون أحيانا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها ; وبتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد (صلى الله عليه وسلم) فهالهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل , وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا , ولا الإجمال فيما عرفوا , ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ , ووهلة المشدوه , عن هذا الحادث العظيم , الذي شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ! . . وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حتما .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة , وفي نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ; ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا

في الأرض , فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر , لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض , فقال:أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه . . ثم بات آمنا ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا , وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

(11/785)

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيا في كل جاهلية , ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ! ! !

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم , وما تزال . . نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا , يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة . .

وبين الإغراق في الوهم , والإغراق في الإنكار , يقرر الإسلام حقيقة الجن , ويصحح التصورات العامة عنهم , ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم:

(12/785)

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا :(وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) . . ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون:(وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا , وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) . . وهم قابلون للهداية من الضلال , مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا :(قل:أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا:إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به , ولن نشرك بربنا أحدا) . . وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان و الكفر فيهم:(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به , فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون , فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا , وأما القاسطون , فكانوا لجهنم حطبا) . . وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم:(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) . . وأنهم لا يعلمون الغيب , ولم تعد لهم صلة بالسماء : وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا , وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع , فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا , وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . . وأنهم لا صهر بينهم وبين الله – سبحانه وتعالى – ولا نسب:(وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) . . وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة: (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه

هربا) . .

وهذا الذي ذكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان – وهم من الجن – وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة , فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب: فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته , فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين . .

(13/785)

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله – وهو من الجن – غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء: إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . . وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر , في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرره في سورة الرحمن عن المادة التي منها كيان الجن والمادة التي منها كيان الإنسان في قوله:(خلق الإنسان من صلصال كالفخار , وخلق الجان من مارج من نار) . . يعطي صورة عن ذلك الخلق المغيب , تثبت وجوده , وتحدد الكثير من خصائصه ; وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير , العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق , وتدع

تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة , ومن التعسف في الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا , فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار , بصيغة الجزم والقطع , والسخرية من الاعتقاد بوجوده , وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيرا مما يكشف وجوده يوما بعد يوم , ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

لأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا لا يدعي هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ; وهي كانت مجهولة بالأمس . والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية , وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها , أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون , وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

لأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها , فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحدا منهم لم ير الكهرب قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

ففيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم , لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس , بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته , وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه .

فما يقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع .

(15/785)

والسورة التي بين أيدينا – بالإضافة إلى ما سبق – تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية , وحقيقة العبودية , ثم عن هذا الكون وخلائقه , والصلة بين هذه الخلائق المنوعة .

وفي مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله , ونفي الصاحبة والولد , وإثبات الجزاء في الآخرة ; وأن أحدا من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته , فلا يلاقي جزاءه العادل . وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول (صلى الله عليه وسلم) من الخطاب: (قل: إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا) . . (قل: إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) . . وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة . كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده , وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر: (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) . . ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول (صلى الله عليه وسلم) من خطاب: (قل: إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) . .

والغيب موكول لله وحده ; لا تعرفه الجن: (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) . . ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها: (قل: إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا , إلا من ارتضى من رسول , فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . .) . .

"أما العباد والعبيد في هذا الكون , فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ , ولو اختلف تكوينها , كالمشاركات التي بين الجن والإنس , مما حكته السورة وحكاه القرآن في مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل – حتى في هذه الأرض – عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل في صورة من الصور . وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بجنسه – بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية – لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه . وأحرى بهذا التصور أن يفسح في شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان , ولكنها موجودة بالفعل من حوله , فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانا أن يشعر ! !

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة , وتحركات هذا الكون ونتائجها , وقدر الله في العباد : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) . . وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة , وهي سورة لا تتجاوز الثماني والعشرين آية , نزلت في حادثة معينة ومناسبة خاصة . .

(17/785)

فأما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة . حادث استماع نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات . قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه: "دلائل النبوة ":أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بنعبدان , أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار , حدثنا إسماعيل القاضي , أخبرنا مسدد , حدثنا أبو عوانة , عن أبي بشر , عن سعيد بن جبير , عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: " ما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ , وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء , أرسلت عليهم الشهب , فرجعت الشياطين إلى قومهم , فقالوا :ما لكم ? فقالوا :حيل بيننا وبين خبر السماء , وأرسلت علينا الشهب . قالوا :ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث , فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها , وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض و مغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر

السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ , وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر , فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه , فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء , فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) . . وأنزل الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) : (قل : أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) . . وإنما أوحي إليه قول الجن" [ورواه البخاري عن مسدد بنحو هذا , وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبي عوانة بهذا النص] .

(18/785)

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى , حدثنا داود وهو ابن أبي هند , عن عامر , قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة الجن ؟ قال : لا , ولكنا كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة , ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب , فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟

قال:فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو , جاء من قبل حراء . قال:فقلنا :يا رسول الله , فقدناك فطلبناك فلم نجدك , فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال:" أتاني داعي الجن , فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن " . قال:" فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم " وسألوه الزاد فقال:"كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما , وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم " . قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم " . .

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها . . ومن الروايتين الواردتين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول:إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعرف بحضور النفر من الجن , وأن ابن مسعود يقول:إنهم استدعوه . ويوفق البيهقي بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن اسحق قال:

" ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب , فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف , والمنعة بهم من قومه , ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل , فخرج إليهم وحده" .

(19/785)

" قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد , عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم , وهم إخوة ثلاثة: "ياليل بن عمرو بن عمير , ومسعود بن عمرو بن عمير , وحبيب بن عمرو بن عمير . . . وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فدعاهم إلى الله , وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام , والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة [أي يمزقها] إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ? وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف . وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: " إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني " . وكره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يبلغ قومه عنه , فيذئرهم [أي يحرشهم] ذلك عليه ! "

(20/785)

" فلم يفعلوا , وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به , حتى اجتمع عليه الناس , وألجأوه إلى حائط [أي بستان] لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة – وهما فيه – ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه , فعمد إلى ظل حبلة من عنب [أي طاقة من قضبان الكرم] فجلس فيه , وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف . . . فلما اطمأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال – فيما ذكر لي –: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي , وقلة حيلتي , وهواني على الناس , يا أرحم الراحمين , أنت رب المستضعفين وأنت ربي , إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي , ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات , وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك , أو يحل علي سخطك , لك العتبى حتى ترضى , ولا حول ولا قوة إلا بك " " . .

(21/785)

" قال: فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما , فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له: عداس . فقال له "خذ قطفا من هذا العنب , فضعه في هذا الطبق , ثم

اذهب به إلى ذلك الرجل , فقل له يأكل منه . ففعل عداس , ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال له: كل . فلما وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه يده قال: " بسم الله " ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ " قال: نصراني , وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ " فقال عداس: وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ذاك أخي . كان نبيا وأنا نبي " فأكب عداس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قالا له: ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك , فإن دينك خير من دينه ! "

(22/785)

" قال: ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انصرف من الطائف راجعا إلى مكة , حين يئس من خير ثقيف , حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي . فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى , وهم – فيما ذكر لي – سبعة نفر من جن أهل نصيبين , فاستمعوا له , فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين , قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه (صلى الله عليه وسلم) قال الله عز وجل: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن إلى قوله (ويجركم من عذاب أليم) . وقال تبارك وتعالى: (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن)إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

وقد علق ابن كثير في تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال: " هذا صحيح . ولكن قوله: إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المذكور . وخروجه (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم " .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الطائف , مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذي واجهه به كبراء ثقيف , وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه , فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن , وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم , وفيه

من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه . .

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم في دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . . فلنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3720 . 3726 ﴾

(23/785)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الجن

مكية وآياتها ثمان وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) ومحور السورة يدور حول الجن ، وما يتعلق بهم من أمور خاصة ، بدءا من استماعهم للقرآن ، إلى دخولهم فى الإيمان ، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم ، كاستراقهم للسمع ، ورميهم بالشهب المحرقة ، واطلاعهم على بعض الأسرار

الغيبية ، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن ، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان ، حتى آمنوا به فور استماعه ، ودعوا قومهم إلى الإيمان [قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرانا عجبا . .] الآيات .

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا ، وإفرادهم له بالعبادة ، وتسفيههم لمن جعل لله ولدا [وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . .] الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع ، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة ، وإرسال الشهب على الجن ، بعد بعثة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، خاتم النبيين ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب [وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . .] الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين ، وكافرين ومآل كل من الفريقين [وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا] .

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعن التفاف الجن

حوله حين سمعوه يتلو القرآن [وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا] .

(24/785)

---

* ثم أمرت الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله ، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل ، وأن يتبرأ من الحول والطول [قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا] . " وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب ، وإحاطته بعلم جميع ما فى الكائنات [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . .] الآيات إلى آخر السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 456 . 457 ﴾

(25/785)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الجن

النفر : ما بين الثلاثة والعشرة ، والجن : واحدهم جنىّ كروم ورومى ، عجبا :

أي عجيبا بديعا مباينا لكلام الناس فى حسن النظم ودقة المعنى ، والجد : العظمة يقال

جدّ فلان فى عينى : أي عظم ، قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا :

أي جلّ قدره وعظم ، والسفيه : الجاهل ، شططا : أي غلوّا فى الكذب بنسبة الصاحبة

والولد إليه ، يعوذون : أي يلتجئون ، وكان الرجل إذا أمسى يقفر قال : أعوذ بسيد هذا

الوادي من سفهاء قومه ، رهقا : أي تكبّرا ، وأصل الرهق : الإثم وغشيان المحارم

لمسنا السماء : أي طلبنا خبرها كما جرت بذلك عادتنا ، والحرس والحرس ، واحدهم

حارس ، وهو الرقيب ، شديدا : أي قويا ، والسمع : الاستماع ، والشهب :

واحدها شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب ، رصدا : أي أرصد له ليرمى به

رشدا : أي خيرا وصلاحا ، قددا : أي جماعات متفرقة وفرقا شتى ، ويقال صار القوم

قددا : إذا تفرقت أحوالهم ، واحدها قدّة وهى القطعة من الشيء ، هربا : أي هاربين إلى

السماء ، والمراد بالهدى القرآن ، والبخس : النقص ، والرهق الظلم والمكروه الذي يغشى

المظلوم ، القاسطون : أي الجائرون العادلون عن الحق ، تحرّوا رشدا : أي قصدوا طريق

الحق ، حطبا : أي وقودا للنار ، والطريقة : هى طريق الإسلام ، غدقا : أي كثيرا ، يسلكه : أي يدخله ، صعدا : أي شاقا يعلو المعذب ويغلبه ، يقال فلان فى صعد من أمره : أي فى مشقة ، ومنه قول عمر : ما تصعّدنى شىء كما تصعّدنى فى خطبة النكاح ، أي ما شقّ علىّ ، وكأنه إنما قال ذلك لأنه كان من عادتهم أن يذكروا جميع ما يكون فى الخاطب من أوصاف موروثة ومكتسبة ، فكان يشق عليه أن يقول الصدق فى وجه الخاطب وعشيرته

(26/785)

المساجد : واحدها مسجد ، موضع السجود للصلاة والعبادة ، ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين ، فلا تدعوا : أي فلا تعبدوا ، يدعوه : أي يعبده ، لبدا : (بكسر اللام وفتح الباء) أي جماعات ، واحدها لبدة ، والمراد متراكمين متزاحمين ، ولا رشدا : أي ولا نفعا ، ملتحدا : أي ملجأ يركن إليه ، قال :

يا لهف نفسى ونفسى غير مجدية عنّى وما من قضاء اللّه ملتحد

بلاغا من اللّه : أي تبليغا لرسالاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 93. 102 ﴾ . باختصار .

وقال الفراء :

سورة (الجن)

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾

قوله: عز وجل: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ . . . ﴾ .

القراء مجتمعون [/ا] على (أُوحِيَ) وقرأها جُوَيّة الأسدى: "قُلْ أُحِيَ إِلَيَّ" من وحيتُ ، فهمز الواو ؛ لأنها انضمت كما قال: ﴿ وإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ .

وقوله: ﴿ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . . . ﴾ .

ذكر: أن الشياطين لما رُجمت وحُرِست منها السماء قال إبليس: هذا نبيٌّ قد حدث ، فبث جنوده فى الآفاق ، وبعث تسعة منهم من اليمن إلى مكة ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو ببطن نخلة قائماً يصلى ويتلو القرآن ، فأعجبهم ورقّوا له ، وأسلموا ، فكان من قولهم ما قد قصّه الله فى هذه السورة .

وقد اجتمع القراء على كسر "إنا" فى قوله: ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ ، واختلفوا فيما بعد ذلك ، فقرءوا: وإنّا ، وأَنَّا إلى آخر السورة ، وكسروا بعضاً ، وفتحوا بعضاً .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال]: حدثنا الفراءُ قال: فحدثنى الحسن بن عياش أخو أبى بكر بن عياش، وقيس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن قيس أنه قرأ ما في الجنِّ، والنجم: (وأنا)، بالفتح. قال الفراءُ: وكان يحيى وإبراهيم وأصحاب عبد الله كذلك يقرءون. وفتح نافع المدنى، وكسر الحسن ومجاهد، وأكثر أهل المدينة إلا أنهم نصبوا: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله﴾

[حدثنا محمد قال:] حدثنا الفراء قال: وحدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أُوحى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد اقتصاص أمر الجن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلاَ تَدْعُواْ﴾.

(28/785)

وكان عاصم يكسر ما كان من قول الجن، ويفتح ما كان من الوحى. فأما الذين فتحوا كلها فإنهم ردّوا "أنَّ" فى كل سورة على قوله: فآمنا به، وآمنا بكل ذلك، ففتحت "أن" لوقوع الإيمان عليها، وأنت مع ذلك تجد الإيمان يحسن فى بعض ما فتح، ويقبح فى بعض، ولا يمنعك ذلك من إمضائهن على الفتح، فإن الذى يقبح من ظهور الإيمان قد يحسن فيه فعلٌ مضارعٌ للإيمان يوجب فتح أنّ كما قالت العرب.

إذا ما الغانيات بَرَزْنَ يوماً * وزَجّجن الحَواجبَ والعُيونا

فنصب العيون باتباعها الحواجب ، وهى لا تزجج إنما تكحّل ، فأضمر لها الكحل ،

وكذلك يضمر فى الموضع الذى لا يحسن فيه آمنّا ، ويحسن: صدقنا ، وألهمنا ، وشهدنا ،

ويقوّى النصب قوله: ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ .

فينبغى لمن كسر أن يحذف (أنْ) من (لو) ؛ لأنّ (أنْ) إذا خففت لم تكن فى حكايةٍ ، ألا ترى

أنك تقول: أقول لو فعلتَ لفعلتُ ، ولا تدخِل (أنْ) .

وأمّا الذين كسروا كلها فهم فى ذلك يقولون: ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا ﴾ فكأنهم أضمروا يميناً

مع لو ، وَقطعوها عن النسق على أول الكلام ، فقالوا: والله أن لو استقاموا . وَالعرب تدخل

أن فى هذا الموضع مع اليمين وتحذفها ، قال الشاعر:

فأقسمُ لو شىء أتانا رسُوله * سواك ، ولكن لم نجدْ لكَ مدفَعا

وأنشدنى آخر:

أمَا واللهِ أنْ لو كُنتَ حُرًّا * وما بِالحرِّ أنتَ ولا العتيقِ

ومن كسر كلها ونصب: ﴿ وأن المساجد لله ﴾ خصَّه بالوحى ، وجعل: وأنْ لو مضمرة

فيها اليمين على ما وصفت لك .

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال:] حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: حدثني أبو إسرائيل عن الحكم عن مجاهد في قوله: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قال: جلالُ ربنا .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾

(29/785)

وقوله جل وعز: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً . . . ﴾ .

الظن ها هنا: شك .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ . . . ﴾ . إذ بعث محمد صلى الله عليه يجد له شهاباً رصداً قد أرصد به له ليرجمه .

﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ . . . ﴾ .

هذا من قول كفرة الجن قالوا: ما ندري ألخير يراد بهم فُعِل هذا أم لشر؟ يعني: رجم الشياطين بالكواكب .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً . . . ﴾ .

كنا فرقا مختلفةً أهواؤنا ، والطريقة طريقة الرجُل ، ويقال أيضا [/ا] للقوم هم طريقة قومهم إذا كانوا رؤساءهم ، والواحد أيضا : طريقة قومه ، وكذلك يقال للواحد : هذا نظورةُ قومه للذين ينظرون إليه منهم ، وبعض العرب يقول: نظيرة قومه ، ويجمعان جيمعا : نظائر .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ . . . ﴾ .

على اليقين علمنا .

وقد قرأ بعض القراء: "أن لن تَقوَّل الإنسُ والجنُّ" ولست أسميه .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً . . . ﴾ لا يُنْقَص من ثواب عمله ﴿ وَلاَ رَهَقاً . . . ﴾ .

ولا ظلماً .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَائِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ . . . ﴾ وهم: الجائرون الكفار، والمقسطون: العادلون المسلمون

وقوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَائِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً . . . ﴾ .

يقول: أمّوا الهدى واتبعوه.

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ . . . ﴾: على طريقة الكفر

﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ يكون زيادة فى أموالهم ومواشيهم، ومثلها قوله: ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ يقول: تفعل ذلك بهم ليكون فتنة عليهم فى الدنيا، وزيادة فى عذاب الآخرة.

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً . . . ﴾ .

نزلت فى وليد بن المغيرة المخزومى، وذكروا أن الصَّعَدَ: صخرة ملساء فى جهنم يكلَّف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حَدَر إلى جهنم، فكان ذلك دأبه، ومثلها فى سورة المدثر: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ . . . ﴾ .

فلا تشركوا فيها صنما ولا شيئا مما يعبد ، ويقال: هذه المساجد ، ويقال: وأن المساجد لله ، يريد : مساجدَ الرجلِ: ما يسجد عليه من: جبهته ، ويديه ، وركبتيه ، وصدور قدميه .

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ . . . ﴾ .

يريد : النبى صلى الله عليه ليلة أتاه الجن ببطن نخلة . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً . . . ﴾ كادوا يركبون النبى صلى الله عليه رغبةً فى القرآن ، وشهوة له .

(31/785)

وقرأ بعضهم: "لُبدا" والمعنى فيهما – والله أعلم – واحد ، يقال: لُبدَةٌ ، ولِبدة .

ومن قرأ: "لُبَّداً" فإنه أراد أن يجعلها من صفة الرجال ، كقولك: رُكّعاً ، وركوعا ، وسجَّدا ، وسجودا .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي . . . ﴾

قرأ الأعمش وعاصم: "قُلْ إنما أدعُو ربِّى" وقرأ عامة أهل المدينة كذلك ، وبعضهم: (قال) ، وبعضهم: (قل) .

[حدثنا أبو العباس قال:] حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى محمد بن الفضل عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السُّلَمى، عن على بن أبى طالب - رحمه الله - أنه قرأها: (قال إنما أَدْعُو ربِّى).

اجتمع القراء على: ﴿ لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً . . . ﴾ بنصب الضاد، ولم يرفع أحد منهم.

﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً . . . ﴾

ملجأ ولا سرباً ألجأ إليه.

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ . . . ﴾.

يكون استثناء من قوله: "لا أملك لكم ضرا ولا رشدا إلا أن أبلغكم ما أرسلت به".

وفيها وجه آخر: قل إنى لن يجيرنى من الله أحد إنْ لم أبلغ رسالته، فيكون نصب البلاغ من إضمار فعل من الجزاءِ كقولك للرجل: إلا قياماً فقعودا، وإلا عطاء فردا جميلا. أى إلا تفعل إلا عطاء فردا جميلا فتكون لا منفصلة من إن - وهو وجه حسن، والعرب تقول: إن لا مال اليوم فلا مال أبدا - يجعلون (لا) على وجه التبرئة، ويرفعون أيضا على ذلك المعنى،

ومن نصب بالنون فعلى إِضمار فعل ، أنشدنى بعض العرب:

فإن لا مَال أعطيه فإنى * صديق من غُدو أو رَواح

(32/785)

﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ .

فإنه يطلعه على [/ا] غيبه .

وقوله عز وجل: ﴿ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً . . . ﴾ .

ذكروا أن جبريل ـ صلى الله عليه ـ كان إذا نزل بالرسالة إلى النبى صلى الله عليه نزلت معه ملائكة من كل سماء يحفظونه من استماع الجن الوحىَ ليسترقوه ، فيلقوه إلى كهنتهم ، فيسبقوا به النبى صلى الله عليه ، فذلك الرَّصَد من بين يديه ومن خلفه ، ثم قال جل وعز: ﴿ لِّيَعْلَمَ . . . ﴾ يعنى محمداً صلى الله عليه: ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ . . . ﴾ يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم: هو محمد صلى الله عليه ، أى: يعلم محمد أنه قد أبلغ رسالة ربه .

وقد قرأ بعضهم: "لِيُعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا" يريد: لتعلم الجنّ والإنس أن الرسلَ قد أبلغت لاهم بما رجوا من استراق السمع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 190. 196﴾

(33/785)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة الجن

(تعالى جد ربنا) [3] سلطانه وعظمته. عن أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي عظم. (سفيهنا) [4] إبليس. (شططاً) [4] كفراً وكذباً [لبعده] عن الحق. (يعوذون برجال) [6] كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بوادٍ نادى:

إني أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه. (رهقاً) [6] فساداً وإثماً. قال الأعشى:

1325- لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتفي عاشق ما لم يصب رهقا. أي: زاد الإنس الجن باستعاذتهم غياً وإثماً. (وأنا لمسنا السماء) [8] طلبنا، بمعنى التمسنا. (ملئت حرساً) [8] ملائكة. (وشهباً) [8]/

كواكب الرجم. وعن الزهري، وغيره: أن النجوم كانت تنقض قبل المبعث، إلا أنه زيد

عند البعث زيادة لا إلى حد .

واستشهد بقول الأفوه الأودي: 1326- إن يجل مهري فيكم جولة فعليه الكر فيكم والغوار 1327- كشهاب الرجم يرميكم به فارس في كفه للحرب نار . والصحيح أن الرجم كان على عهد رسول الله إرهاصاً لنبوته ، وتمهيداً لدعوته . ورأيت عدة نسخ من ديوان الأفوه: كشهاب القذف . . . . . ، وهو النار التي يرمي بها البحريون في الحرب . وما في كتب أهل الحساب من علله وأسبابه ، فذلك من زيادة المترجمين ، فإنهم [ضموا] إلى كلام صاحب المنطق أشياء كثيرة ، توسعاً في القول وتصرفاً ، وكذلك من بعدهم عليهم .

(طرائق قدداً) [11] فرقاً شتى ، جمع قدة . وقيل: أهواء مختلفة ، كما قال الراعي: 1328- ضافي العطية معصيه وواعده سيان أفلح من يعطي ومن يعد 1329- القابض الباسط الهادي لطاعته في فتنة [الناس] إذ أهواؤهم قدد . [(القاسطون) [14] الجائرون] . قال الشاعر: 1330- قوم [هم] قتلوا ابن هند عنوة ظلماً وهم قسطوا على النعمان . (تحروا رشداً) [14] [ا]لتحري: تعمد الصواب . (وألو استقاموا على الطريقة) [16] أي: طريقة الكفر ، لزدنا في نعيمهم وأموالهم فتنة . قال عمر: حيث كان الماء كان المال ، وحيث كان المال كان [ت] الفتنة .

وقيل: على عكس ذلك، أي: على طريقة الإسلام، [لوسعنا] عليهم. وقيل: إنه كناية عن إدرار مواد [الهوى] عليهم، فتكون الفتنة بمعنى التخليص، كقوله: (فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً). والغدق: العذب والعين. وقيل: الغمر الغزير. / وذكر بعضهم أن كل ما في السورة من "إن" المكسورة المثقلة فهو حكاية قول الجن، وكل ما فيها من "أن" المفتوحة مخففة [أو] مثقلة فهو ابتداء قول الله.

(صعداً) [17] شديداً شاقاً. (وأن المساجد لله) [18] ما يسجد على الأرض من جسد المصلي. (لبداً) [19] جمع لبدة، و"لبداً" جمع لبدة، مثل: حذوة وحذوة، وربوة وربوة، أي: ازدحم الجن على النبي عليه السلام، [حتى] [كاد] يركب بعضهم بعضاً كتراكب اللبد. (من رسول) [27] [يعني] جبريل. (رصداً) [27]

طريقاً. أي: نجعل له إلى علم بعض ما كان قبله، وما يكون بعده طريقاً. وقيل: إن ["الرسول"]: النبي عليه السلام، "والرصد": الملائكة يحفظونه من الجن والإنس. (ليعلم أن قد أبلغوا) [28] على القول الأول: ليعلم محمد أن جبريل أبلغ، وما نزل جبريل بشيء إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة. وقيل: ليعلم محمد أن الرسل المتقدمين أبلغوا. وقيل "ليعلم الله" -وإن كان عالماً من قبل- ولكنها لام العاقبة، أي: ليتبين علم الله.

وهذا أوجه لا تصال[ـه] بقوله: (وأحاط بما لديهم)

[تمت سورة الجن] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1558.1567 ﴾

(35/785)

وقال الأخفش :

سورة (الجن)

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾

[قال] ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ ﴾ فألف ﴿ أَنه ﴾ مفتوحة لأنه اسم ثم قال ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [3] على الابتداء اذا كان من كلام الجن فان فتح جعله على الوحي وهو حسن .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾

وقال ﴿ وَشُهُباً ﴾ وواحدها : الشّهابُ .

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾

وقال ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لأنك تقول "فَتَنْتُه" وبعض العرب يقول "أَفْتُنُه" فتلك على تلك اللغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 551 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الجن «1»

1 - نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ يقال : «النفر» ما بين الثلاثة إلى العشرة .

3 - وَأَنَّهُ - تَعالى جَدُّ رَبِّنا ! - مَا اتَّخَذَ . . . قال مجاهد : جلال ربنا .

وقال قتادة : عظمته .

وقال أبو عبيدة ملكه وسلطانه .

4 - [يَقُولُ] سَفِيهُنا : جاهلنا ، عَلَى اللَّهِ شَطَطاً أي جورا في المقال .

6 - فَزادُوهُمْ رَهَقاً أي ضلالا .

وأصل «الرّهق» : العيب . ومنه يقال : يرهّق في دينه «2» .

8 - (والشهب) : جمع «شهاب» ، وهو : النجم المضيء .

9 - و(الشهاب الرصد) : الذي قد أرصد به للرّجم .

11 - كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً أي كنا فرقا مختلفة أهواؤنا .

---

(1) هي مكية.

(2) الرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم.

(37/785)

و«القدد»: جمع «قدة»، وهي بمنزلة قطعة وقطع [في التقدير والمعنى].

12 - وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ أي استيقنا.

13 - فَلا يَخافُ بَخْساً، أي نقصا من الثواب، وَلا رَهَقاً أي ظلما.

وأصل «الرهق»: ما رهق الإنسان من عيب أو ظلم.

14 - وَالْقاسِطُونَ: الجائرون. يقال: قسط، إذا جار.

وأقسط: إذا عدل.

فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً أي توخّوه وأمّوه.

16 - وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ يقال: طريقة الكفر، لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً.

و«الغدق»: الكثير. وهذا مثل «لزدناهم في أموالهم ومواشيهم». ومثله: وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً [سورة الزخرف آية: 33]، أي كفرة كلهم. هذا بمعنى قول الفراء.

وقال غيرة: «وأن لو استقاموا على الهدى جميعا: لأوسعنا عليهم».

17 - لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أي لنختبرهم ، فنعلم كيف شكرهم .

يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً ، أي عذابا شاقا . يقال : تصعدني الأمر ، إذا شقّ عليّ .

ومنه قول عمر : «ما تصعّدني شيء ما تصعّدتني خطبة النكاح» .

ومنه قوله : سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً [سورة المدثر آية : 17] أي عقبة شاقة .

ونرى أصل هذا كلّه من «الصّعود» : لأنه شاقّ ، فكنّي به عن المشقات .

(38/785)

---

18 - وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ أي السّجود للّه . هو جمع «مسجد» ، يقال : سجدت سجودا ومسجدا ، كما يقال : ضربت في البلاد ضربا ومضربا . ثم يجمع فيقال : المساجد للّه . كما يقال : المضارب في الأرض لطلب الرزق .

19 - وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ أي لمّا قام النبي - صلّى اللّه عليه وسلم - يدعو إليه ، كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً أي يلبدون به [ويتراكبون] : رغبة في القرآن ، وشهوة لأستماعه . وهو جمع «لبدة» ، يقال : غشيته لبة من الحرام ، أي قطعة لبدت به .

22 - وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً أي معدلا وموئلا .

23 - إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ هذا استثناء من لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً [21] :

إلا أن أبلغكم .

25 - أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً أي غاية .

26 - و27 - عالِمُ الْغَيْبِ ، فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً . إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ أي اصطفي للنبوة والرسالة : فإنه يطلعه على ما شاء من غيبه ، فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أي يجعل بين يديه وخلفه رَصَداً من الملائكة : يدفعون عنه الجن أن يسمعوا ما ينزل به الوحي ، فيلقوه إلى الكهنة قبل أن يخبر [به] النبيّ - صلّى اللّه عليه وسلم - الناس .

28 - لِيَعْلَمَ محمد أن الرسل قد بلّغت عن اللّه عز وجل ، وأن اللّه حفظها ودفع عنها ، وأحاط بما لديها .

ويقال : ليعلم محمد أن الملائكة - يريد جبريل - قد بلّغ رسالات ربه .

ويقرأ : لتعلم بالتاء . يريد : لتعلم الجنّ ان الرسل قد بلّغت [عن] إلهم بما ودّوا : من استراق السمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 418. 420 ﴾

(39/785)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الجن

3 تَعالى جَدُّ رَبِّنا : عظمته «1» . عن أنس «2» رضي اللّه عنه : «كان الرّجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا» ، أي : عظم .

4 سَفِيهُنا : إبليس «3» .

شَطَطاً : كفرا لبعده عن الحق .

6 يَعُوذُونَ : كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بواد ، نادى : أعوذ بسيّد هذا الوادي من سفهائه «4» .

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 489 ، وتفسير الطبري : 29/ 104 ، ومعاني الزجاج :

5/ 234 ، والمفردات للراغب : 89 .

وهو رأي الجمهور كما في البحر المحيط : 8/ 347 . [. . . . .]

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 3/ 120 ، وأورده الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف : 5 ، وقال : «هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبة» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 1/ 49 وعزا إخراجه إلى أحمد ، ومسلم ، وأبي نعيم في «الدلائل» عن أنس رضي اللّه تعالى عنه . ولم أقف عليه في صحيح مسلم ولا في الدلائل لأبي نعيم .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 107 ، عن مجاهد ،

وقتادة. وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 298، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وانظر تفسيره الماوردي: 4/ 320، وتفسير البغوي: 4/ 401.

(4) تفسير الطبري: 29/ 108، وتفسير الماوردي: 4/ 320، وتفسير البغوي: 4/ 402.

(40/785)

رَهَقاً: فسادا وإثما «1».

8 لَمَسْنَا السَّماءَ: طلبنا، أي: التمسنا «2».

مُلِئَتْ حَرَساً: ملائكة، وَشُهُباً: كواكب الرجم «3».

9 رَصَداً: أي: إرصادا، إرهاصا، أي: إعظاما للنبوة من قولهم رهصه اللّه: إذا أهله للخير.

11 طَرائِقَ قِدَداً: فرقا شتّى. جمع «قدّة» «4». وقيل «5»: أهواء مختلفة.

14 الْقاسِطُونَ: الجائرون.

تَحَرَّوْا: تعمّدوا الصّواب.

16 وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ : أي : على طريقة الكفر لزدنا في نعمتهم وأموالهم فتنة «6» ، قال عمر «7» رضي اللّه عنه : «حيث الماء كان المال وحيث المال كانت الفتنة» .

وقيل على عكسه «8» ، أي : على طريقة الحق لوسّعنا عليهم .

---

(1) تفسير الطبري : 29/ 109 ، وتفسير الماوردي : 4/ 320 ، وتفسير القرطبي : 19/ 10 .

(2) تفسير الطبري : 29/ 110 ، وتفسير الماوردي : 4/ 321 ، واللسان : 6/ 209 (لمس) .

(3) ينظر تفسير الطبري : 29/ 110 ، وتفسير البغوي : 4/ 402 ، وزاد المسير : 8/ 380 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 272 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 490 ، وتفسير الطبري : 29/ 112 ، والمفردات للراغب : 394 .

(5) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 193 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 490 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 111 عن قتادة ، وعكرمة .

(6) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 193 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 115 عن أبي مجلز .

(7) ذكره القرطبي في تفسيره: 19/ 18، بلفظ: «أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة».

(8) اختاره الطبري في تفسيره: 29/ 114، والزجاج في معانيه: 5/ 236، وقال: «والذي يختار وهو أكثر التفسير أن يكون يعنى بالطريقة طريق الهدى لأن «الطريقة» معرّفة بالألف واللام، والأوجب أن يكون طريقة الهدى والله أعلم».

(41/785)

وقيل «1»: هو إدرار مواد الهوى، فتكون «الفتنة» بمعنى التخليص «2» كقوله «3»: فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً.

و«الغدق»: الغمر الغزير «4».

17 صَعَداً: شديدا شاقا «5».

18 وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ: ما يسجد من جسد المصلى «6».

19 لِبَداً: جمع «لبدة»، و«لبدا» «7» جمع «لبدة»، أي: ازدحم الجنّ على النّبيّ عليه السلام حتى تراكب بعضهم بعضا تراكب اللّبد.

27 رَصَداً: طريقا إلى علم بعض ما قبله وما يكون بعده، والرسول:

النبي عليه السلام ، والرّصد : الملائكة يحفظونه ، ليعلم النّبيّ أنّ الرّسل المتقدمين أبلغوا «8» ، أو ليعلم النّاس ذلك ، أو ليعلم اللّه «9» . لام الصيرورة ، أي : ليتبين علم اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 842. 845 ﴾

---

(1) ينظر هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 326 ، وتفسير الفخر الرازي : 30/ 162 .

(2) يقال : فتنت الذهب بالنار : خلصته .

اللسان : 13/ 317 (فتن) .

(3) سورة طه : آية : 40 . [. . . . .]

(4) معاني القرآن للزجاج : 5/ 236 ، والمفردات للراغب : 358 ، وتفسير القرطبي : 19/ 18 .

(5) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 272 ، ومعاني الزجاج : 5/ 236 ، وتفسير الطبري :

29/ 116 ، والمفردات للراغب : 280 .

(6) ذكره الفراء في معاني القرآن : 3/ 194 ، والزجاج في معانيه : 5/ 236 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 327 عن الربيع بن أنس . وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 382 ، إلى سعيد بن جبير ، وابن الأنباري .

(7) بضم اللام قراءة ابن عامر كما في السبعة لابن مجاهد : 656 ، والتبصرة لمكي : 362 والمعنى على القراءتين واحد كما في معاني الزجاج : 5/ 237 ، والكشف لمكي : 2/ 342 .

(8) أخرج عبد الرازق هذا القول في تفسيره : 2/ 323 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 210 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة أيضا ، وهو اختيار الطبري في تفسيره : (29/ 122 ، 123) .

(9) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 238 ، وقال : «وما بعده يدل على هذا ، وهو قوله :

وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً اه - .

وانظر هذا القول عن الزجاج في تفسير الماوردي : 4/ 330 ، وتفسير القرطبي : 19/ 30 .

(42/785)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الجن

عدد 40 - 72

نزلت في مكة بعد الأعراف ، وهي ثمان وعشرون آية ، ومائتان وخمس وثمانون كلمة ، وثمانمائة وسبعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ومثلها في عدد الآي سورة نوح ، وبينا السور المبدوءة بكلمة قل وما يتعلق فيها في سورة الكافرين فراجعها .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى يا سيد الرسل "قُلْ" لقومك وغيرهم من الإنس والجن والملائكة "أُوحِيَ" اليوم "إِلَيَّ" من ربي "أَنَّهُ اسْتَمَعَ" قراءة القرآن بدلالة ذكره بعده وهذا مما حسن حذفه "نَفَرٌ" قال في المجمل النفر والرهط يستعمل إلى الأربعين ، وقد وهم الحريري بقوله إنه يطلق على ما فوق العشرة وغلط غيره القائل بأنه ما بين الثلاثة إلى العشرة ، واعلم أنه لا يختص بالرجال ولا بالناس كما قاله الآخرون لإطلاقه هنا على الجن ، والفرق بينه وبين الرهط بأن الرهط يرجعون لأب واحد والنفر لآباء متفرقين ، وهما اسما جمع لا واحد له من لفظه "مِنَ الْجِنِّ" وهم فصيلة على حدة قال تعالى (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ (مِنْ قَبْلُ) مِنْ نَارِ السَّمُومِ) الآية 28 من سور الحجر في ج 2 ، وقد نسب إبليس عليه اللعنة إلى هذه الفصيلة بدليل قوله تعالى (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الآية 52 من سورة الكهف في ج 2 أيضا .

هذا ، وقد أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يظهر لأصحابه رضوان الله عليهم واقعة الجن هذه معه ويطلعهم عليها ، ليعلموا عموم رسالته ، وأنه كما هو مبعوث إلى

الإنس مبعوث إلى الجن أيضا ، ولتعلم قريش بأسرها هذا وتحدث به غيرها ، وليفطنوا أن الجن مع تمردهم وعتوهم لما سمعوا القرآن

(43/785)

يتلى من قبله عرفوا أنه قول معجز لجميع الخلق وأنه لا يكون إلا من اللّه جل شأنه ، فآمنوا به ، وإعلام لقريش وغيرهم بأن المؤمن من الجن يدعو غيره للايمان لشدة تأثيره في قلبه ، عكس كفرة مكة وغيرهم من المشركين فإنهم يعرضون عن سماعه ويصرفون غيرهم عن الإيمان به ، وينفّرونهم من سماعه لإيذاء حضرة الرسول قصد تكذيبه ، وهو الصادق المصدوق الأمين المؤتمن .

وخلاصة ما جاء في هذه القصة هو ما رواه محمد بن اسحق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الطائف ، جلس لأشرافهم ودعاهم إلى اللّه والإيمان به بالقول والفعل ، وأعلمهم بأنه رسوله إليهم كما هو لغيرهم ، فلم يرد اللّه بهم خيرا ، وذلك في بدء السنة العاشرة من البعثة ، فأغروا به السفهاء والعبيد وآذوه بالقول والفعل ، ولما أيس منهم صلى اللّه عليه وسلم رجع حتى كان ببطن نخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جنّ نصيبين (سبعة أو تسعة لم يثبت عددهم على

الحقيقة والآية عامة والنفر يطلق على الواحد حتى الأربعين كما مر بك) كانوا قاصدين اليمن حين منعوا من استراق السمع من السماء ورموا بالشهب أكثر من ذي قبل احتراما لمبعث الرسول ومعجزة له وإكراما ، فاستمعوا لقراءته حتي فرغ من صلاته ، فآمنوا به صلى اللّه عليه وسلم إجابة لما سمعوه من القرآن .

وقال قتادة ذكر لنا ابن مسعود حين قدم الكوفة فرأى شيوخا شمطا من الزط فأفزعوه حين رآهم ، قال أظهروا فقيل له إن هؤلاء قوم من الزط .

(44/785)

فقال ما أشبههم بالنفر الذين صرفوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليلة الجن ، وفى رواية أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني ؟ فأطرقوا ، ثم استتبعهم فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثة فتبعه عبد اللّه بن مسعود ، قال ولم يحضر معه أحد غيره ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم شعبا يقال له شعب الحجون وخط لي خطا ثم أمرني أن أجلس فيه ، وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك فانطلق عليهم فافتتح القرآن فجعلت أرى مثل النسور تهوي ،

وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ورأيت غبشة أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى لا أسمع صوته ،

(45/785)

ثم طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ رسول اللّه منهم مع الفجر ، فانطلق إليّ فقال تمت ؟ قلت لا واللّه يا رسول اللّه ، لقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك ، تقول لهم اجلسوا ، فقال لو خرجت (من خطتك) لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ، ثم قال : هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم رأيت رجالا سودا عليهم ثياب بيض ، قال أولئك جنّ نصيبين سألوني المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة ، قالوا يا رسول اللّه يقذرها الناس علينا (فنهى صلى اللّه عليه وسلم أن يستنجى بالعظم والروث) فقلت يا رسول اللّه سمعت لغطا شديدا فقال إن الجن قد تدارأت (أي اختلفت فيما بينها وتدافعت في الخصومة) في قتيل قتل بينهم ، فتحاكموا إليّ فقضيت بينهم بالحق (هذا ينافي قول من قال إنه صلّى اللّه عليه وسلم ما عرف ما ذا قال الجن وأي شيء فعلوا) بل تفيد أنه صلى اللّه عليه وسلم فهم منهم وأفهمهم ، وإلا لما جاز أن يقضي بينهم ، لأن القضاء لا يجوز إلا بعد معرفة قول المدعي والمدعى عليه ، ولا يكون إلا بالإقرار أو البينة أو

الحلف ، وينافي القول أيضا بأنه لم ير الجن ، فإذا كان ابن مسعود وهو محجّر عليه بعيد عنهم وآهم ، فكيف به صلى اللّه عليه وسلم وقد أحاطوا به كالهالة في القمر ؟ أما إذا قيل إنه صلّى اللّه عليه وسلم لم يرهم على صورتهم التي خلقوا عليها فيجوز ، لأنهم يتكيفون بصور مختلفة وهيئات متباينة ، وقد جاء أنه صلّى اللّه عليه وسلم رآهم .

بصفة الإنس كما مر في قول ابن مسعود رضي اللّه عنه ، وكذلك كان يرى الملك بصورة دحية كما مرّ في بحث الوحي في المقدمة ، قال ثم تبرز صلى اللّه عليه وسلم وأتاني فقال هل معك ماء ؟ قلت يا رسول اللّه معي أداوة (إناء فيه ماء كالجود للمسافر) فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاني فصببت على يده فتوضأ وقال ثمرة طيبة وماء طهور .

(46/785)

هذا ، وقد ضعف هذا الحديث جماعة كما ذكره البيهقي في كتابه (الخلافيات) بأسانيد وأجاب عنها كلها ، والذي صح عن علقمة قال : قلت لابن مسعود وهل صحب النبي صلى اللّه عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ قال ما صحبه منا أحد (فمن هنا ظهر ضعف حديث التوضؤ بنبيذ التمر إذ يقول فيه إن ابن مسعود

صحب النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقط بعد أن قال ما قال ، وهنا يقول هو نفسه ما

صحبه منا

أحد اللهم الا أن يريد ما صحبه غيره ، تدبر .

على أن ابن تيمية قال إن ابن عباس علم ما دل عليه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وابو هريرة من إتيان الجن له صلّى اللّه عليه وسلم ومكالمتهم إياه ، وواقعة الجن هذه كانت قبل الهجرة بأكثر من ثلاث سنين قال الواقدي إنها وقعت سنة إحدى عشرة من النبوة ، والصحيح ما ذكره البرزنجي أنها في العاشرة ، لأنها قبل الإسراء ، والإسراء وقع في العاشرة ، فلا يصح أن تكون حادثة الجن بعده لأنها قبله على الصحيح .

وقالوا إن قصة الجن وقعت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ست مرات) رجوع إلى قول ابن مسعود : وقال ولكنا كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذات ليلة فقصدناه فالتمسناه في الأودية والشعبات فقلنا استطير أو اغتيل ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا يا رسول اللّه فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا شر ليلة يأت بها قوم ، قال أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار منازلهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم اللّه عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون عليه لحما وكل بعرة علفا لدوابكم .

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فلا تستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم الجن .

زاد في رواية : قال الشعبي وكانوا من جن الجزيرة – أخرجه مسلم في صحيحه . –

مطلب رواية الجن ورمي النجوم :

(47/785)

هذا وإن في الحديث الأول إثبات رؤية الجن له صلى اللّه عليه وسلم وفي هذا الحديث أيضا ، إلا أن ابن عباس أنكرها فيما رواه عنه البخاري ومسلم قال ابن عباس ما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، ولكن انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا ما لكم ، قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ! قالوا وما ذاك إلا من شيء قد حدث ، فأضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن

(48/785)

استمعوا اليه وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم (فَقَالُوا يا قومنا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً) فأنزل اللّه على نبيه (قُلْ أُوحِيَ) إلخ ، زاد في رواية : وإنما أوحي اليه قول الجن – أخرجاه في الصحيحين – قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس : هذا معناه لم يقصدهم بالقراءة بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، أي استراق السمع صادف هؤلاء النفر رسول اللّه يصلي بأصحابه ، وعلى هذا فهو صلّى اللّه عليه وسلم لم يعلم باستماعهم ولم يكلمهم وإنما أعلمه اللّه عز وجل بما أوحى اليه من قوله قل أوحي إلخ ، وإنما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجنّ آخرون ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 29 من سورة الأحقاف في ج 2 والحاصل من الكتاب والسنة أن الجن موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على ما يليق بحقهم وحالهم ، وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم كما هو رسول إلى الإنس رسول إلى الجن ، فمن آمن به فهو مع المؤمنين في الدنيا والآخرة والجنة ، ومن كفر به فهو مع الشياطين والكافرين المبعدين المعذبين في جهنم ، وانه صلّى اللّه عليه وسلم وآهم رؤية بصرية لا بصورتهم الحقيقية كما في هذه الأحاديث وفيما أوردناه في تفسير الآية (200) من الأعراف المارة – في الجزء الاول – وفي لآية 25 من سورة ص المارة أيضا .

ويفهم من هذا الحديث أن الرجم بالنجوم لم يكن قبل مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم على أن الزهري روى عن علي بن الحسن رضي اللّه عنهما عن ابن عباس قال بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، وروى عن معمر قال قلت المزهري أكان الرمي بالنجوم في الجاهلية ؟ قال نعم قلت رأيت قوله تعالى (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ) الآية الآتية ، قال غلّفت وشدد أمرها حين بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلم .

وقال ابن ابن قتيبة مثله ، وبهذا ارتفع التعارض بين الحديثين ويظهر من هذا كله أن الجن موجودون وأن النبي رآهم وأنهم مكلفون مثل البشر ، وأن محمدا صلى اللّه عليه وسلم مرسل إليهم وأن رميهم بالشهب كان قبلا وزاد بمبعثه ، وان الاعتقاد بذلك كله واجب وأن العرب كانت تعرف الرمي قبل الإسلام لوجود ذكره في أشعارهم في الجاهلية قال بشر ابن أبي حازم :

والعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفها انقضاض الكوكب

وقال اويس بن حجر :

وانقض كالدري يتبعه نقع يثور تخاله طينا

وقال عوف بن الجزع يصف فرسا :

يرد علينا العير من دون الفه أو الثور كالدري يتبعه الدم

(50/785)

فهؤلاء جاهليون لا مخضرم فيهم فلو لم تكن قبلا لما نطق بها هؤلاء أما ماهية الجنّ فمختلف فيها ، فمنهم من قال إن الجن جسم هوائي يتشكل بأشكال مختلفة ، ومنهم من قال انها جواهر ليست بأجسام ولا أعراض وتختلف ماهيتها بعضها عن بعض ، فمنها خيّرة كريمة محبة للخيرات ، ومنها خسيسة دنيئة شريرة ولعة بالقبائح والآفات ، ومنهم من قال إنهم حاصلون في الحيّز موصوفون بالطول والعرض والعمق ، فمنهم اللطيف ومنهم ، الكثيف ، والعلوي والسفلي ، ولا يمنع من هذا أن يكون لهم علم مخصوص وقدرة مخصوصة على الأفعال العجيبة التي يعجز عنها البشر كما أشار اليه في سورة ص الآية 27 المارة ، وما سيأتي في الآيتين 16/ 39 من سورة النمل ، والآيتين 11/ 12 من سورة سبأ والآية 82 من الأنبياء في ج 2 ، وغيرها مما نورده في محله إن شاء اللّه ، وذلك بإقدار اللّه إياهم ، فمن أنكر شيئا مما تقوم فهو على غير طريقة أهل السنة والجماعة ، وإنّ ما أجمعوا عليه في هذا الشأن مستند للكتاب والسنة كما علمت ، وان ما تمسّك به المنكرون من أنه لا بدّ من

صلابة البنية حتى تكون النفس المتلبسة بها قادرة على الأفعال الشاقة وأن البنية شرط للحياة ولا حياة بلا بنية ، كلها أقوال واهية استدرجوا بها لإنكار وجود الجنّ ولم يعلموا أن انكارهم إنكار للقرآن إن كانوا مسلمين وللتوراة والإنجيل ان كانوا يهودا أو نصارى ، وهو كفر بحت والعياذ بالله ، لأن القادر على خلقهم قادر أن يضع فيهم صلابة بالبنية وحياة فيها ، وقدرة على الأفعال

(51/785)

الشاقة وغيرها ، على أن هناك جمعا عظيما من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات اعترفوا بوجودهم وسموهم بالأرواح السفلية ، وزعموا أنها جواهر قائمة بأنفسها ليست أجساما ولا جسمانية ، هذا وقد اختلف العلماء فيما سمعوه من القرآن أيضا قيل (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) وقيل غيرها ، إلا أن ما قيل إنه سورة الرحمن لا يصحّ لأنها نزلت بالمدينة وقضية الجنّ في مكة بلا خلاف ، وما رواه جابر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال لقد قرأتها ليلة الجن على الجن فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) قالوا لا بشيء من نعمك ربّنا نكذّب

، فلك الحمد ، أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ، وفي رواية كانوا أحسن منكم ردا فإنه أي هذا الحديث على فرض صحته عبارة عن حكاية ذكرها لأصحابه حضرة الرسول لا يعلم تاريخها فلا يصح الاستدلال بها لاحتمال وقوعها في المدينة وهو الأقرب للمعقول ، لأن الرسول اجتمع كثيرا مع الجن وقد ذكرنا آنفا انه اجتمع معهم ست مرات ، وأنت خبير بأن الدليل إذا طرقه الاحتمال أبطل الاستدلال به ، تأمل هذا : واعلم أن القرآن ذكر حادثتين في استماع الجن في هذه السورة وفي الآية 39 فما بعدها من سورة الأحقاف في ج 2 ، وأن اللّه قصّها علينا بواسطة رسوله على طريق الحكاية ، ولا يبعد أن حضرة الرسول قرأ عليهم غيرها في مكة أو المدينة بعد أن ذكروا أن الاجتماع بهم كان ست مرات ، قال تعالى حاكيا ما قاله الجن عند سماعهم قراءة رسوله "فَقَالُوا" بعضهم لبعض "إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً" 1 ما سمعنا مثله ، بديعا في حسن نظمه ، بالغا في صحة معانيه ، لطيفا في تركيب مبانيه ، مباينا لكلام البشر ، وجدير أن يتعجب منه لأنه "يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ" الحق والصواب والعدل والسداد ، يقرأ

بسكون الشين وضمها وبفتح الراء والشين وضمها "فَآمَنَّا بِهِ" لما سمعناه إذ تحقق لدينا أنه كلام اللّه ، وأن البشر يعجز عن مثله ، وإنا رجعنا عن الإشراك بمنزل هذا القرآن "وَلَنْ نُشْرِكَ" من الآن فصاعدا "بِرَبِّنا أَحَداً" 2

ولا شيئا من كافة الأوثان ، وتدل هذه الآية على أن هؤلاء الجن كانوا مشركين ، لذلك تبرأوا من الشرك ونزهوا ربهم عما يقوله الظالمون من اتخاذ الصاحبة والولد بقولهم "وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً" 3 كما يزعمه المشركون ، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس والمعونة ، واللّه منزه عن ذلك كله .

قال أنس : كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جدّ فينا أي عظم .

ويطلق الجد على الغني ، منه قوله صلى اللّه عليه وسلم

:

ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد "وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا" إبليس عليه اللعنة لتعريفه بالإضافة إليهم ، وقيل إن الضمير في سفيهنا يعود إلى المردة منهم ، فتكون الإضافة للجنس ، وهو بعيد لأن الظاهر يأباه "عَلَى اللَّهِ شَطَطاً" 4 كذبا تجاوزا عليه عدوانا وكفرا إذ تبين لنا كذب قوله من إسناد الشريك والصاحبة والولد إليه تعالى عن ذلك "وَأَنَّا ظَنَنَّا" قبل أن نسمع هذا القرآن من الرسول محمد "أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً" 5 لأنهم يقولون لنا ذلك ويؤكدون أقوالهم بالإيمان بأن للّه ولدا وصاحبة وشريكا ، وكنا نصدق لأنا

لا نعرف أن أحدا يحلف باللّه كاذبا ، وقد ظهر لنا الآن أنه منزه عن ذلك كله ، وأنهم كانوا يكذبون علينا وعلى خالقهم جل شأنه "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ" وذلك أن الجاهلية كانوا اعتادوا إذا أمسى أحدهم في أرض قفر يقولون إنا نعوذ بسيّد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيقول عظماء الجن سدنا الإنس أيضا .

(53/785)

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي السائد الأنصاري قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذاك أول ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال يا عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله ، فإذا الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة ، فأنزل اللّه على رسوله بمكة هذه الآية "فَزَادُوهُمْ رَهَقاً" 6 الرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم .

قال الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها لا يشتفي رامق ما لم يصب رهقا

والمعنى أن الإنس زادوا الجن طغيانا وسفها وكبرياء بسبب استعاذتهم بهم "وَأَنَّهُمْ" كفرة

الجن وسفهاؤهم "ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ" يا معشر الكفار من الإنس ، هذا على عود الضمير في أنهم وفي ظنوا للجن ، وضمير ظننتم للإنس ، وهو أولى من عود الأولين للإنس والثالث للجن مراعاة للسياق ، أي أن كفار الجن كالإنس كانوا تيقنوا قبل سماعهم القرآن "أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً" 7 بعد موته ، أي أنهم كانوا ينكرون بالبعث أيضا مثل الكفرة من الإنس وأنهم اهتدوا ورجعوا عما كانوا عليه حال سماعهم القرآن ، فما بالكم يا كفار قريش لم تؤمنوا وقد سمعتم كثيرا من كلام اللّه ، أما آن لكم أن تكونوا مثلهم فتؤمنوا بالبعث بعد الموت وتتركوا الإشراك باللّه وتفردوا ربكم الإله الواحد بالربوبية وبكل ما تأملونه من خير الدنيا والآخرة ؟ ألم تساووا الجن بالإيمان بالرسول وما جاء به من عند اللّه ؟

(54/785)

قال تعالى حكاية عنهم أيضا "وَأَنَّا لَمَسْنَا" وجسسنا "السَّمَاءَ" طلبا لبلوغها واستماع كلام من فيها كما كانت العادة قبلا "فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً" من الملائكة أكثر من ذي قبل بأضعاف كثيرة جدا "وَشُهُباً" 8 تنقض من نجومها المضيئة علينا بكثرة أيضا خلافا لما كانت عليه قبلا "وَأَنَّا كُنَّا" قبل مبعث النبي محمد "نَقْعُدُ مِنْهَا" أي السماء "مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ" فنسترق ما يقع فيها من بعض القول حيث كنا نجد أمكنه في السماء خالية من الحرص

وبعض المواقع منها عارية من الشهب ، أما الآن فكلها ملأى من الحرس والشهب بكثرة لم تعهدها قبل ، لذلك ماعدنا نقعد فيها خوفا أن نحترق "فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ" بعد مبعث حضرة الرسول وإلى ما شاء اللّه "يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً" 9 يرمى به حالا فكان الشهب تترصد من يطلب الاستماع في السماء فترميه حالا وتحرقه .

قال ابن عباس كانت الجن تصعد إلى السماء لتستمع الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا عليها تسعا فيحدثون ويبلغونها إلى الكهنة ، فلما بعث صلى اللّه عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولهذا كانت الناس تتهافت على الكهنة تهافت الفراش على النار فيعظمونهم ويحترمونهم ويسألونهم عن مصالحهم الحاضرة والمستقبلة ، لأنهم قد يصدقون لأن ما يلقيه الجن

(55/785)

إليهم من الكلام إذا صادف الحادثة تناقلها الناس بأن الكاهن أخبر بالغيب ، فيعكفون عليه ويأخذ الشهرة بسببها ، فإذا زاد عليها تسع كذبات يسمع منه ويصدق به أيضا من أجل صدقه في تلك ، فيكونون قد ضلوا وأضلوا (وقد ذكرنا آنفا أن رمي النجوم بالشهب قديما وإنما زاد بمبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم) فقال لهم إبليس ما هذا من أمر قد

حدث في الأرض ، فبعث جنوده يتحرون الخبر ، فوجدوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قائما يصلي بين جبلين (أراه قال بمكة) فأخبروه فقال هذا الحدث في الأرض ، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وتقدم ما بمعناه بأوضح منه "وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ" حتى حرست السماء ورميت بالشهب ومنعنا من استراق السمع وحرمنا من أخبارها التي تلقيها الكهنة ليفيضوها على العامة "أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا" 10 من خير ورحمة وهدى

(56/785)

"وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ" في معاملتهم بعضهم مع بعض وسائر الخلق لا يريدون إلا الخير "وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ" يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا مع أنفسهم وغيرهم لانا "كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا" 11 جماعات متفرقين وأصنافا متقطعين مسلمين كاملين ومسلمين فاسقين وآخرين كافرين مثل الإنس الآن ، إذ منهم المؤمن والكافر والفاسق وبين ذلك ، كالنصيرية والدروز والإسماعيلية والعلوية والرافضة والقدرية والمرجئة والكرامية والدهرية وغيرهم ، فرقا متباينة بالأخلاق والعادات والتدين "وَأَنَّا ظَنَنَّا" تحققنا وأيقنا ، وهكذا كلّ ظن في القرآن يكون معناه اليقين "أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ" إذا فررنا في أقطارها فإنا نكون في قبضة

متى أراد "وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً" 12 إلى آفاق السماء ولانا تحققنا أنه قادر علينا أينما كنا لانفلت من قبضته ولا مقر لنا منه أبدا كيف وهو جل جلاله يقول (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) الآية 66 من سورة الزمر في ج 2 هذا "وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى" من حضرة الرسول "آمَنَّا بِهِ" أي القرآن الذي قرأه علينا المعبر عنه بالهدى جزمنا بأنه من اللّه وآمنا به وبمن أنزله عليه المرسل لهداية الخلق إنسهم وجنهم

(57/785)

"فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ" بعد أن رأى أن الإيمان به واجب حق ايمانا كاملا "فَلا يَخافُ بَخْساً" نقصا في عمله وفي ثوابه "وَلا رَهَقاً" 13 يغشاه من إثم ومذلة أو مكروه مطلقا ، أنظروا أيها الناس جنّا آمنت بمحمد صلى اللّه عليه وسلم لأول وهلة رأته وسمعت منه دون حاجة أتردد ، فكر ، وإنسا تتلى عليهم آيات اللّه منه ليل نهار ، وهو معروف عندهم في صدقه وأمانته ونسبه ولم يؤمنوا ، صدق اللّه (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً) الآية 17 من سورة الكهف في ج 2 "وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ" الجائرون من أسماء الأضداد ، إذ يأتي بمعنى العادلين المستقيمين على الحق والعادلين عنه والعادل من الأضداد أيضا لأنه بمعنى المائلين عنه ، والمائلون من الأضداد أيضا لأنه يقال مال إلى

الحق ومال عنه ، واعلم بأن قسط بمعنى جار فحسب ، وأقسط بمعنى جار وعدل ، ولا يقال اعدل في الحكم بل عدل به ، ويحتمل المعنيين "فَمَنْ أَسْلَمَ" نفسه إلى ربه وآمن بما جاء به رسوله وسلم الناس من لسانه ويده "فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا" 14 طلبوا لأنفسهم الهدى والصواب ، لأن من يجتهد طلبا للحق يو .

مطلب فتح أن وكسرها في هذه السورة :

هذا ، وقد اختلف القراء في فتح أن وكسرها من أول السورة إلى هنا عدا التي بعد القول إذ لا قول فيها ، فقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بفتح الهمزة ، ووافقهم أبو جعفر في ثلاث منها وهي : 1 - وأنه تعالى ، 2 - وأنه كان يقول ، 3 - وأنه كان رجال . واتفقوا على الفتح في أنه استمع ، وأن المساجد للّه ، لأن ذلك لا يصح أن يكون من قول الجن بل هو مما أوحي للنبيّ خاصة ، وقالوا يصح بالبواقي الفتح والكسر ، فوجه الكسر بالعطف على إنا التي هي بعد قالوا من عطف الجمل ، ووجه الفتح على المفعولية .

ومن المعلوم أن

ان تفتح في عشرة مواضع وتكسر في عشرة أيضا ، فراجعها في كتب النحو وأوضحها مغني اللبيب .

واعلم أنه لا دليل في هذه الآية لمن لا يرى ثوابا للجن ، وذلك لأن اللّه تعالى ذكر هنا عقابهم على عدم الإيمان وسكت عن ثوابهم إذا آمنوا ، لأن اللّه تعالى قال : (فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) وهذا كاف لثبوت الثواب لذكر سببه وهو تحري الرشد ، وإذا وجد السبب يوجد المسبب واللّه أكرم من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد ، بل من مقتضى عدله إثابته ، لأن الرشد لا يأتي إلا بخير والخير ثوابه الجنة .

أما قوله فإنهم خلقوا من النار ، والنار لا تكون عذابا لمن خلق منها كالسمندل مثلا فإنه يرى نفسه منعما فيها لأنه يبيض ويفرّخ فيها كالبخ في الثلج والسمك في الماء والطير في الهواء ، سبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كلا لما خلق له وحبّبه فيه ، فبغير محله لأنهم بعد ما آمنوا واستحقوا الجنة ، فقد تغيروا من تلك الهيئة وصاروا خلقا آخر ، فتكون النار عذابا لكافرهم الذي لم يتبدل خلقه ليذوق ألمها ، والجنة ثوابا لمؤمنهم الذي تبدل خلقه ليذوق نعيمها ، على أن اللّه قادر على أن يعذب النار بنار أشد منها إذا فرض بقاؤهم على هيئتهم الأولى ، وبعد أن بين اللّه من أول السورة إلى هنا ثلاث عشرة حقيقة على لسان الجن شرع جل شرعه بيان الحقائق التي يجب أن يحاط بها علما وهي سبع من هذه الآية لآخر السورة ، وقد قسم فيها العباد على ثلاثة : مسلم ومؤمن وقاسط ، تدبر .

قال تعالى "وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ" المستقيمة ملّة الإسلام وأن هنا مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان وضمير استقاموا يعود إلى الإنس والجن معا ، وقرأ الأعمش بضم واو لو ، أي والحال والشان لو استقاموا "لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً" 16 كثيرا فوسعنا عليهم أرزاقهم التي أصلها من الماء قال تعالى :

(59/785)

(وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الآية 30 من سورة الأنبياء في ج 2 ، وقال بعض المفسرين إن هذه الآية خوطب بها أهل مكة على طريق الالتفات بعد أن أتم الخبر عن الجن أي لو استقام أهل مكة على الطريقة السمحة المعروفة طريق الحق والإيمان والهدى والرشد لأكثرنا عليهم الماء الذي هو أصل معاشهم وفي كثرته تكثير الخيرات التي هي أصل سعة الرزق ، والأول أولى نظرا للسّياق والسّباق "لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ" أي الماء المسبب عنه كثرة الرّزق فنختبرهم به أيشكرون أم يبقون على كفرهم .

(60/785)

والذي خصّ هذه الآية بأهل مكة أراد أنها على حد قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الآية 96 من آل عمران المارة وهو وجيه لو لم يكن فيه الالتفات وتغيير نسق العطف دون حاجة فضلا عن استقامة المعنى بالنسبة لما قبل الآية وبعدها واتباع الظاهر أظهر ، قال تعالى "وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ" الذي ذكر به عباده من آيات وعبر ولم يوحده حسبما أمر وعكف على إشراك غيره معه وأصر ومات على ذلك وانقبر "يَسْلُكْهُ" يدخله "عَذَاباً صَعَداً" 17 شاقا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، راجع تفسير الآية 17 من سورة المزمل المارة ، وهنا يتبادر لي أن التفسير من قوله (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) إلى هنا على طريق الالتفات الذي ذكر آنفا أولى ، لأن إعادة الضمير من هناك إلى هنا إلى الجن مطلقا أو إلى القاسطين منهم على رأي البعض أو لمن ثبت منهم ومن الإنس على الكفر على قول الآخر أولى لأن الجن لا ينتفعون بالماء انتفاع الإنس ، ولأن استعمال الاستقامة على الطريقة في الاستقامة على الكفر وجعل النعمة استدراجا من غير قرينة على الاستدراج مخالف لظاهر القرآن ، فضلا عن أن الطريقة جاءت معرفة فانصرافها إلى الطريقة المثلى وهي ملة الإسلام طريقة الهدى والرشد أولى من صرفها إلى طريقة الضلال والكفر على غير ظاهرها من غير دليل ، لهذا لم أره موفقا لمخالفة نسق التنزيل .

(61/785)

وبما أن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) أي أوحي إلي أنه استمع وأوحي إلي (أَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا) ولا يضر تقدم المعطوف على غيره على القول به لظهور الحال وعدم الالتباس لذلك فإن إعادة الضمير إلى الجن فقط بغير محله ، كما أن حصره بالإنس فقط غير موافق ، فيكون الأحسن والأجمع للقولين عوده للجن والإنس معا تبعا لبعض المفسرين العظام ، فيكون إسقاء الماء للإنس بطريق التغليب على الجن والاستقامة للإنس والجن معا ومثله كثير ووجيه اتباعه والأخذ به والله أعلم .

قال تعالى "وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ" عطف أيضا على أنه استمع ، أي وأوحي إليه صلى الله عليه وسلم أن البيوت المبنية للعبادة هي خاصة له تعالى لا علاقة باختصاص أحد فيها غيره ، ولا يختص بها لأجل التعبّد واحد دون آخر ، فيستوي فيها الكبير والصغير والعظيم والحقير والمالك والمملوك والغني والصعلوك ، وهذا لا يمنع تسمية الجامع باسم بانيه لما فيه من هضم حقه وتقليل الرغبة لغيره لأن معنى لله هو ما ذكرناه من تساوي الناس فيه ليس إلا ، ويدخل في هذا المعنى كنائس النصارى وكنيس اليهود والبيع والخلوات العامة ، أما المحلات التي يتخذها غير أهل الكتب السماوية لعبادتهم المزعومة فلا تدخل فيها لأنها لم تنشأ لعبادة الله وإذا علمتم أيها الناس أن هذه المساجد خاصة لله "فَلا تَدْعُوا" فيها ولا خارجها بأن تنادوا أو تعبدوا "مَعَ اللَّهِ أَحَداً" 18 في الدعاء وغيره فتشركون وتدخلون في

معنى الآية 17 المارة ، قال سعيد بن جبير :

المراد بالمساجد أعضاء الإنسان السبعة ، أي الجبهة واليدين والرجلين والركبتين التي يسجد عليها ، لأنها مخلوقة للّه فلا تسجدوا عليها لغيره .

(62/785)

وهذا قول صحيح لكنه لا يصح أن يكون تفسيرا للآية لمخالفة الظاهر دون دليل أو حاجة ، وإنا عهدنا على أنفسنا أن لا نحول في تفسيرنا هذا عن ظاهر القرآن ما وجدنا مخرجا البتة ، وهذه الأعضاء وإن ورد فيها أحاديث صحيحة لكن لا على أنها تفسير لهذه الآية .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : أمرنا النبي صلى اللّه عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعضاء وأن لا نكفّ شعرا (كف الشعر عقصه وغرز طرفه في أعلى الضفيرة) ولا ثوبا (بأن نؤخره عن المسجد إذا وقع عليه) والمراد بالأعضاء السبعة ما ذكرناه آنفا

"وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ" محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وهذا معطوف أيضا على أنه استمع "يَدْعُوهُ" بقراءة القرآن في الموقع الذي مر ذكره قبلا .

هذا ، وما جاء بالخبر من أنه كان يصلي بأصحابه صلاة الصبح عند تفسير الآية 9 المارة يحمل على صلاة كان يصليها تعبدا وهي ركعتان بالغداة وركعتان بالعشيّة فرضت عليه

خاصة ، لأن الصلاة لم تفرض بعد ولأن حادثة الجنّ وقعت قبل الإسراء كما أشرنا آنفا إلا أن يقال إن الإسراء في السنة الخامسة عند نزول سورة والنجم ، أو أن الإسراء نزلت متأخرة عنه ، فتكون من الذي تقدم حكمه على نزوله ، وقوله على فعله وحينئذ يكون المراد بهذه الصلاة ، الصلاة المفروضة ، وكذلك كل صلاة ورد ذكرها بعد سورة والنجم ، ولم أجد ما يؤيد هذا ولم أحظ بجواب من العلماء فيه وهو مما توقفت فيه حيث لم أجد قولا من المفسرين الذين اطلعت على تفاسيرهم في هذا ، فأسأل اللّه أن يوفقنا قبل إتمامه على ما هو الصواب لنضعه فيه ومن اللّه التوفيق "كادُوا" أي الجن والإنس المذكورون في الخبر المار ذكره "يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً" 19 متلبدين يركب بعضهم بعضا من شدة الازدحام على رؤيته واستماع القرآن منه ، كي لا يفوتهم شيء مما قرأه عليهم .

(63/785)

وهذه الآية تدل على أنهم كانوا أكثر من سبعة أو تسعة كما في الخبر ، ويؤيد الكثرة أن معنى النفر ينصرف إلى الأربعين كما نوهنا به أول السورة ، ثم ان كفار مكة لما رأوا حضرة الرسول رجع من الطائف حزينا لما رأى من قسوتهم وما أصابه من أذاهم وردّ دعوته لهم بالإيمان ، قالوا يا محمد لقد جئت بأمر عظيم ، فارجع عنه إلى دين آبائك ونحن نجيرك من أهل

الطائف وغيرهم ونحميك منهم ونكفيك أمر الدنيا ، فأجابهم صلى اللّه عليه وسلم بما أوحى اللّه تعالى إليه "قال إنّما أدعوا ربّي" وحده وأحصر عبادتي وحمايتي وإعانتي وكفايتي بحضرته المقدسة ، وقرىء قُلْ بلفظ الأمر ، وهي قراءة جائزة إذا لا زيادة فيها ولا نقص في المعنى واللفظ غير مد القاف "وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً" 20 من خلقه في العبادة والنصرة والطّلب ، فلم تتعجبون مما جئت به ولا جله ، تطبقون على عداوتي "قُلْ" لهم أيضا "إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا" إذا بقيتم على كفركم "وَلا رَشَداً" 21 إذا آمنتم باللّه وحده ، ومعنى رشدا هنا نفعا لأنها بمقابلة ضرا ، أي لا أقدر على شيء من ذلك كله ، لأنه من خصائص اللّه الذي أرسلني إليكم منذرا لا مسيطرا ولا كفيلا "قُلْ" لهم أيضا "إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ" إذا أنا رجعت إلى دينكم وأرادني بسوء فلن يقدر أحد على دفع عذابه عني ، وهذا كقول صالح لقومه (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) الآية 62 من سورة هود في ج 2 "وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً"

22 نفقا أدخل فيه إلى الأرض ومحترزا اختبىء فيه أو ملجأ ألجأ إليه من عذابه ، وقد يراد به اللحد وفيه قال :

يا لهف نفسي ونفسي غير مجدية عني وما من قضاء اللّه ملتحدا

أي مقبر وهو يريد مدخل اللحد "إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ" استثناه من قوله لن أجد وهو غير جنس المستثنى منه ، أي لن ينقذني إلا تبليغ ما أرسلت به إليكم بلا زيادة ولا نقص "وَرِسالاتِهِ" بأن أعلنها لكم بلا توان ، وهذا على جعل (بلاغا وما بعده) بدلا من ملتحدا ، وعلى كون الاستثناء منقطعا لأن البلاغ من اللّه لا يكون داخلا تحت قوله ملتحدا ، وعلى كون الاستثناء متصلا فيكون استثناء من مفعول (لا أملك) وتكون جملة قل لن يجيرني إلخ اعتراضية مؤكدة لنفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه وكمال تفويضه جميع أموره خالقه ، وعليه يكون المعنى (لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً) وإنما أملك إبلاغ رسالات اللّه إليكم فقط بالبشارة إن أطعتم ، والنذارة إن عصيتم فلا أقدر على ضركم إن أبيتم ولا على نفعكم إن قبلتم ، والأول أولى يؤيده قوله تعالى "وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" فلم يأتمر بأمرهما ولم ينته بنهيهما أي لم يطعهما ولم يصدق بما جاءه عنهما "فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ" خاصة وقد أفرد الضمير هنا رعاية للفظ من "خالِدِينَ فِيها أَبَداً" 23 لا يخرجون منها وجمع الضمير هنا رعاية لمعناها إذ تطلق على الجمع معنى كما تطلق على المفرد لفظا ، وهكذا في كل موضع من هذا القبيل ، ويفهم من هذه الآية أن من يطع اللّه ورسوله ، فإن له الجنة خالدين فيها أبدا "حَتَّى إِذا رَأَوْا" هؤلاء الكفرة "ما يُوعَدُونَ" به من العذاب على لسان رسلنا "فَسَيَعْلَمُونَ" عند حلوله بهم "مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً" 24 هم أم المؤمنون ،

لأن المؤمنين ينصرهم اللّه ، والكافرين لا ناصرهم "قُلْ" ما "إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ" به من العذاب "أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً" 25 أجلا بعيدا لوقت معلوم عنده ونظير هذه الآية الفقرة الأخيرة من الآية 109 من سورة الأنبياء في ج 2 ، أي إنكم معذبون لا محالة ، ولكن لا

يعلم وقت نزول العذاب بكم إلا هو "عالِمُ الْغَيْبِ"
وحده بالرفع وقرى بالنصب على المدح والاختصاص "فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً" 26 من خلقه "إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ" فإنه يطلعه على بعض غيبه معجزة له وبرهانا على صدقه ، والتنوين فيه للتعظيم "فَإِنَّهُ" جل شأنه "يَسْلُكُ" يدخل "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ" أي ذلك الرسول المرتضى "رَصَداً" 27 حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين حينما يريد اطلاعه على غيبه ، ويحفظون ذلك الغيب من أن يتخطّفه الجن والمردة فيصونه من أن يخلطوا به ما ليس منه ، كما يفعلونه مع الكهنة عند استراقهم السمع ، فإنهم إذا تلقفوا الكلمة خلطوا معها تسعة أمثالها كذبا فيخبرونهم بها من حيث لا يعلم الصدق من الكذب "لِيَعْلَمَ" ذلك الرسول المراد به هنا وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم واللّه أعلم ، لأنه هو

المخاطب في هذه السورة والمعهود فيها ، وقرىء بكسر اللام وضم الياء ، أي ليعلم غيره بذلك الغيب وقرىء بالمجهول ، أي ليكون ذلك الغيب معلوما "أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا" أي الملائكة المخصصون بتبليغ الوحي رسل اللّه في أرضه والمراد بعضهم وهو جبريل عليه السلام لأنه المخصوص بذلك ، أي أخبروا رسل اللّه "رِسالاتِ رَبِّهِمْ" كما تلقوها حرفيا مصونة من اختطاف الجن والشياطين وعارية عن خلطهم بها ما ليس منها .

(66/785)

ويجوز عود الضمير إلى اللّه وعليه يكون المعنى ليعلم اللّه جل شأنه أن الرسل قد أبلغوا رسالاته خلقه مثلما أخذوها منه ، وهو عالم بذلك قبل ذلك ، وعلى عوده إلى محمد بمعنى آخر ، وهو ليعلم محمد أن الرسل قبله أبلغوا رسالات ربهم كاملة كما هي ، وأن اللّه حفظهم ودفع عنهم شر أعدائهم وأهلكهم نصرة لهم وخذلانا لأمثالهم الخارجين على الأنبياء صلوات اللّه عليهم ، وخير الأقوال الثلاثة آخرها ، وهناك قولان آخران أحدهما أشدّ ضعفا من الآخر وهو عود الضمير إلى من كذب وأشرك ، أي ليعلم هؤلاء أن الرسل أبلغوا ، والثاني عوده لإبليس ، أي ليعلم أن الرسل قد أبلغوا إلخ ، وهما ليس شيء واللّه أعلم "وَأَحاطَ" اللّه جل جلاله "بِما لَدَيْهِمْ" أي الرسل وعلمه محيط بهم وبجميع خلقه وأحوالهم

من جميع جهاتهم قبل خلقهم وإرسالهم ، ولم يزل عليما بهم فلا يخفى عليه شيء من أطوارهم ، يعلم وجود الشيء كما كان يعلمه قبل وجوده ، وأعاد بعض المفسرين ضمير لديهم إلى الرصد وليس بشيء "وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً" 28 من

جميع ما خلقه وعلم كيفيته وكميته أيضا من حيوان وجماد وقطر وورق شجر وزبد بحر وذر وغيره ، واللّه تعالى يعلم ما وراء ذلك مما لا يعلم البشر ، ولم يسمع به ، ولم يخطر بباله .

مطلب في كرامات الأولياء وعمر رضي اللّه عنه :

قال بعض المفسرين : إن هذه الآية مبطلة لكرامة الأولياء لأنهم مهما علت رتبتهم وسمت معارفهم فلن يبلغوا درجة الرسل ، وإن اللّه خص بغيبه بعض المرسلين المرضيين عنده بالاطلاع على بعض غيبه ، ومبطل للكهانة والتنجيم والتنويم وغيرها من باب أولى ، لأن أصحابها أبعد شيء عن الارتضاء وأقرب شيء للسخط ، حتى قال الواحدي إن في هذه الآية دليلا على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غيرهما فقد كفر بالقرآن .

(67/785)

هذا ما قاله هذان وغيرهم تبعا هم كثيرون ، أما الذي أجمعت عليه أهل السنة والجماعة فهو إثبات وقوع الكرامة للأولياء ودليل لوجودها ويجب هذا عقيدة أيضا ، قال صاحب مبدأ الأمالي :

كرامات الولي بدار دنيا لها كون فهم أهل النوال

وهو من الماتريديّة .

وقال صاحب الجوهرة في الأشعرية مثله ، وجميع المسلمين تابعون لهما في العقيدة ، إذ قالوا إن ما جاز وقوعه معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة للولي ، إذ لا مانع من أن يلهمهم اللّه وقوع بعض الحوادث المستقبلة فيخبرون بها من إطلاع اللّه إياهم لا من أنفسهم ، يدل على هذا ما روي عن أبي هريرة أنه قال : قال صلى اللّه عليه وسلم : لقد كان فيمن مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون (ملهمون) من غير أن يكونوا أنبياء ، وإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب – أخرجه البخاري – وإنما خصه صلى اللّه عليه وسلم لنطقه بأشياء نزل بها القرآن وهي معلومة ، وسنأتي عليها في محلها إن شاء اللّه في سورة النور ج 3 وغيرها ، وروى مسلم عن عائشة مثل هذا الحديث ، ومن كراماته رضي اللّه عنه إسماع صوته زمن خلافته من المدينة إلى القادسية حينما قال (يا سارية الجبل) وهي مشهورة أيضا ، وكتابته الكتاب إلى النيل وهو من أكبر الكرامات وغيرها كثير ، وقصة الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام ، وقصة أصحاب الكهف الآتية في الآيات 10 و9 و72 وما بعدها من

سورة الكهف في ج 2 ، وقصة مريم الآتية في الآية 22 فما بعدها من سورتها ، وقصة بلقيس في الآية 80 من سورة النمل الآتية ، وهذا القدر كاف على ثبوتها للأولياء عدا إشارات القرآن الأخرى ورموز حضرة الرسول .

(68/785)

والفرق بين النبي والولي من هذه الحيثية هو أن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقرونة بالتحدي ، وأن الكرامة أمر خارق للعادة مع المعارضة وعدم التحدّي ، لأن الولي إذا ادعى خرق العادة مع التحدي كفر ، وقد يظهر على يده أمر خارق للعادة من غير دعواه ، وفيها دليل على ثبوت نبوة النبي أيضا التابع له ذلك الولي الذي ظهر على يده أمر خارق ، فلو لم تكن نبوته حقا لما ظهر على يد من تابعه أمر خارق للعادة ، فخرج بهذا الكاهن والمنجم والمنوم ، لأن الأول ليس تابعا لرسول لانسداد باب الكهانة بمبعثه صلى اللّه عليه وسلم ، والمنجم يتبع بإخباره ما يظهر له من حركات النجوم وسيرها وطلوعها وغروبها ، والمنوم يتبع بإخباره ما يظهر له من قراءة الأفكار حينا والشعوذة حينا ، وإنما خص الولي لتوغله بعبادة ربه وإخلاصه له وقطع نفسه إليه ، وهؤلاء ليسوا كذلك فحكمهم حكم الكاهن ، فمن ادعى منهم علم الغيب فهو كاذب كافر ، وقد سبق لنا بحث واف في هذا

الباب في سورة والنجم فراجعه تقنع ، وله صلة في تفسير الآيات المشار إليها آنفا وفي الآية 37 من سورة آل عمران في ج 3 .

هذا ، ولا يوجد سورة بالقرآن .

مختومة بما ختمت به هذه السورة ، والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 3 . 21 ﴾

(69/785)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الجن

مكية

فآمنا به كاف وكذا أحدا هذا لمن قرا بالمكسر فان قراه بالفتح بمعنى قل أوحي إلى انه استمع وأنه تعالى لم يقف عليهما وكذا الحكم في بقية الآيات التي بعدها وانا أو وانه أو وانهم مما يكسر ويفتح وعدتها اثنتا عشر ولا ولدا كاف وكذا شططا وكذبا ورهقا وأحدا

وشهبا ورصدا ورشدا وقددا وهربا ورهقا ورشدا حطبا صالح لنفتنهم فيه تام وكذا صعدا مع الله أحدا أو رسالاته تام وكذا فيها أبدا وأقل عددا وأمدا ولا يوقف على من رسول آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(70/785)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الجن

مكية عشرون وثمان آيات إجماعاً وكلمها مائتان وخمس وثمانون كلمة وحروفها سبعمائة وتسعة وخمسون حرفاً يبنى الوقف والوصل في هذه السورة على قراءة أن بالفتح والكسر فمن فتح عطفها على الهاء من قوله آمنا به وهو ضعيف عند أهل البصرة لأنَّ الظاهر لا يعطف على المضمر المجرور ولا يتم الوقف لمن فتح إن ومن أضمر معها فعلا ساغ الابتداء بها سواء كانت مفتوحة أو مكسورة قال الهمداني وقد يجوز أن يكون معطوفاً على موضع الباء والهاء وذلك أن فآمنا به في تقدير فصدقناه أو صدقنا أنه وإن شئت عطفته على أوحى إلى أنَّه ومن كسرها عطفها على قوله فقالوا إنَّا سمعنا فالمضمر مع المفتوحة آمنا به وأوحى إليَّ ومع المكسورة فعل القول وعدتها اثنتا عشرة وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع

ما في هذه السورة بالكسر إلاَّ أربعة مواضع وهي أنَّه استمع وأن لو استقاموا على الطريقة وأنَّ المساجد لله وأنَّه لما قام عبد الله يدعوه رداً إلى أوحى وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم مثل قراءة ابن كثير وأبي عمرو إلاَّ موضعاً واحداً وهو وأنَّه لما قام عبد الله يدعوه فإنَّهما كسرا هذا الحرف وفتحا الثلاثة

فآمنا به (كاف) ومثله بربنا أحداً لمن قرأ وإنَّه بالكسر وليس بوقف فيهما لمن قرأه بالفتح بمعنى قل أوحي إليَّ أنَّه استمع وأنَّه تعالى جدُّ ربنا إلى آخرها وملخصه ما كان بمعنى القول كسر وما كان بمعنى الوحي فتح والمراد بقوله جدَّ ربنا عظمته وجلاله ومنه جدَّ الرجل عظم وفي الحديث كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا أي عظم قدره في أعيننا والمراد قدرة ربنا أو فعله أو نعمائه أو ملكه

ولا ولداً (كاف) وشططاً وكذباً ورهقاً وأحداً وشهباً ورصداً ورشداً وقدداً وهرباً ورهقاً ورشداً كلها وقوف كافية

وحطباً (جائز)

غدقاً ليس بوقف لتعلق اللام

(71/785)

لنفتنهم فيه (تام) للابتداء بالشرط ومثله صعداً على قراءة من قرأ وإنَّه بكسر الهمزة وليس بوقف لمن فتحها عطفاً على ما قبلها أي فلا تدعوا مع الله أحداً لأنَّ المساجد لله

أحداً (كاف) لمن قرأ وإنَّه بالكسر وليس بوقف لمن عطفه على وأنَّ المساجد

لبداً (حسن)

أدعو ربي ليس بوقف لاتساق ما بعده

أحداً (كاف) ومثله رشداً

من الله أحداً ليس بوقف لاتساق ما بعده

ملتحداً ليس بوقف للاستثناء

ورسالاته (تام) للابتداء بالشرط ومثله أبداً إن علقت حتى بمحذوف أو جعلت حرف ابتداء يصلح أن يجيء بعدها المبتدأ والخبر ومع ذلك فيها معنى الغاية فهي متعلقة بقوله لبداً أي يكونون متظاهرين حتى إذا رأوا العذاب فسيعلمون عند حلوله من أضعف ناصراً وأقل عدداً

وعدداً (كاف) ومثله أمداً إن رفع عالم الغيب خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم وليس بوقف إن جعل نعتاً لربي أو بدلاً منه ولا يوقف على من رسول للاستثناء ومنهم من جعل إلا بمعنى الواو وأن التقدير فلا يظهر على غيبه أحداً ومن ارتضى من رسول فإنَّه يسلك قاله الهمداني وهو يفيد نفي إطلاع الرسل على غيبه لأنَّ غيبه مفرد مضاف فيعم كل فردٍ فرد

من المخلوقات إذا الغيوب كلها لم يطلع عليها أحدٌ من خلقه وهو مخالف للآية ومفاد الآية على أنَّه متصل فلا يظهر على غيبه المخصوص أحداً إلاَّ من ارتضى من رسول وقد ارتضى نبينا صلى الله عليه وسلم وأطلعه على بعض من غيبه لأنَّ من الدليل على صدق الرسالة إخبار الرسل بالغيب وأما البقية من الرسل والأنبياء والأولياء فلا يظهرهم على ذلك المخصوص بل على غيره

ومن خلفه رصداً ليس بوقف لتعلق اللام

رسالات ربهم (جائز) ومثله بما لديهم

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(72/785)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الجن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "أُحِيَ1" – من وحيت ، في وزن فعل – جؤية بن عائذ .

قال أبو الفتح : يقال : أوحيت إليه ، ووحيت إليه . قال العجاج :

وحى لها القرار فاستقرت2

وأصله : "وحى" ، فلما انضمت الواو ضما لازما همزت ، على قوله "تعالى" : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَت3 ﴾ . وقالوا في وجوه : أجوه ، وفي ورقة4 أرقة ، وقالوا : أجنة ، يريدون : الوجنة5 .

قال أبو حاتم : ولم يستعملوها على الأصل : وجنة . وتقول على هذا : أحى إليه ، فهو موحي إليه ، فتردد الواو لزوال الضمة عنها . ومثله : أعد فهو موعود ، وأرث المال فهو موروث . ولا يجوز مأعود ، ولا مأروث ؛ لزوال الضمة عن الواو . فأما قوله :

ومن حديث يزيدني مقة ما لحديث المأموق من ثمن6

---

1 من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ . . . ﴾ في سورة الجن : 1

2 قبله :

بإذنه الأرض وما تعتت

وروى "فما" مكان "وما" وتعتت : امتنعت ، وعصت . وانظر الديوان : 5 ، واللسان "عتا ، ووحى" .

3 سورة المرسلات : 11 .

4 الورقة : بياض إلى سواد .

5 الوجنة – مثلثة – : ما ارتفع من الخدين .

6 لمالك بن أسماء من ستة أبيات كان ينشدها الحجاج بن يوسف ، وقبله :

أذكر من جارتي ومجلسها طرائفا من حديثها الحسن

والمقة : المحبة ، والفعل ومق ، كورث . وانظر ذيل الأمالي : 92 ، والخصائص : 1 : 13

وفي ك : "ثمر" مكان "ثمن" ، وهو تحريف .

(73/785)

فليس على الهمز ، لكنه أراد المومق ، إلا أنه أبدل الواو ألفا ، لانفتاح ما قبلها وإن كانت ساكنة ، كما قالوا في يوجل : ياجل ، وفي يوحل ياحل ، وفي يوتعد – في اللغة الحجازية – : ياتعد ، وفي يوتزن : ياتزن . فهذا 1 على قلب الواو ألفا لانفتاح ما قبلها ، ليس على طريق الهمز .

وينبغي أن يحمل على هذا أيضا قوله عليه السلام : ارجعن مأزورات غير مأجورات يريد : موزورات ، ثم تقلب الواو ؛ لما ذكرنا – ألفا . وعلى أنه قد يمكن أن يكون قلب الواو همزة هنا إتباعا لمأجورات .

ومن ذلك قراءة عكرمة : "جَدًّا رَبُّنَا 2" .

وروى عنه : "جَدًّا رَبُّنَا" ، وغلط3 الذي رواه .

قال أبو الفتح : أما انتصاب "جَدًّا" فعلى التمييز ، أي : تعالى ربنا جدا ، ثم قدم المميز ، على قولك : حسن وجها زيد .

فأما "جد ربنا" فإنه على إنكار ابن مجاهد صحيح ؛ وذلك أنه أراد : وأنه تعالى جد جد ربنا على البدل ، ثم حذف الثاني ، وأقام المضاف إليه مقامه . وهذا على قوله "سبحانه" : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ4 ﴾ ، أي : زينة الكواكب ، فـ"الكوكب" إذا بدل من "زينة" .

فإن قلت : فإن الكواكب قد تسمى زينة ، والرب "تعالى" لا يسمى جدا .

قيل : الكواكب في الحقيقة ليست زينة ، لكنها ذات الزينة, ألا ترى إلى القراءة بالإضافة وهي قوله : ﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ5 ﴾ ؟ وأنت أيضا تقول : تعالى ربنا ، كما تقول :

---

1 في ك : فقد أعلى ، وهو تحريف .

2 سورة الجن : 3 .

3 يريد أن ابن مجاهد غلط الذي روى هذا الحرف ، كما يفهم من كلامه الآتي قريبا .

4 سورة الصافات : 6 .

5 قرأ أبو بكر "بزينة" منونا ، ونصب "الكواكب" ، وقرأ حفص وحمزة بتنوين "زينة" وجر

"الكواكب" ووافقهما الحسن والأعمش ، وقرأ الباقون بحذف التنوين على إضافة "زينة" - "الكواكب" انظر الاتحاف : 226 .

(74/785)

تعالى جد ربنا . فالتعالى مستعمل معهما جميعا ، كما يقال : يسرني زيد قيامه ، وأنت تقول : يسرني زيد ، ويسرني قيامه . وهذا بيان ما أنكره ابن مجاهد .

ومن ذلك قراءة الحسن والجحدري ويعقوب وابن أبي بكرة ، بخلاف : "أَنْ لَنْ تَقُول1" .

قال أبو الفتح : "كذبا" - في هذه القراءة - منصوب على المصدر من غير حذف الموصوف معه ، وذلك أن "تقول" في معنى تكذب ، فجرى تبسمت وميض البرق ، أي : أنه2 منصوب بعفل مضمر ، ودلت عليه تبسمت ، [161و] أي : أومضت . فعلى هذا كأنه قال : أن لن يكذب الإنس والجن على الله كذبا .

ومن رأى أن ينصب "وميض البرق" بنفس تبسمت ؛ لأنه بمعنى أومضت نصب أيضا "كذبا" بنفس "تقول" ؛ لأنه بمعنى كذب .

وأما من قرأ "أَنْ لَنْ تَقُول3" ، بوزن تقوم فإنه وصف مصدر محذوف ، أي : أن لن تقول الإنس والجن على الله قولا كذبا ، فكذب هنا وصف لا مصدر ، كقوله "تعالى" :

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ[4] ﴾ ، أي : كاذب . فإن جعلته هنا مصدرا نصبته نصب المفعول[5] به ، أي : لن تقول كذبا ، كقولك : قلت حقا ، وقلت باطلا ، وقلت شعرا ، وقلت سجعا . ولا يحسن أن تجعله مع "تقول" وصفا ، أي : تقولا كذبا ؛ لأن التقول لا يكون إلا كذبا ، فلا فائدة إذا فيه .

ومن ذلك قراءة الأعمش ويحيى : "وَأَن لَوُ اسْتَقَامُوا[6]" ، بضم الواو .

قال أبو الفتح : هذا على تشبيه هذه الواو بواو الجماعة ، نحو قوله : ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ[7] ﴾ ، كما شبهت تلك أيضا بهذه فقرءوا : "اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ" ، وقد مضى ذلك[8] .

---

1 سورة الجن : 5 .

2 في ك : في أنه .

3 هذه قراءة الجمهور ، كما في البحر : 8 : 348 .

4 سورة يوسف : 18 .

5 قال أبو حيان : "وانتصب "كذبا" في قراءة الجمهور بـ"تقول" ، لأن الكذب نوع من القول ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : قولا كذبا ، أي : مكذوبا فيه" . وهو الصحيح . وانظر البحر : 8 : 348 .

6 سورة الجن : 16 .

7 سورة البقرة : 16 .

8 انظر الصفحة 54 من الجزء الأول .

ومن ذلك قراءة الجحدري والحسن ، بخلاف : "لُبَدًا 1" ، مشددة .

قال أبو الفتح : هذا وصف على فعل : كالجباء 2 ، والزمل 3 ، واللبد : الكثير يركب بعضه بعضا ، حتى يتبلد من كثرته .

ابن مجاهد : وروى عن عاصم الجحدري ؛ : "لُبُدًا" ، بضم اللام والباء .

قال أبو الفتح : هذا من الأوصاف التي جاءت على فعل ، كرجل طلق 4 ، ناقة سرح 5 .

ومن ذلك قراءة ما رواه يحيى عن ابن عامر : "أَدْرِي أَقَرِيب 6" ، وهذا لا يجوز .

قال أبو الفتح : طريق هذا أنه شبه آخر فعل المتكلم بيائه ، كقولك : هذا غلامي وصاحبي ، وأنسخ بذلك أن للمتكلم في "أدري" حصة ، وهي همزة المضارعة ، كما أن له حصة في اللفظ ، وهي ياؤه . وعلى كل حال فهذه شبهة السهو فيه ، لا علة الصحة له ، كما أن ياء مصيبة أشبهت في اللفظ ياء صحيفة ، حتى قالوا : مصائب سهوا ، كما قالوا صحائف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 230 . 233 ﴾

---

1 من قوله تعالى في سورة الجن : "19" : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وفي الأصل : ﴿ مَالًا لُبَدًا ﴾ وهذه في سورة البلد : 6 ، من قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ وقرئت "لبدا" فيها بضم اللام وشد الباء أيضا . وانظر البحر : 8 : 476 .

2 الجبأ : الجبال ، ونوع من السهام .

3 الزمل : الجبن الضعيف .

4 رجل طلق اليدين : سمحهما ، وطلق اللسان : لسانه طلق .

5 ناقة سرح : سريعة سهلة السير .

6 سورة الجن : 25 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الجن

مكية وآيها عشرون وثمان آيات وسبع عند البزي خلافها ثنتان من الله أحد مكي وترك من دونه ملتحدا القراآت نقل ابن كثير قرآنا

واختلف في همز ( ) وأنه تعالى ( ) الآية 3 وما بعده إلى قوله سبحانه ( ) وأنا منا المسلمون (الآية 14 وجملته اثنا عشر فابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف بفتح الهمزة فيهن عطفا على مرفوع أوحى قاله أبو حاتم وعورض بأن أكثرها لا يصح دخوله تحت معمول أوحى وهو ما كان فيه ضمير المتكلم نحو لمسنا وقيل عطفا على الضمير في به من فآمنا به من غير إعاده الجار على مذهب الكوفيين وقواه مكي بكثرة حذف حرف الجر مع أن وجعله القاضي تبعا للزمخشري عطفا على محل به كأنه قال صدقناه وصدقنا أنه تعالى وأنه كان يقول وكذا البواقي وقرأ أبو جعفر بالفتح في ثلاثة منها وهي ( ) وأنه تعالى ( ) وأنه كان يقول ( ) وأنه كان رجال ( ) الآية 3 4 6 جمعا بين اللغتين وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالكسر فيها كلها عطفا على قوله أنا سمعنا فيكون الكل مقولا للقول

واختلف أيضا في ( ) وأنه لما قام عبد الله (الآية 19 فنافع وأبو بكر بكسرها والباقون بفتحها وتوجيهها معلوم من السابق ولا خلاف في فتح أنه استمع وأن المساجد واتفقوا على فتح جيم جد ورفع دالة مضافا إلى ربنا أي عظمته أو سلطانه أو غناه

واختلف في ( ) أن لن تقول ( ) الآية 5 فيعقوب بفتح القاف وتشديد الواو مضارع تقول أي تكذب والأصل تتقول فحذف أحد التاءين وانتصب كذبا حينئذ على المصدر لأن التقول كذب نحو قعدت جلوسا والباقون بضم القاف وسكون الواو مضارع قال وانتصب كذبا

بتقول لأنه نوع من القول وأمال فزادوهم حمزة وهشام من طريق الداجوني وابن ذكوان من طريق الصوري والنقاش عن الأخفش وأبدل همز ملئت ياء مفتوحة الأصبهاني وأبو جعفر

(77/785)

واختلف في (نسلكه) الآية 17 فعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بياء الغيبة وافقهم الأعمش والباقون بنون العظمة

واختلف في ( ) عليه لبدا (الآية 19 فهشام من طريق ابن عبدان عن الحلواني بضم اللام ولم يذكر في التيسير غيره وبه قرأ صاحب التجريد على الفارسي من طريق الحلواني والداجوني معا وهو جمع لبدة بالضم نحو غرفة وغرف والباقون بكسرها جمع لبدة بالكسر أي كاد يركب بعضهم بعضا لكثرتهم للإصغاء والاستماع لما يقوله وهي رواية الفضل عن الحلواني ورواية النقاش عن الجمال عن الحلواني وزيد عن الداجوني والوجهان صحيحان عن هشام كما في النشر وهما في الشاطبية كالطيبة عن ابن محيصن ضم اللام وتشديد الباء مفتوحة وعنه بتخفيفها مضمومة

واختلف في ( ) قل إنما أدعو ( ) الآية 20 فعاصم وحمزة وأبو جعفر بضم القاف وسكون اللام بلفظ الأمر وافقهم الأعمش والباقون قال بلفظ الماضي على الخبر عن عبد الله وهو

محمد وفتح ياء الإضافة من ربي أمدا نافع وابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو

واختلف في ( ) ليعلم أن قد ( ) الآية 28 فرويس بضم الياء مبنيا للمفعول والباقون بفتحها

مبنيا للفاعل أي ليعلم النبي الموحى إليه ومر التنبيه على ضم هاء لديهم لحمزة ويعقوب

وعلى إمالة أحصى

المرسوم في بعض المصاحف ( ) قل إنما ( ) بلا ألف وفي بعضها بألف واتفقوا على حذف

ألف الن في جميع القرآن نحو ﴿ فالن باشروهن) ﴾ إلا ( ) فمن يستمع الآن (هنا

فبالإثبات في بعض المصاحف واتفقوا على قطع ( ) أن لن تقول ( ) ياءات الإضافة واحدة (

) ربي أمدا ( ) الآية 25 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(78/785)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الجن "

" قرآنا " ماء غدقا . يدعوه . عليه . يجيرني . ناصرا . يظهر . ومن خلفه . لديهم . تقدم

كله مرارا .

وأنه تعالى . وأنه كان يقول . وأنا ظننا أن لن نقول . وأنه كان رجال . وأنهم ظنوا وأنا لمسنا

السماء . وأنا كنا نقعد . وأنا لا ندري . وأنا منا الصالحون . وأنا ظننا أن لن نعجز الله .

وأنا لما سمعنا الهدى . وأنا منا المسلمون .

قرأ الشامي وحفص والأخوان وخلف بفتح الهمزة في المواضع المذكورة كلها ، وأبو جعفر بفتحها في ثلاثة منها وهي: وأنه تعالى . وأنه كان يقول . وأنه كان رجال .

وبكسرها في التسعة الباقية ، والباقون بكسرها في جميع المواضع المذكورة ، وجملتها اثنا عشر موضعا كما ذكرنا .

" أن لن تقول " قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مع تشديدها .

" ملئت " قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء ، وكذلك حمزة إن وقف .

" الآن " نقل ورش وابن وردان حركة الهمزة إلى اللام مع حذف الهمزة ، ولورش فيه ثلاثة البدل ولابد من كسر العين لجميع القراء لالتقاء الساكنين وعروض النقل

" يسلكه " قرأ الكوفيون ويعقوب بالياء التحتية والباقون بالنون .

" وأن المساجد " أجمعوا على فتح همزته .

" وأنه لما قام " كسر الهمزة نافع وشعبة وفتحها غيرهما .

" لبدا " قرأ هشام بخلف عنه بضم اللام وغيره بكسرها وهو الوجه الثاني لهشام .

" قل إنما أدعو " قرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر بضم القاف وإسكان اللام على أنه فعل أمر ، والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما على أنه فعل ماض .

" ربي أمدا " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" ليعلم " قرأ رويس بضم الياء وغيره بفتحها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 337 ﴾

(79/785)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الجن

قوله تعالى ﴿ أنه استمع ﴾ و ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ ﴿ وأن المساجد ﴾ و ﴿ وأنه لما قام ﴾ هذه الأربعة تقرأ بالفتح وباقي ما قبلها بالكسر فالفتح بالعطف على قوله ﴿ قل أوحي إلي أنه ﴾ والكسر بالعطف على قوله فقالوا ﴿ إنا سمعنا ﴾ فأما إذا جاءت أن بعد الفاء التي في جواب الشرط كانت بالكسر لا غير

قوله تعالى ﴿ نسلكه ﴾ يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على قوله ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه ﴾ ربه والحجة لمن قرأه بالنون انه أراد به إخبار الله تعالى عن نفسه عز وجل

قوله تعالى ﴿ قل إنما أدعو ربي ﴾ يقرأ بإثبات الألف على وجه الإخبار وبطرحها على الأمر فالحجة لمن أثبت أنه أراد الأمر أولا فلما فعل أخبر بذلك عنه والحجة لمن طرحها أنه أتى بلفظ ما خاطبه الله به من الأمر له

قوله تعالى ﴿ لبدا ﴾ يقرأ بكسر اللام وضمها فالحجة لمن كسر أنه جعله جمع لبدة ولبد كما قالوا قربه وقرب والحجة لمن ضمن انه جعله لبده ولبد كما قالوا غرفة وغرف ومعناهما اجتماع الجن على اكتاف النبي صلى الله عليه وسلم لاستماع القرآن وهو مأخوذ من الشعر المتكاثف بين كتفي الأسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 354 ﴾

(80/785)

وقال ابن زنجلة :

72 - سورة الجن

وأنه تعالى جد ربنا 3

قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر وإنه تعالى جد ربنا بكسر الألفات إلا قوله أنه استمع وأن لو استقاموا 16 وأن المساجد لله 18 فإنهم قرؤوا بالفتح وزاد ابن كثير وأبو عمرو عليهم

وأنه لما قام عبد الله 8و9 وقرأ الباقون جميع ذلك بالفتح إلا ما جاء بعد القول أو بعد فاء جزاء

من كسر فإنه رد على قوله قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا وقال وإنه تعالى جد ربنا ثم أتبع ذلك ما حسن أن يكون من قول الجن ثم يعترض كلام الله وهو قوله وإنه كان رجال وهذا مكسور على الابتداء ويتلوه قوله وإنهم ظنوا نسق على ما قبله ثم تقول الجن وإنا لمسنا السماء وهذا منسوب على ما تقدم من قول الجن ثم تقول الجن أيضا وإنا لا ندري وإنا منا الصالحون إلى قوله وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون ثم ينقطع قول الجن ويقول الله تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة نسقا على قوله قل أوحي إلي أنه وكذلك وأن المساجد وأنه لما قام عبد الله لأنه لا يحسن في قوله وأن المساجد لله وأنه لما قام عبد الله أن يكون من قبلهم فكان معطوفا على قوله قل أوحي إلي أنه استمع وأنه لما قام عبد الله فموضعها رفع لما لم يسم الفاعل

قوله وأن لو استقاموا فيه أمران أحدهما أن تكون الخفيفة من المثقلة فيكون محمولا على الوحي كأنه أوحي أن لو استقاموا أي أنهم لو استقاموا والثاني ذكره الفراء قال إنما فتحوا لأنهم أضمروا يمينا وقطعوها عن النسق فكأنه قال والله إن لو استقاموا فأما من فتح فإنه نسق على الوحي في قوله قل أوحي إلي أنه استمع وأنه تعالى جد ربنا وقال الفراء فأما الذين فتحوا كلها فكأنهم ردوا جميع ما فتحوا على قوله فآمنا به وآمنا بكل ذلك ففتحت أن لوقوع

الإيمان عليها وأنت مع ذلك تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح ويقبح في بعض فلا يمنعك ذلك من إمضائهن على الفتح فإن الذي يقبح من ظهور الإيمان قد يحسن مع صدقنا وشهدنا

(81/785)

ومعنى صدقنا أقررنا ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا 17

قرأ عاصم وحمزة والكسائي يسلكه بالياء إخبار عن الله وحجتهم أنه قرب من ذكر الله تعالى في قوله ومن يعرض عن ذكر ربه فأجروا الفعل على ما قرب منه إذ كان في سيقاه وكان أقرب إلى الفعل من لفظ الجمع

وقرا الباقون نسلكه بالنون الله يخبر عن نفسه وحجتهم قوله قبلها لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه فأجروا الكلام على لفظ الجمع إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد

كادوا يكونون عليه لبدا 19

قرأ هشام لبدا بضم اللام جمع لبدة مثل غرفة وغرف

وقرأ الباقون لبدا وهو جمع لبدة مثل كسرة وكسر قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا 20

قرأ عاصم وحمزة قل إنما أدعو على الأمر وحجتهما إجماع الجميع على ما بعده على الأمر وهو قوله قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا 21 و قل إني لن يجيرني من الله أحد 2 فرد

ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

وقرأ الباقون قال على الخبر وحجتهم أن ذكر الغيبة قد تقدم

وهو قوله وأنه لما قام عبد الله قال إنما أدعو على الغيبة التي قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 730.727 ﴾

(82/785)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الجن 72

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير البصري ولا نظير لها فيه

وكلمها مئتان وخمس وثمانون كلمة ككلم المزمل

وحروفها سبع مئة وتسعة وخمسون حرفا

وهي عشرون وثماني آيات في جميع العدد

اختلافها آيتان (﴿ لن يجيرني من الله أحد ﴾) عدها المكي ولم يعدها الباقون (﴿ من دونه ملتحدا ﴾) لم يعدها المكي وعدها الباقون

وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

عجبا

1 أحدا

2 ولدا

3 شططا

4 كذبا

5 رهقا

6 أحدا

7 وشهبا

8 رصدا

9 رشدا

10 قددا

11 هربا

12 رهقا

13 رشدا

14 حطبا

15 غدقا

16 صعدا

17 أحدا

18 لبدا

19 أحدا

20 رشدا

21 ملتحدا

22 أبدا

23 عددا

24 أمدا

25 أحدا

26 رصدا

27 عددا

28 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 256﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أوحى إلى) يقرأ أحى بغير واو وأصله وحى ، يقال وحى وأوحى ثم قلبت الواو المضمومة همزة .

وما في هذه السورة من أن فبعضه مفتوح وبعضه مكسور ، وفي بعضه اختلاف ، فما كان معطوفا على أنه استمع فهو مفتوح لاغير لأنها مصدرية .

وموضعها رفع بأوحى ، وما كان معطوفا على أنا سمعنا فهو مكسور لأنه حكى بعد القول ، وما صح أن يكون معطوفا على الهاء في به كان على قول الكوفيين على تقدير : وبأن ولا يجيزه البصريون لأن حرف الجر يلزم إعادته عندهم هنا ، فأما قوله تعالى " وأن المساجد لله " فالفتح على وجهين : أحدهما هو معطوف على أنه استمع فيكون قد أوحى والثانى أن يكون متعلقا بتدعو : أي فلا تشركوا مع الله أحدا لأن المساجد له : أي مواضع السجود ، وقيل هو جمع مسجد وهو مصدر ، ومن كسر استأنف ، وأما " وأنه لما قام " فيحتمل العطف على أنه استمع وعلى إنا سمعنا ، و (شططا) نعت لمصدر محذوف : أي قولا

شططا وكذلك (كذبا) أي قولا كذبا ويقرأ تقول بالتشديد ، فيجوز أن يكون كذبا مفعولا ونعتا ، و (رصدا) أي مرصدا أو ذا إرصاد ، و (أشر) فاعلي فعل محذوف: أي أريد شر ، و (قددا) جمع قدة مثل عدة وعدد .

و(هربا) مصدر في موضع الحال .

قوله تعالى (وأن لو استقاموا) أن مخففة من الثقيلة ولو عرض كالسين وسوف وقيل " لو " بمعنى أن ، وإن بمعنى اللام وليست لازمة كقوله تعالى " لئن لم ينته " وقال تعالى في موضع آخر " وإن لم ينتهوا " ذكره ابن فصال في البرهان ، والهاء في (يدعوه) ضمير اسم الله: أي قام موحدا لله ، و (لبدا) جمع لبدة ، ويقرأ بضم اللام وفتح الباء مثل حطم وهو نعت للمبالغة ، ويقرأ مشددا مثل صوم .

قوله تعالى (إلا بلاغا) هو من غير الجنس ، و (من أضعف) قد ذكر

(84/785)

أمثاله ، و (من ارتضى) من استثناء من الجنس ، وقيل هو مبتدأ والخبر (فإنه) و (رصدا) مفعول يسلك: أي ملائكة رصدا ، و (عددا) مصدر ، لأن أحصى بمعنى عد ، ويجوز أن يكون تمييزا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الجن

[سورة الجن (72) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "أُوحِيَ" ماض مبني للمجهول "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل "أَنَّهُ اسْتَمَعَ" أن واسمها وماض "نَفَرٌ" فاعله "مِنَ الْجِنِّ" صفة نفر والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها نائب فاعل أوحي وجملة أوحي . . مقول القول "فَقَالُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على جملة استمع "إِنَّا" إن واسمها "سَمِعْنا قُرْآناً" ماض وفاعله ومفعوله "عَجَباً" صفة والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الجن (72) : آية 2]

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2)

"يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "إِلَى الرُّشْدِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة ثانية لقرآنا "فَآمَنَّا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَنْ نُشْرِكَ" مضارع منصوب بلن فاعله مستتر "بِرَبِّنا" متعلقان بالفعل "أَحَداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها أيضا .

[سورة الجن (72) : آية 3]

وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3)

"وَأَنَّهُ" الواو حرف عطف وأن واسمها "تَعالى جَدُّ" ماض وفاعله ، أي تنزه عما نسب إليه . "رَبِّنا" مضاف إليه والجملة الفعلية خبر أن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "مَا اتَّخَذَ" ما نافية وماض فاعله مستتر "صاحِبَةً" مفعول به "وَلا وَلَداً" معطوف على صاحبة والجملة حال .

[سورة الجن (72) : آية 4]

وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4)

"وَأَنَّهُ كانَ" أن واسمها وماض ناقص اسمه مستتر "يَقُولُ سَفِيهُنا" مضارع وفاعله والجملة خبر كان وجملة كان خبر أن وجملة أنه معطوفة على ما قبلها "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيقول "شَطَطاً" صفة مفعول مطلق محذوف .

[سورة الجن (72) : آية 5]

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5)

"وَأَنَّا ظَنَنَّا" أن واسمها وماض وفاعله والجملة خبر أن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "أَنْ لَنْ تَقُولَ" أن مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ومضارع منصوب بلن "الْإِنْسُ" فاعل "وَالْجِنُّ" معطوف على الإنس "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "كَذِباً" مفعول به وجملة لن تقول خبر أن المخففة والمصدر المؤول من أن المخففة واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي ظننا .

[سورة الجن (72) : آية 6]

وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6)

"وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ" أن واسمها وماض ناقص واسمه "مِنَ الْإِنْسِ" صفة رجال "يَعُوذُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كان وجملة كان خبر أنه وجملة أنه معطوفة على ما قبلها "بِرِجالٍ" متعلقان

بيعوذون "مِنَ الْجِنِّ" صفة رجال "فَزادُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "رَهَقاً" مفعول به

ثان والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 7]

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7)

(87/785)

"وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا" أن واسمها وماض وفاعله والجملة خبر أنهم والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "كَما" صفة مفعول مطلق محذوف "ظَنَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة الموصول "أَنْ" أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ" مضارع منصوب بلن ولفظ الجلالة فاعله "أَحَداً" مفعوله والجملة الفعلية خبر أن والمصدر من أن المخففة وما بعدها سد مسد مفعولي ظن .

[سورة الجن (72) : آية 8]

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8)

"وَأَنَّا" أن واسمها "لَمَسْنَا السَّماءَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر أن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "فَوَجَدْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "مُلِئَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "حَرَساً" تمييز "شَدِيداً" صفة

حرسا "وَشُهُباً" معطوف على حرسا وجملة ملئت حال.

[سورة الجن (72) : آية 9]

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

"وَأَنَّا كُنَّا" أن واسمها وكان واسمها "نَقْعُدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كنا وجملة كنا خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "مِنْها" متعلقان بالفعل "مَقاعِدَ" ظرف مكان "لِلسَّمْعِ" متعلقان بالفعل نقعد "فَمَنْ يَسْتَمِعِ" من اسم شرط جازم مبتدأ ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "الْآنَ" ظرف زمان "يَجِدْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط "لَهُ" جار ومجرور في محل نصب مفعول به ثان "شِهاباً" مفعول به أول "رَصَداً" صفة شهابا وجملة يجد جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من مستأنفة لا محل لها.

[سورة الجن (72) : آية 10]

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10)

"وَأَنَّا" أن واسمها "لا نَدْرِي" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "أَشَرٌّ" الهمزة للاستفهام "شَرٌّ" نائب فاعل لفعل محذوف "أُرِيدَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِمَنْ" متعلقان بالفعل "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول وجملة أريد مفسرة لا محل لها وجملة أشر سدت مسد مفعولي ندري "أَمْ أَرادَ" حرف عطف وماض "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "رَبُّهُمْ" فاعل "رَشَداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 11]

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11)

"وَأَنَّا" أن واسمها "مِنَّا" خبر مقدم "الصَّالِحُونَ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "وَمِنَّا" خبر مقدم "دُونَ" ظرف متعلق بمبتدأ مؤخر حسب ابن هشام في الشذور "ذلِكَ" مضاف إليه والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "كُنَّا" كان واسمها "طَرائِقَ" خبرها "قِدَداً" صفة طرائق والجملة حال .

[سورة الجن (72) : آية 12]

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12)

"وَأَنَّا ظَنَنَّا" أن واسمها وماض وفاعله والجملة الفعلية خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "أَنْ" أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ" مضارع

منصوب بلن والفاعل مستتر ولفظ الجلالة مفعوله والجملة خبر أن المخففة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف حال والمصدر المؤول من أن المخففة وما بعدها سد مسد مفعولي ظننا "وَلَنْ نُعْجِزَهُ" معطوف على ما قبله "هَرَباً" حال.

[سورة الجن (72) : آية 13]

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13)

(89/785)

"وَأَنَّا" أن واسمها "لَمَّا" ظرفية شرطية غير جازمة "سَمِعْنَا" ماض وفاعله "الْهُدى" مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "آمَنَّا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها ولما ومدخولها خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف "من" اسم شرط جازم مبتدأ "يُؤْمِنْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط فاعله مستتر "بِرَبِّهِ" متعلقان بالفعل "فَلا" الفاء رابطة "لا يَخافُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من مستأنفة لا محل لها "بَخْساً" مفعول به "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "رَهَقاً" معطوف على بخسا، ومعناها: ظلما.

[سورة الجن (72) : آية 14]

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14)

"وَأَنَّا" أن واسمها "مِنَّا" خبر مقدم "الْمُسْلِمُونَ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أنا وجملة أنا معطوفة على ما قبلها "وَمِنَّا الْقاسِطُونَ" معطوف على مثيله ، القاسطون : يعني الجائرون بكفرهم . "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف "من" اسم شرط جازم مبتدأ "أَسْلَمَ" ماض في محل جزم فعل الشرط "فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا" الفاء رابطة واسم إشارة مبتدأ وماض وفاعله والجملة خبر أولئك "رَشَداً" مفعول به وجملة أولئك في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من مستأنفة لا محل لها .

[سورة الجن (72) : آية 15]

وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15)

"أَمَّا"

الواو حرف استئناف "مَّا"

حرف شرط وتفصيل "الْقاسِطُونَ"

مبتدأ "كانُوا"

الفاء واقعة في جواب الشرط وكان واسمها "جَهَنَّمَ"

جار ومجرور حال "حَطَباً"

خبر كانوا وجملة كانوا خبر المبتدأ وجملة أما القاسطون مستأنفة لا محل لها .

[سورة الجن (72) : آية 16]

(90/785)

وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16)

"وَأَنْ لَوِ" أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَوِ" شرطية غير جازمة "اسْتَقامُوا" ماض وفاعله "عَلَى الطَّرِيقَةِ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها "لَأَسْقَيْناهُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله ومفعوله الأول "ماءً" مفعول به ثان "غَدَقاً" صفة ماء ، ومعناها : كثيرا .

والجملة جواب الشرط لا محل لها والشرط وجوابه خبر أن وجملة أن معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 17]

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17)

"لِنَفْتِنَهُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والهاء مفعول به والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل

أسقيناهم "فِيهِ" متعلقان بالفعل "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يُعْرِضْ" مضارع مجزوم "عَنْ ذِكْرِ" متعلقان بيعرض "رَبِّهِ" مضاف إليه "يَسْلُكْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول "عَذاباً" مفعول به ثان "صَعَداً" صفة عذابا والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . . استئنافية لا محل لها ، .

[سورة الجن (72) : آية 18]

وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18)

"وَأَنَّ الْمَساجِدَ" أن واسمها و"لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبر أن والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلا" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل و"مَعَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة و"أَحَداً" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الجن (72) : آية 19]

وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

"وَأَنَّهُ" أن واسمها "لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ" لما ظرفية شرطية غير جازمة وماض وفاعله ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة "يَدْعُوهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة حال "كادُوا" كاد واسمها "يَكُونُونَ" مضارع ناقص مرفوع والواو اسمه "عَلَيْهِ" متعلقان بالخبر "لِبَداً" خبر وجملة يكونون خبر كاد وجملة كادوا جواب الشرط لا محل لها ولما ومدخولها خبر أنه وجملة أنه . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 20]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَدْعُوا" مضارع فاعله مستتر "رَبِّي" مفعول به والجملة مقول القول "وَ" الواو حرف عطف "لا أُشْرِكُ" نافية ومضارع فاعله مستتر و "بِهِ" متعلقان بالفعل "أَحَداً" مفعول به والجملة معطوفة على أدعو.

[سورة الجن (72) : آية 21]

قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها و "لا" نافية "أَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "ضَرًّا" مفعول به "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "رَشَداً" معطوف

على ضرا وجملة لا أملك . . خبر إن والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الجن (72) : آية 22]

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22)

(92/785)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها "لَنْ يُجِيرَنِي" مضارع منصوب بلن والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بالفعل "أَحَدٌ" فاعل والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "وَلَنْ أَجِدَ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بلن والفاعل مستتر "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالفعل "مُلْتَحَداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 23]

إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23)

"إِلَّا" أداة استثناء "بَلاغاً" مستثنى منصوب "مِنَ اللَّهِ" متعلقان ببلاغا "وَرِسالاتِهِ" معطوفة على بلاغا "وَ" الواو حرف استئناف "مِنَ" اسم شرط جازم مبتدأ "يَعْصِ اللَّهَ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط فاعله مستتر ولفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف

على لفظ الجلالة "فَإِنَّ" الفاء واقعة في جواب الشرط وحرف مشبه بالفعل "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "نارَ" اسم إن المؤخر "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "أَبَداً" ظرف زمان والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الجن (72) : آية 24]

حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

(93/785)

"حَتَّى" حرف ابتداء و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"ما" مفعول به "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة ما "فَسَيَعْلَمُونَ" الفاء رابطة والسين للاستقبال ومضارع وفاعله و"مَنْ" اسم استفهام مبتدأ و"أَضْعَفُ" خبر والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به وجملة سيعلمون . . جواب شرط لا محل لها "ناصِراً" تمييز "وَأَقَلُّ" معطوف على أضعف "عَدَداً" تمييز .

[سورة الجن (72) : آية 25]

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنْ" نافية "أَدْرِي" مضارع فاعله مستتر "أَقَرِيبٌ" الهمزة الاستفهام و"قَرِيبٌ" خبر مقدم و"ما" اسم موصول مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي أدري وجملة إن أدري . . مقول القول و"تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة و"أَمْ" حرف عطف "يَجْعَلُ" مضارع مرفوع و"لَهُ" متعلقان بالفعل و"رَبِّي" فاعل و"أَمَداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجن (72) : آية 26]

عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26)

"عالِمُ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية هو عالم مستأنفة لا محل لها و"الْغَيْبِ" مضاف إليه "فَلا" الفاء حرف استئناف "لا" نافية "يُظْهِرُ" مضارع فاعله مستتر و"عَلى غَيْبِهِ" متعلقان بالفعل و"أَحَداً" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الجن (72) : آية 27]

إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27)

"إِلَّا" حرف حصر و"مَنِ" مبتدأ "ارْتَضى" ماض فاعله مستتر و"مِنْ رَسُولٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة وإن واسمها "يَسْلُكُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط و"مِنْ بَيْنِ" متعلقان بالفعل و"يَدَيْهِ" مضاف إليه "وَمِنْ خَلْفِهِ" معطوفان على ما قبلهما "رَصَداً" مفعول به وجملتا الشرط والجواب خبر من.

[سورة الجن (72) : آية 28]

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

"لِيَعْلَمَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل يسلك و"أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف و"قَدْ" حرف تحقيق "أَبْلَغُوا رِسالاتِ" ماض وفاعله ومفعوله و"رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة خبر أن المخففة والمصدر المؤول من أن المخففة وما بعدها سد مسد مفعولي يعلم "وَأَحاطَ" الواو حالية وماض فاعله مستتر "بِما" متعلقان بالفعل و"لَدَيْهِمْ" ظرف مكان والجملة حال "وَأَحْصى" معطوف على أحاط و"كُلَّ" مفعول به مضاف إلى "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَدَداً" تمييز. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 388. 393﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْجنّ

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

1409 - الحَدِيث الأول

فِي حَدِيث عمر كَانَ الرجل منا إِذا قَرَأَ الْبَقَرَة وَآل عمرَان جد فِينَا وَرُوِيَ فِي أعيينا

قلت غَرِيب من حَدِيث عمر وَقد تقدم فِي أَوَائِل الْبَقَرَة من حَدِيث انس رَوَاهُ احْمَد

1410 - الحَدِيث الثَّانِي

رَوَى الزُّهْرِيّ عَن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهم قَالَ بَيْنَمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس فِي نفر من الْأَنْصَار إِذْ رمي بِنَجْم فَاسْتَنَارَ فَقَالَ مَا كُنْتُم تَقولُونَ فِي مثل هَذَا قَالُوا كُنَّا نقُول يَمُوت عَظِيم أَو يُولد عَظِيم

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الطِّبّ من حَدِيث الْأَوْزَاعِيّ عَن الزُّهْرِيّ عَن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن ابْن عَبَّاس اخبرني رجل من الْأَنْصَار قَالَ بَيْنَمَا هم جُلُوس لَيْلَة مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ رمي بِنَجْم فَاسْتَنَارَ فَقَالَ مَا كُنْتُم تَقولُونَ فِي مثل هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّة إِذا رَأَيْتُمُوهُ قَالُوا كُنَّا نقُول يَمُوت عَظِيم أَو يُولد

عَظِيم فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهِ لموْت أَحْدُ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِن رَبنَا تَعَالَى إِذا قَضَى أمرا تسبح حَملَة الْعَرْش ثمَّ يسبح أهل السَّمَاء الَّذين يَلُونَهُمْ ثمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ثمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ حَتَّى يبلغ التَّسْبِيح إِلَى هَذِه السَّمَاء ثمَّ سَأَلَ أهل السَّمَاء السَّادِسَة أهل السَّابِعَة مَاذَا قَالَ ربكُم قَالَ فَيُخْبِرُونَهُمْ ثمَّ تَسْتَجِيب أهل كل سَمَاء حَتَّى يبلغ الْخَبَر أهل السَّمَاء الدُّنْيَا وَيَتَخَطَّف الشَّيَاطِين السّمع فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجهه فَهُوَ حق وَلَكنهُمْ يحرفُونَ وَيزِيدُونَ

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي تَفْسِير سُورَة سبأ من حَدِيث معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن ابْن عَبَّاس قَالَ بَيْنَمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يقل فِيهِ اخبرني رجال من الْأَنْصَار وَقَالَ فِيهِ حسن صَحِيح انْتَهَى

وَرَوَاهُ جمَاعَة كَمَا رَوَاهُ مُسلم وَآخَرُونَ كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ

1411 - قَوْله

قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه مَا تَصعَّدَنِي شَيْء مَا تَصَعَّدَتْنِي خطْبَة النِّكَاح

قلت رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام وَإِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غريبيهما من حَدِيث حَمَّاد بن

سَلمَة عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبيه عَن عمر أَنه قَالَ مَا تَصعَّدَنِي شَيْء . . . إِلَى آخِره قَالَ أَبُو عبيد وَمَعْنَاهُ أَي مَا شقّ عَلّي وكل شَيْء فعلته بِمَشَقَّة فقد تصعدك قَالَ تَعَالَى كَأَنَّمَا يصعد فِي السَّمَاء قَالَ وَأرَى أَن أصل هَذَا من الصعُود وَهِي الْعقبَة الْمُنكرَة قَالَ تَعَالَى سَأُرْهِقُهُ صعُودًا انْتَهَى كَلَامه

1412 - الحَدِيث الثَّالِث

(97/785)

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمُؤمن من أَمنه النَّاس عَلَى أنفسهم وَأَمْوَالهمْ

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث فضَالة بن عبيد وَمن حَدِيث انس وَمن حَدِيث أبي مَالك الْأَشْعَرِيّ وَمن حَدِيث وَاثِلَة بن الْأَسْقَع وَمن حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْإِيمَان من حَدِيث الْقَعْقَاع عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمُسلم من سلم الْمُسلمُونَ من لِسَانه وَيَده وَالْمُؤمن من أَمنه النَّاس عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالهمْ انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح انْتَهَى وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع وَالْأَرْبَعِينَ من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي

مُسْتَدْركه فِي كتَاب الْإِيمَان وَفِي لفظ لَهُ عَلَى أنفسهم وَأَمْوَالهمْ وَقَال لم يخرجَاهُ بِهَذِهِ الزِّيَادَة وَهِي صَحِيحَة عَلَى شَرط مُسلم

وَأما حَدِيث فضَالة بن عبيد فَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي كتَاب الْفِتَن من حَدِيث عَمْرو بن مَالك الْجَنبي عَن فضَالة بن عبيد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال الْمُؤمن من أَمنه النَّاس عَلَى أنفسهم وَأَمْوَالهمْ وَالْمُهَاجِر من هجر الْخَطَايَا والذنُوب انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَال صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث انس فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول من حَدِيث حَمَّاد بن سَلمَة عَن يُونُس بن عبيد وَحميد عَن أنس مَرْفُوعا من لفظ التِّرْمِذِيّ

(98/785)

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك أَيْضا وَقَال إِنَّه صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث أبي مَالك الْأَشْعَرِيّ فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا هَاشم ابْن مرْثَد ثَنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش حَدثنِي أبي ثَنَا ضَمْضَم بن زرْعَة عَن شُرَيْح بن عبيد عَن أبي مَالك الْأَشْعَرِيّ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال فِي حجَّة الْوَدَاع أَلَيْس هَذَا

الْيَوْم الْحَرَام قَالُوا بلَى يَا رَسُول الله قَال فَإِن حُرْمَة

مَا بَيْنكُم إِلَى يَوْم الْقِيَامَة كَحُرْمَةِ هَذَا الْيَوْم وَأُحَدّثكُمْ عَن الْمُسلم الْمُسلم من سلم الْمُسلمُونَ

من لِسَانه وَيَده وَأُحَدّثكُمْ من الْمُؤمن الْمُؤمن من أَمنه النَّاس عَلَى أنفسهم وَأَمْوَالهمْ

وَأُحَدّثكُمْ من المُهَاجر المُهَاجر من هجر السَّيِّئَات

حَدثنَا الْعَبَّاس بن الْفضل الْأَسْفَاطِي ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبي أويس ثني إِسْمَاعِيل ابْن عبد الله

بن خَالِد بن سعيد بن أبي مَرْيَم عَن جده سَمِعت أَبَا مَالك . . . فَذكره

(99/785)

وَأما حَدِيث وَاثِلَة بن الْأَسْقَع فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه أَيضا ثَنَا جَعْفَر ابْن احْمَد بن سِنَان

الوَاسِطِيّ ثَنَا أَحْمد بن الْمِقْدَام أَبُو الْأَشْعَث ثَنَا عَبْثَر بن الْقَاسِم ثَنَا الْعَلَاء بن ثَعْلَبَة عَن أبي

الْمليح الْهُذَلِيّ عَن وَاثِلَة بن الْأَسْقَع قَال رَأَيت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِمَسْجِد الْخيف

فَقلت لَهُ يَا رَسُول الله أَفْتِنَا فِي أَمر نَأْخُذهُ عَنْك من بعْدك قَال تدع مَا يريبك إِلَى مَا لَا يريبك

وَإِن أَفْتَاك الْمفْتُون قلت وَكَيف لي بذلك قَال تضع يدك عَلَى فُؤَادك فَإِن الْقلب يسكن

للْحَلَال وَلَا يسكن للْحَرَام وَإِن الْمُسلم الْوَرع يدع الصَّغِير مَخَافَة أَن يَقع فِي الْكَبِير قلت يَا

رَسُول الله فَمَا الْمعْصِيَة قَال الَّذِي يعين قومه عَلَى الظُّلم قلت فَمن الْحَرِيص قَال الَّذِي يطْلب

الْكسْب من غير حل قلت فَمن الْوَرع قَالَ الَّذِي يقف عِنْد الشُّبْهَة قلت فَمن الْمُؤمن قَالَ من أَمنه النَّاس عَلَى أَمْوَالهم وَدِمَائِهِمْ قلت فَمن الْمُسلم قَالَ من سلم النَّاس من لِسَانه وَيَده قلت فَأَي الْجِهَاد أفضل قَالَ كلمة حق عِنْد إِمَام جَائِر انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا أَبو الْأَشْعَث احْمَد بن الْمِقْدَام بِهِ

وَأما حَدِيث ابْن الْعَاص فَرَوَاهُ عبد بن حميد فِي مُسْنده حَدثنَا عبد الله بن يزِيد الْمُقْرِئ ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد بن أنعم الإِفْرِيقِي عَن عبد الله بن يزِيد عَن عبد الله ابْن عَمْرو بن الْعَاص أَن رجلا قَالَ يَا رَسُول الله من الْمُسلم قَالَ من سلم الْمُسلمُونَ من يَده وَلِسَانه قَالَ فَمن الْمُؤمن قَالَ من أَمنه النَّاس عَلَى أنفسهم وَأَمْوَالهمْ قَالَ فَمن الْمُهَاجر قَالَ من هجر السَّيِّئَات قَالَ فَمن الْمُجَاهِد

(100/785)

قَالَ من جَاهد نَفسه لله عَزَّ وَجَلَّ انْتَهَى

1413 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمرت أَن أَسجد عَلَى سَبْعَة آرَاب وَهِي الْجَبْهَة وَالْأنف وَالْيَدَانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْقَدَمَانِ

قلت لم يروه بهَذَا اللَّفْظ فِيمَا وجدته إِلَّا الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث الْعَبَّاس ابْن عبد الْمطلب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمرت أَن أَسجد عَلَى سَبْعَة آرَاب . . . فَذكرهَا إِلَّا أَنه قَالَ الْوَجْه عوض الْجَبْهَة وَالْأنف وَهُوَ أولى لِاسْتِقَامَةِ الْعدَد قَالَ الْبَزَّار وَقد رَوَى هَذَا الْحَدِيث سعد وَابْن عَبَّاس وَأَبُو هُرَيْرَة وَغَيرهم لَا نعلم أحدا قل الْآرَاب إِلَّا الْعَبَّاس انْتَهَى

والْحَدِيث فِي السّنَن الْأَرْبَعَة وَلَفْظهمْ فِيهِ إِذا سجد العَبْد سجد مَعَه سَبْعَة آرَاب وَجهه وَكَفاهُ وَقَدماهُ وَركبتَاهُ

وَرَوَى أَبُو دَاوُد من حَدِيث ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمرت وَرُبمَا قَالَ أَمر نَبيكُم أَن يسْجد عَلَى سَبْعَة آرَاب انْتَهَى وَلم يذكرهَا

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا أمرت أَن أَسجد عَلَى سَبْعَة أعظم وَفِي لفظ سَبْعَة أَعْضَاء فَذكرُوا الْجَبْهَة دون الْأنف وَيحْتَمل أَن يكون قَوْله فِي الْكتاب وَهِي الْجَبْهَة . . . إِلَى آخِره من كَلَام الْمُصَنّف لَا من الْحَدِيث فَلْيتَأَمَّل

1414 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بلغُوا عني بلغُوا عني

قلت غَرِيب وَالَّذِي وَجَدْنَاهُ فِي الحَدِيث من رِوَايَة عبَادَة بن الصَّامِت عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ خُذُوا عني خُذُوا عني قد جعل الله لَهُنَّ سَبِيلا الْبكر بالبكر جلد مائَة وَنفي سنة وَالثَّيِّب بِالثَّيِّب جلد مائَة وَالرَّجم انْتَهَى أخرجه الْجَمَاعَة إِلَّا الْبُخَارِيّ

وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه من حَدِيث بني إِسْرَائِيل من حَدِيث أبي كَبْشَة عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بلغُوا عني وَلَو آيَة وَحَدثُوا عَن بني إِسْرَائِيل وَلَا حرج وَمن كذب عَلَي مُتَعَمدا فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَده من النَّار انْتَهَى وَرَوَاهُ مُسلم أَيْضا

1415 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْجِنّ كَانَ لَهُ بِعَدَد كل جن صدق بِمُحَمد وَكذب بِهِ عتق رَقَبَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث نوح بن أبي مَرْيَم عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 99.104 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الجنّ» (72)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«تَعالى جَدُّ رَبِّنا» (3) علا ملك ربّنا وسلطانه . .

«رَهَقاً» (6) سفها وطغيانا . .

«كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً» (11) واحد الطرائق الطريقة واحد القدد قدّة أي ضروبا أو أجناسا

. .

«تَحَرَّوْا رَشَداً» (14) توخّوا وعمدوا قال امرؤ القيس :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرّى وتدر

«1» [916].

«ماءً غَدَقاً» (16) الغدق الكثير . .

«عَذاباً صَعَداً «2»» (17) مصدر الصعود وهو أشدّ العذاب . .

«كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً» (19) جماعات ، واحدها لبدة وكذلك يقال للجراد الكثير

قال عبد مناف بن ربع :

صابوا بستة أبيات وأربعة حتى كأن عليهم جابيا لبدا

«3» [917] الجابي الجراد الذي يجبى كلّ شيء يأكله «4» . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 272 ﴾

---

(1) . - 916) : ديوانه من الستة ص 125 واللسان (حرى) .

(2) . - 10 «الصعد . . . صعد» الذي ورد فى الفروق : رواه القرطبي (19/ 19) عن أبى عبيدة .

(3) . - 917) : فى ديوان الهذليين 2/ 40 والطبري 29/ 64 واللسان (جبى) .

(4) . - 14 «الجابي . . . يأكله» : كما فى الطبري 29/ 64 واللسان .

(103/785)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الجن»

[سورة الجن (72) : آية 11]

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (11)

قوله سبحانه : وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً [11] وهذه استعارة . والمراد بذلك- والله أعلم- كنا ضروبا مختلفة ، وأجناسا مفترقة .

(104/785)

والطرائق : جمع طريقة . وهى- فى هذا الموضع- المذهب والنحلة . والقدد : جمع قدّة ، وهى القطعة من الشيء المقدود طولا ، مثل فلذة وفلذ ، وقربة وقرب . وقد غلب على ما كان من القطع طولا لفظ القدّ ، وعلى ما كان من القطع عرضا لفظ القطّ . فكأنه سبحانه شبه اختلافهم فى الأحوال ، وافتراقهم فى الآراء بالسّيور المقدودة ، التي تتفرق عن أصلها ، وتتشعب بعد ائتلافها .

[سورة الجن (72) : آية 15]

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15)

وقوله سبحانه : أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً

[15] وهذه استعارة .

والمراد أن نار جهنم- ونعوذ باللّه منها- يستدام وقودها بهم، كما يستدام وقود النار بالحطب، لأن كل نار لا بدّ لها من حشاش يحشها، ووقود يمدها.

[سورة الجن (72): آية 19]

وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

وقوله سبحانه: وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً [19] وهذه استعارة. واللّبد هاهنا كناية عن الجماعات المتكاثرة التي تظاهرت من الكفار على النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، أي اجتمعوا عليه متألبين، وركبوه مترادفين.

فكانوا كلبد الشّعر، وهى طرائقه وقطعه التي يركب بعضها بعضا. وواحدتها لبدة.

ومنه قيل: لبدة الأسد. وهى الشعر المتراكب على مناكبه. وذلك أبلغ ما شبّهت به الجموع المتعاظلة، والأحزاب المتألفة.

وقال بعض أهل التأويل: المراد بذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لما صلّى الصبح ببطن نخلة «1» منصرفا من حنين، وقد حضره الوفد من الجن- وخبرهم مشهور- كادوا يركبون منكبه، ويطأون أثوابه، لما سمعوا قراءته، استحسانا لها، وارتياحا إليها، وتعجبا منها.

روى عن ابن عباس فى هذا المعنى- وهو أغرب الأقوال- أن هذا الكلام من صلة كلام الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجبا. وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه

وآله وسلم لما قام ببطن «2» نخلة يصلى بأصحابه عجب الجن الحاضرون من طواعيتهم له فى

(1- 2) فى الأصل «بطن نحلة» بالحاء المهملة وهو تحريف والتصويب عن «معجم ما استجم» للبكرى.

(105/785)

الركوع والسجود والقيام والعقود ، فلما رجعوا إلى قومهم قالوا فى جملة ما قصّوه عليهم : وأنّه لما قام عبد اللّه يدعوه- أي يصلى له- كادوا يكونون عليه لبدا . أي كاد أصحابه يركبونه تزاحما عليه ، وتدانيا إليه ، واحتذاء لمثاله ، واستماعا لمقاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 349. 351 ﴾

(106/785)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الجن

فى سورة الجن إشارات إلى طبيعة العقيدة عند النصارى ، وكيف جعلوا المسيح ابنا لله وإلها معه ! لقد انتشرت هذه القالة فى أقطار الأرض ، وولدت عليها أجيال ، حتى جاء القرآن فنفاها بشدة مؤكدا أن الله واحد ليس له أولاد . . ! وكانت العقيدة النصرانية قد بلغت الجن فاعتنقوها ، ثم عرفوا فى تطوافهم بالأرض ما يناقضها " قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا " . وشرع الجن يفصلون ما تابوا عنه وعرفوا خطأه . إنه ما يسوغ أن تكون لله صاحبة ولا أن ينسل منها ابنا " وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا " . وذكروا أن الذى بلغهم ذلك موغل فى الوهم " وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا " . ثم اعتذروا عن غفلتهم فى قبول هذه الشائعة بأنهم ما تصوروا أن يكذب أحد على الله " وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا " ! ولكن رجالا من الإنس استمعوا إلى هذا اللغو ونشروه فى الأرض وضللوا به جماهير غفيرة " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " . وقد حسب الجميع أن أبواب السماء غلقت فلن ينزل ملك يوحى ، ولن يحمل بشر رسالة أخرى تعود بالإيمان إلى أصله الصحيح ، وتؤكد ما بلغه المرسلون الأولون من وحدانية الله وسيطرته المطلقة على الملكوت كله . لكن الله بعث نبيه الخاتم من العرب فطوفت رسالته بالمشارق والمغارب ، معلنة أن الله لا ولد له ولا والد . إن

هذه الرسالة كانت مفاجأة للمخطئين " وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا " .

والواقع أن

(107/785)

الخطأ إذا سلحته الدولة بعنفوانها ، وأقامت له أبراجا تدرسه وتحميه ، ترك ظلاله فى النفوس واستقرت أوضاعه قرونا . وقد نشر الاستعمار الرومانى عقيدة التثليث ، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطئ لها الأكناف . ولولا أن محمدا درع الحق الذى بعث به وفداه بالنفس والمال . لجعله الرومان فى خبر كان .

ومن أين كان يعلم الجن أن الله واحد لا ولد له ولا والد . لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك ، وقرعوا به الآذان ؟ لقد شعرت الجن أن تغيرا ما يحدث فى الكون ، وأن الوحى النازل يحيط به حرس شديد حتى لا ينقص منه شىء " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " . والغريب أن الحراسة التى صاحبت نزول القرآن من السماء لم تتركه وهو يسير فى الأرض ، فتحولت حفظا صانه حرفا حرفا ونغمة نغمة . وقد آمن الجن بالإسلام عن تصديق واقتناع " وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا

" . ويظهر أن أعدادا من الجن رفضت الانقياد للحق وعالنت بتمردها عليه ! وليس فى ذلك ما يدهش ، أليس ذلك صنيع بنى آدم ؟ " وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " . وقد سألنى أحد الناس: أتعرف أحدا من الجن ؟ فعرفت غرضه ، وقلت: ما رأيت منهم أحدا . فقال: كيف تصدق بما لم تره ؟ فقلت: ليس كل موجود يرى . إن الجراثيم لضآلتها لا ترى ، والكواكب لبعدها لا ترى ، والقرآن يقرر ذلك عن الجن عندما يقول " إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم " . ويستحيل أن الكون الذى تقاس أبعاده بالسنين الضوئية لا يكون به إلا البشر . وقد قلت فى كتاب لى: إن الذى يبنى قصرا من ألف طابق ، لا يسكن الطابق الأرضى وحده ويدع الباقى تصفر فيه الرياح ، فلم خلقه ؟ إننى أومن بالله الذى خلق الإنس والجن والملائكة " وما يعلم جنود ربك إلا هو" . وتقرر السورة هنا حقيقة

(108/785)

جديرة بالتأمل . إن معرفة الله لا تكفى ، لابد من أداء حقوقه على السراء والضراء . إن بعض الناس ينتمون إلى الله ويتمتعون بنعمته ، ولكنهم يشغلون بها عنه ويحيون لأنفسهم وحدها . وقد رأيت جماهير من هذا الصنف . بل إن انتشار الكفر فى الأرض يعود

لمسالك أقوام

عليهم الوحى ، فلم يتجردوا له ويقوموا بحقه ! فى هؤلاء يقول الله " وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا " . . ومن الإعراض المذموم أن تنشغل بما آتاك الله عما يجب عليك نحوه . وخواتيم هذه السورة تشهد لصاحب الرسالة بالبلاغ والتجرد " قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا * قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا * قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا " . فى الدنيا الآن نفر من رجال الدين يزعمون أنهم يملكون المغفرة للمخطئين ، وأن مفاتيح دار الخلد بأيديهم ! ! وهذه المزاعم هى الثمرة الوحيدة للجهل بالله وسوء العلاقة معه ، أما محمد خاتم النبيين فله شأن آخر " قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا " . إنه عبد لله الواحد ، يجاهد الشرك والخرافة وينطلق بعقيدة التوحيد ليملأ بها أرجاء العالم ، وقد قسم أتباعه الليل والنهار فلا تمر برهة على خطوط الطول والعرض إلا وصائح فى الشرق والغرب يهتف: الله أكبر الله أكبر . . . لا إله إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 482.484 ﴾

(109/785)

(110/785)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الجن

أقول: قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لي سوى أنه قال في سورة نوح: (استغفروا ربكم إِنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً) وقال في هذه السورة: (وأَن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) وهذا وجه بين في الارتباط. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 143. 144﴾

(111/785)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا

وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) أي المحيط بالكمال أرسل رسوله الخاتم بالهدى ليظهره على الدين كله بما له من الجلال والجمال (الرحمن) الذي بعموم رحمته عم بهذا الإرسال ليعم بالبيان ما يلزم الخلق من المقال والفعال (الرحيم) الذي خص من بيتن أهل الدعوة من شاء بمحاسن الأعمال لما سبق لهم من الفوز في أزل الآزال .

(112/785)

ولما كان نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله تعالى إلى المخالفين من أهل الأرض ، وكان قومه عباد أوثان ، وعصوه أشد العصيان مع أنه كان منهم نسباً ولساناً ، وختمت سورته بدعائه عليهم ، وكان نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين ، فهو آخر رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وغيرهم من جميع الخلق ، وكان قومه العرب قد وافقوا قوم نوح عليه السلام في أكثر أحوالهم عبادة الأوثان حتى تلك الأوثان إما بأساميها أو بأعيانها على ما ورد في الأخبار ، وفي عصيان رسولهم واستضعاف أتباعه واستهزائهم ابتدئت ، هذه

بما كان من سهولة من سمع هذه الدعوة الخاتمة الجامعة من غير الجنس فضلاً عن الموافقين في الجنس مع قصر الزمان وضعف الأعوان لجلالة هذا القرآن ، فقال منبهاً له بالأمر على ما في هذا من عظيم القدر ، مع الإشارة إلى تبكيت العرب على التباطؤ عن الإجابة إلى ما يعرفون من رشده بمعناه ونظمه ، لكونه بلسانهم وكونهم من نوع الداعي وقبيله وأقرب الناس إليه ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لقومك .

(113/785)

ولما كان المقصود تعظيم الموحى به ، وأما الموحي إلى كل من الرسولين فواحد ، بنى للمفعول قوله مبيناً لسيرة الجن في تلقيهم لهذا القرآن بالأخذ إرثاً من أشرف النبيين وإلقائهم له بالإبلاغ إلى غيرهم من وارث العلم منهم ليكون لهم الشرفان : شرف العلم لكمال أنفسهم ، والتعليم لتكميل غيرهم ، فيكون لهم مثل أجر من عمل بما ألقوه إليه وأملوه عليه : ﴿ أوحي إليّ ﴾ أي أخبرت على وجه الخفاء ممن لا يعلم الغيب غيره في هذا القرآن الذي اقتضى إعجازه أن أكون أكثر الأنبياء تابعاً على لسان جبريل عليه السلام الذي هو أمينه والواسطة بينه وبين أنبيائه ، ثم وضع موضع المفعول الذي لم يسم فاعله قوله : ﴿ أنه ﴾ أي الشأن العظيم ﴿ استمع ﴾ أي بغاية الإصغاء والإقبال والتقبل والإلف استماعاً هو الاستماع في الحقيقة

لأنه لقراءتي هذا القرآن ﴿ نفر ﴾ هم في غاية النفرة جبلة وطبعاً ﴿ من الجن ﴾ الذين هم في غاية الاستتار ، وهم أجسام حية عاقلة خفيفة تغلب عليها النارية أو الهوائية كما تغلب على أجسام الإنس الترابية ، والنفر ما بين الثلاثة والعشرة ، قال البغوي : وكانوا تسعة من جن نصيبين ، وقيل : كانوا سبعة ، وفي هذه العبارة دليل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رآهم ولا قرأ عليهم ، وإنما اتفق حضورهم عند قراءته ، وهل هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف أو غيره قال أبو حيان : المشهور أنه هو ، وقيل : هو غيره ، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن نينوى ، والسورة التي استمعوها قال عكرمة : العلق ، وقيل : الرحمن ، ولم يذكر هنا ولا في الأحقاف أنه رآهم ، ويظهر من الحديث تعدد الواقعة ، فمنها ما كان في المبدأ ولم يكن معه أحد من الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م كما في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ الذي في الصحيح

(114/785)

" أنهم فقدوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة من الليالي فالتمسوه في الأودية والشعاب ، فلما أصبح إذا جاء من قبل حراء فقال : أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، ومنها ما كان معه عبد الله ـ رضى الله عنه ـ

فذهب معه إلى الحجون عند الشعب فخط عليه خطاً ، وقال : لا تجاوزه ، فانحدر عليه أمثال الحجل يجرون الحجارة بأقدامهم حتى غشوه فلا أراه ، وأومأ إليّ بيده أن اجلس ، فتلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع واختفوا بالأرض حتى ما أراهم " قال الأصبهاني : وقيل : كانوا من بني الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وهم عامة جنود إبليس ، وقال القشيري : لما رجمت الشياطين بالشهب فرق إبليس جنوده لعلم ذلك فأتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآمنوا ثم أتوا قومهم فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يعني ولم يرجعوا إلى إبليس لما علموه من كذبه وسفاهته ، وجاؤوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبعين من قومهم فأسلموا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه ﴾ [الأحقاف : 29] الآيات

﴿ فقالوا ﴾ أي فتسبب عن استماعهم أن قال من سمع منهم لمن لم يسمع ، أو لمن كان يواخيهم من الإنس امتثالاً لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " رحم الله امرأً سمع منا مقالة فوعاها فأداها كما سمعها " وكان قولهم سكوناً إلى هذا القرآن وأنسا به ، مؤكدين لبعد حالهم عن سماع الوحي وعلمهم بما زاد به من الإعجاز : ﴿ إنا ﴾ بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ﴿ سمعنا ﴾ حين تعمدنا الإصغاء وألقينا إليه أفهامنا ﴿ قرآناً ﴾ أي كلاماً هو في غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما نحتاج إليه ، ثم وصفوه بالمصدر مبالغة

في أمره فقالوا : ﴿ عجباً ﴾ أي بديعاً خارجاً عن عادة أمثاله من جميع الكتب الإلهية فضلاً عن كلام الناس في جلالة النظم وإعجاز التركيب والوضع مع

(115/785)

الموافقة لها في الدعوة إلى الله تعالى والبيان للمحاسن والمساوىء والدعاء إلى كل فلاح حتى صار نفس العجب ، والعجب ما خرج عن حد أشكاله ونظائره فخفي سببه ، وهذا يدل على قوتهم العلمية في فصاحتهم وكمالهم في علم الرسوم ، وصوغ الكلام على أبلغ جهات النظوم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم ذكر حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد حسبما انطوت عليه سورة ن والقلم ، ثم أتبعت بوعيدهم في الحاقة ثم بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج ثم بتسليته عليه الصلاة والسلام وتأنيسه بقصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه ، أعقب ذلك بما يتعظ به الموفق ويعلم أن القلوب بيد الله : فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقرب في ظاهر الأمر لنبي من جنسهم ومن أنفسهم فقد تقدمت لهم معرفة صدقه وأمانته ، ثم جاءهم بكتاب بلسانهم الذي به يتحاورون ولغتهم التي بها يتكلمون ، فقد بهرت العقول آياته ، ووضحت لكل ذي قلب سليم براهينه

ومعجزاته ، وقد علموا أنهم لا يقدرون على معارضته إلى ما شاهدوه من عظيم البراهين ، ومع ذلك عموا وصموا – غضب الله عليهم ولعنهم – وسبق إلى الإيمان من ليس من جنسهم ولا سبقت له مزية تكريمهم ، وهم الجن ممن سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا وصدقوا ، وأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإخبار بذلك ، فأنزل الله تعالى عليه ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] الآيات إلى قوله إخباراً عن تعريف الجن سائر أخوانهم بما شاهدوه من عناد كفار العرب " وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً " ثم استمرت الآي ملتحمة المعاني معتضدة المباني إلى آخر السورة – انتهى .

(116/785)

ولما بينوا فضله من جهة الإعجاز وغيره ، بينوا المقصود بالذات الدال على غوصهم على المعاني بعد علمهم بحسن المباني فقالوا : ﴿ يهدي ﴾ أي يبين غاية البيان مع الدعاء في لطف وهدى ﴿ إلى الرشد ﴾ أي الحق والصواب الذي يكاد يشرد لثقله على النفوس الداعية إلى الهوى وخفة ضده الغي والسفة الملائم لنقائص النفوس .

ولما وصفوه بهذه الكمالات سببوا عن ذلك قولهم إعمالاً للقوة العملية في المبادرة إلى الصواب من غير تخلف أصلاً : ﴿ فآمنا ﴾ أي كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا

توقف بعد الاستماع ﴿ به ﴾ أي أوقعنا الأمان لمبلغ القرآن أن نكذبه أو نخالفه أدنى مخالفة بسبب هذا القرآن .

ولما أخبروا عن الماضي ، وكان الإيمان لا يفيد إلا مع الاستمرار ، قالوا عاطفين على ما تقديره : فوجدنا الله في الحال لأن ذلك نتيجة الإيمان بالقرآن وخلعنا الأنداد : ﴿ ولن ﴾ أي والحال أنا مع إيقاع الإيمان في الحال لن ﴿ نشرك ﴾ بعد ذلك أصلاً ، أكدوا لأنه أمر لا يكاد يصدق ﴿ بربنا ﴾ أي الذي لا إحسان قائم بنا من الإيجاد وما بعده إلا منه ﴿ أحداً ﴾ أي من الخلق لأنه لم يشركه في شيء من مرنا أحد ، وقد وضحت الدلائل على التوحيد فيما سمعنا من هذا القرآن .

ولما أظهروا القوتين العلمية بفهمهم القرآن ، والعملية بما حصل لهم من الإذعان ، أعملوا ما لهم في الدعاء إلى الله تعالى من قوة البيان ، فبعد أن نزهوه سبحانه عن الشرك عموماً خصوا مؤكدين في قراءة ابن كثير والبصريين وأبي جعفر بالكسر لما تقدم من أن مثل هذه السهولة لا تكاد تصدق ، فقالوا عطفاً على ﴿ إنا سمعنا ﴾ [الجن : 1] : ﴿ وأنه ﴾ أي الشأن العظيم قال الجن : ﴿ تعالى ﴾ أي انتهى في العلو والارتفاع إلى حد لا يستطاع ﴿ جد ﴾ أي عظمة وسلطان وكمال غنى ﴿ ربنا ﴾ أي الموجد لنا والمحسن إلينا ، وإذا كان هذا التعالي لجده فما بالك به ، وكذا حكت هذه القراءة بقوله الجن ما بعد هذا إلا

﴿ وأن لو استقاموا ﴾ [الجن : 16] و ﴿ أن المساجد لله ﴾ [الجن : 18] و ﴿ أنه لما قام ﴾ [الجن : 19] فإنه مفتوح فيها عطفاً على الموحى به فهو في محل رفع إلا عند أبي جعفر فإنه فتح ﴿ وأنه تعالى ﴾ [الجن : 3] و ﴿ أنه كان يقول ﴾ [الجن : 4] ﴿ وأنه كان رجال ﴾ [الجن : 6] ووافقهم نافع وأبو بكر عن عاصم في غير ﴿ وأنه لما قام ﴾ [الجن : 19] فإنهما كسراها وفتح الباقون وهم ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم الكل إلا ما صدر بالفاء على أنه معطوف على محل الجار في " به " أي صدقناه وصدقنا أنه – لا على لفظه وإلا لزم إعادة الجارّ عند نحاة البصرة ، وقيل : عطف على لفظ الضمير في " به " على المذهب الكوفي الذي نصره أبو حيان وغير واحد من أهل اللسان .

ولما وصفوه بهذا التعالي الأعظم المستلزم للغنى المطلق والتنزه عن كل شائبة نقص ، بينوه بنفي ما ينافيه بقولهم إبطالاً للباطل : ﴿ ما اتخذ ﴾ عبر بصيغة الافتعال بياناً لموضع النقص لا تقييداً ﴿ صاحبة ﴾ أي زوجة ﴿ ولا ولداً ﴾ لأن العادة جارية بأنه لا يكون ذلك إلا بمعالجة وتسبيب ، ومثل ذلك لا يكون إلا لمحتاج إلى بضاع أو غيره ، والحاجة لا تكون إلا من ضعف وعجز ، وذلك ينافي الجد ، فالمحتاج لا يصح أصلاً أن يكون إلهاً وإن كان بغير تسبيب ومهلة ، فهو عبث لأن مطلق الاختراع مغن عنه ، فلم يبق إلا العبث الذي

ينزه الإله عنه والصاحبة لا بد وأن تكون من نوع صاحبها ، ومن له نوع فهو مركب تركيباً عقلياً من صفة مشتركة وصفة مميزة ، والولد لا بد وأن يكون جزءاً منفصلاً عن والده ، ومن له أجزاء فهو مركب تركيباً حسياً ، ومن المقطوع به أن ذلك لا يكون إلا لمحتاج ، وأن الله تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسي أو عقلي .

(118/785)

ولما تبين لهم ما هو عليه سبحانه من النزاهة عن كل شائبة نقص ، وصفوا من قال بضده صيانة لدينهم وعرضهم بالترفع عن الخسائس والرذائل بعدم التمادي في الباطل مقتاً للخلق في ذات الخلق مؤكدين لما للسامع في الغالب من تصديق ما يسمع والمحاجة عنه فقالوا : ﴿ وأنه ﴾ أي وقالوا إلى الشأن – هذا على قراءة الكسر ، وآمنا بأنه – على قراءة الفتح ﴿ كان يقول ﴾ أي قولاً هو في عراقته في الكذب بمنزلة الجبلة والطبع ﴿ سفيهنا ﴾ وهو الجنس فيتناول إبليس رأس الجنس تناولاً أولياً ، وكل من تبعه ممن لم يعرف الله لأن ثمرة العقل العلم ، وثمرة العلم معرفة الله ، فمن لم يعرفه فهو الذي يلازم الطيش والغي لأنه لا علم عنده أصلاً يحمله على الرزانة ، كاذباً متقولاً ﴿ على الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال المنافية

لقول هذا السفيه في الولد ﴿ شططاً ﴾ أي قولاً هو في بعده عن الصواب نفس البعد ومجاوزة الحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 180.184 ﴾

(119/785)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ وأنه تعالى ﴾ إلى قوله ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ بالفتح : يزيد وابن عامر وحمزة وعلي وخلف وحفص . والمشهور عن أبي جعفر أنه كان يفتح الألف في سبعة مواضع ﴿ أنه ﴾ ﴿ وأنه ﴾ في خمسة مواضع ، واثنين في قوله ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ ﴿ وأن المساجد ﴾ وهما بالفتح لا غير بالإتفاق . ﴿ تقول الإنس ﴾ بالتشديد من التفعل : يعقوب ﴿ يسلكه ﴾ على الغيبة : عاصم وحمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب الباقون : بالنون ﴿ وإنه لما قام ﴾ بالكسر : نافع وأبو بكر وحماد ﴿ لبداً ﴾ بالضم : هشام . ﴿ قل إنما أدعو ﴾ على الأمر : عاصم وحمزة ويزيد الآخرون ﴿ قال ﴾ على صيغة الماضي والضمير لعبد الله ﴿ ربي أمداً ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليعلم ﴾ مبنياً للمفعول : يعقوب .

الوقوف : ﴿ عجباً ﴾ ه لا ﴿ فآمنا به ﴾ ط للعدول عن الماضي المثبت إلى ضدهما .

ثم الوقف على الآيات التي بعد أن جائز ضرورة انقطاع النفس والوقف في قراءة الكسر أجوز ﴿ أحداً ﴾ ه ﴿ ولا ولداً ﴾ ه ﴿ شططاً ﴾ ه لا ﴿ رهقاً ﴾ ه ﴿ أحداً ﴾ ه ﴿ وشهباً ﴾ ه ﴿ للسمع ﴾ ط ﴿ رصداً ﴾ ه ﴿ رشداً ﴾ ه ﴿ ذلك ﴾ ط ﴿ قدداً ﴾ ه ﴿ هرباً ﴾ ه ﴿ آمنا به ﴾ ط ﴿ رهقاً ﴾ ه ﴿ ومنا القاسطون ﴾ ه ط للابتداء بالشرط ﴿ رشداً ﴾ ه ﴿ حطباً ﴾ ه لا ﴿ غدقاً ﴾ ه لا ﴿ فيه ﴾ ج ﴿ صعداً ﴾ ه ﴿ أحداً ﴾ ه لمن قرأ ﴿ وأنه ﴾ بالفتح ﴿ لبداً ﴾ ه ﴿ أحداً ﴾ ه ﴿ رشداً ﴾ ه ﴿ ملتحداً ﴾ ه ﴿ ورسالاته ﴾ ط ﴿ أبداً ﴾ ه لا لأن حتى للابتداء بما بعدها ﴿ عدداً ﴾ ه لا ﴿ أمداً ﴾ ه ﴿ أحداً ﴾ ه لا ﴿ رصداً ﴾ ه ﴿ عدداً ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 367 . 368 ﴾

(120/785)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه ، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره ، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء الجن حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة ، ثم قال : وهذا شرح للاسم .

فقوله : وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج ، وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن ، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السفلية ، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف ، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى .

(121/785)

واختلف المثبتون على قولين : فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالة في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها ، قالوا : ولا يلزم من هذا أن يقال : إنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجساماً ولا جسمانية سلوب والمشاركة في السلوب لا تقتضي المساواة

في الماهية ، قالوا : ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها كريمة محبة للخيرات ، وبعضها دنيئة خسيسة محبة للشرور والآفات ، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله ، قالوا : وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخبريات قادرة على الأفعال ، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتفعل الأفعال المخصوصة ، ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر ، ولا يبعد أيضاً أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم ، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي ، هي الأرواح وهي أجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسري فيها هذه الأرواح لم يبعد أيضاً أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء ، فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة ، ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال : هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت

قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية فإذا اتفق أن حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس

(122/785)

المفارقة من البدن ، فسبب تلك المشاكلة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما لهذا البدن ، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن ، فإن الجنسية علة الضم ، فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً ، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة .

والقول الثاني : في الجن أنهم أجسام ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين ، منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها ، إنما المشترك بينها صفة واحدة ، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق ، وهذه كلها إشارة إلى الصفات ، والاشتراك في الصفات لا يقتضي الإشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد .

قالوا : وليس لأحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال : الجسم من حيث إنه جسم له

حد واحد ، وحقيقة واحدة ، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم ، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك ، وأيضاً فلأنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف ، والعلوي والسفلي ، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام ، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية والتفاوت ، إنما يحصل بهذه الصفات ، وهي اللطافة والكثافة ، وكونها علوية وسفلية قالوا : وهاتان الحجتان ضعيفتان .

(123/785)

أما الحجة الأولى : فلأنا نقول ، كما أن الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد ، وحقيقة واحدة ، فكذا العرض من حيث إنه عرض له حد واحد ، وحقيقة واحدة فيلزم منه أن تكون الأعراض كلها متساوية في تمام الماهية ، وهذا مما لا يقوله عاقل ، بل الحق عند الفلاسفة أنه ليس للأعراض ألبتة قدر مشترك بينها من الذاتيات ، إذ لو حصل بينها قدر مشترك ، لكان ذلك المشترك جنساً لها ، ولو كان كذلك لما كانت التسعة أجناساً عالية بل كانت أنواع جنس واحد إذا ثبت هذا فنقول : الأعراض من حيث إنها أعراض لها حقيقة واحدة ، ولم يلزم من ذلك أن يكون بينها ذاتي مشترك أصلاً ، فضلاً عن أن تكون متساوية في تمام الماهية ، فلم لا يجوز أن يكون الحال في الجسم كذلك ، فإنه كما أن الأعراض مختلفة

في تمام الماهية ، ثم إن تلك المختلفات متساوية في وصف عارض وهو كونها عارضة لموضوعاتها ، فكذا من الجائز أن تكون ماهيات الأجسام مختلفة في تمام ماهياتها ثم إنها تكون متساوية في وصف عارض ، وهو كونها مشاراً إليها بالحس وحاصلة في الحيز والمكان ، وموصوفة بالأبعاد الثلاثة ، فهذا الاحتمال لا دافع له أصلاً .

وأما الحجة الثانية : وهي قولهم : إنه يمكن تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف فهي أيضاً منقوضة بالعرض فإنه يمكن تقسيم العرض إلى الكيف والكم ولم يلزم أن يكون هناك قدر مشترك من الذاتي فضلاً عن التساوي في كل الذاتيات فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا أيضاً كذلك إذا ثبت أنه لا امتناع في كون الأجسام مختلفة ولم يدل دليل على بطلان هذا الاحتمال ، فحينئذ قالوا : لا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الهواء في الماهية ثم تكون تلك الماهية تقتضي لذاتها علماً مخصوصاً وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة ، وعلى هذا التقدير يكون القول بالجن ظاهر الاحتمال وتكون قدرتها على التشكل بالأشكال المختلفة ظاهرة الاحتمال .

(124/785)

القول الثاني : قول من قال : الأجسام متساوية في تمام الماهية ، والقائلون بهذا المذهب أيضاً فرقتان .

(125/785)

الفرقة الأولى : زعموا أن البنية ليست شرطاً للحياة وهذا قول الأشعري وجمهور أتباعه وأدلتهم في هذا الباب ظاهرة قوية ، قالوا : ولو كانت البنية شرطاً للحياة لكان إما أن يقال : إن الحياة الواحدة قامت بمجموع الأجزاء أو يقال : قام بكل واحد من الأجزاء حياة على حدة ، والأول محال لأن حلول العرض الواحد في المحال الكثيرة دفعة واحدة غير معقول ، والثاني أيضاً باطل لأن الأجزاء التي منها تألف الجسم متساوية والحياة القائمة بكل واحد منها مساوية للحياة القائمة بالجزء الآخر وحكم الشيء حكم مثله ، فلو افتقر قيام الحياة بهذا الجزء إلى قيام تلك الحياة بذلك الجزء لحصل هذا الافتقار من الجانب الآخر فيلزم وقوع الدور وهو محال ، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ ثبت أن قيام الحياة بهذا الجزء لا يتوقف على قيام الحياة الثانية بذلك الجزء الثاني ، وإذا بطل هذا التوقف ثبت أنه يصح كون الجزء الواحد موصوفاً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة وبطل القول بأن البنية شرط ، قالوا : وأما دليل المعتزلة وهو أنه لا بد من البنية فليس إلا الاستقراء وهو أنا رأينا أنه متى فسدت

البنية بطلت الحياة ومتى لم تفسد بقيت الحياة فوجب توقف الحياة على حصول البنية ، إلا أن هذا ركيك ، فإن الاستقراء لا يفيد القطع بالوجوب ، فما الدليل على أن حال من لم يشاهد كحال ما شوهد ، وأيضاً فلأن هذا الكلام إنما يستقيم على قول من ينكر خرق العادات ، أما من يجوزها فهذا لا يتمشى على مذهبه والفرق بينهما في جعل بعضها على سبيل العادة وجعل بعضها على سبيل الوجوب تحكم محض لا سبيل إليه ، فثبت أن البنية ليست شرطاً في الحياة ، وإذا ثبت هذا لم يبعد أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علماً بأمور كثيرة وقدرة على أشياء شاقة شديدة ، وعند هذا ظهر القول بإمكان وجود الجن ، سواء كانت أجسامهم لطيفة أو كثيفة ، وسواء كانت أجزاؤهم كبيرة أو صغيرة .

(126/785)

القول الثاني : أن البنية شرط الحياة وأنه لا بد من صلابة في البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة فههنا مسألة أخرى ، وهي أنه هل يمكن أن يكون المرئي حاضراً والموانع مرتفعة والشرائط من القرب والبعد حاصلة ، وتكون الحاسة سليمة ، ثم مع هذا لا يحصل الإدراك أو يكون هذا ممتنعاً عقلاً ؟ أما الأشعري وأتباعه فقد جوزوه ، وأما المعتزلة فقد حكموا بامتناعه عقلاً ، والأشعري احتج على قوله بوجوه عقلية ونقلية ، أما العقلية

فأمران : الأول : أنا نرى الكبير من البعد صغيراً وما ذاك إلا أنا نرى بعض أجزاء ذلك البعيد دون البعض مع أن نسبة الحاسة وجميع الشرائط إلى تلك الأجزاء المرئية كهي بالنسبة إلى الأجزاء التي هي غير مرئية فعلمنا أن مع حصول سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول الشرائط وانتفاء الموانع لا يكون الإدراك واجباً الثاني : أن الجسم الكبير لا معنى له إلا مجموع تلك الأجزاء المتألفة ، فإذا رأينا ذلك الجسم الكبير على مقدار من البعد فقد رأينا تلك الأجزاء ، فإما أن تكون رؤية هذا الجزء مشروطة برؤية ذلك الجزء الآخر أو لا تكون ، فإن كان الأول يلزم الدور لأن الأجزاء متساوية فلو افتقرت رؤية هذا الجزء إلى رؤية ذلك الجزء لافتقرت أيضاً رؤية ذلك الجزء إلى رؤية هذا الجزء فيقع الدور ، وإن لم يحصل هذا الافتقار فحينئذ رؤية الجوهر الفرد على ذلك القدر من المسافة تكون ممكنة ، ثم من المعلوم أن ذلك الجوهر الفرد لو حصل وحده من غير أن ينضم إليه سائر الجواهر فإنه لا يرى ، فعلمنا أن حصول الرؤية عند اجتماع الشرائط لا يكون واجباً بل جائزاً ، وأما المعتزلة فقد عولوا على أنا لو جوزنا ذلك لجوزنا أن يكون بحضرتنا طبلات وبوقات ولا نراها ولا نسمعها فإذا عارضناهم بسائر الأمور العادية وقلنا لهم : فجوزوا أن يقال انقلبت مياه البحار ذهب وفضة ، والجبال ياقوتاً وزبرجداً ، أو حصلت في السماء حال ما غمضت العين ألف شمس وقمر ، ثم كما فتحت

العين أعدمها الله عجزوا عن الفرق ، والسبب في هذا التشوش أن هؤلاء المعتزلة نظروا إلى هذه الأمور المطردة في مناهج العادات ، فوهموا أن بعضها واجبة ، وبعضها غير واجبة ، ولم يجدوا قانوناً مستقيماً ، ومأخذاً سليماً في الفرق بين البابين ، فتشوش الأمر عليهم ، بل الواجب أن يسوى بين الكل ، فيحكم على الكل بالوجوب ، كما هو قول الفلاسفة ، أو على الكل بعدم الوجوب كما هو قول الأشعري .

فأما التحكم في الفرق فهو بعيد ، إذا ثبت هذا ظهر جواز القول بالجن ، فإن أجسامهم وإن كانت كثيفة قوية إلا أنه يمتنع أن لا تراها ، وإن كانوا حاضرين هذا على قول الأشعري فهذا هو تفصيل هذه الوجوه ، وأنا متعجب من هؤلاء المعتزلة أنهم كيف يصدقون ما جاء في القرآن من إثبات الملك والجن مع استمرارهم على مذاهبهم ، وذلك لأن القرآن دل على أن للملائكة قوة عظيمة على الأفعال الشاقة ، والجن أيضاً كذلك ، وهذه القدرة لا تثبت إلا في الأعضاء الكثيفة الصلبة ، فإذاً يجب في الملك والجن أن يكون كذلك ، ثم إن هؤلاء الملائكة حاضرون عندنا أبداً ، وهم الكرام الكاتبون والحفظة ، ويحضرون أيضاً عند قبض الأرواح ، وقد كانوا يحضرون عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن أحداً من القوم ما كان يراهم ، وكذلك الناس الجالسون عند من يكون في النزع لا يرون أحداً ، فإن وجبت رؤية الكثيف عند الحضور فلم لا نراها وإن لم تجب الرؤية فقد بطل مذهبهم ، وإن كانوا

موصفون بالقوة والشدة مع عدم الكثافة والصلابة فقد بطل قولهم : إن البنية شرط الحياة ، وإن قالوا : إنها أجسام لطيفة وحية ، ولكنها للطافتها لا تقدر على الأعمال الشاقة ، فهذا إنكار لصريح القرآن ، وبالجملة فحالهم في الإقرار بالملك والجن مع هذه المذاهب عجيب ، وليتهم ذكروا على صحة مذاهبهم شبهة مخيلة فضلاً عن حجة مبينة ، فهذا هو التنبيه على ما في هذا الباب من الدقائق والمشكلات ، وبالله التوفيق .

المسألة الثانية :

(128/785)

اختلفت الروايات في أنه عليه الصلاة والسلام هل رأى الجن أم لا ؟ .

فالقول الأول : وهو مذهب ابن عباس أنه عليه السلام ما رآهم ، قال : إن الجن كانوا يقصدون السماء في الفترة بين عيسى ومحمد فيستمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة فلما بعث الله محمداً عليه السلام حرست السماء ، وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس وأخبروه بالقصة فقال : لا بد لهذا من سبب فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها واطلبوا السبب فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة

الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا والله هو الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ فأخبر الله تعالى محمداً عليه السلام عن ذلك الغيب وقال : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ كذا وكذا ، قال وفي هذا دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحي ، فإن قيل : الذين رموا بالشهب هم الشياطين والذين سمعوا القرآن هم الجن فكيف وجه الجمع ؟ قلنا : فيه وجهان الأول : أن الجن كانوا مع الشياطين فلما رمي الشياطين أخذ الجن الذين كانوا معهم في تجسس الخبر الثاني : أن الذين رموا بالشهب كانوا من الجن إلا أنه قيل لهم : شياطين كما قيل : شياطين الجن والإنس فإن الشيطان كل متمرد بعيد عن طاعة الله ، واختلفوا في أن أولئك الجن الذين سمعوا القرآن من هم ؟ فروى عاصم عن ذر قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه مكة على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفوا فذلك قوله :

﴿ وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ [الأحقاف : 29] وقيل : كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم .

القول الثاني : وهو مذهب ابن مسعود أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام ، قال ابن مسعود قال عليه الصلاة والسلام : " أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب معي ؟ فسكتوا ، ثم قال الثانية فسكتوا ، ثم قال الثالثة ، فقال : عبد الله قلت أنا أذهب معك يا رسول الله قال : فانطلق حتى إذا جاء الحجون عند شعب ابن أبي دب ، خط علي خطاً فقال : لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط (1) يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه ، فغاب عن بصري فقمت ، فأومأ إلي بيده أن أجلس ، ثم تلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى صرت أسمع صوتهم ولا أراهم .

وفي رواية أخرى فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنت ؟ قال : أنا نبي الله ، قالوا : فمن يشهد لك على ذلك ؟ قال : هذه الشجرة ، تعالي يا شجرة ، فجاءت تجر عروقها لها قعاقع حتى انصبت بين يديه ، فقال على ماذا تشهدين لي ؟ قالت : أشهد أنك رسول الله ، قال : اذهبي ، فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت .

قال ابن مسعود : فلما عاد إلي ، قال : أردت أن تأتيني ؟ قلت : نعم يا رسول الله قال : ما كان ذلك لك ، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر ، فلا يستطيبن أحد بعظم ولا بعر . "

(1) يروى الحديث هكذا : «أجسامهم كأجسام الزط ورؤسهم كرءوس المكاكي» .

يعني عظام الأجسام صغار الرءوس والمكاكي جمع مكاء وهو طائر صغير .

(130/785)

واعلم أنه لا سبيل إلى تكذيب الروايات ، وطريق التوفيق بين مذهب ابن عباس ، ومذهب ابن مسعود من وجوه أحدها : لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولاً ، فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود وثانيها : أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة ، إلا أنه عليه السلام أمر بالذهاب إليهم ، وقراءة القرآن عليهم ، إلا أنه عليه السلام ما عرف أنهم ماذا قالوا ، وأي شيء فعلوا ، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وقالوا كذا وثالثها : أن الواقعة كانت مرة واحدة ، وهو عليه السلام رآهم وسمع كلامهم ، وهم آمنوا به ، ثم لما رجعوا إلى قومهم قالوا لقومهم على سبيل الحكاية : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ وكان كذا وكذا ، فأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما قالوه لأقوامهم ، وإذا كانت هذه الوجوه محتملة فلا سبيل إلى التكذيب .

المسألة الثالثة :

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في

واقعة الجن ، وفيه فوائد إحداها : أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن وثانيها : أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول وثالثها : أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس ورابعها : أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا وخامسها : أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان ، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس .

المسألة الرابعة :

(131/785)

الإيحاء إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء كالإلهام وإنزال الملك ويكون ذلك في سرعة من قولهم : الوحي الوحي والقراءة المشهورة ، ﴿ أوحى ﴾ بالألف ، وفي رواية يونس وهرون ، عن أبي عمرو ﴿ وَحْىٌ ﴾ بضم الواو بغير ألف وهما لغتان يقال : وحي إليه وأوحى إليه وقرىء ﴿ أحي ﴾ بالهمز من غير واو ، وأصله وحي ، فقلبت الواو همزة كما يقال : أعد وأزن و ﴿ إِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ [المرسلات : 11] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

أجمعوا على أن قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ بالفتح وذلك لأنه نائب فاعل ﴿ أُوحِيَ ﴾ فهو كقوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلى هذا القرءان ﴾ [الأنعام : 19] وأجمعوا على كسر إنا في قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ لأنه مبتدأ محكي بعد القول ، ثم ههنا قراءتان إحداهما : أن نحمل البواقي على الموضعين اللذين بينا أنهم أجمعوا عليهما فما كان من الوحي فتح ، وما كان من قول الجن كسر ، وكلها من قول الجن إلا الآخرين وهما قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ ﴾ [الجن : 19] ، وثانيهما : فتح الكل والتقدير : فآمنا به وآمنا بأنه تعالى جد ربنا وبأنه كان يقول سفيهنا وكذا البواقي ، فإن قيل : ههنا إشكال من وجهين أحدهما : أنه يقبح إضافة الإيمان إلى بعض هذه السورة فإنه يقبح أن يقال : وآمنا بأنه كان يقول : سفيهنا على الله شططاً والثاني : وهو أنه لا يعطف على الهاء المخفوضة إلا بإظهار الخافض لا يقال : آمنا به وزيد ، بل يقال : آمنا به وبزيد والجواب : عن الإشكالين أنا إذا حملنا قوله : آمنا على معنى صدقنا وشهدنا زال الإشكالان .

المسألة الثانية :

﴿ نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة روي أن ذلك النفر كانوا يهوداً ، وذكر الحسن أن فيهم يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين ، ثم اعلم أن الجن حكوا أشياء :

النوع الأول : مما حكوه قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ أي قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كقوله : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 29] ، ﴿ قرآناً عجباً ﴾ أي خارجاً عن حد أشكاله ونظائره ، و (عجباً) مصدر يوضع موضع العجيب ولا شك أنه أبلغ من العجيب ، ﴿ يَهْدِي إِلَى الرشد ﴾ أي إلى الصواب ، وقيل : إلى التوحيد ﴿ فآمنا به ﴾ أي بالقرآن ويمكن أن يكون المراد فآمنا بالرشد الذي في القرآن وهو التوحيد ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا من المشركين .

النوع الثاني : مما ذكره الجن أنهم كما نفوا عن أنفسهم الشرك نزهوا ربهم عن الصاحبة والولد .

فقالوا :

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الجد قولان : الأول : الجد في اللغة العظمة يقال : جد فلان أي عظم ومنه الحديث : "

كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا " أي جد قدره وعظم ، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكثر به والاستئناس ، وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزه عن كل نقص .

القول الثاني : الجد الغنى ومنه الحديث : " لا ينفع ذا الجد منك الجد " قال أبو عبيدة : أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه ، وكذلك الحديث الآخر : " قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبوسون " يعني أصحاب الغنى في الدنيا ، فيكون المعنى وأنه تعالى غني عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد .

(133/785)

وعندي فيه قول ثالث : وهو أن جد الإنسان أصله الذي منه وجوده فجعل الجد مجازاً عن الأصل ، فقوله : ﴿ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ معناه تعالى أصل ربنا وأصله حقيقته المخصوصة التي لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هي تكون واجبة الوجود فيصير المعنى أن حقيقته المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته ، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ جدا ربّنَا ﴾ بالنصب على التمييز و ﴿ جد ربّنَا ﴾ بالكسر أي صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وكأن هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفرة الجن فرجعوا أولاً عن الشرك وثانياً عن دين النصارى .

النوع الثالث : مما ذكره الجن قوله تعالى :

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4)

السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه .

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد ، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات ، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه ، وإثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الأمرين شطط ومذموم .

النوع الرابع : قوله تعالى :

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

معنى الآية أنا إنما أخذنا قول الغير لأنا ظننا أنه لا يقال : الكذب على الله ، فلما سمعنا

القرآن علمنا أنهم قد يكذبون ، وهذا منهم إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات بسبب التقليد ، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج.

المسألة الثانية :

(134/785)

قوله : ﴿ كَذِبًا ﴾ بم نصب ؟ فيه وجوه أحدها : أنه وصف مصدر محذوف والتقدير أن لن تقول الإنس والجن على الله قولاً كذباً وثانيها : أنه نصب نصب المصدر لأن الكذب نوع من القول وثالثها : أن من قرأ : ﴿ أَن لَّن تَقُولَ ﴾ وضع ﴿ كَذِبًا ﴾ موضع تقوّلاً ، ولم يجعله صفة ، لأن التقوّل لا يكون إلا كذباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 138.131 ﴾

(135/785)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي قل يا محمد لأمتك : أَوْحَى الله إليّ على لسان جبريل ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ إليّ ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن أوحي إليه .

هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي .

وقرأ ابن أبي عَبْلة "أحِيَ" على الأصل ؛ يقال : أَوحَى إليه ووحَى ، فقلبت الواو همزة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ [المرسلات : 11] وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة .

وقد أطلقه المازنيّ في المكسورة أيضاً كإشاح وإسادة و "إِعَاءِ أَخِيهِ" ونحوه .

الثانية واختلف هل رآهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ استمع ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن ﴾ .

وفي صحيح مسلم والترمذي عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنّ وما رآهم ، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشُهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ؛ فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا وبين خبر

السماء ، وأرسلت علينا الشُّهب ! قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سُوق عُكَاظ ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر ؛ فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء .

(136/785)

فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ ﴿ يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ فأنزل الله عز وجل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ .

رواه الترمذي عن ابن عباس قال : " قول الجنّ لقومهم ﴿ لَّمَا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ قال : لما رأوه يصلّي وأصحابه يصلّون بصلاته فيسجدون بسجوده قال : تعجّبوا من طواعية أصحابه له ، قالوا لقومهم : "لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا" " قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجنّ ولكنهم حضروه ، وسمعوا قراءته .

وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رُمُوا بالشّهب .

وكان المرميّون بالشّهب من الجنّ أيضاً .

وقيل لهم شياطين كما قال : " شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ " فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله .

وفي الترمذي عن ابن عباس قال :

" كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوَحْي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقًّا ، وأما ما زادوا فيها ، فيكون باطلاً .

فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنِعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث في الأرض ! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلّي بين جبلين أراه قال بمكة فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحَدث الذي حدث في الأرض .

قال : هذا حديث حسن صحيح .

(137/785)

فدلّ هذا الحديث على أن الجنّ رموا كما رُميت الشياطين " وفي رواية السُّديّ : أنهم لما رُموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : أيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمّها فأتوه فشمّ فقال : صاحبكم بمكة .

فبعث نفراً من الجنّ ، قيل : كانوا سبعة .

وقيل : تسعة منهم زَوْبعة .

وروى عاصم عن زِرّ قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال الثُّماليّ : بلغني أنهم من بني الشَّيْصَبَان ، وهم أكثر الجنّ عدداً ، وأقواهم شوكة ، وهم عامة جنود إبليس .

ورَوي أيضاً عاصم عن زرّ : أنهم كانوا سبعة نفر ؛ ثلاثة من أهل حَرَّان وأربعة من أهل نَصِيبين .

وحكي جُويبر عن الضحاك : أنهم كانوا تسعة من أهل نَصِيبين (قرية باليمن غير التي بالعراق) .

وقيل : إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نصِيبين ، والذين أتوه بنخلة جنّ نِيْنَوَى .

وقد مضى بيان هذا في سورة "الأحقاف" .

قال عِكرمة : والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ

﴿ [العلق : 1] وقد مضى في سورة "الأحقاف" التعريف باسم النفر من الجنّ ، فلا معنى لإعادة ذلك .

(138/785)

وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت ؛ " روى عامر الشّعبي قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب ، فقلنا استطير أو اغتيل ، قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حِرَاء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم ؛ فقال : "أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن" فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة ، فقال : "لكم كلُّ عَظْم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً ، وكلُّ بَعْرة عَلَفٌ لدوابكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجُوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم الجنّ" "

قال ابن العربي : وابن مسعود أعرف من ابن عباس ؛ لأنه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة .

وقد قيل : إن الجنّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين : إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود ، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس .

قال البيهقيّ : الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ، ثم أتاه داعي الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود .

قال البيهقي : والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجنّ وآثار نيرانهم .

(139/785)

قال : وقد رُوي من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ ، وقد مضى هذا المعنى في سورة "الأحقاف" والحمد لله .

روي عن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أتلوا القرآن على الجنّ فمن يذهب معي ؟" فسكتوا ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، ثم قال عبد الله بن مسعود :

أنا أذهب معك يا رسول الله ، فانطلق حتى جاء الحَجُون عند شِعْب أبي دُبّ فخطّ عليَّ خطّا فقال : "لا تجاوزه" ثم مضى إلى الحَجُون فانحدر عليه أمثالُ الحَجَل يحدرون الحجارة بأقدامهم ، يمشون يقرعون في دُفوفهم كما تَقرْعِ النّسوة في دُفوفها ، حتى غَشَوه فلا أراه ، فقمت فأوْمَى إليّ بيده أن أجلس ، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما انفتل إليّ قال : "أردتَ أن تأتيني" ؟ قلت : نعم يا رسول الله .

قال : "ما كان ذلك لك ، هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن ، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستطِيبَنّ أحدكم بعظم ولا بعر " قال عكرمة : وكانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل .

وفي رواية : " انطلق بي عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خَطّ لي خطًّا ، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزط وكأن وجوههم المَكَاكي ، فقالوا : ما أنت ؟ قال : "أنا نبيّ الله" قالوا : فمن يشهد لك على ذلك ؟ قال : "هذه الشجرة" فقال : "يا شجرة" فجاءت تجرّ عروقها ، لها قعاقع حتى أنتصبت بين يديه ، فقال : "على ماذا تشهدين" قالت : أشهد أنك رسول الله .

فرجعت كما جاءت تجرّ بعروقها الحجارة ، لها قعاقع حتى عادت كما كانت .

ثم روي .

أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حجرِ ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال : "هل

من وضوء" قال : لا ، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ .

فقال : "هل هو إلا تمر وماء" فتوضأ منه" .

الثالثة قد مضى الكلام في الماء في سورة "الحجر" وما يستنجَى به في سورة "براءة" فلا معنى للإعادة .

(140/785)

الرابعة واختلف أهل العلم ، في أصل الجنّ ؛ فروى إسماعيل عن الحسن البصريّ : أن الجنّ ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب .

فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو وليّ الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان .

وروى الضحاك عن ابن عباس : أن الجّن هم ولد الجان وليسوا بشياطين ، وهم يؤمنون ؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس .

واختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة ، على حسب الاختلاف في أصلهم .

فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرّية إبليس قال : يدخلون الجنة بإيمانهم .

ومن قال : إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيه قولان : أحدهما وهو قول الحسن يدخلونها .

الثاني وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار .

حكاه الماورديّ .

وقد مضى في سورة "الرحمن" عند قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] بيان أنهم يدخلونها .

الخامسة قال البيهقي في روايته : " وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة فقال : "لكم كلُّ عظم" " دليل على أنهم يأكلون ويَطْعَمون .

وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ ، وقالوا : إنهم بسائط ، ولا يصح طعامهم ؛ اجتراءً على الله وافتراءً ، والقرآن والسنة تردّ عليهم ، وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج ، إنما الواحد الواحد سبحانه ، وغيره مركب وليس بواحد كيفما تصرف حاله .

وليس يمتنع أن يراهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورهم كما يرى الملائكة .

وأكثر ما يَتَصوّرون لنا في صور الحيات ؛ ففي الموطأ : أن رجلا حديث عهد بعُرس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله . . .

الحديث ، وفيه : فإذا حيّة عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها .

وذكر الحديث .

وفي الصحيح أنه عليه السلام قال : " إن لهذه البيوت عوامر ، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرِّجوا عليها ثلاثاً ، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر " .

وقال : "أذهبوا فادفنوا صاحبكم " وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" وبيان التحريج عليهنّ .

وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة ؛ لقوله في الصحيح : " إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا " وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها .

قلنا : هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها ؛ لأنه لم يُعَلَّل بحرمة المدينة ، فيكون ذلك الحكم مخصوصاً بها ، وإنما عُلِّل بالإسلام ، وذلك عامّ في غيرها ألا ترى قوله في الحديث مخبراً عن الجنّ الذي لقي :

" وكانوا من جنّ الجزيرة " ؛ وهذا بيِّن يَعضُده قوله : " ونَهَى عن عوامر البيوت " ، وهذا عامّ .

وقد مضى في سورة "البقرة" القول في هذا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ أي في فصاحة كلامه .

وقيل : عَجَباً في بلاغة مواعظه .

وقيل : عجباً في عظم بركته .

وقيل : قرآنا عزيزاً لا يوجد مثله .

وقيل : يعنون عظيماً .

﴿ يهدي إِلَى الرشد ﴾ أي إلى مراشد الأمور .

وقيل : إلى معرفة الله تعالى ؛ و "يَهْدِي" في موضع الصفة أي هادياً .

﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ أي فاهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه ؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر ، ثم رُمِي الجنّ بالشُّهب .

وقيل لا نتخذ مع الله إلها آخر ؛ لأنه المتفرّد بالربوبية .

وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ أي استمعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله .

ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه .

والنفر الرهط ؛ قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة .

وقرأ عيسى الثَّقفي "يَهْدِي إِلَى الرَّشَدِ" بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ كان عَلْقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائيّ وابن عامر وخَلَف وحفص والسّلمي ينصبون "أَنَّ" في جميع السورة في اثني عشر موضعاً ، وهو : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا لاَ ندري ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِي الأرض ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ ، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ ، عطفاً على قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ استمع ﴾ لا يجوز فيه إلا الفتح ؛ لأنها في موضع اسم فاعل "أُوحِيَ" فما بعده عليه .

وقيل : هو محمول على الهاء في "آمَنَّا بِهِ" أي وب "أَنَّه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا" وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع "أنّ" .

وقيل : المعنى أي وصدّقنا أنه جدّ ربنا .

وقرأ الباقون كلَّها بالكسر وهو الصواب ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفاً على قوله : ﴿ فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ لأنه كله من كلام الجنّ .

وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ﴾ ، قالا : لأنه من الوحي ، وكسرا ما

بقي ؛ لأنه من كلام الجنّ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ فكلهم فتحوا إلا نافعاً وشيبة وزرّ بن حُبيش وأبا بكر والمفضّل عن عاصم ، فإنهم كسروا لا غير .

ولا خلاف في فتح همزة ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ ، ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا ﴾ ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ ، ﴿ وَأَنْ قَدْ أَبْلَغُواْ ﴾ .

(143/785)

وكذلك لا خلاق في كسرها ما بعد القول ؛ نحو قوله تعالى : "فقالوا إنا سمعنا" و ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي ﴾ و ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي ﴾

﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ ﴾ [الجن : 21] وكذلك لا خلاف في كسر ما كان بعد فاء الجزاء ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [الجن : 23] و"فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ" لأنه موضع ابتداء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ الجدّ في اللغة : العظمة والجلال ؛ ومنه قوله أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآلِ عمران جَدّ في عيوننا ؛ أي عَظُم وجلّ .

فمعنى : "جدُّ رَبِّنَا" أي عظمته وجلاله ؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة .

وعن مجاهد أيضاً : ذِكره .

وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً : غناه .

ومنه قيل للحظ جَدٌّ ، ورجل مجدود أي محظوظ ؛ وفي الحديث : " ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ " قال أبو عبيدة والخليل : أي ذا الغنى ، منك الغنى ، إنما تنفعه الطاعة .

وقال ابن عباس : قدرته .

الضحاك : فعله .

وقال القُرظيّ والضحاك أيضاً : آلاؤهُ ونعمه على خلقه .

وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه .

وقال السديّ : أمره .

وقال سعيد بن جُبير : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي تعالى ربنا .

وقيل : إنهم عَنَوا بذلك الجدّ الذي هو أب الأب ، ويكون هذا من قول الجنّ .

وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدّ ، وإنما قالته الجنّ للجهالة ، فلم يؤاخذوا به .

وقال القشيريّ : ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حق الله تعالى ؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن ، غير أنه لفظ مُوهِم ، فتجنُّبه أولى .

وقراءة عِكرمة "جِدّ" بكسر الجيم : على ضد الهزل .

وكذلك قرأ أبو حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع .

ويروى عن ابن السَّمَيقع أيضاً وأبي الأشهب "جَدَا رَبِّنَا" ، وهو الجدوى والمنفعة .

(144/785)

وقرأ عكرمة أيضاً "جَدًّا" بالتنوين "رَبُّنَا" بالرفع على أنه مرفوع ، ب"تعالى" ، و"جَدًّا" منصوب على التمييز .

وعن عكرمة أيضاً "جَدٌّ" بالتنوين والرفع "رَبُّنَا" بالرفع على تقدير : تعالى جَدٌّ جَدُّ رَبِّنا ؛ فجدّ الثاني بدل من الأوّل وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه .

ومعنى الآية : وأنه تعالى جلال ربِّنا أن يتخذ صاحبة وولداً للإستئناس بهما والحاجة إليهما ، والرّب يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾

الهاء في "أَنَّهُ" للأمر أو الحديث ، وفي "كَانَ" اسمها ، وما بعدها الخبر .

ويجوز أن تكون "كَانَ" زائدة .

والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة .

ورواه أبو بُرْدة بن أبي موسى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المشركون من الجنّ : قال قتادة : عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس .

والشطط والاشتطاط : الغلوّ في الكفر .

وقال أبو مالك : هو الجَور .

الكلبيّ : هو الكذب .

وأصله البعد فيعبّر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأيّةِ حالٍ حكّموا فيك فاشتطوا . . .

وما ذاكَ إلا حيثُ يَمَّمَكَ الوَخْطُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(145/785)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ هؤلاءِ النفرُ من الجنّ هم الذين صَادَفُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأ ببطنِ نخلةٍ في صَلاَةِ الصّبْحِ ، وقد تَقَدَّمَ قَصَصَهم في سورةِ الأحقافِ ، وقولُ الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا . . . ﴾ الآيات ، هو خطابٌ منهم لقَوْمهم .

و ﴿ قُرْآناً عَجَباً ﴾ : معناه : ذا عَجَبٍ ؛ لأن العَجَبَ مصدرٌ يقعُ من سَامِعِ القرآن لبراعتِه

وفصاحتِه ومُضَمَّنَاتِه.

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قَالَ الجمهورُ: معناه: عَظَمَةُ ربنا، وروي عن أنسٍ أنه قال: كان الرجلُ إذا قَرَأَ البَقَرَةَ، وآلَ عمرانَ جَدَّ في أعيننا، أي: عَظُم، وعن الحسن: ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ غِنَاهُ وقال مجاهد: ذِكْرُهُ، وقال بعضهم: جَلاَلُه، ومَنْ فَتَحَ الأَلِفَ من قوله: ﴿ وَأَنَّهُ تعالى ﴾ اخْتَلَفُوا في تأويلِ ذلك، فقال بعضُهم: هو عَطْفٌ على ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ فيجيءُ عَلَى هذا قولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ تعالى ﴾ مما أُمِرَ أَنْ يقولَ النبيَّ إنَّه أوحي إليه، ولَيْسَ هو من كلامِ الجنِّ، وفي هذا قَلَقٌ، وقال بعضهم: بل هو عطف على الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ كأنه يقول: فآمنا به وبأنه تعالى، وهذا القول أَبْيَنَ في المعنى، لكنَّ فيه من جهةِ النحو العطفَ على الضميرِ المخفوض دُونَ إعَادَةِ الخَافِضِ، وذلك لاَ يَحْسن

* ت *: بلْ هُوَ حَسَنٌ؛ إذ قَدْ أتى في النظم والنَّثْرِ الصحيحِ، مُثْبَتاً، وقرأ عكرمة: «تعالى جَدٌّ رَبُّنَا» بِفَتْحِ الجيمِ وضَمِّ الدالِ وتَنْوِينِهِ ورفْعِ الرَّبِّ، كأنه يقول: تعَالَى عَظِيمٌ هو ربُّنا، فَـ«رَبُّنَا» بدلٌ والجَدُّ: العَظِيمُ في اللغةِ، وقرأ أبو الدرداء: «تعالى ذِكْرُ رَبِّنَا» ورُوي عنه: «تعالى جَلاَلُ رَبِّنَا».

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ لا خِلاَفَ أن هَذَا مِنْ قَوْلِ الجِنّ ، والسفيهُ : المذكورُ قال جمهورٌ من المفسرينَ : هُو إبليسُ لعنه اللَّه ، وقال آخرونَ : هو اسْمُ جنسٍ لكلِّ سفيهٍ مِنْهُمْ ولاَ مَحَالَةَ أَنَّ إبليسَ صَدْرٌ في السفاهةِ ، وهذا القول أحْسَنُ ، والشَّطَطُ : التَّعَدّي وتجاوُزُ الحدّ بقولٍ أو فعل ، *ص* : ﴿ شَطَطًا ﴾ أبو البقاءِ : نَعْتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : قَوْلاً شَطَطًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(147/785)

وقال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾

وقرأ ابن أبي عبلة والعتكي عن أبي عمرو وجؤبة بن عائذ الأسدي وحي بلا همزة وهو بمعنى أوحي بالهمز ومنه قول العجاج

ا القرار فاستقرت . . .

وقرأ زيد بن علي وجؤبة فيما روى عنه الكسائي وابن أبي عبلة في رواية أحي بإبدال واو وحي همزة كما قالوا في وعد أعد قال الزمخشري وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو

مضمومة وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضاً كأشاح وإعاء وإسادة وهذا أحد قولين للمازني والقول الآخر قصر ذلك على السماع وما ذكره من إطلاق الجواز في المضمومة تعقب بأن المضمومة قد تكون أولاً وحشوا وآخراً ولكل منها أحكام وفي بعضها خلاف وتفصيل مذكور في كتب النحو فليراجع وزاد بعض الأجلة قلب الواو المضموم ما قبلها فقال إنه أيضاً مقيس مطرد وأنه قد يرد ذلك في المفتوحة كأحد وعلى جميع القراآت الجار متعلق بما عنده ونائب الفاعل ﴿ أَنَّهُ ﴾ الخ على أنه في تأويل المصدر والضمير للشأن ﴿ استمع ﴾ أي القرآن كما ذكر في الاحقاق وقد حذف لدلالة ما بعده عليه ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ النفر في المشهور ما بين الثلاثة والعشرة وقال الحريري في درته أن النفر إنما يقع على الثلاثة من الرجال إلى العشرة وقد وهم في ذلك فقد يطلق على ما فوق العشرة في الفصيح وقد ذكره غير واحد من أهل اللغة وفي كلام الشعبي حدثني بضعة عشر نفراً ولا يختص بالرجال بل ولا بالناس لإطلاقه على الجن هنا وفي المجمل الرهط والنفر يستعمل إلى الأربعين والفرق بينهما أن الرهط يرجعون إلى أب واحد بخلاف النفر وقد يطلق على القوم ومنه قوله تعالى وأعز نفراً وقول امرىء القيس

: فهو لا تنمى رميته . . .

ماله لا عد من نفره

وقال الإمام الكرماني للنفر معنى آخر في العرف وهو الرجل وأراد بالعرف عرف اللغة لأنه فسر به الحديث الصحيح فليحفظ والجن واحده جنى كروم ورومي وهم أجسام عاقلة تغلب عليها النارية كما يشهد له قوله تعالى : ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾ [الرحمن : 15] وقيل الهوائية قابلة جميعها أو صنف منها للتشكل بالأشكال المختلفة من شأنها الخفاء وقد ترى بصور غير صورها الأصلية بل وبصورها الأصلية التي خلقت عليها كالملائكة عليهم السلام وهذا للأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ومن شاء الله تعالى من خواص عباده عز وجل ولها قوة على الأعمال الشاقة ولا مانع عقلاً من أن تكون بعض الأجسام اللطيفة النارية مخالفة لسائر أنواع الجسم اللطيف في الماهية ولها قبول لإفاضة الحياة والقدرة على أفعال عجيبة مثلاً وقد قال أهل الحكمة الجديدة بأجسام لطيفة أثبتوا لها من الخواص ما يبهر العقول فلتكن أجسام الجن على ذلك النحو من الأجسام وعالم الطبيعة أوسع من أن تحيط بحصر ما أودع فيه الأفهام وأكثر الفلاسفة على إنكار الجن وفي رسالة الحدود لابن سينا الجني حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة وهذا شرح الاسم وظاهره نفى أن يكون لهذه الحقيقة وجود في الخارج ونفى ذلك كفر صريح كما لا يخفى واعترف جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات بوجودهم ويسمونهم بالأرواح السفلية والمشهور أنهم زعموا أنها جواهر قائمة بأنفسها ليست أجساماً ولا

جسمانية وهي أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض فبعضها خيرة وبعضها شريرة ولا يعرف عدد أنواعها وأصنافها إلا الله عز وجل ولا يبعد على هذا أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة يعجز عنها البشر بل لا يبعد أيضاً على ما قيل أن يكون لكل نوع مها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم ومن الناس من زعم أن الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها ازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من

(149/785)

انكشاف الأسرار الروحانية فإذا اتفق حدوث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن تعلقت تلك النفس به تعلقاً ما وتصير كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة والكل مختلف لأقوال السلف وظاهر الآيات والأحاديث وجمهور أرباب الملل معترفون بوجودهم كالمسلمين وإن اختلفوا في حقيقتهم وتمام الكلام في هذا المقام يطلق من آكام المرجان وفي "التفسير الكبير" طرف مما يتعلق بذلك فارجع إليه إن أردته واختلف

في عدد المستمعين فقيل سبعة فعن زر ثلاث من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين قرية باليمن غير القرية التي بالعراق وعن عكرمة أنهم كانوا إثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل وأين سبعة أو تسعة من اثني عشر ألفاً ولعل النفر عليه القوم وفي "الكشاف" كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم والآية ظاهرة في أنه صلى الله عليه وسلم علم استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة وقد وقع في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام رآهم وجمع ذلك بتعدد القصة قال في آكام المرجان ما محصله في الصحيحين في حديث ابن عباس ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما انطلق بطائفة من الصحابة لسوق عكاظ وقد حيل بين الجن والسماء بالشهب فقالوا ما ذاك إلا لشيء حدث فأضربوا مشارق الأرض ومغاربها فمر من ذهب لتهامة منهم به عليه الصلاة والسلام وهو يصلي الفجر بأصحابه بنخلة فلما استمعوا له قالوا هذا الذي حال بيننا وبين السماء ورجعوا إلى قومهم وقالوا

(150/785)

﴿ يا قومنا ﴾ [الأحقاف : 30] الخ فأنزل الله تعالى عليه قل أوحي الخ ثم قال ونفى ابن عباس إنما هو في هذه القصة واستماعهم تلاوته صلى الله عليه وسلم في الفجر في هذه

القصة لا مطلقاً ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ [الأحقاف : 29] الخ فإنها تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كلمهم ودعاهم وجعلهم رسلاً لمن عداهم كما قاله البيهقي وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن قال وانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم " الخ وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات وقال ابن تيمية أن ابن عباس علم ما دل عليه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وأبو هريرة من إتيان الجن له صلى الله عليه وسلم ومكالمتهم إياه عليه الصلاة والسلام وقصة الجن كانت قبل الهجرة بثلاث سنين وقال الواقدي كانت سنة إحدى عشرة من النبوة وابن عباس ناهز الحلم في حجة الوداع فقد علمت أن قصة الجن وقعت ست مرات وفي "شرح البيهقي" من طرق شتى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى أتينا مكان كذا فأجلسني وخط على خطا ثم قال لا تبرحن خطك فبينما أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنهم الزط فذكر حديثاً طويلاً وأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءه إلى السحر قال وجعلت أسمع الأصوات ثم جاء عليه الصلاة والسلام فقلت أين كنت يا رسول الله فقال أرسلت إلى الجن فقلت ما هذه الأصوات التي سمعت قال هي أصواتهم حين ودعوني وسلموا علي وقد يجمع الاختلاف في القلة والكثرة بأن ذلك لتعدد القصة أيضاً والله تعالى أعلم واختلف فيما استمعوه فقال عكرمة ﴿ اقرأ

باسم ربك ﴾ [العلق : 1] وقيل سورة الرحمن ﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي كتاباً مقروءاً على ما فسره به بعض الأجلة وفسر بذلك للإشارة إلى أن ما ذكروه في

(151/785)

وصفه مما يأتي وصف له كله دون المقروء منه فقط والمراد أنه من الكتب السماوية والتنوين للتفخيم أي قرآناً جليل الشأن ﴿ عَجَبًا ﴾ بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى وهو مصدر وصف به للمبالغة .

﴿ يَهْدِي إِلَى الرشد ﴾ إلى الحق والصواب وقيل إلى التوحيد والايمان وقرأ عيسى ﴿ الرشد ﴾ بضمتين وعنه أيضاً فتحهما ﴿ يَهْدِي إِلَى ﴾ أي بذلك القرآن من غي ريث ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ حسبما نطق به ما فيه من دلائل التوحيد أو حسبما نطق به الدلائل العقلية على التوحيد ولم تعطف هذه الجملة بالفاء قال الخفاجي لأن نفيهم للإشراك أما لما قام عندهم من الدليل العقلي فحينئذ لا يترتب على الايمان بالقرآن وإما لما سمعوه من القرآن فحينئذ يكفي في ترتبها عليه عطف الأول بالفاء خصوصاً والباء في به تحتمل السببية فيعم الايمان به الايمان بما فيه فإنك إذا قلت ضربته فتأدب وانقاد لي فهم ترتب

الانقياد على الضرب ولو قلت فانقاد لم يترتب على الأول بل على ما قبله وقيل عطفت بالواو ولتفويض الترتب إلى ذهن السامع وقد يقال أن مجموع فآمنا به ولن نشرك مسبب عن مجموع ﴿ إنا سمعنا ﴾ [الجن : 1] الخ فكونه قرآناً معجز يوجب الايمان به وكونه يهدي إلى الرشد ويوجب قلع الشرك من أصله والأول أولى وجوز أن يكون ضمير به لله عز وجل لأن قوله سبحانه بربنا يفسره فلا تغفل .

(152/785)

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ اختلفوا قراءة في أن هذه وما بعدها إلى ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ [الجن : 14] وتلك اثنتا عشرة فقرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بفتح الهمزة فيهن ووافقهم أبو جعفر في ثلاث ما هنا ﴿ وأنه كان يقول ﴾ [الجن : 4] ﴿ وأنه كان رجال ﴾ [الجن : 6] وقرأ الباقون بكسرها في الجميع واتفقوا على الفتح في ﴿ أنه استمع ﴾ [الجن : 1] ﴿ وأن المساجد ﴾ [الجن : 18] لأن ذلك لا يصح أن يكون من قول الجن بل هو مما أوحى بخلاف الباقي فإنه يصح أن يكون من قولهم ومما أوحي واختلفوا في ﴿ أنه لما قام ﴾ [الجن : 19] فقرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة والباقون بفتحها كذا فصله بعض الأجلة وهو المعول عليه ووجه الكسر في أن هذه وما بعدها إلى

﴿ وإنا منا المسلمون ﴾ [الجن : 14] ظاهر كالكسر في أنا سمعنا قرآناً لظهور عطف الجمل على المحكي بعد القول ووضوح اندراجها تحته وأما وجه الفتح ففيه خفاء ولذا اختلف فيه فقال الفراء والزجاج والزمخشري هو العطف على محل الجار والمجرور وفى ﴿ آمنا به ﴾ [الجن : 2] كأنه قيل صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهنا وكذلك البواقي ويكفي في إظهاره المحل إظهار مع المرادف وليس من العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار الممنوع عند البصريين في شيء وإن قيل به هنا بناء على مذهب الكوفيين المجوزين له ولو قيل أنه بتقدير الجار لإطراد حذفه قبل أن وإن لكان سديداً كما في الكشف وضعف مكي العطف على ما في حيز آمنا فقال فيه بعد في المعنى لأنهم لم يخبروا أنهم آمنوا بأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ولا أنهم آمنوا بأنه كان رجال إنما حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا ذلك مخبرين عن أنفسهم لأصحابهم وأجيب عن الذاهبين إليه بأن الايمان والتصديق يحسن في بعض تلك المعطوفات بلا شبهة فيمضي في البواقي ويحمل على المعنى على حد قوله

: وزججن الحواجب والعيونا . . .

(153/785)

فيخرج على ما خرج عليه أمثاله فيؤول صدقنا بما يشمل الجميع أو يقدر مع كل ما يناسبه وقال أبو حاتم هو العطف على نائب فاعل أوحي أعني أنه استمع كما في أن المساجد على أن الموحي عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل قل أوحي إلى كيت وكيت وهذه العبارات وتعقب بأن حكاية عباراتهم تقتضي أن تكون أن في كلامهم مفتوحة الهمزة ولا يظهر ذلك ألا أن يكون في كلامهم ما يقتضي الفتح كاسمعوا أو اعلموا أو نخبركم لكنه أسقط وقت الحكاية ولا يظهر لإسقاطه وجه وعلى تقدير الظهور فالفتح ليس لأجل العطف فإن النائب عن الفاعل عليه مجموع كل جملة على إرادة اللفظ دون المنسبك من أن وما بعدها وإلا لما صح أن يقال الموحى كيت وكيت وهذه العبارات فإن كانت أن في كلامهم مكسورة الهمزة وصحت دعوى أن الحكاية اقتضت فتحها مع صحة إرادة هذه العبارات معه فذاك وإلا فالأمر كما ترى فافهم وتأمل والجد العظمة والجلال يقال جد في عيني أي عظم وجل أي وصدقنا أن الشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا أي عظمت عظمته عز وجل وفيه من المبالغة ما لا يخفى وقال أبو عبيدة والأخفش الملك والسلطان وقيل الغني وهو مروي عن أنس والحسن في الآية والأول مروي عن الجمهور والجد على جميع هذه الأوجه مستعار من الجد الذي هو البخت وقوله عز وجل : ﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ عليها تفسير للجملة وبيان لحكمها ولذا لم يعطف عليها فالمراد وصفه عز وجل بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه سبحانه وتعالى وكأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما

اعتقده كفرة الجن من تشبيهه سبحانه بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه .

(154/785)

وقرأ حميد بن قيس جد بضم الجيم قال في "البحر" ومعناه العظيم حكاه سيبويه وإضافته إلى ربنا من إضافة الصفة إلى الموصوف والمعنى تعالى ربنا العظيم وقرأ عكرمة جد منونا مرفوعاً ربنا بالرفع وخرج على أن الجد بمعنى العظيم أيضاً وربنا خبر مبتدأ محذوف أي هو ربنا أو بدل من جد وقرأ أيضاً جداً منوناً منصوباً على أنه تمييز محول عن الفاعل وقرأ هو أيضاً وقتادة جداً بكسر الجيم والتنوين والنصب ربنا بالرفع قال ابن عطية نصب جداً على الحال والمعنى تعالى ربنا حقيقة ومتمكناً وقال غيره هو صفة لمصدر محذوف أي تعالياً جداً وقرأ ابن السميفع جداً ربنا أي جدواه ونفعه سبحانه وكان المراد بذلك الغنى فلا تغفل .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ هو إبليس عند الجمهور وقيل مردة الجن والإضافة للجنس والمراد سفهاؤنا ﴿ عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ أي قولاً ذا شطط أي بعد عن القصد ومجاوزة الحد أو هو في نفسه شطط لفرط بعده عن الحسن وهو نسبة الصاحبة والولد إليه عز وجل

وتعلق الايمان والتصديق بهذا القول بناء على ما يقتضيه العطف على ما في حيز ﴿ فآمنا ﴾ [الجن : 2] ليس باعتبار نفسه فإنهم كانوا عالمين بقول سفيههم من قبل بل باعتبار كونه شططاً كأنه قيل وصدقنا إن ما كان يقول سفيهنا في حقه سبحانه كان شططاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(155/785)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

72 . سورة الجن

نزولها : مكية . . نزلت بعد الأعراف عدد آياتها : ثمان وعشرون آية عدد كلماتها : مئتان وخمس وثمانون كلمة عدد حروفها : تسعمائة وتسع وخمسون . . حرفا .

مناسبتها لما قبلها

تكشف سورة الجن فى صورة عملية ، عما فى الإنسان من جانبى الخير والشر ، وأنه حين تنتكس طبيعته ، ويغتال جانب الشر فيه جانب الخير ، يتحول إلى شيطان رجيم ، تعوذ منه الشياطين ، أو تتلمذ عليه ! وهذا الإنسان الشيطاني يبدو على أتم صورته المنكوسة تلك ، فى قوم « نوح » كما يبدو هذا الإنسان على صورة مجسدة فى كثير من مشركى

قريش ، كأبى جهل ، والوليد بن عقبة ، وعقبة بن أبى معيط ، وغيرهم من شياطين قريش ، الذين تصدوا للدعوة الإسلامية ، وكادوا لرسول اللّه وللمسلمين أعظم الكيد ، فلم يدعوا وسيلة يتوسلون بها إلى أذى النبي وأصحابه إلا تواصوا بها ، واجتمعوا عليها .

وفى سورة الجن صورة للخير ينبت فى منابت الشر ، ويطلع ثمره الطيب ، من بين وسط هذا اللهب المتضرم .

فمن عالم الجن العاصف بالشرور المحرقة ، تهب تلك الأنسام الرقيقة المنعشة ، فى صورة جماعة مؤمنة منهم ، لم تكد تستمع إلى آيات اللّه ، يتلوها رسول اللّه فى ليلة من لياليه مع ربه . وكل لياليه لربه ، ومع ربه . حتى أنصتوا إليه ، وآمنوا به ، ثم انقلبوا إلى قومهم منذرين !

(156/785)

فبين سورة « نوح » وسورة « الجن » مقابلة بين عالمين : عالم الإنس ، وعالم الجن ، وفى عالم الإنس شرّ كان حريّا أن يكون خيرا ، وفى عالم الجن خير ، كان متوقعا أن يكون شرا . . وفى هذا عبرة ، وذكرى لأولى الألباب .

(157/785)

قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » .

جاء فى سورة الأحقاف قوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » (29 ـ 32 : الأحقاف) ـ وهذا يعنى أن الجن عقلاء ، مكلفون من اللّه سبحانه وتعالى ، ومدعوون إلى الإيمان باللّه على يد رسل منهم ، أو من البشر ، فقد كان منهم المؤمنون بشريعة موسى عليه السلام ، كما كان منهم الذين آمنوا بشريعة الإسلام .

وهذه الآيات ، هى أخبار خاص للنبى ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بما كان من توجيه اللّه سبحانه وتعالى نفرا من الجن إلى مجلس النبي ، يستمعون إليه ، وهو يتلو آيات اللّه ، ليلة مبيته بموضع يقال له نخلة ، وهو فى طريق عودته من ثقيف ، بعد أن جاءهم يعرض عليهم الإيمان برسالته ، فجبهوه بالبهت ، وردوه فى غلظة وجفاء .

وقد سعد النبي الكريم بهذا الخبر الذي تلقاه من ربه ، وأن مالقيه من ثقيف لم يكن إلا حدثا عارضا ، وأن أمداد اللّه سبحانه وتعالى إليه لا تنقطع أبدا ، وأنه إذا كان الإنس قد أبوا أن يقبلوا هذا الخير الذي يدعوهم إليه ، كما أبوا على آذانهم أن تستمع إلى آيات اللّه يتلوها عليهم - فإن للّه جندا فى عالم الظلام والضلال - عالم الجن - قد خرجوا من هذا الظلام إلى النور ، وجاءوا إلى حيث يتلو النبي آيات ربه ، فاستمعوا إليه ، وآمنوا به ، وأصبحوا دعاة لدعوته ، وجندا يدافعون عنها ، ويقاتلون فى سبيلها . .

لقد كان هذا الخبر زادا طيبا للنبى الكريم ، يتزود منه على مسيرة دعوته ، التي توشك أن تنتهى المرحلة الأولى منها ، فيتحول بعدها النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من مكة إلى المدينة ، بعد أن يلتقى بأهل السابقة من الأنصار ، الذين جاءوا ليبايعوه على الإسلام ، والنصرة ، فى بيعتى العقبة الأولى والثانية « 1 » وهنا فى سورة « الجن » أمر من اللّه تعالى للنبى بأن يتحدث إلى قريش ، وإلى الناس عامة ، بأنه قد تلقّى وحيا من ربه ، بأن نفرا من الجن ، قد استمعوا إليه ، وآمنوا به ، وتحدثوا عن القرآن الذي استمعوا إليه ، هذا الحديث الذي يصف القرآن ببعض ماله من صفات المجادة والعظمة والجلال . .

وقد يقول قائل : ما الفرق بين الخبر الذي تلقاه النبي فى سورة الأحقاف ، وهذا الأمر الذي تلقاه فى سورة « الجن » وهو يحمل فى كيانه محتوى هذا الخبر الذي تلقاه فى سورة الأحقاف ؟ وما الفرق بين أن يجىء الخبر غير مصدّر بالأمر بالقول ، وبين الخبر الذي يجىء مطلقا ، إذا كان القرآن كله فى معرض العرض على الناس ، دون أن يختص النبي بشىء منه يحتجزه لنفسه ، ولا يذيعه فى الناس ؟

---

(1) انظر فى هذا المبحث الخاص تحت عنوان : بيعة العقبة وليلة الجن « ال التفسير القرآنى للقرآن » - الكتاب الثالث عشر - سورة الأحقاف .

ونقول - والله أعلم - إن الخبر الذي تصدّر إلى النبي بهذا الأمر من اللّه سبحانه بلفظ « قل » إنما يراد به مواجهة المشركين خاصة ، والاستعداد لتلقّى ما يثيره هذا الخبر فيهم من ثائرات البهت والتكذيب ، وما يفتح لهم من أبواب التشنيع على الرسول والسخرية منه ، وأن على النبىّ ألا يلتفت إلى تخرصات هؤلاء المشركين ، ولا يحفل بما يثرثرون به من لغو وهذر ، إزاء هذه الحقيقة التي استيقنها النبىّ ، بعد أن أخبره اللّه سبحانه وتعالى بها ، فى الآيات التي تلقاها من سورة الأحقاف . .

فالخبر الذي تلقاه النبيّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ فى سورة الأحقاف : « وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ . . » هو أشبه بالسرّ بينه وبين اللّه سبحانه وتعالى ، وإن كان هذا السرّ لا يلبث أن يذاع بعد أن تلقاه النبيّ قرآنا يتلوه على الناس . .

أما الخبر الذي تلقاه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه . . فى سورة الجنّ ، فهو أمر بالمبادرة بإذاعة هذا السرّ ، الذي كان من شأنه أن يذاع ، إن لم يكن اليوم فغدا ، أو بعد غد . . إنه حثّ على المبادرة بإذاعة هذا الخبر ، وتلاوته جهرا على الناس حتى يقرع أسماع المشركين ، وليكن منهم ما يكون ! ! وسؤال آخر . . هو :

(مخاطبات القرآن وحكايتها كما هى . . ما سرّها ؟) هذا الخبر ، أو هذه الأخبار ، التي يتلقاها النبيّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ مصدّرة بلفظ « قل » أو « يا أيها النبيّ » أو « يا أيها الرسول » لما ذا يلتزم النبيّ أن ينقلها كما تلقاها ، دون أن يتصرف فيها ، فيأخذ منها ماله ،

(160/785)

ويدع ما ليس له ، بمعنى أن يقطع مقول القول ، عن القول ، أو أداة النداء والمنادى ، عن الخاطب به ، فيقول ما أمر بقوله ، دون أن يصدره بلفظ : قل ، أو يا أيها النبيّ ؟

إن المألوف فى لغة التخاطب أن يقال للإنسان مثلا : قل : « لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » .

. فيقول : « لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » ولا يقول : « قل لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » : إنه لو قال هذا لما كان ممتثلا للأمر . بل مردّدا لصدى الكلام الذي سمعه . . أفهذا كان شأن رسول اللّه حين لم ينقل الصورة اللفظية التي سمعها ، قولا ، ومقولا ؟

والجواب - واللّه أعلم - من وجوه :

فأولا : هذا الأمر الموجه إلى النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - والمصدّر بلفظ « قل » هو أمر صادر إليه من اللّه سبحانه وتعالى ، وأن هذا الذي يوحى من الحق جل وعلا ، يملأ الوجود كله ، ويسرى فى كل ذرّة من ذرّاته ، فهو ليس مجرد قول من شخص إلى شخص ، وإنما هو من كلام ربّ العزّة ، الذي تبلغ كلماته أسماع الكون ، وتنفذ إلى أعماق كل ذرة موجودة فيه .

وثانيا : وتأسيسا على هذا . . أن النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه . . حين تبلغه كلمات ربّه ، يمتلىء بها كيانه ، وتفيض بها مشاعره ، وتلبسه هذه الكلمات كما تلبس الروح الجسد . . ومن هنا فإنه لا يستطيع أن يفصل بعضا منها عن كيانه ، كما لا يستطيع الإنسان أن يقطع بعض روحه ، لأنها سر مضمر فيه ، يجده ملء وجوده ، ولكن لا يعرف لها ذاتا ،

ولاكنها ، ولعلّ هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا »

(161/785)

فإذا كان ما يتلقاه النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - من كلمات ربّه ، هو روح منه ، فهل يستطيع أن يغيّر من حقيقة الرّوح ؟ : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (85 : الإسراء) . . فهو سبحانه وحده ، الذي يملك أمرها ، ويملك أن يغير أو يبدّل فيها كما يشاء . . ولعل هذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا . . لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ » (115 : الأنعام) .

وثالثا : أن اتصال الأمر بالمأمور به فى كتاب اللّه ، يجعل المأمور به دائما حيّا فى حياة الناس جميعا ، ويجعل المؤمنين به فى حال حضور مع النبي ، وهو يتلقى أمر ربه . . فكلما تلا المؤمنون آية من آيات اللّه ، فيها خطاب من اللّه سبحانه وتعالى لنبيه الكريم - تمثّل لهم منها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يتلقى هذا الخطاب من ربه ، ويصدع ، بما يحمل هذا الخطاب إليه من أمر ، أو نهى . .

وهذا من شأنه أن يحرك مشاعرهم إلى متابعة النبي والتأسّى به ، كلما تلوا آيات اللّه ، وطلع

عليهم هذا المشهد الذي يرون فيه رسول اللّه فى مجلس التأديب ، والتعليم من ربه . .

وهذا هو بعض السر فى أن كانت تلاوة القرآن ، من عبادة المؤمنين التي تعبّدهم اللّه تعالى بها . . كما يقول سبحانه « فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » (20 : المزمل) .

ورابعا : فى خطاب اللّه سبحانه وتعالى للنبىّ ، وفى خطابه سبحانه للمؤمنين ، فى القرآن الكريم ، شاهد يشهد بأن هذا القرآن هو من عند اللّه سبحانه وتعالى ، لفظا ومعنى ، وأنه ليس للنبى فيه كلمة واحدة ، وأنه كلام اللّه سبحانه وتعالى ، وأن النبي هو اللسان الذي أنطقه اللّه بكلماته التي أوحاها إليه ، فسمعها الناس منه دون أن يبدل حرفا منه . . فإن الذي يتلقاه النبىّ من كلمات ربّه ، هو روح تستولى عليه وتشيع فى كيانه كله .

(162/785)

ويمكن أن نشبه هذا ـ مع الفارق البعيد فى صورتى التشبيه ـ بما يكون من مسجّلة الصوت ، حين تلتقط صوتا ما ، ثم تعيده كما تلقته ، دون أن يقع فيه أي تبديل ، أو تحريف . .

فالنبى صلوات اللّه وسلامه عليه ، إذ يسمع قوله تعالى له : « قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ . .

الآية : (84 : آل عمران) ـ لا يملك أن يبدل حرفا مما سمع ، ولا يستطيع إلا أن يقول كما سمع

: « قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَما أُنْزِلَ عَلَيْنا . . الآية » والنبي إذ يسمع قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ » .

(199 : الأعراف) . لا يستطيع إلا أن يقول : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ » . .

وهكذا يحكى النبىّ ما سمع ، دون أن يبدل كلمة ، أو يغير حرفا . . واللّه سبحانه وتعالى يقول له : « يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ » (67 : المائدة) فالأمر بالتبليغ ، هو أمر بتبليغ ما أنزل إليه ، كما هو ، كلمة كلمة ، وحرفا حرفا . . فإن بدل حرفا ، أو غير كلمة . وحاشاه . فما بلّغ ما أنزل إليه من ربه . . إنه المطلوب من النبي فى مقام التبليغ أن يقول ما يقال له من ربه ، لأن ما أنزل إليه ، سواء أكان خطابا خاصا ، أو خطابا عاما للناس . هو منزل للناس أيضا ، كما يقول سبحانه : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (44 : النحل) فهو . صلوات اللّه وسلامه عليه . مطالب أولا بأن يبلّغ الناس ما نزّل

(163/785)

إليهم ، وهو ما نزل عليه من كلمات اللّه . . ثم هو مطالب ثانيا ، بعد هذا التبليغ أن يبين للناس ما خفى عليهم فهمه مما نزل عليهم من آيات اللّه . .

فالتبليغ شأن ، وبيان ما يبلّغه شأن آخر . .

وبهذا التدبير الحكيم فى نظم القرآن ، يظل النبي صلوات اللّه وسلامه عليه ، قائما فى مقام الخطاب من ربه ، وفى الحضور بين يديه ، كلما تلا آية من آيات اللّه ، أو سمع تاليا يتلوها عليه ، فقد روى أنه صلى اللّه عليه وسلم ، كان يطلب إلى بعض أصحابه أن يقرءوا عليه ما تيسر من كلام اللّه ، فيقول قائلهم له :

أأتلوه عليك وعليك أنزل ؟ فيقول صلوات اللّه وسلامه عليه : « نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى . . ففى البخاري عن عبد اللّه بن مسعود ، قال : قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « اقرأ علىّ » فقلت يا رسول اللّه : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نعم . . إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال : « حسبك الآن » .

. فإذا عيناه تذرفان » .

وهذا الأسلوب الذي جاء عليه نظم القرآن ، والذي يجعل النبي فى مقام الحضور ، والخطاب من اللّه بكلمات اللّه ـ هذا الأسلوب من شأن القرآن وحده ، ومما اختص به من

بين الكتب السماوية المنزلة . .

فالتوراة ليس فى نظمها موقف واحد لأى نبى من الأنبياء مع اللّه سبحانه وتعالى ، يمثله في موقف حضور وخطاب من اللّه سبحانه ، حتى موسى عليه السلام الذي كلمه اللّه تكليما من غير وساطة ملك الوحى ، جاءت كل كلمات اللّه سبحانه وتعالى إليه فى التوراة على سبيل الحكاية . . هكذا : « وكلم الرب موسى قائلا : « فى الشهر السابع ، فى أول الشهر يكون لكم عطلة ، تذكار هتاف البوق محفل مقدس . . عملا ما من الشغل لا تعملوا ، ولكن تقدمون وقودا للرب . .

(164/785)

وكلم الرب موسى قائلا : « أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة . . محفلا مقدسا يكون لكم ، تذللون نفوسكم ، وتقدمون وقودا للرب » (لاويين الإصحاح : 23)

. .

وتقول التوراة أيضا : « فقال الرب لموسى : قل لهارون مدّ يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام ، وأصعد الضفادع على أرض مصر . . فمدّ هارون يده على مياه مصر ، فصعدت الضفادع ، وغطت أرض مصر ، وفعل كذلك العرافون بسحرهم

وأصعدوا الضفادع على أرض مصر » (خروج:

الإصحاح: 8) . .

وتقول التوراة: « فقال الرب لموسى: انظر . . أنا جعلتك إلها لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك . . أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بنى إسرائيل من أرضه » (خروج: الأصحاح: 7) . .

وهكذا تمضى كل مخاطبات التوراة، فيما يتلقّى موسى من ربه، وفيما يتلقى بنو إسرائيل من موسى . .

وهذا يعنى أن موسى عليه السلام، كان بعد أن يتلقى كلمات اللّه سبحانه وتعالى إليه. كان يلقى قومه بما أمره به فيهم، فيقول لهم: قال اللّه لى كذا، وكذا، فيكتبون هم: قال اللّه لموسى كذا، وكذا . . دون أن يتقيدوا بالنص الحرفىّ لما سمعوه من موسى، فبدلا من أن يكتبوا: قال اللّه لى كذا، يكتبون: قال اللّه لموسى كذا وكذا، كما أن موسى عليه السلام، لم يتقيد بالنص الحرفى لما استمع من ربه، فبدلا من أن يقول، كما قال اللّه سبحانه وتعالى له:

يا موسى افعل كذا، أو قل لقومك كذا » - بدلا من أن يقول هذا، يقول:

قال اللّه لى فعل كذا، أو افعلوا كذا . .

وهذا الخروج على النص الحرفى ، وإن بدا أنه مما يقتضيه الحال ، حيث ينتقل موسى من حال المخاطب (بفتح الطاء) إلى حال المخاطب (بكسر الطاء) وحيث ينتقل قومه من حال المواجهة له ، إلى حال الغيبة فى نقل ما سمعوا منه. هذا ، وإن بدا أنه لازم لمراعاة مقتضى الحال. إلا أنه يشير إلى أمور :

أولها : أن كلمات اللّه التي استمع إليها موسى ، ظلت مرتسمة فى كيانه ، مضمرة فى فؤاده ، وأن ما ينشره على قومه منها إنما هو صورة هذه الكلمات وظلالها ، والأنوار المشعة منها . . أما ما تلقاه محمد من كلمات ربه ، فإنه عرضها كما سمعها ، حرفا حرفا ، وكلمة كلمة . . كما يقول له سبحانه له . «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ» (45 : العنكبوت) . . وذلك أنه ليس المطلوب من كلمات اللّه إلى موسى أن يقيم منها معجزة متحدّية ، على خلاف ما أوحى اللّه به إلى محمد من كلماته ، فإنه سبحانه جعل على فمه معجزات متحدية . . وإن المعجزة لا تتم حتى تعرض كما تلقاها من ربه ، دون أن يغير من وضعها ، أو يبدل من صورتها . .

وثانيا : أن ما أوحى اللّه سبحانه وتعالى به إلى موسى ، يجوز روايته بالمعنى ، دون التقيد بالنص اللفظي ، على خلاف القرآن الكريم ، فإنه لا يجوز روايته أو تلاوته بالمعنى ، كما يجوز ذلك فى الحديث القدسىّ ، الذي يشبه وحي التوراة .

وثالثا : أن القرآن الكريم ، هو الكتاب الذي تأخذ آياته ، وكلماته ، الوصف بأنها آيات اللّه ، وكلمات اللّه ، وأن التوراة وغيرها من الكتب السماوية ، تأخذ الوصف بأنها وصايا للّه ، أو أوامر للّه ، أو شريعة للّه . .

وأما تكليم اللّه سبحانه وتعالى لموسى فهو خاص بموسى وهو أوامر اللّه سبحانه وتعالى إليه هو ، فى خاصة نفسه . . أما الشريعة التي حملها موسى إلى قومه ،

(166/785)

فهى ما تضمنته الألواح التي تلقاها موسى من ربه ، فهى أشبه بالأحاديث القدسية التي تلقاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ربه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى لموسى عليه السلام :

« يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ » (144 . 145 : الأعراف) فاللّه سبحانه وتعالى . كما تشير الآيات . قد اصطفى موسى بهذه الرسالات التي تلقاها لتكون شريعة لقومه ، كما اصطفاه بتكليمه . . فالرسالات التي تلقاها موسى شىء ، وتكليم اللّه له شىء آخر . . كلام اللّه صفة من صفاته ، والرسالات

خلق من خلقه .

وعلى هذا ، فالقرآن الكريم خطاب مباشر من اللّه سبحانه وتعالى للنبى والمؤمنين ، أما التوراة ، فهى حكاية خطاب اللّه تعالى لموسى ، ثم هى حكاية لخطاب موسى لقومه الذين تلقوها منه .

ونعود بعد هذا إلى موقفنا بين يدى قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً » .

النفر : الجماعة بين الثلاثة والعشرة . .

والإسماع : الإصغاء والالتفات إلى المسموع . .

وهذا يعنى أن جماعة الجنّ التي توافدت على مجلس القرآن بين يدى النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ قد أعطت سمعها للقرآن ، والتفتت بمشاعرها كلها إليه . . ذلك أنّ « استمع » غير « سمع » من حيث المعنى الاشتقاقى الذي يدل عليه كلّ منهما لما يسمع ، فالاستماع يدل على التطلع إلى سماع الحديث

والإقبال عليه ، أما « السمع » فيدلّ على مجرّد وقوع المسموع إلى أذن السامع ، سواء أكان ذلك عن قصد ، أو غير قصد ، وسواء أكان مقبلا أو معرضا ! ولهذا جاء الأمر إلى المؤمنين وهم فى مجلس القرآن أن يستمعوا ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (204 : الأعراف) ولم يجىء الأمر بلفظ « اسمعوا » .

. فإن الاستماع هو الذي يحقق معنى الإصغاء والإنصات الذي جاء تاليا للأمر بالاستماع . وإنه بغير الاستماع لا يتحقق الإصغاء . . وهذا ما كان من الجنّ فى مجلس القرآن ، ودعوة بعضهم بعضا إلى الإنصات إليه ، كما يقول سبحانه ، عنهم : « وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا » (29 : الأحقاف) .

فاللّه سبحانه ، قد وجههم إلى النبي مستمعين ، لا سامعين . .

وهذا يعنى أيضا أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن يعلم بأمر هؤلاء الجن الذين استمعوا إليه فى تلك الليلة ، حتى أنبأه اللّه سبحانه وتعالى بذلك ، ولم تكن منه فى تلك الليلة دعوة إليهم ، وإنما هم الذين دعوا أنفسهم إلى الإيمان ، بعد أن استمعوا إلى ما استمعوا إليه من آيات اللّه التي كان يتلوها النبي ، قائما بين يدى ربه ، متعبدا بتلاوتها . .

وفى هذا إشارة إلى تلك المفارقة البعيدة بين المشركين الذين يدعون إلى آيات اللّه ، فلا يستمعون إليها ، ولا يؤمنون بها ، وبين الجن الذين يضرب بهم المثل فى العتوّ ، والعناد ،

والضلال ، حيث ورد واردهم على النبي ، وحضر مجلس تلاوته ، من غير أن يدعوا إلى هذا . . فاستمعوا ، وأصغوا ، ثم اهتدوا

(168/785)

وآمنوا . . فمال هؤلاء المشركين لا يؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ؟ .

وأما ما يروى من أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قد التقى بالجن ، ودعاهم إلى اللّه سبحانه ، فيما تلا عليهم من آيات اللّه ، فقد يكون ذلك فى ليلة بعد تلك الليلة ، وبعد أن حمل هؤلاء النفر إلى قومهم نبأ النبي الذي نزل عليه هذا القرآن الذي استمعوا إلى بعض منه . . فجاءوا يطلبون مزيدا ، ويلقون النبي لقاء مواجها ، بعد أن عرفوا ما بين يديه من هدى ونور .

وعلى أىّ فإنه ليس مما يدخل فى عقيدتنا ، أو يلزمنا التصديق به ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قد بعث إلى الجن ، كما بعث إلى الإنس ، وحسبنا أن نؤمن بأنه رسول اللّه إلينا نحن البشر ، وأن الرسالة الإسلامية ، وكتابها الكريم ، موجهان إلينا نحن البشر ، أما أن تستفيد من ذلك عوالم أخرى فذلك ما لا يدخل فى عقيدتنا ، ولا يلزمنا البحث عنه .

واللّه أعلم .

وقوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً » . هو بيان للأثر الذي كان للقرآن من استماع

الجن إليه ، وأنهم عجبوا لما سمعوا ، لأنهم لم يسمعوا كلاما مثله ، فكان ذلك مثار عجبهم ، ودهشهم . . إنهم يسمعون كلاما ، ولكنه كلام عجب ، فيما له من سلطان على النفوس ، وتمكن من القلوب . .

وقولهم « سمعنا » بدلا من « استمعنا » لأنهم خرجوا من مجلس الاستماع ، وقد أصبح الذي استمعوا إليه مسموعا لهم سماعا متمكنا ، واعيا . . ولو قالوا « استمعنا » لدلّ ذلك على أنهم تكلفوا جهدا لما سمعوا ، وأنهم حملوا أنفسهم على ذلك حملا طوال مجلس الاستماع ، والواقع غير هذا ، فإنهم ما إن

جلسوا بين يدى ما يتلى من آيات اللّه ، حتى ملك القرآن زمامهم ، وأحال وجودهم كله آذانا صاغية ، وقلوبا خاشعة ، من غير معالجة أو معاناة ، من داخل أنفسهم أو خارجها . .

وقوله تعالى : « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » هو صفة أخرى للقرآن ، على لسان الجن ، بعد الصفة الأولى التي وصفوه بها . .

فالصفة الأولى ، وصف لنظمه ، وأنه كلام عجب لم يسمعوا مثله . .

والصفة الأخرى ، وصف لمعانيه ، ولما اشتمل عليه نظمه العجيب من معان كريمة ، مضيئة بنور الحق ، تهدى إلى الرشد ، والفلاح . .

وقوله تعالى : « فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً » . هو المسبب عن هذه الأوصاف ، التي رآها الجن فى القرآن ، والتي وقعت فى نفوسهم منه ، ولهذا فهم يؤمنون بهذا القرآن ، وبأنه كلام اللّه ، ونوره المرسل هدى ورحمة للعالمين . .

وهم لهذا لن يشركوا باللّه ، ولن يعبدوا إلها معه ، كما كانوا يفعلون من قبل فعل الضالين والمشركين من الإنس . .

وقوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً » . .

جدّ ربنا : ملكه ، وسلطانه ، ومجده ، . وأصل الجد : الحظ ، والنصيب الذي يصيبه الإنسان فى حياته من حظوظ الدنيا . . فجدّه هو كل ماله من مال ، ومتاع ، وبنين ، وعلم ، وجاه وسلطان . .

وقوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا » هو معمول لفعل محذوف ، معطوف على قوله تعالى :

« إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً » « سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً » وعلمنا مما سمعنا أنه « تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً » . .

وهكذا كل ما جاء على لسان الجن بعد هذا ، هو معمول لفعل مترتب على استماعهم لما استمعوا من آيات اللّه وما كشفت لهم من حق وهدى .

وقولهم : « تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً » أي عظم مجده ، وتعالى سلطانه ، وتنزهت عزته عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا . . فإن اتخاذ الصاحبة أو الولد ، إنما يكون عن حاجة إليهما ، بحيث لو افتقد الإنسان وجودهما بين يديه تطلعت إليهما نفسه ، وشغل بهما قلبه ، واللّه - سبحانه - فى غنى عن كل شىء . . فكل شىء هو منه ، وله ، وإليه . .

قوله تعالى : « وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً » . .

أي وعلمنا مما استمعنا إليه من هذا القرآن العجب أن ما كان يقوله السفهاء منّا عن اللّه ، وعن اتخاذه الصاحبة والولد - هو قول بعيد عن الحق ، مشتط عن الصواب ، فى حق اللّه سبحانه ، وفيما ينبغى أن يكون لذاته من كمال ، وجلال ، وأن هؤلاء الذين جعلوا للّه أندادا ، واتخذوا من دونه أولياء ، ونسبوا إليه الزوج والولد - هؤلاء ضالون مشركون . .

والشطط ، والاشتطاط ، الخروج عن القصد والاعتدال ، ومجاوزة الحد فى القول ، أو العمل . . وهذا مثل قوله تعالى على لسان أصحاب الكهف :

«لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » (13 : الكهف) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 15 صـ 1208 . 1223 ﴾

(171/785)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

افتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أن ما سيذكر بعده حدث غريب وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب به كما يقتضيه قوله : ﴿ كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ [الجن : 7] حسبما يأتي .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُعلم المسلمين وغيرهم بأن الله أوحَى إليه وقوع حدث عظيم في دعوته أقامه الله تكريماً لنبيئه وتنويهاً بالقرآن وهو أن سخر بعضاً من النوع المسمى جنّاً لاستماع القرآن وألهمهم أو علَّمهم فهم ما سمعوه واهتداءهم إلى مقدار إرشاده إلى الحق والتوحيد وتنزيه الله والإيمان بالبعث والجزاء فكانت دعوة الإسلام في أصولها بالغة إلى عالم من العوالم المغيبة لا علاقة لموجوداته بالتكاليف ولا بالعقائد بل هو عالم مجبول أهله على ما جبلوا عليه من خير أو شر لا يعدُو أحدُهم في مدة الدنيا جِبلَتَه

فيكون على معيارها مصيرُه الأبدي في الحياة الآخرة ولذلك لم يَبعث إليهم بشرائع .

وقد كشف الله لهذا الفريق منهم حقائق من عقيدة الإِسلام وهديه ففهموه .

هذا العالَم هو عالم الجنّ وهو بحسب ما يستخلص من ظواهر القرآن ومن صحاح الأخبار النبوية وحَسَنها نوع من المجردات أعني الموجودات اللطيفة غير الكثيفة ، الخفية عن حاسة البصر والسمع ، منتشرة في أمكنة مجهولة ليست على سطح الأرض ولا في السماوات بل هي في أجواء غير محصورة وهي من مقولة الجوهر من الجواهر المجردات أي ليست أجساماً ولا جسمانيات بل هي موجودات روحانية مخلوقة من عنصر ناري ولها حياة وإرَادة وإدراك خاص بها لا يُدرى مَداه .

(172/785)

وهذه المجردات النارية جنس من أجناس الجواهر تحتوي على الجن وعلى الشياطين فهما نوعان لجنس المجردات النارية لها إدراكات خاصة وتصرفات محدودة وهي مغيبة عن الأنظار ملحقة بعالم الغيب لا تراها الأبصار ولا تدركها أسماع الناس إلاّ إذا أوصل الله الشعور بحركاتها وإراداتها إلى البشر على وجه المعجزة خرقاً للعادة لأمر قضاه الله وأراده .

وبتعاضد هذه الدلائل وتناصرها وإن كان كل واحد منها لا يعدو أنه ظني الدلالة وهي ظواهر القرآن ، أو ظني المتن والدلالة وهي الأحاديث الصحيحة ، حصل ما يقتضي الاعتقاد بوجود موجودات خفية تسمى الجن فتفسَّر بذلك معاني آيات من القرآن وأخبار من السنة .

وليس ذلك مما يدخل في أصول عقيدة الإِسلام ولذلك لم نكفر منكري وجود موجودات معيّنة من هذا النوع إذ لم تثبت حقيقتها بأدلة قطعية ، بخلاف حال من يقول : إن ذكر الجن لم يذكر في القرآن بعد عِلْمِه بآيات ذكره .

وأما ما يروى في الكتب من أخبار جزئية في ظهورهم للناس وإتيانهم بأعمال عجيبة فذلك من الروايات الخيالية .

وإنا لم نلق أحداً من أثبات العلماء الذين لقيناهم من يقول : إنه رأى أشكالهم أو آثارهم وما نجد تلك القصص إلاّ على ألسنة الذين يسرعون إلى التصديق بالأخبار أو تغلب عليهم التخيلات .

وإن كان فيهم من لا يتهم بالكذب ولكنه مما يضرب له مثل قول المعري:

ومثلُكِ من تخيل ثم خالا . . .

فظهور الجن للنبيء صلى الله عليه وسلم تارات كما في حديث الجني الذي تفلت ليفسد عليه صلاته هو من معجزاته مثل رؤيته الملائكة ورؤيته الجنة والنار في حائط القبلة وظهور

الشيطان لأبي هريرة في حديث زكاة الفطر .

وقد مضى ذكر الجن عند قوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ في سورة الأنعام (100) ، وقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ في سورة الأعراف (179) .

(173/785)

والذين أمر الرسول بأن يقول لهم أنه أوحي إليه بخبر الجن : هم جميع الناس الذين كان النبي يبلغهم القرآن من المسلمين والمشركين أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به ، وفيه إدخال مسرة على المسلمين وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه ، والذين جاءهم بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه .

وفي الإِخبار عن استماع الجن للقرآن بأنه أوحي إليه ذلك إيماء إلى أنه ما علم بذلك إلاّ بإخبار الله إياه بوقوع هذا الاستماع ، فالآية تقتضي أن الرسول لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية .

وأما آية الأحقاف (29) ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ الآيات

فتذكير بما في هذه الآية أو هي إشارة إلى قصة أخرى رواها عبد الله بن مسعود وهي في صحيح مسلم ﴾ في أحاديث القراءة في الصلوات ولا علاقة لها بهذه الآية .

وقوله : ﴿ أنه استمع نفر من الجن ﴾ في موضع نائب فاعل ﴿ أوحي ﴾ أي أوحي إلي استماع نفر .

وتأكيد الخبر الموحَى بحرف (أن) للاهتمام به لغرابته .

وضمير ﴿ أنه ﴾ ضمير الشأن وخبره جملة ﴿ استمع نفر من الجن ﴾ وفي ذلك زيادة اهتمام بالخبر الموحى به .

ومفعول ﴿ استمع ﴾ محذوف دل عليه ﴿ إنَّا سمعنا قرآنا ﴾ ، أي استمع القرآن نفر من الجن .

والنفَر : الجماعة من واحد إلى عشرة وأصله في اللغة لجماعة من البشر فأطلق على جماعة من الجن على وجه التشبيه إذ ليس في اللغة لفظ آخر كما أطلق رجال في قوله : ﴿ يعوذون برجال من الجن ﴾ [الجن : 6] على شخوص الجن .

(174/785)

وقولهم : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً ﴾ قالوه لبعض منهم لم يحضر لاستماع القرآن ألهمهم الله أن ينذروهم ويرشدوهم إلى الصلاح قال تعالى في سورة الأحقاف (29 ، 30) ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً ﴾ الآيات .

ومعنى القَول هنا : إبلاغُ مرادهم إلى من يريدون أن يبلِّغوه إليهم من نوعهم بالكيفية التي يتفاهمون بها ، إذ ليس للجن ألفاظ تجري على الألسن فيما يظهر ، فالقول هنا مستعار للتعبير عما في النفس مثل قوله تعالى:

﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [النمل : 18] فيكون ذلك تكريماً لهذا الدِّين أن جعل الله له دعاة من الثقلين .

ويجوز أن يكون قولاً نفسياً ، أي خواطر جالت في مدركاتهم جولان القول الذي ينبعث عن إرادةِ صاحب الإدراك به إبلاغَ مدركاته لغيره ، فإن مثل ذلك يعبر عنه بالقول كما في بيت النابغة يتحدث عن كلب صيد :

قالتْ له النفسُ إني لا أرى طمعاً . . .

وإن مولاك لم يَسلم ولم يَصِد

ومنه قوله تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ [المجادلة : 8] .

وتأكيد الخبر بـ (أنَّ) لأنهم أخبروا به فريقاً منهم يشكون في وقوعه فأتوا في كلامهم بما يفيد

تحقيق ما قالوه وهو الذي يعبر عن مثله في العربية بحرف (إن) .

ووصف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى ، أي يعجب منه ، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده .

وقد حصل لهم العلم بمزايا القرآن بانكشاف وهبهم الله إياه .

قال المازري في "شرح صحيح مسلم" "لا بد لمن آمن عند سماع القرآن أن يعلم حقيقة الإِعجاز وشروط المعجزة ، وبعد ذلك يقع العلم بصدق الرسول ؛ فإما أن يكون الجن قد علموا ذلك أو عَلِموا من كتب الرسل المتقدمة ما دلهم على أنه هو النبي الأمّي الصادق المبشر به" أ هـ .

(175/785)

وأنا أقول : حصل للجن علم جديد بذلك بإلهام من الله لأدلة كانوا لا يشعرون بها إذ لم يكونوا مطالبين بمعرفتها ، وأن فهمهم للقرآن من قبيل الإِلهام خلقه الله فيهم على وجه خرق العادة كرامة للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن .

والإِيمان بالقرآن يقتضي الإِيمان بمن جاء به وبمن أنزله ولذلك قالوا ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً .

وقد حصل لهؤلاء النفر من الجن شرف المعرفة بالله وصفاته وصِدق رسوله وصدق القرآن وما احتوى عليه مَا سَمعوه منه فصاروا من خيرة المخلوقات ، وأُكرموا بالفوز في الحياة الآخرة فلم يكونوا ممن ذَرْأَ الله لجهنم من الجن والإِنس .

ومتعلق استمع ﴾ محذوف دل عليه قوله بعده ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً .

والرشْد ﴾ : بضم الراء وسكون الشين (أو يقال بفتح الراء وفتح الشين) هو الخير والصواب والهدى .

واتفقت القراءات العشر على قراءته بضم فسكون .

وقولهم : ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ، ﴾ أي ينتفي ذلك في المستقبل .

وهذا يقتضي أنهم كانوا مشركين ولذلك أكدوا نفي الإِشراك بحرف التأبيد فكما أكد خبرهم عن القرآن والثناء عليه بـ (إن) أكد خبرهم عن إقلاعهم عن الإِشراك بـ ﴿ لن ﴾ .

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3)

هذا محكي عن كلام الجن ، قرأه الجمهور بكسر همزة ﴿ إنه ﴾ على اعتباره معطوفاً على قولهم : ﴿ إنَّا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ [الجن : 1] إذ يجب كسر همزة (إنَّ) إذا حكيت بالقول .

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة على أنه معطوف

على الضمير المجرور بالباء في قوله : ﴿ فآمنَّا به ﴾ [الجن : 2] أي وآمنا بأنه تعالى جَد ربنا .

وعدم إعادة الجار مع المعطوف على المجرور بالحرف مستعمل ، وجوزه الكوفيون ، على أن حرف الجر كثير حذفه مع (أنّ) فلا ينبغي أن يختلف في حذفه هنا على هذا التأويل .

(176/785)

قال في "الكشاف" : ﴿ أنه استمع ﴾ [الجن : 1] بالفتح لأنه فاعل أوحي (أي نائب الفاعل) ﴿ وإنَّا سَمِعنا ﴾ بالكسر لأنه مبتدأ محكي بعد القول ثم تحمل عليهما البواقي فما كان من الوحي فُتح وما كان من قول الجن كُسر ، وكُلّهن من قولهم ، إلاّ الثنتين الأخريين : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : 18] ، ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ [الجن : 19] ومن فتح كُلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في ﴿ ءامنا به ﴾ [الجن : 2] كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جَدّ ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وكذلك البواقي أ هـ .

والتعالي : شدة العلوّ ، جعل شديد العلوّ كالمتكلف العلوّ لخروج علوّه عن غالب ما تعارفه الناس فأشبه التكلُف .

والجَدّ : بفتح الجيم العظمة والجلال ، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله : ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا

ولَداً ﴾ ، لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها ، وكل ذلك من آثار الاحتياج ، والله تعالى الغني المطلق ، وتعالِي جَدّه بغناه المطلق ، والولد يرغب فيه للاستعانة والأنس به ، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص .

وضمير ﴿ إنه ﴾ ضمير شأن وخبره جملة ﴿ تعالى جد ربنا .

وجملة ما اتخذ صاحبة ﴾ إلى آخرها بَدل اشتمال من جملة ﴿ تعالى جد ربنا .

وتأكيد الخبر بـ (إن) سواء كانت مكسورة أو مفتوحة لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن .

والاقتصار في بيان تَعالِي جدِ الله على انتفاء الصاحبة عنه والولد ينبىء بأنه كان شائعاً في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن وما اعتقاد المشركين إلاّ ناشىء عن تلقين الشيطان وهو من الجن ، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ سبحانه أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ في سورة الأنعام (101) .

(177/785)

وإعادة لا ﴿ النافية مع المعطوف للتأكيد للدلالة على أن المعطوف منفي باستقلاله لدفع توهم نفي المجموع .

وضمير الجماعة في قوله : ﴿ ربنا ﴾ عائد إلى كل متكلم مع تشريك غيره ، فعلى تقدير أنه من كلام الجن فهو قول كل واحد منهم عن نفسه ومن معه من بقية النفر .

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4)

قرأه الجمهور بكسرة همزة ﴿ وإنه ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة كما تقدم في قوله : ﴿ وأنه تعالى جدّ ربنا ﴾ [الجن : 3] فقد يكون إيمانهم بتعالي الله عن أن يتخذ صاحبة وولداً ناشئاً على ما سمعوه من القرآن وقد يكون ناشئاً على إدراكهم ذلك بأدلة نظرية .

والسفيه : هنا جنس ، وقيل : أرادوا به إبليس ، أي كان يلقنهم صفات الله بما لا يليق بجلاله ، أي كانوا يقولون على الله شططاً قبل نزول القرآن بتسفيههم في ذلك .

والشطط : مجاوزة الحد وما يخرج عن العدل والصواب ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولا تشطط ﴾ في سورة ص (22) .

والمراد بالشطط إثبات ما نفاه قوله : ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ [الجن : 2] وقوله : ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ [الجن : 3] وضمير ﴿ وإنه ﴾ ضمير الشأن .

والقول فيه وفي التأكيد بـ (إن) مكسورةً أو مفتوحة كالقول في قوله : ﴿ وإنه تعالى جد ربنا ﴾ [الجن : 3] الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(178/785)

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكروا ما هدوا إليه من الحق في الله وفيمن كان يحملهم على الباطل ، ذكروا عذرهم في اتباعهم للسفيه وفي وقوعهم في مواقع التهم ، فقالوا مؤكدين لأن ما كانوا عليه من الكفر

جدير بأن يظن أنه لا يخفى على أحد لشدة وضوح بطلانه : ﴿ وأنا ﴾ أي معشر المسلمين من الجن ﴿ ظننا ﴾ أي بما لنا من سلامة الفطر المقتضية لتحسين الظن بشهادة حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عند أحمد " المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم " ﴿ أن ﴾ أي أنه ، وزادوا في التأكيد لما مضى فقالوا : ﴿ لن تقول ﴾ وبدأوا بأفضل الجنسين فقالوا : ﴿ الإنس ﴾ وأتبعوهم قرناءهم فقالوا : ﴿ والجن ﴾ أي متخرصين ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي بيده النفع والضر ﴿ كذباً ﴾ أي قولاً هو لعراقته في مخالفة الواقع نفس الكذب ، وهو في قراءة أبي جعفر بفتح القاف والواو المشددة المفتوحة مصدر من غير اللفظ ، وإنما ظننا ذلك لما طبع عليه المجبول على الشهوات من تصديق الأشكال لا سيما إذا كان قولهم جازماً وعظيماً لا يقال مثله إلا بعد تثبت لا سيما إذا كان على ملك الملوك لا سيما إذا كان القائل كثيراً لا سيما إذا تأيدوا بجنس آخر ، فصاروا لا يحصون كثرة ، ولا تطيق العقول مخالفة جمع بهذه الصفة إلا بتأييد إلهي بقاطع نقلي ، والآية على قراءة أبي جعفر من الاحتباك : فعل التقول أولاً دليل على فعل الكذب ثانياً ، ومصدر الكذب ثانياً دليل على مصدر التقول أولاً ، وسره أن التقول دال على التعمد فهو أفحش معنى والكذب أفحش لفظاً ، وهذا مرشد إلى أنه لا ينبغي التقليد في شيء لأن الثقة بكل أحد عجز ، وإنما ينكشف ذلك بالتجربة ، والتقليد قد يجر إلى الكفر المهلك هلاكاً أبدياً ، وإليه أرشد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه الشيخان عن النعمان ابن بشير ـ رضى الله عنه ـ

بأن " من اتقى الشبهات استبرأ لديه وعرضه " وفي ذلك غاية الحث على أن الإنسان لا يقدم ولا يحجم في أصول الدين إلا بقاطع .

(179/785)

ولما علم من قولهم أن مستند الضلال ظنون وشبه متى حكت على محك النظر بان فسادها ، وأظهر زيفها نقادها ، أتبعه شبهة أخرى زادت الفريقين ضلالاً بعضهم ببعض للتقيد بالمحسوسات ، والوقوف مع الخيالات الموهومات ، فقال حاكياً عنهم تنبيهاً على عدم الاغترار بالمدح والإطراء الموجبين للغلط في النفس وعلى أنه يجب التثبت حتى لا يقع الغلط في الأسباب المسخرة فيظن أنها مؤثرة فيتجاوز بها الحد عن رتبة الممكنات إلى رتبة الواجب ، مؤكدين لأنه لا يكاد يصدق أن الجن يخاطبهم الإنس فيكارمونهم : ﴿ وإنه ﴾ أي الشأن ﴿ كان رجال ﴾ أي ذوو قوة وبأس ﴿ من الإنس ﴾ أي النوع الظاهر في عالم الجنس ﴿ يعوذون ﴾ أي يلجؤون ويعتصمون - خوفاً على أنفسهم وما معهم - إذا نزلوا وادياً ﴿ برجال من الجن ﴾ أي القبيل المستتر عن الأبصار فإنه كان القوم منهم إذا نزلوا وادياً أو غيره من القفر تعبث بهم الجن في بعض الأحيان لأنه لا مانع لهم منهم من ذكر الله تعالى ولا دين صحيح ، ولا كتاب من الله صريح ، فحملهم ذلك على أن يستجيروا

بعظمائهم فكان الرجل يقول عند خوفه : إني أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه أو نحو هذا فلا يرى إلا خيراً ، وربما هدوه إلى الطريق وردوا عليه ضالته ، فكان ذلك فتنة للإنس باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه ، فتبعوهم في الضلال ، وفتنة الجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا سدنا : الجن والإنس ، فيضلوا ويضلوا ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فزادوهم ﴾ أي الإنس الجن باستعاذتهم هذه المرتب عليها إعاذتهم ، والجن الإنس بترئيس الإنس لهم وخوفهم منهم ﴿ رهقاً ﴾ أي ضيقاً وشدة وغشياناً لما هم فيه من أحوال الضلال التي يلزم منهم الضيق والشدة ، وأصل الرهق غشيان بقوة وشدة وقهر ، وقال البغوي : والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم .

(180/785)

كما يتفق لمن يسلك من أهل التصوف على غير أصل فيرى في أثناء السير أنواراً وأشياء تعجبه شيطانية فيظنها رحمانية ، فيقف عندها ويأنس بها لفساد في أصل جبلته نشأ عنه سوء مقصده ، فربما كان ذلك سبباً لكفره فيزداد هو وأمثاله من الإنس ضلالاً ويزداد من أضله من الجن ضلالاً وإضلالاً وعتواً ، ويزداد الفريقان بعداً عن اللجأ إلى الله وحده ، ولقد أغنانا الله سبحانه وتعالى بالقرآن والذكر المأخوذ عن خير خلقه بشرطه في أوقاته

عن كل شيء كما أخبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من قال عند إتيانه الخلاء " بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " ستر عن الجن ، وأن من قال إذا أتى امرأته " اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني " فأتاه ولد لم يقدر الشيطان أن يضره ، ومن أذن أمن تغول الغيلان ، وروى الترمذي وأحمد – قال المنذري : ورواته رواة الصحيح – عن شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ما من مسلم يأخذ مضجعه فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله تعالى به ملكاً فلا يقربه شيء يؤذيه حتى يهب متى هب " وللطبراني في الكبير – قال المنذري : ورواته رواة الصحيح إلا المسيب بن واضح ، قال الهيثمي : وهو ضعيف وقد وثق – عن عبد الله بن بسر ـ رضى الله عنه ـ قال : " خرجت من حمص فآواني الليل إلى البقيعة فحضرني من أهل الأرض فقرأت هذه الآية من الأعراف

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [الأعراف : 54] إلى آخر الآية ، فقال بعضهم لبعض : احرسوه الآن حتى يصبح ، فلما أصبحت ركبت دابتي " والأحاديث في هذا كثيرة في آية الكرسي وغيرها ، وكذا حكايات من اعترضه بعض الجن فلما قرأ ذهب عنه .

ولما كان التقدير : فضل كل من الفريقين بالآخر ضلالاً بعيداً حتى أبعدوا عن الشرائع النبوية ، واعتقدوا ما لا يجوز اعتقاده من التعطيل واعتقاد الطبيعة ، فلا يزال الأمر هكذا أرحام تدفع وأرض تبلع ولا رسول يهديهم ولا بعث للأرض على بارئهم ، عطف عليه قولهم مؤكدين في قراءة الكسر إشارة إلى ظهور دلائل البعث ، وأنه لا يكاد يصدق أن أحداً يكذب به منبهاً على أن الأهواء والأغاليط قد يتطابق عليها الجم الغفير ، حثاً للمهتدي على أن لا يستوحش في طريق الهدى لقلة السالكين ، ولا يغر بطرق الردى لكثرة الهالكين : ﴿ وأنهم ﴾ أي الإنس إن كانوا يخاطبون الجن ، والجن إن كانوا يخاطبون الإنس ﴿ ظنوا ﴾ أي الجن أو الإنس ظناً ليسوا فيه على ثلج والظن قد يصيب ، وقد يخطىء وهو أكثر ﴿ كما ظننتم ﴾ أي أيها الجن أو الإنس ، والمعنى في قراءة الفتح : وأوحى إليّ أن الإنس أو الجن ظنوا ، وسدوا عن مفعولي " ظن " بقولهم : ﴿ أن ﴾ أي أن الشأن العظيم ﴿ لن ﴾ أكد للدلالة على شدة إنكارهم لذلك ﴿ يبعث ﴾ وأشاروا إلى خطأ هذا الظن بالتعبير بالجلالة فقالوا : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ أحداً ﴾ أي بعد موته لما لبس به عليهم إبليس حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن ، أو أحد من الرسل يزيل به عماية الجهل وما عليه الإنس من استغواء الجن لهم وغير ذلك من الضلال ، وقد ظهر

بالقرآن أن هذا الظن كاذب وأنه لا بد من البعث في الأمرين لأنه حكمة الملك وخاصة الملك .

(182/785)

ولما كان عدم البعث من خلل في القدرة ، شرعوا في إثبات تمام القدرة على وجه دال على صحة القرآن وحراسته من الجان ، لئلا يظن أنه من نحو ما للكهان ، فقالوا مؤكدين في قراءة الكسر لاستبعاد الوصول إلى السماء حثاً على طلب المهمات وإن بعد مكانها : ﴿ وإنا ﴾ ولما كان يعبر عن الإمعان في التفتيش بالالتماس ، وكان تجريد الفعل أعظم من ذلك للدلالة على الخفة وعدم الكلفة قال : ﴿ لمسنا السماء ﴾ أي الدنيا التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا لاستماع ما يغوى به الإنسان التماساً هو كالحس باللمس باليد ﴿ فوجدناها ﴾ من جميع نواحيها وهو من الوجدان ﴿ ملئت ﴾ أي ملأً هو في غاية السهولة والخفة على فاعله ﴿ حرساً ﴾ أي حراساً اسم جمع ، فهو مفرد اللفظ ، ولذلك وصف بقوله : ﴿ شديداً ﴾ أي بالملائكة ﴿ وشهباً ﴾ جمع سهاب وهو المتوقد من النار ، فعلت هممهم حتى طلبوا المهمات الدنيوية والشهوات النفسانية من مسيرة خمسمائة سنة صعوداً ، فأفّ لمن يكسل عن مهمات الدين المحققة من مسيرة ساعة أو دونها ، وأن يقعد

في مجلس العلم ساعة أو دونها ، والتعبير بالملء يدل على أنها كانت قبل ذلك تحرس لكن لا على هذا الوجه فقيل : إنها حرست لنزول التوراة ثم اشتد الحرس للانجيل ثم ملئت لنزول القرآن فمنعوا من الاستماع أصلاً إلا ما يصدق القرآن إرهاصاً للنبوة العظمى الخاتمة لئلا يحصل بهم نوع لبس .

(183/785)

ولما أخبروا عن حالها إذ ذاك لأنه الأهم عندهم ، أخبروا عن حالها قبل ، فقالوا مؤكدين لما للإنس من التكذيب بوصول أحد إلى السماء : ﴿ وإنا كنا ﴾ أي فيما مضى ﴿ نقعد منها ﴾ أي السماء ﴿ مقاعد ﴾ أي كثيرة قد علمناها لا حرس فيها فهي صالحة ﴿ للسمع ﴾ أي لأن نسمع منها بعض ما تتكلم به الملائكة بما أمروا بتدبيره ، وقد جاء في الخبر أن صفة قعودهم هي أن يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا إلى السماء ، قال أبو حيان : فمتى احترق الأعلى كان الذي تحته مكانه فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان فيزيدون معها الكذب .

ولما كان التقدير : فنستمع منها فنسمع ما يقدر لنا من غير مانع ، عطف عليه قوله : ﴿ فمن يستمع ﴾ أي يجتهد في الوصول إلى السمع ﴿ الآن ﴾ أي في هذا الوقت فيما يستقبل أنهم

قسموا الزمان إلى ما كان من إطلاق الاستماع لهم وإلى ما صار إليه الحال من الحراسة ، وأطلقوا " الآن " على الثاني كله ، لأنهم أرادوا وقت قولهم فقط أو أرادوه لأنهم يعلمون ما بعده فيجوزون أن يكون الحال فيه على غير ذلك ﴿ يجد له ﴾ أي لأجله ﴿ شهباً ﴾ أي شعلة من نار ساطعة محرقة .

ولما كان الشهاب في معنى الجمع لأن المراد أن كل موضع منها كذلك ، وصفه باسم الجمع فقال : ﴿ رصداً ﴾ أي يرصده الرامون به من غير غفلة ، ويجوز أن يكون مصدراً على المبالغة كرجل عدل ، والرصد الترقب لأنه لما كان لا تأخر عن رميه عند الدنوّ من السماء كان كأنه هو الراصد له ، المراقب لأمره ، الملاحظ الذي لا فتور عنده ولا غفلة بوجه بل هو الرصد وهو المعنى بنفسه ، فمتى تسنم للاستماع رمي به فيمنعه من الاستماع وإن أدركه أحرقه ، وأما السمع فقد امتنع لقوله تعالى ﴿ وإنهم عن السمع لمعزولون ﴾ [الشعراء : 212] .

(184/785)

ولما أخبروا عن إيمانهم أنه كان عقب سماعهم من غير توقف ، ثم ذكروا منعهم من الاستراق ، ذكروا أنه اشتبه عليهم المنع فلم يعلموا سره دلالة على أن جهل بعض المسائل

الفرعية لا يقدح ، وندباً إلى رفع الهمة عن الخوض في شيء بغير علم ، وحثاً على التفويض إلى علام الغيوب ، فبينوا الذي حملهم على ضرب مشارق الأرض ومغاربها حتى وجدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ القرآن : فقالوا مؤكدين لأن العرب كانوا ينسبونهم إلى علم المغيبات وحل المشكلات : ﴿ وإنا لا ندري ﴾ أي بوجه من الوجوه وإن دافعنا واجتهدنا ﴿ أشر ﴾ ولما كان المحذور نفس الإرادة الماضية لا كونها من معروف مع أن الفاعل معروف ، وهو الفاعل المختار الذي له الإرادة الماضية النافذة ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ أريد ﴾ معلمين للأدب في أن الشر يتحاشى من إسناده إليه سبحانه حيث لا إشكال في معرفة أنه لا يكون شيء إلا به ﴿ بمن في الأرض ﴾ أي بهذه الحراسة فينشأ عنها الغي ﴿ أم أراد بهم ربهم ﴾ أي المحسن إليهم المدبر لهم ، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاماً مع تعليم الأدب بأن رحمته سبقت غضبه ، وإشارة إلى أنه قد يكون أراد بهذا المنع الخير ﴿ رشداً ﴾ أي سداداً فينشأ عنه الخير ، فالآية من الاحتباك : ذكر الشر أولاً دليلاً على الخير ثانياً ، والرشد ثانياً دليلاً على الغنى أولاً .

ولما أخبر سبحانه بسهولة إيمانهم ، فكان ربما ظن أن ذلك ما كان إلا لأن شأنهم اللين ، أتبعه ما يعلم أن ذلك خارقة لأجله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت ، ولإعظامه وإكرامه وجدت ، فقال حكاية عنهم مؤكدين لأن الكلام السابق ظاهر في سلامة طباع الكل :

﴿ وإنا منا ﴾ أي أيها الجن ﴿ الصالحون ﴾ أي العريقون في صفة الصلاح التي هي مهيئة لقبول كل خير .

(185/785)

ولما كان غير الصالح قد يكون فاسداً بأن يكون مباشراً للفساد قاصداً له وقد يكون غير مباشر له ، قالوا متفطنين لمراتب العلوم والأعمال المقربة والمبعدة : ﴿ ومنا ﴾ وبنى الظرف المبتدأ به لإضافته إلى مبني فقيل : ﴿ دون ﴾ أي قوم في أدنى رتبة من ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الوصف الشريف العالي .

ولما كان من دون الصالح ذا أنواع كثيرة بحسب قابليته للفساد أو الصلاح وتهيؤه له أو بعده عنه ، حسن بيان ذلك بقولهم : ﴿ كنا ﴾ أو كوناً هو كالجبلة ﴿ طرائق ﴾ أي ذوي طرق أي مذاهب ووجوه كثيرة ، وأطلقوا الطرق على أصحابها إشارة إلى شدة تلبسهم بها .

ولما كان الانفصال قد يكون بأدنى شيء ، بين أنه على أعلى الوجوه فأطلق عليهم نفس المنقطع ووصفهم به فقال : ﴿ قدداً ﴾ أي فرقاً متفرقة أهواؤها ، جمع قدة وهي الفرقة من الناس هواها على غير هواهم ، من القد وهو القطع الموجب للتفرق العظيم مثل السيور التي

تقطع من الجلد وقد منه بحيث تصير كل فرقة على حدتها ، قال الحسن والسدي : كافرين ومسلمين ورافضة ومعتزلة ومرجئة وغير ذلك مثل فرق الإنس .

(186/785)

ولما دلوا على قهرهم عما كانوا يقدرون عليه من أمر السماء بما ذكروا ، وعلى قهر مفسديهم بهذا القرآن عن كثير مما كانوا يفعلونه بأهل الأرض ، فقهروا بهذا القرآن العظيم الشأن في الحقيقة عن الخافقين فمنعنا منهم وحفظاً به ، ودلوا على أنهم موضع القهر بالتفرق ، كان ذلك موجباً للعلم بشمول قدرته تعالى حتى لا يدركه طالب ، ولا ينجو منه هارب ، لما أبدى لهم من شؤون عظمته وقهره في الحراسة وغيرها ، فذكر سبحانه ما أثر ذلك عندهم من الاعتراف والإذعان للواحد القهار ، فقال حاكياً عنهم ذلك ندباً إلى الاقتداء بهم في معرفة النفس بالعز والذل والضعف بالتفرق والانقسام ، ومعرفة الرب سبحانه بالقدرة الكاملة والسلطان والعظمة بالتفرد التام الذي لا يقبل المماثلة ولا القسمة : ﴿ وإنا ﴾ أكدوا لظن الإنس في قوتهم غير ما هو لها ﴿ ظننا ﴾ أطلقوا الظن على العلم إشارة إلى أن العاقل ينبغي له أن يجتنب ما يخيله ضاراً ولو بأدنى أنواع الحيل فكيف إذا تيقن ﴿ أن ﴾ أي أن الشأن العظيم ، وزادوا في التأكيد لما تقدم فقالوا : ﴿ لن نعجز الله ﴾

أي أن نقاومه إن أراد بنا سواءاً لما له من الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة لأنه واحد لا مثل له ، ودلوا على وجه الضعف بقولهم : ﴿ في الأرض ﴾ أي كائنين فيها مقيمين وهي جهة السفل الملزومة للقهر ، وذلك أقصى جهدنا فأين نحن من سعة ملكه الذي هو في قبضته ﴿ ولن نعجزه ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ هرباً ﴾ أي ذوي هرب أو من جهة الهرب ، أي هربنا من الأرض إلى غيرها فإن السماء منعت منا وليس لنا مضطرب إلا في قبضته ، فأين أم إلى أين المهرب ، وقد منعوا بذلك وجهي النجاة باللقاء والنصر والهرب عند القهر .

(187/785)

ولما كان الظانّ قد يبادر على العمل بموجب ظنه وقد لا ، بينوا أن مرادهم به العلم ، وأنهم بادروا إلى العمل بما دعا إليه ، فقالوا مؤكدين لما للجن من الإباء والعسر : ﴿ وإنا لما سمعنا ﴾ أي من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ الهدى ﴾ أي القرآن الذي له من العراقة التامة في صفة البيان والدعاء إلى الخير ما سوغ أن يطلق عليه نفس الهدى : ﴿ آمنا به ﴾ أي من غير وقفة أصلاً عملاً بما له من هذا الوصف العظيم .

ولما كان التقدير : فآمنا بسبب إيماننا الذي قادنا إليه حفظ السماء من الإيقاع به لتمام قدرته علينا الذي هدانا إليه منعنا من الاستماع بالحراسة ، سببوا عن ذلك قولهم معترفين

بالعجز عن مقاومة التهديد من الملك طالبين التحصن بتحصينه والاعتصام بجبله : ﴿ فمن يؤمن ﴾ أي يوجد حقيقة الإيمان ويستمر على تجديدها كل لحظة .

ولما فهموا أن دعاءه إليه وبيانه للطريق مع قدرته التامة إنما هو من عموم لطفه ورحمته ، ذكروا وصف الإحسان لزيادة الترغيب فقالوا : ﴿ بربه ﴾ أي المحسن إليه منا ومن غيرنا .

ولما كان المؤمن هو المختص من بين الخلق بالنجاة ، أدخل الفاء على الجواب ورفعه على تقدير مبتدأ دلالة على ذلك وعلى أن نجاتهم ما لا بد منه فقال : ﴿ فلا ﴾ أي فهو خاصة لا ﴿ يخاف ﴾ أصلاً ﴿ بخساً ﴾ أي نقصاً وقلة وخبثاً ونكداً في الثواب والإكرام بوجه من الوجوه ﴿ ولا رهقاً ﴾ أي مكروهاً يلحقه فيقهره لأنه لم يفعل مع أحد شيئاً من ذلك ليجازى عليه ، فهذا حث للمؤمن على اجتناب ذلك لئلا يجازى به ، وقد هدى السياق إلى تقدير : ومن يشرك به فلا ، يأمن محقاً ولا صعقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 185. 191 ﴾

(188/785)

فصل

قال الفخر :

النوع الخامس : قوله تعالى :

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

فيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادي أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح ، وقال آخرون : كان أهل الجاهلية إذا قحطوا بعثوا رائدهم ، فإذا وجد مكاناً فيه كلأ وماء رجع إلى أهله فيناديهم ، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادي من أن يصيبنا آفة يعنون الجن ، فإن لم يفزعهم أحد نزلوا ، وربما تفزعهم الجن فيهربون القول الثاني : المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادي ، وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه ، لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن ، وهذا ضعيف ، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً ، أما قوله : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ قال المفسرون : معناه زادوهم إثماً وجرأة وطغياناً وخطيئة وغياً وشراً ، كل هذا من ألفاظهم ، قال الواحدي : الرهق غشيان الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ

وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ [يونس : 26] وقوله : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 41] ورجل مرهق أي يغشاه السائلون .

(189/785)

ويقال رهقتنا الشمس إذا قربت ، والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفاً من أن يغشاهم الجن ، ثم إنهم زادوا في ذلك الغشيان ، فإنهم لما تعوذوا بهم ، ولم يتعوذوا بالله استذلوهم واجترؤا عليهم فزادوهم ظلماً ، وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم ، وعلى هذا القول زادوا من فعل الجن وفي الآية قول آخر وهو أن زادوا من فعل الإنس وذلك لأن الإنس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغياناً فيقولون : سدنا الجن والإنس ، والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها .

النوع السادس : قوله تعالى :

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7)

اعلم أن هذه الآية والتي قبلها يحتمل أن يكونا من كلام الجن ، ويحتمل أن يكونا من جملة الوحي فإن كانا من كلام الجن وهو الذي قاله بعضهم مع بعض ، كان التقدير وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن ، وإن كانا من الوحي كان التقدير : وأن الجن ظنوا كما ظننتم يا كفار

قريش وعلى التقديرين فالآية دلت على أن الجن كما أنهم كان فيهم مشرك ويهودي ونصراني ففيهم من ينكر البعث ، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يبعث أحداً للرسالة على ما هو مذهب البراهمة ، واعلم أن حمله على كلام الجن أولى لأن ما قبله وما بعده كلام الجن فإلقاء كلام أجنبي عن كلام الجن في البين غير لائق .

النوع السابع : قوله تعالى :

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8)

اللمس : المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف يقال : لمسه والتمسه ، ومثله الجس يقال : جسوه بأعينهم وتجسسوه ، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها ، والحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شداداً .

النوع الثامن : قوله تعالى :

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)

أي كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب ، وفي قوله : ﴿ شِهَاباً رَّصَداً ﴾

وجوه أحدها : قال مقاتل : يعني رمياً من الشهب ورصداً من الملائكة ، وعلى هذا يجب أن يكون التقدير شهاباً ورصداً لأن الرصد غير الشهاب وهو جمع راصد وثانيها : قال الفراء : أي شهاباً قد أرصد له ليرجم به ، وعلى هذا الرصد نعت للشهاب ، وهو فعل بمعنى مفعول وثالثها : يجوز أن يكون رصداً أي راصداً ، وذلك لأن الشهاب لما كان معداً له ، فكأن الشهاب راصد له ومترصد له واعلم أنا قد استقصينا في هذه المسألة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك : 5] فإن قيل : هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث ، ويدل عليه أمور أحدها : أن جميع الفلاسفة المتقدمين تكلموا في أسباب انقضاض هذه الشهب ، وذلك يدل على أنها كانت موجودة قبل المبعث وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ ذكر في خلق الكواكب فائدتين ، التزيين ورجم الشياطين وثالثها : أن وصف هذا الانقضاض جاء في شعر أهل الجاهلية ، قال أوس بن حجر :

فانقض كالدريّ يتبعه . . نقع يثور تخاله طنبا

وقال عوف بن الخرع :

يرد علينا العير من دون إلفه . . أو الثور كالدرى يتبعه الدم

وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس رضي الله عنهما : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ فقالوا كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم " الحديث إلى آخره ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ قالوا : فثبت بهذه الوجوه أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث ، فما معنى تخصيصها بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ والجواب : مبني على مقامين :

(192/785)

المقام الأول : أن هذه الشهب ما كانت موجودة قبل المبعث وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبي بن كعب ، روي عن ابن عباس قال : كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، أما الكلمة فإنها تكون حقة ، وأما الزيادات فتكون باطلة فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، ولم تكن النجوم يرى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي ، الحديث إلى آخره ، وقال

أبي بن كعب : لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى بعث رسول الله فرمي بها ، فرأت قريش أمراً ما رأوه قبل ذلك فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون رقابهم ، يظنون أنه الفناء ، فبلغ ذلك بعض أكابرهم ، فقال : لم فعلتم ما أرى ؟ قالوا : رمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء ، فقال : اصبروا فإن تكن نجوماً معروفة فهو وقت فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف فهو أمر قد حدث فنظروا ، فإذا هي لا تعرف ، فأخبروه فقال : في الأمر مهلة ، وهذا عند ظهور نبي فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم أبو سفيان على أمواله وأخبر أولئك الأقوام بأنه ظهر محمد بن عبد الله ويدعي أنه نبي مرسل ، وهؤلاء زعموا أن كتب الأوائل قد توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين ألحقوا هذه المسألة بها طعناً منهم في هذه المعجزة ، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلفة عليهم ومنحولة .

(193/785)

المقام الثاني : وهو الأقرب إلى الصواب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلا أنها زيدت بعد المبعث وجعلت أكمل وأقوى ، وهذا هو الذي يدل عليه لفظ القرآن لأنه قال : ﴿ فوجدناها مُلِئَتْ ﴾ [الجن : 8] وهذا يدل على أن الحادث هو الملء والكثرة وكذلك قوله : ﴿ نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد ﴾ أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب

والآن ملئت المقاعد كلها ، فعلى هذا الذي حمل الجن على الضرب في البلاد وطلب السبب ، إنما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلية .

النوع التاسع : قوله تعالى :

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10)

وفيه قولان : أحدهما : أنا لا ندري أن المقصود من المنع من الاستراق هو أشر أريد بأهل الأرض أم صلاح وخير والثاني : لا ندري أن المقصود من إرسال محمد الذي عنده منع من الاستراق هو أن يكذبوه فيهلكوا كما هلك من كذب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا .

النوع العاشر : قوله تعالى :

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)

أي منا الصالحون المتقون أي ومنا قوم دون ذلك فحذف الموصوف كقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] ثم المراد بالذين هم دون الصالحين من ؟ فيه قولان : الأول : أنهم المقتصدون الذين يكونون في الصلاح غير كاملين والثاني : أن المراد من لا يكون كاملاً في الصلاح ، فيدخل فيه المقتصدون والكافرون ، والقدة من قدد ، كالقطعة من قطع .

ووصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على معنى التقطع والتفرق ، وفي تفسير الآية وجوه أحدها : المراد كنا ذوي طرائق قدداً أي ذوي مذاهب مختلفة .

قال السدي : الجن أمثالكم ، فيهم مرجئة وقدرية وروافض وخوارج وثانيها : كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة وثالثها : كانت طرائقنا طرائق قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق ، وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه .

النوع الحادي عشر : قوله تعالى :

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12)

الظن بمعنى اليقين ، و ﴿ فِى الأرض ﴾ و ﴿ هَرَباً ﴾ فيه وجهان الأول : أنهما حالان ، أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء والثاني : لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا .

النوع الثاني عشر : قوله تعالى :

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)

﴿ لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ أي القرآن ، قال تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] ﴿ آمنا بِهِ ﴾ أي آمنا بالقرآن ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ فهو لا يخاف أي فهو غير خائف ، وعلى هذا يكون الكلام في تقدير جملة من المبتدأ والخبر ، أدخل الفاء عليها لتصير جزاء للشرط الذي تقدمها ، ولولا ذاك لقيل : لا يخف ، فإن قيل : أي فائدة في رفع الفعل ، وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال : لا يخف قلنا : الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكأنه قيل : فهو لا يخاف ، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة ، وأنه هو المختص لذلك دون غيره ، لأن قوله : فهو لا يخاف معناه أن غيره يكون خائفاً ، وقرأ الأعمش : ﴿ فلا يخف ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ البخس النقص ، والرهق الظلم ، ثم فيه وجهان الأول : لا يخاف جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحداً حقاً ، ولا (رهق) ظلم أحداً ، فلا يخاف جزاءهما الثاني : لا يخاف أن يبخس ، بل يقطع بأنه يجزي الجزاء الأوفى ، ولا يخاف أن ترهقه ذلة من قوله : ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : 43] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 138 ﴾ 141.

(196/785)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾

أي حسبنا ﴿ أَن لَّن تَقُولَ الإنس والجن عَلَى الله كَذِباً ﴾ ، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً ، حتى سمعنا القرآن وتبيَّنا به الحقّ .

وقرأ يعقوب والجحدريّ وابن أبي إسحق "أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ" .

وقيل : انقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله : "أَنَّهُ استمع" ، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى .

والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه ؛ فيبيت في جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما .

قال مقاتل : كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بني حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

وقال كَرْدَم بن أبي السائب : خرجت مع أبي إلى المدينة أوّلَ ما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلا من الغنم ، فقال الراعي : يا عَامر الوادي ، أنا جارك .

فنادى منادٍ يا سِرْحان أرسله ، فأتى الحملَ يَشْتَد .

وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ أي زاد الجنُّ الإنس "رهقا" أي خطيئة وإثماً ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

والرهَق : الإثم في كلام العرب وغِشيان المحارم ؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 27] وقال الأعشى :

لا شَيءَ ينفعني مِن دونِ رؤيتها . . .

هل يَشتفِي وامِقٌ ما لم يُصِب رَهَقَا

يعني إثماً .

وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سبباً لها .

وقال مجاهد أيضاً : "فَزَادُوهُم" أي إن الإنس زادوا الجنّ طغياناً بهذا التعوّذ ، حتى قالت الجنّ : سُدنا الإنس والجنّ .

(197/785)

وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فَرَقاً وخوفاً من الجنّ .

وقال سعيد بن جُبير : كفراً .

ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك .

وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ برجال من الإنس ، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادي .

قال القشيريّ : وفي هذا تحكُّم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس ؛ أي وأن الجنّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم .

الكلبيّ : المعنى : ظنت الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه يقيم به الحجة عليهم .

وكل هذا توكيد للحجة على قريش ؛ أي إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد ، فأنتم أحقّ بذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء ﴾

هذا من قول الجنّ ؛ أي طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فَوَجَدْنَاهَا ﴾ قد ﴿ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً ﴾ أي حَفَظة ، يعني الملائكة .

والحَرَس : جمع حارس ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمع شهاب ، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع .

وقد مضى القول فيه في سورة "الحجر" و"الصافات" .

و"وَجَدَ" يجوز أن يقدّر متعدّياً إلى مفعولين ، فالأوّل الهاء والألف ، و"مُلِئَتْ" في موضع المفعول الثاني .

ويجوز أن يتعدّى إلى مفعول واحد ويكون "مُلِئَتْ" في موضع الحال على إضمار قد .

و"حَرَساً" نصب على المفعول الثاني ب"مُلِئَتْ" .

و"شَدِيداً" من نعت الحرس ، أي ملئت ملائكة شدادا .

ووحد الشَّديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السَّلَف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السَّلَف أسلاف وجمع الحرس أحراس ؛ قال :

"تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ مَعْشَرٍ" . . .

ويجوز أن يكون "حَرَساً" مصدراً على معنى حُرِست حراسةً شديدة .

(198/785)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ .

"مِنْهَا" أي من السماء ، و"مَقَاعِدَ" : مواضع يُقْعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ؛ يعني أن مَرَدة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى

الكهِنة على ما تقدّم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشُّهب المحرقة ، فقالت الجنّ حينئذ : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ يعني بالشهاب : الكوكب المحرِق ؛ وقد تقدّم بيان ذلك .

ويقال : لم يكن انقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته .

واختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال الكلبي وقال قوم : لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه : خمسِمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، وحُرست بالملائكة والشهب .

قلت : ورواه عطية العوفي عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقي .

وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذي نُبِىء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب .

وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشُّهب ، ومُنعت عن الدنوّ من السماء .

وقال نافع بن جُبير : كانت الشياطين في الفترة تَسمع فلا تُرمَى ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب .

ونحوه عن أبيّ بن كعب قال : لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبِّىءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُمِيَ بها .

(199/785)

وقيل كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذاراً بحاله ؛ وهو معنى قوله تعالى : "مُلِئَتْ" أي زيد في حَرَسها ؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهليّ :

فانقض كالدُّرّيِ يَتْبَعُه . . .
نَقْعٌ يَثورُ تَخَالُه طُنُبَا

وهذا قول الأكثرين .

وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر رُوِي فيه فهو مصنوع ، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث .

والقول بالرمي أصح ؛ لقوله تعالى ، ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ .

وهذا إخبار عن الجنّ ، أنه زِيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم ؛ ولما رُوي عن ابن عباس قال : " بينما النبيّ صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذا رُمِي بنجم ، فقال : "ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟" قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً في السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء ، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه ، فتتخطَّف الجنُّ فيُرْمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه" " وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث .

ورَوَى الزهريّ نحوه عن عليّ بن الحسين عن عليّ بن أبي طالب عن ابن عباس .

وفي آخره قيل للزهريّ : أكان يُرمَى في الجاهلية ؟ قال : نعم .

قلت : أفرأيت قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ قال : غُلظت وشُدِّد أمرُها حين بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ونحوه قال القتبيّ : كان ولكن اشتدت الحراسة بعد المبعث ؛ وكانوا من قبل يُسترقون ويُرمَون في بعض الأحوال ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم مُنعت من ذلك أصلاً .

وقد تقدم بيان هذا في سورة "والصافات" عند قوله : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات : 8-9] قال الحافظ : فلو قال قائل : كيف تتعرض الجنّ لإحراق نفسها بسبب استماع خبر ، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم ؟ فالجواب : أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة ، كما ينسَى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم ، وأن الله تعالى قال له : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ [الحجر : 35] ولولا هذا لما تحقق التكليف .

والرَّصَد : قيل من الملائكة ؛ أي ورصداً من الملائكة .

والرَّصَدُ : الحافظ للشيء والجمع أرصاد ، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعاً كالحرس ، والواحد : راصد .

وقيل : الرصد هو الشهاب ، أي شهاباً قد أرصد له ، ليرجم به ؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفَض .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ أي خيراً .

قال ابن زيد : قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولاً .

وقيل : هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

أي لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم ، فإنهم يكذبونه ويهلِكون بتكذيبه كما هلك من كذَّب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا ؛ فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان ، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسة للوحي .

وقيل : لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين ؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألاّ يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أمْ يؤمنون ؟

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(201/785)

هذا من قول الجنّ ، أي قال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منّا الصالحون ومنّا الكافرون .

وقيل : "وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ" أي ومن دون الصالحين في الصلاح ، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك .

﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ أي فِرقاً شتّى ؛ قاله السُّديّ .

الضحاك : أديانا مختلفة .

قتادة : أهواءً متباينة ؛ ومنه قول الشاعر :

القَابِضُ الباسِطُ الْهادِي بِطاعتِهِ . . .

في فِتْنَةِ الناسِ إذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى : أي لم يكن كل الجنّ كفاراً بل كانوا مختلفين : منهم كفّار ، ومنهم مؤمنون صلحاء ، ومنهم مؤمنون غير صلحاء .

وقال المسيّب : كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس .

وقال السّدّي في قوله تعالى : ﴿ طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ قال : في الجنّ مثلكم قَدَرية ، ومُرْجئة ، وخوارج ، ورافضة ، وشيعة ، وسُنّية .

وقال قوم : أي وإنا بعد استماع القرآن مختلفون : منّا المؤمنون ومنّا الكافرون .

أي ومنّا الصالحون ، ومنّا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح .

والأوّل أحسن ؛ لأنه كان في الجنّ من آمن بموسى وعيسى ، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بَعْدِ موسى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 30] وهذا يدلّ على إيمان قوم منهم بالتوراة ، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان .

وأيضاً لا فائدة في قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر .

والطرائق : جمع الطريقة وهي مذهب الرجل ، أي كنا فرقاً مختلفة .

ويقال : القوم طرائق أي على مذاهب شتّى .

والقِدد : نحوٌ من الطرائق وهو توكيد لها ، واحدها : قِدّة .

يقال : لكل طريق قِدّة ، وأصلها من قَدّ السيور ، وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثي أخاه أَرْبَد :

لم تَبْلُغِ العينُ كلَّ نَهْمَتِها . . .

ليلةَ تُمْسِي الجِيادُ كالقِددِ

وقال آخر :

(202/785)

ولَقَدْ قُلْتُ وزَيدٌ حاسِرٌ . . .

يومَ وَلَّتْ خيلُ عَمْرٍو قِدَدَا

والقِدّ بالكسر : سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ ؛ ويقال : ماله قِدٌّ ولا قِحْف ؛ فالقِدُّ : إناء من جلد ، والقِحف : من خشب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرض ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين ، وهو خلاف الظنّ في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ﴾ [الجن : 5] ، ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ﴾ [الجن : 7] أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله : أنَّا في قبضته وسلطانه ، لن

نفوته بهرب ولا غيره .

و﴿ هَرَباً ﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾

يعني القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله ، وصدّقنا محمداً صلى الله عليه وسلم على رسالته .

وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الإنس والجنّ .

قال الحسن : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجنّ ، ولم يبعث الله تعالى قطُّ رسولاً من الجنّ ، ولا من أهل البادية ، ولا من النساء ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] وقد تقدم هذا المعنى .

وفي الصحيح : " وبُعثت إلى الأحمر والأسود " أي الإنس والجنّ .

﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ قال ابن عباس : لا يخاف أن يُنْقَص من حسناته ولا أن يزاد في سيئاته ؛ لأن البخس النقصان ، والرَّهَق : العدوان وغشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِن دُونِ رُؤْيَتِهَا . . .

هل يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقاً

الوامق : المحبّ ؛ وقد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أي أحبّه ، فهو وامق .

وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجنّ ؛ لقوّة إيمانهم وصحة إسلامهم .

وقراءة العامة "فَلاَيَخَافُ" رفعاً على تقدير فإنه لا يخاف .

وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم "فَلاَيَخَفْ" جزماً على جواب الشرط وإلغاء الفاء . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(203/785)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾

وقُرِىءَ أُحيَ إليَّ أصلُه وُحيَ وقد قُرِىءَ كذلكَ منْ وُحيَ إليهِ فقلبتْ الواوُ المضمومةُ همزةً كأعدَ وأزنَ في وَعَدَ ووَزَنَ ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالفتحِ لأنَّه فاعل أُوحي والضمير للشأن ﴿ استمع ﴾ أي القرآن كما ذكر فِي الأحقافِ وقد حُذِفَ لدلالة ما بعدَهُ عليه ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ النفرُ ما بينَ الثلاثةِ للعشرةِ ، والجنُّ أجسام عاقلةٌ خفيةٌ يغلبُ عليهْم الناريةُ أو الهوائيةُ ، وقيلَ : نوعٌ منَ الأرواحِ المجردةِ وقيلَ : هيَ النفوسُ البشريةُ المفارقةُ عن أبدانِها وفيهِ دِلالةٌ عَلى أنَّه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ لم يشْعُر بهمِ وباستماعِهم ولم يقرأْ عليهمْ وإنَّما اتفقَ حضورُهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك وقد مر ما فيه من التفصيلِ في

الأَحْقَافِ ﴿ فَقَالُواْ ﴾ لقومِهم عندَ رجوعِهم إليهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً ﴾ كتاباً مقرُوءاً ﴿ عَجَبًا ﴾ بديعاً مبايناً لكلامِ الناسِ في حسنِ النظمِ ودقةِ المَعْنى وهو مصدرٌ وصفَ به للمبالغةِ ﴿ يَهْدِى إِلَى الرشد ﴾ إلى الحقِّ والصوابِ ﴿ فَئَامَنَّا بِهِ ﴾ أيْ بذلكَ القرآنِ ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ حسبمَا نطقَ به مَا فيهِ منْ دلائلِ التوحيدِ .

(204/785)

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ بالفتحِ قالُوا هُوَ وما بعدَهُ من الجملِ المصدّرةِ بأنَّ فِي أحدَ عشرَ موضعاً عطفٌ عَلى محلِّ الجارِّ والمجرورِ في فآمنا به كأنَّه قيلَ : فصدقناهُ وصدقنا أنَّه تعالَى جَدُّ ربنا أي ارتفعَ عظمتُه ، منْ جَدَّ فلانٌ في عَينْي أيْ عظُم تمكنُّهُ أو سلطانُهُ أو غِناهُ على أنه مستعارٌ منَ الجَدِّ الذي هُوَ البَختُ والمَعْنى وصفُهُ بالاستغناءِ عنِ الصاحبةِ والولدِ لعظمتِه أوْ لسلطانه لغناهُ وقُرِىءَ بالكسر وكَذا الجملُ المذكورةُ عطفاً على المحكيِّ بعدَ القولِ وهو الأظهرُ لوضوحِ اندارجِ كُلِّها تحتَ القولِ ، وأما اندارجُ الجملِ الآتيةِ تحتَ الإيمانِ والتصديقِ كما يقتضيهُ العطفُ عَلى محلِّ الجارِّ والمجرورِ ففيهِ إشكالٌ كَما ستحيطُ به خُبْراً وقولُه تعالَى ﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ بيانٌ لحُكمِ تعالِي جَدِّهِ وقُرِىءَ جَدَّاً رَبُّنَا على التمييزِ وجَدُّ ربنا بالكسرِ أيْ صدقُ ربوبيتِه وحقُّ إلهيةِ عنِ اتخاذِ الصاحبةِ والولدِ ،

وذلكَ أنَّهم لَمَّا سمعُوا القرآنَ ووفقُوا للتوحيدِ والإيمانِ تنبهُوا للخطأِ فيما اعتقدَهُ كفرةُ الجنِّ من تشبيهِ اللهِ تعالَى بخلقِه في اتخاذِ الصاحبةِ والولدِ فاستعظمُوه ونزهُوه تعالَى عَنْهُ .

(205/785)

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي إبليسُ أو مردةُ الجنِّ ﴿ عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ أي قولاً ذا شططٍ أيْ بعدٍ عن القصدِ ومجاوزةٍ للحدِّ أوْ هُو شططٌ في نفسِه لفرطِ بعدِهِ عن الحقِّ وهُو نسبةُ الصاحبةِ والولدِ إليهِ تعالَى وتعلقُ الإيمانِ والتصديقِ بهذَا القولِ ليسَ باعتبارِ نفسِه فإنهم كانُوا عالِمين بقولِ سفهائِهم منْ قبلُ أيضاً بلْ باعتبارِ كونِه شططاً كأنَّه قيلَ : وصدقنَا أنَّ مَا كَانَ يقولُه سفيهُنَا في حقِّه تعالَى كانَ شططاً وأما تعلقُهما بقولِه تعالَى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإنس والجن عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ فغيرُ ظاهرٍ وهُو اعتذارٌ منْهُم عن تقليدِهم لسفيههم أيْ كُنَّا نظنُّ أنه لنْ يكذبَ على اللهِ تعالى أحدٌ أبداً ولذلكَ اتبعنَا قولَهُ وكَذِباً مصدرٌ مؤكدٌ لتقولَ لأنَّه نوعٌ من القولِ أو وصفٌ لمصدرِه المحذوفِ أيْ قولاً كذباً أيْ مكذوباً فيهِ وقُرِئَ لنْ تَقوَّلَ بحذفِ احدَى التاءينِ فكذباً مصدرٌ مؤكدٌ له لأنَّ الكذبَ هو التقولُ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ كان الرجلُ من العربِ إذا أمسَى في وادٍ قفرٍ وخافَ على نفسِه يقولُ أعوذُ بسيدِ هَذَا الوادِي من سفهاءِ قومِه يريدُ

الجنّ وكبيرَهُم فإذا سمعُوا بذلكَ استكبرُوا وقَالُوا سُدنا الإنسَ والجنَّ وذلكَ قولُه تعالَى : ﴿ فَزَادوهُمْ ﴾ أيْ زادَ الرجالُ العائذونَ الجنَّ ﴿ رَهَقاً ﴾ أي تكبراً وعتواً أو فزادَ الجنُّ العائذينَ غياً بأنْ أضلوهُمْ حتى استعاذُوا بهمْ ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ﴾ أيِ الإنسُ ﴿ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيُّها الجنُّ على أنَّه كلامُ بعضِهم لبعضٍ ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ﴾ وقيل : المَعْنى أنَّ الجنَّ ظنُّوا كما ظننتُمْ أيُّها الكفرةُ الخ فتكونُ هذهِ الآيةُ وما قبلَها منْ جملة الكلامِ المُوحَى به والأقربُ أنهُمَا كذلكَ علَى كُلِّ تقديرٍ

(206/785)

عطفاً على أنه استمَع اذ لاَ معْنَى لادراجهما تحتَ ما ذكرَ من الإيمان والتصديقِ وكذا قولُه تعالَى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ وما بعدَهُ من الجُمَلِ المُصدرةِ بأنَّا ينبغِي أنْ تكونَ معطوفةً على ذلكَ عَلى أنَّ المُوحَى عينُ عبارةِ الجنِّ بطريقِ الحكايةِ كأنَّه قيلَ : قُلْ أُوحيَ إليَّ كيت وكيت وهذهِ العباراتُ أي طلبنَا بلوغَ السماءِ أو خبرَها واللمسُ مستعارٌ من المسِّ للطلبِ كالجسِّ يقال لمسَهُ والتمسَهُ وتلمسَهُ كطلَبُه واطلَبُه وتطلَبُه ﴿ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً ﴾ أي حُراساً اسمُ جمعٍ كخدمٍ ، مفردُ اللفظِ ، ولذلكَ قيلَ : ﴿ شَدِيداً ﴾ قوياً وهُم الملائكةُ يمنعونَهُم عنها ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمعُ شهابٍ ، وهيَ الشعلةُ المقتبسةُ من نارِ الكواكبِ .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ قبلَ هَذا ﴿ مِنْهَا ﴾ من السماءِ ﴿ مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ خاليةً عن الحرسِ والشهبِ أو صالحةٍ للترصدِ والاستماعِ، وللسمعِ متعلقٌ بنقعدَ أي لأجلِ السمعِ أو بمضمرٍ هو صفةٌ لمقاعدَ كائنةً للسمعِ ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الأن ﴾ في مقعدٍ من المقاعدِ ﴿ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ أي شهاباً راصداً لهُ ولأجلِه يصدُّه عن الاستماعِ بالرجمِ أو ذوي شهابٍ راصدينَ لهُ على أنَّه اسمٌ مفردٌ في مَعْنى الجمعِ كالحرسِ، قيلَ: حدثَ هذا عندَ مبعثِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والصحيحُ أنه كانَ قبلَ البعثِ أيضاً لكنَّه كثُر الرجمُ بعدَ البعثةِ وزادَ زيادةً حتَّى تنبه لها الإنسُ والجنُّ ومُنعَ الاستراقُ أصلاً فقالُوا ما هذا إلا لأمرٍ أراده الله تعالى بأهلِ الأرضِ وذلك قولهم ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأرض ﴾ بحراسةِ السماءِ ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ أي خيراً، ونسبةُ الخيرِ إلى الله تعالى دونَ الشرِّ من الآدابِ الشريفةِ القرآنيةِ كما في قولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ونظائرُه ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ أي الموصوفونَ بصلاحِ الحالِ في شأنِ أنفسِهم وفي معاملتِهم مع غيرِهم المائلونَ إلى الخيرِ والصلاحِ حسبما تقتضيهِ الفطرةُ السليمةُ لا إلى الشرِّ والفسادِ كما هو مقتضَى النفوسِ الشريرةِ ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي قومٌ دونَ ذلكَ فحذف

الموصوفَ وهم المقتصدونَ في صلاحِ الحالِ على الوجهِ المذكورِ لا في الإيمانِ والتَّقوى كما توهَم فإنَّ هذا بيانٌ لحالِهم قبل استماعِ القرآنِ كما يُعربُ عنه قولِه تعالى ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ وأمَّا حالُهم بعد استماعِه فسيُحكى بقولِه تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ إلى قولِه تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ أي كُنَّا قبل هذا ذَوِي طرائقَ أي مذاهبَ أو مثلَ طرائقَ

(208/785)

في اختلافِ الأحوالِ ، أم كانتْ طرائقُنَا طرائقَ قِدداً أي متفرقةً مختلفةً جمعُ قِدَّةٍ من قدَّ كالقِطْعةِ من قَطَع .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أي علمنَا الآنَ ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله ﴾ أي أنَّ الشأنَ لنْ نعجزَ اللهَ كائنينَ ﴿ فِى الأرض ﴾ أينما كُنَّا من أقطارِها ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ هاربينَ منها إلى السماءِ أو لن نعجزَهُ في الأرضِ إنْ أرادَ بنا أمراً ولن نُعجزَهُ هرباً إنْ طلبنَا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ أي القرآنَ الذي هُو الهُدَى بعينِه ﴿ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ من غيرِ تلعثمٍ وترددٍ ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ ﴾ وبما أنزلَهُ ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ فهو لا يخافُ ﴿ بَخْساً ﴾ أي نقصاً في الجزاءِ ﴿ وَلاَ رَهَقاً ﴾ ولا أنْ ترهقَهُ ذلةٌ أو جزاءَ بخسٍ ولا رهقٍ إذا لم يبخسْ أحداً حقَّاً ولا رهقَ أحداً

ظلماً ، فلا يخافُ جزاءَهما وفيهِ دِلالةٌ على أنَّ من حقّ من آمنَ بالله تعالى أن يجتنبَ المظالمَ. وقُرِىءَ فلا يخفْ ، والأول أُدلُّ على تحقيقِ نجاةِ المؤمنِ واختصاصِها بهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(209/785)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنس والجن عَلَى الله كَذِباً ﴾

اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم أي كنا نظن أن لن يكذب على الله تعالى أحد فينسب إليه سبحانه الصاحبة والولد ولذلك اعتقدنا صحة قول السفيه ولعل الايمان متعلق بما يشعر به كلامهم هذا وينساق إليه من خطئهم في ظنهم كأنه قيل وصدقنا بخطئنا في ظننا الذي لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا وكذبا مصدر مؤكد لتقول لأنه نوع من القول كما في قعدت القرفصاء أو وصف لمصدر محذوف أي قولاً كذباً أي مكذوباً فيه لأنه لا يتصور صدور الكذب منه وإن اشتهر توصيفه به كالقائل وجوز أن يكون من الوصف بالمصدر مبالغة وهي راجعة للنفي دون المنفي وقرأ الحسن والجحدري وعبد الرحمن بن أبي بكرة ويعقوب وابن مقسم تقول مضارع تقول وأصله تتقول بتاءين فحذفت أحدهما فكذبا مصدر مؤكد

لأن الكذب هو التقول .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ كان الرجل من العرب إذا أمسى في واد قفر وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك يريد الجن وكبيرهم فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا سدنا الجن والإنس وذلك قوله تعالى : ﴿ فَزَادوهُمْ ﴾ أي زاد الرجال العائذون ﴿ رَهَقاً ﴾ أي تكبراً وعتواً فالضمير المرفوع لرجال الإنس إذ هم المحدث عنهم والمنصوب لرجال الجن وهو قول مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير وجماعة إلا أن منهم من فسر الرهق بالإثم وأشند الطبري لذلك قول الأعشى

: لا شيء ينفعني من دون رؤيتها . . .

لا يشتفي وامق ما لم يصب رهقاً

(210/785)

فإنه أراد ما لم يغش محرماً فالمعنى هنا فزادت الإنس والجن مأثماً لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى أو فزاد الجن العائذين غياً بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم فالضميران على عكس ما تقدم وهو قول قتادة وأبي العالية والربيع وابن زيد والفاء على

الأول للتعقيب وعلى هذا قيل للترتيب الإخباري وذهب الفراء إلا أن ما بعد الفاء قد يتقدم إذا دل عليه الدليل كقوله تعالى ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ [الأعراف : 4] وجمهور النحاة على خلافه وقيل في الكلام حذف أي فاتبعوهم فزادوهم والآية ظاهرة في أن لفظ الرجال يطلق على ذكور الجن كما يطلق على ذكور الإنس وقيل لا يطلق على ذكور الجن ومن الجن في الآية متعلق بيعوذون ومعناها أنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس وكان الرجل يقول مثلاً أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادي وهو قول غريب مخالف لما عليه الجمهور المؤيد بالآثار ولعل تعلق الايمان بهذا باعتبار ما يشعر به من كون ذلك ضلالاً موجباً لزيادة الرهق .

وقد جاء في بعض الأخبار ما يقال بدل هذه الاستعاذة ففي حديث طويل أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس وقال غريب جداً أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أصاب أحداً منكم وحشة أو نزل بأرض مجنة فليقل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن النهار ومن طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير "

(211/785)

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ﴾ أي الإنس ﴿ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها الجن على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ﴾ أي من الرسل إلى أحد من العباد وقيل إن لم يبعث سبحانه أحدا بعد الموت وأياً ما كان فالمراد وقد أخطؤا وأخطأتم ولعله متعلق الايمان وقيل المعنى أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة ﴿ أَن لَّن ﴾ الخ فتكون هذه الآية من جملة الكلام الموحى به معطوفة على قوله تعالى ﴿ إنه استمع ﴾ [الجن : 1] وعلى قراءة الكسر تكون استئنافاً من كلامه تعالى وكذا ما قبلها على ما قيل وفي "الكشاف" قيل الآيتان يعني هذه وقوله تعالى ﴿ وأنه كان رجال ﴾ [الجن : 6] الخ من جملة الموحى وتعقب ذلك في "الكشف" بأن فيه ضعفاً لأن قوله سبحانه ﴿ وإنا لمسنا السماء ﴾ [الجن : 8] الخ من كلام الجن أو مما صدقوه على القراءتين لأن من الموحى إليه فتخلل ما تخلل وليس اعتراضاً غير جائز إلا أن يؤول بأنه يجري مجراه لكونه يؤكد ما حدث عنهم في تماديهم في الكفر أولاً ولا يخفى ما فيه من التكلف انتهى وأبو السعود اختار في جميع الجمل المصدرة بأنا العطف على أنه استمع على نحو ما سمعت عن أبي حاتم وقد سمعت ما فيه آنفاً وأن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن والجملة بعدها خبر وجملة أن لن يبعث الخ قيل سادة مسد مفعولي ظنوا وجوز أن تكون سادة مسد مفعولي ظننتم ويكون الساد مسد مفعولي الأول محذوفاً كما هو المختار في أمثال ذلك ورجح الأول في الآية بأن ظنوا هو المقصود فيها فجعل المعمول

المذكور له أحسن وأما كما ظننتم فمذكور بالتبع ومنه يعلم أن كون المختار أعمال الثاني في باب التنازع ليس على إطلاقه .

(212/785)

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ أي طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها أو طلبنا خبرها واللمس قيل مستعار من المس للطلب كالجس يقول لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه وأطلبه وتطلبه والظاهر أن الاستعارة هنا لغوية لأنه مجاز مرسل لاستعماله في لازم معناه والسماع على ظاهرها ﴿ فوجدناها ﴾ أي صادفناها وأصبناها فوجد متعد لواحد وقوله تعالى : ﴿ مُلِئَتْ ﴾ في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه وإن كانت وجد من أفعال القلوب فهذه الجملة في موضع المفعول الثاني وقرأ الأعرج مليت بالياء دون همز ﴿ حَرَساً ﴾ أي حراساً اسم جمع كخدم كما ذهب إليه جمع لأنه على وزن يغلب في المفردات كبصر وقمر ولذا نسب إليه فقيل حرسي وذهب بعض إلى أنه جمع والصحيح الأول ولذا وصف بالمفرد فقيل ﴿ شَدِيداً ﴾ أي قوياً نحوه قوله

بنيته بعصبة من ماليا . . .

أخشى رجيلاً وركيباً عادياً

ولو روعي معناه جمع بأن يقال شداداً إلا أن ينظر لظاهر وزن فعيل فإنه يستوي فيه الواحد والجمع والمراد بالحرس الملائكة عليهم السلام الذين يمنعونهم عن قرب السماء ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمع شهاب وقد مر الكلام فيه وجوز بعضهم أن يكون المراد بالحرس الشهب والعطف مثله في قوله

: وهند أتى من دونها النأي والبعد . . .

وهو خلال الظاهر ودخول إنا لمسنا الخ في حيز الايمان وكذا أكثر الجمل الآتية في غاية الخفاء والظاهر تقدير نحو نخبركم فيها لا يظهر دخوله في ذلك أو تأويل ﴿ آمنا ﴾ من أول الأمر بما ينسحب على الجميع .

(213/785)

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ قبل هذا ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من السماء ﴿ مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ أي مقاعد كائنة للسمع خالية عن الحرس والشهب أو صالحة للترصد والاستماع وللسمع متعلق بنقعد أي لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لمقاعد وكيفية قعودهم على ما قيل ركوب بعضهم فوق بعض وروى في ذلك خبر مرفوع وقيل لا مانع من أن يكون بعروج من شاء منهم بنفسه إلى حيث يسمع منه الكلام ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الان ﴾ قال في "شرح التسهيل"

الآن معناه هنا القرب مجازاً فيصح مع الماضي والمستقبل وفي "البحر" أنه ظرف زمان للحال ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف واستعمل للاستقبال كما قال

: سأسعى الآن إذ بلغت أناها . . .

فالمعنى فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي ﴿ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ أي يجد شهاباً راصداً له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم فرصد صفة شهاباً فإن كان مفرداً فالأمر ظاهر وإن كان اسم جمع للراصد كحرس فوصف المفرد به لأن الشهاب لشدة منعه وإحراقه جعل كأنه شهب ونظير ذلك وصف المعا وهو واحد الأمعاء بجياع في قول القتامى

كأن قيود رجلي حين ضمت . . .

حوالب غرزا و معا جياعا

وجوز كونه مفعولاً له أي لأجل الرصد وقيل يجوز أن يكون اسم جمع صفة لما قبله بتقدير ذوي شهاب فكأنه قيل يجد له ذوي شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة عليهم السلام الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع وفيه بعد وفي الآية رد على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته عليه الصلاة والسلام حيث قيل فيها ملئت وهو كما قال الجاحظ ظاهر في أن الحادث هو الملء والكثرة وكذا قوله سبحانه نقعد منها مقاعد على ما في "الكشاف" فكأنه قيل كنا نجد فيها بعض

المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن ملئت المقاعد كلها فمن يستمع الخ ويدل على

وجود الشهب قبل ذكرها في شعر الجاهلية قال بشر قال بشر بن أبي خازم

: والعير يرهقها الغبار وجحشها . . .

ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

(214/785)

وقال أوس بن حجر

: وانقض كالدري يتبعه . . .

نقع يثور تخاله طنبا

وقال عوف بن الخرع يصف فرساً

: يرد علينا العير من دون إلفه . . .

أو الثور كالدري يتبعه الدم

فإن هؤلاء الشعراء كلهم كما قال التبريزي جاهليون ليس فيهم مخضرم وما رواه الزهري عن

علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما عن ابن عباس بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون في مثل هذا في

الجاهلية قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم وروى عن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وكأنه أخذ ذلك من الآية أيضاً وقال بعضهم إن الرمي لم يكن أولاً ثم حدث للمنع عن بعض السموات ثم كثر ومنع به الشياطين عن جميعها يوم تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام وجوز أن تكون الشهب من قبل لحوادث كونية لا لمنع الشياطين أصلاً والحادث بعد البعثة رمى الشياطين بها على معنى أنهم إذا عرجوا للاستماع رموا بها فلا يلزم أيضاً أن يكون كل ما يحدث من الشهب اليوم للرمي بل يجوز أن يكون لأمور أخر بأسباب يعلمها الله تعالى ويجاب بهذا عن حدوث الشهب في شهر رمضان مع ما جاء من أنه تصفد مردة الشياطين فيه ولمن يقول إن الشهب لا تكون إلا للرمي جواب آخر مذكور في موضعه وذكروا وجدانهم المقاعد مملوءة من الحراس ومنع الاستراق بالكلية قيل بيان لما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا قراءته عليه الصلاة والسلام وقولهم :

(215/785)

﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرض ﴾ بحراسة السماء ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ أي خيراً كالتتمة لذلك فالحامل في الحقيقة تغير الحال عما كانوا ألفوه والاستشعار أنه لأمر خطير والتشوق إلى الإحاطة به خبراً ولا يخفى ما في قولهم أشر أريد الخ من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله عز وجل كما صرحوا به في الخير وإن كان فاعل الكل هو الله تعالى ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد .

(216/785)

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ أي الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم المائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا إلى الشر والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي قوم دون ذلك المذكور ويطرد حذف الموصوف إذا كان بعض اسم مجرور بمن مقدم عليه والصفة ظرف كما هنا أو جملة كما في قوله منا أقام ومنا ظعن وأرادوا بهؤلاء القوم المقتصدين في صلاح الحال على الوجه السابق لا في الايمان والتقوى كما قيل فإن هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ وأما حالهم بعد استماعه فستحكى بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ [الجن : 13 ، 14]

إلخ وجوز بعضهم كون دون بمعنى غير فيكون دون ذلك شاملاً للشرير المحض وأياً ما كان فجملة ﴿ كُنَّا ﴾ الخ تفسير للقسمة المتقدمة لكن قيل الأنسب عليه كون دون بمعنى غير والكلام على حذف مضاف أي كنا ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت بطرائقنا طرائق قدداً وكون هذا من تلقي الركبان لا يلتفت إليه وعدم اعتبار التشبيه البليغ ليستغني عن تقدير مثل قيل لأن المحل ليس محل المبالغة وجوز الزمخشري كون طرائق منصوباً على الظرفية بتقدير في أي كنا في طرائق وتعقب بأن الطريق اسم خاص لموضع يستطرق فيه فلا يقال للبيت أو المسجد طريق على الإطلاق وإنما يقال جعلت للمسجد طريقاً فلا ينتصب مثله على الظرفية إلا في الضرورة وقد نص سيبويه على أن قوله

: كما عسل الطريق الثعلب . . .

شاذ فلا يخرج القرآن الكريم على ذلك وقال بعض النحاة هو ظرف عام لأن كل موضع يستطرق طريق والقدد المتفرقة المختلفة قال الشاعر :

القابض الباسط الهادي بطاعته . . .

في فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

جمع قدة من قدادا قطع كأن كل طريق لامتيازها مقطوعة من غيرها .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أي علمنا الآن ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله ﴾ أي أن الشأن لن نعجز الله تعالى كائنين ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أينما كنا من أقطارها ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ أي هاربين منها إلى السماء فالأرض محمولة على الجملة ولما كان ولن الخ في مقابلة ما قبل لزم أن يكون الهرب إلى السماء وفيه ترق ومبالغة كأنه قيل لن نعجزه سبحانه في الأرض ولا في السماء وجوز أن لا ينظر إلى عموم ولا خصوص كما في أرسلها العراك ويجعل الفوت على قسمين أخذاً من لفظ الهرب والمعنى لن نعجزه سبحانه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه عز وجل هرباً إن طلبنا وحاصله إن طلبنا لم نفته وإن هربنا لم نخلص منه سبحانه وفائدة ذكر الأرض تصوير أنها مع هذه البسطة والعراضة ليس فيها منجا منه تعالى ولا مهرب لشدة قدرته سبحانه وزيادة تمكنه جل وعلا ونحوه قول القائل

: وإنك كالليل الذي هو مدركي . . .

وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقيل فائدة ذكر الأرض تصوير تمكنهم عليها وغاية بعدها عن محل استوائه سبحانه وتعالى وليس بذاك وكون في الأرض وهرباً حالين كما أشرنا إليه هو الذي عليه الجمهور وجوز في هرباً كونه تمييزاً محولاً عن الفاعل أي لن يعجزه سبحانه هربنا .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ أي القرآن الذي هو الهدى بعينه ﴿ بِهِ إِنَّهُ ﴾ من غير تلعثم

وتردد ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ ﴾ وبما أنزله عز وجل ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ جواب الشرط ومثله من المنفى بلا يصح فيه دخول الفاء وتركها كما صرح به في شرح التسهيل إلا أن الأحسن تركها ولذا قدر ههنا مبتدأ لتكون الجملة اسمية ولزم اقترانها بالفاء إذا وقعت جواباً إلا فيما شذ من نحو :

من يفعل الحسنات الله يشكرها . . .

(218/785)

معلوم وبعضهم أوجب التقدير لزعمه عدم صحة دخول الفاء في ذلك أي فهو لا يخاف ﴿ بَخْساً ﴾ أي نقصاً في الجزاء وقال الراغب البخس نقصا الشيء على سبيل الظلم ﴿ وَلاَ رَهَقاً ﴾ أي غشيان ذلة من قوله تعالى ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ [يونس : 27] وأصله مطلق الغشيان وقال الراغب رهقه الأمر أي غشيه بقهر وفي الأساس رهقه دنا منه وصبى مراهق مدان للحلم وفي النهاية يقال رجل فيه رهق إذا كان يخف إلى الشر ويغشاه وحاصل المعنى فلا يخاف أن يبخس حقه ولا أن ترهقه ذلة فالمصدر أعني بخسا مقدر باعتبار المفعول وليس المعنى على أن غير المؤمن يبخس حقه بل النظر إلى تأكيد ما ثبت له من الجزاء وتوفيره كملا وأما غيره فلا نصيب له فضلاً عن الكمال وفيه أن ما يجزي به غير

المؤمن مبخوس في نفسه وبالنسبة إلى هذا الحق فيه كل البخس وان لم يكن هناك بخس حق كذا في الكشف أو فلا يخاف بخسا ولا رهقاً لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا رهقه ظلماً فلا يخاف جزاءهما وليس من اضمار مضاف أعني الجزاء بل ذلك بيان لحاصل المعنى وان ما ذكر في نفسه مخوف فإنه يصح ان يقال خفت الذنب وخفت جزاءه لأن ما يتولد منه المحذور محذور وفيه دلالة على أن المؤمن لاجتنابه البخس والرهق لا يخافهما فإن عدم الخوف من المحذور إنما يكون لانتفاء المحذور وجاز أن يحمل على الإضمار وأصل الكلام فمن لا يبخس أحداً ولا يرهق ظلمه فلا يخاف جزاءهما فوضع ما في النظم الجليل موضعه تنبيهاً بالسبب على المسبب والأول كما قيل أظهر وأقرب مأخذاً وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته وأخرج عيد بن حميد عن قتادة أنه قال فلا يخاف بخساً ظلماً بأن يظلم من حسناته فينتقص منها شيء ولا رهقاً ولا أن يحمل عليه ذنب غيره وأخرج نحوه عن الحسن ولعل المعنى الأول أنسب بالترغيب بالإيمان وبلفظ الرهق أيضاً نظراً إلى ما سمعت من قوله تعالى ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ [يونس :

27] وقرأ ابن وثاب والأعمش فلا يخف بالجزم على أن لا ناهية لا نافية لأن الجواب المقترن بالفاء لا يصح جزمه وقيل الفاء زائدة ولا للنفي وليس بشيء وأياً ما كان فالقراءة الأولى أدل على تحقق أن المؤمن ناج لا محالة وانه هو المختص بذلك دون غيره وذلك لتقدير هو عليها وبناء الفعل عليه نحو هو عرف ويجتمع فيه التقوى والاختصاص إذا اقتضاهما المقام وقرأ ابن وثاب بخساً بفتح الخاء المعجمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(220/785)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ أوحى ﴾ رباعياً .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو إياس ، والعتكي عن أبي عمرو : " وحي " ثلاثياً ، وهما لغتان .

واختلف هل رآهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أم لم يرهم ؟ فظاهر القرآن أنه لم يرهم ؛ لأن المعنى : قل يا محمد لأمتك : أوحي إليّ على لسان جبريل ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ ومثله قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ [الأحقاف : 29]

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنّ وما رآهم .

قال عكرمة : والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] وقد تقدّم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا .

قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مّنَ الجن ﴾ هذا هو القائم مقام الفاعل ، ولهذا فتحت أنّ ، والضمير للشأن ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل الجارّ والمجرور ، والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة .

قال الضحاك : والجنّ ولد الجانّ وليسوا شياطين .

وقال الحسن : إنهم ولد إبليس .

قيل : هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية .

وقيل : نوع من الأرواح المجرّدة .

وقيل : هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجنّ الجنة ، كما يدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك : ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ﴾ [الملك : 5] وقول الجنّ فيما سيأتي في هذه السورة : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [

الجن : 15] وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن : يدخلون الجنة ، وقال مجاهد : لا يدخلونها ، وإن صرفوا عن النار .

(221/785)

والأوّل أولى لقوله في سورة الرحمن : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 56] وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدّمنا أن الحق أنه لم يرسل الله إليهم رسلاً منهم ، بل الرسل جميعاً من الإنس ، وإن أشعر قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ ﴾ [الزمر : 71] بخلاف هذا ، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلاّ من بني آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة .

﴿ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً ﴾ أي : قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم ، أي : سمعنا كلاماً مقروءاً عجباً في فصاحته وبلاغته .

وقيل : عجباً في مواعظه .

وقيل : في بركته ، وعجباً مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف المضاف ، أي : ذا عجب ، أو المصدر بمعنى اسم الفاعل أي : معجباً ﴿ يَهْدِى إِلَى الرشد ﴾ أي : إلى

مراشد الأمور ، وهي الحقّ والصواب ، وقيل : إلى معرفة الله ، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿ فآمنا به ﴾ أي : صدّقنا به بأنه من عند الله ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ من خلقه ، ولا نتخذ معه إلها آخر ؛ لأنه المتفرّد بالربوبية ، وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّة واحدة ، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه ، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ، ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مرّات متعدّدة ، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم لا جرم صرعهم الله أذلّ مصرع ، وقتلهم أقبح مقتل ، ولعذاب الآخرة أشدّ لو كانوا يعلمون .

(222/785)

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قرأه حمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وحفص ، وعلقمة ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش ، وخلف ، والسلمي : ﴿ وأنه تعالى ﴾ بفتح أنّ ، وكذا قرءوا فيما بعدها مما هو معطوف عليها ، وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ [الجن : 19] ، وقرأ الباقون بالكسر في هذه المواضع كلها إلاّ في قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع ، فعلى العطف على محل الجار ، والمجرور في ﴿ فآمنا به ﴾ كأنه قيل : فصدّقناه

، وصدّقنا أنه تعالى جدّ ربنا إلخ ، وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع ، فعلى العطف على ﴿ إنا سمعنا ﴾ ، أي : فقالوا : إنا سمعنا قرآناً ، وقالوا : إنه تعالى جدّ ربنا إلى آخره . واختار أبو حاتم ، وأبو عبيد قراءة الكسر ؛ لأنه كله من كلام الجنّ ومما هو محكيّ عنهم بقوله : ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ .

وقرأ أبو جعفر ، وشعبة بالفتح في ثلاثة مواضع ، وهي : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس ﴾ قالا : لأنه من الوحي ، وكسرا ما بقي لأنه من كلام الجنّ .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ [الجن : 19] بالفتح ؛ لأنه معطوف على قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وشيبة ، وزرّ بن حبيش ، وأبو بكر ، والمفضل عن عاصم بالكسر في هذا الموضع عطفاً على فآمنا به بذلك التقدير السابق ، واتفقوا على الفتح في ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ ، كما اتفقوا على الفتح في ﴿ أن المساجد ﴾ [الجن : 18] وفي ﴿ وَإِنَّ استقاموا ﴾ [الجن : 16] واتفقوا على الكسر في : ﴿ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ و ﴿ قُلْ إِنَّمَا ادعوا رَبِّى ﴾ [الجن : 20] و : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى ﴾ [الجن : 25] و : ﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ﴾ [الجن : 21] .

والجدّ عند أهل اللغة العظمة والجلال ، يقال : جدّ في عيني أي : عظم ، فالمعنى : ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ، ومجاهد ، وقال الحسن : المراد تعالى غناه ، ومنه قيل للحظ ، جدّ : ورجل مجدود أي : محظوظ ، وفي الحديث : "ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ" قال أبو عبيد ، والخليل أي : لا ينفع ذا الغنى منك الغنى أي : إنما تنفعه الطاعة ، وقال القرطبي ، والضحاك : جدّه آلاؤه ، ونعمه على خلقه .

وقال أبو عبيدة ، والأخفش : ملكه وسلطانه .

وقال السديّ : أمره .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي : تعالى ربنا وقيل : جدّه قدرته .

وقال محمد بن عليّ بن الحسين ، وابنه جعفر الصادق ، والربيع بن أنس : ليس لله جدّ ، وإنما قالته الجنّ للجهالة .

قرأ الجمهور : " جدّ " بفتح الجيم ، وقرأ عكرمة ، وأبو حيوة ، ومحمد بن السميفع بكسر الجيم ، وهو ضدّ الهزل ، وقرأ أبو الأشهب : " جدي ربنا " أي : جدواه ومنفعته .

وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتنوين (جدّ) ورفع (ربنا) على أنه بدل من جدّ ﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه .

قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً ، وكأن الجن نبهوا

بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ونزّهوا الله سبحانه عنهما .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ الضمير في ﴿ أنه ﴾ للحديث ، أو الأمر ، ﴿ وسفيهنا ﴾ يجوز أن يكون اسم كان ، و ﴿ يقول ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول ، والجملة خبر كان ، واسمها ضمير يرجع إلى الحديث ، أو الأمر ، ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم عصاتهم ومشركوهم .

وقال مجاهد ، وابن جريج ، وقتادة : أرادوا به إبليس ، والشطط : الغلوّ في الكفر .

وقال أبو مالك : الجور ، وقال الكلبي : الكذب ، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحدّ ، ومنه قول الشاعر :

(224/785)

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا . . . وما ذاك إلاّ حيث يمك الوخط

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإنس والجن عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أي : إنا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً ، فلذلك صدّقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن ، فعلمنا بطلان قولهم ، وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذباً

على أنه مصدر مؤكد ليقول ؛ لأن الكذب نوع من القول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي : قولاً كذباً .

وقرأ يعقوب ، والجحدري ، وابن أبي إسحاق : " أن لن تقوّل " من التقوّل ، فيكون على هذه القراءة كذباً مفعول به ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ قال الحسن ، وابن زيد ، وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بوادٍ قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه ، فيبيت في جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية .

قال مقاتل : كان أوّل من تعوّذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بني حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ أي : زاد رجال الجنّ من تعوذ بهم من رجال الإنس رهقاً أي : سفهاً وطغياناً ، أو تكبراً وعتوّاً ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجنّ رهقاً ؛ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون : سدنا الجنّ والإنس .

وبالأوّل قال مجاهد ، وقتادة ، وبالثاني قال أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد .

والرهق في كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق : إذا كان كذلك ، ومنه قوله : ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [المعارج : 44] أي : تغشاهم ، ومنه قول الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها . . . هل يشتفي عاشق ما لم يصب رهقا

يعني : إثماً .

وقيل : الرهق : الخوف ، أي : أن الجنّ زادت الإنس بهذا التعوّذ بهم خوفاً منهم .

(225/785)

وقيل : كان الرجل من الإنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جنّ هذا الوادي ، ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجنّ ، فيكون قوله : ﴿ بِرِجَالٍ ﴾ وصفاً لمن يستعيذون به من رجال الإنس ، أي : يعوذون بهم من شرّ الجن ، وهذا فيه بعد ، وإطلاق لفظ رجال على الجنّ على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاركة .

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللّهُ أَحَداً ﴾ هذا من قول الجنّ للإنس ، أي : وإن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس أنه لا بعث .

وقيل المعنى : وإن الإنس ظنوا ، كما ظننتم أيها الجنّ ، والمعنى : أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ هذا من قول الجنّ أيضاً ، أي : طلبنا خبرها ، كما به جرت عادتنا ﴿ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً ﴾ من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ،

والحرس جمع حارس ، و ﴿ شَدِيداً ﴾ صفة ل ﴿ حرساً ﴾ أي : قوياً ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمع شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب ، كما تقدّم بيانه في تفسير قوله : ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك : 5] ومحل قوله : ﴿ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً ﴾ النصب على أنه ثاني مفعولي وجدنا ؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين ، ويجوز أن يكون متعدّياً إلى مفعول واحد ، فيكون محل الجملة النصب على الحال بتقدير قد ، وحرساً منصوب على التمييز ، ووصفه بالمفرد اعتباراً باللفظ ، كما يقال : السلف الصالح ، أي : الصالحين .

(226/785)

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ أي : وأنا كنا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع ، أي : مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ، وللسمع متعلق ، ب ﴿ نقعد ﴾ أي : لأجل السمع ، أو بمضمر هو صفة لمقاعد ، أي : مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد اسم مكان ، وذلك أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ؛ ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء ؛ فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهب المحرقة ، وهو معنى قوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ أي : أرصد له ليرمى به ، أو لأجله لمنعه من السماع ، وقوله : ﴿ الآن

﴿ هو ظرف للحال ، واستعير للاستقبال ، وانتصاب ﴿ رصداً ﴾ على أنه صفة ل ﴿ شهاباً ﴾ ، أو مفعول له ، وهو مفرد ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلفوا هل كانت الشياطين ترمى بالشهب قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم : لم يكن ذلك .

وحكى الواحدي عن معمر قال : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم ، قلت : أفرأيت قوله : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ، ولكنه لم يكن مثله في شدّة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال ، فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً .

وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنوّ إلى السماء .

(227/785)

وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رميت بالشهب ، وقد تقدّم البحث عن هذا ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ أي : لا ندري أشرّ أريد بأهل الأرض بسبب هذه الحراسة للسماء ، أم أراد بهم ربهم رشداً ، أي : خيراً .

قال ابن زيد : قال إبليس : لا ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً ، أو يرسل إليهم رسولاً ، وارتفاع ﴿ أَشَرٌ ﴾ على الاشتغال ، أو على الابتداء ، وخبره ما بعده ، والأوّل أولى ، والجملة سادّة مسدّ مفعولي ندري ، والأولى أن هذا من قول الجنّ فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ أي : قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد : وأنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : قوم دون ذلك ، أي : دون الموصوفين بالصلاح .

وقيل : أراد بالصالحون المؤمنين ، وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأوّل أولى ، ومعنى ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ أي : جماعات متفرقة وأصنافاً مختلفة ، والقدة : القطعة من الشيء ، وصار القوم قدداً : إذا تفرقت أحوالهم ، ومنه قول الشاعر :

القابض الباسط الهادي لطاعته . . . في فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد

والمعنى : كنا ذوي طرائق قدداً ، أو كانت طرائقنا طرائق قدداً ، أو كنا مثل طرائق قدداً ومن هذا قول لبيد :

لم تبلغ العين كل نهمتها . . . يوم تمشي الجياد بالقدد

وقوله أيضاً :

ولقد قلت وزيد حاسر . . . يوم ولت خيل عمرو قدداً

قال السديّ ، والضحاك : أدياناً مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة .

وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس وكذا قال مجاهد .

(228/785)

قال الحسن : الجنّ أمثالكم قدرية ، ومرجئة ، ورافضة ، وشيعة ، وكذا قال السديّ : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين ، أي : وإنا علمنا أن الشأن لن نعجز الله في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ أي : هاربين منها ، فهو مصدر في موضع الحال .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ يعنون القرآن ﴿ آمنا به ﴾ وصدّقنا أنه من عبد الله ولم نكذب به ، كما كذبت به كفرة الإنس ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ أي : لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه ، ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه ، والبخس النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى : لا يخاف أن ينقص من حسناته ، ولا أن يزاد في سيئاته ،

وقد تقدّم تحقيق الرهق قريباً .

قرأ الجمهور : ﴿ بخساً ﴾ بسكون الخاء .

وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها .

وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش : " فلا يخف " جزماً على جواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء ، والتقدير : فهو لا يخاف ، والأمر ظاهر .

(229/785)

وقد أخرج أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وغيرهم عن ابن عباس قال : انطلق النبيّ صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ؛ لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا : هذا والله الذي حال

بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُواْ ﴾ يا قومنا ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَهْدِي إِلَى الرشد فَئَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجنّ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ قال : كانوا من جنّ نصيبين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قال : آلاؤه وعظمته .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : أمره وقدرته .

وأخرج ابن مردويه ، والديلمي ، قال السيوطي بسندٍ واهٍ عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ قال : إبليس .

(230/785)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي في الضعفاء ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أوّل ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ،

فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب ، فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي أنا جارك ، فنادى منادٍ يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ قال : إثماً .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ ما فيه ، فلا يكون بشيء أشدّ ولعاً منهم بهم ، فذلك قوله : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك . فقال لهم : ما هذا إلاّ من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده ، فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يقول : منا المسلم ومنا المشرك ، و ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ أهواء شتى .

(231/785)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ قال : لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 307.302 ﴾

(232/785)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً » . .

أي وكان مما علمنا من استماعنا لهذا القرآن العجب . أننا كنا على ظن خاطئ فيما ظنناه من أن الإنس والجن لن تقول على الله كذبا ، وأن تقوم فيهم تلك الدعوات المضللة ، وهذه العقائد الباطلة ، مع ما فيهم من عقول ، وما بين أيديهم من الشواهد الناطقة ، التي تشهد

بوحدانية اللّه تعالى ، وتفرده بالملك والعزة والسلطان . .

ولقد بان لنا أن الإنس والجن قالوا على اللّه كذبا ، فيما نسبوه إليه من الزوج والولد ، وفيما جعلوا له من أنداد ، وشركاء . .

وذلك بعد أن استمعنا إلى آيات اللّه ، وعرفنا طريق الحق الذي أضلّنا عنه المضلون ، وأغوانا بالانصراف عنه المغوون ، لقد كنا مخدوعين بهذا الظن الذي ظنناه فى الجن والإنس من أنهم لن يفتروا على اللّه ، ولن ينسبوا إليه ما لا يليق به . . !

قوله تعالى : « وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً » . .

الرهق : الإعياء ، والضعف ، والكلال ، مما يعترى الإنسان من معاناة أمر صعب يحاوله ، ثم لا يبلغ منه شيئا ، لأنه يحاول أمرا محالا ، أو قريبا من المحال . . ومنه قوله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً » (17 : المدثر) . .

والمعنى : أنه قد اتضح لنا مما سمعناه من هذا القرآن العجب ، أن ما كان من استعانة بعض شياطين الإنس ، بشياطين الجن ، فى اختلاق الأكاذيب ، وتلفيق المفتريات على اللّه.

اتضح لنا أن ذلك لم يزد العائذين بالجن ، إلا ارتكاسا ، وعجزا ، عن الوصول إلى طريق الحق

، وأن كل ما اختلفوا من أكاذيب ، وما لفقوا من مفتريات ، لم يمس جوهر الحقيقة ، ولم يعمّ سبيل الحق عن طلابه ، والساعين إليه ، وأن هذه الأكاذيب ، وتلك المفتريات إذا طلعت عليها شمس الحقيقة فرت من بين يديها ، كما يفر ظلام الليل بين يدى أضواء الصبح ! قوله تعالى : «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً » .

أي وأننا علمنا مما استمعنا إليه من هذا القرآن العجب ، أن الإنس ظنوا كما ظننا نحن الجن ، أن لن يبعث اللّه أحدا من رسله بعد موسى ، وعيسى ، عليهما السلام . . وهذا ظن باطل ، فها هوذا رسول من عند اللّه ، يتلو هذا القرآن العجب ، فيبلّغ به رسالة اللّه .

وفى هذا الذي ينطق به الجن بعد أن آمنوا ، تبكيت للمشركين ، واستخفاف بعقولهم ، واستخفاف لأحلامهم ، وأنهم عموا عن هذا الهدى الذي طلعت شمسه فى سمائهم ، فلم يهتدوا به ، وقد سبقهم إليه أبعد الخلق عنه ، وهم الجن .

قوله تعالى : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً » ومن دلائل هذا الرسول الذي بعثه اللّه ، ليس هذا القرآن وحسب . . بل

إننا قبل أن نلتقى به فى مجلس القرآن ، شاهدنا إرهاصات عجيبة ، تنبىء بأن حدثا عظيما قد حدث فى هذا الوجود ، وأن آثار هذا الحدث لا بد أن يكون لها شأن بهذا العالم الأرضى ، وما يعيش فيه من جن وإنس . . وذلك أننا لمسنا السماء ، كما اعتدنا أن نلم بها من قبل ، ونستطلع أنباءها ، فوجدناها قد ملئت حرسا شديدا من الملائكة ، وشهبا راصدة يرمون بها كل من يدنو من مشارف السماء . . وهذا أمر لا بد أن يكون له ما بعده ! ! وها نحن أولاء قد عابنّا ما بعد هذا الأمر ، فى هذا الرسول ، وفيما بين يديه من آيات اللّه . .

قوله تعالى : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً » . أي وأننا كنا نصعّد فى السماء ، ونتخذ هناك مقاعد نستمع فيها إلى ما يجرى فى الملأ الأعلى ، وذلك قبل مبعث هذا النبي . . أمّا الآن فإن من يحاول أن يستمع منا ، يجد شهابا رصدا يرمى به قبل أن يبلغ المجلس الذي اعتاد أن يتخذه من قبل . .

قوله تعالى : «وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً » أي ولقد حرنا فى تأويل هذا الحدث ، وعجزنا عن أن نجد التعليل الصحيح له ، وللأحداث التي تنجم عنه ، وهل هذا شرّ يراد بمن فى الأرض من جنّ وإنس ، أم هو خير لهم . ؟ . إن الأيام هى التي ستأتى بتأويل هذا . .

وها نحن أولاء نشهد عناد المشركين ، وتصدّيهم لدعوة رسول اللّه ، وتكذيبهم لما جاءهم

به من عند اللّه ، فهل سيمضون فى طريقهم هذا ، فتكون عاقبتهم أن يدمر اللّه عليهم كما دمر على المكذبين برسل اللّه قبلهم ، أم أنهم سيراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى عقولهم ، فيؤمنون باللّه ، ويهتدون بهذا

(235/785)

النور الذي يحمله رسول اللّه إليهم ؟ لا ندرى أشر أراد اللّه بالناس من هذه الرسالة ، بإلزامهم الحجة ، ثم إهلاكهم ، أم أنه أراد لهم الهداية والرشاد ، فيهتدوا ويرشدوا ؟ إن الأمر لم ينته إلى نهايته بعد . . وسنرى ما يكون ؟

قوله تعالى : « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ . . كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً » .

وهنا يلتفت هؤلاء النفر من الجن إلى قومهم ، وهل يتقبلون هذا الهدى الذي اهتدوا هم إليه ، بعد استماعهم إلى آيات اللّه ، التي تلاها عليهم رسول اللّه ، أم أنهم يرفضونه كما رفضه هؤلاء المشركون من قريش ؟ إنهم يتساءلون هذه التساؤلات قبل أن يبرحوا مجلس النبي ، وفى قلوبهم الإيمان ، وبين أيديهم الهدى . . ثم يحدّث بعضهم بعضا ، بأن حال قومهم هى حال الناس من أبناء آدم ، فيهم الصالحون ، وفيهم الفاسدون ، وفيهم من هم بين الصالحين ، والفاسدين . . إنهم طرائق مختلفة . . لكل منهم طريقة كما أن الناس طرقهم . .

والطرائق : جمع طريقة ، وهى المتجه الذي يأخذه المرء فى حياته ، من استقامة أو عوج . .

والقدد : جمع قدة ، وهى القطعة من الشيء ، أىّ قطعة ، ومنه قوله تعالى : «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » (25 : يوسف) أي قطعته . .

وقوله تعالى : « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً » أي وأننا بعد تطوافنا فى الأرض وفى السماء ، قد أيقنّا أننا بين يدى اللّه حيث كنا ، وأننا تحت قهر سلطانه القائم على الوجود كله . . وأننا لن

نخرج من سلطان اللّه ، ولن نفر من القدر المقدور لنا ، سواء انطلقنا فى وجوه الأرض ، أو صعدنا فى أجواء السماء . . والظن هنا بمعنى اليقين .

قوله تعالى : « وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ . . فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً » .

أي وهذا شأننا نحن من بين قومنا ، وذلك أننا لما سمعنا الهدى - أي القرآن - آمنا به . . ومن يؤمن به فإنه لا يخاف بخسا ، بنقص حسناته ، ولا رهقا بمضاعفة سيئاته ، بل سيجزى

الجزاء الذي يقوم على ميزان العدل المطلق . .

ومعنى نفى الخوف من البخس والرهق ، هو أن المؤمن يلقى اللّه وبين يديه بشريات إيمانه ، التي تملأ قلبه سكينة وأمنا ، أما غير المؤمن فإنه يتوقع أن يسام سوء العذاب ، وأن يلقى الهوان والنكال من كل وجه ، فهو فى مهب عواصف الخوف دائما . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ » (40 : فصلت) .

وقوله تعالى : « فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً » . هو جواب الشرط ، وقد اقترن بالفاء لوقوعه منفيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1224 . 1228 ﴾

(237/785)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) ﴾

قرأ همزة ﴿ أن ﴾ بالكسر الجمهور وأبو جعفر ، وقرأها بالفتح ابن عامر وحفص وحمزة وَالكسائي وخلف .

فعلى قراءة كسر (إِن) هو من المحكي بالقول ، ومعناه الاعتذار عما اقتضاه قولهم : ﴿

فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ [الجن : 2] من كونهم كانوا مشركين لجهلهم وأخذهم قول سفهائهم يحسبونهم لا يكذبون على الله .

والتأكيد بـ ﴿ إِن ﴾ لقصد تحقيق عذرهم فيما سلف من الإِشراك ، وتأكيد المظنون بـ ﴿ لن ﴾ المفيدة لتأبيد النفي يفيد أنهم كانوا متوغلين في حسن ظنهم بمن ضللوهم ويدل على أن الظن هنا بمعنى اليقين وهو يقين مخطىء .

وعلى قراءة الفتح هو عطف على المجرور بالباء في قوله : ﴿ فآمنا به ﴾ [الجن : 2] فالمعنى : وآمنا فإنما ظننا ذلك فأخطأنا في ظننا .

وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة ، وأنها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلّد بفتح اللام بل يتعين النظر واتهام رأي المقلَّد حتى ينهض دليله .

وقرأ الجمهور ﴿ تَقُول ﴾ بضم القاف وسكون الواو .

وقرأه يعقوب بفتح القاف والواو مشددة ، من التقوّل وهو نسبة كلام إلى من لم يقله وهو في معنى الكذب وأصله تتقول بتاءين فعلى هذه القراءة يكون ﴿ كذباً ﴾ مصدراً مؤكداً لفعل ﴿ تَقَوَّلَ ﴾ لأنه مرادفه .

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

قرأ الجمهور همزة ﴿ وإنه ﴾ بالكسر .

وقرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة عطفاً على

المجرور بالباء ، والمقصود منه هو قوله : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ وأما قوله : ﴿ كان رجال من الإِنس ﴾ الخ ، فهو تمهيد لما بعده .

وإطلاق الرجال على الجن على طريق التشبيه والمشاكلة لوقوعه مع رجال من الإِنس فإن الرجل اسم للذكر البالغ من بني آدم .

(238/785)

والتأكيد بـ (إن) مكسورة أو مفتوحة راجع إلى ما تفرع على خبرها من قولهم ﴿ فزادوهم رَهَقاً .

والعوذ : الالتجاء إلى ما ينجي من شيء يضر ، قال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ [المؤمنون : 97] ، فإذا حمل العوذ على حقيقته كان المعنى أنه كان رجال يلتجئون إلى الجن ليدفع الجن عنهم بعض الأضرار فوقع تفسير ذلك بما كان يفعله المشركون في الجاهلية إذا سار أحدهم في مكان قفر ووحش أو تعَزب في الرعي كانوا يتوهمون أن الجن تسكن القفر ويخافون تعرض الجن والغيلان لهم وعبثَها بهم في الليل فكان الخائف يصيح بأعلى صوته : يا عَزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيخال أن الجني الذي بالوادي يمنعه ، قالوا : وأول من سن ذلك لهم قوم من أهل

اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا ذلك في العرب وهي أوهام وتخيلات .

وزعم أهل هذا التفسير أن معنى ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أن الجن كانوا يحتقرون الإِنس بهذا الخوف فكانوا يكثرون من التعرض لهم والتخيل إليهم فيزدادون بذلك مخافة .

والرهق : الذل .

والذي أختاره في معنى الآية أن العوذ هنا هو الالتجاء إلى الشيء والالتفاف حوله .

وأن المراد أنه كان قوم من المشركين يعبدون الجن اتقاء شرها .

ومعنى ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ فزادتهم عبادتهم إياهم ضلالاً .

والرهق : يطلق على الإثم .

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7)

قرأ الجمهور ووافقهم أبو جعفر بكسر همزة ﴿ وإنهم ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح الهمزة على اعتبار ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإنه تعالى جدّ ربنا ﴾ [الجن : 3] .

والمعنى : أن رجالاً من الإِنس ظنّوا أن الله لا يبعث أحداً ، أو وأنا آمنا بأنهم ظنّوا كما ظننتم الخ ، أي آمنا بأنهم أخطأوا في ظنهم .

والتأكيد بـ (إن) المكسورة أو المفتوحة للاهتمام بالخبر لغايته .

والبعث يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر ، أي حصل لهم مثلما حصل لكم من إنكار الحشر ومن إنكار إرسال الرسل .

والإِخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإِنس إلى عالم الجن .

وجملة ﴿ كما ظننتم ﴾ معترضة بين ﴿ ظنوا ﴾ ومعموله ، فيجوز أن تكون من القول المحكي يقول الجن بعضهم لبعض يُشبّهون كفارهم بكفار الإِنس .

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى المخاطب به المشركون الذي أمر رسوله بأن يقوله لهم ، وهذا الوجه يتعين إذا جعلنا القول في قوله تعالى : ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ [الجن : 1] عبارة عما جال في نفوسهم على أحد الوجهين السابقين هنالك .

و﴿ أنْ ﴾ من قوله : ﴿ أن لن يبعث ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف .

وجملة ﴿ لن يبعث الله أحداً ﴾ خبره .

والتعبير بحرف تأبيد النفي للدلالة على أنهم كانوا غير مترددين في إحالة وقوع البعث .

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8)

قرأ الجمهور ووافقهم أبو جعفر بكسر الهمزة .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتح الهمزة عطفاً على المجرور بالباء

فيكون من عطفه على المجرور بالباء هو قوله : ﴿ فمن يستمع الآن يجدْ له شهاباً رصداً

والتأكيد بـ (إنَّ) في قولهم : وإنّا لمسنا السماء ﴾ لغرابة الخبر باعتبار ما يليه من قوله : ﴿

وإنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ الخ .

واللمس : حقيقته الجس باليد ، ويطلق مجازاً على اختبار أمر لأن إحساس اليد أقوى

إحساس ، فشبه به الاختيار على طريق الاستعارة كما أطلق مُرادفه وهو المس على

الاختبار في قول يزيد بن الحكم الكلابي:

مَسسنا من الآباءِ شَيئاً فكلُّنا . . .

إلى نَسب في قَومه غير واضع

أي اختبرنا نسب آبائنا وآبائكم فكنا جميعاً كرامَ الآباء .

و﴿ ملئت ﴾ : مستعمل في معنى كثُر فيها .

(240/785)

وحقيقة الملء عَمْر فراغ المكان أو الإناء بما يحل فيه ، فأطلق هنا على كثرة الشهب

والحُراس على وجه الاستعارة .

والحَرس : اسم جمع للحُرّاس ولا واحد له من لفظه مثل خدَم ، وإنما يعرف الواحد منه

بالحَرَسِيِّ .

ووصف بشديد وهو مفرد نظراً إلى لفظ حرس كما يقال : السلف الصالح ، ولو نُظر إلى ما يتضمنه من الآحاد لجاز أن يقال : شِداد .

والطوائف من الحَرس أحراس .

والشهب : جمع شهاب وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم فتسقط في الجو أو في الأرض أو البحر وتكون مُضاءة عند انفصالها ثم يزول ضوؤها ببعدها عن مقابلة شعاع الشمس وتسمى الواحد منها عند علماء الهيئة نَيْزَكاً باسم الرمح القصير ، وقد تقدم الكلام عليها في أول سورة الصافات .

والمعنى : إننا اختبرنا حال السماء لاستراق السمع فوجدناها كثيرة الحراس من الملائكة وكثيرة الشهب للرَّجم ، فليس في الآية ما يؤخذ منه أن الشهب لم تكن قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم كما ظنه الجاحظ فإن العرب ذكروا تساقط الشهب في بعض شعرهم في الجاهلية .

كما قال في "الكشاف" وذكر شواهده من الشعر الجاهلي .

نعم يؤخذ منها أن الشهب تكاثرت في مدة الرسالة المحمدية حفظاً للقرآن من دسائس الشياطين كما دل عليه قوله عقبه ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ وسيأتي بيان ذلك .

وهذا الكلام توطئة وتمهيد لقولهم بعده : ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ إلى آخره ، إذ المقصود أن يخبروا من لا خبر عنده من نوعهم بأنهم قد تبينوا سبب شدة حراسة السماء وكثرة الشهب ، وأما نفس الحراسة وكثرة الشهب فإن المخبرين (بفتح الباء) يشاهدونه .

وقوله : ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ الخ قرأه بكسر الهمزة الذين قرأوا بالكسر قوله : ﴿ وإنّا لمسنا السماء ﴾ وبفتح الهمزة الذين قرأوا بالفتح وهذا من تمام قولهم : ﴿ وإنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ .

(241/785)

وإنما أعيد معه كلمة ﴿ وإنا ﴾ للدلالة على أن الخبر الذي تضمنه هو المقصود وأن ما قبله كالتوطئة له فإعادة ﴿ وإنا ﴾ توكيد لفظي .

وحقيقة القعود الجلوس وهو ضد القيام ، أي هو جعل النصف الأسفل مباشراً للأرض مستقراً عليها وانتصاب النصف الأعلى .

وهو هنا مجاز في ملازمة المكان زمناً طويلاً لأن ملازمة المكان من لوازم القعود ومنه قوله تعالى : ﴿ واقْعدوا لهم كل مرصد ﴾ [التوبة : 5] .

والمقاعد : جمع مقعد وهو مفعل للمكان الذي يقع فيه القعود ، وأطلق هنا على مكان الملازمة فإن القعود يطلق على ملازمة الحصول كما في قول امرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً . . .

واللام في قوله : ﴿ للسمع ﴾ لام العلة أي لأجل السمع ، أي لأن نسمع ما يجري في العالم العلوي من تصاريف الملائكة بالتكوين والتصريف ، ولعل الجن منساقون إلى ذلك بالجبلة كما تنساق الشياطين إلى الوسوسة ، وضمير ﴿ منها ﴾ للسماء .

و(من) تبعيضية ، أي من ساحاتها وهو متعلق بـ ﴿ نقعد ﴾ ، وليس المجرور حالاً من ﴿ مَقاعَد ﴾ مقدّماً على صاحبه لأن السياق في الكلام على حالهم في السماء فالعناية بمتعلق فعل القعود أولى ، ونظيره قول كعب:

يمشي القراد عليها ثم يزلقه . . .

مِنْها لبان وأقرب زهاليل

فقوله (منها) متعلق بفعل (يُزلقه) وليس حالاً من (لَبان) .

وأعلم أنه قد جرى على قوله تعالى : ﴿ مقاعد للسمع ﴾ مبحث في مَباحِث فصاحة الكلمات نسبه ابن الأثير في "المثل السائر" إلى ابن سنان الخفاجي فقال : إنه قد يجيء من الكلام ما معه قرينُهُ فأوجبَ قبحه كقول الرضي في رثاء الصابي:

أعزِزْ عليَّ بأن أراك وقد خَلا . . .

عن جانبيْكَ مَقَاعِدُ العُوَّاد

فإن إيراد هذه اللفظة (أي مقاعد) في هذا الموضع صحيح إلاّ أنه يوافق ما يُكره ذكره لا سيما وقد أضافه إلى من يُحتمل إضافته (أي ما يكره) إليه وهم العُواد .

ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً .

(242/785)

قال ابن الأثير : هذه اللفظة المعيبة في شعر الرضي قد جاءت في القرآن فجاءت حسنة مرضية في قوله تعالى : ﴿ تُبوِّىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ [آل عمران : 121] وقوله : ﴿ وأَنَّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ ، ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافتها إليه ولو قال الشاعر بدلاً من مقاعد العُواد مقاعد الزيارة لزالت تلك الهجنة أ هـ .

وأقول : إن لمصطلحات الناس في استعمال الكلمات أثراً في وقع الكلمات عند الأفهام .

والفاء التي فرعت ﴿ من يستمع الآن يَجِدْ له شهاباً رصداً ﴾ تفريع على محذوف دل عليه فعل ﴿ كنا ﴾ وترتب الشرط وجزائه عليه وتقديرُه : كنا نقعد منها (أي من السماء) مقاعد للسمع فنستمع أشياء فمن يستمعْ الآن لا يتمكَّن من السماع .

وكلمة ﴿ الآن ﴾ مقابل كلمة ﴿ كنا ﴾ ، أي كان ذلك ثم انقضى .

وجيء بصيغة الشرط وجوابه في التفريع لأن الغرض تحذير إخوانهم من التعرض للاستماع لأن المستمع يتعرض لأذى الشهب .

والجنُّ لا تنكف عن ذلك لأنهم منساقون إليه بالطبع مع ما ينالهم من أذى الرجم والاحتراق ، شأنَ انسياق المخلوقات إلى ما خُلقت له مثل تهافت الفَراش على النار ، لاحتمال ضعف القوة المفكرة في الجن بحيث يغلب عليها الشهوة ، ونحن نرى البشر يقتحمون الأخطار والمهالك تبعاً للهوى مثل مغامرات الهُواة في البحار والجبال والثلوج .

ووقع ﴿ شهاباً ﴾ في سياق الشرط يفيد العموم لأن سياق الشرط بمنزلة سياق النفي في إفادة عموم النكرة .

والرصدَ : اسم جمع راصد وهو الحافظ للشيء وهو وصف ل ﴿ شهاباً ﴾ ، أي شهباً راصدة ، ووصفها بالرصْد استعارة شبهت بالحراس الراصدين .

وهذا إشارة إلى انقراض الكهانة إذ الكاهن يتلقى من الجني أنباء مجملة بما يتلقفه الجنيّ من خبر الغيب تلقف اختطاف ناقصاً فيكمله الكاهن بحدْسه بما يناسب مجاري أحوال قومه وبلده .

وفي الحديث "فيزيد على تلك الكلمة مائة كَذْبة" .

وأما اتصال نفوس الكهان بالنفوس الشيطانية فيجوز أن يكون من تناسبٍ بين النفوس ، ومعظمُه أوهام .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : "ليسوا بشيء" .

أخرج البخاري عن ابن عباس قال "كان الجن يستمعون الوحي" (أي وحي الله إلى الملائكة بتصاريف الأمور) فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنعوا ، فقالوا : ما هذا إلاّ لأمر حدث فضربوا في الأرض يتحسسون السبب فلما وجدوا رسول الله قائماً يصلي بمكة قالوا : هذا الذي حدث في الأرض فقالوا لقومهم : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ [الجن : 1] الآية وأنزل على نبيئه ﴿ قُل أوحي إليه أنه استمع نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] وإنما أوحي إليه قول الجن أ هـ .

ولعل كيفية حدوث رجم الجن بالشهب كان بطريقة تصريف الوحي إلى الملائكة في مجارٍ تمُرّ على مواقع انقضاض الشهب حتى إذا اتصلت قوى الوحي بموقع أحد الشهب انفصل الشهاب بقوّة ما يغطه من الوحي فسقط مع مجرى الوحي ليحرسه من اقتراب المستَرِق حتى يبلغ إلى المَلك الموحى إليه فلا يجد في طريقه قوة شيطانية أو جنية إلاّ أحرقَها وبَخرها فهلكت أو استطيرت وبذلك بطلت الكهانة وكان ذلك من خصائص الرسالة المحمدية .

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10)

قرأه الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة وهو ظاهر المعنى ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفاً على المجرور بالباء كما تقدم فيكون المعنى : وآمنا بأنا انتفى علمنا بما يراد بالذين في الأرض ، أي الناس ، أي لأنهم كانوا يسترقون علم ذلك فلما حرست السماء انقطع علمهم بذلك .

هذا توجيه القراءة بفتح همزة ﴿ أنا ﴾ ومحاولة غير هذا تكلف .

(244/785)

وهذه نتيجة ناتجة عن قولهم : ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ [الجن : 9] الخ لأن ذلك السمع كان لمعرفة ما يجري به الأمر من الله للملائكة ومما يُخْبِرُهُمْ به مما يريد إعلامهم به فكانوا على علم من بعض ما يتلقفونه فلما منعوا السمع صاروا لا يعلمون شيئاً من ذلك فأخبروا إخوانهم بهذا عساهم أن يعتبروا بأسباب هذا التغير فيؤمنوا بالوحي الذي حرسه الله من أن يطلع عليه أحد قبل الذي يوحَى به إليه والذي يحمله إليه .

فحاصل المعنى : إنا الآن لا ندري ماذا أريد بأهل الأرض من شر أو خير بعد أن كنا نتجسس الخبر في السماء .

وهذا تمهيد لما سيقولونه من قوله : ﴿ وإنا منا الصالحون ﴾ [الجن : 11] ثم قولهم : ﴿

وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ [الجن : 12] ثم قولهم : ﴿ وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ إلى قوله : ﴿ فكانوا لجهنم حَطباً ﴾ [الجن : 13 15] .

ومفعول ﴿ ندري ﴾ هو ما دل عليه الاستفهام بعده من قوله : ﴿ أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهو الذي علَّق فعل ﴿ ندري ﴾ عن العمل ، والاستفهام حقيقي وعادة المعربين لمثله أن يقدروا مفعولاً يستخلص من الاستفهام تقديره : لا ندري جواب هذا الاستفهام ، وذلك تقديرُ معنًى لا تقديرُ إعراب .

هذا هو تفسير الآية على المعنى الأكمل وهي من قبيل قوله تعالى : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ [الأحقاف : 9] .

وليس المراد منها فيما نرى أنهم ينفون أن يعلموا ماذا أراد الله بهذه الشهب ، فإن ذلك لا يناسب ما تقدم من أنهم آمنوا بالقرآن إذ قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ﴾ [الجن : 1 ، 2] وقولهم : ﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ [الجن : 9] فذلك صريح في أنهم يدرون أن الله أراد بمن في الأرض خيراً بهذا الدّين وبصرف الجن عن استراق السمع .

وتكرير (إنّ) واسمها للتأكيد لكون هذا الخبر معرضاً لشك السامعين من الجن الذين لم يختبروا حراسة السماء .

والرشَد : إصابة المقصود النافع وهو وسيلة للخير ، فلهذا الاعتبار جعل مقابلاً للشر وأسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى مع أن مقابله أسند إليه بقوله : ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ، ﴾ جرياً على واجب الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه .

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)

قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها وهو من قول الجن .

وقراءة فتح الهمزة عطف على المجرور بالباء ، أي آمنا بأنا منّا الصالحون ، أي أيقنّا بذلك وكنا في جهالة عن ذلك .

ظهرت عليهم آثار التوفيق فعلموا أنهم أصبحوا فريقين فريق صالحون وفريق ليسوا بصالحين ، وهم يعنون بالصالحين أنفسهم وبمن دون الصلاح بقية نوعهم ، فلما قاموا مقام دعوة إخوانهم إلى اتباع طريق الخير لم يصارحوهم بنسبتهم إلى الإِفساد بل ألهموا وقالوا منا الصالحون ، ثم تلطفوا فقالوا : ومنا دون ذلك ، الصادق بمراتب متفاوتة في الشر والفساد ليتطلب المخاطبون دلائل التمييز بين الفريقين ، على أنهم تركوا لهم احتمال أن يُعنَى

بالصالحين الكاملون في الصلاح فيكون المعني بمن دون ذلك من هم دون مرتبة الكمال في الصلاح ، وهذا من بليغ العبارات في الدعوة والإِرشاد إلى الخير .

و﴿ دونَ ﴾ : اسم بمعنى (تحت) ، وهو ضد فوق ولذلك كثر نصبه على الظرفية المكانية ، أي في مكان منحط عن الصالحين .

والتقدير : ومنا فريق في مرتبة دونهم .

وظرفية ﴿ دون ﴾ مجازية .

(246/785)

ووقع الظرف هنا ظرفاً مستقراً في محل الصفة لموصوف محذوف تقديره : فريق ، كقوله تعالى : ﴿ وما منا إلاّ له مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] ويطَّرد حذف الموصوف إذا كان بعضَ اسم مجرور بحرف (مِن) مقدمٍ عليه وكانت الصفة ظرفاً كما هنا ، أو جملة كقول العرب : مِنَّا ظَعَن ومِنَّا أقام .

وقوله : ﴿ كنا طرائق قِدَداً ﴾ تشبيه بليغ ، شبه تخالف الأحوال والعقائد بالطرائق تفضي كل واحدة منها إلى مكان لا تفضي إليه الأخرى .

و﴿ طرائق ﴾ : جمع طريقة ، والطريقة هي الطريق ، ولعلها تختص بالطريق الواسع

الواضح لأنّ التاء للتأكيد مثل دار ودَارة ، ومثل مَقام ومقَامة ، ولذلك شبه بها أفلاك الكواكب في قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ [المؤمنون : 17]

ووصفت بالمثلى في قوله : ﴿ ويَذْهبَا بطريقتكم المُثلى ﴾ [طه : 63] .

ووصف ﴿ طرائق ﴾ بـ ﴿ قِدداً ، ﴾ وهو اسم جمع قِدَّة بكسر القاف وتشديد الدال والقدة : القطعة من جلد ونحوه المقطوعة طولاً كالسير ، شبهت الطرائق في كثرتها بالقِدد المقتطعة من الجلد يقطعها صانع حبال القِدّ كانوا يقيدون بها الأسرى .

والمعنى : أنهم يدعون إخوتهم إلى وحدة الاعتقاد باقتفاء هدى الإِسلام ، فالخبر مستعمل في التعريض بذم الاختلاف بين القوم وأن على القوم أن يتحدوا ويتطلبوا الحق ليكون اتحادهم على الحق .

وليس المقصود منه فائدة الخبر لأن المخاطبين يعلمون ذلك ، والتوكيد بـ (إنّ) متوجه إلى المعنى التعريضي .

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12)

قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر همزة ﴿ وإنا ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفاً على المجرور في قوله : ﴿ فآمنا به ﴾ [الجن : 2] .

والتقدير : وءامنا بأن لن نعجز الله في الأرض .

وذكر فعل ﴿ ظننا ﴾ تأكيد لفظي لفعل "آمنا" المقدر بحرف العطف ، لأن الإِيمان يقين وأُطلق الظن هنا على اليقين وهو إطلاق كثير .

لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضياً عند الله تعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة : 205] أعقبوا لتعريض الإِقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضي أن الله قد أعد لغير الصالحين عقاباً فأيقنوا أن عقاب الله لا يُفْلِت منه أحدٌ استحقه .

وقدموه على الأمر بالإِيمان الذي في قوله : ﴿ وإنّا لمّا سمعنا الهُدى ﴾ [الجن : 13] الآية ، لأن دَرْءَ المفاسد مقدم على جلب المصالح والتخلية مقدمة على التحْلية ، وقد استفادوا علم ذلك مما سمعوا من القرآن ولم يكونوا يعلمون ذلك من قبل إذ لم يكونوا مخاطبين بتعليم في أصول العقائد ، فلما ألهمهم الله لاستماع القرآن وعلموا أصول العقائد حذروا إخوانهم اعتقادَ الشرك ووصفَ الله بما لا يليق به لأن الاعتقاد الباطل لا يقره الإِدراك المستقيم بعد تنبيهه لبطلانه ، وقد جعل الله هذا النفر من الجن نذيراً لإِخوانهم ومرشداً إلى الحق الذي أرشدهم إليه القرآن ، وهذا لا يقتضي أن الجن مكلفون بشرائع الإِسلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإِنس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ [الأعراف : 179] الآية فقد أشار إلى أن عقابهم على الكفر والإِشراك ، أو أريد بالجن الشياطين فإن الشياطين من جنس الجن .

والإِعجاز : جعل الغير عاجزاً أي غير قادر عن أمر بذكر مع ما يدل على العجز وهو هنا كناية عن الإِفلات والنجاة كقول إياس بن قبيصة الطائي :

ألم تر أن الأرض رحْب فسيحة . . .

فهل تُعْجِزَنِّي بُقعة من بِقاعها

أي لا تفوتني ولا تخرج عن مُكْنتي .

(248/785)

وذِكْر ﴿ في الأرض ﴾ يؤذن بأن المراد بالهرب في قوله : ﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾ الهربُ من الرجم بالشهب ، أي لا تطمعوا أن تسترقوا السمع فإن رجم الشهب في السماء لا يخطئكم ، فابتدأوا الإِنذار من عذاب الدنيا استنزالاً لقومهم .

ويجوز أن يكون ﴿ نعجز ﴾ الأول بمعنى مغالب كقوله تعالى : ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ [النحل : 46] أي لا يغلبون قدرتنا ، ويكون ﴿ في الأرض ﴾ مقصوداً به تعميم الأمكنة

كقوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ [الشورى : 31] ، أي في مكان كنتم .

والمراد : أنا لا نَغلب الله بالقوة .

ويكون ﴿ نعجز ﴾ الثاني ، بمعنى الإِفلات ولذلك بُيّن بـ ﴿ هرباً ﴾ ، والهرب مجاز في الانفلات مما أراد الله إلحاقه بهم من الرجم والاحتراق .

والظن هنا مستعمل في اليقين بقرينة تأكيد المظنون بحرف ﴿ لن ﴾ الدال على تأبيد النفي وتأكيده .

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)

قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها عطفاً على المجرور في قوله : ﴿ فآمنا به ﴾ [الجن : 2] .

والمقصود بالعطف قوله : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ ، وأما جملة ﴿ لما سمعنا الهدى ءامنَّا به ﴾ فتوطئة لذلك .

بعد أن ذكروا قومهم بعذاب الله في الدنيا أو اطمأنوا بتذكُّر ذلك في نفوسهم ، عادوا إلى ترغيبهم في الإِيمان بالله وحده ، وتحذيرهم من الكفر بطريق المفهوم .

وأريد بالهدى القرآن إذ هو المسموع لهم ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنه هاد .

ومعنى ﴿ يؤمن بربه ، ﴾ أي بوجوده وانفراده بالإِلهية كما يشعر به إحضار اسمه بعنوان

الرب إذ الرب هو الخالق فما لا يخلق لا يعبد .

وجملة ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ يجوز أن تكون من القول المحكي عن الجن .

(249/785)

ويجوز أن تكون كلاماً من الله موجهاً للمشركين وهي معترضة بين الجملتين المتعاطفتين .

والبخس : الغبن في الأجر ونحوه .

والرهَق : الإهانة ، أي لا يخشى أن يبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان .

وفهم منه أن من لا يؤمن يُهان بالعذاب .

والخلاف في كسر همزة ﴿ إنا ﴾ وفتحها كالخلاف في التي قبلها .

وجملة ﴿ فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ جوابِ لشرط (مَن) جعلت بصورة الجملة الاسمية فقرنت بالفاء مع أن ما بعد الفاء فعل ، وشأن جواب الشرط أن لا يقترن بالفاء إلاّ إذا كان غيرَ صالح لأن يكون فعل الشرط فكان اقترانه بالفاء وهو فعل مضارع مشيراً إلى إرادة جعله خبر مبتدأ محذوف بحيث تكون الجملة اسمية ، والاسمية تقترن بالفاء إذا وقعت جواب شرط ، فكان التقدير هنا : فهو لا يخاف ليكون دَالاً على تحقيق سلامته من

خوف البخس والرهق ، وليدل عل اختصاصه بذلك دون غيره الذي لا يؤمن بربه ، فتقدير المسند إليه قبل الخبر الفعلي يقتضي التخصيص تارة والتقوي أخرى وقد يجتمعان كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] .

واجتمعا هنا كما أشار إليه في "الكشاف" بقوله : فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره .

وكلام "الكشاف" اقتصر على بيان مزية الجملة الاسمية وهو يقتضي توجيه العدول عن جزم الفعل لأجل ذلك .

وقد نقول : إن العدول عن تجريد الفعل من الفاء وعن جزمه لدفع إيهام أن تكون ﴿ لا ﴾ ناهية ، فهذا العدول صراحة في إرادة الوعد دون احتمال إرادة النهي .

وفي "شرح الدماميني على التسهيل" : أن جواب الشرط إذا كان فعلاً منفياً بـ (لا) يجوز الاقتران بالفاء وتركه .

ولم أره لغيره وكلام "الكشاف" يقتضي أن الاقتران بالفاء واجب إلاّ إذا قصدت مزية أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(250/785)

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ظاهراً في أنهم أسلموا كلهم ، قالوا نافين لهذا الظاهر مؤكدين لأن إسلامهم مع شديد نفرتهم لا يكاد يصدق : ﴿ وأنا منا ﴾ أي أيها الجن ﴿ المسلمون ﴾ أي المخلصون في صفة الإسلام للهادي فأسلموه قيادهم فهم عريقون في ذلك مقسطون مستقيمون ، فلا يفارقون الدليل فهم على الصراط السوي العدل الرضي ، ومنا الجافون الكافرون ﴿ ومنا القاسطون ﴾ وهم الجائرون عن المنهج الأقوم الساقطون في المهامه المجاهل التي ليس بها معلم ، فهم بربهم كافرون ، ومنا المقسطون ، يقال : قسط - إذا جار جوراً ، أسقطه عن رتبة الإنسان إلى رتبة أدنى الحيوان ، وأقسط - إذا أزال الجور فعدل ، فالآية من الاحتباك : " المسلمون " يدل على الكافرين ، و " القاسطون " يدل على المقسطين .

ولما كانوا قد علموا مما سمعوا من القرآن أنه لا بد من البعث للجزاء ، سببوا عن هذه القسمة

قولهم : ﴿ فمن أسلم ﴾ أي أوقع الإسلام كله بأن أسلم ظاهره وباطنه للدليل من الجن ومن غيرهم .

(251/785)

ولما كان في مقام الترغيب في الحق ، ربط بفعلهم ذلك تسبيباً عنه قوله مدحاً لهم :

﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ تحروا ﴾ أي توخوا وقصدوا مجتهدين ﴿ رشداً ﴾ أي صواباً عظيماً وسداداً ، كان - لما عندهم من النقائص - شارداً عنهم فعالجوا أنفسهم حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلاً ، من قولهم : الحرا - بالقصر : أفحوص القطاة يأوي إليه الظبي ، والناحية والموضع ، وما أحراه بكذا : ما أوجبه له ، وبالحرا أن يكون كذا أي خليق كونه ، وفلان حري بكذا أي خليق ، وقد يجيء بالحر - من غير ياء ، يراد به بالجهد ، وتحريت الشيء : قصدت ناحيته ، فكان لهم ذلك إلى الجنة سبباً ، ومن قسط فأولئك ضنوا فنالوا غياً وشططاً .

ولما عرفوا بالأمن الاعتصام بطاعة الله ، نبهوا على خطر التعرض لبطشه فقالوا : ﴿ وأما القاسطون ﴾ أي العريقون في صفة الجور عن الصواب من الجن وغيرهم فأولئك أهملوا أنفسهم فلم يتحروا لها فضلوا فأبعدوا عن المنهج فوقعوا في المهالك التي لا منجى منها :

﴿ فكانوا ﴾ بجبلاتهم ﴿ لجهنم ﴾ أي النار البعيدة القعر التي تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة ﴿ حطباً ﴾ توقد بهم النار فهي في اتقاد ما داموا أحياء ، وهم أحياء ما دامت تتقد لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون ، فالآية من الاحتباك ، وهو منطوق لما أوجبه من السياق لا مفهوم : ذكر التحري أولاً دليلاً على تركه ثانياً وذكر جهنم ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً ، وسر ذلك أنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذر ، وطووا ما يجب العلم به لأن الله تعالى لا يضيع لأحد أجراً بل لا يقتصر على ما يقابل الحسنة في العرف بل لا بد أن يزيد عليها تسعة أضعافها وعنده المزيد ولا حول ولا قوة لنا إلا به سبحانه وتعالى .

(252/785)

ولما رغب ورهب سبحانه على ألسنة الجن بما هداهم له ونور قلوبهم به ، وكانت الآية السالفة آخر ما حكى عنهم ، وكان التقدير : أوحي إلي أن القاسطين من قومي وغيرهم لو آمنوا فعل بهم من الخير ما فعل بمؤمني الجني حين آمنوا ، فأغناهم الله في الدنيا بحلاله عن حرامه من غير كلفة فكسا لهم كل عظم لقوه لحماً أوفر ما كان ، وأعاد لهم كل روث رأوه أحسن ما كان ببركة هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ﴿ وأن ﴾ أي

وأوحي إليّ أن الشأن العظيم ﴿ لو استقاموا ﴾ أي طلب القاسطون من الخلق كلهم الجن والإنس القوم وأوجدوه ، كائنين ﴿ على الطريقة ﴾ أي التي لا طريقة غيرها وهي التي فهمها الجن من القرآن من الإسلام والإقساط المؤدية إلى الفلاح في الدارين .

ولما كان الماء أصل كل خير كما قال تعالى في قصة نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ [نوح : 11] وكان منه كل شيء حيّ وكان عزيزاً عند العرب ، قال معظماً له بالالتفات إلى مظهر العظمة : ﴿ لأسقيناهم ﴾ أي جعلنا لهم بما عندنا من العظمة ﴿ ماء غدقاً ﴾ أي كثيراً عظيماً عظيم النفع نكثر به الرزق ونزين به الأرض ونرغد به العيش .

ولما كانت نعمه فضلاً منه وليس مستحقة عليه بعبادة ولا غيرها ، قال تعالى معرفاً غايتها استحقاق الثواب أو العقاب على ما كتبه على نفسه سبحانه ولا يبدل القول لديه وأن جميع ما يعامل به عباده سبحانه وتعالى من نفع وضر إنما هو فتنة لهم يستخرج ما جبلوا عليه من حسن أو قبيح : ﴿ لنفتنهم ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر بما لنا من العظمة ﴿ فيه ﴾ أي في ذلك الماء الذي تكون عنه أنواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر ، قال الرازي : وهذا بعد ما حبس عنهم المطر سنين – انتهى .

وقال غيره : قال عمر رضي الله تعالى عنه : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة .

وقال الحسن وغيره : كانوا سامعين مطيعين ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه – يعني عثمان رضي الله تعالى عنه ويجوز أن يكون مستعاراً للعلم وأنواع المعارف الناشئة عن العبادات التي هي للفنوس كالنفوس للأبدان وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم الرذائل في الدنيا والنقم في الآخرة ، من فتنت الذهب – إذا خلصته من غشه .

ولما كان التقدير : فمن يقبل على ذكر ربه ننعمه في دار السلام أبداً ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يعرض ﴾ أي إعراضاً مستمراً إلى الموت ﴿ عن ذكر ربه ﴾ أي مجاوزاً عن عبادة المحسن إليه المربي له الذي لا إحسان عنده من غيره ﴿ نسلكه ﴾ أي ندخله ﴿ عذاباً ﴾ يكون مطرفاً له كالخيط يكون في ثقب الخرزة في غاية الضيق ﴿ صعداً ﴾ أي شاقاً شديداً يعلوه ويغلبه ويصعد عليه ، ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقاً ، فإن الإعراض كلما تمادى زمانه كان أقوى مما كان .

ولما كان التقدير : لأنه أوحى إليّ أن الأمر على ما تتعارفونه بينكم من أن من خدم غير سيده عذبه أبداً ، عطف عليه قوله مبيناً لسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما يجب لهم من الكمال الذي يكون بقوتي العلم والعمل ، والتكميل الذي يكون بهما مع قوة البيان ، ومن لم يكن كاملاً لم يتصور منه تكميل ليكون له ولد قلب كما أن من لم يكن بالغاً لم يتحقق منه ولد صلب ، ومبيناً لما يجوز عليهم وما يستحيل منهم وما لله تعالى من العناية بشأنهم : ﴿ وأن ﴾ أي وأوحى إليّ أن ﴿ المساجد ﴾ أي مواضع السجود من العالم الآفاقي من الأرض ومن العالم النفسي من الجسد - كما قاله سعيد بن جبير وطلق بن حبيب ﴿ لله ﴾ أي مختصة بالملك الأعظم ﴿ فلا تدعوا ﴾ أي بسبب ذلك أيها المخلوقون على وجه العادة ﴿ مع الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ أحداً ﴾ لأن من تعبد لغير سيده في ملك سيده الذي هو العالم الآفاقي وبآلة سيده الذي هو العالم النفسي كان أشد الناس لوماً وعقوبة فكيف يليق بكم أن يخلق لكم وجهاً ويدين ورجلين وأرضاً تنتفعون بها وسماء تتم فنعها فتسجدون بالأعضاء التي أوجدها لكم في الأرض التي أمكنكم من الانتفاع بها تحت السماء التي أتم منافعها بها لغيره فتكونون قد صرفتم نعمة السيد التي يجب شكره عليها لغيره أيفعل هذا عاقل ؟ قال البغوي : فإن جعلت المساجد مواضع الصلاة فواحدها بكسر الجيم ، وإن جعلتها الأعضاء فواحدها بفتح الجيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 191 . 194 ﴾

فصل

قال الفخر :

النوع الثالث عشر : قوله تعالى :

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14)

القاسط الجائر ، والمقسط العادل ، وذكرنا معنى قسط وأقسط في أول سورة النساء ، فالقاسطون الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، وعن سعيد بن جبير : أن الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول في ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة إنه سماني ظالماً مشركاً ، وتلا لهم قوله : ﴿ وَأَمَّا القاسطون ﴾ [الجن : 15] وقوله : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] ﴿ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ أي قصدوا طريق الحق ، قال أبو عبيدة : تحروا توخوا ، قال المبرد : أصل التحري من قولهم : ذلك أحرى ، أي أحق وأقرب ، وبالحري أن تفعل كذا ، أي يجب عليك .

ثم إن الجن ذموا الكافرين فقالوا :

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15)

وفيه سؤالان :

الأول : لم ذكر عقاب القاسطين ولم يذكر ثواب المسلمين ؟ الجواب : بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى : ﴿ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ [الجن : 14] أي توخوا رشداً عظيماً لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب .

السؤال الثاني : الجن مخلوقين من النار ، فكيف يكونون حطباً للنار ؟ الجواب : أنهم وإن خلقوا من النار ، لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا لحماً ودماً هكذا ، قيل : وههنا آخر كلام الحسن .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17)

هذا من جملة الموحى إليه والتقدير : قل أوحي إلي أنه استمع نفر وأن لو استقاموا فيكون هذا هو النوع الثاني مما أوحي إليه ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(أن) مخففة من الثقيلة والمعنى : وأوحي إليَّ أن الشأن والحديث لو استقاموا لكان كذا وكذا .

قال الواحدي : وفصل لو بينها وبين الفعل كفصل ولا السين في قوله : ﴿ أَن لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ [طه : 89] و ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ ﴾ [المزمل : 20] .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ استقاموا ﴾ إلى من يرجع ؟ فيه قولان : قال بعضهم : إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم ، أي هؤلاء القاسطون لو آمنا لفعلنا بهم كذا وكذا .

وقال آخرون : بل المراد الإنس ، واحتجوا عليه بوجهين الأول : أن الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن والثاني : أن هذه الآية إنما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين ، أقصى ما في الباب أنه لم يتقدم ذكر الإنس ، ولكنه لما كان ذلك معلوماً جرى مجرى قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقال القاضي : الأقرب أن الكل يدخلون فيه .

وأقول : يمكن أن يحتج لصحة قول القاضي بأنه تعالى لما أثبت حكماً معللاً بعلة وهو الاستقامة ، وجب أن يعم الحكم بعموم العلة .

المسألة الثالثة :

الغدق بفتح الدال وكسرها : الماء الكثير ، وقرىء بهما يقال : غدقت العين بالكسر فهي

غدقة ، وروضة مغدقة أي كثيرة الماء ، ومطر مغدوق وغيداق وغيدق إذا كان كثير الماء ، وفي المراد بالماء الغدق في هذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الغيث والمطر ، والثاني : وهو قول أبي مسلم : أنه إشارة إلى الجنة كما قال : ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] وثالثها : أنه المنافع والخيرات جعل الماء كناية عنها ، لأن الماء أصل الخيرات كلها في الدنيا .

المسألة الرابعة :

إن قلنا : الضمير في قوله : ﴿ استقاموا ﴾ راجع إلى الجن كان في الآية قولان : أحدهما : لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكتاب ءامَنُواْ واتقوا ﴾ [المائدة : 65] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ ﴾ [المائدة : 66] وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] وقوله : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 12] وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش

وكثرة المنافع ، فإن اللائق بالجن هو هذا الماء المشروب والثاني : أن يكون المعنى وأن لو استقام الجن الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مّن فِضَّةٍ ﴾

(258/785)

[الزخرف : 33] واختار الزجاج الوجه الأول قال : لأنه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالألف واللام فتكون راجعة إلى الطريقة المعروفة المشهورة وهي طريقة الهدى والذاهبون إلى التأويل الثاني استدلوا عليه بقوله بعد هذه الآية ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ فهو كقوله : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً ﴾ [آل عمران : 178] ويمكن الجواب عنه أن من آمن فأنعم الله عليه كان ذلك الإنعام أيضاً ابتلاء واختباراً حتى يظهر أنه هل يشتغل بالشكر أم لا ، وهل ينفقه في طلب مراضي الله أو في مراضي الشهوة والشيطان ، وأما الذين قالوا : الضمير عائد إلى الإنس ، فالوجهان عائدان فيه بعينه وههنا يكون إجراء قوله : ﴿ لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ على ظاهره أولى لأن انتفاع الإنس بذلك أتم وأكمل .

المسألة الخامسة :

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ على أنه تعالى يضل عباده ، والمعتزلة أجابوا بأن الفتنة هي الاختبار كما يقال : فتنت الذهب بالنار لا خلق الضلال ، واستدلت المعتزلة باللام في قوله ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ على أنه تعالى إنما يفعل لغرض ، وأصحابنا أجابوا أن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلت هذه الآية على أن اللام ليست للغرض في حق الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ أي عن عبادته أو عن موعظته ، أو عن وحيه .

(259/785)

يسلكه ، وقرىء بالنون مفتوحة ومضمومة أي ندخله عذاباً ، والأصل نسلكه في عذاب كقوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [المدثر : 42] إلا أن هذه العبارة أيضاً مستقيمة لوجهين الأول : أن يكون التقدير نسلكه في عذاب ، ثم حذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] والثاني : أن يكون معنى نسلكه أي ندخله ، يقال : سلكه وأسلكه ، والصعد مصدر صعد ، يقال : صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب لأنه (يصعد فوق طاقة) المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، ومنه قول عمر : ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح ، يريد ما شق علي ولا غلبني ، وفيه

قول آخر وهو ما روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن صعداً جبل في جهنم ، وهو صخرة ملساء ، فيكلف الكافر صعودها ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها جذب إلى أسفلها ، ثم يكلف الصعود مرة أخرى ، فهذا دأبه أبداً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر : 17] .

النوع الثالث : من جملة الموحى قوله تعالى :

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

التقدير : قل أوحي إلي أن المساجد لله ، ومذهب الخليل أن التقدير : ولأن المساجد لله فلا تدعوا ، فعلى هذا اللام متعلقة ، (بلا تدعوا ، أي) فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ، ونظيره قوله : ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ على معنى ، ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، أي لأجل هذا المعنى فاعبدون .

المسألة الثانية :

اختلفوا في المساجد على وجوه أحدها : وهو قول الأكثرين : أنها المواضع التي بنيت للصلاة وذكر الله ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين ، وذلك أن أهل الكتاب يشركون في صلاتهم في البيع والكنائس ، فأمر الله المسلمين بالإخلاص والتوحيد وثانيها : قال الحسن : أراد بالمساجد البقاع كلها قال عليه الصلاة والسلام : " جعلت لي الأرض مسجداً " كأنه تعالى قال : الأرض كلها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها لغير خالقها وثالثها : روي عن الحسن أيضاً أنه قال : المساجد هي الصلوات فالمساجد على هذا القول جمع مسجد بفتح الجيم والمسجد على هذا القول مصدر بمعنى السجود ورابعها : قال سعيد بن جبير : المساجد الأعضاء التي يسجد العبد عليها وهي سبعة القدمان والركبتان واليدان والوجه ، وهذا القول اختيار ابن الأنباري ، قال : لأن هذه الأعضاء هي التي يقع السجود عليها وهي مخلوقة لله تعالى ، فلا ينبغي أن يسجد العاقل عليها لغير الله تعالى ، وعلى هذا القول معنى المساجد مواضع السجود من الجسد واحدها مسجد بفتح الجيم وخامسها : قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد بالمساجد مكة بجميع ما فيها من المساجد ، وذلك لأن مكة قبلة الدنيا وكل أحد يسجد إليها ، قال الواحدي : وواحد المساجد على الأقوال كلها مسجد بفتح الجيم إلا على قول من يقول : إنها المواضع التي بنيت للصلاة فإن واحدها بكسر الجيم لأن المواضع والمصادر كلها من

هذا الباب بفتح العين إلا في أحرف معدودة وهي : المسجد والمطلع والمنسك والمسكن والمنبت والمفرق والمسقط والمجزر والمحشر والمشرق والمغرب ، وقد جاء في بعضها الفتح وهو المنسك والمسكن والمفرق والمطلع ، وهو جائز في كلها وإن لم يسمع .

المسألة الثالثة :

(261/785)

قال الحسن : من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول لا إله إلا الله لأن قوله : ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ في ضمنه أمر بذكر الله وبدعائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 141.144 ﴾

(262/785)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

قرأ جمهور الناس " قل أوحي إلي " من أوحى يوحي . وقرأ أبو أُناس جوية بن عائذ : " قل

أوحى إلي " ، من وحى يحي ووحى وأوحى ، بمعنى واحد ، وقال العجاج : " وحى لها القرار فاستقرت " . وقرأ أيضاً جوية فيما روى عنه الكسائي ، " قل أحي " أبدلت الواو همزة كما أبدلوها في وسادة وإسادة ، وغير ذلك وكذلك قرأ ابن أبي عبلة ، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل ألف في السورة من " أن " و" إن " إلا قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : 18] . وحكي عن أبي عمرو أنه يكسر من أولها إلى قوله ﴿ وإن لو استقاموا على الطريقة ﴾ [الجن : 16] فإنه كان يفتح همزة وما بعدها إلى آخر السورة . فعلى ما حكي يلزم أن تكون الهمزة مكسورة في قوله " إنه استمع " ، وليس ما ذكر بثابت . وذكر أبو علي الفارسي أن ابن كثير وأبا عمرو فتحا أربعة أحرف من السورة وكسرا غير ذلك ﴿ أنه استمع ﴾ ، ﴿ وإن لو استقاموا ﴾ [الجن : 16] ، ﴿ وإن المساجد ﴾ [الجن : 18] ، ﴿ وإنه لما قام ﴾ [الجن : 19] ، وأن نافعاً وعاصماً في رواية أبي بكر والمفضل وافقا في الثلاثة وكسرا ﴿ وإنه لما قام ﴾ [الجن : 19] مع سائر ما في السورة . وذكر أن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرأون كل ما في السورة بالفتح إلا ما جاء بعد قول أو فاء جزاء ، وكذلك حفص عن عاصم ، فترتب إجماع القراء على فتح الألف من ﴿ أنه استمع ﴾ و" أن لو استقاموا " " وأن المساجد " . وذكر الزهراوي عن علقمة أنه كان يفتح الألف في السورة كلها . واختلف الناس في الفتح من هذه الألفات وفي الكسر اختلافاً كثيراً يطول ذكره وحصره وتقصي معانيه . قال أبو حاتم : أما الفتح فعلى

﴿ أوحي ﴾ ، فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله . وأما الكسر فحكاية وابتداء وبعد القول . وهؤلاء النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ . وقد تقدم قصصهم في سورة الأحقاف في تفسير قوله

(263/785)

تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ [الأحقاف : 29] .

وقول الجن : ﴿ إنا سمعنا ﴾ الآيات ، هو خطاب منهم لقومهم الذين ولوا إليهم منذرين ، و ﴿ قرآناً عجباً ﴾ معناه ذا عجب ، لأن العجب مصدر يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومضمناته ، وليس نفس القرآن هو العجب . وقرأ جمهور الناس " إلى الرُّشْد " بضم الراء وسكون الشين . وقرأ عيسى الثقفي " إلى الرَّشَد " بفتح الراء والشين . وقرأ عيسى " إلى الرُّشد " ومن كسر الألف من قوله " وإنه تعالى " فعلى القطع ويعطف الجملة على قوله ﴿ إنا سمعنا ﴾ ، ومن فتح الألف من قوله " وأنه تعالى " اختلفوا في تأويل ذلك ، فقال بعضهم هي عطف على ﴿ إنه استمع ﴾ ، فيجيء على هذا قوله ﴿ تعالى ﴾ مما أمر أن يقول إنه أوحي إليه وليس يكون من كلام الجن ، وفي هذا قلق .

وقال بعضهم بل هي عطف على الضمير في ﴿ به ﴾ فكأنه يقول فآمنا به وبأنه تعالى .

وهذا القول ليس في المعنى ، لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض وذلك لا يحسن . وقرأ جمهور الناس " جدُّ ربنا " بفتح الجيم وضم الدال وإضافته إلى الرب ، وقال جمهور المفسرين معناه عظمته .

(264/785)

وروي عن أنس أنه قال : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران ، جد في أعيننا أي عظم .

وقال أنس بن مالك والحسن : ﴿ جد ربنا ﴾ معناه ، فهذا هو من الجد الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا ينفع ذا الجد منك الجد " ، وقال مجاهد : ذكره كله متجه لأن الجد هو حظ المجدود من الخيرات والأوصاف الجميلة ، فجد الله تعالى هو الحظ الأكمل من السلطان الباهر والصفات العلية والعظمة ، ومن هذا قول اليهودي حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة : " يا بني قيلة هذا جدكم الذي تنتظرون " أي حظكم من الخيرات وبختكم . وقال علي بن الحسين رضي الله عنه وأبو جعفر الباقر وابنه جعفر والربيع بن أنس ليس لله جد ، وهذه مقالة قوم جهلة من الجن ، جعلوا الله جداً أبا أب . قال كثير من المفسرين هذا قول ضعيف . وقوله : ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ يدفعه ،

وكونهم فيما روي على شريعة متقدمة وفهمهم للقرآن . وقرأ محمد بن السميفع اليماني " جِد ربنا " وهو من الجد والنفع . وقرأ عكرمة " جَدٌّ رُبُّنا " بفتح الجيم وضم الدال وتنوينه ورفع الرب كأنه يقول تعالى عظيم هو ربنا ف " ربنا " بدل والجد العظيم في اللغة . وقرأ حميد بن قيس " جُد ربنا " بضم الجيم . ومعناه ربنا العظيم حكاه سيبويه وبإضافته إلى الرب فكأنه قال عظيم ، وهذه إضافة تجديد يوقع النحاة هذا الاسم إذا أضيفت الصفة إلى الموصوف ، كما تقول جاءني كريم زيد تريد زيداً الكريم ويجري مجرى هذا عند بعضهم .

قول المتنبي [البسيط]

عظيم الملك في المقل . . . أراد الملك العظيم قال بعض النحاة ، وهذا المثال يعترض بأنه أضاف إلى جنس فيه العظيم والحقير ، وقرأ عكرمة أيضاً " جَداً رُبُّنا " بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع الرب ونصب " جداً " على التمييز كما تقول تفقأت شحماً وتصببت عرقاً ، وقرأ قتادة " جِداً رُبُّنا " بكسر الجيم ورفع الباء وشد الدال ، فنصب جداً على الحال ومعناه تعالى حقيقة ومتمكناً .

وهذا معنى غير الأول ، وقرأ أبو الدرداء " تعالى ذكر ربنا " ، وروي عنه " تعالى جلال ربنا " . وقوله تعالى : ﴿ وإنه كان يقول ﴾ لا خلاف أن هذا من قول الجن ، وكسر الألف فيه أبين وفتحها لا وجه له إلا اتباع العطف على الضمير . كأنهم قالوا الآن بأن ﴿ سفيهنا ﴾ كان قوله ﴿ شططاً ﴾ . والسفيه المذكور قال جميع المفسرين هو إبليس لعنه الله . وقال آخرون هو اسم جنس لكل سفيه منهم . ولا محالة أن إبليس صدر في السفهاء وهذا القول أحسن . والشطط : التعدي وتجاوز الحد بقول أو فعل ومنه قول الأعشى : [البسيط]

أتنتهون ولا ينهى ذوي شطط . . . كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقوله تعالى : ﴿ وإنا ظننا ﴾ هو كلام أولئك النفر لا يحتمل غير ذلك ، وكسر الألف فيه أبين . والمعنى : إنا كنا نظن قبل إيماننا أن الأقوال التي تسمع من إبليس وغواة الجن والإنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب ، لأنا كنا نظن بهم أنهم لا يكذبون على الله ولا يرضون ذلك . وقرأ جمهور الناس " تقول " . وقرأ الحسن والجحدري وابن أبي بكرة ويعقوب " تَقَوَّلَ " بفتح القاف والواو وشد الواو ، والتقول خاص بالكذب ، والقول عام له وللصدق ، ولكن قولهم ﴿ كذباً ﴾ يرد القول هنا معنى التقول .

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

هذه الألف من ﴿ أنه ﴾ كان مما اختلف في فتحها وكسرها والكسر أوجه . والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أسفارها وتعزبها في الرعي وغيره ، فإن جمهور المفسرين رووا أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في واد ، صاح بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي ، إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك فيعتقد بذلك أن الجني الذي بالوادي يمنعه ويحميه ، فروي أن الجن كانت عند ذلك تقول : ما نملك لكم ولأنفسنا من الله شيئاً . قال مقاتل : أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا ذلك في العرب . وروي عن قتادة أن الجن لذلك كانت تحتقر بني آدم وتزدريهم لما ترى من جهلهم ، فكانوا يزيدونهم مخافة ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهى طاقاتهم ويغوونهم في إرادتهم لما رأوا رقة أحلامهم ، فهذا هو الرهق الذي زادته الجن ببني آدم . وقال مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير : بنو آدم زادوا الجن ﴿ رهقاً ﴾ وهي الجرأة والانتخاء عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإعجاب ، لأنهم قالوا سدنا الجن والإنس ، وقد فسر قوم الرهق بالإثم وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى : [البسيط]

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها . . . لا يشتفي وامق ما لم يصب رهقا

قال معناه ما لم يغش محرماً فالمعنى زادت الإنس والجن مأثماً لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله . وقوله ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم ﴾ يريد به بني آدم الكفار . وقوله ﴿ كما ظننتم ﴾ ، مخاطبة لقومهم من الجن . وقولهم ﴿ أن لن يبعث الله أحداً ﴾ ، يحتمل معنيين أحدهما : بعث الحشر من القبور والآخر بعث آدمي رسولاً . و ﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن لن ﴾ مخففة من " أن " الثقيلة وهي تسد مسد المفعولين . وذكر المهدوي تأويلاً أن المعنى وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس فهي مخاطبة من الله تعالى . وقولهم ﴿ وأنا لمسنا ﴾ قال معناه التمسنا ويظهر بمقتضى كلام العرب أنها استعارة لتجربتهم أمرها وتعرضهم لها فسمي ذلك لمساً إذ كان اللمس غاية غرضهم ونحو هذا قول المتنبي : [الطويل]

تعد القرى والمس بنا الجيش لمسة . . . نبادرْ إلى ما تشتهي يدك اليمنى

فعبر عن صدم الجيش بالجيش وحربه باللمس ، وهذا كما تقول المس فلاناً في أمر كذا ، أي جرب مذهبه فيه ، و ﴿ ملئت ﴾ إما أن يكون في موضع المفعول الثاني ل " وجدنا " ، وإما أن يقصر الفعل على مفعول واحد ويكون ﴿ ملئت ﴾ في موضع الحال ، وكان الأعرج يقرأ " مليت " لا يهمز ، والشهب : كواكب الرجم ، والحرس : يحتمل أن يريد الرمي بالشهب . وكرر المعنى بلفظ مختلف ، ويحتمل أن يريد الملائكة ، و ﴿ مقاعد ﴾ جمع

مقعد ، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ثم يزيد الكهان بالكلمة مائة كذبة ، وقوله : ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ الآية قطع على أن كل من استمع الآن أحرقه شهاب .

(268/785)

فليس هنا بعد سمع ، إنما الإحراق عند الاستماع ، وهذا يقتضي أن الرجم كان في الجاهلية . ولكنه لم يكن يستأصل وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً ، فلما جاء الإسلام اشتد الأمر حتى لم يكن فيه ولا يسير سماحة ، ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رأى كوكباً راجماً : " ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية ؟ " قالوا كنا نقول : ولد ملك ، مات ملك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ليس الأمر كذلك ، " ثم وصف صورة قعود الجن " . وقد قال عوف بن الجزع وهو جاهلي : [الكامل]

فانقض كالدري يتبعه . . . نقع يثورُ تخاله طنبا

وهذا في أشعارهم كثير ، و ﴿ رصداً ﴾ نعت لشهاب ووصفه بالمصدر ، وقوله : ﴿ وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض ﴾ الآية ، معناه لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي

فيرشدون ، أم يكفرون به فينزل بهم الشر .

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)

وقولهم ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ ، أي غير الصالحين كأنه قال : ومنا قوم أو فرقة دون صالحين ، وهي لفظة تقع أحياناً موقع غير . والطرائق : السير المختلفة ، والقدد كذلك هي الأشياء المخالفة ، كأنه قد قدّ بعضها من بعض وفصل . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة : ﴿ طرائق قدداً ﴾ أهواء مختلفة . قال غيره فرق مختلفون . قال الكميت : [البسيط]

جمعت بالرأي منهم كل رافضة . . . إذ هم طرائق في أهوائهم قدد

(269/785)

وقولهم ﴿ وأنّا ظننا أن لن نعجز ﴾ الظن هنا بمعنى العلم . وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم بما سمعوا من محمد صلى الله عليه وسلم ، و ﴿ الهدى ﴾ ، يريد القرآن ، سموه هدى من حيث هو سبب الهدى ، والبخس : النقص ، والرهق : تحميل ما لا يطاق وما يثقل من الأنكاد ويقرح . قال ابن عباس : البخس : نقص الحسنات ، والرهق : الزيادة في السيئات . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب " فلا يخف " بالجزم دون ألف ، وقسم الله تعالى بعد ذلك حال الناس في الآخرة على نحو ما قسم قائل الجن ، فقوله : ﴿ وأنّا منا

المسلمون ومنا القاسطون ﴾ والقاسط : الظالم ، قاله مجاهد وقتادة والناس ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

قوم همُ قتلوا ابن هند عنوة . . . عمراً وهم قسطوا على النعمان

والمقسط : العادل ، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الطريقين من النجاة والهلكة ، ويرغب في الإسلام من لم يدخل فيه ، فالوجه أن يكون ﴿ فمن أسلم ﴾ ، مخاطبة من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما بعده من الآيات ، و ﴿ تحروا ﴾ : معناه طلبوا باجتهادهم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها " .

وقوله تعالى : ﴿ لجهنم حطباً ﴾ نظير قوله تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24 ، التحريم : 6] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(270/785)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون ﴾

أي وأنّا بعد استماع القرآن مختلفون ، فمنّا من أسلم ومنّا من كفر .

والقاسط : الجائر ، لأنه عادل عن الحقّ ، والمُقْسِط : العادل ؛ لأنه عادل إلى الحق ؛ [يقال :] قسط : أي جار ، وأقسط : إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قومٌ هُمُ قتلوا ابن هِندٍ عَنْوَةً . . .

عَمْراً وهم قَسَطُوا على النُّعْمَانِ

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخَّوه ومنه تحرّى القِبلةِ ﴿ وَأَمَّا القاسطون ﴾ أي الجائرون عن طريق الحقّ والإيمان ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ أي وَقوداً .

وقوله : "فَكَانُوا" أي في علم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة ﴾

هذا من قول الله تعالى .

أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسّعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .

وهذا محمول على الوحي ؛ أي أوحى إليّ أن لو استقاموا .

ذكر ابن بحر : كل ما في هذه السورة من "إن" المكسورة المثقلة فهي حكاية لقول الجِن الذين استمعوا القرآن ، فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن الأنباري : ومن كسر الحروف وفتح "وَأَنْ لَوِ استقاموا" أضمر يميناً تامًّا ، تأويلها :

والله أن لو استقاموا على الطريقة ؛ كما يقال في الكلام : والله أَنْ قمتَ لقمتُ ، ووالله لو قمتَ قمتُ ؛ قال الشاعر :

أَما واللَّهِ أن لو كُنتَ حُرًّا . . .

وما بِالحُرّ أنتَ ولا العتِيقِ

ومن فتح ما قبل المخففة نسَقها أعنى الخفيفة على "أَوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ" ، "وَأَنْ لَوِ استقاموا" أو على "آمَنَّا بِهِ" وبأن لو استقاموا .

ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى "أن" المخففة ، أن يعطف المخففة على "أَوحِيَ إِلَيَّ" أو على "آمَنَّا بِهِ" ، ويستغني عن إضمار اليمين .

(271/785)

وقراءة العامة بكسر الواو من "لوِ" لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن وثّاب والأعمش بضم الواو .

و ﴿ مَّآءً غَدَقاً ﴾ أي واسِعاً كثيراً ، وكانوا قد حُبِس عنهم المطر سبع سنين ؛ يقال : غَدِقَتِ العينُ تَغدَق ، فهي غَدِقة ، إذا كثر ماؤها .

وقيل : المراد الخلق كلُّهم أي ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة ﴾ طريق الحق والإيمان

والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين ﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ أي كثيراً ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم .

وقال عمر في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة .

فمعنى "لأَسْقَيْنَاهُمْ" لوسَّعنا عليهم في الدنيا ؛ وضرَبَ الماء الغَدَق الكثير لذلك مثلاً ؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون ، فأقيم مقامه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66] أي بالمطر .

والله أعلم .

وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبي رَبَاح والضحاك وقَتادة ومقاتل وعطية وعُبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشيّ ففُتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتلوه . يعني عثمان بن عفّان .

وقال الكلبيّ وغيره : "وَأَنَّ لَوِ استقاموا عَلَى الطَّرِيقَةِ" التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفاراً لوسّعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجا لهم ، حتى يَفتتنوا بها ، فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة .

وهذا قول قاله الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم وابنه والكلبيّ والثّمالي ويَمَان بن رَباب وابن كيسان وأبو مِجْلَز ؛ واستدلوا بقوله تعالى :

(272/785)

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف : 33] الآية ؛ والأوّل أشبه ؛ لأن الطريقة معرّفة بالألف واللام ، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أخْوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهْرة الدنيا " قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : " بركات الأرض .

.

" وذكر الحديث .

وقال عليه السلام : " فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا (كما بُسطت على مَن قبلكم) فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما

أهلكتهم " قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ يعني القرآن ؛ قاله ابن زيد .

وفي إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول ، إن قيل إنها في أهل الكفر .

الثاني عن العمل ، إن قيل إنها في المؤمنين .

وقيل : "وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ" أي لم يشكر نعمه ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ قرأ الكوفيون وعيّاش عن أبي عمرو "يَسْلُكْهُ" بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لذكر اسم الله أوّلا فقال : " وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ" .

الباقون "نَسْلُكْهُ" بالنون .

وروى عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام .

وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان ، سلكه وأسلكه بمعنًى ؛ أي ندخله .

﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ أي شاقًّا شديداً .

قال ابن عباس : هو جبل في جهنم .

الخدري ، كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت .

وعن ابن عباس : أن المعنى مشقة من العذاب .

وذلك معلوم في اللغة أن الصَّعَد : المشقة ، تقول : تصَعَّدني الأمر : إذا شقّ عليك ؛ ومنه قول عمر : ما تَصعَّدني شيء ما تَصعدتني خُطبة النكاح ، أي ما شقّ عليّ .

وعذاب صَعَدٌ أي شديد .

والصَّعَد : مصدر صَعِد ؛ يقال : صَعِدَ صَعَداً وصُعوداً ، فوصف به العذاب ؛ لأنه يتصعد المعذّب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

وقال أبو عبيدة : الصَّعَد مصدر ؛ أي عذاباً ذا صَعَدٍ ، والمشي في الصَّعود يشقّ .

والصَّعود .

العقبة الكئود .

وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودها ؛ فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم .

وقال الكلبيّ : يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرة ملساء ، يُجذب من أمامه بسلاسل ، ويُضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ، ولا يبلغ في أربعين سنة . فإذا بلغ أعلاها أُحْدِر إلى أسفلها ، ثم يكلّف أيضاً صعودَها ، فذلك دأبه أبداً ، وهو قوله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ "أَنَّ" بالفتح ، قيل : هو مردود إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي قل أوحَى إلى أن المساجد لله .

وقال الخليل : أي ولأن المساجد لله .

والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة .

وقال سعيد بن جبير : قالت الجنّ كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ أي بُنيت لذكر الله وطاعته .

(274/785)

وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، يقول : " أينما كنتم فصلّوا " " فأينما صليتم فهو مسجد " وفي الصحيح : " وجعلت لِيَ الأرض مسجداً وطَهوراً " وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق ابن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه ؛ يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد لغيره بها ، فتجحد نعمة الله .

قال عطاء : مساجدك : أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها .

وفي الصحيح عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أسجد على

سبعة أعظُم : الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين " وقال العباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب " وقيل : المساجد هي الصلوات ؛ أي لأن السجود لله .

قاله الحسن أيضاً .

فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مسجِد بكسر الجيم ، ويقال بالفتح ؛ حكاه الفراء .

وإن جعلتها الأعضاء لواحدها مَسجَد بفتح الجيم .

وقيل : هو جمع مَسجَد وهو السجود ، ويقال : سجدت سجوداً ومَسجَداً ، كما تقول : ضربت في الأرض ضَرْباً ومَضرَباً بالفتح : إذا سرت في ابتغاء الرزق .

وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسمّيت مكة المساجد ؛ لأن كل أحد يسجد إليها .

والقول الأوّل أظهر هذه الأقوال إن شاء الله ، وهو مروي عن ابن عباس رحمه الله .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ﴾ إضافة تشريف وتكريم ، ثم خصّ بالذكر منها البيت العتيق فقال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ [الحج : 26] .

وقال عليه السلام : " لا تُعمَل المَطِيّ إلا إلى ثلاثة مساجد " الحديث خرجه الأئمة .

وقد مضى الكلام فيه .

وقال عليه السلام : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " قال ابن العربي : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا "

ولو صح هذا لكان نَصّاً .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حَسْب ما بيناه في سورة "إبراهيم" .

الثالثة : المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً ؛ فيقال : مسجد فلان .

وفي صحيح الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سابقَ بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأَمدُها ثَنيّة الوَدَاع ، وسابق بين الخيل التي لم تضمّر من الثنيّة إلى مسجد بني زُريق . وتكون هذه بالإضافة بحكم المحلية كأنها في قبلتهم ، وقد تكون بتحبيسهم ، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا في تحبيس غير ذلك .

الرابعة : مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال .

ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل .

ويجوز حبس الغريم فيها ، وربط الأسير والنوم فيها ، وسكنى المريض فيها وفتح الباب للجار إليها ، وإنشاد الشعر فيها إذا عرِي عن الباطل .

وقد مضى هذا كله مبيناً في سورة "براءة" .

و"النور" وغيرهما .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللّهِ أَحَداً ﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام .

وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبَيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها .

يقول : فلا تشركوا فيها صنماً وغيره مما يعبد .

وقيل : المعنى أفرِدوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها هزواً ومَتّجراً ومجلساً ، ولا طرقاً ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً .

وفي الصحيح : " من نَشَد ضالّة في المسجد فقولوا لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا " وقد مضى في سورة "النور" ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادسة : روَى الضحاك عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى .

وقال : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حقّ وأنت خير مَزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار" فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى ؛ وقال : "اللهم صُبَّ عليَّ الخير صبًّا ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كَدًّا ، واجعل لي في الأرض جَدًّا" "أي غِنًى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(277/785)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون ﴾

الجائرون على طريق الحق الذي هو الإيمان والطاعة يقال قسط الرجل إذا جار وأنشدوا .

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة . . .

عمرا وهم قسطوا على النعمان ﴿

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الإشارة إلى من أسلم والجمع باعتبار المعنى ﴿ تَحَرَّوْاْ ﴾ توخوا وقصدوا ﴿ رَشَدًا ﴾ عظيماً مبلغهم إلى الدار للثواب وقرأ الأعرج رشداً بضم الراء وسكون الشين .

﴿ وَأَمَّا القاسطون ﴾ الجائرون عن سنن الإسلام ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس واستظهر أن ﴿ فمن أسلم ﴾ [الجن : 14] الخ من كلام الجن وقال ابن عطية الوجه أن يكون مخاطبة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ويؤيده ما بعد من الآيات وفي الكشاف زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم وكفى به وعدا أن قال سبحانه ﴿ فأولئك تحروا رشداً ﴾ [الجن : 14] فذكر سبب الثواب والله عز وجل أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد وهو ظاهر في أنه من كلامه عز وجل وقوله تعالى :

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ الخ

معطوف قطعاً على قوله سبحانه ﴿ انه استمع ﴾ [الجن : 1] ولا يضر تقدم المعطوف على غيره على القول به لظهور الحال وعدم الالتباس وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وقرأ الأعمش وابن وثاب بضم واو لو والمعنى وأوحى إلى أن الشأن لو استقام الانس والجن أو كلاهما ﴿ عَلَى الطريقة ﴾ التي هي ملة الإسلام ﴿ لاسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾

أي كثيراً وقرأ عاصم في رواية الأعمش بكسر الدال والمراد لوسعنا عليهم الرزق وتخصيص الماء الغدق بالذكر لأنه أصل المعاش وكثرته أصل السعة فقد قيل المال حيث الماء ولعزة وجوده بين العرب .

(278/785)

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم كيف يشكرونه أي لنعاملهم معاملة المختبر وقيل لو استقام الجن على الطريقة المثلى أي لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله تعالى وطاعته سبحانه ولم يتكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ووسعنا رزقهم لنختبرهم ويجوز على هذا رجوع الضمير إلى القاسطين وهو المروى عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جبير واعتبار المثلى قيل لأن التعريف للعهد والمعهود طريقة الجن المفضلة على غيرها وقيل لأن جعلها طريقة وما عداها ليس بطريقة يفهم منه كونها مفضلة وقيل المعنى أنه لو استقام الجن على طريقتهم وهي الكفر ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق استدراجاً لنوقعهم في الفتنة ونعذبهم في كفران النعمة وروي نحو هذا عن الضحاك والربيع بن أنس وزيد بن أسلم وأبي مجاز بيد أنهم أعادوا الضمير على ﴿ من أسلم ﴾ [الجن : 14] وقالوا أي لو كفر من أسلم من الناس لأسقيناهم الخ

وهو مخالف للظاهر لاستعمال الاستقامة على الطريق في الاستقامة على الكفر وكون النعمة المذكورة استدراجاً من غير قرينة عليه مع أن قوله تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى أمنوا ﴾ [الأعراف : 96] الخ يؤيد الأول وزعم الطيبي أن التذييل بقوله عز وجل : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ الخ ينصر ما قيل قال لأنه توكيد لمضمون السابق من الوعيد أي لنستدرجهم فيتبعوا الشهوات التي هي موجبة للبطر والاعراض عن ذكر الله تعالى وفيه نظر والذكر مصدر مضاف لمفعوله تجوز به عن العبادة أو هو بمعنى التذكير مضاف لفاعله ويفسر بالموعظة وقال بعضهم المراد بالذكر الوحي أي ومن يعرض عن عبادة ربه تعالى أو عن موعظته سبحانه أو عن وحيه عز وجل ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ مضمن معنى ندخله ولذا تعدى إلى المفعول الثاني أعني قوله تعالى : ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ بنفسه دون في أو هو من باب الحذف والإيصال والصعد مصدر وصف به مبالغة أو تأويلاً أي

(279/785)

ندخله عذاباً يعلوا المعذب ويغلبه وفسر بشاق يقال فلان في صعد من أمره أي في مشقة ومنه قول عمر رضي الله تعالى عنه ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح أي ما شق علي وكأنه إنما قال ذلك لأنه كان من عادتهم أن يذكروا جميع ما كان في الخاطب من

الأوصاف الموروثة والمكتسبة فكان يشق عليه ارتجالاً أو كان يشق أن يقول الصدق في وجه الخاطب وعشيرته وقيل إنما شق من الوجوه ونظر بعضهم إلى بعض وقال أبو سعيد الخدري وابن عباس صعد جبل في النار قال الخدري كلما وضعوا أيديهم عليه ذابت وقال عكرمة هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها فإذا انتهى إلى أعلاها جدر إلى جهنم فعلى هذا قال أبو حيان يجوز أن يكون بدلاً من عذاب على حذف مضاف أي عذاب صعد ويجوز أن يكون مفعول نسلكه وعذاباً مفعول من أجله وقرأ الكوفيون يسلكه بالياء وباقي السبعة بالنون وابن جندب بالنون من أسلك وبعض التابعين بالياء كذلك وهما لغتان سلك وأسلك قال الشاعر يصف جيشاً مهزومين

.

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة . . .

شلا كما تطرد الجمالة الشردا

وقرأ قوم صعدا بضمتين وابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين قال الحسن معناه لا راحة فيه .

(280/785)

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ عطف على أنه استمع فهو من جملة الموحى والظاهر أن المراد بالمساجد المواضع المعدة للصلاة والعبادة أبي وأوحى إلى أن المساجد مختصة بالله تعالى شأنه ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ ﴾ أي فلا تعبدوا فيها ﴿ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ غيره سبحانه وقال الحسن المراد كل موضع سجد فيه من الأرض سواء أعد لذلك أم لا إذا لارض كلها مسجد لهذه الأمة وكأنه أخذ ذلك مما في الحديث الصحيح جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا واشتهران هذا من خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم أي شريعته فيكون له ولأمته عليه الصلاة والسلام وكان من قبل إنما تباح لهم الصلاة في البيع والكنائس واستشكل بأن عيسى عليه السلام كان يكثر السياحة وغيره من الأنبياء عليهم السلام يسافرون فإذا لم تجز لهم الصلاة في غير ما ذكر لزم ترك الصلاة في كثير من الأوقات وهو بعيد لا سيما في الخضر عليه السلام ولذا قيل المخصوص كونها مسجداً وطهوراً أي المجموع ويكفي في اختصاصه اختصاص التيمم وأجيب بأن المراد الاختصاص بالنسبة إلى الأمم السالفة دون أنبيائها عليهم السلام والخضر ان كان حيا اليوم فهو من هذه الأمة سواء كان نبياً أم لا لخبر لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي وحكمه قبله نبيا ظاهر والأمر فيه غير نبي سهل وقيل المراد بها المسجد الحرام أي الكعبة نفسها أو الحرم كله على ما قيل والجمع لأن كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة أو لأنه لما كان قبلة المساجد فإن كل قبلة متوجهة نحوه جعل كأنه جميع المساجد مجازاً وقيل المراد هو وبيت المقدس فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن

عباس لم يكن يوم نزلت وأن المساجد لله الخ في الأرض مسجداً لا المسجد الحرام ومسجد أيليا بيت المقدس وأمر الجمع عليه أظهر منه على الأول لا أنه كالأول خلاف الظاهر وما ذكر لا يتم دليلاً له وقال ابن عطاء وابن جبير والزجاج والفراء المراد بها الأعضاء السبعة التي يسجد عليها واحدها مسجد بفتح الجيم وهي القدمان

(281/785)

والركبتان والكفان والوجه أي الجبهة والأنف وروي أن المعتصم سأل أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الكاظم رضي الله تعالى عنهم عن ذلك فأجاب بما ذكر وقيل السجدات على أن المسجد بفتح الجيم مصدر ميمي ونقل عن الخليل بن أحمد أن قوله تعالى وأن المساجد بتقدير لام التعليل وهو متعلق بما بعد والمساجد بمعناها المعروف أي لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ولما لم تكن الفاء في جواب شرط محقق كانت في الحقيقة زائدة فلا يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها نعم قال غير واحد جيء بها لتضمن الكلام معنى الشرط والمعنى إن الله تعالى يحب أن يوحد ولا يشرك به أحد فإن لم يوحدوه في سائر المواضع فلا تدعوا معه أحداً في المساجد لأن المساجد له سبحانه مختصة به عز وجل فالاشراك فيها أقبح وأقبح ونظير هذا قوله تعالى

﴿ لايلاف قريش أيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ﴾ [1-3] على وجه ولا يعد ذلك من الشرط المحقق ويندفع بما ذكر لزوم جعل الفاء لغواً لأنها للسببية ومعناها مستفاد من اللام المقدرة وقيل في دفعه أيضاً أنها تأكيد للام أو زائدة جيء بها للاشعار بمعناها وأنها مقدرة والخطاب في تدعوا قيل للجن وأيد بما روي عن ابن جبير قال إن الجن قالوا يا رسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نائينا عنك فنزلت الآية ليخاطبهم على معنى أن عبادتكم حيث كانت مقبولة إذا لم تشركوا فيها وقيل هو خطاب عام وعن قتادة كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله عز وجل فأمرنا أن نخلص لله تعالى الدعوة إذا دخلنا المساجد يعني بهذه الآية وعن ابن جريج بدل فأمرنا الخ فأمرهم أن يوحدوه وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك أيضاً وقرأ كما في البحر ابن هرمز وطلحة وإن المساجد بكسر همزة إن وحمل ذلك على الاستئناف . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(282/785)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) ﴾

قرأ الجمهور وأبو جعفر بكسر الهمزة .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وخلف بفتحها وهو من قول الجن وهو عطف على المجرور بالباء .

والمقصود بالعطف قوله : ﴿ فمن أسلم فأولئك تحَرَّوْا رشداً ﴾ وما قبله توطئة له ، أي أصبحنا بعد سماع القرآن منا المسلمون ، أي الذين اتبعوا ما جاء به الإِسلام مما يليق بحالهم ومنا القاسطون ، أي الكفارون المعرضون وهذا تفصيل لقولهم : ﴿ وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ [الجن : 11] لأن فيه تصريحاً بأن دون ذلك هو ضد الصلاح .

والظاهر أن من منتهى ما حكي عن الجن من المدركات التي عبر عنها بالقول وما عطف عليه .

الظاهر أن هذا خارج عن الكلام المحكي عن الجن ، وأنه كلام من جانب الله تعالى لموعظة المشركين من الناس فهو في معنى التذييل .

وإنما قرن بالفاء لتفريعه على القصة لاستخلاص العبرة منها ، فالتفريع تفريع كلام على كلام وليس تفريع معنى الكلام على معنى الكلام الذي قبله .

والتحري : طلب الحَرَا بفتحتين مقصوراً واويّاً ، وهو الشيء الذي ينبغي أن يفعل ، يقال : بالحرّي أن تفعل كذا ، وأحْرى أن تفعل .

والرشَد : الهدى والصواب ، وتنوينه للتعظيم .

والمعنى : أن من آمن بالله فقد توخى سبب النجاة وما يحصل به الثواب لأن الرشد سبب ذلك .

والقاسط : اسم فاعل قسط من باب ضَرب قَسْطاً بفتح القاف وقسوطاً بضمها ، أي جار فهو كالظلم يراد به ظلم المرء نفسه بالإِشراك .

(283/785)

وفي "الكشاف" : أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله ما تقول فيَّ ؟ قال : قَاسط عَادِل ، فقال القومُ : مَا أحسَنَ ما قالَ حسبوا أنه وصفه بالقِسط (بكسر القاف) والعدل ، فقال الحجاج : يا جَهلة إنه سمّاني ظالماً مشركاً وتلا لهم قوله تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وقولَه تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] أ هـ .

وشبه حلول الكافرين في جهنم بحلول الحطب في النار على طريقة التمليح والتحقير ، أي هم لجهلهم كالحطب الذي لا يعقل كقوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

وإقحام فعل (كانوا) لتحقيق مصيرهم إلى النّار حتى كأنهم كانوا كذلك من زمن مضى .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

اتفق القراء العشرة على فتح همزة : ﴿ أن لو استقاموا ﴾ ، فجملة ﴿ أن لوِ استقاموا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أنه استمع نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] ، والواو من الحكاية لا من المحكي ، فمضمونها شأن ثانٍ مما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمره الله أن يقوله للناس .

والتقدير : وأوحي إليّ أنه لو استقام القاسطون فأسلموا لما أصابهم الله بإمساك الغيث .

و ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة ، وجيء بـ ﴿ أن ﴾ المفتوحة الهمزة لأن ما بعدها معمول لفعل ﴿ أوحي ﴾ [الجن : 1] فهو في تأويل المصدر ، واسمها محذوف وهو ضمير الشأن وخبره ﴿ لو استقاموا ﴾ إلى آخر الجملة .

وسبك الكلام : أوحي إليَّ إسقاءُ الله إياهم ماء في فرض استقامتهم .

وضمير ﴿ استقاموا ﴾ يجوز أن يعود إلى القاسطين بدون اعتبار القيد بأنهم من الجن وهو من عود الضمير إلى اللفظ مجرداً عن مَا صُدِقَه كقولك : عندي درهم ونصفه ، أي نصف درهم آخر .

ويجوز أن يكون عائداً إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معروف من المقام إذ السورة مسوقة للتنبيه على عناد المشركين وطعنهم في القرآن ، فضمير ﴿ استقاموا ﴾ عائد إلى المشركين ، وذلك كثير في ضمائر الغيبة التي في القرآن ، وكذلك أسماء الإِشارة كما تنبهنا إليه ونبهنا عليه ، ولا يناسب أن يعاد على القاسطين من الجن إذ لا علاقة للجن بشرب الماء .

والاستقامة على الطريقة : استقامة السير في الطريق وهي السير على بصير بالطريق دون اعوجاج ولا اغترار ببنيات الطريق .

و﴿ الطريقة ﴾ : الطريق : ولعلها خاصة بالطريق الواسع الواضح كما تقدم آنفاً في قوله ﴿ كُنَّا طرائق قِدداً ﴾ [الجن : 11] .

والاستقامة على الطريقة تمثيل لهيئة المتصف بالسلوك الصالح والاعتقاد الحق بهيئة السائر سيراً مستقيماً على طريقة ، ولذلك فالتعريف في ﴿ الطريقة ﴾ للجنس لا للعهد .

وقوله : ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً : ﴾ وعد بجزاء على الاستقامة في الدّين جزاءً حسناً في الدنيا يكون عنواناً على رضى الله تعالى وبشارة بثواب الآخرة قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

وفي هذا إنذار بأنه يوشك أن يمسك عنهم المطر فيقعوا في القحط والجوع وهو ما حدث

عليهم بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ودعائه عليهم بسنين كَسِنِي يوسف فإنه دعا بذلك في المدينة في القنوت كما في حديث "الصحيحين" عن أبي هريرة وقد بينا ذلك في سورة الدخان .

وقد كانوا يوم نزول هذه الآية في بحبوحة من العيش وفي نخيل وجنات فكان جَعْل ترتُّبِ الإِسقاء على الاستقامة على الطريقة كما اقتضاه الشرط بحرف ﴿ لو ﴾ مشيراً إلى أن المراد : لأدَمْنا عليهم الإِسقاء بالماء الغَدَق ، وإلى أنهم ليسوا بسالكين سبيل الاستقامة فيوشك أن يُمسك عنهم الري ففي هذا إنذار بأنهم إن استمروا على اعوجاج الطريقة أمسك عنهم الماء .

(285/785)

وبذلك يتناسب التعليل بالإِفتان في قوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ مع الجملة السابقة إذ يكون تعليلاً لما تضمنَه معنى إدامة الإِسقاء فإنه تعليل للإِسقاء الموجود حين نزول الآية وليس تعليلاً للإِسقاء المفروض في جواب ﴿ لو ﴾ لأن جواب ﴿ لو ﴾ منتفٍ فلا يصلح لأن يُعلل به ، وإنما هم مفتونون بما هم فيه من النعمة فأراد الله أن يوقظ قلوبهم بأن استمرار النعمة عليهم فتنة لهم فلا تغرنهم .

فلام التعليل في قوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال من ﴿ ماء غدقاً ﴾ وهو الماء الجاري لهم في العيون ومن السماء تحت جناتهم وفي زروعهم فهي حال مقارنة .

وبهذا التفسير تزول الحيرة في استخلاص معنى الآية وتعليلها .

والغدَق : بفتح الغين المعجمة وفتح الدال الماء الغزير الكثير .

وجملة ﴿ لِنَفْتِنَهم فيه ﴾ إدماج فهي معترضة بين جملة ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ الخ وبين جملة ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربّه ﴾ الخ .

ثم أكدت الكناية عن الإِنذار المأخوذة من قوله : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ﴾ الآية ، بصريح الإِنذار بقوله : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربّه نسلكه عذاباً صعداً ، ﴾ أي فإن أعرضوا انقلب حالهم إلى العذاب فسلكنا بهم مسالك العذاب .

والسَّلك : حقيقته الإِدخال ، وفعله قاصر ومتعد ، يقال : سلكه فسلك ، قال الأعشى:

كما سَلكَ السِّكيَّ في الباب فَيْتق . . .

أي أدخل المِسمار في الباب نَجَّارٌ .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ في سورة الحجر (12) .

واستعمل السَلك هنا في معنى شدة وقوع الفعل على طريق الاستعارة وهي استعارة عزيزة .

والمعنى : نعذبه عذاباً لا مصرف عنه .

وانتصب عذاباً ﴿ على نزع الخافض وهو حرف الظرفية ، وهي ظرفية مجازية تدل على أن العذاب إذا حلّ به يحيط به إحاطة الظرف بالمظروف .

(286/785)

والعدول عن الإِضمار إلى الإِظهار في قوله : ﴿ عن ذكر ربّه ﴾ دون أن يقول : عن ذكرنا ، أو عن ذكري ، لاقتضاء الحال الإِيماءَ إلى وجه بناء الخبر فإن المعرض عن ربّه الذي خلقه وأنشأه ودبره حقيق بأن يسلك عذاباً صعداً .

والصّعَد : الشاق الغالِبُ ، وكأنه جاءٍ من مصدر صَعد ، كفرح إذا علا وارتفع ، أي صَعِد على مفعوله وغلبه ، كما يقال : عَلاَه بمعنى تمكن منه ، ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ [الدخان : 19] .

وقرأ الجمهور ﴿ نسلكه ﴾ بنون العظمة ففيه التفات .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ يسلكه ﴾ بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربّه .

(287/785)

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

اتفق القراء العشرة على فتح الهمزة في ﴿ وأن المساجد لله ﴾ فهي معطوفة على مرفوع ﴿ أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] ، ومضمونها مما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأُمر بأن يقوله .

والمعنى : قل أوحي إلي أن المساجد لله ، فالمصدر المنسبك مع ﴿ أنَّ ﴾ واسمها وخبرها نائب فاعل ﴿ أُوحي ﴾ [الجن : 1] .

والتقدير : أوحي إلي اختصاص المساجد بالله ، أي بعبادته لأن بناءها إنما كان ليعبد الله فيها ، وهي معالم التوحيد .

وعلى هذا الوجه حمل سيبويه الآية وتبعه أبو علي في "الحُجة" .

وذهب الخليل أن الكلام على حذف لام جر قبل ﴿ أنّ ﴾ ، فالمجرور مقدم على متعلَّقه للاهتمام .

والتقدير : ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً .

واللام في قوله ﴿ لله ﴾ للاستحقاق ، أي الله مستحقها دون الأصنام والأوثان فمن وضع الأصنام في مساجد الله فقد اعتدى على الله .

والمقصود هنا هو المسجد الحرام لأن المشركين كانوا وضعوا فيه الأصنام والأنصاب

وجعلوا الصنم (هُبَل) على سطح الكعبة ، قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ [البقرة : 114] يعني بذلك المشركين من قريش .

(288/785)

وهذا توبيخ للمشركين على اعتدائهم على حق الله وتصرفهم فيما ليس لهم أن يغيروه قال تعالى : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ﴾ [الأنفال : 34] ، وإنما عبر في هذه الآية وفي آية ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾ [البقرة : 114] بلفظ ﴿ مساجد ﴾ ليدخل الذين يفعلون مثل فعلهم معهم في هذا الوعيد ممن شاكلهم ممن غيّروا المساجد ، أو لتعظيم المسجد الحرام ، كما جُمع ﴿ رسلي ﴾ في قوله : ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ [سبأ : 45] ، على تقدير أن يكون ضمير ﴿ كذبوا عائداً إلى الذين كفروا في قوله : ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلاّ سحر مبين ﴾ [سبأ : 43] أي كذبوا رسولي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذَّبوا الرسل أغرقناهم ﴾ [الفرقان : 37] يريد نوحاً ، وهو أول رسول فهو المقصود بالجمع .

وفرع على اختصاص كون المساجد بالله النهي عن أن يدعوا مع الله أحداً ، وهذا إلزام لهم بالتوحيد بطريق القول بالموجَب لأنهم كانوا يزعمون أنهم أهل بيت الله فعبادتهم غير الله منافية لزعمهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(289/785)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾

لا يعارض قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ لأن القاسط هو الجائر والمقسط هو العادل فهما ضدان .

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴾ .

الآية .

أفرد الضمير في قوله له وجمع قوله خالدين .

والجواب هو ما تقدم من أن الإفراد باعتبار لفظ من والجمع باعتبار معناها وهو ظاهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 303 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من (سورة الجن)

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ آخر السورة

(4/786)

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من يدعو سيده وينقطع إليه عاملاً للواجب عليه اللائق بأمثاله لا ينكر عليه ولا يعجب منه ، إنما يعجب ممن دعا غير سيده أو مال إليه أدنى ميل فيسأل عن سببه ، قال معجباً من القاسطين من الجن والإنس : ﴿ وأنه ﴾ أي أوحي إليّ أو قال الجن لمن أطاعهم

من قومهم حاكين ما رأوا من صلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وازدحام أصحابه عليه متعجبين من ذلك أن الشأن أو القصة العظيمة العجيبة ﴿ لما ﴾ قمت كادوا يكونون عليّ - هكذا كان الأصل ولكنه عبر بالعبد كما تقدم من أن من دعا سيده ولو كان ذلك السيد أحقر الموجودات لا يفعل به ذلك ، فكيف إذا كان سيده مالك الملك وملك الملوك ﴿ قام عبد الله ﴾ أي عبد الملك الأعلى الذي له الجلال كله والجمال فلا موجود يدانيه بل كل موجود من فائض فضله ﴿ يدعوه ﴾ أي يدعو سيده دعاء عبادة من حيث كونه عبده ومن حيث كون سيده يسمع من دعاه ويجيبه .

(5/786)

ولما كان القاسطون أكثر الناس بل الناس كلهم في ذلك الزمان جناً وإنساً ، قال مبيناً لأنه يجوز على الأنبياء أن يؤذوا وينتقصوا رفعاً لدرجاتهم وتسلية لوراثهم وإن كانت رتبتهم تأبى ذلك ، ﴿ كادوا ﴾ أي قرب القاسطون من الفريقين الجن والإنس ﴿ يكونون عليه ﴾ أي على عبد الله ﴿ لبداً ﴾ أي متراكمين بعضهم على بعض من شدة ازدحامهم حتى كان ذلك جبلة لهم تعجباً مما رأوا منه من عبادته وإرادة لرده عن ذلك ، وذلك أمر لا يعجب منه ، وإنما العجب ما فعلوا هم من عبادتهم لغيره سبحانه وتعالى ومن تعجبهم من عبادة عبده

له وإخلاصه في دعائه ، وهو جمع لبد - بكسر اللام ، وقرىء بضم اللام جمع لبدة بضمها ، وهي ما تلبد بعضه على بعض .

(6/786)

ولما استشرفت - على قراءة الكسر - نفس السامع إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن تراكموا عليه من ذلك ، استأنف الجواب بقوله مبيناً لما يستحيل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من دعاء غير الله ومن ترك الدعاء إليه من مخالفة شيء من أمره قال ، أو لما تاقت نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قراءة الفتح إلى ما يدفع به ما رأى منهم ، قال تعالى مرشداً له إلى ذلك : ﴿ قل ﴾ أي لمن ازدحم عليك عاداً لهم عداد الجاهلين بما تصنع لأنهم عملوا عمل الجاهل : ﴿ إنما أدعوا ﴾ أي دعاء العبادة ﴿ ربي ﴾ أي الذي أوجدني ورباني ولا نعمة عندي إلا منه وحده ، لا أدعو غيره حتى تعجبوا مني فتزدحموا عليّ والظاهر المتبادر إلى الفهم أن المعنى : وأوحي إليّ أي لما قمت في الصلاة أعبد الله في بطن نخلة ورآني الجن الذين وجههم إبليس نحو تهامة وسمعوا القرآن ازدحموا عليّ حتى كادوا يغشونني ويكون بعضهم على بعض فسمعوا توحيدي لله وتمجيدي له وإفراده بالقدرة والعلم وجميع صفات الكمال آمنوا ، وقيل : هو حكاية الجن لقومهم عن صلاة النبي ـ صلى

الله عليه وسلم ـ وفعل أصحابه وراءه في تراصهم في صلاتهم وحفوفهم به ووعظه وتعليمه لهم ، ويحكى هذا القول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وسعيد بن جبير فإن ذلك هيئة غريبة ، يحكى أن ملك الفرس أرسل من دخل في المسلمين لما قصدوا بلاده فكان مما حكي له عنهم أن قال : إذا صلوا صفوا أنفسهم صفوفاً ويقدمهم رجل يقومون بقيامة ويسجدون بسجوده ويقعدون بقعوده ويفعلون كفعله ، لا تخالف بينهم ، فلما سمع الملك ذلك راعه وقال : ما لي ولهؤلاء ، ما لي ولعمر ، ونقل أبو حيان عن مكحول أنه بلغ من تابع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الجن سبعين ألفاً وفرغوا عند انشقاق الفجر .

(7/786)

ولما كان الداعي لولي نعمته يمكن أن يكون أشرك غيره في دعائه ولو بأدنى وجوه الإشراك ، ويكون الحصر باعتبار الأغلب فاستحق الإنكار عليه والازدحام ، نفى ذلك بقوله تأكيداً لمعنى الحصر وتحقيقاً له : ﴿ ولا أشرك به ﴾ أي الآن ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه ﴿ أحداً ﴾ من ود وسواع ويغوث وغيرها من الصامت والناطق .

ولما كان السامع ربما قال : ما له هو لا يهلكهم أو يدعو ربه في دفع المتبلدين عليه عنه بالإهلاك أو التوبة والمتابعة ، أمره بما يبين عظمة ربه وأنه لا يفعل إلا ما يريد بقوله مبيناً أنه

يستحيل عليه الصلاة والسلام ما يستحيل على جميع الممكنات من أن يؤثر في شيء بنفسه أو يخالف ربه : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين خالفوك ، وأكد فطماً لمن ربما اعتقد – لكثرة ما يرى من الكرامات – أنه مهما أراده فعله الله له : ﴿ إني لا أملك ﴾ أي الآن ولا بعد ﴿ لكم ﴾ بنفسي من غير إقدار الله لي لأنه لا مؤثر في شيء من الأشياء إلا الله سبحانه وتعالى .

ولما كان المقام لدفع شرهم عنه ، قال : ﴿ ضراً ﴾ فأفهم ذلك " ولا نفعاً ولا غياً " ﴿ ولا رشداً ﴾ أي صواباً وسداداً .

فالآية من الاحتباك وهو ظاهر على هذا التقدير ، قال أبو حيان : فحذف من كل ما يدل مقابله عليه – انتهى .

ويجوز أن يكون تقديره : لا أملك ضراً لأني لا أملك لكم إضلالاً ولا أملك لكم رشداً فلا أملك لكم نفعاً ، فإنه لا نفع في غير الرشاد ، ولا ضر في غير الضلال ، فقبح الله ابن عربي الطائي الذي يقول في فصوصه : إن الضلال أهدى من الهدى ، فلا أسخف عقلاً منه إلا من تبعه – عليهم لعنة الله وخزيه ، فإن قالوا : إنه أراد غير ما يفهم من ظاهر اللفظ فقل : كذبتم فقد بين مراده إطباقكم على الفسق والفجور لا يكاد يجد منكم من يتهم بمذهبه وهو يتقيد بشرع ، ولم تخرج الآية بهذا عن الاحتباك ، فإن ذكر الضر أولاً دل على حذف النفع ثانياً ، وذكر الرشد ثانياً دل على حذف الضلال أولاً .

ولما أجاب من تشوف إلى علة صبره عن دفعهم عنه بما حاصله أنه لا شيء بيده ، لأن إلهه من العظمة في إحاطة العلم والقدرة وأنه لا يخرج شيء عن مراده فلا يعجل في شيء بحيث لا يفعل إلا ما يريد سواء سئل أو لا ، فكان ذلك ربما أوجب أن يظن منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ موافقته لهم لئلا يضروه لأنهم يستعجلون في أذى من خالفهم ، أجاب ما حاصله أنه بين ضررين أحدهما منهم إن خالفهم ، والآخر منه سبحانه وتعالى إن أعرض عنه وهو سبحانه وتعالى يرد أذاهم إن أراد ، وهم لا يقدرون على رد أذاه بوجه فقال : ﴿ قل ﴾ أي لمن يدعوك إلى موافقتهم ، وأكد لما في ظن كثير من الناس من أن الأسباب لا تتخلف فقال : ﴿ إني ﴾ وزاد في التأكيد لأن ذلك في غاية الاستقرار في النفوس فقال : ﴿ لن يجيرني ﴾ أي فيدفع عني ما يدفع الجار عن جاره ﴿ من الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ﴿ أحد ﴾ أي كائناً من كان إن أرادني سبحانه بسوء .

ولما كان من هو بهذه المثابة ربما هرب منه المطلوب قال مؤكداً : ﴿ ولن أجد ﴾ أي أصلاً .

ولما كانت كل رتبة دون رتبته ، وكانت الرتب التي دون رتبته كثيرة جداً لما له من العلو

المطلق ولغيره من مراتب السفول التي لا تحد ، قال مشيراً لذلك بالجارّ : ﴿ من دونه ﴾ أي الله تعالى ﴿ ملتحداً ﴾ أي معدلاً وموضع ميل وركون ومدخلاً وملتجأ وحيلة ، وإن اجتهدت كل الجهد لأن اللحد أصله الميل ولا يقال إلا في ميل من حق إلى باطل ، والحد : جادل وماري وركن .

(9/786)

ولما كان من المعلوم أن هذا شيء لا مثنوية فيه ، وكانت الرتب التي دون شريف رتبته سبحانه كثيرة جداً لما له من العلو المطلق وكان ما يليها له حكم شرفها وحقيقها ، وكان أول ذلك البلاغ منه سبحانه بلا واسطة ثم البلاغ بواسطة ملائكته الكرام منه ، استثنى من " ملتحداً " على طريق لا ملجأً ولا منجى منك إلا إليك ففروا إلى الله فقال : ﴿ إلا بلاغاً ﴾ أي يبلغني كائناً ﴿ من الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ، ولكنه لسعة رحمته يجري الأمور على ما يتعارفونه في أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة يعترفون بأنها حجة .

ولما بين الرتبة الأولى التي هي أعلى ، أتبعها التي تليها فقال : ﴿ ورسالاته ﴾ التي أوحي إليّ بها بواسطة الملك فإني أتلقى ذلك حق تلقيه بحفظه والعمل به فيكون ، ذلك عاصماً من

كل سوء في الدنيا والآخرة .

ولما كان التقدير لبيان أن الله شرف الرسل بأن أعطاهم عظمة من عظمته فجعل عصيانهم عصيانه ، فيكون جزاء من عصاهم هو جزاء من عصاه سبحانه وتعالى لأنهم إنما يتكلمون بأمره ، فمن يطع الله ورسوله فإن له جنة نعيم يكونون فيها مدى الدهر سعداء ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يعص الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ﴿ ورسوله ﴾ الذي ختم به النبوة والرسالة فجعل رسالته محيطة بجميع خلقه في التوحيد أو غيره على سبيل الجحد ﴿ فإن له ﴾ أي خاصة ﴿ نار جهنم ﴾ أي التي تلقاه بالعبوسة والغيظ ، ولما عبر بالإفراد نظراً إلى لفظ " من " لأنه أصرح في كل فرد ، عبر بالجمع حملاً على معناها لأنه أدل على عموم الذل فقال : ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد المعنى وحققه لقول من يدعي الانقطاع فقال : ﴿ أبداً ﴾ وأما من يدعي أنها تحرق وأن عذابها عذوبة فليس أحد أجنّ منه إلا من يتابعه على ضلاله وغيه ومحاله ، وليس لهم دراء إلا السيف في الدنيا والعذاب في الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون إليه وموقوفون عليه .

(10/786)

ولما ذكر تلبدهم عليه وقدم ما هو الأهم من أمره من كشف غمومهم بإعلامهم أن ذلك الذي أنكروه عليه هو الذي يحق له ، ومن أنه مع ضعفه عن مقاواتهم هو عن الإعراض عن الله أضعف لأن الله أقوى من كل شيء وأنه لا يسعه إلا امتثال أمره ، وأشار إلى أنهم عاجزون عن سطواته سبحانه بعدم القدرة على الإجارة عليه ، صرح بذلك مهدداً لهم ، فقال مغيياً لتلبدهم عليه : ﴿ حتى إذا رأوا ﴾ أي بأبصارهم فيه ﴿ ما ﴾ أي الشيء الذي .

ولما كان المنكي من الوعيد بروكه على كل من كان لأجله الوعيد لا كونه من معين قال : ﴿ يوعدون ﴾ أي ما حصل الإيعاد في الدنيا أو في الآخرة أما في الآخرة فواضح ، وأما في الدنيا فمثل إخراج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع اجتماع المشركين على المكر به لقتله واجتهادهم في ذلك ثم سراياه وغزواته مثل غزوة بدر وغيرها من أيام الله التي ملأت الأرض نوراً وأهل الحق سروراً وحبوراً ، وأهل الباطل خسراً وبوراً ورعباً وهلاكاً وقبوراً ﴿ فسيعلمون ﴾ أي من ذلك اليوم الذي يكون فيه تأويله بوعد لا خلف فيه ولا طولاً لأمده ﴿ من أضعف ناصراً ﴾ أي من جهة الناصر أنا وإن كنت في هذا الوقت وحيداً مستضعفاً أو هم ﴿ وأقل عدداً ﴾ وإن كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدداً إلا الله سبحانه ، فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم من حيث هي ، ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السماوات والأرض بخلاف أهل الإلحاد فإنه لا

كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم وازدراء من سواهم ، وإذا حاققت أحداً من أتباع أحد منهم قال هذا على لسان النبوة – ونحو هذا من مخادعاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 194.198 ﴾

(11/786)

فصل

قال الفخر :

النوع الرابع : من جملة الموحى قوله تعالى :

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)

اعلم أن عبد الله هو النبي صلى الله عليه وسلم في قول الجميع ، ثم قال الواحدي : إن هذا من كلام الجن لا من جملة الموحى ، لأن الرسول لا يليق أن يحكي عن نفسه بلفظ المغايبة وهذا غير بعيد ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : 85] والأكثرون على أنه من جملة الموحى ، إذ لو كان من كلام الجن لكان ما ليس من كلام الجن . وفي خلل ما هو كلام الجن مختلاً بعيداً عن سلامة النظم وفائدة هذا الاختلاف أن من جعله من جملة الموحى فتح الهمزة في أن ، ومن جعله من كلام الجن كسرها ، ونحن نفسر الآية على

القولين ، أما على قول من قال : إنه من جملة الموحى فالضمير في قوله : ﴿ كَادُواْ ﴾ إلى من يعود ؟ فيه ثلاثة أوجه أحدها : إلى الجن ، ومعنى ﴿ قَامَ . . .

(12/786)

يَدْعُوهُ ﴾ أي قام يعبده يريد قيامه لصلاة الفجر حين أتاه الجن ، فاستمعوا القراءة ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ ، أي يزدحمون عليه متراكمين تعجباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً ، وساجداً وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله والثاني : لما قدم رسول الله يعبد الله وحده مخالفاً للمشركين في عبادتهم الأوثان ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه والثالث : وهو قول قتادة : لما قام عبد الله تلبدت الإنس والجن ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به ويطفئوا نور الله ، فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من عاداه ، وأما على قول من قال : إنه من كلام الجن ، فالوجهان أيضاً عائدان فيه ، وقوله : ﴿ لِبَداً ﴾ فهو جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض وارتكم بعضه على بعض ، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقاً شديداً فقد لبدته ، ومنه اشتقاق هذه اللبود التي تفرش ويقال : لبدة الأسد لما يتلبد من الشعر بين كتفيه ، ومنه قول زهير :

(لدى أسد شاكي السلاح مقذف) . . له لبد أظفاره لم تقلم

وقرىء : ﴿لِبَداً﴾ بضم اللام واللبدة في معنى اللبدة ، وقرىء ﴿لِبَداً﴾ جمع لابد كسُجّد وساجد .

وقرىء أيضاً : ﴿لِبَداً﴾ بضم اللام والباء جمع لبود كصبر جمع صبور ، فإن قيل : لم سمي محمداً بعبد الله ، وما ذكره برسول الله أو نبي الله ؟ قلنا : لأنه إن كان هذا الكلام من جملة الموحى ، فاللائق بتواضع الرسول أن يذكر نفسه بالعبودية ، وإن كان من كلام الجن كان المعنى أن عبد الله لما اشتغل بعبودية الله ، فهؤلاء الكفار لما اجتمعوا ولما حاولوا منعه منه ، مع أن ذلك هو الموافق لقانون العقل ؟ .

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20)

(13/786)

قرأ العامة (قال) على الغيبة وقرأ عاصم وحمزة ، ﴿قُلْ﴾ حتى يكون نظيراً لما بعده ، وهو قوله : ﴿قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ﴾ [الجن : 21] ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى﴾ [الجن : 22] قال مقاتل : إن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : "إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا" فأنزل الله : ﴿قُلْ إِنَّمَا ادعوا رَبِّى﴾ وهذا حجة

لعاصم وحمزة ، ومن قرأ ﴿ قَالَ ﴾ حمل ذلك على أن القوم لما قالوا ذلك ، أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ فحكى الله ذلك عنه بقوله ﴿ قَالَ ﴾ أو يكون ذاك من بقية حكاية الجن أحوال الرسول لقومهم .

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21)

إما أن يفسر الرشد بالنفع حتى يكون تقدير الكلام : لا أملك لكم غياً ولا رشداً ، ويدل عليه قراءة أبي (غياً ولا رشداً) ، ومعنى الكلام أن النافع والضار ، والمرشد والمغوي هو الله ، وإن أحداً من الخلق لا قدرة له عليه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ قال مقاتل : إنهم قالوا : اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك ، فقال الله له : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ وحرزاً ، قال المبرد : ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ مثل قولك منعرجاً ، والتحد معناه في اللغة مال ، فالملتحد المدخل من الأرض مثل السرب الذاهب في الأرض .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ ذكروا في هذا الاستثناء وجوهاً أحدها : أنه استثناء من قوله : ﴿ لَا أَمْلِكُ ﴾ [الجن : 21] أي لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي ﴾ [الجن : 22] جملة معترضة وقعت في

البين لتأكيد نفي الاستطاعة عنه وبيان عجزه على معنى : أنه تعالى إن أراد به سوءاً لم يقدر أحد أن يجيره منه ، وهذا قول الفراء .

(14/786)

وثانيها : وهو قول الزجاج : أنه نصب على البدل من قوله : ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن : 22] والمعنى : ولن أجد من دونه ملجأ إلا بلاغاً ، أي لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به ، وأقول هذا الاستثناء منقطع لأنه تعالى لما لم يقل ولن أجد ملتحداً بل قال : ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ، والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله : ﴿ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ لأن البلاغ من الله لا يكون من دون الله ، بل يكون من الله وبإعانته وتوفيقه ثالثها : قال بعضهم : (إلا) معناه إن (لا) ومعناه : إن لا أبلغ بلاغاً كقولك : (إلا) قياماً فقعوداً ، والمعنى : إن لا أبلغ لم أجد ملتحداً ، فإن قيل : المشهور أنه يقال بلغ عنه قال عليه السلام : " بلغوا عني ، بلغوا عني " فلم قال ههنا : ﴿ بَلاَغاً مِّنَ الله ﴾ ؟ قلنا : (من) ليست (بصفة للتبلغ) إنما هي بمنزلة (من) في قوله : ﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ الله ﴾ [التوبة : 1] بمعنى بلاغاً كائناً من الله .

أما قوله تعالى : ﴿ ورسالاته ﴾ فهو عطف على ﴿ بَلاَغاً ﴾ كأنه قال : لا أملك لكم إلا

التبليغ والرسالات ، والمعنى إلا أن أبلغ عن الله فأقول : قال الله كذا ناسباً القول إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ قال الواحدي إن مكسورة الهمزة لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ولذلك حمل سيبويه قوله : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ [البقرة : 126] ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ [الجن : 13] على أن المبتدأ فيها مضمر وقال صاحب "الكشاف" وقرىء : ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ على تقدير فجزاؤه أن له نار جهنم كقولك : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : 41] أي فحكمه أن لله خمسه .

(15/786)

ثم قال تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ حملاً على معنى الجمع في (من) وفي الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

(16/786)

استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة مخلدون في النار وأن هذا العموم يشملهم كشموله الكفار ، قالوا : وهذا الوعيد مشروط بشرط أن لا يكون هناك توبة ولا طاعة أعظم منها ، قالوا : وهذا العموم أقوى في الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات لأن سائر العمومات ما جاء فيها قوله : ﴿ أَبَدًا ﴾ فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل ، أما ههنا (فقد) جاء لفظ الأبد فيكون ذلك صريحاً في إسقاط الاحتمال الذي ذكره المخالف والجواب : أنا بينا في سورة البقرة وجوه الأجوبة على التمسك بهذه العمومات ، ونزيد ههنا وجوهاً أحدها : أن تخصيص العموم بالواقعة التي لأجلها ورد ذلك العموم عرف مشهور ، فإن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار ساعة فقال الزوج إن خرجت فأنت طالق يفيد ذلك اليمين بتلك الساعة المعينة حتى إنها لو خرجت في يوم آخر لم تطلق ، فههنا أجرى الحديث في التبليغ عن الله تعالى ، ثم قال : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني جبريل : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي من يعص الله في تبليغ رسالاته وأداء وحيه فإن له نار جهنم ، وإذا كان ما ذكرنا محتملاً سقط وجه الاستدلال الوجه الثاني : وهو أن هذا الوعيد لا بد وأن يتناول هذه الصورة لأن من القبيح أن يذكر عقيب هذه الواقعة حكماً لا تعلق له بها ، فيكون هذا الوعيد وعيداً على ترك التبليغ من الله ، ولا شك أن ترك التبليغ من الله أعظم الذنوب ، والعقوبة المترتبة على أعظم الذنوب ، لا يجوز أن تكون مرتبة على جميع الذنوب ، لأن الذنوب المتفاوتة في الصغر والكبر لا يجوز أن تكون

متساوية في العقوبة ، وإذا ثبت أن هذه العقوبة على هذا الذنب ، وثبت أن ما كان عقوبة على هذا الذنب لا يجوز أن يكون عقوبة على سائر الذنوب ، علمنا أن هذا الحكم مختص بهذا الذنب وغير متعد إلى سائر الذنوب الوجه الثالث : وهو أنه تعالى ذكر عمومات الوعيد في سائر آيات القرآن غير مقيدة بقيد الأبد ،

(17/786)

وذكرها ههنا مقيدة بقيد الأبد ، فلا بد في هذا التخصيص من سبب ، ولا سبب إلا أن هذا الذنب أعظم الذنوب ، وإذا كان السبب في هذا التخصيص هذا المعنى ، علمنا أن هذا الوعيد مختص بهذا الذنب وغير متعد إلى جميع الذنوب ، وإذا ثبت أن هذا الوعيد مختص بفاعل هذا الذنب ، صارت الآية دالة على أن حال سائر المذنبين بخلاف ذلك لأن قوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ معناه أن هذه الحالة له لا لغيره ، وهذا كقوله : ﴿ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي لكم لا لغيركم .

وإذا ثبت أن لهم هذه الحالة لا لغيرهم ، وجب في سائر المذنبين أن لا يكون لهم نار جهنم على سبيل التأبيد ، فظهر أن هذه الآية حجة لنا عليهم .

وعلى تمسكهم بالآية سؤال آخر ، وهو أن قوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ إنما يتناول

من عصى الله ورسوله بجميع أنواع المعاصي ، وذلك هو الكافر ونحن نقول : بأن الكافر يبقى في النار مؤبداً ، وإنما قلنا إن قوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إنما يتناول من عصى الله بجميع أنواع المعاصي لأن قوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ﴾ يصح استثناء جميع أنواع المعاصي عنه ، مثل أن يقال ومن يعص الله إلا في الكفر وإلا في الزنا ، وإلا في شرب الخمر ، ومن مذهب القائلين بالوعيد أن حكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلاً تحت اللفظ وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون قوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ﴾ متناولاً لمن أتى بكل المعاصي ، والذي يكون كذلك هو الكافر ، فالآية مختصة بالكافر على هذا التقدير ، فسقط وجه الاستدلال بها .

(18/786)

فإن قيل : كون الإنسان الواحد آتياً لجميع أنواع المعاصي محال ، لأن من المحال أن يكون قائلاً بالتجسم ، وأن يكون مع ذلك قائلاً بالتعطيل ، وإذا كان ذلك محالاً فحمل الآية عليه غير جائز قلنا : تخصيص العام بدليل العقل جائز ، فقولنا : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ ﴾ يفيد كونه آتياً بجميع أنواع المعاصي ، ترك العمل به في القدر الذي امتنع عقلاً حصوله فيبقى متناولاً للآتي بجميع الأشياء التي يمكن الجمع بينها ، ومن المعلوم أن الجمع بين الكفر وغيره ممكن فتكون

الآية مختصة به .

المسألة الثانية :

تمسك القائلون بأن الأمر للوجوب بهذه الآية فقالوا : تارك المأمور به عاص لقوله تعالى : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 93] ، ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : 6] ، ﴿ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ [الكهف : 69] والعاصي مستحق للعقاب لقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ .

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24)

(19/786)

فإن قيل : ما الشيء الذي جعل ما بعد حتى غاية له ؟ قلنا : فيه وجهان الأول : أنه متعلق بقوله : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 19] والتقدير أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون (عدده) حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة ، فسيعلمون أيهم أضعف ناصراً وأقل عدداً ، الثاني : أنه متعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده كأنه قيل : هؤلاء لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا كان كذا كان كذا ، واعلم أن نظير هذه الآية قوله في مريم :

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة ﴾ [مريم : 75] واعلم أن الكافر لا ناصر له ولا شفيع يوم القيامة على ما قال : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] ويفر كل أحد منهم من صاحبه على ما قال : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس : 34] إلى آخره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] وأما المؤمنون فلهم العزة والكرامة والكثرة قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] والملك القدوس يسلم عليهم ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فهناك يظهر أن القوة والعدد في جانب المؤمنين أو في جانب الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 144 . 148 ﴾

(20/786)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ ﴾

يجوز الفتح ؛ أي أوحى الله إليه أنه .

ويجوز الكسر على الاستئناف .

و"عبد الله" هنا محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلّي ببطن نخلة ويقرأ القرآن ، حَسْب ما تقدّم أوّل السورة .

﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أي يعبده .

وقال ابن جُريج : "يَدْعُوه" أي قام إليهم داعياً إلى الله تعالى .

﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ قال الزبير بن العوّام : هم الجنّ حين استمعوا القرآن من النبيّ صلى الله عليه وسلم .

أي كاد يركب بعضهم بعضاً ازدحاما ويسقطون ، حرصاً على سماع القرآن .

وقيل : كادوا يركبونه حرصاً ؛ قاله الضحاك .

ابن عباس : رغبة في سماع الذكر .

وروى بُرْد عن مكحول : أن الجنّ بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً ، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر .

وعن ابن عباس أيضاً : إن هذا من قول الجنّ لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به في الركوع والسجود .

وقيل : المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضاً ، حَرداً على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني ﴿ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ محمد بالعدوة تَلَبّدت الإنس

والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، وأَبَى الله إلا أن ينصره ويتم نوره .

واختار الطبريّ أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به .

وقال مجاهد : قوله "لِبَداً" جماعات وهو من تَلَبُّد الشيء على الشيء أي تجمع ، ومنه اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه ، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً فقد لبّدته ، وجمع اللِّبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب .

ويقال للشَّعر الذي على ظهر الأسد لِبدة وجمعها لِبد ؛ قال زهير :

لَدى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ . . .
له لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لم تقَلَّمِ

(21/786)

يقال للجراد الكثير : لِبد .

وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهي قراءة العامة .

وضم اللام وفتح الباء ، وهي قراءة مجاهد وابن مُحَيْصن وهشام عن أهل الشام ، واحدتها لُبْدة .

وبضم اللام والباء ، وهي قراءة أبي حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبي الأشهب العُقَيلي والجَحْدري واحدها لَبْد مثل سَقْفٍ ورَهْن ورُهُن .

وبضم اللام وشدّ الباء وفتحها ، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجَحْدري أيضاً واحدها لابِد ؛ مثل راكِع ورُكَّع ، وساجِد وسُجَّد .

وقيل : اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم ؛ ومنه قيل لنَسر لقمان لُبَد لدوامه وبقائه ؛

وقال النابغة :

أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ . . .

القشيريّ : وقرىء "لُبُدا" بضم اللام والباء ، وهو جمع لَبِيد ، وهو الجَوْلَق الصغير .

وفي الصحاح : (وقوله تعالى) ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ [البلد : 6] أي جَمًّا .

ويقال أيضاً : الناس لُبَد أي مجتمعون ، واللُّبَد أيضاً الذي لا يسافر ولا يبرح منزله .

قال الشاعر :

مِن امرىء ذِي سَماحٍ لا تَزال لُهُ . . .

بَزْلاءُ يَعْيَا بها الجَثَّامَة اللبَدُ

ويروى : اللَّبِد .

قال أبو عُبيد : وهو أشبه .

والبزلاء : الرأي الجيّد .

وفلان نهاض ببزلاء : إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام ؛ قال الشاعر :

إِنّي إذا شَغَلَتْ قوماً فُرُوجُهُمُ . . .

رَحْبُ المَسَالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلاَءِ

ولُبَد : آخر نسور لقمان ، وهو ينصرف ؛ لأنه ليس بمعدول .

وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها ، فلما أهلكوا خُيّر لقمان بين بقاء سبع بَعَرات سُمْر ، مِن أَظْبٍ عُفْرٍ ، لا يَمسها القَطْر ؛ أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر ، فاختار النُّسور ، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا ، وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أَضْحَت خَلاَءً وأَمْسَى أَهْلُها احتملوا . . .

(22/786)

أَخْنَى عليها الّذي أَخْنَى على لُبَدِ

وَاللّبِيد : الجُوَالق الصغير ؛ يقال : ألبدت القِربة جعلتها في لَبيد .

ولبِيد : اسم شاعر من بني عامر .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي ﴾ أي قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي

﴿ ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء "قَالَ" على الخبر .

وقرأ حمزة وعاصم "قُلْ" على الأمر .

وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك ؛ فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق لكم خيراً .

وقيل : ﴿ لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ﴾ أي كفراً ﴿ وَلاَ رَشَداً ﴾ أي هدًى ، أي إنما عليّ التبليغ .

وقيل : الضرّ : العذاب ، والرَّشد النعيم .

وهو الأوّل بعينه .

وقيل : الضر الموت ، والرشد الحياة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾

أي لا يدفع عذابه عني أحد إن استحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا اترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك .

وروى أبو الْجَوْزاء " عن ابن مسعود قال : انطلقت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ حتى أتى الحَجُون فخطّ عليّ خطًّا ، ثم تقدّم إليهم فازدحموا عليه ، فقال سيّدهم يقال له

وَرْدان : أنا أَزْجُلهم عنك ؛ فقال : ﴿ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ " ذكره الماورديّ .

قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد .

الثاني لن يجيرني مما قدره الله تعالى عليّ أحد .

﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملتجأً ألجأ إليه ؛ قاله قتادة .

وعنه : نصيراً ومولىً .

السُّديّ : حِرزاً .

الكَلْبي : مَدْخلاً في الأرض مثل السَّرَب .

وقيل : وليًّا ولا مولَى .

وقيل ؛ مذهباً ولا مسلكاً .

حكاه ابن شجرة ، والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

يا لَهْفَ نفسي ولَهْفِي غيرُ مجدِيةٍ . . .

(23/786)

عَنّي وما مِن قَضاءِ اللَّهِ مُلْتَحَدُ

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة ؛ قاله الحسن .

وقال قتادة : ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ﴾ فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما .

فعلى هذا يكون مردوداً إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ أي لا أملك لكم إلا أن أبلغكم .

وقيل : هو استثناء منقطع من قوله : ﴿ لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ أي إلا أن أبلغكم أي لكن أبلغكم ما أرسلت به ؛ قاله الفراء .

وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : "مُلْتَحَداً" أي ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته ؛ أي ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها . أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته ، فآخذ نفسي بما آمر به غيري .

وقيل هو مصدر ، و"لا" بمعنى لم ، و"إن" للشرط .

والمعنى لن أجد من دونه ملتحداً : أي إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في التوحيد والعبادة .

﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ كسرت إن لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَآ ﴾ نصب على الحال ، وجمع "خَالِدِينَ" لأن المعنى لكل من فعل ذلك ، فوحد أوّلاً للفظ "مَن" ثم جمع للمعنى .

وقوله ﴿ أَبَداً ﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك .

وقيل : هو المعاصي غير الشرك ، ويكون معنى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة ، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو .

وقد مضى هذا المعنى مبيّناً في سورة "النساء" وغيرها .

(24/786)

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ "حَتَّى" هنا مبتدأ ، أي ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من عذاب الآخرة ، أو ما يوعدون من عذاب الدنيا ، وهو القتل ببدر ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً ﴾ أهم أم المؤمنون .

﴿ وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ معطوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(25/786)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) ﴾

﴿ وَأَنَّهُ ﴾ بفتح الهمزة عند الجمهور على أنه عطف على ﴿ أنه استمع ﴾ [الجن : 1]

كالذي قبله فهو من كلامه تعالى أي وأوحى إلى أن الشان ﴿ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ حال من عبد أي لما قام عابداً له عز وجل وذلك قيامه عليه الصلاة والسلام لصلاة الفجر بنخلة كما مر ﴿ كَادُواْ ﴾ أي الجن كما قال ابن عباس والضحاك ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما شاهدوا من عبادته وسمعوا من قراءته واقتداء أصحابه به قياماً وركوعا وسجوداً لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا ما لم يسمعوا نظيره وهذا كالظاهر في أنهم كانوا كثيرين لا تسعة ونحوها وإيراده عليه الصلاة والسلام بلفظ العبد دون لفظ النبي أو الرسول أو الضمير اما لأنه مقول على لسانه صلى الله عليه وسلم لأنه أمر أن يقول أوحى كذا فجيء به على ما يقتضيه مقام العبودية والتواضع أو لأنه تعالى عدل عن ذلك تنبيهاً على أن العبادة من العبد لا تستبعد ونقل عليه الصلاة والسلام كلامه سبحانه كما هو رفعا لنفسه عن البين فلا وجود للأثر بعد العين وحيث كان هذا العدول منه جل وعلا إما لكذا أو لكذا لا أنه تصرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتنع كما قال بعض الأجلة الجمع بين الحسنيين وقال الحسن وقتادة ضمير كادوا لكفار قريش والعرب فيراد بالقيام القيام بالرسالة وبالتلبد التلبد للعداوة والمعنى وانه لما قام عبد الله بالرسالة يدعو الله تعالى وحده ويذر ما كانوا يدعون من دونه كاد والتظاهر هم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين وجوز أن يكون الضمير على هذا للجن والانس وعن قتادة أيضاً ما يقتضيه قال

تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفؤه فأبى الله تعالى إلا أن ينصره ويظهره على من ناواه وفي البحر أبعد من قال عبد الله هنا نوح عليه السلام كاد قومه يقتلونه حتى استنقذه الله تعالى منهم قاله

(26/786)

الحسن وأبعد منه قول من قال إنه عبد الله بن سلام اه ولعمري أنه لا ينبغي القول بذلك ولا أظن له صحة بوجه من الوجوه وقرأ نافع وأبو بكر كما قدمنا وابن هرمز وطلحة كما في البحر وأنه بكسر الهمزة وحمل على أن الجملة استئنافية من كلامه عز وجل وجوز أن تكون من كلام الجن معطوفة على جملة ﴿ أنا سمعنا ﴾ [الجن : 1] حكوا فيها لقومهم لما رجعوا إليهم ما رأوا من صلاته صلى الله عليه وسلم وازدحام أصحابه عليه في ائتمامهم به وحكى ذلك عن ابن جبير وجوز نحو هذا على قراءة الفتح بناء على ما سمعت عن أبي حاتم أو بتقدير ونخبركم بأنه أو نحوه هذا وفي الكشف الوجه على تقديران يكون وان المساجد من جملة الموحى أن يكون

(27/786)

﴿ فلا تدعوا ﴾ [الجن : 18] خطاباً للجن محكيا أن جعل قوله تعالى وانه لما قام على قراءة الكسر من مقول الجن لئلا ينفك النظم لو جعل ابتداء قصة ووحيا آخر منقطعاً عن حكاية الجن وكذلك لو جعل ضمير كادوا للجن على قراءة الفتح أيضاً والأصل أن المساجد لله فلا تدعوا أيها الجن مع الله أحداً فقيل قل يا محمد لمشركي مكة أوحى إلى كذا وإذا كان كذلك فيجيء في ضمن الحكاية إثبات هذا الحكم بالنسبة إلى المخاطبين أيضاً لاتحاد العلة وأما لو جعل خطاباً عاماً فالوجه أن يكون ضمير كادوا راجعاً إلى المشركين أو إلى الجن والانس وأن يكون على قراءة الكسر جملة استئنافية ابتداء قصة منه جل شأنه في الاخبار عن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تمهيد لما يأتي من بعد وتوكيد لما ذكر من قبل فكأنه قيل قل لمشركي مكة ما كان من حديث الجن وإيمان بعضهم وكفر آخرين منهم ليكون حكاية ذلك لطفاً لهم في الانتهاء عما كانوا فيه وحثا على الإيمان ثم قيل وانه لما قام عبد الله يدعوه ويوحده كاد الفريقان من كفرة الجن والانس يكونون عليه لبداً دلالة على عدم ارتداعهم مع هذه الدلائل الباهرة والآيات النيرة وما أحسن التقابل بين قوله تعالى ﴿ وان المساجد ﴾ [الجن : 18] وبين هذا القول كأنهم نهوا كلهم عن الإشراك ودعوا إلى التوحيد فقابلوا ذلك بعداوة من يوحد الله سبحانه ويدعوه ولم يرضوا بالاباء وحده وهذا من خواص الكتاب الكريم وبديع أسلوبه إذا أخذ في قصة غب قصة جعلهما متناصفتين

فيما سيق له الكلام وزاد عليه التآخي بينهما في تناسب خاتمة الأولى وفاتحة الثانية ولعل هذا الوجه من الوجاهة بمكان وأما لو فسر بما حكى عن الخليل ولأن المساجد لله فلا تدعوا الخ فالوجه أن يكون استطراداً ذكر عقيب وعيد المعرض والحمل على هذا على الأعضاء السبعة أظهر لأن فيه تذكيراً لكونه تعالى المنع بها عليهم وتنبيهاً على أن الحكمة في خلقها خدمة المعبود من حيث العدول عن لفظ الأعضاء

(28/786)

وأسمائها الخاصة إلى المساجد ودلالة على أن ذلك ينافي الإشراك وحينئذ لا يبقى اشكال في ارتباط ما بعده بما قبله على القراءتين والأوجه والله تعالى أعلم اه فتأمل .

واللبد بكسر اللام وفتح الباء كما قرأ الجمهور جمع لبدة بالكسر نحو كسرة وكسر وهي الجماعات شبهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض ويقال للجراد ومنه كما قال الجبائي قول عبد مناف بن ربع الهذلي

: صافوا بستة أبيات وأربعة . . .

حتى كأن عليهم جابياً لبدا

وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه لبدا بضم اللام جمع لبدة كزبرة وزبر وعن

ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضم اللام وقرأ الحسن والجحدري وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو بضمتين جمع لبد كرهن ورهن أو جمع لبود كصبور وصبر وقرأ الحسن والجحدري أيضاً بخلاف عنهما لبدا بضم اللام وتشديد الباء جمع لا بد وأبو رجاء بكسرها وشد الباء المفتوحة

﴿ قُلْ إِنَّمَا ادعوا ﴾ اعبد رَبِّي وَلاَ أُشرِكُ بِهِ ﴾ في العبادة.

﴿ ﴾ في العبادة.

﴿ أَحَدًا ﴾ فليس ذلك ببدع ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عداوتي وقرأ الأكثرون قل على أنه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم للمتراكمين عليه أو حكاية عن الجن له عند رجوعهم إلى قومهم فلا تغفل وقراءة الأمر وهي قراءة عاصم وحمزة وأبي عمرو بخلاف عنه اظهروا وفق لقوله سبحانه :

(29/786)

﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ أي ولا نفعا تعبيراً باسم السبب عن المسبب والمعنى لا أستطيع أن أضركم ولا أنفعكم إنما الضار والنافع هو الله عز وجل أولا أملك لكم غيا ولا رشداً على أن الضر مراد به الغي تعبير باسم السبب عن السبب ويدل عليه قراءة

أبي غيا بدل ضرا والمعنى لا أستطيع أن أقسركم على الغي والرشد إنما القادر على ذلك هو الله سبحانه وتعالى وجوز أن يكون في الآية الاحتباك والأصل لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر وقرأ الأعرج رشداً بضمتين :

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ إن أرادني سبحانه بسوء ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي معدلاً ومنحرفاً وقال الكلبي مدخلا في الأرض وقال السدى حرزاً وأصله المدخل من اللحد والمراد ملجأ يركن إليه وأنشدوا

: يا لهف نفسي ونفسي غبر مجدية . . .

عني وما من قضاء الله ملتحد

وجوز فيه الراغب كونه اسم مكان وكونه مصدراً وهذا على ما قيل بيان لعجزه عليه الصلاة والسلام عن شؤون نفسه بعد بيان عجزه صلى الله عليه وسلم عن شؤون غيره وقيل في الكلام حذف وهو قالوا اترك ما تدعوا إليه ونحن نجيرك فقيل له قل إني لن يجيرني الخ وقيل هو جواب لقول وردان سيد الجن وقد ازدحموا عليه أنا أرحلهم عنك فقال أني لن يجيرني الخ ذكره الماوردي والقولان ليسا بشيء وقوله تعالى :

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ﴾ استثناء من مفعول ﴿ لا أملك ﴾ [الجن : 21] كما يشير إليه كلام قتادة وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة فلا اعتراض بكثرة الفصل المبعدة لذلك فإن كان المعنى لا أملك أن أضركم ولا أنفعكم كان استثناء متصلاً كأنه قيل لا أملك

شيئاً إلا بلاغاً وان كان المعنى لا أملك أن أقسركم على الغي والرشد كان منقطعاً أو من باب .

لا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . .

(30/786)

كما في الكشف وظاهر كلام بعض الأجلة أنه اما استثناء متصل من ﴿ رشدا ﴾ فإن الإبلاغ ارشاد ونفع والاستثناء من المعطوف دون المعطوف عليه جائز واما استثناء منقطع من ﴿ ملتحداً ﴾ قال الرازي لأن البلاغ من الله تعالى لا يكون داخلاً تحت قوله سبحانه من دونه ملتحداً لأنه لا يكون من دون الله سبحانه بل منه جل وعلا وباعانته وتوفيقه وفي البحر قال الحسن هو استثناء منقطع أي لن يجيرني أحد لكن ان بلغت رحمتي بذلك والإجارة مستعارة للبلاغ اذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته سبحانه وقيل هو على هذا المعنى استثناء متصل والمعنى لن أجد شيئاً أميل إليه واعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيرني فيجوز نصبه على الاستثناء من ملتحداً أو على البدل وهو الوجه لأن قبله نفياً وعلى البدل خرجه الزجاج انتهى والأظهر ما تقدم وقيل أن الا مركبة من أن الشرطية ولا النافية والمعنى أن لا أبلغ بلاغاً وما قبله دليل الجواب فهو كقولك إلا قياماً فقعوداً وظاهره ان

المصدر سد مسد الشرط كمعمول كان ولهم في حذف جملة الشرط مع بقاء الاداة كلام

والظاهر أن اطراد حذفه مشروط ببقاء لا كما في قوله

: فطلقها فلست لها بكفء . . .

وإلا يعل مفرقك الحسام

(31/786)

ما لم يسد مسده شيء من معمول أو مفسر كان أحد من المشركين استجارك والناس مجزيون بأعمالهم أن خيراً فخير وهذا الوجه خلاف المتبادر كما لا يخفى وقوله تعالى : ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على بلاغا ومن الله متعلق بمحذوف وقع صفة له أي بلاغاً كائناً من الله وليس بصلة له لأنه يستعمل بعن كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " بلغوا عني ولو آية " والمعنى على ما علمت أولا في الاستثناء لا أملك لكم إلا تبليغاً كائناً منه تعالى ورسالاته التي أرسلني عز وجل بها وفي الكشف في الكلام إضمار أي بلاغ رسالاته وأصل الكلام الإبلاغ رسالات الله فعدل إلى المنزل ليدل على التبليغين مبالغة وان كلا من المعنيين أعني كونه من الله تعالى وكونه بلاغ رسالاته يقتضي التشمر لذلك انتهى .

وفي عبارة الكشاف رمز ما إليه لكن قيل عليه لا ينبغي تقدير المضاف فيه أعني بلاغ فإنه

يكون العطف حينئذ من عطف الشيء على نفسه إلا أن يوجه بأن البلاغ من الله تعالى فيما أخذه عنه سبحانه بغير واسطة والبلاغ للرسالات فيما هو بها وهو بعيد غاية البعد فافهم واستظهر أبو حيان عطفه على الاسم الجليل فقال الظاهر عطف رسالاته على الله أي إلا أن أبلغ عن الله وعن رسالاته وظاهره جعل من بمعنى عن وقد تقدم منه أنها لابتداء الغاية وقرىء قال لا أملك أي قال عبد الله للمشركين أو للجن وجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم هذا ووجه ارتباط الآية بما قبلها قيل بناء على أن التلبد للعداوة أنهم لما تلبدوا عليه صلى الله عليه وسلم متظاهرين للعداوة قيل له عليه الصلاة والسلام

(32/786)

﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ [الجن : 21] أي ما أردت الا نفعكم وقابلتموني بالإساءة وليس في استطاعتي النفع الذي أردت ولا الضر الذي أكافئكم به إنما ذان إلى الله تعالى وفيه تهديد عظيم وتوكيل إلى الله جل وعلا وأنه سبحانه هو الذي يجزيه بحسن صنيعه وسوء صنيعهم ثم فيه مبالغة من حيث أنه لا يدع التبليغ لتظاهرهم هذا فإن الذي يستطيعه عليه الصلاة والسلام هو التبليغ ولا يدع المستطاع ولهذا قال إلا بلاغاً وجعله بدلاً من ﴿ ملتحداً ﴾ شديد الطباق على هذا والشرط قريب منه وأما ان كان

الخطاب للجن والتلبد للتعجب فالوجه أنهم لما تلبدوا لذلك قيل له عليه الصلاة والسلام قل لهم ما لكم ازدحمتم على متعجبين مني ومن تطامن أصحابي على العبادة أني ليس إلى النفع والضر إنما أنا مبلغ عن الضار النافع فاقبلوا أنتم مثلنا على العبادة ولا تقبلوا على التعجب فإن العجب ممن يعرض عن المنعم المنتقم الضار النافع ولعل اعتبار قوة الارتباط يقتضي أولوية كون التلبد كان للعداوة ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه فلا يصح استدلال المعتزلة ونحوهم بالآية على تخليد العصاة في النار وجوز أن يراد بالرسول رسول الملائكة عليهم السلام دون رسول البشر فالمراد بعصيانه أن لا يبلغ المرسل إليه ما وصل إليه كما وصل وهو خلاف الظاهر ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أي في النار أو في جهنم وجمع خالدين باعتبار معنى من كما أن الافراد قبل باعتبار لفظها ولو روعي هنا أيضاً لقيل خالداً .

(33/786)

﴿ أَبَدًا ﴾ بلا نهاية وقرأ طلحة فإن بفتح الهمزة على أن التقدير كما قال ابن الأنباري وغيره فجزاءه أن له الخ وقد نص النحاة على أن أن بعد فاء الشرط يجوز فيها الفتح والكسر فقول ابن مجاهد ما قرأ به أحد وهو لحن لأنه بعد فاء الشرط ناشىء من قلة تتبعه

وضعفه في النحو وقوله تعالى :

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾

(34/786)

جملة شرطية مقرونة بحتى الابتدائية وهي وان لم تكن جارة فيها معنى الغاية فمدخولها غاية لمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار لانصاره عليه الصلاة والسلام واستقلالهم لعدده كأنه قيل لا يزالون يستضعفون ويستهزؤون حتى إذا رأوا ما يوعدون من فنون العذاب في الآخرة تبين لهم أن المستضعف من هو ويدل على ذلك أيضاً جواب الشرط وكذا ما قيل على ما قيل لأن قوله سبحانه ﴿ قل إنما أدعو ربي ﴾ [الجن : 20] تعريض بالمشركين كيفما قدر بل السورة الكريمة من مفتتحها مسوقة للتعريض بحال مشركي مكة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه عليه الصلاة والسلام وتعبير لهم بقصور نظرهم من الجن مع ادعائهم الفطانة وقلة انصافهم ومبادهتهم بالتكذيب والاستهزاء بدل مبادهة الجن بالتصديق والاستهداء ويجوز جعل ذلك غاية لقوله تعالى ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾ [الجن : 19] أن فسر بالتلبد على العداوة ولا مانع من تخلل أمور غير أجنبية بين الغاية والمغيا فقول أبي حيان أنه بعيد جداً لطول الفصل بينهما بالجمل

الكثيرة ليس بشيء كجعله إياه غاية لما تضمنته الجملة قبل يعني ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ [الجن : 23] من الحكم بكينونة النار له ومثل ذلك ما قيل من أنه غاية لمحذوف والتقدير دعهم حتى إذا رأوا الخ والظاهر أن من استفهامية كما أشرنا إليه وهي مبتدأ وأضعف خبر والجملة في موضع نصب بما قلبها وقد علق عن العمل لمكان الاستفهام وجوز كونها موصولة في موضع نصب بيعلمون وأضعف خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة لمن والتقدير فسيعرفون الذي هو أضعف وحسن حذف صدر الصلة طولها بالتمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(35/786)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً » .

عبد اللّه ، هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وفى إضافته - صلوات اللّه وسلامه عليه - إلى اللّه سبحانه وتعالى بصفة العبودية ، تكريم وتشريف له ، ورفع لمقامه الكريم عند ربه ، وأنه عبد اللّه ، الخالص العبودية للّه ، والمثل الكامل لهذه العبودية ، التي تحققت فيه وحده ، فانفرد بها فى هذا المقام ، فحيث أضيف عبد إلى اللّه من غير ذكر اسمه ، فالمقصود هو

محمد صلوات اللّه وسلامه عليه . .

وقد أضاف اللّه سبحانه وتعالى كثيرا من عباده المكرمين إليه بلفظ العبودية ، ولكنها لم تكن إضافة مطلقة ، بل كانت مقيدة بذكر اسم هذا العبد المضاف إلى اللّه ، كما يقول سبحانه : « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا » (2 : مريم) وكما يقول تبارك اسمه : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ » (41 : ص) ويقول جل شأنه : « وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ » (45 : ص) وفرق كبير فى مقام التكريم والتشريف بين إضافة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعبودية إلى ربه إضافة مطلقة ، وبين قيد هذه الإضافة بالاسم الدال على صاحبها ، وإن كانت تلك الإضافة مما يلبس صاحبها تاج الكمال وينزله أعلى منازل الرضوان . . ولكن فوق هذا المقام الكريم العظيم مقام ، ينفرد به رسول اللّه محمد وحده . .

(36/786)

وقد أضيف رسول اللّه - صلوات اللّه وسلامه عليه - عبدا لربه ، إضافة مطلقة ، على صور متعددة ، فتارة يضاف إلى ضمير الذات العلية فى مقام الغيبة ، كما فى قوله تعالى : « سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » (1 :

الإسراء) وتارة يضاف إلى ضمير الذات فى مقام الحضور ، كما فى قوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ » (41 : الأنفال) وتارة يضاف إلى اسم الذات كما فى قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ » .

(19 : الجن) ولا شك أن فى تنوع هذه الإضافات زيادة تشريف وتكريم ، فوق هذا التشريف والتكريم ، حيث يضيف الحق سبحانه وتعالى عبده ، متجليا عليه بذاته ظاهرا ، وباطنا . .

وبهذا المقام العظيم استحق الرسول الكريم ، أن يصلّى عليه ربه ، وأن تصلى عليه ملائكة ربه ، وأن يدعى كل مؤمن ومؤمنة باللّه ، للصلاة عليه :

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (56 : الأحزاب) . . فصلى اللّه عليك يا رسول اللّه وعلى آلك وصحبك ، وسلم تسليما . .

وقوله تعالى « يَدْعُوهُ » أي يدعو ربه ، وهو حال من الفاعل فى قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ » وقوله تعالى : « كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً » أي كاد المشركون أن يكونوا لبدا على النبىّ ، أي جمعا واحدا عليه ، يجتمع بعضهم إلى بعض فى مساندة وتلاحم ، كما يجتمع اللّبد ، وهو الشعر الكثيف ، حيث يكون كتلة واحدة مثل لبد الأسد المجتمع على صدره

، وحول عنقه ، ومنه قوله تعالى : « يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً » (6 : البلد) أي كثيرا مجتمعا بعضه إلى بعض . .

(37/786)

وفى هذا التصوير لاجتماع المشركين ، وتكتلهم على الوقوف فى وجه النبىّ - فى هذا ما يشير إلى أمور :

أولها : أن هذا المجتمع الذي يضم المشركين بعضهم إلى بعض فى مواجهة النبىّ - ليس له من داعية معقولة ، وإنما هو صادر عن كائنات ميتة ، لا حسّ ولا إدراك لها ، إنها تجتمع وتتفرق ، بيد من يجمعها أو يفرقها ، كما يجتمع الشعر ويتفرق فى يد من يجمعه ، أو يفرقه . . والشيطان هنا هو اليد التي تجمع هؤلاء المشركين ، أو تفرقهم حسب مشيئته فيهم . .

وثانيها : أن هذه الجموع الكثيفة المحيطة بالنبيّ من المشركين ، إنما هى على كثرتها غثاء كغثاء السيل ، وأنها لا تلبث أن تعر من وجه الحق إذا طلع عليها وضربها الضربة القاضية . . إنها كائنات من مخلفات الحياة ، ليس لها جذور تمدها بالغذاء ، وتمسك عليها الحياة . . وإنه سرعان ، ما تجف وتتطاير ، فتذهب بها الريح ، وترمى بها فى كل وجه . .

وثالثها : أن هذا اللبد المجتمع حول النبىّ ، هو أشبه باللبد المجتمع حول رقبة الأسد ، فهو

شىء عارض ، لا يؤثر فى ذاتية الأسد ، وأنه يتطاير فى كل لحظة ليخلى مكانه لغيره .

ورابعها : أن هذا اللّبد المجتمع حول النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - وإن كان فى هذا الوقت لبدا يشوكه ، ويؤذيه ، فإنه سيتحول عما قريب إلى لبد يحميه ، ويدفع عنه كل أذى . . وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة اجتمع للنبىّ من هؤلاء المشركين جند اللّه ، المدافعون عن دينه ، والمجاهدون فى سبيله ، وهم المهاجرون ، الذين كانوا مع إخوانهم الأنصار الكتيبة الأولى حملت راية الإسلام . وركزتها في أعزّ ، وأمكن مكان ، ودافعت عنها بالأرواح والأموال ، وفدّتها بالأبناء والآباء . .

(38/786)

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً » . .

هو توجيه من اللّه سبحانه للنبىّ الكريم ، بما يلقى به قومه الذين كادوا يكونون عليه لبدا . . فهو إذ يراهم وقد صاروا عصبا عليه ، قد اجتمعوا على عداوته والكيد له - إذ يراهم على تلك الحال ، يقول لهم : « إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً » .

. فهذه هى دعوتى . . فماذا تنكرون منها ؟

وماذا تنكرون من الذين يعبدون ما أعبد ؟ إنها دعوة لا إكراه فيها ، فمن قبلها ، فذلك من

شأنه هو ، ومن أعرض عنها ، واتخذ سبيلا غيرها ، فذلك من شأنه أيضا . . فلم إذن تصدّون الناس عن سبيل اللّه ؟ ولم لا تتركون الناس وما اختاروا ، كما تركتم أنتم وما اخترتم ؟

قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدا » .

هو من قول النبي المشركين ، فهو إذ يعبد ربّه ، ويوجه إليه وجهه ، وحده ، لا شريك له ، فإنه لا يملك المشركين ضرّا ، ولا رشدا . . وإنما ذلك إلى اللّه وحده . « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ » (125 : الأنعام) .

وفى مقابلة الضرّ بالرشد ، إشارة إلى أن الضر لا يكون إلا عن متابعة الهوى ، واتباع أهل الضلال ، كما أن الخير ، لا يكون إلا من ثمرات الهدى ، والاستقامة والتقوى . . وهكذا تقع المقابلة بين الضرّ والرشد ، وقوعا يشمل الظاهر والباطل جميعا . .

(39/786)

فالضرّ ، ظاهر ، يخفى وراءه الهوى ، والضلال ، والشرك . . والرشد باطن ، يفوح منه طيب الخير ، وتهمى من سمائه غيوث الرحمة والإحسان . .

أو بعبارة أوضح نقول : إن الضرّ فرع غاب أصله ، والرشد أصل غاب فرعه . . فالضرّ ثمر كريه مرّ حاضر ، لا تكاد تقع العين عليه حتى تعرف الشجرة التي أثمرته . .

والرّشد ، شجرة طيبة مباركة . . يكفى أن تقع العين عليها فتعرف الثمر الطيب الكريم ، الذي تجود به . . أو نقول : إن المقابلة هنا بين المسبب ، وهو الضرّ ، وبين السبب لما يقابله وهو الرشد الذي مسبّبه الخير . .

وهكذا فى كلمتين ، يتجلى وجه من وجوه إعجاز القرآن . . ففى المقابلة بين هاتين الكلمتين : الضرّ ، والرشد ، تتحرك المعاني المولدة منهما ، ويقابل بعضها بعضا ، فتتآلف منها صورة معجزة ، الكلمة القرآنية ، التي لا ينفد لها عطاء .

فعلى وجه الضرّ تلوح معالم الشرك ، والكفر ، والضلال ، وتتراقص شياطين الغواية ، والإثم . .

وعلى وجه الرّشد ، تتألق عرائس الخير ، وتتهادى حور الجنان وولدانها .

وهنا سؤال ، وهو : لما ذا آثر النظم القرآنى ، المقابلة بين الضرّ والرشد ، على المقابلة بين الكفر ، والخير ، أي المقابلة بين مسبب وسبب ، دون المقابلة بين مسبّب ومسبب ، أو بين سبب وسبب ؟

ونقول - والله أعلم - إنه فى جانب الضرّ أغفل السبب الوارد منه هذا الضرّ ، وهو الكفر والشرك ، وأقيم المسبّب - وهو الضرّ - مقامه ، ليرى الشرك والكفر فى ثمرتهما المرّة النكدة التي أثمراها . .

(40/786)

وأما فى جانب الرّشد ، فقد أغفل المسبب عنه ، وهو الخير ، والنعمة والسلامة والعافية ، وما أشبه هذا مما يسعد به الإنسان فى الدنيا والآخرة ، وأقام السبب مقامه ، وذلك للتنويه بالرّشد فى ذاته ، وأنه وحده خير ، وخير كثير ، وأنه يجب أن يكون مطلوبا لذاته ، غير منظور إلى الخير الذي يجىء منه . . إنه فى ذاته خير ، فلا حاجة إلى النظر فيما وراءه .

والنبىّ - وهو رسول الله ، والحامل لرسالته ، والداعي إليها - هو فى قبضة الله ، وتحت سلطان مشيئته . . وأنه لو أراد الله ضرّه ، فليس هناك من يدفع عنه هذا الضرّ ، وليس له من ملتحد ، أي ملجأ يلجأ إليه ، فرارا من هذا الضرّ الذي هو رهن بمشيئة الله . .

إنه لا محاباة عند الله ، حتى ولو لرسول الله - وإنما الناس عند الله بأعمالهم ، وما هم عليه من إيمان وكفر ، ومن تقوى وفجور . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

أَتْقاكُمْ » (13 : الحجرات) أي أشدكم خوفا من اللّه ، ومراقبة له ، واتقاء لحرماته . .

ولما كان رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، هو أتقى الأتقياء ، كانت منزلته عند اللّه أعلى المنازل وأكرمها ، فهو مطمئن إلى ماله عند اللّه من مقام كريم ، وأجر عظيم . .

قوله تعالى : «إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً » هو مستثنى من قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً » فهو بمعنى لا أملك لكم من اللّه شيئا ، إلا هذا البلاغ الذي أبلغكم به من اللّه ، وإلا هذه الرسالات التي أحملها إليكم فى آيات اللّه . . فهذا هو

(41/786)

الذي أملكه من اللّه لكم ، بعد أن ملّكنى إياه . . وها هو ذا أعرضه عليكم ، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . . أما ما وراء هذا ، فلا أملك لكم من اللّه شيئا منه ، فلا أملك هداية لمن أضله اللّه ، أو إضلالا لمن هداه اللّه . .

وفى جمع « الرسالات » مع أن رسالة الرسول واحدة ، لا جمعا . فى هذا إشارة إلى أن كل آية من آيات اللّه ، هى رسالة من رسالات اللّه ، إلى عباد اللّه ، يرون فى أنوارها ، مواقع الهدى والرشاد ، وإنه بحسب الإنسان العاقل أن يتلو آية من آيات اللّه ، أو يستمع إليها ،

فيجد طريقه إلى الإيمان والهدى . . ولقد استمع الجن إلى آيات من القرآن الكريم فكان فيها هداهم ورشدهم . .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً » .

هو تعقيب على قوله تعالى : إلا بلاغا من اللّه ورسالاته ، فهذا البلاغ من اللّه ، وتلك الرسالات المنزلة فى آياته - هو مما بلغه الرسول إياهم ، ودعاهم إلى تصديقه ، والإيمان به ، وأن من يعص اللّه ، فلم يؤمن بآياته ، ويعص الرسول ، فلم يستجب له - فإن له نار جهنم خالدا فيها أبدا . . فذلك هو جزاء من يعصى اللّه ورسوله . .

وفى عود الضمير مفردا على اسم الشرط « من » فى قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » ثم عوده عليه جمعا فى قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً » - فى هذا إشارة إلى أن العصيان لأمر اللّه ورسوله ، هو عن استجابة لهوى الإنسان وحده ، وأنه هو المسئول عن ركوبه هذا الطريق المهلك . .

(42/786)

أما المصير الذي يصير إليه هذا الإنسان ، فهو مصير عام يلتقى عنده أهل الضلال جميعا ، وهو النار . .

قوله تعالى : « حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً » هو تهديد المشركين ، وأنهم إذا كانوا فى يومهم هذا ، يعتزون بقوتهم ، وكثرة عددهم ، ويتسلطون على تلك القلة المستضعفة المؤمنة ، ببغيهم وعدوانهم ، ويجتمعون لبدا عليهم. فإنه سيأتى اليوم الذي يوعدون فيه بهذا العذاب ، حيث يرون أنه قد تخلّى عنهم كل ما كان موضع قوة وعزة لهم ، وأنهم قد صاروا حطبا لنار جهنم .

ويجوز أن يكون مما يوعدون به ، هو ما تهددهم اللّه به من الهزيمة والخذلان فى الدنيا ، فى قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » (45 : القمر) وفى قوله تعالى : لنبيه الكريم : « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ » (46 : يونس) . . وغير ذلك من الآيات التي أشارت إلى نهاية هذا الصراع القائم بين المشركين ، والمؤمنين . . وأن النصر ، والغلب والعزة ستكون للّه ، ولرسوله ، وللمؤمنين . .

ولقد رأى المشركون مصداق قوله تعالى : « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً » . لقد رأوا ذلك رأى العين ، يوم الفتح ، حيث دخل النبي مكة على المشركين فى عشرة آلاف من أصحابه ، فانقبع المشركون ، وزلزلت الأرض بهم ، ثم جاءوا إلى النبي مقيدين بقيد المهانة والذلة ، حتى أطلقهم الرسول الكريم بقولته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ! .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1234 . 1241 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) ﴾

قرأ نافع وحده وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة .

وقرأه بقية العشرة في رواياتهم المشهورة بالفتح .

ومآل القراءتين سواء في كون هذا خارجاً عما صدر عن الجن وفي كونه مما أوحى الله به .

فكَسْر الهمزة على عطف الجملة على جملة ﴿ أُوحي إليَّ ﴾ [الجن : 1] ، والتقدير : وقل إِنه لما قام عبد الله يدعوه لأن همزة (إِنَّ) إذا وقعت في محكي بالقول تكسر ، ولا يليق أن يجعل من حكاية مقالة الجن لأن ذلك قد انقضى وتباعد ونُقَل الكلام إلى أغراض أخرى ابتداء من قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : 18] .

وأما الفتح فعلى اعتباره معطوفاً على جملة ﴿ أنه استمع نفر ﴾ [الجن : 1] ، أيْ وأوحي إلي أنه لما قام عبد الله ، أي أوحى الله إليَّ اقتراب المشركين من أن يكونوا لُبَداً على عبد الله لما قام يدعو ربَّه .

وضمير ﴿ إنه ﴾ ضمير الشأن وجملة ﴿ لما قام عبد الله ﴾ إلى آخرها خبره .

وضمير ﴿ كادوا يكونون ﴾ عائدان إلى المشركين المنبىء عنهم المقام غيبة وخطاباً ابتداء من قوله : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ [الجن : 16] إلى قوله : ﴿ فلا

تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجن : 18] .

و﴿ عبد الله ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم وضع الاسم الظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال : وأنه لما قمتَ تدعو الله كادوا يكونون عليك ، أو لما قمتُ أدعو الله ، كادوا يكونون عليَّ .

ولكن عدل إلى الاسم الظاهر لقصد تكريم النبي صلى الله عليه وسلم بوصف ﴿ عبد الله ﴾ لما في هذه الإِضافة من التشريف مع وصف ﴿ عبدِ ﴾ كما تقدم غير مرة منها عند قوله : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] .

﴿ ولِبَداً ﴾ بكسر اللام وفتح الموحدة اسم جمع : لِبْدة ، وهي ما تلبد بعضه على بعض ، ومنه لِبْدَة الأسد للشعر المتراكم في رقبته .

(44/786)

والكلام على التشبيه ، أي كاد المشركون يكونون مثل اللَبد متراصين مقتربين منه يستمعون قراءته ودعوته إلى توحيد الله .

وهو التفاف غيظ وغضب وهممٍ بالأذى كما يقال : تألَّبوا عليه .

ومعنى ﴿ قام ﴾ : اجتهد في الدعوة إلى الله ، كقوله تعالى : ﴿ إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ

السماوات والأرض ﴾ في سورة الكهف (14) ، وقال النابغة:

بأن حِصنا وحيّاً من بني أسد . . .

قَاموا فقالوا حمانا غير مقروب

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في أول سورة البقرة (3) .

ومعنى قيام النبي إعلانه بالدعوة وظهور دعوته قال جَزْءُ بنُ كليب الفقعسي:

فلا تبغينها يا بنَ كُوز فإنه . . .

غذَا الناسُ مُذ قام النبي الجواريا

أي قام يعبدُ الله وحده ، كما دل عليه بيانه بقوله بعده : قال إنما أدعو ربّي ولا أشرك به أحداً ﴾ ، فهم لما لم يعتادوا دعاء غير الأصنام تجمعوا لهذا الحدث العظيم عليهم وهو دعاء محمد صلى الله عليه وسلم لله تعالى .

وجملة ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ﴾ بيان لجملة ﴿ يدعوه ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ قال ﴾ بصيغة الماضي .

وقرأه حمزة وعاصم وأبو جعفر ﴿ قل ﴾ بدون ألف على صيغة الأمر ، فتكون الجملة استئنافاً .

والتقدير : أوحي إلي أنه لما قام عبد الله إلى آخره قل إنما أدعو ربي ، فهو من تمام ما أوحي به إليه .

و﴿ إنما أدعو ربي ﴾ ، يفيد قصراً ، أي لا أدعو غيره ، أي لا أعبد غيره دونه .

وعطف عليه ﴿ ولا أشرك به أحداً ﴾ تأكيداً لمفهوم القصر ، وأصله أن لا يعطف فعطفه لمجرد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ .

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21)

هذا استئناف ابتدائي .

(45/786)

وهو انتقال من ذكر ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى توجيه خطاب مستأنف إليه ، فبعد أن حكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مما خفي عليه من الشؤون المتعلقة به من اتِّباع متابعين وإعراض معرضين ، انتقل إلى تلقينه ما يُرد على الذين أظهروا له العناد والتورك .

ويجوز أن يكون ﴿ قل إني لا أملك ﴾ الخ ، تكريراً لجملة ﴿ قل إنما أدعو ربي ﴾ [الجن : 20] على قراءة حمزة وعاصم وأبي جعفر .

والضر : إشارة إلى ما يتوركون به من طلب إنجاز ما يتوعدهم به من النصر عليهم .

وقوله : ﴿ ولا رشداً ﴾ تتميم .

وفي الكلام احتباك لأن الضر يقابله النفع ، والرشد يقابله الضلال ، فالتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا ضلالاً ولا رشداً .

والرَّشَد بفتحتين : مصدر رشد ، والرُّشْد ، بضم فسكون : الاسم ، وهو معرفة الصواب ، وقد تقدم قريباً في قوله : ﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ [الجن : 2] .

وتركيب ﴿ لا أملك لكم ﴾ معناه لا أقدر قدرة لأجلكم على ضرّ ولا نفع ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ في سورة الممتحنة (4) وتقدم أيضاً في سورة الأعراف .

وجملتا قل إني لن يجيرني ﴾ إلى ﴿ ملتحداً ﴾ معترضتان بين المستثنى منه والمستثنى ، وهو اعتراضُ ردَ لما يحاولونه منه أن يترك ما يؤذيهم فلا يذكر القرآنُ إبطال معتقدهم وتحقير أصنامهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلاّ ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : 15] .

والملتحد : اسم مكان الالتحاد ، والالتحاد : المبالغة في اللحد ، وهو العدول إلى مكان غير الذي هو فيه ، والأكثر أن يطلق ذلك على اللجأ ، أي العياذ بمكان يعصمه .

والمعنى : لَن أجد مكاناً يعصمني .

و ﴿ من دونه ﴾ حال من ﴿ ملتحداً ﴾ ، أي ملتحداً كائناً من دون الله أي بعيداً عن الله غير داخل من ملكوته ، فإن الملتحد مكان فلما وصف بأنه من دون الله كان المعنى أنه مكان من غير الأمكنة التي في ملك الله ، وذلك متعذر ، ولهذا جاء لنفي وجدانه حرف ﴿ لن ﴾ الدال على تأبيد النفي .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن دونه ﴾ مزيدة جارة للظرف وهو (دون) .

وقوله : ﴿ إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ استثناء منقطع من ﴿ ضرّاً ﴾ و ﴿ رشداً ﴾ ، وليس متصلاً لأن الضر والرشد المنفيين في قوله : ﴿ لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ هما الضر والرشد الواقعان في النفس بالإلجاء .

ويجوز أن يكون مع ذلك استثناء من ﴿ ملتحداً ﴾ ، أي بتأويل ﴿ ملتحداً ﴾ بمعنى مخلص أو مأمن .

وهذا الاستثناء من أسلوب تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

والبلاغ : اسم مصدر بلغ ، أي أوصل الحديث أو الكلام ، ويطلق على الكلام المبلغ من إطلاق المصدر على المفعول مثل ﴿ هذا خلق الله ﴾ [لقمان : 11] .

و ﴿ مِن ﴾ ابتدائية صفة (بلاغ) ، أي بلاغاً كائناً من جانب الله ، أي إلاّ كلاماً أبلغه من القرآن الموحى من الله .

و﴿ رسالاته ﴾ : جمع رسالة ، وهي ما يرسل من كلام أو كتاب فالرسالات بلاغ خاص بألفاظ مخصوصة ، فالمراد منها هنا تبليغ القرآن .

لما كان قوله : ﴿ قال إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ﴾ [الجن : 20] إلى هنا كلاماً متضمناً أنهم أشركوا وعاندوا الرسول صلى الله عليه وسلم حينَ دعاهم إلى التوحيد واقترحوا عليه ما توهموه تعجيزاً له من ضروب الاقتراح ، أعقب ذلك بتهديدهم ووعيدهم بأنهم إن داموا على عصيان الله ورسوله سيلقون نار جهنم لأن كل من يعصي الله ورسوله كانت له نار جهنم .

و﴿ مَن ﴾ شرطية وجواب الشرط قوله : ﴿ فإن له نار جهنم .

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24)

(47/786)

كانوا إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في الدنيا والآخرة ، وآيات الوعيد للمشركين بالانهزام وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ [سبأ : 35] ، ويقولون : ﴿ متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ [السجدة : 28] ، ويقولون : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾

[يونس : 48] ، وقالوا : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ [ص : 16] ، فهم مغرورون بالاستدراج والإِمهال فلذلك عقب وعيدهم بالغاية المفادة من ﴿ حَتى ﴾ ، فالغاية هنا متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام من سخرية الكفار من الوعيد واستضعافهم المسلمين في العَدد والعُدد فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون فائزون حتى إذا رأوا ما يوعدون تحققوا إخفاق آمالهم .

و﴿ حتى ﴾ هنا ابتدائية وكلما دخلت ﴿ حتى ﴾ في جملة مفتتحة بـ ﴿ إذا ﴾ ف ﴿ حتى ﴾ للابتداء وما بعدها جملة ابتدائية .

وذهب الأخفش وابن مالك إلى أن ﴿ حتى ﴾ في مثله جارة وأن ﴿ إذا ﴾ في محل جرّ وليس ببعيد .

واعلم أن ﴿ حتى ﴾ لا يفارقها معنى الغاية كيفما كان عمل ﴿ حتى ﴾ .

و﴿ إذَا ﴾ اسم زمان للمستقبل مضمن معنى الشرط وهو في محل نصب بالفعل الذي في جوابه وهو ﴿ فسيعلمون ﴾ .

وعلى رأي الأخفش وابن مالك ﴿ إذا ﴾ محل جر بـ ﴿ حتى ﴾ .

واقتران جملة ﴿ سيعلمون ﴾ بالفاء دليل على أن ﴿ إذا ﴾ ضُمّن معنى الشرط ، واقتران الجواب بسين الاستقبال يصرف الفعل الماضي بعد ﴿ إذا ﴾ إلى زمن الاستقبال .

وجيء بالجملة المضاف إليها ﴿ إذا ﴾ فعلاً ماضياً للتنبيه على تحقيق وقوعه .

وفعل ﴿ سيعلمون ﴾ معلق عن العمل بوقوع الاستفهام بعده وهو استعمال كثير في التعليق لأن الاستفهام بما فيه من الإبهام يكون كناية عن الغرابة بحيث يسأل الناس عن تعيين الشيء بعد البحث عنه .

(48/786)

وضعفُ الناصر وهَن لهم من جهة وهَن أنصارهم ، وقلة العدد وهَنٌ لهم من جانب أنفسهم ، وهذا وعيد لهم بخيبة غرورهم بالأمن من غلب المسلمين في الدنيا فإنهم كانوا يقولون : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ [القمر : 44] .

وقالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ [سبأ : 35] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(49/786)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أنهم إذا سمعوا هذا الوعيد قالوا استهزاء وعمى عن طريق الصواب واستعلاء : متى يكون عجل به ، استأنف قوله جواباً لهم جواب من لا يستخفه عجلة ولا ضجر لأنه لا يخاف الفوت ولا يلحقه ضرر ببقاء العدو واجتهادهم في أذى أوليائه مبيناً ما يجوز على الرسل من أنه يخفى عليهم ما على البشر ويطلعهم الله تعالى ما يخفي على غيرهم : ﴿ قل ﴾ أي في جوابهم إن كذبوا بإتيانهم العذاب وسألوا استهزاء منه عن وقت وقوعه أما كونه فلا بد منه لأنه قد برز الوعيد به ممن لا يخلف الميعاد ، وأما تعيين وقته فقد أخفاه سبحانه لأنه أقعد في التهديد وهو معنى قوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أدري ﴾ بوجه من الوجوه وإن عالجت ذلك وتسببت فيه ، وزاد في تقرير خفائه وأنه لا يزال في حيز ما يسأل عنه بصيغة الاستفهام فقال مقدماً ما يخفيهم : ﴿ أقريب ما توعدون ﴾ أي يكون الآن أو قريباً من هذا الأوان بحيث يتوقع عن قرب ﴿ أم ﴾ بعيد ﴿ يجعل له ﴾ أي لهذا الوعي .

ولما كان التأخير ربما أفهم تهاوناً بالولي .

فقال دافعاً لذلك : ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ إن قدمه أو أخره ﴿ أمداً ﴾ أي أجلاً مضروباً عظيماً بكل اعتبار حتى في البعد لا يتأتى مع ذلك أن يكون الآن ولا أن يتوقع دون ذلك الأمد ، فهو في كل حال متوقع فكونوا على غاية الحذر لأنه لا بد من وقوعه فوقوعه لا كلام فيه ، وإنما الكلام في تعيين وقته .

(50/786)

ولما نفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علمه عن نفسه الشريفة ، نفى ذلك عن غيره على وجه عام لجميع الغيب جالٍ من عظمة مرسله ما تنقطع دونه الأعناق فقال واصفاً له : ﴿ عالم الغيب ﴾ أي كله وهو ما لم يبرز إلى عالم الشهادة فهو مختص سبحانه بعلمه ، فلذلك سبب عنه قوله : ﴿ فلا يظهر ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت من الأوقات ﴿ على غيبه ﴾ أي الذي غيبه عن غيره فهو مختص به ﴿ أحداً ﴾ لعزة علم الغيب ولأنه خاصة الملك .

(51/786)

ولما كان لا يعلم الغيب إلا يبروزه على عالم الشهادة ، وكان لأول من يطلع عليه شرف ينبغي أن يعرف له قال : ﴿ إلا من ارتضى ﴾ أي عمل الله تعالى في كونه رضي عمل من يتعمد ذلك ويجتهد فيه ، وبين " من " بقوله : ﴿ من رسول ﴾ أي من الملائكة ومن الناس فإنه يظهر عليه ذلك المرتضى الموصوف لا كل مرتضى بأن يظهره على ما شاء منه لأن الغيب جنس لا تحقق له إلا في ضمن أفراده ، فإذا ظهر فرد منه فقد ظهر فيه الجنس لظهور حصة منه ، وتارة يكون ذلك الرسول ملكاً ، وتارة يكون بشراً يكلمه الله بغير واسطة كموسى عليه الصلاة والسلام في أيام المناجاة ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج في العالم الأعلى في حضرة قاب قوسين أو أدنى ، وإذا ظهر عليه الرسول خرج عن كونه غيباً ، وأوصله الرسول إلى من أذن له في إيصاله له تارة بالوحي للأنبياء وتارة بالنفث والإلهام للأولياء ، وذلك عند تهييء نفوسهم بسكون قواها عن منازعة العقل بالشهوات والحظوظ كما يكون للنفوس عامة حين سكون القوى عن المنازعة بالنوم فتكون متهيئة للنفث فيها فمن أعرض عن جانب الحس وأقبل على جناب القدس فقده هيأ نفسه لنفث الملك في ورعه بعلم ما لم يكن يعلم وليس أحد من الناس إلا وقد علم من نفسه أنه إذا أقبل على شيء بكليته حدث له فيه أمور حدسية إلهامية بغتة من غير سابقة فكر وطلب ، وعلى قدر التهيئة يكون النفث من قبل الله سبحانه وتعالى ، وربما كان النفث شيطانياً بما تلقته الشياطين من الاستراقات من الملائكة إما من الأرض بعد نزولهم أو من السماء بالاستراق فيها – والله

أعلم ، ويجوز أن يكون للأولياء مشافهة من الملك كما كان لمريم عليها السلام من الملائكة ، وقال جبريل عليه الصلاة والسلام عن بعضهم إنه لو سلم رد عليه .

(52/786)

ولما دل هذا السياق على عزة علم الغيب وكانت عزته سبباً لحراسة من يطلع عليه ليؤديه إلى من أمر به كما أمر به ، أعلم سبحانه وتعالى بذلك بقوله مؤكداً تمييزاً له من علم الكهان الذي أصله من الجان دالاًّ على إجلال الرسل وإعظامهم وتبجيلهم وإكرامهم : ﴿ فإنه ﴾ أي الله سبحانه وتعالى يظهر ذلك الرسول على ما يريد من الغيب .

وذلك أنه إذا أراد إظهاره عليه ﴿ يسلك ﴾ أي يدخل إدخال السلك في الجوهرة في تقومه ونفوذه من غير أدنى تعريج إلى غير المراد .

ولما كان الغرض يحصل بمن يقيمه سبحانه من جنوده للحراسة ولو أنه واحد من كل جهة بل وبغير ذلك ، وإنما جعل هذا الإخراج للأمر على ما يتعارفه العباد ، عبر بالجارّ دليلاً على عدم استغراق الرصد للجهات إلى منقطع الأرض مثلاً فقال : ﴿ من بين يديه ﴾ إلى الجهة التي يعلمها ذلك الرسول ﴿ ومن خلفه ﴾ أي الجهة التي تغيب عن علمه ، فصار ذلك كناية عن كل جهة ، ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل وخصهما لأن العدو متى

أعريت واحدة منهما أتى منها ، ومتى حفظت لم يأت من غيرها ، لأنه يصير بين الأولين والآخرين ﴿ رصداً ﴾ أي حرساً من جنوده يحرسونه ويحفظونه بحفظ ما معه من الغيب من اختطاف الشياطين أو غيرهم لئلا يسترقوا شيئاً من خبره – قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وقال مقاتل وغيره ـ رضى الله عنهما ـ : يخبرونه بمن أنكره بأن يحذروه منه إن كان شيطاناً أو يأمروه بالسماع منه إن كان ملكاً ، وذلك أن إبليس كان يأتي الأنبياء في صورة جبريل عليه السلام ولكن الله عصمهم منه .

(53/786)

ولما كان هذا الدأب من الحفظ في كل رسول بين الغاية جامعاً تعييناً لما اقتضاه الجنس ، وبياناً لأن الأفراد أولاً مراد به الجمع ، وأنه ما عبر به إلا لتشمل الحراسة كل فرد منهم فقال : ﴿ ليعلم ﴾ أي الله علماً كائناً واقعاً على هذه الصفة التي تعلق بها علمه في الأزل قبل وجودها بما لا يعلمه إلا هو سبحانه أنها ستكون ﴿ أن ﴾ أي إن الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ قد أبلغوا ﴾ أي إلى من أرسلوا إليه ﴿ رسالات ربهم ﴾ أي الذي أوجدهم ودبر جميع أمورهم واختارهم لرسالاته على ما هي عليه لم يشبها شائبة ولا لحقها غبر .

(54/786)

ولما كان هذا ربما أوهم أنه محتاج في الحفظ إلى الرصد أزال ذلك بقوله : ﴿ وأحاط ﴾ أي فعل ذلك والحال أنه قد أحاط ﴿ بما لديهم ﴾ أي الرسل والمرسل إليهم من الملائكة والبشر على أدق الوجوه وأعظمها وأغربها بما أشار إليه التعبير بلدى ، ولما كان هذا كافياً في المقصود ، لكنه قاصر على محل الحاجة عم تعريفاً بالأمر على ما هو عليه ، فقال حاملاً على شدة الوثوق بما تقوله الرسل عن ربهم وأنه لا لبس فيه ولا غائلة بوجه ، مبيناً غاية البيان كذب حديث الغرانيق الذي ذكره بعض المفسرين وغيرهم في سورة والنجم :

﴿ وأحصى ﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿ كل شيء ﴾ أي على العموم من غير استثناء أصلاً ﴿ عدداً ﴾ أي من جهة العدد لكل ما يمكن عده ولو على أقل مقادير الذر فيما لم يزل وفيما لا يزال ، فهو دليل قاطع على علمه تعالى بالجزئيات كعلمه بالكليات ، وقد التقى أول السورة وآخرها وباطنها الغيبي وظاهرها ، فدل آخرها على الأول المجمل ، وأولها على الآخر المفصل ، وذلك أن أول السورة بين عظمة الوحي بسبب الجن ، ثم بين في أثنائها حفظه من مسترقي السمع ، وختم بتأكيد حفظه وحفظ جميع كلماته واستمر في تأكيد أمره حتى بانت عظمة هذا القرآن ، وظهرت عزة هذا الفرقان ، على كل كتاب ، بكل اعتبار وحساب ، فافتتح المزمل بمثل ذلك وختمها بالأمر بقراءة ما تيسر منه ، وذكر في المدثر طعن الطاعن فيه وما ناله بسبب ذلك الطعن من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة

مع ضمان الحفظ منه ، ثم نهى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سورة القيامة عن العجلة في أمره لئلا يختل حفظه ، أو يزيغ أدنى زيغ لفظه ، وتشريعاً لأمته في ترك الاستعجال ، فإنه ليس من دأب الرجال ، ثم أكد أمر تنزيله في الإنسان ، وبين أن علة الإعراض عنه حب العاجلة التي هي عين النقصان ، وختم المرسلات بنهاية ما تخيل الأوهام والظنون ، فقال

(55/786)

﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ [الأعراف : 185] فسبحان من نظمه هذا النظام ، وجعله أقصى المراد وغاية المرام ، وصلى الله على من لا نبي بعده على الدوام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 198 . 201 ﴾

(56/786)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) ﴾

قال مقاتل : لما سمعوا قوله : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ [الجن : 24] قال النضر بن الحرث : متى يكون هذا الذي توعدنا به ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ إلى آخره والمعنى أن وقوعه متيقن ، أما وقت وقوعه فغير معلوم ، وقوله : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ أي غاية وبعداً وهذا كقوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 109] فإن قيل : أليس أنه قال : " بعثت أنا والساعة كهاتين " فكان عالماً بقرب وقوع القيامة ، فكيف قال : ههنا لا أدري أقريب أم بعيد ؟ قلنا : المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ، وأما معنى معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم .

ثم قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ لفظة (من) في قوله : ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ تبيين لمن ارتضى يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي يكون رسولاً ، قال صاحب "الكشاف" ، وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف الكرامات إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وفيها أيضاً إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط ، قال الواحدي : وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بما في القرآن .

واعلم أن الواحدي يجوز الكرامات وأن يلهم الله أولياءه وقوع بعض الوقائع في المستقبل ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله صاحب "الكشاف" ، وإن زعم أنها لا تدل على المنع من الإلهامات الحاصلة للأولياء فينبغي أن لا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية ، فأما التحكم بدلالتها على المنع من الأحكام النجومية وعدم دلالتها على الإلهامات الحاصلة للأولياء فمجرد التشهي ، وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه والذي تدل عليه أن قوله : ﴿ على غَيْبِهِ ﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ، والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله : ﴿ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ [الجن : 25] يعني لا أدري وقت وقوع القيامة ، ثم قال بعده : ﴿ عالم الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ أي وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد ، وبالجملة فقوله : ﴿ على غَيْبِهِ ﴾

لفظ مفرد مضاف ، فيكفي في العمل به حمله على غيب واحد ، فأما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه ، فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة فكيف قال : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟ قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة ، وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر

(58/786)

على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحداً ، ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته .

واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية أن لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل ، والذي يدل عليه وجوه أحدها : أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل زمان

ظهوره ، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم ، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب وثانيها : أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم التعبير ، وأن المعبر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية في المستقبل ، ويكون صادقاً فيه وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان ، وسألها عن الأحوال الآتية في المستقبل فذكرت أشياء ، ثم إنها وقعت على وفق كلامها .

قال مصنف الكتاب ختم الله له بالحسنى : وأنا قد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة ، حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخباراً على سبيل التفصيل ، وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات في كتاب المعتبر في شرح حالها ، وقال : لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً .

(59/786)

ورابعها : أنا نشاهد (ذلك) في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وليس هذا مختصاً بالأولياء بل قد يوجد في السحرة أيضاً من يكون كذلك نرى الإنسان الذي يكون سهم

الغيب على درجة طالعه يكون كذلك في كثير من أخباره وإن كان قد يكذب أيضاً في أكثر تلك الأخبار ، ونرى الأحكام النجومية قد تكون مطابقة وموافقة للأمور ، وإن كانوا قد يكذبون في كثير منها ، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً ، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن ، وذلك باطل فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ فالمعنى أنه يسلك من بين يدي من ارتضى للرسالة ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ أي حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم ، حتى يبلغ ما أوحى به إليه ، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ولا يضرونه وعن الضحاك "ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين (الذين) يتشبهون بصورة الملك" .

قوله تعالى : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

وحَّد الرسول في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الجن : 27] ثم جمع في قوله : ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ ونظيره ما تقدم من قوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين ﴾ [الجن : 23] .

المسألة الثانية :

احتج من قال بحدوث علم الله تعالى بهذه الآية لأن معنى الآية ليعلم الله أن قد أبلغوا الرسالة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين ﴾ [محمد : 31] والجواب من وجهين الأول : قال قتادة ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وعلى هذا ، اللام في قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل : أخبرناه بحفظ الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ الحق ، ويجوز أن يكون المعنى ليعلم الرسول أن قد أبلغوا أي جبريل والملائكة الذين يبعثون إلى الرسل رسالات ربهم ، فلا يشك فيها ويعلم أنها حق من الله الثاني : وهو اختيار أكثر المحققين أن المعنى ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم ، والعلم ههنا مثله في قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ ﴾ [آل عمران : 142] والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم فيعلم ذلك منهم .

المسألة الثالثة :

قرىء ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ على البناء للمفعول .

أما قوله : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ فهو يدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، وأما قوله : ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ فهو يدل على كونه عالماً بجميع الموجودات ، فإن قيل : إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي ، وقوله : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يدل على كونه غير متناه ، فلزم وقوع التناقض في الآية ، قلنا : لا شك أن إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي ، فأما لفظة ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فإنها لا تدل على كونه غير متناه ، لأن الشيء عندنا هو الموجودات ، والموجودات متناهية في العدد ، وهذه الآية أحد ما يحتج به على أن المعدوم ليس بشيء ، وذلك لأن المعدوم لو كان شيئاً ، لكانت الأشياء غير متناهية ، وقوله : ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ يقتضي كون تلك المحصيات متناهية ، فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية وذلك محال ، فوجب القطع بأن المعدوم ليس بشيء حتى يندفع هذا التناقض . والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 148.150 ﴾

(62/786)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) ﴾

الضمير في قوله ﴿ استقاموا ﴾ قال أبو مجلز والفراء والربيع بن أنس وزيد ابن أسلم والضحاك بخلاف عنه : الضمير عائد على قوله ﴿ من أسلم ﴾ [الجن : 14] ، و ﴿ الطريقة ﴾ طريقة الكفر ، لو كفر من أسلم من الناس ﴿ لأسقيناهم ﴾ إملاء لهم واستدراجاً . وقال قتادة وابن جبير وابن عباس ومجاهد الضمير عائد على " القاسطين " . والمعنى على طريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم ، وهذا المعنى نحو قوله : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ﴾ [المائدة : 65] ، وقوله ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [المائدة : 66] . وهذا قول أبين لأن استعارة الاستقامة للكفر قلقة . وقرأ الأعمش وابن وثاب " وأن لوُ " بضم الواو . وقال أبو الفتح هذا تشبيه بواو الجماعة اشتروا الضلالة ، والماء الغدق : هو الماء الكثير . وقرأ جمهور الناس " غدَقاً " بفتح الدال ، وقرأ عاصم في رواية الأعشى عنه بكسرها . وقوله تعالى : ﴿ لنفتنهم ﴾ إن كان المسلمون فمعناه لنختبرهم ، وإن كان القاسطون فمعناه لنمتحنهم ونستدرجهم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حيث يكون الماء فثم المال ، وحيث يكون المال فثم الفتنة ، ونزع بهذه الآية ، وقال الحسن وابن المسيب وجماعة من التابعين : كانت الصحابة سامعين مطيعين ، فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر وثب بعثمان فقتل وثارت الفتن . و ﴿

يسلكه ﴾ معناه يدخله ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء أي " يسلكه " الله ، وقرأ بعض التابعين " يُسلكه " بضم الياء من أسلك وهما بمعنى ، وقرأ باقي السبعة " نسلكه " بنون العظمة ، وقرأ ابن جبير " نُسلِكه " بنون مضمومة ولام مكسورة . و ﴿ صعداً ﴾ معناه شاقاً ، تقول فلان في صعد من أمره أي في مشقة ، وهذا أمر يتصعدني ، وقال عمر : ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح ، وقال أبو سعيد الخدري وابن عباس : صعد جبل في النار ، وقرأ قوم " صُعُوداً " بضم الصاد والعين ، وقرأ الجمهور بفتح الصاد والعين ،

(63/786)

وقرأ ابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين ، وقال الحسن : معناه لا راحة فيه ، ومن فتح الألف من ﴿ أن المساجد لله ﴾ جعلها عطفاً على قوله ﴿ قل أوحي إلي أنه ﴾ [الجن : 1] ، ذكره سيبويه ، و ﴿ المساجد ﴾ قيل أراد بها البيوت التي هي للعبادة والصلاة في كل ملة .

وقال الحسن : أراد كل موضع سجد فيه كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن ، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة . وروي أن هذه الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة ، حينئذ

فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : المواضع كلها لله فاعبده حيث كان وقال ابن عطاء : ﴿ المساجد ﴾ : الآراب التي يسجد عليها ، واحدها مسجد بفتح الجيم ، وقال سعيد بن جبير : نزلت الآية لأن الجن قالت يا رسول الله : كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك : فنزلت الآية يخاطبهم بها على معنى أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة .

(64/786)

وقال الخليل بن أحمد : معنى الآية ، ولأن ﴿ المساجد لله فلا تدعوا ﴾ أي لهذا السبب ، وكذلك عنده ﴿ لإيلاف قريش ﴾ [قريش : 1] ﴿ فليعبدوا ﴾ [قريش : 3] وكذلك عنده ﴿ وأن هذه أمتكم أمة ﴾ [الأنبياء : 92 ، المؤمنون : 52] . و ﴿ المساجد ﴾ المخصوصة بينة التمكن في كونها لله تعالى فيصح أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة العلم ، وكل ما هو خالص لله تعالى ، وأن لا يتحدث بها في أمور الدنيا . ولا يتخذ طريقاً ، ولا يجعل فيها لغير الله نصيب ، ولقد قعدت للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية مدة ، ثم رأيت فيه من سوء المتخاصمين وأيمانهم وفجور الخصام وعائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأحكام فيه . وقوله عز وجل : ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون إخباراً

عن الجن ، وقرأ بعض القراء على ما تقدم " وأنه " يفتح الألف ، وهذا عطف على قوله ﴿ أنه استمع ﴾ [الجن : 1] ، والعبد على هذه القراءة قال قوم : هو نوح ، والضمير في ﴿ كادوا ﴾ لكفار قومه ، وقال آخرون ، هو محمد ، والضمير في ﴿ كادوا ﴾ للجن .

المعنى أنهم ﴿ كادوا ﴾ يتقصفون عليه لاستماع القرآن ، وقرأ آخرون منهم " وإنه لما قام " بكسر الألف ، والعبد محمد عليه السلام ، والضمير في ﴿ كادوا ﴾ يحتمل أن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه ، ويحتمل أن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على رد أمره ، ولا يتجه أن يكون العبد نوحاً إلا على تحامل في تأويل نسق الآية ، وقال ابن جبير : معنى الآية ، إنما قول الجن لقومهم يحكون ، والعبد محمد صلى الله عليه وسلم .

والضمير في ﴿ كادوا ﴾ لأصحابه الذين يطوعون له ويقتدون به في الصلاة ، فهم عليه لبد . واللبد الجماعات شبهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد بن مناف بن ربع : [البسيط]

صافوا بستة أبيات وأربعة . . . حتى كأن عليهم جانياً لبدا

يريد الجراد سماه جانياً لأنه يجني كل شيء ، ويروى جابياً بالباء لأنه يجبي الأشياء بأكله ، وقرأ جمهور السبعة وابن عباس : "لِبداً " بكسر اللام جمع لبدة ، وقال ابن عباس : أعواناً . وقرأ ابن عامر بخلاف عنه وابن مجاهد وابن محيصن : "لُبَداً " بضم اللام وتخفيف الباء المفتوحة وهو جمع أيضاً . وروي عن الجحدري : "لُبُدا " بضم اللام والباء . وقرأ أبو رجاء : "لِبداً " بكسر اللام ، وهو جمع لا بد فإن قدرنا الضمير للجن فتقصفهم عليه لاستماع الذكر ، وهذا تأويل الحسن وقتادة و﴿ أدعو ﴾ معناه أعبده ، وقرأ جمهور السبعة وعلي بن أبي طالب : " قال إنما " ، وهذه قراءة تؤيد أن العبد نوح ، وقرأ عاصم وحمزة بخلاف عنه : " قال إنما " وهذه تؤيد بأنه محمد عليه السلام وإن كان الاحتمال باقياً من كليهما . واختلف القراء في فتح الياء من ﴿ ربي ﴾ وفي سكونها . ثم أمر تعالى محمداً نبيه عليه السلام بالتبري من القدرة وأنه لا يملك لأحد ﴿ ضراً ولا رشداً ﴾ ، بل الأمر كله لله . وقرأ الأعرج " رُشُداً " بضم الراء والشين ، وقرأ أبيّ بن كعب " لكم غياً ولا رشداً " . وقولهم ﴿ من دونه ﴾ أي من عند سواه . و" الملتحد " : الملجأ الذي يمال إليه ويُركَن ، ومنه الإلحاد الميل ، ومنه اللحد الذي يمال به إلى أحد شقي القبر .

إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23)

اختلف الناس في تأويل قوله ﴿ إلا بلاغاً ﴾ : فقال الحسن ما معناه أنه استثناء منقطع ، والمعنى لن يجيرني من الله أحد ﴿ إلا بلاغاً ﴾ ، فإني إن بلغت رحمني بذلك ، والإجارة : للبلاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته ، وقال بعض النحاة على هذا المعنى هو استثناء متصل . والمعنى لن أجد ملتحداً ﴿ إلا بلاغاً ﴾ ، أي شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع ، فيجبرني الله . وقال قتادة : التقدير لا أملك ﴿ إلا بلاغاً ﴾ إليكم ، فأما الإيمان أو الكفر فلا أملكه . وقال بعض المتأولين ﴿ إلا ﴾ بتقدير الانفصال ، و" إن " شرط و" لا " نافية كأنه يقول : ولن أجد ملتحداً إن لم أبلغ من الله ورسالته ، و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من الله ﴾ لابتداء الغاية . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ﴾ يريد الكفر بدليل الخلود المذكور . وقرأ طلحة وابن مصرف ، " فإن له " على معنى فجزاؤه أن له ، وقوله ﴿ حتى إذا رأوا ﴾ ، ساق الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه . وقوله تعالى : ﴿ من أضعف ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ مَن ﴾ في موضع رفع على الاستفهام والابتداء و ﴿ أضعف ﴾ خبرها ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب ب ﴿ سيعلمون ﴾ ، و ﴿ أضعف ﴾ خبر لابتداء مضمر ، ثم أمره تعالى بالتبري من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وعدوا به ، والأمد : المدة والغاية ، و ﴿ عالم ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من ﴿ ربي ﴾ [الجن : 20] ويحتمل أن يكون خبر ابتداء مضمر على القطع ، وقرأ

السدي : " عالم الغيب " على الفعل الماضي ونصب الباء ، وقرأ الحسن : " فلا يَظهَر " بفتح الياء والهاء " أحدٌ " بالرفع . وقوله تعالى : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ معناه فإنه يظهره على ما شاء مما هو قليل من كثير ، ثم يبث تعالى حول ذلك الملك الرسول حفظة ﴿ رصداً ﴾ لإبليس وحزبه من الجن والإنس ، وقوله تعالى : ﴿ ليعلم ﴾ قال قتادة معناه ﴿ ليعلم ﴾ محمد أن الرسل ﴿ قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ وحفظوا ومنع منهم . وقال سعيد بن جبير : معناه

(67/786)

يعلم محمد أن الملائكة الحفظة ، الرصد النازلين بين يديه جبريل وخلفه ﴿ قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ . وقال مجاهد ﴿ ليعلم ﴾ من كذب وأشرك أن الرسل قد بلغت . قال القاضي أبو محمد : وهذا العلم لا يقع لهم إلا في الآخرة ، وقيل معناه ﴿ ليعلم ﴾ الله رسالته مبلغة خارجة إلى الوجود لأن علمه بكل شيء قد تقدم ، وقرأ الجمهور : " ليَعلم " بفتح الياء أي الله تعالى . وقرأ ابن عباس : " ليُعلم " بضم الياء ، وقرأ أبو حيوة : " رسالة ربهم " على التوحيد ، وقرأ ابن أبي عبلة : " وأحيط " على ما لم يسم فاعله ، وقوله تعالى : ﴿ وأحصى كل شيء ﴾ معناه كل شيء معدود ، وقوله تعالى : ﴿ ليعلم ﴾ الآية ،

مضمنه أنه تعالى قد علم ذلك ، فعلى هذا الفعل المضمر انعطف ﴿ وأحاط ﴾ ، ﴿ وأحصى ﴾ والله المرشد للصواب بمنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(68/786)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أدري أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

يعني قيام الساعة .

وقيل : عذاب الدنيا ؛ أي لا أدري ف"إن" بمعنى "ما" أو "لا" ؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله .

و"ما" في قوله : "مَا يُوعَدُونَ" : يجوز أن يكون مع الفعل مصدراً ، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ويقدّر حرف العائد .

﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ ربي أَمَداً ﴾ أي غاية وأجلاً .

وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي .

وقرأ الحِرْميان وأبو عمرو بالفتح .

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب ﴾ "عَالِمُ" رفعا نعتاً لقوله "رَبِّي" .

وقيل : أي هو ﴿ عَالِمُ الغيب ﴾ والغيب ما غاب عن العباد .

وقد تقدّم بيانه في أوّل سورة "البقرة" ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً .

إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : 49] .

وقال ابن جُبيرُ : "إِلاَّ مَنِ ارتضى مِنْ رَسُولٍ" هو جبريل عليه السلام .

وفيه بعدٌ ، والأَوْلى أن يكون المعنى : أي لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أي اصطفى للنبّوة ، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه : ليكون ذلك دالا على نبوّته .

الثانية : قال العلماء رحمة الله عليهم : لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه ، ثم استثنى مَن ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوّتهم .

وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه .

قال بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسُّوقة ، والعالم والجاهل ، والغنيّ والفقير ، والكبير والصغير ، مع اختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ؛ فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة ؟ فإن قال المنجم قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم .

وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم ، ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

حَكم المنجِّمُ أن طالعَ مولِدِي . . .
يقضِي عليّ بميتةِ الغرَقِ
قُلْ لِلْمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفَانِ هَلْ . . .
وُلِد الْجَمِيعُ بكَوْكَبِ الْغَرَقَ

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر

في العقرب ؟ فقال رضي الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك في آخر الشهر .

فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها ، وما فيها من المبالغة في الردّ على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم .

وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تسر في هذه الساعة وسِرْ في ثلاث ساعات يمضين من النهار .

فقال له علي رضي الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت .

(70/786)

فقال عليّ رضي الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم مُنَجِّم ، ولا لنا من بعده في كلام طويل يَحتجُّ فيه بآيات من التنزيل فمن صدّقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون اللهِ نِدًّا أو ضدّاً ، اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك .

ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها .

ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلاّ ما تهتدون به في ظلمات البر

والبحر ؛ وإنما المنجم كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ، واللَّهِ لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان .

ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها ، ولقي القوم فقتلهم وهي وقعة النَهْرَوَان الثابتة في الصحيح لمسلم .

ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجّم ولا لنا مِن بعده ، فتح الله علينا بلاد كِسرى وقيصر وسائر البُلدان ثم قال : يا أيها الناس ! توكلوا على الله وثِقوا به ؛ فإنه يكفي ممن سواه .

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان ؛ فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة .

قال الضحاك : ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك ، فإذا جاءه شيطان في صور المَلَك قالوا : هذا شيطان فاحذره .

وإن جاءه المَلَك قالوا : هذا رسول ربّك .

وقال ابن عباس وابن زيد : "رَصَداً" أي حَفَظة يحفظون النبيّ صلى الله عليه وسلم من

أمامه وورائه من الجنّ والشياطين .

قال قتادة وسعيد بن المسيّب : هم أربعة من الملائكة حفظة .

(71/786)

وقال الفراء : المراد جبريل ؛ كان إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحي ، فيلقوه إلى كهنتهم ، فيسبقوا الرسول .

وقال السديّ : "رَصَداً" أي حفظة يحفظون الوحي ، فما جاء من عند الله قالوا : إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا : إنه من الشيطان .

و"رَصَداً" نصب على المفعول .

وفي الصحاح : والرَّصَدَ القوم يرصُدون كالحرس ، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصاداً .

والراصد للشيء الراقب له ؛ يقال : رَصَدَهُ يَرْصُدُه رَصْداً ورَصَداً .

والتَّرصد الترقب والمَرْصَد موضع الرّصد .

قوله تعالى : ﴿ لِّيَعْلَمَ ﴾

قال قتادة ومقاتل : أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة .

وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقّ والصدق .

وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله ابن جبير .

قال : ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام .

وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلّغوا رسالات ربهم .

وقيل : ليعلم الرسول أيُّ رسول كان أن الرسل سواه بلّغوا .

وقيل : أي ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه واستراق أصحابه .

وقال ابن قتيبة : أي ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلّغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلّغين باستراق السمع عليهم .

وقال مجاهد : ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلّغوا رسالات ربهم .

وقراءة الجماعة "لِيَعْلَمَ" بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد ويعقوب بضم الياء أي لِيُعْلِم الناس أنّ الرسل قد أبلغوا .

(72/786)

وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران: 142] المعنى: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً.

﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي أحاط علمه بما عندهم، أي بما عند الرسل وما عند الملائكة.

وقال ابن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم، فيبلّغوا رسالاته.

﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء.

و"عَدَداً" نصب على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد، وإن شئت على المصدر، أي أحصى وعدّ كل شيء عدداً، فيكون مصدر الفعل المحذوف.

فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء.

وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى.

والحمد لله وحده. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون ﴾

الجائرونَ عن طريقِ الحقّ الذي هو الإيمانُ والطَّاعةُ ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ أسلمَ والجمعُ باعتبارِ المَعْنى ﴿ تَحَرَّوْاْ ﴾ توخَّوا ﴿ رَشَدًا ﴾ عظيماً يبلغُهم إلى دار الثوابِ ﴿ وَأَمَّا القاسطون ﴾ الجائرونَ عن سنن الإسلامِ ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ تُوقدُ بهم كَما تُوقدُ بكفرةِ الإنسِ ﴿ وَإِنَّ لُوطاً استقاموا ﴾ أنْ مخففةٌ من الثقيلةِ ، والجملةُ معطوفةٌ قطعاً على أنَّه استمعَ والمَعْنى وأُوحيَ إليَّ أنَّ الشأنَ لو استقامَ الجنُّ والإنسُ أو كلاهُما ﴿ عَلَى الطريقة ﴾ التي هي ملَّةُ الإسلامِ ﴿ لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ أيْ لوسَّعنا عليهم الرزقَ وتخصيصُ الماءِ الغدقِ وهو الكثيرُ بالذكر ، لأنَّه أصلُ المعاشِ والسَّعةِ ولعزةِ وجودِه بين العربِ وقيل : لو استقامَ الجنُّ على الطريقةِ المُثْلَى أي لو ثبتَ أبوهم الجانُّ على ما كان عليه من عبادة الله تعالى وطاعتِه ولم يتكبرْ عن السجود لآدمَ عليه السَّلامُ ولم يكفرُ وتبعه ولدُه في الإسلامِ لأنعمنا عليهم ووسَّعنا رزقَهم ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنختبرَهُم كيفَ يشكرونَهُ وقيل : معناهُ إنَّه لو استقامَ الجنُّ على طريقتِهم القديمةِ ولم يسلموا باستماع القُرآنِ لوسّعنا عليهم الرزقَ استدارجاً لنوقعَهُم في الفتنةِ ونعذبهم في كُفرانِ النعمةِ ﴿ وَمَن

يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ عن عبادتِه أو عن موعظتِه أو وحيِهِ ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ يُدخله ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ أي شاقّاً صعباً يعلو المعذبَ ويغلبُه على أنَّه مصدرٌ وصفَ به مبالغةً.

(74/786)

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ عطفٌ على قولِه تعالى أنَّه استمعَ أي وأُوحيَ إليَّ أنَّ المساجدَ مختصَّةٌ بالله تعالَى وقيلَ: معناهُ ولأنَّ المساجدَ لله ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ ﴾ أي لا تعبدُوا فيها ﴿ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ غيرَه. وقيلَ: المرادُ بالمساجدِ المسجدُ الحرامُ والجمعُ لأنَّ كلَّ ناحيةٍ منْهُ مسجدٌ له قبلةٌ مخصوصةٌ أو لأنَّه قبلة المساجدِ وقيلَ: الأرضُ كلُّها لأنَّها جعلتْ مسجداً للنبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وقيلَ: مواضعُ السجودِ على أنَّ المرادَ نهيُ السجودِ لغير الله تعالَى وقيل: أعضاءُ السجودِ السبعةُ وقيلَ: السجداتُ على أنَّه جمعُ المصدرِ الميميِّ ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ من جُملةِ المُوحَى أي وأُوحيَ إليَّ أنَّ الشأنَ ﴿ لَّمَا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ أي النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وإيرادُه بلفظِ العبدِ للإشعارِ بما هُو المُقتضِي لقيامِه وعبادتِه للتواضعِ لأنَّه واقعٌ موقعَ كلامِه عن نفسِه ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ حالٌ من فاعلِ قامَ أي يعبدُه وذلكَ قيامُه لصلاةِ الفجرِ بنخلةَ كما مرَّ تفصيلُه في سورةِ الأحقافِ. ﴿ كَادُواْ ﴾ أي الجنُّ ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ متراكمينَ من ازدحامِهم عليه تعجباً ممّا شاهدُوا من عبادتِه وسمعُوا من قراءتِه

واقتداءِ أصحابه بهِ قياماً وركوعاً وسجوداً لأنَّهم رأوا ما لَم يَرَوا مثلَهُ وسمعُوا بما لم يسمعُوا بنظيرِه وقيلَ : معناهُ لمَّا قامَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يعبدُ اللهَ وحدَهُ مخالفاً للمشركينَ كاد المشركون يزدحون عليه متراكمينَ واللِّبدُ جمعُ لبدةٍ وهيَ ما تلبَّد بعضُه على بعضٍ ، ومنَها لبدةُ الأسدِ . وقُرِئَ لُبُدًا جمعُ لبدةٍ وهي بمعنى اللبدةِ ولُبَّد جمع لابدٍ كساجدٍ وسُجّدٍ ولُبْداً بضمتينِ جمعُ لَبُودٍ كصبُورٍ وصُبُرٍ وعن قتادةَ تلبدتِ الإنسُ والجنُّ على هذا الأمرِ ليطفئُوه فأَبى اللهُ ألا أنْ يظهرَهُ على مَنْ ناوأه .

(75/786)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو ﴾ أي أعبدُ ﴿ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ ﴾ بربّي في العبادةِ ﴿ أَحَدًا ﴾ فليسَ ذلكَ ببدعٍ ولا مستنكرٍ يوجبُ التعجبَ أو الإطباقَ على عداوتي . وقُرِئَ قالَ على أنَّه حكايةٌ لقولِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للمتراكمينَ عليهِ والأولُ هُو الأظهرُ والأوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا ﴾ كأنَّه أريدَ لا أملكُ لكُم ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً فتركَ منْ كلا المتقابلينِ ما ذُكِرَ في الآخرِ . ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ إنْ أرادني بسوءٍ ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأً ومعدلاً هذا بيانٌ لعجزِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شؤونِ نفسِه بعد بيانِ عجزِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شؤونِ

غيرِه. وقولُه تعالى: ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ الله ﴾ استثناءٌ من قولِه لا أملكُ، فإنَّ التبليغَ إرشادٌ ونفعٌ وما بينهما اعتراضٌ مؤكدٌ لنفي الاستطاعة أو منْ مُلتحداً أي لنْ أجدَ من دونه منجاً إلا أنْ أُبلغَ عنه ما أَرسلنِي به، وقيلَ: إلاَّ مركبةٌ من إنِ الشرطيةِ ولا النافيةِ ومعناهُ أنْ لا أبلغَ بلاغاً من الله والجوابُ محذوفٌ لدلالة ما قبلَهُ عليهِ ﴿ ورسالاته ﴾ عطفٌ على بلاغاً ومن الله صفتُه لا صلتُه أي لا أملكُ لكُم إلا تبليغاً كائناً منهُ تعالى ورسالاتِه التي أرسلني بها ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ في الأمرِ بالتوحيد إذ الكلامُ فيه ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ وقُرِئَ بفتح الهمزة على معنى فحقُّه أو فجزاؤه أنَّ له نارَ جهنَم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ في النار أو في جهنمَ والجمعُ باعتبار المَعْنى ﴿ أَبَدًا ﴾ بلا نهايةٍ.

وقولُه تعالى: ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾

(76/786)

غايةٌ لمحذوف يدلُّ عليه الحالُ من استضعاف الكفارِ لأنصارِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واستقلالِهم لعدده كأنَّه قيلَ لا يزالونَ على ما هُم عليهِ حتَّى إذَا رَأَوا ما يُوعدونَ من فنون العذابِ في الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذٍ ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ وحُمل ما يُوعدونَ على ما رأوه يوم بدر يأباه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى ﴾ أي ما أدْرِي ﴾

أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾ فإنه ردٌّ لما قالَه المشركونَ عند سماعِهم ذلكَ متَى يكونُ ذلكَ الموعدُ إنكاراً له واستهزاءً به فقيلَ قُل إنه كائنٌ لا محالةَ وأما وقتُه فما أدْري متَى يكونُ ﴿ عالمِ الغيب ﴾ بالرفعِ قيل : هو بدلٌ من ربّي أو عطفُ بيانٍ له ويأباهُ الفاءُ في قولِ تعالَى ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ إذ يكونُ النظمُ حينئذٍ أمْ يجعلُ له عالمُ الغيبِ أمداً فلا يُظهر عليهِ أحداً ، وفيهِ من الاختلالِ ما لا يَخْفى فهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أيْ هُو عالمُ الغيبِ . والجملةُ استئنافٌ مُقررٌ لما قبلَهُ من عدمِ الدرايةِ والفاءُ لترتيبِ عدمِ الإظهارِ على تفرده تعالى بعلمِ الغيبِ على الاطلاقِ أي فلا يُطلْعُ على غيبِه إطلاعاً كاملاً ينكشفُ به جليةُ الحالِ انكشافاً تاماً مرجباً لعينِ اليقينِ أحداً من خلقه ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ أي إلا رسولاً ارتضاهُ لإظهارِه على بعضِ غيوبِهِ المتعلقةِ برسالتِه كما يُعربُ عنه بيانُ من ارتضَى بالرسولِ تعلقاً تاماً إما لكونه من مبادىءِ رسالتِه بأنْ يكونَ معجزةً دالةً على صحتها وإما لكونه من أركانِها وأحكامِها كعامَّةِ التكاليفِ الشرعيةِ التي أُمرَ بها المكلفونَ ، وكيفياتِ أعمالِهم وأجزيتِها المترتبةِ عليها في الآخرةِ وما تتوقفُ هيَ عليهِ من أحوالِ الآخرةِ التي من جُمْلتِها قيامُ الساعةِ والبعثُ وغيرُ ذلكَ من الأمورِ الغيبيةِ التي بيانُها من وظائفِ

الرسالةِ ، وأما ما لا يتعلقُ بها على أحد الوجهينِ من الغيوبِ التي من جُمْلتِها وقتُ قيامِ الساعةِ فلا يُظهر عليهِ أحداً أبداً على أنَّ بيانَ وقتِه مخلٌّ بالحكمةِ التشريعيةِ التي عليها يدورُ فلكُ الرسالةِ وليسَ فيه ما يدلُّ على نفي كراماتِ الأولياءِ المتعلقةِ بالكشفِ فإنَّ اختصاصَ الغايةِ القاصيةِ من مراتب الكشفِ بالرسل لا يستلزمُ عدمَ حصولِ مرتبةٍ مَا منْ تلكَ المراتبِ لغيرِهم أصلاً ولا يدَّعِي أحدٌ لأحدٍ من الأولياءِ ما في رتبةِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ من الكشفِ الكاملِ الحاصلِ بالوحي الصريحِ . وقولُه تعالَى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ للإظهارِ المستفادِ من الاستثناءِ وبيانٌ لكيفيته أي فإنَّه يسلكُ من جميع جوانبِ الرسولِ عليه السَّلامُ عند إظهارِه على غيبه حرساً من الملائكةِ يحرسُونه من تعرضِ الشياطينِ لما أظهَرُه عليهِ من الغيوبِ المتعلقةِ برسالتِه .

وقولُه تعالى : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَّبِّهِمْ ﴾

(78/786)

متعلقٌ بيسلكُ غايةٌ لهُ من حيثُ إنَّه مترتبٌ على الإبلاغِ المترتبِ عليه إذ المرادُ به العلمُ المتعلقُ بالإبلاغِ الموجود بالفعلِ ، وأنْ مخففةٌ من الثقيلةِ واسمُها الذي هو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ والجملةُ خبرُها ، ورسالاتِ ربِّهم عبارةٌ عن الغيبِ الذي أُريدَ إظهارُ المُرتضَى

عليهِ والجمعُ باعتبار تعددِ أفرادِه ، وضميرُ أبلغُوا إمَّا للرصَدِ فالمَعْنى أنَّه تعالَى يسلُكهم من جميع جوانبِ المرتَضى ليعلمَ أنَّ الشأنَ قد أبلغُوه رسالاتِ ربّهم سالمةً عن الاختطافِ والتخليط علماً مستتبعاً للجزاءِ ، وهُو أنْ يعلَمُه موجوداً حاصلاً بالفعل كَما في قولِه تعالى : ﴿ حتى نَعْلَمَ المجاهدين ﴾ والغايةُ في الحقيقه هو الإبلاغُ والجهادُ وإيرادُ علمهِ تعالَى لإبراز اعتنائِه تعالى بأمرِهما والإشعار بترتيب الجزاءِ عليهما والمبالغة في الحثّ عليهما والتحذير عن التفريط فيهما وإما لمن ارتضَى والجمعُ باعتبارِ مَعْنى مَنْ كَما أنَّ الإفرادَ في الضميرين السابقينِ باعتبار لفظِهما فالمَعْنى ليعلمَ أنَّه قد أبلغَ الرسلَ الموحَى إليهم رسالات ربّهم إلى أُممهم كما هيَ من غير اختطافٍ ولا تخليطِ بعد ما أبلغها الرصَدُ إليهم كذلكَ . وقولُه تعالَى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أيْ بَما عندَ الرَّصَدِ أو الرُّسلِ عليهم السَّلامُ حالٌ من فاعلِ يسلكُ بإضمارِ قَدْ أو بدونه على الخلافِ المشهورِ جيءَ بها لتحقيقِ استغنائِه تعالى في العلمِ بالإبلاغِ عمَّا ذُكِرَ من سلكِ الرصدِ على الوجه المذكورِ أي يسلكُهم بينَ يديه ومن خلفه يترتبُ عليه علمُه تعالَى بما ذُكِرَ والحالُ أنَّه تعالَى قد أحاطَ بما لديهم من الأحوالِ جميعاً .

(79/786)

﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ ﴾ مما كانَ وما سيكونُ ﴿ عَدَدًا ﴾ أي فرداً فرداً وهُو تمييزٌ منقولٌ من المفعول به كقوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ والأصل أُحصَى عددَ كلِّ شيءٍ وقيلَ : هو حالٌ أي معدوداً محصوراً أو مصدرٌ بمَعْنى إحصاءً وأيًا ما كان ففائدتُه بيانُ أنَّ علمَهُ تعالَى بالأشياء ليس على وجهٍ كليَ إجماليَ بلْ على وجهٍ جزئيَ تفصيليَ فإنَّ الإحصاءَ قد يرادُ به الإحاطةُ الإجمالية كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ أي لا تقدروا على حصرها إجمالاً فضلاً عن التفصيلِ وذلكَ لأنَّ أصلَ الإحصاءِ أنَّ الحاسبَ إذا بلغ عَقداً معيناً من عُقودِ الأعدادِ كالعشرةِ والمائةِ والألفِ وضعَ حصاةً ليحفظَ بها كميةَ ذلكَ العقدِ فيبنِي عَلَى ذلكَ حسابَهُ هذا وأمَّا مَا قيلَ : مِنْ أنَّ قولَه تعالى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ الخ معطوفٌ على مقدرٍ يدلُّ عليه قولُه تعالى ليعلمَ كأنه قيل : قد علمَ ذلكَ وأحاطَ بما لديهم الخ فبمعزلٍ من السدادِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(80/786)

وقال الآلوسى :

وجوز تفسير ما يوعدون بيوم بدر ورجح الأول بأن الظاهر أن قوله سبحانه :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى ﴾

أي ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ رد لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك ومقتضى حالهم أنهم قالوا انكاراً واستهزاء متى يكون ذلك الموعود بل روي عن مقاتل أن النضر بن الحرث قال ذلك فقيل قل إنه كائن لا محالة وأما وقته فما أدري متى يكون والأحرى بسؤالهم وهذا الجواب إرادة ما في يوم القيامة المنكرين له أشد الإنكار والخفي وقته عن الخلائق غاية الخفاء والمراد بالأمد الزمان البعيد بقرينة المقابلة بالقريب وإلا فهو وضعا شامل لهما ولذا وصف ببعيداً في قوله تعالى : ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : 30] وقيل أن معنى القريب ينبىء عن مشارفة النهاية فكأنه قيل لا أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم هو مؤجل ضرب له غاية والأول أولى وأقرب .

(81/786)

﴿ عالم الغيب ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو سبحانه عالم الغيب وجوز أبو حيان كونه بدلاً من ﴿ ربي ﴾ وغيره أيضاً كونه بياناً له ويأبى الوجهين الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ إذ يكون النظم حينئذ أم يجعل له عالم الغيب أمداً فلا يظهر على غيبه أحداً وفيه من الاخلال ما لا يخفى وإضافة عالم إلى الغيب محضة لقصد

الثبات فيه فيفيد تعريف الطرفين التخصيص وتعريف الغيب للاستغراق وفي الرضى أن اسم الجنس أعني الذي يقع على القليل والكثير بلفظ الواحد إذا استعمل ولم تقم قرينة تخصصه ببعض ما يصدق عليه فهو في الظاهر لاستغراق الجنس أخذاً من استقراء كلامهم فمعنى التراب يابس والماء بارد كل ما فيه هاتان الماهيتان حاله كذا فلو قلت في قولهم النوم ينقض الطهارة النوم مع الجلوس لا ينقضها لكان مناقضاً لذلك اللفظ انتهى وهو يؤيد إرادة ذلك هنا لأن الغيب كالماء يقع على القليل والكثير بلفظ واحد ولا يضر في ذلك جمعه على غيوب كما لا يضر فيه جمع الماء على مياه وكذا المراد بغيبه جميع غيبه وقد نص عليه عزمي زاده معللا له بكون اسم الجنس المضاف بمنزلة المعرف باللام سيما إذا كان في الأصل مصدراً وعزى إلى شرح المقاصد ما يقتضيه وربما يقال يفهم ذلك أيضاً من اعتبار كون الإضافة للعهد وان المعهود هو الغيب المستغرق أو من اعتبارها للاختصاص وان الغيب المختص به تعالى بمعنى المختص علمه سبحانه به هو كل غيب واعتناء بشأن الاختصاص جيء بالمظهر موضع المضمر والجملة استئناف لدفع توهم نقص من نفي الدراية والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرده تعالى بعلم الغيب والمراد بالإظهار المنفى الاطلاع الكامل الذي تنكشف به جلية الحال على أتم وجه كما يرشد إليه حرف الاستعلاء فكأنه قيل ما على إذا قلت ما أدري قرب ذلك الموعد الغيب ولا بعده فالله

سبحانه وتعالى عالم كل غيب وحده فلا يطلع على ذلك المختص علمه به تعالى اطلاعاً كاملاً

(82/786)

أحداً من خلقه ليكون اليق بالتفرد وأبعد عن توهم مساواة علم خلقه لعلمه سبحانه وإنما يطلع جل وعلا إذا اطلع من شاء على بعضه مما تقتضيه الحكمة التي هي مدار سائر أفعاله عز وجل وما نفيت عني العلم به مما لم يطلعني الله تعالى عليه لما أن الاطلاع عليه مما لا تقتضيه الحكمة التشريعية التي يدور عليها فلك الرسالة بل هو مخل بها وان شئت فاعتبر الجملة واقعة موقع التعليل لنفي الدراية السابقة ولما كان مساق الكلام ما قد يتوهمون منه أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلع على شيء من الغيب عقب عز وجل الكلام بالاستثناء المنقطع كما روي في البحر عن ابن عباس الذي هو بمعنى الاستدراك لدفع ذلك على أبلغ وجه حيث عمم الأمر في الرسل المرتضين وأقام كيفية الاظهار مقام الاظهار مع الإشارة إلى البعض الذي اطلعوا عليه المناسب لمقام الدعوة فقال عز من قائل :

﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾

أي لكن الرسول المرتضى يظهره جل وعلا على بعض الغيوب المتعلقة برسالته كما يعرب

عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقاً ما اما لكونه من مباديها بأن يكون معجزة واما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية وكيفيات الأعمال وأجزيتها ونحو ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة بأن يسلك من جميع جوانبه عند اطلاعه على ذلك حرسا من الملائكة عليهم السلام يحرسونه من تعرض الشياطين لما أريد اطلاعه عليه اختطافاً أو تخليطاً .

(83/786)

﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ متعلق بيسلك وعلة له والضمير لمن أي لأجل أن يعلم ذلك المرتضى الرسول ويصدق تصديقاً جازماً ثابتاً مطابقاً للواقع ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ ﴾ أي الشأن قد أبلغ إليه الرصد وهو من قبيل بنوا تميم قتلوا زيداً فإن المبلغ في الحقيقة واحد معهم وهو جبريل عليه السلام كما هو المشهور من أنه المبلغ من بين الملائكة عليهم السلام إلى الأنبياء ﴿ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ وهي الغيوب المظهر عليها كما هي من غير اختطاف ولا تخليط وعلى هذا فليكن ﴿ من ﴾ مبتدأ وجملة أنه يسلك خبره وجيء بالفاء لكونه اسم موصول وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي بما عند الرصد ﴿ وأحصى كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي مما كان ومما سيكون ﴿ عَدَدًا ﴾ أي فرداً فرداً حال من فاعل يسلك بتقدير قد أو بدونه جيء به

لمزيد الاعتناء بأمر علمه تعالى بجميع الأشياء وتفرده سبحانه بذلك على أتم وجه بحيث لا يشاركه سبحانه في ذلك الملائكة الذين هم وسائط العلم فكأنه قيل لكن المرتضى الرسول يعلمه الله تعالى بواسطة الملائكة بعض الغيوب مما له تعلق ما برسالته والحال أنه تعالى قد أحاط علماً بجميع أحوال أولئك الوسائط وعلم جل وعلا جميع الأشياء بوجه جزئي تفصيلي فأين الوسائط منه تعالى أو حال من فاعل أبلغوا جيء به للإشارة إلى أن الرصد أنفسهم لم يزيدوا ولم ينقصوا فيما بلغوا كأنه قيل ليعلم الرسول أن قد أبلغ الرصد إليه رسالات ربه في حال أن الله تعالى قد علم جميع أحوالهم وعلم كل شيء فلو أنهم زادوا أو نقصوا عند الإبلاغ لعلمه سبحانه فما كان يختارهم للرصدية والحفظ هذا ما سنح لذهني القاصر في تفسير هذه الآيات الكريمة ولست على يقين من أمره بيد أن الاستدلال بقوله سبحانه ﴿ فلا يظهر ﴾ [الجن : 26] الخ على نفى كرامة الأولياء بالاطلاع على بعض الغيوب لا يتم عليه لأن قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ في قوة قضية سالبة جزئية لدخول ما يفيد العموم في حيز

(84/786)

السلب وأكثر استعمالاته لسلب العموم وصرح به فيما هنا في شرح المقاصد لا لعموم السلب وهو سلب جزئي فلا ينافي الإيجاب الجزئي كان يظهر بعض الغيب على ولي على نحو ما قال بعض أهل السنة في قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ولا يرد أن الاستثناء يقتضي أن يكون المرتضى الرسول مظهراً على جميع غيبه تعالى بناءً على أن الاستثناء من النفي يقتضي إيجاب نقيضه للمستثنى ونقيض السالبة الجزئية الموجبة الكلية مع أنه سبحانه لا يظهر أحداً كائناً من كان على جميع ما يعلمه عز وجل من الغيب وذلك لانقطاع الاستثناء المصرح به ابن عباس وكذا لا يرد أن الله تعالى نفي إظهار شيء من غيبه على أحد إلا على الرسول فيلزم أن لا يظهر سبحانه أحداً من الملائكة على شيء منه لأن الرسول هنا ظاهر في الرسول البشري لقوله تعالى :

(85/786)

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ [الجن : 27] الخ وذلك ليس إلا فيه كما لا يخفى على من علم حكمة ذلك ويلزم أن لا يظهر أيضاً أحداً من الأنبياء الذين ليسوا برسل بناءً على إرادة المعنى الخاص من الرسول هنا وذلك لما ذكرنا أولاً وكذا لا يرد أنه يلزم أن لا يظهر المرتضى الرسول على شيء من الغيوب التي لا تتعلق برسالته ولا يخل الإظهار عليها بالحكمة التشريعية إذ لا

حصر للبعض المظهر فيما يتعلق بالرسالة وإنما أشير إلى المتعلق بها لاقتضاء المقام لذلك وكون كل غيب يظهر عليه الرسول لا يكون إلا متعلقاً برسالته محل توقف وللمفسرين ههنا كلام لا بأس بذكره بما له وما عليه حسب الإمكان ثم الأمر بعد ذلك إليك فنقول لما كان مذهب أكثر أهل السنة القول بكرامة الولي بالاطلاع على الغيب وكان ظاهر قوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر ﴾ [الجن : 26] الخ دالاً على نفيها ولذا قال الزمخشري : إن في هذا إبطال الكرامات أي في الجملة وهي ما كان من الإظهار على الغيب لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله تعالى الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط انتهى أنجدوا وأتهموا وأيمنوا وأشأموا في تفسير الآية على وجه لا ينافي مذهبهم ولا يتم عليه استدلال المعتزلي على مذهبه فقال الإمام ليس في قوله تعالى على غيبه صيغة عموم فيكفي العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه سبحانه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ويؤكد ذلك وقوع الآية بعد قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الجن : 25] والمراد به وقوع يوم القيامة ثم قال فإن قيل إذا حملتم ذلك على القيامة فكيف قال سبحانه إلا من ارتضى من رسول مع

(86/786)

أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله قلنا بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة وكيف لا وقد قال تعالى ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً كأنه قيل عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحداً ثم قيل إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن انتهى وتعقب بأن في غيبه ما يدل على العموم كما سمعت أولاً والسياق لا يأباه اللهم إلا أن يطعن في ذلك وأيضاً ظاهر جوابه الأول عن القيل كون المراد بالرسول في الآية الرسول الملكي ويأباه ما بعد من قوله تعالى :

(87/786)

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ [الجن : 27] الخ على أن علم الملائكة بوقت الساعة يوم تشقق السماء ليس من الإظهار على الغيب بل هو من إظهار الغيب وإبرازه للشهادة كإظهار المطر

عند نزوله وما في الأرحام عند وضعه إلى غير ذلك وأيضاً الانقطاع على الوجه الذي ذكره بعيد جداً إذ فيه قطع المناسبة بين السابق واللاحق بالكلية اللهم إلا أن يقال مثله لا يضر في المنقطع وقيل إن الإظهار على الغيب بمعنى الاطلاع عليه على أتم وجه بحيث يحصل به أعلى مراتب العلم والمراد عموم السلب ولا يضر في ذلك دخول ما يفيد العموم في حيز النفي لأن القاعدة أكثرية لا مطردة لقوله تعالى : ﴿ واللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : 23] وقوله سبحانه : ﴿ واللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة : 276] وقد نص على ذلك العلامة التفتازاني فيكون المعنى فلا يظهر على شيء من غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه سبحانه يظهره على شيء من غيبه بأن يسلك الخ ولا يرد كرامة الولي إذ ليست من الإظهار المذكور إذ لا يحصل له أعلى مراتب العلم بالغيب الذي يخبر به وإنما يحصل له ظنون صادقة أو نحوها وكذا شأن غيره من أرباب الرياضات من الكفرة وغيرهم وتعقب بأن من الصوفية من قال كالشيخ محيي الدين قدس سره بنزول الملك على الولي وإخباره إياه ببعض المغيبات أحياناً ويرشد إلى نزوله عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [الأحقاف : 13] الآية وكون ما يحصل له إذ ذاك ظن أو نحوه لا علم كالعلم الحاصل للرسول بواسطة الملك لا يخلو عن بحث بل قد يحصل له بواسطة الإلهام والنفث في الروع نحو ما يحصل للرسول وأيضاً يلزم أن لا يظهر الملك على الغيب إذ الرسول المستثنى رسول البشر على ما هو الظاهر والتزام أنه لا يظهر بالمعنى السابق ويظهر

بواسطته مما لا وجه له أصلاً وأيضاً يلزم أن ما يحصل للنبي غير الرسول بالمعنى الأخص المتبادر

(88/786)

هنا ليس بعلم بالمعنى المذكور وهو كما ترى وقيل المراد بالغيب في الموضعين الجنس والإظهار عليه على ما سمعت وكذا عدم ورود الكرامة والبحث فيه كالبحث في سابقه وزيادة وقال صاحب الكشف في الرد على الزمخشري الغيب إن كان مفسراً بما فسره في قوله تعالى ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 3] فالآية حجة عليه لأنه جوز هنالك أن يعلم بإعلامه تعالى أو بنصبه الدليل وهذا الثاني أعني القسم العقلي تنفيه الآية وترشد إلى أن تهذيب طرق الأدلة أيضاً بواسطة الأنبياء عليهم السلام والعقل غير مستقل وأهل السنة عن آخرهم على أن الغيب بذلك المعنى لا يطلع عليه إلا رسول أو آخذ منهم وليس فيه نفي الكرامة أصلاً وإن أراد الغائب عن الحس في الحال مطلقاً فلا بد من التخصيص بالاتفاق فليس فيه ما ينفيها أيضاً وإن فسر بالمعدوم كما ذكره في قوله تعالى

(89/786)

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ [الأنعام : 73] فلا بد أيضاً من التخصيص وكذلك لو فسر بما غاب عن العباد أو بالسر على أن ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عز وجل بدلالة الإضافة إلا رسولاً وهو كذلك فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلا بالإعلام من رسول ملكي أو بشري ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلع عليه بل بعضه وأقل القليل منه فدل المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه فهذا ظاهر الآية دون تعسف ثم لو سلم فالثاني إما مستغرق وإذا قال سبحانه لا يطلع على جميعه أحداً إلا من ارتضى من رسول لم يدل على أنه لا يجوز اطلاع غير الرسول على البعض وأما مطلق ينزل على الكامل منه فيرجع إلى ما اخترناه وتعاضد دلالتا تشريف الإضافة والإطلاق فلا وجه لتعليقه بهذه الآية ومنه يظهر أن الاستدلال من الآية على إبطال الكهانة والتنجيم غير ناهض وإن كان إبطالهما حقاً لأنكره فضلاً عن تكفير من قال بدلالته على حياة أو موت لأنه كفر بهذه الآية كما نقله شيخنا الطيبي عن الواحدي والزجاج وصاحب المطلع انتهى وبحث فيه بأن حمل غيبه على الغيب الخاص بمعنى ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عز وجل مما لا يناسب السياق وبأن ظاهر ما قرره على احتمال الاستغراق يقتضي على تقدير اتصال الاستثناء وإيجاب ضد ما نفى للمستثنى أن يظهر الرسول على جميع غيبه تعالى إلى ما يظهر بالتأمل

وذكر العلامة البيضاوي أولاً ما يفهم منه على ما قيل حمل غيبه على العموم مع الاختصاص أي عموم الغيب المخصوص به علمه تعالى وحمل ﴿ فلا يظهر ﴾ [الجن : 26] على سلب العموم وحمل الرسول على الرسول البشري واعتبار الاستثناء منقطعاً على أن المعنى فلا يظهر على جميع غيبه المختص به علمه تعالى أحداً إلا من ارتضى من رسول فيظهره على بعض غيبه حتى يكون إخباره به معجزة فلا يتم الاستدلال بالآية على

(90/786)

نفي الكرامة وفسر الاختصاص بأنه لا يعلمه بالذات ولكنه علماً حقيقياً يقينياً بغير سبب كاطلاع الغير إلا هو سبحانه وأما علم غيره سبحانه لبعضه فليس علماً للغيب إلا بحسب الظاهر وبالنسبة لبعض البشر وقيل أراد بالغيب المخصوص به تعالى ما لم ينصب عليه دليل ولا يقدح في الاختصاص علم الغير به بإعلامه تعالى إذ هو إضافي بالنسبة إلى من لم يعلم وقال ثانياً في الجواب عن الاستدلال ولعله أراد الجواب عند القوم ما نصه وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير توسط وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقياً من الملائكة أي بالنفث في الروع ونحوه وحاصله أن الاستدلال إنما يتم أن لو تحقق كون المراد بالرسول رسول البشر والملك جميعاً أو رسول البشر فقط وبالإظهار الإظهار

بواسطة أولاً والكل ممنوع إذ يجوز أن يخص الرسول برسول الملك وأن يراد بالإظهار الإظهار بلا واسطة ويكون المعنى فلا يظهر بلا واسطة على غيبه الأرسل الملائكة ولا ينافي ذلك إظهار الأولياء على غيبه لأنه لا يكون إلا بالواسطة وهو جواب بمنع المقدمتين وإن كان يكفي فيه منع أحدهما كما فعل الإمام والتفتازاني في شرح المقاصد وتعقب بأن رسل البشر قد يطلعون بغير واسطة أيضاً وفي قصة المعراج وتكليم موسى عليه السلام ما يكفي في ذلك على أنه قد قيل عليه بعد ما قيل وأغرب ما قيل في هذا المقام كون إلا في قوله تعالى :

(91/786)

﴿ إِلَّا مَنِ ارتضى ﴾ [الجن : 27] للعطف والمعنى فلا يظهر على غيبه أحد ولا من ارتضى من رسول وحاله لا يخفى ثم إن تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ الخ بما سمعت هو الذي عليه جمهور المفسرين وكانت الحفظة الذين ينزلون مع جبريل عليه السلام على نبينا صلى الله عليه وسلم على ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن جبير أربعة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها حتى يؤدونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قرأ عالم الغيب الآية وقد يكون مع الوحي أكثر من ذلك ففي بعض الأخبار أنه نزل

مع سورة الأنعام سبعون ألف ملك وجاء في شأن آية الكرسي ما جاء وقال ابن كمال لاحت دقيقة بخاطري الفاتر قلما يوجد مثلها في بطون الدفاتر وهي أن المراد ﴿ من بين يديه ﴾ [الجن : 27] في الآية القوى الظاهرة ومن خلفه القوى الباطنة ولذلك قال سبحانه : ﴿ يَسْلُكُ ﴾ الخ أي يدخل حفظة من الملائكة يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم من تينك الجهتين ولو كان المراد حفظة من الجوانب كي لا يقربه الشياطين عند إنزال الوحي فتلقى غير الوحي أو تسمعه فتلقيه إلى الكهنة فتخبر به قبل إخبار الرسول كما ذهب إليه صاحب التيسير وغيره لما كان نظم الكلام على الوجه المذكور فإن عبارة يسلك وتخصيص الجهتين المذكورتين إنما يناسب ما ذكرناه لا ما ذكروه انتهى ولا يخفى أنه نحو من الإشارة ولعل التعبير بيسلك على تفسير الجمهور لتصوير الجهات التي تأتي منها الشياطين بالثغور الضيقة والمسالك الدقيقة وفي ذلك من الحسن ما فيه وذهب كثير إلى أن ضمير ليعلم لله تعالى وضمير أبلغوا إما للرصد أو لمن ارتضى والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد في الضميرين قبل باعتبار لفظها والمعنى أنه تعالى يسلكهم ليعلم أن الشأن قد أبلغوا رسالات ربهم علماً مستتبعاً للجزاء

(92/786)

وهو أن يعلمه تعالى موجوداً حاصلاً بالفعل كما في قوله تعالى

(93/786)

﴿ حتى يعلم المجاهدين ﴾ [محمد : 31] فالغاية في الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمرهما والإشعار بترتب الجزاء عليهما والمبالغة في الحث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَ ﴾ الخ إما عطف على ﴿ لا يظهر ﴾ [الجن : 26] أو حال من فاعل يسلك جيء به لدفع التوهم وتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور أو عطف كما زعم بعض على مضمر لأن ليعلم متضمن معنى علم فصار المعنى قد علم ذلك وأحاط الخ وجوز أن يكون ضمير يعلم للرسول الموحى إليه وضمير أبلغوا للرصد النازلين إليه بالوحي وروي عن ابن جبير ما يؤيده أو للرسل سواء وأحاط الخ عطف على أبلغوا أو على لا يظهر وعن مجاهد ليعلم من كذب وأشرك أن الرسل قد أبلغوا وفيه من البعد ما فيه وعليه لا يقع هذا العلم على ما في "البحر" إلا في الآخرة وقيل ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا وقيل ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم ولم يكونوا هم المتلقين باستراق السمع وكلا القولين كما ترى ونصب عدداً عند جمع على أنه تمييز محول عن المفعول به والأصل أحصى عدد كل

شيء إلا أنه قال أبو حيان في كونه ثابتاً من "لسان العرب" خلاف وأنت تعلم أن التحويل في مثله تقديري وجوز أن يكون حالاً أي معدوداً محصوراً ولا يضر تنكير صاحبها للعموم وأن يكون نصباً على المصدر بمعنى إحصاء فتأمل جميع ذلك والله تعالى الموفق لسلوك أحسن المسالك وقرىء عالم بالنصب على المدح وعلم فعلاً ماضياً الغيب بالنصب وقرأ ابن عباس وزيد بن علي ليعلم بالبناء للمفعول والزهري وابن أبي عبلة ليعلم بضم الياء وكسر اللام من الإعلام أي ليعلم الله تعالى من شاء أن يعلمه أن قد أبلغوا الخ وقرأ أبو حيوة رسالة بالإفراد وقرأ ابن أبي عبلة وأحيط وأحصى كل بالبناء للمفعول في الفعلين ورفع كل على النيابة والفاعل هو الله عز وجل فهو سبحانه المحيط

بالأحوال علماً والمحصي لكل شيء عدداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(94/786)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾

هم الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَمِنَّا القاسطون ﴾ أي : الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال : قسط إذا جار ، وأقسط : إذا عدل ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ أي : قصدوا طريق الحق .

قال الفراء : أمّوا الهدى .

﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ أي : وقوداً للنار توقد بهم ، كما توقد بكفرة الإنس ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة ﴾ هذا ليس من قول الجنّ بل هو معطوف على ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مّنَ الجن ﴾ [الجن : 1] والمعنى : وأوحي إليّ أن الشأن لو استقام الجنّ أو الإنس ، أو كلاهما على الطريقة ، وهي طريقة الإسلام ، وقد قدّمنا أن القراء اتفقوا على فتح أن هاهنا .

قال ابن الأنباري : والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل ، يقال في الكلام : والله لو قمت لقمت ، كما في قول الشاعر :

أما والله أن لو كنت حرّا . . . ولا بالحرّ أنت ولا العتيق

قال : أو على ﴿ أوحي إليّ أنه استمع ﴾ ، ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ ، أو على ﴿ آمنا به ﴾ أي : آمنا به ، وبأن لو استقاموا .

قرأ الجمهور بكسر الواو من (لو) لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن وثاب ، والأعمش بضمها ﴿ لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ أي : كثيراً واسعاً .

قال مقاتل : ماء كثيراً من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين .

(95/786)

وقال ابن قتيبة : المعنى لو آمنوا جميعاً لوسعنا عليهم في الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلاً ؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر ، وهذا كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكتاب ءامَنُواْ واتقوا ﴾ [المائدة : 65] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 3] وقوله : ﴿ فقلت استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 10 12] الآية .

وقيل : المعنى : وأن لو استقام أبوهم على عبادته ، وسجد لآدم ولم يكفر ، وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم ، واختار هذا الزجاج .

والماء الغدق : هو الكثير في لغة العرب .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي : لنختبرهم ، فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم .

وقال الكلبي : المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر ، فكانوا كلهم كفاراً ، لأوسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها ، فنعذبهم في الدنيا

والآخرة.

وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، والثمالي، ويمان بن زيان، وابن كيسان، وأبو مجلز، واستدلوا بقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 44]، وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف: 33] الآية، والأوّل أولى ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ أي: ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه أي: يدخله عذاباً صعداً أي: شاقاً صعباً.

قرأ الجمهور: "نسلكه" بالنون مفتوحة.

(96/786)

وقرأ الكوفيون، وأبو عمرو في رواية عنه بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم لقوله: ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ ولم يقل "عن ذكرنا".

وقرأ مسلم بن جندب، وطلحة بن مصرّف، والأعرج بضم النون وكسر اللام من أسلكه، وقراءة الجمهور من سلكه.

والصعد في اللغة المشقة، تقول تصعد بي الأمر: إذا شقّ عليك، وهو مصدر صعد، يقال

: صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب مبالغة ؛ لأنه يتصعد المعذب أي : يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

قال أبو عبيد : الصعد مصدر ، أي : عذاباً ذا صعد .

وقال عكرمة : الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم ، كما في قوله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر : 17] والصعود : العقبة الكئود .

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ قد قدّمنا اتفاق القراء هنا على الفتح ، فهو معطوف على أنه استمع ، أي : وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله .

وقال الخليل : التقدير ولأن المساجد .

والمساجد : المواضع التي بنيت للصلاة فيها .

قال سعيد بن جبير : قالت الجنّ : كيف لنا أن نأتي المساجد ، ونشهد معك الصلاة ، ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت .

وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد .

وقال سعيد بن المسيب ، وطلق بن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة ، يقول : هذه أعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء .

وقيل : المساجد هي الصلاة ؛ لأن السجود من جملة أركانها ، قاله الحسن : ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ من خلقه كائناً ما كان .

(97/786)

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ قد قدّمنا أن الجمهور قرءوا هنا بفتح "أن" ، عطفاً على أنه استمع ، أي : وأوحي إليّ أنّ الشأن لما قام عبد الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أي : يدعوا الله ويعبده ، وذلك ببطن نخلة ، كما تقدّم حين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويتلو القرآن ، وقد قدّمنا أيضاً قراءة من قرأ بكسر "إن" هنا ، وفيها غموض وبعد عن المعنى المراد ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ أي : كاد الجنّ يكونون على رسول الله صلى الله عليه وسلم لبداً أي : متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه . قال الزجاج : ومعنى ﴿ لِبَداً ﴾ : يركب بعضهم بعضاً ، ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش .

قرأ الجمهور : ﴿ لبداً ﴾ بكسر اللام وفتح الباء .

وقرأ مجاهد ، وابن محيصن ، وهشام بضم اللام وفتح الباء ، وقرأ أبو حيوة ، ومحمد بن السميفع ، والعقيلي ، والجحدري بضم الباء واللام .

وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، والأعرج بضم اللام وتشديد الباء مفتوحة .

فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه ، وعلى قراءة ضم اللام يكون المعنى كثيراً ، كما في قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ [البلد : 6] وقيل المعنى : كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوة ، تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلاّ أن ينصره ويتم نوره .

واختار هذا ابن جرير .

(98/786)

قال مجاهد : ﴿ لِبَداً ﴾ أي : جماعات ، وهو من تلبد الشيء على الشيء ، أي : اجتمع ، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه ، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً ، فقد لبدته ، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد : لبدة ، وجمعها لبد ، ويقال للجراد الكثير : لبد ؛ ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان : لبد لطول بقائه ، وهو المقصود بقول النابغة :

أخنى عليها الذي أخنى على لبد . . . ﴿ قَالَ إِنَّمَا ادعو ربّى ﴾ أي : قال عبد الله إنما

أدعو ربي وأعبده ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ من خلقه .

قرأ الجمهور : ﴿ قال ﴾ وقرأ عاصم ، وحمزة : " قل " على الأمر .

وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجيرك .

﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ أي : لا أقدر أن أدفع عنك ضرّاً ولا أسوق إليكم خيراً .

وقيل : الضرّ الكفر ، والرشد الهدى ، والأوّل أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي ، فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين .

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ أي : لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي : ملجأ ومعدلاً وحرزاً ، والملتحد معناه في اللغة الممال أي : موضعاً أميل إليه .

قال قتادة : مولى .

وقال السديّ : حرزاً ، وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض مثل السرب .

وقيل : مذهباً ومسلكاً ، والمعنى متقارب ، ومنه قول الشاعر :

يا لهف نفسي ولهفاً غير مجدية . . . عني وما من قضاء الله ملتحد

والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ﴾ هو من قوله ﴿ لا أملك ﴾ أي : لا أملك

ضرّاً ولا رشداً إلاّ التبليغ من الله ، فإن فيه أعظم الرشد ، أو من ملتحداً ، أي : لن أجد من دونه ملجأ إلاّ التبليغ .

قال مقاتل : ذلك الذي يجيرني من عذابه .

(99/786)

وقال قتادة : إلاّ بلاغاً من الله ، فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما .

قال الفراء : لكن أبلغكم ما أرسلت به ، فهو على هذا منقطع .

وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قوله : ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي : ولن أجد من دونه ملتحداً إلاّ أن أبلغ ما يأتي من الله ، وقوله : ﴿ ورسالاته ﴾ معطوف على ﴿ بلاغاً ﴾ أي : إلاّ بلاغاً من الله ، وإلاّ رسالاته التي أرسلني بها إليكم ، أو إلاّ أن أبلغ عن الله ، وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسي بما آمر به غيري .

وقيل : الرسالات معطوفة على الاسم الشريف ، أي : إلاّ بلاغاً عن الله وعن رسالاته ، كذا قال أبو حيان ورجحه ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الأمر بالتوحيد لأن السياق فيه ﴿ فإن لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها جملة مستأنفة .

وقرىء بفتح الهمزة؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، والتقدير : فجزاؤه أن له نار جهنم .

أو فحكمه أن له نار جهنم ، وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ على الحال ، أي : في النار ، أو في جهنم ، والجمع باعتبار معنى مَن كما أن التوحيد في قوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ باعتبار لفظها ، وقوله : ﴿ أَبَدًا ﴾ تأكيد لمعنى الخلود ، أي : خالدين فيها بلا نهاية ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعني : من العذاب في الدنيا أو في الآخرة .

والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حتى إذا رأوا الذي يوعدون به ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ أي : من هو أضعف جنداً ينتصر به ، وأقلّ عدداً أهم أم المؤمنون ؟

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي : ما أدري أقريب حصول ما توعدون من العذاب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ أي : غاية ومدّة .

(100/786)

أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له : متى يكون هذا الذي توعدنا به ؟ قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلاّ الله وحده ، والمعنى أن علم وقت العذاب علم

غيب لا يعلمه إلاّ الله .

قرأ الجمهور : ﴿ ربي ﴾ بإسكان الياء .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو بفتحها ، " وَمِنْ " في : ﴿ مَنْ أَضْعَفُ ﴾ موصولة ، وأضعف خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو أضعف ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون استفهامية مرتفعة على الابتداء ، وأضعف خبرها ، والجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي أدري ، وقوله : ﴿ أَقَرِيبٌ ﴾ خبر مقدّم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ مبتدأ مؤخر .

﴿ عالم الغيب ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي ، أو بيان له ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من عدم الدراية .

وقرىء بالنصب على المدح .

وقرأ السدي علم الغيب بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء في : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفرّده بعلم الغيب ، أي : لا يطلع على الغيب الذي يعلمه ، وهو ما غاب عن العباد أحداً منهم ، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ أي : إلاّ من اصطفاه من الرسل ، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ؛ ليكون ذلك دالاً على نبوّته .

قال القرطبي : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب ، واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل ، فأودعهم ما شاء من

غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى ، وينظر في الكف ، ويزجر بالطين ممن ارتضاه من رسول ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه .

وقال سعيد بن جبير : إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ هو جبريل ، وفيه بعد .

(101/786)

وقيل : المراد بقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يطلعه على بعض غيبه ، وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة ، وأحكام التكاليف ، وجزاء الأعمال ، وما يبينه من أحوال الآخرة ، لا ما لا يتعلق برسالته من الغيوب ، كوقت قيام الساعة ونحوه .

قال الواحدي : وفي هذا دليل على أن من ادّعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن .

قال في الكشاف : وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال للكهانة والتنجيم ؛ لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء ، وأدخله في السخط .

قال الرازي : وعندي لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه ، فتحمل على غيب واحد ، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله : ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ الآية .

فإن قيل : فما معنى الاستثناء حينئذٍ ؟ قلنا : لعله إذا قربت القيامة يظهره ، وكيف لا ؟ وقد قال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] فتعلم الملائكة حينئذٍ قيام القيامة ، أو هو استثناء منقطع أي : من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شرّ مردة الجنّ والإنس .

ويدلّ على أنه ليس المراد به لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات أنه ثبت ، كما يقارب التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين وقد عرّفا بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع إليهما كسرى .

فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات ، وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ، ويكون صادقاً فيها ، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان ، وسألها عن أمور مستقبلة ، فأخبرته بها ، فوقعت على وفق كلامها .

قال : وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل ، فكانت على وفق خبرها .

وبالغ أبو البركات في كتاب التعبير في شرح حالها وقال : فحصت عن حالها ثلاثين سنة ، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً .

وأيضاً فإنا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة ، وإن كانت قد تتخلف ، ولو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرّق الطعن إلى القرآن ، فيكون التأويل ما ذكرنا ، انتهى كلامه .

قلت : أما قوله إذ لا صيغة عموم في غيبه ، فباطل ، فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم ، كما صرّح به أئمة الأصول وغيرهم .

وأما قوله : أو هو استثناء منقطع ، فمجرّد دعوى يأباه النظم القرآني .

وأما قوله : إن شقاً وسطيحاً إلخ ، فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع ، ويلقون ما يسمعونه إلى الكهان ، فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت في الحديث الصحيح .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ [الصافات : 10] ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة ، وأنه كان طريقاً لبعض الغيب بواسطة استراق

الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية .

وقالوا : ﴿ وأَنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعدِ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [الجن : 98] فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية .

(103/786)

وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث " إن في هذه الأمة محدّثين ، وإن منهم عمر " فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا انقضاء لها ، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه .

فلو قلنا : إن القرآن يدلّ على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن ، فيقال له : ما هذه بأوّل زلة من زلاتك ، وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه ونظائر نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك ، يا عجباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرّق الطعن إلى القرآن ، وما

أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا :

وإذا رامت الذبابة للشم . . . س غطاء مدّت عليها جناحا

وقلت من أبيات :

مهب رياح سدّه بجناح . . . وقابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذن قد تقرّر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه ، فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر به بعض أمته ؟ قلت : نعم ، ولا مانع من ذلك .

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ما صحّ أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون إلى يوم القيامة ، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن ونحوها ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه ، وكذلك ما ثبت من أن حذيفة بن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحدث من الفتن بعده ، حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا إليه .

وثبت في الصحيح وغيره "أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر ، فقال : إن بينك وبينها باباً ، فقال عمر : هل يفتح أو يكسر ؟ فقال : بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب ، وأن كسره قتله" ، كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة : هل كان عمر يعلم ذلك ؟ فقال : نعم كان يعلم أن دون غد الليلة .

وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذرّ بما يحدث له ، وإخباره لعليّ بن أبي طالب بخبر ذي الثدية ، ونحو هذا مما يكثر تعدده ، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقلّ .

وإذا تقرّر هذا فلا مانع من أن يختصّ بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله ، وأظهرها رسوله لبعض أمته ، وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الرّباني بواسطة الجناب النبويّ .

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فقال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء ، والمعنى : أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين ، فتلقيه إلى الكهنة ، والمراد من جميع الجوانب .

قال الضحاك : ما بعث الله نبياً إلاّ ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا : هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك

قالوا : هذا رسول ربك .

قال ابن زيد : ﴿ رَّصَداً ﴾ ، أي : حفظة يحفظون النبيّ صلى الله عليه وسلم من أمامه ووراءه من الجنّ والشياطين .

قال قتادة ، وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة .

وقال الفراء : المراد جبريل .

قال في الصحاح : الرصد القوم يرصدون كالحرس يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث ، والرصد للشيء الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصداً ورصداً ، والترصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد .

(105/786)

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ اللام متعلق ب ﴿ يسلك ﴾ ، والمراد به : العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير أبلغوا يعود إلى الرصد .

وقال قتادة ، ومقاتل : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ،

وفيه حذف تتعلق به اللام ، أي : أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ .

وقيل : ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير .

وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم .

وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط .

وقال ابن قتيبة ، أي : ليعلم الجنّ أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل إليهم ، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم .

وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم .

قرأ الجمهور : ﴿ ليعلم ﴾ بفتح التحتية على البناء للفاعل .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد ، ويعقوب ، وزيد بن علي بضمها على البناء للمفعول ، أي : ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا .

وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، أي : ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً .

وقرأ ابن أبي عبلة ، والزهري بضم الياء وكسر اللام ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي : بما عنده الرصد من الملائكة ، أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد ، أي : والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال .

قال سعيد بن جبير : ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته ، ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ من جميع الأشياء التي كانت والتي ستكون ، وهو معطوف على أحاط ، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التمييز محوّلاً من المفعول به ، أي : وأحصى عدد كل شيء ، كما في قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية ، أو في موضع الحال : معدوداً ، والمعنى : أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال ، بل على وجه التفصيل ، أي : أحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ﴿ القاسطون ﴾ العادلون عن الحقّ .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة ﴾ قال : أقاموا ما أمروا به ﴿ لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ قال : معيناً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن السديّ قال : قال عمر : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ قال : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ قال : لنبتليهم به .

وفي قوله : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ قال : شقة من العذاب يصعد فيها .

وأخرج هناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ قال : حبلاً في جهنم .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ قال : لا راحة فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلاّ مسجد الحرام ومسجد إيلياء ببيت المقدس .

(107/786)

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال : "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة إلى نواحي مكة ، فخط لي خطاً ، وقال : "لا تحدثن شيئاً حتى آتيك ، ثم قال : لا يهولنك شيئاً تراه" ، فتقدم شيئاً ؛ ثم جلس ، فإذا رجال سود كأنهم رجال الزطّ ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : لما سمعوا النبي صلى الله عليه

وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ، ودنوا منه ، فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول ، فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه أيضاً في الآية قال : "لما أتى الجنّ إلى رسول الله ، وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ، ويسجدون بسجوده ، فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم : لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً" .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ لَّمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ أي : يدعو الله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ قال : أعواناً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ قال : أعلم الله الرسول من الغيب الوحي ، وأظهره عليه مما أوحي إليه من غيبه ، وما يحكم الله ، فإنه لا يعلم ذلك غيره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ رَّصَداً ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى تبين الذي أرسل إليهم به ، وذلك حتى يقول أهل الشرك : قد أبلغوا رسالات ربهم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلاّ ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها ، حتى يؤدّوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قرأ : ﴿ عالم الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ يعني : الملائكة الأربعة ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 307.314 ﴾

(109/786)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) ﴾

كان المشركون يكثرون أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [النمل : 71] ، و ﴿ عن الساعة أيان مرساها ﴾ الأعراف : 187] ، وتكررت نسبة ذلك إليهم في في القرآن ، فلما قال الله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً ﴾ [الجن : 24] الآية عِلم أنهم سيعيدون ما اعتادوا قوله من السؤال عن وقت حلول الوعيد فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعيد عليهم ما سبق من

جوابه .

فجملة ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن القول المأمور بأن يقوله جواب لسؤالهم المقدر .

والأمد : الغاية وأصله في الأمكنة .

ومنه قول ابن عمر في حديث "الصحيحين" : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقَ بين الخيل التي لم تُضَمَّر وجعل أمدَها ثنيةَ الوداع " (أي غاية المسابقة) .

ويستعار الأمد لمدة من الزمان معينة قال تعالى : ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ [الحديد : 16] وهو كذلك هنا .

ومقابلته ب"قريب" يفيد أن المعنى أم يجعل له أمداً بعيداً .

وجملة ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ في موضع العلة لجملة ﴿ إن أدري أقريب ما توعدون ﴾ الآية .

و﴿ عالم الغيب ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم الغيب والضمير المحذوف عائد إلى قوله ﴿ ربي ﴾ .

وهذا الحذف من قبيل حذف المسند إليه حذفاً اتُّبع فيه الاستعمال إذا كان الكلام قد اشتمل على ذكر المسند إليه وصفاته كما نبه عليه السكاكي في "المفتاح" .

و﴿ الغيب ﴾ : مصدر غاب إذا استتر وخفي عن الأنظار وتعريفه تعريف الجنس .

وإضافة صفة ﴿ عالم ﴾ إلى ﴿ الغيب ﴾ تفيد العلم بكل الحقائق المغيبة سواء كانت ماهيات أو أفراداً فيشمل المعنى المصدري للغيب مثل علم الله بذاته وصفاته ، ويشمل الأمور الغائبة بذاتها مثل الملائكة والجن .

(110/786)

ويشمل الذوات المغيبة عن علم الناس مثل الوقائع المستقبلة التي يخبر عنها أو التي لا يخبر عنها ، فإيثار المصدر هنا لأنه أشمل لإحاطة علم الله بجميع ذلك .

وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة البقرة (3) .

وتعريف المسند مع تعريف المسند إليه المقدر يفيد القصر ، أي هو عالم الغيب لا أنا .

وفرع على معنى تخصيص الله تعالى بعلم الغيب جملة فلا يُظْهر على غيبه أحداً ﴾ ، فالفاء لتفريع حكم على حكم والحكم المفرع إتمام للتعليل وتفصيل لأحوال عدم الاطلاع على غيبه .

ومعنى ﴿ لا يظهر على غيبه أحداً ﴾ : لا يُطلع ولا ينبىء به ، وهو أقوى من يطلع لأن ﴿ يظهر ﴾ جاء من الظهور وهو المشاهدة ولتضمينه معنى : يطلع ، عدي بحرف ﴿ على ﴾ .

ووقوع الفعل في حيّز النفي يفيد العموم ، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيّزه يفيد العموم .

وحرف ﴿ على ﴾ مستعمل في التمكن من الاطلاع على الغيب وهو كقوله تعالى ﴿ وأظهره الله عليه ﴾

[التحريم : 3] فهو استعلاء مجازي .

واستثنى من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب ، أي على غيب أراد الله إظهاره من الوحي فإنه من غيب الله ، وكذلك ما أراد الله أن يؤيد به رسوله صلى الله عليه وسلم من إِخبار بما سيحدث أو إطلاع على ضمائر بعض الناس .

فقوله : ﴿ ارتضى ﴾ مستثنى من عموم ﴿ أحداً ﴾ .

والتقدير : إلاّ أحداً ارتضاه ، أي اختاره للاطلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها الله تعالى .

(111/786)

والإِتيان بالموصول والصلة في قوله : ﴿ إلاّ مَن ارتضَى مِن رسول ﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من الإِيماء إلى تعليل الخبر ، أي يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى

النّاس ، فيُعْلم من هذا الإِيمان أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة ، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه أو أن يفعلوه ، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة ، أو أمور الدنيا ، وما يؤيد به الرسل عن الإِخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ [الروم : 24] .

والمراد بهذا الإِطلاعُ المحقق المفيد علماً كعلم المشاهدة .

فلا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح صدر بالرؤيا الصادقة ، ففي الحديث : " الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوءة ، أو بالإِلهام " قال النبي صلى الله عليه وسلم " قد كان يكون في الأمم قبلكم محدّثون فإن يَكُنْ في أمتِي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم " رواه مسلم .

قال مسلم : قال ابن وهب : تفسير محدثون : ملهمون .

وقد قال مالك في الرؤيا الحسنة : أنها تسرُّ ولا تغرُّ ، يريد لأنها قد يقع الخطأ في تأويلها .

و﴿ مِن رسول ﴾ بيان لإِبهام ﴿ مَنْ ﴾ الموصولة ، فدل على أن مَا صْدَقَ ﴿ مَن ﴾ جماعةٌ من الرسل ، أي إلاّ الرسل الذين ارتضاهم ، أي اصطفاهم .

وشمل ﴿ رسول ﴾ كلّ مرسل من الله تعالى فيشمل الملائكة المرسلين إلى الرسل بإبلاغ وحي إليهم مثل جبريل عليه السلام .

وشمل الرسل من البشر المرسلين إلى الناس بإبلاغ أمر الله تعالى إليهم من شريعة أو غيرها مما به صلاحهم .

وهنا أربعة ضمائر غيبة:

الأول ضمير ﴿ فإنه ﴾ وهو عائد إلى الله تعالى .

والثاني الضمير المستتِر في ﴿ يسلك ﴾ وهو لا محالة عائد إلى الله تعالى كما عاد إليه ضمير ﴿ فإنه ﴾ .

(112/786)

والثالث والرابع ضميرَا ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ، وهما عائدان إلى ﴿ رسول ﴾ أي فإن الله يسلك أي يرسل للرسول رصَداً من بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً ، أي ملائكة يحفظون الرسول صلى الله عليه وسلم من إلقاء الشياطين إليه ما يخلط عليه ما أطلعه الله عليه من غيبه .

والسّلْك حقيقته : الإدخال كما في قوله تعالى : ﴿ كذلك نسْلكه في قلوب المجرمين ﴾ في سورة الحجر (12) .

وأطلق السَّلك على الإيصال المباشر تشبيهاً له بالدخول في الشيء بحيث لا مصرف له عنه

كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذاباً صعَداً ﴾ [الجن : 17] أي يرسل إليه ملائكة متجهين إليه لا يبتعدون عنه حتى يَبْلُغَ إليه ما أُوحي إليه من الغيب ، كأنّهم شبه اتصالهم به وحراستهم إياه بشيء داخل في أجزاء جسم .

وهذا من جملة الحفظ الذي حفظ الله به ذكره في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذّكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

والمراد بـ ﴿ مِن بين يديه ومن خلفه ﴾ الكناية عن جميع الجهات ، ومن تلك الكناية ينتقل إلى كناية أخرى عن السلامة من التغيير والتحريف .

والرصد : اسم جمع كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ يجد له شهاباً رصداً ﴾ [الجن : 9] .

وانتصب ﴿ رصداً ﴾ على أنه مفعول به لفعل ﴿ يسلك .

ويتعلق ليعلم ﴾ بقوله : ﴿ يسلك ، ﴾ أي يفعل الله ذلك ليبلّغ الغيب إلى الرسول كما أرسل إليه لا يخالطه شيء مما يلبس عليه الوحي فيعلم الله أن الرسُل أبلغوا ما أوحي إليه كما بعثَه دون تغيير ، فلما كان علم الله بتبليغ الرسول الوحي مفرعاً ومسبباً عن تبليغ الوحي كما أنزل الله ، جعل المُسَبب علّة وأقيم مقام السَّبب إيجازاً في الكلام لأن علم الله بذلك لا يكون إلاّ على وفق ما وقع ، وهذا كقول إياس بن قبيصة:

وأقبلتُ والخطّيُّ يخطِر بيننَا . . .

لأعلَمَ مَنْ جَبَانُها مِن شجاعها

أي ليظهر من هو شجاع ومن هو جبان فأعلمَ ذلك .

(113/786)

وهذه العلة هي المقصد الأهم من اطلاع من ارتضى من رسول على الغيب ، وذكر هذه العلة لا يقتضي انحصار علل الاطلاع فيها .

وجيء بضمير الإِفراد في قوله : ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ مراعاة للفظ ﴿ رَسول ، ﴾ ثم جيء له بضمير الجمع في قوله : ﴿ أن قد أبلغُوا ﴾ مراعاة لمعنى رسول وهو الجنس ، أي الرسل على طريقة قوله تعالى السابق آنفاً ﴿ فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ [الجن : 23] .

والمراد : ليَعلم الله أن قد أبلغوا رسالات الله وأدوا الأمانة علماً يترتب عليه جزاؤهم الجزيل .

وفهم من قوله : ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ أن الغيب المتحدث عنه في هذه الآية هو الغيب المتعلق بالشريعة وأصولها من البعثِ والجزاء ، لأن الكلام المستثنى منه هو نفي علم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرب ما يوعدون به أو بعده وذلك من علائق الجزاء

والبعث .

ويلحق به ما يوحى به إلى الأنبياء الذين ليسوا رسلاً لأن ما يوحى إليهم لا يخلو من أن يكون تأييداً لشرع سابق كأنبياء بني إسرائيل والحواريين أو أن يكون لإِصلاح أنفسهم وأهليهم مثل آدم وأيوب .

واعلم أن الاستثناء من النفي ليس بمقتض أن يثبت للمستثنى جميع نقائض أحوال الحكم الذي للمستثَنى منه ، بل قصارى ما يقتضيه أنه كالنقض في المناظرة يحصل بإثبات جزئي من جزئيات ما نفاه الكلام المنقوص ، فليس قوله تعالى : ﴿ إلاّ من ارتضى من رسول ﴾ بمقتض أن الرسول يطلع على جميع غيب الله ، وقد بين النوع المطلع عليه بقوله : ﴿ ليَعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وقرأ رويس عن يعقوب ليُعلم ﴾ بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول على أنّ ﴿ أنْ قد أبلغوا ﴾ نائب عن الفاعل ، والفاعل المحذوف حذف للعلم به ، أي ليعلَم الله أن قد أبلغوا .

(114/786)

الواو واو الحال أو اعتراضية لأن مضمونها تذييل لجملة ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ﴾ أي أحاط بجميع ما لدى الرسل من تبليغ وغيره ، وأحاط بكل شيء مما عدا

ذلك ، فقوله : ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ تعميم بعد تخصيص ما قبله بعلمِه بتبليغهم ما أرسل إليهم ، وقوله : ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ تعميم أشمل بعد تعميمٍ مَّا .

وعبر عن العلم بالإِحصاء على طريق الاستعارة تشبيهاً لعلم الأشياء بمعرفة الأعداد لأن معرفة الأعداد أقوى ، وقوله : ﴿ عدداً ﴾ ترشيح للاستعارة .

والعدد : بالفك اسم لمعدود وبالإدغام مصدر عَدّ ، فالمعنى هنا : وأحصى كل شيء معدوداً ، وهو نصب على الحال ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ وعدَّهم عَدّاً ﴾ [مريم : 94] .

وفرق العرب بين المصدر والمفعول لأن المفعول أوغل في الاسمية من المصدر فهو أبعد عن الإِدغام لأن الأصل في الإِدغام للأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(115/786)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر والحاكم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : أحيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، فقالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانصرف أولئك الذين ذهبوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ فأنزل الله على نبيه ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن .

(116/786)

وأخرج ابن المنذر عن عبد الملك قال : لم تحرس الجن في الفترة بين عيسى ومحمد ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم حرست السماء الدنيا ورميت الجن بالشهب فاجتمعت إلى إبليس فقال : لقد حدث في الأرض حدث فتعرفوا فأخبرونا ما هذا الحدث ؟ فبعث هؤلاء النفر إلى تهامة وإلى جانب اليمن وهم أشراف الجن وسادتهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الغداة بنخلة ، فسمعوه يتلوا القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى يعني بذلك أنه فرغ من صلاة الصبح ولوا إلى قومهم منذرين مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ يقال : سبعة من أهل نصيبين .

وأخرج ابن الجوزي في كتاب صفوة الصفوة بسنده عن سهل بن عبد الله قال : كنت في ناحية ديار عاد إذ رأيت مدينة من حجر منقورة في وسطها قصر من حجارة تأويه الجن ، فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي نحو الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة ، فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ، وقال : يا سهل إن الأبدان لا تخلق الثياب ، وإنما يخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت ، وإن هذه الجبة عليَّ منذ سبعمائة سنة لقيت بها عيسى ومحمداً عليهما السلام ، فآمنت بهما فقلت له : ومن أنت ؟ قال : أنا من الذين نزلت فيهم ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ قال : كانوا من جن نصيبين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ قال : الأمر وعظمته .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قال : أمره وقدرته .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ قال : عظمته . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت الشاعر وهو يقول :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا . . . ولا شيء أعلى منك جداً وأمجدا

(117/786)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس قال : لو علمت الجن أية يكون في الإِنس ما قالوا ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ قال : غنى ربنا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ قال : تعالت عظمته .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ قال : جلال ربنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قال : ذكره ، وفي قوله : ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ قال : هو إبليس .

وأخرج ابن مردويه والديلمي بسند واه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ قال : إبليس .

وأخرج عبد بن حميد عن عثمان بن حاضر مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ﴾ قال : عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإِنس .

وأخرج عبد بن حميد عن علقمة أنه كان يقرأ التي في الجن والتي في النجم وأن وأنه بالنصب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في الضعفاء والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن كردم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي ، فقال : يا عامر الوادي أنا جار دارك ، فنادى منادٍ لا تراه يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ، وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي من بني تميم قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رعيت على أهلي وكفيت مهنتهم ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض ، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا : إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة ، فقلنا ذاك ، فقيل لنا : إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن أقرّ بها أمن على دمه وماله ، فرجعنا فدخلنا في الإِسلام قال أبو رجاء : إني لأرى هذه الآية نزلت فيّ وفي أصحابي ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإِبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس أن رجلاً من بني تميم كان جريئاً على الليل والرجال ، وأنه سار ليلة فنزل في أرض مجنة ، فاستوحش ، فعقل راحلته ، ثم توسد ذراعيها وقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر أهله ، فأجاره شيخ منهم ، وكان منهم شاب وكان سيداً في الجن ، فغضب الشاب لما أجاره الشيخ ، فأخذ حربة له قد سقاها السم لينحر ناقة الرجل بها فتلقاه الشيخ دون الناقة فقال :

يا مالك بن مهلهل . . . مهلاً فذلك محجري وإزاري

عن ناقة الإِنسان لا تعرض لها . . . واختر إذا ورد المها أثواري

إني ضمنت له سلامة رحله . . . فاكفف يمينك راشداً عن جاري

ولقد أتيت إلى ما لم أحتسب . . . إلا رعيت قرابتي وجواري

تسعى إليه بحربة مسمومة . . . أفّ لقربك يا أبا اليقطاري

لولا الحياء وان أهلك جيرة . . . لتمزقتك بقوة أظفاري

فقال له الفتى :

أتريد أن تعلوا وتخفض ذكرنا . . . في غير مزرية أبا العيزار

متنحلاً أمراً لغيرك فضله . . . فارحل فإن المجد للمرار

من كان منكم سيداً فيما مضى . . . إن الخيار هم بنو الأخيار

فاقصد لقصدك يا معيكر إنما . . . كان المجير مهلهل بن وبار

(119/786)

فقال الشيخ : صدقت كان أبوك سيدنا وأفضلنا ، دع هذا الرجل لا أنازعك بعده أحداً ، فتركه ، فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فقص عليه القصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أصاب أحداً منكم وحشة ، أو نزل بأرض مجنة فليقل : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن فتن الليل ، ومن طوارق النهار إلا طارقاً يطرق

بخير " فأنزل الله في ذلك ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ قال أبو نصر : غريب جداً لم نكتبه إلا من هذا الوجه .

وأخرج الخرائطي في كتاب الهواتف عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن رجلاً من بني تميم يقال له : رافع بن عمير حدث عن بدء إسلامه قال : إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذا غلبني النوم فنزلت عن راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت : أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت رجلاً في منامي بيده حربة يريد أن يضعها في نحر ناقتي ، فانتبهت فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً ، فقلت : هذا حلم . ثم عدت فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً ، فإذا ناقتي ترعد .

(120/786)

ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب ، والتفتّ فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيته في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها فبينما هما يتنازعان ، إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى : قم فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإِنسي . فقام الفتى فأخذ منها ثوراً عظيماً وانصرف ، ثم التفت إلى الشيخ وقال : يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل : أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ،

ولا تعذ بأحد من الجن ، فقد بطل أمرها . فقلت له : ومن محمد هذا ؟ قال : نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الأثنين . قلت : فأين مسكنه ؟ قال : يثرب ذات النخل . فركبت راحلتي حين برق الصبح وجددت السير حتى أتيت المدينة ، فرآني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئاً ودعاني إلى الإِسلام فأسلمت .

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه : وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن ﴾ قال : كان رجال من الإِنس يبيت أحدهم في الجاهلية بالوادي فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادي ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ قال : إثماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن ﴾ قال : كان أحدهم إذا نزل الوادي يقول : أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيأمن في نفسه ليلته أو يومه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن ﴾ قال : كانوا يقولون إذا هبطوا وادياً : نعوذ بعظيم هذا الوادي ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ قال : زادوا الكفار طغياناً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن ﴾ قال : كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قالوا : نعوذ بعزيز هذا المكان ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ يقول : خطيئة وإثماً .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ قال : كان القوم إذا نزلوا وادياً قالوا : نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقالوا : نحن لا نملك لنا ولا لكم ضراً ولا نفعاً ، وهؤلاء يخافونا فاحتووا عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس ﴿ وأنه كان رجال من الإِنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ قال : كانوا يقولون : فلان رب هذا الوادي من الجن ، فكان أحدهم إذا دخل ذلك الوادي يعوذ برب الوادي من دون الله ، فيزيده بذلك ﴿ رهقاً ﴾ أي خوفاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : إن ناساً في الجاهلية كانوا إذا أتو وادياً للجن ناد منادي الإِنس إلى خيار الجن أن احبسوا عنا سفهاءكم فلم يغنهم ما وعظوا به ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه فلا يكونون بشيء أشد ولعاً منهم بهم ، فذلك قوله : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق معاوية بن قرة عن أبيه قال : ذهبت لأسلم حين بعث الله محمداً مع رجلين أو ثلاثة في الإِسلام ، فأتيت الماء حيث يجتمع الناس ، فإذا الناس براعي القرية الذي يرعى لهم أغنامهم ، فقال : لا أرعى لكم أغنامكم . قالوا : لم ؟ قال : يجيء الذئب كل ليلة يأخذ شاة وصنمكم هذا راقد لا يضر ولا ينفع ولا يقر ولا ينكر ، فذهبوا وأنا أرجو أن يسلموا ، فلما أصبحنا جاء الراعي يشتد يقول : البشرى البشرى قد جيء بالذئب وهو مقموط بين يدي الصنم بغير قماط ، فذهبوا وذهبت معهم فقتلوه وسجدوا له ، وقالوا : هكذا فاصنع ، فدخلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، فحدثته هذا الحديث فقال : لعب بهم الشيطان .

أخرج عبد بن حميد في قوله : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ قال : كانت الجن تسمع سمع السماء فلما بعث الله محمداً حرست السماء ومنعوا ذلك ، فتفقدت الجن ذلك من أنفسها . قال : وذكر لنا أن أشراف الجن كانوا بنصيبين من أرض الموصل فطلبوا وصوبوا النظر حتى سقطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي بأصحابه عامداً إلى عطاظ .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في دلائل النبوة عن ابن عباس قال : كان الشياطين لهم مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمي بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض .

(123/786)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي ، فبينما هم كذلك إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فدحرت الشياطين من السماء ورموا بالكواكب ، فجعل لا يصعد أحد منهم إلا احترق ، وفزع أهل الأرض لما رأوا من الكواكب ولم يكن قبل ذلك ، وقال إبليس : حدث في الأرض حدث فأتى من كل أرض بتربة فشمها ، فقال لتربة تهامة : هنا حدث الحدث فصرف إليه نفراً من الجن فهم

الذين استمعوا القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وكانوا يقعدون منها مقاعد للسمع ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم حرست السماء شديداً ورجمت الشياطين ، فانكروا ذلك ، فقالوا : ﴿ لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ فقال إبليس : لقد حدث في الأرض حدث ، فاجتمعت إليه الجن ، فقال : تفرقوا في الأرض فأخبروني ما هذا الحدث الذي حدث في السماء ؟ وكان أول بعث بعث ركب من أهل نصيبين ، وهم أشراف الجن وساداتهم ، فبعثهم إلى تهامة ، فاندفعوا حتى بلغوا الوادي وادي نخلة فوجدوا نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الغداة ، ولم يكن نبي الله صلى الله عليه وسلم علم أنهم استمعوا إليه ، وهو يقرأ القرآن ، فلما قضى يقول : لما فرغ من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين يقول : مؤمنين .

وأخرج الواقدي وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عمرو قال : لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من السماء ورموا بالشهب .

وأخرج الواقدي وأبو نعيم عن أبيّ بن كعب قال : لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الزهري قال : إن الله حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم ، انقطعت الكهنة فلا كهانة .

(124/786)

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ قال : حرست به السماء حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم لكيلا يسترق السمع ، فأنكرت الجن ذلك ، فكان كل من استمع منهم قذف .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت الجن قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون من السماء ، فلما بعث حرست فلم يستطيعوا فجاؤوا إلى قومهم يقولون للذين لم يستمعوا فقالوا : ﴿ إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً ﴾ وهم الملائكة ﴿ وشهباً ﴾ وهي الكواكب ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ يقول : نجماً قد أوصد له يرمي به . قال : فلما رموا بالنجم قالوا لقومهم : ﴿ أنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ يجد له شهاباً ﴾ قال : من النجوم ﴿ رصداً ﴾ قال : من الملائكة وفي قوله : ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ قالوا : لا

ندري لم بعث هذا النبي لأن يؤمنوا به ويتبعوه فيرشدوا أو لأن يكفروا به ويكذبوه فيهلكوا كما هلك من قبلهم من الأمم والله أعلم .

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ يقول : منا المسلم ومنا المشرك ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ قال : أهواء شتى .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى : ﴿ طرائق قدداً ﴾ قال : المنقطعة في كل وجه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الشاعر وهو يقول :

ولقد قلت وزيد حاسر . . . يوم ولت خيل زيد قدداً

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ قال : أهواء مختلفة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ قال : مسلمين وكافرين .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن السدي في قوله : ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ يعني الجن هم مثلكم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ الآية ، قالوا : لن نمتنع منه في الأرض ولا هرباً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ قال : لا يخاف نقصاً من حسناته ﴿ ولا رهقاً ﴾ ولا أن يحمل عليه ذنب غيره .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومنا القاسطون ﴾ قال : العادلون عن الحق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ومنا القاسطون ﴾ قال : هم الظالمون .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ومنا القاسطون ﴾ قال : هم الجائرون ، وفي قوله : ﴿ وأَلَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ قال : لو آمنوا كلهم ﴿ لأسقيناهم ﴾ لأوسعنا لهم من الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وأَلَّوِ استقاموا على الطريقة ﴾ قال : أقاموا ما أمروا به ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ قال : معيناً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ وأَلَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ﴾ الآية ، قال : يقول لو استقاموا على طاعة الله وما أمروا به لأكثر الله لهم من الأموال حتى

يغتنوا بها ، ثم يقول الحسن : والله إن كان أصحاب محمد لكذلك ، كانوا سامعين لله مطيعين له ، فتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ، فتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وأَلَّوِ استقاموا على الطريقة ﴾ قال : طريقة الإِسلام ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ قال : لأعطيناهم مالاً كثيراً .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ ماء غدقاً ﴾ قال : كثيراً جارياً . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر يقول :

تدني كراديس ملتفاً حدائقها . . . كالنبت جادت به أنهارها غدقاً

(126/786)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السري قال : قال عمر ﴿ وأَلَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ قال : لأعطيناهم مالاً كثيراً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ قال : كثيراً ، والماء المال .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ ماء غدقاً ﴾ قال : عيشاً رغداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ قال : لنبتليهم به . وفي قوله : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ قال : مشقة العذاب يصعد فيها .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ قال : لنبتليهم حتى يرجعوا إلى ما كتب عليهم وفي قوله : ﴿ عذاباً صعداً ﴾ قال : مشقة من العذاب .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يسلكه عذاباً صعداً ﴾ قال : جبلاً في جهنم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ عذاباً صعداً ﴾ قال : صعوداً من عذاب الله لا راحة فيه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ عذاباً صعداً ﴾ قال : صعوداً من عذاب الله لا راحة فيه .

وأخرج هناد عن مجاهد وعكرمة في قوله : ﴿ عذاباً صعداً ﴾ قال : مشقة من العذاب .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " يسلكه " بالياء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك

الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قالت الجن للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك ؟ أو كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأن المساجد لله ﴾ الآية .

(127/786)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ الآية ، قال : إن اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بربهم ، فأمرهم أن يوحدوه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخلص الدعوة لله إذا دخل المسجد .

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة إلى نواحي مكة فخط لي خطاً وقال : " لا تحدثن شيئاً حتى آتيك " ، ثم

قال : " لا يهولنك شيء تراه " . فتقدم شيئاً ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزطّ ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنه لما قدم عبد الله كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ قال : لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام مثله .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ قال : لما أتى الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه له ، فقالوا لقومهم : ﴿ لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ أي يدعو إليه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ قال : لما قام نبي الله صلى الله عليه وسلم تلبدت الإِنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناوأه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ قال : لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا إله إلا الله ، ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ قال : أعواناً .

وأخرج عبد بن حميد من طريق أبي بكر عن أبي عاصم أنه قرأ ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾ بكسر اللام ونصب الباء وفي ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ﴿ مالاً لبداً ﴾ [البلد : 6] برفع اللام ونصب الباء ، وفسرها أبو بكر فقال : (لبداً) كثيراً و (لبداً) بعضها على بعض .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ قل إنما أدعو ربي ﴾ بغير ألف .

وأخرج ابن جرير عن حضرمي . قال : ذكر لنا أن جنياً من الجن من أشرافهم ذا تبع قال : إنما يريد محمد أن نجيره وأنا أجيره فأنزل الله ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن حتى أتى الحجون فخط علي خطاً ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه فقال سيدهم ، يقال له وردان : الا أرجلهم عنك يا رسول الله ؟ قال : ﴿ إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله : ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ قال : ملجأ .

(129/786)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ قال : ملجأ ولا نصيراً إلا بلاغاً من الله ورسالاته . قال : هذا الذي يملك بلاغاً من الله ورسالاته ، وفي قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ قال : فإنه إذا ارتضى الرسول اصطفاه ، وأطلعه على ما شاء من غيبه وانتخبه .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ قال : أعلم الله الرسل من الغيب الوحي وأظهرهم عليه فيما أوحي إليهم من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره .

وأخرج ابن حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظونه من الشيطان حتى يبين الذي أرسل إليهم به ، وذلك حين يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن مردويه عن عباس قال : ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الأملاك يحفظونها حتى يؤدوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قرأ ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ يعني الملائكة الأربعة ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلقى الشيطان في أمنيته يدنون منه فلما ألقى الشيطان في أمنيته أمرهم أن يتنحوا عنه قليلاً ليعلم أن الوحي إذا نزل من عند الله .

(130/786)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ليعلم محمد ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ قال : وما جاء جبريل إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال : الملائكة يحفظونه من الجن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه نفراً من الملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان على صورة الملك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ قال : يظهره من الغيب على ما شاء إذا ارتضاه وفي قوله : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ قال : من الملائكة وفي قوله : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الله حفظها ودفع عنها .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ ليعلم ﴾ قال : ليعلم ذلك من كذب الرسل

﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 296 .

310 ﴾

(131/786)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾

يعني : قل يا محمد أوحى الله إلي ، وأخبرني الله تعالى في القرآن .

﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ ، وهم تسعة من أهل نصيبين ، من أهل اليمن ، من أشرافهم .

والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين السماء أي : بين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فقالوا : ما هذا إلا لشيء حدث ؛ فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء .

فوجدوا النفر الذين خرجوا نحو تهامة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة ، وهو

يصلي مع أصحابه صلاة الفجر ، فاستمعوا منه ، فقالوا : هذا والله الذي حال بيننا وبين خبر السماء .

فرجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرشد ﴾ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾ يعني : طائفة وجماعة من الجن ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ يعني : قالوا بعدما رجعوا إلى قومهم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ﴾ يعني : عزيزاً شريفاً كريماً ، ويقال : عزيزاً لا يوجد مثله .

﴿ يَهْدِي إِلَى الرشد ﴾ يعني : يدعو إلى الهدى ، وهو الإسلام .

ويقال : إلى الصواب ، والتوحيد ، والأمر والنهي .

ويقال : يدل على الحق .

﴿ يَهْدِي إِلَى ﴾ يعني : صدقنا بالقرآن .

ويقال : آمنا بالله تعالى .

﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ يعني : إبليس ، يعني : لن نشرك بعبادته أحداً من خلقه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي : ارتفع عظمة ربنا ؛ ويقال : ارتفع ذكره ، ويقال : ارتفع ملكه وسلطانه .

﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ يعني : لم يتخذ زوجة ولا ولداً ، كما زعم الكفار .

واتفق القراء في قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ ﴾ على نصب الألف ، لأن معناه قل : أوحي إلي بأنه استمع .

واتفقوا في قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ على الكسر ، لأنه على معنى الابتداء .

واختلفوا فيما سوى ذلك .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر كلها بالنصب بناء على قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ ، إلا في حرفين أحدهما ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ بالكسر ، والأخرى قوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ بالكسر على معنى الابتداء .

وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير كلها بالكسر ، إلا في أربعة أحرف : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع ﴾ ، ﴿ وَإِنَّ لُوطاً استقاموا ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ المساجد ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ، ونافع في إحدى الروايتين هكذا ، إلا في قوله وأنه لما قام عبد الله وإنما اختاروا الكسر لهذه الأحرف ، بناء على قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ وقال أبو عبيد : ما كان من قول الجن ، فهو كسر ، ومعناه وقالوا : إنه تعالى وقالوا : ﴿ إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴾ وما كان محمولاً على قوله أوحى فهو نصب على معنى أوحي إلي أنه ثم قال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ يعني : جاهلنا يعني : إبليس لعنه الله ويقال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ

سَفِيهُنَا ﴾ يعني : كفرة الجن .

﴿ عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ يعني : كذباً وجوراً من المقال .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ يعني : حسبنا ﴿ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ والجن عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ يعني نتوهم أن أحداً لا يكذب على الله ، وإلى ها هنا حكاية كلام الجن .

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ ﴾ يعني : في الجاهلية ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ ، وذلك أن الرجل إذا نزل في فضاء من الأرض ، كان يقول أعوذ بسيد هذا الوادي ، فيكون في أمانهم تلك الليلة .

(133/786)

﴿ فَزَادوهُمْ رَهَقاً ﴾ يعني : زادوا للجن عظمة وتكبروا ، ويقولون : بلغ من سُؤُدُدنا أن الجن والإنس يطلبون منا الأمان ، ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ يعني : كفار الجن حسبوا كما حسبتم يا أهل مكة ، ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ﴾ يعني : بعد الموت ، يعني : إنهم كانوا غير مؤمنين ، كما أنكم لا تؤمنون .

ويقال : إنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً يعني : رسولاً .

فقد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم .

ثم رجع إلى كلام الجن ، فقال : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ يعني : صعدنا وأتينا السماء لاستراق السمع .

﴿ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً ﴾ يعني : حفاظاً أقوياء من الملائكة .

﴿ وَشُهُباً ﴾ يعني : رُمينا نجماً متوقداً .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ يعني : كنا نقعد فيما مضى للاستماع من الملائكة ، ما يقولون فيما بينهم من الكوائن .

﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الان يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ يعني : نجماً مضيئاً .

والرصد : الذي أرصد للرجم يعني : النجم .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر قال : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم .

قلت : أفرأيت قوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الان يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ قال : غلظ وشدد أمرها حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الجن بعضهم لبعض : ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأرض ﴾ ؟ يعني : يبعثه فلم يؤمنوا فيهلكوا ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ ؟ يعني : خيراً وصواباً ، فيؤمنوا ويهتدوا .

ويقال : لا ندري أخيراً أريد بأهل الأرض أو الشر حين حرست السماء ، ورُمينا بالنجوم ، وَمُنعنا السمع ؟ ويقال : أريد عذاباً بمن في الأرض ، بإرسال الرسول بالتكذيب له ، أو أراد

بهم ربهم خيراً ببيان الرسول لهم هدى وبياناً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ يعني : الموحدين والمسلمين .

(134/786)

﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعني : ليسوا بموحدين .

﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ يعني : فينا أهواء مختلفة وملل شتى .

وقال القتبي : يعني : فرقاً مختلفة ، وكل فرقة قدة مثل القطعة في التقدير ، والطرائق : جمع الطريق .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ يعني : علمنا وأيقنا ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِى الأرض ﴾ يعني : لا يفوت أحد من الله تعالى .

﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ ، لا يقدر الهرب منه .

قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ يعني : القرآن يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ بِهِ إِنَّهُ ﴾ يعني : صدقنا بالقرآن ؛ ويقال : بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ ويقال : صدقنا بالله تعالى ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ ﴾ قال بعضهم هذا من كلام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم فمن يصدق بوحدانية الله تعالى ، ﴿ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً ﴾ يعني : نقصاناً من

ثواب عمله ، ﴿ وَلاَ رَهَقاً ﴾ يعني : ذهاب عمله .

وهذا كقوله تعالى ﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ [طه : 112]

ويقال : هذا كلام الجن بعضهم لبعض ، ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ .

والرهق : الظلم أن يجعل ثواب عمله لغيره .

والبخس النقصان من ثواب عمله .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ يعني : المصدقين بوحدانية الله تعالى ، ﴿ وَمِنَّا القاسطون ﴾ يعني : العادلين عن طريق الهدى ؛ ويقال : ﴿ القاسطون ﴾ يعني : الجائرين .

يقال : قسط الرجل ، إذا جار .

وأقسط ، إذا عدل .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ يعني : أقر بوحدانية الله تعالى وأخلص بالتوحيد له ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ يعني : نوراً وتمنوا وقصدوا ثواباً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا القاسطون ﴾ يعني : العادلين عن الطريق ، الجائرين ، ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ يعني : وقوداً قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَوطاً استقاموا عَلَى الطريقة ﴾ .

قال مقاتل : لو استقاموا على طريقة الهدى ، يعني : أهل مكة ، ﴿ لاسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ يعني : كثيراً من السماء ، كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءَامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مِّنَ السمآء والأرض ولكن كَذَّبُواْ فأخذناهم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96] ثم قال عز وجل : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ يعني : لنبتليهم به ، كقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] الآية .

وقال قتادة : ﴿ وَإِنَّ لَوطاً استقاموا عَلَى الطريقة ﴾ ، يعني : آمنوا لوسّع الله عليهم الرزق ؛ وقال القتبي : هذا مثل ضربه الله تعالى للزيادة في أموالهم ومواشيهم ، كقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ يعني : توحيد ربه ؛ ويقال : يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ يعني : يكلفه الصعود على جبل أملس .

وقال مقاتل : ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ أي : شدة العذاب .

وقال القتبي : يعني : شاقاً ؛ وقال قتادة : صعوداً من عذاب الله تعالى ، لا راحة فيه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ .

قال الحسن : يعني : الصلاة لله تعالى ؛ وقال قتادة : كانت اليهود والنصارى يدخلون كنائسهم ، ويشركون بالله تعالى .

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخلص الدعوة له إذا دخل المسجد .

وقال القتبي : قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ يعني : السجود لله .

ويقال : هي المساجد بعينها يعني : بنيت المساجد ، ليعبدوا الله تعالى فيها .

(136/786)

﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ يعني : لا تعبدوا أحداً غير الله تعالى .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ بالياء ، والباقون بالنون ، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد .

يقال : سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته ، إذا أدخلته .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم لما قام إلى الصلاة ببطن نخلة .

﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يعني : يصلي لله تعالى ، ويقرأ كتابه .

﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ يعني : يركب بعضهم بعضاً ، ويقع بعضهم على بعض .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ .

قرأ حمزة ، وعاصم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ على معنى الأمر ، يعني : قل يا محمد إنما أدعو ربي ، يعني : أعبده .

﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ .

قرأ الباقون على معنى الخبر عنهم .

قرأ ابن عامر في رواية هشام ﴿ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ بضم اللام ، والباقون بكسرها ومعناهما واحد .

وقال القتبي : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ أي : يتلبدون به رغبة في استماع القرآن .

يقال : لبدت به ، أي : لصقت به ، ومعناه : كادوا أن يلصقوا به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ يعني : لا أقدر لكم خذلاناً ولا هداية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ يعني : لن يمنعني من عذاب الله أحد إن عصيته ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ يعني : ملجأ ولا مفراً .

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ورسالاته ﴾ يعني : فذلك الذي يجيرني من عذاب الله ؛ ويقال في الآية

تقديم ، ومعناه قل : لا أملك لكم ضراً إلا أن أبلغكم رسالات ربي ، يعني : ليس بيدي شيء من الضر والنفع والهداية ، إلا بتبليغ الرسالة .

(137/786)

﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في التوحيد ، ولم يؤمن به ، ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ أي : مقيمين في النار أبداً ، يعني : دائماً .

وقد تم الكلام .

ثم قال عز وجل : ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب يعني : لما رأوا العذاب ، ويقال : معناه أمهلهم حتى إذا رأوا ما يوعدون في الدنيا وفي الآخرة ، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ نَاصِراً ﴾ يعني : مانعاً من العذاب .

﴿ وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ يعني : رجالاً .

فقالوا : متى هذا العذاب الذي تعدنا يا محمد ؟ فنزل : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني : ما أدري أقريب ما توعدون من العذاب ، ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ ؟ يعني : أجلاً ينتهي إليه .

قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب ﴾ يعني : هو عالم الغيب ، ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾

يعني : هو الذي يعلم وقت نزول العذاب ، ولا يطلع على غيبه أحداً من خلقه .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ يعني : إلا من اختار لرسالته ، فإنه يطلعه على ما يشاء من الغيب ، ليكون دلالة لنبوته .

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ يعني : من الملائكة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن خلفه ، ليحفظوه من الشياطين ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَّبِّهِمْ ﴾ يعني : ليعلموا الرسول أن الذي أنزل إليه من رسالات الله ؛ وذلك أن الملائكة لو لم يرصدوهم ، لما يستمعوا حين يقرأ جبريل ، ثم يفشون ذلك قبل أن يخبرهم الرسول ، فلا يكون بينهم وبين الأنبياء فرق ، ولا يكون للأنبياء دلالة ، ثم لا يقبل قولهم .

وروى أسباط ، عن السدي في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ إذا بعث إليه تعالى نبياً ، جعل معه حفظة من الملائكة .

(138/786)

فإذا جاء الوحي من الله تعالى ، قالت الملائكة : هذا من الله .

فإذا جاءه الشيطان ، قالت الحفظة : هذا من الشيطان .

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَّبِّهِمْ ﴾ يعني : ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا الرسالة لأنهم

تمازحوا من استراق السمع .

وقال سعيد بن جبير : لم يجيء جبريل قط بالقرآن ، إلا ومعه أربعة من الحفظة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ يعني : الله تعالى عالم بما عند الأنبياء ؛ ويقال : عالم بهم .

﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ يعني : عدد الملائكة ، وعلم نزول العذاب ووقته وغير ذلك ؛ والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 480.485 ﴾

(139/786)

وقال الثعلبي :

سورة الجن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾

وكانوا تسعة من جن نصيبين استمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد مرّ خبرهم .

قال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنهم من بني الشيطان وهم أكثر الجن عدداً وهم عامة جنود إبليس . ﴿ فقالوا ﴾ لما رجعوا إلى قومهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يهدي إِلَى الرشد

فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ ﴾ بالفتح قرأه أهل الشام والكوفة إلاّ حفصاً .

وفتح أبو جعفر ما كان مردوداً على الوحي ، وكسر ما كان حكاية عن الجن ، وجرها كلّها الباقون .

﴿ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ حدّثنا عبيد الله بن محمد بن محمد بن مهدي العدل ، قال : حدّثنا الأصم ، قال : حدّثنا أحمد بن حازم ، قال : حدّثنا عبد الله بن سفيان عن السدي في قوله : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قال : أمر ربنا .

وبإسناده عن سفيان عن سلمان التيمي عن الحسن ، قال : غنى ربنا ومنه قيل : للحظ جد ورجل مجدود . وقال ابن عباس : قدرة ربنا . مجاهد وعكرمة : جلاله . قتادة : عظمته . ابن أبي نجيح عن مجاهد : ذكره . ضحاك : فعله . القرظي : آلاؤه ونعمه على خلقه . الأخفش : علا ملك ربنا . ابن كيسان : علا ظفره على كل كافر بالحجة . والجدّ في اللغة : العظمة ، ومنه قول أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا أي عظم .

وقال ابن عباس : لو علمت أن في الإنس جدّاً ما قالت تعالى جدّ ربّنا ، وقال أبو جعفر الباقر وابنه جعفر والربيع بن أنس : ليس لله جد وإنّما وليه الجدّ بالجهالة فلم توخذوا به .

﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ وقرأ عكرمة : ﴿ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ بكسر الجيم على ضد الهزل ، وقرأ ابن السميع : (جدي ربّنا) وهو الجدوى والمنفعة .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ جاهلنا ، وقال مجاهد وقتادة : هو إبليس لعنه الله ﴿ عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ عدواناً وقولا عظيماً ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ حسبنا ﴿ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ والجن عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أي كنّا نظنّهم صادقين في قولهم : إنَّ لله صاحبة وولداً حتّى سمعنا القرآن ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ وذلك قول الرجل من العرب إذا أمسى بالأرض القفر : أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه ، فيبيت في أمن وجوار حتّى يصبح .

قال مقاتل : أوّل مَنْ تعوّذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثمّ بنو حنيفة ثمّ فشا ذلك في العرب .

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدّثنا أبو القيّم عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي ، قال : حدّثنا موسى بن سعيد بن النعمان بطرطوس ، قال : حدّثنا فروة بن معراء الكندي ، قال : حدّثنا القيّم بن مالك عن عبد الرحمن بن إسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب الأنصاري ، قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أوّل ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكّة فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف النهار جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعي ، فقال : يا عامر الوادي

جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله ، فأتانا الحمل يشتدّ حتّى دخل الغنم ، ولم يصبه كدمة ، قال ، وأنزل الله سبحانه على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ .

﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ يعني : [إن الإنس زادوا الجن طُغياناً باستعاذتهم] فزادتهم رهقاً .

(141/786)

قال ابن عباس : أثماً . معمر عن قتادة : خطيئة . سعيد عنه : جرأة . مجاهد : طغياناً . ربيع : فرقاً . ابن زيد : خوفاً . إبراهيم : عظمة ، وذلك أنّهم قالوا : [سدنا] الجن والإنس . مقاتل : غيّاً . الحسن : شرّاً . ثعلب : خساراً . والرهق في كلام العرب : الإثمّ وغشيان المحارم ، ورجل مرهق : إذا كان كذلك . وقال الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها . . . هل يشتفي وامق ما لم يصب رهقاً

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ يا معشر الكفّار من الإنس ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ﴾ بعد موته ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً ﴾ من الملائكة ﴿ وَشُهُباً ﴾ من النجوم ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ من السماء ﴿ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض ﴾ برمي الشهب ﴿ أَمْ

أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ أهواء مختلفة وفرقاً شتى ، منّا المؤمن ومنّا الكافر .

قال سعيد بن جبير : ألواناً شتى . الحسن : قدداً مختلفين ، الأخفش : ضروباً ، أبو عبيدة : أصنافاً ، المؤرّخ : أجناساً ، النضر : مللا ، ابن كيسان : شيعاً وفرقاً لكلّ فرقة هوى كأهواء الناس ، وقال الفراء : تقول العرب : هؤلاء طريقة قومهم أي ساداتهم ورؤساؤهم ، المسيّب : كنّا مسلمين ويهوداً ونصارى .

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو بن الخطاب ، قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن نحتويه ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمد بن إبراهيم الصوري بأنطاكية ، قال : حدّثنا محمد بن المتوكل بن أبي السراي ، قال : حدّثنا المطلب بن زياد ، قال : سمعت السدي يقول في قول الله سبحانه : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ ، قال : الجن مثلكم فيهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة .

(142/786)

واحد القدد : قدة ، وهي الفرقة وأصلها من القدّ وهو القطع . قال لبيد يرثي أخاه أربد :

لم تبلغ العين كل نهمتها . . . ليلة تمشي الجياد كالقدد

وقال آخر :

ولقد قلت وزيد جاسر . . . يوم ولّت خيل عمرو قددا

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ علمنا ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأرض ﴾ إن أراد بنا أمراً ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ إن طلبنا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ قرأه العامّة بالألف ، وقرأ الأعمش فلا يخفف بالجزم ﴿ بَخْساً ﴾ نقصاً ﴿ وَلاَ رَهَقاً ﴾ ظلماً ، يقول : لا يخاف أن ينقص من حسناته ، ولا أن يزداد في سيّئاته ، ولا أن يؤخذ بذنب غيره ، ولا أن يعاقب بغير جرم ، وقيل : رهقاً : مكروهاً يغشاه ، وقيل : ذهاب كله نظيره قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ [طه : 112] .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون ﴾ الجائرون العادلون عن الحق . يقال : أقسط الرجل فهو مقسط إذا عدل ، قال الله سبحانه : ﴿ وأقسطوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [الحجرات : 9] ، وقسط يقسط قسوطاً إذا جاد . قال الشاعر :

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة . . . عمراً وهم قسطوا على النعمان

وأنشد ابن زيد :

قسطنا على الأملاك في عهد تبّع . . . ومن قبل ما أدرى النفوس عقابها

ونظيره في الكلام المترب : الفقير ، والمترب : الغني .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ أي قصدوا وأعدّوا وتوخّوا ومنه بتحرّى القبلة لمن عميت عليه . وقال امرؤ القيس :

ديمة هطلاء فيها وطف . . . طبق الأرض تحرّى وتدر

﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ .

﴿ وَأَلَّوِ استقاموا ﴾ قراءة العامة لو : بكسر الواو . وقرأ الأعمش : لو استقاموا بضم الواو .

(143/786)

﴿ عَلَى الطريقة ﴾ اختلف المفسرون في تأويلها ، فقال قوم : معناها وأن لو استقاموا على طريقة الحقّ والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين . ﴿ لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ ، قال عمر في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة ، يعني أعطيناهم مالا كثيراً وعيشاً رغيداً ووسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم في الدنيا ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنختبرهم كيف شكرهم فيما خوّلوا وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء بن رباح والضحاك وقتادة وعبيد بن عمير وعطية ومقاتل والحسن ، قال : كان والله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين لله مطيعين فتحت عليهم كنوز كسرى

وقيصر ، ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه يعني عثمان بن عفان .

ودليل هذا التأويل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : 66] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ﴾ [نوح : 10-11] الآيات .

(144/786)

وقال آخرون : معناها وأن لو استقاموا على طريقة الكفر والضلالة وكانوا كفّاراً كلهم لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسّعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً ، حتّى يفتنوا فيعذبهم . وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي والثمالي ويمان بن رباب وابن كيسان وابن مجلد ، ودليل هذا التأويل قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن ﴾ [

الزخرف : 33] . وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ﴾ [الشورى : 27] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] .

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب وأيوب بالياء وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد . وقرأ مسلم بن جندب : نُسلكه بضم النون وكسر اللام . وقرأ الآخرون بفتح النون وضم اللام وهما لغتان سلك واسلك بمعنى واحد أي يدخله .

﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ قال ابن عباس : شاقاً . السدي : مشقة . قتادة : لا راحة فيه . مقاتل : لا فرج فيه . الحسن : لا يزداد إلاّ شدّة .

ابن زيد : متعباً . والأصل فيه أن الصعود يشقّ على الإنسان ، ومنه قول عمر : ما تصعدني شيء ما تصعد في خطبة النكاح ، أي ما شقّ عليّ . وقال عكرمة : هو جبل في النار . وقال الكلبي : يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد في النار جبلا من صخرة ملساء حتّى يبلغ أعلاها يجذب من أمامه بالسلاسل ، ويضرب بمقامع الحديد حتّى يبلغ أعلاها ولا يبلغه في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها أجر إلى أسفلها ، ثمّ يكلف أيضاً صعودها فذلك دأبه أبداً ، وهو قوله :

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر : 17] . ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبير : قالت الجن لنبي الله كيف لنا أن نأتي المسجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت : وأن المساجد لله ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ . قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا المساجد ، وأراد بها المساجد كلّها .

وقال الحسن : أراد بها البقاع كلها وذلك ، أن الأرض جعلت للنبي صلى الله عليه وسلم مسجداً ، وكان المسلمون بعد نزول هذه الآية إذا دخل أحدهم المسجد قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله والسلام على رسول الله .

وقال سعيد بن جبير وطلق بن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد وهي سبعة : القدمان والركبتان واليدان والوجه . وسمعت محمد بن الحسن السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبو القيّم البزاز يقول : قال ابن عطاء : مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن زكريا غير مرة ، قال : أخبرنا ابن الشرقي ، قال : حدّثنا حمدان السلمي ، قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل ومعلّى بن أسيد ومسلم بن إبراهيم ، قالوا : حدّثنا وهيب ، قال : حدّثنا ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمرتُ أن أسجد على سبعة : أعظم الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين ، وأن لا أكف شعراً ولا ثوباً " .

(146/786)

وأخبرنا أبو بكر الجوزقي ، قال : أخبرنا عمرو بن عبد الله البصري ، قال : حدّثنا أحمد بن سلمة ، قال : حدّثنا قتيبة بن سعيد ، قال : حدّثنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن العباس بن عبد المطلب ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا سجد العبد سجد معه سبعة " فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مسجد بكسر الجيم ، وإن جعلت الأعضاء فواحدها مسجَد بفتح الجيم .

وقال الحسن : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ يعني الصلوات فلا تدعوا مع الله أحداً أي أفردوا له التوحيد وأخلصوا له العبادة . وقيل : معناه فردّوها لذكر الله وعبادته فلا تتخذوها متجراً ولا مجلساً ولا طرقاً ولا تجعلوا فيها لغير الله نصيباً .

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يقول : لا إله إلاّ الله ويدعوا إليه ويقرأ القرآن ﴿ كَادُواْ ﴾ يعني : الجن ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ أي يركبون بعضهم بعضاً ، ويزدحمون ويسقطون حرصاً منهم على استماع القرآن .

قاله الضحاك ورواه عطية عن ابن عباس .

سعيد بن جبير عنه : هذا من قول النفر من الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له واهتمامهم به في الركوع والسجود واقتدائهم به في الصلاة .

وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني لما قام عبد الله بالدعوة تلبّدت الجن والإنس ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحقّ الذي جاءهم به ، ويطفئوا نور الله فأبى الله إلاّ أن يتم هذا الأمر وينصره ويظهره على من ناواه .

وأصل اللبد : الجماعات بعضها فوق بعض ، ومنه قيل للجراد الكبير : لبدٌ ، وتلبد الشعر إذا تراكم . ومنه سمي اللبد لبداً ، كما ويقال للشعر على الأسد : لبدة وجمعها لبدٌ ، قال زهير :

لدى أسد شاك السلاح خبان . . . له لبد أظفاره لم تُقلّم

(147/786)

وفيه أربع لغات : لِبَدٌ بكسر اللام وفتح الباء و [هي] قراءة العامة واختيار أبي عبيدة وأبي حاتم واحدتها لِبدة بكسر اللام ، ولُبد بضم اللام وفتح الباء وهي قراءة مجاهد وابن

محيص وواحدتها لبدة بضم اللام ، ولُبُد بضم اللام والباء وهي قراءة أبي حيوة واحدتها لبيد ، ولُبّد بضم اللام وتشديد الباء وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وواحدها لابد مثل راكع رُكع وساجد وسُجد .

﴿ قُلْ ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قرأ أكثر القرّاء ، وقرأ أبو جعفر والأعمش وعاصم وحمزة ﴿ قُلْ ﴾ على الأمر ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ أميل إليه وقال قتادة : نصراً . الكلبي : مدخلا في الأرض مثل السرب ، السدي : جرزاً .

قال مقاتل : قال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم إنّك أتيت بأمر عظيم لم يسمع بمثله ، وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا الأمر ، فنحن نجزيك ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات . وفي قراءة أُبي عنّا (ولا رشداً) .

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ فإن فيه الحوار والأمن والنجاة قاله الحسن .

وقال قتادة : إلاّ بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه ، فإمّا الكفر والإيمان فلا أملكهما .

وقيل : لا أملك لكم ضراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً من الله ، إنّما أنا مرسل ومبلّغ لا أملك إلاّ ما ملكت .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ يعني العذاب .

(148/786)

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً * قُلْ إِنْ أَدري أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني العذاب وقيل : القيامة ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ ربي أَمَداً ﴾ أجلا وغاية تطول مدتها ﴿ عَالِمُ الغيب ﴾ رفع على نعت قوله ربّي ، وقيل : هو عالم الغيب . ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ ﴾ يُطلع ﴿ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى ﴾ اصطفى ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يصطفيه ويُطلعه على ما يشاء من الغيب .

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ ذكر بعض الجهات دلالة على جميعها ﴿ رَصَداً ﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين واستماع الجن ليلا يسترقوه فيلقوه إلى كهنتهم .

قال سعيد بن المسيب : ﴿ رَصَداً ﴾ أربعة من الملائكة حفظة . قال مقاتل وغيره : كان الله إذا بعث رسولا أتاه إبليس في صورة جبرائيل يخبره ، فبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشيطان ، فإذا جاءه شيطان في صورة ملك ، قالوا

: هذا شيطان فاحذر ، وإذا جاءه ملك ، قالوا : هذا رسول ربّك .

﴿ لِّيَعْلَمَ ﴾ قرأ ابن عباس ويعقوب بضم الياء ، أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلّغوا ، وقرأ الآخرون بفتح الياء أي ليعلم الرسول أن الملائكة ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ عندهم ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ فلم يخفَ عليه شيئاً ونصب عدداً على الحال وإن شئت على المصدر أي عد عدداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 49.57 ﴾

(149/786)

وقال الزمخشرى :

سورة الجنّ

مكية ، وآياتها 28 [نزلت بعد الأعراف] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجن (72) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3)

وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4)

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5)

قرئ: أحى، وأصله وحى، يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزة، كما يقال: أعد وأزن وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة، وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة، وإعاء أخيه، وقرأ ابن أبى عبلة: وحى على الأصل أَنَّهُ اسْتَمَعَ بالفتح، لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا: بالكسر: لأنه مبتدأ محكي بعد القول، ثم تحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحى فتح، وما كان من قول الجنّ كسر: وكلهن من قولهم إلا الثنتين الأخريين وَأَنَّ الْمَساجِدَ، وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ ومن فتح كلهنّ فعطفا

(150/786)

على محل الجار والمجرور في آمنا به، كأنه قيل: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا، وأنه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ جماعة منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل:

كانوا من الشيصبان، وهم أكثر الجنّ عددا وعامة جنود إبليس منهم فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا أى: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم، كقوله فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا

سَمِعْنا كِتاباً ، عَجَباً بديعا مباينا لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه ، قائمة فيه دلائل الإعجاز . وعجب مصدر يوضع موضع العجيب . وفيه مبالغة : وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ يدعو إلى الصواب . وقيل : إلى التوحيد والإيمان . والضمير في بِهِ للقرآن ، ولما كان الإيمان به إيمانا باللّه وبوحدانيته وبراءة من الشرك : قالوا وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً أى : ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان . ويجوز أن يكون الضمير للّه عز وجل ، لأنّ قوله بِرَبِّنا يفسره جَدُّ رَبِّنا عظمته من قولك : جدّ فلان في عينى ، أى : عظم . وفي حديث عمر رضى اللّه عنه : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . وروى في أعيننا «1» . أو ملكه وسلطانه . أو غناه ، استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت ، لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون . والمعنى : وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته . أو لسلطانه وملكوته . أو لغناه . وقوله مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً بيان لذلك . وقرئ : جدّا ربنا ، على التمييز . وجدّ ربنا ، بالكسر : أى صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان :

تنبهوا على الخطإ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه اللّه بخلقه واتخاذه صاحبة وولدا ، فاستعظموه ونزهوه عنه . سفيههم : إبليس لعنه اللّه أو غيره من مردة الجن . والشطط : مجاوزة الحدّ في الظلم وغيره . ومنه : أشط في السوم ، إذا أبعد فيه ، أى : يقول قولا هو في

نفسه شطط ، لفرط ما أشط فيه ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى اللّه ، وكان في ظننا أنّ أحدا من الثقلين لن يكذب على اللّه ولن يفترى عليه ما ليس بحق ، فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك ، حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم كَذِباً قولا كذبا ، أى : مكذوبا فيه . أو نصب نصب المصدر لأنّ الكذب نوع من القول . ومن قرأ : أن لن تقوّل : وضع كذبا موضع تقوّلا ، ولم يجعله صفة ، لأنّ التقوّل لا يكون إلا كذبا .

[سورة الجن (72) : الآيات 6 إلى 7]

وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7)

---

(1) . لم أره عن عمر ، بل هو عن أنس ، كما مضى في البقرة .

والرهق : غشيان المحارم . والمعنى : أنّ الإنس باستعاذتهم بهم زادوهم كبرا وكفرا ، وذلك أنّ الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا :

سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم . أو فزاد الجن الإنس رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم وَأَنَّهُمْ وأنّ الإنس ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ وهو من كلام الجن ، يقوله بعضهم لبعض . وقيل : الآيتان من جملة الوحى . والضمير في وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا للجنّ ، والخطاب في ظَنَنْتُمْ لكفار قريش .

[سورة الجن (72) : الآيات 8 إلى 9]

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

اللمس : المس ، فاستعير للطلب ، لأنّ الماس طالب متعرّف . قال :

مسسنا من الآباء شيئا وكلّنا إلى نسب في قومه غير واضع «1»

يقال : لمسه والتمسه وتلمسه «كطلبه وأطلبه وتطلبه» ونحوه : الجس . وقولهم جسوه بأعينهم وتجسسوه . والمعنى : طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها . والحرس : اسم مفرد في معنى الحرّاس ، كالخدم في معنى الخدّام ، ولذلك وصف بشديد ، ولو ذهب إلى معناه لقيل :

شدادا ، ونحوه

أخشى رجيلا أو ركيبا غاديا «2»

لأنّ الرجل والركب مفردان في معنى الرجال والركاب . والرصد : مثل الحرس : اسم جمع

(1) مسسنا عن الآباء شيئا فكلنا إلى نسب في قومه غير واضع

فلما بلغنا الأمهات وجدتم بنى عمكم كانوا كرام المضاجع

ليزيد بن الحاكم الكلابي . ومسسنا : أى نلنا ، فالمس مجاز مرسل ، فكل منا ينتمي إلى نسب في قومه غير منخفض ويروى : إلى حسب ، فاستوينا من جهة الآباء في التفاخر ، فلما بلغنا فيه ذكر الأمهات وجدتم أقاربكم كرام المضاجع كناية عن الأزواج . أو عبر باسم المحل عن الحال فيه ، وهن الأزواج مجازا مرسلا ، وكرم النساء مذموم ، لأنه كناية عن الخنا ، كما يكنى ببخلهن عن العفة ، فلسنا سواء في الأمهات .

(2) أخشى رجيلا أو ركيبا غاديا والذئب أخشاه وكلبا عاويا

الرجيل : تصغير رجل . والركيب : تصغير ركب . غاديا : أى سائرا في الغداة على العادة . يقول : أخاف لهرمى .

وضعفى الرجل الصغير والركب القليل . والذئب : نصب بمضمر ، كالمذكور على الاشتغال . أى : وأخشى الذئب وكلبا عطف عليه . أو نصب بمضمر ، أى : وأخشى كلبا عاويا . والجملة معطوفة على جملة «أخشى رجيلا» وعيد الكلب بكونه علويا ، لئلا يتوهم كذبه في دعواه .

للراصد ، على معنى : ذوى شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع . ويجوز أن يكون صفة للشهاب ، بمعنى الراصد أو كقوله :

. . . . . ومعى جياعا «1»

يعنى . يجد شهابا راصدا له ولأجله . فإن قلت : كأن الرجم لم يكن في الجاهلية ، وقد قال اللّه تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ فذكر فائدتين «2» في خلق الكواكب : التزيين ، ورجم الشياطين ؟ قلت : قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو إحدى آياته ، والصحيح أنه كان قبل المبعث ، وقد جاء ذكره في شعر أهل الجاهلية . قال بشر بن أبى خازم :

والعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب «3»

---

(1) . قوله : «ومعى جياعا» في الصحاح المعى واحد الأمعاء والجياع جمع الجائع . وأول البيت :

كأن قتود رحلي حين ضمت حوالب غزرا ومعى جياعا

والقتود : جمع قتد ، وهو خشب الرحل . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت كأن الرجم لم يكن في الجاهلية . وقد قال تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ فذكر فائدتى الزينة والرجم . . . الخ» قال أحمد : ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعا مرادان للّه تعالى بقولهم وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل ، والمراد بالمريد : هو اللّه عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد ، فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة .

(3) والعير يرهقها الحبار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

فعلاهما سبط كأن ضبابه محبوب صادات دواجر تنضب

فتجاريا شأوا بطيئا مثله هيهات شأوهما وشأو التولب

لبشر بن أبى خازم . والعير : الحمار يرهقها : يكلفها ، أى : الأتان . والجبار – بضم المهملة ، وقيل بفتحها – :

الأثر من كل شيء ، وبالمعجمة : الأرض اللينة . وروى : الغبار ، والانقضاض : الاسراع ، والسبط : الغبار الممتد ، والضباب : ندى يغشى الأرض بالغدوات . والصاد : الديك الذي ينكت التراب فيثير غباره ، ويطلق على القدر من النحاس ومن البرام ، وعلى داء في الرأس يداوى بالكي بالنار . قيل : وعلى العلم ، وفسر به هنا . والدواجر : التواشط ، من دجر إذا نشط سرورا ، أو المظلمات . والليل الدجور والديجور : المظلم .

وتنضب : اسم شجر دخانه أبيض ، وعلم على قرية قريبة من مكة . والشأو : الطلق ، يقال : شأى كسهى ، إذا سبق غيره . والتولب :

الجحش إذا مضى عليه سنة واحدة ، يقول : إن حمار الوحش يكلف أتانه اقتفاء أثره عند الجري ، وجحشها يسرع خلفها كاسراع شهاب الرجم ، فارتفع فوقهما ممتد من الغبار ، كأن ما أشبه الضباب منه غبار أثارته الديكة لأنها تحبه ، وكأنه مرتفع «خان ذلك الشجر أو مظلمة ، لأنه يحجب الضوء وإن كان أبيض ، فدواجر خبر بعد خبر .

ويجوز أنه على حذف العاطف ، فقد أجازه السيرافي وابن عصفور وابن مالك ، ومنعه ابن جنى والسهيلي ، وخرجا ما يوهمه على بدل الاضراب ، ويجوز ذلك هنا أيضا ، فشبه التيار بثلاثة أشياء ، ثم قال : فتجاريا شوطا طويلا مثله ، وإثبات البعد للمثل كناية عن إثباته للشأو . ويحتمل أن ضمير مثله للجحش ، فهو بالنصب . ثم قال : بعد ما بين شوطهما وشوطه كأنه تأخر . ويحتمل أن المعنى : بعد كل من الشوطين وطال .

(153/786)

وقال أوس بن حجر :

وانقضّ كالدّرّي يتبعه نقع يثور تخاله طنبا «1»

وقال عوف بن الخرع :

يردّ علينا العير من دون إلفه أو الثّور كالدّرّيّ يتبعه الدّم «2»

ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال ، فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ، ومنع الاسترق أصلا . وعن معمر : قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أرأيت قوله تعالى وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى اللّه عليه وسلم . وروى الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟

فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم «3» . وفي قوله مُلِئَتْ دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها ، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واستمعوا قراءته .

---

(1) . لأوس بن حجر يصف فرسا بشدة العدو والسرعة ، كالكوكب الدري نسبة للدر لصفاته ، أو مأخوذ من الدرء لدرئه الظلام ، يتبعه : أى الفرس نقع ، أى غبار ينتشر تظنه

طنبا بضمتين ، وهو حبل الخيمة كما يتبع الدري شعاعه ممتدا عند هويه ، فقد شبه النقع بالطنب تصريحا ، وبشعاع الكوكب : ضمنا .

(2) . لعوف بن الخزع ، يصف فرسا بشدة العدو في الصيد ، وأنه يرد عليه الحمار الوحشي حال كونه . أى الحمار من دون إلفه أى بقربه أو يرده من دونه ، أى من قربه ، وإذا رده من جنب ألفه كان رده وهو وحده أهون عليه ، لأنه إذا كان مع إلفه كان أشد فرارا . ويجوز أن المعنى : حال كون الحمار بدون إلفه أى منفردا لا إلف معه يوجب ارتباكه . أو يرد علينا الثور الوحشي حال كونه ، أى الثور ، كالدرى . أو حال كون الفرس كالدرى ، أى : كالكوكب نسبة للدر لصفاء جوهره وإضاءته . أو من الدرة ، أى : الدفع ، لأنه يدرؤ الظلام حال كون الكوكب يتبعه عند سقوطه من السماء خط أحمر من ضوئه يشبه الدم ، فالدم : استعارة مصرحة .

(3) . أخرجه مسلم من رواية الأوزاعي عن الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس أخبرنى رجال من الأنصار ، وقال «بينما هم جلوس – فذكره مطولا» ورواه الترمذي من رواية معمر عن الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس قال «بينما – فذكره» ولم يقل : أخبرنى رجال . [. . . . .]

[سورة الجن (72) : آية 10]

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10)

يقولون : لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاستراق ، قلنا : ما هذا إلا لأمر أراده اللّه بأهل الأرض ، ولا يخلو من أن يكون شرا أو رشدا ، أى : خيرا ، من عذاب أو رحمة ، أو من خذلان أو توفيق .

[سورة الجن (72) : آية 11]

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11)

مِنَّا الصَّالِحُونَ منا الأبرار المتقون وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ ومنا قوم دون ذلك ، فحذف الموصوف ، كقوله وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه .

أو أرادوا الطالحين كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً بيان للقسمة المذكورة ، أى : كنا ذوى مذاهب مفترقة مختلفة . أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة . أو كنا في طرائق مختلفة ، كقوله : كما عسل الطّريق الثّعلب «1»

أو كانت طرائقنا طرائق قددا على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه والقدّة من قدّ ، كالقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقدد ، لدلالتها على معنى التقطع والتفرّق .

[سورة الجن (72) : آية 12]

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12)

فِي الْأَرْضِ وهَرَباً حالان ، أى : لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء . وقيل : لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرا ، ولن نعجزه هربا إن طلبنا . والظن بمعنى اليقين ، وهذه صفة أحوال الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم :

منهم أخيار ، وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أنّ اللّه عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب .

[سورة الجن (72) : آية 13]

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13)

لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى هو سماعهم القرآن وإيمانهم به فَلا يَخافُ فهو لا يخاف ، أى فهو غير خائف ، ولأنّ الكلام في تقدير مبتدإ وخبر دخلت الفاء ، ولولا ذاك لقيل : لا يخف . فإن

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 92 فراجعه إن شئت اه مصححه .

قلت : أى فائدة : في رفع الفعل وتقدير مبتدإ قبله حتى يقع خبرا له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال . لا يخف ؟ قلت : الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكأنه قيل :

فهو لا يخاف ، فكان دالا على تحقيق أنّ المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره وقرأ الأعمش : فلا يخف ، على النهى بَخْساً وَلا رَهَقاً أى جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحدا حقا ولا رهق ظلم أحد «1» فلا يخاف جزاءهما . وفيه دلالة على أن من حق من آمن باللّه أن يجتنب المظالم . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم» «2» ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله عز وجل وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ .

[سورة الجن (72) : الآيات 14 إلى 15]

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15)

الْقاسِطُونَ الكافرون الجائرون عن طريق الحق . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : أنّ الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فىّ ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة ، إنه سماني ظالما مشركا ، وتلا لهم قوله تعالى أَمَّا الْقاسِطُونَ

وقوله تعالى ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ وقد زعم من لا يرى للجن ثوابا أنّ اللّه تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعدا أن قال فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً فذكر سبب الثواب وموجبه ، واللّه أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد .

[سورة الجن (72) : الآيات 16 إلى 17]

وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17)

وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا أن مخففة من الثقيلة ، وهو من جملة الموحى . والمعنى : وأوحى إليّ أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى ، أى : لو ثبت أبوهم الجان على ما كان

---

(1) . قوله «ولا رهق ظلم أحد» في الصحاح : رهقه بالكسر يرهقه رهقا ، أى : غشيه . (ع)

(2) . أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد بهذا . وأتم منه . وفي الباب عن أبى هريرة بلفظ «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» وأخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم . وعن أنس أخرجه ابن حبان والحاكم أيضا . وعن أبى مالك الأشعرى وواثلة بن الأسقع ، أخرجهما الطبراني مطولا . وأخرج حديث واثلة أبو يعلى . وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أخرجه عبد بن حميد .

عليه من عبادة اللّه والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام ، لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم . وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها . وقرئ بهما ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خوّلوا منه . ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاسماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ، لنفتنهم فيه : لتكون النعمة سببا في اتباعهم شهواتهم ، ووقوعهم في الفتنة ، وازديادهم إثما ، أو لنعذبهم في كفران النعمة عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه يَسْلُكْهُ وقرئ بالنون مضمومة ومفتوحة ، أى : ندخله عَذاباً والأصل : نسلكه في عذاب ، كقوله ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ فعدّى إلى مفعولين : إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله وَاخْتَارَ مُوسى قَوْمَهُ وإمّا بتضمينه معنى «ندخله» يقال : سلكه وأسلكه . قال :

حتّى إذا أسلكوهم في قتائدة «1»

والصعد : مصدر صعد ، يقال : صعد صعدا وصعودا ، فوصف به العذاب ، لأنه يتصعد المعذب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . ومنه قول عمر رضى اللّه عنه : ما تصعدنى

شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح «2» ، يريد : ما شق علىّ ولا غلبني .

[سورة الجن (72) : آية 18]

وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18)

وَأَنَّ الْمَساجِدَ من جملة الموحى . وقيل معناه : ولأن المساجد لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا على أنّ اللام متعلقة بلا تدعوا ، أى : فلا تدعوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً في المساجد ، لأنها للّه خاصة ولعبادته . وعن الحسن : يعنى الأرض كلها ، لأنها جعلت للنبي صلى اللّه عليه وسلم مسجدا . وقيل : المراد بها المسجد الحرام ، لأنه قبلة المساجد . ومنه قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وعن قتادة : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا باللّه ، فأمرنا أن نخلص للّه الدعوة إذا دخلنا المساجد . وقيل : المساجد أعضاء السجود السبعة . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أمرت أن أسجد على سبعة آراب : وهي الجبهة ، والأنف ، واليدان ،

---

(1) . قوله «إذا أسلكوهم في قتائدة» في الصحاح : «قتائدة» اسم عقبة . قال عبد مناف بن ربع :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلا كما تطرد الجمالة الشردا

والشل : الطرد . والشرد : جمع شارد ، كالخدم جمع خادم . (ع)

(2) . حدثني أبو عبيدة في الغريب من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بهذا ، وهو منقطع .

(157/786)

والركبتان ، والقدمان «1»» . وقيل : هي جمع مسجد وهو السجود .

[سورة الجن (72) : آية 19]

وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

عَبْدُ اللَّهِ النبي صلى اللّه عليه وسلم . فإن قلت : هلا قيل : رسول اللّه أو النبي ؟ قلت : لأن تقديره : وأوحى إليّ أنه لما قام عبد اللّه . فلما كان واقعا في كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن نفسه : جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل . أو لأن المعنى أن عبادة عبد اللّه للّه ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبدا . ومعنى قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ قام يعبده ، يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته صلى اللّه عليه وسلم كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً أي يزدحمون عليه متراكمين تعجبا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائما وراكعا وساجدا ، وإعجابا بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . وقيل معناه : لما قام رسولا يعبد اللّه

وحده مخالفا للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه : كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين لِبَداً جمع لبدة وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها «لبدة الأسد» وقرئ : لبدا واللبدة في معنى اللبدة ، ولبدا : جمع لا بد ، كساجد وسجد . ولبدا بضمتين : جمع لبود ، كصبور وصبر . وعن قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه . فأبى اللّه إلا أن ينصره ويظهره على من ناوأه . ومن قرأ : وإنه ، بالكسر : جعله من كلام الجن : قالوه لقومهم حين رجعوا إليهم حاكين ما رأوا من صلاته وازدحام أصحابه عليه في ائتمامهم به .

[سورة الجن (72) : الآيات 20 إلى 28]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

(1) . أخرجه البزار من حديث العباس بهذا اللفظ ، لكن قال «الوجه عوض الجبهة والأنف» ورواه الأربعة في السنن من حديثه بلفظ «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب : وجهه وكفاه وقدماء وركبتاه» وفي الصحيحين عن ابن عباس مرفوعا «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم» وفي لفظ «أعضاء» وعند أبي داود «أمرت» وقال «أمر نبيكم صلى اللّه عليه وسلم أن يسجد على سبعة آراب»

(158/786)

قُلْ للمتظاهرين عليه «1» إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي يريد : ما أتيتكم بأمر منكر ، إنما أعبد ربى وحده وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً وليس ذاك مما يوجب إطباقكم على مقتى وعداوتي . أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادتي اللّه ورفضى الإشراك به بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يدعو غير اللّه ويجعل له شريكا . أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَلا رَشَداً ولا نفعا . أو أراد بالضر : الغىّ ، ويدل عليه قراءة أبىّ «غيا ولا رشدا» والمعنى : لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم ، إنما الضارّ والنافع اللّه «2» . أو لا أستطيع أن أقسركم على الغىّ والرشد ، إنما القادر على ذلك اللّه عز وجل :

وإِلَّا بَلاغاً استثناء منه . أى لا أملك إلا بلاغا من اللّه «3» . وقُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أنّ اللّه إن أراد به سوءا من مرض أو موت أو غيرهما : لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذا يأوى إليه :

والملتحد الملتجأ ، وأصله المدّخل ، من اللحد . وقيل : محيصا ومعدلا . وقرئ : قال لا أملك ،

---

(1) . قوله «قال للمتظاهرين عليه» هذه قراءة غير عاصم وحمزة ، كذا في النسفي ، وهو يفيد أن قراءتهما قُلْ بصيغة الأمر ، كأنه سقط من كلام المصنف ذكر هذه القراءة فليحرر .

(2) . قال محمود : «معناه أى لا أستطيع أن أنفعكم أو أضركم إنما النافع والضار اللّه عز وجل . . . الخ» قال أحمد : في الآية دليل بين على أن اللّه تعالى هو الذي يملك لعباده الرشد والغى أى يخلقهما لا غير ، فان النبي صلى اللّه عليه وسلم إنما سلب ذلك عن قدر» ليمحض إضافته إلى قدرة اللّه وحده ، وفطن الزمخشري لذلك فأخذ يعمل الحبل ، فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع ، فيضيف ذلك إلى اللّه تعالى ، وتارة يكنع عنه لأن فيه إبطالا لخصوصية الرشد المنصوص عليه في الآية ، فيثور له من تقليده الرأى الفاسد ثوائر تصرفه عن الحق وعن اعتقاد أن اللّه تعالى هو الذي يخلق الرشد لعبيده مقارنا لاختيارهم ، فيدخل زيادة القسر ، لأن معنى ما ورد من إضافة الرشد إلى قدرة انه تعالى عندهم أنه

يخلق أن يخضع لها الرقاب ، فيخلق العبد لنفسه عند ظهورها رشدا . فيضاف إلى قدرة اللّه تعالى ، لأنه خلق السبب وهو في الحقيقة مخلوق بقدرة العبد «هذه قاعدة القدرية وعقيدتهم ، وما الجن بعد هذا إلا أوفر منهم عقلا وأسد منهم نظرا ، لأنهم قالوا : وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فأضافوا الرشد نفسه إلى إرادة اللّه عز وجل وقدرته .

(3) . قال محمود : «هو اعتراض . وقوله إِلَّا بَلاغاً استثناء من قوله لا أَمْلِكُ أى لا أملك لكم إلا بلاغا .

وقيل بلاغا يدل من ملتحدا . . . الخ» قال أحمد : فيكون تقدير الكلام : بلاغا من اللّه مستفادا من قوله قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً .

(159/786)

أى قال عبد اللّه للمشركين أو للجن . ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم . وقيل بَلاغاً بدل من مُلْتَحَداً أى : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به . وقيل : إِلَّا هي «إن لا» ومعناه : أن لا أبلغ بلاغا ، كقولك : إن لا قياما فقعودا وَرِسالاتِهِ عطف على بلاغا ، كأنه قيل : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات . والمعنى : إلا أن أبلغ عن اللّه فأقول :

قال اللّه كذا ، ناسبا لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلنى بها من غير زيادة ولا نقصان .

فإن قلت : ألا يقال : بلغ عنه . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «بلغوا عنى بلغوا عنى» ؟ «1» قلت : من ليست بصلة للتبليغ ، إنما هي بمنزلة من في قوله بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ بمعنى بلاغا كائنا من اللّه . وقرئ : فأن له نار جهنم ، على : فجزاؤه أنّ له نار جهنم ، كقوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ أى :

فحكمه أنّ للّه خمسه . وقال خالِدِينَ حملا على معنى الجمع في من . فإن قلت : بم تعلق «حتى» ، وجعل ما بعده غاية له ؟ قلت : بقوله يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ من يوم بدر وإظهار اللّه له عليهم . أو من يوم القيامة فَسَيَعْلَمُونَ حينئذ أنهم أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال : من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه قال : لا يزالون على ما هم عليه حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ قال المشركون : متى يكون هذا الموعود ؟ إنكارا له ، فقيل قُلْ إنه كائن لا ريب فيه ، فلا تنكروه ، فإن اللّه قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد . وأما وقته فما أدرى متى يكون ، لأنّ اللّه لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة . فإن قلت : ما معنى قوله أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً والأمد يكون قريبا وبعيدا ألا ترى إلى قوله تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ؟ قلت : كان رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدرى أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية أى : هو عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ فلا يطلع . ومِنْ رَسُولٍ تبيين لمن ارتضى ، يعنى : أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا كل مرتضى . وفي هذا إبطال للكرامات «2» ، لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل «3» . وقد

---

(1) . أخرجه البخاري من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاصي بلفظ «بلغوا عنى ولو آية . . . الحديث» .

(2) . قوله «وفي هذا إبطال للكرامات» إبطالها مذهب المعتزلة ، وإثباتها مذهب أهل السنة ، وهي لا تنحصر في الاخبار بالغيب . (ع)

(3) . قال محمود : «إبطال للكرامات ، لأنه حصر ذلك في المرتضى من الرسل ، والولي وإن كان من المرتضين . . . الخ» قال أحمد : ادعى عاما واستدل خاصا ، فان دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها ، والمدلول عليه بالآية إبطال اطلاع الولي على الغيب خاصة ، ولا يكون كرامة وخارق للعادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير ، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها ، وذلك أن اللّه عز وجل لا يتخذ منهم وليا أبدا وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم فط ، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية ، وهي

مسلوبة عنهم اتفاقا وأما سلب الايمان فمسألة خلاف ، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة لأنه لم يؤتها والله الموفق .

(160/786)

خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يدي من ارتضى للرسالة وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم ، حتى يبلغ ما أوحى به إليه . وعن الضحاك : ما بعث نبيّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك لِيَعْلَمَ اللّه أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ يعنى الأنبياء : وحد أولا على اللفظ في قوله مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ثم جمع على المعنى ، كقوله فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم كما هي ، محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله تعالى حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ

وقرئ :

ليعلم ، على البناء للمفعول وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ بما عند الرسل من الحكم والشرائع ، لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا ، فهو مهيمن عليها حافظ لها وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً من

القطر والرمل وورق الأشجار ، وزبد البحار ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه .

وعددا : حال ، أي : وضبط كل شيء معدودا محصورا . أو مصدر في معنى إحصاء .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمدا صلى اللّه عليه وسلم وكذب به عتق رقبة» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 622. 633﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبي بن كعب .

(161/786)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه إِسْتَمَعَ نَفَرٌ مِن الجِنَّ ﴾

اختلف أهل التفسير في سبب حضور النفر من الجن إلى رسوله اللَّه صلى الله عليه وسلم لسماع القرآن على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى صرفهم إليه بقوله : ﴿ وإذا صَرَفْنا إليك نفراً من الجن ﴾ [الأحقاف : 29] ، قاله ابن مسعود والضحاك وطائفة .

الثاني : أنه كان للجن مقاعد في السماء الدنيا يستمعون منها ما يحدث فيها من أمور الدنيا ، فلما بعث اللّه رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حرست السماء الدنيا من الجن ورجموا بالشهب ، قال السدي : ولم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو أثر له ظاهر ، قال : فلما رأى أهل الطائف اختلاف الشهب في السماء قالوا : هلك أهل السماء فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد يا ليل بن عمرو : ويحكم أمسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها لم يهلك أهل السماء ، وإنما هذا من أجل ابن أبي كبشة يعني محمداً فلما رأوها مستقرة كفّوا .

وفزعت الجن والشياطين ، ففي رواية السدي أنهم أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم ، فقال : ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوها فشمها فقال : صاحبكم بمكة فبعث نفراً من الجن . .

وفي رواية ابن عباس : أنهم رجعوا إلى قومهم فقالوا : ما حال بيننا وبين السماء إلا أمر حدث في الأرض ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، ففعلوا حتى أتوا تهامة ، فوجدوا محمداً صلى الله عليه وسلم يقرأ . ثم اختلفوا لاختلافهم في السبب ، هل شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن أم لا ؟

فمن قال إنهم صرفوا إليه قال إنه رآهم وقرأ عليهم ودعاهم ، روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قد أمرت أن أتلو القرآن على الجن فمن يذهب معي ؟ فسكتوا ، ثم الثانية فسكتوا ، ثم الثالثة ، فقال ابن مسعود أنا أذهب معك ، فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب أبي دُب ، فخط عليَّ خطاً ثم قال : لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون فانحدروا عليه أمثال الحجل حتى غشوة فلم أره " قال عكرمة : وكانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل .

ومن قال إنهم صرفوا في مشارق الأرض ومغاربها لاستعلام ما حدث فيها ، قال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرها .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما انطلق في نفر من أصحابه إلى سوق عكاظ ، فأتوه وهو بنخلة عامداً ، إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء .

قال عكرمة : السورة التي كان يقرؤها ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ واختلف قائلوا هذا القول في عددهم ، فروى عاصم عن زر بن حبيش أنهم كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، أتوه في بطن نخلة .

وروى ابن جريج عن مجاهد : أنهم كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين ، وكانت أسماؤهم : حسى ومسى وماصر وشاصر والأرد وأتيان والأحقم .

وحكى جويبر عن الضحاك أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين قرية باليمن غير التي بالعراق ، وهم سليط وشاصر وماصر وحسا ومنشا ولحقم والأرقم والأرد وأتيان ، وهم الذين قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، وكانوا قد أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخلة في صلاة الصبح فصلّوا معه : ﴿ فلما قضى ولّوْا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا أجيبوا داعي اللَّه وآمِنوا به ﴾ .

وقيل إن الجن تعرف الإنس كلها فلذلك توسوس إلى كلامهم .

(163/786)

واختلف في أصل الجن ، فروى إسماعيل عن الحسن البصري أن الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون وهم شركاء في الثواب والعقاب فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي اللَّه ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان .

وروى الضحاك عن ابن عباس : أن الجن هم ولد الجان وليسوا شياطين وهم يموتون ، ومنهم المؤمن والكافر ، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس .

أصلهم ، فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرية إبليس قال يدخلون الجنة بإيمانهم ، ومن قال هم من ذرية إبليس فلهم فيها قولان :

أحدهما : يدخلونها وهو قول الحسن .

الثاني : وهو رواية مجاهد ، لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار .

وفي قوله تعالى : ﴿ إنا سَمِعْنا قُرآنا عَجَباً ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : عجباً في فصاحة كلامه .

الثاني : عجباً في بلاغة مواعظة .

الثالث : عجباً في عظم بركته .

﴿ يَهْدِي إلى الرُّشْدِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مراشد الأمور .

الثاني : إلى معرفة اللَّه .

﴿ وأَنّه تَعالى جَدُّ رَبّنا ﴾ فيه عشرة تأويلات :

أحدها : أمر ربنا ، قاله السدي .

الثاني : فعل ربنا ، قاله ابن عباس .

الثالث : ذكر ربنا ، وهو قول مجاهد .

الرابع : غنى ربنا ، قاله عكرمة .

الخامس : بلاء ربنا ، قاله الحسن .

السادس : مُلك ربنا وسلطانه ، قاله أبو عبيدة .

السابع : جلال ربنا وعظمته ، قاله قتادة .

الثامن : نعم ربنا على خلقه ، رواه الضحاك .

التاسع : تعالى جد ربنا أي تعالى ربُّنا ، قاله سعيد بن جبير .

العاشر : أنهم عنوا بذلك الجد الذي هو أبو الأب ، ويكون هذا من قول الجن عن [جهالة] .

﴿ وأنه كان يقولُ سَفيهُنا على اللَّهِ شَطَطاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جاهلنا وهم العصاة منا ، قال قتادة : عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس .

الثاني : أنه إبليس ، قاله مجاهد وقتادة ورواه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن قوله : " شططاً " وجهان :

أحدهما : جوراً ، وهو قول أبي مالك .

الثاني : كذباً ، قاله الكلبي ، وأصل الشطط البعد ، فعبر به عن الجور لبعده من العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق .

﴿ وأنّه كانَ رجالٌ من الإنسِ يَعُوذون برجالٍ من الجنّ ﴾ قال ابن زيد : إنه كان الرجل في الجاهلية قبل الإسلام إذا نزل بواد قال : إني أعوذ بكبير هذا الوادي – يعني من الجن – من سفهاء قومه ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم ، وهو معنى قوله : " وأنه كان رجال " .

وفي قوله : ﴿ فَزَادُوهم رَهقاً ﴾ ثمانية تأويلات :

أحدها : طغياناً ، قاله مجاهد .

الثاني : إثماً ، قاله ابن عباس وقتادة ، قال الأعشى :

لا شيءَ ينفعني مِن دُون رؤيتها . . . هل يَشْتفي عاشقٌ ما لم يُصبْ رهَقاً .

يعني إثماً .

الثالث : خوفاً ، قاله أبو العالية والربيع وابن زيد .

الرابع : كفراً ، قاله سعيد بن جبير .

الخامس : أذى ، قاله السدي .

السادس : غيّاً ، قاله مقاتل .

السابع : عظمة ، قاله الكلبي .

الثامن : سفهاً ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وأنا لَمسْنا السّماءَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : طلبنا السماءَ ، والعرب تعبر عن الطلب باللمس تقول جئت ألمس الرزق وألتمس الرزق .

الثاني : قاربنا السماء ، فإن الملموس مقارَب .

﴿ فوَجدْناها ﴾ أي طرقها .

﴿ مُلئتْ حَرَساً شديداً ﴾ هم الملائكة الغلاظ الشداد .

﴿ وشُهُباً ﴾ جمع شهاب وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عند استراق السمع ، واختلف في انقضاضها في الجاهلية قبل مبعث الرسول الله صلى الله عليه وسلم على قولين :

أحدهما : أنها كانت تنقض في الجاهلية ، وإنما زادت بمبعث الرسول إنذاراً بحاله ، قال أوس بن حجر ، وهو جاهلي :

فانقضّ كالدُّرِّيِّ يَتْبَعهُ . . . نقعٌ يثورُ تخالُهُ طُنُباً

وهذا قول الأكثرين .

الثاني : أن الانقضاض لم يكن قبل المبعث وإنما أحدثه الله بعده ، قال الجاحظ : وكل شعر روي فيه فهو مصنوع .

(165/786)

﴿ وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ منها مَقَاعِدَ للسَّمْعِ ﴾ يعني أن مردة الجن كانوا يقعدون من السماء الدنيا مقاعد للسمع يستمعون من الملائكة أخبار السماء حتى يُلقوها إلى الكهنة فتجري على ألسنتهم ، فحرسها اللَّه حين بعث رسوله بالشهب المحرقة ، فقالت الجن حينئذٍ :

﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رَصَداً ﴾ يعني بالشهاب الكوكب المحرق ، والرصد من الملائكة .

أما الوحي فلم تكن الجن تقدر على سماعه ، لأنهم كانوا مصروفين عنه من قبل .

﴿ وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأَرضِ أَمْ أَرادَ بهم ربُّهم رَشَداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم لا يدرون هل بعث الله محمداً ليؤمنوا به ويكون ذلك منهم رشداً ولهم ثواباً ، أم يكفروا به فيكون ذلك منهم شراً وعليهم عقاباً ، وهذا معنى قول السدي وابن جريج .

الثاني : أنهم لا يدرون حراسة السماء بالشهب هل شر وعذاب أم رشد وثواب ، قاله ابن زيد .

﴿ وأنّا مِنّا الصّالحونَ ﴾ يعني المؤمنين .

﴿ ومنّا دون ذلك ﴾ يعني المشركين .

ويحتمل أن يريد بالصالحين أهل الخير ، وب " دون ذلك " أهل الشر ومن بين الطرفين على تدريج ، وهو أشبه في حمله على الإيمان والشرك لأنه إخبار منهم عن تقدم حالهم قبل إيمانهم .

﴿ كُنّا طَرائقِ قِدَداً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني فِرقاً شتى ، قاله السدي .

الثاني : أدياناً مختلفة ، قاله الضحاك .

الثالث : أهواء متباينة ، ومنه قول الراعي :

القابض الباسط الهادي بطاعته . . . في فتنة الناس إذ أهواؤهم قِدَدُ

﴿ وأنّا لّما سَمِعْنا الهُدَى آمَنّا به ﴾ يعني القرآن سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وصدقوه على رسالته ، وقد كان رسول الله مبعوثاً إلى الجن والإنس .

قال الحسن : بعث اللّه محمداً إلى الإنس والجن ولم يبعث الله تعالى رسولاً من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسَلْنا مِن قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ .

﴿ فمن يؤمن بربّه فلا يخافُ بخساً ولا رَهقاً ﴾ قال ابن عباس :

لا يخاف نقصاً في حسناته ، ولا زيادة في سيئاته ، لأن البخس النقصان ، والرهق :

العدوان ، وهذا قول حكاه الله عن الجن لقوة إيمانهم وصحة إسلامهم ، وقد روى عمار بن

عبد الرحمن عن محمد بن كعب قال : بينما عمر بن الخطاب جالساً ذات يوم إذ مرّ به رجل

، فقيل له : أتعرف المارّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هو ؟ قالوا : سواد بن قارب رجل من

أهل اليمن له شرف ، وكان له رئيّ من الجن ، فأرسل إليه عمر فقال له : أنت سواد بن

قارب ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وأنت الذي أتاك رئيّ من الجن يظهر لك ؟ قال : نعم

بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئي من الجن فضربني برجله وقال : قم يا

سواد بن قارب فاسمع مقالي واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب

يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبْتُ للجنّ وتطلابها . . . وشدّها العِيسَ بأذْنابها .

تهوي إلى مكة تبغي الهُدَى . . . ما صادقُ الجن ككذّابها .

فارْحَلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ . . . فليس قد أتاها كاذباً بها .

فقلت دعني أنام فإني أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قاله رأساً ، فلما كان الليلة الثانية أتاني

فضربني برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه قد

بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى اللَّه وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبْتُ للجنّ وتخيارها . . . وشدّها العيس بأكوارها .

تهوي إلى مكة تبغي الهدي . . . ما مؤمن الجن ككفّارِها

فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ . . . ما بين رابيها وأحجارها .

فقلت له دعني فإني أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ، فلما كان الليلة الثالثة أتاني وضربني برجله ، وقال قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها . . . وشدّها العيسَ بأحْلاسها .

(167/786)

تهوي إلى مكة تبغي الهُدي . . . ما خَيّرُ الجنّ كأنجاسها .

فارحلْ إلى الصفوة من هاشم . . . واسم بيديْك إلى رأسها .

قال : فأصبحت قد امتحن الله قلبي بالإسلام ، فرحلتُ ناقتي فأتيت المدينة ، فإذا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقلت اسمع مقالتي يا رسول اللَّه ، قال : هات ، فأنشأت أقول :

أتاني نجيّ بين هدءٍ ورقْدةٍ . . . ولم يك فيما قد تلوْتُ بكاذبِ

ثلاث ليال قوله كل ليلةٍ . . . أتاك رسولٌ من لؤيّ بن غالب

فشمّرتُ من ذيلي الإزار ووسطت . . . بي الذمل الوجناء بين السباسِب

فأشهَدُ أن اللَّه لا شيءَ غيرهُ . . . وأنك مأمولٌ على كل غالبِ .

وأنك أدني المرسلين وسيلةً . . . إلى اللَّه يا بن الأكرمين الأطايب .

فمُرنْا بما يأتيك يا خيرَ من مشى . . . وإن كانَ فيما جاءَ شيبُ الذوائب .

وكن لي شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ . . . سِواك بمغنٍ عن سوادِ بن قارب .

ففرح رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه فرحاً شديداً ، حتى رئي الفرح في وجوههم ، قال : فوثب عمر فالتزمه وقال : قد كنت أشتهي أن أسمع منك هذا الحديث ، فهل يأتيك رئيك من الجن اليوم ؟ قال : [أما] وقد قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب اللَّه عن الجن .

﴿ وأَنّا مِنّا المسْلِمونَ ومِنّا القاسِطونَ ﴾ وهذا إخبار عن قول الجن بحال من فيهم من مؤمن وكافر ، والقاسط : الجائر ، لأنه عادل عن الحق ، ونظيره الترِب والمُتْرِب ، فالترِب الفقير ، لأن ذهاب ماله أقعده على التراب ، والمترب الغني لأن كثرة ماله قد صار كالتراب .

وفي المراد بالقاسطين ثلاثة أوجه :

أحدها : الخاسرون ، قاله قتادة .

الثاني : الفاجرون ، قاله ابن زيد .

الثالث : الناكثون ، قاله الضحاك .

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ ذكر ابن بحر أن كل ما في هذه السورة من " إن " المكسورة المثقلة فهو حكاية لقول الجن الذين استمعوا القرآن فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من " أن " المفتوحة المخففة أو المثقلة فهو من وحي الرسول .

(168/786)

وفي هذه الاستقامة قولان :

أحدهما : أنها الإقامة على طريق الكفر والضلالة ، قاله محمد بن كعب وأبو مجلز وغيرهما .

الثاني : الاستقامة على الهدى والطاعة ، قاله ابن عباس والسدي وقتادة ومجاهد فمن ذهب إلى أن المراد الإقامة على الكفر والضلال فلهم في قوله ﴿ لأَسْقَيْناهم ماءً غَدَقاً ﴾ وجهان :

أحدهما : بلوناهم بكثرة الماء الغدق حتى يهلكوا كما هلك قوم نوح بالغرق ، وهذا قول محمد بن كعب .

الثاني : لأسقيناهم ماء غدق ينبت به زرعهم ويكثر مالهم .

﴿ لِنَفْتِنَهم فيه ﴾ فيكون زيادة في البلوى ، حكى السدي عن عمر في قوله " لأسقيناهم ماء غدقاً " أنه قال : حيثما كان الماء كان المال ، وحيثما كان المال كانت الفتنة ،

فاحتملت الفتنة ها هنا وجهين :

أحدهما : افتنان أنفسهم .

الثاني : وقوع الفتنة والشر من أجله .

وأما من ذهب إلى أن المراد الاستقامة على الهدى والطاعة فلهم في تأويل قوله " لأسقيناهم ماءً غدقاً " أربعة أوجه :

أحدها : معناه لهديناهم الصراط المستقيم ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأوسعنا عليهم في الدنيا ، قاله قتادة .

الثالث : لأعطيناهم عيشاً رغداً ، قاله أبو العالية .

الرابع : أنه المال الواسع ، لما فيه من النعم عليهم بحياة النفوس وخصب الزروع ، قاله أبو مالك والضحاك وابن زيد .

وفي الغدق وجهان :

أحدهما : أنه العذب المعين ، قاله ابن عباس ، قاله أمية بن أبي الصلت :

مِزاجُها سلسبيلٌ ماؤها غَدَقٌ . . . عَذْبُ المذاقةِ لا مِلْحٌ ولا كدرٌ

الثاني : أنه الواسع الكثير ، قاله مجاهد ، ومنه قول كثير :

وهبتُ لسُعْدَى ماءه ونباته . . . فما كل ذي وُدٍّ لمن وَدَّ واهبُ .

لتروى به سُعدى ويروى محلّها . . . وتغْدقَ أعداد به ومشارب

فعلى هذا فيه وجهان :

أحدهما : أنه إخبار عن حالهم في الدنيا .

الثاني : أنه إخبار عن حالهم في الآخرة لنفتنهم فيه .

فإن قيل إن هذا وارد في أهل الكفر والضلال كان في تأويله ثلاثة أوجه :

(169/786)

أحدها : افتتان أنفسهم بزينة الدنيا .

الثاني : وقوع الفتنة والاختلاف بينهم بكثرة المال .

الثالث : وقوع العذاب بهم كما قال تعالى : ﴿ يوم هم على النار يُفْتَنُون ﴾ [الذاريات : 13] أي يعذبون .

وإن قيل إنه وارد في أهل الهدى والطاعة فهو على ما قدمنا من الوجهين .

وهل هو اختبارهم في الدنيا ففي تأويله ثلاثة أوجه :

أحدها : لنختبرهم به ، قاله ابن زيد .

الثاني : لنطهرهم من دنس الكفر .

الثالث : لنخرجهم به من الشدة والجدب إلى السعة والخصب .

فإن قيل إنه إخبار عمّا لهم في الآخرة ففي تأويله وجهان :

أحدهما : لنخلصهم وننجيهم ، مأخوذ من فَتَن الذهب إذا خلّصه مِن غشه بالنار كما قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وفَتَنّاكَ فُتوناً ﴾ [طه : 40] أي خلصناك من فرعون .

الثاني : معناه لنصرفنهم عن النار ، كما قال تعالى ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أَوْحَيْنا إليك لتفْتري علينا غيره ﴾ [الإسراء : 73] أي ليصرفونك ﴿ ومَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْرِ ربّه ﴾ قال ابن زيد : يعني القرآن وفي إعراضه عنه وجهان :

أحدهما : عن القبول ، إن قيل إنها من أهل الكفر .

الثاني : عن العمل ، إن قيل إنها من المؤمنين .

﴿ يَسْلُكْهُ عذاباً صَعَداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جب في النار ، قاله أبو سعيد .

الثاني : جبل في النار إذا وضع يده عليه ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وهو مأثور ، وهذان الوجهان من عذاب أهل الضلال .

والوجه الثالث : أنه مشقة من العذاب يتصعد ، قاله مجاهد .

﴿ وأنَّ المساجدَ للَّهِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني الصلوات للَّه ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنها الأعضاء التي يسجد عليها للَّه ، قاله الربيع .

الثالث : أنها المساجد التي هي بيوت اللَّه للصلوات ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه كل موضع صلى فيه الإنسان ، فإنه لأجل السجود فيه يسمى مسجداً .

﴿ فلا تَدْعُوا مع اللَّهِ أحَداً ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره ، وفي سببه ثلاثة أقاويل :

(170/786)

أحدها : ما حكاه الأعمش أن الجن قالت : يا رسول الله ائذن لنا نشهد معك الصلاة في مسجدك ، فنزلت هذه الآية .

الثاني : ما حكاه أبو جعفر محمد بن علّي أن الحمس من مشركي أهل مكة وهم كنانة وعامر وقريش كانوا يُلبّون حول البيت : لبيّك اللهم لبيّك ، لبيّك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل اللَّه هذه الآية نهياً أن يجعل للَّه شريكاً ، وروى الضحاك عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى وقال : " وأن المساجد للَّه فلا تدعوا مع اللَّه أحداً " اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كل

مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار " وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : " اللهم صُبَّ الخير صبّاً ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كدّاً واجعل لي في الخير جداً " .

﴿ وأنه لما قام عبدُ اللَّهِ يدعوه ﴾ يعني محمداً ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه قام إلى الصلاة يدعو ربه فيها ، وقام أصحابه خلفه مؤتمين ، فعجبت الجن من طواعية أصحابه له ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه قام إلى اليهود داعياً لهم إلى اللَّه ، رواه ابن جريج .

﴿ كادوا يكونون عليهِ لِبَداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني أعواناً ، قاله ابن عباس .

الثاني : جماعات بعضها فوق بعض ، وهو معنى قول مجاهد ، ومنه اللبد لاجتماع الصوف بعضه على بعض ، وقال ذو الرمة :

ومنهلٍ آجنٍ قفرٍ مواردهُ . . . خُضْرٍ كواكبُه مِن عَرْمَصٍ لَبِدِ .

وفي كونهم عليه لبداً ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم المسلمون في اجتماعهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ابن جبير . الثاني : أنهم الجن حين استمعوا من رسول اللَّه قراءته ، قاله الزبير بن العوام . الثالث : أنهم الجن والإنس في تعاونهم على رسول اللَّه في الشرك ، قاله قتادة .

﴿ قلْ إني لا أَمْلِكُ لكم ضَرّاً ولا رَشَداً ﴾ يعني ضراً لمن آمن ولا رشداً لمن كفر ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : عذاباً ولا نعيماً .

الثاني : موتاً ولا حياة .

الثالث : ضلالاً ولا هدى .

﴿ قل إني لن يُجيرَني مِنَ اللَّهِ أَحدٌ ﴾ روى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال : انطلقتُ مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ليلة الجن حتى أتى الحجون فخط خطاً ثم تقدم عليهم فازدحموا عليه ، فقال سيد لهم يقال له وردان : أنا أزجلهم عنك ، فقال :

" إني لن يجيرني من اللَّه أحد "

ويحتمل وجهين :

أحدهما : لن يجيرني مع إجارة اللَّه لي أحد .

الثاني : لن يجيرني مما قدره الله علي أحد .

﴿ ولن أجدَ مِن دُونِهِ مَلْتَحداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني ملجأ ولا حرزاً ، قاله قتادة .

الثاني : ولياً ولا مولى ، رواه أبو سعيد .

الثالث : مذهباً ولا مسلكاً ، حكاه ابن شَجرة ، ومنه قول الشاعر :

يا لهفَ نفْسي ولهفي غيرُ مُجْديةٍ . . . عني وما مِن قضاءِ اللَّهِ مُلْتَحَدُ .

﴿ إلا بلاغاً مِن اللَّه ورسالاتِه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا أملك ضراً ولا رشداً إلا أن أبلغكم رسالات اللَّه ، قاله الكلبي .

الثاني : لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالات اللَّه ، قاله مقاتل .

روى مكحول عن ابن مسعود : أن الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة ، وكانوا سبعين ألفاً ، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر .

﴿ عالِمُ الغيْب ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : عالم السر ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما لم تروه مما غاب عنكم ، قاله الحسن .

الثالث : أن الغيب القرآن ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن الغيب القيامة وما يكون فيها ، حكاه ابن أبي حاتم .

﴿ فلا يُظْهِرُ على غيْبه أَحَداً ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلا من ارتضى من رسول الله هو جبريل ، قاله ابن جبير .

الثاني : إلا من ارتضى من نبي فيما يطلعه عليه من غيب ، قاله قتادة .

(172/786)

﴿ فإنه يَسْلُكُ مِن بَيْن يَدَيْه ومِنْ خَلْفه رَصَداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الطريق ، ويكون معناه فإنه يجعل له إلى علم بعض ما كان قبله وما يكون بعده طريقاً ، قاله ابن بحر .

الثاني : أن الرصد الملائكة ، وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم حفظة يحفظون النبي صلى الله عليه وسلم من الجن والشياطين من أمامه ووراءه ، قاله ابن عباس وابن زيد ، قال قتادة : هم أربعة .

الثاني : أنهم يحفظون الوحي فما جاء من الله قالوا إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان ، قاله السدي .

الثالث : يحفظون جبريل إذا نزل بالوحي من السماء أن يسمعه الجن إذا استرقوا السمع ليلقوه إلى كهنتهم قبل أن يبلغه الرسول إلى أمته ، قاله الفراء .

﴿ ليعْلَمَ أنْ قد أبْلَغوا رسالاتِ ربِّهم ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : ليعلم محمد أن قد بلغ جبريل إليه رسالات ربه ، قاله ابن جبير ، وقال : ما نزل جبريل بشيء من الوحي إلا ومعه أربعة من الملائكة .

الثاني : ليعلم محمد أن الرسل قبله قد بلغت رسالات الله وحفظت ، قاله قتادة .

الثالث : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغت عن ربها ما أمرت به ، قاله مجاهد .

الرابع : ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل الله عليهم ، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم ، قاله ابن قتيبة .

الخامس : ليعلم الله أن رسله قد بلغوا عنه رسالاته ، لأنبيائه ، قاله الزجاج .

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ قال ابن جريج : أحاط علماً .

﴿ وأحْصى كُلَّ شيءٍ عَدَداً ﴾ يعني من خلقه الذي يعزب إحصاؤه عن غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون جـ 6 صـ 107 . 123 ﴾

(173/786)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل أُوحيَ إليَّ أنه استمع نَفَرٌ من الجن ﴾

قد ذكرنا سبب نزول هذه الآية في [الأحقاف : 29] وبَيَّنَّا هنالك سبب استماعهم .

ومعنى "النفر" وعَدَدَهم ، فأما قوله تعالى : ﴿ قرآناً عجبا ﴾ فمعناه : بليغاً يعجب منه لبلاغته ﴿ يهدي إلى الرُّشد ﴾ أي : يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان ﴿ ولن نشرك بربنا ﴾ أي : لن نعدل بربنا أحداً من خلقه .

وقيل : عنوا إبليس ، أي : لا نطيعه في الشرك بالله .

قوله تعالى : ﴿ وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا ﴾ اختلف القراء في اثنتي عشرة همزة في هذه السورة ، وهي : "وأنه تعالى" ، "وأنه كان يقول" ، "وأنا ظننا" ، "وأنه كان رجال" ، "وأنهم ظنوا" ، "وأنا لمسنا" ، "وأنا كنا" ، "وأنا لا ندري" ، "وأنا منا" ، "وأنا ظننا أن لن نعجز الله" ، "وأنا لما سمعنا" ، "وأنا منا" ، ففتح الهمزة في هذه المواضع ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص عن عاصم ، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة مواضع "وأنه تعالى" ، "وأنه كان يقول" ، "وأنه كان رجال" ، وكسر الباقيات .

وقرأ الباقون بكسرهن .

وقال الزجاج : والذي يختاره النحويون في هذه السورة أن ما كان من الوحي قيل فيه "أن" بالفتح ، وما كان من قول الجن قيل "إن" بالكسر .

معطوف على قوله تعالى : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ وعلى هذا يكون المعنى : وقالوا : إنه تعالى جَدُّ ربنا ، وقالوا : إنه كان يقول سفيهنا .

فأما من فتح ، فذكر بعض النحويين : يعني الفراء ، أنه معطوف على الهاء في قوله تعالى : ﴿

فآمنا به ﴾ وبأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا .

وكذلك ما بعد هذا .

وهذا رديء في القياس ، لا يعطف على الهاء المتمكّنة المخفوضة إلا بإظهار الخافض .

ولكن وجهه أن يكون محمولاً على معنى أمنَّا به ، فيكون المعنى : وصدَّقْنا أنه تعالى جَدُّ رَبِّنا .

وللمفسرين في معنى "تعالى جَدُّ رَبِّنا" سبعة أقوال .

أحدها : قُدْرَةُ رَبِّنا ، قاله ابن عباس .

(174/786)

والثاني : غِنى رَبِّنا ، قاله الحسن .

والثالث : جَلالُ رَبِّنا ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والرابع : عَظَمَةُ رَبِّنا ، قاله قتادة .

والخامس : أَمْرُ رَبِّنا ، قاله السدي .

والسادس : ارتفاع ذِكره وعظمته ، قاله مقاتل .

والسابع : مُلْكُ رَبِّنا وثناؤه وسلطانه ، قاله أبو عبيدة .

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه إبليس ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه كفارهم ، قاله مقاتل .

و"الشطط" : الجَوْر ، والكذب ، وهو : وصفه بالشريك ، والولد .

ثم قالت الجن ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ وقرأ يعقوب : "أن لن تَقَوَّلَ" بفتح القاف ، وتشديد الواو .

والمعنى : ظنناهم صادقين في قولهم : لله صاحبة وولد ، وما ظننَّاهم يكذبون حتى سمعنا القرآن ، يقول الله عز وجل "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن"

وذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بِسَيِّدِ هذا الوادي من شَرِّ سُفَهَاءِ قومه ، فيبيت في جِوارٍ منهم حتى يصبح .

ومنه حديث كردم بن أبي السائب الأنصاري ، قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذُكِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب ، فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي فنادى : يا عامر الوادي جارك ، فنادى منادٍ لا نراه : يا سرحان أرسله .

فإذا الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم "وأنه كان رجال من الإنس . . .

" الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ قولان .

أحدهما : أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوُّذهم بهم ، قاله مقاتل .

والمعنى : أنهم لما استعاذوا بسادتهم قالت السادة : قد سدنا الجن والإنس .

والثاني : أن الجن زادوا الإنس رَهَقاً ، ذكره الزجاج .

قال أبو عبيدة : زادوهم سَفَهاً وطغياناً .

وقال ابن قتيبة : زادوهم ضلالاً .

(175/786)

وأصل الرهق : العيب .

ومنه يقال : فلان يرهق في دينه .

قوله تعالى : ﴿ وأنهم ظنوا ﴾ يقول الله عز وجل : ظن الجن ﴿ كما ظننتم ﴾ أيها الإنس المشركون أنه لا بعث .

وقالت الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ أي : أتيناها ﴿ فوجدناها ملئت حَرَساً شديداً ﴾ وهم الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع ﴿ وشُهُباً ﴾ جمع شهاب ، وهو

النجم المضيء ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ أي : كنا نستمع ، فالآن حين حاولنا الاستماع بعد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، رُمِينا بالشُّهُب .

ومعنى : "رصداً" قد أرصد له المرمى به ﴿ وأنا لا ندري أَشَرٌّ أُريدَ بمن في الأرض ﴾ بإرسال محمد إليهم ، فيكذبونه فيهلكون ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهو أن يؤمنوا فيهتدوا ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه قول كفرة الجن ، والمعنى : لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرض بحدوث الرجم بالكواكب ، أم صلاح ؟ قاله الفراء .

ثم أخبروا عن حالهم ، فقالوا : ﴿ وأنا مِنَّا الصالحون ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿ ومِنَّا دون ذلك ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنهم المشركون .

والثاني : أنهم أهل الشرِّ دون الشرك ﴿ كنَّا طرائق قدداً ﴾ قال الفراء : أي : فرقاً مختلفة أهواؤنا .

وقال أبو عبيدة : واحد الطرائق : طريقة ، وواحد القِددِ : قدة ، أي : ضروباً وأجناساً ومِلَلاً .

قال الحسن ، والسدي : الجن مثلكم فمنهم قَدَرِيَّة ، ومرجِئَةٌ ، ورافضة .

قوله تعالى : ﴿ وأنا ظننا ﴾ أي : أيقنّا ﴿ أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ أي : لن نَفُوتَه إذا أراد بنا أمراً ﴿ ولن نعجزه هَرَباً ﴾ أي : أنه يدركنا حيث كنّا ﴿ وأنا لمَّا سمعنا الهدى ﴾ وهو القرآن الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ آمنّا به ﴾ أي : صدّقنا أنه من عند الله عز وجل ﴿ فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخساً ﴾ أي : نقصاً من الثواب ﴿ ولا رَهَقاً ﴾ أي : ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه ، ﴿ وأنا منّا المسلمون ﴾ قال مقاتل : المخلصون لله ﴿ ومِنّا القاسطون ﴾ وهم المَرَدَة .

قال ابن قتيبة : القاسطون : الجائرون .

يقال : قسط : إذا جار ، وأقسط : إذا عدل .

قال المفسرون : هم الكافرون ﴿ فمن أسلم فأولئك تَحَرَّوا رشداً ﴾ أي : تَوَخَّوْه ، وأَمَّوْه .

ثم انقطع كلام الجن .

قال مقاتل : ثم رجع إلى كفار مكة فقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ يعني طريقة الهدى ، وهذا قول ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، واختاره الزجاج .

قال لأن الطريقة ها هنا بالألف واللام معرفة ، فالأوجب أن تكون طريقة الهدى .

وذهب قوم إلى أن المراد بها : طريقة الكفر ، قاله محمد بن كعب ، والربيع ، والفراء ، وابن قتيبة ، وابن كيسان .

فعلى القول الأول يكون المعنى : لو آمنوا لوسَّعنا عليهم ﴿ لِنَفْتِنَهم ﴾ أي : لنختبرَهم ﴿ فيه ﴾ فننظر كيف شُكْرُهم .

والماء الغَدَق : الكثير .

وإنما ذكر الماء مثلاً ، لأن الخير كله يكون بالمطر ، فأقيم مقامه إذ كان سببه وعلى الثاني يكون المعنى : لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم ، لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدراجاً ، ثم نعذبهم على ذلك .

وقيل لأكثرنا لهم الماء فأغرقناهم ، كقوم نوح ﴿ ومن يُعْرِضْ عن ذِكْرِ ربّه ﴾ يعني : القرآن ﴿ يسلكْه ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "نسلكه" بالنون .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالياء .

(177/786)

﴿ عذاباً صعداً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : عذاباً شاقاً ، يقال : تصعَّدني الأمر : إذا شَقَّ علي .

ومنه قول عمر : ما تَصَعَّدني شيء ما تصعَّدَتني خِطْبَةُ النِّكاح .

ونرى أصل هذا كله من الصعود ، لأنه شاق ، فكني به عن المشَقَّات .

وجاء في التفسير أنه جبل في النَّار يكلَّف صعوده ، وسنذكره عند قوله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ [المدثر : 17] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات ، قاله ابن عباس .

قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهُم أشركوا ، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم .

والثاني : الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، قاله سعيد بن جبير ، وابن الأنباري ، وذكره الفراء .

فيكون المعنى ، لا تسجدوا عليها لغيره .

والثالث : أن المراد بالمساجد هاهنا : البقاع كلُّها ، قاله الحسن .

فيكون المعنى : أن الأرض كلها مواضع للسجود ، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها .

والرابع : أن المساجد : السجود ، فإنه جمع مسجد .

يقال : سجدت سجوداً ، ومَسْجِداً ، كما يقال : ضربت في الأرض ضرباً ، ومَضْرِباً ، ثم يجمع ، فيقال : المسَاجِد ، والمضارِب .

قال ابن قتيبة : فعلى هذا يكون واحدها : مَسْجَداً ، بفتح الجيم .

والمعنى : أَخْلِصُوا له ، ولا تسجدوا لغيره .

ثم رجع إلى ذكر الجن فقال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ يدعوه ﴾ أي : يعبده .

وكان يصلي ببطن نخلة على ما سبق بيانه في [الأحقاف : 29] ﴿ كادوا يكونون عليه لِبَداً ﴾ قرأ الأكثرون : "لبداً" بكسر اللام ، وفتح الباء .

وقرأ هشام عن ابن عامر ، وابن محيصن "لُبَداً" بضم اللام ، وفتح الباء مع تخفيفها .

قال الفراء : ومعنى القراءتين واحد .

يقال : لِبَدة ، ولُبَدة .

قال الزجاج : والمعنى : كاد يركب بعضهم بعضاً .

ومنه اشتقاق اللبد الذي يفترش .

(178/786)

وكل شيء أضفته إلى شيء فقد لَبَّدته .

وقرأ قوم منهم الحسن ، والجحدري : "لُبَّداً" بضم اللام مع تشديد الباء .

قال الفراء : فعلى هذه القراءة يكون صفة للرجال ، كقولك : رُكَّعاً وركوعاً ، وسُجَّداً وسجوداً .

قال الزجاج : هو جمع لابد ، مثل راكع ، وركَّع .

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم .

والمعنى : أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً ، حِرْصاً على سماع القرآن ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثاني : أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم ، فوصفوا لهم طاعة أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به في الركوع ، والسجود ، فكأنهم قالوا : لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبداً .

وهذا المعنى في رواية ابن جبير ، عن ابن عباس .

والثالث : أن المعنى : لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدَّعوة تلبَّدت الإنس والجن ، وتظاهروا عليه ، ليبطلوا الحق الذي جاء به ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أدعوا ربي ﴾ قرأ عاصم ، وحمزة : "قل إنما أدعو ربي" بغير ألف .

وقرأ الباقون "قال" على الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال مقاتل : إن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك جئت بأمر عظيم ، لم يسمع

بمثله فارجع عنه ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ قل لا أملك لكم ضراً ﴾ أي : لا أدفعه عنكم ﴿ ولا ﴾ أسوق إليكم ﴿ رَشَداً ﴾ أي : خيراً ، أي : إن الله تعالى يملك ذلك ، لا أنا ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي : إن عصيته لم يمنعني منه أحد ، وذلك أنهم قالوا : اترك ما تدعو إليه ، ونحن نجيرك ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ وقد بيّنّاه في [الكهف : 27] ﴿ إلا بلاغاً من الله ﴾ فيه وجهان ، ذكرهما الفراء .

أحدهما : أنه استثناء من قوله تعالى ﴿ لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ إلا أن أبلغكم .

(179/786)

والثاني : لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلّغ رسالته .

وبالأول قال ابن السائب .

وبالثاني : قال مقاتل .

وقال بعضهم : المعنى : لن يجيرني من عذاب الله إلا أن أبلّغ عن الله ما أُرسِلْتُ ، فذلك البلاغ هو الذي يجيرني ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ بترك الإيمان والتوحيد .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأَوْا ﴾ يعني : الكفار ﴿ ما يوعدون ﴾ من العذاب في الدنيا ،

وهو القتل .

وفي الآخرة ﴿ فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أي : جنداً ونصراً ، أهم ، أم المؤمنون ؟ ﴿ قل إن أدري ﴾ أي : ما أدري ﴿ أقريب ما توعدون ﴾ من العذاب ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي : غاية وبُعْداً .

وذلك لأن علم الغيب لله وحده ﴿ فلا يُظهِر ﴾ أي : فلا يُطلِع على غيبه الذي يعلمه أحداً من الناس ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ لأن من الدليل على صدق الرسل إخبارَهم بالغيب .

والمعنى : أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من غيبه .

وفي هذا دليل على أن من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر .

ثم ذكر أنه يحفظ ذلك الذي يطلع عليه الرسول فقال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ﴾ أي : من بين يدي الرسول ﴿ ومِن خلفه رَصَداً ﴾ أي : يجعل له حَفَظَةً من الملائكة يحفظون الوحي من أن تَسْتَرِقَه الشياطين ، فتلقيه إلى الكَهَنة ، فيتكلَّمون به قبل أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم الناس .

وقال الزجاج : يسلك من بين يَدَيْ الملَك ومن خلفه رصداً .

وقيل يسلك من بين يدي الوحي .

فالرُّصَّدُ من الملائكة يدفعون الشياطين عن أن تستمع ما ينزل من الوحي .

قوله تعالى : ﴿ ليعلم ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن جبرائيل قد بلَّغ إليه ، قاله ابن جبير .

والثاني : ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن الرسل قبله ﴿ قد أبلغوا رسالاتِ رِبّهم ﴾ وأن الله قد حفظها فدفع عنها ، قاله قتادة .

والثالث : ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم ، قاله مجاهد .

(180/786)

والرابع : ليعلم الله عز وجل ذلك موجوداً ظاهراً يجب به الثواب ، فهو كقوله تعالى : ﴿ ولمَّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ﴾ [آل عمران : 142] قاله ابن قتيبة .

والخامس : ليعلم النبيُّ أن الرسل قد أتته ، ولم تصل إلى غيره ، ذكره الزجاج .

وقرأ رويس عن يعقوب ﴿ ليُعْلَم ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله .

وقال ابن قتيبة : ويُقرأ ﴿ لتَعْلَم ﴾ بالتاء ، يريد : لتعلم الجن أن الرسل قد بلَّغت عن إلههم بما رَجَوْا من استراق السمع ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي : علم الله ما عند الرسل ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ فلم يفته شيء حتى الذرّ والخردل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 376.386 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾

اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت وجود الجن فأنكر وجودهم معظم الفلاسفة ، واعترف بوجودهم جمع منهم وسموهم بالأرواح السفلية ، وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنهم أضعف .

وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجود الجن لكن اختلفوا في ماهيتهم ، فقيل الجن حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة ، وقيل إنها جواهر وليست بأجسام ولا أعراض ثم هذه الجواهر أنواع مختلفة بالماهية فبعضها خيرة كريمة محبة للخيرات وبعضها دنيئة خسيسة شريرة محبة للشرور والآفات ولا يعلم عدة أنواعهم إلا الله تعالى ، وقيل إنهم أجسام مختلفة الماهية لكن تجمعهم صفة واحدة وهي كونهم حاصلون في الحيز موصوفون بالطول والعرض والعمق ، وينقسمون إلى لطيف وكثيف وعلوي وسفلي ولا يمتنع في بعض الأجسام اللطيفة الهوائية أن تكون مخالفة لسائر أنواع الأجسام في الماهية وأن يكون لها علم مخصوص وقدرة مخصوصة على أفعال عجيبة أو شاقة يعجز البشر عن

مثلها .

وقد يتشكلون بأشكال مختلفة وذلك بإقدار الله تعالى إياهم على ذلك ، وقيل إن الأجسام متساوية في تمام الماهية وليست البنية شرطاً للحياة وهذا قول الأشعري وجمهور أتباعه ، وشذ تأويل المعتزلة من هذه الأمة فأنكروا وجود الجن وقالوا البنية شرط للحياة وإنه لا بد من صلابة البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة ، وهذا قول منكر وصاحب هذا القول ينكر خرق العادات ورد ما ثبت وجوده بنص الكتاب والسنة .

(فصل)

اختلف الرواة هل رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) الجن فأثبتها ابن مسعود فيما رواه عنه مسلم في صحيحه وقد تقدم حديثه في تفسير سورة الأحقاف عند قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ وأنكرها ابن عباس فيما رواه عنه البخاري ومسلم .

(182/786)

قال ابن عباس " ما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم

فقالوا ما لكم فقيل حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ؟ قالوا وما ذاك إلا من شيء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء .

فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا ﴿ يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ زاد في رواية ﴿ وإنما أوحي إليه قول الجن " أخرجاه في الصحيحين ، قال القرطبي في شرح مسلم في حديث ابن عباس هذا معناه أنه لم يقصدهم بالقراءة بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين استراق السمع ، صادف هؤلاء النفر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي بأصحابه وعلى هذا فهو (صلى الله عليه وسلم) لم يعلم باستماعهم ولم يكلمهم وإنما أعلمه الله بما أوحي إليه من قوله قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن وأما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجن آخرون .

والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم ، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) رسول إلى الإنس والجن فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة ، ومن كفر به فهو من الشياطين المبعدين المعذبين فيها والنار مستقره .

وهذا الحديث يقتضي أن الرجم بالنجوم ولم يكن قبل المبعث .

وذهب قوم إلى أنه كان قبل مبعثه وآخرون إلى أنه كان لكن زاد بهذا المبعث وبهذا القول يرتفع التعارض بين الحديثين هذا آخر كلام القرطبي والله أعلم .

عكاظ سويقة معروفة بقرب مكة كان العرب يقصدونها في كل سنة مرة في الجاهلية وأول الإسلام وتهامة كل ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز سميت تهامة لتغير هوائها .

ومكة من تهامة معدودة ونخلة واد من أودية مكة قريب منها .

وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل أوحي إليّ ﴾ أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس فهو أيضاً مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به وقوله استمع نفر من الجن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة قيل كانوا تسعة من جن نصيبين .

وقيل سبعة سمعوا قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فقالوا ﴾ أي لما رجعوا إلى

قومهم ، ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ قال ابن عباس بليغاً أي ذا عجب يعجب منه لبلاغته وفصاحته ﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ أي يدعو إلى الصواب يعني التوحيد والإيمان ﴿ فآمنا به ﴾ أي بالقرآن ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك .

وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهوداً وقيل كانوا نصارى وقيل كانوا مجوساً ومشركين ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي جلال ربنا وعظمته ، ومنه قول أنس "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا " أي عم قدره وقيل الجد الغنى .

(184/786)

﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي كنا نظن أن الإنس والجن صادقون في قولهم إن لله صاحبة وولداً وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله .

قوله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن كردم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) بمكة وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ وذكره ابن الجوزي في تفسيره بغير سند ومعنى الآية زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم رهقاً ، قال ابن عباس إثماً . وقيل طغياناً وقيل غياً وقيل شراً وقيل عظمة وذلك أنهم كانوا يزدادون بهذا التعوذ طغياناً وعظمة ويقولون يعني عظماء الجن سدنا الجن والإنس .

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ﴿ وأنهم ظنوا ﴾ يعني الجن ﴿ كما ظننتم ﴾ أي يا معشر الكفار من الإنس ﴿ أن لن يبعث الله أحداً ﴾ يعني يقول الجن وأنا ﴿ لمسنا السماء ﴾ أي طلبنا بلوغ السماء الدنيا واستماع كلام أهلها ﴿ فوجدناها ملئت حرساً ﴾ يعني من الملائكة ﴿ شديداً وشهباً ﴾ أي من النجوم ﴿ وأنا كنا نقعد منها ﴾ أي من السماء ﴿ مقاعد للسمع ﴾ يعني كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب والآن قد ملئت المقاعد كلها ﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي أرصد له ليرمى به .

وقيل شهاباً من الكواكب ورصداً من الملائكة ، عن ابن عباس قال "كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا عليها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زاد فيكون باطلاً .

فلما بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم إبليس ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائماً يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأخبروه فقال هذا الحدث في الأرض " ، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وقال ابن قتيبة إن الرجم كان قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه في شدة الحراسة وكانوا يسترقون في بعض الأحوال فلما بعث منعوا من ذلك أصلاً فعلى هذا القول يكون حمل الجن على الضرب في الأرض .

وطلب السبب إنما كان لكثرة الرجم ومنعهم عن الاستراق بالكلية .

﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ أي برمي الشهب ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً

﴿ ومعنى الآية لا ندري هل المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم صلاح وخير ﴾ وأنا منا الصالحون ﴾ أي المؤمنون المخلصون ﴾ ومنا دون ذلك ﴾ أي دون الصالحين مرتبة .

قيل المراد بهم غير الكاملين في الصلاح وهم المقتصدون فيدخل فيهم الكافر وغيره ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أي جماعات متفرقين وأصنافاً مختلفة والقدة القطعة من الشيء ، قال مجاهد يعنون مسلمين وكافرين .

(186/786)

وقيل أهواء مختلفة وشيعاً متفرقة لكل فرقة هوى كأهواء الناس وذلك أن الجن فيهم القدرية والمرجئة والرافضة والخوارج وغير ذلك من أهل الأهواء ، فعلى هذا التفسير يكون معنى طرائق قدداً أي سنصير طرائق قدداً وهو بيان للقسمة المذكورة أي كنا ذوي مذاهب مختلفة متفرقة ، وقيل معناه كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ﴿ وأنا ظننا ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي علمنا وأيقنا ﴿ أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ أي لن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾ أي إن طلبنا فلن نعجزه أينما كنا ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ أي لما سمعنا القرآن آمنا به وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فمن

يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ﴾ أي نقصاناً من عمله وثوابه ﴿ ولا رهقاً ﴾ يعني ظلماً وقيل مكروهاً يغشاه ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ وهم الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ومنا القاسطون ﴾ أي الجائرون العادلون عن الحق ، قال ابن عباس وهم الذين جعلوا لله أنداداً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي قصدوا طريق الله وتوخوه ﴿ وأما القاسطون ﴾ يعني الذين كفروا ﴿ فكانوا لجهنم حطباً ﴾ يعني وقوداً للنار يوم القيامة .

فإن قلت قد يتمسك بظاهر هذه الآية من لا يرى لمؤمني الجن ثواباً وذلك لأن الله تعالى ذكر عقاب الكافرين منهم ولم يذكر ثواب المؤمنين منهم .

قلت ليس فيه تمسك له وكفى بقوله فأولئك تحروا رشداً فذكر سبب الثواب والله أعدل وأكرم من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد .

فإن قلت كيف يعذب الجن بالنار وقد خلقوا منها .

قلت وإن خلقوا من النار فقد تغيروا عن تلك الهيئة وصاروا خلقاً آخر والله تعالى قادر أن يعذب النار بالنار قوله : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ .

(187/786)

اختلفوا فيمن يرجع الضمير إليه فقيل هو راجع إلى الجن الذين تقدم ذكرهم ووصفهم والمعنى لو استقام الجن على الطريقة المثلى الحسنى لأنعمنا عليهم وإنما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع وقيل معناه لو ثبت الجن الذين سمعوا القرآن .

على الطريقة التي كانوا عليها قبل استماع القرآن ولم يسلموا ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي لوسعنا الرزق عليهم .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ وقيل الضمير راجع إلى الإنس وتم الخبر عن الجن ثم رجع إلى خطاب الإنس فقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ يعني كفار مكة على الطريقة يعني على طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ يعني كثيراً وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين .

والمعنى لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا ولأعطيناهم ماء كثيراً وعيشاً رغداً .

وإنما ذكر الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله أصله من المطر وقوله " لنفتنهم فيه " أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا فيه .

وقيل في معنى الآية لو استقاموا أي ثبتوا على طريقة الكفر والضلالة لأعطيناهم مالاً كثيراً ولوسعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً لهم حتى يفتنوا به فنعذبهم والقول الأول أصح لأن الطريقة معرفة بالألف واللام وهي طريقة الهدى والقول بأن الآية في الإنس أولى لأن الإنس هم الذين ينتفعون بالمطر ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ أي عن عبادة ربه وقيل

عن مواعظه ﴿ يسلكه ﴾ أي يدخله ﴿ عذاباً صعداً ﴾ ، قال ابن عباس شاقاً وقيل عذاباً لا راحة فيه وقيل لا يزداد إلا شدة .

قوله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله ﴾ يعني المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة ، وذكر الله تعالى فيدخل فيه مساجد المسلمين والكنائس والبيع التي لليهود والنصارى ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ قال قتادة كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها .

(188/786)

وقيل أراد بالمساجد بقاع الأرض كلها لأن الأرض كلها جعلت مسجداً للنبي (صلى الله عليه وسلم) فعلى هذا يكون المعنى فلا تسجدوا على الأرض لغير الله تعالى ، قال سعيد بن جبير " قالت الجن للنبي (صلى الله عليه وسلم) كيف لنا أن نشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت وأن المساجد لله " وروي عنه أيضاً أن المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان وهي سبعة الجبهة واليدان والركبتان والقدمان والمعنى أن هذه الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله فلا تسجدوا عليها لغيره ، (م) عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول " إذا سجد العبد سجد معه

سبعة آراب وجهه وكفاه وركبتاه وقدماه " الآراب الأعضاء ، (ق) عن ابن عباس قال " أمرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن نسجد على سبعة أعضاء وأن لا نكف شعراً ولا ثوباً : الجبهة واليدين والركبتين والقدمين " وفي رواية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نكفف الثياب ولا الشعر "

﴿ قل ﴾ يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) وقرىء على الأمر ﴿ إنما أدعوا ربي ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك فقال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) " إنما أدعو ربي ﴿ ولا أشرك به أحداً قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ " أي لا أقدر على أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق إليكم رشداً وإنما الضار والنافع والمرشد والمغوي هو الله تعالى .

﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي لم يمنعني منه أحد إن عصيته ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأ ألجأ إليه وقيل حرزاً أحترز به وقيل مدخلاً في الأرض مثل السرب أدخل فيه ﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ أي ففيه الجوار والأمن والنجاة .

وقيل معناه ذلك الذي يجيرني من عذاب الله يعني التبليغ وقيل إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه .

وقيل معناه لا أملك لكم ضراً ولا رشداً لكن أبلغ بلاغاً عن الله فإنما أنا مرسل لا أملك إلا ما ملكت ، ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ يعني ولم يؤمن ﴿ فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ يعني العذاب يوم القيامة ﴿ فسيعلمون ﴾ أي عند نزول العذاب ﴿ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أهم أم المؤمنون ﴿ قل إن أدري ﴾ أي ما أدري ﴿ أقريب ما توعدون ﴾ يعني العذاب وقيل يوم القيامة ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي أجلاً وغاية تطول مدتها والمعنى أن علم وقت العذاب غيب لا يعلمه إلا الله ﴿ عالم الغيب ﴾ أي هو عالم ما غاب عن العباد ﴿ فلا يظهر ﴾ أي فلا يطلع ﴿ على غيبه ﴾ أي الغيب الذي يعلمه وانفرد به ﴿ أحداً ﴾ أي من الناس ثم استثنى فقال تعالى : ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ يعني إلا من يصطفيه لرسالته ونبوته فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يستدل على نبوته بما يخبر به من المغيبات فيكون ذلك معجزة له وآية دالة على نبوته .

قال الزمخشري وفي هذا إبطال الكرامات لأن الذين تضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيه أيضاً إبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في

السخط .

قال الواحدي وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت ونحو ذلك فقد كفر بما في القرآن .

(190/786)

فأما الزمخشري فأنكر كرامات الأولياء جرياً على قاعدة مذهبه في الاعتزال ووافق الواحدي وغيره من المفسرين في إبطال الكهانة والتنجيم قال الإمام فخر الدين ونسبة الآية في الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات قال : وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء من ذلك والذي تدل عليه أن قوله ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر الله تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة ، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ثم إنه يجوز أن يطلع الله على شيء من المغيبات غير الرسل كالكهنة وغيرهم وذكر ما يدل على صحة قوله .

﴿ ليعلم ﴾ أي ليعلم محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أن ﴾ أي أن جبريل قد بلغ إليه

رسالات ربه وقيل معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم وأن الله قد حفظهم ودفع عنهم .

وقيل معناه ليعلم الله أن الرسل ﴿ قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ فيعلم الله ذاك ظاهراً موجوداً فيوجب فيه الثواب ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي علم الله ما عند الرسل فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ قال ابن عباس : أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شيء حتى مثاقيل الذر والخردل ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 157.164 ﴾

(191/786)

وقال النسفي :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لأمتك ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ﴾ أن الأمر والشأن .

أجمعوا على فتح ﴿ أَنَّهُ ﴾ لأنه فاعل ﴿ أوحى ﴾ و ﴿ أَن لَّوْ استقاموا ﴾ و ﴿ أَن المساجد ﴾ للعطف على ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ ف "أن" مخففة من الثقيلة و ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ ﴾ لتعدي ﴿ يَعْلَمْ ﴾ إليها ، وعلى كسر ما بعد فاء الجزاء وبعد القول نحو ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ لأنه مبتدأ محكي بعد القول ، واختلفوا في فتح الهمزة

وكسرها من ﴿ أَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ إلى ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ ففتحها شامي وكوفي غير أبي بكر عطفاً على ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ أو على محل الجار والمجرور في ﴿ آمَنا بِهِ ﴾ تقديره : صدقناه وصدقنا ﴿ أَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ إلى آخرها ، وكسرها غيرهم عطفاً على ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ وهم يقفون على آخر الآيات ﴿ استمع نَفَرٌ ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿ مّن الجن ﴾ جن نصيبين ﴿ فَقَالُواْ ﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً ﴾ عجيباً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه . والعجب ما يكون خارجاً عن العادة ، وهو مصدر وضع موضع العجيب ﴿ يَهْدِى إِلَى الرشد ﴾ يدعوا إلى الصواب أو إلى التوحيد والإيمان ﴿ فَآمَنا بِهِ ﴾ بالقرآن .

ولما كان الإيمان به إيماناً بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك قالوا ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ من خلقه ، وجاز أن يكون الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ لله تعالى لأن قوله ﴿ بِرَبِّنَا ﴾ يفسره .

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ عظمته .

(192/786)

يقال : جد فلان في عيني أي عظم ، ومنه قول عمر أو أنس : كان الرجل إذ قرأ البقرة وآل عمران جد فينا أي عظم في عيوننا ﴿ مَا اتخذ صاحبة ﴾ زوجة ﴿ وَلاَ وَلَداً ﴾ كما يقول كفار الجن والإنس ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ جاهلنا أو إبليس إذ ليس فوقه سفيه ﴿ عَلَى الله شَطَطاً ﴾ كفراً لبعده عن الصواب من شطت الدار أي بعدت ، أو قولاً يجوز فيه عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإنس والجن عَلَى الله كَذِباً ﴾ قولاً كذباً ، أو مكذوباً فيه ، أو نصب على المصدر إذ الكذب نوع من القول أي كان في ظننا أن أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه فكنا نصدقهم فيما أضافوا إليه حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم ؛ كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوف من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يريد كبير الجن فقال ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادوهُمْ ﴾ أي زاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم ﴿ رَهَقاً ﴾ طغياناً وسفهاً وكبراً بأن قالوا : سدنا الجن الإنس أو فزاد الجن الإنس رهقاً إثماً لاستعاذتهم بهم ، وأصل الرهق غشيان المحظور ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ وأن الجن ﴿ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ الله أَحَداً ﴾ بعد الموت أي أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم ، ثم بسماع القرآن اهتدوا وأقروا بالبعث فهلا أقررتم كما أقروا .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع أهلها ، واللمس .

المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف ﴿ فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً ﴾ جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسون : جمع حارس ، ونصب على التمييز .

وقيل : الحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ولذا وصف بشديد ولو نظر إلى معناه لقيل شداداً ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمع شهاب أي كواكب مضيئة .

(193/786)

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ من السماء قبل هذا ﴿ مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ لاستماع أخبار السماء يعني كنا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل المبعث ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ﴾ يرد الاستماع ﴿ الآن ﴾ بعد المبعث ﴿ يَجِدْ لَهُ ﴾ لنفسه ﴿ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ صفة ل ﴿ شِهَاباً ﴾ بمعنى الراصد أي يجد شهاباً راصداً له ولأجله ، أو هو اسم جمع للراصد على معنى ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ، والجمهور على أن ذلك لم يكن قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : كان الرجم في الجاهلية ولكن الشياطين كانت تسترق السمع في بعض الأوقات فمنعوا من الاسترقاق أصلاً بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ ﴾ عذاب ﴿ أُرِيدَ بِمَن فِى الأرض ﴾ بعدم استراق السمع ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ خيراً ورحمة ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ الأبرار المتقون ﴿ وَمِنَّا ﴾ قوم ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ فحذف الموصوف وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه أو أرادوا غير الصالحين ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ بيان للقسمة المذكورة أي كنا ذوي مذاهب متفرقة أو أديان مختلفة .

(194/786)

والقدد جمع قدة وهي القطعة من قددت السير أي قطعته ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أيقنا ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله ﴾ لن نفوته ﴿ فِى الأرض ﴾ حال أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ مصدر في موضع الحال أي ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء ، وهذه صفة الجن وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ القرآن ﴿ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ بالقرآن أو بالله ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ فهو لا يخاف مبتدأ وخبر ﴿ بَخْساً ﴾ نقصاً من ثوابه ﴿ وَلاَ رَهَقاً ﴾ أي ولا ترهقه ذلة من قوله : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 27] وقوله : ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس : 26] .

وفيه دليل على أن العمل ليس من الإيمان ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ المؤمنون ﴿ وَمِنَّا

القاسطون ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، قسط : جار وأقسط عدل ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ طلبوا هدى والتحري طلب الأحرى أي الأولى ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ ﴾ في علم الله ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ وقوداً ، وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار ويتوقف في كيفية ثوابهم ﴿ وَأَنْ ﴾ مخففة من الثقيلة يعني وأنه وهي من جملة الموحى أي أوحى إلى أن الشأن ﴿ لَوْ استقاموا ﴾ أي القاسطون ﴿ عَلَى الطريقة ﴾ طريقة الإسلام ﴿ لأسقيناهم مَّاءً غَدَقاً ﴾ كثيراً ، والمعنى لوسعنا عليهم الرزق ، وذكر الماء الغدق لأنه سبب سعة الرزق .

(195/786)

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ القرآن أو التوحيد أو العبادة ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ بالياء : عراقي غير أبي بكر يدخله ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ شاقاً مصدر صعد يقال : صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : ما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح .

أي ما شق عليّ .

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ من جملة الموحى أي أوحي إلى أن المساجد أي البيوت المبنية للصلاة فيها لله .

وقيل : معناه ولأن المساجد لله فلا تدعوا على أن اللام متعلقة ب ﴿ لاَّ تَدْعُواْ ﴾ أي ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ في المساجد لأنها خالصة لله ولعبادته .

وقيل : المساجد أعضاء السجود وهي الجبهة واليدان والركبتان والقدمان ﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ محمد عليه السلام إلى الصلاة وتقديره وأوحي إلى أنه لما قام عبد الله ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يعبده ويقرأ القرآن ولم يقل نبي الله أو رسول الله لأنه من أحب الأسماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنه لما كان واقعاً في كلامه صلى الله عليه وسلم عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع ، أو لأن عبادة عبد الله لله ليست بمستبعد حتى يكونوا عليه لبداً ﴿ كَادُواْ ﴾ كاد الجن ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ جماعات جمع لبدة تعجباً مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به وإعجاباً بما تلاه من القرآن لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُواْ رَبِّى ﴾ وحده ﴿ قَالَ ﴾ غير عاصم وحمزة ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ في العبادة فلم تتعجبون وتزدحمون علي ؟ ﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ﴾ مضرة ﴿ وَلاَ رَشَداً ﴾ نفعاً ، أو أراد بالضر الغي بدليل قراءة أبي ﴿ غَيّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ يعني لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم لأن الضار والنافع هو الله .

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ لن يدفع عني عذابه أحد إن عصيته كقول صالح عليه السلام : ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ [هود : 63] ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ملتجأ .

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ﴾ استثناء من ﴿ لاَ أَمْلِكُ ﴾ أي لا أملك لكم ضراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله و ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى ﴾ اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه .

وقيل : ﴿ بَلاَغاً ﴾ بدل من ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به يعني لا ينجيني إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به فإن ذلك ينجيني .

وقال الفراء : هذا شرط وجزاء وليس باستثناء و "إن" منفصلة من "لا" وتقديره : أن لا أبلغ بلاغاً أي إن لم أبلغ لم أجد من دونه ملتجأ ولا مجيراً لي كقولك إن لا قياماً فقعوداً ، والبلاغ في هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على ﴿ بَلاَغاً ﴾ كأنه قيل : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات أي إلا أن أبلغ عن الله فأقول قال الله كذا ناسباً لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان .

و "من" ليست بصلة للتبليغ لأنه يقال : بلّغ عنه ، إنما هي بمنزلة "من" في ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ ﴾ [التوبة : 1] أي بلاغاً كائناً من الله .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في ترك القبول ، لما أنزل على الرسول لأنه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ وحد في قوله ﴿ لَهُ ﴾ وجمع في ﴿ خالدين ﴾ للفظ من ومعناه ﴿ حتى ﴾ يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال كأنه قيل : لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ أهم أم المؤمنون ؟ أي الكافر لا ناصر له يومئذ والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبياؤه ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى ﴾ ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى ﴾ وبفتح الياء : حجازي وأبو عمرو ﴿ أَمَدًا ﴾ غاية بعيدة يعني أنكم تعذبون قطعاً ولكن لا أدري أهو حالّ أم مؤجل ﴿ عالم الغيب ﴾ هو خبر مبتدأ أي هو عالم الغيب ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ ﴾ فلا يطلع ﴿ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ من خلقه ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له فإن يطلعه على غيبة ما شاء .

و﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ بيان ل ﴿ مَنِ ارتضى ﴾ والولي إذا أخبر بشيء فظهر فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه أو بالفراسة على أن كل كرامة للولي فهي معجزة

للرسول .

وذكر في التأويلات قال بعضهم في هذه الآية بدلالة تكذيب المنجمة وليس كذلك فإن فيهم من يصدق خبره ، وكذلك المتطببة يعرفون طبائع النبات وذا لا يعرف بالتأمل فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره وبقي علمه في الخلق .

(198/786)

﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ يدخل ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ يدي رسول ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ الوحي ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ الله ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ ﴾ أي الرسل ﴿ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ كاملة بلا زيادة ولا نقصان إلى المرسل إليهم أي ليعلم الله ذلك موجوداً حال وجوده كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد ، وحد الضمير في ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ للفظ "من" ، وجمع في ﴿ أَبْلَغُواْ ﴾ لمعناه ﴿ وَأَحَاطَ ﴾ الله ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ و ﴿ عَدَدًا ﴾ حال أي وعلم كل شيء معدوداً

محصوراً أو مصدر في معنى إحصاء ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 298.303 ﴾

(199/786)

وقال ابن جزى :

سورة الجن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ﴾

تقدمت في [الأحقاف : 29] قصة هؤلاء الجن الذين استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا ﴿ فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ أي قال بعضهم لعض ، وعجباً مصدر وصف به للمبالغة لأن العجب مصدر قولك : عجبت عجباً . وقيل : هو على حذف مضاف تقديره ذا عجب .

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ جدُّ الله : جلاله وعظمته ، وقيل : معناه من قولك : فلان مجدود إذا استغنى ، وقرئ أنه في هذا الموضع بفتح الهمزة ، وقرأ نافع بكسرها ، وكذلك فيما بعده إلى قوله : وأنا منا المسلمون . فأما الكسر فاستئناف أو عطف على إنا سمعنا ، لكنه كسر في معمول القول ، فيكون عطف عليه من قول الجن ، وأما الفتح فقيل : إنه عطف

على قوله : إنه استمع نفر وهذا خطأ من طريق المعنى ؛ لأن قوله : استمع نفر في موضع معمول أُوحي ، فيلزم أن يكون المعطوف عليه مما أوحى وأن لا يكون من كلام الجن . وقيل : إنه معطوف على الضمير المجرور في قوله : آمنا به وهذا ضعيف ، لأن الضمير المجرور لا يعطف عليه إلا بإعادة الخافض .

وقال الزمخشري : هو معطوف على محل الجار والمجرور في آمنا به ، كأنه قال : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا ، وكذلك ما بعده ، ولا خلاف في فتح ثلاث مواضع هي : أنه استمع ، وأن لو استقاموا ، وأن المساجد لله ؛ لأن ذلك مما أوحي لا من كلام الجن ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً ﴾ هذا من كلام الجن ، وسفيههم أبوهم إبليس ، وقيل : هو اسم جنس لكل سفيه منهم ، واختيار ذلك ابن عطية ، والشطط : التعدي ومجاوزة الحد .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أي ظننا أن الأقوال التي كان الإنس والجن يقولونها على الله صادقة وليست بكذب ؛ لأنا ظننا أنه لا يكذب أحد على الله .

(200/786)

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ تفسير هذا ما روي أن العرب كانوا إذا حل أحد منهم بواد صاح بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، ويعتقد أن ذلك الجن الذي بالوادي يحميه ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ ضمير الفاعل للجن ، وضمير المفعول للإنس ، والمعنى : أن الجن زادوا الإنس ضلالاً وإثماً لما عاذوا بهم ، أو زادوهم تخويفاً لما رأوا ضعف عقولهم ، وقيل : ضمير الفاعل للإنس ، وضمير المفعول للجن : والمعنى إن الإنس زادوا الجن تكبراً وطغياناً لما عاذوا بهم ، حتى كان الجن يقول : أنا سيد الجن والإنس .

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللّهُ أَحَداً ﴾ الضمير في ظنوا لكفار الإنس ، وظننتم خطاب الجن بعضهم لبعض ، فالمعنى أن كفار الإنس والجن ظنوا أن لن يبعث الله أحداً ، والبعث هنا يحتمل أن يريد به بعث الرسل أو البعث من القبور .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ هذه إخبار عن ما حدث عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من منع الجن من استراق السمع من السماء ورجمهم ، واللمس المس ، واستعير هنا للطلب ، والحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ، ولذلك وُصِفَ بشديد وهو مفرد ، ويحتمل أن يريد به الملائكة الحراس ، النجوم الحارسة ، وكرر الشهب لاختلاف اللفظ .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ المقاعد جمع مقعد ، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ، ثم يزيد الكهان للكلمة مائة كذبة ، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ الرصد اسم جمع للراصد ، كالحراس للحارس وقال ابن عطية : هو مصدر وصف به ومعناه منتظر ، قال بعضهم : إن رمي الجن بالنجوم إنما حدث بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، واختار ابن عطية والزمخشري أنه كان قبل المبعث قليلاً ، ثم زاد بعد المبعث وكثر حتى منع الجن من استراق السمع بالكلية ، والدليل أنه كان قبل المبعث " قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رأى كوكباً انقض : ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول ولد ملك أو مات ملك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الأمر كذلك ، ثم وصف استراق الجن للسمع ، وقد ذكر شعراء الجاهلية ذلك في أشعارهم " .

(202/786)

﴿ وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض ﴾ الآية : قال ابن عطية : معناه لا ندري أيومن الناس بهذا النبي صلى فيرشدوا ، أو يكفرون به فينزل بهم الشر ؟ وقال الزمخشري : معناه لا ندري هل أراد الله بأهل الأرض خيراً أو شراً من عذاب أو رحمة من خذلان أو من توفيق ؟ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي منا قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأراد به الذين ليس صلاحهم كاملاً ، أو الذين ليس لهم صلاح ، فإن دون تكون بمعنى أقل أو بمعنى غير ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ الطرائق : المذاهب والسير وشبهها ، والقدد المختلفة وهو جمع قدة . وهذا بيان للقسمة المذكورة قبل ، وهو على حذف مضاف إي كنا ذوي طرائق ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِي الأرض ﴾ الظن هنا بمعنى العلم ، وقال ابن عطية : هذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم ، ويحتمل أن يكونوا اعتقدوا هذا الاعتقاد قبل إسلامهم ﴿ سَمِعْنَا الهدى ﴾ يعنون القرآن ﴿ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ البخص النقص والظلم ، والرهق تحمل ما لا يطاق ، وقال ابن عباس : البخص نقص الحسنات ، والرهق الزيادة في السيئات .

﴿ وَمِنَّا القاسطون ﴾ يعني الضالمين ، يقال قسط الرجل إذا جار ، وأقسط بالألف إذا عدل .

ها هنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن ، وأما قوله : ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوْاْ رَشَداً

﴿ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم . أو يكون ابتداء كلام الله تعالى وهو الذي اختاره ابن عطية ، وأما قوله : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا ﴾ فهو من كلام الله باتفاق وليس من كلامهم .

(203/786)

﴿ تَحَرَّوْاْ ﴾ أي قصدوا الرشد ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ الماء الغدق الكثير وذلك استعارة في توسيع الرزق ، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله ، فالمعنى لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] وقيلأ : هي طريقة الكفر ، والمعنى على هذا : لو استقاموا على الكفر لوسع الله عليهم في الدنيا أملاكهم استدراجاً ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ والأول أظهر ، والضمير في ﴿ استقاموا ﴾ يحتمل أن يكون للمسلمين أو القاسطين المذكورين ، أو لجميع الجن أو للجن الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو لجميع الخلق ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ إن كانت الطريقة الإيمان والطاعة ، فمعنى الفتنة الاختبار هل يسلمون أم لا ؟ وإن كانت الطريقة الكفر فمعنى الفتنة الإضلال والاستدراج ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ معنى نسلكه ندخله والصعد الشديد المشقة ، وهو مصدر صعد يصعد ، ووصف بالمصدر للمبالغة يقال :

فلان في صعد أي في مشقة . وقيل : صعداً جبل في النار .

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ أراد المساجد على الاطلاق وهي بيوت عبادة الله ، وروي أن الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة ، وقيل : أراد الأعضاء التي يسجد عليها ، واحدها مَسْجَد بفتح الجيم وهذا بعيد ، وعطف أن المساجد لله على أوحي إليّ أنه استمع ، وقال الخليل : معنى الآية : لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، أي لهذا السبب فلا تعبدوا غير الله .

(204/786)

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ عبد الله هنا محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بالعبودية اختصاصاً له وتقريباً وتشريفاً ، وقال الزمخشري : أنه سماه هنا عبد الله ولم يقل الرسول أو النبي ؛ لأن هذا واقع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، لأنه مما أوحي إليه فذكر صلى الله عليه وسلم نفسه على ما يقتضيه التواضع والتذلل ، وهذا الذي قاله بعيد مع أنه إنما يمكن على قراءة أنه لما قام بفتح الهمزة فيكون عطفاً على أوحي إلي أنه استمع ، وأما على القراءة بالكسر على الاستئناف فيكون إخباراً من الله ، أو من جملة كلام الجن فيبطل ما قاله ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ اللبد الجماعات واحدها لبدة ،

والضمير في كادوا يحتمل أن يكون للكفار من الناس ، أي كادوا يجتمعون على الردّ عليه وإبطال أمره ، أو يكون للجن الذين استمعوا ، أي كادوا يجتمعون عليه لاستماع القرآن ، والبركة به .

﴿ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً ﴾ بدل من ملتحداً أي لا أحد ملجأ إلا بلاغ الرسالة ، ويحتمل أن يكون استثناء منقطعاً ﴿ مِّنَ الله ﴾ قال الزمخشري : هذا الجار والمجرور ليس بصلة البلاغ إنما هو بمعنى بلاغاً كائناً من الله ، ويحتمل عندي أن يكون متعلقاً ببلاغاً والمعنى بلاغ من الله ﴿ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ قال الزمخشري : إنه معطوف على بلاغاً كأنه قال : إلا التبليغ والرسالة ، ويحتمل أن يكون ورسالاته معطوفاً على اسم الله .

(205/786)

﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ﴾ جمع خالدين على معنى من يعص لأنه في معنى الجمع ، والآية في الكفار ، وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين لأن مذهبهم خلودهم في النار . والدليل على أنها في الكفار وجهان : أحدهما أنها مكية والسورة المكية إنما الكلام فيها مع الكفار . والآخر دلالة ما قبلها وما بعدها على أن المراد بها الكفار ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ تعلقت حتى بقوله يكونون عليه لبدا وجعلت

غاية لذلك . والمعنى : أنهم يكفرون ويتظاهرون عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون ، قال ذلك الزمخشري ، وقال أيضاً : يجوز أن يتعلق بمحذوف يدل على المعنى ، كأنه قيل : لا يزالون على ما هم عليه من الكفر حتى إذا رأوا ما يوعدون ، وهذا أظهر .

(206/786)

﴿ قُلْ إِنْ أدري أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ إن هنا نافية . والمعنى قل : لا أدري أقريب ما توعدون أم بعيد وعبر عن بُعده بقوله : أم يجعل له ربي أمداً ويعني بما توعدون قتلهم يوم بدر ، أو يوم القيامة . ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ﴾ أي لا يطلع أحداً على علم الغيب ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى ﴾ ، وهم الرسل فإنه يطلعهم على ما شاء من ذلك . ومن في قوله : ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ، والرسل هنا يحتمل أن يراد بها الرسل من الملائكة ، وعلى هذا حملها ابن عطية ، أو الرسل من بني آدم ، وعلى هذا حملها الزمخشري . واستدل بها على نفي كرامات الأولياء الذين يدعون المكاشفات ، فإن الله خص الاطلاع على الغيب بالرسل دون غيرهم . وفيها أيضاً دليل على إبطال الكهانة والتنجيم وسائر الوجوه التي يدعي أهلها الاطلاع على الغيب ؛ لأنهم ليسوا من الرسل ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ المعنى أن الله يسلك من بين يدي الرسل ومن

خلفه ملائكة يكونون رصداً يحفظونه من الشياطين ، وقد ذكرنا رصداً في هذه السورة ، قال بعضهم : ما بعث الله رسولاً إلا ومعه ملائكة يحرسونه حتى يبلغ رسالة ربه ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ ﴾ في الفاعل بيعلم ثلاثة أقوال : الأولى أي ليعلم الله أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، أي يعلمه موجوداً وقد كان علم ذلك قبل كونه . الثاني ليعلم محمد أن الملائكة الرصد أبلغوا رسالات ربهم . الثالث ليعلم من كفر أن الرسل قد بلغوا الرسالة . والأول أظهر ، وجَمَعَ الضمير في أبلغوا في ربهم حملاً على المعنى ، لأن من ارتضى من رسول يراد به جماعة ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أي أحاط الله بما عند الرسل من العلوم والشرائع ، وهذه الجملة معطوفة على قوله : ليعلم ، لأن معناه أنه قد علم ، قال ذلك ابن عطية ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة في موضع الحال

(207/786)

﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ هذا عموم في جميع الأشياء ، وعدداً منصوب على الحال أو تمييز أو مصدر من معنى أحصى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 152 .

155 ﴾

(208/786)

وقال البيضاوى :

سورة الجن

مكية ، وآيها ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾

وقرىء "أحي" وأصله وحى من وحى إليه فقلبت الواو همزة لضمتها ووحى على الأصل وفاعله : ﴿ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مّنَ الجن ﴾ والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، و ﴿ الجن ﴾ أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية . وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها ، وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله . ﴿ فَقَالُواْ ﴾ لما رجعوا إلى قومهم . ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً ﴾ كتاباً . ﴿ عَجَبًا ﴾ بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن نظمه ودقة معناه . وهو مصدر وصف به للمبالغة .

﴿ يَهْدِى إِلَى الرشد ﴾ إلى الحق والصواب . ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ بالقرآن . ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبّنَا أَحَداً ﴾ على ما نطقت به الدلائل القاطعة على التوحيد .

﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر على أنه من جملة المحكي بعد القول، وكذا ما بعده إلا قوله: ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ ﴿ وَأَنَّ المساجد ﴾، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ ﴾ فإنها من جملة الموحى به ووافقهم نافع وأبو بكر إلا في قوله: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ ﴾ على أنه استئناف أو مقول، وفتح الباقون الكل إلا ما صدر بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوف على محل الجار والمجرور في ﴿ بِهِ ﴾ كأنه قيل: صدقنا ﴿ أَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي عظمته من جد فلان في عيني إذا عظم، أو سلطانه أو غناه مستعار من الجد الذي هو البخت، والمعنى وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه وقوله: ﴿ مَا اتخذ صاحبة وَلاَ وَلَداً ﴾ بيان لذلك، وقرىء "جداً" على التمييز ﴿ جِدُّ رَبِّنَا ﴾ بالكسر أي صدق ربوبيته، كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ الصاحبة والولد.

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ إبليس أو مردة الجن. ﴿ عَلَى الله شَطَطاً ﴾ قولاً ذا شطط وهو البعد ومجاوزة الحد، أو هو شطط لفرط ما أشط فيه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنس والجن عَلَى الله كَذِباً ﴾ اعتذار عن اتباعهم السفيه في ذلك بظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، و﴿ كَذِبًا ﴾ نصب على المصدر لأنه نوع من القول أو الوصف المحذوف ، أي قولاً مكذوباً فيه ، ومن قرأ "ن لَّن تَقُولَ" أكيعقوب جعله مصدراً لأن التقول لا يكون إلا ﴿ كَذِبًا ﴾ .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه . ﴿ فَزَادوهُمْ ﴾ فزادوا الجن باستعاذتهم بهم . ﴿ رَهَقاً ﴾ كبراً وعتواً ، أو فزاد الجن والإِنس غياً بأن أصلوهم حتى استعاذوا بهم ، والرهق في الأصل غشيان الشيء .

(210/786)

﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ وأن الإِنس . ﴿ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها الجن أو بالعكس ، والآيتان من كلام الجن بعضهم أو استئناف كلام من الله تعالى ، ومن فتح ﴿ أن ﴾ فيهما جعلهما من الموحى به . ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ الله أَحَداً ﴾ ساد مسد مفعولي ﴿ ظَنُّواْ ﴾ .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ طلبنا بلوغ السماء أو خبرها ، واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال ألمسه والتمسه وتلمسه كطلبه واطلبه وتطلبه . ﴿ فوجدناها مُلِئَتْ

حَرَساً ﴾ حراساً اسم جمع كالخدم. ﴿ شَدِيداً ﴾ قوياً وهم الملائكة الذين يمنعونهم عنها. ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمع شهاب وهو المضيء المتولد من النار.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد لِلسَّمْعِ ﴾ مقاعد خالية عن الحرس والشهب، أو صالحة للترصد والاستماع، و﴿ لِلسَّمْعِ ﴾ صلة ل ﴿ نَقْعُدُ ﴾ أو صفة ل ﴿ مقاعد ﴾. ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ أي شهاباً راصداً له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، أو ذوي شهاب راصدين على أنه اسم جمع للراصد، وقد مر بيان ذلك في "الصافات".

﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأرض ﴾ بحراسة السماء. ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ خيراً.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ المؤمنون الأبرار. ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي قوم دون ذلك فحذف الموصوف وهم المقتصدون. ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ ﴾ ذوي طرائق أي مذاهب، أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق. ﴿ قِدَداً ﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة من قد إذا قطع.

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ علمنا. ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِى الأرض ﴾ كائنين في الأرض أينما كنا فيها. ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ هاربين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً إلى طلبنا.

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ﴾ أي القرآن . ﴿ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ فهو لا يخاف ، وقرىء "فَلاَ يُخَفَّفُ" والأول أدل على تحقيق نجاة المؤمنين واختصاصها بهم . ﴿ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ نقصاً في الجزاء ولا أن يرهقه ذلة ، أو جزاء بخس لأنه لم يبخس لأحد حقاً ولم يرهق ظلماً ، لأن من حق المؤمن بالقرآن أن يجتنب ذلك .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون ﴾ الجائرون عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ توخوا رشداً عظيماً يبلغهم إلى دار الثواب .

﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ توقد بهم كما توقد بكفار الإنس .

﴿ وَأَنْ لَوِ استقاموا ﴾ أي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما . ﴿ عَلَى الطريقة ﴾ أي على الطريقة المثلى . ﴿ لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً ﴾ لوسعنا عليهم الرزق ، وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب .

﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه ، وقيل معناه أن لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنوقعهم في الفتنة

ونعذبهم في كفرانهم . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ عن عبادته أو موعظته أو وحيه . ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ يدخله وقرأ غير الكوفيين بالنون . ﴿ عَذَاباً صَعَداً ﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه مصدر وصف به .

﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ مختصة به . ﴿ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ فلا تعبدوا فيها غيره ، ومن جعل ﴿ أن ﴾ مقدرة باللام علة للنهي ألغى فائدة الفاء ، وقيل المراد ب ﴿ المساجد ﴾ الأرض كلها لأنها جعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً . وقيل المسجد الحرام لأنه قيل المساجد ومواضع السجود على أن المراد النهي عن السجود لغير الله ، وآرابه السبعة أو السجدات على أنه جمع مسجد .

(212/786)

﴿ وَأَنَّهُ لَمَا قَامَ عَبْدُ الله ﴾ أي النبي عليه الصلاة والسلام وإنما ذكر بلفظ العبد للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه ، والاشعار بما هو المقتضى لقيامه . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يعبده ﴿ كَادُواْ ﴾ كاد الجن . ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته ، أو كاد الإنس والجن يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره ، وهو جمع لبدة وهي ما تلبد بعضه على بعض كلبدة الأسد ، وعن ابن عامر "لُبَداً" بضم

اللام جمع لبدة وهي لغة . وقرىء "لَبَداً" كسجداً جمع لابد و"لِبَداً" كصبر جمع لبود .

﴿ قَالَ إِنَّمَا ادعوا رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم أو إطباقكم على مقتي ، وقرأ عاصم وحمزة "قل" على الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام ليوافق ما بعده .

﴿ قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ ولا نفعاً أو غياً ، عبر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين .

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ إن أراد بي سوءاً . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ منحرفاً أو ملتجأ وأصله المدخل من اللحد .

﴿ إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وإنفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة ، أو من ملتحداً أو معناه أن لا أبلغ بلاغاً وما قبله دليل الجواب . ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على ﴿ بَلاَغاً ﴾ و﴿ مِنَ اللهِ ﴾ صفته فإن صلته عن كقوله صلى الله عليه وسلم : " بلغوا عني ولو آية " ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه . ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ وقرىء ﴿ فَإِنَّ ﴾ على فجزاؤه أن . ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ جمعه للمعنى .

﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا كوقعة بدر ، أو في الآخرة والغاية لقوله : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ بالمعنى الثاني ، أو لمحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار وعصيانهم له . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ هو أم هم .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى ﴾ ما أدري . ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً ﴾ غاية تطول مدتها كأنه لما سمع المشركون ﴿ حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قالوا متى يكون إنكاراً ، فقيل قل إنه كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته .

﴿ عالم الغيب ﴾ هو عالم الغيب . ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ ﴾ فلا يطلع . ﴿ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ أي على الغيب المخصوص به علمه .

﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى ﴾ لعلم بعضه حتى يكون له معجزة . ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ بيان ل ﴿ مِنْ ﴾ ، واستدل به على إبطال الكرامات ، وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير وسط ، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء . ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ من بين يدي المرتضى ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ حرساً من الملائكة يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليطهم .

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ ﴾ أي ليعلم النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون

بالوحي ، أو ليعلم الله تعالى أن قد أبلغ الأنبياء بمعنى ليتعلق علمه به موجوداً . ﴿ رسالات ربِّهِمْ ﴾ كما هي محروسة من التغيير . ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عند الرسل . ﴿ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ حتى القطر والرمل .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمداً أو كذب به عتق رقبة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 397 .

403 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(214/786)

وقال أبو حيان :

سورة الجن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ قل أوحي ﴾ رباعياً ؛ وابن أبي عبلة والعتكي ، عن أبي عمرو ، وأبو أناس جوية بن عائذ الأسدي : وحى ثلاثياً ، يقال : وحى وأوحى بمعنى واحد .

قال العجاج : وحى إليها القرار فاستقرت .

وقرأ زيد بن عليّ وجوية ، فيما روي عن الكسائي وابن أبي عبلة أيضاً : أحى بإبدال الواو همزة ، كما قالوا في وعد أعد .

وقال الزمخشري : وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة . انتهى .

وليس كما ذكر ، بل في ذلك تفصيل ، وذلك أن الواو المضمومة قد تكون أولاً وحشواً وآخراً ، ولكل منها أحكام ، وفي بعضها خلاف وتفصيل مذكور في النحو .

قال الزمخشري : وقد أطلقه المازني في المكسور أيضاً ، كإشاح وإسادة وإعاء أخيه . انتهى ، وهذا تكثير وتبجح .

وكان يذكر هذا في ﴿ وعاء أخيه ﴾ في سورة يوسف .

وعن المازني في ذلك قولان : أحدهما : القياس كما قال ، والآخر : قصر ذلك على السماع .

و ﴿ أنه استمع ﴾ في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ؛ أي استماع ﴿ نفر من الجن ﴾ ، والمشهور أن هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف في قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ وهي قصة واحدة .

وقيل : قصتان ، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن نينوي ، والسورة التي استمعوها ، قال عكرمة : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وقيل : سورة الرحمن .

ولم تتعرض الآية ، لا هنا ولا في سورة الأحقاف ، إلى أنه رآهم وكلمهم عليه الصلاة

والسلام .

ويظهر من الحديث "أن ذلك كان مرتين : إحداهما : في مبدأ مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو في الوقت الذي أخبر فيه عبد الله بن مسعود أنه لم يكن معه ليلة الجن ، وقد كانوا فقدوه عليه الصلاة والسلام ، فالتمسوه في الأودية والشعاب فلم يجدوه .

(215/786)

فلما أصبح ، إذا هو جاء من قبل حراء ، وفيه أتاني داعي الجن ، فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ، فانطلق بنا وأرانا آثارهم وآثار نارهم .

والمرة الآخرى : كان معه ابن مسعود ، وقد استندب (صلى الله عليه وسلم) من يقوم معه إلى أن يتلو القرآن على الجن ، فلم يقم أحد غير عبد الله بن مسعود ، فذهب معه إلى الحجون عند الشعب ، فخط عليه خطاً وقال : لا تجاوزه .

فانحدر عليه (صلى الله عليه وسلم) أمثال الحجر يجرون الحجارة بأقدامهم يمشون يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفهن حتى غشوه فلا أراه فقمت فأومأ إليّ بيده أن اجلس فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع واختفوا في الأرض حتى ما أراهم" .

الحديث .

ويدل على أنهما قصتان ، اختلافهم في العدد ، فقيل : سبعة ، وقيل : تسعة ، وعن زر : كانوا ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين ، قرية باليمن غير القرية التي بالعراق .

وعن عكرمة : كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، وأين سبعة من اثني عشر ألفاً ؟

﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ : أي قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم ، ووصفوا قرآناً بقولهم ﴿ عجباً ﴾ وصفاً بالمصدر على سبيل المبالغة ، أي هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه ، وحسن مبانيه ، ودقة معانيه ، وغرابة أسلوبه ، وبلاغة مواعظه ، وكونه مبايناً لسائر الكتب .

والعجب ما خرج عن أحد أشكاله ونظائره .

﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ : أي يدعو إلى الصواب .

وقيل : إلى التوحيد والإيمان .

وقرأ الجمهور : ﴿ الرشد ﴾ بضم الراء وسكون الشين ؛ وعيسى : بضمهما ؛ وعنه أيضاً : فتحهما .

﴿ يهدي إلى ﴾ : أي بالقرآن .

ولما كان الإيمان به متضمناً الإيمان بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك قالوا : ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

وقرأ الحرميان والأبوان : بفتح الهمزة من قوله : ﴿ وأنه تعالى ﴾ وما بعده ، وهي اثنتا عشرة آية آخرها ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ ؛ وباقي السبعة : بالكسر .

(216/786)

فأما الكسر فواضح لأنها معطوفات على قوله : ﴿ إنا سمعنا ﴾ ، فهي داخلة في معمول القول .

وأما الفتح ، فقال أبو حاتم : هو على ﴿ أوحى ﴾ ، فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله . انتهى .

وهذا لا يصح ، لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت ﴿ أوحى ﴾ ، وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم ، كقوله : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ .

ألا ترى أنه لا يلائم ﴿ أوحى إليّ ﴾ ، ﴿ إنا كنا نقعد منها مقاعد ﴾ ، وكذلك باقيها ؟

وخرجت قراءة الفتح على أن تلك كلها معطوفة على الضمير المجرور في به من قوله : ﴿ فآمنا به ﴾ : أي وبأنه ، وكذلك باقيها ، وهذا جائز على مذهب الكوفيين ، وهو الصحيح .

وقد تقدم احتجاجنا على صحة ذلك في قوله : ﴿ وكفر به والمسجد الحرام ﴾ وقال

مكي : هو أجود في أن منه في غيرها لكثرة حذف حرف الجر مع أن .

وقال الزجاج : وجهه أن يكون محمولاً على آمنا به ، لأنه معناه : صدقناه وعلمناه ، فيكون المعنى : فآمنا به أنه تعالى جد ربنا ؛ وسبقه إلى نحوه الفراء قال : فتحت أن لوقوع الإيمان عليها ، وأنت تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح دون بعض ، فلا يمنعك ذلك من إمضائهن على الفتح ، فإنه يحسن فيه ما يوجب فتح أن نحو : صدقنا وشهدنا .

وأشار الفراء إلى أن بعض ما فتح لا يناسب تسليط آمنا عليه ، نحو قوله : ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ ، وتبعهما الزمخشري فقال : ومن فتح كلهن فعطفاً على محل الجار والمجرور في آمنا به ، كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وكذلك البواقي . انتهى .

ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه آمنا .

وقرأ الجمهور : ﴿ جد ربنا ﴾ ، بفتح الجيم ورفع الدال ، مضافاً إلى ربنا : أي عظمته ، قاله الجمهور .

وقال أنس والحسن : غناه .

وقال مجاهد : ذكره .

وقال ابن عباس : قدره وأمره .

وقرأ عكرمة : جد منوباً ، ربنا مرفوع الباء ، كأنه قال : عظيم هو ربنا ، فربنا بدل ، والجد في اللغة العظيم .

وقرأ حميد بن قيس : جد بضم الجيم مضافاً ومعناه العظيم ، حكاه سيبويه ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى : تعالى ربنا العظيم .

وقرأ عكرمة : جداً ربنا ، بفتح الجيم والدال منوناً ، ورفع ربنا وانتصب جداً على التمييز المنقول من الفاعل ، أصله ﴿ تعالى جد ربنا ﴾ .

وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً : جداً بكسر الجيم والتنوين نصباً ، ربنا رفع .

قال ابن عطية : نصب جداً على الحال ، ومعناه : تعالى حقيقة ومتمكناً .

وقال غيره : هو صفة لمصدر محذوف تقديره : تعاليا جداً ، وربنا مرفوع بتعالى .

وقرأ ابن السميفع : جدي ربنا ، أي جدواه ونفعه .

وقرأ الجمهور : ﴿ يقول سفيهنا ﴾ : هو إبليس .

وقيل : هو اسم جنس لكل سفيه ، وإبليس مقدم السفهاء .

والشطط : التعدي وتجاوز الحد .

قال الأعشى :

أينتهون ولن ينهى ذوو شطط . . .

كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

ويقال : أشط في السوم إذا أبعد فيه ، أي قولا هو في نفسه شطط ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى .

﴿ وأنا ظننا ﴾ الآية : أي كنا حسنا الظن بالإنس والجن ، واعتقدنا أن أحداً لا يجترىء على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد ، فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فتبينا كذبهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ أن لن تقول ﴾ مضارع قال ؛ والحسن والجحدري وعبد الرحمن بن أبي بكرة ويعقوب وابن مقسم : تقول مضارع تقول ، حذفت إحدى التاءين وانتصب ﴿ كذباً ﴾ في قراءة الجمهور بتقول ، لأن الكذب نوع من القول ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي قولا كذباً ، أي مكذوباً فيه .

وفي قراءة الشاذ على أنه مصدر لتقول ، لأنه هو الكذب ، فصار كقعدت جلوساً .

﴿ وأنه كان رجال ﴾ .

روى الجمهور أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في وادٍ نادى بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيعتقد بذلك أن الجني الذي بالوادي يمنعه ويحميه .

فروي أن الجن كانت تقول عند ذلك : لا نملك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً .

قال مقاتل : أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ، ثم بنو حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب .

والظاهر أن الضمير المرفوع في ﴿ فزادوهم ﴾ عائد على ﴿ رجال من الإنس ﴾ ، إذ هم المحدث عنهم ، وهو قول مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير .

﴿ فزادوهم ﴾ أي الإنس ، ﴿ رهقاً ﴾ : أي جراءة وانتخاءً وطغياناً وغشيان المحارم وإعجاباً بحيث قالوا : سدنا الإنس والجن ، وفسر قوم الرهق بالإثم .

وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها . . .

لا يشتفي وامق ما لم يصب رهقاً

قال معناه : ما لم يغش محرماً ، والمعنى : زادت الإنس الجن مأثماً لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى .

وقال قتادة وأبو العالية والربيع وابن زيد : ﴿ فزادوهم ﴾ ، أي الجن زادت الإنس مخافة يتخيلون لهم بمنتهى طاقتهم ويغوونهم لما رأوا من خفة أحلامهم ، فازدروهم واحتقروهم .

وقال ابن جبير : ﴿ رهقاً ﴾ : كفراً .

وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجن ، فالمعنى : وإنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس ، وكان الرجل يقول مثلاً : أعوذ بحذيفة بن اليمان من جن هذا الوادي ، وهذا قول غريب .

﴿ وإنهم ﴾ : أي كفار الإنس ، ﴿ ظنوا كما ظننتم ﴾ أيها الجن ، يخاطب به بعضهم بعضاً .

وظنوا وظننتم ، كل منهما يطلب ، ﴿ أن لن يبعث ﴾ ، فالمسألة من باب الإعمال ، وإن هي المخففة من الثقيلة .

وقيل : الضمير في وأنهم يعود على الجن ، والخطاب في ظننتم لقريش ، وهذه والتي قبلها هما من الموحى به لا من كلام الجن : ﴿ أن لن يبعث الله أحداً ﴾ : الظاهر أنه بعثة الرسالة إلى الخلق ، وهو أنسب لما تقدم من الآي ولما تأخر .

(219/786)

وقيل : بعث القيامة .

﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ : أصل اللمس المس ، ثم استعير للتطلب ، والمعنى : طلبنا بلوغ

السماء لاستماع كلام أهلها فوجدناها ملئت .

الظاهر أن وجد هنا بمعنى صادف وأصاب وتعدت إلى واحد ، والجملة من ﴿ ملئت ﴾ في موضع الحال ، وأجيز أن تكون تعدت إلى اثنين ، فملئت في موضع المفعول الثاني .

وقرأ الأعرج : مليت بالياء دون همز ، والجمهور : بالهمز ، وشديداً : صفة للحرس على اللفظ لأنه اسم جمع ، كما قال :

أخشى رجيلاً أو ركيباً عادياً . . .

ولو لحظ المعنى لقال : شداداً بالجمع .

والظاهر أن المراد بالحرس : الملائكة ، أي حافظين من أن تقربها الشياطين ، وشهباً جمع شهاب ، وهو ما يرحم به الشياطين إذا استمعوا .

قيل : ويحتمل أن يكون الشهب هم الحرس ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ نحو :

وهند أتى من دونها النأي والبعد . . .

وقوله : ﴿ فوجدناها ملئت ﴾ يدل على أنها كانت قبل ذلك يطرقون السماء ولا يجدونها قد ملئت .

﴿ مقاعد ﴾ جمع مقعد ، وقد فسر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صورة قعود الجن أنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ، ثم يزيد الكهان الكلمة مائة كذبة .

﴿ فمن يستمع الأن ﴾ ، الآن ظرف زمان للحال ، ويستمع مستقبل ، فاتسع في الظرف واستعمل للاستقبال ، كما قال :

سأسعى الآن إذ بلغت اناها . . .

فالمعنى : فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي ، ﴿ يجد له شهاباً رصداً ﴾ : أي يرصده فيحرقه ، هذا لمن استمع .

وأما السمع فقد انقطع ، كما قال تعالى : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ والرجم كان في الجاهلية ، وذلك مذكور في أشعارهم ، ويدل عليه الحديث " حين رأى عليه الصلاة والسلام نجماً قد رمي به ، قال : "ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية" ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم "

قال أوس بن حجر :

وانقض كالدري يتبعه . . .

(220/786)

نقع يثور بحالة طنبا

وقال عوف بن الجزع :

فرد علينا العير من دون إلفه . . .

أو الثور كالدري يتبعه الدم

وقال بشر بن أبي حازم :

والعير يرهقها الغبار وجحشها . . .

ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

قال التبريزي : وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ليس فيهم محضرم ، وقال معمر : قلت للزهري : أكان يرمي بالنجوم في الجاهلي ؟ قال : نعم ، قلت : أرأيت قوله : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ ؟ فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الجاحظ : القول بالرمي أصح لقوله : ﴿ فوجدناها ملئت ﴾ ، وهذا إخبار عن الجن أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت ، ولما روى ابن عباس وذكر الحديث السابق .

وقال الزمخشري : تابعاً للجاحظ ، وفي قوله دليل على أن الحرس هو الملء والكثرة ، فلذلك ﴿ نقعد منها مقاعد ﴾ : أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها . انتهى .

وهذا كله يبطل قول من قال : إن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو إحدى آياته .

والظاهر أن رصداً على معنى : ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع .

ولما رأوا ما حدث من كثرة الرجم ومنع الاستراق قالوا : ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ ، وهو كفرهم بهذا النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فينزل بهم الشر ، ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ ، فيؤمنون به فيرشدون .

وحين ذكروا الشر لم يسندوه إلى الله تعالى ، وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى .

﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ : أخبروا بما هم عليه من صلاح وغيره .

﴿ ومنا دون ذلك ﴾ : أي دون الصالحين ، ويقع دون في مواضع موقع غير ، فكأنه قال : ومنا غير صالحين .

ويجوز أن يريدوا : ومنا دون ذلك في الصلاح ، أي فيهم أبرار وفيهم من هو غير كامل في الصلاح ، ودون في موضع الصفة لمحذوف ، أي ومنا قوم دون ذلك .

(221/786)

ويجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بمن ، حتى في الجمل ، قالوا : منا ظعن ومنا أقام ، يريدون : منا فريق ظعن ومنا فريق أقام ، والجملة من قوله : ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ تفسير

للقسمة المتقدمة .

قال ابن عباس وعكرمة وقتادة : أهواء مختلفة ، وقيل : فرقاً مختلفة .

وقال الزمخشري : أي كنا ذوي مذاهب مختلفة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة كقوله :

كما عسل الطريق الثعلب . . .

أو كانت طرائقنا قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق ، وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه . انتهى .

وفي تقديريه الأولين حذف المضاف من طرائق وإقامة المضاف إليه مقامه ، إذ حذف ذوي ومثل .

وأما التقدير الثالث ، وهو أن ينتصب على إسقاط في ، فلا يجوز ذلك إلا في الضرورة ، وقد نص سيبويه على أن عسل الطريق شاذ ، فلا يخرج القرآن عليه .

﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله ﴾ : أي أيقنا ، ﴿ في الأرض ﴾ : أي كائنين في الأرض ، ﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾ : أي من الأرض إلى السماء ، وفي الأرض وهرباً حالان ، أي فارين أو هاربين .

﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ : وهو القرآن ، ﴿ آمنا به ﴾ : أي بالقرآن ، ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف ﴾ : أي فهو لا يخاف .

وقرأ ابن وثاب والأعمش والجمهور : ﴿ فلا يخاف ﴾ ، وخرجت قراءتهما على النفي .

وقيل : الفاء زائدة ولا نفي وليس بشيء ، وكان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء ، لأنه إذا كان بالفاء كان إضمار مبتدأ ، أي فهو لا يخاف .

والجملة الاسمية أدل وآكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة .

﴿ بخساً ﴾ ، قال ابن عباس : نقص الحسنات ، ﴿ ولا رهقاً ﴾ ، قال : زيادة في السيئات ، ﴿ ولا رهقاً ﴾ ، قيل : تحميل ما لا يطاق .

وقال الزمخشري : أي جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد ، فلا يخاف جزاءهما .

(222/786)

ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة من قوله عز وجل : ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ بخساً ﴾ بسكون الخاء ؛ وابن وثاب : بفتحها .

﴿ ومنا القاسطون ﴾ : أي الكافرون الجائزون عن الحق .

قال مجاهد وقتادة : والبأس القاسط : الظالم ، ومنه قول الشاعر :

قوم هم قتلوا ابن هند عنوة . . .

وهموا اقسطوا على النعمان

وجاء هذا التقسيم ، وإن كان قد تقدم ﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ ، ومنا دون ذلك ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة ويرغب من يدخل في الإسلام .

والظاهر أن ﴿ فمن أسلم ﴾ إلى آخر الشرطين من كلام الجن .

وقال ابن عطية : الوجه أن يكون ﴿ فمن أسلم ﴾ مخاطبة من الله تعالى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤيده ما بعد من الآيات .

وقرأ الأعرج : رشداً ، بضم الراء وسكون الشين ؛ والجمهور : بفتحهما .

وقال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعيداً ، أي فأولئك تحروا رشداً ، فذكر سبب الثواب وموجبه ، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال في قوله وموجبه .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

هذا من جملة الموحى المندرج تحت ﴿ أوحى إليّ ﴾ ، وأن مخففة من الثقيلة ، والضمير في ﴿ استقاموا ﴾ ، قال الضحاك والربيع بن أنس وزيد بن أسلم وأبو مجلز : هو عائد على قوله : ﴿ فمن أسلم ﴾ ، والطريقة : طريقة الكفر ، أي لو كفر من أسلم من الناس ﴾

لأسقيناهم ﴾ إملاء لهم واستدراجاً واستعارة ، الاستقامة للكفر قلقة لا تناسب .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جبير : هو عائد على القاسطين ، والمعنى على الطريقة الإسلام والحق ، لأنعمنا عليهم ، نحو قوله : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾

وقيل : الضمير في استقاموا عائد على الخلق كلهم ، وأن هي المخففة من الثقيلة .

(223/786)

﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ : كناية عن توسعة الرزق لأنه أصل المعاش .

وقال بعضهم : المال حيث الماء .

وقرأ الجمهور : ﴿ غدقاً ﴾ بفتح الدال ؛ وعاصم في رواية الأعشى : بكسرها ؛ ويقال : غدقت العين تغدق غدقاً فهي غدقة ، إذا كثر ماؤها .

﴿ لنفتنهم ﴾ : أي لنختبرهم كيف يشكرون ما أنعم عليهم به ، أو لنمتحنهم ونستدرجهم ، وذلك على الخلاف في من يعود عليه الضمير في ﴿ استقاموا ﴾ .

وقرأ الأعمش وابن وثاب بضم واو لو ؛ والجمهور : بكسرها .

وقرأ الكوفيون : ﴿ يسلكه ﴾ بالياء ؛ وباقي السبعة : بالنون ؛ وابن جندب : بالنون من أسلك ؛ وبعض التابعين : بالياء من أسلك أيضاً ، وهما لغتان : سلك وأسلك ، قال الشاعر

:

حتى إذا أسلكوهم في قبائدة . . .

وقرأ الجمهور : ﴿ صعداً ﴾ بفتحتين ، وذو مصدر صعد وصف به العذاب ، أي يعلو المعذب ويغلبه ، وفسر بشاق .

يقال : فلان في صعد من أمره ، أي في مشقة .

وقال عمر : ما يتصعد بي شيء كما يتصعد في خطبة النكاح ، أي ما يشق عليّ .

وقال أبو سعيد الخدري وابن عباس : صعد : جبل في النار .

وقال الخدري : كلما وضعوا أيديهم عليه ذابت .

وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم ، فعلى هذا يجوز أن يكون بدلاً من عذاب على حذف مضاف ، أي عذاب صعد .

ويجوز أن يكون صعداً مفعول يسلكه ، وعذاباً مفعول من أجله .

وقرأ قوم : صعداً بضمتين ؛ وابن عباس والحسن : بضم الصاد وفتح العين .

قال الحسن : معناه لا راحة فيه .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأن المساجد ﴾ ، بفتح الهمزة عطفاً على ﴿ أنه استمع ﴾ ، فهو من جملة الموحى .

وقال الخليل : معنى الآية : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا ﴾ : أي لهذا السبب ، وكذلك عنده ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ﴿ فليعبدوا ﴾ وكذلك ﴿ وأن هذه أمتكم ﴾ أي ولأن هذه .

(224/786)

وقرأ ابن هرمز وطلحة : وإن المساجد ، بكسرها على الاستئناف وعلى تقدير الخليل ، فالمعنى : فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته ، والظاهر أن المساجد هي البيوت المعدة للصلاة والعبادة في كل ملة .

وقال الحسن : كل موضع سجد فيه فهو مسجد ، كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن ، لأن الأرض كلها مسجد هذه الأمة .

وأبعد ابن عطاء في قوله إنها الآراب التي يسجد عليها ، واحدها مسجد بفتح الجيم ، وهي الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان عد الجبهة والأنف واحداً وأبعد أيضاً من قال المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد ، وقال : إنه جمع مسجد وهو السجود .

وروي أنها نزلت حين تغلبت قريش على الكعبة ، فقيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : المواضع كلها لله ، فاعبده حيث كنت .

وقال ابن جبير : نزلت لأن الجن قالت : يا رسول الله ، كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك ؟ فنزلت الآية ليخاطبهم على معنى أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة إذ دخلنا المساجد .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ بفتح الهمزة ، عطفاً على قراءتهم ﴿ وأن المساجد ﴾ بالفتح .

وقرأ ابن هرمز وطلحة ونافع وأبو بكر .

بكسرها على الاستئناف ؛ وعبد الله هو محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ يدعوه ﴾ : أي يدعو الله ﴿ كادوا ﴾ : أي كاد الجن ، قال ابن عباس والضحاك : ينقضون عليه لاستماع القرآن .

وقال الحسن وقتادة : الضمير في ﴿ كادوا ﴾ لكفار قريش والعرب في اجتماعهم على رد أمره .

وقال ابن جبير : المعنى أنها قول الجن لقومهم يحكمون ، والضمير في ﴿ كادوا ﴾ لأصحابة الذين يطوعون له ويقيدون به في الصلاة .

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل رسول الله أو النبي ؟ قلت : لأن تقديره وأوحي إليّ أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن نفسه ، جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل ؛ أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله لله ليست بأمر مستعبد عن العقل ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداً .

ومعنى قام يدعوه : قام يعبده ، يريد قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن ، فاستمعوا لقراءته عليه السلام .

﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ : أي يزدحمون عليه متراكمين ، تعجباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً وساجداً ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره .

انتهى ، وهو قول متقدم كثره الزمخشري بخطابته .

وقرأ الجمهور : ﴿ لبداً ﴾ بكسر اللام وفتح الباء جمع لبدة ، نحو : كسرة وكسر ، وهي الجماعات شبهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد مناف بن ربيع :

صافوا بستة أبيات وأربعة . . .

حتى كأن عليهم جانباً لبداً

وقال ابن عباس : أعواناً .

وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر : بخلاف عنه بضم اللام جمع لبدة ، كزبرة وزبر ؛ وعن

ابن محيصن أيضاً : تسكين الباء وضم اللام لبداً .

وقرأ الحسن والجحدري وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو : بضمتين جمع لبد ، كرهن ورهن ، أو جمع لبود ، كصبور وصبر .

وقرأ الحسن والجحدري : بخلاف عنهما ، لبداً بضم اللام وشد الباء المفتوحة .

قال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام الرسول للدعوة ، تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره .

انتهى .

وأبعد من قال عبد الله هنا نوح عليه السلام ، كاد قومه يقتلونه حتى استنقذه الله منهم ، قاله الحسن .

وأبعد منه قول من قال إنه عبد الله بن سلام .

(226/786)

وقرأ الجمهور : قال إنما أدعوا ربي : أي أعبده ، أي قال للمتظاهرين عليه : ﴿ إنما ادعوا ربي ﴾ : أي لم آتكم بأمر ينكر ، إنما أعبد ربي وحده ، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عداوتي .

أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادة الله بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يعبد غيره .

أو قال الجن لقومهم : ذلك حكاية عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في ﴿ كادوا ﴾ .

وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بخلاف عنه : ﴿ قل ﴾ : أي قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك ، وهم إما الجن وإما المشركون ، على اختلاف القولين في ضمير ﴿ كادوا ﴾ .

ثم أمره تعالى أن يقول لهم ما يدل على تبرئه من القدرة على إيصال خير أو شر إليهم ، وجعل الضر مقابلاً للرشد تعبيراً به عن الغي ، إذ الغي ثمرته الضرر ، يمكن أن يكون المعنى : ضراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً ، فحذف من كل ما يدل عليه مقابله .

قرأ الأعرج : رشداً بضمتين .

ولما تبرأ عليه السلام من قدرته على نفعهم وضرهم ، أمر بأن يخبرهم بأنه مربوب لله تعالى ، يفعل فيه ربه ما يريد ، وأنه لا يمكن أن يجيره منه أحد ، ولا يجد من دونه ملجأ يركن إليه ، قال قريباً منه قتادة .

وقال السدي : حرزاً .

وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض ، وقيل : ناصراً ، وقيل : مذهباً ومسلكاً ، ومنه قول الشاعر :

يا لهف نفسي ونفسي غير مجدية . . .

عني وما من قضاء الله ملتحد

وقيل : في الكلام حذف وهو : قالوا له أترك ما ندعو إليه ونحن نجيرك ، فقيل له : قل لن يجيرني .

وقيل : هو جواب لقول وردان سيد الجن ، وقد ازدحموا عليه ، قال وردان : أنا أرحلهم عنك ، فقال : إني لن يجيرني أحد ، ذكره الماوردي .

﴿ إلا بلاغاً ﴾ ، قال الحسن : هو استثناء منقطع ، أي لن يجيرني أحد ، لكن إن بلغت رحمني بذلك .

والإجارة للبلاغ مستعارة ، إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته .

(227/786)

وقيل على هذا المعنى : هو استثناء متصل ، أي لن يجيرني في أحد ، لكن لم أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيزني الله ، فيجوز نصبه على الاستثناء من ملتحداً وعلى البدل وهو الوجه ، لأن ما قبله نفياً ، وعلى البدل خرجه الزجاج .

وقال أبو عبد الله الرازي : هذا الاستثناء منقطع ، لأنه لم يقل : ولم أجد ملتحداً بل ، قال :

﴿ من دونه ﴾ ؛ والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله : ﴿ من دونه ملتحداً ﴾ لأنه لا يكون من دون الله ، بل يكون من الله وبإعانته وتوفيقه .

وقال قتادة : التقدير لا أملك إلا بلاغاً إليكم ، فأما الإيمان والكفر فلا أملك .

انتهى ، وفيه بعد لطول الفصل بينهما .

وقيل ، إلا في تقدير الانفصال : إن شرطية ولا نافية ، وحذف فعلها لدلالة المصدر عليه ، والتقدير : إن لم أبلغ بلاغاً من الله ورسالته ، وهذا كما تقول : إن لا قياماً قعوداً ، أي إن لم تقيم قياماً فاقعد قعوداً ، وحذف هذا الفعل قد يكون لدلالة عليه بعده أو قبله ، كما حذف في قوله :

فطلقها فلست لها بكفء . . .

وإلا يعل مفرقك الحسام

التقدير : وإن لا تطقها ، فحذف تطلقها لدلالة فطلقها عليه ، ومن لابتداء الغاية .

وقال الزمخشري : تابعاً لقتادة ، أي لا أملك إلا بلاغاً من الله ، و ﴿ قل إني لن يجيرني ﴾ : جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه على معنى إن الله إن أراد به سوءاً من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذاً يأوي إليه . انتهى .

﴿ ورسالاته ﴾ ، قيل : عطف على ﴿ بلاغاً ﴾ ، أي إلا أن أبلغ عن الله ، أو أبلغ

رسالاته .

الظاهر أن رسالاته عطف على الله ، أي إلا أن أبلغ عن الله وعن رسالاته .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ : أي بالشرك والكفر ، ويدل عليه قوله : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ فإن له ﴾ بكسر الهمزة .

وقرأ طلحة : بفتحها ، والتقدير : فجزاؤه أن له .

(228/786)

قال ابن خالويه : وسمعت ابن مجاهد يقول : ما قرأ به أحد وهو لحن ، لأنه بعد فاء الشرط .

وسمعت ابن الأنباري يقول : هو ضراب ، ومعناه : فجزاؤه أن له نار جهنم . انتهى .

وكان ابن مجاهد إماماً في القراءات ، ولم يكن متسع النقل فيها كابن شنبوذ ، وكان ضعيفاً في النحو .

وكيف يقول ما قرأ به أحد ؟ وهذا كطلحة بن مصرّف قرأ به .

وكيف يقول وهو لحن ؟ والنحويون قد نصوا على أن إن بعد فاء الشرط يجوز فيها الفتح والكسر .

وجمع ﴿ خالدين ﴾ حملاً على معنى من ، وذلك بعد الحمل على لفظ من في قوله : ﴿ يعص ﴾ ، ﴿ فإن له ﴾ .

﴿ حتى إذا رأوا ﴾ : حتى هنا حرف ابتداء ، أي يصلح أن يجيء بعدها جملة الابتداء والخبر ، ومع ذلك فيها معنى الغاية .

قال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له ؟ قلت : بقوله ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾ ، على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ من يوم بدر ، وإظهار الله له عليهم ، أو من يوم القيامة ، ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ أنهم ﴿ أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ .

ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه لا يزالون على ما هم عليه ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ .

قال المشركون : متى يكون هذا الموعد إنكاراً له ؟ فقيل : قل إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه ، فإن الله قد وعد ذلك ، وهو لا يخلف الميعاد .

وأما وقته فلا أدري متى يكون ، لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة .

انتهى .

وقوله : بم تعلق إن ؟ عنى تعلق حرف الجر ، فليس بصحيح لأنها حرف ابتداء ، فما بعدها ليس في موضع جر خلافاً للزجاج وابن درستوية ، فإنهما زعما أنها إذا كانت

حرف ابتداء ، فالجملة الابتدائية بعدها في موضع جر ؛ وإن عنى بالتعلق اتصال ما بعدها بما قبلها ، وكون ما بعدها غاية لما قبلها ، فهو صحيح .

(229/786)

وأما تقديره أنها تتعلق بقوله : ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾ ، فهو بعيد جداً لطول الفصل بينهما بالجمل الكثيرة .

وقال التبريزي : حتى جاز أن تكون غاية لمحذوف ، ولم يبين ما المحذوف .

وقيل : المعنى دعهم حتى إذا رأوا ما يوعدون من الساعة ، ﴿ فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ ، أهم أم أهل الكتاب ؟ والذي يظهر لي أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها من الحكم بكينونة النار لهم ، كأنه قيل : إن العاصي يحكم له بكينونة النار لهم ، والحكم بذلك هو وعيد حتى إذا رأوا ما حكم بكينونته لهم فسيعلمون .

فقوله : ﴿ فأن له نار جهنم ﴾ هو وعيد لهم بالنار ، ومن أضعف مبتدأ وخبر في موضع نصب لما قبله ، وهو معلق عنه لأن من استفهام .

ويجوز أن تكون من موصولة في موضع نصب بسيعلمون ، وأضعف خبر مبتدأ محذوف .

والجملة صلة لمن ، وتقديره : هو أضعف ، وحسن حذفه طول الصلة بالمعمول وهو

ناصراً .

قال مكحول : لم ينزل هذا إلا في الجن ، أسلم منهم من وفق وكفر من خذل كالإنس ، قال : وبلغ من تابع النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الجن سبعين ألفاً ، وفزعوا عند انشقاق الفجر .

ثم أمره تعالى أن يقول لهم إنه لا يدري وقت طول ما وعدوا به ، أهو قريب أم بعيد ؟ .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ ، والأمد يكون قريباً وبعيداً ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ ؟ قلت : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستقرب الموعد ، فكأنه قال : " ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية " ؟ أي هو عالم الغيب .

﴿ فلا يظهر ﴾ : فلا يطلع ، و ﴿ من رسول ﴾ تبيين لمن ارتضى ، يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضي الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا كل مرتضي ، وفي هذه إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل .

(230/786)

وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط .

انتهى .

وقال ابن عباس : ﴿ عالم الغيب ﴾ ، قال الحسن : ما غاب عن خلقه ، وقيل : الساعة .

وقال ابن عباس : إلا بمعنى لكن ، فجعله استثناء منقطعاً .

وقيل : إلا بمعنى ولا أي ، ولا من ارتضى من رسول وعالم خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم الغيب ، أو بدل من ربي .

وقرىء : عالم بالنصب على المدح .

وقال السدّي : علم الغيب ، فعلاً ماضياً ناصباً ، والجمهور : عالم الغيب اسم فاعل مرفوعاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا يظهر ﴾ من أظهر ؛ والحسن : يظهر بفتح الياء والهاء من ظهر ، ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ : استثناء من أحداً ، أي فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك ، فإنه يسلك الله من بين يدي ذلك الرسول ، ﴿ ومن خلفه رصداً ﴾ : أي حفظة يحفظونه من الجن ويحرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إلى ذلك الرسول من علم الغيب .

وعن الضحاك : ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك .

وقال القرطبي : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، ثم ذكر استدلالاً على بطلان ما يقوله المنجم ، ثم قال باستحلال دم المنجم .

وقال الواحدي : في هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدل على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بما في القرآن .

(231/786)

قال أبو عبد الله الرازي والواحدي : تجوز الكرامات على ما قال صاحب الكشاف ، فجعلها تدل على المنع من الأحكام النجومية ولا تدل على الإلهامات مجرد تشبه ، وعندي أن الآية لا تدل على شيء مما قالوه ، لأن قوله : ﴿ على غيبه ﴾ ليس فيه صفة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر خلقه تعالى على غيب واحد من غيوبه ، ويحمله على وقت قيام القيامة فلا يبقى دليل في الآية على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ، ويؤكده أنه ذكر هذه الآية عقيب قوله : ﴿ إن أدري أقريب ما توعدون ﴾ الآية : أي لا أدري وقت وقوع القيامة ، إذ هي من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد .

و﴿ إلا من ارتضى ﴾ : استثناء منقطع ، كأنه قال : فلا يظهر على غيبه المخصوص أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فله حفظة يحفظونه من شرّ مردة الإنس والجن .

قال أبو عبد الله الرازي : واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس المراد من هذه الآية أنه لا يطلع أحد على شيء من المغيبات إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والذي يدل عليه وجوه :

أحدها : أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين يخبران بظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل زمان ظهوره ، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا (صلى الله عليه وسلم) .

وثانيها : إطباق الأمم على صحة علم التعبير ، فيخبر المعبر عن ما يأتي في المستقبل ويكون صادقاً .

وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه من بغداد إلى خراسان سألها عن أشياء في المستقبل فأخبرت بها ووقعت على وفق كلامها ، فقد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة على سبيل التفصيل وجاءت كذلك ، وبالغ أبو البركات صاحب المعتبر في شرح حالها في كتاب التعبير وقال : فحصت عن حالها منذ ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات أخباراً مطابقة موافقة .

ورابعها : أنا نشاهد أصحاب الإلهامات الصادقة ، ليس هذا مختصاً بالأولياء ، فقد يوجد في السحرة وفي الأحكام النجومية ما يوافق الصدق ، وإن كان الكذب يقع منهم كثيراً .

وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً ، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن ، وذلك بأطل .

فقلنا : إن التأويل الصحيح ما ذكرناه .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه .

أما قصة شق وسطيح فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب ، لأنه مما يخبر به رئي الكهان من الشياطين مسترقة السمع ، كما جاء في الحديث : " إنهم يسمعون الكلمة ويكذبون ويلقون إلى الكهنة ويزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة " وليس هذا من علم الغيب ، إذ تكلمت به الملائكة ، وتلقفها الجني ، وتلقفها منه الكاهن ؛ فالكاهن لم يعلم الغيب .

وأما تعبير المنامات ، فالمعبر غير المعصوم لا يعبر بذلك على سبيل البت والقطع ، بل على سبيل الحزر والتخمين ، وقد يقع ما يعبر به وقد لا يقع .

وأما الكاهنة البغدادية وما حكي عنها فحسبه عقلاً أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها

، ولو شاهد ذلك لكان في عقله ما يجوز أنه لبس عليه هذا ، وهو العالم المصنف الذي طبق ذكره الآفاق ، وهو الذي شككك في دلائل الفلاسفة وسامهم الخسف .

وأما حكايته عن صاحب المعتبر ، فهو يهودي أظهر إسلامه وهو منتحل طريقة الفلاسفة .

وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة ، فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة أصحب العلماء وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح ، فلم أر أحداً منهم صاحب إلهام صادق .

وأما الكرامات ، فلا أشك في صدور شيء منها ، لكن ذلك على سبيل الندرة ، وذلك في من سلف من صلحاء هذه الأمة ؛ وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامات ، ولله تعالى أن يخص من شاء بما شاء والله الموفق .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليعلم ﴾ مبنياً للفاعل .

(233/786)

قال قتادة : ليعلم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وحفظوا .

وقال ابن جبير : ليعلم محمد أن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل وخلفه قد

أبلغوا رسالات ربهم .

وقال مجاهد : ليعلم من أشرك وكذب أن الرسل قد بلغت ، وعلى هذا القول لا يقع لهم هذا العلم إلا في الآخرة .

وقيل : ليعلم الله رسله مبلغة خارجة إلى الوجود ، لأن علمه بكل شيء قد سبق .

واختار الزمخشري هذا القول الأخير فقال : ﴿ ليعلم الله أَن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ : يعني الأنبياء .

وحد أولاً على اللفظ في قوله : ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ، ثم جمع على المعنى كقوله : ﴿ فإن له نار جهنم خالدين ﴾ ، والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ انتهى .

وقيل : ﴿ ليعلم ﴾ ، أي : أيّ رسول كان أن الرسل سواه بلغوا .

وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وإسراف أصحابه .

وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم .

وقيل : ليعلم محمد أن قد بلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه .

وقيل : ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم ، ولم يكونوا هم المتلقين بإستراق السمع .

وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ : ليعلم ، بضم الياء مبنياً للمفعول ؛ والزهري وابن أبي عبلة :

بضم الياء وكسر اللام ، أي ليعلم الله ، أي من شاء أن يعلمه ، أن الرسل قد أبلغوا رسالاته .

وقرأ الجمهور : ﴿ رسالات ﴾ على الجمع ؛ وأبو حيوة : على الإفراد .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ : وأحاط مبنياً للفاعل ، أي الله ، ﴿ وأحصى ﴾ : مبنياً للفاعل ، أي الله كل نصباً ؛ وابن أبي عبلة : وأحيط وأحصى مبنياً للمفعول كل رفعاً .

ولما كان ليعلم مضمناً معنى علم ، صار المعنى : قد علم ذلك ، فعطف وأحاط على هذا الضمير ، والمعنى : وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء .

(234/786)

﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ : أي معدوداً محصوراً ، وانتصابه على الحال من كل شيء ، وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم .

ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لأحصى لأنه في معنى إحصاء .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون تمييزاً .

انتهى ، فيكون منقولاً من المفعول ، إذا أصله : وأحصى عدد كل شيء ، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

التفسير : روى يونس وهارون عن أبي عمرو ﴿ وحي ﴾ بضم الواو من غير ألف . والوحي والإيحاء بمعنى وهو إلقاء المعنى إلى النفس في خفاء وسرعة كالإلهام وإنزال الملك وقد مر مراراً . وقرىء ﴿ أحي ﴾ بقلب الواو همزة . والكلام في الجنّ اسماً وحقيقته قد سلف في الاستعاذة وكذا بيان اختلاف الروايات أنه صلى الله عليه وسلم هل رأى الجن أم لا ، وذلك في آخر سورة " حم الأحقاف " . والذي أزيده ههنا ما ذكره بعض حكماء الإسلام أنه لا يبعد أن تكون الجن أرواحاً مجردة كالنفوس الناطقة ، ثم يكون لكل واحد منهم تعلق بجزء من أجزاء الهواء كما أن أول متعلق النفس الناطقة هو الروح الحيوني في القلب ، ثم بواسطة سريان ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يخلص التدبير والتصرف فيه كما للنفس الناطقة في البدن ، ومنهم من جوز أن يكون الجن عبارة عن النفوس الناطقة التي فارقت أبدان الإنسان فتتصرف فيما يناسبها من الأرواح البشرية التي لم تفارق بعد فتعينها بالإلهام إن كانت خيرة ، وبالوسوسة إن كانت بالضد . أما الذاهبون إلى أن الجن أجسام

فمنهم الأشاعرة القائلون بأن البنية ليست شرطاً في الحياة وأنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علماً بأمور كثيرة وقدرة على أعمال شاقة ، فعند هذا ظهر القول بإمكان وجود الجن سواء كانت أجسامهم لطيفة أو كثيفة وسواء كان أجزاؤهم صغاراً أو كباراً .

(236/786)

ثم الأمر بالخروج إليهم وقراءة القرآن عليهم لا أنه رآهم وعرف جوابهم . والله تعالى أوحى في هذه السورة . ومنهم من قال : البنية شرط وأنه لا بد من صلابة في البنية حتى يكون قادراً على الأفعال الشاقة . ومن الأولين من جوز أن يكون المرئي حاضراً والشرائط حاصلة والموانع مرتفعة ، ثم أنا لا نراه . وأعلم أن ما ذكرنا في تفسير الأحقاف عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم ما رأة الجن . وعن ابن مسعود أنه رآهم . فالجمع بين القولين أن ما ذكره ابن عباس لعله وقع أولاً فأوحى الله إليه في هذه السورة أنهم قالوا كذا وكذا ، أو رآهم وسمع كلامهم وآمنوا به ، ثم رجعوا إلى قومهم وذكروا لقومهم على سبيل الحكاية ﴿ أنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ إلى آخره كقوله في " الأحقاف " ﴿ فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [الآية : 29] أوحى الله تعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ما جري بينهم وبين قومهم . والفائدة فيه أن يعلم أنه مبعوث إلى الثقلين وأن الجن مكلفون كالأنس

وأنهم يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا ، وأن المؤمن منهم يدعو سائرهم إلى الإيمان . وأجمع القراء على فتح ﴿ أنه استمع ﴾ لأنه فاعل ﴿ أوحي ﴾ وكذا على فتح ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ ﴿ وأن المساجد ﴾ لأنه يعلم بالوحي فهما معطوفان على ﴿ أنه استمع ﴾ وأجمعوا على كسر ﴿ إنا ﴾ في قوله ﴿ إنا سمعنا ﴾ لأنه وقع بعد القول . وفي البواقي خلاف ، فمن كسر فمحمول على مقول القول وأنه صريح من كلام الجن ، ومن فتح فعلى أنه فاعل ﴿ أوحى ﴾ ولا بد من تقدير ما في الحكاية ليكون حكاية كلام الجن كأنه قيل : وحكوا أنه تعالى جد ربنا إلى آخره إلا في قوله ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ فإنه كاللذين تقدماه يصح وقوعه فاعل ﴿ أوحي ﴾ من غير تقدير ، وجوز صاحب الكشاف فيمن قرأ بفتح الكل في قوله ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ وكذلك البواقي أن يكون معنا صدقنا . قلت : وفيه نظر لنبوه عن الطبع في أكثر المواضع إذ لا معنى

لقول القائل مثلا : صدقنا أنا لمسنا السماء وصدقنا أنا لما سمعنا الهدى آمنا به . وبالجملة فكلامه في هذا المقام غير واضح ولا لائق بفضله . قوله سبحانه ﴿ عجباً ﴾ مصدر وضع موضع الوصف للمبالغة أي قرآناً عجباً بديعاً خارجاً عن حد أشكاله بحسن مبانيه

وصحة معانية ﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ أي الصواب أو التوحيد والإيمان ﴿ فآمنا به ﴾ لأن الإيمان بالقرآن إيمان بكل ما فيه من التوحيد والنبوة والمعاد ، ويجوز أن يكون الضمير لله لأن قوله ﴿ ولن نشرك بربنا ﴾ يدل عليه بعد دلالة الحال ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك .

(238/786)

ذكر الحسن أن فيهم يهود ونصارى ومجوساً ومشركين . قلت : ومما يدل على أن فيهم نصارة قوله تعالى ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي عظمته مكن قولهم " جد فلان في عيني " أي عظم . وفي حديث عمر كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا . ويحتمل أن يراد ملكه وسلطانه أو غناه استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت لأن الملوك والأغنياء المجودون . وفي الحديث " لا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ " قال أبو عبيدة : لا ينفع ذا الغنى منك غناه . وفي حديث آخر " قمت على باب الجنة فإذا غلقه من يدخلها من الفقراء وإذا أصحاب الجد محبوسون " يعني أصحاب الغنى في الدنيا أي ارتفع غنى ربنا عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد كأنهم بسماع القرآن تنبهوا على خطا أهل الشرك من أهل الكتاب وغيرهم . فقوله ﴿ ما اتخذ ﴾ بيان للأول . وقيل : الجد أبو الأب

وإن علا فهو مجاز عن الأصل أي تعالى أصل ربنا وهو حقيقته المخصوصة عن جميع جهات التعلق بالغير قاله الإمام في التفسير الكبير . النوع الثالث مما ذكره الجن قوله ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ﴾ السفه خفة العقل ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في السوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط ، وصف بالمصدر للمبالغة . والسفيه إبليس أو غيره من مردة الجن الذين جاوزا الحد في طرف النفي إلى أن أفضى إلى التعطيل ، أو في طرف الإثبات إلى أن أدى إلى الشريك والصاحبة والولد . الرابع ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي إنما أخذنا قول الغير لأنا ظننا أن لا يفتري الكذب على الله أحد ، فلما سمعنا القرآن عرفنا أنهم قد يكذبون . وقال جار الله ﴿ كذباً ﴾ صفة أي قولاً مكذوباً فيه ، أو مصدر لأن الكذب نوع من القول . ومن قرأ بالتشديد وضع ﴿ كذباً ﴾ موضع تقولا ولم يجعله صفة لأن التقول لا يكون إلا كذباً . قال بعض العلماء : فيه ذم لطريقة أهل الطريق وحث على الاستدلال والنظر . الخامس ﴿

وأنه كان رجال من الإنس ﴾ الآية . قال جمهور المفسرين : كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في واد قفر خاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه

يريد الجن وكبيرهم فيبيت في جوار منهم حتى يصبح . وقال آخرون : إذا قحطوا بعثوا رائدهم فإذا وجد مكاناً فيه كلأ وماء رجع إلى أهله فسار بهم ، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادي أن يصيبنا آفة يعنون الجن فإن لم يفزعهم أحد نزلوا وربما أفزعهم الجن فهربوا .

(240/786)

وقيل : المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً لكن من شر الجن كأن يقول مثلاً : أعوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم من شر جن هذا الوادي . وإنما ذهبوا إلى هذا التأويل ظناً منهم بأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن ، وضعف بأنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . أما قوله ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ فمعناه أن الإنس لاستعاذتهم بهم زادوهم إثماً وجراءة وطغياناً وكبراً لأنهم إذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس . وقيل : ضمير الفاعل للجن أي فزاد الجن الإنس خوفاً وغشيان شر بإغوائهم وإضلالهم فإنهم لما تعوذوا بهم ولم يتعوذوا بالله استولوا واجترؤا عليهم . السادس ﴿ وأنهم ﴾ أي الإنس ﴿ ظنوا كما ظننتم ﴾ أيها الجن قاله بعضهم لبعض . وقيل : هذه الآية والتي قبلها من جملة الوحي بلا تقدير الحكاية . والضمير في ﴿

وأنهم ﴾ للجن ، والخطاب في ﴿ ظننتم ﴾ لأهل مكة . والأولى أن يكون الكلام من كلام الجن لئلا يقع كلام أجنبي في البين . السابع ﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ قال أهل البيان : اللمس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب التعرف ، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها . والحرس إسم مفرد في معنى الحراس كالخدم بمعنى الخدام ولها لم يقل شداد . الثامن ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد ﴾ إلى آخره وفي قوله ﴿ شهاباً رصداً ﴾ وجوه : قال مقاتل : يعني رمياً بالشهب ورصداً من الملائكة وهو اسم جمع كما قلنا في حرس . فقوله ﴿ رصداً ﴾ كالخبر بعد الخبر وقال الفراء : هو فعل بمعنى مفعول أي شهاباً قد رصد ليرجم به . وقيل : بمعنى فاعل أي شهاباً راصداً لأجله . واعلم أنا قد بينا في هذا الكتاب أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم وقد جاء ذكرها في الجاهلية وفي كتب الفلاسفة ، وإنما غلظت وشدد أمرها عند البعث لئلا يتشوش أمر الوحي بسبب تخليط الكهنة . وفي قوله ﴿ كنا نقعد منها مقاعد ﴾ إشارة إلى أن الجنّ كانوا

يجدون بعض المقاعد خالية عن الشهب والحرس والآن ملئت المقاعد كلها . التاسع ﴿ وأنا لا ندري ﴾ الآية . وفيه قولان : أحدهما لا ندري أن المقصود من منع الإستراق شر أريد بمن في الأرض أم خير وصلاح . وثانيهما لا نعلم أن المقصود من إرسال محمد الذي وقع المنع من الإستراق لأجله هو أن يكذبوه فيهلكوا كما هلك المكذبون من الأمم السالفة ، أو أن يؤمنوا فيهتدوا ، وفيه اعتراف من الجن بأنهم لا يعلمون الغيب على الإطلاق . العاشر ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ أي قوم أدون حالاً في الصلاح من المذكورين حذف الموصوف واكتفى بالصفة كما في قوله ﴿ وما منا الإله مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] وهذا القسم يشمل المقتصدين والصالحين .

(242/786)

وقوله ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ بيان للقسمة المذكورة ، فالطرائق جمع الطريقة بمعنى السيرة والمذهب ، والقدد جمع قدة من قد كالقطعة من قطع أي كنا قبل الإسلام ذوي مذاهب متفرقة مختلفة أو على حذف المضاف أي كانت طرائقنا طرائق قدد ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة . الحادي عشر ﴿ وأنا ظننا ﴾ أي تيقنا وقد استعمل الظن الغالب مكان اليقين ﴿ أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ إن أراد بنا أمر ﴿ ولن نعجزه هرباً

﴿ أي هاربين أو بسبب الهرب إن طلبنا وفيه إقرار منهم بأن الله غالب على كل شيء .

الثاني عشر ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ الآية . عنوا سماعهم القرآن وإيمانهم به . وقوله ﴿ فلا يخاف ﴾ في تقدير مبتدأ أو خبر أي فهو لا يخاف وإلا قيل بالجزم وبدون الفاء ، والفائدة في هذا المساق تحقيق أن المؤمن ناجٍ لا محالة كأنه وقع فأخبر أنه لا يخاف ودلالة على أنه هو المختص بذلك دون غيره إذ يعلم من بناء الكلام على الضمير أن غيره خائف . وقوله ﴿ بخساً ولا رهقاً ﴾ على حذف المضاف أي جزاء بخس ولا رهق لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد ، وفيه أن المؤمن ينبغي أن يكون غير باخس ولا ظالماً . ويجوز أن يراد لا يخاف البخس من الله لأنه يجزي الجزاء الأحسن الأوفر ولا ترهقه ذلة .

الثالث عشر ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أي الجائرون عن طريق الحق بالكفر والعدوان وهو قريب من العاشر إلا أن في هذا النوع تفصيل جزاء الفريقين فذكر الإيعاد صريحاً وفي الوعد اقتصر على ذكر سببه وهو تحري الرشد أي طلب الصواب المستتبع للثواب . قال المبرد : أصل التحري من قولهم ذلك أحرى وأحق وأقرب . وقال أبو عبيدة : تحروا توخوا . وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز في جانب الوعد بشارة وإشارة إلى تحقيق الثواب لما عرفت مراراً أن المجاز أبلغ من الحقيقة . قوله ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ معطوف على ﴿ إنه استمع ﴾ كما مر ومعناه أوحى إليّ أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريق

(243/786)

المثلى . وجوز جمع من المفسرين أن يعود الضمير في ﴿ استقاموا ﴾ إلى الأنس لأن الترغيب في الانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بهم لا بالجن ، ولأن الآية روي أنها نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين . وزعم القاضي أن الثقلين . يدخلون في الآية لأنه أثبت حكماً معللاً بعلة وهو الاستقامة فوجب أن يعم الحكم بعموم العلة . وأما قول من يقول إن الضمير عائد إلى الجن فله معنيان : أحدهما لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله ولم يستكبر عن السجود لآدم وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم . وذكر الماء الغدق وهو الكثير كناية عن طيب العيش وكثرة المنافع لأنه أصل البركات ، فتكون الآية نظير قوله

(244/786)

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم ﴾ [المائدة : 65] وثانيهما لو استقام الجن الذين استمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها قبل الإستماع ولو ينتقلوا عنها إلى

الإسلام لوسعنا عليهم الرزق في الدنيا ليذهبوا بطيباتهم في الحياة الفانية ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا ﴾ [الزخرف : 33] إلى آخره . وأما الذين قالوا : الضمير عائد إلى الإنس فالوجهان جاريان فيه بعينهما . وعن أبي مسلم : إن المراد بالماء الغدق جنات تجري من تحتها الأنهار يعني في الجنة . واحتجاج الأشاعرة بقوله ﴿ لنفتنهم ﴾ على أنه سبحانه هو الذي يضل عباده ويوقعهم في الفتن والمحن . والمعتزلة أجابوا بأن الفتنة هنا بمعنى الاختبار كقوله ﴿ ليبلوكم ﴾ [الملك : 2] ثم بين وعيد المعرضين عن عبادة الله ووحيه . وانتصب ﴿ عذاباً صعداً ﴾ على حذف الجار أي في عذاب صعد كقوله ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ [المدثر : 42] أو على تضمين معنى الإدخال . الصعد مصدر بمعنى الصعود ، ووصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقد روى عكرمة عن ابن عباس أن ﴿ صعداً ﴾ جبل في جهنم من صخرة ملساء يكلف الكافر صعودها ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة ، وإذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها ثم يكلف الصعود مرة أخرى ، وهكذا أبداً ومن جملة الوحي قوله ﴿ وأن المساجد لله ﴾ ذهب الخليل أن الجار محذوف ومتعلقه ما بعده أي ولأجل أن المساجد لله خاصة ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ فيها عن الحسن عني بالمساجد الأرض كلها لأنها جعلت للنبي صلى الله عليه وسلم مسجداً وهو مناسب لمدح النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام أي كما أنه مفضل على الأنبياء ببعثه إلى

الثقلين فكذلك خص بهذا المعجز الآخر . وقال جمع كثير من المفسرين : إنها كل موضع بني للصلاة ويشمل مساجدنا والبيع والكنائس أيضاً . قال قتادة : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا

(245/786)

بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمرنا بالإخلاص والتوحيد وعن الحسن أيضاً أن المساجد جمع مسجد بالفتح فيكون مصدراً بمعنى السجود . وعلى هذا قال سعيد بن جبير : المضاف محذوف أي مواضع السجود من الجسد لله وهي الآراب السبعة : الوجه والكفان والركبتان والقدمان . وقال عطاء عن ابن عباس : هي مكة بجميع ما فيها من المساجد ، وأنها قبة الدنيا فكل أحد يسجد إليها . قال الحسن : من السنة أن الرجل إذا دخل المسجد أن يقول " لا إله إلا الله " لأن قوله ﴿ لا تدعوا مع الله أحداً ﴾ في ضمنه أمر بذكر الله بدعائه . قوله ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ هو النبي باتفاق المفسرين . ثم قال الواحدي : هذا من كلام الجن لأن الرسول لا يليق به أن يحكي عن نفسه بلفظ المغايبة . ولا يخفى ضعفه فإنه وارد على طريق التواضع والأدب في الإفتخار بالانتساب إلى عبودية المعبود الحق ، وهذا طريق مسلوك في المحاورات والمكاتبات .

يقولون : عبدك كذا وكذا دون أن يقال " فعلت كذا " . وفي تخصيص هذا اللفظ بالمقام دون الرسول والنبي نكتة أخرى لطيفة هي أن ما قبله النهي عن عبادة غير الله وما بعده ذكر عبادة النبي إياه . فإن كان هذا من جملة الوحي فلا إشكال في النسق ، وإن كان من كلام الجن وفرض أن ما قبل قوله ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ أيضاً من كلامهم كانت الآيتان المتوسطتان كالاعتراض بين طائفتي كلام الجن . ومناسبة الاستقامة على الطريقة وتخصيص المساجد بعبادة الله وحده لما قبلها ظاهرة فلا اعتراض على هذا الاعتراض . وفي قوله ﴿ كادوا ﴾ ثلاثة أوجه أظهرها أن الضمير للجن ، والقيام قيام النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته متزاحمين عليه متراكمين تعجباً مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه . والثاني بأن الضمير للمشركين والمعنى لما قام رسولاً يعبد الله وحده مخالفاً للمشركين كاد المشركون لتظاهرهم عليه يزدحمون على عداوته ودفعه . والثالث قول قتادة أي لما قام عبد الله تلبدت الإنس والجن وتظاهروا عليه ليطفئوا نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره . و ﴿ لبداً ﴾ جمع لبدة وهي ما تلبد بعضه على بعض كلبدة الأسد . والتركيب يدور على الإجتماع ومنه اللبد . ومن قرأ ﴿ قل إنما أدعو

﴿ فظاهر وهو أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأمته المتظاهرين أو للجن عند ازدحامهم : ليس ما ترون من عبادتي ربي بأمر بديع وإنما يتعجب ممن يدعو غير الله وجوز في الكشاف أن يكون هذا من كلام الجن لقومهم حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أمر أن يخبر أمته بكلمات قاطعة للأسباب والوسائل سوى الإيمان والعمل الصالح . والرشد بمعنى النفع ، والضر بمعن الغي ، وكل منها إمارة على ضده . ثم من ههنا إلى قوله ﴿ إلا بلاغاً ﴾ اعتراض أكد به نفي الاستطاعة وإثبات العجز على معنى أن الله إن أراد به سوأ لن يخلصه منه أحد ولن يجد من غير الله ملاذاً ينحرف

(247/786)

إليه . والمقصود أني لا أملك شيئاً إلا البلاغ الكائن من الله ورسالاته ، فالجار صفة لا صلة لأن التبليغ إنما يعدى ب " عن " قال صلى الله عليه وسلم " بلغوا عني ولو آية " قال الزجاج : انتصب ﴿ بلاغاً ﴾ على البدل أي لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به . قلت : على هذا جاز أن يكون استثناء منقطعاً . وقيل : أن لا أبلغ بلاغاً لم أجد ملتحداً كقولك " أن لا قياماً فقعوداً " . استدل جمهور المعتزلة بقوله ﴿ ومن يعص الله ﴾ الآية . على أن الفساق نم أهل القبلة مخلدون في النار ، ولا يمكن حمل الخلود على المكث الطويل

لاقترانه بقوله ﴿ أبداً ﴾ وأجيب بأن الحديث في التبليغ عن الله فلم لا يجوز أن تكون هذه القرينة مخصصة ؟ أي ومن يعص الله في تبليغ رسالته وأداء وحيه ، ومما يقوي هذه القرينة أن سائر عمومات الوعيد لم يقرن بها لفظ ﴿ أبداً ﴾ فلا بد لتخصيص المقام بها من فائدة وما هي إلا أن التقصير في التبليغ أعظم الذنوب .

(248/786)

وقد يجاب أيضاً بأن قوله ﴿ ومن يعص الله ﴾ لا يحتمل أن يجري على عمومه كأن يراد ومن يعص الله بجميع أنواع المعاصي . فمن المحال أن يقول شخص واحد بالتجسيم وبالتعطيل ، وإذا صار هذا العام مخصصاً بدليل العقل فلم لا يجوز أن يتطرق إليه تخصيص آخر كأن يقال : ومن يعص اله بالكفر . وحينئذ لا يبقى للخصم شبهة بل نقول : لا حاجة إلى التزام تخصيص آخر ، فإن الآتي بالكفر آت بجميع المعاصي الممكنة الجمع . قال جار الله : ﴿ حتى إذا ﴾ متعلق بقوله ﴿ يكونون عليه لبداً ﴾ أي يتظاهرون عليه بالعداوة إلى يوم بدر أو إلى يوم القيامة حين يعلم يقيناً أن الكافر أضعف الفريقين . وجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار واستقلالهم لعدده كأنه قال : لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا . ثم أمره بأن يفوّض علم تعيين الساعة إلى الله لأنه عالم

الغيب ﴿ ومن رسول ﴾ بيان ﴿ لمن ارتضى ﴾ وفيه أن الإنسان المرتضى للنبوة قد يطلعه الله تعالى على بعض غيوبه ، وعلم الكهنة والمنجمين ظن وتخمين فلا يدخل فيه ، وعلم الأولياء إلهامي لا يقوى قوة علوم الأنبياء كنور القمر بالنسبة إلى ضياء الشمس . وههنا أسرار لا أحب إظهارها فلنرجع إلى التفسير . قوله ﴿ فإنه يسلكه ﴾ الأكثرون على أن الضمير لله سبحانه . وسلك بمعنى أسلك . ﴿ رصداً ﴾ مفعول أي يدخل الله من أمام المرتضى ووزائه حفظة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك . وفي الكلام إضمار التقدير . إلا من ارتضى من رسول فإنه يطلعه على غيبه بطريق الوحي ثم يسلك . وقيل : الضمير للمرتضى وسلك بمعنى سار وفاعله الملائكة ﴿ ورصداً ﴾ حال . قال في الكواشي : ثم بين غاية الإظهار والسلك فقال ﴿ ليعلم ﴾ أي ليظهر معلوم الله كما هو الواقع من غير زيادة ولا نقص ، ومثل هذا التركيب قد مر مراراً . قال قتادة ومقاتل : أي ليعلم محمد أن قد أبلغ جبرائيل ومن معه من الملائكة الوحي بلا تحريف وتغيير . وقوله ﴿ من بين يديه ﴾ مع قوله

﴿ أن قد أبلغوا ﴾ كقوله ﴿ فإن له نار جهنم خالدين ﴾ من الحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى. ثم ما ذكرنا وهو أن المراد بالعلم هو الظهور بقوله ﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ من الحكم والشرائع أي وقد أحاط قبل به. ثم عمم العلم فقال ﴿ وأحصى كل شيء ﴾ من ورق الأشجار وزبد البحار وقطر الأمطار. و ﴿ عدداً ﴾ مصدر في معنى الإحصاء أو حال أي ضبط كل شيء معدوداً محصوراً أو تمييز والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 368. 375 ﴾

(250/786)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الجن

وتسمى سورة قل أوحي مكية

وهي ثمان وعشرون آية ، ومائتان وخمسوثمانون كلمة ، وثمانمائة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ المحيط بالكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ برحمته الناس بالإرسال

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من بين أهل الدعوة من شاء بمحاسن الأعمال .

ولما كان نوح عليه السلام أوّل رسول أرسله الله تعالى إلى المخالفين من أهل الأرض ، وكان

نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فهو آخر رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وغيرهم ناسب ذكره بعد نوح ، فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

(251/786)

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الرسل للناس ﴿ أوحي إليّ ﴾ وقال ابن عباس : قل يا محمد لأمّتك : أوحي إليّ على لسان جبريل ﴿ أنه استمع نفر من الجنّ ﴾ والنفر الجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة قال البغوي : وكانوا تسعة من جنّ نصيبين ، وقيل : كانوا سبعة وفي هذه العبارة دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا قرأ عليهم ، وإنما اتفق حضورهم عند قراءته ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : "انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب فقالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو وأصحابه بنخلة قاصدين سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا

القرآن استمعوا له قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء" . وهل هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف أو غيره ؟ قال أبو حيان : المشهور أنه هو . وقيل : غيره ، والجنّ الذين أتوه جنّ نصيبين والذين أتوه بنخلة جنّ نينوى ، والسورة التي استمعوها قال عكرمة العلق ، وقيل : الرحمن ، ولم يذكر هنا ولا في الأحقاف أنه رآهم .

(252/786)

وعن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ ، فمن يذهب ؟ فسكتوا ثم قال الثانية ، فسكتوا ثم قال الثالثة ، فقلت : أنا أذهب معك يا رسول الله . قال : فانطلق حتى جاء الحجون عند شعب بن أبي ذئب خط عليّ خطاً فقال : لا تجاوزه ثم مضى إلى الحجون فانحدروا عليه أمثال الحجل كأنهم رجال الزط. قال ابن الأثير في النهاية : الزط قوم من السودان والهنود ، وكأنّ وجوههم المكاكي ، يقرعون في دفوفهم كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوه. فغاب عن بصري فقمت فأومأ إليّ بيده أن اجلس ثم تلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ولصقوا بالأرض حتى صرت لا أراهم" . وفي رواية أخرى "قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أنت ؟ قال : أنا نبي . قالوا : فمن يشهد لك على ذلك ، فقال : هذه الشجرة تعالي يا شجرة ، فجاءت تجرّ عروقها ، لها قعاقع حتى

انتصبت بين يديه ، فقال : على ماذا تشهدين فيّ ؟ قالت : أشهد أنك رسول الله ، قال : اذهبي ، فرجعت كما جاءت حتى صارت كما كانت . قال ابن مسعود : فلما عاد إليّ قال : أردت أن تأتيني قلت : نعم يا رسول الله . قال : ما كان ذلك لك هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يستطيبن ـ أي يستنجي ـ أحدكم بعظم ولا بعر" وفي رواية : "أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ ، فقال : هل من وضوء ؟ قال : لا إلا أنّ معي إداوة نبيذ فقال : هل هو إلا تمر وماء فتوضأ منه" .

قال الرازي : وطريق الجمع بين رواية ابن عباس ورواية ابن مسعود من وجوه:

أحدها : لعل ما ذكره ابن عباس وقع أوّلاً ، فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روي عن ابن مسعود أي فالواقعة متعدّدة .

(253/786)

ثانيها : أنها واقعة واحدة إلا أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ولا عرف ماذا قالوا ولا أيّ شيء فعلوا ، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وكذا وفعلوا كذا وكذا .

ثالثها : أنها كانت واحدة وأنه صلى الله عليه وسلم رآهم وسمع كلامهم وهم آمنوا به ثم

رجعوا إلى قومهم قالوا لهم على سبيل الحكاية ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ وكان كذا وكذا فأوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ما قالوه لقومهم .

قال ابن عربي : ابن مسعود أعرف من ابن عباس لأنه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة . وقال القرطبي : إنّ الجنّ أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دفعتين إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود ، والثانية : بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس . وقال البيهقي : الذي حكاه ابن مسعود إنما هو في أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلمت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ابن عباس ، ثم أتاه داعي الجنّ مرّة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه ابن مسعود .

وقال القشيري : لما رجم إبليس بالشهب فرّق إبليس جنوده لعلم ذلك فأتى سبعة منهم بطن نخلة فاستمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم أتوا قومهم فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ يعني ولم يرجعوا إلى إبليس لما علموه من كذبه وسفاهته ، وجاؤوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في سبعين من قومه فأسلموا فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً ﴾ (الأحقاف :)

الآيات .

﴿ فقالوا ﴾ أي : فتسبب عن استماعهم أن قالوا ﴿ إنا سمعنا ﴾ أي : حين تعمدنا الإصغاء وألقينا إليه أفهامنا ﴿ قرآناً ﴾ أي : كلاماً هو في غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما يحتاج إليه ، وقرأ ابن كثير بالنقل وقفاً ووصلاً وحمزة في الوقف دون الوصل والباقون بغير نقل وقفاً ووصلاً . ثم وصفوا القرآن بالمصدر مبالغة في أمره فقالوا :

﴿ عجباً ﴾ أي : بديعاً خارجاً عن عادة أمثاله من جميع الكتب الإلهية فضلاً عن جميع الناس في جلالة النظم وإعجاز التركيب .

﴿ يهدي ﴾ أي : يبين غاية البيان ﴿ إلى الرشد ﴾ أي : الحق والصواب ﴿ فآمنا ﴾ أي : كل من استمع منا لم يتخلف منا أحد ولا توقف بعد الاستماع ﴿ به ﴾ أي : القرآن أي فاهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله .

﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ أي : لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه ولا نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك ، وهذا يدل على أنّ أولئك الجنّ كانوا مشركين . قال الرازي : واعلم أنّ قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يظهر لأصحابه ما أوحي إليه في واقعة الجنّ وفيه فوائد : أحدها : أن يعرفوا بذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجنّ كما بعث إلى الإنس . ثانيها : أن تعلم قريش أنّ الجنّ مع تمرّدهم لما سمعوا القرآن وعرفوا إعجازه آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثالثها : أن يعلم القوم أنّ الجنّ مكلفون

كالإنس . رابعها : أن يعلم أنّ الجنّ يستمعون كلاماً تفهمه من لغتنا . خامسها : أن يظهر المؤمن منهم بدعوى غيره من الجنّ إلى الإيمان ، وفي هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس .

تنبيهات:

(255/786)

أحدها : اختلف العلماء في أصل الجنّ فروي عن الحس البصري أنّ الجنّ ولد إبليس والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وروى الضحاك عن ابن عباس أنّ الجنّ هم ولد الجان وليسوا شياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . وروي أنّ ذلك النفر كانوا يهوداً . وذكر الحسن أنّ منهم يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين .

ثانيها : اختلفوا في دخول الجنّ الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم ، فمن زعم أنهم من الجانّ لا من ذرية إبليس قال : يدخلون الجنة بإيمانهم ، ومن قال إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيهم قولان : أحدهما وهو قول الحسن : يدخلونها . والثاني وهو رواية مجاهد : لا

يدخلونها .

ثالثها : قال القرطبي : قد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ ، وقالوا : إنهم بسائط ولا يصح طعامهم اجتراء على الله تعالى والقرآن والسنة يردّان عليهم ، وليس في المخلوقات بسيط بل مركب مزدوج ، إنما الواحد الواحد سبحانه وغيره مركب ليس بواحد ، وليس بممتنع أن يراهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورهم كما يرى الملائكة ، وأكثر ما يتصوّرون لنا في صور الحيات .

(256/786)

ثم عطفوا على قولهم إنا سمعنا ﴿ وأنه ﴾ أي : الشأن العظيم قال الجنّ ﴿ تعالى ﴾ أي : انتهى في العلوّ إلى حدّ لا يستطاع ﴿ جدّ ﴾ أي : عظمة وسلطان وكمال غنى ﴿ ربنا ﴾ يقال : جدّ الرجل إذا عظم ومنه قول أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا أي عظم قدره . وقال السدي : جدّ ربنا أي أمر ربنا . وقال الحسن : غني ربنا . ومنه قيل : الحظ جدّ ، ورجل مجدود ، أي : محظوظ . وفي الحديث : "ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ" . قال أبو عبيد والخليل : أي ذا الغنى منك الغنى إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرة ربنا . وقال الضحاك : فعله . وقال القرطبي : آلاؤه ونعماؤه على خلقه . وقال الأخفش :

علا ملكُ ربنا ، والأولى جميع هذه المعاني ، وقرأ ﴿ وأنه تعالى جدّ ربنا ﴾ وما بعده إلى قوله تعالى : ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ وهي اثنا عشر موضعاً ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة في الجميع والباقون بالكسر .

(257/786)

ولما وصفوه بهذا التعالي الأعظم المستلزم للغنى المطلق والتنزه عن كل شائبة نقص بينوه بنفي ما ينافيه من قولهم إبطالاً للباطل ﴿ ما اتخذ صاحبة ﴾ أي : زوجة ؛ لأن الصاحبة لا بدّ وأن تكون من نوع صاحبها ، ومن له نوع فهو مركب تركيباً عقلياً من صفة مشتركة وصفة مميزة ﴿ ولا ولداً ﴾ لأنّ الولد لا بدّ وأن يكون جزءاً منفصلاً عن والده ومن له أجزاء فهو مركب تركيباً حسياً ، ومن المقطوع به أنّ ذلك لا يكون إلا لمحتاج وأن الله تعالى متعال عن ذلك من تركيب حسي أو عقلي . قال القشيري : ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حق الله تعالى إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن ، غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى . أي : لأنه قيل إنهم عنوا بذلك الجدّ الذي هو أبو الأب ويكون ذلك من قول الجنّ . قال ابن جعفر الصادق : ليس لله تعالى جدّ وإنما قاله الجنّ للجهالة فلم يؤاخذوا به . وقال القرطبي : معنى الآية ﴿ وأنه تعالى جدّ ربنا ﴾ أن يتخذ ولداً أو صاحبة للاستئناس بهما أو الحاجة إليهما ،

والرب تعالى عن ذلك كما تعالى عن الأنداد والنظراء .

﴿ وأنه ﴾ أي : وقالوا : إنّ الشأن هذا على قراءة الكسر وآمنا بأنه على قراءة الفتح .

﴿ كان يقول ﴾ أي : قولاً هو في عراقته في الكذب بمنزلة الجبلة ﴿ سفيهنا ﴾ هو للجنس ، فيتناول إبليس رأس الجنس تناولاً أوّلياً وكل من تبعه ممن لم يعرف الله تعالى ، لأنّ ثمرة العقل العلم ، وثمرة العلم معرفة الله تعالى ، فمن لم يعرفه فهو الذي يقول ﴿ على الله ﴾ الذي له صفات الكمال المنافية لقول هذا السفيه ﴿ شططاً ﴾ أي : كذباً وعدواناً ، وهو وصفه بالشريك والولد . t

والشطط والإشطاط الغلوّ في الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . وقال الكلبي : هو الكذب ، وأصله : البعد فعبر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق .

(258/786)

﴿ وأنا ﴾ أي : يا معشر المسلمين من الجنّ ﴿ ظننا ﴾ أي : حسبنا لسلامة فطرتنا ﴿ أن ﴾ أي : أنه وزادوا في التأكيد فقالوا ﴿ لن تقول ﴾ وبدؤوا بأفضل الجنسين فقالوا ﴿ الإنس ﴾ وأتبعوهم قرناءهم ، فقالوا ﴿ والجنّ على الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي

بيده النفع والضرّ ﴿كذباً﴾ أي : قولاً هو لعراقته في مخالفة الواقع نفس الكذب ، وإنما كنا نظنهم صادقين في قولهم إنّ لله صاحبة وولداً حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق قيل انقطع الإخبار عن الجنّ ههنا .

﴿وأنه﴾ أي : الشان ﴿كان رجال﴾ أي : ذوو قوة وبأس ﴿من الإنس﴾ أي : النوع الظاهر في عالم الحس ﴿يعوذون﴾ أي : يلتجئون ويعتصمون خوفاً على أنفسهم وما معهم إذا نزلوا وادياً ﴿برجال من الجنّ﴾ أي : القبيل المستتر عن الأبصار ، وذلك أنّ القوم منهم كانوا إذا نزلوا وادياً أو غيره من القفر تعبث بهم الجنّ في بعض الأحيان ؛ لأنه لا مانع لهم منهم من ذكر الله ولا دين صحيح ولا كتاب من الله تعالى صريح ، فحملهم ذلك على أن يستجيروا بعظمائهم ، فكان الرجل يقول عند نزوله : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، فيبيت في أمن وفي جوار منهم حتى يصبح فلا يرى إلا خيراً ، وربما هدوه إلى الطريق وردوا عليه ضالته ، قال مقاتل : كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن من بني حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله تعالى وتركوهم .

(259/786)

وقال كرم بن أبي السائب الأنصاري : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أوّل ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف النهار جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي وقال : يا عامر الوادي جارك فنادى منادٍ لا نراه يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل الغنم ولم تصبه كدمة ، فكان ذلك فتنة للإنس باعتقادهم في الجن غير ما هم عليه ، فتبعوهم في الضلال وفتنة للجن بأن يغتروا بأنفسهم ويقولوا سدنا الإنس والجن فيَضلوا ويُضلوا ولذلك سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فزادوهم ﴾ أي : الإنس والجن باستعاذتهم ﴿ رهقاً ﴾ أي : ضيقاً وشدّة وغشياناً ، فجاءهم فيه من أحوال الضلال التي يلزم منها الضيق والشدّة وقال مجاهد : الرهق : الإثم وغشيان المحارم ورجل رهق إذا كان كذلك . ومنه قوله تعالى : ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ (يونس :)

وقال الأعشى:

*لا شيء ينفعني من دون رؤيتها ** هل يشتفي عاشق ما لم يصب رهقا*

يعني إثماً ، وقال مجاهد أيضاً : زادوهم أي : أنّ الإنس زادوا الجن طغياناً بهذا التعوّذ حتى قالت الجن : سدنا الإنس والجن ، وقيل : لا ينطلق لفظ الرجال على الجنّ ، فالمعنى وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس من شرّ الجن ، فكان الرجل مثلاً يقول : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادي .

قال القشيري : وفي هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجل على الجن .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ من الإنس ﴾ صفة لرجال وكذا قوله ﴿ من الجنّ ﴾ .

﴿ وأنهم ﴾ ، أي : الإنس ﴿ ظنوا ﴾ والظنّ قد يصيب وقد يخطئ وهو أكثر ﴿ كما ظننتم ﴾ أي : أيها الجنّ ويجوز العكس ﴿ أن ﴾ مخففة أي : أنه ﴿ لن يبعث الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ أحداً ﴾ أي : بعد موته لما لبس به إبليس عليهم حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن ، أو أحداً من الرسل يزيل به عماية الجهل ، وقد ظهر بالقرآن أن هذا الظنّ كاذب ، وأنه لا بدّ من البعث في الأمرين .

(260/786)

قال الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ أي : زمن استراق السمع منها . قال الكلبي : السماء الدنيا أي : التمسنا أخبارها على ما كان من عادتنا من استماع ما تغوي به الإنس ، واللمس المس فاستعير للطلب ؛ لأن الماس طالب متعرّف ، والمعنى طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها ﴿ فوجدناها ﴾ في وجد وجهان:

أظهرهما أنها متعدية لواحد لأنّ معناها أصبنا وصادفنا ، وعلى هذا فالجملة من قولهم ﴿ ملئت ﴾ في موضع نصب على الحال على إضمار قد .

والثاني : أنها متعدّية لاثنين فتكون الجملة في موضع المفعول الثاني ويكون ﴿ حرساً ﴾ منصوباً على التمييز ، نحو : امتلأ الإناء ماء ، والحرس اسم جمع لحارس نحو : خدم لخادم ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجمع تكسيراً على أحراس ، والحارس الحافظ الرقيب ، والمصدر الحراسة و ﴿ شديداً ﴾ صفة لحرس على اللفظ ، ولو جاء على المعنى لقيل شداداً بالجمع لأن المعنى ملئت ملائكة شداداً كقولك : السلف الصالح ، يعني الصالحين . قال القرطبيّ : ويجوز أن يكون حرساً مصدراً على معنى حرست حراسة شديدة ﴿ وشهباً ﴾ جمع شهاب ككتاب وكتب وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم المانع لهم عن استراق السمع .

﴿ وأنا كنا ﴾ أي : فيما مضى ﴿ نقعد منها ﴾ أي : السماء ﴿ مقاعد ﴾ أي : كثيرة قد علمناها لا حرس فيها صالحة ﴿ للسمع ﴾ أي : أن نسمع منها بعض ما تتكلم به الملائكة مما أمروا بتدبيره ، وقد جاء في الخبر أنّ صفة قعودهم هو أن يكون الواحد منهم فوق الآخر حتى يصلوا إلى السماء ، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان فيزيدُنَّ معها الكذب . ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ أي : في هذا الوقت وفيما يستقبل لا أنهم أرادوا وقت قولهم فقط ﴿ يجد له ﴾ أي : لأجله ﴿ شهاباً ﴾ أي : شعلة من نار ساطعة تحرقه ﴿ رصداً ﴾ أي : أرصد به ليرمى به .

تنبيه : اختلفوا هل كانت الشياطين تقذف قبل البعث أو ذلك أمر حدث بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال قوم : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشهب ، وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذي نبئ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين ورموا بالشهب ، قال الزمخشري : والصحيح أنه كان قبل البعث وقد جاء شعره في أهل الجاهلية ، قال بشر بن أبي حازم:

*والعير يرهقها الغبار وجحشها ** ينقض خلفها انقضاض الكوكب*

ولكنّ الشياطين كانت تسترق السمع في بعض الأحوال ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر الرجم وازداد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجنّ ومنع الاسترق أصلاً .

وعن معمر قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد ﴾ ؟ قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم وروى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال : "بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال : "ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية" ؟ فقالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال

صلى الله عليه وسلم "إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً في السماء سبح حملة العرش ثم سبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، فتسأل أهل السماء حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم وتخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى أهل هذه السماء" . وهذا يدل على أنّ هذه الشهب كانت موجودة قال ابن عادل : وهذا قول الأكثرين .

فإن قيل : كيف تتعرّض الجنّ لاحتراق أنفسها بسبب سماع خبر بعد أن صار ذلك معلوماً لهم ؟

(262/786)

أجيب : بأنَّ الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة . قال القرطبي : والرصد قيل من الملائكة أي ورصداً من الملائكة ، والرصد الحافظ للشيء والجمع أرصاد ، وقيل : الرصد هو الشهاب ، أي : شهاب قد أرصد له ليرجم به فهو فعل بمعنى مفعول .

واختلف فيمن قال ﴿ وأنا لا ندري ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ أشر أريد ﴾ أي : بعدم استراق السمع ﴿ بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم المدبر لهم ﴿ رشداً ﴾ أي : خيراً فقال ابن زيد : معنى الآية أن إبليس قال : لا ندري هل أراد الله

بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عقاباً أو يرسل إليهم رسولاً . وقيل : هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يستمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم أي : لا ندري أشر أريد بمن في الأرض بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، فإنهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذَّب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان ، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي . وقيل : قالوا لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين أي : لما آمنوا أشفقوا أن لا يؤمن كثير من أهل الأرض ، فقالوا : إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم يؤمنون .

قال الجنّ ﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أي : العريقون في صفة الصلاح ، قال الجلال المحلي بعد استماع القرآن ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أي : قوم غير صالحين ﴿ كنا ﴾ أي : كوناً هو كالجبلة ﴿ طرائق قدداً ﴾ أي : جماعات متفرّقين وأصنافاً مختلفة ، قال سعيد بن المسيب : معنى الآية كنا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً ، وقال الحسن والسدّي : الجنّ أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة وخوارج وشيعة وسنية . وقال ابن كيسان : شيعاً وفرقاً لكل فرقة هوى كأهواء الناس . وقال سعيد بن جبير : ألواناً شتى . وقال أبو عبيدة : أصنافاً وقيل : منا الصالحون ومنا المؤمنون ، لم يتناهوا في الصلاح .

قال القرطبي : والأوّل أحسن لأنه كان في الجنّ من آمن بموسى وعيسى ، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ﴾ وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة .

تنبيه : القدد جمع قدة والمراد بها الطريقة وأصلها السيرة ، يقال : قدة فلان حسنة ، أي : سيرته وهو من قدّ السير ، أي : قطعه ، فاستعير للسيرة المعتدلة . قال الشاعر :

*القابض الباسط الهادي بطلعته ** في فتنة الناس إذ أهواؤهم قدد *

وقال لبيد يرثي أخاه:

*لم تبلغ العين كل نهمتها ** يوم تمشي الجياد بالقدد *

والقد بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ ، ويقال : ما له قد ولا قحف ، فالقد إناء من جلد والقحف إناء من خشب .

﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله ﴾ أي : وإنا علمنا وتيقنا بالتفكر والاستدلال في آيات الله أنا في قبضة الملك وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره لما له من الإحاطة بكل شيء علماً وقدرة لأنه واحد لا مثل له .

تنبيه : أطلقوا الظنّ على العلم إشارة إلى أنّ العاقل ينبغي له أن يتجنب ما يتخيله ضاراً ولو بأدنى أنواع التخيل ، فكيف إذا تيقن . وقولهم ﴿ في الأرض ﴾ حال ، وكذلك هرباً في

قولهم ﴿ ولن نعجزه ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ هرباً ﴾ فإنه مصدر في موضع الحال تقديره لا نفوته كائنين في الأرض أو هاربين منها إلى السماء ، فليس لنا مهرب إلا في قبضته فأين أم إلى أين المهرب .

(264/786)

﴿ وأنا لما سمعنا ﴾ أي : من النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ الهدى ﴾ أي : القرآن الذي له من العراقة التامة في صفة البيان والدعاء إلى الخير ما سوّغ أن يطلق عليه نفس الهدى ﴿ آمنا به ﴾ وبالله وصدقنا محمداً صلى الله عليه وسلم على رسالته وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الإنس والجنّ . قال الحسن : بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن ولم يبعث الله تعالى قط رسولاً من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (يوسف :)

وفي الصحيح : "وبُعثت إلى الأحمر والأسود" أي الإنس والجنّ ، وفي إرساله إلى الملائكة خلاف قدّمنا الكلام عليه .

﴿ فمن يؤمن بربه ﴾ أي : المحسن إليه منا ومن غيرنا ﴿ فلا ﴾ أي : فهو خاصة لا

﴿ يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ قال ابن عباس : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد في سيئاته لأن البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم .

﴿ وأنا منا ﴾ أي : الجن ﴿ المسلمون ﴾ أي : المخلصون في صفة الإسلام ﴿ ومنا القاسطون ﴾ أي : الجائرون أي : وإنا بعد سماع القرآن مختلفون فمنا من أسلم ومنا من كفر ، والقاسط الجائر لأنه عدل عن الحق ، والمقسط العادل إلى الحق ، قسط إذا جار ، وأقسط إذا عدل فقسط الثلاثي بمعنى جار ، وأقسط الرباعي بمعنى عدل .

وعن سعيد بن جبير : أنّ الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فيّ ؟ قال : قاسط عادل . فقال القوم : ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل . فقال الحجاج : يا جهلة إنما سماني ظالماً مشركاً وتلا لهم قوله تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ .

﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ (الأنعام :)

(265/786)

﴿ فمن أسلم ﴾ أي : أوقع الإسلام كله بأن أسلم ظاهره وباطنه من الجن وغيرهم ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ تحرّوا ﴾ أي : توخوا وقصدوا مجتهدين ﴿ رشداً ﴾ أي : صواباً عظيماً وسداداً كان لما عندهم من النقائص شارداً عنهم ، فعالجوا أنفسهم

حتى ملكوه فجعلوه لهم منزلاً .

﴿ وأما القاسطون ﴾ أي : العريقون في صفة الجور عن الصواب من الإنس والجن ، فأولئك أهملوا أنفسهم فلم يتحرّوا لها فضلوا فأبعدوا عن الطريق القويم فوقعوا في المهالك التي لا منجى منها . ﴿ فكانوا لجهنم ﴾ أي : النار البعيدة القعر التي تلقاهم بالتجهم والكراهة والعبوسة ﴿ حطباً ﴾ أي : توقد بهم النار فهي في اتقاد ما داموا أحياء ، مادامت تتقدّ لا يموتون فيستريحون ولا يحيون فينتعشون .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ فكانوا ﴾ ، أي : في علم الله عز وجلّ . فإن قيل : لم ذكروا عقاب القاسطين ولم يذكروا ثواب المسلمين ؟

أجيب : بأنهم في مقام الترهيب فذكروا ما يحذر وطووا ما يحب للعلم به لأنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً بل لا بد أن يزيد عليه تسعة أضعافه وعنده المزيد أو أنهم ذكروه بقولهم ﴿ تحرّوا رشداً ﴾ أي : تحرّوا رشداً عظيماً لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب .

فإن قيل : إنّ الجنّ مخلوقون من النار فكيف يكونون حطباً للنار ؟

أجيب : بأنهم وإن خلقوا منها لكنهم يغيرون عن تلك الكيفية فيصيرون لحماً ودماً هكذا قيل وهذا آخر كلام الجن .

وأن في قوله تعالى : ﴿ وأن ﴾ هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي : وأنهم وهو معطوف على أنه استمع أي وأوحي إلي أنّ الشأن العظيم . ﴿ لو استقاموا على الطريقة ﴾ أي : طريقة الإسلام ﴿ لأسقيناهم ﴾ أي : لجعلنا لهم بما لنا من العظمة ﴿ ماء غدقاً ﴾ أي : لو آمن هؤلاء الكفار لَوَسّعنا عليهم في الدنيا ولبسطنا لهم في الرزق . وضرب الماء الغدق مثلاً ، لأنّ الخير والرزق كله في المطر ، كما قال تعالى ﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم ﴾ (الأعراف :)

الآية . وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (المائدة :)

الآية . وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (الطلاق :)

الآية . وقال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ إلى قوله : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ﴾ (نوح : .)

الآية .

﴿ لنفتنهم ﴾ أي : نعاملهم معاملة المختبر بما لنا من العظمة ﴿ فيه ﴾ أي : في ذلك الماء الذي تكون عنده أنواع النعم لينكشف حال الشاكر والكافر .

قال الرازي : وهذا بعدما حبس عنهم المطر سنين ا . ه . قال الجلال المحلي : سبع سنين .

وقال عمر رضي الله تعالى عنه : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة .

وقال الحسن وغيره : كانوا سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه يعني عثمان رضي الله تعالى عنه . قال البقاعي : ويجوز أن يكون مستعاراً للعلم وأنواع المعارف الناشئة عن العبادات التي هي للنفوس كالنفوس للأبدان ، وتكون الفتنة بمعنى التخليص من الهموم والرذائل في الدنيا والنعم في الآخرة من فتنت الذهب ، إذا : خلصته من غشه .

(267/786)

﴿ ومن يعرض ﴾ أي : إعراضاً مستمراً إلى الموت ﴿ عن ذكر ربه ﴾ أي : مجاوزاً عن عبادة المحسن إليه المربي له الذي لا إحسان عنده من غيره . وقيل : المراد بالذكر القرآن ، وقيل : الوحي . وقيل : الموعظة . ﴿ نسلكه ﴾ أي : ندخله ﴿ عذاباً ﴾ يكون مظروفاً فيه كالخيط في ثقب الخرزة في غاية الضيق ﴿ صعداً ﴾ أي : شاقاً شديداً يعلوه ويغلبه ويصعد عليه ، ويكون كل يوم أعلى مما قبله جزاء وفاقاً . وقال ابن عباس : هو جبل في جهنم . قال الخدري : كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت . وعن ابن عباس : أنّ المعنى مشقة من العذاب ، لأنّ الصعد في اللغة هو المشقة ، تقول : تصعدني الأمر إذا شق عليك ، ومنه

قول عمر : ما تصعدني شيء ما تصعدني في خطبة النكاح ، يريد ما شق علي وما غلبني والمشي في الصعود يشق .

وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم . وقال الكلبي : يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرة ملساء يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ولا يبلغ في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها ، ثم يكلف أيضاً الصعود فذاك دأبه أبداً وهو قوله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ (المدثر :)

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة لإعادة الضمير على الله تعالى والباقون بالنون على الالتفات وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ (الإسراء :)

ثم قال : ﴿ باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ (الإسراء :)

واتفقوا على فتح الهمزة في قوله تعالى:

﴿ وأن ﴾ أي : وأوحي إليَّ أنّ ﴿ المساجد لله ﴾ أي : مختصة بالملك الأعظم والمساجد قيل جمع مسجد بالكسر وهو موضع السجود ، وقال الحسن : أراد بها كل البقاع لأنّ الأرض جعلت كلها مسجداً للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "أينما كنتم فصلوا وأينما صليتم فهو مسجد" . وقيل : إنه جمع مسجد بالفتح مراداً به الأعضاء الواردة في الحديث : الجبهة والأنف والركبتان واليدان والقدمان وهو قول سعيد بن المسيب ، وابن حبيب . والمعنى : أنّ هذه الأعضاء أنعم الله تعالى بها عليك فلا تسجد لغيره فتجحد نعمة الله . قال عطاء : مساجدك أعضاؤك التي أمرت بالسجود عليها لا تذللها لغير خالقها ، قال صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم" وذكر الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم "إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب" . قال ابن الأثير : الآراب الأعضاء . وهذا القول اختاره ابن الأنباري . وقيل : بل جمع مسجد وهو مصدر بمعنى السجود ويكون الجمع لاختلاف الأنواع . وقال القرطبي : المراد بها البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة قال سعيد بن جبير : قالت الجنّ : كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأنّ المساجد لله ﴾ أي : بنيت لذكر الله تعالى وطاعته . وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسميت مكة مساجد لأنّ كل أحد يسجد إليها .

قال القرطبي : والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الأقوال إن شاء الله تعالى وهو مروي

عن ابن عباس ، وإضافة المساجد إلى الله تعالى إضافة تشريف وتكريم وخص منها المسجد العتيق بالذكر فقال تعالى ﴿ وطهر بيتي ﴾ (الحج :)

(269/786)

وهي وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً قد تنسب إلى غيره تعريفاً قال صلى الله عليه وسلم "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام" وفي رواية : "إن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا" . قال القرطبي : وهذا حديث صحيح . وفي حديث سَابَق صلى الله عليه وسلم بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق ، ويقال مسجد فلان لأنه حبسه ولا خلاف بين الأمّة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا في تحبيس غير ذلك .

﴿ فلا تدعوا ﴾ أي : فلا تعبدوا أيها المخلوقون ﴿ مع الله ﴾ الذي له جميع العظمة ﴿ أحداً ﴾ وهذا توبيخ للمشركين في دعواهم مع الله تعالى غيره في المسجد الحرام ، وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله تعالى نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها يقول : فلا تشركوا فيها صنماً أو غيره مما يعبد ، وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله تعالى ولا تجعلوا لغير الله تعالى

فيها نصيباً وفي الصحيح : "من نشد ضالة في المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ، فإنّ المساجد لم تبن لهذا" وقال الحسن : من السنة إذا دخل رجل المسجد أن يقول لا إله إلا الله ؛ لأنّ قوله تعالى : ﴿ فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ في ضمنه أمر بذكر الله تعالى ودعائه ، وروى الضحاك عن ابن عباس "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى ، وقال : ﴿ وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ اللهمّ عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار ، فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى ، وقال : اللهمّ صب عليّ الخير صباً ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كدّاً واجعل لي في الأرض جدّاً" أي : غنى .

(270/786)

وقرأ ﴿ وأنه ﴾ نافع وشعبة بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح أي وأوحي إليّ أنه ﴿ لما قام عبد الله ﴾ أي : عبد الملك الأعلى الذي له الجلال كله والجمال ، فلا موجود يدانيه بل كل موجود من فائض فضله وعبد الله هو محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن .

فإن قيل : هلا قيل رسول الله أو النبي ؟

أجيب : بأنّ تقديره وأوحي ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل أو لأنّ المعنى أنّ عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى تكونوا عليه لبداً ، ومعنى ﴿ يدعوه ﴾ أي : يعبده وقال ابن جريج : يدعوه أي قام إليهم داعياً إلى الله تعالى ، فهو في موضع الحال أي موحداً له ﴿ كادوا ﴾ أي : قرب الجنّ المستمعون لقراءته ﴿ يكونون عليه ﴾ أي : على عبد الله ﴿ لبداً ﴾ أي : متراكمين بعضهم على بعض من شدّة ازدحامهم حرصاً على سماع القرآن وقيل : كادوا يركبونه حرصاً قاله الضحاك . وقال ابن عباس : رغبة في سماع القرآن وروي عن مكحول أنّ الجنّ بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً ، وفرغوا من بيعته عند انشقاق الفجر ، وعن ابن عباس أيضاً أنّ هذا من قول الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به في الركوع والسجود .

وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعني لما قام عبد الله محمد بالدعوة تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليبطلوه فأبى الله تعالى إلا أن ينصره ويتم نوره ، واختار الطبري أن يكون كادت العرب يجتمعون على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به ، وقرأ هشام بضم اللام والباقون بكسرها ، فالأولى جمع لبدة بضم اللام نحو غرفة

وغرف . وقيل : بل هو اسم مفرد صفة من الصفات ، وعليه قوله تعالى : ﴿ مالاً لبداً ﴾ (البلد :)

(271/786)

وأمّا الثانية فجمع لبدة بالكسر نحو قربة وقرب واللبدة واللبدة الشيء الملبد أي المتراكب بعضه على بعض ومنه لبدة الأسد كقول زهير:

*لدى أسد شاكي السلاح مقذف ** له لبد أظفاره لم تقلم*

ومنه اللبد لتلبد بعضه فوق بعض .

ولما قال كفار قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك ﴿ قال ﴾ صلى الله عليه وسلم مجيباً لهم ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أي : الذي أوجدني ورباني ولا نعمة عندي إلا منه وحده لا أدعو غيره حتى تعجبوا مني ﴿ ولا أشرك به ﴾ أي : الآن ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه ﴿ أحداً ﴾ من ودّ وسواع ويغوث ويعوق وغيرها من الصامت والناطق ، وقرأ عاصم وحمزة قل بصيغة الأمر التفاتاً ، أي : قل يا محمد والباقون قال بصيغة الماضي والخبر إخباراً عن عبد الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم قال الجحدري : وهو في المصحف كذلك

وقد تقدّم لذلك نظائر في ﴿ قل سبحان ربي ﴾ (الإسراء :)

في آخر الإسراء وكذا في أوّل الأنبياء وآخرها وآخر المؤمنين .

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الخلق لهؤلاء الذين خالفوك ﴿ إني لا أملك لكم ﴾ أي : الآن ولا بعده بنفسي من غير إقدار الله تعالى لي ﴿ ضراً ولا رشداً ﴾ أي : لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق إليكم خيراً ، وقيل : لا أملك لكم ضراً أي كفراً ولا رشداً أي هدى ؛ لأنه لا يؤثر شيء من الأشياء إلا الله تعالى ، وإنما عليّ البلاغ . وقيل : الضر الموت والرشد الحياة .

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء ﴿ إني ﴾ وزاد في التأكيد لأنّ ذلك في غاية الاستقرار في النفوس فقال : ﴿ لن يجيرني ﴾ أي : فيدفع عني ما يدفع المجير عن جاره ﴿ من الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ﴿ أحد ﴾ أي : كائن من كان إن أرادني سبحانه بسوء ﴿ ولن أجد ﴾ أي : أصلاً ﴿ من دونه ﴾ أي : الله تعالى ﴿ ملتحداً ﴾ أي : معدلاً وموضع ميل وركون ومدخلاً وملتجأ وحيلة وإن اجتهدت كل الجهد ، والملتحد الملجأ وأصله المدخل من اللحد وقيل : محيصاً ومعدلاً .

وقوله : ﴿ إلا بلاغاً ﴾ فيه أوجه أحدها :

أنه استثناء منقطع أي لكن إن بلغت عن الله رحمني لأنّ البلاغ عن الله لا يكون داخلاً تحت قوله ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ لأنه لا يكون من دون الله بل يكون من الله تعالى وبإعانته وتوفيقه .

الثاني : أنه متصل وتأويله أنّ الاستجارة مستعارة من البلاغ إذ هو سببها وسبب رحمته تعالى والمعنى : لن أجد شيئاً أميل إليه واعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيرني ، وإذا كان متصلاً جاز نصبه من وجهين:

أرجحهما أن يكون بدلاً من ﴿ ملتحداً ﴾ ؛ لأنّ الكلام غير موجب وهو اختيار الزجاج .

الثاني : أنه منصوب على الاستثناء .

لثالث : أنه مستثنى من قوله لا أملك ، فإنّ التبليغ إرشاد وانتفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة .

وقوله : ﴿ من الله ﴾ أي : الذي أحاط بكلّ شيء قدرة وعلماً فيه وجهان أحدهما : أنّ من بمعنى عن لأن بلغ يتعدّى بها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "ألا بلغوا عني" . والثاني : أنه متعلق بمحذوف على أنه صفة لبلاغاً . قال الزمخشري : من ليست بصلة للتبليغ ، وإنما هي بمنزلة من في قوله تعالى : ﴿ براءة من الله ﴾ (التوبة :)

بمعنى بلاغاً كائناً من الله . وقوله ﴿ ورسالاته ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه منصوب نسقاً

على بلاغاً كأنه قيل لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات ولم يقل الزمخشري غيره . والثاني أنه مجرور نسقاً على الجلالة ، أي : إلا بلاغاً عن الله تعالى وعن رسالاته ، كذا قدره أبو حيان وجعله هو الظاهر . ويجوز فيه جعل من بمعنى عن ، والتجوّز في الحروف مذهب كوفي ومع ذلك فغير منقاس عندهم .

(273/786)

﴿ ومن يعص الله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها ﴿ ورسوله ﴾ الذي ختم به النبوّة والرسالة ، فجعل رسالته محيطة بجميع الملل في التوحيد وغيره على سبيل الحجر ﴿ فإن له ﴾ أي : خاصة ﴿ نار جهنم ﴾ أي : التي تلقاه بالعبوسة والغيظ ، وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ حال مقدّرة من الهاء في له . والمعنى : مقدّر خلودهم والعامل الاستقرار الذي تعلق به هذا الجار وحمل على معنى من فعل ذلك ، فوحد أوّلاً للفظ وجمع للمعنى . وأكد بقوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ ردّاً على من يدعي الانقطاع . قال البقاعي : وأمّا من يدعي أنها لا تحرق وأنّ عذابها عذوبة فليس أحد أجنّ منه إلا من تابعه على ضلاله وغيه ومحاله ، وليس لهم دواء إلا السيف في الدنيا والعذاب في الآخرة بما سموه عذوبة وهم صائرون إليه وموقوفون عليه .

وحتى في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا ﴾ ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها أي لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا ﴿ ما يوعدون ﴾ من العذاب في الآخرة أو في الدنيا كوقعة بدر ﴿ فسيعلمون ﴾ أي : في ذلك اليوم بوعد لا خلف فيه ﴿ من أضعف ناصراً ﴾ أي : من جهة الناصر أنا وإن كنت في هذا الوقت وحيداً مستضعفاً أو هم ﴿ وأقل عدداً ﴾ وإن كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدداً إلا الله تعالى ، فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوّتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك ، وله جنود السموات والأرض بخلاف الجبابرة ، فإنهم لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم وازدراء غيرهم .

قال مقاتل : لما سمعوا قوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ قال النضر بن الحارث : متى يكون هذا الذي توّعدنا به ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

(274/786)

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء في جوابهم بإتيانهم العذاب وسألوا استهزاء عن وقت وقوعه ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أدري ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ أقريب ما توعدون ﴾ أي : فيكون الآن أو قريباً من هذا الأوان بحيث يتوقع عن قرب ، وقوله ﴿ أم يجعل ﴾ أي : أم بعيد يجعل

﴿ له ﴾ أي : لهذا الوعد ﴿ ربي ﴾ أي : المحسن إليّ إن قدمه أو أخره ﴿ أمداً ﴾ أي : أجلاً مضروباً فلا يتوقع دون ذلك الأمد فهو في كل حال متوقع ، فكونوا على غاية الحذر لأنه لا بدّ من وقوعه لا كلام فيه ، وإنما الكلام في تعيين وقته وليس إليّ .

فإن قيل : أليس إنه صلى الله عليه وسلم قال : "بعثت أنا والساعة كهاتين" فكان عالماً بقرب وقوع القيامة فكيف قال ههنا لا أدري أقريب أم بعيد ؟

أجيب : بأنّ المراد بقرب وقوعه هو أنّ ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ، فأمّا معرفة مقدار القرب المرتب وعدم ذلك فغير معلوم .

تنبيه : أقريب خبر مقدّم وما توعدون مبتدأ مؤخر ، ويجوز أن يكون قريب مبتدأ لاعتماده على الاستفهام ، وما توعدون فاعل به ، أي : أقريب الذي توعدون نحو : أقائم أبواك ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها . وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب ﴾ بدل من ربي أو بيان أو خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو عالم الغيب كله وهو ما لم يبرز إلى عالم الشهادة فهو مختص بعلمه سبحانه فلذلك سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فلا يظهر ﴾ أي : بوجه من الوجوه في وقت من الأوقات . ﴿ على غيبه ﴾ الذي غيبه عن غيره فهو مختص به ﴿ أحداً ﴾ لعزة علم الغيب ولأنه خاصة الملك . ﴿ إلا من ارتضى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من رسول ﴾ تبيين لمن ارتضى ، أي : إلا من يصطفيه لرسالته ونبوّته فيظهره على ما يشاء من الغيب ، وتارة يكون ذلك الرسول ملكاً ، وتارة يكون بشراً ، وتارة يظهره

على ذلك بواسطة ملك ، وتارة بغير واسطة كموسى عليه السلام في أوقات المناجاة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج في العالم الأعلى في حضرة قاب قوسين أو أدنى .

(275/786)

وقال القرطبي : المعنى ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه لأنّ الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات كما ورد في التنزيل في قوله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ (آل عمران :)

وقال الزمخشري : في هذه الآية إبطال الكرامات لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله تعالى الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وفيها إبطال الكهانة والتنجيم لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط ا . ه . وإنكار الكرامات مذهب المعتزلة .

وأمّا مذهب أهل السنة فيثبتونها ، فإنه يجوز أن يلهم الله تعالى بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل فيخبر به وهو من إطلاع الله إياه على ذلك ، ويدل على صحة ذلك ما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد كان فيمن قبلكم من الأمم

ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء وإن يكن في أمّتي أحد فإنه عمر" أخرجه البخاري .

قال ابن وهب : تفسير محدثون ملهمون ولمسلم عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمّتي منهم أحد ، فإنّ عمر بن الخطاب منهم" ففي هذا إثبات كرامات الأولياء .

فإن قيل : لو جازت الكرامة للولي لما تميزت معجزة النبي من غيرها وانسدّ الطريق إلى معرفة الرسول من غيره ؟

(276/786)

أجيب : بأنّ معجزة النبي أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقترن بالتحدّي ، ولا يجوز للولي أن يدّعي خرقاً للعادة مع التحدّي إذ لو ادعاه الولي لكفر من ساعته فبان الفرق بين المعجزة والكرامة . وأمّا الكهانة وما ضاهاها فقال القرطبي : إنّ العلماء قالوا لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، فأعلمهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم ، وليس المنجم ومن ضاهاه ومن يضرب بالحصا وينظر في الكواكب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل

هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه .

قال بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان مختلفي الأحوال والرتب ، فيهم الملك والسوقة والعالم والجاهل والغني والفقير والكبير والصغير مع اختلاف طوالعهم وتباين مواليدهم ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة ، فإن قال قائل : إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه فيكون على مقتضى ذلك أنّ هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقتضيه طالعه المخصوص به ، فلا فائدة إذاً في عمل المواليد ولا دلالة فيها على شقي وسعيد ولم يبق إلا معاندة القرآن الكريم ، ولقد أحسن القائل:

*حكم المنجم إن طالع مولدي ** يقضي علي بميتة الغرق*

*قل للمنجم صبحة الطوفان هل ** ولد الجميع بكوكب الغرق*

(277/786)

وقيل لعلي رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : تلقهم والقمر في العقرب ، فقال : فأين قمرهم وكان ذلك في آخر السنة . فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها وما فيها من المبالغة في الردّ على من يقول بالنجم . وقال له مسافر بن عون : يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه

الساعة وسر بعد ثلاث ساعات تمضين من النهار . فقال له عليّ : ولم ؟ قال له : إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظهرت وظفرت وأصبت ما طلبت ، فقال عليّ : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ، ثم قال : فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون اتخذ من دون الله نداً أو ضداً ، اللهمّ لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر إنما المنجم كالكافر ، والكافر في النار ، والمنجم كالساحر والساحر في النار ، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم أو تعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان . ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها فلقي القوم فقتلهم وهي وقعة النهروان الثابتة في صحيح مسلم ثم قال : "لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال : إنما كان ذلك بتنجيمي ، وما لمحمد منجم وما لنا بعده ، وقد فتح الله تعالى علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ، ثم قال : يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي عمن سواه" .

﴿ فإنه ﴾ أي : الله سبحانه يظهر ذلك الرسول على ما يريد من ذلك الغيب ، وذلك أنه إذا أراد إظهاره عليه ﴿ يسلك ﴾ أي : يدخل إدخال السلك في الجوهرة في تقوّمه ونفوذه من غير أدنى تعويج إلى غير المراد ﴿ من بين يديه ﴾ أي : الجهة التي يعلمها ذلك الرسول ﴿ ومن خلفه ﴾ أي : الجهة التي تغيب عن علمه ، فصار ذلك كناية عن كل جهة . قال البقاعي : ويمكن أن يكون ذكر الجهتين دلالة على الكل ، وخصهما لأنّ العدو متى أعريت واحدة منهما أتى منها ، ومتى حفظتا لم يأت من غيرهما لأنه يصير بين الأوّلين والآخرين

﴿ رصداً ﴾ أي : حرساً من جنوده يحرسونه ويحفظونه من الشياطين أن يسترقوا السمع من الملائكة ويحفظونه من الجنّ أن يسمعوا الوحي فيلقوه إلى الكهنة قبل الرسول ، فيطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم حتى يبلغ ما يوحى إليه .

وقال مقاتل وغيره : كان الله إذا بعث رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك بخبر ، فبعث الله تعالى من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين ، فإذا جاءه شيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره ، وإذا جاءه ملك قالوا له : هذا رسول ربك . وعن الضحاك : ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك .

﴿ ليعلم ﴾ أي : الله علم ظهور كقوله تعالى : ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ (محمد :)

﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي أنه ﴿ قد أبلغوا ﴾ أي : الرسل ﴿ رسالات ربهم ﴾ وحد أوّلاً على اللفظ في قوله تعالى ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ ثم جمع على المعنى كقوله تعالى : ﴿ فأنّ له نار جهنم خالدين فيها ﴾ (التوبة :) ، والمعنى ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان . وقيل : ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل قد بلغ رسالات ربه . وقيل : ليعلم محمد صلى الله عليه وسلم أنّ الرسل قد بلغوا رسالات ربهم .

(279/786)

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي : بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً ، فهو مهيمن عليها حافظ لها ﴿ وأحصى ﴾ أي : الله سبحانه وتعالى ﴿ كل شيء ﴾ أي : من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحر وغير ذلك ﴿ عدداً ﴾ ولو على أقل المقادير الذرّ فيما لم يزل وفيما لا يزال فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ وقال ابن جبير رضي الله عنه : ليعلم الرسل أنّ ربهم قد أحاط بما لديهم فيبلغوا رسالاته .

تنبيه : هذه الآية تدل على أنه تعالى عالم بالجزئيات وبجميع الموجودات .

و﴿ عدداً ﴾ يجوز أن يكون تمييزاً منقولاً من المفعول به ، والأصل أحصى عدد كل شيء كقوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ (القمر :)

أي : عيون الأرض ، وأن يكون منصوباً على الحال ، أي : وضبط كل شيء معدوداً محصوراً وأن يكون مصدراً في معنى الإحصاء .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الجنّ كان له بعدد كل جني صدّق محمداً وكذب به عتق رقبة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 118.139 ﴾

(280/786)

وقال القاسمى :

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾

أي : لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط ، كما في " المُجمَل " .

قال القاشاني : قد مرّ أن في الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيئات النفوس الْإِنْسَانِيَة واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة الغالب عليها الأرضية ، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلويّ ، وتتجرد متعلقة بأجرام عنصرية لطيفة ، غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها ، سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقي إلى أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أي : النفوس المجردة ، ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم ، ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوي فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وفي الآية – كما قال القاضي – دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم ما رآهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .

﴿ فَقَالُواْ ﴾ أي : لما رجعوا إلى قومهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً ﴾ قال المهايميّ : أي : كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه في أمر الدارين .

﴿ عَجَباً ﴾ أي : غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم . ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أي : إلى الحق وسبيل الصواب ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ أي : من خلقه ، في العبادة معه .

تنبيهات :

الأول : هذا المقام شبيه بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : 29] الآية . وقد روى البخاري عن ابن عباس قال : < انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ > ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين

خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ! إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن . ورواه مسلم أيضاً وزاد في أوله : ما قرأ رسول الله على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . . . إلى آخره .

(282/786)

الثاني : قال الماوردي : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول ، أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبيّ المبشر به ، وكلا الأمرين في الجن محتمل . انتهى .

الثالث : قال الرازي : في الآية فوائد :

إحداها : أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها : أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها : أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها : أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .

وخامسها : أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .

ولما سمعوا القرآن ، ووفَّقوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذه صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، ونزَّهوه عنه ، فقالوا :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً ﴾ [3]

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً ﴾ أي : تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(283/786)

قال ابن جرير : الجَدّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جَد في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذي يقال له بالفارسية : البخت . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة

العظيمة عالية ، فلا تكون له صاحبة ولا ولد ، لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربّنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شيء يكون منه ولد .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ يعنون به مضلهم ومغويهم ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾ أي : قولاً ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة الحد ، والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ أي : في نسبة ما ليس بحق ، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه في ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ روى ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادي ، فزادهم ذلك إثماً . ففي الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون في الجاهلية من أن الوديان مَقرُّ الجن وأن رؤساءها تحميهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا

الوادي قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً .

(284/786)

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن ربّ هذا الوادي ، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ برب الوادي من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفَرَق .

وقال ابن زيد : كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بوادٍ قبل الإسلام قال : إني أعوذ بكبير هذا الوادي . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أي : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره ، وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة ، فإنها للإرشاد لذلك .

روى مسلم عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : في الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفي الآية تأويل غريب ، نقله الرازيّ وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من

الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادي . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف ؛ فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . انتهى . والضمير المرفوع في ﴿ فَزَادُوهُمْ ﴾ للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غيّاً وإثماً وضلالاً . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوّاً .

والرهق في الأصل غشيان الشيء ، فخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ أي : وأوحى إليّ أن الجن ﴿ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ أي : في جاهليتكم .

﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً ﴾ أي : رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده وما فيه سعادتهم . أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل : الضمير في ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ للإنس ، ذهاباً إلى أن قوله :

(285/786)

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ﴾ ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا ﴾ من كلام الجن ، والخطاب لهم .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء ﴾ أي : تطلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ أي : حَفَظَة ورواجم .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ أي : كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ، وما يكون فيها ، فمن يستمع الآن يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشريّ : وفي قوله :

﴿ مُلِئَتْ ﴾ دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله :

﴿ نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ ﴾ أي : كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا قراءته .

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ يعنون أن ما حدث من منعهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كانوا يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة ، أي : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك بعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ أي : المسلمون العاملون بطاعة الله ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه ، أو الكافرون ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ أي : أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى . وهذا بيان للقسمة قبلُ . أي : كنا مثلها أو ذويها . والطرائق : جمع طريقة ، وهي طريقة الرجل ومذهبه . والقدد الضروب والأجناس المختلفة ، جمع قدّة كالقطعة .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أي : علمنا ﴿ أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : إن أراد بنا سوءاً ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ أي : إن طلبنا .

قال الزمخشريّ : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ، ولا يُنجي عنه مهرب .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ﴾ أي : القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ أي : صدّقنا بأنه حق من عند الله ، ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً ﴾ أي : أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ﴿ وَلَا رَهَقاً ﴾ أي : أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه هيئة معذبة موجبة للخسوء والطرد . يعني : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له في العز العاقبة الحسنى .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي : الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي : أذعن وانقاد ﴿ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ﴾ أي : ترجّوا وتوخوا رشداً عظيماً ، وقصدوا صواباً واستقامة . وقوله : ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشريّ : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعد قاسطيهم ، وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال : ﴿ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ﴾ فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب الراشد .

(287/786)

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ أي : توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس .

﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا ﴾ أي : الجن أو الإنس أو كلاهما ﴿ عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أي : طريقة الحق والعدل ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً ﴾ أي : لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق – وهو الكثير – عما ذكر ؛ لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب ، أو لأن غيره يعلم منه بالأولى ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي : لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه .

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ أي : عبادته أو موعظته ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ أي

: شديداً شاقاً .

قال الزمخشري : الصعد : مصدر صعد ، يقال : صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب ، أي : يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ أي : مختصة به ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ أي : فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام ، ونصبهم في التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب ، فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع في دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمُه .

(288/786)

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أي : يعبد ربه ، ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ أي : جماعات بعضها فوق بعض ، تعجباً مما رأوه من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير في ﴿ كَادُوا ﴾ للجن ، وقد بيّن ذلك حديث البخاري كما تقدم . وجوّز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى : لما قام رسولاً يعبد الله

وحده ، مخالفاً للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين – حكاه الزمخشري – ثم قال :

﴿ لِبَداً ﴾ جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ [20 - 21]

﴿ قُلْ ﴾ وقرئ قال ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أي : أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ أي : فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقتي .

﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ﴾ أي : لأن ذلك لله تعالى ، وحده ، فلا تستعجلوني بالعذاب .

قال الشهاب في توضيح ما للقاضي هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضرّ الغيّ ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر في الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا غيّاً ولا رشداً .

﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾

أي : إن أراد بي سوءاً ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي : ملتجأ إن أهلكني . وأصله : المدخل من اللحد .

(289/786)

وقوله : ﴿ إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ استثناء من قوله : ﴿ لا أَمْلِكُ ﴾ فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة ، أي : لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معاني الوحي ، وأحكام الحق .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : فلم يسمع ما جاء به ، ولم يقبل ما يبلغه ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي : في الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخروي .

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ أي : أجند الرحمن أو إخوان الشياطين

.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾ أي : غاية تطول مدتها .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ أي : حرساً من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين

ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشاني : ﴿ رَصَداً ﴾ أي : حفظة إما من جهة الله التي إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإما من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيئات النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية ، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه :

قال الزمخشري : يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا كل مرتضى .

(290/786)

قال : وفي هذا إبطال للكرامات ؛ لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية

الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أي : إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، كما يعرب عنه بيان ﴿ مَنِ ارْتَضَى ﴾ بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التي أُمِر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم ، وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة ، وما تتوقف هي عليه من أحوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب التي من جملتها قيام الساعة ، فلا يظهر عليه أحداً أبداً ، على أن بيان وقته مُخِلٌّ بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة ، وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف ؛ فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل ، لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعي أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح . انتهى .

(291/786)

وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسفي في الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أي : إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ بيان ﴿ مَنِ ارْتَضَى ﴾ والولي إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للوليّ فهي معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازي : وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه – يعني الزمخشري ومن تابعه – والذي تدل عليه أن قوله ﴿ عَلَى غَيْبِهِ ﴾ ليس فيه صيغة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقب قوله :

﴿ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾ يعني : لا أدري وقت وقوع القيامة ، ثم قال بعده : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ أي : وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : ﴿ عَلَى غَيْبِهِ ﴾ لفظ مفرد مضاف ، فيكفي في العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

(292/786)

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ، ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة ، وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص – وهو يوم القيامة – أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مرَدة الإنس والجن ؛ لأنه تعالى إنما ذكره هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته . وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك .

وناقشه في " العناية " بأن المرضي حمل الرسول على المتعارف لدلالة السياق والسياق عليه هذا ، ونقل النسفي عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم : في هذه الآية تكذيب المنجمة ، وليس كذلك ، فإن فيهم من يصدق خبره ،

وكذلك المتطببة فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وهذا لا يعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره ، وبقي علمه في الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقهة زعماً بأن معرفة مواقيت الكسوف ، وخواص المفردات مما يشمله علم الغيب . والصواب عدم شموله لمثله ؛ لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث ، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية .

(293/786)

وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب في شيء ؛ ولذا قال بعض الحكماء : لو كان من وظيفة النبيّ أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية ، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الْإِنْسَانْ ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافيا لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم . وإن شئت فقل : لوجب أن لا يكون الْإِنْسَانْ هذا النوع الذي نعرفه . نعم ، إن الأنبياء ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه

على ما يقوي الإيمان ويزيد في العبرة ، وقد أرشدنا صلى الله عليه وسلم إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأبير النخل إذ قال : < أنتم أعلم بأمور دنياكم > انتهى . فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله . وقوله تعالى :

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [28]

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق بـ ﴿ يَسْلُكُ ﴾ غاية له . والضمير إما لـ"الرصد " ، وإما لـ ﴿ مَنِ ارْتَضَى ﴾ والجمع باعتبار معنى من ، أي : ليبلغوا ، فيظهر متعلق علمه . وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ ، والإشعار بترتيب الجزاء عليه ، والمبالغة في الحث عليه ، والتحذير عن التفريط فيه .

﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِ ﴾ أي : بما عند الرصد ، أو الرسل عليهم السلام . حال من فاعل ﴿ يَسْلُكُ ﴾ جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد .

﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ أي : فرداً فرداً لسعة علمه . تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه ، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 239.250 ﴾

(295/786)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الجن

الدرس الأول: 1 – 7 إيمان الجن لما سمعوا القرآن واعترافاتهم

(قل:أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا:إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به , ولن نشرك بربنا أحدا , وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا , وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا , وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) . .

والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرهط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبي (صلى الله عليه وسلم) بأمر استماع الجن له , وما

كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه . . كانت بوحي من الله سبحانه إليه , وإخبارا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله أطلعه عليه . وقد تكون هذه هي المرة الأولى , ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته (صلى الله عليه وسلم) سورة الرحمن "أخرجه الترمذي بإسناده – عن جابر رضي الله عنه قال: "خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها , فسكتوا . فقال: " لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودا منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب , فلك الحمد " . . وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود – رضي الله عنه التي سبقت الإشارة إليها في المقدمة .

(296/786)

ولا بد أن هذه المرة التي تحكيها هذه السورة هي التي تحكيها آيات الأحقاف: (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا: أنصتوا . فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى , مصدقا لما بين يديه , يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من

ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء , أولئك في ضلال مبين) . .

فإن هذه الآيات – كالسورة – تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن , مفاجأة أطارت تماسكهم , وزلزلت قلوبهم , وهزت مشاعرهم , وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض , فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا , ولا تملك عليه صبرا , قبل أن تفيضه على الآخرينفي هذا الأسلوب المتدفق , النابض بالحرارة والانفعال , وبالجد والاحتفال في نفس الأوان , وهي حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه , وتخلخل تماسكه , وتدفعه دفعا إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع , وفي جد كذلك واحتفال !

(إنا سمعنا قرآنا عجبا) . .

فأول ما بدههم منه أنه(عجب)غير مألوف , وأنه يثير الدهش في القلوب , وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح , ومشاعر مرهفة , وذوق ذواق . . عجب ! ذو سلطان متسلط , وذو جاذبية غلابة , وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب . . عجب ! فعلا . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

(يهدي إلى الرشد) . .

وهذه هي الصفة الثانية البارزة كذلك في هذا القرآن , التي أحسها النفر من الجن , حين وجدوا حقيقتها في قلوبهم . . وكلمة الرشد في ذاتها ذات دلاله واسعة المدى . فهو يهدي إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشد تلقي ظلا آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والمقومات , فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهتدي بها إلى الخير والصواب . والقرآن يهدي إلى الرشد بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية , وإدراك ومعرفة , واتصال بمصدر النور والهدى , واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى . كما يهدي إلى الرشد بمنهجه التنظيمي للحياة وتصريفها . هذا المنهج الذي لم تبلغ البشرية في تاريخها كله , في ظل حضارة من الحضارات , أو نظام من الأنظمة , ما بلغته في ظله أفرادا وجماعات , قلوبا ومجتمعات , أخلاقا فردية ومعاملات اجتماعية . . على السواء .

فآمنا به . .

وهي الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن , وإدراك طبيعته , والتأثر بحقيقته . . يعرضها الوحي على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفي الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن , فيقولون: كاهن أو شاعر أو مجنون . . وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر , منفعلين أشد

الانفعال , لا يملكون أنفسهم من الهزة التي ترج كيانهم رجا . . ثم يعرفون الحق , فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان: فآمنا به غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين , كما كان المشركون يفعلون !

(ولن نشرك بربنا أحدا) . .

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك , ولا ملتبس بوهم , ولا ممتزج بخرافة , الإيمان الذي ينبعث من إدراك حقيقة القرآن , والحقيقة التي يدعو إليها القرآن , حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

(وأنه تعالى جد ربنا , ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) . .

(298/786)

والجد :الحظ والنصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان . . وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالي منها في الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله – سبحانه – وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة – أي زوجة – وولدا بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله , جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب

هذه الخرافة

من الاية 4 الى الاية 6

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

الأسطورية في تسبيح لله وتنزيه , واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافي الأسطوري لو كان يشبه أن يكون ! فهي قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهي في تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات , ممن زعموا أن لله ولدا سبحانه في أية صورة وفي أي تصوير !

(وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا , وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) . .

(299/786)

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله , وادعاء الصاحبة والولد والشريك , بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا , وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل , وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا

يتصورون أن أحدا يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم: إن لله صاحبة وولدا , وإن له شريكا صدقوهم , لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبدا . . وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله , هو الذي أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ; إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت , وأدركت , وتذوقت وعرفت . وكان منهم هذا الهتاف المدوي: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به , ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . .

وهذه الإنتفاضة من مس الحق , جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة في كبراء قريش , وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا . وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة , والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد (صلى الله عليه وسلم) وما يقوله كبراء قريش , وأن تزلزل الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصودا بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ; وحلقة من حلقات العلاج البطيء لعقابيل الجاهلية وتصوراتها في تلك القلوب . التي كان الكثير منها غرا بريئا , ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) . .

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا في الجاهلية – وما يزال متعارفا إلى اليوم في بيئات كثيرة – من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس , وأن لهم قدرة على النفع والضر , وأنهم محكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . مما كان يقتضي القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش , أن يستعيذوا بسيد الوادي من سفهاء قومه , ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم – إلا من اعتصم بالله فهو في نجوة منه – وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه . فهو عدو له . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) . . ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التي تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم , ولا يعتصمون بالله منه ويستعيذون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم !

والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله , طمعا في نفع , أو دفعا لضر , لا يناله إلا القلق والحيرة , وقلة الاستقرار والطمأنينة . . . وهذا هو الرهق في أسوأ صوره . . الرهق

الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة !

إن كل شيء - سوى الله - وكل أحد , متقلب غير ثابت , ذاهب غير دائم , فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ; وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه . والله وحده هو

من الاية 7 الى الاية 9

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً (9)

الباقي الذي لا يزول . الحي الذي لا يموت . الدائم الذي لا يتغير . فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر الثابت الذي لا يزول ولا يحول:

(301/786)

(وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) . .

يتحدثون إلى قومهم , عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن , يقولون: إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله لن يبعث رسولا . ولكن ها هو ذا قد

بعث رسولا , بهذا القرآن الذي يهدي إلى الرشد . . أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب – كما ظننتم – فلم يعملوا للآخرة شيئا , وكذبوا ما وعدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أمرها , لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة , وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله في خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال [كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس , وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة , وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج] ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسل , يستجيشون في نفوسهم عنصر الخير , ويستنقذون ما في فطرتهم من استعداد للهدى . فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحدا .

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل . فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التي لا تستكمل حسابها في الحياة الدنيا , لحكمة أرادها الله , وتتعلق بتنسيق للوجود يعلمه ولا نعلمه ; فجعل البعث في الآخرة لتستوفي الخلائق حسابها , وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدا من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله . سبحانه وتعالى . .

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم , والقرآن في حكايته عنهم يصحح للمشركين

أوهامهم .

الدرس الثاني: 8 – 10 اعترافات الجن عن حراسة السماء بعد البعثة

(302/786)

ويمضي الجن في حكاية ما لقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالة في جنبات الكون , وفي أرجاء الوجود , وفي أحوال السماء والأرض , لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة , ومن كل إدعاء بمعرفة الغيب , ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر:

(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ?) . .

وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم , توحي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة – ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام – كانوا يحاولون الإتصال بالملأ الأعلى , واستراق شيء مما يدور فيه , بين الملائكة , عن شؤون الخلائق في الأرض , مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه

لأوليائهم من الكهان والعرافين , ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل , ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين , وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا , ولا ضرورة لتقصيها . إنما هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول: إن استراق السمع لم يعد ممكنا , وإنهم حين حاولوه الآن – وهو ما يعبرون

من الاية 10 الى الاية 12

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12)

(303/786)

عنه بلمس السماء – وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد , يرجمهم بالشهب , فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لا يدرون شيئا عن الغيب المقدر

للبشر: (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) . . فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض: قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال, أم قدر لهم الرشد – وهو الهداية – وقد جعلوها مقابلة للشر . فهي الخير, وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب, يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئًا , فقد انقطع كل قول, وبطل كل زعم, وانتهى أمر الكهانة والعرافة . وتمحض الغيب لله, لا يجترئ أحد على القول بمعرفته, ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئًا , وليس لنا مصدر سواهما نستقي منه عن هذا الغيب شيئًا ; ولو علم الله أن في تفصيله خيرا لنا لفعل . وإذ لم يفعل فمحاولتنا نحن في هذا الاتجاه عبث ; لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المثمرة شيئًا !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب, وأنها تسير وفق نظام كوني, قبل البعثة وبعدها ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره, بنظريات تخطئ وتصيب . وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل في موضوعنا , ولا يمنع أن ترجم

الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها . وأن تنطلق هذه الشهب رجوما وغير رجوم وفق مشيئة الله الذي يجري عليها القانون !

(304/786)

فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل ; وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره . . فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم , أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل . . ومن ثم يرون الملائكة تمثيلا لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلا لقوة الشر والمعصية . والرجوم تمثيلا للحفظ والصيانة . . . الخ لأن في مقرراتهم السابقة – قبل أن يواجهوا القرآن – أن هذه المسميات: الملائكة والشياطين أو الجن , لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو , وأن تكون لها هذه التحركات الحسية , والتأثيرات الواقعية ! ! !

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟

إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره , وفي التصور الإسلامي وتكوينه . . أن ينفض

الإنسان من ذهنه كل تصور سابق , وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة , وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود . ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن . ولا ينفي شيئا يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يبطله . وما عدا المثبت والمنفي في القرآن , فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته . .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن . . . وهم مع ذلك يؤلون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة فيعقولهم , وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود . .

(305/786)

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن , ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها , فهم مضحكون حقا ! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه , والتي يستخدمها في تجاربه . وهذا لا ينفي وجودها طبعا ! فضلا على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين , أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم – عن طريقة العلم ذاته – أمام مجاهيل فيما بين

أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعا علميا نبيلا ليست عليه سمة الادعاء , ولا طابع التطاول على المجهول , كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمي , ممن ينكرون حقائق الديانات , وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار , عامر بالأرواح , حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن – كغيرها – تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود , تعين على بناء تصور حقيقي صحيح للوجود وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا , وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا . وهذا التصور هو الذي يميز المسلم ويقف به وسطا بين الوهم والخرافة , وبين الادعاء والتطاول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير . .

وإن هنالك مجالا للعقل البشري معينا في ارتياد آفاق المجهول: والإسلام يدفعه إلى هذا دفعا . . ولكن وراء هذا المجال المعين ما لا قدرة لهذا العقل على ارتياده , لأنه لا حاجة به إلى ارتياده . وما لا حاجة له به في خلافة الأرض فلا مجال له إليه , ولا حكمة في إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه , ولا داخلا في حدود اختصاصه . والقدر الضروري له منه ليعلم مركزه في الكون بالقياس إلى ما حوله ومن حوله , قد تكفل الله سبحانه ببيانه له , لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذي يدخل في طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير . .

فأما الذين اهتدوا بهدى الله , فقد وقفوا في هذه الأمور عند القدر الذي كشفه الله لهم في كتبه وعلى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق , وحكمته في الخلق , والشعور بموقف الإنسان في الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية في الكشف والعلم المهيأ للعقل في حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم . واستغلوا ما علموه في العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها , على هدى من الله , متجهين إليه , مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين:

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى , والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة . وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته , فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لا غاية لقمته , أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة – وهم كبار فلاسفة – مضحكة حقا حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذي ينشئه القرآن . مضحكة بعثراتها . ومضحكة بمفارقاتها . ومضحكة

بتخلخلها . ومضحكة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذي يفسرونه بها . . لا أستثني من هذا فلاسفة الإغريق الكبار , ولا فلاسفة المسلمين الذين قلدوهم في منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامي للوجود .

(307/786)

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى , فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه في المعرفة . فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها في العلم التجريبي والتطبيقي . ضاربة صفحا عن المجهول , الذي ليس إليه من سبيل وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله !

وهذه الفرقة كانت في أوج غلوائها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمي الجامح , على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع "مجهول الكنه" ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقي الإسلام ثابتا على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذي لهم فيه خير . ويوفر طاقتهم العقلية للعمل في خلافة الأرض . ويهيء لعقولهم المجال الذي تعمل فيه في أمن . ويهديهم للتي هي أقوم في المجهول وغير المجهول !

الدرس الثالث: 11 - 15 الجن مسلمون صالحون وكافرون طاغون

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ; بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يهتدي ومن يضل:

(وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك , كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به , فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون:فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) . .

(308/786)

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين , مسلمين وقاسطين , يفيد ازدواج طبيعة الجن , واستعدادهم للخير والشر كالإنسان - إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله - وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين - على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر , وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهذا ناشئ عن مقررات سابقة في

تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة !

وهذا النفر من الجن يقول: (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) . . ويصف حالهم بصفة عامة: (كنا طرائق قددا) . . أي لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعه عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم:

(وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض , ولن نعجزه هربا) . .

فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض , ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه – سبحانه – والإفلات من قبضته , والفكاك من قدره . فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض , ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب , وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

من الاية 13 الى الاية 15

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15)

وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله – سبحانه – وبينهم نسبا ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله . وضعفهم وقوة الله , وانكسارهم وقهر الله , فيصححون , لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك , حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى , وقد قرروه من قبل , ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان:

(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) . .

كما ينبغي لكل من يسمع الهدى . وهم سمعوا القرآن . ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته . ثم يقررون ثقتهم في ربهم , وهي ثقة المؤمن في مولاه:

(فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) . .

وهي ثقة المطمئن إلى عدل الله , وإلى قدرته , ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته . . فالله – سبحانه – عادل , ولن يبخس المؤمن حقه , ولن يرهقه بما فوق طاقته . والله – سبحانه – قادر . فسيحمي عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقا , ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة . ومن ذا الذي يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو في حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ; ولكن

هذا ليس هو البخس , فالعوض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ; لكن هذا ليس هو الرهق , لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهون عليه المشقة فتمحضها لخيره في الدنيا والآخرة .

(310/786)

المؤمن إذن في أمان نفسي من البخس ومن الرهق: (فلا يخاف بخسا ولا رهقا) . . وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية , فلا يعيش في قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع , ولم تغلق على نفسه المنافذ . . إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو في الحالين لم يخف بخسا ولا رهقا . ولم يكابد بخسا ولا رهقا .

وصدق النفر المؤمن من الجن في تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال , والجزاء على الهدى والضلال:

(وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) . .

والقاسطون: الجائرون المجانبون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا

يقابل المسلمين . وفي هذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول . فالمسلم عادل مصلح , يقابله القاسط :الجائر المفسد . .

(فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) . . والتعبير بلفظ (تحروا) يوحي بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة في طلب الرشد والاهتداء – ضد الغي والضلال – ومعناه تحري الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقا بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام . . وهو معنى دقيق وجميل . .

(وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أي تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم , تتلظى بهم وتزداد اشتعالا , كما تتلظى النار بالحطب . .

من الاية 16 الى الاية 16

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً (16)

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار . ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة . . هكذا يوحي النص القرآني . وهو الذي نستمد منه تصورنا . فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئا يستند فيه إلى تصور غير قرآني , عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة . . فسيكون ما قاله الله حقا بلا جدال !

وما ينطبق على الجن مما بينوه لقومهم , ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحي بلسان نبيهم . .

الدرس الرابع: 16 – 17 اعتراف الجن بآثار الهدى النافعة وآثار الضلال المدمرة

وإلى هنا كان الوحي يحكي قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ; ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه , وذكرها بفحواها لا بألفاظها :

(وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه , ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) . .

يقول الله – سبحانه – إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة , أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماءا موفورا نغدقه عليهم , فيفيض عليهم بالرزق والرخاء . . (لنفتنهم فيه) . . ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة , يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفتات كثير في الأسلوب القرآني , لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق , تدخل في تكوين عقيدة المؤمن , وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى: هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله , وبين إغداق الرخاء وأسبابه ; وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه . وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة , ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية . .

(312/786)

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف , حتى استقاموا على الطريقة , ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء , وتتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا . وما يزالون في نكد وشظف , حتى يفيئوا إلى الطريقة , فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على حقيقة الله , ثم تنال الوفر والغنى , فإنها تعذب بآفات

أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها , تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته [كما سبق بيانه في سورة نوح] . .

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية: هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى . . فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها , بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ; ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به , حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسي ويلهي , ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس , ويهيئ الفرصة

من الاية 17 الى الاية 19

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة . . نعمة المال والرزق كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر , مع السرف أو مع البخل , وكلاهما آفة للنفس والحياة . . . ونعمة القوة كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور , والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس , والتهجم على حرمات الله . . ونعمة الجمال كثيرا ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتتردى في مدارك الإثم والغواية . . ونعمة الذكاء كثيرا ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين . . وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله . .

والحقيقة الثالثة إن الإعراض عن ذكر الله , الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء , مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب (يسلكه عذابا صعدا) . . توحي بالمشقة مذ كان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء في موضع: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام , ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . وجاء في موضع: سأرهقه صعودا . وهي حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

الدرس الخامس: 19 كلام الجن على المساجد والدعوة

والآية الثالثة في السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن , ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء:

(وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) . .

وهي في الحالتين توحي بأن السجود - أو مواضع السجود وهي المساجد - لا تكون إلا لله , فهناك يكون التوحيد الخالص , ويتوارى كل ظل لكل أحد , ولكل قيمة , ولكل اعتبار . وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ; وقد يكون بالإلتجاء إلى سواه ; وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

(314/786)

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهي توكيد لما سبق من قولهم: (ولن نشرك بربنا أحدا) في موضع خاص , وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء , فهي توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم , يجيء في موضعه على طريقة القرآن .

وكذلك الآية التالية:

(وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) . .

أي متجمعين متكتلين عليه , حين قام يصلي ويدعو ربه . والصلاة معناها في الأصل

الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن , فهي حكاية منهم عن مشركي العرب , الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي أو وهو يتلو القرآن كما قال في "سورة المعارج" : فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ? . . يتسمعون في دهش ولا يستجيبون . أو وهم يتجمعون

من الاية 20 الى الاية 22

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً (22)

لإيقاع الأذى به , ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مرارا . . ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !

وإذا كانت من أخبار الله ابتداء , فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن , حين سمعوا القرآن . . العجب . . فأخذوا ودهشوا , وتكأكأوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعضهم لصق بعض , كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها , بعضه لصق بعض ! . . ولعل هذا هو الأقرب لمدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياع والوهلة البادية في مقالة الجن كلها ! والله أعلم . .

الدرس السادس: 20 دعوة الرسل إلى الله

وعندما تنتهي حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن , وعن هذا الأمر , الذي فاجأ نفوسهم , وهز مشاعرهم وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ; وعلى ما أحدثه من آثار في نسق الكون كله ; وعلى الجد الذي يتضمنه , والنواميس التي تصاحبه .

عندما ينتهي هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إيقاعات جادة صارمة حاسمة , بالتبليغ , والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ , والتجرد كذلك من كل دعوى في الغيب أو في حظوظ الناس ومقادرهم . . وذلك كله في جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب ما فيه من جد ومن صرامة:

قل:إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل:إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل:إني لن يجيرني من الله أحدا ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل:إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن

خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم , وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا . .

قل يا محمد للناس: (إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا) . . وهذا الإعلان يجيء بعد إعلان الجن لقومهم: (ولن نشرك بربنا أحدا) . . فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهي كلمة الإنس والجن , يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين .

الدرس السابع: 21 – 24 اعتراف الرسول بعجزه عن النفع والضر وحرصه على التبليغ وجعل الامور بيد الله

(316/786)

(قل: إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) . . يؤمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يتجرد , ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذي يعبده ولا يشرك به أحدا . فهو وحده الذي يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد , وهو الهداية , كما جاء التعبير في مقالة الجن من قبل: (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) . . فيتطابق القولان في اتجاههما وفي ألفاظهما تقريبا , وهو تطابق مقصود في القصة والتعقيب عليها , كما يكثر هذا في الأسلوب القرآني . .

وبهذا وذلك يتجرد الجن – وهو موضع الشبهة في المقدرة على النفع والضر – ويتجرد النبي (صلى الله عليه وسلم) وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح .

قل: إني لن يجيرني من الله أحدا ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته .

. . . .

وهذه هي القولة الرهيبة , التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر . . أمر الرسالة والدعوة . . والرسول (صلى الله عليه وسلم)

من الاية 23 الى الاية 24

إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (23)

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة . . إني لن يجيرني من الله أحد , ولن أجد من دونه ملجأ أو حماية , إلا أن أبلغ هذا الأمر , وأؤدي هذه الأمانة , فهذا هو الملجأ الوحيد , وهذه هي الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمري , وليس لي فيه شيء إلا التبليغ , ولا مفر لي من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرني منه أحد , ولن أجد من دونه ملجأ يعصمني , إلا أن أبلغ وأؤدي !

يا للرهبة ! ويا للروعة ! ويا للجد !

إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب دعوة . إنما هو التكليف . التكليف الصارم الجازم , الذي لا مفر من أدائه . فالله من ورائه !

وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد . . إنها تكليف وواجب . وراءه الهول , ووراءه الجد , ووراءه الكبير المتعال !

(ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا) .

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي . بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد , ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين القلائل معه , فسيعلمون حين يرون ما يوعدون – إما في الدنيا وإما في الآخرة – (من أضعف ناصرا وأقل عددا) . . وأي الفريقين هو الضعيف المخذول

القليل الهزيل !

ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون: (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجيء في أوانه وموعده المطلوب !

الدرس الثامن: 25 - 26 اختصاص الله بعلم الغيب وعدم معرفة الرسول بالساعة

ثم يؤمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا: (قل: إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا) . .

(318/786)

إن الدعوة ليست من أمره, وليس له فيها شيء, إلا أن يبلغها قياما بالتكليف, والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان - الذي لا يبلغه إلا أن يبلغ ويؤدي . وإن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله, وليس له فيه يد, ولا يعلم له موعدا . فما يدري أقريب هو أم بعيد يجعل له الله أمدا ممتدا . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الأخرة . فكله غيب في علم الله; وليس للنبي من أمره شيء, ولا حتى علم موعده متى يكون ! والله - سبحانه - هو المختص بالغيب دون العالمين:

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) . .

ويقف النبي (صلى الله عليه وسلم) متجردا من كل صفة إلا صفة العبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه في أعلى درجاته ومقاماته . . ويتجرد التصور الإسلامي من كل شبهة ومن كل غبش . والنبي (صلى الله عليه وسلم)

من الاية 25 الى آخر السورة

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

يؤمر أن يبلغ فيبلغ: (قل: إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا , عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) . .

الدرس التاسع: 27 – 28 الله يعلم من يشاء من خلقه علم الغيب ويحرص على التبليغ

هناك فقط استثناء واحد . . وهو ما يأذن به الله من الغيب , فيطلع عليه رسله , في حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان ما يوحي به إليهم إلا غيبا من غيبه , يكشفه لهم في حينه ويكشفه لهم بقدر , ويرعاهم وهم يبلغونه , ويراقبهم كذلك . .

ويؤمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يعلن هذا في صورة جادة رهيبة:

(إلا من ارتضى من رسول , فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا , ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم , وأحاط بما لديهم , وأحصى كل شيء عددا) . .

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته , يطلعهم على جانب من غيبه , هو هذا الوحي: موضوعه , وطريقته , والملائكة الذين يحملونه , ومصدره , وحفظه في اللوح المحفوظ . . إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان في ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفي الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة , للحفظ والرقابة . يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه , ومن وسوسة النفس وتمنيتها , ومن الضعف البشري في أمر الرسالة , ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص و الضعف . .

والتعبير الرهيب – (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) . . يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول , وهو يؤدي هذا الأمر العظيم . . (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) . . والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه في عالم الواقع .

(وأحاط بما لديهم) . . فما من شيء في نفوسهم وفي حياتهم ومن حولهم , إلا وهو في قبضة العلم لا يند منه شيء . .

(وأحصى كل شيء عددا) . . لا يقتصر على ما لدى الرسل ; بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدا , وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذه الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل ما لديه . وكل ما حوله . وهو يتلقى التكليف جنديا لا يملك إلا أن يؤدي . ويمضي في طريقه ليس متروكا لنفسه , ولا متروكا لضعفه , ولا متروكا لهواه , ولا متروكا لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم في طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد , ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف ! إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول , كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

(320/786)

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة , التي بدأت بالروعة والرجفة والانبهار بادية في مقالة الجن الطويلة المفصلة , الحافلة بآثار البهر والرجفة والارتياع !

وتقرر السورة التي لا تتجاوز الثماني والعشرين آية , هذا الحشد من الحقائق الأساسية التي

تدخل في تكوينعقيدة المسلم , وفي إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم , الذي لا يغلو ولا يفرط , ولا يغلق على نفسه نوافذ المعرفة , ولا يجري – مع هذا – خلف الأساطير والأوهام !

وصدق النفر الذي آمن حين سمع القرآن , وهو يقول: (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3726 . 3739 ﴾

(321/786)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) ﴾

فيه إثبات سماع الجن للقرآن وإعاجبهم به ، وهدايتهم بهديه وإيمانهم بالله ، وتقدمت الإشارة بذلك من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأحقاف عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن ﴾ [الأحقاف : 29] ، وفي آية الأحقاف بيان لما قام به النفر من الجن بعد سماعهم القرآن بأنهم لما قضى سماعهم لوا إلى قومهم منذرين .

وفيها : بيان أنهم عالمون بكتاب موسى وهو التوراة ، وقد شهدوا بأن القرآن مصدق لما بين

يديه وأنه يهدي إلى صراط مستقيمن كما جاء هنا قوله : ﴿ يهدي إِلَى الرشد ﴾ .

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4)

والشطط : البعيد المفرط في البعد ، قال عنترة في معلقته :

شطت مزار العاشقين فأصبحت . . . عسراً على طلابها ابنة مخرم

وروي :

حلت بأرض الزائرين فأصبحت . . . وأُنشد أيضاً لغيره :

شط المزار بجذوى وانتهى الأمل . . . ففي كلا البيتين الشطط الإفراط في البعد ، إذ في الأول قال : فأصبحت عسراً علي طلابها ، وفي الثاني قال : وانتهى الأمل ، وقد بين القرآن أن المراد بالشطط البعد الخاص ، وهو البعد عن الحق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ [ص : 22] .

ومنه البعد عن حقيقة التوحيد إلى الشرك ، وهو المراد هنا كما في سورة الكهف في قوله : ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ [الكهف : 14] لأن دعاءهم غير الله أبعد ما يكون عن الحق .

ويدل على أن المراد هنا ما جاء في هذه السورة ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ .

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8)

بين تعالى المراد بتلك الحراسة بأنه لحفظها عن استراق السمع ، كما في قوله : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً ﴾ [الصافات : 6 – 7] ، وبين تعالى حالهم قبل ذلك بأنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فيسترقون الكلمة وينزلون بها إلى الكاهن فيكذب معها مائة كذبة ، كما بين تعالى أن الشهب تأتيهم من النجوم .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : 5] .

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10)

فيه نص على أن الجن لا تعلم الغيب ، وقد صرح تعالى في قوله : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجن أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الغيب مَا لَبِثُواْ فِي العذاب المهين ﴾ [سبأ : 14] .

وقد يبدو من هذه الآية إشكال ، حيث قالوا أولاً : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : 1 – 2] ، ثم يقولون ﴿ وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ ، والواقع أنهم تساءلوا لما لمسوا السماء فمنعوا منها لشدة حراستها ، وأقروا أخيراً لما سمعوا القرآن وعلموا السبب في تشديد حراسة السماء ، لأنهم لما منعوا ما كان يخطر ببالهم أنه من أجل الوحي لقوله ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ الله أَحَداً ﴾ [الجن : 7] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ [الجن : 8] يدل بفحواه أنهم منعوا من السمع ، كما قالوا فمن يستمع الآية يجد له شهاباً رصداً ، ولكن قد يظن ظان أنهم يحاولون السماع ولو مع الحراسة الشديدة ، ولكن الله تعالى صرح بأنهم لم ولن يستمعوا بعد ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 212] .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ المائدة : 66] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السماء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] فكلها نصوص على أن الأمة إذا استقامت على الطريقة القويمة شرعة الله لفتح عيلهم بركات من السماء والأرض .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ [نوح : 10 –

12].

ومفهوم ذلك أن من لم يستقم على الطريقة فقد يكون انحرافه أو شركه موجباً لحرمانه من نعمة الله تعالى عليه ، كما جاء صريحاً في قوله : ﴿ واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (*) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ [الكهف : 32 – 34] .

(324/786)

فهذه نعمة كاملة ، كما وصف الله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 34 – 37] إلى قوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 42 – 43] .

وما أشبه الليلة بالبارحة فيما يعيشه العالم الإسلامي اليوم بين الاتجاهين المتناقضين

الشيوعي والرأسمالي .

وما أثبته الواقع من أن المعسكر الشيوعي الذي أنكر وجود الله وكفر بالذي خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلاً ، فانه وكل من يسير في فلكه مع مدى تقدمه الصناعي ، فإنه مفتقر لكافة الأمم الأخرى في استيراد القمح ، وإن روسيا بنفسها لتفرج عن بعض احتياطها من الذهب لتشتري قمحاً . ولا زالت تشتريه من المعسكر الرأسمالي .

(325/786)

وهكذا الدول الإسلامية التي تأخذ في اقتصادياتها بالمذهب الاشتراكي المتفرع من المذهب الشيوعي . فإنها بعد أن كانت تفيض بإنتاجها الزراعي على غيرها ، أصبحت تستورد لوازمها الغذائية من خارجها ، وتلك سنة الله في خلقه ، ولو كانوا مسلمين كما قص الله تعالى علينا قصة أصحاب الجنة ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم : 17 – 19] إلى قوله ﴿ فَأَصْبَحَتْ كالصريم ﴾ [القلم : 20] .

ولذا كانت الزكاة طهرة للمال ونماء له .

وقوله ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي نختبرهم فيما هم فاعلون من شكر النعمة وصرفها فيما

يرضي الله ، أم الطغيان بها ومنع حقها ؟ ﴿ إِنَّ الإِنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 - 7] ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] ، ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 15 - 16] .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

المساجد جمع مسجد . والمسجد لغة اسم مكان من سجد يسجد على وزن مفعل ، كمجلس على غير القياس مكان الجلوس ، وهو لغة يصدق على كل مكان صالح للسجود .

وقد ثبت من السنة أن الأرض كلها صالحة لذلك ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم ، " وجعلت لي الأرض مسجداً طهوراً " ، واستثنى منها أماكن خاصة نهى عن الصلاة فيها لأوصاف طارئة عليها وهي المزبلة والمجزرة والمقبر وقارعة الطريق وفوق الحمام . ومواضع الخسف ومعاطن الإبل ، والمكان المغصوب على خلاف فيه من حيث الصحة وعدمها والبيع .

(326/786)

وقد عد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تسعة عشر موضعاً عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ﴾ [الحجر : 80] في الكلام على حكم أرض الحجر ومواطن الخسف ، وساق كل موضع بدليله ، وهو بحيث مطول مستوفَى والمسجد عرفاً كل ما خصص للصلاة وهو المراد بالإضافة هنا لله تعالى ، وهي إضافة تشريف وتكريم مع الإشعار باختصاصها بالله أي بعبادته وذكره ، كما قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصلاة ﴾ [النور : 36 – 37] الآية .

ولهذا منعت من اتخاذها لأمور الدنيا من بيع وتجارة ، كما في الحديث : " إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له : لا أربح الله تجارتك " رواه النسائي والترمذي وحسنه .

وكذلك إنشاد الضالة لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سمعتم من ينشد ضالة بالمسجد ، فقولوا له : لا ردَّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لذلك " رواه مسلم .

وفي حديث الأعرابي الذي بال في المسجد . قال له صلى الله عليه وسلم : " إن هذه المساجد لم تبن لذلك ، إنما هي لذكر الله وما والاه " ، وفي موطأ مالك : أن عمر رضي الله عنه بني رحبة في ناحية المسجد تسمى البطحاء ، وقال : كان يريد أن يلغط أو ينشد شعراً ، أو يرفع صوتهن فليخرج إلى هذه الرحبة .

واللغط هو الكلام الذي فيه جلبة واختلاط. " وأل " في المساجد للاستغراق فتفيد شمول جميع المساجد ، كما تدل في عمومها على المساواة ، ولكن جاءت آيات تخصص بعض المساجد بمزيد فضل واختصاص ، وهي المسجد الحرام خصَّه الله تعالى بما جاء في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : 96 – 97] .

فذكر هنا سبع خصال ليست لغيره من المساجد من أنه أول بيت وضع للناس ومبارك وهدى للعالمين ، وفيه آيات بينات ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والحج والعمرة إليه ، وآيات أُخر .

والمسجد الأقصى ، قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : 1] فَخُص بكونه مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وبالبركة حوله وأُرِيد صلى الله عليه وسلم فيه من آيات ربه .

وقد كان من الممكن أن يعرج به إلى السماء من جوف مكة ، ومن المسجد الحرام ، ولكن ليريه من آيات الله كعلامات الطريق لتكون دليلاً له على قريش في إخباره بالإسراء والمعراج ، وتقديم جبريل له الأقداح الثلاثة بالماء واللبن والخمر ، واختياره اللبن رمزاً للفطرة .

واجتماع الأنبياء له والصلاة بهم في المسجد الأقصى ، بينما رآهم في السماوات السبع ، وكل ذلك من آيات الله أُريها صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى ، والمسجد النبوي ، ومسجد قباء ، فمسجد قباء نزل فيه قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ [التوبة : 108] .

(328/786)

فجاء في صحيح مسلم أن أبا سعيد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي مسجد أسس على التقوى من أول يوم ؟ فأخذ صلى الله عليه وسلم من الحصباء وضرب بها أرض مسجده ، وقال : " مسجدكم هذا "

وجاء في بلوغ المرام وغيره : حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء فقال : " إن الله يثني عليكم " فقالوا إنا نتبع الحجارة الماء ، رواه البزار بسند ضعيف .

قال في سبل السلام : وأصله في أبي داود والترمذي في السنن عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت هذه الآية في أهل قباء " ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾

[التوبة : 108] .

قال ابن حجر : وصححه ابن خزيمة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بدون ذكر الحجارة .

وقال صاحب وفاء الوفاء : وروى ابن شيبة من طرق : ما حاصله أن الآية لما نزلت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قباء .

وفي رواية : أهل ذلك المسجد .

وفي رواية : بني عمرو بن عوف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور ، فما بلغ من طهوركم " ؟ قالوا : نستنجي بالماء " .

قال : وروى أحد وابن شيبة واللفظ لأحمد عن أبي هريرة قال : انطلقت إلى مسجد التقوى أنا وعبد الله بن عمر وسمرة بن جندب ، فأتينا النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالوا لنا : انطلقوا إلى مسجد التقوى ، فانطلقنا نحوه . فاستقبلنا يداه على كاهل أبي بكر وعمر فثرنا في وجهه فقال : من هؤلاء يا أبا بكر ؟ قال : عبد الله بن عمر ، وأبو هريرة وجندب .

فحديث مسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك النصوص في مسجد قباء .

وقد قال ابن حجر رحمه الله : والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة : 108] ظاهر في أهل قباء .

وقيل : إن حديث مسلم في خصوص مسجد النَّبي صلى الله عليه وسلم ، جاء رداً على اختلاف رجلين في المسجد المعنى بها ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن الآية ليست خاصة بمسجد قباء ، وإنما هي عامة في كل مسجد أسس على التقوى ، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو معلوم في الأصول .

وعليه ، فالآية إذاً اشتملت وتشتمل على كل مسجد أينما كان ، إذا كان أساسه من أول يوم بنائه على التقوى ، ويشهد لذلك سياق الآية بالنسبة غلى ما قبلها وما بعدها ، فقد جاءت قبلها قصة مسجد الضرار بقوله : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة : 107 - 108 ﴾ .

ومعلوم أن مسجد الضرار كان بمنطقة قباء ، وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلي لهم فيه تبركاً في ظاهر الأمر ، وتقريراً لوجوده يتذرعون بذلك ، ولكن الله كشف عن حقيقتهم .

وجاءت الآية بمقارنة بن المسجدين فقال تعالى له : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ [التوبة : 108] الآية .

وجاء بعد ذلك مباشرة للمقارنة مرة أخرى أعم من الأولى في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : 109 - 110] .

(330/786)

وبهذا يكون السبب في نزول الآية هو المقارنة بين مبدأين متغايرين ، وأن الأولية في الآية في قوله : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة : 108] أولية نسبية أي بالنسبة لكل مسجد في أول يوم بنائه ، وإن كان الظاهر فيها أولية زمانية خاصة ، وهو أول يوم وصل صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل بقباء ، وتظل هذه المقارنة في الآية موجود إلى ما شاء الله في كل زمان ومكان كما قدمنا .

وقد اختصت تلك المساجد الأربعة بأمور تربط بينها بروابط عديدة ، أهمها تحديد

مكانها حيث كان بوحي أو شبه الوحي .

ففي البيت الحرام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] .

وفي المسجد الأقصى : ما جاء في الأثر عنه : أن الله أوحى إلى نبيه داود . أن ابن لي بيتاً ، قال : واين تريدني أبنيه لك يا رب ؟ قال : حيث ترى الفارس المعلم شاهراً سيفه . فرآه في مكانه الآن ، وكان حوشاً لرجل من بني إسرائيل . إلى آخر القصة في البيهقي .

وفقي مسجد قباء بسند فيه ضعف . لما نزل صلى الله عليه وسلم قباء قال : من يركب الناقة إلى أن ركبها عليّ ، فقال له : أرخ زمامها فاستنت ، فقال : خطوا المسجد حيث استنت .

وفي المسجد النبوي : جاء في السير كلها أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بحي من أحياء المدينة ، وقالوا له : هلم إلى العدد والعدة ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى وصلت إلى أمام بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وكان أمامه مربد لأيتام ومقبرة ليهود ، فاشترى المكان ونبش القبور وبنى المسجد .

وكذلك في البناء فكلها بناء رسل الله ، فالمسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام ، أَي البناء الذي ذكره القرآن وما قبله فيه روايات عديدة ، ولكن الثابت في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة : 127] .

وكذلك بيت المقدس ، وبينه وبين البيت أربعون سنة ، كما في حديث عائشة في البخاري أي تجديد بنائه .

وكذلك مسجد قباء ، فقد شارك صلى الله عليه وسلم في بنائه ، وجاء في قصة بنائه أن رجلاً لقي النَّبي صلى الله عليه وسلم حاملاً حجراً فقال : دعني أحمله عنك يا رسول الله ، فقال له : " انطلق وخذ غيرها ، فلست بأحوج من الثواب مني "

وكذلك مسجده الشريف بالمدينة المنورة ، حين بناه أولاً من جذوع النخل وجريده ، ثم بناه مرة أخرى بالبناء بعد عودته من تبوك .

ولهذه الخصوصيات لهذه المساجد الأربعة ، تميزت عن عموم المساجد كما قدمنا .

ومن أهم ذلك مضاعفة الأعمال فيها ، أصلها الصلاة ، كما بوب لهذا البخاري بقوله : [باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة] ، وساق الحديثين .

الأول حديث : " لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النَّبي صلى الله عليه وسلم "

والحديث الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام "

كما خص المسجد النبوي بروضته ، التي هي روضة من رياض الجنة .

وبقوله صلى الله عليه وسلم " ومنبري على ترعة من ترع الجنة " ، وهو حديث مشهور " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " ومنبري على ترعة من ترع الجنة " .

واختص مسجد قباء بقوله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر في بيته ثم أتى مسدجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة " أخرجه ابن ماجه وعمر بن شبة بسند جيد ، ورواه أحمد والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

قال في وفاء الوفاء : وقال عمر بن شبة : حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن حيام عن سعيد بن الرقيش الأسدي قال : جاءنا أنس بن مالك إلى مسجد قباء ، فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري ، ثم سلم وجلس وجلسنا حوله فقال :

(332/786)

سبحان الله : ما أعظم حق هذا المسجد ، لو كان على مسيرة شهر كان أهلاً أن يؤتى ، من خرج من بيته يريده معتمداً غليه ليصلي فيه أربع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة .

وقد اشتهر هذا المعنى عند العامة والخاصة ، حتى قال عبد الرحمن بن الحكم في شعر له :

فإن أهلك فقد أقررت عينا . . . من المعتمرات إلى قباء

من اللاّئي سوالفهن غيد . . . عليهن الملاحة البهاء

وروى ابن شبة بسند صحيح من طريق عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قال : سمعت أبي يقول : لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إليَّ من أن آتي بيت المقدس مرتين . لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل ، وغير ذلك من الآثار مرفوعة وموقوفة ، مما يؤكد هذا المعنى من أن قباء اختص بأن : من تطهر في بيته وأتى إليه عامداً وصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة .

تنبيه

وهان سؤال يفرض نفسه : لماذا كان مسجد قباء دون غيره ، ولماذا اشترط التطهر في بيته لا من عند المسجد ؟ ولقد تطلبت ذلك طويلاً فلم أقف على قول فيه ، ثم بدا لي من واقع تاريخه وارتباطه بواقع المسلمين والمسدجد الحرام أن مسجد قباء له ارتباطات عديدة بالمسجد الحرام .

أولاً : من حيث الزمن ، فهو أسبق من مسجد المدينة

ومن حيث الأولية النسبية ، فالمسجد الحرام أول بيت وضع للناس .

ومسجد قباء أول مسجد بناه المسلمون .

والمسجد الحرام بناه الخليل .

ومسجد قباء بناه خاتم المرسلين .

والمسجد الحرام كان مكانه باختيار من الله ، وشبيه به مكان مسجد قباء .

ومن حيث الموضوعية فامسجد الحرام مأمناً وموئلاً للعاكف والباد .

(333/786)

ومسجد قباء مأمناً ومسكناً وموئلاً للمهاجرين الأولين ، ولأهل قباء فكان للصلاة فيه شدة ارتباط بالمسجد الحرام تجعل المتطكهر في بيته والقاصد إليه للصلاة فيه كأجر عمرة . ولو قيل : إن اشتراط التطهير في بيته لا عند المسجد شدة عناية به أولاص ، وتمحيص القصد إليه ثانياً ، وتشبيهاً أو قريباً بالفعل من اشتراط الإحرام للعمرة من الحل ، لا من عند البيت في العمرة الحقيقة ، لما كان بعيداً . فالتطهر من بيته والذهاب إلى قباء للصلاة فيه كالإحرام من الحل والدخول في الحرم للطواف والسعي ، كما فيه تعويض المهاجرين عما فاتهم من جوار البيت الحرام قبل الفتح . والله تعالى أعلم .

تنبيه آخر

إن مما ينبغي أن يعلم أن للمسجد في المجتمع الإسلامي رسالة عظمى ألزم ما يكون على المسلمين إحياؤها : وهي أن المسجد لهم هو بيت الأمة فيهم لجميع مصالحهم العامة والخاصة تقريباً مما يصلح له ، فكأن المسجد النبوي في أول أمر المسلمين المثال لذلك .

إذ كان المصلى الذي تتضاعف فيه الصلاة ، وكان المعهد لتلقي العلم منه صلى الله عليه وسلم ، ومن جبريل عليه السلام ومن الأئمة ورثة الأنبياء ، ولا يزال بحمد الله كما قال صلى الله عليه وسلم " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً كعالم المدينة "

وكما قال : " من راح إلى مسجدي علم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا في سبيل الله " ، وكان فيه تعليم الصبيان للقراءة والكتابة ، وكان ولا يزال كذلك إلى اليوم بحمد الله ، وكان مقراً للإفتاء ومجلساً للقضاء ومقراً للضيافة ، ومنزلاً للأسارى ، ومصحاً للجرحى .

وقد ضربت لسعد فيه قبة لما أصابه سهم ليعوده صلى الله عليه وسلم من قريب ومقراً للقيادة ، فتعقد فيه ألوية الجهاد ، وتبرم فيه معادات الصلح ، ومنزلاً للوفود كوفد تميم وعبد القيس ، وبيتاً للمال كمجيء مال البحرين وحراسة أبي هريرة له .

(334/786)

ولما نقب ببيت مال المسلمين ، قال عمر رضي الله عنه لعامله هناك : انقله إلى المسجد فلا يزال المسجد فيه مصلى أي ليتولى حراسته ومقيلاً للعزاب ومبيتاً للغرباء . إلى غير ذلك مما لا يوجد في أي مؤسسة أخرى . ولا تتأتى إلا في المسجد ، مما يؤكد رسالة المسجد ، ويستدعي الانتباه إليه وحسن الاستفادة منه .

وبمناسبة اختصاص هذه المساجد الأربعة بمزيد الفضل وزيادة مضاعفة الصلاة ، فإن في المسجد النبوي خاصة عدة مباحث طالما أشير إليها في عدة مواضع وهي من الأهمية بمكان ، وأهمها أربعة مباحث نوردها بإيجاز ، وهي :

الأول : مضاعفة الصلاة بألف . وهل هي خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذي كان من بنائه صلى الله عليه وسلم ، أم يشمل ذلم ما دخله من زيادات .

وكذلك امتداد الصفوف خارجه عن الزحمة وهل هي في الفرض فقط أم فيه وفي النقل ، وهل هي للرجال والنساء أم للرجال فقط .

وقضية الأربعين صلاة الثانية بعد التوسعة الأولى لعمر وعثمان ، ونقل المحراب إلى القبلة عن الروضة ، فأي الصفين أفضل . الصف الأول أم صفوف الروضة .

الثالث : صلاة المأمومين عند الزحام أمام الإمام .

الرابع : حديث شد الرحال والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يأتي بمحث موجب الربط بين أول الآية وآخرها ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . لما فيه من التنويه والإيماء إلى بناء المساجد على القبور مع تمحيص العبادة لله وحده .

وتلك المباحث كنت قد فصلتها في رسالة المسجد النبوي التي كتبتها من قبل ، ونجمل ذلك هنا :

المبحث الأول

هل الفضلية خاص بالفرض ، أم بالنفل ؟ اتفق الجمهور على الفرض ، ووقع الخلاف في النفل ، ما عدا تحية المسجد ركعتين بعد الجمعة وركعتين قبل المغرب .

وأما الخلاف في النوافل الراتبة في الصوات الخمس وفي قيام الليل ، وسبب الخلاف هو عموم " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه "

(335/786)

فمن حمله على العموم شمله بالنافلة ، ومن حمل العموم على الأصل فيه قصره على الفريضة ، إذ العام على الإطلاق يحمل على الأخص منه وهي الفريضة .

وقد جاء حديث زيد بن ثابت عند أبي داود وغيره " أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة "

وجاء التصريح بمسجده بقوله : " صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا " إلا المكتوبة .

وما جاء عن الترمذي في الشمائل ومجمع الزوائد : أن عبد الله بن سعد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في بيته والصلاة في المسجد . فقال صلى الله عليه وسلم : " قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد فلأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في

المسجد ، إلا أن تكون المكتوبة "

وفي رواية " أرأيت قرب بيتي من المسجد ؟ قال : بلى . قال فإني أصلي النافلة في بيتي " .

أقوال الأئمة رحمه الله ، وعلى هذا التفصيل كانت أقوال الأئمة رحمهم الله كالتالي :

قول الإمام أبي حنيفة : إن النافلة في البيت أفضل ، وإذا وقعت في المسجد النبوي كان لها نفس الأجر ، أي أنها عامة في كل الصلوات .

ولكنها في البيت أفضل هي منها في المسجد .

وعند الشافعي : اختلفت الرواية عنه ، فذكر النووي في شرح مسلم العموم . وجاء عنه في المجموع ما يفيد الخصوص وإن لم يصرح به .

والنصوص في صلاة النافلة في البيت عديدة :

ومنها : " أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم "

وذكر القرطبي عن مسلم : " إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته "

وعند المالكية يعم الفرض والنفل ، واستدل لذلك بأن الحديث في معرض الامتنان والنكرة إذا كانت في سياق الامتنان تعم ، أي قوله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه " ، فصلاة لفظ نكرة .

وفي معرض الامتنان والتفضل بهذا الأجر العظيم ، فكان عاماً في الفرض والنفل ، والذي

يظهر والله تعالى أعلم لا خلاف بين الفريقين . إذ فضيلة الألف حاصلة لكل صلاة صلاها الإنسان فيه فرضاً كانت أو نفلاً .

(336/786)

وصلاة النافلة في البيت تكون أفضل منها في المسجد بدوام صلاته صلى الله عليه وسلم النافل في البيت مع قرب بيته من المسجد ، كما أن هذه الفضيلة تشمل صلاة الرجل والمرأة .

ولكن صلاة المرأة مع ذلك أفضل في بيتها منها في المسجد ، وهذا هو المبحث الثاني : أي أيهما أفضل للمرأة صلاتها في بيتها أم في المسجد النبوي ؟

وهذه المسألة قد بحثها فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعيله عند قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36 – 37] .

وأن مفهوم ﴿ رِجَالٌ ﴾ مفهوم صفة في هذه المسألة ، لا مفهوم لقلب وعليه فالنساء يسبحن في بيوتهن ، وقد ساق البحث وافياً في عموم المساجد وخصوص المسجد النبوي ،مما يكفي توسع .

أما المبحث الثالث : وهو هل المضاعفة خاصة بمسجده صلى الله عليه وسلم الذي بناه ، والذي كان موجوداً أثناء حياته صلى الله عليه وسلم أو أنها توجد فيه وفيما دخله من الزيادة من بعده .

أما مثار البحث هو ما جاء في نص الحديث اسم الإشارة في مسجدي هذا ، فقال بعض العلماء : اسم الإشارة موضع للتعين ، وقال علماء الوضع : إنه موضع بوضع عام لموضع له خاص ، فيختص عند الاستعمال بمفرد معين ، وهو ما كان صالحاً للإشارة الحسية ، وهو عين ما كان موجوداً زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم أن الإشارة لم تتناول الزيادة التي وجدت بعد تلك الإشارة ، فمن هنا جاء الخلاف والتساؤل .

وقد نشأ هذا التساؤل في زمن عمر رضي الله عنه عند أول زيادة زادها في المسجد النبوي ، فرأى بعض الصحابة يتجنبون الصلاة في تلك الزيادة ويرغبون في القديم منها ، فقال لهم : لولا أن يسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يريد توسعة المسجد لما وسعته ، ووالله إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو امتد إلى ذي الحليفة ، أو ولو امتد إلى صنعاء ، فهذا مثار البحث وسببه .

ولكن لو قيل : إنه في نفس الحديث مبحث لغوي آخر وهو أن قوله صلى الله عليه وسلم " في مسجدي " بالإضافة إليه صلى الله عليه وسلم ، والإضافة تفيد التخصيص أو التعريف . وفيه معنى العموم والشمول ، والآن مع الزيادة في كل زمان وعلى مر الإيام ، فإنه لم يزل هون مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه كان تصريح عمر إنه لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقوال العلماء : الجمهور على أن المضاعفة في جميع أجزائه بما فيها الزيادة ، ونقل عن النووي في شرح مسلم : أنها خاصة بالمسجد .

الأول : قبل الزيادة ، وقيل : إنه رجع عنه . وهذا الرجوع موجود في المجموع شرح المهذب ، وعليه فلم يبق خلاف في المسألة .

وقال ابن فرحون : وقفت على كلام لمالك سئل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار بقوله : " في مسجدي هذا " إلا لما سيكون من مسجد بعده ، وأن الله أطلعه على ذلك .

وقد قدمت الإشارة إلى أن عمر رضي الله عنه ما زاد في المسجد إلا بعد أن سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته في الزيادة ، فيكون تأييداً لقول مالك رحمة الله .

وروي أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال يوماً وهو في مصلاه في المسجد " لو زدنا في مسجدنا " وأشار بيده نحو القبلة .

وفي رواية : " إني أريد أن أزيد في قبلة مسجدنا " ، مما يدل على أن الزيادة كانت في حسبان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومع الرغبة في الزيادة لم تأت إشارة إلى ما يغير حكم الصلاة في تلك الزيادة المنتظرة ، ولا يقال إنها قبل وجودها لا يتعلق بها حكم ، لأننا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رتب أحكاماً على أمور لم توجد بعد كمواقيت الإحرام المصري والشامي والعراقي ، وكقوله صلى الله عليه وسلم " ستفتح اليمين ، وستفتح الشام ، وستفتح العراق " ، ومع كل منها يقول : " سيؤتى بأقوام يبسون هلم إلى الرخاء والسعة فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون "

(338/786)

وقال البعض : إن قوله صلى الله عليه وسلم " في مسجدي هذا " لدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة ، غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد في المسجد النبوي . قاله السمهودي اه .

ولكن لم يعلم أنه كانت هناك عدة مساجد له صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن إلا المسجد والمصلى ، وبقية المساجد أطلقت عليها اصطلاحاً .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام موجز في ذلك ، وهو أن الزيادة كانت في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما .

وقعت زيادة كل منهما من جهة القبلة ومع هذا ، فإن كلاً منهما كان إذا صلى بالناس قام في القبلة الواقعة في تلك الزيادة فيمتنع أن تكون الصلاة في تلك الزيادة ليست لها فضيلة المسجد ، إذ يلزم عليه صلاة عمر وعثمان بالناس .

وصلاة الناس معهم في الصفوف الأولى في المكان المفضول مع ترك الأفضل اه .

ومن كل ما قدمنا يتضح أن حكم الزيادة في المسجد النبوي كحكم الأصل في مضاعفة الأجر إلى ألف .

وقد كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ما يفيد ذلك ، وسيأتي ذلك إن شاء الله في مبحث الأربعين صلاة ، وصلاة الناس في الصف خارج المسجد .

تنبيه

هذه المضاعفة أجمعوا على أنها في الكيف لا في الكم ، فلو أن على إنسان فوائت يوم خمس صلوات ، وصلى صلاة هي خير من ألف صلاة ، لن تسقط عنه شيئاً من تلك الفوائت ، فهي في نظري بمثابة ثوب وثوب آخر أحدهام قيمته ألف درهم ، والآخر بدرهم واحد ، فكل منهما ثواب في مهمته ولن يلبسه أكثر من شخص في وقت مهما كان ثمنه .

وكذلك كالقلم ، والقلم فمهما غلا ثمن القلم ، فلن يكتب به شخصان في وقت واحد .

تنبيه آخر

مما لا شك فيه أن للمسجد الأساسي خصائص لم توجد في بقية المسجد كالروضة من الجنة ، والمنبر على ترعة من ترع الجنة ، وبعض السواري ذات التاريخ .

(339/786)

وقد قال النووي : إذا كان الشخص سيصلى منفرداً أو نفلاً ، فإن الأفضل أن يكون في الروضة وإلا ففي المسجد الأول ، وإذا كان في الجماعة ، فعليه أن يتحرى الصف الأول ، وإلا ففي أي مكان من المسجد ، وهذا معقول المعنى .

والحمد لله .

المبحث الرابع

وهو بعد هذه التوسعة وانتقال الصف الأول عن الروضة ، فهل الأفضل الصلاة في الجماعة في الصف الأول ، أم في الروضة مع تخلفه عن الأول ؟ ولتصوير هذه المسألة نقدم الآتي :

أمام المصلى موضعان أحدهما الروضة ، بفضلها روضة من رياض الجنة .

والصف الأول ، وفيه : لو يعلمون ما الصف الأول لاستهموا عليه ، فأي الموضعين يقدم على الآخر ؟

ومعلوم أنهم كانوا قبل التوسعة يمكنهم الجمع بين الفضيلتين ، إذ الصف أأول كان في الروضة .

أما الآن وبعد التوسعة فقد انفصل الصف الأول عن الروضة ، ما دام الإمام يصلي في مقدمة المسجد ، ولم أقف على تفصيل في المسألة .

ولكن عمومات للنووي ، وللشيخ ابن تيمية رحمهما الله على ما قدمنا في مبحثشمول المضاعفة للزيادة ، ولكن توجد قضية يمكن استنتاج الجواب منها ، وهي قبل التوسعة كان للصف الأول ميمنة وميسرة ، وكان للميمنة فضيلة على الميسرة . ومعلوم أن ميمنة الصف قبل التوسعة كانت تقع غربي المنبر أي خارجة عن الروضة ، والميسرة كلها كانت في الروضة ، ومع ذلك فقد كانوا يفضلون الميمنة على الميسرة لذاتها عن الروضة لذاتاه أيضاً ، فإذا كانت الميمنة وهي خارجة الروضة مقدمة عندهم عن الروضة ، فلأن يقدم الصف الأول من باب أولى .

وهناك حقيقة فقهية ذكرها النووي ، وهي تقديم الوصف الذاتي على الوصف العرضي ، وهو هنا الصف الأول وصف ذاتي للجماعة . وفضل الروضة وصف عرضي للمكان . أي لكل حل من ذكر أو صلاة فريضة أو نافلة ، فتقديم الصف الاول لكونه ذاتياً بالنسبة للجماعة أولى من تقديم الروضة لكونه وصفاً عرضياً .

وقد مثل لهذه القاعدة النووي بقوله : فلو أن إنساناً في طريقه إلى الصلاة بالمسجد النبوي فوجد مسجداً فيصلي منفرداً بألف صلاة ، فقال : يصلي في هذا المسجد جماعة أولى له ، لأنه تحصيل الجماعة وصف ذاتي للصلاة ، وتحصيل خير من ألف صلاة وصف عرضي بسبب فضل المسجد النبوي اه . ملخصاً .

وقد يقال أيضاً : إن العبد مكلف بإيقاع الصلاة في جماعة أكثر منه تكليفاً بإيقاعها في المسجد النبوي ، وهكذا الحال فإنا مطالبون بالصف الأول على الإطلاق حيث ما كان أكثر منا مطالبة بالصلاة في الروضة ، والعلم عند الله تعالى .

المبحث الخامس

وهو في حالة ازدحام المسجد وامتداد الصفوف إلى الخارج في الشارع أو البرحة ، فهل لامتداد الصفوف تلك المضاعفة أم لا ؟

لنعلم أن فضيلة الجماعة حاصلة بلا خلاف . أما المضاعفة إلى ألف ، فلم أقف على نص فيها ، وقد سألت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن ذلك مرتين ففي الأولى مال إلى اختصاص المسجد بذلك ، وفي المرة الثانية وبينهما نحو من عشر سنوات مال إلى عموم الأجر ، وقال ما معناه : إن الزيادة تفضل من الله ، وهذا امتنان على عباده ، فالمؤمل في سعة فضل الله أنه لا يكون رجلان في الصف متجاورين أحدهما على عتبة المسجد إلى

الخارج، والآخر عليها إلى الداخل، ويعطي هذا ألفاً ويعطي هذا واحد .

وكتفاهما متلاصقتان، وهذا واضح والحمد لله .

وقد رأيت في مسألة الجمعة عند المالكية نصاً ، وكذلك عند غيرهم ممن يشترطون المسجد للجمعة، فإنهم متفقون أن الصفوف إذا امتدت إلى الشوارع والرحبات خارج المسجد أن الجمعة صحيحة، مع أنهم أوقعوها في غير المسجد ، لكن لما كانت الصفوف ممتدة من المسجد إلى خارجه انجر عليها حكم المسجد وصحت الجمعة .

فنقول هنا : كذلك لما كانت الصفوف خارجة عن المسجد النبوي : ينجر عليها حكم المسجد إن شاء الله . والله تعالى أعلم .

(341/786)

وقد يستدل لذلك بالعرف وهو : لو سألت من صلى في مثل ذلك أين صليت ؟ في قباء ؟ أم في المسجد النبوي ؟ لقال : بل في المسجد النبوي . فلم يخرج بذلك عن مسمى المسجد عرفاً .

المبحث السادس

وهو عند الزحام في المسجد النبوي خاصة، وفي بقية المساجد عامة . حينما يضيف

المكان ويضطر المصلون للصلاة في صفتف عديدة خارج المسجد وأمام الإمام متقدمين عليه بعدة صفوف فما حكم صلاة هؤلاء ؟

قد ذكر النووي في المجموع الخلاف عن الشافعي ، وأن الصحيح من المذهب هو الصحة مع الكراهة .

وذكر المالكية الصحة كذلك ، وقد استدلوا لها بصلاة ابن عباس رضي الله عنه ذات ليلة عند ميمونة رضي الله عنها بصلاة النَّبي صلى الله عليه وسلم .

وابن عباس آنذاك غلام ، فقام على يساره صلى الله عليه وسلم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمينه تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما شعر به صلى الله عليه وسلم وبعد أن كبر ودخل في الصلاة ، فأخذه صلى الله عليه وسلم بيده ونقله من ورائه وجعله صلى الله عليه وسلم عن يمينه بحذائه في موقف الواحد ، كما هو معلوم من حكم المنفرد مع الإمام .

ومحل الاستدلال في ذلك هو أن الجهات بالنسبة للإمام أربع : خلفه وهي للكثيرين من اثنين فصاعداً .

وعن يمينه وهو موقف الفرد ، ويساره وأمامه ، أما اليسار : فقد وقف فيه ابن عباس وليس بموقف ، فأخذه صلى الله عليه وسلم وجعله عن يمينه .

ولكن بعد أن دخل في الصلاة وأوقع بعض صلاته في ذلك المقام ، وقد صحت صلاته

حيث بنى على الجزء الذي سبق أن أوقعه عن اليسار لضرورة الجهل بالموقف .

وبقيت جهة الإمام فليست بجهة موقف ، ولكن عند الضرورة وللزحمة لم يكن من التقدم على الإمام بد ، فجازت أو فصحت للضرورة ، كما صحت عن يساره صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى أعلم .

(342/786)

ويقوي هذا الاستدلال أنه لو جاء شخص إلى الجماعة ولم يجد له مكاناً إلا بجوار الإمام ، فإنه يقف عن يمينه بجواره ، كما لو كان منفرداً مع وجود الصفوف العديدة . ولكن صح وقوفه للضرورة .

المبحث السابع

موضع : الأربعين صلاة ، وهو من جهة خاص بالمسجد النبوي ، ومن جهة عام في كل مسجد ، ولكن لا بأربعين صلاة بل بأربعين يوماص . أما ما يخص المسجد النبوي ، فقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتبت له براءة ونجاة من العذاب ، وبرئ من النفاق " قال المنذري في الترغيب والترهيب : رواته رواه الصحيح . أخرجه أحمد في مسنده

والطبراني في الأوسط .

وفي مجمع الزوائد : رجاله ثقات . وهو عند الترمذي بلفظ : " من صلى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق "

قال الترمذي : هو موقوف على أنس ، ولا أعلم أحداً رفه .

وقال ملا علي القاري : مثل هذا لا يقال بالرأي ، وقد تكلم بعض الناس في هذا الحديث بروايتين .

أما الأولى : فبسبب نبيط ابن عمر .

وأما الثانية : فمن جهة الرفع والوقف . وقد تتبع هذين الحديثين بعض أهل العلم بالتدقيق في السند ، وأثبت صحة الأول وحكم الرفع للثاني . وقد أفردهما الشيخ حماد الأنصاري برسالة رد فيها على بعض من تكلم فيهما من المتأخرين . نوجز كلامه في الآتي :

قال الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة في زوائد الأربعة : نبيط بن عمر ، ذكره ابن حبان في الثقات ، فاجتمع على توثيق نبيط كل من ابن حبان والمنذري والبيهقي وابن حجر ، ولم يجرحه أحد من أئمة هذا الشأن . فمن ثم لا يجوز لأحد أن يطعن ولا أن يضعف من وثقه أئمة معتبرون ، ولم يخالفهم إمام من أئمة الجرح والتعديل ، وكفى من ذكروا من أئمة هذا الشأن قدوة .

ذلك ولو فرض وقدر جدلاً أنه في السند مقالاً ، فإن أئمة الحديث لا يمنعون إذا لم يكن في الحديث حلال أو حرام أو عقيدة ، بل كان باب فضائل الأعمال لا يمنعون العمل به ، لأن باب الفضائل لا يشدد فيه هذا التشديد .

ونقل السيوطي مثل ذلك عن أحمد وابن المبارك .

أما حديث إدراك تكبيرة الإحرام في أي مسجد ، فهذا أعم من موضوع المسجد النبوي الذي نتحدث عنه ، وكل أسانيده ضعيفة ولكن قال الحافظ ابن حجر : يندرج ضمن ما يعمل به في فضائل الأعمال . انتهى ملخصاً .

وهذا الحث على أربعين صلاة في المسجد النبوي ثمانية أيام في الجماعة ، واشتغاله الدائم بشأن الصلاة وحرصه عليها ، حتى لا تفوته صلاة مما يعلق قبله بالمسجد ، فتصبح الجماعة له ملكة ويصبح مرتاحاً لارتياد المسجد وحريصاً على بقية الصلوات في بقية أيامه لا تفوته الجماعة إلا من عذر .

فلو اكن زائراً ورجع إلى بلاده رجع بهذه الخصلة الحميدة ، ولعل في مضاعفة الصلاة بألف تكون بمثابة الدواء المكثف الشديد الفعالية ، السريع الفائدة ، أكثر مما جاء في عامة المساجد بأربعين يوماً لا تفوته تكبيره الإحرام ، إذ الأربعون صلاة في المسجد النبوي تعادل أربعين ألف صلاة فيما سواه ، وهي تعادل حوالي صلوات اثنين وعشرين سنة .

ولو راعينا أجر الجماعة خمساً وعشرين درجة ، لكانت تعادل صلاة المنفرد خمسمائة وخمسين سنة ، أي في الأجر والثواب لا في العدد ، أي كيفاً لا كاً ، كما قدمنا . وفضل الله عظيم .

وليعلم أن الغرض من هذه الأربعين هو كما أسلفنا التعود والحرص على الجماعة .

أم لو رجع فترك الجماعة وتهاون في شأن الصلاة عياذاً بالله ، فإنها تكون غاية النكسة .

نسأل الله العافية ، كما نعلم أن هذه الأربعين صلاة لا علاقة لها لا بالحج ولا بالزيارة ، على ما تقدم للشيخ رحمه الله في آداب الزيارة في سورة الحجرات .

(344/786)

وأن الزيارة تتم بصلاة ركعتي تحية المسجد والسلام على رسول الله صلا الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضوان الله تعالى عيلنا وعليهم ، ثم الدعاء لنفسه وللمسلمين بالخير ، ثم إن شاء انصرف إلى أهله ، وإن شاء جلس ما تيسر له .

وبالله تعالى التوفيق .

مبحث السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

تقدم للشيرخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان جانب من جوانب السلام على رسول الله

صلى الله عليه وسلم عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : 2] في التحذير من مبطلات الأعمال وببيان ما هو حق لله فلا يصرف لغيره ، وما هو حق لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز به .

وقد يجر الحديث عن السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله وفضيلته إلى موضوع شد الرحال إلى المسجد ، وإلى السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شد الرحال إلى المسجد النبوي

للسلام على سول الله صلى الله عليه وسلم

ومما اختص به المسجد النبوي ، بل ومن أهم خصائصه بعد الصلاة ، السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم من داخل هذا المسجد قديماً وحديثاً .

كما جاء في الصحيح " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي فأرد عليه السلام "

ومجمعون أن ذلك يحصل لمن سلم عليه صلى الله عليه وسلم من قريب ، وما كان هذا السلام يوماً من الإيام إلا من المسجد النبوي سواء قبل أو بعد إدخال الحجرة في المسجد .

ومعلوم أن أولآداب الزيارة والسلام عليه السلام ، البدء بصلاة ركعتين تحية المسجد وبعد السلام ينصرف عن المواجهة ويدعو ما شاء وهو في أي مكان من المسجد .

وهنا مسألة طالما أثير النزاع فيها : وهي شد الرحال للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهي إن كان محلها مبحث الزيارة وأحكامها وآدابها ، إلا أننا نسوق موجزاً عنها بمناسبة حديث شد الرحال ، ونسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

(345/786)

من المعلوم أن أصل هذه المسألة هو حديث : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد " المتقدم ذكره لاختلافهم في تقدير المستثنى منه . والمراد بشد الرحال إليه في تلك المساجد ، أهو خصوص الصلاة أم للصلاة وغيرها .

ولنتصور حقيقة هذه المسألة ينبغي أن نعلم أولاً أن البحث في هذه المسألة له ثلاث حالات :

الأولى : شد الرحال إلى المسجد النبوي للزيارة . وهذا مجمع عليه .

الثانية : زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم والسلام عليه من قريب بدون شد الرحال ، وهذا أيضاً مجمع عليه .

الثالثة : شد الرحال للزيارة فقط .

وهذه الحالة الثالثة هي محل البحث عندهم ومثار النقاش السابق .

قال ابن حجر في فتح لابري على حديث شد الرحال : قال الكرماني : وقد وقع في هذه

المسألة في عصرنا في البلاد الشامية مناظرات كثيرة ، وصنفت فيها مسائل من الطرفين .

قلت : أي ابن حجر ، يشير إلى ما رد به الشيخ تقي الدين السبكي وغيره على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وما انتصر به الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي وغيره لابن تيمية وهي مشهورة في بلادنا . اه ، وهذا يعطينا مدى الخلاف فيها وتاريخه .

وقد أشار ابن حجر إلى مجمل القول فيها بقوله : أن الجمهور أجازوا بالإجماع شد الرحال لزيارة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وإن حديث " لا تشد الرحال " إنما يقصد به خصوص الصلاة ، وليس مكان أولى من مكان بالصلاة تشد له الرحال إلا المساجد الثلاثة لما خصت من فضيلة مضاعفة الصلاة فيها .

والشيخ تقي الدين جعل موضوع النهي عند شد الرحال عاماً للصلاة وغيرها . واعترض عليه باتفاق الأمة على جواز شد الرحال لأي مكان لعدة أمور كما هو معلوم .

ومما استدل به على عدم شد الرحال لمجرد الزيارة ، ما روي عن مالك كراهية أن يقال زرت قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(346/786)

وأجيب عن ذلك : بأن كراهية مالك للفظ فقط تأدباً لا أنه كره أصل الزيارة ، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلى إلى ذي الجلال ، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع . والله الهادي إلى الصواب اه .

ولعل مذهب البخاري حسب صنيعه هو مذهب الجمهور ، لأنه تى في نفس الباب بعد حديث شد الرحال مباشرة بحديث " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه "مما يشعر بأنه قصد بيان موجب شد الرحال هو فضيلة الصلاة فيكون النهي عن شد الرحال مختصاً بالمساجد ولأجل الصلاة إلا في تلك المساجد الثلاثة لاختصاصها بمضاعفة الصلاة فياه دون غيرها من بقية المساجد والأماكن الأخرى .

وقد ناقش ابن حجر لفظ الحديث ورجح هذا المذهب حيث قال :

قال بعض المحققين قوله " إلا إلى ثلاثة مساجد " المستثنى منه محذوف . فإما أن يقدر عاماً فيصير لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلى إلا الثلاثة . أو أخص من ذلك . لا سبيل إلى الأول لإفاضئه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها ، فتعين الثاني .

والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة ، فيبطل بذلك قوله : من منع شد الرحال إلى زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم . وغيره من قبور الصالحين . والله أعلم .

وقال السبكي الكبير : ليس في الأرض بقعة تفضل لذاتها حتى تشد إليها الرحال غير البلاد الثلاثة . ومرادي بالفضل : ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكماً شرعياً . أما غيرها من البلاد فلا تشد إليها لذاتها ، بل لزيارة أو جهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات . قال : وقد التبس ذلك على بعضهم ، فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع وهو خطأ ، لأن الأستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه . فمعنى الحديث : لا تشد الرحال إلى مسجد من مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثالثة المذكورة . وشد الرحال إلى الزيارة أو طلب ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان . والله أعلم اه .

وبتأمل كلام ابن حجر ، نجده يتضمن إجراء معادلة على نص الحديث بأن له حالتين فقط . الأولى : أن يقال لا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لخصوص الصلاة ولا تشد لغيرها من الأماكن لأجل الصلاة ، فيكون النهي منصباً على شد الرحال لأي مكان سوى المساجد الثلاثة من أجل أن يصلي فيما عداها . فيبقى غير الصلاة خارجاً عن النهي فتشد له الرحال لأي مكان كان .

وغير الصلاة يشمل طلب العلم والتجارة والنزهة والاعتبار والجهاد ونحو ذلك ، والنصوص في ذلك كله متضافرة .

(348/786)

ففي طلب العلم ما قدمنا من نصوص ، وقد رحل نبي الله موسى إلى الخضر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ [الكهف : 60] إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ [الكهف : 62] إلى قوله : ﴿ قَالَ لَهُ موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ [الكهف : 66] . وفي السفر للتجارة قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ [المزمل : 20] وقوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك : 15] وغيرها كثيرة .

والسفرة للعبرة قوله تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ ﴾ [النمل : 69] .

وقوله ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 136 - 138] .

وقوله ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : 45 - 46] .

فقد أمر الله العباد بالسير ليعقلوا بقلوبهم حالة تلك القرى الخاوية ليتعظوا بأحوال أهلها .

فهذه نصوص جواز السفر لعدة أمور ، فيكون من ضمنها السفر لزيارة النَّبي صلى الله عليه وسلم والسلام عليه . حيث إن السلام عليه صلى الله عليه وسلم المشروعة بلا نزاع ، والحالة الثانية : أَن يكون النهي عاماً لجميع الأماكن في جميع الأمور فلا تشد الرحال قط إلا إلى الثلاثة المساجد وبلدانها الثلاثة .

(349/786)

ولكن لا لخصوص الصلاة فقط ، بل لكل شيء مشروع بأصله مما قدمنا أنواعه من طلب العلم والتجارة والعظة والنزهة وغير ذلك ، كصوم واعتكاف ومجاورة وحج وعمرة وصلة رحمن ، ومشاهدة معالم تاريخية ونحو ذلك .

ومن هذا كله السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا شد الرحال إلى المدينة لكل شيء كان منها الزيارة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا معارضة

على حالة من الحالتين ، ولا يتعارض معها الحديث المذكور ، على أي تقدير المستثنى منه في هذا الحديث .

وجهة نظر

وبالتحقيق في هذه المسألة وإيارة النزاع فيها يظهر أن النزاع والجدال فيها أكثر مما كانت تحتمل ، وهو إلى الشكلي أقرب منه إلى الحقيقي . ولا وجود له عملياً .

وتحقيق ذلك كالآتي : وهو ما داموا متفقين على شد الرحال للمسجد النبوي للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتفقون على السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون شد الرحال .

فلن يتأتى لإنسان أن يشد الرحال للسلام دون المسجد ، ولا يخطر ذلك على بال إنسان ، وكذلك شد الرحل للصلاة في المسجد النبوي دون أن يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يخطر على بال إنسان . وعليه فلا نفكاك لأحدهما عن الآخر .

لأن المسجد النبوي ما هو إلا بيته صلى الله عليه وسلم ، وهل بيته إلا جزء من المسجد كما في حديث الروضة " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة "

فهذا قوة ربط بين بيته ومنبره في مسجده .

ومن ناحية أخرى هل يسلم أحد عليه صلى الله عليه وسلم من قريب ، لينال فضل رد السلام عليه منه صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا كان سلامه عن قرب ومن المسجد نفسه ؟

وهل تكون الزيارة سنية إلا إذ دخل المسجد وصلى أولاً تحية المسجد ؟

وبهذا فلا انفكاك لشد الرحل إلى المسجد عن زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا لزيارته صلى الله عليه وسلم عن المسجد ، فلا موجب لهذا النزاع .

(350/786)

وهنا وجهة نظر أخرى وهي ، أن قوله صلى الله عليه وسلم " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي فأرد عليه السلام "

فيقال : إن هذه فضيلة عظيمة ولا يتأتى للبعيد تحصيلها إلا بشد الرحال إليها كوسيلة لتحصيلها والوسيلة تأخذ حكم الغاية من وجوب أو ندب أو إباحة ، كالسعي إلى الجمعة واجب ، لأن أداء الجمعة واجب ، وإعداد الثياب الجميلة إليها مثلاً مندوب ، لأن التجمل إليها مندوب ومثله إعداد الطيب بالنسبة لحضورها .

وقد رأيت لشيخ الإلامٍ ابن تيمية مناقشة هذه المسألة ، ولكنه جاء بأمثلة قابلة هي للنقاش فقال : ليس كل غاية مشروعة تكون وسيلتها مشروعة ، كحج المرأة وخروجها إلى المسجد ، فإن الأول مشروط فيه وجود المحرم . والثاني : مشروط فيه إذن الزوج .

والنقاش لها أن سفر المرأة مطلقاً ممنوع إلا مع المحرم ، سواء كان لهذا المسجد وللحج أو

لغيره .

وخروجها إلى المسدد ليس بمطلوب منها في الأصل ، ولكن إذا طلبت الإذن يؤذن لها .

فالأصل فيه المنع حتى نحصل على الإذن .

وعلى هذا يقال : لو كان شد الرحل إليها غير مشروع لما كان لفاعله نصيب في فضلها ، ولا يحصل على رد السلام منه صلى الله عليه وسلم .

ولو كان كذلك للزم التنبيه عليه عند بيان فضيلته لعدم تأخير البيان ، فكأن يقال مثلاً : فأرد عليه السلام ، إلا من شج الرحال لذلك . أو يقال من أتاني من قريب فسلم عليَّ . . . إلخ . ولكن لم يأت شيء من هذا التنبيه وبقي الحديث على عمومه .

وليعلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يفرق بين السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عامة المسلمين ، لما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من حقوق وخصائص ليست لغيره من وجوب محبة وتعظيم وفرضية صلاة وتسليم في صلواتنا وعند دخول المساجد والخروج منها ، بل وعند سماع ذكره مما ليس لغيره قط .

(351/786)

كما أن زيارة غيره صلى الله عليه وسلم للدعاء له والترحم عليه ، بينما زيارته صلى الله عليه وسلم عليه ليرد الله تعالى عليه روحه فيرد علينا السلام .

وزيارة غيره في أي مكان من العالم لا مزية له ، بينما زيارته صلى الله عليه وسلم من مسجده وقد خص بما لم يختص به غيره .

وأعتقد أن هذه المسألة لولا نزاع معاصري شيخ الإسلام معه في غيرها لما كان لها محل ولا مجال .

ولكنهم وجدوها حساسة ولها مساس بالعاطفة ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثاروها وحكموا عليه بالالتزام . أي بلازم كلامه حينما قال :

لا يكون شد الرحال لمجرد الزيارة ، بل تكون للمسجد من أجل الزيارة ، عملاً بنص الحديث فتقولوا عليه ما لم يقله صراحة .

ولو حمل كلامه على النفي بدل من النهي لكان موافقاً ، أي لا يتأتى ذلك لأنه رحمه الله لم يمنع زيارته صلى الله عليه وسلم ولا السلام عليه ، بل يجعلها من الفضائل والقربات ، وإنما يلتزم بنص الحديث في جعل شد الرحال إلى المسجد ، ولكل شيء ومنه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في كتبه .

قال في بعض رسائله وردوده ما نصه :

فصل

قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر إلى مسجده وزيارة قبره ، كما يذكر أئمة المسلمين في مناسك الحج عمل صالح مستحب .

وقد ذكرت في عدة مناسك الحج السنة في ذلك وكيف يسلم عليه ، وهل يستقبل الحجرة أم القبلة على قولين . فالأكثرون يقولون يستقبل الحجرة ، كمالك والشافعي وأحمد إلى أن قال :

والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باتفاق أئمة المسلمين ، لم يقل أحد من أئمة المسلمين إن هذا السفر لا تقصر فيه الصلاة ولا نهى أحد عن السفر إلى مسجده ، وإن كان المسافر إلى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم ، بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهى عن ذلك ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور .

إلى أن قال :

(352/786)

وإذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم له خاصية ليست لغيره من الأنبياء والصالحين ،

وهو أن أمرنا أن نصلي عليه ونسلم عليه في كل صلاة ، ويتأكد ذلك في الصلاة وعند الأذان وسائر الأدعية ، وأن نصلي ونسلم عليه عند دخول المسجد ، مسجده وغير مسجده ، وعند الخروج منه . فكل من دخل مسجده فلا بد أن يصلي فيه ويسلم عليه في الصلاة .

والسفر إلى مسجده مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حين كره مالك رحمه الله أن يقال : زرت قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم . لأن المقصود الشرعي بزيارة القبور السلام عليها والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه في الصلاة في مسجده وغير مسجده ، وعند سماع الأذان وعند كل دعاء . فتشرع الصلاة عليه عند كل دعاء ، فإنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم اه .

وإذا كان هذا كلامه رحمه الله ، فإن المسألة شكلية وليست حقيقية . إذ أنه يقرر بأن السفر إلى مسجده صلى الله عليه وسلم مشروع وإن كان يزور قبره صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه ، وأن ذلك من أفضل القربات ومن صالح الأعمال .

أي وإن كانت الزيارة مقصودة عند السفر .

وإذا كان السفر إلى المسجد لا ينفك عن السلام عليه صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليه لا ينفك عن الصلاة في المسجد .

فلا موجب لهذا النقاش ، وجعل هذه المسألة مثار نزاع أو جدال .

وقد صرح رحمه الله بما يقرب من هذا المعنى في موضع آخر من كلامه ، إذ يقول في ج 27

ص 342 من المجموع ما نصه :

فمن سافر إلى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى في مسجده وصلى في مسجد قباء ، وزار القبور كما قضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا هو الذي عمل العمل الصالح .

ومن أنكر هذا السفر ، فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

(353/786)

وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في المسجد ، وسافر إلى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم ولا يسلم عليه في الصلاة ، بل أتى القبر ثم رجع فهذا فمتبدع ضال ، مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإجماع أصحابه ولعلماء الأمة .

وهو الذي ذكر فيه القولان : أحدهما أنه محرم . والثاني أنه لا شيء عليه ولا أجر له .

والذي يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية يصلون في مسجد صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه في الدخول للمسجد وفي الصلاة ، وهذا مشروع باتفاق المسلمين . إلى أن قال : وذكرت أنه يسلم على النَّبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه اه .

فأي موجب لنزاع أو خلاف في هذا القول ، فإن كان في قوله رحمه الله فيمن قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في المسجد ، وسافر إلى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم في الصلاة بل أتى لاقبر ثم رجع فهذا مبتدع . . إلخ .

فمن من المسلمين يجيز لمسلم أن يشد رحله إلى المدينة لمجرد زيارة القبر دون قصد الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم ، ودون أن يصلي عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، وهو يعلم أن الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم بألف صلاة .

فدل كلامه رحمه الله أن زيارة القبر ولاصلاة في المسجد مرتبطتان ومن ادعى انفكاكهما عملياً فقد خالف الواقع ، وإذا ثبتت الرابطة بينهما انتفى الخلاف وزال موجب النزاع .

والحمد لله رب العالمين .

وصرح في موضع آخر ص 346 في قصر الصلاة في السفر لزيارة قبور الصالحين عن أصحاب أحمد أربعة أقوال . الثالث منها تقصر إلى قبر نبينا عليه الصلاة والسلام .

وقال في التعليل لهذا القول : إذا كان عامة المسلمين لا بد أن يصلوا في مسجده فكل من سافر إلى قبره المكرم فقد سافر إلى مسجده المفضل .

(354/786)

وكذلك قال بعض أصحاب الشافعي ، إلى أن قالك وكذلك كثير من العلماء يطلق السفر إلى قبره المكرم ، وعندهم أن هذا يتضمن السفر إلى مسجده ، إذ كان كل مسلم لا بد إذا أتى الحجرة المكرمة أن يصلي في مسجده فهما عندهم متلازمان .

وبعد نقله لأقوال العلماء قال ما نصه :

وحقيقة الأمر أن فعل الصلاة في مسجده من لوازم هذا السفر ، فكل من سافر إلى قبره المكرم لا بد أن تحصل له طاعة وقربة يثاب عليها بالصلاة في مسجده .

وأما نفس القصد فأهل العلم بالحديث يقصدون السفر إلى مسجدة ، وإن قصد منهم من قصد السفر إلى القبر أيضاً إذا لم يعلم النهي .

وهذا غاية في التصريح منه رحمه الله أنه لا انفكاك من حيث الواقع بين الزيارة والصلاة في المسجد عند عامة العلماء .

ثم قال في حق الجاهل : وأما من لم يعرف هذا فقد لا يقصد إلا السفر إلى القبر ، ثم إنه لا بد أن يصلي في مسجده فيثاب على ذلك . وما فعله وهو منهي عنه ولم يعلم أنه منهي عنه لا يعاقب عليه فيحصل له أجر ولا يكون عليه وزر اه .

وقد أكثرنا النقول عنه رحمه الله لما وجدنا من ليس في هذا الموضع على كثير من الناس ، حتى قال ابن حجر في فتح الباري فيها : وهذا أعظم ما أخذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، فهي وإن كانت شهادة من ابن حجر أنها أشد ما أخذ عليه مع ما رمي به من خصومه في

العقائد ومحاربة البدع ، إلا أنها بحمد الله بعد هذه النقول عنه من صريح كلامه لم يعد فيها ما يتعاظم منه ، فعلى كل متكلم في هذه المسألة أن يرجع إلى أقواله رحمه الله فلم يترك جانباً إلا وبينه سواء ، في حق العالم أو الجاهل . وبالله تعالى التوفيق .

هذا ما يتعلق بخصوص السفر إلى المدينة المنورة للمسجد وللزيارة معاً ، على التفصيل المتقدم .

(355/786)

أما بقية الأماكن ما عدا المساجد الثلاثة فلا تشد الرحال إليها للصلاة أو الدعاء أو الاعتكاف ونحو ذلك ، مما لا مزية لها في مكان دون آخر قط ، أياً كانت تلك البقعة أو كانت تلك العبادة . وذلك لحديث أبي هريرة في الموطأ في الساعة التي في يوم الجمعة قال : " خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة ، وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما حدثته أن قلت له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي

يسأل الله شياً إلى أعطاه إياه "

قال كعب : ذلك في كل سنة يوم . فقلت : بل في كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو هريرة : فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري قال : من من أين أقبلت ؟ فقلت من الطور فقال : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لا تعمل المطي إلا إلى ثلاث مساجد : إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس " يشك أبو هريرة ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته به في يوم الجمعة إلى آخر الحديث هذا العظيم .

قال الباجي : على هذا الحديث خروج أبو هريرة إلى الطور يحتمل أن يكون لحاجة عنت له فيه ، ويحتمل أن يكون قصده على معنى التعبد والتقرب بإيتانه ، إلا ان قول بصرة : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت . دليل على أن فهم منه التقرب بقصده . وسكوت أبي هريرة حين أنكر عليه دليل على أن الذي فهم منه كان قصده . أقول : لقد صرح أبو هريرة أنه كان للصلاة كما في مجمع الزوائد لأحمد عن شهر ، وقال : حسن .

(356/786)

والحديث يدل على أن من نذر صلاة مسجد البصرة أو الكوفة أنه يصلي بموضعه ولا يأتيه لحديث بصرة المنصوص في ذلك ، وذلك أن النذر يكون فيما فيه القربة ، ولا فضيلة لمساجد البلاد على بعضها البعض ، تقتضي قصده بإعمال المطي إليه إلا المساجد الثلاثة فإنها تختص بالفضيلة .

وأما من نذر الصلاة والصيام في شيء من مساجد الثغور ، فإنه يلزمه إتيانها والوفاء بنذره لأن نذره قصدها لم يكن لمعنى الصلاة بها ، بل قد اقترن بذلك الرباط فوجب الوفاء به .

ولا خلاف في المنع من ذلك من غير المساجد الثلاثة ، إلا ما قاله محمد بن مسلمة في المبسوط . فإنه أضاف إلى ذلك مسجداً رابعاً وهو مسجد قباء ، فقال : من نذر أن يأتيه فيصلي فيه كان عليه ذلك اه .

ولعل مقصد محمد بن مسلمة في إضافته مسجد قباء العمل بما جاء في مسجد قباء من أُر اختص به عن أنس بن مالك فيما رواه عمر بن شيبة قال حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا أيوب بن صيام عن سعيد بن الرقيش الأسدي قال : جاءنا أنس بن مالك إلى مساجد قباء ، فصلى ركعتين إلى بعض هذه السواري ، ثم سلم وجلسنا حوله فقال : سبحان الله ما أعظم حق هذا المسجد ولو كان على مسيرة شهر ، كان أهلاً أن يؤتى ، من خرج من بيته يريده معتمداً إليه ليصلي فيه أ ﴿ بع ركعات أقلبه الله بأجر عمرة .

وتقدم عن وفاء الوفاء نقله بقوله :

وكان هذا الحكم معلوماً عند العامة ، حتى قال ابن شيبة : قال أبو غسان : ومما يقوي هذه الأخبار ويدل على تظاهرها في العامة والخاصة ، قول عبد الرحمن بن الحكم في شعر له :

فإن أهلك فقد أقررت عيناً . . . من المعتمرات إلى قباء

من اللاتي سوالفهن غيد . . . عليهن الملاحة بالبهاء

تنبيه

إن قول أنس ليشعر بجواز شد الرحل إلى قباء لو كان بعيداً ، لوكنه للمعاني في المساجد الثلاثة الأخرى ، فلا يتعارض مع الحديث الأول .

تنبيه آخر

أبيات الشاعر تشعر بخطأ التجمع في يوم معين لقباء ، واجتماع الرجال والنساء .

تنبيه ثالث

(357/786)

يوجد فرق بصفة إجمالية عامة بين زيارة عموم المقابر لعامة الناس ، وخصوص زيارة القبور الثلاثة . إذ الغرض من زيارة عامة المقابر هو الدعاء لها وتذكر الآخر كما قال صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزروها فإنها تذكر الآخرة"

أما هذه الثلاثة المشرفة فلها خصائص لم يشاركها فيها غيرها :

أولاً : ومن حيث الموضوع ارتباطها بالمسجد النبوي أحد المساجد التي من حقها شد الرحال إليها .

ثانياً : عظيم حق من فيها على المسلمين ، إذ بزيارتهم لا بتذكر الآخر فحسبن بل ويستفيد ذكريات الدنيا وعظيم جهادهم في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وهداية الأمة والقيام بأمر الله ، حتى عبد الله وحده وعمل بشرعه ، فيما يثير إحساس المسلم وجوب تجديد العهد مع الله تعالى وحده على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدي خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم .

وهذا ما يجعل الإنسان يتوجه إلى الله عقب السلام عليهم بخالص الدعاء ، أن يجزيهم على ذلك ما يعلم سبحانه أنهم أهل له .

ثالثاً : عظيم الفضل من الله على من سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم روحه فيرد عليه السلام ، وكل ذلك أو بعضه لا يوجد عند عامة المقابر . وهذا مع مراعاة الآداب الشرعية في الزيارة لما تقدم .

مسألة

في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ﴾ جمع بين مسألتين ،

فكأن الأولى تدل على الثانية بمفهومها ، وكأن الثانية تكون منطوق الأولى ، لأن كون المساجد لله يقتضي إفراده تعالى بالعبادة وألا يدعي معه أحد .

(358/786)

أما إفراده بالعبادة ، فقد كتب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، على ذلك مبحثاً كاملاً في سورة الحجرات في مسألة من المسائل على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : 2] .

وبين في هذه المسألة ما هو حق لله وما هو حق لرسول الله ، ووجوب إفراد الله تعالى بما هو حقه تعالى ، وبين فيها آداب السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وضع اليد على اليد كهيأة الصلاة نوع من أنواع العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى اه .

وأن الجمع هنا بين المفهوم والمنطوق بنفس المفهوم ، لما يدل على شدة الاهتمام به والعناية بأمره ، وإنه ليلفت النظر إلى ما جاء في الأحاديث الصحيحة من النهي الأكيد والوعيد الشديد بالنسبة لقضية المساجد ودعوة التوحيد ، وما كان يفعله الأولون من بناء المساجد على القبور ، ويفتحون بذلك باباً مطلاً على الشرك . كحديث أم سلمة وأم

حبيبة رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم في قصتيهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما شاهدتاه بالحبشة من هذا القبيل ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة "

وكحديث الصحيحين : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره أي خشية اتخاذه مسجداً "

(359/786)

حديث الموطأ قوله صل الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " فكل ذلك مما يشدد الحذر من الجمع بين القبور والمساجد خشية الفتنة وسداً للذريعة ، ويشهد لهذا ما ذكره علماء التفسير رحمهم الله من سبب النزول ، أن اليهود والنصارى كانوا إذا دخلوا كنائهم وبيعهم ، أشركوا مع الله غيره ، فحذر الله المسلمين أن يفعلوا ذلك .

وهذه المسألة مما تفشت في كثير من البلدان الإسلامية مما يستوجب التنبيه لها ، وربط هذه الآية بها مع تلك النصوص النبوية الصريحة في شأنها مهما كان المسجد .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قالك لما نزلت هذه الآية لم يكن في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيلياء ، بيت المقدس .

تنبيه

قد أثير في هذه المسألة تساؤلات من بعض الناس بالنسبة للمسجد النبوي وموضع الحجرة منه بعد إدخالها فيه .

وقد أجاب عن ذلك ابن حجر في فتح الباري بقوله على حديث عائشة رضي الله عنها ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال في مرضه الذي مات فيه : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " قالت : ولولا ذلك لأبرز قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً . رواه البخاري في كتاب الجنائز .

وفي بعض رواياته : غير أنه خشي : فقال ابن حجر : وهذا قالته عائشة قبل أن يوشع المسجد النبوي ، ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكر محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة اه .

وذكرت كتب السيرة وتاريخ المسجد النبوي بعض الأخبار في ذلك ، ومن ذلك رواه السمهودي في وفاء الوفاء قال : وعن المطلب قال : كانوا يأخذون من تراب القبر فأمرت عائشة بجدار فضرب عليهم ، وكان في الجدار كوة فأمرت بالكة فسدت هي أيضاً .

ونقل عن ابن شيبة قال أو غسان بن يحيى بن علي بن عبد الحميد ، وكان علماً بأخبار المدينة ومن بيت كتابه وعلم : لم يزل بيت النَّبي صلى الله عليه وسلم الذي دفن فيه هو وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ظاهراً حتى بنى عمر بن عبد العزيز عليه الخطار المزور الذي هو عليه اليوم ، حين بنى المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وإنما جعله مزوراً كراهة أن يشبه تربيع الكعبة ، وأن يتخذ قبلة يصلى إليه .

قال أبو زيد بن شيبة قال أبو غسان : وقد سمعت غير واحد من أهل العلم يزعم أن عمر بن عبد العزيز بنى البيت غير بنائه الذي كان عليه وسمعت من يقول : بنى علي بيت النَّبي صلى الله عليه وسلم ثلاث أجدر فدون القبر ثلاثة أجدر ، جدار بناء بيت النَّبي صلى الله عليه وسلم ؟ وجدار البيت الذي يزعم أنه بنى عليه – يعني عمر بن عبد العزيز – ، وجدار الخطار الظاهر ، وقال : قال أبو غسان يما حكاخ الأقشهدي : أخبرني الثقة عن عبد الرحمن بن مهدي عن منصور بن ربيعة عن ثمان بن عروة ، قال : قال عروة : نازلت عمر بن عبد العزيز في قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ألا يجعل في المسجد أشد المنازل فأبى وقال : كتاب أمير المؤمنين لا بد من إنفاذه . قال قلت : فإن كان لا بد فاجعل له جؤجؤاً . أي وهو الموضع لنزور خلف الحجرة اه .

فهذه منازلة في موضع الحجرة والمسجد وهذا جواب عمر بن عبد العزيز .

وقد آلت إليه الخلافة وهو الخليفة الراشد الخامس ، وقد أقر هذا الوضع لما اتخذت تلك الاحتياطات من أن يكون القبر قبلة للمصلين ، وهذا مما لا شك فيه في خير القرون الأولى ، ومشهد من أكابر المسلمين ، مما لا يدع لأحد مجالاً لاعتراض أو احتجاج أو استدلال ، وقد بحثت هذه المسألة من علماء المسلمين ، في كل عصر .

(361/786)

وقال القرطبي : بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا المدخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره صلى الله عليه وسلم ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره اه . من فتح المجيد .

وقد قال بعض العلماء : إن هذا العمل الذي اتخذ حيال القبر الشريف وقبري صاحبيه إنما هو استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " كما قال ابن القيم في نونيته ، وهو من أشد الناس إنكاراً على شبهات الشرك كشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى قال :

فأجاب رب العالمين دعاءه . . . وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه . . . في عزة وحماية وصيان

وقال صاحب فتح المجيد : ودل الحديث أن قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثناً . ولكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه .

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها اه .

وهذا الذي قاله حقيقة دقيق مأخذها ، لأنه لو لم يكن بعد إدخال الحجرة في مأمن من الصلة إليه لكان وثناً وحاشاه صلى الله عليه وسلم يكون في حياته داعياً إلى الله وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى يكون قبره وثناً ينافي التوحيد ، ويهدم ما بناه في حياته .

وكيف يرضى الله لرسوله ذلك حاشاً وكلا . هذا مجمل ما قيل في هذه المسألة .

وجهة نظر

(362/786)

وهنا وجه نظر ، وإن كنت لم أقف على قولها فيها ، وهي أن كل نص متقدم صريح في النهي عن اتخاذ المساجد في القبور ، بأن يكون القبر أولاً ثم يتخذ عليه المسجد ، كام جاء في قصة أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً ﴾ [

الكهف : 21] أي أن القبر أولاً والمسجد ثانياً .

أما قصية الحجرة والمسجد النبوي فهي عكس ذلك ، إذ المسجد هو الأول وإدخال الحجرة ثانياً ، فلا تنطبق عليه تلك النصوص في نظري . والله تعالى أعلم .

ومن ناحية أخرى لم يكن الذي أدخل في المسجد هو القبر أو القبور ، بل الذي أدخل في المسجد هو الحجرة أي بما فيها ، وقد تقدم كلام صاحب فتح المجيد في تعريف الوثن : أنه ما سجد إليه من قريب .

وعليه فما من مصلّ يبعد عن مكة إلا ويقع بينه وبين الكعبة قبور ومقابر . ولا يعتبر مصلياً إلى القبور لبعدها ووجود الحواجز دونه ، وإن كان البعد نسبياً . فكذلك في موضع القبور الثلاثة في الحجرة ، فإنها بعيده عن مباشرة الصلاة إليها ، والحمد لله رب العالمين .

وأيضاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلاماً في ذلك ملخصه من المجموع جلد 27 ص 323 وكأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما مات ودفن في حجرة عائشة رضي الله عنها ، وكانت هي وحجر نسائه في شرقي المسجد وقبليه ، لم يكن شيء من ذلك داخلاً المسجد . واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة .

(363/786)

ثم بعد ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مراون بنحو من سنة من بيعته وُسِّع المسجد وأدخلت فيه الحجرة للضرورة . فإن الوليد كتب إلى نائبه عمر بن عبد العزيز ، أن يشتري الحُجَر من ملاّكها ورثة أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فإنهن كن توفين كلهن رضي الله عنهن ، فأمره أن يشتري الحجرة ويزيدها في المسجد فهدمها وأدخلها في المسجد ، وبقيت حجرة عائشة على حالها . وكانت مغلقة لا يمكن أحد من الدخول إلى قبر النَّبي صلى الله عليه وسلم لا لصلاة عنده ولا لدعاء ولا غير ذلك .

إلى حين كانت عائضة في الحياة وهي توفيت قبل إدخال الحجرة بأكثر من عشرين أو ثلاثين سنة .

وقال في صفحة 328 : ولم تكن تمكن أحداً أن يفعل عند قبره شيئاً مام نهى عنه وبعدها كانت مغلقة ، إلى أن أدخلت في المسجد فسد بابها وبنى عليها حائط آخر .

فكل ذلك صيانة له صلى الله عليه وسلم ، أن يتخذ بيته عيداً وقبره وثناً . إلا فمعلوم أن أهل المدينة كلهم مسلمون ، ولا يأتي إلى هناك إلا مسلم وكلهم معظمون للرسول صلى الله عليه وسلم ، فما فعلوا ذلك ليستهان بالقبر المكرم بل فعلوه لئلا يتخذ وثنياً يعبد . ولا يتخذ بيته عيداً ، ولئلا يفعل به كما فعل أهل الكتاب بقبور أنبيائهم . انتهى .

وتقدم شرح ابن القيم لوضع الجدران الثلاثة وجعل طرف الجدار الثالث من الشمال على شكل رأس مثلث ، وأن المشاهد اليوم بعد ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله ، وجود

الشبك الحديدي من وراء ذلك كله ، ويبعد عن رأس المثلث إلى الشمال ما يقرب من ستة أمتار يتوسطها ، أي تلك المسافة محراب كبير ، وهذا كان في المسجد سابقاً ، أي قبل الشبك . ما يدل على بعد ما بين المصلى في الجهة الشمالية من الحجرة المكرمة وبين القبور الثلاثة ، وينفي أي علاقة للصلاة من ورائه بالقبور الشريفة . والحمد لله رب العالمين .

وفي ختام هذه المسألة وقد أثير فيها كلام في موسم حج سنة 1394 في منى ومن رعض المشتغلين بالعلم نقول :

(364/786)

لو أنهخا لم تدخل بالفعل لكان للقول بعدم إدخالها مجال . أما وقد أدخلت بالفعل وفي عهد عمر بن عبد العزيز وفي القرون المشهود لها بالخير ، ومضى على إدخالها عشر قرناً ، فلا مجال للقول إذاً .

ومن ناحية أخرى ، فإن النَّبي صلى الله عليه وسلم سكت على ما هو أعظم من ذلك ، ألا وهو موضوع بناء الكعبة وكونها لم تستوعب قواعد إبراهيم ولها باب واحد ومرتفع عن الأرض .

وكان باستطاعته صلى الله عليه وسلم أن يعيد بناءها على الوجه الأصح ، فتستوعب

قواعد إبراهيم ، ويكون لها بابان ويسويهما بالأرض . ولكنه صلى الله عليه وسلم ترك ذلك لاعتبارات بينهما في حديث عائشة رضي الله عنهما .

ألا يسع من يتكلم في موضوع الحجرات اليوم ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة وما وسع السلف رحمهم الله في عين الحجرة .

ومن ناحية ثالثة : لو أنه أخذ بقولهم ، فأخرجت من المسجد أي جعل المسجد من دونها على الأصل الأول .

ثم جاء آخرون وقالوا : نعيدها على ما كانت عليه في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، ألا يقال في ذلك ما قال مالك للرشيد رحمهما الله في خصوص الكعبة لما بناها ابن الزبير ، وأعادها الحجاج وأراد الرشيد أن يعيدها على بناء ابن الزبير فقال له مالك رحمه الله : لا تفعل لأني أخشى أن تصبح الكعبة ألعوبة الملوك . فيقال هنا أيضاً فتصبح الحجرة ألعوبة الملوك بين إدخال وإخراج . وفيه من الفتنة ما فيه والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(365/786)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْجِنِّ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ إلَى : ﴿ هَرَبًا ﴾ فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي حَقِيقَةِ الْجِنِّ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّهُمْ أَحَدُ خَلْقِ الْأَرْضِ ، أُنْزِلَ أَبُوهُمْ إبْلِيسُ إلَيْهَا ، كَمَا أُنْزِلَ أَبُونَا آدَمَ ، هَذَا مَرْضِيٌّ عَنْهُ ، وَهَذَا مَسْخُوطٌ عَلَيْهِ .

وَقَدْ رَوَى عِكْرِمَةُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْجَانَّ مَسْخُ الْجِنِّ ، كَمَا مُسِخَتْ الْقِرَدَةُ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ .

وَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ فِي كِتَابِ الْمُخْتَزِنِ : إنَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْجِنِّ .

وَلَسْت أَرْضَاهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : ﴿ مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إلَى سُوقِ عِكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ ، فَقَالُوا : مَا حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إلَّا حَدَثٌ ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، تَتْبَعُونَ مَا هَذَا الْخَبَرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ؛ فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدًا إلَى سُوقِ عِكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا وَاَللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ .

قَالَ : فَهُنَاكَ رَجَعُوا إلَى قَوْمِهِمْ ، وَقَالُوا : يَا قَوْمَنَا ؛ ﴿ إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ .

(367/786)

﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَوْلُ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ؛ قَالَ : لَمَّا رَأَوْهُ وَأَصْحَابَهُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ ، وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ قَالَ : فَتَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ ، قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ .

صَحَّ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفْظُهُ لِلتِّرْمِذِيِّ وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ : قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ

عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عِكَاظٍ ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ .

قَالُوا : مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا حَدَثٌ ، فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ .

قَالَ : فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَخْلَةَ ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عِكَاظٍ ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ .

فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَمِعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : يَا قَوْمَنَا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ ﴾ .

وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : ﴿ قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ : هَلْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ ؟ قَالَ : مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ ؛ وَلَكِنْ افْتَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ بِمَكَّةَ ، فَقُلْنَا : اغْتِيلَ ، اسْتُطِيرَ ، مَا فُعِلَ بِهِ ؟ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحْنَا أَوْ كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ إِذَا نَحْنُ بِهِ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ .

قَالَ : فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ قَالَ : فَقَالَ : أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ فَانْطَلَقَ فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ .

﴾ وَابْنُ مَسْعُودٍ أَعْرَفُ بِالْأَمْرِ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ لِأَنَّهُ شَاهَدَهُ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ سَمِعَهُ ؛ وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ الشَّعْبِيُّ فِي رِوَايَتِهِ : ﴿ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ ، وَكَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ ، فَقَالَ :

كُلُّ عَظْمٍ يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ لَحْمًا ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ .

(369/786)

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِ فَإِنَّهُ زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنْ الْجِنِّ .

﴿ وَقَدْ أَنْكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ كَفَرَةِ الْأَطِبَّاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ الْجِنَّ وَقَالُوا إنَّهُمْ بَسَائِطُ وَلَا يَصِحُّ طَعَامُهُمْ ؛ اجْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَاءً [عَلَيْهِ] .

وَقَدْ مَهَّدْنَا الرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَبَيَّنَّا جَوَازَ وُجُودِهِمْ عَقْلًا لِعُمُومِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَوْضَحْنَا وُجُوبَ وُجُودِهِمْ شَرْعًا بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَهُمْ مِنْ تَيَسُّرِ التَّصَوُّرِ فِي الْهَيْئَاتِ مَا خَلَقَ لَنَا مِنْ تَيَسُّرِ التَّصَوُّرِ فِي الْحَرَكَاتِ ؛ فَنَحْنُ إلَى أَيِّ جِهَةٍ شِئْنَا ذَهَبْنَا ، وَهُمْ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءُوا تَيَسَّرَتْ لَهُمْ ، وَوُجِدُوا عَلَيْهَا ، وَلَا نَرَاهُمْ فِي هَيْئَاتِهِمْ ، إنَّمَا يَتَصَوَّرُونَ فِي خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ .

(370/786)

وَقَوْلُهُمْ : إنَّهُمْ بَسَائِطُ ، فَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ بَسِيطٌ ، بَلْ الْكُلُّ مُرَكَّبٌ مُزْدَوِجٌ ، إنَّمَا الْوَاحِدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ؛ وَغَيْرُهُ مُرَكَّبٌ لَيْسَ بِوَاحِدٍ كَيْفَمَا تَصَرَّفَ حَالُهُ ؛ وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُوَرِهِمْ ، كَمَا يَرَى الْمَلَائِكَةَ ؛ وَأَكْثَرُ مَا يَتَصَوَّرُونَ لَنَا فِي صُوَرِ الْحَيَّاتِ ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ ﴿ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي بَيْتِهِ ؛ قَالَ : فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي ، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى تُقْضَى صَلَاتُهُ ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِي عَرَاجِينَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، فَالْتَفَتّ فَإِذَا حَيَّةٌ ، فَوَثَبْتُ لِأَقْتُلَهَا ، فَأَشَارَ إلَيَّ أَنْ

أَجْلِسَ ، فَجَلَسْتُ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ ، فَقَالَ : أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ : كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ .

قَالَ : فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْخَنْدَقِ ، فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ ، فَيَرْجِعُ إلَى أَهْلِهِ ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خُذْ عَلَيْك سِلَاحَك ؛ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْك قُرَيْظَةَ .

(371/786)

فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعَنَهَا بِهِ ، وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ ، فَقَالَتْ لَهُ : كُفَّ عَلَيْكَ رُمْحَكَ ، وَادْخُلْ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي ، فَدَخَلَ ، فَإِذَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْفِرَاشِ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ ، فَانْتَظَمَهَا ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ ، فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ فَمَا نَدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا : الْحَيَّةُ أَمْ الْفَتَى .

قَالَ : فَجِئْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، قُلْنَا : ادْعُ اللَّهَ يُحْيِيهِ لَنَا .

فَقَالَ : اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثًا ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثًا ، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ ﴾ .

أَوْ قَالَ : ﴿ اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ ﴾ .

وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِي السَّائِبِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ أَسْلَمُوا ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا ، فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ الْحَيَّاتِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْبُيُوتِ ، فَقَالَ : إذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ فَقُولُوا : نَشَدْتُكُمْ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمْ نُوحٌ نَشَدْتُكُمْ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْكُمْ سُلَيْمَانُ أَلَّا تُؤْذُونَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُنَّ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُنَّ .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ عَنْهُ فِي التَّقْدِيمِ إلَى الْحَيَّاتِ يَقُولُ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؛ إنْ كُنْت تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُنْت مُسْلِمًا فَلَا تُؤْذِنَا وَلَا تَشْعَفْنَا ، وَلَا تُرَوِّعْنَا ، وَلَا تَبْدُوَنَّ لَنَا ، فَإِنَّك إنْ تَبْدُ بَعْدَ ثَلَاثٍ قَتَلْتُك .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : قَالَ مَالِكٌ : يُحَرِّجُ عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَلَّا يَبْدُوَ لَنَا ، وَلَا يَخْرُجُ .

وَقَالَ أَيْضًا عَنْهُ : أُحَرِّجُ عَلَيْك بِأَسْمَاءِ اللَّهِ أَلَّا تَبْدُوَ لَنَا .

قَالَ الْقَاضِي : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي غَارٍ ، وَهُوَ يَقْرَأُ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا ، حَتَّى خَرَجَتْ حَيَّةٌ مِنْ غَارٍ ، فَبَادَرْنَاهَا ، فَدَخَلَتْ جُحْرًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وُقِيَتْ شَرَّكُمْ ، وَوُقِيتُمْ شَرَّهَا ؛ وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِنْذَارٍ وَلَا تَحْرِيجٍ ﴾ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ عَوَامِرِ الْبُيُوتِ .

وَأَمَرَ فِي الصَّحِيحِ وَغَيْرِهِ بِقَتْلِ الْحَيَّاتِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ إنْذَارٍ وَلَا تَحْرِيجٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْإِنْذَارِ إنَّمَا هُوَ لِمَنْ فِي الْحَضَرِ ، لَا لِمَنْ يَكُونُ فِي الْقَفْرِ ، وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إلَى أَنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْمَدِينَةِ ، لِقَوْلِهِ فِي الصَّحِيحِ : إنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا أَسْلَمُوا .

وَهَذَا لَفْظٌ مُخْتَصٌّ بِهَا ،

فَتَخْتَصُّ بِحُكْمِهَا .

قُلْنَا : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَهَا مِنْ الْبُيُوتِ مِثْلُهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعَلِّلْ بِحُرْمَةِ الْمَدِينَةِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْحُكْمُ مَخْصُوصًا بِهَا ، وَإِنَّمَا عَلَّلَ بِالْإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي غَيْرِهَا ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ فِي الْحَدِيثِ مُخْبِرًا عَنْ الْجِنِّ الَّذِينَ لَقِيَ ؛ فَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ ، وَهَذَا بَيِّنٌ يُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ : وَنَهَى عَنْ عَوَامِرِ الْبُيُوتِ ، وَهَذَا عَامٌّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي إنْذَارِهِمْ وَالتَّحْرِيجِ [عَلَيْهِمْ] : هَلْ يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ ، أَمْ يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ؟ وَالْقَوْلُ مُحْتَمِلٌ لِذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الْعُمُومِ ، لِأَنَّهُ إثْبَاتٌ لِمُفْرَدٍ فِي نَكِرَةٍ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعُمُومُ فِي الْمُفْرَدَاتِ إذَا اتَّصَلَتْ بِالنَّفْيِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَفِيمَا سَبَقَ هَاهُنَا .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ لِأَنَّا لَوْ جَعَلْنَاهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلَاثِ حَالَاتٍ لَكَانَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُنَّ وَتَعْرِيضًا لِمَضَرَّتِهِنَّ ، وَلَكِنْ إذَا ظَهَرَتْ تُنْذَرُ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنْ فَرَّتْ وَإِلَّا أُعِيدَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَإِنْ فَرَّتْ وَإِلَّا أُعِيدَ عَلَيْهَا الْإِنْذَارُ ثَلَاثًا ، فَإِنْ فَرَّتْ وَإِلَّا أُعِيدَ لَهَا الْإِنْذَارُ ، فَإِنْ فَرَّتْ وَغَابَتْ وَإِلَّا قُتِلَتْ الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَالَ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ أَوْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ : كَيْفَ يُنْذَرُ بِالْقَوْلِ وَيُحَرَّجُ بِالْعَهْدِ عَلَى الْبَهَائِمِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَهِيَ لَا تَعْقِلُ الْأَقْوَالَ ، وَلَا تَفْهَمُ الْمَقَاصِدَ وَالْأَغْرَاضَ ؟ قُلْنَا : الْحَيَّاتُ عَلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ حَيَّةٌ عَلَى أَصْلِهَا ، فَبَيْنَنَا وَبَيْنَهَا الْعَدَاوَةُ الْأَصْلِيَّةُ فِي مُعَاضَدَةِ إبْلِيسَ عَلَى آدَمَ ، وَإِلَى هَذَا وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ .

فَهَذَا الْقِسْمُ

يُقْتَلُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ إنْذَارٍ وَلَا إمْهَالٍ وَعَلَامَتُهُ الْبَتْرُ وَالطُّفْيَتَيْنِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اقْتُلُوا الْأَبْتَرَ وَذَا الطُّفْيَتَيْنِ ﴾ ؛ فَإِنْ كَانَتْ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْهَيْئَةِ احْتَمَلَ أَنْ تَكُونَ حَيَّةً أَصْلِيَّةً ، وَاحْتَمَلَ أَنْ تَكُونَ جِنِّيًّا [تَصَوَّرَ] بِصُورَتِهَا ، فَلَا يَصِحُّ الْإِقْدَامُ بِالْقَتْلِ عَلَى الْمُحْتَمِلِ ، لِئَلَّا يُصَادِفَ مَنْهِيًّا عَنْهُ حَسْبَمَا يُرْوَى لِلْعَرُوسِ بِالْمَدِينَةِ حِينَ قَتَلَ الْحَيَّةَ ، فَلَمْ يُعْلَمْ أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا هُوَ أَمْ الْحَيَّةُ .

وَيَكْشِفُ هَذَا الْخَفَاءَ الْإِنْذَارُ ، فَإِنْ صَرُمَ كَانَ عَلَامَةً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَّاتِ الْأَصْلِيَّاتِ ، إذْ لَمْ يُؤْذَنْ لِلْجِنِّ فِي التَّصَوُّرِ عَلَى الْبَتْرِ وَالطُّفْيَتَيْنِ ، وَلَوْ تَصَوَّرَتْ فِي هَذَا كَتَصَوُّرِهَا فِي غَيْرِهِ لَمَا كَانَ لِتَخْصِيصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِطْلَاقِ بِالْقَتْلِ فِي ذَيْنِ وَالْإِنْذَارِ فِي سِوَاهُمَا مَعْنًى .

وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ الْبَلِيدُ وَالْمُرْتَابُ بِعَدَمِ فَهْمِهِنَّ ، فَيُقَالُ : إيهٍ انْظُرْ إلَى التَّقْسِيمِ ، إنْ كُنْت تُرِيدُ التَّسْلِيمَ لَا يَخْلُو أَنْ تَكُونَ حَيَّةً جِنِّيَّةً أَوْ أَصْلِيَّةً ، فَإِنْ كَانَتْ جِنِّيَّةً فَهِيَ أَفْهَمُ مِنْك ، وَإِنْ كَانَتْ أَصْلِيَّةً فَصَاحِبُ الشَّرْعِ أَذِنَ فِي الْخِطَابِ ، وَلَوْ كَانَ لِمَنْ لَا يَفْهَمُ لَكَانَ أَمْرًا بِالتَّلَاعُبِ .

وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ .

(376/786)

فَإِنْ شَكَّ فِي النُّبُوَّةِ ، أَوْ فِي خَلْقِ الْجِنِّ ، أَوْ فِي صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَلْيَنْظُرْ فِي الْمُقْسِطِ وَالْمُتَوَسِّطِ وَالْمُشْكِلَيْنِ يُعَايِنُ الشِّفَاءَ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا يَحْتَاجُ الْإِنْذَارُ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْجَانِّ وَالْحَيَوَانِ ، فَإِنْ كَفَّ فَهُوَ جِنٌّ مُؤْمِنٌ ، وَإِلَّا كَانَ كَافِرًا أَوْ حَيَوَانًا .

قُلْنَا : أَمَّا الْحَيَوَانُ فَقَدْ جُعِلَتْ لَهُ عَلَامَةٌ .

وَأَمَّا غَيْرُهُ فَقَدْ خُصَّ بِالْإِنْذَارِ ؛

وَالْحَيَوَانُ يَفْهَمُ بِالْإِنْذَارِ كَمَا يَفْهَمُ بِالزَّجْرِ ؛ وَلِهَذَا تُؤَدَّبُ الْبَهِيمَةُ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْأَرْضُ كُلُّهَا لِلَّهِ مُلْكًا وَخَلْقًا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

وَالْمَسَاجِدُ لِلَّهِ رِفْعَةً وَتَشْرِيفًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ وَالْكَعْبَةُ بَيْتُ اللَّهِ تَخْصِيصًا وَتَعْظِيمًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ .

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ : " وَالْقَائِمِينَ " فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِدًا [كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا] وَطَهُورًا ﴾ وَاصْطَفَى مِنْهَا مَوَاضِعَ ثَلَاثًا بِصِفَةِ الْمَسْجِدِيَّةِ ، وَهِيَ : الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى وَهُوَ مَسْجِدُ إيلِيَاءَ ، وَمَسْجِدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

وَاصْطَفَى مِنْ الثَّلَاثَةِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فِي قَوْلٍ ، وَمَسْجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلٍ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي أَيُّهَا أَفْضَلُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ وَاخْتُلِفَ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ ؛ هَلْ هُوَ عَلَى تَفْضِيلِ الْمُفَضَّلِ أَوْ احْتِمَالِهِ ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ مُفَضَّلٌ بِتَفْضِيلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إنَّهُ مُحْتَمِلٌ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ تَأْوِيلٍ تَضَمَّنَ فِيهِ مِقْدَارًا يَجُوزُ تَقْدِيرُهُ عَلَى خِلَافِهِ ؛ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ لَا بَأْسَ بِهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ؛ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي ﴾ ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ نَصًّا .

(378/786)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْمَسَاجِدُ وَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ مُلْكًا وَتَشْرِيفًا فَإِنَّهَا قَدْ نُسِبَتْ إلَى غَيْرِهِ تَعْرِيفًا ، فَيُقَالُ : مَسْجِدُ فُلَانٍ .

وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ مِنْ الْحَيْفَاءِ وَأَمَدُهَا ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ ، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنْ الثَّنِيَّةِ إلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ ﴾ وَتَكُونُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ بِحُكْمِ الْمَحَلِّيَّةِ ، كَأَنَّهَا فِي قِبْلَتِهِمْ ، وَقَدْ تَكُونُ بِتَحْبِيسِهِمْ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ مُلْكًا ، ثُمَّ يَخُصُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، فَيَرُدُّهَا إلَيْهِ ، وَيُعَيِّنُهَا لِعِبَادَتِهِ ، فَيَنْفُذُ ذَلِكَ بِحُكْمِهِ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأُمَّةِ فِي تَحْبِيسِ الْمَسَاجِدِ وَالْقَنَاطِرِ وَالْمَقَابِرِ وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي تَحْبِيسِ غَيْرِ ذَلِكَ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إذَا تَعَيَّنَتْ لِلَّهِ أَصْلًا ، وَعُيِّنَتْ لَهُ عَقْدًا ، فَصَارَتْ عَتِيقَةً عَنْ التَّمَلُّكِ ، مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْخَلِيقَةِ فِي الْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ اتِّخَاذُ الْأَبْوَابِ لَهَا ، وَوَضْعُ الْإِغْلَاقِ عَلَيْهَا مِنْ بَابِ الصِّيَانَةِ لَهَا ؛ فَهَذِهِ الْكَعْبَةُ بِأَبْوَابِهَا ، وَكَذَلِكَ أَدْرَكْنَا الْمَسَاجِدَ الْكَرِيمَةَ .

(379/786)

وَفِي الْبُخَارِيِّ مُدْرَجًا ، وَفِي كِتَابِ أَبِي دَاوُد مُسْنَدًا : ﴿ كَانَتْ الْكِلَابُ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ ، وَتَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَلَا يَرُشُّونَ ذَلِكَ ﴾ ؛ وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَسْجِدِ حِينَئِذٍ بَابٌ ، ثُمَّ اتُّخِذَ لَهُ الْبَابُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ تَرْكُ الْبَابِ لَهُ شَرْعًا ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ تَقْصِيرِ النَّفَقَةِ وَاخْتِصَارِ الْحَالَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مَعَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ لَا يُذْكَرُ فِيهَا غَيْرُ اللَّهِ فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْقِسْمَةُ لِلْأَمْوَالِ فِيهَا ، وَيَجُوزُ وَضْعُ الصَّدَقَاتِ فِيهَا عَلَى رَسْمِ الِاشْتِرَاكِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ ، فَكُلُّ مَنْ جَاءَ أَكَلَ ، وَيَجُوزُ حَبْسُ الْغَرِيمِ فِيهَا ، وَرَبْطُ الْأَسِيرِ ، وَالنَّوْمُ فِيهَا ، وَسُكْنَى الْمَرِيضِ فِيهَا ، وَفَتْحُ الْبَابِ لِلْجَارِ ، وَإِنْشَاءُ الشِّعْرِ فِيهَا إذَا عَرِيَ عَنْ الْبَاطِلِ ، وَلَا نُبَالِي أَنْ يَكُونَ غَزَلًا ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هَذَا تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَهُوَ لِلَّهِ اصْطَفَاهُ لَهُمْ ، وَاخْتَصَّهُمْ بِهِ ، وَوَضَعَهُ مَسْكَنًا لَهُمْ .

وَأَحْيَاهُ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَلَى يَدِ أَبِيهِمْ ، وَعَمَرَهُ مِنْ الْخَرَابِ بِسَلَفِهِمْ ، وَحِينَ بَلَغَتْ الْحَالَةُ إلَيْهِمْ كَفَرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ ، وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ ، فَنَبَّهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَوْعَزَ عَلَى لِسَانِهِ إلَيْهِمْ بِهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ فِيهِ ، وَإِخْلَاصِ الدَّعْوَةِ لِلَّهِ بِمَعَالِمِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الجن

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1)

قوله : ﴿ أُوحِيَ ﴾ : هذه قراءةُ العامةِ أعني كونَها مِنْ أَوْحَى رباعياً . وقرأ العَتَكِيُّ عن أبي عمرٍو وابنُ أبي عبلة وأبو إياس " وُحِيَ " ثلاثياً ، وهما لغتان ، يقال : وحى إليه كذا ، وأَوْحاه إليه بمعنى واحدٍ . وأُنْشِد للعجاج :

4346 وَحَى لها القرارَ فاسْتَقَرَّت . . . وقرأ زيدُ بن علي والكسائيُّ في روايةٍ وابنُ أبي عبلةَ أيضاً " أُحِي " بهمزةٍ مضومة ولا واوَ بعدها . وخُرِّجَتْ على أنَّ الهمزةَ بدلٌ من الواوِ المضمومةِ نحو : " أُعِدَ " في " وُعِدَ " فهذه فَرْعُ قراءةِ " وُحِيَ " ثلاثياً . قال الزمخشري : " وهو من القَلْبِ المطلقِ جوازُه في كلِّ واوٍ مضمومةٍ ، وقد أطلقَه المازنيُّ في المكسورةِ أيضاً كإشاح وإسادة و " إعَآءِ أَخِيهِ " [يوسف : 76] ، قال الشيخ : " وليس كما ذَكَرَ ، بل في ذلك تفصيلٌ . وذلك أنَّ الواوَ المضمومةَ قد تكونُ أولاً وحَشْواً وآخِراً ، ولكلٍ منها أحكام

. وفي بعضِ ذلك خلافٌ وتفصيلٌ مذكورٌ في النحو " . قلت : قد تقدَّم القولُ في ذلك مُشْبَعاً في أولِ هذا الموضوعِ ولله الحمدُ . ثم قال الشيخ : بعد أن حكى عنه ما قَدَّمْتُه عن المازني " وهذا تكثيرٌ وتبجُّحٌ . وكان يَذْكُرُ ذلك في سورة يوسف عند قوله ﴿ وعَآءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف : 76] . وعن المازنيِّ في ذلك قولان ، أحدُهما : القياسُ كما ذكر ، والثاني : قَصْرُ ذلك على السَّماع " . قلت : لم يَبْرَحِ العلماءُ يَذْكرون النظيرَ مع نظيرِه ، ولَمَّا ذَكَرَ قَلْبَ الهمزةِ بأطِّرادٍ عند الجميعِ ذَكَرَ قَلْبَها بخلافٍ .

(381/786)

قوله : ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ هذا هو القائمُ مَقَامَ الفاعل ؛ لأَنَّه هو المفعولُ الصريحُ ، وعند الكوفيين والأخفش يجوزُ أَنْ يكونَ القائمُ مَقامَه الجارَّ والمجرورَ ، فيكونَ هذا باقياً على نصبِه . والتقدير : أُوْحي إليَّ استماعَ نَفَرٍ . و " مِنْ الجنِّ " صفةٌ لـ " نَفَرٌ " ووَصْفُ القرآنِ بعَجَب : إمَّا على المبالغةِ ، وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ ، أي : ذا عَجَبٍ ، وأمَّا بمعنى اسم الفاعلِ ، أي : مُعْجِب : و " يَهْدِي " صفةٌ أُخرى .

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2)

وقرأ العامَّةُ : ﴿ الرشد ﴾ : بضمة وسكونٍ وابن عمر بضمِّهما ، وعنه أيضاً فَتْحُهما ،

وتَقَدَّم هذا في الأعراف .

وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3)

قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قرأ الأخَوان وابن عامر وحفص بفتح " أنَّ " وما عُطِف عليها بالواو في اثنتي عشرة كلمةً ، والباقون بالكسرة . وقرأ ابنُ عامر وأبو بكر " وإنه لَمَّا قام " بالكسرة ، والباقون بالفتح ، واتفقوا على الفتحِ في قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾

وتلخيص هذا : أن " أنَّ " المشددةَ في هذه السورةِ على ثلاثةِ أقسامٍ : قسمٍ ليس معه واوُ العطفِ ، فهذا لا خلاف بين القُرَّاءِ في فتحِه أو كسرِه . على حسبِ ما جاءَتْ به التلاوةُ واقْتَضَتْه العربيةُ ، كقولِه : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع ﴾ لا خلافَ في فتحِه لوقوعِه موقعَ المصدرِ وكقوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا ﴾ [الجن : 1] لا خلافَ في كسرِه لأنه محكيٌّ بالقول .

(382/786)

القسم الثاني أَن يقترنَ بالواوِ ، وهو أربعَ عشرةَ كلمةً ، إحداها : لا خلاف في فتحِها وهي : قولُه تعالى : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] وهذا هو القسم الثالث والثانية : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ ﴾ [الجن : 19] كَسَرَها ابنُ عامرٍ وأبو بكر ، وفتحها الباقون . والاثنتا

عشرةَ الباقيةُ : فَتَحها الأخوان وابن عامرٍ وحفص ، وكسرها الباقون ، كما تقدَّم تحريرُ ذلك كلِّه . والاثنتا عشرةَ هي قولُه : ﴿ وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴾ [الجن : 4] ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ [الجن : 5] ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ﴾ [الجن : 6] ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ ﴾ [الجن : 7] ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ﴾ [الجن : 8] ﴿ وَأَنَّا كُنَّا ﴾ [الجن : 9] ﴿ وَأَنَّا لاَ ندري ﴾ [الجن : 10] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون ﴾ [الجن : 11] ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ [الجن : 12] ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ﴾ [الجن : 13] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا المسلمون ﴾ [الجن : 14] . وإذا عَرَفْتَ ضَبْطَها من حيث القراءاتُ فالتِفتْ إلى توجيهِ ذلك .

(383/786)

وقد اختلف الناسُ/ في ذلك فقال أبو حاتم في الفتح : " هو معطوفٌ على مرفوعِ " أُوْحِيَ " فتكونُ كلُّها في موضعِ رفعٍ لما لم يُسَمَّ فاعِلُه " . وهذا الذي قاله قد رَدَّه الناسُ عليه : مِنْ حيث إنَّ أَكثرَها لا يَصِحُّ دخولُه تحت معمولِ " أُوْحِي " ألا ترى أنه لو قيل : أُوحي إليَّ أَنَّا لَمَسْنا السماءَ ، وأَنَّا كُنَّا ، وأَنَّا لا نَدْري ، وأَنَّا منَّا الصالحون ، وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنا ، وأَنَّا مِنَّا المسلمون لم يَسْتَقِمْ معناه . وقال مكي : " وعَطْفُ " أنَّ " على ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : 2] أَتَمُّ في المعنى مِنْ العطفِ على " أَنَّه استمعَ " لأنك لو عَطَفْتَ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ [الجن : 5]

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ﴾ [الجن : 13] ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنس ﴾ [الجن : 6] ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ﴾ [الجن : 8] ، وشِبْهَ ذلك على ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ [الجن : 1] لم يَجُزْ ؛ لأنه ليس مِمَّا أُوْحِي ، إليه ، إنما هو أمرٌ أو خبر ، وأنه عن أنفسهم ، والكسرُ في هذا أَبْيَنُ ، وعليه جماعة مِنْ القُراءِ .

الثاني : أنَّ الفتحَ في ذلك عَطْفٌ على مَحَلِّ " به " مِنْ " آمَنَّا به " . قال الزمخشري : " كأنه قال : صَدَّقْناه وصَدَّقْناه أنه تعالى جَدُّ رَبِّنا ، وأَنَّه كان يقولُ سفيهُنا ، وكذلك البواقي " ، إلاَّ أنَّ مكيّاً ضَعَّفَ هذا الوجهَ فقال : والفتحُ في ذلك على الحَمْلِ على معنى " آمَنَّا به " وفيه بُعْدٌ في المعنى ؛ لأنهم لم يُخْبِروا أنهم آمنوا بأَنَّهم لَمَّا سَمِعوا الهدى آمنوا به ، ولم يُخْبِروا أنهم آمنوا أنه كان رجالٌ ، إنما حكى اللَّهُ عنهم أنهم قالوا ذلك مُخْبِرين به عن أنفسِهم لأصحابِهم ، فالكسرُ أَوْلى بذلك " وهذا الذي قاله غيرُ لازمٍ ؛ فإنَّ المعنى على ذلك صحيحٌ .

(384/786)

وقد سَبَق الزمخشريَّ إلى هذا التخريجِ الفَرَّاءُ والزجَّاجُ . إلاَّ أنَّ الفَرَّاء استشعر إشكالاً وانفصل عنه ، فإنه قال : " فُتِحَتْ " أنَّ " لوقوع الإيمانِ عليها ، وأنت تجدُ الإيمانَ يَحْسُنُ في بعضِ ما فُتِحَ دونَ بعضٍ ، فلا يُمْنَعُ من إمضائِهنَّ على الفتح ، فإنه يَحْسُنُ فيه ما يُوْجِبُ فَتْحَ

"أنَّ" نحو: صَدَقْنا وشَهِدْنا، كما قالت العربُ:

4347 . . . . . ورَجَّجْنَ

الحواجبَ والعُيونا

فنصَبَ "العيونَ" لإتباعِها الحواجبَ، وهي لا تُزَجَّجُ. إنما تُكَحَّلُ، فأضمر لها الكُحْلَ" انتهى. فأشار إلى شيءٍ مِمَّا ذكرَه مكيٌّ وأجاب عنه. وقال الزجَّاج: "لكنَّ وجهَه أَنْ يكونَ محمولاً على معنى "آمنَّا به"؛ لأنَّ معنى "آمَنَّا به" صَدَّقْناه وعَلِمْناه، فيكون المعنى: صَدَّقْنا أنه تعالى جَدُّ ربِّنا".

الثالث: أنه معطوفٌ على الهاء به "به"، أي: آمنَّا به وبأنه تعالى جَدُّ ربِّنا، وبأنه كان يقولُ، إلى آخره، وهو مذهب الكوفيين. وهو وإن كان قوياً من حيث المعنى إلاَّ أنَّه ممنوعٌ مِنْ حيث الصناعةُ، لِما عَرَفْتَ مِنْ أنَّه لا يُعْطَفُ على الضميرِ المجرورِ إلاَّ بإعادةِ الجارِّ. وقد تقدَّم تحقيقُ هذَيْن القولَيْن مستوفىً في سورةِ البقرة عند قولِه: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام﴾ [البقرة: 217] على أنَّ مكِّيًّا قد قوَّى هذا لمَدْرَكٍ آخرَ وهو حَسَنٌ جداً، قال رحمه الله: "وهو يعني العطفَ على الضميرِ المجرورِ دونَ إعادةِ الجارِّ في "أنَّ" أجودُ منه في غيرها، لكثرةِ حَذْفِ حرفِ الجرِّ مع "أنَّ".

ووجهُ الكسرِ العطفُ على قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ [الجن : 1] فيكون الجميعُ معمولاً للقولِ ، أي : فقالوا : إنَّا سَمِعْنا ، وقالوا : إنَّه تعالى جَدُّ ربّنا إلى آخره . وقال بعضُهم : الجملتان مِنْ قولِه تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ ﴾ [الجن : 6] ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا ﴾ [الجن : 7] معترضتان بين قولِ الجنّ ، وهما مِنْ كلامِ الباري تعالى ، والظاهرُ أنَّهما مِنْ كلامِهم ، قاله بعضُهم لبعضٍ . ووجهُ الكسرِ والفتحِ في قولِه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ [الجن : 19] ما تقدَّم . ووَجْهُ إجماعِهم على فتح ﴿ وَأَنَّ المساجد ﴾ [الجن : 18] وجهان ، أحدُهما : أنَّه معطوفٌ على ﴿ أَنَّهُ استمع ﴾ [الجن : 1] فيكونُ مُوْحى أيضاً . والثاني : أنه على حَذْفِ حرفِ الجرّ ، وذلك الحرفُ متعلّقٌ بفعل النهي ، أي : فلا تَدْعوا مع اللَّهِ أحداً ؛ لأنَّ المساجدَ للَّهِ ، ذكرهما أبو البقاء .

قال الزمخشري : " أنه استمع " بالفتح ؛ لأنَّه فاعلُ " أُوْحي " و ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا ﴾ [الجن : 1] بالكسرِ ؛ لأنَّه مبتدأٌ مَحْكِيٌّ بعد القولِ ، ثم تحملُ عليهما البواقي ، فما كان مِنَ الوحي فُتِحَ ، وما كان مِنْ قَوْلِ الجنّ كُسِرَ ، وكلُّهُنَّ مِنْ قولِهم إلاَّ/ الثّنْتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ وهما : ﴿ وَأَنَّ المساجد ﴾ [الجن : 18] ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ ﴾ [الجن : 19] . ومَنْ فتح كلَّهن فعَطْفاً على مَحَلِّ الجارّ والمجرور في ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : 2] ، أي : صَدَّقْناه ، وصَدَّقْنا أنه " .

وقرأ العامَّةُ : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ بالفتح مضافاً ل " ربّنا " ، والمرادُ به هنا العظمةُ . وقيل : قُدْرتُه وأمرُه . وقيل : ذِكْرُه . والجَدُّ أيضاً : الحَظُّ ، ومنه قولُه عليه السلام : " ولا يَنْفَعُ ذا الجَدّ منك الجَدُّ " والجَدُّ أيضاً : أبو الأبِ ، والجِدُّ بالكسرِ ضِدُّ التَّواني في الأمر .

وقرأ عكرمةُ بضمّ باءِ " ربُّنا " وتنوينِ " جَدٌّ " على أَنْ يكون " ربُّنا " بدلاً مِنْ " جَدٌّ " ، والجَدُّ : العظيم . كأنه قيل : وأَنَّه تعالى عظيمٌ ربُّنا ، فأبدل المعرفة من النكرةِ ، وعنه أيضاً " جَدّاً " منصوباً منوّناً ، " ربُّنا " مرفوعٌ . ووجْهُ ذلك أَنْ ينتصِبَ " جَدّاً " على التمييز ، و " وربُّنا " فاعلٌ ب " تعالى " وهو المنقولُ مِنْ الفاعليةِ ، إذ التقديرُ : تعالى جَدُّ ربّنا ، ثم صار تعالى ربُّنا جَدّاً ، أي : عَظَمةً نحو : تَصَبَّبَ زيدٌ عَرَقاً ، أي : عَرَقُ زيدٍ . وعنه أيضاً وعن قتادةَ كذلك ، إلاَّ أَنَّه بكسرِ الجيم ، وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، و " ربُّنا " فاعلٌ ب " تعالى " والتقدير : تعالى ربُّنا تعالِياً جدّاً ، أي : حقاً لا باطلاً . والثاني : أَنَّه مصنوبٌ على الحالِ ، أي : تعالى ربُّنا حقيقةً ومتمكّناً قاله ابنُ عطية .

وقرأ حميد بن قيس " جُدُّ ربّنا " بضم الجيم مضافاً ل " ربّنا " وهو بمعنى العظيم ، حكاه سيبويه ، وهو في الأصل من إضافةِ الصفةِ لموصوفِها ؛ إذ الأصلُ : ربُّنا العظيمُ نحو : " جَرْدُ

قَطِيفة " الأصل قطيفة جَرْدٌ ، وهو مُؤَول عند البَصْريين وقرأ ابن السَّمَيْفَع " جَدَى ربّنا " بألفٍ بعد الدال مضافاً ل " ربّنا " . والجَدى والجَدْوى : النَّفْعُ والعَطاء ، أي : تعالى عَطاءُ ربّنا ونَفْعُه .

(387/786)

والهاءُ في " أنَّه استمعَ " " وأنَّه تعالى " وما بعد ذلك ضميرُ الأمرِ والشأنِ ، وما بعده خبرُ " أنَّ " وقوله ﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً ﴾ مستأنَفٌ فيه تقريرٌ لتعالِي جَدِّه .

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4)

قوله : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ اسمَ كان ، " ويقول " الخبرُ ، ولو كان مثلُ هذه الجملةِ غيرَ واقعةٍ خبراً ل " كان " لامتنع تقديمُ حينئذٍ نحو : سفيهُنا يقول ، لو قلت : " يقولُ سفيهُنا " على التقديمِ والتأخيرِ لم يَجُزْ . والفرقُ : أنه في غيرِ بابِ " كان " يُلْبَسُ بالفعلِ والفاعلِ ، وفي باب " كان " يُؤْمَنُ ذلك . والثاني : أنَّ " سَفيهُنا " فاعلُ " يقولُ " والجملةُ خبرُ " كان " واسمُها ضميرُ الأمرِ مستترٌ فيها . وقد تقدَّم هذا في قولِه : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ وقوله " شَطَطاً " تقدَّم مثلُه في الكهف .

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5)

قوله : ﴿ ظَنَنَّآ أَن لَّن ﴾ : مخففةٌ ، واسمُها مضمرٌ ، والجملةُ المنفيةُ خبرُها ، والفاصلُ هنا حَرْفُ النفيِ . و "كَذِباً" مفعولٌ به ، أو نعتُ مصدرٍ محذوفٍ . وقرأ الحسنُ والجحدريُّ وأبو عبد الرحمن ويعقوبُ "تَقَوَّلَ" بفتح القافِ والواوِ المشدَّدةِ ، وهو مضارع "تَقوَّلَ" ، أي : كَذَّب . والأصلُ تتَقَوَّل ، فحذف إحدى التاءَيْن نحو : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] وانتصب "كَذِباً" في هذه القراءةِ على المصدرِ ؛ لأنَّ التقوُّل كَذِبٌ نحو قولِهم : قعدْتُ جُلوساً .

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)

قوله : ﴿ مِّنَ الإنس ﴾ : صفةٌ لرجال ، وكذلك قولُه "من الجنِّ" .

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7)

(388/786)

قوله : ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ ﴾ : كقولِه : ﴿ أَن لَّن تَقُولَ ﴾ [الجن : 5] وأَنْ وما في حَيِّزها سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْ الظَّنِّ ، والمسألةُ من بابِ الإعمال لأنَّ "ظنُّوا" يَطْلُبُ مفعولَيْن ، و "ظَنَنْتُم" كذلك ، وهو إعمال الثاني للحذفِ مِنْ الأولِ ، والضمير في "أنهم ظَنُّوا" للإنسِ ، وفي "ظَنَنْتُم" للجنِّ ، ويجوزُ العكسُ . وبكلٍ قد قيل .

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8)

قوله : ﴿ فَوَجَدْنَاهَا ﴾ : فيها وجهان ، أظهرُهما : أنَّها متعدِّيَةٌ لواحدٍ ؛ لأنَّ معناها أصَبْنا ، وصادَفْنا ، وعلى هذا فالجملةُ مِنْ قولِه " مُلِئَتْ " في موضعِ نصبٍ على الحال .

والثاني : أنَّها متعدِّيةٌ لاثنين ، فتكونُ الجملةُ في موضعِ المفعولِ الثاني .

" وحَرَساً " منصوبٌ على التمييزِ نحو : " امتلأ الإناءُ ماءً " . والحَرَسُ اسمُ جمعٍ لحارِس نحو : خَدَم لخادِم ، وغَيَب/ لغائِب ، ويُجْمَعُ تكسيراً على أحْراس ، كقولِ امرىء القيس :

4348 تجاوَزْتُ أَحْراساً وأهوالَ مَعْشَرٍ . . . عليَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلي

والحارس : الحافظُ الرقيبُ ، والمصدرُ الحِراسةُ . و " شديداً " صفةٌ لحَرَس على اللفظِ ، كقوله :

4349 أخشى رُجَيْلاً ورُكَيْباً عادِياً . . . ولو جاءَ على المعنى لقيل : شِداداً بالجمع .

وقوله : ﴿ وَشُهُباً ﴾ جمعُ شِهاب كـ كِتاب وكُتُب . وهل المرادُ النجومُ أو الحَرَسُ أنفسُهم ؟ وإنما عَطَفَ بعضَ الصفاتِ على بعضٍ عند تغايُرِ اللفظِ كقولِه :

4350 . . . . . .

. . . . . أتى مِنْ دُونِها النَّأْيُ والبُعْدُ

وقرأ الأعرج " مُلِيَتْ " بياءٍ صريحةٍ دونَ همزةٍ . ومقاعِد جمعُ مَقْعَد اسمَ مكان .

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9)

قوله: ﴿ الآن ﴾ : هو ظرفٌ حاليٌّ . واستعير هنا للاستقبال كقوله :

4351 . . . . . ولكنْ . . . سأسْعى الآن إذ بلغَتْ أناها

فاقترنَ بحرفِ التنفيس ، وقد تقدَّم هذا في البقرة عند قوله ﴿ فالآن بَاشِرُوهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] ورَصَداً : إمَّا مفعولٌ له ، وإمَّا صفة لشِهاباً ، أي : ذا رَصَد . وجعل الزمخشريُّ الرَّصَد اسمَ جمعٍ كَحَرَس ، فقال : " والرَّصدُ : اسمُ جَمْعٍ للراصِد كـ حَرَس على معنى : ذوي شِهابٍ راصِدين بالرَّجْم ، وهم الملائكةُ . ويجوز أَنْ يكونَ صفةً للشِّهاب ، بمعنى الراصِد ، أو كقولِه :

4352 . . . . . .

. . . . . ومِعَىً جِياعاً

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10)

قوله: ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾ : يجوزُ فيه وجهان ، أحسنُهما ، الرفعُ بفعلٍ مضمرٍ على الاشتغالِ ، وإنما كان أحسنَ لتقدُّمِ طالبِ الفعلِ ، وهو أداةُ الاستفهامِ . والثاني : الرفعُ على الابتداءِ . ولقائلٍ أَنْ يقولَ : يتعيَّنُ هنا الرفعُ بإضمارِ فعلٍ لمَدْرَكٍ آخر : وهو أنَّه قد عُطِفَ ب " أم "

فِعْلٌ ، فإذا أَضْمَرْنا الفعلَ رافِعاً كُنَّا قد عَطَفْنا جملةً فعليةً على مِثْلِها بخلافِ رفعِه بالابتداءِ ، فإنَّه حينئذٍ يُخْرِجُ "أم" عن كونِها عاطفةً إلى كونِها منقطعةً ، إلاَّ بتأويلٍ بعيدٍ : وهو أنَّ الأصلَ : أشرٌّ أُريد بهم أم خيرٌ ، فوَضَعَ قولَه ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ ﴾ موضعَ "خيرٌ" وقولَه "أشرٌّ" سادٌّ مَسَدَّ مفعولَيْ "ندري" بمعنى أنه مُعَلِّقٌ له ، وراعى معنى "مَنْ" في قولِه ﴿ بِهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ فجَمَعَ .

(390/786)

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)

قوله : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ "دونَ" بمعنى "غير" ، أي : ومِنَّا غيرُ الصالحين ، وهو مبتدأٌ ، وإنما فُتِحَ لإضافتِه إلى غيرِ متمكِّنٍ ، كقوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] فيمَنْ نَصَبَ على أحدِ الأقوالِ ، وإلى هذا نحا الأخفشُ .

والثاني : أنَّ "دونَ" على بابِها من الظرفية ، وأنها صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُه : ومنا فريقٌ أو فوجٌ دونَ ذلك وحَذْفُ الموصوفِ مع "مِنْ" التبعيضيَّةِ يَكْثُرُ كقولِهم : منا ظَعَنَ ومنَّا أقام ، أي : مِنَّا فريقٌ . والمعنى : ومِنَّا صالحون دونَ أولئك في الصَّلاح .

قوله : ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ التقديرَ : كنَّا ذوي طرائقَ ، أي : ذوي

مذاهبَ مختلفةٍ . الثاني : أنَّ التقدير : كُنَّا في اختلاف أحوالِنا مثلَ الطرائقِ المختلفةِ .

الثالث : أنَّ التقدير : كُنَّا في طرائقَ مختلفةٍ كقولِه :

4353 . . . . . كما عَسَل

الطريقَ الثَّعْلَبُ

الرابع : أنَّ التقديرَ : كانَتْ طرائقُنا قِدَداً ، على حَذْفِ المضاف الذي هو الطرائقُ ، وإقامةِ الضميرِ المضافِ إليه مُقامَه ، قاله الزمخشري ، فقد جَعَلَ في ثلاثة أوجهٍ مضافاً محذوفاً ؛ لأنَّه قَدَّرَ في الأول : ذوي ، وفي الثاني : مِثْلَ ، وفي الثالث : طرائقنا . ورَدَّ عليه الشيخ قولَه : كُنَّا في طرائق كقولِه :

. . . . . كما عَسَلَ

الطريقَ الثعلبُ

بأنَّ هذا لا يجوزُ إلاَّ في ضرورةٍ أو نُدورٍ ، فلا يُخْرَّجَ القرآن عليه ، يعني تَعَدِّيَ الفعلِ بنفسِه إلى ظرفِ المكانِ المختصِّ .

(391/786)

والقِدَدُ : جمعُ قِدَّة ، والمرادُ بها الطريقة ، وأصلُها السيرةُ يقال : قِدَّةُ فلانٍ حسنةٌ أي : سِيرتُه وهو مِنْ قَدَّ السَّيْرَ أي : قَطَعَه على استواءٍ / فاسْتُعير للسِّيرةِ المعتدلةِ قال :

4354 القابِضُ الباسِطُ الهادِيْ بطاعتِه . . . في فِتْنة الناسِ إذا أهواؤُهم قِدَدُ

وقال آخر :

4355 جَمَعْتَ بالرأيِ مِنهم كلَّ رافضةٍ . . . إذ هم طرائقُ في أهوائِهم قِدَدُ

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12)

قوله : ﴿ فِي الأرض ﴾ : حالٌ ، وكذلك " هَرَباً " مصدرٌ في موضع الحال تقديرُه : لن نُعْجِزه كائنين في الأرض أينما كُنَّا فيها ، ولن نُعْجزه هاربين منها إلى السماءِ .

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)

قوله : ﴿ فَلاَيَخَافُ ﴾ : أي : فهو لا يخافُ ، أي فهو غيرُ خائف ؛ ولأنَّ الكلامَ في تقديرِ مبتدأٍ وخبرٍ ، دَخَلَتِ الفاءُ ، ولولا ذلك لقيلَ : لاَيَخَفْ ، قاله الزمخشري ، ثم قال : " فإنْ قلتَ : أيُّ فائدةٍ في رفعِ الفعلِ وتقديرِ مبتدأ قبلَه ، حتى يقعَ خبراً له ، ووجوبِ إدخالِ الفاءِ ، وكان كلُّ ذلك مستغنىً عنه بأَنْ يُقال لاَيَخَفْ ؟ قلت : الفائدةُ أنه إذا فَعَلَ ذلك فكأَنَّه قيل : فهو لاَيَخافُ ، فكان دالاًّ على تحقيقِ أنَّ المؤمِنَ ناجٍ لا مَحالةَ ، وأنه هو المختصُّ بذلك دونَ غيره " . قلت : سببُ ذلك أنَّ الجملةَ تكونُ اسميةً حينئذٍ ، والاسميةُ أدلُّ على التحقيقِ والثبوتِ من الفعليَّةِ . وقرأ ابن وثاب والأعمش " فلايَخَفْ " بالجزمِ ، وفيها وجهان ،

أحدُهما : ولم يَذْكُرِ الزمخشريُّ غيرَه أنَّ "لا" ناهيةٌ ، والفاءُ حينئذٍ واجبةٌ . والثاني : أنها نافيةٌ ، والفاءُ حينئذٍ زائدةٍ ، وهذا ضعيفٌ .

(392/786)

وقوله : ﴿ بَخْساً ﴾ فيه حَذْفُ مضافٍ أي : جزاءُ بَخْسٍ ، كذا قدَّره الزمخشريُّ ، وهو مُسْتَغْنَى عنه . وقرأ ابن وثاب "بَخَساً" بفتح الخاء .

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14)

قوله : ﴿ القاسطون ﴾ : قد تقدَّم في أول النساء : أنَّ قَسَط الثلاثيَّ بمعنى جار ، وأَقْسَط الرباعيَّ بمعنى عَدَل ، وأنَّ الحَجَّاجَ قال لسعيد بن جبير : ما تقولُ فِيّ قال : إنك قاسِطٌ عادِلٌ . فقال الحاضرون : ما أحسنَ ما قال ! ! فقال : يا جهلةُ جَعَلني جائراً كافراً ، وتلا ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] .

قوله : ﴿ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ أي : قَصَدوا ذلك ، وطَلَبوه باجتهادٍ ، ومنه : التحرِّي في الشيءِ . قال الراغب : "حَرَى الشيءَ يَحْريه أي : قَصَدَ حَراه أي جانبَه ، وتَحَرَّاه كذلك ، وحَرَى الشيءُ يَحْرِي : نَقَصَ ، كأنه لَزِمَ الحَرَى ولم يَمْتَدَّ قال :

4356 . . . . . والمَرْءُ بعد تَمامِه يَحْرِي

ويقال : رَماه الله بأفعى حارِيةٍ أي : [ناقصةٍ] شديدةٍ " انتهى ، وكأنَّ أصلَه مِنْ قولِهم : هو حَرٍ بكذا أي : حَقيقٌ به قَمِنٌ . و " رَشَداً " مفعولٌ به . والعامَّةُ " رَشَداً " بفتحتين . والأعرج بضمةٍ وسكونٍ .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

(393/786)

قوله : ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا ﴾ : " أنْ " هي المخففةُ . وقد تقدَّم أنه يُكتفى ب " لو " فاصلةً بين " أَنْ " الخفيفةِ وخبرِها ، إذا كان جملةً فعلية في سورة سبأ . وقال أبو البقاء هنا : و " لو " عوضٌ كالسين وسوف . وقيل : " لو " بمعنى " إنْ " و " أنْ " بمعنى اللامِ ، وليسَتْ بلازمةٍ كقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ [الشعراء : 16] وقال في موضعٍ آخرَ : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ ﴾ [المائدة : 73] ذكره ابن فَضَّال في " البرهان " . قلت : هذا شاذٌّ لا يُلتفت إليه البتَّةَ ؛ لأنه خلافُ النَّحْويين . وقرأ العامَّةُ بكسر واو " لو " على الأَصلِ . وابن وثاب والأعمشُ بضمِّها تشبيهاً بواوِ الضمير ، وقد تقدم تحقيقُه في البقرة .

وقوله : ﴿ غَدَقاً ﴾ الغَدَقُ بفتح الدال وكسرِها : لغتان في الماءِ الغزيرِ ، ومنه الغَيْداقُ :

الماءُ الكثيرُ، وللرجلِ الكثيرِ العَدْوِ، والكثيرِ النطقِ . ويقال: غَدِقَتْ عينُه تَغْدَقُ أي: هَطَلَ دَمْعُها غَدَقاً . وقرأ العامَّةُ "غَدقاً" بفتحتَيْن . وعاصم فيما رَوَى عنه الأعشى بفتحِ الغينِ وكَسْرِ الدالِ، وتقدَّم أنهما لغتان .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17)

قوله: ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾: الكوفيون بياءِ الغَيْبة، وهي واضحةٌ، لإعادةِ الضميرِ على الربِّ تعالى . وباقي السبعةِ بنونِ العظمة على الالتفات، هذا كما تقدَّم في قولِه: ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى ﴾ [الإسراء: 1] ثم قال: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ . وقرأ ابن جندب "نُسْلِكْه" بنونٍ مضمومة مِنْ أَسْلَكه . وبعضُهم بالياء مِنْ تحتُ مضمومةً، وهما لغتان . يُقال: سَلَكه وأسلكه . وأُنْشِدَ:

3457 حتى إذا أَسْلَكوهم في قُتائِدَةٍ . . . . . .

. . . . . .

(394/786)

وسَلَكَ وأَسْلك يجوزُ فيهما أَنْ يكونا ضُمِّنا معنى/ الإدخالِ فكذلك يتعدَّيان لاثنين .

ويجُوز أَنْ يقالَ: يتعدَّيان إلى أحدِ المفعولَيْن بإسقاطِ الخافضِ، كقولِه: ﴿ واختار موسى

قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] ، فالمعنى : يُدْخِلْه عذاباً ، أو يَسْلُكْه في عذاب ، هذا إذا قلنا : إنَّ " صَعَداً " مصدرٌ . قال الزمخشري : " يقال : صَعِدَ صَعَداً وصُعوداً ، فوصف به العذاب ؛ لأنه يَتَصَعَّدُ المُعَذَّب أي يَعْلُوه ويَغْلِبُه ، فلا يُطيقه . ومنه قولُ عمرَ رضي الله عنه : " ما تَصَعَّدني شيءٌ ما تَصَعَّدَتْني خطبةُ النكاحِ " يريد : ما شقَّ عليَّ ولا غَلَبَني " .

وأمَّا إذا جَعَلْناه اسماً لصَخْرةٍ في جهنمَ ، كما قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه ، فيجوزُ فيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ " صَعَداً " مفعولاً به أي : يَسْلُكْه في هذا الموضع ، ويكون " عذاباً " مفعولاً مِنْ أَجْلِه . والثاني : أَنْ يكونَ " عذاباً " مفعولاً ثانياً ، كما تَقَدَّم ، و " صَعَداً " بدلاً مِنْ عذاب ، ولكنْ على حَذْفِ مضافٍ أي : عذابَ صَعَدٍ .

و " صَعَداً " بفتحتَيْن هو قراءةُ العامَّة . وقرأ ابن عباس والحسنُ بضمِّ الصاد وفتح العين ، وهو صفةٌ تقتضي المبالغة كـ حُطَمٍ ولُبَدٍ ، وقُرِئَ بضمَّتين وهو وصفٌ أيضاً كـ جُنُب وشُلُل .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)

قوله : ﴿ وَأَنَّ المساجد ﴾ : قد تقدَّم أنَّ السبعةَ أجمعَتْ على الفتح ، وأنَّ فيه وجهَيْنِ : حَذْفَ الجارِّ ويتعلَّقُ بقولِه : " فلا تَدْعُوا " وهو رأيُ الخليلِ ، وجَعَله كقولِه : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] فإنَّه متعلِّقٌ بقولِه : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ [قريش : 2] وكقولِه : ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ [المؤمنون : 52] أي : ولأنَّ . والثاني : أنَّه عطفٌ على " أنَّه استمع " فيكون مُوْحَى . وقرأ ابن هرمز . وطلحة " وإنَّ المساجدَ " بالكسرِ ، وهو مُحْتَمِلٌ للاستئنافِ وللتعليلِ ، فيكونُ في المعنى كتقديرِ الخليلِ . والمساجد قيل : هي جَمْعُ " مَسْجِد " بالكسر وهو مَوْضِعُ السجُّودِ ، وتَقَدَّمَ أنَّ قياسَه الفتحُ . وقيل : هو جمع مَسْجَد بالفتح مُراداً به الآرابُ الورادةُ في الحديث : " الجبهةُ والأنفُ والركبتانِ واليدانِ والقَدَمان . وقيل : بل جمعُ مَسْجَد ، وهو مصدرٌ بمعنى السُّجود ، ويكون الجمعُ لاختلافِ الأنواعِ .

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19)

قوله : ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ : في موضع الحالِ أي : داعياً ، أي : مُوَحِّداً له .

قوله : ﴿ لِبَداً ﴾ قرأ هشام بضمِّ اللامِ ، والباقون بكسرِها . فالأولى . جمعُ لُبْدَة بضمِّ اللامِ نحو : غُرْفة وغُرَف . وقيل : بل هو اسمٌ مفردٌ صفةٌ من الصفاتِ نحو : " حُطَم " ، وعليه قولُه تعالى : ﴿ مَالاً لُّبَداً ﴾ [البلد : 6] . وأمَّا الثانيةُ : فجمعُ " لِبْدَة " بالكسر نحو : قِرْبَة وقِرَب . واللِّبْدَة واللُّبْدة . الشيءُ المتلبِّدُ أي : المتراكبُ بعضُه على بعضٍ ، ومنه لِبْدَة الأسد كقولِه :

4358 . . . . . لهِ لِبْدَةٌ أظفارُه لم تُقَلَّم

(396/786)

ومنه " اللِّبْدُ " لتَلَبُّدِ بعضِه فوق بعض ، ولُبَدٌ : اسمُ نَسْرِ لُقمانَ ابنِ عادٍ ، عاش مِئَتي سنةٍ حتى قالوا : " طال الأمَدُ على لُبَدٍ " والمعنى : كادَتِ الجِنُّ يكونون عليه جماعاتٍ متراكمةً مُزْدَحِمِيْن عليه كاللِّبدِ .

وقرأ الحسنُ والجحدريُّ " لُبُداً " بضمتين ، ورواها جماعةٌ عن أبي عمرو ، وهي تحتملُ وجهَيْنِ ، أحدُهما : أَنْ يكونَ جمعَ لَبْد نحو : " رُهُن " جمعَ " رَهْن " . والثاني : أَنَّه جمعُ " لَبُود " نحو : صَبورُ وصُبُر ، وهو بناءُ مبالغةٍ أيضاً . وقرأ ابن مُحَيْصن بضمةٍ وسكونٍ ، فيجوز أَنْ تكونَ هذه مخففةً من القراءةِ التي قبلها ، ويجوز أن تكونَ وَصْفاً برأسِه . وقرأ الحسن والجحدريُّ أيضاً " لُبَّداً " بضم اللام وتشديد الباء ، وهو جمعُ " لابِد " كساجِد وسُجَّد ، وراكع ورُكَّع . وقرأ أبو رجاء بكسرِ / اللامِ وتشديدِ الباءِ وهي غريبةٌ جداً .

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20)

قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو ﴾ : قرأ عاصمٌ وحمزةُ " قُلْ " بلفظِ الأمرِ التفاتاً أي : قُلْ يا محمدُ .

والباقون " قال " إخباراً عن عبدِ الله وهو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم . قال الجحدري : وهي في المصحفِ كذلك ، وقد تقدَّمَ لذلك نظائرُ في ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 93] آخرَ الإسراء ، وكذا في أولِ الأنبياءِ [الآية : 4] ، وآخر " المؤمنون " .

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21)

(397/786)

قوله : ﴿ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ﴾ : قرأ الأعرجُ " رُشُداً " بضمَّتَيْنِ . وجعل الضَّرَّ عبارةً عن الغَيِّ ؛ لأنَّ الضَرَّ سببٌ عن الغَيِّ وثمرتُه ، فأقام المسبَّبَ مُقامَ سببِه . والأصلُ : لا أَمْلِكُ غَيّاً ولا رَشَداً ، فذكر الأهمَّ . وقيل : بل في الكلامِ حَذْفان ، والأصل : لا أَمْلِكُ لكم ضَرّاً ولا نَفْعاً ولا غَيّاً ولا رَشَداً ، فحذفَ مِنْ كلِّ واحدٍ ما يَدُلُّ مقابِلُه عليه .

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22)

قوله : ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ : مفعولُ " أَجِدُ " لأنَّها بمعنى : أُصيبُ وأُلْقَى . والمُلْتَحَدُ هنا : المَسْلَكُ والمَذْهَبُ قال :

4359 يا لَهْفَ نفسي ولَهْفي غيرُ مُجْدِيَةٍ . . . عَنِّي وما مِنْ قضاءِ الله مُلْتَحَدُ

أي : مَهْرَبٌ ومَذْهَبٌ .

إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23)

(398/786)

قوله : ﴿ إِلاَّ بَلاَغاً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه استثناءٌ منقطعٌ . أي : لكنْ إنْ بَلَّغْتُ عن اللَّهِ رَحِمني ؛ لأنَّ البلاغَ من الله لا يكونُ داخلاً تحت قولِه : ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ، لأنه لا يكونُ مِنْ دونِ اللَّهِ ، بل يكونُ من اللَّهِ وبإعانتِه وتوفيقِه . الثاني : أنه متصلٌ . وتأويلُه : أنَّ الإجارةَ مستعارةٌ للبلاغِ ، إذ هو سببُها ، وسببُ رحمتِه تعالى ، والمعنى : لن أجدَ سبباً أميلُ إليه وأعتصمُ به ، إلاَّ أَنْ أُبَلِّغَ وأُطيعَ ، فيُجيرَني . وإذا كان متصلاً جاز نصبُه من وجهين ، أحدهما : وهو الأرجح أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " مُلْتحداً " ؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ . والثاني : أنه منصوبٌ على الاستثناءِ ، وإلى البدليةِ ذهب أبو إسحاق . الثالث : أنه مستثنى مِنْ قولِه : ﴿ لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ﴾ قال قتادة : أي لا أَمْلِكُ لكم إلاَّ بلاغاً إليكم .

وقرَّره الزمخشريُّ فقال : " أي : لا أَمْلِكُ إلاَّ بلاغاً من اللَّهِ ، و ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ﴾ جملةٌ معترضةٌ اعترضَ بها لتأكيدِ نَفْيِ الاستطاعة " . قال الشيخ : " وفيه بُعْدٌ لطولِ الفَصْلِ

بينهما " . قلت : وأين الطولُ وقد وقع الفَصْلُ بأكثرَ مِنْ هذا ؟ وعلى هذا فالاستثناءُ منقطعٌ . الرابع : أنَّ الكلامَ ليس استثناءً بل شرطاً . والأصل : إنْ لا فأدغم ف " إنْ " شرطيةٌ ، وفعلُها محذوفٌ لدلالةِ مصدرِه والكلامِ الأولِ عليه ، و " لا " نافيةٌ والتقدير : إن لا أُبَلِّغْ بلاغاً من اللَّهِ فلن يُجيرَني منه أحدٌ . وجَعَلوا هذا كقولِ الشاعر :

4360 فطَلِّقْها فَلَسْتَ لها بكُفْءٍ . . . وإلاَّ يَعْلُ مَفْرِقَكَ الحُسامُ

(399/786)

أي : وإنْ لا تُطَلِّقْها يَعْلُ ، حَذَفَ الشرطَ وأبقى الجوابَ . وفي هذا الوجهِ ضَعْفٌ من وجهَيْن ، أحدهما : أنَّ حَذْفَ الشرطِ دونَ أداتِه قليلٌ جداً . والثاني : أنَّه حُذِفَ الجزآن معاً أعني الشرطَ والجزاءَ ، فيكونُ كقولِه :

4361 قالَتْ بناتُ العَمِّ يا سَلْمى وإنْ . . . كان فقيراً مُعْدَماً قالت : وإنْ

أي : قالَتْ : وإنْ كان فقيراً فقد رَضِيْتُه . وقد يُقال : إنَّ الجوابَ إمَّا مذكورٌ عند من يرى جوازَ تقديمِه ، وإمَّا في قوةِ المنطوق به لدلالةِ ما قبلَه عليه .

قوله : ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ " مِنْ " بمعنى عَنْ ؛ لأنَّ بَلِّغ يتعدَّى بها ، ومنه قولُه عليه السلام : " ألا بَلِّغوا عني " والثاني : أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل "

بلاغ" . قال الزمخشري : "مِن" ليسَتْ صلةً للتبليغ ، إنما هي بمنزلةِ "مِنْ" في قوله : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ ﴾ [التوبة : 1] بمعنى : بلاغاً كائناً من الله" .

قوله : ﴿ وَرِسَالاَتِهِ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنها منصوبةٌ نَسَقاً على "بلاغاً" كأنه قيل : لا أَمْلِكُ لكم إلاَّ التبليغَ والرسالاتِ ، ولم يَقُلِ الزمخشريُّ غيرَه . والثاني : أنها مجرورةٌ نَسَقاً على الجلالةِ أي : إلاَّ بلاغاً / عن اللَّهِ وعن رسالاتِه ، كذا قَدَّره الشيخُ .

وجَعَلَه هو الظاهرَ . وتجوَّز في جَعْلِه "مِنْ" بمعنى عن ، والتجوُّزُ في الحروفِ رأيٌ كوفيٌّ ، ومع ذلك فغيرُ منقاسٍ عندَهم .

(400/786)

قوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ ﴾ العامَّة على كسرِها ، جَعَلوها جملةً مستقلة بعد فاءِ الجزاءِ . وقرأ طلحةُ بفَتْحِها ، على أنَّها مع ما في حَيِّزِها في تأويلِ مصدرٍ واقعٍ خبراً لمبتدأ مضمرٍ تقديرُه : فجزاؤُه أنَّ له نارَ جهنمَ ، أو فحُكْمُه : أنَّ له نارَ جهنَم . قال ابن خالويه : "سَمِعْتُ ابنَ مجاهدٍ يقول : لم يَقْرَأْ به أحدٌ ، وهو لحنٌ ؛ لأنه بعد فاءِ الشرط" . قال : "وسمعتُ ابنَ الأنباريِّ يقول : هو صوابٌ ومعناه ، فجزاؤُه أنَّ له نارَ جهنم" . قلت : ابنُ مجاهدٍ وإنْ كان إماماً في القراءاتِ ، إلاَّ أنَّه خَفِيَ عليه وجهُها ، وهو عجيبٌ جداً . كيف غَفَلَ عن قراءتَيْ

﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ في الأنعام [الآية : 54] ، لا جرم أنَّ ابنَ الأنباريِّ اسْتَصْوَبَ القراءةَ لطُولِ باعِه في العربية .

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حالٌ من الهاء في " له " ، والعاملُ الاستقرارُ الذي تَعَلَّقَ به هذا الجارُّ ، وحَمَلَ على معنى " مَنْ " فلذلك جَمَعَ .

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24)

(401/786)

قوله : ﴿ حتى إذَا ﴾ : قال الزمخشري : " فإنْ قُلْتَ : بِمَ تَعَلَّق " حتى " وجُعِلَ ما بعدَه غايةَ له ؟ قلت : بقولِه : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 19] على أنهم يتظاهرون عليه بالعَداوةِ ، ويَسْتَضْعِفون أنصارَه ، ويَسْتَقِلُّون عَددَه ، حتى إذا رَأَوْا ما يُوْعَدون مِنْ يوم بدرٍ ، وإظهارِ اللَّهِ عليهم ، أو مِنْ يومِ القيامةِ فسَيَعْلمونَ حينئذٍ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً . قال : " ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ دَلَّتْ عليه الحالُ : مِن استضعافِ الكفارِ واستقلالِهم فعددِه ، كأنه [قال :] لا يزالون على ما هم عليه ، حتى إذا رَأَوْا ما يُوْعَدون قال المشركون : متى هذا الموعدُ ؟ إنكاراً له : فقال : قُلْ إنه كائنٌ لا ريبَ فيه . قال الشيخ : " قولُه : بِمَ تَعَلَّق ؟ إن عَنَى تعلُّقَ حرفِ الجرِّ فليس بصحيح لأنَّها حرفُ ابتداءٍ فما بعدها ليس في موضعِ جرٍ

خلافاً للزجّاجِ وابنِ دُرُسْتَوَيْه فإنهما زعما أنها إذا كانَتْ حرفَ ابتداءٍ فالجملةُ الابتدائيةُ بعدها في موضع جرّ . وإنْ عَنَى بالتعلُّق اتصالَ ما بعدَها بما قبلَها وكونَ ما بعدَها غايَةً لما قبلَها فهو صحيحٌ . وأمَّا تقديرُه أنها تتعلَّقُ بقولِه : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ فهو بعيدٌ جداً لطولِ الفَصْلِ بينهما بالجملِ الكثيرةِ . وقدَّر بعضُهم ذلك المحذوفَ المُغَيَّا ، فقال : تقديرُه : دَعْهم حتى إذا . وقال التبريزي : " جازَ أَنْ تكونَ غايةً لمحذوفٍ " ولم يُبَيِّن ما هو ؟ وقال الشيخ : " والذي يَظْهَرُ أنها غايةٌ لما تَضَمَّنَتْه الجملةُ التي قبلَها مِنْ الحُكْم بكينونةِ النارِ لهم . كأنَّه قيل : إنَّ العاصِيَ يُحْكَمُ له بكَيْنونةِ النارِ ، والحُكْمُ بذلك هو وعيدٌ ، حتى إذا رَأَوْا ما حَكَم بكينونتِه لهم فسَيَعْلمون " .

(402/786)

قوله : ﴿ مَنْ أَضْعَفُ ﴾ يجوزُ في " مَنْ " أن تكونَ استفهاميةً فترتفعَ بالابتداء ، و " أضعفُ " خبرُه . والجملةُ في موضعِ نصبٍ سادَّةً مَسَدَّ المفعولَيْن لأنها مُعَلِّقَةٌ للعلمِ قبلَها ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، و " أَضْعَفُ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ . أي : هو أَضْعَفُ . والجملةُ صلةٌ وعائدٌ . وحَسَّن الحَذْفَ طولُ الصلةِ بالتمييزِ . والموصولُ مفعولٌ للعِلْم بمعنى العِرْفان .

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25)

قوله: ﴿ أَقَرِيبٌ ﴾: خبرٌ مقدّمٌ و "ما تُوعَدون" [مبتدأ]. ويجوز أن يكون "قريبٌ" مبتدأً لاعتماده على الاستفهام. و "ما تُوعَدون" فاعلٌ به أي: أقربُ الذي تُوْعَدون، نحو: أقائمٌ أبواك. و "ما" يجوز أَنْ تكونَ موصولةً، فالعائدُ محذوفٌ، وأَنْ تكونَ مصدريةً فلا عائدَ/ و "أم": الظاهرُ أنها متصلةٌ. وقال الزمخشري: "فإنْ قلتَ ما معنى ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ﴾ والأمدُ يكونُ قريباً وبعيداً؟ ألا ترى إلى قوله ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران: 30] قلت: كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَستَقْرِبُ المَوْعِدَ فكأنه قال: "ما أَدْري أهو حالٌ متوقَّعٌ في كلِّ ساعةٍ أم مُؤَجَّلٌ ضُرِبَتْ له غايةٌ".

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26)

قوله: ﴿ عَالِمُ الغيب ﴾: العامَّةُ على رفعِهِ: إمَّا بدلاً مِنْ "ربي"، وإمَّا بياناً له، وإمَّا خبراً لمبتدأ مضمرٍ أي: هو عالِمُ. وقُرِىء بالنصبِ على المدحِ. وقرأ السُّدِّي "عَلِمَ الغيبَ" فعلاً ماضياً ناصباً للغيب.

قوله: ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ ﴾ العامَّةُ على كونِه مِنْ أظْهر. و "أحَداً" مفعولٌ به. وقرأ الحسن "يَظْهَرُ" بفتحِ الياءِ والهاءِ، مِنْ ظَهَر ثلاثياً. "أحَدٌ" فاعلٌ به.

إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27)

قوله : ﴿ إلاَّ مَنِ ارتضى ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منقطعاً أي : لكن مَنْ ارتضاه فإنه يُظْهِرُه على ما يشاءُ مِنْ غَيْبه بالوَحْيِ . وقولُه : "مِنْ رسولٍ" بيانٌ للمُرْتَضِيْنَ .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ ﴾ بيانٌ لذلك . وقيل : هو متصلٌ . و "رَصَداً" قد تقدَّم الكلامُ عليه . ويجوز أَنْ تكونَ "مَنْ" شرطيةً أو موصولةً متضمّنَةً معنى الشرط . وقوله : "فإنَّه" خبرُ المبتدأ على القولَيْنِ . وهو من الاستثناءِ المنقطعِ أيضاً ، أي : لكن . والمعنى : لكنْ مَنْ ارتضاه من الرُّسُلِ فإنه يَجْعَلُ له ملائكةً رَصَداً يَحْفَظونه .

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)

قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ : متعلقٌ ب "يَسْلُكُ" . والعامَّةُ على بنائه للفاعلِ . وفيه خلافٌ أي : لِيَعْلَمَ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم . وقيل : لِيَعْلَمَ أي : لِيَظْهَرَ عِلْمُه للناس . وقيل : لِيَعْلَمَ إبليسُ . وقيل : لِيَعْلَمَ المشركون . وقيل : لِيَعْلَمَ الملائكةُ ، وهما ضعيفان لإفرادِ الضميرِ . والضميرُ في "أَبْلَغُوا" عائدٌ على "مَنْ" مِنْ قوله : "مَنْ ارتَضَى" راعى لفظَها أولاً ، فأفردَ في قوله : ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ ، ومعناها ثانياً فَجَمَعَ في قوله : "أَبْلَغُوا" إلى آخرِه

.

وقرأ ابنُ عباس وزيدُ علي "لِيُعْلَمَ" مبنياً للمفعول . وقرأ ابن أبي عبلةَ والزُّهْري "لِيُعْلِمَ" بضمِّ الياءِ وكسرِ اللامِ أي : لِيُعْلِمَ اللَّهُ ورسولُه بذلك . وقرأ أبو حيوة "رسالة" بالإفرادِ ،

والمرادُ الجمعُ . وابن أبي عبلة " وأُحِيْط وأُحْصِيَ " مبنيين للمفعول ، " كلُّ " رفعٌ بأُحْصِي

.

(404/786)

قوله : ﴿ عَدَداً ﴾ يجوز أَنْ يكونَ تمييزاً منقولاً من المفعولِ به . والأصل : أحصى عددَ كلِّ شيءٍ كقولِه تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [القمر : 12] أي : عيونَ الأرض ، على خلافٍ سَبَقَ في ذلك . ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً على المصدرِ من المعنى ؛ لأنَّ " أحصَى " بمعنى عَدَّ ، فكأنه قيل : وعَدَّ كلَّ الفعل ، والفعلُ إلى المصدر . ومَنَعَ مكي كونَه مصدراً للإظهار فقال : " عَدَداً " نَصْبٌ على البيانِ ، ولو كان مصدراً لأدغم " قلت : يعني : أنَّ قياسَه أَنْ يكونَ على فَعْل بسكونِ العين ، لكنه غيرُ لازمٍ فجاء مصدرُه بفتح العين . ولَمَّا كان " لِيَعْلَمَ " مضمَّناً معنى : قد عَلِمَ ذلك ، جازَ عَطْفُ " وأحاط " على ذلك المقدَّرِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 479. 507 ﴾

(405/786)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عد)

عَدَدْتُ الشىءَ عَدًّا أَى أَحصيته .

وقوله تعالى : ﴿ فَسْئَلِ الْعَآدِّينَ ﴾ أَى الملائكة الذِّين تعدّ عليهم أَنفاسَهم وأَعمارهم ، فهم أَعلم بما لبثوا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ أَى أَنفاسهم .

والاسم العَدَد والعَدِيد .

وقوله : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ أَى عدّ كلّ شىءٍ عَدًّا ، ويجوز أَن يكون [عَدَدًا] بمعنى معدود ، فيكون انتصابه على الحال [كَالحسَب] بمعنى المحسوب ، والنَفَض بمعنى المنفوض .

قال امرأَة رأَت رجلاً كانت عَهِدته جَلْدًا شابًّا : أَين شبابك وجَلَدك ؟ فقال : من طال أَمَدُه ، وكثر وَلَدُه ، ورقّ عَدَدُه ، ذهب جَلَده .

قوله : عدده أَى سِنُوه التى بعَدّها ذَهب أَكثر سِنّه وقلّ ما بقى فكان عنده رقيقاً .

وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ ، ذِكره العدد تنبيه على كثرتها .

والأَيام المعدودات : أَيام التشريق ، وقيل يوم النّحر ويومان بعده .

وعِدّة المرأَة : أَيام أَقرائها .

وسئل أَبو واثلة إِياس بن معاوية : متى تكون القيامة ؟ فقال : إِذا تكاملت العِدّتان : عدّة أَهل الجنَّة وعدّة أَهل النار .

أَي إِذا تكاملت عند الله لرجوعهم إِليه قامت القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ فكأَنَّهم إِذا استوفَوا المعدود لهم قامت القيامة عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ أَي جعله عُدّة للدّهر .

وقال الأَخفش : جعله ذا عدد .

قيل : يُتجوّز بالعَدّ على أَوجه : يقال : شيءٌ معدود ومحصور للقليل مقابَلة لما لا يُحصى كثرة ، نحو المشار إِليه بقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وعلى ذلك قوله : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ ، أَي قليلة لأَنهم قالوا : نعذَّب بعدد الأَيام التى عبدْنا فيها العجْل .

ويقال على الضدّ من ذلك : نحو جيش عديد أَي كثير .

وإِنَّهم لذوو عَدَد ، أَى هم بحيث [يجب] أَن يُعَدوّا كثرة .

ويقال فى القليل : هم شىءٌ غير معدود .

وقوله : ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ يحتمل الأَمرين .

ومنه هذا غير معتدّ به .

وله ، عُدّة أَى شىءٌ / كثير من مال وسلاح وغيرهِما .

والعُدّة أَيضاً : الاستعداد ، يقال : كونوا على عُدّة .

وأَخذ للأَمر عُدّته وعَتَاده بمعنىً وماءٌ عِدٌّ .

والعِدّةُ : هى الشىءُ المعدود ، وقوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أَى عَدَد ما قد فاته .

وقوله : ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ ﴾ أَى عدّة الشهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 26. 27 ﴾

(407/786)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الجن

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز به أقر من أقر بربوبيته ، وبه أضر من أصر على معرفته ، وبه استقر من استقر من خليقته ، وبه ظهر ما ظهر من مقدوراته ، وبه بطن ما بطن من مخلوقاته ، فمن جحد فبخذلانه وحرمانه ، ومن وحد فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرنا عجبا)

قيل : إن الجنّ كانوا يأتون السماءَ فيستمعون إلى قولِ الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبيّنا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ورُجِمُوا بالشُّهُبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شيءٌ ففرَّ جنوده ، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ . . ﴾ [الأحقاف : 29] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ الجَدّ العظمة ، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال . .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾ .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعني إبليس . والشطط السَّرَف .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ .

في كفرهم وكلمتهم بالشّرك .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ .

(408/786)

أَي ذِلة وصغاراً ؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذِلَّةً ورهقاً فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادي فيتوهم الجنُّ انهم على شيء ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ حيث استعاذوا بهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً ﴾ .

أي ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألّا بعثَ ولا نشور – كما ظننتم إيها الإنس .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ .

يعني حين منعوا عن الاستماع .

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الأَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ .

فالآن قد مُنِعْنا .

﴿ وَأَنَّا لاَنَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رُشَداً ﴾ .

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ . والإعراضُ عن الله يُوجِب تَنَغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة . . وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه ؟ ! .

ويقال : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما للَّهِ غَيْرَ الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخَلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه ، يمنعونه عن التبليغ .

(409/786)

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23)

قل يا محمد :

﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

لا أقدر أن أدفع عنكم ضرّاً ، أو أسوق لكم خيراً . . . فكل شيء من الله . ولن أجد من دونه ملتجأ :

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ .

فلن يُنَجِّينِي من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25)

أي : لا أَدْري ما تُوعَدون من العقوبة ، ومن قيام الساعة أَقريب أم بعيد ؟ فكونوا على حذرٍ . ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس ليَسلم من العقوبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ .

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده .

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدّامه وخَلْفه . . هم ملائكةٌ حَفَظَه ، يحفظون الوحيَ من الكهنة

والشياطين ، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التي يحملها . . . واللَّه يعلم ذلك ، وأحاط عِلْمُه به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 637.640﴾

(410/786)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الجنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3) وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4)

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ

وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14)

(411/786)

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

الإعراب :

(إليّ) متعلّق بـ(أوحي) ، و(الهاء) في (أنّه) ضمير الشأن اسم أنّ (من الجنّ) متعلّق بنعت لـ (نفر) . . .

جملة : "قل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "أوحي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "استمع نفر . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّه استمع . . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل أوحي .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة استمع وجملة : " إنّا سمعنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سمعنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

2 – (إلى الرشد) متعلّق بـ (يهدي) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (به) متعلّق بـ (آمنّا) ، (الواو) عاطفة (بربّنا) متعلّق بـ (نشرك) .

وجملة : " يهدى . . . " في محلّ نصب نعت لـ (قرآنا) " 1 " وجملة : " آمنّا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سمعنا .

وجملة : " لن نشرك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنّا .

3 – (الواو) عاطفة (ما) نافية (صاحبة) مفعول به ثان منصوب ، والمفعول الأول مقدّر أي امرأة . . . (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (ولدا) معطوفة على صاحبة " 2 " . . .

وجملة : " تعالى جدّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة " 3 " .

وجملة : " ما اتّخذ . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) والمصدر المؤوّل (أنّه . . . ما اتّخذ) في محلّ جرّ معطوف على محلّ الضمير في (به) أي آمنّا به " 4 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من (قرآنا) الموصوف بـ (عجبا) .

(2) وفي الكلام تقدير أي : ولا أحدا ولدا .

(3) يجوز أن تكون الجملة خبرا لـ (أنّ) ، والجملة بعدها حالا من ربّنا .

(4) في الآيات وردت (أنّ) مفتوحة الهمزة . . . فالمصدر المؤوّل فيها معطوف على محلّ الضمير في (به) على الرغم من عدم إعادة الجارّ ، ولكنّ الحذف قياسيّ في هذا التعبير المبدوء بـ (أنّ) .

(412/786)

---

4 – (الواو) عاطفة (أنّه كان . . .) مثل أنّه استمع ، واسم (كان) هو الضمير الشأن محذوف " 1 " ، (على اللّه) متعلّق بحال من فاعل يقول أي : يقول السفيه كاذبا على اللّه (شططا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي قولا شططا " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أنّه كان . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (أنّه . . . ما اتّخذ) وجملة : "كان يقول . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الثالث .

وجملة : " يقول سفيهنا . . . " في محلّ نصب خبر كان . . .

5 – (الواو) عاطفة (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف (على اللّه) متعلّق بحال من فاعل تقول (كذبا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي قولا

كذبا .

والمصدر المؤوّل (أنّا ظنّنا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق أنّه كان . . .

والمصدر المؤوّل (أن لن تقول) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّنا .

وجملة : " ظننا . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الرابع .

وجملة : " لن تقول الإنس . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخففة .

6 – (الواو) عاطفة (أنّه كان . . .) مثل السابق (من الإنس) متعلّق بنعت لـ (رجال) (برجال) متعلّق بـ (يعوذون) ، (من الجنّ) متعلّق بنعت لـ (رجال) الثاني (الفاء) عاطفة (رهقا) مفعول به ثان منصوب .

---

(1) أو ضمير مستتر وجوبا يعود على السفيه الآتي لتنازعه مع فعل يقول عليه .

[. . . . .]

(2) أو هو مفعول به .

و المصدر المؤوّل (أنّه كان . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : "كان رجال . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة : " يعوذون . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " زادوهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان رجال .

7 – (الواو) عاطفة (أنّهم ظنّوا) مثل أنّا ظنّنا (ما) حرف مصدريّ (أن لن يبعث . . .)

مثل أن لن تقول . . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم ظنّوا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (أنّه كان . .)

والمصدر المؤوّل (ما ظننتم) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي : ظنّا كظنّكم .

والمصدر المؤوّل (أن لن يبعث) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا – أو ظننتم – " 1 "

.

وجملة : " ظنّوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " ظننتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لن يبعث اللّه . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

8 – (الواو) عاطفة (الفاء) كذلك (حرسا) تمييز منصوب " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أنّا لمسنا . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

---

(1) ومفعولا الظنّ الآخران محذوفان دلّ عليهما المصدر السادّ مسدّهما في الظنّ الآخر .

(2) أو هو مفعول به عند من يجعل فعل ملأ متعدّيا لاثنين .

وجملة : " لمسنا . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة : " وجدناها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لمسنا .

وجملة : " ملئت . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (وجدناها) .

9 – (الواو) عاطفة (منها) متعلّق بجب من مقاعد " 1 " ، (مقاعد) مفعول مطلق " 2 " منصوب أي قعودات للسمع (للسمع) متعلّق بـ (نقعد) " 3 " أي لأجل السمع (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (يستمع) مضارع مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الآن) ظرف مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بـ (يستمع) ، (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

والمصدر المؤوّل (أنّا كنّا . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : "كنّا نقعد . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " نقعد . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة : " من يستمع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستمع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

وجملة : " يجد . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " جد ربنا " استعارة من الجد الذي هو الدولة والبخت ، لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لفعل نقعد بتضمينه معنى نتّخذ .

(2) فهو جمع للمصدر الميميّ مقعد . . . أو هو مفعول به لفعل نقعد بالتضمين السابق ومقاعد جمع لاسم المكان مقعد .

(3) أو متعلّق بنعت لمقاعد .

(4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

والمعنى : وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته . أو لسلطانه وملكوته أو لغناه .

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وأنا لمسنا السماء " .

أي طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها ، أو طلبنا خبرها . واللمس : قيل : مستعار من المس ، للطلب ، كالجس . يقول : لمسه والتمسه وتلمسه ، كطلبه واطلبه وتطلبه . والظاهر أن

الاستعارة لغوية ، لأنه مجاز مرسل ، لاستعماله في لازم معناه .

الفوائد

- هل رأى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) الجنّ ؟

اختلف الرواة هل رأى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) الجن ؟ فقد أثبت ذلك ابن مسعود فيما رواه عنه مسلم في صحيحة ، وقد تقدم حديثه في سورة الأحقاف ، عند قوله تعالى : " وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن " . وأنكر ذلك ابن عباس ، فيما رواه عنه البخاري ومسلم ، قال ابن عباس : ما قرأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) على الجن ولا رآهم .

(416/786)

انطلق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) في طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسل عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقيل : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا :

وما ذاك إلا من شيء قد حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا السبب .

فانطلقوا ، فمر النفر الذين أخذوا نحو (تهامة) بالنبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، وهو بنخلة ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بالصحابة صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن واستمعوا له قالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا فأنزل اللّه عز وجل على رسوله (صلّى اللّه عليه وسلّم) الآية . وأما حديث ابن مسعود فقضية أخرى وجن آخرون ، والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون ، متعبدون بالأحكام الشرعية ، وأنه صلى اللّه عليه وسلم رسول إلى الإنس والجن .

- كرامات الأنبياء :

قال الزمخشري : في هذه الآية دليل على إبطال الكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم الكرامات ، وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل . وقد خص اللّه الرسل - من بين المرتضين - بالاطلاع على الغيب . وفيه أيضا إبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابها أبعد شيء في الارتضاء ، وأدخله في السخط . قال الواحدي : وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون ، من حياة أو موت ، ونحو ذلك ، فقد كفر بما في القرآن .

فأما الزمخشري ، فقد أنكر كرامات الأولياء ، جريا على قاعدة مذهبه في الاعتزال ، ووافق الواحدي وغيره من المفسرين في إبطال الكهانة والتنجيم . قال الامام فخر الدين : ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة ، فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات . قال : وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء من ذلك ، والذي تدل عليه أن قوله (فلا يظهر على غيبه أحدا) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر اللّه تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فتحمله على وقت وقوع القيامة ، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئا من الغيوب لأحد . ثم إنه يجوز أن يطلع اللّه على شيء من المغيبات غير الرسل . والذي ينبغي أن مذهب أهل السنة إثبات كرامات الأولياء ، خلافا للمعتزلة ، وأنه يجوز أن يلهم اللّه بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل ، فيخبر به . ويدل على صحة ذلك ما

روي عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدّثون ملهمون .

و

عن عائشة رضي اللّه عنها عن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) : أنّه كان يقول : قد كان يكون

في الأمم قبلكم محدّثون ، فإن يكن من أمتي منهم أحد ، فإن عمر بن الخطاب منهم .

ففي هذا إثبات لكرامات الأولياء . وما جاز أن يكون معجزة لنبي صح أن يكون كرامة لولي . والفرق بينهما : أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ، ولا يجوز للولي أن يدعي خرق العادة مع التحدي ، إذ لو

ادعاه الولي لكفر من ساعته . أما الكهانة ، فقد أغلق بابها بمبعثه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، فمن ادعاها فهو كافر . واللّه تعالى اعلم .

(418/786)

---

10 - (الواو) عاطفة (لا) نافية (الهمزة) للاستفهام (شرّ) فاعل لفعل محذوف على الاشتغال تقديره حصل أو تمّ " 1 " . (بمن) متعلّق بـ(أريد) ، (أم) عاطفة " 2 " ، (بهم) متعلّق بـ(أراد) . . . و(في الأرض) متعلّق بصلة من . . .

والمصدر المؤوّل (أنّا لا ندري . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : " لا ندري . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " (أحصل) شرّ . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعول ندري المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " أريد . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أراد بهم ربّهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على الجملة المقدّرة حصل .

11 - (الواو) عاطفة (منّا) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الصالحون) ، وكذلك (منّا) الثاني والمبتدأ مقدّر وصف بالظرف دون أي : منّا قوم دون ذلك " 3 " ، (طرائق) خبر كنّا بحذف مضاف أي ذوي طرائق " 4 " .

---

(1) يجوز أن يكون (شرّ) مبتدأ خبره جملة أريد ، وحينئذ تعطف الجملة الفعلية أراد على الاسميّة شرّ أريد .

(2) الجملة بعدها بتأويل مفرد لذلك صحّ كونها عاطفة أي أشرّ أريد بمن في الأرض أم خير ، وجاء التعبير عن (خير) بالجملة . . . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل ، فالجملة بعدها استئنافيّة .

(3) على رأي الأخفش (دون) لفظ بمعنى غير مبنيّ لإضافته إلى مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ .

(4) يجوز أن يكون حذف المضاف في اسم كان أي كانت أحوالنا طرائق . . .

والمصدر المؤوّل (أنّا منّا الصالحون) في محلّ جرّ معطوف على المصدر السابق .

وجملة : " منّا الصالحون . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة : " منّا دون ذلك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : "كنّا طرائق . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – .

12 – (الواو) عاطفة (أن لن نعجز . .) مثل أن لن تقول . . (في الأرض) متعلّق بحال من فاعل نعجز (هربا) مصدر في موضع الحال أي هاربين . .

والمصدر المؤوّل (أنّا ظننّا . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

والمصدر المؤوّل (أن لن نعجز) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّنا .

وجملة : " ظنّنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " لن نعجز . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " لن نعجزه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نعجز .

13 – (الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب آمنّا (به) متعلّق بـ (آمنّا) ، (الفاء) استئنافيّة (من يؤمن) مثل من يستمع (بربّه) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية ، والثانية زائدة لتأكيد النفي (رهقا) معطوف على (بخسا) منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّا لمّا سمعنا . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر السابق .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " سمعنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آمنّا به . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " من يؤمن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : " يؤمن بربّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " لا يخاف . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

14 - (الواو) عاطفة (منّا المسلمون) مثل منّا الصالحون ، وكذلك (منّا القاسطون) ، (فمن) مثل الأول (أسلم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (تحرّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، و(الواو) فاعل . .

والمصدر المؤوّل (أنّا منّا المسلمون . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : " منّا المسلمون " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " منّا القاسطون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

وجملة : " من أسلم " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة " 1 " .

وجملة : " أسلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " أولئك تحرّوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " تحرّوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ .

15 - (الواو) عاطفة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الفاء) رابطة لجواب أمّا (لجهنّم) متعلّق بحال من (حطبا) .

وجملة : " القاسطون . . كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من أسلم . .

---

(1) يجوز عطفها على جملة الخبر (منّا المسلمون) بتقدير الربط أي فمن أسلم منّا . . .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(420/786)

وجملة : "كانوا . . حطبا " في محلّ رفع خبر المبتدأ (القاسطون) .

16 - (الواو) اعتراضيّة - أو استئنافيّة - (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لو) حرف شرط غير جازم (على الطريقة) متعلّق بـ (استقاموا) ، (اللام) واقعة في جواب لو (ماء) مفعول به ثان منصوب . .

والمصدر المؤوّل (أن لو استقاموا . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل محذوف تقديره أوحي إليّ . . " 1 "

وجملة : " (أوحي إليّ . . . " أن لو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع خبر (أن) .

وجملة : " أسقيناهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

17 - (اللام) لام التعليل (نفتنهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الواو) اعتراضيّة (من) مثل الأول (عن ذكر) متعلّق بـ (يعرض) . . (فيه) متعلّق بـ (نفتنهم) . (عذابا) مفعول به ثان بـ (تضمين) نسلكه معنى ندخله .

والمصدر المؤوّل (أن نفتنهم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أسقيناهم) .

وجملة : " نفتنهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " من يعرض . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يعرض . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " يسلكه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

18 - (الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بخبر أنّ (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر

---

(1) الكلام هنا ليس من كلام الجنّ بل من كلامه تعالى ، وعلى هذا يجوز العطف على المصدر المؤوّل (أنّه استمع . .) وكلّ ما بينهما اعتراض . [. . . . .]

(2) أو اعتراضيّة بين كلام الجنّ الأول وكلامهم اللاحق . .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(لا) ناهية جازمة (مع) ظرف منصوب متعلّق بحال من (أحدا) . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ المساجد للّه) في محلّ رفع معطوف على المصدر المؤوّل (أن لو استقاموا . .) .

وجملة : "لا تدعوا . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن تهيّأتم للعبادة فلا تدعوا . .

19 - (الواو) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب . . (عليه) متعلّق بـ (لبدا) بتأويل مشتّق أي جماعات . .

والمصدر المؤوّل (أنّه لما قام . .) في محلّ رفع معطوف على المصدر المؤوّل السابق أو المصدر المؤوّل (أنّه استمع . . .) في الآية (1) من هذه السورة .

وجملة : "الشرط وفعله وجوابه . . . "في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "قام عبد اللّه . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "يدعوه . . . "في محلّ نصب حال من فاعل قام وجملة : "كادوا . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يكونون . . . " في محلّ نصب خبر كادوا .

الصرف :

(3) تعالى : فيه إعلال بالقلب ، أصله تعالي – بالياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(جدّ) ، اسم بمعنى العظمة والجلال بفتح الجيم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(6) رهقا : مصدر سماعيّ للثلاثيّ رهق بمعنى غشي ، باب فرح ، وهنا بمعنى السفه والطغيان .

(422/786)

---

(8) حرسا : اسم جمع أو جمع حارس ، اسم فاعل من الثلاثيّ حرس وزنه فاعل ووزن حرس فعل بفتحتين .

(9) رصدا : مصدر سماعيّ للثلاثيّ رصد باب نصر بمعنى رقبه أو قعد له في طريقه ، واستعمل في الآية كصفة للمبالغة بمعنى المفعول أي أرصد له هيّئ . . أو على تقدير مضاف إي ذا إرصاد .

(11) قددا : جمع قدّة اسم بمعنى السيرة والطريقة مشتّق من (قدّ السير) أي قطعه ، وزن

قدّة فعلة بكسر فسكون ، وعينه ولامه من حرف واحد ، ووزن قدد فعل بكسر ففتح .

(12) هربا : مصدر سماعيّ للثلاثيّ هرب باب نصر ، وزنه فعل بفتحتين .

(14) القاسطون : جمع القاسط ، اسم فاعل من الثلاثيّ قسط بمعنى جار ، وزنه فاعل .

(تحرّوا) ، فيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين لام الكلمة وواو الجماعة ، وزنه تفعّوا بفتح التاء والعين .

(15) حطبا : اسم جمع القطعة منه حطبة ، وزنه فعلة بفتحتين ، والجمع أحطاب زنة أفعال وحطب فعل .

(16) غدقا : صفة مشبّهة من الثلاثيّ غدق باب فرح بمعنى أعطى كثيرا ، وزنه فعل بفتحتين .

(17) صعدا : مصدر الثلاثيّ صعد باب فرح ، واستعمل المصدر وصفا بمعنى اسم الفاعل للمبالغة .

(19) لبدا : جمع لبدة زنة سدرة – بكسر اللام – اسم للشعر الذي فوق رقبة الأسد . وكلّ شيء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبّدته ، ووزن لبد فعل بكسر ففتح وقد تضمّ كقوله تعالى : أهلكت مالا لبدا " 1 " .

---

(1) في الآية (6) من سورة البلد .

(423/786)

البلاغة

السر في اختلاف صورة الكلام : في قوله تعالى " وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً " . فإن ما قبل " أم " من الكلام صورة تخالف صورة ما بعدها ، لأن الأولى فيها فعل الإرادة مبني للمجهول ، والثانية فيها فعل الإرادة مبني للمعلوم .

والسبب الداعي إلى ذلك : الأدب مع اللّه سبحانه وتعالى ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى اللّه عز وجل ، كما صرحوا به في الخير وإن كان فاعل الكل هو اللّه تعالى .

ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد .

(424/786)

فن الإيضاح : في قوله تعالى " وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً " .

وهذا الفن هو حلّ للإشكال الوارد في ظاهر الكلام .

حيث أنّ اللّه سبحانه وتعالى وضّح – بعد أن ذكر الإيمان – أن المؤمن لا يخاف جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحدا حقا ولا رهق [أي لم يغش] ظلم أحد ، فلا يخاف جزاءهما .

[سورة الجن (72) : آية 20]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (الواو) عاطفة (لا) نافية (به) متعلّق بـ (أشرك) . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أدعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا أشرك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

[سورة الجن (72) : آية 21]

قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21)

الإعراب :

(لا) نافية (لكم) متعلّق بـ (أملك) " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي لا أملك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا أملك . . . " في محلّ نصب خبر إنّ .

[سورة الجن (72) : الآيات 22 إلى 24]

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

الإعراب :

(من اللّه) متعلّق بـ (يجيرني) بحذف مضاف (الواو) عاطفة (من دونه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان ، جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة - وجملة : " إنّي لن يجيرني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو متعلّق بحال من (ضرّا) .

وجملة : " لن يجيرني . . أحد . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لن أجد . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لن يجيرني أحد .

23 – (إلّا) للاستثناء (بلاغا) مستثنى بـ(إلّا) منصوب " 1 " (من اللّه) متعلّق بنعت لـ (بلاغا) ، (الواو) عاطفة (رسالاته) معطوف على لفظ الجلالة مجرور مثله " 2 " ، (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بخبر إنّ (خالدين) حال منصوبة من الضمير في (له) مراعى فيه معنى الجمع المأخوذ من الشرط (من) ، (فيها) متعلّق بـ(خالدين) وكذلك الظرف أبدا .

وجملة : " من يعص . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعص . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " إنّ له نار جهنّم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

24 – (حتّى) حرف ابتداء (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به . و(الواو) في (يوعدون) نائب الفاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (السين) لمجرّد التوكيد " 4 " ، (من) موصول في محلّ نصب مفعول به " 5 " ، (أضعف) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (ناصرا) تمييز منصوب (أقلّ عددا) مثل أضعف ناصرا فهو معطوف عليه . .

---

(1) هذا الاستثناء منقطع إذا كان البلاغ مستثنى من (ملتحدا) لأنّ البلاغ من اللّه لا يكون داخلا تحت قوله (لن أجد . . . ملتحدا) لأنه لا يكون من دون اللّه . . وعلى هذا فجملة : قل إنّي لن يجيرني . . . استئنافيّة . هذا ويمكن أن يكون الاستثناء متّصلا إذا كان المستثنى منه (الضرّ والرشد) أي : لا أملك لكم شيئا إلّا بلاغا من اللّه ، وعلى هذا فجملة

: قل إنّي لن يجيرني . . . اعتراضيّة .

(2) أو معطوف على (بلاغا) منصوب وعلامة النصب الكسرة .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(426/786)

---

(4) لأنّ رؤية العذاب تحصل مع العلم ، والسين إذا أفادت الاستقبال تجعل العلم متأخّرا .

(5) يجوز أن يكون اسم استفهام مبتدأ خبره أضعف ، والجملة الاسميّة سدّت مسدّ مفعول يعلمون المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يوعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " سيعلمون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " (هو) أضعف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(23) أبدا : اسم ظرفي للزمن ، ويأتي بمعنى الدهر والأزليّ والقديم والدائم ، جمعه آباد وأبود بضمّ الهمزة ، والظرف يستعمل في الغالب للمستقبل نفيا وإثباتا ، تقول لا أفعله أبدا أو

لم أفعله أبدا ، وزنه فعل بفتحتين .

[سورة الجن (72) : الآيات 25 إلى 28]

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

الإعراب :

(إن) حرف نفي (الهمزة) للاستفهام (قريب) خبر مقدّم مرفوع " 1 " ، (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (أم) حرف معادل للهمزة عاطف (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . . .

والمصدر المؤوّل (ما توعدون) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر .

---

(1) أو هو مبتدأ معتمد على الاستفهام و(ما) وصلته فاعل سدّ مسدّ الخبر .

(2) أو موصول في محلّ رفع والعائد محذوف .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن أدري . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قريب ما توعدون . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي أدري المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ .

وجملة : " يجعل له ربّي . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة قريب ما توعدون .

26 - (عالم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 1 " ، (الفاء) عاطفة (لا) نافية (على غيبه) متعلّق بـ (يظهر) .

وجملة : " (هو) عالم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " لا يظهر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (هو) عالم .

27 - (إلّا) للاستثناء (من) موصول في محلّ نصب بدل من (أحدا) " 3 " ، (من رسول) تمييز للضمير المقدّر مفعول ارتضى أي ارتضاه رسولا " 4 " ، (الفاء) تعليليّة " 5 " ، (من بين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسلك) ، وكذلك (من خلفه) ، (رصدا) مفعول به منصوب . . .

وجملة : " ارتضى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) أو بدل من (ربّي) - أو عطف بيان عليه -

(2) أو في محلّ نصب حال من ربّي .

(3) أو في محلّ نصب مستثنى بإلّا . . . وإذا كانت (إلّا) بمعنى لكن فالموصول مبتدأ خبره جملة (إنّه يسلك) ، كما يجوز أن يكون (من) اسم شرط مبتدأ خبره جملة ارتضى وجوابه فإنّه يسلك . [. . . . .]

(4) يجوز أن يكون متعلّقا بحال من الضمير المقدّر .

(5) أو زائدة ، أو رابطة لجواب الشرط .

(428/786)

وجملة : " إنّه يسلك . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " يسلك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

28 - (اللام) للتعليل (يعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو " 2 " ، (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (قد) حرف تحقيق (الواو) حالية - أو عاطفة (بما) متعلّق بـ (أحاط) ، (لديهم) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بمحذوف صلة ما ، (الواو) عاطفة (عددا) تمييز منصوب " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أن يعلم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يسلك) .

والمصدر المؤوّل (أن قد أبلغوا . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " قد أبلغوا . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " أحاط . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يعلم " 4 " .

وجملة : " أحصى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أحاط تأخذ إعرابها .

---

(1) أو في محلّ رفع خبر الموصول من . . أو في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(2) بين المفسّرين خلاف فيما يرجع عليه هذا الضمير ، فبعضهم جعله ضمير الجلالة أي ليعلم اللّه . . وبعضهم جعل عودته على الرسول عليه السّلام أي ليعلم محمّد أنّ الرسول قبله قد أبلغوا الرسالة . . وبعضهم جعل عودته على الرسل أي ليعلم الرسل أنّ الملائكة يبلّغون . . أو ليعلم إبليس والجنّ أنّ الرسل قد أبلغوا رسالات ربّهم . . أو ليعلم من كذّب الرسل أنّ المرسلين قد بلّغوا . . . إلخ .

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مرادفه أو نوع عدده أي أحصاه إحصاء .

(4) إذا كان ضمير يعلم هو اللّه . والجملة معطوفة على جملة أبلغوا إذا كان الضمير يعود على غير اللّه .

الصرف :

(28) أحاط : فيه إعلال بالقلب ، أصله أحوط زنة أفعل ، ثقلت الفتحة على الواو فسكّنت ونقلت الحركة إلى الحاء – إعلال بالتسكين – ثمّ قلبت الواو ألفا لفتح ما قبلها وتحركها في الأصل – إعلال بالقلب – .

(أحصى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أحصي ، بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعل .

(كلّ) ، اسم يدلّ على مجموع الشيء ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وعينه ولامه من حرف واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجدول حـ 29 صـ 109. 129﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(72) سورة الجنّ

مكيّة وآياتها ثمان وعشرون

[سورة الجن (72) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3) وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4)

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

اللغة :

(نَفَرٌ) النفر : الجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة وفي القاموس

" والنفر الناس كلهم وما دون العشرة من الرجال كالنفير والجمع أنفار " وفي شرح القاموس :

" قال أبو العباس النفر والرهط والقوم هؤلاء معناها الجمع لا واحد لها من لفظها والنسب إليه نفري قال الزجّاج النفير جمع نفر كالعبيد " .

(جَدُّ رَبِّنا) عظمته من قولك جدّ فلان في عيني أي عظم وفي حديث عمر رضي اللّه عنه

كان الرجل منّا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا ، وسيأتي مزيد من بحثه في باب البلاغة .

الإعراب :

)

(431/786)

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت أي يا محمد وأوحي فعل ماض مبني للمجهول وإليّ متعلقان بأوحي وأن وما في حيّزها في محل رفع نائب فاعل وأن واسمها وجملة استمع خبرها ونفر فاعل استمع ومن الجن صفة لنفر ، فقالوا عطف على استمع وإن واسمها وجملة سمعنا خبر إنّا وقرآنا مفعول به وعجبا نعت أي يتعجب منه لفصاحته وبلاغته وما ينطوي عليه من معان سامية وغير ذلك (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً) جملة يهدي إلى الرشد صفة ثانية لقرآنا وإلى الرشد متعلقان بيهدي ، فآمنّا عطف على سمعنا وبه متعلقان بآمنّا ، ولن الواو حرف عطف ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونشرك فعل مضارع منصوب بلن وبربنا متعلقان بنشرك وأحدا مفعول به لنشرك (وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً) الواو حرف عطف وأن وما في حيّزها عطف على ما تقدم وأن واسمها وتعالى فعل

ماض وجدّ ربنا فاعل والجملة معترضة بين الاسم والخبر وجملة ما اتخذ خبر أن ولا ولدا عطف على صاحبة (وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً) عطف على

(432/786)

ما تقدم وأن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وسفيهنا فاعل وعلى اللّه متعلقان بيقول وشططا نعت لمصدر محذوف أي قولا شططا أي غلوا في الكذب وذلك بوصفه بالصاحبة والولد وجملة يقول خبر كان (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً) وأنّا عطف على ما تقدم وأن واسمها وجملة ظننا خبرها ، وظن فعل ماض من أفعال القلوب ونا فاعل وأن مخففة واسمها ضمير الشأن وجملة لن تقول خبرها ولن حرف نفي ونصب واستقبال والإنس فاعل والجن عطف على الإنس وعلى اللّه متعلقان بتقول وكذبا نعت لمصدر محذوف (وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً) وأنه عطف أيضا وأن واسمها وجملة كان خبرها ورجال اسم كان ومن الإنس نعت لرجال وجملة يعوذون خبر كان وبرجال متعلقان بيعوذون ومن الجن نعت لرجال ، فزادوهم عطف على كان رجال وزادوهم فعل وفاعل ومفعول به أول ورهقا مفعول ثان (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً) وأنهم عطف على ما تقدم أيضا وأن واسمها وجملة ظنوا

خبرها وكما نعت لمصدر محذوف وجملة ظننتم لا محل لها لأنها موصولة للموصول الحرفي وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي ظنوا وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويبعث فعل مضارع منصوب بلن والجملة خبر أن والله فاعل يبعث وأحدا مفعوله (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) عطف على ما تقدم أيضا وأن واسمها وجملة لمسنا خبرها والسماء مفعول به ، وسيأتي معنى لمس السماء في البلاغة ، والفاء حرف عطف ووجدناها فعل وفاعل ومفعول به وجملة ملئت مفعول به ثان وملئت فعل ماض مبني للمجهول والتاء تاء التأنيث الساكنة ونائب الفاعل

(433/786)

مستتر تقديره هي أي السماء وحرسا تمييز وشديدا نعت وشهبا عطف على حرسا وقيل وجدناها هنا متعدية لواحد فجملة

ملئت حال لأن معناها صادفناها (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) عطف على ما تقدم أيضا وأن واسمها وجملة كنّا خبرها وكان واسمها وجملة نقعد خبر كنّا ومنها متعلقان بمقاعد ومقاعد ظرف مكان متعلق بنقعد وللسمع

متعلقان بمضمر هو صفة لمقاعد أي مقاعد كائنة للسمع والفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويستمع فعل الشرط والآن ظرف حالي مستعار للاستقبال وهو متعلق بيستمع ويجد جواب الشرط وله في موضع المفعول الثاني ليجد وشهابا مفعول يجد الأول ورصدا نعت لشهابا وهو بمعنى اسم المفعول أي أرصد وأعدّ له .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " تعالى جدّ ربنا " استعارة تصريحية لأنها استعارة من الحظ الذي هو البخت والدولة لأن الأغنياء هم المجدودون ، والمعنى وصفه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته واستغنائه .

2- وفي قوله : " وأنّا لمسنا السماء " مجاز مرسل لأن المسّ هو اللمس ، واللامس هو طالب متعرف قال :

مسسنا من الآباء شيئًا وكلنا إلى نسب في قومه غير واضع

والبيت ليزيد بن الحاكم الكلابي ومسسنا أي نلنا ، فالمسّ مجاز مرسل فكلّ منّا ينتمي إلى نسب في قومه غير منخفض ويروى إلى حسب فاستوينا من جهة الآباء في التفاخر فلما بلغنا فيه ذكر الأمهات وجدتم أقاربكم كرام المضاجع كناية عن الأزواج أو عبر باسم المحل عن الحال فيه وهنّ الأزواج مجازا مرسلا وكرم النساء مذموم لأنه كناية عن الخنا ، كما يكنّى ببخلهنّ عن العفّة فلسنا سواء في الأمهات وبعده :

فلما بلغنا الأمهات وجدتم بني عمكم كانوا كرام المضاجع

[سورة الجن (72) : الآيات 10 إلى 19]

(434/786)

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14) وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17) وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

اللغة :

(قِدَداً) جمع قدّة بالكسر وهي الطريقة وفي المصباح : " والقدّة الطريقة والفرقة من الناس والجمع قدد مثل سدرة وسدر وبعضهم يقول

الفرقة من الناس إذا كان هوى كل واحد على حدة " ويؤخذ من اللسان وغيره أنه يقال : كنّا طرائق قددا أي فرقا مختلفة الأهواء وتجمع أيضا على أقدّة .

(الْقاسِطُونَ) الجائرون بكفرهم والقاسط الجائر لأنه عدل عن الحق والمقسط العادل إلى الحق من قسط إذا جار وأقسط الرباعي بمعنى عدل وعن سعيد بن جبير أن الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فيّ ؟ قال : قاسط عادل فقال القوم : ما أحسن ما قال حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج : يا جهلة إنه سمّاني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى : " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " " ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " .

)

(435/786)

تَحَرَّوْا رَشَداً) أي قصدوا هداية وطلبوها باجتهاد وفيه التحرّي في الشيء يقال حرى الشيء يحريه أي قصد حراه أي جانبه وتحرّاه كذلك . كذلك قال الراغب والذي في المعاجم أن حرى الشيء نقص .

(غَدَقاً) الغدق بفتح الدال وكسرها لغتان في الماء الغزير ومنه الغيداق للماء الكثير وللرجل الكثير العدو والكثير النطق وفي المصباح :

" غدقت العين غدقا من باب تعب كثر ماؤها فهي غدقة وفي التنزيل :

لأسقيناهم ماء غدقا أي كثيرا وأغدقت إغداقا كذلك وغدق المطر غدقا وأغدق

إغداقا مثله وغدقت الأرض تغدق من باب ضرب إذا ابتلت بالغدق " .

(صَعَداً) بفتح الصاد والعين مصدر صعد بكسر العين كفرح.

(لِبَداً) بكسر اللام وقرىء بفتحها فهما لغتان جمع لبدة بكسر اللام كسدرة وسدر على

اللغة وعلى اللغة الثانية كغرفة وغرف وفي المختار : " اللبد بوزن الجلد واحد اللبود واللبدة

أخصّ منه قلت

وجمعها لبد ومنه قوله تعالى : كادوا يكونون عليه لبدا " وعبارة القرطبي :

" قال مجاهد لبدا أي جماعات وهو من تلبد الشيء على الشيء أي تجمع ومنه اللبد الذي

يفرش لتراكم صوفه وكل شيء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ويقال للشعر الذي على

ظهر الأسد لبدة وجمعها لبد ويقال للجراد الكثير لبد وفيه أربع لغات وهي قراءات : بفتح

الباء وكسر اللام وهي قراءة العامة وضم اللام وفتح الباء وهي قراءة مجاهد وابن محيصن

وهشام من أهل الشام واحدتها لبدة بضم اللام وكسرها وبضم اللام والباء وهي قراءة أبي

حيان وأبي الأشهب والعقيلي والجحدري وأحدها لبد مثل سقف في سقف ورهن في

رهن وبضم اللام وتشديد الباء المفتوحة وهي قراءة الحسن وأبي العالية والجحدري أيضا

واحدها لا بدّ مثل راكع وركع وساجد وسجد " .

الإعراب :

(436/786)

وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) وأنا عطف على ما تقدم وأن واسمها وجملة لا ندري خبرها وأشر فيه وجهان : الرفع بفعل مضمر على الاشتغال والثاني الرفع على الابتداء وجملة أريد هي الخبر والأول أرجح لتقدّم ما هو طالب للفعل وهو همزة الاستفهام وبمن متعلقان بأريد ونائب فاعل أريد مستتر وعلى الوجه الأول تكون جملة أريد مفسّرة لا محل لها وفي الأرض صلة من وأم حرف عطف معادلة وبهم متعلقان بأراد وربهم فاعل ورشدا مفعول به ، وسيأتي مزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ) عطف أيضا ومنّا خبر مقدم والصالحون مبتدأ مؤخر والجملة خبر أنّا ومنّا خبر مقدم ودون ظرف متعلق بمحذوف هو المبتدأ المؤخر والتقدير ومنّا فريق أو فوج دون ذلك وأجاز الأخفش وغيره أن تكون دون بمعنى غير أي ومنّا غير الصالحين وهو مبتدأ وإنما فتح

(437/786)

لإضافته إلى غير متمكّن كقوله : لقد تقطع بينكم في قراءة من نصب على أحد الأقوال والأول أرجح وحذف الموصوف مع من التبعيضية كثير كقولهم منّا ظعن ومنّا أقام أي منّا فريق ظعن ومنّا فريق أقام ، وذلك مضاف إليه (كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً) فيه أوجه أحدها أن التقدير كنّا ذوي طرائق أي ذوي مذاهب مختلفة ، الثاني أن التقدير كنّا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، الثالث أن التقدير كنّا في طرائق مختلفة ، الرابع أن التقدير : كانت طرائقنا قددا على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ، وعلى كل حال كان واسمها وطرائق خبرها وقددا نعت ، وعلى الوجه الثالث تكون طرائق منصوبة بنزع الخافض والجار والمجرور خبر كنّا ، ولم يرتض أبو حيان هذا الوجه وقال : " وأما التقدير الثالث وهو أن ينتصب على إسقاط " في " فلا يجوز ذلك إلا في الضرورة وقد نصّ سيبويه على أن عسل الطريق شاذ فلا يخرج القرآن عليه " أراد أبو حيّان بعسل الطريق قول ساعدة ابن جؤية في وصف رمح :

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

والشاهد فيه قوله عسل الطريق حيث حذف حرف الجر ونصب الاسم الذي كان مجرورا به ، وأصل الكلام عسل في الطريق وهو ضرورة (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ

نُعْجِزَهُ هَرَباً) عطف أيضا وظننا فعل وفاعل وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة لن نعجز اللّه خبرها وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي ظننا وفي الأرض حال ولن نعجزه عطف على لن نعجز اللّه وهربا مصدر في موضع الحال تقديره لن نعجزه كائنين في الأرض أينما تنقلنا فيها ولن نعجزه هاربين إلى السماء موغلين فيها (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ) عطف أيضا وأن واسمها ولما رابطة أو حينية وسمعنا فعل

و فاعل والهدى مفعول به وجملة آمنّا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبه متعلق بآمنّا (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويؤمن فعل الشرط وفاعله هو وبربه متعلقان بيؤمن والفاء رابطة ولا نافية ويخاف فعل مضارع مرفوع وفاعله هو وجملة لا يخاف خبر لمبتدأ محذوف أي فهو لا يخاف والجملة الاسمية المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط وبخسا مفعول به ولا رهقا عطف على بخسا ، وسيأتي سبب رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبرا له في باب البلاغة (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ) عطف على ما تقدم أيضا وأن واسمها ومنّا خبر مقدم والمسلمون مبتدأ مؤخر والجملة خبر أنّا ومنّا القاسطون عطف على منّا المسلمون (فَمَنْ

أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدا) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وأسلم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وأولئك مبتدأ وجملة تحرّوا خبر ورشدا مفعول به أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبا)

(439/786)

الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل والقاسطون مبتدأ والفاء واقعة في جواب الشرط غير الجازم وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها والجملة خبر القاسطون ولجهنم حال لأنه كان في الأصل صفة لحطبا وتقدمت وحطبا خبر كانوا والجملة خبر القاسطون (وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقا) عطف أيضا على أنه استمع وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف أي وأوحي إليّ أن لو استقاموا ، ولو شرطية وجملة استقاموا خبر أن وعلى الطريقة متعلقان باستقاموا واللام واقعة في جواب لو وأسقيناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وماء مفعول به ثان وغدقا نعت لماء (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً) اللام لام التعليل ونفتنهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأسقيناهم وفيه متعلقان بنفتنهم والمعنى لنختبرهم في الماء فنعلم علم

ظهور للخلائق كيف يشكرون وكيف يكفرون وإلا فهو سبحانه عالم لا يخفى عليه شيء ، والواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ ويعرض فعل الشرط وعن ذكر ربه متعلقان بيعرض ويسلكه جواب الشرط والهاء مفعول به أي يدخله وعذابا منصوب بنزع الخافض والأصل نسلكه في عذاب كقوله تعالى واختار موسى قومه سبعين رجلا ، وصعدا نعت وصعدا مصدر صعد بكسر العين كفرح ووصف به العذاب على تأويله باسم الفاعل أي عذابا عاليا يغمره ويعلو عليه ويجتاحه (وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) عطف على أنه استمع أي أوحي إليّ أن المساجد للّه أي مختصّة به ، وأن واسمها وللّه خبرها والفاء عاطفة ولا ناهية وتدعوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون ومع اللّه ظرف متعلق بتدعوا وأحدا مفعول تدعوا (وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) عطف على أنه استمع أيضا وأن واسمها ولما رابطة أو ظرفية حينية متضمنة معنى الشرط وقام عبد اللّه فعل ماض وفاعل وجملة يدعوه حال أي داعيا والمراد به محمد صلّى اللّه عليه وسلم أي مصليا صلاة الصبح أو مجرد العبادة ببطن نخلة ، وجملة كادوا لا محل لها لأنها

جواب ولما وشرطها وجوابها خبر أنه وكاد من أفعال المقاربة والواو اسمها وجملة يكونون خبرها والواو في يكونون اسم يكون وعليه متعلقان بمحذوف حال ولبدا خبر يكونون .

البلاغة :

1 - في قوله " وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا " اختلاف صورة الكلام لاختلاف الأحوال فإن ما قبل أم صورة من الكلام تخالف صورة ما بعدها لأن الأولى فيها فعل الإرادة مبني للمجهول والثانية فيها فعل الإرادة مبني للمعلوم والحال الداعي لذلك نسبة الخير إليه سبحانه في الثانية ومنع نسبة الشر إليه في الأولى

(441/786)

قال ابن المنير : " ومن عقائدهم - أي الجن - إن الرشد والضلال جميعا مرادان للّه تعالى بقولهم : وأنّا لا ندري " الآية " ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل والمراد بالمريد هو اللّه عزّ وجلّ وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة " وعبارة أبي حيان : " ولما رأوا ما حدث من كثرة الرجم ومنع الاستراق قالوا : وأنا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فيؤمنون به فيرشدون وحين ذكروا أشرّ لم يسندوه إلى اللّه تعالى وحين ذكروا الرشد

أسندوه إليه تعالى " .

2- وفي قوله : " وأنّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا " فن الإيضاح وقد تقدم القول فيه وأنه حلّ للإشكال الوارد في ظاهر الكلام وهو يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي إعرابها ومعاني النفس دون الفنون وقد ذكرنا مفصلا في آل عمران فإن الظاهر جزم الاستغناء عن الفاء وجزم الفعل تفاديا من تقدير المبتدأ قبله ولكنه عدل عمّا هو الظاهر لفائدة وهي أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل فهو لا يخاف فكان دالّا على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره ، ومن جهة ثانية فإن الجملة الاسمية أدلّ وآكد من الفعلية على تحقيق مضمون الجملة .

[سورة الجن (72) : الآيات 20 إلى 28]

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (24)

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (28)

اللغة :

(مُلْتَحَداً) : الملتحد : الملتجأ وقيل محيصا وقيل معدلا وعبارة القاموس : " وألحد إليه مال كالتحد والملتحد المتلجأ " وفي المصباح :

" والملتحد بالفتح اسم الموضع وهو الملجأ " .

(وَأَحْصى) أصل الإحصاء أن المحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فينبي على ذلك حسابه .

الإعراب :

(قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً) كلام مستأنف مسوق للرد على الكفّار المتظاهرين عليه القائلين له : إنك قد أقدمت على أمر عظيم لم يخطر على بال غيرك الإقدام عليه فارفق بنفسك واصدف عنه ونحن نجيرك . وقال فعل ماض وفاعله مستتر يعود على النبي عليه السّلام وإنما كافّة ومكفوفة وأدعو ربي فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول

به والواو حرف عطف ولا نافية وأشرك فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وبه متعلقان بأشرك وأحدا مفعول به وقرىء قل على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب (قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدا) كلام مستأنف أيضا مسوق للرد عليهم ولبيان عجزه عن شئون نفسه وأن الأمر كله بيد اللّه ، وإن واسمها وجملة لا أملك خبرها ولكم متعلقان بضرّا وضرّا مفعول به ولا رشدا عطف على ضرّا وجملة إني لا أملك مقول القول (قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدا) إن واسمها وجملة لن يجيرني خبر ومن اللّه متعلقان بيجيرني وأحد فاعل يجيرني ولن أجد عطف على لن يجيرني ومن دونه في موضع المفعول الثاني ليجدني وملتحدا هو المفعول الأول (إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِهِ) إلا أداة استثناء ، وبلاغا فيه أوجه : 1- أنه استثناء من مفعول أملك أي من مجموع الأمرين وهما ضرّا ورشدا بعد تأويلهما بشيئا كأنه قال لا أملك لكم شيئا إلا بلاغا فهو استثناء متصل ، وعلى هذا ففي نصبه وجهان :

أولهما أنه بدل من ملتحدا لأن الكلام غير موجب وثانيهما النصب على الاستثناء .

2- أنه استثناء منقطع لأن البلاغ من اللّه لا يكون داخلا تحت قوله : ولن أجد من دونه ملتحدا ولأنه لا يكون من دون اللّه بل يكون من اللّه وبإعانته .

3- أنه استثناء من قوله : لا أملك لكم ضرّا ، وقدّره الزمخشري فقال : " أي لا أملك إلا

بلاغا من اللّه وقل إني لن يجيرني جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه على معنى أن اللّه إن أراد به سوءا من مرض أو موت أو غيرهما لم يصحّ أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذا يأوي إليه " واستبعد أبو حيان هذا الوجه ، وفيما يلي نص عبارته لنفاستها : " إلا بلاغا قال الحسن هو

(444/786)

استثناء منقطع أي لن يجيرني أحد لكن إن بلغت رحمتي بذلك ، والإجارة للبلاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة اللّه ورحمته وقيل على هذا المعنى هو استثناء متصل أي لن يجيرني أحد لكن لم أجد شيئا أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيرني اللّه فيجوز نصبه على الاستثناء من ملتحدا وعلى البدل وهو الوجه لأن ما قبله نفي وعلى البدل خرجه الزجّاج وقال أبو عبد اللّه الرازي : هذا الاستثناء منقطع لأنه لم يقل ولم أجد ملتحدا بل قال من دونه والبلاغ من اللّه لا يكون داخلا تحت قوله من دونه ملتحدا لأنه لا يكون من دون اللّه بل يكون من اللّه وبإعانته وتوفيقه ، وقال قتادة : التقدير لا أملك إلا بلاغا إليكم فأما الإيمان والكفر فلا أملك انتهى وفيه بعد لطول الفصل بينهما وقيل إلا في تقدير الانفعال إن شرطية ولا نافية وحذف فعلها لدلالة المصدر عليه والتقدير إن لم أبلغ بلاغا من اللّه ورسالته وهذا

كما تقول : إن لا قياما قعودا أي إن لم تقم قياما فاقعد قعودا وحذف هذا الفعل قد يكون لدلالته عليه بعده أو قبله كما حذف في قوله :

فطلقها فلست لها بكفء وإلا يعل مفرقك الحسام

والتقدير وإن لا تطلقها فحذف تطلقها لدلالة فطلقها عليه ومن لابتداء الغاية " واقتصر أبو البقاء على الاستثناء المنقطع لأنه من غير الجنس . ومن اللّه صفة لبلاغا ورسالاته عطف على بلاغا وقد اختاره الزمخشري وقال : "كأنه قيل : لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالة والمعنى إلا أن أبلغ عند اللّه فأقول قال اللّه كذا ناسبا قوله إليه وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان " ورجح أبو حيان والسمين والكرخي أن يكون معطوفا على اللّه أي إلا عن اللّه وعن رسالاته وكلاهما سديد (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً) الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ ويعص فعل الشرط وفاعله مستتر

تقديره هو ولفظ الجلالة مفعول به ورسوله عطف عليه والفاء رابطة للجواب وإن حرف مشبه بالفعل وله خبرها المقدم ونار جهنم اسمها المؤخر وخالدين حال من الضمير في له والعامل في هذه الحال الاستقرار المحذوف وجمع خالدين حملا على معنى الجمع في من وفيها

متعلق بخالدين وأبدا ظرف زمان متعلق بخالدين أيضا (حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً) حتى هنا حرف ابتداء أي يصلح أن يجيء بعدها جملة الابتداء والخبر ومع ذلك فيها معنى الغاية قال الزمخشري : " فإن قلت بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له ؟ قلت : بقوله يكونون عليه لبدا على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار اللّه له عليهم أو من يوم القيامة فسيعلمون حينئذ أنهم أضعف ناصرا وأقل عددا ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلّت عليه الحال من استضعاف الكفّار له واستقلالهم لعدده كأنه قال : لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون قال المشركون متى يكون هذا الموعود إنكارا له فقيل : قل إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه فإن اللّه قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد وأما وقته فما أدرى متى يكون لأن اللّه لم يبيّنه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة " وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة رأوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ورأوا فعل ماض وفاعل وما اسم موصول مفعول به وجملة يوعدون لا محل لها لأنها صلة الموصول والفاء رابطة للجواب والسين حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهنا إشكال لم ينبّه عليه أحد ممّن تصدّوا لتفسير هذه الآية وإعرابها وهو أن السين حرف استقبال ووقت رؤية العذاب يحصل فور علم الضعيف من القوي والسين تقتضي أنه يتأخر عنه ولا

مفر من هذا الإشكال إلا بجعل السين

حرفا للتأكيد المجرد لا

(446/786)

للاستقبال ، هذا ويجوز تعليق حتى إذا بمحذوف دلّت عليه الحال من استضعاف الكفّار له واستقلالهم لعدده كأنه قال لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون قال المشركون متى يكون هذا الموعود إنكارا له فقيل لهم قيل أنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه فإن اللّه قد وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد وأما وقته فلا أدري متى يكون وعبارة الجلال " حتى إذا رأوا ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدّر قبلها أي لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا ما يوعدون من العذاب فسيعلمون عند حلوله بهم " ومن يجوز أن تكون استفهامية فترفع بالابتداء وأضعف خبره والجملة في موضع نصب سادّة مسدّ مفعولي يعلمون لأنها معلقة للعلم قبلها ويجوز أن تكون موصولة في محل نصب مفعول به وأضعف خبر لمبتدأ محذوف أي هو أضعف والجملة صلة ويكون العلم على هذا الوجه بمعنى العرفان فلا تحتاج لمفعولين وناصرا تمييز وأقل عددا عطف على أضعف ناصرا . هذا وقد أورد أبو حيان اعتراضا

على هذا الإعراب الذي أوردناه ننقله بنصّه قال في معرض ردّه على الزمخشري :

"

(447/786)

قوله بم تعلق إن عنى تعلّق حرف الجر فليس بصحيح لأنها حرف ابتداء فما بعدها ليس في موضع جر خلافا للزجّاج وابن درستويه فإنهما زعما أنها إذا كانت حرف ابتداء فالجملة الابتدائية بعدها في موضع جر وإن عنى بالتعليق اتصال ما بعدها بما قبلها وكون ما بعدها غاية لما قبلها فهو صحيح وأما تقديره أنها تتعلق بقوله يكونون عليه لبدا فهو بعيد جدا لطول الفصل بينهما بالجمل الكثيرة ، وقال التبريزي : حتى جاز أن تكون غاية لمحذوف ولم يبيّن ما المحذوف ، وقيل : المعنى دعهم حتى إذا رأوا ما يوعدون من الساعة فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا أهم أم أهل الكتاب ؟ والذي يظهر لي أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها من الحكم بكينونة النار لهم كأنه قيل : إن العاصي يحكم له بكينونة النار لهم والحكم بذلك هو وعيد حتى إذا رأوا ما حكم بكينونته

(448/786)

لهم فسيعلمون فقوله فإن له نار جهنم هو وعيد لهم بالنار ومن أضعف مبتدأ وخبر في موضع نصب لما قبله وهو معلق عنه لأن من استفهام ويجوز أن تكون موصولة في موضع نصب بسيعلمون وأضعف خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة لمن وتقديره هو أضعف وحسن حذفه طول الصلة بالمعمول وهو ناصرا " (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإن نافية وأدري فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا والهمزة للاستفهام وقريب خبر مقدم وما توعدون مبتدأ مؤخر ، ويجوز أن يكون قريب مبتدأ لاعتماده على الاستفهام وما توعدون فاعل به أي أقرب الذي توعدون نحو أقائم أبواك ، وما يجوز أن تكون موصولة فالعائد محذوف وجملة توعدون صلة وأن تكون مصدرية فلا عائد وأم متصلة ويجعل فعل مضارع مرفوع وله في موضع المفعول الثاني وربي فاعل وأمدا مفعول يجعل الأول والجملة المعلقة بالاستفهام في محل نصب سدّت مسدّ مفعولي أدري (عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً) خبر لمبتدأ محذوف أي هو عالم ويجوز أن يعرب بدلا من ربي والفاء عاطفة لترتيب عدم الإظهار على تفرده بعلم الغيب على الإطلاق ولا نافية ويظهر فعل مضارع مرفوع وعلى غيبه متعلقان بيظهر وأحدا مفعول به (إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) إلا أداة حصر والاستثناء منقطع أي لكن من ارتضاه فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي

، ومن اسم موصول أو شرطية مبتدأ على كل حال وعلى الشرطية تكون جملة " فإنه " في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا أي إلا رسولا ارتضاه فتعرب من بدلا من أحد ومن بين يديه متعلقان بيسلك ومن خلفه عطف على من بين يديه ورصدا مفعول يسلك وجملة يسلك خبر إنه أي يسلك ملائكة

(449/786)

رصدا (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ) اللام

لام التعليل ويعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بيسلك غاية له من حيث أنه مترتب على الإبلاغ المترتب عليه ، وعلّقه القرطبي بمحذوف وعبارته " وفيه حذف تتعلق به اللام أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ الرسالة ، وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وقد حرف تحقيق وجملة أبلغوا رسالات ربهم خبر أن (وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) عطف على مقدّر أي فعلم ذلك وأحاط فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى وبما متعلقان بأحاط ولديهم ظرف متعلق بمحذوف هو الصلة وأحصى

عطف على أحاط وكل شيء مفعول أحصى وعددا تمييز محول عن المفعول أي أحصى عدد كل شيء ، وأعربه الزمخشري حالا وعبارته :

" وعددا حال أي وضبط كل شيء معدودا محصورا أو مصدر في معنى إحصاء " وبدأ أبو البقاء بالمصدرية وأجاز التمييز ، وعبارة أبي حيان :

" عددا أي معدودا وانتصابه على الحالية من كل شيء وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لأحصى لأنه في معنى إحصاء " .

الفوائد :

شجر بين أهل السنّة والاعتزال خلاف حول كرامات الأولياء فقد قال الزمخشري بصدد الحديث عن قوله تعالى : " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا " بعد كلام طويل : " وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل وقد خصّ اللّه الرسل من بين المرتضين بالاطّلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط " .

و تعقبه ابن المنير فقال : " ادعى عاما واستدل خاصا فإن دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها والمدلول عليه بالآية إبطال اطّلاع الولي على الغيب خاصة ولا يكون كرامة وخارق العادة إلا الاطّلاع على الغيب لا غير وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها وذلك أن اللّه عزّ وجلّ لا يتخذ منهم وليّا أبدا وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم قطّ فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية وهي مسلوبة عنهم اتفاقا أما سلب الإيمان فمسألة خلاف . . . . وهو يريد الكرامة لأنه لم يؤتها " .

ونحا القرطبي نحوا آخر فقال : " قال العلماء لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم " ثم ذكر استدلالا على بطلان ما يقوله المنجم ثم قال باستحلال دم المنجم .

وقال الواحدي : " في هذا دليل على أن من ادّعى أن النجوم تدل على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بما في القرآن " .

وقال أبو عبد اللّه الرازي : " والواحدي تجوز الكرامات على ما قال صاحب الكشاف بجعلها تدل على المنع من الأحكام النجومية ولا تدل على الإلهامات مجرد تشبه ، وعندي أن الآية لا تدل على شيء مما قالوه لأن قوله : على غيبه ليس فيه صفة عموم " إلى أن يقول : " واعلم أنه لا بدّ من القطع بأنه ليس المراد من هذه الآية أنه لا يطّلع أحد على شيء من

المغيبات إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام والذي يدل عليه وجوه :

أحدها : أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحا كانا كاهنين يخبران بظهور محمد صلّى اللّه عليه وسلم قبل زمان ظهوره وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم حتى رجع إليهما كسرى في تعرّف أخبار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

(451/786)

و ثانيها : إطباق الأمم على صحة علم التعبير فيخبر المعبر عمّا يأتي في المستقبل ويكون صادقا .

وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه من بغداد إلى خراسان سألها عن أشياء في المستقبل فأخبرت بها ووقعت على وفق كلامها فقد رأيت أناسا محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة على سبيل التفصيل وجاءت كذلك ، وبالغ أبو البركات صاحب المعتبر في شرح حالها في كتاب التعبير وقال : فحصت عن حالها منذ ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات أخبارا مطابقة موافقة .

ورابعها : أنّا نشاهد أصحاب الإلهامات الصادقة وليس هذا مختصا بالأولياء فقد يوجد

في السحرة وفي الأخبار النجومية ما يوافق الصدق وإن كان الكذب يقع منهم كثيرا وإذا كان ذلك مشاهدا محسوسا فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر إلى الطعن بالقرآن وذلك باطل فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه " .

وتعقبه أبو حيان فقال : " وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه ، أما قصة شق وسطيح فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب لأنه فما يخبر به رئي الكهان من الشياطين مسترقة السمع كما جاء في الحديث أنهم يسمعون ويل الكلمة ويكذبون ويلقون إلى الكهنة وتزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة

(452/786)

وليس هذا من علم الغيب إذ تكلمت به الملائكة وتلقفها الجنّي وتلقفها منه الكاهن فالكاهن لم يعلم الغيب ، وأما تعبير المنامات فالمعبر غير المعصوم لا يعبّر بذلك على سبيل القطع والبت بل على سبيل الحزر والتخمين فقد يقع ما يعبر وقد لا يقع ، وأما الكاهنة البغدادية وما حكي عنها فحسبه عقلا أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها ولو شاهد ذلك لكان في عقله ما يجوز أنه ليس عليه هذا وهو العالم المصنّف الذي طبق ذكره الآفاق وهو الذي شكك في دلائل الفلاسفة وسامهم الخسف ، وأما حكايته عن صاحب المعتبر

فهو يهودي أظهر الإسلام وهو منتحل طريقة الفلاسفة ، وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة أصحب العلماء وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح ولم أر أحدا منهم صاحب إلهام صادق ، وأما الكرامات فإني لا أشك في صدور شيء منها لكن ذلك على سبيل الندرة وذلك فيما سلف من صلحاء هذه الأمة وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامة ولله تعالى أن يخصّ من شاء بما شاء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 235.255 ﴾

(453/786)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/787)

الجزء السابع والثمانون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المزمل صلى الله عليه وسلم)

(4/787)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المزمل صلى الله عليه وسلم)

(5/787)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المزمل

مقصودها الإعلام بأن محاسن الأعمال تدفع الأخطار والأوجال ، وتخفف الأحمال الثقال ، ولا سيما الوقوف بين يدي الملك المتعال ، والتجرد يفي خدمته يفي ظلمات الليال ، فإنه نعم الإله لقبول الأفعال والأقوال ، ومحو ظلل الضلال ، والمعين الأعظم على الصبر والاحتمال ، لما يرد من الكدورات في دار الزوال ، والقلعة والارتحال ، واسمها المزمل أدل ما فيها على هذا المقال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 202 ﴾

(6/787)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها المزمل)

السّورة مكِّيّة ، سوى آية واحدة من آخرها .

وآياتها ثمان عشرة فى عَدّ الكوفة ، وتسعة عشر فى البصرة ، وعشرون فى الباقين .

وكلماتها مائتان وخمس وثمانون .

وحروفها ثمانمائة وستّ وثلاثون .

المختلف فيها ثلاث آيات : المزّمّل ، شيبا ، ﴿ إِلَيْكُمْ رَسُولاً ﴾ .

فواصل آياتها على الأَلف ، إلاَّ الآية الأُولى ؛ فإنه باللاّم ، والأَخيرة ؛ فإنَّها (بالرّاءِ) .

مجموعها (رال) .

سمّيت سورة المزَّمل ؛ لافتتاحها .

معظم مقصود السّورة : خطاب الانبساط مع سيّد المرسلين ، والأَمرُ بقيام اللَّيل ، وبيان حُجّة التَّوحيد ، والأَمر بالصّبر على جفاءِ الكفَّار ، وتهديدُ الكافر بعذاب النار ، وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى ، والتخويف بتهويل القيامة ، والتسهيل والمسامحة فى قيام اللَّيل ، والحَثّ على الصدقة والإحسان ، والأَمر بالاستغفار من الذّنوب والعصيان ، فى قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ

فيها من المنسوخ ستّ آيات : ثلاث من أَوّل السّورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ ن ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ م وقوله : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ ن آية السّيف .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ ، وبعده : ﴿ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوّل فى الفَرْض ، وقيل : فى النافلة : خارج الصّلاة ، ثم ذكر سبب التخفيف ، فقال : ﴿ سَيَكُوْنُ مِنْكُمْ مَّرْضَى ﴾ ، ثم أَعاد فقال : ﴿ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ والأَكثرون على أَنَّه فى صلاة المغرب ، والعشاءِ .

فضل السّورة

حديث أُبىّ المعلوم ضعفه : من قرأَها (دُفع عنه العُسْر فى الدنيا والآخرة ، وحديث علىّ : يا علىّ من قرأَها) أَعطاه الله ثواب العلماءِ ، وله بكل آية قرأَها سِتْرٌ من النّار . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 486. 487 ﴾

(7/787)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المزمل

ليس لهذه السورة إلاّ اسمُ (سورة المزمل) عُرفت بالإِضافة لهذا اللفظ الواقع في أولها ،

فيجوز أن يراد به حكاية اللفظ ، ويجوز أن يراد به النبي (صلى الله عليه وسلم) موصوفاً بالحال الذي نُودي به في قوله تعالى : (يا أيها المزمل ((المزمل : 1) .

قال ابن عطية : هي في قول الجمهور مكية إلاّ قوله تعالى : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلثي الليل ((المزمل : 20) إلى نهاية السورة فذلك مدني . وحكى القرطبي مثل هذا عن الثعلبي .

وقال في (الإِتقان) : إن استثناء قوله : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل إلى آخر السورة يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة نزل بعد نزول صدر السورة بسنة وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس ا هـ .

(8/787)

يعني وذلك كله بمكة ، أي فتكون السورة كلها مكية فتعيّن أن قوله : قم اللّيل ((المزمل : 2) أُمِر به في مكة .

والروايات تظاهرت على أن قوله : (إن ربك يعلم أنّك تقوم إلى آخر السورة نزل مفصولاً عن نزول ما قبله بمدة مختلف في قدرها ، فقالت عائشة : نزل بعد صدر السورة بسنة ، ومثلَه روى الطبري عن ابن عباس ، وقال الجمهور : نزل صدر السورة بمكة ونزل إن ربك يعلم (

إلى آخرها بالمدينة ، أي بعد نزول أولها بسنين .

فالظاهر أن الأصح أن نزول) إن ربك يعلم إلى آخر السورة نزل بالمدينة لقوله تعالى : وءاخرون يقاتلون في سبيل الله ((المزمل : 20) إنْ لم يكن ذلك إنباء بمغيب على وجه المعجزة .

وروى الطبري عن سعيد بن جبير (قال : لما أنزل الله على نبيئه (صلى الله عليه وسلم)) يا أيها المزمل ((المزمل : 1) مكث النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله بعد عشر سنين) إن ربك يعلم أنك تقوم (إلى) وأقيموا الصلاة ((المزمل : 2) ا هـ ، أي نزلت الآيات الأخيرة في المدينة بناء على أن مُقام النبي (صلى الله عليه وسلم) بمكة كان عشر سنين وهو قول جم غفير .

(9/787)

والروايات عن عائشة مضطربة فبعضها يقتضي أن السورة كلها مكية وأن صدرها نزل قبل آخرها بسنة قبل فرض الصلاة وهو ما رواه الحاكم في نقل صاحب (الإِتقان) . وذلك يقتضي أن أول السورة نزل بمكة ، وبعض الروايات يقول فيها : إنها كانت تفرِش لرسول الله (

صلى الله عليه وسلم) حصيراً فَصلى عليه من الليل فتسامع الناس فاجتمعوا فخرج مغضبًا وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل ونزل) يا أيها المزمل قم الليل إلاّ قليلاً ((المزمل : 1 ، 2) فكُتبت عليهم بمنزلة الفريضة ومكثوا على ذلك ثمانية أشهر ثم وضع الله ذلك عنهم ، فأنزل) إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل (إلى) فتابَ عليكم ((المزمل : 20) ، فردهم إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة . وهذا ما رواه الطبري بسندين إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ، وهو يقتضي أن السورة كلها مدنية لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لمْ يبننِ بعائشة إلاّ في المدينة ، ولأن قولها : (فخرج مغضباً) يقتضي أنه خرج من بيته المفضي إلى مسجده ، ويُؤيِّده أخبار تثبت قيام الليل في مسجده .

(10/787)

ولعل سبب هذا الاضطراب اختلاط في الروايات بين فرض قيام الليل وبين الترغيب فيه . ونسب القرطبي إلى (تفسير الثعلبي) قال : قال النخعي في قوله تعالى : (يا أيها المزمل كان النبي متزملاً بقطيفة عائشة ، وهي مرط نصفه عليها وهي نائمة ونصفه على النبي وهو يصلي اه ، وإنما بنى النبي بعائشة في المدينة ، فالذي نعتمد عليه أن أول السورة نزل بمكة لا محالة كما سنبينه عند قوله تعالى : إِنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ((المزمل : 5) ، وأن قوله :

(إن ربك يعلم أنك تقوم إلى آخر السورة نزل بالمدينة بعد سنين من نزول أول السّورة لأن فيه ناسخاً لوجوب قيام الليل وأنه ناسخ لوجوب قيام الليل على النبي وأن ما رووه عن عائشة أن أول ما فرض قيام الليل قبل فرض الصلاة غريب .

وحكى القرطبي عن الماوردي : أن ابن عباس وقتادة قالا : إن آيتين وهما واصبر على ما يقولون إلى قوله : ومهلهم قليلاً ((المزمل : 10 ، 11) نزلتا بالمدينة .

واختلف في عدِّ هذه السورة في ترتيب نزول السور ، والأصح الذي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة : أن أول ما نزل سورة العلق واختلف فيما نزل بعد سورة العلق ، فقيل سورة ن والقلم ، وقيل نزل بعد العلق سورة المدثر ، ويظهر أنه الأرجح ثم قيل نزلت سورة المزمل بعد القلم فتكون ثالثة . وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور ، وعلى القول بأن المدثر هي الثانية يحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة ، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة ، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل ، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من (صحيح البخاري) وسيأتي عند قوله تعالى : (يا أيها المزمل .

والأصح أن سبب نزول يا أيها المزمل ما في حديث جابر بن عبد الله الآتي عند قوله تعالى : يا أيها المزمل الآية .

وعدة آيها في عدّ أهل المدينة ثمان عَشرة آية ، وفي عد أهل البصرة تسع عَشرَة وفي عدّ من عَداهم عشرون .

أغراضها

الإِشعار بملاطفة الله تعالى رسوله بندائه بوصفه بصفة تزمله .

(12/787)

واشتملت على الأمر بقيام النبي غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل .

وعلى تثبيت النبي بتحمل إبلاغ الوحي .

والأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاءِ الصدقات .

وأمره بالتمحض للقيام بما أمره الله من التبليغ وبأن يتوكل عليه .

وأمره بالإِعراض عن تكذيب المشركين .

وتكفُّل الله له بالنصر عليهم وأن جزاءهم بيد الله .

والوعيد لهم بعذاب الآخرة .

ووعظهم مما حلّ بقوم فرعون لما كذبوا رسول الله إليهم .

وذكر يوم القيامة ووصف أهواله .

ونسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه رعياً للأعذار الملازمة .

والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات .

والمبادرة بالتوبة وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبُّره .

وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل .

وفي هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك بتدبرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 252. 255 ﴾

(13/787)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة المزمل

يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي (صلى الله عليه وسلم) وللدعوة التي جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاغتم له ; والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر

هذه السورة الأول (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . الخ) وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل . . .) إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وطائفة من الذين معه , حتى ورمت أقدامهم , فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهرا .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك – كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يتحنث في غار حراء – قبل البعثة بثلاث سنوات – أي يتطهر ويتعبد – وكان تحنثه – عليه الصلاة والسلام – شهرا من كل سنة – هو شهر رمضان – يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة , ومعه أهله قريبا منه . فيقيم فيه هذا الشهر , يطعم من جاءه من المساكين , ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون , وفيما وراءها من قدرة مبدعة . . وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة , وتصوراتها الواهية , ولكن ليس بين يديه طريق واضح , ولا منهج محدد , ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره (صلى الله عليه وسلم) لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه , ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ; ويفرغ لموحيات الكون , ودلائل الإبداع ; وتسبح روحه مع روح الوجود ;

وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ; وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

(14/787)

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى . . لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت , وانقطاع عن شواغل الأرض , وضجة الحياة , وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة .

لا بد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له , فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة , والانعزال عنه , والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير , ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر , ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس , والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهكذا دبر الله لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى , وتغيير وجه الأرض , وتعديل خط التاريخ . دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان , مع روح الوجود الطليقة , ويتدبر ما وراء الوجود

من غيب مكنون , حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن , وشاء – سبحانه – أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض , جاء جبريل عليها السلام إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في غار حراء . . وكان ما قصه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أمره معه فيما رواه ابن إسحاق عن وهب بن كيسان , عن عبيد , قال:

(15/787)

"فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال:اقرأ . قال قلت:ما أقرأ [وفي الروايات:ما أنا بقارئ] قال:فغتني به [أي ضغطني] حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قلت:ما أقرأ . قال:فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قلت:ما أقرأ:قال:فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال:اقرأ . قال قلت:ماذا أقرأ ؟ قال:ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال:(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . . قال:فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عني . وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا . قال:فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء

يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فإذا جبريل في صورة رجل , صاف قدميه في أفق السماء يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فوقفت أنظر إليه . فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أحول وجهي عنه في آفاق السماء . قال:فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي , حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي , فبلغوا أعلى مكة , ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي , حتى أتيت خديجة , فجلست إلى فخذها مضيفا إليها [أي ملتصقا بها مائلا إليها] فقالت:يا أبا القاسم أين كنت ? فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت:" أبشر يا بن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة " " .

(16/787)

ثم فتر الوحي مدة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل , فأدركته منه رجفة , حتى جثى وهوى إلى الأرض , وانطلق إلى أهله يرجف , يقول:" زملوني . دثروني " . . ففعلوا . وظل يرتجف مما به من الروع . وإذا جبريل

يناديه: (يا أيها المزمل) . . (وقيل: يا أيها المدثر) والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها , فقد علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه لم يعد هناك نوم ! وأن هناك تكليفا ثقيلا , وجهادا طويلا , وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه ينام !

وقيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) (قم) . . فقام . وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به . عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض . عبء البشرية كلها , وعبء العقيدة كلها , وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها , المثقل بأثقال الأرض وجواذبها , المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها . . حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر . . بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها , الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها , قبل أن تنمو وتمد جذورها

في التربة وفروعها في الفضاء , وتظلل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

(17/787)

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى – معركة الضمير – قد انتهت . فهي معركة خالدة , الشيطان صاحبها ; وهو لا يني لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني . . ومحمد (صلى الله عليه وسلم) قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة . في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفي نصب دائم لا ينقطع . . وفي صبر جميل على هذا كله . وفي قيام الليل . وفي عبادة لربه . وترتيل لقرآنه وتبتل إليه , كما أمره أن يفعل وهو يناديه:(يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا , أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك في النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا , رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) .

وهكذا قام محمد (صلى الله عليه وسلم) وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر

من عشرين عاما . لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوي الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . .

(18/787)

وشطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد . ويكاد يكون على روي واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخي وقور جليل ; يتمشى مع جلال التكليف , وجدية الأمر , ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق . . هول القول الثقيل الذي أسلفنا , وهول التهديد المروع: (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا , إن لدينا أنكالا وجحيما , وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) . . وهول الموقف الذي يتجلى في مشاهد الكون وفي أغوار النفوس: (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . . (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا , السماء منفطر به , وكان وعده مفعولا) . فأما الآية الأخيرة الطويلة التي تمثل شطر السورة الثاني ; فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطائفة من الذين معه . والله يعده ويعدهم بهذا القيام لما يعدهم له ! فنزل التخفيف , ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها في علمه عليهم . . أما هذه الآية فذات

نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة , وفيها هدوء واستقرار , وقافية تناسب هذا الاستقرار :وهي الميم وقبلها مد الياء : (غفور رحيم) .

والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل , والصلاة , وترتيل القرآن , والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده , والصبر على الأذى , والهجر الجميل للمكذبين , والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! . . وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات , والتلويح برحمة الله ومغفرته: (إن الله غفور رحيم) . .

(19/787)

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار منا لبشرية – البشرية الضالة , ليردها إلى ربها , ويصبر على أذاها , ويجاهد في ضمائرها ; وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري , ولذاذة تلهي , وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذه الفارغون ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3741.

﴿3744

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية وآياتها عشرون آية

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية ، وهي تتناول جانبا من حياة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ، في تبتله ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ومحور السورة يدور حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولهذا سميت " سورة المزمل " .

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، نداء شفيفا لطيفا ، ينم عن لطف الله عز وجل ، ورحمته بعبده ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) ، الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته [يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا] .

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي باحياء الليل في العبادة [إنا سنلقى

عليك قولا ثقيلا إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا إن لك في النهار سبحا طويلا] .

* وأمرت الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجرا جميلا إلى أن ينتقم الله منهم [واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا] .

* ثم توعد الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفزع ، ما يشيب له رءوس الولدان [إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا . .] الآيات .

(21/787)

---

* ثم تحدثت السورة الكريمة ، عن موقف المشركين من دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد جاءهم بالخير والهدى ، فعاندوه وكذبوه ، ووقفوا في وجه الدعوة ، يريدون إطفاء نور الله ، فأنذرهم بالعذاب الشديد ، وضرب لهم المثل بفرعون الطاغية الجبار ، الذي بعث الله إليه نبيه موسى ، فعصاه وكذب برسالته ، وما كان من عاقبة أمره فى الهلاك والدمار ، تحذيرا للكفار من أهل مكة ، أن يحل بهم مثل ذلك العذاب [إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصي فرعون الرسول

فأخذناه أخذا وبيلا . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل ، رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة [إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . .] إلى قوله : [وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 463 . 464 ﴾

(22/787)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

المزمل : أصله المتزمل من قولهم تزمل بثيابه إذا تلفف بها ، ورتل القرآن :

أي اقرأه على تؤدة وتمهل مع تبيين حروفه ، يقال ثغر رتل (بسكون التاء وكسرها) :

إذا كان مفلجا لا تتصل أسنانه بعضها ببعض ، سنلقى عليك : أي سنوحى إليك ، قولا

ثقيلا : المراد به القرآن لما فيه من التكاليف الشاقة على المكلفين عامة وعلى الرسول

خاصة ، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته ، ناشئة الليل : هى النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة : أي تنهض وترتفع من قولهم نشأت السحابة إذا ارتفعت وطأ : أي مواطأة وموافقة من قولهم واطأت فلانا على كذا إذا وافقته عليه ومنه قوله تعالى : " لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ " أي ليوافقوا ، أقوم قليلا : أي أثبت قراءة ، لحضور القلب وهدوء الأصوات ، سبحا طويلا : أي تقلبا وتصرفا فى مهامّ أمورك ، واشتغالا بشواغلك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة ، فعليكها فى الليل ، وأصل السبح : السير السريع فى الماء ، واذكر اسم ربك : أي ودم على ذكره ليلا ونهارا ، وتبتل إليه تبتيلا : أي انقطع عن كل شىء إلى أمر اللّه وطاعته ، واتخذه وكيلا : أي وفوض كل أمر إليه .

الهجر الجميل : ما لا عتاب معه ، والنعمة (بفتح النون) التنعم (وبكسر النون) الإنعام ، مهّلهم : أي اتركهم برفق وتأنّ ولا تهتم بشأنهم ، والأنكال : واحدها نكل (بكسر النون وفتحها) وهو القيد الثقيل ، قالت الخنساء :

دعاك فقطّعت أنكاله وقد كن قبلك لا تقطع

والجحيم : النار الشديدة الإيقاد ، ذا غصة : أي لا يستساغ فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ترجف : أي تضطرب وتتزلزل ، كثيبا : أي رملا مجتمعا ، من قولهم : كثب الشيء إذا جمعه ، مهيلا : أي رخوا ليّنا إذا وطئته القدم زل من تحتها ، والوبيل : الثقيل الرديء العقبى ، من قولهم : كلأ وبيل : أي وخيم لا يستمرأ لثقله ، والشيب :

(23/787)

واحدهم أشيب ، منفطر : أي منشق .

تذكرة : أي موعظة ، سبيلا : أي طريقا توصله إلى الجنة ، أدنى . أي أقلّ ، واللّه يقدّر الليل والنهار . أي يعلم مقادير ساعاتهما ، أن لن تحصوه . أي لا يمكنكم الإحصاء وضبط الساعات ، فتاب عليكم . أي بالترخيص فى ذلك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرءان . أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، يضربون فى الأرض . أي يسافرون للتجارة ، وأقرضوا اللّه . أي أنفقوا فى سبل الخيرات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 110.119 ﴾ . باختصار .

(24/787)

وقال الفراء :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

سورة (المزمل)

﴿ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾

اجتمع القراء على تشديد : المُزَّمِّل ، والمُدَّثِّر ، والمزمّل: الذى قد تزمّل بثيابه ، وتهيأ للصلاة ، وهو رسول الله صلى الله عليه .

وقوله عز وجل: ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . . . ﴾ .

يريد : الثلث الآخِر ، ثم قال: ﴿ نِّصْفَهُ . . . ﴾ .

والمعنى: أو نصفه ، ثم رخص له فقال: ﴿ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . . . ﴾ من النصف إلى الثلث أو زد على النصفِ إلى الثلثين ، وكان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، فلما فرضت الصلاة نسخَتْ هذا ، كما نَسخَت الزكاةُ كلَّ صدقة ، وشهر رمضان كلَّ صوم .

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾

وقوله عز وَجل: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . . . ﴾ .

يقول: اقرأه على هِينتك ترسلا .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . . . ﴾ .

أى: ليس بالخفيف ولا السَّفْساف ؛ لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً . . . ﴾ .

يقول: هى أثبت قياما . ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً . . . ﴾ يقول: إن النهار يضطرب فيه الناس ، ويتقلبون فيه للمعاش ، والليل أخلى للقلب ، فجعله أقوم قيلا .

وقال بعضهم . إن ناشئة الليل هى أشد على المصلى من صلاة النهار ؛ لأن الليل للنوم ، فقال: هى ، وإن كانت أشد وطئا فهى أقوم قيلا ، وقد اجتمع القراء على نصب الواو من وطئاً وقرأ بعضهم: "هى أشَدُّ وطئاً" قال: قال الفراء: أكتب وطئا بلا ألف [وقرأ بعضهم: هى أشد وِطَاء] فكسر الواو ومده يريد: أشد علاجا ومعالجة ومواطأة . وأمَّا الوِطء فلا وِطء لم نروه عن أحد من القراء .

(25/787)

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحَاً طَوِيلاً . . . ﴾ .

يقول: لك فى النهار ما يقضى حوائجك . وقد قرأ بعضهم: "سبخا" بالخاء ، والتسبيخ: توسعة الصوف والقطن وما أشبهه ، يقال: سبِّخى قطنك . قال أبو الفضل: سمعت أبا عبد الله يقول: حضر أبو زياد الكلابى مجلس الفراء فى هذا اليوم ، فسأله الفراء عن هذا الحرف فقال: أهل باديتنا يقولون: اللهم سبِّخ عنه للمريض والملسوع ونحوه .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . . . ﴾ .

أخْلِص لله إخلاصا ، ويقال للعابد إذا ترك كل شيء ، وأقبل على العبادة: قد تبتل ، أي: قطع كل شيء إلا أمر الله وطاعته .

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ اله إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . . . ﴾ .

خفضها عاصم والأعمش ، ورفعها أهل الحجاز ، والرفع يحسن إذا انفصلت الآية من الآية ، ومثله: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ، اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ [/1] في هذين الموضعين يحسن الاستئناف والإتباع .

وقوله عز وجل: ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً . . . ﴾ .

كفيلا بما وعدك .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُثِيباً مَّهِيلاً ﴾

﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُثِيباً مَّهِيلاً . . . ﴾ .

والكثيب: الرمل ، والمهيل: الذي تحرك أسفله فينهال عليك من أعلاه ، والمهيل: المفعول ، والعرب تقول: مهيل ومهيول ، ومكيد ومكيود ، قال الشاعر:

وناهزُوا البيعَ من تِرْعِيَّةٍ رَهِقٍ * مُستَأْرِبٍ ، عَضَّه السُّلطانُ مَدْيُونُ

قال ، قال الفراء : المستأرَب الذى قد أُخذ بآرابه ، وقد أُرِّب .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً . . . ﴾ .

(26/787)

معناه: فكيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم ، وكذلك هى فى قراءة عبد الله سواء .

﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ . . . ﴾ .

بذلك اليوم ، والسماء تذكر وتؤنث ، فهى ها هنا فى وجه التذكير . قال الشاعر:

فلو رَفع السماءُ إليه قوماً * لحقنا بالنجومِ مع السحابِ

﴿ إِنَّ هَاذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً . . . ﴾ .

طريقا ووجهة إلى الله .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ

يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ . . . ﴾ .

(27/787)

قرأها عاصم والأعمش بالنصب ، وقرأها أهل المدينة والحسنُ البصرى بالخفض ، فمن خفض أراد : تقوم أقل من الثلثين . وأقل من النصف . ومن الثلث . ومن نصب أراد : تقوم أدنى من الثلثين ، فيقوم النصف أو الثلث ، وهو أشبه بالصواب ، لأنه قال: أقل من الثلثين ، ثم ذكر تفسير القلة لا تفسير أقل من القلة . ألا ترى أنك تقول للرجل: لى عليك أقل من ألف درهم ثمانى مائة أو تسع مائة ، كأنه أوجه فى المعنى من أن تفسر ـ قلة ـ أخرى [/ب] وكلٌّ صواب .

﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ . . . ﴾ كان النبى صلى الله عليه ، وطائفة من المسلمين

يقومون الليل قبل أن تفرض الصلاة ، فشق ذلك عليهم ، فنزلت الرخصة . وقد يجوز أن يخفض النصف ، وينصب الثلث لتأويل قوم: أنّ صلاة النبى صلى الله عليه انتهت إلى ثلث الليل ، فقالوا : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من الثلثين ، ومن النصف ، ولا تنقص من الثلث ، وهو وجه شاذ لم يقرأ به أحد . وأهل القراءة الذين يُتَّبعون أعلم بالتأويل من المحدثين . وقد يجوز ، وهو عندى: يريد : الثلث .

وقوله عز وجل: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ . . . ﴾ .

أن لن تحفظوا مواقيت الليل ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ . . . ﴾ المائة فما زاد . وقد ذكروا : أنه من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين ، وكل شىء أحياه المصلى من الليل فهو ناشئة .

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ . . . ﴾ يعنى: المفروضة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 196 . 200 ﴾

(28/787)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة المزمل

(المزمل) [1] أصله المتزمل ، ومثله (المدثر) ، تزمل وتدثر إذا تلفف بغطاء . قال امرؤ

القيس: 1331- . . . . . في بجاد مزمل . (قم الليل) [2] اسم الجنس ، أي: كل ليلة . (إلا قليلاً) [2]

من عدد الليالي ، فقاموا على ذلك سنة فرخص بعدها بقوله: (فاقرءوا ما تيسر) .

(ورتل) [4]

بين وفصل ، من الثغر الرتل: وهو الحسن الرصف . (قولاً ثقيلاً) [5] راجحاً ليس بسخيف مهلهل . وقيل: ثقيل المحمل . وكان إذا أوحي إليه ثقل عليه الحركة فلا يستطيع شيئاً . (ناشئة الليل) [6] الصلاة التي ينشأ فيه . وقيل: [ساعته] التي تنشأ .

(وطاءاً) / [6] مصدر كالمواطأة ، مثل: الوفاق والموافقة . أي: قيام الليل أبلغ في مواطأة قلبك لعملك ولسانك . وقيل: معناه أن ما ينشأ في حفظك من القرآن بالليل أشد موافقة لك ، لمكان الخلوة ، وإمكان التفهم لها . وكذلك تفسير وطئاً . (سبحاً طويلاً) [7] فراغاً للعمل والاستراحة . والسبح: سهولة الحركة . (وتبتل) [8] انقطع إلى عبادته .

(وكيلاً) [9] ولياً معيناً . (أنكالاً) [12] قيوداً واحدها نكل . (غصة) [13] تأخذ بالحلق فلا تدخل ولا تخرج . (كثيباً مهيلاً) [14] رملاً سائلاً ، مفعول هلت الرمل: [حركت] أسفله فانهال أعلاه . (وبيلاً) [16] ثقيلاً شديداً . (يجعل الولدان شيباً) [17] مثل لصعوبة الأمر ، أي: هم كالشيب في الانكسار وتخاذل القوى . (السماء منفطر) [18]

السماء يذكر ويؤنث . قال الفرزدق: 1332- ولو رفع السماء إليه قوماً لحقنا بالسماء مع السحاب . (علم أن لن تحصوه) [20] أي: إحصاء نصف الليل وثلثه .

[تمت سورة المزمل] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1568.1573 ﴾

(29/787)

وقال الأخفش :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾

قال ﴿ الْمُزَّمِّلُ ﴾ والأصل: المُتَزَمِّلْ ، ولكن أدغمت التاء في الزاي و ﴿ المُدَّثِّر ﴾ مثلها .

﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾

وقوله ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ فقال السائل عن هذا : قد قال ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فكيف قال ﴿ نِصْفَهُ ﴾ ؟ انما المعنى "أَوْ نِصْفَه أَو زِدْ عَلَيْهِ" لأنَ ما يكون في معنى تكلم به العرب بغير: "أو" تقول: "أَعْطِهِ دِرْهَماً دِرْهَمَيْنِ ثلاثةً" تريد : "أَوْ دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً" .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾

وقال ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ فلم يجيء بمصدره ومصدره "التَبَتُّل" [178 ب] كما قال ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ وقال الشاعر: [من الوافر وهو الشاهد الثالث والاربعون بعد المئتين]:

وَخَيْرُ الأَمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ * وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعُه اتِّباعَا

وقال: [من الرجز وهو الشاهد الثاني والاربعون بعد المئتين]:

. . . . . * يَجْرِي عَلَيْها أَيَّمَا إِجْراءِ

وذلك أَنَّها إِنَّما جَرَتَ لأَنَّها أُجْرِيَتْ.

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ اله إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾

وقال ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ رفعٌ على الابتداء وجرّ على البدل.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُثِيباً مَّهِيلاً ﴾

وقال ﴿ مَّهِيلاً ﴾ لأنك تقول: "هِلْتُه" فـ "هو مَهِيل"

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾

(30/787)

وقال ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ فجعل ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ ﴾ من صفة اليوم ولم يضف لأنه أضمر .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾

وقال ﴿ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثِهُ ﴾ وقد قرئت بالجر وهو كثير وليس المعنى عليه فيما بلغنا لأن ذلك يكون على "أَدْنَى من نِصْفِهِ" و"أَدْنَى من ثُلُثِهِ" وكان الذي افترض الثلث او اكثر من الثلث لأنه قال ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [2] ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ [3] وأما الذي قرأ بالجرّ فقراءته جائزة على ان يكون ذلك – والله أعلم – اي انكم لم تؤدوا ما افترض عليكم فقمتم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه .

وقال ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً ﴾ لأن "هو" و"هما" و"أنتم" و"أنتما" وأشباه ذلك يكنْ صفات للاسماء المضمرة كما قال ﴿ ولكن كَانُواْ هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ و ﴿ تَجِدُوهُ عندَ اللهِ هُوَ خَيْر ﴾ [وقد] يجعلونها اسما مبتدأ كما [179] تقول "رأيتُ عبدَ اللهِ أبوه خيرٌ مِنْه" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 552.554 ﴾

(31/787)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المزمل

1 - الْمُزَّمِّلُ «1» : المتلفف في ثيابه «2» . وأصله : «المتزمّل» ، فأدغمت التاء في الزاي .

2 - و3 - و4 - وقوله : إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، مفسر في كتاب «المشكل» .

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا قد ذكرناه في سورة بني إسرائيل .

5 - قَوْلًا ثَقِيلًا أي ثقيل الفرائض والحدود .

ويقال : «أراد قولا : ليس بالخفيف ولا السّفساف ، لأنه كلام اللّه عز وجل» .

6 - إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ : ساعاته الناشئة . من «نشأت» : إذا ابتدأت . هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا أي أثقل على المصلّي من ساعات النهار . وَأَقْوَمُ قِيلًا : لأن الأصوات تهدأ فيه ، ويتفرغ القلب للقرآن ، فيقيمه القارئ .

ومن قرأ : وطاء ، فهو مصدر «واطأت» . وأراد : مواطأة السمع واللسان والقلب على الفهم له ، والإحكام لتأويله

---

(1) هي مكية .

(2) هذا ما رجحه الإمام أبو جعفر وذلك لدلالة الأمر بقيام الليل ، وقال بعض المفسرين : أنه طلب تزميله بالثياب عند ما جاءه الملك بالوحي في غار حراء أول ما جاءه .

(32/787)

---

7 - إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا أي تصرّفا في حوائجك ، وإقبالا وإدبارا ، [وذهابا ومجيئا] .

8 - وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ أي انقطع إليه . من قولك : بتلت الشيء ، إذا قطعته .

12 - (الأَنْكال) : القيود . واحدها : «نكل» .

وَجَحِيماً أي نارا .

13 - وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ : تغصّ به الحلوق .

14 - وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا أي رملا سائلا .

ومثله : وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا ، فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا [سورة الواقعة آية : 5/ 6] .

16 - أَخْذاً وَبِيلًا أي شديدا . وهو من قولك : «استوبلت البلد» : [إذا استوخمتها] .

ويقال : كلا مستوبل ، أي لا يستمرا .

17 - فَكَيْفَ تَتَّقُونَ - إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً ؟ ! .

المعنى : فكيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا ، إن كفرتم .

18 - السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ أي منشقّ فيه .

فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أي طريقا ووجهة .

20 - عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ : لن تطيقوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 422.421 ﴾

(33/787)

وقال الغزنوى :

ومن سورة المزمل

تزمّل وتدثر : تلفف بغطاء .

2 قُمِ اللَّيْلَ اسم الجنس ، أي : كل ليلة ، إِلَّا قَلِيلًا : من اللّيالي ، فقاموا على ذلك سنة «1» ثمّ خفّف بقوله : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ .

4 وَرَتِّلِ : بيّن وفصل ، من الثغر : الرّتل «2» . ابن مسعود رضي اللّه عنه : «اقرءوا القرآن ولا تهذوه هذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدّقل «3» ، وقفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكونن همّ أحدكم/آخر السّورة» «4» . [103/أ]

5 قَوْلًا ثَقِيلًا : راجحا ليس بسخيف مهلهل .

6 ناشِئَةَ اللَّيْلِ : ساعته التي تنشأ «5» .

---

(1) في مدة فرضه اختلاف ، والقول الذي ذكره المؤلف – رحمه اللّه – مرويّ عن ابن عباس رضي اللّه عنهما كما في تفسير الطبري : 29/ 124 ، وتفسير الماوردي : 4/ 332 .

(2) اللسان : 11/ 265 (رتل) ، وفيه أيضا : «و ثغر رتل ورتل : حسن التنضيد مستوى النبات . . . وكلام رتل ورتل ، أي : مرتّل حسن على تؤدة» .

(3) الدقل : رديء التمر كما في النهاية : 2/ 127 .

قال ابن الجوزي في غريب الحديث : 1/ 344 : «و ذلك أن الدّقل من التمر لا يكاد يلصق بعضه ببعض فإذا نثر يفرق سريعا» .

(4) أخرجه البغوي في تفسيره : 4/ 407 ، عن ابن مسعود رضي اللّه عنه ، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 277 ، وعزا إخراجه إلى البغوي .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده : 1/ 417 ، وأبو داود في سننه : 2/ 117 ، كتاب الصلاة ، باب «تحزيب القرآن» عن علقمة والأسود قالا : أتى ابن مسعود رجل فقال : إني أقرأ المفصل في ركعة ، فقال : أهذا كهذ الشعر ونثرا كنثر الدقل ؟ ؟ ! . . . » .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 333 عن عطاء وعكرمة .

وقال الراغب في المفردات : 493 : «يريد القيام والانتصاب للصلاة» .

وأكثر العلماء على أن ناشِئَةَ اللَّيْلِ أوقاته وساعاته .

ذكره القرطبي في تفسيره : 19/ 39 ، وقال : «لأن أوقاته تنشأ أولا فأولا يقال : نشأ الشيء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئا بعد شيء ، فهو ناشئ ، وأنشأه اللّه فنشأ» .

(34/787)

وطاء «1» : مصدر كالمواطأة مثل : الوفاق والموافقة ، أي : اللّيل أبلغ في مواطأة قلبك لعملك ولسانك وكذا تفسير وَطْئاً «2» .

7 سَبْحاً : فراغا للعمل «3» ، والاستراحة والسّبح : سهولة الحركة «4» .

8 وَتَبَتَّلْ : انقطع إلى عبادته عن كل شيء .

9 وَكِيلًا : وليا معينا «5» .

12 أَنْكالًا : قيودا «6» .

13 غُصَّةٍ : يأخذ الحلق فلا يسوغ.

14 كَثِيباً مَهِيلًا : رملا سائلا «7» ، هلت الرّمل : حرّكت أسفله فانهار أعلاه «8» .

16 وَبِيلًا : ثقيلا شديدا «9» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ

﴿846.845

---

(1) هذه قراءة أبي عمرو ، وابن عامر ، وهي بكسر الواو وفتح الطاء والمد .

السبعة لابن مجاهد : 608 ، والتبصرة لمكي : 363 ، والتيسير للداني : 216 .

(2) ينظر توجيه القراءتين في معاني القرآن للفراء : 3/ 197 ، ومعاني الزجاج : 5/ 240 ، والكشف لمكي : 2/ 344 ، والبحر المحيط : 8/ 363 .

(3) تفسير الطبري : 29/ 131 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 240 ، واللسان : 2/ 470 (سبح) . [. . . . .]

(4) المفردات للراغب : 221 .

(5) تفسير الماوردي : 4/ 335 ، والمفردات للراغب : 531 .

(6) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 273 ، وتفسير الطبري : 29/ 134 ، ومعاني القرآن للزجاج :

5/ 241 ، والمفردات للراغب : 506 .

(7) تفسير الطبري : 29/ 136 ، ومعاني الزجاج : 5/ 242 ، والمفردات : 426 .

(8) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 198 ، وتفسير الطبري : 29/ 136 ، واللسان : 11/ 633 (مهل) .

(9) تفسير الطبري : 29/ 137 ، وتفسير الماوردي : 4/ 336 ، وتفسير القرطبي : 19/ 48 .

(35/787)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المزمل

عدد 3 - 72 أو قيام الليل

نزلت بمكة بعد القلم عدا الآيات 10 و 11 و 20 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي عشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة وثمانمئة وثلاثون حرفا ومثلها في عدد الآية سورة البلد .

(36/787)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

قال تعالى : «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ 1» بفراشه الملتف به كان صلى اللّه عليه وسلم في بدء نبوته يقول عند انفصام الوحي عنه زمّلوني أي لفوني فرقا من شدة الوحي وعظم رؤية ملكه ،

فخاطبه اللّه تعالى بالحالة التي هو فيها إذ كان يتزمّل في ثيابه ، ويوجد في القرآن عشر سور مبدوءة بلفظ يا أيها هذه والنساء والمائدة والحج والأحزاب والحجرات والممتحنة والمدثر والطلاق والتحريم .

هذا وبعد أن ناداه ربه أمر بقوله «قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا 2» منه وهذا الأمر للوجوب راجع ما فيه في الخاتمة المارة ، ثم بين هذا القليل المستثنى من الكل بقوله «نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا 3» أي السدس بأن تقوم الثلث «أَوْ زِدْ عَلَيْهِ» سدسا بأن يبلغ النصف إلى الثلثين فكان صلى اللّه عليه وسلم يقوم من كل ليل تلك المقادير امتثالا للآمر وأصحابه يقومون معه تهجدا نفلا لأنه لم يفرض عليهم .

مطلب ما يجب على القارئ عند التلاوة :

وكان القيام في بداية الإسلام فريضة عليه ، سنة على الأصحاب «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ» يا حبيبي عند قراءته «تَرْتِيلًا 4» تبيينا فصيحا على تؤدة وتأن وتفكر يثير حضور القلب بمعانيه ولذيذ النّفس بمبانيه واشتغل بعبادتي تحظ بعبوديتي .

يفيد هذا الأمر وجوب الاعتناء بقراءة القرآن يعضده قوله صلى اللّه عليه وسلم (أعربوا القرآن واعرفوا غرائبه) إذ بالعجلة تفوت الغرض المطلوب منه فعلى القارئ أن يستشعر بعظمة القرآن وهيبة منزله عند ذكره والرجاء عند ذكر الوعد والخوف عند الوعيد والعبرة عند القصص والذكرى عند الأمثال ليستنير قلبه بنور كلام اللّه ويوقر في صدره

مغزى معناه ومبناه وليخذن من الاسراع المخل والتطويل الممل ففيهما الحرمة والاساءة.

روى البخاري ومسلم عن قتادة قال: سئل كيف كانت قراءة رسول اللّه فقال كانت مدا ثم قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم ويمد الرحمن ويمد الرحيم، وروى البخاري ومسلم عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: جاء رجل إلى ابن مسعود وقال إني

(37/787)

لا قرأ المفصل في ركعة قال عبد اللّه هذّ كهذا الشعر أي صرعة وعجلة مخلّين بأصوله لا ثواب بقراءته كما يفهم من تتمة الحديث وهي: إن أقواما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم (العظام التي بين النحر والعاتق) ولكن إذا وقع في القلب فرسخ، يقع منه موقعا ينيره فيخضع له الجسد وتخشع الجوارح كلها إن أفضل الصلاة الركوع والسجود إني لأعرف النظائر التي كان رسول اللّه يقرن بينهن سورتين من كل ركعة) فظهر أن المقصود من الترتيل حضور القلب وكمال المعرفة لأن النّفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية والسرعة تنافي الحضور والعجلة تباين المعرفة، وفي رواية فذكر عشرين سورة من المفصل وهو من الحجرات إلى الناس بحسب ترتيب القرآن وسمي مفصلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة وقصر أكثر آياته، قال تعالى «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ» يا أكمل الرسل «قَوْلًا ثَقِيلًا 5» ايحاءه

شاق تلقّيه صعب تحمله لأن كلام العظيم عظيم في مبناه رزين في معناه لما فيه من الأوامر والنواهي التي فيها صعوبة وكلفة على النفس وليس ذلك بالخفيف الهين .

مطلب في صفة الوحي وحالاته :

روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : كان صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كرب وتربد له وجهه .

وفي رواية كان إذا نزل عليه الوحي عرفنا ذلك في فيه وغمض عينيه وتربد وجهه (الربدة غبرة مع سواد) وفي رواية فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض ، وروى البخاري ومسلم عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول اللّه فقال : يا رسول اللّه كيف يأتيك الوحي ؟

فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرص (أي كالصوت الشديد الصلب الحاصل من الأشياء الصلبة كالجرص) وهذا أشده علي فيفصم عني (أي يفارقني) وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا

(أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد) ، وأخرج أحمد وعيد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحكم وصححه عن عائشة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقة وضعت جرانها (أي مقدم عنقها من مذبحها إلى نحرها جمعه جرن) فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه .

وكان يوحى إليه ورأسه على فخذ زيد بن ثابت وكان يحس بثقله حتى كأن فخذه كادت ترضّ من شدة ثقل رأس رسول اللّه .

والحالة الثالثة هو أن ينفث في روعه الكلام نفثا لقوله صلى اللّه عليه وسلم إن روح القدس نفث في روعي وجلّ القرآن من هذه الأنواع الثلاث راجع مطلب الوحي تجد الفرق بين الوحي والإلهام .

الرابعة أن يأتيه الملك في النوم وما يعبه عنه لا يعد قرآنا كما نوهنا به قبلا وذكرنا أن من قال بأن سورة الكوثر نزلت فيه لا عبرة ، وأن الصحيح أنها أنزلت عليه يقظة وبما أنه عند نزول الوحي تتغير حالته كما علمت فيظن من لم يعلم منه ذلك أنه يتيقظ من نوم ، ولهذا تسمى هذه الحالة برحاء الوحي أي ثقله فيحمل الحديث الذي رواه مسلم بشأن سورة الكوثر على هذه الحالة ، وإن ما يراه نوما معتبر لأن رؤيا الأنبياء صادقة ولكن لا يكون قرآنا كالأحاديث القدسية فإنها معتبرة ولكنها ليست بقرآن ولعله رأى الكوثر في نومه أو

خطرت له السورة عند تيقظه من النوم فذكرها لمن كان عنده وهو الأشبه ويسمى ما يراه في النوم الوحي النومي .

الخامسة أن يكلمه اللّه يقظة كما كان في ليلة الإسراء راجع قصة المعراج الآتية في أوائل سورة الإسراء آخر هذا الجزء ، أو في النوم كما في حديث معاذ (أتاني ربي فقال فيم يختصم الملأ الأعلى) الحديث ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع البتة أما الحديث الذي رواه عدي بن ثابت وخرّجه ابن أبي حاتم على فرض صحته فإن ما جاء فيه ليس من ألفاظ القرآن واللّه أعلم ، قال تعالى «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ» أي القومة بعد النوم وكل ما حدث وبدأ ليلا فهو ناشئة وكل ساعة في الليل ناشئة لأنها تنشأ عن الأخرى ، فإذا قام من نومه ونهض لعبادة ربه فقد أنشأ أي أحدث

(39/787)

وأبدى عبادة أخرى جديدة «هي أشدّ» أقوى وأصعب على المصلي من غيرها وتختلف باختلاف المصلين إذ تكون لذيذة على البعض ثقيلة على الغير «وطأ» أي موافقة يتواطأ فيها القلب واللسان لانقطاع رؤية الخلائق فيها وانصراف المصلي بكليته إلى ربه «وَأَقْوَمُ قِيلًا 6» أثبت قراءة واركن للسّماع لهذه الأصوات ، فتكون عبادة الليل أكثر نشاطا

للراغب فيها وأتم إخلاصا وأبلغ تأثيرا وأعظم توبة وأبعد عن الرياء وأدخل حلاوة في القلب «إنّ لك» يا حبيبي ويشمل هذا الخطاب من تبعه من أمته لأن مخاطبته مخاطبة لأتباعه أجمع «فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا 7» يكفي لإشغالك ففرغ نفسك في الليل لعبادة ربك ، وأصل السبح المر السريع في الماء ثم استعير للذهاب مطلقا وفيه قيل :

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

«وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ» ليل نهار بالتسبيح والتهليل والصلاة والقراءة دواما «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا 8» انقطع إلى عبادته وحده (ولم تكرر هذه الجملة في القرآن) وارفض ما سواه طلبا لما عنده المرة بعد المرة لأنه هو «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» وما بينهما من مخلوقات علوية وسفلية ، مائية وهوائية ، نارية وترابية ، روحية ونورية ، فهو الإله الذي «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» وحده المستحق للعبودية «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا 9» لك وفوض أمرك إليه وحده لأن التبتل لا يليق إلا إليه وهو كفيل بما وعدك به من النصر ورفع الكلمة ، وتعقيب التوكيل يدل على أن مقامه صلى اللّه عليه وسلم فوق مقام التبتّل لما فيه من رفع الاختبار ، وفيه دلالة على غاية الحب أيضا وقيل في المعنى :

هواي له فرض تعطّف أو جفا ومنهله عذب تكدر أم صفا

وكلت إلى المعشوق أمري كله فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

قال تعالى «وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ» كفرة قومك من تكذيبك ورميك بما لا يليق «وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا 10» لا حقد فيه بأن تجتنبهم وتداويهم بإرشادك

(40/787)

ولا تكافئهم على ما يقع منهم.

وهذه أولى الآيتين المدنيتين والأخرى التي تليها كان نزولها قبل الأمر بالقتال ولا معنى لقول من قال إنهما منسوختان بآية السيف لأن بداية الرسالة وطنّت على الرفق واللين والترغيب والوعد لا على الشدة والقسوة وما وقع من التهديد والترهيب والوعيد إنما هو لاستمالتهم والقائل بالنسخ يزعم أنهما مكيتان وليس كذلك وكان نزولهما قبل حادثة بدر وحديث عائشة هو في الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي، فيا حبيبي الأمين اعتزل هؤلاء الكفار

«وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ» هي غضاضة العيش وكثرة المال والولد وهي بالفتح بمعنى التنعّم وبالكسر بمعنى الانعام وبالضم المسرة، أي خل بيني وبينهم وكل أمرهم إليّ فان فيّ ما يفرغ بالك ويجلي همك فلا تستعجل عليهم «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا 11» كي يؤمن مؤمنهم ويصر كافرهم وإني سأكفيكهم.

انتهت الآيتان المدنيتان ، وقد نزلتا في صناديد قريش وقيل في المطعمين الذين تعهدوا بإطعام الجيش عند تأهبهم لغزوة بدر فكان جزاؤهم بالدنيا أن قتلوا فيها أما جزاؤهم في الآخرة فهو ما قال تعالى «إِنَّ لَدَيْنا» لأمثالهم «أَنْكالاً» قيودا ثقالا وسلاسل طوالا ننكّلهم بها «وَجَحِيماً 12» نارا محرقة سوداء لشدة اتقادها نحرقهم بها «وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ» ينشب بالحلق ولا يساغ كالزّقوم والضريع (وهي لم تكرر في القرآن) «وَعَذاباً أَلِيماً 13» لا تطيقه أجسامهم نذيقهم إياه في ذلك اليوم العظيم «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ» تضطرب لشدة الهول «وَالْجِبالُ» تتزلزل منه «وَكانَتِ الْجِبالُ» «كَثِيباً» رملّا مجتمعا «مَهِيلاً 14» رخوا سائلا بحيث إذا أخذت منه شيئا تبعك ما بعده بخلاف حالتها اليوم فاعتبروا أيها الناس فان هذه الآية من أعظم الآيات المرهبات ، أخرج الإمام أحمد في الزهد وأبو داود في الشريعة والبيهقي في الشعب وابن عدي في الكامل من طريق حمران بن أعين عن أبي حرب بن الأسود أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها فصعق .

وفي رواية أنه صلى اللّه عليه وسلم قرأها نفسه فصعق ، وقال خالد بن حسان أمسى عندنا الحسن وهو صائم

فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية فقال ارفعه وهكذا ثلاث ليال ولم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

وفي هذا عذر واضح للصوفية المخلصين الذين يقع منهم الصعق عن غير اختيار عند سماع بعض الآيات.

ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 147 من الأعراف الآتية وفي الآية 22 من سورة الزمر في ج 2 فراجعهما، قال تعالى يا أيها الناس «إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ» بايمان من آمن وكفر من كفر وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم الذي بلغكم أمرنا «كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا 15» شاهدا على قومه القبط وعلى بني إسرائيل وهو موسى عليه الصلاة والسلام وخص بالذكر دون سائر الأنبياء لأن القبط كذبوه وبني إسرائيل آذوه وازدروه كما فعلت قريش بمحمد من الإيذاء والإهانة «فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ» ولم يمتثل أمره وقاومه وتحداه بسحرته فأخسأه اللّه ووفق السحرة للإيمان به وآب هو وقومه بالإصرار على الكفر «فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا 16» شديدا غليظا لا رحمة فيه بأن أغرقه وقومه، وهذا تخويف لكفار مكة بأنهم إذا لم يذعنوا لنبيهم يوقع بهم عذابا مماثلا بعذابهم في الدنيا وأما في الأخرى فانظر ما هو «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ» العذاب الأكبر الدائم «إِنْ كَفَرْتُمْ» وبقيتم على كفركم «يوما» مهولا عظيما «يجعل» يصيّر فيه «الولدان» لشدة هوله «شِيباً 17» شيوخا شمطاء أي لو فرض لكان لأن الآخرة لا شيب، فيها وإنما هو مثل ضربه اللّه

لشدة الغمّ والكرب والهم ، قال المتنبي :

والهم يخترم الجيم نحافة ويشيب ناصية الفتي ويهرم

وقال حسان بن ثابت :

إذا والله نوميهم بحرب يشيب الطفل من قبل المشيب

وذلك أن كل ما يخاف منه يورث الهم والهرم والمشيب أي إن كنتم لا تخافون أن تؤخذوا بالدنيا كأخذ فرعون ألا تخافون هول اليوم الآخر الذي يصيّر الشباب شيبا وكلكم صائر إليه وذلك حين يقول الله تعالى لآدم قم فابعث بعث النار من

(42/787)

ذريتك كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك ، فينادى بصوت عال إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار (أي أهلها المخلوقين لها ازلا من بين الخلائق الموجودين في المحشر) راجع تفسير الآية 38 من سورة مريم الآتية وذلك بعد الحساب وقبل أن يقول الله تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 59 من سورة يس الآتية بدليل قوله (قال يا رب وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة

وتسع وتسعون) فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى راجع الآية الأولى من سورة الحج في ج 3 ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا يا رسول اللّه أينا ذلك الرجل ؟

فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعا وتسعين ومنكم واحد ، ثم قال : أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وفي رواية كالرخمة (الأثرة بباطن عضد الحمار) في ذراع الحمار ، وإني لأرجو أن تكونوا رباع أهل الجنة فكبّرنا ثم قال ثلاث أهل الجنة فكبّرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبّرنا ، وفائدة هذا التدريج من الربع إلى الثلاث إلى الشطر المبالغة في الإكرام وهو أوقع في النفس من الإعطاء دفعة واحدة ، وفي تكرير البشارة حملهم على الشكر مرة بعد أخرى ، وما قيل إن هذا اليوم عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا جريا على ظاهر الآية المارة حقيقة وان إجراءها على يوم القيامة مجاز بعيد عن السياق فإن ظاهر الآية وحقيقتها هو ما ذكر واللّه أعلم بالواقع يؤيده قوله تعالى «السَّماءُ» هذه التي تشاهدونها الآن مع عظمتها «مُنْفَطِرٌ بِهِ» منشقة في ذلك اليوم من شدة الهول فما بالك بغيرها وهل يكون انفطارها إلا في يوم القيامة وهذا وعد حق من اللّه «كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» واقع لا محالة إن اللّه لا يخلف وعده «إِنَّ هذِهِ» الآيات المنزلة عليك يا سيد الرسل «تذكرة» عظات وعبرا لقومك «فَمَنْ

شاءَ» منهم قبل حلوله «اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا 19» طريقا للخلاص من هوله بالإيمان والطاعة لما أمر به ونهي ت (7)

(43/787)

عنه وإلا فلا مناص عن الهلاك فيه والوقوع في شره، وهذه الآية المدنية الأخيرة قال تعالى «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ» يعلم أنك تقوم «نِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ» لعلمه أنهم يقومون أيضا مثل قيامه «و اللّه» المطلع عليكم هو «يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ» لا يفوته علم ما تفعلونه فيه أنتم وسائر مخلوقاته ولكنه جلّت قدرته «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ» ولن تستطيعوا ضبط ساعاته ولا يتأتى لكم حسابها على النحو المطلوب منكم بالتعديل والتسوية.

ولما كان في ذلك مشقة عليكم وكلفة «فَتابَ عَلَيْكُمْ» ورفع التبعة عنكم ورخص لكم ترك قيامه كله وأسقطه عنكم تخفيفا عليكم بعفوه ولطفه وذلك أن الأصحاب كانوا يقومون الليل كله مخافة أن لا يصيبوا القدر الذي أمروا به لأنهم لا يدرون متى الثلث والنصف والثلثان على الضبط فاشتد ذلك عليهم حتى تورمت أقدامهم فأنزل اللّه «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» أي جزءا من أجزائه حسب استطاعتكم.

هذا ، وما قيل إنه كان بين نزول الآيات أول السورة وهذه الآية سنة وستة عشر شهرا لأن فرض القيام كان قبل فرض الصلاة ، يردّه ما يأتي آخر هذه الآية على أن فرضيته قبل فرض الصلاة على فرض صحتها لا تدل على أنه كان بعد تلك المدة وإنما كان قيام الليل بالمقدار الأول الوارد أول السورة فرضا كما ذكر آنفا فخففه اللّه في هذه الآية إلى النقل وكان بمقدار معين فجعله اللّه بشيء يسير منه وبمطلق قراءة آية ما بين المغرب والصبح حسب الاستطاعة .

والصحيح ان قيام الليل بقي ما يقارب عشر سنين فرضا على حضرة الرسول نفلا على من تبعه ممن آمن به من أمته ، ثم خففت فرضيته في حقه وبقي سنة في حق أمته بدليل قوله تعالى (فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ) الآية 79 من سورة الإسراء الآتية كما سنبينه في تفسيرها إن شاء اللّه .

وتقدم في مطلب الناسخ والمنسوخ التوجيه بين هذه الآية والآيات التي في صدر هذه السورة فراجعه ومنه تعلم أن لا ناسخ ولا منسوخ هنا خلافا لما قاله بعض المفسرين بل أكثرهم بأن الآيات الأول منسوخة في هذه الآية الأخيرة ، روى مسلم عن سعيد بن هشام قال : انطلقت إلى عائشة فقلت

يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول اللّه ، قالت الست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ، قالت فإن خلق رسول اللّه القرآن ، قلت فقيام رسول اللّه يا أم المؤمنين ؟

قالت ألست تقرأ المزّمل ؟ قلت بلى ، قالت فإن اللّه افترض القيام أول هذه السورة فقام رسول اللّه وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك اللّه خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا بغير فريضة .

وهذا إذا صح يكون التخفيف نزل بمكة أيضا إلا أن السياق ينافيه ولأن الزكاة لم تفرض إذ ذاك كما أن الصلاة لم تفرض أيضا ، ولأن هذه السورة نزلت بعد فترة الوحي إلا أن يقال أن تلك المدة المذكورة في الحديث بالنسبة إلى وجود حضرة الرسول بالمدينة وإعلانه وأصحابه أمر القيام ومداومتهم عليه لأنهم كانوا لا يقدرون على إعلان العبادة في مكة ، وروى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : قال رسول اللّه ألم أخبر أنك تقوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت بلى يا رسول اللّه ولم أرد بذلك إلا الخير ، قال : نعم فصم صوم داود [كان عليه السلام يصوم يوما ويفطر يوما] وكان أعبد الناس في زمانه ، واقرأ القرآن في كل شهر مرة ، قال : قلت يا رسول اللّه إني أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأ في كل عشر ، قال : قلت يا نبي اللّه إني أطيق أفضل من ذلك .

، قال فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك .

مطلب تخفيف قيام الليل ونقل الكسب والصدقة :

ثم ذكر اللّه حكمة التخفيف المعبر عنه بالنسخ في أغلب كتب المفسرين فقال :

«عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى » يشق عليهم القيام أو يزيد في مرضهم أو يسبب لهم مرضا آخر إذا بقوا على حالتهم الأولى بدليل الحديث المتقدم ذكره إذ جاء فيه ان انتفخت أقدامهم وهذه حكمة أخرى غير حكمة عسرة الإحصاء تقدير الأوقات مقتضية للتخفيف «وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ» يسافرون للتجارة والزيارة والعمل وغيره «يَبْتَغُونَ» الربح «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» وطلب العلم وصلة الرحم وأداء الفرض والسنة من حج وعمرة طلبا للأجر ، وهذه حكمة ثالثة

(45/787)

في التخفيف ، والحكمة الرابعة هي «وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» غزاة مجاهدين أو مرابطين وهؤلاء لا يتمكنون من قيام الليل لأنهم في مشقة فلا يتحملون مشقة أخرى فوقها ، وقد سوى جل جلاله بين المكتسب والمجاهد ، لأن كسب الحلال جهاد أيضا .

روي عن أبن مسعود قال : أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بعد يوم كان عند اللّه بمنزلة الشهداء ، ثم قرأ «وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ» .

الآية وقال ابن عمر رضي اللّه عنهما : ما خلق اللّه موتة أموتها بعد القتل في سبيل اللّه ، أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض ، أبتغي من فضل اللّه .

وأخرج سعيد بن منصور البيهقي في شعب الإيمان ، وغيرهما عن ابن عمر قال : ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل اللّه أحب إليّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل التمس من فضل اللّه ، وتلا هذه الآية ، قال تعالى : «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ» أي القرآن ، وأعاده تأكيدا على كفاية قراءة جزء يسير منه وحصول المقصود فيه في الصلاة بقوله تعالى : «وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ» المفروضة بما تيسر لكم من قراءته .

واستدل أبو حنيفة ومن رأى رأيه في هذه الآية على أن المفروض في الصلاة هو قراءة مطلق آية منه مثل «ثُمَّ نَظَرَ» الآية 21 من المدثر الآتية .

وقال مالك والشافعي ومن رأى رأيهما أن ما تيسر هو الفاتحة ، ولكل وجهه ، قال تعالى : «وَآتُوا الزَّكاةَ» الواجبة عليكم المعلومة في كتب الفقه ، وسنبين ما يتعلق بها في تفسير الآية (260) من البقرة والآية 60 من سورة التوبة في ج 3 ، قال تعالى : «وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» بأداء زكاة أموالكم المفروضة عليكم لأربابها ، وفي وصف القرض بالحين تنبيه على إعطائها كاملة عن طيب قلب ، ولأجل أن يطمئن المتصدق على ذلك ينبغي أن يتصدق زيادة على الفرض كصدقة التطوع وصلة الرحم وقرى الضيف والتصدق على أهل الذّمة المعدمين وعلى الحيوان ، فإن في كل كبد حرّاء أجرا ، ويخص الأقرب فالأقرب

ويدل قوله تعالى «حَسَناً» على أن يكون المتصدّق به من كسب طيب ولا يقبل اللّه إلا الطيب ، وتدل إضافة القرض لذاته الكريمة على عدم المنّ على

(46/787)

الفقير بما يعطيه لأنه معاون له على الأجر ، فالمنة للّه وحده ، وأن تكون من وسط الأموال ان لم تكن من أحسنها كما سيأتي في الآية 267 من البقرة أيضا ، ولهذا يقول تعالى قوله : «وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ» أيها المؤمنون «مِنْ خَيْرٍ» ما ولو قليلا جدا ، فإنكم «تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» في اليوم الآخر هو «خيرا» من الذي ادخرتموه «وَأَعْظَمَ أَجْراً» من الذي قضيتم فيه مصالحكم ، وقرىء خير بالرفع على لغة تميم الذين يرفعون الفاصلة ، فيقولون : كان زيد هو العاقل .

روى البغوي بسنده عن عبد اللّه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أيكم ماله أحب اليه من مال وارثه ؟ قالوا : يا رسول اللّه ما منا أحد إلا وماله أحب اليه من مال وارثه ، قال : اعلموا ما تقولون ، قالوا ما نعلم الّا ذلك يا رسول اللّه ، قال : ما منكم رجل إلا مال وارثه أحبّ اليه من ماله ، قالوا : كيف يا رسول اللّه ؟ قال : إنما مال أحدكم ما قدّم ، ومال وارثه ما أخر ، هذا «وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ» في تقصيركم فيما فرضه اللّه عليكم من

الصلاة والزكاة .

ولذلك شرعت الواجبات إكمالا للفرائض والسنن إكمالا للواجبات .

لأنه إذا اقتصر على الفرض ، فلو بما أن يكون قصّر فيه فيكون في شكّ في إتمام ما أمر به «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لما وقع منكم من التقصير ، دون علم وتعمد في هذين الفرضين وغيرهما «رَحِيمٌ 20» بعباده لا يؤاخذهم على الخطأ والنسيان فيما أمرهم به ونهاهم عنه .

والدليل على نزول هذه الآية بالمدينة الأمر فيها بإقامة الصلاة حيث فرضت ليلة الإسراء 27 رجب سنة 51 السنة العاشرة من البعثة بمكة ولم تكن إقامتها علنا إلا بالمدينة .

مطلب فرض الزكاة والصلاة وتاريخهما ومحلهما أما الزكاة فقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة سنة 55 من ميلاده ، فيكون بين آيات القيام المبينة أول السورة وبين آية التخفيف فيه ، هذه ما يقارب عشر سنين ، وعليه يكون نزول هذه السورة سنة 45 من ميلاده الشريف الرابعة من البعثة ، ثم فتر الوحي بعد هذه السورة وما قيل ان آية (وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا) المارة نسخت بآية (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) المارة بعدها ، وكذلك آية «فَمَنْ شاءَ

اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا»

بآية «وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» المارة بعدها ، أو بآية السيف لا وجه له كما سيأتي .

واعلم أن هذه الآية عدا آية المداينة 280 والآيتين من سورة البقرة 101 و258 والآيتين من النساء 44 و91 والآية من المائدة 109 في ج 3 تعد من أطول آي القرآن مما يدل على مدنيتها أيضا ، لما ذكرناه في بحث مميزات المكي والمدني بأن غالب آيات المدني طوال والمكي قصار .

مطلب لا محل للبحث في ترتيب الآيات والسور وتدل أيضا على أن ترتيب الآيات مع سورها توقيفي كما ذكر قبلا في بحث وضع السور والآيات ، وانه أمر من حضرة الرسول ولا دخل لأحد من الأصحاب في ذلك ، وهو موافق لما في لوح اللّه المحفوظ ولا يعلم الحكمة في هذا الترتيب إلا اللّه والمنزل عليه ، ولذلك فإن العلماء تحاشوا البحث فيه ، وإنما أشاروا إلى بعض المناسبات مما في السورة الأولى للتي تليها .

إذن لا مجال للقول والتقول في هذا الشأن البتة .

تأمل وحسن نيتك وعقيدتك تفز وتنجح ويفتح عليك هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة الا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 90.102 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المزمل عليه السلام

مكية وقل إلا قوله إن ربك يعلم إلى آخرها فمدني

أوزد عليه تام نقله أبو عمرو عن نافع ثم قال وهو صالح ترتيلا كاف ثقيلا حسن وقال أبو عمرو تام قيلا كاف وكذا طويلا تبتيلا تام لمن قرا رب بالرفع وليس بوقف لمن قراه بالجر بدلا من ربك لا اله إلا هو كاف وكيلا أكفى منه جميلا كاف قليلا أليما مفهوم مهيلا تام وبيلا حسن منفطر به تام وكذا مفعولا تذكرة جائز سبيلا تام من الذين معك كاف فتاب عليكم جائز من القرآن كاف وكذا في سبيل الله ما تيسر منه تام حسنا كاف قاله أبو حاتم وهو عندي أتم مما قبله أجرا كاف واستغفروا الله جائز آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية قيل إلا قوله إنَّ ربَّك يعلم أنَّك تقوم إلى آخرها فمدني كلمها مائة وتسع وتسعون كلمة

وحروفها ثمانمائة وثمان وثلاثون حرفاً وآيها عشرون آية

أو زد عليه (تام) ومثله ترتيلاً وكذا ثقيلاً على استئناف ما بعده

قيلاً (كاف)

وقيلا (تام)

طويلاً (كاف) على استئناء ما بعده وحسن إن عطف ما بعده على ما قبله

تبتيلاً (تام) لمن قرأ رب بالرفع خبر مبتدأ محذوف أو رفعه بالابتداء والخبر جملة لا إله إلا هو

وبها قرأ أبو عمرو وعبد الله بن كثير ونافع وحفص عن عاصم وليس بوقف لمن جره على

البدل من ربك ومثله في عدم الوقف من جره بقسم مضمر كقولك الله لأفعلنَّ وجوابه لا إله

إلاَّ هو ونسب هذا لابن عباس قال أبو حيان ولا يصح هذا عن ابن عباس لأنَّ فيه إضمار

الجار ولا يجيزه البصريون إلا مع لفظ الجلالة ومن قرأه بالجر وهو حمزة والكسائي وابن عامر

وأبو بكر عن عاصم فلا يقف على تبتيلاً

لا إله إلا هو (حسن)

وكيلاً (كاف) وكذا جميلاً ومثله قليلاً

أليماً (جائز) إن نصب يوم بمقدر مفعولاً به وكان من عطف الجمل وليس بوقف إن جعل

ظرفاً لقوله إن لدينا أنكالاً والمعنى أن لدينا أنكالاً في هذا اليوم

والجبال الأوّل (حسن)

مهيلاً (تام)

رسولاً الثاني (حسن) على استئناف ما بعده

(50/787)

وبيلاً (كاف) إن كفرتم قال نافع تام وغلطه في ذلك جماعة منهم أبو حاتم وجعلوا يوماً

منصوباً بتتقون نصب المفعول به على المجاز على حذف مضاف أي واتقوا عذاب الله يوماً

واختاره أبو علي النحوي أو التقدير فكيف تتقون يوماً الذي من شدته كذا وكذا وليس

ظرفاً لأنَّ الكفر لا يكون يوم القيامة أي كيف تقون أنفسكم عذاب يوم يجعل الولدان شيباً

وقال الأخفش الوقف كفرتم وجعل يوماً منصوباً على الظرف وجعل الفعل لله تعالى

والتقدير يجعل الله الولدان شيباً في يوم وهذا ليس بمختار والأصح أنَّ الضمير في يجعل لليوم

ولا يجوز نصبه على الظرف لأنَّهم لا يكفرون ذلك اليوم بل يؤمنون لا محالة إذا عاينوا تلك

الأهوال لأنَّ اليوم هو الذي من شدة هوله يصير الولدان شيباً ويصير الكهل كالسكران قال

أمية بن أبي الصلت

كل عيش وإن تطاول دهراً صائر مرةً إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا

إنَّ يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوماً ثقيلاً

وقيل الوقف تتقون والابتداء بقوله يوماً بتقدير إحذروا يوماً يجعل الولدان شيباً وقيل الوقف شيباً على أنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً والمعنى فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم في الدنيا و الأجود أن لا يوقف عليه لأنَّ ما بعده صفة يوماً وقال أبو حاتم الوقف السماء منفطر به أي بذلك اليوم وقرأ العامة بتنوين يوماً والجملة بعده نعت له والعائد محذوف أي يجعل الولدان فيه وقرأ زيد بن عليّ يوم يجعل بإضافة الظرف للجملة والفاعل ضمير البارئ وشيباً مفعول ثان ليجعل والأصل فيه أنَّ الهموم إذا تفاقمت أسرعت الشيب قال الشاعر

لعبن بنا شيباً وشيبننا مردا

(51/787)

قال إسماعيل بن خالد سمعت خيثمة يقول في قوله يوماً يجعل الولدان شيباً قال يؤمر آدم عليه السلام فيقال له قم فابعث بعث النار من ذريتك من كل ألف تسعمائة وتسعون فمن ثم يشيب المولود فنسأل الله النجاة من عذابه وغضبه وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد

منفطر به (تام) أي بذلك اليوم أو فيه ومثله مفعولاً

تذكرة (كاف) على استئناف ما بعده

سبيلاً (تام)

معك (كاف)

والنهار (حسن) ومثله فتاب عليكم

فاقرؤوا ما تيسر من القرآن (أحسن) مما قبله

مرضى ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

من فضل الله (حسن) للفصل بين الجملتين لأنَّ الضاربين في الأرض للتجارة غير المجاهدين في سبيل الله

ما تيسر منه (كاف)

وآتوا الزكاة (جائز)

حسناً (كاف) ومثله أجراً

واستغفروا الله (حسن)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(52/787)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المزمل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ عكرمة : "الْمُزَّمِّل1" ، و"الْمُدَّثِّر2" ، خفيفة الزاي ، والدال ، مشددة الميم ، والثاء .

قال أبو الفتح : هذا على حذف المفعول ، يريد : يأيها المزمل نفسه ، والمدثر نفسه ؛ فحذفه فيهما جميعا . وحذف المفعول كثير ، وفصيح ، وعذب . ولا يركبه إلا من قوى طبعه ، وعذب وضعه . قال الله "سبحانه" : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ3 ﴾ ، أي : أوتيت من كل شيء شيئا . وأنشدنا أبو علي للحطيئة :

منعمة تصون إليك منها كصونك من رداء شرعبي4

أي : تصون حديثها وتخزنه ، كقول الشنفرى :

كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تخاطبك تبلت5

ومن ذالك قراءة أبي السمال : "قُمِ اللَّيْل6" .

وروح – عن أبي اليقظان – قال : سمعت أعرابيا من بلعنبر7 يقرأ كذلك .

---

1 سورة المزمل : 1 .

2 سورة المدثر : 1 .

3 سورة النمل : 23 .

4 انظر الصفحة 125 من الجزء الأول .

5 انظر الصفحة 334 من الجزء الأول .

6 سورة المزمل : 2 .

7 في ك : بني العنبر .

قال أبو الفتح : علة جواز ذلك أن الغرض في هذه الحركة إنما التبلغ به هربا من اجتماع الساكنين ، فبأي الحركات حركت أحدهما فقد وقع الغرض ، ولعمري إن الكسر أكثر ، فأما ألا يجوز غيره فلا . حكى قطرب عنهم : "قُمِ اللَّيْل" ، وَقُلِ الْحَق1" وبع الثوب فمن

كسره فعلى أصل الباب ، ومن ضم ، أو كسر أيضا أتبع2 ، ومن فتح فجنوحا إلى خفة الفتح .

ومن ذلك حدثنا عباس الدوري [161ظ] عن أبي يحيى الحماني3 عن الأعمش عن أنس أنه قرأ : "وَأَقْوَمُ قِيلًا" ، و"وأَصْوَبُ4" . فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هي : "وَأَقْوَمُ قِيلًا" ، فقال أنس : إن أقوم أصوب وأهيأ واحد .

قال أبو الفتح : هذا يؤنس بأن القوم كانوا يعتبرون المعاني ، ويخلدون إليها ، فإذا حصلوها وحصنوها سامحوا أنفسهم في العبارات عنها5 .

ومن ذلك ما رؤينا عن أبي زيد أن أبا سرار الغنوي كان يقرأ : "فَحاسُوا خِلالَ الدِّيارِ6" ، والحاء غير معجمة . فقيل له : إنما هو "جاسوا" ، فقال : حاسوا ، وجاسوا واحد7 .

ومن ذلك حكاية ذي الرمة في قوله :

وظاهر لها من يابس الشخت8

فقيل له" أنشدتنا بائس السخت فقال : بائس ، ويابس واحد .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى قال : قال بعض أصحاب ابن الأعرابي له في قوة الشاعر :

وموضع زين لا أريد مبيته كأني به من شدة الروع آنس9

أنشدتناه وموضع ضيق ، فقال له ابن الأعرابي : سبحان الله ! تصحبنا منذ كذا وكذا

سنة ولا تدري أن "زين" و"ضيق" واحد ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 335.334 ﴾

---

1 سورة الكهف : 29 .

2 أي حين يكون ما قبل الساكن مضموما أو مكسورا .

3 هو أبو يحيى عبد الحميد بن الرحمن بن ميمون الحماني ، نسبة إلى بني حمان ، قبيلة نزلت الكوفة ، حدث عن الأعمش وسفيان الثوري . انظر الأنساب للسمعاني : 175 .

4 سورة المزمل : 6 .

5 المراد في غير القرآن طبعا ، بدليل قول أبي الفتح : سامحوا أنفسهم في العبارة عنها .

6 سورة الإسراء : 25 ، وقراءة الجماعة ﴿ فَجَاسُوا ﴾ بالجيم .

7 المراد أنهما بمعنى ، وكل قرئ به . وكذا قراءة أنس السابقة .

8 البيت بتمامه :

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن عليها الصبا واجعل لديك لها سترا

وانظر الصفحة 297 من الجزء الأول .

9 للمرقش الأكبر . يقول : أنست بهذا المنزل لما نزلت له ، لشدة ما بني من الروع ، وإن كان ضيقا ليس بموضع نزول . وانظر المفضليات : 225 ، والخصائص 2 : 467 ، واللسان "زين" .

وقال العلامة الدمياطى :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية قيل إلا آيتين واصبر على ما يقولون وتاليتها وقيل إلا إن ربك إلى أخرها وآيها ثماني عشرة مدني أخير وتسع بصري وحمصي وعشرون في الباقي خلافها أربع المزمل كوفي ودمشقي ومدني أول جحيما غير حمصي إليكم رسولا مكي ونافع شيبا غير مدني أخير مشبه الفاصلة قرضا حسنا

القراآت قرأ ( ) أو انقص (الآية 3 بكسر الواو عاصم وحمزة وصلا ونقل ابن كثير القرآن وأبدل همز ناشئة ياء مفتوحة الأصبهاني وأبو جعفر

واختلف في ( ) أشد وطأ (الآية 33 فأبو عمرو وابن عامر بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها همزة بوزن قتال مصدر واطأ لمواطئة القلب اللسان فيهما أو موافقته لما يراد من الإخلاص والخضوع ولذا فضلت صلاة الليل على صلاة النهار وافقهم اليزيدي والحسن وابن محيصن بخلفه والثاني له كذلك مع فتح الواو والباقون بفتح الواو وسكون الطاء بلا مد مصدر وطىء أي أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل أو أثقل من صلاة النهار أو أشد نشاطا

للمصلي أو أشد قياما أو أثبت قياما وقراءة أو أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ويوقف عليه لحمزة وهشام بخلفه بالنقل فقط

واختلف في باء ( ) رب المشرق ( ) الآية 9 فابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بخفضها صفة لربك أو بدل أو بيان وافقهم الأعمش وابن محيصن والباقون بالرفع على الابتداء والخبر الجملة من قوله لا إله إلا هو أو خبر مضمر أي هو رب وأمال (فعصى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ ( ) من ثلثي الليل (الآية 20 بسكون اللام هشام وضمها الباقون كما في البقرة وخرج ثلث المفرد المتفق على ضم لامه

(55/787)

واختلف في ( ) ونصفه وثلثه ( ) الآية 20 فابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب الفاء والثاء وضم الهائين عطفا على أدنى المنصوب ظرفا بتقوم وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بخفض الفاء والثاء وكسر الهائين عطفا على ثلثي الليل المجرور بمن وخرج بنصفه الملاصق لثلثه نصفه أول السورة المتفق على فتحه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

" أو انقص " كسر الواو وصلا حمزة وعاصم وضمها غيرهما .

" منه " عليه القرآن . فاتخذه . فأخذناه . منفطر . تذكرة . جلي كله .

" ناشئة " أبدل أبو جعفر همزه ياء خالصة مطلقا ، وكذلك حمزة عند الوقف

" وطأ " قرأ البصري والشامي بكسر الواو وفتح الطاء وألف بعدها ، والباقون بفتح الواو وإسكان الطاء ، ويقف عليه حمزة بالنقل فقط .

" رب المشرق " خفض الباء الشامي وشعبة ويعقوب والأخوان وخلف ورفعها غيرهم

" سبيلا " آخر الربع .

الممال

تعالى ، والهدى وارتضى وأحصى فعصى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

" فزادوهم " لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه . شاء لابن ذكوان وخلف وحمزة .

النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " ما اتخذ صاحبه . ذلك كنا . طرائق قددا . نعجزه هربا . ذكر ربه يجعل له .

ولا إدغام في عليك قولا لسكون ما قبل الكاف .

" ثلثي الليل " قرأ هشام بسكون اللام وغيره بضمها .

" ونصفه وثلثه " قرأ المدنيان والبصريان والشامي بخفض الفاء في ونصفه ، والثاء الثانية في وثلثه ، ويلزم منه كسر الهاء فيهما ، والباقون بنصب الفاء والثاء ، ويلزمه ضم الهاء فيهما .

" يقدر " تحصوه . فاقرءوا . القرآن . منه . الصلاة . من خير . تجدوه . خيرا .

واستغفروا . ذكر مرات . ويلاحظ أن لحمزة في الوقف على فاقرءوا التسهيل والحذف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 338 ﴾

(57/787)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى ﴿ هي أشد وطأ ﴾ يقرأ بكسر الواو وفتح الطاء والمد وبفتح الواو وإسكان الطاء والقصر فالحجة لمن مد أنه جعله مصدر واطأ يواطىء مواطأة وطاء ومعناه يواطىء السمع القلب لأن صلاة الليل أثقل من صلاة النهار لما يغشي الإنسان من النعاس ومعناه أشد مكابدة ومنه قوله عليه السلام اللهم أشدد وطأتك على مضر

قوله تعالى ﴿ رب المشرق ﴾ يقرأ بالرفع والخفض وقد ذكر في الدخان قوله تعالى ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ يقرآن بالنصب والخفض فالحجة لمن نصب أنه أبدله من قوله ﴿ تقوم أدنى ﴾ أو أضمر له فعلا مثله والحجة لمن خفض أنه رده على قوله ﴿ من ثلثي الليل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 354.355 ﴾

(58/787)

وقال ابن زنجلة :

73 - سورة المزمل

إن ناشئة الليل هي أشد وطئا واقوم قيلا

قرأ أبو عمرو وابن عامر وطاء بكسر الواو ممدودة الألف وهو مصدر فاعلت مفاعلة و فعالا تقول واطأت فلانا على كذا مواطأة ووطاء أراد والله أعلم أن القراءة في الليل يواطئ

فيها قلب المصلي لسانه وسمعه على التفهم والأداء والاستماع أكثر مما يتوطأ عليه بالنهار لأن الليل تنقطع فيه الأشغال وتهدأ فيه الأصوات والحركات عن ابن عباس وطاء قال يواطئ السمع القلب

وعن يونس أشد وطاء قال ملاءمة وموافقة ومن ذلك ليواطئوا أي ليوافقوا

وقرأ الباقون أشد وطئا بفتح الواو أي أثقل على المصلي من ساعات النهار وهو من قولهم اشتدت على القوم وطأة سلطانهم أي ثقل عليهم ما يلزمهم ويأخذه منهم وفي الحديث اللهم اشدد وطأتك على مضر قال الزجاج ويجوز أن يكون أشد وطأ

اغلظ وأشد على الإنسان من القيام بالنهار لأن الليل جعل للنوم والسكون وقيل أشد وطأ أي أبلغ في الثواب لأن كل مجتهد فثوابه على قدر اجتهاده

قال آخرون منهم الفراء هي أشد وطئا أي هي أثبت قياما قال قتادة أشد وطا أي اثبت في الخير وأثبت للقلب والحفظ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص رب المشرق بالرفع وقرأ الباقون بالخفض

الرفع يحتمل أمرين أحدهما أن يكون كما قال قبلها واذكر اسم ربك قطعه من الأول فقال رب المشرق فيكون على هذا خبر ابتداء محذوف والوجه الآخر أن يرفعه بالابتداء وخبره الجملة التي هي لا إله إلا هو ومن خفض فإنه عطفه على قوله قبله واذكر اسم ربك فجعل ما

بعده معطوفا عليه إذ كان في سياقه إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه

20

(59/787)

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ونصفه وثلثه بالكسر حملوه على الجار أي تقوم أدنى من نصفه ومن ثلثه والمعنى في ذلك يكون على تأويل إن ربك يعلم أنك تقوم أحيانا أدنى من ثلثي الليل وأحيانا أدنى من نصفه وأحيانا أدنى من ثلثه غير عارف بالمقدار في ذلك التحديد بدلالة قوله بعدها علم أن لن تحصوه وقوله والله

يقدر الليل والنهار فكأنه قال أنا أعلم من مقادير قيامك بالليل ما لا تعلمه من تحديد الساعات من آخر الليل قال أبو عبيد الاختيار الخفض في نصفه وثلثه لأن الله تعالى قال علم أن لن تحصوه فكيف يقدرون على أن يعرفوا نصفه وثلثه

وقرأ الباقون بالنصب بوقوع الفعل أي يقوم نصفه وثلثه وحجتهم في ذلك أن النصب أصح في النظر قال الله لنبيه صلى الله عليه قم الليل إلا قليلا أي صل الليل إلا شيئا يسيرا منه تنام فيه وهو الثلث والثلث يسير عند الثلثين ثم قال نصفه أو انقص منه قليلا أي من الثلث قليلا أي نصفه أو أنقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد على النصف إلى الثلثين فإذا قرأت

بالخفض كان معناه أنهم قد كانوا يقومون أقل من الثلث وفي هذا مخالفة لما أمروا به لأن الله تعالى قال الليل إلا قليلا نصفه أو أنقص منه قليلا إلى الثلث أو زد على الثلث ولم يأمرهم بأن ينقصوا من الثلث شيئا وأما قوله علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوه كما قال صلى الله عليه استقيموا ولن تحصوا أي ولن تتطيقوا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 732.730 ﴾

(60/787)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة المزمل 73

مكية قال ابن عباس وعطاء إلا آية من آخرها وهي قوله تعالى (﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾) إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة

وقد ذكر نظيرتها في المدني الأخير ونظيرتها في المدني الأول والمكي من البلد واقرأ وفي الكوفي والشامي البلد فقط وفي البصري الانفطار والأعلى واقرأ وفي المكي من رواية بعض شيوخنا الانفطار والأعلى

وكلمها مئة وتسعون كلمة

وحروفها ثماني مئة وثمانية وثلاثون حرفا

وهي ثماني عشرة آية في المدني الأخير وتسع عشرة في المكي بخلاف عنه وفي البصري وعشرون في عدد الباقين وفي المكي من روايتنا

اختلافها أربع آيات (﴿ يا أيها المزمل ﴾) عدها الكوفي والمدني الأول والشامي ولم يعدها الباقون وكلهم عد (﴿ يا أيها المدثر ﴾) من حيث شاكل آخرها أو آخر رؤوس الآي بعدها (﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا ﴾) عدها المكي ولم يعدها الباقون (﴿ إلى فرعون رسولا ﴾) لم يعدها المكي بخلاف عنه وعدها الباقون وهو الصحيح عن المكي (﴿ الولدان شيبا ﴾) لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو (﴿ قرضا حسنا ﴾) ورؤوس الآي

قليلا

2 قليلا

3 ترتيلا

4 ثقيلا

5 قيلا

6 طويلا

7 تبتيلا

8 وكيلا

9 جميلا

10 قليلا

11 وجحيما

12 أليما

13 مهيلا

14 رسولا

15 وبيلا

16 مفعولا

18 سبيلا

19 رحيم

20 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 257﴾

(61/787)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (المزمل) أصله المتزمل ، فأبدلت التاء زايا وأدغمت ، وقد قرئ بتشديد الميم وتخفيف الزاى ، وفيه وجهان: أحدهما هو مضاعف ، والمفعول محذوف: أي المزمل نفسه .

والثانى هو مفتعل ، فأبدلت الفاء ميما .

قوله تعالى (نصفه) فيه وجهان ، أحدهما هو بدل من الليل بدل بعض من كل و (إلا قليلا) استثناء من نصفه .

والثانى هو بدل من قليلا ، وهو أشبه بظاهر الآية ، لأنه قال تعالى " أو انقص منه أو زد عليه " والهاء فيهما للنصف ، فلو كان الاستثناء من النصف لصار التقدير: قم نصف الليل إلا قليلا أو انقص منه قليلا: أي على الباقي ، والقليل المستثنى غير مقدر ، فالنقصان منه لا يعقل .

قوله تعالى (أشد وطأً) بكسر الواو بمعنى مواطأة وبفتحها ، وهو اسم للمصدر ووطأ على فعل ، وهو مصدر وطئ وهو تمييز .

قوله تعالى (تبتيلا) مصدر على غير المصدر واقع موقع تبتل ، وقيل المعنى بتل نفسك تبتيلا .

قوله تعالى (رب المشرق) يقرأ بالجر على البدل ، وبالنصب على إضمار أعنى أو بدلا من اسم أو بفعل يفسره (فاتخذه) أي اتخذ رب المشرق ، وبالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ ، ولا إله إلا هو الخبر .

قوله تعالى (والمكذبين) هو مفعول معه ، وقيل هو معطوف ، و (النعمة) بفتح النون التنعم ، وبكسرها كثرة الخير .

قوله تعالى (ومهلهم قليلا) أي تمهيلا قليلا ، أو زمانا قليلا .

قوله تعالى (يوم ترجف) هو ظرف للاستقرار في خبر إن ، وقيل هو وصف لعذاب: أي واقعا يوم ترجف ، وقيل هو ظرف لأليم .

وأصل مهيل مهيول ، فحذف الواو عند سيبويه وسكنت الياء ، والياء عند الأخفش ، وقلبت الواو ياء .

قوله تعالى (فعصى فرعون الرسول) إنما أعاده بالألف واللام ليعلم أنه الأول ، فكأنه قال: فعصاه فرعون .

قوله تعالى (يوم) هو مفعول تتقون ، أي تتقون عذاب يوم ، وقيل هو مفعول كفرتم: أي بيوم ، و (يجعل الولدان) نعت اليوم ، والعائد محذوف: أي فيه ، و (منفطر) بغير تاء على النسب: أي ذات انفطار ، وقيل ذكر حملا على معنى السقف ، وقيل السماء تذكر وتؤنث .

قوله تعالى (ونصفه وثلثه) بالجر حملا على ثلثى ، وبالنصب حملا على أدنى (وطائفة) معطوف على ضمير الفاعل ، وجرى الفصل مجرى التوكيد .

قوله تعالى (أن سيكون) أن مخففة من الثقيلة ، والسين عوض من تخفيفها وحذف اسمها ، و (يبتغون) حال من الضمير في يضربون .

قوله تعالى (هو خيرا) هو فصل أو بدل أو تأكيد ، وخبر المفعول الثاني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(63/787)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المزمل

[سورة المزمل (73) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

"يا أَيُّهَا" حرف نداء ومنادى مبني على الضم في محل نصب وها حرف تنبيه و"الْمُزَّمِّلُ" بدل من أي "قُمِ" أمر فاعله مستتر "اللَّيْلَ" ظرف زمان والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها كجملة النداء و"إِلَّا" أداة استثناء "قَلِيلًا" مستثنى منصوب و"نِصْفَهُ" بدل من الليل "أَوِ" حرف عطف "انْقُصْ" أمر فاعله مستتر "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "قَلِيلًا" صفة لمحذوف تقديره زمانا "أَوْ" حرف عطف "زِدْ" معطوف على انقص و"عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "وَرَتِّلِ" أمر فاعله مستتر و"الْقُرْآنَ" مفعول به و"تَرْتِيلًا" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المزمل (73) : آية 5]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5)

"إِنَّا" إن واسمها "سَنُلْقِي" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر و"عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل و"قَوْلًا" مفعول به "ثَقِيلًا" صفة والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة المزمل (73) : آية 6]

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)

"إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ" إن واسمها المضاف إلى الليل و"هِيَ أَشَدُّ" مبتدأ وخبره والجملة خبر إن والجملة الاسمية إن ناشئة . . تعليل لا محل لها و"وَطْئاً" تمييز "أَقْوَمُ" معطوف على أشد و"قِيلًا" تمييز .

[سورة المزمل (73) : آية 7]

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لَكَ" متعلقان بخبر محذوف "فِي النَّهارِ" حال "سَبْحاً" اسم إن المؤخر و"طَوِيلًا" صفة والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المزمل (73) : آية 8]

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8)

"وَاذْكُرِ" أمر فاعله مستتر و"اسْمَ" مفعول به مضاف إلى "رَبِّكَ" والجملة معطوفة على ما قبلها "وَتَبَتَّلْ" أمر فاعله مستتر و"إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل و"تَبْتِيلًا" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المزمل (73) : آية 9]

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)

"رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف و"الْمَشْرِقِ" مضاف إليه "وَالْمَغْرِبِ" معطوف على المشرق والجملة مستأنفة لا محل لها و"لا" نافية للجنس و"إِلهَ" اسمها المبني على الفتح و"إِلَّا" حرف حصر و"هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف والجملة حال "فَاتَّخِذْهُ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والهاء مفعول به أول "وَكِيلًا" مفعول به ثان والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة المزمل (73) : آية 10]

وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10)

"وَاصْبِرْ" أمر فاعله مستتر و"عَلى ما" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها و"يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة ما "وَاهْجُرْهُمْ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر و"هَجْراً" مفعول مطلق "جَمِيلًا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المزمل (73) : آية 11]

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11)

"وَذَرْنِي" أمر فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَالْمُكَذِّبِينَ" مفعول معه "أُولِي" صفة المكذبين و"النَّعْمَةِ" مضاف إليه "وَمَهِّلْهُمْ" أمر

ومفعوله والفاعل مستتر و"قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المزمل (73) : آية 12]

إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12)

(65/787)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل و"لَدَيْنا" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر إن المقدم و"أَنْكالًا" اسم إن المؤخر "وَجَحِيماً" معطوف على أنكالا والجملة مستأنفة .

[سورة المزمل (73) : آية 13]

وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13)

"وَطَعاماً" معطوف على أنكالا و"ذا" صفة مضاف إلى "غُصَّةٍ" مضاف إليه "وَعَذاباً" معطوف أيضا و"أَلِيماً" صفة عذابا .

[سورة المزمل (73) : آية 14]

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

"يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ" ظرف زمان ومضارع وفاعله "وَالْجِبالُ" معطوف على الأرض

والجملة في محل جر بالإضافة "وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً" كان واسمها وخبرها و"مَهِيلًا" صفة كثيبا والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المزمل (73) : آية 15]

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15)

"إِنَّا" إن واسمها "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله و"إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل و"رَسُولًا" مفعول به و"شاهِداً" صفة رسولا والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بشاهدا و"كَما" صفة مفعول مطلق محذوف "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله و"إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل و"رَسُولًا" مفعول به .

[سورة المزمل (73) : آية 16]

فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16)

"فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَخَذْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله و"أَخْذاً" مفعول مطلق "وَبِيلًا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها أيضا .

[سورة المزمل (73) : آية 17]

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17)

"فَكَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب على الحال "تَتَّقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"إِنْ" شرطية جازمة "كَفَرْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف و"يَوْماً" مفعول تتقون "يَجْعَلُ" مضارع فاعله مستتر و"الْوِلْدانَ" مفعول به أول "شِيباً" مفعول به ثان والجملة صفة يوما .

[سورة المزمل (73) : آية 18]

السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18)

"السَّماءُ مُنْفَطِرٌ" مبتدأ وخبره و"بِهِ" متعلقان بمنفطر والجملة الاسمية صفة ثانية ليوما "كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً" كان واسمها وخبرها والجملة تعليل لا محل لها .

[سورة المزمل (73) : آية 19]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

"إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَمَنْ" الفاء الفصيحة و"من" اسم شرط جازم مبتدأ "شاءَ" ماض فاعله مستتر وهو فعل الشرط "اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر وهو جواب الشرط و"إِلى رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف حال و"سَبِيلاً" مفعول به وجملة اتخذ . . جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من

جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة المزمل (73) : آية 20]

(67/787)

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "أَنَّكَ" أن واسمها "تَقُومُ" مضارع فاعله مستتر و"أَدْنى" ظرف زمان والجملة الفعلية خبر أنك والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يعلم و"مِنْ ثُلُثَيِ" متعلقان بأدنى و"اللَّيْلِ" مضاف إليه "وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ" معطوفان على أدنى "وَطائِفَةٌ" معطوف على فاعل تقوم المستتر و"مِنَ الَّذِينَ" متعلقان بمحذوف صفة طائفة و"مَعَكَ"

ظرف مكان "وَاللَّهُ يُقَدِّرُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ ومضارع فاعله مستتر و"اللَّيْلِ" مفعول به "وَالنَّهارَ" معطوف عليه والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "عَلِمَ" ماض فاعله مستتر "إِنَّ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ تُحْصُوهُ" مضارع منصوب بلن والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة خبر أن المخففة والمصدر المؤول

(68/787)

من أن المخففة وما بعدها سد مسد مفعولي علم وجملة علم مستأنفة لا محل لها "فَتابَ" ماض فاعله مستتر و"عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَاقْرَؤُا" الفاء حرف عطف وأمر وفاعله و"ما" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها و"تَيَسَّرَ" ماض فاعله مستتر و"مِنَ الْقُرْآنِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة ما "عَلِمَ" ماض فاعله مستتر و"إِنَّ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "سَيَكُونُ" السين للاستقبال ومضارع ناقص و"مِنْكُمْ" خبر يكون المقدم و"مَرْضى" اسمه المؤخر والجملة خبر أن المخففة والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي علم والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَآخَرُونَ" معطوف على مرضى "يَضْرِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال

و"فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "يَبْتَغُونَ" مضارع وفاعله و"مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة حال. "وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" معطوف على آخرون يضربون في الأرض "فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ" سبق إعراب مثيله. "أَقِيمُوا الصَّلاةَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَآتُوا الزَّكاةَ" معطوف على ما قبله "وَأَقْرِضُوا اللَّهَ" معطوف أيضا "قَرْضاً" مفعول مطلق و"حَسَناً" صفة.

(69/787)

والواو حرف استئناف "وَما" اسم شرط جازم مفعول به مقدم "تُقَدِّمُوا" ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله و"لِأَنْفُسِكُمْ" متعلقان بالفعل و"مِنْ خَيْرٍ" حال "تَجِدُوهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والواو فاعله والهاء مفعول به أول والجملة جواب الشرط لا محل لها "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة و"هُوَ" ضمير فصل و"خَيْراً" مفعول به ثان "وَأَعْظَمَ" معطوف على خيرا و"أَجْراً" تمييز "وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها. انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 394 ﴿397.

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة المزمل صلى الله عليه وسلم

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1416 - الحَدِيث الأول

عَن عَائِشَة أَنَّهَا سُئِلت مَا كَانَ تزميل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَت كَانَ مِرْطًا طوله أَرْبَعَة عشر ذِرَاعا نصفه عَلَي وَأَنا نَائِمَة وَنصفه عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي فَسُئِلت مَا كَانَ فَقَالَت وَالله مَا كَانَ خَزًّا وَلَا قزًّا وَلَا مَرْعَزِيٌّ وَلَا إِبْرِيسَمًا وَلَا صُوفًا كَانَ سداه شعرًا وَلحمَته وَبرا قلت غَرِيب وَرُوِيَ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الدَّعْوَات الْكَبِير لَهُ أَخْبرنَا أَبو عبد الله الْحَافِظ اخبرني أَبو صَالح خلف بن مُحَمَّد أَنا صَالح بن مُحَمَّد ثَنَا مُحَمَّد بن عباد الْمَكِّيّ ثَنَا حَاتِم بن إِسْمَاعِيل عَن نصر بن كثير عَن يَحْيَى بن سعيد عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت لما كَانَت لَيْلَة النّصْف من شعْبَان انْسَلَّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من مِرْطِي ثمَّ قَالَت وَالله مَا كَانَ مِرْطِي من حَرِير وَلَا قز وَلَا كتَّان وَلَا كُرْسُف وَلَا صوف قُلْنَا فَمن أَي شَيْء كَانَ قَالَت إِن كَانَ

سداه لمن شعر وَإِن كَانَ لَحْمَته لمن وبر مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من حَدِيث سُلَيْمَان بن أبي كَرِيمَة عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة . . . فَذكره سَوَاء وَأعله بِابْن أبي كَرِيمَة وَقَال إِن لَهُ مَنَاكِير

1417 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل عَلَى خَدِيجَة وَقد جَاءَ فرقا أول مَا أَتَاهُ جِبْرِيل وبوادره ترْعد فَقَال زَمِّلُونِي وَحسب أَنه عرض لَهُ فَبينا هُوَ كَذَلِك إِذْ ناداه جِبْرِيل يأيها المزمل

. . .

قلت غَرِيب

1418 - قَوْله

(71/787)

قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه شَرّ السّير الْحَقْحَقَة وَشر الْقِرَاءَة الْهَذْرَمَة

قلت غَرِيب وَرَوَى ابْن الْمُبَارك فِي الزّهْد اُخْبُرْنَا معمر عَن يَحْيَى بن الْمُخْتَار عَن الْحسن قَالَ كَانَ يُقَال شَرّ السّير الْحَقْحَقَة مُخْتَصر

وَرَفعه ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث الْحسن بن دِينَار عَن الْحسن عَن أبي هُرَيْرَة عَن

النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ شَرّ السّير الْحَقْحَقَة وَضَعفه بِابْن دِينَار

وَرَوَى الْخَطِيب الْبَغْدَادِيّ فِي أَوَائِل كِتَابه الْجَامِع لآدَاب الرَّاوِي وَالسَّمَاع حَدثنَا الْحُسَيْن بن مُحَمَّد الْأَصَم قَالَ قَرَأت عَلَى مَنْصُور بن جَعْفَر قَالَ قَرَأت عَلَى أبي مُحَمَّد بن درسْتَوَيْه قَالَ قَرَأنَا عَلَى ابْن قُتَيْبَة قَالَ عمر بن الْخطاب شَرّ الْقِرَاءَة الْهَذْرَمَة وَشر الْكِتَابَة الْمشق يَعْنِي التَّعْلِيق انْتَهَى

1419 - الْحَدِيث الثَّالِث

سُئِلت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها عَن قِرَاءَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت لَا كَسَرْدِكُمْ هَذَا لَو أَرَادَ السَّامع أَن يعد حُرُوفه لعَدها

قلت تقدم فِي الْفرْقَان

1420 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا نزل عَلَيْهِ الْوَحْي ثقل عَلَيْهِ وَتربد لَهُ جلده

قلت غَرِيب

وَرَوَى مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا نزل عَلَيْهِ الْوَحْي كرب لذَلِك وَتربد وَجهه انْتَهَى

وَرَوَى أَحْمد فِي مُسْنده من حَدِيث ابْن عَبَّاس فِي قصَّة هِلَال بن أُميَّة قَالَ وَكَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ أنزل عَلَيْهِ الْوَحْي عرفُوا ذَلِك فِي تَرَبد جلده

(72/787)

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده ثَنَا عباد بن مَنْصُور ثَنَا عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس وَفِيه كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا نزل عَلَيْهِ الْوَحْي تَرَبد لَهُ وَجهه وَجَسَده

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

1421 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها رَأَيْته عَلَيْهِ السَّلَام ينزل عَلَيْهِ الْوَحْي فِي الْيَوْم الشَّدِيد الْبرد فَيفْصم عَنهُ وَإِن جَبينه لَيَرْفَضّ عرقا

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي أول صَحِيحه من حَدِيث عُرْوَة عَنْهَا قَالَت وَلَقَد رَأَيْته ينزل عَلَيْهِ الْوَحْي فِي الْيَوْم الشَّدِيد الْبرد فَيفْصم عَنهُ وَإِن جَبينه ليتفصد عرقا مُخْتَصر

وَهُوَ فِي الثَّعْلَبِيّ لَيَرْفَضّ

1422 - الْحَدِيث السَّادِس

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اللَّهُمَّ أشدد وطأتك عَلَى مُضر

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَقد تقدم فِي الْأَنْبِيَاء

1423 - قَوْله

عَن أبي الدَّرْدَاء إِنَّا لَنكشر فِي وُجُوه قوم وَنَضْحَك إِلَيْهِم وَإِن قُلُوبنَا لَتَقْلِيهِمْ

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّادِس وَالْخمسين عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى مسلمة بن سعيد عَن أبي الْأَحْوَص عَن أبي الزَّاهِرِيَّة قَالَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء إِنَّا لَنكشر فِي وُجُوه أَقوام وَإِن قُلُوبنَا لَتَلْعَنُهُمْ انْتَهَى

وَرَوَى أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي الدَّرْدَاء ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن جَعْفَر ثَنَا إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن الْحسن ثَنَا عبد الْجَبَّار بن الْعَلَاء ثَنَا سُفْيَان ثَنَا خلف بن حَوْشَب قَالَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء . . . فَذكره بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

(73/787)

وَبِهَذَا اللَّفْظ ذكره الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه تَعْلِيقا فِي كتاب الْأَدَب فَقَالَ وَيذكر عَن أبي الدَّرْدَاء فَذكره بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور

وَرَوَاهُ عَلّي بن معبد فِي كتاب الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة فِي بَاب مُخَالطَة النَّاس حَدثنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَحْوَص بن حَكِيم عَن أَبِيه عَن أبي الزَّاهِرِيَّة قَالَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء إِنَّا لَنكشر فِي وُجُوه

أَقوام وَإِن قُلُوبنَا لَتَقْلِيهِمْ انْتَهَى

1424 - الْحَدِيث السَّابِع

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ هَذِه الْآيَة إِنَّا لدينا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . . . الْآيَة فَصعِقَ

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا أَبُو كريب ثَنَا وَكِيع عَن حَمْزَة الزيات عَن حمْرَان بن أعين أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ هَذِه الْآيَة إِن لدينا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّة وَعَذَابًا أَلِيمًا فَصعِقَ انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

وَرَوَاهُ احْمَد بن حَنْبَل فِي كتاب الزّهْد ثَنَا وَكِيع بِهِ سندا ومتنا مُرْسلا

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط ثَنَا أَبُو سعد بن أبي بكر الْوراق أَنا مُحَمَّد بن مُحَمَّد الْحَافِظ أَنا أَبُو الْعَبَّاس إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْفَرَائِضِي أَنا طَاهِر بن الْفضل بن سعيد الْبَغْدَادِيّ ثَنَا وَكِيع عَن حَمْزَة الزيات عَن حمْرَان بن أعين عَن عبد الله بن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سمع قَارِئًا يقْرَأ إِن لدينا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّة . . . فَصعِقَ انْتَهَى ثمَّ قَالَ

وَرَوَاهُ إِسْحَاق الْحَنْظَلِي فِي تَفْسِيره عَن وَكِيع انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب فَضَائِل الْقُرْآن ثَنَا وَكِيع بِهِ بِسَنَد الطَّبَرِيّ

وأسنده ابْن عدي فِي الْكَامِل فَقَالَ حَدثنَا احْمَد بن الْحسن الْكَرْخِي ثَنَا الْحسن بن شبيب ثَنَا أَبُو يُوسُف عَن حَمْزَة الزيات عَن حمْرَان بن أعين عَن أبي حَرْب عَن أبي الْأَسود أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره وَأعله بحمران بن أعين وَضَعفه ابْن معِين ثمَّ قَالَ وَغير أبي يُوسُف يرويهِ عَن حَمْزَة عَن حمْرَان لم يقل فِيهِ عَن أبي الْأَسود انْتَهَى

1425 - قَوْله

عَن ابْن مَسْعُود أَيمَا رجل جلب شَيْئًا إِلَى مَدِينَة من مَدَائِن الْمُسلمين صَابِرًا محتسبا فَبَاعَهُ بِسعْر يَوْمه كَانَ عِنْد الله من الشُّهَدَاء

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْمعَافى بن عمرَان عَن فرقد السبخي عَن إِبْرَاهِيم بن مَسْعُود . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره مَرْفُوعا من حَدِيث عِيسَى بن يُونُس عَن أبي عَمْرو بن الْعَلَاء الْبَصْرِيّ عَن فرقد السبخي عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره وَزَاد ثمَّ قَرَأَ وَآخَرُونَ يضْربُونَ فِي الْأَرْض يَبْتَغُونَ من فضل الله انْتَهَى

1426 - قَوْله

عَن ابْن عمر مَا خلق الله موتَة أَمُوتهَا بعد الْقَتْل فِي سَبِيل الله أحب إِلَيّ من أَن أَمُوت بَين

شُعْبَتَيْ رجل أضْرب فِي الأَرْض ابْتغِي من فضل الله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث الْقَاسِم بن عبيد الله عَن أَبِيه قَالَ سَمِعت ابْن عمر يَقُول . . . فَذكره

(75/787)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث عشر من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عبيد الله بن عبد الله ذكر عمر أَو غَيره وَقَالَ مَا خلق الله إِلَى آخِره ثمَّ قَالَ وَرَوَاهُ غَيره فَقَالَ عَن عمر بن الْخطاب لم يشك وَزَاد ثمَّ تَلا وَآخَرُونَ يضْربُونَ فِي الأَرْض يَبْتَغُونَ من فضل الله انْتَهَى

قلت كَذَلِك رَوَاهُ عَلّي بن معبد فِي كتاب الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة أَنا ابْن وهب عَن يُونُس عَن ابْن شهَاب عَن نَافِع أَن عمر بن الْخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ مَا خلق الله مَوته أَمُوتهَا إِلَّا أَن أَمُوت مُجَاهدًا فِي سَبِيل الله أحب إِلَيّ من أَن أَمُوت وَأَنا أضْرب فِي الأَرْض عَلَى ظهر رَاحِلَتِي أَبْتَغِي من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ انْتَهَى

1427 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة المزمل دفع الله عَنهُ الْعسرَة فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث المؤمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثَنَا أسلم الْمُقْرِئ عَن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 107.113﴾

(76/787)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة المزمل

قوله تعالى : (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) ، الآية/ 2 .

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قام هو وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك اللّه خاتمتها اثني عشر شهرا ، ثم أنزل اللّه تعالى التخفيف في آخر السورة ، فكان قيام الليل

تطوعا بعد كونه فريضة «1» .

قوله تعالى : (فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) ، الآية/ 20 .

فنسخ به قيام الليل المفروض فكان ندبا .

ودلت الآية على لزوم فرض القراءة في الصلاة ، بقوله تعالى :

(فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 427﴾

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره والواحدي النيسابوري في أسباب النزول والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي .

وقال السايس :

من سورة المزمل

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)

قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : إنّ هذه السورة مكية كلّها . وحكى الأصبهاني أنّها

مكية ما عدا الآيتين : وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ . وهو مروي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وهناك قول ثالث : أنها مكية ما عدا قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ . . .

وقد اعترض السيوطي في «الإتقان» على الأخير بأنه يرده ما أخرجه الحاكم عن عائشة رضي اللّه عنها أنّ قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ إلخ قد نزل بعد نزول صدر السورة بسنة ، لما كان قيام الليل فرضا في أول الإسلام قبل أن تفرض الصلوات الخمس . يعني : وإذا كانت الصلوات الخمس قد شرعت في مكة قبل الهجرة بسنة ، وقد تمّ بفرضيتها نسخ ما كان قبلها من فرض القيام ، ظهر أنّ آخر المزمل من المكي .

ولعلك تختار القول الأول لما أورده السيوطي على الأخير ، ولأنّ أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالصبر على أذى الكفار ، والإعراض عنهم ، وهجرهم ، إنما كان في أول الإسلام ، قبل أن يكثر أنصار الدعوة الإسلامية ، وقبل أن يأذن اللّه تعالى للمؤمنين المظلومين أن يدفعوا عن أنفسهم بالقوة . على ما يدل عليه الاستقراء ، وتتبع موارد الآيات القرآنية التي تأمر بمثل ما ورد في آيتي وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ والتي بعدها .

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) المزّمل بتشديد الزاي والميم : اسم فاعل من تزمّل ، وأصله المتزمل ، فأدغمت التاء والزاي ، ومعناه : المتلفف في ثيابه ، ومنه قول ذي الرّمة :

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها متزمل

وقرأه أبيّ على الأصل . كما قرئ بتخفيف الزاي ، على أنه اسم فاعل أو اسم مفعول .

وقد اختلف المفسرون في سبب تزمّله عليه الصلاة والسلام ، فقيل : إنه كان نائما بالليل متزمّلا في قطيفة ، أو أنه يريد فتلفّف بالقطيفة ، فجاءه الملك بنداء اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) إلخ ليدع النوم ، ويقوم لما هو أهم ، وينهض لعبادة اللّه في

(78/787)

ناشئة الليل ، فإنها خير معين له على تحمّل ما سيرد عليه من الوحي ، وما سيلقى عليه من القول الثقيل . وقيل : إنّ تزمّله عليه الصلاة والسلام كان لأسفه وحزنه لما بلغه ما كان من المشركين ، وما دبّروه من القول السيئ ، يدفعون به دعوته . فقد أخرج البزار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الدلائل» عن جابر رضي اللّه عنه قال :

اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تصدّوا الناس عنه .

فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر . قالوا : يفرّق بين الحبيب وحبيبه ، فتفرّق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فتزمل في ثيابه ، وتدثّر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) .

وقد يساعد هذا القول ما ورد في السورة من قوله تعالى : وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) على القول بأنّ هاتين الآيتين من المكي ، وأنهما نزلتا مع الآيات السابقة .

غير أنّه يقال : إذا كان هذا هو سبب التزمل ، وأنه من أجله أمر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه السورة أن يهجر أولئك ، ويصبر عليهم ، ولا يأبه لقولهم ، فما السبب في أنه لم تذكر الآيتان وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وما بعدها عقب النداء ؟ ولما ذا فصل بين ذلك بالأوامر الأولى المتعلقة بقيام الليل والذكر والترتيل ؟

والجواب : أنه لا شك أنّ هذه العبادات تقوّي قلبه عليه الصلاة والسلام ، وتثبّت فؤاده ، وتعينه على الصبر والاحتمال والإغضاء عن السوء من أقوال الكافرين .

وقيل : إنّ السبب هو ما

ورد في حديث جابر المشهور « 1 » على ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي ، فلم أر شيئا ، فرفعت رأسي ، فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فجئثت – بمثلثتين مبنيا للمجهول ، فزعت – منه رعبا ، فرجعت ، فقلت : دثروني ، دثروني»

وفي رواية : فجئت أهلي ، فقلت :

زمّلوني زمّلوني ، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) .

وجمهور العلماء يقولون : وعلى إثرها نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) وعلى هذا يكون

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 143) ، 1 - كتاب الإيمان ، 73 - باب بدء الوحي حديث رقم (161) ، والبخاري في الصحيح (6/ 97) ، 65 - كتاب التفسير ، حديث رقم (4922) ، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 399) ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة المدثر حديث رقم (3325) ، وأحمد في المسند (3/ 306) .

سبب التزمل هو ما عراه صلّى اللّه عليه وسلّم من الرعب والفزع عند رؤية الملك ، وتكون حادثة التزمل هي حادثة التدثر بعينها ، أما على القولين الأولين فيصحّ أن يكون السبب واحدا أيضا ، كما يصحّ أن يكون مختلفا .

والحكمة في ندائه عليه الصلاة والسلام بوصف التزمل هو إرادة ملاطفته وإيناسه ، على نحو ما كان عليه العرب في مخاطباتهم في مثل هذه الحالة ، ومن ذلك

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لعلي لما غاضب فاطمة ، وكان نائما قد لصق بجبينه

التراب فقال له :

«قم أبا ترب» «1» .

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ المراد من قيام الليل صلاة التهجد ، وذلك بتقدير الصلاة ، أي انهض لصلاة الليل ، أو بتضمين (قم) معنى صل .

وقد أعرب بعض المفسرين : (الليل) ظرفا لفعل القيام ، جريا على مذهب البصريين الذين يجوّزون في مثله أن يكون ظرفا ، ولو استغرقه الحدث ، كما هنا ، فإنّ المعنى على إرادة جميع أجزاء الليل حتى يصحّ الاستثناء بقوله : إِلَّا قَلِيلًا فإنّ الاستثناء معيار العموم .

أما على رأي الكوفيين الذين يمنعون ذلك فنصب الليل يكون من قبيل النصب على المفعولية .

ومعنى قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) انهض للصلاة مستغرقا بها الليل إلا جزءا قليلا منه ، وِنصْفَهُ بدل كل من الليل بعد مراعاة الاستثناء ، فكأنه قيل : قم نصف الليل ، ويصحّ أن يكون بدلا من قَلِيلًا والأمران في قوله تعالى : أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ معطوفان على الأمر الأول .

والضميران في (منه) و(عليه) عائدان على الليل بعد مراعاة الاستثناء ، والإبدال أيضا .

ويصحّ أن يعود على (نصفه) والمآل واحد .

وحاصل المعنى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم مأمور بأن يقوم من الليل للتهجد ، وأنّ اللّه خيّره أن يقوم نصف الليل ، وأن ينقص من النصف مقدارا قليلا ، وأن يزيد على ذلك النصف ،

ولم تقيد الزيادة على النصف بالقلّة ، كما قيّد النقص بها ، لأنّ الزيادة الكثيرة لا تخلّ بالأمر ، بل فيها زيادة برّ وعمل صالح . أمّا النقص الكثير عن النصف فعلى خلاف ذلك ، إذ إنّه مخلّ بالمطلوب .

هذا وقد قال العلماء : إنّه في حالة النقص عن النصف لا يتحقق الوفاء إلا إذا كان النقص لا يبلغ الربع ، وهو ظاهر ، إذ لا يقال في الاستعمال العربي لمن اقتصر على الربع إنه أنقص من النصف قليلا – ومن العلماء من قال : إنّ القليل هو ما دون

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 1874) ، 44 – كتاب فضائل الصحابة 4 – باب من فضائل علي حديث رقم (38/ 2409) .

السدس ، فإذا بلغ النقص السدس ، أو تجاوزه كان كثيرا مخلّا بالوفاء .

لكنه يقال : كيف يكون النصف بدل كلّ من الليل الذي استثنى منه القليل ؟

وكيف يكون نصف الشيء مطابقا له مع استثناء جزء قليل منه ؟

وأجاب المفسرون بأنّه لزيادة الاعتناء بالنصف المقارن للتهجد ، وتفضيله بالصلاة فيه على النصف الآخر الخالي من الصلاة ، جعل هو أغلب الليل وأكثره ، وإن كان في الحقيقة

نصفه .

ظاهر توجيه الخطاب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأمره بقيام الليل مع ندائه بالوصف الخاصّ به – وهو التزمل – أنّ التهجد كان فريضة عليه ، وأنّ فرضيته كانت خاصة به .

وإلى هذا ذهب جمع من العلماء ، قالوا : وهو الذي يدلّ عليه قوله تعالى : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ [الإسراء : 79] فإنّ قوله : نافِلَةً لَكَ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن الوجوب من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، وليس معنى النافلة في هذه الآية ما يجوز فعله وتركه ، فإنّه على هذا الوجه لا يكون خاصا به عليه الصلاة والسلام ، بل معنى كون التهجد نافلة له صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه شيء زائد على ما هو مفروض على غيره من الأمة .

وذهب جماعة آخرون إلى أنّ وجوب التهجد كان ثابتا في حقّ الأمة أيضا ، مستندين إلى قوله تعالى في آخر السورة التي معنا إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ إلخ . فإنه يدلّ على أنّ الصحابة كانوا يقومون من الليل كما كان يقوم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أدنى من ثلثيه ونصفه وثلثه ، وإنه قد خفّف اللّه عنهم جميعا بأمرهم بالقيام على حسب ما يتيسر لهم ، قالوا : ويشهد لهذا ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنّه كان يقول :

أوّل ما نزل أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان ، وكان بين أولها

وآخرها قريب من سنة «1» .

وما رواه ابن جرير «2» عن أبي عبد الرحمن أنه قال : لما نزلت يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت (فاقرءوا ما تيسر منه) قال : فاستراح الناس .

وما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» «3» عن سعيد بن هشام أنه سأل عائشة رضي اللّه عنها عن قيام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت : ألست تقرأ هذه السورة : يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) ؟

---

(1) رواه أبو داود في سننه (1/ 487) ، كتاب الصلاة ، باب نسخ قيام الليل ، حديث رقم (1305) .

(2) في تفسيره جامع البيان ، المشهور بتفسير الطبري (29/ 79) .

(3) رواه الإمام أحمد في المسند (6/ 54) .

قال : بلى . قالت : فإنّ اللّه افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك اللّه خاتمتها في السماء

اثني عشر شهرا ، ثم أنزل اللّه التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضيته .

وقال بعض الناس : إنّ التهجد لم يكن مفروضا لا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولا على أحد من أمته ، واحتجّوا على ذلك بما يأتي :

1 – ظاهر قوله تعالى في سورة الإسراء نافِلَةً لَكَ [الإسراء : 79] فإنه يفيد أنّ التهجد زيادة لم تتعلق بها الفرضية ، وقد علمت ردّه فيما سبق .

2 – أنّ الأمر في قوله تعالى : قُمِ اللَّيْلَ وقوله جلّ شأنه : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ لا يفيد الوجوب ، وحمله على الندب أولى ، لأنّا وجدنا أوامر الشريعة تارة تفيد الوجوب ، وتارة تفيد الندب ، فينبغي حمل ما يرد منها على القدر المشترك بينهما ، وهو ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ، دفعا للتجوّز والاشتراك اللفظي وإذا كان الأمر كذلك كان الثابت معنى الندب ، لأن تمام معنى الواجب – وهو عدم جواز الترك – لا بدّ له من دليل آخر ، كالتوعد على الترك ، أو قرينة أخرى تدل على ذلك ، وهو غير متوفّر في الأمرين السابقين ، فبقي الترك على أصله ، وهو الجواز .

والجواب يعلم مما تقرر في علم الأصول ، وهو أنّ المختار في الأوامر حملها على الإلزام ، إلا أن يصرف عن ذلك صارف ، وهو مذهب الجمهور .

3 – أنه تعالى ترك تقدير قيام الليل إلى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وخيّره بين أن يقوم نصف

الليل ، أو يزيد عليه ، أو ينقص منه ، ومثل هذا لا يكون في الواجبات ، فإنّ الشأن فيها أن تعيّن وتحدّد مقاديرها ، كما في المكتوبات .

والجواب : أنه لا مانع من ذلك . وقد عهد في الشريعة أن يفرض اللّه على المكلف أحد أمور معينة ، بحيث لا يجوز له الإخلال بها جميعا ، ثم إذا فعل واحدا منها كان قائما بما وجب عليه ، فيكون قيام الليل مفروضا ، بحيث لا ينقص كثيرا عن النصف ، فإذا قام المكلف في الليل قريبا من نصفه فقد حصل الواجب ، وإذا زاد إلى النصف أو أكثر منه كان محصّلا للواجب من باب أولى .

وبعد فهذه أقوال ثلاثة قد عرفت مآخذها ، وعرفت الردّ على ما استدل به أصحاب القول الثالث .

أما ما استند إليه أصحاب القول الأول فيمكن الجواب عنه بأنّ توجيه الخطاب إلى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وحده لا يقتضي تخصيصه بما ورد بعده من الأوامر ، فإنّه عليه الصلاة والسلام نبيّ متبوع ، وخطابه يتناول أمته ، كما هو معروف في الأصول ، إلّا أن يقوم دليل على الخصوص .

(82/787)

أما آية الإسراء : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ [الإسراء : 79] فهي مدنية متأخّرة في النزول عن سورة المزمّل فيصح أن يكون التهجد قد بقي وجوبه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد ما نسخ عن أمته ، ويكون معنى الآية : استمر على التهجد بالليل فريضة زائدة لك على ما استقرّ وجوبه على أمتك .

والذي يستخلص من ذلك أنّ أرجح الأقوال هو الثاني ، وهو القول بأنّ التهجد كان فريضة على النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وعلى أمته ، إذ هو الذي يمكن أن تأتلف عليه النصوص القرآنية السابقة . ويشهد له ما تقدّم من الآثار عن ابن عباس وعائشة وغيرهما .

وننتقل بعد ذلك إلى الكلام في بقاء وجوب التهجد وعدمه ، وفي تعيين الناسخ على القول بعدم البقاء .

وللعلماء في ذلك أربعة أقوال :

الأول : نقل عن الحسن وابن سيرين وابن جبير ما يفيد القول ببقاء وجوب التهجد على الناس جميعا ، وأنّ أصل وجوب القيام لم ينسخ ، وإنما الذي نسخ هو وجوب قيام جزء مقدّر من الليل لا ينقص كثيرا عن النصف على ما علمت . وهذا قول يخالف ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها على ما سبق ، وكذلك يخالف ما روي عن ابن عباس أنّه قال : سقط قيام الليل عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وصار تطوعا ، وبقي بعد ذلك فرضا على رسول اللّه عليه الصلاة والسلام .

ويردّه أيضا ما

ثبت في «الصحيحين» «1» أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال للرجل الذي سأله عما يجب: «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع».

القول الثاني: أنّه نسخ عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعن أمته بآخر سورة المزمّل، واستبدل به قراءة القرآن على ما يعطيه ظاهر قوله تعالى: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ [المزمل: 20].

ويدل عليه أيضا ظاهر ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها كما تقدم فإنّ قولها: فصار قيام الليل تطوعا، لم تقيده بالأمة.

القول الثالث: أنّ وجوب التهجد استمر على النبي وعلى الأمة، حتى نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج.

القول الرابع: أنّه نسخ عن الأمة وحدها، وبقي وجوبه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على ما يعطيه ظاهر آية الإسراء [79].

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 40)، 1 - كتاب الإيمان، 2 - باب بيان الصلوات حديث رقم (8/ 11)، والبخاري في الصحيح (1/ 20)، 2 - كتاب الإيمان، 35 - باب الزكاة من الإسلام حديث رقم (46).

ولعلّ الراجح هو هذا القول الأخير ، كما أنّ الظاهر أنّ نسخ التهجد لم يحصل دفعة واحدة ، فإنّ آخر سورة المزمل يفيد نسخ المقدار الذي بيّن في أولها ، ولا يلزم من هذا نسخ وجوب التهجد من أصله ، وكان بين آخر السورة وأولها نحو عام ، كما ورد في الآثار السابقة .

أما النسخ أصل الوجوب فإنه كان بافتراض الصلوات الخمس ليلة المعراج ، وكان ذلك قبل الهجرة بعام .

والظاهر أيضا أنّ هذا كله بالنظر للأمة ، فأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فإنّ آية الإسراء المدنية تدلّ على أنّ وجوب التهجد قد بقي عليه من بعد هذا ، وأنّه استمر وجوبه عليه لم ينسخ إلى آخر حياته عليه الصلاة والسلام لعدم ما يدلّ على ذلك النسخ ، وهذا هو الذي يشهد له ما تقدّم لك عن ابن عباس أنه يقول : سقط قيام الليل عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وصار تطوعا ، وبقي ذلك فرضا على رسول اللّه عليه الصلاة والسلام .

ويشهد له أيضا ما صحّ أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يدع قيام الليل حضرا ولا سفرا ، وأنه كان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع صلّى من النهار اثني عشر ركعة . كما ورد عن

عائشة في حديثها مع سعيد بن هشام وقد تقدم بعضه . فإنّ مواظبة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على قيام الليل في الحضر والسفر ، وقضاءه ما فاته من ذلك بعذر النوم أو المرض دليل على استمرار فرضية القيام عليه صلّى اللّه عليه وسلّم .

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا تقول العرب : ثغر رتل ورتل بالفتح والكسر ، إذا كان مفلّجا أو حسن التنضيد ، وفي «القاموس» : الرتل محركة : حسن تناسق الشيء ، وفيه أيضا : ورتل الكلام ترتيلا : أحسن تأليفه . وترتّل فيه ترسّل .

أما أقوال أهل التفسير : فعن ابن عباس أنّ معنى وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا بيّنه تبيينا وعن مجاهد : ترسّل فيه ترسلا . وقال قتادة : تثبّت فيه تثبتا . وكلها تدور حول شيء واحد ، والمراد : اقرأه في قيامك بالليل على مهل ، وتبيّن حروفه ، فإنّ ذلك يكون عونا لك ولمن يسمع منك على فهمه وتدبر معانيه .

أخرج العسكري في «المواعظ» عن عليّ كرّم اللّه وجهه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سئل عن هذه الآية فقال : «بيّنه تبيينا ، ولا تنثره نثر الدقل ، ولا تهذّه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة» «1»

الدقل بفتح القاف :

رديء التمر ويابسه . والهذّ : الإسراع ، ولقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ قراءة مرتّلة مفسّرة حرفا حرفا ، وكان يقطّع قراءته آية آية ، ويمد حروف المد .

(1) انظر ما رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 277) . [. . . . .]

(84/787)

روى ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أمّ سلمة رضي اللّه عنها أنّها سئلت عن قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت : كان يقطّع قراءته آية آية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (3) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) رواه أحمد وأبو داود والترمذي «1» .

وأخرج البخاري «2» عن أنس أنّه سئل عن قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : كانت مدّا ، ثم قرأ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (1) يمد بِسْمِ اللَّهِ ويمد الرَّحْمنِ ويمد الرَّحِيمِ .

وعلى هذا فليس لأحد من الناس مخالفة في أنّه يقرأ القرآن بترتيل وتبيين حروف ، وتحسين مخارج ، وإظهار مقاطع ، إنما الكلام في التغني به وتلحينه .

وقد اختلف في ذلك علماء السلف والخلف ، فقال بكراهته أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيّب ، وسعيد بن جبير ، والقاسم بن محمد ، والحسن ، وابن سيرين ، وإبراهيم النخعي ، والإمامان مالك وأحمد .

وروي عن ابن المسيب أنّه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرب في قراءته ، فأرسل إليه سعيد يقول : أصلحك اللّه إنّ الأئمة لا تقرأ هكذا . فترك عمر التطريب بعد .

وروي عن القاسم أنّ رجلا قرأ في مسجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فطرب فأنكر ذلك القاسم ، وقال : يقول اللّه عزّ وجلّ : لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .

وروى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن الألحان في الصلاة ؟ فقال : لا تعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم .

وروي عن أحمد أنّه كان يقول في قراءة الألحان : ما تعجبني ، ويقول : القراءة بالألحان بدعة لا تسمع .

وعن عبد اللّه بن يزيد العكبري قال : سمعت رجلا يسأل أحمد : ما تقول في القراءة بالألحان ؟ فقال له : ما اسمك ؟ قال : محمد . قال له : أيسرك أن يقال لك : موحامد ، ممدودا ؟

وأجاز القراءة بالألحان عمر بن الخطاب ، وابن عباس وابن مسعود

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 170) ، كتاب التفسير ، تفسير فاتحة الكتاب حديث رقم (2927) ، وأبو داود في السنن كتاب القراءات حديث رقم (4001) ، وأحمد في المسند (6/ 302) .

(2) رواه البخاري في الصحيح (6/ 136) ، 66 - كتاب فضائل القرآن ، 29 - باب مد القراءة حديث رقم (5046) .

(85/787)

وعبد الرحمن بن الأسود بن زيد والإمامان أبو حنيفة والشافعي ، واختاره أبو جعفر الطبري وأبو بكر بن العربي .

فعن عمر بن الخطاب فيما رواه الطبري أنه كان يقول لأبي موسى : ذكّرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن ، فيقول عمر : من استطاع أن يتغنّى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل .

وابن مسعود كانت تعجبه قراءة علقمة الأسود - وكان حسن الصوت - فكان يقرأ له علقمة ، فإذا فرغ قال له : زدني فداك أبي وأمي .

وعن عطاء بن أبي رباح قال : كان عبد الرحمن بن الأسود يتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان .

وروى الطحاوي أنّ أبا حنيفة كان يستمع القرآن بالألحان ، كما روي أنّ الشافعي كان كذلك .

هذا هو المأثور عن الأئمة والعلماء في قراءة التلحين والتطريب ، والنظر بعد ذلك في أدلتهم .

استدل المجيزون بما يأتي :

1 -

ما أخرجه أبو داود والنسائي عن البراء بن عازب أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «زيّنوا القرآن بأصواتكم» «1» .

2 - وما أخرجه مسلم من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» .

3 - وما في «البخاري» «2» عن عبد اللّه بن مغفّل قال : قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته فرجّع في قراءته .

4 - وما روي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري ، فلما أخبره بذلك قال : لو كنت أعلم أنّك تسمعه لحبّرته لك تحبيرا ، ويروى أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لما سمعه قال : «إنّ هذا أعطي مزمارا من مزامير آل داود» «3» .

---

(1) ما رواه أبو داود في السنن (1/ 546) ، كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل حديث رقم (1468) ، والنسائي في السنن (1 - 2/ 522) ، كتاب الافتتاح حديث رقم (1016) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (1/ 547) ، 6 - كتاب صلاة المسافرين 35 - باب ذكر قراءة النبي حديث رقم (237/ 794) ، والبخاري في الصحيح (6/ 137) ، 66 - كتاب فضائل القرآن ، 30 - باب الترجيع حديث رقم (5047) .

(3) رواه مسلم في الصحيح (1/ 546) ، 6 - كتاب صلاة المسافرين ، 34 - باب استحباب تزيين الصوت حديث رقم (235/ 793) ، والبخاري في الصحيح (6/ 137) ، 66 - كتاب فضائل القرآن ، 31 - باب حسن الصوت ، حديث رقم (5048) .

(86/787)

---

5 - وما رواه مسلم «1» عن أبي هريرة أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «ما أذن اللّه لشيء أذنه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن»

. الأذن بفتحتين الاستماع .

6 - وقالوا أيضا : إنّ الترنم بالقرآن ، والتطريب بقراءته من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء ، وهو أوقع في النفس ، وأنفذ في القلب ، وأبلغ في التأثير .

روي أنّ عقبة بن عامر كان من أحسن الناس صوتا فقال له عمر : اعرض عليّ سورة كذا ، فعرض عليه ، فبكى عمر وقال : ما كنت أظنّ أنها نزلت .

أما المانعون فاحتجوا بما يأتي :

1 -

ما رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن حذيفة بن اليمان عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق ، فإنّه يجيء من بعدي أقوام يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» فقد نعى على من يرجّع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح ، على نحو ما يفعله أكثر قراء هذا العصر ، ووصفهم بفتنة القلوب ، كما وصف بها كل من يسمع لهم ويعجبه شأنهم .

2 – وما روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه ذكر أشراط الساعة ، وذكر أشياء ، منها أن يتخذ القرآن مزامير ، وقال : «يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ، ولا أفضلهم ليغنيهم غناء» .

3 – وما رواه ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مؤذّن يطرب فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ الأذان سهل سمح ، فإن كان أذانك سهلا سمحا وإلا فلا تؤذن» أخرجه الدار قطني «2»

. فقد كره النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يطرب المؤذن في أذانه ، فدلّ ذلك على أنه يكره التطريب في القراءة بطريق أولى .

4 – وما روي أنّ زيادا النميري جاء إلى أنس رضي اللّه عنه مع القرّاء فقيل له : اقرأ ، فرفع صوته وطرب – وكان رفيع الصوت – ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقة سوداء ، وقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ، وكان إذا رأى شيئا ينكره رفع

الخرقة عن وجهه . وهذا له حكم الرفع ، فقوله : ما هكذا كانوا يفعلون . دلّ على أنّ القراءة في عهد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم تكن على نحو قراءة زياد .

5 - وقالوا أيضا : إنّ التغني والتطريب يؤدّي إلى أن يزاد على القرآن ما ليس منه ، وذلك لأنّه يقتضي مدّ ما ليس بممدود ، وهمز ما ليس بمهموز ، وجعل الحرف الواحد حروفا كثيرة ، وهو لا يجوز . هذا إلى أنّ التلحين من شأنه أن

---

(1) رواه في الصحيح (1/ 545) ، 6 - كتاب صلاة المسافرين ، 34 - باب استحباب تزيين الصوت حديث رقم (232/ 792) .

(2) رواه الدار قطني في سننه (2/ 86) ، كتاب الجنائز ، باب تخفيف القراءة .

يلهي النفوس بنغمات الصوت ، ويصرفها عن الاعتبار وتدبر معاني القرآن .

هذه أدلة المانعين ، وقد تأوّلوا ما أورده المجيزون مما يفيد جواز القراءة بالألحان فقالوا في حديث : «زينوا القرآن بأصواتكم»

إن فيه قلبا ، وأصله :

«زينوا أصواتكم بالقرآن»

كما قيل في : عرضت الناقة على الحوض ، وعلى تسليم أنه ليس في الحديث قلب ، فمعنى تزيين القرآن بالأصوات تجويده ، وتحسين أدائه بالمد والغنة والإظهار ، وضبط كلماته ، وتبيين حروفه ، وأنت ترى أنّ هذا التأويل بوجهيه بعيد عن لفظ الحديث غاية البعد ، وهو على كل حال تأويل لا دليل عليه ، ولا موجب له .

وقالوا في

الحديث الثاني : «ليس منّا من لم يتغن بالقرآن»

إنه ليس من الغناء وإنما هو من الاستغناء ، كما فسره بذلك سفيان بن عيينة ، ومعناه : ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن الحديث ، أو عن أخبار الأولين . قالوا : وقد ورد التغني بمعنى الاستغناء في كلام العرب . قال الأعشى :

وكنت امرأ زمنا بالعراق عفيف المناخ طويل التغنّي

وأنت ترى أيضا أنّ تأويل التغني بالاستغناء تأويل بعيد لا دليل عليه ، ولذلك لما سئل الشافعي عن هذا التأويل المنسوب لابن عيينة قال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد به الاستغناء لقال . من لم يستغن بالقرآن ، ولكن لما قال : «يتغنّ بالقرآن» علمنا أنه أراد به الغناء . أما بيت الأعشى فلا حجة لهم فيه ، فإنّه لا يستقيم معناه على إرادة الاستغناء ، وإنما هو بمعنى الإقامة ، من قولهم : غنى فلان بمكان كذا إذا أقام ، ومنه قوله تعالى : كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .

ثم أوّلوا ما ورد في بقية الأحاديث التي استدلّ بها المجيزون من الترجيع والتحبير والتغني مما يرجع لحسن التجويد ، وإتقان الأداء .

والحق أنّ الأدلة تشهد للمجيزين ، وذلك لأنه إذا كان التلحين والتطريب يغيّر من ألفاظ القرآن ، ويخلّ بما نقل إلينا من طرق الأداء أو كان تكلّفا وتصنّعا ورفعا وخفضا على نحو توقيعات الموسيقى ، فلا كلام في أنّه ممنوع ومحرّم .

أما إذا كان تحبيرا وترقيقا وتحزينا ، وشيئا قضى به اتعاظ القارئ ، وكمال تأثّره بمعاني القرآن ، فليس هناك من الأدلة ما ينهض على منعه . بل الأدلة شاهدة به وداعية إليه .

وعلى هذا ينبغي حمل كل ما أورده المانعون في منع التغني على التغني المذموم الذي يسير فيه القارئ مع الهوى ويلهو به عن تدبر المعنى ويخرج فيه عن الحدود والقوانين المأثورة في الأداء والترتيل . وهذا محمل قريب جدا وهو فوق ذلك مؤيد بتلك النصوص والآثار التي تجيز التغني في قراءة

القرآن وبعد هذا ترى الأدلة كلها متفقة لا تعارض بينها ولا تدافع .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) الإلقاء : الإنزال : والإيحاء . وعبّر به للإشارة من أول الأمر

إلى أنّ ما يوحى به شديد وعظيم .

والمراد بالقول الثقيل : القرآن ، وثقله باعتبار ما اشتمل عليه من تحميله عليه الصلاة والسلام أعباء الرسالة ومهمة التبليغ ، وما إلى ذلك من التكاليف التي يتطلّب القيام بها صبرا وجلدا وقوة عزيمة .

وقيل : إنه ثقيل في نزوله عليه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتلقيه إياه من الوحي ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يكرب عند ذلك ، ويرجف ، ويشتدّ عليه الأمر .

روى الشيخان ومالك والترمذي والنسائي عن عائشة «1» رضي اللّه عنها أنّها قالت : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقا .

أخرج أحمد وابن جرير «2» وغيرهما عن عائشة أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تتحرّك ، حتى يسرّى عنه ، وتلت إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) .

وروي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم نزل عليه الوحي مرة ، وكان جالسا واضعا فخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فكادت فخذه عليه الصلاة والسلام ترضّ فخذ زيد من شدّة الضغط .

قيل : معنى ثقله : أنه كلام رصين ، فخم ، له رجحان ووزن ، ليس بالسفساف ولا بالهين

الضعيف .

وقيل : إنّ ثقله كناية عن بقائه على وجه الدهر ، لا يزول ولا يتبدل ، فإنّ المعهود في الأجسام الثقيلة أنّها تثبت وتبقى في مكانها .

قال اللّه تعالى : إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) واختلف المفسرون في المراد بالناشئة . فقيل : إنّها من نشأ من مكانه إذا نهض ، فتكون الإضافة في نَاشِئَةَ اللَّيْلِ على معنى في . والمعنى : إن النفس أو النفوس الناشئة

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 1816) ، 43 - كتاب الفضائل ، 22 - باب طب عرق النبي حديث رقم (86/ 2333) ، والبخاري في الصحيح (4/ 95) ، 59 - كتاب بدء الخلق ، 6 - باب ذكر الملائكة ، حديث رقم (3215) ، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 557) ، كتاب المناقب ، حديث رقم (3634) ، والنسائي في السنن (1 - 2/ 485) ، كتاب الافتتاح ، باب جامع ما جاء في القرآن حديث رقم (933) .

(2) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان في تفسير القرآن (29/ 80) .

في الليل الناهضة من مضاجعها للعبادة هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا والوطء المواطأة والموافقة ، كالوطاء .

والقيل : القول كالمقال . والمراد به قراءة القرآن ، أو مطلق الذّكر ، أي إنها أشد موافقة ومصادفة للخشوع والإخلاص .

أو أن قلبها يكون بالليل أشد موافقة للسانها منه في سائر الأوقات ، إذ يكون القلب في ساعات الليل حاضرا لا يشغله شاغل ، ولا يصرفه عن خشية اللّه صارف .

وَأَقْوَمُ قِيلًا أي إنّ قولها يكون حينئذ أكثر اعتدالا واستقامة على نهج الصواب ، لأنّ الأصوات هادئة ، والليل ساكن ، فلا يضطرب المصلي ، ولا يختلط عليه قوله وقراءته .

وقيل : إن المراد بناشئة الليل العبادة فيه ، ومعنى أن عبادة الليل أشدّ وطأ : أن موافقتها الإخلاص والخشوع في هذا الوقت أعظم منها في أي وقت آخر . أو أنّ قلب العابد فيها يكون أكثر موافقة للسانه منه في غير ذلك من الأوقات .

وقيل : المراد بناشئة الليل ساعاته ، والمعنى عليه كسابقه ، ولعلّ أحسن هذه الأقوال أوسطها .

أما موقع هاتين الآيتين مما قبلهما ، فقال بعض المفسرين : إن أولاهما معترضة بين الأمر بالقيام وعلتها التي بينتها الآية الثانية ، وهي قوله تعالى : إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) وإنّ السر في هذا الاعتراض هو تسهيل أمر القيام بالليل عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم

بالموازنة بينه وبين ما سيوحى إليه من أنواع التكاليف وشدائد الأعمال .

ولكنّك ترى أنّه لا حاجة إلى جعل الآية الأولى معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، فإنّ ارتباطها بما قبلها واضح جدّا ، وهي منه في منزلة العلة من المعلول ، فكأنّ اللّه تعالى يقول لنبيه : قُمِ اللَّيْلَ وتجرد للعبادة ، وأعد نفسك لما سيلقى عليك ، لأنّا سنوحي إليك بأمور عظيمة ، وسنحمّلك تكاليف ثقيلة تقتضيها طبيعة الرسالة التي اخترناك لها .

ثم إنّ هذا يتضمّن دعوى أنّ العبادة في جوف الليل تعينه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتهيئه لتحمل أعباء الرسالة ، والاضطلاع بشؤونها ، فتأتي الآية الثانية وهي قوله تعالى : إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) لتعزيز الدعوى . فهي من سابقتها بمنزلة العلة من المعلول .

فكأنّ اللّه جل شأنه يقول : حقا إنّ قيام الليل يعينك على تحمل ما سنلقيه عليك ، لأنّ عبادة الليل أشدّ مواطأة وموافقة للإخلاص والخشوع ، وأكثر اعتدالا واستقامة على نهج الحق والصواب .

(90/787)

قال اللّه تعالى : إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (7) السبح في الأصل : الذهاب في الماء ، والتقلّب فيه . ويصحّ أن يطلق عن القيد ، فيستعمل في مطلق الذهاب والتقلّب . وعلى هذا يكون معنى الآية : إنّ لك في النهار شغلا كثيرا ، وتقلبا في أعمال متنوعة لا تستطيع معها أن تقوم في النهار بما يريده منك من تلك العبادات الخاصة ، فلذلك كتبناها عليك في الليل ، فيكون هذا تيسيرا على النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبيانا للحكمة في التخفيف عنه ، إذ لم يجمع عليه في النهار بين تلك العبادات وبين ما هو موكول إليه من الأعمال .

ويصحّ أن يكون الغرض توكيد أمر القيام عليه ، وأنه يجب أن يتفرّغ له بالليل ، إذ يكفي أن يكون له من النهار فسحة طويلة يزاول فيها ما شاء من الأعمال . أما الليل فيجب أن يتوفّر فيه على القيام بحقّ اللّه وعبادته .

قال اللّه تعالى : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) التبتل : الانقطاع ، يقال بتله وبتّله بالتخفيف والتشديد ، بتلا وتبتيلا ، فانبتل وتبتّل ، ومنه البتول للعذراء المنقطعة عن الأزواج ، أو المنقطعة للعبادة .

يأمر اللّه سبحانه وتعالى نبيّه أن يداوم على ذكر اللّه بالتسبيح والتحميد والتهليل وقراءة القرآن ، فلا يشغله عن ذلك شاغل في ليله ولا نهاره ، وأن يجعل همّه كله في إرضاء ربه ، ويجرد نفسه عن التعلق بغيره ، ويستغرق في مراقبته في كل ما يأتي وما يذر من الأعمال .

وليس المراد أن ينقطع حتى عن أعمال النهار ، ويعكف على الذكر والعبادة ، فإنّه يتنافى

مع قوله تعالى في الآية السابقة : إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (7) بل المراد التنبيه إلى أنّه ينبغي ألا يشغله السبح في أعمال النهار عن ذكر اللّه .

هذا وإنما قيل : تَبْتِيلًا ولم يقل : تبتلا ، حتى يتفق مع الفعل قبله ، مراعاة للفواصل ، وللدلالة على أنّ التبتل والانقطاع يحتاج إلى عمل اختياري منه صلّى اللّه عليه وسلّم ، بأن يجرّد نفسه عن التعلق بغير اللّه تعالى ، ويحصر همه في مراقبته جلّ شأنه ، فيحصل التبتل الذي هو أثر لذلك . وقد يقال : فلما ذا لم يقل : وتبتل إليه تبتيلا حتى يوافق الفعل مصدره ؟

والجواب : إنّ ذلك للإشارة إلى أنّ المقصود الأهم إنما هو حصول ذلك الأثر ، وهو التبتل .

قال اللّه تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى

(91/787)

وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

المراد من القيام هو ما تقدّم في أول السورة ، وهو صلاة التهجد على ما عرفت . وكلمة أَدْنى من الدنو ، وهو القرب ، فهي في الأصل بمعنى أقرب ، تقول :

رأيت محمّدا في الدرس أدنى التلاميذ من الأستاذ ، أي أنه يجلس في أقرب الأمكنة إليه ، لكنّها استعملت في الآية بمعنى الأقل ، على طريق المجاز المرسل ، لأنه إذا قربت المسافة بين الشيئين كانت الأحيان بينهما قليلة .

قرأ الجمهور : وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ بالنصب عطفا على أَدْنى لأنّه ظرف أو مفعول فيكون المعنى : إنّ اللّه قد علم أنّك كنت تقوم من الليل للصلاة على هذه الأوجه ، فتارة تقوم أقلّ من ثلثيه ، وأخرى تقوم نصفه ، وثالثة تقوم ثلثه ، وهذه القراءة تدلّ على أنّ عمله صلّى اللّه عليه وسلّم وعمل الصحابة معه كان وفق المأمور به في أول السورة ، فإنّه إذا قام أقلّ من الثلثين فقد حقّق الزيادة على النصف ، وإذا قام الثلث ، فقد صدق أنّه نقص عن النصف قليلا . والنصف مطابق للنصف .

وحينئذ لا تكون هناك مخالفة ، لا بطريق الاختيار ، ولا بطريق الاضطرار . ويكون التخفيف عنهم بسبب أنّهم – كما علم اللّه – لا يطيقون المواظبة على القيام بالمأمور به ، إذ لا يمكنهم تقدير الليل ، ولا يستطيعون ضبط ساعاته ، فإذا حرصوا على الوفاء بالمطلوب اضطروا أن يأخذوا بأكبر المقادير وأوسعها ، وفي ذلك مشقة زائدة .

وقرأ نافع : نِصْفَهُ وثُلُثَهُ بالجر ، عطفا على (ثلثيه) فيكون المعنى : إنّ اللّه علم أنك تقوم أقل

من الثلثين مرّة ، وأقلّ من النصف مرّة ، وأقلّ من الثلث مرّة ثالثة .

وظاهر أنّ ما دون الثلث لا يوافق المأمور به في أول السورة ، وهو أن ينقص من النصف مقدار قليل ، فإنّه لم يجر عرف الكلام أن يقال لما دون الثلث – في معرض التقدير بمثل هذه المقادير – إنه أقل من النصف ، كما لا يقال لأمر حدث قبيل طلوع الفجر مثلا : إنه حصل بعد العشاء .

على أنّ ما دون الثلث قد جاء في الآية التي معنا مقابلا لما دون النصف ، إذ الأحوال الثلاثة هي : القيام أقل من الثلثين ، وأقل من النصف ، وأقل من الثلث ، فيتعين أن يكون قيام ما دون الثلث شيئا غير قيام ما دون النصف وحينئذ لم يأت عملهم في جميع الحالات موافقا للأمر في أول السورة ، إذ قيام ما دون الثلث لا يكون امتثالا للأمر بقيام النصف إلا القليل . لكنّ ذلك لما لم يكن عن اختيار وقصد ،

(92/787)

بل كان عن محض الضرورة ، بسبب أنهم لم يمكنهم ضبط مقادير الزمان مع عذر النوم لم يكن إثما ، وانتفت فيه المؤاخذة ، وعلى هذا يكون التخفيف عنهم بسبب هذه الضرورة ، وهي عدم قدرتهم على إحصاء الوقت وضبط ساعات الليل .

وبعد فلا تناقض بين القراءتين ، فإنّ الآية ليست حديثا عما أمروا به من القيام ، بل هي إخبار عن الواقع الذي كان يحصل منهم . وهم كانوا أحيانا يقومون ثلث الليل ، ويقومون نصفه ، ويقومون قريبا من ثلثيه ، وأحيانا يقومون أقلّ من ثلثه ، وأقلّ من نصفه ، ظنا منهم أنهم وفوا في قيامهم أقلّ من الثلث بالقدر المأمور به ، لعدم ضبط الزمن ، وتحديد مقاديره . فقراءة النصب توافق الحالات الأولى ، وقراءة الجرّ تنزّل على الحالات الثانية .

وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وهذا معطوف على الضمير المستكنّ في تَقُومُ وهو وإن كان ضمير رفع متصل ، قد سوغ العطف عليه الفصل بينه وبين المعطوف ، والمعنى :

أنّ اللّه يعلم أنّه كان يقوم كذلك جماعة من الذين آمنوا بك ، واتبعوا هداك .

وقد يقال : إنّ هذا يدلّ على أنّ قيام الليل لم يكن فرضا على جميع الأمة ، وهو خلاف ما تقرّر تفسيره في أول السورة ، ويخالف أيضا ما دلّت عليه الآثار المتقدمة هناك .

والجواب : أنه ليس في الآية ما يفيد أنّ الصحابة رضوان اللّه عليهم كانوا جميعا يصلّون مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم صلاة التهجد في جماعة واحدة ، فلعلّ بعضهم كان يقيمها في بيته . فلا ينافي ذلك فرضية القيام على الجميع .

وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ الكلام هنا على الحصر والاختصاص ، أي أنّ اللّه هو وحده الذي يقدّر الليل والنهار ، يعلم مقاديرهما وأجزاءهما ، وما مضى من كلّ ، وما بقي على التعيين والتحديد .

وهذا الاختصاص - على ما يقول الزمخشري «1» - مستفاد من تقديم اسم الجلالة مبتدأ ، وبناء الفعل عليه .

أما غير الزمخشري فإنه ينكر عليه مذهبه هذا في الاختصاص ، إذ إنّه إذا قيل : محمد يحفظ الدرس ، أو يتفقه على فلان ، لم يفد ذلك أنه هو وحده الذي يحفظ ويتفقه .

فالحصر في الآية مستفاد من سياق الكلام ودلالة المقام .

عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إحصاء الأشياء عدّها ، والإحاطة بمقدارها ، ويصحّ أن يستعمل في القدرة على الفعل وإطاقته ، وكلّ من المعنيين سائغ في الآية .

---

(1) انظر تفسير الكشاف للزمخشري (4/ 643) .

فعلى الأول : يكون الضمير المفعول في تُحْصُوهُ عائدا على مصدر مفهوم من يُقَدِّرُ في الجملة السابقة .

والمعنى عليه : علم اللّه أنكم لم تحصوا تقدير الليل والنهار ، ولن تستطيعوا ضبط ساعاتهما ، ولا معرفة ما فات من ذلك على التحديد ، ولا ما هو آت ، وأنكم إذا أخذتم دائما بالأحوط ضعفتم ، وشقّ عليكم الأمر ، ولذلك خفف اللّه عنكم في أمر القيام ،

ورفع عنكم المقدار المحدد ، ورخّص لكم أن تقوموا مقدارا ما من الليل غير مقيّد بثلث ولا بغيره .

وعلى الثاني : يكون الضمير عائدا على القيام المفهوم من تَقُومُ .

والمعنى عليه : علم اللّه أنكم لن تحصوا قيام الليل ، أي لن تطيقوه ، ولن تستطيعوا المواظبة عليه مقدّرا بذلك المقدار ، ولذلك خفف عنكم .

فَتَابَ عَلَيْكُمْ التوبة في الأصل معناها العود والرجوع . يقال : تاب العاصي إذا رجع إلى سبيل الطاعة ، ويقال : تاب اللّه عليه ، بمعنى عفا عنه ، وعاد عليه بالمغفرة ، فالتوبة في قوله تعالى : فَتَابَ عَلَيْكُمْ يصحّ أن تكون بمعنى المغفرة ، أي غفر لكم ما كان عساه يفضي إلى مؤاخذتكم من عدم الوفاء بما أمرتم به ، إذ كنتم تقومون في بعض الأحوال أقل من ثلث الليل ، مع أنكم مأمورون أن تقوموا نصفه على الأقل ، لا تنقصون منه إلا قليلا .

وهذا – كما ترى – إنما يظهر على قراءة نافع ومن وافقه بجر (نصفه) و(ثلثه) . أما على قراءة النصب فيكون معنى فَتَابَ عَلَيْكُمْ عاد عليكم بالترخيص والتخفيف ، ورجع بكم من عسر إلى يسر ، ومن شدة إلى لين ، وليس هو من التوبة بمعنى المغفرة .

فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ للعلماء في المراد بالقراءة هنا ثلاثة أقوال :

الأول : – قول من حمل القراءة على ظاهرها ، وقال : إن صلاة التهجد قد نسخت بهذا الأمر وصار المطلوب قراءة شيء من القرآن . ثم من هؤلاء من قال : إنّ الأمر بالقراءة

للوجوب ، ومنهم من حمله على الندب .

القول الثاني : أن المراد بالقراءة الصلاة ، عبّر عنها لأنّها من أركانها ، كما يعبّر عنها بالقيام والركوع والسجود ، فيكون معنى : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ صلوا ما تيسر لكم من الصلاة .

ويشهد لذلك سياق الآية ، وما سبق من الآثار التي تدل على أنّ آخر السورة نسخ أولها ، فصار الواجب قيام جزء ما من الليل ، ثم نسخ ذلك بفرض المكتوبات الخمس .

القول الثالث : - أن المراد قراءة القرآن في الصلاة عملا بدلالة اللفظ مع شهادة السياق وتلك الآثار .

(94/787)

وقد تعلّق بعض الفقهاء بهذه الجملة : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ يستدلون بها على أن المفروض من القراءة في الصلاة ليس سورة معينة ، بل ما يطلق عليه اسم القراءة من أي سورة .

وقبل أن نشرح وجه الدلالة على ذلك ، يلزم أن ننبهك إلى أنّ الاستدلال بها لا يستقيم على الوجه الأول من التفسير ، فإنّ المراد بالقراءة على هذا الوجه حقيقة التلاوة خارج الصلاة ،

فلا تعلق لذلك بالموضوع.

وكذلك لا يستقيم على الوجه الثاني فإنّ القراءة عليه لم يرد بها معناها الحقيقي، بل هي مجاز عن الصلاة كما عرفت، فالتمسك بها إنما يستقيم على الوجه الثالث.

وذلك أنّه – بعد اتفاق الأئمة على أنّ القراءة في الصلاة من فرائضها – يقول الحنفية: إنّ الفرض مطلق قراءة آية أو ثلاث آيات – على اختلاف القولين بين الإمام وصاحبيه – من أيّ سورة من القرآن، وأنّ الفاتحة غير متعينة للفرضية، فإذا صلّى بها أو بغيرها فقد حصل ركن القراءة. وذلك لأنّ قوله تعالى: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ أمر بمطلق القراءة من غير تقييد بفاتحة ولا بغيرها، ومقتضى هذا الأمر وجوب تحصيل المطلق في أي فرد من أفراده.

قالوا: ويشهد لذلك:

1 –

ما في «الصحيحين» «1» عن أبي هريرة أنّ رجلا دخل المسجد فصلّى، ثم جاء فسلّم على النبيّ عليه الصلاة والسلام، فردّ عليه النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وقال: ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ، فصلّى، ثم جاء فأمره بالرجوع، فعل ذلك ثلاث مرات، فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره. فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، فكبّر، ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن، ثم اركع حتى

تطمئنّ راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن قائما ، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجدا ، ثم ارفع حتى تستوي قائما ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلّها» .

علمه النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كيفية الصلاة ، وبين له أركانها وشرائطها ، ولم يعيّن عليه في ذلك قراءة الفاتحة ، بل

قال له : «اقرأ ما تيسر معك من القرآن» .

فلو كانت الفاتحة بخصوصها ركنا لعيّنها له ، وعلمه إياها إن كان يجهلها ، أو وكل به من يعلمه ذلك .

2 - وما روى أبو داود «2» عن أبي هريرة من قول النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا صلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب»

فإنّه ظاهر في عدم تعيين الفاتحة .

---

(1) سبق تخريجه .

(2) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ، باب القراءة حديث رقم (819) .

3 – أما غير الحنفية فإنّهم يقولون : إنّ قراءة الفاتحة على التعيين فرض لا تجزئ الصلاة بتركها ، أو بترك حرف منها ، ويقولون : إن الآية – وإن كانت مطلقة – قد قيدتها الأحاديث الصحيحة التي تدلّ على أنّ خصوص الفاتحة ركن . فمن ذلك :

1 –

ما رواه السبعة « 1 » عن عبادة بن الصامت أنّه عليه الصلاة والسلام قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»

قال : النفي هنا يدلّ على انعدام الصلاة الشرعية ، لعدم القراءة فيها بالفاتحة ، ولا يكون عدم قراءة الفاتحة موجبا لانعدام الصلاة إلا إذا كانت الفاتحة من فرائضها .

قالوا : ولا يرد على هذا الدليل أنّه مشترك الدلالة وأنّه كما يصحّ أن يقدّر فيه متعلق الجار والمجرور الصحة حتى يكون المعنى : لا صلاة صحيحة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ، كذلك يصحّ تقديره بالكمال ، فيكون المعنى : لا صلاة كاملة إلخ ومثل هذا لا يصح به الاستدلال .

قالوا : لا يرد هذا : لأن الأصل في مثل هذا المتعلق أن يقدّر كونا عاما ، لعدم القرينة الدالة على الخصوص . فالمعنى : لا صلاة كائنة أو موجودة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ، وعدم الوجود شرعا هو عدم الصحة ، بل أقوى منه . ولو سلّم أنّه كون خاص ، فتقدير الصحة أولى ، لأن النفي متوجه في لفظ الحديث إلى ذات الصلاة ، وإذا كانت الذوات لا يصحّ أن يتوجه عليها النفي ، لأنّه من خواص النسب ، وتعذّر بذلك حمل اللفظ على حقيقته كان

الحمل على أقرب المجاورين أولى ، وذلك بتقدير الصحة ، فإنّ ما ليس بصحيح أقرب إلى المعدوم مما ليس بكامل .

2 – وما رواه الدار قطني «2» عن عبادة بن الصامت أنّه عليه الصلاة والسلام قال : «لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»

فإنّ عدم الإجزاء ظاهر جدا في عدم الصحة .

3 – وما رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة «3» أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج»

الخداج بالكسر : النقصان مأخوذ من خداج الناقة ، وهو إلقاؤها ولدها قبل أوانه .

4 – عمل النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فإنّه عليه الصلاة والسلام قد واظب على قراءة الفاتحة في كل صلاة من غير ترك ، فلو لا أنّها ركن لتركها ولو مرة تعليما وتشريعا .

هذه أدلة الفريقين تجدها في ظاهرها متعارضة ، فكان لا بدّ من النظر فيها .

---

(1) سبق تخريجه .

(2) رواه الدار قطني في سننه (1/322) . [. . . . .]

(3) سبق تخريجه .

وينبغي أن تعلم أولا : أنه لا سبيل إلى دعوى النسخ في شيء من تلك الأحاديث المتعارضة ، لأنه لم يوقف فيها على تمييز السابق من اللاحق ، فلا بدّ إذا من أحد أمرين : إما الجمع بينهما ، وإما ترجيح بعضها على بعض . على أنه متى أمكن أن يجمع بينها فلا ينبغي العدول عنه .

واعلم أيضا أنه لا مجال للمناقشة في أنّ قوله تعالى : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ من قبيل المطلق ، وأنّ من يجادل في هذا فهو يحاول أن يلوي الأساليب العربية عن استقامتها . كما أنّ قوله صلّى اللّه عليه وسلّم للرجل المسيء صلاته : «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» من قبيل المطلق أيضا .

وعلى هذا أجاب الحنفية عما استدل به مخالفوهم من الشافعية وغيرهم بما يأتي :

قالوا على الدليل الرابع : إنّ عمل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومواظبته على قراءة الفاتحة من غير ترك لا يدل على الفرضية ، فإنّه عليه الصلاة والسلام كما كان يواظب على الفرائض ، كان يواظب على الواجبات التي هي أدنى منها ، وليس ترك الواجب في بعض الأحيان طريقا متعينا للتمييز بينه وبين الفرض ، فإنّ التمييز كما يكون بالفعل يكون بالقول ،

كأن يقول لهم : إن ترك هذا لا يبطل الصلاة ، ولكن لا يجوز أن تتركوه .

وأجابوا عن حديث أبي هريرة – وهو الدليل الثالث – بأنّ النقصان أعمّ من الفساد ، فقد تكون الصلاة ناقصة مع الصحة بأن تكون مستجمعة شروطها وفرائضها وتخلّف شيء من الواجبات ، أو السنن فيها فلضرورة الجمع بين الأدلة المتعارضة يحمل النقصان على غير الفاحش الذي يفسد الصلاة ، وهو محمل غير بعيد .

وأجابوا عن الدليل الثاني : وهو ما رواه الدار قطني عن عبادة بن الصامت أنّه عليه الصلاة والسلام قال : «لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» بأنّ رواية الجماعة عنه أنّه عليه الصلاة والسلام قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» أرجح من تلك الرواية ، لأنه لا شك أنّ ما اتفق عليه الجماعة أصحّ مما تفرّد به غيرهم ولأنّ كلتا الروايتين – وإن كانت معارضة بظاهرها لإطلاق القرآن – فأقرب الروايتين إليه رواية الجماعة ، وأيضا فإنّه يصحّ أن تكون رواية الدار قطني بالمعنى وأنّ الراوي فهم من «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» عدم الإجزاء . فعبّر بلفظ : «لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» .

(97/787)

فلم يبق إلا أن يجمع بين هذه وبين قوله تعالى : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ .

وذلك أن الرواية على كل حال حديث آحاد لا تناهض القرآن ، ولا تقوى على نسخه ، فلو حملنا

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»

على نفي الصحة لزم أن يكون قاضيا على الكتاب ، ناسخا لحكمه ، لأنّ مقتضى الكتاب صحة الصلاة بكل قراءة ، ولو بغير فاتحة الكتاب ، ومقتضى الحديث على ذلك المحمل عدم صحتها ، إلا أن يقرأ فيها بالفاتحة ، وإذا كان الشافعي رحمه اللّه لا يرى نسخ الكتاب حتى بالحديث المتواتر ، كما نصّ على ذلك في «الرسالة» فيلزم ألا يجيز نسخه برواية الآحاد من باب أولى .

وإذا كانت العبرة في الأمور بمعانيها وحقائقها ، لا بأسمائها وألقابها فتغيير حكم الآية بذلك الحديث – على النحو الذي يقول به الشافعية ومن وافقهم – تغيير لا يختلف في شيء عن تغيير النسخ وسمّه بعد ذلك بما شئت .

وعلى هذا ينبغي أن يحمل الحديث على نفي الكمال ، بدليل نصّ الكتاب ، وما جاء في حديث المسيء صلاته ، ويكون

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»

نظير

قوله عليه الصلاة والسلام : «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»

وقوله : «لا صلاة للعبد الآبق»

فإنّ القرينة الدالة على أنّ المراد نفي الكمال متحققة في الجميع ، وعلى هذا يتم العمل بالقرآن والحديث ، إذ يكون الأول مفيدا أنّ مطلق القراءة فرض في الصلاة .

والثاني يفيد أنّ قراءة الفاتحة من الواجبات التي هي دون الفرائض .

وبعد فالعلماء مختلفون أيضا في محلّ القراءة المفروضة :

فالحنفية « 1 » القائلون بأن الفرض مطلق القراءة يقولون : إنها فرض في ركعتين من الصلوات الرباعية .

أمّا القائلون بأنّ الفرض خصوص الفاتحة ، فمنهم من يقول بفرضيتها في كل ركعة من الصلاة كما هو مذهب الشافعي وإحدى الروايتين عن مالك .

ومنهم من يقول بفرضيتها في ركعتين كما هي الرواية الأخرى .

ولا نرى أن نعرض هنا لهذه التفاصيل ، ومآخذ الأئمة فيها ، فإنّ مرجع ذلك كله الحديث وكتب الفروع .

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

الضرب في الأرض : السير فيها ، والسفر للتجارة والتعيش .

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1 - 2/ 58) .

(98/787)

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى قال بعض المفسرين : هذه الجملة مستأنفة لبيان حكمة أخرى لتخفيف قيام الليل بعد الحكمة الأولى ، وهي عدم القدرة على إحصاء الوقت وتقدير ساعاته ، أي علم أنه سيكون منكم مرضى إلخ كما علم عسر تقدير الأوقات عليكم . ولكنّك ترى أنه كان الظاهر على هذا أن يؤتى بالجملة الثانية عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى . موصولة بالأولى غير مفصولة .

وظاهر كلام الإمام الرازي «1» أن قوله تعالى : عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى هو الذي يبيّن حكمة النسخ ، وأنه جواب لسؤال تقديري ، فكأنه قيل : لم نسخ اللّه ذلك ؟

فقال : لأنه علم تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض والمجاهدين في سبيل اللّه .

وهذا التوجيه يدل على أنّ قوله تعالى فيما سبق عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ لا مدخل له في النسخ والتخفيف ، مع أنّ صريح الآية يخالفه ، إذ قد رتب عليه الترخيص بالفاء الدالة على التسبب ، وذلك هو قوله تعالى : فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ .

فالظاهر أنّ قوله تعالى : عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى قد جاء مجيء التفصيل بعد الإجمال

، فحكمة النسخ واحدة : هي رفع المشقة المترتبة على وجوب القيام الطويل في الليل .

أجملت هذه الحكمة في قوله تعالى : عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ثم فصلت في قوله جلّ شأنه : عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى إلخ . فليست هذه لبيان حكمة ثانية للنسخ كما أنها ليست مستقلة بالبيان عن ذلك الإجمال .

بيّن اللّه تعالى بذلك ثلاثة أشياء ، كلها مقتض للتخفيف على الناس في قيام الليل :

الأول : المرض . فالمريض يصعب عليه طول التهجد ، فإنّ السهر الكثير قد يضاعف علته ويزيد آلامه .

الثاني : الضرب في الأرض للتجارة .

والثالث : الجهاد في سبيل اللّه .

فإنّ الضاربين للتجارة وابتغاء الرزق ، والمجاهدين في سبيل اللّه مشتغلون في نهارهم بتلك الأعمال الشديدة ، فلو لم يناموا في الليل نوما يستعيدون به ما فقدوه من قوتهم لضعفوا ، وكلّوا ، وانقطعوا عن كثير من جلائل الأعمال .

قال المفسرون : إنّ في قرن الضرب في الأرض للتجارة بالجهاد في سبيل اللّه إشارة إلى أنّ الساعين في معايشهم يقاربون في الأجر المجاهدين .

---

(1) انظر تفسير مفاتيح الغيب المعروف أيضا بالتفسير الكبير للرازي (30/ 187) .

روى البيهقي وسعيد بن منصور عن عمر رضي اللّه عنه قال : ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل اللّه أحبّ إليّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل اللّه تعالى ، وتلا هذه الآية وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ إلخ .

وعن ابن مسعود أنه قال : أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند اللّه بمنزلة الشهداء ، ثم قرأ : وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ .

فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ أعيد هنا هذا الأمر لتوكيد الرخصة وتقديرها ، وليعطف عليه ما بعده من بقية الأوامر .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ اختلف المفسرون في المراد بالصلاة والزكاة هنا ، فمنهم من حمل الصلاة على المكتوبات الخمس ، والزكاة على زكاة الفطر ، قال : لأن الآية مكية ، وزكاة المال لم تفرض إلا في المدينة .

وهذا القول مردود من وجهين :

الأول : أنّ زكاة الفطر لم تجب إلا بعد الهجرة .

الثاني : أنّ الراجح في زكاة المال أنّها فرضت في مكة . غير أنه لم يعيّن فيها نصاب خاصّ ، ولم تحدد الأنواع التي تجب فيها الزكاة ولا القدر الواجب صرفه للفقراء ، إلا في المدينة ، فكان الواجب أول الأمر أن يصرف للفقير شيء ما من المال ، ويدل لذلك أنّ الزكاة وردت في آيات كثيرة مكية ، كما في صدر سورة المؤمنون .

على أنّ هذا التفسير لا يتم في الصلاة إلا على القول بأنّ هذه الآية قد تأخّر نزولها عن صدر السورة بعشر سنين أو أكثر ، حتى فرضت المكتوبات ليلة المعراج .

وبعضهم : حمل الصلاة على المكتوبات أيضا والزكاة على زكاة المال ، وفهم كذلك أنّ زكاة المال فرضت في المدينة ، فالتزم القول بأنّ هذه الآية مدنية .

وهو مردود أيضا بما سبق ، وبأنّ الراجح – كما علمت أول الكلام على صدر سورة المزمل – أنّ هذه السورة برمتها مكية .

وبعضهم حمل كلّا من الصلاة والزكاة على التطوع قال : لأنّ سورة المزمل من أوائل ما نزل من القرآن ، والمكتوبات الخمس لم تفرض إلا ليلة المعراج في السنة الثانية عشرة من البعثة ، وقال في الزكاة ما قاله صاحب الوجه الأول .

والحق الذي يتمشّى مع الراجح في تاريخ شرعية الزكاة ، ويتفق مع ما تقدم لك

عن ابن عباس وعائشة رضي اللّه عنهما من أنّ آخر سورة المزمل قد نزل بعد صدرها بحول ، أو قريب من الحول ، هو أنّ الأمر في قوله تعالى : وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ على ظاهره مفيد للوجوب ، وتحمل الصلاة على ما كان مفروضا في النهار أول الأمر : (ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي) وتحمل الزكاة على المفروضة أيضا ، وهي زكاة المال التي فرضت في السنة الخامسة من البعثة ، على ما هو الراجح ، وبذلك يتمّ القول ، ولا يكون هناك إشكال .

وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً في «القاموس» : والقرض (بالفتح) ويكسر : ما سلّفت من إساءة أو إحسان ، وما تعطيه لتقضاه . وفيه أيضا : وأقرضه : أعطاه قرضا .

وحينئذ يكون الكلام من باب المجاز ، إذ المراد من إقراض اللّه إعطاء الفقراء والمساكين ما يعينهم ، ويسد خلّتهم ، فاستعمل فيه اللفظ الذي يدلّ على إعطاء اللّه جلّ وعلا ، وعبّر فيه بالإقراض ، للدلالة على أنّ ثوابه مضمون ، وجزاءه لا شكّ في تحققه ، كما أنّ القرض لصاحبه لا شكّ في حصوله إذا كان المستقرض وفيا كريما .

قال بعض المفسرين : إن المراد بالقرض الصدقات المندوبة أمر بها الأمر بالزكاة المفروضة ، إذ العطف يقتضي المغايرة .

وحمله بعض آخر على نفس الزكاة السابقة ، وقال : إنّ حكمة العطف إرادة الحث

والتشجيع على أداء الزكاة من حيث إنها معتبرة كالقرض ، لا يضيع معروفها ، ولا ينقص شيء من ثوابها ، وإنّ معنى وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أدوا الزكاة المفروضة عليكم على أحسن الوجوه ، بأن تختاروها من أطيب الأموال وأنفعها للفقراء ، وتخلصوا في ذلك النية ، وترجوا به مرضاة اللّه . ولعلّ الوجه الأول هو الأرجح .

وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً .

خَيْراً هو المفعول الثاني لتجدوا ، والضمير المنفصل توكيد للمفعول الأول ، وهو - وإن كان ضمير رفع - قد وقع موقع ضمير النصب . ويصحّ أن يكون ضمير فصل .

المعنى : أنّ أيّ عمل تقدمونه في الدنيا ، تبتغون به منفعتكم في الآخرة ، سواء أكان متعلقا بالمال ، أم بغيره ، فإنكم تلقون به عند اللّه جزاء أحسن منه وأكثر نفعا .

وفسر ابن عباس المفضّل عليه بالوصية ، فقد روي عنه أنه يقول : تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت .

وقيل : إن المراد أنه خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا ، إذ الفرق عظيم بين المتاع الدنيوي والنعيم الجزيل الأخروي .

(101/787)

روى البخاري «1» عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم:

«أيّكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول اللّه ما منّا من أحد إلا ماله أحبّ إليه! قال:

«إنما ماله ما قدّم، ومال وارثه ما أخّر».

وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ختم اللّه جلّ شأنه القول بطلب الاستغفار مما عسى أن يقع في الأعمال من الخلل أو التقصير، ووعد سبحانه بالرحمة والمغفرة لمن يلجأ إلى جنابه الكريم، إذ أخبر بأنّه عظيم المغفرة واسع الرحمة. انتهى. اهـ ﴿تفسير آيات الأحكام/للسايس صـ 805. 829﴾

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (7/ 226)، 81 - كتاب الرقائق، 12 - باب ما قدم من ماله حديث رقم (6442).

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة المزمّل» (73)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» (1) مجازها : المتزمّل ، أدغمت التاء فثقّلت . المتزمّل عند العرب : الملتف بثيابه . .

«إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ» (6) ساعات الليل وهى آناء الليل ناشئة بعد ناشئة . .

«أَشَدُّ وَطْئاً» (6) عليك أشدّ ركوبا وكل شىء تعمله من سير أو صلاة بالليل فهو أشدّ وطئا عليك ويقال : وطئنا الليل وطئا فراشا أي مهادا لأنه يفترش الليل . .

«وَأَقْوَمُ قِيلًا» (6) أسمع قولا ، إن الليل أسمع . .

«سَبْحاً طَوِيلًا» (7) منقلبا طويلا . .

«أَنْكالًا» (12) النكل القيد «1» . .

«طَعاماً ذا غُصَّةٍ» (13) لا يسوغ فى الحلق . .

«كَثِيباً مَهِيلًا» (14) من هلته تهيله . .

«أَخْذاً وَبِيلًا «2»» (16) متخذا شديدا ، يقال : كلأ مستوبل أي لا يستمرأ وكذلك الطعام.

---

(1) . - 11 «واحدها . . . القيد» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 519]

(2) . - 14 «أخذا وبيلا» : شديدا كما فى البخاري ، ووصله الطبري (29/ 74

من طريق على ابن طلحة عن ابن عباس ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري) «كلأ . . . الطعام» كما فى الطبري (29/ 74) والقرطين (2/ 189) إلى «و كذلك» . [. . . . . .]

(103/787)

«السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ» (18) قال أبو عمرو : السماء منفطرة «1» ، ألقى الهاء لأن مجازها السقف ، تقول : هذا سماء البيت وقال قوم : قد تلقى العرب من المؤنث الهاءات استغناء ، يقال : مهرة ضامر وامرأة طالق والمعنى متشقّقة . .

«أَدْنى» (20) أقرب .

«تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً» (20) تجدوه عند اللّه خيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 273. 274 ﴾

---

(1) . - 1 «أعاد . . . منفطر» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 519) ونقل بعضه القرطبي (19/ 50) عن أبى عمرو فقط .

(104/787)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة المزمل

تسع عشرة أو عشرون آية

وهي مكيّة ، قال الماوردي : كلها ، في قول الحسن وعكرمة وجابر .

قال : وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ والتي تليها [المزمل : 10 - 11] .

[الآيات : الأولى والثانية والثالثة]

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) .

قُمِ اللَّيْلَ : أي قم للصلاة في الليل . واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضا عليه أو نفلا ؟ .

وقوله : إِلَّا قَلِيلًا (2) : استثناء من الليل ، أي صل الليلة كلها إلا يسيرا منها .

والقيام من الشيء : هو ما دون النصف ، وقيل : ما دون السدس ، وقيل : ما دون العشر .

وقال مقاتل والكلبي : المراد بالقليل هنا الثلث . وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله : نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ ، أي من النصف .

قَلِيلًا (3) : إلى الثلث .

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، قليلا إلى الثلثين . فكأنه قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

وقيل : إن نصفه بدل من قوله : قَلِيلًا (2) : فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو أقل

(105/787)

من نصفه أو أكثر من نصفه .

قال الأخفش : نصفه أي أو نصفه كما يقال أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة .

قال الواحدي : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين . جعل له سعة في مدة قيامه في الليل وخيره في هذه الساعات للقيام ، فكان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وطائفه معه يقومون على هذه المقادير ، وشق ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدري كم صلى أو كم بقي من الليل وكانوا يقومون الليل كله حتى خفف اللّه عنهم .

وقيل : الضمير في (منه) و(عليه) راجعان إلى الأقل من النصف كأنه قال : قم أقل من نصفه ، أو قم انقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا ! وهو بعيد جدا .

والظاهر أن نصفه قليلا والضميران راجعان إلى النصف المبدل من (قليلا) «1» .

واختلف في الناسخ لهذا الأمر فقيل : هو قوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ [المزمل : 20] إلى آخر السورة ، وقيل : هو قوله : عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ [المزمل : 20] ، وقيل : هو قوله : أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى [المزمل : 20] ، وقيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس . وبهذا قال مقاتل والشافعي وابن كيسان ، وقيل : هو فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ [المزمل : 20] وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة «2» .

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) : أي اقرأه على مهل مع تدبر .

قال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا .

قال الزجاج : هو أن تبين جميع الحروف وتوفي حقوقها من الإشباع .

وأصل الترتيل : [التنضيد] «3» والتنسيق وحسن النظام ، وتأكيد الفعل بالمصدر ،

---

(1) انظر : المشكل لمكي بن أبي طالب (2/ 418) ، الكشاف (4/ 175) ، زاد المسير (8/ 388) ، القرطبي (19/ 35) ، البحر المحيط (8/ 361) .

(2) انظر : الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 401 ، 403) ، والأحكام (4/ 1859) . والناسخ والمنسوخ للنحاس (253) ، والإيضاح (384) ، والمصفّى (214) ، وابن البارزي (312) ، والبصائر (1/ 487) .

(3) ما بين [المعقوفين] حرّف في «المطبوعة» إلى (التقيد) وهو خطأ والتصويب من تفسير فتح القدير

(106/787)

يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة.

[الآية الرابعة]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20).

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ: معنى أدنى: أقل، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما.

وَنِصْفَهُ : معطوف على أدنى .

وَثُلُثَهُ : معطوف على نصفه . والمعنى أن اللّه يعلم أن رسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يقوم أقل من ثلثي الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه .

وبالنصب قراءة ابن كثير والكوفيين .

وقرأ الجمهور : ونصفه وثلثه بالجر عطفا على ثلثي الليل . والمعنى أن اللّه يعلم أن رسوله يقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه .

واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه .

وقال الفرّاء : القراءة الأولى أشبه بالصواب لأنه قال : أقل من ثلثي الليل ، ثم فسر نفس القلة «1» .

---

(3) (5/316) .

والتنضيد : جعل الشيء بعضه فوق بعض [نضد] .

(1) قال أبو منصور : «من قرأ (و نصفه وثلثه) فهو بيّن حسن ، وهو تفسير مقدار قيامه ، لأنه لما قال (أدنى من ثلثي الليل) كان قوله (و نصفه) مبينا لذلك الأدنى ، كأنه يقول : تقوم أدنى من الثلثين

العموم في حقه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وفي حق أمته ، وليس في قوله : فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ ما يدل على بقاء شيء من الوجوب ، لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوع .

وأيضا الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «هل عليّ غيرها ؟ يعني الصلوات الخمس فقال : لا ! إلا أن تطوع» «1» ، تدل على عدم وجوب غيرها ، فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته عن الأمة ، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بقوله : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ [الإسراء : 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 461. 464 ﴾

فتقوم النصف والثلث ، ومن قرأ (و نصفه وثلثه) فالمعنى : وتقوم أدنى من نصفه وثلثه ، والوجهان بيّنان . (معاني القراءات 511 ، 512) بتحقيقنا - ط - دار الكتب العلمية - بيروت .

(1) حديث صحيح : رواه البخاري (1/ 106) ، ومسلم (1/ 166 ، 167) عن طلحة بن عبيد اللّه مرفوعا .

(108/787)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «المزمل» عليه الصلاة والسلام

[سورة المزمل (73) : الآيات 5 الى 7]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)

قوله تعالى : إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا [5] وهذه استعارة . لأن القرآن كلام ، وهو عرض من الأعراض . والثقل والخفة من صفات الأجسام ، والمراد بها صفة القرآن بعظم القدر ، ورجاحة الفضل «1» ، كما يقول القائل : فلان رصين رزين . وفلان راجح ركين . إذا أراد صفته بالفضل الراجح ، والقدر الوازن .

وقوله سبحانه إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا [6] وقرىء : وطأ «2» بالقصر .

وهذه استعارة.

والمراد بناشئة الليل هاهنا ما ينشأ فعله، أي يبتدأ به من عمل الليل، كالتهجد فى أثنائه، والتلاوة فى آنائه. ومعنى أَشَدُّ وَطْئاً فى قول بعضهم، أي أشد مواطاة، وهو مصدر. يقال: واطاه، مواطاة، ووطاء. أي يواطىء فيها السمع القلب، واللسان

---

(1) فى الأصل «الفصل» بالصاد المهملة.

(2) قرأ أبو العالية وأبو عمرو ومجاهد وابن أبى إسحاق وحميد وابن عامر والمغيرة وأبو حيوة «وطاء» بالمد. وقرأ الباقون «وطأ» بفتح الواو وسكون الطاء، على وزن بحر. انظر «القرطبي» ج19 ص 39. [.....]

العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيها أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيها أقوم، والصلاة أسلم.

ومن جعل وطاء هاهنا اسما «1» لما يستوطى ويفترش، كالمهاد وما يجرى مجراه، فأنه ذهب إلى أن عمل الليل أوعث مقاما، وأصعب مراما. وعندهم أن كل ما ينشأ بالليل من قراءة، أو تهجد، أو طروق، أو ترحل أشقّ على فاعله، وأصعب على مستعمله، لأن

الليل موحش هائل ، ومخوف محاذر . [فكل «2»] ما وقع فيه مما أومأنا إليه كان كالنسيب له ، والشبيه به .

ومن قرأ وطأ بالقصر فالمعنى فيه قريب من المعنى الأول . والمراد أن قيام الليل أشد وطأ عليك أي أصعب وأشق ، كما يقول القائل : هذا الأمر شديد الوطأة عليّ . إذا وصف بلوغه منه وصعوبته عليه ومع أن عمل الليل أشد كلفة ومشقة فهو أقوم صلاة وقراءة ، للمعنى الذي قدمنا ذكره .

وقوله سبحانه : إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا [7] وهذه استعارة . والمراد بها المضطرب الواسع ، والمجال الفاسح . وذلك مأخوذ من السباحة فى الماء ، وهى الاضطراب فى غمراته ، والتقلب فى جهاته . فكأنه سبحانه قال : إن لك فى النهار متصرفا ومتسعا ، ومذهبا منفسحا ، تقضى فيه أوطارك ، وتبلغ آرابك .

[سورة المزمل (73) : آية 17]

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17)

وقوله سبحانه : فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً [17] وهذه استعارة . والمراد بها : أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يشيبوا الرائع خطب ،

---

(1) فى الأصل «السماء» وهو تحريف من الناسخ .

(2) ليست بالأصل ، ويبدو أنها مطموسة ، وقد زدناها لأن النص يتطلبها .

(110/787)

أو طارق كرب ، لشابوا فى ذلك اليوم لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله . وذلك كقول القائل :

قد لقيت من هذا الأمر ما تشيب منه النواصي - كناية عن فظيع ما لاقى ، وعظيم ما قاسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 351.353 ﴾

(111/787)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المزمل

(112/787)

فى سورة الأنعام آية رسمت الإطار الذى يحدد سيرة النبى صلى الله عليه وسلم " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " . إذا كانت حياة البعض حقا وباطلا وجدا وهزلا وراحة وتعبا ، فإن هذا الإنسان الجليل قضى حياته كدحا موصولا وسبحا طويلا . ولم تكن مراحل تعبه استكمالا لأمجاد النبوة فى بيئة محدودة ، بل كانت تكوين جيل يغير مسار البشر إلى قيام الساعة ، ويهيئ للحق منارا لا تطفئه العواصف الهوج ! إن السنوات الستين التى قضاها محمد فى الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين ، بل كانت صونا لعقيدة التوحيد على امتداد الزمان والمكان ، وإعدادا للرجال ! الذين يحرسونها بعده إلى آخر الدهر . وفى أوائل إلماع إلى هذه الغاية لقد قيل للرسول " يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا " لقد انتهى زمان النوم المشبع والإستجمام العميق " إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا " . إنه قول ملىء بالتكاليف الشاقة والجهاد المضنى ! ! إنه إذا فرغ من قيام الليل استقبل كدح النهار فى تبليغ الدعوة ومجاهدة الخصوم ، ولا معين له إلا الله . فلينقطع إليه ، وليستمد منه ، وليتخذه وكيلا ، وليصبر على أذاهم ، فإن حسابهم المقبل شاق: " إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما " . ومتى يقع هذا ؟ "يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا " ! إن تصور الأرض ترتجف بنجدها ووفدها وبرها وبحرها كما يرتجف العاجز أمام هولى دهمه ، تصور يثير الفزع

والرهبة ، ولكن الناس فى خوض يلعبون . إن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أخشى الناس لله ، وأشدهم إحساسا بقرب لقائه . وكان الجيل الذى حف به يتأسى به ويحيا على غراره . فليس غريبا أن يقوم الليل مثله ويشد أزره فى مكافحة الضلال الجاثم على صدر الدنيا ، ولكن الله سبحانه رحمة منه بجمهور الأمة استبقى فريضة قيام الليل على نبيه

(113/787)

خاصة . واكتفى من المؤمنين بما يقومون به من واجبات أثناء النهار

" والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن " . وليس هذا الترك إجازة مفتوحة أو عطلة سائغة . كلا ، إنه تقدير لأعمال أخرى "علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله " . والواقع أن الجهاد الاقتصادى والعسكرى لابد منهما لحراسة الأمة وأدائها لرسالتها . إن أعداء الحق يرقبوننا بحل ، فإن وجدوا ثغرة نفذوا منها إلى صميمنا ، وهنا الطامة التى تطيح بالحق وأهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 485 . 486 ﴾

(114/787)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/788)

الجزء الثامن والثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة المزمل صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 19 ﴾ من السورة

(4/788)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/788)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المزمل

أقول: لا يخفى وجه اتصال أولها : (قُم الليل) بقوله في آخر تلك: (وأَنَّهُ لمّا قامَ عبد اللَه يدعوه) وبقوله (وأَنَّ المساجد لله) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 143﴾

(6/788)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الكافي من توكل عليه في جميع الأحوال (الرحمن) الذي عم بنعمة الإيجاد والبيان المهدي والضال عليه في جميع الأحوال (الرحيم) الذي خص حزبه بالسداد في الأقوال والأفعال لإيصالهم إلى دار الكمال .

(7/788)

لما تقدم في آخر الجن من تعظيم الوحي وأن من تعظيمه حفظ المرسل به من جميع الآفات المفترة عن إبلاغه بما له سبحانه من إحاطة العلم والقدرة وندب نبيه الذي ارتقاه لرسالته والاطلاع على ما أراده من غيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول هذه إلى القيام بأعباء النبوة

بالمناجاة بهذا الوحي في وقت الأنس والخلوة بالأحباب ، والبسط والجلوة لمن دق الباب ، للاعتلاء والمتاب ، المهيىء لحمل أعباء الرسالة ، والمقوي على أثقال المعالجة لأهل الضلالة ، فقال معبراً بالأداة الصالحة للقرب والبعد المختصة بأنه لا يقال بعدها إلا الأمور التي هي في غاية العظمة ، أشار إلى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يراد به غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخلق بكونها خوارق للعادات ونواقض للمألوفات المطردات ، وأما التزمل فهو وإن كان من آلات ذلك إلا أنه من الأمور العادية ، فهو دون ما يراد من التهيئة لذلك الاستعداد ، وبالتزمل لكونه منافياً للقيام في الصلاة : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ أي الذي أخفى شخصه وستر أمره وما أمرناه به – بما أشار إليه التزمل الذي مدلوله التلفف في الثوب على جميع البدن والاختفاء ولزوم مكان واحد ، ولأنه يكون منطرحاً على الأرض كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قتلى أحد – " زملوهم بثيابهم ودمائهم " مع الإشارة إلى الإخفاء أيضاً بإدغام تاء التفعل ، وربما أشار الإدغام إلى أن الستر بالثوب لم يعم جميع البدن ، كما يأتي في المدثر على أن فيه مع ذلك إشارة إلى البشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به ، من قولهم : زمل الشيء – إذا رفعه وحمله ، والازدمال : احتمال الشيء ، وزملت الرجل على البعير وغيره – إذا حملته عليه ، ومن زملت الدابة في عدوها – إذا نشطت ، والزامل من حمر الوحش الذي كأنه يظلع من نشاطه ، ورجل إزميل : شديد ، والزاملة : بعير يستظهر

به الرجل لحمل طعامه ومتاعه عليه ، ويقال للرجل العالم بالأمر : هو ابن زوملتها ، وقال ابن عطاء

(8/788)

: يا أيها المخفي ما تظهره عليه من آثار الخصوصية ! هذا أوان كشفه ، وقال عكرمة : يا أيها الذي حمل هذا الأمر ، وقال السدي : أراد يا أيها النائم ، وقال غيره : كان هذا في ابتداء الوحي بالنبوة ، والمدثر في ابتداء الوحي بالرسالة ، ثم خوطب بعد ذلك بالنبي والرسول : ﴿ قم ﴾ أي في خدمتنا بحمل أعباء نبوتنا والازدمال بالاجتهاد في الاحتمال ، واترك التزمل فإنه مناف للقيام .

ولما كان الاجتهاد في الخدمة دالاًّ على غاية المحبة ، وكانت النية خيراً من العمل ، وكان الإنسان مجبولاً على الضعف ، وكان سبحانه لطيفاً بهذه الأمة تشريفاً لإمامها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، رضى منا سبحانه بصدق التوجه إلى العمل وجعل أجورنا أكثر من أعمالنا ، فجعل إحياء البعض إحياء للكل ، فأطلق اسم الكل وأراد البعض فقال : ﴿ الليل ﴾ أي الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر ، فصل لنا في كل ليلة من هذا الجنس وقف بين يدينا بالمناجاة والأنس بما أنزلنا عليك من كلامنا فإنا نريد إظهارك وإعلاء قدرك في البر والبحر

والسر والجهر ، وقيام الليل في الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده ، وهي جامعة لأنواع الأعمال الظاهرة والباطنة ، وهي عمادها ، فذكرها دال على ما عداها .

ولما كان للبدن حظ في الراحة قال مستثنياً من الليل : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي من كل ليلة ، ونودي هذا النداء لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لما جاءه الوحي بغار حراء رجع إلى خديجة زوجته رضي الله تعالى عنها يرجف فؤاده فقال : " زملوني زملوني ! لقد خشيت على نفسي " .

(9/788)

فسألته ـ رضى الله عنه ـ ا عن حاله ، فلما قص عليها أمره – قال : " خشيت على نفسي " يعني أن يكون هذا مبادىء شعر أو كهانة ، وكل ذلك من الشياطين وأن يكون الذي ظهر له بالوحي ليس بملك ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبغض الشعر والكهانة غاية البغضة ، فقالت له وكانت وزيرة صدق : "كلا والله ! لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق " ونحو هذا من المقال الذي يثبت ، وفائدة التزمل أن الشجاع الكامل إذا دهمه أمر هو فوق قواه ففرق أمره فرجع إلى نفسه ، وقصر

بصره وبصيرته على حسه ، اجتمعت قواه إليه فقويت جبلته الصالحة على تلك العوارض التخييلية فهزمتها فرجع إلى أمر الجبلة العلية ، وزال ما عرض من العلة البدنية .

(10/788)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كان ذكر إسلام الجن قد أحرز غاية انتهى مرماها وتم مقصدها ومبناها ، وهي الإعلام باستجابة هؤلاء وحرمان من كان أولى بالاستجابة ، وأقرب في ظاهر الأمر إلى الإنابة ، بعد تقدم وعيدهم وشديد تهديدهم ، صرف الكلام إلى أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يلزمه من وظائف عبادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره ، مفتتحاً ذلك بأجمل مكالمة وألطف مخاطبة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : 1] وكان ذلك تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ورد ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] إلى آخره ، وليحصل منه الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثرة لججه ، وأتبع ذلك بما يشهد لهذا الغرض ويعضده وهو قوله تعالى ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ [المعارج : 5] ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 10 - 11] وهذا عين الوارد في قوله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] وفي قوله ﴿ نحن أعلم بما

يقولون وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق : 45] ثم قال : ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ [المزمل : 12] فذكر ما أعد لهم ، وإذا تأملت هذه الآي وجدتها قاطعة بما قدمناه ، وبان لك التحام ما ذكره ، ثم رجع الكلام إلى التلطف به عليه الصلاة والسلام وبأصحابه - رضى الله عنهم أجمعين - وأجزل جزاءهم مع وقوع التقصير ممن يصح منه تعظيم المعبود الحق جل جلاله ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل : 20] ثم ختم السورة بالاستغفار من كل ما تقدم من عناد الجاحدين المقدم ذكرهم فيما قبل من السور إلى ما لا يفي العباد المستجيبون به مما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ [المزمل : 20] انتهى .

(11/788)

ولما كان الليل اسماً لما بين غروب الشمس وطلوع الفجر ، وكان قيامه في غاية المشقة ، حمل سبحانه من ثقل ذلك ، فقال مبيناً لمراده بما حط عليه الكلام بعد الاستثناء ، ومبدلاً من جملة المستثنى والمستثنى منه : ﴿ نصفه ﴾ أي الليل ، فعلم أن المراد بالقليل المستثنى النصف ، وسماه قليلاً بالنسبة إلى جميع الليل ، وبالنسبة إلى النصف الذي وقع إحياؤه ، لأن ما يلي بالعمل أكثر مما لا عمل فيه ، ويجوز أن يكون " نصفه " بدلاً من الليل ، فيكون كأنه

قيل : قم نصف الليل إلا قليلاً وهو السدس أو انقص منه إلى الربع ، وجاءت العبارة هكذا لتفيد أن من قام ثلث الليل بل ربعه فما فوقه كان محيياً لليل كله .

ولما كانت الهمم مختلفة بالنسبة إلى الأشخاص وبالنسبة إلى الأوقات قال : ﴿ أو انقص منه ﴾ أي هذا النصف الذي أمرت بقيامه ، أو من النصف المستثنى منه القليل على الوجه الثاني وهو الثلث ﴿ قليلاً ﴾ فلا تقمه حتى لو أحييت ثلث الليل على الوجه الأول أو ربعه على الوجه الثاني كنت محيياً له كله في فضل الله بالتضعيف ﴿ أو زد عليه ﴾ أي على النصف قليلاً كالسدس مثلاً ، فيكون الذي تقومه الثلثين مثلاً ، وعلى كل تقدير من هذه التقادير يصادف القيام – وهو لا يكون إلا بعد النوم : الوقت الذي يباركه الله بالتجلي فيه فإنه صح أنه ينزل سبحانه عن أن يشبه ذاته شيئاً أو نزوله نزول غيره بل هو كناية عن فتح باب السماء الذي هو كناية عن وقت استجابة الدعاء – حين يبقى ثلث الليل – وفي رواية : حين يبقى شطر الليل الآخر – إلى سماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر .

(12/788)

وكان هذا القيام في أول الإسلام فرضاً عليهم على التخيير بين هذه المقادير الثلاثة فكانوا يشقون على أنفسهم ، فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب ، وكذا بعض أصحابه رضي الله تعالى عنهم واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم ، وكان هذا قبل فريضة الخمس ، فنزل آخرها بالتخفيف بعد سنة ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ [المزمل : 20] الآيات ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة .

ولما أمر بالقيام وقدر وقته وعينه ، أمر بهيئة التلاوة على وجه عام للنهار معلم بأن القيام بالصلاة التي روحها القرآن فقال : ﴿ ورتل القرآن ﴾ أي اقرأه على تؤدة وبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدها وحتى يكون المتلو شبيهاً بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان ، فإن ذلك موجب لتدبره فتكشف له مهماته وينجلي عليه أسراره وخفياته ، قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ، ولكن قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

روى الترمذي عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا : " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام حتى أصبح بآية ، والآية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ " [المائدة : 118] ولما أعلم سبحانه بالترتيل أعلم بشرفه بالتأكيد بالمصدر فقال : ﴿ ترتيلاً ﴾ .

ولما كان المراد منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثبات للنبوة ومن أمته الثبات في الاقتداء به في العمل والأمر والنهي ، وكان ذلك في غاية الصعوبة ، وكان الإنسان عاجزاً إلا بإعانة مولاه ، وكان العون النافع إنما يكون لمن صفت نفسه عن الأكدار وأشرقت بالأنوار ، وكان ذلك إنما يكون بالاجتهاد في خدمته سبحانه ، علل هذا الأمر بقوله مبيناً للقرآن الذي أمر بقراءته ما هو وما وصفه ، معلماً أن التهجد يعد للنفس من القوى ما به يعالج المشقات ، مؤكداً لأن الإتيان بما هو خارج عن جميع أشكال الكلام لا يكاد يصدق : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ سنلقي ﴾ أي قريباً بوعد لا خلف فيه فتهيأ لذلك بما يحق له .

(14/788)

ولما كان المقام لبيان الصعوبة ، عبر بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليك ﴾ وأشار إلى اليسر مع ذلك إشارة إلى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : 17] بالتعبير بما تدور مادته على اليسر والخفة فقال : ﴿ قولاً ﴾ يعني القرآن ﴿ ثقيلاً ﴾ أي لما فيه من التكاليف الشاقة من جهة حملها وتحميلها للمدعوين لأنها تضاد الطبع وتخالف النفس ، ومن جهة رزانة لفظه لامتلائه بالمعاني مع جلالة معناه وتصاعده في خفاء فلا يفهمه المتأمل

ويستخرج ما فيه من الجواهر إلا بمزيد فكر وتصفية سر وتجريد نظر ، فهو ثقيل على الموافق من جميع هذه الوجوه وغيرها ، وعلى المخالف من جهة أنه لا يقدر على رده ولا يتمكن من طعن فيه بوجه مع أنه ثقيل في الميزان وعند تلقيه وله وزن وخطر وقدر عظيم ، روي في الصحيح : " إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا أتاه الوحي يفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشاتي الشديد البرد " وكان – إذا أنزل عليه الوحي وهو راكب على ناقته وضعت جرانها فلا تكاد تتحرك حتى يسري عنه " قال القشيري : وروي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن سورة الأنعام نزلت عليه جملة واحدة وهو راكب فبركت ناقته من ثقل القرآن وهيبته ، وهو مع ثقله على الأركان خفيف على اللسان سهل التلاوة والحفظ على الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 202 ـ 206 ﴾

(15/788)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القرأت : ﴿ أو انقص ﴾ بكسر الواو للساكنين : حمزة وعاصم وسهل . الآخرون : بضمها للإتباع ﴿ ناشية ﴾ بالياء : يزيد والشموني والأصبهاني عن ورش وحمزة في

الوقف . الباقون . بالهمزة ﴿ وطأ ﴾ بكسر الواو وسكون الطاء : ابن عامر وأبو عمرو .
الآخرون : بالمد مصدر واطأت مواطأة ووطاء ﴿ رب المشرق ﴾ بالخفض على البدل
﴿ من ربك ﴾ ابن عامر ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم سوى حفص والمفضل .
الباقون : بالرفع على المدح أي هو رب . ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ بالنصب فيهما : عاصم
وحمزة وعلى وابن كثير وخلف .

الوقوف ﴿ المزمل ﴾ ه لا ﴿ إلا قليلاً ﴾ ه لا ﴿ قليلاً ﴾ ه لا ﴿ ترتيلاً ﴾ ه ﴿ ثقيلاً
﴾ ه ﴿ قيلاً ﴾ ه ط ﴿ طويلاً ﴾ ه ط ﴿ تبتيلاً ﴾ ه ط بالخفض لا يقف ﴿ وكيلاً ﴾
ه ﴿ جميلاً ﴾ ه م ﴿ قليلاً ﴾ ه ﴿ وجحيماً ﴾ ه لا ﴿ أليماً ﴾ ه وقد قيل يوصل بناء
على أن يوم ظرف لدينا والوقف أجوز لأن ثبوت إلا نكال لا يختص بذلك اليوم بل المراد ذكر
يوم كذا أو يوم كذا ترون ما ترون . ﴿ مهيلاً ﴾ ه ﴿ رسولاً ﴾ ه ﴿ وبيلا ﴾ ه ﴿
شيباً ﴾ ه لا بناء على أن ما بعده صفة يوماً ﴿ به ﴾ ط ﴿ مفعولاً ﴾ ه ﴿ تذكرة ﴾
ج للشرط مع الفاء ﴿ سبيلاً ﴾ ه ﴿ معك ﴾ ط ﴿ والنهار ﴾ ه ﴿ القرآن ﴾ ط ﴿
مرضى ﴾ لا للعطف ﴿ من فضل الله ﴾ لا لذلك ﴿ في سبيل الله ﴾ ج لطول الكلام
والوصل أولى للتكرار ﴿ فاقرؤا ﴾ ه ﴿ منة ﴾ لا للعطف ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ أجراً
﴾ ط لاختلاف الجملتين ﴿ الله ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب
القرآن حـ 6 صـ 376 . 377 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام ، وأصله المتزمل بالتاء وهو الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها ، فأدغم التاء في الزاي ، ونحوه المدثر في المتدثر ، واختلفوا لم تزمل بثوبه ؟ على وجوه أحدها : قال ابن عباس : أول ما جاءه جبريل عليه السلام خافه وظن أن به مساً من الجن ، فرجع من الجبل مرتعداً وقال : زملوني ، فبينا هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال : يا أيها المزمل وثانيها : قال الكلبي : إنما تزمل النبي عليه السلام بثيابه للتهيء للصلاة وهو اختيار الفراء وثالثها : أنه عليه السلام كان نائماً بالليل متزملاً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة ، وقيل : يا أيها النائم المتزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية ورابعها : أنه كان متزملاً في مرط لخديجة مستأنساً بها فقيل له : ﴿ يا أَيُّهَا المزمل * قُمِ الليل ﴾ كأنه قيل

: اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية وخامسها : قال عكرمة : يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً أي حمله والزمل الحمل ، وازدمله احتمله .

المسألة الثانية :

قرأ عكرمة ﴿ المزمل ﴾ و ﴿ المدثر ﴾ [المدثر : 1] بتخفيف الزاي والدال وتشديد الميم والثاء على أنه اسم فاعل أو مفعول ، فإن كان على اسم الفاعل كان المفعول محذوفاً والتقدير يا أيها المزمل نفسه والمدثر نفسه وحذف المفعول في مثل هذا المقام فصيح قال تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] أي أوتيت من كل شيء شيئاً ، وإن كان على أنه اسم المفعول كان ذلك لأنه زمل نفسه أو زمله غيره ، وقرىء (يا أيها المتزمل) على الأصل .

وقوله تعالى : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(17/788)

قال ابن عباس : إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله لقوله : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ وظاهر الأمر للوجوب ثم نسخ ، واختلفوا في سبب النسخ على وجوه أولها : أنه كان فرضاً قبل أن

تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بها وثانيها : أنه تعالى لما قال : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ فكان الرجل لا يدري كم صلى وكم بقي من الليل فكان يقوم الليل كله مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وشق عليهم ذلك حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر هذه السورة : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] وذلك في صدر الإسلام ، ثم قال ابن عباس : وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة ، وقال في رواية أخرى : إن إيجاب هذا كان بمكة ونسخه كان بالمدينة ، ثم نسخ هذا القدر أيضاً بالصلوات الخمس ، والفرق بين هذا القول وبين القول الأول أن في هذا القول نسخ وجوب التهجد بقوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ [المزمل : 20] ثم نسخ هذا بإيجاب الصلوات ، وفي القول الأول نسخ إيجاب التهجد بإيجاب الصلوات الخمس ابتداء ، وقال بعض العلماء : التهجد ما كان واجباً قط ، والدليل عليه وجوه أولها : قوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] فبين أن التهجد نافلة له لا فرض ، وأجاب ابن عباس عنه بأن المعنى زيادة وجوب عليك وثانيها : أن التهجد لو كان واجباً على الرسول لوجب على أمته لقوله : ﴿ واتبعوه ﴾ [الأعراف : 158] وورود النسخ على خلاف الأصل وثالثها : استدل بعضهم على عدم الوجوب بأنه تعالى قال : ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ففوض ذلك إلى رأي المكلف وما كان كذلك لا يكون واجباً وهذا ضعيف لأنه لا يبعد في العقل أن يقول : أوجبت عليك

قيام الليل فأما تقديره بالقلة والكثرة فذاك مفوض إلى رأيك ، ثم إن القائلين بعدم الوجوب أجابوا عن

(18/788)

التمسك بقوله : ﴿ قُمِ الليل ﴾ وقالوا ظاهر الأمر يفيد الندب ، لأنا رأينا أوامر الله تعالى تارة تفيد الندب وتارة تفيد الإيجاب ، فلا بد من جعلها مفيدة للقدر المشترك بين الصورتين دفعاً للاشتراك والمجاز ، وما ذاك إلا ترجيح جانب الفعل على جانب الترك ، وأما جواز الترك فإنه ثابت بمقتضى الأصل ، فلما حصل الرجحان بمقتضى الأمر وحصل جواز الترك بمقتضى الأصل كان ذلك هو المندوب ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قرأ أبو السمال ﴿ قُمِ الليل ﴾ بفتح الميم وغيره بضم الميم ، قال أبو الفتح بن جني : الغرض من هذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين ، فأي الحركات تحرك فقد حصل الغرض وحكى قطرب عنهم : ﴿ قم الليل ﴾ ، و

﴿ قل الحق ﴾ [الكهف : 29] برفع الميم واللام وبع الثوب ثم قال : من كسر فعلى أصل

الباب ومن ضم أتبع ومن فتح فقد مال إلى خفة الفتح .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ .

(19/788)

اعلم أن الناس قد أكثروا في تفسير هذه الآية وعندي فيه وجهان ملخصان الأول : أن المراد بقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الثلث ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ [المزمل : 20] فهذه الآية دلت على أن أكثر المقادير الواجبة الثلثان ، فهذا يدل على أن نوم الثلث جائز ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد في قوله : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ هو الثلث ، فإذاً قوله : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ معناه قم ثلثي الليل ثم قال : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ والمعنى أو قم نصفه ، كما تقول : جالس الحسن أو ابن سيرين ، أي جالس ذا أو ذا أيهما شئت ، فتحذف واو العطف فتقدير الآية : قم الثلثين أو قم النصف أو انقص من النصف أو زد عليه ، فعلى هذا يكون الثلثان أقصى الزيادة ، ويكون الثلث أقصى النقصان ، فيكون الواجب هو الثلث ، والزائد عليه يكون مندوباً ، فإن قيل : فعلى هذا التأويل يلزمكم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ترك الواجب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل

وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ فمن قرأ نصفه وثلثه بالخفض كان المعنى أنك تقوم أقل من الثلثين ، وأقل من النصف ، وأقل من الثلث ، فإذا كان الثلث واجباً كان عليه السلام تاركاً للواجب ، قلنا : إنهم كانوا يقدرون الثلث بالاجتهاد ، فربما أخطأوا في ذلك الاجتهاد ونقصوا منه شيئاً قليلاً فيكون ذلك أدنى من ثلث الليل المعلوم بتحديد الأجزاء عند الله ، ولذلك قال تعالى لهم : ﴿ عِلْمِ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ [المزمل : 20] ، الوجه الثاني : أن يكون قوله : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ وهذا التفسير جائز لوجهين الأول : أن نصف الشيء قليل بالنسبة إلى كله والثاني : أن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن عهدة ذلك التكليف بيقين إلا بزيادة شيء قليل

(20/788)

عليه فيصير في الحقيقة نصفاً وشيئاً ، فيكون الباقي بعد ذلك أقل منه ، وإذا ثبت هذا فنقول : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ معناه قم الليل إلا نصفه ، فيكون الحاصل : قم نصف الليل ، ثم قال : ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ يعني أو انقص من هذا النصف نصفه حتى يبقى الربع ، ثم قال : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ يعني أو زد على هذا النصف نصفه حتى يصير المجموع ثلاثة أرباعه ، وحينئذ يرجع حاصل الآية إلى أنه تعالى خيره بين أن يقوم تمام النصف ، وبين أن

يقوم ربع الليل ، وبين أن يقوم ثلاثة أرباعه ، وعلى هذا التقدير يكون الواجب الذي لا بد منه هو قيام الربع ، والزائد عليه يكون من المندوبات والنوافل ، وعلى هذا التأويل يزول الإشكال الذي ذكرتم بالكلية لأن قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ [المزمل : 20] يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقم ثلثي الليل ، ولا نصفه ولا ثلثه لأن الواجب لما كان هو الربع فقط لم يلزم من ترك قيام الثلث ترك شيء من الواجبات ، فزال السؤال المذكور ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ قال الزجاج : رتل القرآن ترتيلاً ، بينه تبييناً ، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن ، إنما يتم بأن يتبين جميع الحروف ، ويوفي حقها من الإشباع ، قال المبرد : أصله من قولهم : ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير ، وقال الليث : الترتيل تنسيق الشيء ، وثغر رتل ، حسن التنضيد ، ورتلت الكلام ترتيلاً ، إذا تمهلت فيه وأحسنت تأليفه ، وقوله تعالى : ﴿ تَرْتِيلاً ﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به ، وأنه مما لا بد منه للقارىء .

(21/788)

واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله ، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني ، لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية ، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره ، ومن أحب شيئاً لم يمر عليه بسرعة ، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكما المعرفة .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)

(22/788)

ذكروا في تفسير الثقيل وجوهاً أحدها : وهو المختار عندي أن المراد من كونه ثقيلاً عظم قدره وجلالة خطره ، وكل شيء نفس وعظم خطره ، فهو ثقل وثقيل وثاقل ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء : ﴿ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ يعني كلاماً عظيماً ، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً عظيماً ، فلا بد وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم ، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل ، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره

والثناء عليه ، والتضرع بين يديه ، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها ، وتهيأت للتجرد التام ، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية ، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال : إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى ، وتمام هذا المعنى ما قال عليه الصلاة والسلام : " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها " وثانيها : قالوا : المراد بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة ، وعلى رسول الله خاصة ، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته ، وحاصله أن ثقله راجع إلى ثقل العمل به ، فإنه لا معنى للتكليف إلا إلزام ما في فعله كلفة ومشقة وثالثها : روى عن الحسن : أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى كثرة منافعه وكثرة الثواب في العمل به ورابعها : المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يثقل عند نزول الوحي إليه ، روي أن الوحي نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها ، حتى وضعت جرانها ، فلم تستطع أن تتحرك ، وعن ابن عباس : كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد وجهه ، وعن عائشة رضي الله عنها : "رأيته

ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليرفض عرقاً" وخامسها : قال الفراء : ﴿ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف ، لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى وسادسها : قال الزجاج : معناه أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه ، كما تقول : هذا كلام رزين وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان وسابعها : قال أبو علي الفارسي : إنه ثقيل على المنافقين ، من حيث إنه يهتك أسرارهم ، ومن حيث إنه يبطل أديانهم وأقوالهم وثامنها : أن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول ، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر كما قال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] ، وتاسعها : أنه ثقيل بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية ، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته ، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه ، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون ، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله ، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله ، وعاشرها : أنه ثقيل لكونه مشتملاً على المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون ، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية ، فلما كان

كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 151.154 ﴾

(24/788)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال الأخفش سعيد : "المُزَّمِّل" أصله المتزمل ؛ فأدغمت التاء في الزاي وكذلك "المدثّر" .

وقرأ أُبيّ بن كعب على الأصل "الْمُتَزَمِّل" و "المتدثّر" .

وسعيد : "الْمُزَّمِّلْ" .

وفي أصل "المزَّمِّل" قولان : أحدهما أنه المحتمل ؛ يقال : زَمَل الشيء إذا حمله ، ومنه الزَّاملة ؛ لأنها تحمل القُمَاش .

الثاني أن المزَّمِّل هو المتلفِّف ؛ يقال : تزمل وتدثَّر بثوبه إذا تغطى .

وزمَّل غيره إذا غطّاه ، وكل شيء لُفِّف فقد زمل ودثر ؛ قال امرؤ القيس :

كبيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ . . .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه ثلاثة أقوال : الأوّل قول عكرمة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ بالنبوّة والملتزم للرسالة .

وعنه أيضاً : يا أيها الذي زُمِّلَ هذا الأمر أي حُمِّله ثم فتر ، وكان يقرأ "يَاأَيُّهَا المُزَمِّلُ" بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول ، وكذلك "المُدَثِّر" والمعنى المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه ، أو الذي زمَّله غيره .

الثاني "يَا أُيها الْمُزَّمِّل" بالقرآن ، قاله ابن عباس .

الثالث المزمل بثيابه ، قاله قتادة وغيره .

قال النخعي : كان متزملاً بقطيفةٍ .

قالت عائشة : بِمرطٍ طوله أربعة عشر ذراعاً ، نصفه عليّ وأنا نائمة ، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي ، واللَّهِ ما كان خَزّاً ولا قَزّاً ولا مِرعِزاءَ ولا إبرِيسما ولا صُوفاً ، كان سَداه شَعراً ، ولُحمته وَبَراً ، ذكره الثعلبيّ .

قلت : وهذا القول من عائشة يدلّ على أن السورة مَدَنِيّة ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يَبْن بها إلاّ في المدينة .

وما ذُكر من أنها مكية لا يصحّ .

والله أعلم .

وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه .

(25/788)

وقيل : بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه ، فاشتد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر ، فنزلت : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ و ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وقيل : كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه ، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال : " زمّلوني دثروني " روى معناه عن ابن عباس .

وقالت الحكماء : إنما خاطبه بالمزمّل والمدّثر في أوّل الأمر ؛ لأنه لم يكن بعد ادثر شيئاً من تبليغ الرسالة .

قال ابن العربي : واختلف في تأويل " يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل " فمنهم من حمله على حقيقته ، قيل له : يا من تلفّف في ثيابه أو في قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وقتادة .

ومنهم من حمله على المجاز ، كأنه قيل له : يا من تزمل بالنبوّة ؛ قاله عكرمة .

وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله ، وأما هو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينا أنها على حذف المفعول : وقد قرىء بها ، فهي صحيحة المعنى .

قال : وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح في المجاز ، لكنه قد قدّمنا أنه لا يحتاج إليه .

الثالثة : قال السُّهَيْلِي : ليس المزمّل باسم من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدُّوه في أسمائه عليه السلام ، وإنما المزمّل اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثّر .

وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : إحداهما الملاطفة ؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه ، باسم مشتق من حالته التي هو عليها ؛ ك " قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : "قم يا أبا تراب" " إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفةً له .

وكذلك " قوله عليه السلام لحذيفة : "قم يا نومان" " وكان نائماً ملاطفةً له ، وإشعاراً لِترك العتب والتأنيب .

(26/788)

فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : "يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ" فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ قُمِ الليل ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين .

وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف .

وحكى الفتح لخفته .

قال عثمان بن جنّي : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من التقاء الساكنين ، فبأي حركة تحرّكت فقد وقع الغرض .

وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه ، إلا أن ظرف المكان لا يتعدّى إليه إلا بواسطة ؛ لا تقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار .

وقد قيل : إن "قم" هنا معناه صَلِّ ؛ عبّر به عنه واستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال .

الخامسة : "اللَّيْلَ" حدّ الليل : من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

وقد تقدّم بيانه في سورة "البقرة" واختلف : هل كان قيامه فرضاً وحتماً ، أو كان ندباً وحضّاً ؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتماً وفرضاً ؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على

بعض الليل دون بعض ؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت .

وأيضاً فقد جاء التوقيف بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي .

واختلف أيضاً : هل كان فرضاً على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ، أو عليه وعلى أمته ؟ ثلاثة أقوال : الأوّل قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة .

الثاني قول ابن عباس ، قال : كان قيام الليل فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله .

الثالث قول عائشة وابن عباس أيضاً وهو الصحيح ؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوْفَى : أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله .

.

(27/788)

.

الحديث ، وفيه : فقلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : ألست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت : بلى ! قالت فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في

أوّل هذه السورة ، فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً ، وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة .

وذكر الحديث .

وذكر وكيع ويَعْلَى قالا : حدّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال : سمعت ابن عباس يقول لما أنزل أوّل ﴿ يا أيها المزمل ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرُها ، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة .

وقال سعيد بن جبير : مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل ، فنزل بعد عشر سنين : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ فخفّف الله عنهم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء من الليل ، أي صلّ الليل كله إلا يسيراً منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فاستثنى منه القليل لراحة الجسد .

والقليل من الشيء ما دون النصف ؛ فحكي عن وهب بن منبّه أنه قال : القليل ما دون المعشار والسدس .

وقال الكلبي ومقاتل : الثلث .

ثم قال تعالى : ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ فكان ذلك تَخْفيفاً إذ لم يكن زمان القيام

محدوداً ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ .

وقال الأخفش : "نِصْفَهُ" أي أو نصفَه ؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة : يريد : أو درهمين أو ثلاثة .

وقال الزجاج : "نِصفَه" بدل من الليل و ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء من النصف .

والضمير في "منه" و"عليه" للنصف .

المعنى : قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين ؛ فكأنه قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

(28/788)

وقيل : إن "نِصْفَهُ" بدل من قوله "قَلِيلاً" وكان مخيراً بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ؛ كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه ، أو أقل من نصفه ، أو أكثر من نصفه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يَنزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوّل ، فيقول أنا المِلك أنا المِلك من ذا

الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر " ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعاً وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله " .

.

الحديث .

رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك .

وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شَطْر الليل الأوّل ، ثم يأمر منادياً يقول : هل من داعٍ يُستجاب له ؟ هل من مستغفر يُغفر له ؟ هل من سائل يُعطَى ؟ " صحّحه أبو محمد عبد الحقّ ؛ فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول ، وأن ذلك يكون عند نصف الليل .

وخرّج ابن ماجه من حديث ابن شهاب ، عن أبي سَلَمة وأبي عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل

الآخِر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيَه ؟ من يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يستغفرني فأغفرَ له ؟ حتى يطلع الفجر " فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوّله .

قال علماؤنا : وبهذا الترتيب انتظم الحديث والقرآن ، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة .

(29/788)

وفي الموطأ وغيره من حديث ابن عباس : " بتُّ عند خالتي ميمونة حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً " وذكر الحديث .

السابعة : اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ [المزمل : 20] إلى آخر السورة .

وقيل قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ [المزمل : 20] .

وعن ابن عباس أيضاً : هو منسوخ بقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ [المزمل : 20] .

وعن عائشة أيضاً والشافعيّ ومقاتل وابن كيسان : هو منسوخ بالصلوات الخمس .

وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] .

قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : لما نزلت " يا أَيُّهَا المزمل " قاموا حتى ورمت أقدامهم وسُوقهم ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] .

قال بعض العلماء : وهو فرض نُسخ به فرض ؛ كان على النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] .

قلت : القول الأوّل يعم جميع هذه الأقوال ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ [البقرة : 43] فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس .

وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلْب شاة .

وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية : الحمد لله تطوّع بعد الفريضة .

وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة .

(30/788)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم حصيراً يصلّي عليه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جماعتهم كره ذلك ، وخشي أن يُكتب عليهم

قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضَب ، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال : " "أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تُطِيقون ، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب ، حتى تَمَلُّوا من العمل ، وإن خيرَ العمل أدومُه وإن قلّ" .

فنزلت : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ فكُتب عليهم ، فأنزل بمنزلة الفريضة ، حتى إن كان أحدُهم ليَربُط الحبل فيتعلقُ به ، فمكثوا ثمانية أشهر ، فرحمهم الله وأنزل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوّعوا به " .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبيّ ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله : "وإن قَلَّ" وباقيه يدل على أن قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون .

وقد تقدّم عنها في صحيح مسلم : حولاً .

وحكى الماورديّ عنها قولاً ثالثاً وهو ستة عشر شهراً ، لم يذكر غيره عنها .

وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوّل المزّمل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضاً عليه .

وفي نسخة عنه قولان : أحدهما : أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى .

الثاني : أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته .

وفي مدّة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما : المدّة المفروضة على أمته في القولين الماضيين

، يريد قول ابن عباس حولاً ، وقول عائشة ستة عشر شهراً .

الثاني : أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف ، ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ما ذكره الثعلبيّ عن سعيد بن جبير حَسْب ما تقدّم فتأمله .

وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

(31/788)

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني .

وقال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً .

وقال مجاهد : أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه .

والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل ، بكسر العين وفتحها : إذا كان حسن التنضيد .

وتقدّم بيانه في مقدّمة الكتاب .

وروى الحسن " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يقرأ آية ويبكي ، فقال : "ألم تسمعوا

إلى قول الله عز وجل : ﴿ وَرَتِّلِ القرآنَ تَرْتِيلاً ﴾ هذا الترتيل" " وسمع عَلْقَمةُ رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتّل القرآن ، فِداه أبي وأمّي ، وقال أبو بكر بن طاهر : تدبَّر في لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبَك بفهم معانيه ، وسرَّك بالإقبال عليه .

وروى عبد الله بن عمرو قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يؤتَى بقارىء القرآن يوم القيامة ، فيوقف في أوّل درج الجنة ويقال له اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها " خرجه أبو داود وقد تقدّم في أوّل الكتاب .

وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمدّ صوته بالقراءة مدّاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾

هو متصل بما فُرض من قيام الليل ، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله ؛ لأن الليل للمنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بِحَمْل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان ، فهو أمر يثقل على العبد .

وقيل : إنا سنوحي إليك القرآن ، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه .

قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده .

مجاهد : حلاله وحرامه .

الحسن : العمل به .

أبو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام .

محمد بن كعب : ثقيلاً على المنافقين .

(32/788)

وقيل : على الكفار ، لما فيه من الاحتجاج عليهم ، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم ، والكشف عما حرفه أهل الكتاب .

السُّديّ : ثقيل بمعنى كريم ؛ مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل عليّ ، أي يكرم عليّ .

الفرّاء : "ثِقيلاً" رزيناً ليس بالخفيف السَّفْساف لأنه كلام ربنا .

وقال الحسين بن الفضل : ثَقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد .

وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة .

وقيل : "ثَقِيلاً" أي ثابتاً كثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز ، لا يزول إعجازه أبداً .

وقيل : هو القرآن نفسه ؛ كما جاء في الخبر : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحَي إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها يعني صدرها على الأرض ، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه " وفي الموطأ وغيره : أنه عليه السلام سئل : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال :

" أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلة الجرس ، وهو أشدّه عليّ ، فَيُفصِم عنّي وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيُفصِم عنه وإن جبينه ليتَفصَّد عرقاً .

قال ابن العربيّ : وهو أولى ؛ لأنه الحقيقة ، وقد جاء ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] .

وقال عليه السلام : " بُعِثْتُ بالحنيفية السَّمْحة " وقيل : القول في هذه السورة : هو قول لا إله إلا الله ؛ إذ في الخبر : " خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان " ؛ ذكره القشيريّ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(33/788)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾

نداءٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال السهيلي : المُزَّمِّل اسمٌ مشتقٌ من حالِته التي كَانَ عليها عليه السلام حينَ الخطابِ ، وكذلكَ المدَّثِّرُ ، وفي خطابه بهذا الاسْمِ فائِدَتان :

إحداهما : الملاطفةُ فإنَّ العربَ إذا قَصَدَتْ ملاطَفَةَ المخاطَبِ ، وتَرْكَ معاتَبَتِهِ سَمَّوْهُ باسم

مشتقٍ من حالِته ، كقوله عليه السلام لعلي حين غَاضَبَ فاطمةَ : قُمْ أبا تُرَاب ، إشعاراً له أنه غَيْرُ عاتبٍ عليه ، وملاطَفَةً له ، والفائدة الثانية : التنبيهُ لكلِّ مُتَزَمِّلٍ راقدٍ ليله ؛ لينتبهَ إلى قيامِ الليل وذكرِ اللَّه فيه ، لأنَّ الاسْمَ المشتق من الفعلِ ، يَشْتَرِكُ فيه معَ المخاطَب كلُّ مَنْ عَمِلَ بذلك العملِ ، واتَّصَفَ بتلك الصفةِ ، انتهى ، والتَزَمُّلُ الإِلْتِفَافُ في الثياب ، قال جمهور المفسرين وهو في البخاري وغيره : " إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا جَاءَه المَلَكُ في غار حراء وَحَاوَرَه بما حَاوَرَه به ، رَجَعَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم إلى خَدِيجَةَ فقَال : زَمِّلُوني زَمِّلُوني ؛ فنزلت «يأيها المدثر» " و [على هذا نزلت «يأيها المزمل»] .

وقوله تعالى : ﴿ قُمِ اليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قال جمهور العلماءِ : هو أَمْرُ نَدْبٍ ، وقيل كَانَ فَرْضاً وقْتَ نزول الآيةِ ، وقال بعضُهم : كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصَّةً وبَقِيَ كذلك حتى تُوُفِّي ، وقيل غير هذا .

(34/788)

وقوله تعالى : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ يحتملُ : أن يكونَ بَدَلاً من قوله قليلاً ، * ص * : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناءٌ من الليلِ ، و ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ قيل : بَدَلٌ من الليل وعلى هذا يكون استثناءُ ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ منه ، أي : قم نصفَ الليل إلا قليلاً منه ، والضميرُ في قوله : ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ

﴾ ، ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ عائدٌ على النصْفِ وقيل : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ : بدل من قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قَالَ أبو البَقَاءِ ، وهو أشْبَهُ بظاهرِ الآيةِ ، انتهى ، قال *ع* : وكَيْفَ مَا تَقَلَّبَ المعنى فإنه أمْر بقيامِ نصفِ الليلِ ، أو أكْثَر شيئاً أو أقَلَّ شيئاً ، فالأكْثر عند العلماء لا يُزِيدُ على الثُّلُثَيْنِ ، والأقَلُّ لا يَنْحَطُّ عَن الثلثِ ، ويُقَوِّي هذا حديثُ ابنِ عَبَّاس في مَبيتِهِ في بيت ميمونة ؛ قال : فلما انْتَصَفَ الليلُ أو قَبْلَه بقليلٍ أو بعده بقليل ، قام رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، قال *ع* : ويلزمُ على هذا البَدَلِ الذي ذَكَرْنَاه أن يكونَ نصفُ الليل قَدْ وَقَعَ عليه الوصفُ بقليلٍ ، وقَدْ يحتملُ عندي قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أنْ يكون استثناءً من القيام ، فنجعلُ الليلَ اسْم جِنْسٍ ثم قال : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : إلا الليالي التي تُخِلُّ بقيامِها لعذرٍ ، وَهَذَا [النظرُ يَحْسُنُ مَعَ القولِ بالنَّدْبِ جِدًّا ، قال *ص* : وهذا [النَّظَرُ خلافُ ظاهرِ الآية ، انتهى ، والضميرُ في ﴿ مِنْهُ ﴾ و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائِدَان على] النصف .

(35/788)

وقوله سبحانه : ﴿ وَرَتِّلِ ﴾ : معناه في اللغةِ : تَمَهَّلْ وَفَرِّقْ بَيْنَ الحروفِ ، لِتَبِينَ ، والمقْصِدُ أنْ يَجِدَ الفِكْرُ فُسْحَةً للنَّظَرِ وفَهْمِ المعاني ، وبذلك يَرِقُّ القَلْبُ ، ويَفِيضُ عليه النُّورُ والرحمة ، قال ابن كيسان : المُرادُ : تَفْهَمُه تالياً له ، ورُوِي في صحيح الحديث : أن قراءةَ رسولِ اللَّه

صلى الله عليه وسلم كانَتْ بيِّنَةً مُتَرسِّلَةً ، لو شاء أحَدُ أنْ يَعُدَّ الحروفَ لعَدَّها ، قال الغزاليُّ في «الإحياء» : واعْلَمْ أنَّ التَرْتيلَ والتُّؤَدَةَ أقْرَبُ إلى التوقير والاحترام ، وأشَدُّ تأثيراً في القلبِ من الهَدْرَمَةِ والاسْتِعْجَال ، والمَقْصُودُ مِنَ القراءَةِ التفكُّرُ ، والترتيل مُعِينٌ عَلَيْهِ ، وللناس عاداتٌ مختلفة في الخَتْمِ ، وأوْلَى مَا يُرْجَعُ إليه في التقديراتِ قَوْلُ النبي صلى الله عليه وسلم وَقَدْ قَال عليه الصَّلاةُ والسلام :

(36/788)

" مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ في أَقَلِّ مِن ثَلاَثٍ ، لَمْ يَفْقَهْهُ " وذلك لأَنَّ الزيادةَ عليهَا تمنعُ الترتيلَ المطلوبَ ، وقَدْ كَرِهَ جماعةٌ الختمَ في يومٍ ولَيْلَةٍ ، والتفصيلُ في مقدار القراءة أنَّه إنْ كَانَ التالي من العُبَّادِ السالكينَ طريقَ العَمَلِ ، فلا يَنْبَغِي له أن يَنْقُصَ من خَتْمَتَيْنِ في الأُسْبُوعِ ، وإنْ كانَ من السالكينَ بأعْمَالِ القَلْبِ وضرُوب الفِكْر ، أو من المشغولين بنَشْرِ العلمِ فَلا بأسَ أنْ يَقْتَصِرَ في الأُسْبُوعِ على ختمةٍ ، وإنْ كَانَ نَافِذَ الفِكْرِ في مَعَانِي القرآن فَقَدْ يكتفِي في الشهر بمرةٍ لحاجَتِهِ إلى كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ والتأمُّل ، انتهى ، ورَوَى ابنُ المباركِ في «رقائقه» : قال : حدثنا إسماعيل عن أبي المتوكّل الناجي : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ بآيَةٍ مِنَ القُرْآنِ يُكَرِّرُهَا على نَفْسِهِ " ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ يعني القُرآن ، واخْتُلِفَ لم سمّاه ثقيلاً ، فقال جماعةٌ مِنَ المفسرينَ : لِمَا كَانَ يَحُلُّ برسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم مِنْ ثِقْلِ الجِسْمِ ؛ حَتَّى إِنَّه كَانَ إذا أُوحي إليه وهُو على نَاقَتِهِ ؛ بَرَكَتْ بِهِ وحَتَّى كَادَتْ فَخِذُه أَنْ تَرُضَّ فَخِذَ زَيْدِ بن ثابت رضي اللَّه عنه ، وقيل : لِثِقَلِهِ على الكفارِ والمنافقينَ بإعْجَازِه ووَعْدِه ووعيدِه ونحو ذلك ، وقال حُذَّاقُ العلماء : معناه : ثَقِيلُ المَعانِي من الأَمْرِ بالطاعاتِ ، والتكاليفِ الشرعية من الجهاد ، ومزاولةِ الأعمال الصالحاتِ دائماً ، قال الحسن : إنَّ الهَذَّ خَفِيفٌ ولَكِنَّ العَمَل ثقيل* ت * : والصوابُ عندي أَنْ يُقَالَ : أما ثِقَلُه باعتبارِ النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مَا كَانَ يَجِدُه عليه السلامُ من الثقل المَحْسُوسِ وأما ثِقَلُه باعتبارِ سائرِ الأمةِ فهو ما ذُكِرَ من ثقل المعاني ، وقَدْ زَجَرَ مالكٌ سائِلاً سأله عن مسألةٍ وقَالَ : يا أبا عَبْدِ اللَّه ؛ إنها مسألةٌ خفيفةٌ ؛ فغَضِبَ مالكٌ وقال : لَيْسَ في العِلم خَفِيفٌ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ فَالْعِلْمُ كُلُّه ثقيلٌ ، انتهى من «المدارك» لعياضٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾

أي المتزمل من تزمل بثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاي وقد قرأ أبي على الأصل وعكرمة المزمل بتخفيف الزاي وكسر الميم أي المزمل جسمه أو نفسه وبعض السلف المزمل بالتخفيف وفتح الميم اسم مفعول ولا تدافع بين القرآت فإنه عليه الصلاة والسلام هو زمل نفسه الكريمة من غير شبهة لكن إذا نظر إلى أن كل أفعاله من الله تعالى فقد زمله غيره ولا حاجة إلى أن يقال أنه صلى الله عليه وسلم زمل نفسه أولاً ثم نام فزمله غيره أو أنه زمله غيره أولاً ثم سقط عنه ما زمل به فزمل هو نفسه والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع إلى خديجة رضي الله تعالى عنها فقال زملوني زملوني فنزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] وعلى أثرها نزلت يا أيها المزمل وأخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلاءل عن جابر رضي الله تعالى عنه قال لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه فقالوا كاهن قالوا ليس بكاهن قالوا مجنون قالوا ليس بمجنون قالوا ساحر قالوا ليس بساحر قالوا يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر ونداؤه

عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيس له وملاطفة على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها كقوله صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله تعالى وجهه حين غاضب فاطمة رضي الله تعالى عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب قم أبا تراب قصداً لرفع الحجاب وطي بساط العتاب وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل : وكل ما يفعل المحبوب محبوب . . .

(39/788)

وزعم الزمخشري أنه عليه الصلاة والسلام نودي بذلك تهجيناً للحالة التي عليها من التزمل في قطيفة واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن إلى آخر ما قال مما ينادى عليه كما قال الأكثرون بسوء الأدب ووافقه في بعضه من وافقه وقال صاحب الكشف أراد أنه عليه الصلاة والسلام وصف بما هو ملتبس به يذكره تقاعده فهو من لطيف العتاب الممزوج بمحض الرأفة ولينشطه ويجعله مستعداً لما وعده تعالى بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : 5] ولا يربأ برسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا النداء فقد خوطب بما هو أشد في قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ [عبس : 1] ومثل هذا من خطاب الإدلال والترؤف لا يتقاعد ما في ضمنه من البر

والتقريب عما في ضمن يا أيها النبي يا أيها الرسول من التعظيم والترحيب انتهى ولا يخفى أنه لا يندفع به سوء أدب الزمخشري في تعبيره فإنه تعالى وإن كان له أن يخاطب حبيبه بما شاء لكنا نحن لا نجري على ما عامله سبحانه به بل يلزمنا الأدب والتعظيم لجنابه الكريم ولو خاطب بعض الرعايا الوزير بما خاطبه به السلطان طرده الحجاب وربما كان العقاب هو الجواب وقيل كان صلى الله عليه وسلم متزملاً بمرط لعائشة رضي الله تعالى عنها يصلي فنودي بذلك ثناءً عليه وتحسيناً لحاله التي كان عليها ولا يأباه الأمر بالقيام بعد إما لأنه أمر بالمداومة على ذلك والمواظبة عليه أو تعليم له عليه الصلاة والسلام وبيان لمقدار ما يقوم على ما قيل نعم أورد عليه أن السورة من أوائل ما نزل بمكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنى على عائشة رضي الله تعالى عنها بالمدينة مع أن الأخبار الصحيحة متضافرة بأن النداء المذكور كان وهو عليه الصلاة والسلام في بيت خديجة رضي الله تعالى عنها ويعلم منه حال ما روي عن عائشة أنها سئلت ما كان تزميله صلى الله عليه وسلم قالت كان مرطاً طوله أربع عشرة

(40/788)

ذراعاً نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي وكان سداه شعراً ولحمته وبراً وتكلف صاحب الكشف فقال الجواب أنه عليه الصلاة والسلام عقد في مكة فلعل المرط بعد العقد صار إليه صلى الله عليه وسلم نعم دل على أنه بعد وفاة خديجة إنما إشكال في قول عائشة نصفه علي الخ وجوابه أنه يمكن أن يكون قد بات صلى الله عليه وسلم في بيت الصديق رضي الله تعالى عنه ذات ليلة وكان المرط على عائشة وهي طفلة والباقي لطوله على النبي عليه الصلاة والسلام فحكت ذلك أم المؤمنين إذ لا دلالة على أنها حكاية ما بعد البناء فهذا ما يتكلف لصحة هذا القول انتهى وأنت تعلم أن هذا الحديث لم يقع في الكتب الصحيحة كما قاله ابن حجر بل هو مخالف لها ومثل هذه الاحتمالات لا يكتفي بها بل قال أبو حيان أنه كذب صريح وعن قتادة كان صلى الله عليه وسلم قد تزمل في ثيابه للصلاة واستعد لها فنودي بيا أيها المزمل على معنى يا أيها المستعد للعبادة وقال عكرمة المعنى يا أيها المزمل للنبوة وأعبائها والزمل كالحمل لفظاً ومعنى ويقال ازدمله أي احتمله وفيه تشبيه أجراه مراسم النبوة بتحمل الحمل الثقيل لما فيهما من المشقة وجوز أن يكون كناية عن المتثاقل لعدم التمرن وأورد عليه نحو ما أورد على وجه الزمخشري ومع صحة المعنى الحقيقي واعتضاده بالأحاديث الصحيحة لا حاجة إلى غيره كما قيل .

﴿ قُمِ الليل ﴾ أي قم إلى الصلاة وقيل داوم عليها وأياً ما كان فمعمول قم مقدر والليل منصوب على الظرفية وجوز أن يكون منصوباً على التوسع والإسناد المجازي ونسب هذا

إلى الكوفيين وما قيل إلى البصريين وقيل القيام مستعار للصلاة ومعنى قم صل فلا تقدير وقرأ أبو السمال بضم الميم اتباعاً لحركة القاف وقرىء بفتحها طلباً للتخفيف والكسر في قراءة الجمهور على أصل التقاء الساكنين ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناءً من الليل وقوله تعالى :

(41/788)

﴿ نِّصْفَهُ ﴾ بدل من قليلاً بدل الكل والضمير لليل وفي هذا الإبدال رفع الإبهام وفي الإتيان بقليل ما يدل على أن النصف المغمور بذكر الله تعالى بمنزلة الكل والنصف الفارغ وإن ساواه في الكمية لا يساويه في التحقيق ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ ﴾ عطف على الأمر السابق والضمير المجرور لليل أيضاً مقيداً بالاستثناء لأنه الذي سيق له الكلام وقيل للنصف لقربه ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي نقصاً قليلاً أو مقداراً قليلاً بحيث لا ينحط عن نصف النصف .

(42/788)

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ عطف كما سبق وكذا الكلام في الضمير ولا يختلف المعنى على القولين فيه وهو تخييره صلى الله عليه وسلم بين أن يقوم نصف الليل أو أقل من النصف أو أكثر بيد

أنه رجح الأول بأن فيه جعل معيار النقص والزيادة النصف المقارن للقيام وهو أولى من جعله النصف العاري منه بالكلية وإن تساويا كمية وجعل بعضهم الإبدال من الليل الباقي بعد الثنيا والضميرين له وقال في الإبدال من قليل ليس بسديد لهذا ولأن الحقيقي بالاعتناء الذي ينبىء عنه الإبدال هو الجزء الباقي بعد الثنيا المقارن للقيام لا للجزء المخرج العاري عنه ولا يخفى أنه على طرف التمام وكذا اعترض أبو حيان ذلك الإبدال بقوله إن ضمير نصفه حينئذٍ إما أن يعود على المبدل منه أو على المستثنى منه وهو الليل لا جائز أن يعود على المبدل منه لأنه يكون استثناء مجهول من مجهول إذ التقدير إلا قليلاً نصف القليل وهذا لا يصح له معنى البتة ولا جائز أن يعود على المستثنى منه لأنه يلغو فيه الاستثناء إذ لو قيل قم الليل نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه أفاد معناه على وجه أخصر وأوضح وأبعد عن الإلباس وفيه أنا نختار الثاني وما زعمه من اللغوية قد أشرنا إلى دفعه وأوضحه بعض الأجلة بقوله إن فيه تنبيهاً على تخفيف القيام وتسهيله لأن قلة أحد النصفين تلازم قلة الآخر وتنبيهاً على تفاوت ما شغل بالطاعة وما خلا منها الإشعار بأن البعض المشغول بمنزلة الكل مع ما في ذلك من البيان بعد الإبهام الداعي للتمكن في الذهن وزيادة التشويق وتعقب السمين الشق الأول أيضاً بأن قوله استثناء مجهول من مجهول غير صحيح لأن الليل معلوم وكذا بعضه من النصف وما دونه وما فوقه ولا ضير في استثناء المجهول من المعلوم نحو ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً ﴾ [البقرة : 249] بل لا ضير في إبدال مجهول من مجهول كجاءني

جماعة بعضهم مشاة ومع هذا المعول عليه ما سلف وجوز أن يكون نصفه بدلاً من الليل بدل بعض من كل

(43/788)

والاستثناء منه والكلام على نية التقديم والتأخير والأصل قم نصف الليل إلا قليلاً وضمير منه وعليه للأقل من النصف المفهوم من مجموع المستثنى منه فكأنه قيل قم أقل من نصف الليل بأن تقوم ثلث الليل أو انقص من ذلك الأقل قليلاً بأن تقوم ربع الليل أو زد على ذلك الأقل بأن تقوم النصف فالتخيير على هذا بين الأقل من النصف والأقل من الأقل والأزيد منه وهو النصف بعينه ومآله إلى التخيير بين النصف والثلث والربع فالفرق بين هذا الوجه وما ذكر قيل مثل الصبح ظاهر وفي "الكشاف" ما يفهم منه على ما قيل أن التخيير فيما وراء النصف أي فيما يقل عن النصف ويزيد على الثلث فلا يبلغ بالزيادة النصف ولا بالنقصان الثلث قال في "الكشف" وإنما جعل الزيادة دون النصف والنقصان فوق الثلث لأنهما لو بلغا إلى الكسر الصحيح لكان الأشبه أن يذكر بصريح اسميهما وأيضاً إيثار القلة ثانياً دليل على التقريب من ذلك الأقل وما انتهى إلى كسر صحيح فليس بناقص قليل في ذوق هذا المقام وكذا القول في جانب الزيادة كيف وقد بني الأمر على كونه أقل من النصف

انتهى وهو وجه متكلف ونحوه فيما أرى ما سمعت قبيله وظاهر كلام بعضهم أن ذكر الثلث والربع والنصف فيه على سبيل التمثيل لا أن الأقل والأنقص والأزيد محصورات فيما ذكر وجوز أيضاً كون الكلام على نية التقديم والتأخير كما مر آنفاً لكن مع جعل الضميرين للنصف لا للأقل منه كما في ذلك والمعنى التخيير بين أمرين بين أن يقوم عليه الصلاة والسلام أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه فكأنه قيل قم أقل من نصف الليل على البت أو انقص من النصف أو زد عليه تخييراً قيل وللاعتناء بشأن الأقل لأنه الأصل الواجب كرر على نحو أكرم إما زيدا وإما زيداً أو عمراً وتعقب بأن فيه تكلفاً لأن تقديم الاستثناء على البدل ظاهر في أن البدل من الحاصل بعد الاستثناء لأن في تقدير تأخير الاستثناء عدولاً

(44/788)

عن الأصل من غير دليل ولأن الظاهر على هذا رجوع الضميرين إلى النصف بعد الاستثناء لأنه السابق لا النصف المطلق وأيضاً الظاهر أن النقصان رخصة لأن الزيادة نفل والاعتناء بشأن العزيمة أولى ثم فيه أنه لا يجوز قيام النصف ويرده القراءة الثابتة في السبعة

(45/788)

﴿ أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ﴾ [المزمل : 20] بالجر فإن استدل من جواز الأقل على جوازه لمفهوم الموافقة لزم أن يلغوا التعرض للزيادة على النصف لذلك أيضاً ولا يخفى أن بعض هذا يرد على الوجه المار آنفاً واعترض قوله الظاهر أن النقصان رخصة بأنه محل نظر إذ الظاهر أنه من قبيل ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ [القصص : 27] فالتخيير ليس على حقيقته وفيه بحث وجوز أيضاً كون الإبدال من قليلاً كما قدمنا أولاً لكن مع جعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع وضمير عليه لهذا القليل وجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع كأنه قيل قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً نصفه أو زد على هذا القليل قليلاً نصفه ومآله قم نصف الليل أو نصف نصفه أو زد على نصف النصف نصف نصف النصف فيكون التخيير فيما إذا كان الليل ست عشرة ساعة مثلاً بين قيام ثماني ساعات وأربع وست ولا يخفى أن الإطلاق في أو زد عليه ظاهر الإشعار بأنه غير مقيد بقليلاً إذ لو كان للاستغناء لاكتفى في أو انقص الخ بالأول أيضاً ومن هنا قيل يجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة للثلث فيكون التخيير بين النصف والثلث والربع وفيه أن جعلها تتمة الثلث لا دليل عليه سوى موافقة القراءة بالجر في نصفه وثلثه بعد وجوز الإمام أن يراد بقليلاً في قوله تعالى إلا قليلاً الثلث وقال إن نصفه على حذف حرف العطف فكأنه قيل ثلثي الليل أو قم نصفه أو انقص من النصف أو زد عليه

وأطال في بيان ذلك والذب عنه ومع ذلك لا يخفى حاله وذكر أيضاً وجهاً ثانياً لا يخفى أمره على من أحاط بما تقدم خبرا نعم تفسيره القليل بالثلث مروى عن الكلبي ومقاتل وعن وهب بن منبه تفسيره بما دون المعشار والسدس وهو على ما قدمنا نصف واستدل به من قال بجواز استثناء النصف وما فوقه على ما فصل في الأصول وقال التبريزي الأمر بالقيام والتخيير في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين من آخر

(46/788)

الليل لأن الثلث الأول وقت العتمة والاستثناء وارد على المأمور به فكأنه قيل قم ثلثي الليل إلا قليلاً ثم جعل نصفه بدلاً من قليلاً فصار القليل مفسراً بالنصف من الثلثين وهو قليل على ما تقدم أو انقص منه أي من المأمور به وهو قيام الثلثين قليلاً أي ما دون نصفه أو زد عليه فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين انتهى .

وهو كما ترى وقيل الاستثناء من إعداد الليل لا من أجزائه فإن تعريفه للاستغراق إذ لا عهد فيه والضمير راجع إليه باعتبار الأجزاء على أن هناك استخداماً أو شبهه والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه والزائد عليه وهو بمكان من البعد وبالجملة قد أكثر المفسرون الكلام في هذه الآية حتى ذكروا ما لا ينبغي تخريج كلام الله تعالى العزيز عليه

وأظهر الوجوه عندي وأبعدها عن التكلف وأليقها بجزالة التنزيل هو ما ذكرناه أولاً والله تعالى أعلم بما في كتابه الجليل الجزيل وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق بالأمر في قوله سبحانه ﴿ قم الليل ﴾ [المزمل : 2] الخ.

وَرَتِّلِ القرءان ﴾ أي في أثناء ما ذكر من القيام أي أقرأه على تؤدة وتمهل وتبيين حروف ﴿ تَرْتِيلاً ﴾ بليغاً بحيث يتمكن السامع من عدها من قولهم ثغر رتل بسكون التاء ورتل بكسرها إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض وأخرج العسكري في المواعظ عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال : " بينه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل ولا تهذه هذا الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة . "

(47/788)

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ ﴾ أي سنوحي إليك وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى : ﴿ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ وهو القرآن العظيم فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للأمة وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه عليه الصلاة

والسلام من القيام كأنه قيل أنه سيرد عليك في الوحي المنزل تكاليف شاقة هذا بالنسبة إليها سهل فلا تبال بهذه المشقة وتمرن بها لما بعدها وادخل بعضهم في الاعتراض جملة ﴿ ورتل ﴾ الخ وتعقب بأنه لا وجه له وقيل معنى كونه ثقيلاً أنه رصين لأحكام مبانيه ومتانة معانيه والمراد أنه راجح على ما عداه لفظاً ومعنى لكن تجوز بالثقيل عن الراجح لأن الراجح من شأنه أن يكون كذلك وفي معناه ما قيل المراد كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف وقيل معناه أنه ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر فالثقيل مجاز عن الشاق وقيل ثقيل في الميزان والثقل إما حقيقة أو مجاز عن كثرة ثواب قارئه وقال أبو العلية والقرطبي ثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده وقيل ثقيل تلقيه يعني يثقل عليه صلى الله عليه وسلم والوحي به بواسطة الملك فإنه كان يوحي إليه عليه الصلاة والسلام على أنحاء منها أن لا يتمثل له الملك ويخاطبه بل يعرض له عليه الصلاة والسلام كالغشي لشدة انجذاب روحه الشريفة للملأ الأعلى بحيث يسمع ما يوحى به إليه ويشاهده ويحسه هو عليه الصلاة والسلام دون من معه وفي هذه الحالة كان يحس في بدنه ثقلاً حتى كادت فخذه صلى الله عليه وسلم أن ترض فخذ زيد بن ثابت وقد كانت عليها وهو يوحى إليه وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه وتلت أنا

سنلقي عليك قولاً ثقيلاً وروى الشيخان ومالك والترمذي والنسائي عنها أنها قالت ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون ثقيلاً صفة لمصدر حذف فأقيم مقامه وانتصب انتصابه أي إلقاء ثقيلاً وليس صفة قولاً وقيل ذلك كناية عن بقائه على وجه الدهر لأن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه وقيل ثقلة باعتبار ثقل حروفه حقيقة في اللوح المحفوظ فعن بعضهم أن كل حرف من القرآن في اللوح أعظم من جبل قاف وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه ويقله بإذن الله تعالى لا بقوته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك وهذا مما يحتاج إلى نقل صحيح عن الصادق عليه الصلاة والسلام ولا أظن وجوده .

والجملة قيل على معظم هذه الأوجه مستأنفة للتعليل فإن التهجد يعد النفس لأن تعالج ثقله فتأمل .

واستدل بالآية على أنه لا ينبغي أن يقال سورة خفيفة لما أن الله تعالى سمى فيه القرآن كله

قولاً ثقيلاً وهذا من باب الاحتياط كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(49/788)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

73 ـ سورة المزمل

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة القلم .

عدد آياتها : عشرون آية .

عدد كلماتها : مائتان وخمس وثمانون . . كلمة .

عدد حروفها : ثمانمائة وستة وثلاثون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الجن » بهذا العرض الذي يكشف عن مقام رسل اللّه عند ربهم ، وأنهم وحدهم من بين البشر ، هم الذين اختارهم لرسالته إلى عباده ، ولما يطلعهم عليه من الغيب المتصل برسالاتهم ، وببعض الأحداث التي تقع لهم على طريق هذه الرسالات . . والنبي صلوات اللّه وسلامه عليه ، واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، الذين اختارهم اللّه

سبحانه لتبليغ رسالاته إلى الناس ، ولما يوحى إليهم به من آياته التي لا يعلمها إلا هو . .

فناسب ذلك أن تجىء سورة « المزمل » تالية سورة « الجن » وفيها هذا النداء الكريم من اللّه سبحانه وتعالى إلى رسوله ، وقد آذنه بأنه قد اختير من اللّه سبحانه ليكون رسولا ، وليتلقّى آيات اللّه الموحى بها إليه من ربه ، وأنها من الغيب الذي سيطلعه اللّه عليه . .

(50/788)

التفسير :

قوله تعالى : « يا أيها المزمل » .

النداء هو من الحق جلّ وعلا ، إلى رسول اللّه ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكان ذلك فى أول الدعوة ، حيث تلقى الرسول الكريم أمر ربه بأنه رسول اللّه ، وذلك فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق

(51/788)

الإنسان من علق . »

وقد استقبل الرسول هذه الدعوة ، استقبال الإنسان لأمر غريب يقع له ، مما لم تألفه الحياة ، ومما لم يقع له أو لغيره المعاصرين له . ، فوقع فى نفسه شىء من الخوف ، والفزع لهذا الحدث ، ولما له من عواقب لا يدرى ما يأتيه منها . . ويروى فى هذا أن النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، كان فى أول أيام رسالته كلما عرض له جبريل ، وناداه من قريب أو بعيد فزع ، وكرب وعاد إلى أهله يرجف فؤاده ، ويقول زمّلونى ، دثرونى . .

والمزّمل : أصله المتزمّل ، وهو المتلفف فى يرد ، أو نحوه . .

والمزّمل : الحامل الثقال من الأمور ، ومنه : الزّاملة ، وهى الراحلة التي تحمل الزاد والمتاع ، ونحوه . .

ونداء النبىّ الكريم ، بهذه الصفة التي كان عليها . . وهى المزمل . . هو غاية اللطف ، والتكريم والإحسان ، من اللّه سبحانه وتعالى . . حيث لا يكون هذا النوع من الخطاب إلا بين متحابين متصافيين ، قد زالت حواجز الكلفة بينهما . . وهذا جائز من اللّه سبحانه وتعالى ، لأنه هو الملك للأمر كله ، يدنى من يشاء ويبعد من يشاء ، ويخاطب أحبابه وأولياءه ، كما يخاطب الحبيب حبيبه ، والخليل خليله . . أما النبىّ ، والملائكة ، وغيرهم من عباد اللّه المقربين فإنه لا يجوز لهم أن يخاطبوا اللّه سبحانه إلا من مقام العبودية المطلقة لجلال اللّه وعظمته . .

« يا أيها المزمل » ! ! كم وجد الرسول الكريم من سعادة ، وغبطة ، ورضا . . بهذا الوصف الذي أصبح علما هو آثر الأسماء عنده ، وأحب ، الصفات إليه ؟ وهذا يعنى أن جميع أحوال النبىّ ، هى غير أحوال الناس ، وأن كلّ حال منها هى علم على النبىّ

(52/788)

وحده ، حتى ما كان منها فى ظاهره مما لا يتمدّح به ، هى بالنسبة إليه صفات كمال لا يتصف بها غيره .

وللرسول الكريم وصف وصف به الإمام عليا - كرم اللّه وجهه - حين رآه نائما فى المسجد وقد علا جبينه بعض التراب ، وكان مغاضبا السيدة فاطمة رضى اللّه عنها ، فقال له الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه : « قم يا أبا تراب » يقول الإمام علىّ : فكان هذا الوصف هو أحبّ ما أنادى به ! ! وقوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا » .

. هذا هو المنادى به النبىّ من قبل اللّه سبحانه وتعالى ، بعد أن أوقظ من نومه بهذه اللمسة الرفيقة الحانية ، من يد اللطف والرحمة ، من ربّ لطيف رحيم . . « يا أيها المزمل » وفى هذه الدعوة ، انتقال بالنبيّ الكريم من حال المزمل ، والنوم ، إلى اليقظة الكاملة ، والتشمر للعمل ، والقيام له . . « قم الليل إلا قليلا » .

والمراد بقيام الليل ، هو اليقظة فيه ، يقظة كاملة ، واعية عاملة ، حتى لكأنه فى حال قيام دائم ، وإن كان جالسا . .

قوله تعالى : « نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » نصفه ، بدل من « قليلا » فى قوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا » وهو بيان لمقدار قيام الليل إلا قليلا منه . . فنصف الليل ، إذا قامه النبي ، يعدّ منه قياما لليل ، إلا قليلا منه ، وأقل قليلا من نصف الليل ، بعد كذلك من النبي قياما لليل إلا قليلا منه ، وكذلك إذا هو زاد فى قيامه على نصف الليل . .

وهذا يعنى أن أمر النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - بقيام الليل

(53/788)

إلا قليلا ، هو أمر قائم على اليسر ، حسب أحوال النبي ، وعلى قدر استعداده فى كل حال من أحواله . . ففى ليلة ، يقوم الليل كله إلا قليلا ، وفى ليلة أخرى ، يقوم نصف الليل ، وفى ثالثة ، يقوم أقل من نصف الليل ، وفى رابعة يقوم اكثر من نصفه . . وفى كل هذا ، هو - صلوات اللّه وسلامه عليه - قد أدى غاية المطلوب منه ، وهو قيام الليل إلا قليلا منه . .

وقوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » - معطوف على قوله تعالى ، « قم الليل إلا قليلا » .

. إذ ليس المطلوب هو قيام الليل فى ذاته ، وإنما المراد هو الذي يصحب هذا القيام ، من ترتيل القرآن ترتيلا . . فالواو هنا بمعنى المعية والمصاحبة . . ويجوز أن تكون واو الحال ، والجملة بعدها حالية ، أي قم الليل مرتلا القرآن ترتيلا . .

وترتيل القرآن ، هو قراءته فى تمهل وتتابع ، بحيث تتابع الحروف والكلمات ، فيأخذ كل حرف مكانه على الفم من كل كلمة ، كما تأخذ الكلمة مكانها من كل آية ، حتى ينتظم منها جميعها موكب متحرك فى نظام أشبه بنظام حبات الدر فى عقدها . . وهكذا كانت قراءة رسول اللّه للقرآن . . عن أم سلمة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت : « كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . يقطّع قراءته آية آية » وعن أنس ـ رضى اللّه عنه ـ قال : « كان يمدّ صوته مدّا » وعن ابن عمر رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن « 1 » : اقرأ وأرق ، ورتّل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر تقرؤها » ولفظ الترتيل ، يحتمل هذه المعاني كلها . . وهو من ترتّل الأسنان ، إذا

---

(1) أي فى الآخرة

استوت وحسن نظامها ، ويقال ثغر رتل إذا كانت أسنانه مستوية لا تفاوت فيها . .

قوله تعالى : «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . هو بيان للسبب الذي من أجله دعى النبي إلى قيام الليل ، وإلى نزع ثوب الدّعة والسكون . . إنه صلوات اللّه وسلامه عليه . سيواجه . بعد اصطفائه المرسالة . أمرا عظيما ، وإنه سيكلف أداء مهمة شاقة ، تحتاج إلى أن يبذل لها كل جهده ، وأن يقوم عليها فى كل لحظة من حياته ، ليلا ونهارا . . فهذا القول الذي سيلقى عليه ، وهو القرآن الكريم ، هو قول ثقيل بما يحمل من تكاليف ، هى عبء ثقيل عند كثير من الناس ، كما أنها حمل ثقيل على النبي فى حملها إلى الناس ، ودعوتهم إليها . . إن عهد النوم بالليل قد انتهى ! فليوطّن النبي التي نفسه منذ الآن على الجهاد ، وحمل هذا العبء ، وليأخذ للموقف عدته ، وإلّا ضعف عن حمل الرسالة ، وأداء أمانة تبليغها ، وقد علم أن إخوانه من الرسل ، قد أبلغوا رسالات ربهم ، وما كان له أن يقصر عنهم ، وهو خاتمهم ، وسيدهم .

وهذا التنبيه من اللّه سبحانه لنبيه الكريم ، بما سيلقاه على طريق رسالته ، من صعاب ، وما يحمله فى سبيلها من أعباء . هو الذي يهيىء النبي جسميّا ونفسيّا للمهمة الخطيرة التي نيطت به ، وألقيت عليه . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1251.1246 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) ﴾

افتتاح الكلام بالنداء إذا كان المخاطب واحداً ولم يكن بعيداً يدل على الاعتناء بما سيلقى إلى المخاطب من كلام .

والأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى العلم إذا كان معروفاً عند المتكلم فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلاّ لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو ﴿ يا أيها النبي ﴾ [الأنفال : 65] ، أو تلطف وتقرب نحو : يا بُنيّ ويا أبتِ ، أو قصد تهكم نحو : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لِبسة أو جِلسة أو ضِجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب وقد وجده مضطجعاً في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه "قُم أَبا تراب" وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق "قم يا نَوْمانُ" ، وقوِله لعَبْد الرحمان بن صخر الدوسي وقد رءاه حاملاً هِرّة صَغيرةً في كمه "يا أبا هُريرة" .

فنداء النبي بـ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ نداء تلطف وارتفاق ومثله قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] .

و﴿ المزمل ﴾ : اسم فاعل من تزمل ، إذا تلفف بثوبه كالمقرور ، أو مريد النوم وهو مثل التدثر في مآل المعنى وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق فالتزمل مشتق من معنى التلفف ، والتدثُر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفؤ .

وأصل التزمل مشتق من الزَّمْل بفتح فسكون وهو الإِخفاء ولا يعرف ل (تزمَّل) فعل مجرد في معناه فهو من التفعل الذي تنوسي منه معنى التكلف للفعل ، وأريد في إطلاقه معنى شدة التلبس ، وكثر مثل هذا في الاشتمال على اللباس ، فمنه التزمل ومنه التعَمّم والتأزّر والتقمّص ، وربما صَاغوا له صيغة الافتعال مثل : ارتَدى وائتزر .

وأصل ﴿ المزمل ﴾ : المتزمل ، أدغمت التاء في الزاي بعد قلبها زاياً لتقاربهما .

(56/788)

وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين : إنه التزمل الذي جرى في قول النبي صلى الله عليه وسلم "زَمِّلُوني زَمِّلُوني" حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] الآيات كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من "صحيح البخاري" وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذٍ ، وعليه فهو حقيقة .

وقيل : هو ما في حديث جابر بن عبد الله قال : "لما اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سَمُّوا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه (أي صِفوه وصفاً تتفق عليه الناس) فقالوا : كاهن ، وقالوا : مجنون ، وقالوا : ساحر ، فصدر المشركون على وصفه بـ (ساحر) فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وتزمل في ثيابه وتدثر ، فأتاه جبريل فقال : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] .

وسيأتي في سورة المدثر أن سبب نزولها رؤيتُه المَلكَ جالساً على كرسي بين السماء والأرض فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال : "دثروني" ، فيتعين أن سبب ندائه بـ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ كان عند قوله : "زَمِّلوني" ، فذلك عندما اغتمّ من وصف المشركين إياه بالجنون وأن ذلك غير سبب ندائه بـ ﴿ يا أيها المدثر في سورة المدثر .

وقيل : هو تزمُّل للاستعداد للصلاة فنودي يا أيها المزمل قم اللّيل إلاّ قليلاً ﴾ وهذا مروي عن قتادة .

وقريب منه عن الضحاك وهي أقوال متقاربة .

ومحملها على أن التزمُّل حقيقة ، وقال عكرمة : معناه زُمِّلْتَ هذا الأمر فقم به ، يريد أمر النبوءة فيكون قوله : ﴿ الليل إلاّ قليلاً ﴾ مع قوله : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ [المزمل : 7] تحريضاً على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار

إلاّ قليلاً من الليل وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه .

ومحمل التزمل عنده على المجاز .

(57/788)

فإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالاً على أن الله تعالى بعد أن ابتدأ رسوله بالوحي بصدر سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة أن يقولوا : إنه مجنون .

أنزل عليه التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل ، ثم فتر الوحي فلما رأى المَلَكَ الذي أرسل إليه بحِراء تدثر من شدة وقع تلك الرؤية فأنزل عليه ﴿ يا أيها المدثر .

فنداء النبي بوصف المزمل ﴾ باعتبار حالته وقت ندائه وليس المزمل معدوداً من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم قال السهيلي : ولم يعرف به وذهب بعض الناس إلى عدّه من أسمائه .

وفعل ﴿ قم ﴾ مُنزل منزلة اللازم فلا يحتاج إلى تقدير متعلق لأن القيام مراد به الصلاة ، فهذا قيام مغاير للقيام المأمور به في سورة المدثر بقوله ﴿ قم فأنذر ﴾ [المدثر : 2] فإن

ذلك بمعنى الشروع كما يأتي هنالك .

و﴿ الليل ﴾ : زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر .

وانتصب ﴿ الليل ﴾ على الظرفية فاقتضى الأمر بالصلاة في جميع وقت الليل ، ويعلم استثناء أوقات قضاء الضرورات من إغفاء بالنوم ونحوه من ضرورات الإِنسان .

وقيام الليل لقب في اصطلاح القرآن والسنة للصلاة فيه ما عدا صلاتي المغرب والعشاء ورواتبهما .

(58/788)

وأمْر الرسول بقيام الليل أمْر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده مثل السور التي سبقت نزولَ هذه السورة ، وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم إلى قوله : وطائفة من الذين معك ﴾ [المزمل : 20] الآيات قال الجمهور وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس في أوقات النهار والليل ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول صلى الله عليه وسلم في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يحرجه الوحي كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري:

" فغطني حتى بلغ مني الجَهد " ثم قال : ﴿ اقرأ باسم ربّك ﴾ [العلق : 1] الحديث ، ويدل لهذه الحكمة قوله تعالى عقبه : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى ، فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحي إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه فلا يبقى فترة من الزمن غير متعبد لعبادة ، ولهذا نرجح أن قيام الليل فرض عليه قبل فرض الصلوات الخمس عليه وعلى الأمة .

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فرض الصلوات الخمس تعظيماً لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين وهو وقت الليل كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، أي زيادة قرب لك ﴾ وقد تقدم في سورة [الإسراء : 79] .

فكان هذا حكماً خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن واجباً على غيره ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس .

وإنما كان المسلمون يقتدون بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرّهم على ذلك فكانوا يرونه لِزاماً عليهم ، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ﴾ [السجدة : 16] ، وسيأتي ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ [المزمل : 20] الآية ، قالت عائشة : "إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام النبي وأصحابه" ، على أنه لا خلاف في رفع فرض القيام عن المسلمين .

وتقرر أنه مندوب فيه .

واختلف في استمرار وجوبه على النبي صلى الله عليه وسلم ولا طائل وراء الاستدلال على ذلك أو عدمه .

وقوله : ﴿ إلاّ قليلاً ﴾ استثناء من ﴿ الليل ﴾ أي إلاّ قليلاً منه ، فلم يتعلق إيجاب القيام عليه بأوقات الليل كلها .

و﴿ نصفه ﴾ بدل من ﴿ قليلاً ﴾ بدلاً مطابقاً وهو تبيين لإِجمال ﴿ قليلاً ﴾ فجعل القليل هنا النصفَ أو أقلَّ منه بقليل .

وفائدة هذا الإِجمال الإِيماء إلى أن الأَوْلى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل وأن جعله نصف الليل رحمة ورخصة للنبيء صلى الله عليه وسلم ويدل لذلك تعقيبُه بقوله : ﴿ أو

انقص منه قليلاً ﴾ أي انقص من النصف قليلاً ، فيكون زمن قيام الليل أقلّ من نصفه ، وهو حينئذٍ قليل فهو رخصة في الرخصة .

وقال ﴿ أو زد عليه ﴾ وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد ﴿ أو زد عليه ﴾ بمثل ما قيد به ﴿ أو انقص منه ﴾ لتكون الزيادة على النصف متسعة ، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك : "إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر" فقال : "أفَلا أكونُ عبداً شكوراً" .

والتخيير المستفاد من حرف ﴿ أو ﴾ منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر لأن لذلك ارتباطاً بسعة النهار للعمل ولأخذ الحظ الفائت من النوم .

(60/788)

وبعد فذلك توسيع على النبي صلى الله عليه وسلم لرفع حرج تحديده لزمن القيام فسلك به مسلك التقريب .

وجعل ابن عطية ﴿ الليل ﴾ اسم جنس يصدق على جميع الليالي ، وأن المعنى : إلاّ قليلاً من الليالي ، وهي الليالي التي يكون فيها عذر يمنعه من قيامها ، أي هو استثناء من الليالي

باعتبار جزئياتها لا باعتبار الأجزاء ، ثم قال : ﴿ نصفه ﴾ إلى آخره .

وتخصيص الليل بالصلاة فيه لأنه وقتُ النوم عادة فأُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام فيه زيادة في إشغال أوقاته بالإِقبال على مناجاة الله : ولأن الليل وقت سكون الأصوات واشتغال الناس فتكون نفس القائم فيه أقوى استعداداً لتلقي الفيض الرباني .

يجوز أن يكون متعلقاً بقيام الليل ، أي رتل قراءتك في القيام .

ويجوز أن يكون أمراً مستقلاً بكيفية قراءة القرآن جرى ذكره بمناسبة الأمر بقيام الليل ، وهذا أولى لأن القراءة في الصلاة تدخل في ذلك .

وقد كان نزول هذه السورة في أول العهد بنزول القرآن فكان جملة القرآن حين نزول هذه السورة سورتين أو ثلاثَ سور بناء على أصح الأقوال في أن هذا المقدار من السورة مكي ، وفي أن هذه السورة من أوائل السور ، وهذا مما أشعر به قوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] أي سنوحي إليك قرآناً .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن بمهل وتبيين .

والترتيل : جعل الشيء مرتَّلاً ، أي مفرقاً ، وأصله من قولهم : ثَغْر مرتَّل ، وهو المفلج الأسنان ، أي المفرق بين أسنانه تفرقاً قليلاً بحيث لا تكون النواجذ متلاصقة .

وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته ، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحةً مع إشباع الحركات التي تستحق الإِشباع .

ووصَفَتْ عائشة الترتيل فقالت : "لو أراد السامع أن يعُد حروفه لعدها لا كسَرْدِكم هذا" .

(61/788)

وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلَقُ بحوافظهم ، ويتدبر قارئه وسامعه معانيَه كي لا يسبق لفظُ اللسان عملَ الفهم .

قال قائل لعبد الله بن مسعود : قرأت المفصل في ليلة فقال عبد الله : "هَذًّا كهَذِّ الشعر" لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة أسرعوا ليظهر مِيزان بَحرها ، وتتعاقب قوافيها على الأسماع .

والهذُّ إسراع القطع .

وأكد هذا الأمر بالمفعول المطلق لإِفادة تحقيق صفة الترتيل .

وقرأ الجمهور ﴿ أو انقص ﴾ بضم الواو للتخلص من التقاء الساكنين عند سقوط همزة الوصل ، حركوا الواو بضمّة لمناسبة ضمة قاف ﴿ انقص ﴾ بعدها .

وقرأه حمزة وعاصم بكسر الواو على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين .

ووقع في قوله تعالى : ﴿ أو زِدْ عليه ورتل القرآن ﴾ إذا (شبعت) فتحة نون القرآن محسّن

الاتّزان بأن يكون مصراعاً من بحر الكامل أحَذَّ دخَله الإضمار مرتين .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)

تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضاً بين جملة ﴿ قم الليل ﴾ [المزمل : 2] وجملة ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً ﴾ [المزمل : 6] ، وهو جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئةُ نفس النبي صلى الله عليه وسلم ليحمل شدة الوحي ، وفي هذا إيماء إلى أن الله يَسَّر عليه ذلك كما قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ [القيامة : 17] ، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً ﴾ [المزمل : 2] فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبي صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن فلما قال له : ﴿ ورتل القرءان ترتيلا ﴾ [المزمل : 4] أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن .

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه : إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة المَلَك .

وحقيقة الإلقاء : رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه ، ويقال : شيء لَقى ، أي مطروح ، استعير الإلقاء للإبلاغ دفعة على غير ترقب .

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة ، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيراً على الرسول الأمّي تنوء الطاقة عن تلقّيه .

وأشعر قوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله : ﴿ إنا سنلقي عليك ﴾ وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه .

قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جِلده " (أي تغير بمثل القشعريرة) وقالت عائشة : " رأتُهُ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفَضُّ عرقاً " .

ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه .

قال الفراء : "ثقيلاً ليس بالكلام السفساف" .

وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإِحاطة به فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه .

وتأكيد هذا الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به وإشعار الرسول صلى الله عليه وسلم بتأكيد

قربه واستمراره ، ليكون وروده أسهل عليه من ورود الأمر المفاجىء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(63/788)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ الآية

يدل على وجوب قيام الليل على الأمة لأن أمر القدوة أمر لاتباعه .

وقوله: ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ دليل على عدم الخصوص به صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الله ما يدل على خلاف ذلك في قوله: ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ .

وقوله: ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

والجواب ظاهر وهو أن الأخير ناسخ للأول ثم نسخ الأخير أيضا بالصلوات الخمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 304 ﴾

فصل في ذكر اجتهاد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في طاعة ربه ومداومته على عبادته

قال المقريزى :

خرّج البخاري من حديث حيوة عن أبي الأسود ، سمع عروة عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم الليل حتى تتفطر [1] قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟ فلما كثر لحمه صلّى جالسا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع [2] .

---

[1] تتفطر : تتشقق

[2] (فتح الباري) ج 8 ص 751 ، كتاب التفسير ، سورة (48) : باب (2) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً 48 : 2 حديث رقم (4837) .

وحيوة : هو ابن شريح المصري . وأبو الأسود : هو محمد بن عبد الرحمن النوفلي المعروف بيتيم عروة ، ونصف هذا الإسناد مصريون ونصفه مدنيون . قوله : «فلما كثر لحمه» ، أنكره الداوديّ وقال :

المحفوظ «فلما بدن» أي كبر ، فكأن الراويّ تأوله على كثرة اللحم .

وتعقبه أيضا ابن الجوزي فقال : لم يصفه أحد بالسمن أصلا ، ولقد مات صلّى الله عليه وسلّم وما شبع من خبز الشعير في يوم مرتين ، وأحسب بعض الرواة لما رأى «بدن» ظنه كثر لحمه ، وليس كذلك ، وإنما هو بدن تبدينا أي أسنّ ، قاله أبو عبيدة .

قال الحافظ ابن حجر : وفي استدلاله بأنه لم يشبع من خبز الشعير نظر ، فإنه يكون من جملة المعجزات ، كما في كثرة الجماع ، وطوافه في الليلة الواحدة على تسع وإحدى عشرة ، مع عدم الشبع وضيق العيش ، وأي فرق بين تكثير المني مع الجوع ، وبين وجود كثرة اللحم في البدن مع قلة الأكل ؟

وقد أخرج مسلم من طريق عبد الله بن عروة ، عن عائشة قالت : «لما بدن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وثقل كان أكثر صلاته جالسا» ، لكن يمكن تأويل قوله : «ثقل» ، أي ثقل عليه حمل لحمه ، وإن كان قليلا لدخوله في السن .

قوله : «صلّى جالسا ، فإن أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع» في رواية هشام بن عروة عن أبيه ، «قام فقرأ نحوا من ثلاثين أو أربعين آية ثم ركع» ، أخرجاه .

وأخرجا من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة بلفظ ، «فإذا بقي من قراءته نحو من ثلاثين أو أربعين آية ، قام فقرأها وهو قائم ثم ركع» .

ولمسلم من طريق عمرة عن عائشة : «فإذا أراد أن يركع قام فقرأ قدر ما يقرأ إنسان أربعين

آية» .

وقد روى مسلم من طريق عبد الله بن شقيق عن عائشة في صفة تطوعه صلّى الله عليه وسلّم ، وفيه : «وكان إذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم ، وإذا قرأ قاعدا ركع وسجد وهو قاعد» . وهذا محمول على حالته الأولى قبل أن يدخل في السنّ جمعا بين الحديثين . (المرجع السابق) : 752 .

(65/788)

وخرّجه مسلم من حديث أبي صخر عن ابن قسيط عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صلّى قام حتى تفطر رجلاه ، قالت عائشة : يا رسول الله ! أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال :

أفلا أكون عبدا شكورا ؟ [1] . ولهما من حديث أبي عوانة عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم صلّى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ [2] . وللبخاريّ من حديث مسعر [3] عن زياد قال : سمعت المغيرة يقول : إن كان النبي صلّى الله عليه وسلّم ليقوم أو يصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون

عبدا شكورا ؟ [4] .

---

[1] (مسلم بشرح النووي) : ج 17 ص 168 كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم (81 - 2820) .

والتفطر : التشقق ، قالوا : ومنه فطر الصائم ، وأفطره لأنه خرق صومه وشقه ، قال القاضي :

الشكر ، معرفة إحسان المحسن والتحدث به ، وسميت المجازاة على فعل الجميل شكرا ، لأنها تتضمن الثناء عليه ، وشكر العبد للَّه تعالى اعترافه بنعمه وثناؤه عليه ، وتمام مواظبته على طاعته ، وأما شكر الله تعالى أفعال عباده ، فمجازاته إياهم عليها ، وتضعيف ثوابها ، وثناؤه بما أنعم به عليهم ، فهو المعطي والمثنى سبحانه ، والشكور : من أسمائه سبحانه وتعالى بهذا المعنى ، والله أعلم . (المرجع السابق) :

ص 168 - 169 .

[2] (مسلم بشرح النووي) ج 17 ص 168 كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم (79 - 2819) .

[3] في (خ) : «مسعود» وما أثبتناه من (البخاري) .

[4] (فتح الباري) : ج 3 ص 18 حديث رقم (1130) . قال الحافظ ابن حجر : الفاء في قوله : «أ فلا أكون» للسببية ، وهي عن محذوف تقديره : أأترك تهجدي فلا أكون عبدا

شكورا ، والمعنى : أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرا فكيف أتركه ؟

قال ابن بطال : في هذا الحديث أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة ، وإن أضرّ ذلك ببدنه ، لأنه صلّى الله عليه وسلّم إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له ، فكيف بمن لم يعلم بذلك ، فضلا عمن لم يأمن أنه استحق النار .

ومحل ذلك ما إذا لم يفض إلى الملال ، لأن حال النبي صلّى الله عليه وسلّم كانت أكمل الأحوال ، فكان لا يمل من عبادة ربه وإن أضرّ ذلك ببدنه ، بل صح أنه قال : «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ، كما أخرجه النسائي من حديث أنس ، فأما غيره صلّى الله عليه وسلّم فإذا خشي الملل لا ينبغي له أن يكره نفسه ، وعليه يحمل قوله صلّى الله عليه وسلّم «خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا» .

(66/788)

وله من حديث أبي عيينة ، أخبرنا زياد أنه سمع المغيرة يقول : قام النبي صلّى الله عليه وسلّم حتى تورمت قدماه ، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ [1] . وخرّج قاسم بن أصبغ من حديث سفيان عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : جعلت قرة عيني

الصلاة[2] ، وكان يصلي حتى ترم قدماه ، قال : فقيل له يا رسول الله ! أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وله من حديث شعبة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وخرّج ابن حبان في صحيحه من حديث أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب أن عليا قال : إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما أصبح ببدر من الغد أحيا تلك الليلة كلها وهو مسافر[3] .

[()] وفيه : مشروعية الصلاة للشكر ، وفيه أن الشكر يكون بالعمل ، كما يكون باللسان ، كما قال تعالى :

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً 34 : 13 وقال القرطبي : ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفا من الذنوب وطلبا للمغفرة والرحمة ، فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك ، فأفادهم أن هناك طريقا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة ، وإيصال النّعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئا ، فيتعين كثرة الشكر على ذلك .

والشكر : الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة ، فمن كثر ذلك منه سمّي شكورا ، ومن ثم قال سبحانه وتعالى : وَقَلِيلٌ من عِبادِيَ الشّكُورُ 34 : 13 وفيه : ما كان عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم من الاجتهاد في العبادة ، والخشية من ربه ، قال العلماء : إنما ألزم الأنبياء

أنفسهم بشدّة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم ، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها ، فبذلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره ، مع أن حقوقه أعظم من أن يقوم بها العباد . وطرفه في الحديث رقم (6471) .

[1] (المرجع السابق) : ج8 ص 751 حديث رقم (4836) : «حدثنا صدقة بن الفضل ، أخبرنا ابن عيينة ، حدثنا زياد أنه سمع المغيرة يقول : «قام النبي صلّى الله عليه وسلّم ، حتى تورمت قدماه ، فقيل له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبدا شكورا» .

[2] (البداية والنهاية) : ج6 ص 30 ، (كنز العمال) : ج7 ص 286 حديث رقم (18912) ، الطبراني عن أنس .

[3] (الإحسان) : ج11 ص 73 ، حديث رقم (4759) ، إسناده حسن ، رجاله رجال الشيخين ،

ومن حديث شعبة عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا قائم إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت

شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح [1] وخرّج الإمام أحمد من حديث مالك عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر عن أبي يوسف مولى عائشة عن عائشة أن [رجلا سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم] فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب، وأنا أريد الصيام فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب وأنا أريد الصيام فأغتسل وأصوم، فقال الرجل: إنا لسنا مثلك، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب رسول الله وقال:

والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله عز وجل وأعلمكم بما أتقى [2] وخرّج ابن عساكر من حديث آدم، أخبرنا أبو شيبة عن عطاء الخراساني عن أبي عمران الجوني عن عائشة قالت: كان أحب الأعمال إلى رسول الله أربعة، فعملان يجهدان ماله وعملان يجهدان جسده، فأما اللذان يجهدان ماله فالجهاد والصدقة، وأما اللذان يجهدان جسده فالصوم والصلاة [3].

وخرّج من حديث عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج قال: قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت أهل عائشة يذكرون عنها أنها كانت تقول: كان رسول الله شديد الإنصاب لجسده في العبادة، غير أنه حين دخل في السن وثقل من اللحم كان أكثر ما يصلي وهو قاعد [3].

[()] غير حارثة بن مضرب، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة، والأزرق بن علي، ذكره المؤلف في الثقات وقال: يغرب، وروى عنه أبو يعلي، وابن عاصم، وعبد الله بن

أحمد ، وأبو زرعة ، وغيرهم ، وأخرج له الحاكم في (المستدرك) ، وقد اعتمد الشيخان رواية يوسف بن أبي إسحاق ، وهو يوسف بن إسحاق بن أبي إسحاق ، عن جده .

[1] (المرجع السابق) : ج6 ص 32 حديث رقم (2257) ، وإسناده صحيح .

رجاله ثقات رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب ، وهو ثقة روى له أصحاب السنن .

[2] (مسند أحمد) : ج7 ص 100 ، حديث رقم (23864) ، ص 349 ، حديث رقم (25552) باختلاف يسير ، من حديث عائشة أيضا .

[3] لم أظفر بهما فيما بين يديّ من مراجع .

(68/788)

وخرّج البخاري [1] ومسلم [2] وأبو داود [3] من حديث منصور عن إبراهيم عن علقمة قال : سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قلت : يا أم المؤمنين ، كيف كان عمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ هل كان يخص شيئا من الأيام ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم تستطيعون ما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستطيع . ذكره البخاري في كتاب الرقاق ، وفي كتاب الصيام [4] وخرّج البخاري من حديث عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثني أبو هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم : إياكم والوصال ، قال :

قلت : فإنك تواصل يا رسول الله ، قال : إني لست في ذاكم مثلكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فاكلفوا من العمل ما لكم به طاقة [5] . وخرّجه مسلم من

---

[1] (فتح الباري) : ج4 ص 295 ، حديث رقم (1987) ولفظه : حدثنا مسدّد ، حدثنا يحيى عن سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة «قلت لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يختصّ من الأيام شيئا ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يطيق ما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يطيق» ؟ و(المرجع السابق) : ج 11 ص 355 ، حديث رقم (6466) ، «سألت أم المؤمنين عائشة قلت : يا أم المؤمنين ، كيف كان عمل النبي صلّى الله عليه وسلّم ، هل كان يخص شيئا من الأيام ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يستطيع» ؟

قوله : «كان عمله ديمة» ، بكسر الدال المهملة وسكون التحتانية أي دائما ، والديمة في الأصل المطر المستمر مع سكون بلا رعد ولا برق ، ثم استعمل في غيره ، وأصلها الواو ، فانقلبت بالكسرة قبلها ياء .

قوله : «وأيكم يستطيع» أي في العبادة ، كمية كانت أو كيفية من خشوع وخضوع وإخبات وإخلاص . والله أعلم . (المرجع السابق) .

[2] (مسلم بشرح النووي) : ج6 ص 319 حديث رقم (217 – 783) ، «حدثنا

زهير بن حرب ، وإسحاق بن إبراهيم ، قال زهير : حدثنا جرير عن منصور ، عن إبراهيم عن علقمة قال : سألت أم المؤمنين عائشة ، قال : قلت : يا أم المؤمنين ، كيف كان عمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هل كان يخص شيئًا من الأيام ؟

قالت : لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستطيع» ؟ .

[3] (عون المعبود) : ج4 ص 170 ، حديث رقم (1367) .

[4] وأخرجه أيضا :

الإمام أحمد في (المسند) : ج7 ص 66 ، حديث رقم (23642) ، ص 83 ، حديث رقم (23761) ، ص 271 ، حديث رقم (25034) ، وفي (الزهد) : ص 8 .

ابن حبان في صحيحه ، (الإحسان) : ج2 ص 26 ، حديث رقم (322) ، ج8 ص 408 ، حديث رقم (3647) .

[5] (فتح الباري) : ج4 ص 258 ، حديث رقم (1966) ، قوله : «بما تطيقون» ، في رواية أحمد :

«بما لكم به طاقة» ، وكذا لمسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج. قوله : «يطعمني ويسقيني» ، أي

أوجه [1] . وخرّجا معناه من حديث ابن عمر وأنس وعائشة والنسائي في كتاب عمل اليوم والليلة من [حديث] سعيد بن عبد العزيز عن إسماعيل بن عبيد الله عن خالد بن عبد الله بن الحسين قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما رأيت أحدا أكثر أن يقول : أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قال : إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة [2] .

[()] يشغلني بالتفكر في عظمته ، والتملي بمشاهدته ، والتغذي بمعارفه ، وقره العين بمحبته ، والاستغراق في مناجاته ، والإقبال عليه عن الطعام والشراب . وإلى هذا جنح ابن القيم وقال : قد يكون هذا الغذاء أعظم من غذاء الأجساد ، ومن له أدنى ذوق وتجربة يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح ، عن كثير من الغذاء الجسماني .

ولا سيما الفرح المسرور بمطلوبه ، الّذي قرت عينه بمحبوبه . (المرجع السابق)

[1] (مسلم بشرح النووي) : ج 7 ص 220 ، حديث رقم (58 – (. . .) ، قوله : «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» معناه : يجعل الله تعالى في قوة الطاعم والشارب ، وقيل : هو على ظاهره ، وأنه يطعم من طعام الجنة كرامة له ، والصحيح الأول ، لأنه لو أكل حقيقة ، لم يكن مواصلا . ، قوله :

«فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون» ، هو بفتح اللام ، ومعناه : خذوا وتحملوا . (المرجع السابق) .

وخرجه أيضا : الإمام أحمد في (المسند) : ج2 ص 461 ، حديث رقم (7122) ، وص 484 ، حديث رقم (7286) .

البيهقي في (السنن الكبرى) ج4 ص 282 ، باب النهي عن الوصال في الصوم .

مالك في (الموطأ) : ج2 ص 240 ، حديث رقم (676) ، باب النهي عن الوصال في الصيام ، وص 243 ، حديث رقم (677) ، قوله : (إني لست كهيئتكم) ، أي ليس حالي كحالكم ، والمراد لست كأحدكم . (شرح الزرقاني على الموطأ) .

الدارميّ في (السنن) : ج2 ص 8 باب النهي عن الوصال في الصوم .

[2] (مسند أحمد) : ج3 ص 202 ، حديث رقم (9515) ، (حلية الأولياء) : ج2 ص 88 ، ترجمة رقم (173) ، أبو بكر بن عبد الرحمن وقال فيه «أكثر من سبعين مرة» ثم قال : رواه عقيل وغيره عن الزهري ، ولم يروه عن موسى بن عقبة إلا سليمان ، (فتح الباري) : ج11 ص 121 ، حديث رقم (6307) باب استغفار النبي صلّى الله عليه وسلّم في اليوم والليلة ، قوله : إني لأستغفر الله وأتوب إليه» ظاهره أنه يطلب المغفرة ، ويعزم على التوبة ، ويحتمل أن يكون المراد يقول هذا اللفظ بعينه ، ويرجح الثاني ما أخرجه النسائي بسند جيد من طريق مجاهد عن ابن عمر ، أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم

يقول : «أستغفر الله الّذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه في المجلس قبل أن يقوم مائة مرة» . وله من رواية محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إنا كنا لنعد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المجلس :

رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة» ، (كنز العمال) : ج 1 ص 483 حديث رقم (2113 - 2114) ، (صحيح سنن ابن ماجة) ج 2 ص 321 ، حديث رقم (3076 - 3815) ، وقال فيه : «مائة مرة» ، قال الألباني : حسن صحيح ، (المرجع السابق) :

(70/788)

وله من حديث مغيرة بن أبي الخواء الكندي عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال : جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن جلوس فقال : ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة [1] . وله من حديث عفان عن حماد بن سلمة قال : أخبرنا ثابت عن أبي بردة عن [الأغر المزني] [2] قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في كل يوم مائة مرة [3] .

[()] حديث رقم (3077 - 3816) ، وقال فيه «سبعين مرة» ، قال الألباني :

صحيح .

[1] (المطالب العالية) : ج 3 ص 197 ، حديث رقم (2342) ، رواه الطبراني بغير هذا اللفظ ، وبزيادة . «وأتوب إليه» قال الهيثمي : رجال أحد إسناديه رجال الصحيح (10/ 209) ، وصحح إسناده البوصيري (3/ 96) .

[2] ما بين القوسين غير واضح في (خ) ، وما أثبتناه من (صحيح مسلم) .

[3] (مسلم بشرح النووي) : ج 17 ص 26 - 27 ، حديث رقم (41 - 2702) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وقال فيه : «إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» .

قال أهل اللغة : الغين والغيم بمعنى ، والمراد هنا ما يتغشّى القلب . قال القاضي :

قيل : المراد الفترات والغفلات عن الذكر الّذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل ، عدّ ذلك ذنبا واستغفر منه .

وقيل : هو همه بسبب أمته ، وما أطلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم .

وقيل : سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ، ومحاربة العدو ومداراته ، وتأليف المؤلفة ، ونحو ذلك ، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه ، فيراه ذنبا بالنسبة إلي عظيم منزلته ، وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات ، وأفضل الأعمال ، فهي نزول عن عالي درجته ، ورفيع مقامه ، من حضوره مع الله تعالى ، ومشاهدته ، ومراقبته ، وفراغه مما سواه ،

فيستغفر لذلك .

وقيل : يحتمل أن يكون هذا الغين هو السكينة التي تغشي قلبه ، لقوله تعالى : فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ 48 : 18 (آية 18/ الفتح) ، ويكون استغفاره إظهارا للعبودية والافتقار ، وملازمة الخشوع ، وشكرا لما أولاه .

وقيل : يحتمل أن يكون هذا الغين حال خشية وإعظام يغشي القلب ، ويكون استغفاره شكرا كما سبق .

وقيل : هو شيء يعتري القلوب الصافية ، مما تتحدث به النفس ، فهو شأنها ، والله أعلم .

(المرجع السابق) .

(عون المعبود) : ج 4 ص 265 ، حديث رقم (1512) وقال فيه : «في كل يوم مائة مرة» ، قال في النهاية : وغينت السماء تغان إذا أطبق عليها الغيم ، وقيل : الغين شجر ملتف . أراد ما يغشاه من السهو الّذي لا يخلو منه البشر ، لأن قلبه أبدا كان مشغولا باللَّه تعالى ، فإن عرض له وقتا ما عارض بشريّ يشغله عن أمور الأمة أو الملة ومصالحهما ، عدّ ذلك ذنبا وتقصيرا ، فيفرغ إلى الاستغفار .

(71/788)

ومن حديث جعفر بن سليمان عن ثابت عن أبي بردة عن رجل من أصحابه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله كل يوم مائة مرة . ومن حديث سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال : حدثني أبو بردة قال :

جلست إلى رجل من المهاجرين يعجبني تواضعه ، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنّي أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم [مائة] مرة ، أو قال : أكثر من مائة مرة [1] .

[()] وقال السيوطي : هذا من المتشابه الّذي لا يعلم معناه . وقد وقف الأصمعي إمام اللغة على تفسيره وقال : لو كان قلب غير النبي صلّى الله عليه وسلّم لتكلمت عليه .

وقال السنديّ : وحقيقته بالنظر إلى قلب النبي صلّى الله عليه وسلّم لا تدري ، وإن قدره صلّى الله عليه وسلّم أجلّ وأعظم مما يخطر في كثير من الأوهام ، فالتفويض في مثله أحسن ، نعم القدر المقصود بالإفهام مفهوم ، وهو أنه صلّى الله عليه وسلّم كان يحصل له حالة داعية إلي الاستغفار ، فيستغفر كل يوم مائة مرة ، فكيف غيره . والله أعلم . (المرجع السابق) .

(مسند أحمد) : ج 5 ص 242 ، حديث رقم (17392) ، وقال فيه : فإنّي أستغفر الله» ، وحديث رقم (17393) ، وقال فيه : «حتى أستغفر الله» . كلاهما من حديث الأغرّ المزنيّ رضى الله تعالى عنه .

(السنن الكبرى للبيقهي) : ج 7 ص 52 باب : كان يغان على قلبه ، فيستغفر الله ويتوب

إليه في اليوم مائة مرة .

(إتحاف السادة المتقين) : ج 5 ص 284 ، كتاب الأذكار والدعوات ، الباب الثاني : قوله : «إنه ليغان على قلبي» ، الغين : شيء رقيق من الصدأ يغشى القلب فيغطيه بعض التغطية ، وهو كالغيم الرقيق الّذي يعرض في الهواء ، فال يحجب الشمس ، لكنه يمنع ضوءها . والمزني ، له صحبه ، روى عنه معاوية ابن قرة ، وأبو بردة . (المرجع السابق) .

(جامع الأصول) : ج 4 ص 386 ، حديث رقم (2443) ، قوله : «ليغان على قلبي» ، أي ليغطي ويغشى ، والمراد به : السهو ، لأنه كان لا يزال في مزيد من الذكر والقربة ، ودوام المراقبة ، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات ، أو نسي ، عدّه ذنبا على نفسه ، ففزع إلى الاستغفار . (المرجع السابق) .

(كنز العمال) : ج 1 ص 476) ، حديث رقم (2075) .

[1] (مسلم بشرح النووي) ج 17 ص 27 ، حديث رقم (42 – (. . .) ، وقوله : «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنّي أتوب في اليوم مائة مرة» ، هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ 24 : 31 ، وقوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً 66 : 8 ، (آية 31/ النور) ، (آية 8/ التحريم) على الترتيب . وقد سبق في الباب قبله بيان سبب استغفاره وتوبته صلّى الله عليه وسلّم ، ونحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج .

قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : للتوبة ثلاثة شروط : أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ،

(72/788)

ورواه النضر بن شميل من حديث محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة [1] . وخرج الإمام أحمد من حديث داود عن الشعبي عن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكثر في آخر أمره من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ! ما لي أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ؟ قال : إني ربي عزّ وجل كان أخبرني أني

[()] وأن يعزم عزما جازما أن لا يعود إلى مثلها ، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع ، وهو رد الظلامة إلى صاحبها ، أو تحصيل البراءة منه . والتوبة من أهم قواعد الإسلام ، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة . (المرجع السابق) .

(مسند أحمد) : ج5 ص 242 ، حديث رقم (17394) من حديث الأغرّ المزني ، ص 222 ، حديث رقم (17828) من حديث الأغر المزني أيضا ، ص 322 ،

حديث رقم (1729) عن رجل رضي الله عنه ، حديث رقم (17830) ، من حديث رجل من المهاجرين رضي الله عنه ، لعل الرجل المجهول في هذين الحديثين هو الأغرّ المزني ، ج6 ص 570 ، حديث رقم (22977) ، من حديث شيخ من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم ، حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس عن حميد بن هلال ، عن أبي بردة قال : جلست إلي شيخ من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم في مسجد الكوفة ، فحدثني فقال :

سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – أو قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم – : «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنّي أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم مائة مرة ، فقلت : اللَّهمّ إني أستغفرك اثنتان ، قال : هو ما أقول لك .

(علل الحديث) : ج2 ص 137 حديث رقم (1904) : سألت أبي عن حديث رواه يحيى القطان ، عن سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي برزة ، عن رجل من المهاجرين يعجبني تواضعه . . . فذكر الحديث . قال أبي : يقال إن هذا الرجل هو الأغر المزني ، وله صحبه . (المرجع السابق) . (المجموعة الصحيحة) : ج3 ص 435 ، حديث رقم (1452) ، قال الألباني : وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ، وجهالة الصحابي لا تضر ، ويبدو أنه الأغر المزني .

[1] (سنن ابن ماجة) : ج2 ص 1254 ، كتاب الأدب ، حديث رقم (3815) :

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، وقال فيه : «مائة مرة» وحديث رقم (3816) : حدثنا على بن محمد ، حدثنا وكيع ، عن مغيرة بن أبي الحرّ ، عن سعيد ابن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، عن جده ، وقال فيه : «سبعين مرة» .

(صحيح سنن ابن ماجة» : ج2 ص 321 ، باب الاستغفار ، حديث رقم (3076 - 3815) ، قال الألباني : حسن صحيح ، وحديث رقم (3077 - 3816) ، قال الألباني ، صحيح .

(73/788)

سأرى علامة في أمتي وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا ، فقد رأيتها ، إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً 110 : 1 - 3 [1] . وخرّج البخاري ومسلم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السليماني عن عبد الله قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اقرأ عليّ القرآن ، فقلت : يا رسول الله ! أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل ؟ قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيري ، قال :

[فقرأت عليه] حتى إذا بلغت فَكَيْفَ إِذا جِئْنا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً 4 : 41 [2] ، فرفعت بصري أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل . وقال البخاري : إني أحب أن أسمعه من غيري - وهنا انتهى حديثه - لم يذكر ما بعده . ترجم عليه باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره ، وذكره في باب البكاء عند قراءة القرآن [3] .

---

[1] سورة النصر (مسند أحمد) : ج 7 ص 54 ، حديث رقم (23545) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(ابن كثير في التفسير) ج 4 ص 602 قال : ورواه مسلم من طريق داود بن هند به ، وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم عن الشعبي ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يذهب ولا يجيئ إلا قال : «سبحان الله وبحمده ، فقلت : يا رسول الله ! رأيتك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجئ ، ولا تقوم ولا تقعد ، إلا قلت : «سبحان الله وبحمده» ؟ قال : إني أمرت بها ، فقال : إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ 110 : 1 إلى آخر السورة . غريب . ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مرة ، عن شعبة ، عن إسحاق به . والمراد بالفتح هنا ، فتح مكة قولا واحدا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا ، فلم

تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام . ولله الحمد والمنة . (المرجع السابق) .

[2] آية 41/ النساء

[3] (اللؤلؤ والمرجان) ج 1 ص 155 باب فضل استماع القرآن ، وطلب القراءة من حافظه للاستماع ، والبكاء عند القراءة والتدبر ، حديث رقم (463) .

(فتح الباري) : ج 9 ص 115 ، باب (32) من أحبّ أن يستمع القرآن من غيره ، وباب (33) قول المقرئ للقارئ : حسبك ، حديث رقم (5049) ، (5050) . قال ابن بطال :

يحتمل أن يكون أحبّ أن يسمعه من غيره ، ليكون عرض القرآن سنة . ويحتمل أن يكون لكي يتدبره ويتفهمه ، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ لاشتغاله بالقراءة

(74/788)

وفي رواية لمسلم : قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو على المنبر اقرأ عليّ ، فذكره [1] . وذكر البخاري في كتاب التفسير من حديث سفيان عن سليمان عن إبراهيم عن

عبيده عن عبد الله قال يحيى بعض الحديث «عن عمرو بن مرة قال : قال لي النبي صلّى الله عليه وسلّم اقرأ عليّ ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : فَكَيْفَ إِذا جِئْنا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً 4 : 41 قال : أمسك ، فإذا عيناه تذرفان» [2] .

وذكره في فضائل القرآن وكرره [3] . وذكر له مسلم عدة طرق . وخرج الترمذي من حديث عبد الله بن المبارك ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلي ،

[()] وأحكامها ، وهذا بخلاف قراءته هو صلّى الله عليه وسلّم على أبيّ بن كعب ، فإنه أراد أن يعلمه كيفية أداء القراءة ، ومخارج الحروف ، ونحو ذلك . باختصار من (المرجع السابق) .

(المرجع السابق) : ص 121 ، باب 35 البكاء عند قراءة القرآن ، حديث رقم (5055) ، (5056) . قال الغزالي : يستحب البكاء مع القراءة وعندها ، وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف ، بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد ، والمواثيق والعهود ، ثم ينظر تقصيره في ذلك ، فإن لم يحضره حزن فليبك على ذلك ، فإنه من أعظم المصائب .

قال ابن بطال : إنما يبكي عند تلاوة هذه الآية لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة ، وشدة

حال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق ، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له طول البكاء .

والّذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته ، لأنّه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيما ، فقد يفضي إلى تعذيبهم . والله أعلم . (المرجع السابق) .

[1] (مسلم بشرح النووي) : ج6 ص 334 - 335 ، باب (40) ، فضل استماع القرآن ، وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتتبع حديث رقم (247 - 800) ، وحديث رقم (248 - . . .) ، وفي هذا الحديث من الفوائد : استحباب استماع القراءة والإصغاء لها ، والبكاء عندها ، وتدبرها ، واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له ، وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه ، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ، ولو مع أتباعهم . (المرجع السابق) .

[2] (فتح الباري) : ج8 ص 317 ، كتاب التفسير ، حديث رقم (4582)

[3] (المرجع السابق) : ج9 ص 115 ، كتاب فضائل القرآن باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره ، حديث رقم (5049) ، باب قول المقرئ للقارئ : حسبك ، حديث رقم (5050) .

ولجوفه أزيز [1] كأزيز المرجل (من البكاء) [2] .

وخرجه ابن حبان من حديث هدبة عن حماد بمثله سواء [3] .

ورواه يزيد بن هارون عن حماد عن ثابت عن مطرف عن أبيه أنه قال : رأيت

---

[1] أزيز : أي خنين من الخوف بالخاء المعجمة ، وهو صوت البكاء ، وقيل : هو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء . (النهاية) : ج 1 ص 45 ، ومنه الحديث : «فإن المسجد يتأزز» أي يموج فيه الناس وفي حديث الأستر : «كان الّذي أزّ أم المؤمنين على الخروج ابن الزبير» ، أي هو الّذي حرّكها وأزعجها وحملها على الخروج ، وفي رواية أخرى : «أن طلحة والزبير أزّا عائشة حتى خرجت» . وقال الحربي :

الأزّ أن تحمل إنسانا على أمر بحيلة ورفق حتى يفعله . (المرجع السابق) ، وفي التنزيل : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا 19 : 83 آية 83/ مريم . ، (الشمائل المحمدية) : ص 263 باب ما جاء في بكاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، حديث رقم (323) .

[2] ما بين القوسين زيادة من المرجع السابق .

[3] (الإحسان) : ج 2 ص 439 ، كتاب الرقاق ، باب الخوف ، والتقوى ، ذكر البيان

بأن المرء إذا تهجّد بالليل وخلا بالطاعات ، يجب أن تكون حالة الخوف عليه غالبة لئلا يعجب بها وإن كان فاضلا في نفسه ، تقيا في دينه ، حديث رقم (665) : أخبرنا أبو يعلي ، حدثنا حوثرة بن أشرس العدوي ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير ، عن أبيه قال : «دخلت على النبي صلّى الله عليه وسلّم المسجد وهو قائم يصلي ، وبصدره أزيز كأزيز المرجل» . إسناده صحيح ، حوثرة بن أشرس : روي عنه أبو حاتم وأبو زرعة فيما ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) : ج 3 ص 283 ، ترجمة رقم (1262) . وقال ابن حجر في (تعجيل المنفعة) : ص 109 ، ترجمة رقم (243) : روى عن حماد ابن سلمة ، وأبي الأشهب وجماعة ، وروى عنه عبد الله بن أحمد ، ومسلم بن الحجاج خارج الصحيح ، وأبو يعلي وغيرهم ، مات سنه إحدى وثلاثين ومائة ، ذكره ابن حبان في (الثقات) ج 8 ص 215 وقال : «حوثرة بن أشرس العدوي ، أبو عامر ، من أهل البصرة ، يروي عن حماد بن سلمة والبصريين ، حدثنا عنه الحسن بن سفيان وأبو يعلي» . وباقي رجاله ثقات على شرط الصحيح .

و(الإحسان) ج 3 ص 30 - 31 ، حديث رقم (753) من طريق يزيد بن هارون ، عن حماد بهذا الإسناد ، وقال في آخره : «من البكاء» .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : في هذا الخبر بيان واضح أن التحزن الّذي أذن الله ، جلّ وعلا ، فيه بالقرآن ، واستمع إليه وهو التحزن بالصوت مع بدايته ونهايته ، لأن بداءته هو

العزم الصحيح على الانقلاع عن المزجورات ، ونهايته وفور التشمير في أنواع العبادات ، فإذا اشتمل التحزن على البداية التي وصفتها ، والنهاية التي ذكرتها ، صار المتحزن بالقرآن كأنه قذف بنفسه في مقلاع القربة إلي مولاه ، ولم يتعلق بشيء دونه .

و(مسند أحمد) : ج4 ص 604 ، حديث رقم (15882) ، عن عبد الرحمن بن مهدي ، حديث رقم (15891) ، عن عفان ، كلاهما من حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه رضي الله تعالى عنهما .

(76/788)

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلي وفي صدره أزيز أزيز الرحى من البكاء [1] .

وخرج الترمذي من حديث أبي كريب ، أخبرنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ! أراك شبت ! قال : شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه [2] .

---

[1] (عون المعبود) : ج3 ص 121 ، باب البكاء في الصلاة ، حديث رقم (899) ،

«المرجل» :

القدر من حديد ، أو حجر ، أو خزف ، لأنه إذا نصب كأنه أقيم على الرجل .

وفي الحديث دليل على أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا ، وقد قيل : إن البكاء من خشية الله لم يبطل ، وهذا الحديث يدل عليه . ويدل عليه أيضا ما رواه ابن حبان بسنده إلى علي بن أبي طالب قال : «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن الأسود ، ولقد رأيتنا وما فينا قائم إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح» ، وبوّب عليه : ذكر الإباحة للمرء أن يبكي من خشية الله .

واستدل على جواز البكاء في الصلاة بقوله تعالى : إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا 19 : 58 آية 58/ مريم .

(صحيح سنن أبي داود) : ج 1 ص 170 باب البكاء في الصلاة ، حديث رقم 7991 - 904) قال الألباني : صحيح .

وأخرجه الحاكم في (المستدرك) : ج 1 ص 396 ، حديث رقم (971 - 298) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . والبيهقي في (السنن الكبرى) ج 2 ص 251 ، باب من بكى في صلاته فلم يظهر من صوته ما يكون كلاما له هجاء ، إلا أنه قال : «ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» ، من طريق يزيد بن هارون .

و(النسائي) : ج 3 ص 18 ، كتاب السهو ، باب البكاء في الصلاة ، حديث رقم

(1213) .

(صحيح سنن النسائي) : ج 1 ص 260 حديث رقم (1156) . قال الألباني : صحيح .

[2] (الشمائل المحمدية) ص 56 - 57 ، حديث رقم (41) ، وفيه : «يا رسول الله قد شبت» . وهو صحيح بشواهده ، أخرجه الترمذيّ في (الجامع الصحيح) : ج 5 حديث رقم (3297) ، قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه ، وروى عليّ بن صالح هذا الحديث عن أبي إسحاق ، عن أبي جحيفة نحو هذا . وروي عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة شيء من هذا مرسلا .

وروى أبو بكر بن عيّاش عن أبي إسحاق عن عكرمة ، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم نحو حديث شيبان عن أبي إسحاق ، ولم يذكر فيه عن ابن عباس ، حدثنا بذلك هاشم بن الوليد الهرويّ ، حدثنا أبو بكر بن عيّاش .

(صحيح سنن الترمذي) : ج 3 ص 113 حديث رقم (2627 - 3528) ، قال الألباني صحيح .

(الصحيحة) : ج 2 ص 676 ، حديث رقم (955) .

وروى علي بن صالح هذا الحديث عن أبي إسحاق عن أبي جحيفه نحو هذا [1] ، وقد روى عن أبي الحق عن أبي ميسرة شيء من هذا مرسلا ، ورواه معاوية ابن هشام أيضا عن شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ! أسرع عليك الشيب ! فقال : شيبتني هود ، وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت [2] . وقال سيف بن عمر عن محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس قال : ألظّ [3] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالواقعة والحاقة ، وعم يتساءلون ، والنازعات ، وإذا

[()] وأخرجه الحاكم في (المستدرك) : ج 2 ص 518 ، حديث رقم (3777/ 914) وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه . وابن سعد في (الطبقات) : ج 1 ص 435 : أخبرنا يعلي بن عبيد ، أخبرنا حجاج بن دينار بن محمد بن واسع قال : قيل : «يا رسول الله أسرع عليك الشيب ! قال صلّى الله عليه وسلّم : شيبتني الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ 11 : 1 وأخواتها» ، وعن الزهري عن أبي سلمة قال : قيل : «يا رسول الله نرى في رأسك شيبا ! قال : ما لي لا أشيب وأنا أقرأ هودا وإذا الشمس كورت ؟» .

[1] أخرجه أيضا أبو نعيم في (الحلية) ج 4 ص 350 ، وقال : اختلف على أبي إسحاق ، فرواه أبو إسحاق عن أبي جحيفة ، وروى عنه عمرو بن شرحبيل ، عن أبي بكر ، وروى عنه عن مسروق عن أبي بكر ، وروى عنه مصعب بن سعد عن أبيه ، وروى عنه عن عامر بن سعد عن أبي بكر ، وروى عنه عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، رضي الله تعالى عنهم . (المرجع السابق) .

والبيهقي في (الدلائل) ج 1 ص 357 - 358 ، وللحديث شواهد من حديث عقبة بن عامر ، وأنس ، وعمران بن حصين ، وأبي سعيد ، وسهل بن سعد وغيرهم .

وأخرجه الخطيب في (تاريخ بغداد) ج 3 ص 145 من حديث ابن سيرين عنه بلفظ «شيبتني هود وأخواتها» عند ترجمة محمد بن غالب أبو جعفر التمتام رقم (1176) .

[2] الحديث صحيح بشواهده كما سبق .

[3] ألظّ بالمكان ، وألظّ عليه : أقام به وألحّ . وألظّ بالكلمة : لزمها . والإلظاظ : لزوم الشيء والمثابرة عليه .

يقال : ألظظت به ألظ إلظاظا . وألظّ فلان إذا لزمه . ولظّ بالشيء : لزمه مثل ألظّ به . (النهاية) : 4/ 252 ، (لسان العرب) : 7/ 159 ، (الفائق) : 3/ 317 . ومنه حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم الّذي أخرجه الإمام أحمد في (المسند) : 5/ 189 ، حديث رقم (17143) ، وابن كثير في (التفسير) :

4/ 301 في تفسير سورة الرحمن : «ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام» وهذا الحديث أخرجه ابن حجر في (الكافي الشافي) : ص 62 ، حديث رقم (77) ، الترمذي من رواية يزيد الرقاشيّ . عن أنس ، ويزيد ضعيف ، ومن رواية مؤمل عن حماد بن حميد عن أنس مرفوعا ، وقال غيره : مخفوضا ، وإنما هو عن حماد عن حميد عن الحسن مرسلا وهو أصح ، وأخرجه من رواية مؤمل إسحاق وابن أبي شيبة وبالثاني أبو يعلي والبزار . قال ابن أبي حاتم في (العلل) : 2/ 170 ، 2/ 192 ، عن أبيه : أخطأ فيه مؤمل ،

(78/788)

الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، فاستطار [1] فيه القتير [2] فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أسرع فيك القتير [2] ! بأبي أنت وأمي ، فقال : شيبتني هود وصواحباتها [3] هذه ، وفيها ، والمرسلات . وخرّج البخاري من حديث أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لن ينجى أحدا منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة ، سدّدوا ، وقاربوا ، وأغدوا ، وروحوا ، وشيء

من الدّلجة ، والقصد القصد (تبلغوا) [4] ذكره في الرقاق [5]

[()] والصحيح ما رواه أبو سلمة عن حماد عن ثابت . وحميد عن الحسن مرسلا ، ورواه ابن مردويه من رواية روح بن عبادة ، عن حماد ، عن حميد عن أنس موصولا أيضا ، وهذه متابعة قوية لمؤمل .

وفي الباب عن ربيعة بن عامر بن نجاد ، أخرجه الحاكم في (المستدرك) : 1/ 676 ، حديث رقم (1836/ 36) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه ، وفيه رشد بن سعد ، وهو ضعيف ، وعن ابن عمر أخرجه ابن مردويه ، وإسناده ضعيف .

[1] استطار : انتشر وتفرق كأنه طار في نواحيها ، ومنه استطار الصدع في الحائط إذا انتشر فيه ، واستطار البرق إذا انتشر في السماء . (لسان العرب) : 4/ 513 .

[2] القتير : الشيب (سنن أبي داود) : ج2 ص 581 ، كتاب النكاح ، باب في تزويج من لم يولد ، وقال في (لسان العرب) : القتير : هو الشيب ، أول ما يظهر منه ، وفي الحديث : «و يقرن أيّ النساء هي اليوم ؟ قال : قد رأت القتير» ، قال الخطابي : يريد بسنّ أيّ النساء هي ، والقرن : بنو سنّ واحد ، يقال : هؤلاء قرن زمان ، وفي النهاية : بقرن أي النساء هي ؟ أي بسنّ أيتهن ؟ ، قد رأت القتير : كناية عن تجاوزها سنّ التزويج . (عون المعبود) : 3/ 93 ، (لسان العرب) : 5/ 72 .

[3] لم أقف على حديث شيبتني هود بلفظ (صواحباتها) .

[4] تتمه من البخاري .

[5] (فتح الباري) : 11/ 355 ، حديث رقم (6463) ، وبعده حديث رقم (6464) : «عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : «سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ» قوله : «ينجي» ، أي يخلص ، والنجاة من الشيء : التخلص منه ، قال ابن بطال في الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى : وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 43 : 72 ما محصله : أن تحمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال ، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب الأعمال ، وأن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها ، ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى : سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 16 : 32 فصرح بأن دخول الجنة أيضا بالأعمال ، وأجاب بأنه لفظ مجمل بينه الحديث ، والتقدير : ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون ، وليس المراد بذلك أصل الدخول .

وقال القاضي عياض : طريق الجمع أن الحديث فسّر ما أجمل في الآية ، فذكر نحوا من كلام ابن بطال

[()] الأخير ، وأن من رحمة الله توفيقه للعمل ، وهدايته للطاعة ، وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله ، وإنما هو بفضل الله ورحمته .

وقال ابن الجوزي : يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة : الأول أن التوفيق للعمل من رحمة الله ، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ، ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة . الثاني ، أن منافع العبد لسيده ، فعمله مستحق لمولاه ، فمهما أنعم عليه من الجزاء فهو من فضله .

الثالث ، جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله ، واقتسام الدرجات بالأعمال .

الرابع ، أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير ، والثواب لا ينفد ، والإنعام الّذي لا ينفد في جزاء ما ينفذ بالفضل لا بمقابلة الأعمال .

وقال ابن القيم في كتاب (مفتاح دار السعادة) : الباء المقتضية للدخول ، غير الباء الماضية ، فالأولى السببية الدالة على أن الأعمال سبب الدخول المقتضية له ، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، والثانية بالمعاوضة ، نحو اشتريت منه بكذا ، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد ، وأنه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة ، لأن العمل بمجرده ولو تناهى لا يوجب بمجرده دخول الجنة ، ولا أن يكون عوضا لها ، لأنه لو وقع على الوجه الّذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله ، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة ، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها ، وهو لم يوفها حق شكرها ، فلو عذّبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم

، وإذا رحمه في هذه الحالة ، كانت رحمته خيرا من عمله ، كما في حديث أبيّ بن كعب ، الّذي أخرجه أبو داود وابن ماجة في ذكر القدر ، ففيه : «لو أن الله عذّب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم» .

قال : وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سببا في دخول الجنة من كل وجه . والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل وأنها ثمنه ، وأن دخولها بمحض الأعمال . والحديث يبطل دعوى الطائفتين .

قوله : «قالوا ولا أنت يا رسول الله» ؟ قال الكرماني : إذا كان كل الناس لا يدخلون الجنة إلا برحمة الله ، فوجه تخصيص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالذكر أنه إذا كان مقطوعا له بأنه يدخل الجنة ثم لا يدخلها إلا برحمة الله ، فغيره يكون في ذلك بطريق الأولى .

قوله : «برحمة» ، في رواية أبي عبيد : «بفضل ورحمة» ، وفي رواية الكشميني من طريقه : «بفضل رحمته» ، وفي رواية الأعمش : «برحمة وفضل» ، وفي رواية بشر بن سعيد : «منه برحمة» ، وفي رواية ابن عون : «بمغفرة ورحمة» قال أبو عبيد : المراد بالتغمد ، الستر ، وما أظنه إلا مأخوذا من غمد السيف ، لأنك إذا أغمدت السيف فقد ألبسته الغمد وسترته به .

قال الرافعي : في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة ونيل الدرجات ، لأنه إنما عمل بتوفيق الله ، وإنما ترك المعصية بعصمة الله ، فكل ذلك بفضله

ورحمته .

قوله : «سدّدوا» ، في رواية بشر بن سعيد ، عن أبي هريرة عند مسلم : «ولكن سدّدوا» ، ومعناه : اقصدوا السداد ، أي الصواب ، ومعنى هذا الاستدراك أنه قد يفهم من النفي المذكور نفي فائدة العمل ، فكأنه قيل : بل له فائدة ، وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التي تدخل العامل الجنة ، فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب ، أي اتباع السنة من الإخلاص وغيره ليقبل عملكم ، فينزل عليكم

(80/788)

وخرّجه مسلم من حديث ليث عن بكير عن بسر بن سعيد عن أبي هريرة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : لن ينجي أحدا منكم عمله ، قال رجل : ولا إياك يا رسول الله ؟ قال : ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ، ولكن سددوا [1] . وفي رواية له : قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : يا رسول الله ، ولا أنت ؟ قال : وقال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل [2] .

[()] الرحمة . قوله «قاربوا» ، أي لا تفرطوا ، فتجهدوا أنفسكم في العبادة ، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال ، فتتركوا العمل فتفرطوا .

قوله : «واغدوا وروحوا وشيئًا من الدلجة» المراد بالغدو السير من أول النهار ، وبالرواح السير من أول النصف الثاني من النهار ، والدلجة (بضم المهملة وسكون اللام ويجوز فتحها وبعد اللام جيم» سير الليل ، يقال : سار دجلة من الليل ، أي ساعة ، فلذلك قال : شيئًا من الدجلة لعسر سير جميع الليل .

فكأنه فيه إشارة إلى صيام جميع النهار ، وقيام بعض الليل ، وإلى أعمّ من ذلك من سائر أوجه العبادة ، وفيه إشارة إلى الحث على الترفق في العبادة ، وهو الموافق للترجمة ، وعبّر بما يدل على السّير ، لأن العابد كالسائر إلى محل إقامته وهو الجنة . و«شيئًا» منصوب بفعل محذوف ، أي افعلوا .

قوله : «والقصد القصد» ، بالنصب على الإغراء ، أي الزموا الطريق الوسط المعتدل . (المرجع السابق) .

[1] (مسلم بشرح النووي) : 17/ 164 باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى : حديث رقم (71 – 2816) ، قال الإمام النووي : اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ، ولا عقاب ، ولا إيجاب ، ولا تحريم ، ولا غيرهما من أنواع التكليف ، ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع . ومذهب أهل السنة أيضا أن الله تعالى لا يجب عليه شيء – تعالى الله – بل العالم ملكه ، والدنيا والآخرة في سلطانه ، يفعل فيهما ما يشاء ، فلو عذّب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار ، كان عدلا منه ،

وإذا أكرمهم ونعّمهم وأدخلهم الجنة ، فهو فضل منه ، ولو نعّم الكافرين وأدخلهم الجنة ، كان له ذلك ، ولكنه أخبر وخبره صدق ، أنه لا يفعل هذا ، بل يغفر للمؤمنين ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ويعذب المنافقين ويدخلهم في النار عدلا منه .

وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالفعل ، ويوجبون ثواب الأعمال ، ويوجبون الأصل ، ويمنعون خلاف هذا ، في ضبط طويل لهم ، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة ، المنابذة لنصوص الشرع .

وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق ، أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته ، وأما قوله تعالى : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 16 : 32 وتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 43 : 72 ، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة ، فلا يعارض هذه الأحاديث ، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ، ثم التوفيق للأعمال ، والهداية للإخلاص فيها ، وقبولها برحمة الله تعالى وفضله ، فيصبح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو مراد الأحاديث ، ويصح أنه دخل بالأعمال ، أي بسببها ، وهي من الرحمة ، والله أعلم . (المرجع السابق) .

[2] (المرجع السابق) : ص 166 ، حديث رقم (76 - (. . .) .

وله من حديث معقل عن أبي الزبير عن جابر قال : سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : ما من أحد يدخله عمله الجنة ، فقيل له : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة . [1] وذكره من طرق عديدة .

وللبخاريّ [2] ومسلم [3] من حديث موسى بن عقبة قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف يحدث عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته ، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل . ولابن حبان من حديث جعفر بن عوف قال : حدثنا أبو جناب الكلبي ، حدثنا عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها ، فقال ابن عمر : حدثيني بأعجب ما رأيت من رسول الله ، فسكتت ثم قالت : كل أمره كان عجبا ، أتاني في ليلتي حتى إذا دخل معي في لحافي ، وألصق جلده بجلدي ، قال : يا عائشة ، ائذني لي في ليلتي لربي ، فقلت ، إني أحب قربك وهواك ، فقام إلى قربة في البيت ، فما أكثر صب الماء ، ثم قام فقرأ القرآن ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت حجره ، ثم اتكأ على جنبه الأيمن ، ووضع يده اليمنى تحت خده ، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلغت الأرض ، قالت : فجاءه بلال فآذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال : يا

رسول الله ! أتبكي وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وقال : أفلا أبكي وقد أنزل علي الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ 3 : 190 - 191 [4] ،

---

[1] (المرجع السابق) : ص 167 ، حديث رقم (77 - 2817) .

[2] (فتح الباري) : 11/ 355 ، حديث رقم (6467) ، وقال : «بمغفرة ورحمة» .

[3] (مسلم بشرح النووي) : 17/ 167 حديث رقم (78 - 2818) .

[4] سورة آل عمران الآيات 190 - 191

(82/788)

وويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها [1] . وله من حديث شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت حارثة بن مضرب يحدث عن علي رضي الله عنه قال : لقد رأيتنا وما فينا قائم إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح ، يعني ليلة القدر [2] . وخرّج البخاري من حديث معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلّى

الله عليه وسلّم قال : إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها [3] . وخرّجاه من طرق متعددة .

---

[1] (الإحسان) : 2/ 386 ، كتاب الرقائق ، باب التوبة ، ذكر البيان بأن المرء إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنا عنها مجتهدا في إثبات ضدها ، حديث رقم (620) : أخبرنا عمران ابن موسى بن مجاشع ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن إبراهيم بن سويد النّخعيّ ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد بن عمير : قد آن لك أن تزورنا ، فقال : أقول يا أمّه كما قال الأول : زر غبّا تزدد حبّا . قال : فقالت : دعونا من طانتكم هذه . قال ابن عمير : أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قال :

فسكتت ثم قالت : لما كان ليلة من الليالي قال : «يا عائشة ذريني أتعبّد الليلة لربي» . قلت : والله إني لأحبّ قربك ، وأحبّ ما سرّك . قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي . قالت : فلم يزل يبكي حتى بلّ حجره ، قالت : ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض ، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله ، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر ؟ قال : «أ فلا أكون عبدا شكورا ، لقد نزلت عليّ الليلة آية ، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ 3 : 190 الآية كلها .

إسناده قوي على شرط مسلم ، وأخرجه أبو الشيخ في (أخلاق النبي) :

ص 186 عن الفريابي ، عن عثمان بن أبي شيبة ، بهذا الإسناد . وله طريق أخرى عن عطاء عند أبي الشيخ ص 190 - 991 وفيه أبو جناب الكلبي يحي بن أبي حية ، ضعفوه لكثرة تدليسه ، لكن صرّح بالتحديث هنا ، فانتفت شبهة تدليسه .

[2] سبق الإشارة إليه .

[3] (جامع الأصول) : 4/ 657 ، حديث رقم (2748) ، البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ، البخاري في الزكاة وفي الجهاد ، ومسلم في تحريم الزكاة على النبي وآله . قوله : «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التّمرة ساقطة على فراشي ثم أرفعها لأكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها» ، وفيه تحريم الصدقة عليه صلّى الله عليه وسلّم وأنه لا فرق بين صدقة الفرض والتطوع ، لقوله صلّى الله عليه وسلّم : «لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها» فهي تعم النوعين ، ولم يقل الزكاة ، وفيه استعمال الورع ، لأن هذه التمرة لا تحرم بمجرد الاحتمال ، لكن الورع تركها . وفيه أن التمرة ونحوها من محقرات الأموال لا يجب تعريفها ، بل يباح أكلها والتصرف فيها في الحال ، لأنه صلّى الله عليه وسلّم إنما تركها خشية أن تكون من الصدقة لا لكونها لقطة ، وهذا الحكم متفق عليه ، وعلله أصحابنا وغيرهم بأن صاحبها في العادة لا يطلبها ، ولا يبقى له فيها

وخرّج الحاكم من حديث عبد الله بن المبارك ، أخبرنا أسامة بن زيد عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم تصور ذات ليلة فقيل له : ما أسهرك ؟ قال : إني وجدت تمرة ساقطة فأكلتها ثم ذكرت تمرا كان عندنا من تمر الصدقة ، فما أدري أمن ذلك كانت التمرة أو من تمر أهلي ؟ فذلك أسهرني . قال :

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [1] .

وله من حديث المعافي بن عمران عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن ضمرة ابن حبيب عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم بقدح لبن عند فطره ، وذلك في طول النهار وشدة الحر ، فرد إليها الرسول : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لي ، قال : أنى لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالي ، فشرب فلما أن كان من الغد أتت أمّ عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا رسول الله ! بعثت إليك بذلك اللبن مرثيّة لك من شدة الحر وطول النهار ، فرددتها إلي مع الرسول ! فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : «بذلك أمرت الرسل ، أن لا تأكل إلا طيبا ، ولا تعمل إلا صالحا» قال : هذا حديث صحيح الإسناد [2] .

وخرّج أبو داود في كتاب الجهاد عن مخلد بن خالد [3] ، وخرّج الترمذي في السير عن محمد بن المثنى [4] ، وخرّج ابن ماجة عن عبدة بن عبد الله ، وخرّج محمد

[()] مطمع . والله أعلم . (مسلم بشرح النووي) : 7/ 183 ، حديث رقم (162 - 1070) ، (السنن الكبرى للبيهقي) : 5/ 325 ، كتاب البيوع ، باب كراهية مبايعة من أكثر ماله من الربا أو ثمن المحرم . (كنز العمال) 6/ 455 ، حديث رقم (16509) ، (الحلية) : 8/ 187 ، وقال فيه :

«على فراشي فلا أدري أمن تمر الصدقة هي أم من تمر أهلي فلا آكلها» وقال في أخرى : صحيح متفق عليه ، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن المبارك عن معمر .

[1] (المستدرك) : 2/ 17 ، حديث رقم (2173/ 44) . قال في التلخيص : صحيح .

[2] (المرجع السابق) : 4/ 140 ، حديث رقم (7159/ 88) . قال في التلخيص : ابن أبي مريم واه .

[3] (صحيح سنن أبي داود) : 2/ 534 ، حديث رقم (2412 - 2774) ، قال الألباني :

«صحيح» ، ولفظه : «كان إذا جاءه أمر سرور ، أو بشّر به ، خرّ ساجدا شاكرا» .

[4] (صحيح سنن الترمذي) : 2/ 112 ، حديث رقم (1282 - 1642) . قال الألباني :

«حسن» ، ولفظه : «أن النبي صلّى الله عليه وسلّم أتاه أمر فسرّ به ، فخرّ ساجدا» ، قال

أبو عيسى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم : رأوا سجدة الشكر .

(صحيح سنن ابن ماجة) : 1/ 233 ، حديث رقم (1143 - 1394) ، قال الألباني :

«حسن» .

(84/788)

ابن يوسف أربعتهم عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن أبي بكرة بكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أتاه أمر يسرّه ويسرّ به خرّ ساجدا [1] .

وقال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عبد الله الأسدي ، أخبرنا كثير بن زيد عن زياد بن أبي زياد مولى عياش بن أبي ربيعة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : كانتا خصلتان لا يكلهما ، إلى أحد : الوضوء من الليل حين يقوم والسائل يقوم حتى يعطيه [2] . وله من طريق الليث بن سعد أن معاوية بن صالح حدثه أن أبا حمزة حدثه أنّ عائشة قالت : ما خيّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، [قالت] : [3] وما انتقم رسول الله لنفسه من أحد قط إلا أن يؤذى في الله فينتقم ، ولا رأيت رسول الله وكل

صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الّذي يضعها في يد السائل ، ولا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكل [في وضوئه] [4] إلى غير نفسه حتى يكون هو

---

[1] وقد ذهب إلى شرعية سجود الشكر ، الشافعيّ وأحمد ، خلافا لمالك ورواية أبي حنيفة بأنه لا كراهة فيها ولا ندب ، والحديث دليل للأولين .

قال الحافظ شمس الدين بن القيم رحمه الله : وقد روى الإمام أحمد في مسندة عن أبي بكرة : «أنه شهد النبي صلّى الله عليه وسلّم أتاه بشير يبشره بظفر جند له على عدوهم – ورأسه في حجر عائشة – فقام فخرّ ساجدا» .

وفي المسند أيضا عن عبد الرحمن بن عوف قال : خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة فخرّ ساجدا ، فأطال السجود ثم رفع رأسه وقال : إن جبريل أتاني فبشرني فقال : إن الله عزّ وجلّ يقول لك : من صلّى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه ، فسجدت للّه شكرا» واعلم أنه قد اختلف هل يشترط لها الطهارة أم لا ؟ فقيل : يشترط قياسا على الصلاة ، وقيل :

لا يشترط ، وهو الأقرب .

وليس في أحاديث سجود الشكر ما يدل على التكبير . وفي (زاد المعاد) : وفي سجود كعب حين سمع صوت المبشر ، دليل ظاهر على أن تلك كانت عادة الصحابة ، وهو سجود الشكر عند النعم المتجددة ، والنقم المندفعة . وقد سجد أبو بكر الصديق لما

جاءه قتل مسيلمة الكذاب ، وسجد عليّ لما وجد ذا الثدية مقتولا في الخوارج ، وسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين بشّره جبريل أنه من صلّى عليه مرة ، صلّى الله عليه بها عشرا ، وسجد حين شفع لأمته فشفّعه فيهم ثلاث مرات ، وأتاه بشير فبشره بظفر جند له على عدوهم ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها ، فقام فخرّ ساجدا . وقد جاء حديث سجدة الشكر من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما بإسناد صحيح ، ومن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه ، وغير ذلك .

[2] (طبقات ابن سعد) : 1/ 369 .

[3] زيادة في (خ) .

[4] في (ابن سعد) : «وكل وضوءة»

(85/788)

الّذي يهيئ وضوءه لنفسه حتى يقوم من الليل [1] .

وقال محمد بن حمير حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : اشترى أسامة بن زيد بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول : «لا تعجبوا من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل

الإبل ، والّذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفراى لا يلتقيان حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أن لا أسيغها حتى أغصّ بها من الموت» ، ثم قال : «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والّذي نفسي بيده إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين» [2] . وقال ابن لهيعة عن أبي هريرة عن حيثر عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يهريق الماء فيمسح التراب ، فأقول : يا رسول الله ! الماء منك قريب ، فيقول : «و ما يدريني لعلي لا أبلغه» . وخرج الإمام أحمد من حديث مسلم بن محمد بن زائدة ، قال عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة أنها قالت : ما رفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأسه إلى السماء إلا قال : «يا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك» [3] . وقال ابن المبارك : حدثنا الحسن بن صالح ، عن منصور عن إبراهيم قال :

حدثنا أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم ير خارجا من الغائط قط إلا توضأ [4] .

وذكر ابن عساكر من حديث محمد بن الحجاج عن محمد بن عبد الرحمن بن

---

[1] (المرجع السابق) : 1/ 369 - 370 .

[2] مسند أبي سعيد الخدريّ في (مسند أحمد) : 3/ 367 ، يبدأ من الحديث رقم (10602) إلى الحديث رقم (11529) ، لم أجد من بينهم هذا الحديث .

[3] (مسند أحمد) : 3/ 146 ، حديث رقم (9139) .

[4] اختلف العلماء في موجب الوضوء : فقيل : يجب بالحدث وجوبا موسعا . وقيل : به وبالقيام إلى الصلاة معا ، ورجحه جماعة من الشافعية . وقيل بالقيام إلى الصلاة حسب ، ويدل له ما رواه أصحاب السنن عن ابن عباس مرفوعا : إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة . (المواهب اللدنية) : 4/ 22 - 23 .

حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك قال : حدثنا شعبة عن أبي معاذ - واسمه عطاء بن أبي ميمونة - قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي صلّى الله عليه وسلّم إذا خرج لحاجته أجيء وأنا غلام ، معنا إداوة من ماء ، يعني يستنجي به . (فتح الباري) : 1/ 333 ، حديث رقم (150) ، وأطرافه في (151) ، (152) ، (217) ، (500) .

(86/788)

سفينة عن أبيه عن سفينة قال : تعبّد النبي صلّى الله عليه وسلّم واعتزل النساء حتى صار كالشن [1] البالي قبل موته بشهرين [2] .

---

[1] الشن : القربة (النهاية) : 1/ 506 .

[2] هذا الحديث يتعارض مع ما أخرجه (البخاري) في النكاح باب (1) حديث رقم

(5063) ، و(مسلم) في النكاح باب (1) حديث رقم (1401) ، و(النسائي) في النكاح باب (5) ، و(أبو داود) في النكاح باب (3) ، و(أحمد) 3/ 241 ، حديث رقم (13122) ، كلهم عن أنس : «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلّى الله عليه وسلّم يسألون عن عبادة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلّى الله عليه وسلّم ؟ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم :

أما فأنا أصلي الليل أبدا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم للَّه وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» واللفظ للبخاريّ . وفي رواية ثابت عند (مسلم) «أن نفرا من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم» ، ولا منافاة بينهما ، فالرهط من ثلاثة إلى عشرة ، والنفر من ثلاثة إلى تسعة ، كل منهما اسم جمع لا واحد له من لفظه . ووقع في مرسل سعيد بن المسيب عن عبد الرزاق ، أن الثلاثة المذكورين هم علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن مظعون . وعند ابن مردويه من من طريق الحسن العدني :

«كان عليّ في أناس ممن أرادوا أن يحرموا الشهوات ، فنزلت الآية في المائدة» .

ووقع في (أسباب النزول للواحدي) بغير إسناد أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «ذكّر الناس وخوّفهم ، فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وأبو ذرّ وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسلمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن – في بيت عثمان بن مظعون ، فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا يقربوا النساء ويحبوا مذاكيرهم» فإن كان هذا محفوظا ، احتمل أن يكون الرهط الثلاثة هم الذين باشروا السؤال ، فنسب ذلك إليهم بخصوصهم تارة ، ونسب تارة للجميع لاشتراكهم في طلبة ، ويؤيد أنهم كانوا أكثر من ثلاثة في الجملة ، ما روى مسلم من طريق سعيد بن هشام أنه «قدم المدينة ، فأراد أن يبيع عقاره فيجعله في سبيل الله ، ويجاهد الروم حتى الموت ، فلقي ناسا بالمدينة فنهوه عن ذلك ، وأخبروه أن رهطا ستة أرادوا ذلك في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنهاهم ، فلما حدثوه ذلك راجع امرأته وكان قد طلقها» يعني بسبب ذلك ، لكن في عدّ عبد الله بن عمرو معهم نظر ، لأن عثمان بن مظعون مات قبل أن يهاجر عبد الله فيما أحسب .

قوله : «إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له» فيه إشارة إلى ردّ ما بنوا عليه أمرهم ، من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد في العبادة بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه مع كونه يبالغ في التشديد في العبادة أخشى الله وأتقى من الذين يشددون ، وإنما كان كذلك لأن المشدّد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد ، فإنه أمكن لاستمراره ، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه ، وقد أرشد

إلى ذلك قوله في الحديث الآخر «المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» . قوله : «فمن رغب عن سنتي فليس مني» المراد بالسنة الطريقة ، لا التي تقابل الفرض ، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره . والمراد : من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني ، ولمح بذلك إلى طريقة الرهبانية ، فإنّهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى ، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه ، وطريقة النبي صلّى الله عليه وسلّم الحنيفية السمحة ، فيفطر ليقوى على الصوم ، وينام ليقوى على القيام ، ويتزوج لكسر

(87/788)

[تنبيه] : حديث وجود التمر في بعض طرقه : لقي تمرة على فراشه ، وفي بعضها لقي تمرة في منزلة ، وفي أخرى لقي تمرة في الطريق ، فكان في ذلك ثلاث رتب في الورع ، متفاوتة في التأكيد ، أيسرها تمرة الفراش ، فإنه صلّى الله عليه وسلّم لم يكن يقبل الصدقة ، ولا تدخل منزله غالبا ، فكيف بأخص منزله وهو الفراش ، فيندر كونها من تمر الصدقة ، وفوق ذلك في التأكيد تمرة المنزل ، وآكدها تمرة الطريق لكثرة مرور الصدقات فيها ، هذا كله مع أن تمر الصدقة قليل بالنسبة إلى جنس التمر ، فآكد هذه الصور الثلاث لا يجاوز الورع في المباح ، ولا تنتهي التمرة به إلى حد النهي ، لكن مقام النبوة كريم ، والورع به جدير . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿إمتاع الأسماع حـ 2 صـ 315. 338﴾

[()] الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل .

وقوله : «فليس مني» إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه ، فمعنى «فليس مني» أي على طريقتي ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة ، وإن كان إعراضا وتنطعا يفضي إلى اعتقاد أرجحيّة عمله ، فمعنى «فليس مني» ليس على ملتي ، لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر ، وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه .

وفيه تتبع أحوال الأكابر للتأسي بأفعالهم وأنه إذا تعذرت معرفته من الرجال جاز استكشافه من النساء ، وأن من عزم على عمل بر واحتاج إلى إظهاره حيث يأمن الرياء لم يكن ذلك ممنوعا .

وفيه تقديم الحمد والثناء على الله عند إلقاء مسائل العلم وبيان الأحكام للمكلفين ، وإزالة الشبهة عن المجتهدين ، وأن المباحات قد تنقلب بالقصد إلى الكراهة والاستحباب .

وقال الطبري : فيه الرد على من منع استعمال الحلال من الأطعمة من الملابس وآثر غليظ الثياب وخشن الأكل . قال عياض : هذا مما اختلف فيه السلف ، فمنهم من نحا إلى ما قال الطبري ، ومنهم من عكس واحتج بقوله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا 46 : 20 ، قال : والحق أن هذه الآية في الكفار ، وقد أخذ النبي صلّى الله عليه وسلّم بالأمرين ، كما أن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها وملازمة الاقتصار على

الفرائض مثلا ، وترك التنفل يفضي إلى إيثار البطالة ، وعدم النشاط إلى العبادة ، وخير الأمور الوسط . (فتح الباري) : 9/ 129 - 132 .

وقد أخرج الإمام أحمد في (المسند) : 4/ 25 ، 26 ، 414 ، حديث رقم (15880) «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم» ، لأنه رغب رخصة الله تعالى ويسره ، والراغب عن الرخصة كالراغب عن العزم ، وكلاهما مستحق للعقوبة . (تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة) ص 135 وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في صائم الدهر : «ولا صام ولا أفطر» . أخرجه مسلم في كتاب الصيام (13) ، (14) ، وأبو داود في كتاب الصوم (14) ، (53) ، والنسائي : (22) كتاب الصوم . قال يحى : وهو حديث حسن .

(88/788)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا

(13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم هذا أن التهجد في غاية العظمة ، أكد ذلك حاثاً على عدم الرضى بدون الأفضل الأجمل الأكمل بقوله : مؤكداً ليخف أمر القيام على النفس : ﴿ إن ناشئة الّيل ﴾ أي ساعاته التي كل واحدة منها ناشئة والعبادة تنشأ فيه بغاية الخفة ، من نشأ أي نهض من مضجعه بغاية النشاط لقوة الهمة ومضاء العزيمة التي جعلتها كأنها نشأت بنفسها ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة ، وما كان قبله فليس بناشئة ، وقالت عائشة ـ رضى الله عنه ـا : الناشئة القيام بعد النوم ، وقال الأزهري : الناشئة القيام ، مصدر جاء على فاعلة كالعافية بمعنى العفو .

(89/788)

ولما كان ذلك في غاية الصعوبة لشدة منافرته للطبع ، زاد في التأكيد ترغيباً فيه فقال : ﴿ هي ﴾ أي خاصة لما لها من المزايا ﴿ أشد ﴾ أي أثقل وأقوى وأمتن وأرصن ﴿ وطأً ﴾ أي كلفة ومشقة لما فيها نم ترك الراحة وفراق الألف والمحبوب ، وأشد ثبات

قدم – على أنه مصرد وطىء في قراءة الجماعة – بفتح ثم سكون ، ومواطأة بين القلب واللسان في الحضور وفي التزام الدين بالإذعان والخضوع على أنه مصدر واطأ مثل قاتل على قراءة أبي عمرو وابن عامر بالكسر والمد وهي أبلغ لأن صيغة المفاعلة تكون بين اثنين يغالبان فيكون الفعل أقوى .

ولما كان التهجد يجمع القول والفعل ، وبين ما في الفعل لأنه أشق ، فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق ، أتبعه القول فقال : ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أي وأعظم سداداً من جهة القيل في فهمه ووقعه في القلوب بحضور القلب ورياقة الليل بهدوء الأصواء وتجلي الرب سبحانه وتعالى بحصول البركات ، وأخلص من الرياء والقصود الدنيات .

ولما بين سبحانه من أول السورة إلى هنا ما به صلاح الدين الذي عصمه الأمر وبه صلاح الدارين ، وأظهر ما للتهجد من الفضائل ، فكان التقدير حتماً : فواظب عليه لتناول هذه الثمرات ، قال معلّلاً محققاً له مبيناً ما به صلاح الدنيا التي هي فيها المعاش ، وصلاحها وسيلة إلى صلاح المقصود ، وهو الدين وهو الذي ينبغي له لئلا يكون كلاًّ على الناس ليحصل من الرزق ما يعينه على دينه ويوسع به على عيال الله من غير ملل ولا ضجر ولا كسل ولا مبالغة ، مؤكداً لما للنفس من الكسل عنه : ﴿ إن لك ﴾ أي أيها المتهجد أو يا أكرم العباد إن كان الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون آكد في إلزام الأمة به ﴿ في النهار ﴾ الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا .

(90/788)

ولما كان الإنسان يهتم في سعيه لنفسه حتى يكون كأنه لشدة عزمه وسرعة حركته كالسابح فيما لا عائق له فيه قال : ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ أي تقلباً ممتد الزمان ، قال البغوي : وأصل السبح سرعة الذهاب ، وقال الرازي : سهولة الحركة .

ولما كان التقدير : فاجتهد في التهجد ، عطف عليه قوله حاثاً على حضور الفكر : ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي المحسن إليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكراً من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء وإقبال على علم شرعي وأدب مرعي ودم على ذلك ، فإذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والإخلاص ، وذلك عون لك على مصالح الدارين ، أما الآخرة فواضح ، وأما الدنيا فقد أرشد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعز الخلق عليه فاطمة ابنته ـ رضى الله عنه ـ ا لما سألته خادماً يقيها التعب إلى التسبيح والتحميد والتكبير عند النوم .

(91/788)

ولما كان الذكر قد يكون مع التعلق بالغير ، أعلم أن الذاكر في الحقيقة إنما هو المستغرق فيه سبحانه وبه يكون تمام العون فقال : ﴿ وتبتل ﴾ أي اجتهد في قطع نفسك عن كل شاغل ، والإخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلاً قليلاً ، منتهياً : ﴿ إليه ﴾ ولا تزل على ذلك حتى يصير لك ذلك خلقاً فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع ومقطعة تقطعياً كثيراً بكل قاطع ، فيكون التقدير – بما أرشد إليه المصدر " تبتلاً " وبتلها ﴿ تبتيلاً ﴾ فأعلم بالتأكيد بالمصدر المرشد إلى الجمع بين التفعل والتفعيل بشدة الاهتمام وصعوبة المقام ، وهو من البتل وهو القطع ، صدقة بتلة أي مقطوعة عن صاحبها ، ولذلك قال زيد بن أسلم : التبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله تعالى ، والبتول مريم عليها السلام لانقطاعها إلى الله تعالى ، عن جميع خلقه ، وكذا فاطمة الزهراء البتول أيضاً لانقطاعها عن قرين ومثيل ونظير ، فالمراد بهذا هو المراد بكلمة التوحيد المقتضية للإقبال عليه والإعراض عن كل ما سواه ، وذلك بملازمة الذكر وخلع الهوى ، والآية من الاحتباك وهو ظاهر : ذكر فعل التبتل دليلاً على حذف مصدره ، وذكر مصدر بتل دليلاً على حذف فعله .

(92/788)

ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم ، بين أنه سبحانه الذي أنعم بسكن الليل الذي أمر بالتهجد فيه ومنتشر النهار الذي أمر بالسبح فيه ، فقال واصفاً الرب المأمور بذكره في قراءة ابن عامر ويعقوب والكوفيين غير حفص معظماً له بالقطع في قراءة الباقين بالرفع : ﴿ رب المشرق ﴾ أي موجد محل الأنوار التي بها ينمحي هذا الليل الذي أنت قائم فيه ويضيء بها الصباح وعند الصباح يحمد القوم السرى بما أنالهم من الأنوار في مرائي قلوبهم وما زينها به من شهب المعاني كما أوجد لهم في آفاق أفلاكهم من شموس المعاني المثمرة ليدور الأنس في مواطن القدس ، فلا يطلع كوكب في الموضع الذي هو ربه إلا بإذنه ، وهو رب كل مكان ، وما أحسن ما قال الإمام الرباني تقي الدين بن دقيق العيد :

كم ليلة فيك وصلنا السرى . . .

لا نعرف الغمض ولا نستريح

واختلف الأصحاب ماذا الذي . . .

يزيح من شكواهم أو يريح

فقيل تعريسهم ساعة . . .

وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

ولما ذكر مطالع الأنوار ، لأنها المقصود لما لها من جلي الإظهار ، ووحد لأنه أوفق لمقصود السورة الذي هو محطة لانجماح المدلول عليه بالتزمل ، أتبعه مقابله فقال : ﴿ والمغرب ﴾

أي الذي يكون عنه الليل والذي هو محل السكن وموضع الخلوات ولذيذ المناجاة ، فلا تغرب شمس ولا قمر ولا نجم إلا بتقديره سبحانه ، وإذا كان رب ما فيه هذه الصنائع التي هي أبدع ما يكون كان رب ما دون ذلك .

لما علم بهذا أنه المختص بتدبير الكائنات ، المتفرد بإيجاد الموجودات ، كان أهلاً لأن يفرد بالعبادة وجميع التوجه فقال مستأنفاً : ﴿ لا إله ﴾ أي معبود بحق ﴿ إلا هو ﴾ أي ربك الذي دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأنهى صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص .

(93/788)

ولما علم تفرده سبحانه كان الذي ينبغي لعباده أن لا يوجه أحد منهم شيئاً من رغبته لغيره فلذلك سبب عنه قوله : ﴿ فاتخذه ﴾ أي خذه بجميع جهدك وذلك بإفرادك إياه بكونه تعالى ﴿ وكيلاً ﴾ أي على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيكها كلها ويكلؤها غاية الكلاية فإنه المتفرد بالقدرة عليها ، ولا شيء أصلاً في يد غيره ، فلا تهتم بشيء أصلاً ، وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل ، فإن ذلك طمع فارغ بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الإنسان إلى طلبه ، ليكون متوكلاً في السبب لا من دون سبب ، فإنه

يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة ، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب ، ولو لم يكن في إفراده بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه فإن وكيلك من الناس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيراً في مصالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك أن تكلمه كثيراً في مصالحك وتسأله طويلاً ووكيلك من الناس – إذا حصّل مالك سألك الأجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الأجر ، ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله ، ومن تمسك بهذه الآية عاش حراً كريماً ، ومات خالصاً شريفاً ، ولقي الله تعالى عبداً صافياً مختاراً تقياً ، ومن شرط الموحد أن يتوجه إلى الواحد ويقبل على الواحد ويبذل له نفسه عبودية ويأتمنه على نفسه ويفوض إليه أموره ويترك التدبير ويثق به ويركن إليه ويتذلل لربوبيته ، ويتواضع لعظمته ويتزين ببهائه ويتخذه عدة لكل نائبة دنيا وآخرة .

(94/788)

ولما كانت الوكالة لا تكون إلا فيما يعجز ، وكان الأمر بها مشيراً إلى أنه لا بد أن يكون عن هذا القول الثقيل خطوب طوال وزلازل وأهوال ، قال : ﴿ واصبر ﴾ وأشار إلى عظمة الصبر بتعديته بحرف الاستعلاء فقال : ﴿ على ما ﴾ وخفف الأمر بالإشارة إلى أنهم لا

يصلون إلى غير الأذى بالقول ، وعظمه باستمرارهم عليه فقال : ﴿ يقولون ﴾ أي المخالفون المفهومون من الوكالة من مدافعتهم الحق بالباطل في حق الله وحقك .

ولما كانت مجانبة البغيض إلا عند الاضطرار مما يخفف من أذاه قال : ﴿ واهجرهم ﴾ أي أعرض عنهم جهاراً دافعاً للهرج مهما أمكن ﴿ هجراً جميلاً ﴾ بأن تعاشرهم بظاهرك وتباينهم بسرك وخاطرك ، فلا تخالطهم إلا فيما أمرك الله به على ما حده لك من دعائهم إليه سبحانه ومن موافاتهم في أفراحهم وأحزانهم فتؤدي حقوقهم ولا تطالبهم بحقوقك لا تصريحاً ولا تلويحاً .

ولما كان في أمره هذا بما يفعل ما يشق جداً بما فيه من احتمال علوهم ، أعلم بقرب فرجه بتهديدهم بأخذهم سريعاً فقال : ﴿ وذرني ﴾ أي اتركني على أي حالة اتفقت مني في معاملتهم ، وأظهر في موضع الإضمار تعليقاً للحكم بالوصف وتعميماً فقال :

﴿ والمكذبين ﴾ أي العريقين في التكذيب فإني قادر على رحمتهم وتعذيبهم .

ولما ذكر وصفهم الذي استحقوا به العذاب ، ذكر الحامل عليه تزهيداً فيه وصرفاً عن معاشرة أهله لئلا تكون المعاشرة فتنة فتكون حاملة على الاتصاف به وجارّة إلى حب الدنيا فقال : ﴿ أولي النعمة ﴾ أي أصحاب التنعم بغضارة العيش والبهجة التي أفادتهموها النعمة – بالكسر وهي الإنعام وما ينعم به من الأموال والأولاد ، والجاه الذي أفادته النعمة – بالضم وهي المسرة التي تقتضي الشكر وهم أكابر قريش وأغنياؤهم .

ولما كان العليم القدير إذا قال مثل هذا لولي من أوليائه عاجل عدوه ، قال محققاً للمراد بما أمر به من الصبر من هذا في النعم الدنيوية بأن زمنها قصير : ﴿ ومهلهم ﴾ أي اتركهم برفق وتأن وتدريج ولا تهتم بشأنهم .

(95/788)

ولا سره بوعيدهم الشديد بهذه العبارة التي مضمونها أن أخذهم بيده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو سبحانه يسأل في تأخيره لهم ، زاد في البشارة بقوله : ﴿ قليلاً ﴾ أي من الزمان والإمهال إلى موتهم أو الإيقاع بهم قبله ، وكان بين نزول هذه الآية وبين وقعة بدر يسير – قاله المحب الطبري ، وفيه بشارة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبقاء بعد أخذهم كما كان ، وأنه ليس محتاجاً في أمرهم إلى غير وكلهم سبحانه وتعالى بإلقائهم عن باله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفريغ ظاهره وباطنه لما هو مأمور به من الله سبحانه وتعالى من الإقبال على الله سبحانه ، ففي الآية أن من اشتغل بعدوه وكله الله إلى نفسه ، فكان ذلك كالمانع من أخذ الله له ، فإذا توكل عليه فقد أزال ذلك المانع – .

ولما كان هذا منادياً بعذابهم ، وكان وصفهم بالنعمة مفهماً لأنهم معتادون بالمآكل الطيبة ، وكان منع اللذيذ من المآكل لمن اعتاده لا يبلغ في نكاية النفس بحد نكاية البدن إلاّ بعد تقدم

إهانة ، استأنف قوله بياناً لنوع ما أفهمه التهديد من مطلق العذاب ، وأكد لأجل تكذيبهم : ﴿ إن ﴾ وأشار إلى شدة غرابته وجلالته وعظمته وخصوصيته وتحقق حضوره بقوله : ﴿ لدينا ﴾ دون عندنا ولما كان أشد ما على الإنسان منعه مما يريد من الانبساط به بالحركات ، قال ذاكراً ما يضاد ما هم فيه من النعمة والعز : ﴿ أنكالاً ﴾ جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذي لا يفك أبداً إهانة لهم لا خوفاً من فرارهم ، جزاء على تقييدهم أنفسهم بالشهوات عن اتباع الداعي وإيساعهم في المشي في فضاء الأهوية .

ولما كان ذلك - محرقاً للباطن أتبعه حريق الظاهر فقال : ﴿ وجحيماً ﴾ أي ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد بما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب ، والتنعم برقيق اللباس والثياب ، وتكلف أنواع الراحة .

(96/788)

ولما أتم ما يقابل تكذيبهم ، أتبعه ما يقابل النعمة فقال : ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ أي صاحب انتشاب في الحلق كالضريع والزقوم يشتبك فيه فلا يسوغ : لا ينزل ولا يخرج بما كانوا يعانونه من تصفية المآكل والمشارب ، وإفراغ الجهد في الظفر بجميع المآرب .

ولما خص عم فقال : ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ أي مؤلماً شديد الإيلام لا يدع لهم عذوبة بشيء

من الأشياء أصلاً بما كانوا يصفون به أوقاتهم ويكدرون على من يدعوهم إلى ما ينفعهم بالخلاص من قيود المشاهدات والعروج من حضيض الشهوات إلى أوج الباقيات الصالحات .

ولما ذكر هذا العذاب ذكر ظرفه فقال : ﴿ يوم ترجف ﴾ أي تضطرب وتتزلزل زلزالاً شديداً ﴿ الأرض ﴾ أي كلها ﴿ والجبال ﴾ التي هي أشدها .

(97/788)

ولما كان التقدير : فكانت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، عطف عليه قوله : ﴿ وكانت الجبال ﴾ أي التي هي مراسي الأرض وأوتادها ، وعبر عن شدة الاختلاط والتلاشي بالتوحيد فقال : ﴿ كثيباً ﴾ أي رملاً مجتمعاً ، فعيل بمعنى مفعول ، من كثبه - إذا جمعه ، ومادة كثب بتركيبها كثب - وكبث تدور على الجمع مع القرب ، وتلزمه القلة ، فإن حقيقة القرب قلة المسافة زماناً أو مكاناً ، والنعومة ، من كثبت التراب : درسته ، وكثب عليه - بمعنى حمل أوكر ، معناه قارب أن يخالطه ، وكثيب الرمل : قطعة تنقاد محدودبة - ناظر إلى القلة من معنى قطعة ، وكل ما انصب كذلك أيضاً لأن الانصاب عادة يكون لما قل وأما نعم كثاب بتقديم الثاء وبتأخيرها أيضاً أي كثير فجاءته الكثرة من

الصيغة ، والكاثبة من الفرس هو أضيق موضع في عرضها ، والكثبة من الأرض : المطمئنة بين الجبال – لأنها تكون صغيرة غالباً ، والكباث كسحاب : النضيج من ثمر الأراك ، وقيل : ما لم ينضج ، وقيل : حمله إذا كان متفرقاً ، فإن أريد النضيج منه فتسميته به لأنه مجتمع ، وإن أريد ما لم ينضج فهو من مقاربة النضج ، وإن أريد المتفرق فلقرب بعضه من بعض لأن الأراك نفسه صغير الشجر ، وكبث اللحم – كفرح : بات مغموماً فتغير أو أروح أي جمع على إنائه الذي هو فيه إناء آخر ، أو جمع ما هو فيه حتى تضايق فهو من الجمع لهذا ، وأما الكنبث كقنفذ والثاء مؤخرة : الصلب الشديد ، فهو في الغالب من تجمع أجزائه وتداخل بعضها في بعض ، وتكبيث السفينة أن تجنح إلى الأرض ، هو من الجمع والقرب معاً ، وأما كثبت كنانته – بمعنى نكثها ، فكان فعل استعمل هنا للإزالة ، أي أزال اجتماعها أو بمعنى أنه قربها ثم رميه بتسييرها لسرعة التناول .

(98/788)

ولما كان الكثيب ربما أطلق مجازاً على ما ارتفع وإن لم يكن ناعماً قال : ﴿ مهيلاً ﴾ أي رملاً سائلاً رخواً ليناً منثوراً ، من هاله إذا نثره ، وقال الكلبي : هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 207 . 212 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾

يقال : نشأت تنشأ نشأ فهي ناشئة ، والإنشاء الإحداث ، فكل ما حدث (فهو ناشىء) فإنه يقال للذكر ناشىء وللمؤنث ناشئة ، إذا عرفت هذا فنقول في الناشئة قولان : أحدهما : أنها عبارة عن ساعات الليل والثاني : أنها عبارة عن الأمور التي تحدث في ساعات الليل ، أما القول الأول ، فقال أبو عبيدة : ناشئة الليل ساعاته وأجزاؤه المتتالية المتعاقبة فإنها تحدث واحدة بعد أخرى ، فهي ناشئة بعد ناشئة ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا ، فمنهم من قال الليل كله ناشئة ، روى ابن أبي مليكة ، قال سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل ، فقال الليل كله ناشئة .

وقال زين العابدين رضي الله عنه : ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء ، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي قالوا : لأن ناشئة الليل هي الساعة التي منها يبتدىء سواد الليل ، القول الثاني : هو تفسير الناشئة بأمور تحدث في الليل ، وذكروا على هذا القول وجوهاً أحدها : قالوا : ناشئة الليل هي النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت وثانيها : ناشئة الليل عبارة عن قيام الليل بعد النوم ، قال ابن الأعرابي إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة ، ومنه ناشئة الليل ، وعندي فيه وجه ثالث : وهو أن الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم في البيت المظلم في موضع لا تصير حواسه مشغولة بشيء من المحسوسات ألبتة ، فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والأفكار الإلهية ، وأما النهار فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات ، فلا تتفرغ للأحوال الروحانية ، فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية والخواطر النورانية ، التي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس ، وسماها ناشئة الليل لأنها لا تحدث إلا في الليل بسبب أن الحواس الشاغلة للنفس معطلة في الليل ومشغولة في النهار ، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأملات ، وتارة أنوار ومكاشفات ، وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس أو الخوف منه ، أو تخيلات أحوال عجيبة ، فلما كانت تلك

الأمور الناشئة أجناساً كثيرة لا يجمعها جامع إلا أنها أمور ناشئة حادثة لا جرم لم يصفها إلا بأنها ناشئة الليل .

(101/788)

أما قوله تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وطئاً ﴾ أي مواطأة وملاءمة وموافقة ، وهي مصدر يقال : واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأة ومنه ﴿ لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله ﴾ [التوبة : 37] أي ليوافقوا ، فإن فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى أنها أشد موافقة لما يرد من الخشوع والإخلاص ، وإن فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان ، وإن فسرناها بقيام الليل كان المعنى ما يراد من الخشوع والإخلاص ، وإن فسرناها بما ذكرت كان المعنى أن إفضاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشد منه في النهار ، وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ أَشَدَّ وطئاً ﴾ بالفتح والكسر وفيه وجهان الأول : قال الفراء : أشد ثبات قدم ، لأن النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للمعاش والثاني : أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار ، وهو من قولك : اشتدت على القوم وطأة سلطانهم إذا ثقل عليهم

معاملتهم معه ، وفي الحديث : " اللهم أشدد وطأتك على مضر " فأعلم الله نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها ، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام : " أفضل العبادات أحمزها " أي أشقها .

واختار أبو عبيدة القراءة الأولى ، قال : لأنه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية ، فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل ، وأيضاً الخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية أتم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ أَقْوَمُ قِيلاً ﴾ قال ابن عباس : أحسن لفظاً ، قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات ويخلص القول ، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل .

المسألة الثانية :

(102/788)

قرأ أنس (وأصوب قيلا) ، فقيل له : يا أبا حمزة إنما هي : ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ فقال أنس : (إن أقوم) وأصوب وأهيأ واحد ، قال ابن جني ، وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون

المعاني ، فإذا وجدوها لم يلتفتوا إلى الألفاظ ونظيره ما روى أن أبا سوار الغنوي كان يقرأ : (فحاسوا خلال الديار) بالحاء غير المعجمة ، فقيل له : إنما هو جاسوا ، فقال : حاسوا وجاسوا واحد و أنا أقول : يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك تفسيراً للفظ القرآن لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ما قاله ابن جني لارتفع الاعتماد عن ألفاظ القرآن ، ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب في ذلك الاعتقاد ، وربما أخطأ وهذا يجر إلى الطعن في القرآن ، فثبت أنه حمل ذلك على ما ذكرناه .

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال المبرد : سبحاً أي تقلباً فيما يجب ولهذا سمي السابح سابحاً لتقلبه بيديه ورجليه ، ثم في كيفية المعنى وجهان الأول : إن لك في النهار تصرفاً وتقلباً في مهماتك فلا تتفرغ لخدمة الله إلا بالليل ، فلهذا السبب أمرتك بالصلاة في الليل الثاني : قال الزجاج : أي إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة فلك في النهار فراغه فاصرفه إليه .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ سبخاً ﴾ بالخاء المنقطة من فوق ، وهو استعارة من سبخ الصوف وهو نفشه

ونشر أجزائه ، فإن القلب في النهار يتفرغ بسبب الشواغل ، وتختلف همومه بسبب الموجبات المختلفة ، واعلم أنه تعالى أمر رسوله أولاً بقيام الليل ، ثم ذكر السبب في أنه لم خص الليل بذلك دون النهار ، ثم بين أن أشرف الأعمال المأمور بها عند قيام الليل ما هو .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8)

(103/788)

وهذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بشيئين أحدهما : الذكر ، والثاني : التبتل ، أما الذكر فاعلم أنه إنما قال : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ ههنا وقال في آية أخرى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : 205] لأنه لا بد في أول الأمر من ذكر الاسم باللسان مدة ثم يزول الاسم ويبقى المسمى ، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله ههنا : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ وإنما تكون مشتغلاً بذكر الرب ، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته ، وربوبيته عبارة عن أنواع تربيته لك وإحسانه إليك ، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه فلا تكون مستغرق القلب به ، وحينئذ يزداد الترقي فتصير مشتغلاً بذكر إلهيته ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فاذكروا اللّه كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُمْ ﴾ [البقرة : 200]

وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية ، لأن الإلهية إشارة إلى القهارية والعزة والعلو والصمدية ، ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام متردداً في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهوية الأحدية ، التي كلت العبارات عن شرحها ، وتقاصرت الإشارات عن الانتهاء إليها ، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحق ، ثم يقف لأنه ليس هناك نظير في الصفات ، حتى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة ، ولا تكون الهوية مركبة حتى ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء ، ولا مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة ، فهي الظاهرة لأنها مبدأ ظهور كل ظاهر ، وهي الباطنة لأنها فوق عقول كل المخلوقات ، فسبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(104/788)

اعلم أن جميع المفسرين فسروا التبتل بالإخلاص ، وأصل التبتل في اللغة القطع ، وقيل لمريم البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة ، وصدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها .

وقال الليث : التبتيل تمييز الشيء عن الشيء ، والبتول كل امرأة تنقبض من الرجال ، لا

رغبة لها فيهم .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمفسرين عبارات ، قال الفراء : يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته ، وقال زيد بن أسلم التبتل رفض الدنيا مع كل ما فيها والتماس ما عند الله ، واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون لأن قوله : ﴿ وَتَبَتَّلْ ﴾ أي انقطع عن كل ما سواه إليه والمشغول بطلب الآخرة غير متبتل إلى الله تعالى ، بل التبتل إلى الآخرة والمغشول بعبادة الله متبتل إلى العبادة لا إلى الله ، والطالب لمعرفة الله متبتل إلى معرفة الله لا إلى الله فمن آثر العبادة لنفس العبادة أو لطلب الثواب أو ليصير متعبداً كاملاً بتلك العبودية للعبودية فهو متبتل إلى غير الله ، ومن آثر العرفان للعرفان فهو متبتل إلى العرفان ، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف ، فقد خاض لجة الوصول ، وهذا مقام لا يشرحه المقال ولا يعبر عنه الخيال ، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر ولا يجد الإنسان لهذا مثالاً إلا عند العشق الشديد إذا مرض البدن بسببه وانحبست القوى وعميت العينان وزالت الأغراض بالكلية وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية ، فهناك يظهر الفرق بين التبتل إلى المعشوق وبين التبتل إلى رؤية المعشوق .

المسألة الثانية :

الواجب أن يقال : وتبتل إليه تبتلاً أو يقال : بتل نفسك إليه تبتيلاً ، لكنه تعالى لم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهي أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إلى الله ، إلا أنه لا بد أولاً من التبتيل حتى يحصل التبتل كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] فذكر التبتل أولاً إشعاراً بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ولكنه مقصود بالغرض .

واعلم أنه تعالى لما أمره بالذكر أولاً ثم بالتبتل ثانياً ذكر السبب فيه

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(106/788)

اعلم أن التبتل إليه لا يحصل إلا بعد حصول المحبة ، والمحبة لا تليق إلا بالله تعالى ، وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال وإما التكميل ، أما الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته إذ من المعلوم

أنه يمتنع أن يكون كل شيء إنما كان محبوباً لأجل شيء آخر ، وإلا لزم التسلسل ، فإذاً لا بد من الانتهاء إلى ما يكون محبوباً لذاته ، والكمال محبوب لذاته ، فإن من اعتقد أن فلاناً الذي كان قبل هذا بألف سنة كان موصوفاً بعلم أزيد من علم سائر الناس مال طبعه إليه وأحبه شاء أم أبى ، ومن اعتقد في رستم أنه كان موصوفاً بشجاعة زائدة على شجاعة سائر الناس أحبه شاء أم أبى ، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته وكمال الكمال لله تعالى ، فالله تعالى محبوب لذاته ، فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله ، وأما التكميل فهو أن الجواد محبوب والجواد المطلق هو الله تعالى فالمحبوب المطلق هو الله تعالى ، والتبتل المطلق لا يمكن أن يحصل إلا إلى الله تعالى ، لأن الكمال المطلق له والتكميل المطلق منه ، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلا إليه ، واعلم أن التبتل الحاصل إليه بسبب كونه مبدأ للتكميل مقدم على التبتل الحاصل إليه بسبب كونه كاملاً في ذاته ، لأن الإنسان في مبدأ السير يكون طالباً للحصة فيكون تبتله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل والإحسان ، ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصة كما بينا من أنه يصير طالباً للمعروف لا للعرفان ، فيكون تبتله في هذه الحالة بسبب كونه كاملاً فقوله : ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى التي هي أول درجات المتبتلين وقوله : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ إشارة إلى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات المتبتلين ومنتهى أقدام الصديقين ، فسبحان من له تحت كل

كلمة سر مخفي ، ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر ، وهو مقام التفويض ، وهو أن يرفع الاختيار من البين ، ويفوض الأمر بالكلية إليه ، فإن أراد الحق به أن

(107/788)

يجعله متبتلاً رضي بالتبتل لا من حيث إنه هو ، بل من حيث إنه مراد الحق ، وإن أراد به عدم التبتل رضي بعدم التبتل لا من حيث إنه عدم التبتيل ، بل من حيث إنه مراد الحق ، وههنا آخر الدرجات ، وقوله : ﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ إشارة إلى هذه الحالة ، فهذا ما جرى به القلم في تفسير في هذه الآية ، وفي الزوايا خبايا ، ومن أسرار هذه الآية بقايا ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ [لقمان : 27] .

المسألة الثانية :

﴿ رَبّ ﴾ فيه قراءتان إحداهما : الرفع ، وفيه وجهان : أحدهما : على المدح ، والتقدير هو رب المشرق ، فيكون خبر مبتدأ محذوف ، كقوله :

﴿ بِشَرّ مّن ذلكم النار ﴾ [الحج : 72] وقوله : ﴿ متاع قَلِيلٌ ﴾ [آل عمران : 197] أي تقلبهم متاع قليل والثاني : أن ترفعه بالابتداء ، وخبره الجملة التي هي ، ﴿ لاَ إله إِلاَّ

هُوَ﴾ ، والعائد إليه الضمير المنفصل ، والقراءة الثانية : الخفض ، وفيها وجهان : الأول : على البدل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [المزمل : 8] والثاني : قال ابن عباس : على القسم بإضمار حرف القسم كقولك : الله لأفعلن وجوابه : ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كما تقول والله لا أحد في الدار إلا زيد ، وقرأ ابن عباس ﴿رَبّ المشارق والمغارب﴾ .

(108/788)

أما قوله : ﴿فاتخذه وَكِيلاً﴾ فالمعنى أنه لما ثبت أنه لا إله إلا هو لزمك أن تتخذه وكيلاً وأن تفوض كل أمورك إليه ، وههنا مقام عظيم ، فإنه لما كانت معرفة أنه لا إله إلا هو توجب تفويض كل الأمور إليه دل هذا على أن من لا يفوض كل الأمور إليه ، فإنه غير عالم بحقيقة لا إله إلا هو ، وتقريره أن كل ما سواه ممكن ومحدث ، وكل ممكن ومحدث ، فإنه ما لم ينته إلى الواجب لذاته لم يجب ، ولما كان الواجب لذاته واحداً كان جميع الممكنات مستندة إليه ، منتهية إليه وهذا هو المراد من قوله : ﴿فاتخذه وَكِيلاً﴾ وقال بعضهم : ﴿وَكِيلاً﴾ أي كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار .

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10)

(109/788)

المعنى إنك لما اتخذتني وكيلاً فاصبر على ما يقولون وفوض أمرهم إلي فإنني لما كنت وكيلاً لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك ، واعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين كيفية معاملتهم مع الله ، وكيفية معاملتهم مع الخلق ، والأول أهم من الثاني ، فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني ، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطاً للناس أو مجانباً عنهم فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم ، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان ، فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير ، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل ، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين ، والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المدارة والإغضاء وترك المكافأة ، ونظيره ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ [النساء : 63] ﴿ وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] ﴿ فَأَعْرَضَ عَمَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم : 29] قال المفسرون : هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال ، وقال آخرون : بل ذلك هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح .

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11)

اعلم أنه إذا اهتم إنسان بمهم وكان غيره قادراً على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال قال له : ذرني أنا وذاك أي لا حاجة مع اهتمامي بذاك إلى شيء آخر وهو كقوله : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يكذب ﴾ [القلم : 44] وقوله : ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة يقال : أنعم بك ونعمك عيناً أي أسرَّ عينك وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفه ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ فيه وجهان أحدهما : المراد من القليل الحياة الدنيا والثاني : المراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر ، فإن الله أهلكهم في ذلك اليوم .

ثم ذكر كيفية عذابهم عند الله

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13)

أي إن لدينا في الآخرة ما يضاد تنعمهم في الدنيا ، وذكر أموراً أربعة أولها : قوله : ﴿ أَنكَالاً ﴾ واحدها نكل ونكل ، قال الواحدي : النكل القيد ، وقال صاحب الكشاف : النكل القيد الثقيل وثانيها : قوله : ﴿ وَجَحِيماً ﴾ ولا حاجة به إلى التفسير وثالثها : قوله : ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ الغصة ما يغص به الإنسان ، وذلك الطعام هو الزقوم والضريع كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6] قالوا : إنه شوك كالعوسج يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج ورابعها : قوله : ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ والمراد منه سائر أنواع العذاب ، واعلم أنه يمكن حمل هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانية ، أما الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية ، فإنها في الدنيا لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة ، فبعد البدن يشتد الحنين ، مع أن آلات الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له من التخلص إلى عالم الروح والصفاء ، ثم يتولد من تلك القيود الروحانية نيران روحانية ، فإن شدة ميلها إلى الأحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول إليها ، يوجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته في وجدان شيء ، ثم إنه لا يجده فإنه يحترق قلبه عليه ، فذاك هو الجحيم ، ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق ، فذاك هو المراد من قوله : ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ ثم إنه بسبب هذه الأحوال بقي محروماً عن تجلي نور الله والانخراط في سلك المقدسين ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ والتنكير في قوله : ﴿ وَعَذَاباً ﴾ يدل على أن هذا العذاب أشد مما

تقدم وأكمل ، واعلم أني لا أقول المراد بهذه الآيات هو ما ذكرته فقط ، بل أقول إنها تفيد حصول المراتب الأربعة الجسمانية ، وحصول المراتب الأربعة الروحانية ، ولا يمتنع حمله عليهما ، وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانية حقيقة ، وبالنسبة إلى المراتب

(112/788)

الروحانية مجازاً متعارفاً مشهوراً .

ثم إنه تعالى لما وصف العذاب ، أخبر أنه متى يكون ذلك

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : ﴿يَوْمٍ﴾ منصوب بقول : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً﴾ [المزمل : 12] أي ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم ترجف الأرض .

المسألة الثانية :

الرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة ، والكثيب القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة وجمعه الكثبان ، وفي كيفية الاشتقاق قولان : أحدهما : أنه من كثب الشيء إذا جمعه كأنه

فعيل بمعنى مفعول والثاني : قال الليث : الكثيب نثر التراب أو الشيء يرمي به ، والفعل اللازم انكثب ينكثب انكثاباً ، وسمي الكثيب كثيباً ، لأن ترابه دقاق ، كأنه مكثوب منثور بعضه على بعض لرخاوته ، وقوله : ﴿ مَّهِيلاً ﴾ أي سائلاً قد أسيل ، يقال : تراب مهيل ومهيول أي مصبوب ومسيل الأكثر في اللغة مهيل ، وهو مثل قولك مكيل ومكيول ، ومدين ومديون ، وذلك أن الياء تحذف منه الضمة فتسكن ، والواو أيضاً ساكنة ، فتحذف الواو لالتقاء الساكنين ذكره الفراء والزجاج ، وإذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى يفرق تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفاً ويجعلها كالعهن المنفوش ، فعند ذلك تصير كالكثيب ، ثم إنه تعالى يحركها على ما قال : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ [الكهف : 47] وقال : ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] وقال : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ [النبإ : 20] فعند ذلك تصير مهيلاً ، فإن قيل لم لم يقل : وكانت الجبال كثباناً مهيلة ؟ قلنا : لأنها بأسرها تجتمع فتصير كثيباً واحداً مهيلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 155 .

161 ﴾

(113/788)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ قال العلماء : نائشة الليل أي أوقاته وساعاته ، لأن أوقاته تنشأ أوّلاً فأولاً ؛ يقال : نشأ الشيء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء ، فهو ناشىء وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ؛ فناشئة : فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : 18] والمراد إن ساعات الليل النائشة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم ، فالتأنيث للفظ ساعة ، لأن كل ساعة تحدث .

وقيل : الناشئة مصدر بمعنى قيام الليل كالخاطئة والكاذبة ؛ أي إن نشأة الليل هي أشدّ وطأ .

وقيل : إن ناشئة الليل قيام الليل .

قال ابن مسعود : الحَبَشة يقولون : نشأ أي قام .

فلعله أراد أن الكلمة عربية ، ولكنها شائعة في كلام الحبشة ، غالبة عليهم ، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب .

وقد تقدّم بيان هذا في مقدّمة الكتاب مستوفًى .

الثانية بيّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار ، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن ، أعظم للأجر ، وأجلب للثواب .

واختلف العلماء في المراد بناشئة الليل ؛ فقال ابن عُمر وأنس بن مالك : هو ما بين المغرب والعشاء ، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء ، فكان بالأولية أحقّ ؛ ومنه قول الشاعر :

ولولا أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ . . .

لَقلتُ بِنفسِيَ النَّشَأُ الصِّغارُ

وكان عليّ بن الحسين يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول : هذا ناشئة الليل .

وقال عطاء وعِكرمة : إنه بدء الليل .

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هي الليل كله ؛ لأنه ينشأ بعد النهار ، وهو الذي اختاره مالك بن أنس .

قال ابن العربيّ : وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة .

(114/788)

وقالت عائشة وابن عباس أيضاً ومجاهد : إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم .

ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام نائشة .

فقال يَمان وابن كَيْسان : هو القيام من آخر الليل .

وقال ابن عباس : كانت صلاتهم أوّل الليل .

وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ .

وفي الصحاح : وناشئة الليل أوّل ساعاته .

وقال القُتَبيّ : إنه ساعات الليل ؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة .

وعن الحسن ومجاهد : هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح .

وعن الحسن أيضاً : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة .

ويقال : ما ينشأ في الليل من الطاعات ؛ حكاه الجوهريّ .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحاق ومجاهد وحُميد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حَيْوة "وِطَاء" بكسر الواو وفتح الطاء والمدّ ، واختاره أبو عبيد .

الباقون : "وَطأً" بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، واختاره أبو حاتم ؛ من قولك : اشتدت على القوم وطأة سلطانهم .

أي ثقل عليهم ما حمَّلهم من المُؤَن ، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مُضَر " فالمعنى أنها أثقل على المصلّي من ساعات النهار .

وذلك أن الليل وقت منام وتودّع وإجمام ، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة .

ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أي وافقته .

ابن زيد واطأته على الأمر مواطأة : إذا وافقته من الوِفاق ، وفلان يواطىء اسمه اسمي ، وتواطؤُ عليه أي توافقوا ؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان ؛ لانقطاع الأصوات والحركات ؛ قاله مجاهد وابن أبي مُلَيكة وغيرهما .

وقال ابن عباس بمعناه ، أي يواطىء السمع القلب ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ﴾ [التوبة : 37] أي ليوافقوا .

وقيل : المعنى أشد مِهاداً للتصرف في التفكر والتدبر .

والوِطاء خلاف الغِطاء .

(115/788)

وقيل : "أَشَدُّ وَطْأً" بسكون الطاء وفتح الواو أي أشد ثباتاً من النهار ؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله ، فيكون ذلك أثبت للعمل وأتفى لما يلهى ويشغل القلب .

والوطأ الثبات ، تقول : وطئت الأرض بقدَمي .

وقال الأخفش : أشد قياماً .

الفراء : أثبت قراءة وقياماً .

وعنه : ﴿ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع .

وقال الكلبي : ﴿ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي أشد نشاطاً للمصلّي ؛ لأنه في زمان راحته .

وقال عبادة : "أَشَدُّ وَطأً" أي نشاطاً للمصلّي وأخفّ ، وأثبت للقراءة .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار ؛ أي أشد استقامة واستمرارا على الصواب ؛ لأن الأصوات هادئة ، والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه .

قال قتادة ومجاهد : أي أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم .

وقال أبو علي : "أَقْوَمُ قِيلاً" أي أشد استقامة لفراغ البال بالليل .

وقيل : أي أعجل إجابة للدعاء .

حكاه ابن شجرة .

وقال عِكرمة : عبادة الليل أتم نشاطاً ، وأتم إخلاصاً ، وأكثر بركة .

وعن زيد ابن أسلم : أجدر أن يتفقَّه في القرآن .

وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك "إِنَ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلاً" فقيل له : "وَأَقْوَمُ قِيلاً" فقال : أقوم وأصوب وأهيأ : سواء .

قال أبو بكر الأنباريّ : وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق

معنى حرف من القرآن فهو مصيب ، إذا لم يخالف معنًى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، واحتجوا بقول أنس هذا .

(116/788)

وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها ، لجاز أن يقرأ في موضع ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] : الشكر للباري ملك المخلوقين ، ويتسع الأمر في هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن ، ويكون التالي له مفترياً على الله عز وجل ، كاذباً على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا حجة لهم في قول ابن مسعود : نزل القرآن على سبعة أحرف ، إنما هو كقول أحدكم : هَلُمّ وتعال وأقبل ؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا اختلفت ألفاظها ، واتفقت معانيها ، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلمّ ، وتعال ، وأقبل ، فأما ما لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم رضي الله عنهم ، فإنه من أورد حرفاً منه في القرآن بهت ومال وخرج من مذهب الصواب .

قال أبو بكر : والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من

أهل العلم ؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس ، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به ، من قِبَل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة ؛ أي تصرُّفاً في حوائجك ، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً .

والسبْح : الجري والدوران ، ومنه السابح في الماء ؛ لتقلبه بيديه ورجليه .

وفرس سابح : شديد الجري ؛ قال امرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى . . .

أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ

وقيل : السبح الفراغ ؛ أي إن لك فراغاً للحاجات بالنهار .

وقيل : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً ﴾ أي نوماً ، والتسبح التمدّد ؛ ذكره الخليل .

وعن ابن عباس وعطاء : "سَبْحاً طَوِيلاً" يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك .

(117/788)

وقال الزجاج : إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ الاستدراك .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل "سَبْخا" بالخاء المعجمة .

قال المهدويّ : ومعناه النوم ؛ روي ذلك عن القارئين بهذه القراءة .

وقيل : معناه الخفة والسَّعة والاستراحة ؛ ومنه " قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق ردائها : "لا تُسبِّخِي عنه بدعائك عليه" " أي لا تخفّفي عنه إثمه ؛

قال الشاعر :

فَسَبِّخْ عليك الْهَمَّ واعلم بِأَنَّهُ . . .

إذا قَدَّرَ الرحْمنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيّ : يقال سَبَّخَ اللَّهُ عنك الحُمَّى أي خفّفها .

وسَبَخ الحَرُّ : فتر وخَفَّ .

والتَّسبِيخ النوم الشديد .

والتَّسبيخ أيضاً توسيع القطن والكَتَّان والصوف وتنفيشها ؛ يقال للمرأة : سبخي قطنك .

والسَّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعد النَّدْف ، أي يُلفّ لتغزله المرأة ، والقطعة منه سَبِيخة ، وكذلك من الصوف والوبر .

ويقال لقطع القطن سبائخ ؛ قال الأخطل يصف القُنَّاص والكلاب :

فأَرسَلُوهُنَّ يَذْرِينَ التّرابَ كما . . .

يُذْرِي سَبَائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ

وقال ثعلب : السَّبْخ بالخاء التردّد والاضطراب ، والسَّبْخ أيضاً السكون ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الحُمّى من فيح جهنم ، فسبِّخوها بالماء " أي سكِّنوها .

وقال أبو عمرو : السَّبْخ : النوم والفراغ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، وتكون بمعنى السبح ، بالحاء غير المعجمة .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربِّكَ ﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى ، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة .

وقيل : أي اقصد بعملك وجه ربك .

وقال سهل : اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك ، وتقطعك عما سواه .

وقيل : اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتَوَفَّر على طاعته وتعدل عن معصيته .

وقال الكلبيّ : صلّ لربك أي بالنهار .

قلت : وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار ؛ إذ هو قسيمه ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ [الفرقان : 62] على ما تقدّم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ التبتل : الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل ؛ أي انقطع بعبادتك إليه ، ولا تشرك به غيره .

يقال : بتلت الشيء أي قطعته ، ومنه قولهم .

طلقها بَتّةً بَتلة ، وهذه صدقة بتة بتلة ؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها ؛ أي قُطِع ملكه عنها بالكلية ؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتّل ؛ لانقطاعه عن الناس ، وانفراده بالعبادة .

قال :

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأَنَّهَا . . .

مَنارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ

وفي الحديث النهي عن التبتل ، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات .

وقيل : إن أصله عند العرب التفرد ؛ قاله ابن عرفة .

والأوّل أقوى لما ذكرنا .

ويقال : كيف قال : تَبْتِيلاً ، ولم يقل تَبَتُّلاً ؟ قيل له : لأن معنى تَبَتَّل بَتَّل نفسه ، فجيء به على

معناه مراعاة لحقّ الفواصل .

الثالثة قد مضي في "المائدة" في تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : 87] كراهة لمن تبتَّل وانقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية .

(119/788)

قال ابن العربيّ : وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس ، وخفّت أماناتهم ، واستولى الحرام على الحُطام ، فالعزلة خير من الخُلْطة ، والعُزْبة أفضل من التأهُّل ، ولكن معنى الآية : انقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك قال مجاهد : معناه : أخلص له العبادة ، ولم يرد التبّتل ، فصار التبتل مأموراً به في القرآن ، منهيّاً عنه في السنة ، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي ، فلا يتناقضان ، وإنما بعث ليبيّن للناس ما نزل إليهم ؛ فالتبتّل المأمور به : الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البيّنة : 5] والتبتُّل المنهيّ عنه : هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن .

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾

قرأ أهل الحرمين وابن مُحَيْصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص "رَبُّ" بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ .

وقيل : على إضمار "هو" .

الباقون "رَبِّ" بالخفض على نعت الربّ تعالى في قوله تعالى : ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ "رَبِّ الْمَشْرِقِ" ، ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب انقطع بعمله وأمله إليه .

﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ أي قائماً بأمورك .

وقيل : كفيلاً بما وعدك .

قوله تعالى : ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أي من الأذى والسبّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم .

﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ أي لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله .

وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم ، فنَسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ؛ قاله قتادة وغيره .

وقال أبو الدرداء : إنا لَنَكْشِرُ في وجوه أقوام ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقْليهم أو لتلعنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي والمكذبين ﴾ أي ارض بي لعقابهم .

نزلت في صناديد قريش ورؤوساء مكة من المستهزئين .

وقال مقاتل : نزلت في المطعِمِين يوم بدر وهم عشرة .

وقد تقدّم ذكرهم في "الأنفال" .

وقال يحيى بن سلاّم : إنهم بنو المغيرة .

وقال سعيد بن جُبير أخبرت أنهم اثنا عشر رجلاً .

﴿ أُوْلِي النعمة ﴾ أي أولى الغنى والترفُّه واللذة في الدنيا ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ يعني إلى مدّة آجالهم .

قالت عائشة رضي الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

وقيل : ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ يعني إلى مدة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾

الأنكال : القيود .

عن الحسن ومجاهد وغيرهما .

واحدها نِكْل ، وهو ما منع الإنسان من الحركة .

وقيل سمّي نكلاً ، لأنه يُنَكَّل به .

قال الشعبيّ : أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم .

وقال الكلبيّ : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف في اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَه . . .

وقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لا تُقْطَعُ

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل .

وقد جاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يحبّ النّكَل على النّكَل " – بالتحريك ، قاله الجوهريّ – قيل : وما النّكَل ؟ قال : "الرجل القويّ المجَّرب ، على الفرس القويّ المجَّرب " ذكره الماورديّ .

قال : ومن ذلك سمي القيد نِكْلاً لقوته ، وكذلك الغُلّ ، وكل عذاب قوي فاشتد .

والجحيم النار المؤجَّجة .

﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي غير سائغ ؛ يأخذ بالحلق ، لا هو نازل ولا هو خارج ، وهو الغِسلِين والزّقوم والضّريع ؛ قاله ابن عباس .

وعنه أيضاً : أنه شوك يدخل الحلق ، فلا ينزل ولا يخرج .

وقال الزجاج: أي طعامهم الضّريع؛ كما قال: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية: 6] وهو شوك كالعَوْسَج.

وقال مجاهد: هو الزَّقوم، كما قال: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان: 44].

والمعنى واحد.

وقال حُمْران بن أَعْيَن: "قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ فصعق" وقال خُلَيد بن حسان: أمسى الحسن عندنا صائماً، فأتيته بطعام فعرضتْ له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾ ﴿ وَطَعَاماً ﴾ فقال: ارفع طعامك.

فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية، فقال: ارفعوه.

ومثله في الثالثة؛ فانطلق ابنه إلى ثابت البُنَاني ويزيدَ الضَّبيّ ويحيى البكّاء فحدّثهم، فجاؤوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق.

والغُصَة: الشَّجا، وهو ما يَنشب في الحلق من عَظْم أو غيره، وجمعها غُصَصٌ.

والغَصَصُ بالفتح مصدر قولك: غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ، فأنت غاصّ بالطعام وغصّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصّ بالقوم أي ممتلىء بهم.

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ أي تتحرّك وتضطرب بمن عليها .

وانتصب "يوم" على الظرف أي ينكل بهم ويعذّبون ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض ﴾ .

وقيل : بنزع الخافض ؛ يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال .

وقيل : العامل "ذَرْنِي" أي وذرني والمكذبين يوم ترجُف الأرض والجبال .

﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ أي وتكون .

والكثيب الرمل المجتمع قال حسان :

عَرَفْتُ دِيار زَيْنَبَ بالْكَثِيبِ . . .

كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ

والمَهِيل : الذي يمرّ تحت الأرجل .

قال الضحاك والكلبيّ : المهيل : هو الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال .

وقال ابن عباس : "مَهِيلاً" أي رملاً سائلاً متناثراً .

(122/788)

وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك : هِلْت عليه التراب أَهِيله هيلاً : إذا صببته .

يقال : مَهيل ومَهْيول ، ومَكِيل ومَكْيول ، ومَدِين ومَدْيون ، ومَعِين ومَعْيون ؛ قال الشاعر :

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَكَ سَيِّداً . . .

وإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنهم شكوا إليه الجدُوبة ؛ فقال : "أَتكيلون أم تَهيلون" قالوا : نَهيل .

قال "كِيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه" " وأَهَلْت الدقيق لغة في هِلْت فهو مُهال ومَهيل .

وإنما حذفت الواو ، لأن الياء تثقل فيها الضمة ، فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(123/788)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها المزمل ﴾

أي المُتزمّل ، مِنْ تَزمَّلَ بثيابه إذَا تلفّف بهَا فأُدْغمَ التاءُ في الزّاي وقَدْ قُرِىءَ عَلى الأصلِ وقُرِىءَ المُزَمّلُ من زمَّلَة مبنياً للمفعولِ ومبنياً للفاعلِ . وقيلَ : خُوطِبَ به النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ

والسَّلامُ تهجيناً لما كانَ عليهِ من الحالةِ ، حيثُ كانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ متلففاً بقطيفةٍ مُستعداً للنومِ كما يفعلهُ مَنْ لا يَهمُّهُ أمرٌ ولا يعنيهِ شأنٌ فأُمرَ بأنْ يتركَ التزملَ إلى التشمر للعبادةِ والهجودِ إلى التهجدِ ، وقيلَ : دخلَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على خديجةَ وقد جَئِثَ فرقاً أولَ ما أتاهُ جبريلُ عليهما السَّلامُ وبوادرُه ترعدُ فقالَ زَمّلوني زَمّلوني فحسبَ أنَّه عرضَ له فبينَا هو على ذلك إذْ ناداهُ جبريلُ فقال : يا أيُّها المزمّلُ فيكونُ تخصيصُ وصفِ التزمُّلِ بالخطابِ للملاطفةِ والتأنيس ، كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لعليَ رضيَ اللهُ عنه حينَ غاضبَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها فأتاهُ وهو نائمٌ وقد لصقَ بجنبِه الترابُ قُمْ يا أبا تُرابٍ ملاطفةً له وإشعاراً بأنَّه غيرُ عاتبٍ عليه ، وقيلَ المعْنى : يا أيُّها الذي زمّلَ أمْراً عظيماً هُو أمرُ النبوةِ أي حملَه والزملُ الحملُ وازدملَهُ أي احتملَهُ ، فالتعرضُ للوصفِ حينئذٍ للإشعارِ بعلّيتِه للقيامِ ، أو للأمرِ به فإنَّ تحميلَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأعباءِ النبوةِ مما يوجبُ الاجتهادَ في العبادةِ ﴿ قُمِ الليل ﴾ أيْ قُمْ إلى الصلاةِ . وانتصابُ الليلِ على الظرفيةِ وقيل : القيامُ مستعارٌ للصلاةِ ومَعْنى قُمْ صَلِّ . وقُرِئَ بضمِّ الميمِ وبفتحِها . ﴿ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناءٌ من الليلِ . وقولُه تعالى : ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ بدلٌ من الليلِ الباقي بعدَ الثُّنْيا بدلَ الكُلِّ أيْ قُمْ نصفَهُ ، والتعبيرُ عن النصفِ المُخرَجِ بالقليل لإظهارِ كمالِ الاعتدادِ بشأنِ الجزءِ المُقارِنِ للقيامِ والإيذانِ

بفضلِه وكونِ القيامِ فيهِ بمنزلةِ القيامِ في أكثرِه في كثرةِ الثوابِ ، واعتبارُ قلتِه بالنسبةِ إلى الكلِّ مع عرائه عن الفائدةِ خلافُ الظَّاهرِ ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ ﴾ أي أنقُص القيامَ من النصفِ المقارنِ له في الصُّورة الأولى ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي نقصاً قليلاً أو مقداراً قليلاً بحيثُ لا ينحطُّ إلى نصف النصفِ .

(125/788)

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي زدِ القيامَ على النصف المقارنِ له فالمَعْنى تخييرُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بينَ أنْ يقومَ نصفَهُ أو أقلَّ منه أو أكثرَ وقيلَ : قولُه تعالَى نصفَهُ بدلٌ من قليلاً والتخييرُ بحالِه ، وليس بسديدٍ ، أمَّا أولاً فلأنَّ الحقيقَ بالاعتناءِ الذي ينبىءُ عنْهُ الإبدالُ هو الجُزءُ الباقي بعد الثُّنيا المقارنُ للقيامِ لا الجزءُ المُخرَجُ العاري عنه ، وأمَّا ثانياً فلأنَّ نقصَ القيامِ وزيادتَهُ إنما يُعتبرانِ بالقياسِ إلى معياره الذي هو النصفُ المقارنُ له فلو جُعلَ نصفَهُ بدلاً من قليلاً لزمَ اعتبارُ نقصِ القيامِ وزيادتِه بالقياسِ إلى ما هُو عارٍ عنه بالكُليَّةِ ، والاعتذارُ بتساوي النصفينِ مع كونِه تمحلاً ظاهراً اعترافٌ بأنَّ الحقَّ هو الأولُ . وقيلَ : نصفَهُ بدل من الليل وإلاَّ قليلاً استثناءٌ من النصف ، والضميرُ في منه وعليه للنصف والمعنى التخييرُ بينَ

أمرينِ بينَ أن يقومَ أقلَّ من نصف الليلِ على البتاتِ وبينَ أنْ يختارَ أحدَ الأمرينِ وهُمَا النقصانُ من النصفِ والزيادةُ عليهِ . وقيلَ : الضميرانِ للأقلِّ منَ النصفِ كأنَّه قيلَ : قُم أقلَّ من نصفهِ أو قُم أنقصَ من ذلكَ الأقلِّ أو أزيدَ منهُ قليلاً . وقيلَ : والذي يليقُ بجزالة التنزيلِ هو الأولُ والله أعلمُ بما في كتابه الجليلِ . ﴿ وَرَتِّلِ القرءان ﴾ في أثناءِ ما ذُكِرَ من القيامِ أي اقرأْهُ على تُؤدةٍ وتبيين حروفٍ ﴿ تَرْتِيلاً ﴾ بليغاً بحيثُ يتمكنُ السامعُ من عدِّها من قولِهم ثغرٌ رتْلٌ ورتِلٌ إذا كانَ مُفلَّجاً .

(126/788)

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ ﴾ أن سنُوحي إليكَ وإيثارُ الإلقاءِ عليه لقوله تعالى : ﴿ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ . وهو القرآنُ العظيمُ المنطوي على تكاليفَ شاقةٍ ثقيلةٍ على المُكلفينَ لا سيَّما على الرسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامِ مأمورٌ بتحملها وتحميلها للأمة ، والجملةُ اعتراضٌ بين الأمرِ وتعليلِه لتسهيل ما كُلِّفهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من القيامِ . وقيلَ : مَعْنَى كونِه ثقيلاً أنه رصينٌ لرزانة لفظهِ ومتانة معناهُ أو ثقيلٌ على المتأمل فيهِ لافتقاره إلى مزيد تصفيةٍ للسرِّ وتجريدٍ للنظرِ أو ثقيلٌ في الميزان أو على الكفار والفجارِ أو ثقيلٌ تلقيه . عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما كانَ إذا نزلَ عليه الوحيُ ثقُلَ عليه وتربَّدَ له جلدُه ، وعن

عائشةَ رضيَ الله تعالى عنها رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ فيفصمُ عنه وإن جبينَهُ ليرفضُّ عرقاً . ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ أي إنَّ النفسَ التي تنشأ من مضجعِها إلى العبادةِ أي تنهضُ ، من نَشَأَ من مكانه إذا نهضَ أو إنَّ قيامَ الليلِ على أنَّ الناشئةَ مصدرٌ من نشَأَ كالعافية أو إنَّ العبادةَ التي تنشأُ بالليلِ أي تحدثُ أوانَ ساعاتِ الليلِ فإنَّها تحدثُ واحدةً بعدَ واحدةٍ ، أو ساعاتها الأولُ من نَشأ إذا ابتدأ ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي هي خاصَّةً أشدُّ ثباتَ قدمٍ أو كلفةً فلا بدَّ من الاعتناءِ بالقيامِ . وقرئَ وطاءً أي أشدُّ مواطأةً يواطئُ قبلها لسانَها إن أريدَ بها النفسُ أو يواطئُ فيها قلبُ القائمِ لسانَه إنْ أُريدَ بها القيامُ أو العبادةُ أو الساعاتُ أو أشدُّ موافقةً لما يرادُ من الخشوعِ والإخلاصِ ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وأسدُّ مقالاً وأثبتُ قراءةً لحضورِ القلبِ وهدوءِ الأصواتِ .

(127/788)

﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهمَّاتِك واشتغالاً بشواغلك فلا تستطيعُ أن تتفرغَ للعبادةِ فعليكَ بها في الليلِ وهذا بيانٌ للداعي الخارجي إلى قيامِ الليلِ بعدَ بيانِ ما في نفسِه من الدَّاعي . وقُرِئَ سَبْخاً أي تقرقَ قلبٍ بالشواغلِ مستعارٌ من سبخِ الصوفِ وهو نفشُه ونشرُ أجزائه . ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ ودُمْ على ذِكرِه تعالى ليلاً

ونهاراً على أيِّ وجهٍ كانَ من تسبيحٍ وتهليلٍ وتحميدٍ وصلاةٍ وقراءةِ قرآنٍ ودراسةِ علمٍ.

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ أيْ وانقطعْ إليهِ بمجامعِ الهمةِ واستغراقِ العزيمةِ في مراقبتِه، وحيثُ لم يكن ذلك إلا بتجريدِ نفسهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن العوائقِ الصَّادةِ عن مراقبةِ الله تعالى وقطعِ العلائقِ عمَّا سواهُ قيلَ: ﴿ تَبْتِيلاً ﴾ مكان تبتلاً مع ما فيهِ من رعايةِ الفواصلِ.

(128/788)

﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ مرفوعٌ على المدح وقيلَ: على الابتداء، خبرُهُ: ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وقُرِىءَ بالجرِّ على أنَّه بدلٌ من ربِّكَ، وقيلَ: على إضمار حرفِ القسمِ جوابُه لا إله إلاَّ هُو. والفاءُ في قوله تعالى: ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ لترتيب الأمرِ وموجبهِ على اختصاصِ الألوهيةِ والربوبيةِ به تعالَى: ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ مما لا خيرَ فيه منَ الخُرافاتِ ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ بأنْ تجانبَهم وتداريَهم ولا تكافئَهم وتكلَ أمورَهُم إلى ربِّهم كما يعربُ عنه قولُه تَعالَى: ﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ أي دعني وإيَّاهم وكلْ أمرَهُم إليَّ فإنِّي أكفيكَهُمْ ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ أربابَ التنعمِ وهم صناديدُ قريشٍ ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ زماناً قليلاً ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ جمعُ نِكْلٍ وهو القيدُ الثقيلُ. والجملةُ تعليلٌ للأمرِ أيْ إنَّ لدينا أموراً مضادةً لتنعمهم ﴿ وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ ينشَبُ في الحُلوقِ ولا يكادُ

يُسَاغُ كالضَّريعِ والزقُّوم ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ ونوعاً آخرَ من العذابِ مُؤلماً لا يُقادرُ ولا يُدْرك كنهه ، كلُّ ذلك معدٌّ لهم ومرصدٌ .

وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ أي تضطربُ وتتزلزلُ ، ظرفٌ للاستقرار الذي تعلقَ به لدينا ، وقيلَ : متعلقٌ بمضمر هو صفةٌ لعذاباً أي عذاباً واقعاً يومَ ترجفُ ﴿ وَكَانَتِ الجبال ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿ كَثِيباً ﴾ رملاً مجتمعاً من كثب الشيء إذا جَمَعَهُ كأنَّه فعِيلٌ بمعنى مفعولٍ . ﴿ مَّهِيلاً ﴾ منثوراً من هِيلَ هَيلاً إذا نُثرَ وأُسيلَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(129/788)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾

أي أن النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض من نشأ من مكانه ونشر إذا نهض

وأنشد قوله

: نشأنا إلى خوص بري نيها السري . . .

وأشرف منها مشرفات القماحد

وظاهر كلام اللغويين أن نشأ بهذا المعنى لغة عربية وقال الكرماني في "شرح البخاري" هي لغة حبشية عربوها وأخرج جماعة نحوه عن ابن عباس وابن مسعود وحكاه أبو حيان عن ابن جبير وابن زيد وجعل ناشئة جمع ناشيء فكأنه أراد النفوس الناشئة أي القائمة ووجه الإفراد ظاهر والإضافة إما بمعنى في أو على نحو سيد غضي وهذا أبلغ أو أن قيام الليل على أن الناشئة مصدر نشأ بمعنى قام كالعاقبة وإسنادها إلى الليل مجاز كما يقال قام ليله وصام نهاره وخص مجاهد هذا القيام بالقيام من النوم وكذا عائشة ومنعت أن يراد مطلق القيام وكان ذلك بسبب أن الإضافة إلى الليل في قولهم قيام الليل تفهم القيام من النوم فيه أو القيام وقت النوم لمن قال الليل كله أو أن العبادة التي تنشأ أي تحدث بالليل على أن الإضافة اختصاصية أو بمعنى في أو على نحو مكر الليل وقال ابن جبير وابن زيد وجماعة ناشئة الليل ساعاته لأنها تنشأ أي تحدث واحدة بعد واحدة أي متعاقبة والإضافة عليه اختصاصية أو ساعاته الأول من نشأ إذا ابتدأ وقال الكسائي ناشئته أوله وقريب منه ما روى عن ابن عمر وأنس بن مالك وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم هي ما بين المغرب والعشاء ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي هي خاصة دون ناشئة النهار أشد مواطأة يواطىء

قلبها لسانها إن أريد بالناشئة النفس المتهجدة أو يواطىء فيها قلب القائم لسانه إن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات والإسناد على الأول حقيقي وعلى هذا مجازي واعتبار الاستعارة المكنية ليس بذاك أو أشد موافقة لما يراد من الإخلاص فلا مجاز على جميع المعاني وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد والعربيان وطاء بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً على أنه مصدر واطأ وطاء كقاتل قتالاً وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكة بكسر الواو وسكون الطاء والهمز مقصوراً وقرأ ابن محصن بفتح الواو ممدوداً ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي وأسو مقالاً أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدو الأصوات وقيلاً

(131/788)

عليهما مصدر لكنه على الأول عام للأذكار والأدعية وعلى الثاني مخصوص بالقراءة ونصبه ونصب وطأ على التمييز وأخرج ابن جرير وغيره عن أنس بن مالك أنه قرأ وأصوب قيلاً فقال له رجل أنا نقرؤها وأقوم قيلاً فقال إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد . ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك واشتغالاً بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها في الليل واصل السبح المر السريع في الماء فاستعير للذهاب مطلقاً كما قاله الراغب وأنشدوا قول الشاعر

: أباحوا لكم شرق البلاد وغربها . . .

ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وهذا بيان للداعي الخارجي إلى قيام الليل بعد بيان ما في نفسه من الداعي وقيل أي إن لك في النهار فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك وقيل إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه فالسبح لفراغ وهو مستعمل في ذلك لغة أيضاً لكن الأول أوفق لمعنى قولهم سبح في الماء وأنسب للمقام ثم أن الكلام على هذا إما تتميم للعلة يهون عليه أن النهار يصلح للاستراحة فليغتنم الليل للعبادة وليشكر ان لم يكلف استيعابهما بالعبادة أو تأكيد للاحتفاظ به بأنه إن فات لا بد من تداركه بالنهار ففيه متسع لذلك وفيه تلويح إلى معنى جعل الليل والنهار خلفة وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة سبخاً بالخاء المعجمة أي تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه وقال غير واحد خفة من التكاليف قال الأصمعي يقال سبخ الله تعالى عنك الحمى خففها وفي الحديث لا تسبخي بدعائك أي لا تخففي ومنه قوله

: فسبخ عليك الهم واعلم بأنه . . .

إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن

وقيل السبخ المد يقال سبخي قطنك أي مديه ويقال لقطع القطن سبائخ الواحدة سبخة ومنه قول الأخطل يصف قناصاً وكلاباً .

فأرسلوهن يذرين التراب كما . . .

يذري سبائخ قطن ندف أوتار

(132/788)

وقال "صاحب اللوامح" أن ابن يعمر وعكرمة فسرا سبخاً بالمعجمة بعد أن قرآ به فقالا معناه نوما أي ينام بالنهار ليستعين به على قيام الليل وقد يحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى لكنهما فسراها فلا نتجاوز عنه اه ولعل ذلك تفسير باللازم .

﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ أي ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك وفسر الأمر بالدوام لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره سبحانه والمراد الدوام العرفي لا الحقيقي لعدم إمكانه ولأن مقضي السياق أن هذا تعميم بعد التخصيص كان المعنى على ما سمعت من اعتبار ليلاً ونهاراً ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ أي وانقطع إليه تعالى بالعبادة وجرد نفسك عما سواه عز وجل واستغرق في مراقبته سبحانه وكان هذا أمر بما يتعلق بالباطن بعد الأمر بما يتعلق بالظاهر ولتأكيد ذلك قال سبحانه :

﴿ تَبْتِيلاً ﴾ ونصبه بتبتل لتضمنه معنى بتل على ما قيل وقد تقدم الكلام في تحقيق ذلك

عند قوله تعالى ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] فتذكر فما في العهد من قدم وكيفما كان الأمر ففيه مراعاة الفواصل

(133/788)

﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ مرفوع على المدح وقيل على الابتداء خبره ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما رب بالنصب على الاختصاص والمدح وهو يؤيد الأول وقرأ الأخوان وابن عامر وأبو بكر ويعقوب رب بالجر على أنه بدل من ﴿ ربك ﴾ وقيل على إضمار حرف القسم وجوابه لا إله إلا هو وفيه حذف حرف القسم من غير ما يسد مسده وإبقاء عمله وهو ضعيف جداً كما بين في العربية وقد نقل هذا عن ابن عباس وتعقبه أبو حيان بقوله لعله لا يصح عنه إذ فيه إضمار الجار في القسم ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الجلالة الكريمة نحو الله لأفعلن كذا ولا قياس عليه ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية تنفي بما لا غير ولا تنفي بلا إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً وبماض في معناه قليلاً انتهى وظاهر كلام ابن مالك في التسهيل إطلاق وقوع الجملة المنفية جواباً للقسم وقال في شرح الكافية أن الجملة الاسمية تقع جواباً للقسم مصدرة بلا النافية لكن يجب تكرارها إذا تقدم خبرها أو كان المبتدا معرفة نحو والله لا في الدار رجل ولا

امرأة ووالله لازيد في الدار ولا عمرو ومنه يعلم أن المسألة خلافية بين هذين الإمامين وقرأ ابن عباس وعبد الله وأصحابه رب المشارق والمغارب وبجمعهما وقد تقدم الكلام في وجه الإفراد والجمع والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ لترتيب الأمر وموجبه على اختصاص الألوهية والربوبية به عز وجل ووكيل فعيل بمعنى مفعول أي موكول إليه والمراد من اتخاذه سبحانه وكيلاً أن يعتمد عليه سبحانه ويفوض كل أمر إليه عز وجل وذكر أن مقام التوكل فوق مقام التبتل لما فيه من رفع الاختيار وفيه دلالة على غاية الحب له تعالى وأنشدوا :

هواي له فرض تعطف أم جفا . . .

ومنهله عذب تكدر أم صفا

وكلت إلى المعشوق أمري كله . . .

فإن شاءا حياني وإن شاء أتلفا

ومن كلام بعض السادة من رضي بالله تعالى وكيلاً وجد إلى كل خير سبيلاً .

(134/788)

﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ مما يؤلمك من الخرافات كقولهم يفرق بين الحبيب وحبيبه على ما سمعت في بعض روايات أسباب النزول ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ بأن تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم وتكل أمورهم إلى ربهم كما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ أي خل بيني وبينهم وكل أمرهم إلي فان في ما يفرغ بالك ويجلي همك ومر في أن تمام الكلام في ذلك وجوز في المكذبين هنا أن يكونوا هم القائلين ففيه وضع الظاهر موضع المضمر وسما لهم بميسم الذم مع الإشارة إلى علة الوعيد وجوز أن يكونوا بعض القائلين فهو على معنى ذرني والمكذبين منهم والآية قيل نزلت في صناديد قريش المستهزئين وقيل في المطعمين يوم بدر ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ أرباب التنعم وغضارة العيش وكثرة المال والولد فالنعمة بالفتح التنعم وأما بالكسر فهي الأنعام وما ينعم به وأما بالضم فهي المسرة ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي زماناً قليلاً وهو مدة الحياة الدنيا وقيل المدة الباقية إلى يوم بدر وإياً ما كان فقليلاً نصب على الظرفية وجوز أن يكون نصباً على المصدرية أي امهالاً قليلاً والتفعيل لتكثير المفعول .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ جمع نكل بكسر النون وفتحها وهو القيد الثقيل وقيل الشديد وقال الكلبي الإنكار الأغلال والأول أعرف في اللغة وعن الشعبي لم تجعل الأنكال في أرجلهم خوفاً من هربهم ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم والجملة تعليل لقوله تعالى ﴿ ذرني ﴾ وما عطف عليه فكأنه قيل كل أمرهم إلي ومهلهم قليلاً لأن عندي ما انتقم به منهم أشد

الانتقام انكالاً ﴿ وَجَحِيماً ﴾ ناراً شديدة الإيقاد .

﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم وعن ابن عباس شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

(135/788)

﴿ يَوْمٍ ﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره ولا يعرف كنهه إلا الله عز وجل كما يشعر بذلك المقابلة والتنكير وما أعظم هذه الآية فقد أخرج الإمام أحمد في الزهد وابن أبي داود في الشريعة وابن عدي في "الكامل" والبيهقي في "الشعب" من طريق حمران بن أعين عن أبي حرب بن الأسود أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرأ أن لدينا أنكالاً الخ فصعق وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام نفسه قرأ أن لدينا أنكالاً فلما بلغ أليماً صعق وقال خالد بن حسان أمسى عندنا الحسن وهو صائم فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية أن لدينا الخ فقال أرفعه فلما كانت الليلة الثانية أتيته بطعام فعرضت له أيضاً فقال ارفعه وكذلك الليلة الثالثة فانطلق ابنه إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم بحديثه فجاؤا معه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق وفي الحديث السابق إذا صح ما يقيم العذر للصوفية ونحوهم الذين يصعقون عند سماع بعض الآيات ويقعد إنكار عائشة

رضي الله تعالى عنها ومن وافقها عليهم اللهم إلا أن يقال إن الإنكار ليس إلا على من يصدر منه ذلك اختياراً وهو أهل لأن ينكر عليه كما لا يخفى أو يقال صعق من الصعق بسكون العين وقد يحرك غشي عليه لا من الصعق بالتحريك شدة الصوت وذلك مما لم تنكره عائشة رضي الله تعالى عنها ولا غيرها وللإمام في الآية كلام على نحو كلام الصوفية قال أعلم أنه يمكن حمل هذه المراتب الأربعة على العقوبة الروحانية أما الأنكال فهي عبارة عن بقاء النفس في قيد التعلقات الجسمانية واللذات البدنية فإنها في الدنيا لما اكتسبت ملكة تلك المحبة والرغبة فبعد البدن يشتد الحنين مع أن آلات الكسب قد بطلت فصارت تلك كالأنكال والقيود المانعة له من التخلص إلى عالم الروح والصفاء ثم يتولد من تلك القيود الروحانية نيران روحانية فإن شدة ميلها إلى الأحوال البدنية وعدم تمكنها من الوصول إليها توجب حرقة شديدة روحانية كمن تشتد رغبته

(136/788)

في وجدان شيء ثم أنه لا يجده فإنه يحترق قلبه عليه فذاك هو الجحيم ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق فذاك هو المراد من قوله سبحانه وطعاماً ذا غصة ثم أنه بسبب هذه الأحوال بقي محروماً عن تجلي نور الله تعالى والانخراط في سلك القدسيين وذلك هو المراد

بقوله عز وجل وعذاباً أليماً وتنكير عذاباً يدل على أنه أشد مما تقدم وأكمل واعلم أني لا أقول المراد بالآية ما ذكرته فقط بل أقول إنها تفيد حصول المراتب الأربعة الجسمانية وحصول المراتب الأربعة الروحانية ولا يمتنع الحمل عليهما وإن كان اللفظ بالنسبة إلى المراتب الجسمانية حقيقة وبالنسبة إلى المراتب الروحانية مجازاً لكنه مجاز متعارف مشهور انتهى وتعقب بأنه بالحمل عليهما يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز أو عموم المجاز من غير قرينة وليس في الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه وأنت تعلم أن أكثر باب الإشارة عند الصوفية من هذا القبيل

وقوله تعالى : ﴿ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ قيل متعلق بذرني وقيل صفة ﴿ عذاباً ﴾ وقيل متعلق بأليماً واختار جمع أنه متعلق بالاستقرار الذي تعلق به ﴿ لدينا ﴾ أي استقر ذلك العذاب لدينا وظهر يوم تضطرب الأرض والجبال وتتزلزل وقرأ زيد بن علي ترجف مبنياً للمفعول ﴿ وَكَانَتِ الجبال ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿ كَثِيباً ﴾ رملاً مجتمعاً من كثب الشيء إذا جمعه فكأنه في الأصل فعيل بمعنى مفعول ثم غلب حتى صار له حكم الجوامد والكلام على التشبيه البليغ وقيل لا مانع من أن تكون رملاً حقيقة ﴿ مَّهِيلاً ﴾ قيل أي رخواً ليناً إذا وطئته القدم زل من تحتها وقيل منثوراً من هيل هيلاً إذا نثر وأسيل كونه كثيباً باعتبار ما كان عليه قبل النثر فلا تنافي بين كونه مجتمعاً ومنثوراً وليس المراد أنه في قوة ذلك وصدده كما قيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا » .

اختلف فى معنى « ناشئة الليل » .

. أهي أول الليل ، أو آخره ، أو وسطه ، أم هى اليقظة بعد النوم . .

والذي نميل إليه أن ناشئة الليل هى أوله ، حيث يبدأ فيها نشوء الليل ، وحيث هى التي يتحقق بها ما دعى إليه النبىّ من قيام الليل إلا قليلا منه ، فإنه لو نام الإنسان أول الليل فهيهات أن يضبط الوقت الذي يستيقظ فيه ، ومن ثمّ فقد لا يقوم شيئا من الليل ، فضلا عن أن يقوم الليل كله إلا قليلا منه . .

وقوله تعالى : « هى أشد وطئا » أي أثقل على النفس وأشق ، لأن الإنسان يصل بها تعب النهار ، الذي يحمل الإنسان على أن يلقى بهذا التعب عند أول الليل ، كما يلقى المسافر مشقة السفر عند أول منزل ينزله . . وفى هذه المشقة ، مضاعفة الثواب ، ودربة على تعوّد المتاعب ، ومغالبة منازع النفس وأهوائها . .

وقوله تعالى : « وأقوم قيلا » أي أن قيام ناشئة الليل ، أكثر فائدة ، وأطيب ثمرا . . حيث

يكون الإنسان مغالبا لهواه ، قاهرا سلطان نفسه ، مستعليا على حاجة جسده ، وتلك أحسن أحوال الإنسان لتقبل الخير ، والإفادة منه . .

والقيل الذي مع الرسول الكريم ، هو القرآن الكريم ، وهو أقوم قول وأعدله ، وأكمله ، فى جميع الأحوال ، والأزمان . . لا تتغير ذاتيته ، ولا تتعرض صفاته لزيادة أو نقص . . لأنه كامل فى ذاته ، لا يقبل كما له زيادة ، كما أنه لا يقبل نقصا . . لأن الكامل كمالا مطلقا ، لا يكون على هذا الوصف إلا إذا تنزه كماله عن التعرض الزيادة أو النقص . .

أمّا وصف القيل المراد به القرآن هنا ، بأنه أقوم قيلا ، أي أسدّ قولا وأنفعه. أما هذا الوصف ، فليس لذاتية القول ، وإنما هو للأثر الذي يحدثه

(138/788)

هذا القول فيمن يتلقاه ، ويرتله . . فإن هذا الأثر يختلف باختلاف المتلقّين له ، وباستعدادهم العقلي ، والنفسىّ والروحي ، للفهم عنه ، والتجاوب معه . . كما أن هذا الأثر يختلف باختلاف أحوال المتلقّى الواحد ، وبتأثر هذه الأحوال بظروف الزمان ، والمكان . . فبعض الأزمنة تفعل فيها الكلمة ما لا تفعله فى أزمنة أخرى ، وبعض الأمكنة ، تجعل الكلمة وقعا على نفس متلقيها ، لا يجده منها فى مكان آخر . . تماما كشأن النبات

من الحب والفاكهة ، فإن لكل فاكهة ولكل حب مكانا لا يجود إلا فيه ، وزمانا لا تنطلق فيه طاقاته وقواه كاملة إلا إذا احتواه هذا الظرف من الزمان . .

وأول ما ألقى على النبي من قول ثقيل ، هو هذا الأمر التكليفي الذي كلف به من ربه ، وهو أن يقوم من نومه ، وأن يرفع هذا الغطاء المتزمل به ، وأن يقوم الليل كله إلا قليلا منه ، ذاكرا اللّه بتلاوة القرآن وترتيله . .

ويجوز أن يكون هذا القول الثقيل ، هو ما يحمل إليه هذا القول من حمل أمانة تلك الرسالة العظيمة التي يقوم عليها ، ويواجه الناس بها ، وقد حمل النبي أعباء هذه الرسالة نحوا من ثلاث وعشرين سنة ، احتمل فيها ما تنوء الجبال الراسيات بحمله . . ويجوز أن يكون هذا القول الثقيل ، هو الوحى نفسه ، وما كان يجد النبي من جهد فى تلقى كلمات اللّه منه . .

هذا ، والذين ذهبوا إلى أن ناشئة الليل ، هى آخر الليل إنما نظروا فى قول اللّه سبحانه : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » . وفى هذا تنويه بهذا الوقت . وقت الفجر . وأنه وقت مبارك ، تتفتح فيه النفس لتقبل الخير ، وتشرق فيه بنور الحق ، كما يشرق وجه النهار ، ويسفر ، حين يطلع الفجر . .

(139/788)

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا » هى دعوة إلى النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ إلى أن يمدّ فى قيام الليل ، حتى يبلغ الفجر ، ليلتقى مع هذا الوقت المبارك المشهود ، وإن كان فى السهر ، ومغالبة النوم ما تشتد وطأته عليه . .

ولهذا جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وأقوم قيلا » ليكون خيرا مرصودا ينتظر النبىّ على نهاية الليل الذي قطعه قياما ، وترتيلا ، وبهذا يشتد عزمه ، وتشتد رغبته فى السهر ليلتقى مع هذا الخير الذي هو على موعد معه هناك . . مع الفجر ! وعلى هذا التأويل ، يكون القول بأن ناشئة الليل ، هى آخر الليل ، أولى عندنا مما قلناه من أنها أول الليل . . واللّه أعلم . .

وقيل إن ناشئة ، الليل ، هو ما يتجدد فيها من ساعات ، ينشأ بعضها إثر بعض ، وعلى هذا تكون شاملة الليل كله باعتبار ظرفا طيبا للعبادات والطاعات ، وذلك لخلو النفس فيه من الشواغل التي تشغلها بالنهار . .

قوله تعالى : « إن لك فى النهار سبحا طويلا » . .

السبح : الحركة ، المطلقة ، المتحررة من القيود . . ومنه يقال الفرس السريع الجري : سابح ، وقد أقسم اللّه سبحانه بالسابحات ، فقال سبحانه :

« والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا » (1 ـ 3 : النازعات) . .

ومنه التسبيح ، وهو إطلاق اللسان بذكر اللّه . .

وهذه الآية بيان لسبب آخر من أسباب دعوة النبىّ مجاهدة نفسه أولا ، وتدريبها على ركوب الصعاب من الأمور ، حتى يستطيع أن يستقل بحمل القول

(140/788)

الثقيل الذي سيبلقى عليه . فإن قيام الليل مع شدّة وطأته لا يكفى وحده لمواجهة الرسالة المكلّف بحملها ، وتبليغها إلى الناس ، وإنما يقتضيه هذا أن يقوم النهار كلّه ، يطوف على الناس ، ويلقاهم بها فى كل مكان ، ويسبح بها إلى كل أفق كما تسبح الطير فى السماء . . وأنه إذا كان النبىّ قد جعل الليل لمناجاة ربه ، فليجعل النهار لمواجهة الناس . . إنه بمناجاة ربه بالليل يتزود بالزاد الطيب الذي يعينه على رحلة النهار مع الناس ودعوتهم إلى اللّه ، فإذا أقبل الليل عاد إلى تلك المناجاة يستروح أرواح الطمأنينة والرضا ، ويتخفف من أعباء يومه الثقيل ، وما لقى فيه من خلاف عليه ، واستخفاف به من أهل السفاهة والجهالة ، ليستقبل يوما آخر . . وهكذا . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » (52 : الفرقان) . .

فهذا السبح الطويل الذي يسبحه النبىّ الكريم فى النهار - هو جهاده للكافرين بآيات اللّه التي يتلوها عليهم ، ويحاجّهم بها ، ويتلقى ما يرمونه من بهت وتكذيب . .

يروى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ، وقد نصح له بعض أصحابه بأن يرفق بنفسه ، وأن يأخذ لها حظها من الراحة والنوم بالليل أو النهار ، فأجابه عمر بقوله : « إنى إن نمت الليل ضيّعت حق اللّه ، وإن نمت النهار ضيعت حق الرعية . . فكيف بالنوم مع هذا أو ذاك ؟ » . .

فإذا كان هذا شأن عمر ، فرع شجرة الإسلام الطيبة المباركة ، فكيف بالشجرة ذاتها ؟ . .

وكيف برسول اللّه ، وبالأمر العظيم الذي ندبته السماء له ، وأناطت به حمله ؟

ذلك أمر لا نوم معه فى ليل أو نهار . .

(141/788)

قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا » . .

هو دعوة إلى الرسول الكريم أن يكون دائما مع ذكر اللّه ، فى الليل أو فى النهار ، مع نفسه ، أو مع الناس ، فلا يقطعه هذا السبح الطويل فى النهار مع الناس ، عن ذكر اللّه أبدا . . إن

رسالته كلها هى ذكر اللّه ، والتذكير به ، فهو حيث كان فى ذكر اللّه ، وفى تلاوة آياته . .

وفى التعبير عن ذكر اللّه بذكر اسمه تعالى ، إشارة إلى أن ذكر اسم اللّه ، هو الذي يذكّر باللّه ، وهو الذي يستحضر به ماله سبحانه من صفات الكمال والجلال التي تشعّ من أسمائه وصفاته . . وفى هذا يقول سبحانه : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (180 : الأعراف) . .

ويقول جل شأنه : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » (14.15 : الأعلى) . .

ويقول سبحانه : « ولذكر الله أكبر » (45 : العنكبوت) . .

ويقول سبحانه : « وأقم الصلاة لذكرى » (14 : طه) . .

وقوله تعالى : « وتبتّل إليه تبتيلا » . .

التبتّل : الانقطاع ، والبتل القطع . . ومنه البتول ، وهى التي انقطعت عن الدنيا وشواغلها بعبادة اللّه . .

ومعنى التبتّل إلى اللّه ، الانقطاع إليه ، وتوجيه العقل ، والقلب إليه جميعا ، دون التفات إلى غيره . .

وهذا هو شأنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ فكل وجوده للّه . . كلامه وخطوه ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، ويقظته .

وليس التبتل هنا معناه الرهبنة ، والانقطاع عن الحياة ، وإنما هو العمل للّه وحده فى معترك الحياة ، بمعنى أن تكون أعمال النبي ، وجهاده بالقول ، وبالسيف ، مرادا بها وجه اللّه وحده ، معزولا عن كل مطلب من مطالب الحياة الدنيا ، ومجانبا لكل حظ من حظوظ النفس ، إلا ما يمسك الأود ، ويحفظ الحياة . .

قوله تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أي هو رب المشرق والمغرب ، أي هو رب هذا الوجود كله . . فإذا ذكر المؤمن اسم ربه ، ذكر بذلك ما للّه سبحانه من سلطان ، وأنه مالك الملك ، وحافظه ، ومدبر كل أموره وأحواله ، وهذا هو الذي يعطى الذاكر ثمرة طيبة ، إذا هو ذكر ربه بهذه المشاعر الخالصة له سبحانه وتعالى .

وفى التعبير بالمشرق والمغرب ، عن الوجود كله ، وحصره فى هاتين الجهتين ، مع أن الجهات أربعة ، هى المشرق والمغرب ، والشمال ، والجنوب ـ فى هذا أمور ، منها :

أولا : أن التعبير القرآنى ، جاء بلفظ مشرق ، ومغرب ، ولم يجىء بلفظ شرق وغرب . .

وهذا يعنى أنه يشير إلى مشرق الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، ومغربها . .

فهذه العوالم ، لها مشرق ، ومغرب ، وليس لها شمال ، وجنوب . .

وثانيا : أن المشرق ، والمغرب ، يشملان ـ ضمنا ـ الشمال والجنوب . .

حيث أن المشرق يشير إلى جهة الشروق ، التي تمتد من أقصى الشمال ، إلى نهاية الجنوب . . وكذلك المغرب ، فإنه يمتد من طرف الشمال ، إلى طرف الجنوب .

(143/788)

وثالثا : أن دورة الأرض ، وهى الكوكب الذي نعيش عليه ، هى دورة من الغرب إلى الشرق ، وليست من الشمال إلى الجنوب ، أو من الجنوب إلى الشمال . . ولذا فإن في حركتها تلك لا يظهر إلا وجه المشرق ، ووجه المغرب ، جامعين كلّ شمال وكل جنوب يقع في محيطهما . .

وقوله تعالى : « لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

. أي أنه سبحانه هو المتفرد بالسلطان على الوجود ، لا يشاركه أحد ، ولهذا كان التعلق به وحده ، والتوكل عليه وحده ، هو الطريق إلى السلامة ، والنجاة . .

وفى قوله تعالى : « فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » إشارة إلى تفويض الأمر للّه وحده ، وجعله سبحانه هو الوكيل الذي يكل إليه الإنسان أموره ، ويفوّض له التصرف فيها . .

ووكالة اللّه سبحانه وتعالى للإنسان ، هنا ، هى وكالة عن اختيار وطواعية ، وعن ثقة فى اللّه ، وإقرار بالعجز من العبد عن أن يكون له تصريف فى أي شىء إلا بما قضى اللّه

سبحانه وتعالى له به ، وقدّره . . وهذا هو الإيمان فى حقيقته ، وفى أكمل صوره ، وتلك حال المؤمنين حقا فى صلتهم بالله ، وفى تعاملهم مع الله . .

أما غير المؤمنين بالله ، الذين لا يتوكلون عليه ، ولا يفوضون أمورهم إليه - فإنهم مقهورون تحت سلطان الله ، وفى إجراء مقاديره عليهم . . ويستوى فى هذا المؤمنون ، وغير المؤمنين . . ولكن الفرق بين المؤمنين وغير المؤمنين ، هو فى أن المؤمنين قد امتلأت قلوبهم طمأنينة ورضا بهذا العقد الذي عقدوه مع ربهم ، فى تفويض أمورهم إليه ، وإلقائها بين يديه ، وهذا من شأنه أن يقيمهم على رضا دائم بما يقع لهم ، فلا يرون فيما صنعه الوكيل لهم إلا الخير ، والإحسان ، سواء أكان ذلك مما يسرّ الناس أو يسخطهم ، ومما يرونه خيرا أو شرّا . .

(144/788)

إن المؤمن الذي فوض لله أموره ، لا يرى عاقبة هذه الأمور إلا أنها الخير ، والخير كله . .

أما غير المؤمن بالله ، فإنه يحمل وحده هموم نفسه ، ويتولّى تصريفها ، غير ملتفت إلى أن يدا قوية قادرة حكيمة ، رحيمة ، هى التي تتصرف فيها بسلطان غالب ، ومشيئة سابقة ، وقدر مقدور - فهو لهذا فى معاناة دائمة ، وفى مخاوف ووساوس لا تنقطع ، من عواقب

أموره . . فإذا جاءه من أمر ما يسره ، لم تنطلق من نفسه رنة الفرح ، لأن هناك أمورا أخرى أصدرها ، وينتظر مواردها عليه ولا يدرى ما يجيئه منها ، فلا تقع الفرحة خالصة بما وقع ليده مما يسره . . وإن أصابه ما يسوءه ، قتل نفسه حسرة وندما ، لأنه فعل كذا ، ولم يفعل كذا ، وأنه لو سلك بأمره هذا الذي ورد عليه بهذا السوء مسلكا آخر ـ لما حدث له هذا الذي حدث . . وهكذا يظل يمضغ الحسرة والأسى ، حتى آخر لحظة من حياته . . فلا هو لما يسرّ مطمئن ، ولا هو لما يسوء واجد عزاء وسلوانا .

قوله تعالى : « وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

. أي اتخذ ربك الذي لا إله إلا هو ، وكيلا ، تستند إليه فى جميع أمورك ، بعد أن انقطعت إليه ، ووضعت وجودك كله فى سبيل مرضاته . . واصبر على ما يأتيك من المشركين من أقوال ضالة مفتراة ، وما يرمونك به من تهم باطلة كاذبة . . اصبر على سفاهتهم تلك وقولهم إنك مجنون ، وإنك شاعر ، أو كاهن ، أو مفتر متقوّل على اللّه . . اصبر على كل هذا ، فذلك هو من آثار هذا القول الثقيل الذي ألقيناه عليك ، وتلك هى المهمة الثقيلة التي انتدبناك لحملها . . وإنه لا يعنيك على حمل هذا العبء الثقيل إلا توكلك على اللّه ، واعتصامك بالصبر : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »

(153 : البقرة) .

وقوله تعالى : « وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا » .

. أي واهجر المشركين إذا انقطع بينك وبينهم ما ترجو لهم من خير. اهجرهم هجرا جميلا

. . أي كن رفيقا بهم ، متوددا إليهم ، ولا يحملنّك ما يرمونك به من سفاهة وجهل ، على

بغضتهم ، والدعاء عليهم . . بل ارفق بهم ، والتمس العذر لهم ، فهذا هو شأن العالم مع

الجاهل ، والطبيب مع المريض . . فإذا انتهى بك الأمر معهم إلى القطيعة ، فليكن ذلك

بحكمة وبرفق من جهتك ، كأن تقول : سلام عليكم . . لى عملى ولكم عملكم . .

إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . . إلى غير ذلك مما علمك اللّه ، من الدعوة إليه ، بالحكمة

والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هى أحسن .

وقوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » .

النعمة : التنعم ، والرّفه . . ومنه النعمة ، وهى كل ما ينعم به ، جسديا ، أو نفسيّا ، أو

روحيّا . .

وقوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ » تهديد مزلزل مفزع لهؤلاء السادة المتنعمين

، من مشركى القوم ، فإنهم هم الرءوس الفاسدة ، العفنة ، التي تقود تلك الحملة الضالة التي

تؤذى النبي ، وتقف لدعوته بالمرصاد . .

وأولو النعمة : هم المترفون من أصحاب المال .

والخطاب النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، وهو دعوة إليه من ربه ألا يستشفع عند اللّه لهؤلاء الضالين ، وما سيأخذهم اللّه سبحانه وتعالى به من عذاب ، فى هذه الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة من نار جهنم ، وعذاب السعير . .

(146/788)

وفى هذا التهديد من اللّه سبحانه وتعالى المشركين ، بعد دعوة النبي بأن يهجرهم هجرا جميلا ، وأن يزايل موقفه من بينهم فى رفق - فى هذا إشارة إلى أن يترك النبي الأمر للّه ، فهو الذي سيتولى حساب هؤلاء المشركين . . فليدع الأمر للّه ، ولا يقطع ما بينه وبين قومه من أواصر النسب والقرابة . . فهم قومه ، وأولى الناس بعطفه ، ومودته . .

وهذا أسلوب من أساليب التهديد ، التي تبدو فى صورة من أمسك بيده سيفا ، أو رمحا ، ثم رفعه فى وجه عدوه ، الذي يحتمى فى ظل صديق أو شفيع ، فهو يقول لهذا الصديق أو الشفيع : ذرنى ، أي اتركني ، وهذا الشقي ، أضربه الضربة القاضية . . !

ومن هذا الأسلوب يبدو أن النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - هو الدّرع الواقية لهؤلاء

الضالين من أن ينزل عليهم غضب اللّه ، وأن هذا الغضب واقع بهم ، إذا هم غاضبوا النبي ، وحملوه حملا على أن يخلى مكانه فيهم . .

وقد كان ! فإنه ما إن بلغ الكتاب أجله لموقف النبي من هؤلاء المشركين ، وخروجه من بينهم مهاجرا - حتى تتساقط عليهم سحب العذاب ، فيكون لهم فى بدر يوم ، تقطع فيه رءوس كثيرة من هؤلاء المكذبين أولى النعمة ، ثم يكون لهم فى يوم الفتح ، يوم تذل فيه رقابهم ، وتخضع فيه أعناقهم ، فلا يرتفع لمشرك بعد هذا اليوم رأس ، ولا يشمخ أنف . . ! !

وفى قوله تعالى : « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » - إشارة إلى أن العذاب الذي يتهدد هؤلاء المشركين ، هو مطلّ عليهم ، لا يلبث إلا قليلا حتى يقع عليهم . . وقد كان ! ! ويجوز أن يكون المراد بالإمهال القليل ، هو إشارة إلى إعطاء هؤلاء المشركين فرصة يراجعون أنفسهم ، ويرقبون مسيرة الدعوة الإسلامية ، وأثرها فى القلوب والعقول ، فلربما كان لهم من ذلك عبرة وعظة . . وقد كان . .

(147/788)

فإن أكثر هؤلاء المشركين قد دخل فى الإسلام ، وأصبح من القوى العاملة على نصره ، والتمكين له . .

قوله تعالى : « إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَجَحِيماً وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا » .

هذا هو ما سيلقى المشركون يوم القيامة ، إذا هم ماتوا على ما هم عليه من شرك . . إنهم سيردون إلى اللّه ، وإنه ليس لهم عند اللّه إلا أنكال ، وجحيم ، وطعام ذو غصة وعذاب أليم . .

فهذه صورة من صور العذاب التي يتجرع أهل الضلال كئوسها قطرة قطرة يوم القيامة . . فهل يريد أصحاب الترف والنعيم أن يذوقوا هذا البلاء ؟ إنه موجود عندنا ، لا تتكلف له جهدا ، وإنه ينتظر الضالين المكذبين .

والأنكال ، جمع نكل ، وهى ضروب من المساءات ، التي تساق إلى أهل الضلال يوم القيامة ، قبل أن يلقى بهم فى نار جهنم ، ومنها هذا السوق العنيف الذي يساقون فيه إلى المحشر ، وهذا الفضح لهم على رءوس الأشهاد ، بما كان منهم من مخاز ، وضلالات ، ومنها تلك السلاسل التي يقادون بها من أعناقهم ، ويسحبون بها إلى النار على وجوههم . .

ثم هذا الجحيم أي النار المستعرة ، التي يتأجج ، ويتسعر وقودها . . ثم هذا الطعام ذو الغصة ، وهو الطعام الكريه ، الذي لا يجد الطاعم مساغا له ، فيزور به ، ويضيق حلقه عن

ابتلاعه ، فيصاب بغصة منه . . كل هذا ، هو مما أعده اللّه لأهل الشرك والضلال . .

وقوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ » هو بيان للظرف الذي

(148/788)

يلقى فيه المشركون هذا النكال ، والعذاب الأليم فى نار جهنم .

وفى قوله تعالى : « تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ » . إشارة إلى ما يحدث للأرض فى هذا اليوم من اضطراب ، حيث تشقق القبور ، ومخرج ما فيها ، وحيث تموج بهذه الأمواج المتدافعة من الخلق الذين يساقون إلى المحشر ! ورجفة الأرض والجبال ، هى من رجفة الخلائق يوم البعث ، من فزعهم من أحوال هذا اليوم العظيم ، كما يقول سبحانه : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » (87 : النمل) .

وقوله تعالى : « وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا » . إشارة أخرى إلى ما يصيب الجبال من أحداث هذا اليوم وشدته ، وأنها تتفتت ، وتنهار ، وتبدو مثل كثيب من الرمل ، المهيل ، أي غير المتماسك . انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1251 . 1256 ﴾

(149/788)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) ﴾

تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه فهي مرتبطة بجملة ﴿ قم الليل ﴾ [المزمل : 2] ، أي قم الليل لأن ناشئته أشد وطْأً وأقوم قيلا .

والمعنى : أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرّك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية .

و ﴿ ناشئة ﴾ وصف من النشء وهو الحدوث .

وقد جرى هذا الوصف هنا على غير موصوف ، وأضيف إلى الليل إضافة على معنى (في) مثل "مَكَر الليل" ، وجعل من أقوم القيل ، فعُلم أن فيه قولاً وقد سبقه الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن ، فتعين أن موصوفه المحذوف هو صلاة ، أي الصلاة الناشئة في الليل ، فإن الصلاة تشتمل على أفعال وأقوال وهي قيام .

ووصف الصلاة بالناشئة لأنها أنشأها المصلي فنشأت بعدَ هدأة الليل فأشبهت السحابة التي تتنشأ من الأفق بعد صحو ، وإذا كانت الصلاة بعد نوم فمعنى النشْء فيها أقوى ، ولذلك فسرتها عائشة بالقيام بعد النوم ، وفسر ابن عباس ﴿ ناشئة الليل ﴾ بصلاة الليل كلها .

واختاره مالك .

وعن علي بن الحسين : أنها ما بين المغرب والعشاء .

وعن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير : أن أصل هذا معرب عن الحبشة ، وقد عدها السبكي في "منظومته" في معربات القرآن .

وإيثار لفظ ﴿ ناشئة ﴾ في هذه الآية دون غيره من نحو : قيامَ أو تَهَجُدَ ، لأجل ما يحتمله من هذه المعاني ليأخذ الناس فيه بالاجتهاد .

وقرأ جمهور العشرة ﴿ وَطأً ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة ، والوطء : أصله وضع الرجل على الأرض ، وهو هنا مستعار لمعنى يناسب أن يكون شأناً للظلام بالليل ، فيجوز أن يكون الوطء استعير لفعل من أفعال المصلي على نحو إسناد المصدر إلى فاعله ، أي وَاطِئاً أنتَ ، فهو مستعار لتمكن المصلي من الصلاة في الليل بتفرغه لها وهدوء باله من الأشغال النهارية تمكّن الواطىء على الأرض فهو أمكن للفعل .

(150/788)

والمعنى : أشد وقعاً ، وبهذا فسره جابر بن زيد والضحاك وقاله الفراء .

ويجوز أن يكون الوطء مستعاراً لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي ، أي أشد أثر خير في نفسه وأرسخ خيراً وثواباً ، وبهذا فسره قتادة .

وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وحده ﴿ وِطاءً ﴾ بكسر الواو وفتح الطاء ومدها مصدر وَاطَأَ من مادة الفعال .

والوِطاء : الوفاق والملاءمة ، قال تعالى : ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ [التوبة : 37] .

والمعنى : أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب ، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل وبحاصل هذا فسر مجاهد .

وضمير ﴿ هي ﴾ ضمير فصل ، وانظر ما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً ﴾ [المزمل : 20] في وقوع ضمير الفصل بين معرفة واسم تفضيل .

وضمير الفصل هنا لتقوية الحكم لا للحصر .

والأقوم : الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير ﴿ أقوم ﴾ للأفضل الأنفع .

و ﴿ قيلاً ﴾ : القَول ، وأريد به قراءة القرآن لتقدم قوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

فالمعنى : أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات ، وأعون على المزيد من التدبر .

قال ابن عباس : ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ : أدنى من أن يفقهوا القرآن .

وقال قتادة : أحفظ للقراءة ، وقال ابن زيد : أقوم قراءة لفراغه من الدنيا .

وانتصب ﴿ وطْأً ﴾ و ﴿ قيلاً ﴾ نسبة تمييزي ل ﴿ أشد ﴾ ول ﴿ أقوم ﴾ .

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7)

فصل هذه الجملة دون عطف على ما قبلها يقتضي أن مضمونها ليس من جنس حكم ما قبلها ، فليس المقصود تعيين صلاة النهار إذ لم تكن الصلوات الخمس قد فرضت يومئذٍ على المشهور ، ولم يفرض حينئذٍ إلاّ قيام الليل .

(151/788)

فالذي يبدو أن موقع هذه الجملة موقع العلة لشيء مما في جملة ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ [المزمل : 6] وذلك دائر : بين أن يكون تعليلاً لاختيار الليل لفرض القيام عليه فِيه ، فيفيد تأكيداً للمحافظة على قيام الليل لأن النهار لا يغني غَناءه فيتحصل من المعنى : قم الليل لأن قيامه أشد وقعاً وأرسخ قولاً ، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك .

وشغل النبي صلى الله عليه وسلم في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين

ومحاجة المشركين وافتقادَ المؤمنين المستضعفين ، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل ، وبيْن أن يكون تلطفاً واعتذاراً عن تكليفه بقيام الليل ، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإِيقاع ما عسى أن يكلفه فيامُ الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه .

ويجوز أن يكون تعليلاً لما تضمنه ﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ [المزمل : 3] ، أي إن نقصتَ من نصف الليل شيئاً لا يَفُتْكَ ثواب عمله ، فإن لك في النهار متسعاً للقيام والتلاوة مثل قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليلَ والنهارَ خلفة لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شُكوراً ﴾ [الفرقان : 62] .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النهار من أول البعثة قبل فرض الصلوات الخمس كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى ﴾ [العلق : 9 ، 10] .

وقد تقدم في سورة الجن أن استماعهم القرآن كان في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ .

ويظهر أن يكون كل هذا مقصوداً لأنه مما تسمح به دلالة كلمة ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ وهي من بليغ الإِيجاز .

والسبح : أصله العوم ، أي السلوك بالجسم في ماء كثير ، وهو مستعار هنا للتصرف السهل

المتسع الذي يشبه حركة السابح في الماء فإنه لا يعترضه ما يعوق جولانه على وجه الماء ولا إعياءُ السير في الأرض .

(152/788)

وقريب من هذه الاستعارة استعارة السبح لجري الفرس دون كلفة في وصف امرىء القيس الخيل بالسابحات في قوله في مَدح فرسه:

مُسحَ إذا ما السابحات على الوَنى . . .

أَثْرْنَ الغُبار في الكَديد المركَّل

فعبر عن الجاريات بالسابحات .

وفسر ابن عباس السبح بالفراغ ، أي لينام في النهار ، وقال ابن وهب عن ابن زيد قال :

فراغاً طويلاً لحوائجك فافرغ لدينك بالليل .

والطويل : وصف من الطول ، وهو ازدياد امتداد القامة أو الطريق أو الثوب على مقاديرِ أكثرِ أمثاله .

فالطول من صفات الذوات ، وشاع وصف الزمان به يقال : ليل طويل وفي الحديث " الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه "

وأما وصف السَّبح بـ (طويل) في هذه الآية فهو مجاز عقلي لأن الطويل هو مكان السبح وهو الماء المسبوح فيه .

وبعدَ هذا ففي قوله ﴿ طويلاً ﴾ ترشيح لاستعارة السَّبح للعمل في النهار .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8)

عطف على ﴿ قم الليل ﴾ [المزمل : 2] وقصد بإطلاق الأمر عن تعيين زمان إلى إفادة تعميمه ، أي اذكر اسم ربك في الليل وفي النهار كقوله : ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ [الإنسان : 25] .

وإقحام كلمة ﴿ اسم ﴾ لأن المأمور به ذكر اللسان وهو جامع للتذكر بالعقل لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ [الأعراف : 205] .

والتبتّل : شدة البتل ، وهو مصدر تبتّل القاصر الذي هو مطاوع بَتَّله ف ﴿ تبتل ﴾ وهو هنا للمطاوعة المجازية يقصد من صيغتها المبالغة في حصول الفعل حتّى كأنه فعله غيره به فَطاوعه ، والتبتل : الانقطاع وهو هنا انقطاع مجازي ، أي تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله ، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدي بـ "إلى" الدالة على الانتهاء ، قال امرؤ القيس:

منارة مُمْسى راهب متَبَتِّل . . .

والتبتيل : مصدر بتَّل المشدد الذي هو فعل متعد مثل التّقطيع .

وجيء بهذا المصدر عوضاً عن التبتل للإِشارة إلى أن حُصول التبتل ، أي الانقطاع يقتضي التبتيل أي القطْع .

ولما كان التبتيل قائماً بالمتبتل تعين أن تبتيله قطعه نفسه عن غير من تبتل هو إليه فالمقطوع عنه هنا هو من عدا الله تعالى فالجمع بين ﴿ تبتل ﴾ و ﴿ تبتيلاً ﴾ مشير إلى إراضة النفس على ذلك التبتل .

وفيه مع ذلك وفاء بِرعي الفواصل التي قبله .

والمراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجّة المشركين ولذلك قيل ﴿ وتبتل إليه ﴾ أي إلى الله فكل عمل يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال الحياة فهو لدين الله فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله .

وكذلك منعشات الروح البريئة من الإِثم مثل الطِّيب ، وتزوج النساء ، والأنس إلى أهله وأبنائه وذويه ، وقد قال : "حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب" .

وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية وهو الإِعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأن ذلك لا يلاقي صفة الرسالة .

وفي حديث سعْد في "الصحيح" "ردّ رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذِن له لاختصينا" يعني ردّ عليه استشارته في الإِعراض عن النساء .

ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإِشراك ، وهو معنى الحنيفيّة ، ولذلك عقب قوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ بقوله : ﴿ ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو ﴾ .

وخلاصة المعنى : أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق ، وإذ قد كان النبي صلى الله عليه وسلم من قبلُ غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله كما ألهمه التحنّث في غار حراء ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة .

(154/788)

فالأمر في قوله : ﴿ واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه ﴾ مراد به الدوام على ذلك فإنه قد كان يذكر الله فيما قبل فإن في سورة القلم (51) (وقد نزلت قبل المزمل) ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ على أن القرآن الذي أنزل أولاً أكثره إرشاد

للنبي صلى الله عليه وسلم إلى طرائق دعوة الرسالة فلذلك كان غالب ما في هذه السورِ الأولِ منه مقتصراً على سَن التكاليف الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم

ووصف الله بأنه ﴿ ربّ المشرق والمغرب ﴾ لمناسبة الأمر بذكره في الليل وذكرِه في النهار وهما وقتا ابتداء غياب الشمس وطلوعها ، وذلك يشعر بامتداد كل زمان منهما إلى أن يأتي ضده ؛ فيصح أن يكون المشرق والمغرب جهتي الشروق والغروب ، فيكون لاستيعاب جهات الأرض ، أي رب جميع العالم وذلك يشعر بوقتي الشروق والغروب .

ويصح أن يراد بهما وقتا الشروق والغروب ، أي مبدأ ذينك الوقتين ومُنتهاهما ، كما يقال : سبحوا لله كلَّ مشرق شمس ، وكما يقال : صلاة المغرب .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر برفع ﴿ ربُّ ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف حذفاً جرى على الاستعمال في مثله مما يسبق في الكلام حديث عنه . ثم أريد الإِخبار عنه بخبر جامع لصفاته ، وهو من قبيل النعت المقطوع المرفوع بتقدير مبتدأ .

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف بخفض ﴿ ربِّ ﴾ على البدل من ﴿ ربِّك ﴾ .

وعُقِّب وصفُ الله بـ ﴿ رب المشرق والمغرب ، ﴾ بالإخبار عنه أو بوصفه بأنه لا إله إلاّ هو لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب فلما كانت رُبوبيته للعالم لا ينازع فيها المشركون أعقبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ تعريضاً بهم في أثناء الكلام وإن كان الكلام مسوقاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فرع عليه قوله : ﴿ فاتخذه وكيلاً ، ﴾ وإذ كان الأمر باتخاذ وكيلاً مسبباً عن كونه لا إله إلاّ هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره ، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلاً .

والوكيل : الذي يُوكَل إليه الأمور ، أي يُفوض إلى تصرفه ، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكل عليه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه قول المشركين فيه اغتم لذلك ، وقد روي أن ذلك سبب تزمله من مَوْجدة الحزن فأمره الله بأن لا يعتمد إلاّ عليه ، وهذا تكفل بالنصر ولذلك عقب بقوله : ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] .

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10)

عطف على قوله : ﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ [المزمل : 9] ، والمناسبة أن الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكل على الله .

وضمير ﴿ يقولون ﴾ عائد إلى المشركين ، ولم يتقدم له معاد فهو من الضمائر التي استُغني عن ذكر معادها بأنه معلوم للسامعين كما تقدم غير مرة ، ومن ذلك عند قوله تعالى : ﴿

وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ [الجن : 16] الآيات من سورة ﴿ قل أوحى إليّ ﴾ [الجن : 1] ، ولأنه سيأتي عقبه قوله ﴿ وذَرْني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] فيبين المراد من الضمير .

وقد مضى في السور التي نزلت قبل سورة المزمل مقالات أذى من المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففي سورة العلق (9 ، 10) ﴿ أرأيت الذي ينهَى عبداً إذا صلى ﴾ قيل هو أبو جهل تهدّد رسول الله لئن صلى في المسجد الحرام ليَفْعَلَنّ ويفعلَنّ .

(156/788)

وفيها : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] .

قيل هو الأخنس بن شريق "تنكَّر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان حليفه" ، وفي سورة القلم (2 15) ﴿ ما أنت بِنعْمة ربّك بمجنون ﴾ إلى قوله : ﴿ فستبصر ويُبصرون بأيكم المفتون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تطِع كلّ حلاّف مهين ﴾ إلى قوله : ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ [القلم : 15] ردّاً لمقالاتهم .

وفي سورة المدثر (11 25) إن كانت نزلت قبل سورة المزمل ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى قوله : ﴿ إنْ هذا إلاَّ قول البشر ﴾ ، قيل : قائل ذلك الوليد بن المغيرة .

فلذلك أمر الله رسوله بالصبر على ما يقولون .

والهجر الجميل : هو الحسَن في نوعه ، فإن الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه وقد يقال : كَريم ، وذميم ، وخالص ، وكدر ، ويَعْرِض الوصف للنوع بما من شأنه أن يقترن به من عوارض تناسب حقيقة النوع فإذا جُردت الحقيقة عن الأعراض التي قد تعتلق بها كان نوعها خالصاً ، وإذا ألصق بالحقيقة ما ليس من خصائصها كان النوع مكدّراً قبيحاً ، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ [البقرة : 264] ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنيَ أُلقِيَ إليّ كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29) ، ومن هذا المعنى قوله : ﴿ فصبر جميل ﴾ في سورة يوسف (18) ، وقوله فاصبر صبراً جميلاً في سورة المعارج (5) .

فالهجر الجميل هو الذي يَقتصر صاحبه على حقيقة الهجر ، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى ، ولما كان الهجر ينشأ عن بعض المهجور ، أو كراهية أعماله كان معرَّضاً لأن يعتلق به أذى من سبّ أو ضرب أو نحو ذلك .

فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً ، أي أن يهجرهم ولا يزيدَ على هجرهم سَبّاً أو انتقاماً .

وهذا الهجر : هو إمساك النبي عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى : واصبر على ما يقولون .

وليس منسحباً على الدعوة للدين فإنها مستمرة ولكنها تبليغ عن الله تعالى فلا ينسب إلى النبي .

وقد انتزع فخر الدين من هذه الآية منزعاً خُلُقياً بأن الله جمع ما يحتاج إليه الإِنسان في مخالطَة الناس في هاتين الكلمتين لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بد له من الصبر على أذاهم وإيحاشهم لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة فيقع في الغموم إن لم يَرضْ نفسه بالصبر على أذاهم ، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل .

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11)

القول فيه كالقول في ﴿ فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث ﴾ في سورة القلم (44) ، أي دعني وإياهم ، أي لا تهتم بتكذيبهم ولا تشتغل بتكرير الرد عليهم ولا تغضب ولا تسبهم فأنا أكفيكهم .

وانتصب المكذبين ﴾ على المفعول معه ، والواو واو المعية .

والمكذبون هم من عناهم بضمير ﴿ يقولون ﴾ و ﴿ اهجرهم ﴾ [المزمل : 10] ، وهم المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ، فهو إظهار في مقام الإِضمار لإِفادة

أن التكذيب هو سبب هذا التهديد .

ووصَفَهم بـ ﴿ أولي النَّعمة ﴾ توبيخاً لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم ، وتهديداً لهم بأن الذي قال ﴿ ذرني والمكذبين ﴾ سيزيل عنهم ذلك التنعم .

وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم ، لأنهم كانوا يعدُّون سعة العيش ووفرة المال كمالاً ، وكانوا يعيّرون الذين آمنوا بالخصاصة قال تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزُون الآيات ﴾ [المطففين : 29 ، 30] ، وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ [محمد : 12] .

و ﴿ النَّعمة ﴾ : هنا بفتح النون باتفاق القراء .

وهي اسم للترفه ، وجمعها أنعُم بفتح الهمزة وضم العين .

وأما النِّعمة بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإِنسان من عافية ، وأمن ورزق ، ونحو ذلك من الرغائب .

(158/788)

وجمعها : نِعَم بكسر النون وفتح العين ، وتجمع جمع سلامة على نِعمات بكسر النون وبفتح العين لجمهور العرب .

وتكسر العين في لغة أهل الحجاز كَسْرَةِ إتباع .

والنُّعمة بضم النون اسم للمسرّة فيجوز أن تجمع على نُعْم على أنه اسم جمع ، ويجوز أن تجمع على نُعَم بضم ففتح مثل : غرفة وغرف ، وهو مطرد في الوزن .

وجعلهم ذوي النَّعمة المفتوحة النون للإِشارة إلى أن قُصارى حظهم في هذه الحياة هي النَعمة ، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق ، والاستظلال بالبيوت والجنات ، والإِقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر ، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة قال تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان : 44] وتعريف ﴿ النَّعمة ﴾ للعهد .

والتمهيل : الإِمهال الشديد ، والإِمهال : التأجيل وتأخير العقوبة ، وهو مترتب في المعنى على قوله : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ ، أي وانتظر أن ننتصِرْ لك كقوله تعالى : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ [الأحقاف : 35] .

و ﴿ قليلاً ﴾ وصف لمصدر محذوف ، أي تمهيلاً قليلاً .

وانتصب على المفعول المطلق .

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12)

وهذا تعليل لجملة ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] ، أي لأن لدينا ما هو أشد عليهم من ردِّك عليهم ، وهذا التعليل أفاد تهديدهم بأن هذه النقم أعدت لهم لأنها لما

كانت من خزائن نقمة الله تعالى كانت بحيث يضعها الله في المواضع المستأهلة لها ، وهم الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، فأعد الله لهم ما يكون عليهم في الحياة الأبدية ضداً لأصول النَّعمة التي خُوِّلوها ، فبطِروا بها وقابلوا المنعِم بالكفران .

فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة لأن الأنكال القيود .

والجحيم : وهو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد .

(159/788)

والطعام : ذو الغُصة مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد .

والأنكال : جمع نِكْل بفتح النون وبكسرها وبسكون الكاف .

وهو القيد الثقيل .

والغُصَّة بضم الغين : اسم لأثر الغصّ في الحلق وهو تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يسيغه الحلق من مرض أو حزن وعَبرة .

وإضافة الطعام إلى الغُصة إضافة مجازية وهي من الإِضافة لأدنى ملابسة ، فإن الغصة عارض في الحلق سببه الطعام أو الشرب الذي لا يستساغ لبَشاعةٍ أو يبوسة .

والعذاب الأليم : مقابل ما في النعمة من ملاذ البشر ، فإن الألم ضد اللذة .

وقد عرّف الحكماء اللذة بأنها الخلاص من الألم .

وقد جمع الأخير جمع ما يضاد معنى النَّعمة (بالفتح) .

وتنكير هذه الأجناس الأربعة لقصد تعظيمها وتهويلها ، و (لدى) يجوز أن يكون على حقيقته ويقدر مضاف بينه وبين نون العظمة .

والتقدير : لدى خزائننا ، أي خزائن العذاب ، ويجوز أن يكون مجازاً في القدرة على إيجاد ذلك متى أراد الله .

ويتعلق ﴿ يوم ترجف ﴾ بالاستقرار الذي يتضمنه خبر ﴿ إن ﴾ في قوله ﴿ إن لدينا أنكالاً .

والرجف : الزلزلة والاضطراب ، والمراد : الرجف المتكرر المستمر ، وهو الذي يكون به انفراط أجزاء الأرض وانحلالها .

والكثيب : الرمل المجتمع كالربوة ، أي تصير حجارةُ الجبال دُقاقاً .

ومهيل : اسم فعول من هال الشيءَ هيلاً ، إذا نثره وصبّه ، وأصله مهيول ، استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الساكن قبلها فالتقى ساكنان فحذفت الواو ، لأنها زائدة ويدُلُّ عليها الضمة .

وجيء بفعل كانت ﴿ في قوله : ﴿ وكانت الجبال كثيباً ﴾ ، للإشارة إلى تحقيق وقوعه

حتى كأنه وقع في الماضي .

ووجه مخالفته لأسلوب ﴿ ترجف ﴾ أن صيرورة الجبال كثباً أمر عجيب غير معتاد ، فلعله يستبعده السامعون وأما رجف الأرض فهو معروف ، إلاّ أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(160/788)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها المزمل (1) قم الليل إلا قليلا (2) ﴾

سورة المزمل

[1] تلاوة القرآن

التحليل اللفظي

﴿ المزمل ﴾ : قال اللغويون : " المزمل " الملتف في ثيابه ، وأصله (المتزمل) فأدغمت التاء في الزاي فثقلت ، وكل من التف بثوبه فقد تزمل قال امرؤ القيس :

كأن أبانا في أفانين ودقه . . . كبير أناس في بجاد مزمل

وقال ذو الرمة : ومن نائم عن ليلها متزمل .

﴿ ورتل القرآن ﴾ : قال الزجاج : رتل القرآن ترتيلا : بينه تبينا ، والتبيين لا يتم إلا بإظهار جميع الحروف ، وتوفيتها حقها من الإشباع .

وقال المبرد : أصله من قولهم : ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير ، وقال الليث : الترتيل تنسيق الشيء ، وثغر رتل : حسن التنضيد .

ومعنى الآية : اقرأ القرآن على تؤدة ، وتمهل ، وتبيين حروف ، مع تدبر المعاني .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ : أوقات الليل وساعاته ، سميت بذلك لأنها تنشأ شيئًا بعد شيء ، يقال : نشأ السحاب إذا ابتدأ ، فناشئة (فاعلة) من نشأت تنشأ فهي ناشئة ، والمراد ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف ع الاسم .

وقال الزمخشري : ناشئة الليل : النفس الناشئة بالليل ، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض ، وأنشد ابن السكيت :

فلما أن تنشأ قام خرق . . . من الفتيان مختلق هضوم

﴿ أشد وطأً ﴾ : أي أثقل على المصلي من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدت علينا وطأة السلطان ، إذا ثقل عليهم ما حملهم من المؤن وفي الحديث : " اللهم اشدد وطأتك على مضر " فالليل وقت النوم والراحة ، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة .

والمعنى : إن قيام الليل للعبادة ، وقضاء ساعاته في الطاعة ، أشد ثقلا على النفس ، وأرجى عند الله وأقوم .

(161/788)

﴿ وأقوم قيلا ﴾ : أي أشد استقامة واستمرارا ، وأكثر استقامة على نهج الحق والصواب ، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات فتخلص فيه القراءة ، ويفرغ القلب لفهم التلاوة ، فلا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل .

﴿ سبحا ﴾ : قال المبرد : سبحا أي تقلبا وتصرفا في المهمات كما يتردد السابح في الماء قال الشاعر :

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها . . . ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

قال في " اللسان " : السبح : الفراغ وفي التنزيل ﴿ سبحا طويلا ﴾ إنما يعني به فراغا طويلا وتصرفا ، وقيل : معناه : لك في النهار ما تقضي حوائجك .

وقال الزجاج : إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة ، فلك في النهار فراغ فاصرفه إليه .

وقال ابن عباس : لك في النهار فراغ لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك .

﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ : التبتل الانقطاع إلى العبادة ، ومنه قيل لمريم عليها السلام (البتول) لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة ، وأصل البتل : القطع ، ويقال للراهب (متبتل) لانقطاعه عن الناس ، وانفراده بالعبادة قال امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها . . . منارة ممسى راهب متبتل

﴿ هجرا جميلا ﴾ : أي لا تتعرض لهم ، وجانبهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم .

المعنى الإجمالي

يقول الله تعالى ما معناه مخاطبا نبيه الكريم : يا أيها المتزمل المتلفف في ثيابه ، قم للأمر العظيم الذي ينتظرك ، قم للجهد والنصب ، والكد والتعب ، فقد مضى وقت الراحة ، قم فشمر عن ساعد الجد ، وأحي الليل كله أو نصفه أو أقل قليلا ، بالصلاة والتضرع ، والعبادة والتخشع ، لتستعد لنفحاتنا القدسية ، لأننا سنوحي إليك بهذا القرآن العظيم ، الثقيل في الوزن العظيم في الأجر ، الرصين في الجزالة والتعبير ، فاقرأه بتدبر وتبصر في قيامك بالليل ، ورتله على مهل بخشوع وإنابة فإن قيام الليل بالصلاة ، وقضاء ساعاته في الطاعة ، أشد ثقلا على النفس ، وأرجى للقبول عند الله .

ولك يا محمد في النهار تقلبا طويلا من مهامك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، واذكر اسم ربك لتستمد قوتك منه ، وانقطع لعبادته ولا تتوجه لأحد سواه ، فهو الناصر والمعين ، وهو رب العزة ، ذو الجلال والإكرام الذي لا يخيب من التجأ إليه ، فاجعله وكيلا لك في جميع الأمور .

واصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، وعن صدودهم وإعراضهم عن دعوتك ، ولا تتعرض لهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم ، واهجرهم بالحسنى حتى يجعل الله لك من أمرك فرجا ومخرجا ، بالنصر عليهم ونصر الله قريب .

وجوه القراءات

1- قرأ الجمهور ﴿ يا أيها المزمل ﴾ بتشديد الزاي والميم ، وقرأ أبي بن كعب وأبو العالية ﴿ المتزمل ﴾ بإظهار التاء على الأصل .

2- قرأ الجمهور ﴿ هي أشد وطا ﴾ وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ﴿ وطاء ﴾ بكسر الواو مع المد وقرأ ابن محيصن ﴿ أشد وطاء ﴾ بفتح الواو ، والطاء ، وبالمد .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا المزمل * قم اليل إلا قليلا ﴾ . (المزمل) صفة ل (أي) قال ابن مالك : وأيها مصحوب (أل) بعد صفة . و (نصفه) بدل من الليل ، بدل بعض من كل

.

قال الزمخشري : (نصفه) بدل من الليل ، و (إلا قليلا) استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل ، والضمير في (منه) يعود للنصف .

2- قوله تعالى : (أشد وطأ) لفظ (أشد) خبر المبتدأ ، و (وطأ) تمييز ، وجملة (هي أشد وطأ) خبر (إن) .

3- قوله تعالى : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ تبتل : أمر و (تبتيلا) مفعول مطلق وهو غير جار على فعله ، والأصل فيه أن يقال (تبتلا) ولأن وزن (تفعيل) إنما تجيء في مصدر (فعل) كقولهم : رتل ترتيلا ، وأما وزن (تفعل) فيأتي المصدر (تفعلا) إلا أنهم قد يجرون المصدر على غير فعله كقول الشاعر :

وخير الأمر ما استقبلت منه . . . وليس بأن تتبعه اتباعا

فأجرى اتباعا مصدرا على (تتبع) والقياس (تتبعا) والشواهد على هذه كثيرة .

لطائف التفسير

(163/788)

اللطيفة الأولى : الحكمة في ندائه صلى الله عليه وسلم بوصف التزمل هو إرادة (الملاطفة والإيناس) على نحو ما كان عليه العرب في مخاطباتهم من اشتقاق اسم للمخاطب من

صفته التي هو عليها كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه ، لما غاضب فاطمة وذهب إلى المسجد فنام فيه – وكان قد لصق بجنبه التراب – : قم أبا تراب ، قم أبا تراب ، للمؤانسة والملاطفة .

اللطيفة الثانية : سبب التزمل ما روي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئا ، فرفعت رأسي فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت (فزعت) منه رعبا فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فأنزل الله ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ [المدثر : 1] و ﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾ " .

فسبب التزمل هو ما عراه صلى الله عليه وسلم من الرعب والفزع من رؤية الملك على صورته الملكية .

اللطيفة الثالثة : ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ثلاثة أشياء وصفها ب (الجميل) وأمر بها نبيه عليه الصلاة والسلام وهي : قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ [المعارج : 5] . . . ﴿ واهجرهم هجرا جميلا ﴾ . . . ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ [الحجر : 85] .

فالصبر الجميل الصبر الذي لا شكوى معه .

والهجر الجميل الهجر الذي لا أذية معه .

والصفح الجميل الصفح الذي لا عتاب معه .

اللطيفة الرابعة : " في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه ، فقالت له السيدة عائشة : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ! فقال لها عليه السلام : أفلا أكون عبدا شكورا " ! ! فصلوات ربي وسلامه على نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل قيام الليل كان فريضة على الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

(164/788)

ظاهر قوله تعالى : ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ أن التهجد كان فريضة عليه صلى الله عليه وسلم وأن فرضيته كانت خاصة به ، ومما يدل عليه قوله تعالى في سورة الإسراء [79] ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ فإن قوله : ﴿ نافلة لك ﴾ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن الوجوب من خصائصه عليه الصلاة والسلام وليس معنى النافلة في هذه الآية ما يجوز

فعله وتركه ، فإنه على هذا الوجه لا يكون خاصا به عليه الصلاة والسلام ، بل معنى كونه التهجد نافلة له أنه شيء زائد على ما هو مفروض على سائر الأمة .

وقد كان المؤمنون يصلون مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ورمت أقدامهم وسوقهم من القيام ، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر السورة : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطآئفة من الذين معك . . . ﴾ [المزمل : 20] إلى قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ [المزمل : 20] الآية .

قال ابن عباس : وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة .

وقال جماعة من المفسرين : ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها سوى هذه الآية .

الحكم الثاني : هل تجوز قراءة القرآن بالتلحين ؟

أمر الله جل ثناؤه بترتيل القرآن ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أي اقرأه على تؤده وتمهل وتبين حروف ، بحيث يتمكن السامع من استيعابه وتدبر معانيه .

ولا خلاف بين العلماء أن قراءة القرآن بالترتيل بمعنى التجويد ، وهو تبيين الحروف ، وتحسين المخارج ، وإظهار المقاطع حسن مطلوب ، إنما الكلام في التغني به وتلحينه هل هو جائز أم ممنوع ؟

وقد اختلفت فيه آراء الأئمة الفقهاء ، تبعا لاختلاف الصحابة والتابعين ، ونحن نذكر

مذاهبهم مع أدلة كل فريق بشيء من التفصيل ، فنقول ومن الله نستمد العون :

مذاهب الفقهاء في القراءة بالتلحين :

(165/788)

أولا : مذهب (المالكية والحنابلة) : كراهة القراءة بالتلحين ، وهو منقول عن (أنس بن مالك) و (سعيد بن المسيب) و (سعيد بن جبير) و (القاسم بن محمد) و (الحسن البصري) و (إبراهيم النخعي) و (ابن سيرين) .

ثانيا : مذهب (الحنفية والشافعية) : جواز القراءة بالتلحين ، وهو منقول عن : (عمر بن الخطاب) و (ابن عباس) و (ابن مسعود) و (عبد الرحمن بن الأسود بن زيد) وقد ذهب إليه من المفسرين (أبو جعفر الطبري) و (أبو بكر بن العربي) .

أدلة المذهب الأول :

أ- حديث : " أقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتهم ، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق ، فإنه يجيء من بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم " .

فقد نعى عليه السلام على من يرجع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح على نحو ما يفعله أكثر قراء

هذا العصر .

ب- حديث : " يتخذون القرآن مزامير ، يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ليغنيهم غناء " .

ج- حديث : " إن الأذان سهل سمح ، فإن كان أذانك سهلا سمحا وإلا فلا تؤذن " قالوا : فقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرب المؤذن في أذانه ، فدل ذلك على أنه يكره التطريب في القراءة بطريق الأولى .

د- وقالوا أيضا : إن التغني والتطريب يؤدي إلى أن يزاد على القرآن ما ليس منه ، وذلك لأنه يقتضي مد ما ليس بممدود ، وهمز ما ليس بمهموز ، وجعل الحرف الواحد حروفا كثيرة وهو لا يجوز ، هذا إلى أن التلحين من شأنه أن يلهي النفوس بنغمات الصوت ، ويصرفها عن الاعتبار والتدبر لمعاني القرآن الكريم .

وقد سئل (مالك) عن الألحان في الصلاة فقال : لا تعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم .

وروي عن الإمام (أحمد) أنه كان يقول : قراءة الألحان ما تعجبني ، والقراءة بها بدعة لا تسمع .

وسئل : ما تقول في القراءة بالألحان ؟ فقال للسائل : ما اسمك ؟ قال : محمد ، قال له :

أيسرك أن يقال لك : يا موحامد ممدودا ؟

أدلة المذهب الثاني :

واستدل المجيزون للقراءة بالتلحين وهم (الحنفية والشافعية) بأدلة نوجزها فيما يلي :

أ- حديث :

" زينوا القرآن بأصواتكم " .

ب- حديث : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " .

ج- حديث عبد الله بن مغفل قال : (لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود) فقال له أبو موسى : (لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا) .

ه- حديث : " ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن " .

و- وقالوا أيضا : إن الترنم بالقرآن والتطريب بقراءته من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء ، وهو أوقع في النفس ، وأنفذ في القلب وأبلغ في التأثير .

وقد روى الطبري : عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن فيقول عمر : من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل .

وكان ابن مسعود : تعجبه قراءة (علقمة الأسود) – وكان حسن الصوت – فكان يقرأ له علقمة ، فإذا فرغ قال له : زدني فداك أبي وأمي .

هذه خلاصة موجزة لأدلة الفريقين ، وأنت إذا أمعنت النظر وجدت أن الخلاف بينهم يكان يكون (شكليا) لا (جوهريا) فالفقهاء جميعا متفقون على حرمة قراءة القرآن بالأنغام ، التي لا تراعى فيها أحكام التجويد ، كمد المقصور ، وقصر الممدود ، وترقيق المفخم ، وتفخيم المرقق ، وإظهار ما ينبغي إدغامه ، وإخفاء ما ينبغي إظهاره . . . إلخ ، والتي يكون الغرض منها (التطريب) وإظهار جمال الصوت فحسب دون تقيد بالأحكام وآداب التلاوة ، كما يفعله بعض الجهلة من قراء هذا العصر ، فإن هذا لا يشك أحد في تحريمه .

(167/788)

أما إذا كان المراد ب (التلحين) هو تحسين الصوت بالقراءة وإخراج الحروف سليمة من مخارجها ، دون تعقر أو تمطيط ، مع تطبيق أحكام التجويد ومراعاة الوقوف والمدود فإن هذا لا يقول أحد بتحريمه ، لأن الصوت الحسن يزيد في جمال القرآن ، وله أثر في نفس الإنسان ، وقد استمع النبي عليه الصلاة والسلام إلى قراءة بعض أصحابه ، فأعجب بحسن صوته حتى قال لأبي موسى الأشعري : " لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود "

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 621 - 631 ﴾.

(168/788)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾

والتبتل الانقطاع وهو تفعل من البتل وهو القطع وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الأزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ففاقت نساء الزمان شرفا وفضلا وقطعت منهن ومصدر بتل تبتلا كالتعلم والتفهم ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف فإن في هذا الفعل إيذانا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة فأتى بالفعل الدال على أحدهما بالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل : بتل نفسك إلى الله تبتيلا وتبتل إليه تبتلا ففهم المعنيان من الفعل ومصدره وهذا كثير في القرآن وهو من أحسن الاختصار والإيجاز

قال صاحب المنازل :

التبتل : الانقطاع إلى الله بالكلية وقوله عز وجل : له دعوة الحق الرعد : 14 أي التجريد

المحض

ومراده بالتجريد المحض : التبتل عن ملاحظة الأعواض بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة فهو لا ينصرف عن باب سيده إلا إذا كان آبقا والآبق قد خرج من شرف العبودية ولم يحصل له إطلاق الحرية فصار بذلك مركوسا عند سيده وعند عبيده وغاية شرف النفس : دخولها تحت رق العبودية طوعا واختيارا ومحبة لا كرها وقهرا كما قيل :

شرف النفوس دخولها في رقهم . . . والعبد يحوي الفخر بالتمليك

والذي حسن استشهاده بقوله : له دعوة الحق في هذا الموضع : إرادة هذا المعنى وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابا فإنه يستحقها لذاته فهو أهل أن يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجى ويخاف ويتوكل عليه ويستعان به ويستجار به ويلجأ إليه ويصمد إليه فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقا وحالا صح له مقام التبتل والتجريد المحض وقد فسر السلف دعوة الحق بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم : هذا المعنى

فقال علي رضى الله عنه دعوة الحق : التوحيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما شهادة أن لا إله إلا الله وقيل : الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله وحده ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها

قال : وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى : تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم خوفا أو رجاء أو مبالاة بحال

قلت التبتل يجمع أمرين : اتصالا وانفصالا لا يصح إلا بهما فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفا منه أو رغبة فيه أو مبالاة به أو فكرا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله

والاتصال : لا يصح إلا بعد هذا الانفصال وهو اتصال القلب بالله وإقباله عليه وإقامة وجهه له حبا وخوفا ورجاء وإنابة وتوكلا

ثم ذكر الشيخ ما يعين على هذا التجريد وبأي شيء يحصل فقال :

بحسم الرجاء بالرضى وقطع الخوف بالتسليم ورفض المبالاة بشهود الحقيقة يقول : إن الذى يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضى بحكم الله

عز وجل وقسمه لك فمن رضي بحكم الله وقسمه لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع

والذي يحسم مادة الخوف : هو التسليم لله فإن من سلم لله واستسلم له وعلم أن ما أصابه

لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضا فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها فلا معنى للخوف من غير الله بوجه وفي التسليم أيضا فائدة لطيفة وهي أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده وأحرزها في حرزه وجعلها تحت كنفه حيث لا تنالها يد عدو عاد ولا بغي باغ عات

(170/788)

والذي يحسم مادة المبالاة بالناس : شهود الحقيقة وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله وفي قبضته وتحت قهره وسلطانه لا يتحرك منها شيء إلا بحوله وقوته ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود

قال : الدرجة الثانية : تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى وتنسم روح الأنس وشيم برق الكشف

الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن الأولى انقطاع عن الخلق وهذه انقطاع عن النفس وجعله بثلاثة أشياء

أولها : مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه لأن اتباعه يصد عن التبتل

وثانيها : وهو بعد مخالفة الهوى تنسم روح الأنس بالله والروح للروح كالروح للبدن فهو روحها وراحتها وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه فحينئذ تنسم روح الأنس بالله ووجد رائحته إذ النفس لا بد لها من التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله وهبت عليها نسماته فريحتها وأحيتها

وثالثها : شيم برق الكشف وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ليعلم به مواقع الغيث ومساقط الرحمة

وليس مراده بالكشف ههنا : الكشف الجزئي السفلي المشترك بين البر والفاجر والمؤمن والكافر كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم وإنما هو الكشف عن ثلاثة أشياء هن منتهى كشف الصادقين أرباب البصائر

أحدها : الكشف عن منازل السير

والثاني : الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها

والثالث : الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوم وعليها يحومون وحولها يدندنون وإليها يشمرون فمنهم من جل كلامه ومعظمه : في السير وصفة المنازل ومنهم من جل كلامه : في الآفات والقواطع ومنهم من جل كلامه : في التوحيد والمعرفة وحقائق الأسماء والصفات

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق فيستعين به على مطلبه ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ويهدره به فالكمال المطلق لله رب العالمين وما من العباد إلا له مقام معلوم

قال : الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة والاستغراق في قصد الوصول والنظر إلى أوائل الجمع

لما جعل الدرجة الأولى انقطاعا عن الخلق والثانية انقطاعا عن النفس جعل الثالثة طلبا للسبق وجعله بتصحيح الاستقامة وهي الإعراض عما سوى الحق ولزوم الإقبال عليه والاشتغال بمحابه ثم بالاستغراق في قصد الوصول

وهو أن يشغله طلب الوصول عن كل شيء بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته أوقاته وإنما يكون ذلك بعد بدو برق الكشف المذكور له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 29. 33 ﴾

(172/788)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾ .

لا يعارض قوله: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ لأن قوله وكانت الجبال كثيبا مهيلا تشبيه بليغ والجبال بعد طحنها المنصوص عليه بقوله وبست الجبال بسا تشبه الرمل المتهايل وتشبه أيضا الصوف المنفوش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 304 ﴾

(173/788)

فصل فى منزلة التبتل

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة التبتل

قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل: 8] و التبتل الانقطاع وهو تفعل من البتل وهو القطع وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الأزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ففاقت نساء الزمان شرفا وفضلا وقطعت منهن ومصدر بتل تبتلا كالتعلم والتفهم ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف فإن في هذا الفعل إيذانا

بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة فأتى بالفعل الدال على أحدهما بالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلا وتبتل إليه تبتلا ففهم المعنيان من الفعل ومصدره وهذا كثير في القرآن وهو من أحسن الاختصار والإيجاز قال صاحب المنازل: التبتل: "الانقطاع إلى الله بالكلية" وقوله عز وجل: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: 14] أي التجريد المحض

ومراده بالتجريد المحض: التبتل عن ملاحظة الأعواض بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة فهو لا ينصرف عن باب سيده إلا إذا كان آبقا والآبق قد خرج من شرف العبودية ولم يحصل له إطلاق الحرية فصار بذلك مركوسا عند سيده وعند عبيده وغاية شرف النفس: دخولها تحت رق العبودية طوعا واختيارا ومحبة لا كرها وقهرا كما قيل:

شرف النفوس دخولها في رقهم

والعبد يحوي الفخر بالتمليك

والذي حسن استشهاده بقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ في هذا الموضع: إرادة هذا المعنى وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته وإن لم يوجب لداعيه بها

ثوابا فإنه يستحقها لذاته فهو أهل أن يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد

ويحب ويرجى ويخاف ويتوكل عليه ويستعان به ويستجار به ويلجأ إليه ويصمد إليه فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده

(174/788)

ومن قام بقلبه هذا معرفة وذوقا وحالا صح له مقام التبتل والتجريد المحض وقد فسر السلف دعوة الحق بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق ومرادهم: هذا المعنى

فقال علي رضى الله عنه دعوة الحق: التوحيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما شهادة أن لا إله إلا الله وقيل: الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله وحده ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم خوفا أو رجاء أو مبالاة بحال قلت التبتل يجمع أمرين: اتصالا وانفصالا لا يصح إلا بهما فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفا منه أو رغبة فيه أو مبالاة به أو فكرا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال وهو اتصال القلب بالله وإقباله عليه وإقامة وجهه له حبا وخوفا ورجاء وإنابة وتوكلا ثم ذكر الشيخ ما يعين على هذا التجريد وبأي شيء يحصل فقال: بحسم الرجاء بالرضى

وقطع الخوف بالتسليم ورفض المبالاة بشهود الحقيقة يقول: إن الذى يحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك: هو الرضى بحكم الله

عز وجل وقسمه لك فمن رضي بحكم الله وقسمه لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع والذي يحسم مادة الخوف: هو التسليم لله فإن من سلم لله واستسلم له وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضا فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها فلا معنى للخوف من غير الله بوجه وفي التسليم أيضا فائدة لطيفة وهي أنه إذا سلمها الله فقد أودعها عنده وأحرزها في حرزه وجعلها تحت كنفه حيث لا تنالها يد عدو عاد ولا بغي باغ عات

(175/788)

والذي يحسم مادة المبالاة بالناس: شهود الحقيقة وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله وفي قبضته وتحت قهره وسلطانه لا يتحرك منها شيء إلا بحوله وقوته ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود

قال: الدرجة الثانية: تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى وتنسم روح

الأنس وشيم برق الكشف الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن الأولى انقطاع عن الخلق وهذه انقطاع عن النفس وجعله بثلاثة أشياء

أولها : مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه لأن اتباعه يصد عن التبتل

وثانيها : وهو بعد مخالفة الهوى تنسم روح الأنس بالله والروح للروح كالروح للبدن فهو روحها وراحتها وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه فحينئذ تنسم روح الأنس بالله ووجد رائحته إذ النفس لا بد لها من

التعلق فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله وهبت عليها نسماته فريحتها وأحيتها

وثالثها : شيم برق الكشف وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ليعلم به مواقع الغيث ومساقط الرحمة وليس مراده بالكشف ههنا : الكشف الجزئي السفلي المشترك بين البر والفاجر والمؤمن والكافر كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم وإنما هو الكشف عن ثلاثة أشياء هن منتهى كشف الصادقين أرباب البصائر

أحدها : الكشف عن منازل السير

والثاني: الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها

والثالث: الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة وهذه الأبواب الثلاثة: هي مجامع علوم القوم وعليها يحومون وحولها يدندنون وإليها يشمرون فمنهم من جل

كلامه ومعظمه: في السير وصفة المنازل ومنهم من جل كلامه: في الآفات والقواطع ومنهم من جل كلامه: في التوحيد والمعرفة وحقائق الأسماء والصفات

(176/788)

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق فيستعين به على مطلبه ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ويهدره به فالكمال المطلق لله رب العالمين وما من العباد إلا له مقام معلوم

قال: الدرجة الثالثة: تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة والاستغراق في قصد الوصول والنظر إلى أوائل الجمع

لما جعل الدرجة الأولى انقطاعا عن الخلق والثانية انقطاعا عن النفس جعل الثالثة طلبا للسبق وجعله بتصحيح الاستقامة وهي الإعراض عما سوى الحق ولزوم الإقبال عليه والاشتغال بمحابه ثم بالاستغراق في قصد الوصول

وهو أن يشغله طلب الوصول عن كل شيء بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته أوقاته وإنما يكون ذلك بعد بدو برق الكشف المذكور له

وأما النظر إلى أوائل الجمع: فالجمع هو قيام الخلق كلهم بالحق وحده وقيامه عليهم بالربوبية

والتدبير

والنظر إلى أوائل ذلك: هو الالتفات إلى مقدماته وبداياته وهي العقبة التي ينحدر منها على وادي الفناء وقد قيل: إنها وقفة تعترض القاطع لأودية التفرقة قبل وصوله إلى الجمع ومنها يشرف عليه وهذه الوقفة تعترض كل طالب مجد في طلبه فمنها يرجع على عقبه أو يصل إلى مطلبه كما قيل

لابد للعاشق من وقفة . . . ما بين سلوان وبين غرام

وعندها ينقل أقدامه . . . إما إلى خلف وإما أمام

والذي يظهر لي من كلامه: أن أوائل الجمع: مباديه ولوائحه وبوارقه

وبعد هذا درجة رابعة وهي الانقطاع عن مراده من ربه والفناء عنه إلى مراد ربه منه والفناء به فلا يريد منه بل يريد ما يريده منقطعا به عن كل إرادة فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه

وأكثر أرباب السلوك عندهم إياك نعبد فرق وإياك نستعين جمع ثم منهم من يرى: أن ترك الجمع زندقة وكفر فهو يعرض عن الجمع إلى الفرق

(177/788)

ومنهم من يرى: أن مقام التفرقة ناقص مرغوب عنه ويرى سوء حال أهله وتشتتهم فيرغب عنه عاملا على الجمع يتوجه معه حيث توجهت ركائبه والمستقيمون منهم يقولون: لابد للعبد السالك من جمع وفرق وقيام العبودية بهما فمن لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له ولا حال

فإياك نعبد فرق وإياك نستعين جمع

والحق: أن كلا من مشهدي إياك نعبد وإياك نستعين متضمن للفرق والجمع وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد ففرق إياك نعبد تنوع ما يعبد به وكثرة تعلقاته وضروبه وجمعه: توحيد المعبود بذلك كله وإرادة وجهه وحده والفناء عن كل حظ ومراد يزاحم حقه ومراده

فتضمن هذا المشهد فرقا في جمع وكثرة في وحدة فصاحبه يتنقل في منازل العبودية من عبادة إلى عبادة ومعبوده واحد لا إله إلا هو وأما فرق إياك نستعين فشهود ما يستعين به عليه ومرتبته ومنزلته ومحله من النفع والضر وبدايته وعاقبته واتصاله بل وانفصاله وما يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال ويشهد مع ذلك فقر المستعين وحاجته ونقصه وضرورته إلى كمالاته التى يستعين ربه في تحصيلها وآفاته التي يستعين ربه في دفعها ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به وهذا كله فرق يثمر عبودية هذا المشهد وأما جمعه: فشهود تفرده سبحانه بالأفعال وصدور الكائنات بأسرها عن مشيئته وتصريفها بإرادته

وحكمته

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق: نقص في العبودية كما أن تفرقه في الذي قبله دون ملاحظته: نقص أيضا والكمال إعطاء الفرق والجمع حقهما في هذا المشهد والمشهد الأول فتبين تضمن إياك نعبد وإياك نستعين للجمع والفرق وبالله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 229 . 35 ﴾

(178/788)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الاتخاذ)

وهو مصدر من باب الافتعال .

وقد اختُلِف فى أَصله .

فقيل : من تَخِذ يَتْخَذ تَخْذاً ؛ اجتمع فيه التَّاء الأَصلىّ ، وتاء الافتعال ، فأُدغما .

قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ ﴾ وهذا قول حَسَن ، لكنّ الأَكثرين على أَن أَصلة من الأَخذ ، وأَنَّ الكلمة مهموزة .

ولا يَخلو هذا من خلل ، لأَنَّه لو كان كذلك لقالوا فى ماضيه : ائتخذ بهمزتين على قياس ائتمر ، وائتمن ، قال تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ ﴾ و ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ ﴾ ومعنى الأَخذ والتَّخْذ واحد .

وهو حَوْز الشئ وتحصيلُه .

وذلك تارة يكون بالتَّناول ؛ نحو ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ، وتارة بالقَهْر ؛ نحو ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ ﴾ ﴿ وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ﴾ ويعبر عن الأَسير بالمأْخوذ ، والأَخيذ .

والاتِّخاذ يُعَدّى إلى مفعولين ، ويجرى مجرى الجَعْل ؛ نحو ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ ﴾ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ تخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لِمَا أَخذوه من النِّعَم ، ولم يقابلوه بالشكر .

والاتِّخاذ ورد فى القرآن على ثلاثة عشر وجهاً .

الأَوّل : بمعنى الاختيار : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .

الثَّانى : بمعنى الإِكرام : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أَى يكرمهم بالشَّهادة .

الثالث : بمعنى الصّياغة : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً ﴾ أَى صاغُوهُ .

الرابع : بمعنى سلوك السّبيل : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾ أَى سلك .

الخامس : بمعنى التسمية : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أَى سَمَّوهم .

السّادس : بمعنى النَّسْج : ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ أَى نَسَجَتْ .

السّابع : بمعنى العبادة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

ولهذا نظائر كثيرة .

الثامن : بمعنى الجَعْل : ﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أَى جعلوها .

التَّاسع : بمعنى البناءِ : ﴿ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً ﴾ أَى بَنَوا .

العاشر : بمعنى الرّضا : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ أَى ارضَ به .

الحادى عشر : بمعنى العَصْر : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ أَى تعصرون .

الثَّانى عشر : بمعنى إرخاءِ السّتْر : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً ﴾ أَى أَرْخت سِتْراً .

الثالث عشر : بمعنى عَقْد العهد : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً ﴾ أَى عَقَدَ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 57 ـ 59 ﴾

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التبتل)

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ .

والتبتُّل : الانقطاع .

وهو تفعّل من البَتْل وهو القطع .

وسمّيت مَرْيم البَتُول لانقطاعها عن الأَزواج وعن نظراءِ زمانها ، ففاقت نساءَ عالَمِها شرفاً وفضلاً .

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ كالتعلُّم والتفهُّم .

ولكن جاءَ على التَّفعيل مصدر بَتَّل تَبْتيلاً لسرٍّ لطيف ؛ فإِنَّ فى هذا الفعل إِيذاناً بالتدريج ، وفى التفعيل إِيذان بالتكثير والمبالغة ، فأُتى بالفعل الدّال على أَحدهما ، والمصدر الدّال على الآخر ، كأَنَّه قيل : بَتِّل نفسَك إِليه تَبْتِيلاً ، وتبتَّل أَنت إِليه تبتُّلاً ، ففهم المعنَيان من الفعل ومصدرِه .

وهذا كثير فى القرآن ، وهو من أَحسن الاختصار والإِيجاز .

فالتَّبَتُّل : الانقطاع إِلى الله فى العبادة وإِخلاص النيّة انقطاعاً يختصّ به .

وإلى هذا المعنى أَشار تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ وليس هذا منافِياً لما صحّ عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم "لا رهبانيّة ولا تبتُّل فى الإِسلام" فإِنَّ التَّبتل ها هنا هو الانقطاع من النكاح، والرّغبةُ عنه محظورٌ.

والتَّبتُّل يجمع أَمرين: اتَّصالاً وانفصالاً لا يصحّ إِلاَّ بهما، فالانفصال انقطاع قلبه عن حظوظ النَّفس المزاحِمة لمراد الربّ منه، وعن التفات قلبه إِلى ما سوى الله خوفاً منه، أَو رغبةً في، أَو مبالاةً وفِكراً فيه، بحيث يشتغل قلبهُ عن الله تعالى.

والاتّصال لا يصحّ إِلاَّ بعد هذا الانفصال.

وهو اتِّصال القلبِ بالله، وإِقبالُه عليه، وإِقامة وجهه له حُبّاً وخوفاً ورجاءً وإِنابةً وتوكلاً.

(181/788)

وهذا إِنما يحصل بحَسْم مادة رجاء المخلوقين من قلبك، وهو الرّضا بحكم الله وقَسْمه لك، وبِحَسْم مادة الخوف وهو التسليم لله؛ فإِنَّ مَنْ سلَّم لله واستسلم له علم أَنَّ ما أَصابه لم يكن ليُخطئه فلا يبقى للمخلوقين فى قلبه موقع؛ فإِنَّ نفسه الَّتى يَخاف عليها قد سلَّمها إِلى مولاها وأَودعها عنده وجعلها تحت كَنَفه، حيث لا يناله يَدُ عادٍ ولا بغيُ باغٍ، وبحَسْم مادَّة المبالاة بالنَّاس.

وهذا إنَّما يحصل بشهود الحقيقة وهو رؤية الأَشياءِ كلّها من الله وبالله وفى قبضته وتحت قهر سلطانه ، لا يتحرّك منها شئ إلاَّ بحَوْله وقوّته ، ولا ينفع ولا يضرّ إلاَّ بإذنه ومشيئته ، فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 224.223 ﴾

(182/788)

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى غرب)

الغَرْب : خلاف الشرق ، والمغرب : خلاف المشرق ، قال الله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ باعتبار الجهتين ، و ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ باعتبار الجهتين مطلِعَ كلّ يوم .

ولقِيته مُغَيرِبان الشمس صغَّروه / على غير مكبَّره كأَنَّهم صغَّروا مَغْرباناً ، والجمع : مُغَيرِبانات .

كأَنَّهُمْ جعلوا ذلك الحَيِّز أَجزاءً كلَّما تصوّبت الشمسُ ذهب منها جزء فجمعوه على ذلك .

والمغارب : السُّودان ، والمغارب : الحُمْران .

وأَسود غربيب ، أَى شديد ، قال تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ ، السود بدل من غرابيب ؛ لأَنَّ توكيد الأَلوان لا يتقدّم .

وقيل التقدير : سود غرابيب سود .

والغريب : المغترِب ، والجمع : الغُرَباءُ .

والغرباءُ أَيضاً : الأَباعد .

والغريب من الكلام : الغامض العُقْمىّ منه .

وفى الحديث : "بدأَ الإِسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأَ فطُوبىَ للغرباء .

قيل : ومَنِ الغرباءُ يا رسول الله ؟ قال : الذين يُصْلِحُون إذا فَسَد الناس" .

وروى الإِمام بسنده أَنه قال صلّى الله عليه وسلَّم : "طُوبى للغرباءِ .

قالوا : يا رسول الله ومَنِ الغرباءُ ؟ قال : الذين يزيدون إذا نقص النَّاس" ، فإِن كان هذا الحديث محفوظاً بهذا اللفظ فمعناه : الَّذين يزيدون خيرا وإِيماناً وتُقى إذا نقص النَّاس .

والله أَعلم .

وفى لفظ : قيل مَنِ الغرباءُ يا رسول الله ؟ قال : نُزَّاع القبائل .

وفى حديث عبد الله بن عَمْرٍو أَنه قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "طُوبى للغرباءِ .

قيل : ومن الغرباءُ ؟ قال : ناس صالحون قليلٌ فى ناس سَوْءٍ كثير ، مَن يبغضهم أَكثر ممّن

يطيعهم" .

وعند عبدالله بن عمرو أَنه قال : "إِن أَحبَّ شيءٍ إِلى الله الغُرَباءُ .

قيل : ومَنِ الغرباءُ ؟ قال : الفَارُّونَ بدينهم يجتمعون إِلى عيسى بن مريم يوم القيامة" .

(183/788)

وفى حديث آخر : "بدأَ الإِسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأَ فطوبى للغرباءِ .

قيل ومَن الغُرَباءُ يا رسول الله ؟ قال : الذين يُحبُون سنَّتى ويعلِّمُونَهَا النَّاسَ" .

فهؤلاءِ هم الغرباءُ الممدوحون المغبوطون .

ولقلّتهم فى الناس جدّا سُمّوا غرباءَ .

فإِنّ أَكثر النّاس على غير هذه الصّفات .

فأَهل الإِسلام فى الناس غرباء ، وأَهْلُ العِلْم فى أَهل الإِسلام غرباء ، وأَهل السنّة الذين تميّزوا بها من الأَهواء والبدع فيهم غرباءُ ، والداعون الصّابرون على أذى المخالِفين لهم هؤلاءِ أَشدّ غربة ، ولكن هؤلاءِ هم أَهل الله فلا غربة عليهم ، وإِنما غربتهم بين الأَكثرين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فأُولئك هم الغرباءُ من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هى الغُرْبة الموحِشة .

*فليس غريبا من تناءَى دياره * ولكنّ من تَنْأَين عنه غريب*

والغربة ثلاثة أَنواع :

غربة أَهلِ الله وأَهلِ سنّة رسوله بين هذا الخَلْق ، وهى الغربة الّتى مدح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَهلَها ، وأَخبر عن الدّين الذى جاءَ به أَنه بدأَ غريباً وأَنه سيعود غريباً ، وأَن أهله يصيرون غُرباءَ ، وهذه الغُرْبة قد تكون فى مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون غيرهم ، ولكن أَهل هذه الغربة هم أَهل الله حَقّا لم يأْوُوا إِلى غير الله ، ولم يأْنسُوا إِلى غير رسوله ، وهم الذين فارقوا النّاس أَحوجَ ما كانوا إِليهم .

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها : بل هو آنس ما يكون إذا استوحش النّاس ، وأَشدّ ما يكون وحشة إِذا استأْنسوا ، تولاَّه الله ورسوله والذين آمنوا ، وإِن عاداه أَكثر النّاس وجَفَوه .

ومن هؤلاءِ الغرباء مَن ذكرهم أَنَس فى حديثه عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلّم : "أَلاَ أَخبركم عن ملوك أَهل الجنّة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

(184/788)

قال : كلّ ضعيف أَغبر ذى طِمْرين لا يُؤْبَه له لو أَقسم على الله لأَبرّه" .

وقال الحسن : المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلّها ، ولا ينافس فى خيرها ، للنّاس حال وله حال .

ومن صفات هؤلاءِ التمسّك بالسنّة إذا رغب عنه النّاس ، وترك ما أَحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم .

وهؤلاءِ هم القابضون على الجَمْر حقا ، وأَكثر النّاس بل كلّهم لائمون لهم .

ومعنى قول النبىّ صلَّى الله عليه وسلم : إنهم النُزَّاع من القبائل : أَن الله تعالى بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأَهلُ الأَرض على أَديان مختلفة ، فهم بين عُبّاد أَوثان ، وعُبَّاد نيران ، وعُبَّاد صلبان ، ويهود ، وصابئة ، وفلاسفة ، وكان الإِسلام فى أَول ظهوره غريبا ، وكان من أَسلم منهم واستجاب لدعوة الإِسلام نُزَّاعاً من القبائل آحادا منهم ، تفرّقوا عن قبائلهم وعشائرهم ، ودخلوا فى الإِسلام ، فكانوا هم الغرباء حقا ، حتى ظهر الإِسلام وانتشرت دعوته ، ودخل النّاس فيه أَفواجا فزالت تلك الغُرْبة عنهم ، ثم أَخذ فى الاغتراب حتى عاد غريباً كما بدأَ .

بل الإِسلام الحق الّذى كان [عليه] رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم وأَصحابه اليوم أَشدّ غربة منه فى أَوّل ظهوره ، وإن كانت أَعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة ، فالإِسلام الحقيقىّ غريب جدًّا ، وأَهله غرباء بين النّاس .

وكيف لا يكون فرقة واحدة قليلة جدًّا غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أَتباع ورياسات ، ومناصب وولايات ، لا يقوم لها سوق إلاّ بمخالفة ما جاءَ به الرسول صلّى الله عليه وسلّم ؟ وكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاءِ الذين اتّبعوا أَهواءَهم ، وأَطاعوا شُحّهم ، وأُعجِب كلّ منهم برأْيه .

(185/788)

ولهذا جُعل له فى هذا الوقت إذا تمسّك بدينه أَجرُ خمسين من الصّحابة ، ففى سُنَن أَبى داود من حديث أَبى ثعلبة الخُشَنىّ قال : سأَلت رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقال : "بل ائتمِروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكَر ، حتى إذا رأَيت شُحّا مطاعاً ، وهوًى متَّبَعا ، ودُنْيا مؤثَرة ، وإِعجاب كلّ ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ودع عنك العوامّ ، فإِنّ من ورائكم أَيّاما الصَّبْرُ فيهن كمِثل قَبْضٍ على الجمر ، للعامل فيهم أَجر خمسين رجلاً يعملون بمثله عمله .

قلت يا رسول الله أَجر خمسين منهم ؟ قال : أَجْر خمسين منكم" .

وهذا الأَجر العظيم إنما هو لغُربته بين الناس ، والتمسُّك بالدين بين ظُلمة أَهوائهم .

فإِذا أَراد أَن يسلك هذا الصراط فليوطّن نفسه على قدح الجهّال وأَهل البدع وطعنهم عليه

، وإِزرائهم به ، وتنفير النّاس عنه ، وتحذيرهم منه ، كما كان الكفّار يفعلون مع متبوعه وإمامه .

فأَمّا إِن دعاهم إِلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهناك تقوم قيامتهم ، ويتغوّلون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، ويُجلبون عليه بخيلهم ورَجْلهم .

فهو غريب فى دينه لفساد أَديانهم ، غريب فى تمسّكه بالسّنة لتمسّكهم بالبدعة ، غريب فى اعتقاده لفساد عقائدهم ، غريب فى صلاته لسوءِ صلاتهم ، غريب فى معاشرته لأَنه يعاشرهم على مالا تهوى أَنفسهم ، وبالجملة فغريب فى أُمور دنياه وآخرته ، لا يجِد له مساعداً ولا مُعيناً .

فهو عالِم بين قوم جهّال ، صاحب سُنّة بين أَهل بِدَع ، داعٍ إِلى الله ورسوله بين دُعَاة إِلى الأَهواءِ والبدع .

وثَمّ غربة مذمومة وهى غربة أَهل الباطل بين أَهل الحقّ ، فهم وإِن كثروا عددًا قليلون مَدَدا .

وثمّ غربة لا تحمد ولا تذمّ .

هى الغربة عن الوطن ، فإِن الناس كلّهم فى هذه الدنيا غرباء فإِنّها ليست بدار مُقام ، ولا خُلِقوا لها .

وقد قال صلّى الله عليه وسلّم لابن عمر : "كن فى الدّنيا كأنّك غريب أَو عابر سبيل"

وهكذا الحال فى نفس الأَمر ، لكنه أَمره أَن يطالع ذلك بقلبه ، ويَعرفه حَقّ المعرفة .

وقد أَنشد شيخ السنّة لنفسه :

*وَحَىَّ على جنَّات عَدْنٍ فإِنّها * مفازلك الأُولى وفيها المخيَّم*

*ولكننا سَبْىُ العدوّ فهل ترى * نعود إلى أَوطاننا ونسلّم*

*وأَىّ اغتراب فوق غربتنا التى * لها أَضحت الأَعداءُ فيها تحكّم*

*وقد زعموا أَن الغريب إِذا نأَى * وشطَّت به أَوطانه ليس ينعم*

*فمن أَجل ذا لا ينعم العبد ساعة * من العمر إلا بعده يتألّم*

فالإِنسان [على] جناح سفر لا يَحُلّ راحلته إِلا بين أَهل القبور ، فهو مسافر فى صورة قاعد ، قال :

*وما هذه الأَيام إِلاّ مراحل * يحثّ بها داعٍ إِلى الموت قاصدُ*

*وأَعجب شىء لو تأَمّلت أَنّها * منازل تُطوَى والمسافر قاعدُ* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 123 . 128 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر العذاب ووقته وقدمهما ليكون السامع أقبل لما يطلب منه ، أتبعهما السبب فيه مشيراً إلى ما به إصلاح أمر الآخرة التي فيها المعاد وإليها المنتهى والمآب ، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم : ﴿ إنا أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليكم ﴾ يا أهل مكة شرفاً لكم خاصة ، وإلى كل من بلغته الدعوة عامة ﴿ رسولاً ﴾ أي جداً هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين وإمامهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ شاهداً عليكم ﴾ أي بما تصنعون ليؤدي الشهادة عند طلبها منه بما هو الحق يوم ننزع من كل أمة شهيداً وهو يوم القيامة .

(188/788)

ولما كانت هذه السورة من أول ما نزل والدين ضعيف وأهله في غاية القلة والذلة ليعتبر بهم من آل به أمره إلى أن كان في زمان صار فيه الدين غريباً كغربته إذ ذاك ، وكان فرعون أعتى الناس في زمانه وأجبرهم ، وأشدهم خداعاً وأمكرهم وكان بنو إسرائيل في غاية الذل له والطواعية لأمره ، ومع ذلك فلما أرسل الله إليه موسى عليه السلام الذي ذبح فرعون أبناء بني إسرائيل لأجل أن يكون في جملة من ذبحه لأنه قيل له أنه يولد لبني إسرائيل مولود يكون هلاك القبط على يده أظهره به وأهلكه على قوته وأنجى منه بني إسرائيل على ضعفهم ، قال تعالى تنبيهاً لقريش والعرب وغيرهم على أن من كان الله معه لا ينبغي أن يقاوي ولو أنه أضعف الخلق ، وتنبيهاً لهم على الاعتبار بحال هذا الطاغية الذي يزيد عليهم بالملك وكثرة الجنود والأموال : ﴿كما أرسلنا﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿إلى فرعون﴾ أي ملك مصر ﴿رسولاً﴾ ولعله نكره للتنبيه على أنه ليس من قوم فرعون فلا مانع له منه من حميم ولا شفيع يطاع ، ليعلم أنه من كانت له قبيلة تحامي عنه أولى بالنصرة .

ولما كان الإرسال سبباً للقبول أو الرد قال : ﴿فعصى فرعون﴾ أي بما له من تعوج الطباع ﴿الرسول﴾ أي الذي تقدم أنا أرسلناه إليه فصار معهوداً لكم بعد ما أراه من المعجزات البينات والآيات الدامغات – بما أشار إليه مظهر العظمة ، ولذلك سبب عن عصيانه قوله : ﴿فأخذناه﴾ أي بما لنا من العظمة ، وبين أنه أخذ قهر وغضب بقوله : ﴿أخذاً وبيلاً﴾ أي ثقيلاً شديداً متعباً مضيقاً رديء العاقبة من قولهم : طعام وبيل – إذا كان

وخماً لا يستمرأ أي لا ينزل في المري ولا يخف عليه ، وذلك بأن أهلكناه ومن معه أجمعين لم ندع منهم أحداً – وسيأتي إن شاء الله تعالى في "ألم نشرح" قاعدة إعادة النكرة والمعرفة .

(189/788)

ولما علم بهذا أنه سبحانه شديد الأخذ ، وأنه لا يغني ذا الجد منه الجد ، سبب عن ذلك قوله محذراً لهم الاقتداء بفرعون : ﴿ فكيف تتقون ﴾ أي توجدون الوقاية التي تقي أنفسكم ، ولما كان التنفير من سبب التهديد أهم لأنه أدل على رحمة المحذر وأبعث على اجتنابه ، قال مشيراً بأداة الشك إلى أن كفرهم بالله مع ما نصب لهم من الأدلة العقلية المؤيدة بالنقلية ينبغي أن لا يوجد بوجه ، وإنما يذكر على سبيل الفرض والتقدير : ﴿ إن كفرتم ﴾ أي أوقعتم الستر لما غرس في فطركم من أنوار الدلائل القائدة إلى الإيمان فبقيتم على كفركم – على أن العبارة مشيرة إلى أنه عفا عنهم الكفر الماضي فلا يعده عليهم رحمة منه وكرماً ولا يعد عليهم إلا ما أوقعوه بعد مجيء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ يوماً ﴾ أي هو مثل في الشدة بحيث إنه يقال فيه ﴿ يجعل ﴾ لشدة أهواله وزلزاله وأوجاله ﴿ الولدان ﴾ أي عند الولادة أو بالقرب منها ﴿ شيباً ﴾ جمع أشيب وهو من ابيض شعره ، وذلك كناية أن عن كثرة الهموم فيه لأن العادة جارية بأنها إذا تفاقمت

أسرعت بالشيب ، والمعنى إنكار أن يقدروا على أن يجعلوا لهم وقاية بغاية جهدهم تقيهم عذاب ذلك اليوم الموصوف بهذا الهول الأعظم ، وذلك حين يقول الله : " يا آدم قم فابعث بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين " وأسند الجعل إلى اليوم لكونه واقعاً فيه كما جعله المتقي ، وإنما المتقي العذاب الواقع فيه .

ولما كان هذا أمراً عظيماً ، صور بعض أهواله زيادة في عظمه فقال : ﴿ السماء ﴾ أي على عظمها وعلوها وشدة إحكامها .

(190/788)

ولما كان المراد الجنس الشامل للكل ذكر فقال : ﴿ منفطر ﴾ أي منشق متزايل من هيبة الرب تزايل المتفرط من السلك ، ولو أنث لكان ظاهراً في واحدة من السماوات ، وفي اختيار التذكير أيضاً لطيفة أخرى ، وهي إفهام الشدة الزائدة في الهول المؤدي إلى انفطاره ما هو في غاية الشدة لأن الذكر في كل شيء أشد من الأنثى ، وذلك كله تهويلاً لليوم المذكور ﴿ به ﴾ أي بشدة ذلك اليوم وباؤه للآلة ، ويجوز كونها بمعنى " فيه " أي يحصل فيه التفطر والتشقق بالغمام ونزول الملائكة وغير ذلك من التساقط والوهي على شدة وثاقتها فما ظنك بغيرها .

ولما كان هذا عظيماً ، استأنف بيان هوانه بالنسبة إلى عظمته سبحانه وتعالى فقال : ﴿كان﴾ أي على كل حال وبكل اعتبار ﴿وعده﴾ أي وعد الله الذي تقدم ذكره في مظاهر العظمة ، فالإضافة للمصدر على الفاعل ﴿مفعولاً﴾ أي سهلاً مفروغاً منه في أي شيء كان ، فكيف إذا كان بهذا اليوم الذي هو محط الحكمة ، أو الضمير لليوم فالإضافة إلى المفعول ، إشارة إلى أن الوعد الواقع به وفيه لا بد منه ، ومعلوم أنه لا يكون إلا من الله .

ولما كان ما مضى من هذه السورة من الأحكام والترغيب والترهيب مرشداً إلى معالي الأخلاق منقذاً من كل سوء ، قال مستأنفاً مؤكداً تنبيهاً على عظمها وأنها مما ينبغي التنبيه عليه : ﴿إن هذه﴾ أي القطعة المتقدمة من هذه السورة ﴿تذكرة﴾ أي تذكير عظيم هو أهل لأن يتعظ به المتعظ ويعتبر به المعتبر ، ولا سيما ما ذكر فيها بأهل الكفر من أنواع العقاب .

(191/788)

ولما كان سبحانه قد جعل للإنسان عقلاً يدرك به الحسن والقبيح ، واختياراً يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الأصلح والأحسن إلا قسر المشيئة التي لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها ، سبب عن ذلك قوله : ﴿فمن شاء﴾ أي التذكر

للاتعاظ ﴿ اتخذ ﴾ أي أخذ بغاية جهده ﴿ إلى ربه ﴾ أي خاصة ، لا إلى غيره ﴿ سبيلاً ﴾ أي طريقاً يسلبه حظوظه لكونه لا لبس فيه ، فيسلك على وفق ما جاءه من التذكرة ، وذلك الاعتصام حال السير بالكتاب والسنة على وفق ما اجتمعت عليه الأمة ، ومتى زاغ عن ذلك هلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 212.215 ﴾

(192/788)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما خوف المكذبين أولي النعمة بأهوال القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15)

واعلم أن الخطاب لأهل مكة والمقصود تهديدهم بالأخذ الوبيل ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم نكر الرسول ثم عرف ؟ الجواب : التقدير أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه فأخذناه أخذاً وبيلاً ، فأرسلنا إليكم أيضاً رسولاً فعصيتم ذلك الرسول ، فلا بد وأن نأخذكم أخذاً وبيلا .

السؤال الثاني : هل يمكن التمسك بهذه الآية في إثبات أن القياس حجة ؟ والجواب : نعم

لأن الكلام إنما ينتظم لو قسنا إحدى الصورتين على الأخرى ، فإن قيل : هب أن القياس في هذه الصورة حجة ، فلم قلتم : إنه في سائر الصور حجة ، وحينئذ يحتاج إلى قياس سائر القياسات على هذا القياس ، فيكون ذلك إثباتاً للقياس بالقياس ، وإنه غير جائز ؟ قلنا : لا نثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة ، وإلا لزم المحذور الذي ذكرتم ، بل وجه التمسك هو أن نقول : لولا أنه تمهد عندهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظناً يجب اشتراكهما في الحكم ، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة ، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم ههنا فإن لقائل أن يقول : لعلهم إنما استوجبوا الأخذ الوبيل بخصوصية حالة العصيان في تلك الصورة وتلك الخصوصية غير موجودة ههنا ، فلا يلزم حصول الأخذ الوبيل ههنا ، ثم إنه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم بالتسوية في الحكم فهذا الجزم لا بد وأن يقال : إنه كان مسبوقاً بتقرير أنه متى وقع الاشتراك في المناط الظاهر وجب الجزم بالاشتراك في الحكم ، وإن مجرد احتمال الفرق بالأشياء التي لا يعلم كونها مناسبة للحكم لا يكون قادحاً في تلك التسوية ، فلا معنى لقولنا القياس حجة إلا هذا .

(193/788)

السؤال الثالث : لم ذكر في هذا الموضع قصة موسى وفرعون على التعيين دون سائر الرسل والأمم ؟ الجواب : لأن أهل مكة ازدروا محمداً عليه الصلاة والسلام ، واستخفوا به لأنه ولد فيهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد فيما بينهم وهو قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] .

السؤال الرابع : ما معنى كون الرسول شاهداً عليهم ؟ الجواب : من وجهين الأول : أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم الثاني : المراد كونه مبيناً للحق في الدنيا ، ومبيناً لبطلان ما هم عليه من الكفر ، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق ، ولذلك وصفت بأنها بينة ، فلا يمتنع أن يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث إنه بين الحق ، وهذا بعيد لأن الله تعالى قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي عدولاً خياراً ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] فبين أنه يكون شاهداً عليهم في المستقبل ، ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة ، وحمله على البيان مجاز والحقيقة أولى .

السؤال الخامس : ما معنى الوبيل ؟ الجواب : فيه وجهان الأول : الوبيل : الثقيل الغليظ ومنه قولهم : صار هذا وبالاً عليهم ، أي أفضى به إلى غاية المكروه ، ومن هذا قيل للمطر العظيم : وابل ، والوبيل : العصا الضخمة الثاني : قال أبو زيد : الوبيل الذي لا يستمرأ ، وماء وبيل وخيم إذا كان غير مريء وكلأ مستوبل ، إذا أدت عاقبته إلى مكروه ، إذا

عرفت هذا فنقول قوله : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ يعني الغرق ، قاله الكلبي ومقاتل وقتادة .

ثم إنه تعالى عاد إلى تخويفهم بالقيامة مرة أخرى

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : في الآية تقديم وتأخير ، أي فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم .

المسألة الثانية :

ذكر صاحب "الكشاف" في قوله : ﴿ يَوْماً ﴾ وجوهاً الأول : أنه مفعول به ، أي فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر والثاني : أن يكون ظرفاً أي وكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا والثالث : أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة ، والجزاء لأن تقوى الله لا معنى لها إلا خوف عقابه .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى ذكر من هول ذلك اليوم أمرين الأول : قوله : ﴿ يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ وفيه وجهان الأول : أنه مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب ، لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب ، وذلك الانقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها ، يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط ، وذلك يوجب ابيضاض الشعر ، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم ، جعلوا الشيب كناية عن الشدة والمحنة ، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الوالدان شيباً حقيقة ، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان غير جائز يوم القيامة الثاني : يجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب ، ولقد سألني بعض الأدباء عن قول المعري :

(195/788)

وظلم يملأ الفودين شيباً . . (1)

وقال : كيف يفضل هذا التشبيه الذي في القرآن على بيت المعري ؟ فقلت : من وجوه

الأول : أن امتلاء الفودين من الشيب ليس بعجب ، أما صيرورة الولدان شيباً فهو عجيب كأن شدة ذلك اليوم تنقلهم من سن الطفولية إلى سن الشيخوخة ، من غير أن يمروا فيما بين الحالتين بسن الشباب ، وهذا هو المبالغة العظيمة في وصف اليوم بالشدة وثانيها : أن امتلاء الفودين من الشيب معناه ابيضاض الشعر ، وقد يبيض الشعر لعلة مع أن قوة الشباب تكون باقية فهذا ليس فيه مبالغة ، وأما الآية فإنها تدل على صيرورة الولدان شيوخاً في الضعف والنحافة وعدم طراوة الوجه ، وذلك نهاية في شدة ذلك اليوم وثالثها : أن امتلاء الفودين من الشيب ، ليس فيه مبالغة لأن جانبي الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية ، ولهذا السبب ، فإن الشيب إنما يحدث أولاً في الصدغين ، وبعده في سائر جوانب الرأس ، فحصول الشيب في الفودين ليس بمبالغة إنما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس بل على جميع أجزاء البدن كما هو مذكور في الآية ، والله أعلم .

النوع الثاني : من أهوال يوم القيامة قوله : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ وهذا وصف لليوم بالشدة أيضاً ، وأن السماء على عظمها وقوتها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، ونظيره قوله :

﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] وفيه سؤالان :

السؤال الأول : لم لم يقل : منفطرة ؟ الجواب من وجوه : أولها : روى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء ، إنما قال : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ ﴾ ولم يقل : منفطرة لأن مجازها مجاز

السقف ، تقول : هذا سماء البيت وثانيها : قال الفراء : السماء تؤنث وتذكر ، وهي ههنا في وجوه التذكير وأنشد شعراً :

فلو رفع السماء إليه قوما . . لحقنا بالنجوم مع السحاب

وثالثها : أن تأنيث السماء ليس بحقيقي ، وما كان كذلك جاز تذكيره .

قال الشاعر :

والعين بالإثمد الخيري مكحول . . وقال الأعشى :

---

(1) الرواية : وجنح يملأ الفودين شيبا ولكن يجعل الصحراء خالا

فلا مزنة ودقت ودقها . . ولا أرض أبقل إبقالها

ورابعها : أن يكون السماء ذات انفطار فيكون من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ، وأعجاز نخل منقعر ، وكقولهم امرأة مرضع ، أي ذات رضاع .

السؤال الثاني : ما معنى : ﴿ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ ؟ الجواب من وجوه : أحدها : قال الفراء : المعنى منفطر فيه وثانيها : أن الباء في (به) مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، يعني أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله ، كما ينفطر الشيء بما ينفطر به وثالثها : يجوز أن

يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظم تلك الواقعة عليها وخشيتها منها كقوله : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] .

أما قوله : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ فاعلم أن الضمير في قوله : ﴿ وَعْدَهُ ﴾ يحتمل أن يكون عائداً إلى المفعول وأن يكون عائداً إلى الفاعل ، أما الأول : فأن يكون المعنى وعد ذلك اليوم مفعول أي الوعد المضاف إلى ذلك اليوم واجب الوقوع ، لأن حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه ، وأما الثاني : فأن يكون المعنى وعد الله واقع لا محالة لأنه تعالى منزه عن الكذب وههنا وإن لم يجر ذكر الله تعالى ولكنه حسن عود الضمير إليه لكونه معلوماً ، واعلم أنه تعالى بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء ، ومعلوم أن أحوالهم قسمان أحدهما : ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك والثاني : ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله : ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [المزمل : 10] وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الوبيل في الدنيا ، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة ، فعند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله :

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)

أي هذه الآيات تذكرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 161.164 ﴾

(198/788)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾

نداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، واختلف الناس لِمَ نودي بهذا ، فقالت عائشة والنخعي وجماعة : لأنه كان وقت نزول الآية متزملاً بكساء ، والتزمل : الالتفاف في الثياب بضم وتشمير ، ومنه قول امرئ القيس : [الطويل]

كأن أبانا في أفانين ودقة . . . كبير أناس في بجاد مزمل

(199/788)

أي ملفوف ، وخفض مزمل في هذا البيت هو على الجوار ، وإنما هو نعت لكبير ، فهو عليه السلام على قول هؤلاء ، إنما دعي بهيئة في لباسه . وقال قتادة ، كان تزمل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها ، وهذا القول مدح له صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة معناه : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ للنبوءة وأعبائها ، أي المتشمر المجدّ . وقال جمهور المفسرين والزهري بما في البخاري من أنه عليه السلام لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خديجة فقال : زملوني زملوني : فنزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] ، وعلى هذا نزلت ﴿ يا أيها المزمل ﴾ . وفي مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب " يا أيها المتزمل " . وقرأ بعض السلف " يا أيها المزَمَّل " بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدها ، والمعنى الذي زمله أهله أو زمل للنبوءة . وقرأ عكرمة " يا أيها المزمِّل " بكسر الميم المشددة وتخفيف الزاي أي المزمل نفسه ، واختلف الناس في هذا الأمر بقيام الليل كيف كان ؟ فقال جمهور أهل العلم : هو أمر على جهة الندب مذ كان لم يفرض قط ، ويؤيد هذا : الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة في رمضان خلف حصير احتجره فصلى وصلى بصلاته ناس ثم كثروا من الليلة القابلة ثم غص المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال : " إني إنما تركت الخروج لأني خفت أن

يفرض عليكم " . وقيل إنه لم يكلمهم إلا بعد الصبح . وقال آخرون : كان فرضاً في وقت نزول هذه الآية . واختلف هؤلاء فقال بعضهم : كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وبقي كذلك حتى توفي عليه السلام ، وقيل : بل نسخ عنه ولم يمت إلا والقيام تطوع ، وقال بعضهم : كان فرضاً على الجميع ودام الأمر على ما قال سعيد بن جبير عشر سنين ، وقالت عائشة وابن عباس دام عاماً ، وروي عنها

(200/788)

أيضاً ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالى . فنزلت : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ [المزمل : 20] فخفف عنهم . وقال قتادة بقي عاماً أو عامين . وقرأ أبو السمال " قمُ الليل " بضم الميم لاجتماع الساكنين ، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس ، وقوله تعالى : ﴿ نصفه ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿ قليلاً ﴾ ، وكيف ما تقلب المعنى ، فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيء أو أقل شيء ، فالأكثر عند العلماء لا يزيد على الثلثين ، والأقل لا ينحط عن الثلث ويقوي هذا حديث ابن عباس في بيت ميمونة قال : فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلزم على هذا الذي ذكرناه أن يكون نصف الليل قد وقع عليه الوصف بقليل ، وقد يحتمل عندي قوله ﴿ إلا

قليلاً ﴾ ، أن يكون استثناء من القيام ، فيجعل الليل اسم جنس ، ثم قال ﴿ إلا قليلاً ﴾ ، أي الليالي التي تخل بقيامها عند العذر البين .

(201/788)

وهذا النظر يحسن مع القول مع الندب جداً . وقد تكلم الجرجاني رحمه الله في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد أكثره غير صحيح . وقرأ الجمهور : " أوُ انقص " بضم الواو ، وقرأ الحسن وعاصم وحمزة بكسر الواو ، وقرأ عيسى بالوجهين ، والضمير في ﴿ منه ﴾ و ﴿ عليه ﴾ عائدان على النصف ، وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ﴾ معناه في اللغة تمهل وفرق بين الحروف لتبين . والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني ، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة . قال ابن كيسان : المراد تفهمه تالياً له ومنه الثغر الرتل الذي بينه فسخ وفتوح . وروي أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بينة مترسلة لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدها . والقول الثقيل : هو القرآن . واختلف الناس لم سماه ﴿ ثقيلاً ﴾ ، فقالت جماعة من المفسرين : لما كان يحل في رسول الله من ثقل الجسم حتى أنه كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به ، وحتى كادت فخذه أن ترض فخذ زيد بن ثابت رحمه الله . وقال أبو العالية والقرطبي : بل سماه ﴿ ثقيلاً ﴾ لثقله على

الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك . وقال حذاق العلماء : معناه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة دائمة ، قال الحسن : إن الهذ خفيف ولكن العمل ثقيل . وقوله تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً ﴾ ، قال ابن جبير وابن زيد هي لفظة حبشية نشأ الرجل إذا قام من الليل ، ف ﴿ ناشئة ﴾ على هذا ، جمع ناشئ ، أي قائم ، و ﴿ أشد وطئاً ﴾ معناه ثبوتاً واستقلالاً بالقيام ، ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ ، أي بخلو أفكارهم وإقبالهم على ما يقرأونه .

(202/788)

وقال ابن عمر وأنس بن مالك وعلي بن الحسين : ﴿ ناشئة الليل ﴾ ما بين المغرب والعشاء ، وقالت عائشة ومجاهد : القيام بعد النوم ، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة ، وقال ابن جبير وابن زيد وجماعة : ﴿ ناشئة الليل ﴾ ساعاته كلها لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء . وقال أبو مجلز وابن عباس وابن الزبير والحسن : ما كان بعد العشاء فهو ﴿ ناشئة ﴾ ، وما كان قبلها فليس ب ﴿ ناشئة ﴾ ، قال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل فهي ﴿ أشد وطئاً ﴾ أي أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ ؟ وقال الكسائي : ﴿ ناشئة الليل ﴾ أوله ، وقال ابن عباس

وابن الزبير : الليل كله ﴿ ناشئة ﴾ و ﴿ أشد وطئاً ﴾ ، على هذا يحتمل أن يكون أشد ثبوتاً فيكون نسب الثبوت إليها من حيث هو القائم فيها .

(203/788)

ويحتمل أن يريد أنها صعبة القيام لمنعها النوم كما قال " اللهم اشدد وطأتك على مضر " فذكرها تعالى بالصعوبة ليعلم عظم الأجر فيها كما وعد على الوضوء على المكاره والمشي في الظلام إلى المساجد ونحوه . وقرأ الجمهور : " وَطْئاً " بفتح الواو وسكون الطاء ، وقرأ أبو عمرو ومجاهد وابن الزبير وابن عباس : " وطاء " على وزن فعال ، والمعنى موافقة لأنه يخلو البال من أشغال النهار وأشغابه ، فيوافق قلب المرء لسانه ، وفكره عبارته فهذه مواطأة صحيحة ، وبهذا المعنى فسر اللفظ مجاهد وغيره ، وقرأ قتادة في رواية حسين : " وِطاء " بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة ، وقرأ أنس " وأصوب قيلاً " ، فقيل له إنما هو ﴿ أقوم ﴾ ، فقال : أقوم وأصوب وأهيأ واحد . وقوله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ أي تصرفاً وتردداً في أمورك كما يتردد السابح في الماء . ومنه سمي الفرس سابحاً لتثنيه واضطرابه ، وقال قوم من أهل العلم إنما معنى الآية التنبيه على أنه إن فات حزب الليل بنوم أو عذر فليخلف بالنهار فإن فيه ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ ، وقرأ يحيى بن يعمر

وعكرمة : " سبخاً طويلاً " بالخاء منقوطة ، ومعناه خفة لك من التكاليف ، والتسبيخ التخفيف ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا تسبخي عنه " لعائشة في السارق الذي سرقها ، فكانت تدعو عليه ، معناه لا تخففي عنه . قال أبو حاتم : فسر يحيى السبح بالنوم .

(204/788)

وقال سهل : ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ يراد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتك ، ﴿ وتبتل ﴾ معناه : انقطع من كل شيء إلا منه وأفرغ إليه . قال زيد بن أسلم : التبتل رفض الدنيا ومنه تبتل الحبل ، وقولهم في الهبات ونحوها بتلة ، ومنه البتول ، و ﴿ تبتيلاً ﴾ مصدر على غير المصدر ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر : " ربِّ المشرق " بالخفض على البدل من ﴿ ربك ﴾ ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : " ربُّ " على القطع أي هو رب أو على الابتداء والخبر ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . وقرأ ابن عباس وأصحاب عبد الله : " رب المشارق والمغارب " بالجمع . والوكيل : القائم بالأمر الذي يوكل إليه الأشياء ، وقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ الآية ، قيل هي موادعة منسوخة بآية السيف ، والمراد بالآية قريش . وقال بعض العلماء : قوله ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً

﴾ منسوخ ، وأما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أحياناً ويبقى حكمه ، وفيما يتوجه من الهجر الجميل من المسلمين ، قال أبو الدرداء : إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتقليهم .

والقول الأول أظهر لأن الآية إنما هي في كفر قريش وردهم رسالته وإعلائهم بذلك لا يمكن أن يكون الحكم في هذه المعاني باقياً .

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11)

(205/788)

قوله تعالى : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ وعيد لهم ، ولم يتعرض احد لمنعه منهم ، لكنه إبلاغ بمعنى لا تشغل بهم فكراً ، وكلهم إليّ . و﴿ النعمة ﴾ غضارة العيش وكثرة المال .

والمشار إليهم كفار قريش أصحاب إلا مدة يسيرة نحو عام وليس الأمر كذلك ، والتقدير الذي يعضده الدليل من إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضي أن بين الأمرين نحو العشرة الأعوام ، ولكن ذلك قليل أمهلوه ، و﴿ لدينا ﴾ بمنزلة عندنا ، و" الأنكال " جمع نكل ، وهو القيد من الحديد ، ويروى أنها قيود سود من نار ، و" الطعام ذو الغصة " ، شجرة الزقوم قاله مجاهد وغيره ، وقيل شوك من نار وتعترض في حلوقهم لا تخرج ولا تنزل قاله ابن عباس ، وكل مطعوم هنالك فهو ذو غصة ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم

قرأ هذه الآية فصعق ، والعامل في قوله ﴿ يوم ترجف ﴾ ، الفعل الذي تضمنه قوله ﴿ إن لدينا ﴾ ، وهو استقرار أو ثبوت ، والرجفان : الاهتزاز والاضطراب من فزع وهول ، و" المهيل " اللين الرخو الذي يذهب بالريح ويجيء مهيلة . والأصل مهيول استثقلت الضمة على الياء فسكنت واجتمع ساكنان فحذفت الواو وكسرت الهاء بسبب الياء . وقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم ﴾ الآية خطاب للعالم ، لكن المواجهون قريش ، وقوله ﴿ شاهداً عليكم ﴾ نحو قوله ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] ، وتمثيله لهم أمرهم بفرعون وعيد كأنه يقول : فحالهم من العذاب والعقاب إن كفروا سائرة إلى مثل حال فرعون ، وقوله تعالى : ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ يريد موسى عليه السلام ، والألف واللام للعهد . والوبيل : الشديد الرديء العقبى ، ويقال : كلأ وبيل ومستوبل إذا كان ضاراً لما يرعاه . وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون ﴾ معناه تجعلون لأنفسكم ، و ﴿ يوماً ﴾ مفعول ب ﴿ تتقون ﴾ ، وقيل هو مفعول ب ﴿ كفرتم ﴾ على أن يجعله بمنزلة جحدتم ، ف ﴿ تتقون ﴾ على هذا من التقوى ، أي ﴿ تتقون ﴾ عقاب الله ﴿ يوم ﴾ ، و ﴿ يجعل ﴾ يصح أن يكون مسنداً إلى

اسم الله تعالى ، ويصح أن يكون مسنداً إلى اليوم . وقوله تعالى : ﴿ الولدان شيباً ﴾ يريد صغار الأطفال ، وقال قوم هذه حقيقة تشيب رؤوسهم من شدة الهول كما قد ترى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر ونحوه . وقال آخرون من المتأولين : هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم . وواحد ﴿ الولدان ﴾ وليد ، وواحد الشيب أشيب . وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قيل هذا على النسب أي ذات انفطار كامرأة حائض وطالق ، وقيل السماء تذكر وتؤنث ، وينشد في التذكير : [الوافر]

فلو رفع السماء إليه قوماً . . . لحقنا بالسماء مع السحاب

وقيل من حيث لم يكن تأنيثها حقيقياً ، جاز أن تسقط علامة التأنيث لها ، وقيل لم يرد اللفظ قصد السماء بعينها وإنما أراد ما علا من مخلوقات الله كأنه قصد السقف فذكر على هذا المعنى ، قاله منذر بن سعيد وأبو عبيدة معمر والكسائي : و﴿ الانفطار ﴾ التصدع والانشقاق على غير نظام ، بقصد ، والضمير في ﴿ به ﴾ قال المنذر وغيره : هو عائد على اليوم ، وقال مجاهد : هو عائد على الله تعالى ، وهذا نظير قوله ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] الذي هو ظل يأتي الله فيها . والمعنى يأتي أمره وقدرته ، وكذلك هنا ﴿ منفطر به ﴾ أي بأمره وسلطانه ، والضمير في قوله ﴿ وعده ﴾ ظاهر أنه لله تعالى . ويحتمل أن يكون لليوم لأنه يضاف إليه من حيث هو منه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً ﴾

يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾

وهو موسى ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ أي كذب به ولم يؤمن .

قال مقاتل : ذكَر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة ازدروا محمداً صلى الله عليه وسلم

واستخفوا به ؛ لأنه ولد فيهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى ؛ لأنه ربّاه ونشأ فيما بينهم ،

كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] .

قال المهدويّ : ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدّم ذكره ؛ ولذلك اختير في أوّل الكتب

سلام عليكم ، وفي آخرها السلام عليكم .

﴿ وَبِيلاً ﴾ أي ثقيلاً شديداً .

وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل : أي شديد ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

ومنه مطر وابل أي شديد ؛ قاله الأخفش .

وقال الزجاج : أي ثقيلاً غليظاً .

ومنه قيل للمطر وابل .

وقيل : مُهلكاً والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة قال :

أَكَلْتِ بَنِيك أَكْلَ الضَّبِّ حتى . . .

وجَدْتِ مَرَارَةَ الْكَلإِ الْوَبِيلِ

واستوبل فلان كذا : أي لم يَحمد عاقبته .

وماء وبيل : أي وخيم غير مريء ، وكَلأٌ مستَوْبَل وطعام وبيل ومُستَوبَلٌ : إذا لم يُمْرِيء ولم يُسْتَمْرأْ ؛ قال زهير :

فَقَضَّوْا مَنايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا . . .

إِلَى كَلأٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

وقالت الخنساء :

لَقَدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لاقَتْ . . .

فَوَارِسَ مَالك أَكْلاً وَبِيلاً

والوبيل أيضاً : العصا الضخمة ؛ قال :

لَوَاصبح في يُمْنى يَدَيَّ زِمامُها . . .

وفي كَفِّيَ الأُخْرى وَبِيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء ، والمَوْبِلة أيضاً : الحُزْمة من الحطب ، وكذلك الوَبِيل ، قال طَرفة

:

عَقِيلَةُ شَيْخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدُ . . .

(208/788)

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ هو توبيخ وتقريع ، أي كيف تتقونَ العذاب إن كفرتم .

وفيه تقديم وتأخير ، أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم .

وكذا قراءة عبد الله وعطية .

قال الحسن : أي بأي صلاة تتقون العذاب ؟ بأي صوم تتقون العذاب ؟ وفيه إضمار ، أي كيف تتقون عذاب يوم .

وقال قتادة : واللَّهِ ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء .

و "يَوْماً" مفعول ب "تَتَّقُونَ" على هذه القراءة وليس بظرف ، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول "كَفَرْتُمْ" .

وقال بعض المفسرين : وقف التمام على قوله : ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ والابتداء "يَوْماً" يذهب إلى أن اليوم مفعول "يجعل" والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيباً في يوم .

قال ابن الأنباري : وهذا لا يصلح ؛ لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدّة هوله .

المهدويّ : والضمير في "يجعل" يجوز أن يكون لله عز وجل ، ويجوز أن يكون لليوم ، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له ، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف ؛ كأنه قال : يوماً يجعل الله الولدان فيه شيباً .

ابن الأنباريّ : ومنهم من نصب اليوم ب "كفرتم" وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا عُلّق ب "كفرتم" احتاج إلى صفة ؛ أي كفرتم بيوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(209/788)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾

خطاب للمكذبين أولى النعمة سواء جعلوا القائلين أو بعضهم ففيه التفات من الغيبة وهو التفات جليل الموقع أي أنا أرسلنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة ﴿ رَسُولاً شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ هو موسى عليه السلام وعدم تعيينه لعدم دخله في التشبيه أو لأنه معلوم غني عن البيان .

﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ المذكور الذي أرسلناه إليه فالتعريف للعهد الذكري والكاف في محل النصب على أنها صفة لمصدر محذوف على تقدير اسميتها أي إرسالاً مثل إرسالنا أو الجار والمجرور في موضع الصفة على تقدير حرفيتها أي إرسالاً كائناً كما والمعنى أرسلنا إليكم رسولاً ﴿ شاهداً عليكم ﴾ [المزمل : 15] فعصيتموه كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه وفي إعادة فرعون والرسول مظهرين تفظيع لشأن عصيانه وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى وفيه أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم إذ زاد جل وعلا لهذا الرسول وصفاً آخر أعني شاهداً عليكم وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لهم وقوله تعالى : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ أي ثقيلاً رديء العقبى من قولهم كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله والوبيل أيضاً العصا الضخمة ومنه الوابل للمطر العظيم قطره خارج عن التشبيه جيء به لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد وأشد وقوله تعالى :

(210/788)

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ مراتب على الإرسال فالعصيان ويوماً مفعول به لتتقون ما بتقدير مضاف أي عذاب أو هول يوم أبو بدونه إلا أن المعنى عليه

وضمير يجعل لليوم والجملة صفته والإسناد مجازي وقال بعض الضمير لله تعالى والإسناد حقيقي والجملة صفة محذوفة الرابط أي يجعل فيه كما في قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ يجزى نَفْسٌ ﴾ [البقرة : 48] وكان ظاهر الترتيب أن يقدم على قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ [المزمل : 15] إلا أنه أخر إلى هنا زيادة على زيادة في التهويل فكأنه قيل هبوا أنكم لا تؤخذون في الدنيا أخذة فرعون واضرابه فكيف تقون أنفسكم هول القيامة وما أعد لكم من الأنكال إن دمتم على ما أنتم عليه ومتم في الكفر وفي قوله سبحانه إن كفرتم وتقديره تقدير مشكوك في وجوده ما ينبه على أنه لا ينبغي أن يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحد شبهة تبقيه في الكفر فهو النور المبين وجوز أن يكون يوماً ظرفاً لتتقون على معنى فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا والكلام حينئذ للحث على الإقلاع من الكفر والتحذير عن مثل عاقبة آل فرعون قبل أن لا ينفع الندم وجوز أيضاً أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم والمعنى فكيف يرجى إقلاعكم عن الكفر واتقاء الله تعالى وخشيته وأنتم جاحدون يوم الجزاء كأنه لما قيل ﴿ يوم ترجف ﴾ [المزمل : 14] عقب بقوله تعالى فكيف تتقون الله إن كفرتم به فأعيد ذكر اليوم بصفة أخرى زيادة في التهويل والوجه الأول أولى قاله في "الكشف" وقال العلامة الطيبي في الوجه الأخير أعني انتصاب يوماً بكفرتم أنه أوفق للتأليف يعني خوفناكم بالأنكال والجحيم وأرسلنا إليكم رسولاً شاهداً يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم وأنذرناكم بما فعلنا بفرعون من العذاب الوبيل

والأخذ الثقيل فما نجع فيكم ذلك كله ولا اتقيتم الله تعالى فكيف تتقونه وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء وفيه

(211/788)

أن ملاك التقوى والخشية الايمان بيوم القيامة انتهى .

ولا يخفى أن جزالة المعنى ترجح الأول وذهب جمع إلى أن الخطاب في ﴿ إنا أرسلنا ﴾ [المزمل : 15] إليكم عام للأسود والأحمر فالظاهر أنه ليس من الالتفات في شيء وأياً ما كان فجعل الولدان شيباً أي شيوخاً جمع أشيب قيل حقيقة فتشيب الصبيان وتبيض شعورهم من شدة يوم القيامة وذلك على ما أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود حين يقول الله تعالى لآدم عليه السلام قم فأخرج من ذريتك بعث النار فيقول يا رب لا علم لي إلا ما علمتني فيقول الله عز وجل أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيخرجون ويساقون إلى النار سوقاً مقرنين زرقاً كالحين قال ابن مسعود فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد وفي حديث الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحو ذلك وقيل مثل في شدة الهول من غير أن يكون هناك شيب بالفعل فإنهم يقولون في اليوم الشديد يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل في ذلك أن الهموم إذا تفاقمت على المرأ أضعفت قواه وأسرعت فيه الشيب ومن

هنا قيل الشيب نوار الهموم وحديث البعث لا يأبى هذا وجوز الزمخشري أن يكون ذلك وصفاً لليوم بالطول وإن الأطفال يبلغون فيه أو أن الشيخوخة والشيب وليس المراد به التقدير الحقيقي بل وصف بالطول فقط على ما تعارفوه وإلا فهو أطول من ذك وأطول فلا اعتراض لكنه مع هذا ليس بذاك والظاهر عموم الولدان وقال السدي هم هنا أولاد الزنا وقيل هم أولاد المشركين وقرأ زيد بن علي يوم بغير تنوين نجعل بالنون فالظرف مضاف إلى جملة نجعل الخ.

﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ ﴾

(212/788)

أي منشق وقرىء متفطر أي متشقق ﴿ بِهِ ﴾ أي بذلك اليوم والباء للآلة مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به يعني أن السماء على عظمها وأحكامها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به فما ظنك بغيرها من الخلائق وجوز أن يراد السماء مثقلة به الآن أثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه كقوله تعالى ﴿ ثَقُلَتْ فِى السموات ﴾ [الأعراف : 187] فالكلام من باب التخييل والانفطار كناية عن المبالغة في ثقل ذلك اليوم والمراد إفادة أنه الآن على هذا الوصف والأول أظهر

وأوفق لأكثر الآيات وكان الظاهر السماء منفطرة بتأنيث الخبر لأن المشهور أن السماء مؤنثة لكن اعتبر إجراء ذلك على موصوف مذكر فذكر أي شيء منفطر به والنكتة فيه التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي وتبعهم منذر بن سعيد التذكير لتأويل السماء بالسقف وكان النكتة فيه تذكير معنى السقفية والإضلال ليكون أمر الانفطار أدهش وأهول وقال أبو علي الفارسي التقدير ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع أي ذات رضاع فجرى على طريق النسب وحكى عنه أيضاً أن هذا من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر وأعجاز نخل منقعر يعني أن السماء من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث وأن مفرده سماءة واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث فجاء منفطر على التذكير وقال الفراء السماء يعني المظلة تذكر وتؤنث فجاء منفطر على التذكير ومنه قوله الشاعر

: فلو رفع السماء إليه قوما . . .

لحقنا بالسماء وبالسحاب

(213/788)

وعليه لا حاجة إلى التأويل وإنما تطلب نكتة اعتبار التذكير مع أن الأكثر في الاستعمال اعتبار التأنيث ولعلها ظاهرة لمن له أدنى فهم وحمل الباء في به على الآلة هو الأوفق لتهويل أمر ذلك اليوم وجوز حملها على الظرفية أي السماء منفطر فيه وعود الضمير المجرور على اليوم هو الظاهر الذي عليه الجمهور وقال مجاهد يعود على الله تعالى أي بأمره سبحانه وسلطانه عز وجل فهو عنده كالضمير في قوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ فإنه له تعالى لعلمه من السباق والمصدر مضاف إلى فاعله ويجوز أن يكون لليوم كضمير به عند الجمهور والمصدر مضاف إلى مفعوله .

﴿ إِنَّ هذه ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بالتقرب إليه تعالى بالايمان والطاعة فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته عز وجل ومفعول شاء محذوف والمعروف في مثله أن يقدر من جنس الجواب أي فمن شاء اتخاذ سبيل إلى ربه تعالى اتخذ الخ وبعض قدره الاتعاظ لمناسبة ما قبل أي فمن شاء الاتعاظ اتخذ إلى ربه سبيلاً والمراد من نوى أن يحصل له الاتعاظ تقرب إليه تعالى لكن ذكر السبب وأريد مسببه فهو الجزاء في الحقيقة واختار في البحر ما هو المعروف وقال إن الكلام على معنى الوعد والوعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يأَيُّهَا المزمل ﴾

أصله المتزمل ، فأدغمت التاء في الزاي ، والتزمل : التلفف في الثوب .

قرأ الجمهور : ﴿ المزمل ﴾ بالإدغام .

وقرأ أبيّ : " المتزمل " على الأصل .

وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي ، ومثل هذه القراءة قول امرىء القيس :

كأن ثبيرا في أفانين وبله . . . كبير أناس في لحاد مزّمل

وهذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف في معناه ، فقال جماعة : إنه كان يتزمل صلى الله عليه وسلم بثيابه في أوّل ما جاءه جبريل بالوحي فرقاً منه حتى أنس به .

وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالنبوّة ، والملتزم للرسالة .

وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ : " يا أيها المزمل " بتخفيف الزاي وفتح الميم مشدّدة اسم مفعول .

وقيل المعنى : يا أيها المزمل بالقرآن .

وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه .

وقيل : بلغه من المشركين سوء قول ، فتزمل في ثيابه وتدثر ، فنزلت : ﴿ يأَيُّهَا المزمل ﴾ و

﴿ يأَيُّهَا المدثر ﴾ [المدثر : 1] .

وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما سمع صوت الملك ، ونظر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله ، وقال : " زملوني دثروني " وكان خطابه صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب في أول نزول الوحي .

ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة ﴿ قُمِ اليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : قم للصلاة في الليل .

قرأ الجمهور : ﴿ قم ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين .

وقرأ أبو السماك بضمها اتباعاً لضمة القاف .

قال عثمان بن جني : الغرض بهذه الحركة الهرب من التقاء الساكنين فبأيّ حركة تحرك فقد وقع الغرض .

وانتصاب الليل على الظرفية .

وقيل : إن معنى ﴿ قم ﴾ صلّ ، عبر به عنه واستعير له .

واختلف هل كان هذا القيام الذي أمر به فرضاً عليه أو نفلاً ؟ وسيأتي إن شاء الله ما روي في ذلك .

وقوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استثناء من الليل أي : صلّ الليل كله إلاّ يسيراً منه ، والقليل من الشيء هو ما دون النصف .

وقيل : ما دون السدس .

وقيل : ما دون العشر .

وقال مقاتل ، والكلبي : المراد بالقليل هنا الثلث ، وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ إلخ ، وانتصاب ﴿ نصفه ﴾ على أنه بدل من الليل .

قال الزجاج : نصفه بدل من الليل ، وإلاّ قليلاً استثناء من النصف ، والضمير في منه وعليه عائد إلى النصف .

والمعنى : قم نصف الليل ، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين ، فكأنه قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه .

وقيل : إن نصفه بدل من قوله ﴿ قليلاً ﴾ فيكون المعنى : قم الليل إلاّ نصفه ، أو أقلّ من نصفه ، أو أكثر من نصفه ، قال الأخفش : نصفه أي : أو نصفه ، كما يقال : أعطه درهماً درهمين ثلاثة ، يريد ، أو درهمين ، أو ثلاثة .

قال الواحدي : قال المفسرون : أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زد على النصف إلى الثلثين ، جعل له سعة في مدة قيامه في الليل ، وخيره في هذه الساعات للقيام ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشقّ ذلك عليهم ،

فكان الرجل لا يدري كم صلّى ، أو كم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم ، وقيل : الضميران في منه وعليه راجعان للأقل من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصفه ، أو قم أنقص من ذلك الأقلّ ، أو أزيد منه قليلاً ، وهو بعيد جداً ، والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً ، والضميران راجعان إلى النصف المبدل من ﴿ قليلاً ﴾ .

واختلف في الناسخ لهذا الأمر .

وقيل : هو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ اليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ [المزمل : 20] إلى آخر السورة .

وقيل : هو قوله : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ وقيل : هو قوله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ .

وقيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وبهذا قال مقاتل ، والشافعي ، وابن كيسان .

(216/788)

وقيل : هو قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] وذهب الحسن ، وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ أي : اقرأه على مهل مع تدبر .

قال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً .

قال الزجاج : هو أن يبيّن جميع الحروف ، ويوفي حقها من الإشباع .

وأصل الترتيل التنضيد ، والتنسيق ، وحسن النظام ، وتأكيد الفعل بالمصدر يدلّ على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم مع استيفاء حركته المعتبرة .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ أي : سنوحي إليك القرآن ، وهو قول ثقيل .

قال قتادة : ثقيل ، والله فرائضه وحدوده .

قال مجاهد : حلاله وحرامه .

قال الحسن : العمل به .

قال أبو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد ، والحلال والحرام .

وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين والكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم ، وسبّ إلهتهم .

وقال السديّ : ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقيل عليّ ، أي : يكرم عليّ .

قال الفراء : ثقيلاً رزيناً ليس بالخفيف السفساف .

لأنه كلام ربنا .

وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلاّ قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد .

وقيل : وصفه بكونه ثقيلاً حقيقة لما ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض ، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسري عنه .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ أي : ساعاته وأوقاته ؛ لأنها تنشأ أوّلاً فأوّلاً ، يقال : نشأ الشيء ينشأ : إذا ابتدأ وأقبل شيئًا بعد شيء ، فهو ناشىء ، وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب : إذا بدأت ، فناشئة فاعلة من نشأ ينشأ ، فهي ناشئة .

(217/788)

قال الزجاج : ناشئة الليل كل ما نشأ منه ، أي : حدث ، فهو ناشئة ، قال الواحدي : قال المفسرون : الليل كله ناشئة ، والمراد أن ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف .

وقيل : إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي : تنهض ، من نشأ من مكانه : إذا نهض .

وقيل : الناشئة بالحبشية قيام الليل ، وقيل : إنما يقال لقيام الليل ناشئة : إذا كان بعد نوم .

قال ابن الأعرابي : إذا نمت من أوّل الليل ثم قمت فتلك المنشأة والنشأة ، ومنه ناشئة الليل .

قيل : وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء ، لأن معنى نشأ ابتدأ ، ومنه قول نصيب :

ولولا أن يقال صبا نصيب . . . لقلت بنفسي النشأ الصغار

قال عكرمة ، وعطاء : إن ناشئة الليل بدوّ الليل .

وقال مجاهد وغيره : هي في الليل كله ؛ لأنه ينشأ بعد النهار ، واختار هذا مالك .

وقال ابن كيسان : هي القيام من آخر الليل .

قال في الصحاح : ناشئة الليل أوّل ساعاته .

وقال الحسن : هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وطأً ﴾ بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة ، واختار هذه القراءة أبو حاتم .

وقرأ أبو العالية ، وابن أبي إسحاق ، ومجاهد ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحميد ، وابن محيصن ، والمغيرة ، وأبو حيوة بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، فالمعنى على القراءة الأولى أن الصلاة في ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار ؛ لأن الليل للنوم .

قال ابن قتيبة : المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدّت على القوم وطأة السلطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اللَّهمّ اشدد وطأتك على مضر ﴾ والمعنى على القراءة الثانية أنها أشدّ مواطأة ، أي : موافقة ، من قولهم : واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطاء : إذا وافقته عليه .

قال مجاهد ، وابن أبي مليكة : أي أشد موافقة بين السمع والبصر ، والقلب واللسان لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه ﴿ لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ ﴾ [التوبة : 37] أي : ليوافقوا .

وقال الأخفش : أشدّ قياماً .

وقال الفرّاء أي : أثبت للعمل ، وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع .

وقال الكلبي : أشدّ نشاطاً ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي : وأشدّ مقالاً ، وأثبت قراءة لحضور القلب فيها وهدوء الأصوات ، وأشدّ استقامة واستمراراً على الصواب ؛ لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه .

قال قتادة ، ومجاهد : أي أصوب للقراءة ، وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم .

قال أبو عليّ الفارسي : أقوم قيلاً ، أي : أشدّ استقامة لفراغ البال بالليل .

قال الكلبي : أي أبين قولاً بالقرآن .

وقال عكرمة : أي أتمّ نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة .

وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه في القرآن .

وقيل : أعجل إجابة للدعاء .

﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ سبحاً ﴾ بالحاء المهملة أي : تصرفاً في حوائجك ، وإقبالاً وإدباراً ، وذهاباً ومجيئاً .

والسبح : الجري والدوران ، ومنه السباحة في الماء لتقلبه ببدنه ورجليه ، وفرس سابح ، أي : شديد الجري .

وقيل : السبح الفراغ أي : إن لك فراغاً بالنهار للحاجات ، فصلّ بالليل .

قال ابن قتيبة : أي تصرّفاً ، وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك .

وقال الخليل : إن لك في النهار سبحاً ، أي : نوماً ، والتسبح التمدّد .

قال الزجاج : المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك .

وقرأ يحيى بن يعمر ، وأبو وائل ، وابن أبي عبلة : " سبخاً " بالخاء المعجمة .

قيل : ومعنى هذه القراءة : الخفة والسعة والاستراحة .

(219/788)

قال الأصمعي : يقال : سبخ الله عنك الحمى ، أي : خففها ، وسبخ الحرّ فتر وخفّ ، ومنه قول الشاعر :

فسبخ عليك الهمّ واعلم بأنه . . . إذا قدّر الرحمن شيئًا فكائن

أي : خفف عنك الهمّ .

والتسبيخ من القطن : ما ينسج بعد الندف ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما . . . تذري سبائخ قطن ندف أوتار

قال ثعلب : السبخ بالخاء المعجمة التردّد والاضطراب ، والسبخ السكون .

وقال أبو عمرو : السبخ النوم والفراغ .

﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ أي : ادعه بأسمائه الحسنى .

وقيل : اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك ، وقيل : اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته ، وتبعد عن معصيته .

وقيل المعنى : دم على ذكر ربك ليلاً ونهاراً ، واستكثر من ذلك .

وقال الكلبي : المعنى صلّ لربك ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أي : انقطع إليه انقطاعاً بالاشتغال بعبادته ، والتبتل : الانقطاع ، يقال : بتلت الشيء أي : قطعته وميزته من غيره ، وصدقة بتلة ، أي : منقطعة من مال صاحبها ، ويقال للراهب متبتل : لانقطاعه عن الناس ، ومنه قول الشاعر :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها . . . منارة ممسى راهب متبتل

ووضع ﴿ تبتيلاً ﴾ مكان تبتلاً لرعاية الفواصل .

قال الواحدي : والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله .

﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، وابن عامر بجرّ ربّ على النعت لربك ، أو البدل منه ، أو البيان له .

وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ ، وخبره ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو ربّ المشرق ، وقرأ زيد بن عليّ بنصبه على المدح .

وقرأ الجمهور : ﴿ المشرق والمغرب ﴾ مفردين .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس " المشارق والمغارب " على الجمع .

(220/788)

وقد قدّمنا تفسير المشرق والمغرب ، والمشرقين والمغربين ، والمشارق والمغارب ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ أي : إذا عرفت أنه المختص بالربوبية ، فاتخذه وكيلاً ، أي : قائماً بأمورك ، وعوّل عليه في جميعها .

وقيل : كفيلاً بما وعدك من الجزاء والنصر ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من الأذى والسب

والاستهزاء ، ولا تجزع من ذلك ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ أي : لا تتعرّض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم .

وقيل : الهجر الجميل الذي لا جزع فيه .

وهذا كان قبل الأمر بالقتال .

﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ أي : دعني وإياهم ، ولا تهتم بهم فإني أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم .

قيل : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة وقد تقدّم ذكرهم .

وقال يحيى بن سلام : هم بنو المغيرة .

وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ أي : أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة في الدنيا ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي : تمهيلاً قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو زماناً قليلاً على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى أمهلهم إلى انقضاء آجالهم .

وقيل : إلى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، والأول أولى لقوله : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ وما بعده ، فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل ، وهو القيد ، كذا قال الحسن ، ومجاهد ، وغيرهما .

وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأوّل أعرف في اللغة ، ومنه قول الخنساء :

أتوك فقطعت أنكالهم . . . وقد كنّ قبلك لا تقطع

وقال مقاتل : هي أنواع العذاب الشديد .

وقال أبو عمران الجوني : هي قيود لا تحلّ ﴿ وَجَحِيماً ﴾ أي : ناراً مؤججة ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي : لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه ، فلا ينزل ، ولا يخرج .

قال مجاهد : هو الزقوم .

(221/788)

وقال الزجاج : هو الضريع ، كما قال : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : 6] قال : وهو شوك العوسج ، قال عكرمة : هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج ، والغصة : الشجا في الحلق ، وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره ، وجمعها غصص ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : ونوعاً آخر من العذاب غير ما ذكر .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرض والجبال ﴾ انتصاب الظرف إما بذرني ، أو بالاستقرار المتعلق به لدينا ، أو هو صفة لعذاب ، فيتعلق بمحذوف أي : عذاباً واقعاً يوم ترجف ، أو متعلق ب ﴿ أليماً ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ ترجف ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مبنياً للفاعل ، وقرأ زيد بن عليّ على

البناء للمفعول .

مأخوذ من أرجفها ، والمعنى : تتحرك وتضطرب بمن عليها ، والرجفة : الزلزلة والرعدة الشديدة ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ أي : وتكون الجبال ، وإنما عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ، والكثيب الرمل المجتمع ، والمهيل الذي يمرّ تحت الأرجل .

قال الواحدي : أي رملاً سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً من تراب ، أو طعام : أهلته هيلاً .

قال الضحاك ، والكلبي : المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال .

ومنه قول حسان :

عرفت ديار زينب بالكثيب . . . كخط الوحي في الورق القشيب

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ الخطاب لأهل مكة أو لكفار العرب أو لجميع الكفار .

والرسول محمد ، والمعنى : يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ يعني : موسى .

﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ الذي أرسلناه إليه وكذبه ، ولم يؤمن بما جاء به ، ومحل الكاف النصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، والمعنى : إنا أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ أي : شديداً ثقيلاً غليظاً ، والمعنى : عاقبنا فرعون عقوبة شديدة غليظة بالغرق ؛ وفيه تخويف لأهل مكة أنه سينزل بهم من العقوبة مثل ما نزل به ، وإن اختلف نوع العقوبة .

قال الزجاج أي : ثقيلاً غليظاً ، ومنه قيل للمطر : وابل .

وقال الأخفش : شديداً ، والمعنى متقارب ، ومنه طعام وبيل : إذا كان لا يستمرأ ، ومنه قول الخنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت . . . فوارس مالك أكلاً وبيلا

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أي : كيف تقون أنفسكم ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي : إن بقيتم على كفركم ﴿ يَوْماً ﴾ أي : عذاب يوم ﴿ يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ لشدّة هوله ، أي : يصير الولدان شيوخاً ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة ، وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلاً ؛ لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه ، وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوّة ، وفي هذا تقريع لهم شديد وتوبيخ عظيم .

قال الحسن : أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم ، وكذا قرأ ابن مسعود ،

وعطية ، ويوماً مفعول به لتتقون .

قال ابن الأنباري : ومنهم من نصب اليوم بكفرتم ، وهذا قبيح ، والولدان الصبيان ، ثم زاد في وصف ذلك اليوم بالشدّة ، فقال : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أي : متشققة به لشدّته وعظيم هوله ، والجملة صفة أخرى ليوم ، والباء سببية ، وقيل : هي بمعنى في أي : منفطر فيه ، وقيل : بمعنى اللام أي : منفطر له ، وإنما قال : ﴿ منفطر ﴾ ولم يقل : " منفطرة " لتنزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ، ولم يبق منها إلاّ ما يعبر عنه بالشيء .

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل : " منفطرة " ؛ لأن مجازها السقف ، كما قال الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوما . . . لحقنا بالسماء وبالسحاب

فيكون هذا ، كما في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] .

وقال الفرّاء : السماء تذكر وتؤنث .

وقال أبو عليّ الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ، و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] قال أيضاً : أي السماء ذات انفطار .

كقولهم : امرأة مرضع ، أي : ذات إرضاع على طريق النسب ، وانفطارها لنزول الملائكة ،

كما قال : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] وقوله : ﴿ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى : 5] .

وقيل : منفطر به ، أي : بالله ، والمراد : بأمره ، والأوّل أولى ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ أي : وكان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائناً لا محالة ، والمصدر مضاف إلى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولاً ، فالمصدر مضاف إلى مفعوله .

وقال مقاتل : كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

وقد أخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة ، والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله ، قالت : ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يأَيُّهَا المزمل ﴾ ؟ قلت : بلى ، قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أولّ هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوّعاً من بعد فرضه ، وقد روي هذا الحديث عنها من طرق .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ومحمد بن نصر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت أوّل المزمل

كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة .

(224/788)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : لما نزلت يا أيها المزمل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] فاستراح الناس .

وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن نصر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : في المزمل : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ ﴾ نسختها الآية التي فيها : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ [المزمل : 20] وناشئة الليل أوّله كان صلاتهم أوّل الليل ، يقول : هذا أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ ، وقوله : ﴿ أَقْوَمُ قِيلاً ﴾ هو أجدر أن يفقه قراءة القرآن ، وقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ يقول : فراغاً طويلاً .

وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ يأَيُّهَا المزمل ﴾ قال : زملت هذا الأمر فقم به .

وأخرج ابن المنذر عنه في الآية أيضاً قال : يتزمل بالثياب .

وأخرج الفريابي ، عن أبي صالح عنه أيضاً : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ قال : تقرأ آيتين ثلاثاً ثم تقطع لا تهدر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن منيع في مسنده ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، ومحمد بن نصر عنه أيضاً : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ قال : بيّنه تبييناً .

وأخرج العسكري في المواعظ عن عليّ بن أبي طالب مرفوعاً نحوه .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن نصر ، والحاكم وصححه عن عائشة : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه ، وهو على ناقته وضعت جرانها ، فما تستطيع أن تتحرّك حتى يسرّي عنه ، وتلت ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ " .

(225/788)

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن نصر ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا : نشأ .

وأخرج البيهقي عنه قال : ﴿ نَاشِئَةَ الليل ﴾ أوّله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن نصر عنه أيضاً قال : الليل كله ناشئة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ نَاشِئَةَ الليل ﴾ بالحبشة قيام الليل .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن نصر ، والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال : ﴿ نَاشِئَةَ الليل ﴾ ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ قال : السبح الفراغ للحاجة والنوم .

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَذَرْنِى والمكذبين أُوْلِى النعمة وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ لم يكن إلاّ يسيراً حتى كانت وقعة بدر .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ قال : قيوداً .

وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن عباس : ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال : شجرة الزقوم .

وأخرج الحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ قال : المهيل الذي إذا أخذت منه شيئًا تبعك آخره .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ قال : الرمل السائل ، وفي قوله : ﴿ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ قال : شديداً .

(226/788)

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ قال : " ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم ، فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : من كم يا ربّ ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وينجو واحد ، فاشتدّ ذلك على المسلمين ، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم : إن بني آدم كثير ، وإن يأجوج ، ومأجوج من ولد آدم ، إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم " وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود نحوه بأخصر منه .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ قال : ممتلئة بلسان الحبشة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : مثقلة موقرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : يعني : تشقق السماء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 314.320 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) ﴾

نقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان الخطاب موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمناسبة لذلك التخلصُ إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجراً جميلاً إذ قال له ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ إلى قوله : ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ [المزمل : 1113] .

فالكلام استئناف ابتدائي ، ولا يُعد هذا الخطاب من الالتفات لأن الكلام نقل إلى غرض غير الغرض الذي كان قبله .

فالخطاب فيه جار على مقتضى الظاهر على كلا المذهبين : مذهب الجمهور ومذهب السكاكي .

والمقصود من هذا الخبر التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذبوا الرسل فهو مثَل مضروب للمشركين .

وهذا أول مثَل ضربه الله للمشركين للتهديد بمصير أمثالهم على قول الجمهور في نزول هذه

السورة .

واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى عليه السلام ، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإِعراض عن دعوة الرسول هو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله ، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطيع مِثله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مِثلنا وقومُهما لنا عابدون ﴾ [المؤمنون : 47] وقد قال أهل مكة ﴿ لولا نُزِّل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتَوْا عُتُوّاً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] .

وقد تكرر في القرآن ضرب المثل بفرعون لأبي جهل وهو زعيم المناوين للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤلبين عليه وأشد صناديد قريش كفراً .

وأُكد الخبر بـ (إنَّ) لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولاً .

(228/788)

ونكر ﴿ رسولاً ﴾ لأنهم يعلمون المعنيَّ به في هذا الكلام ، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو صفة الإِرسال .

وأدمج في التنظير والتهديدِ وصفُ الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه شاهداً عليهم .

والمراد بالشهادة هنا : الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس وبذلك يكون وصف ﴿ شاهداً ﴾ موافقاً لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال ، أي هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ .

وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم بأن رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربّهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ كما ورد تفصيل تفسيرها في الحديث الصحيح ، وقد تقدم في سورة البقرة (143) .

﴿ وتنكير رسولاً ﴾ المرسَل إلى فرعون لأن الاعتبار بالإرسال لا بشخص المرسل إذ التشبيه تعلق بالإرسال في قوله : ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون ﴾ إذ تقديره كإرسالنا إلى فرعون رسولاً .

وتفريع ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ إيماء إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر وهو التهديد بأن يحلّ بالمخاطبين لمَّا عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مِثلُ ما حلّ بفرعون .

وفي إظهار اسم فرعون في قوله : ﴿ فعصى فرعون ﴾ دون أن يؤتَى بضميره للنداء عليه بفظاعة عصيانه الرسول .

ولما جرى ذكر الرسول المرسل إلى فرعون أوّل مرة جيء به في ذكره ثاني مرة معرفاً بلام

العهد وهو العهد الذكري ، أي الرسول المذكور آنفاً فإن النكرة إذا أعيدت معرفة باللام كان مدلولها عينَ الأولى .

والأخذ مستعمل في الإهلاك مجازاً لأنه لما أزالهم من الحياة أشبه فعله أخذ الآخذ شيئاً من موضعه وجعله عنده .

والوبيل : فعيل صفة مشبهة من وبُل المكان ، إذا وَخِم هواؤه أو مَرعَى كَلَئِه ، وقال زهير:

إلى كَلإٍ مُسْتَوبِلٍ مُتَوَخِّم . . .

(229/788)

وهو هنا مستعار لسَيّىءِ العاقبة شديدَ السوء ، وأريد به الغرق الذي أصاب فرعون وقومه .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17)

الاستفهام بـ (كيف) مستعمل في التعجيز والتوبيخ وهو متفرع بالفاء على ما تضمنه الخطاب السابق من التهديد على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وما أدمج فيه من التسجيل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم فليس بعد الشهادة إلاّ المؤاخذة بما شهد به ، وقد انتقل بهم من التهديد بالأخذ في الدّنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال

فرعون مع موسى إلى الوعيد بعقاب أشد وهو عذاب يوم القيامة وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتِّعاظ وخوف من الوعيد بما حلّ بأمثالهم مما شأنُه أن يثير فيهم تفكيراً من النجاة من الوقوع فيما هُدِّدوا به ، وأنهم إن كانوا أهل جلادة على تحمل عذاب الدّنيا فماذا يصنعون في اتقاء عذاب الآخرة ، فدلّت فاء التفريع واسم الاستفهام على هذا المعنى .

فالمعنى : هبكم أقدمتم على تحمل عذاب الدنيا فكيف تتقون عذاب الآخرة ، ففعل الشرط من قوله : ﴿ إنْ كفرتم ﴾ مستعمل في معنى الدوام على الكفر لأن ما يقتضيه الشرط من الاستقبال قرينة على إرادة معنى الدّوام من فعل ﴿ كفرتم ﴾ وإلاّ فإن كفرهم حاصل من قبل نزول هذه الآية .

و﴿ يوماً ﴾ منصوب على المفعول به ل ﴿ تتقون ﴾ .

واتقاء اليوم باتقاء ما يقع فيه من عذاب أي على الكفر .

ووصف اليوم بأنه ﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾ وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان ، لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب فلما أريد وصف همّ ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده .

وهذه مبالغة عجيبة وهي من مبتكرات القرآن فيما أحسب ، لأني لم أر هذا المعنى في كلام العرب وأما البيت الذي يذكر في شواهد النحو وهو :

إذن والله نَرميهم بحرب . . .

تُشيب الطفل من قبل المشيب

(230/788)

فلا ثبوت لنسبته إلى من كانوا قبل نزول القرآن ولا يعرف قائله ، ونسبه بعض المؤلفين إلى حسان بن ثابت .

وقال العيني : لم أجده في ديوانه .

وقد أخذ المعنى الصمّة ابن عبد الله القشيري في قوله:

دَعانيَ من نجدٍ فإن سنينه . . .

لَعِبْنَ بنا شِيباً وشيبننا مردا

وهو من شعراء الدولة الأموية وإسناد ﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾ إلى اليوم مجاز عقلي بمرتبتين لأن ذلك اليوم زمَن الأهوال التي تشيب لمثلها الأطفال ، والأهوال سبب للشيب عرفاً .

والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليان وكناية ومبالغة في قوله : ﴿ يجعل الولدان شيباً .

وجملة السماء منفطر به ﴾ صفة ثانية .

والبَاء بمعنى (في) وهو ارتقاء في وصف اليوم بحدوث الأهوال فيه فإن انفطار السماء أشد هولاً ورعباً مما كني عنه بجملة ﴿ يجعل الولدان شيباً .

﴾ أي السماء عَلى عظمها وسمكها تنفطر لذلك اليوم فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق فيه .

والانفطار : التشقق الذي يحدث في السماء لنزول الملائكة وصعودهم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ في سورة المعارج (4) .

وذكر انفطار السماء في ذلك اليوم زيادة في تهويل أحواله لأن ذلك يزيد المهددين رعباً وإن لم يكن انفطار السماء من آثار أعمالهم ولا لَه أثر في زيادة نكالهم .

ويجوز أن تجعل جملة السماء منفطر به ﴾ مستأنفة معترضة بين جملة ﴿ فكيف تتقون ﴾ الخ ، وجملة ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ والباء للسببية ويكون الضمير المجرور بالباء عائداً إلى الكفر المأخوذ من فعل ﴿ كفرتم .

ويجوز أن يكون الإخبار بانفطار السماء على طريقة التشبيه البليغ ، أي كالمنفطر به فيكون المعنى كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمان ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [مريم : 88 90] .

ووصف السماء بمنفطر بصيغة التذكير مع أن السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع .

(231/788)

قال الفراء : السماء تذكَّر على التأويل بالسقف لأن أصل تسميتها سماءً على التشبيه بالسقف ، أي والسقف مُذكر والسماء مؤنث .

وتبعه الجوهري وابن برّي .

وأنشد الجوهري على ذلك قول الشاعر:

فلو رَفع السماءُ إليه قوماً . . .

لحقنا بالسماء مع السحاب

وأنشد ابن برّي أيضاً في تذكير السماء بمعنى السقف قول الآخر:

وقالت سماءُ البيت فوقَك مُخْلَقٌ . . .

ولَمَّا تَيَسَّرَ اجْتِلاَءُ الركَائب

ولا ندري مقدار صحة هاذين الشاهدين من العربية على أنه قد يكونان من ضرورة الشعر .

وقيل : إذا كان الاسم غير حقيقي التأنيث جاز إجراء وصفه على التذكير فلا تلحقه هاء التأنيث قياساً على الفعل المسند للمؤنث غير حقيقي التأنيث في جواز اقترانه بتاء التأنيث وتجريده منها ، إجراء للوصف مجرى الفعل وهو وجيه .

ولعل العدول في الآية عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث ، إلى التذكير إيثاراً لتخفيف الوصف لأنه لما جيء به بصيغة منفعل بحرفي زيادة وهما الميم والنون كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث ، وهو هاء التأنيث فيحصل فيها ثقل يجنّبه الكلام البالغ غاية الفصاحة ألا ترى أنها لم تجر على التذكير في قوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] إذ ليس في الفعل إلاّ حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنها ساقطة في حالة الوصل ، فجاءت بعدها تاء التأنيث .

b

وجملة ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ صفة أخرى ل ﴿ يوماً ، ﴾ وهذا الوصف إدماج للتصريح بتحقيق وقوع ذلك اليوم بعد الإنذار به الذي هو مقتض لوقوعه بطريق الكناية استقصاء في إبلاغ ذلك إلى علمهم وفي قطع معذرتهم .

وضمير ﴿ وعده ﴾ عائد إلى ﴿ يوماً ﴾ الموصوف ، وإضافة (وعد) إليه من إضافة

المصدر إلى مفعوله على التوسع ، أي الوعد به ، أي بوقوعه .

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)

(232/788)

تذييل أي تذكرة لمن يتذكر فإن كان من منكري البعث آمن به وإن كان مؤمناً استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما فاته ، وبهذا العموم الشامل لأحوال المتحدث عنهم وأحوال غيرهم كانت الجملة تذييلاً .

والإِشارة بـ ﴿ هذه ﴾ إلى الآيات المتقدمة من قوله : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ [المزمل : 15] .

وتأكيد الكلام بحرف التأكيد لأن المواجَهين به ابتداءً هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدًى فإنهم كذبوا بأنه من عند الله ووسموه بالسحر وبالأساطير ، وذلك من أقوالهم التي أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر عليها قال تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] .

والتذكِرة : اسم لمصدر الذُكر بضم الذال ، الذي هو خطور الشيء في البال ، فالتذكرة : الموعظة لأنه تذكر الغافل عن سوء العواقب ، وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض

على التدبر فيه والتفكر على طريقة التعريض .

وفرع على هذا التحريض التعريضيّ تحريضٌ صريح بقوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ أي من كان يريد أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة فلم تَبق للمتغافل معذرة .

والإِتيان بموصول ﴿ من شاء ﴾ من قبيل التحريض لأنه يقتضي أن هذا السبيل موصل إلى الخير فلا حائل يحول بين طالب الخير وبين سلوك هذا السبيل إلاّ مشيئته ، لأن قوله : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ قرينة على ذلك .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وقل الحقُ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] .

فليس ذلك إباحةً للإِيمان والكفر ولكنه تحريض على الإِيمان ، وما بعده تحذير من الكفر ، أي تبعة التفريط في ذلك على المفرط .

ولذلك قال ابن عطية : ليس معناه إباحة الأمر وضده بل يتضمن معنى الوعد والوعيد .

(233/788)

وفي تفسير ابن عرفة الذي كان بعض شيوخنا يحملها على أنه مخير في تعيين السبيل فمتعلق التخيير عنده أن يبين سبيلاً ما من السُبل قال : وهو حسن ، فيبقى ظاهر الآية على حاله من التّخيير أ هـ .

وقد علمت ممّا قرّرناه أنه لا حاجة إليه وأن ليس في الآية شيء بمعنى التخيير .

وفي قوله : ﴿ إلى ربّه ﴾ تمثيل لحال طالب الفوز والهُدى بحال السائر إلى ناصر أو كريم قد أريَ السبيلَ الذي يبلِّغه إلى مقصده فلم يبق له ما يعوقه عن سلوكه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(234/788)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثمانون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/789)

الجزء التاسع والثمانون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 20 ﴾ من (سورة المزمل صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ نفس الآية (آخر السورة)

(4/789)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ

سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ربما تغالى بعض الناس في العبادة وشق على نفسه ، وربما شق على غيره ، أشار سبحانه وتعالى إلى الاقتصاد تخفيفاً لما يلحق الإنسان من النصب ، مشيراً إلى ما يعمل حالة اتصال الروح بالجسد وهي حالة الحياة ، لأن منفعتها التزود من كل خير لما أدناه هول المقابر ، فإن الروح في غاية اللطافة ، والسجد في غاية الكثافة ، لأنها من عالم الأمر ، وهو ما يكون الإيجاد فيه بمرة واحدة من غير تدريج وتطوير والجسد من عالم الخلق فهي غريبة فيه تحتاج إلى التأنيس وتأنيسها بكل ما يقربها إلى العالم الروحاني المجرد عن علائق الأجسام ، وذلك بصرف القلب كله عن هذه الدنايا والتلبس بالأذكار والصلوات وجميع الأعمال الصالحات ، فإن ذلك هو المعين على اتصالها بعالمها العالي العزيز الغالي ، وأعون ما يكون على ذلك الحكمة ، وهي العدل في الأعمال والاقتصاد في الأقوال والأفعال ، فقال مستأنفاً الجواب عن تيسير السبيل وبنائه على الحنيفية السمحة بحيث صار لا مانع منه إلا يد

القدرة ﴿ إن ربك ﴾ أي المدبر لأمرك على ما يكون إحساناً إليك ورفقاً بك وبأمتك ﴿ يعلم أنك تقوم ﴾ أي في الصلاة كما أمرت به أول السورة .

ولما كانت كثرة العمل ممدوحة وقلته بخلاف ذلك ، استعار للأقل قوله : ﴿ أدنى ﴾ أي زماناً أقل ، والأدنى مشترك بين الأقرب ، والأدون للأنزل رتبة لأن كلاًّ منهما يلزم منه قلة المسافة ﴿ من ثلثي الّيل ﴾ في بعض الليالي ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ أي وأدنى من كل منهما في بعض الليالي – هذا على قراءة الجماعة ، والمعنى ، على قراءة ابن كثير والكوفيين بالنصب تعيين النصف والثلث الداخل تحت الأدنى من الثلثين ، وهو على القراءتين مطابق لما وقع التخيير فيه في أول السورة بين قيام النصف بتمامه أو الناقص منه وهو الثلث أو الزائد عليه وهو الثلثان ، أو الأقل من الأقل من النصف وهو الربع .

(5/789)

ولما ذكر سبحانه قيامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أتبعه قيام أتباعه ، فقال عاطفاً على الضمير المستكن في تقوم وحسنه الفصل : ﴿ وطائفة ﴾ أي ويقوم كذلك جماعة فيها أهلية التحلق بإقبالهم عليك وإقبال بعضهم على بعض .

ولما كانت العادة أن الصاحب ربما أطلق على من مع الإنسان بقوله دون قلبه عدل إلى قوله

: ﴿ من الذين معك ﴾ أي بأقوالهم وأفعالهم ، أي على الإسلام ، وكأنه اختار هذا دون أن يقول من المسلمين لأنه يفهم أن طائفة لم تقم بهذا القيام فلم يرد أن يسميهم مسلمين ، والمعية أعم .

ولما كان القيام – على هذا التفاوت مع الاجتهاد في السبق في العبادة دالاً على عدم العلم بالمقادير ما هي عليه قال تعالى : ﴿ والله ﴾ أي تقومون هكذا لعدم علمكم بمقادير الساعات على التحرير والحال أن الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً وحده ﴿ يقدر ﴾ أي تقديراً عظيماً هو في غاية التحرير ﴿ الّيل والنهار ﴾ فيعلم كل دقيقة منهما على ما هي عليه لأنه خالقهما ولا يوجد شيء منهما إلا به

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [الملك : 14] .

ولما علم من هذا المشقة عليهم في قيام الليل على هذا الوجه علماً وعملاً ، ترجم ذلك بقوله : ﴿ علم ﴾ أي الله سبحانه ﴿ أن لن تحصوه ﴾ أي تطيقوا التقدير علماً وعملاً ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " استقيموا ولن تحصوا " ﴿ فتاب ﴾ أي فتسبب عن هذا العلم أنه سبحانه رجع بالنسخ عما كان أوجب ﴿ عليكم ﴾ بالترخيص لكم في ترك القيام المقدر أول السورة ، أي رفع التبعة عنكم في ترك القيام على ذلك التقدير الذي قدره كما رفع عن التائب ، وكأنه سماه توبة وإن لم يكن ثم معصية إشارة إلى أنه من شأنه لثقله أن يجر إلى المعصية .

ولما رفعه سبب عنه أمرهم بما يسهل عليهم فقال معبراً عن الصلاة بالقراءة لأنها أعظم أركانها إشارة إلى أن التهجد مستحب لا واجب : ﴿ فاقرءوا ﴾ أي في الصلاة أو غيرها في الليل والنهار ﴿ ما تيسر ﴾ أي سهل وهان إلى الغاية عليكم ولان وانقاد لكم ﴿ من القرآن ﴾ أي الكتاب الجامع لجميع ما ينفعكم ، قال القشيري : يقال : من خمس آيات إلى ما زاد ، ويقال : من عشر آيات إلى ما يزيد ، قال البغوي : قال قيس بن أبي حازم : صليت خلف ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بالبصرة ، فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ، ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية .

وقيل : إنه أمر بالقراءة مجردة إقامة لها مقام ما كان يجب عليهم من الصلاة بزيادة في التخفيف ، ولذلك روى أبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين " قال المنذري : من سورة الملك إلى آخر القرآن ألف آية .

ولما كان هذا نسخاً لما كان واجباً من قيام الليل أول السورة لعلمه سبحانه بعدم إحصائه ،

فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بياناً لحكمة أخرى للنسخ فقال : ﴿ علم أن ﴾ أي أنه ﴿ سيكون ﴾ يعني بتقدير لا بد لكم منه ﴿ منكم مرضى ﴾ جمع مريض ، وهذه السورة من أول ما أنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ففي هذه بشارة بأن أهل الإسلام يكثرون جداً .

(7/789)

ولما ذكر عذر المريض وبدأ به لكونه أعم ولا قدرة للمريض على دفعه ، أتبعه السفر للتجارة لأنه يليه في العموم ، فقال مبشراً مع كثرة أهل الإسلام باتساع الأرض لهم : ﴿ وآخرون ﴾ أي غير المرضى ﴿ يضربون ﴾ أي يوقعون الضرب ﴿ في الأرض ﴾ أي يسافرون لأن الماشي بجد واجتهاد يضرب الأرض برجله ، ثم استأنف بيان علة الضرب بقوله : ﴿ يبتغون ﴾ أي يطلبون طلباً شديداً ، وأشار إلى سعة ما عند الله بكونه فوق أمانيهم فقال : ﴿ من فضل الله ﴾ أي بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده ولا حاجة به إليه بوجه من الربح في التجارة أو تعلم العلم ﴿ وآخرون ﴾ أي منكم أيها المسلمون ﴿ يقاتلون ﴾ أي يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله ، ولذلك بينه بقوله : ﴿ في سبيل الله ﴾ أي ذلك القتل مظروف لطريق الملك الأعظم ليزول عن سلوكه المانع لقتل قطاع الطريق المعنوي والحسي ،

وأظهر ولم يضمر تعظيماً للجهاد ولئلا يلبس بالعود إلى المتجر ، وهو ندب لنا من الله إلى رحمة العباد والنظر في أعذارهم ، فمن لا يرحم لا يرحم ، قال البغوي : روى إبراهيم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : أيما رجل جلب شيئاً من مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء ، ثم قرأ عبد الله ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون ﴾ [المزمل : 20] الآية .

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله .

ولما كانت هذه أعذاراً أخرى مقتضية للترخيص أو أسباباً لعدم الإحصاء ، رتب عليها الحكم السابق ، فقال مؤكداً للقراءة بياناً لمزيد عظمتها : ﴿ فاقرءوا ﴾ أي كل واحد منكم ﴿ ما تيسر ﴾ أي لكم ﴿ منه ﴾ أي القرآن ، أضمره إعلاماً بأنه عين السابق ، فصار الواجب قيام شيء من الليل على وجه التيسير ، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس .

(8/789)

ولما كان صالحاً لأن يراد به الصلاة لكونه أعظم أركانها وأن يراد به نفسه من غير صلاة زيادة في التخفيف ، قال ترجيحاً لإرادة هذا الثاني أو تنصيصاً على إرادة الأول :

﴿ وأقيموا ﴾ أي أوجدوا إقامة ﴿ الصلاة ﴾ المكتوبة بجميع الأمور التي تقوم بها من أركانها وشروطها ومقدماتها ومتمماتها وهيئاتها ومحسناتها ومكملاتها .

ولما ذكر بصفة الخالق التي هي أحد عمودي الإسلام البدني والمالي ، أتبعها العمود الآخر وهو الوصلة بين الخلائق فقال : ﴿ وآتوا ﴾ من طيب أموالكم التي أنعمنا به عليكم ﴿ الزكاة ﴾ أي المفروضة ، ولما كان المراد الواجب المعروف ، أتبعه سائر الإنفاقات المفروضة والمندوبة ، فقال : ﴿ وأقرضوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال التي منها الغنى المطلق ، من أبدانكم وأموالكم في أوقات صحتكم ويساركم ﴿ قرضاً حسناً ﴾ من نوافل الخيرات كلها في جميع شرعه برغبة تامة وعلى هيئة جميلة في ابتدائه وانتهائه وجميع أحواله ، فإنه محفوظ لكم عنده مبارك فيه ليرده عليكم مضاعفاً أحوج ما تكونون إليه .

ولما كان هذا الدين جامعاً ، وكان هذا القرآن حكيماً لأن منزله له صفات الكمال فأمر في هذه الجمل بأمهات الأعمال اهتماماً بها ، أتبع ذلك أمراً عاماً بجميع شرائع الدين فقال : ﴿ وما تقدموا ﴾ وحث على إخلاص النية بقوله : ﴿ لأنفسكم ﴾ أي خاصة سلفاً لأجل ما بعد الموت لا تقدرون على الأعمال ﴿ من خير ﴾ أي أيّ خير كان من عبادات البدن والمال ﴿ تجدوه ﴾ محفوظاً لكم ﴿ عند الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً

﴿ هو ﴾ أي لا غيره ﴿ خيراً ﴾ أي لكم ، وجاز وقوعه الفصل بين غير معرفتين لأن " أفعل من " كالمعرفة ، ولذلك يمنع دخول أداة التعريف عليها .

(9/789)

ولما كان كل من عمل خيراً جوزي عليه سواء كان عند الموت أو في الحياة سواء كان كافراً أو مسلماً مخلصاً أو لا ، إن كان مخلصاً كان جزاؤه في الآخرة ، وإلا ففي الدنيا ، قال : ﴿ وأعظم أجراً ﴾ أي مما لمن أوصى في مرض الموت ، وكان بحيث يجازى به في الدنيا .

ولما كان الإنسان إذا عمل ما يمدح عليه ولا سيما إذا كان المادح له ربه ربما أدركه الإعجاب ، بين له أنه لا يقدر بوجه على أن يقدر الله حق قدره ، فلا يزال مقصراً فلا يسعه إلا العفو بل الغفر فقال حاثاً على أن يكون ختام الأعمال بالاستغفار والاعتراف بالتقصير في خدمة المتكبر الجبار مشيراً إلى حالة انفصال روحه عن بدنه وأن صلاحها الراحة من كل شر : ﴿ واستغفروا الله ﴾ أي اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الأعظم الذي لا تحيطون بمعرفته فكيف بأداء حق خدمته لتقصيركم عيناً وأثراً بفعل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه .

(10/789)

ولما علم من السياق ومن التعبير بالاسم الأعظم أنه سبحانه بالغ في العظمة إلى حد يؤيس من إجابته ، علل الأمر بقوله مؤكداً تقريباً لما يستبعده من يستحضر عظمته سبحانه وشدة انتقامه وقوة بطشه : ﴿ إن الله ﴾ وأظهر إعلاماً بأن صفاته لا تقصر آثارها على المستغفرين ولا على مطلق السائلين ﴿ غفور ﴾ أي بالغ الستر لأعيان الذنوب وآثارها حتى لا يكون عليها عتاب ولا عقاب ﴿ رحيم ﴾ أي بالغ الإكرام بعد الستر إفضالاً وإحساناً وتشريفاً وامتناناً ، وقد اشتملت هذه السورة على شرح قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أوتي من جوامع الكلم " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح في دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر " كما أشير إلى كل جملة منها في محلها ، ولقد رجع آخر السورة – بالترغيب في العمل وذكر جزائه – على أولها الأمر بالقيام بين يديه وبإشارة الاستغفار إلى عظم المقام وإن جل العمل ودام وإن كان بالقيام في ظلام الليالي والناس نيام ، فسبحانه من له هذا الكلام المعجز لسائر الأنام لإحاطته بالجلال والإكرام ، فسبحانه من إله جابر القلوب المنكسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 215 ـ 219 ﴾.

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المراد من قوله : ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ أقل منهما ، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالنصب والمعنى أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف (والثلث) وقرىء ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالجر أي تقوم أقل من الثلثين والنصف والثلث ، لكنا بينا في تفسير قوله : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : 2] أنه لا يلزم من هذا أن يقال : إنه عليه الصلاة والسلام كان تاركاً للواجب وقوله تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ وهم

أصحابك يقومون من الليل هذا المقدار المذكور .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ يُقَدّرُ الليل والنهار ﴾ يعني أن العالم بمقادير أجزاء الليل والنهار ليس إلا الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الضمير في ﴿ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ عائد إلى مصدر مقدر أي علم أنه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة ، ولا يمكنكم أيضاً تحصيل تلك المقادير على سبيل الطعن والاحتياط إلا مع المشقة التامة ، قال مقاتل : كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر به من قيام ما فرض عليه .

المسألة الثانية :

احتج بعضهم على تكليف ما لا يطاق بأنه تعالى قال : ﴿ لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي لن تطيقوه ، ثم إنه كان قد كلفهم به ، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد صعوبته لا أنهم لا يقدرون عليه كقول القائل : ما أطيق أن أنظر إلى فلان إذا استثقل النظر إليه .

(12/789)

وقوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ هو عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر كقوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فالن باشروهن ﴾ [البقرة : 187] والمعنى أنه رفع التبعة عنكم في ترك هذا العمل كما رفع التبعة عن التائب .

قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ وفيه قولان : الأول : أن المراد من هذه القراءة الصلاة لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل ، أي فصلوا ما تيسر عليكم ، ثم ههنا قولان : الأول : قال الحسن : يعني في صلاة المغرب والعشاء ، وقال آخرون : بل نسخ وجوب ذلك التهجد واكتفى بما تيسر منه ، ثم نسخ ذلك أيضاً بالصلوات الخمس القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ قراءة القرآن بعينها والغرض منه دراسة القرآن ليحصل الأمن من النسيان قيل : يقرأ مائة آية ، وقيل : من قرأ مائة آية كتب من القانتين ، وقيل : خمسين آية ومنهم من قال : بل السورة القصيرة كافية ، لأن إسقاط التهجد إنما كان دفعاً للحرج ، وفي القراءة الكثيرة حرج فلا يمكن اعتبارها .

وههنا بحث آخر وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال : سقط عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل وصارت تطوعاً وبقي ذلك فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه تعالى ذكر الحكمة في هذا النسخ فقال تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى

وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ .

(13/789)

واعلم أن تقدير هذه الآية كأنه قيل : لم نسخ الله ذلك ؟ فقال : لأنه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله ، أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم ، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة ، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم ، وهذا السبب ما كان موجوداً في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ [المزمل : 7] فلا جرم ما صار وجوب التهجد منسوخاً في حقه .

ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال وعن ابن مسعود : " أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء " ثم أعاد مرة أخرى قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وذلك للتأكيد ثم قال : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني المفروضة ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي الواجبة

وقيل : زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنياً .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ فيه ثلاثة أوجه أحدها : أنه يريد سائر الصدقات وثانيها : يريد أداء الزكاة على أحسن وجه ، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعاً للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وثالثها : يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال .

ثم ذكر تعالى الحكمة في إعطاء المال فقال : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً واستغفروا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(14/789)

قال ابن عباس : تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت ، وقال الزجاج : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً لكم من متاع الدنيا ، والقول ما قاله ابن عباس .

المسألة الثانية :

معنى الآية : وما تقدموا لأنفسكم من خير فإنكم تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً إلا أنه قال : هو خيراً للتأكيد والمبالغة ، وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجراً بالرفع على الابتداء والخبر ، ثم قال : ﴿ واستغفروا الله ﴾ لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل ﴿ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم ، وفي الغفور قولان : أحدهما : أنه غفور لجميع الذنوب ، وهو قول مقاتل والثاني : أنه غفور لمن يصر على الذنب ، احتج مقاتل على قوله بوجهين الأول : أن قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتناول التائب والمصر ، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل والثاني : أن غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب ، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقاً للمدح ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 164.166 ﴾

(15/789)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19) ﴾

الإشارة ب ﴿ هذه ﴾ يحتمل أن تكون إلى ما ذكر من الأنكال والجحيم والأخذ الوبيل ونحوه . ويحتمل أن تكون إلى السورة بأجمعها ويحتمل أن تكون إلى القرآن ، أي أن هذه الأقوال المنصوصة ، فيه ، ﴿ تذكرة ﴾ ، والتذكرة مصدر كالذكر . وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء ﴾ الآية ، ليس معناه إباحة الأمر وضده ، بل يتضمن معنى الوعد والوعيد . والسبيل هنا : سبيل الخير والطاعة . وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم ﴾ الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من قيام الليل إما على الوجوب أو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه ، ومعنى الآية : أن الله تعالى يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أمتك قياماً مختلفاً فيه ، مرة يكثر ومرة يقل ، ومرة أدنى من الثلثين ، ومرة أدنى من الثلث ، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمن مع عدم النوم ، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى ، وأما البشر فلا يحصي ذلك فتاب الله عليهم ، أي رجع بهم من الثقل إلى الجنة وأمرهم بقراءة ﴿ ما تيسر ﴾ ، ونحو هذا يعطي عبارة الفراء ومنذر فإنهما قالا ﴿ تحصوه ﴾ تحفظوه ، وهذا التأويل هو على قراءة من قرأ " ونصفِه وثلثِ " بالخفض عطفاً على الثلثين ، وهي قراءة أبي عمرو ونافع وابن عامر . وأما من قرأ " ونصفَه وثلثَه " بالنصب عطفاً على ﴿ أدنى ﴾ وهي قراءة باقي السبعة ، فالمعنى عنده آخر ، وذلك أن الله تعالى قرر أنهم يقدرون الزمان على نحو ما أمر به في قوله ﴿ نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ﴾ [المزمل : 3-4] ، فلم يبق إلا أن يكون قوله ﴿ لن تحصوه ﴾ لن تستطيعوا قيامه لكثرته وشدته فخفف الله

عنكم فضلاً منه لا لقلة جهلهم بالتقدير وإحصاء الوقت ، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير ﴿ تحصوه ﴾ تطيعوه ، وقرأ جمهور القراء والناس " وثلُثه " بضم اللام ، وقرأ ابن كثير في رواية شبل عنه : " وثلْثه " بسكون اللام . وقوله تعالى : ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ إباحة ، هذا قول الجمهور ، وقال ابن جبير وجماعة

(16/789)

هو فرض لا بد منه ولو خمسين آية ، وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ، ولو قدر حلب شاة ، إلا أن الحسن قال : من قرأ مائة آية لم يحاجه القرآن ، واستحسن هذا جماعة من العلماء ، قال بعضهم : والركعتان بعد العتمة مع الوتر مدخلتان في حكم امتثال هذا الأمر ، ومن زاد زاده الله ثواباً . و ﴿ أن ﴾ في قوله تعالى : ﴿ علم أن ﴾ مخففة من الثقيلة . والتقدير أنه يكون ، فجاءت السين عوضاً من المحذوف ، وكذلك جاءت لا في قول أبي محجن : [الطويل]

ولا تدفنني بالفلاة فإنني . . . أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

والضرب في الأرض : هو السفر للتجارة ، وضرب الأرض هو المشي للتبرز والغائط .

فذكر الله تعالى أعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل وهي المرض والسفر في

تجارة أو غزو ، فخفف عنه القيام لها . وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأرض بل تجارة وسوق لها مع سفر الجهاد ، وقال عبد الله بن عمر : أحب الموت إليَّ بعد القتل في سبيل الله أن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله ، ثم كرر الأمر . بقراءة ما تيسر منه تأكيداً و﴿ الصلاة ﴾ و﴿ الزكاة ﴾ هما المفروضتان ، ومن قال إن القيام بالليل غير واجب قال معنى الآية خذوا من هذا الثقل بما تيسر وحافظوا على فرائضكم ، ومن قال إن شيئاً من القيام واجب قال : قرنه الله بالفرائض لأنه فرض . وإقراض الله تعالى : هو إسلاف العمل الصالح عنده . وقرأ جمهور الناس " هو خيراً " على أن يكون هو فصلاً ، وقرأ محمد بن السميفع وأبو السمال " هو خيرُ " بالرفع على أن يكون ﴿ هو ﴾ ابتداء ، و" خير " خبره والجملة تسد مسد المفعول الثاني ل ﴿ تجدوه ﴾ . ثم أمر تعالى بالاستغفار وأوجب لنفسه صفة الغفران لا إله غيره ، قال بعض العلماء فالاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية ومن قوله تعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات : 17] .

(17/789)

قال القاضي أبو محمد : وعهدت أبي رحمه الله يستغفر إثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام ويأثر في ذلك حديثاً ، فكأن هذا الاستغفار من التقصير وتفلت الفكر أثناء الصلاة ، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح .

نجز تفسير سورة " المزمل " بحمد الله وعونه وصلى الله على محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(18/789)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى : ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ كما تقدّم ، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدّم .

"تَقُومُ" معناه تصلّي و ﴿ أدنى ﴾ أي أقلّ .

وقرأ ابن السَّمَيْقَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام ﴿ ثُلْثَيِ ﴾ بإسكان اللام .

﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفاً على "ثُلُثَيِ" ؛ المعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه .

وقرأ ابن كثير والكوفيون "وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ" بالنصب عطفاً على "أَدْنَى" التقدير : تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه وثلثَه .

قال الفراء : وهو أشبه بالصواب ؛ لأنه قال أقلّ من الثلثين ، ثم ذكر نفس القِلّة لا أقلّ من القلّة .

القُشَيْري : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف ؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر ، وكانوا يزيدون ، وفي الزيادة إصابة المقصود ، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه ، وينقصون منه .

ويحتمل أنهم أُمروا بقيام نصف الليل ، ورُخّص لهم في الزيادة والنقصان ، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين ، وفي النصف إلى الثلث .

ويحتمل أنهم قدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث ، والزيادة إلى الثلثين ، وكان فيهم من يفي بذلك ، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم .

وقال قوم : إنما افترض الله عليهم الربع ، وكانوا ينقصون من الربع .

وهذا القول تحكُّم .

(19/789)

الثانية قوله تعالى : ﴿ واللهُ يُقَدِّرُ الليل والنهار ﴾ أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأنتم تعلمون بالتحرّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ .

﴿ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به .

وقيل : أي لن تطيقوا قيام الليل .

والأوّل أصح ؛ فإنّ قيام الليل ما فُرض كله قطّ .

قال مقاتل وغيره : لما نزلت ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطيء ، فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفّف عنهم ؛ فقال تعالى : ﴿ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ ﴾ و "أَنْ" مخفّفة من الثقيلة ؛ أي علم أنكم لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنه كان فيهم في ترك بعض ما أمر به .

وقيل : أي فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم .

وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عُسْر إلى يُسْر .

وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرّي ، فخفّف عنهم ذلك التحرّي .

وقيل : معنى ﴿ واللهُ يُقَدِّرُ الليل والنهار ﴾ يخلقهما مقدَّرَين ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] .

ابن العربي : تقدير الخلقة لا يتعلّق به حكم ، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة ؛ أي فاقرؤوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم .

قال السُّديّ : مائة آية .

الحسن : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن .

وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كُتب من القانتين .

وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح ؛ لقوله عليه السلام : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المُقَنْطِرين " خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو .

وقد ذكرناه في مقدّمة الكتاب والحمد لله .

القول الثاني : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ ﴾ أي فصلّوا ما تيسّر عليكم ، والصلاة تسمى قرآناً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الفجر ﴾ [الإسراء : 78] أي صلاة الفجر .

ابن العربي : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر ، وإليها يرجع القول .

قلت : الأوّل أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثاني مجاز ؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله .

الخامسة قال بعض العلماء : قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ نَسخَ قيام الليل ونصفه ، والنقصان من النصف والزيادة عليه .

ثم احتمل قول الله عز وجل : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ معنيين أحدهما أن يكون فرضاً ثانياً ؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره .

والآخر أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79] فاحتمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي يتهجد بغير الذي فُرض عليه مما تيسّر منه .

قال الشافعيّ : فكان الواجب طلب الاستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادسة قال القُشيريّ أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حقّ الأمة ، وبقيت الفريضة في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(21/789)

وقيل : نسخ التقدير بمقدار ، وبقي أصل الوجوب ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] فالهدي لا بدّ منه ، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل ، ولكن فُوّض قدره إلى اختيار المصلّي ، وعلى هذا فقد قال قوم : فَرْض قيام الليل بالقليل باقٍ ؛ وهو مذهب الحسن .

وقال قوم : نسخ بالكلية ، فلا تجب صلاة الليل أصلاً ؛ وهو مذهب الشافعي .

ولعل الفريضة التي بقيت في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هي هذا ، وهو قيامه ، ومقداره مفوّض إلى خِيرِته .

وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً فقوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ معناه اقرؤوا إن تيّسر عليكم ذلك ، وصلّوا إن شئتم .

وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر في حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أيضاً ، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه .

وقوله : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ محمول على حقيقة النفل .

ومن قال : نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] ، وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] ، ما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع .

وقيل : وقع النسخ بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللأمة ، كما أنّ فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل * قُمِ الليل ﴾ كانت عامة له ولغيره .

وقد قيل : إن فريضة الله امتدت إلى ما بعد الهجرة ، ونسخت بالمدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، وإنما فرض القتال بالمدينة ؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة ، فقيام الليل نسخ بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] .

وقال ابن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَخ قولُ الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ وجوبَ صلاة الليل .

السابعة قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ الآية ؛ بيّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل ، فإن الخَلْق منهم المريض ، ويشّق عليهم قيام الليل ، ويشقّ عليهم أن تفوتهم الصلاة ، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل ، والمجاهد كذلك ، فخفّف الله عن الكل لأجل هؤلاء .

و"أَنْ" في "أَنْ سَيَكُونُ" مخففة من الثقيلة ؛ أي علم أنه سيكون .

الثامنة سَوَّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله ، والإحسان والإفضال ، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله .

وروي إبراهيم عن علقمة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾

وقال ابن مسعود : أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء .

وقرأ ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ الآية .

(23/789)

وقال ابن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحبّ إليّ من الموت بين شعبتي رَحْلِي ، ابتغي من فضل الله ضارباً في الأرض .

وقال طاوس : الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله .

وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حِنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بِعِ الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غدٍ ؛ فوافق سعةً في السعر ؛ فقال التجار للوكيل : إن أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وقد

جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدّق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من الاحتكار كَفافاً لا عليّ ولا لي .

ويروي أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد ، فافتقده ابن عمر ، فمشي إلى بيته ، فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ؛ فلقيه له : يا بني ! مالك وللطعام ؟ فهلاّ إبلاً ، فهلاّ بقراً ، فهلاّ غنما ! إن صاحب الطعام يحب المَحْل ، وصاحب الماشية يحب الغيث .

التاسعة قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي صلّوا ما أمكن ؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدّم .

قال ابن العربي وقد قال قوم : إن فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية ؛ قاله البخاريّ وغيره ، وعقد باباً ذكر فيه حديث .

"يَعقِد الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد ، يضرب على كل عُقْدَة مكانها : عليك ليل طويل فارقد .

(24/789)

فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقْدة ، فإن توضأ انحلت عُقْدة ، فإن صلّى انحلت عُقَده كلّها ، فأصبح نشيطاً طيّب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان " وذكر حديث

سَمُرة بن جُنْدُبَ " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الرؤيا قال : "أما الذي يُثْلَغ رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة" " وحديث عبد الله بن مسعود قال : " ذكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجل ينام الليل كلّه فقال : "ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه" " فقال ابن العربيّ : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة ؛ فيحمل المطلق على المقيد لاحتماله له ، وتسقط الدعوى ممَّن عيَّنه لقيام الليل .

وفي الصحيح واللفظُ للبخاري : قال عبد الله بن عمرو : وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الله لا تكن مثَل فلان ، كان يقوم الليل فترك قيام الليل " ولو كان فرضاً ما أقره النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه ، بل كان يذمه غاية الذمّ ، وفي الصحيح

" عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأي رؤيا قصّها على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاماً شابًّا عَزَباً ، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار .

قال : ولقينا مَلَك آخر ، فقال لي : لم تُرَعْ .

فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

"نعم الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل" " ، فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً ؛ فلو كان تَرْك القيام معصية لما قال له المَلك : لم تُرَعْ .

والله أعلم .

(25/789)

العاشرة إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض ، وأن قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ ؛ ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة ، فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة ؛ فقال مالك والشافعيّ : فاتحة الكتاب لا يجزيء العدول عنها ، ولا الاقتصار على بعضها ، وقدّره أبو حنيفة بآية واحدة ، من أيّ القرآن كانت .

وعنه ثلاث آيات ؛ لأنها أقلّ سورة .

ذكر القول الأوّل الماورديّ والثاني ابن العربيّ .

والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعيّ ، على ما بيّناه في سورة "الفاتحة" أوّل الكتاب والحمد لله .

وقيل : إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة ؛ قال الماورديّ : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب ، أو على الاستحباب دون الوجوب .

وهذا قول الأكثرين ؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه .

الثاني أنه محمول على الوجوب ؛ ليقف بقراءته على إعجازه ، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل ، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه ؛ لأن حِفظ القرآن من القُرَب المستحبة دون الواجبة .

وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن ؛ لأن الله تعالى يسره على عبادِه ؛ قاله الضحاك .

الثاني ثلث القرآن ؛ حكاه جويبر .

الثالث مائتا آية ؛ قاله السُّديّ .

الرابع مائة آية ؛ قاله ابن عباس .

الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة ؛ قاله أبو خالد الكناني .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها .

﴿ وَآتُواْ الزكاة ﴾ الواجبة في أموالكم ؛ قاله عكرمة وقتادة .

وقال الحارث العُكْلي : صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك .

وقيل : صدقة التطوّع .

وقيل : كل أفعال الخير .

وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطّيب .

وقد مضى في سورة "الحديد" بيانه .

وقال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل .

وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله .

الثالثة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ "البقرة" .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حَيْساً يعني تمراً بلبن فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه .

فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ما هذا ؟ فقال عمر : لكن رب المسكين يدري ما هو .

وكأنه تأوّل ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً ﴾ أي مما تركتم وخلفتم ، ومن الشّح والتقصير .

﴿ وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ قال أبو هريرة : الجنة ؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجراً ؛ لإعطائه

بالحسنة عشراً .

ونصب "خيرا وأَعْظَم" على المفعول الثاني ل "تَجِدُوهُ" و "هو" : فصل عند البصريين ، وعماد في قول الكوفيين ، لا محل له من الإعراب .

و"أَجْرَاً" تمييز .

﴿ واستغفروا الله ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لما كان قبْلَ التوبة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ لكم بعدها ؛ قاله سعيد بن جبير .

ختمت السورة والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(27/789)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ . . . ﴾ الآية ، المعنى أَنَّ اللَّهَ تعالى يعلمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَنْتَ وغيرك من أُمَّتِك قياماً مختلفاً مَرَّةً يكْثُرُ ومرَّةً يَقلّ ، ومرة أَدْنَى من الثلثين ، ومرة أدنى من النصفِ ، ومرة أَدْنَى من الثلث ، وذلكِ لِعَدَمِ تَحْصِيل البَشَرِ لِمَقَادِيرِ الزمان ، مع عُذْرِ النَّوْمِ ، وتقديرُ الزمان حقيقةٌ إنما هو للَّهِ تعالى ، وأما البشَرُ فلا يُحْصِي ذلك ، فتابَ اللَّه عليهمْ ، أي : رَجَعَ بهم من الثِّقَلِ إلى الخِفَّةِ وأمرهم بقراءةِ ما تيسَّر ، ونحوَ هذا تُعْطِي عِبَارةُ

الفراء ، ومنذر فإنهما قالا : تُحْصُوه تَحْفَظُوه ، وهذا التأويلُ هو على قراءة الخفضِ عَطْفاً على الثلثين وهي قراءة أبي عمرٍو ونافعٍ وابن عامر ، وأمَّا مَنْ قرأَ : «ونصفَه وثلثَه» بالنَّصْبِ عَطْفاً على أدْنَى وهي قراءة باقي السبعةِ ، فالمعنى عندَهم أنَّ اللَّه تعالى قَدْ عَلِمَ أنهم يَقْدِرُونَ الزمانَ على نحو مَا أَمَرَ بِهِ تعالى ، في قوله : ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل : 3-4] فلم يبقَ إلا قوله : ﴿ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ فمعناه لَنْ يُطِيقُوا قيامَه لِكَثْرَتِهِ وشدتِه ، فَخَفَّفَ اللَّهُ عنهم فَضْلاً منه ؛ لا لِعِلَّةِ جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقاتِ ، ونَحوَ هذا تُعْطي عبارةُ الحسن وابن جبير ؛ فإنهما قالا : تحصُوه : تُطِيقُوه ، وعبارةُ الثعلبيِّ : ومَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ ؛ فالمعنى : وتَقُومُ نصْفَه وثلثَه ، قال الفراء : وهو الأشْبَه بالصَّوَابِ ؛ لأنه قَالَ أَقَلَّ مِنَ الثلثينِ ، ثم ذكر تفسيرَ القلةِ لا تَفْسِيرَ أَقَلِّ مِنَ القلةِ ، انتهى ، ولو عَبَّر الفَرَّاءُ بالأَرْجَحِ ، لكانَ أحْسَنَ أدَباً ، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : لاَ

(28/789)

إله إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ، الحَمْدُ للَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلاَ إله إلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ " ثم قال : " اللَّهُمَّ ، اغفر لي ،

أَوْ دَعَا ، استجيب لَهُ ، فإِنْ تَوَضَّأَ ، ثمَّ صلى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ " ، رواه الجماعة إلا مسلماً ، وَتَعَارَّ بتشديدِ الرَّاءِ مَعْنَاه : اسْتَيْقَظَ ، انتهى من «السلاح» .

وقوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ قال الثعلبيُّ أي : مَا خَفَّ وَسَهُلَ بغير مِقْدَارٍ مِنَ القِرَاءَةِ ، والمُدَّةِ ، وقيل : المعنى فَصَلُّوا ما تيسَّر فَعَبَّر بالقراءةِ عنها . * ت * : وهذا هو الأَصَحُّ عند ابن العربي ، انتهى ، قال * ع * : قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ هو أَمْرُ نَدْبٍ في قولِ الجمهور ، وقال جماعة : هو فَرْضٌ لاَبُدَّ منه ولو خَمْسِينَ آيةً ، وقال الحسنُ وابن سيرين : قيامُ الليل فَرْضٌ وَلَوْ قَدْرُ حَلْبِ شَاةٍ ، إلا أَنَّ الحسنَ قال : مَنْ قَرأَ مِائَةَ آيةٍ لَمْ يُحَاجَّهُ القرآن ؛ واسْتَحْسَنَ هذا جماعةٌ من العلماء ؛ قال بعضهم : والركعتانِ بَعْدَ العشاءِ مَعَ الوِتْرِ دَاخِلَتَانِ في امتثالِ هذا الأَمْرِ ؛ ومن زَادَ زَادَهُ اللَّه ثواباً ، * ت * : ينبغي للعاقِلِ المبَادَرَةُ إلى تَحْصِيلِ الخَيْرَاتِ قَبْلَ هُجُومِ صَوْلَةِ المَمَاتِ ، قَالَ البَاجِيُّ في «سنن الصالحين» له : قَالَتْ بنت الربيعِ بْنِ خُثَيْمٍ لأبيها : يا أَبَتِ ما لِي أَرَى النَّاسَ يَنَامُونَ وأَنْتَ لاَ تَنَامُ ، قال : إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ البَيَاتَ ، قال الباجيُّ رحمه اللَّه تعالى : ولي في هذا المعنى : [من الرجز]

قَدْ أَفْلَحَ القَانِتُ فِي جُنْحِ الدجى . . . يَتْلُو الْكِتَابَ العَرَبِيَّ النَّيِّرَا

[فَقَائِماً وَرَاكِعاً وَسَاجِدا . . . مُبْتَهِلاً مُسْتَعْبِراً مُسْتَغْفِرَا]

لَهُ حَنِينٌ وَشَهِيقٌ وَبُكَا . . . يَبُلُّ مِنْ أَدْمُعِهِ تُرْبَ الثرى

إِنَّا لَسَفْرٌ نَبْتَغِي نَيْلَ الهدى . . . فَفِي السرى بُغْيَتُنَا لا فِي الْكَرَا

مَنْ يَنْصَبِ اللَّيْلَ يَنَلْ رَاحَتَهُ . . . عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السرى

(30/789)

انتهى ، والضربُ في الأرضِ هو السَّفَرُ للتجارةِ ابتغاءَ فضلِ اللَّهِ سبحانه ، فذكرَ اللَّه سبحانه أعْذَارَ بني آدمَ التي هي حائلةٌ بينَهم وبيْنَ قيامِ الليل ، ثم كرَّرَ سبحانَه الأَمْرَ بقراءةِ ما تَيَسَّرَ منه تأكيداً ، والصلاةُ والزكاة هنا هما المفروضَتَانِ ، فمن قال : إن القِيَامَ من الليلِ غَيْرُ واجبٍ ؛ قال : معنى الآية خُذُوا من هذا النَّفْلِ بما تَيَسَّرَ وحَافِظُوا على فَرَائِضِكم ، ومَنْ قال : إن شَيْئاً من القيامِ واجبٌ ؛ قال : قَدْ قَرَنَه اللَّهُ بالفرائِضِ ؛ لأنه فَرْضٌ وإقْراضُ اللَّه تعالى هو إسْلاَفُ العملِ الصالحِ عنده ، وقرأ جمهورُ الناس «هو خيراً» على أن يكونَ «هو» فَصْلاً ، قال بعضُ العلماءِ : الاستِغفارُ بَعْدَ الصلاة مُسْتَنْبَطٌ من هذه الآيةِ ، ومن قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن اليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 17 -

18] قال *ع* : وَعَهَدْتُ أبي رحمه اللَّه يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إثْرَ كل مكتُوبةٍ ثَلاَثاً بعَقِبِ السلام ، ويأثر في ذلك حديثاً ، فكان هذا الاستغفارُ من التقصيرِ وتَقَلُّبِ الفِكْرِ أثْنَاء الصلاة ، وكان السلفُ الصالحُ يُصَلُّونَ إلى طلوع الفجر ؛ ثم يجلسُون للاسْتِغْفَارِ . *ت* : وما ذكره *ع* : رحمه اللَّه عَنْ أبيه رَوَاهُ مسلم وأبو داودَ والترمذي والنسائي وابنُ ماجَه عن ثوبان قال : "كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم إذا انصرف مِنْ صَلاَتِهِ ، استغفر ثَلاَثاً وقَالَ : «اللَّهُمَّ ، أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلاَلِ والاكرام " ، قال الوليدُ : فقلتُ للأوزاعيِّ : كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ ؟ قال : تَقُولُ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وفي روايةٍ لمسلم من حديثِ عائشةَ : "يَا ذَا الجَلاَلِ والإكْرَامِ " ، انتهى من «سلاح المؤمن» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(31/789)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾

يا أهلَ مكةَ ﴿ رَسُولاً شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهدُ يومَ القيامةِ بما صدرَ عنكُم من الكفرِ والعصيانِ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ هو مُوسى عليه السَّلامُ وعدمُ تعيينِهِ لعدمِ

دخلِه في التشبيهِ ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ الذي أرسلناهُ إليهِ ومحلُّ الكافِ النصبُ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي إنَّا أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه كما يعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ إرسالاً كائناً كما أرسلنا إلى فرعونَ رسولاً فعصاه وقولُه تعالى : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ خارجٌ من التشبيه جيءَ به للتنبيه على أنَّه سيحيقُ بهؤلاءِ ما حاقَ بأولئكَ لا محالةَ والوبيلُ الثقيلُ الغليظُ من قولِهم كلأٌ وبيلٌ أي وخيمٌ لا يستمرأُ لثقلِه ، والوبيلُ العَصا الضخمةُ . ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أي كيفَ تقونَ أنفسكمُ ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي بقيتُم على الكفرِ ﴿ يَوْماً ﴾ أي عذابَ يومٍ ﴿ يَجْعَلُ الولدان ﴾ من شدةِ هولِه وفظاعةِ ما فيهِ من الدَّواهي ﴿ شِيباً ﴾ شيوخاً جمعُ أشيبَ إما حقيقةً أو تمثيلاً وأصلهُ أنَّ الهمومَ والأحزانَ إذا تفاقمتْ على المرء ضعفتْ قُواه وأسرعَ فيه الشيبُ وقد جُوّزَ أنْ يكونَ ذلك وصفاً لليومِ بالطولِ وليس بذاكَ . ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ ﴾ أي منشقٌّ ، وقُرِىءَ مُتَفَطِّر أي متشققٌ والتذكيرُ لإجرائه على موصوفٍ مذكرٍ أي شيءٌ منفطرٌ عبَّر عنها بذلكَ للتنبه على أنَّه تبدلتْ حقيقتُها وزالَ عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلا ما يُعبرُ عنه بالشيءِ ، وقيلَ : لتأويلِ السماءِ بالسقفِ وقيلَ : هو من باب النسبِ أي ذاتُ انفطارٍ . والباءُ في قولِه تعالى : ﴿ بِهِ ﴾ مثلُها في فطرتُ العودَ بالقَدُومِ ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ الضميرُ للهِ عزَّ وجلَّ ، والمصدرُ مضافٌ إلى فاعله ، أو لليوم وهو مضافٌ إلى مفعولِه . ﴿ إِنَّ هذه ﴾ إشارةٌ إلى الآيات المنطويةِ على القوارعِ المذكورةِ ﴿

تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظةٌ ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى ربّهِ سَبِيلاً ﴾ بالتقرب إليه بالإيمان والطاعةِ فإنَّه المنهاجُ الموصلُ إلى مرضاتِه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾

أي أقلَّ منهما استعير له الأدنى لما أنَّ المسافةَ بين الشيئينِ إذا دنتْ قلَّ ما بينهُمَا من الأحيازِ ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالنصب عطفاً على أدْنَى . وقُرئا بالجرّ عطفاً على ثُلثي الليلِ . ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ أيْ ويقومُ معكَ طائفةٌ من أصحابكَ ﴿ والله يُقَدّرُ الليل والنهار ﴾ وحدهُ لا يقدرُ على تقديرهما أحدٌ أصلاً فإنَّ تقديم الاسمِ الجليلِ مبتدأٌ وبناءَ يقدرُ عليهِ موجبٌ للاختصاصِ قطعاً كما يُعربُ عنه قولُه تعالَى : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي علمَ أنَّ الشأنَ لنْ يقدرُوا على تقديرِ الأوقاتِ ولن تستطيعوا ضبطَ الساعاتِ أبداً ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالترخيص في تركِ القيامِ المقدورِ ورفعِ التبعةِ عنكُم في تركه .

﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ فصلُّوا لما تيسرَ لكُم من صلاة الليلِ عبرَ عن الصلاة بالقراءة كما عبَّر عنها بسائرِ أركانِها . قيلَ : كانَ التهجدُ واجباً على التخييرِ المذكورِ فعسُرَ عليهم القيامُ به فنُسخَ به ثم نُسخَ هذا بالصلوات الخمسِ وقيلَ : هي قراءة القُرآنِ بعينها قالُوا

مَنْ قَرأَ مائةَ آيةٍ من القرآنِ في ليلةٍ لم يحاجَّهُ وقيلَ : " من قرأ مائةَ آيةٍ كُتبَ من القانتينَ " وقيلَ : خمسينَ آية : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ استئنافٌ مبينٌ لحكمةٍ أخرى داعيةٍ إلى الترخيصِ والتخفيفِ .

(33/789)

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأرض ﴾ يسافرونَ فيها للتجارةِ ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ وهو الربحُ وقد عُمِّمَ ابتغاءَ الفضلِ لتحصيل العلمِ ﴿ وَءَاخَرُونَ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ وإذا كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ من غيرَ تحملِ المشاقِّ ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي المفروضةَ ﴿ وَءَاتُواْ الزكاة ﴾ الواجبةَ وقيلَ : هي زكاةُ الفطرِ إذْ لم يكن بمكةَ زكاةٌ ومن فسرهَا بالزكاةِ المفروضةِ جعَلَ آخرَ السورةِ مدنياً ﴿ وَأَقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ أُريدَ به الإنفاقاتُ في سبيلِ الخيراتِ أو أداءِ الزكاةِ على أحسنِ الوجوهِ وأنفعها للفقراءِ ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ كائناً مما ذُكِرَ ومَا لم يُذكرْ ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ الله خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ منَ الذي تؤخرونَه إلى الوصيةِ عند الموتِ وخيراً ثاني مفعولَيْ تجدُوا وهو تأكيدٌ أو فصلٌ وإنْ لم يقعْ بينَ معرفتينِ فإن أفعلَ من في حُكمِ المعرفةِ ولذلكَ يمتنعُ من حرفِ التعريفِ وقُرِىءَ هو خيرٌ على الابتداءِ والخبرِ . ﴾

واستغفروا الله ﴾ في كافة أحوالكم فإنَّ الإنسانَ قلَّما يخلو من تفريط ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(34/789)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾

أي زماناً أقل منهما استعمل فيه الأدنى وهو اسم تفضيل من دنا إذا قرب لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الاحياز فهو فيه مجاز مرسل لأن القرب يقتضي قلة الاحياز بين الشيئين فاستعمل في لازمه أو في مطلق القلة وجوز اعتبار التشبيه بين القرب والقلة ليكون هناك استعارة والإرسال أقرب وقرأ الحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام وابن مجاهد عن قنبل فيما ذكر صاحب الكامل ثلثي بإسكان اللام وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر "صاحب اللوامح" ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالنصب عطفاً على أدنى كأنه قيل يعلم إنك تقوم من الليل أقل من ثلثيه وتقوم نصفه وتقوم ثلثه وقرأ العربيان ونافع ونصفه وثلثه بالجر عطفاً على ثلثي الليل أي تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف وأقل من الثلث والأول مطابق لكون التخيير فيما مر بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه

وهو الثلث وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين والثاني مطابق لكون التخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين وبين الثلث وهو أدنى من النصف وبين الربع وهو أدنى من الثلث كذا قال غير واحد فلا تغفل واستشكل الأمر بأن التفاوت بين القراءتين ظاهر فكيف وجه صحة علم الله تعالى لمدلولهما وهما لا يجتمعان وأجيب بأن ذلك بحسب الأوقات فوقع كل في وقت فكانا معلومين له تعالى واستشكل أيضاً هذا المقام على تقدير كون الأمر وارداً بالأكثر بأنه يلزم أما مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر به أو اجتهاده والخطأ في موافقة الأمر وكلاهما غير صحيح أما الأول فظاهر لا سيما على كون الأمر للوجوب وأما الثاني فلأن من جوز اجتهاده عليه الصلاة والسلام والخطأ فيه يقول إنه لا يقر عليه الصلاة والسلام على الخطأ وأجيب بالتزام أن الأمر وارد بالأقل لكنهم زادوا حذراً من الوقوع في المخالفة وكان يشق عليهم وعلم الله سبحانه أنهم لو لم يأخذوا بالأشق وقعوا في المخالفة فنسخ سبحانه الأمر كذا

(35/789)

قيل فتأمل فالمقام بعد محتاج إليه وقرأ ابن كثير في رواية شبل وثلثه بإسكان اللام ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ عطف على الضمير المستتر في تقوم وحسنه الفصل بينهما أي وتقوم

معك طائفة من أصحابك ﴿ والله يُقَدّرُ الليل والنهار ﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى فإن تقديم اسمه تعالى مبتدأ مبنياً عليه يقدر دال على الاختصاص على ما ذهب إليه جار الله ويؤيده قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ فإن الضمير لمصدر يقدر لا للقيام المفهوم من الكلام والمعنى علم أن الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ولا يتأتى لكم حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بالترخيص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة عنكم في تركه فالكلام على الاستعارة حيث شبه الترخيص بقبول التوبة في رفع التبعة واستعمل اللفظ الشائع في المشبه به في المشبه كما في قوله تعالى

(36/789)

﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴾ [البقرة : 187] وزعم بعضهم أنه على ما يتبادر منه فقال فيه دليل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به وليس بشيء ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بعينها وفيه بعد عن مقتضى السياق ومن ذهب إلى الأول قال إن الله تعالى افترض قيام مقدار

معين من الليل في قوله سبحانه : ﴿ قُمِ الليل ﴾ [المزمل : 2] الخ ثم نسخ بقيام مقدار ما منه في قوله سبحانه : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فاقرؤا الآية فالأمر في الموضعين للوجوب إلا أن الواجب أولاً : كان معيناً من معينات وثانياً : كان بعضاً مطلقاً ثم نسخ وجوب القيام على الأمة مطلقاً بالصلوات الخمس ومن ذهب إلى الثاني قال إن الله تعالى رخص لهم في ترك جميع القيام وأمر بقراءة شيء من القرآن ليلاً فكأنه قيل فتاب عليكم ورخص في الترك فاقرؤا ما تيسر من القرآن إن شق عليكم القيام فإن هذا لا يشق وتنالون بهذه القراءة ثواب القيام وصرح جمع أن فاقرؤا على هذا أمر ندب بخلافه على الأول هذا واعلم أنهم اختلفوا في أمر التهجد فعن مقاتل وابن كيسان أنه كان فرضاً بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ثم نسخ بهن إلا ما تطوعوا به ورواه البخاري ومسلم في حديث جابر وروى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والدارمي وابن ماجه والنسائي عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة يا أم المؤمنين انبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق نبي الله تعالى القرآن قال فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت ثم بدا لي فقلت انبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ألست تقرأ ﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾ [المزمل : 1] قلت بلى قالت : فإن الله تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله وأصحابه

حولاً وأمسك الله تعالى خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله تعالى في آخر السورة التخفيف وصار قيام الليل تطوعاً وفي رواية عنها أنه دام ذلك ثمانية أشهر وعن قتادة دام عاماً أو عامين وعن بعضهم أنه كان واجباً وإنما وقع التخيير في المقدار ثم نسخ بعد عشر سنين وكان الرجل كما قال الكلبي يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين وقيل كان نفلاً بدليل التخيير في المقدار وقوله تعالى :

(38/789)

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ [الإسراء : 79] حكاه غير واحد وبحثوا فيه لكن قال الإمام صاحب الكشف لم يرد هذا القائل أن التخيير ينافي الوجوب بل استدل بالاستقراء وأن الفرائض لها أوقات محدودة متسعة كانت أو ضيقة لم يفوض التحديد إلى رأي الفاعل وهو دليل حسن وأما القائل بالفرضية فقد نظر إلى اللفظ دون الدليل الخارجي ولكل وجه وأما قوله ولقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ [الإسراء : 79] الخ فالاستدلال بأنه فسر ﴿ نافلة لك ﴾ [الإسراء : 79] بأن معناه زائدة على الفرائض لك خاصة دون غيرك لأنها تطوع لهم وهذا القائل لا يمنع الوجوب في حقه عليه الصلاة والسلام وإنما

يمنعه في حق غيره صلى الله عليه وسلم والآية تدل عليه فلا نظر فيه ثم إنه لما ذكر سبحانه في تلك السورة ومن الليل أي خص بعض الليل دون توقيت وههنا وقت جل وعلا ودل على مشاركة الأمة له عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ نزل ما ثم على الوجوب عليه صلى الله عليه وسلم خاصة وههنا على التنفلي في حقه وحق الأمة وهذا قول سديد إلا أن قوله تعالى علم أن لن تحصوه فتاب عليكم يؤيد الأول انتهى وعنى بالأول القول بالفرضية عليه عليه الصلاة والسلام وعلى الأمة وظواهر الآثار الكثيرة تشهد له لكن في "البحر" أن قوله تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع إذ لو كان فرضاً عليهم لكان التركيب والذين معك إلا أن اعتقد أنه كان منهم من يقوم في بيته ومنهم من يقوم معه فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع انتهى وأنت تعلم أنه لا يتعين كون من تبعيضية بل تحتمل أن تكون بيانية ومن يقول بالفرضية على الكل صدر الإسلام يحملها على ذلك دون البعضية باعتبار المعية فإنها ليست بذاك والله تعالى أعلم وأفادت الآية على القول الأخير في قوله سبحانه : ﴿ فاقرؤا ﴾ الخ ندب قراءة شيء من القرآن ليلاً وفي بعض الآثار من قرأ مائة آية

(39/789)

في ليلة لم يحاجه القرآن وفي بعضها من قرأ مائة آية كتب من القانتين وفي بعض خمسين آية والمعول عليه من القولين فيه القول الأول وقد سمعت أن الأمر عليه للإيجاب وأنه كان يجب قيام شيء من الليل ثم نسخ وجوبه عن الأمة بوجوب الصلوات الخمس فهو اليوم في حق الأمة سنة وفي "البحر" بعد تفسير فاقرؤا يصلوا وحكاية ما قيل من النسخ وهذا الأمر عند الجمهور أمر إباحة وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة وقال بن جبير وجماعة هو فرض لا بد منه ولو بمقدار خمسين آية انتهى وظاهر سياقه أن هؤلاء قائلون بوجوبه اليوم وأنه لم ينسخ الوجوب مطلقاً وإنما نسخ وجوب معين وهذا خلاف المعروف فعن ابن عباس سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار تطوعاً وبقي ذلك فرضاً على رسول الله عليه الصلاة والسلام وأظن الأمر غنياً عن الاستدلال فلنطو بساط القيل والقال نعم كان السلف الصالح يثابرون على القيام مثابرتهم على فرائض الإسلام لما في ذلك من الخلوة بالحبيب والأنس به وهو القريب من غير رقيب نسأل الله تعالى أن يوفقنا كما وفقهم ويمن علينا كما من عليهم بقي ههنا بحث وهو أن الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه استدل بقوله تعالى : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ على أن الفرض في الصلاة مطلق القراءة لا الفاتحة بخصوصها وهو ظاهر على القول بأنه عبر فيه عن الصلاة بركنها وهو القراءة كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضع وقدر ما تيسر بآية على ما حكاه عنه الماوردي وبثلث على ما حكاه عنه ابن العربي والمسألة

مقررة في الفروع وخص الشافعي ومالك ما تيسر بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة منها ما نقل أبو حامد الإسفرايني عن ابن المنذر بإسناده عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام

(40/789)

" لا تجزى صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب " ومنها ما روي أيضاً عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم " كل صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج " فهي خداج أي نقصان للمبالغة أو ذو نقصان واعترض بأن النقصان لا يدل على عدم الجواز وأجيب بأنه يدل لأن التكليف بالصلاة قائم والأصل في الثابت البقاء خالفناه عند الإتيان بها على صفة الكمال فعند النقصان وجب أن يبقى على الأصل ولا يخرج عن العهدة وأكد بقول أبي حنيفة بعدم جواز صوم يوم العيد قضاء عن رمضان مع صحة الصوم فيه عنده مستدلاً عليه بأن الواجب عليه الصوم الكامل والصوم في هذا اليوم ناقص فلا يفيد الخروج عن العهدة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " وهو ظاهر في المقصود إذ التقدير لا صلاة صحيحة إلا بها واعترض بجواز أن يكون التقدير لا صلاة كاملة فإنه لما امتنع نفى مسمى الصلاة لثبوته دون الفاتحة لم يكن بد من صرفه إلى حكم من أحكامها وليس

الصرف إلى الصحة أولى من الصرف إلى الكمال وأجيب بأنا لا نسلم امتناع دخول النفي على مسماها لأن الفاتحة إذا كانت جزءاً من ماهية الصلاة تنتفي الماهية عند عدم قراءتها فيصح دخوله على مسماها وإنما يمتنع لو ثبت أنها ليست جزءاً منها وهو أول المسألة سلمناه لكن لا نسلم أن صرفه إلى الصحة ليس أولى من صرفه إلى الكمال بل هو أولى لأن الحمل على المجاز الأقرب عند تعذر الحمل على الحقيقة أولى بل واجب بالإجماع ولا شك أن الموجود الذي لا يكون صحيحاً أقرب إلى المعدوم من الموجود الذي لا يكون كاملاً ولأن الأصل بقاء ما كان وهو التكليف على ما كان ولأن جانب الحرمة أرجح لأنه أحوط ومنها أن الصلاة بدون الفاتحة توجب فوات الفضيلة الزائدة من غير ضرورة للإجماع على أن الصلاة معها أفضل فلا يجوز المصير إليه لأنه قبيح عرفاً فيكون قبيحاً شرعاً لقوله عليه الصلاة والسلام ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن

(41/789)

" وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح " ومنها أن قراءتها توجب الخروج عن العهدة بيقين فتكون أحوط فوجب القول بوجوبها لنص دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وللمعقول وهو دفع ضرر الخوف عن النفس فإنه واجب .

وكون اعتقاد الوجوب يورث الخوف لجواز كوننا مخطئين معارض باعتقاد عدمه فيتقابلان

وأما في العمل فالقراءة لا توجب الخوف وتركها يوجبه فالأحوط القراءة إلى غير ذلك

وأجاب ساداتنا الحنفية بما أجابوا واستدلوا على أن الواجب ما تيسر من القرآن لا الفاتحة

بخصوصها بأمور منها ما روى أبو عثمان النهدي عن أبي هريرة أنه قال أمرني رسول الله

صلى الله عليه وسلم أن أخرج وأنادي لا صلاة إلا بقراءة ولو بفاتحة الكتاب ودفع بأنه

معارض بما نقل عن أبي هريرة أنه قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج

وأنادي لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وبأنه يجوز أن يكون المراد من قوله ولو بفاتحة الكتاب هو

أنه لو اقتصر على الفاتحة لكفى ويجب الحمل عليه جمعاً بين الأدلة وفيه تعسف ولعل الأولى

في الجواب جواز كون المراد ولو بفاتحة الكتاب ما هو السابق إلى الفهم من قول القائل لا حياة

إلا بقوت ولو الخبز كل يوم أوقية وهو أن هذا القدر لا بد منه وعليه يصير الحديث من أدلة

الوجوب ومنها أنه لو وجبت الفاتحة لصدق قولنا كلما وجبت القراءة وجبت الفاتحة

ومعناه مقدمة صادقة وهي أنه لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة لوجوب مطلق القراءة

بالإجماع فتنتج المقدمتان لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة وهو باطل وأجيب بمنع الصغرى

أي لا نسلم صدق قولنا لو لم تجب الفاتحة لوجبت القراءة لأن عدم وجوب الفاتحة محال والمحال جاز أن يستلزم المحال وهو رفع وجوب مطلق القراءة الثابت بالإجماع سلمناها لكن لا نسلم استحالة قولنا لو لم تجب الفاتحة لوجبت الفاتحة لما ذكر آنفاً وجعل بعض القياس حجة على الحنفية لأن كل ما استلزم عدمه وجوده ثبت وجوده ضرورة ورد بأن هذا إنما يلزم لو كانت الملازمة وهي قولنا لو لم تجب الفاتحة لوجبت ثابتة في نفس الأمر وليس كذلك بل هي ثابتة على تقدير وجوب قراءة الفاتحة فلهذا لا يصير حجة عليهم وتمام الكلام على ذلك في موضعه وأنت تعلم أنه على القول الثاني

(43/789)

في الآية لا يظهر الاستدلال بها على فرضية مطلق القراءة في الصلاة إذ ليس فيها عليه أكثر من الأمر بقراءة شيء من القرآن قل أو أكثر بدل ما افترض عليهم من صلاة الليل فليتنبه وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ استئناف مبين لحكمة أخرى غير ما تقدم من عسرة إحصاء تقدير الأوقات مقتضية للترخيص والتخفيف أي علم أن الشأن سيكون منكم مرضى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ ﴾ يسافرون فيها للتجارة ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ وهو الربح وقد عمم ابتغاء الفضل لتحصيل العلم والجملة في موضع الحال ﴿ إِنَّ

رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ يعني المجاهدين وفي قرن المسافرين لابتغاء فضل الله تعالى بهم إشارة إلى أنهم نحوهم في الأجر أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في "شعب الإيمان" وغيرهما عن عمر رضي الله تعالى عنه قال ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل الله تعالى وتلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبعيه لسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله والمراد أنه عز وجل علم أن سيكون من المؤمنين من يشق عليه القيام كما علم سبحانه عسر إحصاء تقدير الأوقات وإذا كان الأمر كما ذكر وتعاضدت مقتضيات الترخيص ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن من غير تحمل المشاق ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي المفروضة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ كذلك وعلى هذا أكثر المفسرين والظاهر أنهم عنوا بالصلاة المفروضة الصلوات الخمس وبالزكاة المفروضة أختها المعروفة واستشكل بأن السورة من أوائل ما نزل بمكة ولم تفرض الصلوات الخمس إلا بعد الإسراء والزكاة

إنما فرضت بالمدينة وأجيب بأن الذاهب إلى ذلك يجعل هذه الآيات مدنية وقيل أن الزكاة فرضت بمكة من غير تعيين للأنصباء والذي فرض بالمدينة تعيين الأنصباء فيمكن أن يراد بالزكاة الزكاة المفروضة في الجملة فلا مانع عن كون الآيات مكية لكن يلتزم لكونها نزلت بعد الإسراء وحملها على صلاة الليل السابقة حيث كانت مفروضة ينافي الترخيص وقيل يجوز أن تكون الآية مما تأخر حكمه عن نزوله وليس بذاك ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ أريد به الإنفاقات في سبل الخيرات أو أداء الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعها للفقراء ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لاَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ أي خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ أي من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت وخيراً ثاني مفعولي تجدوه وهو تأكيد لضمير تجدوه وإن كان بصورة المرفوع والمؤكد منصوب لأن هو يستعار لتأكيد المجرور والمنصوب كما ذكره الرضي أو ضمير فصل وإن لم يقع بين معرفتين فإن أفعل من في حكم المعرفة ولذا يمتنع من حرف التعريف كالعلم وجوز أبو البقاء البدلية من ضمير تجدوه ووهمه أبو حيان بأن الواجب عليها إياه وقرأ أبو السمال باللام العدوى وأبو السماك بالكاف الغنوى وأبو السميقع هو خير وأعظم برفعهما على الابتداء والخبر وجعل الجملة في موضع المفعول الثاني قال أبو زيد هي لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة يقولون كان زيد هو العاقل بالرفع وعليه قول قيس بن ذريح

: تحن إلى لبنى وأنت تركتها . . .

وكنت عليها بالملا أنت أقدر

(45/789)

فقد قال أبو عمر والجرمي أنشده سيبويه شاهداً للرفع والقوافي مرفوعة ويروى أقدرا ﴿ واستغفروا الله ﴾ في كافة أحوالكم فإن الإنسان قلما يخلو مما يعد تفريطاً بالنسبة إليه وعد من ذلك الصوفية رؤية العابد عبادته قيل ولهذه الإشارة أمر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيغفر سبحانه ذنب من استغفره ويرحمه عز وجل وفي حذف المعمول دلالة على العموم وتفصيل الكلام فيه معلوم نسأل الله تعالى عظيم مغفرته ورحمته لنا ولوالدينا ولكافة مؤمني بريته بحرمة سيد خليقته وسند أهل صفوته صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وشيعته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(46/789)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19) ﴾

الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ هذه ﴾ إلى ما تقدّم من الآيات ، والتذكرة الموعظة ، والإشارة إلى جميع آيات القرآن ، لا إلى ما في هذه السورة فقط ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي : اتخذ بالطاعة التي أهم أنواعها التوحيد إلى ربه طريقاً توصله إلى الجنة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ معنى ﴿ أدنى ﴾ : أقلّ ، استعير له الأدنى ؛ لأن المسافة بين السنين إذا دنت قلّ ما بينهما ﴿ وَنِصْفَهُ ﴾ معطوف على أدنى ﴿ وَثُلُثَهُ ﴾ معطوف على نصفه ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم يقوم أقلّ من ثلثي الليل ، ويقوم نصفه ، ويقوم ثلثه ، وبالنصب قرأ ابن كثير ، والكوفيون ، وقرأ الجمهور : " ونصفه وثلثه " بالجر عطفاً على ثلثي الليل ، والمعنى : أن الله يعلم أن رسوله يقوم أقلّ من ثلثي الليل ، وأقلّ من نصفه ، وأقلّ من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه .

وقال الفرّاء : القراءة الأولى أشبه بالصواب ؛ لأنه قال : أقلّ من ثلثي الليل ، ثم فسر نفس القلة ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ معطوف على الضمير في تقوم : أي : وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحابك .

﴿ واللهُ يُقَدّرُ اليل والنهار ﴾ أي : يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، ويختص بذلك دون غيره ، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة .

قال عطاء : يريد لا يفوته علم ما تفعلون .

أي : أنه يعلم مقادير الليل والنهار ، فيعلم قدر الذي تقومونه من الليل ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أن لن تطيقوا علم مقادير الليل والنهار على الحقيقة ، وفي أن ضمير شأن محذوف .

وقيل المعنى : لن تطيقوا قيام الليل .

(47/789)

قال القرطبي : والأوّل أصحّ ، فإن قيام الليل ما فرض كله قط ، قال مقاتل وغيره : لما نزل ﴿ قُمِ اليل إِلاَّ قَلِيلاً * نّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل : 42] شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء ، فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله ، وخفف عنهم فقال : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي : علم أن لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم واحتجتم إلى تكلف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فعاد عليكم بالعفو ، ورخص لكم في ترك القيام .

وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع ، كما تقدّم ؛ فالمعنى : رجع بكم من التثقيل إلى التخفيف ، ومن العسر إلى اليسر .

﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ أي فاقرءوا في الصلاة بالليل ما خف عليكم ، وتيسّر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتاً .

قال الحسن : هو ما نقرأ في صلاة المغرب والعشاء .

قال السديّ : ما تيسّر منه هو مائة آية .

قال الحسن : أيضاً من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن .

وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين .

وقال سعيد : خمسون آية .

وقيل : معنى ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ : فصلوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآناً ، كقوله : و ﴿ أَقِمِ الصلاة ﴾ [الإسراء : 78] .

قيل : إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه ، والنقصان من النصف والزيادة عليه ، فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً ، ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله : ﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] .

قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين .

فوجدنا سنة رسول الله تدلّ على أن لا واجب من الصلاة إلاّ الخمس .

وقد ذهب قوم إلى أن قيام الليل نسخ في حقه وفي حق أمته .

وقيل : نسخ التقدير بمقدار وبقي أصل الوجوب .

وقيل : إنه نسخ في حق الأمة ، وبقي فرضاً في حقه ، والأولى القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه وفي حق أمته ، وليس في قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ما يدل على بقاء شيء من الوجوب ؛ لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن ، فقد وجدت في صلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل ، فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوّع .

وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصرّحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل عليّ غيرها ، يعني : الصلوات الخمس ؟ فقال : " لا ، إلاّ أن تطوّع " تدل على عدم وجوب غيرها .

فارتفع بهذا وجوب قيام الليل ، وصلاته على الأمة ، كما ارتفع وجوب ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ، قال الواحدي : قال المفسرون في قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ كان هذا في صدر الإسلام ، ثم نسخ

بالصلوات الخمس عن المؤمنين ، وثبت على النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، وذلك قوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ .

ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ أي : يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل ﴿ وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ يعني : المجاهدين ، فلا يطيقون قيام الليل .

ذكر سبحانه ها هنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ، ورفع وجوب قيام الليل ، فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم .

(49/789)

ثم ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ وقد سبق تفسيره قريباً ، والتكرير للتأكيد ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني : المفروضة ، وهي الخمس لوقتها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ يعني : الواجبة في الأموال .

وقال الحارث العكلي : هي صدقة الفطر ؛ لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك .

وقيل : صدقة التطوّع .

وقيل : كل أفعال الخير ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ أي : أنفقوا في سبيل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً ، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد .

قال زيد بن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل .

وقيل : النفقة في الجهاد ، وقيل : هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن ، فيكون تفسيراً لقوله ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ ﴾ فإن ظاهره العموم ، أي : أيّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر ﴿ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ مما تؤخرونه إلى عند الموت ، أو توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب ﴿ خيراً ﴾ على أنه ثاني مفعولي تجدوه ، وضمير هو ضمير فصل ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبو السماك ، وابن السميفع بالرفع على أن يكون هو مبتدأ ، وخير خبره ، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجدوه .

قال أبو زيد : وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وأنشد سيبويه :

تحنّ إلى ليلى وأنت تركتها . . . وكنت عليها بالملاء أنت أقدر

وقرأ الجمهور أيضاً : ﴿ وأعظم ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ خيراً ﴾ ، وقرأ أبو السماك ، وابن السميفع بالرفع ، كما قرأ برفع " خير " ، وانتصاب ﴿ أجراً ﴾ على التمييز ﴿ واستغفروا الله ﴾ أي : اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم ، فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير المغفرة لمن استغفره ، كثير الرحمة لمن استرحمه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والطبراني عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

قال : "مائة آية" .

وأخرج الدراقطني ، والبيهقي في سننه ، وحسناه عن قيس بن أبي حازم قال : صليت خلف ابن عباس ، فقرأ في أوّل ركعة بالحمد لله ربّ العالمين ، وأوّل آية من البقرة ، ثم ركع ، فلما انصرفنا أقبل علينا ، فقال : إن الله يقول : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جداً لم أره إلاّ في معجم الطبراني .

وأخرج أحمد ، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال : "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر" .

وقد قدّمنا في البحث الأوّل من هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل ، فارجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 323.321 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ . . » الآية بهذه الآية المباركة تختم السورة الكريمة ، فيلتقى ختامها مع بدئها ، الذي كان دعوة من اللّه سبحانه وتعالى إلى النبي الكريم بقيام الليل إلا قليلا ، أو نصفه ، أو أقل أو أزيد من النصف ، وقد امتثل النبي أمر ربه ، فقام من الليل ما شاء اللّه أن يقوم ، فى اطار هذه الحدود التي حددها اللّه سبحانه وتعالى له ، فقام أحيانا الليل كله ، وقام أحيانا الليل كله إلا قليلا منه ، وقام أحيانا أخرى نصفه ، أو أقل أو أزيد من النصف . .

وفى هذا الختام ، يتلّقى النبي الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، هذا الخبر المسعد له ، وذلك بأن اللّه سبحانه قد تقبل منه قيامه ، وأنه سبحانه سيجزيه على طاعته ، وامتثاله أمر ربه . بأن يخفف عنه هذا التكليف الشاق عليه ، وعلى تلك الجماعة من المؤمنين ، التي تأسّت بالنبي ، وقامت الليل مثله . .

فقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » ليس المراد منه الإخبار بعلم اللّه ، وإنما المراد بهذا الخبر ما يترتب على وقوعه ، وهو الجزاء الذي يستحقه المخبر عنه ، بسبب وقوع ما أخبر به عنه . .

وقوله تعالى : « أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ » .

هو بيان شارح لما

(52/789)

أمره اللّه سبحانه وتعالى به من قيام الليل فى قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » . ف قوله تعالى : « أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » أي أقرب إلى ثلثى الليل . يدخل فيه الليل كله إلا قليلا . ، كما يدخل فيه ما زاد على النصف . . فإن أدنى من ثلثى الليل ، يحتمل طرفى الزيادة والنقص من الثلثين ، فما زاد عن الثلثين قليلا ، يعتبر أدنى منهما من جهة ، كما أن ما نقص عنهما قليلا ، يعد أدنى منهما من جهة أخرى

. .

وأما قوله تعالى « وَنِصْفَهُ » فهو يقابل ما جاء فى قوله : « نِصْفَهُ » المذكور فى أول السورة

. .

وأما قوله تعالى : « وَثُلُثَهُ » فهو يقابل قوله تعالى : « نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا » أي انقص من النصف قليلا . .

وقوله تعالى : « وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ » هو معطوف على فاعل :

« تَقُومُ » أي تقوم أنت ، ويقوم طائفة من الذين معك ، أي من الذين آمنوا وأصبحوا معك ، لا عليك . .

وفى هذا ما يشير إلى أن قيام الليل لم يكن فرضا على المؤمنين ، ولا واجبا ، وإنما كان الذين قاموا الليل مع النبي جماعة من المؤمنين ، لا كل المؤمنين ، تأسّوا بالنبي ، دون أن يدعوا إلى هذا القيام ، وإلا لو كان فرضا الزم المسلمين جميعا ، ولكان الذين لم يقوموا الليل ، آمنين ، غير مؤمنين ، الأمر الذي لم تشر إليه الآيات ، من قريب أو بعيد . :

أما النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - فقد كان قيام الليل فى أول رسالته - فرضا عليه وحده ، دون المؤمنين ، لأنه مكلف بمهمة لم يكلّف بها

(53/789)

أحد غيره ، وإن هذه المهمة شاقة ثقيلة تحتاج إلى دربة ومران على احتمال الصعاب والمشقات ، كما أنها تحتاج إلى رصيد كبير من الزاد الذي يتزود به من قيامه الليل ، وترتيله القرآن .

ثم إنه بعد أن بدأت الدعوة الإسلامية ، تأخذ طريقها العملي ، ويواجه بها النبي قومه - رفع اللّه سبحانه وتعالى عن النبي عبء قيام الليل ، فجعل ذلك أمرا على سبيل الندب

والاستحباب ، وفى أي وقت وقدر من الليل ، كما يقول سبحانه : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » (79 : الإسراء) . .

قيل إنه كان بين نزول أول المزمل وما حملت إلى النبي من أمر بقيام الليل ، وبين هذه الآية الأخيرة من السورة ، التي جاء فيها حكم التخفيف بقراءة ما تيسر من القرآن. كان بين نزول أول السورة وآخرها عشرة أشهر ، وقيل سنة ، كما يروى ذلك عن السيدة عائشة رضى اللّه عنها ، وقيل إنه كان بينهما عشر سنين ! ! .

ونحن نميل إلى الرأى الثاني وهو القول بعشر سنين . .

وذلك لأمور :

أولها : أن مدة عشرة أشهر أو سنة ، غير كافية فى التدريب على حمل هذا العبء الثقيل الذي سيحمله النبي ، فى تبليغ الدعوة الإسلامية ، وأن ما ينتظر النبي فى الدور المدني من اتصال الحرب بينه وبين المشركين واليهود ، لا تدع له فرصة لسهر الليل الطويل . . على خلاف ما كان عليه الأمر فى مكة ، حيث كان لقاء النبي مع آيات ربه بالليل ، هو الزاد الذي يعيش عليه خلال تلك المدة .

وثانيها : أن المواجهة بين النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وبين المشركين فى مكة ، كانت مواجهة كلامية لم تخرج إلى حد القتال . . فالدور المكي من الدعوة كان كله حربا من جانب واحد ، هو جانب قريش ، لم يؤذن المسلمين بعد فيه بالقتال ، لأنهم لم يكونوا يملكون فى مكة القدرة على التجمع ، والتحرك ، كما كانوا لا يملكون وسائل القتال وعدده . .

وثالثها : فى قوله تعالى : « وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ـ فى هذا إشارة إلى أن هذه الآية نزلت والمسلمون كانوا قد أوشكوا أن يكونوا قوة مقاتلة تلتقى مع المشركين فى ميادين القتال . . وأن هؤلاء الذين كانوا يقومون الليل تأسيا بالنبي ، كانوا يشاركون فى هذه المعارك ، الأمر الذي يجعل من قيام الليل عبئا آخر إلى أعباء الحرب ، فكان التخفيف عن النبي ، وعن المتأسّين به فى قيام الليل ، أمرا مطلوبا فى تلك الحال ـ أي حال التحام المسلمين مع المشركين واليهود فى القتال ، وذلك فى العهد المدني قوله تعالى : « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » ـ أي يضبط زمن كل منهما ، فى تكوير أحدهما على الآخر ، فيطول هذا ، ويقصر ذاك . . « قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » (3 : الطلاق) أي حسابا وتقديرا . .

قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » أي علم اللّه سبحانه وتعالى أنكم لن تحصوا أوصاف الثناء عليه سبحانه وتعالى مهما طال قيامكم بالليل . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم فى قوله ، مناجيا ربّه : « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

وهذا الذي ذهبنا إليه ، هو المعنى الذي نستريح له . . ولم نجد أحدا من المفسرين قد ذهب إلى هذا الرأى ، وإنما كانت آراؤهم كلها تدور حول

(55/789)

معنى واحد ، هو أن اللّه سبحانه علم أنكم لن تقدروا على إحصاء الليل وتحديد مواقيته ، ومعرفة متى يكون ثلث الليل أو نصفه ، أو ثلثاه ؟ . . أما النهار فإنه من الممكن ضبط أجزائه ، ولهذا عاد الضمير فى « تحصوه » على الليل وحده دون أن يعود عليه هو والنهار . . هكذا يقولون ! ! وهذا المعنى الذي يذهب إلى معنى العجز عن إحصاء أجزاء الليل - وإن كان له مفهوم وقت نزول القرآن ، حيث لم تكن هناك المقاييس الزمنية المعروفة اليوم ، كالساعة ونحوها ، فإن هذا المفهوم الآن غير واقع . . والقرآن الكريم حكم قاض بالحق المطلق ، وشاهد ناطق بالصدق المصفّى ، أبد الدهر . .

« لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

. ثم إن إحصاء الليل ، وتقدير وقته ، من الممكن أن يتحقق حتى فى زمن نزول هذه الآية ، وذلك برصد النجوم ، وتحديد منازلها ، وقد كان العرب على علم بهذا ، وأنّ نظرة من أحدهم إلى مواقع النجوم فى السماء ، كان يعرف بها أين هو من الليل ؟ وماذا ذهب منه

؟ وماذا بقي . . ؟

ومن إعجاز القرآن الكريم أنه يتسع لمفاهيم الحياة كلها فى كل زمان ومكان . . وعلى هذا يمكن أن بتوارد على قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » أكثر من مفهوم ، وكل مفهوم ، منها يسدّ حاجة الناس فى عصرهم ، وما بلغته مداركهم من العلم .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » خبرا عن اللّه سبحانه وتعالى ، ويكون قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » خبرا ثانيا أي واللّه يقدر الليل والنهار ، واللّه علم أن لن تحصوه أي تبلغوا حق الثناء عليه . . ويجوز أن يكون قوله تعالى : « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » صلة لموصول محذوف ، هو

(56/789)

صفة للّه ، بمعنى واللّه المقدر لليل والنهار . . ويكون قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » خبرا للفظ الجلالة . . بمعنى : واللّه المقدر لليل والنهار علم أن لن تحصوا الثناء عليه ، مهما امتد الزمن بكم ، وطال الليل أم قصر . .

وقوله تعالى : « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » .

. الفاء السببية ، أو التفريع . . أي علم اللّه أنكم لن تحصوا الثناء عليه « فَتَابَ عَلَيْكُمْ »

أي فقبل منكم هذا التقصير ، قبول التائب من ذنبه ، فيرفع عنه وزره ، ويغسل ذنوبه كما يغسل الثوب مما علق به .

وفى التعبير عن رفع الحرج عن المؤمنين فى قيام الليل ، على ما جاء فى قوله تعالى : « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » - فى التعبير عن هذا بالتوبة ، مع أن هؤلاء المؤمنين لم يأتوا ذنبا ، إن كان منهم تقصير فى قيام الليل ، لأن قيام الليل لم يكن فرضا عليهم ، وإنما كان مندوبا ومستحبّا ، اقتداء بالنبي ، وتأسيّا به ، وترسما لخطاه - فى التعبير عن هذا بالتوبة ، إشارة إلى لطف اللّه بالمؤمنين ، وإكرامه لهم ، وأنهم - وإن كانوا يأتون أمرا لهم فيه سعة - فإن إلزام أنفسهم به ، يقتضيهم أن يؤدوه كاملا على الوجه المرسوم له . . تماما كأفعال المتطوع ، فى العبادات من صوم ، وزكاة وكالنذر ونحوه . . فإن المؤمن إذا ألزم نفسه شيئا من هذا ، وجب عليه أن يؤديه كاملا ، مستوفيا جميع أركانه ، آخذا كل صفاته . . إنه عقد عقده الإنسان مع ربه ، وأن أي خلل فى أركان هذا العقد ، هو نقض له . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » (1 - المائدة) ومن جهة أخرى . . فإن التهاون ، والاستخفاف بما يأتيه المؤمن -

متطوعا - من عبادات ، وإخلاء نفسه من شعور الجدّ فيها ، والاحتفاء بها ، بوصف أنه إنما يأتى به متطوعا ، وأنه لا حرج عليه فى أن يؤديه على أية صورة - إن هذا من شأنه أن يذهب بجلال العبادة وقد سيتها ، ويجعلها أشبه باللهو واللعب . . وأنه إذا كان المؤمن شأن فى أداء فرائض اللّه ، فليكن هذا شأنه فى جميع ما يتعبد للّه سبحانه وتعالى به ، من فرائض وواجبات ونوافل . .

فهو فى جميع أحواله ، فى مقام التعبد للّه ، يستوى فى هذا ما كان فرضا ، أو واجبا ، أو تطوعا . . فإن العبادة هى العبادة ، والمعبود هو المعبود ، والعابد هو العابد . .

فالفرائض ، والواجبات ، والنوافل ، كلها فى مقام التعبد للّه ، على درجة واحدة ، فيما ينبغى لها من جلال وتوقير ، لأنها جميعها موجهة إلى اللّه سبحانه وتعالى . . واللّه سبحانه وتعالى طيّب لا يقبل إلا طيبا . .

ففى قوله تعالى : « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » - إشارة إلى أن اللّه سبحانه وتعالى ، قد أعفى المؤمنين من هذا الإلزام الذي ألزموه أنفسهم ، وقد أعنتهم الوفاء به ورهقهم الاستمرار عليه . .

فتاب اللّه عليهم ، وأحلّهم من هذا الإلزام ، وتجاوز عن تقصيرهم ، توخرج بهم من الضيق إلى السعة ، لطفا منه ورحمة ، وإحسانا . .

وقوله تعالى : « فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » .

. هو تفريع على قوله تعالى : « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » .

. أي ولأن اللّه قد تاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، دون أن يكون ذلك مقيدا بقدر محدود من الليل ، أو النهار ، حتى تؤدوا ذلك القدر اليسير من التلاوة على الوجه الأكمل ، وفى حال حضور جسدى ، ونفسى وعقلى . .

(58/789)

قيل إن قراءة ما تيسر من القرآن ، يجزىء فيها قراءة مائة آية ، وقيل أقل من هذا ، إلى عشر آيات . . وفى هذا اليسر ، ما يمكّن للمؤمنين - كما قلنا - من لقاء اللّه سبحانه وتعالى على ذكره ، لقاء واعيا ، يقظا ، تنشط له أعضاء الإنسان كلها ، ويحضره وجوده جميعه ، فى غير تكاسل ، أو فتور ، أو غفلة . . وهذا يعنى أن العبادة ليست كيلا يكال بكمّه ، ويقدّر بكثرته . . وإنما هى صلة روحية باللّه ، تكفى فى تحقيقها شرارة منطلقة من قلب سليم ، فيتوهج بنور الحق ، ويتصل بنور اللّه ، الذي هو نور السموات والأرض . .

وقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . .

هذا بيان للسبب الذي من أجله أحلّ اللّه المؤمنين من هذا الإلزام الذي ألزموا به أنفسهم ، وهو أنهم لن يستطيعوا أن يقوا بهذا الالتزام على وجهه ، لأنه سيكون منهم من يمرض ،

ويكون منهم من يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، ويكون منهم من يقاتل فى سبيل اللّه . . وهذه كلّها معوقات تعوق عن أداء هذا الإلزام على وجهه . . وهذا من شأنه أن يوقع المقصّر منهم - بعذر من هذه الأعذار - فى حرج ، ويقيمه مقاما قلقا مضطربا ، ويوقع فى نفسه كثيرا من مشاعر الأسى والحسرة . .

وهنا سؤال ، هو :

إذا كان قيام الليل بالنسبة لمن قاموه من جماعة المؤمنين ، هو على سبيل التطوع ، فكيف يجد المؤمن حرجا فى أنه لم يقم الليل ، لمرض ، مثلا ؟ أليس هذا عذرا ، قد يسقط عنه بعض الفرائض ، والواجبات ، فكيف بالتطوع ، والنافلة ؟

(59/789)

ونقول - واللّه أعلم - إن ذلك وإن كان صحيحا ، فإنه لا يخلى نفس المؤمن الحريص على دينه من الحسرة والألم أن فاته هذا الخير ، وأقعده المرض عن اللحاق بإخوانه الذين حصّلوا هذا الخير . . تماما كمن يفطر رمضان لمرض ، أو شيخوخة ، وكمن يقعده العجز عن الجهاد فى سبيل اللّه . . إنه وإن كان قد خرج من باب الحرج ، فإنه لم يدخل فى باب العابدين المجاهدين . . !

ولهذا كان من رحمة اللّه ، ولطفه ، وإحسانه بالمؤمنين - أن يدعوهم جميعا إلى ساحة رضاه ، وأن يمد لهم موائد الخير ليصيبوا منها جميعا ، وليأخذ كلّ قدر طاقته ، سواء أكان مريضا ، أو ضاربا فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو مجاهدا فى سبيل اللّه . . فهذا القدر اليسير من تلاوة القرآن ، يدخل المسلمين جميعا فى مقام الإحسان ، ويتيح لهم جميعا أن يشاركوا فى التأسّى بالنبي فى قيام الليل . .

وبهذا لا ينفرد ذوو الهمم العالية من المؤمنين الذين أشار إليهم اللّه سبحانه وتعالى بقوله : « وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ » - لا ينفرد هؤلاء وحدهم بالتأسى بالنبي فى هذا المقام ، وإن انفردوا بالمنزلة العليا ، وأخذوا مكان الصف الأول فيه . .

ومن جهة أخرى ، فإن المخاطبين فى قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » - المخاطبون هنا - واللّه أعلم - هم جماعة من المؤمنين بأعيانهم ، وهم أولئك الذين قاموا مع النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - ما قام من الليل ، أدنى من ثلثيه ، أو نصفه ، أو ثلثه .

فهذه الجماعة ، هى التي جاءت الآية الكريمة هنا لتحلّها من هذا الالتزام الذي ألزمت به نفسها ، حتى لقد تورمت أقدام كثير منهم ، وكاد يؤدى بهم ذلك إلى التلف ، وهم على إصرار بأن يمضوا فى طريقهم إلى غايته ، مهما يصبهم من عناء ورهق . .

فهؤلاء الجماعة من المؤمنين ، لن يظلوا على تلك الحال التي هم عليها . .

بل إنه ستعرض لهم أحوال أخرى ، تلجئهم إلجاء إلى عدم الوفاء بهذا الالتزام ، كالمرض ، أو السفر في تجارة ونحوها ، أو القتال فى سبيل اللّه ، الذي سيشهده بعضهم إن لم يكونوا شهدوه فعلا . . ثم كان هذا التخفيف عاما لجميع المؤمنين ، حيث يتاح لهم جميعا أن يأخذوا بحظهم من قيام الليل ، ولو لحظات منه . .

وفى ذكر القتال فى سبيل اللّه هنا ، نبأ من أنباء الغيب ، بما سيلقى المؤمنون على طريق الإيمان من جهاد فى سبيل اللّه ، ومن قتال بينهم وبين المحادّين للّه ، والصادّين عن سبيل اللّه . . وذلك على أن الآية مكية ، كما يقول بذلك بعض العلماء . .

وقوله تعالى : « فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ » هو توكيد لقوله تعالى : « فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ »

وفى هذا تطمين لقلوب المؤمنين الذين دعتهم الآية الكريمة إلى التحول عن هذا الموقف الذي ألزموه أنفسهم ، من قيام الليل . .

فهو أمر يكاد يكون ملزما بالتخفيف . فما أبرّ اللّه بعباده ، وما أوسع رحمته لهم ، فسبحانه ، سبحانه ، من ربّ برّ رحيم . . ! !

قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً » .

أي وحسبكم مع قراءة ما تيسر من القرآن ، وقيام ما تيسر لكم من الليل - حسبكم - مع هذا

ـأداء ما افترض اللّه عليكم من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . .

وقوله تعالى : « وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً » هو دعوة إلى التصدق والإنفاق تطوعا ، دون أن يقدّر ذلك بقدر معين ، فهو أمر موكول إلى الإنسان ، وما تسمح به نفسه . . إنه أشبه بقراءة ما تيسر من القرآن ، الذي يتسع لآيات معدودات ، كما يتسع للقرآن كله . . فمن تصدق بالقليل ، فقد أقرض

(61/789)

اللّه قرضا حسنا . . « ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » ـ وإن كان لكل محسن جزاء ما قدم من إحسان ، كلّ على قدر ما أعطى . .

والقرض الحسن ، هو الذي لا منّ فيه ولا أذّى ، والذي يكون من طيبات ما كسب الإنسان ، كما يقول سبحانه : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ » (267 : البقرة) وكما يقول سبحانه : « وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » (267 : البقرة) .

وقوله تعالى : « وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً » ـ هو تعقيب على الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإقراض اللّه قرضا حسنا . . فهذه كلّها طاعات ، وقربات يتقرب بها إلى اللّه ، وهى كلّها خير مدخر لصاحبه عند اللّه ، يجده

عند الحاجة إليه يوم الحساب والجزاء ـ خيرا من هذا الخير ، قدرا ، وأعظم أجرا . .

قوله تعالى : « وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

. أي ومع إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإقراض اللّه قرضا حسنا ، فإن العبد لا يزال مقصرا فى حق ربه ، مهما بلغ من طاعة ، ومهما قدم من خير ـ فإن ذلك كله لا يفى ببعض نعم اللّه على الإنسان . . فليستشعر المؤمن هذا أبدا ، وليكن على علم بأنه مقصر فى حق ربه ، وأنه لا ملجأ له لتلافى هذا النقص ، إلا طلب المغفرة ، والرحمة من ربه . . واللّه سبحانه « غَفُورٌ رَحِيمٌ » يغفر للمستغفر ، لأنه رحيم يرحم من طلب الرحمة لنفسه ، وسعى إلى إقالتها من عثراتها . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1277.1267 ﴾

(62/789)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾

من هنا يبتدىء ما نزل من هذه السورة بالمدينة كما تقدم ذكره في أول السورة .

وصريح هذه الآية ينادي على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل قبل نزول الآية

وأن طائفة من أصحابه كانوا يقومون عملاً بالأمر الذي في أول السورة من قوله : ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً ﴾ الآية [المزمل : 2] ، فتعين أن هذه الآية نزلت للتخفيف عنهم جميعاً لقوله فيها : ﴿ فتاب عليكم ﴾ فهي ناسخة للأمر الذي في أول السورة .

واختلف السلف في وقت نزولها ومكانه وفي نسْبة مقتضاها من مقتضى الآية التي قبلها .

والمشهور الموثوق به أن صدر السورة نزل بمكة .

ولا يغتر بما رواه الطبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمان عن عائشة مما يوهم أن صدر السورة نزل بالمدينة .

ومثلُه ما روي عن النخعي في التزمل بمرط لعائشة .

ولا ينبغي أن يطال القول في أنَّ القيام الذي شُرع في صدر السورة كان قياماً واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وأن قيام من قام من المسلمين معه بمكة إنما كان تأسياً به وأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم عليه ولكن رأت عائشة أن فرض الصلوات الخمس نسَخ وجوب قيام الليل ، وهي تريد أن قيام الليل كان فرضاً على المسلمين ، وهو تأويل ، كما لا ينبغي أن يختلف في أن أول ما أوجب الله على الأمة هو الصلوات الخمس التي فرضت ليلة المعراج وأنها لم يكن قبلها وجوب صلاة على الأمة ولو كان لجَرى ذكر تعويضه بالصلوات الخمس في حديث المعراج ، وأن جوب الخمس على النبي صلى الله عليه وسلم مثل وجوبها على المسلمين .

وهذا قول ابن عباس لأنه قال : إن قيام الليل لم ينسخه إلاّ آية : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ الآية ، ولا أن يختلف في أن فرض الصلوات الخمس لم ينسخ فرض القيام على النبي صلى الله عليه وسلم سوى أنه نسخ استيعاب نصف الليل أو دونه بقليل فنسخه ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ .

وقد بين ذلك حديث ابن عباس ليلةَ بات في بيت خالته ميمونة أم المؤمنين قال فيه : "نام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله حتى إذا كان نصف الليل أو قبله بقليل أو بعدَه بقليل استيقظ رسول الله" ثم وصف وُضوءه وأنه صلى ثلاث عشرة ركعة ثم نام حتى جاءه المنادي لصلاة الصبح .

وابن عباس يومئذٍ غلام فيكون ذلك في حدود سنة سبع أو ثمان من الهجرة .

ولم ينقل أن المسلمين كانوا يقومون معه إلاّ حين احتجز موضعاً من المسجد لقيامه في ليالي رمضان فتسامع أصحابه به فجعلوا يَنْسِلون إلى المسجد ليصلّوا بصلاة نبيئهم صلى الله عليه وسلم حتى احتبس عنهم في إحدى الليالي وقال لهم:

" لقد خشيت أن تفرض عليكم " وذلك بالمدينة وعائشة عنده كما تقدم في أول السورة .

وهو صريح في أن القيام الذي قاموه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فرضاً عليهم وأنهم لم يدوموا عليه وفي أنه ليس شيء من قيام الليل بواجب على عموم المسلمين وإلاّ لما كان لخشية أن يفرض عليهم موقع لأنه لو قُدر أن بعض قيام الليل كان مفروضاً لكان قيامهم مع النبي صلى الله عليه وسلم أداء لذلك المفروض ، وقد عضد ذلك حديث ابن عمر "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحفصة وقد قصَّت عليه رؤيا رآها عبد الله بن عمر أن عبد الله رجل صالح لو كان يقوم في الليل" .

(64/789)

وافتتاح الكلام بـ ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ يشعر بالثناء عليه لوفائه بحق القيام الذي أُمر به وأنه كان يبسط إليه ويهتم به ثم يقتصر على القدرِ المعين فيه النصفِ أو أنقصَ منه قليلاً أو زائدٍ عليه بل أخذ بالأقصى وذلك ما يقرب من ثُلثي الليل كما هو شأن أولي العزم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ [القصص : 29] أنه قضى أقصَى الأجلين وهو العشر السنون .

وقد جاء في الحديث : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه "

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إِنَّ ﴾ للاهتمام به ، وهو كناية عن أنه أرضى ربّه بذلك وتوطئة للتخفيف الذي سيذكر في قوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ ليعلم أنه تخفيف رحمة وكرامة ولإفراغ بعض الوقت من النهار للعمل والجهاد .

ولم تزل تكثر بعد الهجرة أشغال النبي صلى الله عليه وسلم بتدبير مصالح المسلمين وحماية المدينة وتجهيز الجيوش ونحو ذلك ، فلم تبق في نهاره من السعة ما كان له فيه أيامَ مقامه بمكة ، فظهرت حكمة الله في التخفيف عن رسوله صلى الله عليه وسلم من قيام الليل الواجِب منه والرغيبةِ .

وفي حديث علي بن أبي طالب " أنه سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى منزله فقال : كان إذا أوَى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء : جُزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزّأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك بالخاصة على العامة ولا يدخر عنهم شيئاً فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمةَ من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم "

وإيثار المضارع في قوله : ﴿ يعلم ﴾ للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده وذلك إيذان بأنه بمحل الرضى منه .

وفي ضده قوله : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ [الأحزاب : 18] لأنه في معرض التوبيخ ، أي لم يزل عالماً بذلك حيناً فحيناً لا يخفى عليه منه حصة .

و ﴿ أدْنى ﴾ أصله أقرب ، من الدنُوّ ، استعير للأَقَلّ لأن المسافة التي بين الشيء والأدنى منه قليلة ، وكذلك يستعار الأبعد للأكثر .

وهو منصوب على الظرفيّة لفعل ﴿ تقوم ﴾ ، أي تقوم في زمان يقدر أقل من ثلثي الليل وذلك ما يزيد على نصف الليل وهو ما اقتضاه قوله تعالى : ﴿ أو زد عليه ﴾ [المزمل : 4] .

وقرأ الجمهور : ﴿ ثُلثي ﴾ بضم اللام على الأصل .

وقرأه هشام عن ابن عامر بسكون اللام على التخفيف لأنه عرض له بعض الثقل بسبب التثنية .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ ونصفَه وثلثَه ﴾ بخفضهما عطفاً على ﴿ ثلثي الليل ﴾ ، أي أدنى من نصفه وأدنى من ثلثه .

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ على أنهما منصوبان على المفعول ل ﴿ تقومُ ﴾ ، أي تقوم ثلثي الليل ، وتقوم نصف الليل ، وتقوم ثلثَ الليل ، بحيث لا ينقص عن النصف وعن الثلث .

وهذه أحوال مختلفة في قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل تابعة لاختلاف أحوال الليالي والأيام في طول بعضها وقصر بعض وكلها داخلة تحت التخيير الذي خيره الله في قوله ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً ﴾ [المزمل : 2] إلى قوله : ﴿ أو زد عليه ﴾ [المزمل : 4] .

وبه تظهر مناسبة تعقيب هذه الجملة بالجملة المعترضة ، وهي جملة ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي قد علمها الله كلها وأنبأه بها .

فلا يختلف المقصود باختلاف القراءات .

فمن العجاب قول الفرّاء أن النصب أشبه بالصواب .

و ﴿ طائفة ﴾ عطف على اسم ﴿ إنَّ ﴾ بالرفع وهو وجه جائز إذا كان بعدَ ذكرِ خبرِ ﴿ إنّ ﴾ لأنه يقدر رفعه حينئذٍ على الاستئناف كما في قوله تعالى : ﴿ أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ [التوبة : 3] .

وهو من اللطائف إذا كان اتصاف الاسم والمعطوف بالخبر مختلفاً فإن بين قيام النبي صلى الله عليه وسلم وقيام الطائفة التي معه تفاوتاً في الحكم والمقدار ، وكذلك براءة الله من المشركين وبراءة رسوله .

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن ويعاملهم ، وأما الله فغاضب عليهم ولاَعنُهم .

وهذا وجه العدول عن أن يقول : إنَّ الله يعلم أنكم تقومون .

إلى قوله : ﴿ أنك تقوم ﴾ ثم قوله : ﴿ وطائفة ﴾ الخ .

ووُصف ﴿ طائفة ﴾ بأنهم (من الذين معه) ، فإن كان المراد بالمعية المعية الحقيقية ، أي المصاحبة في عمل مما سيق له الكلام .

أي المصاحبين لك في قيام الليل ، لم يكن في تفسيره تعيين لناس بأعيانهم ، ففي حديث عائشة في "صحيح البخاري" "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح قال : قد رأيتُ الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلاّ أني خشِيت أن تُفرض عليكم ، وذلك في رمضان" .

وإن كانت المعية معية مجازية وهي الانتساب والصحبة والموافقة فقد عَدَدْنا منهم : عبدَ الله بن مسعود ، وعبد الله بن عَمْرو ، وسلمان الفارسي وأبا الدرداء ، وزينبَ بنتَ جحش ، وعبدَ الله بن عُمَرَ ، والحَولاء بنتَ تُوَيْت الأسدية ، فهؤلاء ورد ذكرهم مفرقاً في أحاديث التهجد من "صحيح البخاري" .

واعلم أن صدر هذه الآية إيماء إلى الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم في وفائه بقيام

الليل حق الوفاء وعلى الطائفة الذين تابعوه في ذلك .

فالخبر بأن الله يعلم أنك تقوم مراد به الكناية عن الرضى عنهم فيما فعلوا .

والمقصود : التمهيد لقوله : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ إلى آخر الآية .

ولأجل هذا الاعتبار أعيد فعل ﴿ عَلِم ﴾ في جملة ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ الخ ولم يقل : وأن سيكون منكم مرضى بالعطف .

وجملة ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ معترضة بين جملتي ﴿ إن ربّك يعلم أنك تقوم ﴾ وجملة ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ وقد علمت مناسبة اعتراضها آنفاً .

(67/789)

وجملة ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ يجوز أن تكون خبراً ثانياً عن ﴿ إنَّ ﴾ بعد الخبر في قوله : ﴿ يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ الخ .

ويجوز أن تكون استئنافاً بيانياً لما ينشأ عن جملة ﴿ إن ربّك يعلم أنك تقوم ﴾ من ترقب السامع لمعرفة ما مُهّد له بتلك الجملة ، فبعد أن شكرهم على عملهم خفف عنهم منه .

والضمير المنصوب في ﴿ تحصوه ﴾ عائد إلى القيام المستفاد من ﴿ أنك تقوم .

والإِحصاء حقيقته : معرفة عدد شيء معدود مشتق من اسم الحصى جمع حصاة لأنهم

كانوا إذا عدّوا شيئاً كثيراً جعلوا لكل واحد حصاة وهو هنا مستعار للإطاقة.

شُبهت الأفعال الكثيرة من ركوع وسجود وقراءة في قيام الليل، بالأشياء المعدودة، وبهذا فسر الحسن وسفيان، ومنه قوله في الحديث استقيموا ولن تُحصوا أي ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي فخذوا منها بقدر الطاقة.

وأنْ ﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف وخبره الجملة، وقد وقع الفصل بين ﴿ أنْ ﴾ وخبرها بحرف النفي لكون الخبر فعلاً غير دعاء ولا جامد حسب المتبع في الاستعمال الفصيح.

و﴿ أنْ ﴾ وجملتها سادة مسد مفعولي ﴿ علم ﴾ إذ تقديره علم عَدَم إحصائِكُمُوه واقعاً.

وفرع على ذلك ﴿ فتاب عليكم ﴾ وفعل ﴿ تاب ﴾ مستعار لعدم المؤاخذة قبل حصول التقصير لأن التقصير متوقع فشابه الحاصل فعبر عن عدم التكليف بما يتوقع التقصير فيه، بفعل ﴿ تاب ﴾ المفيد رفع المؤاخذة بالذنب بعد حصوله.

والوجه أن يكون الخطاب في قوله: ﴿ تحصوه ﴾ وما بعده موجهاً إلى المسلمين الذين كانوا يقومون الليل: إما على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بعد قوله: ﴿ وطائفة من الذين معك، ﴾ وإما على طريقة العام المراد به الخصوص بقرينة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يُظن تعذر الإحصاء عليه، وبقرينة قوله: ﴿ أن سيكونُ منكم مرضى ﴾ الخ.

ومعنى ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ فصلُّوا ما تيسر لكم ، ولما كانت الصلاة لا تخلو عن قراءة القرآن أُتبع ذلك بقوله هنا : ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ ، أي صلوا كقوله تعالى:

﴿ وقرآنَ الفجر ﴾ [الإسراء : 78] أي صلاة الفجر وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن فيه بطريقة الإِيجاز .

والمراد القرآن الذي كان نزل قبل هذه الآية المدنيّة وهو شيء كثير من القرآن المكيّ كله وشيء من المدني ، وليس مثل قوله في صدر السورة ﴿ ورتل القرءان ترتيلاً ﴾ [المزمل : 4] كما علمت هنالك .

وقوله : ﴿ ما تيسر من القرءان ﴾ أي ما تيسر لكم من صلاة الليل فلا دلالة في هذه الآية على مقدار ما يجزىء من القراءة في الصلاة إذ ليس سياقها في هذا المهيع ، ولئن سلمنا ، فإن ما تيسر مجمل وقد بينه قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا صَلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " ، وأما السورة مع الفاتحة فإنه لم يرو عنه أنه قرأ في الصلاة أقلَّ من سورة ، وهو الواجب عند جمهور الفقهاء ، فيكره أن يَقرأ المصلي بعضَ سورة في الفريضة .

ويجوز في القيام بالقرآن في الليل وفي قيام رمضان ، وعند الضرورة ، ففي "الصحيح" "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فأخذته بُحَّة فركع" ، أي في أثناء السّورة .

وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية عنه : تجزىء قراءة آية من القرآن ولو كانت قصيرة ومثَّله الحنفية بقوله تعالى : ﴿ مُدْهامَّتَان ﴾ [الرحمن : 64] ولا تتعين فاتحة الكتاب وخالفه صاحباه في الأمرين .

وتعيين من تجب عليه القراءة من منفرد وإمام ومأموم مُبين في كتب الفقه .

وفعلُ (تاب) إذا أريد به قبول توبة التائب عدي بحرف (على) لتضمينه معنى مَنَّ وإذا كان بمعنى الرجوع عن الذنب والندم منه عدي بما يناسب .

(69/789)

وقد نسخت هذه الآية تحديدَ مدة قيام الليل بنصفه أو أزيد أو أقل من ثلثه ، وأصحاب التحديد بالمقدار المتيسر من غير ضبط ، أما حكم ذلك القيام فهو على ما تقدم شرحه .

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحصوه ، ﴾ وهذا تخفيف آخر لأجل أحوال أخرى اقتضت التخفيف .

وهذه حكمة أخرى لنسخ تحديد الوقت في قيام الليل وهي مراعاة أحوال طرأت على

المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإِسلامية .

وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار :

الضرب الأول : أعذار اختلال الصحة وقد شملها قوله : ﴿ أن سيكون منكم مرضى .

الضرب الثاني ﴾ : الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش من تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك ، وقد أشار إليها قوله : ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وفضل الله هو الرزق .

الضرب الثالث : أعمال لمصالح الأمة وأشار إليها قوله : ﴿ وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ ودخل في ذلك حراسة الثغور والرِباط بها ، وتدبير الجيوش ، وما يرجع إلى نشر دعوة الإِسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء .

وهذا كله من شؤون الأمة على الإِجمال فيدخل في بعضها النبي صلى الله عليه وسلم كما في القتال في سبيل الله ، والمرض ففي الحديث : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين .

وإذا كانت هذه الآية مما نزل بمكة ففيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى استقلال وقترة على أعدائهم فيقاتلون في سبيل الله وإن كانت مدنية فهو عذر لهم بما ابتدأوا فيه من السرايا والغزوات .

وقد كان بعض الصحابة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والسفر للتجر حيث سوى الله

بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال ، يعني أن الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلاّ تنويهاً بهما لأن في غيرهما من الأعذار ما هو أشبه بالمرض ، ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر .

(70/789)

روي عن ابن مسعود أنه قال "أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين محتسباً فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء ، وقرأ ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ .

وعن ابن عمر : "ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله أحب إليَّ من أن أموت بين شُعْبَتَي رَحْلي أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض" .

فإذا كانت هذه الآية مما نزل بمكة ففيها بشارة بأن أمر المسلمين صائر إلى قترة على عدوهم وإن كانت مدنية فهي عذر لهم بما عرض لهم .

ومعنى ﴿ يضربون في الأرض ﴾ يسيرون في الأرض .

وحقيقة الضرب : قرع جسم بجسم آخر ، وسُمّي السير في الأرض ضرباً في الأرض لتضمين فعل ﴿ يضربون ﴾ معنى يسيرون فإن السير ضرب للأرض بالرجلين لكنه

تنوسي منه معنى الضرب وأريد المشي فلذلك عدي بحرف ﴿ في ﴾ لأن الأرض ظرف للسير كما قال تعالى : ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ [آل عمران : 137] وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ في سورة النساء (101) .

والابتغاء من فضل الله طلب الرزق قال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم ﴾ [البقرة : 198] أي التجارة في مدة الحج ، فقوله تعالى : ﴿ يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ مراد بالضرب في الأرض فيه السفر للتجارة لأن السير في الأسفار يكون في الليل كثيراً ويكون في النهار فيحتاج المسافر للنوم في النهار .

وفُرِع عليه مثل ما فرع على الذي قبله فقال : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ أي من القرآن .

وقد نيط مقدار القيام بالتيسير على جميع المسلمين وإن اختلفت الأعذار .

وهذه الآية اقتضت رفع وجوب قيام الليل عن المسلمين إن كان قد وجب عليهم من قبل على أحد الاحتمالين ، أو بيانَ لم يوجب عليهم وكانوا قد التزموه فبين لهم أن ما التزموه من التأسّي بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك غير لازم لهم .

(71/789)

وعلل عدم وجوبه عليهم بأن الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار التي يشق معها قيام الليل فلم يجعله الله واجباً عليهم أو رفَع وجوبه .

ولولا اعتبار المظنة العامة لأبقِيَ حكمُ القيام ورُخص لأصحاب العذر في مدة العذر فقط فتبين أن هذا تعليل الحكم الشرعي بالمظنة والحكم هنا عدمي ، أي عدم الإِيجاب فهو نظير قصر الصلاة في السفر على قول عائشة أم المؤمنين : "إن الصلاة فرضت ركعتين ثم زيد في ثلاث من الصلوات في الحضر وأبقيت صلاة السفر" ، وعلة بقاء الركعتين هو مظنة المشقة في السفر .

وأوجب الترخص في قيام الليل أنه لم يكن ركناً من أركان الإِسلام فلم تكن المصلحة الدينية قوية فيه .

وأما حكم القيام فهو ما دلّ عليه قوله : ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً ﴾ [المزمل : 2] وما دلت عليه أدلة التحريض عليه من السنة .

وقد مضى ذلك كله .

فهذه الآية صالحة لأن تكون أصلاً للتعليل بالمظنة وصالحة لأن تكون أصلاً تقاس عليه الرخص العامة التي تراعى فيها مشقة غالب الأُمة مثل رخصة بيع السلم دون الأحوال الفردية والجزئية .

وقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ تذكير بأن الصلوات الواجبة هي التي تحرصون على إقامتها

وعدم التفريط فيها كما قال تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ [النساء : 103] .

وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أن في الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن المؤمنين وأن قيام الليل نافلة لهم وفيه خير كثير وقد تضافرت الآثار على هذا ما هو في كتب السنة .

وعطف ﴿ وءاتوا الزكاة ﴾ تتميم لأن الغالب أنه لم يَخلُ ذكر الصلاة من قرن الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها ، فقال لعمر رضي الله عنه "لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة" .

(72/789)

وإقراض الله هو الصدقات غير الواجبة ، شبه إعطاء الصدقة للفقير بقرض يُقرضه الله لأن الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حالُ معطي الصدقة مستجيباً رغبة الله فيه بحال من أقرض مستقرضاً في أنه حقيق بأن يُرجع إليه ما أقرضه ، وذلك في الثواب الذي يُعطاه يوم الجزاء .

ووصف القرض بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والسالمة من المنّ والأذى ،

والحُسن متفاوت .

والحَسن في كل نوع هو ما فيه الصفات المحمودة في ذلك النوع في بابه ، ويعرف المحمود من الصدقة من طريق الشرع بما وصفه القرآن في حسن الصدقات وما ورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وقد تقدم في سورة البقرة (245) قوله : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ضعافاً كثيرة ﴾ وفي سورة التغابن (17) ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفْه لكم ﴾

وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ .

تذييل لما سبق من الأمر في قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ، فإن قوله : ﴿ من خير ﴾ يعم جميع فعل الخير .

وفي الكلام إيجازُ حَذْف .

تقدير المحذوف : وافعلوا الخير وما تقدموا لأنفسكم منه تجدوه عند الله ، فاستغني عن المحذوف بذكر الجزاء على الخير .

و﴿ ما ﴾ شرطية .

ومعنى تقديم الخير : فعله في الحياة ، شُبِّه فعل الخير في مدة الحياة لرجاء الانتفاع بثوابه في الحياة الآخرة بتقديم العازم على السفر ثَقَلَه وأدواتِه وبعضَ أهله إلى المحل الذي يروم الانتهاء

إليه ليجد ما ينتفع به وقت وصوله .

و﴿ من خير ﴾ بيان لإِبهام ﴿ ما ﴾ الشرطية .

والخير : هو ما وصفه الدين بالحُسْن ووعد على فعله بالثواب .

(73/789)

ومعنى ﴿ تجدوه ﴾ تجدوا جزاءه وثوابه ، وهو الذي قصده فاعله ، فكأنه وجد نفس الذي قدَّمه ، وهذا استعمال كثير في القرآن والسنة أن يعبر عن عوض الشيء وجزائِه باسم المعوض عنه والمجازَى به ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الذي يَكنز المال ولا يؤدي حقه "مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أَقْرَعَ يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه يقول : أنا مالك أنا كنزك" .

وضمير الغائب في ﴿ تجدوه ﴾ هو المفعول الأول ل (تجدوا) ومفعوله الثاني ﴿ خيراً ﴾ .

والضمير المنفصل الذي بينهما ضمير فعل ، وجاز وقوعه بين معرفة ونكرة خلافاً للمعروف في حقيقة ضمير الفصل من وجوب وقوعه بين معرفتين لأنَّ أَفْعَلَ مِن كَذا ، أشبه المعرفة في أنه لا يجوز دخول حرف التعريف عليه .

و﴿ خيراً ﴾ : اسم تفضيل ، أي خيراً مما تقدمونه إذ ليس المراد أنكم تجدونه من جنس

الخير ، بل المراد مضاعفة الجزاء ، لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعفه لكم ﴾ [التغابن : 17] وغير ذلك من كثير من الآيات .

وأفاد ضمير الفصل هنا مجرد التأكيد لتحقيقه .

وعُطف ﴿ وأعظمَ أجراً ﴾ على ﴿ خيراً ﴾ أو هو منسحب عليه تأكيد ضمير الفصل .

وانتصب ﴿ أجراً ﴾ على أنه تمييز نسبة ل ﴿ أعظمَ ﴾ لأنه في معنى الفعل .

فالتقدير : وأعظم أجره ، كما تقول : وجدته مُنبسطاً كفاً ، والمعنى : أن أجره خيرٌ وأعظمُ ممّا قدمتوه .

يجوز أن تكون الواو للعطف فيكون معطوفاً على جملة ﴿ وما تقدموا لأنفسكم ﴾ الخ ، فيكون لها حكم التذييل إرشاداً لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير فإن ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبةً منه .

(74/789)

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف وتكون الجملة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشاداً من الله لما يسُدّ مسدّ قيام الليل الذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربّه

إذا انتبه من أجزاء الليل ، وهو مشمول لقوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات : 18] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "ينزل ربّنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيبَ له ، من يسألني فأعْطيَه ، من يستغفرني فأغفرَ له" .

وقال : "من تَعَارَّ من الليل فقال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ثم قال اللهم اغفر لي أوْ دعا استجيب له" .

وجملة ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار ، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة .

والمقصود من هذا التعليل الترغيبُ والتحريض على الاستغفار بأنه مرجوّ الإِجابة .

وفي الإِتيان بالوصفين الدّالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإِجابة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(75/789)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) ﴾

أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه ، فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فتزمل في ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل فقال : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت : بلى قالت : فإن الله قد افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عائشة قالت : نزل القرآن ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون

من رضوانه فرحمهم وردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة والحاكم وصححه عن جبير بن نفير قال : سألت عائشة عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل فقالت : ألست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت : بلى . قالت : هو قيامه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم قلما ينام من الليل لما قال الله له : ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ .

(76/789)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن نصر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلت ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقرءُوا ما تيسر منه ﴾ فاستراح الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ مكث النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه ، فأنزل الله بعد عشر سنين ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ إلى قوله : ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ فخفف الله عنهم بعد عشر سنين .

وأخرج أبو داود في ناسخه ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في السنن من طريق عكرمة عن ابن عباس قال في المزمل : ﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه ﴾ الآية التي فيها ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ وناشئة الليل أوله . كانت صلاتهم أول الليل يقول : هو أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من قيام الليل ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ وقوله : ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ يقول : هو أجدر أن تفقه قراءة القرآن وقوله : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ يقول : فراغاً طويلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : نزلت وهو في قطيفة .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : زملت هذا الأمر فقم به .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر عن عكرمة في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : زملت هذا الأمر فقم به وفي قوله : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قال : دثرت هذا الأمر فقم به .

(77/789)

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : النبي صلى الله عليه وسلم يتدثر بالثياب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر عن قتادة في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : هو الذي تزمل بثيابه .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : يقرأ آيتين ثلاثة ثم يقطع لا يهذرم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن منيع في مسنده ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : بينه تبييناً .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي في

سننه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها " .

وأخرج الديلمي بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً وبينه تبييناً ، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذه هذا الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكونن هم أحدكم آخر السورة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر والبيهقي في سننه عن إبراهيم قال : قرأ علقمة على عبد الله فقال : رتله فإنه يزين القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : ترسل فيه ترسيلاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : بلغنا أن عامة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كانت المد .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : بينه تبييناً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : اقرأه قراءة بينة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن نصر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : بعضه على أثر بعض .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : فسره تفسيراً .

وأخرج العسكري في المواعظ عن علي : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال : بينه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل ولا تهذه هذا الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مليكة عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنها سئلت عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنكم لا تستطيعونها ، فقيل لها : أخبرينا بها ، فقرأت قراءة ترسلت فيها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أحسن قراءة ؟ قال : الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : مر رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على رجل يقرأ آية ويبكي ويرددها فقال : ألم تسمعوا إلى قول الله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ هذا الترتيل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن أبي هريرة أو أبي سعيد قال : يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وأرق فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن مجاهد قال : القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة يقول : يا رب جعلتني في جوفه فأسهرت ليله ، ومنعته من كثير من شهواته ، ولكل عامل من عمله عماله ، فيقال له : أبسط يدك فيملأ من رضوان ، فلا يسخط عليه بعده ، ثم يقال له : اقرأ وأرقه ، فيرفع بكل آية درجة ويزاد بكل آية حسنة .

(79/789)

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس قال : يا أيها الناس علموا أولادكم وأهاليكم القرآن فإنه من كتب له من مسلم يدخله الله الجنة أتاه ملكان فاكتنفاه فقالا له : اقرأ وارتق في درج الجنة حتى ينزلا به حيث انتهى علمه من القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن بريدة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب ، فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر ، وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسي والده حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن . ثم يقال له : اقرأ واصعد درج الجنة وعرفها ، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً " .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر عن قتادة في قوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ قال : يثقل من الله فرائضه وحدوده .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر عن الحسن في قوله : ﴿ قولاً ثقيلاً ﴾ قال : العمل به .

وأخرج ابن نصر وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ قولاً ثقيلاً ﴾ قال : ثقيل في الميزان يوم القيامة .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه ، وهو على ناقته ، وضعت جرانها فما تستطيع أن تتحوّل حتى يسري عنه ، وتلت ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ .

وأخرج أحمد " عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال : " أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحي إليه لم يستطع أحد منا أن يرفع إليه طرفه حتى ينقضي الوحي .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا : نشأ .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن أبي مليكة قال : سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل قالا : قيام الليل .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : ناشئة الليل أوّله .

وأخرج ابن المنذر وابن الضريس عن ابن عباس قال : الليل كله ناشئة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : هي بالحبشية قيام الليل .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : قيام الليل بلسان الحبشة .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن أبي ميسرة قال : هو بلسان الحبشة نشأ أي : قام .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن أبي مليكة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ ناشئة الليل ﴾ قال : أي الليل قمت فقد أنشأت .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : كل شيء بعد العشاء الآخرة ناشئة .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر والبيهقي في سننه عن الحسن قال : كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهو ناشئة الليل .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن أبي مجلز ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : ما كان بعد العشاء الآخرة إلى الصبح فهو ناشئة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن نصر عن مجاهد ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : أي ساعة تهجدت فيها فتهجد من الليل .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن نصر والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك في قوله : ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ قال : ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن نصر والبيهقي عن عليّ بن حسين قال : ﴿ ناشئة الليل ﴾ قيام ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج ابن المنذر عن حسين بن عليّ أنه رؤي يصلي فيما بين المغرب والعشاء فقيل له : في ذلك فقال : إنها من الناشئة .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ ناشئة الليل ﴾ مهموزة الياء هي ﴿ أشد وطأ ﴾ بنصب الواو وجزم الطاء يعني المواطاة .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن أنس بن مالك أنه قرأ هذه الآية " إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلاً " فقال له رجل : انا نقرؤها ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ فقال : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن نصر وابن المنذر عن مجاهد ﴿ هي أشد وطأ ﴾ قال : أشد مواطاة لك في القول ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ قال : افرغ لقلبك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ أشد وطأ ﴾ قال : أن توطىء سمعك وبصرك وقلبك بعضه بعضاً ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ قال : أثبت للقراءة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر عن قتادة ﴿ أشد وطأ ﴾ قال : أثبت في الخير ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أجرأ على القراءة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ قال : أدنى من أن يفقه القرآن ،

وفي قوله : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ قال : فراغاً ، وفي قوله : ﴿ تبتل إليه تبتيلاً ﴾ قال : أخلص لله إخلاصاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكني عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ قال : السبح الفراغ للحاجة والنوم .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن مجاهد في قوله : ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ قال : فراغاً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك والربيع مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ قال : فراغاً طويلاً ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ قال : أخلص له الدعوة والعبادة .

(82/789)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ قال : أخلص له المسألة والدعاء إخلاصاً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ قال : أخلص له إخلاصاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ بخفض رب .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ قال : وجه الليل ووجه النهار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ قال : اصفح ﴿ وقل سلام ﴾ قال : هذا قبل السيف والله أعلم .

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11)

أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ لم يكن إلا قليل حتى كانت وقعة بدر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ﴾ قال : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين عاماً ويحشر أغنياؤهم جثاة على ركبهم ، ويقال لهم : إنكم كنتم ملوك أهل الدنيا وحكامهم فكيف عملتم فيما أعطيتكم " وفي قوله : ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ قال : إلى السيف .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ قال : إن لله فيهم طلبة وحاجة وفي قوله : ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ قال : قيوداً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ قال : قيوداً .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ قال : قيوداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عكرمة مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن حماد وطاووس مثله .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في البعث عن الحسن قال : الأنكال قيود من النار .

(83/789)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن سليمان التيمي ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ قال : قيوداً والله ثقالاً لا تفك أبداً ، ثم بكى .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عمران الجوني قال : قيوداً والله لا تحل عنهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وعبد الله في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ قال : له شوك ، ويأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ قال : شجرة

الزقوم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج أحمد في الزهد وهناد وعبد بن حميد ومحمد بن نصر عن حمران أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴾ فلما بلغ أليماً صعق .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن أبي داود في الشريعة وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان من طريق حمران بن أعين عن أبي حرب بن أبي الأسود أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرأ ﴿ إن لدينا أنكالاً وجحيماً ﴾ فصعق .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ قال : المهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ قال : الرمل السائل ، وفي قوله : ﴿ أخذاً وبيلاً ﴾ قال : شديداً .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ أخذاً وبيلاً ﴾ قال : أخذاً شديداً ليس له ملجأ قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

خزي الحياة وخزي الممات . . . وكلاً أراه طعاماً وبيلاً

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17)

(84/789)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : تتقون ذلك اليوم إن كفرتم قال : " والله ما أتقى ذلك اليوم قوم كفروا بالله وعصوا رسوله " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً ﴾ قال : بأي صلاة تتقون ؟ بأي صيام تتقون ؟ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن خيثمة في قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : ينادي مناد يوم القيامة يخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فمن ذلك يشيب الولدان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة فإن ربنا يدعو آدم ، فيقول : يا آدم أخرج بعث النار ، فيقول : أي رب لا علم لي إلا ما علمتني ، فيقول الله : أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين يساقون

إلى النار سوقاً مقرنين زرقاً كالحين ، فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد .

وأخرج الطبراني وابن مردويه " عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وينجو واحد ، فاشتد ذلك على المسلمين ، فقال : حين أبصر ذلك في وجوههم : إن بني آدم كثير وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وإنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ففيهم وفي أشباههم جند لكم " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : مثقلة بيوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : مثقلة به .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ السماء منفطر ﴾ قال : ممتلئة به بلسان الحبشة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : مثقلة موقرة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ منفطر به ﴾ قال : يعني تشقق السماء .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ منفطر به ﴾ قال : منصدع من خوف يوم القيامة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

طباهن حتى أعرض الليل دونها . . . أفاطير وسمى رواء جذورها

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : مثقلة بالله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال : مثقلة بذلك اليوم من شدته وهوله ، وفي قوله : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ الآية ، قال : أدنى من ثلثي الليل ، وأدنى من نصفه ، وأدنى من ثلثه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن وسعيد بن جبير ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ قال : لن تطيقوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ قال : أرخص عليهم في القيام ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ قال : أن لن تحصوا قيام الليل ﴿ فتاب عليكم ﴾ قال : ثم أنبأنا الله عن خصال المؤمنين فقال : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ إلى آخر

الآية.

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن قتادة قال: فرض قيام الليل في أول هذه السورة فقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها حولاً، ثم أنزل التخفيف في آخرها، فقال: ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ إلى قوله: ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ فنسخ ما كان قبلها، فقال: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فريضتان واجبتان ليس فيهما رخصة.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام المسلمون معه حولاً كاملاً حتى تورمت أقدامهم، فأنزل الله بعد الحول ﴿ إن ربك يعلم ﴾ إلى قوله: ﴿ ما تيسر منه ﴾ قال: الحسن: فالحمد لله الذي جعله تطوعاً بعد فرضة، ولا بد من قيام الليل.

(86/789)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ يا أيها المزمل قم الليل ﴾ الآية، قال: لبثوا بذلك سنة فشق عليهم وتورمت أقدامهم، ثم نسخها آخر السورة ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس " عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ قال : مائة آية " .

وأخرج الدارقطني والبيهقي في السنن وحسناه عن قيس بن أبي حازم قال : صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله وأول آية من البقرة ، ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا فقال : إن الله يقول : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ .

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحب إليّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي ألتمس من فضل الله ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 311 . 323 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾

يعني الملتف في ثيابه وأصله في اللغة المتزمل وهو الذي يتزمل في الثياب وكل من التف بثوبه فهو متزمل وقد تزمل فأدغمت التاء في التاء وشددت الزاي فقيل مزمل يعني النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُمِ الليل ﴾ يعني قم الليل للصلاة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ من الليل ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ يعني قم نصفه فاكتفى بذكر الفعل الأول من الثاني لأنه دليل عليه ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ يعني أو انقص من النصف قليلاً ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ يعني : زد على النصف يعني ما بين الثلث إلى الثلثين ثم قال : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ يعني : توسل فيه وقال الحسن بينه إذا قرأته فلما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فنزلت الرخصة في آخر السورة ، وقال مقاتل هذا قبل أن يفرض الصلوات الخمس ، وقال الضحاك : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ قال : اقرأه حرفاً حرفاً وقال مجاهد : أحب الناس إلى الله تعالى في القراءة أعقلهم عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ يعني : سننزل عليك القرآن بالأمر والنهي يعني :

يثقل لما فيه من الأمر والنهي والحدود وكان هذا في أول الأمر ثم سهل الله تعالى الأمر في قيام الليل ، وقال قتادة في قوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ قال : يثقل الله فرائضه وحدوده .

(88/789)

ويقال : يعني : قيام الليل ثقيل على المجرمين ، ويقال : ثقيل على من خالفه ، ويقال : ثقيل في الميزان خفيف على اللسان ، ويقال : نزوله ثقيل كما قال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الامثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] الآية وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت حرائها وما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه أي : يذهب عنه ثم قال : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ ﴾ يعني : ساعات الليل أشد موافقة للقراءة وأسمع ، ويقال هي أشد نشاطاً من النهار إذا كان الرجل محتسباً ، ويقال : هي أوفى لقلوبهم ﴿ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وأبين وأصوب وأثبت قراءة ، وقال القتبي : ناشئة الليل يعني : ساعاته وهي مأخوذة من نشأت أي : ابتداء شيئاً بعد شيء فكأنه قال : إن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف من الاسم قوله تعالى : ﴿ أَشَدَّ ﴾ يعني

: أثقل على المصلي من ساعات النهار فأخبر أن الثواب على قدر الشدة وأقوم قيلاً يعني : أخلص للقول وأسمع له لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات قرأ أبو عمرو وابن عامر أشد وطأ بكسر الواو ومد الألف والباقون بنصب الواو بغير مد فمن قرأ بالكسر يعني : أشد وطأ أي : موافقة لقلة السمع يعني : أن القرآن في الليل يتواطأ فيه قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهم يعني : أبلغ في القيام وأبين في القول .

ويقال : أغلظ على اللسان .

قوله تعالى : ﴿ قِيلاًإِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ يعني : فراغاً طويلاً بقضاء حوائجك فيه ففرغ نفسك لصلاة الليل ، وقال القتبي : سبحاً أي : تصرفاً إقبالاً وإدباراً بحوائجك وأشغالك قوله عز وجل : ﴿ واذكر اسم رَبّكَ ﴾ يعني اذكر توحيد ربك ويقال : فاذكر ربك .

(89/789)

ويقال : صل لربك ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ يعني : أخلص إليه إخلاصاً في دعائك بعبادتك وهو قول مجاهد وقتادة ويقال : وتبتل إليه تبتيلاً يعني : انقطع إليه وأصل التبتل القطع قيل لمريم العذراء البتول لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة .

ثم قال عز وجل : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة وابن عامر والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر رب المشرق بالكسر والباقون رب بالضم فمن قرأ بالكسر وتبعه قوله واذكر اسم ربك رب المشرق والمغرب ومن قرأ بالضم فهو على الابتداء ويقال : معناه : هو رب المشرق والمغرب .

(90/789)

ثم قال : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ يعني : ولياً وحافظاً وناصراً وكفيلاً ثم قال عز وجل : ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني : على ما يقولون من التكذيب والإذاء ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ يعني : اعتزلهم اعتزالاً حصناً بلا جزع ولا فحش ثم قال : ﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ هذا كلام على ما جرت به عادات الناس لأن الله تعالى لا يحول بينه وبين إرادته أحد ولكن معناه : فوض أمورهم إليَّ يعني : أمور المكذبين ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ يعني ذا المال والغنى ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ يعني : أجلهم يسيراً لأن الدنيا كلها قليل يعني : إلى يوم القيامة ثم بين ما لهم من العقوبة يوم القيامة فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ يعني : قيوداً في الآخرة ، ويقال : عقوبة من ألوان العذاب ﴿ وَجَحِيماً ﴾ ما عظم من النار ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني : ذا شوك مستمسك في الحلق لا يدخل

ولا يخرج فيبقى في الحلق ومع ذلك لهم عذاب أليم قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض ﴾ يوم تتحرك وتتزلزل صار اليوم منصوباً لنزع الخافض يعني : هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض ﴿ والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ يعني : صارت الجبال رملاً سائلاً وهو كقوله : فكانت هباءً منبثاً ثم قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم يشهد عليكم بتبليغ الرسالة ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ يعني : موسى بن عمران ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ يعني : كذبه ولم يقبل قوله : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ يعني : عاقبناه عقوبة شديدة وهو الغرق فهذا تهديد لهم يعني : إنكم إن كذبتموه فهو قادر على عقوبتكم قوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ يعني : توجدون في الآخرة إن كفرتم في الدنيا ، ويقال فيه تقديم ومعناه : إن كفرتم

(91/789)

في الدنيا كيف تحذرون وتنجون .

﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ يعني : يوم القيامة من هيبته يشيب الصبيان وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان هناك صبي يشيب رأسه من الهيبة ويقال : هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة

الصعق ثم قال عز وجل : ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ يعني : انشقت السماء من هيبة الرحمن ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ يعني : كائناً في البعث ثم قال : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : هذه الصورة موعظة ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ يعني : من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك التوحيد إلى ربه مرجعاً فليفعل وقال أهل اللغة في قوله : السماء منفطر به ولم يقل منفطرة به فالتذكير على وجهين : أحدهما : أنه انصرف إلى المعنى ومعنى السماء السقف كقوله ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ءاياتها مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 32] ، والثاني : أن معناه السماء ذات الانفطار كما يقال امرأة مرضع أي : ذات رضاع على وجه النسب .

ويقال : قوله السماء منفطر به يعني : فيه شيء في يوم القيامة ، ويقال : يعني : بالله تعالى يعني : من هيبته قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : إن هذه الآيات التي ذكرت موعظة بليغة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً يعني : من شاء أن يرغب فليرغب فقد أمكن له لأنه أظهر الحجج والدلائل .

(92/789)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وعاصم ونصفه وثلثه كلاهما بالنصب والباقون بالكسر فمن قرأ بالنصب فهو على تفسير الأدنى كما قال : أدنى من ثلثي الليل وكان نصفه وثلثه تفسير لذلك الأدنى ومن قرأ بالكسر فمعناه : أدنى من نصفه وثلثه وقال الحسن لما نزل قوله ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ فكان قيام الليل فريضة فقام بها المؤمنون حولاً فأجهدهم ذلك وما كلهم قام بها فأنزل الله تعالى رخصة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ فصار تطوعاً ولا بد من قيام الليل .

(93/789)

فذلك قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ يعني : وجماعة من المؤمنين معك تقومون نصف الليل وثلثه ﴿ والله يُقَدِّرُ الليل والنهار ﴾ يعني : يعلم ساعات الليل والنهار ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ يعني : أن لن تطيعوه ولم تقدروا أن تحفظوا ما فرض الله عليكم على الدوام ويقال : معناه : لن تطيقوا حفظ ساعات الليل ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : تجاوز عنكم ورفع عنكم وجوب القيام ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ في صلاة الليل ويقال : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان

﴿ في جميع الصلوات ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ علم الله تعالى أن منكم مرضى لا يقدرون على قيام الليل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ ﴾ يعني : يسافرون في الأرض ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله ﴾ يعني : في طلب المعيشة يطلبون الرزق من الله تعالى وفي الآية دليل أن الكسب الحلال بمنزلة الجهاد لأنه جمع مع الجهاد في سبيل الله ، وروى إبراهيم عن علقمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ جَالِبٍ يَجْلِبُ طَعَامَاً مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ فَيَبِيعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ إِلاَّ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الله تَعَالَى مَنْزِلَةَ الشَّهِيدِ " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ يعني : من القرآن ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ يعني : الصلوات الخمس ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ يعني : الزكاة المفروضة ﴿ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ يعني : تصدقوا من أموالكم بنية خالصة من المال الحلال ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لاَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ يعني : ما تعملون من عمل من الأعمال الصالحة يعني : تتصدقون بنية خالصة ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ الله ﴾ يعني : تجدوا ثوابه في الآخرة .

(94/789)

﴿ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ يعني : الصدقة خير من الإمساك وأعظم ثواباً من معاملتكم وتجارتكم في الدنيا ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه اتخذ له حيساً يعني :

تمراً بلبن فجاءه مسكين فأخذه ، ودفعه إليه فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ما هذا فقال عمر : لكن رب المسكين يدري ما هو فكأنه تأول قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ واستغفروا الله ﴾ يعني : اطلبوا المغفرة لذنوبكم بالرجوع إلى الله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : لمن تاب رحيماً بعد التوبة والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 486.490 ﴾

(95/789)

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها المزمل ﴾

المتلفف بثوبه ، وأصله المتزمل فأدغم التاء في الزاء ، ومثله يقال : تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى به ، وزمل غيره إذا غطّاه .

قال امرؤ القيس :

كبير أُناس في بجاد مزمّل . . . قال أبو عبد الله الجدلي : سألت عائشة عن قوله سبحانه : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ما كان تزميله ذلك ؟ قالت : كان مرطاً طوله أربع عشر ذراعاً نصفه

عليَّ وأنا نائمة ونصفه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلّي .

قال أبو عبد الله : فسألتها ما كان ؟

قالت : والله ما كان جزّاً ولا قزّاً ولا مرعزي ولا إبريسم ولا صوفاً كان سداه شعراً ولحمته وبراً .

وقال السدي : أراد يا أيها النائم قم فصلِّ . وقال عكرمة : يعني : يا أيُّها الذي زمّل هذا الأمر أي حُمّله ، وكان يقرأ المزمّل بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها . وقالت الحكماء : إنّما خاطبه بالمزمل والمدثر في أوّل الأمر ؛ لأنّه لم يكن أدّى بعد شيئاً من تبليغ الرسالة .

﴿ قُمِ الليل ﴾ قراءة العامة بكسر الميم ، وقرأ أبو السماك العدوي : بضمه لضمة القاف ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ثمّ بين فقال : ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ إلى الثلث ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ على النصف إلى الثلثين ، خيّره بين هذه المنازل ، فلما نزلت هذه الآية صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم أصحابه واشتد ذلك عليهم وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ حتى شقّ عليهم وانتفخت أقدامهم وانتُقعت ألوانهم ، فرحمهم الله سبحانه وخفف عنهم ونسخها بقوله : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ الآية [المزمل : 20] . وكان بين أوّل السورة وآخرها سنة .

وقال سعيد بن جبير : لمّا نزل قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله تعالى ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه ، فأنزل الله سبحانه بعد عشر سنين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى ﴾ الآية [المزمل : 20] . فخفف عنهم بعد عشر سنين .

وقال مقاتل وابن كيسان : كان هذا قبل أن يفرض الصلوات الخمس ، ثمّ نسخ ذلك بالصلوات الخمس . وقال ابن عباس : لما نزل أول المزمّل كانوا يقومون نحو من قيامهم في شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها سنة . وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ، قالت : "كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيراً يصلّي عليه من الليل ، فتسامع الناس به ، فاجتمعوا فلمّا تكثر جماعتهم ، كره ذلك وخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضب ، فجعلوا يتنحنحون ويشتغلون حتّى خرج إليهم ، فقال : " يا أيُّها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإنّ الله لا يملّ من الثواب حتّى تملّوا من العمل وإنّ خير العمل أدومه وان قلّ " فنزلت عليه : ﴿ يا أيها المزمل * قمِ الليل ﴾ فكُتبت عليهم وانزلت بمنزلة الفريضة حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فمكثوا ثمانية أشهر ، فلمّا رأى الله ما يكلّفون ويبتغون به وجه الله ورضاه رحمهم فوضع ذلك عنهم فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ الآية " .

فردّهم إلى الفريضة ووضع عنهم قيام الليل إلاّ ما تطوعوا به .

وقال الحسن : في هذه الآية الحمد لله تطوع بعد فريضة .

(97/789)

﴿ وَرَتِّلِ القرآنَ تَرْتِيلاً ﴾ . قال الحسن : اقرأه قراءة ، بيّنه تبياناً ، وعنه أيضاً : اقرأه على هينتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً . قتادة : تثبت فيه تثبيتاً . ابن كيسان : تفهّمه تالياً له . وقيل : فصّله تفصيلا ولا تعجل في قراءته ، وهو من قول العرب : ثغر رتّل ورتل إذا كان مفلجاً . أبو بكر ابن طاهر : دبّر في لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك ، قال : حدّثنا عبد الله ، قال : حدثني أبي ، قال : حدّثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارقَ ورتل كما ترتل في الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرأها " .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ قال الحسن : إنّ الرجل ليهدُّ السورة ولكن العمل به ثقيل . وقال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . ابن عباس : شديداً . أبو العالية : ثقيلا

بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلا على المنافقين . الفرّاء : ثقيلا ليس بالخفيف السفساف ؛ لأنه كلام ربّنا . عبد العزيز بن يحيى : مهيباً ، ومنه يقال للرجل العاقل : هو رزين راجح .

وسمعت الأُستاذ أبا القيّم بن جندب يقول : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول : سمعت الحسين بن الفضل وسئل عن هذه الآية ، فقال : معناها أنا سنلقي عليك قولا خفيفاً على اللسان ثقيلا في الميزان . وقال أبو بكر بن طاهر : يعني قولا لا يحمله إلاّ قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزيّنة بالتوحيد . وقال القيّم : في هذه الآية سماع العلم من العالم مرّ واستعماله ثقيل لكنه يأتي بالفرح إذا استعمله العبد على جد السنّة وتمام الأدب . وقيل : عنى بذلك أن القرآن عليه ثقيل محمله . قال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الموازين يوم القيامة .

(98/789)

أخبرنا أبو الحسين ابن أبي الفضل القهندري ، قال : أخبرنا مكي قال : حدّثنا محمد بن يحيى فقال : وفيما قرأت على عبد الله عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة " أن الحرث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك

الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّ عليّ فينفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل الملك رجلا فأعرف ما يقول "

.

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وان جبينه ليرفض عرقاً .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى العبدي ، قال : حدّثنا أحمد بن نجدة ، قال : حدّثنا يحيى الحماني ، قال : حدّثنا ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، قالت : " إن كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته فيضرب بجرانها " .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ أي ساعاته كلّها ، وكل ساعة منه فهي ناشئة سميت بذلك ؛ لأنها تُنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدت انشاها الله وجمعها ناشيات .

أنبأني عقيل ، قال : أخبرنا المعافى ، قال : أخبرنا ابن جرير ، قال : حدثني يعقوب ، قال : حدّثنا ابن عليّة قال : أخبرنا حاتم بن صفيرة ، قال : قلت لعبد بن أبي مليكة : ألا تحدثني أيّ الليل ناشئة ؟ فقال : على الثبت سقطت سألت عنها ابن عباس فزعم أنّ الليل كلّه ناشئة . وسألت ابن الزبير عنها فأخبرني مثل ذلك . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : أي

ساعة قام من الليل فقد نشأ ، وهو بلسان الحبش نشأ إذا قام . وقال عكرمة : ما قمت من أوّل الليل فهو ناشئة .

(99/789)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة ، قال : حدّثنا ابن أيوب ، قال : حدّثنا ابن أبي زياد ، قال : حدّثنا سيار ، قال : حدّثنا جعفر عن الجرير عن بعض أشياخه عن عليّ بن الحسين أنّه كان يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول : أما سمعتم قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ هذا ناشئة الليل .

وقال أبو مجلد وقتادة : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة . وقال عبيد بن عمير : قلت لعائشة : رجل قام من أوّل الليل أيقال له قام ناشئة ؟ قالت : لا ، إنّما الناشئة القيام بعد النوم . وقال يمان وابن كيسان : هي القيام من آخر الليل .

﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وابن محيص : وطأ بكسر الواو ممدوداً ، واختاره أبو عبيد على معنى المواطاة والموافقة ، وهو أن يواطيء قلبه وسمعه وبصره لسانه . وقرأ الباقون بفتح الواو مقصوراً ، أي فراغاً للقلب . قال ابن عباس : كانت صلواتهم أوّل الليل هي أشدّ وطئاً ، يقول : هو أجدر أن تحصوا ما فرض الله عليكم من القيام ،

وذلك أنّ الإنسان إذا نام لم يدرِ متى يستيقظ .

وقال قتادة : أثبت في الخير أحفظ للقراة . الفرّاء : أثبت قياماً . القرطبي : أشدّ على المصلّي من صلاة النهار ، دليله قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللّهمّ أشدد وطأتك على مضر " .

ابن زيد : أفرغ له قلباً من النهار ، لأنّه لا تعرض له حوائج ولا شيء . الحسن ، أشدّ وطأً في الخير وأمنع من الشيطان .

﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وأصوب قراءة ، وعبادة الليل أشدّ نشاطاً وأتم إخلاصاً وأكثر بركة .

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ قراءة العامة : بالحاء غير معجمة ، أي فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك ، وأصل السبح سرعة الذهاب . ومنه السباحة في الماء ، وفرس سابح شديد الجري . قال الشاعر :

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها . . . ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

(100/789)

وقرأ يحيى بن يعمر : سبخاً بالخاء المعجمة ، أراد خفة وسعة واستراحة ، ومنه " قول النبيّ لعائشة وقد دعت على سارق سرقها : " لا تسبخي عنه بدعائك عليه " أي لا

تخففي ، والتسبيخ توسيع القطن والصوف وتنفيشها ، يقال للمرأة : سبّخي قطنك ، ويقال لقطع القطن إذا ندف : سابخ .

قال الأخطل يصف القناص والكلاب :

فأرسلوهن يذرين التراب كما . . . يذري سبائخ قطن ندف أوتار

قال تغلب : السبحُ التردد والاضطراب والسبخ السكون ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الحمى من قيح جهنهم فسبّخوها بالماء " أي سكنوها .

﴿ واذكر اسم ربِّكَ ﴾ بالتوحيد والتعظيم ، وقال سهل اقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلواتك توصلها بركة قرابها إلى ربّك وتقطعك عن كل ما سواه .

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ قال ابن عباس وأكثر الناس : أخلص إليه إخلاصاً . الحسن : اجتهد . ابن زيد : تفرّغ لعبادته . شفيق : توكل عليه توكلا .

وسمعت محمد بن الحسن السليمي ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله ، يقول : سمعت أبا القيّم البزاز يقول : قال ابن عطاء : انقطع إليه انقطاعاً ، وهو الأصل في هذا الباب ، يقال : بتلت الشيء أي وقطعته ، وصدقة بتة بتلة أي بائنة مقطوعة من صاحبها لا سبيل له عليها ، ودار تبتيل أي منقطعة عن الدور ، قال امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعشاء كأنّها . . . منارة ممسى راهب متبتّل

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتّل ومنه قيل لمريم العذراء البتول .

وقال أبو القيّم : اتصل به اتصالا ما رجع من رجع إلاّ من الطريق ، ما وصل إليه أحد فرجع عنه . محمد بن عليّ : ارفع اليدين في الصلاة . زيد بن أسلم : التبتّل : رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله .

﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وأيوب وحفص برفع الباء على الإبتداء . وقيل : على إضمار هو ، وقرأ الباقون بالخفض على نعت الربّ في قوله سبحانه : ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ الآية .

(101/789)

﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ قيّماً بأمورك ففوّضها إليه ﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ نسختها آية القتال .

أخبرني الحسن قال : حدّثنا السني ، قال : حدّثنا حاتم بن شعيب ، قال : حدّثنا سريج بن يونس ، قال : حدّثنا سعيد بن محمد الورّاق عن الأحوص بن حكيم عن أبيه عن أبي الزاهرية أنّ أبا الدرداء قال : إنا لنكشّر في وجوه أقوام ونضحك إليهم ، وإنّ قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم .

﴿ وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ نزلت في صناديد قريش المكذبين

المشتهرين .

وقال مقاتل بن حيان : نزلت في المطعمين ببدر وهم عشرة – ذكرناهم في الأنفال – والنعمة التنعم والنعمة المرؤة والمنّة أيضاً ، والنعمة بضم النون : الميسرة يقال : نعم ونعمة عيّن ونعمى عين .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً ﴾ عندنا في الآخرة قيوداً عظاماً لا تفكّ أبداً واحدها نكل ، قال الشعبي : ترون أن الله يجعل الأنكال في أرجل أهل النار لأنّه خشي أن يفروا ؟ ولكن إذا أراد أن يرتفعوا استفلت بهم . ﴿ وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ غير سائغة تأخذ بالحلق لا هو نازل ولا هو خارج وهو الغِسْلين والزقوم والضريع . ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

أخبرني عقيل : أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير ، قال : حدّثنا أبو كريب ، قال : حدّثنا وكيع عن حمزة الزّيات عن حمران بن أعين " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ فصعق " .

(102/789)

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا ابن ماجه ، قال : حدّثنا الحسن بن أيوب ، قال : حدّثنا عبد الله بن أبي زياد ، قال : حدّثنا سيار ، قال : حدّثنا صالح ، قال : حدّثنا

خالد بن حسان ، قال : أمسى عندنا الحسن وأمسى صائماً ، فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ فقال : ارفع الطعام ، فلما كانت الليلة الثانية أتيناه أيضاً بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعه ، فلمّا كانت الليلة الثالثة أتيته فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعوا ، فانطلق ابنه إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم بحديثه ، فجاءوا معه فلم يزالوا به حتّى شرب شربة من سويق . ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ أي تتحرك وتضطرب بمن عليها ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً ﴾ وهو الرمل المجتمع ﴿ مَّهِيلاً ﴾ سائلا متناثراً إذا مسّته تتابع ، وأصله مهيول وهو مفعول من قول القائل : هلت الرمل فأنا أهيله ، وذلك إذا حرّك أسفله فانهال عليه من أعلاه ، يقال : مهيل ومهيول ومكيل ومكيول ومعين ومعيون ، " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم يشكون الجدوبة : " أتكيلون أم تهيلون " ؟

قالوا : نهيل .

قال : "كيلوا ولا تهيلوا " .

وقال الشاعر :

واخال أنّك سيّد معيون . . . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فعصى فِرْعَوْنُ الرسول فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ شديداً صعباً ثقيلا ، ومنه يقال : كلأ مستوبل وطعام مستوبل إذا لم يُستمرأ ، ومنه الوبال وقالت الخنساء :

لقد أكلت بجيلة يوم لاقت . . . فوارس مالك أكلا وبيلا

وتقول العرب : لقد أوبل عليه الشراء أي توبع .

(103/789)

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي فكيف لكم بالتقوى في القيامة إذا كفرتم في الدنيا ، يعني : لا سبيل لكم إلى التقوى ولا تنفعكم التقوى إذا وافيتم القيامة . وقيل : معناه فكيف تتّقون عذاب يوم ، وكيف تنجون منه إذا كفرتم . وقرأ ابن مسعود وعطيّة : فكيف يتّقون يوماً يجعل الولدان شيباً أن كفرتم .

وقرأ أبو السماك العدوي : فكيف يتّقون بكسر النون على الإضافة .

﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان ﴾ الصبيان ﴿ شِيباً ﴾ شمطاً من هوله وشدّته وذلك حين يقال لآدم : قم فابعث بعث النار من ذرّيتك .

أخبرني الحسن ، قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن بشر ، قال : حدّثنا أبو بكر بن أبي الخطيب ، قال : حدثني محمد بن غالب ، قال : سمعت عثمان بن الهيثم ، يقول : مررت بأبن السري وهو قائم في الطريق ، فسأله إنسان ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ ، قال : هم أولاد الزنا . وقيل : أولاد المشركين .

﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ ﴾ مثقل مشقق ﴿ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هذه ﴾ السورة أو هذه الآيات ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى ﴾ أقرب ﴿ مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ روى هشام عن أهل الشام ثلثي مخفف غير مشبع ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ نصبها أهل مكة والكوفة على معنى وتقوم نصفه وثلثه ، وخففهما الباقون عطفاً على ثلثي . ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ أيضاً يقومونه .

(104/789)

﴿ والله يُقَدِّرُ الليل والنهار عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ تطيقوا قيام الليل ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ تجاوز عنكم ورجع لكم إلى التخفيف عليكم ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ قال السدي : مائة آية . قال الحسن : من قرأ مائة آية في ليله لم يحاجّه القرآن . وقال كعب : من قرأ في ليله مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ قال : يعني في صلاة المغرب والعشاء .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ فسوى بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعلى العيال وللإحسان والإفضال .

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا ابن سلم ، قال : حدّثنا أبو بكر بن عبد الخالق ، قال : حدّثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد الحجاج ، قال : حدثني أبو الفتح ، قال : قال أبو نصر بشر بن الحرث ، قال : حدّثنا المعافى بن عمران وعيسى بن يونس عن فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود ، قال : أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله سبحانه بمنزلة الشهداء ، ثمّ قرأ عبد الله ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا موسى بن محمد بن عليّ ، قال : حدّثنا محمد بن عثمان ابن أبي شيبة ، قال : حدّثنا عبد الحميد بن صالح ، قال : حدّثنا أبو عقيل عن القيّم بن عبيد الله عن أبيه ، قال : سمعت ابن عمر ، يقول : ما خلق الله عزّوجلّ موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله .

(105/789)

﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ سمعت محمد بن الحسن السلمي ، يقول : سمعت منصور بن عبد الله ، يقول : سمعت أبا القيّم الأسكندراني ، يقول : سمعت أبا جعفر الملطي ، يقول :

عن عليّ ابن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد في هذه الآية ، قال : ما تيسّر لكم منه خشوع القلب وصفاء السر .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَقْرِضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً ﴾ من الشح والتقصير ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ من ذلك الذي قدّمتموه لو لم تكونوا قدّمتموه ، ونصب ﴿ خَيْراً وَأَعْظَمَ ﴾ على المفعول الثاني ، وهو فصل في قول البصريين ، وعماد في قول الكوفيين لا محل له من الإعراب . ﴿ واستغفروا الله إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 58.66 ﴾

(106/789)

وقال الزمخشرى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية [إلا الآيات 10 و 11 و 20 فمدنية] وآياتها 19 وقيل 20 [نزلت بعد القلم] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المزمل (73) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

الْمُزَّمِّلُ المتزمّل ، وهو الذي تزمّل في ثيابه : أى تلفف بها ، بإدغام التاء في الزاى : ونحوه : المدثر في المتدثر . وقرئ : المتزمّل على الأصل والمزمل بتخفيف الزاى وفتح الميم وكسرها . على أنه اسم فاعل أو مفعول ، من زمله ، وهو الذي زمله غيره أو زمل نفسه وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نائما بالليل متزمّلا في قطيفة ، فنبه ونودي بما يهجن إليه «1» الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم ، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن . ألا ترى إلى قول ذى الرمّة :

وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها متزمّل «2»

---

(1) . قال محمود : «هو المتلفف في ثيابه كالمدثر ونودي بما يهجن إليه . . . الخ» قال أحمد : أما قوله الأول أن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة . فخطأ وسوء أدب . ومن اعتبر عادة خطاب اللّه تعالى له في الإكرام والاحترام : علم بطلان ما تخيله الزمخشري ، فقد قال العلماء : أنه لم يخاطب باسمه نداء ، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفا ، فأين تداؤه بصيغة مهجنة من نسائه ، باسمه ، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذما في جفاة حفاة من الرعاء ، فأنا أبرأ إلى اللّه من ذلك وأربأ به صلى اللّه عليه وسلم ، ولقد ذكرت بقوله :

أوردها سعد وسعد مشتمل

ما وقعت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل ، وإجحامه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه ، حتى سماه ابن خروف : البرنامج ، وأنشد عليه :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضى اللّه عنها فبعيد ، فان السورة مكية ، وبنى النبي صلى اللّه عليه وسلم على عائشة رضى اللّه عنها بالمدينة . والصحيح في الآية ما ذكره آخرا ، لأن ذلك كان في بيت خديجة عند ما لقبه جبريل أول مرة ، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة ، واللّه أعلم . [. . . . .]

(2) . لذي الرمة . وكائن : بمعنى كم الخبرية ، والأكثر استعمالها مع «من» كقول : وكائن من كذا . والمتزمل المتلفف في ثيابه عند كثرة النوم ، يقول : كثيرا من المفاوز تخطته ناقتي وسارته ، وكثيرا من نائم وغافل عن ليلها - أى : المفازة أو الناقة - متكاسل عما فيه من عظائم الأمور ، فالمتزمل كناية عن ذلك .

يريد : الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ، ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ، ونحوه :

فأنت به حوش الفؤاد سبطّنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل «1»

وفي أمثالهم :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل «2»

---

(1) ولقد سربت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقل

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل

ومبرأ من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

حملت به في ليلة مزؤدة كرها وعقد نطاقها لم يحلل

فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

لأبى كبير الهذلي يصف مأبط شرا ، واسمه : جابر بن ثابت ، تزوج الهذلي بأمه بعد جابر فخاف منه ، فأغرته على قتله فخرج به متحيلا لذلك فلم يقدر ، فمدحه بالشجاعة والفطنة : يقول : سرت ليلا في الظلمة بمغشم ، أى مع فتى يقدم على الأمر بلا مبالاة ولا تدبير ولا خوف عاقبة ، مع جراءة ، جلد ، أى : صلب صبور غير مثقل ، أى : خفيف في السير منزه عن كل ما يوجب الضعف والثباطؤ ، وبينه بقوله : ممن حملن . أى : هو ممن حملن ، أى جنس النسوة به ، أو هو بعض الفتيان الذين حملت بهم النسوة ، وأفرد ضمير

«به» مراعاة للفظ «من» وضمن العمل معنى العلوق ، فعداه بالباء ، وإلا فهو يتعدى بنفسه . والحبك : جمع حباك كخزام . أو جمع حبيك أو حبيكة ، وهو الخيوط التي يحبك بها النطاق . والمهبل : المدعو عليه بالهبل ، أى ، الثكل والفقد . والغبر – بالضم فالتشديد – : بقية الحيض وغيره ، وكذلك الغبر – بالضم وبالفتح مع السكون . والغابر : الباقي والذاهب . ويجوز أن غبر : جمع غابر ، وغبر يغبر غبورا – كدخل – : بقي وذهب ، أى : لم تحمل به أمه في زمن بقية الحيض . ومرضع : من الصفات المختصة بالمؤنث ، والغالب تجريدها من التاء ، فما هنا على خلاف الغالب . والغيلة : إحبال الرجل امرأته وهي ترضع ولدها : فيمرض ، فالمغيل : الممرض بالغيلة . وفي حديث مسلم : لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم ، وكان القياس في مغيل إعلاله كمقيم ومبين ومعين ، لكن جاء على الأصل شذوذا للضرورة ، وروى معضل ، أى معى ومعجز للأطباء . وزأده – كذعره : إذا خوفه ، فهو مزؤود ومذعور فالمزءودة : المخوفة ، وتخويف الليلة مجاز عقلى : كشربت الكوز . والخوف في الحقيقة المرأة . ويروى بالنصب على الحال ، لكن يضيع ذكر ليلة ، إلا أن يقدر وصفها بمظلمة ، والنطاق : ما يشد به الوسط . وحوش الفؤاد بالضم وحشى القلب لحدته وتوقده ونفوره عن الناس .

والرجل الحوش والحوشى : الذي يجانب الناس مبطنا خميص البطن منضمره : سهدا –

بضمتين - : كثير السهاد أى السهر : وإسناد النوم إلى الليل مجاز عقلى ، وإنما النائم الهوجل :

وهو الرجل الطويل الأحمق ، ومن تجربة العرب : أن المرأة إذا حملت بولدها كارهة غير مستعدة للوطء : جاء ولدها نجيبا ، حكى عن أم تأبط شرا أنها قالت فيه : واللّه إنه الشيطان ، ما رأيته ضاحكا قط ، ولا هم بشيء في صباء إلا فعله ، ولقد حملت به في ليلة ظلماء ، وإن نطاقى لمشدود ، وذلك يدل على نجابته وشجاعته .

(2) . لمالك بن زيد مناة يخاطب أخاه ، وكان قد بنى على امرأته فلم يحسن سعد القيام بأمر الإبل ، فقال : أوردها سعد إلى الماء والحال أنه مشتمل متلفف بثيابه لا متشمر . وذكر الظاهر مكان المضمر : فيه نوع من التوبيخ .

ما هكذا تورد ، أى : تساق إلى الماء ، وكان معرضا عنه فالتفت إليه ونداؤه نداء البعيد : دلالة على أنه بليد .

وحق هاء التنبيه : الدخول على اسم الاشارة ، لكن قدمت على كاف التشبيه مبادرة واهتماما بالتنبيه . ويروى بدل الشطر الثاني : يا سعد ما تروى بهذا كالإبل . وهذاك اسم إشارة ، وصار هذا البيت يضرب مثلا لكل من لم يحسن القيام بشأن ما تولاه .

فذمه بالاشتمال بكسائه ، وجعل ذلك خلاف الجلد والكبس ، وأمر بأن يختار على الهجود التهجد ، وعلى التزمل التشمر ، والتخفف للعبادة والمجاهدة في اللّه ، لا جرم أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر ، وأقبلوا على إحياء لياليهم ، ورفضوا له الرقاد والدعة ، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم ، وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم ، فخفف عنهم . وقيل : كان متزملا في مرط لعائشة «1» يصلى ، فهو على هذا ليس بتهجين ، بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها ، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه . وعن عائشة رضى اللّه عنها : أنها سئلت ما كان تزميله ؟

قالت : كان مرطا طوله أربع عشرة ذراعا نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلى ، فسئلت :

ما كان ؟ قالت : واللّه ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى «2» ولا إبريسما ولا صوفا : كان سداه شعرا ولحمته وبرا «3» . وقيل : دخل على خديجة ، وقد جئث فرقا «4» أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد ، فقال : زملوني زملوني ، وحسب أنه عرض له ، فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل : يا أيها المزمل «5» . وعن عكرمة : أنّ المعنى : يا أيها الذي زمل أمرا عظيما ، أى : حمله . والزمل :

الحمل . وازدمله : احتمله . وقرئ : قم الليل بضم الميم وفتحها . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هربا من التقاء الساكنين ، فبأى الحركات تحرّك فقد وقع الغرض نِصْفَهُ بدل من الليل . وإلا قليلا : استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل . والضمير في منه وعليه للنصف ، والمعنى : التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه . وإن شئت جعلت

---

(1) . قوله «و قيل كان متزملا في مرط لعائشة» كيف والسورة مكية . (ع)

(2) . قوله «و لا مرعزى» المرعزى الزغب الذي تحت شعر العنز اه صحاح . (ع)

(3) . لم أره هكذا ومن قوله «ما كان خزا» رواه البيهقي في الدعوات من حديثها في ليلة النصف من شعبان «انسل النبي صلى اللّه عليه وسلم من مرطى . ثم قالت : واللّه ما كان مرطى من حرير ولا قز . ولا كتان ولا كرسف ولا صوف . فقلنا : من أى شيء كان ؟ قالت : إن كان سداه لمن شعر وإن كانت لحمته لمن وبر» .

(4) . «قوله وقد جئث فرقا» أى أفزع ، فهو مجؤوث : أى مذعور ، كذا في الصحاح . وفيه البوادر من الإنسان وغيره : اللحمة التي بين المنكب والعنق . (ع)

(5) . لم أره هكذا . وأصله في الصحيحين عن عائشة رضى اللّه عنها .

نصفه بدلا من قليلا ، وكان تخييرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه ، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ إذا أبدلت النصف من الليل ، قم أقل من نصف الليل ، رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل . أو : قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث .

ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسرته به أن تجعل قليلا الثاني بمعنى نصف النصف : وهو الربع ، كأنه قيل . أو انقص منه قليلا نصفه . وتجعل المزيد على هذا القليل ، أعنى الربع ، نصف الربع كأنه قيل : أو زد عليه قليلا نصفه . ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث ، فيكون تخييرا بين النصف والثلث والربع . فإن قلت : أكان القيام فرضا أم نفلا ؟ قلت : عن عائشة رضى اللّه عنها أنّ اللّه جعله تطوّعا بعد أن كان فريضة . وقيل : كان فرضا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوّعوا به . وعن الحسن : كان قيام ثلث الليل فريضة ، وكانوا على ذلك سنة . وقيل : كان واجبا ، وإنما وقع التخيير في

المقدار ، ثم نسخ بعد عشر سنين . وعن الكلبي : كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين ، ومنهم من قال : كان نفلا بدليل التخيير في المقدار ، ولقوله تعالى وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ .

ترتيل القرآن : قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل : وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان ، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا «1» ، كما قال عمر رضى اللّه عنه : شر السير الحقحقة . وشر القراءة الهذرمة ، حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألص «2» . وسئلت عائشة رضى اللّه عنها عن قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ؟ فقالت : لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها . وتَرْتِيلًا تأكيد في إيجاب الأمر به ، وأنه ما لا بد منه للقارئ .

[سورة المزمل (73) : آية 5]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)

هذه الآية اعتراض ، ويعنى بالقول الثقيل : القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي

---

(1) . قوله «وأن لا يهذّه هذّا ولا يسرده» الهذ : الاسراع . والسرد : التتابع . والحقحقة : شدة السير .

والألص : متقارب الأسنان . أفاده الصحاح . وفيه «الهذرمة» سرعة القراءة . (ع)

(2) . لم أره عنه من رواية منصور ، وإنما قال أبو عبيد بن قتيبة في الغريب قال عمر «شر

القراءة الهزرمة» وأخرجه الخطيب في الجامع من رواية منصور بن جعفر قال : قرأت على أبى محمد بن درستويه . قال : قرأنا على ابن قتيبة بهذا وروى ابن المبارك في الزهد من رواية الحسن قال «كان يقال : شر السير الجعجعة» ورواه ابن عدى مرفوعا من رواية الحسن بن دينار عن الحسن بن أبى هريرة . والحسن بن دينار ضعيف .

(110/789)

تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، خاصة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته ، فهي أثقل عليه وأبهظ له ، وأراد بهذا الاعتراض : أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن ، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : كان إذا نزل عليه الوحى ثقل عليه «1» وتربد له «2» جلده . وعن عائشة رضى اللّه عنها : رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقا «3» . وعن الحسن : ثقيل في الميزان . وقيل : ثقيل على المنافقين . وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف .

[سورة المزمل (73) : آية 6]

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)

ناشِئَةَ اللَّيْلِ النفس الناشئة بالليل ، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة «4» ، أى : تنهض وترتفع ، من نشأت السحابة : إذا ارتفعت . ونشأ من مكانه ونشز : إذا نهض ، قال :

نشأنا إلى خوص برى نيّها السّرى وألصق منها مشرفات القماحد «5»

وقيام الليل ، على أنّ الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة : كالعاقبة . ويدل عليه ما روى عن عبيد بن عمير : قلت لعائشة : رجل قام من أوّل الليل ، أتقولين له قام ناشئة ؟

قالت لا ، إنما الناشئة القيام بعد النوم . ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل ، أى : تحدث ، وترتفع . وقيل : هي ساعات الليل كلها ، لأنها تحدث واحدة بعد أخرى . وقيل :

الساعات الأول منه . وعن على بن الحسين رضى اللّه عنهما أنه كان يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : أما سمعتم قول اللّه تعالى إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هذه ناشئة الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً هي خاصة دون ناشئة النهار ، أشدّ مواطأة يواطئ قلبها لسانها : إن أردت النفس . أو يواطئ فيها قلب

---

(1) . أخرجه أحمد من حديث ابن عباس في قصة ابن أمية . قال «وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك في تربد جلده» وأبو نعيم في الدلائل «كان إذا

نزل عليه الوحى تربد له وجهه وجسده» وفي الباب حديث عبادة بن الصامت «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه.

(2). قوله «و تربد» أى تعبس. (ع)

(3). متفق عليه من حديث عائشة.

(4). قال محمود: «قيل الناشئة النفس القائمة بالليل التي تنشأ عن مضجعها ... الخ» قال أحمد: فان حملت الناشئة على النفس فاضافة المواطأة إليها حقيقة، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازى [.....]

(5). نشأنا: نهضنا. والخوص - جمع خوصاء: الناقة المرتفعة الأعلى، الضخمة الأسفل. والى: الشحم.

والسرى: سير الليل. والقماحد: جمع قمحدوة: وهي أعلى عظم الرأس. يقول: نهضنا إلى نوق عظيمة أذاب شحمها سير الليل، وألصق عظام رأسها بعضها ببعض، كناية عن تمرنها على السير واعتيادها له.

(111/789)

القائم لسانه : إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات . أو أشدّ موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص . وعن الحسن : أشدّ موافقة بين السر والعلانية ، لانقطاع رؤية الخلائق . وقرئ :

أشدّ وطأ بالفتح والكسر . والمعنى : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل . أو أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار ، من قوله عليه السلام «اللهم اشدد وطأتك على مضر» «1» وَأَقْوَمُ قِيلًا وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدوّ الأصوات . وعن أنس رضى اللّه عنه أنه قرأ : وأصوب قيلا ، فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هي : وأقوم ، فقال : إنّ أقوم وأصوب وأهيأ واحد . وروى أبو زيد الأنصارى عن أبى سرار الغنوي أنه كان يقرأ : فحاسوا ، محاء غير معجمة ، فقيل له :

إنما هو فَجاسُوا بالجيم ، فقال : وجاسوا وحاسوا واحد .

[سورة المزمل (73) : آية 7]

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)

سَبْحاً تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك ، ولا تفرغ إلا بالليل ، فعليك بمناجاة اللّه التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل . وأما القراءة بالخاء . فاستعارة من سبخ الصوف : وهو نفشه ونشر أجزائه ، لانتشار الهم وتفرّق القلب بالشواغل : كلفه قيام الليل ، ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه : وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة ، لهدوّ الرجل

وخفوت الصوت : وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار ، لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد . وقيل : فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك . وقيل :

إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه .

[سورة المزمل (73) : الآيات 8 إلى 10]

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10)

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ودم على ذكره في ليلك ونهارك ، واحرص عليه . وذكر اللّه يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح ، وتهليل ، وتكبير ، وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ وانقطع إليه . فإن قلت : كيف قيل تَبْتِيلًا مكان تبتلا ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قرئ مرفوعا على المدح ، ومجرورا على البدل من ربك . وعن ابن عباس : على القسم بإضمار حرف

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم في الأنبياء .

القسم ، كقولك : اللّه لأفعلنّ ، وجوابه لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كما تقول : واللّه لا أحد في الدار إلا زيد . وقرأ ابن عباس : رب المشارق والمغارب فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا مسبب على التهليلة ، لأنه هو وحده هو الذي «1» يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور . وقيل وَكِيلًا : كفيلا بما وعدك من النصر والإظهار . الهجر الجميل : أن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة . وعن أبى الدرداء رضى اللّه عنه : إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتقليهم «2» . وقيل : هو منسوخ بآية السيف .

[سورة المزمل (73) : الآيات 11 إلى 14]

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدوّ يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرني وإياه ، أى : لا تحتاج إلى الظفر «3» بمرادك

ومشتهاك ، إلا أن تخلى بيني وبينه بأن تكل أمره إلىّ وتستكفينيه ، فإنّ فىّ ما يفرغ بالك ويجلى همك ، وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض ، كأنه إذا لم يكل أمره إليه ، فكأنه منعه منه ، فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه ، وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه . النعمة - بالفتح - التنعم ، وبالكسر : الإنعام ، وبالضم : المسرة ، يقال : نعم ، ونعمة عين ، وهم صناديد قريش ، وكانوا أهل تنعم وترفه إِنَّ لَدَيْنا ما يضاد تنعمهم من أنكال : وهي القيود الثقال : عن الشعبي ، إذا ارتفعوا استقلت بهم . الواحد : نكل ونكل . ومن جحيم : وهي النار الشديدة الحر والاتقاد . ومن طعام ذى غصة وهو الذي ينشب في الحلوق فلا يساغ يعنى الضريع وشجر الزقوم . ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكولا إليه أمرهم موذورا بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . وروى أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق «4» . وعن

---

(1) . قوله «هو الذي» لعله «الذي» بدون : هو . (ع)

(2) . أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا في الأدب : ويذكر عن أبى الدرداء . ووصله البيهقي في الشعب في السادس والخميسين من طريق أبى الأحوص يعنى ولد أحوص بن حكم عن أبى الزهراء قال قال أبو الدرداء . ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبى الدرداء من طريق سفيان عن خلف بن حوشب قال قال أبو الدرداء مثل رواية البيهقي .

(3) . قوله «لا تحتاج إلى الظفر» لعله : في الظفر . (ع)

(4) . أخرجه أحمد في الزهد والطبري من طريق وكيع عن حمزة الزيات عن حمران بن أعين «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم بهذا» ورواه ابن عدى من رواية أبى يوسف عن حمزة عن حمدان عن أبى حرب بن أبى الأسود . وقال غيره : أن يوسف يرويه عن حمزة عن حسب عن حمران .

(113/789)

الحسن : أنه أمسى صائما ، فأتى بطعام ، فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعه ، ووضع عنده الليلة الثانية ، فعرضت له ، فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء ، فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق يَوْمَ تَرْجُفُ منصوب بما في لدينا . والرجفة : الزلزلة والزعزعة الشديدة . والكثيب : الرمل المجتمع من كثب الشيء إذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله . ومنه الكثبة من اللبن ، قالت الضائنة : أجز جفالا وأحلب كثبا «1» عجالا ، أى : كانت مثل رمل مجتمع هيل هيلا ، أى : نثر وأسيل .

[سورة المزمل (73) : الآيات 15 إلى 16]

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16)

الخطاب لأهل مكة شاهِداً عَلَيْكُمْ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم. فإن قلت :

لم نكر الرسول ثم عرف؟ قلت: لأنه أراد: أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه وَبِيلًا ثقيلا غليظا، من قولهم :

كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله. والوبيل: العصا الضخمة. ومنه الوابل للمطر العظيم.

[سورة المزمل (73): الآيات 17 إلى 18]

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18)

يَوْماً مفعول به، أى: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله، إن بقيتم على الكفر. ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا. ويجوز أن يكون ظرفا، أى: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا. ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم، أى فكيف تتقون اللّه وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء: لأن تقوى اللّه خوف عقابه يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه: أنّ الهموم

والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان . أسرع فيه الشيب . قال أبو الطيب :

والهمّ يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصّبىّ ويهرم «2»

---

(1) . قوله «وأجز جفالا وأحلب كثبا» الجفال : الصوف الكثير . والكثبة من اللبن : قدر حلبة ، والجمع كثب ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . لأبى الطيب ، يقول : ان الهم ينتقص الرجل الجسيم ويقتطعه شيئا فشيئا . ونحف نحافة : هزل هزالا ، فنحافة مفعول مطلق ، لأنها تلاقى الاحترام في المعنى . ويجوز أنها تمييز ، أى : ينتقص الهم العظيم الجسيم من جهة النحافة إلى تنشأ عنه . ويجوز جعلها مفعولا لأجله على مذهب من لم يشترط اتحاد الفعل والمصدر في الفاعل .

والناصية : مقدم الرأس ، أى : يشيب رأس الصبى . وخص الناصية ، لأنها التي تقابل الناظر عند التقابل ، ولا شعر الصبى إلا في رأسه ، ويهرم ، أى : يصير الصبى هرما ضعيفا .

(114/789)

وقد مرّ بى في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب ، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار في المنام ، ورأيت الناس

يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون .

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول . وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ وصف لليوم بالشدّة أيضا . وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق . وقرئ : منفطر ومتفطر . والمعنى : ذات انفطار . أو على تأويل السماء بالسقف . أو على تأويل السماء شيء منفطر ، والباء في بِهِ مثلها في قولك : فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، يعنى : أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به . ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ . وَعْدُهُ من إضافة المصدر إلى المفعول ، والضمير لليوم . ويجوز أن يكون مضافا إلى الفاعل وهو اللّه عز وعلا ، ولم يجر له ذكر لسكونه معلوما .

[سورة المزمل (73) : آية 19]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

إِنَّ هذِهِ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد تَذْكِرَةٌ موعظة فَمَنْ شاءَ اتعظ بها .

واتخذ سبيلا إلى اللّه بالتقوى والخشية . ومعنى اتخاذ السبيل إليه : التقرّب والتوسل بالطاعة .

[سورة المزمل (73) : آية 20]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

(115/789)

أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ أقل منهما ، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت : قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك . وقرئ : ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين ، وتقوم النصف والثلث : وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة : من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه – وهو الثلث – وبين قيام الزائد عليه – وهو الأدنى من الثلثين . وقرئ : ونصفه ، وثلثه : بالجرّ ، أى : تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث ، وهو مطابق للتخيير بين النصف : وهو أدنى من الثلثين . والثلث : وهو أدنى من النصف . والربع : وهو أدنى من الثلث ، وهو الوجه الأخير

وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا اللّه وحده ، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيا عليه يقدّر : هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير ، والمعنى : أنكم لا تقدرون عليه ، والضمير في لَنْ تُحْصُوهُ لمصدر يقدّر ، أى علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية ، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط : وذلك شاق عليكم بالغ منكم فَتابَ عَلَيْكُمْ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدّر ، كقوله فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ والمعنى : أنه رفع التبعة في تركه عنكم ، كما يرفع التبعة عن التائب . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود . يريد : فصلوا ما تيسر عليكم ، ولم يتعذر من صلاة الليل ، وهذا ناسخ للأوّل ، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس . وقيل هي قراءة القرآن بعينها ، قيل : يقرأ مائة آية . ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقيل :

من قرأ مائة آية كتب من القانتين . وقيل : خمسين آية . وقد بين الحكمة في النسخ . وهي تعذر القيام على المرضى ، والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل اللّه . وقيل : سوّى اللّه بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال . وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه : أيما رجل جلب شيأ إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه : كان عند اللّه من الشهداء «1» . وعن عبد اللّه بن عمر : ما خلق اللّه موتة أموتها بعد

القتل في سبيل اللّه أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحل : أضرب في الأرض أبتغي من فضل اللّه «2» . وعَلِمَ

---

(1) . أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخي عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفا . وفرقد ضعيف . ووصله ابن مردويه بذكر علقمة بن إبراهيم وعبد اللّه ورفعه أيضا . وزاد : ثم قرأ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ - الآية

(2) . أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد اللّه عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به . وإسناده ضعيف . ورواه ابن معبد في الطاعة والمعصية عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن نافع أن عمر قال «ما خلق اللّه موتة أموتها إلا أن أموت مجاهدا في سبيل اللّه أحب إلى من أن أموت - إلى آخره» والبيهقي في الشعب في الثالث عشر من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد اللّه ذكر عمر أو غيره قال «ما خلق اللّه إلى آخره» .

(116/789)

استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ يعني المفروضة والزكاة الواجبة وقيل : زكاة الفطر ، لأنه لم يكن بمكة زكاة . وإنما وجبت بعد ذلك ، ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يجوز أن يريد : سائر

الصدقات وأن يريد : أداء الزكاة على أحسن وجه : من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه اللّه ، والصرف إلى المستحق ، وأن يريد : كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال خَيْراً ثانى مفعولي وجد . وهو فصل . وجاز وإن لم يقع بين معرفتين ، لأنّ أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة . وقرأ أبو السمال : هو خير وأعظم أجرا ، بالرفع على الابتداء والخبر :

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المزمّل دفع اللّه عنه العسر في الدنيا والآخرة» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 634.644 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى رضى اللّه عنه .

(117/789)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمّلُ ﴾

قال الأخفش : أصله المتزمل فأدغم التاء في الزاي ، وكذا المدثر .

وفي أصل المزمل : قولان :

أحدهما : المحتمل ، يقال زمل الشيء إذا حمله ، ومنه الزاملة التي تحمل القماش .

الثاني : المزمل هو المتلفف ، قال امرؤ القيس :

كأن ثبيراً في عرائين وبْله . . . كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزَمّلِ .

وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يا أيها المزمل بالنبوة ، قاله عكرمة .

الثاني : بالقرآن ، قاله ابن عباس .

الثالث : بثيابه ، قاله قتادة .

قال إبراهيم : نزلت عليه وهو في قطيفة .

﴿ قُمِ الليلَ إلا قليلاً ﴾ يعني صلِّ الليل إلا قليلاً ، وفيه وجهان :

أحدهما : إلا قليلاً من أعداد الليالي لا تقمها .

الثاني : إلا قليلاً من زمان كل ليلة لا تقمه وقد كان فرضاً عليه .

وفي فرضه على مَنْ سواه من أُمّته قولان :

أحدهما : فرض عليه دونهم لتوجه الخطاب إليه ، ويشبه أن يكون قول سعيد ابن جبير .

الثاني : أنه فرض عيله وعليهم فقاموا حتى ورمت أقدامهم ، قاله ابن عباس وعائشة .

وقال ابن عباس : كانوا يقومون نحو قيامه في شهر رمضان ثم نسخ فرض قيامه على الأمة ،

واختلف بماذا نسخ عنهم على قولين :

أحدهما : بالصلوات الخمس وهو قول عائشة .

الثاني : بآخر السورة ، قاله ابن عباس .

واختلفوا من مدة فرضه إلى أن نسخ على قولين :

أحدهما : سنة ، قال ابن عباس : كان بين أول المزمل وآخرها سنة .

الثاني : ستة عشر شهراً ، قالته عائشة ، فهذا حكم قيامه في فرضه ونسخه على الأمة .

فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضاً عليه ، وفي نسخه عنه قولان :

أحدهما : المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين .

الثاني : أنها عشر سنين إلى أن خفف عنها بالنسخ زيادة في التكليف لتميزه بفضل الرسالة ، قاله سعيد بن جبير .

(118/789)

قوله " قم الليلَ إلاّ قليلاً " لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن فاستثنى منه القليل لراحة الجسد ، والقليل من الشيء ما دون النصف .

حكي عن وهب بن منبه أنه قال : القليل ما دون المعشار والسدس .

وقال الكلبي ومقاتل : القليل الثلث .

وَحدُّ الليل ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر الثاني .

ثم قال تعالى : ﴿ نِصْفَهُ أو انقُصْ مِنْهُ قليلاً ﴾ فكان ذلك تخفيفاً إذا لم يكن زمان القيام محدوداً ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، فروت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في الليل فقال : أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن اللَّه لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديم عليه .

ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : " عَلِم أنْ لن تُحْصوه فتابَ عليكم فاقْرَؤوا ما تيسّر من القرآن " .

﴿ أوزِدْ عليه ورَتِّل القرآنَ تَرْتيلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بيّن القرآن تبياناً ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم .

الثاني : فسّرْه تفسيراً ، قاله ابن جبير .

الثالث : أن تقرأه على نظمه وتواليه ، لا تغير لفظاً ولا تقدم مؤخراً مأخوذ من ترتيل الأسنان إذا استوى نبتها وحسن انتظامها ، قاله ابن بحر .

﴿ إنّا سنُلْقي عليكَ قوْلاً ثَقيلاً ﴾ وهو القرآن ، وفي كونه ثقيلاً أربعة تأويلات :

أحدها : أنه إذا أوحي إليه كان ثقيلاً عليه لا يقدر على الحركة حتى ينجلي عنه ، وهذا قول عائشة وعروة بن الزبير .

الثاني : العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه وحلاله وحرامه ، قاله الحسن وقتادة .

الثالث : أنه في الميزان يوم القيامة ثقيل ، قاله ابن زبير .

الرابع : ثقل بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل عليّ أي كريم عليّ ، قاله السدي .

ويحتمل تأويلاً خامساً : أن يكون ثقيل بمعنى ثابت ، لثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ فيها ستة تأويلات :

(119/789)

أحدها : أنه قيام الليل ، بالحبشية ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه ما بين المغرب والعشاء ، قاله أنس بن مالك .

الثالث : ما بعد العشاء الآخرة ، قاله الحسن ومجاهد .

الرابع : أنها ساعات الليل لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة ، قاله ابن قتيبة .

الخامس : أنه بدء الليل ، قاله عطاء وعكرمة .

السادس : أن الليل كل ناشئة ، قال ابن عباس : لأنه ينشأ بعد النهار .

وفي " أشد وطْئاً " خمسة تأويلات :

أحدها : مواطأة قلبك وسمعك وبصرك ، قاله مجاهد .

الثاني : مواطأة قولك لعملك ، وهو مأثور .

الثالث : مواطأة عملك لفراغك ، وهو محتمل .

الرابع : أشد نشاطاً ، قاله الكلبي ، لأنه زمان راحتك .

الخامس : قاله عبادة : أشد وأثبت وأحفظ للقراءة .

وفي قوله : ﴿ وأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه أبلغ في الخير وأمعن في العدل ، قاله الحسن .

الثاني : أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم ، قاله مجاهد وقتادة ، وقرأ أنس بن مالك " وأهيأ قيلاً " وقال أهيأ وأقوم سواء .

الثالث : أنه أعجل إجابة للدعاء ، حكاه ابن شجرة .

﴿ إن لك في النهارِ سَبْحاً طويلاً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني فراغاً طوياً لنَومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، قاله ابن عباس وعطاء .

الثاني : دعاء كثيراً ، قاله السدي وابن زيد والسبح بكلامهم هو الذهاب ، ومنه سبح السابح في الماء .

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اقصد بعملك وجه ربك .

الثاني : أنه إذا أردت القراءة فابدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، قاله ابن بحر . ويحتمل وجهاً ثالثاً : واذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتتوفر على طاعته وتعدل عن معصيته .

﴿ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أخلص إليه إخلاصاً ، قاله مجاهد .

الثاني : تعبد له تعبداً ، قاله ابن زيد .

(120/789)

الثالث : انقطع إليه انقطاعاً ، قاله أبو جعفر الطبري ، ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى ، وجاء في الحديث النهي عن التبتل الذي هو الانقطاع عن الناس والجماعات .

الرابع : وتضرّع إليه تضرّعاً .

﴿ ربُّ المشْرِقِ والْمغرِبِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : رب العالَمِ بما فيه لأنهم بين المشرق والمغرب ، قاله ابن بحر .

الثاني : يعني مشرق الشمس ومغربها .

وفي المراد بالمشرق والمغرب ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه استواء الليل والنهار ، قاله وهب بن منبه .

الثاني : أنه دجنة الليل ووجه النهار ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه أول النهار وآخره ، لأن نصف النهار أوله فأضيف إلى المشرق ، ونصفه آخره

فأضيف إلى المغرب .

﴿ فاتّخِذْهُ وكيلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مُعيناً .

الثاني : كفيلاً .

الثالث : حافظاً .

﴿ واهْجُرهم هَجْراً جَميلاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : اصفح عنهم وقل سلام ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن يعرض عن سفههم ويريهم صغر عداوتهم .

الثالث : أنه الهجر الخالي من ذم وإساءة .

وهذا الهجر الجميل قبل الإذن في السيف .

﴿ وذَرْني والمُكَذّبينَ أُولي النّعْمةِ ﴾ قال يحيى بن سلام :

بلغني أنهم بنو المغيرة ، وقال سعيد بن جبير : أُخبرت أنهم اثنا عشر رجلاً من قريش .

ويحتمل قوله تعالى : " أولي النّعْمةِ " ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه قال تعريفاً لهم إن المبالغين في التكذيب هم أولي النعمة .

الثاني : أنه قال ذلك تعليلاً ، أي الذين أطغى هم أولوا النعمة .

الثالث : أنه قال توبيخاً أنهم كذبوا ولم يشكروا من أولاهم النعمة .

﴿ ومهِّلْهم قليلاً ﴾ قال ابن جريج : إلى السيف .

﴿ إنّ لدينا أنْكالاً وجَحيماً ﴾ في " أنكالاً " ثلاثة أوجه :

أحدها : أغلالاً ، قاله الكلبي .

الثاني : أنها القيود ، قاله الأخفش وقطرب ، قالت الخنساء :

دَعاك فَقَطّعْتَ أنكاله . . . وقد كُنّ قبْلك لا تقطع .

(121/789)

الثالث : أنها أنواع العذاب الشديد ، قاله مقاتل ، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى يحب النكل على النكل ، قيل : وما النكل ؟ قال : الرجل القوي المجرب على الفرس القوي المجرب " ومن ذلك سمي القيد نكلاً لقوته ، وكذلك الغل ، وكل عذاب قوي واشتد .

﴿ وطعاماً ذا غُصَّةٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها شجرة الزقوم ، قاله مجاهد .

﴿ وكانت الجبال كُثيباً مَهيلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رملاً سائلاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن المهيل الذي إذا وطئه القدم زل من تحتها وإذا أخذت أسفله انهال أعلاه ، قاله الضحاك والكلبي .

﴿ فأخَذْناه أَخْذاً وبيلاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدهما : شديداً ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : متتابعاً ، قاله ابن زيد .

الثالث : ثقيلاً غليظاً ، ومنه قيل للمطر العظيم وابل ، قاله الزجاج .

الرابع : مهلكاً ، ومنه قول الشاعر :

أَكْلتِ بَنيكِ أَكْلَ الضّبِّ حتى . . . وَجَدْتِ مرارةَ [الكلإِ الوبيل] .

﴿ فكيف تتّقونَ ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ إن كفَرتم يوماً يجْعَل الولدان شيباً ﴾ الشيب : جمع أشيب ، والأشيب والأشمط الذي اختلط سواد شعره ببياضه ، وهو الحين الذي يقلع فيه ذو التصابي عن لهوه ، قال الشاعر :

طرِبْتَ وما بك ما يُطرِب . . . وهل يلعب الرجلُ الأَشْيَبُ

وإنما شاب الولدان في يوم القيامة من هوْله .

﴿ السماءُ مُنفطرٌ به ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : ممتلئة به ، قاله ابن عباس .

الثاني : مثقلة ، قاله مجاهد .

الثالث : مخزونة به ، قاله الحسن .

الرابع : منشقة من عظمته وشدته ، قاله ابن زيد .

﴿ وكانَ وعْدُهُ مَفْعولاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وعده بأن السماء منفطر به ، وكون الجبال كثيباً مهيلاً ، وأن يجعل الولدان شيباً ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : وعده بأن يظهر دينه على الدين كله ، قاله مقاتل .

(122/789)

الثالث : وعده بما بشّر وأنذر من ثوابه وعقابه .

وفي المعنى المكنى عنه في قوله " به " وجهان :

أحدهما : أن السماء منفطرة باليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، فيكون اليوم قد جعل الولدان شيباً ، وجعل السماء منفطرة ويكون انفطارها للفناء .

الثاني : معناه أن السماء منفطرة بما ينزل منها بأن يوم القيامة يجعل الولدان شيباً ، ويكون انفطارها بانفتاحها لنزول هذا القضاء منها .

﴿ . . . . واللَّهُ يُقدِّرُ الليلَ والنهارَ ﴾ يعني يقدر ساعتهما ، فاحتمل ذلك وجهين :

أحدهما : تقديرهما لأعمال عباده .

الثاني : لقضائه في خلْقه .

﴿ عَلِمَ أن لن تُحْصُوهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لن تطيقوا قيام الليل ، قاله الحسن .

الثاني : يريد تقدير نصف الليل وثلثه وربعه ، قاله الضحاك .

﴿ فتابَ عليكم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فتاب عليكم من تقصيركم فيما مضى ، فاقرؤوا في المستبقل ما تيسر .

الثاني : فخفف عنكم .

﴿ فاقْرءُوا ما تيسّر مِنَ القُرآنِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فصلّوا ما تيسّر من الصلاة ، فعبر عن الصلاة بالقرآن لما يتضمنها من القرآن .

فعلى هذا يحتمل في المراد بما تيسر من الصلاة وجهان :

أحدهما : ما يتطوع به من نوافله لأن الفرض المقدر لا يؤمر فيه بما تيسر .

الثاني : أنه محمول على فروض الصلوات الخمس لانتقال الناس من قيام الليل إليها ، ويكون قوله " ما تيسر " محمولاً على صفة الأداء في القوة والضعف ، والصحة والمرض ، ولا يكون محمولاً على العدد المقدر شرعاً .

الثاني : أن المراد بذلك قراءة ما تيسر من القرآن حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ .

فعلى هذا فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد به قراءة القرآن في الصلاة فيكون الأمر به واجباً لوجوب القراءة في الصلاة .

واختلف في قدر ما يلزمه أن يقرأ به من الصلاة ، فقدره مالك والشافعي بفاتحة الكتاب ، لا يجوز العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها ، وقدرها أبو حنيفة بآية واحدة من أيّ القرآن كانت .

(123/789)

والوجه الثاني : أن المراد به قراءة القرآن من غير الصلاة ، فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب أو على الاستحباب ؟ على وجهين :

أحدهما : أنه محمول على الوجوب ليقف بقراءته على إعجازه ، ودلائل التوحيد فيه وبعث الرسل ، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه ، لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة .

الثاني : أنه محمول على الاستحباب دون الوجوب ، وهذا قول الأكثرين لأنه لو وجب عليه

أن يقرأه وجب عليه أن يحفظه . وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقاويل :

أحدها : جميع القرآن ، لأن اللَّه تعالى قد يسره على عباده ، قاله الضحاك .

الثاني : ثلث القرآن ، حكاه جويبر .

الثالث : مائتا آية ، قاله السدي .

الرابع : مائة آية ، قاله ابن عباس .

الخامس : ثلاث آيات كأقصر سورة ، قاله أبو خالد الكناني .

﴿ عَلِم أنْ سيكونُ منكم مَّرْضَى ﴾ ذكر الله أسباب التخفيف ، فذكر منها المرض لأنه يُعجز .

ثم قال : ﴿ وآخرون يَضْرِبون في الأرض ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم المسافرون ، كما قال عز وجلّ : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ .

الثاني : أنه التقلُّب للتجارة لقوله تعالى : ﴿ يبتغونَ من فضلِ اللَّه ﴾ ، قاله ابن مسعود يرفعه ، وهو قول السدي .

﴿ وآخَرونَ يُقاتِلون في سبيل اللَّهِ ﴾ يعني في طاعته ، وهم المجاهدون .

﴿ فاقْرؤوا ما تيسّر منه ﴾ نسخ ما فرضه في أول السورة من قيام الليل وجعل ما تيسر منه تطوعاً ونفلاً ، لأن الفرض لا يؤمر فيه بفعل ما تيسر منه .

وقد ذكرنا في أول السورة الأقاويل في مدة الفرض .

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني المفروضة ، وهي الخمس لوقتها .

﴿ وآتُوا الزكاةَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها ها هنا طاعة اللَّه والإخلاص له ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها صدقة الفطر ، قاله الحارث العكلي .

الثالث : أنها زكاة الأموال كلها ، قاله قتادة وعكرمة .

(124/789)

﴿ وأَقْرِضوا اللَّه قَرْضاً حَسَناً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه النوافل بعد الفروض ، قاله ابن زيد .

الثاني : قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قاله ابن حبان .

الثالث : النفقة على الأهل ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : النفقة من سبيل الله ، وهذا قول عمر رضي الله عنه .

الخامس : أنه أمر بفعل جميع الطاعات التي يستحق عليها الثواب .

﴿ تجدُوه عِندَ اللهِ ﴾ يعني تجدوا ثوابه عند الله ﴿ هو خيراً ﴾ يعني مما أعطيتم

وفعلتم .

﴿ وأعظم أجرا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة .

ويحتمل أن يكون " أعظم أجرا " الإعطاء بالحسنة عشراً .

﴿ واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ يعني من ذنوبكم .

﴿ إنّ اللَّه غَفورٌ ﴾ لما كان قبل التوبة .

﴿ رحيمُ ﴾ بكم بعدها ، قاله سعيد بن جبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 124.134 ﴾

(125/789)

وقال ابن الجوزى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى : ﴿ يا أيها المُزَّمِّل ﴾

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وأبو مجلز ، وأبو عمران ، والأعمش : "المتزمِّل" بإظهار التاء .

وقرأ عكرمة ، وابن يعمر : "المزمل" بحذف التاء وتخفيف الزاي قال اللغويون : "المُزَّمِّل"

الملتف في ثيابه ، وأصله المتزّمل فأدغمت التاء في الزاي .

فثقّلت .

وكل من التفَّ بثوبه فقد تزمَّل .

قال الزجاج : وإنما أدغمت فيها لقربها منها .

قال المفسرون : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتزمَّل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فَرَقاً منه حتى أنس به .

وقال السدي : كان قد تزمَّل للنوم .

وقال مقاتل : خرج من البيت وقد لبس ثيابه ، فناداه جبريل : يا أيها المُزَّمِّل .

وقيل : أريد به مُتَزَمِّل النبوة .

قال عكرمة : في معنى هذه الآية : زُمِّلْتَ هذا الأمر ، فَقُمْ به .

وقيل : إنما لم يخاطب بالنبي والرسول ها هنا ، لأنه لم يكن قد بلَّغ ، وإنما كان في بدء الوحي .

قوله تعالى : ﴿ قم الليل ﴾ أي : للصلاة .

وكان قيام الليل فرضاً عليه ﴿ إلا قليلا نصفَه ﴾ هذا بدل من الليل ، كما تقول : ضربت زيداً رأسَه .

فإنما ذكرت زيداً لتوكيد الكلام ، لأنه أوكد من قولك : ضربت رأس زيد .

والمعنى : قم من الليل النصف إلا قليلاً ﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ أي : من النصف ﴿ أو

زِد عليه ﴾ أي : على النصف .

قال المفسرون : انقص من النصف إلى الثلث ، أو زد عليه إلى الثلثين ، فجعل له سَعَة في مدة قيامه ، إذ لم تكن محدودة ، فكان يقوم ومعه طائفة من المؤمنين ، فشق ذلك عليه وعليهم ، فكان الرجل لا يدري كم صلى ، وكم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كلَّه مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب ، فنسخ ذلك عنه وعنهم بقوله تعالى : ﴿ إِن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل . . .

﴾ الآية ، هذا مذهب جماعة من المفسرين .

(126/789)

وقالوا : ليس في القرآن سورة نَسَخَ آخِرُها أولَها سوى هذه السورة ، وذهب قوم إلى أنه نُسِخَ قيامُ اللَّيْلِ في حقِّه بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لكَ ﴾ [الإسراء : 79]

ونسخ في حق المؤمنين بالصلوات الخمس .

وقيل : نسخ عن الأمة ، وبقي عليه فرضه أبداً .

وقيل : إنما كان مفروضاً عليه دونهم ، وفي مدة فرضه قولان .

أحدهما : سَنَةٌ ، قال ابن عباس : كان بين أول (المزَّمِّل) وآخرها سَنَةٌ .

والثاني : ستة عشر شهراً ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرآن ﴾ قد ذكرنا الترتيل في [الفرقان : 32] .

قوله تعالى : ﴿ إِنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ وهو القرآن .

وفي معنى ثِقَله ستة أقوال .

أحدها : أنه كان يثقُل عليه إذا أُوحي إليه .

وهذا قول عائشة قالت ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، يعني يتخلص عنه ، وإِن جبينه ليتفصّد عرقاً .

والثاني : أن العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : أنه يثقل في الميزان يوم القيامة ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه المهيب ، كما يقال للرجل العاقل : هو رزين راجح ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والخامس : أنه ليس بالخفيف ولا السفساف ، لأنه كلام الرب عز وجل ، قاله الفراء .

والسادس : أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه ، كما تقول : هذا كلام رصين ، وهذا قول وزن : إذا استجدته .

ذكره الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ إِن ناشئة الليل ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، هي قيام الليل بلسان الحبشة .

وهل هي في وقت مخصوص من الليل ، أم في جميعه ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنها في جميع الليل .

وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : الليل كلُّه ناشئة .

وإلى هذا ذهب اللغويون .

قال ابن قتيبة : ناشئة الليل : ساعاته الناشئة ، من نشأتْ : إذا ابتدأتْ .

وقال الزجاج : ناشئة الليل : ساعات الليل ، كلّ ما نشأ منه ، أي : كلّ ما حدث .

(127/789)

وقال أبو علي الفارسي : كأن المعنى : إن صلاة ناشئة ، أو عمل ناشئة الليل .

والثاني : أنها في وقت مخصوص من الليل ، ثم فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنها ما بين المغرب والعشاء ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها القيام بعد النوم ، وهذا قول عائشة ، وابن الأعرابي .

وقد نص عليه أحمد في رواية المرودي .

والثالث : أنها ما بعد العشاء ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو مجلز .

والرابع : أنها بَدْءُ الليل ، قاله عطاء ، وعكرمة .

والخامس : أنها القيام من آخر الليل ، قاله يمان ، وابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ هي أشد وَطْأً ﴾ قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، "وِطاءً" بكسر الواو مع المد ، وهوَ مصدر واطأت فلاناً على كذا مُواطَأَةً ، ووِطاء ، وأراد أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهُّم للقرآن والإحكام لتأويله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ليواطئوا عِدَّة ما حَرَّم الله ﴾ [التوبة : 37] وقرأ الباقون "وَطْأً" بفتح الواو مع القصر والمعنى : إنه أثقل على المصلي من ساعات النهار ، من قول العرب : اشتدت على القوم وَطْأَةُ السلطان : إذا ثقل عليهم ما يلزمهم .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم اشدد وطأتك على مضر" ذكر معنى القراءتين ابن قتيبة .

وقرأ ابن محيصن "أشد وَطَاءً" بفتح الواو ، والطاء ، وبالمد .

قوله تعالى : ﴿ وأَقْوَمُ قيلا ﴾ أي : أخلص للقول ، وأسمع له ، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة ، ويفرغ القلب لفهم التلاوة ، فلا يكون دون سمعه وتفهّمه حائل .

قوله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ أي : فراغاً لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك ، قاله ابن عباس ، وعطاء ، وقرأ علي ، وابن مسعود ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة "سبخاً" بالخاء المعجمة قال الزجاج : ومعناها في اللغة صحيح يقال : قد

سبخت القطن بمعنى نفشته ، ومعنى نَفَّشته : وسَّعته فيكون المعنى : إن لك في النهار توسُّعاً طويلاً .

(128/789)

قوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي : بالنهار أيضاً ﴿ وتَبَتَّلِ إليه تبتيلا ﴾ قال مجاهد : أخلص له إخلاصاً .

وقال ابن قتيبة : انقطع إليه ، من قولك : بَتَّلْت الشيء : إذا قطعتَه .

وقال الزجاج : انقطع إليه في العبادة .

ومنه قيل لمريم : البتول ، لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة .

وكذلك صدقة بتلة : منقطعة من مال المصدِّق ، والأصل في مصدر تبتَّل تبتلاً .

وإنما قوله تعالى : "تبتيلاً" محمول على معنى تبتّل ﴿ رب المشرق ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم "ربُّ" بالرفع .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، بالكسر .

وما بعد هذا قد سبق [الشعراء : 28] إلى قوله تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ من التكذيب لك والأذى ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ لا جزع فيه .

وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السيف ﴿ وذَرْني والمكذِّبين ﴾ أي : لا تهتمَّ بهم ، فأنا أكفيكهم ﴿ أُولي النَّعْمة ﴾ يعني : التَّنَعُّم .

وفيمن عُني بهذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم المطعِمُون ببَدْرٍ ، قاله مقاتل بن حيان .

والثاني : أنهم بنو المغيرة بن عبد الله ، قاله مقاتل بن سليمان .

والثالث : أنهم المستهزئون ، وهم صناديد قريش ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ومَهِّلْهم قليلاً ﴾ قالت عائشة : فلم يكن إلا اليسير حتى كانت وقعة بدر ، وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وليس بصحيح .

قوله تعالى : ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وهي القيود ، واحدها : نكل .

وقد شرحنا معنى "الجحيم" في [البقرة : 119] ﴿ وطعاماً ذا غُصَّةٍ ﴾ وهو الذي لا يسوغ في الحلق ، وفيه للمفسرين أربعة أقوال .

أحدها : أنه شوك يأخذ الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، قاله ابن عباس ، وعكرمة .

والثاني : الزَّقُّوم ، قاله مقاتل .

والثالث : الضَّريع ، قاله الزجاج .

والرابع : الزَّقُّوم والغِسْلين والضَّريع ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترجُف الأرض ﴾ قال الزجاج : هو منصوب بقوله تعالى : "إن لدينا أنكالاً" والمعنى : ينكِّل الكافرين ، ويعذِّبهم ، ﴿ يوم ترجُف الأرض ﴾ أي : تُزَلزَل وتُحَرَّك أغلظ حركة .

قوله تعالى : ﴿ وكانت الجبال ﴾ قال مقاتل : المعنى : وصارت بعد الشدة ، والقوة "كثيباً" قال الفراء : "الكثيب" : الرمل .

و"المهيل" : الذي تحرَّك أسفله ، فينهال عليكم من أعلاه .

والعرب تقول : مهيل ومهيول ، ومكيل ومكيول .

وقال الزجاج : الكثيب جمعه : كثبان ، وهي القطع العظام من الرمل .

والمهيل : السائل .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ رسولاً ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ شاهداً عليكم ﴾ بالتبليغ وإيمان من آمن ، وكفر من كفر ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ وهو موسى عليه السلام ، والوبيل : الشديد .

قال ابن قتيبة : هو من قولك : استوبلت المكان : إذا استوخمتَه .

ويقال : كَلَّأ مُسْتَوْبَل أي : لا يُسْتَمْرَأُ .

قال الزجاج : الوبيل : الثقيل الغليظ جداً .

ومنه قيل للمطر العظيم .

وابل قال مقاتل : والمراد بهذا الأخذ الوبيل : الغرق .

وهذا تخويف لكفار مكة أن ينزل بهم العذاب لتكذيبهم ، كما نزل بفرعون .

قوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً ﴾ أي : عذاب يوم .

قال الزجاج : المعنى : بأي شيء تتحصَّنون من عذاب يوم مِنْ هوله يَشيب الصغير من غير كِبَر .

وقرأ أُبي بن كعب ، وأبو عمران "نجعل الولدان" بالنون .

قوله تعالى : ﴿ السماء مُنْفَطِرٌ به ﴾ قال الفراء : السماء تُذَكَّر وتؤَنَّث .

وهي هاهنا في وجه التذكير .

قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّماءُ إليه قوماً . . .

لَحِقْنَا بِالسَّماءِ مَعَ السَّحابِ

قال الزجاج : وتذكير السماء على ضربين .

أحدهما : على أن معنى السماء معنى السقف .

والثاني : على قولهم : امرأة مُرْضِع على جهة النسب .

فالمعنى : السماء ذات انفطار ، كما أن المرضع ذات الرضاع .

وقال ابن قتيبة : ومعنى الآية : السماء مُنْشَقّ به ، أي : فيه ، يعني في ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ وذلك أنه وعد بالبعث فهو كائن لا محالة .

﴿ إن هذه ﴾ يعني : آيات القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي : تذكير وموعظة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ بالإيمان والطاعة .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ أي : أقل ﴿ من ثُلُثَيِ الليل ونصفَه وثُلُثَه ﴾ وقرأ ابن كثير ، وأهل الكوفة .

بفتح الفاء والثاء .

والباقون : بكسرهما .

قوله تعالى : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ والله يُقَدِّر الليل والنهارَ ﴾ يعلم مقاديرهما ، فيعلم القدر الذي تقومون به من الليل ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : لن تطيقوا قيام ثُلُثَيِ الليل ، ولا ثلث الليل ، ولا نصف الليل ، قاله مقاتل .

والثاني : لن تحفظوا مواقيت الليل ، قاله الفراء .

﴿ فتاب عليكم ﴾ أي : عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف ﴿ فاقرؤوا ما تيسر ﴾ عليكم ﴿ من القرآن ﴾ يعني : في الصلاة ، من غير أن يوقت وقتاً .

وقال الحسن : هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء .

ثم ذكر أعذارهم فقال تعالى : ﴿ علم أن سيكونُ منكم مرضى ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ، ﴿ وآخرون يضربون في الأرض ﴾ وهم المسافرون للتجارة ﴿ يبتغون من فضل الله ﴾ أي : من رزقه ، فلا يطيقون قيام الليل ، ﴿ وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ وهم المجاهدون ، فلا يطيقون قيام الليل ، ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ وذكروا أن هذا نسخ عن المسلمين بالصلوات الخمس ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي : الصلوات الخمس في أوقاتها ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ وقد سبق بيانه [الحديد : 18] .

قال ابن عباس : يريد سوى الزكاة في صلة الرحم ، وقِرى الضيف ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ أي : تجدوا ثوابه في الآخرة ﴿ هو خيراً ﴾ قال أبو عبيدة : المعنى : تجدوه خيراً .

قال الزجاج : ودخلت "هو" فصلاً .

وقال المفسرون : ومعنى "خيراً" أي : أفضل مما أُعطيتم ﴿ وأعظم أجراً ﴾ من الذي تؤخِّرونه إلى وقت الوصية عند الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 387 . 397 ﴾

(132/789)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصله المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف .

قال المفسرون كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتزمل في ثيابه أول ما جاءه جبريل فرقاً منه فكان يقول زملوني زملوني حتى أنس به .

وقيل خرج يوماً من البيت وقد لبس ثيابه فناداه جبريل يا أيها المزمل ، وقيل معناه متزمل النبوة أي حاملها والمعنى زملت هذا الأمر فقم به واحمله فإنه أمر عظيم وإنما لم يخاطب بالنبي والرسول لأنه كان في أول الأمر ومبدئه ، ثم خوطب بالنبي والرسول بعد ذلك ، وقيل

كان (صلى الله عليه وسلم) قد نام وهو متزمل في ثوبه فنودي يا أيها المزمل ﴿ قم الليل ﴾ أي للصلاة والعبادة واهجر هذه الحالة واشتغل بالصلاة والعبودية وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي صل الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ثم بين قدر القيام فقال تعالى : ﴿ نصفه ﴾ أي قم نصف الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ أي إلى الثلث .

﴿ أو زد عليه ﴾ أي على النصف إلى الثلثين خيره بين هذه المنازل فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه يقومون على هذه المقادير وكان الرجل منهم لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثاه ، فكان يقوم الليل كله حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله وخفف عنهم ونسخها عنهم بقوله ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ قيل ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها إلا هذه السورة وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة .

وقيل ستة عشر شهراً .

(133/789)

وكان قيام الليل فرضاً ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس وثبتت فريضته على النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (م)

عن سعد بن هشام قال " انطلقت إلى عائشة فقلت يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فإن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان القرآن .

قلت فقيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا أم المؤمنين ؟ قالت ألست تقرأ المزمل قلت بلى قالت فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة " .

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ قال ابن عباس بينه بياناً وعنه أيضاً " اقرأه على هينتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً " ، وقيل الترتيل هو التوقف والترسل والتمهل والإفهام وتبيين القراءة حرفاً حرفاً أثره في أثر بعض بالمد والإشباع والتحقيق .

وترتيلاً تأكيد في الأمر به وأنه لا بد للقارىء منه ، وقيل إن الله تعالى لما أمر بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلي من حضور القلب والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها فعند الوصول إلى ذكر الله تعالى يستشعر بقلبه عظمة المذكور وجلاله وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف وعند ذكر القصص والأمثال يحصل الاعتبار فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة ، والإسراع في القراءة لا يحصل فيها ذلك فظهر بذلك

أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة .

(فصل)

(134/789)

(خ) عن قتادة قال " سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم " عن أم سلمة ا وقد سألها يعلى بن مالك عن قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصلاته فقالت " ما لكم وصلاته ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً " ، أخرجه النسائي وللترمذي قالت

﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ قال ابن عباس شديداً .

وقيل ثقيلاً يعني كلاماً عظيماً جليلاً ذا خطر وعظمة لأنه كلام رب العالمين وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل والمعنى فصير نفسك مستعدة لقبول هذا القول العظيم الثقيل الشاق ، وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من الأوامر والنواهي فإن فيه مشقة وكلفة على الأنفس وقيل ثقيلاً لما فيه من الوعد والوعيد والحلال والحرام والحدود والفرائض والأحكام .

وقيل ثقيلاً على المنافقين لأنه يبين عيوبهم ويظهر نفاقهم ، وقيل هو خفيف على اللسان

بالتلاوة ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة .

وقيل ثقيلاً أي ليس بالخفيف ولا السفساف لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى .

وقيل معناه أنه قول مبين في صحته وبيانه ونفعه كما تقول هذا كلام رصين وهذا قول له وزن إذا استجدته وعلمت أنه صادق الحكمة والبيان .

وقيل سماه ثقيلاً لما فيه من المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ .

وقيل ثقيلاً في الوحي وذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) "كان إذا نزل عليه القرآن والوحي يجد له مشقة " ، (ق) عن عائشة ا " أن الحارث بن هشام سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهذا أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل إلي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

(135/789)

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً " (م) عن عبادة بن الصامت قال "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد له وجهه " وفي رواية "كان إذا نزل عليه الوحي عرفنا

ذلك في فيه وغمض عينيه وتربد وجهه " قوله مثل صلصلة الجرس الصلصة الصوت الشديد الصلب اليابس من الأشياء الصلبة كالجرس ونحوه .

قوله فيفصم أي ينفصل عني ويفارقني وقد وعيت ما قال أي حفظت .

وقولها ليتفصد عرقاً أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد .

قوله تربد وجهه الربدة في الألوان غبرة مع سواد ، وقوله تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أي ساعاته كلها وكل ساعة منه ناشئة ، لأنها تنشأ عن التي قبلها وقال ابن أبي مليكة سألت ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا الليل كله ناشئة وهي عبارة عن الأمور التي تحدث وتنشأ في الليل وقالت عائشة الناشئة القيام بعد النوم .

وقيل هي قيام آخر الليل وقيل أوله ، وقيل أي ساعة قام الإنسان من الليل فقد نشأ .

روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول هذه ناشئة الليل ، وقيل كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل ، وقيل ناشئة الليل قيامه وقيل ناشئة الليل وطاؤه ﴿ هي أشد وطأً ﴾ قرىء بكسر الواو مع المد يعني من المواطأة والموافقة وذلك لأن مواطأة القلب اللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مما تكون بالنهار .

﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ أي تصرفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك واشتغالك .

وقيل فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك أفضل من الليل ﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح ﴿ وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ قال ابن عباس أخلص إليه إخلاصاً وقيل تفرغ لعبادته وانقطع إليه انقطاعاً والمعنى بتل إليه نفسك واقطعها عن كل شيء سواه .

وقيل التبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله .

(136/789)

وقيل معناه وتوكل عليه توكلاً واجتهد في العبادة وقيل يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل أي انقطع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته .

فإن قلت كيف قال تبتيلاً مكان تبتلاً ولم يجيء على مصدره ؟

قلت جاء تبتيلاً على بتل نفسك إليه تبتيلاً فوقع المصدر موضع مقارنة في المعنى ويكون التقدير وبتل نفسك إليه تبتيلاً فهو كقوله والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، وقيل لأن معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل .

وقيل الأصل في تبتل أن يقال تبتلت تبتيلاً وتبتلت تبتيلاً فتبتيلاً محمول على معنى بتل إليه تبتيلاً وقيل إنما عدل عن هذه العبارة لدقيقة لطيفة وهي أن المقصود إنما هو التبتل فأما

التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلاً إلى الله تعالى لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعاً إليه إلا أنه لا بد من التبتيل حتى يحصل التبتل فذكر أولاً التبتل لأنه المقصود وذكر التبتيل ثانياً إشعاراً بأنه لا بد منه ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ يعني أن التبتل والانقطاع لا يليق إلا لله تعالى الذي هو رب المشرق والمغرب ﴿ لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أي فوض أمرك إليه وتوكل عليه .

وقيل معناه اتخذ يا محمد ربك كفيلاً بما وعدك من النصر على الأعداء ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ أي من التكذيب لك والأذى ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ أي واعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه وهذه الآية منسوخة بآية القتال .

﴿ وذرني والمكذبين ﴾ أي دعني ومن كذبك لا تهتم به فإني أكفيكه ﴿ أولي النعمة ﴾ أي أصحاب النعم والترفه نزلت في صناديد قريش المستهزئين وقيل نزلت في المطعمين ببدر ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ يعني إلى يوم بدر فلم يكن إلا يسير حتى قتلوا ببدر .

(137/789)

وقيل أراد بالقليل أيام الدنيا ثم وصف عذابهم فقال تعالى : ﴿ إن لدينا ﴾ أي عندنا في الآخرة ﴿ أنكالاً ﴾ يعني قيوداً عظاماً ثقالاً لا تنفك أبداً وقيل أغلالاً من حديد ﴿

وجحيماً وطعاماً ذا غصة ﴾ أي غير سائغ في الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ أي وجيعاً ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أي تتزلزل وتتحرك وهو يوم القيامة ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ يعني رملاً سائلاً وهو الذي إذا أخذت منه شيئاً يتبعك ما بعده ﴿ إنا أرسلنا إليكم ﴾ يعني يا أهل مكة ﴿ رسولاً ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ شاهداً عليكم ﴾ أي بالتبليغ وإيمان من آمن منكم وكفر من كفر ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ يعني موسى بن عمران ، قيل إنما خص فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل لأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه رباه ﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه ﴾ أي فرعون ﴿ أخذاً وبيلاً ﴾ أي شديداً ثقيلاً يعني عاقبناه عقوبة غليظة ، خوّف بذلك كفار مكة ثم خوّفهم يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم ﴾ أي كيف لكم بالتّقوى يوم القيامة إن كفرتم أي في الدنيا ، المعنى لا سبيل لكم إلى التّقوى إذا وافيتم القيامة .

وقيل معنى الآية فكيف تتقون العذاب يوم القيامة ، وبأي شيء تتحصنون من عذاب ذلك اليوم ، وكيف تنجون منه إن كفرتم في الدّنيا ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ يعني شيوخاً شمطاً من هول ذلك اليوم وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه الصّلاة والسّلام قم ، فابعث بعث النار من ذريتك .

(ق) عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يقول الله يوم القيامة : يا آدم فيقول لبيك وسعديك " زاد في رواية " والخير في يديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النّار قال يا رب ، وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد وترى النّاس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قالوا : يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعاً وتسعين ومنكم واحد ثم قال : أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثّور الأبيض ، أو كالشّعرة البيضاء في جنب الثّور الأسود ، وفي رواية كالرّقمة في ذراع الحمار ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا "

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل ﴾ أي أقل من ثلثي الليل ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ أي تقوم نصفه وثلثه ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ يعني المؤمنين ، وكانوا يقومون معه الليل ﴿ والله يقدر اللّيل والنّهار ﴾ يعني أن العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما هو

الله تعالى .

لا يفوته علم ما يفعلون ، فيعلم القدر الذي يقومون من اللّيل والذي ينامون منه .

﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ يعني أن لن تطيقوا معرفته على الحقيقة .

قيل قاموا حتى انتفخت أقدامهم ، فنزل : علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوه ، قيل كان الرجل يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر الله به من القيام فقال تعالى : علم أن لن تحصوه أي لن تطيقوا معرفة ذلك ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو والتخفيف ، والمعنى عفا عنكم ما لم تحيطوا بعلمه ورفع المشقة عنكم ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المراد بهذه القراءة .

(139/789)

القراءة في الصلاة ، وذلك لأن القراءة أحد أجزاء الصّلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل ، والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم .

وقال الحسن : يعني في صلاة المغرب والعشاء ، قال قيس بن أبي حازم : صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد ، وأول آية من البقرة ، ثم قام في الثانية ، فقرأ بالحمد

والآية الثانية من البقرة ، ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : إن الله تعالى يقول فاقرؤوا ما تيسر منه ، وقيل نسخ ذلك التّهجد ، واكتفي بما تيسر ثم نسخ ذلك أيضاً بالصّلوات الخمس وذلك في حق الأمة وثبت قيام اللّيل في حقه (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى : ﴿ ومن اللّيل فتهجد به نافلة لك ﴾ .

القول الثاني : أن المراد بقوله فاقرؤوا ما تيسر من القرآن دراسته ، وتحصيل حفظه وأن لا يعرض للنسيان ، فقيل يقرأ مائة آية ونحوها ، وقيل إن قراءة السورة القصيرة كافية .

روى البغوي بإسناده عن أنس أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " من قرأ خمسين آية في يوم وليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ، ومن قرأ مائتي آية ، لم يحاججه القرآن يوم القيامة ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر " وذكره الشّيخ محيي الدّين في كتابه الأذكار ولم يضعفه وقال : في رواية " من قرأ أربعين آية بدل خمسين وفي رواية عشرين " وفي رواية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ألم أخبر أنك تصوم الدهر ، وتقرأ القرآن كل ليلة قلت بلى يا رسول الله ، ولم أرد بذلك إلا الخير قال فصم صوم داود وكان أعبد النّاس واقرأ القرآن في كل شهر مرة قال قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقرأه في كل عشر قال : قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 7 صـ 164 . 172 ﴾

وقال النسفى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية وهي تسع عشرة آية بصري وثمان عشرة شامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يأَيُّهَا المزمل ﴾ أي المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف بها بإدغام التاء في الزاي . كان النبي صلى الله عليه وسلم نائماً بالليل متزملاً في ثيابه فأمر بالقيام للصلاة بقوله ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قِلِيلاً * نِّصْفَهُ ﴾ بدل من ﴿ الليل ﴾ و ﴿ إِلاَّ قِلِيلاً ﴾ استثناء من قوله ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ تقديره : قم نصف الليل إلا قليلاً من نصف الليل ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ ﴾ من النصف .

بضم الواو : غير عاصم وحمزة ﴿ قِلِيلاً ﴾ إلى الثلث ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ على النصف إلى الثلثين ، والمراد التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه ، وإن جعلت ﴿ نِّصْفَهُ ﴾ بدلاً من ﴿ قِلِيلاً ﴾ كان مخيراً بين ثلاثة أشياء : بين قيام نصف الليل تاماً ، وبين قيام الناقص منه ،

وبين قيام الزائد عليه .

وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل وإلا فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف ولهذا قلنا : إذا أقرّ أن لفلان عليه ألف درهم إلا قليلاً أنه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿ وَرَتِّلِ القرءان ﴾ بين وفصل من الثغر المرتل أي المفلج الأسنان ، وكلام رَتَلٌ بالتحريك أي مرتل ، وثغر رتل أيضاً إذا كان مستوي البنيان .

أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات ﴿ تَرْتِيلاً ﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه لا بد منه للقارىء ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ ﴾ سننزل عليك ﴿ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ أي القرآن لما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، أو ثقيلاً على المنافقين ، أو كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف الخفيف .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ بالهمزة : سوى ورش : قيام الليل .

عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(141/789)

فهي مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعافية ، أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث ، أو ساعات الليل لأنها تنشأ ساعة فساعة ، وكان زين العابدين رضي الله عنه

يصلي بين العشاءين ويقول هذه ناشئة الليل ﴿ هِيَ أَشَدُّ ﴾ ﴿ وطاءً ﴾ ﴿ وفاقا ﴾ شامي وأبو عمرو أي يواطيء فيها قلب القائم لسانه .

وعن الحسن : أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق .

وغيرهما ﴿ وَطْأً ﴾ أي أثقل على المصلي من صلاة النهار لطرد النوم في وقته من قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشدد وطأتك على مضر " ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وأشد مقالاً وأثبت قراءة لهدوء الأصوات وانقطاع الحركات ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك ففرّغ نفسك في الليل لعبادة ربك أو فراغاً طويلاً لنومك وراحتك ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ ودم على ذكره في الليل والنهار ، وذكر الله يتناول التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة وتلاوة القرآن ودراسة العلم ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ انقطع إلى عبادته عن كل شيء .

والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره .

وقيل : رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ﴿ تَبْتِيلاً ﴾ في اختلاف المصدر زيادة تأكيد أي بتّلك الله فتبتل تبتيلاً أو جيء به مراعاة لحق الفواصل .

﴿ رَبُّ المشرق والمغرب ﴾ بالرفع أي هو رب أو مبتدأ خبره ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وبالجر : شامي وكوفي غير حفص بدل من ﴿ رَبِّكَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسم بإضمار حرف القسم نحو : الله لأفعلن ، وجوابه لا إله إلا هو كقولك : والله لا أحد

في الدار إلا زيد ﴿ فاتخذه وكِيلاً ﴾ ولياً وكفيلاً بما وعدك من النصر ، أو إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب وأن لا إله إلا هو فاتخذه كافياً لأمورك .

وفائدة الفاء أن لا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهار إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار .

(142/789)

﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ فيّ من الصاحبة والولد وفيك من الساحر والشاعر ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ جانبهم بقلبك وخالفهم مع حسن المحافظة وترك المكافأة .

وقيل : هو منسوخ بآية القتال ﴿ وَذَرْنِى ﴾ أي كِلْهم إليّ فأنا كافيهم ﴿ والمكذبين ﴾ رؤساء قريش مفعول معه أو عطف على ﴿ ذَرْنِى ﴾ أي دعني وإياهم ﴿ أُوْلِى النعمة ﴾ التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة ﴿ وَمَهِّلْهُمْ ﴾ إمهالاً ﴿ قَلِيلاً ﴾ إلى يوم بدر أو إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا ﴾ للكافرين في الآخرة ﴿ أَنكَالاً ﴾ قيوداً ثقالاً جمع نِكْل ﴿ وَجَحِيماً ﴾ ناراً محرقة ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي الذي ينشب في الحلوق فلا ينساغ يعني الضريع والزقوم ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ يخلص وجعه إلى القلب .

ورُوي " أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق " وعن الحسن أنه أمسى صائماً

فأتي بطعام فعرضت له هذه الآية فقال : ارفعه .

ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البناني وغيره فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بما في ﴿ لَدَيْنَا ﴾ من معنى الفعل أي استقر للكفار لدينا كذا وكذا يوم ﴿ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ أي تتحرك حركة شديدة ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً ﴾ رملاً مجتمعاً من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول ﴿ مَّهِيلاً ﴾ سائلاً بعد اجتماعه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ رَسُولاً ﴾ يعني محمداً عليه السلام ﴿ شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ أي ذلك الرسول "إذ" النكرة وإذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ شديداً غليظاً .

(143/789)

وإنما خص موسى وفرعون لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة لأنهم كانوا جيران اليهود ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً ﴾ هو مفعول ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ أي كيف تتقون عذاب يوم كذا

إن كفرتم ؟ أو ظرف أي فكيف لكم التقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ؟ أو منصوب ب ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ على تأويل جحدتم أي كيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء لأن تقوى الله خوف عقابه ﴿ يَجْعَلُ الولدان ﴾ صفة ل ﴿ يَوْماً ﴾ والعائد محذوف أي فيه ﴿ شِيباً ﴾ من هوله وشدته وذلك حين يقال لآدم عليه السلام : قم فابعث بعث النار من ذريتك وهو جمع أشيب .

وقيل : هو على التمثيل للتهويل يقال لليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال .

﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً أي السماء على عظمها وإحكامها تنفطر به أي تنشق فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ والتذكير على تأويل السماء بالسقف أو السماء شيء منفطر ، وقوله ﴿ بِهِ ﴾ أي بيوم القيامة يعني أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول وهو اليوم ، أو إلى الفاعل وهو الله عز وجل ﴿ مَفْعُولاً ﴾ كائناً ﴿ إِنَّ هذه ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة ﴿ فَمَن شَاءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية .

(144/789)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى ﴾ أقل فاستعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك ﴿ مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ بضم اللام : سوى هشام ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ منصوبان عطف على ﴿ أدنى ﴾ مكي وكوفي ، ومن جرهما عطف على ﴿ مِن ثُلُثَيِ ﴾ ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ عطف على الضمير في ﴿ تَقُومُ ﴾ وجاز بلا توكيد لوجود الفاصل ﴿ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ أي ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده .

وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه ﴿ يقدر ﴾ هو الدال على أنه مختص بالتقدير ، ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم فنزل ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة وفي ذلك حرج ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فخفف عليكم وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿ فاقرءوا ﴾ في الصلاة والأمر للوجوب أو في غيرها والأمر للندب ﴿ مَا تَيَسَّرَ ﴾ عليكم ﴿ مِنَ القرءان ﴾ روى أبو حنيفة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : من قرأ مائة آية في ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائتي آية كتب من القانتين .

وقيل : أراد بالقرآن الصلاة لأنه بعض أركانها أي فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ، ثم بين الحكمة في النسخ وهي تعذر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ ﴾ أي

أنه مخففة من الثقيلة والسين بدل من تخفيفها وحذف اسمها ﴿ مَّرْضَى ﴾ فيشق عليهم قيام الليل .

(145/789)

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأرض ﴾ يسافرون ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ ﴿ مِن فَضْلِ الله ﴾ رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿ وَءاخَرُونَ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ سوّى بين المجاهد والمكتسب لأن كسب الحلال جهاد .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ المفروضة ﴿ وَءَاتُواْ الزكواة ﴾ الواجبة ﴿ وَأَقْرِضُواْ الله ﴾ بالنوافل .

والقرض لغة : القطع فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره ، وكذا المتصدق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى ، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما

تصدق به عليه وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة فلا يكون له عليه منة بل المنة للفقير عليه ﴿ قَرْضاً حَسَنًا ﴾ من الحلال بالاخلاص ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾ أي ثوابه وهو جزاء الشرط ﴿ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً ﴾ مما خلفتم وتركتم فالمفعول الثاني ل ﴿ تَجِدُوهُ ﴾ ﴿ خيراً ﴾ و ﴿ هُوَ ﴾ فصل.

وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعل من أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ وأجزل ثواباً ﴿ واستغفروا الله ﴾ من السيئات والتقصير في الحسنات ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يخفف عن أهل الجهد والتوفيق وهو على ما يشاء قدير، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 303.307 ﴾

(146/789)

وقال ابن جزى:

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾

نداء للنبي صلى الله عليه وسلم، ووزن المزمل متفعل فأصله متزمل. ثم سكنت التاء

وأدغمت في الزاي .

وفي تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بالمزمل ثلاثة أقوال ؛ أحدها أنه كان في وقت نزول الآية متزملاً في كساء أو لحاف ، والتزمل الالتفاف في الثياب بضم وتشمير ، هذا قول عائشة والجمهور ، والثاني أنه كان قد تزمل في ثيابه للصلاة ، الثالث أن معناه المتزمل للنبوّة أي المتشمر ، المجدّ في أمرها ، والأول هو الصحيح لما ورد في البخاري ومسلم " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع صلى الله عليه وسلم إلى خديجة ترعد فرائصه فقال : زملوني زملوني ، فنزلت يا أيها المدثر " ، وعلى هذا نزلت يا أيها المزمل على هذا تزمله من أجل الرعب الذي أصابه أول ما جاء جبريل . وقال الزمخشري : كان نائماً في قطيفة فنودي : يا أيها المزمل ، ليبين الله الحالة التي كان عليها من التزمل في القطيفة ، لأنه سبب للنوم الثقيل المانع من قيام الليل . وهذا القول بعيد غير سديد .

وقال السهيلي : في ندائه بالمزمل فائدتان : إحدهما الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : قم أبا تراب ، والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله ، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة .

﴿ قُمِ اليل ﴾ هذا الأمر بقيام الليل اختلف هل هو واجب أو مندوب ، فعلى القول بالندب فهو ثابت غير منسوخ ، وأما على القول بالوجوب ففيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه فرض على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ولم يزل فرضاً عليه حتى توفي ، الثاني أنه فرض عليه وعلى أمته فقاموا حتى انتفخت أقدامهم ، ثم نسخ بقوله في آخر السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ [المزمل : 20] الآية : وصار تطوعاً ، هذا قول عائشة رضي الله عنها وهو الصحيح ، واختلف كما بقي فرضاً فقالت عائشة : عاماً وقيل : ثمانية أشهر وقيل : عشرة أعوام فالآية الناسخة على هذا مدنية ، الثالث أنه فرض عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته وهو ثابت غير منسوخ ، ولكن ليس الليل كله إلا ما تيسر منه ، وهو مذهب الحسن وابن سيرين ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ في معنى هذا الكلام أربعة أقوال : الأول وهو الأشهر والأظهر أن الاستثناء من الليل ، وقوله نصفه بدل من الليل أو من قليلاً ، وجعل النصف قليلاً بالنسبة إلى الجميع والضميران في قوله : أو انقص منه ، أو زد عليه : عائدان على النصف . والمعنى أن الله خيَّره بين ثلاثة أحوال : وهو أن يقوم نصف الليل ، أو ينقص من النصف قليلاً أو يزد عليه . الثاني : قال الزمخشري : إلا قليلاً استثناء من النصف كأنه قال نصف الليل إلا قليلاً . فخيّره على هذا بين حالتين وهما أن يقوم أقل من النصف أو أكثر منه . وهذا ضعيف ، لأن قوله أو انقص

منه قليلاً تضمن معنى النقص من النصف فلا فائدة زائدة في استثناء القليل من النصف ، القول الثالث قاله الزمخشري أيضاً : يجوز أن يريد بقوله أو انقص منه قليلاً نصف النصف ، وهو الرابع ويكون الضمير في قوله ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ يعود على ذلك ، أي زد على الربع فيكون ثلثاً ، فيكون التخيير على هذا بين قيام النصف أو الثلث أو الربع ، وهذا ايضاً

(148/789)

بعيد ، القول الرابع قاله ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى إلا قليلاً الليالي التي يمنعه العذر من القيام فيها ، والمراد بالليل على هذا : الليالي ، فهو جنس . وهذا بعيد ، لأنه قد فسر هذا القليل المستثنى بما بعد ذلك من نصف الليل أو النقص منه أو الزيادة عليه ، فدل ذلك على أن المراد بالليل المستثنى بعض أجزاء الليل ، لا بعض الليالي ، إن قيل : لم قيد النقص من النصف بالقلة فقال : أو انقص منه قليلاً ، وأطلق في الزيادة فقال : أو زد عليه ، ولم يقل قليلاً ؟ فالجواب : أن الزيادة تحسن فيها الكثرة فلذلك لم يقيدها بالقلة بخلاف النقص ، فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيراً .

﴿ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ﴾ الترتيل هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف ، وذلك مُعينٌ على التفكر في معاني القرآن ، بخلاف الهذر الذي لا يفقه صاحبه ما يقول ، وكان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع قراءته حرفاً حرفاً ، ولا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمرّ بآية عذاب ، إلا وقف وتعوَّذ .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ هذه الآية اعتراض بين أية قيام الليل ، والقول الثقيل هو القرآن . واختلف في وصفه بالثقل على خمسة أقوال ؛ أحدها : أنه سمى ثقيلاً لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقاه من الشدة عند نزول الوحي عليه ، حتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وقد كان يثقل جسمه عليه الصلاة والسلام بذلك حتى إنه إذا أُوحي إليه وهو على ناقته بركت به ، وأوحي إليه وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد ، والثقل على هذا حقيقة ، الثاني أنه قيل على الكفار بإعجازه ووعيده ، الثالث أن ثقيل في الميزان ، الرابع أنه كلام له وزن ورجحان ، الخامس أنه ثقيل لما تضمن من التكاليف والأوامر والنواهي ، وهذا اختيار ابن عطية . وعلى هذا يناسب الاعتراض بهذه الآية ، قيام الليل لمشقته .

(149/789)

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ في الناشئة سبعة أقوال : الأول أنه النفس الناشئة بالليل ، أي التي تنشأ من مضجعها وتقوم للصلاة ، الثاني الجماعات الناشئة الذين يقومون للصلاة ، الثالث

العبادة الناشئة بالليل أي تحدث فيه ، الرابع الناشئة القيام بعد النوم فمن قام أول الليل قبل أن ينام فلم يقم ناشئة ، الخامس الناشئة القيام أو الليل بعد العشاء ، السادس الناشئة بعد المغرب والعشاء ، السابع ناشئة الليل ساعاته كلها ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ يحتمل معنيين أحدهما : أثقل وأصعب على المصلي ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم أشدد وطأتك على مضر " ، والأثقل أعظم أجراً ، فالمعنى تحريض على قيام الليل لكثرة الأجر . الثاني أشدّ ثبوتاً من أجل الخلوة وحضور الذهن والبعد عن الناس ، ويقرب هذا من معنى ﴿ أَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن عامر وِطاءَ بكسر الواو على وزن فِعال ومعناه موافقة . أي يوافق القلب اللسان بحضور الذهن .

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ السبح هنا عبارة عن التصرف في الاشتغال ، والمعنى : يكفيك النهار للتصرف في أشغالك وتفرغ بالليل لعبادة ربك ، وقيل : المعنى إن فاتك شيء من صلاة الليل فإدّهِ بالنهار فإنه طويل يسع ذلك ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ قيل : معناه قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، في أول صلاتك . واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أي انقطع إليه بالعبادة والتوكل عليه وحده . وقيل : التبتل رفض الدنيا . وتبتيلاً مصدر على غير قياس ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ الوكيل هو القائم بالأمور والذي توكل إليه الأشياء ، فهو أمر بالتوكل على الله .

﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ أي على ما يقول الكفار . والآية منسوخة بالسيف ، وقيل : إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله : ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ وأما الصبر فمأمور به في كل وقت ﴿ وَذَرْنِي والمكذبين ﴾ هذا تهديد لهم ، وانتصب المكذبين على أنه مفعول معه أو معطوف ﴿ وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة ﴾ أي التنعم في الدنيا ، وروي أن الآية نزلت في بني المغيرة وهم قوم من قريش كانوا متنعمين في الدنيا ﴿ أَنكَالاً ﴾ جمع نِكْل وهو القيد من الحديد . رُوي أنها قيود سود من نار ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ شجرة الزقوم ، ومعنى ذا غصة : أي يغُصُّ به آكلوه ، وقيل : هو شوك يعترض في حلقوهم لا ينزل ولا يخرج ، ورُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض ﴾ أي تهتز وتتزلزل والعامل في يوم معنى الكلام المتقدم وهو " إن لدينا أنكالاً " ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ الكثيب كدس الرمل ، والمهيل اللين الرخو ، الذي تهيله الريح أي تنشره وزنه مفعول ، والمعن أن الجبال تصير إذا نسفت يوم القيامة مثل الكثيب .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً ﴾ خطاب لجميع الناس ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة ، وقال الزمخشري : هو خطاب لأهل مكة ﴿ شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ أي يشهد على أعمالكم من الكفر والإيمان والطاعة والمعصية ، وإنما يشهد على من أدركه لقوله صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخي عيسى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا

دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة : 117] ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ يعني موسى عليه السلام وهو المراد بقوله : ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ فاللام للعهد ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ أي عظيماً شديداً .

(151/789)

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ (يوماً) مفعول به ، وناصبه تتقون أي : كيف تتقون يوم القيامة وأهواله إن كفرتم ، وقيل : هو مفعول به ، على أن يكون كفرتم بمعنى جحدتم ، وقيل ، هو ظرف ، أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوف تقديره : اذكروا قوله ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ ﴿ يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ الولدان جمع وليد وهو الطفل الصغير ، والشيب بكسر الشين جمع أشيب ووزنه فُعُل بضم الفاء وكسرت لأجل الياء ، ويجعل يحتمل أن يكون مسنداً إلى الله تعالى أو إلى اليوم ، والمعنى أن الأطفال يشيبون يوم القيامة ، فقيل : إن ذلك حقيقة ، وقيل : إنه عبارة عن هول ذلك اليوم ، وقيل : إنه عبارة عن طوله ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ الانفطار : الانشقاق ، والضمير المجرور يعود على اليوم ، أي : تنفطر السماء لشدة هوله ويحتمل أن يعود على الله أن تنفطر بأمره وقدرته . والأول أظهر ، والسماء مؤنثة ، وجاء منفطر بالتذكير لأن تأنيثها

غير حقيقة أو على الإضافة تقديره : ذات انفطار أو لأنه أراد السقف ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ الضمير في وعده يحتمل أن يعود على اليوم أو على الله والأول أظهر ؛ لأنه ملفوظ به ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المواعظ والوعيد ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ يريد سبيل التقرب إلى الله ، ومعنى الكلام حض على ذلك وترغيب فيه .

(152/789)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ هذه الآية نزلت ناسخة لما أمر به في أول السورة من قيام الليل ، ومعناه أن الله يعلم أنك ومن معك من المسلمين تقومون قياماً مختلفاً ، مرة يكثر ومرة يقل ، لأنكم لا تقدرون على إحصاء أوقات الليل وضبطها ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله فخفف عنكم وأمركم أن تقرأوا ما تيسر من القرآن ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ من قرأها بالخفض فهو عطف على ثلثي الليل ، أي تقوم أقل من ثلثي الليل واقل من نصفه وثلثه ، ومن قرأ بالنصب فهو عطف على أدنى أي تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه تارة وثلثه تارة ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ يعني المسلمين وهو معطوف على الضمير الفاعل في تقوم ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ الضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام ، أي لن تحصوا تقدير الليل ، وقيل : معناه لن تطيقوه أي : لن تطيقوا قيام الليل كله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ عبارة عن

التخفيف كقوله : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المجادلة : 13] ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ أي إذا لم تقدروا على قيام الليل كله ، فقوموا بعضه ، واقرأوا في صلاتكم بالليل ما تيسر من القرآن ، وهذا الأمر للندب ، وقال ابن عطية : هو للإباحة عند الجمهور .

(153/789)

وقال قوم منهم الحسن وابن سيرين : هو فرض لا بد منه ولو أقل ما يمكن ، حتى قال بعضهم : من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر ، وقيل : كان فرضاً ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وقال بعضهم : هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ ذكر الله في هذه الآية الأعذار التي تكون لبني آدم تمنعهم من قيام الليل ، فمنها المرض ومنها السفر للتجارة وهي الضرب في الأرض لابتغاء فضل الله ومنها الجهاد ، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر ، تأكيداً للأمر به أو تأكيداً للتخفيف وهذا أظهر لأنه ذكره بأثر الأعذار ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة ﴾ يعني المكتوبتين ﴿ وَأَقْرِضُواْ الله ﴾ معناه تصدقوا ، وقد ذكر في [البقرة : 45] ﴿ هُوَ خَيْراً ﴾ نصب خيراً لأنه مفعول ثان لتجدوه والضمير فصل ﴿ واستغفروا الله ﴾ قال بعض العلماء إن الاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية "

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 159.156 ﴾

(154/789)

وقال البيضاوى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية ، وآيها تسع عشرة أو عشرون

بسم الله الرحيم الرحيم

﴿ يا أيها المزمل ﴾

أصله المتزمل من تزمل بثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاي وقد قرىء به ، وب "المزمل " مفتوحة الميم ومكسورتها أي زمله غيره ، أو زمل نفسه ، سمي به النبي عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً ، أو مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي متزملاً في قطيفة أو تحسيناً له . " إذ روي : أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلففاً بمرط مفروش على عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت " أو تشبيهاً له في تثاقله بالمتزمل لأنه لم يتمرن بعد في قيام الليل ، أو من تزمل الزمل إذا تحمل الحمل أي الذي تحمل أعباء النبوة .

﴿ قُمِ اليل ﴾ أي قم إلى الصلاة ، أو داوم عليها فيه ، وقرىء بضم الميم وفتحها للإتباع أو التخفيف . ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

﴿ نّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ الاستثناء ﴿ مّنَ اليل ﴾ و ﴿ نّصْفَهُ ﴾ بدل من ﴿ قَلِيلاً ﴾ وقلته بالنسبة إلى الكل ، والتخيير بين قيام النصف والزائد عليه كالثلثين والناقص عنه كالثلث ، أو ﴿ نّصْفَهُ ﴾ بدل من ﴿ اليل ﴾ والاستثناء منه والضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ للأقل من النصف كالثلث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالربع ، والأكثر منه كالنصف أو للنصف والتخيير بين أن يقوم أقل منه على البت وأن يختار أحد الأمرين من الأقل والأكثر ، أو الاستثناء من إعداد الليل فإنه عام والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه الزائد عليه . ﴿ وَرَتّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ اقرأه على تؤدة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من عدها من قوله ثغر رتل ورتل إذا كان مفلجاً .

(155/789)

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ يعني القرآن فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته ، والجملة اعتراض يسهل التكليف عليه بالتهجد ، ويدل على أنه مشق مضاد للطبع مخالف

للنفس ، أو رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه ، أو ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر ، أو ثقيل في الميزان أو على الكفار والفجار ، أو ثقيل تلقيه لقوله عائشة رضي الله تعالى عنها : رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً . وعلى هذا يجوز أن يكون صفة للمصدر والجملة على هذه الأوجه للتعليل مستأنف ، فإن التهجد يعد للنفس ما به تعالج ثقله .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ إن النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام قال :

نَشَأْنَا إِلَى خَوْصٍ بَرَانِيهَا السُّرَى . . . وَأَلْصِقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ القَمَاحِدِ

أو قيام الليل على أن ال ﴿ نَاشِئَةَ ﴾ له أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث ، أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى ، أو ساعاتها الأول من نشأت إذا ابتدأت . ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي كلفة أو ثبات قدم ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وطاء بكسر الواو وألف ممدودة أي مواطأة القلب اللسان لها ، أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والإخلاص . ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي وأسد مقالاً أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات .

﴿ إِنَّ لَكَ فِى النهار سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ تقلباً في مهماتك واشتغالاً بها فعليك بالتهجد ، فإن

مناجاة الحق تستدعي فراغاً . وقرىء "سبخاً" أي تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه .

(156/789)

﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ ودم على ذكره ليلاً ونهاراً ، وذكر الله يتناول كل ما يذكر به تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم . ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه ، ولهذه الرمزة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلاً .

﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ خبره : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفص ويعقوب بالجر على البدل من ربك ، وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ . ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ مسبب عن التهليل ، فإن توحده بالألوهية يقتضي أن توكل إليه الأمور .

﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من الخرافات . ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ بأن تجانبهن وتداريهم ولا تكافئهم وتكل أمرهم إلى الله فالله يكفيكهم كما قال :

﴿ وَذَرْنِى والمكذبين ﴾ دعني وإياهم وكل أمرهم فإن بي غنية عنك في مجازاتهم . ﴿

أُوْلِي النعمة ﴾ أرباب التنعم ، يريد صناديد قريش . ﴿ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ زماناً أو إمهالاً .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ تعليل للأمر ، والنكل القيد الثقيل . ﴿ وَجَحِيماً ﴾ .

﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ طعاماً ينشب في الحلق كالضريع والزقوم . ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله تعالى ، ولما كانت العقوبات الأربع مما تشترك فيها الأشباح والأرواح فإن النفوس العاصية المنهمكة في الشهوات تبقى مقيدة بحبها والتعلق بها عن التخلص إلى عالم المجردات متحرقة بحرقة الفرقة متجرعة غصة الهجران معذبة بالحرمان عن تجلي أنوار القدس ، فسر العذاب بالحرمان عن لقاء الله تعالى .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ تضطرب وتتزلزل ظرف لما في ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ من معنى الفعل .

﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً ﴾ رملاً مجتمعاً كأنه فعيل بمعنى مفعول من كثبت الشيء إذا جمعته . ﴿ مَّهِيلاً ﴾ منثوراً من هيل هيلاً إذا نثر .

(157/789)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً ﴾ يا أهل مكة . ﴿ شاهدا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالإجابة والامتناع . ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ يعني موسى عليه الصلاة

والسلام ولم يعينه لأن المقصود لم يتعلق به .

﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ عرفه لسبق ذكره . ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ ثقيلاً من قولهم طعام وبيل لا يستمرأ لثقله ، ومنه الوابل للمطر العظيم .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم . ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ بقيتم على الكفر . ﴿ يَوْماً ﴾ عذاب يوم . ﴿ يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ من شدة هوله وهذا على الفرض أو التمثيل ، وأصله أن الهموم تضعف القوى وتسرع الشيب ، ويجوز أن يكون وصفاً لليوم بالطول .

﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ ﴾ منشق والتذكير على تأويل السقف أو إضمار شيء . ﴿ بِهِ ﴾ بشدة ذلك اليوم على عظمها وأحكامها فضلاً عن غيرها والباء للآلة . ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ الضمير لله عز وجل أو لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول .

﴿ إِنَّ هذه ﴾ أي الآيات الموعدة . ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ عظة . ﴿ فَمَن شَاءَ ﴾ أن يتعظ . ﴿ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي يتقرب إليه بسلوك التقوى .

(158/789)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ اليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ استعار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعداً منه ، وقرأ ابن كثير والكوفيون ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ بالنصب

عطفاً على ﴿ أدنى ﴾ . ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك . ﴿ والله يُقَدِّرُ اليل والنهار ﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى ، فإن تقديم اسمه مبتدأ مبنياً عليه ﴿ يُقَدِّرُ ﴾ يشعر بالاختصاص ويؤيده قوله : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي لن تحصوا تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات . ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالترخص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة فيه كما رفع التبعة عن التائب . ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل ، عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها ، قيل كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به ، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ، أو فاقرؤوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم . ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ استئناف يبين حكمه أخرى مقتضية الترخيص والتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً عليه وقال : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله ﴾ والضرب في الأرض ابتغاء للفضل المسافرة للتجارة وتحصيل العلم ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ المفروضة . ﴿ وَآتُواْ الزكوة ﴾ الواجبة . ﴿ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ يريد به الأمر في سائر الانفاقات في سبل الخيرات ، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه ، والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به في قوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت أو من متاع الدنيا ، و ﴿

خَيْرًا ﴾ ثاني مفعولي ﴿ تَجِدُوهُ ﴾ وهو تأكيد أو فصل ، لأن أفعل من كالمعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف ، وقرىء "هو خير" على الابتداء والخبر . ﴿ واستغفروا الله ﴾ في مجامع أحوالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفريط . ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة المزمل رفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 404. 409 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أيها المزمل ﴾

قالت عائشة والنخعي وجماعة : ونودي بذلك لأنه كان في وقت نزول الآية متزملاً

بكساء .

وقال قتادة : كان تزمل في ثيابه للصلاة واستعد .

فنودي على معنى : يا أيها المستعد للعبادة .

وقال عكرمة : معناه المزمل للنبوة وأعبائها ، أي المشمر المجد ، فعلى هذا يكون التزمل مجازاً ، وعلى ما سبق يكون حقيقة .

وما رووا أن عائشة رضي الله عنها سئلت : ما كان تزميله ؟ قالت : كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً ، نصفه عليّ وأنا نائمة ، ونصفه عليه ، إلى آخر الرواية ؛ كذب صراح ، لأن نزول ﴿ يا أيها المزمل ﴾ بمكة في أوائل مبعثة ، وتزويجه عائشة كان بالمدينة .

ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن في آخر ما قبلها ﴿ عالم الغيب ﴾ الآيات ، فأتبعه بقوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ، إعلاماً بأنه (صلى الله عليه وسلم) ممن ارتضاه من الرسل وخصه بخصائص وكفاه شر أعدائه .

وقرأ الجمهور : ﴿ المزمل ﴾ ، بشد الزاي وكسر الميم ، أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي .

وقرأ أبي : المتزمل على الأصل ؛ وعكرمة : بتخفيف الزاي .

أي المزمل جسمه أو نفسه .

وقرأ بعض السلف : بتخفيف الزاي وفتح الميم ، أي الذي لف .

وللزمخشري في كيفية نداء الله له بهذا الوصف كلام ضربت عن ذكره صفحاً ، فلم أذكره في كتابي .

وقال السهيلي : ليس المزمل باسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام يعرف به ، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب ، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب تترك المعاتبة نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لعليّ كرم الله وجهه وقد نام ولصق بجنبه التراب : " قم أبا تراب " ، إشعاراً بأنه ملاطف له ، فقوله : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ فيه تأنيس وملاطفة .

وقرأ الجمهور : ﴿ قم الليل ﴾ ، بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين ؛ وأبو السمال : بضمها اتباعا للحركة من القاف .

وقرىء : بفتحها طلباً للتخفيف .

(161/789)

قال ابن جني : الغرض بالحركة الهروب من التقاء الساكنين ، فبأي حركة تحرك الحرف حصل الغرض ، وقم طلب .

فقال الجمهور : هو على جهة الندب ، وقيل : كان فرضاً على الرسول خاصة ، وقيل :

عليه وعلى الجميع .

قال قتادة : ودام عاماً أو عامين .

وقالت عائشة : ثمانية أشهر ، ثم رحمهم الله نزلت : ﴿ إن ربك يعلم ﴾ الآيات ، فخفف عنهم ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ .

بين الاستثناء أن القيام المأمور به يستغرق جميع الليل ، ولذلك صح الاستثناء منه ، إذ لو كان غير مستغرق ، لم يصح الاستثناء منه ، واستغراق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن ، لذلك استثنى منه لراحة الجسد ؛ وهذا عند البصريين منصوب على الظرف ، وإن استغرقه الفعل ؛ وهو عند الكوفيين مفعول به .

وفي قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ دليل على أن المستثنى قد يكون مبهم المقدار ، كقوله : ﴿ ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ في قراءة من نصب ﴿ ثم توليتم إلا قليلاً منكم ﴾ قال وهب بن منبه : القليل ما دون المعشار والسدس .

وقال الكلبي ومقاتل : الثلث .

وقيل : ما دون النصف ، وجوزوا في نصفه أن يكون بدلاً من الليل ومن قليلاً .

فإذا كان بدلاً من الليل ، كان الاستثناء منه ، وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلاً منه .

والضمير في منه وعليه عائد على النصف ، فيصير المعنى : قم نصف الليل إلا قليلاً ، أو انقص من نصف الليل قليلاً ، أو زد على نصف الليل ، فيكون قوله : أو انقص من نصف

الليل قليلاً ، تكراراً لقوله : إلا قليلاً من نصف الليل ، وذلك تركيب غير فصيح ينزه القرآن عنه .

قال الزمخشري : نصفه بدل من الليل ، وإلا قليلاً استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل .

والضمير في منه وعليه للنصف ، والمعنى : التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين ، وهما النقصان من النصف والزيادة عليه . انتهى .

(162/789)

فلم يتنبه للتكرار الذي يلزمه في هذا القول ، لأنه على تقديره : قم أقل من نصف الليل كان قوله ، أو انقص من نصف الليل تكراراً .

وإذا كان ﴿ نصفه ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ ، فالضمير في نصفه إما أن يعود على المبدل منه ، أو على المستثنى منه وهو الليل ، لا جائز أن يعود على المبدل منه ، لأنه يصير استثناء مجهول من مجهول ، إذ التقدير إلا قليلاً نصف القليل ، وهذا لا يصح له معنى البتة .

وإن عاد الضمير على الليل ، فلا فائدة في الاستثناء من الليل ، إذ كان يكون أخصر

وأوضح وأبعد عن الإلباس أن يكون التركيب قم الليل نصفه .

وقد أبطلنا قول من قال : إلا قليلاً استثناء من البدل وهو نصفه ، وأن التقدير : قم الليل نصفه إلا قليلاً منه ، أي من النصف .

وأيضاً ففي دعوى أن نصفه بدل من إلا قليًلا ، والضمير في نصفه عائد على الليل ، إطلاق القليل على النصف ، ويلزم أيضاً أن يصير التقدير : إلا نصفه فلا تقمه ، أو انقص من النصف الذي لا تقومه ، أو زد عليه النصف الذي لا تقومه ، وهذا معنى لا يصح ، وليس المراد من الآية قطعاً .

وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت نصفه بدلاً من قليلاً ، وكان تخييراً بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ؛ وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل .

وإن شئت قلت : لما كان معنى ﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه ﴾ : إذا أبدلت النصف من الليل ، قم أقل من نصف الليل ، رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل ، وقم أنقص من ذلك إلا قل أو أزيد منه قليلاً ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث ، ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلاً وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع ، كأنه قيل : أو انقص منه قليلاً نصفه ، وتجعل المزيد على هذا القليل ، أعني الربع نصف الربع ، كأنه قيل : أو زد عليه قليلاً نصفه .

ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث ، فيكون تخييراً بين النصف والثلث والربع . انتهى .

وما أوسع خيال هذا الرجل ، فإنه يجوز ما يقرب وما يبعد ، والقرآن لا ينبغي ، بل لا يجوز أن يحمل إلا على أحسن الوجوه التي تأتي في كلام العرب ، كما ذكرناه في خطبة هذا الكتاب .

وممن نص على جواز أن يكون نصفه بدلاً من الليل أو من قليلاً الزمخشري ، كما ذكرنا عنه .

وابن عطية أورده مورد الاحتمال ، وأبو البقاء ، وقال : أشبه بظاهر الآية أن يكون بدلاً من قليلاً ، أو زد عليه ، والهاء فيهما للنصف .

فلو كان الاستثناء من النصف لصار التقدير : قم نصف الليل إلا قليلاً ، أو انقص منه قليلاً .

والقليل المستثنى غير مقدر ، فالنقصان منه لا يتحصل . انتهى .

وأما الحوفي فأجاز أن يكون بدلاً من الليل ، ولم يذكر غيره .

قال ابن عطية : وقد يحتمل عندي قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أنه استثناء من القيام ، فيجعل

الليل اسم جنس .

ثم قال : ﴿ إلا قليلاً ﴾ ، أي الليالي التي تخل بقيامها عند العذر البين ونحوه ، وهذا النظر يحسن مع القول بالندب .

انتهى ، وهذا خلاف الظاهر .

وقيل : المعنى أو نصفه ، كما تقول : أعطه درهماً درهمين ثلاثة ، تريد : أو درهمين ، أو ثلاثة .

انتهى ، وفيه حذف حرف العطف من غير دليل عليه .

وقال التبريزي : الأمر بالقيام والتخيير في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين من آخر الليل ، لأن الثلث الأول وقت العتمة ، والاستثناء وارد على المأمور به ، فكأنه قال : قم ثلثي الليل إلا قليلاً ، ثم جعل نصفه بدلاً من قليلاً ، فصار القليل مفسراً بالنصف من الثلثين ، وهو قليل من الكل .

فقوله : ﴿ أو نقص منه ﴾ : أي من المأمور به ، وهو قيام الثلث ، ﴿ قليلاً ﴾ : أي ما دون نصفه ، ﴿ أو زد عليه ﴾ ، أي على الثلثين ، فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين .

وقال أبو عبد الله الرازي : قد أكثر الناس في تفسيره هذه الآية ، وعندي فيه وجهان ملخصان ، وذكر كلاماً طويلاً ملفقاً يوقف عليه من كتابه .

وتقدّم تفسير الترتيل في آخر الإسراء .

﴿ قولاً ثقيلاً ﴾ : هو القرآن ، وثقله بما اشتمل عليه من التكاليف الشاقة ، كالجهاد ومداومة الأعمال الصالحة .

قال الحسن : إن الهذ خفيف ، ولكن العمل ثقيل .

وقال أبو العالية : والقرطبي : ثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده .

وقيل : ثقله ما كان يحل بجسمه (صلى الله عليه وسلم) حالة تلقيه الوحي ، حتى كانت ناقته تبرك به ذلك الوقت ، وحتى كادت رأسه الكريمة أن ترض فخذ زيد بن ثابت .

وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساني .

قال ابن عباس : كلاماً عظيماً .

وقيل : ثقيل في الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى العمل به .

وقيل : كناية عن بقائه على وجه الدهر ، لأن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ ، قال ابن عمر وأنس ابن مالك وعليّ بن الحسين : هي ما بين المغرب والعشاء .

وقالت عائشة ومجاهد : هي القيام بعد اليوم ، ومن قام أول الليل قبل اليوم ، فلم يقم ناشئة الليل .

وقال ابن جبير وابن زيد : هي لفظة حبشية ، نشأ الرجل : قام من الليل ، فناشئة على هذا جمع ناشىء ، أي قائم .

وقال ابن جبير وابن زيد أيضاً وجماعة : ناشئة الليل : ساعاته ، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء .

وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن وأبو مجلز : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة ، وما كان قبلها فليس بناشئة .

قال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل ، وقال هو وابن الزبير : الليل كله ناشئة .

وقال الكسائي : ناشئة الليل أوله .

وقال الزمخشري : ناشئة الليل : النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، ونشأ من مكانه ونشر إذا نهض .

قال الشاعر :

نشأنا إلى خوص برى فيها السرى . . .

وألصق منها مشرفات القماحد

أو : قيام الليل ، على أن الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعله كالعاقبة .

انتهى .

وقرأ الجمهور : وطاء بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً .

وقرأ قتادة وشبل ، عن أهل مكة : بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة .

وقرأ ابن محيصن : بفتح الواو ممدوداً ، والمعنى أنها أشد مواطأة ، أي يواطىء القلب فيها اللسان ، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص .

ومن قرأ ﴿ وطأ ﴾ : أي أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل ، أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ، كما جاء : "اللهم اشدد وطأتك على مضر" .

وقال الأخفش : أشد قياماً .

وقال الفراء : أثبت قراءة وقياماً .

وقال الكلبي : أشد نشاطاً للمصلي لأنه في زمان راحته .

وقيل : أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ ، فالعبادة تدوم .

﴿ وأقوم قيلاً ﴾ : أي أشد استقامة على الصواب ، لأن الأصوات هادئة فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه .

قال قتادة ومجاهد : أصوب للقراءة وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم .

وقال عكرمة : أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة .

وحكى ابن شجرة : أعجل إجابة للدعاء .

وقال زيد بن أسلم : أجدر أن يتفقه فيها القارىء .

وقرأ الجمهور : ﴿ سبحاً ﴾ : أي تصرّفاً وتقلباً في المهمات ، كما يتردّد السابح في الماء .

قال الشاعر :

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها . . .

ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وقيل : سبحاً سبحة ، أي نافلة .

وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة : سبخاً بالخاء المنقوطة ومعناه : خفة من التكاليف ، والتسبيخ : التخفيف ، وهو استعارة من سبخ الصوف إذا نفشه ونشر أجزاءه ، فمعناه : انتشار الهمة وتفرّق الخاطر بالشواغل .

وقيل : فراغاً وسعة لنومك وتصرّفك في حوائجك .

وقيل : المعنى إن فات حزب الليل بنوم أو عذر .

فليخلف بالنهار ، فإن فيه سبحاً طويلاً .

قال صاحب اللوامح : وفسر ابن يعمر وعكرمة سبخاً بالخاء معجمة .

وقال : نوماً ، أي تنام بالنهار لتستعين به على قيام الليل .

(166/789)

وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى ، لكنهما فسراها ، فلا يجاوز عنه . انتهى .

وفي الحديث : " لا تسبخي بدعائك " ، أي لا تخففي .

وقال الشاعر :

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه . . .

إذا قدّر الرحمن شيئاً فكائن

وقال الأصمعي : يقال سبح الله عنك الحمى ، أي خففها .

وقيل : السبخ : المد ، يقال : سبخي قطنك : أي مديه ، ويقال لقطع القطن سبائخ ، الواحدة سبيخة ، ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما . . .

يذري سبائخ قطن ندف أوتار

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ : أي دم على ذكره ، وهو يتناول كل ذكر من تسبيح وتهليل

وغيرهما ، وانتصب ﴿ تبتيلاً ﴾ على أنه مصدر على غير الصدر ، وحسن ذلك كونه فاصلة .

وقرأ الأخوان وابن عامر وأبو بكر ويعقوب : رب بالخفض على البدل من ربك ؛ وباقي السبعة : بالرفع ؛ وزيد بن عليّ : بالنصب ؛ والجمهور : المشرق والمغرب موحدين ؛ وعبد الله وأصحابه وابن عباس : بجمعهما .

وقال الزمخشري ، وعن ابن عباس : على القسم ، يعني : خفض رب بإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه : لا إله إلا هو ، كما تقول : والله لا أحد في الدار إلا زيد . انتهى .

ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس ، إذ فيه إضمار الجار في القسم ، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الله ، ولا يقاس عليه .

ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية فلا تنفيء إلا بما وحدها ، ولا تنفي بلا إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً وبماض في معناه قليلاً ، نحو قول الشاعر :

ردوا فوالله لا زرناكم أبدا . . .

ما دام في مائنا ورد لوراّد

والزمخشري أورد ذلك على سبيل التجويز والتسليم ، والذي ذكره النحويون هو نفيها بما نحو قوله :

لعمرك ما سعد بخلة آثم . . .

ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر

﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ ، لأن من انفرد بالألوهية لم يتخذ وكيلاً إلا هو .

﴿ واصبر ﴾ ، ﴿ واهجرهم ﴾ : قيل منسوخ بآية السيف .

(167/789)

﴿ وذرني والمكذبين ﴾ : قيل نزلت في صناديد قريش ، وقيل : في المطعمين يوم بدر ، وتقدّمت أسماؤهم في سورة الأنفال ، وتقدّم شرح مثل هذا في ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ ﴿ أولي النعمة ﴾ : أي غضارة العيش وكثرة المال والولد ، والنعمة بالفتح : التنعم ، وبالكسر : الأنعام وما ينعم به ، وبالضم : المسرّة ، يقال : نعم ونعمة عين .

﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ : وعيد لهم بسرعة الانتقام منهم ، والقليل : موافاة آجالهم .

وقيل : وقعة بدر .

﴿ إن لدينا ﴾ : أي ما يضاد نعمتهم ، ﴿ أنكالاً ﴾ : قيوداً في أرجلهم .

قال الشعبي : لم تجعل في أرجلهم خوفاً من هروبهم ، ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استقلت بهم .

وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال ، والأول أعرف في اللغة ، ومنه قول الخنساء :

دعاك فقطعت أنكاله . . .

وقد كن قبلك لا تقطع

﴿ وجحيماً ﴾ : ناراً شديدة الايقاد .

﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ ، قال ابن عباس : شوك من نار يعترض في حلوقهم ، لا يخرج ولا ينزل .

وقال مجاهد وغيره : شجرة الزقوم .

وقيل : الضريع وشجرة الزقوم .

﴿ يوم ﴾ منصوب بالعامل في الدنيا ، وقيل : بذرني ، ﴿ ترجف ﴾ : تضطرب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ترجف ﴾ بفتح التاء مبنياً للفاعل ؛ وزيد بن علي : بضمها مبنياً للمفعول ، ﴿ كثيباً ﴾ : أي رملاً مجتمعاً ، ﴿ مهيلاً ﴾ : أي رخواً ليناً .

قيل : ويقال : مهيل ومهيول ، وكيل ومكيول ، ومدين ومديون ، الإتمام في ذوات الياء لغة تميم ، والحذف لأكثر العرب .

ولما هدد المكذبين بأهوال القيامة ، ذكرهم بحال فرعون وكيف أخذه الله تعالى ، إذ كذب موسى عليه السلام ، وأنه إن دام تكذيبهم أهلكهم الله تعالى فقال : ﴿ إنا أرسلنا إليكم ﴾ ، والخطاب عام للأسود والأحمر .

وقيل : لأهل مكة ، ﴿ رسولاً شاهداً عليكم ﴾ ، كما قال : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلآء ﴾ وشبه إرساله إلى أهل مكة بإرسال موسى إلى فرعون على التعيين ، لأن كلاً منهما ربا في قومه واستحقروا بهما ، وكان عندهم علم بما جرى من غرق فرعون ، فناسب أن يشبه الإرسال بالإرسال .

وقيل : الرسول بلام التعريف ، لأنه تقدم ذكره فأحيل عليه .

كما تقول : لقيت رجلاً فضربت الرجل ، لأن المضروب هو الملقى ، والوبيل : الرديء العقبى ، من قولهم : كلأ وبيل : أي وخيم لا يستمرأ لثقله ، أي لا ينزل في المريء .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17)

﴿ يوماً ﴾ منصوب بتتقون ، منصوب نصب المفعول به على المجاز ، أي كيف تستقبلون هذا اليوم العظيم الذي من شأنه كذا وكذا ؟ والضمير في ﴿ يجعل ﴾ لليوم ، أسند إليه الجعل لما كان واقعاً له على سبيل المجاز .

وقال الزمخشري : ﴿ يوماً ﴾ مفعول به ، أي فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً ؟ انتهى .

وتتقون مضارع اتقى ، واتقى ليس بمعنى وقى حتى يفسره به ، واتقى يتعدى إلى واحد ، ووقى يتعدى إلى اثنين .

قال تعالى : ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ ، ولذلك قدره الزمخشري : تقون أنفسكم يوم القيامة ، لكنه ليس تتقون بمعنى تقون ، فلا يتعدى بعديته ، ودس في قوله : ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً الاعتزال .

قال : ويجوز أن يكون ظرفاً ، أي فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ؟ قال : ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة ؟ والجزاء لأن تقوى الله خوف عقابه . انتهى .

(169/789)

وقرأ الجمهور : ﴿ يوماً ﴾ منوناً ، ﴿ يجعل ﴾ بالياء ؛ والجملة من قوله : ﴿ يجعل ﴾ صفة ليوم ، فإن كان الضمير في ﴿ يجعل ﴾ عائداً على اليوم فواضح وهو الظاهر ؛ وإن عاد على الله ، كما قال بعضهم ، فلا بد من حذف ضمير يعود إلى اليوم ، أي يجعل فيه كقوله : ﴿ يوماً لا تجزي نفس ﴾ .

وقرأ زيد بن عليّ : بغير تنوين : نجعل بالنون ، فالظرف مضاف إلى الجملة ، والشيب مفعول

ثان ليجعل ، أي يصير الصبيان شيوخاً ، وهو كناية عن شدة ذلك اليوم .

ويقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال ، والأصل فيه أن الهموم إذا تفاقمت أسرعت بالشيب .

قال المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة . . .

ويشيب ناصية الصبي ويهرم

وقال قوم : ذلك حقيقة تشيب رؤوسهم من شدة الهول ، كما قد يرى الشيب في الدنيا من الهم المفرط ، كهول البحر ونحوه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الاطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة .

وقال السدي : الولدان : أولاد الزنا .

وقيل : أولاد المشركين ، والظاهر العموم ، أي يشيب الصغير من غير كبر ، وذلك حين يقال لآدم : يا آدم قم فابعث بعث النار .

وقيل : هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق .

﴿ السماء منفطر به ﴾ ، قال الفراء : يعني المظلة تذكر وتؤنث ، فجاء منفطر على التذكير ، ومنه قول الشاعر :

فلو رفع السماء إليه قوم . . .

لحقنا بالسماء وبالسحاب

وعلى القول بالتأنيث ، فقال أبو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ، وأعجاز نخل منقعر .

انتهى ، يعني أنها من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث وأن مفرده سماء ، واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث ، فجاء منفطر على التذكير .

وقال أبو عمرو بن العلاء ، وأبو عبيدة والكسائي ، وتبعهم القاضي منذر بن سعيد : مجازها السقف ، فجاء عليه منفطر ، ولم يقل منفطرة .

(170/789)

وقال أبو علي أيضاً : التقدير ذات انفطار كقولهم : امرأة مرضع ، أي ذات رضاع ، فجرى على طريق التسبب .

وقال الزمخشري : أو السماء شيء منفطر ، فجعل منفطر صفة لخبر محذوف مقدر بمذكر وهو شيء ، والانفطار : التصدع والانشقاق ؛ والضمير في به الظاهر أنه يعود على اليوم ، والباء للسبب ، أي بسبب شدة ذلك اليوم ، أو ظرفية ، أي فيه .

وقال مجاهد : يعود على الله ، أي بأمره وسلطانه .

والظاهر أن الضمير في ﴿ وعده ﴾ عائد على اليوم ، فهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي أنه تعالى وعد عباده هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، فلا بد من إنجازه .

ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى ، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل ، وإن لم يجر له ذكر قريب ، لأنه معلوم أن الذي هذه مواعيده هو الله تعالى .

﴿ إن هذه ﴾ : أي السورة ، أو الأنكال وما عطف عليه ، والأخذ الوبيل ، أو آيات القرآن المتضمنة شدة القيامة ، ﴿ تذكرة ﴾ : أي موعظة ، ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ بالتقرب إليه بالطاعة ، ومفعول شاء محذوف يدل عليه الشرط ، لأن من شرطية ، أي فمن شاء أن يتخذ سبيلاً اتخذه إلى ربه ، وليست المشيئة هنا على معنى الإباحة ، بل تتضمن معنى الوعد والوعيد .

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ : تصلي ، كقوله : ﴿ قم الليل ﴾ .

لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبر به عنها ، وهذه الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمرار استعماله من أمر قيام الليل ، إما على الوجوب ، وإما على الندب ، على الخلاف الذي سبق ؛ ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ : أي زماناً هو أقل من ثلثي الليل ، واستعير الأدنى ، وهو الأقرب للأول ، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ من ثلثي ﴾ بضم اللام ؛ والحسن وشيبة وأبو حيوة وابن السميفع وهشام وابن مجاهد ، عن قنبل فيما ذكر صاحب الكامل : بإسكانها ، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب اللوامح .

(171/789)

وقرأ العربيان ونافع : ونصفه وثلثه ، بجرهما عطفاً على ﴿ ثلثي الليل ﴾ ؛ وباقي السبعة وزيد بن علي : بالنصب عطفاً على ﴿ أدنى ﴾ ، لأنه منصوب على الظرف ، أي وقتاً أدنى من ثلثي الليل .

فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أول السورة ، لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ ، لأن الزمان الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين ، فيصدق عليه قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ .

وأما قوله : ﴿ ونصفه ﴾ فهو مطابق لقوله أولاً : ﴿ نصفه ﴾ .

وأما ثلثه فإن قوله : ﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل .

وأما قوله : ﴿ أو زد عليه ﴾ ، فإنه إذا زاد على النصف قليلاً ، كان الوقت أقل من الثلثين

، فيكون قد طابق قوله : ﴿ أدنى من ثلثي الليل ﴾ ، ويكون قوله تعالى : ﴿ نصفه أو انقص منه قليلاً ﴾ شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله : ﴿ قم الليل إلا قليلاً ﴾ ، وعلى قراءة النصب .

قال الحسن وابن جبير : معنى تحصوه : تطيقوه ، أي قدر تعالى أنهم يقدرون الزمان على ما مر في أول السورة ، فلم يطيقوا قيامه لكثرته وشدته ، فخفف تعالى عنهم فضلاً منه ، لا لعلة جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات .

وأما قراءة الجر ، فالمعنى أنه قيام مختلف ؛ مرة أدنى من الثلثين ، ومرة أدنى من النصف ، ومرة أدنى من الثلث ، وذلك لتعذر معرته البشر مقادير الزمان مع عذر النوم .

وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى ، والبشر لا يحصون ذلك ، أي لا يطيقون مقادير ذلك ، فتاب عليهم ، أي رجع بهم من الثقل إلى الخفة وأمرهم بقيام ما تيسر .

وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم ، لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة قاموا أدنى من الثلثين ونصفاً وثلثاً ، وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث ، فلا تنافي بين القراءتين .

(172/789)

وقرأ الجمهور : ﴿ وثلثه ﴾ بضم اللام ؛ وابن كثير في رواية شبل : بإسكانها ؛ وطائفة : معطوف على الضمير المستكن في ﴿ تقوم ﴾ ، وحسنة الفصل بينهما .

وقوله : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع ، إذ لو كان فرضاً ، لكان التركيب : والذين معك ، إلا إن اعتقد أنهم كان منهم من يقوم في بيته ، ومنهم من يقوم معه ، فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع .

﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ : أي هو وحده تعالى العالم بمقادير الساعات .

قال الزمخشري : وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير . انتهى .

وهذا مذهبه ، وإنما استفيد الاختصاص من سياق الكلام لا من تقديم المبتدأ .

لو قلت : زيد يحفظ القرآن أو يتفقه في كتاب سيبويه ، لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص .

وأن مخففة من الثقيلة ، والضمير في ﴿ نحصوه ﴾ ، الظاهر أنه عائد على المصدر المفهوم من يقدر ، أي أن لن تحصوا تقدير ساعات الليل والنهار ، لا تحيطوا بها على الحقيقة .

وقيل : الضمير يعود على القيام المفهوم من قوله : ﴿ فتاب عليكم ﴾ .

قيل : فيه دليل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به .

وقيل : رجع بكم من ثقل إلى خف ، ومن عسر إلى عسر ، ورخص لكم في ترك القيام

المقدر .

﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾ : عبر بالقراءة عن الصلاة لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود ، أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل .

وقيل : وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخاً جميعاً بالصلوات الخمس .

وهذا الأمر بقوله : ﴿ فاقرؤا ﴾ ، قال الجمهور : أمر إباحة ، وقال ابن جبير وجماعة : هو فرض لا بد منه ، ولو خمسين آية .

وقال الحسن وابن سيرين : قيام الليل فرض ، ولو قدر حلب شاة .

وقيل : هو أمر بقراءة القرآن بعينها ، لا كناية عن الصلاة .

(173/789)

وإذا كان المراد : فاقرؤا في الصلاة ما تيسر ، فالظاهر أنه لا يتعين ما يقرأ ، بل إذا قرأ ما تيسر له وسهل عليه أجزأه وقدره ، وأبو حنيفة بآية ، حكاه عنه الماوردي ؛ وبثلاث .

حكاه ابن العربي ؛ وعين مالك والشافعي ما تيسر ، قالا : هو فاتحة الكتاب ، لا يعدل عنها ولا يقتصر على بعضها .

﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ : بيان لحكمة النسخ ، وهي تعذر القيام على

المرضى ، والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل الله ، ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ ، كرر ذلك على سبيل التوكيد .

ثم أمر بعمودي الإسلام البدني والمالي ، ثم قال : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ : العطف يشعر بالتغاير ، فقوله : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أمر بأداء الواجب ، ﴿ وأقرضوا الله ﴾ : أمر بأداء الصدقات التي يتطوع بها .

وقرأ الجمهور : ﴿ هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ بنصبهما ، واحتمل هو أن يكون فصلاً ، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في ﴿ تجدوه ﴾ .

ولم يذكر الزمخشري والحوفي وابن عطية في إعراب هو إلا الفصل .

وقال أبو البقاء : هو فصل ، أو بدل ، أو تأكيد .

فقوله : أو بدل ، وهم لو كان بدلاً لطابق في النصب فكان يكون إياه .

وقرأ أبو السمال وابن السميفع : هو خير وأعظم ، برفعهما على الابتداء أو الخبر .

قال أبو زيد : هو لغة بني تميم ، يرفعون ما بعد الفاصلة ، يقولون : كان زيد هو العاقل بالرفع ، وهذا البيت لقيس بن ذريح وهو :

نحن إلى ليلى وأنت تركتها . . .

وكنت عليها بالملا أنت أقدر

قال أبو عمرو الجرمي : أنشد سيبويه هذا البيت شاهداً للرفع والقوافي مرفوعة .

ويروى : أقدر .

وقال الزمخشري : وهو فصل وجاز وإن لم يقع بين معرفتين ، لأن أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة . انتهى .

وليس ما ذكر متفقاً عليه .

(174/789)

ومنهم من أجازه ، وليس أفعل من أحكام الفصل ومسائله ، والخلاف الوارد فيها كثير جداً ، وقد جمعنا فيه كتاباً سميناه بالقول الفصل في أحكام الفصل ، وأودعنا معظمه شرح التسهيل من تأليفنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(175/789)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) ﴾

التفسير ﴿ المزمل ﴾ أصله المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف بها ، فأدغم التاء في

الزاء ونحوه المدثر في المثر والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بالإتفاق إلا أنهم اختلفوا في سببه . فعن ابن عباس : أول ما جاءه جبرائيل عليه السلام خافه فظن أن به مساً من الجن فرجع من الجبل مرتعداً وقال : زملوني فبينا هو كذلك إذ جاءه الملك وناداه ﴿ يا أيها المزمل ﴾ فهذه السورة على هذا القول من أوائل ما نزل من القرآن قال الكلبي : إنما تزمل النبي صلى الله عليه وسلم بثيابه ليتهيأ للصلاة فأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه . ومثله عن عائشة وقد سئلت عن تزمله فقال : إنه صلى الله عليه وسلم كان تزمل مرطاً سداه شعر ولحمته وبر طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي . وقيل : أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً بالليل متزملاً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة لأنها فعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن فأمر أن يختار على الهجود التهجد وعلى التزمل الموجب للاستثقال في النوم التشمر للعبادة ، وقال عكرمة : إشتقاقه من الزمل الحمل ومنه أزدمله أي احتمله ، والمعنى يأيها الذي احتمل أمراً عظيماً يريد أعباء النبوة ويناسبه التكليف بعده بقيام الليل .

(176/789)

قال ابن عباس : إنه كان فريضة عليه بناء على ظاهر الأمر ثم نسخ . وقيل : كان واجباً عليه وعلى أمته في صدر الإسلام فكانوا على ذلك سنة أو عشر سنين ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، قال جار الله : قوله ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل و ﴿ إلا قليلاً ﴾ استثناء من النصف كأنه قال : قم أقل من نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً أو زد على النصف ، خيره بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين : النقصان من النصف أو الزيادة عليه . وإن شئت جعلت ﴿ نصفه ﴾ بدلاً من ﴿ قليلاً ﴾ لأن النصف قليل بالنسبة إلى الكل ، ولأن الواجب إذا كان هو النصف لم يخرج صاحبه عن العهدة لا بزيادة شيء فيصير الواجب بالحقيقة نصفاً فشيئاً فيكون الباقي أقل منه ، فكان تخييراً بين ثلاث بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، فلك أن تقول : على تقدير إبدال النصف من الليل إن الضمير في ﴿ منه ﴾ و ﴿ عليه ﴾ راجع إلى الأقل من النصف فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل أو قم أنقص القليل أو أزيد منه قليلاً فيكون التخيير فيما وراء النصف إلى الثلث مثلاً ، وإن شئت على تقدير إبدال النصف من ﴿ قليلاً ﴾ جعلت ﴿ قليلاً ﴾ الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع كأنه قال : أو انقص منه قليلاً نصفه ويجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع كأنه قيل : أو زد عليه أي على الربع قليلاً نصفه وهو الثمن فيكون تخييراً بين النصف وحده والرابع والثمن معاً والربع وحده ، هذا حاصل كلامه مع بعض الإيضاح . وأما في

التفسير الكبير فقد اختار أن المراد بقوله ﴿ قليلاً ﴾ الثلث لقوله تعالى في السورة ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة ﴾ ففيه دليل على أن أكثر المقادير الواجبة كان الثلثين إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم ربما يتفق له خطأ بالإجتهاد أو النوم فينقص شيء منه إلى النصف أو إلى الثلث على قراءة الخفض . وليس هذا مما

(177/789)

يقدح في العصمة لعسر هذا الضبط على البشر ولا سيما عند اشتغاله بالنوم ولذلك قال ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ فيصير تقدير الآية . قم الثلثين ثم نصف الليل . أو انقص من النصف ، أو زد عليه . والغرض التوسعة وأن أكثر الفرض هو الثلثان وأقله الثلث ليكون النقصان من النصف بقدر الزيادة . عن الكلبي قال : كان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين . ثم علم أدب القراءة فقال ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ وهو قراءة على تأن وتثبت ولا تحصل إلا بتبيين الحروف وإشباع الحركات ومنه " ثغر مرتل " إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير ، ومنه قال الليث : الترتيل تنسيق الشيء وثغر رتل حسن التنضيد كنور الأقحوان .

سئلت عائشة عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : لا كسردكم . هذا لو أراد

السامع أن يعد حروفه لعدها . وفي قوله ﴿ ترتيلاً ﴾ زيادة تأكيد في الإيجاب وأنه لا بد للقاريء منه لتقع قراءته عن حضور القلب وذكر المعاني فلا يكون كمن يعثر على كنز من الجواهر عن غفلة وعدم شعور . حين أمره بقيام الليل وبتدبر القرآن فيه وعده بقوله ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ كأنه قال : صير نفسك بأنوار العبادة والتلاوة مستعداً لقبول الفيض الأعظم وهو القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة على نفوس البشر . وقيل : ثقله أنه كان إذا نزل عليه الوحي تربد جلده وارفض جبينه عرقاً . ومنه قيل " برحاء الوحي " . وقال الحسن : أراد ثقله في الميزان وقال أبو علي الفارسي : ثقيل على المنافقين من حيث إنه يهتك أستارهم وقال الفراء : كلام له وزن وموقع لأنه حكمة وبيان ليس بالسفساف وما لا يعبأ به . وقيل : باقٍ على وجه الدهر لأن الثقيل من شأنه أن لا يزول عن حيزه . وقيل : يثقل إدراك معانيه وإحضارها . والفرق بين أقسامها من المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والظاهر والمؤل .

(178/789)

ثم عاد إلى حكمة الأمر بقيام الليل فقال ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ فيها قولان : أحدهما أنها ساعات الليل إما كلها لأنها تنشأ أي تحدث واحدة بعد أخرى ، وإما الساعات الأول ما

بين المغرب والعشاء وهو قول زين العابدين وسعيد بن جبير والضحاك والكسائي وذلك أنها مباديء نشوء الليل . والثاني أنها عبارة عن الأمور التي تحدث في الليل . وعلى هذا اختلفوا فمنهم من قال : هي النفس الناشئة بالليل أي التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي تنهض وترتفع من نشأت السحابة إذا ارتفعت . ومنهم من قال : هي مصدر كالعاقبة أي قيام الليل . ولا بد من سبق النوم لما روي عبيد بن عمير قلت لعائشة : رجل قام من أول الليل أتقولين له قام ناشئة الليل ؟ قالت : لا إنما الناشئة القيام بعد النوم . وقد فسرها بعض أهل المعنى بالواردات الروحانية والخواطر النورانية والإنفعالات النفسانية للإبتهاج بعالم القدس وفراغ النفس من الشواغل الحسية التي تكون بالنهار . الوطاء والمواطأة الموافقة . قال الحسن : يعني النفس أشد موافقة بين السر والعلانية أو القلب أو اللسان لانقطاع رؤية الخلائق ، أو يواطيء فيها قلب القائم لسانه ، إن أردت الساعات ، أو القيام . ومن قرأ وطأً بغير فالمعنى أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل وأثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ومنه قوله " اللهم أشدد وطأتك على مضر " ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ وأشد مقالاً وأثبت قراءة لهدوّ الأصوات وسكون الحركات فلا يكون بين القراءة وبين تفهم معانيها حائل ولا مشوش .

قال في الكشاف : عن أنس إنه قرأ و " أصوب قيلاً " فقيل له : يا أبا حمزة إنما هي ﴿ أقوم ﴾ فقال : إنهما واحد . قال ابن جني : وهذا يدل على أن القوم كانوا يعتبرون المعاني ولا يلتفتون نحو الألفاظ . قال العلماء الراسخون : هذا النقل يوجب القدح في القرآن فالواجب أن يحمل النقل لو صح على أنه فسر أحد اللفظين بالآخر لا أنه زعم أن تغيير لفظ القرآن جائز . ثم أكد أمر قيام الليل بقوله ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ قال المبرد : أي تصرفاً وتقلباً في مهماتك فلا تفرغ لخدمة الله إلا بالليل ومنه السابح لتقلبه بيديه ورجليه . وقال الزجاج : أراد أن ما فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه . وقيل : أن لك في النهار مجالاً للنوم والإستراحة وللتصرف في الحوائج . ثم بين أن أشرف الأعمال عند قيام الليل ما هو فصله في شيئين ذكر إسم الرب والتبتل إليه وهو الإنقطاع إلى الله بالكلية والتبتل القطع ، الأول مقام السالك والثاني مقام المشاهد . فالأول كالأثر والثاني كالعين وإنما لم يقل وبتل نفسك إليه تبتيلاً لأن المقصود بالذات هو التبتل فبين أولاً ما هو المقصود ثم أشار أخيراً إلى سببه تأكيداً مع رعاية الفاصلة . ثم أشار إلى الباعث إلى التبتل فقال ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ لأن التكميل والأحسان موجب المحبة وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها والمحبة تقتضي الإقبال على المحبوب بالكلية ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وهو إشارة إلى كماله تعالى في ذاته والكمال محبوب لذاته ، وهذا منتهى مقامات

الطالبين وإنه يستدعي رفع الإختيار من البين وتفويض الأمر بالكلية إلى المحبوب الحقيقي حتى أن المحبوب لو كان رضاه في عدم التبتل إليه رضي المحب بذلك ، وإن كان رضاه في التبتل والتوجه نحوه فهو المطلوب لا من حيث إنه تبتل بل من حيث إنه مراد المحبوب الحق جل ذكره . وقوله ﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ كالنتيجة لما قبله ، وفيه إن من لم يفوض كل الأمور إليه لم يكن راضياً

(180/789)

بإلهيته معترفاً بربوبيته ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أنه سيكفيه شر الكفار وأعداء الدين . ثم أمره بالصبر عند الإختلاط بالهجر الجميل إذا أراد أن لا يخالطهم . والهجر الجميل أن يخالفهم بقلبه ويداريهم بالإغضاء وترك المكافآت ومن المفسرين من قال : إنه منسوخ بآية القتال وقد عرفت مراراً أنه لا ضرورة إلى التزام النسخ . في أمثال هذه الآية . ثم أمره بأن يخلي بينه وبين المكذبين أصحاب الترفه . والنعمة بالفتح التنعم وهم صناديد قريش ولم يكن هناك منع ولكنه سبحانه أجرى الكلام على عادة المحاورات ، والغرض أنه سبحانه يكفي في رفع شرور الكفرة ودفع إيذائهم ثم فصل ما سيعذب به أهل التكذيب مما يضاد تنعمهم .

والإنكال جمع نكل بالكسر أو نكل بالضم وهي القيود الثقال . عن الشعبي : إذا ارتفعوا استلفت بهم . والطعام ذو الغصة هو الذي ينشب في الحلق كالزقوم والضريع فلا ينساغ ، وقد يمكن حمل هذه الأمور على العقوبات الروحانية فالإنكال عبارة عن بقاء النفس في قيود العلائق الحسية والملكات الوهمية ، والجحيم نيران الحسرة والحيرة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة . ثم إنه يتجرع غصة الحرمان وألم الفراق الجلال والبقاء في ظلمة الضلال والتنوين في هذه الألفاظ للتعظيم أو النوع . ثم وصف اليوم فيه هذه الأحوال والأهوال فقال ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ الرجفة الزلزلة والكثيب الرمل المجتمع " فعلي " " بمعنى " " مفعول " من كثب الشيء جمعه . وقال الليث : الكثيب نثر التراب أو الشيء يرمي به . وسمي الكثيب كثيباً لأن ترابه دقاق كأنه نثر بعضه على بعض لرخاوته ، والمهيل السائل تراب مهيل ومهيول أي مصبوب وإنما لم يقل كثيبة مهيلة لأنها باسرها تجتمع فتصير واحداً ، أو المراد كل واحد منها ، وحين خوف المكذبين بأهوال الآخرة خوفهم بأهوال الدنيا مثل ما جرى على الأمم السابقة لا سيما فرعون وجنوده . وإنما خصص قصة موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم الباقية ومعجزاته أبهر فكان تشبيه نبينا صلى الله عليه وسلم بحال

أنسب . ومعنى ﴿ شاهدا عليكم ﴾ كما مر في قوله ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] إنما عرّف الرسول ثانياً لأنه ينصرف إلى المعهود السابق في الذكر والأخذ الوبيل الثقيل الغليظ ومنه الوابل للمطر العظيم . قال أبو زيد : هو الذي لا يستمر ألو خامته ومنه كلأ مستوبل .

(182/789)

ثم عاد إلى توبيخهم مرة بعد أخرة قائلاً ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً ﴾ وانتصب ﴿ يوماً ﴾ على أنه مفعول به ﴿ لتتقون ﴾ أي كيف تحذرون ذلك اليوم لو كفرتم أي إن جحدتم يوم الجزاء فكيف تدعون تقوى الله وخوف عقابه ؟ ويجوز أن يكون ظرفاً ﴿ لتتقون ﴾ أي فكيف لكم بالتقوى يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ؟ ثم ذكر من هول ذلك اليوم شيئين : الأول أنه يجعل الولدان شيباً جمع أشيب نحو بيض جمع أبيض فقيل : إنه وصفه بالطول بحيث يبلغ الأطفال فيه أوان الشيخوخة والشيب . والأكثرون على أنه مثل في الشدة كما قيل " يوم يشيب نواصي الأطفال " والأصل فيه قول الحكماء إن الهموم والأحزاب تسرع الشيب لإقتضائهما احتباس الروح إلى داخل القلب المستتبع لانطفاء الحرارة الغريزية المستعقب لفجاجة الأخلاط واستيلاء البلغم المتكرج . وليس المراد أن

هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً حقيقة لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان غير جائز . وجوزه بعضهم بناء على أن ذلك اليوم أمر غير داخل تحت التكليف وقد حكي أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية فقال : أرأيت القيامة والنار في المنام ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك وأصبحت كما ترون .

(183/789)

الثاني قوله ﴿ السماء منفطر به ﴾ وإنما ذكر السماء لأن تأنيثه غير حقيقي ، أو بتأويل السقف ، أو بتأويل الشيء المنفطر أو ذات انفطار . والباء في ﴿ به ﴾ بمعنى "في" عند الفراء ، أو للآلة نحو فطرت العود بالقدوم أي أنها تنفطر بسبب هول ذلك اليوم ، أو تثقل به إثقالاً يؤدي إلى إنفطارها كقوله ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] ﴿ كان وعده ﴾ أي وعد الله وقيل وعد اليوم فيكون من باب إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ إن هذه ﴾ الآيات المشتملة على التكاليف والتخاويف ﴿ تذكرة ﴾ موعظة شافية ﴿ فمن شاء إتخذ إلى ﴾ قرب ﴿ ربه سبيلاً ﴾ بالإتعاظ والإدكار والتوسل بالطاعة والتجنب عن المعصية . قال المفسرون : إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه شمروا

بعد نزول أوائل السورة عن ساق الجد في شأن قيام الليل ، وتركوا الرقاد حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم فلا جرم رحمهم ربهم وخفف عنهم قائلاً ﴿ إن ربك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ أقل منهما . قال أهل المعاني والبيان : إنما استعير الأدنى للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ﴿ و ﴾ تقوم ﴿ نصفة وثلثه ﴾ وهذا مطابق لما مر أو لأن التخيير بين النصف والناقص منه إلى الثلث وبين الزائد على النصف إلى الثلثين . ومن قرأ بالجر فمعناه يقوم أقل من الثلثين وهو النصف ، وأقل من النصف وهو ثلثه ، وأقل من الثلث وهو الربع وهو مطابق للوجه الآخر . و قوله ﴿ وطائفة ﴾ عطف على المستتر في ﴿ يقوم ﴾ وجاز من غير تأكيد للفصل ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ فلا يعرف ما مضى من كل منهما أي آن يفرض إلا هو . وهذا الحصر ينبيء عنه بناء الكلام على الإسم دون الفعل . ثم أكد المعنى المذكور بقوله ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي لا يصح منكم ضبط أوقات الليل كما هي إلا أن تأخذوا بالأوسع الأحوط وذلك شاق عليكم ﴿ فتاب عليكم ﴾ ما فرط منكم في مساهلة حصر الأوقات ورفع تبعته عنكم ﴿ فاقرؤا ما تيسر من

القرآن ﴾ الأكثرون على أن القراءة ههنا عبارة عن الصلاة كما يعبر عنها بالقيام والركوع والسجود ، والمعنى فصلوا ما تيسر عليكم بالليل فيكون هذا ناسخاً للأول . ثم إنهما نسخاً جميعاً بالصلوات الخمس ، أو نسخ هذا وحده بهن . وعن بعضهم أنها القراءة حقيقة . وروي " من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ومن قرأ مائة آية أو خمسين كتب من القانتين " ثم بيّن الحكمة في النسخ فقال ﴿ علم ﴾ وهو استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ . و " أن " في قوله ﴿ أن سيكون ﴾ مخففة من الثقيلة اسمها الشأن و " كان " تامة أي سيوجد ﴿ منكم مرضى ﴾ هي جمع مريض ﴿ وآخرون ﴾ عطف عليه في الموضعين سوى الله سبحانه بين المسافرين للكسب الحلال والمجاهدين في سبيله فما أنصف من جانبه من العلماء مستنكفاً عنه إلى طلب ما لم يجوز أخذ الأجرة عليه كالإمامة والقضاء والتدريس يرى أنه منصب من المناصب الدينية فيضع دينه للذة خيالية لا اعتداد بها عند العقلاء .

(185/789)

عن عبد الله بن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله ، وعن عبد الله ابن مسعود

مرفوع ظناً . أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء . وظاهر أن المرضى لا يمكنهم الإشتغال بالتجهد لمرضهم . وأما المسافرون والمجاهدون فمشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة ، فلو اشتغلوا بالعبادة في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم قوله ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ من إعادة الأوّل تأكيداً للرخصة ، عن ابن عباس : سقط عن أصحاب النبي قيام الليل وصار تطوعاً وبقي ذلك فريضاً على النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أمر بإقامة الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة وهذا أيضاً مما يغلب على الظن أن الآية مدنية . وقيل : هي زكاة الفطر . ثم أشار إلى صدقة التطوع بقوله ﴿ وأقرضوا الله ﴾ ويحتمل أني عود هذا أيضاً إلى الزكاة أي أقرضوا الله بإيتاء الزكاة ، وفيه أن إخراج الزكاة ينبغي أن يكون على أحسن وجه من مراعاة النية الخالصة والصرف إلى المستحقين وكونها من أطيب الأموال لا أقل من الوسط . ثم حث على الإنفاق مطلقاً بقوله ﴿ وما تقدموا ﴾ الآية وقوله ﴿ هو ﴾ صيغة الفصل . وقوله ﴿ خيراً ﴾ ثاني مفعولي ﴿ تجدوه ﴾ ثم حرض على الإستغفار في جميع الأحوال وإن كان طاعات لما عسى أن يقع فيها تفريط وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 377 . 383 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة المزمل صلى الله عليه وسلم

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إلا آيتين منها ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ والتي تليها ذكره الماوردي ، وقال الثعلبي : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة .

وهي تسع عشرة أو عشرون آية ، ومائتان وخمس وثمانون كلمة ، وثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي من توكل عليه كفاه في جميع الأحوال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمة الإيجاد المهتدي والضال ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بالسداد في الأفعال والأقوال .

وقوله تعالى:

﴿ يا أيها المزمّل ﴾ أصله : المتزمل فأدغمت التاء في الزاي ، يقال : ازمّل يتزمّل تزمّلاً ، فإذا أريد الإدغام اجتلبت همزة الوصل ، وهذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال : الأول : قال عكرمة : يا أيها المزمّل بالنبوّة والملتزم للرسالة ، وعنه : يا أيها الذي ازمل هذا الأمر ، أي : حمله ثم فتر . والثاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يا أيها المزمّل بالقرآن . والثالث : قال قتادة رضي الله عنه : يا أيها المزمّل بثيابه . قال النخعي : كان

متزملاً بقطيفة عائشة بمرط طوله أربعة عشر ذراعاً قالت عائشة رضي الله عنها : "كان نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلي والله ما كان خزاً ولا قزاً ولا مرعزى ولا إبريسماً ولا صوفاً كان سداه شعراً ولحمته وبراً" . ذكره الثعلبي ، ولحمة الثوب بفتح اللام وضمها والفتح أفصح ولحمة النسب كذلك والضم أفصح ولحمة البازي بالضم لا غير لأنها كاللقمة .

قال القرطبي : وهذا القول من عائشة رضي الله عنها يدل على أنّ السورة مدنية ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يبن بها إلا بالمدينة ، والقول بأنها مكية لا يصح . وقال الضحاك : تزمل لمنامه وقيل : بلغه من المشركين قول سوء فيه فاشتدّ عليه فتزمل وتدثر ، فنزلت ﴿يا أيها المزمّل﴾ و﴿يا أيها المدثر﴾ (المدثر :)

(187/789)

وقيل : كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه "فإنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الوحي في غار حراء رجع إلى خديجة رضي الله عنها زوجته يرجف فؤاده ، فقال : زملوني زملوني لقد خشيت على نفسي" أي : أن يكون هذا مبادئ شعر أو كهانة ، وكل ذلك من الشيطان أو أن يكون الذي ظهر له بالوحي ليس الملك ، وكان صلى الله عليه وسلم يبغض الشعر

والكهانة غاية البغضة ، فقالت له ، وكانت وزيرة صدق رضي الله تعالى عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" . ونحو هذا من الكمال الذي يثبت . وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في الليل متزملاً في قطيفة ، فنبه ونودي بما يهجن تلك الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته ، فقيل له ﴿ يا أيها المزمّل ﴾ ﴿ قم الليل ﴾ أي : الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر ، فصل لنا في كل ليلة من هذا الجنس ، وقف بين يدينا بالمناجاة والأنس بما أنزل عليك من كلامنا ، فإنا نريد إظهارك وإعلاء قدرك في البرّ والبحر والسرّ والجهر ، وقيام الليل في الشرع معناه الصلاة فلذا لم يقيده وهي جامعة لأنواع الأعمال الظاهرة والباطنة وهي عمادها فذكرها دال على ما عداها .

m

ولما كان للبدن حظ في الراحة قال تعالى مستثنياً من الليل ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي : من كل ليلة ، فإن الاشتغال بالنوم فعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن ألا ترى إلى قول ذي الرمة:

*وكائن تخطت ناقتي من مفازة** ومن نائم عن نيلها متزمل*

يريد الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه .

سهداً إذا ما نام ليل الهوجل

ومن أمثالهم:

*أوردها سعد وسعد مشتمل **ما هكذا تورد يا سعد الإبل*

(188/789)

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس ، وأمر بأن يختار على الهجود التجهد ، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة والمجاهدة في الله لا جرم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء ليلهم ورفضوا له الرقاد والدعة ، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرّت ألوانهم وظهرت السيما في وجوههم وتراقى أمرهم إلى حدّ رحمهم له ربهم فخفف عنهم ، وقال الكلبي : إنما تزمّل صلى الله عليه وسلم بثيابه ليتهيأ للصلاة وهو اختيار الفرّاء فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه ، وعن عكرمة رضي الله عنه أنّ المعنى يا أيها الذي زمل أمراً عظيماً أي حمله ، والزمل الحمل .

قال البغوي : قال الحكماء : كان هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في أوّل الوحي قبل تبليغ الرسالة ، ثم خوطب بعد بالنبيّ والرسول ، وقال السيهلي : ليس المزمل من أسماء

النبيّ صلى الله عليه وسلم كما ذهب إليه بعض الناس ، وعدّوه في أسمائه صلى الله عليه وسلم وإنما المزمل اسم مشتق من حاله التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدّثر .

وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما : الملاطفة فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ حين غاضب فاطمة رضي الله تعالى عنهما فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب ، فقال له : قم أبا تراب" إشعاراً له بأنه غير عاتب عليه وملاطفة له ، وكذلك "قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة : قم يا نومان" وكان نائماً ملاطفة له وإشعاراً بترك العتب والتأنيب ، فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها المزمل قم ﴾ فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

(189/789)

والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأنّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة ، والليل مدّة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . قال القرطبي : واختلف هل كان

قيامه فرضاً أو نفلاً ؟ والدلائل تقوّي أنّ قيامه كان فرضاً ؛ لأنّ المندوب لا يقع على بعض الليل دون بعض ، لأنّ قيامه ليس مخصوصاً بوقت دون وقت .

واختلف هل كان فرضاً على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؟ أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ؟ أو عليه وعلى أمته ؟ على ثلاثة أقوال : الأوّل قول سعيد بن جبير رضي الله عنه لتوجه الخطاب إليه . الثاني : قول ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قيام الليل فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله . والثالث : قول عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أيضاً أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته لما روى مسلم أنّ هشام بن عامر قال لعائشة رضي الله عنها : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : "ألست تقرأ يا أيها المزمل ، فقلت : بلى . فقالت : فإنّ الله عز وجل افترض قيام الليل في أوّل هذه السورة ، فقام نبيّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله عز وجلّ في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة" وقيل : عسر عليهم تمييز القدر الواجب ، فقاموا الليل كله ، وشق عليهم فنسخ بقوله تعالى آخرها : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ وكان بين الوجوب ونسخه سنة ، وقيل : نسخ التقدير بمكة وبقي التهجد حتى نسخ بالمدينة .

وروى وكيع ويعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ يا أيها المزمل ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين نزول أوّلها وآخرها نحواً من سنة . وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل ، فنزلت بعد عشر سنين ﴿ إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ فخفف الله تعالى عنهم . وقيل : كان قيام الليل واجباً ثم نسخ بالصلوات الخمس .

والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم بعث يوم الإثنين في رمضان وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : ثلاث وأربعين وآمنت به خديجة رضي الله عنها ثم بعدها قيل : عليّ رضي الله عنه وهو ابن تسع سنين ، وقيل : ابن عشر . وقيل : أبو بكر ، وقيل : زيد بن حارثة ، ثم أمر بتبليغ قومه بعد ثلاث من مبعثه ، فأوّل ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الإنذار والدعاء إلى التوحيد من قيام الليل ما ذكر في أوّل السورة ، ثم نسخ بما في آخرها ثم نسخ بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء إلى بيت المقدس بمكة بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ليلة سبع وعشرين من رجب ، هذا ما ذكره النووي في روضته .

وقال في فتاويه : بعد النبوة بخمس أو ست وجعل الليلة من ربيع الأول وخالفهما في شرح مسلم وجزم بأنها من ربيع الآخر وقلد فيها القاضي عياضاً ، والذي عليه الأكثر ما في الروضة واستمرّ يصلي إلى بيت المقدس مدّة إقامته بمكة وبعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر ، ثم أمر باستقبال الكعبة ، ثم فرض الصوم بعد الهجرة بسنتين تقريباً وفرضت الزكاة بعد الصوم ، وقيل : قبله ، وفي السنة الثانية قيل : في نصف شعبان . وقيل : في رجب حوّلت القبلة ، وفيها فرضت صدقة الفطر ، وفيها ابتدأ صلى الله عليه وسلم صلاة عيد الفطر ثم عيد الأضحى ، ثم فرض الحج سنة ست وقيل : سنة خمس ولم يحج صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلا حجة الوداع ، واعتمر أربعاً وتوفيّ صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة من الهجرة .

فائدة : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم معصومون قبل النبوة من الكفر وفي المعاصي خلاف وبعدها من الكبائر وكذا من الصغائر ولو سهواً عند المحققين .

(192/789)

وقوله تعالى ﴿ نصفه ﴾ بدل من قليلاً وقلته بالنظر إلى الكل ﴿ أو انقص منه ﴾ أي : من النصف ﴿ قليلاً ﴾ أي : الثلث ﴿ أو زد عليه ﴾ أي : على النصف إلى الثلثين ، وأو للتخيير فكان صلى الله عليه وسلم مخيراً بين هذه المقادير الثلاثة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب وكذا بعض أصحابه ، واشتدّ ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم وقد تقدّم أنّ ذلك نسخ بإيجاب الصلوات الخمس ، فصار قيام الليل تطوعاً فينبغي للمتعبد المواظبة عليه خصوصاً في الوقت الذي يبارك الله تعالى بالتجلي فيه ، فإنه صح أنه ينزل سبحانه عن أن تشبه ذاته شيئاً أو نزوله نزول غيره ، بل هو كناية عن فتح باب السماء الذي هو كناية عن وقت استجابة الدعاء حتى يبقى ثلث الليل ، وفي رواية حتى يبقى شطر الليل الآخر إلى سماء الدنيا ، فيقول سبحانه هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر .

ولما أمر بالقيام وقدّر وقته وعينه أمر بهيئة التلاوة التي هي روح الصلاة على وجه عامّ ، فقال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ﴾ أي : اقرأه على ترسل وتؤدة وتبيين حروفه وإشباع حركاته بحيث يتمكن السامع من عدّها ويجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وأن لا يهذه هذاً ولا يسرده سرداً ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شرّ السير الحقحقة ، وشرّ القراءة الهذرمة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ولا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذّ الشعر ولكن قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب ، ولا

يكن همّ أحدكم آخر السورة .

وقوله تعالى : ﴿ ترتيلاً ﴾ تأكيد في الأمر به وأنه لا بدّ منه للقارئ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : اقرأ على هينتك ثلاث آيات أو أربعاً أو خمساً ، وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية" والآية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (المائدة :)

(193/789)

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءته صلى الله عليه وسلم فقالت : "لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفها لعدها" . وسئل أنس رضي الله عنه كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كانت مدّاً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بسم الله ويمدّ الرحمن ويمدّ الرحيم" . وجاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة ، فقال : هذاً كهذ الشعر ، لقد عرفت النظائر التي كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرن بينهنّ فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة .

وروى الحسن رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "مرّ برجل يقرأ آية ويبكي فقال ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجلّ : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ هذا الترتيل" . وروى أبو داود

عن عبد الرحمن بن عوف قال : "قال النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة ، فيوقف في أوّل درج الجنة ، ويقال له اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها" . وندب إصغاء إليه وبكاء عند القراءة وتحسين صوت بها وتعوذ بها جهراً وإعادته لفصل طويل وجلوس لها واستقبال وتدبر وتخشع . وكرهت بفم نجس . وجازت بحمام . وهي نظراً في المصحف أفضل منها على ظهر قلب ، نعم إن زاد خشوعه وحضور قلبه في القراءة عن ظهر قلب فهي أفضل في حقه . وهي أفضل من ذكر لم يخص بمحل ، وحرم توسد مصحف . وندب كتبه وإيضاحه ونقطة وشكله ، ويحرم كتبه بنجس ومسه بنجس غير معفوّ عنه ، وتحرم القراءة بالشواذ وهي ما نقل آحاداً وبعكس الآي وكره العكس في السور إلا في تعليم .

وندب ختم القرآن أوّل نهار وأوّل ليل وختمه في الصلاة أفضل من ختمه خارجها ، وندب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوماً نهى الشرع عن صيامه ، وندب الدعاء بعده وحضوره . والشروع بعده في ختمة أخرى . وندب كثرة تلاوته . ونسيانه كبيرة وكذا نسيان شيء منه ويحرم تفسيره بلا علم .

(194/789)

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ سنلقي ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ عليك قولاً ﴾ أي : قرآناً ، واختلف في معنى قوله تعالى ﴿ ثقيلاً ﴾ فقال قتادة رضي الله عنه : ثقيل والله فرائضه وحدوده . وقال مجاهد رضي الله عنه : حلاله وحرامه . وقال محمد بن كعب رضي الله عنه : ثقيلاً على المنافقين لأنه يهتك أسرارهم ويبطل أديانهم . وقيل : على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وسب آلهتهم .

قال السدّي رضي الله عنه : ثقيلاً بمعنى كريم مأخوذ من قولهم : فلان ثقل عليّ ، أي : كرم عليّ . وقال الفراء : ثقيلاً ، أي رزيناً . وقال الحسن بن الفضل : ثقيلاً أي لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد . وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا ثقل في الميزان يوم القيامة . وقيل : ثقيل أي ثابت كثبوت الثقيل في محله . ومعناه : إنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً .

وقيل : ﴿ ثقيلاً ﴾ بمعنى : أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته ، والفقهاء بحثوا في أحكامه ، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل إليها المتقدّمون ، فعلمنا أنّ الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله ، فصار كالجبل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله .

والأولى أن تحمل هذه المعاني كلها فيه . وقيل : المراد هو الوحي كما جاء في الخبر "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها أي : صدرها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه" . وعن الحارث بن هشام أنه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشدّ عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقاً ، أي : يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد . وقوله فينفصم عني أي : ينفصل عني ويفارقني ، وقد وعيت أي : حفظت ما قال .

وقال القشيري : القول الثقيل هو قول لا إله إلا الله لأنه ورد في الخبر : "لا إله إلا الله خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان" . وقال الزمخشري: هذه الآية اعتراض ثم قال : وأراد بهذا الاعتراض أنّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء ، فلا بدّ لمن أحياه من مضارّة لطبعه ومجاهدة لنفسه ا . ه . فالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة ، وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿ إنّ ناشئة الليل ﴾ أي : القيام بعد النوم ﴿ هي أشدّ وطأً ﴾ أي : موافقة السمع للقلب

على تفهم القرآن هي أشدّ مطابق لقوله : ﴿ قم الليل ﴾ فكأنه شابه الاعتراض من حيث دخوله بين هذين المناسبين ، والمعنى : سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله ؛ لأنّ الليل للمنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل مشقة شديدة على النفس ومجاهدة الشيطان ، فهو أمر ثقيل على العبد .

(196/789)

ولما كان التهجد يجمع القول والفعل وبين ما في الفعل لأنه أشق فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أحق أتبعه القول فقال : ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أي : وأعظم سداداً من جهة القيل في فهمه ووقعه في القلوب لحضور القلب ، لأنّ الأصوات هادية والدنيا ساكتة فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه ، وقال قتادة ومجاهد رضي الله عنهم : أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم لرياقة الليل بهدوء الأصوات وتجلي الرب سبحانه بحصول البركات وأخلص من الرياء ، فبين الله تعالى بهذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار وأنّ الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر وأجلب للثواب .

كان عليّ بن الحسين رضي الله عنه يصلي بين المغرب والعشاء ويقول : هو ناشئة الليل .

وقال عطاء وعكرمة رضي الله عنهم : هو بدء الليل . وقال في الصحاح : ناشئة الليل أوّل

ساعاته ، وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هي الليل كله لأنه ينشأ بعد النهار وهو اختيار مالك ، قال ابن عربي : وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة ، وقالت عائشة وابن عباس أيضاً ومجاهد رضي الله عنهم : إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم ومن قام قبل النوم فما قام ناشئة . وقال يمان بن كيسان : هو القيام من آخر الليل .

وأما قوله تعالى : ﴿ أشدّ وطأً ﴾ أي : أثقل على المصلي من ساعات النهار ، لأنّ الليل وقت منام وراحة فإذا قام إلى صلاة الليل فقد تحمل المشقة العظيمة ، هذا على قراءة كسر الواو وفتح الطاء ، وبعدها ألف ممدودة وهمزة منوّنة ، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر ، وقرأ الباقون بفتح الواو وسكون الطاء وبعدها همزة منونة فهي مصدر وطأت وطأً ومواطأة أي : وافقت على الأمر من الوفاق تقول : فلان يواطئ اسمه اسمي ، أي : يوافقه ، فالمعنى أشدّ موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الأصوات والحركات قاله مجاهد وغيره قال تعالى : ﴿ ليواطئوا عدّة ما حرّم الله ﴾ (التوبة :)

(197/789)

أي : ليوافقوا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "اللهمّ اشدد وطأتك على مضر" وقيل : أشدّ مهاداً للتصرّف في الفكر والتدبر . وقيل : أشدّ ثباتاً من النهار ، فإنّ الليل يخلو فيه

الإنسان بما يعمله ، فيكون ذلك أثبت للعمل ، والوطء الثبات تقول : وطأت الأرض بقدمي وفي الجملة عبادة الليل أشدّ نشاطاً وأتم إخلاصاً وأكثر بركة وأبلغ في الثواب .

﴿ إنّ لك ﴾ أي : أيها المتهجد أو يا أكرم الخلق إن كان الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ في النهار ﴾ الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ أي : تصرّفاً وتقلباً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك ، والسبح : مصدر سبح استعير للتصرف في الحوائج من السباحة في الماء وهي البعد فيه . وقال القرطبي : السبح الجري والدوران . ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه ، وفرس سابح شديد الجري . وقيل : السبح الفراغ ، أي : إنّ لك فراغاً لحاجات النهار . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ سبحاً طويلاً ﴾ يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك . وقيل : إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه .

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي : المحسن إليك والموجد والمدبر لك بكل ما يكون ذكراً من اسم وصفة وثناء وخضوع وتسبيح وتحميد وصلاة وقراءة ودعاء وإقبال على علم شرعي وأدب مرعي ، ودُم على ذلك في ليلك ونهارك واحرص عليه ، فإذا عظمت الاسم بالذكر فقد عظمت المسمى بالتوحيد والإخلاص ، وذلك عون لك على مصالح الدارين ، أما الآخرة فواضح وأما الدنيا فقد أرشد النبيّ صلى الله عليه وسلم أعز الخلق عليه فاطمة ابنته رضي الله تعالى عنها لما سألته خادماً يقيها التعب إلى التسبيح والتحميد والتكبير

عند النوم .

﴿ وتبتل ﴾ أي : اجتهد في قطع نفسك عن كل شاغل والإخلاص في جميع أعمالها بالتدريج قليلاً قليلاً منتهياً ﴿ إليه ﴾ ولا تزل على ذلك حتى يصير ذلك لك خلقاً فتكون نفسك كأنها منقطعة بغير قاطع .

(198/789)

وقوله تعالى : ﴿ تبتيلاً ﴾ مصدر تبتل جيء به رعاية للفواصل وهو ملزوم التبتيل ، قال الزمخشري : فإن قلت كيف قيل تبتيلاً ؟ مكان تبتلاً قلت : لأنّ معنى تبتل بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل ا . ه .

والتبتيل الانقطاع ومنه امرأة بتول ، أي : منقطعة عن النكاح ، وفي الحديث أنه نهى عن التبتل وقال : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ أي : مؤن النكاح ـ فليتزوج" والمراد به في الآية الكريمة الانقطاع إلى عبادة الله تعالى كما مرّت الإشارة إليه دون ترك النكاح . والتبتل في الأصل : الانقطاع عن الناس والجماعات ، وقيل : إن أصله عند العرب التفرّد قاله ابن عرفة ، وقال ابن العربي : هذا فيما مضى ، وأما اليوم فقد مرجت عهود الناس ، وخفت أماناتهم واستولى الحرام على الحطام ، فالعزلة خير من الخلطة ، والعزبة

أفضل من التأهل ، ولكن معنى الآية : وانقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله تعالى . وكذلك قال مجاهد رضي الله عنه : معناه أخلص له العبادة ولم يرد التبتيل ، فصار التبتل مأموراً به في القرآن منهياً عنه في السنة ومتعلق الأمر غير متعلق النهي فلا يتناقضان ، وإنما بعث لتبيين ما أنزل إليهم ، فالتبتل المأمور به الانقطاع إلى الله تعالى بإخلاص العبادة كما قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (البينة :)

والتبتل المنهي عنه هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفرّ بدينه من الفتن .

ولما كان الواجب على كل أحد شكر المنعم بين سبحانه الذي أنعم بسكن الليل الذي أمرنا بالتهجد فيه ومنتشر النهار الذي أمر بالسبح فيه ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرق ﴾ أي : موجد محل الأنوار التي بها ينمحي هذا الليل الذي أنت قائم فيه ، ويضيء بها الصباح ، وعند الصباح يحمد القوم السرى ، قال العلامة تقي الدين بن دقيق العيد :

*كم ليلة فيك وصلنا السرى **لا نعرف الغمض ولا نستريح*

*واختلف الأصحاب ماذا الذي **يزيل من شكواهم أو يريح*

*فقيل تعريسهم ساعة **وقلت بل ذكراك وهو الصحيح*

﴿ والمغرب ﴾ أي : الذي يكون عند الليل الذي هو موضع السكون ومحل الخلوات ولذيذ المناجاة ، فلا تغرب شمس ولاقمر ولا نجم إلا بتقديره ﴿ لاإله ﴾ أي : لا معبود بحق ﴿ إلا هو ﴾ أي : ربك الذي دلت تربيته لك على مجامع العظمة وأبهى صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص ، وقرأ ﴿ رب ﴾ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الباء على البدل من ربك ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما على القسم بإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه : لاإله إلا هو ، كما تقول : لا أحد في الدار إلا زيد ، والباقون برفعها على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره لا إله إلا هو ﴿ فاتخذه ﴾ أي : خذه بجميع جهدك وذلك بإفرادك إياه بكونه ﴿ وكيلاً ﴾ أي على كل من خالفك بأن تفوض جميع أمورك إليه ، فإنه يكفيكها كلها ، فإنه المنفرد بالقدرة عليها ، ولاشيء في يد غيره فلا تهتم بشيء أصلاً .

قال البقاعي : وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل ، فإن ذلك طمع فارغ ، بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الإنسان إلى طلبه ليكون متوكلاً في السبب لا من دون سبب ، فإنه يكون حينئذ كمن يطلب الولد من غير زوجة وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على

الأسباب ، ولو لم يكن في إفراده بالوكالة إلا أنه يفارق الوكلاء بالعظمة والشرف والرفق من جميع الوجوه ، فإن وكيلك من الناس دونك وأنت تتوقع أن يكلمك كثيراً في مصالحك وربك أعظم العظماء وهو يأمرك بأن تكلمه كثيراً في مصالحك وتسأله طويلاً ، ووكيلك من الناس إذا حصل مالك سألك الأجرة وهو سبحانه يوفر مالك ويعطيك الأجر ، ووكيلك من الناس ينفق عليك من مالك وهو سبحانه يرزقك وينفق عليك من ماله .

(200/789)

ومن تمسك بهذه الآية عاش حرّاً كريماً ومات خالصاً شريفاً ولقي الله تعالى عبداً صافياً مختاراً تقياً ، ومن شرط الموحد أن يتوجه إلى الواحد ويقبل عليه ويبذل له نفسه ويفوّض إليه أمره ويترك التدبير ويثق به ويركن إليه ويتذلل لربوبيته ويتواضع لعظمته .

﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ أي : المخالفون المفهومون من الوكالة من الأذى والسب والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعواهم وفوّض أمرهم إليّ ، فإني إذا كنت وكيلاً لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بأمور نفسك ﴿ واهجرهم ﴾ أي : أعرض عنهم ﴿ هجراً جميلاً ﴾ أي : لا تتعرّض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإنّ ذلك ترك للدعاء إلى الله تعالى ، وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، فإنه صلى الله عليه وسلم منع في أوّل

الإسلام من قتال الكفار وأمر هو وأصحابه بالصبر على أذاهم بقوله تعالى : ﴿ لتبلونّ في أموالكم ﴾ (آل عمران :)

الآية ، ثم أمر به إذا ابتدؤوا بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ (البقرة :)

ثم أبيح له ابتداؤه في غير الأشهر الحرم ، ثم أمر به مطلقاً من غير تقييد بشرط ولا زمان بقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ (البقرة :)

﴿ وذرني ﴾ أي : اتركني ﴿ والمكذبين ﴾ أي : لا تحتاج إلى الظفر بمرادك ومشتهاك إلا أن تخلي بيني وبينهم بأن تكل أمرهم إليّ وتستكفينيه ، فإن فيّ ما يفرغ بالك ، ويجلي همك وليس ثمّ منع حتى تطلب إليه أن تذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض ، كأنه إذا لم يكل إليه أمره فكأنه منعه منه فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه .

(201/789)

واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة فلم يكن إلا يسيراً حتى قتلوا ببدر . وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن

جبير : أخبرت أنهم اثنا عشر رجلاً ، وقال البغوي : نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين .

وقوله تعالى : ﴿ أولي النعمة ﴾ نعت للمكذبين أي أصحاب التنعم والترفه .

فائدة : النعمة بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرّة .

﴿ ومهلهم ﴾ أي : اتركهم برفق وتأنّ وتدريج ولا تهتم بشأنهم . وقوله تعالى : ﴿ قليلاً ﴾ نعت لمصدر ، أي : تمهيلاً قليلاً أو لظرف زمان محذوف أي زماناً قليلاً فقتلوا بعد يسير ببدر .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ لدينا أنكالاً ﴾ جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل الذي لا ينفك أبداً وقال الكلبي : أغلالاً من حديد ﴿ وجحيماً ﴾ أي : ناراً حامية جدًّا شديدة الاتقاد مما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة .

﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ أي : يغص به في الحلق وهو الزقوم أو الضريع أو الغسلين أو الشوك من نار لا يخرج ولا ينزل ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ أي : مؤلماً . ومعنى الآية : أنّ لدينا في الآخرة ما يضادّ تنعمهم في الدنيا وهي هذه الأمور الأربعة : النكال والجحيم والطعام الذي يغص به والعذاب الأليم ، والمراد به سائر أنواع العذاب ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق .

وعن الحسن أنه أمسى صائماً فأتي بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : ارفعه ووضع

عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق .

(202/789)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف ﴾ منصوب بالاستقرار المتعلق به لدينا والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة فتزلزل ﴿ الأرض ﴾ أي : كلها ﴿ والجبال ﴾ أي : التي هي أشدّها ﴿ وكانت ﴾ أي : وتكون ﴿ الجبال ﴾ التي هي مراسي الأرض وأوتادها وعبر عن شدّة الاختلاط والتلاشي بالتوحيد ، فقال تعالى : ﴿ كثيباً ﴾ أي : رملاً مجتمعاً ، من كثب الشيء إذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله ، ومنه الكثبة من اللبن ﴿ مهيلاً ﴾ قال ابن عباس : رملاً سائلاً يتناثر . وقال الكلبي : هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده . قال القرطبي : وأصله مهيول وهو مفعول من قولك هلت عليه التراب أهيله إهالة وهيلاً إذا صببته ، يقال : مهيل ومهيول ، ومكيل ومكيول ومعين ومعيون . قال الشاعر :

*قد كان قومك يحسبونك سيداً ** وأخال أنك سيد معيون*

وقال عليه الصلاة والسلام حين شكوا إليه الجدوبة : "أتكيلون أم تهيلون" ؟ قالوا : نهيل . قال : "كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه" .

وأصل مهيل مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الهاء فالتقى ساكنان ، فسيبويه وأتباعه حذفوا الواو ، وكانت أولى بالحذف لأنها زائدة ، وإن كانت القاعدة أنّ ما يحذف لالتقاء الساكنين الأوّل ، ثم كسروا الهاء لتصح الياء ، ووزنه حينئذ مفعل ، والكسائي ومن تبعه حذفوا الياء لأنّ القاعدة حذف الأوّل كما مرّ .

(203/789)

ولما خوّف تعالى المكذبين أولي النعمة بأهوال يوم القيامة خوّفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا فقال تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أرسلنا إليكم ﴾ يا أهل مكة شرفاً لكم خاصة وإلى كل من بلغته الدعوة عامّة ﴿ رسولاً ﴾ أي : عظيماً جدًّا ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمامهم وأجلهم وأفضلهم قدراً ﴿ شاهداً عليكم ﴾ أي : بما تصنعون ليؤدّي الشهادة عند طلبها منه يوم ننزع من كل أمّة شهيداً وهو يوم القيامة ﴿ كما أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ إلى فرعون ﴾ أي : ملك مصر ﴿ رسولاً ﴾ وهو موسى عليه الصلاة والسلام ، وهذا تهديد لأهل مكة بالأخذ الوبيل . قال مقاتل : وإنما ذكر موسى وفرعون دون سائر الرسل لأنّ أهل مكة ازدروا محمداً صلى الله عليه وسلم واستخفوا به لأنه ولد فيهم ، كما أنّ فرعون ازدرى بموسى عليه السلام لأنه رباه ونشأ فيما بينهم ، كما

قال تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ (الشعراء :)

وذكر الرازي السؤال والجواب . قال ابن عادل : وهو ليس بالقوي لأنّ إبراهيم عليه السلام ولد ونشأ فيما بين قوم نمروذ وكان آزر وزير نمروذ على ما ذكره المفسرون ، وكذا القول في هود ونوح وصالح ولوط لقوله تعالى في قصة كل واحد منهم لفظة ﴿ أخاهم ﴾ لأنه من القبيلة التي بعث إليها انتهى . وقد يقال : الجامع بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام التربية ، فإنّ أبا طالب تربى عنده النبيّ صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام تربى عند فرعون ولم يكن ذلك لغيرهما .

﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ إنما عرفه لتقدم ذكره ، وهذه أل العهدية والعرب إذا قدمت اسماً ثم أتوا به ثانياً أتوا به معرفاً بأل أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل أو فأكرمته ، ولو قلت فأكرمت رجلاً لتوهم أنه غير الأوّل . وقال المهدوي : ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدّم ذكره ولذا اختير في أوّل الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم .

(204/789)

ثم تسبب عن عصيانه قوله تعالى : ﴿ فأخذناه ﴾ أي : فرعون بما لنا من العظمة ، وبين أنه أخذ قهر وغضب بقوله تعالى : ﴿ أخذاً وبيلاً ﴾ أي : ثقيلاً شديداً ، وضرب وبيل وعذاب وبيل ، أي : شديد قاله ابن عباس ومجاهد ، ومنه مطر وابل ، أي : شديد قاله الأخفش . وقال الزجاج : أي : ثقيلاً غليظاً ومنه قيل للمطر وابل ، وقيل : مهلكاً . والمعنى : عاقبناه عقوبة غليظة ، وفي ذلك تخويف لأهل مكة .

ثم خوّفهم بيوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم ﴾ أي : توجدون الوقاية التي تقي أنفسكم إذا كفرتم في الدنيا ، والمعنى : لا سبيل لكم إلى التقوى إذا رأيتم القيامة . وقيل : معناه : فكيف تتقون العذاب يوم القيامة إذا كفرتم في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿ يوماً ﴾ مفعول تتقون أي : عذابه أي : بأي حصن تتحصنون من عذاب الله يوم ﴿ يجعل الولدان ﴾ وقوله تعالى ﴿ شيباً ﴾ جمع أشيب ، والأصل في الشين الضم وكسرت لمجانسة الياء ، ويقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال ، وهو مجاز ، ويجوز أن يراد في الآية الحقيقة والمعنى : يصيرون شيوخاً شمطاً من هول ذلك اليوم وشدّته وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم : فابعث بعث النار من ذريتك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك . وفي رواية والخير بين يديك . فينادى بصوت إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يا رب وما بعث

النار . قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد ﴾ (الحج :)

(205/789)

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، قالوا : يا رسول الله أينا ذلك الرجل ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أبشروا ، فإنّ من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم قال : أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وفي رواية كالرقة في ذراع الحمار . وهي بفتح الراء وسكون القاف الأثر الذي في بطن عضد الحمار . وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبر القوم ، ثم قال : فثلث أهل الجنة فكبروا ، ثم قال : شطر أهل الجنة فكبروا" وفي هذا إشارة إلى الاعتناء بهم لأنّ إعطاء الإنسان مرّة بعد مرّة دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته ، وفي هذا أيضاً حملهم على تجديد شكر الله تعالى وحمده على إنعامه عليهم وهو تكبيرهم لهذه البشارة العظيمة .

ثم وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر ﴾ أي : ذات انفطار أي : انشقاق ﴿ به ﴾ أي : بسبب ذلك اليوم لشدّته فالباء سببية ، وجوّز الزمخشري أن تكون

للاستعانة فإنه قال : والباء في به مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به . وقال القرطبي : معنى به أي : فيه أي : في ذلك اليوم . وقيل : به أي : بالأمر أي : السماء منفطر بما يجعل الولدان شيباً ، وقيل : منفطر بالله أي : بأمره .

تنبيه : إنما لم تؤنث الصفة لوجوه ، منها : قال أبو عمرو بن العلاء : لأنها بمعنى السقف تقول هذا سماء البيت قال تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ (الأنبياء :)

. ومنها أنها على النسبة أي : ذات انفطار ، نحو امرأة مرضع وحائض أي : ذات إرضاع وذات حيض . ومنها أنها تذكر وتؤنث أنشد الفراء :

*فلو رفع السماء إليه قوماً **لحقنا بالسماء وبالسحاب

ومنها : أنه اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال : سماءة واسم الجنس يذكر ويؤنث ولهذا قال أبو علي الفارسي : هو كقوله تعالى ﴿ منتشر ﴾ (القمر :)

و ﴿ أعجاز نخل منعقر ﴾ (القمر :)

يعني : فجاء على أحد الجائزين ، أو لأنّ تأنيثها ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز تذكيره .

قال الشاعر :

*. . . . . والمها **بالإثمد الحبرى مكحول*

والضمير في قوله تعالى : ﴿كان وعده مفعولاً﴾ يجوز أن يكون لله وإن لم يجر له ذكر للعلم به فيكون المصدر مضافاً لفاعله ، ويجوز أن يكون لليوم فيكون مضافاً لمفعوله والفاعل وهو الله تعالى مقدّر . قال المفسرون : كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولاً كائناً لا شك فيه ولا خلف . وقال مقاتل : كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله .

﴿إن هذه﴾ أي : الآيات الناطقة بالوعيد الشديد أو السورة ﴿تذكرة﴾ أي : تذكير عظيم هو أهل لأن يتعظ به ، ويعتبر به المعتبر ولاسيما ما ذكر فيها لأهل الكفر من العذاب . ولما كان سبحانه قد جعل للإنسان عقلاً يدرك به الحسن والقبيح واختياراً يتمكن به من اتباع ما يريد فلم يبق له مانع من جهة اختيار الأصلح والأحسن إلا قهر المشيئة التي لا اطلاع له عليها ولا حيلة له فيها سبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿فمن شاء اتخذ﴾ أي : بغاية جهده ﴿إلى ربه﴾ أي : المحسن إليه خاصة لا إلى غيره ﴿سبيلاً﴾ أي : طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له ؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل . قيل : نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى : ﴿فمن شاء ذكره﴾ (المدثر :)

قال الثعلبي : والأشبه أنه غير منسوخ .

﴿ إنّ ربك ﴾ أي : المدبر لأمرك على ما يكون إحساناً إليك ورفقاً بك ﴿ يعلم أنك تقوم ﴾ أي : في الصلاة كما أمرت به أوّل السورة ﴿ أدنى ﴾ أي : زماناً أقل والأدنى مشترك بين الأقرب والأدون الأنزل رتبة ؛ لأنّ كلاً منهما يلزم عنه قلة المسافة . ﴿ من ثلثي الليل ﴾ وقرأ ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي بنصب الفاء بعد الصاد ونصب المثلثة بعد اللام ورفع الهاء فيهما عطف على أدنى والباقون بكسر الفاء والمثلثة وكسر الهاء فيهما عطف على ضمير تقوم وقيامه كذلك مطابق لما وقع التخيير فيه أوّل السورة من قيام النصف بتمامه ، أو الناقص منه وهو الثلث ، أو الزائد عليه وهو الثلثان ، أو الأقل من الأقل من النصف وهو الربع .

وقوله تعالى : ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ عطف على ضمير تقوم ، وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسي به ، ومنهم من كان لا يدري كم يصلي من الليل وكم بقي منه ، فكان يقوم الليل كله احتياطاً فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة وأكثر ، فخفف عنهم بقوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يقدّر ﴾ أي : تقديراً عظيماً هو في غاية التحرير ﴿ الليل والنهار ﴾ أي : هو العالم بمقادير الليل والنهار ، فيعلم القدر الذي تقومون من الليل والذي تنامون منه .

﴿ علم أن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي : أنه ﴿ لن تحصوه ﴾ أي : الليل لتقوموا

فيما يجب القيام فيه إلا بقيام جميعه ، وذلك يشق عليكم ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي : رجع بكم إلى التخفيف بالترخص لكم في ترك القيام المقدّر أوّل السورة .

وقوله تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر ﴾ أي : سهل ﴿ من القرآن ﴾ فيه قولان:

(208/789)

أحدهما أن المراد بهذه القراءة القراءة في الصلاة ، وذلك أنّ القراءة أحد أجزاء الصلاة فأطلق اسم الجزء على الكل ، والمعنى : فصلوا ما تيسر عليكم ، قال الحسن : يعني في صلاة المغرب والعشاء . قال قيس بن أبي حازم : صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أوّل ركعة بالحمد وأوّل آية من البقرة ثم ركع ، ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع ، فلما انصرف أقبل علينا ، فقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ .

قال القشيري : والمشهور أنّ نسخ قيام الليل كان في حق الأمة ، وبقيت الفريضة في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه : بل نسخ بالكلية ، فلا تجب صلاة الليل أصلاً ، وإذا ثبت أنّ القيام ليس فرضاً فقوله تعالى ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ معناه : اقرؤوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم .

والقول الثاني : أنّ المراد بقوله تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ دراسته وتحصيل حفظه وأن لا يعرض للنسيان سواء كان في صلاة أم غيرها ، قال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسين آية . قال القرطبي : قول كعب أصح لقوله صلى الله عليه وسلم "من قام بعشر آيات من القرآن لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين" خرجه أبو داود والطيالسي . وروى أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ خمسين آية في يوم أو في ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر" فقوله من المقنطرين أي : أعطي قنطاراً من الأجر . وجاء في الحديث "أنه ألف ومائتا أوقية ، والأوقية خير مما بين السماء والأرض" .

(209/789)

وقال أبو عبيدة : القناطير واحدها قنطار ، ولا تجد العرب تعرف وزنه ولا واحد للقنطار من لفظه . وقال ثعلب : المعوّل عليه عند العرب أنه أربعة آلاف دينار ، فإذا قالوا : قناطير مقنطرة ، فهي اثنا عشر ألف دينار . وقيل : إنّ القنطار ملء جلد ثور ذهباً . وقيل : ثمانون

ألفاً . وقيل : هو جملة كثيرة مجهولة من المال نقله ابن الأثير . قال القرطبي : والقول الثاني أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الأوّل مجاز ؛ لأنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله ، وإذا كان ذلك على قيام لا في قدر القراءة فلا دليل فيه على أنّ الفاتحة لا تتعين في الصلاة ، بل هي متعينة في كل ركعة لخبر الصحيحين : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب" ولخبر "لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب" رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما ، ولفعله صلى الله عليه وسلم كما في مسلم مع خبر البخاري "صلوا كما رأيتموني أصلي" ويحمل قوله تعالى ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ مع خبر "ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن" على الفاتحة أو على العاجز عنها جمعاً بين الأدلة .

(210/789)

ولما كان هذا نسخاً لما كان واجباً من قيام الليل أوّل السورة لعلمه سبحانه بعدم إحصائه فسر ذلك العلم المجمل بعلم مفصل بياناً لحكمة أخرى للنسخ ، فقال تعالى : ﴿ علم أن ﴾ مخففة من الثقيلة أي : أنه ﴿ سيكون ﴾ أي : بتقدير لا بدّ منه ﴿ منكم مرضى ﴾ جمع مريض وهذه السورة من أوّل ما نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ففي ذلك إشارة بأنّ أهل الإسلام يكثرون جدًّا ﴿ وآخرون ﴾ غير المرضى ﴿ يضربون ﴾ أي : يوقعون

الضرب ﴿ في الأرض ﴾ أي : يسافرون لأنّ الماشي يجد ويضرب برجله في الأرض ﴿ يبتغون ﴾ أي : يطلبون طلباً شديداً ﴿ من فضل الله ﴾ أي : بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده بالتجارة وغيرها ﴿ وآخرون ﴾ أي : منكم أيها المسلمون ﴿ يقاتلون ﴾ أي : يطلبون ويوقعون قتل أعداء الله تعالى ، ولذلك بينه بقوله تعالى ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل ، وسوّى سبحانه في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لنفقته على نفسه وعياله والإحسان فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله ، قال صلى الله عليه وسلم "ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ .

وقال ابن مسعود : أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء وقرأ ﴿ وآخرون ﴾ الآية . وقال ابن عمر : ما خلق الله تعالى موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إليّ من الموت بين شعبتي رجل ابتغى من فضل الله ضارباً في الأرض ، وقال طاووس : الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وأعاد قوله تعالى : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ أي : من القرآن للتأكيد .

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي : المكتوبة وهي خمس بجميع الأمور التي تقوم بها من أركانها وشروطها وأبعاضها وهيئاتها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي : زكاة أموالكم . وقال عكرمة وقتادة : صدقة الفطر لأنّ زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوع . وقيل : كل فعل خير وقال ابن عباس : طاعة الله تعالى والإخلاص .

﴿ وأقرضوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال التي منها الغنى المطلق من أبدانكم وأموالكم في أوقات صحتكم ويساركم ﴿ قرضاً حسناً ﴾ من نوافل الخيرات كلها برغبة تامّة وعلى هيئة جميلة في ابتدائه وانتهائه . وقال زيد بن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقيل : صلة الرحم وقرى الضيف . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله .

﴿ وما تقدّموا لأنفسكم ﴾ أي : خاصة سلفاً لأجل ما بعد الموت حيث لا تقدرون على الأعمال ﴿ من خير ﴾ أي خير كان من عبادات البدن والمال ﴿ تجدوه ﴾ أي : محفوظاً لكم ﴿ عند الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ هو ﴾ أي : لا غيره

﴿ خيراً ﴾ أي : لكم وجاز ضمير الفصل بين غير معرفتين ؛ لأن أفعل منه كالمعرفة ولذلك

يمتنع دخول أداة التعريف عليها . والمعنى : هو خير من الذي تدخرونه إلى الوصية عند الموت ، قاله ابن عباس . وقال الزجاج : خيراً لكم من متاع الدنيا . وروى البغوي بسنده عن عبد الله أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وراثه .

قال : اعلموا ما تقولون قالوا : ما نعلم إلا ذاك يا رسول الله . قال : إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر" .

﴿ وأعظم أجراً ﴾ قال أبو هريرة : يعني الجنة ويحتمل أن يكون أعظم أجراً لإعطائه بالجنة أجراً .

(212/789)

ولما كان الإنسان إذا عمل ما يمدح عليه ولا سيما إذا كان المادح له ربه ربما أدركه الإعجاب بين له أنه لا يقدر بوجه على أن يقدر الله تعالى حق قدره فلا يزال مقصراً فلا يسعه إلا العفو ، فقال عز من قائل : ﴿ واستغفروا الله ﴾ أي : اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الأعظم الذي لا تحيطون بمعرفته ، فكيف بأداء حق خدمته لتقصيركم عيناً وأثراً بفعل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه .

﴿ إنّ الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ غفور ﴾ أي : بالغ الستر لأعيان الذنوب وآثارها حتى لا يكون عنها عقاب ولا عتاب ﴿ رحيم ﴾ أي : بالغ الإكرام بعد الستر إفضالاً وإحساناً وتشريفاً وامتناناً .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة المزمّل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 140.160 ﴾

(213/789)

وقال القاسمى :

سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾

أي : المتزمل . من تزمل بثيابه إذا تلفف بها . فأدغم التاء في الزّاي ؛ خوطب صلى الله عليه وسلم بحكاية حاله وقت نزول الوحي ، ملاطفة وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمل الزِّمْل ، إذا تحمل الحمل ؛ ففيه استعارة ،

شَبّه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة .

قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقي ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت في نزول سورة المدثر ، لا في هذه السورة ، كما سيأتي إن شاء الله ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد .

﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ أي : فيه للصلاة ، ودع التزمُّل للهجوع ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن التي لا يمكن بقاؤه بدونها .

ثم بيّن تعالى قدر القيام مخيراً له بقوله :

﴿ نِصْفَهُ ﴾ أي : نصف الليل بدل من الليل .

﴿ أَوِ انقُصْ مِنْهُ ﴾ أي : من النصف ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي : إلى الثلث .

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي : النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلاً وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عديله .

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ أي : بيّنه تبييناً ، وترسّل فيه ترسلاً .

قال الزمخشري : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤده ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان ، وأن لا يهذّه

هذّاً ، ولا يسرده سرداً .

تنبيه :

قال السيوطي : في الآية استحباب ترتيل القراءة ، وأنه أفضل من الهذّ به ، وهو واضح .

(214/789)

وقد ثبت في السُّنة أنه صلى الله عليه وسلم <كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً ، وأنه كان يقف على رؤوس الآي> .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبُّر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبُّره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ أي : رصيناً ، لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عداه .

ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوّز بالثقيل عنه . أو ثقيلاً على المتأمّل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفيه للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلاً تلقّيه ، لقول عائشة رضي الله عنها : رأيته

صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، < وإن جبينه ليتفصد عرقاً > . وعلى كل فالجملة معللة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ أي : نشأته وطبيعته خلقه ومظهره ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً ﴾ أي : موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال .

﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي : أشدّ مقالاً وأصوبه .

قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول ، ولا يكون دون تسمّعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطي عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هي المعاني المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أثراً . وأقوم قيلاً ، أصحُّ مما تخرجه الأفكار بالنهار ، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال .

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ أي : تقلباً في مهماتك ، واشتغالاً بها ، فلذا أمرت بقيام الليل .

(215/789)

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي : دم على ذكره ليلاً ونهاراً . قال الزمخشري : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكرٍ طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعات ليله ونهاره .

﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أي : أخلص إليه بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيماً .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ أي : تكل إليه مهامك ، فإنه سيكفيكها .

قال ابن جرير : أي : فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : من الأذى والفَرْي ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ أي : بالإعراض عن مكافأتهم بالمثل ، كما قال تعالى ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : 48] ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : دعني وإياهم ، وكل أمرهم إليّ ، فإن بي غنيمة عنك في الانتقام منهم .

﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أي : التنعم ، يريد صناديد قريش ومترفيهم .

﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ أي : تمهل عليهم زماناً ، أو إمهالاً قليلاً .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ أي : قيوداً ﴿ وَجَحِيماً ﴾ أي : نار شديدة الحرّ والاتّقاد ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي : يغصّ به آكله فلا يسيغه ، ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي : ونوعاً آخر

من أنواع العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه . أي : فلا ترى موكولاً إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أي : تضطرب وترتجّ بالزلزال ، ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ أي : رملاً متفرقاً منثوراً .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ أي : بإجابة من أجاب وإباء من أبى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ أي : يدعوه إلى الحق .

(216/789)

﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ أي : ثقيلاً ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً في اليم .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [17 - 19]

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ أي : كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله في الهول ما ذكر .

قال ابن أبي الحديد : لأن في اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصي الأطفال ، كلام جار مجرى

المثل . وليس ذلك على حقيقته ؛ لأن الأمَّة مجتمعة على أن الأطفال لا تتغير حُلاهم في الآخرة إلى الشيب . والأصل في هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإِنْسَانْ شاب سريعاً . قال أبو الطيب :

~والهمُّ يخترم الجسيمَ نحافةً ويشيب ناصية الصبيّ ويُهْرِمُ

﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ قال الزمخشريّ : وصف لليوم بالشدة أيضاً . وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد الوجوه :

منها : تأويله بالمشتق . ومنها : أنها على النسب ، أي : ذات انفطار ، نحو : مرضع وحائض .

ومنها : أنها تذكر وتؤنث . ومنها : أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحدة بالتاء ، فيقال : سماءة ، وفي اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء في ﴿ بِهِ ﴾ سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى في .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ أي : لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم .

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : الآيات الناطقة بالوعيد الشديد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : موعظة لمن اعتبر بها واتّعظ ، ﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي : بالإيمان به ، والعمل بطاعته

.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾

أي : تتهجد فيه هذه التارات المختلفة ، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالاً لأمره وتبتلاً إليه ، ﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي : يعلمهم كذلك ، ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : أن يجعلهما على مقادير يجريان عليها ، فتارة يعتدلان ، وتارة يزيد أحدهما في الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم . أشار إليه ابن كثير . أو المعنى : السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً .

﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي : قيام الليل على النحو الذي دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للحرج والعسر ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : عاد عليكم باليسر ورفع الحرج .

﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أي : في صلاة الليل بلا تقدير . أو المراد : لا تتجاوزوا ما قدره لكم ، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم في قيام الليل كله ، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى الكمالات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلي الليل كله ، مخافة أن لا يصيب مما أمر به من قيام ما فرض عليه – نقله الرازي – .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى ﴾ أي : يضعفهم المرض عن قيام الليل ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : للتجارة وغيرها ، فيقعدهم ذلك عن قيام الليل ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : لنصرة الدين ، فلا يتفرّغون للقيام فيه ﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي : من القرآن ، ولا تحرّجوا أنفسكم ، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

تنبيهات :

الأول : ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

(218/789)

روى ابن جرير عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيراً يصلي عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب - وكان بهم رحيماً - فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : < يا أيها الناس ؟ اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ما دمتم عليه > ؛ ونزل القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ الآية ، حتى كان الرجل يربط الحبل

ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى اللهُ ما يبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل .

قال ابن كثير : والحديث في " الصحيح " بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي مكية . انتهى كلامه .

أقول : وبمثل هذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : ونزلت الآية ، الاستشهاد بها في قضية تنطبق عليها ، كما بيناه مراراً .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً ، فشقّ ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم ﴾ الآية ، فوسع الله – وله الحمد – ولم يضيق .

وعن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قاموا بها حَوْلاً حتى ورمت أقدامهم وسُوقهم ، حتى نزلت : ﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ فاستراح الناس .

وهكذا روي عن سعيد والحسن وعكرمة وقتادة .

قال ابن حجر في " شرح البخاري " : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره المروزيّ . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطيّ في "الإكليل" : قوله تعالى : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به ندب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً ، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة ما فيه ، وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للندب ، يرى أن آخر السورة تعليمٌ لهم الرفقَ بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه ما يدل على عنايتهم بالمندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة في ربطهم الحبل للتعلق به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثاني : قال ابن كثير : في قوله تعالى :

﴿ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ تعبير عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ [الإسراء : 110] ، أي : بقراءتك . وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه . واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في "الصحيحين" ، وهو : < ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن > . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو في "الصحيحين" أيضاً ، أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : < لا صلاة إلا أن يقرأ بفاتحة الكتاب > . انتهى .

الثالث : في قوله تعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ علم من أعلام النبوة .

قال ابن كثير : هذه الآية ، فهي السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

الرابع : قال ابن الفَرَس : في قوله :

(220/789)

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ فضيلة التجارة ، لسوقها في الآية مع الجهاد .

أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله ، أحب إلي أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية .

وقال السيوطي : هذه الآية أصل في التجارة .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ أي : زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم

تبين إلا بالمدينة .

﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ يعني به بذل المال في سبيل الخيرات على أحسن وجه ، يكون من أطيب المال ، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المنّ والأذى . وسر الأمر بالحسن أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالي بأي شيء وأي مقدار يعطي منه ، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ أي : في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ أي : ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا .

﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ ﴾ أي : سلوه غفران ذنوبكم ، ﴿ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب ، ورحمة أن يعاقبكم عليها بعد توبتهم منها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 252 . 260 ﴾

(221/789)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المزمل

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) ﴾

إنها دعوة السماء , وصوت الكبير المتعال . . قم . . قم للأمر العظيم الذي ينتظرك , والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة . . قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد . .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه (صلى الله عليه وسلم) من دفء الفراش , في البيت الهادئ والحضن الدافئ . لتدفع به في الخضم , بين الزعازع والأنواء , وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء .

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا , ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا . فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير . . فماله والنوم ؟ وماله والراحة ؟ وماله والفراش الدافئ , والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حقيقة الأمر وقدره , فقال لخديجة – رضي الله عنها – وهي تدعوه أن يطمئن وينام: " مضى عهد النوم يا خديجة " ! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق !

(يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن

ترتيلا) . .

إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة . . قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل . . قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولا تطر ولا تخلع في التنغيم .

وقد صح عن وتر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلا , يرتل فيه القرآن ترتيلا .

(222/789)

روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يحيى بن سعيد – هو ابن أبي عروبة – عن قتادة , عن زرارة ابن أوفى , عن سعيد بن هشام . . أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ? قال: نعم . قال: ائت عائشة فسلها , ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك . . . ثم يقول سعيد بن هشام: قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت: ألست تقرأ القرآن ? قلت: بلى . قالت: فإن خلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان القرآن . فهممت أن أقوم , ثم بدا لي قيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قلت: يا

أم المؤمنين , أنبئيني عن قيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت:ألست تقرأ هذه السورة:(يا أيها المزمل)؟ قلت:بلى . قالت:فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ; فقام رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهرا . ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة , فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة . . فهممت أن أقوم , ثم بدا لي وتر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

من الاية 5 الى الاية 6

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)

(223/789)

فقلت:يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالت:كنا نعد له سواكه وطهوره , فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل , فيتسوك , ثم يتوضأ , ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن , إلا عند الثامنة , فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو , ثم ينهض وما يسلم , ثم يقوم ليصلي التاسعة , ثم يقعد فيذكر الله وحده , ثم يدعوه , ثم يسلم تسليما يسمعنا . ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم , فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ,

فلما أسن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم , فتلك تسع يا بني . وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشرة ركعة . ولا أعلم نبي الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح , ولا صام شهرا كاملا غير رمضان . . . "

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه . .

(إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) . .

هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف . . والقرآن في مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقيل في ميزان الحق , ثقيل في أثره في القلب: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . .

وإن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه , لثقيل , يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة , لثقيل , يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الإتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذي تهيأ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) لثقيل , يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب , ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات , لثقيل , يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام , والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ; والإتصال بالله , وتلقي فيضه ونوره , والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه , وترتيل القرآن والكون ساكن , وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة ; واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل , والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل ! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل , ويعصمه من وسوسة الشيطان , ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير .

(إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا) . .

(ناشئة الليل) هي ما ينشأ منه بعد العشاء ; والآية تقول: (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ) :أي أجهد للبدن , (وأقوم قيلا) :أي أثبت في الخير [كما قال مجاهد] فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش , بعد كد النهار , أشد وطأ وأجهد للبدن ; ولكنها إعلان لسيطرة الروح , واستجابة لدعوة الله , وإيثار للأنس به , ومن ثم

المزمل

من الاية 7 الى الاية 9

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)

فإنها أقوم قيلا , لأن للذكر فيها حلاوته , وللصلاة فيها خشوعها , وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب في القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا , قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره . . والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره , ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه , وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا , وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه .

(225/789)

والله – سبحانه – وهو يعد عبده ورسوله محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليتلقى القول الثقيل , وينهض بالعبء الجسيم , اختار له قيام الليل , لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا . ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات:

(إن لك في النهار سبحا طويلا) . .

فلينقض النهار في هذا السبح والنشاط , وليخلص لربه في الليل , يقوم له بالصلاة والذكر:

(واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) . .

وذكر اسم الله , ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان , على عدة المسبحة المئوية أو الألفية ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ; أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله , والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر , والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر , والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله , ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله , يتجه إليه من يريد الاتجاه:

(رب المشرق والمغرب , لا إله إلا هو , فاتخذه وكيلا) . .

فهو رب كل متجه . . رب المشرق والمغرب . . وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود ; والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في هذا الوجود . والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته , وهيمنته على المشرق والمغرب , أي على الكون كله . . والرسول الذي ينادى:قم . . لينهض بعبئه الثقيل , في حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل .

الدرس الثاني:10 – 19 تهديد الكفار ولفت نظرهم لمصارع السابقين ومشاهد من أهوال الآخرة

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلي بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلا . فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا:

واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترتجف الأرض والجبال , وكانت الجبال كثيبا مهيلا . . إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا , فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا . فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا , السماء منفطر به كان وعده مفعولا . .

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة , فإن هذا الشوط الثاني منها يكون قد نزل متأخرا بعد الجهر بالدعوة , وظهور المكذبين والمتطاولين , وشدتهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى المؤمنين . فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال

من الاية 10 الى الاية 14

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُثِيباً مَّهِيلاً (14)

النبي (صلى الله عليه وسلم) من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة .

(227/789)

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر , بعد التوجيه إلى القيام والذكر , وهما كثيرا ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل , سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين , وكلاهما شاق عسير . . نجد التوجيه إلى الصبر . (واصبر على ما يقولون) مما يغيظ ويحنق , (واهجرهم هجرا جميلا) . . لا عتاب معه ولا غضب , ولا هجر فيه ولا مشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة – وبخاصة في أوائلها . . كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر , ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير .

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب , يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله , مرة ومرة ومرة ; ولعباده المؤمنين برسله . وما يمكن أن يقوم

على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده , والصبر جنته وسلاحه , والصبر ملجؤه وملاذه . فهي جهاد . . جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها . . وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة , وتتفلت , وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها . والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله , والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبا !

اصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا . . وخل بيني وبين المكذبين , فأنا بهم كفيل: (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) . . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين . . (ذرني والمكذبين) . . والمكذبون بشر من البشر , والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض "بكن" ولا تزيد !

ذرني والمكذبين . . فهي دعوتي . وما عليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجرا جميلا . وسأتولى أنا حربهم , فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين !

(228/789)

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار , إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة . . (أولي النعمة) مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق !

(ومهلهم قليلا) ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى , بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أيا كان الأمد , ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يمهل قليلا ويأخذ تنكيلا:

(إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) . .

والأنكال – هي القيود – والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم . . كلها جزاء مناسب (لأولي النعمة) ! الذين لم يرعوا النعمة , ولم يشكروا المنعم , فاصبر يا محمد عليهم صبرا جميلا وخل بيني وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيودا تنكل بهم وتؤذيهم , وجحيما تجحمهم وتصليهم , وطعاما تلازمه الغصة في الحلق , وعذابا أليما في يوم مخيف . . .

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف:

(يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) . .

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجاليها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف !

من الاية 15 الى الاية 19

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (17) السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع , إلى المكذبين أولي النعمة , يذكرهم فرعون الجبار , وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

(229/789)

(إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا , فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) .

هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعا , بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترتجف وتنهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ; فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب ?

(فكيف تتقون – إن كفرتم – يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به ؟) . .

وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء , ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة , وفي الإنسانية الحية . . في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكدها تأكيدا . (كان وعده مفعولا) . . واقعا لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان !

وأمام هذا الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة . . طريق الله . .

إن هذه تذكره , فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . .

وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر , من السبيل المريب , إلى هذا الهول العصيب !

وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين , تنزل على قلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين . إذ يحسون أن ربهم معهم , يقتل أعدائهم وينكل بهم . وإن هي إلا مهلة قصيرة , إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر , حينما يجيء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

إن الله لا يدع أولياءه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين . . .

الدرس الثالث: 20 قيام الليل والتخفيف فيه

والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة , نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال:

(230/789)

إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه , وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم , فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى . وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله . فاقرأوا ما تيسر منه , وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة , وأقرضوا الله قرضا حسنا , وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا , واستغفروا الله , إن الله غفور رحيم . .

إنها لمسة التخفيف الندية , تمسح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهي على النبي والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقي له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفي الحديث مودة وتطمين: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) . . إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت في ميزان الله . . إن ربك يعلم

من الاية 20 الى آخر السورة

(231/789)

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)

(232/789)

أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ; وتركت دفء الفراش في الليلة القارسة , ولم تسمع نداء المضاجع المغري وسمعت نداء الله . . إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك . . (والله يقدر الليل والنهار) . . فيطيل من هذا ويقصر من ذاك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لا يريد أن يعنتكم ولا أن يشق عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا عن أنفسكم , وخذوا الأمر هينا : فاقرؤوا ما تيسر من القرآن . . في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت . . وهناك – في علم الله – أمور تنتظركم تستنفذ الجهد والطاقة , ويشق معها القيام الطويل : (علم أن سيكون منكم مرضى) "يصعب عليهم هذا القيام" (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) . . في طلب الرزق والكد فيه , وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! (وآخرون يقاتلون في سبيل الله) . . فقد علم الله أن سيأذن لكم في الإنتصار من ظلمكم بالقتال , ولإقامة راية للإسلام في الأرض يخشاها البغاة ! فخففوا إذن على أنفسكم (فاقرأوا ما تيسر منه) بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد . . واستقيموا على فرائض الدين : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) . . وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله يبقى لكم خيره . . (وأقرضوا الله قرضا حسنا , وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه

عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) . . واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جد وتحرى الصواب: (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) . .

(233/789)

إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين , فجعل قيام الليل لهم تطوعا لا فريضة . أما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد مضى على نهجه مع ربه , لا يقل قيامه عن ثلث الليل , يناجي ربه , في خلوة من الليل وهدأة , ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه (صلى الله عليه وسلم) دائما مشغولا بذكر الله , متبتلا لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه . على ثقل ما يحمل على عاتقه , وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقال . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3744.3749﴾

(234/789)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) ﴾

بين تعالى المراد من المقدار المطلوب قيامه بما جاء بعده ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : 3] أي من نصفه أو زد عليه أي على نصفه ، وفي هذه الآية الكريمة وما بعدها بيان لمجمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ الإسراء : 79] الآية .

وفيها بيان لكيفية القيام ، وهو بترتيل القرآن ، وفيها رد على مسألتين اختلف فيهما .

الأولى منهما : عدد ركعات قيام الليل ، أهو ثماني ركعات أو أكثر ؟

وقد خير صلى الله عليه وسلم بين هذه الأزمنة من الليل ، فترك ذلك لنشاطه واستعداده واتياحه . فلا يمكن التعبد بعدد لا يصح دونه ولا يجوز تعديه ، واختلف في قيام رمضان خاصة ، والأولى أن يؤخذ بما ارتضاه السلف ، وقد قدمنا في هذه المسألة رسالة عامة هي رسالة التراويح أكثر من ألف عام في مسجد النَّبي عليه السلام ، وقد استقر العمل على عشرين في رمضان .

والمسألة الثانية : ما يذكره الفقهار في كيفية قيام الليل عامة هل الأفضل كثرة الركعات لكثرة الركوع والسجود ، وحيث إن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، أم طول القيام للقراءة ؟ حيث إن للقارئ بكل حرف عشر حسنات ، فهنا قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ﴾ [الزمل : 4] نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلاً ، وأكد بالمصدر تأكيداً

لإرادة هذا المعنى كما قال ابن مسعود : " لا تنثروه نثر الرمل ، ولا تهذوه هذا الشّعر ؟ قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة "

وقد بينت أم سلمة رضي الله عنها تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 1 – 4] رواه أحمد .

(235/789)

وفي الصحيح عن أنس : سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت مداً ثم قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيم ﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم .

تنبيه

إن للمد حدوداً معلومة في التجويد حسب تلقي القراء رحمهم الله ، فما زاد عنها فهو تلاعب ، وما قلّ عنها فهو تقصير في حق التلاوة .

ومن هذا يعلم أن المتخذين القرآن كغيره في طريقة الأداء من تمطيط وتزيد لم يراعوا معنى هذه الآية الكريمة ، ولا يمنع ذلك تحسين الصوت بالقراءة ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم " زينوا القرآن بأصواتكم " .

وقال أبو موسى رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت أعلم أنك سمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً . وهذا الوصف هو الذي يتأتى منه الغرض من التلاوة ، وهو التدبر والتأمل ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [النساء : 82] ، كما أنه هو الوصف الذي يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] ، ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلاً ، فإذا كان كالشعر أو الكلام العادي لما فهم ، وإذا كان مطرباً كالأغاني لما أثر . فوجب الترتيل كما بين صلى الله عليه وسلم .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)

معلوم أن القول هنا هو القرآن كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : 19] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 51] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطلاق : 13] وقوله ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾ [النساء : 122] ونحو من الآيات .

ولكن وصفه بالثقل مع أن الثقل للأوزان وهي المحسوسات .

فقال بعض المفسرين : إن الثقل في وزن الثواب ، وقيل في التكاليف به ، وقيل من أثناء نزول الوحي عليه ، وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم ، فمن جهة نزوله فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الوحي أخذته برحاء شديدة وكان يحمر وجهه كأنه مذهبه ، وكان إذا نزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو في سفره على راحلته بركت به الناقة ، وجاء عن أنس أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان واضعاً رأسه على فخذه ، فأتاه الوحي قال أنس : فكان فخذي تكاد تنفصل مني ، ومن جانب تكاليفه فقد ثقلت على السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها كما هو معلوم ومن جانب ثوابه فقد جاء في حديث مسلم . " الحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن أو تملأن ما بين السماء والأرض " وحديث البطاقة وكل ذلك يشهد بعضه لبعض ولا ينافيه .

وقد بين تعالى أن هذا الثقل قد يخففه الله على المؤمنين ، كما في الصلاة في قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 45 – 46] ، وكذلك القرآن ثقيل على الكفار خفيف على المؤمنين محبب إليهم .

وقد جاء في الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذاً وارتياحاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنِ للذِّكْرِ ﴾ [القمر : 17] فهو ثقيل في وزنه ثقيل في تكاليفه ، ولكن يخففه الله وييسره لمن هداه ووفقه إليه .

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6)

أي ما تنشأه من قيام الليل أشد مواطأة للقلب وأقوم قيلاً في التلاوة والتدبر والتأمل ، وبالتالي بالتأثر ، ففيه إرشاد إلى ما يقابل هذا الثقل فيما سيلقى عليه من القول ، فهو بمثابة التوجيه غلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة .

(237/789)

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : لا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل ، وقد كان رحمه الله تعالى لا يترك ورده من الليل صيفاً أو شتاء ، وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] فكان صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة . وهكذا هنا فإن ناشئة الليل كانت عوناً له صلى الله عليه وسلم على ما سيلقى عليه من ثقل القول .

مسألة

قيل : إن قيام الليل كان فرا عليه صلى الله عليه وسلم قبل أن تفرض الصلوات الخمس لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] والنافلة الزيادة ، وقيل :

كان فرضاً عليه صلى الله عليه وسلم وعلى عامة المسلمين وعلى عامة المسلمين ، لقوله تعالى في هذه السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ﴾ المزمل : 20] ثم خفف هذا كله بقوله :

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ﴾ [المزمل : 20] إلى قوله : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ [المزمل : 20] .

ولكنه صلى الله عليه وسلم كان إذا عمل عملاً داوم عليه ، فكان يقوم الليل شكراً لله كما في حديث عائشة رضي الله عنها " أفلا أكون عبداً شكوراً " وبقي سنة لغيره بقدر ما يتيسر لهم . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(238/789)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلًا ﴾

رَوَى زرارة بْنُ أَوْفَى عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَتْ : أَمَا تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قُلْت : بَلَى قَالَتْ : " فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ الْقِيَامَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ تَعَالَى خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ أَنْزَلَ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَمَّا نَزَلَتْ أَوَّلُ الْمُزَّمِّلِ كَانُوا يَقُومُونَ نَحْوَ قِيَامِهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى نَزَلَ آخِرُهَا ، وَكَانَ بَيْنَ نُزُولِ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا نَحْوَ سَنَةٍ " وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " بَيِّنْهُ تَبْيِينًا " وَقَالَ طَاوُسٌ : " بَيِّنْهُ حَتَّى تَفْهَمَهُ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ قَالَ : " وَالِ بَعْضَهُ عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ عَلَى تُؤَدَةٍ " .

(239/789)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي نَسْخِ فَرْضِ قِيَامِ اللَّيْلِ وَأَنَّهُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ مُرَغَّبٌ فِيهِ ؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثَارٌ كَثِيرَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَيْهِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَحَبُّ الصَّلَاةِ إلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُد كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُد كَانَ يَصُومُ

يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ﴾ وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ ، حَتَّى إذَا انْفَجَرَ عَمُودُ الصُّبْحِ أَوْتَرَ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ ثُمَّ سَبَّحَ وَكَبَّرَ ، حَتَّى إذَا انْفَجَرَ الْفَجْرُ

صَلَّى رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ ﴾ وَعَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ﴾

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ : " إذَا نَشَأْت قَائِمًا فَهِيَ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ كُلِّهِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " اللَّيْلُ كُلُّهُ إذَا قَامَ يُصَلِّي فَهُوَ نَاشِئَةٌ وَمَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَهُوَ نَاشِئَةٌ " ؛ وَعَنْ الْحَسَنِ مِثْلُهُ ، وَقَالَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ قَالَ : " أَجْهَدُ لِلْبَدَنِ وَأَثْبَتُ فِي الْخَيْرِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ قَالَ : " أَثْبَتُ قِرَاءَةً " .

(240/789)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّك وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " أَخْلِصْ إلَيْهِ إخْلَاصًا " وَقَالَ قَتَادَةُ : " أَخْلِصْ إلَيْهِ الدُّعَاءَ وَالْعِبَادَةَ " وَقِيلَ : " الِانْقِطَاعُ إلَى اللَّهِ وَتَأْمِيلُ الْخَيْرِ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ " وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهِ فِي تَكْبِيرَةِ الِافْتِتَاحِ ؛ لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي بَيَانِ الصَّلَاةِ

، فَيَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الِافْتِتَاحِ بِسَائِرِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ : " فَرَاغًا طَوِيلًا " .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : " هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً " قَالَ مُجَاهِدٌ : وَاطَأَ اللِّسَانُ الْقَلْبَ مُوَاطَأَةً وَوِطَاءً " وَمَنْ قَرَأَ " وَطْئًا " قَالَ : مَعْنَاهُ هِيَ أَشَدُّ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّك يَعْلَمُ أَنَّك تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيْ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ انْتَظَمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَانِيَ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ نَسَخَ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ الْمَفْرُوضَ كَانَ بَدِيًّا .

وَالثَّانِي : دَلَالَتُهَا عَلَى لُزُومِ فَرْضِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ .

وَالثَّالِثُ : دَلَالَتُهَا عَلَى جَوَازِ الصَّلَاةِ بِقَلِيلِ الْقِرَاءَةِ .

وَالرَّابِعُ أَنَّهُ مَنْ تَرَكَ قِرَاءَةَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَقَرَأَ غَيْرَهَا أَجْزَأَهُ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ .

(241/789)

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا نَزَلَ ذَلِكَ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ ؛ قِيلَ لَهُ : إنَّمَا نَسَخَ فَرْضَهَا وَلَمْ يَنْسَخْ شَرَائِطَهَا وَسَائِرَ أَحْكَامِهَا وَأَيْضًا فَقَدْ أَمَرَنَا بِالْقِرَاءَةِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّسْبِيحِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّمَا أَمَرَ بِذَلِكَ فِي التَّطَوُّعِ فَلَا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ عَلَى وُجُوبِهَا فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ؛ قِيلَ لَهُ : إذَا ثَبَتَ وُجُوبُهَا فِي التَّطَوُّعِ فَالْفَرْضُ مِثْلُهُ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَلَا مَوْضِعَ يُلْزِمُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ إلَّا فِي الصَّلَاةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْقِرَاءَةَ فِي الصَّلَاةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةَ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَالصَّلَاةُ نَفْسُهَا لَيْسَتْ بِفَرْضٍ فَكَيْفَ يَدُلُّ عَلَى فَرْضِ الْقِرَاءَةِ ؟ قِيلَ لَهُ : إنَّ صَلَاةَ التَّطَوُّعِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَرْضًا فَإِنَّ عَلَيْهِ إذَا صَلَّاهَا أَنْ لَا يُصَلِّيَهَا إلَّا بِقِرَاءَةٍ ، وَمَتَى دَخَلَ فِيهَا صَارَتْ الْقِرَاءَةُ فَرْضًا ، كَمَا أَنَّ عَلَيْهِ اسْتِيفَاءَ شَرَائِطِهَا مِنْ الطَّهَارَةِ وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ ، وَكَمَا أَنَّ

الْإِنْسَانَ لَيْسَ عَلَيْهِ عَقْدُ السَّلَمِ وَسَائِرُ عُقُودِ الْبِيَاعَاتِ وَمَتَى مَا قَصَدَ إلَى عَقْدِهَا فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَعْقِدَهَا إلَّا عَلَى مَا أَبَاحَتْهُ الشَّرِيعَةُ ؛ أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ فَلْيُسْلِمْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ ﴾ وَلَيْسَ عَلَيْهِ عَقْدُ السَّلَمِ ؟ وَلَكِنَّهُ مَتَى قَصَدَ إلَى عَقْدِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْقِدَهُ بِهَذِهِ الشَّرَائِطِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ الصَّلَاةُ نَفْسُهَا ، فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ فِيهَا ؛ قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ فِيهِ صَرْفَ الْكَلَامِ عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ إلَى الْمَجَازِ ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ إلَّا بِدَلَالَةٍ ؛ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ سَلَّمَ لَك مَا ادَّعَيْت كَانَتْ دَلَالَتُهُ قَائِمَةً عَلَى فَرْضِ الْقِرَاءَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعَبِّرْ عَنْ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ إلَّا وَهِيَ مِنْ أَرْكَانِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَرَادَ بِهِ الصَّلَاةَ ؛ وَقَالَ : ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ ، فَعَبَّرَ عَنْ الصَّلَاةِ بِالرُّكُوعِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَرْكَانِهَا .

آخِرُ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(243/789)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

[فِيهَا تِسْعُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ فِيهَا مَعَ الَّتِي تَلِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ

: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ هُوَ الْمُلْتَفُّ، بِإِضَافَةِ الْفِعْلِ إلَى الْفَاعِلِ، وَكُلُّ شَيْءٍ لُفَّ فِي شَيْءٍ فَقَدْ زُمِّلَ بِهِ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْفَافَةِ الرَّاوِيَةِ وَالْقِرْبَةِ زِمَالٌ.

وَفِي الْحَدِيثِ فِي قَتْلَى أُحُدٍ: ﴿ زَمِّلُوهُمْ بِثِيَابِهِمْ وَدِمَائِهِمْ ﴾ أَيْ لَفِّفُوهُمْ، يُقَالُ تَزَمَّلَ يَتَزَمَّلُ؛ فَإِذَا أُدْغِمَتْ التَّاءُ قُلْت: ازَّمَّلَ بِتَشْدِيدَيْنِ.

وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، قِيلَ لَهُ: يَا مَنْ تَلَفَّفَ فِي ثِيَابِهِ أَوْ فِي قَطِيفَتِهِ قُمْ؛ قَالَهُ إبْرَاهِيمُ وَقَتَادَةُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْمَجَازِ كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: يَا مَنْ تَزَمَّلَ بِالنُّبُوَّةِ.

رَوَى عِكْرِمَةُ أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَاهُ يَا مَنْ تَزَمَّلَ، أَيْ زَمَلْت هَذَا الْأَمْرَ فَقُمْ بِهِ.

[فَأَمَّا الْعُدُولُ عَنْ الْحَقِيقَةِ إلَى الْمَجَازِ فَلَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ لَا سِيَّمَا وَفِيهِ خِلَافُ الظَّاهِرِ؛ وَإِذَا تَعَاضَدَتْ الْحَقِيقَةُ وَالظَّاهِرُ لَمْ يَجُزْ الْعُدُولُ عَنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُ عِكْرِمَةَ: إنَّك زَمَلْت هَذَا الْأَمْرَ فَقُمْ بِهِ]؛ وَإِنَّمَا يَسُوغُ هَذَا التَّفْسِيرُ لَوْ كَانَتْ الْمِيمُ مَفْتُوحَةً مُشَدَّدَةً بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَأَمَّا وَهُوَ بِلَفْظِ الْفَاعِلِ فَهُوَ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ زُمِّلَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ صَحِيحٌ فِي الْمَجَازِ ، لَكِنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَيَشْهَدُ لِمَعْنَاهُ حَدِيثٌ يُؤْثَرُ لَمْ يَصِحَّ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَادَكُمْ صَلَاةً إِلَى صَلَاتِكُمْ هَذِهِ وَهِيَ الْوِتْرُ ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ .

﴾

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْمَعْنَى وَهُوَ الْأَوَّلُ فِي الْقَوْلِ قَوْلُهُ : ﴿ قُمْ ﴾ هُوَ فِعْلٌ لَا يَتَعَدَّى وَلَكِنَّهُ عَلَى أَصْلِ الْأَفْعَالِ الْقَاصِرَةِ فِي تَعَدِّيهِ إِلَى الظُّرُوفِ ، فَأَمَّا ظَرْفُ الزَّمَانِ فَسَائِغٌ فِيهِ ، وَارِدٌ كَثِيرًا بِهِ يُقَالُ : قَامَ اللَّيْلَ ، وَصَامَ النَّهَارَ ، فَيَصِحُّ وَيُفِيدُ .

وَأَمَّا ظَرْفُ الْمَكَانِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِوَاسِطَةٍ ، لَا تَقُولُ : قُمْتُ الدَّارَ حَتَّى تَقُولَ وَسَطَ الدَّارِ وَخَارِجَ الدَّارِ .

وَقَدْ قِيلَ قُمْ هَاهُنَا بِمَعْنَى صَلِّ ؛ عَبَّرَ بِهِ عَنْهُ ، وَاسْتُعِيرَ لَهُ عُرْفًا فِيهِ بِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ ﴿ اللَّيْلَ ﴾ فَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ .

وَاخْتُلِفَ فِي وَجْهِ تَخْصِيصِهِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَشَقُّ .

وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ وَقِيلَ : خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ كَانَ فَرْضًا .

فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَائِشَةَ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ : ﴿ قَالَ سَعْدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ : فَانْطَلَقْتُ إِلَى عَائِشَةَ .

فَقُلْت : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَتْ أَلَسْت تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْت : بَلَى .

قَالَتْ : فَإِنَّ خُلُقَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ .

(245/789)

قَالَ : فَهَمَمْت أَنْ أَقُومَ وَلَا أَسْأَلُ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ .

ثُمَّ قُلْت : أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَتْ : أَلَسْت تَقْرَأُ : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ، قُلْت : بَلَى .

قَالَتْ : فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَتِهِ ﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ سَعَةً لِلْإِنْسَانِ وَمَجَالًا لِلْعَمَلِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ، وَكَمَا أَنَّ الْعَمَلَ فِي الْآدَمِيِّ أَصْلٌ خِلْقِيٌّ ، فَكَذَلِكَ الزَّمَانُ لِلسِّيَاحَةِ وَجْهٌ خِلْقِيٌّ أَيْضًا ، لَكِنَّ الْحِكْمَةَ فِيهِ أَنْ يَقْدُمَ لِلدَّارِ الْأُخْرَى ، وَيَعْتَمِدَ فِيهِ قَبْلَ الْعَمَلِ مَا هُوَ بِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى ، وَلَوْ

عُمْرُهُ كُلُّهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ وَرُزِقَ عَلَى ذَلِكَ قُدْرَةَ مَا كَانَ قَضَاءً لِحَقِّ النِّعْمَةِ ، فَوَضَعَهُ اللَّهُ أَوْقَاتًا لِلْعِبَادَةِ ، وَأَوْقَاتًا لِلْعَادَةِ .

(246/789)

فَالنَّهَارُ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ : الْأَوَّلُ : مِنْ الصُّبْحِ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ، مَحِلٌّ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَهُوَ فُسْحَةٌ لِلْفَرِيضَةِ ، فَإِنْ أُدِّيَتْ كَانَتْ فِيهِ مَحِلًّا لِلذِّكْرِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا صَلَّى الصُّبْحَ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ [حِسًّا] ، فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ إلَى وَظِيفَتِهِ الْآدَمِيَّةِ حَتَّى تَبْيَضَّ الشَّمْسُ ، فَيَكُونَ هُنَالِكَ عِبَادَةً نَفْلِيَّةً يَمْتَدُّ وَقْتُهَا إلَى أَنْ تَجِدَ الْفِصَالُ حَرَّ الشَّمْسِ فِي الْأَرْضِ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ إذَا رَمِضَتْ الْفِصَالُ ﴾ .

وَهُوَ أَيْضًا خِلْفَةٌ لِمَنْ نَامَ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿ مَنْ فَاتَهُ حِزْبُهُ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّاهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الصُّبْحِ إلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَفُتْهُ وَهُوَ مَغْمُورٌ بِحَالِ الْمَعَاشِ . ﴾ [قَالَ الْإِمَامُ] : كُنَّا بِثَغْرِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مُرَابِطِينَ أَيَّامًا ، وَكَانَ فِي أَصْحَابِنَا رَجُلٌ حَدَّادٌ ، وَكَانَ يُصَلِّي مَعَنَا الصُّبْحَ ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ، ثُمَّ يَحْضُرُ حَلْقَةَ الذِّكْرِ ، ثُمَّ يَقُومُ إلَى حِرْفَتِهِ ، حَتَّى إذَا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالظُّهْرِ رَمَى بِالْمِرْزَبَّةِ فِي

أَثْنَاءِ الْعَمَلِ وَتَرَكَهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّهَارَةِ ، وَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى وَأَقَامَ فِي صَلَاةٍ أَوْ ذِكْرٍ حَتَّى يُصَلِّيَ الْعَصْرَ ، ثُمَّ يَنْصَرِفَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي مَعَاشِهِ ، حَتَّى إِذَا غَابَتْ الشَّمْسُ جَاءَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى فِطْرِهِ ، ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ أَوْ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ مِنْ الْعِلْمِ ، حَتَّى إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ .

وَهُوَ مَحَلٌّ لِلْقَائِلَةِ ، وَهِيَ نَوْمُ النَّهَارِ الْمُعَيَّنِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ الْعِلْمِ .

فَإِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ ، فَإِذَا صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ حَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، فَإِذَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ زَالَ النَّهَارُ بِوَظَائِفِهِ وَنَوَافِلِهِ .

ثُمَّ يَدْخُلُ اللَّيْلُ فَتَكُونُ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ، وَكَانَ مَا بَعْدَهَا وَقْتًا لِلتَّطَوُّعِ ، يُقَالُ إِنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ وَإِنَّهُ الْمُرَادُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ ثُمَّ يَغِيبُ الشَّفَقُ فَتَدْخُلُ الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ ، وَيَمْتَدُّ وَقْتُهَا إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثِهِ ، وَهُوَ مَحَلُّ النَّوْمِ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ [الْآخِرَةَ] إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ فَإِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ فَهُوَ وَقْتٌ لِقِيَامِ اللَّيْلِ .

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ شَطْرُ اللَّيْلِ .

(248/789)

فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ فَهُوَ أَيْضًا وَقْتٌ لِلْقِيَامِ ﴾ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ﴾ الْحَدِيثَ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ ﴿ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ﴾ ؟ وَعَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ جَاءَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ هُوَ إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ : هُوَ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ ، وَبِهَذَا التَّرْتِيبِ انْتَظَمَ الْحَدِيثُ وَالْقُرْآنُ فَإِنَّهُمَا يَنْظُرَانِ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ، حَتَّى إِذَا بَقِيَ سُدُسُ اللَّيْلِ كَانَ مَحَلًّا لِلنَّوْمِ ، فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَثَّ عَلَى سُنَنِ دَاوُدَ فِي صَوْمِهِ وَقِيَامِهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، ثُمَّ يَطْلُعُ الْفَجْرُ فَتَعُودُ الْحَالَةُ الْأُولَى هَكَذَا أَبَدًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَتَدْبِيرُ الْعَلِيِّ الْحَكِيمِ .

﴿

(249/789)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا قَلِيلًا ﴾ : اسْتَثْنَى مِنْ اللَّيْلِ كُلِّهِ " قَلِيلًا " وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ عَلَى وَجْهِ كَلَامِهِ فِيهِ ، وَهُوَ إحَالَةُ التَّكْلِيفِ عَلَى مَجْهُولٍ يُدْرَكُ عِلْمُهُ بِالِاجْتِهَادِ ؛ إذْ لَوْ قَالَ : إلَّا ثُلُثَهُ ، أَوْ رُبُعَهُ ، أَوْ سُدُسَهُ ، لَكَانَ بَيَانًا نَصًّا ، فَلَمَّا قَالَ : ﴿ إلَّا قَلِيلًا ﴾ وَكَانَ مُجْمَلًا لَا يُدْرَكُ إلَّا بِالِاجْتِهَادِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقِيَاسَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ ، وَرُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ أَدِلَّةِ التَّكْلِيفِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَهِيَ مِنْ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ قَوْلُهُ : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ .

ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِثْنَاءِ الْأَكْثَرِ مِنْ الْجُمْلَةِ ، وَإِنَّمَا يُفِيدُ اسْتِثْنَاءَ شَيْءٍ فَبَقِيَ مِثْلُهُ ، وَالْمَطْلُوبُ اسْتِثْنَاءُ شَيْءٍ مِنْ الْجُمْلَةِ فَبَقِيَ أَقَلُّ مِنْهَا تَحْتَ اللَّفْظِ الْمُتَنَاوِلِ لِلْجَمِيعِ ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ ، وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ اللَّيْلَ ﴾ ؛ كَأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ قُمْ نِصْفَ اللَّيْلِ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ يَسِيرًا ، وَيُعَضِّدُهُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الصَّحِيحِ : بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ حَتَّى إذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ

بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ ، ﴿ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ إلَى شَنٍّ مُعَلَّقٍ ، فَتَوَضَّأَ وُضُوءًا خَفِيفًا ﴾ ذَكَرَ أَوَّلَ الْحَدِيثِ وَآخِرَهُ .

(250/789)

وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ قَلِيلًا ﴾ كَانَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : قُمْ اللَّيْلَ إلَّا نِصْفَهُ ، أَوْ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِهِ ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ ، وَيَكُونُ أَيْضًا اسْتِثْنَاءُ الْأَكْثَرِ مِنْ مُتَنَاوِلِ الْجُمْلَةِ ، وَإِذَا احْتَمَلَ الْوَجْهَيْنِ سَقَطَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ ، لَا سِيَّمَا وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ .

وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِحَبْلٍ مُعَلَّقٍ فِي الْمَسْجِدِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : فُلَانَةُ

تُصَلِّي لَا تَنَامُ اللَّيْلَ ، فَإِذَا أُضْعِفَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اكْلَفُوا مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا .

﴿ وَقَدْ انْدَرَجَتْ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذِهِ الْأَوْجُهِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : مَعْنَاهُ بَيِّنْ قِرَاءَتَهُ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : ثَغْرٌ رَتِلٌ وَرَتَلٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا إذَا كَانَ مُفَلَّجًا لَا فَضَضَ فِيهِ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ بَعْضُهُ إثْرَ بَعْضٍ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : مَعْنَاهُ فَسَّرَهُ تَفْسِيرًا ، يُرِيدُ تَفْسِيرَ الْقِرَاءَةِ ، حَتَّى لَا يُسْرَعُ فِيهِ فَيَمْتَزِجَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ .

(251/789)

وَقَدْ رَوَى الْحَسَنُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِرَجُلٍ يَقْرَأُ آيَةً وَيَبْكِي ، فَقَالَ : أَلَمْ تَسْمَعُوا إلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ؛ هَذَا التَّرْتِيلُ ﴾ وَسَمِعَ رَجُلٌ عَلْقَمَةَ يَقْرَأُ قِرَاءَةً حَسَنَةً ، فَقَالَ : رَتِّلْ الْقُرْآنَ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي .

وَقَدْ رَوَى أَنَسٌ ﴿ أَنَّ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمُدُّ صَوْتَهُ مَدًّا ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَمَامُ هَذَا .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْك قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا ثِقَلُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ إلَيْهِ ، وَقَدْ ﴿ سُئِلَ كَيْفَ يَأْتِيك الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : أَحْيَانًا يَأْتِينِي الْمَلَكُ مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيُفْصِمُ عَنِّي ، وَقَدْ وَعَيْت مَا قَالَ ﴾ .

وَقَدْ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَتَفَصَّدُ جَبِينُهُ عَرَقًا .

الثَّانِي : ثِقَلُ الْعَمَلِ بِهِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَغَيْرُهُمَا .

وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وَجَاءَ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بُعِثْت بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ﴾ .

وَقَدْ قِيلَ : أَرَادَ ثِقَلَهُ فِي الْمِيزَانِ .

(252/789)

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ ، فَتُلْقِي بِجِرَانِهَا عَلَى الْأَرْضِ ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُسَرِّيَ عَنْهُ ﴾ وَهَذَا يُعَضِّدُ ثِقَلَ الْحَقِيقَةِ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴿ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ ، فَاعِلَةٌ مِنْ قَوْلِك : نَشَأَ يَنْشَأُ ، فَهُوَ نَاشِئٌ ، وَنَشَأَتْ تَنْشَأُ فَهِيَ نَاشِئَةٌ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ وَقَالَ الْعُلَمَاءُ بِالْأَثَرِ : إذَا نَشَأَتْ بَحْرِيَّةً ، ثُمَّ تَشَاءَمَتْ فَتِلْكَ عَيْنُ غُدَيْقَةَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْيِينِهَا عَلَى أَقْوَالٍ ، جُمْلَتُهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، مِنْهُمْ ابْنُ عُمَرَ ، إشَارَةً إلَى أَنَّ لَفْظَ نَشَأَ يُعْطِي الِابْتِدَاءَ ، فَهُوَ بِالْأَوَّلِيَّةِ أَحَقُّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ : وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصَيْبٌ لَقُلْت بِنَفْسِي النَّشَأُ الصِّغَارُ الثَّانِي : أَنَّهُ اللَّيْلُ كُلُّهُ ؛

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِيهِ اللَّفْظُ ، وَتَقْتَضِيهِ اللُّغَةُ .

(253/789)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ ﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ : قُرِئَ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ فَمِمَّنْ قَرَأَهُ كَذَلِكَ نَافِعٌ ، وَابْنُ كَثِيرٍ ، وَالْكُوفِيُّونَ وَقُرِئَ بِكَسْرِ الطَّاءِ مَمْدُودًا ، وَمِمَّنْ قَرَأَهُ كَذَلِكَ أَهْلُ الشَّامِ وَأَبُو عَمْرٍو فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهُ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ فَإِنَّهُ أَشَارَ إلَى ثِقَلِهِ عَلَى النَّفْسِ لِسُكُونِهَا إلَى الرَّاحَةِ فِي اللَّيْلِ وَغَلَبَةِ النَّوْمِ فِيهِ عَلَى الْمَرْءِ .

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَهُ بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ فَإِنَّهُ مِنْ الْمُوَاطَأَةِ وَهِيَ الْمُوَافَقَةُ ؛ لِأَنَّهُ يَتَوَافَقُ فِيهِ السَّمْعُ لِعَدَمِ الْأَصْوَاتِ ، وَالْبَصَرُ لِعَدَمِ الْمَرْئِيَّاتِ ، وَالْقَلْبُ لِفَقْدِ الْخَطَرَاتِ .

قَالَ مَالِكٌ : أَقْوَمُ قِيلًا : هُدُوًّا مِنْ الْقَلْبِ وَفَرَاغًا لَهُ .

وَالْمَعْنَيَانِ فِيهِ صَحِيحَانِ ؛ لِأَنَّهُ يَثْقُلُ عَلَى الْعَبْدِ وَأَنَّهُ الْمُوَافِقُ لِلْقَصْدِ .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ لَك فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ فِيهِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : مَعْنَاهُ اضْطِرَابًا وَمَعَاشًا وَتَصَرُّفًا ، سَبَّحَ يُسَبِّحُ : إذَا تَصَرَّفَ وَاضْطَرَبَ ، وَمِنْهُ سِبَاحَةُ الْمَاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يُعْنَى يَجْرُونَ .

وَقَالَ : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ ؛ قِيلَ : الْمَلَائِكَةُ تَسْبَحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَيْ تَجْرِي

وَقِيلَ : هِيَ السُّفُنُ : أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ تَخْرُجُ بِسُهُولَةٍ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : مَعْنَاهُ فَرَاغًا طَوِيلًا ؛ وَسَاعَدَهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ .

(254/789)

فَأَمَّا حَقِيقَةُ (س ب ح) فَالتَّصَرُّفُ وَالِاضْطِرَابُ ؛ فَأَمَّا الْفَرَاغُ فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ تَفَرُّغَهُ لِأَشْغَالِهِ وَحَوَائِجِهِ عَنْ وَظَائِفَ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ؛ فَأَحَدُ التَّفْسِيرَيْنِ لَفْظِيٌّ وَالْآخَرُ مَعْنَوِيٌّ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قُرِئَ سَبْخًا بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَمَعْنَاهُ رَاحَةً وَقِيلَ نَوْمًا .

وَالتَّسْبِيخُ : النَّوْمُ الشَّدِيدُ ، يُقَالُ سَبَّخَ ، أَيْ نَامَ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَسَبَّحَ بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ : أَيْ تَصَرَّفَ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﴿ سَمِعَ عَائِشَةَ تَدْعُو عَلَى سَارِقٍ ، فَقَالَ : لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ بِدُعَائِك ﴾ ، أَيْ لَا تُخَفِّفِي عَنْهُ ، فَإِنَّ السَّارِقَ أَخَذَ مَالَهَا ، وَهِيَ أَخَذَتْ مِنْ عِرْضِهِ ، فَإِذَا وَقَعَتْ الْمُقَاصَّةُ كَانَ تَخْفِيفًا مِمَّا لَهَا عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ السَّرِقَةِ .

وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْأَثَرِ ﴿ : مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدْ انْتَصَرَ ﴾ وَهَذِهِ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ اللَّيْلَ عِوَضُ النَّهَارِ ، وَكَذَلِكَ النَّهَارُ عِوَضُ اللَّيْلِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهٌ عَلَى نَوْمِ الْقَائِلَةِ الَّذِي يَسْتَرِيحُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي الْعِلْمِ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ فِي حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ : فَقَدْ كَانَ يُصَلِّي إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، وَرُوِيَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، يُوتِرُ مِنْهَا بِخَمْسٍ لَا يَجْلِسُ إلَّا فِي آخِرِهَا .

(255/789)

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الْعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ ، وَيُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ تِسْعًا مِنْهَا الْوِتْرُ ، وَكَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، وَيُحْيِي آخِرَهُ ، وَمَا أَلْفَاهُ السَّحَرُ إلَّا عِنْدَ أَهْلِهِ قَائِمًا وَكَانَ يُوتِرُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ حَتَّى انْتَهَى وِتْرُهُ إلَى السَّحَرِ ، وَمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ قَطُّ فِي لَيْلَةٍ ، وَلَا صَلَّى لَيْلَةً إلَى الصُّبْحِ ، وَكَانَ إذَا فَاتَهُ قِيَامُ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ صَلَّى مِنْ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، وَكَانَ يَقُولُ : ﴿ الْوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ﴾ وَيَقُولُ : ﴿ أَوْتِرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا ﴾ وَقَالَ ﴿ صَلَاةُ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ ﴾ وَذَلِكَ أَفْضَلُ وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ فِي الصَّحِيحِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الْجَمْعَ بَيْنَ اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي عَدَدِ صَلَاتِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، وَهِيَ كَانَتْ وَظِيفَتَهُ الدَّائِمَةَ ، وَكَانَ يَفْتَتِحُ صَلَاةَ اللَّيْلِ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ، فَهَذِهِ ثَلَاثَ

عَشْرَةَ رَكْعَةً .

وَكَانَ يُصَلِّي إذَا طَلَعَ الْفَجْرُ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَهَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِ مَنْ رَوَى أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي خَمْسَ عَشْرَةَ رَكْعَةً .

وَقَدْ رَوَتْ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ فِيهَا الْوِتْرُ ﴾ وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ حِينَ ضَعُفَ وَأَسَنَّ وَحَطَّمَهُ الْبَأْسُ ، أَوْ كَانَ لِأَلَمٍ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(256/789)

الْآيَةُ السَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّك وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي مَعْنَى التَّبَتُّلِ ، وَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ التَّفَرُّدُ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَرَفَةَ " وَقَالَ غَيْرُهُ وَهُوَ الْأَقْوَى : هُوَ الْقَطْعُ ، يُقَالُ : بَتَلَ إذَا قَطَعَ ، وَتَبَتَّلَ إذَا كَانَ الْقَطْعُ فِي نَفْسِهِ ، فَلِذَلِكَ قَالُوا : إنَّ مَعْنَى الْآيَةِ انْفَرِدْ لِلَّهِ ، وَصَدَقَةٌ بَتْلَةٌ ، أَيْ مُنْقَطِعَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ .

وَفِي حَدِيثِ سَعْدٍ : ﴿ رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ وَلَوْ أَذِنَ لَهُ فِيهِ لَاخْتَصَيْنَا ﴾ يَعْنِي الِانْقِطَاعَ عَنْ النِّسَاءِ ، وَفِي الْأَثَرِ : لَا رَهْبَانِيَّةَ وَلَا تَبَتُّلَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ الْبَتُولُ ، أَيْ الَّتِي انْقَطَعَتْ عَنْ الرِّجَالِ ، وَتُسَمَّى فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَتُولَ ، لِانْقِطَاعِهَا عَنْ نِسَاءِ زَمَانِهَا فِي الْفَضْلِ وَالدِّينِ

وَالنَّسَبِ وَالْحَسَبِ .

وَهَذَا قَوْلٌ أَحْدَثَتْهُ الشِّيعَةُ ، وَإِلَّا فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَائِشَةَ ، وَلَيْسَتْ مِنْ الْمَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ ، وَكِلْتَاهُمَا مِنْ الدِّينِ وَالْجَلَالِ فِي الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَرَبُّك أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَى .

وَقَدْ أَشَرْنَا إلَيْهِ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ وَشَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ .

(257/789)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ [تَفْسِيرُ] قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ حَالُ الدِّينِ فِي الْكَرَاهِيَةِ لِمَنْ تَبَتَّلَ فِيهِ ، وَانْقَطَعَ ، وَسَلَكَ سَبِيلَ الرَّهْبَانِيَّةِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ ، وَأَمَّا الْيَوْمُ وَقَدْ مَرِجَتْ عُهُودُ النَّاسِ ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ ، وَاسْتَوْلَى الْحَرَامُ عَلَى الْحُطَامِ ، فَالْعُزْلَةُ خَيْرٌ مِنْ الْخُلْطَةِ ، وَالْعُزْبَةُ أَفْضَلُ مِنْ التَّأَهُّلِ ، وَلَكِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ : انْقَطَعَ عَنْ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ، وَعَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَعْنَاهُ أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَلَمْ يُرِدْ [انْقَطِعْ عَنْ النَّاسِ وَالنِّسَاءِ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ لِأَجْلِ مَا رُوِيَ مِنْ ﴿ نَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ] التَّبَتُّلِ ﴾ فَصَارَ التَّبَتُّلُ مَأْمُورًا بِهِ فِي الْقُرْآنِ ، مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي

السُّنَّةِ ؛ وَمُتَعَلِّقُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُتَعَلِّقِ النَّهْيِ ؛ إذْ لَا يَتَنَاقَضَانِ ، وَإِنَّمَا بُعِثَ النَّبِيُّ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ ، فَالتَّبَتُّلُ الْمَأْمُورُ بِهِ الِانْقِطَاعُ إلَى اللَّهِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وَالتَّبَتُّلُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ سُلُوكُ مَسْلَكِ النَّصَارَى فِي تَرْكِ النِّكَاحِ وَالتَّرَهُّبُ فِي الصَّوَامِعِ ، لَكِنْ عِنْدَ فَسَادِ الزَّمَانِ يَكُونُ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ .

(258/789)

الْآيَةُ الثَّامِنَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ ، وَكُلُّ مَنْسُوخٍ لَا فَائِدَةَ لِمَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ ، لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ [إلَّا] عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمَرْءَ إذَا غُلِبَ بِالْبَاطِلِ كَانَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْكُفَّارِ حِينَ غَلَبُوهُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى مَا يَقُولُونَ فَمَعْلُومٌ .

وَأَمَّا الْهَجْرُ الْجَمِيلُ فَهُوَ الَّذِي لَا فُحْشَ فِيهِ .

وَقِيلَ : هُوَ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ مُجَرَّدُ الْإِعْرَاضِ .

الْآيَةُ التَّاسِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيْ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى ﴾ الْآيَةَ .

(259/789)

هَذَا تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ كَمَا قَدَّمْنَا .

﴿ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ : رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قَامُوا حَتَّى تَوَرَّمَتْ أَقْدَامُهُمْ ، فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، لَكِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ : خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بِآخِرِ السُّورَةِ ، وَنُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ؛ يَعْنِي يُقَدِّرُهُ لِلْعِبَادَاتِ ؛ فَإِنَّ تَقْدِيرَ

الْخِلْقَةِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ ، وَإِنَّمَا يَرْبِطُ اللَّهُ بِهِ مَا شَاءَ مِنْ وَظَائِفِ التَّكْلِيفِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ يَعْنِي تُطِيقُوهُ .

اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ فِي عِبَادِهِ بِمَا شَاءَ ، وَيُكَلِّفَهُمْ فَوْقَ الطَّوْقِ ، فَقَدْ تَفَضَّلَ بِأَنْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ .

وَمَا لَا يُطَاقُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَلَّا يُطَاقَ جِنْسُهُ أَيْ لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ قُدْرَةٌ .

(260/789)

وَالثَّانِي : أَنَّ الْقُدْرَةَ لَمْ تُخْلَقْ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ جِنْسُهُ مَقْدُورًا ؛ كَتَكْلِيفِ الْقَائِمِ الْقُعُودَ أَوْ الْقَاعِدِ الْقِيَامَ ؛ وَهَذَا الضَّرْبُ قَدْ يُغَلَّبُ إذَا تَكَرَّرَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْقُدْرَةُ ، فَإِنَّهُ يُغَلَّبُ بِالتَّكْرَارِ وَالْمَشَقَّةِ ، كَغَلَبَةِ خَمْسِينَ صَلَاةً لَوْ كَانَتْ مَفْرُوضَةً ، كَمَا أَنَّ الِاثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ رَكْعَةً الْمُوَظَّفَةَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ الْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ تَغْلِبُ الْخَلْقَ ، فَلَا يَفْعَلُونَهَا ، وَإِنَّمَا يَقُومُ بِهَا الْفُحُولُ فِي الشَّرِيعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أَيْ رَجَعَ عَلَيْكُمْ بِالْفَرَاغِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَكْلِيفِهَا لَكُمْ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آخِرَ السُّورَةِ هِيَ الَّتِي نَسَخَتْهَا ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ فِي الصَّحِيحِ ، كَمَا

نَقَلَهُ الْمُفَسِّرُونَ عَنْهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ نَفْسُ الْقِرَاءَةِ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الصَّلَاةُ ، عَبَّرَ عَنْهَا بِالْقِرَاءَةِ ؛ لِأَنَّهَا فِيهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ وَهُوَ الْأَصَحُّ ؛ لِأَنَّهُ عَنْ الصَّلَاةِ أَخْبَرَ ، وَإِلَيْهَا رَجَعَ الْقَوْلُ .

(261/789)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِلَّةَ التَّخْفِيفِ بِأَنَّ الْخَلْقَ مِنْهُمْ الْمَرِيضُ ، وَمِنْهُمْ الْمُسَافِرُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، وَمِنْهُمْ الْغَازِي ، وَهَؤُلَاءِ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ الْقِيَامُ ؛ فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْ الْكُلِّ لِأَجْلِ هَؤُلَاءِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَمْثَالِ هَذَا الْمَقْصِدِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ : مَعْنَاهُ صَلُّوا مَا أَمْكَنَ ؛ وَلَمْ يُفَسِّرْهُ .

وَلِهَذَا قَالَ قَوْمٌ : إنَّ فَرْضَ قِيَامِ اللَّيْلِ بَقِيَ فِي رَكْعَتَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ قَالَهُ الْبُخَارِيُّ ، وَغَيْرُهُ ، وَعَقَدَ بَابَ ﴿ : يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ الرَّأْسِ إذَا لَمْ يُصَلِّ بِاللَّيْلِ ﴾ وَذَكَرَ فِي حَدِيثٍ

آخَرَ : ﴿ يَعْقِدُ قَافِيَةَ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ .

فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ؛ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ ؛ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ ﴾ .

(262/789)

وَذَكَرَ حَدِيثَ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرُّؤْيَا : قَالَ : أَمَّا الَّذِي يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنْ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ﴾ ، وَحَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ نَامَ اللَّيْلَ إلَى الصَّبَاحِ ؛ فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ .

﴾ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَحَادِيثُ مُقْتَضِيَةٌ حَمْلَ مُطْلَقِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمَكْتُوبَةِ ، فَيُحْمَلُ الْمُطْلَقُ عَلَى الْمُقَيَّدِ ، لِاحْتِمَالِهِ لَهُ ، وَتَسْقُطُ الدَّعْوَى مِمَّنْ عَيَّنَهُ لِقِيَامِ اللَّيْلِ .

وَفِي الصَّحِيحِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ : ﴿ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ ﴾ .

وَلَوْ كَانَ فَرْضًا مَا أَقَرَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَخْبَرَ بِمِثْلِ هَذَا الْخَبَرِ عَنْهُ ، بَلْ كَانَ

يَذُمُّهُ غَايَةَ الذَّمِّ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا

(263/789)

رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَمَنَّيْت أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصُّهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُنْت غُلَامًا عَزَبًا شَابًّا ، وَكُنْت أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَيْت فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي ، فَذَهَبَا بِي إلَى النَّارِ ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتهمْ ، فَجَعَلْت أَقُولُ : أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ النَّارِ .

قَالَ : وَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ ، فَقَالَ لِي : لَمْ تُرَعْ ؛ فَقَصَصْتهَا عَلَى حَفْصَةَ ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ .

فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وَلَوْ كَانَ تَرْكُ الْقِيَامِ مَعْصِيَةً لَمَا قَالَ لَهُ الْمَلَكُ : لَمْ تُرَعْ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ تَعَلَّقَ كَثِيرٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ فِي تَعْيِينِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿

فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ فَقَالَ قَوْمٌ : هِيَ آيَةٌ .

وَقَالَ قَوْمٌ : هِيَ ثَلَاثُ آيَاتٍ ؛ لِأَنَّهَا أَقَلُّ سُورَةٍ ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

(264/789)

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقِرَاءَةِ هَاهُنَا الصَّلَاةُ ؛ وَإِنَّمَا يَصِحُّ هَذَا التَّقْدِيرُ ، وَيُتَصَوَّرُ الْخِلَافُ فِي ﴿ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلِ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ ، وَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ فَصَلِّ ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ .

وَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ لِبَابِهِ لِأَنَّا لَوْ قُلْنَا : إنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقِرَاءَةُ لَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَيَّنَ هَذَا الْمُبْهَمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا صَلَاةَ إلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ﴾ خَرَّجَهُ الشَّيْخَانِ .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَؤُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ، فَقَدْ اعْتَضَدَ الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ .

جَوَابٌ آخَرُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا قَصَدَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ التَّخْفِيفَ عَنْ الرَّجُلِ ، فَقَالَ لَهُ : ﴿ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ أَيْ مَا حَفِظْت .

وَقَدْ ظَنَّ الْقَاضِي أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ فَحْلُ الْحَنَفِيَّةِ الْأَهْدَرُ وَمُنَاضِلُهَا الْأَقْدَرُ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ مَعَ زِيَادَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ زِيَادَةٌ عَلَى النَّصِّ ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ

، وَنَسْخُ الْقُرْآنِ لَا يَجُوزُ إلَّا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ ، أَوْ بِخَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي تَمَهَّدَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

(265/789)

وَأَجَابَ عُلَمَاؤُنَا بِأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى النَّصِّ لَا تَكُونُ نَسْخًا ، وَقَدْ قَرَرْنَاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ ضَعِيفٌ جِدًّا .

قَالَ الْقَاضِي أَبُو زَيْدٍ

الدَّبُوسِيُّ : الصَّلَاةُ تَثْبُتُ بِالتَّوَاتُرِ ، فَأَرْكَانُهَا يَجِبُ أَنْ تَثْبُتَ بِمِثْلِهِ ، فَنَأْمُرُهُ بِقِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، لِخَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُعِيدُ الصَّلَاةَ بِتَرْكِهَا ، لِئَلَّا تَثْبُتَ الْأَرْكَانُ بِمَا لَمْ يَثْبُتْ بِهِ الْأَصْلُ .

قُلْنَا : هَذَا بَاطِلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ دَعْوَى .

وَقَدْ اتَّفَقْنَا عَلَى ثُبُوتِ أَرْكَانِ الْبَيْعِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَبِالْقِيَاسِ ؛ وَأَصْلُ الْبَيْعِ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ ، وَهَذَا بَعْضُ مَا قَرَّرْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، فَلْيُنْظَرْ مَا بَقِيَ مِنْ الْقَوْلِ هُنَالِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا [الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(266/789)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المزمل عليه الصلاة والسلام

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1)

قوله : ﴿ المزمل ﴾ : أصلُه المتزَمِّلُ ، فأُدْغِمَت التاءُ في الزاي يقال : تَزَمَّل يتزَمَّل تَزَمُّلاً . فإذا أُريد الإدغامُ اجْتُلِبَتْ همزةُ الوصلِ ، وبهذا الأصلِ قرأ أُبيُّ بن كعب . وقرأ عكرمةُ " المُزَمِّل " بتخفيفِ الزاي وتشديدِ الميم ، اسمَ فاعلٍ ، على هذا فيكونُ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ أصلَه المُزْتَمِلُ على مُفْتَعِل فأُبْدِلَتِ التاءُ ميماً وأُدْغِمَتْ ، قاله أبو البقاء ، وهو ضعيفٌ . والثاني : أنَّه اسمُ فاعلٍ مِنْ زَمَّل مشدداً ، وعلى هذا فيكون المفعولُ محذوفاً ، أي : المُزَمِّل جِسْمَه . وقُرِىء كذلك ، إلاَّ أنَّه بفتحِ الميمِ اسمَ مفعولٍ منه ، أي : المُلَفَّف .

والتَّزَمُّلُ : التَّلَفُّفُ . يقال : تَزَمَّلَ زيدٌ بكساءٍ ، أي : التفَّ به قال ذو الرَّمة :

4362 وكائِنْ تَخَطَّتْ ناقتي مِنْ مَفازةٍ . . . ومِنْ نائمٍ عن ليلِها مُتَزَمِّلِ

وقال امرؤ القيس :

4363 كأنَّ ثبيراً في أفانينِ وَدْقِه . . . كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

وهو كقراءةِ بعضِهم المتقدِّمة . وفي التفسير : أنه نُودي بذلك لالتفافِه في كِساء .

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2)

قوله : ﴿ قُمِ الليل ﴾ : العامَّةُ على كسر الميمِ لالتقاءِ السَّاكنَيْن . وأبو السَّمَّال بضمها إتباعاً لحركةِ القاف . وقُرِىءَ بفَتحِها طَلَباً للخِفَّةِ . قال أبو الفتح : " الغَرَضُ الهَرَبُ من التقاءِ الساكنَيْن ، فبأيِّ حركةٍ حُرِّك الأولُ حَصَلَ الغَرَضُ " . قلت : إلاَّ أنَّ الأصلَ الكسرُ لدليلٍ ذكره النحويون . و " الليلَ " ظرفٌ للقيامِ ، وإن استغرقه الحَدَثُ الواقعُ فيه . هذا قولُ البصريين ، وإمَّا الكوفيُّون فيجعلون هذا النوعَ مفعولاً به . /

نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3)

قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ ﴾ : للناس في هذا كلامٌ كثيرٌ ، واستدلالٌ على جوازِ استثناءِ الأكثرِ والنصفِ ، واعتراضاتٌ وأجوبةٌ عنها . وها أنا أذكرُ ذلك مُحَرِّراً له بعون الله تعالى .

اعلم أنَّ في هذه الآيةِ ثمانيةَ أوجهٍ أحدُها : أنَّ " نصفَه " بدلٌ من " الليلَ " بدلُ بعضٍ من كلٍ . و " إلاَّ قليلاً " استثناءٌ من النصفِ كأنه قيل : قُمْ أقلَّ مِنْ نصفِ الليلِ . والضميرُ في " مِنْه " و " عليه " عائدٌ على النصفِ .

والمعنى : التخييرُ بين أمرَيْنِ : بينَ أَنْ يقومَ أقلَّ مِنْ نصفِ الليلِ على البَتِّ ، وبين أَنْ يَخْتارَ أحدَ الأمرَيْن ، وهما : النُّقْصانُ من النصفِ والزيادةُ عليه ، قاله الزمخشريُّ : وقد ناقَشَه الشيخ : بأنه يَلْزَمُه تكرارٌ في اللفظِ ؛ إذ يَصير التقديرُ : قُمِ نصفَ الليلِ إلاَّ قليلاً مِنْ نِصْفِ الليل ، أو انقُصْ مِنْ نصفِ الليل . قال : " وهذا تركيبٌ يُنَزَّهُ القرآنُ عنه " . قلت : الوجهُ فيه إشكالٌ ، لا من هذه الحيثية فإنَّ الأمرَ فيها سهلٌ ، بل لمعنىً آخرَ [سأَذْكرُه قريباً إنْ شاء الله] .

وقد جعل أبو البقاءِ هذا الوجهَ مرجوحاً فإنه قال : " والثاني هو بدلٌ مِنْ قليلاً يعني النصف قال : " وهو أَشبهُ بظاهرِ الآية لأنه قال : " أو انقُصْ منه أو زِدْ عليه " ، والهاءُ فيهما للنِّصْفِ . فلو كان الاستثناءُ من النصف لصار التقديرُ : قُمِ نصفَ الليل إلاَّ قليلاً أو انقُصْ منه قليلاً ، والقليلُ المستثنى غيرُ مقدَّر ، فالنقصانُ منه لا يُعْقَلُ " . قلت : الجوابُ عنه : أنَّ

بعضَهم قد عَيَّنَ هذا القليلَ : فعن الكلبيِّ ومقاتلٍ : هو الثلثُ ، فلم يكن القليلُ غيرَ مقدَّرٍ .
ثم إنَّ في قولِه تناقضاً لأنه قال : " والقليلُ المستثنى غيرُ مقدَّرٍ ، فالنقصانُ منه [لا يُعْقَل "]
فأعاد الضميرَ على القليل ، وفي الأولِ أعادَه على النصفِ .

(268/789)

ولقائلٍ أن يقولَ : قد يَنْقَدِحُ هذا الوجهُ بإشكالٍ قويٍّ : وهو أنَّه يَلْزَمُ منه تكرارُ المعنى الواحدِ : وذلك أنَّ قولَه : " قُمْ نصْفَ الليلِ إلاَّ قليلاً " بمعنى : انقُصْ مِنْ الليل ؛ لأنَّ ذلك القليل هو بمعنى النقصانِ ، وأنت إذا قلت : قُمْ نصفَ الليلِ إلاَّ القليلَ مِن النصفِ ، وقُمْ نصفَ الليل ، أو انقُصْ من النصفِ ، وجدتَهما بمعنىً . وفيه دقةٌ فتأمَّلْه ، ولم يَذْكُرِ الحوفيُّ غيرَ هذا الوجهِ المتقدِّمِ ، فقد عَرَفْتَ ما فيه .
ومِمَّنْ ذَهَبَ إليه أبو إسحاقَ فإنه قال : " نصفَه " بدلٌ من " الليل " و " إلاَّ قليلاً " استثناءٌ من النصفِ . والضميرُ في " منه " و " عليه " عائدٌ للنصف . المعنى : قُمْ نصفَ الليل أو انقُصْ من النصفِ قليلاً إلى الثلثِ ، أو زِدْ عليه قليلاً إلى الثلثِ ، أو زِد عليه قليلاً إلى الثلثَيْن ، فكأنَّه قال : قُمْ ثلثَيْ الليلِ أو نصفَه أو ثلثَه " .
قلت : والتقديراتُ التي يُبْرزونها ظاهرةٌ حسنةٌ ، إلاَّ أنَّ التركيبَ لا يُساعِدُ عليها ، لِما

عَرَفْتَ من الإِشكال الذي ذَكَرْتُه لك آنفاً .

الثاني : أَنْ يكونَ " نصفَه " بدلاً مِنْ " قليلاً " ، وإليه ذهب الزمخشريُّ وأبو البقاء وابنُ عطية . قال الزمخشريُّ : " وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَ " نصفَه " بدلاً مِنْ " قليلاً " ، وكان تخييراً بين ثلاثٍ : بين قيامِ النصفِ بتمامِه ، وبين قيامِ الناقصِ منه ، وبين قيامِ الزائدِ عليه ، وإنما وَصَفَ النصفَ بالقِلَّةِ بالنسبة إلى الكلِّ " . قلت : وهذا هو الذي جعله أبو البقاء أَشْبَهَ مِنْ جَعْلِه بدلاً من " الليل " كما تقدَّمَ .

(269/789)

إلاَّ أنَّ الشيخ اعترض هذا فقال : " وإذا كان " نصفَه " بدلاً مِنْ " إلاَّ قليلاً " فالضميرُ في " نصفَه " : إمَّا أَنْ يعودَ على المبدلِ منه أو على المستثنى منه ، وهو " الليلَ " ، لا جائِزٌ أَنْ يعودَ على المبدلِ منه ؛ لأنه يَصيرُ استثناءَ مجهولٍ مِنْ مجهولٍ ؛ إذ التقديرُ : إلاَّ قليلاً نصفَ القليل ، وهذا لا يَصِحُّ له معنىً البتةَ ، وإن عاد الضميرُ على الليل فلا فائدةَ في الاستثناءِ من " الليل " ، إذ كان يكونُ أَخْصَرَ وأوضحَ وأَبْعَدَ عن الإلباس : قُمِ الليلَ نصفَه . وقد أَبْطَلْنا قولَ مَنْ قال : " إلاَّ قليلاً " استثناءٌ من البدلِ ، وهو " نصفَه " ، وأنَّ التقديرَ : قُمِ الليلَ نصفَه إلاَّ قليلاً منه ، أي : من النصفِ . وأيضاً : ففي دَعْوى أنَّ " نصفَه " بدلٌ مِنْ " إلاَّ قليلاً "

والضميرُ في "نِصفَه" عائدٌ على "الليل"، إطلاقُ القليلِ على النصفِ، ويَلْزَمُ أيضاً أَنْ يصيرَ التقديرُ: إلاَّ نصفَه فلا تَقُمْه/، أو انقُصْ من النصفِ الذي لا تقومه وهذا معنىً لا يَصِحُّ وليس المرادَ من الآيةِ قطعاً".

قلت: نقولُ بجوازِ عَوْدِه على كلٍ منهما، ولا يَلْزَمُ محذورٌ. أمَّا ما ذكره: مِنْ أنه يكونُ استثناءَ مجهولٍ مِنْ مجهولٍ فممنوعٌ، بل هو استثناءُ معلومٍ من معلومٍ، لأنَّا قد بَيَّنَّا أنَّ القليل قَدْرٌ معيَّنٌ وهو الثلثُ، والليل، فليس بمجهولٍ. وأيضاً فاستثناءُ المُبْهَمِ قد وَرَدَ. قال تعالى: ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء: 66]. وقال تعالى: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: 249] وكان حقُّه أَنْ يقولَ: لأنه بدلُ مجهولٍ مِن مجهولٍ. وأمَّا ما ذكره مِنْ أَنَّ أَخْصَرَ منه وأَوْضَحَ كيتَ وكيت: أمَّا الأَخْصَرُ فمُسَلَّمٌ. وأمَّا أنه مُلْبِس فممنوعٌ، وإنما عَدَلَ عن اللفظِ الذي ذكَرَه لأنه أَبْلَغ.

(270/789)

وبهذا الوجهِ اسْتَدَلَّ مَنْ قال بجوازِ استثناءِ النصفِ والأكثرِ. ووجهُ الدلالةِ على الأولِ: أَنَّه جَعَلَ "قليلاً" مستثنى من "الليل"، ثم فَسَّرَ ذلك القليلَ بالنصفِ فكأنه قيل: قُمِ الليلَ إلاَّ نصفَه.

ووَجْهُ الدلالةِ على الثاني : أَنَّه عَطَفَ " أو زِدْ عليه " على " انقُصْ منه " فيكونُ قد استثنى الزائدَ على النصفِ ؛ لأنَّ الضميرَ في " مِنْه " ، وفي " عليه " عائدٌ على النصفِ . وهو استدلالٌ ضعيفٌ ؛ لأنَّ الكثرة إنما جاءَتْ بالعطفِ ، وهو نظيرُ أَنْ تقول : " له عندي عشرةٌ إلاَّ خمسةً ودرهماً ودرهماً " فالزيادةُ على النصفِ بطريقِ العطفِ لا بطريقِ أن الاستثناءِ أخرجَ الأكثرَ بنفسِه .

الثالث : أنَّ " نصفَه " بدلٌ من " الليلَ " أيضاً كما تقدَّم في الوجه الأولِ ، إلاَّ أنَّ الضميرَ في " منه " و " عليه " عائدٌ على الأقلِّ من النصف . وإليه ذهب الزمخشري فإنه قال : " وإنْ شِئْتَ قلت : لَمَّا كان معنى ﴿ قُمِ الليلَ إلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ ﴾ إذا أَبْدَلْتَ النصفَ من " الليل " : قُمْ أقلَّ مِنْ نصفِ الليل ، رَجَعَ الضميرُ في " منه " و " عليه " إلى الأقلِّ من النصفِ ، فكأنه قيل : قُمْ أقلَّ مِنْ نصفِ الليلِ أو قُمْ أنقصَ مِنْ ذلك الأقلِّ أو أزيدَ مِنْه قليلاً ، فيكون التخييرُ فيما وراءَ النصفِ بينه وبينَ الثُّلُثِ " .

(271/789)

الرابع : أَنْ يكونَ " نصفَه " بدلاً مِنْ " قليلاً " كما تقدَّمَ ، إلاَّ أَنَّك تجعلُ القليلَ الثاني رُبْعَ الليلِ . وقد أوضح الزمخشريُّ هذا أيضاً فقال : " ويجوز إذا أَبْدَلْتَ " نصفَه " مِنْ " قليلاً "

وفَسَّرْتَه به أَنْ تجعلَ " قليلاً " الثاني بمعنى نصفِ النصفِ ، بمعنى الربع ، كأنه قيل : أو انقص منه قليلاً نصفَه ، وتجعلَ المزيدَ على هذا القليل أعني الربعَ نصفَ الربع ، كأنه قيل : أو زِدْ عليه قليلاً نصفَه . ويجوز أَنْ تجعلَ الزيادةَ لكونِها مُطْلَقَةً تتمَّةَ الثلثِ فيكون تخييراً بين النصفِ والثلثِ والرُّبع " انتهى . وهذه الأوجهُ التي حَكَيْتُها عن أبي القاسم مِمَّا يَشْهدُ له باتِّساعِ عِلْمِه في كتاب الله . ولَمَّا اتسَعَتْ عبارتُه على الشيخ قال : " وما أوسعَ خيالَ هذا الرجلِ ! ! فإنه يُجَوِّزُ ما يَقْرُبُ وما يَبْعُدُ " . قلت : وما ضَرَّ الشيخَ لو قال : وما أوسعَ عِلْمَ هذا الرجلِ ! ! .

الخامس : أَنْ يكونَ " إلاَّ قليلاً " استثناءً مِنْ القيامِ ، فتجعلَ الليلَ اسم جنسٍ ثم قال : " إلاَّ قليلاً " أي : إلاَّ الليالِيَ التي تترُكُ قيامَها عند العُذْرِ البيِّن ونحوِه : وهذا النَّظر يَحْسُنُ مع القولِ بالنَّدْب ، قاله ابنُ عطية ، احتمالاً مِنْ عندِه . وفي عبارته : " التي تُخِلُّ بقيامِها " فأَبْدَلْتُها : " التي تَتْرُكُ قيامَها " . وفي الجملة فهذا خلافُ الظاهرِ ، وتأويلٌ بعيدٌ .

السادس : قال الأخفش : " إنَّ الأصل : قُم الليلَ إلاَّ قليلاً أو نصفَه ، قال : " كقولك : أَعْطِه درهماً درهَمَيْن ثلاثةً " .

أي : أو درهمَيْن أو ثلاثةً " . وهذا ضعيفٌ جداً ؛ لأن فيه حَذْفَ حرفِ العطفِ ، وهو ممنوعٌ لم يَرِدْ منه إلاَّ شَيْءٌ شاذٌّ يمكن تأويلُه كقولِهم : " أكلْتُ لحماً سَمَكاً تَمْراً " . وقول الآخر

:

4364 كيف أَصْبَحْتَ كيف أَمْسَيْتَ مِمَّا . . . يَزْرَعُ الوُدَّ في فؤادِ الكريم

(272/789)

أي : لحماً وسمكاً وتمراً ، وكذا كيف أصبَحْتَ وكيف أمسَيْتَ . وقد خَرَّجَ الناس هذا على بَدَلِ البَداء .

السابع : قال التبريزيُّ : " الأمرُ بالقيام والتخييرُ في الزيادةِ والنقصان ، وقعَ على الثلثَيْن مِنْ آخرِ الليلِ ؛ لأنَّ الثلثَ الأولَ وقتُ العَتَمَةِ ، والاستثناءُ واردٌ على المأمورِ به ، فكأنه قال : قُمْ ثُلُثي الليلِ إلاَّ قليلاً ، أي : ما دونَ نصفِه ، أو زِدْ عليه ، أي : على الثلثَيْنِ ، فكان التخيير في الزيادةِ والنقصانِ واقعاً على الثلثَيْن " وهو كلامٌ غريبٌ لا يَظْهَرُ من هذا التركيبِ .

الثامن : أنَّ " نصفَه " منصوبٌ على إضمارِ فِعْلٍ/ ، أي : قُمْ نصفَه ، حكاه مكيٌّ عن غيرِه ، فإنَّه قال : " نصفَه بدلٌ من " الليل " وقيل : انتصبَ على إضمارِ : قُمْ نصفَه " . قلت : وهذا في التحقيقِ هو وجهُ البدلِ الذي ذكرَه أولاً ؛ لأنَّ البدلَ على نيةِ تَكْرارِ العاملِ .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)

قوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي ﴾ : هذه الجملةُ مستأنفةٌ . وقال الزمخشري : " وهذه الآيةُ اعتراضٌ

" . ثم قال : " وأراد بهذا الاعتراضِ أنَّ ما كُلِّفَهُ مِنْ قيامِ الليلِ مِنْ جُملةِ التكاليفِ الثقيلةِ الصعبةِ التي وَرَدَ بها القرآنُ ؛ لأنَّ الليلَ وقتُ السُّباتِ والراحةِ والهدوءِ ، فلا بُدَّ لِمَنْ أحياه مِنْ مُضادَّةٍ لطَبْعِه ومجاهدةٍ لنَفْسِه " . انتهى . يعني بالاعتراضِ من حيث المعنى لا من حيث الصناعةُ ؛ وذلك أنَّ قولَه : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ ﴾ مطابِقٌ لقولِه : ﴿ قُمِ الليل ﴾ فكأنه شابَهَ الاعتراضَ من حيث دُخولُه بين هذَيْن المتناسِبَيْنِ .

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6)

(273/789)

قوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ﴾ : في الناشئةِ أوجهٌ ، أحدها : أنها صفةٌ لمحذوفٍ ، أي : النفسَ الناشئةَ بالليلِ التي تَنْشَأُ مِنْ مَضْجَعِها ، للعبادة ، أي : تَنْهَضُ وترتفعُ . مِنْ نَشَأَتِ السحابةُ : إذا ارتفعَتْ . ونَشَأَ مِنْ مكانِه ونَشَزَ : إذا نَهَضَ قال :

4365 نَشَأْنا إلى خُوْصٍ بَرَى نَيَّها السُّرى . . . وأَشْرَفَ منها مُشْرِفاتِ القَماحِدِ

والثاني : أنَّها مصدرٌ بمعنى قيامِ الليل ، على أنها مصدرٌ مِنْ نَشَأَ ، إذا قام ونَهَضَ ، فتكونُ كالعافية ، قالهما الزمخشري .

الثالث : أنها بلغةِ الحبشةِ ، نَشَأَ الرجلُ : أي قامَ من الليل . قال الشيخ : " فعلى هذا هي

جمعُ ناشِىء ، أي : قائِم " ، أي : قائِم " . قلت : يعني أنها صفةٌ . لشيءٍ يُفْهِمُ الجَمْعُ ، أي : طائفةً أو فِرْقةً ناشِئةً ، وإلاَّ ففاعلٌ لا يُجْمَعُ على فاعِلة .

الرابع : أنَّ " ناشئة الليل " ساعاتُه ؛ لأنها تَنْشَأُ شيئاً بعد شيء . وقَيَّدها ابنُ عباس والحسنُ بما كان بعد العِشاء ، وما كان قبلَها فليسَ بناشئةٍ . وخَصَّصَتْها عائشةُ رضي الله عنها بمعنىً آخرَ : وهو أَنْ يكونَ بعد النومِ ، فلو لم يتقدَّمْها نومٌ لم تكُنْ ناشئةً .

(274/789)

قوله : ﴿ وَطْأً ﴾ قرأ أبو عمرو وابنُ عامر بكسرِ الواو وفتح الطاءِ بعدَها ألفٌ . والباقون بفتح الواو وسكون الطاء . وقرأ قتادةُ وشبلٌ عن أهل مكة " وِطْئاً " . وظاهرُ كلامِ أبي البقاءِ يُؤْذِنُ أنه قُرِىء بفتحِ الواو مع المدّ فإنه قال : " وِطاء بكسرِ الواو بمعنى : مُواطَأَة ، وبفتحها اسمٌ للمصدر ، و " وَطْئاً " على فَعْل ، وهو مصدرٌ وَطِىءَ " فالوِطاءُ مصدرُ واطَأَ كقِتال مصدرِ قاتَل . والمعنى : أنها أشدُّ مواطَأَةً ، أي : يُواطِىءُ قلبُها لسانَها ، إنْ أَرَدْتَ النفسَ ، أو يُواطىء فيها قَلْبُ القائمِ لسانَه ، إنْ أَرَدْتَ القيامَ أو العبادةَ أو الساعاتِ ، أو أشدُّ موافقةً لِما يُراد من الخُشوعِ والإخلاصِ ، والوَطْءُ بالفتح أو الكسرِ على معنى :

أشدُّ ثَباتَ قَدَمٍ وأَبْعدُ مِن الزّلَلِ ، أو أثقلُ وأغلظُ مِنْ صلاةِ النهارِ على المصلّي ، من قولِه عليه السلام : " اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرَ " وعلى كلِّ تقديرٍ فانتصابُه على التمييز .

(275/789)

قوله : ﴿ وَأَقْوَمُ ﴾ حكى الزمخشري : " أنَّ أَنَساً قرأ " وأَصْوَبُ قِيلاً " فقيل له : يا أبا حمزةَ إنما هي : وأقومُ ! ! " فقال : " إنَّ أَقْوَمَ وأَصْوَبَ وأَهْيَأ واحدٌ " وأنَّ أبا سرار الغَنَوِيَّ قرأ " فحاسُوا خلالَ الديارِ " بالحاءِ المهملةِ فقيل له : هي بالجيم . فقال : حاسُوا وجاسُوا واحدٌ " . قلت : له غَرَضٌ في هاتَيْن الحكايَتَيْن ، وهو جوازُ قراءةِ القرآنِ بالمعنى ، وليس في هذا دليلٌ ؛ لأنه تفسيرُ معنىً . وأيضاً فما بَيْنَ أيدينا قرآنٌ متواترٌ ، وهذه الحكايةُ آحادٌ . وقد تقدَّم أنَّ أبا الدرداءِ كان يُقرِئُ رجالاً ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأَثيم ﴾ [الدخان : 44] فجعل الرجلُ يقول : اليتيم . فلمَّا تَبَرَّم به قال : طعامُ الفاجرِ يا هذا . فاستَدَلَّ به على ذلك مَنْ يَرَى جوازَه . وليس فيه دليلٌ ؛ لأنَّ مقصودَ/ أبي الدرداءِ بيانُ المعنى ، فجاء بلفظٍ مبينٍ .

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7)

قوله : ﴿ سَبْحاً ﴾ : العامَّةُ على الحاء المهملة وهو مصدرُ سَبَحَ ، وهو استعارةٌ ،

استعارَ للتصرُّفِ في الحوائجِ السِّباحةَ في الماءِ ، وهي البُعْدُ فيه . وقرأ يحيى بن يعمر وعكرمة وابنُ أبي عبلة سَبْخاً " بالخاء المعجمةِ . واختلفوا في تفسيرِها ، فقال الزمخشري : " استعارةٌ مِنْ سَبْخِ الصُّوفِ : وهو نَفْشُه ونَشْرُ أجزائِه لانتشارِ الهَمِّ وتفرُّقِ القلبِ بالشواغل . وقيل : التَّسبيخُ : التخفيفُ ، حكى الأصمعيُّ : سَبَخَ اللهُ عَنَك الحُمَّى ، أي : خَفَّفَها عنك . قال الشاعر :

4366 فَسَبِّخْ عليكَ الهَمَّ واعلمْ بأنَّه . . . إذا قَدَّرَ الرحمنُ شيئاً فكائِنُ

(276/789)

أي : خَفِّفَ . ومنه " لا تُسَبِّخي بدُعائِك " ، أي : لا تُخَفِّفي . وقيل : التَّسْبيخ : المَدُّ . يقال : سَبِّخي قُطْنَكِ ، أي : مُدِّيه ، والسَّبيخة : قطعة من القطن . والجمعُ سبائخُ . قال الأخطل يصف صائِداً وكلاباً :

4367 فأَرْسَلوهُنَّ يُذْرِيْنَ التراب كما . . . يُذْرِيْ سبائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوتارِ

وقال أبو الفضل الرازي : " وقرأ ابن يعمرَ وعكرمة " سَبْخاً " بالخاء معجمةً وقالا : معناه نَوْماً ، أي : يَنامُ بالنهار ليَسْتعينَ به على قيام الليل . وقد تحتمِلُ هذه القراءةُ غيرَ هذا المعنى ، لكنهما فَسَّراها فلا تَجاوُزَ عنه " . قلت : في هذا نظرٌ ؛ لأنهما غايةُ ما في البابِ أنَّهما

نقلا هذه القراءةَ ، وظَهَرَ لهما تفسيرُها بما ذكرا ، ولا يَلْزَمُ مِنْ ذلك أَنَّه لا يجوزُ غيرُ ما ذَكَرا مِنْ تفسيرِ اللفظة .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8)

قوله : ﴿ تَبْتِيلاً ﴾ : مصدرٌ على غير الصدرِ وهو واقعٌ موقعَ التَّبَتُّل ؛ لأنَّ مصدرَ تَفَعَّل نحو : تَصَرَّفَ تَصَرُّفاً ، وتكرَّمَ تكرُّماً . وأمَّا التفعيلُ فمصدرُ فَعَّل نحو : صَرَّفَ تَصْرِيفاً . ومثلُه قولُ الشاعر :

(277/789)

4367 وقد تَطَوَّيْتُ انْطِواءَ الحِضْبِ . . . فأوقعَ الانفعالَ مَوْقِعَ التَّفَعُّل . قال الزمخشري : " لأنَّ معنى تَبَتَّل : " بَتَّلَ نفسَه ، فجيْءَ به على معناه مراعاةً لحَقِّ الفواصِل " . والتبتُّل : الانقطاعُ . ومنه " امرأة بتولٌ " ، أي : انقطعَتْ عن النِّكاحِ ، وبَتَلْتُ الحَبْلَ : قَطَعْتُه . قال الليث : البَتْلُ : تمييزُ الشيءِ من الشيءِ . وقالوا : " طَلْقَةٌ بَتْلَةٌ " ، و " هِبَةٌ بَتْلَةٌ " يعنونَ انقطاعها عن صاحبِها ، فالتبتيلُ تَرْكُ النِّكاحِ ، والزهدُ فيه . والمرادُ به في الآيةِ الكريمة الانقطاعُ إلى عبادةِ اللهِ تعالى دونَ تَرْكِ النكاحِ ، وفي الحديث : " أَنَّه نَهَى عن التبتُّل " ، أي : الانقطاع عن النِّكاح ، ومنه سُمِّي الراهبُ " مُتَبَتِّلاً " لانقطاعِه عن النكاحِ . قال امرؤ

القيس :

4368 تُضِيْءُ الظلامَ بالعَشِيِّ كأنَّها . . . منارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)

قوله : ﴿ رَبُّ المشرق ﴾ : قرأ الأخَوان وأبو بكر وابن عامر بجرّ " ربِّ المشرق " على النعت ل " ربّك " أو البدلِ منه أو البيانِ له . وقال الزمخشري : " وعن ابن عباس على القَسَم بإضمارِ حرفِ القسمِ كقولك : " اللَّهِ لأفعلَنَّ " ، وجوابُه ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ كما تقول : " واللَّهِ لا أحدَ في الدار إلاَّ زيدٌ " قال الشيخ : " لعلَّ هذا التخريجَ لا يَصِحُّ عن ابن عباس ؛ لأنَّ فيه إضمارَ الجارِّ ، ولا يُجيزه البصريون إلاَّ مع لفظِ الجلالةِ المعظمةِ خاصةً ، ولأن الجملةَ المنفيَّةَ في جوابِ القسم إذا كانَتْ اسميةً فإنما تُنْفَى ب " ما " وحدَها ، ولا تُنْفَى ب " لا " إلاَّ الجملةُ المصدرةُ بمضارعٍ كثيراً ، أو بماضٍ في معناه قليلاً ، نحو قولِه :

4369 رِدُوا فواللَّهِ لا ذُدْنَاكُمُ أبداً . . . ما دام في مائنا وِرْدٌ لوُرَّادِ

(278/789)

والزمخشريُّ أورد ذلك على سبيلِ التجويزِ والتسليمِ ، والذي ذكره النحويُّون هو نفيُها ب " ما " كقوله :

4370 لَعَمْرُكَ ما سَعْدٌ بخُلَّةِ آثمٍ . . . ولا نَأْنَأٍ يومَ الحِفاظِ ولا حَصِرْ

قلت : قد أطلق الشيخ جمالُ الدين بن مالك أنَّ الجملةَ المنفيَّةَ سواءً كانَتْ اسميةً أم فعلية تُتَلَقَّى ب " ما " أو " لا " أو " إنْ " بمعنى " ما " ، وهذا هو الظاهر .

وباقي السبعةِ برفعِه على الابتداءِ ، وخبرُه الجملةُ مِنْ قولِه : ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ أو على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ ، أي : وهو ربٌّ . وهذا أحسنُ لارتباطِ الكلامِ بعضِه ببعضٍ . / وقرأ زيدُ بن عليٍّ " رَبَّ " بالنصبِ على المدحِ . وقرأ العامَّةُ " المَشْرِقِ والمغربِ " موحَّدتَيْن . وعبدُ الله وابن عباس " المشارِقِ والمغارِبِ " ويجوز أَنْ ينتصِبَ " ربَّ " في قراءةِ زيد مِنْ وجهَيْنِ آخرَيْنِ ، أحدُهما : أنَّه بدلٌ مِنْ " اسمَ ربِّك " أو بيانٌ له ، أو نعتٌ له ، قاله أبو البقاء ، وهذا يَجيءُ على أن الاسمَ هو المُسمَّى . والثاني : أنه منصوبٌ على الاشتغالِ بفعلٍ مقدَّرٍ ، أي : فاتَّخِذْ ربَّ المشرقِ فاتَّخِذْه ، وما بينهما اعتراضٌ .

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11)

قوله : ﴿ والمكذبين ﴾ يجوزُ نصبُه على المعيَّةِ ، وهو الظاهرُ ، ويجوزُ على النَّسَقِ ، وهو أوفقُ للصِّناعةِ .

قول : ﴿ أُوْلِي النعمة ﴾ نعتٌ للمكذِّبين . والنَّعْمَةُ بالفتح : التنعمُ ، وبالكسرِ : الإنعام ، وبالضمِّ : المَسرَّةُ . يقال : نُعْمُ ونُعْمَةُ عَيْنٍ .

قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ نعتٌ لمصدرٍ ، أي : تَمْهيلاً ، أو لظرفِ زمانٍ محذوفٍ ، أي : زماناً قليلاً

.

إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12)

قوله : ﴿ أَنكَالاً ﴾ : جمعُ نِكْلٍ . وفيه قولان ، أشهرُهما : أنه القَيْدُ . وقيل : الغُلُّ ، والأولُ أَعْرَفُ . وقالت الخنساء :

(279/789)

4371 دَعاكَ فَقَطَّعْتُ أنكالَهُ . . . وقد كُنَّ مِنْ قبلُ لا تُقْطَعُ

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13)

قوله : ﴿ ذَا غُصَّةٍ ﴾ : الغُصَّةُ : الشَّجَى ، وهو ما يَنْشَبُ في الحَلْقِ فلا يَنْساغُ . ويُقال : غَصَصْتَ بالكسرِ ، فأنتَ غاصٌّ وغَصَّانُ قال :

4372 لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ . . . كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصاري

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ ب " ذَرْني " ، وفيه بُعْدٌ . والثاني : أنه منصوبٌ بالاستقرارِ المتعلِّقِ به " لَدَيْنا " . والثالث : أنه صفةٌ ل " عذاباً " فيتعلَّقُ بمحذوفٍ ، أي : عذاباً واقعاً يومَ تَرْجُفُ . والرابع : أنه منصوبٌ ب " أليم " .

والعامَّةُ " تَرْجُفُ " بفتح التاءِ وضمِّ الجيمِ مبنياً للفاعلِ ، وزيدُ بن علي يقرؤُه مبنياً للمفعولِ مِنْ أَرْجَفَها .

قوله : ﴿ مَّهِيلاً ﴾ أصلُه مَهْيُول كمَضْروب ، فاستُثْقِلَتِ الضمةُ على الياءِ فنُقِلَتْ إلى الساكن قبلَها ، وهو الهاءُ ، فالتقى ساكنان . فاختلف النحاةُ في العمل في ذلك : فسيبويه وأتباعُه حذفوا الواوَ ، وكانَتْ أَوْلى بالحَذْفِ ؛ لأنها زائدةٌ ، وإنْ كانَتْ القاعدةُ أنَّ ما يُحْذَفُ لالتقاءِ الساكنَيْن الأولُ ، ثم كَسَرُوا الهاءَ لتَصِحَّ الياءُ ، ووزنُه حينئذٍ مَفِعْل . والكسائيُّ والفراء والأخفش حذفوا الياءَ ؛ لأنَّ القاعدةَ في التقاءِ الساكنَيْن إذا احْتِيج إلى حَذْفِ أحدِهما حُذِفَ الأولُ وكان ينبغي على قولِهم أَنْ يُقال : فيه : مَهُوْل ، إلاَّ أَنَّهم كَسَروا الهاءَ لأجلِ الياءِ التي كانَتْ ، فقُلِبت الواوُ ياءً ، ووزنُه حينئذٍ مَفُوْلاً على الأصلِ ، ومَفِيلاً بعد القلب .

(280/789)

قال مكي : " وقد أجازوا كلُّهم أَنْ يأتيَ على أصلِه في الكلامِ فتقول : مَهْيُوْل ومَبْيُوْع ، وما أشبه ذلك مِنْ ذواتِ الياءِ . فإنْ كان مِنْ ذواتِ الواوِ لم يَجُزْ أَنْ يأتيَ على أصلِه عند البصريين ، وأجازه الكوفيون نحو : مَقْوُوْل ومَصْوُوْغ ، وأجازوا كلُّهم مَهُوْل ومَبُوْع على لغةِ

مَنْ قال : بُوع المتاعُ ، وقوُل القولُ ، ويكونُ الاختلافُ في المحذوفِ منه على ما تقدَّم " . قلت : التتميمُ في مَبْيُوع ومَهْيُوْل وبابه لغةُ تميم ، والحَذْفُ لغةُ سائرِ العربِ . ويُقال : هِلْتُ الترابَ أَهيلُه هَيْلاً فهو مَهيل . وفيه لغةٌ : أَهْلْتُه رباعياً إهالةً فهو مُهال نحو : أَبَعْتُه إباعَةً فهو مُباعٌ . والكثيبُ : ما اجتمع من الرَّمْل/ والجمعُ في القلَّة : أَكْثِبَة ، وفي الكثرة : كُثْبان وكُثُب ، كرَغِيف وأَرْغِفَة ورُغْفان ورُغُفُ . قال ذو الرمة :

4373 فقلت لها : لا إنَّ أهليَ جيرةٌ . . . لأكثبةِ الدَّهْنا جميعاً وماليا

والمَهيلُ : ما انهالَ تحت القَدَمَ ، أي : انصبَّ ، مِنْ هِلْتُ الترابَ ، أي : طَرَحْتُه ، قال الزمخشري : " مِنْ كَثَبْتُ الشيءَ إذا جَمَعْتَه ، ومنه الكُثْبةُ من اللبن . قالت الضائنة : أُجَزُّ جُفالاً وأُحْلَبُ كُثَباً عِجالاً " .

فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلًا (16)

قوله : ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ : إنما عَرَّفه لتقدُّمِ ذِكْرِه ، وهذه أل العهديةُ ، والعربُ إذا قَدَّمَتْ اسماً ثم حَكَتْ عنه ثانياً أَتَوْا به مُعَرَّفاً بأل ، أو أَتَوْا بضميرِه لئلا يُلْبَسَ بغيرِه نحو : " رأيتُ رجلاً فأكرَمْت الرجلَ " أو فأَكْرَمْتُه ، ولو قُلْتَ : " فأكرَمْتُ رجلاً " لَتَوَهَّمَ أنه غيرُ الأولِ ، وسيأتي تحقيقُ هذا عند قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسْراً ﴾ [الشرح : 6] وقولِه عليه السلام : " لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن " .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17)

قوله: ﴿ يَوْماً ﴾: منصوبٌ إمَّا ب "تَتَّقُون" على سبيلِ المفعولِ به تجوّزاً. وقال الزمخشري: "يوماً" مفعولٌ به، أي: فكيف تَقُوْنَ أنفسَكم يومَ القيامةِ وهَوْلَه إنْ بَقِيْتُمْ على الكفرِ؟". وناقشه الشيخُ فقال: "وتَتَّقون مضارعُ اتَّقى، واتَّقى ليس بمعنى وَقَى حتى يُفَسِّرَه به، واتَّقى يتعدَّى إلى واحدٍ، ووَقَى يتعدَّى إلى اثنين. قال تعالى: ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [الدخان: 56]. ولذلك قَدَّره الزمخشريُّ ب تَقُون أنفسَكم، لكنه ليس "تَتَّقون" بمعنى يَقُوْن، فلا يُعَدَّى تَعْدِيَتَه" انتهى.

ويجوز أَنْ ينتصِبَ على الظرفِ، أي: فكيف لكم بالتقوى يومَ القيامة، إنْ كَفَرْتُمْ في الدنيا؟ قاله الزمخشريُّ. ويجوز أَنْ ينتصِبَ مفعولاً به ب "كَفَرْتُمْ" إذا جُعِل "كَفَرْتُمْ" بمعنى جَحَدْتُم، أي فكيف تَتَّقون اللَّهَ وتَخْشَوْنه إنْ جَحَدْتُمْ يومَ القيامةِ؟ ولا يجوز أن ينتصِبَ ظرفاً، لأنهم لا يكفرون ذلك اليومَ؛ بل يُؤْمِنون لا محالةَ. ويجوز أَنْ ينتصِبَ على إسقاطِ الجارِّ، أي: إن كفرتُمْ بيومِ القيامةِ. والعامَّةُ على تنوين "يوماً" وجَعْلِ الجملةِ بعده نعتاً له. والعائدُ محذوفٌ، أي: يَجْعل الوِلْدانَ فيه. قاله أبو البقاء ولم يتعرَّضْ للفاعلِ في "يَجْعَلُ"، وهو على هذا ضميرُ الباري تعالى، أي: يوماً يجعلُ اللَّهُ فيه. وأحسنُ مِنْ هذا أَنْ يُجْعَلَ

العائدُ مضمراً في "يَجْعَلُ" هو فاعلَه، وتكون نسبةُ الجَعْلِ إلى اليومِ من بابِ المبالغةِ، أي: نفسُ اليومِ يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيْبا .

(282/789)

وقرأ زيدُ بنُ عليّ "يومَ يَجْعَلُ" بإضافةِ الظرفِ للجملة . والفاعلُ على هذا هو ضميرُ الباري تعالى . والجَعْلُ هنا بمعنى التصييرِ ف "شِيْباً" مفعولٌ ثانٍ، وهو جمعُ أَشْيَب . وأصلُ الشينِ الضمُّ فكُسِرَتْ لتصِحَّ الياءُ نحو: أحمر وحُمْر . قال الشاعر:

4374 مِنَّا الذي هُوَ ما إنْ طُرَّ شارِبُه . . . والعانِسُون ومنا المُرْدُ والشِّيْبُ

وقال آخر:

4375 . . . . . لَعِبْنَ بنا شِيْباً وشَيَّبْنَنا مُرْدا

السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18)

قوله: ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾: صفةٌ أخرى، أي: مُتَشَقِّقة بسبب هَوْلِه: وإنما لم تُؤَنَّثِ الصفةُ لأحدِ وجوهٍ منها: تأويلُها بمعنى السَّقْفِ . ومنها: أنها على النَّسَبِ أي: ذات انفطارٍ نحو: مُرْضِعٍ وحائضٍ . ومنها: أنها تُذَكَّر وتُؤَنَّثُ: أنشد الفراء:

4376 ولو رَفَعَ السَّماء إليه قوماً . . . لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ

ومنها : أنَّها اسمُ جنسٍ يُفْرَّقُ بينه وبين واحدِه بالتاءِ فيقال : سَماءة وقد تقدَّم أنَّ في اسم/ الجنسِ والتذكيرَ والتأنيثَ ؛ ولهذا قال الفارسي : " هو كقولِه : ﴿ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : 7] ﴿ الشجر الأخضر ﴾ [يس : 80] و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] يعني فجاء على أحد الجائزَيْن . والباءُ فيه سببيَّةٌ كما تقدَّم . وجَوَّز الزمخشريُّ أَنْ تكونَ للاستعانةِ ، فإنه قال : " والباءُ في " به " مِثْلُها في قولِك : " فَطَرْتُ العُوْدَ بالقَدُومِ فانْفَطر به " .

قوله : ﴿ وَعْدُهُ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ الضميرُ لله تعالى ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ للعِلْمِ به ، فيكونُ المصدرُ مضافاً لفاعِله . ويجوز أَنْ يكونَ لليومِ ، فيكونَ مضافاً لمفعولِه . والفاعلُ وهو اللَّهُ تعالى مُقَدَّرٌ .

(283/789)

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ

قوله : ﴿ مِن ثُلُثَيِ الليل ﴾ : العامَّةُ على ضَمِّ اللامِ ، وهو الأصل كالرُّبُعِ والسُّدُسِ ، وقرأ هشام بإسكانِها تخفيفاً .

قوله : ﴿ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بنصبهما ، والباقون بجرّهما . وفي الجرِّ إشكالٌ كما سيأتي . فالنصبُ نَسَقٌ على " أَدْنى " لأنه بمعنى : وَقْتٌ أَدْنى ، أي : أقربُ . اسْتُعير الدنوُّ لقُرْبِ المسافةِ في الزمانِ وهذا مطابقٌ لما في أولِ السورةِ من التقسيمِ : وذلك أَنَّه إذا قام أَدْنَى مِنْ ثُلُثي الليلِ صَدَقَ عليه أنه قام الليلَ إلاَّ قليلاً ؛ لأنَّ الزمانَ الذي لم يَقُمْ فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثَيْن ، فيَصْدُقُ عليه قولُه : " إلاَّ قليلاً " . وأمَّا قولُه " ونِصْفَه " فهو مطابقٌ لقولِه أولاً " نِصْفَه " وأمَّا قولُه : " وثُلُثَه " فإنَّ قولَه : ﴿ أَوِ انقص مِنْهُ ﴾ قد ينتهي النَّقْصُ في القليل إلى أن يكونَ الوقتُ ثلثي الليلِ . وأمَّا قولُه : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ فإنَّه إذا زاد على النصفِ قليلاً كان الوقتُ أقلَّ مِنَ الثلثَيْن . فيكونُ قد طابق أَدْنى مِنْ ثلثي الليل ، ويكون قولُه تعالى : ﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً ﴾ شَرْحاً لمُبْهَمِ ما دَلَّ عليه قولُه : ﴿ قُمِ الليلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . وعلى قراءةِ النصبِ فَسَّر الحسنُ " تُحْصُوه " بمعنى تُطيقوه .

(284/789)

وأمَّا قراءةُ الجرِّ فمعناها : أنه قيامٌ مُخْتَلِفٌ : مرةً أدنى من الثلثين ، ومرةً أَدْنى من النصفِ ، ومرةً أَدْنى من الثلثِ ؛ وذلك لتعذُّرِ معرفةِ البشرِ بمقدارِ الزمانِ مع عُذْرِ النومِ . وقد أوضح هذا كلَّه الزمخشريُّ فقال : " وقُرِىء نصفَه وثلثَه بالنصبِ على أنك تقومُ أقلَّ من الثلثين ،

وتقومُ النصفَ والثلثَ وهذا مطابِقٌ لما مَرَّ في أولِ السورةِ من التخيير : بين قيامِ النصفِ بتامِه ، وبين قيام الناقصِ منه ، وهو الثلثُ ، وبين قيامِ الزائدِ عليه ، وهو الأَدْنَى من الثلثَيْن .

وقُرِىء بالجرّ ، أي : تقومُ أقلَّ من الثلثَيْن وأقلَّ من النصفِ والثلثِ ، وهو مطابقٌ للتخييرِ بين النَّصْفِ وهو أَدْنى من الثلثين والثلثِ وهو أَدْنى من النصفِ والرُّبع وهو أَدْنى من الثلثين والثلثِ وهو أَدْنى من النصفِ والرُّبع وهو أدنى من الثلث وهو الوجهُ الأخيرُ " انتهى . يعني بالوجهِ الأخير ما قَدَّمه أولَ السورة من التأويلات .

وقال أبو عبد الله الفاسي : " وفي قراءةِ النصب إشكالٌ ، إلاَّ أَنْ يُقَدَّر : نصفَه تارةً ، وثلثَه تارةً ، وأقلَّ من النصفِ والثلثِ تارةً ، فيَصِحَّ المعنى " .

قوله : ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ رُفع بالعطفِ على الضميرِ في " يقومُ " ، وجَوَّزَ ذلك الفصلُ بالظرفِ وما عُطِفَ عليه .

قوله : ﴿ واللهُ يُقَدِّرُ الليل ﴾ . قال الزمخشري : " وتقديمُ اسمِه عزَّ وجلَّ مبتدأً مبنيّاً عليه "يُقَدِّرُ " هو الدالُّ على معنى الاختصاصِ بالتقديرِ " .

ونازعه الشيخُ في ذلك فقال : " لو قيل : " زيدٌ يحفظُ القرآن " لم يَدُلَّ ذلك على اختصاصِه " . وجَعَلَ الاختصاصَ في الآيةِ مفهوماً من السِّياقِ لا ممَّا ذكره .

قوله : ﴿ أَنْ لَنْ ﴾ و " أَنْ سيكونُ " كلاهما مخففةٌ من الثقيلة ، والفاصلُ النفيُ وحرفُ التنفيسِ .

قوله : ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ / عطفٌ على " مَرْضَى " ، أي : عَلِم أَنْ سيوجَدُ منكم قومٌ مَرْضى وقومٌ آخرون مسافرون . ف " يَضْرِبون " نعتٌ ل " آخرون " وكذلك " يَبْتَغون " . ويجوز أَنْ يكونَ " يَبْتَغون " حالاً مِنْ فاعل " يَضْرِبون " ، و " آخرون " عطفٌ على " آخرون " و " يقاتِلون " صفتُه .

قوله : ﴿ هُوَ خَيْراً ﴾ العامَّةُ على نصب الخير ، مفعولاً ثانياً . وهو : إمَّا تأكيدٌ للمفعول الأولِ أو فَصْلٌ . وجَوَّز أبو البقاء أن يكونَ بدلاً ، وهو غَلَطٌ ؛ لأَنَّه كان يَلْزَمُ أن يطابقَ ما قبله في الإعرابِ فيقال : إياه . وقرأ أبو السَّمَّال وابن السَّمَيْفَع " خيرٌ " على أن يكونَ " هو " مبتدأً ، و " خيرٌ " خبرُه . والجملةُ مفعولٌ ثانٍ ل " تَجِدوه " . قال أبو زيد : " هي لغةُ تميم ، يرفعون ما بعد الفصل " وأنشد سيبويه :

4377 تَحِنُّ إلى ليلى وأنتَ تركتَها . . . وكنتَ عليها بالمَلا أنتَ أَقْدَرُ

والقوافي مرفوعةٌ . ويُرْوَى " أَقْدَارا " بالنصب . قال الزمخشري : و " هو فصْلٌ " وجاز وإنْ لم يَقَعْ بينَ معرفتَيْن لأنَّ " أَفْعَلَ مِنْ " أشْبَهَ في امتناعِه من حرفِ التعريف المعرفةَ " . قلت

: هذا هو المشهورُ . وبعضُهم يُجَوِّزه في غيرِ أفعلَ من النكراتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 508.532 ﴾

(286/789)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الزكاة)

زكا يزْكو زَكَاءً وزُكُوًّا : نما .

والزكاة : النُّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى .

ويعتبر ذلك بالأُمور الدّنيوية والأَخرويّة ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَاماً ﴾ إِشارة إِلى ما يكون حلالاً لا يُسْتوخَم عُقْباه .

ومنه الزكاة لما يخرجه الإِنسان من حقِّ الله تعالى إِلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاءِ البركة ، أَو لتزكية النَّفْس أَى تنميتها بالخيرات والبركات ، أَوْ لهما جميعًا ؛ فإِنَّ الخَيْرين موجودان فيها .

وقرن الله تعالى الزكاة بالصَّلاة فى القرآن تعظيما لشأنها .

وبزكاءِ النفس وطهارتها يصير الإِنسان بحيث يستحق فى الدُّنيا الأَوصاف المحمودة ، وفى الآخرة الأَجرَ والمثوبة ، وهو أَن يتحرَّى الإِنسان ما فيه تطهيره .

وذلك ينسب تارة إِلى العبد لاكتسابه ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ ، وتارة إِلى الله تعالى لكونه فاعلا لذلك فى الحقيقة نحو : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ ، وتارة إِلى النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم لكونه واسطة فى وصول ذلك إِليهم ، نحو : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ، وتارة إِلى العبادة الَّتى هى آلة فى ذلك ، نحو : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ﴾ .

وقوله : ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ أَى زكىَّ الخِلْقة ، وذلك على طريق ما ذكرناه من الاجتباءِ ، وهو أَن يجعل بعض عباده عالِمًا وطَاهر الخُلُق لا بالتعَلُّم والممارسة بل بقوّة إِلهيّة ، كما يكون لكلِّ الأَنبياء والرُّسُل .

ويجوز أَن يكون تسميته بالزَّكىّ لما يكون عليه فى الاستقبال لا فى الحال .

والمعنى سَيَتَزَكَّى .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ أَى يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكِّيهم الله ، أَو ليزكُّوا أَنفسهم ، والمعنيان واحد .

وليس قوله (للزَّكاة) مفعولا لقوله (فاعلون) ، بل اللاَّم فيه للقصد وللعلَّة .

وتزكية الإِنسان

نفسه ضربان : أَحدهما بالفعل وهو محمود ، وإِليه قَصَد بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ ،

والثانى بالقول كتزكية العدل غيره .

وذلك مذموم أَن يفعل الإِنسان بنفسه .

وقد نهى الله تعالى عنه بقوله : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مَدْح الإِنسان نفسه عقلا وشرعاً ، ولهذا قيل لحكيم : ما الَّذى لا يحسن / وإِن كان حقًّا ؟ فقال : مَدْح الإِنسان نفسه .

وفى أَثر مرفوع : "ما تِلف مالٌ من برّ ولا بحر إِلاَّ بمنع الزَّكاة" .

ويقال : زكاة الحُلِىّ إِعارتها .

وقال عليه الصلاة والسّلام : "حَصِّنُوا أَموالكم بالزَّكاة" ، وقال الشاعر :

*وأَدِّ زكاة الجاه وأعلم بأَنَّها * كمِثل زكاة المال تمَّ نصابها *

وقال :

*حبَّ علىِّ بن أَبى طالب * دلالةٌ باطنةٌ ظاهرهْ*

* تُخْبِرُ عن مُبْغِضه أَنَّه * نُطفةُ رجْسٍ فى حَشَى عاهرهْ*

*ومن تولَّى غيرَه لا زَكَتْ * زُكْبته فى الدّنيا والآخرهُ*

وورد فى القرآن على ستَّة عشر وجهاً :

وذلك بمعنى الأَقرب إلى المصلحة : ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ .

وبمعنى الحلال : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ .

وبمعنى الحُسْن واللطافة : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أَى ذات جمال .

وبمعنى الصّلاح والصِّيانة : ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ أَى صلاحاً .

وبمعنى النبوّة والرسالة : ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ ، أَى رسولا نبياً .

وبمعنى الدعوة والعبادة : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ .

وبمنعى الاحتراز عن الفواحش : ﴿ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ .

وبمعنى الإِقبال على الخدمة : ﴿ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ .

وبمعنى الإِيمان والمعرفة : ﴿ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أَى لا يؤْمنون .

(288/789)

وبمعنى التوحيد والشّهادة : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ .

وبمعنى الثناءِ والمَدْح : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وبمعنى النَّقاءِ والطَّهارة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .

وبمعنى التَّوْبة من دعوى الرُّبوبيّة : ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ .

وبمعنى أَداءِ الزَّكاة الشرعية : ﴿ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ ، ﴿ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ .

ولها نظائر كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 132.135 ﴾

(289/789)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المزمل عليه الصلاة والسلام

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " الحادثات بالله حصلت ، فقلوب العارفين بالله عرفت ما عرفت وأرواح الصديقين بالله ألفت من ألفت وفهوم الموحدين بساحات جلاله وقفت ، ونفوس العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتصفت وعقوقل الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

أي : المتزمل المتلفِّف في ثيابه . وفي الخبر : " أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرٍ وَبَرٍ ، وقالت عائشة رضي الله عنها : نصفُه عليَّ وأنا نائمة ، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي ، وطولُ المِرْطِ أربعةُ عشر ذراعاً " .

﴿ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ .

﴿ قُمِ الَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ نصفَه بَدَلٌ منه ؛ أي : قم نصف الليل ، وأَنْقِصْ من النصف إلى الثلث أوزِدْ على الثلث ، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُخَيَّراً ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث . وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس ، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة – وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه سلم .

ويقال : يا أيها المتزمل بأعباء النبوَّة . . ﴿ قُمِ الَّيْلَ ﴾ .

ويقال : يا أيها الذي يُخْفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ . . فإنّا نصرناك .

ويقالك قُمْ بنا . . يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس . . قُمْ أنت .

فليسكنْ الكلُّ . . ولْتَقُمْ انت .

ويقال : لَمَّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمَّته إكراماً لشأنه وقدرة .

وفي الخبر : " أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا . . . " ولا يُدْرَى التأويل للخبر ، أو أنَّ التأويل معلوم . . وإلى أن ينتهي إلى التأويل فللأحباب راحاتٌ كثيرة ، ووجوهٌ من الإحسان موفورة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ .

ارْتَعْ بِسِرِّك في فَهْمِه ، وتأنَّ بلسانك في قراءته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إلَهَ إلا الله .

ويقال : الوحي ؛ وسمَّاه ثقيلاً أي خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان .

ويقال : ثقيل أي : له وزن وخطر . وفي الخبر " كان إذا نزل عليه القرآن – وهو على ناقته – وضعت جِرانها ، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه " .

وروى ابن عباس : أنَّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةَ واحدةٍ فَبَرَكَت ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل القرآن وهيبته .

ويقال : ﴿ ثَقِيلاً ﴾ سماعه على مَنْ جحده .

ويقال : " ثقيلاً بِعِبْئِه – إلاَّ على من أُيِّدِ بقوةٍ سماوية ، ورُبِّي في حِجْرِ التقريب " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ .

أي : ساعات الليل ، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهي ناشئة ، وهي أشد وطئاً أي : مُوَطَّأة أي :

هي أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ ، وأشدُّ نشاطاً .

ويحتمل : هي أشدُ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار .

﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي : أَبْيَنُ قولاً .

ويقال : هي أشدُّ موطأةً للقلب وأقوم قيلاً لأنها أبعدُ من الرياء ، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأتمّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ .

أي : سبحاً في أعمالك ، والسبح : الذهب والسرعة ، ومنه السباحة في الماء .

فالمعنى : مذاهبُك في النهار فيما يَشْغَلُك كثيرةٌ – والليل أُخْلَى لك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ .

(291/789)

أي : انقَطِعْ إليه انقطاعاً تاماً .

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ .

الوكيل مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ ؛ أي : تَوَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَك إليه ، وثِقْ به .

ويقال : إنك إذا اتخذْتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة ، وإذا اتخذتني

وكيلاً أُوَفِّرُ عليكَ مَالَكَ وأُعطيكَ الأجر .

ويقال : وكيلُك ينفق عليك من مالِك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .

ويقال : وكيلُك مَنْ هو في القَدْرِ دونَك ، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَه كثيراً . وأنا ربُّكَ سَيِّدُك وأحبُّ أنْ تكلمَني وأُكلِّمَك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ .

الهَجْرُ الجميل : أن تعاشرَهم بظاهرك وتُباينَهم بسِرِّك وقلبك .

ويقال : الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّك لا بحَظِّ نَفْسِك .

ويقال : الهجرُ الجميل ألا تُكلِّمَهم ، وتكلمني لأجْلهم بالدعاء لهم .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ .

أي : أُولِي التَّنَعُّم وأَنْظِرْهم قليلاً ، ولا تهتم بشأنهم ، فإني أكفيكَ أمرَهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ .

ثم قال :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ .

يعني : أرسلنا إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً عليكم ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ ، ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ ثقيلاً .

(292/789)

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً ﴾ من هَوْلِه يصير الولدانُ شيباً - وهذا على ضَرْبِ المثل .

﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ أي بذلك : اليوم لهوله .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بالله أي : بأمره .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ : فما وَعَدَ اللَّهُ سيصدقه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ : يعني هذه السورة ، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَمَنْ اتعظ بها سَعِدَ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ من المؤمنين .

﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ فهو خالقهما ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ وتطيعوه .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : خَفَّفَ عنكم ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ من خمس آيات إلى ما زاد . ويقال : من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ يسافرون ، ويعلم أصحاب الأعذار ، فَنَسخَ عنهم قيامَ الليل .

﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ المفروضة .

﴿ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ مضى معناه .

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾ أي : ما تقدّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 646.641 ﴾

(293/789)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المزّمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (المزمّل) بدل من أيّ – أو عطف بيان عليه – تبعه في الرفع لفظا (الليل) ظرف زمان متعلّق بـ (قم) ، (إلّا) للاستثناء (قليلا) مستثنى منصوب .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " قم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(نصفه) بدل من (قليلا) منصوب (أو) حرف عطف للتخيير (منه) متعلّق بـ (انقص) ، (عليه) متعلّق بـ (زد) ، (ترتيلا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " انقص . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " زد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انقص .

وجملة : " رتّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

الصرف :

(المزّمّل) ، اسم فاعل من (تزمّل) الخماسيّ بمعنى تلفّف بثوبه – على أغلب الآراء " 1 " ، وزنه متفعّل . . فيه إبدال ، أصله المتزمّل ، قلبت التاء زايا ثمّ سكّنت ليتمّ الإدغام مع فاء الكلمة وهي الزاي .

(قم) ، فيه إعلال بالحذف ، هو أمر الثلاثيّ الأجوف قام ، والأصل فيه قوم بضمّ فسكونين ، حذف حرف العلّة لالتقاء الساكنين وزنه فل بضمّ فسكون لأنّ فاءه مضمومة في المضارع ،

(نصفه) ، اسم لأحد جزأي الشيء إذا تساويا ، وزنه فعل بكسر فسكون – وقد تفتح الفاء أو تضمّ – جمعه أنصاف زنة أفعال .

(زد) الإعلال فيه مثل في (قم) وعلى قياسه ، وزنه فل بكسر فسكون لأنّ الفاء مكسورة في المضارع .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا " .

---

(1) قيل المتزمّل بالنبوّة أو بالقرآن . .

أي صل الليل إلا قليلا ، والقيام جزء من الصلاة ، فعبّر بالجزء وهو القيام وأراد الكل وهو الصلاة . فعلاقة المجاز جزئية .

الفوائد

– جهاد الروح والجسد :

كان النبي – صلى اللّه عليه وسلم – وأصحابه يقومون من الليل ، من النصف إلى الثلثين ، وكان الرجل منهم ، لا يدري متى ثلث الليل أو متى نصفه أو متى ثلثاه ، فكان يقوم

الليل كله حتى يصبح ، مخافة ألا يحفظ القدر الواجب ، واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم ، فرحمهم اللّه ، وخفف عنهم ، ونسخها بقوله : " فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ " . قيل : ليس في القرآن سورة نسخ آخرها أوّلها إلّا هذه السورة . وكان بين نزول أولها ونزول آخرها سنة . وقيل : ستة عشر شهرا . وكان قيام الليل فرضا ، ثم نسخ بعد ذلك في حق الأمة بالصلوات الخمس . وثبتت فرضيته على النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) بقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

عن سعد بن هشام قال : انطلقت إلى عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) . قالت : أ لست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ؟ قالت : فإن خلق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) القرآن ، قلت : فقيام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قالت : أ لست تقرأ المزمل ؟ قلت :

بلى ، قالت : فإن اللّه افترض القيام في أول هذه السورة ، فقام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك اللّه خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء ، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة .

[سورة المزمل (73) : الآيات 5 إلى 6]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6)

الإعراب :

(عليك) متعلّق بـ(سنلقي) ، (هي) ضمير فصل " 1 " ، (وطئًا) تمييز منصوب (أقوم قيلا) مثل أشدّ وطئًا .

جملة : "إنّا سنلقي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "سنلقي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) يجوز أن يكون ضميرا منفصلا مبتدأ خبره أشدّ والجملة خبر إنّ .

وجملة : "إنّ ناشئة . . أشدّ " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(ناشئة) ، إمّا مؤنّث ناشئ ، اسم فاعل من الثلاثيّ نشأ ، وزنه فاعل وصف به النفس الناشئة بالليل للعبادة . . أو هو مصدر بمعنى قيام الليل كالعاقبة . . وقيل هو جمع ناشئ وهو جمع غير قياسيّ . . وقيل هو أول ساعات الليل أو ما ينشأ من الطاعات فيه .

(وطئا) ، مصدر سماعيّ لفعل وطأ باب فرح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة المزمل (73) : آية 7]

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)

الإعراب :

(لك) متعلّق بخبر مقدّم (في النهار) متعلّق بالخبر المحذوف " 1 " ، (سبحا) اسم إنّ منصوب جملة : " إنّ لك في النهار سبحا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

الصرف :

(سبحا) ، مصدر الثلاثيّ سبح بمعنى جرى أو تقلّب في الماء ، وقد أستعير للتصرّف بالحوائج وزنه فعل بفتح فسكون .

(طويلا) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ طال ، وزنه فعيل .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا " .

أي تقلبا وتصرفا في مهماتك ، واشتغالا بشواغلك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فعليك بها في الليل . وأصل السبح المر السريع في الماء ، فاستعير للذهاب مطلقا .

وأنشدوا قول الشاعر :

---

(1) أو متعلّق بحال من (سبحا) .

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وأما القراءة بالخاء : سبخا فاستعارة من سبخ الصوف : وهو نقشه ونشر أجزائه ، لانتشار الهم ، وتفرق القلب بالشواغل .

[سورة المزمل (73) : الآيات 8 إلى 14]

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إليه) متعلّق بـ (تبتّل) ، (تبتيلا) مفعول منصوب نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق .

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبتّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

9 - (ربّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 1 " ، (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في خبر لا المحذوف ، أي لا إله موجود إلّا هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (وكيلا) مفعول به ثان منصوب .

---

(1) أو هو مبتدأ خبره جملة لا إله إلّا هو .

وجملة : " (هو) ربّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ المقدّر (هو) .

وجملة : " اتّخذه . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت التوفيق في أعمالك فاتّخذه وكيلا .

10 - (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (هجرا) مفعول مطلق منصوب . . والمصدر المؤوّل (ما يقولون) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (اصبر) .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذكر .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " اهجرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

11 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة " 3 " ، (المكذّبين) معطوف على ضمير المتكلّم المفعول في (ذرني) " 4 " (أولي) نعت للمكذّبين منصوب (قليلا) مفعول فيه نائب عن الظرف الزمانيّ أي زمانا قليلا " 5 " .

وجملة : " ذرني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " مهّلهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

12 - (لدينا) ظرف مبنيّ على السكون في محلّ نصب متعلّق بخبر إنّ (ذا) نعت لـ (طعاما) منصوب . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ربّك .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف والجملة صلته .

(3) أو الثانية هي واو المعيّة و(المكذّبين) مفعول معه . . قال ابن هشام : ليس في القرآن الكريم واو المعيّة .

(4) أي أنا أكفيكهم . [. . . . .]

(5) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي تمهيلا قليلا .

وجملة : " إنّ لدينا أنكالا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

14 – (يوم) ظرف متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به لدينا " 1 " ، (مهيلا) نعت لـ (كثيبا) منصوب .

وجملة : " ترجف الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كانت الجبال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ترجف أي تكون . .

الصرف :

(10) هجرا : مصدر الثلاثيّ هجر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(11) النعمة : مصدر بمعنى التّنعم والتمتّع وزنه فعلة كمصدر المرّة . .

(12) أنكالا : جمع نكل بمعنى القيد الثقيل ، وزنه فعل بكسر فسكون ، والجمع أفعال .

(13) غصّة : اسم للحال الذي يكون عليه المرء حين يغصّ بشيء ما ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(14) كثيبا : اسم للرمل المتجمّع ، وزنه فعيل .

(مهيلا) ، اسم مفعول من (هال) الثلاثيّ باب ضرب على وزن مبيع ، فيه إعلال بالحذف

والخلاف في موضع الحذف بين سيبويه والكسائيّ بأنّ المحذوف هو الواو أو الياء إذ أصله مهيول.

البلاغة

الطباق: في قوله تعالى " رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ " .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف نعت لـ (عذابا) ، أي عذابا واقعا يوم ترجف . .

حيث طابق سبحانه وتعالى بين المشرق والمغرب في هذه الآية الكريمة.

[سورة المزمل (73) : الآيات 15 إلى 16]

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16)

الإعراب:

(إليكم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (عليكم) متعلّق بـ (شاهدا) ، (ما) حرف مصدريّ (إلى فرعون) متعلّق بـ (أرسلنا) الثاني.

والمصدر المؤوّل (ما أرسلنا . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمفعول مطلق عامله أرسلنا

إليكم.

جملة: "إنّا أرسلنا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أرسلنا . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أرسلنا (الثانية) "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

16 - (الفاء) عاطفة في الموضعين (أخذا) مفعول مطلق منصوب.

وجملة: "عصى فرعون . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر.

وجملة: "أخذناه . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة عصى فرعون.

الصرف:

(وبيلا)، صفة مشبّهة من الثلاثيّ وبل باب وعد أي اشتدّ، وزنه فعيل . . وفي المصباح:

الوبيل الوخيم وزنا ومعنى.

الفوائد:

- مسألة وفتوى:

كتب الرشيد ليلة إلى القاضي أبي يوسف، يسأله عن قول القائل:

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن وإن تخرقي يا هند فالخرق أشأم

فأنت طلاق والطلاق عزيمة ثلاث ، ومن يخرق أعق وأظلم

فقال : ماذا يلزمه إذا رفع ال (ثلاث) وإذا نصبها ؟ قال أبو يوسف : فقلت : هذه مسألة نحوية فقهية ، ولا آمن من الخطأ إن قلت فيها برأي ، فأتيت الكسائي ، وهو في فراشه ، فسألته ، فقال : إن رفع ثلاثا طلقت واحدة ، لأنه قال : " أنت طلاق " ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث وإن نصبها طلقت ثلاثا ، لأن معناه : أنت طالق ثلاثا ، وما بينهما جملة معترضة . فكتبت بذلك إلى الرشيد ، فأرسل إليّ بجوائز ، فوجهت بها إلى الكسائي .

وأقول : إن الصواب أن كلا من الرفع والنصب محتمل لوقوع الثلاث ولوقوع الواحدة ، أما الرفع فلأن (أل) في الطلاق إما لمجاز الجنس كما تقول : " زيد الرجل " أي هو الرجل المعتد به ، وإما للعهد الذكري ، مثلها في قوله تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا) ، أي وهذا الطلاق المذكور عزيمة ثلاث ولا تكون للجنس الحقيقي ، لئلا يلزم الإخبار عن العام بالخاص ، كما يقال : " الحيوان إنسان " وذلك باطل ، إذ ليس كل حيوان إنسانا ، ولا كل طلاق عزيمة ولا ثلاثا فعلى العهدية يقع الثلاث ، وعلى الجنسية يقع واحدة كما قال الكسائي وأما النصب : فلأنه محتمل لأن يكون على المفعول المطلق ، وحينئذ يقتضي وقوع الطلاق الثلاث ، إذ المعنى فأنت طالق ثلاثا ، ثم اعترض بينهما بقوله : " و الطلاق عزيمة " ، ولأن

يكون حالا من الضمير المستتر في عزيمة ، وحينئذ لا يلزم وقوع الثلاث ، لأن المعنى :

والطلاق عزيمة إذا وقع ثلاثا ، فإنما يقع ما نواه هذا ما يقتضيه معنى اللفظ ، مع قطع النظر

عن شي ء آخر وأما الذي أراده هذا الشاعر المعين فهو الثلاث ، لقوله بعد :

فبيني بها إن كنت غير رفيقة وما لامرئ بعد الثلاث مقدّم

[سورة المزمل (73) : الآيات 17 إلى 18]

(302/789)

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال من فاعل تتّقون (كفرتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (يوما) مفعول به عامله تتّقون بحذف مضاف أي عذاب يوم " 1 " ، منصوب وفاعل (يجعل) ضمير مستتر يعود على (يوما) - أو على اللّه - (شيبا) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " تتّقون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جحدتم يوم القيامة .

فكيف تتّقون عذاب اللّه .

وجملة : "كفرتم . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : "يجعل . . . " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) " 2 " .

18 - (به) متعلّق بـ (منفطر) - و(الباء) سببيّة أو ظرفيّة وقد تكون للاستعانة -

والضمير في (وعده) يعود على اللّه .

وجملة : " السماء منفطر . . . " في محلّ نصب نعت ثان لـ (يوما) .

وجملة : "كان وعده مفعولا " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

الصرف :

(17) شيبا جمع أشيب ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ شاب باب

---

(1) أو عامله كفرتم بمعنى جحدتم . . ويجوز أن يكون منصوبا على نزع الخافض أي كفرتم بيوم .

(2) وإذا كان الفاعل في (يجعل) يعود على اللّه ففي الجملة رابط مقدّر أي يجعل الولدان شيبا فيه .

(3) المصدر (وعد) مضاف إلى فاعله وهو اللّه ، وقد يكون الضمير عائدا على اليوم فالمصدر مضاف إلى مفعوله والفاعل محذوف ، وحينئذ تصبح الجملة تعليليّة .

ضرب وزنه أفعل ، ووزن شيب فعل بضمّ فسكون ، وقد كسرت الشين لمناسبة الياء . .

ولا يقال في المؤنّث شيباء بل شائبة أو شمطاء .

(18) منفطر : اسم فاعل من الخماسيّ انفطر ، وزنه منفعل بضمّ الميم وكسر العين . .

وجاء اللفظ مذكّرا لأن الصيغة هي صيغة نسب أي ذات انفطار مثل امرأة مرضع . .

وقد تكون الصيغة مما يستوي معها المذكّر والمؤنّث ، أو لأنّ السماء اسم جنس .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى "يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً " .

كناية عن الهول والشدة ، يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال .

والأصل فيه : أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب .

[سورة المزمل (73) : آية 19]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ ، ومفعول (شاء) مقدّر أي شاء

النجاة أو الايمان (اتّخذ) ماض في محلّ جزم جواب الشرط (إلى ربّه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان.

جملة: "إنّ هذه تذكرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "من شاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة: "اتّخذ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(304/789)

[سورة المزمل (73) : آية 20]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (20)

الإعراب :

(من ثلثي) متعلّق بـ (أدنى) ، (نصفه) معطوف على أدنى منصوب وكذلك (ثلثه) .

والمصدر المؤوّل (أنّك تقوم . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

(الواو) عاطفة (طائفة) معطوف على الضمير فاعل تقوم " 1 " ، (من الذين) متعلّق بنعت لـ (طائفة) ، (معك) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الذين (الواو) عاطفة قبل لفظ الجلالة (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن محذوف " 2 " ، (الفاء) عاطفة (عليكم) متعلّق بـ (تاب) .

---

(1) جاء العطف من غير توكيد بالضمير المنفصل لوجود الفاصل .

(2) أو هو ضمير مخاطب الجمع أي : أنّكم لن تحصوه .

والمصدر المؤوّل (أن لن تحصوه . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي علم .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (من القرآن) تمييز للضمير العائد " 1 " (علم أن) مثل الأولى (منكم) متعلّق بمحذوف خبر سيكون

(آخرون) معطوف على مرضى (في الأرض) متعلّق بـ (يضربون) بتضمينه معنى يسعون أو يسافرون (من فضل) متعلّق بـ (يبتغون) ، (في سبيل) متعلّق بـ (يقاتلون) . .

والمصدر المؤوّل (أن سيكون . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي علم الثاني .

(الفاء) عاطفة (ما تيسّر منه) مثل ما تيسّر من القرآن (قرضا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في الاشتقاق " 2 " ، (الواو) اعتراضيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (لأنفسكم) متعلّق بـ (تقدّموا) (من خير) تمييز ما " 3 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بحال من ضمير الغائب في (تجدوه) " 4 " ، (هو) ضمير فصل " 5 " (خيرا) مفعول به ثان منصوب (أجرا) تمييز منصوب . . (الواو) عاطفة . .

جملة : " إنّ ربّك يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تقوم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير العائد .

(2) المفعول الثاني محذوف . ويجوز أن يكون (قرضا) هو المفعول الثاني إذا كان بمعنى المال المقروض .

(3) أو متعلّق بحال من (ما) .

(4) أو متعلّق بـ (تجدوه) .

(5) جاز أن يفصل بين معرفة ونكرة لا بين معرفتين لأنّ اسم التفضيل (خيرا) بمنزلة المعرفة إذ جاء بعده المفضّل مجرورا بمن – مقدّرين – أي خيرا ممّا قدّمتموه.

(306/789)

وجملة: "اللّه يقدّر . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يقدّر . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "علم . . . "لا محلّ لها استئناف في حكم التعليل "1".

وجملة: "لن تحصوه . . . "في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة.

وجملة: "تاب . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة علم . .

وجملة: "اقرؤوا . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن رغبتم في الثواب فاقرؤوا.

وجملة: "تيسّر . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "علم . . . (الثانية) . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سيكون منكم مرضى . . . "في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة.

وجملة: "يضربون . . . "في محلّ رفع نعت لـ (آخرون).

وجملة : " يبتغون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يضربون .

وجملة : " يقاتلون . . . " في محلّ رفع نعت لـ (آخرون) الثاني .

وجملة : " اقرؤوا . . . " جواب شرط مقدّر " 2 " .

وجملة : " تيسّر (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " أقيموا . . . " معطوفة على جملة اقرؤوا .

وجملة : " آتوا . . . " معطوفة على جملة اقرؤوا .

وجملة : " تقدّموا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للتعليل .

وجملة : " تجدوه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " استغفروا . . . " معطوفة على جملة أقيموا الصلاة .

وجملة : " إنّ اللّه غفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) أو هي في محلّ نصب حال من فاعل يقدّر بتقدير قد . [. . . . .]

(2) مثل جملة : اقرؤوا الأولى .

الصرف :

(تحصوه) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف أصله تحصيوه – بياء مضمومة بعد الصاد – سكّنت الياء للثقل ثمّ حذفت لالتقاء الساكنين ، وزنه تفعوه . .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ " .

أي زمانا أقل منهما ، استعمل فيه الأدنى ، وهو اسم تفضيل من دنا إذا قرب ، لما أن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، فهو فيه مجاز مرسل ، لأن القرب يقتضي قلة الأحياز بين الشيئين ، فاستعمل في لازمه ، أو في مطلق القلة .

ويجوز اعتبار التشبيه بين القرب والقلة ، ليكون هناك استعارة ، والإرسال أقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 29 صـ 131 . 145 ﴾

(309/789)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(73) سورة المزّمل صلى الله عليه وسلم

مكيّة وآياتها عشرون

[سورة المزمل (73) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)

وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً (12) وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

اللغة :

(الْمُزَّمِّلُ) المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف بها بإدغام التاء في الزاي ونحوه المدّثر في المتدثر ، يقال تزمّل في ثوبه التفّ وزمل لف قال امرؤ القيس :

كأن ثبيرا في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمل

وقال ذو الرمّة :

وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها متزمل

وفي المصباح " زملته بثوبه تزميلا فتزمل مثل لففته فتلفف ، وزملت الشيء حملته ، ومنه قيل للبعير زاملته بالهاء للمبالغة لأنه يحمل متاع المسافر " وسيأتي المزيد من معناه في باب الفوائد .

(310/789)

(ناشِئَةَ اللَّيْلِ) القيام بعد النوم فهي صفة لمحذوف أي إن النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي ترتفع وتنهض من نشأت السحابة إذا ارتفعت وقيل أنها مصدر بمعنى القيام من نشأ إذا قام ونهض فتكون كالعاقبة وفي المختار : " وناشئة الليل أول ساعاته وقيل ما ينشأ فيه من الطاعات " .

(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ) انقطع إليه وتبتيلا مصدر على غير المصدر وهو واقع موقع التبتل لأن مصدر تفعّل تفعلا ، نحو تصرف تصرفا وتكرم تكرما وأما التبتيل فمصدر تبل نحو صرف تصريفا قال في الخلاصة :

وغير ذي ثلاثة مقيس مصدره كقدس التقديس

قال في الكشاف : " فإن قلت كيف قيل تبتيلا مكان تبتلا قلت :

لأن معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل "

وعبارة أبي البقاء : " قوله تعالى تبتيلا مصدر على غير المصدر واقع موقع تبتل وقيل المعنى بتل نفسك تبتيلا " .

)

التَّعْمَةِ) بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرّة .

(أَنْكالًا) قيودا ثقالا جمع نكل بكسر النون .

(كَثِيباً) رملا مجتمعا .

(مَهِيلًا) سائلا بعد اجتماعه وهو من هال يهيل وهو اسم مفعول أصله مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الهاء وحذفت الواو ثاني الساكنين لزيادتها وقلبت الضمة كسرة لمجانسة الياء وفي المختار " هال الدقيق في الجراب صبّه من غير كيل وكل شيء أرسله إرسالا من رمل أو تراب أو طعام ونحوه فقد هاله فانهار أي جرى وانصبّ وبابه باع وأهال لغة فيه فهو مهال ومهيل " .

الإعراب :

(311/789)

(يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) يا حرف نداء وأيها منادى مبني على الضم لأنه نكرة مقصودة والهاء للتنبيه والمزمل بدل أو نعت وقم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والليل ظرف لقم وإن استغرقه الحدث الواقع فيه وإلا أداة استثناء وقليلا مستثنى من الليل وفيه دليل على أن المستثنى قد يكون مبهم المقدار (نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا) جوّز المعربون في نصفه أن يكون بدلا من الليل ومن قليلا فإذا كان بدلا من الليل كان الاستثناء منه وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلا منه والضمير في منه وعليه عائد على النصف فيصير المعنى قم نصف الليل إلا قليلا أو أنقص من نصف الليل قليلا أو زد على نصف الليل فيكون قوله أو أنقص من نصف الليل قليلا تكرارا لقوله إلا قليلا من نصف

(312/789)

الليل وذلك تركيب غير فصيح ينزّه القرآن عنه . قال الزمخشري : " نصفه بدل من الليل وإلا قليلا استثناء من النصف كأنه قال : قم أقل من نصف والضمير في منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البتّ وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه " وقال أبو حيان تعقيبا على إعراب الزمخشري : " فلم ينتبه للتكرار الذي يلزمه في هذا القول لأنه على تقديره قم أقل من نصف

الليل كان أو أنقص من نصف الليل تكرارا ، وإذا كان نصفه بدلا من قوله إلا قليلا فالضمير في نصفه إما أن يعود على المبدل منه أو على المستثنى منه وهو الليل لا جائز أن يعود على المبدل منه لأنه يصير استثناء مجهول من مجهول إذ التقدير إلا قليلا نصف القليل وهذا لا يصح له معنى البتة وإن عاد الضمير على الليل فلا فائدة من الاستثناء من الليل إذ كان يكون أخصر وأوضح وأبعد عن الالتباس أن يكون التركيب قم الليل نصفه وقد أبطلنا قول من قال : إلا قليلا استثناء من البدل وهو نصفه وإن التقدير قم الليل نصفه إلا قليلا منه أي من النصف وأيضا ففي دعوى أن نصفه بدل من إلا قليلا وأن الضمير في نصفه عائد على الليل إطلاق القليل على النصف ويلزم أيضا أن يصير التقدير إلا نصفه فلا تقمه أو أنقص من النصف الذي لا تقومه أو زد عليه النصف الذي لا تقومه وهذا معنى لا يصحّ وليس المراد من الآية قطعا " وقال الزمخشري أيضا " وإن شئت جعلت نصفه بدلا من قليلا وكان تخييرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه وإنما وصف النصف بالقلّة بالنسبة إلى الكل وإن شئت قلت : لما كان معنى قم الليل إلا قليلا نصفه إذا أبدلت النصف من الليل قم أقل من نصف الليل رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل وقم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا فيكون التخيير فيما

وراء النصف بينه

(313/789)

وبين الثلث ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسّرته به أن تجعل قليلا الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع كأنه قيل أو أنقص منه قليلا نصفه وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع كأنه قيل أو زد عليه قليلا نصفه ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث فتكون تخييرا بين النصف والثلث والربع " . وتعقبه أبو حيان كعادته فقال : " وما أوسع خيال هذا الرجل فإنه يجوز ما يقرب وما يبعد والقرآن لا يجوز أن يحمل إلا على أحسن الوجوه التي تأتي في كلام العرب " وممّن نصّ على جواز أن يكون نصفه بدلا من الليل أو من قليلا الزمخشري كما ذكرنا عنه وابن عطية أورده مورد الاحتمال وأبو البقاء قال : " أشبه بظاهر الآية أن يكون بدلا من قليلا أو زد عليه والهاء فيهما للنصف فلو كان الاستثناء من النصف صار التقدير قم نصف الليل إلا قليلا أو أنقص منه قليلا والقليل المستثنى غير مقدّر فالنقصان منه لا يتحصل " وأما الخوفي فأجاز أن يكون بدلا من الليل ولم يذكر غيره .

(314/789)

وقال ابن عطية : " وقد يحتمل عندي قوله إلا قليلا أنه استثناء من القيام فيجعل الليل اسم جنس " ثم قال : " إلا قليلا ، أي الليالي التي تخل بقيامها عند العذر البيّن وهذا النظر يحسن مع القول بالندب " . وقال أبو حيان معقّبا : " وهذا خلاف الظاهر وقيل المعنى أو نصفه كما تقول أعطه درهما درهمين ثلاثة تريد أو درهمين أو ثلاثة وفيه حذف حرف العطف من غير دليل عليه " أو قال التبريزي : " الأمر بالقيام والتخيير في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين من آخر الليل لأن الثلث الأول وقت العتمة والاستثناء وارد على المأمور به فكأنه قال قم الليل إلا قليلا ثم جعل نصفه بدلا من قليلا فصار القليل مفسّرا بالنصف من الثلثين وهو قليل من الكل فقوله أو أنقص منه أي من المأمور به وهو قيام الثلث قليلا أي ما دون نصفه أو زد عليه أي على الثلثين فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعا على الثلثين (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) أو عاطفة

(315/789)

للتخيير أي بين قيام نصف الليل وبين الزائد عليه إلى الثلثين وبين الناقص عنه إلى الثلث ، وزد فعل أمر وعليه متعلقان بزد ورتل القرآن فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وترتيلا مفعول مطلق (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) الجملة اعتراض بين الأمر بقيام الليل وبين تعليله

بقوله الآتي : إن ناشئة الليل إلخ وقيل مستأنفة وعبارة الزمخشري : " وهذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته فهي أثقل عليه وأبهظ له ، وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن لأن الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بدّ لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه " وإن واسمها وجملة سنلقي خبرها وعليك متعلقان بنلقي وقولا مفعول به وثقيلا نعت أي كلاما عظيما جليلا مهيبا ذا خطر وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل (إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) الجملة تعليل لما تقدم وإن واسمها وهي ضمير فصل أو مبتدأ وأشدّ خبر إن أو خبر هي والجملة خبر إن ووطئا تمييز وأقوم عطف على أشد وقيلا تمييز أي قولا (إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً) إن حرف مشبه بالفعل ولك خبر إن المقدّم وفي النهار حال لأنه كان في الأصل صفة لسبحا وسبحا اسم إن وطويلا اسمها المؤخر ، وسيأتي معنى السبح في باب البلاغة (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) عطف على ما تقدم واسم ربك مفعول اذكر أي دم عليه ليلا ونهارا على أيّ حال ووجه وتبتل فعل أمر وإليه متعلقان به وتبتيلا مفعول مطلق (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) رب المشرق يقرأ

بالرفع فهو خبر لمبتدأ محذوف ويقرأ بالجر على أنه بدل من ربك والقراءتان سبعيتان ولا إله إلا هو تقدم إعراب الشهادة في البقرة ، والفاء الفصيحة أي إن عرفت ذلك

وآمنت به فاتخذه ، واتخذه فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به أول ووكيلا مفعول به ثان

(وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا) عطف على ما تقدم واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره هو وعلى ما متعلقان باصبر وجملة يقولون صلة ما واهجرهم عطف على اصبر وهجرا مفعول مطلق وجميلا نعت (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا) عطف أيضا وذرني فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به والمكذبين مفعول معه أو عطف على المفعول به والمعنى أنا أكفيك أمرهم فلا تأس ولا تحزن ، وأولي النعمة نعت للمكذبين ، ومهّلهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وقليلا نعت لمصدر محذوف أو ظرف أي قليلا من الزمن (إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَجَحِيماً) إن حرف مشبّه بالفعل ولدينا ظرف متعلق بمحذوف خبرها المقدم وأنكالا اسمها المؤخر وجحيما عطف على أنكالا (وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً) عطف على أنكالا وذا غصة نعت وهو الزقوم أو الضريع يغصّ به في الحلق و

عذابا عطف أيضا (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا) الظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به لدينا ولك أن تعلقه بمحذوف نعت لعذابا أي عذابا واقعا يوم

ترجف وجملة ترجف الأرض في محل جر بإضافة الظرف إليها والواو حرف عطف وكانت الجبال كان واسمها وكثيبا خبرها ومهيلا نعت لكثيبا .

البلاغة :

1- في الآيات المتقدمة يبدو الطباق واضحا بين المشرق والمغرب .

2- وفي قوله " إن لك في النهار سبحا طويلا " استعارة تصريحية ، فالسبح مصدر سبح وقد استعير من السباحة في الماء للتصرّف في مناحي العيش وحوائج الناس أي إن لك في النهار تصرفا وتقلبا في

المهمات كما يتردد السابح في الماء قال الشاعر :

أباحوا لكم شرق البلاد وغربها ففيها لكم يا صاح سبح من السبح

وقرىء سبخا بالخاء المعجمة ومعناه خفه من التكاليف ، والتسبيخ التخفيف وهو استعارة من سبخ الصوف إذا نفشه ونشر أجزاءه ومعناه انتشار الهمّة وتفرّق الخاطر في الشواغل ويقال لقطع القطن سبائخ الواحدة سبيخة ومنه قول الأخطل :

فأرسلوهنّ يذرين التراب كما يذري سبائخ قطن ندف أوتار

الفوائد :

اختلفت أقوال المفسرين في هذا الخطاب على ثلاثة أقوال :

1- قال عكرمة يا أيها المزمّل بالنبوّة والمتدثّر بالرسالة وعنه أيضا : يا أيها الذي زمّل هذا الأمر أي حمله ثم فتر .

2- قال ابن عباس : يا أيها المزمّل بالقرآن .

3- قال قتادة : يا أيها المزمّل بثيابه ، وكان هذا في ابتداء ما أوحي إليه فإنه صلّى اللّه عليه وسلم لما جاءه الوحي في غار حراء رجع إلى خديجة زوجه يرجف فؤاده فقال : زمّلوني زمّلوني لقد خشيت على نفسي أن يكون هذا مبادئ شعر أو كهانة وكل ذلك من الشيطان وأن يكون الذي ظهر بالوحي ليس الملك فقالت له خديجة وكانت وزيرة صدق كلا واللّه لا يخزيك اللّه أبدا إنك تصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

وقيل أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان نائما في الليل متزمّلا في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة التي كان عليها من التزمّل في

قطيفته ، وقد تشبث الزمخشري بهذا الرأي وقال عبارة بليغة في حدّ ذاتها ولكنه أساء إلى الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وننقل فيما يلي عبارته وتعقيب ابن المنير عليها لطرافتهما ولكونهما من الأدب الرفيع :

قال الزمخشري : " وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نائما بالليل متزمّلا في قطيفته فنودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمّه أمر ولا يعنيه شأن ، ألا ترى إلى قول ذي الرمّة :

وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ومن نائم عن ليلها متزمّل

يريد الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه :

فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

وفي أمثالهم :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

فذمّه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجدّ والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد ، وعلى التزمّل التشمّر والتخفّف للعبادة والمجاهدة في اللّه لا جرم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قد تشمّر لذلك مع أصحابه حق التشمّر وأقبلوا على إحياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرّت ألوانهم وظهرت السيما في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم " ولعمري لقد

أنصف الزمخشري النبي وأصحابه ووصف عبادتهم وإنضاء نفوسهم وصفا يليق بهم بيد أن العبارات الأولى موهمة قليلا لذلك أخذها عليه ابن المنير بقوله :

(319/789)

"

أما قوله الأول أن نداءه تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة فخطأ وسوء أدب ومن اعتبر عادة خطاب اللّه تعالى له في الإكرام والإجلال علم بطلان ما تخيله الزمخشري فقد قال العلماء أنه لم يخاطب باسمه نداء وإن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفا فأين نداؤه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذمّا في جفاة حفاة من الرعاة فأنا أبرأ إلى اللّه من ذلك وأربأ به صلّى اللّه عليه وسلم " ولقد ذكرت بقوله " أوردها سعد وسعد مشتمل " ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوي يردّ على الزمخشري ويخطىء رأيه في تصنيفه المفصل وإجحافه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه حتى سمّاه ابن خروف البرنامج وأنشد عليه :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

أقول : ولا مندوحة عن القول أن ابن المنير قد تجنى على الزمخشري كثيرا وتجاهل ما أورده

من الوصف الممتع الدقيق لتشميره صلّى اللّه عليه وسلم وعبادته ولكن إيراد الأبيات التي قيلت في الذم بهذا الصدد خطأ وقع فيه الزمخشري وربّ خطأ نشأ عن صواب ولا بأس بعد هذا من إيراد عبارة السهيلي بهذا الصدد فقد بلغ بها الغاية في التعليل والتأويل والتلطف في التحليل قال: " ليس المزمّل باسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام يعرف به وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب تترك المعاتبة نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي صلّى اللّه عليه وسلم لعلي كرّم اللّه وجهه: وقد نام ولصق بجنبه التراب: قم أبا تراب إشعارا بأنه ملاطف له فقوله يا أيها المزمّل فيه تأنيس وملاطفة " .

[سورة المزمل (73) : الآيات 15 إلى 20]

(320/789)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

اللغة :

(وَبِيلًا) ثقيلا شديدا من قولهم كلأ وبيل وضم لا يستمرأ لثقله والوبيل العصا الضخمة ومنه الوابل للمطر العظيم وفي المصباح :

" وبلت السماء وبلا من باب وعد ووبولا اشتد مطرها وكان الأصل وبل مطر السماء فحذف للعلم به ولهذا يقال للمطر وابل والوبيل الوضيم وو معنى " .

الإعراب :

)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا) كلام مستأنف مسوق لخطاب أهل مكة على طريق الالتفات مر الغيبة في قوله واصبر على ما يقولون وقوله والمكذبين ، وإن واسمها وجملة أرسلنا خبرها وإليكم متعلقان بأرسلنا ورسولا مفعول به وشاهد نعت لرسولا وعليكم متعلقان بشاهدا وكما نعت لمصدر محذوف أي إرسالا كإرسالنا إلى فرعون رسولا وما مصدرية وجملة أرسلنا لا محل لها وإلى فرعون متعلقان بأرسلنا ورسولا مفعول به وإنما خصّ موسى وفرعون بالذكر لأن أخبارهما كانت منتشرة بمكة (فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا) الفاء عاطفة وعصى فرعون الرسول فعل ماض وفاعل ومفعول به وإنما عرف الرسول لأن النكرة إذا أعيدت أعيدت معرفة بأل العهدية والعرب إذا قدّمت اسما ثم حكت عنه ثانيا أتوا به معرّفا بأل وأتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو رأيت رجلا فأكرمت الرجل ولو قلت فأكرمت رجلا لتوهم أنه غير الأول وسيأتي تحقيق هذا عند قوله : إن مع العسر يسرا وقوله صلّى اللّه عليه وسلم لن يغلب عسر يسرين ، وعبارة أبي البقاء : " إنما أعاده بالألف واللام ليعلم أنه الأول فكأنه قال فعصاه فرعون " فأخذناه عطف على فعصى وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به وأخذا مفعول مطلق ووبيلا نعت (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً) الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال وتتقون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وإن شرطية وكفرتم فعل ماض وفاعل في محل جزم فعل الشرط والجواب

محذوف دلّ عليه ما قبله أي فكيف تتقون ويوما مفعول تتقون أي فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا ويجوز أن يكون ظرفا أي فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم قاله الزمخشري وردّ عليه السمين بأنه لا يجوز أن ينتصب ظرفا لأنهم لا يكفرون في ذلك اليوم بل يؤمنون فيه لا محالة ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي إن كفرتم بيوم القيامة . وجملة يجعل صفة ليوما والولدان مفعول به أول وشيبا مفعول به ثان ، وسيأتي مزيد من معنى هذا الوصف في باب البلاغة (السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) الجملة صفة ثانية ليوما والسماء مبتدأ ومنفطر به خبر وقد يسأل سائل لم لم تؤنّث الصفة فيقال منفطرة ويجاب بأجوبة منها أن هذه الصيغة صيغة نسب أي ذات انفطار نحو امرأة مرضع وحائض أي ذات إرضاع وذات حيض ومنها أنها لم تؤنّث لأن السماء بمعنى السقف قال تعالى : وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، قال الزمخشري : " وصف لليوم بالشدّة أيضا وإن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق والمعنى ذات انفطار أو على تأويل السماء بالسقف والباء في به مثلها في قولك :

فطرت العود بالقدوم فانفطر به " فتكون على رأي الزمخشري للاستعانة وقيل سببية ، وقال القرطبي إنها بمعنى في والجميع سواء .

(323/789)

وكان فعل ماض ناقص ووعده اسمها ومفعولا خبرها والوعد مصدر مضاف لفاعله فيكون الضمير في به عائدا على اللّه تعالى ويجوز أن يعود على اليوم فيكون الوعد مصدرا مضافا إلى مفعوله أي وعد يوم القيامة والفاعل محذوف (إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا) إن واسمها والإشارة إلى الآيات الناطقة بالوعد والوعيد وتذكرة خبرها والفاء عاطفة ومن شرطية مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ومفعول شاء محذوف تقديره فمن شاء النجاة ، واتخذ فعل ماض في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من وإلى ربه حال

(324/789)

لأنه كان في الأصل صفة لسبيلا وسبيلا مفعول اتخذ (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ) جملة مستأنفة مسوقة لإيضاح ما أجمل في أول السورة وإن واسمها وجملة يعلم خبرها وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي يعلم والكاف اسم أن وجملة تقوم خبر أنك وأدنى ظرف زمان أي وقتا أدنى ومن ثلثي الليل متعلقان بأدنى وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة إذا دنت بين الشيئين قلّ ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك (وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) أوضح الزمخشري هذا الإعراب بقوله : " وقرىء ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث وهو مطابق لما مرّ في أول السورة من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين وقرىء ونصفه وثلثه بالجر أي تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين والثلث وهو أدنى من النصف والربع وهو أدنى من الثلث وهو الوجه الأخير " (وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) الواو حرف عطف وطائفة عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسّي به ومنهم من كان لا يدري كم صلّى من الليل وكم بقي منه فكان يقوم الليل كله احتياطا فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفّف اللّه عنهم ، ومن الذين صفة لطائفة ومعك ظرف متعلق بمحذوف هو الصلة (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ) الواو استئنافية واللّه مبتدأ وجملة يقدّر الليل والنهار خبر (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ

مِنَ الْقُرْآنِ) علم فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة لن تحصوه خبرها وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي

(325/789)

علم والضمير في تحصوه قال الزمخشري " المصدر يقدّر أي علم أنه لا يصحّ منك ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم " وهذا أحسن من قول الجلال وغيره يعود إلى الليل لأنه المحدّث عنه أول السورة وإن كان المعنى واحدا . فتاب عطف على علم وعليكم متعلقان بتاب والفاء عاطفة واقرءوا فعل أمر وفاعل وما مفعول به وجملة تيسر صلة ومن القرآن متعلقان به (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) الجملة مستأنفة وأن مخففة من الثقيلة أي أنه وجملة سيكون خبرها ومنكم خبر يكون المقدّم ومرضى اسمها المؤخر وآخرون مبتدأ ومنكم حال وجملة يضربون في الأرض خبر أي يسافرون (يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) جملة يبتغون حالية من الضمير في يضربون ومن فضل اللّه متعلقان بيبتغون وآخرون مبتدأ وجملة يقاتلون في سبيل اللّه خبر وهذه الفرق الثلاث يشقّ عليهم ما ذكر من قيام الليل (فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا

الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ) الفاء عاطفة واقرءوا فعل أمر وفاعل وما مفعول به وجملة تيسر صلة ومنه متعلقان بتيسر ، وأقيموا الصلاة فعل أمر وفاعل ومفعول به وآتوا الزكاة عطف على أقيموا الصلاة (وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً) وأقرضوا الله فعل أمر وفاعل ومفعول وقرضا مفعول مطلق وحسنا نعت والواو عاطفة و

(326/789)

ما شرطية في محل نصب مفعول مقدم لتقدموا وتقدموا فعل الشرط ولأنفسكم متعلقان بتقدموا ومن خير حال وتجدوه جواب الشرط وعند الله ظرف لتجدوه وهو ضمير فصل أو تأكيد للضمير ، ووهم أبو البقاء فيجاز أن يكون بدلا من الهاء ولو كان بدلا لطابق في النصب فكان يكون إياه . وخيرا مفعول به ثان لتجدوه وأعظم عطف على خيرا وأجرا تمييز وجاز أن يكون هو فصلا وإن لم يقع بين معرفتين لأنه وقع بين معرفة ونكرة ولكن النكرة يشبه المعرفة لامتناعه من التعريف بأداة التعريف ووجه امتناعه من التعريف بها أنه اسم تفضيل ولا يجوز دخول أل عليه إذا كان معه " من "

لفظا أو تقديرا وهنا " من " مقدرة أي خيرا مما خلفتم (وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

عطف على ما تقدم وإن واسمها وخبراها جملة اسمية تعليلية للاستغفار أي استغفروه في جميع أحوالكم فإن الإنسان مستهدف للتفريط .

البلاغة :

في قوله " يوما يجعل الولدان شيبا " مجاز إسنادي كناية عن شدة الهول ، يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال وأصله أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت في الإنسان واستحوذت عليه أسرع فيه الشيب ، وقد تعلق أبو الطيب بأهداب هذا المجاز فقال :

والهمّ يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

الفوائد :

قرأ أبو الشمائل وابن السميقع : هو خير ، برفعهما على الابتداء والخبر ، قال أبو زيد هو لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة يقولون :

كان زيد هو العاقل بالرفع فهذا البيت لقيس بن ذريح وهو :

تحنّ إلى ليلى وأنت تركتها وكنت عليها بالملا أنت أقدر

قال أبو عمرو الجرمي : أنشد سيبويه هذا البيت شاهدا للرفع والقوافي مرفوعة قلت وبهذا يتخرج بيت أبي نواس الذي لحنه بعضهم ، وهو :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 256 . 271﴾

(327/789)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/790)

الجزء التسعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المدثر صلى الله عليه وسلم)

(4/790)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المدثر صلى الله عليه وسلم)

(5/790)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المدثر

مقصودها الجد والاجتهاد في الإنذار بدار البوار لأهل الاستكبار ، وإثبات البعث في أ ،

فس المكذبين الفجار ، والإشارة بالبشارة لأهل الادكار ، بحلم العزيز الغفار ، واسمها

المدثر أدل مافيها على ذلك ، وذلك واضح لمن تأمل النداء والمنادى به والسبب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 220 ﴾

(6/790)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها المدثر)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها ست وخمسون فى عدّ العراقى والبَزِّىّ ، وخمس فى عدّ المكِّىّ .

وكلماتها مائتان وخمس وخمسون .

وحروفها أَلف وعشر .

المختلف فيها اثنان : ﴿ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فواصل آياتها (رُدْنها) على الدّال

آية : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ .

سمّيت المدّثِّر ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : أَمر النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم بدعوة الخَلْق إِلى الإِيمان ، وتقرير صعوبة

القيامة على (الكفَّار و) أَهل العصيان ، وتهديد وليد ابن مُغيرة بنقض القرآن ، وبيان عدد زبانية النّيران ، وأَنّ كلّ أَحد رَهْن بالإِساءَة والإِحسان ، وملامة الكفَّار على إِعراضهم عن الإِيمان ، وذكر وَعْد الكريم على التقوى بالرّحمة والغفران ، فى قوله : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَة ﴾ .

المنسوخ فيها آية واحدة : م ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ن آية السيف .

المتشابهات

قوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أَعاد ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ مرّتين ، وأَعاد ﴿ قَدَّرَ ﴾ ثلاث مرّات ، لأَنَّ التقدير : إِنَّه – أَى الوليد – فكَّر فى شأْن محمّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وما أَتى [به] وقدّر ماذا يمكنه أَن يقول فيهما .

فقال الله سبحانه – : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أَى القول فى محمّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أَى القول فى القرآن .

قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أَى تذكير وعدل إِليها للفاصلة .

وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ وفى عبس ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَة ﴾ لأَنَّ تقدير الآية فى هذه السّورة : إِنَّ القرآن تذكرة ، وفى عبس : إِنَّ آيات القرآن تذكرة ، وقيل : حمل التذكرة على التذكير ، لأَنَّها بمعناه .

فضل السّورة

(7/790)

فيه الحديث الضعيف عن أُبيّ : مَنْ قرأَها أُعطِى من الأَجر عشر حسنات ، بعدد مَن صَدّق بمحمّدٍ ، وكذَّب به بمكَّة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب المتحابّين فى الله ، وله بكلّ آية قرأَها مائةُ شفاعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 488.489 ﴾

(8/790)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المدثر

454 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) ما فائدة تكرير (قَدَّرَ) ؟ .

جوابه :

أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما فكر فيما يرد به على النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به من القرآن .

فالأول تقديره : ما يريد بقوله ، والثاني : أنه قدر أن قوله

شعر ترده العرب لأنه ليس على طريقة الشعر ، قال الله تعالي (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

والثالث قدر أن قوله هو كهانة من كلام الكهان ترده العرب لمخالفته كلام الكهان فهو قوله تعالى ثالثا : (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) .

455 . مسألة :

قوله تعالى (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ) فالضمائر مذكرة ، والتذكرة مؤنثة ؟

جوابه :

أن التذكرة مصدر بمعنى التذكر ، وليس مؤنثا ، فرجع الضمير إلى مذكر فى المعنى ، وأتى بلفظ التذكرة لموافقته فواصل الآيات قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 367 . 368 ﴾

(9/790)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المدثر

تسمى في كتب التفسير (سورة المدثر) وكذلك سميت في المصاحف التي رأيناها ومنها كتب في القيروان في القرن الخامس .

وأريد المُدَثِّر النبي (صلى الله عليه وسلم) موصوفاً بالحالة التي نُودي بها ، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذُكروا فيها .

وإمّا تسمية باللفظ الذي وقع فيها ، ونظيره ما تقدم في تسمية (سورة المزمل) ، ومثله ما تقدم في سورة المجادلة من احتمال فتح الدال أو كسرها .

وهي مكية حكى الاتفاق على ذلك ابنُ عطية والقرطبي ولم يذكرها في (الإِتقان) في السور التي بعضها مدني . وذكر الآلوسي أن صاحب (التحرير) (محمد بن النقيب المقدسي المتوفى سنة 698 له تفسير) ذكر قول مُقاتل أو قوله تعالى : (وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة ((المدثر : 31) الخ نزل بالمدينة اه . ولم نقف على سنده في ذلك ولا رأينا ذلك لغيره وسيأتي .

قيل : إنها ثانية السور نزولاً وإنها لم ينزل قبلها إلاّ سورة) اقرأ باسم ربّك ((العلق : 1)

وهو الذي جاء في حديث عائشة في (الصحيحين) في صفة بدْء الوحي (أن النبي (صلى الله عليه وسلم) جاءه الحق وهو في غار حِراء فجاءه المَلك فقال) اقرأ باسم ربّك الذي خلق (إلى) ما لم يعلم ((العلق : 1 5) ثم قالت : ثم فتر الوحي) . فلم تذكُرْ نزول وحي بعد آيات) اقرأ باسم ربّك .

وكذلك حديث جابر بن عبد الله من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن من طرق كثيرة وبألفاظ يزيد بعضها على بعض . وحاصل ما يجتمع من طرقه : قال جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه إن النبي قال : فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء فنُوديت فنظرتُ أمامي وخلْفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئاً فرفعتُ رأسي فإذا المَلك الذي جاءني بِحِرَاءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض فُجِئْتُ منه رُعباً فأتيت خديجة فقلت : دَثِّروني فدثَروني زاد غير ابن شهاب من روايته وصُبُّوا عليّ ماء بارداً فدثّروني وصَبُّوا عليّ ماء بارداً) . قال النووي : صب الماء لتسكين الفزع . فأنزل الله) يا أيها المدثر إلى والرجزَ فاهجر ((المدثر : 1 5) ثم حمي الوحي وتتابع اه .

ووقع في (صحيح مسلم) عن جابر : أنها أول القرآن ، سورة المدثر وهو الذي يقول في حديثه أن رسول الله يحدث عن فترة الوحي وإنما تقع الفترة بين شيئين فتقتضي وحياً نزل

قبلَ سورة المدثر وهو ما بُين في حديث عائشة .

وقد تقدم في صدر سورة المزمل قول جابر بن زيد : أن سورة القلم نزلت بعد سورة العلق وأن سورة المزمل ثالثة وأن سورة المدثر أربعة .

وقال جابر بن زيد : نزلت بعد المدثر سورة الفاتحة . ولا شك أن سورة المدثر نزلت قبل المزمل وأن عناد المشركين كان قد تزايد بعد نزول سورة المدثر فكان التعرض لهم في سورة المزمل أوسع .

(11/790)

وقد وقع في حديث جابر بن عبد الله في (صحيح البخاري) و (جامع الترمذي) من طريق ابن شهاب أن نزول هذه السورة كان قبل أن تفرض الصلاة .

والصلاة فرضت بعد فترة الوحي سواء كانت خمساً أو أقل وسواء كانت واجبة كما هو ظاهر قولهم : فرضت ، أم كانت مفروضة بمعنى مشروعة وفترة الوحي

(12/790)

مختلف في مدتها اختلافاً كثيراً فقيل : كانت سنتين ونصفاً ، وقيل : أربعين يوماً ، وقيل : خمسة عشر يوماً ، والأصح أنها كانت أربعين يوماً . فيظهر أن المدثر نزلت في السنة الأولى من البعثة وأن الصلاة فرضت عقب ذلك كما يشعر به ترتيب ابن إسحاق في سَوْق حوادث سيرته .

وعَدَّ أهلُ المدينة في عدهم الأخير الذي أرْسَوْا عليه وأهلُ الشام آيها خمساً وخمسين وعدّها أهل البصرة والكوفة وأهل المدينة في عدهم الأول الذي رجعوا عنه ستاً وخمسين .

أغراضها

جاء فيها من الأغراض تكريم النبي (صلى الله عليه وسلم) والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة .

وإعلان وحدانية الله بالإلاهية .

والأمر بالتطهر الحسي والمعنوي .

ونبذ الأصنام .

والإكثارُ من الصدقات .

والأمرُ بالصبر .

وإنذارُ المشركين بهول البعث .

وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر وكفر الطاعِن نعمةَ الله عليه فأقدم

على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق .

ووصفُ أهوال جهنم .

والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها .

وتحدّي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفَظَتِها .

وتأييسهم من التخلص من العذاب .

وتمثيل ضلالهم في الدّنيا .

ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 291. 293 ﴾

(13/790)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة المدثر

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها , ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة "المزمل" . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق , ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

قال البخاري , حدثنا يحيى , حدثنا وكيع , عن علي بن المبارك , عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال: (يا أيها المدثر) . . قلت: يقولون (اقرأ باسم ربك الذي خلق) فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك , وقلت له مثل ما قلت لي , فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت , فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا , ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا , ونظرت أمامي فلم أر شيئًا , ونظرت خلفي فلم أر شيئًا , فرفعت رأسي فرأيت شيئًا . فأتيت خديجة فقلت: " دثروني وصبوا علي ماءا باردا " قال: فدثروني وصبوا علي ماءا باردا . قال: فنزلت: (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر) " . .

وقد رواه مسلم من طريق عقيل , عن ابن شهاب , عن أبي سلمة . قال: أخبرني جابر بن عبد الله , أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحدث عن فترة الوحي , فقال في حديثه , " فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء , فرفعت بصري قبل السماء , فإذا الملك الذي جاءني بحراء , قاعد على كرسي بين السماء والأرض , فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زملوني , فدثروني , فأنزل الله تعالى: يا أيها المدثر . قم فأنذر . . . – إلى – والرجز فاهجر " قال أبو سلمة: والرجز الأوثان . ثم حمي الوحي وتتابع " . . ورواه البخاري من هذا الوجه أيضا . . وهذا لفظ البخاري .

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله: "وهذا السياق هو المحفوظ , وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله: " فإذا الملك الذي جاءني بحراء " وهو جبريل , حين أتاه بقوله . . . (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم , علم الإنسان ما لم يعلم . . ثم إنه حصل بعد هذا فترة , ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة " . . فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار , حدثنا الحسن بن بشر البجلي , حدثنا المعافى بن عمران , عن إبراهيم بن يزيد , سمعت ابن أبي مليكة يقول: سمعت ابن عباس يقول: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما , فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل ? فقال بعضهم: ساحر . وقال بعضهم: ليس بساحر . وقال بعضهم: كاهن . وقال بعضهم: ليس بكاهن . وقال بعضهم: شاعر . وقال بعضهم: ليس بشاعر . وقال بعضهم بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فحزن , وقنع رأسه , وتدثر . فأنزل الله تعالى: (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز

فاهجر , ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) . .

وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة "المزمل" . . مما يجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولا . والتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

(15/790)

غير أن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى: (ولربك فاصبر) ربما يكون قد نزل مبكرا في أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى: (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا , رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) . . وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) للنهوض بالتبعة الكبرى , ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا وكافة , مما سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة , تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق . . ويكون ما تلا ذلك في سورة المدثر , وما تلا هذا في سورة المزمل , قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم , وإيذائهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم .

إلا أن هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر , وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلا بما تلاه في هذه السورة وفي تلك , بمناسبة واحدة , هي التكذيب , واغتمام رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) للكيد الذي كادته قريش ودبرته . . ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القلم على النحو الذي بيناه هناك .

وأيا ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي (صلى الله عليه وسلم) لهذا الأمر الجلل ; وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة: (يا أيها المدثر . قم فأنذر) . . مع توجيهه (صلى الله عليه وسلم) إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم , والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه: (وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) . . وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمل !

(16/790)

وتضمنت السورة بعد هذا تهديدا ووعيدا للمكذبين بالآخرة , وبحرب الله المباشرة , كما تضمنت سورة المزمل سواء : (فإذا نقر في الناقور , فذلك يومئذ يوم عسير , على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا , وبنين شهودا , ومهدت له تمهيدا , ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا) . .

وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته , وترسم مشهدا من مشاهد كيده – على نحو ما

ورد في سورة القلم , وربما كان الشخص المعني هنا وهناك واحدا , قيل:إنه الوليد بن المغيرة - [كما سيأتي تفصيل الروايات عند مواجهة النص] وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له:(إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل: كيف قدر ؟ ثم نظر , ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال:إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) . . ثم تذكر مصيره: (سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر , لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . من الآية 31 الى الآية 48

(17/790)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً . . . الآيات ﴾

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط المشركين وضعاف الإيمان , تتحدث السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد , ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله , واختصاصه بهذا الغيب . وهي كوة تلقي ضوءا على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غيب الله المكنون:(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا , ليستيقن الذين أوتوا الكتاب , ويزداد الذين آمنوا إيمانا , ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب

والمؤمنون , وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلا ? كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء , وما يعلم جنود ربك إلا هو , وما هي إلا ذكرى للبشر) . .

(18/790)

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة , ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير: (كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) . .

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين , حيث يعترف المكذبون اعترافا طويلا بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد في يوم الجزاء والحساب , يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع: (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر ? قالوا: لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين) . .

وفي ظل هذا المشهد المخزي , والاعتراف المهين , يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير , ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك

والزراية من نفارهم الحيواني الشموس: (فما لهم عن التذكرة معرضين ? كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !) .

ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) . . فهو الحسد للنبي (صلى الله عليه وسلم) والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى: (كلا ! بل لا يخافون الآخرة) . .

وفي الختام يجيء التقرير الجازم الذي لا مجاملة فيه: (كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره) ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره: (وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) . .

(19/790)

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسي الذي كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها في قلوب قريش ; كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب . . والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل , وسورة القلم , مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة , لمواجهة حالات

متشابهة . . وذلك باستثناء الشطر الثاني من سورة المزمل , وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وطائفة من الذين معه كما تقدم .

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافي . يتئد إيقاعها أحيانا , ويجري

من الاية 49 الى الاية 52

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً (52)

لاهثا أحيانا ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر . . وتصوير مشهد سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر . . ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ; ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة:المدثر . أنذر . فكبر . . وعودتها بعد فترة:قدر . بسر . استكبر . سقر . . . وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله:(فما لهم عن التذكرة معرضين ? كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة) . . ففي الآية الأولى كان يسأل

ويستنكر . وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا . . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3751 . 3754 ﴾

(20/790)

وقال الشيخ الصابونى :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية وآياتها ست وخمسون آية

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية ، شأنها كسابقتها – سورة المزمل – تتحدث عن بعض جوانب شخصية الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ، ولهذا سميت سورة المدثر .

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة ، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط ، وإنذار الكفار ، والصبر إلى أذى الفجار ، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه [يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر] .

* ثم توالت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين ، بيوم عصيب شديد ، لا راحة لهم فيه ،

لما فيه من الأهوال والشدائد فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير] الآيات .

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان ، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقى الفاجر (الوليد بن المغيرة) الذي سمع القرآن ، وعرف أنه كلام الرحمن ، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة ، زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر [ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا أنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر . .] الآيات إلى قوله تعالى : [سأصليه سقر] .

* ثم تحدثت السورة عن النار التى أوعد الله بها الكفار ، وعن خزنتها الأشداء ، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها ، وعددهم ، والحكمة من تخصيص ذلك العدد [وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا . .] الآيات .

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه ، والصبح وبهائه ، على أن جهنم إحدى البلايا العظام [كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر] .

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين ، وبينت سبب دخولهم الجحيم [إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين] الآيات .

* وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ، ألا وهو إنكارهم للقيامة ، وللبعث والنشور [كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 472.471 ﴾

(22/790)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

المدثر : أصله المتدثر ، وهو الذي يتدثر بثيابه ، أي يتغطى بها لينام أو ليستدفئ ، والدثار : اسم لما يتدثر به ، أنذر : أي حذّر قومك عذاب اللّه إن لم يؤمنوا ، كبّر :

أي عظم ، فطهر : أي طهر نفسك مما تذم به من الأفعال ، وهذّبها عما يستهجن من الأحوال ، والرجز : العذاب كما قال : " لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ " أي اهجر المآثم المؤدية إلى العذاب ، ولا تمنن تستكثر : أي ولا تمنن بعملك على ربك تطلب كثرته ، نقر : أي نفخ ، الناقور : أي الصور ، عسير . أي شديد ، غير يسير .

أي غير سهل .

ذرنى ومن خلقت وحيدا : أي دعنى وإياه ، فإنى أكفيكه ، ممدودا : أي كثيرا ، شهودا : أي حضورا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ، ومهدت له تمهيدا : أي بسطت له الرياسة والجاه العريض ، سأرهقه : أي سأكلفه ، صعودا : أي عقبة

شاقة لا تطاق ، فقتل كيف قدر : أي لعنه اللّه كيف وصل بقوة خياله وسرعة خاطره إلى رميه الغرض الذي كانت تنتحيه قريش ، عبس : أي قطب ما بين عينيه ، بسر : أي كلح وجهه كما قال توبة بن الحميّر .

وقد رابنى منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتى وبسورها

لوّاحة ، من لوّحته الشمس : إذا سودت ظاهره وأطرافه ، قال :

تقول ما لاحك يا مسافر يا بنة عمّى لاحنى الهواجر

والبشر : واحدها بشرة ، وهى ظاهر الجلد :

فتنة . أي سبب ضلال ، أوتوا الكتاب . هم اليهود والنصارى ، مرض . أي نفاق ، مثلا :

أي حديثا ، ومنه قوله تعالى : " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ " أي حديثها والخبر عنها ، جنود ربك : أي هم خلقه من الملائكة وغيرهم ، ذكرى : أي تذكرة وموعظة للناس ، كلا : أي حقا ، أدبر : أي ولّى ، أسفر : أي أضاء ، الكبر : أي البلايا والدواهي ، واحدها كبرى ، أن يتقدم : أي إلى الخير ، يتأخر :

أي يتخلف عنه .

(23/790)

رهينة : أي مرتهنة بعملها مأخوذة به إما خلّصها وإما أوبقها ، أصحاب اليمين :

هم من أعطوا كتبهم بأيمانهم ، ما سلككم : أي ما أدخلكم تقول سلكت الخيط فى ثقب الإبرة : أي أدخلته فيه ، نخوض مع الخائضين : أي نخالط أهل الباطل فى باطلهم فكلما غوى غاو غوينا معه ، اليقين : هو الموت كما فى قوله : " وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ " قاله ابن عباس ، مستنفرة : أي نافرة ، وقسورة : الرماة للصيد واحدهم قسور قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، منشّرة : أي منشورة مبسوطة :

تقرأ وتنشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 124 . 139 ﴾ .

باختصار .

وقال الفراء :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . . ﴾ .

يعنى: المتدثر بثيابه لينامَ .

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ . . . ﴾ .

يريد : قم فصلّ ، ومرْ بالصلاة .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . . . ﴾ .

يقول: لا تكن غادرا فتدنس ثيابك ، فإن الغادر دِنس الثياب ، ويقال: وثيابك فطهر ، وعملك فأصلح . وقال بعضهم: وثيابك فطهر: قصر ، فإن تقصير الثياب طُهْرة .

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾

فقوله عز وجل: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . . . ﴾ .

كسره عاصم والأعمش والحسن ، ورفعه السلمى ومجاهد وأهل المدينة فقرءوا: "والرجزُ فاهجر" وفسر مجاهد: والرجز: الأوثان ، وفسره الكلبى: الرجز: العذاب ، ونرى أنهما لغتان ، وأن المعنى فيهما [/ا] واحد .

﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . . . ﴾ .

يقول: لا تُعط فى الدنيا شيئًا لتصيب أكثر منه ، وهى فى قراءة عبد الله: "ولا تَمْنُن أنْ تَسْتَكْثِرَ" فهذا شاهد على الرفع فى "تستكثر" ولو جزمه على هذا المعنى كان صوابا ، والرفع وجه القراءة والعمل .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . . . ﴾ .

يقال: إنها أول النفختين .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . . . ﴾ .

[الوحيد] فيه وجهان ، قال بعضهم: ذرنى ومن خلقته وحدى ، وقال آخرون: خلقته وحده لا مال له ولا بنين ، وهو أجمع الوجهين .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً . . . ﴾ .

(25/790)

قال الكلبى: العُروض والذهب والفضة ، [حدثنا أبو العباس قال:] حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى قيس عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد فى قوله: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ ، قال: ألف دينار ، ونرى أن الممدود جُعل للعدد ؛ لأن الألف غايةُ العدد ، يرجع فى أول العدد من الألف . ومثله قول العرب: لك على ألف أقدع ، أى: غاية العدد .

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾

وقوله: ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً . . . ﴾ .

كان له عشرة بنين لا يغيبون عن عينيه فى تجارة ولا عمل ، والوحيد : الوليد بن المغيرة المخزومى .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . . . ﴾ .

فذكروا أنه جمع رؤساء أهل مكة فقال: إن الموسم قد دنا ، وقد فشا أمر هذا الرجل فى الناس ، ما أنتم قائلون فيه للناس ؟ قالوا : نقول: مجنون . قال: إذاً يؤتى فيكلّم ، فيُرى عاقلا صحيحاً ، فيكذبوكم ، قالوا : نقول: شاعر . قال: فهم عرب قد رووا الأشعار وعرفوها ، وكلام محمد لا يُشْبِهُ الشّعرَ ، قالوا : نقول: كاهن ، قال: فقد عرفوا الكهنة [/ب] ، وسألوهم ، وهم لا يقولون: يكون كذا وكذا إن شاء الله ، ومحمد لا يقول لكم شيئاً إلا قال: إن شاء الله ، ثم قام ، فقالوا : صبأ الوليد . يريدون أسلم الوليد . فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكم أمره ، فأتاه فقال: إن قريشاً تزعم أنك قد صبوت وهم يريدون: أن يجمعوا لك مالاً يكفيك مما تريد أن تأكل من فضول أصحاب محمد ـ صلى الله عليه ـ فقال: ويحك ! والله ما يَشبعون ، فكيف ألتمس فضولهم مع أنى أكثر قريش مالا ؟ ولكنى فكرت فى أمر محمد ـ صلى الله عليه ـ ، وماذا نَرُد على العرب إذا سألتنا ، فقد عزمْت على أن أقول: ساحر . فهذا تفسير قوله: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ القول فى محمد صلى الله عليه .

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

وقوله: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . . . ﴾ .

قتل أى: لُعن ، وكذلك: ﴿ قاتلهم الله ﴾ و ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ما أَكْفَرَهُ ﴾ ، ذكر أنهن اللعن .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ . . . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . . . ﴾ .

ذكروا: أنه مرَّ على طائفة من المسلمين فى المسجد الحرام، فقالوا: هل لك إلى الإسلام يا أبا المغيرة؟ فقال: ما صاحبكم إلاَّ ساحر، وما قوله إلاَّ السحر تعلَّمه من مسيلمة الكذاب، ومن سحرة بابل، ثم قال: ولَّى عنهم مستكبراً قد عبَس وجهه وبسَر: كلَح مستكبراً عن الإيمان.

﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾

فذلك قوله: ﴿ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . . . ﴾ يأثره عن أهل بابل.

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

قال الله جل وعز: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . . . ﴾ .

وهى اسم من أسماء جهنم، فلذلك لم يُجْزَ، وكذلك "لظى".

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾

وقوله: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . . . ﴾ .

مردود على سقر بنية التكرير، كما قال: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وكما قال فى قراءة عبد الله: ﴿ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ ولو كان "لواحةً للبشر" كان صوابا.

كما قال: ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ . وفى قراءة أبى: "نذيرٌ للبشر"

وكل صواب . وقوله: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . . . ﴾ .

تسوّد البشرة بإحراقها .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَاذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾

وقوله: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . . . ﴾ .

(27/790)

فإن العرب تنصب ما بين أحد عشر إلى تسعة عشر فى الخفض والرفع ، ومنهم من يخفف العين فى تسعة عشر ، فيجزم العين فى الذُّكران ، ولا يخففها فى: ثلاث عشرة إلى تسع عشرة ؛ لأنهم إنما خفضوا فى المذكر لكثرة الحركات . فأما المؤنث ، فإن الشين من عشْرة ساكنة ، فلم يخففوا العين منها فيلتقى ساكنان . وكذلك: اثنا عشر فى الذكران لا يخفف العين ؛ لأن الألف من: اثنا عشر ساكنة فلا يسكن بعدها آخر فيلتقى ساكنان ، وقد قال

بعض كفار أهل مكة وهو أبو جهل: وما تسعة عشر؟ الرجل منا يطبق الواحد فيكفه عن الناس. وقال رجل من بنى جمح كان يُكنى: أبا الأشدين: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفونى اثنين؛ فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً . . . ﴾، أى: فمن يطبق الملائكة؟ ثم قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ فى القلة ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً . . . ﴾ على الذين كفروا ليقولوا ما قالوا، ثم قال: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ . . . ﴾ يقيناً إلى يقينهم؛ لأنَّ عدة الخزنة لجهنم فى كتابهم: تسعة عشر، ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَاناً . . . ﴾ لأنها فى كتاب أهل الكتاب كذلك.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾

وقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ . . . ﴾.

قرأها ابن عباس: "والليل إذا دَبر" ومجاهد وبعض أهل المدينة كذلك وقرأها كثير من الناس "واللَّيْل إذْ أَدْبَر":

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال:] حدثنا الفراء قال: حدثنى بذلك محمد بن الفضل عن عطاء عن أبى عبد الرحمن عن زيد أنه قرأها "والليل إذْ أَدْبَر" وهى فى قراءة عبد الله: "والليل إذا أدبر". وقرأها الحسن كذلك: "إذا أدبر" كقول عبد الله.

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] قال حدثنا الفراء قال: وحدثنى قيس عن على بن الأقمر عن رجل - لا أعلمه إلاّ الأغر - عن ابن عباس أنه قرأ: "والليل إذا دَبَر".

وقال: إنما أدبر ظهر البعير [حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] قال حدثنا الفراء قال: وحدثنا قيس عن على بن الأقمر عن أبى عطية عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ "أدبر" [قال الفراء: ما أرى أبا عطية إلاَّ الوادعى بل هو هو، وقال الفراء: ليس فى حديث قيس إذ، ولا أراهما إلا لغتين]. يقال: دبر النساء والشتاء والصيف أدبر. وكذلك: قَبَل وأقبل، فإذا قالوا: أقبل الراكب وأدبر لم يقولوه إلا بألف، وإنهما فى المعنى عندى لواحد، لا أبعد أَن يأتى فى الرجل ما أتى فى الأزمنة.

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ . . . ﴾.

الهاء كناية عن جهنم.

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾

وقوله: ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ . . . ﴾.

كان بعض النحويين يقول: إن نصبت قولُه: "نذيراً" من أول السورة يا محمد قم نذيراً للبشر، وليس ذلك بشىء وَالله أعلم؛ لأنّ الكلام قد حدث بينهما شىء منه كثير، ورفعه فى

قراءة أبيّ ينفى هذا المعنى . ونصبه من قوله: ﴿ إِنَّها لإحدى الكُبر نذيراً ﴾ تقطعه من المعرفة ؛ لأن "إحدى الكبر" معرفةٌ فقطعته منه ، ويكون نصبه على أن تجعل النذير إنذاراً من قوله: ﴿ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴾ لواحة [تخبر بهذا عن جهنم إنذاراً] للبشر ، والنذير قد يكون بمعنى: الإنذار . قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كَيْفَ نَذِير ﴾ و ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير ﴾ يريد : إنذارى ، وانكارى .

﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ . . . ﴾ .

(29/790)

قال الكلبى: هم أهل الجنة [حدثنا أبو العباس قال] حدثنا الفراء قال: وحدثنى الفضيل بن عياض عن منصور بن المعتمر عن المنهال رفعه إلى على قال: ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ قال: هم الوِلْدانُ ، وهو شبيه بالصواب ؛ لأن الولدان لم يكتسبوا ما يرتهنون به وفى قوله: ﴿ يَتَسَآءَلُونَ . . . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . . . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . . . ﴾ ما يقوى أنهم الولدان ؛ لأنهم لم يعرفوا الذنوب ، فسألوا: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ . . . ﴾ .

قرأها عاصم والأعمش: "مستنفِرة" بالكسر ، وقرأها أهل الحجاز "مستنفَرة" بفتح الفاء وهما جميعاً كثيرتان فى كلام العرب ، قال الشاعر:

أَمْسِكْ حِمارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنفِرٌ * فى إِثرِ أَحْمِرَةٍ عَمْدنَ لِغُرَّبِ

والقسورة يقال: إنها الرماة ، وقال الكلبى بإسناده: هو الأسد .

[حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق أبى سفيانّ الثورى عن عكرمة قال: قيل له: القسورة ، الأسد بلسان الحبشة ، فقال: القسورة ، الرماة ، والأسد بلسان الحبشة: عنبسة .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾

وقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً . . . ﴾ .

قالت كفار قريش للنبى صلى الله عليه [/١]: كان الرجل يذنب فى بنى إسرائيل ، فيصبح ذنبه مكتوباً فى رقعة ، فما بالنا لا نرى ذلك ؟ فقال الله عز وجل: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ . . . ﴾ .

يعنى هذا القرآن ، ولو قيل: "إنها تذكرةٌ" لكان صوابا ، كما قال فى عبس ، فمن قال: (إنها) أراد السورة ، ومن قال: (إنه) أراد القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 200.206 ﴾

(30/790)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة المدثر

(وثيابك فطهر) [4] قيل: إن المراد بالثياب: النفس ، كما قال عنترة: 1333- فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم 1334- وتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم . وقال ابن عباس: معناه لا تلبسها على غدر ولا إثم . واستشهد بقول غيلان الثقفي:

1335- فإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من جزاية أتقطع . وهذا القول أظهر فائدة ، وأكثر نظيراً . وقال امرؤ القيس: 1336- ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غران/ أي: طهارى من العار والغدر . وقال أبو الأسود الدؤلي: 1337- أطهر أثوابي عن الغدر والخنا وأنحو الذي قد كان خيراً وأعوداً 1338- ألم تر أني

والتكرم عادتي وما المرء إلا لازم ما تعودا .

وعلى ضده -وهو في معناه- قول جرير: 1339- وقد لبست بعد الزبير مجاشع ثياب التي حاضت ولم تغسل [الدما] . وأنشد ابن السكيت وثعلب: 1340- . . . . . وبالبشر قتلى لم تطهر ثيابها . وأنشدا [لـ]لفرزدق: 1341- بني عاصم لا تلجئوها فإنكم ملاجئ للسوءات دسم العمائم 1342- [بني] عاصم لو كان حياً أبوكم للام بينه اليوم قيس بن عاصم

وفسراه بأنه لم يطلب ثأرهم: وقريب منه قول أوس: 1343- نبئت أن دماً حراماً نلته وهريق في برد عليك محبر 1344- نبئت أن بني جذيمة أدخلوا أبياتهم تامور نفس المنذر . وقول الهذلي: 1345- تبرأ من دم القتيل وبزه وقد علقت دم القتيل إزارها

(والرجز فاهجر) [5] قال مجاهد: الرجز بالكسر العذاب، وبالضم الأوثان . (ولا تمنن تستكثر) [6] لا تعط شيئاً، لتصيب أكثر منه . وقال الحسن: معناه لا تمنن لعملك تستكثر على ربك . وقال مجاهد: لا تمنن: لا تنقص من الخير تستكثر الثواب . أي: يكثر ثوابك . (فإذا نقر في الناقور) [8] الناقور: أول النفختين، فاعول من النقر .

(31/790)

(فذلك يومئذ يوم عسير) [9] "ذلك" إشارة إلى النقر ، كأنه قال: فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير . (ذرني ومن خلقت وحيداً) [11] يعني الوليد بن [الـ]مغيرة . أي: خلقته وحيداً لا مال له ولا بنون . (مالاً ممدوداً) [12]/ المال النامي الذي له مادة من الزيادة . (وبنين شهوداً) [13] كان له عشر[ة] بنين لا يغيبون عن عينه ، زيناً له في النادي ، [وعزاً] على الأعادي . (سأرهقه) [17] الإعجال بالعنف .

(صعوداً) [17] عقبة في النار . (إنه فكر وقدر) [18] فكر [في] القرآن ، فقال: ليس بشعر ، وله حلاوة وتأثير في القلوب ، فقدر في نفسه أنه سحر . (ثم عبس وبسر) [22] فكر حتى ضاق صدره بالفكر ، فبدا أثر العبوس والبسور في وجهه .

وقيل: إن العبوس يكون مع المحاورة والمنازعة ، والبسور مع الإعراض والصدود ، فلذلك جمع بينهما ، قال توبة: 1346- وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها 1347- وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها .

(لواحة للبشر) [29] مسودة للجلود ، وقال الأخفش: 1348- تركنا صياكلة عراة يسارون الوحوش ملوحينا .

وقال الأخفش: معناه معطشة للناس . واللوح: العطش . قال الشاعر: 1349- وأي فتى صبر على الأين والظمأ إذا اعتصروا للوح ماء فظاظها . (عليها تسعة عشر) [30] ذكر الله هذا العدد في الكتب [المتقدمة] ، ثم ذكره كذلك في القرآن ، (ليستيقن الذين أوتوا

الكتاب) . وذكر القاضي الماوردي في "تفسيره": أن التسعة نهاية الآحاد ، والعشرة بداية العشرات ، فكان أجمع الأعداد ، فجعلت بحسابها خزنة النار . وذكر أيضاً أن البروج اثنا عشر ، والسيارة سبعة فتلك تسعة عشر ، فإذا لم [يستبعد] عدد النجوم السيارة والبروج ، محصوراً في تسعة عشر فكذلك خزنة جهنم .

(32/790)

(وما يعلم جنود/ربك إلا هو) [31] أي: من كثرتهم . (وما هي إلا ذكرى للبشر) [31] أي: هذه النار التي في الدنيا تذكير وتحذير بنار الآخرة . (والليل إذا أدبر) [33] جاء بعد النهار ، دبر الشيء وأدبر ، وقبل وأقبل . (إنها لإحدى الكبر) [35] أي: الساعة ، أو سقر ، لتقدم ذكرها . قال الحرمازي:

1350- يا ابن المعلى نزلت إحدى الكبر 1351- داهية الدهر وصماء [الغبر] .

(مستنفرة) [50] بكسر الفاء: نافرة . وبفتحها: منفرة مذعورة . والقسورة: الرماة . وقيل: إنه الأسد ، فعولة من القسر .

(هو أهل التقوى) [56] أهل أن يتقى محارمه أو عذابه .

[تمت سورة المدثر] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1574.1585 ﴾

وقال الأخفش :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾

قال ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرْ ﴾ جزم لأنها جواب النهي وقد رفع بعضهم ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ يريد مستكثرا وهو أجود المعنيين .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾

وقال ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ أيْ: معاندا .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾

وقال ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ و"دَبَرَ" في معنى "أَدْبَرَ" يقولون: "قَبَّحَ اللهُ ما قَبَلَ مِنْهُ وما دَبَر" وقالوا "عامٌ قَابِلٌ" ولم يقولوا "مُقْبِلٌ" .

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾

وقال ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ فانتصب ﴿ نَذِيراً ﴾ لأنه خبر لـ﴿ إِحْدَى الكُبَر ﴾ فانتصب ﴿ نَذِيراً ﴾ لأنه خبر للمعرفة وقد حسن عليه السكوت

فصار حالا وهي "النَذِير" كما تقول "إِنَّهُ لَعَبْدُ اللهِ قَائِماً" وقال بعضهم "إِنَّما هُوَ" "قُمْ نَذِيراً فَأَنْذِر".

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾

وقال ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: إنَّ القرآنَ تذكِرَةٌ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 555.556 ﴾

(34/790)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة المدثر «1»

1 - الْمُدَّثِّرُ: المتدثر ثيابه إذا نام. فأدغم التاء في الدال.

4 - وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ أي طهّر نفسك من الذنوب. فكنّي عنه بثيابه: [لأنها تشتمل عليه].

قال ابن عيينة: «لا تلبس ثيابك على كذب، ولا فجور، ولا غدر، ولا إثم. البسها: وبدنك طاهر. (قال): وقال الحسن: يطيّب أحدهم ثوبه، وقد أصلّ ريحه! وقال ابن عباس: اما سمعت قول الشاعر:

إني - بحمد اللّه - لا ثوب غادر لبست، ولا من خزية أتقنّع».

وقال بعضهم : «ثيابك فقصّر ، فإن تقصير الثياب طهر لها .

5 - وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ يعني : الأوثان وأصل «الرجز» العذاب .

فسمّيت الأوثان رجزا : لأنها تؤدّي إلى العذاب .

6 - وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ يقول : لا تعط في الدنيا شيئا ، لتصيب اكثر منه .

---

(1) هي مكية .

(35/790)

---

8 - فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ أي نفخ في الصور «1» أول نفخة .

11 - و12 - و13 - ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً أي فردا : لا مال له ولا بنين ، ثم جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً : دائما ، وَبَنِينَ شُهُوداً .

وهو الوليد بن المغيرة : كان له عشرة بنين لا يغيبون عنه في تجارة ولا عمل .

16 - إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً أي معاندا .

17 - سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً أي سأغشية مشقة من العذاب .

و«الصّعود» : العقبة الشاقة . وكذلك «الكؤود» .

18 - إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ في كيد محمد - صلّى اللّه عليه وسلم - وما جاء به ، فقال :

«شاعر» مرة، و«ساحر» مرة، و«كاهن» مرة، وأشباه ذلك.

19 - و20 - وقوله: قُتِلَ أي لعن. كذلك قيل في التفسير.

21 - عَبَسَ وَبَسَرَ أي قطّب وكرّة.

29 - لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ أي مغيرة لهم «2» يقال: لاحته الشمس، إذا غيّرته.

30 - و31 - عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً.

روي: أن رجلا من المشركين - قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني اثنين: فأنزل اللّه: وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً فمن يطيقهم؟.

وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ في هذه القلّة إِلَّا فِتْنَةً، لأنهم قالوا: «وما قدر تسعة عشر؟ فيطيقوا هذا الخلق كله!».

---

(1) وهو قول الطبري.

(2) قال مجاهد وابن عباس وقتادة والضحاك: مغيرة لبشر أهلها.

(36/790)

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حين وافقت عدّة خزنة أهل النار ما في كتابهم. هذا قول قتادة.

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ أي جاء بعد النهار ، كما تقول : خلفه . يقال :

دبرني فلان وخلفني ، إذا جاء بعدي .

34 – وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ أي أضاء «1» .

35 – إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ : جمع «كبرى» . مثل الأولى ولأول ، والصّغرى والصّغر . وهذا كما تقول : إنها لإحدى العظائم والعظم .

42 – ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ أي ما أدخلكم النار ؟

50 – كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ : مذعورة ، استنفرت فنفرت .

ومن قرأ : مُسْتَنْفِرَةٌ بكسر الفاء ، أراد : نافرة . قال الشاعر :

اربط حمارك ، إنه مستنفر في إثر أحمرة عمدن لغرب

51 – فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ قال ابو عبيدة : هو الأسد «2» وكأنه من «القسر» وهو : القهر . والأسد يقهر السّباع .

وفي بعض التفسير : «انهم الرّماة» .

وروي ابن عيينة ان ابن عباس قال : «هو ركز الناس» ، يعني : حسّهم وأصواتهم .

52 – بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ، أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً .

قالت كفار قريش : «إن كان الرجل يذنب ، فيكتب ذنبه في رقعه : – فما بالنار لا نرى ذلك ؟ !» .

54 - كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ يعني: القرآن «3». انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 425.423﴾

---

(1) هو الحارث بن كلدة.

(2) قال أبو هريرة: الأسد، وكل شديد قسورة. [.....]

(3) وهو قول الطبري.

(37/790)

وقال الغزنوى:

ومن سورة المدثر

4 وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ: لا تلبسها «1» على غدر ولا إثم «2». [وقيل: قلبك طهّر] «3».

5 وَالرُّجْزَ بالكسر «4»: العذاب، وبالضمّ: الأوثان.

6 وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ: لا تعط شيئا لتصيب أكثر منه «5». وقيل «6»: لا تمنن لعملك تستكثر على ربك. وقيل «7»: لا تنقص من الخير تستكثر الثّواب.

8 النَّاقُورِ: أول النّفختين، فاعول من «النّقر».

11 ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ: الوليد بن المغيرة «8»، وَحِيداً: لا مال ولا بنين.

(1) في «ج» : أي الثياب الملبوسة ، فَطَهِّرْ : نقها مما يفسد الصلاة . وقيل : لا تلبسها على غدر ولا إثم .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 200 ، ونقله ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 495 عن سفيان ابن عيينة .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (29/ 144 ، 145) عن ابن عباس ، وعكرمة .

(3) ما بين معقوفين عن «ك» ، وذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 341 ، ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 413 عن سعيد بن جبير ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 401 .

(4) هذه قراءة السبعة إلّا عاصما كما في السبعة لابن مجاهد : 659 ، والتبصرة لمكي : 364 وانظر معنى القراءتين في معاني الفراء : 3/ 201 ، وتفسير الطبري : 29/ 147 ، والكشف لمكي : 2/ 347 .

(5) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 201 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 496 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (29/ 148 ، 149) عن ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، ومجاهد ، وقتادة .

قال البغوي في تفسيره : 4/ 414 : «هذا قول أكثر المفسرين» .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 149 عن الحسن ، والربيع بن أنس .

(7) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 343 عن مجاهد ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 402 .

(8) كما في تفسير الطبري : 29/ 12 ، وتفسير الماوردي : 4/ 344 ، وأسباب النزول للواحدي :

514 ، وتفسير ابن كثير : 8/ 292 ، ومفحمات الأقران : 202 . [. . . . .]

(38/790)

---

13 وَبَنِينَ شُهُوداً : كانوا عشرة بنين لا يغيبون عن عينه .

17 سَأُرْهِقُهُ : أعجله بعنف ، صَعُوداً : عقبة في النار «1» .

29 لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ : مسوّدة للجلود «2» . وقيل «3» : معطشة للنّاس .

30 عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ : هكذا ذكره في الكتب المتقدمة ، فذكره كذا في القرآن ليستيقنوا . وقيل : التسعة نهاية الآحاد ، والعشرة بداية العشرات ، وتسعة عشر جامعة لهما لأكثر القليل وأقل الكثير فكان أجمع الأعداد فجعلت بحسابها خزنة النّار «4» .

31 وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ : من كثرتهم «5» .

وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى : أي : هذه النّار «6» .

---

(1) قال الفخر الرازي في تفسيره : 30/ 200 : «وفي الصعود» قولان :

الأول : أنه مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق مثل قوله : يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً ، و«صعود» من قولهم : عقبة صعود وكدود : شاقه المصعد .

والثاني : أن صَعُوداً اسم لعقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت ، وعنه عليه الصلاة والسلام : «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فيه أبدا» اه – .

ينظر الحديث عن أبي سعيد الخدري مرفوعا في مسند الإمام أحمد : 3/ 75 ، وسنن الترمذي : 5/ 429 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنبياء ، حديث رقم (3326) ، وتفسير الطبري : 29/ 155 ، والمستدرك للحاكم : 2/ 507 ، كتاب التفسير ، سورة المدثر .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(2) معاني القرآن للفراء : 3/ 203 ، وتفسير الطبري : 29/ 159 ، ومعاني الزجاج : 5/ 247 ، وتفسير البغوي : 4/ 416 ، وتفسير القرطبي : 19/ 77 .

(3) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 348 عن الأخفش .

واللّوح : العطش كما في المفردات للراغب : 456 ، واللسان : 2/ 585 (لوح) .

(4) ينظر ما سبق في تفسير الماوردي : 4/ 349 .

(5) تفسير الطبري : 29/ . 162

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 29/ 162 عن قتادة ، ومجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 350 عن قتادة .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 248 ، وتفسير البغوي : 4/ 417 .

(39/790)

---

33 إِذْ أَدْبَرَ : جاء بعد النّهار . دبر الشّيء وأدبر . وقبل وأقبل «1» .

38 كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ . قال قتادة»

: غلق النّاس إلّا أصحاب اليمين ، ثم قرأ : وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

«3» .

50 مُسْتَنْفِرَةٌ : بكسر الفاء نافرة ، وبفتحها «4» منفّرة .

و«القسورة» : الرماة «5» . وقيل «6» : الأسد ، فعولة من «القسر» .

56 هُوَ أَهْلُ التَّقْوى : أهل أن يتقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ

849.847 ﴾

---

(1) بمعنى واحد كما في معاني القرآن للفراء : 3/ 204 ، وتفسير الطبري : 29/

162 ، ومعاني الزجاج : 5/ 248 .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 165 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 418 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن قتادة .

(3) سورة الأنعام : آية : 69 .

(4) بالفتح قراءة نافع ، وابن عامر كما في السبعة لابن مجاهد : 660 ، والتبصرة لمكي : 364 ، والتيسير للداني : 216 .

وانظر توجيه القراءتين في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 498 ، والكشف لمكي : 2/ 347 ، وتفسير القرطبي : 19/ 89 ، والبحر المحيط : 8/ 380 .

(5) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 206 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 498 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (29/ 168 ، 169) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة .

(6) بلسان الحبشة ، وقيل : بلغة قريش .

ينظر : كتاب اللغات الواردة في القرآن لأبي عبيدة : 302 .

ومعاني القرآن للفراء : 3/ 276 ، والبحر المحيط : 8/ 380 ، واللسان : 5/ 92 (قسر) .

وروى هذا القول عن أبي هريرة ، وابن عباس ، وزيد بن أسلم رضي اللّه تعالى عنهم .

ينظر تفسير الطبري: 29/ 170، وتفسير ابن كثير: 8/ 298، والدر المنثور: 8/ 339.

(40/790)

وقال ملا حويش:

عدد 4 - 74

نزلت بمكة بعد فترة الوحي، وبعد سورة المزمل بثلاث سنين أو ثلاثين شهرا، وهي ست وخمسون آية، ومائتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف.

بسم اللّه الرحمن الرحيم،

قال تعالى «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» بدثار النبوة تنبّه لما يلقى عليك من الوحي.

وإنما خاطبه ربه بذلك لأنه كان يقول بعد نزول الوحي عليه:

دثروني دثروني، ثم صار يخاطبه مرة بيا أيها النبي، وأخرى يا أيها الرسول وتارة يكنى عنه بالضمير، وطورا يسميه باسمه، وقد أمره جل شأنه في هذه السورة بما يجب عليه من أمر الرسالة التي شرفه بها بعد أمره قبلا بالقراءة، وهو أول أمر من نوعه فقال: «قم» من دثارك «فأنذر» قومك وحذّرهم عذاب ربك،

وقد ذكرنا أن هذه السورة أول سورة نزلت بعد فترة الوحي لانه بدأ بأول العلق ثم بسورة القلم ثم المزمل عدا الآيات المستثنيات منها كما أشرنا إليها في مواضعها ، ثم فتر الوحي ثلاث سنين أو ثلاثين شهرا على اختلاف في ذلك لم ينزل فيها على النبي شيء من القرآن ، ولم يتل على الناس غير السور الثلاث المذكورات ، ولم يدعهم إلى شيء ، ثم نزلت المدثر كما ذكرناه في حديث جابر المتقدم في مطلب فترة الوحي المارّ الذي رواه الشيخان إذ قال فيه : (سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي) ويدل أيضا قوله فيه : (فإذا الملك الذي جاء بحراء) وتقدم تفصيله هناك ، وعقبه بقوله وأنزل اللّه يا أيها المدثر . هذا ، ومن قال إن المدثر أول سورة نزلت أراد أنه بعد فترة الوحي أولية اضافية لا مطلقة ، ومن أراد الأولية المطلقة لا برهان له بها ، وقد صرح الزهري بضعفه وعدم الاعتداد به ، وقد وقعت فترات أخرى كالفترة التي وقعت بعد سورة الفجر وهي خمسة عشر يوما ، وقد ظن البعض وتبعهم (درمنغام) المار ذكره في المقدمة ، في بحث الشهادة في مدح الكتب الأربعة في مطلب الناسخ والمنسوخ

مطلب أول سورة نزلت وفترة الوحي وسببها

إن الضحى نزلت بعد فترة الوحي وهي أول ما نزل والحال قد نزل قبلها بضع سور كما ستعلم ، وان الذي نزل أولا هو المدثر كما ذكرنا .

وسبب الفترة الأولى هو تحريك قوى الرسول إلى اشتياق نسمات الوحي القدسية ، فيذهب عنه ما كان يجده من الرعب والخوف ، ويتلقّى الوحي بقبول وشوق وتعطش وانشراح صدر ، وأ تزداد رغبته فيه .

وأما الفترة الثانية فقد جاء في الصحيحين عن جندب بن سليمان ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم اشتكى (توجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا إلى تهجده وتلاوته فقالت امرأة : (هي أم جميل بنت أبي سفيان زوجة أبي لهب) يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، فلم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل اللّه «وَالضُّحى » كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم أيضا .

وكان هذا بعد نزول «تَبَّتْ يَدا» .

وروى ابن

جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة : إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك ، فنزلت .

ومعارضة رواية الصحيحين بهذه الرواية المرسلة تسقط اعتبارها .

وقد جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجعا عليه صلى اللّه عليه وسلم ، وحمّالة الحطب قالت ما قالت شماتة به ، من الوحي المحمدي ص 100 من باب فترة الوحي ، وأول ما نزل بتصرف ، وما ذكرناه هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن ، وفي مدة الفترة وأول ما نزل بعدها ، وفي فترة سورة الضحى ، وقد غلط مجاهد في قوله : «ن وَالْقَلَمِ» أول ما نزل هذا ، وما روي عن علي عليه السلام ، إن أول سورة نزلت هي الفاتحة واعتمدها الإمام محمد عبده ، فإذا صحت هذه الرواية يكون المراد منها أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد الكوني ثم بالأمر بالتبليغ الإجمالي ، وتلاها فرض الصلاة وآية المزمل ، أو نزلتا في زمن واحد .

وقد ذكرت آخر (العلق) المارة أن المراد بالصلاة الواردة بالآيات المكية من بدء نزول الوحي إلى نزول سورة الإسراء الآتية هي الركعتان اللّتان فرضها اللّه على الرسول صلى اللّه عليه وسلم وحده التي لم يزل يعمل بها هو ويعفي أصحابه من غير أن تفرض عليهم حتى فرضت الصلوات الخمس .

قال تعالى : «وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ 3» عظمه ونزهه عن عبادة الأوثان التي انكب عليها قومك

«وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ 4» عن كل مستقذر لان قومك يجرّون ثيابهم في الأرض تكبرا وخيلاء ولا يحترزون من النجاسة 8 وطهر نفسك مما هم عليه من القبائح ، وقد كشنى بالثياب عن الجسد لاشتمالها عليه ، وقد جاء بمثله عنترة في قوله :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم

أراد نفسه وجسمه ، والعرب تعبّر بطهارة الثوب عن وصف صاحبه بالصدق والوفاء والعفاف .

ولما كان الثوب ملازما للانسان كنّوا به عنه يقال : الكريم في ثوبه ، والعفة في إزاره ، كما يقال للغادر خبيث الرداء دنس الثياب ، وحيث وإن كانت الطهارة مطلوبة فى الثوب والجسد فالأمر هنا يشملهما معا «وَالرُّجْزَ»

(43/790)

الذي يعبده قومك من دون اللّه «فَاهْجُرْ 5» ولا تقربه أبدا «وَلا تَمْنُنْ» بما أعطاك اللّه في الرسالة والذكر على قومك وغيرهم «تَسْتَكْثِرُ 6» به في طلب الأجر منهم ولا تقل دعوتهم فلم يقبلوا مني ، بل عد عليهم المرة بعد الأخرى وادعهم إلى عبادة اللّه ولا تستكثر تكرار دعوتك لهم ، فإن لك الأجر العظيم بذلك ، وقال بعض المفسرين لا تعط مالك وترى ما

تعطيه كثيرا أو تطلب أكثر منه بناء على ما اعتاد قومه من العادات غير المرضية ، انهم كانوا يعطون الهدية بقصد أن يهدى لهم أكثر منها ، ومن أمثالهم ، الهدية تأتي على حمار ، وترجع على جمل ، حثا للمهدي على إهداء الكثير ، فنهى رسوله عن ذلك تنزيها لمنصب النبوة لأنه مأمور بأجل الأخلاق وأشرف الآداب ويدل على ما جرينا عليه قوله تعالى : «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ 7» لأن المعنى الذي ذكروه لا يحتاج إلى الصبر حتى يأمر به ، ولأن من أعطى شيئا لغيره طلبا للزيادة لا بد وأن يتواضع الذي أعطاه ، ومنصب النبوة يجل عن ذلك كيف وهي تعلم الناس الإباء عن كل ما يخل بالاحترام ومكارم الأخلاق ، وقيل هما رباءان حلال كالهدية الكثيرة لمن أهدى أقل منها وحرام لمن أعطى شيئا بأكثر منه ، وقد استدلوا بالآية 38 من سورة الروم ج 2 وهي (وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ) .

وهو لعمري بعيد لأن الظاهر يأباه والمعنى لا ينطبق عليه وتفسيرها بالصورة التي ذكرناها أوّلا أولى وأوفق كما لا يخفى على بصير ، وسيأتي لهذا البحث تفصيل في تفسيرها إن شاء اللّه ، وعلى كل يقول اللّه جل قوله فاصبر يا أكمل الرسل على أذاهم كيفما كان ، فكل مصبور عليه مصبور عنه ، واصبر على العمل بأوامر ربك ونواهيه فالدنيا كلها فانية «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ 8» أي نفخ إسرافيل في البوق النفخة الأولى «فَذلِكَ» يوم النفخ «يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ 9» شديد هوله «عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ 10» بل عسير جدا ، وهي بلفظ يسير لتكرار التأكيد ، وفي تخصيصه بالكافرين دلالة على أنه هين على المؤمنين إن شاء اللّه .

مطلب ما نزل في الوليد بن المغيرة ثم في خبث أبي جهل

«ذَرْنِي» خل بيني «و» بين «مَنْ خَلَقْتُ» في بطن أمه «وَحِيداً 11» لا مال له ولا ولد ولم يشاركني في خلقه أحد ، فدعه وكله لي فأنا أكفيكه «وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً 12» كثيرا غير منقطع إنماؤه ، وكان له أرض بالطائف لا ينقطع ثمرها ومن النقد تسعة آلاف مثقال وإبل وخيل وغنم وعبيد وجوار كثيرة وكان قبل لا شيء عنده كما ذكر ابن عباس «وَبَنِينَ شُهُوداً 13» لا يغيبون عنه ولا يضعفون صيفا ولا شتاء لغنائهم ويحضرون معه المحافل ليعتزبهم وهم عشرة أسلم منهم خالد وهشام وعمارة فقط «وَمَهَّدْتُ» بسطت له من العيش وكل ما يحتاجه «تَمْهِيداً 14» مع الرئاسة على قومه وطول العمر ، وكان يدعى ريحانة قريش .

والمراد به من هذه الآيات من ذرني فما بعد الوليد بن المغيرة المخزومي إن كان بدأ البعثة فقيرا لا سعة له في المال والولد ، وكان عليه بعد أن منّ اللّه عليه بتلك السعة أن يؤمن بحضرة الرسول لا أن يكفر به حتى اقتضى نزول هذه الآيات فيه .

ومن هذا يستدل على أن هذه السورة لم تنزل جملة واحدة بل نزل القسم الأول منها ، ثم نزل

ما هو بحق الوليد بعد حيث لم تنزل سورة بتمامها قبل الفاتحة كما ذكرنا آنفا انه كانت تنزل الآية والآيتان والجملة والجملتان على حضرة الرسول ليتمّرن على تلقي كلام ربه ، وما قيل ان هذه الآية منسوخة بآية السيف لا وجه له لأنها من الأخبار وقد ذكرنا قبلا أن الأخبار لا يدخلها النسخ في الآية/ 44/ من سورة القلم المارة قال تعالى : «ثُمَّ يَطْمَعُ» يرجو مع كفره وتكبره وعدم شكره وإيمانه «أَنْ أَزِيدَ 15» له مالا وبسطة وولدا «كلا» لا يطمع ولا يرجو فلا أفعل له ذلك ما دام على ما هو عليه «إِنَّهُ كانَ» ولا يزال «لِآياتِنا» المنزلة على رسولنا «عَنِيداً 16» عاتيا لا يميل لدلائل توحيدنا منكرا لا يصدق رسولنا جاحدا النبوة واليوم الآخر والتوحيد قال مقاتل ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقص من المال والولد والرفعة والجاه حتى هلك وكان كفره عنادا وهو أفحش انواع الكفر الأربعة المبينة في الآية 4 من سورة البروج

(45/790)

الآتية في ج 2 «سَأُرْهِقُهُ» ألجئه وأضايقه بشدة وقسر أن يصعد «صَعُوداً 17» جبلا شامخا في جهنم زيادة في مشقة العذاب لا راحة له معها ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال صلى اللّه عليه وسلم الصعود عقبة في النار يتصعد فيها الكافر سبعين خريفا ثم يهوي بها

سبعين خريفا فهو كذلك أبدا ! أخرجه الترمذي بلفظ غريب وهو ما رآه راء قط وسيأتي له بحث في تفسير الآية 8 من سورة الإسراء الآتية – وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله : (سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً) قال هو جبل من نار يكلف أن يصعده .

فإذا وضع يده ذابت ، فإذا رفعها عادت يؤيده قوله تعالى : «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها» الآية 56 من سورة النساء في ج 3 ، ثم عدد مثالب الوليد الأخرى زيادة على ما بينه قبلا وفي الآية 9 فما بعدها في سورة القلم المارة فقال جل قوله : «إِنَّهُ» عند سماع القرآن «فكّر» ماذا يقول فيه «وَقَدَّرَ 18» هيأ كلاما في نفسه وذلك لما أنزل اللّه سورة حم الجاثية وقيل فصلت ، وكان يصلي في المسجد ، كان الوليد بن المغيرة قريبا منه يسمع قراءته ففطن له النبي صلى اللّه عليه وسلم فأعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال : واللّه لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، واللّه إنّ له لحلاوة «وان عليه لطلاوة ، وإن عليه لثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ واللّه الوليد ولتصبون قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له ما لي أراك حزينا يا ابن أخي فأجابه الخبيث : وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة ليعينوك بها على كبر سنك ، ويزعمونك أنك زيّنت كلام

محمد وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا وولدا ، وهل شبع محمد من الطعام حتى يكون له

فضل ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يحنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن فهل

(46/790)

رأيتموه تكهّن قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب قط ؟ قالوا : اللهم لا ، وكان يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه ، فقالت قريش للوليد :

فما هو إذن ؟ فتفكر في نفسه ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله ما هو إلا سحر يؤثر ، فذلك قوله عز وجل «فَكَّرَ وَقَدَّرَ» وهذا مما يدل أيضا على أن هذه السورة لم تنزل دفعة واحدة ، فإن الآيات من ذرني إلى آخرها متأخرة في النزول عنها ، لأن سورة حم هذه لم تنزل بعد والحواميم كلها نزلت متتابعة كما سيأتي في الجزء الثاني .

وعلى القول بأنها نزلت معها تكون من قبيل الإخبار بالغيب ، وسنزيد هذا البحث بحثا عند تفسيرها إن شاء اللّه القائل «فَقُتِلَ» وعذّب وأهين «كَيْفَ قَدَّرَ 19» وهذا الاستفهام على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ 20» كرره تأكيدا اشعارا بأن هذا دعاء عليه أبلغ من الأول

«ثُمَّ نَظَرَ 21» في وجوه الناس يبين لهم ما يدفع به القرآن ويردّه «ثُمَّ عَبَسَ» كلح وجهه واغبر «وَبَسَرَ 22» تقطب وجهه واكفهر وزاد في التقبض ، وأظهر العبوس قبل أو انه ومنه قيل لما لم ينضج من الثمر بسر .

ويأتي بمعنى العبوس مطلقا ، وعليه قول ثوبة :

لقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها

قال تعالى : «ثُمَّ أَدْبَرَ» ولى بظهره عن الحق «وَاسْتَكْبَرَ 23» عن الإيمان به واختلق ما افتراه «فَقَالَ إِنْ» ما «هذا» الذي يتكلم به محمد «إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ 24» يروى عن السحرة إن «هذا» الذي يقوله محمد «إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ 25» يتلقاه عنهم ويحكيه لنا ما هو قول اللّه كما يزعم ، قال تعالى : فدعه يا محمد وما يقول «سَأُصْلِيهِ» أحرقه وأدخله «سَقَرَ 26» علم لجهنم لا ينصرف لعلتي التعريف والتأنيث «وَمَا أَدْرَاكَ» يا حبيبي «ما سَقَرُ 27» صدر الجملة بالاستفهام على سبيل التهويل والتعظيم ، أي ما أعلمك ما هي هي «لا تُبْقِي»

لحما «وَلا تَذَرُ 28» عظما فلا يلقى فيها شيء إلا أحرقته وأذابته «لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ 29» مغيرة جلودهم

(47/790)

البيض سودا «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ 30» ملكا هم خزنتها عدا مالك فإنه بوّابها ، قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم اسمع من ابن أبي كبشة يخبر قومه ، أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن تبطش بواحد منهم ، فقال أبو الأشعر بن أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي : أنا أكفيكم سبعة عشر ، عشرة على ظهري ، وسبعة على بطني ، واكفوني أنتم اثنين .

ويروى عنه أنه قال : أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فادفع عشرة بمنكبي الأيمن ، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار .

ونمضي فندخل الجنة ، فأنزل اللّه جل إنزاله

«وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ» خزنتها «إِلَّا مَلائِكَةً» لا رجالا فمن ذا يغلبهم ، وإن واحدا منهم كاف لتعذيب الثقلين ، وليس فيهم مظنة الرحمة والرأفة لأنهم ليسوا من جنس المعذّبين .

راجع الآية 6 من سورة التحريم في ج 3 ، «وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً» امتحانا «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» يقولوا ما قالوه وقد جئنا بهذا العدد «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» صحة ما أنزلناه على محمد لأن هذا العدد مكتوب في التوراة والإنجيل وليتيقنوا أن محمدا لم يقل شيئا من نفسه وان كل ما يقوله من عند اللّه تعالى مصدق لكتابهم .

مطلب الحواس الباطنة والظاهرة والأخبار بالغيب

وقيل المخصّص لهذا العدد اختلاف البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثني عشر يعني الحواس الخمس الباطنة أو الخمس الظاهرة والقوة الباعثة كالغضبية والشهوية والقوة المحركة ، فهذه اثنا عشرة ، والطبيعيات السبع ثلاث منها مخدومة وهي النامية والغازية والمولدة ، وأربع منها خادمة وهي الهاضمة والجاذبة والدافعة والماسكة ، وهذا مع ابتنائه على الفلسفة لا يكاد يتم ، كما لا يخفى على من وقف على كتبها ، والحقيقة في حكمة هذا العدد لا يعلمها إلا اللّه القائل : «وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا» من أهل الكتابين والذين آمنوا بالقرآن «إِيماناً» تصديقا بمحمد وما أنزل عليه بأنه وحي سماوي لأنه أخبر به دون تعلم أو دراسة «وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ» في عددهم وليخالف حالهم حال المشركين والكفار

«وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» نفاق وشك وريب «وَالْكافِرُونَ» من المشركين «ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا» أي ما معنى هذا العدد العجيب ولأي شيء اختاره على غيره ، وهذه الآية من الإخبار بالغيب قبل الوقوع فهي من معجزاته صلى اللّه عليه وسلم لأنه أعلم بإعلام اللّه إياه بأنه سيكون منافقون يرتابون في هذا القرآن ، لأن هذه السورة مكية بالاتفاق ولا يوجد زمن نزولها منافقون ، والنفاق ظهر بالمدينة ، ولهذا جاء الفعل بلفظ المستقبل «كَذلِكَ» مثلما أضل اللّه منكري عدد الخزنة «يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ» من غيرهم ممن اقتفى آثار الكفر وأعرض عن الإيمان «وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ» ممن آمن به وصدق رسله «وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ» الذين من جملتهم خزنة جهنم «إِلَّا هُوَ» وحده لأن ملائكته لا يحصون وهذا كالجواب للخبيث أبي جهل لقوله : ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر ، أي له أعوان كثيرون لا يعلمهم إلا اللّه ، فكما أن مقدراته غير متناهية فكذلك جنوده ، وإن الواحد منهم كاف لخراب الدنيا بما فيها ، راجع الآية 81 من سورة هود في ج 2 «وَما هِيَ» أي سقر الموصوفة آنفا «إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ 31» وموعظة وما مواعظ القرآن وآياته إلا عبرة للناس يتذكرون بها «كَلَّا» إن البشر لا يتعظون بها ولهذا فانه تعالى أقسم جل قسمه فقال «وَالْقَمَرِ 32» الذي جعلته نورا لخلقي «وَاللَّيْلِ» الذي خلقته راحة لعبادي «إِذْ أَدْبَرَ 33» ولّى وقرىء دبر بمعنى أدبر كقبيل بمعنى اقبل تقول دبرني فلان جاء خلفي والليل يأتي خلف

النهار «وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ 34» اعترض مضيئا بالأفق وقرىء سفر وقد أقسم اللّه بها لعظم منافعها كما لا يخفى وجوب القسم لهذه الأيمان الثلاث قوله جل قوله «إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ 35» الأمور العظام لأنها احدى دركات النار السبعة وهي : 1 جهنم ، 2 والحطمة ، 3 لظى ، 4 السعير ، 5 سقر ، 6

الجحيم ، 7 الهاوية .

وكل واحدة منها داهية دهماء عظيمة في البلاء جعلت «نَذِيراً لِلْبَشَرِ 36» قال الحسن واللّه ما أنذر بشيء أدهى من النار وهذا النذير قد حصل للجميع «لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ» أيها الناس «أَنْ يَتَقَدَّمَ» للطاعة ويبادر لفعل الخير فينجو منها «أَوْ يَتَأَخَّرَ 37»

(49/790)

عنها فيقع في الشر والمعصية فيهلك في تلك النار هذا ولا دلالة في هذه الآية لقول من قال إن العبد مجبر على الفعل ومتمكن من فعل نفسه لأن مشيئته تابعة لمشيئة اللّه وانها على حد قوله تعالى (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) الآية 29 من الكهف في ج 2 أي بعد أن بينا لكم أيها البشر طريقي الخير والشر وأمرناكم باتباع الخير والانكفاف عن الشر وهذا على حد قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 40 من سورة فصّلت في ج 2 أي افعلوا ما

شئتم فكل مجاز بعمله إن خيرا فخير وان شرا فشر قال «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ» من الأعمال «رَهِينَةٌ 38» عند ربها غير مفكوك عنها لأنها مأخوذة بعملها ورهينة اسم فعل بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم وليست بتأنيث رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث مثل قتيل وجريح لتكون بمعني اسم الفاعل والمفعول بل هي واحد الرهائن ، ثم استثنى اللّه تعالى من هذا العموم فقال «إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ 39» الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وهم المؤمنون المخلصون لأنهم فكوا رقابهم بالطاعة كما يفك الراهن رهنه بأداء ما عليه من الحق ، وقد روي عن علي كرم اللّه وجهه انهم أطفال المؤمنين لأنهم لم يكتسبوا إثما يرتهنون فيه .

وقال ابن عباس هم الملائكة .

وقيل هم الذين كانوا على يمين آدم يوم أخذ الميثاق وحين قال تعالى هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي لأن

اللفظ عام لا يوجد ما يخصصه وهؤلاء الميامين المباركون «فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ 40» فيما بينهم

«عَنِ الْمُجْرِمِينَ 41» فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع «ما سَلَكَكُمْ» أدخلكم وأوصلكم ونفحكم فحبسكم «فِي سَقَرَ 42 قالُوا» لهم زججنا فيها لأنا «لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ 43» في الدنيا ولم نعتد فرضيتها «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ 44» في الدنيا بما

تفضل اللّه به علينا ولم نتصدق عليه كما فعل المؤمنون الذين يؤثرون على أنفسهم ولم نكن معدمين لنعذر «و» مع هذا كله فإنا «كُنَّا نَخُوضُ» بالباطل وقول الزور في آيات اللّه «مَعَ الْخائِضِينَ 45» في البهتان والافتراء والاختلاف «وَكُنَّا نُكَذِّبُ» ننكر أيضا ولا نصدق «بِيَوْمِ الدِّينِ 46» يوم الجزاء والحساب وبقينا متمادين في ذلك كله «حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ 47» الموت

(50/790)

وسمي يقينا لأن كل البشر موقن به فصار علما على الموت، قال تعالى ردا لما يقال من أسباب الخلاص لمثل هؤلاء «فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ 48» عندنا من الملائكة والأنبياء والشهداء والصالحين في ذلك اليوم الذي تقبل فيه الشفاعة لمن يشاء اللّه.

مطلب الشفاعة والمحروم منها:

في هذه دليل ثبوت الشفاعة فيما عدا الأصناف الأربعة المذكورين، وهو كذلك، لأنهم يشفعون بإذن اللّه لمن يرتضيه، فلا يرد عليه ما جاء بالآيات الأخر.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة، ثم تلا هذه الآية (قالُوا لَمْ نَكُ) قال عمران ابن حصين

الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون المذكورين في الآية وروى البغوي عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال صلى اللّه عليه وسلم يصف أهل النار فيعذبون قال : فيمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول للرجل منهم يا فلان فيقول ما تريد ؟

فيقول أما تذكر رجلا سقاك شربة ماء يوم كذا وكذا فيقول وإنك لأنت هو ، فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه ، قال ثم يمر بهم الرجل فيقول يا فلان فيقول ما تريد ؟

فيقول أما تذكر رجلا وهب لك وضوءا يوم كذا وكذا ؟ فيقول وانك لأنت هو ؟ فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه قال تعالى «فَما لَهُمْ» أي شيء جعل لهؤلاء الكفرة من قومك يا حبيبي (إذا كان حال المعذبين على ما ذكر) «عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ 49» أي عن سماع هذا القرآن مولين ظهورهم عنه بعد أن سمعوا ما سمعوا من آياته ونصح من أنزل عليه ولم يتعظوا «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ» وحشية «مُسْتَنْفِرَةٌ 50» بكسر الفاء أي نافرة وقرىء بفتحها فتكون بمعنى منفرة مذعورة خائفة كأنها

«فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ 51» أي الأسد أو جماعة أو جماعة الرماة الصيّادين ، لا واحد له من لفظه مثل ذلك ورهط راجع الآية الأولى من سورة الفاتحة الآتية ، شبه جل جلاله نفور المشركين من سماع مواعظ القرآن ونصائح حضرة الرسول بنفور الحمر الوحشية عند ما تشاهد الأسد أو الرماة فلا يرى مثل نفورها وكذلك هروب

المشركين عند سماع كلام حضرة الرسول في قرآن أو غيره ، راجع الآية 127 من سورة التوبة في ج 3 «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» أي هؤلاء المعرضون «أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً 52» قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها الناس ، أي أنهم لا يكتفون بتلك التذكرة من حضرة الرسول ولا يرضون بها وذلك أن كفار قريش قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان نؤمر فيها باتباعك ، ونحو هذا القول ما يأتي في الآية 92 من سورة الإسراء الآتية .

مطلب ما يطلبه قريش من الرسول :

وقالوا بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح وعند رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ، وقالوا إن كان محمد صادقا فيصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار ، فرد اللّه عليهم بقوله عزّ قوله «كَلَّا» لا يؤتون شيئا من ذلك ، وهذه كلمة ردع وزجر ونهي لهم عن طلب تلك الاقتراحات والتمنّيات «بَلْ لا يَخافُونَ» بالياء والتاء هؤلاء هول «الْآخِرَةَ 53» ولا يخشون عذابها وما أوعدوا فيها إذ لو خافوا ذلك لما اقترحوا شيئا من هذه الاقتراحات الواهية ولأن ما حصل من المعجزات وما قام من الأدلة على اثبات نبوته وصحة ما جاءهم به كاف على وجوب الإيمان به ، ولكنهم لن يؤمنوا ولو جئنهم بكل آية ، راجع الآية 95 من سورة يونس في ج 2 ، فطلبهم هذا زيادة في التعنّت والعناد ولهذا

زجرهم بقوله «كلّا» حقا «إنّه» القرآن «تَذْكِرَةٌ 54» عظيمة وعظة بليغة كافية لمن وفقه اللّه للايمان «فَمَنْ شاءَ» منكم أيها الناس أن يذكره «ذَكَرَهُ 55» ولم ينسه واتعظ به ولم يطلب غيره لأن نفعه عائد عليه «وَما يَذْكُرُونَ» هؤلاء وغيرهم بمشيئتهم إذ لا يقدرون أن يذكروه «إِلّا» وقت «أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» لهم ذلك فإن شاء لهم الهدى تذكروا فيه فاهتدوا وإلا لا ، فانه «هو» وحده جل جلاله «أَهْلُ التَّقْوى» وبالحري أن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه «وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ 56» وحقيق أن يغفر للطائعين ما سلف ت (8)

(52/790)

منهم إذا آمنوا وصدقوا نيتهم واللّه أحق أن نتقي محارمه وأكرم من أن يرد من يقبل عليه بإخلاص .

هذا ولا يوجد غير هذه السورة مختومة بمثل هذه اللفظة ، أخرج أحمد والترمذي وحسنه الحاكم وصححه النسائي وابن ماجه وخلق كثير آخرون عن أنس أن رسول اللّه قرأ هذه الآية (هُوَ أَهْلُ التَّقْوى) إلخ فقال :

قد قال ربكم أنا أهل بأن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها آخر فأنا أهل أن أغفر له .

وأخرج ابن مردويه عن عبد بن دينار عن أبي هريرة وابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ما يقرب من ذلك ، هذا ، والله أعلم واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 102.114 ﴾

(53/790)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المدثر عليه الصلاة والسلام

مكية

قم فأنذر كاف وكذا فكبر وطهر وفاهجر وتستكثر وفاصبر غير يسير تام إن أزيد كلا تام وأجاز والوقف على أن أزيد ويبتدئ بكاد بجعلها بمعنى إلا عنيدا كاف صعودا وقول البشر وسقر ولا تذر ويبتدئ لواحة بمعنى هي لواحة للبشر جائز تسعة عشر كاف وكذا ألا ملائكة ومثلا ويهدي من يشاء إلا هو تام وكذا للبشر كلا بمعنى إلا فالوقف عليها هنا ليس بحسن وان جوزة بعضهم أو يتأخر حسن إلا أصحاب اليمن تام ويبتدئ في جنات أي

هم في جنات في سقر كاف وكذا أتانا اليقين ولشافعين ومن قسورة منثرة تام والأحسن الوقف على كلا الآخرة كاف تذكرة صالح فمن شاء ذكره حسن إلا أن يشاء الله كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(54/790)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية ستٌّ وخمسون آية كلمها مائتان وخمسون كلمة وحروفها ألف وعشرة أحرف

فأنذر (كاف) ثمّ كلُّ آيةٍ بعدها كذلك إلى فاصبر وهو التام

في الناقور ليس بوقف لأنَّ جواب إذا لم يأت بعد

غير يسير (تام) ولا وقف من قوله ذرني إلى شهود أفلا يوقف على وحيد العطف ما بعده

على ما قبله ولا على ممدوداً لأنَّ وبنين منصوب عطفاً على مالاً

شهوداً (حسن)

تمهيداً (كاف) وقوله ثم يطمع ليس بعطف بل هو تعجب وإنكار كقوله في سورة الأنعام ثم

الذين كفروا بربهم يعدلون

أن أزيد كلا (تام) عند الأكثر

عنيداً (كاف)

صعوداً (أكفى) مما قبله

وقدّرِ (حسن) ومثله كيف قدر وكذا كيف قدَّر الثاني ومثله ثم نظر و وبسر و واستكبر و

يؤثر كلها وقوف حسان

إلاَّ قول البشر (تام) لأَنَّه آخر ما ذكره الله عن الوليد

سقر (تام) عند أبي حاتم ومثله وما أدراك ما سقر

ولا تذر (كاف) ويبتدئ لوَّاحة بمعنى هي لوَّاحة وليس بوقف لمن قرأ لواحة بالنصب حالاً

من سقر ومن ضمير لا تبقي أو من ضمير لا تذر

للبشر (كاف) ومثله تسعة عشر

إلاَّ ملائكة (حسن) 0

للذين كفروا ليس بوقف لأنَّ بعده لام كي وهكذا لا يوقف على شيء إلى مثلاً فلا يوقف

على إيماناً ولا على والمؤمنون

مثلاً (كاف) والتشبيه أول الكلام لأنَّ الكاف في محل نصب نعت لمصدر محذوف أي مثل

ذلك المذكور من الإضلال والهدى

ويهدي من يشاء (كاف)

إلاَّ هو (تام) ومثله للبشر ووقف الخليل وتلميذه سيبويه على كلا على معنى ليس الأمر كما ظنوا والأجود الابتداء بها على معنى إلاَّ بالتخفيف حرف تنبيه فلا يوقف عليها لأنَّ والقمر متعلق بما قبله من التنبيه

(55/790)

إذ أسفر ليس بوقف لأنَّ جواب القسم لم يأت وقوله لإحدى الكبر جواب القسم الأول والقسم لا يكون له جوابان الأعلى جهة الاشتراك وليس في الكلام واو عطف والضمير في إنَّها الظاهر أنَّه للنار وقيل لقيام الساعة وقيل هو ضمير القصة قرأ نافع وحفص وحمزة أدبر بإسكان الدال وبهمزة مفتوحة قبل الدال بمعنى المضيّ ودبر وأدبر تولى ومضى ومنه صاروا كأمس الدابر والباقون بغير ألف قبل الدال

الكبر (كاف) إن نصب نذيراً بفعل مقدر أو نصب على القطع أو نصب على المصدر على معنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار وليس بوقف إن نصب حالاً من سقر أو تبقى أو من الضمير في وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو أو هو مفعول من أجله أو من بعض الضمائر التي تقدمت وإن جعل من ضمير قم فلا يوقف على شيء منه

نذيراً للبشر (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن أبدل من قوله للبشر بإعادة

الجار

أو يتأخر (حسن) رهينة الأولى وصله بما بعده

أصحاب اليمين (تام) ورأس آية أيضاً ثم تبتدئ في جنات أي هم في جنات فالاستثناء

متصل إذ المراد بهم المسلمون المخلصون أو منقطع والمراد بهم الأطفال أو الملائكة

عن المجرمين (حسن)

في سقر (أحسن) مما قبله ولا وقف من قوله قالوا لم تك من المصلين إلى اليقين فلا يوقف على

المصلين ولا على المسكين ولا على الخائضين ولا على بيوم الدين لأنَّ العطف صيرها

كالشيء الواحد

اليقين (كاف) ومثله الشافعين

معرضين ليس بوقف لتعلق التشبيه بما قبله ومثله في عدم الوقف مستنفرة لأنَّ الجملة بعده

صفة لما قبلها

من قسورة (كاف) ومثله منشرة وقيل كلا على أنَّها للردع على معنى أنَّ الكفار لا يعطون

الصحف التي أرادوها ثم استأنف بل لا يخافون الآخرة وإن جعلت كلا بمعنى ألاَّ التي للتنبيه

حسن الابتداء بها

الآخرة (كاف) ومثله تذكرة وكذا ذكره وكذلك إلاَّ أن يشاء الله

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المدثر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد ذكرنا من خففه1 .

ومن ذلك قراءة الحسن : "وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ2" ، جزما .

وقرأ الأعمش : "تَسْتَكْثِرُ" ، نصبا .

قال أبو الفتح : أما الجزم فحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون بدلا من قوله : ﴿ تَمْنُن ﴾ ، حتى كأنه قال : لا تستكثر ، فإن قال .

فعبرة البدل أن يصلح لإقامة الثاني مقام الأول ، نحو ضربت أخاك زيدا ، فكأنك قلت :

ضربت زيدا ، وأنت لو قلت : لا تستكثر لم يدللك النهي عن المن للاستكثار ، وإنما كان

يكون فيه النهي عن الاستكثار مرسلا ، وليس هذا هو المعنى ، وإنما المعنى : لا تمنن من

مستكثر ، أي : امنن من من لا يريد عوضا ، ولا يطلب الكثير عن القليل .

قيل : قد يكون البدل على حذف الأول ، وكذلك أيضا قد يكون على نية إثباته . وذلك كقولك : زيد مررت به أبي محمد ، فتبدل أبا محمد من الهاء . ولو قلت : زيد مررت بأبي محمد على

---

1 يريد خفف "المدثر" ، فجعلها خفيفة الدال مفتوحتها ، وانظر الصفحة 335 من هذا الجزء .

2 سورة المدثر : 6 .

حذف الهاء كان قبيحا . فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ من هذا القبيل ، لا من الأول وأنكر أبو حاتم الجزم على البدل ، وقال : لأن المن ليس بالاستكثار فيبدل منه ، وبينهما من النسبة ما ذكرته لك .

وأما الوجه الآخر فأ ، يكون أراد : ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ، فأسكن الراء ؛ لثقل الضمة مع كثرة الحركات ، كما حكاه أبو زيد من قولهم : "بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ1" ، بإسكان اللام . وقد مضى هذا فيما قبل مستقصى2 .

فأما "تَسْتَكْثِرُ" ، بالنصب فبأن مضمرة على ما أذكره لك ، وذلك أن يكون بدلا من قوله :

﴿ وَلَا تَمْنُن ﴾ على المعنى . ألا ترى أن معناه لا يكن منك من واستكثار ؟ فكأنه قال : لا يكن منك من أن تستكثر فتضمر أن لتكون مع الفعل المنصوب بها بدلا من المن في المعنى الذي دل عليه الفعل ، ونظير اعتقاد المصدر مغروما 3 عن الفعل في نحو هذا – قولهم : لا تشتمه فيشتمك 4 ، أي : لا يكن منك شم له ، ولا منه أن يشتمك . فكما ساغ هناك تقدير المصدر ، فكذلك ساغ هنا تقديره أيضا .

ومما وقع في الفعل موقع المصدر ما أنشده أبو زيد من قوله :

فقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الإصباح آثر ذي أثير 5 [162و]

أراد اللهو موضع ألهو وهذا واضح .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد وطلحة بن سليمان : "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ 6" ، بإسكان العين . وقرأ أنس بن مالك : "تِسْعَةَ أَعَشُرَ" .

---

1 سورة الزخرف : 80 .

2 انظر الصفحة 109 من الجزء الأول .

3 مغروما : مؤدي ، ومأخوذا ، من قولهم : غرم الدية ، وفي ك : معدوما ، وهو تحريف .

4 لا يخفى أن الأسلوب في العبارة غير الأسلوب في الآية ، فكأنه يريد مجرد المشابهة بينهما في توهم المصدر في الفعل الأول ، وإن كان لتوهمه في المثالا ما يقتضيه . وأظهر من هذا أن يكون التأويل : لأن تسكثر ، أي لا تمنن من أجل الاستكثار ولطلبه ، ثم حذفت اللام ،

وأضمرت أن كما حذفت عن وأضمرت أن في قول طرفة :

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

وانظر الكشاف .

5 انظر الصفحة 32 من الجزء الأول .

6 سورة المدثر : 30 .

(58/790)

روى عنه : "تِسْعَةَ وعَشَرَ" ، برفع الهاء ، وبعدها واو مفتوحة ، وعين مجزومة .

وروى عنه : "تِسْعَةَ عَشَرَ" .

وروى عنه : "تِسْعَةَ عَشَرَ" .

وروى عن ابن عباس : "تِسْعَةَ عَشَرَ" ، برفع تسعة .

قال أبو الفتح : أما "تِسْعَةَ عَشَرَ" ، بفتح هاء تسعة ، وسكون عين عشر - فلأجل كثرة الحركات ، وأن الاسمين جعلا كاسم واحد ، فلم يوقف على الأول منهما فيحتاج - إلى الابتداء بالثاني . فلما أمن ذلك أسكن تخفيفا أوله وجعل ذلك أمارة لقوة اتصال أحد الاسمين بصاحبه .

قال أبو الحسن : ولا يجوز ذلك مع اثنا عشر ولا اثنى عشر ؛ لسكون الاول من الحرفين ، أعني الألف والياء ، فيلتقي ساكنان في الوصل ، ليس أولهما حرف لين والثاني مدغما . وعلى أنه قد روى ابن جماز عن أبي جعفر : اثنا عشر ، بسكون العين ، وفيه ما ذكرناه . وقال أبو حاتم في تسعة أعشر : لا وجه له نعرفه ، إلا أن يعني تسعة أعشر جمع العشر أو شيئا غير الذي وقع في قلوبنا .

وأما "تِسْعَةَ وعَشَرَ" فطريقه أنه فك التركيب وعطف على تسعة عشر على أصل ما كان عليه الاسمان قبل التركيب من العطف . ألا ترى أن أصله تسعة وعشرة ؟ كقولك : تسعة وعشرون ، إلا أنه حذف التنوين من تسعة لكثرة استعماله ، كما حكى أبو الحسن عنهم من قولهم ، سلاما عليكم ، بحذف تنوين "سلام" ، قال : وذلك كثرة استعمالهم إياه .

وأما "تِسْعَةَ وعَشَرَ" فطريقه أنه أراد تسعة أعشر ، بهمزة كما ترى ، كالرواية الأخرى "تِسْعَةَ أَعَشَرَ" ، فخفف الهمزة ، بأن قلبها واو خالصة في اللفظ ؛ لأنها مفتوحة وقبلها ضمة ،

---

1 ضبط "عشر" في نسختي الأصل بفتح الشين ، وهي بهذا تطابق الوجه الثاني المروي عن أنس ولم نعثر على ضبط لها ، لهذا ضبطناها بالضم ، وأنسنا في هذا بقوله : فطريقه أنه أراد تسعة أعشر كالرواية الأخرى ، وأعشر في هذه الرواية بضم الشين ، لأن أبا حاتم قدر أنها قد تكون جمع العشر .

فجرت مجرى تخفيف جون ، إذا قلت : جون1 . وعلى أن هذه الهمزة ههنا – منكرة غير معرفة عند أصحابنا ، ولذلك قال سيبويه في هذا هي : أحد عشر بلا ألف كقولك أحد حمل تحايدا عن هذه الهمزة واستنكارا لها ، والعامة مع ذلك مولعة بها2 .

ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير : "صُحُفًا مُنَشَّرَة3" ، بسكون الحاء والنون .

قال أبو الفتح : أما سكون الحاء فلغة تميمية ، وأما "منشرة" ، بسكون النون فإن جاري العرف في الاستعمال نشرت الثوب ونحوه ، ونشر الله الموتى فنشروا هم . وقد جاء عنهم أيضا :

نشر الله الميت ، قال التيمي :

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشورا4

ولم نعلمهم قالوا : أنشرت الثوب ونحوه ، إلا أنه قد يجوز أن يشبه شيء بشيء ، فكما جاز أن يشبه الميت بالشيء المطوي ، حتى قال التيمي : "منشور" فكذلك يجوز أن يشبه المطوي بالميت ، فيقال : صف منشرة ، [162ظ] أي : كأنها كانت بطيها ميتة ، فلما نشرت حيت بذلك ، فقيل منشرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 336.

1 الجون : جمع الجونة ، وهي سليلة مغشاة أو ما تكون مع العطارين .

2 سكت عن تخريج قراءة ابن عباس ، لأنه يمكن فهمه من تخريج القراءة الثانية المروية عن أنس .

3 سورة المدثر : 52 .

4 قال المبرد في الكامل "2 : 251" : وقال رجل من خزاعة ، وينحله كثير يرثى عمر بن عبد العزيز بن مروان ، قال أبو الحسن : الذي صح عندنا أن الشعر لقطرب النحوي ، ثم روى المبرد خمسة أبيات ثالثها بيت الشاهد ، وروايته هناك مطابقة لروايته هنا .

(60/790)

وقال العلامة الدمياطى :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية وآيها خمسون وخمس مكي ودمشقي ومدني أخير وست في الباقي خلافها ثنتان يتساؤلون تركها مدني أخير عن المجرمين تركها مكي ودمشقي ونافع مشبه الفاصلة اثنان والمؤمنون بهذا مثلا

القراآت واختلف في (والرجز) الآية 5 فحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الراء لغة الحجاز وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بكسرها لغة تميم وعن الحسن (تستكثر) الآية 6 بالجزم بدلا من الفعل قبله والجمهور بالرفع على أنه في موضع الحال أي لا تمنن مستكثرا ما أعطيت أو على حذف أن على أن الأصل أن تستكثر فلما حذفت أن ارتفع وأمال أدريك أبو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق ومر تفصيلها قريبا أول الحاقة

وقرأ ( ) تسعة عشر (الآية 30 بسكون العين أبو جعفر تخفيفا ومر في براءة

واختلف في ( ) والليل إذ أدبر (الآية 33 فنافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف بإسكان الذال ظرفا لما مضى من الزمان أدبر بهمزة مفتوحة ودال ساكنة على وزن أكرم وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بفتح الدال ظرفا لما يستقبل وبفتح دال (دبر) على وزن ضرب لغتان بمعنى يقال دبر الليل وأدبر وقيل أدبر تولى ودبر أنقضى والرسم يحتملهما وأمال أتانا و أن يؤتى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه

واختلف في (مستنفرة) الآية 50 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الفاء اسم مفعول أي ينفرها القناص والباقون بكسرها بمعنى نافرة قال الزمخشري كأنها تطلب النفار في نفوسها في جمعها له وحملها عليه انتهى فأبقى السين على بابها قال السمين وهو معنى حسن

واختلف في ( ) وما يذكرون ( ) الآية 56 فنافع بالخطاب والباقون بالغيب . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(61/790)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

" المدثر " تستكثر . نقر . عسير . غير . ومن خلقت . سحر . يؤثر . سأصليه .

والكافرون نذيرا . التذكرة . تذكرة . المغفرة . كله واضح .

" والرجز " قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء وغيرهم بكسرها .

" تسعة عشر " قرأ أبو جعفر بإسكان عين عشر وغيره بفتحها .

" إذا أدبر " قرأ نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف بإسكان الذال في إذ وأدبر بهمزة مفتوحة وإسكان الدال بعدها وورش على أصله من نقل حركة الهمزة إلى الذال وحذف الهمزة ، والباقون بفتح ذال إذ وألف بعدها ، ودبر بحذف الهمزة قبلها وفتح الدال .

" مستنفرة " فتح الفاء المدنيان والشامي وكسرها غيرهم .

" وما يذكرون " قرأ نافع بتاء الخطاب وغيره بياء الغيبة .

" المغفرة " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

أدنى وأتانا ويؤتى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . مرضى . لإحدى لدى الوقف عليه ، والتقوى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، ذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش الكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش . النار لهؤلاء ما عدا رويسا ، أدراك بالإمالة لشعبة والبصري والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه والوجه الثاني له الفتح وبالتقليل لورش شاء معا لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الكبير " عند الله هو ، سقر لا تبقي ، تذر لواحة ، إلا هو وما ، للبشر لمن ، سلككم ، نكذب بيوم ، أن يشاء الله هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 339 ﴾

(62/790)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سُورَةَ المدثر صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى ﴿ والرجز فاهجر ﴾ يقرا بكسر الراء وضمها فمن كسر أراد الشرك ومن ضم أراد إسم الصنمين إساف ونائلة وقيل الرجز بالكسر العذاب لأنه عن الشرك يكون وقيل أصل الزاي في الرجز السين كما تقول العرب الأزد والأسد فأما الرجس فما يعاف من المطعم والمشرب والمعبودات من دون الله عز وجل

قوله تعالى ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ يقرأ بإسكان الذال وقطع الألف بعدها وبفتح الذال والوقوف على الألف بعدها وحذف الهمزة من ﴿ أدبر ﴾ فالحجة لمن قرأه بقطع الألف أنه زاوج بذلك بين لفظ ادبر وأسفر والحجة لمن حذف الهمزة أنه أراد به معنى ولى وذهب والعرب تقول أدبر عني أي ولى ودبر جاء خلفي وقيل هما لغتان بمعنى واحد أدبر ودبر وأقبل وقبل

قوله تعالى ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ يقرأ بكسر الفاء وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل الفعل لها وأنشد

اربط حمارك إنه مستنفر

في إثر أحمرة عمدن لغرب

فلا يجوز فتح الفاء ها هنا لأن الفعل له ولم يفعل ذلك أحد به والحجة لمن فتح أنه جعلهن مفعولا بهن لم يسم فاعلهن

وسمع أعرابي قارئا يقرأ ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ بفتح الفاء فقال طلبها قسورة فلما سمع ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال مستنفرة إذا فالقسمورة الرماة والقسورة الأسد فأما قول

أمرىء القيس

وعمرو بن درماء الهمام إذ مشى

بذي شطب عضب كمشية قسورا

فإنه أراد قسورة ثم رخم الهاء وأتى بألف القافية

قوله تعالى ﴿ كلا بل لا يخافون ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على قوله بل يريد كل امرىء منهم والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعلهم مخاطبين فدل عليهم بالتاء

قوله تعالى ﴿ وما يذكرون ﴾ يقرأ بالياء إجماعا إلا ما تفرد به نافع من التاء على معنى الخطاب فأما تخفيفه فإجماع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 355 356. ﴾

(63/790)

وقال ابن زنجلة :

74 - سورة المدثر

والرجز فاهجر 5

قرأ حفص والرجز فاهجر بضم الراء يعني الصنم كذا قال الحسن البصري

وقرأ الباقون والرجز بالكسر يعي العذاب وحجتهم قوله لئن كشفت عنا الرجز يعني العذاب

ومعنى الكلام اهجر ما يؤديك إلى عذاب قال الزجاج هما لغتان ومعناهما واحد والليل إذ أدبر والصبح إذ أسفر 33 , 32

قرأ نافع وحمزة وحفص والليل إذ بغير ألف أدبر بالألف وحجتهم قول الرسول صلى الله عليه و سلم إذا أقبل الليل من ها هنا وادبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم

وقرأ الباقون إذا بالألف دبر بغير ألف وهما لغتان يقال دبر الليل وأدبر وكذلك قبل الليل وأقبل وقال يونس

دبر انقضى وأدبر ولى قال أبو عبيد الاختيار إذا بالألف دبر بغير ألف لموافقة الحرف الذي يليه ألا ترى قال والصبح إذا أسفر فكيف يكون في أحدهما إذا وفي الآخر إذ قال فلهذا اخترنا أن نجعلهما جميعا إذ على لفظ اواحد كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة 50و51

قرأ نافع وابن عامر كأنهم حمر مستنفرة بفتح الفاء مفعولة أي مذعورة قال أهل العاني الفتح هو المختار بمعنى فعل ذلك بها لأن أكثر ما تكلمت به العرب إذا جعلوا الفعل للحمر أن

يقولوا نفرت ولا يكادون يقولون استنفرت إذا كانت هي الفاعلة ويقولون استنفرت إذا فعل ذلك بها فهي مستنفرة فكأن القسورة استنفرتها أو الرامي

وقرأ الباقون مستنفرة بالكسر جعلوها فاعلة وحجتهم أن العرب تقول نفرت الحمر واستنفرت جميعا بمعنى واحد قال الشاعر . . . أمسك حمارك إنه مستنفر . . . في إثر أحمرة عمدن لغرب . . .

والكسر أولى ألا ترى أنه قال فرت من قسورة فهذا يدل على أنها هي استنفرت

وما يذكرون إلا أن يشاء الله 56

قرأ نافع وما تذكرون بالتاء على الخطاب وقرأ الباقون بالياء ردا على ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 733.735 ﴾

(64/790)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة المدثر 74

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدنيين والمكي ولا نظير لها في الكوفي والبصري

وكلمها مئتان وخمس وخمسون كلمة

وحروفها ألف وعشرة أحرف

وهي خمسون وخمس آيات في المدني الأخير والمكي والشامي وست في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ في جنات يتساءلون ﴾) لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون (﴿ عن المجرمين ﴾) لم يعدها المكي والشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضعان (﴿ والمؤمنون ﴾ بهذا مثلا) ورؤوس الآي

المدثر

1 فأنذر

2 فكبر

3 فطهر

4 فاهجر

5 تستكثر

6 فاصبر

7 الناقور

8 عسير

9 يسير

10 وحيدا

11 ممدودا

12 شهودا

13 تمهيدا

14 أزيد

15 عنيدا

16 صعودا

17 وقدر

18 قدر

19 قدر

20 نظر

21 وبسر

22 واستكبر

23 يؤثر

24 البشر

25 سقر

26 ما سقر

27 تذر

28 للبشر

29 عشر

30 للبشر

31 والقمر

32 أدبر

33 أسفر

34 الكبر 35 للبشر

36 يتأخر

37 رهينة

38 اليمين

39 المجرمين

41 سقر

42 المصلين

43 المسكين

44 الخائضين

45 الدين

46 اليقين

47 الشافعين

48 معرضين

49 مستنفرة

50 قسورة

51 منشرة

52 الآخرة

53 تذكرة

54 ذكره

55 المغفرة

56 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 258﴾

(65/790)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(المدثر) كالمزمل ، وقد ذكر .

قوله تعالى (تستكثر) بالرفع على أنه حال ، وبالجزم على أنه جواب أو بدل ، وبالنصب على تقدير لتستكثر ، والتقدير في جعله جوابا : إنك أن لا تمنن بعملك أو بعطيتك تزدد من الثواب لسلامة ذلك عن الإبطال بالمن على ما قال تعالى " لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " .

قوله تعالى (فإذا نقر) " إذا " ظرف ، وفي العامل فيه ثلاثة أوجه: أحدها هو ما دل عليه (فذلك) لأنه إشارة إلى النقر ، و (يومئذ) بدل من إذا ، وذلك مبتدأ ، والخبر (يوم عسير) أي نقر يوم .

الثاني العامل فيه ما دل عليه عسير: أي تعسير ، ولا يعمل فيه نفس عسير لأن الصفة لا تعمل فيما قبلها .

والثالث يخرج على قول الأخفش ، وهو أن يكون " إذا " مبتدأ ، والخبر فذلك ، والفاء زائدة ،

فأما يومئذ فظرف لذلك ، وقيل هو في موضع رفع بدل من ذلك ، أو مبتدأ ، ويوم عسير خبره ، والجملة خبر ذلك ، و (على) يتعلق بعسير أو هي نعت له ، أو حال من الضمير الذى فيه ، أو متعلق ب (يسير) أو لما دل عليه .

قوله تعالى (ومن خلقت) هو مفعول معه أو معطوف ، و (وحيدا) حال من التاء في خلقت ، أو من الهاء المحذوفة ، أو من " من " أو من الياء في ذرنى .

قوله تعالى (لا تبقى) يجوز أن يكون حالا من سقر ، والعامل فيها معنى التعظيم ، وأن يكون مستأنفا : أي هي لا تبقى ، و (لواحة) بالرفع: أي هي لواحة ، وبالنصب مثل لا تبقى ، أو حال من الضمير في أي الفعلين شئت .

قوله تعالى (جنود ربك) هو مفعول يلزم تقديمه ليعود الضمير إلى مذكور ، و (أدبر) ودبر لغتان ، ويقرأ إذ وإذا .

قوله تعالى (نذيرا) في نصبه أوجه: أحدها هو حال من الفاعل في قم في أول السورة .

والثانى من الضمير في فأنذر حال مؤكدة .

والثالث هو حال من الضمير في إحدى .

والرابع هو حال من نفس إحدى .

والخامس حال من الكبر أو من الضمير فيها .

والسادس حال من اسم إن .

والسابع أن نذيرا في معنى إنذار: أي فأنذر إنذارا أو إنها لإحدى الكبر لانذار البشر ، وفي هذه الأقوال مالا نرتضيه ولكن حكيناها ،

والمختار أن يكون حالا مما دلت عليه الجملة تقديره: عظمت عليه نذيرا .

قوله تعالى (لمن شاء) هو بدل بإعادة الجار .

قوله تعالى (في جنات) يجوز أن يكون حالا من أصحاب اليمين ، وأن يكون حالا من الضمير في يتساءلون .

قوله تعالى (لم نك من المصلين) هذه الجملة سدت مسد الفاعل ، وهو جواب ما سلككم ، و (معرضين) حال من الضمير في الجار ، و (كأنهم) حال هي بدل من معرضين أو من الضمير فيه ، و (مستنفرة) بالكسر نافرة ، وبالفتح منفرة (فرت) حال ، وقد معها مقدرة أو خبر آخر ، و (منشرة) بالتشديد على التكثير ، وبالتخفيف وسكون النون من أنشرت ، إما بمعنى أمر بنشرها ومكن منه مثل ألحمتك عرض فلان ، أو بمعنى منشورة مثل أحمدت الرجل: أو بمعنى أنشر الله الميت: أي أحياه ، فكأنه أحيا ما فيها بذكره ، والهاء في إنه للقرآن أو للوعيد .

قوله تعالى (إلا أن يشاء الله) أي إلا وقت مشيئة الله عزوجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(67/790)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المدّثر

[سورة المدثر (74) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

"يا أَيُّهَا" حرف نداء ومنادى مبني على الضم في محل نصب وها حرف تنبيه و"الْمُدَّثِّرُ" بدل من أي والجملة ابتدائية لا محل لها "قُمْ" أمر فاعله مستتر "فَأَنْذِرْ" أمر معطوف على قم وجملة قم ابتدائية أيضا لا محل لها . "وَرَبَّكَ" مفعول به مقدم "فَكَبِّرْ" الفاء واقعة في جواب شرط محذوف وأمر فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها . "وَثِيابَكَ" الواو حرف عطف ومفعول به مقدم "فَطَهِّرْ" كإعراب فكبر "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ" معطوف على ما

قبله. "وَلا تَمْنُنْ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والجملة معطوفة على ما قبلها "تَسْتَكْثِرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال.

"وَلِرَبِّكَ" متعلقان بما بعدهما "فَاصْبِرْ" سبق إعراب مثيلها.

[سورة المدثر (74) : الآيات 8 الى 10]

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "نُقِرَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر و"فِي النَّاقُورِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة، "فَذلِكَ" الفاء رابطة واسم الإشارة مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" بدل من اسم الإشارة و"يَوْمٌ" خبر المبتدأ و"عَسِيرٌ" صفة والجملة جواب شرط لا محل لها و"عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بعسير و"غَيْرُ" صفة ثانية ليوم و"يَسِيرٍ" مضاف إليه.

[سورة المدثر (74) : الآيات 11 الى 12]

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12)

"ذَرْنِي" أمر فاعله مستتر والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها .

"وَمَنْ" معطوف على ياء المتكلم و"خَلَقْتُ" ماض وفاعله "وَحِيداً" حال والجملة صلة لا محل لها "وَجَعَلْتُ" ماض وفاعله و"لَهُ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول الثاني و"مالًا" مفعوله الأول "مَمْدُوداً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 13 الى 15]

وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15)

"وَبَنِينَ" معطوف على مالا و"شُهُوداً" صفة. "وَمَهَّدْتُ" ماض وفاعله و"لَهُ" متعلقان بالفعل و"تَمْهِيداً" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها . "ثُمَّ" حرف عطف و"يَطْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ أَزِيدَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع الخافض .

[سورة المدثر (74) : الآيات 16 الى 17]

كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17)

"كَلَّا إِنَّهُ" حرف ردع وزجر وإن واسمها و"كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر و"لِآياتِنا" متعلقان بما بعدهما و"عَنِيداً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "سَأُرْهِقُهُ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به أول و"صَعُوداً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 18 الى 23]

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)

ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)

(69/790)

"إِنَّهُ فَكَّرَ" إن واسمها وماض فاعله مستتر والجملة خبر إنه والجملة الاسمية تعليل "وَقَدَّرَ" معطوف على فكر و"فَقُتِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر و"كَيْفَ" اسم استفهام حال والجملة معطوفة على ما قبلها و"قَدَّرَ" ماض فاعله مستتر والآيات التي تليها معطوفة عليها إلى الآية 23 .

[سورة المدثر (74) : الآيات 24 الى 25]

فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

"فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها و"إِنْ هذا" إن نافية واسم الإشارة مبتدأ و"إِلَّا" حرف حصر و"سِحْرٌ" خبر والجملة مقول القول و"يُؤْثَرُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة سحر و"إِنْ" نافية

و"هذا" اسم الإشارة مبتدأ و"إِلَّا" حرف حصر و"قَوْلُ الْبَشَرِ" خبر مضاف إلى البشر والجملة تأكيد لسابقتها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 26 الى 30]

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

"سَأُصْلِيهِ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر و"سَقَرَ" مفعول به ثان والجملة بدل من سأرهقه "وَ" الواو حرف استئناف و"ما" اسم استفهام مبتدأ و"أَدْراكَ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "ما سَقَرُ" مبتدأ وخبره والجملة سدت مسد مفعول أدراك الثاني و"لا" نافية و"تُبْقِي" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية و"لا تَذَرُ" معطوف على ما قبله و"لَوَّاحَةٌ" خبر لمبتدأ محذوف و"لِلْبَشَرِ" متعلقان بما قبلهما والجملة حال ثانية و"عَلَيْها" خبر مقدم و"تِسْعَةَ" جزء من عدد مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر و"عَشَرَ" جزء من عدد مبني على الفتح لا محل لها من الإعراب . والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المدثر (74) : آية 31]

وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (31)

(71/790)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية و"جَعَلْنا" ماض وفاعله و"أَصْحابَ" مفعول به أول مضاف إلى "النَّارِ" و"إِلَّا" حرف حصر و"مَلائِكَةً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَما جَعَلْنا" معطوف على ما قبله و"عِدَّتَهُمْ" مفعول به أول و"إِلَّا" حرف حصر و"فِتْنَةً" مفعول به ثان على حذف مضاف تقديره سبب فتنة و"لِلَّذِينَ" متعلقان بما قبلهما و"كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، و"لِيَسْتَيْقِنَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بجعلنا الثانية و"الَّذِينَ" فاعل و"أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل و"الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة صلة "وَيَزْدادَ" معطوف على ليستيقن و"الَّذِينَ" فاعل و"آمَنُوا" ماض وفاعله

والجملة صلة الذين و"إِيماناً" مفعول به . "وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ" الواو حرف عطف و"لا" نافية ومضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها و"أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل و"الْكِتابَ" مفعول به ثان "وَالْمُؤْمِنُونَ" معطوف على الذين والجملة صلة . "وَلِيَقُولَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور معطوفان على ليستيقن . . و"الَّذِينَ" فاعل و"فِي قُلُوبِهِمْ" خبر مقدم و"مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة الذين "وَالْكافِرُونَ" معطوف على الذين و"ما ذا" اسم استفهام مفعول به مقدم و"أَرادَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة مقول القول و"بِهذا" متعلقان بالفعل و"مَثَلًا" : حال .

(72/790)

و "كَذلِكَ" صفة مفعول مطلق محذوف و"يُضِلُّ اللَّهُ" مضارع وفاعله و"مَنْ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها و"يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" معطوف على ما قبله "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية و"يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ" مضارع ومفعوله المضاف إلى ربك و"إِلَّا" حرف حصر و"هُوَ" فاعل يعلم والجملة مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف استئناف "وَما" الواو استئنافية وما نافية و"هِيَ" مبتدأ و"إِلَّا" حرف

حصر و"ذِكْرى لِلْبَشَرِ" خبر تعلق به الجار والمجرور بعده ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 الى 37]

كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "وَالْقَمَرِ" الواو حرف قسم وجر وجار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "وَاللَّيْلِ" معطوف على ما قبله و"إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن و"أَدْبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَالصُّبْحِ" معطوف على ما قبله و"إِذا" ظرف زمان و"أَسْفَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة و"إِنَّها لَإِحْدَى" إنّ واسمها واللام المزحلقة و"إحدى الْكُبَرِ" خبر إن المضاف إلى الكبر والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها . و"نَذِيراً" تمييز و"لِلْبَشَرِ" متعلقان بنذيرا و"لِمَنْ" جار ومجرور بدل من قوله للبشر و"شاءَ" ماض فاعله مستتر و"مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة صلة و"أَنْ يَتَقَدَّمَ" مضارع

منصوب بأن والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول به "أَوْ" حرف عطف و"يَتَأَخَّرَ" معطوف على يتقدم .

[سورة المدثر (74) : الآيات 38 الى 42]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40)
عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

"كُلُّ نَفْسٍ" مبتدأ مضاف إلى نفس و"بِما" متعلقان بكسبت و"كَسَبَتْ" ماض فاعله مستتر و"رَهِينَةٌ" خبر المبتدأ والجملة الفعلية صلة ما والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . و"إِلَّا" أداة استثناء و"أَصْحابَ الْيَمِينِ" مستثنى بإلا مضاف إلى اليمين و"فِي جَنَّاتٍ" متعلقان بمحذوف حال و"يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"عَنِ الْمُجْرِمِينَ" متعلقان بما قبلهما و"ما" اسم استفهام مبتدأ و"سَلَكَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ و"فِي سَقَرَ" متعلقان بالفعل والجملة الاسمية مقول لقول محذوف .

[سورة المدثر (74) : الآيات 43 الى 47]

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ
(45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"لَمْ نَكُ" مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف واسمه مستتر و"مِنَ الْمُصَلِّينَ" خبر نك والجملة الفعلية مقول القول "وَلَمْ نَكُ" معطوف على سابقه و"نُطْعِمُ" مضارع فاعله مستتر و"الْمِسْكِينَ" مفعول به وجملة نطعم . . خبر نك "وَكُنَّا" ماض ناقص ونا اسمه و"نَخُوضُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كنا وجملة كنا . . معطوفة على ما قبلها و"مَعَ" ظرف مكان مضاف إلى "الْخائِضِينَ" "وَكُنَّا" معطوف على سابقه و"نُكَذِّبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كنا و"بِيَوْمِ" متعلقان بالفعل "الدِّينِ" مضاف إليه و"حَتَّى" حرف غاية وجر و"أَتانَا" ماض ومفعوله و"الْيَقِينُ" فاعله والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بنكذب .

[سورة المدثر (74) : الآيات 48 الى 51]

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

"فَما" الفاء حرف استئناف و"ما" نافية و"تَنْفَعُهُمْ" مضارع ومفعوله و"شَفاعَةُ" فاعل مضاف إلى "الشَّافِعِينَ" والجملة مستأنفة لا محل لها "فَما" اسم استفهام مبتدأ و"لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها و"عَنِ التَّذْكِرَةِ" متعلقان

بالحال "مُعْرِضِينَ" حال و"كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ" كأن واسمها وخبرها "مُسْتَنْفِرَةٌ" صفة والجملة حال "فَرَّتْ" ماض فاعله مستتر و"مِنْ قَسْوَرَةٍ" متعلقان بالفعل والجملة صفة ثانية لحمر .

[سورة المدثر (74) : الآيات 52 الى 53]

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53)

(75/790)

"بَلْ" حرف إضراب و"يُرِيدُ كُلُّ" مضارع وفاعله المضاف إلى "امْرِئٍ" و"مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة امرئ والجملة مستأنفة لا محل لها و"أَنْ يُؤْتى" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن ونائب الفاعل مستتر و"صُحُفاً" مفعول به ثان و"مُنَشَّرَةً" صفة صحفا والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول به و"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"بَلْ" حرف إضراب و"لا" نافية و"يَخافُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"الْآخِرَةَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 54 الى 56]

كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

"كَلَّا" توكيد لما قبلها و"إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ" واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لا محل لها و"فَمَنْ" الفاء حرف عطف و"من" اسم شرط جازم مبتدأ و"شاءَ" ماض فاعله مستتر وهو فعل الشرط و"ذَكَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَما" نافية و"يَذْكُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"إِلَّا" حرف استثناء و"أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب على الاستثناء و"هُوَ أَهْلُ" مبتدأ وخبره المضاف إلى "التَّقْوى" والجملة الاسمية تعليل لا محل لها و"أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ" معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 398.402﴾

(76/790)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة المدثر صلى الله عليه وسلم

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1428 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْصَار شعار وَالنَّاس دثار

قلت تقدم فِي الْأَرْبَعين من سُورَة آل عمرَان

1429 - الحَدِيث الثَّانِي

رَوَى جَابر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كنت عَلَى جبل حراء فنوديت يَا مُحَمَّد إِنَّك رَسُول الله فَنَظَرت عَن يَمِينِي ويساري فَلم أر شَيْئًا فَنَظَرت فَوقِي فَرَأَيْت شَيْئًا وَفِي رِوَايَة عَائِشَة فَنَظَرت فَوقِي فَإِذا بِهِ قَاعِدا عَلَى عرش بَين السَّمَاء وَالْأَرْض يَعْنِي الْملك الَّذِي ناداه فَرُعِبْت وَرجعت إِلَى خَدِيجَة فَقلت دَثرُونِي دَثرُونِي فَنزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَقَالَ يَا أَيهَا المدثر . . .

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه من حَدِيث أبي سَلمَة عَن جَابر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ جَاوَرت بحراء فَلَمَّا قضيت بِجوَارِي هَبَطت فنوديت فَنَظَرت عَن يَمِينِي فَلم أر شَيْئًا وَنظرت عَن شمَالي فَلم أر شَيْئًا وَنظرت أَمَامِي فَلم أر شَيْئًا وَنظرت خَلْفِي فَلم أر شَيْئًا فَرفعت رَأْسِي فَرَأَيْت شَيْئًا فَأتيت خَدِيجَة فَقلت دَثرُونِي وَصبُّوا عَلَي مَاء بَارِدًا فَنزلت انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي بَدْء الْخلق وَزَاد قَالَ أَبُو سَلمَة وَالرجز الْأَوْثَان انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي أول صَحِيحه بالسند الْمَذْكُور قَالَ بَيْنَمَا أَنا أَمْشِي إِذْ سَمِعت صَوتا من السَّمَاء

فَرفعت بَصرِي فَإِذا الْملك الَّذِي جَاءَنِي بحراء جَالس عَلَى كرْسِي بَين السَّمَاء وَالْأَرْض فَرُعِبْت مِنْهُ فَرَجَعت فَقلت دَثرُونِي فَأَنْزل الله يأيها المدثر مُخْتَصر

1430 - الحَدِيث الثَّالِث

(77/790)

عَن الزُّهْرِيّ أول مَا نزلت سُورَة اقْرَأ باسم رَبك إِلَى قَوْله مَا لم يعلم قَالَ فَحزن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَجعل يَعْلُو شَوَاهِق الْجبَال فناداه جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام إِنَّك نَبِي الله فَرجع إِلَى خَدِيجَة وَقَالَ دَثرُونِي وَصبُّوا عَلَّي مَاء بَارِدًا فنزلت يأيها المدثر

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا ابْن ثَوْر عَن معمر عَن الزُّهْرِيّ قَالَ كَانَ أول شَيْء انْزِل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اقْرَأ باسم رَبك حَتَّى بلغ مَا لم يعلم ثمَّ فتر الْوَحْي فَتْرَة فَحزن لذَلِك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَجعل يَغْدُو إِلَى شَوَاهِق الْجبَال لِيَتَرَدَّى مِنْهَا فَكلما وافى بذرْوَة جبل تبدى لَهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَيَقُول لَهُ إِنَّك نَبِي الله قَالَ فَبَيْنَمَا أَنا أَمْشِي يَوْمًا إِذْ رَأَيت الْملك الَّذِي كَانَ يأتيني بحراء عَلَى كرْسِي بَين السَّمَاء وَالْأَرْض فَجَثَتْ مِنْهُ رعْبًا وَرجعت إِلَى خَدِيجَة وَقلت دَثرُونِي فَدَثَّرْنَاهُ وَأنزل الله يأيها المدثر انْتَهَى

وَفِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت إِن أول مَا نزل من الْقُرْآن اقْرَأ باسم رَبك الَّذِي خلق انْتَهَى

(78/790)

وَلَا يُعَارض ذَلِك مَا رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن قَالَ سَأَلت جَابر بن عبد الله الْأَنْصَارِيّ أَي الْقُرْآن انْزِل قبل قَالَ يَا أَيهَا المدثر فَقلت أَو اقْرَأ باسم رَبك قَالَ جَابر أحدثكم مَا حَدثنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِنِّي جَاورت بحراء شهرا فَلَمَّا قضيت جواري نزلت فَاسْتَبْطَنْت بطن الْوَادي فنوديت فَنَظَرت أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَن يَمِيني وَعَن شمَالي ثمَّ نظرت إِلَى السَّمَاء فَإِذا هُوَ عَلَى الْعَرْش فِي الْهَوَاء يَعْنِي جبْرِيل فَأَخَذَتْنِي رَجْفَة فَأَتيت خَدِيجَة فَأَمَرتهمْ فدثرُونِي ثمَّ صبوا عَلَي الماء وَأنزل الله عَلَي يأيها المدثر قُم فَأَنْذر انْتَهَى

(79/790)

قَالَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَذَلِكَ لَان جَابِرا سمع آخر الْقِصَّة وَلم يسمع أَولهَا فَتوهم أَن سُورَة المدثر أول مَا نزل وَلَيْسَ كَذَلِك وَلكنهَا أول مَا نزل عَلَيْهِ بعد سُورَة اقْرَأ يدل عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ أَخْبرنِي أَبُو سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن جَابر قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يحدث عَن فَتْرَة الْوَحْي فَقَالَ فِي حَدِيثه بَيْنَمَا أَنا أَمْشِي إِذْ سَمِعت صَوتا من السَّمَاء فَرفعت رَأْسِي فَإِذا الْملك الَّذِي جَاءَنِي بحراء جَالس عَلَى كرْسِي بَين السَّمَاء وَالْأَرْض فَجَثَتْ مِنْهُ رعْبًا فَرَجَعت فَقلت زملُونِي فدثرُونِي فَأنْزل الله تَعَالَى يأيها المدثر انْتَهَى قَالَ فَظهر بهَذَا أَن الْوَحْي كَانَ قد فتر بعد نزُول اقْرَأ باسم رَبك ثمَّ نزلت يأيها المدثر يُوضحهُ قَوْله فِيهِ إِن الْملك الَّذِي جَاءَ بحراء جَالس فَدل عَلَى أَن هَذِه الْقِصَّة كَانَت بعد نزُول سُورَة اقْرَأ انْتَهَى

1431 - قَوْله

فِي الحَدِيث المستغزر يُثَاب من هِبته

قلت تقدم فِي الرّوم رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة من قَول شُرَيْح

1432 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى سَأُرْهِقُهُ صعُودًا قَالَ يُكَلف أَن يصعد عقبَة فِي النَّار كلما وضع عَلَيْهَا يَده ذَابَتْ فَإِذا رَفعهَا عَادَتْ وَإِذا وضع رجله ذَابَتْ فَإِذا رَفعهَا عَادَتْ

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط من حَدِيث منْجَاب بن الْحَارث ثَنَا شريك عَن عمار الذَّهَبِيّ عَن عَطِيَّة عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى سَأُرْهِقُهُ صعُودًا قَالَ جبل من نَار يُقَال لَهُ صعُود يُكَلف أَن يَصْعَدهُ إِذا وضع يَده عَلَيْهِ ذَابَتْ . . . إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ والثعلبي ثمَّ الْبَغَوِيّ وَابْن مرْدَوَيْه والواحدي وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم ثمَّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ من حَدِيث سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن سُفْيَان ابْن عُيَيْنَة عَن عمار الذَّهَبِيّ بِهِ مَوْقُوفا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره وَابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد قَالَا أَنا ابْن عُيَيْنَة بِهِ مَوْقُوفا

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَزَّار مَوْقُوفا ثمَّ قَالَ وَلَا نعلم رَفعه عَن عمار إِلَّا شريك

وَكَذَلِكَ قَالَ الطَّبَرَانِيّ وَزَاد وَرَوَاهُ ابْن عُيَيْنَة عَن عمار فَوَقفهُ

1433 - الْحَدِيث الْخَامِس

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ الصعُود جبل من نَار يصعد فِيهِ سبعين خَرِيفًا ثمَّ يهوي

فِيهِ كَذَلِك أبدا

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي التَّفْسِير وَفِي صفة جَهَنَّم من طَرِيق ابْن لَهِيعَة عَن دراج عَن أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الصعُود جبل من نَار يتَصَعَّد فِيهِ سبعين خَرِيفًا ثمَّ يهوي بِهِ كَذَلِك أبدا انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب إِنَّمَا نعرفه مَرْفُوعا من حَدِيث ابْن لَهِيعَة وَقد رُوِيَ عَن عَطِيَّة عَن أبي سعيد مَوْقُوفا انْتَهَى

(81/790)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من طَرِيق عبد الله بن وهب عَن عَمْرو ابْن الْحَارِث عَن دراج بِهِ مَرْفُوعا وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث رشدين بن سعد عَن عَمْرو بن الْحَارِث بِهِ مَرْفُوعا

1434 - الْحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى عَلَيْهَا مَلَائِكَة غِلَاظ شَدَّاد قَالَ كَأَن أَعينهم الْبَرْق وَكَأَن أَفْوَاههم الصَّيَاصِي يجرون شُعُورهمْ لأَحَدهم مثل قُوَّة الثقلَيْن يَسُوق أحدهم

الْأمة وَعَلَى رقبته جبل فَيَرْمِي بهم فِي النَّار وَيَرْمِي بِالْجَبَلِ عَلَيْهِم

قلت غَرِيب

1435 - الْحَدِيث السَّابِع

رَوَى انس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى هُوَ أهل التَّقْوَى قَالَ هُوَ أهل أَن يتقى وَأهل أَن يغْفر لمن اتَّقَاهُ

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث سُهَيْل بن عبد الله الْقطعِي عَن ثَابت عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ فِي هَذِه الْآيَة قَالَ الله تَعَالَى أَنا أهل أَن أُتَّقَى فَمن اتَّقَانِي فَلم يَجْعَل معي إِلَهًا فَأَنَا أهل أَن أَغفر لَهُ انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب وَسُهَيْل لَيْسَ بِالْقَوِيّ وَقد تفرد بِهِ عَن ثَابت انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى وَرَوَاهُ احْمَد والدارمي وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَالْبَزَّار وَابْن أبي شيبَة فِي مسانيدهم

(82/790)

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي نَوَادِر الْأُصُول فِي الأَصْل السَّابِع وَالتسْعين بعد الْمِائَة بِلَفْظ السّنَن وَفِي لفظ قَالَ هُوَ أهل أَن يتقى فَمن أَتْقَى لَهو أهل أَن أَغفر لَهُ ثمَّ قَالَ وَالرِّوَايَتَانِ تَرْجِعَانِ إِلَى مَوضِع وَاحِد

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيقه الْبَغَوِيّ وَكَذَلِكَ الواحدي فِي تفاسيرهم

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل والعقيلي فِي ضعفَاهُ وَقَالا لَا يُتَابع عَلَيْهِ سُهَيْل وَلَا يعرف إِلَّا بِهِ وَمِقْدَار مَا يرويهِ إِفْرَادَاتٌ وَقَالَ الْبَزَّار أَحَادِيث سُهَيْل لَا نعلم رَوَاهَا عَن ثَابت غَيره انْتَهَى

وَقد رُوِيَ من غير حَدِيث أنس قَالَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن مهْرَان ثَنَا حَاجب بن أبي بكر الدِّمَشْقِي ثَنَا أَحْمد بن عبد الرَّحْمَن بن مفضل الْحَرَّانِي ثَنَا يَحْيَى بن سَاج الْحَرَّانِي ثَنَا سليم بن عبد الله الْأَحْمَر عَن عبد الله ابْن نيار قَالَ سَمِعت ثَلَاثَة نفر من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَبَا هُرَيْرَة وَابْن عمر وَابْن عَبَّاس يَقُولُونَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن قَوْله تَعَالَى هُوَ أهل التَّقْوَى وَأهل الْمَغْفِرَة قَالَ أَنا أهل أَن اتَّقَى فَلَا يَجْعَل معي شريك وَإِذا اتَّقَيْت وَلم يَجْعَل معي شريك فَأَنا أهل أَن أَغفر مَا سُوَى ذَلِك انْتَهَى

1436 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة المدثر أعطَاهُ الله عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق مُحَمَّدًا وَكذب بِهِ بِمَكَّة

(83/790)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد ابْن اسْلَمْ عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة المدثر . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان وَلَفظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس وَلَفظ الْمُصَنّف سَوَاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 117.123 ﴾

(84/790)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة المدثر :

قوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) ، الآية/ 4 .

يدل على وجوب تطهير الثياب من النجاسات للصلاة .

وقال عكرمة : أمره أن لا يلبس ثيابه على عذرة ، وذلك محتمل .

قوله تعالى : (وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) ، الآية/ 6 .

أي لا تمنن حسناتك عند اللّه تعالى مستكثرا ، فينقصك ذلك عند اللّه تعالى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 427. 428﴾

(85/790)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة المدّثّر» (74)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» (1) مجازها : المتدثّر النائم الذي يتدثر ثوبه . .

«لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» (6) رفع يقول : لا تمنن مستكثرا صفة ، ليس له ها هنا نهى . .

«عَسِيرٌ» (9) مثل عصيب وعصبصب . .

«مالًا مَمْدُوداً» (12) كثيرا . .

«لِآياتِنا عَنِيداً» (16) معاندا لآياتنا ، كالبعير العنود وقال الحادي «1» :

إذا نزلت فاجعلانى وسطا إنى كبير لا أطيق العنّدا

«2» [325] .

«عَبَسَ وَبَسَرَ» (22) كرّه وجهه وقال توبة :

وقد رابنى منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتى وبسورها

«3» [918] .

«لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ» (29) مغيّرة قال الحادي :

يا بنت عمّى لاحنى الهواجر

«4» [919] .

«وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ» (33) إذ أدبر «5» النهار فكان فى آخره ، يقال : دبرنى جاء

---

(1) . - 8 «الحادي» : وهو الحارثي عند القرطبي (19/ 71) ونص بأنه تسمية أبى عبيدة .

(2) . - 325 : وأيضا فى الطبري 29/ 84 والقرطبي 19/ 71 .

(3) . - 918 : «توبة» هو توبة بن الحمير ، والبيت : لعله من كلمة بعضها فى الشعراء ص 269 والأغانى 10/ 72 وهو فى الطبري 29/ 84 والقرطبي 19/ 74 .

(4) . - 919 : القرطبي 19/ 76 .

(5) . - 14 «والليل . . . ولى» : رواه الطبري (29/ 88) عن بعض البصريين .

(86/790)

خلفى وإذا أدبر إذا ولّى . قالت أم بنى زياد «1» الرّبيع وقيس وعمارة وأنس لقيس ابن زهير و[قد] أخذ بخطام جملها ليذهب بها : أين ضلّ حلمك يا قيس والله لئن دبرت بي هذه الأكمة «2» لا يكون بينك وبين بنى زياد صلح أبدا وحسبك من شرّ سماعه ، فردها إلى موضعها وعرف ما فيها . .

«حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ» (50) مذعورة ، مستنفرة نافرة «3» . .

«قَسْوَرَةٍ» (51) الأسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 275. 276 ﴾

---

(1) . - 1 «أم بنى زياد» : هى فاطمة بن الخرشب الأنمارية وزياد هو ابن عبد الله بن سفيان ابن ناشب ، وكان يقال لبنيها الأكمة (انظر الأغاني 1/ 19) وخبرها مع قيس بن زهير فى النقائض هكذا . . . أن الربيع ساوم قيس بن زهير بدرع كانت عنده فلما نظر إليها وهو راكب وضعها بين يديه ثم ركض بها فلم يردها على قيس فعرض قيس لفاطمة بنت الخرشب الأنمارية من بنى أنمار بن بغيض وهى إحدى منجبات قيس وهى أم الربيع

بن زياد العبسي وهى تسير فى ظعائن من بنى عبس فاقتاد جملها يريد أن يرتهنها بالدرع حتى ترد عليه فقالت له : ما رأيت كاليوم قط فعل رجل اين ضل حلمك أترجو أن تصطلع أنت وبنو زياد أبدا وقد أخذت أمهم وذهب بها يمينا وشمالا فقال الناس فى ذلك ما شاءوا أن يقولوا وحسبك من شر سماعه فأرسلتها مثلا فعرف قيس بن زهير ما قالت فخلى سبيلها و . . . (النقائض ص 90) والخبر فى الأغانى 16/ 21 و16/ 28 والمثل فى الفاخر ص 203 والميداني 1/ 131 والفرائد 1/ 160 .

(2) . - 3 «أكمة» : موضع يقال له أكمة العشرق وانظرها فى معجم البلدان 1/ 344 .

(3) . - 5 «حمر . . . نافرة» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 20) .

(87/790)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة المدثر

ست وخمسون آية

وهي مكية بلا خلاف .

[الآيات : الأولى والثانية والثالثة]

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) : أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك - كما يعتقده الكفار - ، وأعظم من أن تكون له صاحبة أو ولد .

قال ابن العربي «1» : المراد به تكبير التقديس والتنزيه لخلع الأضداد والأنداد والأصنام ، ولا يتّخذ وليا غيره ولا يعبد سواه ولا يرى لغيره فعلا إلّا له ولا نعمة إلا منه .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) : المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي ، أمره اللّه سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات وإزالة ما وقع فيها منها . وقيل : المراد بالثياب القلب .

وقال قتادة : النفس ، وقيل : الجسم ، وقيل : الأهل ، وقيل : الدين .

قال الحسن [والقرظي] «2» : الأخلاق ، لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتماله ثيابه على نفسه .

وقال مجاهد وابن زيد : أي عملك فأصلح .

---

(1) انظر : الأحكام له (4/ 339) ط. بيروت .

(2) حرّفت في «المطبوعة» إلى (القرطبي) وهو خطأ ، وما أثبت هو الصواب كما في «تفسير القرطبي» (19/ 64) .

(88/790)

وقال الزجاج : المعنى وثيابك فقصر لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجر على الأرض . وبه قال طاووس . والأول أولى لأنه المعنى الحقيقي ، وليس في استعمال الثياب مجازا عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس في مثل هذا الأصل أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف .

وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة .

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) : الرجز : معناه في اللغة العذاب ، وفيه لغتان كسر الراء وضمها ، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزا لأنهما سبب الرجز .

وقال مجاهد وعكرمة : الرجز الأوثان ، كما في قوله : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ [الحج : 30] ، وبه قال ابن زيد .

وقال إبراهيم النخعي : المأثم .

والهجر : الترك .

وقال قتادة: الرجز: إساف ونائلة، وهما صنمان كانا عند البيت.

وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرجز بالضم الوثن، وبالكسر العذاب.

وقال السدي: الرجز بالضم الوعيد. والأول أولى «1». انتهى انتهى. اهـ ﴿نيل المرام صـ465. 466﴾

---

(1) انظر في تفسير الآيات: الفرّاء (3/ 200) والطبري (29/ 92)، زاد المسير (8/ 400)، القرطبي (19/ 62، 64)، والطبري (29/ 90).

(89/790)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «المدثر» عليه السلام

[سورة المدثر (74): آية 4]

وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

قوله سبحانه: وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ [4] وهذه استعارة على بعض التأويلات، وهو أن تكون الثياب ها هنا كناية عن النفس أو عن الأفعال والأعمال الراجعة إلى النفس.

قال الشاعر «1» :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخى ثقة إزارى

قيل : أراد فدى لك نفسى . وكذلك قول الفرزدق :

سكّنت جروتها «2» وقلت لها اصبري وشددت فى ضيق المقام إزارى

---

(1) هو بقيلة الأكبر الأشجعى ، وكنيته أبو المنهال . شاعر إسلامى . وله خبر مع عمر بن الخطاب بشأن رجل كان واليا على مدينتهم اسمه جعدة بن عبد اللّه ، وكان له شأن غير مرضى مع النساء . فأرسل الشاعر بقيلة أبياتا إلى عمر يستعديه على هذا الوالي . والقصة كاملة فى «لسان العرب» . وذكر ابن مطرف الكناني فى «القرطين» الأبيات فى ص 80 ج 2 ولم ينسبها لقائلها واكتفى بقوله : روى فى بعض الحديث أن رجلا كتب إلى عمر بن الخطاب . وفى مادة أزد فى «لسان العرب» أن اسمه نفيلة ، والتصويب عن «المؤتلف والمختلف» ص 62 حيث ورد فى باب الباء لا النون .

(2) فى ديوان الفرزدق ص 322 .

فضربت جروتها وقلت لها اصبري وشددت فى ضيق المقام إزارى وضرب الجروة : كناية عن العزم والتصميم على الأمر .

أي شددت نفسى ، وذمرت قلبى . والإزار والثياب يتقارب معناهما . وعلى هذا فسّروا قول امرئ القيس :

فسلىّ ثيابى من ثيابك تنسل «1»

أي نفسى من نفسك ، أو قلبى من قلبك .

ويقولون : فلان طاهر الثياب ، أي طاهر النفس ، أو طاهر الأفعال . فكأنه سبحانه قال : ونفسك فطهّر ، أو أفعالك فطهّر .

وقد يجوز أن يكون للثياب هاهنا معنى آخر ، وهو أن اللّه سبحانه سمّى الأزواج لباسا فقال تعالى : هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ «2» واللباس والثياب بمعنى واحد .

فكأنه سبحانه أمره أن يستطهر النساء . أي يختارهن طاهرات من دنس الكفر ، ودرن العيب ، لأنهن مظانّ الاستيلاد ، ومضامّ الأولاد .

[سورة المدثر (74) : آية 34]

وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34)

وقوله سبحانه : وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ [34] وهذه استعارة ، والمراد بها انكشاف الصبح بعد استتاره ، ووضوحه بعد التباسه ، تشبيها بالرجل المسفر الذي قد حطّ لثامه ، فظهرت مجالى وجهه ، ومعالم صورته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 353 .

(1) البيت بكماله هو :

وإن تك قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تلسل

(2) سورة البقرة . الآية رقم 187 .

(91/790)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المدثر

الظاهر أن سورة المدثر نزلت قبل سورة المزمل ، وقيل هى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وهذا غير صحيح ، فهى أول ما نزل بعد انقطاع الوحى وتشوق الرسول إلى استقباله .

وفى الآيات الأولى معالم للسيرة التى يستحبها الله من نبيه " يا أيها المدثر * قم فأنذر " . أى خوف المشركين عقبى بقائهم على وثنيتهم . " وربك فكبر " . انسب إلى ذات الله كل مجد وجلال وسناء . وتكبير الله يفتتح به الأذان وسائر الصلوات ومعارك الجهاد ، وهو شعار الإسلام . " وثيابك فطهر " المقصود الجسم والثياب معا ، فالنظافة خلق الإسلام " والرجز

فاهجر " تجنب القبائح كلها . " ولا تمنن تستكثر " أعط ولا تمن واقصد وجه ربك . " ولربك فاصبر " تحمل فى ذات الله ما يصيبك ! وبعد أن خوف المشركين بيوم الحساب ، ذكر أحد كبرائهم الذين يقاومون الدعوة ويصفون الوحى بأنه سحر ، وكان رجلا واسع الجاه والمال يلقب بالوحيد لمكانته المادية والأدبية . " ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا " . وتحقير هذا الرئيس يتناول قن وراءه كلهم " سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر " . وهذا العدد إحصاء لملائكة العذاب المكلفين بتأديب الطغاة والضلال والفراعنة . ثم عاد النظم الكريم إلى أبرز ما فى الحياة الدنيا ، يذكر الليل وإدباره والصبح وإسفاره واختبار البشر بشتى التكاليف ليميز الخبيث من الطيب ، فقال " كلا والقمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكبر * نذيرا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر " والتقدم والتأخر مربوطان بالنشاط والعجز ، وليست حظوظا عمياء ، ولذلك قال بعدئذ

"كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين" . أى أنكم حصدتم ما زرعتم والخطوات المعوجة لا توصل إلى ختام مستقيم "فما تنفعهم شفاعة الشافعين" . لكن لماذا لجأ المشركون إلى هذه المقاومة العنيدة ؟ ونفروا من الإسلام هذا النفور البالغ ؟ إنه الكبر ! إن كل واحد منهم يريد أن ينزل إليه ملك يقول له أنا رسول الله إلى فلان ابن فلان كى يؤمن ويعرف خالقه ! أما أن يختار الوحى محمدا يخصه بالرسالة فهذا مرفوض ! "فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة * بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة" ! ! ولا يزال إحساس الناس بأنفسهم سببا فى غمط الحق وكراهية أهله ! ماذا يفعل الأنبياء عند ذلك ؟ حسبهم أن يذكروا بالله وآياته ونعمائه وحقوقه ، فمن اهتدى نجا ومن غدر هلك "كلا إنه تذكرة * فمن شاء ذكره" . ولا يعين الله إلا من أعان نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 487 . 488 ﴾

(93/790)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(94/790)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المدثر

أقول هذه متآخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وصدر كليهما نازل في قصة واحدة وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول السور : أن المدثر نزلت عقب المزمل أخرجه ابن الضريس وأخرجه غيره عن جابر بن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 143.144 ﴾

(95/790)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعلى الواحد القهار (الرحمن) الذي عم بنعمتي الإيجاد والبيان الأبرار والفجار (الرحيم) الذي خص أهل أصفيائه بالاستبصار ، والتوفيق إلى ما يوصل إلى دار القرار .

ولما ختمت " المزمل " بالبشارة لأرباب البصارة بعدما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيىء للقيام بأعباء الدعوة ، افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة لأصحاب الخسارة ، فقال معبراً بما فيه بشارة بالسعة في المال والرجال والصلاح وحسن الحال في الحال والمآل ، ومعرفاً بأن المخاطب في غاية اليقظة بالقلب وإن ستر القالب : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ المشتمل بثوبه ، من تدثر بالثوب : اشتمل به ، والدثار – بالكسر ما فوق الشعار من الثياب ، والشعار ما لاصق البدن " الأنصار شعار والناس دثار " والدثر : المار الكثير ، ودثر الشجر : أورق ، وتدثير الطائر : إصلاحه عشه ، والتعبير بالأداة الصالحة للقرب والبعد يراد به غاية القرب بما عليه السياق وإن كان التعبير بالأداة فيه نوع ستر لذلك مناسبة للتدثر ، واختير التعبير بها لأنه لا يقال بعدها إلى ما جل وعظم من الأمور ، وكان الدثار لم يعم بدنه الشريف بما دل عليه التعبير بالإدغام دون الإظهار الدال على المبالغة لأن

المراد إنما كان ستر العين ليجتمع القلب ، فيكفي في ذلك ستر الرأس وما قاربه من البدن ، والإدغام شديد المناسبة للدثار .

(96/790)

ولما كان في حال تدثره قد لزم موضعاً واحداً فلزم من ذلك إخفاء نفسه الشريفة ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقيام ، وسبب عنه الإنذار إشارة إلى أن ما يراد به من أنه يكون أشهر الخلق بالرسالة العامة مقتض لتشمير الذيل والحمل على النفس بغاية الجد والاجتهاد اللازم عنه كثرة الانتشار ، فهو مناف للتدثر بكل اعتبار فقال : ﴿ قم ﴾ أي مطلق قيام ، ولا سيما من محل تدثرك بغاية العزم والجد .

ولما كان الأمر عند نزول هذه السورة في أوله والناس قد عمهم الفساد ، ذكر أحد وصفي الرسالة إيذاناً بشدة الحاجة إليه فقال مسبباً عن قيامه : ﴿ فأنذر ﴾ أي فافعل الإنذار لكل من يمكن إنذاره فأنذر من كان راقداً في غفلاته ، متدثراً بأثواب سكراته ، لاهياً عما أمامه من أهوال يوم القيامة ، وكذا من كان مستيقظاً ولكنه متدثر بأثواب تشويفاته وأغشيته فتراته ، فإنه يجب على كل مربوب أن يشكر ربه وإلا عاقبه بعناده له أو غفلته عنه بما أقله الإعراض عنه ، وحذف المفعول إشارة إلى عموم الإنذار لكل من يمكن منه

المخالفة عقلاً وهم جميع الخلق ، وذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نزل عليه جبريل عليه السلام ب ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] ونحوها فكان بذلك نبياً ثم نزلت عليه هذه الآية فكان بها رسولاً ، وذلك أنه نودي وهو في جبل حراء ، فلما سمع الصوت نظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً ، فرفع رأسه فإذا جبريل عليه الصلاة والسلام جالس على عرش بين السماء والأرض ، ففرق من ذلك أشد الفرق ، فبادر المجيء إلى البيت ترجف بوادره وقال :

" دثروني دثروني ، لقد خشيت على نفسي ، صبوا عليّ ماءً بارداً " .

(97/790)

ولما كان الإنذار يتضمن مواجهة الناس بما يكرهون ، وذلك عظيم على الإنسان ، وكان المفتر عن اتباع الداعي أحد أمرين : تركه مما يؤمر به ، وطلبه عليه الأجر ، كما أن الموجب لاتباعه عمله بما دعا إليه ، وبعده عن أخذ الأجر عليه ، أمره بتعظيم من أرسله سبحانه فإنه إذا عظم حق تعظيمه صغر كل شيء دونه ، فهان عليه الدعاء وكان له معيناً على القبول فقال : ﴿ وربك ﴾ أي المربي لك خاصة ﴿ فكبر ﴾ أي وقم فتسبب عن قيامك بغاية الجد والاجتهاد أن تصفه وحده بالكبرياء قولاً واعتقاداً على كل حال ، وذلك تنزيهه

عن الشرك أول كل شيء ، وكذا عن كل ما لا يليق به من وصل وفصل ، ومن سؤال غيره ، والاشتغال بسواه .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : ملاءمتها لسورة المزمل واضحة ، واستفتاح السورتين من نمط واحد ، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه عليه الصلاة والسلام وعظيم تكريمه ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : 1] ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] والأمر فيهما بما يخصه ﴿ قم الّيل إلا قليلاً نصفه ﴾ [المزمل : 2 - 3] الآي ، وفي الآخرى ﴿ قم فانذر وربك فكبر ﴾ [المدثر : 2 - 3] أتبعت في الأولى بقوله : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] وفي الثانية بقوله ﴿ ولربك فاصبر ﴾ [المدثر : 7] وكل ذلك قصد واحد ، واتبع أمره بالصبر في الزمل بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] الآيات ، وكذلك في الأخرى ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : 11] الآيات ، فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد - انتهى .

(98/790)

ولما كان تنزيه العبد عن الأدناس لأجل تنزيه المعبود ، قال آمراً بتطهير الظاهر والباطن باستكمال القوة النظرية في تعظيمه سبحانه ليصلح أن يكون من أهل حضرته وهو أول مأمور به من رفض العادات المذمومة : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ أي وقم فخص ثيابك الحسية بإبعادها عن النجاسات بمجانبة عوائد المتكبرين من تطويلها ، وبتطهيرها لتصلح للوقوف في الخدمة بالحضرة القدسية ، والمعنوية وهي كل ما اشتمل على العبد من الأخلاق المذمومة والعوائد السقيمة من الفترة عن الخدمة والضجر والاسترسال مع شيء من عوائد النفس ، وذلك يهون باستكمال القوة النظرية .

ولما أمر بمجانبة الذر في الثياب وأراد الحسية والمعنوية ، وكان ذلك ظاهراً في الحسية ، وجعل ذلك كناية عن تجنب الأقذار كلها لأن من جنب ذلك ملبسه أبعده عن نفسه من باب الأولى ، حقق العموم وأكد فقال : ﴿ والرجز ﴾ أي كل قذر فإنه سبب الدنايا التي هي سبب العذاب ، قال في القاموس : الرجز بالكسر والضم : القذر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك .

﴿ فاهجر ﴾ أي جانب جهاراً وعبادة ، ليحصل لك الثواب كما كنت تجانبها سراً وعادة ، فحصل لك الثناء الحسن حتى أن قريشاً إنما تسميك الأمين ولا تناظر لك أحداً منها .

(99/790)

ولما بدأ بأحد سببي القبول ، أتبعه الثاني المبعد عن قاصمة العمل من الإعجاب والرياء والملل فقال : ﴿ ولا تمنن ﴾ أي على أحد بدعائك له أو بشيء تعطيه له على جهة الهبة أو القرض بأن تقطع لذة من أحسنت إليه بالتثقيل عليه بذكرك على جهة الاستعلاء والاستكثار بما فعلته معه ، أو لا تعط شيئاً حال كونك ﴿ تستكثر ﴾ أي تطلب أن تعطي أجراً أو أكثر مما أعطيت – قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وهو من قولهم ، منَّ – إذا أعطى ، وذلك لأنه الأليق بالمعطي من الخلق أن يستقل ما أعطى ، ويشكر الله الذي وفقه له ، وبالآخذ أن يستكثر ما أخذ ، فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يفعل شيئاً لعلة أصلاً ، بل لله خالصاً ، فإنه إذا زال الاستكثار حصل الإخلاص ، لأنه لا يتعلق همه بطلب الاستمثال ، فكيف بالاستقلال ، فيكون العمل في غاية الخلوص لا يقصد به ثواباً أصلاً ، ولا يراد لغير وجه الله تعالى ، وهذا هو النهاية في الإخلاص .

ولما كان الإنذار شديداً على النفوس يحصل به من المعالجات ما الموت دونه ، لأن ترك المألوفات أصعب شيء على النفوس ، وكذا ترك الفوائد ، قال أمراً بالتحلي بالعاصم بعد التخلي عن القاصم ، معلماً بأن الأذى من المنذرين أمر لا بد منه فيدخل في الطاعة على بصيرة ، فاقتضى الحال لذلك أن الإنذار يهون بالغنى عن الفانين والكون مع الباقي وحده ، فأشار إلى ذلك بتقديم الإله معبراً عنه بوصف الإحسان ترغيباً فقال : ﴿ ولربك ﴾ أي

المحسن إليك ، المربي لك ، المدبر لجميع مصالحك وحده ﴿ فاصبر ﴾ أي على مشاق التكاليف أمراً ونهياً وأذى المشركين وشظف العيش وجميع البلايا ، فإنه يجزل عطاءك من خير الدارين بحيث لا يحوجك إلى أحد ، ويحوج الناس إليك ، ويهون عليك حمل المشاق في الدارين ولا سيما أمر يوم البعث ، فإن من حمل العمل في الدنيا حمله العمل في الآخرة .

(100/790)

ولما كان المقام للإنذار ، وكان من رد الأوامر تكذيباً كفر ، ومن تهاون بها ما أطاع ولا شكر ، حذر من الفتور عنها بذكر ما للمكذب بها ، فقال مسبباً عن ذلك باعثاً على اكتساب الخيرات من غير كسل ولا توقف ، مذكراً بأن الملك التقم القرن وأصغى بجبهته انتظاراً للأمر بالنفخ ، مشيراً بالبناء للمفعول إلى هوانه لديه وخفته عليه مؤذناً بأداة التحقق أنه لا بد من وقوعه : ﴿ فإذا نقر ﴾ أي نفخ وصوّت بشدة وصلابة ونفوذ وإنكاء ﴿ في الناقور ﴾ أي الصور وهو القرن الذي إسرافيل عليه السلام ملتقمه الآن وهو مصغ لانتظار الأمر بالنفخ فيه للقيامة ، ويجوز أن يراد الأيام التي يقضي فيها بالذل على الكافرين كيوم بدر والفتح وغيرهما كما جعلت الساعة والقيامة كناية عن الموت ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " من مات فقد قامت قيامته " عبر عنه بالنقر إشارة إلى أنه في شدته كالنقر في الصلب

فيكون عنه صوت هائل ، وأصل النقر القرع الذي هو سبب الصوت فهو أشد من صدعك لهم بالإنذار للحذار من دار البوار ، فهنالك ترد الأرواح إلى أجسادها ، فيبعث الناس فيقومون من قبورهم كنفس واحدة ، وترى عاقبة الصبر ، ويرى أعداؤك عاقبة الكبر ، والتعبير فيه بصيغة المبالغة وجعله فاعلاً كالجاسوس إشارة إلى زيادة العظمة حتى كأنه هو الفاعل على هيئة هي في غاية الشدة والقوة ، وحذر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ـ رضى الله عنه ـ م من النفخ في الصور وقربه فقالوا : "كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل " ويجوز أن يكون التسبب عن الأمر بالصبر ، أي اصبر فلنأخذن بثأرك في ذلك اليوم بما يقر عينك ، فيكون تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتهديداً لهم .

(101/790)

ولما ذكر هذا الشرط هل (؟) الذي صوره بصوره هائلة ، أجابه بقوله : ﴿ فذلك ﴾ أي الوقت الصعب الشديد العظيم الشدة جداً البالغ في ذلك مبلغاً يشار إليه إشارة ما هو أبعد بعيد ، وهو وقت النقر ، ثم أبدل من هذا المبتدأ زيادة في تهويله قوله : ﴿ يومئذ ﴾ أي وقت إذ يكون النقر الهائل ﴿ يوم عسير ﴾ أي بالغ العسر ﴿ على الكافرين ﴾ أي الذين كانوا يستهينون بالإنذار ويعرضون عنه لأنهم راسحون في الكفر الذي هو ستر ما يجب

إظهاره من دلائل الوحدانية ، ولما كان العسر قد يطلق على الشيء وفيه يسر من بعض الجهات أو يعالج فيرجع يسيراً ، بين أنه ليس كذلك بقوله : ﴿ غير يسير ﴾ فجمع فيه بين إثبات الشيء ونفي ضده تحقيقاً لأمره ودفعاً للمجاز عنه وتأييداً لكونه ولأنه غير منقطع بوجه ، وتقييده بالكافرين يشعر بتيسره على المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 220.224 ﴾

(102/790)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القرأت ﴿ الرجز ﴾ بضم الراء : يزيد وسهل ويعقوب وحفص والمفضل والآخرون : بالكسر ﴿ تسعة عشر ﴾ بسكون العين لتوالي الحركات : يزيد والخزاز عن هبيرة ﴿ إذا ﴾ بسكون الذال ﴿ أدبر ﴾ من الإدبار : نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص والمفضل . الباقون ﴿ إذا ﴾ بالألف ﴿ دبر ﴾ من الدبور . ﴿ مستنفرة ﴾ بفتح الفاء : أبوجعفر ونافع وابن عامر والمفضل ﴿ تخافون ﴾ بتاء الخطاب : ابن مجاهد والنقاش عن أبي ذكوان ﴿ وما تذكرون ﴾ على الخطاب : نافع ويعقوب .

الوقوف : ﴿ المدثر ﴾ ه لا ﴿ فأنذر ﴾ ه لا ﴿ فكبر ﴾ ه ك ﴿ فطهر ﴾ ه ك ﴿ فاهجر ﴾ ه ك ﴿ تستكثر ﴾ ه ك ﴿ فاصبر ﴾ ه ط وقد يجوز الوقوف على الآيات قبلها إلا على الأولى ﴿ الناقور ﴾ ه لا ﴿ عسير ﴾ ه ﴿ يسير ﴾ ه ﴿ وحيداً ﴾ ه لا ﴿ ممدوداً ﴾ ه ك ﴿ شهوداً ﴾ ه ك ﴿ تمهيداً ﴾ ه ك ﴿ أن أزيد ﴾ ه ﴿ كلا ﴾ ط ﴿ عنيداً ﴾ ه ط للإبتداء بالتهديد ﴿ صعوداً ﴾ ه ك للإبتداء بأن ﴿ وقدر ﴾ ه لا ﴿ قدر ﴾ ه لا ﴿ نظر ﴾ ه لا ﴿ وبسر ﴾ ه ك ﴿ واستكبر ﴾ ه ك ﴿ يؤثر ﴾ ه ك ﴿ البشر ﴾ ه ﴿ سقر ﴾ ه لا ﴿ ما سقر ﴾ ه ط لتناهي الإستفهام ﴿ ولا تذر ﴾ ه م لأن التقدير هي لواحة مع اتحاد المقصود ﴿ للبشر ﴾ ط للآية ولأن ما بعده من تمام المقصود ﴿ عشر ﴾ ه ط ﴿ ملائكة ﴾ ص لاتفاق الجملتين مع استقلال كل منهما بنفي واستثناء ﴿ كفروا ﴾ لا لتعلق اللام ﴿ والمؤمنون ﴾ لا لذلك ﴿ مثلاً ﴾ ط ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ ط ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ للبشر ﴾ ه قد يوصل على جعل ﴿ كلا ﴾ ردعاً والوقف على ﴿ البشر ﴾ دون ﴿ كلا ﴾ صواب لأنه تأكيد القسم بعدها ﴿ والقمر ﴾ ه ﴿ إذ أدبر ﴾ ه لا ﴿ أسفر ﴾ ه لا ﴿ الكبر ﴾ ه ﴿ للبشر ﴾ ه ﴿ يتأخر

﴿ ه ط ﴾ رهينة ﴾ ه لا ﴿ اليمين ﴾ ه ط على تقديرهم في جنات يتساءلون فيها .

والوقف على ﴿ جنات ﴾ أولى لعدم الإضمار ﴿ سقر ﴾ ه ﴿ المصلين ﴾ ه ﴿

المسكين ﴾ ه ﴿ الخائضين ﴾ ه ك ﴿ الدين ﴾ ه لا ﴿ اليقين ﴾ ه ﴿ الشافعين ﴾ ه ج

للإبتداء بالاستفهام به ﴿ معرضين ﴾ ه لا لأن ما بعده صفتهم ﴿ مستنفرة ﴾ ه ط ﴿

قسورة ﴾ ه ط ﴿ منشرة ﴾ ه ط ﴿ كلا ﴾ للردع عن الإرادة ﴿ الآخرة ﴾ لا على

جعل ﴿ كلا ﴾ بمعنى حقاً تذكرة ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ ذكره ﴾ ه ﴿ الله ﴾ ه ﴿

المغفرة ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 384.385 ﴾

(104/790)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

المدثر ، أصله المتدثر ، وهو الذي يتدثر بثيابه لينام ، أو ليستدفىء ، يقال : تدثر بثوبه ،

والدثار اسم لما يتدثر به ، ثم أدغمت التاء في الدال لتقارب مخرجهما .

المسألة الثانية :

(105/790)

أجمعوا على أن المدثر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلفوا في أنه عليه الصلاة والسلام لم سمي مدثراً ، فمنهم من أجراه على ظاهره وهو أنه كان متدثراً بثوبه ، ومنهم من ترك هذا الظاهر ، أما على الوجه الأول فاختلفوا في أنه لأي سبب تدثر بثوبه على وجوه أحدها : أن هذا من أوائل ما نزل من القرآن ، روى جابر بن عبد الله أنه عليه الصلاة والسلام قال : "كنت على جبل حراء ، فنوديت يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري ، فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقي ، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض ، فخفت ورجعت إلى خديجة ، فقلت : دثروني دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ " وثانيها : أن النفر الذين آذوا رسول الله ، وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا : إن وفود العرب يجتمعون في أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد ، فكل واحد منا يجيب بجواب آخر ، فواحد يقول : مجنون ، وآخر يقول : كاهن

، وآخر يقول : شاعر ، فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة ، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد ، فقال واحد : إنه شاعر ، فقال الوليد : سمعت كلام عبيد بن الأبرص ، وكلام أمية بن أبي الصلت ، وكلامه ما يشبه كلامهما ، وقال آخرون كاهن ، قال الوليد : ومن الكاهن ؟ قالوا : الذي يصدق تارة ويكذب أخرى ، قال الوليد : ما كذب محمد قط ، فقال آخر : إنه مجنون فقال الوليد : ومن يكون المجنون ؟ قالوا : مخيف الناس ، فقال الوليد : ما أخيف بمحمد أحد قط ، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته ، فقال الناس : صبأ الوليد بن المغيرة ، فدخل عليه أبو جهل ، وقال مالك : يا أبا عبد شمس ؟ هذه قريش تجمع لك شيئاً ، زعموا أنك احتججت وصبأت ، فقال : الوليد مالي إليه حاجة ، ولكني فكرت في محمد .

(106/790)

فقلت : إنه ساحر ، لأن الساحر هو الذي يفرق بين الأب وابنه وبين الأخوين ، وبين المرأة وزوجها ، ثم إنهم أجمعوا على تلقيب محمد عليه الصلاة والسلام بهذا اللقب ، ثم إنهم خرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون ، فقالوا : إن محمداً لساحر ، فوقعت الضجة في الناس أن محمداً ساحر ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ،

ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وثالثها : أنه عليه الصلاة والسلام كان نائماً متدثراً بثيابه ، فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه ، وقال : ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ، قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ كأنه قال : له اترك التدثر بالثياب والنوم ، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له .

القول الثاني : أنه ليس المراد من المدثر ، المتدثر بالثياب ، وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه أحدها : أن المراد كونه متدثراً بدثار النبوة والرسالة من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم ، ويقال : تلبس فلان بأمر كذا ، فالمراد يأيها المدثر بدثار النبوة قم فأنذر وثانيها : أن المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه ، وأنه عليه الصلاة والسلام في جبل حراء كان كالمختفي من الناس ، فكأنه قيل : يا أيها المتدثر بدثار الخمول والاختفاء ، قم بهذا الأمر واخرج من زاوية الخمول ، واشتغل بإنذار الخلق ، والدعوة إلى معرفة الحق وثالثها : أنه تعالى جعله رحمة للعالمين ، فكأنه قيل له : يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم ، والخلق الكريم ، والرحمة الكاملة قم فأنذر عذاب ربك .

المسألة الثالثة :

عن عكرمة أنه قرىء على لفظ اسم المفعول من دثره ، كأنه قيل له : دثرت هذا الأمر وعصيت به ، وقد سبق نظيره في المزمل .

قُمْ فَأَنذِرْ (2)

في قوله : ﴿ قُمِ ﴾ وجهان أحدهما : قم من مضجعك والثاني : قم قيام عزم وتصميم ، وفي قوله : ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ وجهان أحدهما : حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا .

(107/790)

وقال ابن عباس : قم نذيراً للبشر ، احتج القائلون بالقول الأول بقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ ﴾ [الأنعام : 51] واحتج القائلون بالقول الثاني بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] وههنا قول ثالث ، وهو أن المراد فاشتغل بفعل الإنذار ، كأنه تعالى يقول له تهيأ لهذه الحرفة ، فإنه فرق بين أن يقال تعلم صنعة المناظرة ، وبين أن يقال : ناظر زيداً .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير التكبير وجوهاً أحدها : قال الكلبي : عظم ربك مما يقوله عبدة الأوثان وثانيها : قال مقاتل : هو أن يقول : الله أكبر ، روى أنه " لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال : الله أكبر كبيراً ، فكبرت خديجة وفرحت ، وعلمت أنه أوحى إليه "

وثالثها : المراد منه التكبير في الصلوات ، فإن قيل : هذه السورة نزلت في أول البعث وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت ؟ قلنا : لا يبعد أنه كانت له عليه السلام صلوات تطوعية ، فأمر أن يكبر ربه فيها ورابعها : يحتمل عندي أن يكون المراد أنه لما قيل له : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ قيل بعد ذلك : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ عن اللغو والعبث .

واعلم أنه ما أمرك بهذا الإنذار إلا لحكمة بالغة ، ومهمات عظيمة ، لا يجوز لك الإخلال بها ، فقوله : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ كالتأكيد في تقرير قوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وخامسها : عندي فيه وجه آخر وهو أنه لما أمره بالإنذار ، فكأن سائلاً سأل وقال : بماذا ينذر ؟ فقال : أن يكبر ربه عن الشركاء والأضداد والأنداد ومشابهة الممكنات والمحدثات ، ونظير قوله في سورة النحل : ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : 2] وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات .

المسألة الثانية :

الفاء في قوله : ﴿ فَكَبِّرْ ﴾ ذكروا فيه وجوهاً أحدها : قال أبو الفتح الموصلي : يقال : زيداً فاضرب ، وعمراً فاشكر ، وتقديره زيداً اضرب وعمراً اشكر ، فعنده أن الفاء زائدة

وثانيها : قال الزجاج : دخلت الفاء لإفادة معنى الجزائية ، والمعنى : قم فكبر ربك وكذلك ما بعده على هذا التأويل وثالثها : قال صاحب "الكشاف" : الفاء لإفادة معنى الشرط ، والتقدير : وأي شيء كان فلا تدع تكبيره .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

(109/790)

اعلم أن تفسير هذه الآية يقع على أربعة أوجه أحدها : أن يترك لفظ الثياب والتطهير على ظاهره والثاني : أن يترك لفظ الثياب على حقيقته ، ويحمل لفظ التطهير على مجازه الثالث : أن يحمل لفظ الثياب على مجازه ، ويترك لفظ التطهير على حقيقته والرابع : أن يحمل اللفظان على المجاز أما الاحتمال الأول : وهو أن يترك لفظ الثياب ، ولفظ التطهير على حقيقته ، فهو أن نقول : المراد منه أنه عليه الصلاة والسلام ، أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار ، وعلى هذا التقدير يظهر في الآية ثلاثة احتمالات أحدها : قال الشافعي : المقصود منه الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس وثانيها : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان المشركون ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات ، فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عن النجاسات وثالثها : روي أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله

عليه وسلم سلى شاة ، فشق عليه ورجع إلى بيته حزيناً وتدثر بثيابه ، فقيل : يأيها المدثر قم فأنذر ولا تمنعك تلك السفاهة عن الإنذار وربك فكبر عن أن لا ينتقم منهم وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات ، الاحتمال الثاني : أن يبقى لفظ الثياب على حقيقته ، ويجعل لفظ التطهير على مجازه ، فهنا قولان : الأول : أن المراد من قوله : ﴿ فَطَهِّرْ ﴾ أي فقصر ، وذلك لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم فكانت ثيابهم تتنجس ، ولأن تطويل الذيل إنما يفعل للخيلاء والكبر ، فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك القول الثاني : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي ينبغي أن تكون الثياب التي تلبسها مطهرة عن أن تكون مغصوبة أو محرمة ، بل تكون مكتسبة من وجه حلال ، الاحتمال الثالث : أن يبقى لفظ التطهير على حقيقته ، ويحمل لفظ الثياب على مجازه ، وذلك أن يحمل لفظ الثياب على الحقيقة وذلك لأن العرب ما كانوا يتنظفون وقت الاستنجاء ، فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك التنظيف وقد يجعل لفظ الثياب

(110/790)

كناية عن النفس .

قال عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه . . (أي نفسه) ولهذا قال :

ليس الكريم على القنا بمحرم . . الاحتمال الرابع : وهو أن يحمل لفظ الثياب ، ولفظ التطهير على المجاز ، وذكروا على هذا الاحتمال وجوهاً الأول : وهو قول أكثر المفسرين : وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة وعن الحسن : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : وخلقك فحسن ، قال القفال : وهذا يحتمل وجوهاً أحدها : أن الكفار لما لقبوه بالساحر شق ذلك عليه جداً ، حتى رجع إلى بيته وتدثر بثيابه ، وكان ذلك إظهار جزع وقلة صبر يقتضيه سوء الخلق ، فقيل له : قم فأنذر ولا تحملنك سفاهتهم على ترك إنذارهم بل حسن خلقك والثاني : أنه زجر عن التخلق بأخلاقهم ، فقيل له : طهر ثيابك أي قلبك عن أخلاقهم ، في الافتراء والتقول والكذب وقطع الرحم والثالث : فطهر نفسك وقلبك عن أن تعزم على الانتقام منهم والإساءة إليهم ، ثم إذا فسرنا الآية بهذا الوجه ، ففي كيفية اتصالها بما قبلها وجهان الأول : أن يقال : إن الله تعالى لما ناداه في أول السورة ، فقال :

﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ [المدثر : 1] وكان التدثر لباساً ، والدثار من الثياب ، قيل طهر ثيابك التي أنت متدثر بها عن أن تلبسها على هذا التفكر والجزع والضجر من افتراء المشركين الوجه الثاني : أن يفسر المدثر بكونه متدثراً بالنبوة ، كأنه قيل : يا أيها المتدثر بالنبوة طهر ما تدثرت به عن الجزع وقلة الصبر ، والغضب والحقد ، فإن ذلك لا يليق بهذا الدثار ، ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ [المدثر : 7] واعلم أن حمل المدثر على المتصف

ببعض الصفات جائز ، يقال : فلان طاهر الجيب نقي الذيل ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ، ويقال : فلان دنس الثياب إذا كان موصوفاً بالأخلاق الذميمة ، قال الشاعر :

فلا أب وابناً مثل مروان وابنه . . إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

(111/790)

والسبب في حسن هذه الكناية وجهان الأول : أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان ، فلهذا السبب جعلوا الثواب كناية عن الإنسان ، يقال : المجد في ثوبه والعفة في إزاره والثاني : أن الغالب أن من طهر باطنه ، فإنه يطهر ظاهره الوجه الثاني : في تأويل الآية أن قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أمر له بالاحتراز عن الآثام والأوزار التي كان يقدم عليها قبل النبوة ، وهذا على تأويل من حمل قوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح : 2 ، 3] على أيام الجاهلية الوجه الثاني : في تأويل الآية قال محمد بن عرفة النحوي معناه : نساءك طهرهن ، وقد يكنى عن النساء بالثياب ، قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] وهذا التأويل بعيد ، لأن على هذا الوجه لا يحسن اتصال الآية بما قبلها .

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(112/790)

ذكروا في الرجز وجوهاً الأول : قال العتبي : الرجز العذاب قال الله تعالى : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز ﴾ [الأعراف : 134] أي العذاب ثم سمي كيد الشيطان رجزاً لأنه سبب للعذاب ، وسميت الأصنام رجزاً لهذا المعنى أيضاً ، فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي ، ثم على هذا القول احتمالان أحدهما : أن قوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ يعني كل ما يؤدي إلى الرجز فاهجره ، والتقدير وذا الزجر فاهجر أي ذا العذاب فيكون المضاف محذوفاً والثاني : أنه سمي إلى ما يؤدي إلى العذاب عذاباً تسمية للشيء ، باسم ما يجاوره ويتصل به القول الثاني : أن الرجز اسم للقبيح المستقذر وهو معنى الرجس ، فقوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل له : اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز ، وهذا يشاكل تأويل من فسر قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : 4] على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصي والقبائح .

المسألة الثانية :

احتج من جوز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية ، قال لولا أنه كان مشتغلاً بها وإلا لما زجر عنها بقوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ والجواب المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران ، كما أن المسلم إذا قال : اهدنا فليس معناه أنا لسنا على الهداية فاهدنا ، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية ، فكذا ههنا .

المسألة الثالثة :

قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الراء في هذه السورة وفي سائر القرآن بكسر الراء ، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر وقرأ يعقوب بالضم ، ثم قال الفراء : هما لغتان والمعنى واحد ، وفي كتاب الخليل الرجز بضم الراء عبادة الأوثان وبكسر الراء العذاب ، ووسواس الشيطان أيضاً رجز ، وقال أبو عبيدة : أفشى اللغتين وأكثرهما الكسر .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

القراءة المشهورة تستكثر برفع الراء وفيه ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون التقدير ولا تمنن لتستكثر فتنزع اللام فيرتفع وثانيها : أن يكون التقدير لا تمنن أن تستكثر ثم تحذف أن الناصبة فتسلم الكلمة من الناصب والجازم فترتفع ويكون مجاز الكلام لا تعط لأن تستكثر وثالثها : أنه حال متوقعة أي لا تمنن مقدراً أن تستكثر قال أبو علي الفارسي : هو مثل قولك مررت برجل معه صقر صائداً به غدا أي مقدراً للصيد فكذا ههنا المعنى مقدراً الاستكثار ، قال : ويجوز أن يحكي به حالاً أتية ، إذا عرفت هذا فنقول ، ذكروا في تفسير الآية وجوهاً أحدها : أنه تعالى أمره قبل هذه الآية ، بأربعة أشياء : إنذار القوم ، وتكبير الرب ، وتطهير الثياب ، وهجر الرجز ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة ، كالمستكثر لما تفعله ، بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقرباً بذلك إليه غير ممتن به عليه .

قال الحسن ، لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها وثانيها : لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين ، والوحي كالمستكثر لذلك الإنعام ، فإنك إنما فعلت ذلك بأمر الله ، فلا منة لك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : 7] ، وثالثها : لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر ، أي لتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به مالك ورابعها : لا تمنن أي لا تضعف من قولهم : حبل منين أي ضعيف ، يقال : منه السير أي أضعفه .

والتقدير فلا تضعف أن تستكثر من هذه الطاعات الأربعة التي أمرت بها قبل هذه الآية ، ومن ذهب إلى هذا قال : هو مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ [الزمر : 64] أي أن أعبد فحذفت أن وذكر الفراء أن في قراءة عبد الله (ولا تمتن تستكثر) وهذا يشهد لهذا التأويل ، وهذا القول اختيار مجاهد وخامسها : وهو قول أكثر المفسرين أن معنى قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُن ﴾ أي لا تعط يقال : مننت فلاناً كذا أي أعطيته ، قال : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص : 39] أي فأعط ، أو أمسك وأصله أن من أعطى فقد من ، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة ، فالمعنى ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه ، وعلى هذا التأويل سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أن الله تعالى منعه من هذا العمل ؟ الجواب : الحكمة فيه من وجوه الأول : لأجل أن تكون عطاياه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا ، فإنه نهى عن طلب الدنيا في قوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [الحجر : 88] وذلك لأن طلب الدنيا لا بد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة ، ومن كان كذلك لم يصلح لأداء الرسالة الثاني : أن من أعطى غيره القليل من الدنيا ليأخذ الكثير لا بد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرع له ، وذلك لا يليق

بمنصب النبوة ، لأنه يوجب دناءة الآخذ ، ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه ، وتنفير المأخوذ منه ، ولهذا قال :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] .

السؤال الثاني : هذا النهي مختص بالرسول عليه الصلاة والسلام ، أم يتناول الأمة ؟ الجواب : ظاهر اللفظ لا يفيد العموم وقرينة الحال لا تقتضي العموم لأنه عليه الصلاة والسلام إنما نهى عن ذلك تنزيهاً لمنصب النبوة ، وهذا المعنى غير موجود في الأمة ، ومن الناس من قال هذا المعنى في حق الأمة هو الرياء ، والله تعالى منع الكل من ذلك .

(115/790)

السؤال الثالث : بتقدير أن يكون هذا النهي مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو نهي تحريم أو نهي تنزيه ؟ والجواب : ظاهر النهي للتحريم الوجه السادس : في تأويل الآية قال القفال : يحتمل أن يكون المقصد من الآية أن يحرم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي لأحد شيئاً لطلب عوض سواء كان ذلك العوض زائداً أو ناقصاً أو مساوياً ، ويكون معنى قوله : ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي طالباً للكثرة كارهاً أن ينقص المال بسبب العطاء ، فيكون الاستكثار ههنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ، وإنما حسنت هذه الاستعارة لأن

الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء ، فسمى طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله ، وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ولها ولد للحاجة إلى من يربي ولدها فسمي الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر فسمي ربيبا وإن كان حين تتزوج أمه كبيراً ، ومن ذهب إلى هذا القول قال : السبب فيه أن يصير عطاء النبي صلى الله عليه وسلم خالياً عن انتظار العوض والتفات الناس إليه ، فيكون ذلك خالصاً مخلصاً لوجه الله تعالى الوجه السابع : أن يكون المعنى ولا تمنن على الناس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثاراً منك لتلك العطية ، بل ينبغي أن تستقلها وتستحقرها وتكون كالمتعذر من ذلك المنعم عليه في ذلك الإنعام ، فإن الدنيا بأسرها قليلة ، فكيف ذلك القدر الذي هو قليل في غاية القلة بالنسبة إلى الدنيا ، وهذه الوجوه الثلاثة الأخيرة كالمرتبة فالوجه الأول : معناه كونه عليه الصلاة والسلام ممنوعاً من طلب الزيادة في العوض والوجه الثاني : معناه كونه ممنوعاً عن طلب مطلق العوض زائداً كان أو مساوياً أو ناقصاً والوجه الثالث : معناه أن يعطي وينسب نفسه إلى التقصير ويجعل نفسه تحت منة المنعم عليه حيث قبل منه ذلك الإنعام الوجه الثامن : معناه إذا أعطيت شيئاً فلا ينبغي أن تمن عليه بسبب أنك تستكثر تلك العطية ، فإن المن محبط لثواب العمل ، قال تعالى :

﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى كالذى يُنفِقُ مَالَهُ رئاء الناس ﴾ [البقرة : 264] .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن : ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ بالجزم وأكثر المحققين أبوا هذه القراءة ، ومنهم من قبلها وذكروا في صحتها ثلاثة أوجه : أحدها : كأنه قيل : لا تمنن لا تستكثر وثانيها : أن يكون أراد تستكثر فأسكن الراء لثقل الضمة مع كثرة الحركات ، كما حكاه أبو زيد في قوله تعالى : ﴿ بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ بإسكان اللام وثالثها : أن يعتبر حال الوقف ، وقرأ الأعمش : ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ بالنصب بإضمار أن كقوله :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى . . (وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى)

ويؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر .

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

(117/790)

فيه وجوه : أحدها : إذا أعطيت المال فاصبر على ترك المن والاستكثار أي اترك هذا الأمر لأجل مرضاة ربك وثانيها : إذا أعطيت المال فلا تطلب العوض ، وليكن هذا الترك

لأجل ربك وثالثها : أنا أمرناك في أول هذه السورة بأشياء ونهيناك عن أشياء فاشتغل بتلك الأفعال والتروك لأجل أمر ربك ، فكأن ما قبل هذه الآية تكاليف بالأفعال والتروك ، وفي هذه الآية بين ما لأجله يجب أن يؤتى بتلك الأفعال والتروك وهو طلب رضا الرب ورابعها : أنا ذكرنا أن الكفار لما اجتمعوا وبحثوا عن حال محمد صلى الله عليه وسلم قام الوليد ودخل داره فقال القوم : إن الوليد قد صبأ فدخل عليه أبو جهل ، وقال : إن قريشاً جمعوا لك مالاً حتى لا تترك دين آبائك ، فهو لأجل ذلك المال بقي على كفره ، فقيل لمحمد : إنه بقي على دينه الباطل لأجل المال ، وأما أنت فاصبر على دينك الحق لأجل رضا الحق لا لشيء غيره وخامسها : أن هذا تعريض بالمشركين كأنه قيل له : وربك فكبر لا الأوثان وثيابك فطهر ولا تكن كالمشركين نجس البدن والثياب والرجز فاهجر ولا تقربه كما تقربه الكفار ولا تمنن تستكثر كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قدراً من المال وكانوا يستكثرون ذلك القليل ولربك فاصبر على هذه الطاعات لا للأغراض العاجلة من المال والجاه .

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8)

اعلم أنه تعالى لما تمم ما يتعلق بإرشاد قدوة الأنبياء وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، عدل عنه إلى شرح وعيد الأشقياء وهو هذه الآية ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

الفاء في قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ ﴾ للسبب كأنه قال : اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير

يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى أنت عاقبة صبرك عليه .

المسألة الثانية :

(118/790)

اختلفوا في أن الوقت الذي ينقر في الناقور ، أهو النفخة الأولى أم النفخة الثانية ؟ فالقول الأول : أنه هو النفخة الأولى ، قال الحليمي في كتاب " المنهاج " : أنه تعالى سمى الصور بإسمين أحدهما الصور والآخر الناقور ، وقول المفسرين : إن الناقور هو الصور ، ثم لا شك أن الصور وإن كان هو الذي ينفخ فيه النفختان معاً ، فإن نفخة الإصعاق تخالف نفخة الإحياء ، وجاء في الأخبار أن في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلها ، وأنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية ، فيخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزع منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى ، فيحتمل أن يكون الصور محتوياً على آلتين ينقر في إحداهما وينفخ في الأخرى فإذا نفخ فيه للإصعاق ، جمع بين النقر والنفخ ، لتكون الصيحة أهد وأعظم ، وإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه ، واقتصر على النفخ ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيرها من أجسادها ، والنفخة الأولى للتنقير ، وهو نظير صوت الرعد ، فإنه إذا اشتد فربما مات سامعه ، والصيحة الشديدة التي يصيحها رجل

بصبي فيفزع منه فيموت ، هذا آخر كلام الحليمي رحمه الله ولى فيه إشكال ، وهو أن هذا يقتضي أن يكون النقر إنما يحصل عند صيحة الإصعاق ، وذلك اليوم غير شديد على الكافرين ، لأنهم يموتون في تلك الساعة إنما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء ، ولذلك يقولون : يا ليتها كانت القاضية ، أي يا ليتنا بقينا على الموتة الأولى والقول الثاني : إنه النفخة الثانية ، وذلك لأن الناقور هو الذي ينقر فيه ، أي ينكت ، فيجوز أنه إذا أريد أن ينفخ في المرة الثانية ، نقر أولاً ، فسمى ناقوراً لهذا المعنى ، وأقول في هذا اللفظ بحث وهو أن الناقور فاعول من النقر ، كالهاضوم ما يهضم به ، والحاطوم ما يحطم به ، فكان ينبغي أن يكون الناقور ما ينقر به لا ما ينقر فيه .

المسألة الثالثة :

(119/790)

العامل في قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ ﴾ هو المعنى الذي دل عليه قوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر : 9] والتقدير إذا نقر في الناقور عسر الأمر وصعب .

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

فيه مسائل .

المسألة الأولى :

قوله فذلك إشارة إلى اليوم الذي ينقر فيه في الناقور ، والتقدير فذلك اليوم يوم عسير ، وأما ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن يكون تفسيراً لقوله : ﴿ فَذَلِكَ ﴾ لأن قوله : ﴿ فَذَلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النقر ، وأن يكون إشارة إلى اليوم المضاف إلى النقر ، فكأنه قال : فذلك أعني اليوم المضاف إلى النقر يوم عسير فيكون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ في محل النصب والثاني : أن يكون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مرفوع المحل بدلاً من ذلك ﴿ وَيَوْمَ عَسِيرٌ ﴾ خبر كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير فعلى هذا يومئذ في محل الرفع لكونه بدلاً من ذلك إلا أنه لما أضيف اليوم إلى إذ وهو غير متمكن بني على الفتح الثالث : أن تقدير الآية فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير على أن يكون العامل في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ هو النقر .

المسألة الثانية :

(120/790)

عسر ذلك اليوم على الكافرين لأنهم يناقشون في الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسود وجوههم ويحشرون زرقاً وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الأشهاد وأما المؤمنون فإنه عليهم يسير لأنهم لا يناقشون في الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين

، ويحتمل أن يكون إنما وصفه الله تعالى بالعسر لأنه في نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روى أن الأنبياء يومئذ يفزعون ، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد ، فعلى القول الأول لا يحسن الوقف على قوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ فإن المعنى أنه : على الكافرين عسير وغير يسير ، وعلى القول الثاني يحسب الوقف لأن المعنى أنه في نفسه عسير على الكل ثم الكافر مخصوص فيه بزيادة خاصة وهو أنه عليه غير يسير ، فإن قيل : فما فائدة قوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وعسير مغن عنه ؟ الجواب : أما على القول الأول : فالتكرير للتأكيد كما تقول أنا لك محب غير مبغض وولي غير عدو ، وأما على القول الثاني : فقوله : ﴿ عَسِيرٌ ﴾ يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين وقوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر لأن العسر قد يكون عسراً ، قليلاً يسيراً ، وقد يكون عسراً كثيراً فأثبت أصل العسر للكل وأثبت العسر بصفة الكثرة والقوة للكافرين .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس : لما قال إنه غير يسير على الكافرين ، كان يسيراً على المؤمنين فبعض من قال بدليل الخطاب قال لولا أن دليل الخطاب حجة وإلا لما فهم ابن عباس من كونه غير يسير على الكافر كونه يسيراً على المؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 167 .

174 ﴾

(121/790)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) ﴾

اختلف القراء في ﴿ المدثر ﴾ على نحو ما ذكرناه في ﴿ المزمل ﴾ [المزمل : 1] ، وفي حرف أبيّ بن كعب ﴿ المدثر ﴾ ومعناه المتدثر بثيابه ، و" الدثار " ، ما يتغطى الإنسان به من الثياب ، واختلف الناس لم ناداه ب ﴿ المدثر ﴾ ، فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه لما فرغ من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض فرعب منه ورجع إلى خديجة فقال : زملوني زملوني نزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، وقال النخعي وقتادة وعائشة نودي وهو في حال تدثر فدعي بحال من أحواله . وروي أنه كان يدثر في قطيفة . وقال آخرون : معناه أيها النائم . وقال عكرمة معناه ﴿ يا أيها المدثر ﴾ للنبوة وأثقالها ، واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى فقال جابر بن عبد الله وأبو سلمة والنخعي ومجاهد هو ﴿ يا أيها المدثر ﴾ الآيات . وقال الزهري والجمهور هو ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [العلق : 1] وهذا هو الأصح . وحديث صدر كتاب البخاري نص في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قم فأنذر ﴾ بعثة عامة إلى جميع الخلق . قال قتادة ، المعنى أنذر عذاب الله ووقائعه بالأمم ، وقوله تعالى : ﴿ وربك فكبر ﴾ معناه عظمه بالعبادة وبث شرعه . وروي عن أبي هريرة أن بعض المؤمنين قال : بم نفتتح

صلاتنا ؟ فنزلت ﴿ وربك فكبر ﴾ . واختلف المتأولون في معنى قوله ﴿ وثيابك فطهر ﴾ ، فقال ابن سيرين وابن زيد بن أسلم والشافعي وجماعة : هو أمر بتطهير الثياب حقيقة ، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب ، وقال الجمهور : هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض ، وهذا كما تقول فلان طاهر الثوب ، ويقال للفاجر دنس الثوب ، ومنه قول الشاعر [غيلان بن سلمة الثقفي] : [الطويل]

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من خزية أتقنع

وقال الآخر : [الرجز]

لاهم إن عامر ابن جهم . . . أوذم حجّاً في ثياب دهم

(122/790)

أي دنسه . وقال ابن عباس والضحاك وغيره ، المعنى لا تلبسها على غدرة ولا فجور ، وقال ابن عباس : المعنى لا تلبسها من مكسب خبيث ، وقال النخعي : المعنى طهرها من الذنوب ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض ، وقال طاوس : المعنى قصرها وشمرها ، فذلك طهرة للثياب . وقرأ جمهور الناس " والرِّجز " بكسر الراء ، وقرأ حفص عن عاصم

والحسن ومجاهد وأبو جعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن والنخعي وابن وثاب وقتادة وابن أبي إسحاق والأعرج: و" الرُّجز " بضم الراء . فقيل هما بمعنى يراد بهما الأصنام والأوثان ، وقيل هما لمعنيين الكسر للنتن والتقابض وفجور الكفار والضم لصنمين : " إساف ونائلة " ، قاله قتادة . وقيل للأصنام عموماً ، قاله مجاهد وعكرمة والزهري . وقال ابن عباس ﴿ الرجز ﴾ السخط ، فالمعنى اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه ، وقال الحسن : كل معصية رجز ، وروى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية بالأوثان .

(123/790)

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ . فقال ابن عباس وجماعة معه : لا تعط عطاء لتعطى أكثر منه ، فكأنه من قولهم ، من إذا أعطى ، قال الضحاك ، وهذا خاص بالنبي عليه السلام ، ومباح لأمته لكن لا أجر لهم فيه . قال مكي : وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ [الروم : 39] ، وهذا معنى أجنبي من معنى هذه السورة . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ لا تقل دعوت فلم أجب وروى قتادة أن المعنى لا تدل بعملك ، ففي هذا التأويل تحريض على الجد وتخويف ، وقال ابن زيد : معناه ﴿ ولا تمنن

﴿ على الناس بنبوءتك ﴿ تستكثر ﴾ بأجر أو بكسب تطلبه منهم . وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه ﴿ ولا تمنن ﴾ على الله بجدك ﴿ تستكثر ﴾ أعمالك ويقع لك بها إعجاب ، فهذه كلها من المن الذي هو تعديد اليد وذكرها . وقال مجاهد : معناه ولا تضعف ﴿ تستكثر ﴾ ما حملناك من أعباء الرسالة وتستكثر من الخير ، فهذه من قولهم حبل منين أي ضعيف ، وفي قراءة ابن مسعود : " ولا تمنن أن تستكثر " ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " تستكثرْ " بجزم الراء ، وذلك كأنه قال لا تستكثر ، وقرأ الأعمش : " تستكثرَ " بنصب الراء ، وذلك على تقدير أن مضمرة وضعف أبو حاتم الجزم ، وقرأ ابن أبي عبلة : " ولا تمنن فتستكثرْ " بالفاء العاطفة والجزم ، وقرأ أبو السمال : " ولا تمنّ " بنون واحدة مشددة . ﴿ ولربك فاصبر ﴾ ، أي لوجه ربك وطلب رضاه كما تقول فعلت لله تعالى ، والمعنى على الأدنى من الكفار وعلى العبادة وعن السهوات وعلى تكاليف النبوة ، قال ابن زيد وعلى حرب الأحمر والأسود لقد حمل أمراً عظيماً . و ﴿ الناقور ﴾ الذي ينفخ فيه وهو الصور ، قاله ابن عباس وعكرمة . وقال خفاف بن ندبة : [الوافر]

إذا ناقورهم يوماً تبدى . . . أجاب الناس من غرب وشرق

وهو فاعول من النقر ، وقال أبو حباب :

أمنا زرارة بن أوفى فلما بلغ في الناقور خر ميتاً .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ " ففزع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : " قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

و﴿ يوم عسير ﴾ معناه في عسر في الأمور الجارية على الكفار فوصف اليوم بالعسر لكونه ظرف زمان له . وكذلك تجيء صفته باليسر . وقرأ الحسن " عسر " بغير ياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز جـ 5 صـ ﴾

(125/790)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي يا ذا الذي قد تدثّر بثيابه ، أي تغشّي بها ونام ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما .

وقرأ أُبَيّ "الْمُتَدَثّر" على الأصل .

وقال مقاتل : معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُحدِّث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فَترة الوحي قال في حديثه : " فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فجُئِثْتُ منه فَرَقاً ، فرجعت فقلت زمّلوني زمّلوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرجز فاهجر ﴾ " في رواية قبل أن تفرض الصلاة وهي الأوثان قال : " ثم تتابع الوحي " خرجه الترمذي أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

قال مسلم : وحدّثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا الوليد ابن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعيّ قال : سمعت يحيى يقول : سألت أبا سلمة : أيُّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ فقلت : أو "اقرأ" .

فقال : سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ فقلت : أو "اقرأ" فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " جاورت بحِراء شهراً ، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أرا أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء يعني جبريل صلى الله عليه وسلم فأخذتني رَجْفَةٌ شديدةٌ ، فأتيت خديجة فقلت دثّروني ، فدثَّروني فصبُّوا عليّ ماء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ " خرجه البخاريّ وقال فيه : " "فأتيت خديجة فقلت دثّروني وصُبُّوا عليّ ماءً بارداً ، فدثَّروني وصَبُّوا عليّ ماءً بارداً فنزلت : ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرجز فاهجر * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ " ابن العربيّ : وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبيّ صلى الله عليه وسلم من عُقْبة بن ربيعة أمر ، فرجع إلى منزله مغموماً ، فقَلِق واضطجع ، فنزلت : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ وهذا باطل .

وقال القشيريّ أبو نصر : وقيل بلغه قول كُفار مكة أنت ساحر ، فوجِد من ذلك غمًّا وحُمَّ ، فتدثَّر بثيابه ، فقال الله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي لا تفكر في قولهم ، وبلغهم الرسالة .

وقيل : اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميّة بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عديّ وقالوا : قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج ، وهم يتساءلون عن أمر محمد ، وقد اختلفتم في الإخبار عنه ؛ فمن قائل يقول مجنون ، وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر ، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد ، فسمّوا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه ، وتسميه العرب به ، فقام منهم رجل فقال : شاعر ؛ فقال الوليد : سمعت كلام ابن الأبرص ، وأمية بن أبي الصَّلْت ، وما يشبه كلامُ محمدٍ كلامَ واحد منهما ؛ فقالوا : كاهن .

فقال : الكاهن يَصدُق ويكذِب وما كَذَب محمد قطّ ؛ فقام آخر فقال : مجنون ؛ فقال الوليد : المجنون يَخنُق الناس وما خَنَق محمد قطّ .

وانصرف الوليد إلى بيته ، فقالوا : صبأ الوليد بن المغيرة ؛ فدخل عليه أبو جهل وقال : مالك يا أبا عبد شمس ! هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونكه ، زعموا أنك قد احتجت وصبأت .

فقال الوليد : ما لي إلى ذلك حاجة ، ولكني فكرت في محمد ، فقلت : ما يكون من الساحر ؟ فقيل : يفرق بين الأب وابنه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين المرأة وزوجها ، فقلتُ : إنه ساحر .

شاع هذا في الناس وصاحوا يقولون : إن محمداً ساحر .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة ، ونزلت : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وقال عكرمة : معنى ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي المدَّثر بالنبوّة وأثقالها .

ابن العربي : وهذا مجاز بعيد ؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد .

وعلى أنها أوّل القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثاني ما نزل .

الثانية قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ : ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله ، وعبّر عنه بصفته ، ولم يقل يا محمد ويا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة "المزمل" .

(128/790)

ومثله " قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ إذ نام في المسجد : "قم أبا تراب" " وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه ؛ خرجه مسلم .

ومثله " قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : "قم يا نَوْمان" " وقد تقدّم .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي خوّف أهل مكة وحذِّرهم العذاب إن لم يُسلِموا .

وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته ؛ لأنه مقدمة الرسالة .

وقيل : هو دعاؤهم إلى التوحيد ؛ لأنه المقصود بها .

وقال الفراء : قم فصلّ وأمر بالصلاة .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي سيّدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم ، وصِفْه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد .

وفي حديث أنهم قالوا : بِم تُفتَتَح الصلاة ؟ فنزلت : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي وصفْه بأنه أكبر .

قال ابن العربيّ : وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة ، فإنه مراد به التكبير والتقديس والتنزيه ، لخلع الأنداد والأصنام دونه ، ولا تتخذ وليًّا غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ، ولا نعمة إلا منه .

وقد روي " أن أبا سفيان قال يوم أُحد : اعل هُبَل ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا الله أعلى وأجّل" " وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذاناً وصلاة وذكراً بقوله : " الله أكبر " وحمل عليه لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق في موارد ؛ منها قوله : " تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم " والشرع يقتضي بعرفه ما يَقْتَضي بعمومه ، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصاً له من الشِّرك ، وإعلاناً باسمه في النُّسك ، وإفراداً لما شرع منه لأمره بالسَّفْك .

قلت : قد تقدّم في أوّل سورة "البقرة" أن هذا اللفظ "الله أكبر" هو المتعبد به في الصلاة ، المنقول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(129/790)

وفي التفسير : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " الله أكبر " فكبّرت خديجة ، وعلمت أنه الوحي من الله تعالى ؛ ذكره القشيريّ .

الخامسة الفاء في قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء كما دلت في "فَأَنْذِرْ" أي قم فأنذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج .

وقال ابن جنّي : هو كقولك زيداً فاضرب ؛ أي زيداً اضرب ، فالفاء زئداة .

السادسة قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثمانية أقوال : أحدهما أن المراد بالثياب العمل .

الثاني القلب .

الثالث النفس .

الرابع الجسم .

الخامس الأهل .

السادس الخلق .

السابع الدين .

الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر .

فمن ذهب إلى القول الأوّل قال : تأويل الآية وعملك فأصلح ؛ قاله مجاهد وابن زيد .

وروى منصور عن أبي رَزِين قال : يقول وعملك فأصلح ؛ قال : وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلاناً خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلاناً طاهر الثياب ؛ ونحوه عن السُّديّ .

ومنه قول الشاعر :

لا هُمَّ إنّ عامَر بن جَهْمِ . . .

أَوْذَمَ حَجًّا في ثِيابٍ دُسْمِ

ومنه ما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُحشَر المرءُ في ثوبيه اللذين مات عليهما " يعني عمله الصالح والطالح ؛ ذكره الماورديّ .

ومن ذهب إلى القول الثاني قال : إن تأويل الآية وقلبك فطهِّر ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير ؛ دليله قول امريء القيس :

فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ . . .

أي قلبي من قلبك .

قال الماوردي : ولهم في تأويل الآية وجهان : أحدهما معناه وقلبك فطهّر من الإثم والمعاصي ؛ قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني وقلبك فطهر من الغدر ؛ أي لا تغدر فتكون دنس الثياب .

وهذا مرويّ عن ابن عباس ، واستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفيّ :

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ . . .

لبِستُ ولا مِن غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

(130/790)

ومن ذهب إلى القول الثالث قال : تأويل الآية ونفسك فطهر ؛ أي من الذنوب .

والعرب تكني عن النفس بالثياب ؛ قاله ابن عباس .

ومنه قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثيابَهُ . . .

ليس الكريمُ على القنا بُمَحرَّمِ

وقال امرؤ القيس :

فَسُلِّي ثيابِي من ثيابِك تَنْسُلِ . . .

وقال :

ثِيابُ بَني عوفٍ طَهارَى نقيَّةٌ . . .

وأَوْجُهُهُمْ بيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

أي أنفس بني عوف .

ومن ذهب إلى القول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر ؛ أي عن المعاصي الظاهرة .

ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلاً :

رموها بأَثْيابٍ خِفافٍ فلا تَرَى . . .

لها شَبَهاً إلاَّ النَّعامَ المُنَفَّرَا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم .

ومن ذهب إلى القول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمى الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً ؛ قال الله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] الماورديّ : ولهم في تأويل الآية وجهان : أحدهما معناه ونساءك فطهر ، باختيار المؤمنات العفائف .

الثاني الاستمتاع بهنّ في القبل دون الدبر ، في الطهر لا في الحيض .

حكاه ابن بحر .

ومن ذهب إلى القول السادس قال : تأويل الآية وخلقك فحسِّن .

قاله الحسن والقُرَظي ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه .

وقال الشاعر :

وَيَحْيَى لا يُلامُ بسوءِ خُلْقٍ . . .

وَيَحْيى طَاهِرُ الأثوابِ حُرُّ

أي حسن الأخلاق .

ومن ذهب إلى القول السابع قال : تأويل الآية ودينك فطهر .

وفي الصحيحين عنه عليه السلام قال : " ورأيت الناس وعليهم ثياب ، منها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما دون ذلك ، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجرّه" .

(131/790)

قالوا : يا رسول الله فما أوّلت ذلك ؟ قال : الدِّين " وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا في الصلاة والمساجد لا في الطريق ، قال الله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين .

وقد روى عبد الله بن نافع عن أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن

مالك بن أنس في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي لا تلبسها على غَدْرة ؛ ومنه قول أبي كَبشة :

ثِيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ . . .

وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَّانُ

يعني بطهارة ثيابهم : سلامتهم من الدناءات ، ويعني بغرة وجوههم تنزيهم عن المحرمات ، أو جمالهم في الخلقة أو كليهما ؛ قاله ابن العربي .

وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عِكرمة .

ومنه قول الشاعر :

أَوْذَمَ حَجًّا في ثيابٍ دُسْمِ . . .

أي قد دنّسها بالمعاصي .

وقال النابغة :

رِقَاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ . . .

يُحَيَّوْنَ بالرَّيحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات ، فلهم في تأويله أربعة أوجه : أحدهما معناه وثيابك فأنقِ ؛ ومنه قول امريء القيس :

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ . . .

الثاني وثيابك فشمِّرْ وقصِّرْ ، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة ، فإذا انجرت على الأرض لم يُؤْمَن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس .

الثالث ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ من النجاسة بالماء ؛ قاله محمد ابن سيرين وابن زيد والفقهاء .

الرابع لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام .

وعن ابن عباس : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر .

(132/790)

ابن العربي وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي تتناول معنيين : أحدهما تقصير الأذيال ؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخياً : ارفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى .

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه ، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من ذلك ففي النار " فقد جعل النبيّ صلى الله عليه

وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعّد ما تحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ، ويطيلون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكِبْر ، وفائدة العُجْب ، وأشدّ ما في الأمر أنهم يَعصُون وينجسون ويُلْحِقون أنفسهم بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء " ولفظ الصحيح : " من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة " .

" قال أبو بكر : يا رسول الله ! إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لست ممن يصنعه خيلاء" " فعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي ، واستثنى الصديق ، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء ، وليس ذلك لهم .

والمعنى الثاني غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها ، صحيح فيها .

المهدويّ : وبه استدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال ابن سيرين وابن زيد : لا تصلّ إلا في ثوب طاهر .

واحتج بها الشافعيّ على وجوب طهارة الثوب .

وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل .

وقد مضي هذا القول في سورة "براءة" مستوفىً .

قوله تعالى : ﴿ والرجز فاهجر ﴾

(133/790)

قال مجاهد وعكرمة : يعني الأوثان ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ قاله ابن عباس وابن زيد .

وعن ابن عباس أيضاً : والمأثم فاهجر ؛ أي فاترك .

وكذا روى مُغيرة عن إبراهيم النَّخَعيّ قال : الرُّجز الإثم .

وقال قتادة : الرجز : إصاف ونائلة ، صنمان كانا عند البيت .

وقيل : الرجز العذاب ، على تقدير حذف المضاف ؛ المعنى : وعَمَل الرجز فاهجر ، أو العمل المؤدّي إلى العذاب .

وأصل الرجز العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف : 134] وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء ﴾ [الأعراف : 162] فسّميت الأوثان رِجزاً ؛ لأنها تؤدي إلى العذاب .

وقراءة العامة "الرِّجْزَ" بكسر الراء .

وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم "والرُّجْزَ" بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر .

وقال أبو العالية والربيع والكسائيّ : الرُّجز بالضم : الصنم ، وبالكسر : النجاسة والمعصية .

وقال الكسائيّ أيضاً : بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب .

وقال السّديّ : الرَّجْز بنصب الراء : الوعيد :

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ فيه أحد عشر تأويلاً ؛ الأوّل لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوّة ، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير .

الثاني لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ؛ قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة .

قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ؛ وقاله مجاهد .

الثالث عن مجاهد أيضاً : لا تَضْعُفْ أن تستكثر من الخير ؛ من قولك حبل منين إذا كان ضعيفاً ؛ ودليله قراءة ابن مسعود "وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرِ مِنَ الْخَيْرِ" .

الرابع عن مجاهد أيضاً والربيع : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير ، فإنه مما أنعم الله عليك .

قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك ، إنما عملك مِنَّة من الله عليك ؛ إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته .

الخامس قال الحسن : لا تمنن على الله بعملك فتستكثره .

السادس لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به .

السابع قال القرظيّ : لا تعط مالك مصانعة .

الثامن قال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

التاسع لا تقل دعوت فلم يستجب لي .

العاشر لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها ، ولكن اصبر حتى يكون الله هو الذي يثيبك عليها .

الحادي عشر لا تفعل الخير لترائى به الناس .

الثانية هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال ؛ يقال : مننت فلاناً كذا أي أعطيته .

ويقال للعطية المِنّة ؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله ، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا ؛ ولهذا قال : " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس

مردود عليكم " وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين ؛ ولهذا لم يورث ؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء ، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا ؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية ، فكان يقبلها ويثيب عليها .

(135/790)

وقال : " لو دعيت إلى كُرَاع لأجبت ولو أهدي إليَّ ذراع لقبلت " ابن العربيّ : وكان يقبلها سُنَّة ولا يستكثرها شِرعة ، وإذا كان لا يعطِي عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب ؛ لأنها باب من أبواب المذلّة ، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطِي عطية تنتظر ثوابها ، فإن الانتظار تعلق بالأطماع ، وذلك في حيزه بحكم الامتناع ، وقد قال الله تعالى له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى ﴾

[طه : 131] وذلك جائز لسائر الخلق ؛ لأنه من متاع الدنيا ، وطلب الكسب والتكاثر بها .

وأما من قال أراد به العمل أي لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح ؛ فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن ﴾ قراءة العامة بإظهار التضعيف.

وقرأ أبو السَّمّال العدويّ وأشهب العُقيليّ والحسن "وَلَا تَمُنَّ" مدغمة مفتوحة.

"تَسْتَكْثِرُ": قراءة العامة بالرفع وهو في معنى الحال، تقول: جاء زيد يركض أي راكضاً؛ أي لا تعط شيئاً مقدّراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه.

وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء؛ لأنه ليس بجواب.

ويجوز أن يكون بدلاً من "تَمْنُنْ" كأنه قال: لا تستكثر.

وأنكره أبو حاتم وقال: لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه.

ويحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كعَضْد.

أو أن يعتبر حال الوقف.

وقرأ الأعمش ويحيى "تَسْتَكْثِرَ" بالنصب، تَوَهُّمَ لام كي، كأنه قال: ولا تمنن لتستكثر.

وقيل: هو بإضمار "أن" كقوله:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى . . .

ويؤيده قراءة ابن مسعود "وَلَا تَمْنُنْ أَن تَسْتَكْثِرَ".

قال الكسائيّ: فإذا حذف "أن" رفع، وكان المعنى واحداً.

وقد يكون المنّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم ، فيرجع إلى القول الثاني ، ويَعضُده قوله تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ﴾ وقد يكون مراداً في هذه الآية .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾

أي ولسيّدك ومالكك فاصبر على أداء فرائضه وعبادته .

وقال مجاهد : على ما أوذيت .

وقال ابن زيد : حُمِّلت أمراً عظيماً ؛ محاربةَ العرب والعجم ، فاصبر عليه لله .

وقيل : فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى .

وقيل : فاصبر على البلْوى ؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه .

وقيل : على أوامره ونواهيه .

وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي الناقور ﴾

إذا نفخ في الصور .

والناقور : فاعول من النقر ؛ كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر في كلام العرب : الصوت ؛ ومنه قول امرىء القيس .

أَخَفِّضُه بالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ . . .

وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِيض

وهم يقولون : نَقَّر باسم الرجل إذ دعاه مختصًّا له بدعائه .

وقال مجاهد وغيره : هو كهيئة البوق ، ويعني به النفخة الثانية .

وقيل : الأولى ؛ لأنها أوّل الشدّة الهائلة العامة .

وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في "النمل" و "الأنعام" وفي كتاب "التذكرة" ، والحمد لله .

وعن أبي حبَّان قال : أَمَّنَا زُرَارةُ بن أوفى فلما بلغ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ خَرَّ ميتاً .

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي غير سهل ولا هيّن ؛ وذلك أن عُقَدَهم لا تنحل إلا إلى عُقدة أشدّ منها ، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى .

و "يَوْمَئِذٍ" نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ .

وقيل : جرّ بتقدير حرف جر ، مجازه : فذلك في يومئذ .

وقيل : يجوز أن يكون رفعاً إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ الآيَةَ ،

اخْتُلِفَ في أول ما نزل من القرآن ، فقال الجمهورُ هو : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ وهذا هو الأَصَحُّ ، وقال جابرٌ وجماعةٌ هو : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، * ص * : والتَّدَثُّرُ : لُبْسُ الدِّثَارِ ، وهو الثَّوْبُ الذي فَوْقَ الشِّعَارِ ، والشِّعَارُ الثَّوبُ الذي يلي الجَسَدَ ؛ ومنه قوله : عليه السلام : " الأَنْصَارُ شِعَارٌ ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ " انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ بَعْثَةٌ عامةٌ إلى جميع الخلق .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : فعظمْ .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال ابنُ زيدٍ وجماعة : هو أمْرٌ بتطهيرِ الثيابِ حَقِيقةً ، وذَهَبَ الشافعيُّ وغيرُه من هذه الآيةِ إلى : وجُوبِ غَسْلِ النَّجَاسَاتِ مِنَ الثيابِ ، وقالَ الجُمْهُورُ : هَذِهِ الأَلْفَاظُ اسْتِعَارَةٌ في تنقيةِ الأَفْعَالِ والنَّفْسِ ، والعِرْضِ ، وهذا كما تقول : فلانٌ طَاهِرُ الثوبِ ، ويقال للفَاجِرِ : دَنِسُ الثَّوْبِ ، قال ابن العربي في «أحكامه» : والذي يقول إنها الثيابُ المَجَازِيَّةُ أَكْثَرَ ، وكثيراً ما تستعملُه العَرَبُ ، قال أبو كَبْشَةَ : [الطويل]

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طهارى نَقِيَّةٌ . . . وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ المَشَاهِدِ غُرَّانُ

يعني : بطهارةِ ثيابهم وسلامَتهم من الدَّنَاءَاتِ ، وقال غَيْلاَنُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ : [الطويل]

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ . . . لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

(138/790)

ولَيْسَ يمتنع أن تُحْمَلَ الآيةُ على عمومِ المرادِ فيها بالحقيقةِ والمجازِ على ما بيَّناه في أصولِ الفقه ، وإذا حملنَاها على الثيابِ المعلومَة ؛ فهي تتناول معنيين : أحدهما : تَقْصِيرُ الأَذْيَالِ ؛ فإنَّها إذا أُرْسِلَتْ تَدَنَّسَتْ ، وتَقْصِيرُ الذيلِ أَنْقى لثَوْبه وأَتْقَى لربّه ، المَعْنَى الثَّاني : غَسْلُها من النَّجاسَةِ فهو ظَاهِرٌ منها صحيحٌ فيها ، انتهى ، قال الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ رضي اللَّه عنه : رأَيْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المَنَامِ ، فقالَ : يَا عَلِيُّ ، طَهِّرْ ثِيَابَكَ مِنَ الدَّنَسِ ، تَحْظَ بِمَدَدِ اللَّهِ في كُلِّ نَفَسٍ ، فَقُلْتُ : وَمَا ثِيَابِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ كَسَاكَ [حُلَّةَ المَعْرِفَةِ ، ثُمَّ] حُلَّةَ المَحَبَّةِ ، ثُمَّ حلةَ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ حُلَّةَ الإِيمَانِ ، ثُمَّ حُلَّةَ الإِسْلاَمِ ، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ صَغُرَ لديْهِ كُلُّ شَيْءٍ ، ومَنْ أَحَبَّ اللَّهَ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ وَحَّدَ اللَّهَ ، لَمْ يُشْرِكْ به شَيْئاً ، ومَنْ آمَنَ بِاللَّهِ أَمِنَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَسْلَمَ للهِ قَلَّمَا يَعْصِيهِ ، وإِنْ عَصَاهُ ، اعتذر

إِلَيْهِ ، وَإِذَا اعتذر إليه ، قَبِلَ عُذْرَه ، قال : فَفَهِمْتُ حِينَئِذٍ معنى قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ انتهى من «التنوير» لابن عطاء اللَّه .

(139/790)

﴿ والرجز ﴾ يعني الأَصْنَام والأَوْثَانَ ، وقال ابن عباس : الرُّجْزُ السَّخَط يعني : اهْجُرْ ما يؤدي إليه ويوجبُه ، واخْتُلِفَ في معنى قولِهِ تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ فقال ابن عباس وجماعة : معناه لاَ تَعْطِ عَطَاءً لِتُعْطَى أَكْثَرَ منه ، فكأَنه من قولهم : مَنَّ إِذَا أَعْطَى ، قال الضحاك : وهذَا خاصٌّ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم ومُبَاحٌ لأُمَّتِه ، لكنْ لاَ أَجْرَ لهم فيه ، وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه ولاَ تَمْنُنْ على اللَّهِ بجدّكَ ، تَسْتَكْثِرْ أَعْمَالَك ، ويَقَعْ لَكَ بها إِعْجَابٌ ، قال *ع* : وهَذَا مِنَ المنِّ الذي هو تعديدُ اليَدِ وذكرُها ، وقال مجاهد : معناه ولاَ تَضْعُفْ تَسْتَكْثِرْ مَا حَمَّلْنَاك من أعباء الرسالةِ ، وتستكثرْ مِنَ الخَيْرِ ؛ وهَذَا من قولهم حَبْلٌ مَنِينٌ أي : ضعيفٌ .

(140/790)

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي لوجهِ ربِّكَ وطَلَبِ رضَاهُ فاصْبِرْ على أذَى الكفارِ ، وعلى العبادةِ وعَنِ الشَّهَوَاتِ وعَلَى تكَالِيفِ النُّبُوَّةِ ، قال ابن زيدٍ : وعَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ ، والأَسْوَدِ ، ولَقَدْ حُمِّلَ أَمْراً عَظِيماً صلى الله عليه وسلم ، والنَّاقُورُ : الذي يُنْفَخُ فيه ، وهو الصُّور ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وهو فَاعُولٌ مِنَ النَّقْرِ ، قال أبو حباب القصاب : أَمَّنَا زُرَارَةُ بنُ أَوْفَى ؛ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ خَرَّ مَيِّتاً ، قال الفخر : قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي : على الكافرين ، لأَنَّهُمْ يُنَاقَشُونَ ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي : بل كَثِيرٌ شَدِيدٌ فأَمَّا المؤمنونَ ؛ فَإِنَّه عليهم يَسِيرٌ ؛ لأَنَّهم لا يُنَاقَشُونَ ، قال ابن عباس : ولما قال تعالى : ﴿ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ دَلَّ على أنه يسيرٌ على المؤمنينَ ، وهذا هو دليلُ الخِطَابِ ، ويحتمل أَنْ يكونَ إنما وَصَفَه تعالى بالعُسْرِ لأَنَّه في نفسِه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين ، إلاَّ أَنَّه يكونُ هَوْلُ الكفار فيه أَكْثَرُ وَأَشَدُّ ، وعلى هذا القولِ يَحْسُنُ الوَقْفُ على قوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(141/790)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾

أصله المتدثر فأدغم وهو على الأصل في حرف أبي من تدثر لبس الدثار بكسر الدال وهو ما فوق القميص الذي يلي البدن ويسمى شعاراً لاتصاله بالبشرة والشعر ومنه قوله عليه الصلاة والسلام الأنصار شعار والناس دثار والتركيب على ما قيل دائر مع معنى الستر على سبيل الشمول كان الدثار ستر بالغ مكشوف نودي صلى الله عليه وسلم باسم مشتق من صفته التي كان عليها تأنيساً له وملاطفة كما سمعت في ﴿ يا أَيُّهَا المزمل ﴾ [المزمل : 1] وتدثره عليه الصلاة والسلام لما سمعت آنفاً وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قال ما تقولون في هذا الرجل فاختلفوا ثم اجتمع رأيهم على أنه سحر يؤثر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر أي كما يفعل المغموم فأنزل الله تعالى : ﴿ رَّحِيمٌ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ [المدثر : 1-7] .

وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية على معنى المتحلي بها والمتزين بآثارها وقيل أطلق المدثر وأريد به الغائب عن النظر على الاستعارة والتشبيه فهو نداء له بما كان عليه في غار حراء وقيل الظاهر أن يراد بالمدثر وكذا بالمزمل الكناية عن المستريح الفارغ لأنه في أول البعثة فكأنه قيل له عليه الصلاة والسلام قد مضى زمن الراحة وجاءتك المتاعب من التكاليف وهداية الناس وأنت تعلم أنه لا ينافي إرادة الحقيقة وأمر التلطيف على حاله وقال بعض السادة أي ﴿ يا أيها الساتر ﴾ للحقيقة المحمدية بدثار الصورة

الآدمية أو يا أيها الغائب عن أنظار الخليقة فلا يعرفك سوى الله تعالى على الحقيقة إلى غير ذلك من العبارات والكل إشارة إلى ما قالوا في الحقيقة المحمدية من أنها حقيقة الحقائق التي لا يقف على كنهها أحد من الخلائق وعلى لسانها قال من قال :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة . . .

(142/790)

فلي فيه معنى شاهد بابوتي

وإنها التعين الأول وخازن السر المقفل وأنها وأنها إلى أمور هيهات أن يكون للعقل إليها منتهى .

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى . . .

في القرب والبعد منه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد . . .

صغيرة وتكل الطرف من أمم

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته . . .

قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر . . .

وأنه خير خلق الله كلهم

وقرأ عكرمة المدثر بتخفيف الدال وتشديد الثاء المكسورة على زنة الفاعل وعنه أيضاً المدثر بالتخفيف والتشديد على زنة المفعول من دثره وقال دثرت هذا الأمر وعصب بك أي شد والمعنى أنه المعول عليه فالعظائم به منوطة وأمور حلها وعقدها به مربوطة فكأنه قيل يا من توقف أمور الناس عليه لأنه وسيلتهم عند الله عز وجل .

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

﴿ قُمِ ﴾ من مضجعك أو قم قيام عزم وتصميم وجعله أبو حيان على هذا المعنى من أفعال الشروع كقولهم قام زيد يفعل كذا وقوله

: على ما قام يشتمني لئيم . . .

وقام بهذا المعنى من أخوات كاد وتعقب بأنه لا يخفى بعده هنا لأنه استعمال غير مألوف وورود الأمر منه غير معروف مع احتياجه إلى تقدير الخبر فيه وكله تعسف ﴿ فَأَنْذِرْ ﴾ أي فافعل الإنذار أو أحدثه فلا يقصد منذر مخصوص وقيل يقدر المفعول خاصاً أي فأنذر عشيرتك الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة في الواقع وقيل يقدر عاماً أي فأنذر جميع الناس لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرسلناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ : 28] ولم يقل هنا وبشر لأنه كان في ابتداء النبوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه

التبشير وفي هذا الأمر بعد ذلك النداء إشارة عند بعض السادة إلى مقام الجلوة بعد الخلوة قالوا وإليهما الإشارة أيضاً في حديث "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف" الخ.

(143/790)

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ واخصص ربك بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة اعتقاداً وقولاً ويروى أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكبر فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك والأمر بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم غني عن الاستدلال وجوز أن يحمل على تكبير الصلاة فقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قلنا : يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفتح الصلاة بالتكبير وأنت تعلم أن نزول هذه الآية كان حيث لا صلاة أصلاً فهذا الخبر إن صح مؤول والفاء هنا وفيما بعد لإفادة معنى الشرط فكأنه قيل وما كان أي أي شيء حدث فلا تدع تكبيره عز وجل فالفاء جزائية وهي لكونها على ما قيل مزحلقة لا يضر عمل ما بعدها فيما قبلها وقيل أنها دخلت في كلامهم على توهم شرط فلما لم تكن في جواب شرط محقق كانت في الحقيقة زائدة فلم يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها لذلك ثم إن في ذكر هذه الجملة بعد الأمر

السابق مقدمة على سائر الجمل إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير وإيماء على ما قيل إلى أن المقصود الأولى من الأمر بالقيام أن يكبر ربه عز وجل وينزهه من الشرك فإن أول ما يجب معرفة الله تعالى ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه والكلام عليه من باب إياك أعني واسمعي يا جاره وقد يقال لعل ذكر هذه الجملة كذلك مسارعة لتشجيعه عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه عز وجل حيث تضمنت الإشارة إلى أن نواصي الخلائق بيده تعالى وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته فلا ينبغي أن يرهب إلا منه ولا يرغب إلا فيه فكأنه قيل قم فأنذر وأخصص ربك بالتكبير فلا يصدنك شيء عن الإنذار فتدبر .

(144/790)

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه يقال فلان طاهر الثياب نقي الذيل والأردان إذا وصف بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ويقال فلان دنس الثياب وكذا دسم الثياب للغادر ولمن قبح فعله ومن الأول قول الشاعر :

ويحيى ما يلام بسوء خلق . . .

ويحيى طاهر الأثواب حر

ومن الثاني قوله :

لا هم أن عامر بن جهم . . .

أو ذم حجا في ثياب دسم

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة .

أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال فيها يقول طهرها من المعاصي وهي كلمة عربية كانت العرب إذا نكث الرجل ولم يف بعهد قالوا إن فلاناً لدنس الثياب وإذا وفى وأصلح قالوا إن فلاناً لطاهر الثياب وأخرج ابن المنذر عن أبي مالك أنه قال فيها عنى نفسه وأخرج هو وجماعة عن مجاهد أنه قال أي وعملك فأصلح ونحوه عن أبي رزين والسدي وأخرج هو أيضاً وجماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال وثيابك فطهر أي من الإثم وفي رواية من الغدر أي لا تكن غداراً وفي رواية جماعة عن عكرمة أن ابن عباس سئل عن قوله تعالى وثيابك فطهر فقال لا تلبسها على غدرة ولا فجرة ثم قال ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . .

لبست ولا من غدرة أتقنع

ونحوه عن الضحاك وابن جبير عن الحسن والقرطبي أي وخلقك فحسن وأنشدوا للكناية

عن النفس بالثياب قول عنترة .

فشككت بالرمح الطويل ثيابه . . .

ليس الكريم على القنا بمحرم

وفي رواية عن الحبر وابن جبير أنه كني بالثياب عن القلب كما في قول امرىء القيس :

فإن تك قد ساءتك مني خليقة . . .

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

وقيل كني بها عن الجسم كما في قول ليلى وقد ذكرت إبلاً ركبها قوم وذهبوا بها :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى . . .

لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدم .

(145/790)

ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه وقيل على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة القوة العلمية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه وقيل أنه أمر له صلى الله عليه وسلم بالتخلق بالأخلاق الحسنة الموجبة لقبول الإنذار

بعد أمره عليه الصلاة والسلام بتخصيصه ربه عز وجل بالتكبير الذي ربما يوهم آباءه خفض الجناح لما سواه عز وجل واقتضاءه عدم المبالاة والاكتراث بمن كان فضلاً عن أعداء الله جل وعلا فكان ذكره لدفع ذلك التوهم وقيل على تفسير المدثر بالتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية المعنى طهر دثارات النبوة وآثارها وأنوارها الساطعة من مشكاة ذاتك عما يدنسها من الحقد والضجر وقلة الصبر وقيل الثياب كناية عن النساء كما قال تعالى

(146/790)

﴿ هن لباس لكم ﴾ [البقرة : 187] وتطهيرهن من الخطايا والمعايب بالوعظ والتأديب كما قال سبحانه : ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] وقيل تطهيرهن اختيار المؤمنات العفائف منهن وقيل وطؤهن في القبل لا في الدبر وفي الطهر لا في الحيض حكاه ابن بحر وأصل القول فيما أرى بعيد عن السياق ثم رأيت الفخر صرح بذلك وذهب جمع إلى أن الثياب على حقيقتها فقال محمد بن سيرين أي اغسلها بالماء إن كانت متنجسة وروي نحوه عن ابن زيد وهو قول الشافعي رضي الله تعالى عنه ومن هنا ذهب غير واحد إلى وجوب غسل النجاسة من ثياب المصلي وأمر صلى الله عليه وسلم بذلك

على ما روي عن ابن زيد مخالفة للمشركين لأنهم ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات وقيل ألقى عليه صلى الله عليه وسلم سلا شاة فشق عليه فرجع إلى بيته حزيناً فتدثر فقيل له : ﴿ رَّحِيمٌ يا أَيُّهَا المدثر قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ولا تمنعنك تلك السفاهة عن الإنذار ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ عن أن لا ينتقم منهم ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات وإرادة التطهير من النجاسة للصلاة بدون ملاحظة قصة قيل خلاف الظاهر ولا تناسب الجملة عليها ما قبلها إلا على تقدير أن يراد بالتكبير التكبير للصلاة وبعض من فسر الثياب بالجسم جوز إبقاء التطهير على حقيقته وقال أمر عليه الصلاة والسلام بالتنظيف وقت الاستنجاء لأن العرب ما كانوا ينظفون أجسامهم أيضاً عن النجاسة وكان كثير منهم يبول على عقبه وقال بعض الأمر لمطلق الطلب فإن تطهير ما ليس بطاهر من الثياب واجب في الصلاة ومحبوب في غيرها وقيل تطهيرها تقصيرها وهو أيضاً أمر له عليه الصلاة والسلام برفض عادات العرب المذمومة فقد كانت عادتهم تطويل الثياب وجرهم الذيول على سبيل الفخر والتكبر قال الشاعر :

ثم راحوا عبق المسك بهم . . .

يلحفون الأرض هداب الأزر

وفي الحديث " أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففي النار " واستعمال التطهير في التقصير مجاز للزومه له فكثيراً ما يفضي تطويلها إلى جر ذيولها على القاذورات ومن الناس من جعل التقصير بعد إرادته من التطهير كناية عن عدم التكبر والخيلاء ويكون ذلك أمراً له صلى الله عليه وسلم بالتواضع والمداومة على ترك جر ذيول التكبر والخيلاء بعد أمره بتخصيص الكبرياء والعظمة به تعالى قولاً واعتقاداً فكأنه قيل وربك فكبر وأنت لا تتكبر ليتسنى لك أمر الإنذار وبعض من يرى جواز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل التطهير على حقيقته ومجازه أعني التقصير والتوصل إلى إرادة مثل ذلك عند من لا يرى جواز الجمع سهل وجوز أن يراد بالتطهير إزالة ما يستقذر مطلقاً سواء النجس أو غيره من المستقذر الطاهر ومنه الأوساخ فيكون ذلك أمراً له صلى الله عليه وسلم بتنظيف ثيابه وإزالة ما يكون فيها من وسخ وغيره من كل ما يستقذر فإنه منفر لا يليق بمقام البعثة ويستلزم هذا بالأولى تنظيف البدن من ذلك ولذا كان صلى الله عليه وسلم أنظف الناس ثوباً وبدناً وربما يقال باستلزام ذلك بالأولى أيضاً الأمر بالتنزه عن المنفر القولي والفعلي كالفحش والفظاظة والغلظة إلى غير ذلك فلا تغفل .

﴿ والرجز فاهجر ﴾

قال القتبي الرجز العذاب وأصله الاضطراب وقد أقيم مقام سببه المؤدي إليه من المآثم فكأنه قيل اهجر المآثم والمعاصي المؤد إلى العذاب أو الكلام بتقدير مضاف أي أسباب الرجز أو التجوز في النسبة على ما قيل ونحو هذا قول ابن عباس الرجز السخط وفسر الحسن الرجز بالمعصية والنخعي بالاثم وهو بيان للمراد ولما كان المخاطب بهذا الأمر هو النبي صلى الله عليه وسلم وهو البرىء عن ذلك كان من باب اياك أعني واسمعي أو المراد الدوام والثبات على هجر ذلك وقيل الرجز اسم لصنمين اساف ونائلة وقيل للاصنام عموماً وروي ذلك من مجاهد وعكرمة والزهري والكلام على ما سمعت آنفاً وقيل الرجز اسم للقبيح المستقذر والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجر الجفاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه ﴿ وثيابك فطهر ﴾ [المدثر : 4] وقرأ الأكثرون الرجز بكسر الراء وهي لغة قريش ومعنى المكسور والمضموم واحد عند جمع وعن مجاهد ان المضموم بمعنى الصنم والمكسور بمعنى العذاب وقيل المكسور النقائص والفجور والمضموم اساف ونائلة وفي كتاب الخليل الرجز

بضم الراء عبادة الأوثان وبكسرها العذاب ومن كلام السادة أي الدنيا فاترك وهو مبني على أنه أريد بالرجز الصنم والدنيا من أعظم الأصنام التي حبها بين العبد وبين مولاه وعبدتها أكثر من عبدتها فإنها تعبد في البيع والكنائس والصوامع والمساجد وغير ذلك أو أريد بالرجز القبيح المستقذر والدنيا عند العارف في غاية القبح والقذارة فعن الأمير كرم الله تعالى وجهه أنه قال الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليها كلب في يد مجذوم وقال الشافعي :

وما هي الأجيفة مستحيلة . . .

عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها . . .

وإن تجتذبها نازعتك كلابها

(149/790)

ويقال كل ما ألهى عن الله عز وجل فهو رجز يجب على طالب الله تعالى هجره إذ بهذا الهجر ينال الوصال وبذلك القطع يحصل الاتصال ومن أعظم لاه عن الله تعالى النفس ومن

هنا قيل أي نفسك فخالفها والكلام في كل ذلك من باب إياك أعني أو القصد فيه إلى الدوام والثبات كما تقدم.

(150/790)

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي ولا تعط مستكثر أي طالبا للكثير ممن تعطيه قاله ابن عباس فهو نهى عن الاستغزار وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة موقوفاً على شريح المستغزر يثاب من هبته والأصح عند الشافعية أن النهي للتحريم وانه من خواصه عليه الصلاة والسلام لأن الله تعالى اختار له عليه الصلاة والسلام أكمل الصفات وأشرف الأخلاق فامتنع عليه أن يهب لعوض أكثر وقيل هو نهي تنزيه للكل أو ولا تعط مستكثراً أي رائيا لما تعطيه كثيراً فالسين للوجدان لا للطلب كما في الوجه الأول الظاهر والنهي عن ذلك لأنه نوع إعجاب وفيه بخل خفي وعن الحسن والربيع لا تمنن بحسناتك على الله تعالى مستكثراً لها أي رائيا إياها كثيرة فتنقص عند الله عز وجل وعد من استكثار الحسنات بعض السادة رؤية أنها حسنات وعدم خشية الرد والغفلة عن كونها منه تعالى حقيقة وعن ابن زيد لا تمنن بما أعطاك الله تعالى من النبوة والقرآن مستكثراً به أي طالباً كثير الأجر من الناس وعن

مجاهد لا تضعف عن عملك مستكثراً لطاعتك فتمنن من قولهم حبل منين أي ضعيف ويتضمن هذا المعنى ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال أي لا تقل قد دعوتهم فلم يقبل مني عد فادعهم وقرأ الحسن وابن أبي عبلة تستكثر بسكون الراء وخرج على أنه جزم والفعل بدل من تمنن المجزوم بلا الناهية كانه قيل ولا تمنن لا تستكثر لأن من شأن المان بما يعطي أن يستكثره أي يراه كثيراً ويعتد به وهو بدل اشتمال وقيل بدل كل من كل على دعاء الاتحاد وفي الكشف الابدال من تمنن على أن المن هو الاعتداد بما أعطى لا الاعطاء نفسه فيه لطيفة لأن الاستكثار مقدمة المن فكأنه قيل لا تستكثر فضلاً عن المن وجوز أن يكون سكون وقف حقيقة أو بإجراء الوصل مجراه أو سكون تخفيف على أن شبه ثرو بعضد فسكن الراء الواقعة بين الثاء وواو ﴿ ولربك ﴾ كما سكنت الضاد وليس

(151/790)

بذاك والجملة عليه في موضع الحال وقرأ الحسن أيضاً والأعمش تستكثر بالنصب على اضمار أن كقولهم مره يحفرها أي أن يحفرها وقوله

: ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى . . .

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

في رواية نصب أحضر وقرأ ابن مسعود أن تستكثر بإظهار أن فالمن بمعنى الإعطاء والكلام على إرادة التعليل أي ولا تعط لأجل أن تستكثر أي تطلب الكثير ممن تعطيه وأيد به إرادة المعنى الأول في قراءة الرفع وجوز الزمخشري في تلك القراءة أن يكون الرفع لحذف أن وابطال عملها كما روي أحضر الوغى بالرفع فالجملة حينئذ ليست حالية وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز حمل القرآن على ذلك إذ لا يجوز ما ذكر إلا في الشعر ولنا مندوحة عنه مع صحة معنى الحال ورد بأن المخالف للقياس بقاء عملها بعد حذفها وأما الحذف والرفع فلا محذور فيه وقد أجازه النحاة ومنه تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

(152/790)

﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾

قيل على أذى المشركين وقيل على أداء الفرائض وقال ابن زيد على حرب الأحمر والأسود وفيه بعد إذ لم يكن جهاد يوم نزولها وعن النخعي على عطيتك كأنه وصله بما قبله وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار والوجه كما قال جار الله أن يكون أمراً بنفس الفعل والمعنى لقصد جهته تعالى وجانبه عز وجل فاستعمل الصبر فيتناول لعدم تقدير المتعلق المفيد للعموم كل ومصبور عليه مصبور عنه ويراد الصبر على أذى المشركين لأنه فرد من

أفراد العام لا لأنه وحده هو المراد وعن ابن عباس الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء الفرائض وله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة وصبر على المصائب عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة وذلك لشدته على النفس وعدم التمكن منه إلا بمزيد اليقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا وذكروا أن للصبر باعتبار حكمه أربعة أقسام فرض كالصبر عن المحظورات وعلى أداء الواجبات ونفل كالصبر عن المكروهات والصبر على المسنونات ومكروه كالصبر عن أداء المسنونات والصبر على فعل المكروهات وحرام كالصبر على من يقصد حريمه بمحرم وترك التعرض له مع القدرة إلى غير ذلك وتمام الكلام عليه في محله وفضائل الصبر الشرعي المحمود مما لا تحصى ويكفي في ذلك قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : 10] وقوله صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً "

(153/790)

﴿ فَإِذَا نُقِرَ ﴾ أي نفخ ﴿ فِى الناقور ﴾ في الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سببه ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به ولهذه السببية تجوز به عنه وشاع ذلك وأريد به النفخ لأنه نوع منه والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه والعامل في إذا ما دل عليه قوله تعالى :

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين ﴾ فالمعنى إذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين والفاء في هذا للجزاء وذلك إشارة إلى وقت النقر المفهوم من فإذا نقر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد لفظاً بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة ومحله الرفع على الابتداء ويومئذ قيل بدل منه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن والخبر يوم عسير فكأنه قيل فيوم النقر يوم عسير وجوز أن يكون يومئذ ظرفاً مستقراً ليوم عسير أي صفة له فلما تقدم عليه صار حالا منه والذي أجاز ذلك على ما في الكشاف أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور فهو على منوال زمن الربيع العيد فيه أي وقوع العيد فيه وما له فذلك الوقوع وقوع يوم الخ ومما ذكر يعلم إندفاع ما يتوهم من تقديم معمول المصدر أو معمول ما في صلته على المصدر ان جعل ظرف الوقوع المقدر أو ظرف عسير والتصريح بلفظ وقوع إبراز للمعنى وتقصي عن جعل الزمان مظروف الزمان برجوعه إلى الحدث فتدبر وظاهر صنيع الكشاف اختيار هذا الوجه

وكذا كلام صاحب الكشف إذ قرره على أتم وجه وادعى فيما سبق تعسفاً نعم جوز عليه الرحمة أن يكون يومئذ معمول ما دل عليه الجزاء أيضاً كأنه قيل فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين يومئذ وأياً ما كان فعلى الكافرين متعلق بعسير وقيل بمحذوف هو صفة لعسير أو حال من المستكن فيه وأجاز أبو البقاء تعلقه بيسير في قوله تعالى :

(154/790)

﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وهو الذي يقتضيه كلام قتادة وتعقبه أبو حيان بأنه ينبغي أن لا يجوز لأن فيه تقديم معمول المضاف إليه على المضاف وهو ممنوع على الصحيح وقد أجازه بعضهم في غير حملا لها على لا فيقول أنا بزيد غير راض وزعم الحوفي إن إذا متعلقة ب ﴿ أنذر ﴾ والفاء زائدة وأراد أنها مفعول به لا نذر كأنه قيل قم فانذرهم وقت النقر في الناقور وقوله تعالى فذلك الخ جملة مستأنفة في موضع التعليل وهو كما ترى وجوز أبو البقاء تخريج الآية على قول الأخفش بأن تكون إذا مبتدأ والخبر فذلك والفاء زائدة وجعل يومئذ ظرفاً لذلك ولا أظنك في مرية من أنه كلام أخفش وقال بعض الأجلة إن ذلك مبتدأ وهو إشارة إلى المصدر أي فذلك النقر وهو العامل في يومئذ ويوم عسير خبر المبتدأ والمضاف مقدر أي فذلك النقر في ذلك اليوم نقر يوم وفيه تكلف وعدول عن الظاهر مع أن عسر اليوم غير

مقصود بالإفادة عليه وظاهر السياق قصده بالإفادة وجعل العلامة الطيبي هذه الآية من قبيل ما اتحد فيه الشرط والجزاء نحو من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله إذ جعل الإشارة إلى وقت النقر وقال ان في ذلك مع ضم التكرير دلالة على التنبيه على الخطب الجليل والأمر العظيم وفيه نظر وفائدة قوله سبحانه غير يسير أي سهل بعد قوله تعالى عسير تأكيد عسره على الكافرين فهو يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ويشعر بتيسره على المؤمنين كأنه قيل عسير على الكافرين غير يسير عليهم كما هو يسير على أضدادهم المؤمنين ففيه جمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ولا يتوقف هذا على تعلق على الكافرين بيسير نعم الأمر عليه أظهر كما لا يخفى ثم مع هذا لا يخلو قلب المؤمن من الخوف أخرج ابن سعيد والحاكم عن بهز بن حكيم قال أمنا زرارة بن أوفي فقرأ المدثر فلما بلغ فإذا نقر في الناقور خر ميتاً فكنت فيمن حمله وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس

(155/790)

قال لما نزلت فإذا نقر في الناقور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر قالوا كيف نقول

يا رسول الله قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل وعلى الله توكلنا " واختلف في أن المراد بذلك الوقت يوم النفخة الأولى أو يوم النفخة الثانية ورجح أنه يوم الثانية لأنه الذي يختص عسره بالكافرين وأما وقت النفخة الأولى فحكمه الذي هو الاصعاف يعم البر والفاجر وهو على المشهور مختص بمن كان حيا عند وقوع النفخة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(156/790)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

74 ـ سورة المدثر

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة المزمل .

عدد آياتها : ست وخمسون آية .

عدد كلماتها : مائتان وخمس وخمسون . . كلمة عدد حروفها : ألف حرف ، وعشرة حروف .

مناسبتها لما قبلها كانت سورة « المزمل » دعوة لإيقاظ النبي ، وتنبيهه إلى الحياة الجديدة التي سيبدأ رحلتها منذ اليوم الذي التقى فيه برسول الوحى في غار « حراء » مستفتحا

رسالة السماء إليه بقوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » وقد أخذ النبيّ من هذا اللقاء ما أخذه ، من قلق وجزع ، . حتى لقد لزم بيته ، وأرخى ستارا بينه وبين الحياة ، لا يدرى ماذا ينتظره في غده ! وجاء الوحى الذي لقيه في الغار ، ليشرح له الموقف ، وليبين له ، أن الأمر الذي تلقّاه ، ليس هو أن يقرأ ما يسمع منه وحسب ، وإنما ذلك هو بدء قراءة دائمة متصله بينهما ، ثم هو بدء قراءة بين « محمد » وبين الناس جميعا . . إنه منذ اليوم ، هو رسول اللّه إلى الناس جميعا ، وأنه محمّل برسالة من عند اللّه يؤديها إليهم . . وأداء هذه الرسالة يقتضيه بأن يرفع هذا الغطاء عنه ، وأن يستيقظ استيقاظا كاملا ، وأن يصحو صحوة لا يخالطها فتور ، حتى يستطيع أن يحمل هذه الرسالة الكبرى ، ويواجه الناس بها : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »

(157/790)

ولقد استيقظ « المزمل » ورفع الغطاء عنه ، وقام الليل إلا قليلا ، يرتل ما نزل عليه من آيات ربه ، ويعيش معها بوجوده كله ، حتى يتمثل هذه الآيات حرفا حرفا ، وكلمة كلمة ، وحتى يكون هو نفسه على مستوى هذه الآيات ، كمالا ، وروعة ، وجلالا . . إنه الوعاء الحامل

لآيات اللّه إلى الناس ، وإن للوعاء وزنه ، وقدره ، وأثره ، فى المادة الحامل لها ، وفيما يرى الناظرون إليها منه ، وما يقع في نفوسهم منها . .

وإذ قد استيقظ « المزمل » وأخذ أهبته المهمة الجديدة التي كلف بها ، وتزود لها بالزاد الذي يعينه عليها ، ولم يبق إلا أن يؤذن له ببدء المسيرة إلى حيث يلتقى بالناس ، ويؤذّن فيهم برسالة اللّه المرسل بها إليهم - إذ يصل الأمر إلى هذا الحدّ ، فها هو ذا رسول الوحى ، يطرق الباب على النبي ، ثم يدخل عليه ، فيجده متدثرا في ثيابه ، قائما في محراب ذكره للّه ، وترتيله آيات اللّه ، فيهتف به ب قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ » إنها دعوة إلى قيام غير القيام الأول الذي دعى إليه في قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » وإن المزمل غير المدثر . . فالمزمل نائم ، متعب ، مجهد . . والمدثر ، متلفف فى ثيابه ، فى حال قيام ، أو قعود ، وإن لم يكن مشمرا للعمل . . وأصل المدثر : المتدثر ، فأدغمت التاء فى الدال ، وكذلك الأصل الاشتقاقى للمزمل .

وإن المدثر ليقوم الآن لينذر ، ويبلغ رسالة ربه إلى الناس ، وليخلع الأردية المتدثر بها ، وليلبس ثوب العمل .

لقد بدأت إذا الرحلة الجديدة . . فليقم النبي ، وليشدّ رحاله ، واللّه سبحانه وتعالى معه ، يعينه ، ويثبت أقدامه . .

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . . . . »

هذه هى الوصايا التي يوصى بها ربّ السماء رسول اللّه ، عند أول خطوة يخطوها برسالته إلى الناس . .

إنه مدعوّ إلى أن يقوم بكل قواه ، ليلقى الناس منذرا ، غير ملتفت إلى عناد المعاندين ، ولا متهيب كبر المتكبرين . . فاللّه ـ سبحانه ـ الذي يدعو الناس باسمه ، هو أكبر من كل كبير . . فليذكر هذا دائما ، فإنه إذا ذكر كبرياء اللّه ، تضاءلت أمام عينيه كبرياء كل كبير . . وأن ينفض عن ثيابه غبار الدّعة والراحة ، وأن يطهرها من غبار الزمن الذي عاشه بها قبل النبوة . . إنه منذ اليوم يلبس .

ثياب النبوة ، إنها ثياب الجهاد ، فى سبيل اللّه ، ولبوس الحرب والقتال لأعداء اللّه . . وإنّ من شأن المحارب إذا أخذ لبوس حربه أن ينظر فيه ، وأن يصلح منه ما يحتاج إلى إصلاح ، حتى يكون صالحا للعمل ، دفاعا أو هجوما . . وهذا هو تطهير الثياب .

ومما ينبغى أن يأخذ به النبي نفسه فى ثياب النبوة ، أن يهجز الرجز ، وهو كل ما يمسّ طهارة هذا الثوب ، سواء أكان ذلك ناجما من الاحتكاك بالحياة ،

والمجادلة مع المشركين ، أو كان ذلك مما يعرض النفس من ضجر ، وقلق ومعاناة ، من تلقاء هذا العبء لذى تنوء بحمله الجبال . . وهذا هو هجر الرجز والفاءات في قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » يرى كثير من النجاة وتابعهم في هذا كثير من المفسرين ، أن هذه الفاءات زائدة . .

ونحن على رأينا من أنه ليس هناك حرف زائد فى كتاب اللّه الكريم ، وأن كل حرف أو كلمة ، لها دلالتها التي لا يتم المعنى المراد فى القرآن إلا بها . .

وهذه الفاءات ، هى من نوع الفاء في قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ » فالفاء فى قوله تعالى : « فَأَنْذِرْ » واقعة فى جواب الأمر . .

وكذلك الفاءات فى قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » . هى واقعة فى جواب أمر مقدر ، معطوف على قوله تعالى فى أول السورة : « قم » . .

وعلى هذا يكون المعنى فى ابتدائه على هذا الوجه :

يا أيها المدثر قم فأنذر الناس ، وقم فكبر ربك ، وقم فطهر ثيابك ، وقم فاهجر الرجز . .

ثم للاهتمام بالمفعول به ، وقصر مر فعل الفاعل عليه ، قدم هذا المفعول على الفعل ، فى قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » وحذف فعل الأمر « قم »

المكرر فى الآيات الثلاث ، اكتفاء بتقديره وراء حرف العطف « الواو » الذي يأخذ نصيبه معنى لا لفظا من الفعل « قم » فى قوله تعالى : « قم فأنذر »

(160/790)

وفى الحق أن هذا التخريج النحوي لا ينبغى أن ندخل به على آيات اللّه ، فذلك مما لا يتفق ومقام الإعجاز القرآنى ، الذي يزرى بقدره ، أن يوزن بميزان الكلام البشرى ، الذي يخضع الضرورات ، ويقبل الخطأ والانحراف . . تماما كما يزرى بقدر الذهب أن يوزن بميزان الحصى ، إن كان الحصى ميزان . .

وحسبنا فى هذا المقام أن نقف بين يدى مثل هذه الآيات - التي يجد فيها النحاة مجالا القول - فنضرب صفحا عن النحو ومقولاته ، ونفتح قلوبنا ، وعقولنا إلى هذا النور الذي يتدفق من آيات اللّه وكلماته ، فيكشف لنا معالم الطريق إلى مواقع الهدى ، والخير والفلاح .

ونمود إلى موقفنا بين يدى آيات اللّه فنقول :

كذلك ينبغى أن يعلم النبي من أول الأمر ، أنه رحمة مهداة من عند اللّه إلى عباد اللّه ، كضوء الشمس ، ونور القمر ، وماء السحب . . وإنه مما يكدر هذه النعمة ، أن يرى الناس منه استعلاء ، أو تطاولا بتلك المنن التي سيقت إليهم على يده . . فإن النفوس تكره ممن يحسن

إليها أن يمنّ عليها بإحسانه ، ويذكّرها به ، وكأنه يريد لذلك ثمنا ، أىّ ثمن ، من ولاء وخضوع ، أو من جاه وسلطان « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » والأولى من هذا ، أن يبذل المحسن إحسانه ، من غير التفات إلى مواقعه ممن أحسن إليهم بالنسبة إليه ، وما أحدثه ذلك فى نفوسهم من تصافر أمامه ، أو تسبيح بحمده والثناء عليه . .

والإحسان من النبي - كما قلنا - هو إحسان منظور إليه على أنه من اللّه مباشرة إلى الناس ، وأن النبىّ هو حامل هذا الفضل ، وموصّل هذا الإحسان إليهم . .

(161/790)

وبهذه النظرة إلى رسالة النبي ، من جهته هو ، ومن جهة المرسل إليهم ، تقوم الرسالة على ميزان صحيح ، مستقيم . .

فالرسول يرى في ضوء هذه النظرة ، أن حسابه فى هذه الرسالة مع ربه ، وأن جزاءه عليها ، هو من اللّه سبحانه وتعالى . . وهذا يجعل من شأنه ألا ينظر إلى الناس نظرة المحسن المتفضل . .

والمرسل إليهم يرون أن الذي يدعوهم إليه ، هو ربهم ، وليس بشرا مثلهم ، وأنهم إذ يستجيبون المرسول ، فإنما يستجيبون للّه . . وهذا من شأنه أن يخفف كثيرا من مشاعر

الغيرة والحسد عندهم ، ويذهب بكثير من دوافع الحميّة والأنفة والاستعلاء التي تملأ صدورهم ، والتي كثيرا ما تقوم حجازا بين الناس والناس ، فى تبادل المنافع ، وتقبل النصح والإرشاد . .

وفى قوله تعالى : « تستكثر » ـ حال من فاعل « وَلا تَمْنُنْ » أي لا تمنن مستكثرا من المنّ . . وهذا يعنى أن بعض المنّ مسموح به فى هذا المقام ، على أن يكون ذلك من أجل خدمة الدعوة ولحسابها ، كأن يقول النبي لقومه :

« لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى » (23 : الشورى) « ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » (86 : ص) ونحو هذا مما علمه اللّه سبحانه وتعالى النبي أن يقوله المشركين فى موقف الاحتجاج عليهم ، ودفع التهم التي يتهمونه بها . . فهذا وإن كان فيه شىء من المنّ ، إلا أن له ما يبرره من تصحيح أخطاء ، وتلبيسات ، وقعت فى نفوس المشركين ، من مقام الرسول فيهم هذا المقام ، وأنه فى نظرهم إنما يبغى من وراء هذا شيئا ما ، وإلا فماذا يحمله على ركوب هذا المركب الصعب إليهم ؟

ثم يكون ختام ما يوصى به النبي فى هذا المقام أن يتجمل بالصبر ، وأن يوطن

نفسه على احتمال الضر والأذى ، فإن طريقه إلى قومه ملىء بألوان من المساءات والسفاهات التي يرصدونها له . .

ولمن هذا الصبر على المكاره ؟ إنه لله ، وفى سبيل الله . . « وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » هذا ، ويلاحظ أن الإنذار فى قوله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » . قد جاء مطلقا من قيد الزمان ، والمكان ، والإنسان . . فحيث كان النبي فى أي مكان وأي زمان ، فهو قائم بالإنذار ، وحيث التقى بإنسان من أية أمة ، وأي قبيل كان مطلوبا منه أن ينذره . . إنه رحمة عامة ، تملأ الزمان والمكان ، وتستوعب الناس جميعا في كل زمان ، وكل مكان .

(163/790)

قوله تعالى : « فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ » فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »

التفسير :

الفاء في قوله تعالى : « فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ » هى فاء الفصيح ، ويراد بما بعدها الإفصاح عما تضمنه الكلام قبلها ، من إشارات وتلميحات . .

وهنا نجد أن قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » . نجد فى هذه الآيات دعوة آمرة من

اللّه سبحانه وتعالى إلى النبىّ بأن يقوم فى الناس منذرا ، ولم تبين له الآيات ما ينذر به ، فجاء قوله تعالى : « فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

. جاء مفصحا عما ينذر به ، وهو يوم القيامة ، وما يلقى أهل الضلال فيه من شدائد وأهوال . .

وقد يسأل سائل :

أبهذا النذير يبدأ الرسول رسالته ، ولا يبدؤها بالدعوة إلى الإيمان باللّه ، الذي هو رأس الأمر كله ، ومقطع الفصل فيما بين المؤمن والكافر ؟

والجواب على هذا ـ واللّه أعلم ـ هو ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ أن الإيمان بالحياة الآخرة ، وبالحساب والجزاء ، هو مضلّة الكافرين جميعا ، إذ يبدو لهم أن بعث الموتى من قبورهم بعد أن يصبحوا رفاتا وترابا ـ أمر لا يمكن أن يقع ، ولا تستطيع عقولهم تصوّره ، وأن كثيرا من مشركى العرب كانوا يؤمنون باللّه إيمانا مشوبا بالضلال ، وباتخاذ معبودات يعبدونها من دون اللّه تقربا إليه بعبادتها ، وأنهم كانوا ـ مع هذا ـ مستعدّين أن يقبلوا الإيمان باللّه ، وعبادته وحده ، ولم يكونوا مستعدين أبدا ، أن يقبلوا هذا الإيمان ، وفى مقرّراته البعث والحساب والجزاء . .

ولهذا نجد أكثر مواقف القرآن الكريم مع المشركين ، هو فى الرّد على مقولاتهم فى البعث ، وفى إنكارهم له ، واستبعادهم لوقوعه . . فما أكثر ما ذكر القرآن الكريم من مقولاتهم فى هذه القضية ، وما أكثر ما عرض عليهم من الأدلة والحجج ، التي تبطل معها مدّعياتهم ، وتسقط بها حججهم . .

أما فى مقام وحدانية اللّه ، فلم يكن للمشركين موقف كهذا الموقف من قضية البعث ، ولم يكن لهم جدل طويل يديرونه مع النبىّ ، كما كان ذلك شأنهم فى أمر البعث ، وإن كلّ ما ذكره القرآن عنهم من حجة فى أمر الوحدانية ، لا يعدو أن يكون دفاعا عن وجود آلهتهم واعتبارها ممثلة للّه فى الأرض . .

كل إله منها يصلهم باللّه عن طريق خاص به . . ولم تتسع عقولهم القاصرة أن ترى اللّه غير مجسد فى هذه الدّمى ، وتلك النّصب . فكان مما ذكره القرآن عنهم قوله تعالى : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ . . » (5 : ص) وقوله تعالى فيما يقولونه عن آلهتهم ، وصلتها باللّه : « هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ » (18 : يونس) . . « ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » (3 : الزمر) .

من أجل هذا بدأت رسالة النبىّ بالإنذار بهذا اليوم ، يوم القيامة ، وما فيه من عذاب أليم المشركين والكافرين ، وأهل الضلال جميعا . .

وهذا ما كان من الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ فإنه ما إن تلقّى هذا الأمر من ربّه ، حتى دعا قومه إليه ـ كما تقول كتب السيرة الموثقة ـ وخطب فيهم قائلا : يا معشر قريش : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا « 1 » بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقوننى ؟ » قالوا نعم : أنت عندنا غير متّهم ، وما جرّبنا عليك كذبا قط .

قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب ـ لعنه اللّه ـ : تبّا لك سائر اليوم . . ألهذا دعوتنا ؟ » فنزلت سورة اللهب .

---

(1) أي عدوا مغيرا بخيله .

(165/790)

فهذا أول ما أنذر به النبي قومه . . وهو يوم القيامة . .

وقوله تعالى : « فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ » أي نفخ فى الصور ، وسمى الصور ناقورا ، لأنه ينقر فيه حتى يحدث صوتا . . فهو اسم آلة ، مثل ساطور ، وقادوم . .

وقوله تعالى : « فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » هو جواب « فإذا » ، أي فإذا نفخ فى الصور ، فعندئذ يطلع هذا اليوم العسير على الكافرين .

وقوله تعالى : « عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

. هو توكيد ل قوله تعالى : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في آية أخرى : « يَقُولُ الْكَافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ » « 8 : القمر » قوله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » .

هذا عرض لصورة من صور المنذرين الذين أنذرهم الرسول فسخروا منه ووقفوا جبهة متحدية له آخذة الطريق عليه إلى الناس وإلى تبليغهم رسالة ربه .

ويقال إن الموجّه إليه هذا التهديد ، هو الوليد بن المغيرة . . وبهذا القول - إن صحّ - يكون الوليد هو الصورة التي يرى فيها كلّ مشرك معاند ، ذاته ويشهد المصير الذي هو صائر إليه . . انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 15 صـ 1278 . 1287 ﴾

(166/790)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

نوديّ النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه في حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة .

وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال : دثروني دثروني ، أو قال : زملوني ، أو قال : زملوني فدثروني ، على اختلاف الروايات ، والجمع

بينها ظاهر فدثرته فنزلت : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ [المزمل : 1] ما في هذا النداء من التكرمة والتلطف .

و﴿ المدثر ﴾ : اسم فاعل من تدثّر ، إذا لبس الدِّثَار ، فأصله المتدثر أدغمت التاء في الدال لتقاربهما في النطق كما وقع في فعل ادَّعى .

والدِّثار : بكسر الدال : الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الذي يُلبس مباشِراً للجسد الذي يسمى شعاراً .

وفي الحديث " الأنصار شِعَار والناسُ دِثَار "

فالوصف بـ ﴿ المدثر ﴾ حقيقة ، وقيل هو مجاز على معنى : المدثر بالنبوءة ، كما يقال : ارتدى بالمجد وتأزَّر به على نحو ما قيل في قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ، أي يا أيها اللابس خلعة النبوءة ودِثارها .

والقيام المأمور به ليس مستعملاً في حقيقته لأن النبي لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائماً ولا مضطجعاً ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإِقبال والتهمُّم بالإِنذار مجازاً أو كناية .

وشاع هذا الاستعمال في فعل القيام حتى صار معنى الشروع في العمل من معاني مادة القيام مساوياً للحقيقة وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم ، وعدّ ابن مالك في التسهيل ﴾ فعل

قام من أفعال الشروع ، فاستعمال فعل القيام في معنى الشروع قد يَكون كناية عن لازم القيام من العزم والتهمم كما في الآية ، قال في "الكشاف" : قُم قيام عزم وتصميم .

وقد يراد المعنى الصريح مع المعنى الكنائي نحو قول مُرَّة بن مَحْكَانَ التميمي من شعراء الحماسة:

يا ربَّةَ البيتِ قُومِي غيرَ صاغرة . . .

(167/790)

ضُمّي إليكِ رجال الحي والغُربا

فإذا اتصلت بفعل القيام الذي هو بهذا المعنى الاستعمال جملةٌ حصل من مجموعهما معنى الشروع في الفعل بجد وأنشدوا قول حسان بن المنذر:

على مَا قام يشتمني لئيم . . .

كخنزِير تمرَّغ في رماد

وقول الشاعر ، وهو من شواهد النحو ولَم يعرف قائله:

فقام يذود الناس عنها بسيفه . . .

وقال ألا لا من سبيلٍ إلى هند

وأفادت فاء ﴿ فأنذر ﴾ تعقيب إفادة التحفز والشروع بالأمر بإيقاع الإِنذار .

ففعل ﴿ قم ﴾ منزّل منزلة اللازم ، وتفريع ﴿ فأنذر ﴾ عليه يبين المراد من الأمر بالقيام .

والمعنى : يا أيها المدثر من الرعب لرؤية مَلَك الوحي لا تخف وأقبل على الإِنذار .

والظاهر : أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمراً بالدعوة ، وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه ﴿ إِنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ [المزمل : 15] ، وقوله : ﴿ وذَرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] .

وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من الله إليهم وابتدىء بالأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإِنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ولأن غالب أحوال الناس يومئذٍ محتاجة إلى الإِنذار والتحذير .

ومفعول ﴿ أنذر ﴾ محذوف لإِفادة العُموم ، أي أنذر الناس كلهم وهم يومئذٍ جميع الناس ما عدا خديجة رضي الله عنها فإنها آمنت فهي جديرة بالبشارة .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

انتصب ﴿ ربّك ﴾ على المفعولية لفعل (كَبِّر) قُدم على عامله لإِفادة الاختصاص ، أي

لا تكبر غيره ، وهو قصر إفراد ، أي دون الأصنام .

والواو عطَفت جملة ﴿ ربَّك فكبر ﴾ على جملة ﴿ قم فأنذر ﴾ [المدثر : 2] .

(168/790)

ودخلت الفاء على (كَبّر) إيذاناً بشرطٍ محذوف يكون (كَبِّر) جوابه ، وهو شرط عام إذ لا دليل على شرط مخصوص وهُيِّيءَ لتقدير الشرط بتقديم المفعول .

لأن تقديم المعمول قد ينزل منزلة الشرط كقول النبي صلى الله عليه وسلم " ففيهما فجاهد " (يعني الأبوين) .

فالتقدير : مهمْا يكن شيء فكبّرْ ربّك .

والمعنى : أن لا يفتر عن الإِعلان بتعظيم الله وتوحيده في كُل زمان وكل حال وهذا من الإِيجاز .

وجوز ابن جني أن تكون الفاء زائدة قال : هو كقولك زيداً فاضرب ، تُريد : زيداً اضرب .

وتكبير الرب تعظيمه ففعل (كبّر) يفيد معنى نسبة مفعوله إلى أصل مادة اشتقاقه وذلك من معاني صيغة فعَّل ، أي أخبر عنه بخبر التعظيم ، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظَّم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله .

فمعنى ﴿ وربَّك فكبِّر : ﴾ صِف ربّك بصفات التعظيم ، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد ، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها .

ومعنى (كبِّر) : كبره في اعتقادك : وكبره بقولك تسبيحاً وتعليماً .

ويشمل هذا المعنى أن يقول : "الله أكبر" لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير ، أي أجلّ وأنزه من كل جليل ، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحاً للصلاة .

وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ [المدثر : 4] فإنه إيماء إلى شرع الطهارة ، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة .

ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم أن قال : وذلك قبل أن تفرض الصلاة .

فالظاهر أن الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة وهي غير الصلوات الخمس فقد ثبت أنه صلى في المسجد الحرام .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

هو في النظم مثل نظم ﴿ وربّك فكبر ﴾ [المدثر : 3] أي لا تترك تطهير ثيابك .

(169/790)

وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس ، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها ، كقول عنترة:

فشككْت بالرمح الأصم ثيابه . . .

كناية عن طعنه بالرمح .

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهركم تطهيراً ﴾ [الأحزاب : 33] .

والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معاً فتحصل أربعةُ معان لأنه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك .

وقد وردت أحاديث في ذلك يقوّي بعضها بعضاً وأقواها مَا رواه الترمذي "إِن الله نظيف يحب النظافة" .

وقال : هو غريب .

والطهارة لجسده بالأولى .

ومناسبة التطهير بهذا المعنى لأن يعطف على ﴿ وربّك فكبر ﴾ لأنه لما أمر بالصلاة أُمر بالتطهر لها لأن الطهارة مشروعة للصلاة .

وليس في القرآن ذكر طهارة الثوب إلاّ في هذه الآية في أحد محاملها وهو مأمور بتزكية نفسه .

والمعنى المركب من الكنائي والمجازي هو الأعلق بإضافة النبوءة عليه .

وفي كلام العرب : فلان نقي الثياب .

وقال غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنّي بحمد الله لا ثوب فاجر . . .

لبست ولا من غدرة أتقنّع

وأنشدوا قول أبي كبشة وينسب إلى امرىء القيس:

ثيابُ عوف طَهارَى نقية . . .

وأوْجُهُهُمْ بيضُ المَسَافِرِ غُرَّان

ودخول الفاء على فعل ﴿ فطهر ﴾ كما تقدم عند قوله : ﴿ وربّك فكبّر ﴾ [المدثر : 3] .

وتقديم ﴿ ثيابك ﴾ على فعل (طهِّرْ) للاهتمام به في الأمر بالتطهير .

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

﴿ الرجز ﴾ : يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة .

وقال أبو العالية والربيع والكسائي : الرّجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية ، وبالضم الوثن .

ويحمل الرجز هنا على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم .

وتقديم ﴿ الرجز ﴾ على فعل (اهجر) للاهتمام في مهيع الأمر بتركه .

(170/790)

والقول في ﴿ والرجز فاهجر ﴾ كالقول في ﴿ وربّك فكبّر .

والهجر : ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء .

والهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس .

والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)

مناسبة عطف ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ على الأمر بهجر الرجز أن المنّ في العطية كثير من خُلق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهياً يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال : وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن ، أي لا تعدّ ما أعطيته كثيراً فتمسك عن الازدياد فيه ، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت .

والسين والتاء في قوله : ﴿ تستكثر ﴾ للعدّ ، أي بعد ما أعطيته كثيراً .

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة ، أي لأنها من خلقه صلى الله عليه وسلم إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي "إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم" .

ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق ، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة ، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة .

والمنّ : تذكير المنعِم المنعَمَ عليه بإنعامه .

والاستكثار : عدّ الشيء كثيراً ، أي لا تستعظم ما تعطيه .

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة .

وللأسبقين من المفسرين تفسيرات لمعنى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ ليس شيء منها بمناسب ، وقد أنهاها القرطبي إلى أحد عشر .

و﴿ تستكثر ﴾ جملة في موضع الحال من ضمير ﴿ تمنن ﴾ وهي حال مقدرة .

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاقّ الدعوة .

والصبر : ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها .

ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمّل للشيء الشاقّ .

(171/790)

ويعدّى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف (على) ، يقال : صبر على الأذى .

ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام .

ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين ، فلا يقال : اصبر على الله ، ويقال : اصبر على حكم الله ، أو لحكم الله .

فيجوز أن تكون اللام في قوله ﴿ لربّك ﴾ لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف ، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال : ﴿ واصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا ﴾ في سورة الطور (48) وقوله : ﴿ فاصبر لحكم ربّك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ في سورة الإِنسان (24) فيناسب نداءه بـ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] لأنه تدثر من شدة وقع رؤية المَلك ، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب .

ويجوز أن تكون اللام للتعليل ، وحذف متعلق فعل الصبر ، أي اصبر لأجل ربّك على كل ما

يشق عليك .

وتقديم ﴿ لربّك ﴾ على " (اصبر) للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة ، وجَعل بعضهم اللام في ﴿ لربّك ﴾ لام التعليل ، أي اصبر على أذاهم لأجله ، فيكون في معنى : إنه يصبر توكلاً على أن الله يتولى جزاءهم ، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين .

والصبر تقدم عند قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة في ﴾ [البقرة : 45] .

وفي التعبير عن الله بوصف (ربّك) إيماء إلى أن هذا الصبر برّ بالمولى وطاعة له .

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدإ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته .

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8)

(172/790)

الفاء لتسبب هذا الوعيد عن الأمر بالإِنذار في قوله ﴿ فأنذر ﴾ [المدثر : 2] ، أي فأنذر المنذَرين وأنذرهم وقتَ النقر في الناقور وما يقع يومئذٍ بالذين أُنذروا فأعرضوا عن التذكرة ، إذ الفاء يجب أن تكون مرتبطة بالكلام الذي قبلها .

ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ فاصبر ﴾ [المدثر : 7] بناء على أنه أمر بالصبر على أذى المشركين .

و﴿ الناقور ﴾ : البوق الذي ينادى به الجيش ويسمى الصُّور وهو قرن كبير ، أو شبهُه ينفخ فيه النافخ لنداء ناس يجتمعون إليه من جيش ونحوه ، قال خُفاف بن نَدْبَةَ:

إذا نَاقورُهم يوماً تَبَدَّى . . .

أجاب الناسُ من غرب وشَرق

ووزنه فاعول وهو زنة لما يقع به الفعل من النقْر وهو صوت اللسان مثل الصفير فقوله نُقر ، أي صُوِّت ، أي صوَّت مُصَوِّتٌ .

وتقدم ذكر الصور في سورة الحاقة .

و(إذا) اسم زمان أضيف إلى جملة ﴿ نقر في الناقور ﴾ وهو ظرف وعامله ما دل عليه قوله : ﴿ فَذلك يومئذٍ يوم عسير ﴾ لأنه في قوة فِعْل ، أي عَسُر الأمرُ على الكافرين .

وفاء ﴿ فذلك ﴾ لجزاء (إذا) لأن (إذا) يتضمن معنى شرط .

والإِشارة إلى مدلول (إذا نُقر) ، أي فذلك الوقت يوم عسير .

و﴿ يومئذٍ ﴾ بدل من اسم الإِشارة وقع لبيان اسم الإشارة على نحو ما يبين بالاسم المعرف ب"أل" في نحو ﴿ ذلك الكتابُ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] .

ووصف اليوم بالعسير باعتبار ما يحصل فيه من العسر على الحاضرين فيه ، فهو وصف

مجازي عقلي .

وإنما العسير ما يقع فيه من الأحداث .

و﴿ على الكافرين ﴾ متعلق بـ ﴿ عسير ﴾ .

ووصف اليوم ونحوه من أسماء الزمان بصفات أحداثِه مشهور في كلامهم ، قال السَمَوْأل ،

أوْ الحارثي:

وأيَّامُنا مشهورةٌ في عدوّنا . . .

لها غُرر معلومة وحُجول

(173/790)

وإنما الغُرر والحجول مستعارة لصفات لقائهم العدوّ في أيامهم ، وفي المقامة الثلاثين "لا عَقَدَ هذا العقدَ المبجَّل ، في هذا اليوم الأغَر المُحْجَل ، إلاّ الذي جال وجَاب ، وشب في الكُدْيَة وشَاب" وقال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ في سورة فصلت (16) .

و﴿ غير يسير ﴾ تأكيد لمعنى ﴿ عسير ﴾ بمرادفه .

وهذا من غرائب الاستعمال كما يقال : عاجلاً غير آجل ، قال طالب بن أبي طالب:

فلْيكُن المغلوبَ غيرَ الغَالِبْ . . .

وليكن المسلوبَ غَيْر السَّالِبْ

وعليه من غير التأكيد قوله تعالى : ﴿ قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ [الأنعام : 140]

﴿ قد ضَلَلْتُ إذن وما أنا من المهتدين ﴾ [الأنعام : 56] .

وأشار الزمخشري إلى أن فائدة هذا التأكيد ما يشعر به لفظ ﴿ غير ﴾ من المغايرة فيكون تعريضاً بأن له حالة أخرى ، وهي اليسر ، أي على المؤمنين ، ليجمع بين وعيد الكافرين وإغاظتهم ، وبشارة المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(174/790)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وثيابك فطهر ﴾

قال قتادة ومجاهد : نفسك فطهر من الذنب فكنى عن النفس بالثوب وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير قال ابن عباس : لا تلبسها على معصية ولا غدر ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي :

وإني بحمد الله لا ثوب غادر . . . لبست ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء : طاهر الثياب وتقول للغادر والفاجر : دنس الثياب وقال أبي بن كعب : لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم ولكن البسها وأنت بر طاهر

وقال الضحاك : عملك فأصلح قال السدي : يقال للرجل إذا كان صالحا إنه لطاهر الثياب وإذا كان فاجرا إنه لخبيث الثياب وقال سعيد بن جبير : وقلبك وبيتك فطهر وقال الحسن والقرظي : وخلقك فحسن

وقال ابن سيرين وابن زيد : أمر بتطهير الثياب من النجاسات التى لا تجوز الصلاة معها لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم

وقال طاووس : وثيابك فقصر لأن تقصير الثياب طهرة لها

والقول الأول : أصح الأقوال

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها والمقصود : أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله ويؤثر كل منهما في الآخر ولهذا نهى عن لباس الحرير

والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكسفتها حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 20 . 21 ﴾

(175/790)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى طهر)

طَهَرَ وطَهُر واطَّهَّر وتطهرّ بمعنى .

وطَهَرت والمرأَةُ طُهْرًا وطَهارةً وطَهورًا وطُهورًا ، وطَهُرت ، والفتح أَقيس .

وما عندى طَهُورٌ أَتَطهَّرُ : وَضُوءٌ أَتوضّأُ به .

والطهارة ضربان : جُسمانيّة ، ونفسانيّة .

وحُمل عليهما عامّة الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ ﴾ ، أَى استعلموا الماءَ أَو ما يقوم مقامة .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ ، فدلّ باللفظين على عدم جواز وطئن إلاَّ بعد الطهارة ، والتطهير .

ويؤكّد ذلك قراءَة من قرأَ (حَتَّى يَطَّهَّرْنَ) ، أضى يفعلن الطهارة التى هى الغُسْل وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، يعنى به تطهير النّفس .

وقوله : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

أَى مخرجك من جملتهم ومنزّهك أَن تفعل فعلهم .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، يعنى به تطهير النّفس [أَى] أَنَّه لا يبلغ حقائق معرفته إلاَّ من يطهّر نفسه من دَرَن الفساد والجهالات والمخالفات .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ ، قالوا ذلك تهكّما حيث قال : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ ، أَى مطهّرات من دَرَن الدّنيا وأَنجاسها .

وقيل : من الأَخلاق السيّئة ، بدلالة قوله : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قيل معناه : نفسك نزّهها عن المعايب .

وقيل : طهّره عن الأَغيار .

وقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ .

حثٌّ على تطهير القلب لدخول السكينات فيه المذكورة فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والطَّهُور ، قد يكون مصدرًا على فَعُول فيما حكى سيبويه من قولهم : تطهّرت طَهُورًا ، وتوضَّأْت وَضُوءًا ، ومثله وَقَدْت وَقُودًا ، وقد يكون اسمًا غير مصدر كالفَطُور اسما لما يُفطر به ، والسَّحُور ، والوَجُور ، والسَّعُوط والذَّرُور .

وقد يكون صفة كالرّسول ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ تنبيهًا أَنَّه بخلاف ما ذكر فى قوله : ﴿ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً ﴾ ، قال أَصحاب الشّافعىّ : الطَّهُور بمعنى المُطَهِّر .

قال بعضهم : هذا لايصحّ من حيث اللفظ ، لأَن فَعولا لايُبْنَى من أَفعل وفعَّل ، وإِنما يُبنى من فَعَل .

أَجاب بعضهم أَن ذلك اقتضى التطهّر من حيث المعنى ، وذلك أَنَّ الطاهر ضربان : ضرب لا يتعدّاه الطهارة ؛ كطهارة الثوب فإِنه طاهر غير مطهِّر به ، وضرب تتعدّاه فيَجعل غيره طاهرًا به ، فوصف الله الماءَ بأَنَّه طَهور تنبيهًا على هذا المعنى .

ويقال : التوبة طَهُور للمذنب .

وتطهّر من الإثم : تنزّه منه .

وهو طاهر الثياب : نزهٌ من مدانس الأخلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 528.530 ﴾

(177/790)

قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما آذن هذا بأن أكثر الخلق يوافى يوم القيامة على كفره وخبث طويته وسوء أمره وكان ذلك مما يهم لشفقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخلق ، ولما يعلم من نصبهم للعداوة ، هون

أمرهم عليه وحقر شأنهم لديه بوعده بالكفاية بقوله مستأنفاً منبهاً على أسباب الهلاك التي أعظمها الغرور وهو شبهة زوجتها شهوة : ﴿ ذرني ﴾ أي أتركني على أي حالة اتفقت ﴿ ومن ﴾ أي مع كل من ﴿ خلقت ﴾ أي أوجدت من العدم وأنشأت في أطوار الخلقة ، حال كونه ﴿ وحيداً ﴾ لا مال له ولا ولد ولا شيء ، وحال كوني أنا واحداً شديد الثبات في صفة الوحدانية لم يشاركني في صنعه أحد فلم يشكر هذه النعمة بل كفرها بالشرك بالله سبحانه القادر على إعدامه بعد إيجاده .

ولما كان المطغى للإنسان المكنة التي قطب دائرتها المال قال : ﴿ وجعلت له ﴾ أي بأسباب أوجدتها أنا وحدي لا حول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدناً وقلباً وأوسع فكراً وعقلاً وهو دونه في ذلك ﴿ مالاً ممدوداً ﴾ أي مبسوطاً واسعاً نامياً كثيراً جداً عاماً لجميع أوقات وجوده ، والمراد به كما يأتي الوليد بن المغيرة ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار .

ولما كان أول ما يمتد إليه النفس بعد كثرة المال الولد ، وكان أحب الولد الذكر ، قال : ﴿ وبنين ﴾ ولما كان الاحتياج إلى فراقهم ولو زمناً يسيراً شاقاً ، وكان ألزمهم له وأغناهم عن الضرب في الأرض نعمة أخرى قال : ﴿ شهوداً ﴾ أي حضوراً معه لغناه عن الأسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الأعوان ، وهم مع حضورهم في الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق ، فهم في غاية المعرفة بما يزيدهم الاطلاع عليه حيثما أرادهم وجدهم

وتمتع بلقياهم ، ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لا شاهد بها غيرهم ، منهم خالد الذي من الله بإسلامه ، فكان سيف الله تعالى وسيف رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(178/790)

ولما كان هذا كناية عن سعة الرزق وعظم الجاه ، وكان من بسط له في المال والولد والجاه تتوق نفسه إلى إتمام ذلك بالحفظ والتيسير ، قال مستعطفاً لما كان هكذا بالتذكير بنعمه : ﴿ ومهدت ﴾ أي بالتدريج والمبالغة ﴿ له ﴾ أي وطأت وبسطت وهيأت في الرئاسة بأن جمعت له إلى ملك الأعيان ملك المعاني التي منها القلوب ، وأطلت عمره ، وأزلت عنه موانع الرغد في العيش ، ووفرت أسباب الوجاهة له حتى دان لذلك الناس ، وأقام ببلده مطمئناً يرجع إلى رأيه الأكابر ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : وسعت له ما بين اليمن إلى الشام فأكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد في زمانه من أهل بيته وفخذه بحيث كان يسمى الوحيد وريحانة قريش فلم يزع هذه النعمة العظيمة : وأكد ذلك بقوله : ﴿ تمهيداً ﴾ .

ولما كان قد فعل به ذلك سبحانه ، فأورثته هذه النعمة من البطر والاستكبار على من

خوله فيها ضد ما كان ينبغي له من الشكر والازدجار ، قال محققاً أنه سبحانه هو الذي وهبها له وهو الواحد القهار ، مشيراً بأداة التراخي إلى استبعاد الزيادة له على حالته هذه من عدم الشكر : ﴿ ثم ﴾ أي بعد الأمر العظيم الذي ارتكبه من تكذيب رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ يطمع ﴾ أي بغير سبب يدلي به إلينا مما جعلناه سبب المزيد من الشكر : ﴿ أن أزيد ﴾ أي فيما آتيته من دنياه أو آخرته وهو يكذب رسولي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(179/790)

ولما كان التقدير : إنه ليطمع في ذلك لأن المال والجاه يجران الشرف والعظمة بأيسر سعي ، هذا هو المعروف المتداول المألوف ، استأنف زجره عن ذلك بمجامع الزجر : علماً من أعلام النبوة ، وبرهاناً قاطعاً على صحة الرسالة ، فقال ما لا يصح أن يقوله غيره سبحانه لأنه مع أنه لا تردد فيه ولا افتراء طابق الواقع ، فلم يزد بعد ذلك شيئاً ، بل لم يزل في نقصان حتى هلك وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ﴿ كلا ﴾ أي وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصلاً ، وأما النقصان فسيرى إن استمر على تكذيبه فليرتدع عن هذا الطمع ، وليزدجر وليرتجع ، فإنه حمق محض وزخرف بحت ، وغرور

صرف ، ولما ردعه هذا الردع المقتضي ولا بد للإذعان وصادق الإيمان ممن لم يستول عليه الحرمان ، علله بقوله مؤكداً لإنكارهم العناد والمعاد : ﴿ إنه ﴾ أي هذا الموصوف ﴿ كان ﴾ بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه ﴿ لآياتنا ﴾ على ما لها من العظمة خاصة لكونها هادية إلى الوحدانية ، لا لغيرها من الشبه القائدة إلى الشرك ﴿ عنيداً ﴾ أي بالغ العناد على وجه لا يعد عناده لغيرها بسبب مزيد قبحه عناداً ، والعناد – كما قال الملوي : من كبر في النفس أو يبس في الطبع أو شراسة في الأخلاق أو خبل في العقل ، وقد جمع ذلك كله إبليس ، لأنه خلق من نار .

وهي من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية ، وحقيقته ميل عن الجادة ، ومجاوزة للحد مع الإصرار واللزوم ، ومنه مخالفة الحق مع المعرفة بأنه حق .

(180/790)

ولما كان هذا محراً للتشوف إلى بيان هذا الردع ، وكان العناد غلظة في الطبع وشكاسة في الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه فقال : ﴿ سأرهقه ﴾ أي ألحقه بعنف وغلظة وقهر إلحاقاً يغشاه ويحيط به بوعيد لا خلف فيه ﴿ صعوداً ﴾ أي شيئاً من الدواهي والأنكاد كأنه عقبة ، فإن الصعود لغة العقبة شاق المصعد جداً ، وروى الترمذي

عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي ، وفي رواية : أنه كلما وضع يده في معالجة الصعود ذابت ، فإذا رفعها عادت وكذا رجله ، وقال الكلبي : إنه صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها بجذب من أمامه بسلاسل الحديد ، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد فيصعدها في أربعين عاماً ، فإذا بلغ ذروتها أسقط إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها ، فذلك دأبه أبداً .

ولما حصل التشوف إلى بعض ما عاند به الآيات ، قال مبيناً لذلك مؤكداً لاستبعاد العقلاء لما صنع لبعده عن الصواب ومعرفة كل ذي لب أنه كذب : ﴿ إنه ﴾ أي هذا العنيد ﴿ فكر ﴾ أي ردد فكره وأداره تابعاً لهواه لأجل الوقوع على شيء يطعن به في القرآن ﴿ وقدر ﴾ أي أوقع تقديراً للأمور التي يطعن بها فيه وقايتها في نفسه ليعلم أيها أقرب إلى القبول .

ولما كان تفكيره وتقديره قد أوقع غيره في الهلاك بمنعه من حياة الإيمان أصيب هو بما منعه من حياة نافعة في الدارين ، وذلك هو الهلاك الدائم .

ولما كان الضار إنما هو الهلاك لا كونه من معين ، سبب عن ذلك بانياً للمفعول قوله مخبراً وداعياً دعاءً مجاباً لا يمكن تخلفه : ﴿ فقتل ﴾ أي هلك ولعن وطرد في دنياه هذه .

ولما كان التقدير غاية التفكير ، وكان التفكير ينبغي أن يهديه إلى الصواب فقاده إلى الغي ، عجب منه فقال منكراً عليه معبراً بأداة الاستفهام إشارة إلى أنه مما يتعجب منه ويسأل عنه : ﴿كيف قدر﴾ أي على أي كيفية أوقع تقديره هذا ، وإذا أنكر مطلق الكيفية لكونها لا تكاد لبطلانها تتحقق ، كان إنكار الكيف أحق .

ولما كان وقوعه في هذا الطعن عظيماً جداً لما فيه من الكذب المفضوح ومن معاندة من هو القوي المتين المنتقم القهار العظيم ومن غير ذلك من الوجوه المبعدة عن الوقوع فيه ، أكد المعنى زجراً عن مثله وحثاً على التوبة منه ، فقال معبراً بأداة البعد دلالة على عظمة هذا القتل بالتعبير بها وبالتكرار : ﴿ثم قتل﴾ أي هلك ولعن هذا العنيد هلاكاً ولعناً هو في غاية العظمة فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة ﴿كيف قدر﴾ ولما كان الماهر بالنظر إذا فكر وصحح فكره نظر في لوازمه قال مشيراً إلى طول ترويه : ﴿ثم نظر﴾ أي فيما يدفع به أمر القرآن مرة بعد أخرى ، وفي ذلك إشارة إلى قبح أفعاله ، فظهور الحق له مع إصراره فإن تكرار النظر في الحق لا يزيده على كل حال إلا ظهوراً وفي الباطل لا يزيده إلا ضعفاً وفتوراً .

(182/790)

ولما كان من فعل كذلك فظهر له فساد رأيه ووقف مع حظ نفسه يصير يعبس ويفعل أشياء تتغير لها خلقته من غير اختياره قال : ﴿ ثم عبس ﴾ أي قطب وجهه وكلح فتربد وجهه مع تقبض جلده ما بين العينين بكراهة شديدة كالمتهم المتفكر في شيء وهو لا يجد فيه فرجاً لأنه ضاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطعناً ﴿ وبسر ﴾ اتباع لعبس تأكيداً لها ، وربما أفهمت أنه سبر ما قاله ووزنه بميزان الفكر وتتبعه تتبعاً مفرطاً حتى رسخت فيه قدمه ، كذا قالوا إنها اتباع إن أريد به التأكيد وإلا فقد وردت مفردة ، قال في القاموس : بسر – إذا عبس ، وبسر الحاجة : طلبها في غير أوانها ، وبسر الدين : تقاضاه قبل محله ، فكأنه لما طال عليه التفكير صار يستعجل حصوله إلى مراده ، ويقال : بسر – إذا ابتدأ الشيء ، فكأنه لما عبس خطر له السحر فابتدأ في إبداء ما سنح له من أمره ، قال ابن برجان : البسور هيئة في الوجه تدل على تحزن في القلب .

(183/790)

ولما كان هذا النظر على هذا الوجه أمدح شيء للمنظور فيه إذا لم يوصل منه إلى طعن ، وكان ظاهره إنه لتطلب الحق ، فكان الإصرار معه على الباطل في غاية البعد ، قال دالاً

على ذلك من المدح وعدم وجدان الطعن معبراً بأداة البعد : ﴿ ثم ﴾ أي بعد هذا التروي العظيم ﴿ أدبر ﴾ أي عما أداه إليه فكره من الإيمان بسلامة المنظور فيه وعلوه عن المطاعن ، فحاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها ﴿ واستكبر ﴾ أي وأوجد الكبر عن الاعتراف بالحق إيجاد من هو في غاية الرغبة فيه ، وكان هذا غاية العناد ، فكان معنى العنيد ﴿ فقال ﴾ أي عقب ما جره إليه طبعه الخبيث من إيقاع الكبر على هذا الوجه لكونه رآه نافعاً لهم في الدنيا ولم يفكر في عاقبة ذلك من جهة الله ، وأنه سبحانه لا يهدي كيد الخائنين ولا ينجح مراد الكاذبين ، ونحو هذا مما جربوه في دنياهم فكيف رقى نظره إلى أمر الآخرة ، وأكد الكلام لما يعلم من إنكار من يسمعه فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الذي أتى به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ إلا سحر ﴾ أي أمور تخييلية لا حقائق لها ، وهي لدقتها بحيث تخفى أسبابها .

ولما كان من المعلوم لهم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما سحر قط ولا تعلم سحراً ، فكان من ادعى ذلك علم كذبه بأدنى نظر بعد الأمر بقدر استطاعته فقال : ﴿ يؤثر ﴾ أي من شأنه أن ينقله السامع له من غيره ، فهو لقوة سحريته وإفراطها في بابها يفرق بمجرد الرواية بين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه وابنه إلى غير ذلك من العجائب التي تنشأ عنه .

ولما كان السامع يجوز أن يكون مأثوراً عن الله فيوجب له ذلك الرغبة فيه ، قال من غير عاطف كالمبين للأول والمؤكد له ، وساقه على وجه التأكيد بالحصر لعلمه أن كل ذي بصيرة ينكر كلامه : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ إلا قول البشر ﴾ أي ليس فيه شيء عن الله فلا يغتر أحد به ولا يعرج عليه ، وقد مدحه بهذا الذم بعد هذا التفكير كله من حيث إنه أثبت أنه معجوز عنه لأغلب الناس كما يعجزون عن السحر فسكت ألفاً ونطق خلفاً ، فكان شبيهاً من بعض الوجوه بما قاله بعضهم :

لو قيل "كم خمس وخمس" لاغتدى . . .

يوماً وليلته يعد ويحسب

ويقول معضلة عجيب أمرها . . .

ولئن عجبت لها الأمري أعجب

حتى إذا خدرت يداه وعورت . . .

عيناه مما قد يخط ويكتب

أوفى على شرف وقال ألا انظروا . . .

ويكاد من فرح يجن ويسلب

خمس وخمس ستة أو سبعة . . .

قولان قالهما الخليل وثعلب

(185/790)

وهكذا كل حق يجد المبالغ في ذمه لا ينفك ذمه عن إفهام مدح له ينقض كلامه ، ولكن أين النقاد المعدود من الأفراد بين العباد ، وهذا الكلام صالح لعموم كل من خلقه سبحانه هكذا في الروغان من الحق لما تفضل الله به عليه من الرئاسة لأن أهل العظمة في الدنيا هم في الغالب القائمون في رد الحق والتعاظم على أهله كما ذكر هنا ولا ينافي ذلك ما قالوه : إنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، بل ذلك من إعجاز كلام الله تعالى أن تنزل الآية في شخص فتبين حاله غاية البيان ويعم غيره ذلك البيان ، قالوا : كان للوليد هذا عشرة من البنين ، كل واحد منهم كبير قبيلة ، ولهم عبيد يسافرون في تجاراتهم ويعملون احتياجاتهم ، ولا يحوجونهم إلى الخروج من البلد لتجارة ولا غيرها ، وأسلم منهم ثلاثة : الوليد بن الوليد وخالد وهشام ، وقيل : إنه لما نزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول سورة غافر إلى قوله : ﴿ المصير ﴾ [غافر : 3] أو أول " فصلت " قرأها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد والوليد يسمعه ، فأعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم ،

والله لقد سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، ثم انصرف فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبون قريش كلها ، وكان يقال للوليد ريحانة قريش ، فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إلى جنب الوليد حزيناً ، فقال الوليد : ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟ قال : وما يمنعني وهذه قريش تجمع لك نفقة تعينك بها على كبر سنك وتزعم أنك صبوت ، لتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرها مالاً وولداً ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس

(186/790)

قومه وأداروا الرأي فيما يقولونه في القرآن فقالوا له : ما تقول في هذا الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال : قولوا أسمع لكم ، قالوا : شعر ، قال : ليس بشعر ، قد علمنا الشعر كله ، وفي رواية : هل رأيتموه يتعاطى شعراً ؟ قالوا : كهانة ، قال : ليس بكهانة ، هل رأيتموه يتكهن ؟ فعدوا أنواع البهت التي رموا بها القرآن فردها ، وأقام الدليل على ردها ،

وقال : لا تقولوا شيئاً من ذلك إلا أعلم أنه كذب ، قالوا : فقل أنت وأقم لنا فيه رأياً نجتمع عليه ، قال : أقرب ذلك إليه السحر ، هو يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وزوجه وعشيرته ، فافترقوا على ذلك ، وكان قوله هذا سبب هلاكه فكان كما قال بعضهم :

احفظ لسانك أيها الإنسان . . .

لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه . . .

كانت تخاف لقاءة الشجعان

ولما انقضى بيان عناده فحصل التشوف لتفصيل جزائه في معاده ، قال مبيناً لبعض ما أفهمه إرهاقه الصعود : ﴿ سأصليه ﴾ أي بوعيد لا بد منه عن قرب ﴿ سقر ﴾ أي الدركة النارية التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجل عن الوصف ، فأدخله إياها وألوّحه في الشدائد حرها وأذيب دماغه بها ، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها جزاء على تفكيره ، هذا الذي قدره وتخيله وصوره بإدارته في طبقات دماغه ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه .

ولما أثبت له هذا العذاب عظمه وهوله بقوله : ﴿ وما أدراك ﴾ أي أعلمك وإن اجتهدت في البحث ﴿ ما سقر ﴾ يعني أن علم هذا خارج عن طوق البشر لا يمكن أن يصل إليه أحد منهم بإعلام الله له لأنه أعظم من أن يطلع عليه بشر .

ولما أثبت لها هذه العظمة ، زادها عظماً ببيان فعلها دون شرح ماهيتها فقال : ﴿ لا تبقى ﴾ أي سقر هذه لا تترك شيئاً يلقى فيها على حالة البقاء على ما كان عليه ﴿ ولا تذر ﴾ أي تترك على حالة من الحالات ولو كانت أقبح الحالات فضلاً عما دونها ، بل هي دائمة الإهلاك لكل ما أذن فيه والتغيير لأحوال ما أذن لها في عذابه ، ولم يؤذن في محقه بالكلية ، لكل شيء فترة وملال دونها .

ولما كان تغير حال الإنسان إلى دون ما هو عليه غائطاً له موجعاً إذا كان ذلك تغير لونه لأن الظاهر عنوان الباطن ، قال الله تعالى دالاً على شدة فعلها في ذلك : ﴿ لواحة ﴾ أي شديدة التغيير بالسواد والزرقة واللمع والاضطراب والتعطيش ونحوها من الإفساد من شدة حرها ، تقول العرب : لاحت النار الشيء - إذا أحرقته وسودته ﴿ للبشر ﴾ أي للناس أو لجلودهم ، جمع بشرة وجمع البشر أبشار ﴿ عليها ﴾ أي مطلق النار بقرينة ما يأتي من الخزنة ﴿ تسعة عشر ﴾ أي ملكاً ، لطبقة المؤمنين وهي العليا ملك واحد ، وللست الباقية ثمانية عشر ، لكل واحدة ثلاثة ، لأن الواحد يؤازر بثان ، وهما يعززان بثالث ، فلذا والله أعلم كانوا ثلاثة ، أو لأن الكفر يكون بالله وكتابه ورسوله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ ، فكان لكل تكذيب في كل طبقة من طبقاتها الست ملك أو صنف من الملائكة ، وعلى الأول في كونهم أشخاصاً بأعيانهم أكثر المفسرين ، وقد علم مما مضى أنهم غلاظ شداد كل واحد منهم يكفي لأهله الأرض كلهم كما أن ملكاً واحداً وكل بقبض جميع الأرواح ، وجاء في الآثار أن أعينهم كالبرق الخاطف ، وأنيابهم كالصياصي ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، نزعت منهم الرحمة ، يدفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم ، قال عمرو بن دينار : إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة أكثر من ربيعة ومضر .

(188/790)

وقيل : إن هذه العدة لمكافأة ما في الإنسان من القوى التي بها ينتظم قوامه ، وهي الحواس الخمس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، والخمس الباطنة : المتخيلة والواهمة والمفكرة والحافظة والذاكرة ، وقوتا الشهوة والغضب ، والقوى الطبيعية السبع : الماسكة والهاضمة والجاذبة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، وقيل : اختير هذا العدد لأن التسعة نهاية الآحاد ، والعشرة بداية العشرات ، فصار مجموعهما جامعاً لأكثر القليل وأقل الكثير ، فكان أجمع الأعداد ، فكان إشارة إلى أن خزنتها أجمع الجموع ، ويروى عن

ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن قراءة البسملة تنجي من خزنة النار فإنها تسعة عشر حرفاً ، كل حرف منها لملك منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 224 . 231 ﴾

(189/790)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) ﴾

أجمعوا على أن المراد ههنا الوليد بن المغيرة ، وفي نصب قوله وحيداً وجوه الأول : أنه نصب على الحال ، ثم يحتمل أن يكون حالاً من الخالق وأن يكون حالاً من المخلوق ، وكونه حالاً من الخالق على وجهين الأول : ذرني وحدي معه فإني كاف في الانتقام منه والثاني : خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد ، وأما كونه حالاً من المخلوق ، فعلى معنى أني خلقته حال ما كان وحيداً فريداً لا مال له ، ولا ولد كقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] ، القول الثاني : أنه نصب على الذم ، وذلك لأن الآية نزلت في الوليد وكان يلقب بالوحيد ، وكان يقول أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظير ، ولا لأبي

نظير .

فالمراد ذرني ومن خلقت أعني وحيداً .

وطعن كثير من المتأخرين في هذا الوجه ، وقالوا : لا يجوز أن يصدقه الله في دعواه أنه وحيد لا نظير له ، وهذا السؤال ذكره الواحدي وصاحب الكشاف ، وهو ضعيف من وجوه الأول : أنا لما جعلنا الوحيد اسم علم فقد زال السؤال لأن اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الإشارة الثاني : لم لا يجوز أن يحمل على كونه وحيداً في ظنه واعتقاده ؟ ونظيره قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] الثالث : أن لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف ، بل هو كان يدعى لنفسه أنه وحيد في هذه الأمور .

فيمكن أن يقال : أنت وحيد لكن في الكفر والخبث والدناءة القول الثالث : أن وحيداً مفعول ثان لخلق ، قال أبو سعيد الضرير : الوحيد الذي لا أب له ، وهو إشارة إلى الطعن في نسبه كما في قوله : ﴿ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] .

وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12)

في تفسير المال الممدود وجوه الأول : المال الذي يكون له مدد يأتي من الجزء بعد الجزء على الدوام ، فلذلك فسره عمر بن الخطاب بغلة شهر شهر وثانيها : أنه المال الذي يمد بالزيادة ، كالضرع والزرع وأنواع التجارات وثالثها : أنه المال الذي امتد مكانه ، قال ابن عباس : كان ماله ممدوداً ما بين مكة إلى الطائف (من) الإبل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة بالطائف والأشجار والأنهار والنقد الكثير ، وقال مقاتل : كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً ، فالممدود هنا كما في قوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] أي لا ينقطع ورابعها : أنه المال الكثير وذلك لأن المال الكثير إذا عدد فإنه يمتد تعديده ، ومن المفسرين من قدر المال الممدود فقال بعضهم : ألف دينار ، وقال آخرون : أربعة آلاف وقال آخرون : ألف ألف ، وهذه التحكمات مما لا يميل إليها الطبع السليم .

وَبَنِينَ شُهُودًا (13)

فيه وجهان الأول : بنين حضوراً معه بمكة لا يفارقونه ألبتة لأنهم كانوا أغنياء فما كانوا محتاجين إلى مفارقته لطلب كسب ومعيشة وكان هو مستأنساً بهم طيب القلب بسبب حضورهم والثاني : يجوز أن يكون المراد من كونهم شهوداً أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل وعن مجاهد : كانوا عشرة ، وقيل : سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام .

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14)

أي وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، ولهذا المعنى يدعى بهذا فيقال أدام الله تمهيده أي بسطته وتصرفه في الأمور ، ومن المفسرين من جعل هذا التمهيد البسطة في العيش وطول العمر ، وكان الوليد من أكابر قريش ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش .

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15)

(191/790)

لفظ ثم ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] فمعنى (ثم) ههنا للإنكار والتعجب ثم تلك الزيادة التي كان يطمع فيها هل هي زيادة في الدنيا أو في الآخرة ؟ فيه قولان الأول : قال الكلبي ومقاتل : ثم يرجو أن أزيد في ماله وولده وقد كفر بي الثاني : أن تلك الزيادة في الآخرة قيل : إنه كان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى كَفَرَ بآياتنا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] .

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع له عن ذلك الطمع الفاسد قال المفسرون ولم يزل الوليد في نقصان بعد قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ حتى افتقر ومات فقيراً .

(192/790)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً ﴾ إنه تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال : لم لا يزاد ؟ فقيل : لأنه كان لآياتنا عنيداً والعنيد في معنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير ، وفي هذه الآية إشارة إلى أمور كثيرة من صفاته أحدها : أنه كان معانداً في جميع الدلائل الدالة على التوحيد والعدل والقدرة وصحة النبوة وصحة البعث ، وكان هو منازعاً في الكل منكراً للكل وثانيها : أن كفره كان كفر عناد كان يعرف هذه الأشياء بقلبه إلا أنه كان ينكرها بلسانه وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر وثالثها : أن قوله : ﴿ إِنَّهُ كان لاياتنا عَنِيداً ﴾ يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة ورابعها : أن قوله : ﴿ إِنَّهُ كان لاياتنا عَنِيداً ﴾ يفيد أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى وبيناته ، فإن تقديره : إنه كان لآياتنا عنيداً لا لآيات غيرنا ، فتخصيصه هذا العناد بآيات الله مع كونه تاركاً للعناد في سائر الأشياء يدل على غاية الخسران .

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)

أي سأكلفه صعوداً وفي الصعود قولان : الأول : أنه مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق مثل قوله : ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ [الجن : 17] وصعود من قولهم : عقبة صعود وكدود شاقة المصعد والثاني : أن صعوداً اسم لعقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت ، وعنه عليه الصلاة والسلام : " الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي كذلك فيه أبداً "

ثم إنه تعالى حكى كيفية عناده فقال :

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)

يقال : فكر في الأمر وتفكر إذا نظر فيه وتدبر ، ثم لما تفكر رتب في قلبه كلاماً وهيأه وهو المراد من قوله : ﴿فَقَدَرَ﴾ .

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)

وهذا إنما يذكر عند التعجب والاستعظام ، ومثله قولهم : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره ، ومعناه .

(193/790)

أنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك ، وإذا عرفت ذلك فنقول إنه يحتمل ههنا وجهين أحدهما : أنه تعجيب من قوة خاطره ، يعني أنه لا يمكن القدح في أمر محمد عليه السلام بشبهة أعظم ولا أقوى مما ذكره هذا القائل والثاني : الثناء عليه على طريقة الاستهزاء ، يعني أن هذا الذي ذكره في غاية الركاكة والسقوط .

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)

والمقصود من كلمه ، ﴿ ثم ﴾ ههنا الدلالة على أن الدعاء عليه في الكرة الثانية أبلغ من الأولى .

ثُمَّ نَظَرَ (21)

والمعنى أنه أولاً : فكر وثانياً : قدر وثالثاً : نظر في ذلك المقدر ، فالنظر السابق للاستخراج ، والنظر اللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه .

ثم إنه تعالى وصف بعد ذلك أحوال وجهه ، فقال :

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أن قوله : ﴿ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ يدل على أنه كان عارفاً في قلبه صدق محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه كان يكفر به عناداً ، ويدل عليه وجوه : الأول : أنه بعد أن تفكر وتأمل قدر في نفسه كلاماً عزم على أنه يظهره ظهرت العبوسة في وجهه ولو كان معتقداً صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه ، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة ، إلا أنه لشدة عناده ما كان يجد شبهة أجود من تلك الشبهة ، فلهذا السبب ظهرت العبوسة في وجهه الثاني : ما روي أن الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أنه مقبول الدعاء صادق اللهجة ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ الوليد ولو صبأ لتصبأن قريش كلها .

فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، ثم دخل عليه محزوناً فقال مالك : يا ابن الأخ ؟ فقال : إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه وهذه قريش تجمع لك مالاً ليكون ذلك عوضاً مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد ، فقال : والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالاً ، ولكني تفكرت في أمره كثيراً فلم أجد شيئاً يليق به إلا أنه ساحر ، فأقول

استعظامه للقرآن واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والإنس يدل على أنه كان في ادعاء السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن والثالث : أنه كان يعلم أن أمر السحر مبني على الكفر بالله ، والأفعال المنكرة ، وكان من الظاهر أن محمداً لا يدعو إلا إلى الله ، فكيف يليق به السحر ؟ فثبت بمجموع هذه الوجوه أنه إنما عبس وبسر لأنه كان يعلم أن الذي يقوله كذب وبهتان .

المسألة الثانية :

(195/790)

قال الليث : عبس يعبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه ، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل : كلح ، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل : بسر ، فإن غضب مع ذلك قيل : بسل .

ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)

أدبر عن سائر الناس إلى أهله واستكبر أي تعظم عن الإيمان فقال : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ وإنما ذكره بفاء التعقيب ليعلم أنه لما ولى واستكبر ذكر هذه الشبهة ، وفي قوله : ﴿ يُؤْثَرُ ﴾ وجهان الأول : أنه من قولهم أثرت الحديث آثره أثراً إذا حدثت به عن قوم في

آثارهم ، أي بعدما ماتوا هذا هو الأصل ، ثم صار بمعنى الرواية عمن كان والثاني : يؤثر على جميع السحر ، وعلى هذا يكون هو من الإيثار .

إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

والمعنى أن هذا قول البشر ، ينسب ذلك إلى أنه ملتقط من كلام غيره ، ولو كان الأمر كما قال لتمكنوا من معارضته إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة .

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عناداً منه ، لأنه روي عنه أنه لما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم (حم السجدة) وخرج من عند الرسول عليه السلام قال : سمعت من محمد كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه ، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله ههنا من أنه قول البشر ، إنما ذكره على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)

قال ابن عباس : ﴿ سَقَرَ ﴾ اسم للطبقة السادسة من جهنم ، ولذلك لا ينصرف للتعريف والتأنيث .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27)

الغرض التهويل .

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28)

واختلفوا فمنهم من قال : هما لفظان مترادفان معناهما واحد ، والغرض من التكرير التأكيد والمبالغة كما يقال : صد عني وأعرض عني .

(196/790)

ومنهم من قال : لا بد من الفرق ، ثم ذكروا وجوهاً أحدها : أنها لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً فإذا أعيدوا خلقاً جديداً فلا تذر أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت ، وهكذا أبداً ، وهذا رواية عطاء عن ابن عباس وثانيها : لا تبقي من المستحقين للعذاب إلا عذبتهم ، ثم لا تذر من أبدان أولئك المعذبين شيئاً إلا أحرقته وثالثها : لا تبقي من أبدان المعذبين شيئاً ، ثم إن تلك النيران لا تذر من قوتها وشدتها شيئاً إلا وتستعمل تلك القوة والشدة في تعذيبهم .

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في اللواحة قولان : الأول : قال الليث : لاحه العطش ولوحه إذا غيره ، فاللواحة هي المغيرة .

قال الفراء : تسود البشرة بإحراقها والقول الثاني : وهو قول الحسن والأصم : أن معنى اللواحة أنها تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام ، وهو كقوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَن يرى ﴾ [النازعات : 36] ولواحة على هذا القول : من لاح الشيء يلوح إذا لمع نحو البرق ، وطعن القائلون بهذا الوجه في الوجه الأول ، وقالوا : إنه لا يجوز أن يصفها بتسويد البشرة مع قوله إنها : لا تبقي ولا تذر .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ نصباً على الاختصاص للتهويل .

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المعنى أنه يلي أمر تلك النار ، ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكاً ، وقيل : تسعة عشر صنفاً ، وقيل : تسعة عشر صفاً .

وحكى الواحدي عن المفسرين : أن خزنة النار تسعة عشر مالك ، ومعه ثمانية عشر أعينهم كالبرق ، وأنيابهم كالصياصي ، وأشعارهم تمس أقدامهم ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر ، نزعت منهم الرأفة والرحمة ، يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفه ويرميهم حيث أراد من جهنم .

المسألة الثانية :

ذكر أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهاً أحدها : وهو الوجه الذي تقوله أرباب الحكمة .

(197/790)

أن سبب فساد النفس الإنسانية في قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية .

أما القوى الحيوانية فهي : الخمسة الظاهرة ، والخمسة الباطنة ، والشهوة والغضب ، ومجموعهما اثنتا عشرة .

وأما القوى الطبيعة فهي : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، وهذه سبعة ، فالمجموع تسعة عشر ، فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسعة عشر ، لا جرم كان عدد الزبانية هكذا وثانيها : أن أبواب جهنم سبعة ، فستة منها للكفار ، وواحد للفساق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل ، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة والمجموع ثمانية عشر ، وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول ، بل ليس إلا بسبب ترك العمل ، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة فالمجموع تسعة عشر وثالثها : أن الساعات

أربعة وعشرون خمسة منها مشغولة بالصلوات الخمس فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة ، فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر .

المسألة الثالثة :

قراءة أبي جعفر ويزيد وطلحة بن سليمان ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ على تقطيع فاعلان ، قال ابن جني في المحتسب : والسبب أن الاسمين كاسم واحد ، فكثرت الحركات ، فأسكن أول الثاني للتخفيف ، وجعل ذلك أمارة القوة اتصال أحد الإسمين بصاحبه ، وقرأ أنس بن مالك ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال أبو حاتم : هذه القراءة لا تعرف لها وجهاً ، إلا أن يعني : تسعة أعشر جمع عشير مثل يمين وأيمن ، وعلى هذا يكون المجموع تسعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 175.179 ﴾

(198/790)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾

وعيد محض ، المعنى أنا أكفي عقابه وشأنه كله . ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فروي أنه كان يلقب الوحيد ، أي لأنه لا نظير له في ماله

وشرفه في بيته ، فذكر الوحيد في الآية في جملة النعمة التي أعطي وإن لم يثبت هذا ، فقوله تعالى : ﴿ خلقت وحيداً ﴾ معناه منفرداً قليلاً ذليلاً ، فجعلت له المال والبنين ، فجار ذكر الوحدة مقدمة حسن معها وقوع المال والبنين ، وقيل المعنى خلقته وحدي لم يشركني فيه أحد ، ف ﴿ وحيداً ﴾ حال من التاء في ﴿ خلقت ﴾ ، والمال الممدود : قال مجاهد وابن جبير هو ألف دينار ، وقال سفيان : بلغني أنه أربعة آلاف دينار وقاله قتادة ، وقيل : عشرة آلاف دينار ، فهذا مد في العدد ، وقال النعمان بن بشير هي الأرض لأنها مدت ، وقال عمر بن الخطاب : المال الممدود الربع المستغل مشاهرة ، فهو مد في الزمان لا ينقطع ، و ﴿ شهوداً ﴾ معناه حضوراً متلاحقين ، قال مجاهد وقتادة : كان له عشرة من الولد ، وقال ابن جبير : ثلاثة عشر ، والتمهيد : التوطئة والتهيئة ، قال سفيان : المعنى بسطت له العيش بسطاً . وقوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ وصفه بجشع الوليد وعتبة في الازدياد من الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ زجر ورد على أمنية هذا المذكور ، ثم أخبر عنه أنه كان معانداً مخالفاً لآيات الله وعبره ، يقال بعير عنود للذي يمشي مخالفاً للإبل . ويحتمل أن يريد بالآيات آيات القرآن وهو الأصح في التأويل سبب كلام الوليد في القرآن بأنه سحر ، و" أرهقه " معناه أكلفه بمشقة وعسر ، و ﴿ صعوداً ﴾ : عقبة في جهنم ، روى ذلك أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم كلما وضع عليها شيء من الإنسان ذاب ، والصعود في اللغة : العقبة الشاقة . وقوله تعالى مخبراً عن الوليد

﴿ إنه فكر وقدر ﴾ الآية ، روى جمهور المفسرين أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه ، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب الإسلام ، ودخل

(199/790)

إلى أبي بكر الصديق مراراً ، فجاءه أبو جهل فقال : يا وليد ، أشعرت أن قريشاً قد ذمتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه ، فقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم ، ففتنه أبو جهل فافتتن ، وقال : افعل ذلك ثم فكر فيما عسى أن يقول في القرآن ، فقال : أقول شعر ما هو بشعر ، أقول هو كاهن ؟ ما هو بكاهن ، أقول هو ﴿ سحر يؤثر ﴾ هو قول البشر ، أي ليس منزل من عند الله قال أكثر المفسرين ، فقوله تعالى : ﴿ فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ هو دعاء عليه وتقبيح لحاله أي أنه ممن يستحق ذلك .

وروي عن الزهري وجماعة غيره أو الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن وقال : والله إن له لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لحياة وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو ولا يعلى ونحو هذا من الكلام فخالفوه فقالوا له : هو شعر ، فقال والله ما هو بشعر ، ولقد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه ، قالوا : فهو كاهن ، قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا

الكهان وزمزمتهم ، قالوا : هو مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، ولقد رأينا المجنون وخنقه ، قالوا : هو سحر ، قال أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه .

(200/790)

قال القاضي أبو محمد : فيحتمل قوله تعالى : ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ أن يكون دعاء عليه على معنى تقبيح حاله ، ويحتمل أن يكون دعاء مقتضاه استحسان منزعه الأول ومدحه القرآن ، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه فيجري هذا مجرى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جندل بن سهيل : " ويل أمه مسعر حرب " ، ومجرى قول عبد الملك بن مروان : قاتل الله كثيراً كأنه رآنا حين قال كذا ، وهذا معنى مشهور في كلام العرب ، ثم وصف تعالى إدباره واستكباره وأنه ضل عند ذلك وكفر ، وإذا قلنا إن ذلك دعاء على مستحسن فعله فيجيء قوله تعالى : ﴿ ثم نظر ﴾ ، معناه نظر فيما احتج به القرآن فرأى ما فيه من علو مرتبة محمد عليه السلام ف ﴿ عبس ﴾ لذلك ﴿ وبسر ﴾ أي قطب وقبض ما بين عينيه وأربد وجهه حسداً له فأدبر واستكبر ، أي ارتكس في ضلاله وزال إقباله أولاً ليهتدي ولحقته الكبرياء ، وقال هذا سحر ، و ﴿ يؤثر ﴾ معناه يروى ويحمل ، أي يحمله محمد عن غيره ، وعلى التأويل أن الدعاء عليه دعاء على مستقبح فعله يجيء قوله ﴿ ثم

نظر ﴾ معناه معاداً بعينه لأن ﴿ فكر وقدر ﴾ يقتضيه لكنه إخبار بترديده النظر في الأمر ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الوليد فقال له : " انظر وفكر فلما فكر قال ما تقدم " .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)

﴿ سقر ﴾ هو الدرك السادس من جهنم على ما روي ، و ﴿ أصليه ﴾ معناه أجعله فيها مباشراً لنارها ، وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ هو على معنى التعجب من عظم أمرها وعذابها ثم بين ذلك بقوله ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ المعنى : ﴿ لا تبقي ﴾ على من ألقي فيها ، ﴿ ولا تذر ﴾ غاية من العذاب إلا وصلته إليها ، وقوله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو رزين وجمهور الناس : معناه ، مغيرة للبشرات ، محرقة للجلود مسودة لها ، و" البشر " جمع بشرة ، وتقول العرب : لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسودته ، وقال الشاعر [الأعشى] : [الخفيف]

لاحة الصيف والغيار وإشفا . . . ق على سقبة كقوس الضال

وأنشد أبو عبيدة : [الرجز]

يا بنت عمي لاحني الهواجر . . . وقال الحسن وابن كيسان : ﴿ لواحة ﴾ بناء مبالغة من لاح يلوح إذا ظهر ، والمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها . وقرأ عطية العوفي " لواحةً " بالنصب ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ ابتداء وخبره مقدم في المجرور ، ولا خلاف بين العلماء أنهم خزنة جهنم المحيطون بأمرها الذين إليهم جماع أمر زبانيتها ، وقد قال بعض الناس : إنهم على عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم لأن بها تقووا ، وروي أن قريشاً لما سمعت هذا كثر إلغاطهم فيه وقالوا : لو كان هذا حقاً ، فإن هذا العدد قليل ، فقال أبو جهل : هؤلاء تسعة عشر ، وأنتم الدهم ، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم ، وقال ابو الأشدي الجمحي : أنا أجهضهم على النار ، إلى غير هذا من أقوالهم السخيفة ، فنزلت في أبي جهل : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : 34-35] الآية ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن شبل " تسعْة عشر " بسكون العين ، وذلك لتوالي الحركات ، وقرأ أنس بن مالك وأبو حيوة " تسعةُ عشر " برفع التاء ، وروي عن أنس بن مالك أنه قرأ " تسعة أعشر " ، وضعفها أبو حاتم ، وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ تبيين لفساد أقوال قريش ، أي إن

جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنة للكفار ليقع منهم من التعاطي والطمع في المبالغة ما وقع و﴿ ليستيقن ﴾ أهل الكتاب : التوراة والإنجيل أن هذا القرآن من عند الله ، إذ هم يجدوه هذه العدة في كتبهم المنزلة التي لم يقرأها محمد صلى الله عليه وسلم ولا هو من أهلها ، ولكن كتابه يصدق ما بين يديه من كتب الأنبياء إذ جميع ذلك حق يتعاضد منزل من عند الله ، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد وغيرهم ، وبورود الحقائق من عند الله عز وجل يزداد كل ذي إيمان إيماناً ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب ومن المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿ وليقول الذين

(203/790)

في قلوبهم مرض ﴾ الآية ، نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر ، أي جاروا وضلوا ولم يهتدوا لقصد الحق فجعلوا يستفهم بعضهم بعضاً عن مراد الله تعالى بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله ، قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق فإنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(204/790)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها المدثر ﴾

أي المتدثرُ هو لابسُ الدثارِ وهُوَ مَا يُلبسُ فوقَ الشّعارِ الَّذي يلي الجسدَ قيلَ : هيَ أولُ سورةٍ نزلتْ . رُويَ عنْ جابرٍ رضيَ الله عنْهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ : "كُنت عَلى جبلِ حراءٍ فنوديتُ يا محمدُ إنَّكَ رسولُ الله فنظرتُ عنْ يميني وَيساري فلمْ أرَ شيئاً فنظرتُ فوقِي فإذَا بِهِ قاعدٌ عَلَى عرشٍ بينَ السماءِ والأرضِ يعنيَ المَلكَ الَّذي ناداهُ فرعبتُ ورجعتُ إلى خديجَةَ فقلتُ : دثرونِي فنزلَ جبريلُ وقال : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ " عَنِ الزهري أنَّ أولَ ما نزلَ سورةُ اقرأْ إلى قولِهِ تعالى : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فحزنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وجعلَ يعلو شواهقَ الجبالِ فأتاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ وقالَ : إنكَ نبيُّ الله فرجعَ إلى خديجةَ فقالَ : " دثرونِي وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً " فنزلَ جبريلُ فقالَ : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ وقيلَ : سمعَ منْ قريشٍ ما كرهَهُ فاغتمَّ فتغطّى بثوبِه متفكراً كَمَا يفعلُ المغمومُ فأُمِرَ أنْ لا يدعَ إنذارَهم وإنْ أسمعُوه وآذوه . وقيلَ : كانَ نائماً متدثراً . وقيلَ : المرادُ المتدثرُ بلباسِ النبوةِ والمعارفِ الإلهيةِ . وقُرِىءَ المُدَّثَّرُ عَلَى صيغةِ اسمِ المفعولِ منْ دَثَّرَهُ أي الَّذي دثرَ هذا الأمرَ العظيمَ وعصبَ به وفي حرفِ أبي المنذرِ يا أيها المتدثرُ عَلى الأصْلِ ﴿ قُمِ ﴾ أي من مضجعكَ أوْ قُمْ قيامَ عَزْمٍ وَتصميمٍ ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ أي افعلِ الإنذارَ وَأَحْدِثْهُ وقيلَ

: أنذرْ قومَكَ كقولِه تعالَى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ أو جميعَ النَّاسِ حسبَمَا ينبىءُ عَنْهُ قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ واختصَّ ربَّك بالتكبيرِ وهو وَصْفُهُ تعالى بالكبرياءِ اعتقاداً وقولاً ويُروى أنَّه لمَّا قالَ رسولُ الله : " اللهُ أكبرُ " فكبرتْ خديجةُ وفرحتُ وأيقنتْ

(205/790)

أنَّه الوحيُ وقدْ يحملُ على تكبيرِ الصَّلاةِ والفاءُ لمعنى الشرطِ كأنَّه قيلَ : ما كان أيْ أيُّ شيءٍ حدث فلا تدعُ تكبيرَهُ أوْ للدلالةِ عَلى أنَّ المقصودَ الأولى من الأمرِ بالقيامِ أنْ يكبرَ ربَّه وينزهَهُ منَ الشركِ فإنَّ أولَ ما يجبُ معرفةُ الصانعِ جلَّ جلالُه ثم تنزيهُه عَمَّا لا يليقُ بجنابِه .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ مما ليسَ بطاهرٍ فإنَّه واجبٌ في الصَّلاةِ وأولى وأحبُّ في غيرِها وذلكَ بصيانتِها وحفظِها عن النجاساتِ وغسلِها بعد تلطخِها وبتقصيرِها أيضاً فإنَّ طولَها يؤدي إلى جرِّ الذيولِ على القاذوراتِ وهُوَ أولُ ما أمَرَ بهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منْ رفضِ العاداتِ المذمومةِ وقيلَ : هُو أمرٌ بتطهيرِ النفسِ مما يستقذرُ منَ الأفعالِ ويُستهجنُ منَ الأحوالِ يقالُ : فلانٌ طاهرُ الذيلِ والأردانِ إذا وصفُوه بالنقاءِ من المعايبِ ومدانسِ الأخلاقَ .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ أي واهجُر العذابَ بالثباتِ على هَجْرِ ما يُؤدي إليه من المآثمِ

وقُرِئَ بكسرِ الراءِ وهُمَا لُغتانِ كالذُّكرِ والذِّكرِ ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ ولا تُعطِ مُستكثراً أي رائياً لِمَا تعطيهِ كثيراً أو طالباً للكثيرِ على أنَّه نهيٌ عنْ الاستغزارِ وهُوَ أنْ يهبَ شيئاً وهو يطمعُ أنْ يتعوضَ منَ الموهوبِ لَهُ أكثرَ مِمَّا أعطاهُ وهُو جائزٌ ومنْهُ الحديثُ : " المستغزرُ يثابُ من هبتِه " فالنهيُ إمَّا للتحريمِ وهو خاصٌّ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم لأنَّ الله تعالى اختارَ له أشرفَ الأخلاقِ وأحسنَ الآدابِ أو للتنزيهِ للكُلِّ تستكثرْ بالسكونِ اعتباراً بحالِ الوقفِ أوْ إبدالاً منْ تمنن كأنَّه قيلَ : ولا تمنُنْ ولا تستكثرْ على أنَّه منَ المَنِّ الَّذي في قولِه تعالى منَّا ولاَ أذَى مَنْ يمنَّ بِمَا يُعطي يستكثرُه ويعيدُ به وقُرِئَ بالنصبِ بإضمارِ أنْ معَ إبقاءِ عملِها كقولِ منْ قالَ

(206/790)

أَلاَ أيهذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الوَغَى . . . وقدْ قُرِئَ بإثباتِها ويجوزُ في قراءةِ الرفعِ أنْ يحذفَ أنْ ويبطلَ عملُها كَمَا يُروى أحضرُ الوَغَى بالرفعِ ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ أي لوجهِهِ تعالى أو لأمرِه ﴿ فاصبر ﴾ فاسعملَ الصبرَ وقيلَ : على أذيةِ المشركينَ وقيلَ : عَلى أداءِ الفرائضِ .

(207/790)

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ﴾ أي نفخَ في الصُّورِ وهو فاعل من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سببُ الصَّوتِ والفاءُ للسببيةِ كأنَّه قيلَ : اصبرْ عَلَى أذاهُم فبينَ أيديهم يومٌ هائلٌ يلقونَ فيهِ عاقبةَ أذاهُم وتلقَى عاقبةَ صبرِك عليهِ وَالعَامل فِي إذَا ما دَلَّ عليهِ قولُه تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ فإنَّ معناهُ عسُرَ الأمرُ عَلَى الكافرينَ وذلكَ إشارةٌ إلى وقتِ النقرِ وما فيهِ منْ مَعْنى البعدِ مع قُربِ العَهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببعدِ منزلتِه في الهولِ والفظاعةِ ومحلُه الرفعُ عَلى الابتداءِ ويومئذٍ بدلٌ منْهُ مبنيٌّ عَلى الفتحِ لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ والخبرُ يومٌ عسيرٌ وقيلَ : يومئذٍ ظرفٌ للخبرِ إذِ التقديرُ وذلك وقتُ وقوعِ يومٍ عسيرٍ وَعَلَى متعلقةٌ بعسيرٌ وقيلَ : بمحذوفٍ هو صفةٌ لعسيرٌ أوْ حالٌ من المستكنِّ فيهِ وقولُه تعالى : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيدٌ لعُسرِه عليهمْ مشعرٌ بيُسرِه على المؤمنينَ واختلفَ في أنَّ المرادَ به يومُ النفخةِ الأولى أو الثانيةِ ، والحقُّ أنَّها الثانيةُ ، إذْ هيَ التي يختصُّ عسرُها بالكافرينَ وأما النفخةُ الأُولى فحكمُها الذي هو الإصعاقُ يعمُّ البرَّ والفاجرَ عَلى أنَّها مختصةٌ بمَنْ كانَ حياً عندَ وقوعِها وقد جاءَ في الأخبارِ أنَّ في الصورِ ثقباً بعددِ الأرواحِ كلِّها وأنَّها تجمعُ في تلكَ الثقوبِ في النفخةِ الثانيةِ فتخرجُ عندَ النفخِ منْ كلِّ ثقبةٍ روحٌ إلى الجسدِ الّذي نزعت مِنْهُ فيعودُ الجسدُ حياً بإذنِ الله تعالَى .

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ حَالٌ إمَّا منَ الياءِ أيْ ذرني وَحدي معَهُ فَإنّي أكفيكَهُ في الانتقامِ منْهُ أو منَ التاءِ أي خلقتُهُ وَحْدِي لَمْ يُشركني فِي خلقِه أحدٌ أو منَ العائدِ المحذوفِ أيْ وَمَنْ خلقتُه وحيداً فريداً لا مالَ لَهُ وَلاَ ولدٌ ، وقيلَ : نزلت في الوليدِ بنِ المغيرةِ المخزومي وكانَ يلقبُ في قومِه الوحيدَ فهو تهكمٌ به وبلقبِه وصرفٌ لهُ عنْ الغرضِ الذي يؤمونَهُ من مدحِه إلى جهةِ ذمهِ بكونِه وحيداً من المَالِ والولدِ أو وحيداً من أبيهِ لأنَّه كانَ زنيماً كما مَرَّ أوْ وَحيداً في الشَّرارةِ ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممداً بالنماءِ من مَدَّ النهرُ ومدَّهُ نهرٌ آخرُ ، قيلَ : كانَ لَهُ الضرعُ والزرعُ والتجارةُ . وعنِ ابنِ عبَّاس رضيَ الله عنْهما هُوَ ما كانَ لَه بينَ مكةَ والطائفِ من صنوفِ الأموالِ ، وقيلَ : كانَ لَهُ بالطائفِ بستانٌ لا ينقطعُ ثمارُهُ صيفاً وشتاءً . وقالَ ابن عباسٍ ومجاهدٌ وسعيدُ بنُ جُبيرٍ كانَ لَهُ ألفُ دينارٍ وقالَ قَتَادةُ : ستةُ آلافِ دينار ، وقال سفيان الثوري : أربعة آلاف دينار ، وقال الثوريُّ أيضاً : ألف ألف دينار .

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ حضوراً معَهُ بمكةَ يتمتعُ بمشاهدِتهم لا يفارقونَهُ للتصرف في عملٍ أو تجارةٍ لكونِهم مكفيينَ لوفورِ نعمِهم وكثرةِ خدمِهم أو حضوراً فِي الأنديةِ والمحافلِ لوجاهتِهم واعتبارِهم قيلَ : كانَ له عشرةُ بنينَ وقيلَ : ثلاثةَ عشرَ وقيلَ : سبعةٌ كلُّهم رجالٌ الوليدُ بن الوليد وخالدٌ وعمارةٌ وهشامٌ والعاصُ والقيسُ وعبدُ شمسٍ أسلَم منهْم ثلاثةٌ خالدٌ وهشامٌ وعمارةُ ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ وبسطتُ لهُ الرياسةَ والجاهَ العريضُ حَتَّى لقبَ ريحانةَ قريشٍ ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ عَلى ما أوتيهِ وهو استبعادٌ واستنكارٌ لطمِعه وحرصِه إما لأنهُ لا مزيدَ عَلى ما أُوتيَ سعة وكثرةً أو لأنَّه منافٍ لما هُوَ عليهِ منْ كُفرانِ النعمِ ومعاندةِ المنعمِ وقيلَ : إنَّه كانَ يقول إن كان محمدٌ صادقاً فما خُلقتْ الجنةُ إلاَّ لِي .

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)

(210/790)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ وزجرٌ لَهُ عنْ طمعه الفارغِ وقطعٌ لرجائه الخائبِ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّهُ كان لأياتنا عَنِيداً ﴾ تعليلٌ لذلكَ على وَجْه الاستئنافِ التحقيقيّ فإنَّ معاندةَ آياتِ المنعمِ معَ وضوحِها وكفرانَ نعمتِه معَ سيوغِها مما يوجبُ حرمانَهُ بالكليةِ وإنما أوتَي ما أوتَي استدارجاً قيلَ : ما زالَ بعدَ نزولِ هذهِ الآيةِ في نقصانٍ منْ مالِه حتَّى هلكَ ﴿ سَأُرْهِقُهُ

صَعُوداً ﴾ سأغشيهِ بدلَ ما يطمُعه منَ الزيادةِ أو الجنةِ عقبةً شاقةً المصعدِ وهو مثلٌ لما يَلْقى منَ العذابِ الصعبِ الذّي لا يطاقُ وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " يكلفُ أنْ يصعدَ عقبةً في النارِ كلمَا وضعَ يَدهُ عليَها ذابتْ فإذَا رفعَها عادتْ وإذَا وضعَ رجلَه ذابتْ فإذَا رفعَها عادتْ " وعنْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " الصَّعودُ جبلٌ منْ نارٍ يصعدُ فيهِ سبعينَ خريفاً ثمَّ يهوِي فيهِ كذلكَ أبداً " ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليلٌ للوعيدِ واستحقاقِه لَهُ أو بيانٌ لعنادِه لآياتِه تعالَى أيْ فكرَّ ماذَا يقولُ في شأنِ القرآنِ وقدرَ في نفسِه ما يقولُه ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تعجيبٌ منْ تقديرِه وإصابتِه فيهِ الغرضَ الذي كانَ ينتحيهِ قريشٌ قاتلَهم اللهُ أو ثناءٌ عليهِ بطريقِ الاستهزاءِ أو حكايةٌ لما كرّرُوه من قولِهم قتلَ كيفَ قدرَ تهكماً بهم وبإعجابِهم بتقديرِه واستعظامِهم لقولِه معنَى قولِهم قتلَهُ اللهُ ما أشجعَهُ أو أخزاهُ اللهُ ما أشعرَهُ الإشعارُ بأنَّه قد بلغَ منَ الشجاعةِ والشعرِ مبلغاً حقيقياً بأنْ يدعَو عليهِ حاسدُهُ بذلكَ . رُويَ أنَّ الوليدَ قالَ لبني مخزومٍ واللهِ لقد سمعتُ من محمدٍ آنفاً كلاماً ما هُو منْ كلامِ الإنسِ ولا منْ كلامِ الجنِّ إنَّ لَهُ لحلاوةً وإنَّ عليهِ لطلاوةً وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ وإنَّ أسفلَهُ لمغدِقٌ وإنَّه يعلو ولا يُعلى فقالتْ قريشٌ صبأَ واللهِ الوليدُ واللهِ لتصبأنَّ قريشٌ

(211/790)

كُلُّهم فقالَ ابْنُ أخيهِ أبوُ جهلٍ أنَا أكفيكمُوهُ فقعَد عندَهُ حزيناً وكلَّمهُ بما أحماهُ فقامَ فأتاهُم فقالَ تزعمونَ أنَّ محمداً مجنونٌ فهل رأيتمُوه يخنقُ وتقولونَ إنه كاهنٌ فَهلْ رأيتمُوه يتكهنُ وتزعمونَ أنه شاعرٌ فهل رأيتمُوه يتعاطَى شِعراً قطُّ وتزعمونَ أنه كذابٌ فَهَلْ جربتُم عليهِ شيئاً من الكذبِ فقالُوا في كُلِّ ذلكَ اللهمَّ لاَ ثمَّ قالُوا فَما هُو ففكَّر فقالَ مَا هُو إلا ساحرٌ أما رأيتمُوه يفرقُ بينَ الرجلِ وأهلِه وولدِه ومواليهِ وما الذي يقولُه إلا سحرٌ يأثرُهُ عنْ أهلِ بابلَ فارتجَّ النادِي فرحاً وتفرقُوا معجبينَ بقولِه متعجبينَ منْهُ .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

تكريرٌ للمبالغةِ وثمَّ للدلالةِ على أنَّ الثانيةَ أبلغُ منَ الأُولى وفيمَا بعدُ عَلى أصلِها منْ التراخِي الزمانيِّ .

(212/790)

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي في القرآنِ ، مرةً بعدَ مرةٍ ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطَّبَ وجهَهُ لَمَّا لم يجدْ فيهِ مطعناً ولمْ يدرِ ماذَا يقولُ وقيلَ : نظرَ في وجوهِ النَّاسِ ثم قطَّبَ وجهَهُ وقيلَ : نظرَ إلى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ثم قطَّبَ في وجهِهِ ﴿ وَبَسَرَ ﴾ اتباعٌ لعبسَ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عنِ الحقِّ أوْ عنْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ واستكبر ﴾ عن اتباعِه ﴿ فَقَالَ إِنْ هذا

إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أيْ يُروى ويُتعلمُ والفاءُ للدلالةِ على أن هذه الكلمة لمَّا خطرتْ بباله تفوه بها من غير تلعثمٍ وتلبثٍ وقولُه تعالَى : ﴿ إنْ هذا إلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ تأكيدٌ لما قبلَهُ ولذلكَ أُخليَ عنِ العاطفِ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ بدلٌ منْ سأُرهقُه صَعُوداً ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ أعلمكَ ما سقرُ على أنَّ مَا الأُولى مبتدأٌ وأدراكَ خبرُه ومَا الثانيةُ خبرٌ لأنها المفيدةُ لما قُصد إفادتُه منَ التهويل والتفظيعِ وسقرُ مبتدأٌ أيْ أيُّ شيءٍ هيَ في وصفِها لما مَرَّ مراراً منْ أنَّ مَا قَدْ يطلبُ بَها الوصفُ وإنْ كانَ الغالبُ أنْ يطلبَ بَها الاسمُ والحقيقةُ وقولُه تعالَى ﴿ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴾ بيانٌ لوصفِها وحالِها وإنجازٌ للوعدِ أيْ لا تُبقي شيئاً يُلقى فيَها إلا أهلكتْهُ وإذا هلكَ لم تذرْهُ هالكاً حتَّى يعادَ أوْ لا تُبقي على شيءٍ ولا تدعَهُ منَ الهلاكِ بلْ كلُّ ما يطرحُ فيَها هالكٌ لا محالة . ﴿ لَوَّاحَةٌ للبَشَرِ ﴾ مُغيّرةٌ لأعَالي الجلدِ مسوّدةٌ لَها قيلَ تلفحُ الجلدَ لفحةً فتدَعُه أشدَّ سواداً منَ الليلِ وقيلَ : تلوحُ للناسِ كقولِه تعالى ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ وقُرِئَ لواحةً بالنصبِ على الاختصاصِ للتهويلِ .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

(213/790)

أيْ مَلَكاً أو صِنْفاً أو صفاً أو نقيباً من الملائكةِ يلونَ أمرَهَا ويتسلطونَ على أهلِها وقُرِىءَ بسكونِ عينِ عشْر حذراً من توالِي الحركاتِ فيما هو في حكم اسمٍ واحدٍ وقرىء تسعةُ أَعْشُرٍ جمعُ عشيرٍ مثلُ يمينٍ وأَيْمُنٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(214/790)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾

نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي كما روي بمن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم بل قيل كونها فيه متفق عليه وهو يقتضي أن هذه السورة لم تنزل جملة إذ لم يكن أمر الوليد وما اقتضى نزول الآية فيه في بدء البعثة فلا تغفل ووحيداً حال إما من الياء في ذرني وهو المروى عن مجاهد أي ذرني وحدي معه فأنا أغنيك في الانتقام عن كل منتقم أو من التاء في خلقت أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في اهلاكه أو من الضمير المحذوف العائد على من على ما استظهره أبو حيان أي ومن خلقته وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد وجوز أن يكون منصوباً بأذم ونحوه فقد كان الوليد يلقب في قومه بالوحيد فتهكم الله تعالى به وبلقبه أو صرفه عن الغرض الذي كانوا يؤمونه من مدحه

والثناء عليه إلى جهة ذمه وعيبه فأراد سبحانه وحيداً في الخبث والشرارة أو وحيداً عن أبيه لأنه كان دعيا لم يعرف نسبه للمغيرة حقيقة كما مر في سورة نون .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بالنماء من مد النهر ومده نهر آخر وقيل كان له الضرع والزرع والتجارة وعن ابن عباس هو ما كان له بين مكة والطائف من الإبل والنعم والجنان والعبيد وقيل كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفاً وشتاء وقال النعمان بن بشير المال الممدود هو الأرض لأنها مدت وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه المستغل الذي يجبى شهراً بعد شهر فهو ممدود لا ينقطع وعن ابن عباس ومجاهد وابن جبير كان له ألف دينار وعن قتادة ستة آلاف دينار وقيل تسعة آلاف دينار وعن سفيان الثوري روايتان أربعة آلاف دينار وألف ألف دينار وهذه الأقوال ان صحت ليس المراد بها تعيين المال الممدود وانه متى أطلق يراد به ذلك بل بيان أنه كان بالنسبة إلى المحدث عنه كذا .

(215/790)

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة لكونهم مكفيين لوفور نعمهم وكثرة خدمهم أو حضوراً في الأندية والمحافل لوجاهتهم

واعتبارهم أو تسمع شهاداتهم فيما يتحاكم فيه واختلف في عددهم فعن مجاهد أنهم عشرة وقيل ثلاثة عشر وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وهشام وقد أسلم هؤلاء الثلاثة والعاص وقيس وعبد شمس وعمارة واختلفت الرواية فيه أنه قتل يوم بدر أو قتله النجاشي لجناية نسبت إليه في حرم الملك والروايتان متفقتان على أنه قتل كافراً ورواية الثعلبي عن مقاتل إسلامه لا تصح ونص ابن حجر على أن ذلك غلط وقد وقع في هذا الغلط صاحب الكشاف وتبعه فيه من تبعه والعجب أيضاً أنهم لم يذكروا الوليد بن الوليد فيمن أسلم مع أن المحدثين عن آخرهم أطبقوا على إسلامه .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ بسطت له الرياسة والجاه العريض فأتممت عليه نعمتي الجاه والمال واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا وأصل التمهيد التسوية والتهيئة وتجوز به عن بسطة المال والجاه وكان لكثرة غناه ونضارة حاله الرائقة في الأعين منظراً ومخبراً يلقب ريحانة قريش وكذا كانوا يلقبونه بالوحيد بمعنى المنفرد باستحقاق الرياسة وعن ابن عباس وسعت له ما بين اليمن إلى الشام وعن مجاهد مهدت له المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ على ما أديته وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه إما لأنه في غنى تام لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم وعن الحسن وغيره أنه كان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي

واستعمال ثم للاستبعاد كثير قيل وهو غير التفاوت الرتبي بل عد الشيء بعيداً غير مناسب لما عطف عليه كما تقول تسيء إلى ثم ترجو احساني وكان ذلك لتنزيل البعد المعنوي منزلة البعد الزماني .

(216/790)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر له عن طمعه الفارغ وقطع لرجائه الخائب وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً ﴾ جملة مستأنفة استئنافاً بيانيا لتعليل ما قبل كأنه قيل لم زجر عن طلب المزيد وما وجه عدم لياقته فقيل إنه كان معانداً لآيات المنعم وهي دلائل توحيده أو الآيات القرآنية حيث قال فيها ما قال والمعاندة تناسب الإزالة وتمنع من الزيادة قال مقاتل ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقص من ماله وولده حتى هلك .

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق شبه ما يسوقه الله تعالى له من المصائب وأنواع المشاق بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاقة وأطلق لفظه عليه على سبيل الاستعارة التمثيلية وروى أحمد والترمذي والحاكم وصححه وجماعة عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى فيه كذلك أبداً وعنه صلى الله عليه وسلم "

يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت وإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت "

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليل للوعيد واستحقاقه له أو بيان لعناده لآياته عز وجل فيكون جملة مفسرة لذلك لا محل لها من الإعراب وما بينهما اعتراض وقيل الجملة عليه بدل من قوله تعالى ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ [المدثر : 16] أي أنه فكر ماذا يقول في شأن القرآن وقدر في نفسه ما يقول .

(217/790)

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحزور ميه الغرض الذي كان ينتحيه قريش فهو نظير ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة : 30] أو ثناء عليه تهكماً على نحو قاتله الله ما أشجعه أو حكاية لما كرروه على سبيل الدعاء عند سماع كلمته الحمقاء فالعرب تقول قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك ومآله على ما قيل إلى الأول وإن اختلف الوجه روي أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأن رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما لا فيعطوكه فإنك

أتيت محمداً لتصيب مما عنده قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له وانك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله ان لقوله الذي يقوله حلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وانه ليحطم ما تحته قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال دعني حتى أفكر فلما فكر قال ما هو إلا سحر يؤثر فعجبوا بذلك وقال محيى السنة لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ [غافر : 1-3] إلى قوله تعالى المصير قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي عليه الصلاة والسلام لاستماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد إلى مجلس قومه بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه ليعلو وما يعلى فقال قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم فقال أبو جهل أنا أكفيكموه فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام

فأتاهم فقال تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب فقالوا في كل ذلك اللهم لا ثم قالوا فما هو ففكر فقال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل فارتج النادي فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تكرير للمبالغة كما هو معتاد من أعجب غاية الإعجاب والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة وان الثانية أبلغ من الأولى فكأنه قيل قتل بنوع ما من القتل لا بل قتل بأشده وأشده ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد ونحوه ما في قوله :

ومالي من ذنب إليهم علمته . . .

سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي . . .

ثلاث تحيات وان لم تكلمي

(219/790)

والاطراء في الاعجاب بتقديره يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بمحصول تفكيره وقال الراغب في غرة التنزيل كان الوليد بن المغيرة لما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قدر ما أتى به من القرآن فقال إن قلنا شاعر كذبتنا العرب إذا عرضت ما أتى به على الشعر وكان يقصد بهذا التقدير تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم بضرب من الاحتيال فلذلك كان كل تقدير مستحقاً لعقوبة من الله تعالى هي كالقتل اهلاكاً له فالأول لتقديره على الشعر أي أهلك اهلاك المقتول كيف قدر وقوله تعالى ثم قتل كيف قدر لتقديره الآخر فإنه قدر أيضاً وقال فإن ادعينا ان ما أتى به من كلام الكهنة كذبتنا العرب إذا رأوا هذا الكلام مخالفاً لكلام الكهان فهو في تقديره له على كلام الكهنة مستحق من العقوبة لما هو كالقتل اهلاكاً له فجاء ذلك لهذا فلم يكن في الإعادة تكرار والأول هو ما ذهب إليه جار الله وجعل الدعاء اعتراضاً وقال عليه الطيبي أنه ليس من الاعتراض المتعارف الذي ينحل لتزيين الكلام وتقريره لأن الفاء مانعة من ذلك بل هو من كلام الغير ووقع الفاء في تضاعيف كلامه فادخل بين الكلامين المتصلين على سبيل الحكاية ثم قال وهو متعسف وإنما سلكه لأنه جعل الدعاءين من كلام الغير وأما إذا جعلا من كلام الله تعالى استهزاء كما ذكر هو أو دعاء عليه كما ذهب إليه الراغب وعليه تفسير الواحدي على ما قال ونقل عن صاحب النظم ﴿ فقتل كيف ﴾ [المدثر : 19] أي عذب ولعن كيف قدر كما يقال لأضربنه كيف صنع أي على أي حال كانت منه لتكون الأفعال كلها متناسقة مرتبة على التفاوت في التعقيب

والتراخي زمانا ورتبة كما يقتضيه المقام كان أحسن وجاء النظم على السنن المألوف من التنزيل إلى آخر ما قال وما تقدم أبعد مغزى والاعتراض من المتعارف وهو يؤكد ما سيق له الكلام أحسن تأكيد والفار غير مانعة على ما نص عليه جار الله وغيره وجعل من الاعتراض المقرون بها فاسألوا أهل الذكر ومنه قوله :

(220/790)

واعلم فعلم المرء ينفعه . . .

أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقد حقق أنه بالحقيقة نتيجة وقعت بين أجزاء الكلام اهتماماً بشأنها فأفادت فائدة الاعتراض وعدت منه والاعتراض بين قوله تعالى ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ [المدثر : 18] وقوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ للعطف وثم فيه وفيما بعد على معناها الوضعي وهو التراخي الزماني مع مهلة أي ثم فكر في أمر القرآن مرة بعد أخرى .

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطب وجه لما لم يجد فيه مطعناً وضاقت عليه الحيل ولم يدر ماذا يقول وقيل ثم نظر في وجوه القوم ثم قطب وجهه وقيل نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

قطب في وجهه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه وفي غير وقته فالبسر الاستعجال بالشيء نحو بسر الرجل لحاجة طلبها في غير أوانها وبسر الفحل الناقة ضربها قبل أن تطلب وماء بسر متناول من غديره قبل سكونه وقيل للجبن الذي ينكأ قبل النضج بسر ومنه قيل لما لم يدرك من الثمر بسر وبهذا فسره الراغب هنا وفسره بعضهم باشد العبوس من بسر إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشيء واسود وجهه منه ويستعمل بمعنى العبوس ومنه قول توبة :

قد رابني منها صدود رأيته . . .

وإعرضها عن حاجتي وبسورها

وقول سعد لما أسلمت راغمتني أمي فكانت تلقاني مرة بالبشر ومرة بالبسر فحينئذ يكون ذكر بسر كالتأكيد لعبس ولعله مراد من قال اتباع له وأهل اليمين يقولون بسر المركب وأبسر إذا وقف ولم أر من جوز إرادة ذلك هنا ولو على بعد وفي النفس من ثبوت ذلك لغة صحيحة توقف .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ واستكبر ﴾ عن اتباعه .

﴿ فَقَالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي يروى ويتعلم من سحرة بابل ونحوهم وقيل أي يختار ويرجح على غيره من السحر وليس بمختار والفاء للدلالة على أن هذه الكلمة الحمقاء لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعثم وتلبث فهي للتعقيب من غير مهلة ولا مخالفة فيه لما مر من الرواية كما لا يخفى وقوله :

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ كالتأكيد للجملة الأولى لأن المقصود منهما نفي كونه قرآناً ومن كلام الله تعالى : ﴿ وَأَنْ اختلافا ﴾ معنى ولاعتبار الاتحاد في المقصود لم يعطف عليها وأطلق بعضهم عليه التأكيد من غير تشبيه والأمر سهل وفي وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط هذا القول السخيف استهزاء به وإشارة إلى أنه عن الحق الأبلج بمعزل ثم أن الذي يظهر من تتبع أحوال الوليد أنه إنما قال ذلك عناداً وحمية جاهلية لا جهلاً بحقيقة الحال وقوله تعالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ بدل من ﴿ سأرهقه ﴾ الخ بدل اشتمال لاشتمال السقر على الشدائد وعلى الجبل من النار والوصف الآتي لا ينافي الإبدال على إرادة الجبل بناء على أن المراد به نحو ما في الحديث وقال أبو حيان يظهر أنهما جملتان اعتقبت كل واحدة منهما على سبيل توعد العصيان الذي قبل كل واحدة منهما فتوعد على كونه عنيداً لآيات الله تعالى بإرهاق صعود وعلى قوله أن القرآن سحر يؤثر بإصلاء سقر وفيه بحث لا يخفى على

من أحاط خبراً بما تقدم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ أي أي شيء أعلمك ما سقر على أن ما الأولى مبتدأ وأدراك خبره وما الثانية خبر لأنها مفيدة لما قصد إفادته من التهويل والتفظيع وسقر مبتدأ أي أي شيء هي في وصفها فإن ما قد يطلب بها الوصف وإن كان الغالب أن يطلب بها الاسم والحقيقة وقوله سبحانه:

(222/790)

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ بيان لوصفها وحالها فالجملة مفسرة أو مستأنفة من غير حاجة إلى جعلها خبر مبتدأ محذوف وقيل حال من سقر والعامل فيها معنى التعظيم أي أعظم سقر وأهول أمرها حال كونها لا تبقى الخ وليس بذاك أي لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد وقال ابن عباس لا تبقى إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئاً وإذا بدلوا خلقاً جديداً لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول وروى نحوه عن الضحاك بزيادة ولكل شيء فترة وملالة إلا جهنم وقيل لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة وقال السدي لا تبقى لهم لحماً ولا تذر عظماً وهو دون ما تقدم.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور أي مغيرة للبشرات مسودة للجلود وفي بعض الروايات عن بعض بزياة محرقة والمراد في الجملة فلواحة من لوحته الشمس إذا سودت ظاهره وأطرافه قال :

تقول ما لاحك يا مسافر . . .

يا ابنة عمي لاحني الهواجر

(223/790)

والبشر جمع بشرة وهي ظاهر الجلد وفي بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل واعترض بأنه لا يصح وصفها بتسويدها الظاهر الجلود مع قوله سبحانه ﴿ لا تبقى ولا تذر ﴾ [المدثر : 28] الصريح في الإحراق وأجيب بأنها في أول الملاقاة تسوده ثم تحرقه وتهلكه أو الأول حالها مع من دخلها وهذا حالها مع من يقرب منها وأنت تعلم أنه إذا قيل لا يحسن وصفها بتسويد ظاهر الجلود بعد وصفها بأنها لا تبقى ولا تذر لم يحسن هذا الجواب وقد يجاب حينئذ بأن المراد ذكر أوصافها المهولة الفظيعة من غير قصد إلى ترق من فظيع إلى أفظع وكونها لواحة وصف من أوصافها ولعله باعتبار أول الملاقاة وقيل الإهلاك وفي ذكره من التفظيع ما فيه لما أن في تسويد الجلود مع قطع النظر عما فيه من

الإيلام تشويهاً للخلق ومثلة للشخص فهو من قبيل التتميم وفي استلزام الإهلاك تسويد الجلود تردد وإن قيل به فتدبر وجوز على تفسير لواحة بما ذكر كون البشر اسم جنس بمعنى الناس ويرجع المعنى إلى ما تقدم وقال الحسن وابن كيسان والأصم لواحة بناء مبالغة من لاح إذا ظهر والبشر بمعنى الناس أي تظهر للناس لعظمها وهولها كما قال تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : 36] وقد جاء أنها تظهر لهم من مسيرة خمسمائة عام ورفع لواحة على أنه خبر مبتدا محذوف أي هي لواحة وقرأ عطية العوفي وزيد بن علي والحسن وابن أبي عبلة لواحة بالنصب على الاختصاص للتهويل أي أخص أو أعني وجوز أن يكون حالاً مؤكدة من ضمير تبقى أو تذر بناء على زعم الاستلزام وأن يكون حالاً من ﴿ سقر ﴾ والعامل ما مر .

(224/790)

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ الظاهر ملكاً ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فقال له أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان

شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(225/790)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

قال الواحدي : قال المفسرون : لما بدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي أتاه جبريل ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألىء ، ففزع ووقع مغشياً عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ، ودعا بماء ، فصبه عليه ، وقال : "دثروني دثروني" ، فدثروه بقطيفة ، فقال : ﴿ يَأَيُّهَا المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ومعنى ﴿ يَأَيُّهَا المدثر ﴾ : يا أيها الذي قد تدثر بثيابه ، أي : تغشى بها ، وأصله المتدثر ، فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما .

وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبي : "المتدثر" على الأصل ، والدثار : هو ما يلبس فوق الشعار ، والشعار : هو الذي يلي الجسد ، وقال عكرمة : المعنى : يا أيها المدثر بالنبوّة

وأثقالها .

قال ابن العربي : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً إذ ذاك ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي : انهض فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

وقيل : الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوّته .

وقيل : إعلامهم بالتوحيد .

وقال الفراء : المعنى قم فصلّ ، وأمر بالصلاة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار ، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولد .

قال ابن العربي : المراد به تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأضداد والأنداد والأصنام ، ولا يتخذ ولياً غيره ولا يعبد سواه ، ولا يرى لغيره فعلاً إلاّ له ولا نعمة إلاّ منه .

قال الزجاج : إن الفاء في : ﴿ فكبر ﴾ دخلت على معنى الجزاء ، كما دخلت في : ﴿ فأنذر ﴾ .

وقال ابن جني : هو كقولك : زيداً فاضرب أي : زيداً اضرب ، فالفاء زائدة .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه ، وحفظها عن النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها .

وقيل : المراد بالثياب العمل .

وقيل : القلب .

وقيل : النفس .

وقيل : الجسم .

وقيل : الأهل .

وقيل : الدين .

وقيل : الأخلاق .

قال مجاهد ، وابن زيد ، وأبو رزين ، أي : عملك فأصلح .

وقال قتادة : نفسك فطهّر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس .

وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهّر ، ومن هذا قول امرىء القيس :

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل . . . وقال عكرمة : المعنى البسها على غير غدر وغير فجرة .

وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من غدرة أتقنع

والشاعر هو غيلان بن سلمة الثقفي ، ومن إطلاق الثياب على النفس قول عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه . . . ليس الكريم على القنا بمحرم

وقول الآخر :

ثياب بني عوف طهارى نقية . . . وقال الحسن ، والقرظي : إن المعنى ، وأخلاقك فطهّر ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه ، ومنه قول الشاعر :

ويحيى لا يلام بسوء خلق . . . ويحيى طاهر الأثواب حر

وقال الزجاج : المعنى ، وثيابك فقصر ؛ لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجرّ على الأرض ، وبه قال طاوس ، والأوّل أولى ؛ لأنه المعنى الحقيقي .

وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدلّ على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس في مثل هذا الأصل : أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف ، وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ الرجز : معناه في اللغة : العذاب ، وفيه لغتان : كسر الراء وضمها ، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزاً ؛ لأنها سبب الرجز .

قرأ الجمهور : ﴿ الرجز ﴾ بكسر الراء .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وحفص ، وابن محيصن بضمها .

وقال مجاهد ، وعكرمة : الرجز : الأوثان ، كما في قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] وبه قال ابن زيد .

وقال إبراهيم النخعي : الرجز المأثم ، والهجر الترك .

وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة ، وهما صنمان كانا عند البيت .

وقال أبو العالية ، والربيع ، والكسائي : الرجز بالضم الوثن ، وبالكسر العذاب .

وقال السديّ : الرجز بضم الراء الوعيد ، والأوّل أولى ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ولا تمنن ﴾ بفك الإدغام ، وقرأ الحسن ، وأبو اليمان ، والأشهب العقيلي بالإدغام ، وقرأ الجمهور : ﴿ تستكثر ﴾ بالرفع على أنه حال ، أي : ولا تمنن حال كونك مستكثراً .

وقيل : على حذف أن ، والأصل ولا تمنن أن تستكثر ، فلما حذفت رفع .

قال الكسائي : فإذا حذف أن رفع الفعل .

وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش : " تستكثر " بالنصب على تقدير أن ، وبقاء عملها ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : " ولا تمنن أن تستكثر " بزيادة أن .

وقرأ الحسن أيضاً ، وابن أبي عبلة : " تستكثر " بالجزم على أنه بدل من تمنن ، كما في قوله :

﴿ يَلْقَ أَثَاماً * يضاعف لَهُ ﴾ [الفرقان : 68 ، 69] ، وقول الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . . تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف ، كما في قول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . . إثماً من الله ولا واغل

بتسكين أشرب .

وقد اعترض على هذه القراءة ؛ لأن قوله : ﴿ تستكثر ﴾ لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن ؛

لأن المنّ غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي .

واختلف السلف في معنى الآية .

فقيل المعنى : لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة كالذي يستكثر ما يتحمله

بسبب الغير .

وقيل : لا تعط عطية تلتمس فيها أفضل منها ، قاله عكرمة ، وقتادة .

قال الضحاك : هذا حرّمه الله على رسوله ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجلّ الأخلاق ،

وأباحه لأمته .

وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، من قولك حبل متين : إذا كان ضعيفاً .

وقال الربيع بن أنس : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير .

وقال ابن كيسان : لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته .

وقيل : لا تمنن بالنبوّة ، والقرآن على الناس ، فتأخذ منهم أجراً تستكثره .

وقال محمد بن كعب : لا تعط مالك مصانعة .

وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ أي : لوجه ربك ، فاصبر على طاعته وفرائضه ، والمعنى : لأجل ربك وثوابه .

وقال مقاتل ، ومجاهد : اصبر على الأذى والتكذيب .

وقال ابن زيد : حملت أمراً عظيماً ، فحاربتك العرب والعجم ، فاصبر عليه لله .

وقيل : اصبر تحت موارد القضاء لله .

وقيل : فاصبر على البلوى .

وقيل : على الأوامر والنواهي .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ الناقور : فاعول من النقر ، كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ،

والنقر في كلام العرب الصوت ، ومنه قول امرىء القيس :

أخفضه بالنقر لما علوته . . . ويقولون : نقر باسم الرجل : إذا دعاه ، والمراد هنا النفخ في الصور ، والمراد : النفخة الثانية .

وقيل : الأولى ، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة الأنعام وسورة النحل ، والفاء للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم ، والعامل في إذا ما دلّ عليه قوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكافرين ﴾ فإن معناه : عسر الأمر عليهم .

وقيل : العامل فيه ما دل عليه ﴿ فَذَلِكَ ﴾ لأنه إشارة إلى النقر ، ويومئذٍ بدل من إذا ، أو مبتدأ ، وخبره يوم عسير ، والجملة خبر ﴿ فذلك ﴾ ، وقيل : هو ظرف للخبر ؛ لأن التقدير وقوع يوم عسير ، وقوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيد لعسره عليهم ؛ لأن كونه غير يسير ، قد فهم من قوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ .

(229/790)

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ أي : دعني ، وهي كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى : دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد ، هذا على أن وحيداً

منتصب على الحال من الموصول ، أو من الضمير العائد إليه المحذوف ، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني ، أي : دعني وحدي معه ، فإني أكفيك في الانتقام منه ، والأوّل أولى .

قال المفسرون : وهو الوليد بن المغيرة .

قال مقاتل : يقول : خلّ بيني وبينه ، فأنا أنفرد بهلكته ، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره ، وعظيم جحوده لنعم الله عليه .

وقيل : أراد بالوحيد الذي لا يعرف أبوه ، وكان يقال في الوليد بن المغيرة : إنه دعيّ .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي : كثيراً ، أو يمدّ بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء .

قال الزجاج : مالاً غير منقطع عنه ، وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه .

قيل : كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار .

وقيل : أربعة آلاف دينار .

وقيل : ألف دينار .

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أي : وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون ، ولا يحتاجون إلى التفرّق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم .

قال الضحاك : كانوا سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف .

وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولداً .

وقال مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك .

وقيل : معنى ﴿ شهوداً ﴾ أنه إذا ذكر ذكروا معه ، وقيل : كانوا يشهدون معه ما كان يشهده ، ويقومون بما كان يباشره ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي : بسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش ، والتمهيد عند العرب التوطئة ، ومنه مهد الصبيّ .

وقال مجاهد : إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

(230/790)

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أي : يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه للنعم ، وإشراكه بالله .

قال الحسن : لم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان يقول : إن كان محمد صادقاً ، فما خلقت الجنة إلاّ لي .

ثم ردعه الله سبحانه وزجره فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي : لست أزيده .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً ﴾ أي : معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على

رسولنا ، يقال : عند يعند بالكسر إذا خالف الحق وردّه ، وهو يعرفه ، فهو عنيد وعاند ، والعاند الذي يجوز عن الطريق ، ويعدل عن القصد ، ومنه قول الحارثي :

إذا ركبت فاجعلاني وسطا . . . إني كبير لا أطيق العندا

قال أبو صالح : عنيداً معناه مباعداً .

وقال قتادة : جاحداً .

وقال مقاتل : معرضاً ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ أي : سأكلفه مشقة من العذاب ، وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق .

وقيل المعنى : إنه يكلف أن يصعد جبلاً من نار ، والإرهاق في كلام العرب : أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليل لما تقدّم من الوعيد ، أي : إنه فكر في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، وقدّر في نفسه ، أي : هيأ الكلام في نفسه ، والعرب تقول : هيأت الشيء إذا قدّرته ، وقدرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يفكر ماذا يقول فيه ، وقدّر في نفسه ما يقول ، فذمه الله ، وقال : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أي : لعن وعذب كيف قدر ، أي : على أيّ حال قدر ما قدر من الكلام ، كما يقال في الكلام : لأضربنه كيف صنع ، أي : على أيّ حال كانت منه .

وقيل المعنى : قهر وغلب كيف قدر ، ومنه قول الشاعر :

وما ذرفت عيناك إلاّ لتضربي . . . بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقال الزهري : عذب ، وهو من باب الدعاء عليه ، والتكرير في قوله : ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ للمبالغة والتأكيد .

(231/790)

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي : بأيّ شيء يدفع القرآن ويقدح فيه ، أو فكر في القرآن وتدبر ما هو .

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي : قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففاً ، يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب .

وقيل : عبس في وجوه المؤمنين .

وقيل : عبس في وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي : كلح وجهه وتغير ، ومنه قول الشاعر :

صبحنا تميماً غداة الحفار . . . بشهباء ملموسة باسره

وقول الآخر :

وقد رابني منها صدود رأيته . . . وإعراضها عن حاجتي وبسورها

وقيل : إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور في الوجه قبلها ، والعرب تقول : وجه باسر إذا تغير واسودّ .

وقال الراغب : البسر استعجال الشرّ قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته ، أي : طلبها في غير أوانها .

قال : ومنه قوله : ﴿ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ أي : أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر أي : وقف لا يتقدّم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا أي : صرنا إلى البسور .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر ﴾ أي : أعرض عن الحقّ ، وذهب إلى أهله ، وتعظم عن أن يؤمن ﴿ فَقَالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي : يأثره عن غيره ويرويه عنه .

والسحر : إظهار الباطل في صورة الحقّ ، أو الخديعة على ما تقدّم بيانه في سورة البقرة ، يقال : أثرت الحديث بأثره إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قول الأعشى :

إن الذي فيه تحاربتما . . . بين للسامع والآثر

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ يعني : أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله ، وسيأتي أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة إلى آخر كلامه .

ولما قال هذا القول الذي حكاه الله عنه ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي : سأدخله النار ، وسقر من أسماء النار ، ومن دركات جهنم .

وقيل : إن هذه الجملة بدل من قوله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ ثم بالغ سبحانه في وصف النار وشدة أمرها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ أي : وما أعلمك أيّ شيء هي ، والعرب تقول : وما أدراك ما كذا : إذا أرادوا المبالغة في أمره ، وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ، وما الأولى مبتدأ ، وجملة ﴿ مَا سَقَرُ ﴾ خبر المبتدأ .

ثم فسر حالها ، فقال : ﴿ لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر ، والكشف عن وصفها .

وقيل : هي في محل نصب على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيم ؛ لأن قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ يدل على التعظيم ، فكأنه قال : استعظموا سقر في هذه الحال ، والأوّل أولى ، ومفعول الفعلين محذوف .

قال السديّ : لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً .

وقال عطاء : لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً .

وقيل : هما لفظان بمعنى واحد ، كررا للتأكيد كقولك : صدّ عني وأعرض عني ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لوّاحة ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

وقيل : على أنه نعت لسقر ، والأوّل أولى .

وقرأ الحسن ، وعطية العوفي ، ونصر بن عاصم ، وعيسى بن عمر ، وابن أبي عبلة ، وزيد

بن عليّ بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل ، يقال : لاح يلوح ، أي : ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للبشر .

قال الحسن : تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَن يرى ﴾ [النازعات : 36] .

وقيل : معنى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي : مغيرة لهم ومسوّدة .

قال مجاهد : والعرب تقول : لاحه الحر والبرد والسقم والحزن : إذا غيره ، وهذا أرجح من الأوّل ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قول الشاعر :

وتعجب هند أن رأتني شاحبا . . . تقول لشيء لوحته السمائم

أي : غيرته ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

لوّح منه بعد بدن وشبق . . . تلويحك الضامر يطوى للسبق

وقال الأخفش : المعنى أنها معطشة للبشر ، وأنشد :

سقتني على لوح من الماء شربة . . . سقاها به الله الرهام الغواديا

والمراد بالبشر : إما جلدة الإنسان الظاهرة ، كما قاله الأكثر ، أو المراد به أهل النار من

الإنس ، كما قال الأخفش .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال المفسرون : يقول على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها .

وقيل : تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة .

وقيل : تسعة عشر صفاً من صفوفهم .

وقيل : تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة ، والأوّل أولى .

قال الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحدة يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق .

قرأ الجمهور : ﴿ تسعة عشر ﴾ بفتح الشين من عشر ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وطلحة بن سليمان بإسكانها .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن أبا سلمة بن عبد الرحمن قال : إن أوّل ما نزل من القرآن : ﴿ يأَيُّهَا المدثر ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير : يقولون إن أوّل ما نزل ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، قلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحدّثك إلاّ ما حدّثنا رسول الله قال : " جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا ، ونظرت عن شمالي ، فلم أر شيئًا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا ، فرفعت رأسي فإذا

الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فحثيت منه رعباً ، فرجعت ، فقلت : دثروني فدثروني ، فنزلت : ﴿ رَّحِيمٌ يَاأَيُّهَا المدثر * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى قوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ " وسيأتي في سورة اقرأ ما يدل على أنها أوّل سورة أنزلت ، والجمع ممكن .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ يَاأَيُّهَا المدثر ﴾ فقال : دثر هذا الأمر ، فقم به .

(234/790)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه ﴿ يَاأَيُّهَا المدثر ﴾ قال : النائم ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال : الأصنام ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تعط تلتمس بها أفضل منها .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم .

قال : وهي في كلام العرب نقيّ الثياب .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الغدر ، لا تكن غدّاراً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، وابن مردويه عن عكرمة عنه أيضاً أنه سئل عن قوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لا تلبسها على غدرة ، ثم قال : ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من غدرة أتقنع

وأخرج الطبراني ، والبيهقي في سننه عنه أيضاً : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال : لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ قال : الصور ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ قال : شديد .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ قال : الوليد بن المغيرة .

(235/790)

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال

: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئًا من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ؛ قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ .

وقد أخرج هذا عبد الرزاق عن عكرمة مرسلاً ، وكذا أخرجه ابن جرير ، وابن إسحاق ، وابن المنذر ، وغير واحد .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن قوله : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ قال : غلة شهر بشهر .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ قال : ألف دينار .

وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ قال : هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ عَنِيداً ﴾ قال : جحوداً .

وأخرج أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي سعيد ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً " قال الترمذي بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة عن درّاج .

قال ابن كثير : وفيه غرابة ونكارة انتهى ، وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ صَعُوداً ﴾ صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : جبل في النار .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ ﴾ قال : لا تبقي منهم شيئاً ، وإذا بدّلوا خلقاً آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأوّل .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه ، فيصير أسود من الليل .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ قال : محرقة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن البراء : أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء جبريل ، فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنزلت عليه ساعتئذٍ ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 323.329 ﴾

(237/790)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « ذرنى »

هو تهديد بالنكال والبلاء وباتجاه عذاب اللّه كله إلى هذا الإنسان الشقي الموجه إليه هذا الإنذار . . وقد أشرنا إلى معنى هذا عند تفسير قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » . .

في سورة المزمل (11) وقوله تعالى : « وحيدا » هو حال من فاعل : « خلقت » وهو اللّه سبحانه

(238/790)

وتعالى ، أو هو حال من المفعول المحذوف وتقديره الهاء المحذوفة في « خلقت » ويجوز أن يكون حال من المفعول به في « ذرنى » أي ذرنى وحيدا مع من خلقته .

وقوله تعالى : « وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً » أي مالا كثيرا ، متصلا ، لا ينقطع . .

وقوله تعالى : « وَبَنِينَ شُهُوداً » أي وجعلت له بنين حاضرين بين يديه ، أي لم يموتوا ، كما يموت كثير من البنين ، بعد أن يوهبوا لآبائهم .

فهذا المال الذي أعطيته إياه ، لا يزال بين يديه ممدودا متصلا ، وهؤلاء الأبناء الذين بين يديه ، حاضرون شهود لم يغيبوا عنه . . وفى هذا تهديد له بذهاب هذا المال ، وفقد هؤلاء الأبناء ، كما ذهبت أموال كثيرين ، ومات أبناء كثيرين . .

وقوله تعالى : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً » . أي هيأت له حياة رخيّة ، بالمال ، والبنين ، الذين هما زينة الحياة الدنيا . .

وقوله تعالى : « ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » ثم إن هذا الضال العنيد ، على طمع أن أزيده مالا وبنين ، وذلك بما زين له ضلاله بأنه إنما أوتى ما أوتى لفضيلة اختصّ بها ، ولصفات استأثر بها دون الناس ، وأنّ ما بين يديه قليل إلى ما يمنّى به نفسه الملوءة غرورا . .

وقوله تعالى : « كَلَّا . . إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً » . هو رد على أمنيات هذا الضال ، وتوقعاته بأن يزداد مالا وبنين . . وكلا . . بل إن ما معه سيأخذ منذ اليوم فى النقصان ، حالا بعد

حال ، حتى يموت ، ونفسه تتقطع حسرة على ما ذهب من ماله وولده . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً » أي سآخذه بالرهق والشدة حالا بعد حال ، مصعّدا به من شدة إلى أشد منها . .

وهكذا حتى يذهب كل ماله ، وجميع بنيه ، وهو يرى ذلك فيتقطع قلبه حسرة وكمدا . .

(239/790)

قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » . .

فى هذه الآيات صورة معجزة من صور البيان القرآنى ، الذي تعجز أدق ألوان البيان مجتمعة أن تتعلق بأذياله . .

فبالكلمة ، شعرا ونثرا ، وبالصورة المتحركة والساكنة ، والناطقة والصامتة ، وبالموسيقى ، ألحانا مفردة ومجتمعة . . وبكل ما عرفت الإنسانية من ألوان الإبانة والتعبير - لا يمكن أن تجىء - ولو من بعيد - بمثل هذه الصورة القرآنية التي صوّر بها هذا الإنسان الشقىّ العنيد ، ظاهرا وباطنا ، فلم تدع الصورة خلجة من خلجات ضميره ، أو مسربا من مسارب تفكيره ، أو همسة من همسات خاطره ، إلا ألقت بها على قسمات وجهه ، ونظرات عينيه

، وحركات شفتيه ، فكانت شخوصا ماثلة للعيان . .

وانظر كيف كانت مسيرة هذا الضال العنيد ، مع آيات اللّه ، التي تليت عليه من رسول اللّه . . فلقد روى أن الوليد بن المغيرة ـ وكان ذا مكانة بارزة فى قريش ، وأشدهم عداوة لرسول اللّه ، وكان موسم الحج قد حضر ـ دعا سادة القوم إليه ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستفد عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يعنى رسول اللّه) فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيه ، فيكذّب بعضكم بعضا . . قالوا فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم ، فقولوا أسمع !

(240/790)

قالوا : نقول : كاهن ! ! قال : لا ، واللّه ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو ـ أي النبي ـ بزمزمة الكاهن ولا سجعه . .

قالوا : فنقول مجنون ؟ قال : ما هو بمجنون . . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ! ! قالوا . . فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر . . قالوا فنقول : ساحر ! ! قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو ـ أي النبي ـ بنفثه ،

ولا عقده ! قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ ، قال : « واللّه إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق وإن أعلاه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا ، إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : إنه ساحر . جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه . . فتفرقوا عنه بذلك الرأى ، وجعلوا يلقون أهل الموسم على كل طريق ، ويقولون لهم : احذروا ساحرنا ! ويروى عن ابن عباس ، أن الوليد بن المغيرة هذا ، جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، يدعوه إلى أن يرجع عن دعوته ، وألا يشيع الفرقة والخلاف بين أهله وعشيرته ، فتلا عليه النبي آيات من آيات اللّه ، فرقّ لها قلب الوليد ، وخرج من بين يدى النبي ، وكأنه يحدث نفسه بأمر غير الذي جاء به . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال :

يا عمّ . إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ! قال : لما ذا ؟

قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (أي لتنال مما عنده من طعام أو نحوه)

فقال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ! قال :

فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، كاره لما يقول ! فقال : وما ذا أقول ؟

فواللّه ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّى . . . واللّه ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا ، وإن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ! ! قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعنى حتى أفكّر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ! ! أي يأثره ، ويقتفى فيه أثر غيره ، فنزل قوله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . . الآيات » وننظر فى سيرة هذا الضالّ العنيد مع آيات اللّه التي تلاها عليه رسول اللّه ، وكيف كان يلقاها بتلك المشاعر المتضاربة المضطربة ، التي تتأرجح به بين التصديق والتكذيب ، والإيمان والكفر . . ثم تغلب عليه شقوته آخر الأمر ، فإذا هو على رأس المكذّبين الضالين . .

« إِنَّهُ فَكَّرَ » فيما تلى عليه من آيات اللّه . . فقد كان من شأن هذه الآيات أن تهزّ الجماد ، وتذيب الصخر ! .

« وَقَدَّرَ » أي جعل يزن ويقدّر كلّ ما كان يطرقه من أفكار .

« فَقُتِلَ . . كَيْفَ قَدَّرَ » دعاء عليه بالقتل ، لهذا التقدير العجيب الذي قدّره . . إذ كيف يسوغ لمن فكر ، أن يقيم ميزانا لأى كلام ، مع كلمات اللّه ؟ . .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » توكيد الدعاء عليه بالقتل ، وتوكيد للتعجب من توقفه بعد تفكيره ، عن أن يقول قولة الحقّ فى آيات اللّه .

« ثُمَّ نَظَرَ » أي نظر فيما اجتمع له ، من آراء مختلفة فى القرآن . .

أهو شعر ؟ لا ليس بشعر ؟

أهو كهانة ؟ لا ليس من الكهانة فى شىء . .

(242/790)

أهو قول مجنون ؟ كلّا فما قائله بمجنون ، ولا فيما يقوله إلّا أحكم المنطق وأصوب القول . .

وهكذا ، تدور الخواطر فى نفسه ، وتصطرع الآراء فى عقله ، وهو عاجز عن أن يخرج من هذه العاصفة المزمجرة التي احتوته .

« ثُمَّ عَبَسَ » .

. هذه انطباعة من أثر هذا الصراع الدائر فى كيانه . .

لقد طرقه خاطر مخيف فردّه بهذا العبوس ، والتجهم . . ولعل هذا الخاطر كان يدعوه إلى أن يستسلم للحق ، ويخرج على قريش معلنا إيمانه بآيات اللّه ، وتصديقه برسول اللّه ! !

ولكن هذا العبوس قد ردّ هذا الخاطر ، وألقى به فى عباب الخواطر التي تموج فى صدره .

« وَبَسَرَ » أي زاد على العبوس تقطيبا ، وزمّا لفمه ، وتكشيرا عن أنيابه . .

وهذه كلها تكشف عن حركات نفسية ، تغدو وتروح ، وتقبل وتدبر ، فى صدر هذا الشقي العنيد ، الذي يموج بهذه المشاعر المتضاربة .

« ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ » هذه هى الجولة الأخيرة فى هذا الصراع الذي كان محتدما فى نفسه . . لقد انهزم العقل ، وانتصر الهوى ، وغابت الحكمة ، وحضر الطيش والنزق . . وانتهى الأمر بأن أعطى هذا الشقي العنيد ظهره للحقّ ، وأخذته العزّة بالإثم ، فأبى أن يتبع سبيل المؤمنين .

« فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » ! ! وبد لا من أن يقول : « لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » .

. قال « إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أي ما هذا الذي يتلوه محمد علينا - ما هو إلا سحر ،

(243/790)

عجيب ، لا بد أن يكون قد تلقاه عن خبير بالسحر وفنونه ، واقتفى أثره فيه . .

« إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » . .

ثم لقد ازداد الشقىّ العنيد جرأة على الحقّ ، فبعد أن كان يلقاه خائفا لا يكاد يواجهه ، فيقول عن القرآن : « إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » رافعا قدره عن أن يكون من كلام البشر - إذا هو بعد هذه القولة الآثمة ، يخطو خطوة أخرى نحو الضلال ، فيقول : « إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ! » .

. إنه مجرد كلام ، لا يصل إلى أن يكون سحرا ! وهكذا الحق بسطوته وقوته ، يكشف عن

جبن أعدائه ، حتى وهم - فى ظاهر الأمر - غالبون منتصرون . .

هذا ، ومن الملاحظ أن العطف بين أحوال هذا الشقي الأثيم ، قد جاء بالحرف « ثمّ » الذي يفيد التراخي . .

«ثُمَّ نَظَرَ . . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ » .

ففى كل حال من تلك الأحوال ، عاش هذا الشقي زمنا ، مقدّرا ، ومفكرا ، ثم إنه ما إن انتهى من هذا الصراع الذي يدور فى كيانه ، وما إن أمسك بالكلمة التي يطلع بها على القوم ، حتى بادر بإلقائها إليهم قبل أن تفلت منه ، ويغلبه عليها ما يدور فى خاطره من كلام لا يقبلونه منه . . ولهذا جاء العطف بالفاء التي تفيد التعقيب دون تراخ ، أو إمهال . . « فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » وكما أسرع الشقىّ بكلمة الكفر يجهر بها ، قبل أن تفلت منه - كذلك أسرع إليه العقاب الذي يستحقه بسبب هذه القولة الفاجرة التي صدرت عنه . . فيجىء فى أعقابها قوله تعالى : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » .

(244/790)

يجىء هذا الوعيد ، الذي يحمل « سقر » إلى هذا الشقىّ ، أو يحمله هو إليها ، من غير حرف عطف أصلا ، يفصل بينه وبين قوله الآثم ، وكأنّ هذه النار التي سيصلاها ، هى

بعض هذا القول الخارج من فمه . . وإذا هذه النار مشتملة عليه . . تأكله ، كما تأكل الحطب ! و« سقر » هى جهنم ، وقيل اسم من أسمائها ، أو درك من دركاتها . .

إنه لم يكن بين قول هذا الشقىّ ، وبين الآية التي حملت إليه هذا الوعيد ـ لم يكن ثمة فاصل ، لفظى أو تقديرىّ . . وهذا يعنى أن هذه الجريمة تحمل معها عقابها دائما ، فلا ينفصل عنها بحال أبدا . .

« وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ » .

. استفهام يراد به الإشارة إلى أن المستفهم عنه شىء مهول ، لا يمكن وصفه . . لأنه مما لم يقع فى حياة الناس أبدا . .

« لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ » .

إنه وصف لسقر ، بأفعالها ، وما تترك من آثار . . أما ذاتها فلا يمكن تصورها . .

ومن صفاتها ، أنها لا تبقى شيئا إلا التهمته ، وجعلته وقودا لها ، كما لا تذر أحدا من أهل الضلال إلا ضمته إليها ، وأذاقته بأسها ، لا تدع منه ظاهرا أو باطنا إلا ذاق عذابها . .

«لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ » . .

أي أنها مغيّرة لألوان البشر ، إلى لون الفحم ، بما تلفح به وجوههم من لهيبها . .

« عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ » . .

أي على هذه النار ، التي هى سقر ، تسعة عشر من الزبانية ، يقومون على

(245/790)

حراستها ، وتقليب الحطب المقدّم إليها من المكذبين والضالين ، الذين يلقى بهم فيها ، ليكونوا وقودا لها . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 15 صـ 1287 . 1295 ﴾

(246/790)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) ﴾

لما جرى ذكر الكافرين في قوله : ﴿ فذلك يومئذٍ يوم عسير على الكافرين ﴾ [المدثر : 9 ، 10] ، وأشير إلى ما يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من الكافرين بقوله : ﴿ ولربّك فاصبر ﴾ [المدثر : 7] انتقل الكلام إلى ذكر زعيم من زعماء الكافرين ومدبر مطاعنهم في القرآن ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم

وقوله : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ الخ .

استئناف يؤذن بأن حدثاً كان سبباً لنزول هذه الآية عقبَ الآيات التي قبلها ، وذلك حين فشا في مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاوده الوحي بعد فترة وأنه أُمر بالإِنذار ويدل على هذا ما رواه ابن إسحاق أنه اجتمع نفر من قريش فيهم أبو لهب ، وأبو سفيان ، والوليدُ بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وأميةُ بن خلف ، والعاصي بنُ وائل ، والمُطْعِم بن عَدِي .

فقالوا : إن وفود العرب ستقدِم عليكم في الموسم وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الأخبار عنه .

فمن قائل يقول : مجنون وآخر يقول : كاهن ، وآخر يقول : شاعر ، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد ، فسَمُّوا محمد باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به ، فقام رجل منهم فقال : شاعر ، فقال الوليد بن المغيرة : سمعتُ كلام ابننِ الأبرص (يعني عَبيد بن الأبرص) وأميّة بن أبي الصلت ، وعرفتُ الشعر كله ، وما يشبه كلام محمد كلام شاعر ، فقالوا : كاهن ، فقال الوليد : ما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه .

(247/790)

والكاهن يصدُق ويكذب وما كذب محمد قط ، فقام آخر فقال : مجنون ، فقال الوليد : لقد عرفنا الجنون فإن المجنون يُخْنَق فما هو بخنقه ولا تَخالُجه ولا وسوسته ، فقالوا : ساحر ، قال الوليد : لقد رأينا السُّحَّار وسِحْرهم فما هو بنفثه ولا عَقْده ، وانصرف الوليد إلى بيته فدخل عليه أبو جهل فقال : ما لكَ يَا با عَبدِ شمس أصَبَأْتَ ؟ فقال الوليد : فكَّرت في أمر محمد وإن أقربَ القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فقال ابن إسحاق : فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ الآيات .

وعن أبي نصر القشيري أنه قال : قيل بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قول كفار مكة : أنتَ ساحر فوجد من ذلك غمّاً وحُمَّ فتدثر بثيابه فقال الله تعالى : ﴿ قم فأنذر ﴾ [المدثر : 2] .

وأيا ما كان فقد وقع الاتفاق على أن هذا القول صدر عن الوليد بن المغيرة وأنه المعنِيُّ بقوله تعالى : ﴿ ومن خلقت وحيداً ﴾ فإن كان قول الوليد صدَر منه بعد نزول صدْر هذه السورة فجملة ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً والمناسبة ظاهرة ، وإن كان قول الوليد هو سبب نزول السورة ، كان متصلاً بقوله:

﴿ ولربّك فاصبر ﴾ [المدثر : 7] على أنه تعليل للأمر بالصبر بأن الله يتولى جزاء هذا القائل ، وما بينهما اعتراض ، ويؤيد هذا أن ابتداء الوحي كان في رَمضان وأن فترة الوحي

دامت أربعين يوماً على الأصح سواء نزل وحي بين بدء الوحي وفترته مدةَ أيام ، أوْ لم ينزل بعد بدئه شيء ووقعتْ فترته ، فيكون قد أشرف شهر ذي القعدة على الانصرام فتلك مدة اقتراب الموسم فأخذ المشركون في الاستعداد لما يقولونه للوفود إذا استخبروهم خبر النبي صلى الله عليه وسلم

(248/790)

وتصدير الجملة بفعل ﴿ ذرني ﴾ إيماء إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مهتماً ومغتماً مما اختلقه الوليد بن المغيرة ، فاتصاله بقوله : ﴿ ولربّك فاصبر يزداد وضوحاً . وتقدم ما في نحو ذَرني ﴾ وكَذا ، من التهديد والوعيد للمذكور بعد واو المعية ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ فذَرني ومن يكذّب بهذا الحديث ﴾ في سورة القلم (44) .

وجيء بالموصول وصلته في قوله : ومن خلقت وحيداً ﴾ لإِدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد .

وانتصب ﴿ وحيداً ﴾ على الحال من ﴿ مَن ﴾ الموصولة .

والوحيد : المنفرد عن غيره في مكان أو حال مما يدل عليه سياق الكلام ، أو شهرة أو قصة ، وهو فعيل من وحُد من باب كَرُم وعَلِم ، إذا انفرد .

وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته وهي كثْرةُ الولد وسعة المال ، ومجده ومجد أبيه مِن قبله ، وكان مرجعَ قريش في أمورهم لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان ، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به .

وجاء هذا الوصف بعد فعل ﴿ خلَقْت ، ﴾ ليصرف هذا الوصف عما كان مراداً به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل ﴿ خلقتُ ﴾ أي أوجدتُه وحيداً عن المال والبنين والبسطة ، فيغيَّر عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به ، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كُل مخلوق فتكون من قبيل قوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتِكم لا تعلمون شيئاً ﴾ [النحل : 78] الآية .

وعطف على ذلك ﴿ وجعلتُ له مالاً ﴾ عطفَ الخاص على العام .

والممدود : اسم مفعول من مَدَّ الذي بمعنى : أطال ، بأن شُبهت كثرة المال بسعة مساحة الجسم ، أو من مدّ الذي بمعنى : زاد في الشْيءِ من مثله ، كما يقال : مَد الوادي النهرَ ، أي مالاً مزيداً في مقداره ما يكتسبه صاحبه من المكاسب .

وكان الوليد من أوسع قريش ثراءً .

وعن ابن عباس : كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإِبل والغنم والعبيد والجواري والجِنان وكانت غلة ماله ألف دينار (أي في السنة) .

وامتنّ الله عليه بنعمة البنين ووصَفهم بشهود جمع شاهد ، أي حاضر ، أي لا يفارقونه فهو مستأنس بهم لا يشتغل بالُه بمغيبهم وخوفِ معاطب السفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو غارة ، وكانوا يشهدون معه المحافل فكانوا فخراً له ، قيل : كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر ابناً ، والمذكور منهم سبعة ، وهم : الوليد بن الوليد ، وخالد ، وعمارة ، وهشام ، والعاصي ، وقيس أو أبو قيس ، وعبد شمس (وبه يكنى) .

ولم يذكر ابن حزم في "جمهرة الأنساب" : العاصي .

واقتصر على ستة .

والتمهيدُ : مصدر مهّد بتشديد الهاء الدال على قوة المَهْد .

والمَهْد : تسوية الأرض وإزالة ما يُقِضُّ جنب المضطجع عليها ، ومَهْدُ الصبي تسمية بالمصدر .

والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر .

وأُكد ﴿ مهَّدْتُ ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ليتوسل بتنكيره لإِفادة تعظيم ذلك

التمهيد وليس يطرد أن يكون التأكيد لرفع احتمال المجاز .

ووصف في هذه الآية بما له من النعمة والسعة لأن الآية في سياق الامتنان عليه توطئة لتوبيخه وتهديده بسوء في الدنيا وبعذاب النار في الآخرة ، فأما في آية سورة القلم فقد وصفه بما فيه من النقائص في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاّف مهين ﴾ [القلم : 10] الخ بناء على قول من قال : إن المراد به الوليد بن المغيرة (وقد علمت أنه احتمال) لأن تلك الآية في مقام التحذير من شره وغدره .

و﴿ ثم ﴾ في قوله : ﴿ ثم يطمع ﴾ للتراخي الرتبي ، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النعم وذلك بما يعرف من يُسر أموره .

وهذا مشعر باستبعاد حصول المطموع فيه وقد صرح به في قوله : ﴿ كلا .

(250/790)

والطمع : طلب الشيء العظيم وجعل متعلق طَمعه زيادة مما جعل الله له لأنهم لم يكونوا يسندون الرزق إلى الأصنام ، أو لأنّه طمع في زيادة النعمة غير متذكر أنها من عند الله فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجاً بتذكيره بأن ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به غيره في العبادة .

ولهذه النكتة عُدِل عن أن يقال : يطمع في الزيادة ، أو يطمع أن يُزاد .

وكلاّ ﴾ ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النّعم وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حاله بأن عنادهم لا يضرهم لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه كما حكى الله من قول موسى عليه السلام : ﴿ ربّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

وفي هذا الإِبطال والردع إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ [إبراهيم : 7] ، ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله : "من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقَالها" .

يجوز أن تكون هذه الجملة تعليلاً للردع والإِبطال ، أي لأن شدة معاندته لآياتنا كانت كفراناً للنعمة فكانت سبباً لقطعها عنه إذ قد تجاوز حدّ الكفر إلى المناواة والمعاندة فإن الكافر يكون منعماً عليه على المختار وهو قول الماتريدي والمعتزلة خلافاً للأشعري ، واختار المحقّقون أنه خلاف لفظي .

ويجوز أن تكون مستأنفة ويكون الوقف عند قوله تعالى : ﴿ كلاّ ﴾ .

والعنيد : الشديد العناد وهو المخالفة للصواب وهو فَعيل من : عَنَدَ يعنِد كضرب ، إذا نازع وجادل الحق البين .

(251/790)

وعناده : هو محاولته الطعن في القرآن وتحيله للتمويه بأنه سحر ، أو شعر ، أو كلام كهانة ، مع تحققه بأنه ليس في شيء من ذلك كما أعلن به لقريش ، قبل أن يلومَه أبو جهل ثم أخذه بأحد تلك الثلاثة ، وهو أن يقول : هو سحر ، تشبثاً بأن فيه خصائص السحر من التفريق بين المرء ومن هو شديد الصلة .

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17)

جملة ﴿ سأُرهقه صعوداً ﴾ معترضة بين ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ [المدثر : 16] وبين ﴿ إنه فكر وقدَّر ﴾ ، قصد بهذا الاعتراض تعجيل الوعيد له مسَاءَة له وتعجيلُ المسرة للنبيء صلى الله عليه وسلم

وجملة ﴿ إنه فكَّر وقدَّر ﴾ مبيِّنة لجملة ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً فهي تكملة وتبيين لها .

والإرهاق : الإتعاب وتحميل ما لا يطاق ، وفعله رهِق كفرِح ، قال تعالى : ﴿ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ في سورة الكهف (73) .

والصَّعود : العقبة الشديدة التَّصعد الشاقة على الماشي وهي فَعول مبالغة من صَعِد ، فإن العقبة صَعْدة ، فإذا كانت عقبة أشد تصعداً من العقبات المعتادة قيل لها : صَعُود .

وكأنَّ أصل هذا الوصف أن العقبة وُصفت بأنها صاعدة على طريقة المجاز العقلي ثم جعل ذلك الوصف اسمَ جنس لها .

وقوله : سأرهقه صعوداً ﴾ تمثيل لضد الحالة المجملة في قوله : ﴿ ومَهَّدت له تمهيداً ﴾ [المدثر : 14] ، أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سُوأى في الدنيا ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة ، وكل ذلك إرهاق له .

قيل : إنه طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا .

وقد وُزع وعيده على ما تقتضيه أعماله فإنه لما ذُكر عناده وهو من مقاصِدِه السيئة الناشئة عن محافظته على رئاسته وعن حسده النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من الأغراض الدنيوية عقّب بوعيده بما يشمل عذاب الدنيا ابتداء .

(252/790)

ولما ذُكر طعنه في القرآن بقوله : ﴿ إنْ هذا إلاّ سحر يؤثر ﴾ وأنكر أنه وحي من الله بقوله : ﴿ إن هذا إلاّ قول البشر ﴾ أُردف بذكر عذاب الآخرة بقوله : ﴿ سأُصليه سَقر ﴾ [المدثر : 26] .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم رأن صَعوداً جبل في جهنم يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً" ، رواه الترمذي وأحمد عن أبي سعيد الخدري .

وقال الترمذي : هو حديث غريب .

فجعل الله صفة صعود علَماً على ذلك الجبل في جهنم .

وهذا تفسير بأعظم ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً .

وجملة إنه فكر وقدر ﴾ إلى آخرها بدل من جملة ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ [المدثر : 16] بدل اشتمال .

وقد وصف حاله في تردده وتأمله بأبلغ وصف .

فابتدىء بذكر تفكيره في الرأي الذي سيصدر عنه وتقديره .

ومعنى ﴿ فكّر ﴾ أعمل فكره وكرّر نظر رأيه ليبتكر عذراً يموهه ويروّجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم

و﴿ قَدَّر ﴾ جعل قَدْراً لما يخطر بخاطره أن يصف به القرآن ليعرضه على ما يناسب ما

يُنحله القرآنَ من أنواع كلام البشر أو ما يَسِم به النبي صلى الله عليه وسلم من الناس المخالفةِ أحوالهم للأحوال المعتادة في الناس مثال ذلك أن يقول في نفسه ، نقول : محمد مجنون ، ثم يقول : المجنون يُخنق ويتخالج ويوسوس وليس محمد كذلك ، ، ثم يقول في نفسه : هو شاعر ، فيقول في نفسه : لقد عرفتُ الشّعر وسمعت كلام الشّعراء فما يشبه كلام محمّد كلام الشّاعر ، ثم يقول في نفسه : كاهن ، فيقول في نفسه : ما كلامه بزمزمة كاهن ولا بسجعه ، ثم يقول في نفسه : نقول هو ساحر فإن السحر يفرق بين المرء وذويه ومحمد يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فقال للناس : نقول إنه ساحر .

فهذا معنى ﴿ قَدَّر ﴾ .

(253/790)

وقوله : ﴿ فقُتل كيف قدّر ﴾ كلام معترض بين ﴿ فكّر وقدّر ﴾ وبين ﴿ ثم نظر ﴾ وهو إنشاء شتم مفرع على الإِخبار عنه بأنه فكر وقدّر لأن الذي ذكر يوجب الغضب عليه .

فالفاء لتفريع ذمه عن سيّىء فعله ومثله في الاعتراض قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ﴾ [النحل :

43 ، 44] .

والتفريع لا ينافي الاعتراض لأن الاعتراض وضع الكلام بين كلامين متصلين مع قطع النظر عما تألف منه الكلام المعترض فإن ذلك يجري على ما يتطلبه معناه .

والداعي إلى الاعتراض هو التعجيل بفائدة الكلام للاهتمام بها .

ومن زعموا أن الاعتراض لا يكون بالفاء فقد توهموا .

و﴿ قُتِل ﴾ : دعاء عليه بأن يقتله قَاتل ، أي دعاء عليه بتعجيل مَوته لأن حياته حياة سيئة .

وهذا الدعاء مستعمل في التعجيب من ماله والرثاءِ له كقوله : ﴿ قاتلهم الله ﴾ [التوبة : 30] وقولهم : عَدِمْتُك ، وثَكلتْه أُمُّه ، وقد يستعمل مثله في التعجيب من حسن الحال يقال : قاتله الله ما أشجعه .

وجعله الزمخشري كناية عن كونه بلغ مبلغاً يحسده عليه المتكلم حتى يتمنى له الموت .

وأنا أحسب أن معنى الحسد غير ملحوظ وإنما ذلك مجرد اقتصار على ما في تلك الكلمة من التعجب أو التعجيب لأنها صارت في ذلك كالأمثال .

والمقام هنا متعين للكناية عن سوء حاله لأن ما قَدره ليس مما يَغتبط ذوو الألباب على إصابته إذ هو قد ناقض قوله ابتداء إذ قال : ما هو بعَقْدِ السحرة ولا نفثهم وبَعد أن فكّر قال : ﴿ إن هذا إلاّ سحر يؤثر ﴾ فناقض نفسه .

وقولُه : ﴿ ثم قُتل كيف قدّر ﴾ تأكيد لنظيره المفرّع بالفاء .

والعطف بـ ﴿ ثم ﴾ يفيد أن جملتها أرقى رتبة من التي قبلها فِي الغرض المسوق له الكلام .

فإذا كان المعطوف بها عين المعطوف عليه أفادت أن معنى المعطوف عليه ذُو درجات متفاوتة مع أن التأكيد يكسب الكلام قوة .

(254/790)

وهذا كقوله : ﴿ كَلاَّ سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ [النبأ : 4 ، 5] .

و ﴿ كَيف قدّر ﴾ في الموضعين متحد المعنى وهو اسم استفهام دال على الحالة التي يبينها متعلِّق ﴿ كيف ﴾ .

والاستفهام موجه إلى سامع غير معيّن يستفهم المتكلم سامعه استفهاماً عن حالة تقديره ، وهو استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإِنكار على وجه المجاز المرسل .

و ﴿ كيف ﴾ في محل نصب على الحال مقدمة على صاحبها لأن لها الصدر وعاملها ﴿ قَدَّر ﴾ .

وقوله : ﴿ ثم نظر ثم عبَس وبَسَر ثم أدبر واستكبر ﴾ عطف على ﴿ وقدّر ﴾ وهي ارتقاء متوالٍ فيما اقتضى التعجيب من حاله والإِنكار عليه .

٧ فالتراخي تراخي رتبة لا تراخي زمنٍ لأن نظره وعُبُوسه وبَسَره وإِدباره واستكباره مقارنة لتفكيره وتقديره .

والنظر هنا : نظر العين ليكون زائداً على ما أفاده ﴿ فكَّر وقدَّر ﴾ .

والمعنى : نظر في وجوه الحاضرين يستخرج آراءهم في انتحال ما يصفون به القرآن .

و﴿ عبس ﴾ : قطَّب وجهه لمَّا استعصى عليه ما يصف به القرآن ولم يجد مغمَزاً مقبولاً .

و﴿ بسَر ﴾ : معناه كلَح وجهُه وتغيَّر لونه خوفاً وكمداً حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا ترده العقول ، قال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذٍ باسرة تظنّ أن يفعل بها فاقرة ﴾ في سورة [القيامة : 24 ، 25] .

والإِدبار : هنا يجوز أن يكون مستعاراً لتغيير التفكير الذي كان يفكره ويقدّره يَأساً من أن يجد ما فكر في انتحاله فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى .

ويجوز أن يكون مستعاراً لزيادة إعراضه عن تصديق النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ ثم أدبر يسعى حكاية عن فرعون ﴾ في سورة النازعات (22) .

وصفت أشكاله التي تشكَّل بها لما أجهد نفسه لاستنباط ما يصف به القرآن ، وذلك تهكم بالوليد .

وصيغة الحصر في قوله : إِنْ هذا إلاّ سحر يؤثر ﴾ مشعرة بأن استقراء أحوال القرآن بعد السَبر والتقسيم أنتج له أنه من قبيل السحر ، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التي جالت في نفسه لأنه قال : ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون ، كما تقدم في خبره .

ووصَف هذا السحر بأنه مأثُور ، أي مروي عن الأقدمين ، يقول هذا ليدفع به اعتراضاً يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة .

وجملة ﴿ إنْ هذا إلاّ قول البشر ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ إن هذا إلاّ سحر يؤثر ﴾ بأن السحر يكون أقوالاً وأفعالاً فهذا من السحر القولي .

وهذه الجملة بمنزلة النتيجة لما تقدم ، لأن مقصوده من ذلك كله أنّ القرآن ليس وحياً من الله .

وعطف قوله : ﴿ فقال ﴾ بالفاء لأنّ هذه المقالة لما خطرت بباله بعد اكتداد فكره لم يتمالك أن نطق بها فكان نطقه بها حقيقاً بأن يعطف بحرف التعقيب .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)

جملة ﴿ سأُصليه سقر ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ إنه فكّر وقدّر ﴾ [المدثر : 18] إلى آخر الآيات فذكر وعيده بعذاب الآخرة .

ويجوز أن تكون بدلاً من جملة ﴿ سأرهق صعوراً ﴾ .

والإِصلاء : جعل الشيء صالياً ، أي مباشراً حرَّ النار .

وفعل صَلِيَ يطلق على إحساس حرارة النار ، فيكون لأجل التدَفّىء كقول الحارث بن حِلزة:

فتنورتَ نارها من بعيد . . .

بخزازَى أيَّانَ منكَ الصلاء

أي أنت بعيد من التدفىء بها وكما قال حُمَيد بن ثَوْر:

لا تصطلي النارَ إلاّ مِجْمَرا أرِجَا . . .

قد كَسَّرت من يَلْنَجُوجٍ له وَقَصَا

(256/790)

ويطلق على الاحتراق بالنار قال تعالى : ﴿ سَيصلَى ناراً ذات لهب ﴾ في سورة أبي لهب (3) وقال : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظَّى لا يصلاَها إلاّ الأشقى ﴾ في سورة الليل (14 ، 15) ، وقال : وسيَصلون سعيراً في سورة النساء (10) ، والأكثر إذا ذكر لفعل هذه المادة مفعول ثان من أسماء النار أن يكون الفعل بمعنى الإِحراق كقوله تعالى : ﴿ فسوف

نُصليه ناراً ﴾ في سورة النساءِ (30) .

ومنه قوله هنا سأُصليه سقر .

وسقر : علَم لطبقة من جهنم ، عن ابن عباس : أنه الطبق السّادس من جهنم .

قال ابن عطية : سقر هو الدرك السادس من جهنم على ما روي ا ه .

واقتصر عليه ابنُ عطية .

وجرى كلام جمهور المفسرين بما يقتضي أنهم يفسّرون سقر بما يرادف جهنم .

وسقر ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث لأنه اسم بُقعة من جهنم أو اسم جهنم وقد جرى ضمير سقر على التأنيث في قوله تعالى : لا تُبقي ﴾ إلى قوله : ﴿ عليها تسعة عشر .

﴾ وقيل سقر معرَّب نقله في "الإِتقان" عن الجواليقي ولم يذكر الكلمة المعرّبة ولا من أية لغة هو .

و﴿ ما أدراك ما سقر ﴾ جملة حالية من ﴿ سقر ﴾ ، أي سقر التي حالها لا ينبئك به مُنبىء وهذا تهويل لحالها .

و﴿ ما سقر ﴾ في محل مبتدإ وأصله سقر مَّا ، أي ما هي ، فقدّم ﴿ ما ﴾ لأنه اسم استفهام وله الصدارة .

فإن ﴿ ما ﴾ الأولى استفهامية .

والمعنى : أيُّ شيء يدريك ، أي يعلمك .

و﴿ ما ﴾ الثانية استفهامية في محل رفع خبر عن ﴿ سقر ﴾ .

وجملة ﴿ لا تبقي ﴾ بدل اشتمال من التهويل الذي أفادته جملة ﴿ وما أدراك ما سَقر ، ﴾ فإن من أهوالها أنها تهلك كل من يصلاها .

والجملة خبر ثان عن سقر .

وحذف مفعول ﴿ تبقي ﴾ لقصد العموم ، أي لا تبقي منهم أحداً أو لا تبقي من أجزائهم شيئاً .

وجملة ﴿ ولا تذر ﴾ عطف على ﴿ لا تبقي ﴾ فهي في معنى الحال ، ومعنى ﴿ لا تذر ، ﴾ أي لا تترك من يلقَى فيها ، أي لا تتركه غير مصلي بعذابها .

(257/790)

وهذه كناية عن إعادة حياته بعد إهلاكه كما قال تعالى : ﴿ كلما نَضِجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : 56] .

و﴿ لوّاحة ﴾ : خبر ثالث عن ﴿ سقر ﴾ .

و﴿ لوّاحة ﴾ فعّالة ، من اللّوح وهو تغيير الذات من ألمٍ ونحوه ، وقال الشاعر ، وهو من شواهد "الكشاف" ولم أقف على قائله:

تقول ما لاحكَ يا مُسافِرْ . . .

يا ابنة عمي لاحني الهَواجِرْ

والبشر : يكون جمع بشرة ، وهي جلد الإِنسان ، أي تغير ألوان الجلود فتجعلها سوداً ، ويكون اسم جمع للناس لا واحد له من لفظه .

وقوله : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ خبر رابع عن ﴿ سَقر ﴾ من قوله : ﴿ وما أدراك ما سقر .

ومعنى عليها ﴾ على حراستها ، ف (على) للاستعلاء المجازي بتشبيه التصرف والولاية بالاستعلاء كما يقال : فلان على الشرطة ، أو على بيت المال ، أي يلي ذلك والمعنى : أن خزنة سقر تسعة عشر مَلَكاً .

وقال جمع : إن عدد تسعة عشر : هُم نقباء الملائكة الموكلين بجهنم .

وقيل : تسعة عشر صِنفاً من الملائكة وقيل تسعة عشر صفّاً .

وفي "تفسير الفخر" : ذكر أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهاً : أحدها قول أهل الحكمة : إن سبب فساد النفس هو القُوى الحيوانية والطبيعية أما الحيوانية فهي الخمس الظاهرة والخمس الباطنة ، والشهوة والغضب ، فمجموعها اثنتا عشرة .

وأما القوى الطبيعية فهي : الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ،

والنامية ، والمولِّدة ، فهذه سبعة ، فتلك تسعَ عشرة .

فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسع عشرة كان عدد الزبانية كذلك أهـ .

(258/790)

والذي أراه أن الملائكة التسعة عشر موزَّعون على دركات سقر أو جهنمَ لكل دَرك مَلك فلعل هذه الدركات معيَّن كل درك منها لأهل شعبة من شُعب الكفر ، ومنها الدرك الأسفل الذي ذكره الله تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ في سورة النساء (145) فإن الكفر أصناف منها إنكار وجود الله ، ومنها الوثنية ، ومنها الشرك بتعدد الإله ، ومنها عبادة الكواكب ، ومنها عبادة الشيطان والجن ، ومنها عبادة الحيوان ، ومنها إنكار رسالة الرسل ، ومنها المجوسية المانوية والمزدكية والزندقة ، وعبادة البشر مثل الملوك ، والإِباحيةُ ولو مع إثبات الإله الواحد .

وفي ذكر هذا العدد تحدَ لأهل الكتابين يبعثهم على تصديق القرآن إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم كما سيأتي قوله : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ [المدثر : 31] .

وقرأ الجمهور ﴿ تسعة عَشر ﴾ بفتح العين من ﴿ عَشر .

﴾ وقرأ أبو جعفر ﴿ تسعة عشر ﴾ بسكون العين من ﴿ عشْر ﴾ تخفيفاً لتوالي

الحركات فيما هو كالاسم الواحد ، ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم هذه القراءة فإنها متواترة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(259/790)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/791)

الجزء الحادى والتسعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من (سورة المدثر صلى الله عليه وسلم)

وحتى الآية ﴿ 56 ﴾ آخر السورة

(4/791)

قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا غير مميز للمعدود ، وكانت الحكمة في تعيين هذا العد غير ظاهر ، وكان هذا العدد مما يستقله المتعنت فيزيده كفراً ، قال تعالى مبيناً لذلك : ﴿ وما جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة وإن خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه ﴿ أصحاب النار ﴾ أي خزنتها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أي إنهم ليسوا من جنس المعذبين فيرقوا لهم ويطيق المعذبون محاولتهم أو يستريحوا إليهم وهم أقوى الخلق ، وقد تكرر عليكم ذكرهم وعلمتم أوصافهم وأنهم ليسو كالبشر بل الواحد منم يصيح صيحة واحدة فيهلك مدينة كاملة كما وقع لثمود ، فكيف إذا كا كل واحد من هؤلاء الخزنة رئيساً تحت يده من الجنود ما لا يحصيه إلا الله تعالى ﴿ وما جعلنا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ عدتهم ﴾ أي مذكورة ومحصورة فيما ذكرنا ﴿ إلا فتنة ﴾ أي حالة مخالطة مميلة محيلة ﴿ للذين كفروا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى الوجوه ، فإنهم يستقلونه ويستهزئون به ويتعنتون أنواعاً من التعنت بحيث إن بعض أغبياء قريش وهو أبو جهل ، قال : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يقول كذا وأنتم ألدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي – وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين ، وهذا كله على سبيل الاستهزاء ، فإنهم مكذبون بالبعث الذي هذا من آثاره ، وكان في علم أهل الكتاب أن هذه العدة عدتهم ، وأن العرب إذا سمعوا هذه العدة كانت سبباً للشك أكثرهم

وموضعاً للتعنت ، فلذلك علق بالفتنة أو ب " جعلنا " قوله : ﴿ ليستيقن ﴾ أي يوجد اليقين إيجاداً تاماً كأنه بغاية الرغبة ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ بناه للمفعول لأن مطلق الإيتاء كاف في ذلك من غير احتياج إلى تعيين المؤتي مع أنه معروف أنه هو الله ، قال البغوي : مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر .

(5/791)

﴿ ويزداد الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أدنى الوجوه إلى ما عندهم من الإيمان ﴿ إيماناً ﴾ بتصديق ما لم يعلموا وجه حكمته لا سيما مع افتتان غيرهم به وكثرة كلامهم فيه ، فإن الإيمان بمثل ذلك يكون أعظم .

ولما أثبت لكل من الجاهل والعالم ما أثبت ، أكده بنفي ضده مبيناً للفتنة فقال : ﴿ ولا يرتاب ﴾ أي يشك شكاً يحصل بتعمد وتكسب ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ لما عندهم من العلم المطابق لذلك ، قال ابن برجان : وروى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ " إن قوماً من أهل الكتاب جاؤوا إليه في قضية – فيها طول ، وفيها أنهم سالوه عن خزنة جهنم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده هكذا وهكذا ، في مرة عشرة وفي مرة تسعة ،

فقالوا : بارك الله فيك يا أبا القاسم ، ثم سألهم : ما خزنة الجنة ؟ فسكتوا هيبة ثم قالوا : خبزة يا أبا القاسم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الخبزة من الدرمك "

(6/791)

﴿ والمؤمنون ﴾ أي لا يرتاب الذين رسخ الإيمان عندهم لما رأوا من الدلائل التي جعلتهم في مثل ضوء النهار ﴿ وليقول الذين ﴾ استقر ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ أي شك أو نفاق وإن قل ، ونزول هذه السورة قبل وجود المنافقين علم من أعلام النبوة ، ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الأمور علة لمصالح ناس وفساد آخرين ، لأنه لا يسأل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصودة لشيء بالقصد الأول ، ثم يرتب عليها شيء آخر يكون قصده بالقصد الثاني تقول : خرجت من البلد لمخالفة أكثر ومخافة الشر لا يتعلق بها الغرض ﴿ والكافرون ﴾ أي ويقول الراسخون في الكفر الجازمون بالتكذيب المجاهرون به الساترون لما دلت عليه الأدلة من الحق ﴿ ماذا ﴾ أي أي شيء ﴿ أراد الله ﴾ أي الملك الذي له جميع العظمة ﴿ بهذا ﴾ : أي العدد القليل في جنب عظمته ﴿ مثلاً ﴾ أي من جهة أنه صار بذلك مستغرباً استغراب المثل ، أو أن ذلك إشارة إلى أنه ليس المراد به ظاهره بل مثل لشيء لم

يفهموه وفهموا أن بين استجماعه للعظمة وهذا العدد عناداً ، وما علموا أن القليل من حيث العدد قد يكون أعظم بقوته من الكثير العدد ، ويكون أدل على استجماع العظمة .

(7/791)

ولما كان التقدير : أراد بهذا إضلال من ضل وهو لا يبالي ، وهداية من اهتدى وهو لا يبالي ، كان كأنه قيل : هل يفعل مثل هذا في غير هذا ؟ فقال جواباً : ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا المذكور من الإضلال والهداية ﴿يضل الله﴾ أي الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز ﴿من يشاء﴾ بأي كلام شاء ﴿ويهدي﴾ بقدرته التامة ﴿من يشاء﴾ بنفس ذلك الكلام أو بغيره ، وذلك من حكم جعل الخزنة تسعة عشر والإخبار عنهم بتلك العدة فإن إبراز الأحكام على وجه الغموض من أعظم المهلكات والمسعدات ، لأن المنحرف الطباع يبحث عن عللها بحثاً متعنتاً ، فإذا عميت عليه قطع ببطلان تلك الأحكام أو شك ، وربما أبى الانقياد ، وذلك هو سبب كفر إبليس والمستقيم المزاج يبحث مع التسليم فإن ظهر له الأمر ازداد تسليماً وإلا قال : آمنت بذلك كل من عند ربنا – فكان في غاية ما يكون من تمام الانقياد لما يعلم سره – رزقنا الله التسليم لأمره وأعاننا على ذكره وشكره .

ولما كان هذا مما يوهم قلة جنوده تعالى ، أتبعه ما يزيل ذلك فقال : ﴿وما﴾ أي والحال أنه

ما ﴿يعلم جنود ربك﴾ أي المحسن إليك بأنواع الإحسان المدبر لأمرك بغاية الإتقان من جعل النار وخزنتها وجعلهم على هذه العدة وغير ذلك ، فلا تعلم عدتهم لأجل كثرتهم وخروجهم عن طوق المخلوق وما هم عليه من الأوصاف في الأجساد والمعاني ﴿إلا هو﴾ أي الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال ، فلو أراد لجعل الخزنة أكثر من ذلك ، فقد روي أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا تعود إليهم نوبة أخرى ، وقد ورد أن الأرض في السماء كحلقة ملقاة في فلاة وكل سماء في التي فوقها كذلك ، وقد ورد في الخبر : أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم يصلي .

(8/791)

وإنما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها إلا هو ، ومن أراد إطلاعه على ذلك من عباده مع أن الكفاية تقع بدون ذلك ، فقد كان في الملائكة من اقتلع مدائن قوم لوط وهي سبع ورفعها إلى عنان السماء ، وكل ما في الإنسان من الجواهر والإعراض من جنود الله لو سلط عليه شيء من نفسه لأهلكه : لو تحرك عرق ساكن أو سكن متحرك أو انسد مجوف أو تجوف منسد لهلك .

ولما ذكر شيئاً من أسرار سوق الأخبار عنها غامضاً ، وكان ذلك من رحمة العباد ليفتح

لهم باباً إلى التسليم لما يغمض من تذكيرهم بأمر مليكهم لأن العاجز لا يسعه في المشي على قانون الحكمة إلا التسليم للقادر وإلا أهلك نفسه وما ضر غيرها ، خص أمرها في التذكير تأكيداً للإعلام تذكيراً بالنعمة لأجل ما لأغلب المخاطبين من اعوجاج الطباع المقتضي للرد والإنكار ، المقتضي لسوق الكلام على وجه التأكيد فقال : ﴿ وما هي ﴾ أي النار التي هي من أعظم جنوده سبحانه وتعالى : ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ أي تذكرة عظيمة لكل من هو ظاهر البشرة فبدنه أقبل شيء للتأثر بها لأجل ما يعرفون منها في دنياهم ، وإلا فهو سبحانه وتعالى قادر على إيجاد ما هو أشد منها وأعظم وأكثر إيلاماً مما لا يعلمه الخلائق .

ولما كان حصرها في الذكرى ربما أوهم نقصاً في أمرها يوجب لبعض المعاندين ريبة في عظمه وأنه لا حقيقة لها ولا عذاب فيها ، قال رادعاً من ذلك ومنبهاً على الاستعداد والحذر بكلمة لا ردع والتنبيه : ﴿ كلا ﴾ أي إياك أن ترتاب في أهوالها وعظيم أمرها وأحوالها وأوجالها لأن الأمر أطم وأعظم مما يخطر بالبال ، فليرتدع السامع ولينزجر .

(9/791)

ولما حصر أمرها في الذكرى ونفى أن يظن بها نقص فيما جعلت له تأكيداً للكلام إشارة إلى ما لأغلب المخاطبين من الشكاسة والعوج إيقاظاً مما هم فيه من الغفلة وتلطيفاً لما لهم من

اللوم والكثافة وتنبيهاً لهم على السعي في تقويم أنفسهم بما يستعملونه من الأدوية التي يرشدهم سبحانه إلى علاج أمراض القلوب بها ، زاد الأمر تأكديا فأقسم على ذلك بما هو ذكرى للناس ولا يظهر معه ظلام الليل كما أن ضياء القرآن لا يظهر معه ظلام الجهل من أعمل عين فكرته ، وألقى حظوظ نفسه ، فقال : ﴿ والقمر ﴾ أي الذي هو آية الليل الهادية لمن ضل بظلامه ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ أي مضى فانقلب راجعاً من حيث جاء فانكشف ظلامه فزال الجهل بانكشافه ، وانصرفت الريب والشكوك بانصرافه ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أقبل ضياؤه فجل العلم بجلوله ، وحصلت الهداية بحصوله ، أو دبر بمعنى " أقبل " قال قطرب : تقول العرب : دبرني فلان أي جاء خلفي .

ولما أقسم على ما أخبر به من ذكراها ، وأكده لإنكارهم العظيم لبلاياها استأنف تعظيمها والتخويف منها تأكيداً للتخويف لما تقدم من الإنكار فقال : ﴿ إنها ﴾ أي النار التي سقر دركة من دركاتها ، وزاد في التأكيد على مقتضى زيادتهم في الاستهزاء فقال : ﴿ لإحدى الكبر ﴾ أي من الدواهي والعظائم ، جمع كبيرة وكبرى ، وهو كناية عن شدة هولها كما يقول : هو أحد الرجال أي لا مثل له ، أو المراد بها واحدة سبع هي غاية في الكبر أي دركات النار ، وهو جهنم فلظى فالحطمة فالسعير فسقر فالجحيم فالهاوية ، هي إحداها في عظيم أقطارها وشديد إيلامها وإضرارها ، حال كونها ﴿ نذيراً ﴾ عظيماً أو من جهة نذارتها أو إنذاراً بالغاً : فعيل بمعنى المصدر مثل ﴿ فكيف كان نكير ﴾ [الملك : 18]

أي إنكاري ، وعبر بقوله : ﴿ للبشر ﴾ لما تقدم من الإشارة إلى إسراع الجسم العادي في قبول التأثر لا سيما بالنار .

(10/791)

ولما كان التقدم عند الناس لا سيما العرب محبوباً والتأخر مكروهاً ، وكان سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان قوة واختياراً بها يفعل ما قدره الله له وغطى عنه علم العاقبة حتى صار الفعل ينسب إليه وإن كان إنما هو بخلق الله ، قال تعالى باعثاً لهم على الخير ومبعداً من الشر مستأنفاً أو مبدلاً جواباً لمن يقول : وما عسى أن نفعل ؟ أو ينفع الإنذار وقد قال إنه هو الهادي المضل ﴿ يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ﴿ لمن شاء ﴾ أي بإرادته ، وصرح بالمقصود لئلا يتعنت متعنتهم فيقول : المراد غيرنا ، فقال : ﴿ منكم ﴾ أي أيها المعاندون ﴿ أن يتقدم ﴾ أي إلى الخيرات ﴿ أو يتأخر ﴾ أي عنها فيصل إلى غضب الله تعالى والنار التي هي أثر غضبه ، التي جعل ما عندنا من مؤلم الحر ومهلك البرد متأثراً عن نفسيها تذكيراً لنا ورحمة بنا ، وحذف المفعول لأن استعماله كثير حتى صار يعرف وإن لم يذكر ، وترجمة ذلك : لمن شاء أن يتقدم التقدم بما له من المكنة والاختيار في ظاهر الأمر ، ولمن شاء أن يتأخر التأخر ، و ﴿ أن يتقدم ﴾ مبتدأ ، وهو مثل " لمن يتوضأ أن يصلي "

ويجوز أن تكون الجملة بدلاً من " للبشر " على طريق الالتفات من الغائب إلى الحاضر ليصير كل مخاطب به كأنه هو المقصود بذلك بالقصد الأول فيتأمل المعنى في نفسه فيجده صادقاً ثم يتأمل فلا يجد مانعاً من تعديته إلى غيره من جميع البشر ، ويكون " أن " والفعل على هذا مفعولاً ل " شاء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 231.235 ﴾

(11/791)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصحاب النار إِلاَّ مَلَئِكَةً ﴾

روي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] قال أبو جهل : لقريش ثكلتكم أمهاتكم ، قال ابن أبي كبشة : إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ! فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين ! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك ، قال المسلمون ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين ! فجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا يسوى بينهما ، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين والحداد ، السجان الذي

يحبس النار ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصحاب النار إِلاَّ مَلَئِكَةً ﴾ واعلم أنه تعالى إنما جعلهم ملائكة لوجوه أحدها : ليكونوا بخلاف جنس المعذبين ، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة ، ولذلك بعث الرسول المبعوث إلينا من جنسنا ليكون له رأفة ورحمة بنا وثانيها : أنهم أبعد الخلق عن معصية الله تعالى وأقواهم على الطاعات الشاقة وثالثها : أن قوتهم أعظم من قوة الجن والإنس ، فإن قيل : ثبت في الأخبار ، أن الملائكة مخلوقون من النور ، والمخلوق من النور كيف يطيق المكث في النار ؟ قلنا : مدار القول في إثبات القيامة على كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، فكما أنه لا استبعاد في أن يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت ، فكذا لا استبعاد في بقاء الملائكة هناك من غير ألم .

ثم قال تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هذا العدد إنما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين الأول : أن الكفار يستهزئون ، يقولون : لم لم يكونوا عشرين ، وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود ؟ الثاني : أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله إلى قيام القيامة ؟ وأما أهل الإيمان فلا يلتفتون إلى هذين السؤالين .

أما السؤال الأول : فلأن جملة العالم متناهية ، فلا بد وأن يكون للجواهر الفردة التي منها تألفت جملة هذا العالم عدد معين ، وعند ذلك يجيء ذلك السؤال ، وهو أنه لم خصص ذلك العدد بالإيجاد ، ولم يزد على ذلك العدد جوهر آخر ولم ينقص ، وكذا القول في إيجاد العالم ، فإنه لما كان العالم محدثاً والإله قديماً ، فقد تأخر العالم عن الصانع بتقدير مدة غير متناهية ، فلم لم يحدث العالم قبل أن حدث بتقدير لحظة أو بعد أن وجد بتقدير لحظة ؟ وكذا القول في تقدير كل واحد من المحدثات بزمانه المعين ، وكل واحد من الأجسام بأجزائه المحدودة المعدودة ، ولا جواب عن شيء من ذلك إلا بأنه قادر مختار ، والمختار له أن يرجح الشيء على مثله من غير علة ، وإذا كان هذا الجواب هو المعتمد في خلق جملة العالم ، فكذا في تخصيص زبانية النار بهذا العدد .

وأما السؤال الثاني : فضعيف أيضاً ، لأنه لا يبعد في قدرة الله تعالى أن يعطي هذا العدد من القدرة والقوة ما يصيرون به قادرين على تعذيب جملة الخلق ، ومتمكنين من ذلك من غير

خلل ، وبالجملة فمدار هذين السؤالين على القدح في كمال قدرة الله ، فأما من اعترف بكونه تعالى قادراً على مالا نهاية له من المقدورات ، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذه الاستبعادات بالكلية .

المسألة الثانية :

(13/791)

احتج من قال : إنه تعالى قد يريد الإضلال بهذه الآية ، قال لأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يدل على أن المقصود الأصلي إنما هو فتنة الكافرين ، أجابت المعتزلة عنه من وجوه أحدها : قال الجبائي : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوي هؤلاء التسعة عشر على مالا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء وثانيها : قال الكعبي : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه ، وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به وثالثها : أن المراد من الفتنة ما وقعوا فيه من الكفر بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة ، والمعنى إلا فتنة على الذين كفروا ليكذبوا به ، وليقولوا ما قالوا ، وذلك عقوبة لهم على كفرهم ، وحاصله راجع إلى ترك الألطاف والجواب : أنه لا نزاع في شيء مما ذكرتم ، إلا أنا

نقول : هل لإنزال هذه المتشابهات أثر في تقوية داعية الكفر ، أم لا ؟ فإذا لم يكن له أثر في تقوية داعية الكفر ، كان إنزالها كسائر الأمور الأجنبية ، فلم يكن للقول بأن إنزال هذه المتشابهات فتنة للذين كفروا وجه ألبتة ، وإن كان له أثر في تقوية داعية الكفر ، فقد حصل المقصود ، لأنه إذا ترجحت داعية الفعل ، صارت داعية الترك مرجوحة ، والمرجوح يمتنع أن يؤثر ، فالترك يكون ممتنع الوقوع ، فيصير الفعل واجب الوقوع ، والله أعلم ، واعلم أنه تعالى بين أن المقصود من إنزال هذا المتشابه أمور أربعة .

أولها : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ وثانيها : ﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إيمانا ﴾ وثالثها : ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ ورابعها : ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ واعلم أن المقصود من تفسير هذه الآيات لا يتلخص إلا بسؤالات وجوابات :

(14/791)

السؤال الأول : لفظ القرآن يدل على أنه تعالى جعل افتتان الكفار بعدد الزبانية سبباً لهذه الأمور الأربعة ، فما الوجه في ذلك ؟ والجواب : أنه ما جعل افتتانهم بالعدد سبباً لهذه الأشياء وبيانه من وجهين الأول : التقدير : وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، وإلا

ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، كما يقال : فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك ، قالوا : والعاطفة قد تذكر في هذا الموضع تارة .

وقد تحذف أخرى الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هو أنه وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر إلا أنه وضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر كأنه عبر عن المؤثر باللفظ الدال على الأثر ، تنبيهاً على أن هذا الأثر من لوازم ذلك المؤثر .

(15/791)

السؤال الثاني : ما وجه تأثير إنزال هذا المتشابه في استيقان أهل الكتاب ؟ الجواب : من وجوه أحدها : أن هذا العدد لما كان موجوداً في كتابهم ، ثم إنه عليه السلام أخبر على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم ، فظهر أن ذلك إنما حصل بسبب الوحي من السماء فالذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يزدادون به إيماناً وثانيها : أن التوراة والإنجيل كانا محرفين ، فأهل الكتاب كانوا يقرأون فيهما أن عدد الزبانية هو هذا القدر ، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين ، فلما سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوي إيمانهم بذلك

واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق وثالثها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب ، فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه ، لأنهم كانوا يستهزئون به في إثبات التوحيد والقدرة والعلم ، مع أن تلك المسائل أوضح وأظهر فكيف في ذكر هذا العدد العجيب ؟ ثم إن استهزاءهم برسول الله وشدة سخريتهم به ما منعه من إظهار هذا الحق ، فعند هذا يعلم كل أحد أنه لو كان غرض محمد صلى الله عليه وسلم طلب الدنيا والرياسة لاحترز عن ذكر هذا العدد العجيب ، فلما ذكره مع علمه بأنهم لا بد وأن يستهزئوا به علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو تبليغ الوحي ، وأنه ما كان يبالي في ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين .

(16/791)

السؤال الثالث : ما تأثير هذه الواقعة في ازدياد إيمان المؤمنين ؟ الجواب : أن المكلف ما لم يستحضر كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحادثات منزهاً عن الكذب والخلف لا يمكنه أن ينقاد لهذه العدة ويعترف بحقيقتها ، فإذا اشتغل باستحضار تلك الدلائل ثم جعل العلم الإجمالي بأنه صادق لا يكذب حكيم لا يجهل دافعاً للتعجب الحاصل في الطبع من هذا العدد العجيب فحينئذ يمكنه أن يؤمن بحقيقة هذا العدد ، ولا شك أن

المؤمن يصير عند اعتبار هذه المقامات أشد استحضاراً للدلائل وأكثر انقياداً للدين ، فالمراد بازدياد الإيمان هذا .

السؤال الرابع : حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان فما قولكم في هذه الآية ؟

الجواب : نحمله على ثمرات الإيمان وعلى آثاره ولوازمه .

السؤال الخامس : لما أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين فما الفائدة في قوله بعد ذلك : ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ ؟ الجواب : أن المطلوب إذا كان غامضاً دقيق الحجة كثير الشبهة ، فإذا اجتهد الإنسان فيه وحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق ، فيعود الشك والشبهة ، فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك ، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم ، بحيث لا يحصل عقيبه ألبتة شك ولا ريب .

(17/791)

السؤال السادس : جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله : ﴿ الذين فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ إنهم الكافرون وذكر الحسين بن الفضل البجلي أن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض في هذه الآية ليس بمعنى النفاق ، والجواب : قول المفسرين حق وذلك لأنه كان في

معلوم الله تعالى أن النفاق سيحدث فأخبر عما سيكون ، وعلى هذا تصير هذه الآية معجزة ، لأنه إخبار عن غيب سيقع ، وقد وقع على وفق الخبر فيكون معجزاً ، ويجوز أيضاً أن يراد بالمرض الشك لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب .

السؤال السابع : هب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا مقصودين من إنزال هذا المتشابه ، فكيف صح أن يكون قول الكافرين والمنافقين مقصوداً ؟ الجواب : أما على أصلنا فلا إشكال لأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وسيأتي مريد تقرير لهذا في الآية الآتية ، وأما عند المعتزلة فإن هذه الحالة لما وقعت أشبهت الغرض في كونه واقعاً ، فأدخل عليه حرف اللام وهو كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ .

السؤال الثامن : لم سموه مثلاً ؟ الجواب : أنه لما كان هذا العدد عدداً عجيباً ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلاً لشيء آخر وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

السؤال التاسع : القوم كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله ، فكيف قالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ الجواب : أما الذين في قلوبهم مرض ، وهم المنافقون فكانوا في الظاهر معترفين بأن القرآن من عند الله فلا جرم قالوا ذلك باللسان ، وأما الكفار فقالوه على سبيل التهكم أو على سبيل الاستدلال بأن القرآن لو كان من عند الله لما قال مثل هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وجه الاستدلال بالآية للأصحاب ظاهر لأنه تعالى ذكر في أول الآية قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ثم ذكر في آخر الآية : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أما المعتزلة فقد ذكروا الوجوه المشهورة التي لهم أحدها : أن المراد من الإضلال منع الألطاف وثانيها : أنه لما اهتدى قوم باختيارهم عند نزول هذه الآيات وضل قوم باختيارهم عند نزولها أشبه ذلك أن المؤثر في ذلك الاهتداء وذلك الإضلال هو هذه الآيات ، وهو كقوله :

﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة : 124] وكقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ [التوبة : 125] وثالثها : أن المراد من قوله : ﴿ يُضِلُّ ﴾ ومن قوله : ﴿ يَهْدِي ﴾ حكم الله بكونه ضالاً ويكون مهتدياً ورابعها : أنه تعالى يضلهم يوم القيامة عن دار الثواب ، وهذه الكلمات مع أجوبتها تقدمت في سورة البقرة في قوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 26] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ فيه وجوه : أحدها : وهو الأولى أن القوم استقبلوا ذلك العدد ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ فهب أن هؤلاء تسعة عشر إلا أن لكل واحد منهم من الأعوان والجنود ما لا يعلم عددهم إلا الله وثانيها : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد حكمة لا يعلمها الخلق وهو جل جلاله يعلمها وثالثها : أنه لا حاجة بالله سبحانه في تعذيب الكفار والفساق إلى هؤلاء الخزنة ، فإنه هو الذي يعذبهم في الحقيقة ، وهو الذي يخلق الآلام فيهم ، ولو أنه تعالى قلب شعرة في عين ابن آدم أو سلط الألم على عرق واحد من عروق بدنه لكفاه ذلك بلاء ومحنة ، فلا يلزم من تقليل عدد الخزنة قلة العذاب ، فجنود الله غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ الضمير في قوله : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى سقر ، والمعنى وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر والثاني : أنه عائد إلى هذه الآيات المشتملة على هذه المتشابهات ، وهي ذكرى لجميع العالمية ، وإن كان المنتفع بها ليس إلا أهل الإيمان .

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33)

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ وفيه وجوه أحدها : أنه إنكار بعد أن جعلها ذكرى ، أن تكون لهم

ذكرى لأنهم لا يتذكرون وثانيها : أنه ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً وثالثها : أنه ردع لقول أبي جهل وأصحابه : إنهم يقدرون على مقاومة خزنة النار ورابعها : أنه ردع لهم عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة .

(20/791)

ثم قال تعالى : ﴿ والقمر * والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وفيه قولان : الأول : قال الفراء والزجاج : دبر وأدبر بمعنى واحد كقبل وأقبل ويدل على هذا قراءة من قرأ إذا دبر ، وروى أن مجاهداً سأل ابن عباس عن قوله : ﴿ دُبُرٍ ﴾ فسكت حتى إذا أدبر الليل قال : يا مجاهد هذا حين دبر الليل ، وروى أبو الضحى أن ابن عباس كان يعيب هذه القراءة ويقول : إنما يدبر ظهر البعير ، قال الواحدي : والقراءتان عند أهل اللغة سواء على ما ذكرنا ، وأنشد أبو علي :

وأبى الذي ترك الملوك وجمعهم . . بصهاب هامدة كأمس الدابر

القول الثاني : قال أبو عبيدة وابن قتيبة : دبر أي جاء بعد النهار ، يقال : دبرني أي جاء خلفي ودبر الليل أي جاء بعد النهار ، قال قطرب : فعلى هذا معنى إذا دبر إذا أقبل بعد مضي النهار .

وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34)

أي أضاء ، وفي الحديث : " أسفروا بالفجر " ومنه قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [عبس : 38] أي مضيئة .

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا الكلام هو جواب القسم أو تعليل لكلام والقسم معترض للتوكيد .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : ألف إحدى مقطوع ولا تذهب في الوصل .

وروي عن ابن كثير أنه قرأ إنها لإحدى الكبر بحذف الهمزة كما يقال : ويلمه ، وليس هذا الحذف بقياس والقياس التخفيف وهو أن يجعل بين بين .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : الكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتاء التأنيث فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظير ذلك السوافي جمع السافياء وهو التراب الذي سفته الريح ، والقواصع في جميع القاصعاء كأنهما جمع فاعلة .

المسألة الرابعة :

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبرى ﴾ يعني أن سقر التي جرى ذكرها لإحدى الكبر والمراد من الكبر

دركات جهنم ، وهي سبعة : جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير ، وسقر ، والجحيم والهاوية ، أعاذنا الله منها .

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36)

(21/791)

نذيراً تمييز من إحدى على معنى أنها لإحدى الدواهي إنذاراً كما تقول هي إحدى النساء عفافاً ، وقيل : هو حال ، وفي قراءة أبي نذير بالرفع خبر أو بحذف المبتدأ .

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسير الآية وجهان الأول : أن ﴿ يَتَقَدَّمَ ﴾ في موضع الرفع بالابتداء ولمن شاء خبر مقدم عليه كقولك : لمن توضأ أن يصلي ، ومعناه التقدم والتأخر مطلقان لمن شاء هما منكم ، والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو في معنى قوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] الثاني : لمن شاء بدل من قوله للبشر ، والتقدير : إنها نذير لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ، نظيره ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

البيت مَنِ استطاع ﴾ [آل عمران : 97] .

المسألة الثانية :

المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد متمكناً من الفعل غير مجبور عليه وجوابه : أن هذه الآية دلت على أن فعل العبد معلق على مشيئته ، لكن مشيئة العبد معلقة على مشيئة الله تعالى لقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الإنسان : 30] وحينئذ تصير هذه الآية حجة لنا عليهم ، وذكر الأصحاب عن وجه الاستدلال بهذه الآية جوابين آخرين الأول : أن معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين التهديد ، كقوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] الثاني : أن هذه المشيئة لله تعالى على معنى لمن شاء الله منكم أن يتقدم أو يتأخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 179.185 ﴾

(22/791)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾

﴿ ذَرْنِي ﴾ أي دعني ؛ وهي كلمة وعيد وتهديد .

﴿ وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ أي دعني والذي خلقتُه وحيداً ؛ ف "وحيداً" على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف ، أي خلقته وحده ، لا مال له ولا ولد ، ثم أعطيتهُ بعد ذلك ما أعطيته .

والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزوميّ ، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه .

وإنما خُصّ بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام ، وكان يسمَّى الوحيد في قوله .

قال ابن عباس : كان الوليد يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظير ، ولا لأبي المغيرة نظير ، وكان يسمى الوحيد ؛ فقال الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ بزعمه ﴿ وَحِيداً ﴾ لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد .

وقال قوم : إن قوله تعالى : ﴿ وَحِيداً ﴾ يرجع إلى الربّ تعالى على معنين : أحدهما : ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم .

والثاني : أني انفردت بخلقه ولم يشركني فيه أحد ، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه ؛ ف "وحِيداً" على هذا حال من ضمير الفاعل ، وهو التاء في "خَلَقْتُ" والأوّل قول مجاهد ، أي خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد ، فأنعمت عليه فكفر ؛ فقوله : "وحِيداً" على هذا يرجع إلى الوليد ، أي لم يكن له شيء فملكته .

وقيل : أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيداً كما خُلق وحيداً .

وقيل : الوحيد الذي لا يُعرف أبوه ، وكان الوليد معروفاً بأنه دَعِيّ ؛ كما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] وهو في صفة الوليد أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي خوّلته وأعطيته مالاً ممدوداً ، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحُجُور والنَّعَم والجِنان والعبيد والجواري ، كذا كان ابن عباس يقول .

(23/791)

وقال مجاهد : غلّة ألف دينار ؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس أيضاً .

وقال قتادة : ستة آلاف دينار .

وقال سفيان الثوري وقتادة : أربعة آلاف دينار .

الثوريّ أيضاً : ألف ألف دينار .

مقاتل : كان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفاً .

وقال عمر رضي الله عنه : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ غلة شهر بشهر .

النعمان بن سالم : أرضاً يزرع فيها .

القشيريّ : والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه ، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أي حضوراً لا يغيبون عنه في تصرف .

قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة .

وقيل : اثنا عشر ؛ قاله السّديّ والضحاك .

قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة وخمسةٌ ولدوا بالطائف .

وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولداً .

مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة : خالد وهشام والوليد بن الوليد .

قال : فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك .

وقيل : شهوداً ، أي إذا ذُكر ذكروا معه ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : شهوداً ، أي قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده ، والقيام بما كان يباشره .

والأوّل قول السديّ ، أي حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون .

قوله تعالى : ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي بسطت له في العيش بسطاً ، حتى أقام ببلدته مطمئناً مترفهاً يُرجع إلى رأيه .

والتمهيد عند العرب : التوطئة والتهيئة ؛ ومنه مَهْدُ الصبيّ .

وقال ابن عباس : ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي وسّعت له ما بين اليمن والشام ؛ وقاله مجاهد .

وعن مجاهد أيضاً في ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أي ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده في المال والولد .

﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم .

(24/791)

وقال الحسن وغيره : أي ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان محمد صادقاً فما خُلقت الجنة إلا لي ؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيباً له : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لستُ أزيده ، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك .

و "ثُمَّ" في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ ﴾ ليست بثم التي للنَّسق ولكنها تعجيب ؛ وهي كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] وذلك كما تقول : أعطيتك ثم أنت تجفوني ؛ كالمتعجّب من ذلك .

وقيل يطمع أن أترك ذلك في عقبه ؛ وذلك أنه كان يقول : إن محمداً مبتور ؛ أي أبتر وينقطع ذكره بموته .

وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته .

وقيل : أي ثم يطمع أن أنصره على كفره .

و ﴿ كَلاَّ ﴾ قطعٌ للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة ؛ فيكون متصلاً بالكلام الأوّل .

وقيل : ﴿ كَلاَّ ﴾ بمعنى حقًّا ويكون ابتداء .

﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني الوليد ﴿ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ أي معانداً للنبيّ صلى الله عليه وسلم وما جاء به ؛ يقال : عاند فهو عنِيد مثل جالِس فهو جلِيس ؛ قاله مجاهد .

وعَنَدَ يَعْنِد بالكسر أي خالف وردّ الحقّ وهو يعرفه فهو عنِيد وعانِد .

والعانِد : البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكِع ورُكَّع ؛

وأنشد أبو عبيدة قول الحارثيّ :

إذا ركِبتُ فاجعلاني وَسَطَا . . .

إنّي كَبيرٌ لا أطيقُ الْعُنَّدَا

وقال أبو صالح : ﴿ عَنِيداً ﴾ معناه مباعداً ؛ قال الشاعر :

أرَانا على حالٍ تُفَرّقُ بَيْنَنَا . . .

نَوًى غَرْبَةٌ إنّ الفِرَاقَ عَنُود

قتادة : جاحداً .

مقاتل : معرضاً .

ابن عباس : جحوداً .

وقيل : إنه المجاهر بعدوانه .

وعن مجاهد أيضاً قال : مجانباً للحق معانداً له معرضاً عنه .

والمعنى كله متقارب .

والعرب تقول : عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قدره .

والعَنُود من الإبل : الذي لا يخالط الإبل ، إنما هو في ناحية .

(25/791)

ورجل عَنُود إذا كان يحلّ وحده لا يخالط الناس .

والعنيد من التجبر .

وعرق عاند : إذا لم يَرقأ دمه ، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة "إبراهيم" .

وجمع العنيد عُنُد ، مثل رغيف ورغُفُ .

قوله تعالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أي سأكلفه .

وكان ابن عباس يقول : سألجئه ؛ والإرهاق في كلام العرب : أن يُحمل الإنسان على الشيء .

﴿ صَعُوداً ﴾ .

" الصَّعُودُ : جبل من نار يتصعّد فيه سَبْعين خَريفاً ثم يَهْوِي كَذَلكَ فيه أبَدا " رواه أبو سعيد

الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خرجه الترمذيّ وقال فيه حديث غريب .

وروى عطية عن أبي سعيد قال : صخرة في جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت ، قال : فيبلغ أعلاها في أربعين سنة يُجذب من أمامه بسلاسل ويضْرب من خلفه بمقامع ، حتى إذا بلغ أعلاها رمَى به إلى أسفلها ، فذلك دأبه أبداً .

وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ .

وفي التفسير : أنه صخرة ملساء يكلّف صعودها فإذا صار في أعلاها حُدِر في جهنم ، فيقوم يهوِي ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم ، يحترق في كل يوم سبعين مرّة ثم يعاد خلقاً جديداً .

وقال ابن عباس : المعنى سأكلفه مشقّة من العذاب لا راحة له فيه .

ونحوه عن الحسن وقتادة .

وقيل : إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت ، ليُعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾

(26/791)

يعني الوليد فكر في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن و "قَدَّرَ" أي هيأ الكلام في نفسه ، والعرب تقول : قدّرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما نزل : ﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ [غافر : 1] إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ ، وإن له لَحَلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أعلاه لمِثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما يقول هذا بشر .

فقالت قريش : صَبَا الوليدُ لتَصبونّ قريش كلها .

وكان يقال للوليد ريحانة قريش ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه .

فمضى إليه حزيناً ؟ فقال له : ما لي أراك حزيناً .

فقال له : وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما ؛ فغضب الوليد وتكبر ، وقال : أنا أحتاج إلى كِسر محمد وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالي ، واللّات والعُزّى ما بي حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه قطّ يَخنُق ؟ قالوا : لا واللَّهِ .

قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ ؟ قالوا : لا والله .

قال : فتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه كذباً قط ؟ قالوا : لا والله .

قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا واللَّهِ .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه .

فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكّر في نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ أي في أمر محمد والقرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما .

﴿ فَقُتِلَ ﴾ أي لُعن .

(27/791)

وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغُلب ، وكل مُذلَّل مُقتَّل ؛ قال الشاعر :

ومَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلاّ لِتَقْدَحِي . . .

بسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهريّ : عُذِّب ؛ وهو من باب الدعاء .

﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ قال ناسٌ : "كَيْفَ" تعجيب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه : كيف فعلت هذا ؟ وذلك كقوله : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمثال ﴾ .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ ﴾ أي لُعن لعناً بعد لَعن .

وقيل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أي على أي حال قَدر .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ بأي شيء يرد الحقّ ويدفعه .

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي قَطَّب بين عينيه في وجوه المؤمنين ؛ وذلك أنه لما حمل قريشاً على ما حملهم عليه من القول في محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، مرّ على جماعة من المسلمين ، فدعوه إلى الإسلام ، فعبس في وجوههم .

.

قيل : عَبَس وبَسَر على النبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعاه .

والعَبْس مخفّفاً مصدر عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً : إذا قطَّبَ .

والعَبسَ ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النَّجْم :

كأَنَّ في أَذْنابِهِنّ الشُّوَّلِ . . .

من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيُّلِ

﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي كَلَح وجهه وتغيّر لونه ؛ قاله قتادة والسُّديّ ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم :

صَبَحْنَا تَمِيماً غَدَاةَ الجِفَارِ . . .

بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ باسِرَهْ

وقال آخر :

وقَدْ رَابِني مِنْها صُدودٌ رَأَيْتُهُ . . .

وإِعْراضُها عَنْ حاجتي وبُسُورُها

وقيل : إن ظهور العُبوس في الوجه بعد المحاورة ، وظهور البُسور في الوجه قبل المحاورة .

وقال قوم : "بَسَرَ" : وَقَف لا يتقدم ولا يتأخر .

قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب ، فلم يجيء ولم يذهب : قد بسر المركب ، وأَبْسَرَ أي وقف وقد أبسرنا .

والعرب تقول : وجه باسر بيِّن البسور : إذا تغير واسود .

(28/791)

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي ولّى وأعرض ذاهباً إلى أهله .

﴿ واستكبر ﴾ أي تعظم عن أن يؤمن .

وقيل : أدبر عن الإيمان واستكبر حين دُعي إليه .

﴿ فَقَالَ إِنْ هاذآ ﴾ أي ما هذا الذي أتي به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي يأثِره عن غيره .

والسِّحر : الخديعة .

وقد تقدم بيانه في سورة "البقرة" .

وقال قوم : السحر : إظهار الباطل في صورة الحق .

والأثره : مصدر قولك : أثرت الحديث آثِره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور : أي ينقله خلف عن سلف ؛ قال امرؤ القيس :

ولو عَنْ نَثًا غَيرِه جاءَني . . .

وجُرْحُ اللِّسانِ كَجُرْحِ اليدِ

لَقُلْتُ مِن القول ما لا يَزا . . .

لُ يُؤثَرُ عنّي يَدَ الْمُسْنَدِ

يريد : آخر الدهر .

وقال الأعشى :

إنّ الذي فيه تمارَيْتُمَا . . .

بُيِّنَ لِلسَّامِعِ والآثِرِ

ويروى : بَيَّنَ .

﴿ إِنْ هاذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ أي ما هذا إلا كلام المخلوقين ، يَختدِع به القلوب كما تختدع بالسحر .

قال السُّديّ : يعنون أنه من قول سيارٍ عبدٍ لبني الحضرميّ ، كان يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك .

وقيل : أراد أنه تلقنه من أهل بابل .

وقيل : عن مُسَيلمة .

وقيل : عن عديّ الحضرميّ الكاهن .

وقيل : إنما تلقنه ممن ادعى النبوة قبله ، فنسج على منوالهم .

قال أبو سعيد الضرير : إن هذا إلا أمر سحر يؤثر ؛ أي يورث .

قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

أي سأدخله سقر كي يصْلى حرّها .

وإنما سميّت سقر من سُقَرَتْه الشمس : إذا أذابته ولوْحته ، وأحرقت جلدة وجهه .

ولا ينصرف للتعريف والتأنيث .

قال ابن عباس : هي الطبق السادس من جهنم .

(29/791)

ورَوى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى ربه فقال : أي ربِّ ، أيّ عبادك أفقر ؟ قال صاحب سَقَر " ذكره الثعلبيّ : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ هذه مبالغة في وصفها ؛ أي وما أعلمك أي شيء هي ؟ وهي كلمة تعظيم ، ثم فسّر حالها فقال : ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته .

وكرر اللفظ تأكيداً .

وقيل : لا تبْقي منهم شيئاً ، ثم يعادون خلقاً جديداً ، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبداً .

وقال مجاهد : لا تبقي مَنْ فيها حيًّا ولا تذره ميّتاً ، تحرقهم كلما جُدّدُوا .

وقال السُّديّ : لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي مُغيِّرة ، من لاحه إذا غيّره .

وقراءة العامة "لَوَّاحَةٌ" بالرفع نعت ل "سَقَرَ" .

في قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ .

وقرأ عطية العوفيّ ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر "لَوَّاحَةً" بالنصب على الاختصاص ، للتهويل .

وقال أبو رَزِين : تلفح وجوههم لَفْحة تدعها أشدّ سواداً من الليل ؛ وقاله مجاهد .

والعرب تقول : لاحه البَرْد والحرُّ والسُّقم والحُزْن : إذا غيّره ؛ ومنه قول الشاعر :

تَقولُ ما لاَحَكَ يا مُسافِرُ . . .

يَا بْنةَ عَمّي لاحَنِي الْهَواجِرُ

وقال آخر :

وتَعجبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِباً . . .

تقولِ لشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائم

وقال رُؤبة بن العجَّاج :

لوَّحَ منه بعدَ بُدْنٍ وسَنَقْ . . .

تَلْويحَكَ الضَّامِرَ يُطْوَى لِلسَّبَقْ

وقيل : إن اللوح شدة العطش ؛ يقال : لاحه العطش ولوَّحه أي غيّره .

والمعنى أنها معطَّشة للبشر أي لأهلها ؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سَقَتْنِي على لَوْحٍ منَ الماء شَرْبَةً . . .

سقاها بها اللَّهُ الرِّهامَ الغَواديا

يعني باللّوح شدّة العطش ، والتاح أي عَطِش .

والرِّهام جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرِّهام .

وقال ابن عباس : ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام .

الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عِياناً .

نظيره : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 91] وفي البَشَر وجهان : أحدهما أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون .

الثاني أنه جمع بَشرة ، وهي جلدة الإنسان الظاهرة ؛ قاله مجاهد وقتادة .

وجمع البَشَر أبشار ، وهذا على التفسير الأوّل ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛ لأنه من لاح الشيءُ يَلُوح : إذا لمع .

قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

أي على سَقَر تسعة عشر من الملائكة يَلْقَون فيها أهلها .

ثم قيل : على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خَزَنتها ؛ مالكٌ وثمانيةَ عشَر ملَكاً .

ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيباً ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملَكاً بأعيانهم .

وعلى هذا أكثر المفسرين .

الثعلبيّ : ولا يُنكر هذا ، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق .

وقال ابن جريج : " نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم خَزَنة جهنم فقال : "فكأنّ أعينهم

البَرْق ، وكأن أفواههم الصياصي ، يجرّون أشعارهم ، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل ، فيرميهم في النار ، ويرمى فوقهم الجبل " " .

قلت : وذكر ابن المبارك قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، عن الأزرق بن قيس ، عن رجل من بني تميم قال : كنا عند أبي العوام ، فقرأ هذه الآية ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ فقال ما تسعة عَشَر ؟ تسعة عشر ألف مَلَك ، أو تسعة عشر مَلكاً ؟ قال : قلت : لا بل تسعة عَشَر مَلكاً .

(31/791)

فقال : وأنّى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال : صدقت هم تسعة عشر مَلَكاً ، بيد كل مَلَك منهم مِرْزَبَة لها شُعْبتان ، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفاً .

وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدَّفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومُضَر .

خرَّج الترمذيّ عن جابر بن عبد الله قال : " قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خَزَنَة جهنم ؟ قالوا : لا ندري حتى نسأل

نبينا .

فجاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد غُلِب أصحابك اليوم ؛ فقال : "وَبِمَ غُلِبوا" ؟ قال : سألهم يهود : هل يعلم نبيكم عدد خَزَنَة جهنم ؟ قال : "فماذا قالوا" ؟ قال : قالوا لا ندري حتى نسأل نبيّنا .

قال : "أفغُلِب قوم سئلوا عما لا يعلمون ، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا ؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جَهْرة ، عليّ بأعداء الله ! إني سائلهم عن تُرْبة الجنة وهي الدَّرْمَك" .

فلما جاؤوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خَزَنَة جهنم ؟ قال : "هكذا وهكذا" في مرة عشرة وفي مرة تسعة .

قالوا : نعم .

قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما تُرْبة الجنة" قال : فسكتوا هنيهة ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخبزُ من الدَّرْمَك" " قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشَّعْبي عن جابر .

وذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم : "ما بين مَنكِبَيْ أحدهم كما بين المشرق والمغرب" " وقال ابن عباس : ما بين مَنكِبي الواحد منهم مَسيرة سنة ، وقوّة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم .

قلت : والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عَشَر ، هم الرؤساء والنقباء ، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها " وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : لما نزل : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال أبو جهل لقريش : ثِكلتكم أمها تكما أسْمعُ ابن أبي كبشة يخبركم أن خَزَنَة جهنم تسعة عشر ، وأنتم الدَّهْم أي العَدد والشجعان ، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ! قال السُّديّ : فقال أبو الأسود بن كَلَدة الجُمَحيّ : لا يهولنكم التسعة عشر ، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ، وبمنكبي الأيسر التسعة ، ثم تمرون إلى الجنة ؛ يقولها مستهزئاً .

في رواية : أن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفوني أنتم اثنين .

وقيل : إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم .

وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقّة ، ولا يستروِحون إليهم ؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً ﴾ أي بليّة .

وروي عن ابن عباس من غير وجه قال : ضلالة للذين كفروا ، يريد أبا جهل وذويه .

وقيل : إلا عذاباً ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات : 13-14] .

أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب .

(33/791)

وفي "تِسْعَةَ عَشَرَ" سبع قراءات : قراءة العامة "تِسْعَةَ عَشَرَ" .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وطلحة بن سليمان "تِسْعَةَ عْشَرَ" بإسكان العين .

وعن ابن عباس "تِسْعَةُ عَشَرَ" بضم الهاء .

وعن أنس بن مالك "تِسْعَةُ وَعَشَرْ" وعنه أيضاً "تِسْعَةُ وَعَشْرُ" .

وعنه أيضاً "تِسْعَةُ أَعْشُر" ذكرها المهدويّ وقال : من قرأ "تِسْعَةَ عْشَرَ" أسكن العين لتوالي

الحركات .

ومن قرأ "تِسْعَةُ وَعَشَرْ" جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشراً على تسعة ، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها .

ومن قرأ "تِسْعَةُ عَشَرْ" فكأنه من التداخل ؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب ، فرفع هاء التأنيث ، ثم راجع البناء وأسكن .

وأما "تِسعةُ أَعْشُر" : فغير معروف ، وقد أنكرها أبو حاتم .

وكذلك "تِسعةُ وَعَشْر" لأنها محمولة على "تِسعةُ أَعْشُر" والواو بدل من الهمزة ، وليس لذلك وجه عند النحويين .

الزمخشريّ : وقريء "تِسْعَةُ أَعْشُر" جمع عَشِير ، مثْل يَمين وأَيْمنُ .

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عِدة خَزَنَة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم .

ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلاَم .

ويحتمل أنه يريد الكل .

﴿ وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً ﴾ بذلك ؛ لأنهم كلما صدّقوا بما في كتاب الله آمنوا ، ثم ازدادوا إيماناً لتصديقهم بعدد خَزَنَة جهنم .

﴿ وَلاَ يَرْتَابَ ﴾ أي ولا يشك ﴿ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي أعطوا الكتاب ﴿

والمؤمنون ﴾ أي المصدّقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في أن عِدة خزنة جهنم تسعة عشر .

﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة ، الذين يَنجمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجَم بالمدينة .

(34/791)

وقيل : المعنى ؛ أي وليقول المنافقون الذين يَنجمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة .

﴿ والكافرون ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ يعني بعدد خزنة جهنم .

وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض في هذه الآية الخلاف و ﴿ والكافرون ﴾ أي مشركو العرب .

وعلى القول الأوّل أكثر المفسرين .

ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، وبعضهم قاطعين بالكذب ، وقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ مَاذَآ أَرَادَ الله ﴾ أي ما أراد "بِهَذَا" العدد الذي ذكره حديثاً ، أي ما هذا من الحديث .

قال الليث : المَثَل الحديث ؛ ومنه : "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ" أي حديثها والخبر عنها ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخَزَنة جهنم ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أي يخزي ويعمِي ﴿ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي ﴾ أي ويرشد ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ عن الجنة ﴿ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي ﴾ إليها ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي وما يدري عدد ملائكة ربّك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار "إِلاَّ هُوَ" أي إلا الله جلّ ثناؤه .

وهذا جواب لأبي جهل حين قال : أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر ! وعن ابن عباس : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَقْسم غنائم حُنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى مَلَك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا ، فخشي النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطاناً ، فقال : "يا جبريل أتعرفه" فقال : هو مَلَك وما كل ملائكة ربّك أعرف "

وقال الأوزاعيّ : قال موسى : "يا ربّ من في السماء ؟ قال ملائكتي .

قال كم عِدَّتهم يا ربّ ؟ قال : اثني عشر سِبْطاً .

قال : كم عدّة كل سِبط ؟ قال : عدد التراب" .

ذكرهما الثعلبيّ .

وفي الترمذيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أَطَّت السماءُ وحُقّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجداً " قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن .

وقيل : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي وما هذه النار التي هي سقر ﴿ إِلَّا ذِكْرَى ﴾ أي عظةٌ ﴿ لِلْبَشَرِ ﴾ أي للخلق .

وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة .

قاله الزجاج .

وقيل : أي ما هذه العِدّة ﴿ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي لتذكروا ويعلموا كمالَ قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ ترجع إلى الجنود ؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾

قال الفراء : "كَلَّا" صلة للقسم ، التقدير أي والقمر .

وقيل : المعنى حقاً والقمر ؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على "كَلَّا" وأجاز الطّبريّ الوقف عليها ، وجعلها ردًّا للذين زعموا أنهم يقاومون خَزَنَة جهنم ؛ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار .

ثم أقسم على ذلك جلّ وعزّ بالقمر وبما بعده ، فقال : ﴿ والليلِ إذَا أَدْبَرَ ﴾ أي ولَّى وكذلك "دَبَر" .

وقرأ نافع وحمزة وحفص "إذْ أَدْبَرَ" الباقون "إذَا" بألف و "دَبَرَ" بغير ألف وهما لغتان بمعنًى ؛ يقال : دَبَر وأدبر ، وكذلك قَبِل الليل وأقبل .

وقد قالوا : أمس الدابر والمدبر ؛ قال صخر بن عمرو بن الشَّرِيد السُّلَميّ :

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمُ ثُنَاءَ وَمَوْحَداً . . .

وَتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروي المدبِر .

وهذا قول الفراء والأخفش .

وقال بعض أهل اللغة : دَبَر الليل : إذا مضى ، وأدبر : أخذ في الإدبار .

وقال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : "وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ" فسكت حتى إذا دَبَر قال : يا مجاهد ، هذا حين دَبَرَ الليلُ .

(36/791)

وقرأ محمد بن السَّمَيقْعَ ﴿ والليلِ إذْ أَدْبَرَ ﴾ بألفين ، وكذلك في مصحف عبد الله وأُبَيّ بألفين .

وقال قُطرب من قرأ "دَبَرَ" فيعني أقبل ، من قول العرب دَبَر فلان : إذا جاء من خلفي .

قال أبو عمرو : وهي لغة قريش .

وقال ابن عباس في رواية عنه : الصواب : "أَدْبَرَ" إنما يَدبُر ظهرَ البعير .

واختار أبو عُبيد : "إذَا أَدْبَرَ" قال : لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه ؛ ألا تراه يقول : ﴿ والصبحِ إذَا أَسْفَرَ ﴾ ، فكيف يكون أحدهما "إذ" والآخر "إذا" ، وليس في القرآن قَسَم تعقبه "إذ" وإنما يتعقبه "إذا" .

ومعنى "أَسْفَرَ" : ضاء .

وقراءة العامة "أَسْفَرَ" بالألف .

وقرأ ابن السَّمَيْقَع : "سَفَرَ" .

وهما لغتان .

يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر : إذا أضاء .

وفي الحديث : " أسفِروا بالفجر ، فإنه أعظم للأجر " أي صلّوا صلاة الصبح مُسْفِرين ، ويقال : طَوِّلوها إلى الإسفار ، والإسفار : الإنارة .

وأسفر وجهه حسناً أي أشرق ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافر .

ويجوز أن يكون (من) سَفَر الظلامَ أي كنسه ، كما يُسفَر البيت ؛ أي يُكنَس ؛ ومنه السَّفير : لما سقط من ورق الشجر وتَحاتَّ ؛ يقال : إنما سمي سفيراً لأن الريح تَسفِره أي تكنُسه .

والمِسْفَرة : المِكْنَسة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ جواب القسم ؛ أي إن هذه النار ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ أي لإحدى الدواهي .

وفي تفسير مقاتل "الْكُبَر" : اسم من أسماء النار .

وروي عن ابن عباس "إِنَّهَا" أي إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ أي لَكبيرة من الكبائر .

وقيل : أي إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر .

والكُبَر : هي العظائم من العقوبات ؛ قال الراجز :

يا بن المُعَلَّي نَزلتْ إحدى الكُبَرْ . . .

داهيةُ الدهْر وصَمَّاءُ الغِيَرْ

وواحدة "الكُبَر" ، كُبرى مثل الصُّغْرى والصُّغَر ، والعُظْمى والعُظَم .

(37/791)

وقرأ العامة "لإِحْدَى" وهو اسم بني ابتداء للتأنيث ، وليس مبنيًّا على المذكر ؛ نحو عُقْبَى وأخرى ، وألفه ألف قطع ، لا تذهب في الوصل .

وروى جرير بن حازم عن ابن كثير "إِنَّهَا لَحْدى الكُبَر" بحذف الهمزة .

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ يريد النار ؛ أي إن هذه النار الموصوفة ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ فهو نصب على الحال من المضمر في "إِنَّهَا" قاله الزجاج .

وذُكِّر ؛ لأن معناه معنى العذاب ، أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب ؛ كقولهم : امرأة طالق وطاهر .

وقال الخليل : النذير : مصدر كالنكير ، ولذلك يوصف به المؤنث .

وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها .

وقيل : المراد بالنذير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قم نذيراً للبشر ، أي مُخَوِّفاً لهم ف "نَذيراً" حال من "قُمْ" في أوّل السورة حين قال : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ قال أبو علي الفارسيّ وابن زيد ، وروى عن ابن عباس وأنكره الفراء .

ابن الأنباري : وقال بعض المفسرين معناه " يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ قُمْ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ " .

وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما .

وقيل : هو من صفة الله تعالى .

روي أبو معاوية الضرير : حدّثنا إسماعيل بن سميع عن أبي رزين ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ قال :

يقول الله عز وجل : أنا لكم منها نذير فاتقوها .

و"نَذِيراً" على هذا نصب على الحال ؛ أي "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً" منذراً بذلك البشر .

وقيل : هو حال من "هو" في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

وقيل : هو في موضع المصدر ؛ كأنه قال : إنذاراً للبشر .

قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار ، أي أنذر إنذاراً ؛ فهو كقوله تعالى : ﴿ فكيف كان نذير ﴾ أي إنذاري ؛ فعلى هذا يكون راجعاً إلى أوّل السورة ؛ أي ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي إنذاراً .

وقيل : هو منصوب بإضمار فعل .

وقرأ ابن أبي عَبْلة "نَذِيرٌ" بالرفع ، على إضمار هو .

(38/791)

وقيل : أي إن القرآن نذير للبشر ، لما تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة ب "نذيراً" ، أي نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية ؛ نظيره : ﴿ وَلَقَدْ

عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ [الحجر : 24] أي في الخير ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ [الحجر : 24] عنه.

قال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29].

وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر ؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه ، والتقديم الإِيمان ، والتأخير الكفر.

وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزيَ بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً صلى الله عليه وسلم عوقب عقاباً لا ينقطع.

وقال السّديّ : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى النار المتقدم ذكرها ، ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عنها إلى الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(39/791)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أصحاب النار إِلاَّ مَلَئِكَةً ﴾

أي ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون وأنزل سبحانه في أبي جهل ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : 34 ، 35] والظاهر أن المراد بأصحاب النار هم التسعة عشر ففيه وضع الظاهر موضع الضمير وكأن ذلك لما في هذا الظاهر من الإشارة إلى أنهم المدبرون لأمرها القائمون بتعذيب أهلها ما ليس في الضمير وفي ذلك إيذان بأن المراد بسقر النار مطلقاً لا طبقة خاصة منها والجمهور على أن المراد بهم النقباء فمعنى كونهم عليها أنهم يتولون أمرها وإليهم جماع زبانيتها وإلا فقد جاء يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها وذهب بعضهم إلى أن التمييز المحذوف صنف وقيل صف والأصل عليها تسعة عشر صنفاً أو عليها تسعة عشر صفاً ويبعده ما تقدم في رواية الحبر وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فإن المتبادر أن افتتانهم باستقلالهم لهم واستبعادهم تولى تسعة عشر لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم بذلك ومع تقدير الصنف أو الصف لا يتسنى ذلك وقال غير واحد في تعليل جعلهم ملائكة ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقوا لهم ولا يستروحوا إليهم ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحق الله تعالى وبالغضب له سبحانه وأشدهم بأساً وفي الحديث كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم لهم مثل قوة الثقلين يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم ولا يبعد أن يكون في التنوين إشعار إلى عظم أمرهم ومعنى قوله تعالى وما جعلنا عدتهم إلى

آخره على ما اختاره بعض الأجلة وما جعلنا عدد أصحاب النار إلا العدد الذي اقتضى فتنة الذين كفروا بالاستقلال والاستهزاء وهو التسعة عشر فكأن الأصل وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر فعبر بالأثر وهو فتنة الذين كفروا عن المؤثر وهو خصوص التسعة عشر لأنه كما علم السبب في افتتانهم وقيل إلا فتنة للذين بدل إلا تسعة

(40/791)

عشر تنبيهاً على أن الأثر هنا لعدم انفكاكه عن مؤثره لتلازمهما كانا كشيء واحد يعبر باسم أحدهما عن الآخر ومعنى جعل عدتهم المطلقة العدة المخصوصة أن يخبر عن عددهم بأنه كذا إذ الجعل لا يتعلق بالعدة إنما يتعلق بالمعدود فالمعنى أخبرنا أن عدتهم تسعة عشر دون غيرها ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن لأجل موافقة المذكورين ذكرهم في القرآن بهذا العدد وفي الكتابين كذلك وهذا غير جعل الملائكة على العدد المخصوص لأنه إيجاد ولا يصح على ما قال بعض المحققين أن يجعل إيجادهم على الوصف علة للاستيقان المذكور لأنه ليس إلا للموافقة وتكلف بعضهم لتصحيحه بأن الايجاد سبب للاخبار والاخبار سبب للاستيقان فهو سبب بعيد له والشيء كما يسند لسببه البعيد يسند لسببه القريب لكنه

كما قال لا يحسن ذلك وإنما احتيج إلى التأويل بالتعبير بالأثر عن المؤثر ولم يبق الكلام على ظاهره لأن الجعل من دواخل المبتدا والخبر فما يترتب عليه يترتب باعتبار نسبة أحد المفعولين إلى الآخر كقولك جعلت الفضة خاتماً لتزين به وكذلك ما جعلت الفضة إلا خاتماً لكذا ولا معنى لترتب الاستيقان وما بعده على جعل عدتهم فتنة للكفار ولا مدخل لافتتانهم بالعدد المخصوص في ذلك وإنما الذي له مدخل العدة بنفسها أي العدة باعتبار أنها العدة المخصوصة والاخبار بها كما سمعت وليس ذلك تحريفاً لكتاب الله تعالى ولا مبنياً على رعاية مذهب باطل كما توهم ومنهم من تكلف لأمر السببية على الظاهر بما تمجه الاسماع فلا نسود به الرفاع وفي "البحر" ليستيقن مفعول من أجله وهو متعلق بجعلنا لا بفتنة فليست الفتنة معلولة للاستيقان بل المعلول جعل العدة سبب الفتنة وفي الانتصاف يجوز أن يرجع قوله تعالى ليستيقن إلى ما قبل الاستثناء أي جعلنا عدتهم سبباً لفتنة الكفار ويقين المؤمنين وذكر الإمام في ذلك وجهين الثاني ما قدمناه مما اختاره بعض

(41/791)

الأجلة والأول أن التقدير وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للكافرين وإلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب قال وهذا كما يقال فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك فالواو العاطفة قد تذكر

في هذا الموضع تارة وقد تحذف أخرى وقال بعض أنه متعلق بمحذوف أي فعلنا ذلك ليستيقن الخ والكل كما ترى وحمل الذين أوتوا الكتاب على أهل الكتابين مما ذهب إليه جمع وقيل المراد بهم اليهود فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في "البعث" عن البراء أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم فقال الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم اعلم فجاء فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ

(42/791)

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ [المدثر : 30] وأخرج الترمذي وابن مردويه عن جابر قال قال ناس من اليهود لا ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة واستشعر من هذا أن الآية مدنية لأن اليهود إنما كانوا فيها وهو استشعار ضعيف لأن السؤال لصحابي فلعله كان مسافر فاجتمع بيهودي حيث كان وأيضاً لا مانع إذ ذاك من إتيان بعض اليهود نحو مكة المكرمة ثم إن الخبرين لا يعينان حمل الموصول على اليهود كما لا يخفى فالأولى إبقاء التعريف على الجنس وشمول الموصول للفريقين أي ليستيقن أهل

الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إيمانا ﴾ أي يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك أو كمية بانضمام إيمانهم بذلك إلى أيمانهم بسائر ما أنزل ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُتُوْا الكتاب والمؤمنون ﴾ تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الايمان ونفي لما قد يعتري المستيقن من شبهة ما للغفلة عن بعض المقدمات أو طريان ما توهم كونه معارضاً في أول وهلة ولما فيه من هذه الزيادة جاز عطفه على المؤكد بالواو لتغايرهما في الجملة وإنما لم ينظم المؤمنون في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالاً فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الايمان وكم بينهما وقيل إنما لم يقل ولا يرتابوا بل قيل ولا يرتاب الخ للتنصيص على تأكيد الأمرين لاحتمال عود الضمير في ذلك على المؤمنين فقط والتعبير عن المؤمنين باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الايمان بعد ازديادهم ورسوخهم في ذلك ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك أو نفاق فيكون بناء على أن السورة بتمامها مكية

(43/791)

والنفاق إنما حدث بالمدينة إخباراً عما سيحدث من المغيبات بعد الهجرة ﴿ والكافرون ﴾ المصرون على التكذيب ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ أي أي شيء أراد الله تعالى أو ما الذي أراده الله تعالى بهذا العدد المستغرب استغراب المثل وعلى الأول ماذا منزلة منزلة اسم واحد للاستفهام في موضع نصب بأراد وعلى الثاني هي مؤلفة من كلمة ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبره والجملة بعد صلة والعائد فيها محذوف ومثلاً نصب على التمييز أو على الحال كما في قوله تعالى

(44/791)

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [الأعراف : 73] والظاهر أن ألفاظ هذه الجملة من المحكي وعنوا بالإشارة التحقير وغرضهم نفي أن يكون ذلك من عند الله عز وجل على أبلغ وجه لا الاستفهام حقيقة عن الحكمة ولا القدح في اشتماله عليها مع اعترافهم بصدور الأخبار بذلك عنه تعالى وجوز أن يكون أراد الله من الحكاية وهم قالوا ماذا أريد ونحوه وقيل يجوز أن يكون المثل بمعناه الآخر وهو ما شبه مضربه بمورده بأن يكونوا قد عدوه لاستغرابه مثلاً مضروباً ونسبوه إليه عز وجل استهزاء وتهكماً وإفراد قوله بهذا التعليل مع كونه من باب فتنتهم قيل للإشعار باستقلاله في الشناعة وفي "الحواشي الشهابية" إنما أعيد اللام فيه

للفرق بين العلتين إذ مرجع الأولى الهداية المقصودة بالذات ومرجع هذه الضلال المقصود بالعرض الناشيء من سوء صنيع الضالين وتعليل أفعاله تعالى بالحكم والمصالح جائز عند المحققين وجوز في هذه اللام وكذا الأولى كونها للعاقبة ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ﴾ ذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ومحل الكاف في الأصل النصب على أنها صفة لمصدر محذوف وأصل التقدير يضل الله من يشاء ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ إضلالاً وهداية كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامه ثم قدم على الفعل لإفادة القصر فصار النظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضل الله تعالى من يشاء إضلاله لصرف اختياره حسب استعداده السيىء إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله تعالى الناطقة بالهدى ويهدي من يشاء هدايته لصرف اختياره حسب استعداده الحسن عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالاً وهداية أدنى منهما ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما بعد كما في قوله تعالى :

(45/791)

﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] على ما حقق في موضعه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ جمع جند اشتهر في العسكر اعتباراً بالغلظة من الجند أي الأرض

الغليظة التي فيها حجارة ويقال لكل جمع أي وما يعلم جموع خلقه تعالى التي من جملتها الملائكة المذكورون على ما هم عليه ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ عز وجل إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالاً فضلاً عن الإطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة وهو رد لاستهزائهم بكون الخزنة تسعة عشر لجهلهم وجه الحكمة في ذلك وقال مقاتل وهو جواب لقول أبي جهل أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر وحاصله أنه لما قلل الأعوان أجيب بأنهم لا يحصون كثرة إنما الموكلون على النار هؤلاء المخصوصون لا أن المعنى ما يعلم بقوة بطش الملائكة إلا هو خلافاً للطيبي فإن اللفظ غير ظاهر الدلالة على هذا المعنى واختلف في أكثر جنود الله عز وجل فقيل الملائكة لخبر أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وفي بعض الأخبار أن مخلوقات البر عشر مخلوقات البحر والمجموع عشر مخلوقات الجو والمجموع عشر ملائكة السماء الدنيا والمجموع عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا إلى السماء السابعة والمجموع عشر ملائكة الكرسي والمجموع عشر الملائكة الحافين بالعرش والمجموع أقل قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمه إلا الله وقيل المجموع أقل قليل بالنسبة إلى الملائكة المهيمين الذين لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق أحداً سواه والمجموع أقل قليل بالنسبة إلى ما يعلمه سبحانه من مخلوقاته وعن الأوزاعي قال قال موسى عليه السلام يا رب من معك في السماء قال ملائكتي قال كم عدتهم قال اثنا عشر سبطاً قال كم عدة كل سبط قال عدد

التراب وفي صحة هذا نظر وإن صح فصدره من المتشابه وأنا لا أجزم بأكثرية صنف فما يعلم جنود ربك إلا هو ولم يصح عندي نص في ذلك بيد أنه يغلب على الظن أن

(46/791)

الأكثر الملائكة عليهم السلام وهذه الآية وأمثالها من الآيات والأخبار تشجع على القول باحتمال أن يكون في الأجرام العلوية جنود من جنود الله تعالى لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو عز وجل ودائرة ملك الله جل جلاله أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر أو يصل إلى مركزها طائر الفكر فإني وهيهات ولو استغرقت القوى والأوقات هذا واختلف في المخصص لهذا العدد أعني تسعة عشر فقيل إن اختلاف النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الإثنتي عشرة يعني الحواس الخمسة الباطنة والحواس الخمسة الظاهرة والقوة الباعثة كالغضبية والشهوية والقوة المحركة فهذه اثنتا عشرة والطبيعية السبع التي ثلاث منها مخدومة وهي القوة النامية والغادية والمولدة وأربع منها خادمة وهي الهاضمة والجاذبة والدافعة والماسكة وهذا مع ابتنائه على الفلسفة لا يكاد يتم كما لا يخفى على من وقف على كتبها وقيل إن لجهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفار وكل صنف يعذب بترك الاعتقاد والإقرار والعمل أنواعاً من العذاب تناسبها فبضرب

الست في الثلاثة يحصل ثمانية عشر وعلى كل نوع ملك أو صنف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه ويتولاه ملك أو صنف وبذلك تتم التسعة عشر .

(47/791)

وخصت ست منها بأصناف الكفار وواحدة بأصناف الأمة ولم يجعل تعذيب الكفار في خمس منها فيبق للمؤمنين اثنتان إحداهما لأهل الكبائر والأخرى لأهل الصغائر أو إحداهما للعصاة منهم والأخرى للعاصيات لأنه حيث أعدت النار للكافرين أولاً وبالذات ناسب أن يستغرقوها كلية ويوزعوا على جميع أماكنها بقدر ما يمكن لكن لما تعلقت أرادته سبحانه بتعذيب عصاة الأمة بها أفرزت واحدة منها لهم وقيل إن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة للصلاة فلم يخلق في مقابلتها زبانية لبركة الصلاة الشاملة لمن لم يصل فيبقى تسعة عشر وقيل إن لجهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفار وللاعتناء بأمر عذابهم واستمراره ناسب أن يقوم عليه ثلاثة واحد في الوسط واثنان في الطرفين فهذه ثمانية عشر وواحدة منها لعصاة المؤمنين ناسب أمر عذابهم أن يقوم عليه واحد وبه تتم التسعة عشر وقيل إن العدد على وجهين قليل وهو من الواحد إلى التسعة وكثير وهو من العشرة إلا ما لا نهاية له فجمع بين نهاية القليل وبداية الكثير وقيل غير ذلك

والذي مال إليه أكثر العلماء أن ذلك مما لا يعلم حكمته على التحقيق إلا الله عز وجل وهو كالمتشابه يؤمن به ويفوض علمه إلى الله تعالى وكل ما ذكر مما لا يعول عليه كما لا يخفى على من وجه أدنى نظره إليه والله تعالى الهادي لصوب الصواب والمتفضل على من شاء يعلم لا شك معه ولا ارتياب وقرأ أبو جعفر وطلحة بن سليمان تسعة عشر بإسكان العين وهو لغة فيه كراهة توالي الحركات فيما هو كاسم واحد وقرأ أنس بن مالك وابن عباس وابن قطب وإبراهيم بن قتة تسعة بضم التاء وهي حركة بناء عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات ولا يتوهم أنها حركة إعراب وإلا أعرب عشر وقرأ أنس أيضاً تسعة بالضم أعشر بالفتح قال "صاحب اللوامح" فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر ثم أجراه مجرى تسعة عشر وعنه أيضاً تسعة وعشر بالضم وقلب الهمزة واواً خالصة تخفيفاً والتاء فيهما مضمومة ضمة بناء لما سمعت

(48/791)

آنفاً وعن سليمان بن قتة وهو أخو إبراهيم أنه قرأ تسعة أعشر بضم التاء ضمة إعراب والإضافة إلى أعشر وجره منوناً وهو على ما قال "صاحب اللوامح" جمع عشرة وقد صرح بأن الملائكة على القراءة بهذا الجمع معرباً أو مبنياً تسعون ملكاً وقال الزمخشري جمع

عشير مثل يمين وأيمن وروى عنه أنه قال أي تسعة من الملائكة كل واحد منهم عشير فهم مع أشياعهم تسعون والعشير بمعنى العشر فدل على أن النقباء تسعة وتعقب بأن دلالته على هذا المعنى غير واحضة ولهذا قال ابن جنى لا وجه لتلك القراءة إلا أن يعني تسعة أعشر جمع العشير وهم الأصدقاء فليراجع ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي سقر كما يقتضيه كلام مجاهد ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ إلا تذكرة لهم والعطف قيل على قوله تعالى

﴿ سأصليه سقر ﴾ [المدثر : 26] وما جعلنا أصحاب النار إلى هنا اعتراض ووجهه أنه لما قيل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ [المدثر : 30] زيادة في تهويل أمر جهنم عقب بما يؤكد قوتهم وتسلطهم وتباينهم بالشدة عن سائر المخلوقات ثم بما يؤكد الكمية وما أكد المؤكد فهو مؤكد أيضاً وقيل الضمير للآيات الناطقة بأحوال سقر وقيل لعدة خزنتها والتذكير والعظة فيها من جهة إن في خلقه تعالى ما هو في غاية العظمة حتى يكون القليل منهم معذباً ومهلكاً لما لا يحصى دلالة على أنه عز وجل لا يقدر حق قدره ولا توصف عظمته ولا تصل الأفكار إلى حرم جلاله وقيل الضمير للجنود وقيل لنار الدنيا وهذا أضعف الأقوال وأقواها على ما قيل ما تقدم وبين البشر ههنا والبشر فيما سبق أعني قوله تعالى ﴿ لواحة للبشر ﴾ [المدثر : 29] على تفسير الجمهور تجنيس تام لفظي وخطي وقل من تذكر له .

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن أنكرها وقيل زجر عن قول أبي جهل وأصحابه أنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم وقيل ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة وقال الفراء هي صلة للقسم وقدرها بعضهم بحقاً وبعضهم بألا الاستفتاحية وقال الزمخشري إنكار بعد أن جعلها سبحانه ذكرى أن يكون لهم ذكرى وتعقبه أبو حيان بأنه لا يسوغ في حقه تعالى أن يخبر أنها ذكرى للبشر ثم ينكر أن يكون لهم ذكرى وأجيب بأنه لا تناقض لأن معنى كونها ذكرى أن شأنها أن تكون مذكرة لكل أحد ومن لم يتذكر لغلبة الشقاء عليه لا يعد من البشر ولا يلتفت لعدم تذكره كما أن حلاوة العسل لا يضرها كونها مرة في فم منحرف المزاج المحتاج إلى العلاج وحال حسن الوقف على ﴿ كلا ﴾ وعدم حسنه هنا يعلم من النظر إلى المراد بها وصرح بعضهم بذلك فقال إن كانت متعلقة بالكلام السابق يحسن الوقف عليها وإن كانت متعلقة بالكلام اللاحق لا يحسن ذلك أي كما إذا كانت بمعنى ألا الاستفتاحية فالوقت حينئذ تام على ﴿ للبشر ﴾ ويستأنف كلا ﴿ والقمر ﴾ .

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33)

أي ولّى وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابن يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزناد

وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة والنحويان والابنان وأبو بكر إذا ظرف زمان مستقبل دبر بفتح الدال وهو بمعنى أدبر المزيد كقبل وأقبل والمعروف المزيد وحسن الثلاثي هنا مشاكلة أكثر الفواصل وقيل دبر من دبر الليل النهار إذا خلفه والتعبير بالماضي مع إذا التي للمستقبل للتحقيق ويجوز أن يقال إنها تقلبه مستقبلاً وقرأ أبو رزين وأبو رجاء والأعمش ومطر ويونس بن عبيد وهي رواية عن الحسن وابن يعمر والسلمي وطلحة إذا بالألف أدبر بالهمز وكذا هو في مصحف عبد الله وأبي وهو أنسب بقوله تعالى :

﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي أضاء وانكشف على قراءة الجمهور وقرأ ابن السميفع وعيسى بن الفضل سفر ثلاثياً وفسر بطرح الظلمة عن وجهه .

(50/791)

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ جواب للقسم وجوز أن يكون ﴿ كلا ﴾ ردعاً لمن ينكر أن تكون إحدى الكبرى لما علم من أن أن واللام من الكلام الإنكاري في جواب منكر مصر وهذا تعليل لكلا والقسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا وفي التعليل نوع خفاء فتأمل وضمير أنها لسقر والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائها فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرها السوافي في جمع السافياء

والقواصع في جمع القاصعاء فإن فاعلة تجمع على فواعل بإطراد لا فاعلاء لكن حمل فاعلاه على فاعلة لاشتراك الألف والتاء في الدلالة على التأنيث وضعاً فجمع فيهما على فواعل وقول ابن عطية الكبر جمع كبيرة وهم كما لا يخفى أي أن سقر لإحدى الدواهي الكبر على معنى أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر واحدة منها قيل فيكون في ذلك إشارة إلى أن بلاءهم غير محصور فيها بل تحل بهم بلايا غير متناهية أو أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر من بينهم واحدة في العظم لا نظير لها وهذا كما يقال فلان أحد الأحدين وهو واحد الفضلاء وهي إحدى النساء وعلى هذا اقتصر الزمخشري ورجح الأول بأنه أنسب بالمقام ولعله لما تضمن من الإشارة وقيل المعنى أنها لإحدى دركات النار الكبر السبع لأنها جهنم ولظى والحطمة وسقر والسعير والجحيم والهاوية ونقل عن "صاحب التيسير" وليس بذاك أيضاً وقيل ضمير أنها يحتمل أن يكون للنذارة وأمر الآخرة قال في "البحر" فهو للحال والقصة وقيل هو للساعة فيعود على غير مذكور وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن ووهب بن جرير عن ابن كثير لحدى الكبر بحذف همزة إحدى وهو حذف لا ينقاس وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بين بين .

(51/791)

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ قيل تمييز لإحدى الكبر على أن نذيراً مصدر بمعنى إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار أي أنها لإحدى الكبر إنذاراً والمعنى على ما سمعت عن الزمخشري أنها لأعظم الدواهي إنذاراً وهو كما تقول هي إحدى النساء عفافاً وقال الفراء هو مصدر نصب بإضمار فعل أي أنذر إنذاراً وذهب غير واحد إلى أنه اسم فاعل بمعنى منذرة فقال الزجاج حال من الضمير في أنها وفيه مجيء الحال من اسم أن وقيل حال من الضمير في لإحدى واختار أبو البقاء كونه حالاً مما دلت عليه الجملة والتقدير عظمت أو كبرت نذيراً وهو على ما قال أبو حيان قول لا بأس به وجوزت هذه الأوجه على مصدريته أيضاً بتأويله بالوصف وقال النحاس حذفت الهاء من نذيراً وإن كان للنار على معنى النسب يعني ذات إنذار وقد يقال في عدم إلحاق الهاء فيه غير ذلك مما قيل في عدم إلحاقها في قوله تعالى ﴿ أن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف : 56] وقال أبو رزين المراد بالنذير هنا هو الله تعالى فهو منصوب بإضمار فعل أي ادع نذيراً أو نحوه وقال ابن زيد المراد به النبي صلى الله عليه وسلم قيل فهو منصوب بإضمار فعل أيضاً أي ناد أو بلغ أو أعلن وهو كما ترى ولو جعل عليه حالاً من الضمير المستتر في الفعل لكان أولى وكذا لو جعل منادي والكلام نظير قولك أن الأمر كذا يا فلان وقيل إنه على هذا حال من ضمير ﴿ قم ﴾ أول السورة وفيه خرم النظم الجليل ولذا قيل هو من بدع التفاسير وقرأ أبي وابن أبي عبلة نذير بالرفع على أنه خبر بعد خبر لأن أو خبر لمبتدا محذوف أي هي نذير على ما هو المعول عليه من أنه وصف

النار وأما على القول بأنه وصف الله تعالى أو الرسول عليه الصلاة والسلام فهو خبر لمحذوف لا غير أي هو نذير .

(52/791)

﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما سبق أعني البشر وضمير شاء للموصول أي نذيراً للمتمكنين منكم من السبق إلى الخير والتخلف عنه وقال السدي أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر عنها إلى الجنة وقال الزجاج أن يتقدم إلى المأمورات أو يتأخر عنها إلى الجنة وقال الزجاج أن يتقدم إلى المأمورات أو يتأخر عن المنهيات وفسر بعضهم التقدم بالايمان والتأخر بالكفر وقيل ضمير شاء لله تعالى أي نذيراً لمن شاء الله تعالى منكم تقدمه أو تأخره وجوز أن يكون لمن خبراً مقدماً وأن يتقدم أو يتأخر مبتدأ كقولك لمن توضأ أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أي السبق إلى الخير أو التأخر أي التخلف عنه أن يتقدم ويتأخر فيكون كقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] ولا يخفى أن اللفظ يحتمله لكنه بعيد جداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(53/791)

وقال الشوكاني :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾

لما نزل قوله سبحانه : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] قال أبو جهل : أما لمحمد من الأعوان إلاّ تسعة عشر يخوّفكم محمد بتسعة عشر ، وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم يخرجون من النار ؟ فقال أبو الأشدّ ، وهو رجل من بني جمح : يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة ، فأنا أمشي بين أيديكم ، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن ، وتسعة بمنكبي الأيسر ، ونمضي ندخل الجنة ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أصحاب النار إِلاَّ مَلَئِكَةً ﴾ يعني : ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلاّ ملائكة ، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم ، فكيف تتعاطون أيها الكفار مغالبتهم .

وقيل : جعلهم ملائكة ؛ لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجنّ والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجالس من الرقة والرأفة .

وقيل : لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له ، وأشدهم بأساً وأقواهم بطشاً ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً ﴾ أي : ضلالة لِلَّذِينَ استقلوا عددهم ، ومحنة لهم ، والمعنى : ما جعلناهم عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلاّ ضلالة ومحنة لهم ، حتى قالوا ما قالوا ، ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم .

وقيل : معنى ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً ﴾ إلاّ عذاباً ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] أي : يعذبون ، واللام في قوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ متعلق ب ﴿ جعلنا ﴾ ، والمراد بأهل الكتاب : اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم .

قاله قتادة ، والضحاك ، ومجاهد ، وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدّة الخزنة هذه العدّة ؛ ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم .

(54/791)

﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إيمانا ﴾ وقيل : المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام .

وقيل : أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ، وجملة ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ مقرّرة لما تقدّم من الاستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى : نفي الارتياب عنهم في الدّين ، أو في أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب في الحقيقة من

المؤمنين ، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ المراد بالذين في قلوبهم مرض : هم المنافقون ؛ والسورة وإن كانت مكية ، ولم يكن إذ ذاك نفاق ، فهو إخبار بما سيكون في المدينة ، أو المراد بالمرض مجرّد حصول الشكّ والريب ، وهو كائن في الكفار .

قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، فالمرض في هذه الآية الخلاف ، والمراد بقوله : ﴿ والكافرون ﴾ كفار العرب من أهل مكة ، وغيرهم ، ومعنى ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ : أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .

قال الليث : المثل الحديث ، ومنه قوله : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد : 35] أي : حديثها ، والخبر عنها ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ أي : مثل ذلك الإضلال المتقدّم ذكره ، وهو قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

﴿ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ من عباده ، والكاف نعت مصدر محذوف ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ من عباده ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين ، يضلّ الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته .

وقيل المعنى : كذلك يضلّ الله عن الجنة من يشاء ، ويهدي إليها من يشاء .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي : ما يعلم عدد خلقه ، ومقدار جموعه من الملائكة ، وغيرهم إلاّ هو وحده لا يقدر على علم ذلك أحد .

وقال عطاء : يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدّتهم إلاّ الله ، والمعنى : أن خزنة النار ، وإن كانوا تسعة عشر ، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال : ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي : وما سقر ، وما ذكر من عدد خزنتها إلاّ تذكرة وموعظة للعالم .

وقيل : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي : الدلائل والحجج والقرآن إلاّ تذكرة للبشر .

وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة ، وهو بعيد .

وقيل : ﴿ مَا هِيَ ﴾ أي : عدّة خزنة جهنم إلاّ تذكرة للبشر ؛ ليعلموا كمال قدرة الله ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

وقيل : الضمير في ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ يرجع إلى الجنود .

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال : ﴿ كَلاَّ والقمر ﴾ قال الفراء : ﴿ كلا ﴾ صلة للقسم ، التقدير ، أي : والقمر .

وقيل المعنى : حقاً والقمر .

قال ابن جرير : المعنى ردّ زعم من زعم أنه يقاوم خزنة جهنم أي : ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده ، وهذا هو الظاهر من معنى الآية .

﴿ والليلِ إذْ أَدْبَرَ ﴾ أي : ولى .

قرأ الجمهور : " إذا " بزيادة الألف ، دبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان ، وقرأ نافع ، وحفص ، وحمزة : ﴿ إذ ﴾ بدون ألف ، أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ودبر ، وأدبر لغتان ، كما يقال : أقبل الزمان وقبل الزمان ، يقال : دبر الليل وأدبر : إذا تولى ذاهباً .

﴿ والصبحِ إذَا أَسْفَرَ ﴾ أي : أضاء وتبين ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ هذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر ، أي : إنّ سقر لإحدى الدواهي ، أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى ، وقال مقاتل : إن الكبر اسم من أسماء النار .

(56/791)

وقيل : إنها أي : تكذيبهم لمحمد لإحدى الكبر .

وقيل : إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، ومنه قول الشاعر :

يا بن المعلى نزلت إحدى الكبر . . . داهية الدهر وصماء الغير

قرأ الجمهور : ﴿ لإحدى ﴾ بالهمزة ، وقرأ نصر بن عاصم ، وابن محيصن ، وابن كثير في رواية عنه : " إنها لحدى " بدون همزة .

وقال الكلبي : أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها .

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ انتصاب ﴿ نذيراً ﴾ على الحال من الضمير في ﴿ إنها ﴾ ، قاله الزجاج .

وروي عنه ، وعن الكسائي ، وأبي عليّ الفارسي أنه حال من قوله : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : 2] أي : قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر .

وقال الفراء : هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدّر .

وقيل : إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التنظيم كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً ، وقيل : إنه مصدر منصوب بأنذر المذكور في أوّل السورة .

وقيل : منصوب بإضمار أعني ، وقيل : منصوب بتقدير ادع .

وقيل : منصوب بتقدير ناد أو بلغ .

وقيل : إنه مفعول لأجله ، والتقدير : وإنها لإحدى الكبر ؛ لأجل إنذار البشر .

قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبيّ بن كعب ، وابن أبي عبلة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي نذير ، أو هو نذير .

وقد اختلف في النذير ، فقال الحسن : هي النار .

وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو رزين : المعنى أنا نذير لكم منها ، وقيل : القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ هو بدل من قوله : ﴿ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي : نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الطاعة أو يتأخر عنها ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر ، وقيل : فاعل المشيئة هو الله سبحانه ، أي : لمن شاء الله أن يتقدّم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر ، والأوّل أولى .

وقال السديّ : لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى النار المتقدم ذكرها ، أو يتأخر إلى الجنة .

(57/791)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطش برجل من خزنة جهنم ؟ وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال : قال أبو الأشدّ : خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم ، قال : وحدّثت أن النبيّ صلى الله عليه

وسلم وصف خزّان جهنم فقال : "كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي يجرّون أشعارهم ، لهم مثل قوّة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم " وأخرج الطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري : " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم عن ليلة أسري به قال : فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا ، فإذا أنا بملك يقال له : إسماعيل ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ "

وأخرج أحمد عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أصبع إلاّ عليه ملك ساجد " وأخرجه الترمذي ، وابن ماجه .

قال الترمذي : حسن غريب ، ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ قال : دبور ظلامه .

وأخرج مسدّد في مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان ، ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 329 . 332 ﴾

(59/791)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً » .

فى هذه الآية بيان لما أحدثه قوله تعالى فى الآية السابقة على هذه الآية ، وهى قوله تعالى : « عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ » . من تعليقات هازئة ساخرة من المشركين . .

فكان من سمرهم الذي يسمرون به ، هو الحديث عن هؤلاء التسعة عشر الذين يقومون على حراسة جهنم ، وكيف يمكنهم أن يمسكوا الناس فيها ، والناس أعداد لا حصر لها ؟ إن قريشا وحدها كفيلة بأن تكفّ بأس هؤلاء الجند ، أيّا كان بأسهم وقوتهم . . بل إن بعض هؤلاء الساخرين منهم ليقول : أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفوني أنتم الاثنين ! ! فجاء قوله تعالى : « وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً » ليردّ على سخرية هؤلاء الساخرين ،

ويكبتهم بها . إن هؤلاء التسعة عشر ليسوا مجرد عدد ، وإنما هم ملائكة . . وإنهم ليعرفون الملائكة ، ويتخذون منهم أربابا يعبدونهم من دون اللّه . . فهل لهم بهذا الجند من جند اللّه يدان ؟

(60/791)

وقوله تعالى : « وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أي ما ذكر اللّه عدة هؤلاء الجند ، وحصرهم فى تسعة عشر ، دون أن يبلغوا العشرين ، مثلا ، ليكونوا عددا كاملا ـ ما ذكرهم اللّه ، وحصر عددهم فى هذا العدد ، إلا ليمتحن بذلك إيمان المؤمنين ، وضلال الضالين ، وقد كشف هذا الامتحان عن فتنة المشركين الذين اتخذوا من هذا العدد سبيلا إلى التفكّه ، والتندر ، والاستهزاء . .

وقوله تعالى : « لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً » إشارة إلى أن أهل الكتاب قد وجدوا أن ما أخبر به القرآن عن عدة أصحاب النار ، من الملائكة مطابق لما عندهم من كتب اللّه . . كما أن المؤمنين سيزدادون إيمانا بما جاءهم من عند اللّه مصدقا لما فى الكتب السابقة . .

وفى التعبير بالاستيقان فى جانب أهل الكتاب ، وبازدياد الإيمان فى جانب المؤمنين ،

مراعاة لمقتضى الحال فى كلّ من الفريقين . . فأهل الكتاب - والمقصود به من أهل الكتاب هنا ، هم أولو العلم منهم ، الذين سلموا من الهوى المضل ، الذي أفسد على كثير من علمائهم دينهم - فأهل الكتاب هؤلاء ، يبعث فيهم هذا الخبر الجديد الذي جاء به القرآن - يقينا بأن ما يتلقاه محمد ، هو وحي من عند اللّه . . هذا إلى ما كان عندهم من علم ، بهذا النبي ، المبشر به فى كتبهم ، والمبينة صفاته فيها . .

وأما المؤمنون ، فهم مؤمنون بصدق الرسول ، من قبل نزول هذه الآيات ، ومن بعد نزولها . . ولكنهم يزدادون إيمانا كلما تلقوا من آيات اللّه جديدا ، يثبّت إيمانهم ويزيدهم قوة استبصار لمعالم الحق . . وهؤلاء المؤمنون ، هم الذين آمنوا إيمانا خالصا من شوائب الشك والارتياب . .

وقوله تعالى : « وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ » .

والذين أوتوا الكتاب هنا ، هم مطلق اليهود والنصارى ، وليس الذين

ذكروا من قبل ، والذين هم خاصّة علماء أهل الكتاب . . وكذلك المؤمنون هنا ، هم الذين لم يقع الإيمان بعد موقعا متمكنا من قلوبهم . . فهؤلاء وأولئك ليس من شأنهم أن

يرتابوا بعد هذا الذي جاء فى آيات اللّه من أنباء الغيب عن عدة أصحاب النار ، بعد أن تطابق هذا مع ما فى التوراة . .

وقوله تعالى : وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا » . الذين فى قلوبهم مرض هم المنحرفون من علماء أهل الكتاب ، الذين غلبهم الهوى على كلمة الحق أن ينطقوا بها ، والكافرون ، هم المشركون الذين ما زالوا على شركهم . . فهؤلاء ، وهؤلاء ، يتخذون من قوله تعالى : «عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ» . مادة للاستهزاء ، والسخرية . . كأن يقولوا مثلا : ما هذه التسعة عشر ؟ ولما ذا لم تكن عشرين ؟ « ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا » وقد ردّ اللّه على تساؤلهم هذا بقوله سبحانه :

« كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ » .

أي هذه الأمثال التي يضربها اللّه للناس ، هى مضلة لبعض الناس ، كما أنها هداية لبعضهم . . فمن نظر إليها بقلب مريض ، وبصر زائغ ، لم يروجه الخير والحق فيها ، وارتد إلى الوراء مرتكسا فى متاهات الغواية والضلال . . ومن جاء إليها بقلب سليم ، وعقل محرّر من الهوى . رأى الطريق القويم إلى اللّه ، فسلكه ، واستقام عليه . . وهذا مثل قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ » (26 : البقرة) .

(62/791)

وقوله تعالى : « وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » هو ردّ على المستهزئين الساخرين ، الذي اتخذوا من عدد التسعة عشر مادّة للاستهزاء والسخرية ، حتى لقد بلغ بهم القول بأن اللّه لا يملك من الجند إلا هؤلاء التسعة عشر ، ولو كان يملك أكثر منهم لجعلهم عشرين لا تسعة عشر . . وكذبوا وضلوا ، فإن جنود اللّه لا حصر لها ، ولا يعلم عددها إلّا هو سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : « وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ » الضمير « هِيَ » يعود إلى « عدة » فى قوله تعالى : « وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » . .

أي أن هذه العدة ، هى موضع ذكرى ، وعبرة الناس . . كما علم منها أهل الكتاب مطابقة ما جاء فى القرآن لما فى كتبهم ، والتزام هذه الكتب جميعها هذا العدد ، دون تبديل فيه ، أو تحريف له ، فيما حرّف أهل الكتاب وبدلوا ، لأنه لا مصلحة لهم فى هذا التبديل ، والتحريف . . ويجوز أن يكون هذا الضمير عائدا إلى « سقر » فى قوله تعالى : «

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » ، ومع سقر الجنود القائمون عليها ، وعدتهم تسعة عشر . . فسقر ، والجنود القائمون عليها ، هى ذكرى للبشر .

قوله تعالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ » .

« كلّا » هنا ، نفى يحمل الرّدع والزجر ، لأولئك الذين لم يجدوا فى تلك الآيات التي تحذرهم من النار ، وتخوفهم من جنودها . لم يجدوا فى ذلك ذكرى وموعظة لهم .

وكلا ، إنها ليست ذكرى للبشر ، أي لمعظم البشر ، إذ كان أكثر الناس على الضلال ، وقليل منهم المهتدون ، المؤمنون .

(63/791)

وقوله تعالى : « والقمر » قسم بالقمر .

وقوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ » معطوفان على القمر ، ومقسم بهما معه . . فهى ثلاثة أقسام ، تجمع : القمر ، والليل ، والصبح .

وقد جاء القسم بالقمر مطلقا ، دون ذكر حال من أحواله ، أو صفة من صفاته . . إنه القمر ، والقمر لا يسمى قمرا إلا مع تمامه وكماله . .

وجاء القسم بالليل مقيدا بظرف خاص ، وهو إدباره ، وتولّيه . . على حين جاء القسم

بالصبح حال إسفاره ، وظهوره . .

وقد فرّق النظم القرآنى المعجز بين الحالين ، حال إدبار الليل ، وحال إسفار الصبح . . إنها لحظة واحدة ، يلتقى عندها إدبار الليل ، وإسفار الصبح ، وقد وزّع النظم القرآنى هذه اللحظة ، فجعل بعضا منها يذهب مع الليل الذاهب ، وبعضا منها ، يتراءى خلف الصبح المقبل . . ولهذا جاء لفظ « إذ » مع إدبار الليل « وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » .

. وهذا يعنى الزمن الماضي من تلك اللحظة . . فلقد أدبر الليل ، ومضى ، وذهب سلطانه الذي كان قائما على تلك الرقعة المبسوط عليها من هذا العالم . . أما الصبح ، فهو وليد جديد ، يخطو خطواته نحو المستقبل ، فهو زمن ممتدّ ، ولهذا جاء الظرف المتلبس به بلفظ « إذا » التي تدل على الزمن المستقبل . . « وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ » ! ! ولعل سائلا يسأل هنا :

وماذا وراء الجمع بين هذه الأقسام الثلاثة : القمر ، والليل المدبر ، والصبح المسفر ؟ إن القرآن الكريم لا يجمع بين هذه العوالم إلّا وهو يشير من هذا الجمع إلى ملحظ ، فيه عبرة ، وعظة . فماذا يكون هذا الملحظ ؟ !

نقول - والله أعلم - إن القسم بالقمر ، والليل المدبر ، والصبح المسفر ، هو إشارة إلى مبعث النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، وإلى ما بين يدى مبعثه وما خلفه ، من مجريات الأحداث ، التي تطل على الناس . .

فالقمر - والله أعلم - هو إشارة إلى الرسالات السماوية التي سبقت عصر النبوّة . . فقد كانت تلك الرسالات هى النور ، الذي يشعّ فى وسط هذا الظلام المخيم على العالم ، وأن نور هذا القمر لا يمنح الناس رؤية كاشفة ، وإن أراهم مواقع أقدامهم . وألقى فى قلوبهم شيئا من الطمأنينة والأنس ، ثم إنه لا يلبس أن يختفى ، ويتحول عن الناس . .

وإسفار الصبح هو إيذان بمبعث النبي ، وأنه الشمس التي ستشرق على هذا الوجود ، وأن أضواء شمس النبوة قد أزاحت ظلمة الليل عن هذا الوجود ، وأنه سرعان ما تطلع الشمس فتملا الوجود ضياء ، وتكسو العالم حلّة من بهاء وجلال ، حيث تنكشف حقائق الأشياء ، وتسفر عن وجهها لكل ذى بصر يبصر ، ومن شمس النبوة المحمدية استمدّت الرسالات السابقة نورها من ضوء هذه الشمس ، قبل أن يستقبل الوجود مطلع هذه الشمس ، فلما طلعت محت بضوئها آية القمر ، وكان على من يريدون أن يسيروا على هدى ونور أن يستقبلوا هذا النور ، وأن يملئوا أعينهم به .

قوله تعالى : « إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيراً لِلْبَشَرِ » .

الضمير فى إنها يعود إلى « سقر » .

. وهى إحدى منازل الكافرين والضالين يوم القيامة . . فإن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ لها سبعة أبواب ، ولكل باب أهله الذين يدخلون منه إلى النار المعدة لهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » (الحجر : 43 . 44) .

(65/791)

وقوله تعالى : « نَذِيراً لِلْبَشَرِ » تمييز لإحدى الكبر ، أي أن سقر هى إحدى الكبر من جهة الإنذار والتخويف بها . . أي أنها من الآيات الكبرى ، التي من شأنها أن تهز النفوس من أقطارها ، وأن تبعث فى القلوب الخشية والفزع من لقاء هذه الأهوال التي تطلع بها جهنم على أهلها ، وفى هذا أبلغ نذير لمن يبصر النذر وينتفع بها . .

قوله تعالى : « لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ » . .

هذا بدل من قوله تعالى « للبشر » أي أن سقر هى نذير لمن شاء أن يتقدم فيؤمن بالله ، ويمضى على طريق الحق والهدى ، كما أنها نذير لمن شاء أن يتأخر فيرتد على عقبه ، ويغيب فى متاهات الكفر والضلال . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1296 . 1302 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾

روى الطبري عن ابن عباس وجابر بن زيد : "أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ [المدثر : 30] قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدَّهْم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ؟ فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ ، أي ما جعلناهم رجالاً فيأخذ كل رجل رجلاً ، فمن ذا يغلب الملائكة أ هـ .

وفي "تفسير القرطبي" عن السدي : أن أبا الأشَدَّ بنَ كَلَدَة الجمحِي قال مستهزئاً : لا يَهُولَنّكم التسعةَ عشر ، أنا أدفع بمنكبي الأيمنِ عشرة وبمنكبي الأيسر تسعة ثم تمرون إلى الجنة ، وقيل : قال الحارث بن كَلَدة : أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين ، يريد التهكم مع إظهار فرط قوته بين قومه .

فالمراد مِن ﴿ أصحاب النار ﴾ خزنتها ، وهم المتقدم ذكرهم بقوله : ﴿ عليها تسعةَ عشر ﴾ [المدثر : 30] .

والاستثناء من عموم الأنواع ، أي ما جعلنا خزنة النار من نوع إلاّ من نوع الملائكة .

وصيغة القصر تفيد قلب اعتقاد أبي جهل وغيره مَا توهموه أو تظاهروا بتوهمه أن المراد تسعة عشر رجلاً فطمع أن يخلص منهم هو وأصحابه بالقوة فقد قال أبو الأشدّ بن أُسَيد الجُمحِي : لا يَبلغون ثوبي حتى أُجْهِضَهم عن جهنم ، أي أنحِّيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ تتميم في إبطال توهم المشركين حقارة عدد خزنة النار ، وهو كلام جار على تقدير الأسلوب الحكيم إذ الكلام قد أثار في النفوس تساؤلاً عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعةَ عشر وهلاّ كانوا آلافاً ليكون مرآهم أشد هولاً على أهل النار ، أو هلاّ كانوا ملكاً واحداً فإن قُوى الملائكة تأتي كل عمل يسخرها الله له ، فكان جواب هذا السؤال : أن هذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فَهم الكفار للقرآن .

(67/791)

وإنما حصلت الفتنة من ذكر عددهم في الآية السابقة .

فقوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم ﴾ تقديره : وما جعلنا ذكر عدتهم إلاّ فتنة ، ولاستيقان الذين أوتوا الكتاب ، وازدياد الذين آمنوا إيماناً ، واضطراب الذين في قلوبهم مرض فيظهر

ضلال الضالين واهتداء المهتدين .

فالله جعل عدة خزنة النار تسعة عشر لحكمة أخرى غير ما ذكر هنا اقتضت ذلك الجعل يعلمها الله .

والاستثناء مفرغ لمفعول ثان لفعل ﴿ جعلنا ﴾ تقديره جعلنا عدتهم فتنة لا غير ، ولما كانت الفتنة حالاً من أحوال الذين كفروا لم تكن مراداً منها ذاتها بل عروضها للذين كفروا فكانت حالاً لهم .

والتقدير : ما جعلنا ذكر عدتهم لعلة وغرض إلاّ لغرض فتنة الذين كفروا ؛ فانتصب ﴿ فتنة ﴾ على أنه مفعول ثان لفعل ﴿ جعلنا ﴾ على الاستثناء المفرغ ، وهو قصر قلب للردّ على الذين كفروا إذ اعتقدوا أن عدتهم أمر هيّن .

وقوله : ﴿ ليستيقن الذين أُوتوا الكتاب ﴾ الخ .

علة ثانية لفعل ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة ﴾ .

ولولا أن كلمة ﴿ فتنة ﴾ منصوبة على المفعول بهِ لفعل ﴿ جعلنا ﴾ .

لكان حق ﴿ ليستيقن ﴾ أن يعطف على ﴿ فتنة ﴾ ولكنه جاء في نظم الكلام متعلقاً بفعل : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة .

ويجوز أن يكون للذين كفروا ﴾ متعلقاً بفعل ﴿ جعلنا وب فتنة ﴾ ، على وجه التنازع فيه ، أي ما جعلنا عدتهم للذين كفروا إلاّ فتنةً لهم إذ لم يحصل لهم من ذكرها إلاّ فساد

التأويل ، وتلك العِدة مجعولة لفوائد أخرى لغير الذين كفروا الذين يفوضون معرفة ذلك إلى علم الله وإلى تدبر مفيد .

والاستيقان : قوة اليقين ، فالسين والتاء فيه للمبالغة .

والمعنى : ليستيقنوا صدق القرآن حيث يجدون هذا العدد مصدقاً لما في كتبهم .

والمراد بـ ﴿ الذين أُوتوا الكتاب ﴾ اليهود حين يبلغهم ما في القرآن من مثل ما في كتبهم أو أخبارهم .

(68/791)

وكان اليهود يترددون على مكة في التجارة ويتردد عليهم أهل مكة للميرة في خيبر وقريظة ويثرب فيسأل بعضهم بعضاً عما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم ويودّ المشركون لو يجدون عند اليهود ما يكذبون به أخبار القرآن ولكن ذلك لم يجدوه ولو وجدوه لكان أيسر ما يطعنون به في القرآن .

والاستيقان من شأنه أن يعقبه الإِيمان إذا صادف عقلاً بريئاً من عوارض الكفر كما وقع لعبد الله بن سَلاَم وقد لا يعقبه الإِيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال كما كان شأن كثير من اليهود الذي قال الله فيهم ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن كثيراً منهم

ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة : 146] ولذلك اقتصرت الآية على حصول الاستيقان لهم .

روى الترمذي بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هل يعلم نبيئكم عدد خزنة النار ؟ ، قالوا : لا ندري حتى نسأل نبيئنا .

فجاء رجل إلى النبي فقال : يا محمد غُلب أصحابكم اليوم ، قال : وبم غلبوا قال : سألهم يهودُ : هل يعلم نبيئكم عدد خزنة النار ، قال : فما قالوا ؟ قال : قالوا لا ندري حتى نسأل نبيئنا ، قال : أفغُلب قوم سُئلوا عما لا يعلمون ؟ فقالوا : لا نعلم حتى نسأل نبيئنا إلى أن قال جابر : فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال .

هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة عشرة وفي مرة تسع (بإشارة الأصابع) قالوا : نعم الخ .

وليس في هذا ما يُلجىء إلى اعتبار هذه الآية نازلة بالمدينة كما روي عن قتادة لأن المراجعة بين المشركين واليهود في أخبار القرآن مألوفة من وقت كون النبي صلى الله عليه وسلم في مكة .

قال أبو بكر ابن العربي في "العارضة" : حديث جابر صحيح والآية التي فيها

﴿ عليها تسعةَ عشر ﴾ [المدثر : 30] مكية بإجماع ، فكيف تقول اليهود هذا ويدعوهم النبي للجواب وذلك كان بالمدينة ، فيحتمل أن الصحابة قالوا : لا نعلم ، لأنهم لم يكونوا قرأوا الآية ولا كانت انتشرت عندهم (أي لأنهم كانوا من الأنصار الذين لم يتلقوا هذه الآية من سورة المدثر لبعد عهد نزولها بمكة وكان الذين يجتمعون باليهود ويسألهم اليهود هم الأنصار .

قال : ويحتمل أن الصحابة لم يمكنهم أن يعينوا أن التسعة عشر هم الخزنة دون أن يعيِّنهم الله حتى صرح به النبي صلى الله عليه وسلم أ هـ .

فقد ظهر مصداق قوله تعالى : ﴿ ليستيقن الذين أُوتوا الكتاب ﴾ بعد سنين من وقت نزوله .

ومعنى ﴿ ويزداد الذين ءامنوا إيماناً ﴾ أنهم يؤمنون به في جملة ما يؤمنون به من الغيب فيزداد في عقولهم جُزئيّ في جزئيات حقيقة إيمانهم بالغيب ، فهي زيادة كمية لا كيفية لأن حقيقة الإِيمان التصديق والجزم وذلك لا يقبل الزيادة ، وبمثل هذا يكون تأويل كل ما ورد في زيادة الإِيمان من أقوال الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة .

وقوله : ﴿ ولا يرتاب الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ عطف على ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ﴾ أي لينتفي عنهم الريب فلا تعتورهم شبهة من بعد علمه لأنه إيقان عن

دليل .

وإن كان الفريقان في العمل بعلمهم متفاوتين ، فالمؤمنون علموا وعَملوا ، والذين أُوتوا الكتاب علموا وعاندوا فكان علمهم حجة عليهم وحسرة في نفوسهم .

(70/791)

والمقصود من ذكره التمهيد لذكر مكابرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين في سوء فهمهم لهذه العِدة تمهيداً بالتعريض قبل التصريح ، لأنه إذا قيل ﴿ ولا يرتاب الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ شعر الذين في قلوبهم مرض والكافرون بأنهم لما ارتابوا في ذلك فقد كانوا دون مرتبة الذين أوتوا الكتاب لأنهم لا ينازعون في أن الذين أوتوا الكتاب أرجح منهم عقولاً وأسد قولاً ، ولذلك عطف عليه ﴿ وليقولَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ، أي ليقولوا هذا القول إعراباً عما في نفوسهم من الطعن في القرآن غير عالمين بتصديق الذين أوتوا الكتاب .

واللام لام العاقبة مثل التي في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] .

والمرض في القلوب : هو سوء النية في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء هم

الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شَرِيق والوليد بن المغيرة ، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون لأن المنافقين ما ظهروا إلاّ في المدينة بعد الهجرة والآية مكية .

و ﴿ ماذا أراد الله ﴾ استفهام إنكاري فإن (ما) استفهامية ، و (ذا) أصله اسم إشارة فإذا وقع بعد (ما) أو (مَن) الاستفهاميتين أفاد معنى الذي ، فيكون تقديره : ما الأَمر الذي أراده الله بهذا الكلام في حال أنه مثل ، والمعنى : لم يرد الله هذا العدد الممثل به ، وقد كُنّي بنفي إرادة الله العدد عن إنكار أن يكون الله قال ذلك ، والمعنى : لم يرد الله العدد الممثل به فكنّوا بنفي إرادة الله وصفَ هذا العددِ عن تكذيبهم أن يكون هذا العدد موافقاً للواقع لأنهم ينفون فائدته ، وإنما أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحياً من عند الله .

والإِشارة بهذا إلى قوله : ﴿ عليها تسعةَ عشر ﴾ [المدثر : 30] .

(71/791)

و ﴿ مثلاً ﴾ منصوب على الحال من هذا ، والمثل : الوصف ، أي بهذا العدد وهو تسعة عشر ، أي ما الفائدة في هذا العدد دون غيره مثل عشرين .

والمثل : وصف الحالة العجيبة ، أي ما وصَفه من عدد خزنة النار كقوله تعالى : ﴿ مثل

الجنّة التي وعد المتقون ﴾ [محمد : 15] الآية .

وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

اسم الإِشارة عائد إلى ما تضمنه الكلام المتقدم من قوله : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ مثلاً ﴾ بتأويل ما تضمنه الكلام ، بالمذكور ، أي مثل ذلك الضلال الحاصل للذين في قلوبهم مرض وللكافرين ، والحاصل للذين أوتوا الكتاب بعد أن استيقنوا فلم يؤمنوا يُضل الله من يشاء أن يضله من عباده ، ومثل ذلك الهُدى الذي اهتداه المؤمنون فزادهم إيماناً مع إيمانهم يَهدي الله من يشاء .

والغرض من هذا التشبيهِ تقريبُ المعنى المعقول وهو تصرف الله تعالى بخلق أسباب الأحوال العارضة للبشر ، إلى المعنى المحسوس المعروف في واقعة الحال ، تعليماً للمسلمين وتنبيهاً للنّظر في تحصيل ما ينفع نفوسهم .

ووجه الشبه هو السببية في اهتداء من يهتدي وضَلال من يَضِل ، في أن كُلاًّ من المشبَّه والمشبه به جعله الله سبباً وإرادة لحكمة اقتضاها علمه تعالى فتفاوتَ الناسُ في مدى إفهامهم فيه بين مهتدٍ ومرتابٍ مُختلف المرتبةِ في ريبه ، ومكابرٍ كافر وسَيّىءِ فهمٍ كافر .

وهذه كلمة عظيمة في اختلاف تلقي العقول للحقائق وانتفاعهم بها أو ضده بحسب اختلاف قرائحهم وفهومهم وتراكيب جبلاتهم المتسلسلة من صواب إلى مثله ، أو من تردد

واضطراب إلى مثله ، أو من حَنق وعناد إلى مثله ، فانطوى التشبيه من قوله : ﴿ كذلك ﴾ على أحوال وصور كثيرة تظهر في الخارج .

(72/791)

وإسناد الإِضلال إلى الله تعالى باعتبار أنه موجِد الأسباب الأصلية في الجبلات ، واقتباس الأهواء وارتباط أحوال العالم بعضها ببعض ، ودعوة الأنبياء والصلحاء إلى الخير ، ومقاومة أئمة الضلال لتلك الدعوات .

تلك الأسباب التي أدت بالضالين إلى ضلالهم وبالمهتدين إلى هداهم .

وكلٌّ من خلق الله .

فما على الأنفس المريدة الخير والنجاة إلاّ التعرض لأحد المهيعين بعد التجرد والتدبر ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] .

ومشيئة الله ذلك تعلق علمه بسلوك المهتدين والضالّين .

ومحل ﴿ كذلك ﴾ نصب بالنيابة عن المفعول المطلق لأن الجار والمجرور هنا صفة لمصدر محذوف دلّت عليه الصفة ، والتقدير : يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالاً وهدياً كذلك الإِضلال والهدي .

وليس هذا من قبيل قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] .

وقدم وصف المفعول المطلق للاهتمام بهذا التشبيه لما يرشد إليه من تفصيل عند التدبر فيه ، وحصل من تقديمه محسّن الجمع ثم التقسيم إذ جاء تقسيمه بقوله ﴿ يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .

كلمة جامعة لإِبطال التخرصَات التي يتخرصها الضالون ومرضى القلوب عند سماع الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة من نحو : ما هَذَا به أبو جهل في أمر خزنة جهنم يشمل ذلك وغيره ، فلذلك كان لهذه الجملة حكم التذييل .

والجنودُ : جمع جند وهو اسم لجماعة الجيش واستعير هنا للمخلوقات التي جعلها الله لتنفيذ أمره لمشابهتها الجنود في تنفيذ المراد .

وإضافة رب إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إضافة تشريف ، وتعريض بأن من شأن تلك الجنود أن بعضها يكون به نصرُ النبي صلى الله عليه وسلم ونفي العلم هنا نفي للعلم التفصيلي بأعدادها وصفاتها وخصائصها بقرينة المقام ، فإن العلم بعدد خزنة جهنم قد حصل للناس بإعلام من الله لكنهم لا يعلمون ما وراء ذلك .

(73/791)

فيه معان كثيرة أعلاها أن يكون هذا تتمة لقوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ﴾ على أن يكون جارياً على طريقة الأسلوب الحكيم ، أي أن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن في ذكر الصفة عوناً على زيادة استحضار الموصوف ، فغرض القرآن الذكرى ، وقد اتخذه الضالّون ومرضى القلوب لهواً وسخرية ومِراء بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر ولِمَ لم يكونوا عشرين أو مئات أو آلافاً .

وضمير ﴿ هي ﴾ على هذا الوجه إلى ﴿ عدتهم .

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الكلام السابق وتأنيث ضميره لتأويله بالقصّة أو الصفة أو الآيات القرآنية .

والمعنى : نظير المعنى على الاحتمال الأول .

ويحتمل أن يرجع إلى ﴿ سَقَر ﴾ [المدثر : 26] وإنما تكون ﴿ ذِكْرى ﴾ باعتبار الوعيد بها وذكرِ أهوالها .

والقصرُ متوجه إلى مضاف محذوف يدل عليه السياق تقديره : وما ذكرها أو وصفها أو نحو ذلك .

ويحتمل أن يرجع ضمير ﴿ هي ﴾ إلى ﴿ جنود ربّك ﴾ والمعنَى المعنى ، والتقديرُ التقديرُ ، أي وما ذكرها أو عِدة بعضها .

وجوّز الزجاج أن يكون الضمير راجعاً إلى نار الدنيا ، أي أنها تذكر للناس بنار الآخرة ، يريد أنه من قبيل قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تَذْكرة ﴾ [الواقعة : 71 73] .

وفيه محسن الاستخدام .

وقيل : المعنى : وما عدتهم إلاّ ذكرى للناس ليعلموا غنى الله عن الأعوان والجند فلا يظلوا في استقلال تسعة عشر تجاه كثرة أهل النار .

وإنما حَمَلَت الآية هذه المعانيَ بحسن موقعها في هذا الموضع وهذا من بلاغة نظم القرآن .

ولو وقعت إثر قوله : ﴿ لواحة للبشر ﴾ [المدثر : 29] لتمحض ضمير ﴿ وما هي إلاّ ذكرى ﴾ للعود إلى سقر ، وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن كما في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير .

(74/791)

وبين لفظ البشر المذكور هنا ولفظ البشَر المتقدم في قوله : ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ التّجنيس التام .

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32)

﴿ كلاّ ﴾ .

﴿ لِلْبَشَرِ ﴾ حرف ردع وإبطال .

والغالب أن يقع بعد كلام من متكلم واحد أوْ من متكلم وسامعٍ مثل قوله تعالى : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمُدْرَكون قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ [الشعراء : 61 ، 62] فيفيد الردع عما تضمنه الكلام المحكي قبله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا سنكتب ما يقول ﴾ في سورة مريم (79) ، ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيلُ بالردع والتشويقُ إلى سماع ما بعده ، وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالاً لما قبله من قولهم : فإذا أراد الله بهذا مثلاً ، فيكون ما بينهما اعتراضاً ويكون قوله والقمرِ ﴾ ابتداء كلام فيحسن الوقف على ﴿ كلاّ ﴾ .

ويحتمل أن يكون حرف إبطال مقدماً على الكلام الذي بعده من قوله : ﴿ إنها لإِحدى الكبر نذيراً للبشر ﴾ تقديم اهتمام لإِبطال ما يجيء بعده من مضمون قوله : ﴿ نذيراً للبشر ، ﴾ أي من حقهم أن ينتذروا بها فلم ينتذر أكثرهم على نحو معنى قوله : ﴿ وأَنَّى له الذكرى ﴾ [الفجر : 23] فيحسن أن توصل في القراءة بما بعدها .

الواو المفتتح بها هذه الجملة واو القسم ، وهذا القسم يجوز أن يكون تذييلاً لما قبله مؤكِّداً لما أفادته ﴿ كَلاّ ﴾ من الإِنكار والإِبطال لمقالتهم في شأن عدة خزنة النار ، فتكون جملة ﴿ إِنها لإِحدى الكبر ﴾ تعليلاً للإِنكار الذي أفادته ﴿ كَلاّ ﴾ ويكون ضمير ﴿ إنها

﴿ عائداً إلى ﴿ سقَر ﴾ [المدثر : 26] ، أي هي جديرة بأن يتذكر بها فلذلك كان من لم يتذكر بها حقيقاً بالإنكار عليه وردعه .

(75/791)

وجملة القسم على هذا الوجه معترضة بين الجملة وتعليلها ، ويحتمل أن يكون القسم صدراً للكلام الذي بعده وجملة ﴿ إنها لإِحدى الكبر ﴾ جواب القسم والضمير راجع إلى ﴿ سقَر ، أي أن سقر لأعظم الأهوال ، فلا تجزي في معاد ضمير إنها ﴾ جميع الاحتمالات التي جرت في ضمير ﴿ وما هي إلاّ ذكرى ﴾ [المدثر : 31] .

وهذه ثلاثة أيمان لزيادة التأكيد فإن التأكيد اللفظي إذا أكد بالتكرار يكرر ثلاث مرات غالباً ، أقسم بمخلوق عظيم ، وبحالين عظيمين من آثار قدرة الله تعالى .

ومناسبة القَسَم بـ ﴿ القمر والليل إذ أدبر والصبحُ إذا أسفر ﴾ أن هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام فناسبت حالي الهدى والضلال من قوله : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ [المدثر : 31] ومن قوله : ﴿ وما هي إلاّ ذكرى للبشر ﴾ [المدثر : 31] ففي هذا القسَم تلويح إلى تمثيل حال الفريقين من الناس عند نزول القرآن بحال اختراق النور في الظلمة .

وإدبار الليل : اقتراب تقضيه عند الفجر ، وإسفار الصبح : ابتداء ظهور ضوء الفجر .

وكل من ﴿ إذْ ﴾ و ﴿ إذَا ﴾ واقعان اسمي زمان منتصبان على الحال من الليل ومن الصبح ، أي أُقسم به في هذه الحالة العجيبة الدالة على النظام المحكم المتشابه لمحو الله ظلمات الكفر بنور الإِسلام قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ [إبراهيم : 1] .

وقد أجريت جملة ﴿ إنها لإِحدى الكبر ﴾ مجرى المثل .

ومعنى ﴿ إحدى ﴾ أنها المتوحدة المتميزة من بين الكبر في العظم لا نظيرة لها كما يقال : هو أحدَ الرجال لا يراد : أنه واحد منهم ، بل يراد : أنه متوحد فيهم بارز ظاهر ، كما تقدم في قوله : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : 11] ، وفي المثل "هذه إحدى حُظَيَّات لقمان" .

(76/791)

وقرأ نافع وحمزة وحفص ويعقوب وخلف ﴿ إذْ أدبر ﴾ بسكون ذال ﴿ إذ ﴾ وبفتح همزة ﴿ أدبر ﴾ وإسكان داله ، أقسم بالليل في حالة إدباره التي مضت وهي حالة متجددة تَمضي وتَحْضُر وتُستْقبل ، فأي زمن اعتبر معها فهي حقيقة بأن يُقسم بكونها فيه

، ولذلك أقسم بالصبح إذَا أسفر مع اسم الزمن المستقبل .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم والكسائيّ وأبو جعفر ﴿ إِذَا دَبَر ﴾ بفتح الذال المعجمة من ﴿ إذا ﴾ بعدها ألف ، وبفتح الدّال المهملة من دَبَر على أنه فعل مضي مجرد ، يقال : دَبَر ، بمعنى : أدبر ، ومنه وصفه بالدّابر في قولهم : أمسسِ الدّابرِ ، كما يقال : قبل بمعنَى أقبل ، فيكون القسم بالحالة المستقبلة من إدبار الليل بعد نزول الآية ، على وزان ﴿ إذَا أسفر ﴾ في قراءة الجميع ، وكل ذلك مستقيم فقد حصل في قراءة نافع وموافقيه تفنن في القسم .

و ﴿ الكُبَر ﴾ : جمع الكبرى في نوعها ، جمعوه هذا الجمع على غير قياسسِ بابه لأن فُعْلى حقها أن تجمع جمع سلامة على كبريات ، وأما بنية فُعل فإنها جمع تكسير لفُعْلة كغُرفة وغُرف ، لكنهم حملوا المؤنث بالألف على المؤنث بالهاء لأنهم تأولوه بمنزلة اسم للمصيبة العظيمة ولم يعتبروه الخصلة الموصوفة بالكِبر ، أي أُنثى الأكبر فلذلك جعلوا ألف التأنيث التي فيه بمنزلة هاء التأنيث فجمعوه كجمع المؤنث بالهاء من وزن فعلة ولم يفعلوا ذلك في إخواته مثل عظمى .

وانتصب ﴿ نذيراً ﴾ على الحال من ضمير ﴿ إِنها ﴾ ، أي إنها لعُظمَى العظائم في حال إنذارها للبشر وكفى بها نذيراً .

والنذير : المُنذر ، وأصله وصف بالمصدر لأن ﴿ نذيراً ﴾ جاء في المصادر كما جاء

النكير ، والمصدر إذا وصف به أو أخبر به يلزم الإِفرادَ والتذكيرَ ، وقد كثر الوصف بـ (النذير) حتى صار بمنزلة الاسم للمُنذر .

(77/791)

وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ بدل مفصل من مجمل من قوله ﴿ للبشر ﴾ ، وأعيد حرف الجر مع البدل للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ [الأعراف : 75] ، وقوله : ﴿ إن هو إلاّ ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير : 27 ، 28] وقوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخِرنا ﴾ [المائدة : 114] .

والمعنى : إنها نذير لمن شاء أن يتقدم إلى الإِيمان والخير لينتذر بها ، ولمن شاء أن يتأخر عن الإيمان والخير فلا يرعوي بنذارتها لأن التقدّم مشي إلى جهة الإمام فكأنَّ المخاطب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإِيمان وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه ، وبعكسه التأخر ، فحذف متعلق ﴿ يتقدم ويتأخّر ﴾ لظهوره من السياق .

ويجوز أن يقدر : لمن شاء أن يتقدم إليها ، أي إلى سَقَر بالإِقدام على الأعمال التي تُقدمه إليها ، أو يتأخر عنها بتجنب ما من شأنه أن يقربه منها .

وتعليق ﴿ نذيراً ﴾ بفعل المشيئة إنذار لمن لا يتذكر بأن عدم تذكره ناشىء عن عدم مشيئته فتبعتُه عليه لتفريطه على نحو قول المثل "يداك أوكَتا وفُوك نفخ" ، وقد تقدم في سورة المزمل (19) قوله : ﴿ إنَّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً وفي ضمير منكم ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن مقتضى الظاهر أن يقال : لمن شاء منهم ، أي من البشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(78/791)

قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدم والتأخر بالأفعال ، وكان أكثر أفعال الإنسان الشر لما جبل عليه من النقصان ، قال مبيناً لما يقدم وما يؤخر ﴿ كل نفس ﴾ أي ذكر أو أنثى على العموم ﴿ بما كسبت ﴾

أي خاصة لا بما كسب غيرها ﴿ رهينة ﴾ أي مرتهنة بالفعل ، اسم بمعنى .

الرهن كما في قول الحماسي :

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب . . .

رهينة رمس ذي تراب وجندل

لا تأنيث " رهين " الذي هو وصف ، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي مذكره ومؤنثه ، ولو كانت الفواصل التي يعبرون بها عن السجع تأدباً تراعى في القرآن بوجه لقيل : رهين – لأجل يمين ، ولكن لا نظر فيه لغير المعنى ، ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة بمعنى موثقة إيثاقاً بليغاً محبوسة حبساً عظيماً فهي في النار ، فجعل الأصل في الكسب الموثق .

ولما كان الرهن تارة يفك وتارة يغلق ، وكان أكثر الخلق هالكاً ، جعل رهينة بمعنى هالكة ، ثم استثنى الممدوح فقال : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ أي الذين تقدم وصفهم وهم الذين تحيزوا إلى الله فائتمروا بأوامره وانتهوا بنواهيه ، فإنهم لا يرتهنون بأعمالهم ، بل يرحمهم الله فيقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم .

(79/791)

ولما أخرجهم عن حكم الارتهان الذي أطلق على الإهلاك لأنه سببه ، استأنف بيان حالهم فقال : ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين في غاية العظم لأنهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فلم يرتهنوا ، فالآية من الاحتباك : أثبت أولاً الارتهان دليلاً على حذف ضده ثانياً ، وأثبت ثانياً الجنة دليلاً على حذف ضدها أولاً .

ولما كان السؤال عن حال الغير دالاً دلالة واضحة على الراحة والفراغ عن كل ما يهم النفس ، عبر عن راحتهم في أجل وعظ وألطف تحذير بقوله : ﴿ يتساءلون ﴾ أي فيما بينهم يسأل بعضهم بعضاً ﴿ عن المجرمين ﴾ أي أحوال العريقين في قطع ما أمر الله به أن يوصل .

(80/791)

ولما كان يوم القيامة في غاية الصعوبة وكان أحد مشغولاً بنفسه ، فكان لا علم له بتفاصيل ما يتفق لغيره ، وكان أولياء الله إذا دخلوا دار كرامته أرادوا العلم بما فعل بأعدائهم فيه سبحانه ، فتساءلوا عن حالهم فقال بعضهم لبعض : لا علم لنا ، فكشف الله – لهم عنهم حتى رأوهم في النار وهي تسعر بهم ليقر الله أعينهم بعذابهم ، زيادة في نعيمهم وثوابهم ، كما تقدم في الصافات عند قوله ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ [الصافات : 51] وكان بساط – الكلام دالاً على هذا كله ، أشار لنا سبحانه إليه بقوله حكاية عما يقول لهم

أولياؤهم توبيخاً وتعنيفاً وشماتة وتقريعاً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ [المطففين : 34] الآية ، ولتكون حكاية ذلك موعظة للسامعين وذكرى للذاكرين : ﴿ ما ﴾ هي محتملة للتوبيخ والتعجيب ﴿ سلككم ﴾ أي أدخلكم أيها المجرمون إدخالاً هو في غاية الضيق حتى كأنكم السلك في الثقب ﴿ في سقر ﴾ فكان هذا الخطاب مفهماً لأنهم لما تساءلوا نفوا العلم عن أنفسهم ، وكان من المعلوم أن نفي العلم لأنهم شغلوا عن ذلك بأنفسهم وأنهم ما شغلوا – مع كونهم من أهل السعادة – إلا لأن ذلك اليوم عظيم الشواغل ، وكان من المعلوم أنه إذا تعذر عليهم علم أحوالهم من أهل الجنة وهم غير مريدين الشفاعة فيهم فلم يبق لهم طريق إلى علم ذلك لا يظن به التعريض للشفاعة إلا السؤال منهم عن أنفسهم في أنهم يخاطبونهم بذلك فيعلمون علمهم ليزدادوا بذلك غبطة وسروراً بما نجاهم الله من مثل حالهم ويكثروا من الثناء على الله تعالى بما وفقهم له وليكون ذلك عظة لنا بسماعنا إياه فحكى الله أنهم لما سألوهم ﴿ قالوا ﴾ ذاكرين علة دخولهم النار بإفساد قوتهم العملية في التعظيم لأمر الله فذلكة لجميع ما تقدم من مهمات السورة بما حاصله أنهم لم يتحلوا بفضيلتين ولم يتخلوا عن رذيلتن تعريفاً بأنهم كانوا مخاطبين بفروع الشريعة ، وفي البداءة بالعمل تنبيه على

أنه يجب على العاقل المبادرة إلى ما يأمره به الصادق لأنه المصدق لحسن الاعتقاد ، والمبادرة إلى التلبس بالعمل أسهل من المبادرة إلى التلبس بالعلم ، لأن العمل له صورة وحقيقة ، ومطلق التصوير أسهل من التحقيق ، ومن صور شيئاً كان أقرب إلى تحقيقه ممن لم يصوره ، فكان أجدر بتحقيقه ممن لم يباشر تصويره ، ففيه حث على المسابقة إلى الأعمال الصالحة وإن لم تكن النية خالصة ، وإيذان بأن من أدمن ترك الأعمال قاده إلى الانسلاخ من حسن الاعتقاد ، وورطه في الضلال ، ﴿ لم نك ﴾ حذفوا النون دلالة على ما هم فيه من الضيق عن النطق حتى بحرف يمكن الاغتناء عنه ، ودلالة على أنه لم يكن لهم نوع طبع جيد يحثهم على الكون في عداد الصالحين ، وكان ذلك مشيراً إلى عظيم ما هم فيه من الدواهي الشاغلة بضد ما فيه أهل الجنة من الفراغ الحامل لهم على السؤال عن أحوال غيرهم ، وكان ذلك منبهاً على فضيلة العلم : ﴿ من المصلين ﴾ أي صلاة يعتد بها ، فكان هذا تنبيهاً على أن رسوخ القدم في الصلاة مانع من مثل حالهم ، وعلى أنهم يعاقبون على فروع الشريعة وإن كانت لا تصح منهم ، فلو فعلوها قبل الإيمان لم يعتد بها ، وعلى أن الصلاة أعظم الأعمال ، وأن الحساب بها يقدم على غيرها .

ولما نفوا الوصلة بالخالق ، أتبعوه إفساد القوة العملية بعدم وصلة الخلائق بترك الشفقة على خلق الله فقالوا : ﴿ ولم نك ﴾ بحذف النون أيضاً لما هم فيه من النكد ونفياً لأدنى شيء من الطبع الجيد ﴿ نطعم المسكين ﴾ أي لأجل مسكنته ، نفوا هنا وجود إطعامه لأنهم إن اتفق إطعامهم له فلعلة أخرى غير المسكنة ، وأما الصلاة فهم يوجدونها لله بزعمهم ، لكن لما كانت على غير ما أمروا به لم تكن مقبولة فلم يكونوا من الراسخين في وصفها .

ولما سلبهم التحلي بلباس الأولياء أثبت لهم التحلي بلباس الأشقياء بإفساد القوة النطقية جامعاً القول إلى الفعل فقالوا : ﴿ وكنا ﴾ أي بما جبلنا عليه من الشر ﴿ نخوض ﴾ أي نوجد الكلام الذي هو في غير مواقعه ولا علم لنا به إيجاد المشي من الخائض في ماء غمر ﴿ مع الخائضين ﴾ بحيث صار لنا هذا وصفاً راسخاً فنقول في القرآن : إنه سحر ، وإنه شعر ، وإنه كهانة وغير هذا من الأباطيل ، لا نتورع عن شيء من ذلك ، ولا نقف مع عقل ، ولا نرجع إلى صحيح نقل ، فليأخذ الذين يبادرون إلى الكلام في كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا .

ولما كان الإدمان على الباطل يجر إلى غلبة الهزء والسخرية ، وغلبه ذلك ولا بد توجب إفساد القوة العلمية بتصديق الكذب وتكذيب الصدق ، قالوا بياناً لاستحبابهم الخلود : ﴿ وكنا نكذب ﴾ أي بحيث صار لنا ذلك وصفاً ثابتاً ﴿ بيوم الدين ﴾ ولما كان التقدير :

واستمر تكذيبنا لصيرورته لنا أوصافاً ثابتة .

بنوا عليه قولهم : ﴿ حتى أتانا ﴾ أي قطعاً ﴿ اليقين ﴾ أي بالموت أو مقدماته التي قطعتنا عن دار العمل فطاح الإيمان بالغيب .

ولما أقروا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم ، فكانوا ممن فسد مزاجه فتعذر علاجه ، سبب عنه قوله : ﴿ فما تنفعهم ﴾ أي في حال اتصافهم بهذه الصفات وهي حالة لازمة لهم دائماً ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ أي لو شفعوا فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 235.238 ﴾

(83/791)

فصل

قال الفخر :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) ﴾

قال صاحب "الكشاف" : رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله : ﴿ كُلُّ امرئ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21] لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصيغة لقيل : رهين ، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى

الشتم ، كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه بيت الحماسة :

أبعد الذي بالنعف نعف كواكب . . رهينة رمس ذي تراب وجندل

كأنه قال : رهن رمس ، والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عن رقاب أنفسهم بسبب أعمالهم الحسنة ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ، ثم ذكروا وجوهاً في أن أصحاب اليمين من هم ؟ أحدها : قال ابن عباس : هم المؤمنون وثانيها : قال الكلبي : هم الذين قال (فيهم) الله تعالى : "هؤلاء في الجنة ولا أبالي" وهم الذين كانوا على يمين آدم وثالثها : قال مقاتل : هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم لا يرتهنون بذنوبهم في النار ورابعها : قال علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمر : هم أطفال المسلمين ، قال الفراء : وهو أشبه بالصواب لوجهين : الأول : لأن الولدان لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به والثاني : أنه تعالى ذكر في وصفهم ، فقال : ﴿ فِى جنات يَتَسَاءلُونَ عَنِ المجرمين مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [المدثر : 40 42] وهذا إنما يليق بالولدان ، لأنهم لم يعرفوا الذنوب ، فسألوا ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ وخامسها : عن ابن عباس : هم الملائكة .

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)

قوله تعالى : ﴿ فِي جنات ﴾ أي هم في جنات لا يكنه وصفها .

ثم قال تعالى : ﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ المجرمين﴾ وفيه وجهان الأول : أن تكون كلمة عن صلة زائدة ، والتقدير : يتساءلون المجرمين فيقولون لهم : ما سلككم في سقر ؟ فإنه يقال سألته كذا ، ويقال : سألته عن كذا الثاني : أن يكون المعنى أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين ، فإن قيل : فعلى هذا الوجه كان يجب أن يقولوا : ما سلكهم في سقر ؟ قلنا : أجاب صاحب "الكشاف" عنه فقال : المراد من هذا أن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون قلنا لهم : ما سلككم في سقر وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون المراد أن أصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين أين هم ؟ فلما رأوهم قالوا لهم : ما سلككم فى سقر والإضمارات كثيرة في القرآن .

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

(85/791)

المقصود من السؤال زيادة التوبيخ والتخجيل ، والمعنى ما حبسكم في هذه الدركة من النار ؟ فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعة : أولها : ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين﴾ وثانيها : لم نك نطعم المسكين ، وهذان يجب أن يكونا محمولين على الصلاة الواجبة ، والزكاة الواجبة

لأن ما ليس بواجب ، لا يجوز أن يعذبوا على تركه وثالثها : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ والمراد منه الأباطيل ورابعها : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بيوم القيامة حتى أتانا اليقين ، أي الموت قال تعالى : ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] والمعنى أنا بقينا على إنكار القيامة إلى وقت الموت ، وظاهر اللفظ يدل على أن كل أحد من أولئك الأقوام كان موصوفاً بهذه الخصال الأربعة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار يعذبون بترك فروع الشرائع ، والاستقصاء فيه قد ذكرناه في " المحصول من أصول الفقه " ، فإن قيل : لم أخر التكذيب ، وهو أفحش تلك الخصال الأربعة ، قلنا أريد أنهم بعد اتصافهم بتلك الأمور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين ، والغرض تعظيم هذا الذنب ، كقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] .

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

واحتج أصحابنا على ثبوت الشفاعة للفساق بمفهوم هذه الآية ، وقالوا : إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 185 . 186 ﴾

(86/791)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

أي مرتهنة بكسبها ، مأخوذة بعملها ، إما خلَّصها وإما أوبقها .

وليست "رَهِينَةٌ" تأنيث رهين في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21] لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيل رهين ؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث .

وإنما هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم ؛ كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهين ؛

ومنه بيت الحماسة :

أَبْعَدَ الذي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكَبٍ . . .

رهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرابٍ وجَنْدَلِ

كأنه قال رَهْن رمسٍ .

والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ فإنهم لا يُرْتهنون بذنوبهم .

واختلف في تعيينهم ؛ فقال ابن عباس : الملائكة .

علي بن أبي طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم .

الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، ونحوه عن ابن جريج ؛ قال : كل نفس بعملها

محاسبة ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ وهم أهل الجنة ، فإنهم لا يحاسبون .

وكذا قال مقاتل أيضاً : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء في الجنة ولا أبالي .

وقال الحسن وابن كَيْسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين ؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم .

وعن أبي ظبيان عن ابن عباس قال : هم المسلمون .

وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان .

وقيل : هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم .

وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهلَ البيت فهم المرتهنون .

وقال الحكم : هم الذين اختارهم الله لخدمته ، فلم يدخلوا في الرهن ، لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم .

وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر ، إلا من اعتمد على الفضل والرحمة ، دون الكسب والخدمة ، فكل من اعتمد على الكسب فهو مرهون ، وكل من اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به .

﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أي في بساتين ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يسألون ﴿ عَنِ المجرمين ﴾ أي المشركين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أي أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ كما تقول : سلكت الخيط في كذا أي أدخلته فيه .

قال الكلبيّ : فيَسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يا فلان وفي قراءة عبد الله بن الزبير "يا فلانُ ما سَلَكَكَ فِي سَقَرَ" ؟ وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب "يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ" وهي قراءة على التفسير ، لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنباري .

وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ .

قال الفراء : في هذا ما يقوي أن أصحاب اليَمِينِ الوِلدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب .

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني أهل النار ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ أي المؤمنين الذين يصلون .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ أي لم نك نتصدق .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَآئضين ﴾ أي كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم .

وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قولهم لعنهم الله كاهن ، مجنون ، شاعر ، ساحر .

وقال السّديّ : أي وكنا نكّذب مع المكّذبين .

وقال قتادة : كلما غوَى غاوٍ غوَينا معه .

وقيل معناه : وكنا أتباعاً ولم نكن متبوعين .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي لم نك نصدّق بيوم القيامة ، يوم الجزاء والحكم .

قوله تعالى : ﴿ حتى أَتَانَا اليقين ﴾ أي جاءنا ونزل بنا الموت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين ؛ وذلك أن قوماً من أهل التوحيد عُذّبوا بذنوبهم ، ثم شُفِعَ فيهم ، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة ، فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم .

(88/791)

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسلم رابع أربعة : جبريل ، ثم إبراهيم ، ثم موسى أو عيسى ، ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم الملائكة ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ويبقى قوم في جهنم ، فيقال لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ

شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ قال عبد الله ابن مسعود : فهؤلاء هم الذين يبقَون في جهنم ؛ وقد ذكرنا إسناده في كتاب "التذكرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(89/791)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أصحاب النار ﴾

أيْ المدبرينَ لأمرِها القائمينَ بتعذيبِ أهلِها ﴿ إِلاَّ ملائكة ﴾ ليخالفُوا جنسَ المعذبينَ فلا يَرِقّوا لهُم ولاَ يستروحُوا إليهمْ ولأنهُم أَقْوى الخلقِ وأقومُهُم بحقّ الله عزَّ وجلَّ وبالغضبِ له تعالى وأشدُّهم بأساً . عنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لأحدِهم مثلُ قوةِ الثقلينِ يسوقُ أحدُهم الأمةَ وعلى رقبتِه جبلٌ فيرمِي بهم في النارِ ويرمِي بالجبلِ عليهم " ورُوي أنه لما نزلَ عليها تسعةَ عشرَ قال أبو جهلٍ لقريشٍ أيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكم أنْ يبطشُوا برجلٍ منهم فقالَ أبو الاشدّ بنُ أسيدِ بْنِ كِلْدةَ الجُمَحيُّ وكان شديدَ البطشِ أنا أكفيكُم سبعةَ عشرَ فاكفونِي أنتُم اثنينِ فنزلتْ أيْ ما جعلناهُم رجالاً منْ جنسِكم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي ما جعلنا عددَهُم إلا العددَ الذي تسببَ لافتتانِهم وهو التسعةَ عشرَ فعبرَ بالأثرِ عن المؤثر تنبيهاً على التلازم بينهما وليس المرادُ مجردَ جعلِ عددِهم ذلكَ العددَ المعينَ

في نفسِ الأمرِ بلْ جعلَه في القرآنِ أيضاً كذلكَ وهو الحكمُ بأنَّ عليها تسعةَ عشرَ ، إذْ بذلكَ يتحققُ افتتانُهم باستقلالِهم له واستبعادِهم لتولي هذا العددِ القليلِ لتعذيبِ أكثرِ الثقلينِ واستهزائِهم بهِ حسبما ذكرَ وعليهِ يدورُ ما سيأتي من استيقانِ أهلِ الكتابِ وازديادِ المؤمنينَ إيماناً قالُوا المخصصُ لهذا العددِ أنَّ اختلافَ النفوسِ البشريةِ في النظرِ والعملِ بسببِ القُوى الحيوانيةِ الاثنتي عشرةَ والطبيعيةِ السبعِ أو أن جهنَم سبعُ دركاتَ ستٌ منها لأصنافِ الكفرةِ كلُّ صنفٍ يعذبُ بتركِ الاعتقادِ والاقرارِ والعملِ أنواعاً من العذابِ يناسبُها وعلى كلِّ نوعٍ ملكٌ أو صنفٌ أوْ صفٌّ يتولاهُ ، وواحدةٌ لعُصاةِ الأمةِ يعذبونَ فيها بتركِ العملِ نوعاً يناسبُه ويتولاّه واحدٌ أو أنَّ الساعاتِ أربعٌ وعشرونَ خمسةٌ منها مصروفةٌ للصلواتِ الخمسِ

(90/791)

فيبقى تسعةَ عشرَ قد تصرفُ إلى ما يؤاخذُ به بأنواعِ العذابِ يتولاَّها الزبانيةُ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ متعلقٌ بالجعل على المَعْنى المذكورِ أيْ ليكتسبُوا اليقينَ بنبوتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وصدقِ القرآنِ لما شاهدُوا ما فيه موافقاً لما في كتابِهم ﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إيمانا ﴾ أيْ يزدادُ إيمانُهم كيفيةً بما رأَوا من تسليمِ أهلِ الكتابِ وتصديقِهم أنه كذلكَ

أو كمية بانضمامِ إيمانِهم بذلكَ إلى إيمانِهم بسائرِ ما أنزلَ ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ تأكيدٌ لما قبله منَ الاستيقانِ وإزديادِ الإيمانِ ونفيٌ لما قد يعتري المستيقنَ من شبهةٍ ما وإنما لم يُنظمِ المؤمنونَ في سلكِ أهلِ الكتابِ في نفي الارتيابِ حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالاً فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتابِ مقارنٌ لما ينافيهِ من الجحود ، ومن المؤمنينَ مقارنٌ لما يقتضيه من الإيمان وكم بينهما والتعبيرُ عنهم باسم الفاعلِ بعد ذكرِهم بالموصول والصلةِ الفعليةِ المنبئةِ عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعدَ ازديادِه ورسوخِهم في ذلك ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شكٌّ أو نفاقٌ فيكونُ إخباراً بما سيكونُ في المدينةِ بعد الهجرةِ ﴿ والكافرون ﴾ المُصرّون على التكذيبِ ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ أرادَ بهذا العددِ المستغربِ استغرابَ المثلِ وقيلَ : لما استبعدُوه حسبُوا أنه مثلٌ مضروبٌ وإفرادُ قولِهم هذا بالتعليلِ مع كونِه من باب فتنتِهم للإشعارِ باستقلالِه في الشناعةِ ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ ذلكَ إشارةٌ إلى ما قبلَهُ من مَعْنى الإضلالِ والهدايةِ ومحلُّ الكافِ في الأصلِ النصبُ على أنها صفةٌ محذوفٍ وأصلُ التقديرِ يضلُّ الله منْ يشاءُ ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ إضلالاً وهدايةً كائنينِ مثلَ ما ذكرَ من

الإضلالِ والهدايةِ فحذفَ المصدرُ وأقيمَ وصفُه مقامَه ثم قدمَ على الفعلِ لإفادةِ القصرِ فصارَ النظمُ مثلُ ذلكَ الإضلالِ وتلك الهدايةِ يضلُّ اللهُ منْ يشاءُ إضلالَه لصرفِ اختيارِه إلى جانبِ الضلالِ عندَ مشاهدتِه لآياتِ اللهِ الناطقة بالحق ويهدي من يشاء هدايته لصرف اختياره عن مشاهدة تلكَ الآياتِ إلى جانبِ الهُدى لا إضلالاً وهدايةً أدنى منهما .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ أيْ جموعَ خلقهِ التي من جُمْلتِها الملائكةُ المذكورونَ ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ إذْ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حصر الممكناتِ والوقوفِ على حقائقِها وصفاتِها ولوْ إجمالاً فضلاً عن الاطلاع على تفاصيل أحوالِها من كمٍ وكيفٍ ونسبةٍ ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي سقرُ أو عدةُ خزنتِها والآياتُ الناطقةُ بأحوالِها ﴿ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ إلا تذكرةً لهم .

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لمن أنكرهَا أو إنكارٌ ونفيٌ لأن يكونَ لهم تذكرٌ ﴿ والقمر * والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وقُرِئَ إذْ دَبَر بمعنى أدبرَ كقَبِلَ بمَعْنى أَقْبَلَ ومنْهُ قولِهم صارُوا كأمسِ الدابرِ قيل : هُو من دَبِرَ الليلُ النهارَ إذا خلفَهُ ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي أضاءَ وانكشفَ ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ جوابٌ للقسمِ أوْ تعليلٌ لكَلاَّ والقسمُ معترضٌ للتوكيدِ ، والكُبَرَ جمعُ الكُبْرى جعلتْ ألفُ التأنيثِ كتائِها فكَما جُمعتْ فُعْلَة على فُعَلٍ جُمعتْ فُعْلَى عَليها ونظيرُها القواصعُ في جمعِ القاصِعاءِ كأنها جمعُ قاصعةٍ أي لإِحْدى البَلايا أو لإِحْدَى

الدَّواهِي الكُبَرَ على مَعْنى أنَّ البلايا الكبرَ أو الدواهِيَ الكبرَ كثيرةٌ وهذهِ واحدةٌ في العظمِ لانظيرةَ لها .

(92/791)

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ تمييزٌ لإحدى الكبرِ إنذاراً أو حالٌ مما دلتْ عليهِ الجملةُ أي كبرتْ منذرةً وقُرِىءَ نذيرٌ بالرفعِ على أنه خبرٌ بعدَ خبرٍ لأنَّ أو لمبتدأٍ محذوفٍ ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ بدلٌ من للبشر أي نذيراً لمن شاءَ منكم أن يسبقَ إلى الخيرِ فيهديَه الله تعالى أو لم يشأْ ذلكَ فيضلَّه ، وقيلَ : لمن شاء خبرٌ وأنْ يتقدمَ أو يتأخرَ مبتدأٌ فيكونُ في معنى قوله تعالى فمنْ شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فليكفرُ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرهونةٌ عندَ الله تعالى بكسبِها والرهينةُ اسمٌ بمعْنى الرهنِ كالشتيمةِ بمعنى الشتمِ لا صفةٌ وإلا لقيلَ رهينٌ لأن فعيلاً بمعنى مفعولٍ لا يدخلُه التاءُ ﴿ إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ فإنهم فاكُّون رقابَهم بما أحسنُوا من أعمالِهم كما يفكُّ الراهنُ رهنَهُ بأداءِ الدينِ وقيلَ : هم الملائكةُ وقيل : الأطفالُ وقيل : هم الذين سبقتْ لهم من الله تعالى الحُسنى وقيلَ : الذين كانُوا عن يمينِ آدمَ عليه السلامُ يومَ الميثاقِ وقيل : الذين يُعطون كتُبَهم بأيمانِهم ﴿ فِى جنات ﴾ لا يُكتنه كُنُهَها ولا يُدرك وصفُها وهو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ والجملةُ استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ نشأَ مما

قبَلُه من استثناء أصحابِ اليمين كأنه قيلَ : ما بالُهم فقيلَ هم في جناتٍ وقيل : حالٌ من أصحاب اليمين وقيل : من ضميرهم في قوله تعالى ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ وقيل : ظرفٌ للتساؤل وليس المرادُ بتساؤلهم أنْ يسألَ بعضُهم بعضاً على أنْ يكون كلُّ واحدٍ منهم سائلاً ومسؤولاً معاً بلْ صدورُ السؤالِ عنْهم مجرداً عن وقوعه عليهم فإن صيغةَ التفاعلِ وإن وضعتْ في الأصل للدلالةِ على صدورِ الفعلِ عن المتعددِ ووقوعهِ عليه معاً بحيثُ يصير كلُّ واحدٍ من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً كما في قولكَ تراءى القومُ أيْ رأى كلُّ واحدٍ منهم الآخرَ لكنها قد تجردُ عن المَعْنى الثانِي ويقصد

(93/791)

بها الدلالةُ على الأولِ فقط فيذكرُ للفعلِ حينئذٍ مفعولُ كما في قولِك تراءوا الهلالَ فمعنى يتساءلونَ ﴿ عَنِ المجرمين ﴾ يسألونُهم عن أحوالِهم وقد حُذف المسؤولُ لكونه عينَ المسؤولِ عنه وقولُه تعالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ مقدرٌ بقولٍ هو حالٌ من فاعل يتساءلونَ أيْ يسألونَهم قائلينَ أيُّ شيءٍ أدخلكُم فيَها فتأملْ ودعْ عنكَ ما تكلفَ فيهِ المتكلفونَ .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي المجرمونَ مجيبينَ للسائلينَ ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ للصلواتِ الواجبةِ ﴿

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ على مَعْنى اسمترارِ نفي الإطعامِ لا على نفي استمرارِ الإطعامِ كما مرَّ مِراراً وفيه دلالةٌ على أنَّ الكفارَ مخاطبونَ بالفروعِ في حقِّ المؤاخذةِ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ أي نشرعُ في الباطل مع الشارعينَ فيه ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بيوم الجزاءِ أضافُوه إلى الجزاء مع أن فيه من الدواهِي والأهوال ما لا غايةَ لهُ لأنه أدهاهَا وأهولُها وأنهم ملابُسوه وقد مضتْ بقيةُ الدواهِي وتأخيرُ جنايتِهم هذهِ معَ كونِها أعظمَ منَ الكُلِّ لتفخيمِها كأنهم قالُوا وكنا بعد ذلكَ كلِّه مكذبينَ بيومِ الدينِ ولبيانِ كونِ تكذيبِهم به مقارناً لسائرِ جناياتِهم المعدودةِ مستمراً إلى آخرِ عمرِهم حسبَما نطقَ به قولُهم ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ أي الموتُ ومقدماتُه ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ لو شفعُوا لهم جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(94/791)

وقال الآلوسى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

مرهونة عند الله تعالى بكسبها والرهينة مصدر بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم لا صفة وإلا لقيل رهين لأن فعيلاً بمعنى مفعول لا يدخله التاء ويستوي فيه المذكر والمؤنث

ومنه قول عبد الرحمن بن زيد وقد قتل أبوه وعرض عليه سبع ديات فأبى أن يأخذها .

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب . . .

رهينة رمس ذي تراب وجندل

أذكر بالبقيا على من أصابني . . .

وبقياي أني جاهد غير مؤتل

واختير على رهين مع موازنته ﴿ لليمين ﴾ وعدم احتياجه للتأويل لأن المصدر هنا أبلغ فهو أنسب بالمقام فلا يلتفت للمناسبة اللفظية فيه وقيل الهاء في رهينة للمبالغة واختار أبو حيان أنها مما غلب عليه الاسمية كالنطيحة وإن كانت في الأصل فعيلاً بمعنى مفعول وهو وجه أيضاً وادعى أن التأنيث في البيت على معنى النفس .

(95/791)

﴿ إِلاَّ أصحاب اليمين ﴾ وهم المسلمون المخلصون كما قال الحسن وابن كيسان والضحاك ورواه ابن المنذر عن ابن عباس فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الراهن رهنه بإداء الدين وأخرج ابن المنذر وابن جرير وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنهم أطفال المسلمين وأخرجوه أيضاً عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ونقل

بعضهم عن ابن عباس أنهم الملائكة فإنهم غير مرهونين بديون التكاليف كالأطفال وتعقب بأن إطلاق النفس على الملك غير معروف وبأنهم لا يوصفون بالكسب أيضاً على أن الظاهر سباقاً وسياقاً أن يراد بهم طائفة من البشر المكلفين والكثير على تفسيرهم بما سمعت وقيل هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى وقيل الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يوم الميثاق وقيل الذين يعطون كتبهم بايمانهم ولا تدافع بين هذه الأقوال كما لا يخفى والاستثناء على ما تقدم وكذا هذه الأقوال متصل وأما على قول الأمير كرم الله تعالى وجهه وما نقل عن ابن عمه فقال أبو حيان هو استثناء منقطع وقيل يجوز الاتصال والانقطاع بناء على أن الكسب مطلق العمل أو ما هو تكليف فلا تغفل .

(96/791)

﴿ فِي جنات ﴾ خبر مبتدأ محذوف والتنوين للتعظيم والجملة استئناف وقع جواب عن سؤال نشأ مما قبله من استثناء أصحاب اليمين كأنه قيل ما بالهم فقيل هم في جنات لا يكنه كنهها ولا يدرك وصفها وجوز أن يكون الظرف في موضع الحال من أصحاب اليمين أو من ضميرهم في قوله تعالى : ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ قدم للاعتناء مع رعاية الفاصلة وقيل ظرف للتساؤل وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضاً على أن يكون كل واحد منهم سائلاً

ومسؤلاً معاً بل وقوع السؤال منهم مجرداً عن وقوعه عليهم فإن صيغة التفاعل وإن وضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدي ووقوعه عليه معاً بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً كما في قولك تشاتم القوم أي شتم كل واحد منهم الآخر لكنها قد تجرد عن المعنى الثاني ويقصد بها الدلالة على الأول فقط ويكون الواقع عليه شيئاً آخر كما في قولك تراه والهلال قال جار الله إذا كان المتكلم مفرداً يقول دعوته وإذا كان جماعة يقول تداعيناه ونظيره رميته وترامييناه ورأيت الهلال وتراءيناه ولا يكون هذا التفاعل من الجانبين وعلى هدا فالمسؤل محذوف أعني المجرمين والتقدير يتساءلون المجرمين عنهم أي يسألون المجرمين عن أحوالهم فغير إلى ما في النظم الجليل وقيل يتساءلون .

﴿ عَنِ المجرمين ﴾ والمعنى على ذلك وحذف المسؤل لكونه غير المسؤول عنه وقوله تعالى :

(97/791)

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ بيان للتساؤل من غير حاجة إلى إضمار قول أو هو مقدر بقول وقع حالاً من فاعل يتساءلون أي يسألونهم قائلين أي شيء أدخلكم في سقر وقيل المسؤل غير المجرمين كجماعة من الملائكة عليهم السلام وما سلككم الخ حكاية قول المسؤلين عنهم

أي لما سأل أصحاب اليمين الملائكة عن حال المجرمين قالوا لهم نحن سألنا المجرمين عن ذلك وقلنا لهم ما سلككم في سقر إلى الآخر وكان يكفيهم أن يقولوا حالهم كيت وكيت لكن أتى بالجواب مفصلاً حسب ما سألوه ليكون أثبت للصدق وأدل على حقيقة الأمر ففي الكلام حذف واختصار وجوز أن تكون صيغة التفاعل على حقيقتها أي يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين وما سلككم حكاية قول المسؤل عنهم أيضاً ولا يخفى ما في اعتبار الحكاية من التكلف فليس ذاك بالوجه وإن كان الإيجاز نهج التنزيل والحذف كثيراً في كلامه تعالى الجليل والظاهر أن السؤال سؤال توبيخ وتحسير وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار ولو كانوا الأطفال فيما أظن لانكشاف الأمر ذلك اليوم وروى عبد الله بن أحمد وجماعة عن ابن الزبير أنه يقرأ يتساءلون عن المجرمين يا فلان ما سلككم ورويت عن عمر أيضاً وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ يا أيها الكفار ما سلككم في سقر .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي المجرمون مجيبين للسائلين ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ للصلاة الواجبة .

(98/791)

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ أي نعطيه ما يجب إعطاؤه والمعنى على استمرار النفي لا نفي الاستمرار واستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع العبادات لأنهم جعلوا

عذابهم لترك الصلاة فلو لم يخاطبوا بها لم يؤاخذوا وتفصيل المسألة في الأصول وتعقب هذا الاستدلال بأنه لا خلاف في المؤاخذة في الآخرة على ترك الاعتقاد فيجوز أن يكون المعنى من المعتقدين للصلاة ووجوبها فيكون العذاب على ترك الاعتقاد وأيضاً المصلين يجوز أن يكون كناية عن المؤمنين وأيضاً ذاك من كلام الكفرة فيجوز كذبهم أو خطؤهم فيه وأجيب بأن ذلك عدول عن الظاهر يأباه قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ﴾ الخ والمقصود من حكاية السؤال والجواب التحذير فلو كان الجواب كذباً أو خطأً لم يكن في ذكره فائدة .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ أي نشرع في الباطل مع الشارعين فيه والخوض في الأصل ابتداء الدخول في الماء والمرور فيه واستعماله في الشروع في الباطل من المجاز المرسل أو الاستعارة على ما قرروه في المشفر ونحوه وعن بعضهم أنه اسم غالب في الشر وأكثر ما استعمل في القرآن بما يذم الشروع فيه وأريد بالباطل ما لا ينبغي من القول والفعل وعد من ذلك حكاية ما يجري بين الزوجين في الخلوة مثلاً وحكاية أحوال الفسقة بأقسامهم على وجه الالتذاذ والاستئناس بها ونقل الحروب التي جرت بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم لغير غرض شرعي بل لمجرد أن يتوصل به إلى طعن وتنقيص والتكلم بالكلمة يضحك بها الرجل جلساءه سواء كانت مباحة في نفسها أم لا نعم التكلم بالكلمة المحرمة لذلك باطل على باطل إلى غير ذلك مما لا يحصى وكان ذكر مع الخائضين إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل ومبالاتهم به فكأنهم قالوا وكنا لا نبالي بباطل .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بيوم الجزاء أضافوه إلى الجزاء مع أن فيه من الدواهي والأهوال ما لا غاية له لأنه أدهاها وأهولها وأنهم ملابسوه وقد مضت بقية الدواهي وتأخير جنايتهم هذه مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ولبيان كون تكذيبهم به مقارناً لسائر جناياتهم المعدودة مستمراً إلى آخر عمرهم حسبما نطق به قولهم :

﴿ حتى ءاتَيْنَا اليقين ﴾ أي الموت ومقدماته كما ذهب إليه جل المفسرين وقال ابن عطية اليقين عندي صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة وقول المفسرين هو الموت متعقب عندي لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي فلم يريدوا باليقين إلا الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت انتهى وفيه نظر ثم الظاهر أن مجموع ما ذكروه سبب لدخول مجموعهم النار فلا يضر في ذلك أن من أهل النار من لم يكن وجب عليه إطعام مسكين كفقراء الكفرة المعدمين وفي "الكشاف" يحتمل الكلام أن يكون دخول كل منهم النار لمجموع الأربعة ويحتمل أن يكون دخول بعضهم لبعضها كان يكون ذلك لمجرد ترك الصلاة أو ترك الإطعام وفيه دسيسة اعتزال وهو تخليد مرتكب

الكبيرة من المؤمنين كتارك الصلاة في النار وأنت تعلم أن الآية في الكفار لا في أعم منهم .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ لو شفعوا لهم جميعاً فالكلام على الفرض واشتهر أنه من باب

: ولا ترى الضب بها ينحجر . . .

وحمل التعريف على الاستغراق أبلغ وأنسب بالمقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(100/791)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . . »

أي كل نفس مرتهنة بما كسبت ، مأخوذة بما عملت ، مجزية بالخير خيرا ، وبالسوء سوءا . .

قوله تعالى : « إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » هو مستثنى من قوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .

. فهذا حكم عام على الناس جميعا ، مؤمنين وغير مؤمنين ، حيث ترتهن كل نفس بما

عملت ، ثم يعود اللّه سبحانه وتعالى يفضله على المؤمنين ، أصحاب اليمين ، فيدخلهم الجنة . . ولو أن دخول الجنة كان مرتهنا بالأعمال ، لما دخل أحد الجنة

(101/791)

ولكن الإيمان باللّه ، والأعمال الطيبة فى ظلّ الإيمان ، من شأنه أن يجعل المؤمن أهلا لإحسان اللّه إليه ، ودعوته إلى الجنة ، يتبوأ منها حيث يشاء . .

وفى الحديث : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول اللّه ؟ .

قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته » . .

وقوله تعالى : « فِي جَنَّاتٍ » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره ، هم فى جنات .

وقوله تعالى : « يَتَسَاءَلُونَ » حال من أحوال المؤمنين فى الجنة .

وقوله تعالى : « عَنِ الْمُجْرِمِينَ » تتعلق بقوله تعالى : « يتساءلون » أي أن تساؤلهم فى تلك الحال هو تساؤل عن المجرمين ، أهل النار .

وقوله تعالى : « ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » هو مما تساءل به أهل الجنة ، عن أهل النار ، حيث اطلعوا عليهم ، فسألوهم : « ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » ؟ أي ما نظم جمعكم فيها ، وشدكم إليها ، كما يشد الخرز في سلكه ؟ .

وأهل النار ، وأهل الجنة ، يرى بعضهم بعضا ، ويحادث بعضهم بعضا . .

أصحاب النار . . يصرخون ، ويصرخون ، وأصحاب الجنة يحمدون اللّه أن عافاهم من هذا البلاء الذي يرون كثيرا من أهلهم ، وعشيرهم ، وصديقهم ، يتقلبون على جمره . .

وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه :

«وَنَادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ» (50 : الأعراف) .

(102/791)

قوله تعالى : « قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ » .

هذا هو الجواب الذي أجاب به أصحاب النار أصحاب الجنة عن تساؤلهم عنهم : « ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » ؟

إن الذي سلكهم فى سقر ، هو أنهم لم يكونوا من المصلين ، أي لم يكونوا مؤمنين ، لأنهم لو كانوا مؤمنين ، لكانوا من المصلين . . . وأنهم لم يكونوا يؤدون حق عباد اللّه فيما خولهم اللّه من نعم ، فلم يطعموا المساكين ، ولم يخرجوا زكاة أموالهم ، التي منها يطعم المسكين . . وأنهم

يخوضون مع الخائضين ، فلم يتأثّموا من منكر ، ولم يتحرجوا من فاحشة .

بل كانوا مع كل جماعة ضالة ، وعلى كل مورد آثم . . وأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ، أي يوم القيامة ، فلم يؤمنوا بالبعث ، والحساب ، والجزاء . .

هذا ، وليس من اللازم أن تكون هذه المآثم جميعها مجتمعة فى كل واحد منهم . . فقد يكون فى أهل النار من تجتمع فيه هذه المآثم كلها ، وقد يكون فيهم من تلبسّ بمأثم منها ، فيدخل النار . . وعلى هذا يمكن أن تكون إجاباتهم تلك مشاعة فيما بينهم ، كما يمكن أن يكون لكل أهل مأثم جوابهم الذي كشفوا به عن دخولهم النار بسببه . .

وعلى أىّ فإن أىّ مأثم من تلك المآثم يخرج صاحبه من عداد المؤمنين ، ويضيفه إلى جماعة المجرمين . . والمجرم ، هو الكافر ، كما يقول سبحانه :

(103/791)

« إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى » (74 : طه) . .

قوله تعالى : «حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ» . إشارة إلى أنهم ظلموا متلبسين فى حياتهم بهذه المآثم حتى أتاهم اليقين ، وهو الموت ، فماتوا على ما هم عليه من ضلال . .

فلم تختم أعمالهم بالتوبة والعمل الصالح . .

وسمّى الموت يقينا ، لأنه عند الموت يعاين المحتضر حقيقة ما كان يكذب به ، من أمور الحياة الآخرة . . ومنه قوله تعالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » (99 : الحجر) . .

روى أن أم العلاء الأنصارية ، قالت : « لمّا قدم المهاجرون المدينة ، اقترعت الأنصار على سكناهم ، فصار لنا من المهاجرين ، « عثمان بن مظعون » فى السكنى ، فمرض ، ثم توفّى ، فجاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فدخل ، فقلت : « رحمة اللّه عليك أبا السائب ، فشهادتى أن قد أكرمك اللّه ! فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « وما يدريك أن اللّه قد أكرمه ؟ » فقلت : لا ، واللّه ما أدرى ! ! فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، واللّه ما أدرى وأنا رسول اللّه ما يفعل بي ولا بكم » ! فقول الرسول الكريم : « أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، يشير إلى أن عثمان بن مظعون ، هو الذي يعرف المصير الذي صار إليه ، بعد أن مات ، وكشف عن عينيه الغطاء . . فالموت هو الذي جاء بالخبر اليقين ، ولهذا

(104/791)

سمى الموت باليقين ، لأنه يرد بالإنسان مورد الحق . .

قوله تعالى : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

. هو تعقيب على ما ذكر المجرمون من جرائمهم التي ألقت بهم فى جهنم . . وهذا التعقيب هو من أصحاب الجنة الذين سألوهم ، وتلقوا منهم جواب ما سألوا عنه ، فكان تعقيبهم على هذا بقولهم :

«فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ» .

. فتكون الفاء هنا واقعة فى جواب شرط محذوف تقديره : « وإذن فهم كافرون ، وإذن « فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ» .

. لأن الكافرين لا شفيع لهم ، على حين أن عصاة المؤمنين يشفع لهم من الملائكة ، والنبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ممن رضى اللّه عنهم ، وارتضى شفاعتهم فيمن يشفعون لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1302 .

1306 ﴾

(105/791)

وقال ابن عاشور :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) ﴾

استئناف بياني يبين للسامع عقبى الاختيار الذي في قوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو

يتأخر ﴾ [المدثر : 37] أي كل إنسان رَهْن بما كسب من التقدم أو التأخر أو غير ذلك فهو على نفسه بصيرة ليكسب ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم .

و﴿ رهينة ﴾ : خبر عن ﴿ كل نفس ﴾ وهو بمعنى مرهونة .

والرهن : الوثاق والحبس ومنه الرهن في الدَّين ، وقد يطلق على الملازمة والمقارنة ، ومنه : فَرَسا رِهَانٍ ، وكِلا المعنيين يصح الحمل عليه هنا على اختلاف الحال ، وإنما يكون الرهن لتحقيق المطالبة بحق يخشى أن يتفلت منه المحْقوق به ، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدة ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضماناً لئلا يخيس القومُ بشروط الصلح وحتى يعطوا ديات القتلى فيكون الانتقام من الرهائن .

وبهذا يكون قوله : ﴿ كل نفس ﴾ مراداً به خصوص أنفس المنذَرين من البشر فهو من العام المراد به الخصوص بالقرينة ، أي قرينة ما تعطيه مادة رَهينة من معنى الحَبس والأسر .

والباء للمصاحبة لا للسببية .

وظاهر هذا أنه كلام منصف وليس بخصوص تهديدِ أهل الشر .

و﴿ رهينة ﴾ : مصدر بوزن فَعِيلة كالشَّتيمة فهو من المصادر المقترنة بهاء كهاء التأنيث مثل الفُعولة والفعالة ، وليس هو من باب فعيل الذي هو وصف بمعنى المفعول مثيل قتيلة ، إذ لو قصد الوصف لقيل رعين لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوفه كما هنا ، والإِخبار بالمصدر للمبالغة على حد قول مِسْوَر بن زيادة

الحارثي:

أَبَعْدَ الذي بالنَّعْففِ نَعْففِ كُوَيكِبٍ . . .

رهينةِ رَمْس ذي تراب وجندل

ألا تراه أثبت الهاء في صفة المذكر وإلاّ لما كان موجب للتأنيث .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاّ أصحابَ اليمين ﴾ استثناء منقطع .

(106/791)

و ﴿ أصحاب اليمين ﴾ : هم أهل الخير جعلت علاماتهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصحف وفي موقف الحساب وغير ذلك .

فاليمين هو جهة أهل الكرامة في الاعتبار كجهة يمين العرش أو يمين مَكان القُدُس يوم الحشر لا يحيط بها وصفنا وجعلت علامة أهل الشر الشمال في تناول صحف أعمالهم وفي مواقفهم وغير ذلك .

وقوله : ﴿ في جنّات ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ يتساءلون ﴾ قدّم للاهتمام ، و ﴿ يتساءلون ﴾ حال من ﴿ أصحاب اليمين ﴾ وهو مناط التفصيل الذي جيء لأجله بالاستثناء المنقطع .

ويجوز أن يكون ﴿ في جنات ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم في جنات .

والجملة استئناف بياني لمضمون جملة الاستثناء ويَكون ﴿ يتساءَلون ﴾ حالاً من الضمير المحذوف .

ومعنى ﴿ يتساءلون ﴾ يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التفاعل للدلالة على صدور الفعل من جانبين ، أي يسأل أصحاب اليمين بعضُهم بعضاً عن شأن المجرمين ، وتكون جملة ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ بياناً لجملة ﴿ يتساءلون .

﴾ وضمير الخطاب في قوله : ﴿ سلككم ﴾ يؤذن بمحذوف والتقدير : فيسألون المجرمين ما سلككم في سقر ، وليس التفاتاً ، أو يقول بعض المسؤولين لأصحابهم جواباً لسائليهم قلنا لهم : ما سلككم في سقر .

ويجوز أن يكون صيغة التفاعل مستعملة في معنى تكرير الفعل أي يكثر سؤال كل أحد منهم سؤالاً متكرراً أو هو من تعدد السؤال لأجل تعدد السائلين .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تسَّاءَلون به ﴾ في أول سورة النساء (1) هو كقولك تَداعينا .

ونقل عنه أيضاً أنه قال هنا : إذا كان المتكلم مفرداً يقال : دعوت ، وإذا كان المتكلم متعدّداً يقال : تداعينا ، ونظيره ، رميتُه وترامينا ورأيت الهلال وتَراءيناه ولا يكون هذا تفاعلاً من الجانبين أ هـ .

ذكره صاحب الكشّاف ﴾ في سورة النساء ، أي هو فعل من جانب واحد ذي عدد كثير ، وعلى هذا يكون مفعول ﴿ يتساءَلون ﴾ محذوفاً يدلّ عليه قوله ﴿ عن المجومين ﴾ .

(107/791)

والتقدير : يتساءلون المجرمين عنهم ، أي عن سبب حصولهم في سقر ، ويدل عليه بيان جملة ﴿ يتساءلون ﴾ بجملة ﴿ ما سلككم في سقر ، ﴾ فإن ﴿ ما سلككم ﴾ في بيان للتساؤل .

وأصل معنى سلكه أدخله بين أجزاء شيء حقيقة ومنه جاء سِلْك العِقد ، واستعير هنا للزج بهم ، وتقدم في سورة الحجر (12) قوله تعالى : ﴿ كذلك نَسْلُكُهُ في قلوب المجرمين ﴾ وفي قوله : ﴿ نُسْلِكْه عذاباً صعداً ﴾ في سورة الجن (17) .

والمعنى : ما زجَّ بكم في سقر .

فإن كان السؤال على حقيقته والاستفهام مستعملاً في أصل معناه كان الباعث على السؤال:

إمَّا نسيان الذي كانوا عَلِموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب فيبقى عموم يتساءلون ﴾ الراجع إلى أصحاب اليمين وعموم المجرمين على ظاهره ، فكل من أصحاب اليمين

يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم وذلك إلهام من الله ليحمده أهل الجنّة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهم ممّا أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك .

وإما أن يكون سؤالاً موجهاً من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يَظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم ، فيكون المراد بأصحابه اليمين بعضهم وبالمجرمين بعضهم وهذا مثل ما في قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ الآيات في سورة الصافات (27 ، 28) وقوله فيها : ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ إلى قوله ﴿ في سواء الجحيم ﴾ [الصافات : 51 55] .

وإن كان السؤال ليس على حقيقته وكان الاستفهام مستعملاً في التنديم ، أو التوبيخ فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته .

وأجاب المجرمون بذكر أسباب الزج بهم في النار لأنهم ما ظنوا إلاّ ظاهر الاستفهام ، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي : أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله .

وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال .

وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذي لا يعدُو عن تأييد الشرك وأذى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وأنهم كذبوا بالجزاء فلم يتطلبوا ما ينجيهم .

وهذا كناية عن عدم إيمانهم ، سلكوا بها طريق الإِطناب المناسبَ لمقام التحسر والتلهف على ما فات ، فكأنهم قالوا : لأنا لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإِيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة ، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين ويصدقون الرسل وقد جمعها قوله تعالى في سورة البقرة (42) ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾

وأصل الخوض الدخول في الماء ، ويستعار كثيراً للمحادثة المتكررة ، وقد اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال واللجاج غير المحمود قال تعالى : ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ [الأنعام : 91] وغيرَ ذلك ، وقد جمع الإِطلاقين قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [الأنعام : 68] .

وباعتبار مجموع الأسباب الأربعة في جوابهم فضلاً عن معنى الكناية ، لم يكن في الآية ما يدل للقائلين بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة .

ويوم الدين : يوم الجزاء والجزاء .

و﴿ اليقين ﴾ : اسم مصدر يَقِن كفَرِح ، إذا علم علماً لا شك معه ولا تردد .

وإتيانه مستعار لحصوله بعد أن لم يكن حاصلاً ، شبه الحُصول بعد الانتفاء بالمجيء بعد المغيب .

والمعنى : حتى حصل لنا العلم بأن ما كنا نكذب به ثابت ، فقوله : ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ على هذا الوجه غاية لجملة ﴿ نكذب بيوم الدين .

ويطلق اليقين أيضاً على الموت لأنه معلوم حصوله لكل حيّ فيجوز أن يكون مراداً هنا كما في قوله تعالى : ﴿ واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 99] .

(109/791)

فتكون جملة ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ غاية للجمل الأربع التي قبلها من قوله : ﴿ لم نَكُ من المصلين ﴾ إلى ﴿ بيوم الدين .

والمعنى : كنا نفعل ذلك مدة حياتنا كلها .

وفي الأفعال المضارعة في قوله : لم نك ، ونخوض ، ونكذب ﴾ إيذان بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم .

وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظّاً من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته ، وظواهره وسرائره ، وقبل الشفاعة وبعدها .

وقد حَرَم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعةُ المؤمنين على أقدارهم .

وفي قوله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ إيماء إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على الجملة وتفصيلها في صحاح الأخبار .

وفاء ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ تفريع على قوله : ﴿ كلّ نفس بما كسبت رهينة ، ﴾ أي فهم دائمون في الارتهان في سقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(110/791)

قوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا الإخبار بنعيم المنعم وعذاب المعذب موجباً للتذكر ، سبب عنه الإنكار عليهم فقال : ﴿ فما ﴾ أي أيّ شيء يكون ﴿ لهم ﴾ حال كونهم ﴿ عن التذكرة ﴾ أي التذكر العظيم خاصة بالقرآن خصوصاً وبغيره عموماً ﴿ معرضين ﴾ وعلى الباطل وحده مقبلين ، وذلك من أعجب العجب ، لأن طبع الإنسان إذا حذر من شيء حذره أشد الحذر كما لو حذر المسافر من سبع في طريقه فإنه يبذل جهده في الحيدة عنه والحذر منه وإن كان المخبر كاذباً ، فكيف يعرضون عن هذا المحذور الأعظم والمخبر أصدق الصادقين ، فإعراضهم هذا دليل على اختلال عقولهم واختبال فهومهم ، وزاد ذلك عجباً شدة نفارهم حتى ﴿ كأنهم ﴾ في إعراضهم عن التذكرة من شدة النفرة والإسراع في الفرة ﴿ حمر ﴾ أي من حمر الوحش وهي أشد الأشياء نفاراً ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل بسرعة السير بالحمر في عدوها إذا وردت ماء فأحست عليه ما

يريبها ، وفي تشبيه الكفرة بالحمر ولا سيما في هذه الحالة مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين ، وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل وعدم التثبت ﴿ مستنفرة ﴾ أي موجدة للنفار بغاية الرغبة فيه حتى كأنها تطلبه من أنفسها لأنه من شأنها وطبعها - هذا على قراءة الجماعة ، وقرأ أهل المدينة والشام بالفتح بمعنى أنه نفرها منفر .

ولما كان ذلك لا يكون إلا لسبب عظيم يتشوف إليه ، استأنف قوله : ﴿ فرت من قسورة ﴾ أي أسد شديد القسر عظيم القهر فنشبت في حبائل سقر أو صيادين .

(111/791)

ولما كان الجواب قطعاً : لا شيء لهم في إعراضهم هذا ، أضرب عنه بقوله : ﴿ بل يريد ﴾ أي على دعواهم وبزعمهم ﴿ كل امرىء منهم ﴾ أي المعرضين ، مع ادعائه الكمال في المروءة ﴿ أن يؤتى ﴾ أي من السماء بناه للمفعول لأن مرادهم معروف ﴿ صحفاً ﴾ أي قراطيس مكتوبة ﴿ منشرة ﴾ أي كثيرة جداً وكل واحد منها منشور لا مانع من قراءته وأخذه ، وذلك أنهم قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لن نتبعك حتى تأتي كلاًّ منا بكتاب من السماء فيه : من الله إلى فلان اتبع محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان ذلك إنما هو تعنت ، لا أنه على حقيقته قال : ﴿ كلا ﴾ أي ليس لهم غرض في

الاتباع بوجه من الوجوه لا بهذا الشرط ولا بغيره : ﴿ بل ﴾ علتهم الحقيقية في هذا الإعراض أنهم ﴿ لا يخافون ﴾ أي في زمن من الأزمان ﴿ الآخرة ﴾ ولما كان فعلهم هذا فعل من يعتقد في القرآن أنه ليس بوعظ صحيح يستحق أن يتبع ، قال رادعاً لهم عن هذا اللازم : ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر قطعاً كما تزعمون من أن هذا القرآن لا يستحق الإقبال ، ثم أستأنف قوله مؤكداً لأجل ما تضمن هذا الفعل من إنكارهم : ﴿ إنه ﴾ أي القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي موضع وعظ عظيم يوجب إيجاباً عظيماً اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه فليس لأحد أن يقول : أنا معذور لأني لم أجد مذكراً ولا معرفاً فإن عنده أعظم مذكر وأشرف مفرق .

(112/791)

ولما كان في غاية السهولة والحلاوة لكل من عرفه بوجه من الوجوه ، وكان الله سبحانه قد خلق القوى والقدر ، وجعل للعبد اختياراً ، قال مسبباً عن كونه موضعاً للتذكر : ﴿ فمن شاء ﴾ أي أن يذكره ﴿ ذكره ﴾ فثبت في صدره وعلم معناه وتخلق به ، فليس أحد يقدر أن يقول : إنه صعب التركيب عظيم التعقيد عسر الفهم ، يحتاج في استخراج المعاني منه إلى علاج كبير وممارسة طويلة فأنا معذور في الوقوف عنه ، بل هو كالبحر الفرات ، من شاء

اغترف ، لأنه خوطب به أمة أمية لا ممارسة لها لشيء من العلوم ، فسهل في لفظه ومعناه غاية السهولة مع أنه لا يوصل إلى قراره ولا يطمع في مناظرة أثر من آثاره ، بل كلما زاد الإنسان فيه تأملاً زاده معاني .

ولما كان هذا ربما أوهم أن للعبد استقلالاً بالتصرف ، قال معلماً بأن هذا إنما هو كناية عما له من السهولة والحلاوة والعذوبة التي توجب عشقه لكل ذي لب منبهاً على ترك الإعجاب وإظهار الذل والالتجاء والافتقار إلى العزيز الغفار في طلب التوفيق لأقوم طريق : ﴿ وما يذكرون ﴾ أي ولا واحد منكم هذا القرآن ولا غيره في وقت من الأوقات ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ، وهو صريح في أن فعل العبد من المشيئة ، وما ينشأ عنها إنما هو بمشيئة الله .

(113/791)

ولما ثبت أنه سبحانه الفعال لما يريد وأنه لا فعل لغيره بدون مشيئته ، وكان من المعلوم أن أكثر أفعال العباد مما لا يرضيه ، فلولا حلمه ما قدروا على ذلك ، وكان عفو القادر مستحسناً ، قال مبيناً لأنه أهل للرهبة والرغبة : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أهل التقوى ﴾ أي أن يتقوه عباده ويحذروا غضبه بكل ما تصل قدرتهم إليه لما له من الجلال والعظمة

والقهر ، ويجوز أن يكون الضمير للمتقي ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي لأن يطلب غفرانه للذنوب لا سيما إذا اتقاه المذنب لأن له الجمال واللطف وهو قادر ولا قدرة لغيره ولا ينفعه شيء ولا يضره شيء ، فهو الحقيق بأن يجعل موضع الإنذار الذي أمر به أول السورة البشارة ، ويوفق عباده لتكبيره وهجران الرجز ، وكذا فعل سبحانه بقوم هذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني في الأوسط والحاكم وأبو يعلى والبغوي والبزار عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أنه قرأ هذه الآية ثم قال : يقول الله : أنا أهل أن أتقي ، فمن اتقى أن يشرك بي غيري فأن أهل أن أغفر له " وقال الترمذي وابن عدي والطبراني : تفرد به سهل بن أبي حزم القطعي ، فقد رجع آخر السورة على أولها ، وانطبق مفصلها على موصلها ، بضم البشارة إلى النذارة ، وصار كأنه قيل : أنذر العاصي فإنه أهل لأن يرجع إلى طاعاته ، فيكون سبحانه أهلاً لأن يعود عليه بستر زلاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 238 . 240 ﴾

(114/791)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) ﴾

أي عن الذكر وهو العظة يريد القرآن أو غيره من المواعظ ، ومعرضين نصب على الحال كقولهم مالك قائماً .

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بحمر نافرة

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

قال ابن عباس : يريد الحمر الوحشية ، ومستنفرة أي نافرة .

يقال : نفر واستنفر مثل سخر ، واستسخر ، وعجب واستعجب ، وقرىء بالفتح ، وهي المنفرة المحمولة على النفار ، قال أبو علي الفارسي : الكسر في مستنفرة أولى ألا ترى أنه قال : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ وهذا يدل على أنها هي استنفرت ، ويدل على صحة ما قال أبو علي أن محمد بن سلام .

قال : سألت أبا سوار الغنوي ، وكان أعرابياً فصيحاً ، فقلت : كأنهم حمر ماذا ؟ فقال : مستنفرة طردها قسورة ، قلت : إنما هو فرت من قسورة ، قال أفرت ؟ قلت : نعم ، قال فمستنفرة إذا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَرَّتْ ﴾ يعني الحمر ﴿ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ .

وذكروا في القسورة وجوهاً أحدها : أنها الأسد يقال : ليوث قساور ، وهي فعولة من القسر وهو القهر ، والغلبة سمي بذلك لأنه يقهر السباع ، قال ابن عباس : الحمر الوحشية

إذا عاينت الأسد هربت كذلك هؤلاء المشركين إذا رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم هربوا منه ، كما يهرب الحمار من الأسد ، ثم قال ابن عباس : القسورة ، هي الأسد بلسان الحبشة ، وخالف عكرمة فقال : الأسد بلسان الحبشة ، عنبسة وثانيها : القسورة ، جماعة الرماة الذين يتصيدونها ، قال الأزهري : هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه وثالثها : القسورة : ركز الناس وأصواتهم ورابعها : أنها ظلمة الليل .

قال صاحب "الكشاف" : وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، وإطرادها في العدو إذا خافت من شيء .

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52)

(115/791)

أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، ونؤمر فيه باتباعك ، ونظيره ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَءُهُ ﴾ [الإسراء : 93] وقال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 7] وقيل : إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة من النار ، وقيل : كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني

إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ، وهذا من الصحف المنشرة بمعزل ، إلا أن يراد بالصحف المنشرة ، الكتابات الظاهرة المكشوفة ، وقرأ سعيد بن جبير ﴿ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ بتخفيفهما على أن أنشر الصحف ونشرها واحد ، كأنزله ونزله .

كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53)

﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع لهم عن تلك الإرادة ، وزجر عن اقتراح الآيات .

ثم قال تعالى : ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ فلذلك أعرضوا عن التأمل ، فإنه لما حصلت المعجزات الكثيرة ، كفت في الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة يكون من باب التعنت .

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55)

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني تذكرة بليغة كافية ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي جعله نصب عينه ، فإن نفع ذلك راجع إليه ، والضمير في ﴿ إِنَّهُ ﴾ ﴿ وذكره ﴾ للتذكرة في قوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] وإنما ذكر (ت) لأنها في معنى الذكر أو القرآن .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ .

(116/791)

قالت المعتزلة : يعني إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه والجواب : أنه تعالى نفى الذكر مطلقاً ، واستثنى عنه حال المشيئة المطلقة ، فيلزم أنه متى حصلت المشيئة أن يحصل الذكر فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه لم تحصل المشيئة ، وتخصيص المشيئة بالمشيئة القهرية ترك للظاهر ، وقرىء يذكرون بالياء والتاء مخففاً ومشدداً .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا ويطيعوا وحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 186.188 ﴾

(117/791)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ﴾ أي بهذه الصفة وهذا الرّين على القلوب يضل ، ثم أخبر تعالى أنه ﴿ يهدي من يشاء ﴾ من المؤمنين لما ورد بذلك لعلمهم بالقدرة ووقوف عقولهم على كنه سلطان الله تعالى ، فهم موقنون متصورون صحة ما أخبرت به الأنبياء وكتب الله تعالى ، ثم قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ إعلاماً بأن الأمر فوق ما يتوهم وأن الخبر إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها ، والسماء كلها عامرة بأنواع من الملائكة كلهم في عبادة متصلة وخشوع دائم وطاعة لا فترة في شيء من ذلك ولا دقيقة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ قال مجاهد الضمير في قوله ﴿ وما هي ﴾ للنار المذكورة ، أي يذكرها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالى . وقال بعض الحذاق : قوله تعالى : ﴿ ما هي ﴾ ، يراد بها الحال والمخاطبة والنذارة ، قال الثعلبي : وقيل ﴿ وما هي ﴾ ، يراد نار الدنيا ، أي إن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة ، وقوله عز وجل : ﴿ كلا ﴾ رد على الكافرين وأنواع الطاغين على الحق ، ثم أقسم ب ﴿ القمر ﴾ ، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه وقدرة الله تعالى في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل ، وكذلك هو القسم ب ﴿ الليل ﴾ وب ﴿ الصبح ﴾ ، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إلى الله تعالى مالك الكل وقوام

الوجود ونور السماء والأرض ، لا إله إلا هو العزيز القهار . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر عن عاصم : " إذ أدَبَر " بفتح الدال والباء ، وهي قراءة ابن عباس وابن المسيب وابن الزبير ومجاهد وعطاء ويحيى بن يعمر وأبي جعفر وشيبة وأبي الزناد وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة . وقرأ نافع وحمزة وحفص عن عاصم ، " إذا أدْبر " بسكون الدال وبفعل رباعي ، وهي قراءة سعيد بن جبير وأبي عبد الرحمن والحسن بخلاف عنهم والأعرج وأبي شيخ وابن محيصن وابن سيرين ، قال يونس بن حبيب :

(118/791)

" دبر " معناه انقضى و " أدبر " معناه تولى . وفي مصحف ابن مسعود وأبيّ بن كعب " إذ أدَبر " بفتح الدال وألف وبفعل رباعي وهي قراءة الحسن وأبي رزين وأبي رجاء ويحيى بن يعمر . وسأل مجاهد ابن عباس عن دبر الليل فتركه حتى إذا سمع المنادي الأول للصبح قال له : يا مجاهد ، هذا حين دبر الليل ، وقال قتادة : دبر الليل ولى . قال الشاعر [الأصمعي] : [الكامل]

وأبي الذي ترك الملوك وجمعهم . . . بهضاب هامدة كأمس الدابر

والعرب تقول في كلامها كأمس المدبر ، قال أبو علي الفارسي : فالقراءتان جميعاً حسنتان و" أسفر الصبح " أضاء وانتشر ضوءه قبل طلوع الشمس بكثير والإسفار رتب أول ووسط وآخر ، ومن هذه اللفظة السَّفر ، والسفر بفتح السين ، والسفير وسفرت المرأة عن وجهها كلها ترجع إلى معنى الظهور والانجلاء ، وقرأ عيسى بن الفضيل وابن السميفع : " إذا اسفر " ، فكأن المعنى طرح الظلمة عن وجهه وضعفها أبو حاتم ، وقوله تعالى : ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ قال قتادة وأبو رزين وغيره : الضمير لجهنم ، ويحتمل أن يكون الضمير للنذارة ، وأمر الآخرة فهو للحال والقصة ، وتكون هذه الآية مثل قوله عز وجل ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ [ص : 68] ، و﴿ الكبر ﴾ ، جمع كبيرة ، وقرأ جمهور القراء " لإحدى " بهمزة في ألف إحدى ، وروي عن ابن كثير أنه قرأ " لاحدى " دون همزة ، وهي قراءة نصر بن عاصم ، قال أبو علي : التخفيف في ﴿ لإحدى الكبر ﴾ ، أن تجعل الهمزة فيها بين بين ، فأما حذف الهمزة فليس بقياس وقد جاء حذفها . قال أبو الأسود الدؤلي : [الكامل]

يا أبا المغيرة رب أمر معضل . . . فرجته بالنكر مني والدّها

وأنشد ثعلب : [الكامل]

إن لم أقاتل فالبسوني برقعا . . . وفتخات في اليدين أربعا

وقوله تعالى : ﴿ نذيراً للبشر ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن : لا نذير إذ هي من النار . وهذا القول يقتضي أن ﴿ نذيراً ﴾ حال من الضمير في ﴿ إنها ﴾ . أو من قوله ﴿ لإحدى ﴾ ، وكذلك أيضاً على الاحتمال في أن تكون ﴿ إنها ﴾ يراد بها قصة الآخرة وحال العالم ، وقال أبو رزين : الله جل ذكره هو النذير ، فهذا القول يقتضي أن ﴿ نذيراً ﴾ معمول الفعل تقديره : ليس نذيراً للبشر أو ادعوا نذيراً للبشر ، وقال ابن زيد محمد عليه السلام هو النذير : فهذا القول يقتضي أن ﴿ نذيراً ﴾ معمول لفعل . وهذا اختيار الخليل في هذه الآية ذكره الثعلبي قال : ولذلك يوصف به المؤنث ، وقرأ ابن أبي عبلة " نذيرٌ " بالرفع على إضمار هو ، وقوله تعالى : ﴿ لمن يشاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ ، قال الحسن هو وعيد نحو قوله تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ [الحجر : 24] .

(120/791)

قال القاضي أبو محمد : هو بيان في النذارة وإعلام أن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر ، اي هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره ثم قوي هذا المعنى بقوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ إذ ألزم بهذا القول أن المقصر مرتهن بسوء عمله . وقال الضحاك : المعنى كل نفس حقت عليها كلمة العذاب ، ولا يرتهن تعالى أحداً من أهل الجنة إن شاء الله ، والهاء في ﴿ رهينة ﴾ للمبالغة ، أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان وقوله تعالى : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ استثناء ظاهر الانفصال ، وتقديره لكن أصحاب اليمين ، وذلك لأنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ﴿ أصحاب اليمين ﴾ في هذه الآية ، أطفال المسلمين ، وقال ابن عباس : هم الملائكة ، وقال الضحاك : هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وقال الحسن وابن كيسان : هم المسلمون المخلصون وليسوا بمرتهنين ، ثم ذكر تعالى حال ﴿ أصحاب اليمين ﴾ وأنهم في جنات يسأل بعضهم بعضاً عمن غاب من معارفه ، فإذا علموا أنهم مجرمون في النار ، قالوا لهم أو قالت الملائكة : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ ؟ وسلك معناه : أدخل ، ومنه قول أبي وجزة السعدي :

حتى سلكن الشوى منهن في مسك . . . من نسل جوابة الآفاق مهداج

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم وفي نفي الصلاة يدخل الإيمان بالله والمعرفة به والخشوع والعبادة . والصلاة تنتظم على عظم الدين وأوامر الله تعالى وواجبات العقائد ، وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعية ، وكل إجمال ندبت إليه الشريعة بقول أو فعل والخوض ﴿ مع الخائضين ﴾ عرفه في الباطل ، قال قتادة : المعنى كلما غوى غاو غووا معه ، والتكذيب ﴿ بيوم الدين ﴾ كفر صراح وجهل بالله تعالى ، و ﴿ اليقين ﴾ معناه عندي صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، وقال المفسرون : ﴿ اليقين ﴾ الموت ، وذلك عندي هنا متعقب لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي ، فإنما ﴿ اليقين ﴾ الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت . وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 99] . ثم أخبر تعالى أن ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ لا تنفعهم فتقرر من ذلك أن ثم شافعين ، وفي صحة هذا المعنى أحاديث : قال صلى الله عليه وسلم : " يشفع الملائكة ثم النبيون ثم العلماء ثم الشهداء ثم الصالحون ، ثم يقول الله تعالى : شفع عبادي وبقيت شفاعة أرحم الراحمين ، فلا يبقى في النار من كان له إيمان " ، وروى الحسن أن الله تعالى يدخل الجنة بشفاعة رجل من هذه الأمة مثل ربيعة ومضر وفي رواية أبي قلابة أكثر من بني تميم ، وقال الحسن كنا نتحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته ، ثم قال

عز وجل : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أي والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة ، وقوله تعالى في صفة الكفار المعرضين بتول واجتهاد في نفور ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ إثبات لجهالتهم لأن الحمر من جاهل الحيوان جداً ، وقرأ الأعمش : " حمْر " بإسكان الميم ، وفي حرف ابن مسعود " حمر نافرة " ، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم : " مستنفَرة " بفتح الفاء ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختلف عن نافع

(122/791)

وعن الحسن والأعرج ومجاهد ، فأما فتح الفاء فمعناها استنفرها فزعها من القسورة ، وأما كسر الفاء فعلى أن نفر واستنفر بمعنى واحد مثل عجب واستعجب وسخر واستسخر فكأنها نفرت هي ، ويقوي ذلك قوله تعالى ﴿ فرت ﴾ وبذلك رجح أبو علي قراءة كسر الفاء ، واختلف المفسرون في معنى القسورة فقال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة : " القسورة " الرماة ، وقال ابن عباس أيضاً وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : " القسورة " الأسد ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

مضمر تحذره الأبطال . . . كأنه القسورة الرئبال

وقال ابن جبير : " القسورة " : رجال القنص ، وقاله ابن عباس أيضاً ، وقيل : " القسورة "

ركز الناس ، وقيل : " القسورة " الرجال الشداد ، قال لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا . . . أتانا الرجال العاندون القساور

وقال ثعلب : " القسورة " سواد أول الليل خاصة لآخره أو اللفظة مأخوذة من القسر الذي هو الغلبة والقهر ، وقوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ معناه من هؤلاء المعارضين ، أي يريد كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاب من الله ، وكان هذا من قول عبد الله بن أبي أمية وغيره . وروي أن بعضهم قال إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان فلتعرض ذلك الصحف علينا فنزلت الآية ، و ﴿ منشرة ﴾ : معناه منشورة غير مطوية ، وقرأ سعيد بن جبير " صحْفاً " بسكون الحاء وهي لغة يمانية ، وقرأ : " منْشرة " بسكون النون وتخفيف الشين ، وهذا على أن يشبه نشرت الثوب بأنشر الله الميت إذا لطى كالموت ، وقد عكس التيمي التشبيه في قوله : [الكامل]

ردت صنائعه عليه حياته . . . فكأنه من نشرها منشور

(123/791)

ولا يقال في الميت يحيى منشور إلا على تشبيه بالثوب وأما محفوظ اللغة فنشرت الصحيفة وأنشر الله الميت ، وقد جاء عنهم نشر الله الميت ، وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ رد على

إرادتهم أي ليس الأمر كذلك ، ثم قال : ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ المعنى هذه العلة والسبب في إعراضهم فكان جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم للهدى حتى هلكوا ، وقرأ أبو حيوة : " تخافون " بالتاء من فوق رويت عن ابن عامر ، ثم أعاد الرد والزجر بقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ وأخبر أن هذا القول والبيان وهذه المحاورة بجملتها ﴿ تذكرة ﴾ ، ﴿ فمن شاء ﴾ وفقه الله تعالى لذلك ذكر معاده فعمل له ، ثم أخبر تعالى أن ذكر الإنسان معاده وجريه إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالى وليس يكون شيء إلاّ بها ، وقرأ نافع وأهل المدينة وسلام ويعقوب : " تذكرون " بالتاء من فوق ، وقرأ أبو جعفر وعاصم وأبو عمرو والأعمش وطلحة وابن كثير وعيسى والأعرج : " يذكرون " بالياء من تحت ، وروي عن أبي جعفر بالتاء من فوق وشد الذال كأنه تتذكرون فأدغم ، وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ خبر جزم معناه : أن الله تعالى أهل بصفاته العلى ونعمه التي لا تحصى ونقمه التي لا تدفع لأن يتقى ويطاع ويحذر عصيانه وخلاف أمره ، وأنه بفضله وكرمه أهل أن يغفر لعباده إذا اتقوه ، وروى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية فقال : " يقول ربكم جلت قدرته وعظمته : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله غيري ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له ، " وقال قتادة : معنى الآية هو أهل أن تتقى محارمه وأهل أن يغفر الذنوب .

نجز تفسير سورة المدثر والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾

أي فما لأهل مكة قد أعرضوا وولَّوا عما جِئْتم به .

وفي تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين : أحدهما الجحود والإنكار ، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه .

و"مُعْرِضِينَ" نصب على الحال من الهاء والميم في "لَهُمْ" وفي اللام معنى الفعل ؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل .

﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ قال ابن عباس : أراد الحمر الوحشية .

وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء ، أي مُنَفَّرة مذعورة ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

الباقون بالكسر ، أي نافرة .

يقال : نَفَرت واستنفرت بمعنًى ؛ مثل عَجِبت واستعجبت ، وسَخِرت واستسخرت ، وأنشد الفراء :

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إنّه مُسْتَنْفِرٌ . . .

في إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرّبِ

قوله تعالى : ﴿ فَرَّتْ ﴾ أي نفرت وهربت ﴿ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي من رُماة يرمونها .

وقال بعض أهل اللغة : إن القسورة الرامي ، وجمعه القَسْورة .

وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كَيْسان : القسْورة : هم الرّماة والصيادون ، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو (ظَبيان) عن أبي موسى الأشعري .

وقيل : إنه الأسد ؛ قاله أبو هريرة وابن عباس أيضاً .

ابن عرفة : من القَسْر بمعنى القَهْر أي ؛ إنه يقهر السباع ، والحمر الوحشية تهرب من السباع .

وروى أبو جمرة عن ابن عباس قال : ما أعلم القسورةَ الأسَد في لغة أحد من العرب ، ولكنها عُصَب الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال ، وأنشد :

يا بنتُ كُونِي خَيْرةً لِخيّره . . .

أخوالُها الجنّ وأهلُ القَسْوَرَهْ

وعنه : رِكْز الناس أي حسّهم وأصواتهم .

وعنه أيضاً : "فَرّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" أي من حبال الصيادين .

وعنه أيضاً : القسورة بلسان العرب : الأسد ، وبلسان الحبشة : الرماة ؛ وبلسان فارس : شير ، وبلسان النَّبَط : أريا .

وقال ابن الأعرابي : القسورة : أوّلُ الليل ؛ أي فرّت من ظلمة الليل .

وقاله عِكرمة أيضاً .

وقيل : هو أوّل سواد الليل ، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة .

وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقَسْور .

وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هَتَفْنا هَتفةً في نَدِيّنا . . .

أتانا الرجالُ العائدون القَسَاوِر

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ أي يعطي كتباً مفتوحة ؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ! ايتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها : إني قد أرسلتُ إليكم محمداً ، صلى الله عليه وسلم .

نظيره : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : 93] .

وقال ابن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار .

قال مطر الورّاق : أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل .

وقال الكلبيّ : قال المشركون : بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوباً ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك .

وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل : إلى فلان بن فلان .

وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل ، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازاً .

وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك ؟ ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس يكون ذلك .

وقيل : حقًّا .

والأوّل أجود ؛ لأنه رد لقولهم .

﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة ، اغترارا بالدنيا .

وقرأ سعيد بن جبير "صُحْفاً مُنْشَرَةً" بسكون الحاء والنون ، فأما تسكين الحاء فتخفيف ، وأما النون فشاذ .

إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت .

ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها ، فإذا نشرت حييت ، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب ، فقيل فيه نشر الله الميت ، فهي لغة فيه .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾

أي حقًّا إن القرآن عظة .

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي اتعظ به .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي وما يتعظون ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ أي ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم .

وقراءة العامة "يَذْكُرُونَ" بالياء واختاره أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ [المدثر : 53] .

وقرأ نافع ويعقوب بالتاء ، واختاره أبو حاتم ، لأنه أعمّ واتفقوا على تخفيفها .

﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ في الترمذيّ وسنن ابن ماجه عن أنس بن مالك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ قال : " قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أُتَّقي فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها فأنا أهلٌ أن أغفر له " لفظ الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن غريب .

وفي بعض التفسير : هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار ، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار ، باجتناب الذنوب الكبار .

وقال محمد بن نصر : أنا أهلٌ أن يتقيني عبدي ، فإن لم يفعل كنت أهلاً أن أغفر له وأرحمه ، وأنا الغفور الرحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(127/791)

وقال أبو السعود :

والفاء في قولِه تعالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾

لترتيبِ إنكارِ إعراضِهم عنِ القرآنِ بغيرِ سببٍ على ما قبلَها من موجباتِ الإقبالِ عليهِ والاتعاظِ به من سوءِ حالِ المكذبينَ ومعرضينَ حالٌ من الضميرِ في الجارّ الواقعِ خبراً لمَا الاستفهاميةِ وعنْ متعلقةٌ بِهِ أيْ فإذا كانَ حالُ المكذبينَ به على ما ذكرَ فأيُّ شيءٍ حصلَ لهم معرضينَ عن القرآنِ مع تعاضدِ موجباتِ الإقبالِ عليهِ وتآخذِ الدواعِي إلى الإيمانِ بِهِ وقولُه تعالَى .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ حالٌ من المستكنِّ في معرضينَ بطريقِ التداخلِ أي مشبهينَ بحمرٍ نافرةٍ .

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أيْ من أسدٍ فَعْوَلَة من القَسْرِ وهُو القهرُ والغلبةُ وقيل : هي جماعةُ الرماةِ الذين يتصيدونَها شُبهوا في إعراضِهم عن القرآنِ واستماعِ ما فيه من المواعظِ وشرادِهم عنه بحُمُرٍ جدَّت في نفارِها مما أفزعَها وفيهِ من ذمِهم وتهجينِ حالِهم ما لا يَخْفى وقولُه تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ عطفٌ على مقدرٍ يقتضيه المقامُ كأنه قيلَ : لا يكتفونَ بتلك التذكرة ولا يرضَون بها بلْ يريدُ كل واحدٍ منهم أنْ يُؤتى قراطيسَ تنشرُ وتقرأُ وذلكَ أنهم قالُوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لنْ نتبعكَ حتى تأتِي كلَّ واحدٍ منها بكتابٍ من السماءِ عنوانُه من ربِّ العالمينَ إلى فلانِ بنِ فلانٍ نؤمُر فيها باتباعكَ كما قالُوا لن نؤمنَ لرقيكَ حتى تنزلَ علينَا كتاباً نقرؤْه وقرىءَ صُحْفاً مُنْشرةً بسكونِ الحاءِ والنونِ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لهم عن تلكَ الجراءة ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الأخرة ﴾ فلذلكَ يُعرضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاءِ الصحفِ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ عنْ إعراضِهم ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآنَ ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ وأيُّ تذكرةٍ ﴿ فَمَن شَاء ﴾ أن يذكرَهُ ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ وحازَ بسببِهِ سعادةَ الدارينِ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ بمجرد مشيئتِهم للذكر كما هُو المفهومُ من ظاهرِ قولِه تعالى فمَنْ شاءَ ذكرَهُ إذْ لا تأثيرَ لمشيئةِ العبدِ وإرادتِه في أفعالِه ، وقولُه تعالى ﴿ إِلاَّ أَن

يَشَاء الله ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعم العلل أو من أعم الأحوال أيْ وما يذكرونَ بعلةٍ من العلل أو في حالٍ من الأحوالِ إلا بأنْ يشاءَ الله أو حالَ أنْ يشاءَ الله ذلكَ وهو تصريحٌ بأن أفعالَ العبادِ بمشيئةِ الله عَزَّ وجَلَّ وقُرِئَ تذكرونَ على الخطاب التفاتاً وقرئَ بهمَا مشدداً ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى ﴾ أي حقيقٌ بأنْ يُتقى عقابُه ويؤمنَ به ويطاعَ ﴿ وَأَهْلُ المغفرة ﴾ حقيقٌ بأنْ يغفرَ لمنْ آمنَ

بِهِ وأطاعَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(129/791)

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) ﴾

لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ومعرضين حال لازمة من الضمير في الجار الواقع خبراً لما الاستفهامية أعني لهم وهي المقصودة من الكلام وعن متعلقة بها والتقديم للعناية مع رعاية الفاصلة أي فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأي شيء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه وتأخذ الدواعي إلى الإيمان به جوز أن يراد

بالتذكرة ما يعم القرآن وما بعد يرجح الأول وهو مصدر بمعنى التذكير أطلق على ما ذكر مبالغة وقوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ حال من المستكن في ﴿ معرضين ﴾ بطريق التداخل والحمر جمع حمار والمراد به كما قال ابن عباس حمار الوحش لأنه بينهم مثل بالنفار وشدة الفرار ومستنفرة من استنفر بمعنى نفر كعجب واستعجب كما قيل والأحسن أن استفعل للمبالغة كان الحمر لشدة العدو تطلب النفار من نفسها والمعنى مشبهين بحمر نافرة جداً .

(130/791)

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي أسد وهي فعولة من القسر وهو القهر والغلبة وأخرج ذلك ابن جرير وعبد بن حميد وغيرهما عن أبي هريرة وأخرجه ابن المنذر عن ابن عباس أيضاً بيد أنه قال هو بلسان العرب الأسد وبلسان الحبشة قسورة وفي رواية أخرى عنه أنها الرجال الرماة القنص وروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وابن جبير وعطاء بن أبي رباح وفي رواية أخرى عنه أخرجها ابن عيينة في تفسيره أنه ركز الناس أي أصواتهم وعنه أيضاً حبال الصيادين وعن قتادة النبل وقال ابن الأعرابي وثعلب القسورة أول الليل أي فرت من ظلمة الليل وجمهور اللغويين على أنه الأسد وأياً ما كان فقد شبهوا في إعراضهم عن القرآن

واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر وحشية جدت في نفارها مما أفزعها وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] أو شهادة عليهم بالبله وقلة العقل وقرأ الأعمش حمر بإسكان الميم وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم مستنفرة بفتح الفاء أي استنفرها فزعها من القسورة وفرت يناسب الكسر فعن محمد بن سلام قال سألت أبا سرار الغنوي وكان أعرابياً فصيحاً فقلت كأنهم حمر ماذا فقال مستنفرة طردها قسورة ففتح الفاء فقلت إنما هو فرت من قسورة قال أفرت قلت نعم قال فمستنفرة إذن فكسر الفاء وقوله تعالى

(131/791)

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يَأْتِى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها وجوز أن يراد كتباً كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد وفيه بعد وذلك على الوجهين أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن سرك أن نتابعك فأت كل واحد منا

بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك فنزلت ونحوه قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَءُهُ ﴾ [الإسراء : 93] وقال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 7] الآية وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السدي عن أبي صالح قال : قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار وقبل كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك وهذا من الصحف المنشرة بمعزل إلا أن يراد بالصحف المنشرة الكتابات الظاهرة المكشوفة ونحوه ما روي عن أبي صالح فمآلهما إلى واحد لاشتراكهما في أن المنشر لم يبق على أصله وأن لكل صحيفة مخصوصة به إما لخلاصه من الذنب وإما لوجه خلاصة فالمعول عليه ما تقدم وهو مروى عن الحسن وقتادة وابن زيد وقرأ سعيد بن جبير صحفاً بإسكان الحاء منشرة بالتخفيف على أن أنشر الصحف ونشرها واحد كأنزله ونزله وفي "البحر المحفوظ" في الصحيفة والثوب نشر مخففاً ثلاثياً ويقال في الميت أنشره الله تعالى ونشره ويقال أنشره الله تعالى فنشر هو أي أحياه فحي .

كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إرادتهم تلك وزجر لهم عن اقتراح الآيات ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ فلذلك يعرضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف وحصول مقترحهم كما يزعمون وقرأ أبو حيوة تخافون بتاء الخطاب التفاتاً .

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن إعراضهم ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن أو التذكرة السابقة في قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] وكذا الضمير الآتي وذكر لأنه بمعنى القرآن أو الذكر ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ وأي تذكرة .

﴿ فَمَن شَاء ﴾ أن يذكره ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ وحاز بسببه سعادة الدارين والوقف على كلاً على ما سمعت في الموضعين وعلى منشرة والآخرة إن جعلت كما في الحواشي بمعنى إلا .

(133/791)

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر : 55] إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله وهو قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أو من أعم الأحوال أي وما

يذكرون بعلة من العلل أو في حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله تعالى أو حال إن يشاء الله ذلك وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عز وجل بالذات أو بالواسطة ففيه رد على المعتزلة وحملهم المشيئة على مشيئة القسر والإلجاء خروج عن الظاهر من غير قسر والجاء وقرأ نافع وسلام ويعقوب تذكرون بتاء الخطاب التفاتاً مع إسكان الذال وروي عن أبي حيوة يذكرون بياء الغيبة وشد الذال وعن أبي جعفر تذكرون بالتاء الفوقية وإدغامها في الذال ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى ﴾ حقيق بأن يتقي عذابه ويؤمن به ويطاع فالتقوى مصدر المبني للمفعول ﴿ وَأَهْلُ المغفرة ﴾ حقيق بأن يغفر جل وعلا لمن آمن به وأطاعه فالمغفرة مصدر المبني للفاعل وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والنسائي وابن ماجه وخلق آخرون عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية هو أهل التقوى وأهل المغفرة فقال قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعاً ما يقرب من ذلك وفي حديث أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى إني لأجدني استحي من عبدي يرفع يديه إلي ثم يردهما من غير مغفرة قالت الملائكة الهنا ليس لذلك بأهل قال الله تعالى : لكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أني قد غفرت له وكأن الجملة

لتحقيق الترهيب والترغيب اللذين أشعر بهما الكلام السابق كما لا يخفى على المتذكر

وعن بعضهم أنه لما سمع قوله تعالى :

(134/791)

هو أهل التقوى وأهل المغفرة قال : اللهم اجعلني من أهل التقوى وأهل المغفرة على أن أول الثاني كثاني الأول مبنياً للفاعل وثاني الثاني كأول الأول مبنياً للمفعول وإلا فلا يحسن الدعاء وأن تكلف لتصحيحه فافهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(135/791)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾

أي : مأخوذة بعملها ومرتهنة به ، إما خلصها وإما أوبقها ، والرهينة اسم بمعنى الرهن ، كالشيمة بمعنى الشيم ، وليست صفة ، ولو كانت صفة لقيل : رهين ؛ لأن فعيلاً يستوي فيه

المذكر والمؤنث ، والمعنى : كل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة .

﴿ إِلاَّ أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم .

واختلف في تعيينهم .

فقيل : هم الملائكة .

وقيل : المؤمنون .

وقيل : أولاد المسلمين .

وقيل : الذين كانوا عن يمين آدم .

وقيل : أصحاب الحقّ .

وقيل : هم المعتمدون على الفضل دون العمل .

وقيل : هم الذين اختارهم الله لخدمته ﴿ فِي جنات ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله ، ويجوز أن يكون ﴿ في جنات ﴾ حالاً من ﴿ أصحاب اليمين ﴾ ، وأن يكون حالاً من فاعل ﴿ يتساءلون ﴾ ، وأن يكون ظرفاً ل ﴿ يتساءلون ﴾ ، وقوله : ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يجوز أن يكون على بابه ، أي : يسأل بعضهم بعضاً ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون أي : يسألون غيرهم ، نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿ عَنِ المجرمين ﴾ متعلقاً ب ﴿ يتساءلون ﴾ أي : يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين ، وعلى الوجه الثاني تكون " عن " زائدة ، أي :

يسألون المجرمين .

وقوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ هو على تقدير القول ، أي : يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم : ما سلككم في سقر ، أو يسألونهم قائلين لهم : ما سلككم في سقر ، والجملة على كلا التقديرين في محل نصب على الحال ، والمعنى : ما أدخلكم في سقر ، تقول سلكت الخيط في كذا : إذا دخلته فيه .

قال الكلبي : يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يا فلان ما سلكك في النار .

(136/791)

وقيل : إن الملائكة يسألون الملائكة عن أقربائهم ، فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم : ما سلككم في سقر .

قال الفراء : في هذا ما يقوّي أن أصحاب اليمين هم الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار عليهم فقال : ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ أي : من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ أي : لم نتصدق على المساكين .

قيل : وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة الواجبة ؛ لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائضين ﴾ أي : نخالط أهل الباطل في باطلهم .

قال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معه .

وقال السديّ : كنا نكذب مع المكذبين .

وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قولهم : كاذب مجنون ساحر شاعر .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي : بيوم الجزاء والحساب ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو : الموت ، كما في قوله :

﴿ واعبد ربَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ أي : شفاعة الملائكة والنبيين ، كما تنفع الصالحين .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ التذكرة التذكير بمواعظ القرآن ، والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها ، وانتصاب ﴿ معرضين ﴾ على الحال من الضمير في متعلق الجارّ والمجرور ، أي : أيّ شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى .

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحمر فقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ والجملة حال من

الضمير في معرضين على التداخل ، ومعنى مُّسْتَنفِرَةٌ : نافرة ، يقال : نفر واستنفر ، مثل عجب واستعجب ، والمراد الحمر الوحشية .

(137/791)

قرأ الجمهور : ﴿ مستنفرة ﴾ بكسر الفاء ، أي : نافرة ، وقرأ نافع ، وابن عامر بفتحها ، أي : منفرة مذعورة ، واختار القراءة الثانية أبو حاتم ، وأبو عبيد .

قال في الكشاف : المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له ، وحملها عليه ، ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي : من رماة يرمونها ، والقسور الرامي ، وجمعه قسورة ، قاله سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن كيسان .

وقيل : هو الأسد ، قاله عطاء والكلبي .

قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر ؛ لأنه يقهر السباع .

وقيل : القسورة أصوات الناس .

وقيل : القسورة بلسان العرب الأسد ، وبلسان الحبشة الرماة .

وقال ابن الأعرابي : القسورة أوّل الليل ، أي : فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأوّل أولى ، وكلّ شديد عند العرب فهو : قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يا بنت كوني خيرة لخيره . . . أخوالها الحيّ وأهل القسورة

ومنه قول لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا . . . أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال . . . كأنه القسوّر الرهال

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل : لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد .

قال المفسرون : إن كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسول الله .

والصحف الكتب واحدتها صحيفة ، والمنشرة المنشورة المفتوحة ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَءُهُ ﴾ [الإسراء : 93] قرأ الجمهور : ﴿ منشرة ﴾ بالتشديد .

وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف .

وقرأ الجمهور أيضاً : بضم الحاء من صحف .

وقرأ سعيد بن جبير بإسكانها .

ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ يعني : عذاب الآخرة ؛ لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات .

وقيل : كلا بمعنى حقاً .

ثم كرّر الردع والزجر لهم فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : القرآن ، أو حقاً إنه تذكرة ، والمعنى : أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه .

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي : فمن شاء أن يتعظ به اتعظ .

ثم ردّ سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يذكرون ﴾ بالياء التحتية .

وقرأ نافع ، ويعقوب بالفوقية ، واتفقوا على التخفيف ، وقوله : ﴿ إلاّ أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال .

قال مقاتل : إلاّ أن يشاء الله لهم الهدى ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى ﴾ أي : هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿ وَأَهْلُ المغفرة ﴾ أي : هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب ، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة ، فيغفر ذنوبهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ قال :

مأخوذة بعملها .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ إِلاَّ أصحاب اليمين ﴾ قال : هم المسلمون .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن عليّ بن أبي طالب : ﴿ إِلاَّ أصحاب اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ قال : الموت .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن أبي موسى الأشعري في قوله : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : هم الرماة رجال القسيّ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : القسورة الرجال الرماة القنص .

(139/791)

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي جمرة قال : قلت لابن عباس : القسورة الأسد ، فقال : ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصبة الرجال .

وأخرج سفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : هو ركز الناس يعني : أصواتهم .

وأخرج أحمد ، والدارمي ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن عديّ وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ فقال : قال ربكم : " أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها ، فأنا أهل أن أغفر له " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس مرفوعاً نحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 332 . 334 ﴾

(140/791)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ » .

استفهام إنكارى ، ينكر على هؤلاء المشركين إعراضهم عن التذكرة ، وهو القرآن الكريم ، الذي يذكرهم بالله ، ويكشف لهم الطريق إليه .

وقوله تعالى : « معرضين » حال من الضمير فى « لهم » . .

وهذا الاستفهام فى مقام غير المقام الذي كان فيه هؤلاء الكافرون فى جهنم . .

إنهم هنا فى الدنيا - بعد أن عرضوا على جهنم ، وجاءهم الخبر

(141/791)

اليقين هناك بأن لا شفيع لهم من عذابها . . فإذا أعيدوا إلى الدنيا بعد هذه الرحلة الجهنمية لقيهم هذا السؤال : « فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » ؟ أي إذا كان هذا هو مصير الكافرين . . فما لهم - وهم الآن فى فسحة من أمرهم - يعرضون عن آيات اللّه التي تفتح له باب النجاة من هذا الكرب العظيم ؟ .

« كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

حال من أحوالهم فى إعراضهم عن القرآن ، ونفورهم منه . . إنهم ما إن يسمعون آيات اللّه تتلى ، حتى يفزعوا وينفروا كما تنفر الحمر ، وقد اشتمل عليها الذعر ، حين رأت قسورة أي أسدا ، مقبلا عليها . . وسمى الأسد قسورة ، أخذا من القسر ، والقسوة . .

وفى تشبيههم بالحمر المستنفرة من بين سائر الحيوانات التي إذا رأت الأسد فرت من وجهه - لأن الحمار يمثل الغباء والبلادة من بين سائر الحيوان ، وبه يضرب المثل فى هذا ، كما يقول سبحانه : « كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً » (5 : الجمعة) .

وفى إسناد الاستنفار إلى تلك الحمر فى قوله تعالى : « مستنفرة » بدلا من أن يسند الاستنفار إلى من استنفرها ، فيقال : « مستنفرة » . فى هذا إشارة إلى أن ذلك طبيعة غالبة عليها ، وأن من شأنها النفور دائما ، دون أن يكون هناك سبب لنفارها . . إنها ذات طبيعة وحشية ، لا تأنس فى ظلّ من سكينة أبدا . .

وفى وصف الحمر بأنها « مستنفرة » بدلا من « نافرة » . إشارة أخرى إلى أنها تستدعى هذه الطبيعة الكامنة منها ، وتهيجها وتحركها من غير سبب يدعو إليها ، كما أن بعض هذه الحمر يستدعى بعضا إلى هذا النفور ، فتمضى فى طريقها عليه ، من غير دافع إلا هذا التقليد الأعمى .

(142/791)

وهذه حال تمثل أهل الضلال أصدق تمثيل ، إنهم وهذه الحمر المستنفرة على سواء . . ففى طبيعتهم نفور ملازم كل دعوة إلى خير ، وهم دائما يتبعون أول ناعق يدعوهم إلى النفور من وجه الحق . .

وشبه القرآن بالقسورة ، لما للقسورة من هيبة ، تملأ القلوب ، وتملك المشاعر . . ثم هو إلى مهابته وسطوته ، بعيد عن الدنايا ، عف عن القذر لا يأكل الميتة ، ولو مات جوعا . . !

ولم يسمّ القرآن الأسد أسدا ، وإنما سماه « قسورة » ، ليكسوه بهذا الاسم ذى الجرس الموسيقى القوى هيبة إلى هيبة ، وعظمة ، إلى عظمة ، الأمر الذي لا يحققه لفظ أسد ، الضامر ، المبتذل على الأفواه لكثرة تردده .

قوله تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً » . .

هو إضراب عن دعوتهم إلى ترك الإعراض عن القرآن ، حتى يكون لهم منه ذكر وموعظة . .

وكلّا فإنهم لا يستجيبون لهذه الدعوة ، لأن كلّا منهم يريد أن يكون له كتاب من عند اللّه ، كهذا الكتاب الذي يدعوهم إليه رسول اللّه . .

وهذا ما يشير إليه سبحانه فى قوله على لسانهم : « وقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ » (134 : الأنعام) . . وهذا جهل وغباء لا يستقيم إلا على منطق الحمر ! قوله تعالى : « كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ » .

أي أنهم لن يؤتوا هذه الصحف أبدا . . وأنهم لا يؤمنون بالآخرة أبدا ،

ولا يخافون عذابها ، ولا يعملون على توقّى هذا العذاب . .

وهؤلاء هم المشركون الذين ماتوا على الشرك ، ولم يقبلوا دعوة الإسلام ، وهذا هو حكم اللّه عليهم ، وقضاؤه فيهم .

قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ » . .

الضمير فى « إنه » القرآن الكريم ، الذي أشارت إليه الآية السابقة :

« فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » .

. وإنه ليس عن شأن هذه التذكرة أن تحمل هؤلاء المشركين حملا على الخوف من عذاب الآخرة . . وليس القرآن إلا تذكرة ، للغافلين ، وتنبيها للشاردين . .

قوله تعالى : « فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ » أي فمن شاء ذكر ربه بهذا القرآن . . إنه أمر مردّد إلى الإنسان نفسه ، وإلى إقباله على ذكر اللّه ، أو إعراضه عنه . . ولو كان الأمر على سبيل القهر والإلزام لما كان ثمّة امتحان وابتلاء تنكشف به أحوال الناس ، وتختلف فيه منازلهم ، ولكانوا جميعا على منزلة سواء .

قوله تعالى : « وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ . . هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » .

هو دفع لما قد يقع من مفهوم خاطئ لقوله تعالى : « فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ » حيث أطلق مشيئة الإنسان . . ومشيئة الإنسان ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بمشيئة اللّه . .

ونعم . . الإنسان له مشيئة يجدها فى كيانه ، وفيما يأخذ أو يدع من أمور ، وفيما يقبل أو يرفض من أعمال . . ومع هذا ، فإن تلك المشيئة مرتهنة بمشيئة اللّه ،

(144/791)

مقيدة بها ، جارية مع القدر الذي أرادته مشيئة اللّه . . فهى مشيئة مطلقة فى داخل الإنسان ، مقيدة من خارج بالمشيئة الإلهية العامة الشاملة . .

وقوله تعالى : « هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » . أي هو سبحانه أهل لأن تتّقى محارمه ، ويخشى عقابه ، وهو سبحانه أهل المغفرة ، يرجى عنده غفران الذنوب ، لمن أناب إليه ، وطلب الغفران منه . . وفى هذا إشارة إلى أن مشيئة اللّه العامة المطلقة ، عادلة ، رحيمة ، منزهة عن الجور والتسلط . . إنها مشيئة الخالق فى خلقه . فالخلق فى ضمان هذه المشيئة ، فى رحمة اللّه ، أيّا كانت مشيئة اللّه فيهم . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ » (251 : البقرة) . ويقول سبحانه : « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ » (143 : البقرة) وفى الحديث : « للّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1306 . 1310 ﴾

(145/791)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) ﴾

تفريع للتعجيب من إصرارهم على الإِعراض عن ما فيه تذكرة على قوله : ﴿ وما هي إلاّ ذِكْرى للبشر ﴾ [المدثر : 31] .

وجيء باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضمير نحو : أن يقال : عنها معرضين ، لئلا يختص الإِنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإِنذار بسقَر ، بل المقصود التعميم لإِعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن كما هو المناسب للإِعراض قال تعالى : ﴿ إنْ هو إلاّ ذِكْر للعالمين ﴾ [التكوير : 27] .

و﴿ ما لهم ﴾ استفهام مستعمل في التعجيب من غرابة حالهم بحيث تجدر أن يستفْهِم عنها المستفهِمُون وهو مجاز مرسل بعلاقة الملازمة ، و ﴿ لهم ﴾ خبر عن (ما) الاستفهامية .

والتقدير : ما ثبت لهم ، و ﴿ معرضين ﴾ حال من ضمير ﴿ لهم ﴾ ، أي يستفهم عنهم في هذه الحالة العجيبة .

وتركيب : ما لَكَ ونحوهُ ، لا يخلو من حال تلحق بضميره مفردةٍ أو جملة نحو ﴿ ما لك لاَ تأمنّا على يوسف ﴾ في سورة يوسف (11) .

وقوله تعالى : ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ في سورة الانشقاق (20) .

وقوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ في سورة الصافات (154) وسورة القلم (36) .

و﴿ عن التذكرة ﴾ متعلق بـ ﴿ معرضين .

وشُبهتْ حالة إعراضهم المتخيَّلة بحالة فرار حُمُر نافرة مما ينفرها .

والحُمر : جمع حمار ، وهو الحمار الوحشي ، وهو شديد النفار إذا أحس بصوت القانص وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس .

وقد كثر وصف النفرة وسرعة السير والهَرب بالوحش من حُمرٍ أو بقرِ وحش إذا أحسسنَ بما يرهبنه كما قال لبيد في تشبيه راحلته في سرعة سيرها بوحشية لحقها الصياد :

فتوجَّسَت رزّ الأنيس فراعَها . . .

عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ والأنيسُ سَقَامها

وقد كثر ذلك في شعر العرب في الجاهلية والإِسلام كما في معلقة طرفة ، ومعلقة لبيد ، ومعلقة الحارث ، وفي أراجيز الحجَّاج ورؤَية ابنهِ وفي شعر ذي الرمة .

والسين والتاء في مستنفرة ﴾ للمبالغة في الوصف مثل : استكمل واستجاب واستعجب واستسخر واستخرج واستنبط ، أي نافرة نفاراً قوياً فهي تعدو بأقصى سرعة العدو .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ مستنفَرة ﴾ بفتح الفاء ، أي استنفرها مستنفر ، أي أنفرها ، فهو من استنفره المتعدي بمعنى أنفره .

وبناء الفعل للنائب يفيد الإِجمال ثم التفصيل بقوله : ﴿ فَرَّت من قَسْوَرة .

وقرأها الجمهور بكسر الفاء ، أي استنفرت هي مثل : استجاب ، فيكون جملة فرّت من قسورة ﴾ بياناً لسبب نفورها .

وفي "تفسير الفخر" عن أبي علي الفارسي قال محمد بن سلام : سألت أبا سوار الغَنَوِي وكان أعرابياً فصيحاً فقلت : كأنهم حُمُر مَاذا فقال : مستنفَرة : بفتح الفاء فقلت له : إنما هو فَرَّت من قسورة .

فقال : أفرَّتْ ؟ قلت : نعم ، قال : فمستنفِرة إِذَنْ فكسَرَ الفاء .

و ﴿ قسورة ﴾ قيل هو اسم جمع قسْوَر وهو الرامي ، أو هو جمع على خلاف القياس إذ ليس قياس فَعْلَل أن يجمع على فَعْلَلة .

وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما فيكون التشبيه جارياً على مراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب .

وقيل : القسورة مُفرد ، وهو الأسد ، وهذا مروي عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وقال ابن عباس : إنه الأسد بالحبشية ، فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافاً لفظياً ، وعنه : أنه أنكر أن يكون قَسْور اسمَ الأسد ، فلعله أراد أنه ليس في أصل العربية .

وقد عدّه ابن السبكي في الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة العرب في أبيات ذكر فيها ذلك ، قال ابن سيده : القسور الأسد والقسورة كذلك ، أنثوه كما قالوا : أُسامة ، وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إِعراض مخلوط برُعْب مما تضمنته قوارع القرآن فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان .

وإيثار لفظ ﴿ قسورة ﴾ هنا لصلاحيته للتشبيهين مع الرعاية على الفاصلة .

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52)

(147/791)

إضراب انتقالي لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم إذ قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية وغيرهما من كفار قريش للنبيء صلى الله عليه وسلم لا نؤمن لك حتى يأتي إلى كل رجل منا كتاب فيه من الله إلى فلانٍ بن فلان ، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن أنه منزل من الله .

وجُمِع (صُحُف) إما لأنهم سألوا أن يكون كل أمر أو نهي تأتي الواحدَ منهم في شأنه

صحيفةٌ ، وإمّا لأنهم لما سألوا أن تأتي كل واحد منهم صحيفة باسمه وكانوا جماعة متفقين جمع لذلك فكأنّ الصحف جميعها جاءت لكل امرىء منهم .

والمنشَّرة : المفتوحة المقرؤة ، أي لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها و ﴿ منشَّرة ﴾ مبالَغَة في مَنْشُورة .

والمبالغة واردة على ما يقتضيه فعل (نَشَر) المجرد من كون الكتاب مفتوحاً واضحاً من الصحف المتعارفة .

وفي حديث الرجم فنشروا التوراة .

كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53)

﴿ كَلاَّ ﴾ إبطال لظاهر كلامهم ومرادِهم منه وردع عن ذلك ، أي لا يكون لهم ذلك .

ثم أضرب على كلامهم بإبطال آخر بحرف الإِضراب فقال : ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي ليس ما قالوه إلاّ تنصلاً فلو أنزل عليهم كتاب ما آمنوا وهم لا يخافون الآخرة ، أي لا يؤمنون بها فكُني عن عدم الإِيمان بالآخرة بعدم الخوف منها ، لأنهم لو آمنوا بها لخافوها إذ الشأن أن يُخاف عذابها إذ كانت إحالتهم الحياة الآخرة أصلاً لتكذيبهم بالقرآن .

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55)

﴿ كلا ﴾ ردع ثان مؤكِّد للردع الذي قبله ، أي لا يُؤتون صحفاً منشورة ولا يُوزَعون إلاّ بالقرآن .

وجملة ﴿ إنه تذكرة ﴾ تعليل للردع عن سؤالهم أنْ تنزل عليهم صحف منشَّرة ، بأن هذا القرآن تذكرة عظيمة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ءايات من ربّه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنَّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ [العنكبوت : 50 ، 51] .

فضمير ﴿ إنه ﴾ للقرآن ، وهو معلوم من المقام ، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن .

وتنكير ﴿ تذكرة ﴾ للتعظيم .

وقوله : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ تفريع على أنه تذكرة ونظيره قوله تعالى : ﴿ إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ في سورة المزمل (19) .

وهذا تعريض بالترغيب في التذكر ، أي التذكر طوعُ مشيئتكم فإن شئتم فتذكروا .

والضمير الظاهر في ذكره ﴾ يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إنه ﴾ وهو القرآن فيكون على الحذف والإِيصال وأصله : ذَكَر به .

ويجوز أن يعود إلى الله تعالى وإن لم يتقدم لاسمه ذكر في هذه الآيات لأنه مستحضَر من المقام على نحو قوله : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ [المزمل : 19] .

وضمير ﴿ شاء ﴾ راجع إلى (مَنْ) ، أي من أراد أن يتذكر ذَكَر بالقرآن وهو مثل قوله آنفاً ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ [المدثر : 37] وقوله في سورة المزمل (19) ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾

وهو إنذار للناس بأن التذكر بالقرآن يحصل إذا شاؤوا التذكر به .

والمشيئة تستدعي التأمل فيما يخلصهم من المؤاخذة على التقصير وهم لا عذر لهم في إهمال ذلك ، وقد تقدم في سورة المزمل .

وجملة ﴿ وما تذْكُرون إلاّ أن يشاء الله ﴾ معترضة في آخر الكلام لإِفادة تعلمهم بهذه الحقيقة ، والواو اعتراضية .

(149/791)

والمعنى : أن تذكُّر من شَاءوا أن يتذكروا لا يقع إلاّ مشروطاً بمشيئة الله أن يتذكروا ، وقد تكرر هذا في القرآن تكرراً ينبه على أنه حقيقة واقعة كقوله : ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ﴾ [التكوير : 29] وقال هنا ﴿ كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ فعلمنا أن للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاءِ في الدنيا والآخرة وهي المعبر عنها عند أهل التحقيق من المتكلمين بالكسب كما حققه الأشعري ، وعند المعتزلة بالقدرة الحادثة ،

وهما عبارتان متقاربتان ، وأن لله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمانعها مانع ولا يقسرها قاسر ، فإذا لم يتوجه تعلقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد .

وهذه المشيئة هي المعبر عنها بالتوفيق إذا تعلقت بإقدار العبد على الداعية إلى الطاعة وامتثال الوصايا الربانية ، وبالخِذلان إذا تعلقت بتركه في ضلاله الذي أوبَقَتْهُ فيه آراؤه الضالة وشهواته الخبيثة الموبقة له في الإعراض عن شرائع الله ودعوة رسله ، وإذا تعلقت بانتشال العبد من أوْحَال الضلال وبإنارَة سبيل الخير لبصيرته سميت لُطفاً مثل تعلقها بإيمان عُمر بن الخطاب وصلاحه بعد أن كان في عناد ، وهذا تأويل قوله تعالى:

﴿ فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّدُ في السماء ﴾ [الأنعام : 125] .

هذا حاصل ما يتمخض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أن الأمر لله ، والأدلةِ التي اقتضت المؤاخذة على الضلال ، وتأويلُها الأكبرُ في قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلّ من عند الله فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء : 78 ، 79] ولله في خلقه سرّ جَعل بينهم وبين كنهه حجاباً ، ورَمَزَ إليه بالوعد والوعيد ثواباً وعقاباً .

وقرأ نافع ويعقوب ﴿ وما تذكُرون ﴾ بمثناة فوقية على الالتفات ، وقرأه الجمهور بتحتية على الغيبة ، فالمعنى أنهم يغلب عليهم الاستمرار على عدم الذكرى بهذه التذكرة إلاّ أن يشاء الله التوفيق لهم ويلطف بهم فيخلق انقلاباً في سجيّة من يشاء توفيقه واللطفَ به .

وقد شاء الله ذلك فيمن آمنوا قبل نزول هذه الآية ومَن آمنوا بعد نزولها .

جملة واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ تقويةً للتعريض بالترغيب في التذكر والتذكر يفضي إلى التقوى .

فالمعنى : فعليكم بالتذكر واتقوا الله تعالى لأن الله هو أهل للتقوى .

وتعريف جزأي الجملة في قوله : ﴿ هو أهل التقوى ﴾ يفيد قصر مستحق اتقاء العِبادِ إياه على الله تعالى وأن غيره لا يستحق أن يُتَّقى .

ويتجنب غضبه كما قال : ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 37] .

فإما أن يكون القصر قصراً إضافياً للرد على المشركين الذين يخشون غضب الأصنام ويطلبون رضاها أو يكون قصراً ادعائياً لتخصيصه تعالى بالتقوى الكاملة الحق وإلاّ فإن بعض التقوَى مأمور بها كتقوى حقوق ذوي الأرحام في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تسَاءَلون به والأرحامَ ﴾ [النساء : 1] وقد يقال : إن ما ورد الأمر به من التقوى في الشريعة راجع إلى تقوى الله ، وهذا من متممات القصر الادعائي .

وأهل الشيء : مستحقه .

وأصله : أنه ملازم الشيء وخاصته وقرابته وزوجُه ومنه ﴿ فأسرِ بأهلك ﴾ [هود : 81] .

ومعنى ﴿ أهل المغفرة ﴾ : أن المغفرة من خصائصه وأنه حقيق بأن يَغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسامه ومنه بيت "الكشاف" في سورة المؤمنين:

أَلا يَا ارْحَمُونِي يَا إله مُحَمَّد

فإن لم أَكُنْ أَهْلاً فأنت له أهل

(151/791)

وهذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ما أسلفوه قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ [الأنفال : 38] ، وبالتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب قال تعالى ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنَطُوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : 53] .

روى الترمذي عن سهيل عن ثابت عن أنس بن مالك "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال في هذه الآية : قال الله تعالى : "أنا أهل أن أُتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها فأنا أهل أن أغفر له" قال الترمذي : حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوي ، وقد انفرد بهذا الحديث عن ثابت .

وأعيدت كلمة ﴿ أهل ﴾ في الجملة المعطوفة دون أن يقال : والمغفرة ، للإِشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأول وأهل الثاني على طريقة إعادة فعل وأطيعوا في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النساء : 59] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(152/791)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه وهذا من بديع القياس والتمثيل فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر وهي لا تعقل شيئا فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم

نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور بأسه وشدته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 164 ﴾

(153/791)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

أخرج ابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة المدثر بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف قال : سألت أبا

سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : " يا أيها المدثر " قلت : يقولون ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك قلت له مثل ما قلت . قال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعباً ، فرجعت فقلت دثروني فدثروني ، فنزلت ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ إلى قوله : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم : كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن ، وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم : سحر يؤثر ، فاجتمع رأيهم على أنه سحر يؤثر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى قوله : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قال : دثرت هذا الأمر فقم به .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قال: كان متدثراً في قطيف، يعني شملة صغيرة الخمل ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال: من الإِثم ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال: الإِثم ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه ﴿ ولربك فاصبر ﴾ قال: إذا أعطيت عطية فأعطها لربك واصبر حتى يكون هو الذي يثيبك.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قال: المتدثر في ثيابه ﴿ قم فأنذر ﴾ قال: أنذر عذاب ربك ووقائعه في الأمم وشدة نقمته إذا انتقم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ يقول: طهرها من المعاصي وهي كلمة عربية، كانت العرب إذا نكث الرجل ولم يوف بعهده قالوا: إن فلاناً لدنس الثياب، وإذا أوفى وأصلح قالوا: إن فلاناً لطاهر الثياب ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال: هما صنمان كانا عند البيت أساف ونائلة يمسح وجوههما من أتى عليهما من المشركين، فأمر الله نبيه محمداً أن يهجرهما ويجانبهما ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال: لا تعط شيئاً لمثابة الدنيا ولا لمجازاة الناس.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ وربك فكبر ﴾ قال: عظم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال: عنى نفسه ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال: الشيطان

والأوثان .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه : قلنا يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة ، فأنزل الله ﴿ وربك فكبر ﴾ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفتتح الصلاة بالتكبير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قال : النائم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال : الأصنام ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها .

(155/791)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : من الإِثم قال : وهي في كلام العرب نقي الثياب .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : من الغدر ، ولا تكن غداراً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الوقف والابتداء وابن مردويه عن عكرمة أن ابن عباس سئل عن قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لا تلبسها على غدرة ولا فجرة ، ثم قال : ألا تسمعون قول غيلان بن سلمة :

إني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من غدرة أتقنع

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كان الرجل في الجاهلية إذا كان غدراً قالوا : فلان دنس الثياب .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي رزين ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : عملك أصلحه ، كان أهل الجاهلية إذا كان الرجل حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : وعملك فأصلح .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : لست بكاهن ولا ساحر فأعرض عنه ﴿ والرجز فاهجر ﴾ قال : الأوثان ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط مصانعة رجاء أفضل منه من الثواب ﴿ ولربك فاصبر ﴾ قال : على ما أوذيت .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : عنى

نفسه .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : ليس ثيابه الذي يلبس .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال : خلقك فحسن .

وأخرج ابن المنذر عن يزيد بن مرثد في قوله : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ أنه ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلا شاة .

(156/791)

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والرجز فاهجر ﴾ بالكسر .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ والرجز فاهجر ﴾ برفع الراء ، وقال : هي الأوثان " .

وأخرج ابن المنذر عن حماد رضي الله عنه قال : قرأت في مصحف أبي " ولا تمنن أن تستكثر " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ يقول : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه ، وإنما نزل هذا في النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه ، وهي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة والناس موسع عليهم .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال : لا تقل قد دعوتهم فلم يقبل مني ، عد فادعهم ﴿ ولربك فاصبر ﴾ على ذلك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال : الصور ﴿ يوم عسير ﴾ قال : شديد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال : فإذا نفخ في الصور .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه وأبي مالك وعامر مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : الناقور الصور شيء كهيئة البوق .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر ؟ قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

وأخرج ابن سعد والحاكم عن بهز بن حكيم قال : أمنا زرارة بن أوفى فقرأ المدثر ، فلما بلغ ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ خر ميتاً فكنت فيمن حمله .

وأخرج عبد حميد عن قتادة ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ قال : ثم بين على من مشقته وعسره فقال : ﴿ على الكافرين غير يسير ﴾ .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ قال : هو الوليد بن المغيرة أخرجه الله من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد ، فرزقه الله المال والولد والثروة والنماء ﴿ كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ قال : كفوراً بآيات الله جحوداً بها ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ قال : ذكر لنا أنه قال : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ،

وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله فيه ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ إلى قوله : ﴿ وبسر ﴾ قال : كلح .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ قال : الوليد بن المغيرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ قال : نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿ وحيداً ﴾ قال : خلقته وحده لا مال له ولا ولد ﴿ وجعلت له مالاً مدوداً ﴾ قال : ألف دينار ﴿ وبنين ﴾ قال : كانوا عشرة ﴿ شهوداً ﴾ قال : لا يغيبون ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ قال : بسطت له من المال والولد ﴿ ثم يطمع أن أزيد كلا ﴾ قال : فما زال يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ قال : معانداً عنها مجانباً لها ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال : مشقة من العذاب .

(158/791)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ قال : الوليد بن المغيرة ﴿ وبنين شهوداً ﴾ قال : كانوا ثلاثة عشر ﴿ ثم يطمع أن أزيد كلا ﴾

قال : فلم يولد له بعد يومئذ ولم يزدد له من المال إلا ما كان ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ قال : مشاقاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ الآيات ، قال : هو الوليد بن المغيرة بن هشام المخزومي وكان له ثلاثة عشر ولداً كلهم رب بيت ، فلما نزلت ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ لم يزل في إدبار من الدنيا في نفسه وماله وولده حتى أخرجه من الدنيا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ قال : ألف دينار .

وأخرج عبد بن حميد عن سفيان ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ قال : ألف ألف

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والدينوري في المجالسة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله : ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ قال : غلة شهر بشهر .

وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن سالم في قوله : ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ قال : الأرض .

وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري في قوله : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال : هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، فإذا رفعوها عادت كما كانت .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر أو أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بشاعر الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله : الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلوا وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر . ففكر . فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وأبو نعيم في الحلية وعبد الرزاق وابن المنذر عن عكرمة مرسلاً .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم جمع الوليد بن المغيرة قريشاً فقال : ما تقولون في هذا الرجل ، فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال بعضهم : هو كاهن ، فقال الوليد : سمعت قول شاعر وسمعت قول الكهنة ،

فما هو مثله . قالوا : فما تقول أنت ؟ قال : فنظر ساعة ﴿ ثم فكر وقدر فقتل كيف قدر ﴾ إلى قوله : ﴿ سحر يؤثر ﴾ .

(160/791)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون ، وإن قوله : لمن كلام الله فلما سمع النفر من قريش ائتمروا وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل قال : والله أنا أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته . فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألست أكثرهم مالاً وولداً فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : تحدث بهذا عشيرتي فوالله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وما قوله : إلا سحر يؤثر فأنزل الله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ .

وأخرج ابن جرير وهناد بن السري في الزهد وعبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ عنيداً ﴾ قال : جحوداً .

وأخرج أحمد وابن المنذر والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر عن أبي سعيد قال : إن ﴿ صعوداً ﴾ صخرة في جهنم إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت ، فإذا رفعوها عادت واقتحامها ﴿ فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ [البلد : 14] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : صعود صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه .

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة عن ابن عباس قي قوله : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال : جبل في النار .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ صعوداً ﴾ قال : جبلاً في جهنم .

(161/791)

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال : صخرة ملساء في جهنم يكلفون الصعود عليها .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ قال : مشقة من العذاب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ عبس وبسر ﴾ قال : قبض ما بين عينيه وكلح .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي رزين ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ قال : يأثره عن غيره .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ سقر ﴾ أسفل الجحيم ، نار فيها شجرة الزقوم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ قال : لا تحيي ولا تميت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ لا تبقي ﴾ إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئاً ، وإذا بدلوا جلداً جديداً لم تذر أن تباردهم سبيل العذاب الأول .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ تأكله كله ، فإذا تبدى خلقه لم تذره حتى تقوم عليه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن بريد ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ قال : تأكل اللحم والعظم والعرق

والمخ ولا تذره على ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال : حراقة للجلد .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال : تلوح الجلد فتحرقه فيتغير لونه فيصر أسود من الليل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي رزين ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال : تلوح جلده حتى تدعه أشد سواداً من الليل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عليّ عن ابن عباس ﴿ لواحة ﴾ محرقة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن البراء أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم فقال : الله ورسوله أعلم ، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ .

(162/791)

وأخرج الترمذي وابن مردويه عن جابر قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قال : هكذا وهكذا في مرة

عشرة وفي مرة تسعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : لما نزلت ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشدين : يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر ، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة ، فأنزل الله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما سمع أبو جهل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ، فأوحى الله إلى نبيه أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له : ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال : ذكر لنا أن أبا جهل حين أنزلت هذه الآية قال : يا معشر قريش ما يستطيع كل عشرة منكم أن يغلبوا واحداً من خزنة النار وأنتم ألدهم ؟ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في البعث من طريق الأزرق بن قيس عن رجل من بني تميم قال : كنا عند أبي العوام فقرأ هذه الآية ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ فقال : ما تقولون أتسعة عشر ملكاً أو تسعة عشر ألفاً ؟ قلت : لا بل تسعة

عشر ملكاً ، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قلنا : لأن الله يقول : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ قال : صدقت هم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملك منهم مرزبة من حديد له شعبتان فيضرب بها الضربة يهوي بها في جهنم سبعين ألفاً بين منكبي كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال : جعلوا فتنة . قال : قال أبو الأشدين الجمحي : لا يبلغون رتوتي حتى أجهضهم عن جهنم .

(163/791)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ قال : قال أبو الأشدين : خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم . قال : وحدثت أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف خزان جهنم فقال : "كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشفارهم لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل ، حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم" .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أنهم يجدون عدتهم في كتابهم تسعة عشر ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ فيؤمنوا بما في كتابهم من عدتهم

فيزدادوا بذلك إيماناً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ قال : يستيقن أهل الكتاب حين وافق عدد خزنة النار ما في كتابهم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ قال : يجدونه مكتوباً عندهم عدة خزنة النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ قال : صدق القرآن الكتب التي خلت قبله التوراة والإنجيل أن خزنة جهنم تسعة عشر ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ قال : الذين في قلوبهم النفاق والله أعلم .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ قال : من كثرتهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج مثله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق ابن جريج عن رجل عن عروة بن الزبير أنه سأل عبد الله بن عمرو بن العاص أي الخلق أعظم ؟ قال : الملائكة . قال : من ماذا خلقت ؟ قال : من نور الذراعين والصدر . قال : فبسط الذراعين . فقال : كونوا ألفي ألفين . قيل لابن جريج : ما ألفي ألفين ؟ قال : ما لا يحصى كثرته .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الإِسراء قال : " فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا ، فإذا أنا بملك يقال له اسماعيل ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك منهم جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ " .

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ قال : النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة مثله .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة عن ابن عباس أنه قرأ : " والليل إذا دبر " فجعل الألف مع إذا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن الزبير أنه كان يقرأ : " والليل إذا دبر " .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن سعيد بن جبير أنه قرأها : " دبر " مثل قراءة ابن عباس .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أنه قرأها : " إذ " بغير ألف ﴿ أدبر ﴾ بألف .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هرون قال : إنها في حرف أبي وابن مسعود ﴿ إذا أدبر

﴿ يعني بألفين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ قال : دبوره ظلامه .

وأخرج مسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان الأول ناداني : يا مجاهد هذا حين دبر الليل .

(165/791)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ قال : إذا أضاء ﴿ إنها لإِحدى الكبر ﴾ قال : النار .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ إنها لإِحدى الكبر ﴾ قال : النار .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي رزين ﴿ إنها لإِحدى الكبر نذيراً للبشر ﴾ قال : هي جهنم .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الأمل عن حذيفة قال : ما من صباح ولا مساء إلا ومنادٍ ينادي : يا أيها الناس الرحيل الرحيل ، وإن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ إنها لإِحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم ﴾ قال : الموت ﴿ أو يتأخر ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ قال : من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم ﴾ قال : في طاعة الله ﴿ أو يتأخر ﴾ قال : في معصية الله .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ قال : مأخوذة بعملها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : لا يحاسبون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم المسلمون .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عمر في قوله : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين .

(166/791)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي داود وابن الأنباري معاً في المصاحف وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار قال : سمعت عبد الله بن الزبير يقرأ ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾ يا فلان ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ قال عمرو : وأخبرني لقيط قال : سمعت ابن الزبير قال : سمعت عمر بن الخطاب يقرؤها كذلك .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ : " يا أيها الكفار ما سلككم في سقر " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ قال : يقولون : كلما غوى غاو غوينا معه ، وفي قوله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ قال : تعلموا أن الله يشفّع المؤمنين يوم القيامة بعضهم في بعض . قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن في أمتي رجلاً ليدخلن الله الجنة بشفاعته أكثر

من بني تميم " وقال الحسن : أكثر من ربيعة ومضر . قال : وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ قال : الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ قال : لا تنالهم شفاعة من يشفع .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليخرجن بشفاعتي من أهل الإِيمان من النار حتى لا يبقى فيها أحد إلا أهل هذه الآية ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ إلى قوله : ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن ميمون أن كعباً دخل يوماً على عمر بن الخطاب فقال له عمر : حدثني إلى ما تنتهي شفاعة محمد يوم القيامة ؟ فقال كعب : قد أخبرك الله في القرآن ، إن الله يقول : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ إلى قوله : ﴿ اليقين ﴾ قال كعب : فيشفع يومئذ حتى يبلغ من لم يصل صلاة قط ، ويطعم مسكيناً قط ، ومن لم يؤمن ببعث قط ، فإذا بلغت هؤلاء لم يبق أحد فيه خير .

(167/791)

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يؤتى بأدنى أهل النار منزلة يوم القيامة فيقول الله له : تفتدي بملء الأرض ذهباً وفضة ؟ فيقول : نعم إن قدرت عليه ، فيقول : كذبت ، قد كنت أسألك ما هو أيسر عليك من أن تسألني فأعطيك وتستغفرني فأغفر لك وتدعوني فأستجيب لك ، فلم تخفني ساعة قطّ من ليل ونهار ، ولم ترج ما عندي قط ، ولم تخش عقابي ساعة قط ، وليس وراءه أحد إلا وهو شر منه ، فيقال له : ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ إلى قوله : ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ يقول الله : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ " .

(168/791)

وأخرج ابن مردويه عن صهيب الفقير قال : كنا بمكة ومعي طلق بن حبيب وكنا نرى رأي الخوارج فبلغنا أن جابر بن عبد الله يقول في الشفاعة فأتيناه فقلنا له : بلغنا عنك في الشفاعة قول الله مخالف لك فيها في كتابه ، فنظر في وجوهنا فقال : من أهل العراق أنتم ؟ قلنا : نعم . فتبسم وقال : وأين تجدون في كتاب الله ؟ قلت : حيث يقول : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ [آل عمران : 192] و ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ [المائدة : 37] و ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾

[السجدة : 20] وأشباه هذا من القرآن فقال : أنتم أعلم بكتاب الله أم أنا ؟ قلنا : بل أنت أعلم به منا . قال : فوالله لقد شهدت تنزيل هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشفاعة الشافعين ، ولقد سمعت تأويله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الشفاعة لنبيه في كتاب الله قال في السورة التي تذكر فيها المدثر : ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ الآية ، ألا ترون أنها حلت لمن مات لم يشرك بالله شيئاً ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله خلق خلقاً ولم يستعن على ذلك ، ولم يشاور فيه أحداً ، فأدخل من شاء الجنة برحمته ، وأدخل من شاء النار ، ثم إن الله تحنن على الموحدين فبعث الملك من قبله بماء ونور فدخل النار ، فنضح فلم يصب إلا من شاء ، ولم يصب إلا من خرج من الدنيا لم يشرك بالله شيئاً فأخرجهم حتى جعلهم بفناء الجنة ، ثم رجع إلى ربه فأمده بماء ونور ، ثم دخل فنضح فلم يصب إلا من شاء الله ، ثم لم يصب إلا من خرج من الدنيا لم يشرك بالله شيئاً فأخرجهم حتى جعلهم بفناء الجنة ، ثم أذن الله للشفعاء فشفعوا لهم فأدخلهم الله الجنة برحمته وشفاعة الشافعين " .

(169/791)

وأخرج البيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : يعذب الله قوماً من أهل الإيمان ، ثم يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يبقى إلا من ذكر الله ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ إلى قوله : ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ قال : عن القرآن .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ كأنهم حمر ﴾ مثقلة ﴿ مستنفرة ﴾ بخفض الفاء .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن الحسن وأبي رجاء أنهما قرآ ﴿ مستنفرة ﴾ يعني بنصب الفاء .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن أبي موسى الأشعري في قوله : ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال : هم الرماة رجال القنص .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القسورة الرجال الرماة رجال القنص .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي جمرة قال : قلت لابن عباس قال : القسورة الأسد . فقال : ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد هم عصبة الرجال .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ قال : وحشية فرت من رماتها .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال : القناص .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال : القناص الرماة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك قال : القسورة الرماة .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : القسورة النبل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ من قسورة ﴾ قال : من حبال الصيادين .

وأخرج سفيان بن عيينة في تفسيره وعبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ من قسورة ﴾ قال : هو ركز الناس يعني أصواتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ من قسورة ﴾ قال : هو بلسان العرب الأسد وبلسان الحبشة قسورة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة في قوله : ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال : الأسد .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن السدي عن أبي صالح قال : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنته من النار ، فنزلت ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ قال : إلى فلان ابن فلان من رب العالمين يصبح عند رأس كل رجل صحيفة موضوعة يقرؤها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ قال : قد قال قائلون من الناس لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن سرك أن نتابعك فائتنا بكتاب خاصة يأمرنا باتباعك وفي قوله ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ قال : ذلك الذي أضحك بالقوم وأفسدهم أنهم كانوا لا يخافون الآخرة ولا يصدقون بها وفي قوله : ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ قال : هذا القرآن ، وفي قوله : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ قال : إن ربنا محقوق أن تتقى محارمه ، وهو أهل أن يغفر الذنوب الكثيرة لعباده .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه ﴿ كلا بلا لا يخافون الآخرة ﴾ قال : هذا الذي فضحهم .

وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي وابن ماجة والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي والحاكم وصححه وابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أُتَّقَى فمن لم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ قال : " يقول الله أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معي شريك ، فإذا اتقيت ولم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك " .

(171/791)

وأخرج الحكيم والترمذي في نوادر الأصول عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد لي في الدنيا ثم أفضحه بعد أن سترته ، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفرني " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : إني لأجدني استحي من عبدي يرفع يديه إليّ ثم أردهما . قالت الملائكة : إلهنا ليس لذلك بأهل . قال الله : لكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم

أني قد غفرت له " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويقول الله : إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإِسلام ثم أعذبهما بعد ذلك في النار " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 324 . 341 ﴾

(172/791)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾

يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم وقد تدثر بثوبه وأصله المتدثر بثيابه إذا نام فأدغمت التاء في الدال وشددت وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في حديثه : " فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوتاً مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا المَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بحراء جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيَ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ فَخَشَيْتُ فَرَجِعْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَدَثِّرُونِي فَنَزَلَ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ " ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ يعني : فخوف قومك وادعهم إلى التوحيد ويقال : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ يعني : قم فصلِّ لله

ويقال : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ يعني : خوفهم بالعذاب إن لم يوحدوا يعني : ادعهم من الكفر إلى الإيمان ثم قال عز وجل : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ يعني : فعظمه عما يقولون فيه عبدة الأوثان . ويقال : فكبر يعني : فكبر للصلاة ثم قال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعني : طهر قلبك بالتوبة عن الذنوب والمعاصي وهذا قول قتادة وقال مقاتل : يعني : قلبك فطهر بالتوبة وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب دنس الثياب وقال الفراء : يعني : ثيابك فقصر .

(173/791)

وقال الزجاج لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة وإن كان طويلاً لا يؤمن أن يصيبه النجاسة ويقال : يعني : لا تقصر فتكون غادراً دنس الثياب وقال مجاهد : وثيابك فطهر يعني : نفسك فطهر ويقال : عملك فأخلص ويقال : ظنك فحسن ثم قال : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ يعني : المأثم فاترك ويقال : الرجز فاهجر يعني : ارفض عبادة الأوثان قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الزاء والباقون بكسر الزاء ومعناهما واحد وهم الأوثان يعني : فارفض عبادة الأوثان ويقال : الرجز العذاب كقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة : 59] ومعناه كل شيء يحرك إلى عذاب الله تعالى فاتركه ثم قال عز وجل : ﴿ وَلاَ تَمْنُن

تَسْتَكْثِرُ ﴾ يعني : لا تعط شيئاً قليلاً تطلب به أكثر وأفضل في الدنيا وقال الحسن ولا تمنن تستكثر يعني : ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره وقال مجاهد لا تعط مالك رجاء فضل من الثواب في الدنيا وقال الضحاك لا تعط ولتعطى أكثر منه قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ يعني : اصبر على أمر ربك قال إبراهيم النخعي : اصبر لعظمة ربك وقال مقاتل : ولربك فاصبر يعني : يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذاهم ويقال : فاصبر نفسك في عبادة ربك ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى الناقور ﴾ يعني : اصبر فعن قريب ينفخ في الصور . ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِير عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ يعني : شديداً على الكافرين غير يسير يعني : غير هين وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين هيناً وهذا كقوله تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ [الفرقان : 26] لأن الكفار يقطع رجاؤهم في جميع الوجوه .

(174/791)

ثم قال : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ يعني : اترك هذا الذي خلقته وحيداً وفوض أمره إليَّ وهو الوليد بن المغيرة خلقه الله تعالى وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ يعني : ورزقته مالاً كثيراً قال مجاهد كان له مائة ألف دينار وكان بنوه عشرة

وقال بعضهم : كان ماله أربعة آلاف درهم ثم قال عز وجل : ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ يعني : حضوراً لا يغيبون عنه في التجارة ولا غيرهم وقال بعضهم : ذرني ومن خلقت وحيداً يعني : إنه لم يكن من قريش وكان ملصقاً بهم لأنه ذكر أن أباه المغيرة تبناه بعد ما أتت ثمانية أشهر ولم يكن منه كما قال الله تعالى ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ يعني : غير منقطع عنه وبنين شهوداً لا يغيبون عنه ولا يحتاجون إلى التصرف وكان له عشرة من البنين وهذا قول الكلبي وغيره وقال مقاتل : سبع بنين ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ يعني : بسطت له في المال والخير بسطاً ويقال : أمهلت له إمهالاً ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ يعني : يطمع أن أزيد ماله وولده .

(175/791)

وذلك أنه تفاخر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لي : مالاً ممدوداً ولي عشرة من البنين فلا يزال يزداد مالي وبني فنزل ثم يطمع أن أزيد يعني : أن أزيد وهو يعصيني ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : وهو رد عليه يعني : لا أزيد فما أزداد ماله بعد ذلك ولا ولده ولكن أخذ في النقصان فهلك عامة ماله وولده قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ يعني : مكذباً معرضاً عنها معانداً ثم قال عز وجل : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ يعني : يكلف في النار صعود جبل من

صخرة ملساء في الباب الخامس تسمى سقر فإذا بلغ رأس العقبة دخل دخان في حلقة فيخرج من جوفه ما كان في جوفه من الأمعاء فإذا سقط في أسفل العقبة سقي من الحميم فإذا بلغ أعلاه انحط منه إلى أسفله من مسيرة سبعين سنة وقال مجاهد : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ يعني : مشقة من العذاب وقال الزجاج : سأحمله على مشقة من العذاب ويقال : سأكلفه الصعود على عقبة شاقة والصعود والكؤود بمعنى واحد ثم ذكر خبث أفعاله الذي يستوجب به العقوبة فقال : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعني : إنه فكر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقدر في أمره وقال ساحر يقول الله عز وجل : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ يعني : فلعن كقوله : ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ [الذاريات : 10] .

(176/791)

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ليدبروا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : هذه أيام الموسم والناس مجتمعون وقد فشا قول هذا الرجل في الناس وهم سائلون عنه فماذا تجيبون وتردون عليهم فقالوا نقول إنه مجنون وقال بعضهم : إنهم يأتونه ويكلمونه فيجدونه فصيحاً عاقلاً فيكذبونكم فقالوا : نقول شاعر قال بعضهم : هم العرب وقد رأوا الشعراء وقوله : لا يشبه الشعر فيكذبونكم قالوا : نقول كاهن قال بعضهم

: إنهم لقوا الكهان وإذا سمعوا قوله وهو يستثني في كلامه المستقبل فيكذبونكم ففكر الوليد بن المغيرة ثم أدبر عنهم ثم رجع إليهم وقال : فكرت في أمره فإذا هو ساحر يفرق بين المرء وزوجه وأقربائه فاجتمع رأيهم على أن يقولوا : ساحر فقتل كيف قدر يعني : كيف قدر بمحمد صلى الله عليه وسلم بالسحر ثم قتل يعني لعن مرة أخرى أي : اللعنة على أثر اللعنة كيف قدر هذا التقدير الذي قال للكفرة إنه ساحر ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ يعني : ثم نظر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ يعني : عبس وجهه أي : كلح وتغير لون وجهه وقال الزجاج : ثم عبس وجهه ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي : نظر بكراهة شديدة ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ يعني أعرض عن الإيمان ﴿ واستكبر ﴾ يعني : تكبر عن الإيمان ثم قال : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ يعني : تأثره من صاحب اليمامة يعني : يرويه عن مسيلمة الكذاب ويقال : معناه : ما هذا الذي يقول : إلا سحر يرويه عن جابر ويسار ويقال عن أهل بابل : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ يعني : ما هذا القرآن إلا قول الآدمي قال الله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ يعني : سأدخله سقر قال مقاتل : يعني : الباب الخامس وقال الكلبي : هو اسم من أسماء النار ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تعظيماً لأمرها ثم بين قال : ﴿ لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ ﴾ يعني : لا تبقي لحماً إلا أكلته ولا تذرهم إذا أعيدوا فيها خلقاً جديداً ، ويقال :

لا تبقي ولا تذر يعني : لا تميت ولا تحيي ، ويقال : لا تبقى اللحم ولا العظم ولا الجلد إلا أحرقته ولا تذر لحماً ولا عظماً ولا جلداً أي : تدعه محرقاً بل تجده خلقاً جديداً ثم قال عز وجل : ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ يعني : حراقة للأجساد شواهة للوجوه نزاعة للأعضاء وأصله في اللغة التسويد ويقال : لاحته الشمس إذا غيرته وذلك أن الشيء إذا كان فيه دسومة فإذا أحرق اسود ثم قال : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ يعني : على النار تسعة عشر من الملائكة مسلطون من رؤساء الخزنة وأما الزبانية فلا يحصى عددهم كما قال في سياق الآية : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

(178/791)

وإنما أراد تسعة عشر ملكاً ومعهم ثمانية عشر أعينهم كالبرق الخاطف ويخرج لهب النار من أفواههم فنزعت عنهم الرأفة غضاب على أهلها يدفع أحدهم سبعين ألفاً فلما نزلت هذه الآية قال الوليد بن المغيرة لعنه الله : أنا أكفيكم خمسة وكل ابن لي يكفي واحداً منهم وسائر أهل مكة يكفي أربعة منهم وقال رجل من المشركين وكان له قوة وأنا أكفيكموهم وحدي أدفع عشرة بمنكبي هذا وتسعة بمنكبي الأيسر فألقيهم في النار حتى يحترقوا

وتجوزون حتى تدخلون الجنة فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصحاب النار إلا مَلَٰئِكَةً ﴾ يعني : ما سلطنا أعوان النار إلا ملائكة زبانية غلاظ شداد لا يغلبهم أحد ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ يعني : ما ذكرنا قلة عددهم وهم تسعة عشر ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني : بلية لهم ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ وذلك أن أهل الكتاب وجدوا في كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء فبين لهم أنما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم يقوله : بالوحي ﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إِيمانا ﴾ يعني : تصديقاً وعلماً ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ يعني : يعلموا أنه حق وعدتهم كذلك ﴿ والمؤمنون ﴾ أيضاً لا يشكون في ذلك ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يعني : المنافقين ﴿ والكافرون ﴾ يعني : المشركين ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ يعني : بذكر خزنة جهنم تسعة عشر يقول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ يعني : يخذله ولا يؤمن به أمناً له ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ يعني : يوفقه لذلك ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : من يعلم قوة جنود ربك وكثرتها إلا هو يعني : الله تعالى ويقال : وما يعلم يعني : لا يعلم عدد جموع ربك إلا الله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ إِلاَّ ذكرى لِلْبَشَرِ ﴾ يعني : الدلائل والحجج في القرآن ويقال : ما هي يعني : القرآن ويقال :

وما هي يعني : سقر إلا ذكرى للبشر يعني : عظه للخلق ثم أقسم الله تعالى لأجل سقر .

فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ رداً عليهم ﴿ والقمر ﴾ يعني : وخالق القمر ﴿ واليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ يعني : ذهب أقسم بخالق الليل ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أقسم بخالق الصبح ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ يعني : سقر إحدى الكبر العظام وباب من أبواب النار قرأ نافع وحمزة وعاصم في رواية حفص والليل إذ بغير ألف أدبر بالألف والباقون إذا بالألف دبر بغير ألف وهما لغتان ومعناهما واحد دبر وأدبر ويقال دبر النهار وأدبر ودبر الليل وأدبر وقال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله ﴿ واليل إِذَا أَدْبَرَ ﴾ فسكت حتى إذا كان آخر الليل قال يا مجاهد هذا حين دبر الليل ويقال : الليل إذا أدبر يعني : إذا جاء بعد النهار والصبح .

إذا أسفر يعني : استضاء بأنها أي : سقر لإحدى الكبر يعني : أن سقر لأعظم درجات في النار ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للخلق وإنما صار نعتاً لأنه معناه تم نذيراً للبشر ، ويقال : إن العذاب الذي ذكر نذيراً للبشر قوله تعالى : ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ يعني : يتقدم في الخير أو يتأخر إلى المعصية فبينا لكم فهذا وعيد لكم لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر إلى المعصية كقوله : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِى الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف

: 29] ويقال : معناه : لمن شاء منكم أن يتقدم إلى التوبة فليوحد أو يتأخر عن التوبة فليقم على الكفر يعني : نذيراً لمن شاء .

(180/791)

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ يعني : كل كافر مرتهن بعمله ﴿ إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ يعني : لكن أصحاب اليمين فإنهم ليسوا مرتهنين بعملهم يعني : الذين أعطوا كتابهم بأيمانهم ويقال : هم الذين عن يمين العرش ، ويقال : كل نفس بما كسبت رهينة عند المحاسبة إلا أصحاب اليمين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هم أطفال المسلمين يعني : ليس عليهم حساب لأنهم لم يعملوا شيئاً ثم قال : ﴿ فِى جنات يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني : إنهم في بساتين يتساءلون ﴿ عَنِ المجرمين ﴾ يعني : يرون أهل النار يسألونهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ يعني : ما الذي أدخلكم في سقر فأجابهم أهل النار : ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ يعني : لم نك نقر بالصلاة ولم نؤدها ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ يعني : كنا لا نقر بالفرائض والزكاة ولا نؤديها .

(181/791)

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائضين ﴾ يعني : كنا نستهزىء بالمسلمين ونخوض بالباطل ونرد الحق مع المبطلين المستهزئين ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ يعني : بيوم الحساب ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ يعني : الموت والقيامة قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ يعني : لا يسألهم شفاعة الأنبياء وشفاعة الملائكة ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ فما للمشركين يعرضون عن القرآن والتوحيد ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ يشبههم بالحمر الوحشية المذعورة حين فروا من القرآن وكذبوا به قرأ نافع وابن عامر مستنفرة بنصب الفاء والباقون بالكسر فمن قرأ بالنصب فمعناه منفرة فإن الصائد نفرها ومن قرأ بالكسر ومعناه نافرة ويقال : نفر واستنفر بمعنى واحد ثم قال : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ فقال أبو هريرة رضي الله عنه : يعني : الأسد وقال سعيد بن جبير رضي الله عنهم القناص يعني : الصيادين وقال قتادة : القسورة النبل يعني : الرمي بالسهام وهو حس الناس وأصواتهم ثم قال عز وجل : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مّنْهُمْ ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ أَن يؤتى صُحُفاً ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا إن الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب ذنباً يصبح وذنبه وكفارته مكتوب عند رأسه فهل ترينا مثل ذلك إن كنت رسولاً فنزل ﴿ قَسْوَرَةٍ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ يعني : صحفاً مكتوب فيها جرمه وتوبته ويقال : نزلت في شأن عبد الله بن أمية المخزومي حين قال : لن نؤمن حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قال الله

تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : هذا لا يكون لهم أبداً ثم ابتداء فقال : ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ يعني : البعث يعني : لكن لا يخافون عذاب الآخرة ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : حقاً إن القرآن عظة للخلق ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ يعني : من شاء أن يتعظ به فليتعظ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء ﴾ يعني : إلا

(182/791)

أن يشاء ﴿ الله ﴾ لهم ، ويقال إلا أن يشاء الله منهم قرأ نافع وما تذكرون بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ يعني : هو أهل أن يتقي ولا يشرك به ويوحد ولا يعصى وأهل المغفرة يعني هو أهل أن يغفر لمن أطاعه ولا يشرك ويقال : هو أهل أن يتقى وأهل المغفرة لمن اتقى والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 491. 497 ﴾

(183/791)

وقال الثعلبى :

سورة المدثر

﴿ يا أيها المدثر ﴾ :

أي المدّثر في قطيفه . أخبرنا ابو نعيم الاسفرائيني ، بها قال : أخبرنا أبو عمران بن موسى بن العباس الارادواري بها ، قال : أخبرنا العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي ببيروت قال : أخبرني أبي قال : حدّثنا أبو عمرو الأوزاعي قال : حدّثنا ، أبو نصر يحيى ابن أبي كبير العطار اليماني قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني جاورت بحراء شهراً فلما قضت جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت بين يدي وخلفي وعن يميني وشمالي فلم أر شيئاً ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو على العرش في الهواء فأخذتني وحشة ، فأمرتهم فدثّروني فأنزل الله سبحانه : يا أيها المدثر ، حتى بلغ : وثيابك فطهر " .

وأخبرنا أبو نعيم قال : حدّثنا أبو عمران قال : حدّثنا جعفر بن عامر البغدادي قال : حدّثنا سعد أبو محمد قال : حدّثنا شيبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : أخبرني جابر بن عبد الله إنّ أوّل شيء نزل من القرآن يا أيها المدثر ، وقال جابر : ألا أخبرك ما سمعت عن النبي (عليه السلام) سمعته يقول : " جاورت بحراء فلما قضيت جواري أقبلت في بطن الوادي فناداني مناد فنظرت عن يميني وشمالي وخلفي

وأمامي فلم أرَ شيئاً ، ثم ناداني فنظرت فوقي فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض فجئثتُ منه فرقاً فأقبلت إلى خديجة ، فقلت : دثروني وصبّوا عليّ ماءاً بارداً فأنزل الله سبحانه يا أيها المدّثّر " .

(184/791)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر بن يزيد الصيرفي قال : حدّثنا عليّ بن حرب الموصلي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن يحيى المدني عن يونس عن الزهري قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرني جابر أنه سمع رسول الله (عليه السلام) يقول : " فنزعني الوحي مرّة فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي أتاني بحراء قاعد على الكرسي بين السماء والأرض فجئثت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زمّلوني فأنزل الله سبحانه يا أيها المدثر " .

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : عكرمة سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : معناه لا يلبسها على معصية ولا على غدرة ثم قال : قول غيلان بن سلمة الثقفي :

إني بحمد الله لا ثوب فاجر . . . لبست ولا من غدرة اتقنع

والعرب تقول للرجل إذا وفى وصدق : إنه طاهر الثياب ، وإذا غدر ونكث : إنه لدنس الثياب .

وقال أبي بن كعب : لا يلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على أكم البسها وأنت طاهر ، وقال قتادة وإبراهيم والضحاك والشعبي والزهري ويمان : وثيابك فطهّر من الذنب والإثم والمعصية ، وقال أهل المعاني : أراد طهّر نفسك عن الذنوب فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه ، كقول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه . . . ليس الكريم على القنا بمحرم

أي نفسه ، وقال آخر :

ثياب بني عوف طهارى نقية . . . وأوجههم بيض المسافر غران

أي أنفس بني عوف .

وقال السدي : يقال للرجل إذا كان صالحاً : إنّه لطاهر الثياب ، وإذا كان فاجراً : إنه لخبيث الثياب . قال الشاعر :

لا هم إن عامر بن جهم . . . أو ذم حجا في ثياب دسم

يعني متدنس بالخطايا .

أبو زوق عن الضحاك : وعملك فأصلح ، وهي رواية فضيل بن عياض عن منصور عن

مجاهد .

سعيد بن جبير : وقلبك وبيتك فطهّر ، ودليل هذا التأويل قول امرؤ القيس :

(185/791)

وإن تك قد ساءتك منّي خليقة . . . فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

أي قلبي من قلبك .

وقال الحسن والمقرظي : وخلقك فحسّن ، ودليلهما قول الشاعر :

ويحيى لا يلام بسوء خلق . . . ويحيى طاهر الأثواب حر

أي حسن الأخلاق .

عطية عن ابن عباس : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائل ، وقال ابن زيد وابن شريك نقِّ ثيابك واغسلها بالماء وطهّرها من النجاسة وذلك أنّ المشركين كانوا لا يتطهرون فأمره أن يطهّر ثيابه .

قال الفراء : وسمعت بعضهم يقول : طهّرها بالأشنان .

وقال طاوس : وثيابك فقصّر وشمّر ، لأن تقصير الثياب طهرُة لها ، وقيل : وأهلك فطهّره من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمّي الأهّل ثوباً ولباساً وإزاراً ، وقد مضى ذكره

. يحيى ابن معاد : طهّر قلبك من مرض الخطايا وأشغال الدنيا تجد حلاوة العبادة ، فإن من لم يصُن الجسم لا يجد شهوة الطعام ، وقيل : طهّر قلبك عما سوى الله .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ قرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وحميد وأبو جعفر وشيبة ويعقوب (والرُجز) بضم الراء ومثله روى الفضل وحفص عن عاصم واختاره أبو حاتم وقرأ الباقون بكسر الراء واختاره أبو عبيد قال لأنها أفشى اللغتين وأكثرهما ، وهما لغتان لمعنى واحد .

قال ابن عباس : اترك المأثم ، مجاهد وقتادة وعكرمة والزهري وابن زيد : والأوثان فأهجر ولا تقربها وهي رواية الوالبي عن ابن عباس ، وقيل الزاي فيه منقلبة عن السين والعرب تعاقب بين الزاي والسين لقرب مخرجهما ودليل هذا التأويل قوله سبحانه : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

أبو العالية والربيع : الرُجز بالضم الصّنم ، وبالكسر : النجاسة والمعصية ، وقال الضحاك : يعني الشرك ، ابن كيسان : يعني الشيطان ، وقال الكلبي : يعني العذاب ، ومجاز الآية : اهجّر ما أوجب لك العذاب من الأعمال ، وقيل : أتسقط حب الدُنيا عن قلبك ؛ فإنها رأس كلّ خطيئة ، وقيل : ونفسك فخالفها .

(186/791)

﴿ وَلَا تَمْنُن ﴾ قراءة العامة باظهاره التضعيف وقرأ أبو السماك العدوى ولا تمُنّ مدغمة مفتوحة مؤكدة ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو ردي ؛ لأنه ليس بجواب .

وقرأ الأعمش بالنصب على توهّم لام كي كأنه قال : لتستكثر ، وقرأ الآخرون بالرفع واختلفوا في معنى الآية فقال أكثر المفسرين ولا تعُطِ شيئاً لتعُطى أكبر منه ، قال قتادة : لا تعط شيأ طمعاً لمجازاة الدنيا ومقارضتها ، القرظي : لا تعط مالك مصانعة ، قال الضحاك ومجاهد : كان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وقال الضحاك : هما رياءان : حلال وحرام ، فأما الحلال فالهدايا وأما الحرام فالربا .

وقال الحسن : ولا تمنن على الله بعملك فتستكثره ، الربيع : لا يكثرن عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك وأعطاك قليل ، ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك أنّما عملك منّةً من الله سبحانه عليك ، إذ جعل لك سبيلا إلى عبادته [فله] بذلك الشكر أن هداك له ، خصيف عن مجاهد : ولا تضعف أن تستكثر من الخير من قولهم : حبل متين إذا كان ضعيفاً ، ودليله قراءة ابن مسعود ولا تمنن أن تستكثر ، وقال ابن زيد : معناه ولا تمنّ بالنبوة على الناس فتأخذ عليها منهم أجراً وعرضاً من الدنيا . زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فاعطها لربّك واصبر حتى يكون هو الذي يثيبك عليها ، وقال مجاهد : واصبر لله على ما أوذيت ، ابن زيد : حملت أمراً عظيماً محاربة العرب ثم العجم فاصّبر عليه لله ،

وقيل : على أوامر الله ونواهيه ، وقيل : فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ، وقيل : فارق الملامة والسآمة ، وقيل : فاصبر على البلوى فإنه يمتحن أحباءه وأصفياءه .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ أي نفخ في الصوّر .

(187/791)

حدّثنا أبو محمد المخلدي قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد الحفوظي قال : حدّثنا عبد الله بن هشام قال : حدّثنا أسباط بن محمد القرشي عن مطرف عن عطية عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ" وقال أصحاب رسول الله كيف نقول ؟

قال : " قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا " .

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾

أخبرنا أبو جعفر [محمد] الحلقاني قال : حدّثنا أبو العباس أحمد بن هارون الفقيه قال : حدّثنا عمران بن موسى قال : حدّثنا هدية بن خلد القيسي ، قال : حدّثنا أبو حباب القصاب قال : أمّنا زرارة بن أوفى فلما بلغ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ الآية : خرّ ميتاً .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ أي خلقته في بطن أمه ﴿ وَحِيداً ﴾ فريداً لا مال له ولا ولد . نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي . قال ابن عباس وكان يسمى : الوحيد في قومه .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي كثيراً وقيل : ما يمدّ بالنماء كالزرع والضرع والتجارة واختلفوا في مبلغه . فقال : مجاهد وسعيد بن جبير : ألف دينار . قتادة : أربعة آلاف دينار . سفيان الثوري : ألف ألف . النعمان بن سالم : كان ماله أرضاً . ابن عباس : سبعة آلاف مثقال فضة . مقاتل : كان له بستاناً بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء ولا صيفاً ، دليله ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] .

وروى ابن جريج عن عطاء عن عمر في قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ قال : غلّة شهر . بشهر .

(188/791)

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ حضوراً معه بمكة لا يغيبون عنه . قال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولداً . مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . مقاتل : كانوا سبعة كلّهم رجال ، وهم : الوليد بن الوليد وخالد بن الوليد وعماره بن الوليد وهشام بن الوليد والعاص بن الوليد وقيس بن الوليد وعبد شمس بن الوليد ، أسلم منهم ثلاثة : خالد وهشام وعمارة ، قالوا : فما زال

الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي بسطت له في العيش بسطاً ، وقال ابن عباس : يعني المال بعضه على بعض كما تمهد الفرش ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ ﴾ يرجو ﴿ أَنْ أَزِيدَ ﴾ مالا وولداً أو تمهيداً في الدنيا ﴿ كَلاَّ ﴾ قطع الرجاء عمّا كان يطمع فيه ويكون متّصلا بالكلام الأوّل وقيل : قسم أي حقاً وتكون ابتداء آية .

﴿ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ معناداً ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ سأكلّفه مشقّة من العذاب لا راحة له منها .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن سعيد قال : حدّثنا أحمد بن صالح قال : حدّثنا عبد الله بن وهب قال : أخبرني عمرو بن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي (عليه السلام) ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ قال : " هو جبل في النار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت " .

(189/791)

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ الآيات ، وذلك أن الله سبحانه لما أنزل على النبي (عليه السلام) ﴿ حم* تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيز العليم ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ [غافر : 1-3-2] قرأها النبي (عليه السلام) في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي (عليه السلام) لإستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حذاء مجلس قومه بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق وإنّه يعلو وما يُعلى .

(190/791)

ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبا والله الوليد والله ليصبأنّ قريش كلّهم وكان يقال للوليد : ريحانة قريش ، فقال : لهم أبو جهل أنا أكفيكموه فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً ، فقال : له الوليد مالي أراك حزيناً يا بن أخي ، قال : وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنّك [تؤمن] بكلام محمد وتدجل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني أكثرهم مالا وولداً وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ؟ ثم

قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنوناً فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهّن قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذّاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : لا ، وكان رسول الله (عليه السلام) يسمّى : الأمين قبل النبوة من صدقه . فقالت : قريش : فما هو ؟ فتفكّر في نفسه ثم نظر وعبس فقال : ما هو إلاّ ساحراً ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله سحر . فذلك قوله سبحانه ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ في محمد والقرآن وقدّر في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . ﴿ فَقُتِلَ ﴾ لعن ، وقال الزهري : عُذّب ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ على طريق التعجّب والإنكار والتوبيخ . ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ كلح ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر * فَقَالَ إِنْ هذآ ﴾ ما هذا الذي يقرأه محمد ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ يروى ويحكى .

﴿ إِنْ هذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ يعني يساراً وجبراً فهو مأثرة عنهما .

وقيل : يرويه عن مسيلمة صاحب اليمامة ، وقيل : يرويه عن أهل بابل .

﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ سأدخله ﴿ سَقَرَ ﴾ لم يصرفه ، لأنه اسم من أسماء جهنم .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا سعدان قال : حدّثنا أحمد بن صالح قال : حدّثنا ابن وهب قال : أخبرنا عمرو أن أبا السمح حدّثه عن ابن حجرة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال موسى لربّه عزّوجلّ : أي عبادك أفقر ؟ قال : صاحب سقر " .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴾ فيها شيئاً إلاّ أكلته وأهلكته قال مجاهد : يعني لا تميت ولا تحيي يعني أنها لا تبقي من فيها حيّاً ولا تذر من فيها ميتاً ، ولكنها تحرقهم كلّما جدد خلقهم ، وقال السدي : لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ، وقال الضحاك : إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئاً وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم ، ولكل شيء فترة وملالة إلاّ لجهنم .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ مغيّرة للجلود . تقول العرب : لاحته الشمس ولوّحته . قال الشاعر : تقول لشيء لوحته السمائم . . . وقال رؤبة :

لوح منه بعد بدّن وسق . . . تلويحك الضامر يُطوى للسبق

قال مجاهد : يلفح الجد فتدعه أشدّ سواداً من الليل ، وقال ابن عباس وزيد ابن أسلم : محرقة للجلد ، وقال الحسن وابن كيسان : يعني تلوح لهم جهنم متى يروها عياناً . نظيره ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 91] ، ولوّاحة رفع على النعت ، سقر في قوله ﴿

وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ وقرأ عطية العوفي في ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ بالنصب والبشر جمع بشره وجمع البشر أبشار .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ من الخزنة ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر صنفاً ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر صفاً ، ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر نقيباً ، ويحتمل أن يكونوا تسعة عشر ملكاً بأعيانهم وعلى هذا أكثر المفسّرين . ولا يستنكر هذا فإن ملك واحد يقبض أرواح جميع الخلق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلق .

(192/791)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن لؤلؤ قال : أخبرنا الهيثم بن خلف قال : حدّثنا إبراهيم ابن إبراهيم قال : حدّثنا حجاج بن جريج قال : حدّثنا مرفوعاً إلى النبي (عليه السلام) " إنّه نعت خزنة النار فقال : كأن أعينهم البرق ، وكإن أفواههم الصياصي يجرّون أشعارهم ، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرميهم في النار ، ويرمي بالجبل عليهم " .

وقال عمرو بن دينار : إن واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . قال ابن عباس وقتاده والضحاك : لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل : لقريش ثكلتكم

أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم ألدّهم أي الشجعان أفتعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ، فقال أبو الاشدين كلدة بن خلف بن أسد الجمحي : أنا أكفيكم منهم سبعة عشرة على ظهري وسبعة على بطني واكفوني أنتم اثنين .

فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ لا رجالا إذ من فمن ذا يغلب الملائكة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ عددهم ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم أنا أكفيكموه . ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ لأنّه مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر .

﴿ وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ ﴾ يشك ﴿ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق قاله أكثر المفسرين ، وقال الحسين بن الفضل : السورة مكيّة ولم يكن بمكة البتة نفاق فالمرض في هذه الخلاف لا النفاق .

﴿ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ إنما قاله مشركو مكّة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ جموع ربك ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ قال مقاتل : هذا جواب أبي جهل حين قال : أما لمحمد أعوان إلاّ تسعة عشر .

أخبرنا الحسين قال : حدّثنا عمران أحمد بن القاسم قال : حدّثنا محمد بن أحمد الصباح قال : حدّثنا محمد بن عبيدة الوراق أبو مخدورة قال : حدّثنا حسين بن الحسن الأشقر قال : حدّثنا هاشم عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسّم غنائم حنين وجبرئيل إلى جنبه ، فأتاه ملك فقال : إنّ ربّك يأمرك بكذا وكذا قال : فخشي النبي عليهم أن يكون شيطان فقال : " يا جبريل أتعرفه " قال : هو ملك ، وما كل ملائكة ربّك أعرف " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا عبد بن مرداس قال : حدّثنا سلمة ابن شعيب قال : حدّثنا عبد القدوس قال : سمعت الأوزاعي يقول : قال موسى عليه السلام : يا ربّ من معك في السماء ؟ قال : ملائكتي ، قال : كم عددهم ؟ قال : إثنا عشر سبطاً ، قال : كم عدة كل سبط ؟ قال : عدد التراب .

﴿ وَمَا هِيَ ﴾ يعني النار ﴿ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ عضة للناس .

﴿ كَلاَّ والقمر * والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ يعني ولّى ذاهباً ، اختلفت القراءة فيه فقرأ ابن محيصن ونافع وحمزة وخلف ويعقوب وحفص ﴿ إِذْ ﴾ بغير ألف . ﴿ أَدْبَرَ ﴾ بالألف ، غيرهم هم ضده ، واختاره أبو عبيد قال : لأنها أشّد موافقه للحرف الذي يليه ، ألا تراه قال : ﴿ والصبح إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ فكيف يكون في أحدهما إذا وفي الآخر إذ ، وأبو حاتم قال : لأنه ليس

في القرآن لجنبه إذ وأنما الأقسام بجنبها إذا .

قال قطرب من قرأ ﴿ والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ : يريد أقبل ، من قول العرب دبر فلان أي جاء خلفي ، فكأنّه دبر خلف النهار . قال أبو الضحى : كان ابن عباس يعيب على من يقرأ دبر ويقول : إنما يدبّر ظهر البعير ، وقال الفراء : هما لغتان دبّر وأدبر . قال الشاعر :

صدعت غزالة قلبه بفوارس . . . تركت مسامعه كأمس الدابر

وقال أبو عمرو : دبّر لغة قريش .

(194/791)

﴿ والصبح إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ قرأه العامة بالألف أي أضاء وأقبل ، وقرأ ابن السميع وعيسى ابن الفضل سفر بغير ألف ، وهما لغتان يقال : سفر وجه فلان وأسفر ، إذا أضاء ، ويجوز أن يكون من قولهم : سفرت المرأة إذا ألقت خمارها عن وجهها ، ويحتمل أن يكون معناه نفي الظلام كما سفر البيت أي يكنس ويقال للمكنسة المسفرة .

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ يعني أن سفر لإحدى الأمور العظام وواحد الكبر كُبرى : ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ يعني أنّ النار نذير للبشر قال الحسن : والله ما أنذر الله بشيء أدهى منها ، وهو نصب على القطع من قوله : ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ ؛ لأنها معرفة ونذيراً نكرة .

قال الخليل : النذير مصدر كالنكير ، فلذلك وصف به المؤنث ، وقيل : هو من صفة الله سبحانه مجازه : وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة ، نذيراً للبشر أي إنذاراً لهم . قال أبو رزين : أنا لكم منها نذير فاتقوها ، وقيل : هو صفة محمد (عليه السلام) ، ومعنى الكلام : يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر ، وهو معنى قول ابن زيد ، وقرأ إبراهيم عن أبي غيلة نذير للبشر بالرفع على إضمار هو .

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ في الخير والطاعة ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عنها في الشر والمعصية نظيره ودليله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ [الحجر : 24] يعني في الخير ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ [الحجر : 24] عنه قاله الحسن ، وهذا وعيد لهم كقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] يعني أنّه نذير لهما جميعاً . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرتهنة بكسبها مأخوذة بعملها . ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ فإنهم لا يحاسبون ولا يرتهنون بذنوبهم ولكن يغفرها الله لهم ويتجاوزها عنهم كما وعدهم . قال قتادة : غلق الناس كلّهم إلاّ أصحاب اليمين واختلفوا فيهم .

(195/791)

فأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن [شنبه] قال : حدّثنا رضوان بن أحمد قال : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار قال : حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي اليقظان عن زاذان عن علي في قوله : ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ قال : هم أطفال المسلمين .

تدل عليه ما أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حسن قال : حدّثنا البغوي قال : حدّثنا علي ابن الجعد قال : أخبرنا أبو عقيل عن نُهيّة عن عائشة قالت : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ولدان المؤمنين أين هم ؟ قال : " فِى الْجَنَّةِ " وسألته عن ولدان المشركين فقال : " إنْ شئت سمّعتُكِ تضاغيهم في النار " .

وقال أبو ظبيان : عن ابن عباس : هم الملائكة ، وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر قال : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وقال مقاتل : هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق حين قال لهم الله سبحانه : هؤلاء في الجنة ولا أبالي .

وقال الحسن : هم المسلمون المخلصون ، وعنه أيضاً : هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم . ابن كيسان هم المؤمنون الصالحون ليسوا مرتهنين لأنهم أدّوا ما كان عليهم . يمان : هم الذين أمكنوا رهونهم ، وقال الحكيم : هم الذين أختار الله سبحانه بخدمته فلم يدخلوا في الرهن ، لأنهم خدّام الله سبحانه وصفوته وكسبهم لم يضرهم ، وقال القاسم : كلّ نفس مأخوذة بكسبها من خير وشر إلاّ من اعتمد الفضل والرحمة دون الكسب والخدمة فكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به ومَنْ اعتمد على الفضل فإنّه غير مأخوذ . وسمعت

أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت أبا عمرو البخاري يقول : في قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ قال : فأين الفرار من القدر وكيف القرار على الخطر ؟

(196/791)

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ المجرمين ﴾ المشركين ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخآئضين ﴾ في الباطل . ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين * حتى أَتَانَا اليقين ﴾ يعني الموقن به وهو الموت .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ قال عبد الله بن مسعود : يشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلاّ أربعة ثم تلا قوله سبحانه : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ إلى قوله ﴿ بِيَوْمِ الدين ﴾ قال الحسن : كنا نتحدّث أن الشهيد يُشفع في سبعين من أهل بيته .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن ماهان قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد قال : حدّثنا ثابت عن الحسن أن رسول الله (عليه السلام) قال : " يقول الرجل من أهل الجنة يوم القيامة أي ربي عبدك فلان سقاني شربة من الماء في

الدنيا فشفّعني فيه ، فيقول اذهب فاخرجه من النار فيذهب فيتجسس النار حتى يخرجه منها " .

وبإسناد عن حماد عن خالد الحذاء عن عبد الله ابن شفيق عن رجل من بني تميم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ليشفعن رجل من أمتي لأكثر من بني تميم " .

وأخبرنا الحسن قال : حدّثنا عمر بن نوح البجلي قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن شاهين قال : حدّثنا عبد الله بن عمر قال : حدّثنا أبو معاوية قال : حدّثنا داود بن أبي هند عن عبد الله بن قيس الأسدي عن الحرث بن أقشن قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أمتي من سيدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من مضر " .

(197/791)

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ نصب على الحال ، وقيل : صاروا معرضين . ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ جمع حمار ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وأيوب بفتح الفاء أي منفرة مذعورة ، ومثله روى المفضل عن عاصم وأختاره أبو عبيد ، وقرأ الآخرون بالكسر أي نافرة يقال : نفرت واستنفرت بمعنى واحد ، وأنشد الفراء :

أمسك حمارك إنه مستنفر . . . في الثر أحمرة عمدن لغُرت

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا أبو حامد المستملي قال : حدّثنا محمد بن حاتم الذمي قال : حدّثنا محمد بن سلام الجمحي قال : سألت أبا سراب الغنوي وكان إعرابياً فصيحاً قارئاً للقرآن فقلت : حمر ماذا ؟ قال : حمرّ مستنفرة طردها قسورة ، قلت : إنّما هي فرت من قسورة فقال : أفرّت ، قلت : نعم قال : فمستنفرة .

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ اختلفوا فيه فقال مجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان : هم الرُماة وهي رواية عطاء عن ابن عباس وأبي ظبيان عن أبي موسى الأشعري ، وقال سعيد بن جبير : هم القناص وهي رواية عطية عن ابن عباس .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي قال : حدّثنا محمد بن أيوب قال : أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدّثنا وكيع عن شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : فرت من قسورة قال : عُصب الرجال .

وأخبرني عقيل قال : أخبرنا المعافى قال : أخبرنا محمد بن جرير قال : حدّثنا ابن المثنى قال : حدّثني عبد الصمد بن عبد الوارث قال : سمعت أبي تحدث قال : حدّثني داود قال : حدّثني عباس بن عبد الرحمن مولى بني هاشم قال : سئل ابن عباس عن القسورة فقال : هي جمع الرجال ألم تسمع ما قالت فلانه في الجاهلية :

يا بنت كوني خيرة لخيرة . . . أخوالها الحي وأهل القسورة

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا محمد بن عمران قال : حدّثنا أبو عبيد الله المخزومي قال : حدّثنا سفيان بن عيينة عن عمرو وعن عطاء عن ابن عباس في قوله سبحانه ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : هي ركز الناس .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبش قال : حدّثنا أبو يعلي الموصلي قال : حدّثنا يحيى بن معين قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسماعيل بن مسلم العبدي عن أبي المتوكّل في قوله سبحانه : ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : هو لغط القوم ، وقال أبو هريرة : هي الأسد .

وأخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن ماهان قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سليمان بن قتة عن ابن عباس ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : هو بلسان العرب : الأسد ، وبلسان الحبش : القسورة ، وبلسان فارس : شير ، وبلسان النبط : أريا . وقيل : هو فعولة من القسر وهو القهر ، سمي بذلك لأنه يقهر السباع كلّها .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا محمد بن صالح

بن ذريح قال : حدّثنا حبارة بن مغلس قال : حدّثنا عبد الأعلى بن أبي المساور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال : من حبال الصيادين ، وقال عكرمة : من ظلمة الليل ، وقيل : هي سواد أول الليل ولا يقال لسواد آخر الليل : قسورة ، وقال زيد بن أسلم : أي من رجال أقوياء ، وكلّ ضخم شديد عند العرب فهو قسور وقسورة . قال لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا . . . أتانا الرجال العائذون القساور

(199/791)

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ وذلك أنهم قالوا : يا محمد إن سرّك أن نتبعك فأتنا بكتاب خاصة إلى فلان وفلان من ربّ العالمين نؤمر فيه باتباعك ، نظيره قوله : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : 93] . بادان عن ابن عباس يقول : كان المشركون يقولون : لو كان محمد صادقاً فليصح عند كل رأس رجل منا صيحة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الوراق : كانوا يريدون أن يؤتوا براءة من غير عمل ، وقال الكلبي : " إن المشركين قالوا : يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل يصبح مكتوب عند رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ، فكرهه رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأنزل الله سبحانه هذه الآية ﴿ كَلاَّ ﴾ "ليس كما تقولون وتريدون وقيل : حقاً وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة * كَلاَّ إِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ وليس بسحر ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ بالتاء نافع ، يعقوب وغيرهما بالياء ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ أي أهل أن تتقى محارمه وأهل أن يغفر لمن اتقاه .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل قال : حدّثنا هدية بن خالد قال : وحدّثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق وهارون بن محمد قالا : حدّثنا محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا هدية قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي قال : حدّثنا الحسن ابن علي المعمري قال : حدّثنا هدية قال : حدّثنا سهيل بن أبي حزم عن ثابت عن أنس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذه الآية : ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ : قال ربكم عزّوجلّ : أنا أهل أن اتقى ولا يشرك بي غيري وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بي أن أغفر له" .

(200/791)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا عبد القدوس بن بكر قال : سمعت محمد بن النظر الجارقي يذكر في قوله سبحانه : ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ قال : أنا أهلٌ أن يتقيني عبدي فإن لم يفعل كنت أنا أهلاً أن أغفر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 67.80 ﴾

(201/791)

وقال الزمخشرى :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية ، وهي ست وخمسون آية [نزلت بعد المزمل] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المدثر (74) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

الْمُدَّثِّرُ لابس الدثار ، وهو ما فوق الشعار : وهو الثوب الذي يلي الجسد . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الأنصار شعار والناس دثار» «1» وقيل : هي أوّل سورة نزلت . وروى

جابر بن عبد اللّه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد ، إنك رسول اللّه ، فنظرت عن يمينى ويساري فلم أر شيأ ، فنظرت فوقى فرأيت شيأ» «2» . وفي

---

(1) . تقدم في آل عمران .

(2) . متفق عليه من رواية أبى سلمة عنه وأتم منه .

(202/791)

رواية عائشة : «فنظرت فوقى فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعنى الملك الذي ناداه - فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني دثروني ، فنزل جبريل وقال : «يا أيها المدثر»»

وعن الزهري : أوّل ما نزل : سورة اقرأ باسم ربك إلى قوله ما لَمْ يَعْلَمْ فحزن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال : إنك نبىّ اللّه ، فرجع إلى خديجة وقال : دثروني وصبوا علىّ ماء باردا ، فنزل : يا أيها المدثر «2» . وقيل : سمع من قريش ما كرهه فاغتم ، فتغطي بثوبه مفكرا كما يفعل المغموم . فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه .

وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول . من دثره . وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك ، كما قال في المزمّل : قم من مضجعك . أو قم قيام عزم وتصميم فَأَنْذِرْ فحذر قومك من عذاب اللّه إن لم يؤمنوا . والصحيح أنّ المعنى : فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ واختص ربك بالتكبير : وهو الوصف بالكبرياء ، وأن يقال : اللّه أكبر . ويروى أنه لما نزل قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اللّه أكبر» فكبرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحى ، وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط . كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ، لأنّ طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها ، وهي الأولى والأحب في غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا . وقيل : هو أمر بتقصيرها ، ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول ، وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات . وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق . وفلان دنس الثياب للغادر ، وذلك لأنّ الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه ، فكنى به عنه . ألا ترى إلى قولهم : أعجبنى زيد ثوبه ، كما يقولون : أعجبنى زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد في ثوبه ، والكرم تحت حلته ، ولأنّ الغالب أنّ من طهر باطنه ونقاه عنى بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء وَالرُّجْزَ قرئ بالكسر والضم ،

وهو العذاب ، ومعناه : اهجر ما يؤدى إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم . والمعنى : الثبات على هجره ، لأنه كان بريئا منه .

---

(1) . لم أره عن عائشة . وإنما هو قصة حديث جابر . ولعل الزمخشري قصد بقوله «وفي رواية عائشة لفظة منه وإلا فالجميع من حديث جابر رضى اللّه عنه قلت : يوجد ما ذكره الزمخشري من رواية النعمان بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة عند الطبري .

[. . . . .]

(2) . أخرجه الطبري من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال «كان أول شيء نزل على النبي صلى اللّه عليه وسلم اقرأ - فذكره وأتم منه . رواه الحاكم من طريق محمد بن سيرين عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى اللّه عنها .

(203/791)

[سورة المدثر (74) : الآيات 6 إلى 7]

وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

قرأ الحسن : ولا تمنّ . وتستكثر ، مرفوع منصوب المحل على الحال ، أى : ولا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا ، أو طالبا للكثير : نهى عن الاستغزار : وهو أن يهب شيئا

وهو يطمع أن يتعوّض من الموهوب له أكثر من الموهوب ، وهذا جائز . ومنه الحديث «المستغزر يثاب من هبته» «1» وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نهيا خاصا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

لأنّ اللّه تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق . والثاني : أن يكون نهى تنزيه لا تحريم له ولأمّته . وقرأ الحسن : تستكثر ، بالسكون . وفيه ثلاثة أوجه ، الإبدال من تمنن . كأنه قيل : ولا تمنن لا تستكثر ، على أنه من المنّ في قوله عز وجل ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لأنّ من شأن المنان بما يعطى أن يستكثره ، أى : يراه كثيرا ويعتدّ به ، وأن يشبه ثرو بعضد ، فيسكن تخفيفا ، وأن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش بالنصب بإضمار «أن» كقوله :

ألا أيهذا الزّاجرى أحضر الوغى «2»

وتؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر . ويجوز في الرفع أن تحذف «أن» ويبطل عملها ، كما روى : أحضر الوغى بالرفع ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ولوجه اللّه ، فاستعمل الصبر . وقيل :

على أذى المشركين . وقيل : على أداء الفرائض . وعن النخعي : على عطيتك ، كأنه وصله بما قبله ، وجعله صبرا على العطاء من غير استكثار . والوجه أن يكون أمرا بنفس الفعل ، وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ، ويراد الصبر على أذى

الكفار ، لأنه أحد ما يتناوله العام .

[سورة المدثر (74) : الآيات 8 إلى 10]

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

والفاء في قوله فَإِذا نُقِرَ للتسبيب ، كأنه قال : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه . والفاء في فَذلِكَ للجزاء . فإن قلت : بم انتصب إذا ، وكيف صح أن يقع يَوْمَئِذٍ ظرفا ليوم عسير ؟ قلت : انتصب إذا بما دلّ

---

(1) . تقدم في الروم من قول شريح .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه .

عليه الجزاء ، لأنّ المعنى : فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع يَوْمَئِذٍ ظرفا ليوم عسير : أنّ المعنى : فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير ، لأنّ يوم القيامة يأتى ويقع حين ينقر في الناقور . واختلف في أنها النفخة الأولى أم الثانية . ويجوز أن يكون يومئذ مبنيا مرفوع المحل ، بدلا من فَذلِكَ وَيَوْمٌ عَسِيرٌ خبر ، كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير . فإن

قلت : فما فائدة قوله غَيْرُ يَسِيرٍ وعَسِيرٌ مغن عنه ؟ قلت : لما قال عَلَى الْكافِرِينَ فقصر العسر عليهم قال : غَيْرُ يَسِيرٍ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم .

ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا ، كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا .

[سورة المدثر (74) : الآيات 11 إلى 25]

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15)

كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)

ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

وَحِيداً حال من اللّه عز وجل على معنيين ، أحدهما . ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم . والثاني : خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد . أو حال من المخلوق على معنى : خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد ، كقوله وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه بالوحيد ، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية ، فإن كان ملقبا به قبل فهو تهكم به وبلقبه ،

وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمونه – من مدحه ، والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدّمه في الدنيا – إلى وجه الذم والعيب : وهو أنه خلق وحيدا لا مال له ولا ولد ، فآتاه اللّه ذلك ، فكفر بنعمة اللّه وأشرك به واستهزأ بدينه مَمْدُوداً مبسوطا كثيرا : أو ممدّا بالنماء ، من مدّ الهر ومدّ نهره آخر . قيل : كان له الزرع والضرع والتجارة . وعن ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال . وقيل : كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفا وشتاء .

وقيل : كان له ألف مثقال . وقيل : أربعة آلاف . وقيل تسعة آلاف . وقيل : ألف ألف .

وعن ابن

(205/791)

جريج : غلة شهر بشهر وَبَنِينَ شُهُوداً حضورا معه بمكة لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة ، لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم ، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيبتهم ، وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم . ويجوز أن يكون معناه : أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل . أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه . وعن مجاهد : كان له عشرة بنين . وقيل : ثلاثة عشر .

وقيل :

سبعة كلهم رجال : الوليد بن الوليد ، وخالد ، وعمارة ، وهشام ، والعاص ، وقيس ، وعبد شمس :

أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، وعمارة وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه ، فأتممت عليه نعمتي المال والجاه واجتماعهما : هو الكمال عند أهل الدنيا . ومنه قول الناس : أدام اللّه تأييدك وتمهيدك ، يريدون : زيادة الجاه والحشمة . وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ثُمَّ يَطْمَعُ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه «1» ، يعنى أنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة . وقيل : إنه كان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي كَلَّا ردع له وقطع لرجائه وطمعه إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأن قائلا قال : لم لا يزاد ؟ فقيل : إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته ، والكافر لا يستحق المزيد : ويروى : أنه ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً سأغشيه عقبة شاقة المصعد : وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع عليها يده ذابت «2» ، فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت» وعنه عليه السلام : الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا «3» ، إِنَّهُ فَكَّرَ تعليل

الوعيد ، كأن اللّه تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز في الدنيا بعناده ، ويعاقب في الآخرة بأشدّ العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره ، وتسميته القرآن سحرا . ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً

---

(1) . قال محمود : «دخلت ثم استبعادا لطمعه وحرصه على الزيادة ، واستنكارا لذلك فرد اللّه طمعه خائبا . . . الخ» قال أحمد : لأن الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر : لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث .

(2) . أخرجه البزار والطبرانى في الأوسط والبيهقي في الشعب والطبري وابن أبى حاتم . كلهم من طريق شريك عن عمار الدهني عن عطية عن أبى سعيد مرفوعا . قال البزار : لا نعلمه رفعه إلا شريك . وبه جزم الطبراني .

ورواه البزار والبيهقي من رواية ابن عيينة عن عمارة مرفوعا .

(3) . أخرجه الترمذي من طريق أبى لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا انتهى . وقد رواه الحاكم والطبري والبيهقي في الشعب من رواية عمرو بن الحارث عن دراج . ورواه ابن مردويه من رواية رشدين ابن سعد عن دراج أيضا .

ردّا لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له ، وإخبارا بأنه من أشدّ أهل النار عذابا ، ويعلل ذلك بعناده ، ويكون قوله إِنَّهُ فَكَّرَ بدلا من قوله إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً بيانا لكنه عناده . ومعناه فكر ماذا يقول في القرآن وَقَدَّرَ في نفسه ما يقول وهيأه فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز . ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به . أو هي حكاية لما كرروه من قولهم . قتل كيف قدّر تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله . ومعنى قول القائل : قتله اللّه ما أشجعه . وأخزاه اللّه ما أشعره : الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك . روى أنّ الوليد قال لبنى مخزوم : واللّه لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى ، فقالت قريش : صبأ واللّه الوليد ، واللّه لتصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ، وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ، وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحا ، وتفرّقوا معجبين بقوله متعجبين منه ثُمَّ نَظَرَ في وجوه

الناس «1» ، ثم قطب وجهه «2» ، ثم زحف مدبرا ، وتشاوس مستكبرا لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء ، وهمّ بأن يرمى بها وصف أشكاله التي تشكل بها حتى استنبط ما استنبط ، استهزاء به .

وقيل : قدّر ما يقوله ، ثم نظر فيه ، ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول . وقيل : قطب في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثُمَّ أَدْبَرَ عن الحق وَاسْتَكْبَرَ عنه فقال ما قال . وثُمَّ نَظَرَ عطف على فَكَّرَ وَقَدَّرَ والدعاء : اعتراض بينهما . فإن قلت : ما معنى ثُمَّ الداخلة في تكرير الدعاء ؟

قلت ، الدلالة على أن الكرّة الثانية أبلغ من الأولى . ونحوه قوله .

ألا يا أسلمي ثمّ أسلمي ثمّت أسلمي

---

(1) . قوله «ثم نظر في وجوه الناس ، أى نظر بمؤخر عينه تكبرا أو تغيظا ، كما في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «ثم قطب وجهه» في الصحاح : قطب وجهه تقطيبا : عبس . وفيه أيضا : عبس عبوسا كلح ، وبسر بسورا : كلح . يقال : عبس وبسر اه . (ع)

فإن قلت : ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها ؟ قلت ، الدلالة على أنه قد تأتى في التأمّل وتمهل ، وكأنّ بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد . فإن قلت : فلم قيل فَقالَ إِنْ هذا بالفاء بعد عطف ما قبله بثم ؟ قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث .

فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين ؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد .

[سورة المدثر (74) : الآيات 26 إلى 31]

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (31)

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ بدل من سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . لا تُبْقِي شيئا يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد . أو لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة لَوَّاحَةٌ من لوح الهجير . قال :

تقول ما لاحك يا مسافر يا ابنة عمّى لاحنى الهواجر «1»

قيل . تلفح الجلد لفحة فتدعه أشدّ سوادا من الليل . والبشر : أعالى الجلود . وعن الحسن .

تلوح للناس ، كقوله ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ وقرئ : لواحة ، نصبا على الاختصاص للتهويل عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ أى يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكا . وقيل : صنفا من الملائكة .

وقيل : صفة . وقيل : نقيبا . وقرئ : تسعة عشر ، بسكون العين لتوالى الحركات في ما هو في حكم

---

(1) . لاحه الحر لوحا : غيره وسوده . والهاجرة : شدة الحر . وأهجر القوم وهجروا بالتشديد وتهجروا : ساروا في الهاجرة ، وفيه التفات ، كأنه خاطب غيرها أولا . وعجبه من استفهامها عن الشيء الظاهر سببه وهو السفر ، بل هي معترفة أنه مسافر كما قالت ، ومن قساوة قلبها عليه ، ثم التفت إليها بجواب سؤالها . وفي ندائها معنى التنبيه والإيقاظ والاستعطاف .

اسم واحد . وقرئ : تسعة أعشر ، جمع عشير ، مثل : يمين وأيمن . جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ، ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم خلق اللّه بحق اللّه وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقواهم بطشا . عن عمرو بن دينار : واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم . «كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ، «1» يجرون أشعارهم ، لأحدهم مثل قوّة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم في النار ويرمى بالجبل عليهم» «2» . وروى أنه لما نزلت عَلَيْها ِتسْعَةَ عَشَرَ قال أبو جهل لقريش . ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش . أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل اللّه وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون . فإن قلت : قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببا لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين ، «3» فما وجه صحة ذلك ؟ قلت . ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببا ، وذلك أن المراد بقوله وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا موضع تِسْعَةَ عَشَرَ لأن حال هذه العدة

الناقصة واحدا من عقد العشرين . أن يفتتن بها من لا يؤمن باللّه وبحكمته ويعترض ويستهزئ ، ولا يذعن إذعان المؤمن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل .

ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان

---

(1) . قوله «الصياصي» هي الحصون ، واحدها صيصية . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . لم أجده .

(3) . قال محمود : «إن قلت قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببا . . . الخ» قال أحمد : ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببا ، لأن المراد : وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا موضع ذلك ، لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من العشرين : أن يفتتن بها من لا يؤمن باللّه وبحكمته ولا يذعن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة كأنه قيل : لقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب .

قال أحمد : السائل جعل الفتنة التي هي في تقدير الصفة العدة ، إذ معنى الكلام ذات فتنة سببا فيما بعدها ، والمجيب جعل العدة التي عرضت لها هذه الصفة سببا لا باعتبار عروض الصفة لها . ويجوز أن يكون لِيَسْتَيْقِنَ راجعا إلى ما قبل الاستثناء ، كأنه قيل : جعلنا عدتهم سببا لفتنة الكافرين وسببا ليقين المؤمنين ، وهذا الوجه أقرب مما ذكره

الزمخشري ، وإنما ألجأه إليه اعتقاد أن اللّه تعالى ما فتنهم ولكنهم فتنوا أنفسهم ، بناء على قاعدة التبعيض في المشيئة وبئست القاعدة فاحذرها .

(209/791)

أهل الكتاب ، لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين ، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من اللّه ، وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ، ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك . فإن قلت : لم قال وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ والاستيقان وازدياد الإيمان دالا على انتفاء الارتياب ؟ قلت . لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك . كان آكد وأبلغ لوصفهم « 1 » بسكون النفس وثلج الصدر ، ولأن فيه تعريضا بحال من عداهم ، كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر . فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟ قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة وَالْكافِرُونَ بمكة ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب ، وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم

شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب . فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا ، فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين ، فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضا ؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب في العلة أن تكون غرضا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك . مَثَلًا تمييز لهذا ، أو حال منه ، كقوله هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً . فإن قلت : لم سموه مثلا ؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب . لأنه مما غرب من الكلام وبدع ، استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له .

والمعنى : أى شيء أراد اللّه بهذا العدد العجيب ، وأى غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله ، وأنه ليس من عند اللّه ، وأنه لو كان من عند اللّه لما جاء بهذا العدد الناقص .

الكاف في كَذلِكَ نصب ، وذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المؤمنين ، يعنى : يفعل فعلا حسنا مبنيا على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال اللّه كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا ، وينكره الكافرون ويشكون . فيه فيزيدهم كفرا وضلالا

---

(1) . قال محمود : «و قوله تعالى وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بعد قوله لِيَسْتَيْقِنَ ليحصل لهم فائدة الجمع بين إثبات اليقين . . . الخ» قال أحمد : أطلق الغرض على اللّه عز وجل ، مع أنه موهم ولم يرد فيه سماع .

وأورده السؤال على قاعدته بعد ذلك كله في أن اللّه لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم ، وإنما قالوا على خلاف «ما أراد ، وقد عرفت فساد القاعدة فأرح فكرك من هذا السؤال . فالكل مراد ، وحسبك تتمة الآية كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ .

(210/791)

وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ وما عليه . كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة إِلَّا هُوَ ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة . أو : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها . وقيل : هو جواب لقول أبى جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار - إلى قوله - إلا هو

: اعتراض . وقوله وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى متصل بوصف سقر وهي ضميرها ، أى : وما سقر وصفتها إلا تذكرة لِلْبَشَرِ أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها .

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 إلى 37]

كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

كَلَّا إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون . أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرا . و«دبر» بمعنى أدبر «1» ، كقبل بمعنى أقبل . ومنه صاروا كأمس الدابر . وقيل : هو من دبر الليل النهار إذا خلفه . وقرئ : إذ أدبر إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ جواب القسم . أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد . والكبر : جمع الكبرى ، جعلت ألف التأنيث كتائها «2» ، فلما جمعت فعلة على فعل : جمعت فعلى عليها ، ونظير ذلك : السوافي في جمع السافياء ، والقواصع في جمع القاصعاء ، كأنها جمع فاعلة ، أى : لإحدى البلايا أو الدواهي الكبر ، ومعنى كونها إحداهنّ : أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء . ونَذِيراً تمييز من إحدى ، على معنى : إنها لإحدى الدواهي إنذارا ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافا . وقيل : هي حال . وقيل : هو متصل بأوّل السورة ، يعنى : قم نذيرا ، وهو من بدع التفاسير . وفي قراءة

أبى : نذير بالرفع

---

(1) . قوله «و دبر بمعنى أدبر» يعنى في قراءة : والليل إذ أدبر . وعبارة النسفي : والليل إذ أدبر : نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف وغيرهم إذا دبر . ودبر بمعنى أدبر . وقوله الآتي : وقرئ : إذ أدبر ، يفيد أن قراءة «دبر» هي المشهورة . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «جعلت ألف التأنيث كتائها» لعله كتائه . (ع)

(211/791)

خبر بعد خبر «لأن» أو بحذف المبتدإ أَنْ يَتَقَدَّمَ في موضع الرفع بالابتداء . ولمن شاء : خبر مقدّم عليه ، كقولك : لمن توضأ أن يصلى ، ومعناه مطلق لمن شاء التقدّم أو التأخر أن يتقدّم أو يتأخر ، والمراد بالتقدّم والتأخر : السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ويجوز أن يكون لِمَنْ شاءَ بدلا من لِلْبَشَرِ على أنها منذرة للمكلفين الممكنين : الذين إن شاءوا تقدّموا ففازوا ، وإن شاءوا تأخروا فهلكوا .

[سورة المدثر (74) : الآيات 38 إلى 48]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47)

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

رَهِينَةٌ ليست بتأنيث رهين «1» في قوله كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ لتأنيث النفس ، لأنه لو قصدت الصفة لقيل : رهين ، لأنّ فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه بيت الحماسة :

أبعد الّذى بالنّعف نعف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل «2»

---

(1) . قال محمود : «وليست بتأنيث رهين . . . الخ» قال أحمد : لأنه فعيل بمعنى مفعول ، يستوي مذكره ومؤنثه ، كقتيل وجديد .

(2) أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل

أأذكر بالبقيا على من أصابنى وبقياى أنى جاهد غير مؤتل

لمسور بن زيادة الحارثي . وقيل : لعبد الرحمن بن زيد ، قتل أبوه زيادة فعرض عليه فيه سبع ديات ، فأبى إلا الثأر .

والاستفهام إنكارى . والنعف - بالفتح - : الجبل والمكان المرتفع . وقيل : ما يستقبلك من الجبل . وكويكب :

جبل بعينه . وفي هذا الاندال من التفصيل بعد الإجمال : ما ينبئ عن تفخيم المحل والحال ، أى : أبعد قتل أبى المدفون في ذلك الموضع حال كونه محتبسا في رمس . وقيل : رهينة بالجر ، بدل من الذي ، فهو اسم ملحق بالجوامد بمعنى الرهن . ويقال : رمست الشيء رمسا إذا دفنته في التراب ، فأطلق المصدر وأريد مكانه ، وهو القبر . والجندل : الحجارة ، وكررت همزة الاستفهام في قوله «أ أذكر» توكيدا للأولى . لأنها داخلة على هذا الفعل تقديرا أيضا . ويحتمل أنها داخلة على مقدر ، أى : أبعد أبى أفرح بالدية . وروى «أذكر» بالتشديد والبناء للمجهول ، فالهمزة الأولى داخلة عليه ، ولا شاهد فيه حينئذ . والبقيا : الإبقاء على الشيء ، أى : لا أذكر بين الناس بأنى أبقيت على قاتل أبى ، والحال أن إبقائى عليه كوني جاهدا ومصمم العزم على الفتك به غير حالف على ذلك ، لأنى لا أحتاج إلى الحلف في تنفيذ أمورى . أو غير مقصر في الاجتهاد ، لأن الائتلاء يجيء بمعنى الحلف وبمعنى التقصير ،

(212/791)

كأنه قال : رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند اللّه غير مفكوك إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق .

وعن على رضى اللّه عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال ، لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هم الملائكة فِي جَنَّاتٍ أى هم في جنات لا يكتنه وصفها يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ يسأل بعضهم بعضا عنهم «1» . أو يتساءلون غيرهم عنهم ، كقولك : دعوته وتداعيناه . فإن قلت : كيف طابق قوله ما سَلَكَكُمْ وهو سؤال للمجرمين : قوله يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ وهو سؤال عنهم ؟ وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم قلت : ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسئولين عنهم ، لأنّ المسئولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم ما سلككم فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه . الخوض : الشروع في الباطل وما لا ينبغي . فإن قلت : لم يسألونهم وهم عالمون بذلك قلت : توبيخا لهم وتحسيرا ، وليكون حكاية اللّه ذلك في كتابه تذكرة للسامعين . وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال : أنهم «2» إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار . فإن قلت : أيريدون أنّ كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار ، أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا . فإن قلت : لم أخر التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيما للتكذيب . كقوله ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالْيَقِينُ الموت ومقدماته ، أى : لو شفع لهم الشافعون جميعا من الملائكة والنبيين

وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم ، لأنّ الشفاعة لمن ارتضاه اللّه وهم مسخوط عليهم .

وفيه دليل على أنّ الشفاعة تنفع يومئذ ، لأنها تزيد في درجات المرتضين .

---

(1) . قال محمود : «يتساءلون يعنى يسأل بعضهم بعضا عنهم . . . الخ» قال أحمد : إنما أورد السؤال ذريعة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركي الصلاة مثلا ، يسلكون في النار مخلدين مع الكفار ، فجعل كل واحدة من الخلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود . والصحيح في معنى الآية أنها خاصة بالكفار .

ومعنى قولهم لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ : لم نك من أهل الصلاة ، وكذلك إلى آخرها ، لأنهم يكذبون بيوم الدين ، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات ، ولو فعلها لم تنفعه وقدرت كالعدم ، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم .

(2) . قوله «أنهم» لعله : بأنهم . (ع)

(213/791)

[سورة المدثر (74) : الآيات 49 إلى 56]

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53)

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

عَنِ التَّذْكِرَةِ عن التذكير وهو العظة ، يريد : القرآن أو غيره من المواعظ .

ومُعْرِضِينَ نصب على الحال ، كقولك : مالك قائما . والمستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه «1» . وقرئ بالفتح : وهي المنفرة المحمولة على النفار : والقسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدونها . وقيل : الأسد . يقال : ليوث قساور وهي فعولة من القسر : وهو القهر والغلبة ، وفي وزنه «الحيدرة» من أسماء الأسد . وعن ابن عباس : ركز الناس وأصواتهم . وعن عكرمة : ظلمة الليل ، شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه ، بحمر جدت في نفارها مما أفزعها . وفي تشبيههم بالحمر :

مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين ، كما في قوله كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل . ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدّة سيرها بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص صُحُفاً مُنَشَّرَةً قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التي يتكاتب بها . أو كتبا كتبت في السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لن نتبعك حتى

تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك . ونحوه قوله وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ وقال : وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . . الآية وقيل : قالوا إن كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . وقيل : كانوا يقولون : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوبا على رأسه ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك ، وهذا من الصحف المنشرة بمعزل . إلا أن براد بالصحف المنشرة :

الكتابات الظاهرة المكشوفة . وقرأ سعيد بن جبير : صحفا منشرة بتخفيفهما ، على أن أنشر الصحف ونشرها : واحد ، كأنزله ونزله . ردعهم بقوله كَلَّا عن تلك الإرادة ، وزجرهم عن اقتراح الآيات ، ثم قال بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء

---

(1) . قوله «في جمعها له وحملها عليه» متعلق بكأنها ، لأنه وجه الشبه . (ع)

الصحف ، ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ يعنى تذكرة بليغة كافية ، مبهم أمرها في الكفاية فَمَنْ شاءَ أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل ، فإنّ نفع ذلك

راجع إليه . والضمير في إِنَّهُ وذَكَرَهُ للتذكرة في قوله فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ وإنما ذكر لأنها في معنى الذكر أو القرآن وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ يعنى : إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه . لأنهم مطبوع على قلوبهم . معلوم أنهم لا يؤمنون اختيارا هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا ويطيعوا ، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا . وروى أنس عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «هو أهل أن يتقى ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه» «1» وقرئ : يذكرون . بالياء والتاء مخففا ومشددا . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المدثر أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 657.644﴾

---

(1) . أخرجه لترمذى والنسائي وابن ماجة والطبراني في الأوسط وابن عدى والحاكم وأحمد وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية سهل بن إبراهيم العطفى عن ثابت عن أنس رضى اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال في هذه الآية «قال اللّه تعالى : أنا أهل أن أتقى - إلى آخره» قال الترمذي والطبراني وابن عدى : تفرد به سهل . ورواه الحكيم الترمذي في السابع والسبعين بعد المائة ، بلفظ «قال : هو أهل أن يتقى . فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له» وله شاهد من رواية عبد اللّه قال سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أبا هريرة وابن عمر وابن عباس رضى اللّه عنه يقولون : سئل رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى فذكره .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(215/791)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدَّثِّر ﴾

فيه قولان :

أحدهما : يا أيها المدثر بثيابه ، قاله قتادة .

الثاني : بالنبوة وأثقالها ، قاله عكرمة .

﴿ قم ﴾ من نومك ﴿ فأنذر ﴾ قومك عذاب ربك .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : يا أيها الكاتم لنبوته اجهر بإنذارك .

ويحتمل هذا الإنذار وجهين :

أحدهما : إعلامهم بنبوته لأنه مقدمة الرسالة .

الثاني : دعاؤهم إلى التوحيد لأنه المقصود بها .

قال ابن عباس وجابر هي أول سورة نزلت .

﴿ وثيابَك فَطِّهرْ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن المراد بالثياب العمل .

الثاني : القلب .

الثالث : النفْس .

الرابع : النساء والزوجات .

الخامس : الثياب الملبوسات على الظاهر .

فمن ذهب على أن المراد بها العمل قال تأويل الآية : وعملك فأصلح ، قاله مجاهد ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" يحشر المرء في ثوبيه اللذين مات فيها " يعني عمله الصالح والطالح .

ومن ذهب إلى أن المراد بالثياب القلب فالشاهد عليه قول امرىء القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ . . . فسلّي ثيابي من ثيابكِ تنسلِ

ولهم في تأويل الآية وجهان :

أحدهما : معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : وقلبك فطهر من الغدر وهذا مروي عن ابن عباس ، واستشهد بقول الشاعر :

فإني بحْمدِ الله لا ثوْبَ فاجر . . . لبست ولا مِن غَدْرةٍ أتَقَنّع .

ومن ذهب إلى أن المراد بالثياب النفس فلأنها لابسة الثياب ، فكنى عنها بالثياب ، ولهم

في تأويل الآية ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه ونفسك فطهر مما نسبك إليه المشركون من شعر أو سحر أو كهانة أو جنون ، رواه ابن أبي نجيح وأبو يحيى عن مجاهد .

الثاني : ونفسك فطهرها مما كنت تشكو منه وتحذر ، من قول الوليد بن المغيرة ، قاله عطاء .

الثالث : ونفسك فطهرها من الخطايا ، قاله عامر .

(216/791)

ومن ذهب إلى أن المراد النساء والزوجات فلقوله تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ [البقرة : 187] ولهم في تأويل الآية وجهان :

أحدهما : معناه ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف .

الثاني : الاستمتاع بهن من القبل دون الدبر ، وفي الطهر دون الحيض ، حكاهما ابن بحر .

ومن ذهب إلى أن المراد بها الثياب الملبوسة على الظاهر ، فلهم في تأويله أربعة أوجه :

أحدها : معناه وثيابك فأَنْقِ ، رواه عطاء عن ابن عباس ، ومنه قول امرىء القيس :

ثياب بني عَوفٍ طهارى نقيّةٌ . . . وأَوْجُهُهُمْ عند المشاهد غُرّان

الثاني : وثيابك فشمّر وقصّر ، قاله طاووس .

الثالث : وثيابك فطهر من النجاسات بالماء ، قاله محمد بن سيرين وابن زيد والفقهاء .

الرابع : معناه لا تلبس ثياباً إلا [من] كسب حلال مطهرة من الحرام .

﴿ والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : يعني الآثام والأصنام ، قاله جابر وابن عباس وقتادة والسدي .

الثاني : والشرك فاهجر ، قاله ابن جبير .

الثالث : والذنب فاهجر ، قاله الحسن .

الرابع : والإثم فاهجر ، قال السدي .

الخامس : والعذاب فاهجر ، حكاه أسباط .

السادس : والظلم فاهجر ، ومنه قول رؤبة بن العجاج .

كم رامنا من ذي عديد منه . . . حتى وَقَمْنا كيدَه بالرجزِ .

قاله السدي : الرَّجز بنصب الراء : الوعيد .

﴿ ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ، قال الضحاك : هذا حرمه الله تعالى على رسول وأباحه لأمته .

الثاني : معناه لا تمنن بعملك تستكثر على ربك ، قاله الحسن .

الثالث : معناه لا تمنن بالنبوة على الناس تأخذ عليها منهم أجراً ، قاله ابن زيد .

الرابع : معناه لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه ، قاله مجاهد .

ويحتمل تأويلاً خامساً : لا تفعل الخير لترائي به الناس .

﴿ ولِربّك فاصْبِرْ ﴾ أما قوله " وَلِرَبِّكَ " ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لأمر ربك .

(217/791)

الثاني : لوعد ربك .

الثالث : لوجه ربك .

وفي قوله " فاصْبِرْ سبعة تأويلات :

أحدها : فاصْبِرْ على ما لاقيت من الأذى والمكروه قاله مجاهد .

الثاني : على محاربة العرب ثم العجم ، قاله ابن زيد .

الثالث : على الحق فلا يكن أحد أفضل عندك فيه من احد ، قاله السدي .

الرابع : فاصْبِرْ على عطيتك لله ، قاله إبراهيم .

الخامس : فاصْبِرْ على الوعظ لوجه الله ، قاله عطاء .

السادس : على انتظام ثواب عملك من الله تعالى ، وهو معنى قول ابن شجرة .

السابع : على ما أمرك الله من أداء الرسالة وتعليم الدين ، حكاه ابن عيسى .

﴿ فإذا نُقِرَ في الناقُورِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني نفخ في الصور ، قاله ابن عباس ، وهل المراد النفخة الأولى أو الثانية ؟ قولان :

أحدهما : الأولى .

والثاني : الثانية .

- الثاني : أن الناقور القلب يجزع إذا دعي الإنسان للحساب ، حكاه ابن كامل .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن الناقور صحف الأعمال إذا نشرت للعرض .

﴿ ذرْني ومَنْ خَلَقْتُ وَحيداً ﴾ قال المفسرون يعني الوليد بن المغيرة المخزومي وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه ، وإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة لأذى الرسول .

وفي قوله تعالى : " وحيداً " تأويلان :

أحدهما : أن الله تفرد بخلقه وحده .

الثاني : خلقه وحيداً في بطن أُمّه لا مال له ولا ولد ، قاله مجاهد ، فعلى هذا الوجه في المراد بخلقه وحيداً وجهان :

أحدهما : أن يعلم به قدر النعمة عليه فيما أعطي من المال والولد .

الثاني : أن يدله بذلك على أنه يبعث وحيداً كما خلق وحيداً .

﴿ وجَعَلْتُ له مالاً مَمْدوداً ﴾ فيه ثمانية أقاويل :

أحدها : ألف دينار ، قاله ابن عباس .

الثاني : أربعة الآف دينار ، قاله سفيان .

الثالث : ستة الآف دينار ، قاله قتادة .

الرابع : مائة ألف دينار ، قاله مجاهد .

الخامس : أنها أرض يقال لها ميثاق ، وهذا مروي عن مجاهد أيضاً .

السادس : أنها غلة شهر بشهر ، قاله عمر رضي الله عنه .

(218/791)

السابع : أنه الذي لا ينقطع شتاء ولا صيفاً ، قاله السدي .

الثامن : أنها الأنعام التي يمتد سيرها في أقطار الأرض للمرعى والسعة ، قاله ابن بحر .

ويحتمل تاسعاً : أن سيتوعب وجوه المكاسب فيجمع بين زيادة الزراعة وكسب التجارة ونتاج المواشي فيمد بعضها ببعض لأن لكل مكسب وقتاً .

ويحتمل عاشراً : أنه الذي يتكون نماؤه من أصله كالنخل والشجر .

﴿ وبَنِينَ شُهوداً ﴾ اختلف في عددهم على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم كانوا عشرة ، قاله السدي .

الثاني : قال الضحاك : كان له سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف .

الثالث : أنهم كانوا ثلاثة عشر رجلاً ، قاله ابن جبير .

وفي قوله " شهوداً " ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنهم حضور معه لا يغيبون عنه ، قاله السدي .

الثاني : أنه إذا ذكر ذكروا معه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنهم كلهم رب بيت ، قاله ابن جبير .

ويحتمل رابعاً : أنهم قد صاروا مثله من شهود ما كان يشهده ، والقيام بما كان يباشره .

﴿ ومَهّدْت له تَمْهيداً ﴾ فيه وجهان :

أحدها : مهدت له من المال والولد ، قاله مجاهد .

الثاني : مهدت له الرياسة في قومه ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل ثالثاً : أنه مهد له الأمر في وطنه حتى لا ينزعج عنه بخوف ولا حاجة .

﴿ ثم يَطْمَعُ أنْ أَزيدَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ثم يطمع أن أدخله الجنة ، كلاّ ، قاله الحسن .

الثاني : أن أزيده من المال والولد " كلاّ " قال ابن عباس :

فلم يزل النقصان في ماله وولده .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : ثم يطمع أن أنصره على كفره .

﴿ كلاّ إنه كان لآياتِنَا عَنيداً ﴾ في المراد " بآياتنا " ثلاثة أقاويل :

أحدها : القرآن ، قاله ابن جبير .

الثاني : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

الثالث : الحق ، قاله مجاهد .

وفي قوله " عنيداً " أربعة تأويلات :

أحدها : معاند ، قاله مجاهد وأبو عبيدة ، وأنشد قول الحارثي :

إذا نزلت فاجعلاني وسطا . . . إني كبير لا أطيق العُنَّدا

(219/791)

الثاني : مباعد ، قاله أبو صالح ، ومنه قول الشاعر :

أرانا على حال تفرّق بيننا . . . نوى غُرْبَةٍ إنّ الفراق عنود .

الثالث : جاحد ، قاله قتادة .

الرابع : مُعْرِض ، قاله مقاتل .

ويحتمل تأويلاً خامساً : أنه المجاهر بعداوته .

﴿ سأرْهِقُه صَعُوداً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : مشقة من العذاب ، قاله قتادة .

الثاني : أنه عذاب لا راحة فيه ، قاله الحسن .

الثالث : أنها صخرة في النار ملساء يكلف أن يصعدها ، فإذا صعدها زلق منها ، وهذا قول السدي .

الرابع : ما رواه عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم " سأرهقه صعودا " قال : " هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده عيله ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، وإذا رفعها عادت " .

ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل قولاً خامساً : أنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه .

﴿ إنه فكَّر وقَدَّر ﴾ قال قتادة : زعموا أن الوليد بن المغيرة قال : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى ، وما أشك أنه سحر ، فهو معنى قوله " فكر وقدّر " أي فكر في القرآن فيما إنه سحر وليس بشعر .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن يكون فكّر في العداوة وقدّر في المجاهدة .

﴿ فقُتِلَ كيف قَدَّرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي عوقب ثم عوقب ، فيكون العقاب تكرر عليه مرة بعد أخرى .

الثاني : أي لعن ثم لعن كيف قدر أنه ليس بشعر ولا كهانة ، وأنه سحر .

﴿ ثم نَظَرَ ﴾ يعني الوليد بن المغيرة ، وفي ما نظر فيه وجهان :

أحدهما : أنه نظر في الوحي المنزل من القرآن ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه نظر إلى بني هاشم حين قال في النبي صلى الله عليه وسلم إنه ساحر ، ليعلم ما عندهم .

ويحتمل ثالثاً : ثم نظر إلى نفسه فيما أُعطِي من المال والولد فطغى وتجبر .

(220/791)

﴿ ثم عَبَسَ وبَسَرَ ﴾ أما عبس فهو قبض ما بين عينينه ، وبَسَرَ فيه وجهان :

أحدهما : كلح وجهه ، قاله قتادة ، ومنه قول بشر بن أبي خازم :

صبحنا تميماً غداة الجِفار . . . بشهباءَ ملمومةٍ باسِرةَ

الثاني : تغيّر ، قاله السدي ، ومنه قول توبة :

وقد رابني منها صدودٌ رأيتُه . . . وإعْراضها عن حاجتي وبُسورها .

واحتمل أن يكون قد عبس وبسر على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه . واحتمل أن يكون على من آمن به ونصره .

وقيل إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة ، وظهور البسور في الوجه قبل المحاورة .

﴿ ثم أَدْبَر واسْتَكْبَرَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أدبر عن الحق واستكبر عن الطاعة .

الثاني : أدبر عن مقامه واستكبر في مقاله .

﴿ فقال إنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَر ﴾ قال ابن زيد : إن الوليد بن المغيرة قال : إنْ هذا القرآن إلا سحر يأثره محمد عن غيره فأخذه عمن تقدمه .

ويحتمل وجهاً آخر : أن يكون معناه أن النفوس تؤثر لحلاوته فيها كالسحر .

﴿ إنْ هذا إلا قَوْلَ البَشِرِ ﴾ أي ليس من كلام الله تعالى ، قال السدي : يعنون أنه من قول أبي اليسر عَبْدٌ لبني الحضرمي كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك .

﴿ سأُصْليه سَقَرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم من أسماء جهنم مأخوذ من قولهم : سقرته الشمس إذا آلمت دماغه ، فسميت جهنم بذلك لشدة إيلامها .

﴿ وما أدراك ما سَقَر لا تُبقي ولا تذر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تبقي من فيها حياً ، ولا تذره ميتاً ، قاله مجاهد .

الثاني : لا تبقي أحداً من أهلها أن تتناوله ، ولا تذره من العذاب ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : لا تبقيه صحيحاً ، ولا تذره مستريحاً .

﴿ لوّاحَةً للبَشَرِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : مغيرة لألوانهم ، قال أبو رزين تلفح وجوههم لفحة تدعهم أشد سواداً من الليل .

الثاني : تحرق البشر حتى تلوح العظم ، قاله عطية .

(221/791)

الثالث : أن بشرة أجسادهم تلوح على النار ، قاله مجاهد .

الرابع : أن اللواح شدة العطش ، والمعنى أنها معطشة للبشر ، أي لأهلها ، قاله الأخفش ، وأنشد :

سَقَتْني على لوْحٍ من الماءِ شَرْبَةً . . . سقاها به الله الرهامَ الغواديا .

يعني باللوح شدة العطش :

ويحتمل خامساً : أنها تلوح للبشر بهولها حتى تكون أشد على من سبق إليها ، وأسرّ لمن سلم منها .

وفي البشر وجهان :

أحدهما : أنهم الإنس من أهل النار ، قالها الأخفش والأكثرون .

الثاني : أنه جمع بشرة ، وهي جلدة الإنسان الظاهرة ، قاله مجاهد وقتادة .

﴿ عليها تسعةَ عَشَرَ ﴾ هؤلاء خزنة جهنم وهم الزبانية ، وعددهم هذا الذي ذكره الله تعالى ، وروى عامر عن البراء أن رهطاً من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم ، فأهوى بأصابع كفيه مرتين ، فأمسك الإبهام في الثانية ، وأخبر الله عنهم بهذا العدد ، وكان الاقتصار عليه دون غيره من الأعداد إخباراً عمن وكل بها وهو هذا العدد ، وموافقة لما نزل به التوراة والإنجيل من قبل .

وقد يلوح لي في الاقتصار على هذا العدد معنى خفي يجوز أن يكون مراداً ، وهو أن تسعة عشر عدد يجمع أكثر القليل من العدد وأقل الكثير ، لأن العدد آحاد وعشرات ومئون وألوف ، والآحاد أقل الأعداد ، وأكثر الآحاد تسعة ، وما سوى الآحاد كثير وأقل الكثير عشرة ، فصارت التسعة عشر عدداً يجمع من الأعداد أكثر قليلها ، وأقل كثيرها ، فلذلك ما وقع عليها الاقتصار والله أعلم للنزول عن أقل القليل وأكثر الكثير فلم يبق إلا ما وصفت .

(222/791)

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن يكون الله حفظ جهنم حتى ضبطت وحفظت بمثل ما ضبطت به الأرض وحفظت به من الجبال حتى رست وثبتت ، وجبال الأرض التي أرسيت بها واستقرت عليها تسعة عشر جبلاً ، وإن شعب فروعها تحفظ جهنم بمثل هذا العدد ، لأنها قرار لعُصاة الأرض من الإنس والجن ، فحفظت مستقرهم في النار بمثل العدد الذي حفظ مستقرهم في الأرض ، وحد الجبل ما أحاطت به أرض تتشعب فيها عروقه ظاهره ولا باطنه ، وقد عد قوم جبال الأرض فإذا هي مائة وتسعون جبلاً ، واعتبروا انقطاع عروقها رواسي وأوتاداً ، فهذان وجهان يحتملهما الاستنباط ، والله أعلم بصواب ما استأثر بعلمه .

وذكر من يتعاطى العلوم العقلية وجهاً ثالثاً : أن الله تعالى حفظ نظام خلقه ودبر ما قضاه في عباده بتسعة عشر جعلها المدبرات أمراً وهي سبعة كواكب واثنا عشر برجاً ، فصار هذا العدد أصلاً في المحفوظات العامة ، فلذلك حفظ جهنم ، وهذا مدفوع بالشرع وإن راق ظاهره .

ثم نعود إلى تفسير الآية ، روى قتادة أن الله تعالى لما قال :

" عليها تسعة عشر " قال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم أكثر منهم .

قال السدي : وقال أبو الأشد بن الجمحي : لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ، وبمنكبي الأيسر التسعة ثم تمرون إلى الجنة ، يقولها مستهزئاً .

﴿ وما جَعَلْنَا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جعلْنا عدّتَهم إلا فِتْنةً للذين كَفَروا ﴾ وروى ابن جريج أن النبي صلى الله عليه وسلم نعت خزنة جهنم فقال : كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ، يجرون شعورهم ، لأحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ، ويرمي الجبل عليهم .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتوا الكتابَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليستيقنوا عدد الخزنة لموافقة التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد .

(223/791)

الثاني : ليستيقنوا أن محمداً نبي لما جاء به من موافقة عدة الخزنة .

﴿ ويَزْدادَ الذين آمَنوا إيماناً ﴾ بذلك ، قاله جريج .

﴿ وما هي إلا ذِكْرى للبَشَرِ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وما نار جهنم إلا ذكرى للبشر ، قاله قتادة .

الثاني : وما هذه النار في الدنيا إلا تذكرة لنار الآخرة ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : وما هذه السورة إلا تذكرة للناس ، قاله ابن شجرة .

﴿ كلا والقَمرِ ﴾ الواو في " والقمر " واو القسم ، أقسم الله تعالى به ، ثم أقسم بما بعده فقال :

﴿ والليلِ إذا أَدْبَرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذ ولّى ، قاله ابن عباس .

الثاني : إذ أقبل عند إدبار النهار قاله أبو عبيدة ، وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمن إذا دبر ، وهي قراءة ابن مسعود وأُبي بن كعب .

واختلف في أدبر ودبر على قولين :

- أحدهما : أنهما لغتان ومعناهما واحد ، قاله الأخفش .

- الثاني : أن معناهما مختلفان ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه دبر إذا خلقته خلفك ، وأدبر إذا ولى أمامك ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أنه دبر إذا جاء بعد غيره وعلى دبر ، وأدبر إذا ولى مدبراً ، قاله ابن بحر .

﴿ والصُّبْحِ إذا أَسْفَرَ ﴾ يعني أضاء وهذا قسم ثالث .

﴿ إنها لإحْدَى الكُبَرِ ﴾ فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : أي أن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم لإحدى الكبر ، أي الكبيرة من الكبائر ، قاله ابن عباس .

الثاني : أي أن هذه النار لإحدى الكبر ، أي لإحدى الدواهي .

الثالث : أن هذه الآية لإحدى الكبر ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل رابعاً : أن قيام الساعة لإحدى الكبر ، والكُبَرُ هي العظائم والعقوبات والشدائد ، قال الراجز :

يا ابن المُعَلّى نزلتْ إحدى الكُبَرْ . . . داهية الدهرِ وصَمّاءُ الغِيَرْ .

﴿ نذيراً للبشر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن محمداً صلى الله عليه وسلم نذير للبشر حين قاله له " قم فأنذر " قاله ابن زيد .

الثاني : أن النار نذير للبشر ، قال الحسن : والله ما أنذر الخلائق قط بشيء أدهى منها .

(224/791)

ويحتمل ثالثاً : أن القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد .

﴿ لمن شاءَ منكم أن يتقدّم أو يتأَخّرَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يتقدم في طاعة الله ، أو يتأخر عن معصية الله ، وهذا قول ابن جريج .

الثاني : أن يتقدم في الخير أو يتأخر في الشر ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أن يتقدم إلى النار أو يتأخر عن الجنة ، قاله السدي .

ويحتمل رابعاً : لمن شاء منكم أن يستكثر أو يقصر ، وهذا وعيد وإن خرج مخرج الخبر .

﴿ كلُّ نفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينةٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ان كل نفس مرتهنة محتسبة بعملها لتحاسب عليه ، إلا أصحاب اليمين ، وهم أطفال المسلمين فإنه لا حساب عليهم لأنه لا ذنوب لهم ، قاله عليٌّ رضي الله عنه .

الثاني : كل نفس من أهل النار مرتهنة في النار إلا أصحاب اليمين وهم المسلمون ، فإنهم لا يرتهنون ، وهم إلى الجنة يسارعون ، قاله الضحاك .

الثالث : كل نفس بعملها محاسبة إلا أصحاب اليمين وهم أهل الجنة ، فإنهم لا يحاسبون ، قاله ابن جريج .

﴿ وكنّا نَخُوض مع الخائضينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : نكذب مع المكذبين ، قاله السدي .

الثاني : كلما غوى غاو غوينا معه ، قاله قتادة .

الثالث : قولهم محمد كاهن ، محمد ساحر ، محمد شاعر ، قاله ابن زيد .

ويحتمل رابعاً ، وكنا أتباعاً ولم نكن مبتوعين .

﴿ وكنّا نُكذّب بيوم الدِّين ﴾ يعني يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الموت ، قاله السدي .

الثاني : البعث يوم القيامة .

﴿ فما لهم عن التَذْكِرَة مُعْرِضين ﴾ قال قتادة : عن القرآن .

ويحتمل ثالثاً : عن الاعتبار بعقولهم .

﴿ كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرةٌ ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء ، يعني مذعورة وقرأ الباقون بكسرها ، يعني هاربة ، وأنشد الفراء :

أمْسِكْ حمارَكَ إنه مُستنفِرٌ . . . في إثْر أحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لغُرَّبِ .

﴿ فَرَّتْ من قَسْورةٍ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن القسورة الرماة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه القناص أي الصياد ، ومنه قول علي :

يا ناس إني مثل قسورةٍ . . . وإنهم لعداة طالما نفروا .

الثالث : أنه الأسد ، قاله أبو هريرة ، روى يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه الأسد بلسان الحبشة ، قال الفرزدق :

إلى هاديات صعاب الرؤوس . . . فساروا للقسور الأصيد .

الرابع : أنهم عصب من الرجال وجماعة ، رواه أبو حمزة عن ابن عباس .

الخامس : أنه أصوات الناس ، رواه عطاء عن ابن عباس .

السادس : أنه النبيل ، قاله قتادة .

﴿ بل يريد كلُّ امرىءٍ منهم أنْ يُؤْتى صحُفاً مُنَشّرةً ﴾ يعني كتباً منشورة وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أن يؤتى كتاباً من الله أن يؤمن بمحمد ، قاله قتادة .

الثاني : أن يؤتى براءة من النار أنه لا يقذف بها ، قاله أبو صالح .

الثالث : أن يؤتى كتاباً من الله بما أحل له وحرم عليه ، قاله مقاتل .

الرابع : أن كفار قريش قالوا إن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب الواحد ذنباً وجده مكتوباً في رقعة ، فما بالنا لا نرى ذلك فنزلت الآية ، قاله الفراء .

﴿ هو أهل التقْوَى وأهل المغْفِرةِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هو أهل أن تتقى محارمه ، وأهل أن يغفر الذنوب ، قاله قتادة .

الثاني : هو أهل أن يتقى أن يجعل معه إله غيره ، وأهل لمن اتقاه أن يغفر له ، وهذا معنى قول رواه أنس مرفوعاً .

الثالث : هو أهل أن يتقى عذابه وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته .

ويحتمل رابعاً : أهل الانتقام والإنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 149.135 ﴾

(226/791)

وقال ابن الجوزى :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

فأما سبب نزولها ، فروى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" من حديث جابر بن عبد الله قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاورت بِحِرَاء شهراً ، فلما قضيت جواري ، نزلتُ فاستَبْطَنْتُ بطن الوادي ، فنوديتُ ، فنظرت أمامي ، وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فلم أر أحداً ، ثم نوديتُ فرفعتُ رأسي ، فإذا هو في الهواء (يعني : جبريل عليه السلام) فأقبلتُ إلى خديجة ، فقلت دَثِّروني دَثِّروني ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ " قال المفسرون : فلما رأى جبريل وقع مغشياً عليه ، فلما أفاق دخل إلى خديجة ، ودعا بماءٍ فصبَّه عليه ، وقال : دثِّروني ، فدثَّروه بقطيفة ، فأتاه جبريل فقال ﴿ يا أيها المدّثر ﴾ وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو عمران ، والأعمش ، "المتدثِّر" بإظهار التاء . وقرأ أبو رجاء ، وعكرمة ، وابن يعمر ، "المدثر" بحذف التاء ، وتخفيف الدال .

قال اللغويون : وأصل "المدَّثِّر" المتدثر ، فأدغمت التاء ، كما ذكرنا في المتَزَمِّل ، وهذا في قول الجمهور من التدثير بالثياب .

وقيل : المعنى : يا أيها المدثر بالنبوَّة ، وأثقالها ، قال عكرمة : دُثِّرْتَ هذا الأمر فقم به .

قوله تعالى : ﴿ قم فأنذر ﴾ كفارَ مكة العذابَ إن لم يُوحِّدوا ﴿ وربَّك فكبِّر ﴾ أي : عظِّمه عما يقول عبدة الأوثان ﴿ وثيابَك فطهِّر ﴾ فيه ثمانية أقوال .

أحدها : لا تلبسها على معصية ، ولا على غدر .

قال غيلان بن سلمة الثقفي :

وَإِني بِحَمْدِ اللهِ لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ . . .

لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : لا تكن ثيابُك من مكسب غير طاهر ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : طهر نفسك من الذنب ، قاله مجاهد ، وقتادة .

ويشهد له قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ . . .

لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحرَّمِ

أي : نفسه ، وهذا مذهب ابن قتيبة .

قال : المعنى : طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب ، لأنها تشتمل عليه .

قالت ليلى الأخيلية وذَكَرَتْ إبلاً :

رَمَوْها بأثواب خِفَافٍ فلا ترى . . .

لَهَا شَبَهاً إلا النَّعَام المُنَفَّرا

أي : ركبوها ، فَرَمَوْها بأنفسهم .

والعرب تقول للعفاف : إزارٌ ، لأن العفيف كأنه استتر لما عَفَّ .

والرابع : وعَمَلَكَ فَأَصْلِحْ ، قاله الضحاك .

والخامس : خُلُقَكَ فَحَسِّنْ ، قاله الحسن ، والقرظي .

والسادس : وَثِيَابَكَ فَقَصِّرْ وشَمِّرْ ، قاله طاووس .

والسابع : قَلْبَكَ فَطَهِّرْ ، قاله سعيد بن جبير .

ويشهد له قول امرىء القيس :

فَإِنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِني خَلِيقَةٌ . . .

فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

أي : قلبي من قلبك .

والثامن : اغسل ثيابك بالماء ، ونقِّها ، قاله ابن سيرين ، وابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعاصم ، إلا أبا بكر ، ويعقوب ، وابن محصين ، وابن السميفع ، "والرُّجزَ" بضم الراء .

والباقون : بكسرها .

ولم يختلفوا في غير هذا الموضع .

قال الزجاج : ومعنى القراءتين واحد .

وقال أبو علي : قراءة الحسن بالضم ، وقال : هو اسم صنم .

وقال قتادة : صنمان : إساف ، ونائلة ، ومن كسر ، فالرّجز : العذاب .

فالمعنى : ذو العذاب فاهجر .

وفي معنى "الرجز" للمفسرين ستة أَقوال .

أحدها : أنه الأصنام ، والأوثان ، قاله ابن عباس .

ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهري ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : أنه الإثم ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : الشرك ، قاله ابن جبير ، والضحاك .

والرابع : الذنب ، قاله الحسن .

والخامس : العذاب ، قاله ابن السائب ، قال الزجاج : الرجزُ في اللغة : العذاب .

ومعنى الآية : اهجر ما يؤدّي إلى عذاب الله .

والسادس : الشيطان ، قاله ابن كيسان .

﴿ ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر ﴾ فيه أربعة أقوال .

(228/791)

أحدها : لا تعط عطيَّة تلتمس بها أفضل منها ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، قال المفسرون : معناه : أَعْطِ لربّك وأرد به الله ، فأدَّبه بأشرفِ الآداب .

ومعنى "لا تمنن" : لا تعط شيئاً من مالك لتُعطَى أكثر منه ، وهذا الأدب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وليس على أحد من أمته إثم أن يهديَ هدية يرجو بها ثواباً أكثر منها .

والثاني : لا تمنن بعملك تستكثره على ربك ، قاله الحسن .

والثالث : لا تضعف عن الخير أن تستكثر منه ، قاله مجاهد .

والرابع : لا تمنن على الناس بالنُّبُوَّة لتأخذ عليها منهم أجراً ، قاله ابن زيد .

﴿ ولربك ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لأجل ربك .

والثاني : لثواب ربك .

والثالث : لأمر ربك .

والرابع : لوعْدِ ربِّك ﴿ فاصبر ﴾ فيه قولان .

أحدهما : على طاعته وفرائضه .

والثاني : على الأذى والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ أي : نفخ في الصور .

وهل هذه النفخة هي الأولى أو الثانية ؟ فيه قولان ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ أي : يعسر الأمر فيه ﴿ على الكافرين غير يسير ﴾ غير هَيِّن ﴿ ذَرْني ﴾ قد شرحناه في [المزمل : 11] ﴿ ومن خلقتُ ﴾ أي : ومن خلقته ﴿ وحيداً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد ، قاله مجاهد .

والثاني : خلقته وحدي لم يَشْركني في خَلْقِهِ أحَدٌ ، قاله الزجاج .

قال ابن عباس : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

فإنك أتيت محمداً تتعرَّض لما قِبَله ، فقال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنَّك منكر له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم

بالأشعار مني ، فوالله ما يشبهها الذي يقول ، والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدِقٌ أسفلُه ، وإنه ليعلو ولا يُعلى .

(229/791)

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه .

فقال : هذا سحر يؤثر : يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . . . ﴾ الآيات كلُّها .

وقال مجاهد : قال الوليد لقريش : إن لي إليكم حاجة فاجتمعوا في دار الندوة ، فقال : إنكم ذوو أحساب وأحلام ، وإن العرب يأتونكم ، وينطلقون من عندكم على أمر مختلف ، فأجمعوا على شيء واحد .

ما تقولون في هذا الرجل ؟ قالوا : نقول إنه شاعر ، فعبس عندها ، وقال : قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر .

فقالوا : نقول : إنه كاهن ، قال : إذن يأتونه فلا يجدونه يحدث بما يحدث به الكهنة ، قالوا : نقول : إنه مجنون ، قال : إذن يأتونه فلا يجدونه مجنوناً .

فقالوا : نقول : إنه ساحر .

قال : وما الساحر ؟ قالوا بشر يحبّبون بين المتباغضين ، ويبغّضون بين المتحابين ، قال : فهو ساحر ، فخرجوا لا يلقى أحد منهم النبي إلا قال : يا ساحر ، فاشتد ذلك عليه ، فأنزل الله عز وجل "يا أيها المدثر" إلى قوله تعالى "إنْ هذا إلا سحر يؤثر" وذكر بعض المفسرين : أن قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ منسوخ بآية السيف ، ولا يصح .

قوله تعالى : ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ في معنى الممدود ثلاثة أقوال .

أحدها : كثيراً ، قاله أبو عبيدة .

والثاني دائماً ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : غير منقطع ، قاله الزجاج .

وللمفسرين في مقداره أربعة أقوال .

أحدها : غَلَّة شهر بشهر قاله عمر بن الخطاب .

والثاني : ألف دينار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، قال الفراء : نرى أن الممدود : جُعِلَ غاية للعدد ، لأن "ألف" غاية للعدد يرجع في أول العدد من الألف .

والثالث : أربعة آلاف ، قاله قتادة .

والرابع : أنه بستان كان له بالطائف لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفاً ، قاله قاتل .

قوله تعالى : ﴿ وبنين شهوداً ﴾ أي : حضورا معه لا يحتاجون إلى التصرُّف والسَّفر

فيغيبوا عنه .

وفي عددهم أربعة أقوال .

(230/791)

أحدها : عشرة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : ثلاثة عشر ، قاله ابن جبير .

والثالث : اثنا عشر ، قاله السدي .

والرابع : سبعة ، قاله مقاتل .

﴿ ومهَّدت له تمهيداً ﴾ أي : بسطت له العيش ، وطول العمر ، ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يطمع أن أدخله الجنة ، قاله الحسن .

والثاني : أن أزيده من المال والولد ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا أفعل ، فمنعه الله المالَ والوَلدَ حتى مات فقيراً ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي : معانداً .

وفي المراد بالآيات هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن جبير .

والثاني : الحق ، قاله مجاهد .

والثالث : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ سأُرْهِقُه صَعُوداً ﴾ قال الزجاج : سأحمله على مشقة من العذاب .

وقال غيره : سأكلِّفه مشقةً من العذاب لا راحة له منها ، وقال ابن قتيبة : "الصَّعود" : العقبة الشاقة ، وكذلك "الكؤود" .

وفي حديث أبي سعيد عن نبي الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : "سأرهقه صَعوداً" قال : جبل من نار يكلَّف أن يصعده ، فإذا وضع رجله عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت . يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيه كذلك أبداً ، وذكر ابن السائب ، أنه جبل من صخرة ملساء في النار ، يكلَّف أن يصعَدها حتى إذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها ، ثم يكلَّف أن يصعَدها ، فذلك دأبه أبداً ، يجذب من أمامه سلاسل الحديد ، ويضرب من خلفه بمقامع الحديد ، فيصعدها في أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ إنَّه فَكَّر ﴾ أي : تفكر ماذا يقول في القرآن ﴿ وقَدَّر ﴾ القول في نفسه ﴿ فقُتِلَ ﴾ أي : لعن ﴿ كيف قَدَّر ثم قُتِل كيف قَدَّر ﴾ أي : لُعِن على أي حال قَدَّر ما قدَّر من الكلام .

وقيل : "كيف" ها هنا بمعنى التعجب والإنكار والتوبيخ .

وإنما كرر تأكيداً ﴿ ثم نَظَرَ ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ، ويردُّه ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ قال اللغويون : أي : كَرَّهَ وَجْهَهُ وقطَّب .

(231/791)

يقال : بسر الرجل وجهه ، أي : قبضه .

وأنشدوا لتَوْبَةَ :

وقَدْ رَابَنِي مِنْها صُدُودٌ رَأَيْتُهُ . . .

وَإِعْرَاضُها عن حَاجتي وبُسُورُها

قال المفسرون : كرَّه وجهه ، ونظر بكراهية شديدة ، كالمهتمّ المتفكّرِ في الشيء ﴿ ثم أدبر ﴾ عن الإيمان ﴿ واستكبر ﴾ أي : تكبر حين دعي إليه ﴿ فقال إنْ هذا ﴾ أي : ما هذا القرآن ﴿ إلا سحر يؤثر ﴾ أي : يُروى عن السَّحَرة ﴿ إنْ هذا إلا قول البشر ﴾ أي : من كلام الإنس ، وليس من كلام الله تعالى ، فقال الله تعالى : ﴿ سأُصليه سقر ﴾ أي : سأدخله النار .

وقد ذكر "سقر" في سورة [القمر : 48] ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ لِعظَم شَأْنِها ﴿ لا تُبقي ولا تذر ﴾ أي : لا تبقي لهم لحماً إلا أكلته ، ولا تذرهم إذا أُعيدوا خلقاً جديداً ﴿

لَوَّاحَةٌ ﴾ أي : مغيِّرة .

يقال : لاحته الشمس ، أي : غيَّرتْه وأنشدوا :

يا ابْنَةَ عَمِّي لاَحَني الهواجر . . .

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة ، "لوَّاحةً" بالنصب .

وفي البَشَر قولان .

أحدهما : أنه جمع بشرة ، وهي جلدة الإنسان الظاهرة ، وهذا قول مجاهد ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنهم الإنس من أهل النار ، قاله الأخفش ، وابن قتيبة ، في آخرين .

قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وهم خُزَّانها ، مالك ومعه ثمانية عشر ، أعينهم كالبرق الخاطف ، وأنيابهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، يسع كَفّ أحدهم مثل ربيعة ومضر .

قد نزعت منهم الرحمة .

فلما نزلت هذه الآية قال أبو جهل : يخوِّفكم محمد بتسعة عشر ، أما له من الجنود إلا هؤلاء ! أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد منهم ، ثم يخرجون من النار ! فقال أبو الأشدين : قال مقاتل : اسمه : أسيد بن كلدة .

وقال غيره : كلدة بن خلف الجمحي : يا معشر قريش : أنا أمشي بين أيديكم فأرفع عشرة بمنكبي الأيمن ، وتسعة بمنكبي الأيسر ، فندخل الجنة ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ لا آدميين ، فمن يطيقهم ومن يغلبهم ؟ ! ﴿ وما جعلنا عِدَّتهم ﴾ في هذه القِلَّة ﴿ إلا فتنة ﴾ أي : ضلالة ﴿ للذين كفروا ﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أن ما جاء به محمد حق ، لأن عِدَّتهم في التوراة تسعة عشر ﴿ ويزدادَ الذين آمنوا ﴾ من أهل الكتاب ﴿ إيماناً ﴾ أي : تصديقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم إذ وجدوا ما يخبرهم موافقاً لما في كتابهم ﴿ ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ أي : ولا يشك هؤلاء في عَدَدِ الخَزَنَة ﴿ وليقولَ الذين في قلوبهم مرض ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه النفاق ، ذكره الأكثرون .

والثاني : أنه الشك ، قاله مقاتل .

وزعم أنهم يهود أهل المدينة ، وعنده أن هذه الآية مدنية .

والثالث : أنه الخلاف ، قاله الحسين بن الفضل .

وقال : لم يكن بمكة نفاق .

وهذه مكية .

فأما "الكافرون" فهم مشركو العرب ﴿ ماذا أراد الله ﴾ أي: أي شيء أراد الله ﴿ بهذا ﴾ الحديث والخبر ﴿ مثلاً ﴾ والمثل يكون بمعنى الحديث نفسه.

ومعنى الكلام: يقولون: ما هذا من الحديث ﴿ كذلك ﴾ أي: كما أضلَّ من أنكر عَدَد الخَزَنَة، وهدى من صدَّق ﴿ يُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وأُنزل في قول أبي جهل: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر: ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار.

وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعوان ما لا يعلمه إلا الله.

وذكر الماوردي في وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر قولاً محتملاً، فقال: التسعة عشر: عدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، لأن الآحاد أقل الأعداد، وأكثرها تسعة، وما سوى الآحاد كثير.

(233/791)

وأقل الكثير: عشرة، فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير، وأكثر القليل.

ثم رجع إلى ذكر النار فقال تعالى: ﴿ وما هي إلا ذكرى ﴾ أي: ما النار في الدنيا إلا مذكِّرة لنار الآخرة ﴿ كلاَّ ﴾ أي: حقاً ﴿ والقمر.

والليل إذْ أدبر ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "إذا أدبر" وقرأ نافع ، وحمزة ، وحفص ، والفضل عن عاصم ، ويعقوب "إذ" بسكون الذال من غير ألف بعدها "أدبر" بسكون الدال وبهمزة قبلها .

وهل معنى القراءتين واحد ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد .

يقال : دبر الليل ، وأدبر .

ودبر الصيف وأدبر ، هذا قول الفراء ، والأخفش ، وثعلب .

والثاني : أن "دبر" بمعنى خلف ، "وأدبر" بمعنى وَلّى .

يقال : دبرني فلان : جاء خلفي ، وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ إذا أسفر ﴾ أي : أضاء وتبيَّن ﴿ إنها ﴾ يعني : سقر ﴿ لإحدى الكُبَر ﴾ قال ابن قتيبة : الكُبَر ، جمع كبرى ، مثل الأُوَل ، والأُولى ، والصُّغَر ، والصُّغْرى .

وهذا كما يقال : إنها لإحدى العظائم .

قال الحسن : والله ما أنذر الله بشيءٍ أوهى منها .

وقال ابن السائب ، ومقاتل : أراد بالكُبَر : دركات جهنم السبعة .

قوله تعالى : ﴿ نذيراً للبشر ﴾ قال الزجاج : نصب "نذيراً" على الحال .

والمعنى : إِنها لكبيرة في حال الإنذار .

وذَكَّر "النذير" ، لأن معناه معنى العذاب .

ويجوز أن يكون "نذيراً" منصوباً متعلقاً بأول السورة ، على معنى : قم نذيراً للبشر .

قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من قوله تعالى : "للبشر" ، ﴿ أن يتقدَّم أو يتأخَّر ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن يتقدَّم في طاعة الله أو يتأخَّر عن معصيته ، قاله ابن جريج .

والثاني : أن يتقدَّم إلى النار ، أو يتأخَّر عن الجنة ، قاله السدي .

والثالث : أن يتقدَّم في الخير ، أو يتأخر إلى الشر ، قاله يحيى بن سلام .

(234/791)

والرابع : أن يتقدَّم في الإيمان ، أو يتأخَّر عنه .

والمعنى : أن الإِنذار قد حصل لكل أحد ممن أقر أو كفر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : كل نفس بالغةٍ مُرتَهنةٌ بعملها لتُحاسَب عليه ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ وهم أطفال المسلمين ، فإنه لا حساب عليهم ، لأنه لا ذنوب لهم ، قاله علي ، واختاره الفراء .

والثاني : كل نفس من أهل النار مُرتَهنةٌ في النار ، إلا أصحاب اليمين ، وهم المؤمنون ، فإنهم

في الجنة ، قاله الضحاك .

والثالث : كل نفس مرتهنةٌ بعملها لتحاسب عليه إلا أصحاب اليمين ، فإنهم لا يحاسبون ، قاله ابن جريج .

قوله تعالى : ﴿ يتساءلون عن المجرمين ﴾ قال مقاتل : إذا خرج أهل التوحيد من النار قال المؤمنون لمن بقي في النار : ﴿ ما سلككم في سقر ؟ ﴾ قال المفسرون : سلككم بمعنى : أدخلكم .

وقال مقاتل : ما حبسكم فيها ؟ ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ لله في دار الدنيا ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي : لم نتصدّق لله ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أهل الباطل والتكذيب ﴿ وكنا نكذِّب بيوم الدين ﴾ أي : بيوم الجزاء والحساب ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو الموت .

يقول الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وهذا إنما جرى بعد شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والمؤمنين .

وهذا يدل على نفع الشفاعة لمن آمن ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ يعني : كفار قريش حين نفروا من القرآن والتذكير بمواعظه .

والمعنى : لا شيء لهم في الآخرة إذْ أعرضوا عن القرآن فلم يؤمنوا به ، ثم شبَّههم في نفورهم عنه بالحُمُر ، فقال تعالى : ﴿ كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة ﴾ قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر ،

والمفضل عن عاصم بفتح الفاء .

والباقون : بكسرها .

قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : من قرأ بفتح الفاء أراد : مذعورة ، استنفرت فنفرت .

ومن قرأ بكسر الفاء أراد : نافرة .

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون : حُمُرٌ مستنفَرة .

وناس من العرب يكسرون الفاء .

(235/791)

والفتح أكثر في كلام العرب .

وقراءتنا بالكسر .

أنشدني الكسائي :

اِحْبِسْ حِمَارَكَ إنَّه مُسْتَنْفِرُ . . .

في إثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ

و"غرّب" موضع .

وفي "القسورة" سبعة أقوال .

أحدها : أنه الأسد ، رواه يوسف بن مهران ، عن ابن عباس .

وبه قال أبو هريرة ، وزيد بن أسلم ، وابنه .

قال ابن عباس : الحمر الوحشية إذا عايَنَتْ الأسد هَرَبَتْ منه ، فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم هربوا منه ، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة ، والزجاج .

قال ابن قتيبة : كأَنَّه من القَسْرِ والقَهْرِ ، فالأسد يقهر السباع .

والثاني : أن القسورة : الرماة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو موسى الأشعري ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، وابن كيسان .

والثالث : أن القسورة : حِبَال الصيادين ، رواه عكرمة ، عن ابن عباس .

والرابع : أنهم عُصَبُ الرِّجَال ، رواه أبو حمزة عن ابن عباس .

واسم أبي حمزة : نصر بن عمران الضبعي .

والخامس : أنه رِكْز الناس ، وهذا في رواية عطاء أيضاً عن ابن عباس .

ورِكْز الناس : حِسُّهم وأصواتهم .

والسادس : أنه الظُّلْمة والليل ، قاله عكرمة .

والسابع : أنه النَّبْل ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرىءٍ منهم أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً ﴾ فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن سَرَّكَ أن نَتَّبِعْك ، فليصبح عند رأس

كل رجل منا كتاب منشور من الله تعالى إلى فلان بن فلان يؤمر فيه باتّباعك ، قاله الجمهور .

والثاني : أنهم أرادوا براءةً من النار أن لا يعذَّبوا بها ، قاله أبو صالح .

والثالث : أنهم قالوا : كان الرجل إذا أذنب في بَني إسرائيل وجده مكتوباً إذا أصبح في رُقعة .

فما بالنا لا نرى ذلك ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله الفراء .

فقال الله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا يؤتَون الصُّحُف ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي : لا يَخْشَوْن عذابها .

(236/791)

والمعنى : أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام الدلالة ﴿ كلاَّ ﴾ أي : حقاً .

وقيل : معنى ﴿ كلا ﴾ ليس الأمر كما يريدون ويقولون ﴿ إنه تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : تذكير وموعظة ﴿ فمن شاء ذَكره ﴾ الهاء عائدة على القرآن فالمعنى : فمن شاء أن يذكر القرآن ويتعظ به ويفهمه ، ذَكره .

ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال تعالى : ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ أي : إلا أن يريد لهم الهدى ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أي : أهل أن يُتَّقى ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي : أهل أن

يَغفِر لمن تاب .

روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية ، فقال : قال ربكم عز وجل : أنا أهل أن أُتقى ، فلا يشرك بي غيري .

وأنا أهل لمن اتَّقى أن يشرك بي غيري أن أغفر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 398.414 ﴾

(237/791)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها المدثر ﴾

(ق) عن يحيى بن كثير قال " سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال يا أيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت فقال لي جابر لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً .

فأتيت خديجة فقلت دثروني فد ثروني " وصبوا علي ماء بارداً فنزلت ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة وفي رواية " فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي – وذكر نحوه – فإذا هو قاعد على عرش في الهواء – يعني جبريل – فأخذتني رجفة شديدة " (ق) عن جابر من رواية الزهري " عن أبي سلمة عنه قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحدث عن فترة الوحي فقال لي في حديثه : فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعباً فقلت زملوني زملوني فدثروني فأنزل الله ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾ " وفي رواية " فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي " وذكره وفيه قال أبو سلمة الرّجز الأوثان قال ثم حمى الوحي بعد وتتابع .

فإن قلت دل هذا الحديث على أن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن ، ويعارضه حديث عائشة ا المخرج في الصحيحين أيضاً في بدء الوحي ، وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وفيه " فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، حتى بلغ – ﴿ ما لم يعلم ﴾ – فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرجف فؤاده " الحديث .

قلت الصّواب الذي عليه جمهور العلماء أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، كما صرح به في حديث عائشة ، وقول من قال إن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ضعيف لا يعتد به ، وإنما كان نزولها بعد فترة الوحي كما صرح به في رواية الزّهري عن أبي سلمة عن جابر ، ويدل عليه أيضاً قوله في الحديث وهو يحدث عن فترة الوحي إلى أن قال وأنزل الله تعالى يا أيها المدثر ويدل عليه أيضاً قوله " فإذا الملك الذي جاءني بحراء ثم قال وأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر " وأيضاً قوله " ثم حمي الوحي بعد وتتابع " فالصواب إن أول ما نزل من القرآن على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وإن أول ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر فحصل بهذا الذي بيناه الجمع بين الحديثين ، والله أعلم قوله " فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض " يريد به السرير الذي يجلس عليه وقوله يحدث عن فترة الوحي ، أي عن احتباسه وعدم تتابعه ، وتواليه في النزول قوله " فجئثت منه " روى بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضّمير وروى بثاءين مثلثتين بعد الجيم ، ومعناه فرعبت منه وفزعت .

وقوله " وحمي الوحي بعد وتتابع " أي كثر نزوله ، وازداد بعد فترته من قولهم حميت

الشّمس والنّار إذا ازداد حرهما ، وقوله وصبوا علي ماء فيه أنه ينبغي لمن فزع أن يصب عليه ماء حتى يسكن فزعه والله أعلم .

(239/791)

وأما التّفسير فقوله : يا أيها المدثر أصله المتدثر وهو الذي يتدثر في ثيابه ليستدفىء بها ، وأجمعوا على أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنما سماه مدثراً لقوله (صلى الله عليه وسلم) دثروني ، وقيل معناه يا أيها المدثر بدثار النّبوة والرّسالة من قولهم ألبسه الله لباس التقوى ، فجعل النّبوة كالدثار واللباس ، مجازاً ﴿ قم فأنذر ﴾ أي حذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا والمعنى قم من مضجعك ودثارك ، وقيل قم قيام عز واشتغل بالإنذار الذي تحملته ﴿ وربك فكبر ﴾ أي عظم ربك عما يقوله عبدة الأوثان ﴿ وثيابك فطهر ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أن ينزل لفظ الثّياب والتّطهير على الحقيقة ، والثاني أن ينزل لفظ الثياب على الحقيقة والتطهير على المجاز والثالث أن ينزل لفظ الثّياب على المجاز ، والتّطهير على الحقيقة والرابع أن ينزل لفظ الثّياب والتّطهير على المجاز .

أما الوجه الأول : فمعناه وثيابك فطهر من النّجاسات والمستقذرات ، وذلك أن المشركين لم يكونوا يحترزون عنها فأمر (صلى الله عليه وسلم) بصون ثيابه من النجاسات ، وغيرها

خلافاً للمشركين .

الوجه الثاني : معناه وثيابك فقصر وذلك لأن المشركين كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم على النّجاسات وفي الثّوب الطّويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير فنهى عن تطويل الثوب وأمر بتقصيره لذلك ، وقيل معناه وثيابك فطهر عن أن تكون مغصوبة أو محرمة بل تكون من وجه حلال وكسب طيب .

الوجه الثالث : معناه حمل الثوب على النفس قال عنترة :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه . . .

ليس الكريم على القنا بمحرم

يريد نفسه والمعنى ونفسك فطهر عن الذّنوب والرّيب وغيره وكنى بالثياب عن الجسد لأنها تشتمل عليه .

(240/791)

﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ يعني لا تعط مالك مصانعة لتعطي أكثر منه هذا قول أكثر المفسرين وهذا النهي مختص بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وإنما نهى عن ذلك تنزيهاً لمنصب النبوة لأن من أعطى شيئاً لغيره يطلب منه الزيادة عليه لا بد وأن يتواضع لذلك الذي أعطاه ،

ومنصب النّبوة بجل عن ذلك وهذا غير موجود في حق الأمة ، فيجوز لغيره من الأمة ذلك كما قيل هما رباءان حلال وحرام فالحلال الهدية يهديها الرجل لغيره ليعطيه أكثر منها وأما الحرام فالربا المحرم بنص الشرع ، وقيل معناه لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا أعط الله وأراد به وجه الله وقيل معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره ، ولا يكثرن عملك في عينك فإنه مما أنعم الله به عليك وأعطاك .

وقيل معناه لا تمنن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم ، وقيل لا تمنن عليهم بنبوتك فتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به ، وقيل معناه لا تمنن لا تضعف عن الخير تستكثر منه ، وقيل معناه لا تمنن على النّاس بما تنعم عليهم وتعطيهم استكثاراً منك لتلك العطية ، فإن المن يحبط العمل ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى ؛ وقيل معناه فاصبر لله على ما أوذيت فيه ، وقيل معناه إنك حملت أمراً عظيماً فيه محاربة العرب والعجم ، فاصبر على ذلك لله ، وقيل معناه فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ أي نفخ في الصور وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهي النّفخة الأولى ، وقيل الثانية وهو الأصح ﴿ فذلك يومئذ ﴾ يعني يوم النفخة وهو يوم القيامة ﴿ يوم عسير ﴾ أي شديد ﴿ على الكافرين ﴾ يعني يعسر عليهم في ذلك اليوم الأمر ، فيعطون كتبهم

بشمائلهم وتسود وجوههم ﴿ غير يسير ﴾ أي غير هين .

فإن قلت ما فائدة قوله غير يسير وعسير مغن عنه .

(241/791)

قلت : فائدة التكرار التّأكيد كقوله : أنا محب لك غير مبغض ، وقيل لما كان على الكافرين غير يسير دل على أنه يهون على المؤمنين بخلاف الكفار فإنه عليهم عسير لا يسر فيه ليزداد غيظ الكافرين وبشارة المؤمنين قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد ، وقيل معناه خلقته وحدي لم يشاركني في خلقه أحد ، والمعنى ذرني وإيّاه ، فأنا أكفيكه نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان يسمى الوحيد في قومه .

﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ أي كثير يمد بعضه بعضاً دائماً غير منقطع ، وقيل ما يمد بالنماء كالزرع والضرع والتجارة واختلفوا في مبلغه ، فقيل كان ألف دينار وقيل أربعة آلاف درهم ، وقيل ألف ألف وقال ابن عباس : تسعة آلاف مثقال فضة وعنه كان له بين مكة والطّائف إبل وخيل ونعم ، وكان له غنم كثيرة وعبيد وجوار : وقيل كان له بستان بالطّائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً ، وقيل كان له غلة شهر بشهر ، ﴿ وبنين شهوداً

﴿ أي حضوراً بمكة لا يغيبون عنه لأنهم كانوا أغنياء غير محتاجين إلى الغيبة لطلب الكسب ، وقيل معنى شهوداً أي رجالاً يشهدون معه المحافل والمجامع ، قيل كانوا عشرة وقيل سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة نفر خالد وهشام وعمارة ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه ، وكان الوليد من أكابر قريش وكان يدعى ريحانة قريش .

(242/791)

﴿ ثم يطمع ﴾ أي يرجو ﴿ أن أزيد ﴾ أي أزيده مالاً وولداً وتمهيداً ﴿ كلا ﴾ أي لا أفعل ولا أزيده قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً والمعنى أنه كان معانداً في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكراً للكل ، وقيل كان كفره كفر عناد وهو أنه كان يعرف هذا بقلبه وينكره بلسانه وهو أقبح الكفر وأفحشه ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ يعني سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الصعود عقبة في النار يتصعد فيها الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو

كذلك أبداً " أخرجه الترمذي .

وقال حديث غريب وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله سأرهقه صعوداً .

(243/791)

قال هو جبل من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وقال الكلبي : الصعود صخرة ملساء في النّار يكلف الكافر أن يصعدها لا يترك يتنفس في صعوده يجذب من أمامه بسلاسل الحديد ، ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً ، فإذا بلغ ذروتها أحدر إلى أسفلها ، ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه ، ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً قوله ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أي فكر في الأمر الذي يريده ونظر فيه وتدبره ورتب في قلبه كلاماً ، وهيأه لذلك لأمر وهو المراد بقوله ﴿ وقدر ﴾ أي وقدر ذلك الكلام في قلبه وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله ﴿ المصير ﴾ قام النبي (صلى الله عليه وسلم) في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي (صلى الله عليه وسلم) لاستماعه أعاد قراءة الآية

فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلي ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال له الوليد ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟ فقال وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة ، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم .

(244/791)

﴿ فقتل كيف قدر ﴾ أي عذب ، وقيل لعن كيف قدر وهو على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ كرره للتأكيد ، وقيل معناه لعن على أي حال قدر من الكلام ﴿ ثم نظر ﴾ أي في طلب ما يدفع به القرآن ويرده ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ أي كلح وقطب وجهه كالمهتم المتفكر في شيء يدبره ﴿ ثم أدبر ﴾ أي عن الإيمان ﴿ واستكبر ﴾ أي حين دعي إليه ﴿ فقال إن هذا ﴾ الذي يقوله محمد ويقرؤه ﴿ إلا سحر يؤثر ﴾ يروى ويحكى عن السحرة ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ يعني يساراً وجبراً فهو

يأثره عنهما الله قال الله تعالى : ﴿ سأصليه ﴾ أي سأدخله ﴿ سقر ﴾ هو اسم من أسماء جهنّم وقيل آخر دركاتها ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ أي وما أعلمك أي شيء هي سقر ، وإنما ذكره على سبيل التّهويل والتّعظيم لأمرها ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ قيل هما بمعنى كما تقول صد عني وأعرض عني وقيل لا بد من الفرق وإلا لزم التكرار فقيل معناه لا تبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته ، ثم لا تذر من لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته ، وقيل لا يموت فيها ولا يحيا أي لا تبقى من فيها حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا وأعيدوا ، وقيل لا تبقى لهم لحماً ولا تذر منهم عظماً ، وقيل لكل شيء ملال وفترة إلا جهنم ليس لها ملال ولا فترة فهي لا تبقى عليهم ولا تذرهم ﴿ لواحة للبشر ﴾ جمع بشرة أي مغيرة للجلد حتى تجعله أسود قال مجاهد : تلفح الجلد حتى تدعه أشد سواداً من اللّيل وقال ابن عباس : محرقة للجلد ، وقيل تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً .

(245/791)

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر جاء في الأثر " إن أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصّياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة قد نزعت منهم الرّحمة يدفع أحدهم سبعين

ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم " وقال عمرو بن دينار : إن أحدهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية .

قال أبو جهل : لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع من ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدهم يعني الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطش بواحد منهم يعني خزنة جهنم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري ، وسبعة على بطني ، واكفوني أنتم اثنين ويروى عنه أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصّراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ يعني لا رجالاً آدميين فمن ذا يغلب الملائكة وإنما جعلهم ملائكة ليكونوا من غير جنس المعذبين وأشد منهم لأن الجنسية مظنة الرّأفة والرّحمة ﴿ وما جعلنا عدتهم ﴾ أي عددهم في القلة ﴿ إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا ، وقيل فتنتهم هي قولهم لم لم يكونوا عشرين ، وما الحكمة في تخصيص هذا العدد وقيل فتنتهم هي قولهم كيف يقدر هذا العدد ، القليل على تعذيب جميع من في النار .

وأجيب عن قولهم لم لم يكونوا عشرين بأن أفعال الله تعالى لا تعلل ولا يقال فيها لم ، وتخصيص الزبانية بهذا العدد لأمر اقتضته الحكمة ، وقيل وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر أن هذا العدد يجمع أكثر القليل ، وأقل الكثير ، ووجه ذلك أن الآحاد أقل الأعداد وأكثرها تسعة ، وأقل الكثير عشرة فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير وأكثر القليل لهذه الحكمة ، وما سوى ذلك من الأعداد فكثير لا يدخل تحت الحصر .

وأجيب عن قولهم كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع أهل النّار ، وذلك بأن الله جلّ جلاله يعطي هذا القليل من القوة والقدرة ما يقدرون به على ذلك ، فمن اعترف بكمال قدرة الله ، وأنه على كل شيء قدير وأن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذا الاستبعاد بالكلية .

﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني أن هذا العدد مكتوب في التّوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقاً بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك أن العدد كان موجوداً في كتابهم وأخبر به النّبي (صلى الله عليه وسلم) على وفق ما عندهم من غير سابقة دراسة ، وتعلم علم إنما حصل له ذلك بالوحي السّماوي ، فازدادوا بذلك إيماناً وتصديقاً بمحمد (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ ولا يرتاب ﴾ أي ولا يشك ﴿ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ يعني في عددهم

وإنما قال ولا يرتاب وإن كان الاستيقان يدل على نفي الارتياب ليجمع لهم بين إثبات اليقين ونفي الشّك ، وذلك أبلغ وآكد لأن فيه تعريضاً بحال غيرهم كأنه قال : وليخالف حالهم حال الناس المرتابين من أهل الكفر ، والنفاق ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ونفاق ﴿ والكافرون ﴾ أي مشركو مكة .

(247/791)

﴿ واللّيل إذ أدبر ﴾ أي ولى ذاهباً ، وقيل دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي فاللّيل يأتي خلف النهار ﴿ والصّبح إذا أسفر ﴾ أي أضاء وتبين وهذا قسم وجوابه ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ يعني إن سقر لإحدى الأمور العظام ، وقيل أراد بالكبر دركات النار وهي سبعة جهنم ولظّى والحطمة والسّعير وسقر والجحيم والهاوية ﴿ نذيراً للبشر ﴾ قيل يحتمل أن يكون نذيراً صفة للنار ، والمعنى أن النّار نذير للبشر قال الحسن : والله ما أنذر بشيء أدهى من النار ، وقيل يجوز أن يكون نذيراً صفة لله تعالى ، والمعنى أنا لكم منها نذير فاتقوها وقيل هو صفة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ومعناه يا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أي يتقدم في الخير والطّاعة أو يتأخر عنهما فيقع في الشر والمعصية ، والمعنى أن الإنذار قد حصل لكل واحد ممن آمن أو

كفر ، وقد تمسك بهذه الآية من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل وأنه متمكن من فعل نفسه .

وأجيب عنه بأن مشيئته تابعة لمشيئة الله تعالى ؛ وقيل إضافة المشيئة إلى المخاطبين على سبيل التهديد كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وقيل هذه المشيئة لله تعالى ، والمعنى لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي مرتهنة في النّار بكسبها ومأخوذة بعملها ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم غير مرتهنين بذنوبهم في النار ، ولكن الله يغفرها لهم ، وقيل معناه فكوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة كما يفك الراهن رهنه بأداء الحق الذي عليه .

(248/791)

واختلفوا في أصحاب اليمين من هم فقيل هم المؤمنون المخلصون ، وقيل هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم ، وقيل هم الذين كانوا على يمين آدم يوم أخذ الميثاق وحين قال الله تعالى لهم : " هؤلاء في الجنة ولا أبالي " وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم ، وروى عن علي بن أبي طالب أنهم أطفال المسلمين وهو أشبه بالصواب لأن الأطفال لم يكتسبوا

إثماً يرتهنون به وعن ابن عباس قال هم الملائكة ﴿ في جنات ﴾ أي هم في بساتين ﴿ يتساءلون عن المجرمين ﴾ أي يتساءلون المجرمين وعن صلة فيقولون لهم .

﴿ ما سلككم في سقر ﴾ قيل وهذا يقوي قول من قال إن أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لم يعرفوا الذنوب التي توجب النّار ، وقيل معناه يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين ، فعلى هذا التفسير يكون معنى ما سلككم ، أيّ يقول المسؤولون للسّائلين قلنا للمجرمين ما سلككم ، أي أدخلكم وقيل ما حبسكم في سقر ، وهذا سؤال توبيخ وتقريع ﴿ قالوا ﴾ مجيبين لهم ﴿ لم نك من المصلين ﴾ أي لله في الدّنيا ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي لم نتصدق عليه ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي في الباطل ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أي بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشّافعين ﴾ قال ابن مسعود : تشفع الملائكة والنّبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ الآية ، وقال عمران بن حصين : الشّفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون .

روى البغوي بسنده عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يصف أهل النار فيعذبون قال فيمر بهم الرجل من أهل الجنة ، فيقول للرجل منهم يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً سقاك شربة يوم كذا وكذا قال ؛ فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه قال ، ثم يمر بهم الرجل من أهل الجنة فيقول يا فلان فيقول ما تريد فيقول أما تذكر رجلاً وهب لك وضوءاً يوم كذا وكذا ، فيقول وإنك لأنت هو فيقول نعم فيشفع له فيشفع فيه " ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أيّ عن مواعظ القرآن ﴿ كأنهم حمر ﴾ جمع حمار ﴿ مستنفرة ﴾ قرىء بالكسر أي نافرة وقرىء بالفتح أي منفرة مذعورة محمولة على النفار ﴿ فرت من قسورة ﴾ قيل القسورة جماعة الرّماة لا واحد له من لفظه ، وهي رواية عن ابن عباس وعنه أنها القناص وعنه قال : هي حبال الصيادين ، وقيل معناه فرت من رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وقسور وقيل القسورة لغط القوم وأصواتهم وقيل القسورة شدة سواد ظلمة اللّيل وقال أبو هريرة : هي الأسد وذلك لأن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت فكذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ القرآن هربوا منه شبههم بالحمر في البلادة والبله ، وذلك أنه لا يرى مثل نفار حمر الوحش إذا خافت من شيء .

(250/791)

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ قال المفسرون إن كفار قريش قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك رسوله نؤمر فيه باتباعك ، وقيل إن المشركين قالوا يا محمد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح ، وعند رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك ﴿ كلا ﴾ أي لا يؤتون الصحف وهو ردع لهم عن هذه الاقتراحات ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي لا يخافون عذاب الآخرة والمعنى أنهم لو خافوا النّار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة ، لأنه لما حصلت المعجزات الكثيرة كفت في الدّلالة على صحة النّبوة فطلب الزّيادة يكون من باب التعنت ﴿ كلا ﴾ أي حقاً ﴿ إنه تذكرة ﴾ يعني إنه عظة عظيمة ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي اتعظ به فإنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ أي إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو حقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم وقيل هو أهل أن تتقى محارمه ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال في هذه الآية : " هو أهل التّقوى وأهل المغفرة قال الله تبارك ، وتعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له " أخرجه التّرمذي ، وقال حديث غريب وفي إسناده سهيل بن عبد الله القطيعي وليس بالقوي في

الحديث وقد تفرد به عن ثابت ، والله تعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 172 . 181 ﴾

(251/791)

وقال النسفى :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كنت على جبل حراء : فنوديت يا محمد إنك رسول الله .

فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً ، فنظرت إلى فوقي فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض يعني الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني دثروني " فدثرته خديجة فجاء جبريل وقرأ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي المتلفف بثيابه من الدثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار .

والشعار : الثوب الذي يلي الجسد وأصله المتدثر فأدغم ﴿ قُمْ ﴾ من مضجعك أو قم

قيام عزم وتصميم ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد .

وقيل : سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفكراً كما يفعل المغموم فقيل له : يا أيها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدثار ، قم فاشتغل بالأنذار وإن آذاك الفجار ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ واختص ربك بالتكبير وهو التعظيم أي لا يكبر في عينك غيره وقل عند ما يعروك من غير الله : الله أكبر .

ورُوي أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الله أكبر " فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي ، وقد يحمل على تكبير الصلاة .

ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره .

(252/791)

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ بالماء من النجاسة لأن الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى في غير الصلاة ، أو فقصر مخالفة للعرب في تطويلهم الثياب وجرّهم الذيول إذ لا يؤمن معه إصابة النجاسة ، أو طهر نفسك مما يستقذر من الأفعال يقال : فلان طاهر الثياب إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ، وفلان دنس الثياب للغادر ولأن من طهر باطنه يطهر ظاهره ظاهراً

﴿ والرجز ﴾ بضم الراء : يعقوب وسهل وحفص ، وغيرهم بالكسر العذاب والمراد ما يؤدي إليه ﴿ فاهجر ﴾ أي أثبت على هجره لأنه كان بريئاً منه ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ بالرفع وهو منصوب المحل على الحال أي لا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً أكثر مما أعطيت فإنك مأمور بأجلّ الأخلاق وأشرف الآداب ، وهو من منّ عليه إذا أنعم عليه .

وقرأ الحسن ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ بالسكون جواباً للنهي ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه وكل مصبور عليه ومصبور عنه ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى الناقور ﴾ نفخ في الصور وهي النفخة الأولى وقيل الثانية ﴿ فذلك ﴾ إشارة إلى وقت النقر وهو مبتدأ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مرفوع المحل بدل من ﴿ ذلك ﴾ ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ خبر كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير .

والفاء في ﴿ فَإِذَا ﴾ للتسبيب وفي ﴿ فَذَلِكَ ﴾ للجزاء كأنه قيل : اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه .

والعامل في ﴿ فَإِذَا ﴾ ما دل عليه الجزاء أي فإذا نقر في الناقور عسر الأمر ﴿ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وأكد بقوله ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين أو عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا .

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ أي كله إليّ يعني الوليد بن المغيرة وكان يلقب في قومه بالوحيد و ﴿ مِنْ خلقت ﴾ معطوف أو مفعول معه ﴿ وَحِيداً ﴾ حال من الياء في ﴿ ذَرْنِى ﴾ أي ذرني وحدي معه فإني أكفيك أمره ، أو من التاء في ﴿ خلقت ﴾ أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد ، أو من الهاء المحذوفة ، أو من أي خلقته منفرداً بلا أهل ولا مال ثم أنعمت عليه ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بالنماء وكان له الزرع والضرع والتجارة .

وعن مجاهد : كان له مائة ألف دينار .

وعنه أن له أرضاً بالطائف لا ينقطع ثمرها ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ حضوراً معه بمكة لغناهم عن السفر وكانوا عشرة أسلم منهم خالد وهشام وعمارة ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ وبسطت له الجاه والرياسة فأتممت عليه نعمتي الجاه والمال واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر .

(254/791)

وقال الحسن : أن أزيد أن أدخله الجنة فأوتيه مالاً وولداً كما قال ﴿ لأوتين مالاً وولداً ﴾ ﴿ كَلاَّ ﴾ [مريم : 77] ردع له وقطع لرجائه أي لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم ، فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿ إِنَّهُ كان لآياتنا ﴾ للقرآن ﴿ عَنِيداً ﴾ معانداً جاحداً وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال : لم لا يزاد ؟ فقيل : إنه جحد آيات المنعم وكفر بذلك نعمته والكافر لا يستحق المزيد ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ سأغشيه ﴿ صَعُوداً ﴾ عقبة شاقة المصعد وفي الحديث " الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبد " ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ تعليل للوعيد كأن الله تعالى عاجله بالفقر والذل بعد الغنى والعز لعناده ، ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب لبلوغه بالعناد غايته ، وتسميته القرآن سحراً يعني أنه فكر ماذا يقول في القرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ في نفسه ما يقوله وهيأه .

﴿ فَقُتِلَ ﴾ لعن ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ كرر للتأكيد و"ثم" يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ في وجوه الناس أو فيما قدر ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطب وجهه ﴿ وَبَسَرَ ﴾ زاد في التقبض والكلوح ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ واستكبر ﴾ عنه أو عن مقامه وفي مقاله .

و﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ عطف على ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ والدعاء اعتراض بينهما ، وإيراد "ثم" في المعطوفات لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراحياً ﴿ فَقَالَ إِنْ هذا ﴾ ما هذا ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ

يُؤْثَرُ ﴾ يروى عن السحرة .

رُوي أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى .

فقالت قريش : صبأ والله الوليد .

(255/791)

فقال أبو جهل وهو ابن أخيه : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام الوليد ، فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا .

ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يؤثر عن مسيلمة وأهل بابل ، فارتج النادي فرحاً وتفرقوا متعجبين منه .

وذكر الفاء دليل على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله نطق بها من غير تلبث ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ

قَوْلُ البشر ﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين لأن الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى .

﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ سأدخله بدل من ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ ﴿ سَقَرَ ﴾ علم لجهنم ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تهويل لشأنها ﴿ لاَ تُبْقِى ﴾ أي هي لا تبقى لحماً ﴿ وَلاَ تَذَرُ ﴾ عظماً أو لا تبقى شيئاً يبقى فيها إلا أهلكته ولا تذره هالكاً بل يعود كما كان ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي لواحة ﴿ لِّلْبَشَرِ ﴾ جمع بشرة وهي ظاهرة الجلد أي مسوّدة للجلود ومحرقة لها ﴿ عَلَيْهَا ﴾ على سقر ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي يلي أمرها تسعة عشر ملكاً عند الجمهور .

وقيل : صنفاً من الملائكة .

وقيل : صفاً .

وقيل : نقيباً ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أصحاب النار ﴾ أي خزنتها ﴿ إِلاَّ ملائكة ﴾ لأنهم خلاف جنس المعذبين فلا تأخذهم الرأفة والرقة لأنهم أشد الخلق بأساً فللواحد منهم قوة الثقلين .

(256/791)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ تسعة عشر ﴿ إِلاَّ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاء واختبار ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ حتى قال أبو جهل : لما نزلت ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أما يستطيع كل عشر منكم أن

يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدهم ، فقال أبو الأشد وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين فنزلت ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أصحاب النار إِلاَّ ملائكة ﴾ أي وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون .

وقالوا : في تخصيص الخزنة بهذا العدد مع أنه لا يطلب في الأعداد العلل أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار ، وستة يسوقونهم ، وستة يضربونهم بمقامع الحديد ، والآخر خازن جهنم وهو مالك وهو الأكبر .

وقيل : في سقر تسعة عشر دركاً وقد سلط على كل درك ملك .

وقيل : يعذب فيها بتسعة عشر لوناً من العذاب وعلى كل لون ملك موكل .

وقيل : إن جهنم تحفظ بما تحفظ به الأرض من الجبال وهي تسعة عشر وإن كان أصلها مائة وتسعين إلا أن غيرها يشعب عنها ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله ﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ بمحمد وهو عطف على ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ﴾ ﴿ إيمانا ﴾ لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ، أو يزدادوا يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ هذا عطف أيضاً ، وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دالان على انتفاء الارتياب .

ثم عطف على ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ﴾ أيضاً .

﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق ﴿ والكافرون ﴾ المشركون فإن قلت : النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية .

(257/791)

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب وذا لا يخالف كون السورة مكية .

وقيل : المراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين .

و﴿ مَثَلاً ﴾ تمييز لهذا أو حال منه كقوله : ﴿ هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف : 73] [هود : 64] ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلاً ، والمعنى أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين ، وغرضهم إنكاره أصلاً وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ الكاف نصب و"ذلك" إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يعني إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا ،

وهدي المؤمنين بتصديقه ، ورؤية الحكمة في ذلك يضل الله من يشاء من عباده وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء ، وفيه دليل خلق الأفعال ووصف الله بالهداية والإضلال .

لما قال أبو جهل لعنه الله : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر نزل ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ لفرط كثرتها ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي وما سقر وصفتها ﴿ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي تذكرة للبشر أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها .

﴿ كَلاَّ ﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ﴿ والقمر ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿ والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف .

(258/791)

وغيرهم ﴿ إِذَا دبرٍ ﴾ ودبر بمعنى أدبر ومعناهما ولى وذهب .

وقيل : أدبر ولى ومضى ، ودبر جاء بعد النهار ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أضاء وجواب القسم .

﴿ إِنَّهَا ﴾ إن سقر ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ هي جمع الكبرى أي لإحدى البلايا أو الدواهي

الكبر ، ومعنى كونها إحداهن أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها كما تقول : هو أحد الرجال وهي إحدى النساء ﴿ نَذِيراً ﴾ تمييز من ﴿ إِحْدَى ﴾ أي إنها لإحدى الدواهي إنذاراً كقولك : هي إحدى النساء عفافاً .

وأبدل من ﴿ لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاء مِّنكُمْ ﴾ بإعادة الجار ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الخير ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عنه .

وعن الزجاج : إلى ما أمر وعما نهى .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ هي ليست بتأنيث "رهين" في قوله ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21] لتأنيث النفس ، لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين ، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن ، والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ أي أطفال المسلمين لأنهم لا أعمال لهم يرهنون بها ، أو إلا المسلمين فإنهم فكوا رقابهم بالطاعة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ﴿ فِي جنات ﴾ أي هم في جنات لا يكتنه وصفها ﴿ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ المجرمين ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عنهم أو يتساءلون غيرهم عنهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ أدخلكم فيها .

ولا يقال لا يطابق قوله ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ وهو سؤال للمجرمين قوله ﴿ يَتَسَاءلُونَ* عَنِ المجرمين ﴾ وهو سؤال عنهم ، وإنما يطابق ذلك لو قيل يتساءلون المجرمين ما سلككم ، لأن ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ، لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون : قلنا لهم ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ، إلا أنه اختصر كما هو نهج القرآن .

وقيل : "عن" زائدة .

﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ أي لم نعتقد فرضيتها ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ كما يطعم المسلمون ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ الخوض : الشروع في الباطل .

أي نقول الباطل والزور في آيات الله ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ الحساب والجزاء ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ الموت ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ من الملائكة والنبيين والصالحين لأنها للمؤمنين دون الكافرين .

وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين في الحديث : " إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر " ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة ﴾ عن التذكير وهو العظة أي القرآن ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ مولين حال من الضمير نحو : مالك قائماً ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ أي حمر الوحش حال من الضمير في ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ شديدة النفار كأنها تطلب النفار من

نفوسها .

وبفتح الفاء : مدني وشامي أي استنفرها غيرها ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ حال و"قد" معها مقدرة .

والقسورة : الرماة أو الأسد فعولة من القسر وهو القهر والغلبة ، شبهوا في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بحمر جدت في نفارها .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها : من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك .

(260/791)

ونحوه قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : 93] وقيل : قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات .

ثم قال : ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال : إن القرآن تذكرة بليغة كافية

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي فمن شاء أن يذكره ولا ينساه فعل .

فإن نفع ذلك عائد إليه ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ وبالتاء : نافع ويعقوب ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ إلا وقت مشيئة الله وإلا بمشيئة الله ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ في الحديث : " هو أهل أن يتقي وأهل أن يغفر لمن اتقاه " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 307.313 ﴾

(261/791)

وقال ابن جزى :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾

(262/791)

وزنه متفعل ومعناه الذي تدثر في كساء أو ثياب وتسميته بذلك كتسميته بالمزمل ، حسبما ذكرنا في موضعه . وقال السهيلي : في ندائه بالمدثر ثلاثة فوائد : الاثنتان اللتان ذكرتا في

المزمل وفائدة ثالثة وهي أن العرب يقولون : النذير العريان ، للنذير الذي يكون في غاية الجد والتشمير ، والنذير بالثياب ضد هذا ، فكأنه تنبيه على ما يجب التشمير ، وقيل : إن هذه أول سورة نزلت من القرآن : والصحيح أن سورة اقرأ نزلت قبلها ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي أنذر الناس وهذه بعثة عامة ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي عظِّمه ، ويحتمل أن يريد قوله : الله أكبر ويؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة أن المسلمين قالوا : بم نفتتح صلاتنا فنزلت : وربك فكبر وقول : وربك فكبر : من المقلوب الذي يقرأ طرداً وعكساً من أوله وآخره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال ، أحدها أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة ، واختلف في هذا هل يحمل على الوجوب ، فتكون إزالة النجاسة واجبة ، أو على الندب فتكون سنة ، والآخر أنه يراد به الطهارة من الذنوب والعيوب ، فالثياب على هذا مجاز ، الثالث : أن معناه لا تلبس الثياب من مكسب خبيث ﴿ والرجز فاهجر ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن الرجز الأوثان ، روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول عائشة ، والآخر : أن الرِجز السخط والعذاب وهذا أصله في اللغة فمعناه اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه ، الثالث : أنه المعاصي والفجور ، قال بعضهم : كل معصية رِجز ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ يحتمل قوله : تمنن أن يكون العطاء أو بمعنى المنّ وهو ذكر العطاء وشبهه ، أو بمعنى الضعف فإن كان بمعنى العطاء ففيه وجهان ، أحدهما : أن معناه لا تعط شيئاً لتأخذ أكثر منه ، قال بعضهم : هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ومباح لأمّته ،

والآخر : لا تعط الناس عطاء وتستكثره ، لأن الكريم يستقلُ ما يُعطي وإنْ كثيراً ، وإن كان من المنّ بالشيء ففيه وجهان ،

(263/791)

الأول : لا تمنن على الناس بنبوتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه ، الثاني : لا تمنن على الله بعملك تستكثر أعمالك وتقع لك بها إعجال ، وإن كان من الضعف فمعناه لا تضعف عن تبليغ الرسالة وتستكثر ما حملناك من ذلك ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ أي اصبر لوجهه وطلب رضاه ، ويحتمل أن يريد الصبر على المكاره والمصائب ، أو على إذاية الكفار له ، أو على العبادة ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي الناقور ﴾ يعني نُفخ في الصور ، ويحتمل أن يريد النفخة الأولى والثانية .

(264/791)

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ هذا وعيد وتهديد ، ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة باتفاق ، وفي معنى ﴿ وَحِيداً ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : روي أنه كان يلقب الوحيد ، أي

لا نظير له في ماله وشرفه ، وكونه وحيداً نعمة عددها الله عليه ، الثاني : أن معناه خلقته منفرداً ذليلاً ، الثالث : أن معناه خلقته وحدي ، فوحيداً على هذا من صفة الله تعالى ، وإعرابه على هذا حال من الضمير الفاعل في قوله : خلقت ، وهو على القولين الأولين حال من الضمير المفعول ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي كثيراً ، واختلف في مقداره فقيل : ألف دينار ، وقيل عشرة آلاف دينار ، وقيل : يعني الأرض لأنها مدت ﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أي حضوراً ، ورُوي أنه كان له عشرة من الأولاد ، وقيل : ثلاث عشرة لا يفارقونه . وأسلم منهم ثلاثة وهم : خالد وهشام وعمار ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي بسطت له في الدنيا بالمال والقوة وطيب العيش ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أي يطمع في الزيادة على ما أعطاه الله ، وهذا غاية الحرص ﴿ كَلاَّ ﴾ زجر عما طمع فيه من الزيادة ﴿ عَنِيداً ﴾ أي معانداً مخالفاً ، والآيات هنا يراد بها القرآن لأن الوليد قال فيه : إنه سحر ، ويحتمل أن يريد الدلائل ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ الصعود العقبة الصعبة ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها عقبة في جهنم ، كلما صعدها الإنسان ذاب ثم يعود ، فالمعنى سأشق عليه بتكليفه الصعود فيها .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أي فكر فيما يقول ، وقدر في نفسه ما يقول في القرآن أي : هيّأ كلامه ، روي أن الوليد سمع القرآن فأعجبه وكاد يسلم ، ودخل إلى أبي بكر الصديق فعاتبه أبو جهل ، وقال له : إن قريشاً قد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في كلام محمد قولاً يرضيهم ، فافتتن وقال : أفعل ذلك ، ثم فكر فيما يقول في القرآن فقال : أقول شعر ؟ ما هو شعر ، أقول كهانة ما هو بكهانة ، أقول إنه سحر وإنه قول البشر ليس منزلاً من عند الله ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ دعاء عليه وذم ، وكرره تأكيداً لذمه وتقبيح حاله ، قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون مقتضاه استحسان منزعه الأول حين أعجبه القرآن ، فيكون قوله : قتل ، لا يراد به الدعاء عليه ، وإنما هو كقولهم : قاتل الله فلاناً ما أشجعه ، يريدون التعجب من حاله واستعظام وصفه ، وقاله الزمخشري : يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء أو حكاية لقول قريش تهكماً بهم ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي نظر في قوله ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ البسور هو تقطيب الوجه هو أشد من العبوس ، وفعل ذلك من حسده للنبي صلى الله عليه وسلم أي عبس في وجهه عليه الصلاة والسلام ، أو عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي أعرض عن الإسلام ﴿ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي ينقل عمن تقدم .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تعظيم لها وتهويل ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ مبالغة في وصف عذابها ، أي لا تدع غاية من العذاب إلا أذاقته إياها أو لا تبقي شيئاً ألقي فيها إلا أهلكته

وإذا أهلك لم تذره هالكاً بل يعود للعذاب ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ معنى لوّاحة : مغيّرة ، يقال : لوّحه السفر إذا غيره والبَشَر جمع بَشَرة وهي الجلدة ، فالمعنى أنها تحرق الجلود وتسودها . وقيل : لواحة من لاح إذا ظهر ، والبشر الناس أي تلوح للناس ، وقال الحسن : تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام .

(266/791)

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ يعني الزبانية خزنة جهنم ، فقيل : هم تسعة عشرة ملكاً ، وقيل : تسعة عشر صفاً من الملائكة ، والأول أشهر .

(267/791)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ﴾ سبب الآية أنه لما نزل ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : 30] قال أبو جهل : أيعجز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشرة أن يبطشوا به ، فنزلت الآية ومعناها أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم ، ورُوي أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي جعلناهم هذا

العدد ليفتتن الكفار بذلك ويطمعوا أن يغلبوهم ويقولون ما قالوا ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أن ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم حق ، فإن قيل : كيف نفى عنهم الشك بعد أن وصفهم باليقين والمعنى واحد ، وهو تكرار ؟ فالجواب : أنه لما وصفهم باليقين نفى عنهم أن يشكوا فيما يستقبل بعد يقينهم الحاصل الآن ، فكأنه وصفهم باليقين في الحال والاستقبال ، وقال الزمخشري : ذلك مبالغة وتأكيد ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ المرض عبارة عن الشك ، وأكثر ما يطلق الذين في قلوبهم مرض على المنافقين . ؟ فإن قيل : هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة ، فالجواب من وجهين ؛ أحدهما أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا ، ففيه إخبار بالغيب ، والآخر أن يريد من كان بمكة من أهل الشك . وقولهم : ماذا أراد الله بهذا مثلاً : استبعاد لأن يكون هذا من عند الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يحتمل القصد بهذا وجهين ؛ أحدهما وصف جنود الله بالكثرة أي : هم من كثرتهم لا يعلمهم إلا الله ، والآخر رفع اعتراض الكفار على التسعة عشر أي لا يعلم أعداد جنود الله إلا هو ؛ لأن منهم عدداً قليلاً ومنهم عدداً كثيراً حسبما أراد الله ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ الضمير لجهنم أو للآيات المتقدمة .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للكفار عن كفرهم ، وقال الزمخشري : هي إنكار لأن تكون لهم ذكرى ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي ولى وقرئ دَبَر بغير ألف والمعنى واحد . وقيل : معناه دبر الليل والنهار أي جاء في دبره ﴿ والصبح إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أي أضاء ، ومنه الإسفار بصلاة الصبح ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ الضمير لجهنم ، أو للآيات والنذارة أي هي من الأمور العظام ، والكبر جمع كبرى وقال ابن عطية : جمع كبيرة والأول هو الصحيح ﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ تمييز أو حال من إحدى الكبر وقيل : النذير هنا الله ، فالعامل فيه على هذا محذوف . وهذا ضعيف ، وقيل : هو حال من هذه السورة أي قم فأنذر نذيراً وهذا بعيد ، قال الزمخشري : هو من بدع التفاسير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ التقديم عبارة عن تقديم سلوك طريق الهدى والتأخر ضده ، ولمن شاء بدل من البشر أي هم متمكنون من التقدم والتأخر ، وقيل : معناه الوعيد كقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] وعلى هذا أعرب الزمخشري أن يتقدم مبتدأ ولمن شاء خبره والأول أظهر ﴿ رَهِينَةٌ ﴾ قال ابن عطية : الهاء في رهينة للمبالغة أو على تأنيث النفس . وقال الزمخشري : ليست بتأنيث رهين لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي بمعنى الرهن ، أي كل نفس رهن عند الله بعملها ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ أي أهل السعادة فإنهم فكوا رقابهم بأعمالهم الصالحة ، كما فكَّ الراهن رهنه بأداء الحق وقال عليّ

بن أبي طالب : أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها ، وقال ابن عباس : هم الملائكة ﴿ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ المجرمين ﴾ أي سأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين الذين في النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ أي ما أدخلكم النار ، وهذا خطاب للمجرمين ، يحتمل أن خاطبهم به المسلمون أو الملائكة فأجابوهم بقولهم : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾

(269/791)

وما بعده ، أي هذا الذي أوجب دخولهم النار ، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيماً له لأنه أعظم جرائمهم ﴿ نَخُوضُ ﴾ الخوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه ﴿ حتى أَتَانَا اليقين ﴾ هو الموت عند المفسرين وقال ابن عطية : إنما يقين الذي أرادوا ما كانوا يكذبون في الدنيا ، فيتيقنونه بعد الموت ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ إنما ذلك لأنهم كفار ، وأجمع العلماء أنه لا يشفع أحد في الكفار ، وجمع الشافعين دليل على كثرتهم كما ورد في الآثار ، تشفع الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء والصالحين .

(270/791)

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ المستنفرة بفتح الفاء التي استنفرها الفزع ، وبالكسر بمعنى النافرة ، شبه الكفار بالحمر النافرة في جهلهم ونفورهم عن الإسلام ويعني حمر الوحش . ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس : القسورة الرماة وقال أيضاً هو : الأسد ، وقيل : أصوات الناس ، وقيل : الرجال الشداد ، وقيل : سواد أول الليل ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ المعنى : يطمع كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاباً من الله ، ومعنى منتشرة : منشورة غير مطوية أي طرية كما كتبت لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لا نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر بتباعك ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عما أرادوه ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ أي هذه هي اللعة والسبب في إعراضهم ﴿ كَلاَّ ﴾ تأكيد للردع الأول أو ردع عن عدم خوفهم الآخرة ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ الضمير لما تقدم من الكلام أو للقرآن بجملته ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ فاعل شاء ضمير يعود على من ، وفي ذلك حض وترغيب وقيل : الفاعل هو الله ثم قيد فعل العبد بمشيئة الله ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ﴾ أي هو أهل لأن يُتَّقَى لشدة عقابه ، وهو أهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته وفضله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 159.163 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية ، وآيها خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أيها المدثر ﴾

أي المتدثر وهو لابس الدثار . " روي أنه عليه الصلاة والسلام قال "كنت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني وشمالي فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض يعني الملك الذي ناداه فرعبت فرجعت إلى خديجة فقلت : دثروني ، فنزل جبريل " وقال : ﴿ يأَيُّهَا المدثر ﴾ ولذلك قيل هي أول سورة نزلت . وقيل تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكراً ، أو كان نائماً مدثراً فنزلت ، وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية ، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة ، وقرىء ﴿ المدثر ﴾ أي الذي دثر هذا الأمر وعصب به .

﴿ قُمِ ﴾ من مضجعك أو قم قيام عزم وجد . ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ مطلق للتعميم أو مقدر

بمفعول دل عليه قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ أو قوله : ﴿ وَمَا أَرسلناك إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ وخصص ربك بالتكبير وهو وصفه بالكبرياء عقداً وقولاً " روي أنه لما نزل كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيقن أنه الوحي " وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك والفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال : وما يكن فكبر ربك ، أو الدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والتشبيه ، فإن أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه ، والقوم كانوا مقرين به .

(272/791)

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ من النجاسات فإن التطهير واجب في الصلوات محبوب في غيرها ، وذلك بغسلها أو بحفظها عن النجاسة بتقصيرها مخافة جر الذيول فيها ، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة ، أو طهر نفسك من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة ، فيكون أمراً باستكمال القوة العملية بعد أمره باستكمال القّوة النظرية والدعاء إليه ، أو فطهر دثار النبوة عما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ فاهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه من الشرك وغيره

من القبائح ، وقرأ يعقوب وحفص " والرجز " بالضم وهو لغة كالذكر .

﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تعط مستكثراً ، نهى عن الاستفزاز وهو أن يهب شيئاً طامعاً في عوض أكثر ، نهي تنزيه أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام " المستفزز يثاب من هبته " والموجب له ما فيه من الحرص والضنة ، أو ﴿ لا تَمْنُن ﴾ على الله تعالى بعبادتك مستكثراً إياها ، أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه ، وقرىء ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ بالسكون للوقف أو الإبدال من تمنن على أنه من بكذا ، أو ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ بمعنى تجده كثيراً وبالنصب على إضمار أن ، وقد قرىء بها وعلى هذا يجوز أن يكون الرفع بحذفها وإبطال عملها ، كما روي : أحضر الوغى .

بالرفع .

﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ لوجهه أو أمره . ﴿ فاصبر ﴾ فاستعمل الصبر ، أو فاصبر على مشاق التكاليف وأذى المشركين .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ ﴾ نفخ . ﴿ فِى الناقور ﴾ في الصور فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت ، والفاء للسببية كأنه قال : اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم ، و"إذا" ظرف لما دل عليه قوله :

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين ﴾ لأن معناه عسر الأمر على الكافرين ، وذلك إشارة إلى وقت النقر ، وهو مبتدأ خبره ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل أو ظرف لخبره إذ التقدير : فذلك الوقت وقت وقوع ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ . ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه ويشعر بيسره على المؤمنين .

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة ، و ﴿ وَحِيداً ﴾ حال من الياء أي ذرني وحدي معه فإني أكفيكه ، أو من التاء أي ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد ، أو من العائد المحذوف أي من خلقته فريداً لا مال له ولا ولد ، أو ذم فإنه كان ملقباً به فسماه الله به تهكماً ، أو إرادة أنه وحيد ولكن في الشرارة أو عن أبيه فإنه كان زنيماً .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممداً بالنماء ، وكان له الزرع والضرع والتجارة .

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته ، ولا يحتاج إلى أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه ، أو في المحافل والأندية لوجاهتهم واعتبارهم . قيل كان له عشرة بنين أو أكثر كلهم رجال ، فأسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش والوحيد أي باستحقاقه الرياسة والتقدم .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ على ما أوتيه وهو استبعاد لطمعه أما لأنه لا مزيد على ما أوتي ، أو لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم ولذلك قال :

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً ﴾ فإنه ردع له عن الطمع وتعليل للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة المانعة عن الزيادة ، قيل : ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله حتى هلك .

(274/791)

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهو مثل لما يلقى من الشدائد . وعنه عليه الصلاة والسلام " الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً " ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليل أو بيان للعناد ، والمعنى فكر فيما يخيل طعناً في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه .

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تعجب من تقديره استهزاء به ، أو لأنه أصاب أقصى ما يمكن أن يقال عليه من قولهم : قتله الله ما أشجعه ، أي بلغ في الشجاعة مبلغاً يحق أن يحسد ويدعو

عليه حاسده بذلك . روي أنه مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿ حم ﴾ "السجدة" ، فأتى قومه وقال لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإِنس والجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى . فقالت قريش صبأ الوليد فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فناداهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً ، فقالوا لا فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تكرير للمبالغة وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي في أمر القرآن مرة بعد أخرى .

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً ولم يدر ما يقول ، أو نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطب في وجهه . ﴿ وَبَسَرَ ﴾ اتباع لعبس .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق أو الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿ واستكبر ﴾ عن اتباعه .

﴿ فَقَالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ يروى ويتعلم ، والفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تفوه بها من غير تلبث وتفكر .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ البشر ﴾ كالتأكيد للجملة الأولى ولذلك لم يعطف عليها .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ تفخيم لشأنها وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تفخيم لشأنها وقوله : ﴿ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴾ بيان لذلك أو حال من سقر ، والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقي على شيء يلقى فيها ولا تدعه حتى تهلكه .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي مسودة لأعالي الجلد ، أو لائحة للناس وقرئت بالنصب على الاختصاص .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ملكاً أو صنفاً من الملائكة يلون أمرها ، والمخصص لهذا العدد أن اختلال النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنتي عشرة والطبيعية السبع ، أو أن لجهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفار وكل صنف يعذب بترك الاعتقاد والإقرار ، أو العمل أنواعاً من العذاب تناسبها على كل نوع ملك أو صنف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه ويتولاه ملك ، أو صنف أو أن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة في الصلاة فيبقى تسعة عشر قد تصرف

فيما يؤاخذ به بأنواع من العذاب يتولاها الزبانية ، وقرىء ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ بسكون العين كراهة توالي حركات فيها هو كاسم واحد و"تسعة أعشر" جمع عشير كيمين وأيمن ، أي تسعة كل عشير جمع يعني نقيبهم أو جمع عشر فتكون تسعين .

(276/791)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصحاب النار إِلاَّ مَلَئِكَةً ﴾ ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقون لهم ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوى الخلق بأساً وأشدهم غضباً لله . روي أن أبا جهل لما سمع عليها تسعة عشر قال لقريش : أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر ، فعبر بالأثر عن المؤثر تنبيهاً على أنه لا ينفك منه وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذه العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين ، ولعل المراد الجعل بالقول ليحسن تعليله بقوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم .

(277/791)

﴿ وَيَزْدَادَ الذين ءامَنُواْ إيمانا ﴾ بالإيمان به وبتصديق أهل الكتاب به . ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان به وبتصديق أهل الكتاب له . ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ﴾ أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ونفي لما يعرض للمتيقن حيثما عراه شبهة . ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك أو نفاق ، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة . ﴿ والكافرون ﴾ الجازمون في التكذيب . ﴿ مَاذَا أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب . ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَاء وَيَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبّكَ ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه . ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة . ﴿ وَمَا هِىَ ﴾ وما سقر أو عدة الخزنة أو السورة . ﴿ إِلاَّ ذكرى لِلْبَشَرِ ﴾ إلا تذكرة لهم .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن أنكرها ، أو إنكار لأن يتذكروا بها . ﴿ والقمر ﴾ .

﴿ والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي أدبر كقبل بمعنى أقبل ، وقرأ نافع وحمزة ويعقوب وحفص "إِذَا دبر"

على المضي .

﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أضاء .

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ أي لإِحدى البلايا الكبر أي البلايا الكبر كثيرة و﴿ سَقَرَ ﴾ واحدة منها ، وإنما جمع كبرى على "كبر" إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للألف منزلة التاء كما ألحقت قاصعاء بقاصعة فجمعت على قواصع ، والجملة جواب القسم أو تعليل ل ﴿ كَلاَّ ﴾ ، والقسم معترض للتأكيد .

(278/791)

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ تمييز أي ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ إنذاراً أو حال عما دلت عليه الجملة أي كبرت منذرة ، وقرىء بالرفع خبراً ثانياً أو خبراً لمحذوف .

﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ بدل من ﴿ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي نذيراً للمتمكنين من السبق إلى الخير والتخلف عنه ، أو ﴿ لِمَن شَاء ﴾ خبر ل ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ فيكون في معنى قوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرهونة عند الله مصدر كالشكيمة أطلقت للمفعول كالرهن ولو كانت صفة لقيل رهين .

﴿ إِلاَّ أصحاب اليمين ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم ، وقيل هم الملائكة أو الأطفال .

﴿ فِي جنات ﴾ لا يكتنه وصفها وهي حال من ﴿ أصحاب اليمين ﴾ ، أو ضميرهم في قوله : ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ .

﴿ عَنِ المجرمين ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم عن حالهم كقولك : تداعيناه أي دعوناه وقوله :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ بجوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين أجابوا بها .

﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ الصلاة الواجبة .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ﴾ أي ما يجب إعطاؤه ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ ﴾ نشرع في الباطل . ﴿ مَعَ الخائضين ﴾ مع الشارعين فيه .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ أخره لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة .

﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ الموت ومقدماته .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ لو شفعوا لهم جميعاً .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ أي معرضين عن التذكرة يعني القرآن ، أو ما يعمه و ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ حال .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ شبههم في إعراضهم ونفارهم عن استماع الذكر بحمر نافرة .

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ أي أسد فعولة من القسر وهو القهر .

(279/791)

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لن نتبعك حتى تأتي كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات . ﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إعراضهم . ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ وأي تذكرة .

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ فمن شاء أن يذكره .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ ذكرهم أو مشيئتهم كقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى ، وقرأ نافع "تَذَكَّرُونَ" بالتاء وقرىء بهما مشدداً . ﴿ هُوَ أَهْلُ التقوى ﴾ حقيق بأن يتقى عقابه . ﴿ وَأَهْلُ المغفرة ﴾ حقيق بأن يغفر لعباده سيما المتقين منهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد عليه الصلاة والسلام وكذب به بمكة شرفها الله تعالى " . (1) انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 410.418 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(280/791)

وقال أبو حيان :

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) ﴾

قال الجمهور : لما فزع من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض ورعب منه ، رجع إلى خديجة فقال : زملوني دثروني ، نزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

قال النخعي وقتادة وعائشة : نودي وهو في حال تدثره ، فدعى بحال من أحواله .

وروي أنه كان تدثر في قطيفة .

قيل : وكان يسمع من قريش ما كرهه ، فاغتم وتغطى بثوبه مفكراً ، فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه .

وقال عكرمة معناه : يا أيها المدثر للنبوة وأثقالها ، كما قال في المزمل .

وقرأ الجمهور : ﴿ المدثر ﴾ بشد الدال .

وأصله المتدثر فأدغم ، وكذا هو في حرف أبي على الأصل .

وقرأ عكرمة : بتخفيف الدال ، كما قرىء بتخفيف الزاي في المزمل ، أي دثر نفسه .

وعن عكرمة أيضاً : فتح التاء اسم مفعول ، وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك .

﴿ قم فأنذر ﴾ : أي قم من مضجعك ، أو قم بمعنى الأخذ في الشيء ، كما تقول : قام زيد يضرب عمراً ، أي أخذ ، وكما قال :

علام قام يشتمني لئيم . . .

أي أخذ ، والمعنى قم قيام تصميم وجد ، ﴿ فأنذر ﴾ : أي حذر عذاب الله ووقائعه ، والإنذار عام بجميع الناس وبعثه إلى الخلق .

﴿ وربك فكبر ﴾ : أي فعظم كبرياءه .

وقال الزمخشري : واختص ربك بالتكبير ، وهو الوصف بالكبرياء ، وأن يقال : الله أكبر . انتهى .

وهذا على مذهبه من أن تقديم المفعول على الفعل يدل على الاختصاص ، قال : ودخلت الفاء لمعنى الشرط ، كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره . انتهى .

وهو قريب مما قدره النحاة في قولك : زيداً فاضرب ، قالوا تقديره : تنبه فاضرب زيداً ،

فالفاء هي جواب الأمر ، وهذا الأمر إما مضمن معنى الشرط ، وإما الشرط بعده محذوف على الخلاف الذي فيه عند النحاة .

(281/791)

﴿ وثيابك فطهر ﴾ : الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي ، ومن هذه الآية ذهب الشافعي إلى وجوب غسل النجاسة من ثياب المصلي .

وقيل : تطهيرها : تقصيرها ، ومخالفة العرب في تطويل الثياب وجرهم الذيول على سبيل الفخر والتكبر ، قال الشاعر :

ثم راحوا عبق المسك بهم . . .

يلحفون الأرض هداب الأزر

ولا يؤمن من أصابتها النجاسة وفي الحديث : " أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، ما كان أسفل من ذلك ففي النار " وذهب الجمهور إلى أن الثياب هنا مجاز .

فقال ابن عباس والضحاك : تطهيرها أن لا تكون تتلبس بالقذر .

وقال ابن عباس وابن جبير أيضاً : كنى بالثياب عن القلب ، كما قال امرؤ القيس :

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي . . .

أي قلبي من قلبك وعلى الطهارة من القذر ، وأنشد قول غيلان بن سلمة الثقفي :

إني بحمد الله لا ثوب غادر . . .

لبست ولا من خزية أتقنع

وقيل : كناية عن طهارة العمل ، المعنى : وعملك فأصلح ، قاله مجاهد وابن زيد .

وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب ؛ وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ومنه قول الشاعر :

لا هم إن عامر بن جهم . . .

أو ذم حجا في ثياب دسم

أي : دنسة بالمعاصي ، وقيل : كنى عن النفس بالثياب ، قاله ابن عباس .

قال الشاعر :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه . . .

وقال آخر :

ثياب بني عوف طهارى نقية . . .

وأوجههم بيض سافر غران

أي : أنفسهم .

وقيل : كنى بها عن الجسم .

قالت ليلى وقد ذكرت إبلاً :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى . . .

لها شبهاً إلا النعام المنفرا

أي : ركبوها فرموها بأنفسهم .

وقيل : كناية عن الأهل ، قال تعالى : ﴿ هن لباس لكم ﴾ والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفائف .

(282/791)

وقيل : وطئهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر .

وقيل : كناية عن الخلق ، أي وخلقك فحسن ، قاله الحسن والقرطبي ، ومنه قوله :

ويحيى ما يلائم سوء خلق . . .

ويحيى طاهر الأثواب حر

أي : حسن الأخلاق .

وقرأ الجمهور : والرجز بكسر الراء ، وهي لغة قريش ؛ والحسن ومجاهد والسلمي وأبو جعفر وأبو شيبة وابن محيصن وابن وثاب وقتادة والنخعي وابن أبي إسحاق والأعرج وحفص : بضمها ، فقيل : هما بمعنى واحد ، يراد بهما الأصنام والأوثان .

وقيل : الكسر للبين والنقائص والفجور ، والضم لصنمين أساف ونائلة .

وقال عكرمة ومجاهد والزهري : للأصنام عموماً .

وقال ابن عباس : الرجز : السخط ، أي اهجر ما يؤدي إليه .

وقال الحسن : كل معصية ، والمعنى في الأمر : اثبت ودم على هجره ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) كان بريئاً منه .

وقال النخعي : الرجز : الإثم .

وقال القتبي : العذاب ، أي اهجر ما يؤدي إليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تمنن ﴾ ، بفك التضعيف ؛ والحسن وأبو السمال : بشد النون .

قال ابن عباس وغيره : لا تعط عطاء لتعطي أكثر منه ، كأنه من قولهم : منّ إذا أعطى .

قال الضحاك : هذا خاص به (صلى الله عليه وسلم) ، ومباح ذلك لأمته ، لكنه لا أجر لهم .

وعن ابن عباس أيضاً : لا تقل دعوت فلم أجب .

وعن قتادة : لا تدل بعملك .

وعن ابن زيد : لا تمنن بنبوتك ، تستكثر بأجر أو كسب تطلبه منهم .

وقال الحسن : تمنن على الله بجدك ، تستكثر أعمالك ويقع لك بها إعجاب ، وهذه الأقوال كلها من المنّ تعداد اليد وذكرها .

وقال مجاهد : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ ما حملناك من أعباء الرسالة ، أو تستكثر من الخير ، من قولهم : حبل متين : أي ضعيف .

وقيل : ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه .

وقرأ الجمهور : تستكثر برفع الراء ، والجملة حالية ، أي مستكثراً .

قال الزمخشري : ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويبطل عملها ، كما روي : أحضر الوغى بالرفع .

(283/791)

انتهى ، وهذا لا يجوز أن يحمل القرآن عليه ، لأنه لا يجوز ذلك إلا في الشعر ، ولنا مندوحة عنه مع صحة الحال ، أي مستكثراً .

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة : بجزم الراء ، ووجهه أنه بدل من تمنن ، أي لا تستكثر ، كقوله :

﴿ يضاعف له العذاب ﴾ في قراءة من جزم ، بدلاً من قوله : ﴿ يلق ﴾ وكقوله :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . .

تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا

ويكون من المن الذي في قوله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ لأن من شأن المان أن يستكثر ما يعطي أن يراه كثيراً ويعتد به ؛ وأجاز الزمخشري فيه وجهين ، أحدهما : أن تشبه ثرو بعضد فتسكن تخفيفاً ؛ والثاني : أن يعتبر حال الوقف ، يعني فيجري الوصل مجرى الوقف ، وهذان لا يجوز أن يحمل القرآن عليهما مع وجود ما هو راجح عليهما ، وهو المبدل .

وقرأ الحسن أيضاً والأعمش : تستكثر بنصب الراء ، أي لن تحقرها .

وقرأ ابن مسعود : أن تستكثر ، بإظهار أن .

﴿ ولربك فاصبر ﴾ : أي لوجه ربك أمره بالصبر ، فيتناول الصبر على تكاليف النبوة ، وعلى أداء طاعة الله ، وعلى أذى الكفار .

قال ابن زيد : على حرب الأحمر والأسود ، فكل مصبور عليه ومصبور عنه يندرج في الصبر .

وقال الزمخشري : والفاء في قوله : ﴿ فإذا نقر ﴾ للتسبب ، كأنه قيل : فاصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه .

وقال الزمخشري : والفاء في ﴿ فذلك ﴾ للجزاء .

فإن قلت : بم انتصب إذا ، وكيف صح أن يقع يومئذ ظرفاً ليوم عسير ؟ قلت : انتصب إذا بما دل عليه الجزاء ، لأن المعنى : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ ، عسر الأمر على الكافرين ؛ والذي أجاز وقوع يومئذ ظرفاً ليوم عسير أن المعنى : فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير ، لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور .

ويجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحل بدلاً من ذلك ، ويوم عسير خبر ، كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير .

(284/791)

فإن قلت : فما فائدة قوله : ﴿ غير يسير ﴾ ، وعسير مغن عنه ؟ قلت : لما قال ﴿ على الكافرين ﴾ فقصر العسر عليهم ، قال ﴿ غير يسير ﴾ ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ، فيجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم .

ويجوز أن يراد به عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى بيسير العسير من أمور الدنيا . انتهى .

وقال الحوفي : ﴿ فإذا ﴾ ، إذا متعلقة بأنذر ، أي فأنذرهم إذا نقر في الناقورة ، قال أبو البقاء : يجري على القول الأخفش أن تكون إذا مبتدأ والخبر فذلك والفاء زائدة .

فأما يومئذ فظرف لذلك ، وأجاز أبو البقاء أن يتعلق على الكافرين بيسير ، أي غير يسير ، أي غير سهل على الكافرين ؛ وينبغي أن لا يجوز ، لأن فيه تقديم معمول العامل المضاف إليه غير على العامل ، وهو ممنوع على الصحيح ؛ وقد أجازه بعضهم فيقول : أنا بزيد غير راض .

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ : لا خلاف أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فروي أنه كان يلقب بالوحيد ، أي لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته .

والظاهر انتصاب وحيداً على الحال من الضمير المحذوف العائد على من ، أي خلقته منفرداً ذليلاً قليلاً لا مال له ولا ولد ، فآتاه الله تعالى المال والولد ، فكفر نعمته وأشرك به واستهزأ بدينه .

وقيل : حال من ضمير النصب في ذرني ، قاله مجاهد ، أي ذرني وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه ؛ أو حال من التاء في خلقت ، أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقي أحد ، فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه .

وقيل : وحيداً لا يتبين أبوه .

وكان الوليد معروفاً بأنه دعي ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وإذا

كان يدعى وحيداً ، فلا يجوز أن ينتصب على الذم ، لأنه لا يجوز أن يصدقه الله تعالى في أنه وحيداً لا نظير له .

(285/791)

ورد ذلك بأنه لما لقب بذلك صار علماً ، والعلم لا يفيد في المسمى صفة ، وأيضاً فيمكن حمله على أنه وحيد في الكفر والخبث والدناءة .

﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ ، قال ابن عباس : كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار .

وقيل : كان صاحب زرع وضرع وتجارة .

وقال النعمان بن بشير : المال المدود هو الأرض لأنها مدت .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو الريع المستغل مشاهرة ، فهو مد في الزمان لا ينقطع .

وقيل : هو مقدار معين واضطربوا في تعيينه .

فما قيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ألف دينار ، وكل هذا تحكم .

﴿ وبنين شهوداً ﴾ : أي حضوراً معه بمكة لا يظعنون عنه لغناهم فهو مستأنس بهم ، أو

شهوداً : أي رجالاً يشهدون معه المجامع والمحافل ، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه ؛ واختلف في عددهم ، فذكر منهم : خالد وهشام وعمارة ، وقد أسلموا ؛ والوليد والعاصي وقيس وعبد شمس .

قال مقاتل : فما زال الوليد بعد هذه الآية وبعد نزولها في نقص في ماله وولده حتى هلك .

﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ : أي وطأت وهيأت وبسطت له بساطاً حتى أقام ببلدته مطمئناً يرجع إلى رأيه .

وقال ابن عباس : وسعت له ما بين اليمن إلى الشام .

وقال مجاهد : مهدت له المال بعضه فوق بعض ، كما يمهد الفراش .

﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ : أي على ما أعطيته من المال والولد .

﴿ كلا ﴾ : أي ليس يكون كذلك مع كفره بالنعم .

وقال الحسن وغيره : ثم يطمع أن أدخله الجنة ، لأنه كان يقول : إن كان محمداً صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي .

﴿ ثم يطمع ﴾ ، قال الزمخشري : استبعاد لطمعه واستنكار ، أي لا مزيد على ما أوتي كثرة وسعة ، ﴿ كلا ﴾ : قطع لرجائه وردع .

انتهى .

وطمعه في الزيادة دليل على مبشعه وحبه للدنيا .

﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ : تعليل للرّدع على وجه الاستئناف ، كأن قائلاً قال : لم لا يزاد ؟ فقال إنه كان يعاند آيات المنعم وكفر بذلك ، والكافر لا يستحق المزيد ؛ وإنما جعلت الآيات بالنسبة إلى الأنعام لمناسبة قوله : ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ إلى آخر ما آتاه الله ، والأحسن أن يحمل على آيات القرآن لحديثه في القرآن وزعمه أنه سحر .

﴿ سأرهقه ﴾ : أي سأكلفه وأعنته بمشقة وعسر ، ﴿ صعوداً ﴾ : عقبة في جهنم ، كلما وضع عليها شيء من الإنسان ذاب ثم يعود ، والصعود في اللغة : العقبة الشاقة ، وتقدّم شرح عنيد في سورة إبراهيم عليه السلام .

﴿ إنه فكر وقدر ﴾ : روي أن الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن وقال : إن له لحلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ، ونحو هذا من الكلام ، فخالفوه وقالوا : هو شعر ، فقال : والله ما هو بشعر ، قد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه ، قالوا : فهو كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، قالوا : هو مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وخنقه ، قالوا : هو سحر ، قال : أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه .

وروي هذا بألفاظ غير هذا ويقرب من حيث المعنى ، وفيه : وتزعمون أنه كذب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا : في كل ذلك اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ثم قال : ما هو إلا ساحر .

أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يؤثره عن مثل مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحاً وتفرّقوا متعجبين منه .

وروي أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه ، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب الإسلام .

(287/791)

ودخل إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مراراً ، فجاءه أبو جهل فقال : يا وليد ، أشعرت أن قريشاً قد ذمّتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة ، وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه ؟ وقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم ، ففتنه أبو جهل فافتتن وقال : أفعل .

﴿ إنه فكر ﴾ : تعليل للوعيد في قوله : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ .

قيل : ويجوز أن يكون ﴿ إنه فكر ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ ، بياناً

لكنه عناده وفكر ، أي في القرآن ومن أتى به ، ﴿ وقدر ﴾ : أي في نفسه ما يقول فيه .

﴿ فقتل كيف قدر ﴾ ، قتل : لعن ، وقيل : غلب وقهر ، وذلك من قوله :

لسهميك في أعسار قلب مقتل . . .

أي مذلل مقهور بالحب ، فلعن دعاء عليه بالطرد والإبعاد وغلب ، وذلك إخبار بقهره وذلته ، و ﴿ كيف قدر ﴾ معناه : كيف قدر ما لا يصح تقديره وما لا يسوغ أن يقدره عاقل ؟ وقيل : دعاء مقتضاه الاستحسان والتعجب .

فقيل ذلك لمنزعه الأول في مدحه القرآن ، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه ، فيجري مجرى قول عبد الملك بن مروان : قاتل الله كثيراً ، كأنه رآنا حين قال كذا .

وقيل : ذلك لإصابته ما طلبت قريش منه .

وقيل : ذلك ثناء عليه على جهة الاستهزاء .

وقيل : ذلك حكاية لما كرروه من قولهم : قتل كيف قدّر ، تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ، وهذا فيه بعد .

وقولهم : قاتلهم الله ، مشهور في كلام العرب أنه يقال عند استعظام الأمر والتعجب منه ، ومعناه : أنه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حساده ، والاستفهام في ﴿ كيف قدر ﴾ في معنى : ما أعجب تقديره وما أغربه ، كقولهم : أي رجل زيد ؟ أي ما أعظمه .

وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى للتراخي الذي بينهما ، كأنه دعي عليه أولاً ورجي أن يقلع عن ما كان يرومه فلم يفعل ، فدعي عليه ثانياً ، ﴿ ثم نظر ﴾ : أي فكر ثانياً .

(288/791)

وقيل : نظر إلى وجوه الناس ، ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ : أي قطب وكلح لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول .

وقيل : قطب في وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ ثم أدبر ﴾ : رجع مدبراً ، وقيل : أدبر عن الحق ، ﴿ واستكبر ﴾ ، قيل : تشارس مستكبراً ، وقيل : استكبر عن الحق ، وصفه بالهيئات التي تشكل بها حين أراد أن يقول : ما قال كل ذلك على سبيل الاستهزاء ، وأن ما يقوله كذب وافتراء ، إذ لو كان ممكناً ، لكان له هيئات غير هذه من فرح القلب وظهور السرور والجذل والبشر في وجهه ، ولو كان حقاً لم يحتج إلى هذا الفكر لأن الحق أبلج يتضح بنفسه من غير إكداد فكر ولا إبطاء تأمّل .

ألا ترى إلى ذلك الرجل وقوله حين رأي رسول (صلى الله عليه وسلم) ، فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، وأسلم من فوره .

وقيل : ثم نظر فيما يحتج به للقرآن ، فرأى ما فيه من الإعجاز والإعلام بمرتبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ودام نظره في ذلك .

﴿ ثم عبس وبسر ﴾ ، دلالة على تأنيه وتمهله في تأمّله ، إذ بين ذلك تراخ وتباعد .

وكان العطف في ﴿ وبسر ﴾ وفي ﴿ واستكبر ﴾ ، لأن البسور قريب من العبوس ، فهو كأنه على سبيل التوكيد والاستكبار يظهر أنه سبب للادبار ، إذ الاستكبار معنى في القلب ، والإدبار حقيقة من فعل الجسم ، فهما سبب ومسبب ، فلا يعطف بثم ؛ وقدّم المسبب على السبب لأنه الظاهر للعين ، وناسب العطف بالواو ؛ وكان العطف في فقال بالفاء دلالة على التعقيب ، لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه ، لم يتمالك أن نطق به من غير تمهل .

ومعنى ﴿ يؤثر ﴾ : يروي وينقل ، قال الشاعر :

لقلت من القول ما لا يزا . . .

ل يؤثر عني به المسند

وقيل : ﴿ يؤثر ﴾ أي يختار ويرجح على غيره من السحر فيكون من الإيثار ، ومعنى ﴿ إلا سحر ﴾ : أي شبيه بالسحر .

﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ : تأكيد لما قبله ، أي يلتقط من أقوال الناس ، ويظهر أن كفر الوليد إنما هو عناد .

ألا ترى ثناءه على القرآن ، ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون ، وقصته مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قرأ عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ وكيف ناشده الله بالرحم أن يسكت ؟ ﴿ سأصليه سقر ﴾ ، قال الزمخشري : بدل من ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ . انتهى .

ويظهر أنهما جملتان اعتقبت كل واحدة ، منهما فتوعد على سبيل التوعد العصيان الذي قبل كل واحدة منهما ، فتوعد على كونه عنيداً لآيات الله بإرهاق صعود ، وعلى قوله بأن القرآن سحر يؤثر بإصلائه سقر ، وتقدّم الكلام على سقر في أواخر سورة القمر .

﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ : تعظيم لهولها وشدتها ، ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ : أي لا تبقي على من ألقي فيها ، ولا تذر غاية من العذاب إلا أوصلته إليه .

﴿ لوّاحة للبشر ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور : معناه مغيرة للبشرات محرقة للجلود مسوّدة لها ، والبشر جمع بشرة ، وتقول العرب : لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسوّدته .

وقال الحسن وابن كيسان : لوّاحة بناء مبالغة من لاح إذا ظهر ، والمعنى أنها تظهر للناس ، وهم البشر ، من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمها وهولها وزجرها ، كقوله تعالى : ﴿ لترون الجحيم ﴾ وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ لواحة ﴾ بالرفع ، أي هي لوّاحة .

وقرأ العوفي وزيد بن عليّ والحسن وابن أبي عبلة : لواحة بالنصب على الحال المؤكدة ، لأن النار التي لا تبقي ولا تذر لا تكون إلا مغيرة للأبشار .

وقال الزمخشري : نصباً على الاختصاص للتهويل .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ : التمييز محذوف ، والمتبادر إلى الذهن أنه ملك .

(290/791)

ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك ؟ فقال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمّهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي ، وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي ما جعلناهم رجالاً من

جنسكم يطاقون ، وأنزل الله تعالى في أبي جهل ﴿ أولى لك فأولى ﴾ وقيل : التمييز المحذوف صنفاً من الملائكة ، وقيل : نقيباً ، ومعنى عليها يتولون أمرها وإليهم جماع زبانيتها ، فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث أن هؤلاء هم النقباء .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " ؟ وقد ذكر المفسرون من نعوت هؤلاء الملائكة وخلقهم وقوتهم ، وما أقدرهم الله تعالى عليه من الأفعال ما الله أعلم بصحته ، وكذلك ذكر أبو عبد الله الرازي حكماً على زعمه في كون هؤلاء الملائكة على هذا العدد المخصوص يوقف عليها في تفسيره .

وقرأ الجمهور : ﴿ تسعة عشر ﴾ مبنيين على الفتح على مشهور اللغة في هذا العدد .

وقرأ أبو جعفر وطلحة بن سليمان : بإسكان العين ، كراهة توالي الحركات .

وقرأ أنس بن مالك وابن عباس وابن قطيب وإبراهيم بن قنة : بضم التاء ، وهي حركة بناء عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات ، ولا يتوهم أنها حركة إعراب ، لأنها لو كانت حركة إعراب لأعرب عشر .

وقرأ أنس أيضاً : تسعة بالضم ، أعشر بالفتح .

وقال صاحب اللوامح : فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر ثم أجراه مجرى تسعة عشر ، وعنه أيضاً تسعة وعشر بالضم ، وقلب الهمزة من أعشر واواً خالصة تخفيفاً ، والباء فيهما مضمومة ضمة بناء لأنها معاقبة للفتحة ، فراراً من الجمع بين خمس حركات على جهة واحدة .

وعن سليمان بن قنة ، وهو أخو إبراهيم : أنه قرأ تسعة أعشر بضم التاء ضمة إعراب وإضافته إلى أعشر ، وأعشر مجرور منون وذلك على فك التركيب .

قال صاحب اللوامح : ويجيء على هذه القراءة ، وهي قراءة من قرأ أعشر مبنياً أو معرباً من حيث هو جمع ، أن الملائكة الذين هم على النار تسعون ملكاً .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

قال الزمخشري : وقرىء تسعة أعشر جمع عشير ، مثل يمين وأيمن . انتهى .

وسليمان بن قنة هذا هو الذي مدح أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو القائل :

مررت على أبيات آل محمد . . .

فلم أر أمثالاً لها يوم حلت

وكانوا ثمالاً ثم عادوا رزية . . .

لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ : أي جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم ، ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ : أي سبب فتنة ، وفتنة مفعول ثان لجعلنا ، أي جعلنا تلك العدّة ، وهي تسعة عشر ، سبباً لفتنة الكفار ، فليس فتنة مفعولاً من أجله ، وفتنهم هي كونهم أظهروا مقاومتهم في مغالبتهم ، وذلك على سبيل الاستهزاء . فإنهم يكذبون بالبعث وبالنار وبخزنتها .

﴿ ليستيقن ﴾ : هذا مفعول من أجله ، وهو متعلق بجعلنا لا بفتنة .

فليست الفتنة معلولة للاستيقان ، بل المعلول جعل العدّة سبباً لفتنة ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، وهم اليهود والنصارى .

إنّ هذا القرآن هو من عند الله ، إذ هم يجدون هذه العدّة في كتبهم المنزلة ، ويعلمون أن الرسول لم يقرأها ولا قرأها عليه أحد ، ولكن كتابة يصدّق كتب الأنبياء ، إذ كل ذلك حق يتعاضد من عند الله تعالى .

(292/791)

قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد ، وبورود الحقائق من عند الله يزداد كل ذي إيمان إيماناً ، ويزول الريب عن المصدّقين من أهل الكتاب وعن المؤمنين .

وقيل : إنما صار جعلها فتنة لأنهم يستهزئون ويقولون : لم لم يكونوا عشرين ؟ وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود ؟ ويقولون هذا العدد القليل ، يقوون بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام الساعة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : قد جعل افتتان الكافرين بعدّة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين ، فما وجه صحة ذلك ؟ قلت : ما جعل افتتانهم بالعدّة سبباً لذلك ، وإنما العدّة نفسها هي التي جعلت سبباً ، وذلك أن المراد بقوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ : وما جعلنا عدّتهم إلا تسعة عشر ؛ فوضع ﴿ فتنة للذين كفروا ﴾ موضع ﴿ تسعة عشر ﴾ ، لأن حال هذه العدّة الناقصة واحداً من عقد العشرين ، أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزىء ولا يذعن إذعان المؤمن ، وإن خفي عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل : ولقد جعلنا عدّتهم عدّة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين .

انتهى ، وهو سؤال عجيب وجواب فيه تحريف كتاب الله تعالى ، إذ زعم أن معنى ﴿ إلا فتنة للذين كفروا ﴾ : إلا تسعة عشر ، وهذا لا يذهب إليه عاقل ولا من له أدنى ذكاء ؛ وكفى ردّاً عليه تحريف كتاب الله ووضع ألفاظ مخالفة لألفاظ ومعنى مخالف لمعنى .

وقيل : ﴿ ليستيقن ﴾ متعلق بفعل مضمر ، أي فعلنا ذلك ليستيقن .

﴿ ولا يرتاب ﴾ : توكيد لقوله ﴿ ليستيقن ﴾ ، إذ إثبات اليقين ونفي الارتياب أبلغ وآكد في الوصف لسكون النفس السكون التام .

و ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ ، قال الحسين بن الفضل : السورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما المرض في الآية : الاضطراب وضعف الإيمان .

(293/791)

وقيل : هو إخبار بالغيب ، أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ .

لما سمعوا هذا العدد لم يهتدوا وحاروا ، فاستفهم بعضهم بعضاً عن ذلك استبعاداً أن يكون هذا من عند الله ، وسموه مثلاً استعارة من المثل المضروب استغراباً منهم لهذا العدد ، والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ؟ ومرادهم إنكار أصله وأنه ليس من عند الله ، وتقدّم إعراب مثل هذه الجملة في أوائل البقرة .

الكاف في محل نصب ، وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى ، يضل الكافرين فيشكون فيزيدهم كفراً وضلالاً ، ويهدي

المؤمنين فيزيدهم إيماناً .

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ : إعلام بأن الأمر فوق ما يتوهم ، وأن الجزاء إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها ، والسماء عامرة بأنواع من الملائكة .

وفي الحديث : " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً " ﴿ وما هي ﴾ : أي النار ، قاله مجاهد ، أو المخاطبة والنذارة ، أو نار الدنيا ، أو الآيات التي ذكرت ، أو العدّة التسعة عشر ، أو الجنود ، أقوال راجحها الأول وهي سقر ، ذكر بها البشر ليخافوا ويطيعوا .

وقد جرى ذكر النار أيضاً في قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ .

﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ : أي الذين أهلوا للتذكر والاعتبار .

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33)

﴿ كلا ﴾ ، قال الزمخشري : كلا إنكار بعد أن جعلها ذكرى ، أن يكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون . انتهى .

ولا يسوغ هذا في حق الله تعالى أن يخبر أنها ذكرى للبشر ، ثم ينكر أن تكون لهم ذكرى ، وإنما قوله : ﴿ للبشر ﴾ عام مخصوص .

وقال الزمخشري : أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذير .

وقيل : ردع لقول أبي جهل وأصحابه أنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم .

وقيل : ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة .

(294/791)

وقال الفراء : هي صلة للقسم ، وقدرها بعضهم بحقاً ، وبعضهم بألا الاستفتاحية ، وقد تقدم الكلام عليها في آخر سورة مريم عليها السلام .

﴿ والقمر والليل إذ أدبر ﴾ : أي ولى ، ويقال دبر وأدبر بمعنى واحد .

أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها .

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابن يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزناد وقتادة وعمر بن العزيز والحسن وطلحة والنحويان والابنان وأبو بكر : إذا ظرف زمان مستقبل دبر بفتح الدال ؛ وابن جبير والسلمي والحسن : بخلاف عنهم ؛ وابن سيرين والأعرج وزيد بن علي وأبو شيخ وابن محيصن ونافع وحمزة وحفص : إذ ظرف زمان ماض ، أدبر رباعياً ؛ والحسن أيضاً وأبو رزين وأبو رجاء وابن يعمر أيضاً والسلمي أيضاً وطلحة أيضاً والأعمش ويونس بن عبيد ومطر : إذا بالألف ، أدبر بالهمز ، وكذا هو في مصحف عبد

الله وأبيّ ، وهو مناسب لقوله : ﴿ إذا أسفر ﴾ ، ويقال : كأمس الدابر وأمس المدبر بمعنى واحد .

وقال يونس بن حبيب : دبر : انقضى ، وأدبر : تولى .

وقال قتادة : دبر الليل : ولى .

وقال الزمخشري : ودبر بمعنى أدبر ، كقبل بمعنى أقبل .

وقيل : هو من دبر الليل النهار : أخلفه .

وقرأ الجمهور : أسفر رباعياً ؛ وابن السميفع وعيسى بن الفضل : سفر ثلاثياً ، والمعنى : طرح الظلمة عن وجهه .

﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ : الظاهر أن الضمير في إنها عائد على النار .

قيل : ويحتمل أن يكون للنذارة ، وأمر الآخرة فهو للحال والقصة .

وقيل : إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، فعاد الضمير إلى غير مذكور ، ومعنى إحدى الكبر : الدواهي الكبر ، أي لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء ، والكبر : العظائم من العقوبات .

وقال الراجز :

يا ابن المعلى نزلت إحدى الكبر . . .

داهية الدهر وصماء الغير

والكبر جمع الكبرى ، طرحت ألف التأنيث في الجمع ، كما طرحت همزته في قاصعاء فقالوا قواصع .

وفي كتاب ابن عطية : والكبر جمع كبيرة ، ولعله من وهم الناسخ .

وقرأ الجمهور : لإحدى بالهمز ، وهي منقلبة عن واو أصله لوحدى ، وهو بدل لازم .

وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن ووهب بن جرير عن ابن كثير : بحذف الهمزة ، وهو حذف لا ينقاس ، وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بين بين .

والظاهر أن هذه الجملة جواب للقسم .

وقال الزمخشري : أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد . انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ نذيراً ﴾ ، واحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الإنذار ، كالنكير بمعنى الإنكار ، فيكون تمييزاً : أي لإحدى الكبر إنذاراً ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافاً . كما ضمن إحدى معنى أعظم ، جاء عنه التمييز .

وقال الفراء : هو مصدر نصب بإضمار فعل ، أي أنذر إنذاراً .

واحتمل أن يكون اسم فاعل بمعنى منذر .

فقال الزجاج : حال من الضمير في إنها .

وقيل : حال من الضمير في إحدى ، ومن جعله متصلاً بقم في أول السورة ، أو بفأنذر في أول السورة ، أو حالاً من الكبر ، أو حالاً من ضمير الكبر ، فهو بمعزل عن الصواب .

قال أبو البقاء : والمختار أن يكون حالاً مما دلت عليه الجملة تقديره : عظمت نذيراً .

انتهى ، وهو قول لا بأس به .

قال النحاس : وحذفت الهاء من نذيراً ، وإن كان للنار على معنى النسب ، يعني ذات الإنذار .

وقال علي بن سليمان : أعني نذيراً .

وقال الحسن : لأنذر ، إذ هي من النار .

قال ابن عطية : وهذا القول يقتضي أن نذيراً حال من الضمير في إنها ، أو من قوله : ﴿ لإحدى ﴾ .

قال أبو رزين : نذير هنا هو الله تعالى ، فهو منصوب بإضمار فعل ، أي ادعوا نذيراً .

وقال ابن زيد : نذير هنا هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فهو منصوب بفعل مضمر ، أي ناد ، أو بلغ ، أو أعلن .

وقرأ أبيّ وابن أبي عبلة : نذير بالرفع .

فإن كان من وصف النار ، جاز أن يكون خبراً وخبر مبتدأ محذوف ، أي هي نذير .

وإن كان من وصف الله أو الرسول ، فهو على إضمار هو .

والظاهر أن لمن بدل من البشر بإعادة الجار ، وأن يتقدم منصوب بشاء ضمير يعود على من .

وقيل : الفاعل ضمير يعود على الله تعالى ، أي لمن شاء هو ، أي الله تعالى .

وقال الحسن : هو وعيد ، نحو قوله تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ قال ابن عطية : هو بيان في النذارة وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر ، إذ هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره .

ثم قوى هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

وقال الزمخشري : ﴿ أن يتقدم ﴾ في موضع الرفع بالابتداء ، و﴿ لمن شاء ﴾ خبر مقدم عليه ، كقولك لمن توضأ : أن يصلي ، ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر .

والمراد بالتقدم والتأخر : السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

انتهى ، وهو معنى لا يتبادر إلى الذهن وفيه حذف .

قيل : والتقدم : الإيمان ، والتأخر : الكفر .

وقال السدي : أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها ، أو يتأخر عنها إلى الجنة .

وقال الزجاج : أن يتقدم إلى المأمورات ، أو يتأخر عن المنهيات ، والظاهر العموم في كل نفس .

وقال الضحاك : كل نفس حقيق عليها العذاب ، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة ، ورهينة بمعنى رهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، وليست بمعنى مفعول لأنها بغير تاء للمذكر والمؤنث ، نحو : رجل قتيل وامرأة قتيل ، فالمعنى : كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه قول الشاعر :

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب . . .

رهينة رمس ذي تراب وجندل

أي : رمس رهن ، والمعنى : أن كل نفس رهن عند الله غير مفكوك .

وقيل : الهاء في رهينة للمبالغة .

(297/791)

وقيل : على تأنيث اللفظ لا على الإنسان ، والذي أختاره أنها مما دخلت فيه التاء ، وإن كان بمعنى مفعول في الأصل كالنطيحة ، ويدل على ذلك أنه لما كان خبر عن المذكر كان بغير هاء ، قال تعالى : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ فأنت ترى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء ، وحيث كان خبراً عن المؤنث أتى بالتاء ، كما في هذه الآية .

فأما الذي في البيت فأنث على معنى النفس .

﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ ، قال ابن عباس : هم الملائكة .

وقال عليّ : هم أطفال المسلمين .

فعلى هذين القولين يكون استثناء منقطعاً ، أي لكن أصحاب اليمين في جنات .

وقال الحسن وابن كيسان : هم المسلمون المخلصون ، ليسوا بمرتهنين لأنهم أدوا ما كان عليهم ، وهذا كقول الضحاك الذي تقدم .

وقال الزمخشري : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . انتهى .

وظاهر هذا أنه استثناء متصل في جنات ، أي هم ﴿ في جنات يتساءلون ﴾ : أي يسأل بعضهم بعضاً ، أو يكون يتساءل بمعنى يسأل ، أي يسألون عنهم غيرهم ، كما يقال : دعوته وتداعوته بمعناه .

وعلى هذين التقديرين كيف جاء ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ بالخطاب للمجرمين ، وفي

الكلام حذف ، المعنى : أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً ، أو يسألون غيرهم عن من غاب من معارفهم ، فإذا عرفوا أنهم مجرمون في النار قالوا لهم ، أو قالت لهم الملائكة : هكذا قدره بعضهم ، والأقرب أن يكون التقدير : يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ .

(298/791)

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف طابق قوله : ﴿ ما سلككم ﴾ ؟ وهو سؤال للمجرمين ، قوله : ﴿ يتساءلون عن المجرمين ﴾ ؟ وهو سؤال عنهم ، وإنما كان يطابق ذلك لو قيل يتساءلون عن المجرمين ما سلككم ؟ قلت : ﴿ ما سلككم ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ، لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون : قلنا لهم ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ ، ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ ، إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه .

انتهى ، وفيه تعسف .

والأظهر أن السائلين هم المتسائلون ، وما سلككم على إضمار القول كما ذكرنا ، وسؤالهم

سؤال توبيخ لهم وتحقير ، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار .

والجواب أنهم لم يكونوا متصفين بخصائل الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم ارتقوا من ذلك إلى الأعظم وهو الكفر والتكذيب بيوم الجزاء ، كقولهم : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ثم قال : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ واليقين : أي يقيناً على إنكار يوم الجزاء ، أي وقت الموت .

وقال ابن عطية : واليقين عندي صحة ما كانوا يكذبون من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخر .

وقال المفسرون : اليقين : الموت ، وذلك عندي هنا متعقب ، لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي .

وإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت ، وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ : ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم ، وإنما المعنى نفي الشفاعة فانتفى النفع ، أي لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم من باب :

على لاحب لا يهتدي بمناره . . .

أي : لا منار له فيهتدي به .

وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات وينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك .

(299/791)

﴿ فما لهم عن التذكرة ﴾ : وهي مواعظ القرآن التي تذكر الآخرة ، ﴿ معرضين ﴾ : أي والحال المنتظرة هذه الموصوفة .

ثم شبههم بالحمر المستنفرة في شدة إعراضهم ونفارهم عن الإيمان وآيات الله تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ حمر ﴾ بضم الميم ؛ والأعمش : بإسكانها .

قال ابن عباس : المراد الحمر الوحشية ، شبههم تعالى بالحمر مذمة وتهجيناً لهم .

وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم : ﴿ مستنفرة ﴾ بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرها : فزعها من القسورة ؛ وباقي السبعة : بكسرها ، أي نافرة نفر ، واستنفر بمعنى عجب واستعجب وسر واستسخر ، ومنه قول الشاعر :

أمسك حمارك إنه مستنفر . . .

في إصر أحمرة عهدن لعرّب

ويناسب الكسر قوله : ﴿ فرّت ﴾ .

وقال محمد بن سلام : سألت أبا سرار العتوي ، وكان أعرابياً فصيحاً ، فقلت : كأنهم حمر ماذا مستنفرة طردها قسورة ؟ فقلت : إنما هو ﴿ فرّت من قسورة ﴾ ، قال : أفرّت ؟ قلت : نعم ، قال : فمستنفرة إذن .

قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة : القسورة : الرماة .

وقال ابن عباس أيضاً وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : الأسد .

وقال ابن جبير : رجال القنص ، وهو قريب من القول الأول ، وقاله ابن عباس أيضاً .

وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل ، والمعنى : فرّت من ظلمة الليل ، ولا شيء أشدّ نفاراً من حمر الوحش ، ولذلك شبهت بها العرب الإبل في سرعة سيرها وخفتها .

﴿ بل يريد كل امرىء منهم ﴾ : أي من المعرضين عن عظات الله وآياته ، ﴿ أن يؤتى صحفاً منشرةً ﴾ : أي منشورة غير مطوية تقرأ كالكتب التي يتكاتب بها ، أو كتبت في السماء نزلت بها الملائكة ساعة كتبت رطبة لم تطو بعد ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لن نتبعك حتى يؤتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه : من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يؤمر فيها باتباعك ، ونحوه

(300/791)

﴿ لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ وروي أن بعضهم قال : إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان ، فلتعرض تلك الصحف علينا ، فنزلت هذه الآية .

وقرأ الجمهور : ﴿ صحفاً ﴾ بضم الصاد والحاء ، ﴿ منشرةً ﴾ مشدّداً ؛ وابن جبير : بإسكانها منشرة مخففاً ، ونشر وأنشر مثل نزل وأنزل .

شبه نشر الصحيفة بإنشار الله الموتى ، فعبر عنه بمنشرة من أنشرت ، والمحفوظ في الصحيفة والثوب نشر مخففاً ثلاثياً ، ويقال في الميت : أنشره الله فنشر هو ، أي أحياه فحيي .

﴿ كلا ﴾ : ردع عن إرادتهم تلك وزجر لهم عن اقتراح الآيات ، ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ ، ولذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف .

وقرأ الجمهور : ﴿ يخافون ﴾ بياء الغيبة ؛ وأبو حيوة : بتاء الخطاب التفاتاً .

﴿ كلا ﴾ : ردع عن إعراضهم عن التذكرة ، ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ : ذكر في إنه وفي ذكره ، لأن التذكرة ذكر .

وقرأ نافع وسلام ويعقوب : تذكرة بتاء الخطاب ساكنة الذال ؛ وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج : بالياء .

وروي عن أبي حيوة : يذكرون بياء الغيبة وشد الذال .

وروي عن أبي جعفر : تذكرون بالتاء وإدغام التاء في الذال .

﴿ هو أهل التقوى ﴾ : أي أهل أن يتقي ويخاف ، وأهل أن يغفر .

وروى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) فسر هذه الآية فقال : " يقول لكم ربكم جلت قدرته وعظمته : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل يتقى إله غيري ، ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له " وقال الزمخشري : في قوله تعالى ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ ، يعني : إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه ، لأنهم مطبوع على قلوبهم معلوم أنهم لا يؤمنون إختياراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(301/791)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

التفسير : " روى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كنت على جبل حراء فنوديت على محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساوي فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقي فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض فخفت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني وصبوا عليّ ماء بارداً ، ونزل جبرائيل وقال ﴿ يا أيها المدثر ﴾ "

وروى الزهري مثله ، وقريب منه ما قيل : إنه تحنث في غار حراء فقيل له ﴿ يا أيها المدثر ﴾ المغطى بدثار اشتغل بدعوة الخلق ، فالسورة على هذا من أوائل ما نزول .

(302/791)

وقيل : سمع من قريش ما كرهه كما يجيء حكايته عن الوليد فاغتنم فتغطى بثوبه مفكراً فأمر أن لا تدع إنذارهم وتصبر على أذاهم . وقيل : أراد يا أيها المدثر بدثار النبوة مثل لباس التقوى . والدثار ما فوق الشعار ، والشعار الوب الذي يلي الجسد قال صلى الله عليه وسلم " الأنصار شعار والناس دثار " قوله ﴿ قم ﴾ أي من مضجعك أو قيام عزم وتصمم . وقوله ﴿ فأنذر ﴾ متروك المفعول لئلا يختص بأحد نحو " فلان يعطي " أي فافعل الإنذار وأوجده وقيل : أراد فحذر قومك من عذاب الله إن لم تؤمنوا . قوله ﴿ وربك فكبر ﴾ أي عظم ربك مما يقول عبدة الأوثان ، أو من أن يأمرك بالإنذار من غير حكمة وصلاح عام . وعن مقاتل : وهو نفس التكبير . يروى أنه لما نزل قال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وقد يحمل على تكبير الصلوات ولا يبعد أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر صلوات مخصوصة والفاآت في ﴿ فكبر ﴾ وما يتلوها لتلازم ما قبلها وما بعدها كأنه قيل : مهما كان من

شيء فلا تدع تكبيره . وقوله ﴿ وثيابك فطهر ﴾ في تفسيره وجوه أربعة : أحدها أن يترك كل من لفظي الثياب والتطهير على ظاهره . فعن الشافعي أن المراد الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس والأقذار ولا ريب أن هذا هو الأصل إلا أن في غير حال الصلاة أيضاً لا يحل إستعمال النجس أولا يحسن فقبح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً . وروي أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلى شاة فرجع إلى بيته حزيناً وتدثر ثيابه فقيل ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ ولا تمنعك تلك الناهية عن الإنذار . ﴿ وربك فكبر ﴾ عن أن لا ينتقم منهم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات الثاني : الثياب حقيقة والتطهير كناية عن التقصير لان العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم . وقال علي عليه السلام : قصر ثيابك فإنه أتقى وأبقى وأنقى . وقيل : تطهيرها أن لا تكون مغصوبة

(303/791)

ولا محرمة بل تكون مكتبسة من وجه حلال . الثالث : عكسه فعبر عن الجسد بالثياب لاشتماله على النفس . وكان العرب لا يتنظفون وقت الإستنجاء فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتنظيف . الرابع : أن يكون كل من اللفظين مجازاً قال القفال : إنهم لما لقبوه بالساحر

شق عليه ذلك فرجع إلى بيته وتدثر فكان ذلك إظهار جزع وقلة صبر فأمر بحسن الخلق وتهذيب الأخلاق أي طهر قلبك عن الصفات الذميمة كقطع الرحم وعزم الإنتقام والسآمة من الدعوة إلى دين الله لأجل أذى القوم .

(304/791)

وهذا بعد منا سبته لخطابه بالمدثر مجاز مستعمل يقال : فلان طاهر الجيب نقي الذيل إذا كان بريئاً من المثالب . ويقال : المجد في ثوبيه والكرم في برديه وذلك أن الثواب كالشيء الملازم للإنسان فجعل طهارته كطهارته ، ولأن الغالب أن من طهر باطنه طهر ظاهرة . وقيل : هو أمر بالإحتراز عن الآثام والأوزار التي كان يقدم عليها قبل النبوة . وهذا تأويل من حمل قوله ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ [الشرح : 2] على آثام الجاهلية : وقيل : معناه نساءك طهرهن . وقد يكنى عن النساء بالثياب هن لباس لكم . قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾ هو بالكسر والضم العذاب والمراد اهجر ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها أي أثبت على هجره مثل أهدنا ، وهذا يؤكد تأويل من حمل قوله ﴿ وثيابك فطهر ﴾ على تحسين الأخلاق والإجتناب عن المعاصي ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ لا تعط مستكثراً رائياً لما أعطيته كثيراً بل يجب أن تستحقرها وترى أن للأخذ حرمة عليك بقبول ذلك الإنعام ،

وهذا نهاية الكرم على أن الإستكثار ينبيء على المنة وهي مبطلة للعمل كما قال ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 267] فقوله ﴿ تستكثر ﴾ مرفوع والجملة في موضع الحال منصوباً ، ويجوز أن يكون الأصل لأن تستكثر فحذف اللام ثم " أن " وأبطل عملها كما روي " ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى " بالرفع . واختار أبو علي الفارسي الوجه الأول إلا أنه قال : تأويله لا تمنن مقدراً الإستكثار كما في قول القائل : مررت برجل معه صقر صائداً به غداً . وأقول : هذا التأويل مما لا حاجة إليه لأن طلب الكثرة مقرون بالإعطاء بخلاف الصيد غداً . وذهب جم غفير من المفسرين إلى أنه نهى عن الإستقراض وهو أن يهب شيئاً طامعاً في أن يأخذ أكثر منه فيكون نهى تنزيه لأنه جاء في الحديث " المستغزر يثاب من هبته " ويجوز أن يكون نهي تحريم خاصاً برسول الله لأن منصبه يجل عن طلب الدنيا خصوصاً بهذا الوجه ، ومنهم من حمله على الرياء فيكون نهي تحريم للكل

(305/791)

والمن معنى . وقال القفال : يحتمل أن يكون المقصود النهي عن طلب العوض زائداً أو مساوياً أو ناقصاً . أما الزائدة فظاهر . وأما المساوي والناقص فلأن طالب العوض كاره أن

ينتقص المال بسبب العطاء فكأنه يطلب الكثرة . ويجوز أن يقال : إنما حسنت هذه الإستعارة لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء فسمي طلب الثواب إستكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله ، وكما أن الأغلب أن المرأة ذات الولد إنما تتزوج للحاجة إلى من يربى ولدها فسمي الولد ربيباً ، ثم اتسع ولد المرأة ربيباً . وإن كان كبيراً خارجاً عن حد التربية أمر صلى الله عليه وسلم أن يكون عطاؤه خالياً عن انتظار العوض والتفات النفس إليه كيف كان حتى يقع خالصاً لوجه الله ويكون صابراً محتسباً .

وعن الحسن وغيره أنه لما أمره الله بإنذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجران الرجز قال ﴿ ولا تمنن ﴾ على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله بل اصبر على ذلك كله ويؤكده قوله بعد ذلك ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي استعمل الصبر في مظانه خالصاً لوجه ربك وقيل : لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي كالمستكثر لذلك بأمر الله .

(306/791)

وقيل : لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر أي لتأخذ منهم على ذلك أجراً فيكثر مالك . وقال مجاهد : لا تمنن أي لا تضعف من قولك " حبل من " أي ضعيف ومنه " منّه السير " أي

أضعفه . والمعنى لا تضعف أن تستكثر من هذه الأوامر ووجه الرفع ما مر في قوله " أحضر الوغى " قوله ﴿ فإذا نقر ﴾ الفاء للتسبيب كأنه قال : اصبر على التكاليف المعدودة وعلى أذى المشركين فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك والفاء في ﴿ فذلك ﴾ للجزاء . وانتصب ﴿ إذا ﴾ بما دل عليه الجزاء لأن المعنى : فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين " فاعول " من النقر كالهاضوم من الهضم ، يشبه أن يكون البناء للآلة لأن الهاضوم ما به يهضم . فالناقور ما ينقر به وهو الصور باتفاق المفسرين ، فكأنه آلة النقر أي النفخ وذلك أن النفخ سبب حدوث الصوت في المزامير كما أن النقر سبب الحدوث في الآلات ذوات الأوتار . قال الجوهري في الصحاح ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ أي نفخ في الصور . وقد يلوح من كلام الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير أن النقر غير النفخ . وهكذا من كلام الحليمي في كتاب " المنهاج " وذلك أنه قال : جاء في الأخبار أن في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلها فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر و " النفخ " لتكون الصيحة أهول وأعظم . وإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه . واقتصر على النفخ لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها ويظهر من فحوى كلامه أنه حمل هذا النقر على أنه مقرون بالنفخة الأولى بعد أن أثبت المغايرة . ومن المفسرين من ذهب إلى أن النفخة الثانية أهول لأنه سبحانه أخبر أن ذلك الوقت شديد على الكافرين ، والإصعاق ليس بشديد عليهم ولذلك يقولون ﴿ يا ليتها كانت القاضية ﴾ [الحاقة : 27] أي يا

ليتنا بقينا على الموتة الأولى . قلت : لا دليل في هذا لأن الإصعاق شديد عليهم لا محالة ، ثم إذا جاءت النفخة الثانية رأوا من الأهوال ما تمنوا حالة

(307/791)

الإصعاق . أو نقول : مبدأ الشدة من حين الإصعاق ثم يصير الأمر بعد ذلك أشد لأنهم يناقشون في الحساب وتسود وجوههم وتتكلم جوارحهم إلى غير ذلك من القبائح والأهوال ، فلذلك يحتمل أن يكون إشارة إلى النقر ويتم الكلام بتقدير مضاف أي ﴿ فذلك ﴾ النقر ﴿ يومئذ ﴾ نقر ﴿ يوم عسير ﴾ فالعامل في ﴿ يومئذ ﴾ هو النقر .

(308/791)

ويجوز أن يكون إشارة إلى اليوم و ﴿ يومئذ ﴾ مبني على الفتح ولكنه مرفوع المحل بدلاً منه كأنّه قيل : فيوم النقر يوم عسير وقوله ﴿ غير يسير ﴾ تأكيد كقولك " أنا محب لك غير مبغض " وفائدته أن يعلم أن عسرة على الكافرين ولا يرجى زواله كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا ، أو يراد أنه عسير على الكل لأن أكثر الأنبياء يقول : نفسي نفسي والولدان

يشيبون إلا أن الكافر يختص بمزيد العسر بحيث يكون اليسر منفياً عنه رأساً ويعلم هذا من تقديم الظرف . روى المفسرون أن الوليد بن المغيرة الخزومي وجماعة من صناديد قريش كأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاصي بن وائل اجتمعوا وقالوا : إن وفود العرب يجتمعون في أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد فكل منا يجيب بجواب آخر ؛ فواحد يقول مجنون . وآخر يقول : كاهن وآخر يقول : شاعر فتستدل العرب باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة ، فهلموا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد . فقال واحد : إنه شاعر فقال الوليد : سمعن كلام عبيد بن الأبرص وكلام أمية بن أبي الصلت وكلامه ما يشبه كلامهما . فقال الآخر . وهو كاهن . فقال الوليد : إن الكاهن يصدق تارة ويكذب أخرى ومحمد ما كذب قط . فقال آخر : إنه مجنون فقال الوليد : المجنون يخيف الناس وما يخيف محمد أحداً قط فقام الوليد وانصرف إلى بيته فقال الناس : صبأ الوليد فدخل أبو جهل وقال : مالك يا أبا عبد شمس ؟ هذه قريش تجمع لك شيئاً زعموا أنك احتجت وصبأت فقال الوليد : مالي إليه حاجة ولكني فكرت في أمر محمد فقلت : إنه ساحر لأنه يفرق بين الرجل ووالده ومواليه وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل . فأجمعوا على تلقيب محمد صلى الله عليه وسلم بهذا اللقب وفرحوا بذلك وعجبوا عن كياسته وفكره ونظره ثم إنهم خرجوا ونادوا بمكة إن محمداً

لساحر ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته حزيناً فتدثر

(309/791)

بقطيفة وأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ الآية .

ثم إنه هدد الوليد وسلى نبيه بقوله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ وهو كقوله في المزمل ﴿ فذرني والمكذبين ﴾ [الآية : 11] وقوله ﴿ وحيداً ﴾ من غير شكة أحد أو من " مفعول " خلقت المحذوف أي خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد . ويجوز أن يكون نصباً على الذم والمراد أذم وحيداً بناء على أن الوليد كان يلقب بالوحيد فإن كان علماً فلا إشكال ، وإن كان صفة على ما روى أنه كان يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لأبي نظير ، وهو إستهزاء به وتهكم بحسب ظنه واعتقاده نحو

(310/791)

﴿ ذق أنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] فيفيد أنه ليس وحيداً في العلو والشرف ولكنه وحيد في الخبث والدناءة والكفر . وقيل : إن ﴿ وحيداً ﴾ مفعول ثان قال أبو سعيد الضرير : الوحيد الذي لا أب له فيكون طعناً في نسبه كما في قوله ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [ن : 13] وفي المال الممدود وجوه أظهرها أنه المال الذي يكون له مدد يأتي منه الخير بعد الخير على الدوام كالزرع والضرع وأنواع التجارات ، ولهذا فسره عمر بن الخطاب بغلة شهر بشهر . وقال ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال . وعلى هذا يكون المال الممدود إما بمعنى المدد كما قلنا ، أو بمعنى امتداد مكانه . وقريب منه ما روى مقاتل أنه كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفاً ولا شتاءً . ومن المفسرين من قدر المال الممدود فقال : ألف دينار أو أربعة آلاف أو تسعة آلاف أو ألف ألف فهذه تحكمات لا أصل لها إلا أن تكون رواية صحيحة أن مال الوليد على أحد هذه الأعداد وحينئذ يمكن أن يقال : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفي قوله ﴿ وبنين شهوداً ﴾ وجوه : أحدها أنهم حضور معه بمكة لا يفارقونه لاستغنائهم عن الكسب وطلب المعاش فهو مستأنس بهم يغر محزون بفراقهم . الثاني أنهم رجال يشهدون معهم بمكة في المجامع والمحافل . الثالث أنهم من أهل الشهادات في الحكومات يسمع قولهم ويعتد بهم . وأما عددهم فعن مجاهد : عشرة وقيل : ثلاثة عشر وقيل : سبعة كلهم رجال : الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس . قال جار الله :

أسلم منهم ثلاثة : خالد بن الوليد وخالد وعمارة . قلت : إنه أبقى الوليد بن الوليد في حوزة الكفرة وهو مسلم حسن الإسلام مشهور الصحبة كما ذكره رشيد الدين الوطواط في رسالته ، وصاحب سر السلف سيد الحفاظ أبو القاسم فيه أن الوليد بن الوليد ابن المغيرة كان من المستضعفين حبسه المشركون فدعا النبي صلى الله عليه وسلم في قنوته : اللهم أنج الوليد ابن

(311/791)

الوليد وعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام . ثم قدم المدينة فتوفى بها فكفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه وكانت أم سلمة تندبه .

أبكى الوليد بن الوليد بن المغيرة . . . أبكى الوليد بن الوليد أخا العشيرة

وقال ابن الأثير في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤلف كتاب " جامع الأصول " : هو الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي أخو خالد بن الوليد ، أسر يوم بدر كافراً وفداه أخواه خالد وهشام ، فلما فدى أسلم فقيل له : هلا أسلمت قبل أن تفتدي ؟ فقال : كرهت أن تظنوا أني أسلمت جزعاً من الإسار فحبسوه بمكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو له في القنوت مع من يدعو له من المستضعفين بمكة ثم أفلت

من أيديهم ولحق بالمدينة .

والعجب من جار أنه ذكر في سورة الزمر في تفسيره قوله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ أن الوليد أسلم وأسلم معه نفر هاجروا ثم إنه أبقاه ههنا في بقية الكفار . قوله ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا حتى جعلوه دعاء الخير فيما بينهم قائلين " أدام الله تأييدك وتمهيدك " أي بسطتك وتصرفك في الأمور . وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش . ومعنى " ثم " في قوله ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ استبعاد وتعجب من طمعه وحرصه على الزيادة بعد أن لم يعرف حق بعض ما أوتي . قال الكلبي ومقاتل : ثم يرجو أن أزيد في ماله وولده وقد كفر بي . وقيل : إن تلك الزيادة في الآخرة كأن يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي . ثم قال الله تعالى ﴿ كلا ﴾ حتى افتقر ومات فقيراً .

(312/791)

ثم علل الرجع على وجه الاستئناف كأن قائلاً قال : لم لا يزداد ؟ فقال : لأنه ﴿ كان لآياتنا عنيداً ﴾ معانداً والكافر لا يستحق المزيد ولا سيما إذا كان كفره أفحش أنواعه وهو كفر

العناد ، ومما يدل على أن كفره كفر عناد بعد ما حكينا عنه ما روي أن الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة فرجع وقال لبني مخزوم : والله لقد سمعت آنفاً من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، ولا ريب أن من عرف هذا القدر ثم زعم أن القرآن سحر فإنه يكون معانداً ، والعنيد هو الذي كان العناد خلقه وديدنه فلشدة عناده وصفه الله تعالى به . وتقديم الظرف يدل على أن عناده كان مختصاً بآيات الله وإن كان تاركاً للعناد في سائر الأمور . وفي جمع الآيات إشارة إلى أنه كان منكراً للتوحيد والنبوة والبعث وغير ذلك من دلائل الدين ومعجزاته ولهذا أوعده الله سبحانه أشد الوعيد قائلاً ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي سأصعده عقبة شاقة المصعد وفيه قولان : أحدهما الظاهر وهو ما روي عن النبي " الصعود جبل من نار يصعد فيه خمسين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً " وعنه صلى الله عليه وسلم " يكلف أن يصعد عقبة من النار كلما وضع عليها يده ذابت فإذا رفعها عادة وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت " الثاني إنه مثل لما سيلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق كما مر في قوله

﴿ يسلكه عذاباً صعداً ﴾ [الجن : 17] ثم فسر كيفية عناده بقوله ﴿ إنه فكر ﴾ ماذا يقول في القرآن ﴿ وقدر ﴾ في نفسه كلاماً ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ وهذا الكلام مما

ينطق به العرب عند التعجب والإستعظام يقولون : قتله الله ما أشجعه . وقاتله ما أشعره ، وأخزاه ما أظرفه . والمراد أنه قد بلغ المبلغ الذي حق له أن يحسد فيدعى عليه

(313/791)

. والمعنى في الآية التعجب من قوة خاطره . أنه كيف استنبط هذه الشبهة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بحيث وافق غرض قريش كما حكينا وهي بالحقيقة ثناء على طريق الإستهزاء . ومعنى ﴿ ثم ﴾ الداخلة في تكرير الدعاء الدلالة على أن التعجب في الكرة الثانية أبلغ من الأولى ، أو هي حكاية لما كرره من قوله تعالى ﴿ قتل كيف قدر ﴾ ويجوز أن يكون التقدير الأخير تقديراً للتقدير أي ينظر فيه بتمام الإحتياط فهذا ما يتعلق بأحوال قلبه . ثم وصفه بأحوال ظاهره قائلاً ﴿ ثم نظر ﴾ في وجوه القوم ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ قال الليث : عبس عبوساً إذا قطب ما بين عينينه فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل : كلح ﴿ واستكبر ﴾ عن الإيمان ويحتمل أن يقال : قدر ما يقوله ثم نظر فيه احتياطاً والدعاء بينهما اعتراض ، ثم قطب في وجه النبي ثم أدبر عن الحق واستكبر عنه . ومعنى " ثم " في هذه الأفعال سوى فعل الدعاء الثاني المهلة . والفاء في قوله تعالى ﴿ فقال ﴾ للدلالة على أنه كما تولى واستكبر ذكر هذه الشبهة ، أو أن الكلمة لما خطرت بباله بعد

التفكر لم يتمالك أن نطق بها من غير تراخ . وقوله ﴿ يؤثر ﴾ من الأثر بالسكون الرواية كما مر أو من الإيثار أي هو مختار على جميع أنواع السحر . قوله ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ جار مجرى التوكيد من الجملة الأولى ولهذا لم يتوسط العاطف بينهما . أراد بذلك أنه ملفوظ من كلام غيره . ومن تأمل في هاتين الجملتين عرف أنه حكاية كلام مفتخر غير خاف عليه وجوه الحيل ودفع الحق الصريح ولذلك جازاه الله بقوله ﴿ سأصليه سقر ﴾ ولعله بدل من قوله ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ ثم قال ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ والمراد التهويل : ثم بينه بقوله ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ قال بعضهم : معناهما واحد والتكرير للمبالغة . وقال آخرون : لا بد من الفرق : فروى عطاء عن ابن عباس أنها لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً فإذا أعيدوا خلقاً جديداً فلا تترك إحراقهم وهكذا أبداً . وقيل : لا تبقي من

(314/791)

المستحقين للعذاب إلا عذبتهم ، ثم لا تذر من أبدان أولئك المعذبين شيئاً إلاّ أحرقته . وقيل : لا تبقى على شيء ولا تذر من قوتها شيئاً إلا استعملته والتقدير هي لا تبقى بدليل قوله خبراً بعد خبر ﴿ لواحة ﴾ ويجوز أن يكون هذا خبراً لمبتدأ آخر .

قال أكثر المفسرين : هي من لاحه العطش ولوحه أي غيره وذلك أنها تسود البشرة وهي

أعلى الجلود بإحراقها . واعتراض الحسن والأصم بأن وصفها بالتغيير لا يناسب بعد قوله ﴿ لا تبقى ولا تذر ﴾ نعم لو عكس الترتيب لاتجه لأنها تغير البشرة أولاً ثم تفنيها ، فمعنى لواحة لماعة من لاح البرق ونحوه يلوح إذا لمع والبشر بمعنى الإنسان وذلك أنها تظهر لهم من مسيرة خمسمائة عام .

(315/791)

ثم بين أن عدد الخزنة الموكلين عليها ﴿ تسعة عشر ﴾ فترك المميز فقيل صنفاً . والأكثرون شخصاً مالك وثمانية عشر أعينهم كالبرق وأنيابهم كالصياصي يجرون أشعارهم يخرج اللهب والنار من أفواههم ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر ، نزعت الرأفة والرحمة منهم يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفه ويرميهم حيث أراد من جهنم . وذكر العلماء في تخصيص هذا العدد وجوها فقال المتشرعون : هذا مما لا يصل إليه عقول البشر كأعداد السموات والأرضين والكواكب وأيام السنة والشهور . وكأعداد الزكاة والكفارات والصلوات . وقيل : إن العدد على وجهين : قليل وهو من الواحد إلى التسعة ، وكثير وهو من العشرة إلى ما لا نهاية ، فجمع بين نهاية القليل وبداية الكثير . وقيل : إن ساعات اليوم بليلته أربع وعشرون ، خمس منها تركت

لأجل الصلوات الخمس والباقية لكل منها يعذب من يضيعها في غير حق الله . وقيل : إن أبواب جهنم سبعة ، وله للفساق زبانية زبانية واحدة بسبب ترك العمل ، ولكل من الأبواب الباقية ثلاثة أملاك لأن الكفار يعذبون لأجل أمور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل . قال الحكيم : إن فساد النفس الإنسانية في قوتها النظرية والعملية هو بسبب استعماله القوى الحيوانية والطبيعية لا على وجهها . والقوى الحيوانية الشهوة والغضب . والحواس الخمس الظاهرة والخمس الباطنة . والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، فلما كان منشأ الإفادة هذه القوى التسع عشر لا جرم كان عدد الزبانية كذلك . يروى أنه لما نزلت الآية قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال المسلمون : ويحكم أتقاس الملائكة بالحدادين أي السجانين ؟ وجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا يسوىّ بينهما وأنزل الله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ويرحمون فإن الجنسية مظنة الرأفة ولذلك جعل

(316/791)

النبي صلى الله عليه وسلم من جنس الأمة ليكون بهم رؤفاً رحيماً . ولا استبعاد في كون الملائكة في النار غير معذبين بناء على القول بالفاعل المختار ، ولعلهم غلبت عليهم النارية فصارت لهم طبعاً كالحيوانات المائية . وقوله ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة ﴾ الآية . هو على مذهب أهل السنة ظاهر ، وأما على أصول المعتزلة فقال الجبائي : المراد بالفتنة تشديد التعبد ، استدلوا به على كمال قدرة الله تعالى وقال الكعبي : هي الإمتحان فيؤمن المؤمن بالمتشابه ويفوض حكمة التخصيص بهذا العدد إلى الخالق ، والكافر يعترض عليه . وقال : بعضهم : أراد ما وقعوا فيه من الكفر بسبب إنكارهم والتقدير إلا فتنة على الذين كفروا ، وحاصله يرجع إلى ترك الألطاف . وأجيب عن هذه التأويلات بأن تنزيل المتشابهات لا بد أن يكون له أثر في تقوية داعية الكفر وإلا كان إنزالها كلا إنزال . ومع هذا الترجيح لا يحصل الإيمان ألبتة وهو المعنى بالإضلال .

(317/791)

واعلم أن في الآية دلالة على أنه سبحانه جعل افتتان الكافر بعدد الزبانية سبباً لأمور أربعة : أولها ﴿ ليستيقن ﴾ ثانيها ﴿ ويزداد ﴾ ثالثها ﴿ ولا يرتاب ﴾ رابعها ﴿ وليقول ﴾ وفيه إشكال . قال جار الله : ما جعل افتتانهم بالعدد سبباً ولكنه وضع ﴿ فتنة ﴾

موضع ﴿ تسعة عشر ﴾ تعبيراً عن المؤثر باللفظ الدال على الأثر تنبيهاً على أن هذا الأثر من لوازم ذلك المأثر . وقال آخرون : تقديره وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للكافرين وإلا ليستيقن كما يقال : فعلت كذا لتعظيمك ولتحقير عدوك . قالوا : والعاطف يذكر في هذا الموضع تارة ويحذف أخرى . وأما سبب إستيقان أهل الكتاب فهو أنهم قرؤا هذا العدد في كتابهم ولكنهم ما كانوا واثقين لتطرق التحريف إلى كتابهم . فلما سمعوا ذلك في القرآن تيقنوا بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبرهم بما في كتابهم من غير سابقة دراسة وتعلم . ولأنه أخبر كفار قريش بهذا الأمر الغريب من غير مبالاة باستهزائهم وتكذيبهم فعرفوا أنه من قبيل الوحي وإلا لم يجترىء على التكلم به خوفاً من السخرية . وأما زيادة إيمان المؤمنين فحمل على آثاره ولوازمه ونتائجه . وأما نفي الارتياب عن أهل الكتاب والمؤمنين بعد إثبات الاستيقان وزيادة الإيمان لهم فمن باب التوكيد كأنه قيل : حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل بعده شك وريب . فإن الذي حصل له اليقين قد يغفل عن مقدمة من مقدمات الدليل فيعود له الشك . وفيه أيضاً تعريض بحال من عداهم كأنه قيل : وليخالف حالهم حال المرتابين من أهل الزيغ والكفران ، وأما الذين في قلوبهم مرض فهم أهل النفاق الذين أحدثوا بعد ذلك لأن السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق وإنما حدث بالمدينة ، ففي الآية إخبار بالغيب وقد وقع مطابقاً فكان معجزاً . واللامات في الأمور

الأربعة للغاية عند الأشاعرة ، والمعتزلة يسمونها لام العاقبة وقد مر في مواضع . وقوله ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ إلى قوله ﴿ من يشاء ﴾ قد مر في " البقرة " .

(318/791)

وجعل مثل هذا العدد مثلاً لغرابته حيث لم يقل عشرين وسواه والمعنى أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب مع أنهم منكرون له من أصله . والكاف في ﴿ كذلك ﴾ منصوب المحل أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل ويهدي . قوله ﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ إشارة إلى أن ما عليه عدد الخزنة لا يعلم حكمته ولا حكمة ما عليه كل جند من العدد إلى حين الأبد إلا الله سبحانه كما يقوله أهل الحق وقد مر .

(319/791)

وقيل : إن القوم قد استقلوا ذلك العدد فقال تعالى في جوابهم : هبوا أن هؤلاء تسعة عشر إلا أن لكل واحد من الأعوان والجنود ما لا يحصيهم إلا الله ﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ لفرط كثرتها ﴿ إلا هو ﴾ فلا يعسر عليه تتميم الخزنة عشرين وأزيد ولكن له في هذا

العدد حكمة اختص هو بمعرفتها . قوله ﴿ وما هي إلا ذكرى ﴾ متصل بوصف سقر . وقوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ إلى ههنا اعتراض أي وما سقر وصفتها إلا موعظة للناس . ويحتمل أن يعود الضمير إلى هذه الآيات المشتملة على هذه المتشابهات وهي ذكرى لجميع العالمين وإن لم ينتفع بها إلا أهل الإيمان وقوله ﴿ كلا ﴾ قيل : إنكار لأن يكون للكفار ذكرى لأنهم لا يتذكرون أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيراً ، أو ردع لقول أبي جهل وأصحابه أنهم يقدرون على مقاومة خزنة النار ، أو ردع لهم عن الإستهزاء بالعدة المخصوصة . وقد مر أنه يجوز أن يكون بمعنى حقاً تأكيداً للقسم بعده . قال الفراء : دبر وأدبر بمعنى واحد كقبل وأقبل . روى بعضهم أن ابن عباس كان يعيب قراءة الثلاثي ويقول : إنما يدبر ظهر البعير . وفي صحة الرواية نظر لأن القراءات السبع كلها متواترة . قال الواحدي : والقراءتان عند أهل اللغة سواء ومنه أمس الدابر . وعلى هذا يكون دبور الليل وإدباره وإسفار الصبح أي إضاءته كشيء واحد . قال أبو عبيدة وابن قتيبة : هو من دبر الليل النهار إذا خلفه . ثم قال ﴿ إنها ﴾ أي إن سقر التي جرى ذكرها ﴿ لإحدى ﴾ البلايا أو الدواهي ﴿ الكبر ﴾ جمع الكبرى . قال جار الله : جعلت ألف التأنيث كتائها فكما جمعت " فعلة " على " فعل " جمعت " فعلى " عليه . ونظير ذلك " السوافي " في جمع " السافياء " وهو التراب الذي يسفيه الريح . " والقواصع " في جمع " القاصعاء " كأنها فاعلة . وقال المفسرون : المراد من الكبر دركات جهنم وهي سبع : جهنم ولظى

والحطمة وسعير وسقر والجحيم والهاوية . فعلى هذا معنى كون سقر إحداهن ظاهر .

وقال أهل المعاني :

(320/791)

أراد أنها من بين الدواهي واحدة في العظم لا نظير لها ﴿ ونذيراً ﴾ تمييز من إحدى أي إنها لإحدى الدواهي إنذاراً كما تقول : هي إحدى النساء عفافاً وقيل ﴿ نذيراً ﴾ حال ومن غريب التفسير أن ﴿ نذيراً ﴾ متصل بأول السورة أي قم فأنذر نذيراً . ثم قال ﴿ لمن شاء ﴾ السبق أو هو خبر وما بعده وهو ﴿ أن يتقدم أو يتأخر ﴾ مبتدأ كقولك لمن توضأ أن يصلي أنه مطلق لمن شاء السعي إلى الخير أو التخلف عنه .

" أو " للتهديد كقوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : 29] ويجوز أن يكون ﴿ لمن شاء ﴾ بدلاً من قوله ﴿ للبشر ﴾ أي إنها منذرة للذين إن شاؤا تقدموا ففازوا وإن شاؤا تأخروا فهلكو . واستدلال المعتزلة على أن العبد مختار ظاهر ، والأشاعرة يحملونه على التهديد أو على أن فاعل شاء هو الله سبحانه أي لمن شاء الله منه التقدم أو التأخر . سلمنا أن الفاعل ضمير عائد إلى من لكن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله لقوله ﴿ وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ﴾ .

ثم أكد المعنى المتقدم بقوله ﴿ كل نفس بما كسب رهينة ﴾ أي ليس لامرىء إلا جزاء عمله كما مر نظيره في " الطور " قال النحويون : التاء في رهينة ليست للتأنيث لأن " فعيلاً " بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي إسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم . وأقول أيضاً : يحتمل أن تكون التاء للمبالغة ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم فكوا رقابهم عن الرهب بسبب أعمالهم الحسن كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . قال الكلبي : هم الذين كانوا على يمين آدم . وقال ابن عباس : هم الملائكة . وعن علي عليه السلام وابن عمر : هم الأطفال . قال الفراء : هذا القول أشبه بالصواب لأن الولدان لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به ، ولأنه تعالى ذكر فيهم أنهم يتساءلون عن حال المجرمين وهذا إنما يليق بالولدان الذين لايعرفون موجب دخول النار والأولون حملوا السؤال على التوبيخ والتخجيل . قال في الكشاف : معنى التساؤل عنهم أنهم يسأل بعضهم بعضاً عن حالهم . أو يتساءلون غيرهم عنهم كقولك " دعوته أنا وتداعيناه نحن " . ثم زعم أن الوجه في قوله ﴿ ما سلككم ﴾ على الخطاب مع أن سياق الكلام يقتضي الغيبة هو أنه حكاية قول المسؤلين لأن المسؤلين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون قلنا لهم ما

سلككم ﴿ في سقر ﴾ وقال غيره : المراد أن أصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين أين هم ، فلما رأوهم قالوا لهم ما سلككم ؟ وأقول : ولو فرض التكلم مع المجرمين زال الإشكال أي يتساءلون عن حال المجرمين أي عن حال أنفسهم وليس فيه إلا وضع المظهر مكان الضمير . وهذا التكرار مما جاء في القرآن وغيره من فصيح الكلام شائعاً ذائعاً كقوله ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ [الأعراف : 162] " أن يسألوا الحق يعطي الحق سائله " . وإذا جاز ذلك مع التصريح بهما فكيف لم يجز وأحدهما محذوف ؟ وهذا من غرائب نظم القرآن وفصاحته غير بعيد ، والمعنى ما

(322/791)

أدخلكم في هذه الدركة من النار ؟ فأجابوا بأن ذلك لأمور أربعة : أحدها ترك الصلاة ، والثاني ترك إطعام المسكين . قال العلماء : يجب أن يحمل هذان على الصلاة والصدقة الواجبتين وإلا لم يجز العذاب على تركهما .

(323/791)

الثالث الشروع في الأباطيل مع أهلها كإيذاء أهل الحق وكل ما لا يعني المسلم . الرابع التكذيب بالبعث والجزاء إلى حين عيان الموت وأمارات ظهور نتائج أعمال المكلف عليه ، وقد يستدل بالآية على أن الكفار معذبون بفروع الشرائع كما يعذبون بأصولهما كالتكذيب بيوم الدين . وإنما أخر لأنه أعظم الذنوب أي إنهم بعد ذلك كله يكذبون بهذا الأصل كقوله ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 17] ويجوز أن يكون سبب التأخير أنه آخر الأصول فأوّلها المبدأ وآخرها المعاد . وأيضاً أراد أن يرتب عليه قوله ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو آخر حالات المكلف فلو قدم لم يحسن معنى ولا لفظاً لوقوع الفصل بين المعطوفات . قال في الكشاف : يحتمل أن كل واحد منهم دخل النار لمجموع هذه الأربع ، أو دخلها بعضهم ببعضها والباقون بسائرها أو بكلها . قلت : إنهم جميعاً مستوون في الدركة والظاهر أنهم دخلوها بمجموع الأمور ، ثم بين غاية خسرانهم بقوله ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وفيه دليل على أن غيرهم تنفعهم الشفاعة وذلك لغير الفساق عند المعتزلة ، وفائدة الشفاعة زيادة درجاتهم أو العفو عن صغائرهم ، ثم وبخهم بقوله ﴿ فمالهم عن التذكرة ﴾ أي عن القرآن الذي هو سبب الموعظة ﴿ معرضين ﴾ حال نحو مالك قائماً ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ من قرأ بكسر الفاء فمعناه الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها ، وفي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة ونداء عليهم بالبلادة والغباوة وعدم التأثر من مواعظ القرآن بل صار ما هو سبب لاطمئنان القلوب موجباً لنفرتهم ، ولا ترى مثل نفار

حمير الوحش ولا سيما إذا رابها ريب ولهذا وصف الحمر بقوله ﴿ فرت من قسورة ﴾ وهى إسم جمع للرماة أو إسم جنس للأسد وهو القهر والغلبة ، وقال ابن عباس : هي ركز الناس وأصواتهم . وعن عكرمة : ظلمة الليل . ومن قرأ بفتح الفاء فهي المحمولة على النفار . ورجح بعضهم قراءة الكسر بناء على أن الفرار يناسب النفار . ذكر المفسرون أنهم قالوا

(324/791)

لرسول الله : لا نتبعك حتى تأتي لكل واحد منا بكتب من السماء بصحف عنوانها من رب العالمين . إلى فلان ابن فلان نؤمر فيها باتباعك . وروى بعضهم أنهم قالوا : إن كان محمداً صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار فأنكر الله تعالى فقال : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتي صحفاً منتشرة ﴾ أي قراطيس منتشرة تقرأ كسائر الصحف ، أو منتشرة على أيدي الملائكة أنزلت ساعة كتبت قبل أن تطوى . وقيل : كانوا يقولون : بلغنا أن بني إسرائيل كان الرجل منهم يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فائتنا بمثل ذلك . فعلى هذا المراد بالصحف الكتابات الظاهرة المكشوفة . ثم زجرهم عن اقتراح الآيات فقال ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ فلذلك أعرضوا عن

التذكرة. ثم وصف القرآن بأنه موعظة بليغة وتذكر شاف ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ وتذكير الضمير ههنا وفي إنه بتأويل الذكر أو القرآن. ثم بين السبب الأصلي في عدم التذكرة قائلاً ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ واستدلال الأشعري به ظاهر، والمعتزلة حملوه على مشيئة القسر والإلجاء. ثم ختم السورة بذكر ما ينبىء عن كمال الهيبة وهو صفة القهر الذي بسببه يجب أن يتقي، وصفه اللطف الذي به يجب أن يرجى، والله الموفق للصواب وإليه المصير والمآب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 385. 397 ﴾

(325/791)

وقال الخطيب الشربينى:

سورة المدثر صلى الله عليه وسلم

مكية وهي خمس أو ست وخمسون آية، ومائتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف

﴿ بسم الله ﴾ الملك الواحد القهار ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ برحمته الأبرار والفجار ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أصفياءه بما يوصلهم إلى دار القرار.

ولما ختمت المزمّل بالبشارة لأرباب البصارة بعد ما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيء

للقيام بأعباء الدعوة افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة فقال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

﴿ يا أيها المدثر ﴾ روي عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أوّل ما نزل من القرآن قال : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ . قلت يقولون ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ (العلق :)

(326/791)

قال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ذلك الذي قلت ، فقال لي جابر : لا أحدثك إلا مثل ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت عن خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً" ، قال : فنزل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ الآية ، وذلك قبل أن تفرض الصلاة ، وفي رواية "فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي وذكر نحوه" ، وفيه : فإذا قاعد على عرش في الهواء ـ يعني جبريل عليه السلام ـ

فأخذتني رجفة شديدة" وعن جابر من رواية الزهري عن أبي سلمة عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث عن فترة الوحي ، فقال لي في حديثه : "فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاء لي بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض فَجُئِثْتُ منه رعباً ، فقلت : زملوني زملوني فدثروني ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى قوله : ﴿ فاهجر ﴾ وفي رواية : "فَجُئِثْتُ منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي" وذكره ثم حمي الوحي وتتابع .

فإن قيل : إنّ هذا الحديث دال على أنّ سورة المدثر أوّل ما نزل ، ويعارضه حديث عائشة المخرج في الصحيحين في بدء الوحي وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وفيه : "فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ (العلق : ـ)

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده" الحديث ؟

(327/791)

أجيب : بأنّ الذي عليه العلماء أنّ أوّل ما نزل من القرآن على الإطلاق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ كما صرّح به في حديث عائشة . ومن قال : إنّ سورة المدثر أوّل ما نزل من

القرآن فضعيف ، وإنما كان نزولها بعد فترة الوحي كما صرّح به في رواية الزهريّ عن أبي سلمة عن جابر ، ويدل عليه ما في الحديث وهو يحدّث عن فترة الوحي إلى أن قال : "وأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ﴾ " ، ويدل عليه قوله أيضاً : "فإذا الملك الذي جاءني بحراء" . وحاصله : أنّ أوّل ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وأنّ أوّل ما نزل بعد فترة الوحي سورة المدثر ، وبهذا يحصل الجمع بين الحديثين .

قوله : "فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض" يريد به السرير الذي يجلس عليه .

وقوله : "يحدّث عن فترة الوحي" أي : عن احتباسه وعدم تتابعه وتواليه في النزول وقوله : "فَجُئِثْتُ منه" روي بجيم مضمومة ثم همزة مكسورة ثم ثاء مثلثة ساكنة ثم تاء الضمير ، وروي بثاءين مثلثتين بعد الجيم ومعناها فرعبت منه وفزعت ، وقوله : "حمي الوحي وتتابع" أي : كثر نزوله وازداد بعد فترته من قولهم : حميت الشمس والنار إذا ازداد حرّها . وقوله : "وصبوا عليّ ماءً بارداً" فيه أنه ينبغي لمن فزع أن يصبّ عليه الماء ليسكن فزعه .

وأصل المدّثر المتدثر وهو الذي يتدثر في ثيابه ليستدفئ بها ، وأجمعوا على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما سمي مدّثراً لوجوه:

أحدها : قوله صلى الله عليه وسلم "دثروني" .

وثانيها : أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً متدثراً بثيابه فجاءه جبريل عليه السلام وأيقظه صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ أي : حذر الناس من العذاب إن لم يؤمنوا ، والمعنى : قم من مضجعك واترك التدثر بالثياب ، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله عز وجل له .

(328/791)

وثالثها : أنّ الوليد بن المغيرة وأبا جهل وأبا لهب والنضر بن الحارث اجتمعوا وقالوا : إنّ وفود العرب يجتمعون في أيام الحج وهم يسألون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الإخبار عنه ، فمن قائل هو مجنون وقائل ساحر وقائل كاهن ، وتعلم العرب أنّ هذا كله لا يجتمع في رجل واحد فيستدلون باختلاف الأجوبة على أنها أجوبة باطلة سموا محمداً باسم واحد تجتمعون عليه وتسميه العرب به ، فقام رجل منهم فقال : إنه شاعر ، فلما سمع صلى الله عليه وسلم ذلك اشتدّ عليه ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وقيل : إنه ليس المراد التدثر بالثياب وعلى هذا ففيه وجوه أيضاً :

أحدها : قال عكرمة : المعنى : يا أيها المدّثر بالنبوّة والرسالة من قولهم ألبسه الله لباس

التقوى وزينه برداء العلم . قال ابن العربي : وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً بعد أي : على القول بأنها أوّل سورة نزلت وأمّا على أنها نزلت بعد فترة الوحي فليس ببعيد .

وثانيها : أنّ المدّثر بالثوب يكون كالمختفي فيه ، وهو صلى الله عليه وسلم كان في جبل حراء كالمختفي من الناس فكأنه قال : يا أيها المدّثر بدثار الاختفاء قم بهذا الأمر واخرج من زاوية الخمول ، واشتغل بإنذار الخلق والدعوة إلى معرفة الحق .

وثالثها : أنه تعالى جعله رحمة للعالمين فكأنه قيل له : يا أيها المدّثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة الكاملة قم فأنذر عذاب ربك ، وعلى كلا القولين في ندائه ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته ولم يقل : يا محمد .

(329/791)

﴿ وربك ﴾ أي : خاصة ﴿ فكبر ﴾ أي : عظمه عما يقول عبدة الأوثان وصفه بأنه أكبر من أن تكون له صاحبة أو ولد ، وفي الحديث أنهم قالوا بم تفتتح الصلاة ؟ فنزل ﴿ وربك فكبر ﴾ أي : صفه بأنه أكبر . قال ابن العربي : وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة ، فإنه يرادفه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه ولا يتخذ ولياً غيره ولا يعبد سواه .

وروي أنّ أبا سفيان قال يوم أحد : اعل هبل وهو اسم صنم كان لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله أعلى وأجل ، وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذاناً وصلاة وذكراً يقول : الله أكبر ، وحمل عليه لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق مواردها منها قوله : "تحريمها التكبير وتحليلها التسليم" ، والشرع يقتضي بعرفه ما يقتضي بعزمه . ومن مواردة أوقات الإهلال بالله تعالى تخليصاً له من الشرك وإعلاماً باسمه بالنسك وإفراداً لما شرع من أمره بالنسك ، والمنقول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في التكبير في الصلاة هو لفظ الله أكبر .

وقال المفسرون : لما نزل قوله تعالى ﴿ وربك فكبر ﴾ قام النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "الله أكبر" فكبرت خديجة رضي الله تعالى عنها وفرحت وعلمت أنه وحي من الله تعالى" ذكره القشيري ، وقال مقاتل : هو أن يقال الله أكبر وقيل : المراد منه التكبير في الصلاة ، واستشكل ذلك على القول بأنها أوّل سورة نزلت ، فإنّ الصلاة لم تكن فرضت . وأجيب : بأنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان له صلوات تطوّع فأمر أن يكبر فيها .

تنبيه : دخلت الفاء في قوله تعالى ﴿ فكبر ﴾ وفيما بعده لإفادة معنى الشرط كأنه قيل : وما يكن فكبر ربك أو للدلالة على أنّ المقصود الأوّل من الأمر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والتشبيه ، فإنّ أوّل ما يجب معرفة الصانع ، وأوّل ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه والقوم كانوا مقرّين به .

﴿ وثيابك فطهر ﴾ أي : من النجاسات لأنّ طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة لا تصح إلا بها وهي الأولى والأحبّ في غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثاً . قال الرازي : إذا حملنا التطهير على حقيقته ففي الآية ثلاث احتمالات:

الأوّل : قال الشافعي : المقصود من الآية الإعلام بأنّ الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس .

وثانيها : روي أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاء شاة فشق عليه ، فرجع إلى بيته حزيناً وتدثر في ثيابه صلى الله عليه وسلم فقيل : ﴿ يا أيها المدّثر قم فأنذر ﴾ ولا تمنعك تلك الشناعة عن الإنذار ﴿ وربك فكبر ﴾ على أن لا يتنقم منهم ﴿ وثيابك فطهر ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات .

وثالثها : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات ، فأمره الله تعالى أن يصون ثيابه عنها .

وقيل : هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول ، وذلك مما لا يؤمن معه إصابة النجاسة . قال صلى الله عليه وسلم "إزار المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا

جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من ذلك ففي النار " فجعل صلى الله عليه وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعد على ما تحته بالنار ، فما بالُ رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم وهذه حالة الكبر وقال صلى الله عليه وسلم "لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء " وفي رواية "من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة" . قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إنّ أحد شقي إزاري يسترخي إلا أني أتعاهد ذلك منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لست ممن يصنعه خيلاء " .

(331/791)

وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ، ويستهجن من العادات . يقال فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر وذلك لأنّ الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه فكني به عنه ألا ترى إلى قولهم : أعجبني زيد ثوبه كما تقول : أعجبني زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد في ثوبه والكرم تحت حلته ، ولأنّ الغالب أنّ من طهر باطنه ونقاه عني بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبيث وإيثار الطهر في كل شيء . وقال عكرمة : سئل ابن عباس رضي

الله عنهما عن قوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ فقال : لا تلبسها على معصية ولا على غدر ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

*وإني بحمد الله لا ثوب فاجر ** لبست ولا من عنده أتقنع*

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء طاهر الثياب ، ويقولون لمن غدر إنه لدنس الثياب . وقال أبيّ بن كعب : لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم البسها وأنت برّ طاهر . وقال الحسن والقرطبي : وخلقك فحسن . وقال سعيد بن جبير : وقلبك وبيتك فطهر . وقال مجاهد وابن زيد : وعملك فأصلح . وروى منصور عن أبي رزين قال : يقول : وعملك أصلح . قال : وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : إنّ فلاناً نجس الثياب . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "يحشر المرء في ثوبيه اللذين مات عليهما يعني عمله الصالح والطالح" ذكره الماوردي . وقيل : المراد بالثياب الأهل أي : طهرهم من الخطايا بالموعظة والتأديب والعرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً . قال تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ (البقرة :)

وقيل : المراد به الدين أي : ودينك فطهر جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : "رأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدي ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجرّه قالوا : يا رسول الله ، فما أولت ذلك ؟ قال : الدين" .

وقوله تعالى : ﴿ والرجز ﴾ فسره النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأوثان ﴿ فاهجر ﴾ أي : دم على هجره . وقيل : الزاي فيه منقلبة من السين والعرب تعاقب بين السين والزاي لقرب مخرجيهما دليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ (الحج :) وروي عن ابن عباس أنّ معناه : اترك المآثم ، وقرأ حفص بضم الراء والباقون بكسرها ، وهما لغتان ومعناهما واحد ، وقال أبو العالية : الرجز بضم الراء الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية ، وقال الضحاك : يعني الشرك . وقال الكلبي : يعني العذاب . قال البغويّ : ومجاز الآية اهجر ما أوجب لك العذاب من الأعمال .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ مرفوع منصوب المحل على الحال أي : لا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً واجعله خالصاً لله تعالى ولا تطلب عوضاً أصلاً ، ومعنى تستكثر أي : طالباً للكثرة كارهاً أن ينقص المال بسبب العطاء ، فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ليكون عطاؤه صلى الله عليه وسلم خالياً عن انتظار العوض والتفات النفس إليه . وقيل : لا تعط شيئاً طالباً للكثير نهى عن الاستقرار وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث : "المستكثر يثاب من هبته" وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون نهياً خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر الآية ؛ لأنّ الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق

والثاني : أنه نهي تنزيه لا تحريم له ولأمّته . وقيل : إنه تعالى لما أمره بأربعة أشياء : إنذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجر الرجز .

(333/791)

ثم قال : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي : لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي : على الأوامر والنواهي متقرّباً بذلك إليه غير ممتن به عليه . وقال الحسن : بحسناتك تستكثرها . وقال ابن عباس : ولا تعط عطية ملتمساً بها أفضل منها . وقيل : لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي مستكثراً بذلك الإنعام ، فإنك إنما فعلت ذلك بأمر الله تبارك وتعالى فلا منة لك به عليهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ وقيل : لا تمنن عليهم بنبوّتك لتستكثر أي : لا تأخذ منهم أجراً على ذلك تستكثر به مالك ، وقال مجاهد والربيع : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله تعالى به عليك . وقال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك إنما عملك منة من الله تعالى عليك إذ جعل لك الله تعالى سبيلاً إلى عبادته . وقال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك لا تقل : دعوت فلم يستجب لي . وقيل : لا تفعل الخير لترائي به الناس .

ولما ذكر تعالى ما يتعلق بإرشاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر بعده وعيد الأشقياء بقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَالِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾

﴿ فإذا نقر ﴾ أي : نفخ ﴿ في الناقور ﴾ أي : في الصور وهو القرن النفخة الثانية فاعول من النقر أي : من التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قال تعالى : اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم .

(334/791)

وإذا ظرف لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين ﴾ لأنّ معناه : عسر الأمر على الكافرين وذلك إشارة إلى وقت النقر وهو مبتدأ خبره يوم عسير ويومئذ بدل أو ظرف لخبره إذ التقدير فذلك الوقت وقوع يوم عسير وقرأ على الكافرين وأصحاب النار أبو عمرو والدوري عن الكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح .

ولما كان العسر قد يطلق على الشيء وفيه يسر من بعض الجهات أو يعالج فيرجع يسيراً بين أنه ليس كذلك بقوله تعالى : ﴿ غير يسير ﴾ فجمع فيه بين إثبات الشيء ونفي ضدّه تحقيقاً لأمره ودفعاً للمجاز عنه ، وتقييده بالكافرين يشعر بيسره على المؤمنين فإنهم لا يناقشون الحساب ويحشرون بيض الوجوه ثقال الموازين . قال الرازي : ويحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين إلا أنه على الكافرين أشد .

تنبيه : قال الحليمي : سمي الصور باسمين فإن كان هو الذي ينفخ فيه النفختان فإنّ نفخة الإصعاق بخلاف نفخة الإحياء .

وجاء في الأخبار أنّ في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلها وأنها تجمع في تلك الثقب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزعت منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى .

﴿ ذرني ﴾ أي : اتركني على أي حالة اتفقت ﴿ ومن خلقت ﴾ معطوف على المفعول أو مفعول معه .

(335/791)

وقوله تعالى : ﴿ وحيداً ﴾ فيه أوجه : أحدها : أنه حال من الياء في ذرني أي : ذرني وحدي معه فأنا أكفيك في الانتقام منه ، الثاني : أنه حال من التاء في خلقت أي : خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه ، الثالث : أنه حال من عائد المحذوف أي : خلقته وحيداً ، فوحيداً على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف أي : خلقته في بطن أمّه وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته ، قاله مجاهد . الرابع : أن ينتصب على الذم لأنه يقال : إنّ وحيداً كان لقباً للوليد بن المغيرة المخزومي ومعنى وحيداً : ذليلاً قيل : إنه كان يزعم أنه وحيد في فضله وماله وليس في ذلك ما يقتضي صدق مقالته لأنّ هذا اللقب له شهرة به ، وقد يلقب الإنسان بما لا يتصف به وإذا كان لقباً تعين نصبه على الذم . قال ابن عباس : كان الوليد يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لأبي المغيرة نظير .

قال الرازي : وردّ هذا القول بعضهم بأنه تعالى لا يصدقه في دعواه تلك بأنه وحيد لا نظير له ذكره الواحدي وهو ضعيف من وجوه ثلاثة : لأنه قد يكون الوحيد علماً فيزول السؤال لأنّ اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة بل هو قائم مقام الإشارة . الثاني : أن يكون ذلك بحسب ظنه واعتقاده كقوله عز وجل ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان :)

. الثالث : أنه وحيد في كفره وعناده وخبثه لأن لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف . الرابع : قال أبو سعيد : الوحيد الذي لا أب له كما تقدم في الزنيم .

﴿ وجعلت له ﴾ أي : بأسباب أوجدتها أنا وحدي لا بحول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدناً وقلباً وأوسع فكراً وعقلاً وهو دونه في ذلك ﴿ مالاً ممدوداً ﴾ أي : مالاً واسعاً كثيراً . قال ابن عباس : هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الإبل والبقر والغنم والحجور والجنان والعبيد والجواري ، واختلفوا في مبلغه فقال مجاهد وسعيد بن جبير : ألف دينار . وقال قتادة : ستة آلاف دينار . وقال سفيان الثوري : مرة أربعة آلاف دينار ومرة ألف ألف دينار وقال ابن عباس : تسعة آلاف مثقال فضة وقال الرازي : الممدود هو الذي يكون له مدد يأتي منه الجزء بعد الجزء دائماً ولذلك فسره عمر غلة شهر بشهر . وقال النعمان : الممدود بالزيادة كالزروع والضروع وأنواع التجارات وقال مقاتل : كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً .

﴿ وبنين ﴾ أي : وجعلت له بنين ﴿ شهوداً ﴾ أي : حضوراً معه لغناهم عن الأسفار بكثرة المال وانتشار الخدم وقوة الأعوان وهم مع حضورهم في الذروة من الحضور بتمام العقل وقوة الحذق ، فهم في غاية المعرفة ومع ذلك فهم أعيان المجالس وصدور المحافل كأنه لا شاهد به غيرهم . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقال السدي والضحاك : كانوا اثني

عشر رجلاً ، وعن الضحاك سبعة ولدوا بمكة وخمسة بالطائف . وقال مقاتل : كانوا سبعة ولعله اقتصر على من ولد بمكة وعلى كل قول أسلم منهم ثلاثة خالد الذي منّ الله تعالى على المسلمين بإسلامه فكان سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم وهشام وعمارة .

﴿ ومهدت ﴾ أي : بسطت ﴿ له ﴾ العيش والعمر والولد ، والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي . وقال ابن عباس : أي : وسعت له ما بين اليمن إلى الشام وعن مجاهد أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش فلم يرع هذه النعمة العظيمة . ا

وقوله تعالى ﴿ تمهيداً ﴾ تأكيد .

(337/791)

﴿ ثم ﴾ أي : بعد الأمر العظيم الذي ارتكبه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يطمع ﴾ أي : بغير سبب يدلي به مما جعلناه سبب المزيد من الشكر ﴿ أن أزيد ﴾ أي : فيما آتيته في دنياه أو في آخرته وهو يكذب رسولنا صلى الله عليه وسلم وقال الحسن : ثم يطمع أن أحله الجنة .

وكان الوليد يقول : إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي ، فقال الله تعالى ردّاً عليه

وتكذيباً له ﴿كلا﴾ أي: وعزتنا وجلالنا لا تكون له زيادة على ذلك أصلاً، وأمّا النقصان فسيرى إن استمرّ على تكذيبه فليرتدع عن هذا الطمع ولينزجر وليرتجع، فإنه حمق محض وزخرف بحت وغرور صرف، قالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك فقيراً.

تنبيه: كلا قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة فيكون متصلاً بالكلام الأوّل وقيل: كلا بمعنى حقاً.

ويبتدأ بقوله تعالى ﴿إنه﴾ أي: هذا الموصوف ﴿كان﴾ أي: بخلق كأنه جبلة له وطبع لا يقدر على الانفكاك عنه ﴿لآياتنا﴾ على ما لها من العظمة خاصة لكونها هادية إلى الوحدانية لا إلى غيرها من الشبه القائدة إلى الشرك ﴿عنيداً﴾ قال قتادة: أي: جاحداً. وقال مقاتل: معرضاً. وقال مجاهد: إنه المجانب للحق. وجمع العنيد عند، مثل رغيف ورغف والعنيد بمعنى المعاند، والعناد كما قال الملوي من كبر في النفس ويبس في الطبع وشراسة في الأخلاق أو خبل في العقل، وقد جمع ذلك كله إبليس لعنه الله تعالى لأنه خلق من نار وهي من طبعها اليبوسة وعدم الطواعية.

تنبيه: في الآية إشارة إلى أنّ الوليد كان معانداً في أمور كثيرة منها أنه كان يعاند في دلائل التوحيد وصحة النبوّة وصحة البعث، ومنها أنّ كفره كان عناداً لأنه كان يعرف هذه

الأشياء بقلبه وينكرها بلسانه . وكفر العناد أفحش أنواع الكفر ، ومنها أنّ قوله تعالى كان يدل على أنّ هذه حرفته من قديم الزمان .

(338/791)

﴿ سأرهقه ﴾ أي : أكلفه ﴿ صعوداً ﴾ أي : مشقة من العذاب لا راحة له فيها . وروى الترمذي عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنه جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي" وفي رواية أنه "كلما وضع يده في معالجة الصعود ذابت فإذا رفعها عادت وكذا رجله" وقال الكلبي : إنه صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه بسلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع الحديد فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أسقط إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها فذلك دأبه أبداً .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَاذَآ إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَاذَآ إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * تُبْقِي وَتَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

أي : هذا العنيد ﴿ فكر ﴾ أي : ردّد فكره وأداره تابعاً لهواه لأجل الوقوع على شيء يطعن به في القرآن أو النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وقدّر ﴾ أي : أوقع تقدير الأمور التي

يطعن بها وقاسها في نفسه لعلمه أنها أقرب إلى القبول وذلك أنّ الله تعالى لما أنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ المصير ﴾ (غافر : ـ)

(339/791)

قام النبيّ صلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبيّ صلى الله عليه وسلم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأنّ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً ، فقال له الوليد : ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟ قال : وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وأنك داخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة تسأل من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال : ألم تعلم أني من أكثرهم مالاً وولداً ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ، ثم قام مع أبي جهل حتى

أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أنّ محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهمّ لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط تكهن ؟ فقالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ قالوا : اللهمّ لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : اللهمّ لا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوّة من صدقه ، فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ فتفكر في نفسه وقدّر ما أسرّ" .

قال الله تعالى : ﴿ فقتل ﴾ أي : هلك وطرد ولعن في دنياه هذه ﴿ كيف قدر ﴾ أي : على أي : كيفية أوقع تقديره هذا .

﴿ ثم قتل ﴾ أي : هلك ولعن هذا العنيد هلاكاً ولعناً هو في غاية العظمة فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة . ﴿ كيف قدر ﴾ فثم للدلالة على أنّ الثانية أبلغ من الأولى ونحوه قوله:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي

(340/791)

ومعنى قول القائل قتله الله ما أشجعه وأخزاه الله ما أشعره للإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك . وأما ثم المتوسطة بين الأفعال التي

بعدها فهي للدلالة على أنه تأنى في التأمل وتمهل وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نظر ﴾ عطف على فكر وقدر والدعاء اعتراض بينهما والنظر إما في وجوه قومه وإما فيما يقدح به في القرآن .

﴿ ثم عبس ﴾ أي : قبض وجهه وكلحه ونظر مع تقبض جلد وما بين العينين بكراهة شديدة كالمهتم للتفكر في شيء وهو لا يجد فيه فرجاً لأنه ضاقت عليه الحيل لكونه لم يجد فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مطعناً . وقيل : عبس وجهه في وجوه المؤمنين ، وذلك أنه لما قال لقريش : إن محمداً ساحر مرّ على جماعة من المسلمين ، فدعوه إلى الإسلام فعبس في وجوههم . وقيل : عبس على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه ﴿ وبسر ﴾ أي : زاد في القبض والكدح ، يقال : وجه باسر ، أي : منقبض أسود كالح متغير اللون قاله قتادة .

﴿ ثم ﴾ أي : بعد هذا التروي العظيم ﴿ أدبر ﴾ أي : عما أداه إليه فكره من الإيمان بسلامة المنظور فيه وعلوّه عن المطاعن فحاد عن وجوه الأفكار إلى أقفيتها

﴿ واستكبر ﴾ أي : أوجد الكبر عن الاعتراف بالحق إيجاد من هو في غاية الرغبة فيه .

﴿ فقال ﴾ أي : عقب ما جرّه إليه طبعه الخبيث من إيقاع الكبر على هذا الوجه لكونه رآه نافعاً لهم في الدنيا ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا سحر ﴾ أي : أمور تخييلية لا حقائق لها وهي لدقتها بحيث تخفى أسبابها ،

أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وماله وولده ومواليه ، فما هو إلا سحر ﴿ يؤثر ﴾ أي : من شأنه أن ينقله السامع عن غيره ، فهو ينقله من مسيلمة وأهل بابل كما قال:

(341/791)

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا قول البشر ﴾ أي : ليس فيه شيء عن الله تعالى فلا يغتر أحد به ولا يعرج عليه فارتج النادي فرحاً ، ثم تفرّقوا معجبين بقوله متعجبين منه قيل : وهذا شبيه بما قال بعضهم:

*لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى ** يوماً وليلته يعدّ ويحسب*

*ويقول معضلة عجيب أمرها ** ولئن فهمت لها لأمري أعجب*

*خمس وخمس ستة أو سبعة ** قولان قالهما الخليل وثعلب

***

فكان قوله هذا سبب هلاكه فكان كما قال بعضهم:

*احفظ لسانك أيها الإنسان ** لا يلدغنك إنه ثعبان*

*كم في المقابر من قتيل لسانه ** كانت تهاب لقاءه الشجعان*

وقوله تعالى : ﴿ سأصليه ﴾ أي : أدخله ﴿ سقر ﴾ أي : جهنم بوعد لا بدّ منه عن

قريب بدل من ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ تعظيم لشأنها .

وقوله تعالى : ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ بيان لذلك أو حال من سقر ، والعامل فيها معنى التعظيم ، والمعنى : لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، فإذا أهلكته لم تذره هالكاً حتى يعاد أو لا تبقي على شيء ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة ، وسميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ، ولا تنصرف للتعريف والتأنيث . قال ابن عباس : سقر اسم للطبقة السادسة ، فإنّ درك النار سبعة جهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم وسقر والهاوية .

﴿ لوّاحة ﴾ من لوح الهجير قال:

*تقول ما لاحك يا مسافر ** يا ابنة عمي لاحني الهواجر

﴿ للبشر ﴾ أي : محرقة لظاهر الجلد فتدعه أشدّ سواداً من الليل قال تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ (المؤمنون :)

والبشر أعالي البشرة وهو جمع بشرة وجمع البشر أبشار . وعن الحسن : تلوح للناس كقوله تعالى : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ (التكاثر :)

وقيل : اللوح شدة العطش يقال : لاحه العطش ولوحه ، أي : غيره . وقال الأخفش :

والمعنى : أنها معطشة للبشر ، أي : لأهلها وأنشد :

*سقتني على لوح من الماء شربة** سقاها من الله الرهام النواديا*

(342/791)

يعني باللوح شدّة العطش والرّهام جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الضعيفة ، وأرهمت السحابة أتت بالرهام .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي : من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر ، وقيل : التسعة عشر نقباء . وقال أكثر المفسرين : تسعة عشر ملكاً بأعيانهم . وقيل : تسعة عشر ألف ملك . قال ابن جريج : نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم فقال : "أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصي ، وأشعارهم تمس أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة ، نزعت منهم الرحمة ، يدفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم" . قال عمرو بن دينار : إنّ واحداً منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . قال ابن الأثير : الصياصي قرون البقر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمّهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم - يعني الشجعان - أفيعجز

كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم ؟ فقال أبو الأشد بن كلدة بن خلف الجمحي : أنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، عشرة على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين . وروي أنه قال : أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وسبعة بمنكبي الأيسر في النار ، ونمضي فندخل الجنة ، فأنزل الله عز وجل:

﴿ وما جعلنا ﴾ أي : لنا من العظمة وإن خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه ﴿ أصحاب النار ﴾ أي : خزنتها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أي : لم نجعلهم رجالاً فتغالبوهم وإنما جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنسي الفريقين من الجنّ والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرحمة والرأفة ولأنهم أشدّ بأساً وأقوى بطشاً فقوّتهم أعظم من قوّة الإنس والجنّ ولذلك جعل الرسول إلى البشر من جنسهم ليكون له رأفة ورحمة بهم .

فإن قيل : ثبت في الأخبار أنّ الملائكة مخلوقون من النور فكيف تطيق المكث في النار ؟

(343/791)

أجيب : بأنّ الله تعالى قادر على كل الممكنات فكما أنه لا استبعاد في أنه يبقى الحي في مثل ذلك العذاب الشديد أبد الآباد ولا يموت ، فكذا لا استبعاد في إبقاء الملائكة هناك من غير ألم .

﴿ وما جعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ عدّتهم ﴾ أي : مذكورة ومحصورة ﴿ إلا فتنة ﴾ أي : بلية ﴿ للذين كفروا ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضلالة وفتنة مفعول ثان على حذف مضاف أي : إلا سبب فتنة وللذين صفة الفتنة وليست فتنة مفعولاً له . وقول البيضاوي وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر تبعاً للزمخشري ، قال أبو حيان : إنه تحريف لكتاب الله إذ زعم أنّ معنى إلا فتنة للذين كفروا إلا تسعة عشر وهذا لا يذهب إليه عاقل ولا من له أدنى ذكاء .

وقال الرازي : إنما صار هذا العدد سبباً لفتنة الكفار من وجهين : الأوّل : أنّ الكفار يستهزئون ويقولون لم لا يكونون عشرين ، وما المقتضي لتخصيص هذا العدد . والثاني : أن الكفار يقولون هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر العالم من الجنّ والإنس من أوّل ما خلق الله إلى قيام الساعة ؟

وأجيب : عن الأوّل بأنّ هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض ، وعن الثاني بأنه لا يبعد أن الله تعالى يرزق ذلك العدد القليل قوّة تفي بذلك ، فقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، وأيضاً فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ولا للعقل فيها مجال .

وذكر أرباب المعاني في تقرير هذا العدد وجهين:

أحدهما : ما قاله أرباب الحكمة إنّ سبب فساد النفس الإنسانية في قوّتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية ، فالقوى الحيوانية هي الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب فهذه اثنا عشر ، وأما القوى الطبيعية فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، فالمجموع تسعة عشر فلما كانت هذه منشآت لا جرم كان عدد الزبانية هكذا .

ثانيهما : أنّ أبواب جهنم سبعة فستة منها للكفار وواحد للفساق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة : ترك الاعتقاد وترك الإقرار وترك العمل فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة فالمجموع ثمانية عشر ، وأما باب الفساق فليس هناك إلا ترك العمل فالمجموع تسعة عشر مشغولة بغير العبادة فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر .

وقوله تعالى : ﴿ ليستيقن الذين ﴾ متعلق بجعلنا لا بفتنة . وقيل : بفعل مضمر أي : فعلنا ذلك ليستيقن الذين ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ أي : أعطوا التوراة والإنجيل ، فإنه مكتوب فيهما إنه تسعة عشر ، فذلك موافقة لما عندهم ﴿ ويزداد الذين آمنوا ﴾ أي : من أهل الكتاب ﴿ إيماناً ﴾ أي : تصديقاً لموافقة النبيّ صلى الله عليه وسلم لما في كتبهم ﴿ ولا يرتاب ﴾ أي : يشك ﴿ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ في عددهم .

فإن قيل : قد أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وزيادة الإيمان للمؤمنين فما فائدة ﴿ ولا يرتاب

الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ ؟

أجيب : بأنّ الإنسان إذا اجتهد في أمر غامض دقيق الحجة كثير الشبه ، فحصل له اليقين فربما غفل عن مقدّمة من مقدّمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك ، ففائدة هذه الجملة نفي ذلك الشك ، وإنه حصل لهم يقين جازم لا يحصل عقبه شك البتة .

(345/791)

﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ونفاق وإن قل ونزول هذه السورة قبل وجود المنافقين فهو علم من أعلام النبوّة فإنه إخبار بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ولا ينكر جعل الله تعالى بعض الأمور علة إصلاح ناس وفساد آخرين ؛ لأنه لا يسأل عما يفعل على أن العلة قد تكون مقصودة لشيء بالقصد الأوّل ثم يترتب عليها شيء آخر يكون قصده بالقصد الثاني تقول خرجت من البلد لمخافة الشر ومخافة الشر لا يتعلق بها الغرض .

﴿ والكافرون ﴾ أي : ويقول الراسخون في الكفر الجازمون بالتكذيب الساترون لما دلت عليه الأدلة من الحق ﴿ ماذا ﴾ أي : أي شيء ﴿ أراد الله ﴾ أي : الملك الذي له جميع

العظمة ﴿ بهذا ﴾ أي : العدد القليل في جنب عظمته ﴿ مثلاً ﴾ قال الجلال المحلي : سموه لغرابته بذلك ، وأعرب حالاً . وقال الليث : المثل الحديث ومنه ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ (الرعد :)

أي : حديثها والخبر عنها . وقال الرازي : إنما سموه مثلاً لأنه لما كان هذا العدد عدداً عجيباً ظنّ القوم أنه ربما لم يكن مراد الله تعالى منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشيء آخر وتنبيهاً على مقصود آخر لا جرم سموه مثلاً على سبيل الاستعارة لأنهم لما استغربوه ظنوا أنه ضرب مثلاً لغيره ، ومثلاً تمييز أو حال وتسمية هذا مثلاً على سبيل الاستعارة لغرابته .

(346/791)

ولما كان التقدير أراد بهذا إضلال من ضل وهو لا يبالي وهداية من اهتدى وهو لا يبالي كان كأنه قيل : هل يفعل مثل ذلك في غير هذا فقال تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا المذكور من الإضلال والهداية ﴿ يضل الله ﴾ أي : الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز ﴿ من يشاء ﴾ بأي كلام شاء ، كإضلال الله تعالى أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿ ويهدي ﴾ بقدرته التامّة ﴿ من يشاء ﴾ بنفس ذلك الكلام أو بغيره كهداية أصحاب

محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الآية تدل على مذهب أهل السنة لأنه تعالى قال في أوّل الآية ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ الخ ، ثم قال تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ أي : المحسن إليك بأنواع الإحسان المدبر لأمرك ﴿ إلا هو ﴾ أي : الله سبحانه وتعالى . قال مقاتل رضي الله عنه : وهذا جواب لأبي جهل حيث قال : ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر . وقال مجاهد رضي الله عنه : ﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ يعني : من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار ، ولا يعلم عدتهم إلا الله تعالى .

والمعنى : أن تسعة عشر هم خزنة النار ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولو أراد لجعل الخزنة أكثر من ذلك ، فقد روي أنّ البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا تعود لهم نوبة أخرى . وروي أنّ الأرض في السماء كحلقة ملقاة في فلاة ، وكل سماء في التي فوقها كذلك ، وورد في الخبر : أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع ـ وفي رواية موضع قدم ـ إلا وفيه ملك قائم يصلي ـ وفي رواية ساجد ـ وإنما خص هذا العدد لحكم لا يعلمها إلا هو .

(347/791)

ثم رجع إلى ذكر سقر فقال تعالى : ﴿ وما هي ﴾ أي : النار التي هي من أعظم جنوده ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ أي : ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله وأنه سبحانه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ، وللبشر مفعول بذكرى واللام فيه مزيدة ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة . وقرأ ورش بين بين ، والباقون بالفتح . وقوله تعالى:

﴿ كَلا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِى جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾

﴿ كلا ﴾ ردع لمن أنكرها أو إنكار لأن يتذكروا بها قاله البيضاوي . وقال البغويّ : هذا قسم يقول حقاً . وقال الجلال المحلي : استفتاح بمعنى إلا ﴿ والقمر ﴾ أي : الذي هو آية الليل الهادية من ضل بظلامه .

﴿ والليل إذ أدبر ﴾ أي : مضى فانقلب راجعاً من حيث جاء فانكشف ظلامه ، وقرأ نافع وحمزة وحفص بسكون الذال المعجمة والدال المهملة بعدها وهمزة قطع مفتوحة بين المعجمة والمهملة الساكنين ، والباقون بفتح الذال المعجمة وبعدها ألف وفتح المهملة بعد الألف ، فالقراءة الأولى إذ أدبر والثانية إذا دبر وكلاهما لغة . يقال : دبر الليل وأدبر إذا ولى

مدبراً ذاهباً . قال أبو عمرو : ودبر لغة قريش ، وقال قطرب : دبر أي : أقبل ، تقول العرب دبرني فلان أي : جاء خلفي فالليل يأتي خلف النهار .

وقوله تعالى : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي : أضاء وتبين .

(348/791)

وقوله تعالى : ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ جواب للقسم أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد ، والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتائها ، فلما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها . ونظير ذلك القواصع في جمع القاصعاء كأنها جمع فاعلة ، أي : لإحدى البلايا والدواهي الكبر . ومعنى كونها إحداهنّ أنها من بينهنّ واحدة في العظم لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال وهي إحدى النساء .

وقوله تعالى : ﴿ نذيراً ﴾ تمييز من إحدى على معنى أنها لإحدى الدواهي إنذاراً كما تقول هي إحدى النساء عفافاً وقيل : هي حال وقيل : هو متصل بأوّل السورة أي : قم نذيراً ﴿ للبشر ﴾ قال الزمخشري : وهو من بدع التفاسير .

وقوله تعالى : ﴿ لمن شاء ﴾ أي : بإرادته ﴿ منكم ﴾ بدل من البشر ﴿ أن يتقدّم ﴾ أي : إلى الخير أو إلى الجنة بالإيمان ﴿ أو يتأخر ﴾ أي : إلى الشر أو النار بالكفر .

﴿كل نفس﴾ أي : ذكر أو أنثى على العموم ﴿بما كسبت﴾ أي : خاصة لا ما كسب غيرها ﴿رهينة﴾ أي : مرهونة مأخوذة وليست بتأنيث رهين في قوله تعالى : ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ (الطور :)

لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل : رهين ، لأنّ فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم ، كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن .

ومنه بيت الحماسة:

*أبعد الذي بالنعف نعف كويكب** رهينة رمس ذي تراب وجندل*

كأنه قال : والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك .

(349/791)

﴿إلا أصحاب اليمين﴾ وهم المؤمنون فإنهم فكوا رقابهم بإيمانهم وبما أحسنوا من أعمالهم وقيل : هم الملائكة ، وروي عن علي أنهم أطفال المسلمين . وقال مقاتل رضي الله عنه : هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق حين قال لهم الله : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وعنه أيضاً : هم الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم . وقال الحسن رضي الله عنه

: هم المسلمون الخالصون . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها بخير أو شر إلا من اعتمد على الفضل ، فكل من اعتمد على الكسب فهو رهين به ، ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ .

ولما أخرجهم من حكم الارتهان الذي أطلق على الإهلاك لأنه سببه استأنف بيان حالهم فقال تعالى : ﴿ في جنات ﴾ أي : بساتين في غاية العظم لأنهم أطلقوا أنفسهم وفكوا رقابهم فلم يرتهنوا ﴿ يتساءلون ﴾ أي : فيما بينهم يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم .

﴿ عن المجرمين ﴾ أي : عن أحوالهم ويقولون لهم بعد إخراج الموحدين من النار :

﴿ ما ﴾ محتملة للاستفهام والتعجب والتوبيخ ﴿ سلككم ﴾ أي : أدخلكم أيها المجرمون إدخالاً هو في غاية الضيق حتى كأنكم السلك في الثقب ، وقرأ السوسي بإدغام الكاف في الكاف والباقون بالإظهار ﴿ في سقر ﴾ .

فأجابوا بأن ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ أي : صلاة يعتدّ بها فكان هذا تنبيهاً على أنّ رسوخ القدم في الصلاة مانع من مثل حالهم وعلى أنهم معاقبون على فروع الشريعة وإن كانت لا تصلح منهم ، فلو فعلوها قبل الإيمان لم يعتدّ بها وعلى أنّ الصلاة أعظم الأعمال وأنّ الحسنات بها تقدّم على غيرها .

﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي : نعطيه ما يجب علينا إعطاؤه له .

﴿ وكنا نخوض ﴾ أي : نوجد الكلام الذي هو في غير مواقعه ولا علم لنا به إيجاد المشي من الخائض في ماء غمر ﴿ مع الخائضين ﴾ بحيث صار لنا هذا وصفاً راسخاً ، فنقول في القرآن : إنه سحر ، وإنه شعر ، وإنه كهانة ، وغير هذا من الأباطيل لا نتورّع عن شيء من ذلك ولا نقف مع عقل ولا نرجع إلى صحيح نقل ، فليأخذ الذين يبادرون إلى الكلام في كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت منزلتهم من هنا .

﴿ وكنا نكذب ﴾ أي : بحيث صار ذلك وصفاً ثابتاً ﴿ بيوم الدين ﴾ أي : بيوم البعث والجزاء .

﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ أي : الموت أو مقدّماته الذي قطعنا عن دار العمل . قال الله تعالى ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ (الحجر :)

فإن قيل : لم أخر التكذيب وهو أخس الخصال الأربع ؟

أجيب : بأنهم بعد اتصافهم بتلك الأمور الثلاثة كانوا مكذبين بيوم الدين ، والغرض تعظيم الذنب كقوله تعالى : ﴿ كان من الذين آمنوا ﴾ . ولما أقرّوا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم فكانوا ممن فسد مزاجه فتعذر علاجه سبب عنه قوله تعالى:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ

اخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾

﴿ فما تنفعهم ﴾ أي : في حال اتصافهم بهذه الصفات ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ أي : لا شفاعة لهم فلا انتفاع بها ، وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة . كقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (الأنبياء :)

(351/791)

وهذه الآية تدل على صحة الشفاعة للمذنبين من المؤمنين بمفهومها ؛ لأنّ تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدل على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : يشفع نبيكم عليه الصلاة والسلام رابع أربعة جبرائيل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصدّيقون ثم الشهداء ، ويبقى قوم في جهنم يقال لهم ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : فهؤلاء الذين في جهنم .

﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ أي : فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عن القرآن قال

مقاتل رضي الله عنه : معرضين عن القرآن من وجهين : أحدهما : الجحود والإنكار ، والثاني : ترك العمل بما فيه ، وقيل : المراد بالتذكرة العظة بالقرآن وغيره من المواعظ ومعرضين حال من الضمير في الجار الواقع خبراً عن ما الاستفهامية ، ومثل هذه الحال تسمى حالاً لازمة ، وعن التذكرة متعلق به ، أي : أيّ شيء حصل لهم في إعراضهم عن الاتعاظ .

﴿ كأنهم ﴾ في إعراضهم عن التذكرة من شدة النفر ﴿ حمر ﴾ أي : من حمر الوحش وهي أشد الأشياء نفاراً ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل بسرعة السير بالحمر في عدوها إذا وردت ماء فأحست بما يريبها ﴿ مستنفرة ﴾ أي : موجدة للنفار بغاية الرغبة حتى كأنها تطلبه من أنفسها لأنه شأنها وطبعها ، وقرأ ابن عامر ونافع بفتح الفاء على أنه اسم مفعول أي : نفرها القناص والباقون بكسرها بمعنى نافرة .

(352/791)

﴿ فرّت من قسورة ﴾ قال مجاهد رضي الله عنه : هي جماعة الرماة الذين يتصيدونها لا واحد له من لفظه ، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : هو القناص ، وعن زيد بن أسلم : فريق من رجال أقوياء . وكل ضخم

شديد عند العرب قسور وقسورة ، وعن أبي المتوكل هي لغط القوم وأصواتهم . وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : حبال الصيادين . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : هي الأسد ، وهو قول عطاء والكلبي ، وذلك أن الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك هؤلاء المشركون إذا سمعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن هربوا ، وعن عكرمة رضي الله عنه ظلمة الليل ويقال لسواد الليل قسورة ، وفي تشبيههم بالحمر مذمّة ظاهرة وتهجين لحالهم بين كما في قوله تعالى ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ (الجمعة :)

شهادة عليهم بالبله وقلة العقل .

ولما كان الجواب قطعاً لا شيء لهم في إعراضهم هذا أضرب عنه بقوله تعالى : ﴿ بل يريد ﴾ أي : على دعواهم في زعمهم ﴿كل امرئ منهم ﴾ أي : المعرضين من ادّعائة الكمال في المروءة ﴿أن يؤتى ﴾ أي : من السماء ﴿ صحفاً ﴾ أي : قراطيس مكتوبة ﴿ منشرة ﴾ أي : مفتوحة ، وذلك أنّ أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه : من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك ونظيره ﴿ لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ (الإسراء :) وعن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يقولون : إن كان محمد صادقاً ليصبح عند رأس كل واحد منا صحيفة فيها براءته من النار . وقال الكلبي رضي الله عنه : إن المشركين قالوا :

يا محمد بلغنا أنّ الرجل من بني إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه وكفارته فائتنا بمثل ذلك . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه ، فما لنا لا نرى ذلك . قال البغوي : والصحف جمع الصحيفة ومنشرة منشورة .

(353/791)

قال الله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا يؤتون الصحف . وقيل : حقاً قال البغوي : وكل ما ورد عليك منه فهذا وجهه . قال ابن عادل : والأول أجود لأنه ردّ لقولهم . ثم بين تعالى سبب إعراضهم بقوله تعالى : ﴿ بل لا يخافون ﴾ أي : في زمن من الأزمان ﴿ الآخرة ﴾ فهذا هو السبب في إعراضهم .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ استفتاح قاله الجلال المحلي .

وقال البيضاوي : ردع عن إعراضهم . وقال البغوي وتبعه ابن عادل : حقاً ﴿ إنه ﴾ أي : القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي : عظيمة توجب إيجاباً عظيماً اتباعه وعدم الانفكاك عنه بوجه ، فليس لأحد أن يقول : أنا مغرور لم أجد مذكراً ولا معرّفاً فإنّ عنده أعظم مذكر وأشرف معرّف .

﴿ فمن شاء ﴾ أي : أن يذكره ﴿ ذكره ﴾ أي : اتعظ به وجعله نصب عينيه وعلم معناه

وتخلق به فمن فعل ذلك سهل عليه لفظه وبعض معانيه فإنه كالبحر الفرات فمن شاء اغترف .

﴿ وما يذكرون ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ذكرهم أو مشيئتهم كقوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ (الإنسان :)

وهو تصريح بأنّ فعل العبد بمشيئة الله تعالى . وقرأ نافع بتاء الخطاب وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب والباقون بياء الغيبة حملاً على ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ كل امرئ ﴾ .

(354/791)

﴿ هو ﴾ أي : الله سبحانه وتعالى وحده ﴿ أهل التقوى ﴾ أي : أن يتقيه عباده ويحذروا غضبه بكل ما تصل قدرهم إليه لما له من الجلال والعظمة والقهر . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة وأبو عمرو بين بين ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي : وحقيق أن يطلب غفرانه للذنوب لا سيما إذا اتقاه المذنب ؛ لأنّ له الجمال واللطف وهو القادر ولا قدرة لغيره فلا ينفعه شيء ولا يضرّه روى الترمذي وأحمد والحاكم عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ يقول

الله تعالى : "أنا أهل أن أتقى فمن اتقى أن يشرك بي غيري فأنا أهل أن أغفر له" ووقف الكسائي على ﴿ أهل المغفرة ﴾ بالإمالة على أصله وورش بترقيق الراء وقفاً ووصلاً على أصله .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة المدثر أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 161.182 ﴾

(355/791)

وقال القاسمي :

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾

أي : المتلفِّف بثيابه لنوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذي يلي الجسد . وأصله : المتدثر ، فأدغم ، خوطب بذلك لحالته التي كان عليها وقت نزول الوحي . أو لقوله : < دثروني > كما تقدم - وقيل : معناه المدثر

بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلي بها والمتزين ، كما أن اللباس الذي فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى حلّة . والتشبيه بالدثار في ظهورها ، أو في الإحاطة . والأول أتم .

﴿ قَمْ ﴾ أي : من مضجعك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ أي : فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ لأنه كان في ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ قال ابن جرير : أي : فعظِّم بعبادته ، والرغبة إليه في حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشاني : أي : إن كنت تكبر شيئاً وتعظِّم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير ، لا يعظم في عينك غيره ، ويصغر في قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره أن يتطهر ويطهِّر ثيابه . وقيل : هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام . قال قتادة : العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا :

مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أي : لا تلبسهما على معصية ، ولا على غدرِة . ثم أنشد لغيلان ابن سلمة الثقفي :

(356/791)

~وإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبستُ ولا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وفي الوجه الأول بقاء لفظي الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفي الثاني تجوّز بهما . وبقي وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه ، وهو التبصير ؛ لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرّون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس هذا ، وذلك بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنترة :

~فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابَه

أي : نفسه . ولذا قال :

~ليس الكريم على القنا بِمُحَرَّمِ

واستصوب ابن الأثير في " المثل السائر " الوجه الأول . قال في الفصل الثالث من فصول يلبس : اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر

إلى دليل ، كقوله تعالى :

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا الملبوس ، وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ؛ إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون في هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه :

~إن السيوفَ مع الذين قلوبهم كقلوبهن ، إذا التقى الجَمعان

~تلقى الحسامَ على جراءَة حدَّه مثَل الجبان بكفِّ كل جبانِ

انتهى .

ويكفي دليلاً ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر في الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أي : اتركه . والرجز بكسر الراء كالرجس والسين والزاي يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير . والرجس اسم للقبيح المستقذر ، كنِّي به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الحج : 30] ، أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق والجملة من جوامع الكلم في مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهجر الجفا والسَّفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر ما يؤدي إليه من الشرك والمعاصي . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سببه . أو هو بتقدير مضاف ، أي : أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرئ بضم الراء ، وهو لغة في المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك ، وهو بريء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره .

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي : لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أي : أعطيته . كما قال :

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص : 39] ، أي : فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منَّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوّز القَفَّال أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العِوض كيف كان زائداً على العطاء . فسمي طلب الثواب

استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربي ولدها ، فسمي الولد ربيباً . ثم اتسع الأمر فسمي ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض ، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالاً وعلوّ همة .

(358/791)

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسين للعد والوجدان . وسبق في سورة الروم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ [الروم : 39] ، كلام في هذه الآية أيضاً فارجع إليه .

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي : على أذى المشركين .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ أي : نفخ في الصور . والناقور من النَّقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به ، أي : لما كان الصوت يحدث بالقرع تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه من الصوت .

﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي : شديد .

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي : هيّن ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفي قوله :

﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ أي : لا مال له ولا ولد .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ أي : مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

﴿ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أي : رجالاً يشهدون معه المحافل والمجامع ، أو حضوراً معه يأنس بهم ، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ أي : بسطت له في العيش والجاه والرياسة .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أي : من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخرويّ . وهذا أظهر لقوله :

﴿ كَلاَّ ﴾ أي : لا يكون ما يأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون ، لا هو ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ أي : معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

(359/791)

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ أي : سأغشيه عَقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق ، قاله الزمخشري .

قال الشهاب : ومعنى كونه مثلاً ، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ أي : ماذا يقول في هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أي : في نفسه ما يقوله وهيأه .

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أي : لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلق ما يكذبه وجدانه فيه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تكرير للمبالغة في التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و﴿ ثَمَّ ﴾ للدلالة على الثانية أبلغ في التعجب من الأولى للعطف بـ ﴿ ثَمَّ ﴾ الدالة على تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده ؛ لذا ساغ العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشريّ في هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجيباً من تقديره وإصابته فيه المحزّ ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش ، أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو

حكاية لما ذكره من قولهم :

﴿ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي : في ذلك المقدّر ، أي : تروّى فيه . قال الرازيّ : وهذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي : في وجوه القوم .

(360/791)

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أي : قطّب وجهه كبراً وتهيؤاً لقذف تلك الكبيرة ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي : كلح وجهه . شأن اللئيم في مراوغته ومخاتلته ، والحسود في آثار حقده على صفحات وجهه .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي : عن الحق ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أي : عن الإيمان به .

﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي : ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويُتعلم . أي : يأثره عن غيره .

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي : ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

(361/791)

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره ما رواه ابن إسحاق أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ! فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، واللهِ ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهّان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنَقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قال : ما هو بساحر . لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم

. قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ! إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقّوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمرّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى في الوليد ابن المغيرة ، وفي ذلك ، من قوله :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ الآيات .

(362/791)

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلوا وما يُعلى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات ، رواه ابن جرير .

وثم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبي عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر في "الإصابة" : والصواب خالد وهشام والوليد .

فأما عمارة ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشاً بعثوه للنجاشيّ ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن < دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم من قريش > لمَّا وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلي .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي : جهنم . وهو بدل من ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ بدل اشتمال ، لاشتمال ﴿ سَقَرُ ﴾ على الشدائد

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ قال الزمخشريّ : أي : لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقي على شيء ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي : محرقة للجلود ، من لوحته الشمس ، إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . والبَشَر : جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد . أو اسم جنس بمعنى الناس . وجوّز أن يكون المعنى : لائحة للناس ، من لاح بمعنى ظهر ، والبَشَر بمعنى الناس

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي : من الخزنة المتولين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخرويّ ، تفوق زبانية الجبابرة في الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أي : خزنتها ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أي : وهم أقوى الخلق بأساً ، وأشدهم غضباً لله ، ليباينوا جنس المعذبين ، فلا يستروحون لهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : من مشركي قريش . أي : إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائي : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّي هؤلاء التسعة عشر على مالا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبيّ : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي : رسالة النبيّ صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ ﴿ جَعَلْنَا ﴾ الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم في نفس الأمر على هذا العدد ، معللاً باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشيء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدهما : جعل الشيء متصفاً بصفة في نفس الأمر .

وثانيهما : الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أي : وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عدداً يقتضي فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب . . . . إلخ ، أي : وقلنا ذلك وأخبرنا به لاستيقان . . . إلخ . وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمشاكلة قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ إلخ ، هذا ما قرّره شرّاح القاضي .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ أي : تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ أي : حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر .

(364/791)

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض ، وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة : ماذا أراد الله بهذا مثلاً . وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازيّ : إن قيل : لم سموه مثلاً ؟ فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مراداً لله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشيء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق .

﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ أي : هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال الزمخشريّ : أي : وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً ، أي : أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال في تنزيله ، وإلا فلا يعلم جنوده التي يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر لم أقف الآن على من نبه عليه ، ويؤيده قوله :

﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي : عدتهم المذكورة ﴿ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ أي : عظة يرهبون منها عذاب النار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ ﴿ سَقَرَ ﴾ وقيل : للآيات . والأقرب عندي هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأييده لما قبله بالمعنى الذي ذكرناه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، ﴿ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي : ولَّى ذاهباً بطلوع الفجر .

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي : أضاء . ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها ، والاستدلال بآياتها ، كما تقدم في سورة الصافات .

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أي : الأمور العظام .

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ أي : إنذاراً لهم ، فنصبه على أنه تمييز عن إحدى ؛ لما تضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً . فـ ﴿ نَذِيراً ﴾ بمعنى الإنذار ، كنكير بمعنى الإنكار . أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة . أي : كبرت منذرة ، فـ ﴿ نَذِيراً ﴾ مصدر مؤول بالوصف ، أو وصف بمعنى منذرة .

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ أي : يسبق إلى الإيمان والطاعة ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي : يتخلف . و ﴿ لِمَنْ ﴾ بدل من ﴿ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي : منذرة لمن شاؤوا التقدم والفوز ، أو التأخر والهلاك . أو خبر مقدم ، و ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضأ أن يصلي ، كآية ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 39] ، وفي الثاني بُعْدٌ وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أي : مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى : ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ أي : فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق,

(366/791)

﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أي : هم في جنات لا يدرك وصفها ﴿ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير ، ومنه دعوته وتداعيناه .

وقال القاشاني : أي : يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها ، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم في سقر ، فأجاب المسؤولون بأنا سألناهم عن حالهم بقولنا : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ أي : بلسان الحال أو المقال .

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *و كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحات البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية ، والخوض في الباطل ، والهزء والهذيان ، والتكذيب بالجزاء ، وإنكار المعاد .

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أي : الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أي : من نبيّ أو ملك ، لو قدر على سبيل فرض المحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن في الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير : أي : فما يشفع لهم الذين شفعهم الله في أهل الذنوب من أهل التوحيد ، فتنفعهم شفاعتهم . وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذِكره ، مشفِّع بعض خلقه في بعض .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعظوا ويعتبروا .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ أي : كأنهم في الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة النفار

﴿ فَرَّتْ مِن قَسورة ﴾ أي : أسد ، أو عصبة قنص من الرماة .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ أي : ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحوه آية : ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ ﴾ [الأنعام : 124] ، وآية ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : 93] ، وآية ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 7] الآية .

﴿ كَلاَّ ﴾ أي : لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهوائهم . أو ليس إرادتهم تلك للرغبة في الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال :

﴿ بَل لاَّ يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أي : لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ، لإيثارهم العاجلة . أي : فذلك الذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان بتنزيله .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إعراضهم ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي : فاتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ أي : ذكرهم واتعاظهم ، لأنه لا حول لهم ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ، مما كان يخامره من إعراضهم ، ويحرص عليه من إيمانهم ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ أي : حقيقٌ بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع .

﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أي : حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 263.274 ﴾

(368/791)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المدثر

الدرس الأول: 1 – 7 توجيهات للرسول المدثر

(يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) . .

إنه النداء العلوي الجليل , للأمر العظيم الثقيل . . نذارة هذه البشرية وإيقاظها , وتخليصها من الشر في الدنيا , ومن النار في الآخرة ; وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان . . وهو واجب ثقيل شاق , حين يناط بفرد من البشر – مهما يكن نبيا رسولا – فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والإلتواء والتفصي من هذا الأمر , بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود !

(يا أيها المدثر . قم فأنذر) . . والإنذار هو أظهر ما في الرسالة , فهو تنبيه للخطر القريب

الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد , وهم لا ينقصون في ملكه شيئا حين يضلون , ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة , ومن الشر الموبق في الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره:

يوجهه إلى تكبير ربه:(وربك فكبر) . . ربك وحده . . فهو وحده الكبير , الذي يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانبا من التصور الإيماني لمعنى الألوهية , ومعنى التوحيد . إن كل أحد , وكل شيء , وكل قيمة , وكل حقيقة . . صغير . . والله وحده هو الكبير . . وتتوارى الأجرام والأحجام , والقوى والقيم , والأحداث والأحوال , والمعاني والأشكال ; وتنمحي في ظلال الجلال والكمال , لله الواحد الكبير المتعال .

(369/791)

وهو توجيه للرسول (صلى الله عليه وسلم) ليواجه نذارة البشرية , ومتاعبها وأهوالها وأثقالها , بهذا التصور , وبهذا الشعور , فيستصغر كل كيد , وكل قوة , وكل عقبة , وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة , هو الكبير . . ومشاق الدعوة وأهوالها في

حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

ويوجهه إلى التطهر: (وثيابك فطهر) . . وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل . . طهارة الذات التي تحتويها الثياب , وكل ما يلم بها أو يمسها . . والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلى . كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة . وهي بعد هذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ , ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ; وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب , تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث , وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس . . وهي لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط , وشتى البيئات , وشتى الظروف , وشتى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب: (والرجز فاهجر) . . والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة . فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف , وهذا الركام من المعتقدات الشائهة , وذلك الرجس من الأخلاق والعادات , فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية . ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان

. كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز - والرجز في الأصل هو العذاب , ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب - تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

(370/791)

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد , أو استكثاره واستعظامه:(ولا تمنن تستكثر) . . وهو سيقدم الكثير , وسيبذل الكثير , وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به . . وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ; شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه , وعطاء يختارها له , ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المن والاستكثار .

ويوجهه أخيرا إلى الصبر . الصبر لربه:(ولربك فاصبر) . . وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت . والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ; ومع

أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله , ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده .

الدرس الثاني: 8 – 10 الناقور والصور وصعوبته على الكفار

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم , اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين , في لمسة توقظ الحس لليوم العسير , الذي ينذر بمقدمه النذير:

(فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير) . .

(371/791)

والنقر في الناقور , هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور . ولكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه ; كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعا من الصوت الذي تسمعه الآذان . . ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين , ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه: (على الكافرين غير يسير) . . فهو عسر كله . عسر لا يتخلله يسر . ولا يفصل أمر هذا العسر , بل يدعه مجملا مجهلا يوحي بالاختناق والكرب والضيق . . فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير , قبل أن ينقر في

الناقور , فيواجههم هذا اليوم العسير العسير !

الدرس الثالث: 11 - 30 ملامح كافر وشبهاته حول القرآن وتهديده بالعذاب

وينتقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين ; يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص فيالتكذيب والتبييت للدعوة ; فيوجه إليه تهديدا ساحقا ماحقا , ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات:

(ذرني ومن خلقت وحيدا , وجعلت له مالا ممدودا , وبنين شهودا , ومهدت له تمهيدا , ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ? ثم قتل ! كيف قدر ? ثم نظر , ثم عبس وبسر , ثم أدبر واستكبر , فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ? لا تبقي ولا تذر , لواحة للبشر , عليها تسعة عشر . . .) . .

(372/791)

وقد وردت روايات متعددة بأن المعني هنا هو الوليد بن المغيرة المخزومي . قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى , حدثنا محمد بن ثورة , عن معمر , عن عبادة بن منصور ,

عن عكرمة , أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقرأ عليه القرآن , فكأنه رق له , فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام , فأتاه فقال له:أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا:قال:لم ؟ قال:يعطونكه , فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله [يريد بخبث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازا] قال:قد علمت قريش أني أكثرها مالا ! قال:فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال , وأنك كاره له ! قال:فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده , ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة , وإنه ليحطم ما تحته , وإنه ليعلو وما يعلى . . قال:والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال:فدعني حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال:إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيدا – حتى بلغ – عليها تسعة عشر .

وفي رواية أخرى أن قريشا قالت:لئن صبأ الوليد , لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل:أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه ! . . وأنه قال بعد التفكير الطويل:إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟

هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة . . يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب .

(ذرني ومن خلقت وحيدا) . .

والخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعناه خل بيني وبين هذا الذي خلقته وحيدا مجردا من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده . فأنا سأتولى حربه . . وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل ; وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها . . قوة الجبار القهار . . لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعشة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه !

ويطيل النص في وصف حال هذا المخلوق , وما آتاه الله من نعمه وآلائه , قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيدا مجردا من كل شيء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيرا ممدودا . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهودا , فهو منهم في أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيدا ويسرها له تيسيرا . . (ثم يطمع أن أزيد) . . فهو لا يقنع بما أوتي , ولا يشكر ويكتفي . . أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتابا كما سيجيء في آخر السورة: (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) . . فقد كان ممن يحسدون

الرسول(صلى الله عليه وسلم) على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكرا لله يرجو بسببه المزيد :

(كلا !) , وهي كلمة ردع وتبكيت - (إنه كان لآياتنا عنيدا) . . فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان . ووقف في وجه الدعوة , وحارب رسولها , وصد عنها نفسه وغيره , وأطلق حواليها الأضاليل .

ويعقب على الردع بالوعيد الذي يبذل اليسر عسرا , والتمهيد مشقة !

(سأرهقه صعودا) . .

(374/791)

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقا . فإذا كان دفعا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقا . وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة . فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود , يندب في طريق وعر شاق مبتوت ; ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق , كأنما يصعد في السماء , أو يصعد في وعر صلد لا ري فيه ولا زاد , ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه !

ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته . . كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن ,

وليجد قولا يقوله فيه:

(إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر .

ثم أدبر واستكبر . فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) . .

لمحة لمحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير , كما لو كانت ريشة تصور , لا

كلمات تعبر , بل كما لو كانت فيلما متحركا يلتقط المشهد لمحة لمحة ! ! !

لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء (فقتل !) واستنكار كله استهزاء (كيف قدر

؟) ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار .

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء

.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا , ويقبض ملامح وجهه باسرا , ليستجمع فكره في هيئة

مضحكة !

وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لا يفتح عليه بشيء . . إنما يدبر عن النور

ويستكبر عن الحق . . فيقول: (إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) !

إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة ; وأجمل مما

يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار ! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر , وتثبت صورته الزرية في صلب الوجود , تتملاها الأجيال بعد الأجيال !

(375/791)

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك , عقب عليها بالوعيد المفزع:

(سأصليه سقر) . . وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجهيل سقر: (وما أدراك ما سقر ؟) . . إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولا: (لا تبقي ولا تذر) . . فهي تكنس كنسا , وتبلع بلعا , وتمحو محوا , فلا يقف لها شيء , ولا يبقى وراءها شيء , ولا يفضل منها شيء !

ثم هي تتعرض للبشر وتلوح: (لواحة للبشر) . . كما قال في سورة المعارج: (تدعوا من أدبر وتولى) . . فهي تدل على نفسها , وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس , بمنظرها المخيف !

ويقوم عليها حراس عدتهم: (تسعة عشر) . . لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد , أم صفوفا أم أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندري شأنه فيما

يجيء . .

الدرس الرابع: 31 اختلاف نظرة المؤمنين والكفار للكلام عن النار

فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه , وتأدب معه أدب العبد مع الرب فلم يعد يماري في خبره وقوله . وأما المشركون فتلقفوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان , عارية من التوقير لله , خالية من الجد في تلقي هذا الأمر العظيم . وراحوا يتهكمون عليه ويسخرون منه , ويتخذونه موضعا للتندر والمزاح . . . قال قائل منهم: أليس يتكفل كل عشرة منكم بواحد من هؤلاء التسعة عشر ! ? وقال قائل: لا بل اكفوني أنتم أمر اثنين منهم وعلي الباقي أنا أكفيكموهم ! وبمثل هذه الروح المطموسة المغلقة الفاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله في الكشف عن هذا الجانب من الغيب , وذكر هذا العدد , وترد علم الغيب إلى الله , وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهي الموقف إليها :

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا , ليستيقن الذين أوتوا الكتاب , ويزداد الذين آمنوا إيمانا , ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون , وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلا ? كذلك يضل الله من يشاء , ويهدي من يشاء , وما يعلم جنود ربك إلا هو , وما هي إلا ذكرى للبشر) . . .

تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون:

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) . .

فهم من ذلك الخلق المغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ; وقد قال لنا عنهم: إنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله , وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر , فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة , كما يعلمها الله , فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور .

(وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) . .

فهم الذين يثير ذكر العدد في قلوبهم رغبة الجدل ; ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله , وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل , فإذا أخبر الله عنه خبرا فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة , وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم , والاطمئنان إلى أن الخير في ذكر هذا الطرف وحده , بالقدر الذي ذكره , وأن لا مجال للجدل فيه , فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغايره . أما لماذا كانوا تسعة عشر [أيا كان مدلول هذا العدد] فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله , ويخلق كل شيء بقدر . وهذا العدد كغيره من الأعداد . والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض . . لماذا كانت السماوات سبعا ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب: لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور . .

(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب , ويزداد الذين آمنوا إيمانا , ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) . .

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى

ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئا عن هذه الحقيقة , فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيمانا . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقيا مباشرا ; وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنسا بالله . . وستشعر قلوبهم بحكمة الله في هذا العدد , وتقديره الدقيق في الخلق , فتزيد قلوبهم إيمانا . وتثبت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

(378/791)

(وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟) . .

وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة . . فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون , والذين آمنوا يزيدون إيمانا , إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون: (ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟) . . فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق . ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . .

(كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) . .

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات . فتتلقاها القلوب المختلفة تلقيا مختلفا . ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله ; ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج للهدى وللضلال ; فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج , ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك , في حدود المشيئة الطليقة , ووفق حكمة الله المكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصورا كاملا واسع المدلول , يعفي العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه الجبر والإرادة . وهو الجدل الذي لا ينتهي إلى تصور صحيح , بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة , ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة ! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة !

(379/791)

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجا نسلكه فنهتدي ونسعد ونفوز . وبين لنا نهوجا ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر . ولم يكلفنا أن نعلم

وراء ذلك شيئا , ولم يهبنا القدرة على علم شيء وراء هذا . وقال لنا :إن إرادتي مطلقة وإن مشيئتي نافذة . . فعلينا أن نعالج – بقدر طاقتنا – تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة . وأن نلتزم النهج الهادئ ونتجنب النهوج المضللة . ولا ننشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فنرى كل ما أنفقه المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهدا ضائعا لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه . .

إننا لا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا , ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا , وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذي سيكون هو مشيئته , وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه ! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق . . وهو الله وحده . . وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكر . .

(وما يعلم جنود ربك إلا هو) . .

فهي غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها . . وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها , وقوله هو الفصلفي شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه , فليس إلى معرفة هذا من سبيل . .

(وما هي إلا ذكرى للبشر) . .

(وهي)إما أن تكون هي جنود ربك , وإما أن تكون هي سقر ومن عليها . وهي من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ; لا لتكون موضوعا للجدل والمماحكة ! والقلوب المؤمنة هي التي تتعظ بالذكرى , فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلا !

الدرس الخامس: 32 - 36 القسم على حقيقة الرسالة والدعوة

(380/791)

ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب , ولمناهج التصور الهادية والمضللة . . يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة , وحقيقة سقر , وحقيقة جنود ربك , بظواهر الوجود المشهودة في هذا العالم , والتي يمر عليها البشر غافلين , وهي تشي بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها , وتوحي بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصدا وغاية , وحسابا وجزاء:

كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لأحدى الكبر . نذيرا للبشر . . ومشاهد القمر , والليل حين يدبر , والصبح حين يسفر . . مشاهد موحية بذاتها , تقول للقلب البشري أشياء كثيرة ; وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة ; وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار في

القلوب التي يخاطبها , على خبرة بمداخلها ودروبها !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسري وحين يغيب . . ثم لا يعي عن القمر شيئًا يهمس له به من أسرار هذا الوجود ! وإن وقفة في نور القمر أحيانا لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره , في تلك الهدأة التي تسبق الشروق , وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق . . ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدب في أعماقه خطرات رفافة وشفافة .

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره , ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعوري من حال إلى حال , يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يشرق في النواظر .

والله الذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض الأحايين , وكأنها تخلقه من جديد .

(381/791)

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات ما في القمر , وما في الليل , وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك , وينبه إليها العقول . ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة , والتنسيق الإلهي لهذا الكون , بتلك الدقة التي يحير تصورها العقول .

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة , ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن(سقر)أو الجنود التي عليها , أو الآخرة وما فيها , هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر:

إنها لأحدى الكبر , نذيرا للبشر . .

والقسم ذاته , ومحتوياته , والمقسم عليه بهذه الصورة . . كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ,وتتسق مع النقر في الناقور , وما يتركه من صدى في الشعور . ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ:(يا أيها المدثر)والأمر بالنذارة:(قم فأنذر) . . فالجو كله نقر وطرق وخطر ! !

الدرس السادس: 37 – 48 إعتراف المجرمين بأسباب دخولهم سقر

وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ; ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ; ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها , مرهونة بأعمالها وأوزارها:

(لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة) . .

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها , ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها , يتقدم بها أو يتأخر , ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب , مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقة لتسلك إليه على بصيرة , وهو إعلان في مواجهة المشاهد الكونية الموحية , ومشاهد سقر التي لا تبقي ولا تذر . . له وقعه وله قيمته !

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت , المقيدة بما فعلت , يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال , وإرسالهم من القيد , وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير:

(382/791)

(إلا أصحاب اليمين , في جنات يتساءلون عن المجرمين: ما سلككم في سقر ؟ قالوا: لم نك من المصلين , ولم نك نطعم المسكين , وكنا نخوض مع الخائضين , وكنا نكذب بيوم الدين , حتى أتانا اليقين) . .

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة .

يلمس قلوب المجرمين المكذبين , وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين , الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف , بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا , ولا يبالونهم , في موقف الكرامة والاستعلاء , يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف: (ما سلككم في سقر ؟) . . ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض , وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر , يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين:

(قالوا: لم نك من المصلين) . . وهي كناية عن الإيمان كله , تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة , وتجعلها رمز الإيمان ودليله , يدل إنكارها على الكفر , ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

(ولم نك نطعم المسكين) . . وهذه تلي عدم الإيمان , بوصفها عبادة الله في خلقه , بعد عبادته – سبحانه – في ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها , وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية ,

على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال , مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء .

(383/791)

(وكنا نخوض مع الخائضين) . . وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة , وحقيقة الإيمان , وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان ; وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة , فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة . فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد ? ويخوض فيها مع الخائضين , ويلعب فيها مع اللاعبين ?

(وكنا نكذب بيوم الدين) وهذه أس البلايا . فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين , وتضطرب في تقديره جميع القيم , ويضيق في حسه مجال الحياة , حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ; ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير , فلا يطمئن إلى هذه العواقب , ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير . . ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا , قبل أن يفسد

عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها . . وينتهي من ثم إلى شر مصير .

والمجرمون يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال , لا نصلي , ولا نطعم المسكين , ونخوض مع الخائضين , ونكذب بيوم الدين . .

(حتى أتانا اليقين) . . الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب , ويفصل في الأمر بلا مرد . . ولا يترك مجالا لندم ولا توبة ولا عمل صالح . . بعد اليقين . .

ويعقب السياق على الموقف السيء المهين , بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير:

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) . .

فقد قضي الأمر , وحق القول , وتقرر المصير , الذي يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلا . وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !

الدرس السابع: 49 - 51 صورة ساخرة لرفض الكفار للحق

(384/791)

وأمام هذا الموقف المهين الميئوس منه في الآخرة , يردهم إلى موقفهم في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ; وهم يصدون عنها ويعرضون , بل يفرون من الهدى

والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها , ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب:

(فما لهم عن التذكرة معرضين ? كأنهم حمر مستنفرة , فرت من قسورة ?) . .

ومشهد حمر الوحش وهي مستنفره تفر في كل اتجاه , حين تسمع زئير الأسد وتخشاه . . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر , لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم وبمصيرهم , ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين , وذلك المصير العصيب الأليم ? !

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون , تتملاه النفوس , فتخجل وتستنكف أن تكون فيه , ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل , ويطامنون من الإعراض والنفار , مخافة هذا التصوير الحي العنيف !

الدرس الثامن: 52 – 55 تحليل نفسيات الكفار الرافضة للحق

تلك هيئتهم الخارجية . (حمر مستنفرة , فرت من قسورة) ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل , وما يعتلج فيها من المشاعر:

(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) . .

فهو الحسد للنبي (صلى الله عليه وسلم) أن يختاره الله ويوحي إليه ; والرغبة الملحة أن

ينال كل منهم هذه

من الاية 53 الى الاية 55

كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ (55)

(385/791)

المنزلة , وأن يؤتى صحفا تنشر على الناس وتعلن . . ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله , فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟) . . ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحنق الذي يغلي في الصدور , والذي يكشف عنه القرآن , وهو يعلل ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها , فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد , ويذكر سببا آخر للإعراض والجحود . وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله:

(كلا ! بل لا يخافون الآخرة) . .

وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة , وينفرهم من الدعوة هذه النفرة .

ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب !

ثم يردعهم مرة أخرى , وهو يلقي إليهم بالكلمة الآخيرة , ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير:

(كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره) . .

إنه , هذا القرآن الذي يعرضون عن سماعه , وينفرون كالحمر , وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد , والاستهتار بالآخرة . . إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه , وهو ومصيره , وهو وما يختار من جنة وكرامة , أو من سقر ومهانة . .

الدرس التاسع:56 الهداية بيد الله يهبها لمن يريدها

وبعد أن يثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية , وعودة الأمور إليها في النهاية . وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير , وراء جميع الأحداث والأمور:

(وما يذكرون إلا أن يشاء الله , هو أهل التقوى وأهل المغفرة) . .

فكل ما يقع في هذا الوجود , مشدود إلى المشيئة الكبرى , يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته , ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله , وهي التي أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه , فهو يمضي بكل ما فيه وكل من فيه في إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . فإذا علم من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات .

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه , فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة .

والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة , وإحاطتها بكل مشيئة , حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصا , والاستسلام لها ممحضا . . فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تكييفا خاصا من داخله , وأنشأت فيه تصورا خاصا يحتكم إليه في كل أحداث الحياة . . وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد من الاية 56 الى آخر السورة

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

بجنة أو نار , وبهدى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق , والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار , فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة , والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح .

لأنها لم تجيء في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق !

(وما يذكرون إلا أن يشاء الله) . . فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله , ولا يتحركون في اتجاه , إلا بإرادة من الله , تقدرهم على الحركة والاتجاه .

(387/791)

والله (هو أهل التقوى) . . يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها . .

(وأهل المغفرة) . . يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

والتقوى تستأهل المغفرة , والله – سبحانه – أهل لهما جميعا .

بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة , وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم , أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر , والتوجيه إلى التقوى , والتفضل بالمغفرة .

(هو أهل التقوى وأهل المغفرة) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3754 .

3764 ﴾

(388/791)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) ﴾

الإنذار إعلام بتخويف ، فهو أخص من مطلق الإعلام ، وهو متعد لمفعولين المنذر باسم المفعول والمنذر به ، ولم يذكر هنا واحد منهما .

أما المنضر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : 97] تخويفاً لهم .

وقد يكون للمؤمنين لأنهم المنتفعون به كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [يس : 11] .

وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا ﴾ [يونس : 2] .

وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة .

وقد قدر الأمرين هنا ابن جرير بقوله : فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره .

وقد تقدم للشيرخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، تفصيل ذلك عند قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] في سورة الأعراف .

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)

قد اختلف المفسرون في المراد من كل من لفظتي الثياب ، وفطهر هل هما دلا على الحقيقة ، ويكون المراد طهارة الثوب من النجاسات ؟ أم هما على الكناية ؟

والمراد بالثوب البدن ، والطهارة عن المعنويات من معاصي وآثار ونحوهما أم على الحقيقة والكناية ، فقد ذكر ابن جرير وغيره نحواً من خمسة أقوال :

الأول عن ابن عباس وعكرمة والضحاك أن معناه : لا تبلس ثيابك على معصية ولا على غدرة ، واستشهد بقول غيلان :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست . . . ولا من عذرة أتقنع

وقول الآخر :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه . . . فكل رداء يرتديه جميل

فاستعمل اللفظين في الكناية ، وقد يستدل له بقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح : 2] .

وورد عن ابن عباس : لا تلبس ثيابك من كسب غير طيب ، فاستعمل الثياب في الحقيقة والتطهير في الكناية .

وعن مجاهد : أصلح عملك ، وعملك فاصلح فاستعملهما معاً في الكناية عن العمل الصالح .

وعن محمد بن سيرين وابن زيد على حقيقتهما ، فطهر ثيابك من النجاسة .

ثم قال : والذي قاله ابن سيرين وابن زيد أظهر في ذلك .

وقول ابن عباس وعكرمة قول عليه أكثر السلف . والله أعلم بمراده .

وقال غيره : ثيابك هي نساؤك ، كما في قوله ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 187] فأمرهن بالتطهر وتخيرهن طاهرات خيرات .

هذه أقوال المفسرين واختيار ابن جرير منها ، والواقع في السياق ما يشهد لاختيار ابن جرير ، وهو حمل اللفظين على حقيقتهما .

وترجيح قول ابن سيرين أن المراد طهارة الثوب من النجاسة ، والقرينة في الآية أنها اشتملت على أمرين :

الأول : طهارة الثوب ، والثاني هجر الرجز .

ومن معاني الرجز المعاصي ، فيكون حمل طهارة الثوب على حقيقته ، وهو الرجز على حقيقته لمعنى جديد أولى .

وهذه الآية بقسميها جاء نظيرها بقسميها أصرح من ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان ﴾ [الأنفال : 11] والله تعالى أعلم .

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

الناقور هو الصور ، وأصل الناقور الصوت ، وقوله : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .

وقيل : عسير وغير يسير على الكافرين .

وقال الزمخشري : إن غير يسير كان يكفي عنها يوم عسير ، إلا أنه ليبين لهم أن عسره لا يرجى تيسيره ، كعسر الدنيا ، وأن فيه زيادة وعيد للكافرين .

(390/791)

ونوع بشارة للمؤمنين لسهولته عيهم ، ولعل المعنيين مستقلان ، وأن قوله تعالى : ﴿ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ هذا كلام مستقل وصف لهذا اليوم ، وبيان للجميع شدة هوله ، كام جاء في وصفه في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 1 – 2] ، ومثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس : 34 – 35] ونحو ذلك .

ثم بين تعالى أن اليوم العسير أنه على الكفارين غير يسير ، كما قال تعالى عنهم ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 17 – 18] بينما يكون على المؤمنين يسيراً ، مع أنه عسير في ذاته لشدة هوله ، إلا أن الله ييسره على المؤمنين ، كما بين تعالى هذه الصور بجانبها في قوله تعالى من سورة النمل :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 87 – 88] – إلى قوله – ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 89 – 90] .

فالفزع من صعقة يوم ينفخ في الصور عام لجميع من في السماوات ومن في الأرض ، ولكن

استثنى الله من شاء ، ثم بين تعالى هؤلاء المستثنين ومن يبقى في الفزع ، فبين الآمنين وهم من جاء بالحسنة ، والآخرون من جاء بالسيئة .

(391/791)

في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

حكى القرطبي في معنى الفتنة هنا معنيين :

الأول : التحريق كما في قوله : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] .

والثاني : الابتلاء . وقد تقدم للشيخ مراراً في كتابه ودروسه ، أن أصل الفتنة الاختبار .

تقول : اختبرت الذهب إذا أدخلته النار لتعرف زيفه من خالصه .

ولكن السياق يدل على الثانين وهو الاختبار والابتلاء لقوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي عددهم ، فلو كان المراد التحريق والوعيد بالنار ، لما كان مجال لتساؤل الذين في قلوبهم مرض والكافرين عن هذا المثل ولما كان يصلح أن يجعل مثلاً ، ولما كان الحديث عن عدد جنود : ربك بجال ، وفي هذه الآية الكريمة عدة مسائل هامة .

الأولى : جعل المثل المذكور ، أي جعل العدد المعين فتنة لتوجه السؤال أو مقابلته بالإذعان ، فقد تساءل المستبعدون واستسلم وأذعن المؤمنون ، كما ذكر تعالى في صريح قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ﴾ [البقرة : 26] .

ثم بين تعالى الغرض من ذلك طبق ما جاء في الآية هنا ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [البقرة : 26] ، فهذه الآية من سورة البقرة مبينة تماماً لآية المدثر .

(392/791)

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ أن هذا مطابق لما عندهم في التوراة ، وهذا مما يشهد لقومهم على صدق ما يأتي به النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وما ادعاه لإيمانهم وتصديقهم .

وقد ذكر القرطبي حديثاً في ذلك واستغربه ، ولكن النص يشهد لذلك .

المسألة الثالثة : أن المؤمن كلما جاءه أمر عن الله وصدقه ، ولو لم يعلم حقيقته اكتفاء بأنه من الله ، ازداد بهذا التصديق إيماناً وهي مسألة ازدياد الإيمان بالطاعة والتصديق .

المسألة الرابعة : بيان أن الواجب على المؤمن المبادر بالتصديق والانقياد ، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناء على أن الخبر من الله تعالى ، وهو أعلم بما رواه .

وفي هذه المسألة مثار نقاش حكمة التشريع ، وهذا أمر واسع ، ولكن المهم عندنا هنا ونحن في عصر الماديات وتقدم المخترعات وظهور كثير من علامات الاستفهام عند كثير من آيات الأحكام ، فإنا نود أن نقول :

إن كل ما صح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه ، علمنا الحكمة أو لم نعلم . لأن علمنا قاصر وفهمنا محدود والعليم الحكيم الرَّؤوف الرَّحيم سبحانه لا يكلِّف باده إلا بما فيه الحكمة .

ومجمل القول إن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة في أقسام ثلاثة :

القسم الأول : حكم تظهر حكمته بنص كما في وجوب الصلاة ، جاء إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ، وهذه حكمة جليلة والزكاة جاء عنها أنها تطهرهم وتزكيهم .

وفي الصوم جاء فيه : لعلكم تتقون .

وفي الحج جاء : لعلكم تتقون .

وفي الحج جاء فيه : ليشهدوا منافع لهم . فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية .

وفي الممنوعات كما قالوا في الضروريات الست ، حفظ الدين ، والعقل ، والدم ، والعرض ،

والنسب ، والمال لقيام الحياة ووفرة الأمن ، وصيانة المجتمع ، وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك .

(393/791)

وقسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور ، ولكنه لم يخل من حكمة ، كالطواف ، والسعي ، والركوع ، والسجود ، والوضوء ، والتيمم ، والغسل ، ونحو ذلك .

وقسم ابتلاء وامتحان أولاً ، ولحكمة ثانياً ، كتحويل القبلة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : 143] .

وفي التحول عنها حكمة كما في قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة : 150] .

والمسلم في كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد ، كا قال عمر عند استلامه للحجر : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك . فقبله امتثالاً واقتداء بصرف النظر عن ما جاء من أن علياً رضي الله عنه قال له : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع ، فيأتي يوم القيامة وله

لسان وعينان يشهد لمن قبّله ، لأن عمر أقبل عليه لقبيله قبل أن يخبره علي رضي الله عنه .

وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، إذ خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وكلها أعمال لم يعلم لها موسى عليه السلام حكمة ، فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها .

وهكذا نحن اليوم وفي كل يوم ، وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله : ﴿ والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : 7] .

وقد جاء في نهاية الآية الكريمة ما يلزم البشر بالعجز ويدفعهم إلى التسليم في قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

فكذلك بقية الأمور من الله تعالى هو أعلم بها . والعلم عند الله تعالى .

(394/791)

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47)

في هذه الآية الكريمة أن أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين ، وسبب دخولهم النار ، وكان الجواب أنهم لم يكونوا من المصلين ولم يكونوا يطعموا المسكين ، وكانوا يخضون مع

الخائضين . وكانوا يكذبون بيوم الدين ، فجمعوا بين الكفر بتكذيبهم بيوم الدين وبين الفروع ، وهي ترك الصلاة والزكاة المعبر عنها بإطعام المسكين إلى آخره فهذه الآية ما الأدلة على أن الكافر مطالب بفروع الشرع مع أصوله .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مناقشة هذه المسألة عند قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت : 6 - 7] في سورة فصلت .

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين ، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم .

وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم الله ، وقد دلت نصوص على كلا الأمرين ، فمن عدم الشفاعة للكفار قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ المجرمون فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ [الشعراء : 99 - 100] ونحو ذلك من الآيات .

وفي القسم الثاني قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [طه : 109] .

ومبحث الشفاعة واسع مقرر في كتب العقائد .

وخلاصة القول فيها أنها لا تكون إلا بإذن من الله المأذون له فيها ، وقد ثبت للنَّبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود ، وعدة شفاعات بعدها منها ما اختص به صلى الله عليه وسلم كالشفاعة العظمى ودخو الجنة والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه ، ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء ، والله تعالى أعلم .

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49)

في هذه الآية تشبيه المدعوين في إعراضهم عن الدعوة والتذكرة بالحمر الفارة من الصيادين أو الأسد ، وقد شبه أيضاً العالم غير المنتفع بعلمه بالحمار يحمل أسفاراً ، فهما تشبيهان

بالداعي والمدعو إذا لم تنفعه الدعوة ، وتقدم للشيخ في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(396/791)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : " لَا تُعْطِ عَطِيَّةً لِتُعْطَى أَكْثَرَ مِنْهَا " .

وَقَالَ الْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : " لَا تَمْنُنْ حَسَنَاتِك عَلَى اللَّهِ مُسْتَكْثِرًا لَهَا فَيُنْقِصَك ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ " .

وَقَالَ آخَرُونَ : " لَا تَمْنُنْ بِمَا أَعْطَاك اللَّهُ مِنْ النُّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ مُسْتَكْثِرًا بِهِ الْأَجْرَ مِنْ النَّاسِ " .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا : " لَا تَضْعُفْ فِي عَمَلِك مُسْتَكْثِرًا لِطَاعَتِك " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا يَحْتَمِلُهَا اللَّفْظُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهَا مُرَادًا بِهِ ، فَالْوَجْهُ حَمْلُهُ عَلَى الْعُمُومِ فِي سَائِرِ وُجُوهِ الِاحْتِمَالِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى وُجُوب تَطْهِيرِ الثِّيَاب مِنْ النَّجَاسَاتِ لِلصَّلَاةِ ، وَأَنَّهُ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِي الثَّوْب النَّجِس ؛ لِأَنَّ تَطْهِيرَهَا لَا يَجِبُ إلَّا لِلصَّلَاةِ .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ رَأَى عَمَّارًا يَغْسِلُ ثَوْبَهُ ، فَقَالَ : مِمَّ تَغْسِلُ ثَوْبَك ؟ فَقَالَ : مِنْ نُخَامَةٍ فَقَالَ : إنَّمَا يُغْسَلُ الثَّوْبُ مِنْ الدَّمِ وَالْبَوْلِ وَالْمَنِيِّ ﴾ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِغَسْلِ الْمَنِيِّ مِنْ الثَّوْبِ إذَا كَانَ رَطْبًا ﴾ .

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ : " عَمَلُك أَصْلِحْهُ " .

(397/791)

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ : ﴿ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ ﴾ مِنْ الْإِثْمِ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : أَمَرَهُ أَنْ لَا يَلْبَسَ ثِيَابَهُ عَلَى عَذِرَةٍ ، وَهَذَا كُلُّهُ مَجَازٌ لَا يَجُوزُ صَرْفُ الْكَلَامِ إلَيْهِ إلَّا بِدَلَالَةٍ ؛ وَاحْتَجَّ هَذَا الرَّجُلُ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْتَاجُ إلَى أَنْ يُؤْمَرَ بِغَسْلِ ثِيَابِهِ مِنْ الْبَوْلِ وَمَا أَشْبَهَهُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا كَلَامٌ شَدِيدُ الِاخْتِلَالِ وَالْفَسَادِ وَالتَّنَاقُضِ ؛ لِأَنَّ فِي الْآيَةِ أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَجْرِ الْأَوْثَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ هَاجِرًا لِلْأَوْثَانِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَبَعْدَهَا وَكَانَ مُجْتَنِبًا لِلْآثَامِ وَالْعَذِرَاتِ فِي الْحَالَيْنِ ، فَإِذَا جَازَ خِطَابُهُ بِتَرْكِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ قَبْلَ ذَلِكَ تَارِكًا لَهَا فَتَطْهِيرُ الثِّيَابِ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ مِثْلُهُ ؛ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ ﴾ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا قَطُّ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَنَاقُضِ قَوْلِ هَذَا الرَّجُلِ

وَفَسَادِهِ .

(398/791)

وَزَعَمَ أَنَّهُ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ الشَّرَائِعِ مِنْ وُضُوءٍ أَوْ صَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا الطَّهَارَةُ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ وَشِرْكِهَا وَالْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ ، وَقَدْ نَقَضَ بِهَذَا مَا ذَكَرَهُ بَدِيًّا مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ إلَى أَنْ يُؤْمَرَ بِتَطْهِيرِ الثِّيَابِ مِنْ النَّجَاسَةِ ، أَفَتَرَاهُ ظَنَّ أَنَّهُ كَانَ يَحْتَاجُ إلَى أَنْ يُوصَى بِتَرْكِ الْأَوْثَانِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ إلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ تَارِكًا لَهَا وَقَدْ أَجَازَ أَنْ يُخَاطَبَ بِتَرْكِهَا ، فَكَذَلِكَ طَهَارَةُ الثَّوْبِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ ، فَمَا فِي ذَلِكَ مِمَّا يَمْنَعُ أَمْرَهُ بِتَطْهِيرِ الثِّيَابِ لِصَلَاةٍ يَفْرِضُهَا عَلَيْهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك

الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

آخِرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(399/791)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

[فِيهَا أَرْبَعُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى الْعَدْلُ فِي الصَّحِيحِ ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : سَأَلْت أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

قُلْت : إنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : سَأَلْت جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ ، وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتَ ، فَقَالَ جَابِرٌ : لَا أُحَدِّثُك إلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ جَاوَرْت بِحِرَاءٍ ، فَلَمَّا

قَضَيْت جِوَارِي هَبَطْت فَنُودِيتُ ، فَنَظَرْت عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، فَرَفَعْت رَأْسِي فَرَأَيْت شَيْئًا ، فَأَتَيْت خَدِيجَةَ ، فَقُلْت : دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا .

قَالَ : فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا ، فَنَزَلَتْ : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّك فَكَبِّرْ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّك فَاصْبِرْ ﴾ وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إنَّهُ جَرَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُقْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ أَمْرٌ ، فَرَجَعَ إلَى مَنْزِلِهِ مَغْمُومًا ، فَتَلَفَّفَ وَاضْطَجَعَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وَهَذَا بَاطِلٌ .

وَقِيلَ : أَرَادَ يَا مَنْ تَدَثَّرَ بِالنُّبُوَّةِ .

(400/791)

وَهَذَا مَجَازٌ بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إلَّا بَعْدُ ، عَلَى أَنَّهَا أَوَّلُ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَكُنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ثَانِي مَا نَزَلَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ مُلَاطَفَةٌ مِنْ الْكَرِيمِ إلَى الْحَبِيبِ ؛ نَادَاهُ بِحَالِهِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِفَتِهِ .

وَمِثْلُهُ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قُمْ أَبَا تُرَابٍ ﴾ ، إذْ خَرَجَ مُغَاضِبًا لِفَاطِمَةَ ، وَنَامَ فِي الْمَسْجِدِ فَسَقَطَ رِدَاؤُهُ وَأَصَابَهُ تُرَابُهُ .

﴿ وَقَوْلُهُ لِحُذَيْفَةَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ : قُمْ يَا نَوْمَانُ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَرَبَّك فَكَبِّرْ ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى التَّكْبِيرُ هُوَ التَّعْظِيمُ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى ، وَمَعْنَاهُ ذِكْرُ اللَّهِ بِأَعْظَمِ صِفَاتِهِ بِالْقَلْبِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِاللِّسَانِ ، بِأَقْصَى غَايَاتِ الْمَدْحِ وَالْبَيَانِ ، وَالْخُضُوعُ [لَهُ] بِغَايَةِ الْعِبَادَةِ كَالسُّجُودِ لَهُ ذِلَّةً وَخُضُوعًا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ يَقْتَضِي بِعُمُومِهِ تَكْبِيرَ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّهُ مُرَادٌ بِهِ التَّكْبِيرُ وَالتَّقْدِيسُ ، وَالتَّنْزِيهِ بِخَلْعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ دُونَهُ ، وَلَا تَتَّخِذْ وَلِيًّا غَيْرَهُ ، وَلَا تَعْبُدْ وَلَا تَرَى لِغَيْرِهِ فِعْلًا إلَّا لَهُ ، وَلَا نِعْمَةً إلَّا مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ صَلَاةٌ عِنْدَ نُزُولِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْتِدَاءَ التَّوْحِيدِ .

(401/791)

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ : اُعْلُ هُبَلُ ، اُعْلُ هُبَلُ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قُولُوا لَهُ : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ ﴾ وَقَدْ صَارَ هَذَا اللَّفْظُ بِعُرْفِ الشَّرْعِ فِي تَكْبِيرِ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا أَذَانًا وَصَلَاةً وَذِكْرًا ، بِقَوْلِهِ : " اللَّهُ أَكْبَرُ " وَحُمِلَ عَلَيْهِ لَفْظُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَارِدُ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي مَوَارِدِهَا ، مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ ﴾ وَالشَّرْعُ يَقْتَضِي بِعُرْفِهِ مَا يَقْتَضِي بِعُمُومِهِ .

وَمِنْ مَوَارِدِهِ أَوْقَاتُ الْإِهْلَالِ بِالذَّبَائِحِ لِلَّهِ تَخْلِيصًا لَهُ مِنْ الشِّرْكِ ، وَإِعْلَانًا بِاسْمِهِ فِي النُّسُكِ ، وَإِفْرَادًا لِمَا شُرِعَ لِأَمْرِهِ بِالسَّفْكِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ نَفْسَك فَطَهِّرْ ، وَالنَّفْسُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالثِّيَابِ [كَمَا] قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنَى خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِك تَنْسُلِي الثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الثِّيَابُ الْمَلْبُوسَةُ ، فَتَكُونُ حَقِيقَةً ، وَيَكُونُ [التَّأْوِيلُ] الْأَوَّلُ مَجَازًا .

وَالَّذِي يَقُولُ : إنَّهَا الثِّيَابُ الْمَجَازِيَّةُ أَكْثَرُ .

(402/791)

رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : مَا يُعْجِبُنِي أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ إلَّا فِي الصَّلَاةِ وَالْمَسَاجِدِ ، لَا فِي الطَّرِيقِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ ﴾ يُرِيدُ مَالِكٌ أَنَّهُ كَنَّى بِالثِّيَابِ عَنْ الدِّينِ .

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ ﴾ أَيْ لَا تَلْبَسْهَا عَلَى غَدْرَةٍ .

وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ مُسْنَدًا إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَكَثِيرًا مَا تَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ قَالَ أَبُو

كَبْشَةَ : ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ غُرَّانُ يَعْنِي بِطَهَارَةِ ثِيَابِهِمْ سَلَامَتَهُمْ مِنْ الدَّنَاءَاتِ ، وَيَعْنِي بِغُرَّةِ وُجُوهِهِمْ تَنْزِيهَهُمْ عَنْ الْحُرُمَاتِ ، أَوْ جَمَالَهُمْ فِي الْخِلْقَةِ ، أَوْ كِلَيْهِمَا .

وَقَدْ قَالَ غَيْلَانُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ : فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ غَادِرٍ لَبِسْت وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَى عُمُومِ الْمُرَادِ فِيهَا بِالْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

وَإِذَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الثِّيَابِ الْمَعْلُومَةِ [الظَّاهِرَةِ] فَهِيَ تَتَنَاوَلُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا تَقْصِيرُ الْأَذْيَالِ ، فَإِنَّهَا إذَا أُرْسِلَتْ تَدَنَّسَتْ ؛

وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِغُلَامٍ مِنْ الْأَنْصَارِ وَقَدْ رَأَى ذَيْلَهُ مُسْتَرْخِيًا : يَا غُلَامُ ، ارْفَعْ إزَارَك ، فَإِنَّهُ أَتْقَى وَأَنْقَى وَأَبْقَى .

(403/791)

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ إزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ ، وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ ﴾ ؛ فَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَايَةَ فِي لِبَاسِ الْإِزَارِ الْكَعْبَ ، وَتَوَعَّدَ مَا تَحْتَهُ بِالنَّارِ ؛ فَمَا بَالُ

رِجَالٍ يُرْسِلُونَ أَذْيَالَهُمْ ، وَيُطِيلُونَ ثِيَابَهُمْ ، ثُمَّ يَتَكَلَّفُونَ رَفْعَهَا بِأَيْدِيهِمْ .

وَهَذِهِ حَالَةُ الْكِبْرِ وَقَائِدَةُ الْعُجْبِ ، وَأَشَدُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُمْ يَعْصِمُونَ وَيَحْتَجُّونَ ، وَيُلْحِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَلَا أَلْحَقَ بِهِ سِوَاهُ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ لِمَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ ﴾ .

وَلَفْظُ الصَّحِيحِ : ﴿ مَنْ جَرَّ إزَارَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إزَارِي يَسْتَرْخِي ، إلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَسْت مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلَاءَ ﴾ .

فَعَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [بِالنَّهْيِ] ، وَاسْتَثْنَى أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، فَأَرَادَ الْأَدْنِيَاءُ إلْحَاقَ أَنْفُسِهِمْ بِالْأَقْصِيَاءِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُمْ .

وَالْمَعْنَى الثَّانِي : غَسْلُهَا مِنْ النَّجَاسَةِ ؛ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْهَا صَحِيحٌ فِيهَا .

(404/791)

وَقَدْ بَيَّنَّا اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِصَحِيحِ الدَّلَائِلِ ، وَلَا نُطَوِّلُ بِإِعَادَتِهِ ، وَقَدْ أَشَارَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ إلَى أَنَّ مَعْنَاهُ وَأَهْلَك فَطَهِّرْ ؛ وَهَذَا جَائِزٌ ، فَإِنَّهُ قَدْ يُعَبَّرُ عَنْ الْأَهْلِ بِالثِّيَابِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ﴾ فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا سِتَّةَ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ لَا تُعْطِ عَطِيَّةً فَتَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْهَا ؛ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

الثَّانِي : لَا تُعْطِ الْأَغْنِيَاءَ عَطِيَّةً لِتُصِيبَ مِنْهُمْ أَضْعَافَهَا .

الثَّالِثُ : لَا تُعْطِ عَطِيَّةً تَنْتَظِرُ ثَوَابَهَا .

الرَّابِعُ : وَلَا تَمْنُنْ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى النَّاسِ تَأْخُذُ أَجْرًا مِنْهُمْ عَلَيْهَا .

الْخَامِسُ : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِك [تَسْتَكْثِرُهُ] عَلَى رَبِّك ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ السَّادِسُ لَا تَضْعُفْ عَنْ الْخَيْرِ أَنْ تَسْتَكْثِرَ مِنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ يُتَقَارَبُ بَعْضُهَا ، وَهِيَ الثَّلَاثَةُ الْأُوَلُ ؛ فَأَمَّا قَوْلُهُ : " لَا تُعْطِ عَطِيَّةً فَتَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْهَا " فَهَذَا لَا يَلِيقُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلَا يُنَاسِبُ مَرْتَبَتَهُ .

وَقَدْ قَالَ : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ عَلَى مَا بَيَّنَّا مَعْنَاهُ .

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ عَنْ عَائِشَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ فِي الْحَدِيثِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَوْ دُعِيت إلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْت ، وَلَوْ أُهْدِيَ إلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْت ﴾ .

وَلَفْظُهُ مُخْتَلِفٌ فَكَانَ يَقْبَلُهَا سُنَّةً ، وَلَا يَسْتَكْثِرُهَا شِرْعَةً ؛ وَإِذَا كَانَ لَا يُعْطِي عَطِيَّةً يَسْتَكْثِرُ بِهَا فَالْأَغْنِيَاءُ أَوْلَى بِالِاجْتِنَابِ ، لِأَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْمَذَلَّةِ ؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهُ لَا تُعْطِ عَطِيَّةً تَنْتَظِرُ ثَوَابَهَا ؛ فَإِنَّ الِانْتِظَارَ تَعَلُّقٌ بِالْإِطْمَاعِ ؛ وَذَلِكَ فِي حَيِّزِهِ بِحُكْمِ الِامْتِنَاعِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

وَرِزْقُ رَبِّك خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

وَذَلِكَ جَائِزٌ لِسَائِرِ الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَطَلَبِ الْكَسْبِ فِيهَا وَالتَّكَاثُرِ مِنْهَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : أَرَادَ بِهِ الْعَمَلَ ، أَيْ لَا تَسْتَكْثِرْ بِهِ عَلَى رَبِّك فَهُوَ صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ لَوْ أَطَاعَ اللَّهَ عُمْرَهُ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ لَمَا بَلَغَ لِنِعَمِ اللَّهِ بَعْضَ الشُّكْرِ .

وَهَذَا كُلُّهُ يُبْنَى عَلَى أَصْلٍ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ تَسْتَكْثِرْ ﴾ قَدْ وَرَدَتْ الْقِرَاءَاتُ بِالرِّوَايَاتِ فِيهِ بِإِسْكَانِ الرَّاءِ .

وَرُوِيَ بِضَمِّ الرَّاءِ ، فَإِذَا أَسْكَنْت الرَّاءَ كَانَتْ جَوَابًا لِلْأَمْرِ بِالتَّقَلُّلِ ، فَيَكُونُ الْأَوَّلُ الثَّانِيَ .

وَإِنْ ضَمَمْت الرَّاءَ كَانَ الْفِعْلُ بِتَقْدِيرِ الِاسْمِ ، وَكَانَ بِمَعْنَى الْحَالِ .

وَالتَّقْدِيرُ : وَلَا تَمْنُنْ مُسْتَكْثِرًا ، وَكَانَ الثَّانِي غَيْرَ الْأَوَّلِ ، وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَى أَصْلٍ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَهُوَ الْقَوْلُ فِي تَحْقِيقِ الْمَنِّ ؛ وَهُوَ يَنْطَلِقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْعَطَاءُ . وَالثَّانِي التَّعْدَادُ عَلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ ، فَيَرْجِعُ إلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ .

وَيُعَضِّدُهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وَيُعَضِّدُ الثَّانِيَ قَوْلُهُ : ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا أَحَدٌ أَمَنُّ عَلَيْنَا مِنْ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ ﴾ .

وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ الْمَعْنَيَيْنِ كِلَيْهِمَا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المدثر عليه الصلاة والسلام

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)

قوله : ﴿ المدثر ﴾ : العامَّةُ على تشديدِ الدالِ وكسرِ الثاءِ ، اسمَ فاعلٍ من تَدَثَّر . وأصلُه المُتَدَثِّر ، فأُدْغِم كالمُزَّمِّل . وفي حرفِ أُبَيّ " المُتَدَثِّرُ " على الأصل المُشارِ إليه . وقرأ عكرمةُ بتخفيفِ الدالِ اسمَ فاعلٍ ، مِنْ دَثَّر بالتشديد ، ويكون المفعولُ محذوفاً أي : المُدَثِّر نفسَه كما تقدَّمَ في " المُزَمِّل " . وعنه أيضاً فَتْحُ الثاءِ لأنه اسمُ مفعولٍ . قال الزمخشري : " مِنْ دَثَّره . يُقال : دُثِّرْتُ هذا الأمرَ ، وعُصِبَ بك كما قال في المُزَمَّل " انتهى . ومعنى " تَدَثَّر " لَبِسَ الدَّثارَ ، وهو الثوبُ الذي فوق الشِّعار ، والشِّعارُ ما يلي الجسَدَ . وفي الحديث : " الأَنْصارُ شِعارٌ والناسُ دِثارٌ " وسيفٌ داثِرٌ : بعيد العَهْدِ بالصِّقال . ومنه : قيل للمنزلِ الدارسِ : " داثِر " لِذَهابِ أعلامِه . وفلانٌ دَثْرُ المالِ أي : حَسَنُ القيام به .

قُمْ فَأَنْذِرْ (2)

قوله : ﴿ قُمْ ﴾ : إمَّا أَنْ يكونَ من القيامِ المعهودِ ، وإمَّا مِنْ قام بمعنى : الأَخْذِ في القيام ، كقولِه :

4378 فقام يَذُوْدُ الناسَ عنها بسَيْفِه . . . . . .

. . . . .

وقول الآخر :

4379 على ما قام يَشْتِمُني لَئيمٌ . . . . . .

. . .

في أحدِ القولَيْنِ . والقولُ الآخرَ : أن " قام " مزيدةٌ وفي جَعْلِها بمعنى الأخذ في القيامِ نظرٌ ؛ لأنه حينئذٍ يَصيرُ مِنْ أخوات " عَسَى " فلا بُدَّ له مِنْ خبرٍ يكونُ فعلاً مضارعاً مجرَّداً مِنْ " أَنْ " .

قوله : ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ مفعولُه محذوفٌ . أي : أنذِرْ قومَك عذابَ اللَّهِ . والأحسنُ أَنْ لا يُقَدَّرَ له مفعولٌ أي : أَوْقِعْ الإِنذارَ .

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

(408/791)

قوله : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ : قَدَّمَ المفعولَ وكذا ما بعده إيذاناً بالاختصاص عندَ مَنْ يرى ذلك ، أو للاهتمام به ، قال الزمخشري : " واخْتُصَّ " ربَّك " بالتكبير " ثم قال : ودَخَلَتِ الفاءُ لمعنى الشرطِ . كأنه قيل : وما كان فلا تَدَعْ تكبيرَه " . قلت : قد تقدَّم الكلامُ في مثلِ

هذه الفاءِ عند قولِه : ﴿ وَإِيَّايَ فارهبون ﴾ [البقرة : 40] أولَ البقرة . قال الشيخ : " وهو قريبٌ مِمَّا قَدَّره النحاةُ في قولِك : " زيداً فاضْرِب " قالوا : تقديرُه : تنبَّهْ فاضربْ زيداً . والفاءُ هي جوابُ الأمرِ . وهذا الأمرُ : إمَّا مُضَمَّنٌ معنى الشرط ، وإمَّا الشرطُ محذوفٌ على الخلافِ الذي فيه عند النحاة " .

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

وقرأ حفص " والرُّجْزَ " بضمِّ الراء ، والباقون بكسرِها ، فقيل : لغتان بمعنىً . وعن أبي عبيدةَ : " الضمُّ أفشَى اللغتَيْن ، وأكثرُهما " . وقال مجاهد : " هو بالضمِّ اسمُ صَنَمٍ ، ويُعزَى للحسنِ البصري أيضاً ، وبالكسر اسمٌ للعذاب . وعلى تقديرِ كونِه العذابَ فلا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ أي : اهْجرْ أسبابَ العذابِ المؤدِّيةِ إليه ، أو لإقامةِ المُسَبَّبِ مُقامَ سببِه ، وهو مجازٌ شائع .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)

قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُن ﴾ : العامَّةُ على فَكِّ الإدغام . والحسن وأبو السَّمَّال بالإدغام . قد تَقَدَّم أنَّ المجزومَ/ والموقوفَ من هذا النوع يجوزُ فيهما الوجهانِ ، وقد تقدَّم تحقيقُه في المائدة عند ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ ﴾ [المائدة : 54] . والمشهور أنه من المَنِّ ، وهو الاعتدادُ على المُعْطي بما أعطاه . وقيل : " لا تَضْعُفْ " مِنْ قولِهم : حبلٌ مَنِينٌ أي : ضعيفٌ .

قوله : ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ العامَّةُ على رفعِه ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنه في موضع الحالِ أي : لا تَمْنُنْ مُسْتَكْثِراً ما أعطَيْتَ . وقيل : معناه : لِتَأْخُذْ أكثرَ مِمَّا أَعْطَيْتَ . والثاني : أنَّه على حَذْفِ " أَنْ " يعني أنَّ الأصلَ : ولا تَمْنُنْ أَنْ تستكثرَ ، فلمَّا حُذِفَتْ " أَنْ " ارتفع الفعلُ كقولِه :

4380 ألا أيُّهذا الزَّاجري أَحْضُرُ الوغى . . . . . .

. . . . . .

في إحدى الروايَتَيْن ، قاله الزمخشري ، ولم يُبَيِّنْ : ما محلُّ " أَنْ " وما في حَيِّزها . وفيه وجهان ، أظهرهما وهو الذي يُريده هو أنَّها في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على الخلافِ فيها بعد حَذْفِ حرف الجر ، وهو هنا لامُ العلة تقديرُه : ولا تَمْنُنْ لأَنْ تَسْتَكْثِرَ . والثاني : أنَّها في محلِّ نصبٍ فقط مفعولاً بها أي : لا تَضْعُفْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ . من الخير ، قاله مكي ، وقد تَقَدَّم لك أنَّ " تَمْنُنْ " بمعنى تَضْعُف ، وهو قولُ مجاهدٍ ، إلاَّ أنَّ الشيخَ قال بعد كلامِ الزمخشريِّ : " وهذا لا يجوز أن يُحملَ القرآنُ عليه ؛ لأنَّ ذلك لا يجوزُ إلاَّ في الشعرِ ، ولنا مَنْدوحة عنه مع صحةِ معنى الحالِ " قلت : قد سبقه مكيٌّ وغيرُه إلى هذا . وأيضاً فقولُه : " في الشعر " ممنوعٌ ؛ هؤلاء الكوفيون يُجيزون ذلك وأيضاً فقد قرأ الحسن والأعمش " تَسْتَكْثِرَ " نصباً ، وهو على إضمار " أَنْ " كقولهم : " مُرْهُ يَحْفِرَها " وأَبلغُ مِنْ ذلك التصريحُ بأَنْ في قراءةِ عبد

الله : " ولا تَمْنُنْ أَنْ تستكثرَ " .

وقرأ الحسنُ أيضاً وبانُ أبي عبلة " تستكثِرْ " جزماً ، وفيه ثلاثةُ أوجه ، أحدُها : أَنْ يكونَ بدلاً من الفعلِ قبله ، كقولِه تعالى : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ ﴾ [الفرقان : 68 - 69] ف "يُضاعَفْ" بدلٌ مِنْ "يَلْقَ" وكقولِه :

(410/791)

4381 مَتى تَأْتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارِنا . . . تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونارا تَأَجَّجا

ويكونُ من المَنِّ الذي في قولِه : ﴿ لا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264]

الثاني : أن يُشَبَّه (ثِرْوَ) ب " عَضُد " فيُسَكَّنَ تخفيفاً ، قاله الزمخشري ، يعني أنه تَأْخُذُ من مجموعِ " تَسْتَكْثِر " ومن الكلمةِ بعده وهو الواوُ ما يكون فيه شبيهاً ب " عَضُد " . ألا ترى أنه قال : " أَنْ يُشَبَّه ثِرْوَ " فأخذ بعضَ " تَسْتَكْثِر " وهو الثاءُ والراءُ وحرفَ العطفِ مِنْ قولِه : ﴿ ولربِّك فاصبِرْ ﴾ .

وهذا كما قالوا في قولِ امرِىء القيس :

4382 فاليومَ أَشرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ . . . إثماً من الله ولا واغلِ

بتسكين " أَشْرَبْ " : إنهم أخذوا من الكلمتين (رَبْغ) كـ عَضُد ، ثم سُكِّن . وقد تقدَّم في

سورةِ يوسف في قراءة قنبل ﴿ مَن يَتَّقِي ﴾ [يوسف : 90] بثبوت الياءِ أنَّ " مَنْ " موصولةٌ ، فاعْتُرِض بجزم "يَصْبِرْ" فأجيب : بأنه شبه (بِرُف) أخذوا الباءَ والراءَ مِنْ " يَصْبر " ، والفاءَ مِنْ " فإنَّ " وهذا نظيرُ تيْكَ سواءً . الوجه الثالث أَنْ يُعْتَبَرَ حالُ الوقفِ ويُجْرَى الوصلُ مُجْراه ، قاله الزمخشريُّ أيضاً ، يعني أنه مرفوعٌ ، وإنما سُكِّن تخفيفاً ، أو أُجْري الوصلُ مُجْرى الوقف . قال الشيخ : " وهذان لا يجوز أَنْ يُحْمَلَ عليهما مع وجودِ أرجحَ منهما ، وهو البدل " . قلت : الحقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، كيف يُعْدَلُ إلى هذَيْن الوجهَيْن مع ظهورِ البدلِ معنىً وصحةً وصناعةً ؟

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

(411/791)

قوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فاصبر ﴾ : التقديمُ على ما تَقَدَّم ، وحَسَّنه كونُه رأسَ فاصلةٍ مُؤاخياً لِما تقدَّمه . و " لربِّك " يجوز فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ لامَ العلةِ أي : لوجهِ ربِّك فاصبرْ على أذى الكفارِ وعلى عبادةِ ربِّك ، وعن كلِّ ما لا يَليقُ ، فتُرِكَ المصبورُ عليه والمصبورُ عنه للعلم بهما . والأحسنُ أَنْ لا يُقَدَّرَ شيءٌ خاصٌّ بل شيءٌ عامٌّ . والثاني : أن يُضَمَّنَ " اصْبِرْ " معنى : اذْعَنْ لربِّك وسَلِّمْ له أمرَك صابراً ، كقوله : ﴿ فاصبرِ لحُكْمِ ربِّكَ ﴾ [

القلم : 48] .

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9)

قوله : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ ﴾ : قال الزمخشريُّ : " والفاءُ/ في قوله : " فإذا نُقِرَ " للتسبيب ، كأنه قيل : اصبِرْ على أَذاهم ، فبينَ أيديهم يومٌ عَسيرٌ يَلْقَوْن فيه [عاقبةَ] أذاهم ، وتَلْقَى فيه عاقبةَ صبرِك عليه . والفاء في " فذلك " للجزاء " . قلت : يعني أنَّ الفاءَ في " فذلك " جزاءٌ للشرطِ في قوله : " فإذا نُقِرَ " . وفي العامل في " إذا " أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها متعلِّقةٌ ب " أَنْذِرْ " أي : أَنْذِرْهم إذا نُقِر في النَّاقور ، قاله الحوفيُّ . وفيه نظرٌ : من حيث إنَّ الفاءَ تمنعُ مِنْ ذلك ، ولو أرادَ تفسيرَ المعنى لكان سهلاً ، لكنه في مَعْرِضِ تفسيرِ الإِعراب لا تفسيرِ المعنى .

(412/791)

الثاني : أن ينتصِبَ بما دَلَّ عليه قولُه : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ . قال الزمخشري : " فإنْ قلت : بم انتصَبَ " إذا " ، وكيف صَحَّ أَنْ يقع " يومئذٍ " ظرفاً ل " يومٌ عَسير " ؟ قلت : انتصَبَ " إذا " بما دَلَّ عليه الجزاءُ ؛ لأنَّ المعنى : فإذا نُقِر في النَّاقور عَسُرَ الأمرُ على الكافرين . والذي أجاز وقوعَ يومئذٍ ظرفاً ل " يومٌ عسيرٌ " أنَّ المعنى : فذلك يومَ النَّقْرِ وقوعُ

يوم عسيرٍ ؛ لأنَّ يومَ القيامةِ يقعُ ويأتي حين يُنْقَرُ في الناقور " انتهى . ولا يجوزُ أَنْ يعملَ فيه نفسُ " عَسير " ؛ لأنَّ الصفةَ لا تعملُ فيما قبلَ موصوفِها عند البصريين ؛ ولذلك رُدَّ على الزمخشريِّ قولُه : إنَّ في أنفسِهم " متعلّق ب " بلغياً " في قولِه تعالى في سورةِ النساءِ [الآية : 63] ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ والكوفيون يُجوّزون ذلك وتقدَّم تحريرُه .

الثالث : أَنْ ينتصِبَ بما دَلَّ عليه " فذلك " لأنه إشارةٌ إلى النَّقْر ، قاله أبو البقاء . ثم قال : " ويومَئذٍ بدلٌ مِنْ " إذا " و " ذلك مبتدأٌ " والخبرُ " يومٌ عسيرٌ " أي : نُقِر يوم . الرابع : أَنْ يكونَ " إذا " مبتدأً ، و " فذلك " خبرُه . والفاءُ مزيدةٌ فيه ، وهو رأيُ الأخفشِ .

وأمَّا " يومَئذٍ " ففيه أوجهٌ ، أحدها : أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " إذا " وقد تقدَّم ذلك في الوجهِ الثالث . والثاني : أَنْ يكونَ ظرفاً ل " يومٌ عسيرٌ " كما تقدَّم في الوجهِ الثاني . الثالث : أَنْ يكونَ ظرفاً ل " ذلك " لأنَّه مُشارٌ به إلى النَّقْر . الرابع : أنَّه بدلٌ مِنْ " فذلك " ، ولكنه مبنيٌّ لإضافتِه إلى غيرِ متمكِّنٍ . الخامس : أَنْ يكونَ مبتدأً " ويومٌ عسيرٌ " خبرَه ، والجملةُ خبرَ " فذلك " .

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

قوله : ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ : فيه خمسةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يتعلَّق ب " عسير " . الثاني : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه نعتٌ ل عسير . الثالث : أنه في موضع نصبٍ على الحالِ من الضميرِ المستكنِّ في " عسير " . الرابع : أن يتعلَّقَ ب " يَسير " أي : غيرُ يسيرٍ على الكافرين ، قاله أبو البقاء ، إلاَّ أنَّ فيه تقديمَ معمولِ المضافِ إليه على المضافِ ، وهو ممنوعٌ ، وقد جَوَّز ذلك بعضُهم إذا كان المضاف " غيرَ " بمعنى النفي كقولِه :

4383 إنَّ امرأً خَصَّني عمْداً مَوَدَّتَه . . . على التنائي لَعِنْدي غيرُ مَكْفورِ

وتقدَّم تحريرُ هذا آخرَ الفاتحةِ مُشْبَعاً ، فعليكَ باعتبارِه ثَمَّة . الخامس : أن يتعلَّق بما دَلَّ عليه " غيرُ يسير " أي : لا يَسْهُلُ على الكافرين . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ فما فائدةُ قولِه : " غيرُ يسير " و " عَسير " مُغْنٍ عنه ؟ قلت : لَمَّا قال " على الكافرين " فقَصَرَ العُسْرَ عليهم قال : " غيرُ يَسير " لِيُؤْذَنَ بأنه لا يكونُ عليهم كما يكون على المؤمنين يَسيراً هَيِّناً ليجمعَ بين وعيدِ الكافرين وزيادةِ غَيْظهم وتبشيرِ المؤمنين وتَسْلِيتهم . ويجوز أن يُراد : عسيرٌ لا يُرْجَى أن يَرْجِعَ يسيراً ، كما يُرْجى تيسيرُ العسيرِ من أمورِ الدنيا " .

وقوله : ﴿ نُقِرَ فِي الناقور ﴾ أي صُوِّتَ يقال : نَقَرْتُ الرجلَ إذا صَوَّتَّ له بلسانِك وذلك بأَنْ تُلْصِقَ لسانَك بنُقْرَةِ حَنَكِكَ . ونَقَرْتُ الرجلَ : إذا خَصَصْتَه بالدعوة ، كأنك نَقَرْتَ له بلسانِك مُشيراً إليه ، وتلك الدعوةُ يقال لها النَّقَرى ، وهي ضدُّ الدعوةِ الجَفَلَى . قال الشاعر :

4384 نحن في المَشْتاةِ نَدْعُو الجَفَلَى . . . لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

/ وقال امرؤ القيس :

4385 أنا ابنُ ماوِيَّةَ إذْ جَدَّ النُّقُرْ . . . يريد : " النَّقْرُ " أي : الصوتُ . وقال أيضاً :

(414/791)

4386 أُخَفِّضُه بالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُه . . . ويَرْفَعُ طَرْفاً غيرَ جافٍ غَضِيضِ

والنَّاقُور : فاعُوْل منه كالجاسوسِ مِنَ التَجَسُّسِ ، وهو الشيءُ المُصوَّتُ فيه : وفي التفسير : إنَّه الصُّورُ الذي يَنْفَخُ فيه المَلَكُ . والنَّقْرُ أيضاً : قَرْعُ الشيءِ الصُّلْبِ . والمِنْقارُ : الحَديدةُ التي يُنْقَرُ بها . ونَقَرْتُ عنه : بَحَثْتُ عن أخبارِه ، استعارةً من ذلك . ونَقَرْتُه : أَعَبْتُه ، ومنه قولُ امرأةٍ لزَوْجِها : " مُرَّ بي على بني نَظَرٍ ، ولا تَمرَّ بي على بناتِ نَقَرٍ " أرادت ببنين نَظَرٍ الرجالُ ؛ لأنهم ينظرون إليها ، وببنات نَقَرٍ النساءَ لأنهنَّ يَعِبْنها ويَنْقُرْنَ عن أحوالِها .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11)

قوله : ﴿ وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ : كقوله : ﴿ والمكذبين ﴾ [المزمّل : 11] في الوجهَيْنِ المتقدمَيْنِ في السورةِ قبلها .

قوله : ﴿ وَحِيداً ﴾ فيه أوجه ، أحدها : أنه حالٌ من الياء في " ذَرْني " أي : ذَرْني

وَحْدي معه فأنا أَكْفِيْكَ في الانتقام منه . الثاني : أنه حالٌ مِنَ التاء في " خَلَقْتُ " أي : خَلَقْتُه وَحْدي لم يُشْرِكْني في خَلْقِه أحدٌ ، فأنا أَمْلِكُه . الثالث : أَنَّه حالٌ مِنْ " مَنْ " . الرابع : أنه حالٌ من عائدِ المحذوفِ أي : خَلَقْتُه وحيداً . الخامس : أن ينتصِبَ على الذمّ . و " وحيد " كان لَقَباً للوليدِ بن المُغِيرة . ومعنى " وحيداً " : ذليلاً قليلاً . وقيل : كان يَزْعُمُ أنه وحيدٌ في فَضْلِه ومالِه . وليس في ذلك ما يَقْتَضي صِدْقَ مقالتِه ؛ لأنَّ هذا لَقَبٌ له شُهِر به ، وقد يُلَقَّبُ الإنسانُ بما لا يَتَّصِفُ به ، وإذا كان لَقَباً تَعَيَّنَ نصبُه على الذمّ .

كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16)

(415/791)

قوله : ﴿ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ : استئنافٌ ، جوابٌ لسائلٍ سأل : لِمَ لا يزدادُ مالاً ؟ وما بالُه رُدِعَ عن طَمَعِه في ذلك ؟ فأُجيب بقولِه : ﴿ إِنَّهُ كان لآيَتِنَا عَنِيداً ﴾ .

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)

قوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ استئنافَ تعليلٍ لقولِه " سَأُرْهِقُه " . ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ ﴿ إِنَّهُ كان لآيَتِنَا عَنِيداً ﴾ .

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)

قوله : ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ : يُقال : عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً أي : قَطَّبَ وجهَه . والعَبَسُ : ما يَبِسَ في أذنابِ الإبلِ من البعر والبَوْل . قال أبو النجم :

4387 كأن في أَذْنابِهِنَّ الشُّوَّلِ . . . مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرونَ الأُيُّلِ

قوله ﴿ وَبَسَرَ ﴾ يُقال : بَسَرَ يَبْسُرُ بَسْراً وبُسُوراً : إذا قَبَضَ ما بين عَيْنَيْه كراهةً للشَيْءِ ، واسْوَدَّ وجهُه مِنْه . يقال : وَجْهٌ باسِرٌ أي : مُنْقَبِضٌ أسودُ .

قال :

4388 صَبَحْنا تميماً غَداةَ الجِفارِ . . . بشَهْباءَ مَلْمومَةٍ باسِرَةْ

(416/791)

وأهل اليمن يقولون : بَسَرَ المَرْكَبُ وأَبْسَرَ : إذا وَقَفَ . وأَبْسَرْنا أي : صِرْنا إلى البُسُور .

وقال الراغب : " البَسْرُ : البَسْرُ : الاستعجالُ بالشيء قبل أَوانِه نحو : بَسَرَ الرجلُ الحاجةَ : طَلَبها في غيرِ أوانِها ، وبَسَرَ الفَحْلُ الناقةَ : ضَرَبها قبل الضَّبَعَةِ . وماء بَسْرٌ : مُتناوَلٌ مِنْ غَدِيرِه قبلَ سُكونه ، ومنه قيل للذين لم يُدْرِكْ من التَّمر : بُسْر . وقولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ أي : أظهرَ العُبوس قبل أَوانِه ، وفي غيرِ وقتِه . فإنْ قيلَ : فقولُه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة : 24] ليس يَفْعلون ذلك قبلَ الوقتِ . وقد قلت : إنَّ

ذلك يُقال فيما كان قبلَ وَقْتِه . قلتُ : إنَّ ذلك إشارةٌ إلى حالِهم قبلَ الانتهاءِ بهم إلى النارِ فخُصَّ لفظُ البُسْرِ تنبيهاً أنَّ ذلك مع ما ينالهم مِنْ بُعْدٍ يَجْري مَجْرى التكلُّفِ ، ومَجْرى ما يُفْعَلُ قبلَ وَقْتِه . ويَدُلُّ على ذلك قولُه : ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : 25]

انتهى كلامُ الراغب .

وقد عُطِفَ في هذه الجملِ بحروفٍ مختلفةٍ ولكلٍ منها مناسَبَةٌ . أمَّا ما عُطِفَ ب " ثُمَّ " فلأنَّ بين الأفعالِ مهلةً ، وثانياً لأنَّ بين النَّظَرِ والعُبوس وبين العُبوسِ والإدْبار تراخياً . قال الزمخشري/ : و " ثُمَّ نظر " عَطْفٌ على " فَكَّر وقَدَّر " والدعاءُ اعتراضٌ بينهما " . قلت : يعني بالدعاءِ قولَه : " فقُتِلَ " . ثم قال : " فإنْ قُلْتَ ما معنى " ثم " الداخلةِ على تكريرِ الدعاء ؟ قلت : الدلالة على أنَّ الكرَّة الثانية أَبْلَغُ من الأولى ، ونحوُه قولُه :

4389 ألا يا اسْلمي ثُمَّ اسْلمي ثُمَّت اسْلمي . . . . . .

. . . . . .

(417/791)

فإنْ قلت : فما معنى المتوسّطةِ بين الأفعالِ التي بعدها ؟ قلت : للدلالة على أنه تأنَّى في التأمُّل ، وتمهَّل ، وكان بين الأفعالِ المتناسِقةِ تراخٍ وبُعْدٌ . فإن قلت : فلِمَ قال : " فقال "

بالفاءِ بعد عطفِ ما قبلَه ب ثم ؟

قلت : لأنَّ الكلمة لَمَّا خطَرَتْ بباله بعد التطلُّبِ لم يتمالَكْ أَنْ نطقَ بها مِنْ غيرِ تثبُّتٍ . فإنْ قلتَ : فلِمَ لَمْ يتوسَّطْ حرفُ العطفِ بين الجملتَيْن ؟ قلت : لأنَّ الأخرى جرَتْ مِن الأولى مَجْرى التوكيدِ من المؤكَّد .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)

قوله : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ : هذا بدلٌ مِنْ قولِه : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ قاله الزمخشري . فإنْ كان المرادُ بالصَّعودِ المشقةَ فالبدلُ واضحٌ ، وإنْ كان المرادُ صخرةً في جهنَم ، كما جاء في بعضِ التفاسير ، فيَعْسُرُ البدلُ ، ويكون فيه شَبَهٌ مِنْ بَدَلِ الاشتمالِ ؛ لأنَّ جهنمَ مُشْتَمِلةٌ على تلك الصخرةِ .

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28)

قوله : ﴿ لَا تُبْقِي ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنها في محلِّ نصبٍ على الحال ، والعامل فيها معنى التعظيمِ ، قاله أبو البقاء ، يعني أنَّ الاستفهامَ في قولِه ما سَقَرُ ؟ للتعظيم فالمعنى : استعظموا سَقَرَ في هذه الحال . ومفعول " تُبْقي " و " تَذَرُ " محذوفٌ ، أي : لا تُبقي ما أُلْقي فيها ، ولا تَذَرُهُ ، بل تُهْلِكُه . وقيل : تقديرُه لا تُبْقي على مَنْ أُلْقي فيها ، ولا تَذَرُ غايةَ العذابِ إلاَّ وَصَلَتْه إليه . والثاني : أنها مستأنفةٌ .

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29)

قوله : ﴿ لَوَّاحَةٌ ﴾ : قرأ العامَّةُ بالرفع خبرَ مبتدأ مضمر ، أي : هي لَوَّاحَةٌ . وهذه مُقَوِّيَةٌ للاستئنافِ في "لا تُبْقي" . وقرأ الحسن وابنُ أبي عبلة وزيدُ بن علي وعطيةُ العَوْفي بنَصْبِها على الحال ، وفيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها حالٌ مِنْ "سقرُ" والعاملُ معنى التعظيمِ كما تقدَّم . والثاني : أنها حالٌ مِنْ "لا تُبْقي" . والثالث : مِنْ "لا تذرُ" . وجَعَلَ الزمخشري نَصْبَها على الاختصاصِ للتهويل ، وجعلها الشيخ حالاً مؤكدة قال : "لأنَّ النارَ التي لا تُبْقي ولا تَذَرُ لا تكونُ إلاَّ مُغَيِّرةً للإبشارِ" "ولَوَّاحَةٌ" بناءُ مبالغةٍ ، وفيها معنيان ، أحدهما : مِنْ لاحَ يَلُوح ، أي : ظهر ، أي : إنها تظهر للبَشَرِ وهم الناسُ ، وإليه ذهب الحسن وابن كَيْسان . والثاني : – وإليه ذهبَ جمهورُ الناس أنها مِنْ لوَّحه ، أي : غَيَّره وسَوَّده . قال الشاعر :

4390 وتعجَبُ هندٌ أَنْ رَأَتْنِيَ شاحباً . . . تقول : لَشَيءٌ لوَّحَتْه السَّمائِمُ

ويقال : لاحَه يَلُوْحه : إذا غَيَّر حِلْيَتَيْه ، وأُنْشِد :

4391 تقول : ما لاحك يا مسافِرُ . . . يا بنةَ عمّي لاحَني الهواجِرُ

وقيل : اللَّوحُ شِدَّةُ العَطَشِ . يقال : لاحَه العطشَ ولَوَّحَه ، أي : غَيَّره ، وأُنْشِدِ :

4392 سَقَتْني على لَوْحٍ مِنْ الماءِ شَرْبَةً . . . سَقاها به اللَّهُ الرِّهامَ الغَواديا

واللُّوْحُ بالضمِّ : الهواءُ بين السماءِ والأرضِ ، والبَشَرُ : إمَّا جَمْعُ بَشَرَة ، أي : مُغَيِّرة للجُلود ، [وإمَّا المُرادُ به الإِنْسُ] واللامُ في " للبَشَرِ " مُقَوِّيَةٌ كهي في ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] ، وقراءةُ النصبِ في " لَوَّاحَةً " مقوِّيَةٌ لكونِ " لا تُبْقي " في محلِّ الحالِ .

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

(419/791)

قوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ : هذه الجملةُ فيها وجهان أعني : الحاليةَ والاستئنافَ وفي هذه الكلمةِ قراءاتٌ شاذةٌ ، وتوجيهاتٌ تُشاكِلُها . وقرأ أبو جعفر وطلحةُ " تسعَةَ عْشَر " بسكون العينِ مِنْ " عَشر " تخفيفاً لتوالي خمسِ حركاتٍ مِنْ جنسٍ واحدٍ / وهذه كقراءةِ ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ﴾ [يوسف : 4] ، وقد تقدَّمَتْ .

وقرأ أنسٌ وابنُ عباس " تسعةُ " بضمِّ التاء ، " عَشَرَ " بالفتح ، وهذه حركةُ بناءٍ ، ولا يجوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ كونُها إعراباً ؛ إذا لو كانَتْ للإعرابِ لَجُعِلَتْ في الاسمِ الأخيرِ لتَنَزُّلِ الكلمتَيْن منزلةَ الكلمةِ الواحدةِ ، وإنما عُدِل إلى الضمة كراهةَ توالي خمسِ حركاتٍ . وعن المهدويِّ . " مَنْ قرأ " تسعةُ عَشَر " فكأنه من التداخُلِ كأنه أراد العطفَ فتركَ التركيبَ ورَفَعَ هاءَ التأنيث ، ثم راجَعَ البناءَ وأسكنَ " انتهى . فَجَعَلَ الحركةَ للإعرابِ . ويعني بقوله " أسكنَ " ، أي :

أسكنَ راءَ " عشر " فإنه هذ القراءة كذلك .

وعن أنس أيضاً " تسعةُ أَعْشُرَ " بضم " تسعةُ " وأَعْشُرَ بهمزةٍ مفتوحةٍ ثم عينٍ ساكنةٍ ثم شين مضمومة . وفيها وجهان ، قال أبو الفضل : " يجوز أَنْ يكونَ جَمعَ العَشَرَةَ على أَعْشُر ثم أجراه مُجْرى تسعة عشر " . وقال الزمخشري : " جمع عَشير ، مثل يَمين وأَيْمُن . وعن أنسٍ أيضاً " تسعَةُ وَعْشُرَ " بضم التاءِ وسكونِ العينِ وضمّ الشين وواوٍ مفتوحةٍ بدلَ الهمزةِ . وتخريجُها كتخريجِ ما قبلَها ، إلاَّ أنَّه قَلَبَ الهمزةَ واواً مبالغةً في التخفيفِ ، والضمةُ كما تقدَّم للبناءِ لا للإعرابِ . ونقل المهدويُّ أنه قُرِئَ " تسعةُ وَعَشَرْ " قال : " فجاء به على الأصلِ قبلَ التركيبِ وعَطَفَ " عشراً على تسعة " وحَذَفَ التنوينَ لكثرةِ الاستعمالِ ، وسَكَّنَ الراءَ مِنْ عشر على نيةِ الوقفِ .

(420/791)

وقرأ سليمان بن قتة بضمّ التاءِ ، وهمزةٍ مفتوحةٍ ، وسكونِ العين ، وضم الشين وجرّ الراءِ مِنْ أَعْشُرٍ ، والضمةُ على هذا ضمةُ إعراب ، لأنه أضاف الاسمَ لما بعده ، فأعربَهما إعرابَ المتضايفَيْنِ ، وهي لغةٌ لبعضِ العربِ يَفُكُّون تركيبَ الأعدادِ ويُعْرِبُونهما كالمتضايفَيْنِ كقول الراجز :

4393 كُلِّفَ مِنْ عَنائِه وشِقْوَتِهْ . . . بنتَ ثماني عَشْرَةٍ مِنْ حَجَّتِهْ

قال أبو الفضل : " ويُخْبَرُ على هذه القراءةِ وهي قراءةُ مَنْ قرأ " أَعْشُر " مبنياً أو معرباً من حيث هو جمعٌ أنَّ الملائكةَ الذين هم على سَقَرَ تسعون مَلَكاً .

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً

قوله : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ : مفعولٌ ثانٍ على حذفِ مضافٍ ، أي : إلاَّ سببَ فتنةٍ ، و " للذين " صفةٌ لـ " فِتْنة " وليسَتْ " فتنةً " مفعولاً له .

قوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين ﴾ متعلِّقٌ بـ " جَعَلْنا " لا بـ " فتنة " . وقيل : بفعلٍ مضمرٍ ، أي : فَعَلْنا ذلك ليسْتَيْقِنَ . وللزمخشري هنا كلامٌ متعلِّقٌ بالإعرابِ ليجُرَّه إلى غرضِه مِنْ الاعتزال .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ نعتٌ لمصدرٍ أو حالٍ منه على ما عُرِفَ غيرَ مرةٍ . و " ذلك " إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ مِنْ الإضلالِ والهدى ، أي : مثلَ ذلك الإضلالِ والهدى يُضِلُّ ويَهْدي . و " مثلاً " تمييزاً أو حالٌ . وتسميةُ هذا مثلاً على سبيلِ الاستعارةِ لغرابتِه .

قوله : ﴿ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ مفعولٌ واجبُ التقديمِ لحَصْرِ فاعِلِه ، ولعَوْدِ الضميرِ على ما اتَّصل بالمفعول .

قوله : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ يجوزُ أَنْ يعودَ الضميرُ على " سقر " ، أي : وما سَقَرُ إلاَّ تذكرةٌ . وأَنْ

يعودَ على الآياتِ المذكورةِ فيها ، أو النارِ لتقدُّمِها أو الجنودِ ، أو نارِ الدنيا ، وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ أو العُدَّة . و " للبشر " مفعولٌ ب " ذِكْرى " واللامُ فيه مزيدةٌ .

(421/791)

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34)

قوله : ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ : قرأ نافعٌ وحمزةُ وحفصٌ " إذ " ظرفاً لِما مضى مِنْ الزمانِ ، " أَدْبَرَ " بزنةِ أَكْرَمَ . والباقون " إذا " ظرفاً لِما يُسْتقبل ، " دَبَرَ " بزنةِ ضَرَبَ ، والرسمُ محتملٌ لكلتَيْهما ، فالصورةُ الخطيَّةُ لا تختلفُ . واختار أبو عبيد قراءةَ " إذا " قال : لأنَّ بعدَه " إذا أَسْفَرَ " قال : " وكذلك هي في حرفِ عبدِ الله " قلت : يعني أنَّه مكتوبٌ بألفَيْنِ بعد الذال أحدُهما ألفُ " إذا " والأخرى همزةُ " أَدْبَرَ " . واختار ابنُ عباس أيضاً " إذا " ويُحْكى أنَّه لَمَّا سَمِعَ " أَدْبَرَ " قال : " إنما يُدْبِر ظهرُ البعير " .

واختلفوا : هل دَبَر وأَدْبَر ، بمعنى أم لا ؟ فقيل : هما بمعنىً واحدٍ / يقال : دَبَر الليلُ والنهارُ وأَدْبَرَ ، وقَبَلَ وأَقْبل . ومنه قولُهم " أمسُ الدابرُ " فهذا مِنْ دَبَرَ ، وأمسُ المُدْبر قال :

4394 . . . . . .

. . . . . ذهبوا كأمس الدابرِ

وأمَّا أَدْبَرَ الراكبُ وأَقْبل فرباعيٌّ لا غيرُ . هذا قولُ الفراء والزجاج . وقال يونس : " دَبَرَ انقضى ، وأَدْبَرَ تَوَلَّى ففرَّق بينهما . وقال الزمخشري : " ودَبَرَ بمعنى أَدْبَرَ كقَبَل بمعنى أَقْبَلَ . قيل : ومنه صاروا كأمسِ الدابرِ ، وقيل : هو من دَبَرَ الليلُ النهارَ إذا خَلَفَه " .

وقرأ العامَّةُ " أَسْفَرَ " بالألف ، وعيسى بنُ الفضل وابن السَّمَيْفَع " سَفَرَ " ثلاثياً " . والمعنى : طَرَحَ الظلمةَ عن وجهه ، على وجهِ الاستعارةِ .

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35)

(422/791)

قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ : أي : إنَّ النارَ . وقيل : إنَّ قيامَ الساعةِ كذا حكاه الشيخ ، وفيه شيئان : عَوْدُه على غير مذكورٍ ، وكونُ المضافِ اكتسَبَ تأنيثاً . وقيل : إن النّذارة . وقيل : هيَ ضميرُ القصةِ . وقرأ العامَّةُ " لإِحْدى " بهمزةٍ مفتوحةٍ ، وأصلُها واوٌ ، من الوَحْدَة . وقرأ نصرُ بنُ عاصمٍ وابنُ محيصن ، وتُرْوى عن ابنِ كثيرٍ " لَحْدَى " بحذفِ الهمزة ، وهذا من الشُّذوذِ بحيثُ لا يُقاسُ عليه . وتوجيهُه : أَنْ يكونَ أَبْدلها ألفاً ، ثم حُذِفَتِ الألفُ لالتقاءِ الساكنَيْن ، وقياسُ تخفيفِ مثلِ هذه بينها وبين الألفِ . ومعنى " إحْدَى الكُبَرِ " ، أي : إحْدَى الدَّواهي قال :

4395 يا بنَ المُعَلَّى نَزَلَتْ إحدى الكُبَرْ . . . داهيةُ الدهرِ وصَمَّاءُ الغِيَرْ

ومثلُه : هو أَحَدُ الرجالِ و [هي] إحدى النساءِ لِمَنْ يَسْتعظمونه . والكُبَرُ : جمعُ كُبْرى كالفُضَل جمع فُضْلى . وقال ابن عطية : "جمع كبيرة" وأظنُّه وهماً عليه . وفي هذه الجملة وجهان ، أحدُهما : أنها جوابُ القسمِ في قوله : "والقمرِ" . والثاني : أنها تعليلٌ لـ "كَلاَّ" والقسمُ معترضٌ للتوكيدِ ، قاله الزمخشري . قلت : وحينئذٍ فيحتاجُ إلى تقديرِ جوابٍ ، وفيه تكلُّفٌ وخروجٌ عن الظاهر .

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36)

(423/791)

قوله : ﴿ نَذِيراً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه تمييزٌ عن "إحدى" ، كمَّا ضُمِّنَتْ معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكُبَرِ إنذاراً ، ف "نذير" بمعنى الإنذارِ كالنَّكير بمعنى الإنكار ، ومثلُه "هي إحدى النساءِ عَفافاً" . الثاني : أنه مصدرٌ بمعنى الإنذار أيضاً ، ولكنه نُصِب بفعلٍ مقدَّرٍ ، قاله الفراء . الثالث : أنه فعيلٌ بمعنى مُفْعِل ، وهو حالٌ من الضميرِ في "إنَّها" قاله الزجاج . الرابع : أنه حالٌ من الضمير في "إحدى" لتأوُّلها بمعنى العظيم . الخامس : أنَّه حالٌ من فاعلِ "قم" أولَ السورةِ . السادس : أنَّه مصدرٌ منصوبٌ بـ أَنْذِرْ

أولَ السورةِ . السابع : هو حالٌ مِنْ " الكُبَر " . الثامن : حالٌ من ضميرِ الكُبَر . التاسع : هو حالٌ مِنْ " لإحدى " ، قاله ابن عطية . العاشر : أَنَّه منصوبٌ بإضمار أَعْني . الحادي عشر : أَنَّه منصوبٌ بـ ادْعُ مُقَدَّرًا ؛ إذ المُراد به اللَّهُ تعالى . الثاني عشر : أَنَّه منصوبٌ بـ " نادِ أو بـ بَلِّغ ؛ إذ المرادُ به الرسولُ صلى الله عليه وسلم . الثالثَ عشرَ : أنه منصوبٌ بما دَلَّتْ عليه الجملةُ ، تقديره : عَظُمْتَ نذيراً . الرابعَ عشرَ : هو حالٌ من الضميرِ في " الكُبَرِ " . الخامسَ عشرَ : أنها حالٌ مِنْ " هو " في قولِه وما يعلَمُ جنودَ ربِّك إلاَّ هو . السادسَ عشرَ : أنها مفعولٌ مِنْ أجلِه ، الناصبُ لها ما في " الكُبَر " ، مِنْ معنى الفعل . قال أبو البقاء : " أو إنَّها لإحدى الكُبَر لإنذار البشر " فظاهرُ هذا أنه مفعولٌ مِنْ أجلِه . وفيه بُعْدٌ وإذا جُعِلَتْ حالاً مِنْ مؤنثٍ فإنَّما لم تُؤَنَّثْ لأَنَّها بمعنى ذاتِ إنذارٍ على معنى النَّسَب . قال معناه أبو جعفر .

(424/791)

والنصبُ قراءةُ العامَّةِ ، وابن أبي عبلة وأُبَيُّ بنُ كعبٍ بالرفع . فإنْ كان المرادُ النارَ جاز لك وجهان : أَنْ يكونَ خبراً بعد خبر ، وأَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي نذيرٌ ، والتذكيرُ لِما تقدَّم مِنْ معنى النَّسَبِ ، وإنْ كان المرادُ الباريَ تعالى أو رسولَه عليه السلام كان على

خبر مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو نذيرٌ . " وللبشر " إمَّا صفةٌ . وإمَّا مفعولٌ لنذير ، واللامُ مزيدةٌ لتقويةِ العامل .

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

قوله : ﴿ لِمَن شَآءَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه بدلٌ من " للبشر " بإعادة العامل كقوله : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] و ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ ﴾ [الأعراف : 75] . وأَنْ يتقدَّمَ مفعولُ " شاء " ، أي : نذيرٌ لمَنْ شاءَ التقدُّمَ أو التأخُّرَ ، وفيه ذُكِرَ مفعولُ " شاء " وقد تقدَّمَ أنَّه لا يُذْكَرُ إلاَّ إذا كان فيه غَرابَةٌ . والثاني : وإليه نحا الزمخشري وبه بدأ أَنْ يكونَ " لمَنْ شاءَ " خبراً مقدَّماً ، و " أَنْ يتقدَّم " مبتدأ مؤخراً قال : " كقولِك : لِمَنْ توضَّأَ أَنْ يُصَلِّي ، ومعناه مطلقٌ لمَنْ شاء التقدُّمَ أو التأخُّرَ أَنْ يتقدَّم أو يتأخَّرَ " انتهى . فقوله " التقدُّمَ والتأخُّرَ " هو مفعولُ " شاء " المقدَّرِ ، وقولُه " أَنْ يتقدَّمَ " هو المبتدأ . قال الشيخ : " وهو معنىً لا يتبادرُ الذِّهْنُ إليه وفيه حَذْفٌ " .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)

قوله : ﴿ رَهِينَةٌ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّ " رهينة " بمعنى " رَهْن " كالشتيمة بمعنى الشَّتْم . قال الزمخشري : " ليسَتْ بتأنيثِ " رهين " في قوله " كلُّ امرىء " / لتَأنيثِ النفسِ ؛ لأنَّه لو قُصِدَتِ الصفةُ لقيل : " رِهين " ؛ لأنَّ فَعيلاً بمعنى مَفْعول يَسْتوي فيه المذكرُ والمؤنثُ ، وإنما هي اسمٌ بمعنى الرَّهْن كالشَّتيمة بمعنى الشَّتْم ، كأنه قيل : كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهْنٌ ، ومنه بيتُ الحماسة :

4396 أبعدَ الذي بالنّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ . . . رَهينةِ رَمْسٍ ذي تُرابٍ وجَنْدلِ

كأنه قال : رَهْنِ رَمْسٍ . الثاني : أنَّ الهاءَ للمبالغةِ . والثالث : أنَّ التأنيثَ لأجلِ اللفظ . واختار الشيخُ أنَّها بمعنى مَفْعول وأنها كالنَّطيحة . قال : " ويَدُلُّ على ذلك : أنَّه لَمَّا كان خبراً عن المذكر كان بغيرِ هاءٍ ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : 21] فأنت ترى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغيرِ تاءٍ ، وحيث كان خبراً عن المؤنثِ أتى بالتاء . فأمَّا الذي في البيت فأُنِّث على معنى النفس "

إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)

قوله : ﴿ إلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنها استثناءٌ متصلٌ ؛ إذ المرادُ بهم المسلمون الخالِصون الصالحون . والثاني : أنه منقطعٌ ؛ إذ المرادُ بهم الأطفالُ أو الملائكةُ

.

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40)

قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هم في جناتٍ ، وأن يكونَ حالاً مِنْ " أصحابَ اليمين " ، وأَنْ يكونَ حالاً من فاعل "يَتَساءلون " ذكرهما أبو البقاء . ويجوزُ أَنْ يكونَ ظرفاً ل " يتساءلون " وهو أظهرُ من الحالية مِنْ فاعِله . و " يتساءلون " يجوزُ أَنْ يكونَ على بابِه ، أي : يَسْألون غيرَهم ، نحو : دَعَوْتُه وتَداعيْتُه .

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)

(426/791)

قوله : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ : هذا هو الدالُّ على فاعلِ سَلَكَنا كذا الواقعِ جواباً لقولِ المؤمنين لهم : ما سلككم ؟ التقدير : سَلَكَنا عدمُ صَلاتِنا وكذا وكذا . وقال أبو البقاء : " هذه الجملةُ سَدَّتْ مَسَدَّ الفاعلِ وهو جوابُ ما سَلَككم " ومرادُه ما قَدَّمْتُه . وإنْ كانَ في عبارتِه عُسْرٌ .

وأدغم أبو عمروٍ " سَلَككم " وهو نظيرُ ﴿ مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة : 200] وقد تقدَّم ذلك في البقرة . وقوله " ما سَلَكَكُم " يجوزُ أَنْ يكونَ على إضمار القولِ ، وذلك القولُ في موضع الحال ، أي : يتساءَلون عنهم ، قائلين لهم : ما سلككم ؟ وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف طابَقَ قولُه " ما سلككُمْ " وهو سؤالُ المجرمين قولَه " يتساءَلون عن المجرمين "

وهو سؤالٌ عنهم ، وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم ؟ قلت : قولُه " ما سلككم " ليس ببيانٍ للتساؤلِ عنهم ، وإنما هي حكايةُ قولِ المسؤولين عنهم ؛ لأن المسؤولين يُلْقُون إلى السَّائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون : قلنا لهم ما سلككم ؟

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

قوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ﴾ : كقولِه :

4397 على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمنارِه . . . . . .

. . . . . .

في أحدِ وجهَيْه ، أي : لا شفاعةَ لهم ، فلا انتفاعَ بها ، وليس المرادُ أنَّ ثَمَّ شفاعةً غيرَ نافعةٍ كقولِه : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49)

قوله : ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ : حالٌ من الضميرِ في الجارِّ الواقع خبراً عن " ما " الاستفهاميةِ ، وقد تقدَّم أنَّ مِثْلَ هذه الحالِ تُسَمَّى حالاً لازِمَةً وقد تقدَّم فيها بحثٌ حسنٌ . " وعن التذكرة " متعلِّقٌ به .

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50)

قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً من الضميرِ في الجارّ ، وتكون بدلاً مِنْ " مُعْرِضِيْنَ " قاله أبو البقاء ، يعني أَنَّها كالمشتملة عيلها ، وأنْ تكونَ حالاً من الضميرِ في " مُعْرِضِين " ، فتكونَ حالاً متداخلةً .

وقرأ العامَّةُ " حُمُرٌ " بضمِّ الميم ، والأعمش بإسكانِها . وقرأ نافعٌ وابنُ عامر بفتح الفاء مِنْ " مُسْتَنْفَرة " على أنه اسمُ مفعولٍ ، أي : نَفَّرها القُنَّاص . والباقون بالكسرِ بمعنى : نافِرة : يُقال : استنفر ونَفَر بمعنى نحو : عَجِب واستعجب ، وسخِر واسْتَسْخر . قال الشاعر :

4398 أَمْسِكْ حِمارَكَ إنَّه مُسْتَنْفِرُ . . . في إثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لغُرَّبِ

وقال الزمخشري : " كأنها تطلُبُ النِّفار مِنْ نفوسِها في جَمْعِها له وحَمْلِها عليه " انتهى .

فأبقى السينَ على بابِها من الطَّلَبِ ، وهو معنى حسن .

ورجَّحَ بعضُهم الكسرَ لقولِه " فَرَّتْ " للتناسُبِ . وحكى محمدُ ابنُ سَلاَّم قال : " سألتُ أبا سَوَّار الغَنَويَّ وكان عربياً فصيحاً ، فقلت : كأنهم/ حُمُرٌ ماذا ؟ فقال : مُسْتَنْفَرَة طَرَدَها قَسْورة . فقلت : إنما هو ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ فقال : أفرَّتْ ؟ قلت : نعم . قال : " فمُسْتَنْفِرة إذن " انتهى . يعني أنها مع قولِه " طَرَدها " تُناسِبُ الفتحَ لأَنَّها اسمُ مفعولٍ فلما أُخْبر بأنَّ التلاوةَ ﴿ فَرَّتْ مِن قسْورة ﴾ رَجَعَ إلى الكسرِ للتناسُبِ ، إلاَّ أنَ بمثلِ هذه الحكاية لا تُرَدُّ القراءةُ المتواترةُ .

والقَسْوَرَةُ : قيل : الصائِدُ . وقيل : ظلمةُ الليل . وقيل : الأسد ، ومنه قولُ الشاعر :

4399 مُضَمَّرٌ تَحْذَرُه الأبطالُ . . . كأنه القَسْوَرَةُ الرِّئْبالُ

أي : الأسد ، إلاَّ إنَّ ابن عباس أنكرَه ، وقال : لا أعرفُ القَسْوَرَةَ : الأسدَ في لغة العرب ، وإنما القَسْوَرَةُ : عَصَبُ الرجال ، وأنشد :

(428/791)

4400 يا بنتُ ، كثوني خَيْرَةً لخَيِّرَهْ . . . أخوالُها الجِنُّ وأهلُ القَسْوَرَهْ

وقيل : هم الرُّماةُ ، وأنشدوا للبيد بن ربيعة :

4401 إذا ما هَتَفْنا هَتْفَةً في نَدِيِّنا . . . أتانا الرجالُ العانِدون القساوِرُ

والجملةُ مِنْ قولِه " فَرَّتْ " يجوزُ أَنْ تكونَ صفةً لـ " حُمُر " مثلَ " مُسْتَنْفرة " ، وأنْ تكونَ حالاً ، قاله أبو البقاء .

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52)

قوله : ﴿ مُّنَشَّرَةً ﴾ : العامَّةُ على التشديد مِنْ " نَشَّره " بالتضعيف . وابن جبير " مُنْشَرَة " بالتخفيف . ونَشَر وأَنْشَرَ مثل : نَزَل وأَنْزَل . والعامَّةُ أيضاً على ضَمِّ الحاءِ مِنْ " صُحُف " ، وابن جبير على تكسينها ، قال الشيخ : " والمحفوظ في الصحيفة والثوب نَشَرَ مخففاً

ثلاثياً " قلت : وهذا مردودٌ بالقرآن المتواتر . وقال أبو البقاء في قراءةِ ابن جُبير : " مِنْ أَنْشَرْتُ : إمَّا بمعنى أَمَرَ بنَشْرِها مثلَ : " أَلْحَمْتُك عِرْضَ فلانٍ " ، أو بمعنى مَنْشورة مثل : أَحْمَدْتُ الرجلَ أو بمعنى : أَنْشَرَ اللَّهُ الميّتَ ، أي : أحياه ، فكأنه أحيا ما فيها بذكْرِه .

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

قوله : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ : قرأ نافعٌ بالخطاب ، وهو التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطاب ، والباقون بالغَيْبة حَملاً على ما تقدَّم مِنْ قولِه ﴿ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ ﴾ [المدثر : 52] ولم يُؤْثِروا الالتفاتَ ، والهاءُ في " إنَّه " للقرآن أو للوعيد .

قوله : ﴿ إِلَّا أَن يَشَآءَ ﴾ بمعنى : إلاَّ وقتَ مشيئتِه لا على أنَّ " أنْ " تنوبُ عن الزمانِ بل على حَذْفِ مضاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 533.559 ﴾

(429/791)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المدثر عليه الصلاة والسلام

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة سماعها نزهة قلوب الفقراء ، كلمة سماعها بهجة أسرار الضعفاء ، راحة أرواح الأحباء ، قوة قولب الأولياء ، سلوة صدور الأصفياء ، قرة عيون أهل البلاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ .

يا أيها المتدثر بثوبه .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ من القرآن . قيل : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَهَبَ إلى حِرَاء قبل النُّبُوة ، فَبَدا له جبريلُ في الهواء ، فرجع الرسول إل بيت خديجة وهو يقول " دثّروني دثّروني " فَدُثّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ وقيل : أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار .

ويقال : قُمْ بنا ، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا ، وأَنذِر عبادَنا ؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف ، ووقفناك بأعلى المقامات .

ويقال : لَمَّا سَكَنَ إلى قوله ﴿ قُمِ ﴾ وقام قَطَعَ عن السُّكونِ إلى قيامِه ، ومن الطمانينة في قيامه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

كَبِّرْه عن كلِّ طَلَبٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

طَهِّرْ قلبك عن الخلائق أجمع ، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة .

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلَّات ، وقلبَك عن المخالفات ، وسِرَّك عن الالتفاتات .

ويقال : أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ ؛ قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 187] ، فيعبر عنهن – أحياناً – بالثياب واللِّباس .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ .

أي : المعاصي . ويقال : الشيطان . ويقال : طهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا .

ويقال : مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة .

﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ .

(430/791)

لا تُعْطِ عطاءَ تطلب به زيادةٍ على ما تعطيه .

ويقال : لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك .

ويقال : لا تمنُنْ بعملك فتَسْتكثِرَ عملك ، وتُعْجَبَ به .

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

أي : أنت تُؤْذَى في اللهِ . فاصبرْ على مقاساةِ أذاهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ .

يعني : إذا قامت القيامةُ ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيّنٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ .

أي : لا تهتمْ بشأنهم ، ولا تَحْتَفِلْ ؛ فإنّي أكفيكَ أمرَهم .

إنّي خَلَقْتُه وحدي ؛ لم يشارِكْني في خلقي إيّاه أحدٌ .

ويحتمل : خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له .

قوله جلّ ذكرُه : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفَرِ .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾ .

أراد : تسهيلَ التصرُّف ، أي : مكَّنْتُهُ من التصرُّف في الأمور .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ .

يطمع أن أزيده في النعمة .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ .

جَحوداً .

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ .

سأحمله على مشقَّةٍ من العذاب .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ .

أي : لُعِنَ كيف فكَّر ، وكيف قدَّر ، ويعني به : الوليد بن المغيرة الذي قال في النبي صلى الله عليه وسلم : إنَّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذَّاب ، وإنه ليس ساحر ، وما يأتي به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى :

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ .

(431/791)

لا تُبقي لَحْماً ، ولا تَذَرُ عَظْماً ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّها ، من لاحته الشمسُ ولوَّحته .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيزداد المؤمنون إيماناً ، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القَدْر ؟ فقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ

يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

ثم قال :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِىَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ .

أي : تقاصرت علومُ الخَلْقِ فلم تتعلَّقْ إلا بمقدار دون مقدار ، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله – سبحانه .

﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴾ .

كلاّ – حرفُ ردعٍ وتنبيه ؛ أي : ؛ ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيرِه .

واقسم بهذه الأشياء ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴾ : أي بالقمر ، أو بقدرته على القمر .

﴿ وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وقُرِىءَ " ودَبَرَ " أي : مضى ، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أي : تجلَّى .

﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ .

أي : النار لإحدى الدواهي الكُبَر .

(432/791)

ويقال في ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴾ إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها في الزياد بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام في العلم وبلغت الغاية تبدوا إعلام المعرفة ،

فالعلم يأخذ النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فكما انه قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً – كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار .

﴿ وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أي إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن ، ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ وتجلَّت أنوار الحقائق في السرائر . . . إنها لإحدى العظائم ! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب .

﴿ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ .

في هذا تحذيرٌ من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات . . . فإنّها – في الحقيقة – لا خطرَ لها .

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عن الطاعات . . . وهذا على جهة التهديد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ .

أي : مرتهنة بما عملت ، ثم استثنى :

﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ .

فقال : إنهم غير مرتهنين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى في شأنهم : " هؤلاء في الجنة ولا أُبالي " !

وقيل : أَطفال المؤمنين .

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حَصِلَ لهم إشرافٌ عليهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ؟ ﴿ قالوا ألم نك من المصلين ﴾ ألم نكُ نُطْعِمُ المسكين ؟

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

(433/791)

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ ﴾ : نشرع في الباطل ، ونكذِّب بيوم الدين .

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ .

وهو معاينة القيامة .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ .

أي : لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ .

والتذكرة : القرآن :

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ .

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرَّت من أَسَدٍ .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ .

بل يريد كلُّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً .

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الأَخِرَةَ ﴾ .

أي : كَلاَّ لا يُعْطَوْن ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ .

إلاَّ أَنْ يشاءَ اللَّهُ – لا أَنْ تشاؤوا .

﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ .

أهل لأن يُتَّقى .

﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

وأهلٌ لأَنْ يغفِرَ لمن يَتَّقِي – إن شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 653.647 ﴾

(434/791)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المدّثّر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

الإعراب :

(يأيها المدّثّر) مثل يأيها المزمّل " 1 " ، (الفاء) عاطفة . . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " قم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قم .

---

(1) في الآية (1) من السورة السابقة .

(الواو) عاطفة في المواضع الخمسة ، وكذلك (الفاء) " 1 " ، (ربّك) مفعول به عامله كبّر

و(ثيابك ، الرجز) مفعولان لـ (طهّر ، اهجر) ، (لا) ناهية جازمة (لربّك) متعلّق بـ (اصبر)

، وجملة : "كبّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة معطوفة على جملة جواب النداء قم . . أي : قم فكبّر ربّك .

وجملة : " طهّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أخرى أي قم .

وجملة : " اهجر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أخرى أي قم .

وجملة : " لا تمنن . . . " لا محلّ لها معطوفة على إحدى الجمل الطلبيّة .

وجملة : " تستكثر . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تمنن .

وجملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أخرى أي قم .

الصرف :

(1) المدّثّر : اسم فاعل من الخماسيّ تدثّر أي لبس الدثار وهو الثوب . . أي المتلفّف بثيابه ، فيه إبدال تاء التفعل دالا للمجانسة ، وزنه متفعّل " 2 " .

(5) الرجز : بضمّ الراء وهو مثل الرجز بكسرها . . انظر الآية (59) من سورة البقرة .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ " .

قيل : كناية عن أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من

---

(1) هذه الفاء هي زائدة عند الفارسيّ ، وهي جواب (أمّا) المقدّرة عند غيره أي : وأمّا ربّك فكبّر . .

وقد ردّ ذلك ابن هشام في المغني لأنّ فيه حذفا بعد حذف . . لأن (أمّا) عوض من (مهما يكن من شيء) ، فلمّا حذفت من الكلام لم تعوّض بشيء فلا دليل على حذفها . . فهي إذا عاطفة عطفت الفعل بعدها على مقدّر هو قم ، أو تنبّه أو ما شاكل .

(2) انظر الآية (1) من سورة المزّمّل .

(436/791)

الأحوال . يقال فلان طاهر الذيل والأردان ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق .

المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " .

فالمعنى الحقيقي للرجز العذاب الشديد ، والمراد هنا عبادة الأصنام ، فعبّر بالرجز - وهو العذاب الشديد - لأنه مسبب عن عبادة الأصنام ، فعلاقة هذا المجاز المسببية .

[سورة المدثر (74) : الآيات 8 إلى 10]

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (في الناقور) نائب الفاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يومئذ) ظرف

منصوب - أو مبنيّ على الفتح لأنّه أضيف إلى غير متمكّن في محلّ نصب - بدل من إذا " 1 " ، وإذ اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه ، والتنوين هو تنوين عوض (يوم) خبر المبتدأ (ذلك) ، مرفوع (على الكافرين) متعلّق بـ (عسير) " 2 " (غير) نعت ثان .

جملة : " نقر في الناقور . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ذلك . . . يوم عسير " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(الناقور) ، اسم بمعنى الصور - وهو القرن ، وزنه فاعول من النقر وهو القرع .

---

(1) أو بدل من المبتدأ (ذلك) فهو في محلّ رفع .

(2) أو متعلّق بنعت له أو متعلّق بحال من الضمير في عسير .

(عسير) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ عسر باب فرح وباب كرم ، وزنه فعيل .

[سورة المدثر (74) : الآيات 11 إلى 15]

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (من) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على محلّ الياء في (ذرني) ، (وحيدا) حال من العائد المحذوف أي من خلقته منفردا (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلت و(له) الثاني متعلّق بـ (مهّدت) ، (تمهيدا) مفعول مطلق منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن أزيد . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (يطمع) أي في أن أزيده أو بأن أزيده .

جملة : " ذرني . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " جعلت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقت .

وجملة : " مهّدت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقت .

وجملة : " يطمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مهّدت .

وجملة : " أزيد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(11) وحيدا : صفة مشبّهة من الثلاثيّ وحد باب ضرب . .

ويأتي من باب وحد يحد بضمّ عينه في الماضي وكسرها في المضارع شاذّا ، وزنه فعيل .

(14) تمهيدا : مصدر قياسيّ للرباعيّ (مهّد) ، وزنه تفعيل بفتح التاء .

(438/791)

الفوائد :

- كفر وعناد :

لما أنزل اللّه عز وجل على نبيه محمد (صلّى اللّه عليه وسلّم) (حم تنزيل الكتاب من اللّه العزيز العليم) إلى قوله (المصير) قام النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) في المسجد يصلي ، والوليد بن المغيرة قريب منه ، يسمع قراءته فلما فطن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم ، فقال : واللّه لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن . واللّه إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى . ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبأ واللّه الوليد ولتصبونّ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : ما لي أراك حزينا يا ابن أخي ؟ فقال : وما يمنعني ألّا أحزن ، وهذه قريش ، يجمعون لك نفقة ، يعينونك

على كبر سنّك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة ، لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا وولدا . وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ، ثم قام مع أبي جهل ، حتى أتى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه قال الشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتهم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا . فقالت قريش للوليد فما هو ؟ فتفكر في نفسه ، ثم قال :

(439/791)

ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر ، وما يقوله سحر يؤثر فذلك قوله عز وجل : " إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ " فعند ما قال ذلك ، ارتجّ النادي فرحا ، وتفرقوا متعجبين منه .

[سورة المدثر (74) : الآيات 16 إلى 25]

كَلَّاإِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)

ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر (لآياتنا) متعلّق بـ (عنيدا) بمعنى (جاحدا) ، (صعودا) تمييز منصوب .

جملة : "إنّه كان لآياتنا . . . " لا محلّ لها تعليل للردع .

وجملة : "كان لآياتنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الأول) .

وجملة : " سأرهقه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) و(ثمّ) في المواضع الأربعة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال عامله قدّر .

وجملة : "إنّه فكّر . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " فكّر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

وجملة : " قدّر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة فكّر .

وجملة : " قتل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه فكّر .

وجملة : " قدّر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قتل (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة قتل (الأولى) .

وجملة : " قدّر (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ مؤكّد للأول .

وجملة : " نظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدّر الثانية " 1 " .

---

(1) أو معطوفة على جملة قدّر الأولى ، فهي في محلّ رفع ، وما بين الجملتين اعتراض .

وجملة : " عبس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نظر .

وجملة : " بسر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عبس - أو نظر - .

جملة : " أدبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عبس .

وجملة : " استكبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عبس .

(الفاء) عاطفة (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر ، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على سحر (إن هذا إلّا قول) مثل إن هذا إلّا سحر . .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبر .

وجملة : " إن هذا إلّا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "إن هذا إلّا قول . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "يؤثر . . . "في محلّ رفع نعت لسحر.

الصرف:

(صعودا) ، بفتح الصاد اسم بمعنى العقبة الشاقّة، أو مشقّة العذاب، وزنه فعول بفتح فضمّ.

[سورة المدثر (74) : الآيات 26 إلى 30]

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

الإعراب:

(سقر) مفعول به ثان منصوب "1" ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث.

جملة: "سأصليه سقر . . . "لا محلّ لها استئنافيّة "2" .

---

(1) أو هو منصوب على نزع الخافض أي في سقر بتضمين (أصليه) معنى أحرقه.

(2) أجاز الزمخشريّ أن تكون بدلا من (سأرهقه صعودا) .

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ في الموضعين (سقر) خبر الثاني .

جملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما سقر . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ المفعول لفعل أدراك المعلّق بالاستفهام .

(لا) نافية (الواو) عاطفة ، ومفعول (تبقي) و(تذر) محذوف (لوّاحة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي (البشر) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به للمبالغة لوّاحة ، و(اللام) للتقوية (عليها) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (تسعة عشر) جزءان عدديان مبنيان على الفتح في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " لا تبقي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " لا تذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تبقي .

وجملة : " (هي) لوّاحة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر " 3 " .

وجملة : " عليها تسعة عشر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر " 4 " .

الصرف :

(29) (لوّاحة) مؤنّث لوّاح صيغة مبالغة من لاح يلوح بمعنى غيّر الجلد ، أو بمعنى ظهر " 5 " ، واللوح أيضا شدة العطش . . وزنه فعّال بفتح الفاء .

(البشر) ، جمع بشرة بمعنى الجلد . اسم جامد ، وزنه فعلة بفتح الفاء والعين واللام ، ووزن البشر فعل بفتحتين . . وقد يكون البشر اسم جمع للناس .

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة بين الحال وعاملها – أو صاحبها – ، والاعتراض للتعظيم والتهويل .

(2) أو في محلّ نصب حال من سقر الثاني والعامل فيها معنى التعظيم في قوله ما سقر . . أو حال من سقر الأول .

(3 ، 4) أو في محلّ نصب حال من سقر الثاني أو الأول

(5) هذا المعنى يجعل (اللام) في قوله للبشر للجرّ متعلّق بـ (لوّاحة)

(442/791)

البلاغة

فن الإبهام : في قوله تعالى " عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ " وهذا الفن ، هو أن يقول المتكلم كلاما ، يحتمل معنيين متغايرين ، لا يتميز أحدهما عن الآخر . وفي هذه الآية الكريمة عدة معان محتملة ، منها : أن حال هذه العدة الناقصة واحدا من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ، ويعترض ويستهزئ ، ولا يذعن إذعان المؤمن ، وإن خفي عليه وجه

الحكمة ، كأنه قيل : ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمن وحيرة الكافر ، واستيقان أهل الكتاب ، لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين ، فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من اللّه ، وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك ، كما صدقوا سائر ما أنزل .

الفوائد :

- حذف التمييز :

يحذف التمييز إذا فهم من سياق الكلام ، كما في الآية التي نحن بصددها (عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ) ، أي تسعة عشر ملكا . وفي قولنا (كم صمت) أي كم يوما صمت . وقوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ) . وهو شاذ في باب (نعم) نحو " من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت " أي فبالرخصة أخذ ونعمت رخصة .

[سورة المدثر (74) : آية 31]

وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (31)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية في المواضع الأربعة (إلّا) للحصر في المواضع الأربعة (ملائكة) مفعول به ثان منصوب ، وكذلك (فتنة) ، (للذين) متعلّق بنعت لـ (فتنة) ، (اللام) للتعليل (يستيقن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، و(الواو) في (أوتوا) نائب الفاعل في الموضعين (يزداد) مضارع منصوب معطوف على (يستيقن) . . (إيمانا) تمييز .

والمصدر المؤوّل (أن يستيقن . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) الثاني .

(الواو) عاطفة (لا) نافية (يرتاب) مضارع منصوب معطوف على (يستيقن) ، (ليقول) مثل ليستيقن (في قلوبهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مرض) ، (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله أراد " 1 " (بهذا) متعلّق بـ (أراد) ، (مثلا) حال منصوب من اسم الإشارة .

والمصدر المؤوّل (أن يقول . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) الثاني فهو معطوف على المصدر الأوّل .

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يضلّ (من) موصول في محلّ نصب مفعول به في الموضعين لفعلي الضلالة والهداية (هو) ضمير منفصل

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر والجملة في محلّ نصب مقول القول وجملة أراد صلة ذا . [. . . . .]

(444/791)

في محلّ رفع فاعل (يعلم) ، (هي) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره (ذكرى) ، (للبشر) متعلّق بـ (ذكرى) .

جملة : " ما جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما جعلنا (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " يستيقن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " يزداد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستيقن .

(445/791)

وجملة : " لا يرتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستيقن .

وجملة : " أوتوا . . (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الرابع .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الخامس .

وجملة : " أراد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يضلّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " يهدي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّ .

وجملة : " يشاء (الثانية) . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني وجملة : " ما يعلم . . . إلّا هو " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّ اللّه . .

وجملة : " ما هي إلّا ذكرى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جمل يضلّ اللّه . .

الصرف :

(يرتاب) ، فيه إعلال بالقلب أصله يرتيب ، تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا ، والقلب منسحب من الماضي ارتاب ، وزنه يفتعل .

الفوائد

الترجيح :

أحيانا يرد في الإعراب وجهان صحيحان ، لكننا نحكم بترجيح أحد الوجهين ، بناء على استعمال آخر يشهد بذلك ، في نظير ذلك الموضع . ومن أمثلة ذلك ، قول مكي في قوله تعالى : (ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً) إن جملة (يضلّ) صفة لـ (مثلا) أو مستأنفة ، والصواب الوجه الثاني ، وهو الاستئناف ، لقوله تعالى في سورة المدثر ، في الآية التي نحن بصددها : (ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا ؟ كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) .

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 إلى 37]

كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر " 1 " ، (الواو) واو القسم ، والجار والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (الواو) عاطفة في الموضعين (الليل ، الصبح) معطوفان على القمر مجروران

(إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بفعل القسم المحذوف (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق بفعل القسم المقدّر ، والضمير اسم (إنّ) يعود

---

(1) جعلها الجلال المحلّي أداة استفتاح بمعنى ألا ، وجعلها الفرّاء وبعض البصريين بمعنى حرف الجواب السابق للقسم (إي) بكسر الهمزة .

(447/791)

على سقر (اللام) للتوكيد في موضع لام القسم عوض من المزحلقة (إحدى) خبر إنّ مرفوع . .

جملة : " (أقسم) بالقمر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أدبر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أسفر . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذا) إليها .

وجملة : " إنّها لإحدى . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

(نذيرا) حال منصوبة من إحدى والعامل فيها التوكيد " 1 " ، (للبشر) متعلّق بـ (نذيرا) ، (لمن) بدل من البشر بإعادة الجارّ (منكم) متعلّق بحال من الضمير العائد (أن) حرف

مصدريّ ونصب (أو) حرف عطف .

وجملة : " شاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يتقدّم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يتقدّم) في محلّ نصب مفعول به لفعل شاء .

وجملة : " يتأخّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتقدّم .

الصرف :

(35) الكبر : جمع كبري مؤنّث أكبر ، وزنه فعل بضمّ ففتح .

[سورة المدثر (74) : الآيات 38 إلى 42]

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40)
عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

---

(1) وجاء اللفظ مذكّرا لتضمين إحدى معنى العذاب . . وقيل هو حال من الضمير في إحدى والعامل فيها معنى التعظيم أي أعظم الكبر منذرة . . وقيل هو حال من الكبر أو من ضميره . .

وأجازوا أن يكون تمييزا بجعله مصدرا بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . . أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف إذا كان مصدرا . .

الإعراب :

(ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (إلّا) للاستثناء (أصحاب) مستثنى بإلّا منصوب " 2 " . . والمصدر المؤوّل (ما كسبت) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (رهينة) بمعنى مرهونة .

(في جنّات) متعلّق بحال من فاعل يتساءلون " 3 " ، (عن المجرمين) متعلّق بـ (يتساءلون) بحذف مضاف أي عن حال المجرمين (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة سلككم (في سقر) متعلّق بـ (سلككم) أي أدخلكم .

جملة : "كلّ نفس . . رهينة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كسبت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يتساءلون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما سلككم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي :

يقولون بعد ذلك : ما سلككم . . وجملة القول المقدّرة استئنافيّة .

وجملة : " سلككم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

الصرف :

(38) رهينة : مؤنّث رهين – انظر الآية (21) من سورة الطور – صفة مشتقّة ، ويحسن

أن يبقى بغير تأويل لمعنى مفعول - فعيل بمعنى مفعول لا يؤنّث بالتاء بل يستوي فيه التذكير والتأنيث - وقد يكون مصدرا أطلق وأريد به المفعول كالشتيمة - على رأي الزمخشريّ - قال: لأن اللّه تعالى جعل تكليف عباده كالدين عليهم ونفوسهم مرهونة.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف.

(2) الاستثناء متّصل من كلّ نفس.. وقيل هو منقطع بتأويل معنى كلّ نفس كافرة هي مأخوذة بعملها في النار.

(3) أو متعلّق بخبر محذوف تقديره هم، والجملة استئناف بيانيّ.

(449/791)

[سورة المدثر (74): الآيات 43 إلى 47]

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47)

الإعراب:

(نك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهرة على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه ضمير مستتر تقديمه نحن (من المصلّين) متعلّق بخبر نك (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة

(مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (نخوض) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لمنك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لمنك (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة لمنك (الأولى) .

وجملة : " نطعم . . . " في محلّ نصب خبر نك .

وجملة : " كنّا نخوض . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لمنك (الأولى) .

وجملة : " نخوض . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

(بيوم) متعلّق بـ (نكذّب) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ . .

والمصدر المؤوّل (أن أتانا . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بالأعمال الأربعة : عدم الصلاة ، عدم الإطعام ، الخوض ، التكذيب . .

وجملة : " كنّا نكذّب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " نكذّب . . . " في محلّ نصب خبر كنّا (الثاني) .

وجملة : " أتانا اليقين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الصرف :

(الخائضين) ، جمع الخائض ، اسم فاعل من الثلاثيّ خاض ، وزنه فاعل ، وفيه إبدال عينه المعتلة همزة على القياس ، وأصله خاوض ، جاءت الواو بعد ألف فاعل الساكنة قلبت

همزة . .

[سورة المدثر (74) : آية 48]

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) نافية.

جملة : " ما تنفعهم شفاعة . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان هذا أمرهم

فما تنفعهم شفاعة . .

البلاغة :

(450/791)

فن نفي الشيء بإيجابه : في قوله تعالى " فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ " .

وهذا الفن ، هو أن يثبت المتكلم شيئا في ظاهر كلامه ، بشرط أن يكون المثبت مستعارا ،

ثم ينفي ما هو من سببه مجازا ، والمنفي حقيقة في باطن الكلام .

ففي هذه الآية الكريمة ، ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفعهم شفاعة من يشفع لهم ، وإنما

المعنى نفي الشفاعة ، فانتفى النفع ، أي لا شفاعة لهم فتنفعهم .

[سورة المدثر (74) : الآيات 49 إلى 51]

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

الإعراب :

(ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لهم) متعلّق بمحذوف

خبر (عن التذكرة) متعلّق بـ (معرضين) وهو حال منصوبة من الضمير في (لهم) ، (من

قسورة) متعلّق بـ (فرّت) .

جملة : " ما لهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كأنّهم حمر . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في معرضين فهي حال

متداخلة .

وجملة : " فرّت . . . " في محلّ رفع نعت ثان لحمر " 1 " .

الصرف :

(50) مستنفرة : مؤنّث مستنفر ، اسم فاعل من السداسيّ استنفر ، وزنه مستفعل بضمّ

الميم وكسر العين .

(51) قسورة : اسم جامد بمعنى الأسد ، أو اسم جمع بمعنى الجماعة الرماة لا واحد له

من لفظه . . وعند العرب كلّ ضخم شديد فهو قسورة ، وزنه فعللة ، بفتح فسكون .

البلاغة :

التشبيه المرسل : في قوله تعالى "كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ" .

شبههم في إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر والموعظة ، بحمر فرّت من حظيرتها ، مما أفزعها . وفي تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بيّن ، كما في قوله تعالى : " كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً " ، وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب .

---

(1) أو محلّ نصب حال من حمر لتخصّصه بالوصف بتقدير قد بحذف مضاف أي وقت مشيئة اللّه ، متعلّق بـ (يذكرون) .

(451/791)

[سورة المدثر (74) : الآيات 52 إلى 53]

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (منهم) متعلّق بنعت لـ (كلّ امرئ) (أن) حرف مصدريّ ونصب ، ونائب الفاعل ضمير مستتر .

جملة : "يريد كلّ امرئ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤتى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يؤتى . . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل يريد .

(كلّا) حرف ردع وزجر (لا) نافية .

وجملة : " لا يخافون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(يؤتى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يؤتي - بياء في آخره متحركة قبلها تاء مفتوحة - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(منشّرة) ، مؤنّث منشّر ، اسم مفعول من الرباعيّ نشّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

[سورة المدثر (74) : الآيات 54 إلى 56]

كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (أن) حرف مصدريّ ونصب . .

والمصدر المؤوّل (أن يشاء اللّه) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (يذكرون) أي إلّا

بمشيئة اللّه " 1 " .

جملة : " إنّه تذكرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من شاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " ذكره . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يذكرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(452/791)

وجملة : " يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هو أهل . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(56) التقوى : هو عوض من المصدر المؤوّل في البناء للمجهول أي أهل لأن يتّقى . . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 29 صـ 147 . 165 ﴾

---

(1) أو هو في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانيّة .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(74) سورة المدّثر صلى الله عليه وسلم

مكيّة وآياتها ستّ وخمسون

[سورة المدثر (74) : الآيات 1 إلى 31]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8)

فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9)

عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً

(12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14)

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ

وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)

فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)

إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29)

عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (31)

(454/791)

اللغة :

(الْمُدَّثِّرُ) لابس الدثار وهو ما فوق الشعار أي الثوب الذي يلي الجسد وأصله المتدثر أدغمت التاء في الدال كما تقدم في المزمل أي المتلفف بثيابه عند نزول الوحي عليه ، روي عن جابر رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول اللّه فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئا ، فنظرت فوقي

فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض ، يعني الملك الذي ناداه ، فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني دثروني فنزل جبريل وقال يا أيها المدثر .

(الرُّجْزَ) بكسر الراء وهي قراءة الجمهور وقرأ حفص ومجاهد والسلمي وغيرهم بضمها فقيل هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان ، وقيل : الكسر لتبيين النقائض والفجور والضم لضمين أساف

ونائلة وقال الحسن كل معصية والمعنى في الأمر اثبت ودم على هجره لأنه صلّى اللّه عليه وسلم كان بريئًا منه ، وقال النخعي الإثم ، وقال القتبي : العذاب أي اهجر ما يؤدي إليه ، وأخذ به الزمخشري قال :

" والرجز بالكسر والضم وهو العذاب ومعناه اهجر ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم . والمعنى الثبات على هجره لأنه كان بريئًا منه " . وفي القاموس " الرجز بالكسر والضم القذر وعبادة الأوثان والشرك " والزاي منقلبة عن السين والعرب تعاقب بينهما والمعنى واحد .

(النَّاقُورِ) النقر الصوت قال الشاعر :

أخفضه بالنقر لما علوته ويرفع طرفا غير خاف غضيض

والناقور فاعول منه كالجاسوس مأخوذ من التجسس والمراد هنا الصور وهو القرن .

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً) التمهيد في الأصل التسوية والتهيئة ويتجوز به عن بسط المال والجاه ،

قال في الكشاف : " وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه " .

(455/791)

(عَبَسَ) يعبس عبسا وعبوسا قطب وجهه وبا به جلس والعبس ما يبس في أذناب الإبل من البعر والبول .

)

بَسَرَ) بسر يبسر بسرا وبسورا إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشيء واسود وجهه منه وبا به دخل ويقال وجه باسر أي منقبض أسود وقال الراغب : " البسر استعجال الشيء قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته : طلبها في غير أوانها ، وماء بسر : متناول من غدير قبل سكونه ، ومنه قيل للذي لم يدرك من الثمر بسر وقوله تعالى : (عَبَسَ وَبَسَرَ) أي أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته فإن قيل : فقوله تعالى : " ووجوه يومئذ باسرة " ليس يفعلون ذلك قبل الوقت وقد قلت إن ذلك فيما يقع قبل

وقته قيل أشير بذلك إلى حالهم قبل الانتهاء إلى النار فحص لفظ البسر تنبيها على أن ذلك مع ما ينالهم منه يجري مجرى التكليف ومجرى ما يفعل قبل وقته ويدل على ذلك قوله تظن أن

يفعل بها فاقرة" .

(سَقَرَ) اسم من أسماء جهنم وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

(لَوَّاحَةٌ) محرقة لظاهر الجلد وهي بناء مبالغة وفيها معنيان أحدهما من لاح يلوح أي ظهر أي أنها تظهر للبشر وثانيهما وهو الأرجح أنها من لوّحه أي غيّره وسوّده ، وعبارة الزمخشري : " لواحة من لوح الهجير قال :

تقول ما لاحك يا مسافر يا ابنة عمي لاحني الهواجر

قيل تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادا من الليل والبشر عالي الجلود .

الإعراب :

)

(456/791)

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) تقدم إعراب يا أيها المدثر في يا أيها المزمل ، وقم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت فأنذر عطف على قم . وقال الزجاج : " إن الفاء في فكبر دخلت على معنى الجزاء كما دخلت في فأنذر قال ابن جني : هو كقولك زيدا فاضرب أي زيدا اضرب فالفاء زائدة " . والواو عاطفة وربك مفعول به مقدم والفاء رابطة لشرط

مقدر يقتضيه السياق كأنه قيل وأيا ما كان فلا تدع تكبيره ونحوه قولك زيدا فاضربه ، قال النحاة تقديره تنبه فاضرب زيدا فالفاء جواب الأمر إما على أنه مضمن معنى الشرط وإما على أن الشرط بعده محذوف على الخلاف الذي فيه عندهم ، وكبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت . (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) الواو عاطفة وثيابك مفعول مقدم والفاء تقدم القول فيها قريبا ، وطهر فعل أمر . (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) عطف أيضا على ما تقدم . (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) الواو عاطفة ولا ناهية وتمنن فعل مضارع مجزوم بلا وتستكثر فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة نصب على الحال أي ولا تعط مستكثرا ، وقرىء مجزوما على أنه جواب النهي أو على البدلية من تمنن والتقدير على جعله جوابا للنهي أي أنك إن لا تمنن بعملك أو بعطيتك تزدد من الثواب لسلامة ذلك من الإبطال بالمن على حد قوله تعالى : " لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " ووجه الإبدال أنه كقوله تعالى : " ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب " ، وفي قراءة من جزم بدلا من قوله يلق وكقول الشاعر :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

)

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) الواو عاطفة ولربك متعلقان باصبر . (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) الفاء للتسبيب والعلة كأنه قال اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه مغبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك ، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وهو متعلق بما يدل عليه الإشارة في قوله فذلك لأنه إشارة إلى النقر ويجوز أن يتعلق بما دل عليه عسير ولا يعمل فيه عسير نفسه لأن الصفة لا تعمل فيما قبلها والتقدير اشتد الأمر وعسر ، ونقر فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو أي إسرافيل .

والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها وفي الناقور متعلقان بنقر .

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ) الفاء رابطة لجواب إذا وذلك مبتدأ والإشارة إلى وقت النقر ويومئذ بدل من ذلك وبني لإضافته إلى غير متمكن وهو إذ والتنوين عوض عن جملة أي يوم إذ نفخ في الصور ، ويوم خبر المبتدأ وعسير نعت . (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) على الكافرين متعلقان بعسير وغير يسير نعت ثان ليوم ، وللزمخشري تعليل طريف قال : " فإن

قلت فما فائدة قوله غير يسير وعسير مغن عنه ، قلت لما قال على الكافرين فقصر العسر عليهم قال غير يسير ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هنيا ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا " . (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) ذرني فعل أمر والنون للوقاية والفاعل مستتر تقديره أنت والياء مفعول ومن الواو للمعية ومن مفعول معه ويجوز أن تكون الواو عاطفة ومن معطوفة على المفعول في ذرني وجملة خلقت صلة الموصول والعائد محذوف أي خلقته ، ووحيدا حال من العائد المحذوف أو حال من ضمير النصب في ذرني أو من التاء في خلقت أي خلقته وحيدا لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى نصير ، قيل الأول أولى لأن المراد به الوليد بن المغيرة المخزومي والد خالد بن الوليد لأنه كان يزعم أنه وحيد قومه في رياسته ويساره وتقدمه في الدنيا وليس في ذلك ما يقتضي صدق مقالته لأن هذا لقب شهر به وقد يلقب الإنسان بما لا يتصف به وقيل هو عام . (وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً) عطف على ما تقدم وله متعلقان بمحذوف هو المفعول الثاني ومالا هو المفعول الأول وممدودا نعت وقيل هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الزروع والضروع والتجارة . (وَبَنِينَ شُهُوداً) عطف على مال قيل كان للوليد عشرة أولاد ذكور أو سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد شمس ، أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة ونقل عن ابن حجر في

الإصابة : أن عمارة مات كافرا وذكر بدله الوليد بن الوليد فهم خالد وهشام والوليد .

وشهودا نعت لنبين جمع شاهد بمعنى حاضر فهم يشهدون مع أبيهم الأندية والمجتمعات .

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً) عطف على ما تقدم وله متعلقان بمهدت وتمهيدا مفعول مطلق .

)

(459/791)

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وفيه استبعاد

واستنكار بطمعه وحرصه وتهالكه على زيادة المال والنعمة ويطمع فعل مضارع مرفوع

معطوف على جعلت ومهدت وفاعله مستتر تقديره هو وأن وما في حيزها في تأويل مصدر

منصوب بنزع الخافض متعلق بيطمع أي يطمع في الزيادة على ما ذكر من المال والبنين

والتمهيد . (كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً) كلا ردع وزجر له لقطع رجائه وطمعه وتهالكه ، وإن

وما بعدها جملة تعليلية للردع لأن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفرانها مع شيوعها من

موبقات النفس وموجبات الحرمان وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره

هو ولآياتنا متعلقان بعنيدا وعنيدا خبرها والعين الجاحد والمعرض والمجانب للحق

والهدى ويجمع على عند . (سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً) السين حرف استقبال وأرهقه فعل مضارع

وفاعل مستتر ومفعول به أول وصعودا مفعول به ثان لأن أرهقه متضمن معنى أكلفه ، والصعود في اللغة العقبة الشاقة وإذا لم يتضمن أرهقه معنى أكلفه كانت صعودا في موضع نصب بنزع الخافض أي سأعنته بمشقة وعسر . (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) تعليل لاستحقاقه هذا الوعيد الآنف الذكر وإن واسمها وجملة فكر خبر وقدر عطف على فكر . روي أن الوليد حاجّ أبا جهل وجماعته من قريش في أمر القرآن وقال : إن له لحلاوة وإن أسفله لمفرقه وإن فرعه لجناه وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى ونحو هذا الكلام فخالفوه وقالوا : هو شعر فقال : واللّه ما هو بشعر وقد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه قالوا فهو كاهن قال : واللّه ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان قالوا : هو مجنون قال : واللّه ما هو بمجنون لقد رأينا المجنون وخنقه قالوا : هو سحر قال : أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه وروي غير ذلك بما لا يخرج عن هذه المعاني مما يرجع إليه في المطولات . (

(460/791)

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) الفاء عاطفة وقتل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو ومعناه لعن وقيل غلب وقهر ، قال امرؤ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

أي مذلل مقهور بالحب . فإذا كان معناه لعن فالجملة دعائية وإذا كان معناه غلب وقهر فالجملة معطوفة على ما تقدم وكيف اسم استفهام منصوبة على الحال من الضمير في قدر والمقصود من الاستفهام التعجب من تقديره وتوبيخه والاستهزاء به . (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) ثم حرف عطف للترتيب والتراخي وأتي بها للدلالة على أن هذه الجملة أبلغ من الجملة الأولى فهي للتفاوت في الرتبة وهي مؤكدة لنظيرتها المتقدمة فالتكرار للتأكيد . (ثُمَّ نَظَرَ) ثم حرف عطف أيضا للترتيب مع التراخي أي نظر في وجوه الناس مغضبا مما قالوه فيه وهو أنه صبأ ومال إلى محمد . (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) عطف أيضا أي ثم قطب وجهه ثم تشاوس وتخازر مستكبرا . (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) عطف أيضا أي أدبر عن الإيمان وتكبر عن اتباع النبي فهو عطف مساو في المعنى . فقال : (إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) الفاء عاطفة وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وسحر خبر وجملة يؤثر صفة لسحر أي منقول عن السحرة . (إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) هذه الجملة تأكيد للجملة السابقة أي ملتقط من أقوال الناس . (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) السين حرف استقبال وأصليه فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا ومفعول به أول وسقر مفعول به ثان والجملة كلها بدل من قوله سأرهقه صعودا . (

وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ) الواو عاطفة وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وأدراك فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو ومفعول به أول والجملة خبر ما أي أيّ شيء أعلمك ، وما اسم استفهام مبتدأ وسقر خبره والجملة سادة مسد المفعول الثاني لأدراك المعلقة عن العمل بالاستفهام وقد مرّ نظيره في الحاقة . (لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ) الجملة حالية والعامل فيها معنى التهويل والتعظيم لأمرها لأن الاستفهام بقوله ما سقر للتعظيم فالمعنى استعظموا سقر في هذه الحال ولا نافية وتبقي فعل

مضارع وفاعله مستتر تقديره وهي وتذر عطف على تبقي ومفعول تبقي وتذر محذوف أي لا تبقي ما ألقي

فيها ولا تذره بل تهلكه ولك أن تجعلها جملة مستأنفة . (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ) لواحة خبر لمبتدأ محذوف وللبشر متعلقان بلواحة والجملة حال ثانية وقرئت لواحة بالنصب على الحال فقيل هي حال من سقر وقيل هي حال من الضمير في لا تبقي وقيل من الضمير في لا تذر واختار الزمخشري نصبها على الاختصاص للتهويل .

(عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ) الجملة حال ثالثة أو مستأنفة كما تقدم في لواحة للبشر وعليها خبر مقدم وتسعة عشر جزءان عددیان مبنيان على الفتح في محل رفع مبتدأ مؤخر ، وسيأتي المزيد من معنى هذا العدد في باب البلاغة . (وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً) الواو

استئنافية والكلام استئناف مسوق للرد على أبي الأشد به كلدة بن خلف الجمحي قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية : " عليها تسعة عشر " قال أبو جهل لقريش :

(462/791)

ثكلتكم أمهاتكم محمد يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ؟ فقال أبو الأشد : أنا أكفيكم منهم سبعة عشر : عشرة على ظهري وسبعة على بطني وأكفوني أنتم اثنين فنزلت . وما نافية وجعلنا فعل ماض وفاعل وأصحاب النار مفعول به أول وإلا أداة حصر وملائكة مفعول به ثان أي ما جعلناهم رجالا من جنسكم تغالبونهم وإنما جعلناهم ملائكة لا يطاقون . (وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) الواو عاطفة وما نافية وجعلنا فعل ماض وفاعل وعدتهم مفعول به وإلا أداة حصر وفتنة مفعول به ثان على حذف مضاف أي سبب فتنته وليست مفعولا من أجله كما يتوهم ، وللذين متعلقان بفتنة وجملة كفروا صلة الموصول . (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً) اللام لام التعليل ويستيقن فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل وهو متعلق بجعلنا الثانية لا بفتنة لأن الفتنة ليست معلولة للاستيقان بل المعلول جعل العدة

سببا لفتنة الذين أوتوا الكتاب ، وقيل ليستيقن متعلق بفعل مضمر أي فعلنا ذلك ليستيقن ، والذين فاعل وجملة أوتوا الكتاب صلة والكتاب مفعول أوتوا الثاني لأن الواو نائب فاعل أوتوا ويزداد عطف على ليستيقن والذين فاعل وجملة آمنوا صلة وإيمانا مفعول به ثان .

(وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة ولا نافية ويرتاب الذين فعل مضارع وفاعل وجملة أوتوا الكتاب صلة والمؤمنون عطف على الذين .

)

(463/791)

وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا) عطف على ما تقدم واللام لام التعليل والذين فاعل وفي قلوبهم خبر مقدم ومرض مبتدأ مؤخر والجملة صلة الذين وماذا اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لأراد وبهذا متعلقان بأراد ومثلا حال من هذا أي حال كونه مشابها للمثل ، ولك أن تجعل ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبره وأراد الله صلة للموصول وجملة ماذا أراد إلخ مقول القول . (كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) كذلك نعت لمصدر محذوف يضل إضلالا مثل ذلك والله فاعل يضل ومن مفعوله وجملة يشاء صلة والعائد محذوف ويهدي من يشاء عطف على الجملة السابقة .

(وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) الجملة مستأنفة . (وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ) الواو عاطفة وما نافية وهي ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ والضمير يعود إلى سقر وإلا أداة حصر وذكرى خبر وللبشر متعلقان بذكرى .

البلاغة :

1- في قوله تعالى : (عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ) فن الإبهام وقد تقدم الإلماع إليه في هذا الكتاب ونعيده هنا بمزيد من التفصيل لأهمية هذه الآية ولكثرة ما خاض علماء البلاغة والمفسرون فيها ، فنقول : الإبهام

فن من فنون البلاغة ، وهو أن يقول المتكلم كلاما يحتمل معنيين متغايرين لا يتميز أحدهما عن الآخر والفرق بينه وبين الاشتراك المعيب أن الاشتراك لا يصح إلا في لفظة مفردة لها مفهومان لا يعلم أيهما أراد المتكلم ، والإبهام لا يكون إلا في الجمل المؤتلفة المفيدة ويختص بالفنون كالمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والفخر والرثاء والنسيب وغير ذلك ، ومنه نوع آخر يقع لأحد أمرين : إما لامتحان جودة الخاطر وإما لامتحان قوة الإيمان وضعفه ، وهذه الآية التي نحن بصددها من هذا النوع أي امتحان قوة الإيمان وضعفه فإنه معنى

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) مبهم أشدّ الإبهام ، فإن لقائل أن يقول : ما النكتة في ذكر هذا العدد ؟ ولا يقال إن هذا السؤال ساقط فإنه يرد على أي عدد فرض بحيث لو قيل عليها خمسة عشر أو أحد عشر أو عشرون أو غير ذلك ورد السؤال عليه وما كان بهذه المثابة فهو ساقط لأنّا نقول : هذا فيما يرد من المخلوق الذي يدخل خبره الخلف وليس بمعصوم من الكذب أما البارئ سبحانه الذي لا يدخل خبره الخلف وإذا أخبر بشيء كان خبره على ما أخبر به فإنه إذا أخبر بعدد لا يجوز أن يقال فيه لو قال غيره ورد عليه السؤال لأنه الحق الواقع الذي لا مرية فيه وإذا كان ذلك كذلك يمكن لقائل أن يقول : ما الحكمة في جعل ملائكة العذاب على هذه العدة ؟

فيكون السؤال واردا مستحقا للجواب ليزول هذا الإبهام الذي على ظاهر الكلام ، هذا ونورد خلاصة لما قاله كبار الأعلام في تفسير هذا الإبهام ثم نورد بعد ذلك رأيا آثرناه على غيره ليكون في ذلك إيراد للذهن وحفز للقرائح ، على أننا لم نورد ما رأيناه غير جدير بالعناية .

أما الإمام فخر الدين بن الخطيب فقد رأى رأيا فيه كثير من السداد والحصافة قال : " لما كان المكلف عبارة عن حواس ظاهرة وحواس باطنة وهي عشر وطبائع وقوى خمس وهي الهاضمة والغازية

والماسكة والدافقة . وكانت هذه الأشياء هي التي تدعو إلى الاشتغال بالملاذ الدنيوية والشهوات البهيمية ودفع المضارّ البدنية عن الاشتغال بما يدني من الجنان ويباعد من النيران وكانت عدة هذه الأشياء تسعة عشر جعلت الملائكة الموكلة بتعذيب الإنسان وفق هذه العدة ليكون بإزاء كل شيء من هذه الأشياء ملك موكل باستيفاء ما يجب على ذلك الشيء الذي هو أحد الأسباب المانعة من الخير " .

هذا ما ذكره الرازي وهو على وجاهته ونفاسته لا يخلو من التكلف . أما الكرخي فقد اختصر ما ذكره الرازي وزاد عليه من جهة ثانية فقال : " وخص هذا العدد بالذكر لأنه موافق لعدد أسباب فساد النفس الإنسانية وهي القوى الإنسانية والطبيعية إذ القوى الإنسانية اثنتا عشرة الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب ، والقوى الطبيعية سبعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والعادية والنامية والمولدة والمجموع تسعة عشر " .

أما الأقدمون وعلى رأسهم الزمخشري فقد استنبطوا استنباطا بيانيا جميلا ، قال الزمخشري : " إن حال هذه العدة الناقصة واحدا من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزىء ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفي عليه وجه الحكمة كأنه قيل ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمن وحيرة

الكافر واستيقان أهل الكتاب لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من اللّه وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ولما رأوا من يسلم أهل الكتاب " وهذا على وجاهته لا يخلو من اعتراض .

أما القرطبي فلم يخرج عن الحدود السمعية ولم يلجأ إلى الاجتهاد فقال بعد كلام طويل : " قلت والصحيح إن شاء اللّه أن هؤلاء

التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال تعالى : (وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

(466/791)

أما أبو حيان فقد أطال ودندن ووثب حينا وأسف حينا ومما نختاره من عبارته : " عليها تسعة عشر التمييز محذوف والمتبادر إلى الذهن أنه ملك ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك " ، ونقل الرواية التي أوردناها ثم قال : " وقيل التمييز المحذوف صنفا من الملائكة وقيل نقيبا ومعنى عليها يتولون أمرها وإليهم جماع زبانيتها فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث أن هؤلاء هم النقباء " ويكاد هذا يكون نفس ما قاله القرطبي .

أما رأي الرازي والكرخي فلا يخلو من دخل عليه لما فيه من التعسف والتكلف كما ترى ووجه الدخل عليه أنه يلزم أن يكون لكل إنسان مثل هذه العدة من الملائكة ولم تكن هي جملة عدة الملائكة لجهنم ولجميع من حوت من المعذبين .

أما الجواب الفني الذي يحل الإبهام حلا أدنى إلى المنطق وأقرب إلى الإقناع وأشبه ببلاغة القرآن الكريم فهو أن يقال : إنه لا مرية في أن أهل النار يزيدون على أهل الجنة بأضعاف مضاعفة ولأن المؤمنين من كل أمة عشر معشار كفارها ، وقد أخبر اللّه سبحانه وتعالى عن الجنة أن عرضها السموات والأرض فما ظنك بطولها والطول من كل شيء في معترف العادة أكثر من العرض فأهلها على هذا لا يحصيهم العد ولا يحصرهم الحد ، وقد تبين أن أهل النار أضعافهم فهم إلى تجاوز الحدّ في العد أقرب وأقلّ ما يظنّ بالملائكة الموكلين بعذابهم أن تكون عدتهم وفق عدتهم ليكون بإزاء كل معذّب معذّب وهذا عدد لا نهاية له ولا لكميته ، فلما أراد الحق الإخبار بعدة هذه الملائكة عدل عن ذكر عددهم الذي هو معلوم عنده ، وإن تجاوز النهاية

بالنسبة إلينا لئلا يخرج الكلام بكثرة الألفاظ وطول الفصول عن حد البلاغة إلى إشارة يفهم منها أن عدة هذه الملائكة عدد لا يتناهى مرتبة ، فاقتصر سبحانه على ذكر آخر مرتبة الآحاد من العدد وأول مرتبة العشرات منه فإن مراتب العدد أربع آحاد وعشرات ومئون وألوف ، الأصول منها الآحاد وأول مرتبته فإن نهاية مرتبة الآحاد التسعة وهي عبارة عن تكرار الواحد تسع مرات ثم ينتقل إلى ذكر العشرة التي هي أول مرتبة العشرات ثم يكررها كما كرر الواحد من العشرين إلى التسعين كما فعل في المرتبة الأولى ثم ينتقل إلى مرتبة الألوف فيكررها تكرير الواحد بلفظ الآحاد وهكذا إلى غير النهاية وإذا انتهت مرتبة الألوف عاد إلى مرتبة العشرات فقال : عشرة آلاف إلى ما لا نهاية له لا يزيد على أن يضيف إلى الألف لفظ الآحاد والعشرات فيعود إلى أصول الأعداد فدلّ ذلك على أن أصول جميع الأعداد التي لا تتناهى الآحاد وهي تسعة وأول العشرات هي العشرة فالاقتصار على ذكرهما للعرب الواضعين لهذه الأسماء يشير إلى أعداد لا نهاية لها ، واستغنى عن ذكر لفظتي المائة والألف لما جاء في الكلام من المثال الذي يحتذى على مثاله والأصل الذي يقاس الفرع عليه واللفظتان يعني المائة والألف عند المخاطب معروفتان والطريق في التكرير قد وضحت .

2- في قوله : " وربك فكبر " فن طريف ابتدعه المتأخرون وأساءوا فيه ، لأنه لا يأتي جيدا إلا في الندرة ، أما تكلفه فيؤدي إلى إسفافه ، وقد وضع له علماء البديع اسم " ما لا يستحيل بالانعكاس " وسماه بعضهم " القلب " وبعضهم الآخر سماه " المقلوب المستوي "

وهو أن يكون الكلام بحيث إذا قلبته وابتدأت من حرفه الأخير إلى الحرف الأول كان الحاصل هو هذا الكلام عينه وهو قد يكون في النظم وقد يكون في النثر أما في النظم فمنه قول القاضي الأرجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كلّ مودته تدوم

(468/791)

و قد يكون ذلك في شطر بيت كقول القائل :

ولما تبدى لنا وجهه أرانا الإله هلالا أنارا

والشاهد في المصراع الثاني أما في النثر فقال اللّه تعالى : (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) ، (رَبَّكَ فَكَبِّرْ) ويحكى عن العماد الكاتب أنه لقي القاضي الفاضل يوما وهو راكب فرسا فقال له : سر فلا ركبا بك الفرس ، فقال له القاضي : دام علا العماد ، وهذا كله مستاغ لا تكلف فيه فلذلك أتى مستملحا جاريا في حدود الطبع ، أما ما تكلفوه فقد ضربنا عنه صفحا لأنه لا يمت إلى البلاغة بأي نسب .

3- في قوله تعالى : " وثيابك فطهر " إن أريد الثياب الحقيقة الظاهرة على البدن فالكلام جار على الحقيقة وليس فيه شيء من فنون البلاغة لأن طهارة الثياب شرط في صحة

الصلاة ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة وإن أريد القلب كان الكلام كناية على حد قول امرئ القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

أي قلبي من قلبك وقيل كنى عن النفس بالثياب ، قال عنترة :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم عن القنا بمحرم

وقيل كنى بها عن الجسم ، قالت ليلى وقد ذكرت إبلا :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى لها شبها إلا النعام المنضرا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم .

[سورة المدثر (74) : الآيات 32 إلى 56]

كَلاَّ وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)

ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)

حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

(قَسْوَرَةٍ) القسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدونها وقيل : الأسد يقال : ليوث قساور وهي فعولة من القسر وهو القهر والغلبة وفي وزنه الحيدرة من أسماء الأسد ، وفي المختار : " القسور والقسورة : الأسد " وفي القاموس : " والقسورة : العزيز والأسد كالقسور ونصف الليل أو أوله أو معظمه ونبات سهلي والجمع قسور والرماة من الصيادين الواحد قسور " وتعقبه شارحه التاج بقوله : " قوله الواحد قسور هكذا قاله الليث وهو خطأ لا يجمع قسور على قسورة إنما القسورة اسم جامع للرماة ولا

واحد لها من لفظها " وعبارة أبي حيان : " القسورة الرماة والصيادون قاله ابن كيسان أو الأسد قاله جماعة من اللغويين قال :

مضمر تحدره الأبطال كأنه القسورة الريبال

أو الرجال الشداد ، قال لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا أتانا الرجال الصائدون القساور

أو ظلمة أول الليل لا ظلمة آخره ، قاله ابن الأعرابي وثعلب .

الإعراب :

)

(470/791)

كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) كلا حرف ردع وزجر لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرا للبشر والواو حرف قسم وجرّ والقمر مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم ولا معنى لما قاله الجلال : "كلا استفتاح بمعنى ألا " ولا لما قاله القرطبي نقلا عن الفراء " إنها صلة للقسم والتقدير إي والقمر " والليل جار ومجرور والواو للقسم وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بفعل القسم وجملة أدبر في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ) الواو حرف قسم وجر والصبح مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وإذا ظرف زمان متعلق بفعل القسم المحذوف وجملة أسفر في محل جر بإضافة الظرف إليها (إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وإحدى الكبر خبر إنها (نَذِيراً لِلْبَشَرِ) حال من

إحدى الكبر وأعربها الزمخشري تمييز من إحدى الكبر على معنى أنها إحدى الدواهي إنذارا كما تقول هي إحدى النساء عفافا وننقل فيما يلي عبارتي السمين وأبي البقاء ونترك لك الخيار . " وقوله تعالى : " نذيرا للبشر " فيه أوجه : أحدها أنه تمييز من إحدى لما تضمنته من معنى التعظيم كأنه قيل : أعظم الكبر إنذارا فنذير بمعنى الإنذار ، والثاني أنه مصدر بمعنى

(471/791)

الإنذار أيضا ولكنه نصب بفعل مقدّر قاله الفرّاء ، الثالث أنه فعيل بمعنى مفعل وهو حال من الضمير في إنها قاله الزجّاج ، الرابع أنه حال من الضمير في إحدى لما تضمنت من معنى التعظيم كأنه قيل أعظم الكبر منذرة ، الخامس أنه حال من فاعل قم فأنذر أول السورة ، السادس أنه مصدر منصوب بأنذر أول السورة ، السابع أنه حال من الكبر ، الثامن أنه حال من ضمير الكبر ، التاسع هو حال من إحدى الكبر قاله ابن عطية ، العاشر أنه منصوب بإضمار أعني وقيل غير ذلك " . أما عبارة أبي البقاء فهي : " قوله تعالى : نذيرا في نصبه أوجه أحدها هو حال من الفاعل في قوله : قم في أول السورة ، والثاني من الضمير في فأنذر حال مؤكدة ، والثالث هو حال من الضمير في إحدى ، والرابع هو حال من نفس إحدى ،

والخامس حال من الكبر أو من الضمير فيها ، والسادس حال من اسم إن ، والسابع أن نذيرا في معنى إنذارا أي فأنذر إنذارا أو أنها لإحدى الكبر لإنذار البشر ، وفي هذه الأقوال ما لا نرتضيه ولكن حكيناها والمختار أن يكون حالا مما دلّت عليه الجملة تقديره عظمت عليه نذيرا " . أما أبو حيان فبعد أن أورد هذه الأوجه قال : " قال أبو البقاء والمختار أن يكون حالا مما دلّت عليه الجملة تقديره عظمت نذيرا وهو قول لا بأس به " . وقرىء نذير بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي نذير (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) لمن بدل من قوله للبشر بإعادة الجار وجملة شاء لا محل لها لأنها صلة من ومنكم حال وأن وما في حيّزها في موضع نصب بشاء وفاعل شاء يعود على من وقيل الفاعل ضمير يعود على اللّه تعالى أي لمن شاء هو أي اللّه تعالى .

(472/791)

و قال الزمخشري : أن يتقدم في موضع الرفع بالابتداء ولمن شاء خبر مقدّم عليه كقولك : لمن توضأ أن يصلي ومعناه مطلق لمن شاء التقدم والتأخر أن يتقدم أو يتأخر والمراد بالتقدم السبق إلى الخير والتخلّف عنه وهو كقوله : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انتهى ، وهو معنى لا يتبادر

إلى الذهن وفيه حذف (كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) كلام مستأنف لبيان أن كل نفس رهن بما كسبت وكل نفس مبتدأ وبما متعلقان برهينة وجملة كسبت لا محل لها لأنها صلة ما ورهينة خبر وهي مصدر بمعنى رهن كالشتيمة بمعنى الشتم وليست بمعنى مفعول لأنها بغير تاء ولو قصدت الصفة لقيل رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ومنه بيت الحماسة :

أبعد الذي بالنعف نعف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل

أأذكر بالبقيا على من أصابني وبقياي أني جاهد غير مؤتل

(473/791)

و البيتان لزياد بن مسور الحارثي وقيل لعبد الرحمن بن زيد قتل أبوه زياد فعرض عليه فيه سبع ديّات فأبى إلا الثأر ، والاستفهام إنكاري والنعف بالفتح الجبل والمكان المرتفع وقيل ما يستقبلك من الجبل وكويكب جبل بعينه وفي هذا الإبدال من التفصيل بعد الإجمال ما ينبئ عن تفخيم المحل والحال أي أبعد قتل أبي المدفون في ذلك الموضع حال كونه محتبسا في رمس وقيل رهينة بالجر بدل من الذي فهو اسم ملحق بالجواحد بمعنى الرهن ويقال رمست الشيء رمسا إذا دفنته في التراب فأطلق المصدر وأريد مكانه وهو القبر والجندل

الحجارة وكررت همزة الاستفهام في قوله أأذكر توكيدا للأولى لأنها داخلة على هذا الفعل تقديرا أيضا ويحتمل أنها داخلة على مقدّر أي أبعد أبي أفرح بالدّية والبقيا الإبقاء على الشيء أي لا أذكر بين الناس بأني أبقيت على قاتل أبي والحال إن إبقائي عليه كوني جاهدا أو مصمّم العزم على الفتك به غير حالف على ذلك لأني غير محتاج إلى الحلف في تنفيذ أموري أو غير مقصر في الاجتهاد لأن الائتلاء يجيء بمعنى الحلف وبمعنى التقصير (إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ) إلا أداة استثناء وأصحاب اليمين مستثنى قيل هو متصل لأن اللّه تعالى جعل تكليف عباده كالدين عليهم ونفوسهم تحت استيلائه وقهره فهي رهينة فمن وفى دينه الذي كلّف به

خلّص نفسه من عذاب اللّه تعالى الذي نزل منزلة علامة الرهن وهو أخذه في الدين ومن لم يوف عذّب وقيل هو منقطع إذ المراد بهم الأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها وقيل الملائكة (فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ) في جنات خبر لمبتدأ محذوف أي هم في جنات والجملة مستأنفة كأنها نشأت جوابا لسؤال نشأ من الاستثناء والتقدير فما شأنهم وحالهم وجملة يتساءلون خبر ثان واختار أبو البقاء أن يكون في جنات حالا من أصحاب

اليمين وأن يكون حالا من الضمير في يتساءلون وأن يتعلق بيتساءلون فيكون ظرفا للفعل ومعنى يتساءلون يسأل بعضهم بعضا وعن المجرمين متعلقان بيتساءلون ولا بدّ من تقدير مضاف أي عن حال المجرمين (ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) الجملة مقول قول محذوف أي قائلين فجملة القول في محل نصب حال وما اسم استفهام مبتدأ والاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم وجملة سلككم خبر وفي سقر متعلقان به (قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) قالوا فعل وفاعل ولم حرف نفي وقلب وجزم ونك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدّرة على النون المحذوفة للتخفيف لأنها تحذف من مضارع كان المجزوم إذا لم يله ساكن وقد تقدم نظيره واسم نك ضمير مستتر تقديره نحن ومن المصلّين خبرها (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ) عطف على ما تقدم وكان واسمها وجملة نخوض خبرها ومع ظرف مكان متعلق بنخوض والخائضين مضاف إليه أي نشرع في الباطل مع الخائضين وهذا تحذير لكل من تسوّل له نفسه أن يسرع في الإجابة عمّا لا يعلمه (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) عطف على ما تقدم أيضا (حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ) حتى حرف غاية وجر وأتانا اليقين فعل ماض ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخر والغاية للأمور الأربعة الآنفة (فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ

الشَّافِعِينَ) الفاء عاطفة وما نافية وتنفعهم فعل مضارع ومفعول به وشفاعة الشافعين فاعل والمعنى لا شفاعة لهم وسيأتي المزيد من معناها في باب البلاغة (فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) الفاء استئنافية وما اسم استفهام إنكاري في محل رفع مبتدأ ولهم خبر وعن التذكرة متعلقان بمعرضين ومعرضين حال من الضمير المجرور باللام ووهم من جعله حالا من الضمير المستكن في الخبر لأنه عائد على ما وهي عبارة عن شيء وسبب ومعرضين وصف للأشخاص أنفسهم فلا يصحّ كونه وصفا لأسباب الإعراض على القاعدة في أن الحال وصف لصاحبها (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) الجملة حالية من الضمير المستكن في معرضين فهي حال متداخلة وكأن واسمها وحمر خبرها ومستنفرة نعت وقرئ في السبع بكسر الفاء وفتحها فالأول بمعنى نافرة والثاني بمعنى نفرها الأسد أو الصياد (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) الجملة نعت ثان لحمر وفرت فعل ماض والفاعل

مستتر يعود على الحمر والتاء تاء التأنيث الساكنة ومن قسورة متعلقان بفرت (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً) بل إضراب انتقالي عن محذوف هو جواب الاستفهام

السابق كأنه قيل : فلا جواب لهم عن هذا السؤال أي لا سبب لهم في الإعراض بل يريد ، ويريد فعل مضارع مرفوع وكل امرئ فاعل ومنهم نعت وأن وما في حيّزها في موضع نصب مفعول به ويؤتى فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وصحفا مفعول به ثان ومنشرة نعت لصحفا أي منشورة غير مطويّة يقرؤها كلّ من رآها (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) كلا ردع عن الإرادة وبل إضراب انتقالي لبيان سبب هذا التعنت ولا نافية ويخافون الآخرة فعل مضارع وفاعل ومفعول به (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ) كلا ردع عن الإعراض وإن واسمها أي القرآن وتذكرة خبرها (فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ) الفاء عاطفة ومن شرطية مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ومفعول شاء محذوف تقديره أن يذكره وذكره فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به والجملة جواب الشرط والشرط وجوابه

خبر المبتدأ (وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) الواو عاطفة وما نافية ويذكرون فعل مضارع وفاعل وإلا أداة استثناء وأن يشاء اللّه المصدر استثناء من أعمّ الأحوال أطلق نفي الذكر ثم استثنى منه حال المشيئة المطلقة وهو مبتدأ وأهل التقوى خبره وأهل المغفرة عطف على أهل التقوى .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " فما تنفعهم شفاعة الشافعين " فن تقدم الإلماع إليه وهو " نفي الشيء بإيجابه " وهو أن يثبت المتكلم شيئا في ظاهر كلامه بشرط أن يكون المثبت مستعارا ثم ينفي ما هو من سببه مجازا والمنفي حقيقة في باطن الكلام وقد تحدثنا عنه طويلا في البقرة عند قوله لا يسألون الناس إلحافا وفي غافر عند قوله " ولا شفيع يطاع " وهنا تعريف أكثر إيضاحا وهو أن تذكر كلاما يدل ظاهره أنه نفي لصفة موصوف وهي نفي للموصوف أصلا واعتاد البلاغيون أن يمثلوا له بقول امرئ القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود الديافي جرجرا

فقوله لا يهتدى لمناره أي إن له منارا إلا أنه لا يهتدى به وليس المراد ذلك بل المراد أنه لا منار له يهتدى به وهنا ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفعهم شفاعة من يشفع لهم وإنما المعنى نفي الشفاعة فانتفى النفع أي لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم من باب " على لاحب لا يهتدي بمناره " أي لا منار له فيهتدي به وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات ينتفع بها .

2- في قوله " كأنهم حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة " تشبيه مرسل ، شبّههم بالحمر المستنفرة وفي ذلك مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ولا ترى

مثل نفار حمر الوحش واطّرادها في العدو إذا رابها رائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 272 . 293 ﴾

(478/791)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/792)

الجزء الثانى والتسعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القيامة)

(4/792)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القيامة)

(5/792)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة القيامة)

مقصودها الدلالة على عظمة المدثر المأمور بالإنذار (صلى الله عليه وسلم) لعظمة مرسله سبحانه وتمام اقتداره بأنه كشف له العلوم حتى صار إلى الأعيان بعد الرسوم بشرح آخر سورته من أن هذا القرآن تذكرة عظيمة لما أودعه الله من وضوح المعاني وعذوبة الألفاظ وجلالة النظوم ورونق السبك وعلو المقاصد ، فهو لذلك معشوق لكل طبع ، معلوم ما خفي من أسراره وإشاراته بصدق النية وقوة العزم بحيث يصير بعد كشفه إذا أثر كأنه كان منسيا بعد حفظه فذكر) فمن شاء ذكره) [عبس : 12] فحفظه وعلم معانيه وتخلق بها ، وإنما المانع عن ذلك مشيئة الله تعالى ، فمن شاء حجبه عنه أصلا رأسا ، ومن شاء شك ولا ارتياب ، وجلى عليه أوانسه وعرائسه وحباه جواهره ونفائسه ، وحلاه به ، فكان ملكه وسائسه ، كما كان المدثر (صلى الله عليه وسلم) حين كان خلقه القرآن ، واسمها القيامة واضح في ذلك جدا ، وليس فيها ما يقوم بالدلالة عليه غيره إذا تؤملت الآية مع ما أشارت إليه " لا " النافية للقسم أو المؤكدة مع أنها في الوضوح في حد لا يحتاج إلى الأقسام عليه لأنه لا يوجد أحد يدع من تحت يده يعدو بعضهم على بعض ، ويتصرفون فيما خولهم فيه منه غير حساب ، فكيف بأحكم الحاكمين الذي وكل عبيده أضعافهم من الملائكة فهم يديرون كل لحظة فيهم كؤوس المنايا ، ويأخذون من أمرهم به سبحانه إلى داره البرزخ للتهيئة للعرض ويسوقونهم زمرا بعد زمر إلى العود في الأرض حتى ينتهي الجمع في

القبور ، ويقيمهم بالنقر في الناقور ، والنفخ في الصور ، إلى ساحة الحساب للثواب والعقاب ، ولم يحجب عن علم ذلك حتى ضل عنه أكثر الخلق إلا مشيئته سبحانه بتغليب النفس الأمارة حتى صارت اللوامة منهمكة في الشر شديدة اللوم عن الإقصار عن شيء منه كمت أن ما جلاه لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى كان خلقه ، ولمن أراد من أتباعه إلا إرادته سبحانه بتغليب المطمئنة حتى صار الكل روحا صرفا ونورا خالصا بحتا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 241 ﴾

(6/792)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . لا أقسم بيوم القيامة)

السّورة مكّيّة .

وآياتها أَربعون فى عدّ الكوفيّين ، وتسع وثلاثون فى عدّ الباقين .

وكلماتها مائة وتسع وتسعون .

وحروفها ثلاثمائة واثنتان وخمسون .

المختلف فيها آية : ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فواصل آياتها (يقراه) .

سمّيت سورة القيامة ، لمفتتحها ، ولقوله : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ .

مقصود السّورة : بيان هَوْل القيامة ، وهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أَعيان العالم ، وبيان جزاء الأَعمال ، وآداب سماع الوَحْى ، والوعد باللّقاءِ والرّؤية ، والخبر عن حال السّكرة ، والرّجوع إلى بيان برهان القيامة ، وتقرير القُدْرة على بعث الأَموات فى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

المنسوخ فيها آية واحدة : م ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ن ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ .

المتشابهات

قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ثمّ أَعاد ، فقال : ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فيه ثلاث أَقوال : أَحدها أَنّه سبحانه أَقسم بهما ، والثانى : لم يقسم بهما ، والثّالث : أَقسم بيوم القيامة ، ولم يُقسم بالنّفس .

وقد ذكرنا بَسْطه فى التفسير .

قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وكرّره فى الآية الثّانية ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ؛ لأَنّ الأَوّل عبارة عن بياض العين بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ .

وفيه قول ثان – وهو قول الجمهور – أَنهما بمعنى واحد .

وجاز تكراره لأَنَّه أَخبر عنه بغير الخبر الأَوَّل .

(7/792)

وقيل : الثانى وقع موقع الكناية ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . . وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ . . . . وَاللَّهُ يَسْمَعُ . . . . إِنَّ اللَّهَ ﴾ فصرّح ؛ تعظيما ، وتفخيما ، وتيمّنًا ، قال تاج القرّاءِ : ويحتمل أَن يقال : أَراد بالأَوّل الشّمس ؛ قياساً على القمرين .

ولهذا ذكَّر فقال : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أَى جُمِع القمران ؛ فإِنَّ التَّثنية أُخت العطف .

وهذه دقيقة .

قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ كرّرها مرّتين ، بل كرّرها أَربع مرّات ؛ فإِنَّ قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ تمام فى الذمّ ؛ بدليل قوله : (فأَولى لهم) ؛ فإِنَّ جمهور المفسرين ذهبوا إِلى أَنَّه للتَّهديد .

وإِنَّما كرّرها لأَنَّ المعنى : أَولى لك الموت ، فأَولى لك العذاب فى القبر ثمّ أَولى أَهوالُ القيامة ، فأَولى لك عذاب النَّار ، نعذ بالله منها .

فضل السّورة

عن أُبيّ : مَنْ قرأَها شهِدْت أَنا وجَبْرئيل يوم القيامة أَنَّه كان مؤمناً بيوم القيامة ، وجاءَ و وجهه مُسْفِرٌ على وجوه الخلائق يوم القيامة ، وحديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب أُمّتي ذكرا وأُنثى ، وكتب الله له بكلّ آية قرأَها ثمانين حسنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 490.492 ﴾

(8/792)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة القيامة

56 ، - مسألة :

قوله تعالى : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ما

معناه ؟ وما فائدة تكراره ؟ .

جوابه :

هو دعاء على المخاطب بالويل وهو مشتق من "ولى" إذا قرب ، ومعناه : أقرب لك الويل ،

وأما تكراره فإما تأكيد له ، أو أن الأول للدنيا ، والثاني للآخرة ، أي : ويل له فيهما . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 369 ﴾

(9/792)

فصل في التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة القيامة

عُنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة ب (سورة القيامة) لوقوع القَسَم بيوم القيامة في أولها ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور .

وقال الآلوسي : يقال لها (سورة لاَ أقسم) ، ولم يذكرها صاحب (الإِتقان) في عداد السور ذات أكثر من اسم .

وهي مكية بالاتفاق .

وعدَّت الحادية والثلاثين في عداد نزول سور القرآن . نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهُمَزَة .

وعدد آيها عند أهل العدد من معظم الأمصار تسعاً وثلاثين آية ، وعدّها أهل الكوفة أربعين .

(10/792)

أغراضها

اشتملت على إِثباتِ البعث .

والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه .

وإثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا .

واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة .

والتذكيرِ بالموت وأنه أول مراحل الآخرة .

والزجرِ عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة .

وفي (تفسير ابن عطية) عن عُمر بن الخطاب ولم يسنده : أنه قال (من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة) .

وأُدمج فيها آيات) لا تُحرك به لسانك إلى وقُرءانه ((القيامة : 16 ، 17) لأنها نزلت في

أثناء نزول هذه السورة كما سيأتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 29 صـ 337.336﴾

(11/792)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة القيامة

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد , والإيقاعات واللمسات , ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه . . تحشدها بقوة , في أسلوب خاص , يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا , سواء في أسلوب الأداء التعبيري , أو أسلوب الأداء الموسيقي , حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي , تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا !

إنها تبدأ في الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة , وإيقاع عن النفس : (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) . . ثم يستطرد الحديث فيها متعلقا بالنفس ومتعلقا بالقيامة , من المطلع إلى الختام , تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهي . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أو كأنه اللازمة الإيقاعية التي ترتد إليها كل إيقاعات السورة , بطريقة

دقيقة جميلة . .

من تلك الحقائق الكبيرة التي تحشدها هذه السورة في مواجهة القلب البشري , وتضرب بها عليه حصارا لا مهرب منه . . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي , فلا يملك لها ردا , ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهي تتكرر في كل لحظة , ويواجهها الكبار والصغار , والأغنياء والفقراء , والأقوياء والضعاف , ويقف الجميع منها موقفا واحدا . . لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل . . مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئا . ولا مفر من الاستسلام لها , والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . . وهذا هو الإيقاع الذي تمس به السورة القلوب وهي تقول: (كلا ! إذا بلغت التراقي , وقيل: من راق ? وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . . إلى ربك يومئذ المساق) . .

(12/792)

ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تعرضها السورة , حقيقة النشأة الأولى , ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى , وعلى أن هناك تدبيرا في خلق هذا الإنسان وتقديرا . . وهي حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها في صنعة مبدعة , لا يقدر عليها إلى

الله , ولا يدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها . فهي قاطعة في أن هناك إلها واحدا يدبر هذا الأمر ويقدره ; كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآخرة , وإيحاء قوي بضرورة النشأة الأخرى , تمشيا مع التقدير والتدبير الذي لا يترك هذا الإنسان سدى , ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب . . وهذا هو الإيقاع الذي تمس السورة به القلوب وهي تقول في أولها : (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟) ثم تقول في آخرها : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين: الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) . .

ومن المشاهد المؤثرة التي تحشدها السورة , وتواجه بها القلب البشري مواجهة قوية . . مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية , ومن اضطرابات نفسية , ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون , وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها المغيب , واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجيء الرد في إيقاعات سريعة , ومشاهد سريعة , وومضات سريعة: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل: أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر , وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر , يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ! لا وزر , إلى ربك يومئذ المستقر , ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة , ولو ألقى معاذيره !) . .

(13/792)

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم , المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله , وبالرجاء فيه , المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهو مشهد يعرض فيه قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض ردا على حب الناس للعاجلة , وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون هذا الذي يكون: (كلا ! بل تحبون العاجلة , وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة , تظن أن يفعل بها فاقرة !) . .

(14/792)

وفي ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوي توجيها خاصا للرسول (صلى الله عليه وسلم) وتعليما له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه , فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى

استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ; وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاء هذا التعليم: (لا تحرك به لسانك لتعجل به , إن علينا جمعه وقرآنه , فإذا قرأناه , فاتبع قرآنه , ثم إن علينا بيانه) . . جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي , وحفظ هذا القرآن , وجمعه , وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو , هو التلقي والبلاغ . فليطمئن بالا , وليتلق الوحي كاملا , فيجده في صدره منقوشا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان ؟ ولأي أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي إتجاه . . وفي شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يخرم منها حرف , ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار ! وهكذا يشعر القلب – وهو يواجه هذه السورة – أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره , في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء , بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر: (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى) . .

وفي مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف:(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى)فيكون له وقعه ومعناه !

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن , شأن القيامة , وشأن النفس وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف , لأنه من كلام العظيم الجليل , الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته , وتثبت في سجل الكون الثابت , وفي صلب هذا الكتاب الكريم .

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهي في نسق السورة شيء آخر . إذ أن تتابعها في السياق , والمزاوجة بينها هنا وهناك , ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة , ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني في مخاطبة القلب البشري ; مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر , ولا طريقة أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3766 . 3768 ﴾

(16/792)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة القيامة

مكية وآياتها أربعون آية

بين يدي السورة

سورة القيامة مكية ، وهي تعالج موضوع " البعث والجزاء " الذي هو أحد أركان الإيمان ، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ، ولذلك سميت سورة القيامة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ، على أن البعث حق لا ريب فيه [لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه] .

* ثم ذكرت طرفا من علامات ذلك اليوم المهول ، الذي يعصف فيه القمر ، ويتحير فيه البصر ، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء [فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر] .

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه ، فقد كان (

صلى الله عليه وسلم) يجهد نفسه فى متابعة جبريل ، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه ، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به [لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه] .

* وذكرت السورة انقسام الناس فى الآخرة إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار ، ينظرون إلى الرب جل وعلا ، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة [وجوة يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة] .

(17/792)

---

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار ، حيث تكون الأهوال والشدائد ، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان [كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ؟ وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدق ولا وصلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة باثبات الحشر والمعاد ، بالأدلة والبراهين العقلية [أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه

الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى] ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 482 . 483 ﴾

(18/792)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القيامة

(لا أُقْسِمُ) تزيد العرب كلمة (لا) فى القسم كما قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرىّ لا يدّعى القوم أنى أفرّ ويرى قوم أن (لا) نافية ردّ لكلام كان قد تقدم

وجواب لهم ، وذلك هو

المعروف فى كلام الناس فى محاوراتهم فإذا قال أحدهم : لا واللّه لا فعلت كذا - قصد

بقوله (لا) رد الكلام السابق ، وبقوله واللّه ابتداء يمين ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم : ليس

الأمر على ما ذكرتم ثم أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة :

إن البعث حق لا شك فيه .

ويرى جمع من المفسرين أنها للنفى على معنى أنى لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه

حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك .

قال مجاهد : النفس اللوامة هى التي تلوم نفسها على مافات ، وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ فهى لم تزل لأئمة وإن اجتهدت فى الطاعات (بَلى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيا ، فالمراد بها هنا نعم نجمعها بعد تفرقها ، والبنان واحده بنانة وهى الأصابع . قال النابغة :

بمخضّب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

ليفجر أمامه : أي ليدوم على فجوره فى الحاضر والمستقبل لا ينزع عنه ، برق تحير فزعا من قولهم : برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، قال ذو الرمة :

ولو أنّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه مىّ سافرا كاد يبرق

وخسف القمر : ذهب ضوءه ، والمفر : الفرار ، والوزر : الملجأ وأصله الجبل المنيع ، ومنه قوله :

لعمرك ما للفتى من وزر من الموت يدركه والكبر

ينبأ : أي يخبر ، بصيرة : أي حجة شاهدة على ما صدر منه ، والمعاذير : ما يعتذر به .

لتعجل به : أي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، وقرءانه : أي قراءته أي إثباتها فى لسانك ، قرأناه : أي قرأه جبريل عليك ، فاتّبع قرءانه : أي فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك ، بيانه : أي تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل من معانيه ، والعاجلة : دار الدنيا ، ناضرة : أي متهللة بشرا بما ترى من النعيم ، ناظرة : أي تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، باسرة : أي شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة ، تظن : أي تستيقن ، فاقرة : أي داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

التراقى : العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال ، واحدها ترقوة ، من راق : أي من يرقيه وينجيه مما هو فيه على نحو ما يستشفى به الملسوع والمريض من الكلام الذي يعدّ لذلك والمراد هل من طبيب يشفى بالقول أو بالفعل ، الفراق : أي من الدنيا حبيبته ، التفّت الساق بالساق : أي التوت عليها حين هلع الموت وقلقه والمراد أنه اشتد عليه الخطب ، المساق : المرجع والمآب ، فلا صدّق ولا صلى : أي فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه ، يتمطى : أي يتبختر افتخارا ، أولى لك : أي ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ، فأولى : أي فهو أولى بك من غيرك ، فدلت الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه ، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه من غيره ، سدى : أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب ، نطفة : أي ماء قليلا وجمعها نطاف ونطف ، يمنى : أي

يراق ويصب فى الرحم ، علقة : أي قطعة دم جامد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 144.154 ﴾ . باختصار .

(20/792)

وقال الفراء :

سورة (القيامة)

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

قال أبو عبد الله: سمعت الفراء يقول: وقوله: ﴿ لاَ أُقْسِمُ . . . ﴾ كان كثير من النحويين يقولون: (لا) صلة قال الفراء: ولا يبتدأ بجحد ، ثم يجعل صلة يراد به الطرح؛ لأن هذا الوجاز لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه . ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا: البعث ، والجنة ، والنار ، فجاء الإقسام بالرد عليهم فى كثير من الكلام المبتدأ منه ، وغير المبتدأ: كقولك فى الكلام: لا والله لا أفعل ذاك ؛ جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة ردًّا لكلامٍ قد كان مضى ، فلو ألقيت (لا) مما ينوى به الجواب لم يكن بين اليمين التى تكون جوابا ، واليمين التى تستأنف فرق . ألا ترى أنك تقول مبتدئا : والله إن الرسول لحق ، فإذا قلت: لا والله إن الرسول لحق ، فكأنك أكذبت قوما أنكروه ، فهذه جهة (لا) مع الإقسام ، وجميع

الأَيمان فى كل موضع ترى فيه (لا) مبتدأ بها ، وهو كثير فى الكلام .

وكان بعض من لم يعرف هذا الجهة فيما ترى [/1] يقرأ "لأقسم بيوم القيامة" ذكر عن الحسن يجعلها (لاما) دخلت على أقسم ، وهو صواب ؛ لأن العرب تقول: لأحلف بالله ليكونن كذا وكذا ، يجعلونه (لاما) بغير معنى (لا) .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . . . ﴾ .

ليس من نفس بَرّة ولا فاجرة إلاّ وهى تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت وإن كانت عملت سُوءًا قالت: ليتنى قصرت ! ليتنى لم أفعل !

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ . . . ﴾ .

(21/792)

جاء فى التفسير: بلى نقدر على أن نسوى بنانه ، أى: أن نجعل أصابعه مصمّتة غير مفصلة كخف البعير ، فقال: بلى قادرين على أن نعيد أصغر العظام كما كانت ، وقوله: "قادرين" نصبت على الخروج من "نجمع" ، كأنك قلت فى الكلام: أتحسب أن لن نقوى عليك ، بلى

قادرين على أقوى منك . يريد : بلى نقوى قادرين ، بلى نقوى مقتدرين على أكثر من ذا . ولو كانت رفعا على الاستئناف ، كأنه قال: بلى نحن قادرون على أكثر من ذا ـ كان صوابا . وقول الناس: بلى نقدر ، فلما صرفت إلى قادرين نصبت ـ خطأٌ ؛ لأن الفعل لا ينصب بتحويله من يفعل إلى فاعل . ألا ترى أنك تقول: أتقوم إلينا ؛ فإن حولتها إلى فاعل قلت: أقائم ، وكان خطأً أن تقول: أقائماً أنت إلينا ؟ وقد كانوا يحتجون بقول الفرزدق:

على قسَمٍ لا أشتم الدهر مسلما * ولا خارجا مِنْ فيَّ زورُ كلام

فقالوا: إنما أراد: لا أشتم ، ولا يخرج ، فلما صرفها إلى خارج نصبها ، وإنما نصب لأنه أراد: عاهدتُ ربى لا شاتما أحدا ، ولا خارجاً من فيّ زور كلام . وقوله: لا أشتم فى موضع نصب [/ب] .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] قال حدثنا الفراء قال: وحدثنى قيس عن أبى حصين عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال: يقول: سوف أتوب سوف أتوب . وقال الكلبى: يُكثر الذنوبَ ، ويؤخر التوبة .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . . . ﴾ .

قرأها الأعمش وعاصم والحسن وبعضُ أهل المدينة (بَرِق) بكسر الراء ، وقرأها نافع المدنى "فإذ بَرَق البصر" بفتح الراءِ من البريق: شخص ، لمن فتح ، وقوله "بَرِق": فزع ، أنشدنى بعض العرب:

نَعَانِى حَنانةُ طُوبالةً * تُسَفُّ يَبيسًا من العِشْرِقِ

فنفسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِى * وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرَقِ

(22/792)

فَتح الراءَ أى: لا تفزع من هول الجراح التي بك ، كذلك يبرق البصر يوم القيامة .

ومن قرأ "بَرَق" يقول: فتح عينيه ، ويرق بصره أيضا لذلك .

﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ . . . ﴾ .

ذهب ضوءه .

﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . . . ﴾ .

[وفى قراءة عبد الله] وجمع بين الشمس والقمر يريد : فى ذهاب ضوئها أيضا فلا ضوء لهذا

ولا لهذه . فمعناه: جمع بينهما فى ذهاب الضوء كما تقول: هذا يوم يستوى فيه الأعمى والبصير أى: يكونان فيه أعميين جميعا . ويقال: جمعا كالثورين العقيرين فى النار . وإنما قال: جُمِع ولم يقل: جمعت لهذا ؛ لأن المعنى: جمع بينهما فهذا وجه ، وإن شئت جعلتهما جميعا فى مذهب ثورين . فكأنك قلت: جُمِع النوران ، جُمِع الضياءان ، وهو قول الكسائى: وقد كان قوم يقولون: إنما ذكرنا فعل الشمس لأنها لا تنفرد بجُمع حتى يشركَها غيرها ، فلما شاركها مذكر كان القول فيهما جُمِعا ، ولم يجر جمعتا ، فقيل لهم: كيف تقولون الشمس [/1] جُمعَ والقمر ؟

فقالوا: جُمِعت ، ورجعوا عن ذلك القول .

﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ . . . ﴾ .

قرأه الناس المفر بفتح الفاء [حدثنا أبو العباس قال ، حدثنا محمد قال] وقال: حدثنا الفراء ، قال: وحدثنى يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن رجل عن ابن عباس أنه قرأ: "أين المِفر" وقال: إنما المفَر مفَر الدابة حيث تفر ، وهما لغتان: المِفر والمفَر ، والمدِبُّ والمدَبُّ . وما كان يفعل فيه مكسورا مثل: يدِب ، ويفِر ، ويصِح ، فالعرب تقول: مَفِر ومفَر ، ومصِح ومَصَح ، ومَدِب ومَدَب . أنشدنى بعضهم:

كأن بقَايا الأثر فوقَ متونه * مَدب الدَّبى فوق النقا وهو سارِح

ينشدونه: مَدَب ، وهو أكثر من مَدِب . ويقال: جاء على مَدَب السيل ، ومدِب السيل ، وما فى قميصه مَصِح ولا مَصَحٌّ .

﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾

(23/792)

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ . . . ﴾ .

والوزر: الملجأ .

﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ . . . ﴾ .

يريد : ما أسلف من عمله ، وما أخر من سُنة تركها بعمل بها من بعده ، فإن سنّ سنة حسنة كان له مثل من يعمل بها من غير أن يُنتقصوا ، وإن كانت سنة سيئة عذب عليها ، ولم ينقص من عذاب من عمل بها شيئًا .

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . . . ﴾ .

يقول: على الإنسان من نفسه رقباء يشهدون عليه بعمله: اليدان ، والرجلان ، والعينان ،

والذكر ، قال الشاعر:

كأنَّ على ذى الظن عيناً بصيرةً * بمقعَدِه أو منظرٍ هو ناظرُه

يُحاذِرُ حتى يحسِبُ الناسَ كلَّهم * من الخوفِ لا تخفى عليهم سرائرُه

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ . . . ﴾ .

جاء فى التفسير: ولو أرخى ستوره ، وجاء: وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره .

﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾

وقوله[/ب] عز وجل: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ . . . ﴾ .

كان جبريل صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحى على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن قرأ بعضه فى نفسه قبل أن يستتمه خوفا أن ينساه ، فقيل له ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ فى قلبك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ وقراءته ، أى: أن جبريل عليه السلام سيعيده عليك .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ [فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ] . . . ﴾ .

إذا قرأه عليك جبريل عليه السلام "فاتبع قرآنه" ، والقراءة والقرآن مصدران ، كما تقول:

راجحٌ بيَن الرجحان والرجوح. والمعرفة والعرفان، والطواف والطَوفان.

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾

(24/792)

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . . . ﴾ . ﴿ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ . . . ﴾ .

رويت عن علي بن أبي طالب، رحمه الله: "بَلْ تُحِبُّون، وتَذَرُون" بالتاء، وقرأها كثير: "بل يحبون" بالياء، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحيانا، وحينا يُجعلون كالغَيَب، كقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . . . ﴾ .

مشرقة بالنعيم.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . . . ﴾ كالحة.

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ . . . ﴾ .

والفاقرة: الداهية ، وقد جاءت أسماء القيامة ، والعذاب بمعانى الدواهى وأسمائها .

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . . . ﴾ .

يقول: إذا بلغت نَفْس الرجل عند الموت تراقيه ، وقال مَن حوله: "مَنْ رَاقٍ ؟" هل [من] مداو ؟ هل من راق ؟ وظن الرجلُ "أنه الفراق" ، علم: أنه الفراق ، ويقال: هل من راق إن ملَك الموت يكون معه ملائكة ، فإذا أفاظ [/١] الميت نفسه ، قال بعضهم لبعض: أيكم يرقَى بها ؟ من رقيت أى: صعدتُ .

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . . . ﴾ .

أتاه أولُ شدة أمر الآخرة ، وأشد آخر أمر الدنيا ، فذلك قوله: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ، ويقال: التفت ساقاه ، كما يقال للمرأة إذا التصقت فخذاها : هى لَفّاء .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَتَمَطَّى . . . ﴾ .

يتبختر ؛ لأن الظهر هو المَطَا ، فيلوى ظهره تبخترا وهذه خاصة فى أبى جهل .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى . . . ﴾ .

بالياء والتاء . من قال: يُمنَى ، فهو المعنى ، وتُمنى للنطفة . وكلٌّ صوابٌ ، قرأها أصحاب عبدالله بالتاء . وبعض أهل المدينة [أيضا] بالتاء .

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى . . . ﴾ .

تظهر الياءين ، وتُكسر الأولى ، وتجزم الحاء . وإن كسرت الحاء ونقلت إليها إعراب الياء الأولى التى تليها كان صوابا ، كما قال الشاعر:

وكأنها بين النساء سبيكة * تمشى بِسُدَّةِ بيتها فتَعَىّ

أراد: فتعيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 207.213 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة القيامة

(لا أقسم) [1] دخول "لا" لتأكيد القسم، لأن الإثبات من طريق النفي آكد. قال امرؤ القيس: 1352- فلا وأبيك ابنة العامري لا تدعي القوم أني أفر. وقيل: إن المراد نفي القسم لوضوح الأمر، وأن لا حاجة إلى القسم، كما قال الهذلي: 1353- فلست بمقسم لوددت أني غداتئذ [ببيضان] الزروب

1354- إذاً لغدوت أرهقه بصدق حسام الحد [مطروراً خشيباً]. وقيل: إنه [لأقسم] على أنها "لام" الابتداء. وقيل: لام القسم، إلا أنه لم يسمع "لا أضرب أخاك"، وأنت تريد: لأضربن. (بالنفس اللوامة) [2] كل أحد تلومه نفسه على الشر لم عمل؟ وعلى الخير لم لم [تستكثر] منه؟. (بلى قادرين) [4]

أي: نجمعها قادرين، فنصبه على الحال من ضمير في فعل محذوف. (نسوي بنانه) [4] نجعلها [مع] كفه صحيفة مستوية، لا شقوق فيها بمنزلة خف البعير، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة. ومن أيمان العرب: "لا والذي شقهن خمساً من واحدة". وللجاحظ رسالة في منافع الأصابع، عد فيها أشياء كثيرة من الإشارة وتقويم العلم/، والتصور، والعقد، والدفع بأصناف السلاح، على أنواع الاستعمال، وتناول الطعام، والتضوء، وانتقاد الورق، وإمساك العنان وتصريفه وغير ذلك. (ليفجر أمامه) [5] قال مجاهد: يمضي أمامه راكباً رأسه في هواه.

وقيل: إنه تقديم الحوبة وتأخير التوبة. وقيل: يتمنى العمر ليفجر منه. (فإذا برق البصر)

[7] بالكسر: دهش وتحير، وبالفتح: شخص. (وخسف القمر) [8] ذهب ضوؤه حتى كأنه في خسيف، وهي: البئر القديمة. (وجمع الشمس والقمر) [9] في طلوعهما من المغرب، أو في ذهاب ضوئهما، أو في التسخير بهما. (أين المفر) [10] أي: الفرار، مصدر كالفرار.

(27/792)

والمفر -بكسر الفاء- الموضع الذي يفر إليه. والمفر -بكسر الميم-: الإنسان الجيد الفرار، كما قال: 1355- مكر مفر مقبل . . . . . أي: الإنسان الجيد الفرار لا ينفعه الفرار. (لا وزر) [11] لا ملجأ ولا منجا. (بما قدم) [13] أي: من عمل. (وأخر) [13]

من سنة. (بصيرة) [14] شاهدة، الهاء للمبالغة. أو تقديره عين بصيرة، كما قيل: 1356- كأن على ذي العقل عيناً بصيرة [بمقعده] أو منظر هو ناظره 1357- يحاذر حتى يحسب الناس كلهم من الخوف لا يخفى عليهم سرائره. (ولو ألقى معاذيره) [15] أي: جوارحه [تشهد] عليه، ولو اعتذر ذب عن نفسه.

وقال ابن عباس: ولو ألقى ثيابه، [فأخرى] ستوره. أي: ولو خلا بنفسه، والمعذار: الستر

بلغة اليمن . (إن علينا جمعه) [17] أي: في صدرك ، (و)إعادة (قرآنه) عليك أي: قراءته ، حتى تحفظ وتضبط ، ثم إنا نبين لك معانيه إذا حفظته . (ناضرة) [22] حسنة مستبشرة . (فاقرة) [25] داهية/تكسر الفقار . (من راق) [27] أي: تقول الملائكة من يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم العذاب .

وقيل: هو قول أهله: من راق يرقيه ، وطبيب يشفيه . كما قال [يزيد بن خذاق]:

1358- هل للفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق 1359- قد رجلوني وما رجلت من شعث وألبسوني ثياباً غير أخلاق . (والتفت الساق بالساق) [29] أهوال الدنيا بأهوال الآخرة .

وفسر ذلك أيضاً بكرب [الموت] وهول المطلع . وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران ، أهله يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه . (يتمطى) [33] يتبختر ، ويختال ، [والمطيطاء] مشية يهتز فيها المطا وهو الظهر . (أولى لك فأولى) [34] قاربك ما تكره ، ووليك ، وأنشد في الياقوتة: 1360- فإني إن أقع بك لا أهلل كوقع السيف ذي الأثر الفرند

1361- فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدر يحلب من مرد . (أن يترك سدىً) [36] مهملاً لا يؤمر ولا ينهى . (يمنى) [37] يراق . وقيل: يقدر ويخلق من المنا ، وهو القدر ، كما قال الهذلي: 1362- لعمر أبي عمرو لقد ساقه المنى إلى جدث [يوزى] له بالأهاضب

1363- لحية جحر في وجار مقيمة تأمل إلى سوق المنى [والجوالب]

[تمت سورة القيامة] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1586.1596 ﴾

(29/792)

وقال الأخفش :

سورة (القيامة)

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾

قال ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أي: على أَنْ نَجْمعَ . أي: بَلَى نَجْمَعُها قادِرِين .

وواحد "البَنَانِ": بَنَانَةٌ .

﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾

وقال ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أيْ: أينَ الفِرار . وقال الشاعر: [من المديد وهو الشاهد الثالث والسبعون بعد المئتين]:

يا لَبَكْرٍ أَنْشرُوا لِي كُلَيْبَاً * يا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرار

لأنّ كلَّ مصدرٍ يُبنى هذا البناء فانما يجعل "مَفْعَلاً" واذا أراد المكان [179 ب] قال ﴿ المَفِرّ ﴾ وقد قرئت ﴿ أَيْنَ المَفِرّ ﴾ لأنّ كلَّ ما كانَ فعلُه على "يَفْعِل" كان "المَفْعِل" منه مكسورا نحو "المَضْرِب" اذا أردت المكان الذي يضرب فيه .

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

وقال ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ فجعله هو البصيرة كما تقول للرجل: "أَنْتَ حُجَّةٌ على نَفْسِكَ" .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

[و] قال ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أيْ: حَسَنَةٌ ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يعني – والله أعلم – بالنظر إلى الله إلى ما يأتيهم من نعمه ورزقه . وقد تقول: "وَاللهِ ما أَنْظُرُ إِلاَّ إِلَى اللهِ وإِلَيْكَ" أي: انتظر ما عند الله وما عندك . (1)

﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾

وقال ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾ أي: فَلَمْ يصدّق ولم يصلّ . كما تقول "ذَهَبَ فَلاَ جاءَني ولا جاءَك" .

---

(1) هذا رأى فاسد للمعتزلة فى تأويلهم السخيف لآيات الرؤيا وهو مخالف للكتاب

والسنة وإجماع المسلمين سلفا وخلفا على ثبوت الرؤيا لله تعالى فى الجنة للمؤمنين وهذه إحدى سقطات الأخفش والله أعلم .

(30/792)

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾

وقال ﴿ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ وقال بعضهم ﴿يُحيِ الموتى ﴾ فأخفى وجعله بين الادغام وغير الادغام ولا يستقيم ان تكون ها هنا مدغما لأن الياء الآخرة ليست تثبت على حال واحد [إذ] تصير ألفا في قولك "يَحْيَا" وتحذف في الجزم فهذا لا يلزمه الادغام ولا يكون فيه إلا الإخفاء وهو بين الإدغام وبين البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 557.558 ﴾

(31/792)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة القيامة

«1»

1 - قوله عز وجل : لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، «لا» صلة ، أريد بها تكذيب الكفار ، لأنهم قالوا : لا قيامة .

2 - (و النفس اللوامة) أي تلوم نفسها يوم القيامة .

3 - ، 4 - ، 5 - أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ؟ ! بَلى ، قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ ، بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ .

هذا مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

6 - يَسْئَلُ : أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ ؟ أي متى يوم القيامة ؟ .

7 - فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ : إذا حار عند الموت .

وأصل «البرق» : الدهش . يقال : برق الرجل يبرق برقا .

ومن قرأ : (برق) ، أراد : بريقه إذا شخص .

8 - وخَسَفَ الْقَمَرُ و «كسف» واحد .

11 - كَلَّا لا وَزَرَ أي لا ملجأ .

وأصل «الوزر» : الجبل [او الحصن] الذي يمتنع فيه .

---

(1) هي مكية .

---

13 - يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ

: من عمل الخير والشر ، وَأَخَّرَ

: من سنة عمل بها بعده .

14 ،

15 - بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

أي شهيد عليها بعملها بعده ، ولو اعتذر . يريد : شهادة جوارحه .

ويقال : «أراد : بل على الإنسان - من نفسه - بصيرة» .

17 - إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ

أي ضمّه وجمعه .

18 - فَإِذا قَرَأْناهُ

أي جمعناه ، فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

أي جمعه . و«القراءة» و«القرآن» مصدران .

قال قتادة : «اتبع حلاله ، و[اجتنب] حرامه» .

22 - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ أي مشرقة.

24 - وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ أي عابسة مقطّبة.

25 - و(الفاقرة): الداهية. يقال: إنها من «فقار الظهر» كأنها تكسره. تقول: فقرت الرجل، إذا كسرت فقاره. كما تقول: رأسته، إذا ضربت رأسه، وبطنته: إذا ضربت بطنه. ويقال: رجل فقير وفقر.

وقال أبو عبيدة: «هو من الوسم الذي يفقر به على الأنف».

26 -، 27 - كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ يعني: النفس، أي صارت النفس بين تراقيه. (و قيل: من راق؟) أي هل أحد يرقي؟.

29 - وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ: أتاه أول شدة امر الآخرة، وأشدّ آخر امر الدنيا.

ويقال: «هو التفاف ساقي الرجل عند السّياق». [و] هو مثل قولهم: «شمّرت عن ساقها».

(33/792)

---

31 - فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى أي لم يصدق ولم يصل.

33 - يَتَمَطَّى: يتبختر. وأصله «يتمطط»، فقلبت الطاء فيه.

ياء كما يقال : يتظنّي ، وأصله : يتظنّن . ومنه «المشية المطيطاء» .

وأصل الطاء في هذا كله : دال : إنما هو : مدّ يده في المشي ، إذا تبختر . يقال : مددت ومططت ، بمعنى واحد .

35 - أَوْلى لَكَ فَأَوْلى : تهدّد ووعيد .

36 - أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أي يهمل : فلا يؤمر ، ولا ينهي ، ولا يعاقب يقال : أسديت الشيء ، إذا أهملته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 426. 428 ﴾

(34/792)

وقال الغزنوى :

ومن سورة القيامة

1 لا أُقْسِمُ : دخول/ لا لتأكيد القسم ، والإثبات من طريق النّفي [103/ ب]

آكد ، كأنه ردّ على المنكر أولا ، ثم إثبات بالقسم ثانيا «1» .

وقيل «2» : المراد نفي القسم لوضوح الأمر . وقيل «3» : هو «لأقسم» ، لام الابتداء .

2 بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ : كل يلومه نفسه على الشر لم عمل ، وعلى الخير لم لم تستكثر «4» ؟ .

4 نُسَوِّيَ بَنانَهُ : نجعلها مستوية كخف البعير ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللّطيفة «5» .

5 لِيَفْجُرَ أَمامَهُ : يمضي راكبا رأسه في هواه «6» . وقيل «7» : يتمنى العمر ليفجر .

7 بَرِقَ الْبَصَرُ : بالكسر : دهش ، وبالفتح «8» : شخص .

8 وَخَسَفَ الْقَمَرُ : ذهب ضوؤه كأنه ذهب في خسيف وهي البئر

---

(1) ينظر تفسير الطبري : 29/ 173 ، وتفسير الماوردي : 4/ 355 ، والكشاف : 4/ 189 ، والبحر المحيط : 8/ 384 .

(2) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 30/ 215 . [. . . . .]

(3) ورد هذا القول توجيها لقراءة ابن كثير كما في السبعة لابن مجاهد : 661 ، والتبصرة لمكي : 365 ، والبحر المحيط : 8/ 384 .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 251 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 356 عن مجاهد ، وكذا القرطبي في تفسيره : 19/ 93 .

(5) معاني القرآن للفراء : 3/ 208 ، وتفسير الطبري : 29/ 175 .

قال ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 417 : «هذا قول الجمهور» .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 29/ 177 عن مجاهد .

ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 421 عن مجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، والسدي .

(7) تفسير الماوردي : 4/ 357 ، وتفسير القرطبي : 19/ 95 .

(8) بفتح الراء قراءة نافع ، وأبي عمرو كما في السبعة لابن مجاهد : 661 ، والتيسير

للداني :

216 .

ينظر توجيه القراءتين في معاني القرآن للفراء : 3/ 209 ، والكشف لمكي : 2/ 350 ، وتفسير القرطبي : 19/ 95 .

(35/792)

القديمة «1» .

9 وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ : في طلوعهما من المغرب «2» ، أو في ذهاب ضوئهما «3» ، أو في التسخير بهما .

10 أَيْنَ الْمَفَرُّ : الفرار : مصدر ، والمفرّ - بكسر الفاء «4» - الموضع ، والمفرّ «5» : الجيّد الفرار ، أي : الإنسان الجيد الفرار لا ينفعه الفرار «6» .

11 لا وَزَرَ : لا ملجأ «7» .

13 بِما قَدَّمَ

: من عمل وَأَخَّرَ

: من سنّة .

14 بَصِيرَةٌ

: شاهد ، والهاء للمبالغة «8» ، أو عين بصيرة «9» .

وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

: ألقى ثيابه وأرخى ستوره «10» ، أي : ولو خلا

---

(1) اللسان : 9/ 68 (خسف) .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 358 ، دون عزو ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 422 .

ونقله القرطبي في تفسيره : 19/ 97 عن ابن مسعود ، وابن عباس رضي اللّه تعالى عنهم .

(3) ينظر هذا القول في معاني القرآن للفراء : 3/ 209 ، وتفسير الطبري : 29/ 180 ، ومعاني الزجاج : 5/ 252 ، وتفسير الماوردي : 4/ 358 ، وتفسير البغوي : 4/ 422 .

(4) وهي - أيضا - قراءة تنسب إلى ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة . . . وغيرهم .

ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 210 ، وإعراب القرآن للنحاس : 5/ 81 ، والمحتسب : 2/ 341 ، والبحر المحيط : 8/ 386 ، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ 574 .

(5) بكسر الميم وفتح الفاء ، وتنسب هذه القراءة إلى الحسن ، والزهري .

وهي شاذة كما في المحتسب : 2/ 341 ، والبحر المحيط : 8/ 386 .

(6) راجع الوجوه السابقة في معاني القرآن للزجاج : 5/ 252 ، والكشاف : 4/ 191 ، وزاد المسير : 8/ 420 ، وتفسير القرطبي : (19/ 97 ، 98) ، والبحر المحيط : 8/ 386 .

(7) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 210 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 499 ، والمفردات للراغب : 521 .

(8) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 277 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 500 ، وتفسير الطبري : 29/ 184 ، وتفسير الماوردي : 4/ 359 . [. . . . .]

(9) ذكر البغوي هذا القول في تفسيره : 4/ 423 دون عزو ، وكذا القرطبي في تفسيره : 19/ 100 .

(10) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 211 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 186 عن السدي .

(36/792)

بنفسه، والمعذار: الستر «1».

17 إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ

: أي: في صدرك «2»، وإعادة قرآنه عليك، أي:

قراءته حتى تحفظ ثمّ إنّا نبيّن لك معانيه إذا حفظته.

22 ناضِرَةٌ: حسنة مستبشرة «3»، وجه نضر وناضر، ونضر اللّه وجهه فهو منضور.

23 إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ: تنظر ما يأتيها من ثواب ربها. عن مجاهد «4» وأبي صالح «5» وعكرمة «6».

وقيل «7»: إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ: لا تنظر إلى غيره ولا ترجو الحق إلّا

---

(1) بلغة اليمن.

ينظر تفسير الماوردي: 4/ 360، وتفسير البغوي: 4/ 423.

(2) ينظر صحيح البخاري: 6/ 76، كتاب التفسير، تفسير سورة القيامة.

وتفسير الطبري: (29/ 188، 189)، وتفسير الماوردي: 4/ 461، وتفسير البغوي: 4/ 423.

(3) تفسير الطبري: 29/ 191، وتفسير البغوي: 4/ 424، والمفردات للراغب: 496، واللسان: 5/ 213 (نضر).

(4) أخرجه الطبري في تفسيره: 29/ 192.

(5) أورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 360 ، وعزا إخراجه إلى ابن جرير ، وابن أبي شيبة عن أبي صالح .

(6) لم أقف على هذا القول منسوبا إلى عكرمة ، وأخرج الطبري في تفسيره : 29/ 192 عن عكرمة قال : «تنظر إلى ربها نظرا» .

وعقب القرطبي على نسبة هذا القول إلى عكرمة بقوله : «وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده» (تفسير القرطبي : 19/ 108) .

وهذا القول الذي ذكره المؤلف رحمه اللّه عن مجاهد وأبي صالح ، وعكرمة ، هو أحد تأويلات المعتزلة في نفي رؤية اللّه سبحانه وتعالى في الآخرة .

وقد خطّأ النحاس هذا القول في إعراب القرآن : 5/ 84 ، وقال : «لأنه لا يجوز عندهم (عند النحويين) ولا عند أحد علمته : نظرت زيدا ، أي : نظرت ثوابه» .

ورد الأزهري هذا القول - أيضا - في تهذيب اللغة : 14/ 371 ، والفخر الرازي في تفسيره : 30/ 227 .

(7) هذا نص قول الزمخشري في الكشاف : 4/ 192 ، وهو أحد تأويلات المعتزلة كما في البحر المحيط : 8/ 389 .

من عنده .

وعن أبي سعيد الخدري «1» رضي اللّه عنه : قلنا للنّبي صلى اللّه عليه وسلم أنرى ربّنا ؟

فقال : «أ تضارون في رؤية الشّمس في الظّهيرة في غير سحابة ؟ أفتضارون في [رؤية] «2» القمر ليلة البدر في غير سحاب ؟ فإنكم لا تضارّون في رؤيته إلّا كما تضارون في رؤيتهما» أي : لا تنازعون ولا تخالفون .

ويروى «3» : «لا تضامون» أي : لا ينضمّ بعضكم إلى بعض في وقت النظر لخفائه كما تفعلون بالهلال .

25 فاقِرَةٌ : داهية تكسر / الفقار «4» .

27 مَنْ راقٍ

: من يرقى بروحه أملائكة الرّحمة أم العذاب «5» ؟ أو هو قول أهله : هل من راق يرقيه «6» .

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 8/ 181 ، كتاب التوحيد ، باب قول اللّه تعالى :

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ ، والإمام مسلم في صحيحه : 1/ 164 رقم (302) .

كتاب الإيمان ، باب «معرفة طريق الرؤية» باختلاف في بعض ألفاظه .

(2) في الأصل : «ليله» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(3) ينظر صحيح البخاري : 8/ 179 ، كتاب التوحيد ، باب قول اللّه تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ . وصحيح مسلم : 1/ 164 حديث رقم (299) ، كتاب الإيمان ، باب : «معرفة طريق الرؤية» .

(4) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 500 ، وقال أيضا : «تقول : فقرت الرجل ، إذا كسرت فقاره . كما تقول : رأسته ، إذا ضربت رأسه ، وبطنته ، إذا ضربت بطنه» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 212 ، والمفردات للراغب : 383 ، واللسان : 5/ 62 (فقر) .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 29/ 195 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 361 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

وانظر هذا القول في معاني الزجاج : 5/ 254 ، وتفسير الماوردي : 4/ 362 ، وتفسير

البغوي: 4/ 424. [. . . . .]

(6) ذكره الفراء في معانيه: 3/ 212، وأخرجه الطبري في تفسيره: (29/ 194، 195) عن قتادة، وابن زيد.

(38/792)

---

29 وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ: من كرب الموت وهول المطلع. وقال الضحاك «1»: اجتمع عليه أمران: أهله يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

33 يَتَمَطَّى: يتبختر «2»، والمطيطاء: مشية يهتزّ فيها المطا وهو الظهر «3».

34 أَوْلى لَكَ فَأَوْلى: قاربك ما تكره، و«وليك» من الوليّ: القرب «4».

36 سُدىً: مهملا لا يؤمر ولا ينهى.

37 تمنى «5»: تراق. وقيل: تقدّر وتخلق، والمنا القدر «6». انتهى انتهى. اهـ

﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 849. 854﴾

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره: 29/ 196، وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 362، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد عن الضحاك.

(2) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 212، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 501،

وتفسير الطبري : 29/ 199 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 254 .

(3) المفردات للراغب : 470 ، واللسان : 7/ 404 (مطط) .

(4) اللسان : 15/ 411 (ولي) .

(5) كذا في الأصل ، و«ك» بالتاء ، وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وابن كثير .

السبعة لابن مجاهد : 662 ، والتبصرة لمكي : 365 ، والتيسير للداني : 217 .

(6) المفردات للراغب : 475 ، واللسان : 15/ 293 (مني) .

(39/792)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة القيامة

عدد 31 - 77

نزلت بمكة بعد القارعة ، وهي أربعون آية ، ومثلها في عدد الآي سورة النّبإ وهي تسع وتسعون كلمة ، وستمائة واثنان وخمسون حرفا ، ويوجد سورة البلد مبدوءة بما بدئت به هذه السورة ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ" اتفق أكثر المفسرين عن أن المعنى أقسم لأن العرب تدخل لا على أقسامها فتقول لا واللّه لا وأبيك ، والقرآن نزل بلغتهم ، قال امرؤ القيس الكندي :

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم اني أفر

ويقولون لا ورب الكعبة ، ويريدون وربها وفائدتها التأكيد ، ويجوز حذفها في غير القرآن ، وما قيل إنها زائدة لا أصل له ، فضلا عن ضعفه إذ لا زائد في كتاب اللّه لأن كل حرف فيه له معنى لا يتأتي الكلام بدونه كاملا ، وما استدل من قوله تعالى : (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ) الآية الأخيرة من سورة الحديد في ج 3 ، مردود لأن لها مغزى هناك ستقف عليه عند تفسيرها ، فضلا عن أنها وسط الكلمة لا في أولها كهذه وكونها ليست للقسم لتفيد المعنى المطلوب في هذه التي للقسم ، فهي هناك نافية ، وقد تأتي زائدة في أقوال العرب لضروره الوزن في نظم أشعارهم كقوله :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع

أما في القرآن فلا ، وانظر إلى ما قاله الفراء : إن لا هنا ردّ لانكار المشركين البعث المار ذكره في السورة قبلها لأنه مما يناسب تتابع السور ، إذ قد يكون غالبا مناسبة بين الأولى والثانية بعدها من كلمة أو جملة مما ينتبه له من له المام بمعاني كتاب اللّه فكأنه قيل ليس الأمر كما تزعمون من جحود القيامة وعذابها ثم قال أقسم .

وقرأ ابن كثير لأقسم بلام التوكيد ولا يرد على هذا القول من قال ان لام التأكيد لا بدّ وأن يصحبها نون التوكيد لأنها تفارقه أحيانا وكلاهما وجيه ، وعلى القول بأنها نافية يكون المعنى أقسم بيوم القيامة "وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ 2"

إلا إعظاما وتفخيما لهما يكون الغرض إجلال القسم به وتبجيله والأول أولى ، وهذا كله تحاشيا عن القول بأنها زائدة إذ ما من حرف في القرآن إلا ويؤدي معنى خاصا ، واللوامة النفس التي تلوم صاحبها بعد إيقاعه الفعل المنهي عنه الذي حسنته له والتي تقول له دائما لم فعلت ولم لم تفعل وغيرك يفعل ؟

مطلب : على الإنسان أن يتفقد حاله :

(41/792)

قال المغيرة بن شعبة : يقولون القيامة ، وقيامة أحدهم موته ، وهذه القيامة ليست مرادة هنا والله أعلم ، وانما هي القيامة الكبرى ، لأن سياق الآية يدل عليها ويأبى صرفه لما في قول المغيرة ، والأحسن في تفسير اللوامة أن نقول هي التي تلوم صاحبها على ما فات منه إن كان خيرا لم لم يزدد منه ، وإن كان شرا لم لم يقلع عنه ، يدل عليه قوله صلّى الله عليه وسلم :

ما منكم يوم القيامة إلا ندم ، إن كان محسنا ندم أن لا ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا أقلع ، لأن المؤمن لا بد له أن يحاسب نفسه دائما على كل ما يقع منه ويزنه في ميزان الشرع ، حتى كلامه المباح وأكله الحلال هل أراد بهما وجه اللّه والتقوي على طاعته أم لا ، وينبغي أن يستحقر أعماله واجتهاده في طاعة اللّه لأنه كلما رأى نفسه مزدادة فهي مقصرة إذا عقل قوله تعالى : (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من سورة الذاريات في ج 2 والآية عامة ، وما قيل إن المراد بها نفس آدم عليه السلام ، لأنها لمّا تزل تلومه على ما وقع منه ، وفرط به لا دليل له عليه ، ولا يوجد ما يؤيده ، بل هي شاملة لكل نفس ، وجواب القسم محذوف تقديره لتكونن القيامة ولتبعثن فيها وتحاسبون على ما وقع منكم ، بدليل قوله عز قوله "أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ" الذي ينكر البعث ، ولم يؤمن به جحدا وكفرا "أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ 3" بعد تفرقها وصيرورتها رفاتا ، واختلاطها بالتراب ونسفها بالرياح ، وبعد أن أكلتها الوحوش والطيور والحيتان ، يقول اللّه تعالى : تستعظم علينا أيها الإنسان هذا كلا لا تستكثره على من خلقك من العدم ، "بلى" أيها الكافر نفعل ذلك حالة كوننا "قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ 4" عظام رؤوس أصابعه ، وإنما

خصّ هذه العظام لأنها قوالب النفوس ، ولا يستوي الخلق إلا باستوائها ، وخص رؤوس الأصابع لأنها سلامات صغار كثيرة لطيفة ، ومهما كانت الدقة فإنه جل شأنه ، يعيدها لأماكنها ، ويؤلفها كما كانت ، فإعادة كبار العظام القوية الظاهرة من باب أولى ، لأن القادر على الإبداء إبداعا ، قادر على الإعادة اتباعا ، وهو قادر عليه ، وله المثل الأعلى .

(43/792)

فانظر هداك اللّه قبل رقي علم التشريح ، هل يوجد أحد يعلم أن أقوى شيء درّاك في الإنسان هو أنامله ، التي هي جواسيس الدماغ وانها أدق جوارح الإنسان وأهمها ، وإن البشر عاجز عن تركيبها كما كانت ، إذا اعتراها ما يوهنها ، وان الخطوط التي في رؤوسها لا يشبه بعضها بعضا أبدا ، ولهذا اختاروا التوقيع بها بدلا من الختم لأنه يقلد ، وهذه لا تقلد ، ولهذا ولأمر لا نعرفه ذكرنا اللّه بها ، واعلم أن للانسان ثلاثمائة وستين مفصلا ، كل واحد منها يسمى سلامى ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : كل سلامى من الناس عليه صدقة ، وفيه تعدل بين اثنين صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ، رواه البخاري ومسلم ، فكما أن اللّه تعالى تصدق بتلك السلامات على عباده فينبغي للعبد أن يتصدق بما استطاع على سبيل الشكر للّه تعالى ، على عدد مفاصله التي مكنه منها ، وتمكّن

بسببها من القبض والبسط والمد ، واستخدمها بمنافعه ليدفع عنه حدوث البلاء ، لأن الصدقة تدفعه وتزيد في العمر ، وتمام الحديث : (كل يوم تطلع فيه الشمس) ، أي إن استطاع التصدق كل يوم فليفعل ، وفيه وتعين الرجل في دابته فتحمل عليها ، وترفع له عليها متاعه صدقة ، لأنك إذا لم تفعل ذلك تأخر أخوك المسلم لعدم قدرته بنفسه أن يفعل ذلك ، وفيه الكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة أي فمن لم يجد ما ينفق شاكرا على هذا فليفعل ما جاء في هذا الحديث فذلك بمعاملة الصدق بالمال وسبب نزول هذه الآية ان عديا بن ربيعة أو أبا جهل جاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال له يا محمد حدثني عن القيامة وكيف أمرها وحالها فأخبره صلّى اللّه عليه وسلم فقال لو عاينت ذلك لم أصدقك ولم أومن بك فأنزل اللّه هذه الآية قال تعالى (بَلْ) إضراب وانتقال من معنى لآخر (يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ 5) بأن

(44/792)

يقدم قبائحه وإذا كان كذلك فدعه ولا تعنفه ، وأنى يسمع منك فيرتدع وينزجر وهو يريد الإدمان على الفجور حالا ومستقبلا ولا يريد أن يتوب أو ينزع هما هو عليه ومعنى الفجور في

الأصل الميل وسمي الكافر فاجرا لميله عن الحق وكذا الفاسق "يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ 6" إلى متى يكون استبعادا له فقل له يا حبيبي يكون ذلك لا محالة "فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ 7" شخص عند الموت لما يشاهد من أهواله وعجائبه قال ذو الرمة : ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه ميّ سافرا كاد يبرق وقرىء برق بكسر الراء أي دهش من شدة الفزع "وَخَسَفَ الْقَمَرُ 8" ذهب ضوءه بحيلولة الأرض ما بينه وبين الشمس وكذلك كسوف الشمس يكون بحيلولة الأرض بينهما وبين ما تشرق عليه منها .

هذا في الدنيا أما بالآخرة وهو المراد هنا فيذهب ضوءه وضوءها ويسقطان يدل عليه قوله "وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ 9" بطلوعهما معا من جهة المغرب وذهاب نورهما ثم يسقطان كسائر الكواكب راجع أول سورة التكوير المارة وللبحث صلة في سورتي الانفطار والانشقاق في ج 2 ، وهذا لا يكون بالحيلولة كما يقوله الفلكيون ولا شيء آخر مما يقوله علماء الهيئة حيث تضمحل هناك المعارف والعوارف أما ما قاله الملاحون ان خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر فهو انكار لقدرة اللّه القادر أن يجعله منخسفا سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس أو لم تكن لأن الأجسام متماثلة فيصح على كل منها ما يصح على الآخر ، واللّه قادر على كل الممكنات والمستحيلات ، ومن جملة قدرته إزالة ضوء القمر في كل حال ، ولهذا لما كسفت الشمس يوم موت إبراهيم ، وقال الناس إنها كسفت لأجله لأنهم يزعمون أنها تنكسف لموت عظيم ، أو لأمر عظيم وحادث

خطير ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : إنهما - أي الشمس والقمر - لا ينكسفان لموت أحد أو حياته ، وإنهما آيتان يخوّف اللّه بهما عباده ، الحديث .

(45/792)

قال تعالى واصفا ذلك الوقت العصيب الذي يحار فيه اللبيب ، ويذهل عنه البعيد والقريب "يَقُولُ الْإِنْسانُ" المكذب لذلك "يَوْمَئِذٍ" يوم وقوع هذه الأشياء "أَيْنَ الْمَفَرُّ" والمهرب والمخلص من هذا فيقال

"كَلَّا" انزجر وارتدع "لا وَزَرَ 11" لا ملجأ

يلجأ إليه ولا واق يقي منه راجع الآية (20) من سورة ابراهيم في ج 2 تجد ما يتعلق بهذا ، واعلم أن الوزر هو الجبل المنيع ، وكل ما يتحصّن به ويلجأ إليه .

قال كعب بن مالك :

الناس آلت علينا ليس فيك لنا إلا السيوف وأطراف القنا وزر

وقال الآخر :

لعمرك ما يلقى من وزر من الموت يدركه والكبر

وكانوا إذا فزعوا من شيء يلجأون إلى الجبال ولذلك قال ابن نوح عليه السلام :

(سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ) الآية 43 من سورة هود ، في ج 2 ، فتقدم اللّه تعالى لهؤلاء بما يقطع أملهم بأن لا شيء هناك يعصبهم من عذاب اللّه إلا هو ، ولهذا قال "إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ 12"

، أي يكون قرار خلقه يوم فرارهم إليه ، وخلاصهم منوط به وحده ، لا يشاركه أحد ، وهو إما إلى الجنة أو النار لا توسط بينهما ، أما أهل الأعراف فسيأتي بيانهم في الآية 46 من سورتهم الآتية ، قال تعالى حينذاك "يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ"

يوم الحساب والجزاء "بِما قَدَّمَ"

من أعماله الحسنة والسيئة "وَأَخَّرَ 13"

من آثاره كسنة حسنة سنّها أو وصية خير أوصى بها أو وقف ، أوقفه في دنياه ، فيفهم هل أراد به وجه اللّه تعالى ، فإن كان فيوضع في جملة أعماله الصالحة ، وإلا فإن كانت النيّة سيئة والوصية لحب المال ، أو كراهية بالورثة أو رياء ، فيكون في جملة أعماله الطالحة ، ومما يعد مؤخر الولد ان كان صالحا انتفع به وإلا لا ، ومما يدل على حسن النية وسوئها قوله عز قوله "بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ"

وكافة جوارحه "بَصِيرَةٌ 14"

شاهد لا يحتاج إلى الإشهاد عليه ، فهو يعلم مغزى ما يفعل وما يقدم وما يؤخر ، والهاء في بصيرة للمبالغة كعلامة وشهامة فالسمع يشهد بما سمع ، والبصر بما ابصر ، واليد بما بطشت ، والرجل بما مشت ، والأنف بما شم ، والفم بما ذاق وتكلم ، وهكذا فلا يظن انه ينجو إذا كان عمله لغير اللّه "وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ 15"

كلها بأنواعها وأجناسها فلا ينفعه ذلك لأن شاهده من نفسه قال تعالى "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ" الآية 24 من ت (16)

سورة النور في ج 3 ومثلها في فصلت الآية 22 في ج 2 وقال تعالى "كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً" الآية 14 من الإسراء الآتية وانشد الفراء بما يلائم هذا :

كأن على ذي العقل عينا بصيرة بمجلسه أو منظر هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم من الخوف لا يخفى عليه سرائره

وفسر بعضهم المعاذير بالستور وعليه يكون المعنى ولو أرخى ستوره عند ارتكاب المعاصي لئلا يراه أحد فاللّه يراه وتشهد عليه جوارحه وجاء العذار بمعنى الستر ، ومنه سمى الشعر الثابت ما بين الأذن والوجه عذار ، ومنه عذار الفرس فانه يستر جزءا من وجهها والأول أولى وأنسب بالمقام ، ثم التفت جل شأنه يخاطب رسوله بما يراه يعالجه حين تلقى الوحي فقال "لا تُحَرِّكْ بِهِ"

أي القرآن حينما تتلقاه من جبريل "لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ 16"

وتسيء تلاوته على اثر فراغك من سماعه لتوقره في صدرك خشية نسيأنه كلا لا تخف

هذا "إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ"

وإثباته في لبّك الآن وفي المصاحف بعد ، حتى لا يفلت منه حرف "وَقُرْآنَهُ 17"

وعلينا وبكفالتنا قراءته بلسانك على قومك وان يقرأه من بعدك إلى قرب أن نرث الأرض

ومن عليها "فَإِذا قَرَأْناهُ"

عليك يا حبيبي بواسطة أميننا جبريل "فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ 18"

(47/792)

قراءته واستمع لها وأنصت فهذا الذي عليك "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ 19" لك وان كان صلّى اللّه عليه وسلم في بدء الوحي يحفظ ما ينزل عليه ، الخمس آيات والأقل والأكثر ولما حمي الوحي احتاج إلى شدة اجتهاد به حرصا على ان لا ينسى منه شيئا ، وكان لشدة حرصه على وحي ربه حال سماعه يتلوه اثر سماعه وإذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عنه فقال له ربه لا تتعب نفسك بشيء تكفلنا لك بحفظه وبيان ما فيه من أحكام وحلال وحرام ، هذا (وقرآنه) في الآيتين بمعنى القراءة وهي لغة معروفة عند العرب قال

ضحوا بأشمط غوان السجود له يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أي قراءة .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال كان صلّى اللّه عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة فكان مما يحرك شفتيه .

قال ابن جبير قال ابن عباس أنا أحركهما كما كان صلّى اللّه عليه وسلم يحرك شفتيه فحرك شفتيه فأنزل اللّه هذه الآية ، وكان بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق قرأه كما قرأه .

وفي رواية كما وعده اللّه ، ورواه البغوي من طريق البخاري بزيادة يحرك لسانه وشفتيه بشدة وكان يعرف منه .

وفيه فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده .

لذلك فإن هذه الآية كالمعترضة بين ما قبلها وما بعدها كما ترى "كَلَّا" حقا انكم لا تميلون إلى الآجلة "بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ 20" الفانية فتنهكون فيها

"وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ 21" الباقية فلا تلتفتون إليها وكان الأحرى بكم العكس "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ" يوم تكون الآخرة التي اخترتم الدنيا عليها "ناضِرَةٌ 22" حسنة ناعمة جميلة مضيئة مسرورة بما رأت "إِلى رَبِّها" في جنته العالية "ناظِرَةٌ 23" مبصرة مشاهدة عيانا بلا حجاب ولا كيفية ولا كمية ولا ثبوت جهة أو مسافة .

قال في بدء الأمالي :

يراه المؤمنون بغير كيف وادراك وضرب من مثال

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

(48/792)

و من قال ان ناظرة بمعنى منتظرة ، فقد أخطأ لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته بل تقول نظرت فلانا أي انتظرته قال الحطيئة :

وقد نظرتكم أعشاء صادرة للورد طال بها حوري وتنساسي

وعليه إذا قلت نظرت إليه فلا يكون إلا بالعين ، أما إذا قلت نظر بالأمر احتمل معنى تفكر وتدبر بعقله ولأن الوجه إذا وصف بالنظر لا يحتمل غير الرؤية ولا يعدى بإلى إلا إذا كان بمعنى الرؤية .

مطلب رؤية اللّه في الآخرة :

وقد أجمعت أهل السنة والجماعة على جواز رؤية المؤمنين ربهم بالآخرة دون الكافرين ، قال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) الآية 15 من المطففين في ج 2 فيفهم منها صراحة ان المؤمنين غير محجوبين عن رؤيته ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة واجماع الأئمة الأصحاب فمن بعدهم من السلف الصالح والخلف الناجح على إثبات رؤية اللّه

تعالى وقد روى ذلك أكثر من عشرين صحابيا وان الرؤية

قوة يجعلنها اللّه فيمن يوفق لها ، ولا يشترط فيها اتصال ولا مقابلة ولا سعة ولا غير ذلك

ومن أنكرها فجزاؤه حرمانها .

روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد اللّه البجلي ، قال كنا عند رسول اللّه فنظر إلى

القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون (بفتح التاء

أي لا ينال أحدكم ضيم إذ ترونه جميعكم وبضمها مع تشديد الميم أي لا ينضم بعضكم إلى

بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه) في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل

طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

الْغُرُوبِ) الآية 39 من سورة ق الآتية .

(49/792)

وروى مسلم عن صهيب ان رسول اللّه قال إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى

تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار قال

فيكشف الحجاب فما اعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم والأحاديث في هذا

الباب كثيرة عن ابن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي رزين العقيلي وقد خرجها

أبو داود والترمذي وغيرهما ، واعلم بان الأحاديث التي يتشهد بها على معاني الآيات في هذا التفسير لا نعتي بها أن حضرة الرسول قالها عند نزول الآيات وخاصة المكيات لا وإنما كان صلّى اللّه عليه وسلم يقولها عند حدوث سؤال أو وقوع حادثة أو حالة وعظ وخطبة ، تدبر .

هذا واعلم أن من لم يقنع بهذا فلو أتيته بما في الدنيا لا يصدقه على حد قوله تعالى (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) الآية 144 من البقرة في ج 3 وهؤلاء كذلك من هذه الحيثية ولعلهم إن أصروا يدخلون في قوله جل قوله "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ 24" كالحة عابسة مكفهرة مقطبة أجارنا اللّه (تَظُنُّ) أيها الإنسان وتيقن وتحقق "أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ 25" شيء عظيم يقصم فقار الظهر وذلك حين ترى ما ناله السعداء من نعيم الآخرة ورحمة ربها حينما تمر بين أهل الجنة وأهل النار (كلا) زجر وردع عن إيثار الدنيا على الآخرة وتنبيه إلى حالة الموت المبينة بقوله (إِذا بَلَغَتِ) الروح الدال عليها سياق الكلام ويجوز في مثله أن يعود الضمير إلى غير مذكور قال تعالى (حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ) الآية 32 من سورة ص الآتية أي الشمس لم تذكر ولكن سياق الكلام أو سياق المعنى دل عليها وجاء مثله في قول حاتم :

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

راجع تفسير سورة إنا أنزلناه المارة واعلم انه إذا وصلت الروح "التَّراقِيَ 26" العظام المكتنفة لثغرة النحر من اليمين والشمال جمع ترقوة قال دريد بن الصمة في هذا :

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقى

(وَقِيلَ)

أي قال من حضر المحتضر "مَنْ راقٍ 27"

أي هل من يرقيه هل من يداويه هل من ينجيه ويخلصه مما هو فيه فيشفيه مما حل فيه كلا لا شيء من ذلك يحول دون موته (وَظَنَّ) ذلك المحتضر فتيقن وتحقق (أَنَّه) الحال الذي نزل به هو "الْفِراقُ 28" من الدنيا وما فيها من مال وأهل وولد وزوجة وحبيب وان لا نجاة من قضاء اللّه وقدره ولم تغن عنه الرقيا ولا الأطباء شيئا وانه الموت نفسه قد حضر "وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ 29" التوت الساقان على بعضها عند هلع الموت وقلقه فمات ثم لفّ في أكفانه وحمل يتوارى في برزخه الأخير ورمسه المقدر له وإذ ذاك يقال (إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ) يوم الفراق يوم موته "الْمَساقُ 30" إلى غيره وهو يأمر بسوقها إلى الجنة أو إلى النار وفي اضافة السوق اليه تعالى بشارة لمن حسن ظنه باللّه ومات على ذلك .

قالوا غدا نأت ديار الحمى وينزل الركب بمغناهم

فقلت لي ذنب فما حيلتي بأي وجه أتلقّاهم

قالوا أليس العفو من شأنهم لا سيما عمّن ترجّاهم

وقال أبو بكر الصديق في مرضه :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

وجواب إذا محذوف تقديره وجد الإنسان نتيجة عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر ،

وحذف الجواب في مثل هذا كثير في كلام العرب وهو من محسنات البيان ومقتضيات البديع

وهو في المعنى كأنه موجود ولا يخفى على من له المام باللغة

قال تعالى (فَلا صَدَّقَ)

ذلك الإنسان المذكور في صدر السورة .

(51/792)

رسول اللّه الذي وعظه وبشّره وأنذره "وَلا صَلَّى 31" لربه وسبحه وعزره (وَلَكِنْ كَذَّبَ باللّه وبما أنزل على رسوله "وَتَوَلَّى 32" عنه ولم يؤمن به "ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى 33" يختال ويتبختر في مشيته لانّها مأخوذة من المط أي يتمطط لأن المتبختر يمد خطاه فقلبت الطاء ياء كراهية اجتماع الأمثال (أَوْلى لَكَ أيها الفاسق الفاجر "فَأَوْلى 34" لك "ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى 35" هذا جملة موضوعة للتهديد والوعيد وفي تكرارها ما يدل على شدة ما

يراد به وقيل معناه أنك أجدر وأحق بالعذاب القاسي وأولى به من غيرك وهو وجيه ، منطبق على المعنى المراد ، وقيل في معناها : ويل لك ثم ويل لك دعاء عليه بالهلاك ، وعلى كل فهو تهديد ووعيد اليه مكرر من اللّه المرة بعد المرة ، أي أن ذلك الإنسان السيء أجدر بهذا العذاب وأحق به من غيره .

قال قتادة : ذكر لنا رسول اللّه لما نزلت هذه الآية (في حق عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شريق الثقفي الذي كان يقول فيهما حضرة الرسول : (اللهم اكفني جاري السوء بعينهما) أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء ، وقال له (أَوْلى لَكَ فَأَوْلى) فقال أبو جهل – عليه اللعنة – أتوعدني يا محمد ؟ واللّه ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا ، وإني لأعزّ من مشى بين جبليها ، فلما كان يوم بدر صرعه اللّه ، فأذله وقتله شر قتلة .

(52/792)

وكان صلّى اللّه عليه وسلم يقول : لكل أمة فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل ، وأنزل اللّه في حقه "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" الآية 39 من سورة الدخان ج 2 أي يقال له هذا عند إدخاله جهنم بمقابلة قوله ذلك قال تعالى "أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ" أل فيه للجنس فيشمل كافة أفراده إذ لم يرد به إنسان مخصوص بل مطلق إنسان "أَنْ يُتْرَكَ سُدىً 36" هملا مهملا لا

يؤمر ولا ينهى ولا يكلف ولا يحاسب ولا يعذّب ، (وكلمة سدّى) لم تكرر في القرآن كلا لا يترك بل لا بد له من ذلك ، ثم طفق جل شأنه يذكرهم مبدأ الخلقة ، ومن أين هي ، وما هي ؟

وعوده إلى جيفة قذرة ، يتذكر الإنسان بها حالة طيشه فقال عز قوله "أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى 37"

(53/792)

يزرق في الرحم "ثُمَّ كانَ عَلَقَةً" قطعة دم جامد بعد ذلك "فَخَلَقَ" جعل اللّه تلك العلقة جنينا "فَسَوَّى 38" خلقه وجعله بشرا سويا معتدلا كاملا "فَجَعَلَ مِنْهُ" في أصل البشر وهو آدم عليه السلام أو من المني المذكور "الذَّكَرَ وَالْأُنْثى 39" الصنفين الزوجين : الإنسان والحيوان والطيور والحيتان ، وغيرها مما هو مخلوق بحسب التوالد ، راجع تفسير الآية 3 من سورة والليل المارة وللبحث صلة في الآية 45 من سور النور في ج 3 ، وإنما ذكر جل شأنه خلقه بخلقهم بسائق ذكر منكري البعث ، والمختالين في مشيهم المتكبرين على حضرة الرسول يشير إليهم فيها أن من كان هذا حاله أولا وبيدنا تكوينه ، كيف ينكر علينا قدرتنا عليه ، وإعادته بعد الموت ويتعاظم ويتجبر على نبينا "أَلَيْسَ ذلِكَ) الذي فعل هذا كله هو

الإله العظيم الآلاء ، البديع الإنشاء "بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى 40" بعد إماتتهم كما بدأهم أول مرة ، بلى والله قادر ، أخرج أبو داود عن موسى ابن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ (أَلَيْسَ ذِلِكَ) قال سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال : سمعته عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم هذا ، والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 237 .

247 ﴾

(54/792)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القيامة

مكية

لا صلة وقيل رد الكلام في السورة المتقدمة كأنهم أنكروا البعث فقيل لا وقوله اقسم قسم وجوابه محذوف تقديره لتبعثن ولتحاسبن بقرينة قوله أيحسب الإنسان أن لن تجمع عظامه

فالوقف على اللوامة كاف عظامه بلى تام وقال أبو عمرو كاف وقيل والمعنى بلى نجمعها ويجوز الوقف على كلا لا وزر حسن المستقر تام وأخر كاف معاذيره حسن لتعجل به تام جمعه وقرآنه كاف بيانه تام ولا يوقف على كلا هنا لأنها ليست بمعنى الرد بل بمعنى إلا الآخرة تام ناظرة حسن فاقرة تام كلا لا يجوز عليها هنا بحال المساق كاف فأولي تام وكذا سدي والأنثى وآخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(55/792)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القيامة

(56/792)

مكية أربعون آية وكلمها مائة وخمس وستون كلمة وحروفها ستمائة واثنان وخمسون حرفاً اختلف في لا فقيل زائدة تمهيداً للنفي وتنبيهاً من أوَّل الأمر على أنَّ المقسم به نفى وإنَّما جاز أن تلغى في أوائل السور لأنَّ القرآن كله كالسورة الواحدة ويؤيد زيادتها قراءة قنبل

والبزي لأقسم بحذف الألف جواباً لقسم مقدر أي والله لأقسم والفعل للحال ولذلك لم تأت نون التوكيد وهذا مذهب الكوفيين وأما البصريون فلا يجيزون أن يقع فعل الحال جواباً للقسم وجوّز بعضهم حذف النون من القسم وإن كان بمعنى الاستقبال ووقع القسم بين نفيين تأكيداً للانتفاء ولذلك حكموا بزيادة لا في مثل ذلك في قوله فلا وربك لا يؤمنون أراد بناء الكلام على النفي من أوّل وهلة فصدر الجملة بأداة النفي غير قاصد لنفي القسم بل مؤكد النفي المقسم عليه ومن ذلك فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون أنَّه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر وتأمل لا أقسم بيوم القيامة كيف اقترن القسم بأداة النفي لما تضمن نفي صحة حسبان الإنسان أنَّ الله لا يجمع عظامه ومنه فلا أقسم بالخنس هو أيضاً متضمن لنفي ما قاله الكفار أنَّه كذاب وساحر ومجنون ولم تجئ في القرآن إلاَّ مع صريح فعل القسم بغير الله نحو لا أقسم بهذا البلد لا أقسم بيوم القيامة لا أقسم بمواقع النجوم قصد التأكيد القسم وتعظيم المقسم به ولم يسمع زيادة لا مع القسم بالله إذا كان الجواب مثبتاً فدل ذلك على أنَّ زيادتها لتوطئة القسم وقيل نافية لكلام تقدَّم عن الكفار من إنكار البعث فقيل لهم لا ليس الأمر كما زعمتم فعلى هذا يحسن الوقف على لا وليس بوقف لمن جعلها زائدة وقيل أنَّها لام الابتداء وليست لام القسم ولم يقع خلاف في قوله هنا ولا أقسم الثانية إنَّه بألف بعد لا لأنَّها لم ترسم إلا كذا بخلاف الأولى وكذلك لا أقسم بهذا البلد لم يختلف فيه أنَّه بألف بعد لا وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن دلَّ عليه أيحسب الإنسان وقيل الجواب

أيحسب وقيل هو بلى قادرين وهذه الأقوال شاذة منكرة لا تصح عن قائلها لخروجها عن لسان العرب والكلام على ضعفها يستدعي طولاً وذكرتها للتنبيه على ضعفها والمعتمد الأوّل انظر السمين ففيه العجب العجاب وأشبعت القول لهذا الوقف وهو جدير بأن يخص بتأليف وهذا غاية في بيانه ولله الحمد

اللوّامة (كاف) ومثله عظامه بجعل بلى متعلقة بما بعدها وقال أبو عمر والوقف على بلى كاف والمعنى بلى نجمعها قادرين وقادرين حال من ضمير نجمعها وقدَّره غيره بلى نقدر قادرين فحذف الفعل كما قال الفرزدق

ألم ترني عاهدت ربي أنَّني لبين رتاج قائم ومقام

على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيّ زور كلام

أراد ولا يخرج خارجاً وقيل خارجاً منصوب على موضع لا أشتم كأنَّه قال لا شاتماً ولا خارجاً ومن ذلك قول الشاعر

بات يعشيها بعضب باتر يقصد في أسوقها وجائر

أراد بيقصد قاصد وجائز

بنانه (كاف) ومثله أمامه

يوم القيامة (تام) ولا وقف من قوله فإذا برق البصر إلى أين المفر فلا يوقف على البصر ولا على القمر لأنَّ جواب إذا لم يأت بعد

أين المفرّ (كاف) وقيل كلا زجر عن طلب الفرار وقال نافع وجماعة الوقف لا وزر أي ملجأ ولا مهرب

المستقر (كاف) ومثله وآخر وكذا معاذيره ولتعجل به و قرآنه و فاتبع قرآنه وثم لترتيب الأخبار كلها وقوف لاتحاد الكلام

بيانه (تام) ولا يوقف على كلا هذه لأنّها ليست بمعنى الردع والزجر بل هي بمعنى ألا التي للتنبيه فيبتدأ بها

الآخرة (تام)

إلى ربِها ناظرة (حسن)

باسرة (جائز)

فاقرة (تام) ولا وقف من قوله كلا إذا بلغت إلى المساق لعطف كل واحد على ما قبله فلا يوقف على التراقي ولا على من راق ولا على الفراق

المساق (كاف) ولا يوقف على صلى للاستدراك بعده

وتولى (جائز) ومثله يتمطى

فأولى الثانية (كاف) ومثله سدى والسدى المهمل أي أيحسب الإنسان أنَّا لا نأمره ولا ننهاه

ومنه قول الشاعر

لو أرسلوا سعداً إلى الماء سدى من غير دلوٍ ورشاً لا يستقي

(58/792)

و لا وقف من قوله ألم يك إلى والأنثى لاتساق الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على تمنى لأنَّ ثم هنا لترتيب الفعل فليس بوقف سواء قرئ تمنى بالفوقية أو بالتحتية لمن من قرأ بالتحتية أخرجه على المنى ومن قرأ بالفوقية أخرجه على النطفة قرأ حفص يمنى بالتحتية والباقون بالفوقية ولا يوقف على فسوَّى لمكان الفاء

والأنثى (كاف) للابتداء بالاستفهام

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(59/792)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة القيامة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الحسن : "لأُقْسِم" ، بغير ألف ، و"لا أُقْسِم1" ، بألف .

وروى عنه بغير ألف فيهما جميعا ، والألف فيهما جميعا .

قال أبو الفتح : حكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال : أقسم بالأولى ، ولم يقسم بالثانية .

قال أبو حاتم : وكذلك زعم خارجة عن ابن أبي إسحاق : يقسم بيوم القيامة ، ولا يقسم بالنفس اللوامة . ورواها أبو حاتم أيضا عن أبي عمرو وعيسى مثل ذلك .

وينبغي أن تكون هذه اللام لام الابتداء ، أي : لأنا أقسم بيوم القيامة ، وحذف المبتدأ للعلم به ، على غرة2 حال الحذف والتوكيد . فهذا هو الذي ينبغي أن يحتمل عليه هذه القراءة ، ولا ينبغي أن يكون أراد النون للتوكيد ؛ لأن تلك تختص بالمستقبل ، لأن الغرض إنما هو الآن مقسم لا أنه سيقسم فيما بعد ، ولذلك حملوه على زيادة "لا" ، وقالوا : معناه أقسم بيوم القيامة ، أي : أيا مقسم الآن ، ولأن حذف النون هنا ضعيف خبيث .

ومن ذلك قراءة اب عباس وعكرمة وأيوب السختياني والحسن : "الْمَفِرّ3" .

وقرأ : "الْمَفَر" الزهري .

قال أبو الفتح : "الْمَفَر" ، بفتح الميم ، والفاء – المصدر ، أين الفرار . و"المفر" – بفتح

---

1 في سورة القيامة 1 ، 2 .

2 على غرة : الظاهر أنه يريد على أغضاء عن الجميع بين الحذف والتوكيد ، إذ كانت الغرة الغفلة .

3 سورة القيامة : 10 .

(60/792)

الميم ، وكسر الفاء – : الموضع الذي يفر إليه . "والْمَفَر" – بكسر الميم ، وفتح الفاء – : الإنسان الجيد الفرار ، كقولهم : رجل مطعن ومضرب ، أي : مطعان ومضراب . قال :

مكر مفر مقبل مدبر معا 1

معناه : أين الإنسان الجيد الفرار ؟ ولن ينجو من ذلك ، لا أن هناك مطمعا في الحياة .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "وَأَيقن أَنَّهُ الْفِرَاقُ2" ، وقال ابن عباس في تفسيره : ذهب الظن .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يحسن الظن بابن عباس ، فيقال : إنه أعلم بلغة القوم من كثير من علمائهم ، ولم يكن ليخفى عليه أن ظننت قد تكون بمعنى علمت ، كقوله :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد 3

أي : أيقنوا بذلك وتحققوه ، لكنه أراد لفظ اليقين الذي لا يستعمل في الشك ، وكأنه قال : ذهب اللفظ الذي يصلح للشك ، وجاء اللفظ الذي هو تصريح باليقين . إلى هذا ينبغي أن يذهب بقوله ، والله أعلم .

ومن ذلك قراءة طلحة بن سليمان : "أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى 4" ، ساكنة

---

1 لامرئ القيس من معلقته ، وعجزه :

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني : 28 .

2 سورة القيامة : 28 .

3 لدريد بن الصمة يرثي أخاه عبد الله . والمدجج : اللابس السلاح ، لأنه يستره ، من دججت السماء ، أي : تغيمت . السراة : السادة الأخيار . الفارسي المسرد : الدروع ، والمسرد : الذي تتابع الحلق في نسجه منها . وضمير لهم لقومه بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وظنوا بألفى مدجج : ايقنوا أن عدة أعدائنا الفافارس . وانظر ديوان الحماسة : 1 : 342 ، واللسان "ظن" .

4 سورة القيامة : 50 .

قال أبو الفتح : معنى قول ابن مجاهد : أنه قرأ على سكون الياء من "يُحْيِيَ" ، على لغة من قال :

يا دار هند عفت إلا أثافيها 1

فأسكن الياء في موضع النصب ، لا أن الياء في قوله : ﴿يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ساكنة ، وذلك أنه لا ياء هناك في اللفظ أصلا ، لا ساكنة ولا متحركة ؛ لأنها قد حذفت لسكونها وسكون اللام من "الموتى" .

قال أبو العباس : إسكان هذه الياء في موضع النصب من أحسن الضرورات ، حتى إنه لو جاء به جاء في النثر لكان جائزا ، وشواهد ذلك في الشعر أكثر من أن يؤتى بها . ومما جاء منه في النثر قولهم : لا أكلمك حيرى دهر ، فأسكن الياء من حيرى ، وهي في موضع نصب . وفيه عندي شيء [163و] لم يذكره أبو علي ولا غيره من أصحابنا ، وذلك أنه أصله حيرى دهر ، ومعناه مدة الدهر ، فكأنه مدة تحير الدهر وبقائه ، فلما حذفت أخرى الياءين بقيت الياء ساكنة كما كانت قبل الحذف ؛ دلالة على أن هذا محذوف من ذلك الذي لو لم يحذف لما كانت ياؤه إلا ساكنة ، ومثل ذلك عندي قول الهذلي :

رب هيضل لجب لففت بهيضل2

أراد : رب ، فحذف أحدى الياءين ، وبقى الثانية مجزومة3 كما كانت قبل الحذف ،

---

1 سبق هذا الشاهد في الجزر الأول ، الصفحة : 126 . ونضيف هنا إلى ما ذكرنا عنه هناك : أنه للحطيئة ، وعجزه :

بين الطوى فصارات فواديها

والطوى : البئر المطوية بالحجارة ، أي : المبنية بها . ويريد بها بئرا بمكة . والصارة جبل بين تيماء ووداي القرى ، أو جبل قرب فيد . "فصارات" من وضع الجمع مكان المفرد . والصارة أيضا : رأس الجبل . وانظر ديوان الشاعر : 201 ، وشرح شواهد الشافية : 410 .

2 لابن كبير الهذلي ، وصدره

ازهير أن يشب القذال فأنني

وزهير : يريد زهيرة . والقذال : ما بين الأذنين والقفا . وضبط "رب" في ديوان الهذليين "2 : 88" بفتح الباء وهي أحدى لغاتها كما في القاموس . والهيضل : جماعة متسلحة أمرهم في الحرب واحد . ولجب : له جلبة ، ويروى "مرس" ، أي : ذي مراسة وشدة . وانظر اللسان "هضل" .

3 في ك : محذوفة ، وهو تحريف .

وإن لم يكن هناك موجب للحركة لالتقاء الساكنين ، ولولا ذلك لوجب1 تسكين باء رب ، كتسكين لام هل وبل ، ودال قد إذ لا ساكنين هناك فتجب الحركة لالتقائهما . ولهذا نظائر كثيرة في المجيء باللفظ على حكم لفظ آخر لأنه في معناه وإن عرى هذا من موجب اللفظ في ذاك ، نحو تصحيح عور وحول لأنهما في معنى ما لا بد من صحته ، وهو اعور واحول . ولولا الإطالة المعقود على تحاميها ، وتجنب الإكثار بها – لأوسعنا ساحة القول في هذا ونحوه ، ولم نقتصر على ما نورده منه . ولولا ما رددناه من شاهد قد مضى هو أو مثله فليكون2 الموضع المقول عليه حاملا لنفسه ، ناهضا بشواهده ، لا سيما مع م لا يؤمن من شذوذ ما قبله ، فيختل الموضع لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 340 . 343﴾

---

1 المراد أنه ليس في ، رب" موجب التحريك تخلصا من التقاء الساكنين ، ولولا الإدغام الناشيء من تكرار الباب لوجب . . .

2 كذا بالنسختين ، ويحتاج الكلام لكي يتضح معناه إلى تقدير جواب لولا يمكن أن يكون

معه وجه لفاء "فليكون" ، كأن يقال : لولا تكرار الشواهد وتشابهها لبسطنا القول ، وإذا كنا آثرنا الإيجاز فليكون .

(63/792)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة القيامة

مكية وآيها ثلاثون وتسع في غير الكوفي والحمصي وأربعون فيهما خلافها آية ( ) لتعجل به (لهما مشبه الفاصلة بصيرة معاذيره

القراآت وقرأ ( ) لا أقسم (الآية 1 الأولى بحذف الألف من غير لا البزي من طريق أبي ربيعة وقنبل كما مر بيونس ووجهت بأن اللام لام للتأكيد أو جواب قسم مقدر دخلت على مبتدأ محذوف أي لأنا أقسم وإذا كان الجواب اسمية أكد باللام وإذا كان خبرها مضارعا جاز أن يكون للحال لأن البصريين يمنعون أن يقع فعل الحال جوابا للقسم فإن ورد ما ظاهره ذلك كما هنا جعل الفعل خبر المضمر فيعود الجواب جملة اسمية التقدير والله لأنا أقسم كما مر والباقون بإثبات الألف وهي رواية ابن الحباب عن البزي بجعل لا نافية لكلام مقدر كأنهم قالوا إنما أنت مفتر في الأخبار عن البعث فرد عليهم بلا ثم ابتدأ فقال أقسم وقيل نفي للقسم

بمعنى أن الأمر أعظم وقيل زائدة تأكيدا على حد لئلا يعلم وهو شائع كقولهم لا وأبيك وعلى هذا اقتصر القاضي وخرج بالأولى ولا أقسم بالنفس كالبلد المتفق على الألف فيهما كالرسم وقرأ (أيحسب) الآية 3 بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف عن نفس وأمال بلى أبو بكر بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو

واختلف في (برق) الآية 7 فنافع وأبو جعفر بفتح الراء والباقون بكسرها لغتان في التحير والدهشة وعن الحسن المفر بكسر الفاء اسم مكان الفرار وعن ابن محيصن بلنسان وبالإدغام وأمال ألقى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله أولى فأولى ونقل ابن كثير قرآنه معا

واختلف في (يحبون ويذرون) الآية 20 فنافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالخطاب فيهما والباقون بالغيب وسكت حفص بخلفه من طريقيه على نون من راق سكتة لطيفة من غير تنفس لئلا يتوهم أنها كلمة ومر بالكهف ووقف عليه

بالياء ابن محيصن وأمال رؤوس الآي من صلى الخ حمزة والكسائي وخلف وقللها أبو عمرو والأزرق ورقق لام صلى وجها واحدا حيث قللها كذلك لما تقدم أن الإمالة والتغليظ ضدان لا يجتمعان ووافق أبو بكر حمزة ومن معه على إمالة سدى وقفا من طريق المصريين والمغاربة وصحح في النشر عنه الوجهين

واختلف فيمنى) الآية 37 فهشام من طريق الشنبوذي عن النقاش عن الجمال عن الحلواني وكذا من طريق المفسر والشذائي عن الداجوني وحفص ويعقوب بالياء من تحت على جعل الضمير عائدا على مني أي يصب فالجملة محلها جر صفة لمني وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بالتاء من فوق على أن الضمير للنطفة

المرسوم كتب في بعض المصاحف ﴿ ينبؤا) ﴾ بواو وألف واتفقوا على وصل ( ) ألن نجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(65/792)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة القيامة "

" لا أقسم " الأول قرأ ابن كثير بخلف عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام ، والباقون

بإثبات الألف وهو الوجه الثاني للبزي ، ولا خلاف بينهم في إثبات الألف في المواضع الثاني وهو: " ولا أقسم بالنفس " .

" أيحسب " معا فتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم

" برق " فتح الراء المدنيان وكسرها الباقون .

" ينبؤا " رسمت الهمزة فيه على واو على الراجح ، وتقدم كثيرا أن فيه وفي أمثاله لهشام وحمزة في الوقف خمسة أوجه .

" بصيرة " معاذيره ، ناضرة ، ناظرة ، باسرة ، فاقرة ، رقق راء الجميع ورش

" وقرآنه " معا نقل المكي حركة الهمزة إلى الراء وحذف الهمزة وغيره بترك النقل

" قرأناه " أبدل همزه أبو جعفر والسوسي في الحالين وحمزة في الوقف ، ووصل هاءه المكي .

" تحبون وتذرون " قرأ المكي والبصريان والشامي بياء الغيبة فيهما ، والباقون بتاء الخطاب كذلك .

" من راق " قرأ حفص بالسكت على نون من سكتة لطيفة من غير تنفس وغيره بإدغام النون في الراء من غير غنة .

" الفراق " لا ترقيق فيه لورش لوجود حرف الاستعلاء .

" صلى " ليس لورش فيه إلا ترقيق اللام لأنه رأس آية ، وليس له في رءوس أي السورة الإحدى عشرة إلا التقليل ويلزم من التقليل ترقيق اللام .

"يمنى " قرأ حفص ويعقوب بياء الغيبة وغيرهما بتاء الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 339. 340 ﴾

(66/792)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة القيامة

قوله تعالى ﴿ لا أقسم ﴾ يقرأ بالمد والقصر فالحجة لمن مد أنه أراد دخول لا على أقسم وفي دخولها غير وجه

قال قوم هي زائدة صلة للكلام والتقدير أقسم بيوم القيامة

وقال من يرد ذلك العرب لا تزيد لا في أول الكلام ولكنها ها هنا رد لقول من أنكر البعث وكفر بالتنزيل فقيل له لا ليس كما تقول اقسم بيوم القيامة والحجة لمن قصر انه جعلها لام التأكيد دخلت على أقسم والاختيار لجاعلها لام التأكيد ان يدخل عليها النون الشديدة كقوله ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾ واحتج ان الله عز وجل اقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة

قوله تعالى ﴿ فإذا برق البصر ﴾ اجماع القراء كسر الراء الا نافعا فإنه فتحها فالحجة لمن كسر ان الكسر لا يكون الا في التحير وانشد

لما أتاني ابن صبيح طالبا

أعطيته عيساء منها فبرق

أي تحير فأما الفتح فلا يكون الا الضياء وظهوره كقولهم برق الصبح والبرق اذا لمعا وأضاءا وقال أهل اللغة برق وبرق فهما بمعنى واحد وهو تحير الناظر عند الموت والعرب تقول لكل داخل برقة أي دهشة وحيرة

قوله تعالى ﴿ بل تحبون العاجلة وتذرون ﴾ يقرآن بالياء والتاء فالحجة لمن قرأهما بالياء انه ردهما على معنى قوله ﴿ ينبأ الإنسان ﴾ لانه بمعنى الناس والحجة لمن قرأهما بالتاء انه اراد قل لهم يا محمد بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة

قوله تعالى ﴿ من راق ﴾ اجمع القراء على قراءتها بالوصل والادغام الا ما رواه حفص عن عاصم بقطعها وسكتة عليها ثم يبتديء راق ومعنى راق فاعل من الرقية وقيل من الرقي بالروح الى السماء وكان ابو بكر بن مجاهد رضي الله عنه يقرأ بهذه السورة في صلاة الصبح فيعتمد الوقف على الياء من قوله التراقي ويبين الياء

قوله تعالى ﴿ من مني يمنى ﴾ اجمع القراء فيه على التاء ردا على المعنى إلا ما رواه حفص عن عاصم بالياء ردا على النطفة ومثله يغشى طائفة وتغلى بالياء والتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 356 . 358 ﴾

(68/792)

وقال ابن زنجلة :

75 - سورة القيامة

لا أقسم بيوم القيامة

قرأ ابن كثير لأقسم بيوم القيامة بغير ألف يجعل اللام لام تأكيد المعنى أقسم بيوم القيامة كما تقول أقوم ثم تدخل اللام فتقول لأقوم روي عن الحسن أنه على هذه القراءة قال إن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة

وقرأ الباقون لا أقسم بالألف واختلف النحويين في لا فقال الكسائي وأبو عبيد لا صلة زائدة والتقدير أقسم بيوم القيامة و لا على قولهما صلة كالتي في قوله لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى لأن يعلم فإن قلت لا وما والحروف التي تكون زوائد إنما تكون بين كلامين كقوله مما

خطاياهم وقوله فبما رحمة من الله ولا تكاد تزاد أولا فقد قالوا إن مجاز القرآن مجاز الكلام الواحد والسورة الواحدة قالوا والذي يدل على ذلك أنه قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى كقوله وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون جاء جوابه في سورة أخرى فقال

ما أنت بنعمة ربك بمجنون وقال الفراء العرب لا تزيد لا في أول الكلمة ولكن لا في ها هنا رد لكلام كأنهم أنكروا البعث فقيل ليس الأمر على ما ذكرتم أقسم بيوم القيامة فإذا برق البصر قرأ نافع فإذا برق البصر بفتح الراء أي شخص إذا فتح عينيه عند الموت كذا قال الفراء وقال آخرون برق لمع بصره

وقرأ الباقون برق بالكسر أي تحير وقال الفراء برق فزع قال وأنشدني بعض العرب وداو الكلوم ولا تبرق . . .

أي لا تفزع من هول الجراح كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة 21 , 20

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة بالياء وحجتهم أنه ذكر قبل ذلك الإنسان فقال ينبأ الإنسان يومئذ بل الإنسان على نفسه بصيرة 14 , 13 والإنسان في هذا الوضع في معنى الناس فأخرجوا الخبر عنهم إذ كان ذلك في سياق الخبر عنهم ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون بل تحبون وتذرون بالتاء على الخطاب أي

قل لهم يا محمد بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة الباقية ثم وصف المؤمن والكافر على إثرها وقيل من وراق 27

قرأ حفص وقيل من راق بإظهار النون إعلاما أن من منفصلة من الراء المعنى هل من مداو

وقرأ الباقون بالإدغام لقرب النون من الراء ألم يك نطفة من مني يمنى 37

قرا حفص من مني يمنى بالياء وقرأ الباقون بالتاء فمن قرأ يمنى فللفظ مني ومن قرأ بالتاء فللفظ نطفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 735 . 737 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة القيامة 75

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدنيين والمكي والشامي ونظيرتها في الكوفي النبأ ولا نظير لها في

البصري

وكلمها مئة وتسع وتسعون كلمة

وحروفها ست مئة واثنان وخمسون حرفا

وهي أربعون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ لتعجل به ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون وليس فيها مما يشبه

الفواصل شيء ورؤوس الآي

القيامة

1 اللوامة

2 عظامه

3 بنانه

4 أمامه

5 القيامة

6 البصر

7 القمر

8 والقمر

9 المفر

10 لا وزر

11 المستقر

12 وأخر

13 بصيرة

14 معاذيره

15 وقرآنه

17 قرآنه

18 بيانه

19 العاحلة

20 الآخرة

21 ناضرة

22 ناظرة

23 باسرة

24 فاقرة

25 التراقي

26 من راق

27 الفراق

28 بالساق

29 المساق

30 ولا صلى

31 وتولى

32 يتمطى

33 فأولى

34 فأولى

35 سدى

36 تمنى

37 فسوى

38 والأنثى

39 الموتى

40 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 259﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

في (لا) وجهان: أحدهما هي زائدة كما زيدت في قوله تعالى " لئلا يعلم " والثانى ليست زائدة ، وفي المعنى وجهان: أحدهما هي نفى للقسم بها كما نفى القسم بالنفس .

والثانى أن لا رد لكلام مقدر ، لأنهم قالوا أنت مفتر على الله في قولك نبعث فقال لا ، ثم ابتدأ ، فقال: أقسم ، وهذا كثير في الشعر ، فإن واو العطف تأتى في مبادئ القصائد كثيرا يقدر هناك كلام يعطف عليه ، وقرئ " لأقسم " .

وفي الكلام وجهان: أحدهما هي لام التوكيد دخلت على الفعل المضارع كقوله تعالى " وإن ربك ليحكم بينهم " وليست لام القسم .

والثانى هي لام القسم ولم تصحبها النون اعتمادا على المعنى

ولإن خبر الله صدق ، فجاز أن يأتي من غير توكيد ، وقيل شبهت الجملة الفعلية بالجملة الاسمية كقوله تعالى " لعمرك إنهم لفى سكرتهم " .

قوله تعالى (قادرين) أي بل نجمعها ، فقادرين حال من الفاعل ، و (أمامه) ظرف: أي ليكفر

فيما يستقبل ، و (يسأل) تفسير ليفجر .

قوله تعالى (إلى ربك) هو خبر (المستقر) ويومئذ منصوب بفعل دل عليه المستقر ، ولا يعمل فيه المستقر لأنه مصدر بمعنى الاستقرار ، والمعنى إليه المرجع .

قوله تعالى (بل الإنسان) هو مبتدأ ، و (بصيرة) خبره ، وعلى يتعلق بالخبر وفي التأنيث وجهان: أحدهما ه داخلة للمبالغة: أي بصير على نفسه .

والثاني هو على المعنى: أي هو حجة بصيرة على نفسه ، ونسب الابصار إلى الحجة لما ذكر في بني إسرائيل ، وقيل بصيرة هنا مصدر ، والتقدير: ذو بصيرة ، ولا يصح ذلك إلا على التبيين .

قوله تعالى (وجوه) هو مبتدأ ، و (ناضرة) خبره ، وجاز الابتداء بالنكرة لحصول الفائدة ، ويومئذ ظرف للخبر ، ويجوز أن يكون الخبر محذوفا : أي ثم وجوه وناضرة صفة ، وأما (إلى) فتتعلق ب (ناظرة) الأخيرة .

وقال بعض غلاة المعتزلة إلى ها هنا اسم بمعنى النعمة: أي منتظرة نعمة ربها ، والمراد أصحاب الوجوه .

قوله تعالى (إذا بلغت) العامل في إذا معنى " إلى ربك يومئذ المساق " أي إذا بلغت الحلقوم رفعت إلى الله تعالى ، و (التراقي) جمع ترقوة ، وهى فعلوة وليست بتفعلة إذ ليس في الكلام ترق ، و (من) مبتدأ ، و (راق) خبره: أي من يرقيها ليبرئها : وقيل من يرفعها إلى الله عزوجل أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ .

قوله تعالى (فلا صدق) لا بمعنى ما و (يتمطى) فيه وجهان: أحدهما الألف مبدلة من طاء ، والأصل يتمطط: أي يتمدد في مشيه كبرا .

والثانى هو بدل من واو

والمعنى يمد مطاه: أي ظهره .

قوله تعالى (أولى لك) وزن أولى فيه قولان: أحدهما فعلى ، والألف للإلحاق لا للتأنيث .

والثانى هو أفعل ، وهو على القولين هنا علم ، فلذلك لم ينون ، ويدل عليه ما حكى عن أبى زيد في النوادر هي أولاة بالتاء غير مصروف ، فعلى هذا يكون أولى مبتدأ ولك الخبر .

والقول الثاني أنه اسم للفعل مبنى ، ومعناه وليك شر بعد شر ولك تبيين ، و (سدى) حال وألفه مبدلة من واو (يمنى) بالياء على أن الضمير للمنى ، فيكون في موضع جر ، ويجوز أن يكون للنطفة لأن التأنيث غير حقيقي ، والنطفة بمعنى الماء فيكون في موضع نصب كالقراءة بالتاء ، و (الذكر والأنثى) بدل من الزوجين ، و (يحيى) بالإظهار لا غير ، لأن الياء

لو أدغمت للزم الجمع بين ساكنين لفظا وتقديرا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(73/792)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة القيامة

[سورة القيامة (75) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)

"لا أُقْسِمُ" زائدة ومضارع فاعله مستتر و"بِيَوْمِ" متعلقان بالفعل و"الْقِيامَةِ" مضاف إليه والجملة ابتدائية لا محل لها "وَلا أُقْسِمُ" معطوف على ما قبله و"بِالنَّفْسِ" متعلقان بالفعل و"اللَّوَّامَةِ" صفة.

[سورة القيامة (75) : الآيات 3 الى 4]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4)

"أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ" الهمزة حرف استفهام ومضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها

و"أن" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف و"لن نَجْمَعَ" مضارع منصوب بلن والفاعل مستتر و"عِظامَهُ" مفعول به والجملة خبر أن المخففة والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسب و"بَلى" حرف جواب و"قادِرِينَ" حال و"عَلى" حرف جر و"أَنْ نُسَوِّيَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر و"بَنانَهُ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادرين.

[سورة القيامة (75) : الآيات 5 الى 6]

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6)

"بَلْ" حرف إضراب انتقالي و"يُرِيدُ الْإِنْسانُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"لِيَفْجُرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل و"أَمامَهُ" ظرف مكان والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل. و"يَسْئَلُ" مضارع فاعله مستتر و"أَيَّانَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم و"يَوْمُ" مبتدأ مؤخر مضاف إلى "الْقِيامَةِ" والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي يسأل وجملة يسأل.. مستأنفة لا محل لها.

[سورة القيامة (75) : الآيات 7 الى 10]

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف و"إذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"بَرِقَ الْبَصَرُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَخَسَفَ الْقَمَرُ" معطوف على ما قبله و"جُمِعَ" ماض مبني للمجهول و"الشَّمْسُ" نائب فاعل و"الْقَمَرُ" معطوف على الشمس والجملة معطوفة على ما قبلها . "يَقُولُ الْإِنْسانُ" مضارع وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها و"يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف زمان مضاف إلى مثله و"أَيْنَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم و"الْمَفَرُّ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القيامة (75) : الآيات 11 الى 13]

كَلَّا لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"لا" نافية للجنس و"وَزَرَ" اسمها مبني على الفتح في محل نصب والخبر محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها . و"إِلى رَبِّكَ"

متعلقان بمحذوف خبر مقدم و"يَوْمَئِذٍ"

ظرف زمان مضاف إلى مثله و"الْمُسْتَقَرُّ"

مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . و"يُنَبَّؤُا"

مضارع مبني للمجهول و"الْإِنْسانُ"

نائب فاعل والجملة مستأنفة و"يَوْمَئِذٍ"

ظرف مضاف إلى مثله و"بِما"

متعلقان بالفعل و"قَدَّمَ"

ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما "وَأَخَّرَ"

معطوف على قدم.

[سورة القيامة (75) : الآيات 14 الى 15]

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)

"بَلِ"

حرف إضراب وانتقال و"الْإِنْسانُ"

مبتدأ و"عَلى نَفْسِهِ"

متعلقان بالخبر "بَصِيرَةٌ"

خبر والجملة مستأنفة "وَلَوْ"

الواو حالية "لَوْ"

زائدة و "أَلْقى "

ماض فاعله مستتر و "مَعاذِيرَهُ"

مفعول به والجملة حال .

[سورة القيامة (75) : الآيات 16 الى 17]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17)

"لا تُحَرِّكْ"

مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر و "بِهِ"

متعلقان بالفعل و "لِسانَكَ"

مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها و "لِتَعْجَلَ"

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر و "بِهِ"

متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور

متعلقان بتحرك . و "إِنَّ"

حرف مشبه بالفعل و "عَلَيْنا"

متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم و "جَمْعَهُ"

اسمها المؤخر و "قُرْآنَهُ"

معطوف على ما قبله والجملة تعليل للنهي لا محل لها .

[سورة القيامة (75) : الآيات 18 الى 19]

فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19)

"فَإِذا"

الفاء حرف استئناف و"إذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"قَرَأْناهُ"

ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة و"فَاتَّبِعْ"

الفاء رابطة وأمر فاعله مستتر و"قُرْآنَهُ"

مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها . و"ثُمَّ" حرف عطف و"إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ"

كإعراب إن علينا جمعه .

[سورة القيامة (75) : الآيات 20 الى 21]

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"بَلْ" حرف إضراب و"تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ" مضارع وفاعله ومفعوله

والجملة مستأنفة لا محل لها و"تَذَرُونَ الْآخِرَةَ" معطوفة على ما قبلها .

[سورة القيامة (75) : الآيات 22 الى 25]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ

بِها فاقِرَةٌ (25)

"وُجُوهٌ" مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله و"ناضِرَةٌ" خبر والجملة مستأنفة لا محل لها و"إِلى رَبِّها" متعلقان بالخبر الثاني "ناظِرَةٌ" خبر ثان. "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ" معطوف على ما قبله. و"تَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر و"أَنْ يُفْعَلَ" مضارع مبنيّ للمجهول منصوب بأن و"بِها" متعلقان بالفعل و"فاقِرَةٌ" نائب فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل سد مسد مفعولي تظن والجملة الفعلية صفة وجوه.

[سورة القيامة (75) : الآيات 26 الى 30]

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"بَلَغَتِ" ماض فاعله مستتر و"التَّراقِيَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "وَقِيلَ"

ماض مبني للمجهول و"مَنْ"

اسم استفهام مبتدأ

و"راقٍ"

خبر والجملة الاسمية مقول القول وجملة قيل . . معطوفة على ما قبلها . "وَظَنَّ" ماض فاعله مستتر و"أَنَّهُ" أن واسمها و"الْفِراقُ" خبرها والمصدر المؤول سد مسد مفعولي ظن وجملة ظن . .

معطوفة على ما قبلها . و"وَالْتَفَّتِ السَّاقُ" ماض وفاعله و"بِالسَّاقِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . و"إِلى رَبِّكَ" خبر مقدم و"يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله و"الْمَساقُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية جواب الشرط لا محل لها .

[سورة القيامة (75) : الآيات 31 الى 35]

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

(77/792)

"فَلا" الفاء حرف عطف و"لا" نافية و"صَدَّقَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "وَلا صَلَّى" معطوف على فلا صدق . "وَلكِنْ" حرف استدراك و"كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر "وَتَوَلَّى" معطوف على كذب . و"ثُمَّ" حرف عطف و"ذَهَبَ" ماض فاعله مستتر و"إِلى أَهْلِهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها و"يَتَمَطَّى" مضارع فاعله مستتر

والجملة حال . و"أَوْلى " مبتدأ و"لَكَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ و"فَأَوْلى " الفاء حرف عطف و"أَوْلى " معطوف على ما قبله والجملة مستأنفة و"ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى " معطوفة عليها .

[سورة القيامة (75) : الآيات 36 الى 37]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37)

"أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ" الهمزة حرف استفهام ، ومضارع وفاعله و"أَنْ يُتْرَكَ" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "سُدىً" حال والمصدر المؤول من أن والفعل سد مسد مفعولي يحسب . و"أَلَمْ يَكُ" الهمزة حرف استفهام ومضارع ناقص مجزوم بلم واسمه مستتر و"نُطْفَةً" خبر و"مِنْ مَنِيٍّ" متعلقان بمحذوف صفة نطفة و"يُمْنى " مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة نعت .

[سورة القيامة (75) : الآيات 38 الى 39]

ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39)

"ثُمَّ كانَ" حرف عطف وماض ناقص اسمه مستتر و"عَلَقَةً" خبر كان والجملة معطوفة على ما قبلها .

و"فَخَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَسَوَّى" معطوف على فخلق و"فَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر و"مِنْهُ" متعلقان بالفعل و"الزَّوْجَيْنِ" مفعول به والجملة

معطوفة على ما قبلها و"الذَّكَرَ" بدل من الزوجين و"الْأُنْثى " معطوف على الذكر .

[سورة القيامة (75) : آية 40]

أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

(78/792)

"أَلَيْسَ ذلِكَ" الهمزة حرف استفهام وماض ناقص واسم الإشارة اسمه و"بِقادِرٍ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس والجملة مستأنفة و"عَلى " حرف جر و"أَنْ يُحْيِيَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر و"الْمَوْتى " مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بقادر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 405.403﴾

(79/792)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْقِيَامَة

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1437 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن عدي بن أبي ربيعَة ختن الْأَخْنَس بن شريق وهما اللَّذَان كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول فيهمَا اللَّهُمَّ اكْفِنِي جاري السوء قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا مُحَمَّد حَدثنِي عَن يَوْم الْقِيَامَة مَتى يكون وَكَيف أمرهَا فاخبره رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَو عَاينت ذَلِك الْيَوْم لم أصدقك يَا مُحَمَّد وَلم أومن بِهِ أَو يجمع الله الْعِظَام فنزلت بَلَى قَادِرين

قلت غَرِيب وَهُوَ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ وَالْبَغوِيّ وَأَسْبَاب النُّزُول للْوَاحِدِيّ هَكَذَا من غير سَنَد وَلَا راو

1438 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِذا مشت أمتِي الْمُطَيْطَاء وَخدمَتهمْ فَارس وَالروم فقد جعل بأسهم بَينهم

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث خَوْلَة بنت قيس وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة

أما الحَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الْفِتَن من طَرِيقين

أَحدهمَا عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة الربذي عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن

عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا مشت أمتِي الْمُطَيْطَاء وَخدمتهَا أَبنَاء فَارس وَالروم سلط شِرَارهَا عَلَى خِيَارهَا انْتَهَى وَقَالَ غَرِيب

(80/792)

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد وَابْن عدي فِي الْكَامِل وَأعله بمُوسَى ابْن عُبَيْدَة وَضعفه عَن أَحْمد وَقَالَ الضعْف عَلَى روايا ته بَين انْتَهَى

الطَّرِيق الثَّانِي قَالَ التِّرْمِذِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل الوَاسِطِيّ ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن يَحْيَى بن سعيد الْأَنْصَارِيّ عَن عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَحوه ثمَّ قَالَ وَحَدِيث أبي مُعَاوِيَة هَذَا لَيْسَ لَهُ أصل إِنَّمَا الْمَعْرُوف حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة انْتَهَى وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ لَا نعلم أحدا تَابع مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل عَلَى هَذِه الرِّوَايَة عَن أبي مُعَاوِيَة وَإِنَّمَا يعرف عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن ابْن عمر مَرْفُوعا انْتَهَى

طَرِيق آخر رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي غرائب مَالك من حَدِيث مَالك عَن عبد الله ابْن دِينَار عَن ابْن عمر مَرْفُوعا نَحوه وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث مَالك وَالْمَشْهُور عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن

عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر انْتَهَى

طَرِيق آخر رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب من حَدِيث فرج بن فضَالة عَن يَحْيَى بن سعيد عَن يحنس مولَى الزُّبَيْر عَن ابْن عمر مَرْفُوعا وَقَالَ سلط بَعضهم عَلَى بعض وَفرج ابْن فضَالة ضَعِيف

وَهَذَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث يَحْيَى بن سعيد عَن يحنس مولَى الزُّبَيْر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ . . . فَذكره بِلَفْظ

(81/792)

الْأَصْبَهَانِيّ لم يقل فِيهِ عَن ابْن عمر وَلم يروه الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره إِلَّا كَذَلِك لَا غير

وَأما حَدِيث خَوْلَة فروه ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث عَن حَمَّاد بن سَلَمَة عَن يَحْيَى بن سعيد الْأَنْصَارِيّ عَن عبيد سَنُوطا عَن خَوْلَة بنت قيس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ . . . فَذكره بِلَفْظ الْأَصْبَهَانِيّ سَوَاء

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا أَحْمد بن يَحْيَى ثَنَا يَحْيَى بن بكير ثَنَا ابْن لَهِيعَة عَن عمَارَة بن غزيَّة عَن يَحْيَى بن سعيد عَن يحنس مولَى الزُّبَيْر عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ . . . فَذكره بِلَفْظ الْأَصْبَهَانِيّ وَسكت عَنهُ

قَالَ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث الْمُطَيْطَاء بِالْمدّ أَن يفتح يَدَيْهِ عَن جَنْبَيْهِ وَيَمْشي وَهُوَ التَّبَخْتُر نَقله عَن أبي عُبَيْدَة وَالْفراء وَابْن الْأَعرَابِي

1439 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه كَانَ إِذا قَرَأَ أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِر عَلَى أَن يحيي الْمَوْتَى قَالَ سُبْحَانَكَ بلَى

قلت أخرجه أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الصَّلَاة عَن مُوسَى بن أبي عَائِشَة قَالَ كَانَ رجل يُصَلّي فَوق بَيته وَكَانَ إِذا قَرَأَ أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِر عَلَى أَن يحيي الْمَوْتَى قَالَ فَسُبْحَانَك بلَى فَسَأَلُوهُ عَن ذَلِك فَقَالَ سمعته من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى

(82/792)

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك عَن إِسْمَاعِيل بن أُمَيَّة عَن أبي اليسع عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَ أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِر عَلَى أَن يحيي الْمَوْتَى قَالَ بلَى وَإِذا قَرَأَ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَم الْحَاكِمين قَالَ بلَى انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ

1440 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْقِيَامَة شهدت لَهُ أَنا وَجِبْرِيل يَوْم الْقِيَامَة أَنه كَانَ مُؤمنا بِيَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث مُحَمَّد بن عمرَان بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى ثني أبي عَن مجَالد بن عبد الْوَاحِد عَن الْحجَّاج بن عبد الله بن أبي الْخَلِيل عَن عَلّي بن زيد وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره وَزَاد وَجَاء وَجهه مُسْفِرًا عَلَى وُجُوه الْخَلَائق يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس وَمتْن الثَّعْلَبِيّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 127.130 ﴾

(83/792)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة القيامة :

قوله تعالى : (بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

، الآية/ 14 .

يدل على قبول شهادة الإنسان على نفسه «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 428﴾

(84/792)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة القيامة» (75)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (1 - 2) مجازها أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوّامة . .

«فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ» (7) إذا شقّ البصر وقال الكلابىّ :

لمّا أتانى ابن صبيح راغبا أعطيته عيسا صهابا فبرق

«1» [920] .

«وَخَسَفَ الْقَمَرُ» (8) وكسف القمر واحد ، ذهب ضوءه . .

«وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» (9) لتذكير القمر . .

«لا وَزَرَ» (11) لا جبل ، قال ابن الذّئبة .

لعمرك ما للفتى من وزر من الموت ينجيه والكبر

«2» [921] .

«بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»

(14) جاءت هذه الهاء فى صفة الذكر كما جاءت فى راوية وعلّامة «3» وطاغية .

---

(1) . - 920 : نقله الطبري (29/ 97) والقرطبي (19/ 94) عن أبى عبيدة .

(2) . - 921 : «ابن الذئبة» فهو ربيعة ابن الذئبة والذئبة أمه وأبوه عبد ياليل ابن سالم ، انظر ترجمته فى المؤتلف 120 والبيت مروى عن أبى عبيدة فى القرطبي 19/ 96 .

(3) . - 11 - 12 «جاءت . . . وعلامة» : رواه الطبري (29/ 100) عن بعض البصريين لعله أبو عبيدة .

«مَعاذِيرَهُ»

(15) ما اعتذر به [من] شىء . .

«فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»

(18) اتبع جمعه فإذا قرأناه : جمعناه ، وهى من قول العرب : ما قرأت هذه المرأة سلى قط . قال عمرو بن كلثوم :

لم تقرأ جنينا (1) .

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ» (22) يقال : نضر اللّه وجهك وقد نضّر وجهك . .

«فاقِرَةٌ» (25) الفاقرة الداهية وهو الوسم الذي يفقر على الأنف «1» . .

«بَلَغَتِ التَّراقِيَ» (26) صارت النفس من تراقيه . .

«وَقِيلَ مَنْ راقٍ»

(27) من يرقى . .

«وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ» (29) مثل شمرت عن ساقها . .

«فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى» (31) لم يصدّق فى الدنيا ولم يصلّ ، «لا» ها هنا فى موضع «لم» ، قال طرفة :

وأىّ خيس لا أفأنا نها به وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

«2» [922] .

«يَتَمَطَّى» (33) جاء يمشى المطيطا وهو أن يلقى بيديه ويتكفّأ «3» . .

«أَوْلى لَكَ فَأَوْلى» (35) توعّد . .

«أَنْ يُتْرَكَ سُدىً» (36) لا ينهى ولا يؤمر ، يقال : أسديت حاجتى «4» تركتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 277.278 ﴾

---

(1) . - 6 «وهو . . . الأنف» . رواه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطين 2/ 194) وهو مروى فى الطبري (29/ 105) عن أبى زيد .

(2) . - 922 : لم أجده فى ديوانه من الستة وهو فى الكامل ص 512 له والقرطين (2/ 194) من غير عزو . [. . . . .]

(3) . - 13 «يتمطى . . . ويتكفأ» : انظر ما ورد فيه من الخبر عن النبي عليه السلام . فى الطبري 29/ 108 .

(4) . - 15 «سدى . . . حاجتى» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 523) .

(86/792)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «القيامة»

[سورة القيامة (75) : الآيات 14 الى 15]

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)

قوله تعالى : بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

[14 ، 15] وهذه استعارة . والمراد - والله أعلم - أن الإنسان حجة على نفسه فى يوم القيامة ، وشاهد عليها بما اقترفت من ذنب ، واحتملت من وزر . وإن ألقى معاذيره . أي هو وإن تعلّق بالمعاذير ولفّق الأقاويل شاهد على نفسه بما يوجب العقاب ، ويجر النكال . وقال الكسائي : المعنى : بل على نفس الإنسان بصيرة . فجاء على التقديم والتأخير . أي عليه من الملائكة رقيب يرقبه ، وحافظ يحفظ عمله . وقال أبو عبيدة : جاءت هذه الهاء فى بصيرة ، والموصوف بها مذكّر ، كما جاءت فى علّامة ، ونسّابة ، وراوية ، وطاغية .

والمراد بها المبالغة فى المعنى الذي وقع الوصف به .

ووجه المبالغة فى صفة الملك المحصى لأعمال المكلّف بأنه بصيرة أنّ ذلك الملك يتجاوز علم الظواهر إلى علم السرائر ، بما جعل اللّه تعالى له على ذلك من الأدلة ، وأعطاه من أسباب المعرفة . فهو للعلة التي ذكرناها يوفى على كل رقيب حافظ ، ومراع ملاحظ . والتأويل الآخر يخرج به الكلام عن حيّز الاستعارة . وهو أن تكون المعاذير هاهنا من أسماء السّتور . لأن أهل اليمن يسمّون السّتر بالمعذار . فكأن المراد أن الإنسان رقيب على نفسه

، وعالم بمستسر غيبه ، فيما يفارقه من معصية ، أو يقاربه من ريبة ، وإن ألقى ستوره مستخفيا ، وأغلق أبوابه متواريا .

[سورة القيامة (75) : الآيات 29 الى 30]

وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

وقوله سبحانه : وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ [29 ، 30]

(87/792)

وهذه استعارة على أكثر الأقوال . والمراد بها - واللّه أعلم - صفة الشدّتين المجتمعتين على المرء من فراق الدنيا ، ولقاء أسباب الآخرة . وقد ذكرنا فيما تقدم مذهب العرب فى العبارة عن الأمر الشديد ، والخطب الفظيع ، بذكر الكشف عن الساق ، والقيام عن ساق . فلا فائدة فى تكرير ذلك وإعادته .

وقد يجوز أن يكون السّاق هاهنا جمع ساقة كما قالوا : حاجة وحاج . وغاية وغاى . والساقة : هم الذين يكونون فى أعقاب الناس يحفّزونهم على السّير ، وهذا فى صفة أحوال الآخرة وسوق الملائكة السابقين بالكثرة ، حتى يلتفّ بعضهم ببعض من شديد الحفز ، وعنيف السير والسّوق . ومما يقوّى ذلك قوله تعالى : إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ .

والوجه الأول أقرب ، وهذا الوجه أغرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 355 356. ﴾

(88/792)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القيامة

المؤمن إذا وقع فى خطأ ران عليه هم ثقيل ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت . ذلك أن الإيمان باعث حثيث على التسامى ، وزاجر موجع عن الإسفاف . والذى يلوم نفسه على ما بدر منه لا يألف النقائص ، بل سرعان ما يتجاوزها إلى عالم أزكى . وقد أقسم الله بالنفس اللوامة ، لما وقر فيها من إيمان بالله واليوم الآخر . أما النفوس والمجتمعات التى لا تعرف الله ولا تنتظر لقاءه ، فهى لا تكترث برذيلة ولا توجل من يوم الحساب لأنه فى نظرها وهم ! ويقول فى ذلك الزهاوى: ولا أبذل موهوما بمحسوس ! ومطلع سورة القيامة يشير إلى هذه الأحوال " لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه " . إن الله الذى يبلى الأجسام قادر

على أن يعيدها من أخرى بالملامح نفسها وبآلاف الخطوط المطبوعة على الأصابع لا يتشابه فيها اثنان على ظهر الأرض . . ! ! سيحيا الناس مرة أخرى كى يلقوا جزاء ما قدموا " ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر " وعيب الأولين والآخرين أن إحساسهم بيوم الجزاء ميت أو ضعيف ولو عقلوا لكان لهم موقف آخر . وفى سورة القيامة وصف صادق لهذا اليوم وما يسبقه ويعقبه . ولكن هذا الوصف اعترضه نصح للرسول الكريم كى يخفف من استعجاله لتلقى الوحى ! وهو استعجال مفهوم البواعث . كيف يستوعب امرؤ هذا الوحى السماوى ولا يخرم منه حرفا ثم يذهب ليتلوه على الناس كما أنزل ؟ أى دماغ ذرى يقدر على ذلك ؟ لكن الله طمأنه " إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه " . وبهذا التعهد الإلهى وصل إلينا القرآن كله . وهناك قبل يوم الجزاء الأخير نهاية لا تخطئ إنسانا أبدا ، الموت ! لماذا يغفل عنه البشر ؟

(89/792)

" كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق " . إن سكرة الحياة تحجب العيون عن النظر إلى هذه النهاية المحتومة ، فلم هذا العمى ؟ " أيحسب الإنسان أن يترك سدى " ؟ إن مبدع هذه الحياة والمالى

بنشاطها القارات الخمس لا يفعل ذلك عبثا ، لابد أن يقف البشر أمام خالقهم ليسائلهم عما فعلوا فى هذا الوجود الأول وهل جعلوا منه مهادا لوجودهم الأخير ؟ الغريب أن العلم البشرى تقدم كثيرا فى نصف القرن الأخير كما لم يتقدم فى تاريخ الحياة كلها ، ومع ذلك فعلمه بالله ضحل ، وكذلك استعداده للقائه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 490.489 ﴾

(90/792)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(91/792)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة القيامة

أقول: لما قال سبحانه في آخر المدثر (كلا بَل لا يخافونَ الآخِرة) بعد ذكر الجنة والنار ، وكان

عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر في هذه السورة الدليل على البعث ، ووصف يوم القيامة ، وأهواله ، وأحواله ، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 144﴾

(92/792)

قوله تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي شرف رسوله (صلى الله عليه وسلم) فأعجز الخلق بكتابه بما له من الجلال (الرحمن) الذي عم بنعمتي الإيجاد والبيان أهل الهدى والضلال (الرحيم) الذي خص أهل العناية بالسداد في الأقوال والأفعال .

(93/792)

لما ذكر سبحانه الآخرة أول سورة المدثر وخوف منها بالتعبير بالناقور وما تبعه ، ثم أعاد أمرها آخرها ، وذكر التقوى التي هي أعظم أسباب النجاح فيها والمغفرة التي هي الدواء الأعظم لها ، وكان الكفار يكذبون بها ، وكان سبحانه قد أقام عليها من الأدلة من أول القرآن إلى هنا تارة مع الإقسام وأخرى مع الخلو عنه ما صيرها في حد البديهيات ، وكانت العادة قاضية بأن المخبر إذا كذبه السامع حلف على ما أخبره به ، وكان الإقسام مع تحقق العناد لا يفيد ، أشار سبحانه وتعالى إلى أن الأمر قد صار غنياً عن الإقسام لما له من الظهور الذي لا ينكره إلا معاند ، فقال مشيراً إلى تعظيمها والتهويل في أمرها بذكرها وإثبات أمرها بعدم الإقسام أو تأكيده : ﴿ لا أقسم ﴾ أي لا أوقع الإقسام أو أوقعه مؤكداً ﴿ بيوم القيامة ﴾ على وجود يوم القيامة أو بسبب وجوده لأن الأمر غني فيه عن ذلك وعلى القول بأنه قسم هو مؤكد بالنافي ، ودخوله في التأكيد سائغ بل شائع في كلامهم جداً ، وجاز القسم بالشيء على وجوده إشارة إلى أنه في العظمة في الدرجة العليا كما يقول الإنسان : والله إن الله موجود ، أي لا شيء أحلف به على وجوده – يا أيها المنكر – أعظم منه حتى أحلف به ولا بد لي من الحلف لأجل إنكارك فأنا أحلف به عليه ، فالمعنى حينئذ أنه لا شيء أدل على عظمة الله من هذين الشيئين فلذا أوقع القسم بهما ، وسر التأكيد ب " لا " – كما قال الرازي في اللوامع ، إن الإثبات من طريق النفي آكد كأنه رد على المنكر أولاً ثم أثبت القسم

ثانياً ، فإن الجمع بين النفي والإثبات دليل الحصر .

ولما كان من المقرر المعلوم الذي هو في أقصى غايات الظهور أن من طلبه الملك طلب عرض وحساب وثواب وعقاب يلوم نفسه في كونه لم يبالغ في العمل بما يرضي الملك والإخلاص في موالاته ، والتحيز إليه ومصافاته .

(94/792)

وكان أكثر لوم النفس واقعاً في ذلك اليوم ، وكان إدراكها للوم المرتب على إدراك الأمور الكلية والجزئية ومعرفة الخير والشر ، والتمييز بينهما من أعظم الدلائل على تمام قدرة الخالق وكمال عظمته الموجب لإيجاد ذلك اليوم لإظهار عظمته وحكمه وحكمته قال ﴿ ولا أقسم بالنفس ﴾ على حد ما مضى في أن الباء صلة أو سبب ﴿ اللوامة ﴾ أي التي تلوم صاحبها وهي خيرة وشريرة ، فالخيرة تكون سبباً للنجاة فيه والأخرى تكون سبباً للهلاك فيه ، فإن لامت على الشر أو على التهاون بالخير أنجت ، وإن لامت على ضد ذلك أهلكت ، وكيفما كانت لا بد أن تلوم ، وهي بين الأمارة والمطمئنة ، فما غلب عليها منهما كانت في حيزه ، قال الرازي في اللوامع : فالمطمئنة التي انقادت لأوامر الله ، والأمارة المخالفة لها المتبعة للهوى ، واللوامة هي المجاهدة ، فتارة لها اليد وتارة عليها ، وهي نفس

الإنسان خاصة لأنها بين طوري الخير والشر والكمال والنقصان والصعود والهبوط والطاعة والعصيان ، قال الإمام السهروردي في الباب السادس والخمسين من معارفه : وهي نفس واحدة لها صفات متغايرة ، فالملائكة في درجة الكمال ، والحيوانات الأخر في دركة النقصان .

ولهذا جمع بين القيامة وبين اللوامة ، لأن الثواب والعقاب للآدمي دون الملائكة والحيوانات العجم ، واللوامة يشتد لومها في ذلك اليوم على عدم الخير أو عدم الزيادة منه ، لا أقسم على ذلك بهذا الذي هو من أدل الأمور على عظمته سبحانه فإن الأمر في ذلك غني عن القسم . ولما كان التقدير قطعاً بما يرشد إليه جميع ما مضى جواباً للقسم : إنك والله صادق في إنذارك فلا بد أن ينقر في الناقور بالنفخ في الصور .

(95/792)

قال بانياً عليه بعد الإشارة إلى تعظيم أمر القيامة بما دل عليه حذف الجواب من أنها في وضوح الأمر وتحتم الكون على حالة لا تخفى على أحد منكراً على من يشك فيها بعد ذلك : ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي يقبل على الأنس بنفسه والنظر في عطفه والسرور بحسبه ، وأسند الفعل إلى النوع كله لأن أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل

إلا من عصم الله ﴿أن﴾ أي أنا .

ولما كان فيهم من يبالغ في الإنكار ، عبر أيضاً بأداة التأكيد فقال : ﴿لن نجمع﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿عظامه﴾ أي التي هي قالب بدنه وعماده من الأرض فيعيدها كما كانت بعد تمزقها وتفتتها وافتراقها وبلاها وانمحاقها ، وقد سدت المخففة مسد مفعولي " يحسب " المقدرين ب " يحسبنا " غير جامعين .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم قوله مخبراً عن أهل الكفر ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ [المدثر : 46] ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى : ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ [المدثر : 8] إلى قوله : ﴿غير يسير﴾ [المدثر : 9] والمراد به يوم القيامة ، والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدثر : 11] الآيات ومن كان على حاله في تكذيب وقوع ذلك اليوم ، ثم تكرر ذكره عند جواب من سئل بقوله ﴿ما سلككم في سقر﴾ [المدثر : 42] فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله ، وأشير إلى حال من كذب به في قوله تعالى ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ [القيامة : 6] وفي قوله تعالى : ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ [القيامة : 3] ثم أتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [القيامة : 13] انتهى .

ولما أسند الحسبان إلى النوع لأن منهم من يقول : لا نبعث لأننا نتفتت وننمحق ، قال مجيباً له : ﴿ بلى ﴾ أي لنجمعن عظامه وجمع أجزائه لأنا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها من بعد ارتتاقها حال كونها نطفة واحدة لأن كل من قدر على التفصيل قدر على الجمع والتوصيل حال كوننا ﴿ قادرين ﴾ أي لما لنا من العظمة ﴿ على أن ﴾ .

ولما كانت تسوية الصغير أصعب ، قال : ﴿ نسوي بنانه ﴾ أي أصابعه أو سلامياته وهي عظامه الصغار التي في يديه ورجليه كل منها طول إصبع وأقل ، خصها لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه بأن نجمع بعضها إلى بعض على ما كانت عليه قبل الموت سواء ، فالكبار بطريق الأولى لأنها أبين ، ولا فرق بين تسويتنا ذلك من النطفة وتسويتنا له من التراب ، وهي لا تكون مسواة وهي قالب البدن إلا بتسوية ما عليه من لباس اللحم والعصب والجلد كما يعهدها العاهد ، فتسوية البنان كناية عن تسوية جميع البنيان كما لو قيل لك : هل تقدر على تأليف هذا الحنظل ، فقلت : نعم ، وعلى تأليف الخردل ، مع ما يفهم من تخصيصها من التنبيه على ما فيها من بديع الصنع المتأثر عنه ما لها من لطائف المنافع ، أو أن نسويها الآن فنجمعها على ما كانت عليه حال كونها نطفة من الاجتماع قبل فتقها وتفريقها حتى تكون كخف البعير ، فإن القادر على تفصيل الأنامل حتى تتهيأ للأعمال اللطيفة قادر على جمعها ، فتزول عنها تلك المنفعة .

ومن قدر على تفصيل الماء بعد اختلاطه وجمعه بعد انفصاله قادر على جمع التراب بعد افتراقه ، وكيفما كان فهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيل الأنامل وبديع صنعها الموجب للقطع بأن صانعها قادر على كل ما يريد ، قال في القاموس : البنان : الأصابع أو أطرافها . والسلامى – وزن حبارى : عظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل .

(97/792)

ولما تقدم ما أشار إلى أن القيامة في غاية الظهور ، أضرب عن هذا الإنكار فقال بانياً على ما تقديره : إنه لا يحسب عدم ذلك لأنه من الظهور في حد لا يحتاج إلى كبير تأمل فلو مشى مع عقله عرف الحق : ﴿ بل يريد ﴾ أي يوقع الإرادة ﴿ الإنسان ﴾ أظهر في موضع الإضمار للتصريح بالتعميم لمقتضى الطبع الموجب له عدم الفكر في الآخر مع شدة ظهورها لأنه معني بشهواته فلا نجاة إلا بعصمة الله تعالى ، وحذف مفعول " يريد " إشارة إلى أن كل ما يريده بمقتضى طبعه وشهواته خارج عن طوره فهو معاقب عليه لأنه عبد ، والعبد يجب عليه أن يكون مراقباً للسيد ، لا يريد إلا ما يأمره به ، فإذا أراد ما أمره به لم تنسب إليه إرادة بل الإرادة للسيد لا له .

ولما كان ذلك ، وكانت إرادته الخارجة الخارجة عن الأمر معصية ، قال معللاً : ﴿ ليفجر

أمامه ﴾ أي يقع منه الإرادة ليقع منه الفجور في المستقبل من زمانه بأن يقضي شهواته ويمضي راكباً رأسه في هواه ، ونفسه الكاذبة تورد عليه الأماني وتوسع له في الأمل وتطمعه في العفو من دون عمل ، قال الحسن : المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه ويقول : ما أردت بكلامي ؟ وما أردت بأكلي ؟ والفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها .

ويجوز أن يعود الضمير على الله تعالى ليكون المعنى : ليعمل الفجور بين يدي الله تعالى ويمرأىً منه ومسمع ويطمع في أن لا يؤاخذه بذلك أو يجازيه بفجوره ، قال في القاموس : والفجر : الانبعاث في المعاصي والزنا كالفجور .

ولما كان عريقاً في التلبس بهذا الوصف ، أنتج له الاستهزاء بهذا الخطب الأعظم فترجم ذلك بقوله : ﴿ يسئل ﴾ أي سؤال استهزاء واستبعاد ، ويوضع موضع مفعول يسأل جملة اسمية من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر فقال : ﴿ أيان ﴾ أي أيّ وقت يكون ﴿ يوم القيامة ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 242 . 245 ﴾

(98/792)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : روى الهاشمي وابن ربيعة عن قنبل ﴿ لأقسم ﴾ على أن اللام حرف الابتداء أي لأنا أقسم ولا خلاف في قوله ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ﴿ برق ﴾ بفتح الراء : أبو جعفر ونافع . الآخرون : بكسرها ﴿ تحبون ﴾ و ﴿ تذرون ﴾ على الخطاب أبو جعفر ونافع وعاصم وحمزة وعلي وخلف ﴿ ولا صلى ﴾ إلى اخر السورة بالإمالة اللطيفة : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو . وقرأ حمزة وعلي وخلف بالأمالة الشديدة . ﴿ يمنى ﴾ على لتذكير : حفص والمفضل وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ورويس . الباقون : بتاء التأنيث .

الوقوف : ﴿ القيامة ﴾ ه لا ﴿ اللوامة ﴾ ه ﴿ عظامه ﴾ ه ط لاستئناف الجواب أي بلى نجمعها ﴿ بنانه ﴾ ه ﴿ أمامه ﴾ ه ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف ﴿ القيامة ﴾ ه ج ﴿ البصر ﴾ ه لا ﴿ القمر ﴾ ه ك ﴿ المفر ﴾ ه ك لأن كلاً يصلح للردع عن الفرار والأجوز ﴿ لا وزر ﴾ ه ط ﴿ المستقر ﴾ ه ط ﴿ وأخر ﴾ ه ط ﴿ بصيرة ﴾ ه لا ﴿ معاذيره ﴾ ه لا ﴿ لتعجل به ﴾ ه ط ﴿ وقرآنه ﴾ ه ج لاحتمال أن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ بيانه ﴾ ه ط ﴿ العاجلة ﴾ ه ﴿ الآخرة ﴾ ه ﴿ ناضرة ﴾ ه ج ﴿ ناظرة ﴾ ه ج للفصل بين أهل السعادة والشقاوة ﴿ باسرة ﴾ ه ﴿ فاقرة ﴾ ه ط ﴿ التراقي ﴾ ه لا ﴿ راق ﴾ ه ك ﴿ الفراق ﴾ ه ك ﴿ بالساق ﴾ ه ك ﴿ المساق ﴾ ه ك ﴿ ولا صلى ﴾ ه لا ﴿ وتولى ﴾ ه ك ﴿ يتمطى ﴾ ه ط للعدول إلى الخطاب ﴿ فأولى ﴾ ه لا ﴿

سدى ﴾ ه‍ط ﴿ يمنى ﴾ ه ﴿ فسوى ﴾ ه‍ك ﴿ والأنثى ﴾ ه‍ط ﴿ الموتى ﴾ ه.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 398. 399 ﴾

(99/792)

فصل

قال الفخر:

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

المفسرون ذكروا في لفظة ﴿ لا ﴾ في قوله: ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ ثلاثة أوجه: الأول: أنها صلة زائدة والمعنى أقسم بيوم القيامة ونظيره ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد: 29] وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن لَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: 12] ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: 159] وهذا القول عندي ضعيف من وجوه: أولها: أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً والإثبات نفياً وتجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته ولا على نفيه وثانيها: أن هذا الحرف إنما يزاد في وسط

الكلام لا في أوله ، فإن قيل : (فال) كلام عليه من وجهين : الأول : لا نسلم أنها إنما تزاد في وسط الكلام ، ألا ترى إلى أمرىء القيس كيف زادها في مستهل قصيدته وهي قوله :

لا وأبيك ابنة العامري . . لا يدعى القوم أني أفر

الثاني : هب أن هذا الحرف لا يزاد في أول الكلام إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 6] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] وإذا كان كذلك ، كان أول هذه السورة جارياً مجرى وسط الكلام والجواب عن الأول : أن قوله لا وأبيك قسم عن النفي ، وقوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ نفي للقسم ، فتشبيه أحدهما بالآخر غير جائز ، وإنما قلنا : إن قوله لا أقسم نفي للقسم ، لأنه على وزان قولنا لا أقتل لا أضرب ، لا أنصر ، ومعلوم أن ذلك يفيد النفي .

(100/792)

والدليل عليه أنه لو حلف لا يقسم كان البر بترك القسم ، والحنث بفعل القسم ، فظهر أن البيت المذكور ، ليس من هذا الباب وعن الثاني : أن القرآن كالسورة الواحدة في عدم

التناقض ، فإما في أن يقرن بكل آية ما قرن بالآية الأخرى فذلك غير جائز ، لأنه يلزم جواز أن يقرن بكل إثبات حرف النفي في سائر الآيات ، وذلك يقتضي انقلاب كل إثبات نفياً وانقلاب كل نفي إثباتاً ، وإنه لا يجوز وثالثها : أن المراد من قولنا : لا صلة أنه لغو باطل ، يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام ، ومعلوم أن وصف كلام الله تعالى بذلك لا يجوز القول الثاني : للمفسرين في هذه الآية ، ما نقل عن الحسن أنه قرأ ، لأقسم على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف ، معناه لأنا أقسم ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف واتفقوا في قوله ، ولا أقسم بالنفس اللوامة على لا أقسم ، قال الحسن معنى الآية أني أقسم بيوم القيامة لشرفها ، ولا أقسم بالنفس اللوامة لخساستها ، وطعن أبو عبيدة في هذه القراءة وقال لو كان المراد هذا لقال : لأقسمن لأن العرب لا تقول : لأفعل كذا ، وإنما يقولون : لأفعلن كذا ، إلا أن الواحدي حكى جواز ذلك عن سيبويه والفراء ، واعلم أن هذا الوجه أيضاً ضعيف ، لأن هذه القراءة شاذة ، فهب أن هذا الشاذ استمر ، فما الوجه في القراءة المشهورة المتواترة ؟ ولا يمكن دفعها وإلا لكان ذلك قدحاً فيما ثبت بالتواتر ، وأيضاً فلا بد من إضمار قسم آخر لتكون هذه اللام جواباً عنه ، فيصير التقدير : والله لأقسم بيوم القيامة ، فيكون ذلك قسماً على قسم ، وإنه ركيك ولأنه يفضي إلى التسلسل القول الثالث : أن لفظة لا وردت للنفي ، ثم ههنا احتمالان الأول : أنها وردت نفياً لكلام ذكر قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم

القيامة ، وهذا أيضاً فيه إشكال ، لأن إعادة حرف النفي مرة أخرى في قوه : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ مع

(101/792)

أن المراد ما ذكروه تقدح في فصاحة الكلام .

الاحتمال الثاني : أن لا ههنا لنفي القسم كأنه قال : لا أقسم عليكم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك ، وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح ، ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أخر أحدها : كأنه تعالى يقول : ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن هذا المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه وثانيها : كأنه تعالى يقول : ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب ، فإن إثباته أظهر وأجلى وأقوى وأحرى ، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم ، ثم قال بعده : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] أي كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده وثالثها : أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار والتقدير ألا أقسم

بيوم القيامة .

ألا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر والنشر حق .

المسألة الثانية :

(102/792)

ذكروا في النفس اللوامة وجوهاً أحدها : قال ابن عباس : إن كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة ، أما البرة فلأجل أنها لم لم تزد على طاعتها ، وأما الفاجرة فلأجل أنها لم لم تشتغل بالتقوى ، وطعن بعضهم في هذا الوجه من وجوه الأول : أن من يستحق الثواب لا يجوز أن يلوم نفسه على ترك الزيادة ، لأنه لو جاز منه لوم نفسه على ذلك لجاز من غيره أن يلومها عليه الثاني : أن الإنسان إنما يلوم نفسه عند الضجارة وضيق القلب ، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة ، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من الطاعة إلا ويمكن الإتيان بما هو أزيد منه ، فلو كان ذلك موجباً للوم لامتنع الانفكاك عنه وما كان كذلك لا يكون مطلوب الحصول ، ولا يلام على ترك تحصيله والجواب : عن الكل أن يحمل اللوم على تمني الزيادة ، وحينئذ تسقط هذه الأسئلة وثانيها : أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى .

ثالثها : أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة ، وعن الحسن أن المؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه ، وأما الجاهل فإنه يكون راضياً بما هو فيه من الأحوال الخسيسة ورابعها : أنها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة وخامسها : المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها ، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حسرتى على مَا فَرَّطَتُ ﴾ [الزمر : 56] وسادسها : أن الإنسان خلق ملولا ، فأي شيء طلبه إذا وجده مله ، فحينئذ يلوم نفسه على أني لم طلبته ، فلكثرة هذا العمل سمي بالنفس اللوامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 19 21] واعلم أن قوله لوامة ، ينبىء عن التكرار والإعادة ، وكذا القول في لوام وعذاب وضرار .

المسألة الثالثة :

اعلم أن في الآية إشكالات أحدها : ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة ، حتى جمع الله بينهما في القسم ؟ وثانيها : المقسم عليه ، هو وقوع القيامة فيصير حاصلة أنه تعالى

أقسم بوقوع القيامة وثالثها : لم قال : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ ولم يقل : والقيامة ، كما قال في سائر السور ، والطور والذاريات والضحى ؟ والجواب : عن الأول من وجوه أحدها : أن أحوال القيامة عجيبة جداً ، ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة .

(104/792)

أعني سعادتها وشقاوتها ، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة وثانيها : أن القسم بالنفس اللوامة تنبيه على عجائب أحوال النفس على ما قال عليه الصلاة والسلام : " من عرف نفسه فقد عرف ربه " ومن أحوالها العجيبة ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وقوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الامانة ﴾ إلى قوله ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان ﴾ [الأحزاب : 72] وقال قائلون : القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبداً تستحقر فعلها وجدها واجتهادها في طاعة الله ، وقال آخرون : إنه تعالى أقسم بالقيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وهذا على القراءة الشاذة التي رويناها عن الحسن ، فكأنه تعالى قال : أقسم بيوم القيامة تعظيماً لها ، ولا أقسم بالنفس تحقيراً لها ، لأن النفس اللوامة إما أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها ، وإما أن تكون فاسقة مقصرة في العمل ، وعلى التقديرين فإنها تكون

مستحقرة .

وأما السؤال الثاني : فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا : القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها في الحقيقة ، فكأنه قيل : أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة .

وأما السؤال الثالث : فجوابه أنه حيث أقسم قال : ﴿ والطور ﴾ [الطور : 1] ﴿ والذريات ﴾ [الذاريات : 1] وأما ههنا فإنه نفى كونه تعالى مقسماً بهذه الأشياء ، فزال السؤال ، والله تعالى أعلم .

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في جواب القسم وجوهاً أحدها : وهو قول الجمهور أنه محذوف على تقدير ليبعثن ويدل عليه ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ ، وثانيها : قال الحسن : وقع القسم على قوله : ﴿ بلى قادرين ﴾ ، وثالثها : وهو أقرب أن هذا ليس بقسم بل هو نفي للقسم فلا يحتاج إلى الجواب ، فكأنه تعالى يقول : لا أقسم بكذا وكذا على شيء ، ولكني أسألك

أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه .

المسألة الثانية :

المشهور أن المراد من الإنسان إنسان معين ، روي أن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق ، وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : " اللهم اكفني شر جاري السوء " قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك كيف يجمع الله العظام ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس : يريد الإنسان ههنا أبا جهل ، وقال جمع من الأصوليين : بل المراد بالإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق .

المسألة الثالثة :

قرأ قتادة : ﴿ أَلَن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ على البناء للمفعول ، والمعنى أن الكافر ظن أن العظام بعد تفرقها وصيرورتها تراباً واختلاط تلك الأجزاء بغيرها وبعدما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض لا يمكن جمعها مرة أخرى وقال تعالى في جوابه : ﴿ بلى ﴾ فهذه الكلمة

أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع ، فكأنه قيل : بل يجمعها ، وفي قوله : ﴿ قادرين ﴾ وجهان الأول : وهو المشهور أنه حال من الضمير في نجمع أي نجمع العظام قادرين على تأليفها جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول وهذا الوجه عندي فيه إشكال وهو أن الحال إنما يحسن ذكره إذا أمكن وقوع ذلك الأمر لا على تلك الحالة تقول : رأيت زيداً راكباً لأنه يمكن أن نرى زيد غير راكب ، وههنا كونه تعالى جامعاً للعظام يستحيل وقوعه إلا مع كونه قادراً ، فكان جعله حالاً جارياً مجرى بيان الواضحات ، وإنه غير جائز والثاني : أن تقدير الآية كنا قادرين على أن نسوي بنانه في الإبتداء فوجب أن نبقي قادرين على تلك التسوية في الانتهاء ، وقرىء قادرون أي ونحن قادرون ، وفي قوله : ﴿ على أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ وجوه : أحدها : أنه نبه بالبنان على بقية الأعضاء ، أي نقدر على أن نسوي بنانه بعد صيرورته تراباً كما كان ، وتحقيقه أن من قدر على الشيء في الابتداء قدر أيضاً عليه في الإعادة وإنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم خلقه ، فكأنه قيل : نقدر على ضم سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف القول في كبار العظام وثانيها : بلى قادرين على أن نسوي بنانه أي نجعلها مع كفه صفيحة مستوية لا شقوق فيها كخف البعير ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللطيفة التي يستعان عليها بالأصابع ، والقول الأول أقرب إلى الصواب .

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)

اعلم أن قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾ عطف على ﴿ أيحسب ﴾ ، فيجوز فيه أن يكون أيضاً استفهاماً كأنه استفهم عن شيء ثم استفهم عن شيء آخر ، ويجوز أن يكون إيجاباً كأنه استفهم أولاً ثم أتى بهذا الإخبار ثانياً .

وقوله : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ فيه قولان : الأول : أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه ، وعن سعيد بن جبير : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، يقول : سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله القول الثاني : ليفجر أمامه ، أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب ، لأن من كذب حقاً كان كاذباً وفاجراً ، والدليل عليه قوله : ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ [القيامة : 6] فالمعنى يريد الإنسان ليفجر أمامه ، أي ليكذب بيوم القيامة وهو أمامه ، فهو يسأل أيان يوم القيامة ، متى يكون ذلك تكذيباً له .

يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)

أي يسأل سؤال مستنعت مستبعد لقيام الساعة ، في قوله : أيان يوم القيامة ، ونظيره ﴿ يقولون متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] واعلم أن إنكار البعث تارة يتولد من الشبهة وأخرى من الشهوة ، أما من الشبهة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان

أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] وتقريره أن الإنسان هو هذا البدن فإذا مات تفرقت أجزاء البدن واختلطت تلك الأجزاء بسائر أجزاء التراب وتفرقت في مشارق الأرض ومغاربها فكان تمييزها بعد ذلك عن غيرها محالاً فكان البعث محالاً ، واعلم أن هذه الشبهة ساقطة من وجهين الأول : لا نسلم أن الإنسان هو هذا البدن فلم لا يجوز أن يقال : إنه شيء مدبر لهذا البدن فإذا فسد هذا البدن بقي هو حياً كما كان .

(108/792)

وحينئذ يكون الله تعالى قادراً على أن يرده إلى أي بدن شاء وأراد ، وعلى هذا القول يسقط السؤال ، وفي الآية إشارة إلى هذا لأنه أقسم بالنفس اللوامة ، ثم قال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن الثاني : إن سلمنا أن الإنسان هو هذا البدن فلم قلتم : إنه بعد تفريق أجزائه لا يمكن جمعه مرة أخرى وذلك لأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات فيكون عالماً بالجزء الذي هو بدن عمرو ، وهو تعالى قادر على كل الممكنات وذلك التركيب من الممكنات وإلا لما وجد أولاً ، فيلزم أن يكون قادراً على تركيبها .

ومتى ثبت كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات قادراً على جميع الممكنات لا يبقى في المسألة

إشكال .

وأما القسم الثاني : وهو إنكار من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانِ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة : 5] ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات والاستكثار من اللذات لا يكاد يقر بالحشر والنشر وبعث الأموات لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية فيكون أبداً منكراً لذلك قائلاً على سبيل الهزؤ والسخرية أيان يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 193.189 ﴾

(109/792)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

قيل : إن "لا" صلة ، وجاز وقوعها في أوّل السورة ؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض ، فهو في حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : 15] وجوابه في سورة أخرى : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] ومعنى الكلام : أقسم بيوم

القيامة ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة ؛ ومثله قول الشاعر :

تذكَّرتُ لَيْلَى فاعترتِني صَبَابَةٌ . . .

فكاد صِمِيمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ

وحكى أبو الليث السَّمرقنديّ : أجمع المفسرون أن معنى "لاَ أُقْسِمُ" : أقسم .

واختلفوا في تفسير "لا" قال بعضهم : "لا" زيادة في الكلام للزينة ، ويجري في كلام العرب زيادة "لا" كما قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] يعني أن تسجد ، وقال بعضهم : "لا" : ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث ، فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهذا قول الفرّاء ؛ قال الفرّاء : وكثير من النحويين يقولون "لا" صلة ، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة ؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، فجاء الإقسام بالردّ عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ وذلك كقولهم لا والله لا أفعل ف "لا" ردٌّ لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحقّ ، كأنك أكذبت قوماً أنكروه .

وأنشد غير الفرّاء لامرىء القيس :

فلا وأَبِيكِ ابنة العامِرِيِّ . . .

لا يَدَّعِي القومُ أَنِّي أَفِرّ

وقال غُوَيَّة بن سلمى :

ألا نادتْ أمامةُ باحتمال . . .

لِتحزُنِني فلا بِكِ ما أبالِي

وفائدتها توكيد القسم في الردّ .

(110/792)

قال الفرّاء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ "لأَقِسمُ" بغير ألف ؛ كأنه لام تأكيد دخلت على أقسم ، وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله وهي قراءة الحسن وابن كثير والزهريّ وابن هُرْمز ﴿ بِيَوْمِ القيامة ﴾ أي بيوم يقوم الناس فيه لربّهم ، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء ، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه ولم يقسم بالنفس .

وعلى قراءة ابن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية .

وقيل : ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ ردّ آخر وابتداء قسم بالنفس اللوامة .

قال الثعلبيّ : والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً .

ومعنى : "بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ" أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم .

قال الحسن : هي والله نفس المؤمن ، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامي ؟ ما أردتُ بأكلي ؟ ما أردتُ بحديث نفسي ؟ والفاجر لا يحاسب نفسه .

وقال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لا تستكثر منه .

وقيل : إنها ذات اللوم .

وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة ، وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً .

وفي بعض التفسير : إنه آدم عليه السلام لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة .

وقيل : اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة عن ابن عباس أيضاً فهي صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسماً ؛ إذ ليس للعاصي خَطَرٌ يُقْسَم به ، فهي كثيرة اللوم .

وقال مقاتل : هي نفس الكافر يلوم نفسه ، ويتحسّر في الآخرة على ما فرّط في جنب الله .

وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها ؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحساناً والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رُفاتاً .

قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة : ليجمعن العظام للبعث ، فهذا جواب القسم .

وقال النحاس : جواب القسم محذوف أي لتبعثنّ ؛ ودلّ عليه قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ لِلإحياء والبعث .

والإنسان هنا الكافر المكذّب للبعث .

الآية نزلت في عديّ بن ربيعة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : حدّثني عن يوم القيامة متى تكون ، وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به ، أو يَجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهمّ اكفني جارَيِ السُّوءِ عديَّ بن ربيعة ، والأخنَس بن شَرِيق " وقيل : نزلت في عدوّ الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت .

وذكر العظام والمراد نفسه كلها ؛ لأن العظام قالَب الخَلْق .

﴿ بلى ﴾ وقف حسن ثم تبتديء ﴿ قَادِرِينَ ﴾ .

قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين ، ف "قادِرِين" حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير .

وقيل : المعنى بلى نقدر قادرين .

قال الفراء : "قَادِرِينَ" نصب على الخروج من "نَجْمَع" أي نقدر ونقوى "قَادِرِينَ" على أكثر من ذلك .

وقال أيضاً : يصلح نصبه على التكرير أي "بَلَى" فليحسبنا قادرين .

وقيل : المضمر (كنا) أي كنا قادرين في الابتداء ، وقد اعترف به المشركون .

وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن السَّمَيْقَع "بَلَى قَادِرُونَ" بتأويل نحن قادرون .

﴿ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ البنان عند العرب : الأصابع ، واحدها بنانة ؛ قال النابغة :

(112/792)

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأَنَّ بَنَانَهُ . . .

عَنَمٌ يَكادُ مِن اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

وقال عنترة :

وأَنَّ الموتَ طَوْعَ يدِي إذا ما . . .

وَصَلْت بَنَانَهَا بِالهِنْدُوَانِيْ

فنبّه بالبنان على بقية الأعضاء .

وأيضاً فإنها أصغر العظام ، فخصّها بالذكر لذلك .

قال القتبيّ والزجاج : وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام ؛ فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلاَميّات على صغرها ، ونؤلف بينها حتى تستوي ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر .

وقال ابن عباس وعامة المفسرين : المعنى : "عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ" أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخفّ البعير ، أو كحافر الحمار ، أو كظلف الخنزير ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً ، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء .

وكان الحسن يقول : جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ ، وتقبضهن بهنّ ، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك .

وقيل : أي نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم ، فكيف في صورته التي كان عليها ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ .

على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 60-61] .

قلت : والتأويل الأوّل أشبه بمساق الآية .

والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب.

وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب.

فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه.

ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبِيّ وغيره: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نَقْب إبله ودَبَرها، وسَأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله؛ فقال الأعرابيّ:

أَقْسمَ بِاللَّهِ أبو حفصٍ عُمَرْ . . .

(113/792)

ما مَسَّها مِن نَقَبٍ ولا دَبَرْ

فاغفر له اللّهمّ إنْ كان فَجَرْ . . .

يعني إن كان كذّبني فيما ذكرت.

وعن ابن عباس أيضاً : يعجّل المعصية ويسوّف التوبة .

وفي بعض الحديث قال : يقول سوف أتوب ولا يتوب ؛ فهو قد أخلف فكذب .

وهذا قول مجاهد والحسن وعِكرمة والسّديّ وسعيد بن جبير ، يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب ، حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله .

وقال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت .

وقيل : أي يعزم على المعصية أبداً وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة .

فالهاء على هذه الأقوال للإنسان .

وقيل : الهاء ليوم القيامة .

والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة .

والفجور أصله الميل عن الحقّ .

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ أي متى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(114/792)

وقال الآلوسى :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

إدخال لا النافية صورة على فعل القسم مستفيض في كلامهم وإشعارهم قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامري . . .

لا يدعي القوم أني أفر

وقول غوية بن سلمى يرثي :

ألا نادت أمامة باحتمال . . .

لتحزنني فلا يك ما أبالي

(115/792)

وملخص ما ذهب إليه جار الله في ذلك أن لا هذه إذا وقعت في خلال الكلام كقوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ [النساء : 65] فهي صلة تزاد لتأكيد القسم مثلها في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29] لتأكيد العلم وأنها إذا وقعت ابتداء كما في هذه السورة وسورة البلد فهي للنفي لأن الصلة إنما تكون في وسط الكلام ووجهه أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية

والمراد أنه لا يعظم بالقسم لأنه في نفسه عظيم أقسم به أولاً ويترقى من هذا التعظيم إلى تأكيد المقسم عليه إذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمن المبالغة فيه فما يختلج في بعض الخواطر من أنه يلزم أن يكون على هذا إخباراً لا إنشاءً فلا يستحق جواباً وأن المعنى على تعظيم المقسم عليه لا المقسم به مدفوع ووراء ذلك أقوال فقيل أنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر وقال الفراء لنفي كلام معهود قبل القسم ورده فكأنهم هنا أنكروا البعث فقيل لا أي الأمر كذلك ثم قيل اقسم بيوم القيامة وقدح الإمام فيه بإعادة حرف النفي بعد وقيل أنها ليست لا وإنما اللام أشبعت فتحتها فظهر من ذلك ألف والأصل لأقسم كما قرأ به قنبل وروي عن البزي والحسن وهي لام الابتداء عند بعض والأصل لأنا أقسم وحذف المبتدأ للعلم به ولام التأكيد دخلت على الفعل المضارع كما في ﴿ أن ربك ليحكم بينهم ﴾ [النحل : 124] والأصل أني لأقسم عند بعض ولام القسم ولم يصحبها نون التوكيد لعدم لزوم ذلك وإما هو أغلبي على ما حكي عن سيبويه مع الاعتماد على المعنى عند آخرين وقال الجمهور أنها صلة واختاره جار الله في المفصل وما ذكر من الاختصاص غير مسلم لأن الزيادة إذا ثبتت في القسم فلا فرق بين الأول الكلام وأوسطه لا أنه مسلم لكن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض لأن كونه كذلك بالنسبة إلى التناقض ونحوه لا بالنسبة إلى مثل هذا الحكم ثم فهم ما ذكره في توجيه النفي من

اللفظ بعيد وحال سائر الأقوال غير خفي وقد مر بعض الكلام في ذلك فتذكر والكلام في قوله تعالى :

(117/792)

﴿ وَلَا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ على ذلك النمط بيد أنه قيل على قراءة لأقسم فيما قبل أن المراد هنا النفي على معنى أني ﴿ لأقسم ﴾ بيوم القيامة لشرفه ولا أقسم بالنفس اللوامة لخستها وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ما يقتضيه وحكاه في "البحر" عن الحسن وقال قتادة في هذه النفس هي الفاجرة الجشعة اللوامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأغراضها وجاء نحوه في رواية عن ابن عباس والحق أنه تفسير لا يناسب هذا المقام ولذلك قيل هي النفس المتقية التي تلوم النفوس يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى والمبالغة بكثرة المفعول وقال مجاهد هي التي تلوم نفسها على ما فات وتندم على الشر لم فعلته وعلى الخير لم لم تستكثر منه فهي لم تزل لائمة وإن اجتهدت في الطاعات فالمبالغة في الكيف باعتبار الدوام وقيل المراد بالنفس اللوامة جنس النفس الشاملة للتقية والفاجرة لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال " ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة

إن عملت خيراً قالت كيف لم أزد منه وإن عملت شراً قالت ليتني قصرت " وضمها إلى يوم القيامة لأن المقصود من إقامتها مجازاتها وبعثها فيه وضعف بأن هذا القدر من اللوم لا يكون مداراً للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس وأجيب بأن القسم بها حينئذٍ بقطع النظر عن الصفة والنفس من حيث هي شريفة لأنها الروح التي هي من عظيم أمر الله عز وجل وفيه أنه لا يظهر لذكر الوصف حينئذٍ فائدة والإمام أوقف الخبر على ابن عباس واعترضه بثلاثة أوجه وأجاب عنها بحمل اللوم على تمني الزيادة وتمنى أن لم يكن ما وقع من المعصية واقعاً وما ذكر من توجيه الضم لا يخص هذا الوجه كما لا يخفى وقيل المراد بها نفس آدم عليه السلام فإنها لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذي خرجت به من الجنة وأكثر الصوفية على أن النفس اللوامة فوق الإمارة وتحت المطمئنة وعرفوا الأمارة

(118/792)

بأنها هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الجهة السفلية وقالوا هي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة وعرفوا اللوامة بأنها هي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سنة الغفلة فكلما صدر عنها سيئة بحكم

جبلتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها وعرفوا المطمئنة بأنها التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة وسكنت عن منازعة الطبيعة ومنهم من قال في اللوامة هي المطمئنة اللائمة للنفس الأمارة ومنهم من قال هي فوق المطمئنة وهي التي ترشحت لتأديب غيرها إلى غير ذلك والمشهور عنهم تقسيم مراتب النفس إلى سبع منها هذه الثلاثة وفي سير السلوك إلى ملك الملوك كلام نفيس في ذلك فليراجعه من شاء وجواب القسم ما دل عليه قوله تعالى :

(119/792)

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن لَنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ وهو ليبعثن وقيل هو أيحسب الخ وقيل ﴿ بلى قادرين ﴾ [القيامة : 4] وكلاهما ليسا بشيء أصلاً كزعم عدم الاحتياج إلى جواب لأن المراد نفي الإقسام والمراد بالإنسان الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أي أيحسب أن الشأن لن نجمع بعد التفرق عظامه وحاصله لم يكون هذا الحسبان الفارغ عن الأمارة المنافي لحق اليقين وصريحه والنسبة إلى الجنس لأن فيه من يحسب ذلك بل لعله الأكثرون وجوز أن يكون التعريف للعهد والمراد بالإنسان عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيهما " اللهم أكفني جاري السوء " فقد روي أنه جاء إليه عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف يكون أمره فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به أو يجمع الله تعالى هذه العظام فنزلت وقيل أبو جهل فقد روي أنه كان يقول أيزعم محمد أن يجمع الله تعالى هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقاً جديداً فنزلت وليس كإرادة الجنس وسبب النزول لا يعينه وذكر العظام وأن المعنى على إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة لما أنها قالب الخلق وقرأ قتادة تجمع بالتاء الفوقية مبنياً للمفعول عظامه بالرفع على النيابة .

(120/792)

﴿ بلى ﴾ أي نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميماً ورفاتاً في بطون البحار وفسيحات القفار وحيثما كانت حال كوننا ﴿ قادرين ﴾ فقادرين حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى وهو قول سيبويه وقيل منصوب على أنه خبر كان أي بلى كنا قادرين في البدء أفلا نقدر في الإعادة وهو كما ترى وقيل انتصب لأنه وقع في موضع نقدر إذ التقدير بلى نقدر فلما وضع موضع الفعل نصب حكاه مكي وقال إنه بعيد من الصواب يلزم عليه نصب قائم في

قولك مررت برجل قائم لأنه في موضع يقوم فتأمل وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميفع قادرون أي نحن قادرون ﴿ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ هي اسم جنس جمعي واحده بنانة وفسرها الراغب بالأصابع ثم قال قيل سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يبين بها ما يريد أي يقيم غيره بما صغر من عظام الأطراف كاليدين والرجلين وفي "القاموس" البنان الأصابع أو أطرافها فالمعنى نجمع العظام قادرين على تأليف جمعها وإعادتها إلى التركيب الأول وإلى أن نسوي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أو على أن نسوي ونضم سلاميا ته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام وما ليس في الأطراف منها وفي الحال المذكورة أعني قادرين على الخ بعد الدلالة على التقييد تأكيد لمعنى الفعل لأن الجمع من الأفعال التي لا بد فيها من القدرة فإذا قيد بالقدرة البالغة فقد أكد والوجه الأول من المعنى يدل على تصوير الجمع وأنه لا تفاوت بين الإعادة والبدء في الاشتمال على جميع الأجزاء التي كان بها قوام البدن أو كماله والثاني يدل على تحقيق الجمع التام فإنه إذا قدر على جمع الألطف إلا بعد عادة عن الإعادة فعلى جمع غيره أقدر ولعله الأوفق بالمقام ويعلم منهما نكتة تخصيص البنان بالذكر وقيل المعنى بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه أن نجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار ولا نفرق

بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج وروي هذا من ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك ولعل المراد نجمعها ونحن قادرون على التسوية وقت الجمع فالكلام يفيد المبالغة السابقة لكن من وجه آخر وهو أنه سبحانه إذا قدر على إعادته على وجه يتضمن تبديل بعض الأجزاء فعلى الاحتذاء بالمثال الأول في جميعه أقدر وأبو حيان حكى هذا المعنى عن الجمهور لكن قيد التسوية فيه بكونها في الدنيا وقال أن في الكلام عليه توعداً ثم تعقب ذلك بأنه خلاف الظاهر المقصود من سوق الكلام والأمر كما قال لو كان كما فعل فلا تغفل ولا يخفى أن في الإتيان بلا أولاً وحذف جواب القسم والإتيان بقوله سبحانه ﴿ أيحسب ﴾ ورعاية أسلوب

.

وثناياك أنها اغريض . . .

في القسم بيوم البعث والمبعوث فيه ثم إيثار لفظ الحسبان والإتيان بهمزة الإنكار مسنداً إلى الجنس وبحرف الإيجاب والحال بعدها من المبالغات في تحقيق المطلوب وتفخيمه وتهجين المعرض عن الاستعداد له ما تبهر عجائبه ثم الحسن كل الحسن في ضمن حرف الإضراب في قوله سبحانه :

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانِ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ وهو عطف على ﴿ أيحسب ﴾ جيء للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أدخل في اللوم والتوبيخ من الأول كأنه قيل دع تعنيفه فإنه أشط من ذلك وأنى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه أو هو عطف على يحسب منسحباً عليه الاستفهام أو على أيحسب مقدراً فيه ذلك أي بل أريد جيء به زيادة إنكار في إرادته هذه وتنبيهاً على أنها أفظع من الأول للدلالة على أن ذلك الحسبان بمجرده إرادة الفجور كما تقول في تهديد جمع عاثوا في البلد أيحسبون أن لا يدخل الأمير بل يريدون أن يتملكوا فيه لم تقل هذا إلا وأنت مترق في الإنكار منزل عبثهم منزلة إرادة التملك وعدم العبء بمكان الأمير وإلى هذين الوجهين أشار جار الله على ما قرر في "الكشف" والوجه الأول أبلغ لأن هذا على الترقي والأول إضراب عن الإنكار وإيهام أن الأمر أطم من ذلك وأطم وفيهما إيماء إلى أن ذلك الإنسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب واعتبر الدوام في ليفجر لأنه خبر عن حال الفاجر بأنه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانه وإرادته هما عين الفجور وقيل لأن أمامه ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار وفي

إعادة المظهر ثانياً ما لا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الأظهر وعن ابن عباس ما يقتضي عوده على يوم القيامة والأول هو الذي يقتضيه كلام كثير من السلف لكنه ظاهر في عموم الفجور قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي في الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راكباً رأسه ومطيعاً أمله ومسوفاً لتوبته وهو حسن لا يأبى ذلك الإضراب وفيه إشارة إلى أن مفعول يريد محذوف دل عليه ليفجر وقال بعضهم هو منزل منزلة اللام ومصدره مقدر

(123/792)

بلام الاستغراق أي يوقع جميع إرادته ليفجر وعن الخليل وسيبويه ومن تبعهما في مثله أن الفعل مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء وليفعل خبر فالتقدير هنا بل إرادة الإنسان كائنة ليفجر .

﴿ يَسْئَلُ ﴾ سؤال استهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ أي متى يكون والجملة قيل حال وقيل تفسير ليفجر وقيل بدل منه واختار المحققون أنه استئناف بياني جيء به تعليلاً لإرادة الدوام على الفجور إذ هو في معنى لأنه أنكر البعث واستهزأ به وفيه أن من أنكر البعث لا

محالة يرتكب أشد الفجور وطرف من قوله تعالى ﴿ هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(124/792)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

75 ـ سورة القيامة

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة القارعة .

عدد آياتها : أربعون آية .

عدد كلماتها : مائة وتسع وتسعون . . كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة واثنان وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

جاء فى ختام سورة « المدثر » قوله تعالى : « كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ » جاء كاشفا عن العلة التي نجم عنها شرك المشركين ، وكفرهم بآيات اللّه ، وتكذيبهم لرسول اللّه . . وتلك العلة هى أنهم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتصورون إمكان الحياة بعد الموت ، ومن ثم فإنهم لا يعملون حسابا لما وراء حياتهم الدنيا ، ولهذا أطلقوا عنان أهوائهم ، وأسلموا زمامهم

للشيطان ، يعيشون كما تعيش السائمة . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » (12 : محمد) .

ولو كان هؤلاء المشركون يؤمنون بالآخرة ، ويتصورون إمكان الحياة ، بعد الموت ، لكان لهم نظرة إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا ، ولعملوا حسابا ليوم يلقون فيه ربهم ، ويجزون فيه على أعمالهم .

وقد جاءت سورة القيامة ، تعرض وقوع هذا اليوم ، يوم القيامة ، فى صورة واقع مشهود ، له ذاتية معترف بها ، فيقسم به الله سبحانه وتعالى ، كما يقسم بالشمس ، والقمر ، والليل ، والضحى ، والعصر . . وغير ذلك من آياته المشهودة للعالمين .

(125/792)

قوله تعالى : « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

قلنا فى تفسير هذه الأقسام المنفيّة ، إن المراد بها هو التلويح بالقسم ، دون إمضائه ، إذا كان الأمر المقسم عليه أوضح من أن يدل عليه ، وأن يؤكد فى الدلالة عليه بقسم . . إنه ينزل منزلة البديهيات ، وتوكيد البديهيات لا يزيدها عند الذين لا يؤمنون بها إلا إنكارا ، واستبعادا . .

والتلويح بالقسم ، إشارة إلى أنه لو كان الأمر يحتاج إلى قسم لمضى القسم إلى غايته ، ولما سلط عليه النفي الذي حال بينه وبين أن يقع على المقسم عليه . .

(126/792)

ففائدة هذا القسم المنفي أنه يقرر حقيقة ، لا يرى لها وجه ، لو جاء الأمر ابتداء من غير هذا القسم المنفىّ . . فالقسم المنفي هنا يكشف عن حال المواجهين بالقسم ، وأنهم يكذبون بالبدهيات ، ويعاندون فى المسلّمات ، وأنه لو كان فى التوكيد بالقسم مقنع لهم ، لوقع القسم ، ولكن يستوى عندهم الأمران ، التوكيد وغير التوكيد . . إنهم على أي الحالين لا يؤمنون بما يلقى إليهم من أخبار على لسان النبي ، بما يوحى إليه من ربه .

قوله تعالى : « وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » معطوف على يوم القيامة . .

والنفس اللوامة ، هى النفس التي ترجع على صاحبها باللائمة لما يقع منه من إثم ، وما يقترف من ذنب . . وهذا التلويم من شأنه أن يغيّر من وضع الإنسان القائم على الإثم ، والمتجه إلى المنكر . . إنه قوة معارضة لهذا التيار الذي يدفع به إلى المنكر ، وقد يتحول هذا التيار إلى الجهة المضادة لطريق الغواية المتجه إليه . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ

أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ » (60 . 61 :

المؤمنون) فمع وجل القلوب ، يقع فى النفس ما يقع من لوم على ما فرط منها .

وقرنت النفس اللوامة بيوم القيامة ، لأن ثمرة هذا التلويم ، إنما تظهر آثاره يوم القيامة . .

فالنفس اللوامة إنما يحملها على التلوم ، الخوف من الآخرة ، ومن لقاء اللّه ، والوقوف بين يديه

. . ولولا الإيمان بيوم القيامة لما راجع المرء نفسه فيما أحدث من آثام ، ولما قامت فى كيانه

تلك النفس اللوامة ، التي تقف منه موقف المحاسب قبل يوم الحساب !

(127/792)

قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ » ؟

أي أيظن الإنسان أننا لن نجمع عظامه ؟ أيستكثر على قدرتنا أن نقيم من هذا التراب بشرا

سويا ؟ « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ » (81 :

يس) . . « وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (78 . 79 : يس) قوله تعالى : « بَلى قادِرِينَ عَلى

أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ » أي بلى إننا نجمع عظامه ، مع قدرتنا على تسوية بنانه . . فليس جمع هذه

العظام التي أكلها التراب ، وأبلاها البلى ، هو الذي تقف عنده قدرتنا ، بل إن هذه القدرة

ستعيد هذه العظام إلى وضعها الأول ، وستسوى أدقّ ما فى الإنسان من عظام ، وهى عظام البنان ، أي الأصابع . .

وقوله تعالى « قادرين » حال من فاعل فعل محذوف ، تقديره : بلى نجمعها ، ونحن قادرون على تسوية بنانه ، التي هى أدق هذه العظام ، وأصغرها . .

قوله تعالى : « بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ » هو إضراب على هذا الخطاب الموجه إلى الإنسان الذي ينكر البعث ، ويأبى أن يصدق به . . فإن نصب الأدلة له ، وإقامة الحجج بين يديه ـ كل ذلك لا يكشف عمى بصيرته ، ولا يوقع فى نفسه إيمانا بالبعث ، وإعدادا اليوم الآخر . .

(128/792)

إنه لا يريد أن يلتفت إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا ، ولا يريد أن يقيّد نفسه بعالم آخر غير هذا العالم ، الذي يعيش فيه مطلقا من كل قيد ، مرسلا حبله على غاربه . .

وقوله تعالى : « لِيَفْجُرَ أَمامَهُ » أي ليقيم حفرة بينه وبين الحياة الآخرة التي يقال له عنها . . إنه يضع أمام نفسه العقبات التي تصرفه عن الحياة الآخرة ، بما يقيم على طريق هذه الحياة من معوقات ، هى تعلّات وتصورات مريضة ، توقع عنده الشك فى البعث ، وما وراء

البعث ، حتى يحلّ نفسه من ملاقاة هذا اليوم ، وما يحدّث به إليه ، عن هذا اليوم وأهواله . . إن ذلك اليوم يقطعه عن الحياة البهيمية التي رضى بها واطمأن إليها ، فهو إذا سمع حديثا عن يوم القيامة ، حاول جاهدا أن يفسد هذا الحديث ، وأن يخرج به من مجال العقل والجد ، إلى حيث المهاترة والهزل . .

وأصل الفجر ، والفجور ، من فوران الشيء ، وتفجره فى قوة وعنف ، ومنه قوله تعالى : « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً » ومنه الفجور ، وهو التهتك والتبذل ، وخلع قناع الحياء . .

وفى تعديه الفعل « يريد » باللام التي تفيد التعليل - مع أن الفعل يتعدى إلى مفعوله بغير حرف - فى هذا إشارة إلى أن هذه الإرادة إرادة عاملة ، وأنها ليست مجرد أمنية ، أو رغبة ، أو خاطرة ، تطرق الإنسان ، ثم لا تلبث أن تذهب غير مخلفة أثرا . .

فالإرادة هنا إرادة مشدودة إلى عزم ، وتصميم ، على التنفيذ . . وفى طريق التنفيذ تقوم عقبات ، فيعمل صاحب هذه الإرادة على تذليلها ، ويحتال لإمضائها . . ولهذا ضمّن الفعل « يريد » معنى الفعل « يحتال » .

. وهذا يعنى

أن الإنسان يغالب قوة متحدية لإرادته وهى الفطرة المودعة فيه ، فلا يملك لها دفعا إلا بالمراوغة والاحتيال وهذا المعنى هو الذي قصد إليه مجنون ليلى بقوله :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لى ليلى بكل سبيل

وقوله تعالى : «يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ» هو أثر من آثار إرادة هذا الإنسان ، الذي يقيم العلل ، والمعاذير ، بينه وبين اليوم الآخر . . فهو يسأل سؤال المنكر ، المستهزئ : أيان يوم القيامة ؟ أي متى يكون يوم القيامة هذا ؟ وهو سؤال اتهام لهذا اليوم ، وتكذيب لمن يتحدث به ، أو عنه . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1311.1316 ﴾

(130/792)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف به نفس السامع كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن .

وكونُ القَسَم بيوم القيامة براعةُ استهلال لأن غرض السورة وصف بيوم القيامة .

وفيه أيضاً كون المقسَم به هو المقسَم على أحواله تنبيهاً على زيادة مكانته عند المُقسِم

كقول أبي تمام:

وثَنايَاكِ إنَّها اِغرِيضُ . . .

ولآلٍ نُوْمٌ وبَرْقٌ ومِيضُ

كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربياً ﴾ في سورة الزخرف (31) .

وصيغة لا أقسم ﴾ صيغة قسم ، أدخل حرف النفي على فعل ﴿ أقسم ﴾ لقصد المبالغة في تحقيق حُرْمة المقسَم به بحيث يُوهِم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول : لا أقسم به ، أي ولا أقسم بأعزَّ منه عندي ، وذلك كناية عن تأكيد القَسم وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ في سورة الواقعة (75) .

وفيه محسن بديعي من قبيل ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وهذا لم نذكره فيما مضى ولم يذكره أحد .

والقسم بيوم القيامة ﴾ باعتباره ظرفاً لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة .

وتقدم الكلام على ﴿ يوم القيامة ﴾ غير مرة منها قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ في سورة البقرة (85) .

وجواب القسم يؤخذ من قوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ لأنه دليل الجواب إذ التقدير : لنجمعن عظام الإِنسان أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه .

وفي "الكشاف" "قالوا إنه (أي لا أقسم) في الإِمام بغير ألف" وتبرأ منه بلفظ (قالوا) لأنه مخالف للموجود في المصاحف .

وقد نسب إلى البزي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ لأقسم ﴾ الأول دون ألف وهي رواية عنه ذكرها الشيخ علي النوري في "غيث النفع" ولم يذكرها الشاطبي .

(131/792)

واقتصر ابن عطية على نسبتها إلى ابن كثير دون تقييد ، فتكون اللام لامَ قسم .

والمشهور عن ابن كثير خلاف ذلك ، وعطف قوله : ﴿ ولا أقسم ﴾ تأكيداً للجملة المعطوف عليها ، وتعريف ﴿ النفس ﴾ تعريف الجنس ، أي الأنفس اللوامة .

والمراد نفوس المؤمنين .

ووصفُ ﴿ اللوامة ﴾ مبالغة لأنها تُكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة .

وهذا اللوم هو المعبر عنه في الاصطلاح بالمحاسبة ، ولومُها يكون بتفكيرها وحديثها النفسي .

قال الحسن "ما يُرى المؤمن إلاّ يلوم نفسه على ما فات ويندم ، يلوم نفسه على الشر لم فعله وعلى الخير لم لا يستكثر منه" فهذه نفوس خيّرة حقيقة أن تشرف بالقَسَم بها وما كان يوم القيامة إلاّ لكرامتها .

والمراد اللوامة في الدنيا لوماً تنشأ عنه التوبة والتقوى وليسَ المراد لوم الآخرة إذ ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ [الفجر : 24] .

ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة أنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم .

وعن بعض المفسرين أن ﴿ لا أقسم ﴾ مراد منه عدم القسم ففسر النفس اللوامة بالتي تَلوم على فعل الخير .

وقوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ الخ دليل على جواب القسم إذ تقدير الجواب لنجمعن عظامكم ونبعثكم للحساب .

وتعريف ﴿ الإِنسان ﴾ تعريف الجنس ، ووقوعه في سياق الإِنكار الذي هو في معنى النفي يقتضي العموم ، وهو عموم عرفي منظور فيه إلى غالب الناس يومئذٍ إذ كان المؤمنون قليلاً .

فالمعنى : أيحسب الإِنسان الكافر .

وجملة ﴿ أن لن نجمع عظامه ﴾ مركبة من حرف ﴿ أن ﴾ المفتوحة الهمزة المخففة النون التي هي أخت (إنّ) المكسورة .

واسم ﴿ أن ﴾ ضمير شأن محذوف .

والجملة الواقعة بعد ﴿ أنْ ﴾ خبر عن ضمير الشأن ، فسيبويه يجعل ﴿ أن ﴾ مع اسمها وخبرها سادّة مسدّ مفعولي فعل الظن .

والأخفش يَجعل ﴿ أن ﴾ مع جزئيها في مقام المفعول الأول (أي لأنه مصدر) ويقدِّر مفعولاً ثانياً .

(132/792)

وذلك أن من خواص أفعال القلوب جواز دخول (أن) المفتوحة الهمزة بعدها فيستغني الفعل بـ (أن) واسمها وخبرها عن مفعوليه .

وجيء بحرف ﴿ لن ﴾ الدال على تأكيد النفي لحكاية اعتقاد المشركين استحالة جمع العظام بعد رمامها وتشتتها .

قال القرطبي : نزلت في عدي بن ربيعة (الصواب ابن أبي ربيعة) قال للنبيء صلى الله عليه وسلم يا محمد حدِّثْني عن يوم القيامة فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عدي : لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدقْك أوَيجمع الله العظام .

فنزلت هذه الآية ، ألا قلت : إن سبب النزول لا يخصص الإِنسان بهذا السائل .

والعظام : كناية عن الجسد كله ، وإنما خصت بالذكر لحكاية أقوالهم ﴿ من يُحيي العظام وهي رميم ﴾ [يس : 78] ﴿ أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون ﴾ [الإسراء : 49] ﴿ أإذا كنا عظاماً نخرة ﴾ [النازعات : 11] فهم احتجوا باستحالة قبول العظام للإعادة بعد البِلى ، على أن استحالة إعادة اللحم والعصب والفؤاد بالأولى .

فإثبات إعادة العظام اقتضى أن إعادة بقية الجسم مساوٍ لإعادة العظم وفي ذلك كفاية من الاستدلال مع الإيجاز .

ثم إن كانت إعادة الخلق بجَمع أجزاء أجسامهم المتفرقة من ذراتٍ الله أعلم بها ، وهو أحد قولين لعلمائنا ، ففعل ﴿ نجمع ﴾ محمول على حقيقته .

وإن كان البعث بخلق أجسام أخرى على صور الأجسام الفانية سواء كان خلقاً مستأنفاً أو مبتدأ من أعجاب الأذناب على ما ورد في بعض الأخبار وهما قولان لعلمائنا .

ففعل ﴿ نجمع ﴾ مستعار للخلق الذي هو على صورة الجسم الذي بِليَ .

ومناسبة استعارته مشاكلة أُقوال المشركين التي أريد إبطالُها لتجنب الدخول معهم في تصوير كيفية البعث ، ولذلك لا ترى في آيات القرآن إلاّ إجمالها ومِن ثَم اختلف علماء الإِسلام في كيفية إعادة الأجسام عند البعث .

واختار إمام الحرمين التوقف ، وآيات القرآن ورد فيها ما يصلح للأمرين .

و ﴿ بَلَى ﴾ حرف إبطال للنفي الذي دل عليه ﴿ لن نجمع عظامه ﴾ فمعناه بل تجمع عظامه على اختلاف المحملين في معنى الجمع .

و ﴿ قادرين ﴾ حال من الضمير في الفعل المحذوف بعد ﴿ بَلَى ﴾ الذي يدل عليه قوله : ﴿ أن لن نجمع ، ﴾ أي بل نجمعها في حال قدرتنا على أن نُسوي بَنانه .

ويجوز أن يكون ﴿ بلى ﴾ إبطالاً للنفيين : النفي الذي أفاده الاستفهام الإنكاري من قوله ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ والنفي الذي في مفعول ﴿ يحسب ﴾ ، وهو إبطال بزجر ، أي بَلِ ليحسِبْنا قادرين ، لأن مفاد ﴿ أن لَنْ نجمع عظامه ﴾ أن لا نقدر على جمع عظامه فيكون ﴿ قادرين ﴾ مفعولاً ثانياً لِيَحْسِبْنَا المقدر ، وعدل في متعلق ﴿ قادرين ﴾ عن أن يقال : قادرين على جمع عظامه إلى قادرين على أن نسوي بنانه لأنه أوفر معنى وأوفق بإرادة إجمال كيفية البعث والإعادة .

ولمراعاة هذه المعاني عُدل عن رفع : قادرون ، بتقدير : نحن قادرون ، فلم يقرأ بالرفع .

والتسوية : تقويم الشيء وإتقان الخَلْق قال تعالى : ﴿ ونفسٍ وما سَواها ﴾ [الشمس : 7] وقال في هذه السورة : ﴿ فخَلَق فسوى ﴾ [القيامة : 38] .

وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقوَّمة متقنة ، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سُوِّيَ إلاّ وقد أُعيد خلقه قال تعالى : ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ [الأعلى : 2] .

والبَنان : أصابع اليدين والرجلين أو أطرافُ تلك الأصابع .

وهو اسم جمع بَنانَةٍ .

وإذ كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جميع الجسد لظهور أن تسْوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها كما تقول : قَلعتْ الريح أوتادَ الخيمة كناية عن قلعها الخيمة كلَّها فإنه قد يكنَّى بأطراف الشيء عن جميعه .

ومنه قولهم : لك هذا الشيء بأسره ، أي مع الحبْل الذي يشد به ، كناية عن جميع الشيء .

وكذلك قولهم : هوَلك برُمته ، أي بحبله الذي يشد به .

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)

(134/792)

﴿ بل ﴾ إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم ، فموقع الجملة بعد ﴿ بل ﴾ بمنزلة الاستئناف الابتدائي للمناسبة بين معنى الجملتين ، أي لمَّا دُعُوا إلى الإقلاع عن الإِشراك وما يستدعيه من الآثام وأنذروا بالعقاب عليه يوم القيامة كانوا مصممين على الاسترسال في الكفر .

والفُجورُ : فعل السوء الشديد ويطلق على الكَذِب ، ومنه وُصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة

، فيكون فجَر بمعنى كذب وزْناً ومعنًى ، فيكون قاصراً ومتعدياً مثل فعل كَذَب مُخفف الذال .

روي عن ابن عباس أنه قال : يعني الكافر يكذِّب بما أمامه .

وعن ابن قتيبة : أن أعرابياً سأل عمر بن الخطاب أن يحمله على راحلة وشكا دبَر راحلته فاتَّهمه عمر فقال الأَعرابي :

مَا مَسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَر . . .

أَقْسَمَ بالله أبو حفص عمرْ

فاغفِرْ له اللهم إنْ كانَ فَجَرْ . . .

قال : يعني إن كان نسبني إلى الكذب .

وقوله : ﴿ يريد الإِنسان ﴾ يجوز أن يكون إخباراً عما في نفوس أهل الشرك من محبة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور .

ويجوز أن يكون استفهاماً إنكارياً موافقاً لسياق ما قبله من قوله : ﴿ أيحسب الإِنسانُ أنْ لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] .

وأعيد لفظ ﴿ الإِنسان ﴾ إظهاراً في مقام الإِضمار لأن المقام لتقريعه والتعجيب من ضلاله .

وكرر لفظ ﴿ الإِنسان ﴾ في هذه السورة خمسَ مرات لذلك ، مع زيادة ما في تكرره في المرة

الثانية والمرتين الرابعة والخامسة من خصوصية لتكون تلك الجمل الثلاث التي ورد ذكره فيها مستقلة بمفادها .

واللام في قوله : ﴿ ليفجر ﴾ هي اللام التي يكثر وقوعها بعد مادتي الأمر والإِرادة نحو ﴿ وأمِرْتُ لأَعْدِلَ بينَكم ﴾ [الشورى : 15] ﴿ يُريد الله ليُبيّنَ لكم ﴾ [النساء : 26]

وقول كُثيِّر :

أريد لأُنسَى حُبَّها فكأَنَّما . . .

تَمَثَّلُ لِي ليلى بكُل مكان

(135/792)

وينتصب الفعل بعدها بـ (أنْ) مضمرة ، لأنه أصل هذه اللام لام التعليل ولذلك قيل : هي لام التعليل وقيل : زائدة .

وعن سيبويه أن الفعل الذي قبل هذه اللام مقدر بمصدر مرفوع على الابتداء وأن اللام وما بعدها خبره ، أي إرادتهم للفجور .

واتفقوا على أن لا مفعول للفعل الواقع بعدها ، ولهذا الاستعمال الخاص بها .

قال النحاس سماها بعضُ القُراء (لاَمَ أنْ) .

وتقدم الكلام عليها في مواضع منها عند قوله تعالى : ﴿ يُريد الله ليُبَيِّنَ لكم ﴾ في سورة النساء (26) .

وأمَام : أصله اسم للمكان الذي هو قُبالة من أضيف هو إليه وهو ضد خلْف ، ويطلق مجازاً على الزمان المستقبل ، قال ابن عباس : يكذب بيوم الحساب ، وقال عبد الرحمان ابن زيد : يكذب بما أمامه سَفَط .

وضمير أمامه ﴾ يجوز أن يعود إلى الإِنسان ، أي في مستقبله ، أي من عمره فيمضي قُدُماً راكباً رأسه لا يقلع عما هو فيه من الفجور فينكر البعث فلا يَزع نفسه عما لا يريد أن يزعها من الفجور .

وإلى هذا المعنى نحا ابن عباس وأصحابه .

ويجوز أن يكون ﴿ أمامه ﴾ أُطلق على اليوم المستقبل مجازاً وإلى هذا نحا ابن عَباس في رواية عنه وعبدُ الرحمان بن زيد ، ويكون ﴿ يفجر ﴾ بمعنى يكذب ، أي يَكذِب باليوم المستقبل .

يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)

يجوز أن تكون هذه الجملة متصلة بالتي قبلها على أنها بدل اشتمال منها لأن إرادته الاسترسال على الفجور يشتمل على التهكم بيوم البعث أو على أنها بدل مطابق على تفسير ﴿ ليفجر أمَامه ﴾ [القيامة : 5] بالتكذيب بيوم البعث .

ويجوز أن تكون مستأنفة للتعجيب من حال سؤالهم عن وقت يوم القيامة وهو سؤال استهزاء لاعتقادهم استحالَة وقوعه .

و﴿ أيان ﴾ اسم استفهام عن الزمان البعيد لأن أصلها : أن آن كذا ، ولذلك جاء في بعض لغات العرب مضموم النون وإنما فتحوا النون في اللغة الفصحى لأنهم جعلوا الكلمة كلها ظرفاً فصارت ﴿ أيان ﴾ بمعنى (متَى) .

(136/792)

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ في الأعراف (187) .

فالمعنى أنهم يسألون تعيين وقت معروف مضبوط بعدِّ السِنين ونحوها ، أو بما يتعين به عند السائلين من حدَث يحل معه هذا اليوم .

فهو طلب تعيين أمد لحلول يوم يَقُوم فيه الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(137/792)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الجواب : يوم يكون كذا وكذا ، عدل عنه إلى ما سبب عن استبعاده لأنه أهول ، فقال دالاً على خراب العالم لتجرد الإنسان عن مسكنه وما ألفه من أحواله فيكون أهول معبراً بأداة التحقق لأنها موضعها : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي شخص وقف فلا يطرف من هول ما يرى – هذا على قراءة نافع بالفتح ، وهي إشارة إلى مبدأ حاله ، وقراءة الجماعة بالكسر مشيرة إلى مآله فإن معناها : تحير ودهش وغلب ، من برق الرجل – إذا نظر إلى البرق فحسر بصره وتفرق تفرق الشيء في المايع إذا انفتح عنه وعاؤه بدليل قراءة بلق من بلق الباب – إذا انفتح ، وبلق الباب كنصر : فتحه كله ، أو شديداً كأبلقه فانبلق ، وبلق كفرح : تحير – قاله في القاموس .

ولما كانت آيات السماوات أخوف ، ذكرها بادئاً بما طبعه البرد ، إشارة إلى شدة الحر والتوهج والأخذ بالأنفاس الموجب لشدة اليأس فقال : ﴿ وخسف القمر ﴾ أي وجد خسفه بأن خسفه الله تعالى أذهب صورته كما تذهب صورة الأرض المخسوفة ، وذلك بإذهاب ضوئه من غير سبب لزوال ربط المسببات في ذلك اليوم بالأسباب وظهور الخوارق بدليل قوله : ﴿ وجمع ﴾ أي جمعاً هو في غاية الإحكام والشدة كما أفهمه التذكير وعلى أيسر الوجوه وأسهلها ﴿ الشمس ﴾ أي آية النهار ﴿ والقمر ﴾ مع عدم إنارته وإن كان نوره الآن من نورها فذهب الانتفاع بهما وهما مع ذهاب النور وتفرق البصر مدركان لوجود الكشف التام عن الخفيات كما قال تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق : 22] وبعد جمعهما يلقيان في النار كأنهما ثوران عقيران ، وبني الفعل للمفعول لأن المهول مطلق جمعهما المخرج لهما عن العادة وللدلالة على السهولة .

ولما عظم أمر القيامة بما تقدم ، أكد ذلك بأن الأمر فيه على غير ما نعهده في الدنيا من وجدان مهرب أو حاكم غير الذي يخافه المطلوب أو شيء من تشعب الكلمة وتفرقها فقال : ﴿ يقول الإنسان ﴾ أي بشدة روعه جرياً مع طبعه ﴿ يومئذ ﴾ أي إذا كان هذا الخطب

الأجل والقادح الأكبر ، وحكى بيقول جملة اسمية من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر فقال : ﴿ أين المفر ﴾ أي الفرار والموضع الذي إليه الفرار والزمان القابل لذلك ، قول آيس مدهوش قاده إليه الطبع ، وذلك حين تقاد جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بأيد سبعين ألف ملك ، لها زفير وشهيق .

(139/792)

ولما كان ذلك اليوم يوم انقطاع الأسباب ، قال نافياً بما سال عنه بأداة الردع : ﴿ كلا ﴾ أي لا يقال هذا فإنه لا سبيل إلى وجود معناه وهو معنى ﴿ لا وزر ﴾ أي ملجأ ومعتصم ولا حصن ولا التجاء واعتصام ، وكون هذا من كلام الإنسان رجوعاً من طبعه إلى عقله أقعد وأدل على الهول لأنه لا يفهم أنه بعد أن سأل من عظيم الهول نظر في جملة الأمر فتحقق أن لا حيلة بوجه أصلاً ، فقال معبراً بالأداة الجامعة لمجامع الردع .

ولما كان المعنى : لا مفر من الله إلا إليه ، لأن ملكه محيط وقدرته شاملة ، قال مترجماً عنه ذاكراً صفة الإحسان لوماً لنفسه على عدم الشكر : ﴿ إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك بأنواع الإحسان وحده ، لا إلى شيء غيره ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كانت هذه الأشياء ﴿ المستقر ﴾ أي استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه إلى حكمه سبحانه

ومشيئته ظاهراً وباطناً لا حكم لأحد غيره بوجه من الوجوه في ظاهر ولا باطن كما هو في الدنيا .

ولما كان موضع السؤال عن علة هذا الاستقرار ، قال مستأنفاً بانياً للمفعول لأن المنكىء إنما هو كشف الأسرار لا كونه من كاشف معين ، وللدلالة على يسر ذلك عليه سبحانه وتعالى بأن من ندبه إلى ذلك فعله كائناً من كان : ﴿ ينبؤا ﴾ أي يخبر تخبيراً عظيماً مستقصىً ﴿ الإنسان يومئذ ﴾ أي إذ كان هذا الزلزال الأكبر ﴿ بما قدم ﴾ أي من عمله العظيم ﴿ وأخر ﴾ أي في أول عمره وآخره - كناية عن الاستقصاء أو بما قدمه فآثره على غيره هل هو الشرع أو الهوى أو بما عمل في مدة عمره وبما أخر عمله لمعاجلة الموت له عنه فيخبر بما كان يعمله من أمله لو مد في أجله ، أو الذي قدمه هو ما عمله بنفسه وما أخره هو ما سنه فعمل به الناس من بعده من خير أو شر - قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وعليه مشى الغزالي في الباب الثالث من كتاب البيع من الإحياء .

(140/792)

ولما عظم القيامة بكشف الأسرار فيها والإنباء بها ، وكان الشأن أن الإنسان لا ينبأ إلا بما هو جاهل له أو غائب عنه ، وكان مما يخف على الإنسان في الدنيا النسيان ، وكان ذلك

اليوم يوم كشف الغطاء ، زاده عظماً بالإعلام بأنه يجلو بصيرة الإنسان حتى يصير مستحضراً لجميع ما له من شأن ، فكان التقدير : وليس جاهلاً بشيء من ذلك ولا محتاجاً إلى الإنباء به ، قال بانياً عليه : ﴿ بل الإنسان ﴾ أي كل واحد من هذا النوع ﴿ على نفسه ﴾ خاصة ﴿ بصيرة ﴾ أي حجة بينة على أعماله ، فالهاء للمبالغة - يعني أنه في غاية المعرفة لأحوال نفسه فإنه إذا تأمل وأنعم النظر ولم يقف مع الحظوظ عرف جيد فعله من رديئه ، أما في الدنيا فلان الفطر الأولى شاهدة بالخير والشر - كما أشار إليه - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في الصدر وترددت فيه النفس وإن أفتاك الناس وأفتوك " رواه الإمام أحمد عن أبي ثعلبة الخشني - رضى الله عنه - وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " إنما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " - رواه البخاري عن ابن مسعود - رضى الله عنه - ، وأما في الآخرة فإن الله يعطيه في ذلك اليوم قوة الذكرى حتى تصير أعماله كلها بين عينيه لأنه تعالى ينفي عنه الشواغل البدنية ويكشف عنه الحجب النفسانية حتى تصير أعماله ممثلة له كأنه يراها ولا تنفعه معذرته ، لأن كل شيء يعتذر به عن نفسه يعرف كذبه بنفس وجوده لا بشيء خارج عنه تارة يكون خالقه أوجده على ما هو عليه من العلم وسلامة الأسباب المزيلة للعلل وتارة بإنطاق جوارحه .

ولما كان الإنسان يعتذر في ذلك اليوم عن كل سوء عمله ، ويجادل أعظم مجادلة ، وكان المجادل في الغالب يظن أنه لم يذنب أو لا يعلم له ذنباً ، قال : ﴿ ولو ألقى ﴾ أي ذكر بغاية السرعة ذلك الإنسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتملق

﴿ معاذيره ﴾ أي كل كلام يمكن أن يخلص به ، جمع عذر أو معذرة وهو إيساع الحيلة في دفع الخلل : وقال في القاموس : المعاذير : الستور والحجج جمع معذار ، وذلك لاشتراكهما في مطلق الستر بالفتح والستر بالكسر في ستر المذنب والحجة في ستر الذنب فالمعنى أنه حجة على نفسه ولو احتج عنها واجتهد في ستر عيوبها ، فلا تقبل منها الأعذار ، لأنه قد أعطى البصيرة فأعماها بهون النفس وشهواتها ، وتلك البصيرة هي نور المعرفة المركوز في الفطرة الأولى وهي كقوله تعالى : ﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 245 . 248 ﴾

(142/792)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ذكر علامات القيامة

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى ذكر من علامات القيامة في هذا الموضع أموراً ثلاثة أولها : قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ قرىء بكسر الراء وفتحها ، قال الأخفش : المكسورة في كلامهم أكثر والمفتوحة لغة أيضاً ، قال الزجاج : برق بصره بكسر الراء يبرق برقاً إذا تحير ، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق ، فيؤثر ذلك في ناظره ، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة ، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق ، كما قالوا : قمر بصره إذا فسد من النظر إلى القمر ، ثم استعير في الحيرة ، وكذلك بعل الرجل في أمره ، أي تحير ودهش ، وأصله من قولهم : بعلت المرأة إذا فاجأها زوجها ، فنظرت إليه وتحيرت ، وأما برق بفتح الراء ، فهو من البريق ، أي لمع من شدة شخوصه ، وقرأ أبو السمال بلق بمعنى انفتح ، وانفتح يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن هذه الحالة متى تحصل ؟ فقيل : عند الموت ، وقيل : عند البعث وقيل : عند رؤية جهنم ، فمن قال : إن هذا يكون عند الموت ، قال : إن البصر يبرق على معنى يشخص عند معاينة أسباب الموت ، والملائكة كما يوجد ذلك في كل واحد إذا قرب موته ، ومن مال إلى هذا التأويل ، قال : إنهم إنما سألوه عن يوم القيامة ، لكنه تعالى ذكر هذه الحادثة عند الموت والسبب فيه من وجهين : الأول : أن المنكر لما قال : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ [القيامة : 6] على سبيل الاستهزاء فقيل له : إذا برق البصر وقرب الموت زالت عنه الشكوك ، وتيقن حينئذ أن الذي كان عليه من إنكار البعث والقيامة خطأ الثاني : أنه إذا قرب موته وبرق بصره تيقن أن إنكار البعث لأجل طلب اللذات الدنيوية كان باطلاً ، وأما من قال بأن ذلك إنما يكون عند قيام القيامة ، قال : لأن السؤال إنما كان عن يوم القيامة ، فوجب أن يقع الجواب بما يكون من خواصه وآثاره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 41] ، وثانيها : قوله : ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

يحتمل أن يكون المراد من خسوف القمر ذهاب ضوئه كما نعقله من حاله إذا خسف في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد ذهابه بنفسه كقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [

القصص : 81] .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ على البناء للمفعول وثالثها : قوله : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(144/792)

ذكروا في كيفية الجمع وجوهاً أحدها : أنه تعالى قال : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر ﴾ [يس : 40] فإذا جاء وقت القيامة أدرك كل واحد منهما صاحبه واجتمعا وثانيها : جمعا في ذهاب الضوء ، فهو كما يقال : الشافعي يجمع ما بين كذا وكذا في حكم كذا وثالثها : يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار ، وقيل : يجمعان ثم يقذفان في البحر ، فهناك نار الله الكبرى واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها في قوله ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر إنما تستقيم على مذهب من يجعل برق البصر من علامات القيامة ، فأما من يجعل برق البصر من علامات الموت قال معنى : ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ أي ذهب ضوء البصر عند الموت ، يقال عين خاسفة ، إذا فقئت حتى غابت

حدقتها في الرأس ، وأصلها من خسفت الأرض إذا ساخت بما عليها ، وقوله : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ كناية عن ذهاب الروح إلى عالم الآخرة ، كأن الآخرة كالشمس ، فإنه يظهر فيها المغيبات وتتضح فيها المبهمات ، والروح كالقمر فإنه كما أن القمر يقبل النور من الشمس ، فكذا الروح تقبل نور المعارف من عالم الآخرة ، ولا شك أن تفسير هذه الآيات بعلامات القيامة أولى من تفسيرها بعلامات الموت وأشد مطابقة لها .

المسألة الثانية :

قال الفراء : إنما قال جمع ، ولم يقل : جمعت لأن المراد أنه جمع بينهما في زوال النور وذهاب الضوء ، وقال الكسائي ، المعنى جمع النوران أو الضياءان ، وقال أبو عبيدة ، القمر شارك الشمس في الجمع ، وهو مذكر ، فلا جرم غلب جانب التذكير في اللفظ ، قال الفراء ، قلت : لمن نصر هذا القول : كيف تقولون : الشمس جمع والقمر ؟ فقالوا : جمعت ، فقلت ما الفرق بين الموضعين ؟ فرجع عن هذا القول .

المسألة الثالثة :

طعنت الملاحدة في الآية ، وقالوا : خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر والجواب : الله تعالى قادر على أن يجعل القمر منخسفاً ، سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس ، أو لم تكن ، والدليل عليه أن الأجسام متماثلة ، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، والله قادر على كل الممكنات ، فوجب أن يقدر على إزالة الضوء عن القمر في جميع الأحوال .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإِنسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ أي يقول هذا الإنسان المنكر للقيامة إذا عاين هذه الأحوال أين المفر ، والقراءة المشهورة بفتح الفاء ، وقرىء أيضاً بكسر الفاء ، والمفر بفتح الفاء هو الفرار ، قال الأخفش والزجاج : المصدر من فعل يفعل مفتوح العين . وهو قول جمهور أهل اللغة ، والمعنى أين الفرار ، وقول القائل : أين الفرار يحتمل معنيين أحدهما : أنه لا يرى علامات مكنة الفرار فيقول حينئذ : أين الفرار ، كما إذا أيس من وجدان زيد يقول : أين زيد والثاني : أن يكون المعنى إلى أين الفرار ، وأما المفر بكسر الفاء فهو الموضع ، فزعم بعض أهل اللغة أن المفر بفتح الفاء كما يكون اسماً للمصدر ، فقد يكون أيضاً اسماً للموضع والمفر بكسر الفاء كما يكون اسماً للموضع ، فقد يكون مصدراً ونظيره المرجع .

كَلَّا لَا وَزَرَ (11)

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع عن طلب المفر ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ قال المبرد والزجاج : أصل

الوزر الجبل المنيع ، ثم يقال : لكل ما التجأت إليه وتحصنت به وزر ، وأنشد المبرد قول كعب بن مالك :

الناس آلت علينا فيك ليس لنا . . إلا السيوف وأطراف القنا وزر

ومعنى الآية أنه لا شيء يعتصم به من أمر الله .

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)

(146/792)

وفيه وجهان أحدهما : أن يكون المستقر بمعنى الاستقرار ، بمعنى أنهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره ، وينصبوا إلى غيره ، كما قال : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [النور : 42] ﴿ أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ [الشورى : 53] ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 12] الثاني : أن يكون المعنى إلى ربك مستقرهم ، أي موضع قرارهم من جنة أو نار ، أي مفوض ذلك إلى مشيئته من شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار .

يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)

بما قدم من عمل عمله ، وبما أخر من عمل لم يعمله ، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره

فخلفه ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة ، فعمل بها بعده ، وعن مجاهد أنه مفسر بأول العمل وآخره ، ونظيره قوله : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ أحصاه الله وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6] وقال : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ [يس : 12] واعلم أن الأظهر أن هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند العرض ، والمحاسبة ووزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت وذلك أنه إذا مات بين له مقعده من الجنة والنار .

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

(147/792)

اعلم أنه تعالى لما قال : ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله ، قال : بل لا يحتاج إلى أن ينبئه غير غيره ، وذلك لأن نفسه شاهدة بكونه فاعلاً لتلك الأفعال ، مقدماً عليها ، ثم في قوله : ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ وجهان الأول : قال الأخفش جعله في نفسه بصيرة كما يقال : فلان جود وكرم ، فههنا أيضاً كذلك ، لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة ، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة ، فهب أنه بلسانه يروج ويزور ويرى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق ، لكنه بعقله السليم يعلم أن الذي هو عليه في ظاهره جيد أو رديء والثاني : أن المراد جوارحه

تشهد عليه بما عمل فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل وهو كقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ [النور : 24] وقوله : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ [يس : 36] وقوله : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبصارهم وَجُلُودُهُم ﴾ [فصلت : 20] فأما تأنيث البصيرة ، فيجوز أن يكون لأن المراد بالإنسان ههنا الجوارح كأنه قيل : بل جوارح الإنسان ، كأنه قيل بل جوارح الإنسان على نفس الإنسان بصيرة ، وقال أبو عبيدة هذه الهاء لأجل المبالغة كقوله : رجل راوية وطاغية وعلامة .

واعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الإنسان يخبر يوم القيامة بأعماله .

ثم ذكر في هذه الآية أنه شاهد على نفسه بما عمل ، فقال الواحدي هذا يكون من الكفار فإنهم ينكرون ما عملوا فيختم الله على أفواههم وينطق جوارحهم .

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

(148/792)

للمفسرين فيه أقوال : الأول : قال الواحدي : المعاذير جمع معذرة يقال : معذرة ومعاذر ومعاذير : قال صاحب "الكشاف" جمع المعذرة معاذر والمعاذير ليس جمع معذرة ، وإنما

هو اسم جمع لها ، ونحوه المناكير في المنكر ، والمعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة ، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه القول الثاني : قال الضحاك والسدي والفراء والمبرد والزجاج المعاذير الستور واحدها معذار ، قال المبرد : هي لغة يمانية ، قال صاحب "الكشاف" : إن صحت هذه الرواية فذاك مجاز من حيث إن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب ، والمعنى على هذا القول : أنه وإن أسبل الستر ليخفي ما يعمل ، فإن نفسه شاهدة عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 193.196 ﴾

(149/792)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

قرأ جمهور السبعة : " لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة " وقرأ ابن كثير والحسن بخلاف عنه والأعرج " لأقسم بيوم القيامة ولأقسم بالنفس " ، فأما القراءة الأولى فاختلف في تأويلها فقال ابن جبير : " لا " استفتاح كلام بمنزلة ألا وأنشدوا على ذلك [المتقارب]

فلا وأبيك ابنة العامري . . . لا يعلم القوم أني أفر

وقال أبو علي الفارسي : " لا " صلة زائدة كما زيدت في قوله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] ويعترض هذا بأن هذه في ابتداء كلام . ولا تزاد " لا " وما نحوها من الحروف إلا في تضاعيف كلام . فينفصل عن هذا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا ، وقال الفراء : " لا " نفي لكلام الكفار وزجر لهم ورد عليهم ، ثم استأنف على هذه الأقوال الثلاثة قوله : ﴿ أقسم ﴾ ، ويوم القيامة أقسم الله به تنبيهاً منه لعظمه وهوله . وقوله تعالى : " ولا أقسم بالنفس اللوامة " القول في " لا " على نحو ما تقدم ، وأما القراءة الثانية فتحتمل أمرين ، إما أن تكون اللام دخلت على فعل الحال ، التقدير لأنا أقسم فلا تلحق لأن النون نون التوكيد إنما تدخل في الأكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل فهي تلزم المستقبل في الأكثر ، وإما أن يكون الفعل خالصاً للاستقبال فكأن الوجه والأكثر أن تلحق النون إما الخفيفة وإما الثقيلة ، لكن قد ذكر سيبويه أن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتغني اللام عنها كما تسقط اللام وتغني النون عنها وذلك في قول الشاعر : [الكامل]

وقتيل مرة أثأرن فإنه . . . فرغ وإن قتيلهم لم يثأر

المراد لأثارن ، وأما قوله " ولا أقسم بالنفس اللوامة " فقيل " لا " نافية ، وإن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ، ونفى أن يقسم بالنفس اللوامة نص عليه الحسن ، وقد ذهب هذا المذهب قوم ممن قرأ " لا أقسم ولأقسم " ، وذلك قلق وهو في القراءة الثانية أمكن وجمهور المتأولين على أن الله تعالى أقسم بالأمرين ، واختلف الناس في ﴿ النفس اللوامة ﴾ ما معناه ، فقال الحسن هي ﴿ اللوامة ﴾ لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله تعالى بها ، وقال ابن عباس : هي الفاجرة الجشعة ﴿ اللوامة ﴾ لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها فهي على هذا ذميمة وعلى هذا التأويل يحسن نفي القسم بها والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر ، وقال ابن جبير ما معناه : إن القسم بها هي اسم الجنس لأنها تلوم على الخير وعلى الشر ، وقيل المراد نفس آدم لأنها لم تزل اللائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة .

(151/792)

قال القاضي أبو محمد : وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمارة بالسوء ، فإنها لوامة في الطرفين مرة تلوم على ترك الطاعة ، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي ، فإذا اطمأنت

خلصت وصفت ، وقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ تقرير وتوبيخ ، و ﴿ الإنسان ﴾ اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قريش فعليها هو الرد ، وقرأ جمهور الناس : " نجمع عظامَه " بالنون ونصب الميم من العظام ، وقرأ قتادة " أن لن يجمع عظامُه " بالياء ورفع الميم من العظام ، ومعنى ذلك في القيامة وبعد البعث من القبور ، وقرأ أبو عمرو بإدغام العين ثم قال تعالى : ﴿ بلى ﴾ وهي إيجاب ما نفي ، وبابها أن تأتي بعد النفي والمعنى بل يجمعها ﴿ قادرين ﴾ بنصب ﴿ قادرين ﴾ على الحال . وقرأ ابن أبي عبلة " قادرون " بالرفع ، وقال القتبي : ﴿ نسوي بنانه ﴾ معناه نتقنها سوية ، والبنان : الأصابع ، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام ، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقاً أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها ، وهذا كله عند البعث ، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين : ﴿ نسوي بنانه ﴾ معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كخف البعير لا تفاريق فيه ، فكأن المعنى قادرين لأن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق ، فتقل منفعته بيده ، فكأن التقدير ﴿ بلى ﴾ نحن أهل أن نجمعها ﴿ قادرين ﴾ على إزالة منفعة بيده ، ففي هذا توعد ما ، والقول الأول أحرى مع رصف الكلام ، ولكن على هذا القول جمهور العلماء ، وقوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ قال بعض المتأولين : الضمير في ﴿ أمامه ﴾ عائد على ﴿ الإنسان ﴾ ، ومعنى الآية أن الأنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راكب رأسه ومطيع أمله ومسوفاً بتوبته ، قاله

مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي . وقال السدي : المعنى ليظلم على قدر طاقته ، وقال الضحاك المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً ، وقوله

(152/792)

تعالى : ﴿ ليفجر أمامه ﴾ تقديره لكن يفجر ، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في ﴿ أمامه ﴾ عائد على ﴿ يوم القيامة ﴾ ، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه ، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة ، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ليفجر ﴾ قول قيس بن سعد (أردت لكيما يعرف الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود) .

و ﴿ بل ﴾ في أول الآية هي إضراب على معنى الترك لا على معنى إبطال الكلام الأول ، وقد تجيء بل لإبطال القول الذي قبلها ، وسؤال الكافر ﴿ أيان يوم القيامة ﴾ هو على معنى التكذيب والهزء كما تقول لمحدث بأمر تكذبه متى يكون هذا ؟ و ﴿ أيان ﴾ لفظة بمعنى متى ، وهي مبينة لتضمنها معنى الاستفهام فأشبهت الحروف المتضمنة للمعاني .

(153/792)

وكان حقها أن تبنى على السكون ، لكن فتحت النون لالتقاء الساكنين الألف وهي وقرأ أبو عمرو والحسن ومجاهد وقتادة والجحدري وعاصم والأعمش وأبو جعفر وشيبة " بِرق البصر " بكسر الراء بمعنى شخص وشق وحار . وقرأ نافع وعاصم بخلاف ، وعبد الله بن أبي إسحاق وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم " بَرق " بفتح الراء ، بمعنى لمع وصار له بريق وحار عند الموت ، والمعنى متقارب في القراءتين ، وقال أبو عبيدة " برَق " بالفتح شق ، وقال مجاهد هذا عند الموت ، وقال الحسن هذا في يوم القيامة ، وقرأ جمهور الناس : " وخسف القمرُ " على أنه فاعل ، وقرأ أبو حيوة " خُسِف " بضم الخاء وكسر السين و " القمرُ " مفعول لما يسم فاعله . يقال خسف القمر وخسفه الله ، وكذلك الشمس ، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين الخسوف والكسوف بمعنى واحد ، قال ابن أبي أويس : الكسوف ذهاب بعض الضوء ، والخسوف ذهاب جميعه ، وروي عن عروة وسفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت " وقوله تعالى : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ غلب عليه التذكير على التأنيث وقيل ذلك لأن تأنيث الشمس غير حقيقي ، وقيل المراد بين الشمس والقمر ، وكذلك قرأ ابن أبي عبلة . واختلف المتأولون في معنى الجمع بينهما فقال عطاء بن يسار : يجمعان فيقذفان في النار ، وقيل في البحر ، فتصير نار الله العظمى ، وقيل يجمع الضواءن فيذهب بهما ، وقرأ جمهور

الناس " أين المَفر " بفتح الميم والفاء على المصدر أي أين الفرار ، وقرأ ابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني وكلثوم بن عياض ومجاهد ويحيى بن يعمر وحماد بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق ، " أين المَفِر " بفتح الميم وكسر الفاء عل معنى أين موضع الفرار ، وقرأ الزهري : " أين المِفَر " بكسر الميم وفتح الفاء بمعنى أين الجيد من الفرار ، و ﴿ كلا ﴾ زجر يقال للإنسان يومئذ ثم يعلن أنه ﴿ لا وزر ﴾ له أي ملجأ ، وعبر المفسرون عن الوزر

(154/792)

بالجبل ، قال مطرف بن الشخير وغيره ، وهو كان وزر فرار العرب في بلادهم ، فلذلك استعمل ، والحقيقة أنه الملجأ كان جبلاً أو حصناً أو سلاحاً أو رجلاً أو غيره ، وقوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ معناه إلى حكم ربك أو نحوه من التقدير و ﴿ المستقر ﴾ رفع بالابتداء وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم ، تقدير الكلام المستقر ثابت أو كائن إلى ربك يومئذ ، و ﴿ المستقر ﴾ : موضع الاستقرار ، وقوله تعالى : ﴿ بما قدم وآخر ﴾ قسمة تستوي في كل عمل ، أي يعلم بكل ما فعل ويجده محصلاً ، قال ابن عباس وابن مسعود المعنى ﴿ بما قدم ﴾ في حياته ﴿ وأخر ﴾ من سنة يعمل بها بعده ، وقال

ابن عباس أيضاً : ﴿ بما قدم ﴾ من المعاصي ﴿ وأخر ﴾ من الطاعات ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ بما قدم ﴾ لنفسه من ماله وبما أخر منه للوارث ، وقوله تعالى : ﴿ بل الإنسان ﴾ إضراب بمعنى الترك لا على معنى إبطال القول الأول ، و ﴿ بصيرة ﴾ يحتمل أن يكون خبراً عن الإنسان ولحقته هاء التأنيث كما لحقت علامة ونسابة ، والمعنى فيه وفي عقله وفطرته حجة وطليعة وشاهد مبصر على نفسه ، والهاء للتأنيث ، ويراد ب " البصيرة " جوارحه أو الملائكة الحفظة وهذا تأويل ابن عباس ، و" المعاذير " هنا قال الجمهور : هي الأعذار جمع معذرة ، وقال السدي والضحاك : هي الستور بلغة اليمن يقولون للستر المعذار ، وقال الحسن : المعنى ﴿ بل الإنسان على نفسه ﴾ بلية ومحنة ، كأنه ذهب إلى البصيرة التي هي طريقة الدم وداعية طلب الثأر وفي هذا نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(155/792)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾

قرأ نافع وأبان عن عاصم "بَرَقَ" بفتح الراء ، معناه : لمع بصره من شدّة شخوصه ، فتراه لا

يَطرِف .

قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت .

وقال الحسن : هذا يوم القيامة .

وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر * وَخَسَفَ القمر ﴾ .

والباقون بالكسر "بَرِقَ" ومعناه : تحيّر فلم يَطرِف ؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما .

قال ذو الرمّة :

ولو أنّ لُقْمَانَ الحكيم تَعَرَّضَتْ . . .

لِعينيهِ مَيٌّ سافِراً كاد يَبْرَقُ

الفرّاء والخليل : "برِقَ" بالكسر : فَزِع وبُهِت وتَحيَّر .

والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت : قد بَرِق فهو برِقٌ ؛ وأنشد الفرّاء :

فنَفْسَكَ فانع ولا تنعَنِي . . .

ودَاوِ الكُلُومَ ولا تَبْرِقِ

أي لا تَفزَع من كثرة الكُلُوم التي بك .

وقيل : برَقَ يَبرُق بالفتح : شقّ عينيه وفتحهما .

قاله أبو عبيدة ؛ وأنشد قول الكلابيّ :

لما أتانِي ابن عُمَيرٍ راغِباً . . .

أعطيتُه عِيساً صِهاباً فبَرِقَ

أي فتح عينيه .

وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنًى .

قوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ أي ذهب ضوءه .

والخسوف في الدنيا إلى انجلاء ، بخلاف الآخرة ، فإنه لا يعود ضوءه .

ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج : "وَخُسِفَ الْقَمَر" بضم الخاء وكسر السين يدل عليه "وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ" .

وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف ، وإذا ذهب كله فهو الخسوف .

﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما ، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ؛ قاله الفراء والزجاج .

قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما .

وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر .

وقال الكسائيّ : هو محمول على المعنى ، كأنه قال الضوءان .

المبرد : التأنيث غير حقيقي .

وقال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلمين مُقرَنَين كأنهما ثوران عَقيران .

وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة "الأنعام" .

وفي قراءة عبد الله "وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ" وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر ، فيكونان نار الله الكبرى .

وقال علي وابن عباس : يجعلان في نور الحجب .

وقد يجمعان في نار جهنم ؛ لأنهما قد عبِدَا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم .

وفي مسند أبي داود الطيالسيّ ، عن يزيد الرقاشيّ ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار " وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان ، ويقربان من الناس ، فيلحقهم العرق لشدّة الحر ؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم .

وقيل : يجمع الشمس والقمر ، فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإِنسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ ؟ أي يقول ابن آدم ، ويقال : أبو جهل ؛ أي أين المهرب ؟ قال الشاعر :

أين المفرُّ والكِباشُ تَنتطِحْ . . .

وأيُّ كَبْشٍ حاد عنها يَفْتَضِحْ

الماورديّ : ويحتمل وجهين : أحدهما ﴿ أَيْنَ المفر ﴾ من الله استحياء منه .

الثاني ﴿ أَيْنَ المفر ﴾ من جهنم حذراً منها .

ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما أن يكون من الكافر خاصة في عَرْضة القيامة دون المؤمن ؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه .

الثاني أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها .

وقراءة العامة "الْمَفَرُّ" بفتح الفاء واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم ؛ لأنه مصدر .

(157/792)

وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم ؛ قال الكسائي : هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ ، ومَصَحّ ومَصِحّ .

وعن الزهريّ بكسر الميم وفتح الفاء .

المهدويّ : من فتح الميم والفاء من "المفر" فهو مصدر بمعنى الفرار ، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفرّ إليه .

ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار ؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول امرىء القيس :

مِكَرّ مِفَرّ مُقْبِل مُدْبِرٍ مَعاً . . .

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جَيّدَه .

﴿ كَلاَّ ﴾ أي لا مفرّ ف"كَلاَّ" ردٌّ وهو من قول الله تعالى ، ثم فسر هذا الردّ فقال : ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ أي لا ملجأ من النار .

وكان ابن مسعود يقول : لا حِصن .

وكان الحسن يقول : لا جبل .

وابن عباس يقول : لا ملجأ .

وابن جُبير : لا محيص ولا منعة .

المعنى في ذلك كله واحد .

والوَزَر في اللغة : ما يلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما ؛ قال الشاعر :

لَعَمْرِيَ ما لِلفتى مِن وَزَرْ . . .

مِنَ المَوتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

قال السُّديّ : كانوا في الدنيا إذا فزِعوا تحصّنوا في الجبال ، فقال الله لهم : لاَ وَزَرَ يعصمكم يومئذ منّي ؛ قال طرفة :

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَا . . .

فاضِلُوا الرَّأْيِ وَفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

أي ملجأ للخائف .

ويروى : وَقْرٌ .

﴿ إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ أي المنتهَى ؛ قاله قتادة .

نظيره : ﴿ وَأَنَّ إلى ربِّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] .

وقال ابن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع .

قيل : أي المستقرّ في الآخرة حيث يقرّه الله تعالى ؛ إذ هو الحاكم بينهم .

وقيل : إن "كَلاَّ" من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ .

(158/792)

قوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان ﴾ أي يخبر ابن آدم بَرًّا كان أو فاجراً ﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ : أي بما أسلف من عمل سَيّىء أو صالح ، أو أخَّر من سنّة سيّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود .

وروى منصور عن مجاهد قال : ينبأ أوّل عمله وآخره .

وقاله النخَعيّ .

وقال ابن عباس أيضاً : أي بما قدّم من المعصية ، وأخَّر من الطاعة .

وهو قول قتادة .

وقال ابن زيد : "بِمَا قَدَّمَ" من أمواله لنفسه "وَأَخَّرَ" : خلّف للورثة .

وقال الضحاك : ينبأ بما قدّم من فرض ، وأخَّر من فرض .

قال القشيريّ : وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال .

ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأوّل أظهر ؛ لما خرجه ابن ماجه في سننه من حديث الزهريّ ، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ مما يَلْحَق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً علّمه ونَشَره ، وولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته " وخرجه أبو نَعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن

أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره : من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو وَرَّثَ مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته " فقوله : " بعد موته وهو في قبره " نصَّ على أن ذلك لا يكون عند الموت ، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله ، وإن كان يبشَّر بذلك في قبره .

ودل على هذا أيضاً قوله الحقّ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النمل : 25] وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال .

(159/792)

والله أعلم .

وفي الصحيح : " من سنّ في الإسلام سنّة حسنةً كان له أجرها وأجر من عمِل بها بعده ، من غير أن يُنقَص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء "

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك .

وقال ابن عباس : "بَصِيرَةٌ" أي شاهد ، وهو شهود جوارحه عليه : يداه بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما .

والبصيرة : الشاهد .

وأنشد الفرّاء :

كأنّ على ذي العقلِ عَيْناً بصيرةً . . .
بمعقِده أو مَنْظَرٍ هو ناظِرُهُ
يُحاذِرُ حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ . . .
من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرَائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارح ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ؛ فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ؛ قال معناه القتبيّ وغيره .

وناس يقولون : هذه الهاء في قوله : "بَصِيرَةٌ" هي التي يسمّيها أهل الإعراب هاء المبالغة ، كالهاء في قولهم : داهِية وعلاّمة وراوية .

وهو قول أبي عُبيد .

وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور .

وهو قول السّديّ والضحاك .

وقال بعض أهل التفسير : المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ؛ أي شاهد فحذف حرف الجر .

ويجوز أن يكون "بصيرة" نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ؛ وأنشد الفراء :

كأنّ على ذِي العقلِ عيناً بصيرةً . . .

(160/792)

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يعني بصير بعيوب غيره ، جاهل بعيوب نفسه .

﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي ولو أَرْخَى سُتوره .

والسِّتر بلغة أهل اليمن : مِعذار ؛ قاله الضحاك .

وقال الشاعر :

ولكنها ضَنَّتْ بمنزلِ ساعةٍ . . .

علينا وأَطَّتْ فَوْقَهَا بالْمَعَاذِرِ

قال الزجاج : المعاذِر : السُّور ، والواحد مِعذار ؛ أي وإن أرخى ستره ؛ يريد أن يخفي عمله ، فنفسه شاهدة عليه .

وقيل : أي ولو اعتذر فقال لم أفعل شيئاً ، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه ، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه ، فعليه شاهد يكذِّب عذره ؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسّديّ أيضاً ومقاتل .

قال مقاتل : أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك .

نظيره قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر : 52] وقوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] فالمعاذير على هذا : مأخوذ من العذر ؛ قال الشاعر :

وإِياكَ والأَمرَ الذي إنْ تَوَسَّعَتْ . . .

مَوَارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ

فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ . . .

وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذر

واعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعيّ فقال له : قد عذرتك غير مُعتذِر ، إن المعاذِير يَشُوبها

الكذب .

وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي لو تجرّد من ثيابه .

حكاه الماورديّ .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب ؛ ومنه قول النابغة :

ها إِنَّ ذِي عِذْرَةٌ إِلاَّ تَكُنْ نَفَعَتْ . . .

فإِنّ صاحِبَها مُشَارِكُ النَّكَدِ

(161/792)

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، وقوله تعالى في المنافقين : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : 18] .

وفي الصحيح أنه يقول : " يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك ، وصليت وصُمتُ وتصدّقتُ ، ويُثني بخير ما استطاع " الحديث .

وقد تقدم في "حما السجدة" وغيرها .

والمعاذير والمعاذِر : جمع مَعْذرة ؛ ويقال : عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْراً وعُذُراً ، والاسم

المَعْذِرة والعُذْرى؛ قال الشاعر:

إنّي حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لِمَحْدُودِ . . .

وكذلك العِذْرة وهي مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

ها إنْ تَاعِذْرَةٌ إلاّ تكُنْ نَفَعَتْ . . .

فإنّ صاحِبَها قَدْ تاه في البَلَدِ

وتضمّنت هذه الآية خمس مسائل:

الأولى قال القاضي أبو بكر بن العربيّ قوله تعالى: ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾: فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 24] ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وهي المسألة:

الثانية وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] ثم قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ [التوبة : 102] وهو في الآثار كثير ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اغد يا أُنَيْس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها " فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبي قد أقرّ فلاناً ابنه ، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ، ولا يجوز إقرار الذي أقرّ إلا على نفسه في حصته من مال أبيه ، يعطي الذي شهد له قدر الدين الذي يصيبه من المال الذي في يده .

قال مالك : وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ابنين ويترك ستمائة دينار ، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلاناً ابنه ، فيكون على الذي شهد للذي استحق مائة دينار ، وذلك نصف ميراث المستلحَق لو لحق ، وإن أقرّ له الآخر أخذ المائة الآخرى فاستكمل حقّه وثبت نسبه .

وهو أيضاً بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الورثة ، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرّت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت امرأة فورثت الثُّمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه ، وإن كانت ابنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقرّ له من النساء .

الثالثة لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف ، لكن بشرط ألا يكون محجوراً عليه ؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه ، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط ، ومنه جائز . وبيانه في مسائل الفقه .

وللعبد حالتان في الإقرار : إحداهما في ابتدائه ، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم .

والثانية في انتهائه ، وذلك مثل إبهام الإقرار ، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ : الصورة الأولى أن يقول له عندي شيء ، قال الشافعي : لو فَسَّره بتمرة أو كِسرة قُبل منه .

والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَدر ، فإذا فسره به قُبل منه وحلف عليه .

الصورة الثانية أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً في الشريعة : لم يُقْبل باتفاق ولو ساعده عليه المقرّ له .

الصورة الثالثة أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب ، فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردّ وإمضاء فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء لأن الحكم قد نفذ بإبطاله .

وقال بعض أصحاب الشافعي : يلزم الخمر والخنزير ؛ وهو قول باطل .

وقال أبو حنيفة : إذا قال له عليّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون ، لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما .

وهذا ضعيف ؛ فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعاً .

الصورة الرابعة إذا قال له : عندي مالٌ قُبِل تفسيره بما لا يكون مالاً في العادة كالدرهم والدرهمين ، ما لم يجيء من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثره منه .

الصورة الخامسة أن يقول له : عندي مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعيّ : يُقبل في الحبّة .

وقال أبو حنيفة : لا يُقبل إلا في نصاب الزكاة .

وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة ، منها نصاب السرقة والزكاة والدّية وأقله عندي نصاب السّرقة ، لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا في مال عظيم .

وبه قال أكثر الحنفية .

ومن يعجب فيتعجّب لقول الليث بن سعد : إنه لا يُقبل في أقل من اثنين وسبعين ودرهماً .

(164/792)

فقيل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ [التوبة : 25] وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين .

وهذا لا يصح ؛ لأنه أخرج حُنَيْنا منها ، وكان حقّه أن يقول يقبل في أحد وسبعين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : 41] ، وقال : ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ [النساء : 114] ، وقال : ﴿ والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 68] .

الصورة السادسة : إذا قال له : عندي عشرة أو مائة أو ألف ، فإنه يُفَسّرها بما شاء ويُقْبل منه ، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهماً فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبَل منه .

وبه قال الشافعيّ .

وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً كان تفسيراً ؛ كقوله : مائة وخمسون درهماً ؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمائة .

وقال ابن خيران الإصطخري من أصحاب الشافعيّ : الدرهم لا يكون تفسيراً في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفَسِّر هو المائة بما شاء .

المسألة الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه .

وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ في الحدود التي هي خالص حقّ الله ؛ فقال أكثرهم منهم الشافعيّ وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار .

وقال به مالك في أحد قوليه ، وقال في القول الآخر : لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهاً صحيحاً .

والصحيح جواز الرجوع مطلقاً ؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رد المقرّ بالزنى مراراً أربعاً كل مرّة يُعرِض عنه ، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "أبكَ جنون" قال : لا .

(165/792)

قال : "أُحْصِنتَ" قال : نعم " وفي حديث البخاريّ : " لعلّك قَبّلت أو غمزت أو نظرتَ "

وفي النّسائيّ وأبي داود : " حتى قال له في الخامسة "أجامعتها" قال : نعم .

قال : "حتى غاب ذلك منك في ذلك منها" قال : نعم .

قال : "كما يغيب المِرود في المُكْحَلة والرِّشاء في البئر" .

قال : نعم .

قال : "هل تدري ما الزنى ؟" قال : نعم ؛ أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالاً .

قال : "فما تريد مني" ؟ قال : أريد أن تطهرني .

قال : فأمر به فَرُجم " قال الترمذيّ : وأبو داود : " فلما وجد مَسَّ الحجارة فَرَّ يشتد ، فضربه رجل بلَحْي جَمَل ، وضربه الناس حتى مات .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هَلاَّ تركتموه" " وقال أبو داود والنَّسائي : ليتثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما لترك حَدّ فلا .

وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله .

وفي قوله عليه السلام : " لعلك قَبَّلْتَ أو غمزتَ " إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهاً .

الخامسة وهذا في الحر المالك لأمر نفسه ، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يقرّ على بدنه ، أو على ما في يده وذمته ؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه .

وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه ؛ لأن بدنه مستغرَق لحقّ السيد ، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بَدَنه ؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : " من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بسَتْر الله ، فإن من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحدّ "

المعنى : أن محل العقوبة أصل الخلقة ، وهي الدُّمْيَة في الآدمية ، ولا حقّ للسيد فيها ، وإنما حقّه في الوصف والتبع ، وهي المالية الطارئة عليه ؛ ألا ترى أنه لو أقرّ بمال لم يقبل ، حتى قال أبو حنيفة : إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقرّ له .

(166/792)

وقال علماؤنا : السِّلْعة للسيد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق ؛ لأن مال العبد للسيد إجماعاً ، فلا يُقبل قوله فيه ولا إقراره عليه ، ولا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له .

ولا يصح أن يَمْلِك ولا يملك ، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملّكه ، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(167/792)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾

تحير فزعاً وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ومنه قول ذي الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت . . .

لعينيه مي سافراً كاد يبرق

ونظيره قمر الرجل إذا نظر إلى القمر فدهش بصره وكذلك ذهب وبقر للدهش من النظر إلى الذهب والبقر فهو استعارة أو مجاز مرسل لاستعماله في لازمه أو في المطلق وقرأ نافع وزيد بن ثابت وزيد بن علي وأبان عن عاصم وهارون ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو وخلق آخرون برق بفتح الراء فقيل هي لغة في برق بالكسر وقيل هو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه وقرأ أبو السمال بلق باللام عوض الراء أي انفتح وانفرج يقال بلق الباب أبلقته وبلقته فتحته هذا قول أهل اللغة إلا الفراء فإنه يقول بلقه وأبلقه إذا أغلقه وخطأه ثعلب وزعم بعضهم أنه من الأضداد والظاهر أن اللام فيه أصلية وجوز أن تكون بدلاً من الراء فهما يتعاقبان في بعض الكلم نحو نتر ونتل ووجر ووجل .

وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8)

على البناء للمفعول .

(168/792)

﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ حيث يطلعهما الله تعالى من المغرب على ما روي عن ابن مسعود ولا ينافيه الخسوف إذ ليس المراد به مصطلح أهل الهيئة وهو ذهاب نور القمر لتقابل النيرين وحيلولة الأرض بينهما بل ذهاب نوره لتجل خاص في ذلك اليوم أو لاجتماعه

مع الشمس وهو المحاق وجوز أن يكون الخسوف بالمعنى الاصطلاحي ويعتبر في وسط الشهر مثلاً ويعتبر الجمع في آخره إذ لا دلالة على اتحاد وقتيهما في "النظم الجليل" وأنت تعلم أن هذا خسوف يزري بحال أهل الهيئة ولا يكاد يخطر لهم ببال كالجمع المذكور وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء ابن يسار قال يجمعان ثم يقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى وتوسعة البحر أو تصغيرهما مما لا يعجز الله عز وجل وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعي وحوادثه أمور وراء الطبيعة فلا يقال أين البحر من جرم القمر فضلاً عن جرم الشمس الذي هو بالنسبة إليها كالبعوضة بالنسبة إلى الفيل ولا كيف يجمعان ويقذفان وقيل يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار وعن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس يجمعان ويجعلان في نور الحجب وقيل يجمعان ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر وقيل جمعاً في ذهاب الضوء وروي عن مجاهد وهو اختيار الفراء والزجاج فالجمع مجاز عن التساوي صفة وفيه بعد إذ كان الظاهر عند إرادة ذلك أن يقال من أول الأمر وخسف الشمس والقمر ولا غبار في نسبة الخسوف إليهما لغة وكذا الكسوف ولم يلحق الفعل علامة التأنيث لتقدمه وكون الشمس مؤنثاً مجازياً وفي مثله يجوز الأمران وكان اختيار ترك الإلحاق لرعاية حال القمر المعطوف وقال الكسائي إن التذكير حمل على المعنى والتقدير جمع النوران أو الضياآن وليس بذاك .

﴿ يَقُولُ الإِنسانُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ تقع هذه الأمور ﴿ أَيْنَ المفر ﴾ أي الفرار يأساً منه وجوز إبقاؤه على حقيقة الاستفهام لدهشته وتحيره وقرأ الحسن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن بن زيد وابن عباس ومجاهد وعكرمة وجماعة كثيرة المفر بفتح الميم وكسر الفاء اسم مكان قياسي من يفر بالكسر أي أين موضع الفرار وجوز أن يكون مصدراً أيضاً كالمرجع وقرأ الحسن البصري بكسر الميم وفتح الفاء ونسبها ابن عطية للزهري أي الجيد الفرار وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل ومنه قوله :

مكر مفر مقبل مدبر معا . . .

كجلمود صخر حطه السيل من عل

واختلف في هذا اليوم فالأكثرون على أنه يوم القيامة وهو المنصور وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال فإذا برق البصر عند الموت والاحتضار ﴿ وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 8 ، 9] أي كور يوم القيامة وجوز أن يكون الأخيران عند الموت أيضاً ويفسر الخسوف بذهاب ضوء البصر منه وجمع الشمس والقمر باستتباع الروح حاسة البصر في الذهاب والتعبير بالشمس عن الروح وبالقمر عن حاسة البصر على نهج الاستعارة فإن نور البصر بسبب الروح كما أن نور القمر بسبب الشمس أو يفسر الخسوف بما سمعت وجمع الشمس والقمر بوصول الروح الإنسانية إلى من كانت تقتبس منه نور العقل

وهم الأرواح القدسية المنزهة عن النقائص فالقمر مستعار للروح والشمس لسكان حظيرة القدس والملأ الأعلى لأن الروح تقتبس منهم الأنوار اقتباس القمر من الشمس ووجه الاتصال بما قبل على جعل الكل عند الموت أنه إذ ذاك ينكشف الأمر للإنسان فيعلم على أتم وجه حقيقة ما أخبر به وأنت تعلم أن هذا على علاته أقرب إلى باب الإشارة على منزع الصوفية وإذا فتح هذا الباب فلا حصر فيما ذكر من الاحتمال عند ذوي الألباب .

كَلَّا لَا وَزَرَ (11)

(170/792)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن طلب المفر وتمنيه ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ لا ملجأ وأصله الجبل المنيع وقد كان مفراً في الغالب لفرار العرب واشتقاقه من الوزر وهو الثقل ثم شاع وصار حقيقة لكل ملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك ومنه قوله

ما للفتى من وزر . . .

من الموت يدركه والكبر

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ أي إليه جل وعلا وحده استقرار العباد أي لا ملجأ ولا منجي لهم غيره عز وجل أو إلى حكمه تعالى استقرار أمرهم لا يحكم فيه غيره سبحانه أو

إلى مشيئته تعالى موضع قرارهم من جنة أو نار فمن شاء سبحانه أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار فتقديم الخبر لإفادة الاختصاص وإن اختلف وجهه حسب اختلاف المراد بمستقر وكلا لا وزر يحتمل أن يكون من كلامه تعالى يقال للقائل أين المفر يوم يقوله أو هو مقول اليوم على معنى ليرتدع عن طلب الفرار وتمنيه ذلك اليوم ويحتمل أن يكون من تمام قول الإنسان كأنه بعد أن يقول أين المفر يعود على نفسه فيستدرك ويقول كلا لا وزر وأياً ما كان فالظاهر أن قوله تعالى إلى ربك يومئذٍ المستقر استئناف كالتعليل للجملة قبله أو تحقيق وكشف لحقيقة الحال والخطاب فيه لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ولا يحسن أن يكون من جملة ما يخاطب به القائل ذلك اليوم ولا مما يقوله لنفسه فيه لمكان يومئذٍ وفي "البحر" الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ من تمام قول الإنسان وقيل هو من كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان .

انتهى وفيه بحث وجوز أن تكون كلا بمعنى ألا الاستفتاحية أو بمعنى حقاً فتأمل ولا تغفل .

﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾

(171/792)

أي يخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وذلك على ما عليه الأكثر عند وزن الأعمال ﴿ بِمَا قَدَّمَ ﴾ أي بما عمل من عمل خيراً كان أو شراً فيثاب بالأول ويعاقب على الثاني ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ أ ترك ولم يعمل خيراً كان أو شراً فيعاقب بالأول ويثاب بالثاني أو بما قدم من حسنة أو سيئة وبما أخر ما سنه من حسنة أو سيئة يعمل بها بعده أخرج ذلك ابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهما عن ابن مسعود وهو رواية عن ابن عباس وقال زيد بن أسلم بما قدم من ماله لنفسه فتصدق به في حياته وبما أخر منه للوارث وزيد أو وقفه أو أوصى به وقال مجاهد والنخعي بأول عمله وآخره وأخرج ابن جرير عن ابن عباس بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة وأخرج نحوه عن قتادة وعبد بن حميد نحوه أيضاً عن عكرمة وعليه فالظاهر أنه عنى بالإنسان الفاجر وفصل هذه الجملة عما قبلها لاستقلال كل منها ومن قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ ﴾ الخ في "الكشف" عن شدة الأمر أو عن سوء حال الإنسان .

﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أي حجة بينة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال السيئة كما يؤذن به كلمة على والجملة الحالية بعد فالإنسان مبتدأ وعلى نفسه متعلق ببصيرة بتقدير أعمال أو المعنى عليه من غير تقدير وبصيرة خبر وهي مجاز عن الحجة البينة الواضحة أو بمعنى بينة وهي صفة لحجة مقدرة هي الخبر وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها بصير بها فالإسناد مجازي أو هي بمعنى دالة مجازاً وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية وتخييلية والتأنيث للمبالغة وأو لتأنيث الموصوف أعني حجة وقيل

ذلك لإرادة الجوارح أي جوارحه على نفسه بصيرة أي شاهدة ونسب إلى القتبي وجوز أن يكون التقدير عين بصيرة وإليه ذهب الفراء وأنشد :

كأن على ذي العقل عيناً بصيرة . . .

بمجلسه أو منظر هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم . . .

من الخوف لا يخفى عليهم سرائره

(172/792)

وعليه قيل الإنسان مبتدأ أول وبصيرة بتقدير عين بصيرة مبتدأ ثان وعلى نفسه خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر المبتدأ الأول واختار أبو حيان أن تكون بصيرة فاعلا بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان وعمل بالفاعل لاعتماده على ذلك وأمر التأنيث ظاهر وبل للترقي على الوجهين إرادة حجة بصيرة وإرادة عين بصيرة والمعنى عليهما ينبؤ الإنسان بأعماله بل فيه ما يجزي عن الأنباء لأنه عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : 24] وفي كلا الوجهين كما قيل شائبة التجريد وهي في الثاني أظهر وقوله تعالى

﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه حال من المسكن في ﴿ بصيرة ﴾ أو من مرفوع ﴿ ينبؤ ﴾ أي هو على نفسه حجة وهو شاهد عليها ولو أتي بكل عذر في الذب عنها ففيه تنبيه على أن الذب لا رواج له أو ينبؤ بأعماله ويجازي ويعاقب لا محالة ولو أتي بكل عذر فهو تأكيد لما يفهم من مجموع قوله تعالى ينبأ الإنسان الخ والمعاذير جمع معذرة بمعنى العذر على خلاف القياس والقياس معاذر بغير ياء وأطلق عليه الزمخشري اسم الجمع كعادته في اطلاق ذلك على الجموع المخالفة للقياس وإلا فهو ليس من أبنية اسم الجمع وقال صاحب الفرائد يمكن أن يقال الأصل فيه معاذر فحصلت الياء من اشباع الكسرة وهو كما ترى أو جمع معذار على القياس وهو بمعنى العذر وتعقب بأنه بهذا المعنى لم يسمع من الثقات نعم قال السدى والضحاك المعاذير الستور بلغة اليمن واحدها معذار وحكى ذلك عن الزجاج أي ولو ارخى ستوره والمعنى أن احتجابه في الدنيا واستتاره لا يغني عنه شيئاً لأن عليه من نفسه بصيرة وفيه تلويح إلى معنى قوله تعالى ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم ﴾ [فصلت : 22] الآية وقيل البصيرة عليه الكاتبان يكتبان ما يكون من خير أو شر فالمعنى بل الإنسان عليه كاتبان

يكتبان أعماله ولو تستر بالستور ولا يكون في الكلام على هذا شائبة تجريد كما تقدم والإلقاء على إرادة الستور ظاهر وأما على إرادة الاعذار فقيل شبه المجيء بالعذر بالقاء الدلو في البئر للاستقاء به فيكون فيه تشبيه ما يراد بذلك بالماء المروى للعطش ويشير إلى هذا قول السدى في ذلك ولو أدلي بحجة وعذر وقيل المعنى ولو رمى بأعذاره وطرحها واستسلم وقيل ولو أحال بعضهم على بعض كما يقول بعضهم لبعض لولا أنتم لكنا مؤمنين ولو على جميع هذه الأقوال اما أن يكون معنى الشرطية منسلخا عنها كما قيل فلا جواب لها واما أن يكون باقياً فيها فالجواب محذوف يدل عليه ما قبل واستظهر الخفاجي الأول وفي

(174/792)

الآية على بعض وجوهها دليل كما قال ابن العربي على قبول إقرار المرء على نفسه وعدم قبول الرجوع عنه والله تعالى أعلم أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد والطبراني وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل وجماعة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ [

القيامة : 16] الخ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق وفي لفظ استمع فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(175/792)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » هو الجواب على هذا السؤال المستهزئ ، الذي سأله هذا الشقي ، منكرا ليوم البعث ، مستهزئا به ! وقد جاء الرد عليه بيوم القيامة كله ، وبما يطلع به على الناس ، من شدائد وأهوال . . إن الجواب لم يحدد الوقت الذي يجىء فى هذا اليوم . . إذ ليس المهم متى يجىء ؟ وإنما المهم هو ماذا أعد الإنسان له يوم مجيئه ؟ وماذا يلقى المكذبون والمضلون فيه من هذه الأهوال التي تطلع عليهم في هذا اليوم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ » أي جمد فلم يطرف ، للهول الذي يراه من أحداث هذا اليوم . .

(176/792)

وقوله تعالى : « وَخَسَفَ الْقَمَرُ »

أي ذهب نوره وقوله تعالى : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أي أصبحا جرمين ، لا يرى لهما الإنسان يومئذ ضوءا . . حيث تكون الشمس أشبة بالقمر ، فى أنها جسم معتم مثله ، فإن ضوء الشمس إنما يرى فى كوكبنا الأرضى ، بعد أن يخترق الطبقة الجوية المحيطة بالأرض ، فإذا خرج الإنسان عن جو الأرض لم ير للشمس ضوءا ، ورأى النجوم فى رائعة النهار الذي يكسو وجه الأرض حلّة من ضيائه .

وهذا يعنى أن الإنسان سيخرج يوم القيامة من عالمه الأرضى ، إلى عالم آخر ، تتبدل فيه أحواله ، وتتغير فى نظره حقائق الأشياء على هذه الأرض ، فيرى الشمس والقمر معلقين فى هذا الفضاء ، كل على هيئته ، فلا غروب للشمس ، ولا نقصان للقمر . .

قوله تعالى : «يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ » أي فى هذا اليوم ، يقول الإنسان ـ كل إنسان ـ أين المفر ؟ أي أين الملجأ الذي يلجأ إليه الإنسان ، فرارا من لقاء هذا اليوم العظيم ؟

قوله تعالى : « كَلَّا لا وَزَرَ إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » الوزر : الملجأ ، والحمى الذي يحتمى فيه الإنسان . . ومنه الإزار الذي يأتزر به الإنسان ، ويستر جسده .

إنه لا ملجأ فى هذا اليوم . . فالكلّ مسوق إلى اللّه تعالى ، حيث المستقر هناك فى المحشر ، فى موقف الحساب والجزاء . . فلا ملجأ من اللّه إلا إليه سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : « يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ »

أي فى هذا اليوم يخبر الإنسان ، بكل ما عمل ، فى حياته كلها ، من أولها إلى آخرها . . ما تقدم منها وما تأخر . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ » (2 : الفتح) قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ »

هو إضراب على ما سبق ، وأن الإنسان ليس فى حاجة إلى من ينبئه بما قدّم وأخر ، بل إن كل إنسان يقوم عليه شاهد من نفسه ومن جوارحه ، فهو - والحال كذلك - إنما ينبأ بأعماله من ذات نفسه ، كما يقول سبحانه :

« كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » .

وأنت لفظ بصيرة ، على تقدير مضاف أي ، ذو بصيرة ، وذلك حين ينكشف له يوم القيامة كل شىء ، فيرى الأمور على حقائقها ، ويبصر كل ما قدمته يداه ، كما يقول سبحانه : « فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (22 : ق) قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ »

أي أن هذه البصيرة التي تكون للإنسان يوم القيامة ، والتي يقوم منها شاهد عليه من ذاته -

هذه البصيرة ، لا تلتفت إلى معاذيره التي يوردها ، عليها كما يقول سبحانه . « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » (21 : فصلت) فلا يقبل من الإنسان عذر في هذا

(178/792)

اليوم . . كما يقول سبحانه : « فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » (57 : الروم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 15 صـ 1316 . 1319 ﴾

(179/792)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) ﴾

عُدل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهدَّدوا بأهواله ، لأنهم لم يكونوا جادِّين في سؤالهم فكان من مقتضى حالهم أن يُنذروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم مع

تضمين تحقيق وقوعه فإن كلام القرآن إرشاد وهدْي ما يترك فُرصَة للهدي والإرشاد إلاّ انتهزها ، وهذا تهديد في ابتدائه جاء في صورة التعيين لوقت يوم القيامة إيهاماً بالجواب عن سؤالهم كأنه حملٌ لكلامهم على خلاف الاستهزاء على طريقة الأسلوب الحكيم .

وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرطوا في التوقي من ذلك اليوم واشتغلوا بالسؤال عن وقته .

وقريب منه ما روي أن رجلاً من المسلمين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم "متى الساعة ؟ فقال له : مَاذا أعددت لها" .

فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية مما يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة فكان ذلك شيئاً من تعيين وقته بتعيين أشراطه .

والفاء لتفريع الجواب عن السؤال .

و﴿ بَرِق ﴾ قرأه الجمهور بكسر الراء ، ومعناه : دُهِش وبُهت ، يقال : برِق يَبرَق فهو بَرِق من باب فرِح فهو من أحوال الإنسان .

وإنما أسند في الآية إلى البصر على سبيل المجاز العقلي تنزيلاً له منزلة مكان البرق لأنه إذا بهت شخص بصره .

كما أسند الأعشى البَرَق إلى الأعين في قوله:

كذلك فافْعَلْ ما حييت إذَا شتوا

وأقدِمْ إذا ما أعينُ الناس تفرَق

وقرأه نافع وأبو جعفر بفتح الراء من البريق بمعنى اللمعان ، أي لَمَع البصر من شدة شخوصه ، ومضارعه يبرُق بضم الراء .

وإسناده إلى البصر حقيقة .

ومآل معنى القراءتين واحد وهو الكناية عن الفزع والرعب كقوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ [الأنبياء : 97] ، فلا وجه لترجيح الطبري قراءة الجمهور على قراءة نافع وأبي جعفر ، لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ولا من مقتضى التفسير .

(180/792)

والتعريف في ﴿ البصر ﴾ للجنس المرادِ به الاستغراق ، أي أبصار الناس كلهم من الشدة الحاصلة في ذلك الوقت على أنهم متفاوتون في الرعب الحاصل لهم على تفاوتهم فيما يُعرضون عليه من طرائقِ منازلهم .

وخسوف القمر أريد به انطماس نوره انطماساً مستمراً بسبب تزلزله من مداره حول الأرض الدائرة حول الشمس بحيث لا ينعكس عليه نورها ولا يلوح للناس نيّراً ، وهو ما دل عليه قوله : ﴿ وجُمع الشمس والقمر ، ﴾ فهذا خسوف ليس هو خسوفه المعتاد عندما

تحُولُ الأرضُ بين القمر وبين مُسامتته الشمسَ .

ومعنى جَمْع الشمس والقمر : التصاقُ القمر بالشمس فتلتهمه الشمس لأن القمر منفصل من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشمس كالكواكب ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي .

و﴿ إذا برق البصر ﴾ ظَرف متعلق بـ ﴿ يقول الإنسان ﴾ ، وإنما قدم على عامله للاهتمام بالظرف لأنه المقصود من سياق مجاوبة قوله:

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ [القيامة : 6] .

وطُوي التصريح بأن ذلك حلول يوم القيامة اكتفاء بذكر ما يدل عليه وهو قولهم ﴿ أين المَفر ﴾ فكأنه قيل : حَلَّ يومُ القيامة وحضرت أهوالُه يقول الإنسان يومئذٍ ثم تأكَّدَ بقوله ﴿ إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ .

و﴿ يومئذٍ ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ يقول ﴾ أيضاً ، أي يومَ إذْ يبرق البصر ويخسف القمر ويُجمع الشمس والقمر ، فتنوين (إذ) تنوين عِوض عن الجملة المحذوفة التي دَلت عليها الجملة التي أضيف إليها (إذ) .

وذُكر ﴿ يومئذٍ ﴾ مع أن قوله : ﴿ إذا بَرَقَ البصر ﴾ الخ مُغن عنه للاهتمام بذكر ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه ويستهزئون فيسألون عن وقته ، وللتصريح بأن حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقت واحد .

و﴿ الإِنسان ﴾ : هو المتحدَّث عنه من قوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] ، أي يقول الإِنسان الكافر يومئذٍ : أي المفر .

(181/792)

و ﴿ المَفَر ﴾ : بفتح الميم وفتح الفاء مصدر ، والاستفهام مستعمل في التمني ، أي ليت لي فراراً في مكان نجاة ، ولكنه لا يستطيعه .

و ﴿ أين ﴾ ظرف مكان .

و ﴿ كلا ﴾ ردع وإبطال لما تضمنه ﴿ أين المفر ﴾ من الطمع في أن يجد للفرار سبيلاً .

و ﴿ الوَزر ﴾ : المكان الذي يُلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون .

فيجوز أن يكون ﴿ كلاّ لا وَزَر ﴾ كلاماً مستأنفاً من جانب الله تعالى جواباً لمقالة الإِنسان ، أي لا وزر لكَ ، فينبغي الوقفُ على ﴿ المفر ﴾ .

ويجوز أن يكون من تمام مقالة الإِنسان ، أي يقول : أين المفر ؟ ويجيب نفسه بإبطال طعمه فيقول ﴿ كَلاّ لا وزَر ﴾ أي لا وزر لي ، وذلك بأن نظر في جهاته فلم يجد إلاّ النار كما ورد في الحديث ، فيحسن أن يُوصل ﴿ أين المفر ﴾ بجملة ﴿ كلا لا وَزَر ﴾ .

وأما قوله : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المستقرّ ﴾ فهو كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبي

صلى الله عليه وسلم في الدنيا بقرينة قوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ ، فهو اعتراض وإدْماج للتذكير بمُلك ذلك اليوم .

وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنه ناصره يومئذٍ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته .

و﴿ المستقَرّ ﴾ : مصدر ميمي من استقَرّ ، إذا قَرّ في المكان ولم ينتقل ، والسين والتاء للمبالغة في الوصف .

وتقديم المجرور لإفادة الحصر ، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر .

والمعنى : لا ملجأ يومئذٍ للإنسان إلاّ منتهياً إلى ربك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] .

وجملة ﴿ يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدّم وأخَّر ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً أثارهُ قوله : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ ، أو بدل اشتمال من مضمون تلك الجملة ، أي إلى الله مصيرهم وفي مصيرهم يُنبأون بما قدموا وما أخروا .

(182/792)

وينبغي أن يكون المراد بـ ﴿ الإِنسان ﴾ الكافر جرياً على سياق الآيات السابقة لأنه المقصود بالكلام وإن كان كل إنسان ينبأ يومئذٍ بما قدم وأخر من أهل الخير ومن أهل الشر قال تعالى:

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ الآية [آل عمران : 30] .

واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد ، فإن في القرآن فنوناً من التذكير لا تلزم طريقة واحدة .

وهذا مما يغفل عن مراعاته بعض المفسرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة .

وتنبئةُ الإِنسان بما قدّم وأخرّ كناية عن مجازاته على ما فعله : إن خيراً فخيرٌ وإن سُوءاً فسوءٌ ، إذ يقال له : هذا جزاء الفعلة الفلانية فيعلم من ذلك فعلَته ويلقَى جزاءها ، فكانَ الإِنباء من لوازم الجزاء قال تعالى : ﴿ قل بلى وربي لَتُبْعَثُنّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلتم ﴾ [التغابن : 7] ويحصل في ذلك الإِنباء تقريع وفضح لحاله .

والمراد بـ ﴿ ما قدم ﴾ : ما فَعَله وبـ ﴿ ما أخرّ ﴾ : ما تركه مما أُمر بفعله أو نهي عن فعله في الحالين فخالف ما كُلف به ومما علَّمه النبي صلى الله عليه وسلم من الدعاء : " فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت " .

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

إضراب انتقالي ، وهو للترقي من مضمون ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخّر ﴾ [القيامة : 13] إلى الإخبار بأن الكافر يَعلَم ما فعله لأنهم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، إذ هو قرأ كتاب أعماله فقال : ﴿ يا ليتني لم أوتَ كتابِيَهْ ولم أدر ما حِسَابيهْ ﴾ [الحاقة : 25 ، 26] ، ﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف : 49] .

وقال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] .

(183/792)

ونظم قوله : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ صالح لإفادة معنيين:

أولهما أن يكون ﴿ بصيرة ﴾ بمعنى مبصر شديد المراقبة فيكون ﴿ بصيرة ﴾ خبراً عن ﴿ الإنسان ﴾ .

و ﴿ على نفسه ﴾ متعلقاً بـ ﴿ بصيرة ﴾ ، أي الإنسان بصيرٌ بنفسه .

وعُدّي بحرف ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى المراقبة وهو معنى قوله في الآية الأخرى : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

وهاء ﴿ بصيرة ﴾ تكون للمبالغة مثل هاء علامة ونسَّابة ، أي الإِنسان عليم بصير قوي العلم بنفسه يومئذٍ .

والمعنى الثاني : أن يكونَ ﴿ بصيرة ﴾ مبتدأ ثانياً ، والمراد به قرين الإِنسان من الحفظة وعلى نفسه خبرَ المبتدأ الثاني مقدماً عليه ، ومجموعُ الجملة خبراً عن ﴿ الإنسان ﴾ ، و ﴿ بصيرة ﴾ حينئذٍ يحتمل أن يكون بمعنى بصير ، أي مبصر والهاء للمبالغة ، كما تقدم في المعنى الأول ، وتكون تعدية ﴿ بصيرة ﴾ بـ ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى الرقيب كما في المعنى الأول .

ويحتمل أن تكون ﴿ بصيرة ﴾ صفة لموصوف محذوف ، تقديرة : حجة بصيرة ، وتكون ﴿ بصيرة ﴾ مجازاً في كونها بينة كقوله تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلاّ ربّ السماوات والأرض بصائر ﴾ [الإسراء : 102] ومنه قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمودَ الناقة مبصرة ﴾ [الإسراء : 59] والتأنيثُ لتأنيث المَوصوف .

وقد جرت هذه الجملة مجرى المثل لإِيجازها ووفرة معانيها .

وجملة ﴿ ولو ألقَى معاذيرَه ﴾ في موضع الحال من المبتدأ وهو الإِنسان ، وهي حالة أجدر بثبوت معنى عاملها عند حصولها .

﴿ لو ﴾ هذه وَصْلِيَّةٌ كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في آل عمران (91) .

والمعنى : هو بصيرة على نفسه حتى في حال إلقائه معاذيره .

والإِلقاء : مراد به الإِخبار الصريح على وجه الاستعارة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فأَلْقَوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ في سورة النحل (86) .

(184/792)

والمعاذير : اسم جمع مَعذرة ، وليس جمعاً لأن معذرة حقه أن يُجمع على معَاذر ، ومثل المعاذير قولهم : المناكير ، اسم جمع مُنْكَر .

وعن الضحاك : أن معاذير هُنا جمع مِعْذار بكسر الميم وهو السِتر بلغة اليمن يكون الإِلقاء مستعملاً في المعنى الحقيقي ، أي الإِرخاء ، وتكون الاستعارة في المعاذير بتشبيه جحد الذنوب كذباً بإلقاء الستر على الأمر المراد حجبه .

والمعنى : أن الكافر يعلم يومئذٍ أعماله التي استحق العقاب عليها ويحاول أن يعتذر وهو يعلم أن لا عذر له ولو أفصح عن جميع معاذيره .

ومعاذيره ﴾ : جمع معرف بالإِضافة يدل على العموم .

فمن هذه المعاذير قولهم : ﴿ رب ارجعون لعليَ أعْمَلُ صالحاً فيما تركتُ ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] ومنها قولهم : ﴿ ما جاءَنا من بشير ﴾ [المائدة : 19] وقولهم : ﴿

هؤلاء أضَلونا ﴾ [الأعراف : 38] ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(185/792)

فصل

قال القرطبى :

باب ما يلقي الناس في الموقف من الأهوال العظام والأمور الجسام

قال المحاسبي في كتاب التوهم والأهوال : يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمهم الصغار بعد عتوهم والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه . ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان ، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم

بعظمها فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام فيا هول صوت انشقاقها في سمعهم وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وقال يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن أي كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف وهبطت الملائكة من حافاتها إلا الأرض بالتقديس لربها فتوهم انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم وكثرة أخطارهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم من خوف ربهم فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسي رؤوسهم العظيم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ونكسوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم ، وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصوات حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين ،

(186/792)

ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربه وأقلقته وقد

ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضهم بعضاً ، واختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ، ثم على أقدامهم ، ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء ، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه ، ومنهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه .

قلت : ذكر المحاسبي وغيره أن انفطار السماء انشقاقها بعد جمع الناس في الموقف وقد قدمنا أن ذلك يكون قبل ذلك وهو ظاهر القرآن كما ذكرنا والله اعلم وقد جاء ذلك مرفوعاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقد تقدم .

وما ذكره المحاسبي مروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ، وجمع الخلائق بصعيد واحد جهنم وإنسهم ، فإذا كان ذلك قبضت هذه السماء عن أهلها فينتشرون على وجه الأرض فلأهل السماء أكثر من أهل جميع الأرض جهنم وإنسهم بالضعف .

الحديث بطول ما ذكره ابن المبارك في رقائقه . قال : أخبرنا عوف عن أبي المنهال سيار بن سلامة الرياحي قال ، أخبرنا شهر بن حوشب . قال : حدثني ابن عباس فذكره . قال ابن المبارك وأخبرني جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمر الرب فينزلون إلى الأرض

فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء التي تليها فينزلون فيكونون صفاً خلف ذلك الصف ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فينزل الملك الأعلى في بهائه وجلاله وملكه وبجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها فلا يأتون قطراً من أقطارها إلا

(187/792)

وجدوا صفوفاً قياماً من الملائكة فذلك قوله تعالى يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان والسلطان العذر وذلك قوله عز وجل وجاء ربك والملك صفاً صفاً وقال وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها يعني على حافاتها يعني بأرجائها ما تشفق منها ، فبيناهم كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب .

قلت : ولا يصح إسنادهما ، فإن شهراً وجبيراً قد تكلم فيها وضعفوهما .

قال البخاري في التاريخ جويبر بن سعيد البلخي عن الضحاك قال لي علي ، قال يحيى : كنت أعرف جويبراً بحديثين ، ثم أخرج هذه الأحاديث بعد فضعفه ، وأما شهر فقال مسلم في صدر كتابه سئل ابن عوف عن حديث شهر وهو قائم على أسكفة الباب ، فقال

: إن شهراً تركوه . قال مسلم : يقول أخذته ألسنة الناس تكلموا فيه ، وقال عن شعبة وقد لقيت شهراً فلم أعتد به .

وذكر أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة نحواً مما ذكر المحاسبي عن ابن عباس رضي الله عنه والضحاك فقال إن الخلائق إذا اجتمعوا في صعيد واحد الأولين والآخرين أمر الجليل جل وجلاله بملائكة سماء الدنيا أن يتولوهم فيأخذ كل واحد منهم إنساناً وشخصاً من المبعوثين إنساً وجناً ووحشاً وطيراً وحولوهم إلى الأرض الثانية ، وهي أرض بيضاء من فضة نورية ، وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة ، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدقون بهم واحدة فإذا هم مثلهم عشرين مرة ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة ، فإذا هم أكثر منهم ثلاثين ضعفاً ، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة أكثر منهم بأربعين صفاً ، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة

فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة ، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعين مرة والخلق تتداخل وتندمج حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام ، وتخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الأذقان وإلى الصدر وإلى الحقوين وإلى الركبتين ، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام ، ومنهم من تصيبه البلة كالعاطش إذا شرب الماء ، وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رؤوسهم حتى لو مد أحدهم يده لنالها ، ويضاعف حرها سبعين مرة .

وقال بعض السلف لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وذابت الصخر وجفت الأنهار ، فبينما الخلائق يموجون في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله تعالى حيث يقول : يوم تبدل الأرض غير الأرض وهم على أنواع في المحشر على ما تقدم في حديث معاذ ، والملوك كالذر كما قد ورد في الخبر في وصف المتكبرين وليس هم كهيئة الذر غير أن الأقدام عليهم حتى صاروا كالذر في مذلتهم وانخفاضهم ، وقوماً يشربون ماء بارداً عذباً صافياً ، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة يسقونهم .

وعن بعض السلف أنه نام فرأى القيامة قد قامت ، وكأنه في الموقف عطشان وصبيان صغار يسقون الناس قال : فناديتهم ناولوني شربة ، فقال لي واحد منهم ألك فينا ولد ؟ فقلت : لا . فقال : فلا إذاً ولهذا فضل التزويج . ولهذا الولد الساقي شروط ذكرناها في

الإحياء ، وقوم قدموا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر وهي الصدقة الطيبة لا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور الذي وصفناه في كتاب الإحساء وهو بعض أسرار القرآن فتوجل له القلوب وتخشع الأبصار لعظيم نقره ، وتشتاف الرؤوس من المؤمنين ، والكافرين يظنون أن ذلك عذاب يزداد بهم في هول يوم القيامة ، فإذا بالعرش تحمله ثمانية أملاك قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف

(189/792)

سنة ، وأفواج الملائكة وأنواع الغمام بأصوات التسبيح ، لهم هرج عظيم لا تطيقه العقول حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة ، فتطرق الرؤوس وتخنس وتشفق البرايا وترعب الأنبياء وتخاف العلماء وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله سبحانه الذي لا يطيق شيء إذ غشاهم نور حتى غلب عليه نور الشمس التي كانوا في حرها فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام والجليل سبحانه لا يكلمهم كلمة واحدة ، فحينئذ يذهب الناس إلى آدم فيقولون : يا أبا البشر الأمر علينا شديد ، وأما الكافر فيقول : يا رب أرحني ولو إلى النار من شدة ما يرى من الهول . يقولون : أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه اشفع لنا في فصل

القضاء ، وذكر أمر الشفاعة من نبي إلى نبي وأن ما بين إتيانهم من نبي إلى نبي ألف عام حتى تنتهي الشفاعة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على ما يأتي بيانه من أمر الشفاعة في أحاديث إن شاء الله تعالى ، ونحو من هذا ذكره الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الإرشاد له قال : فإذا كان يومئذ جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد وكورت الشمس وانكدرت النجوم ومارت السماء فوق الخلائق موراً ، وتفطرت من عظيم هول ذلك اليوم ، وتشققت بالغمام المنزل من عليهن فوقهن ، ثم صارت وردة كالدهان وكشطن سماء سماء ، ونزلت الملائكة تنزيلاً ، وقام الخلائق وطال قيامهم أقل ما قيل في قيامهم مقدار أربعين عاماً إلى ثلاثمائة عام ، وأياماً كان فاليوم يسعه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من صاحب إبل الحديث وفيه وردت عليها أولاها . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وسيأتي بكماله وهم في قيامهم ذلك في الظلمة دون الجسر كما في صحيح مسلم من حديث ثوبان عراة غرلاً . أعطش ما كانوا وأجوع ما كانوا عليه قط عراة فلا يسقى ذلك اليوم إلا من سقى لله عز وجل ، ولا يطعم إلا من

أطعم لله ، ولا يكسى يومئذ إلا من كسا لله ، ولا يكفى إلا من اتكل على الله . ومصداق هذا من كتاب الله عز وجل قوله الحق يوفون بالنذر إلى قوله تعالى : فوقاهم الله شر ذلك اليوم أي من إزالة الجوع والعطش والعرى إلى غير ذلك من أهوال القيامة وأفزاعها على ما يأتي بيانه في هذا الباب الذي يليه .

أبو بكر بن أبي شيبة ، عن أبي معاوية ، عن عاصم ، عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدنى من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين . قال : فيعرفون حتى يرشح العرق في الأرض قامة ، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل قال سلمان : حتى يقول الرجل غرغر ، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ائتوا أباكم آدم فيشفع لكم . الحديث بطوله ، وسيأتي مرفوعاً من حديث أبي هريرة ، وأخرجه ابن المبارك قال : أنبأنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال : تدنى الشمس من الناس يوم القيامة حتى تكون من رؤوسهم قاب قوسين فتعطى حر عشر سنين وليس على أحد يومئذ طحرية ولا يرى فيها عورة مؤمن ولا مؤمنة لا يضر حرها يومئذ مؤمنا ولا مؤمنة وأما الآخرون أو قال الكفار فتطبخهم طبخاً فإنما تقول أجوافهم : [غق غق] قال نعيم : الطحرية : الخرقة . وأخرجه هناد بن السري ، حدثنا قبيضة عن سفيان عن سليمان التيمي فذكره سواء إلا أنه قال [ولا يجد حرها] بدل [ولا يضر] وقال [وأما الكافر أو الآخرون فتطبخهم طبخاً حتى يسمع لأجوافهم غق غق] .

مسلم عن سليم بن عامر ، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين قال [فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم

(191/792)

من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً] قال : وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه ، وأخرجه الترمذي وزاد قوله تكحل به العين فتصهرهم الشمس .

وذكر ابن المبارك ، أخبرنا مالك بن مغول ، عن عبيد الله بن العيزار قال : إن الأقدام يوم القيامة مثل النبل في القرن والسعيد الذي يجد لقدميه موضعاً يضعهما عليه ، وإن الشمس تدنى من رؤوسهم حتى لا يكون بينها وبين رؤوسهم إما قال ميلاً أو ميلين ثم يزاد في حرها بضعة وستون ضعفاً ، وعند الميزان ملك إذا وزن العبد نادى ألا إن فلان بن فلان قد ثقلت موازينه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً . ألا فلان ابن فلان قد خفت موازينه وشقى شقاء لا يسعد بعده أبداً .

مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو آذانهم يشك ثور أيهما قال : أخرجه البخاري ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين قال : يوم يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه أخرجه البخاري والترمذي وقال : حديث صحيح مرفوعاً وموقوفاً .

وروى هناد بن السري قال : حدثنا محمد بن فضيل ، عن ضرار بن مرة ، عن عبد الله بن المكتب ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال له رجل إن أهل المدينة ليوفون الكيل يا أبا عبد الرحمن . قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل .

وقد قال الله تعالى ويل للمطففين حتى بلغ يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قالت : إن العرق ليبلغ أنصاف آذانهم من هول يوم القيامة وعظمه .

وخرج الوائلي من حديث ابن وهب قال : حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن ابن هانئ ، عن أبي عبد الرحمن الحيلي ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم كيف بكم إذا جمعكم الله عز وجل كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ؟ قال الوائلي غريب جيد الإسناد .

وقد خرج مسلم لابن وهب عن أبي هانئ نفسه عن الحيلي عن عبد الله أحاديث ابن المبارك قال : أخبرنا الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعيد يقول : إن للناس يوم القيامة جولة وهو قوله عز وجل يقول الإنسان يومئذ أين المفر وقوله : لو ترى إذ فزعوا فلا فوت وفي حديث جويبر عن الضحاك : فينزل الملك ومجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقها فلا يأتون قطراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً قياماً من الملائكة فذلك قوله : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان والسلطان العذر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفني جبريل من يوم القيامة حتى أبكاني فقلت يا جبريل ألم يغفر لي ربي ذنبي ما تقدم وما تأخر ؟ فقال لي يا محمد لتشهدن من هول ذلك اليوم أحدهما ينسيك المغفرة . ذكره أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله .

فصل : قلت : ظاهر ما رواه ابن المبارك عن سلمان أن الشمس لا يضر حرها مؤمن ولا مؤمنة العموم في المؤمنين وليس كذلك لحديث المقداد المذكور بعده ، وإنما المراد لا يضر حرها مؤمناً كامل الإيمان أو من استظل بظل عرش الرحمن كما في الحديث الصحيح سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الحديث رواه الأئمة مالك وغيره وسيأتي في الباب بعد

هذا .

وكذلك ما جاء أن المرء في ظل صدقته وكذلك الأعمال الصالحة أصحابها في ظلها إن شاء الله ، وكل ذلك من ظل العرش والله أعلم .

وأما غير هؤلاء فمتفاوتون في العرق على ما دل عليه حديث مسلم ، قال ابن العربي : وكل واحد يقوم عرقه معه فيغرق فيه إلى أنصاف ساقيه وإلى جانبيه مثلاً يمين من يبلغ كعيبه ، ومن الجهة الشمال من يبلغ ركبتيه ، ومن أمامه من يكون عرقه إلى نصفه ، ومن خلفه من يبلغ العرق صدره

(193/792)

، وهذا خلاف المعتاد في الدنيا فإن الجماعة إذا وقفوا في الأرض المعتدلة أخذهم الماء أخذاً واحداً ولا يتفاوتون ، كما ذكرنا مع استواء الأرض ومجاورة المحل ، وهذا من القدرة التي تخرق العادات في زمن الآيات .

وقال الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الإرشاد له : ولا يبعدون عليك هذا يرحمك الله أن يكون الناس كلهم في صعيد واحد وموقف سواء يشرب أحدهم أو بعض من الحوض ولا يشرب الغير ، ويكون النور يسعى بين يدي البعض في الظلمات مع قرب المكان وازدحام

الناس ، ويكون أحدهم يغرق في عرقه حتى يلجمه أو يبلغ منه عرقه ما شاء الله جزاء لسعيه في الدنيا والآخرة في ظل العرش على قرب المكان والمجاورة ، كذلك كانوا في الدنيا يمشي المؤمن بنور إيمانه في الناس والكافر في ظلام كفره ، والمؤمن في وقاية الله وكفايته والكافر والعاصي في خذلان الله لهما وعدم العصمة ، والمؤمن السني يكرع في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروى ببرد اليقين ويمشي في سبل الهداية بحسن الاقتداء والمبتدع عطشان إلى ما روى المؤمن به حيران لا يشعر سالك في مسالك ضلالات البدع وهو لا يدري ، كذلك في الوجود الأعمى لا يجد نور بصر البصير ولا ينفعه دواء إنما هي بواطن وظواهر بطنت فتشعر لذلك وتفطن واستعن بالله يعنك ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وقال أبو حامد : واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ، ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرر لعلم أن تعب العارف في تحمل مصاعب الدنيا أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عظيم شديد طويل مدته .

وذكر أبو نعيم عن أبي حازم أنه قال : لو نادى مناد من السماء أمن أهل الأرض من دخول

النار لحق عليهم

الوجل من هول ذلك الموقف ومعاينة ذلك اليوم .

(194/792)

باب ما ينجي من أهوال يوم القيامة ومن كربها

مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ذكر الحديث .

وخرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول قال : حدثنا أبي رحمه الله قال : حدثنا عبد الله بن نافع قال : حدثني ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً

كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً كلما دنا لحلقة طردوه ، فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده بجنبي ، ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها ، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم ، فقالت يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي شرر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنفذه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ،

(195/792)

ورأيت رجلاً من أمتي جانباً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفة من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه

وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

قلت : هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة والله أعلم .

وقد ينجي منها كلها ما ثبت في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال : قال الله عز وجل أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدي .

وخرج عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً مات فدخل الجنة ، فقيل له ما كنت تعمل ؟ فقال : إني كنت أبايع الناس ، فكنت أنظر المعسر وأتجاوز في السكة أو في النقد فغفر له فقال له المسعود رضي الله عنه : وأنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه مسلم من طرق ، وخرجه البخاري .

وروى مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريماً له فتوارى عنه ، ثم وجده فقال :

إني معسر . قال الله فقال الله . قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينس عن معسر أو يضع عنه .

(196/792)

وعن أبي اليسر واسمه كعب بن عمرو رضي الله عنه أن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله خرجه مسلم .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : من أنظر مديوناً فله بكل يوم عند الله وزن أحد ما لم يطلبه .

وروى الأئمة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه : معنى في ظله أي في ظل عرشه وقد جاء هكذا تفسيراً في الحديث .

وروى أبو هدبة إبراهيم بن هدبة قال : حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أشبع جائعاً وكسا عرياناً وآوى مسافراً أعاذه الله من أهوال يوم القيامة .

وخرج الطبراني سليمان بن أحمد عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لقم أخاه لقمة صرف الله عنه مرارة الموقف يوم القيامة . وفي التنزيل تحقيقاً لهذا الباب ، وجامعاً له قوله الحق يوفون بالنذر إلى قوله فوقاهم الله شر ذلك اليوم مع قوله إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً مع قوله في غير موضع بعد ذكر الأعمال الصالحة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

باب

ذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا أحمد بن يحيى ابن خالد قال : حدثنا محمد بن سلام قال : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا مالك عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ولا العمرة قال : وما

يكفرها يا رسول الله ؟ قال : الهموم في طلب المعيشة . قال أحمد بن يحيى : فقلت : كيف سمعت هذا من يحيى بن بكير فلم يسمعه أحد غيرك ؟ قال : كنت عند يحيى جالساً فجاءه رجل فذكر ضعفه فقال : قال ابن بكير : حدثنا مالك فذكره . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 269 . 280 ﴾

(198/792)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وزر)

الوَزَرُ : المَلْجأُ الذى يُلْتَجَأُ إليه من الجَبَل ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ .

والمُؤازَرَة : المُعاوَنَة ، ومنه الوَزِير ، قال تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ وهو الذى يُؤازِرُه فيَحْمِل عنه ما يَثْقُل عليه .

والوَزِيرُ : الَّذى يَلْتَجِئ الأَميرُ إلى رَأْيه ، فهو وَزَرٌ له ، أَى مَلجأٌ ومَفْزَعٌ ، أَو لأَنَّه يَحمل ثِقْلَ أَمِيرِه .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

كقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أَى ما كنت فيه من أَمْر الجاهليّة فأُعْفِيتَ بما خُصِصْت به عن تعاطِى ما كان عليه قَوْمُك .

وأَعَدَّ أَوْزارَ الحرب ، أَى آلاتِها ، قال الأَعْشَى :

*وأَعْدَدْتَ للحَرْبِ أَوْزارَها * رِماحاً طِوالاً وخَيْلاً ذُكُوراً*

ووَضَعَتِ الحربُ أَوْزارها ، أَى انقضى أَمْرُها وخَفَّت أَثقالُها ، ولم يَبْقَ قِتال .

ووَزَرَ فلانٌ : أَذْنَبَ فهو وازِرٌ ، ووَزِرَ ، يَوْزَرُ ، ووُزِرَ ، فهو مُوْزُورٌ [يقال : فلانٌ موزورٌ] غير مَأْجُور .

واتَّزَرَ فهو مُتَّزِرٌ ، قال مَرّارُ بن سَعِيد :

*أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ جِدّى ومِنْ لَعِبى * وِزْرِى فكُلُّ امرئٍ لابُدَّ مُتَّزِرُ*

وعليهِ فى هذا وِزْرٌ وأَوْزارٌ ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ .

ووَزَرَ فلانٌ للأَمِيرِ يَزِرُ له وِزارَةً ، واسْتُوزِرَ اسْتِزاراً .

وعن النَّضْرِ : سمعتُ فَصِيحاً من جُذام يقول : نحن أَوْزارُه أَجمعُون أَى وُزراؤه ، وأَنصارُه ، نحو أَشراف وأَيْتام .

ووَزرَ الحِملَ يَزِرُه : حَمَلَه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أَى لاَ يُحْمَلُ وِزْرُه من حيثُ يَتَعَرَّى منه المحمولُ عنه .

وحَمْلُ وِزْرِ الغَيْرِ فى الحقيقة هو على نحو

ما أَشار إِليه النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : "مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كان له أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِل بها من غيرِ أَنْ يَنْقُصَ من أَجْرِه شَىْءٌ ، ومن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِل بها" ، أَى مثلُ وِزْرِ مَنْ عمل بها .

وفى الحديث : "ارْجِعْنَ مأْزورات غير مأْجورات" للازدواج فإِنَّ الأَصل مَوْزُورات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 202 . 204 ﴾

(200/792)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

39